الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الخامس والثلاثون

الاجزاء من ٦٨١ الى ٧٠١

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
681	سورة فصلت	الآية 19 الى الآية 33	2
682	=	الآية 34 الى الآية 46	453
683	=	الآية 47 الى الآية 54	795
684	سورة الشورى	فصول مهمة	1320
685	=	الآية 1 الى الآية 20	1575
686	=	الآية 21 الى الآية 26	2020
687	=	الآية 27 الى الآية 51	2493
688	=	الآية 52 الى الآية 53	2955
689	سورة الزخرف	فصول مهمة	3484
690	=	الآية 1 الى الآية 25	3774
691	=	الآية 26 الى الآية 45	4084
692	=	الآية 46 الى الآية 56	4414
693	=	الآية 57 الى الآية 83	4867
694	=	الآية 84 الى الآية 89	5180
695	سورة الدخان	فصول مهمة	5774
696	=	الآية 1 الى الآية 29	5923
697	=	الآية 30 الى الآية 59	6169
698	سورة الجاثية	فصول مهمة	6774
699	=	الآية 1 الى الآية 26	6901
700	=	الآية 27 الى الآية 37	7278
701	سورة الاحقاف	فصول مهمة	7709

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/681)

الجزء الحادى والثمانون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 19 ﴾ من سورة فصلت

وحتى الآية ﴿ 33 ﴾ من نفس السورة

(4/681)

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر حالهم في الدنيا ، وأشار إلى حال الآخرة ، أتبعه تفصيل ذلك فقال : ﴿ ويوم ﴾

أي اذكر أيام أعداء الله في الدنيا في إنزال عذابه بهم وإحلال مثلاته بساحاتهم ، واذكر يوم يحشرون – هكذا كان الأصل ، ولكنه بين ما عذبوا به ليعم كل من اتصف به من الأولين والآخرين فقال : ﴿ يحشر ﴾ أي يجمع بكثرة بأمر قاهر لا كلفة علينا فيه – هذا على قراءة الجماعة بالبناء للمفعول ، وعلى قراءة ناقع ويعقوب بالنون مبنياً للفاعل يكون ناظراً إلى سياق " ونجينا " وفي كلتا القراءتين معنى العظمة ، فلذلك ناسبهما الاسم الأعظم الذي هو أعظم من مظهر العظمة الذي وقع الصرف عنه لما في ذكره من زيادة التوبيخ لهم والتهجين لفعلهم والتخسيس لعقولهم في قولهم : ﴿ أعداء الله ﴾ أي الملك الأعظم ولا يخفى إعرابه بحسب كل قراءة ﴿ إلى النار ﴾ دار الأشقياء ﴿ فهم ﴾ بسبب حشرهم ﴿ يوزعون ﴾ أي يدفعون ويرد بأيسر أمر أولهم على آخرهم ، ومن يريد أن يعرج منهم يميناً أو شمالاً ظناً منه أنه قد يخفى بسبب كثرتهم ويزجرون زجر إهانة ، ويجمع إليهم من شذ منهم ، ة فإن كل شيء من ذلك نوع من العذاب .

ولما بين إهانتهم بالوزع ، بين غاياتها فقال : ﴿ حتى إذا ﴾ وأكد الكلام لإنكارهم مضمونه بزيادة النافي ليكون اجتماعه مع الإثبات نفياً للضد فيفيد غاية القوة بمضمون الخبر في تحقيقه وثباته واتصاله بالشهادة على الفور فقال : ﴿ ما جاؤوها ﴾ أي النار التي كانوا بها يكذبون ﴿ شهد عليهم ﴾ حين التكوير فيها مركومين بعضهم على بعض .

ولما كان في مقام الترهيب ، وكان التفصيل أهول قال : ﴿ سمعهم ﴾ أفرده لتقارب الناس فيه ﴿ وأبصارهم ﴾ جمع لعظم التفاوت فيها ﴿ وجلودهم بما ﴾ وأثبت الكون بياناً لأنهم كانوا مطبوعين على ما أوجب لهم النار من الأوزار فقال : ﴿ كانوا يعملون ﴾ أي يجددون عمله مستمرين عليه ، فكأن هذه الأعضاء تقول في ذلك الحين إقامة للحجة البالغة : أيها الأكوان والحاضرون من الإنس والملائكة والجان ، اعلموا أن صاحبي كان يعمل بي كذا وكذا مع الإصرار ، فاستحق بذلك النار ، وغضب الجبار – ثم يقذف به .

ولما أخبر بهذا الذي يفتت الحجارة لو علقت ساعة ما ، أخبر أنه لم يفدهم الرجوع عن طبعهم الجافي وبلادتهم الكثيفة ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فلم تفدهم هذه الشهادة خجلاً من الله ولا خضوعاً في أنفسهم ولا رجوعاً عن الجدال والعناد كما لم يفدهم ذلك مجرد علم الله فيهم : ﴿ وقالوا لجلودهم ﴾ ودخل فيها ما صرح به من منافعها بها لفقد ما يدعو إلى التفصيل .

ولما فعلت فعل العقلاء خاطبوها مخاطبتهم فقالوا : ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ .

ولما كان هذا محل عجب منهم ، وكان متضمناً لجهلهم بظنهم أنه كان لها قدرة على السكوت ، وكان سؤالهم عن العلة ليس على حقيقته وإنما المراد به اللوم ، أجيب من تشوف إلى الجواب بقوله معبراً لنطقها بصيغة ما يعقل : ﴿ قالوا ﴾ معتذرين : ﴿ أنطقنا ﴾

قهراً ﴿ الله ﴾ الذي له مجامع العز على وجه لم نقدر على التخلف عنه .

ولما كان حال الكفار دائماً دائراً بين غباوة وعناد ، أقاموا لهم على ذلك دليلين شهوديين فقالوا : ﴿ الذي أنطق كل شيء ﴾ أي فعلاً أو قوة أو حالاً ومقالاً .

(6/681)

ولما كانت الأشياء كلها متساوية الأقدام في الإنطاق والإخراس وغيرهما من كل ما يمكن بالنسبة إلى قدرته سبحانه ، نبهوهم على ذلك بقولهم : ﴿ وهو خلقكم أول مرة ﴾ والعلم القطعي حاصل عندكم بأنكم كنتم عدماً ثم نطفاً لا تقبل النطق في مجاري العادات بوجه ، ثم طوركم في أدوار الأطوار كذلك إلى أن أوصلكم إلى حيز الإدراك ، فقسركم على النطق بحيث لو أردتم سلبه عن أنفسكم ما قدرتم .

ولما كان الخلق شيئاً واحداً فعبر عنه بالماضي وكان الرجوع تارة بالحس وتارة بالمعنى وكان الذي بالمعنى كثير التعدد بكثرة التجدد قال : ﴿ وإليه ﴾ أي إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ أي في كل حين بقسركم بأيسر أمر على كل ما يريد من أول ما خلقتم إلى ما لا نهاية له ، فلو كان لكم نوع علم لكفاكم ذلك واعظاً في الدنيا تعلمون به أنكم في غاية العجز ، وأن له العظمة والكبر والقدرة والقهر ، روى مسلم في صحيحه عن أنس ـ رضى الله عنه ـ

قال : كنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال :

" هل تدرون ممّ أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، اقل : فيقول : فإني لا أجيز إلا شاهداً مني ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيختم على فيه فيقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنا أناضل " .

ولما اعتذروا بما إخبارهم به في هذه الدنيا وعظ وتنبيه ، وفي الآخرة توبيخ وتنديم ، قالوا مكررين للوعظ محذرين من جميع الكون : ﴿ وما كنتم ﴾ أي بما هو لكم كالجبلة ﴿ تستترون ﴾ أي تتكفلون الستر عند المعاصي وأنتم تتوهمون ، وهو مراد قتادة بقوله ؛ تظنون .

﴿ أن يشهد عليكم ﴾ بتلك المعاصي .

(7/681)

ولما كان المقصود الإبلاغ في الزجر ، أعاد التفصيل فقال : ﴿ سمعكم ﴾ وأكد بتكرير النافي فقال : ﴿ ولا أبصاركم ﴾ جمع وأفرد لما مضى ﴿ ولا جلودكم ولكن ﴾ إنما كان

استتاركم لأنكم ﴿ ظننتم ﴾ بسبب إنكاركم البعث جهلاً منكم ﴿ أن الله ﴾ الذي له جميع الكمال ﴿ لا يعلم ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ كثيراً مما تعملون ﴾ أي تجددون عمله مستمرين عليه ، وهو ما كنتم تعدونه خفياً فهذا هو الذي جرأكم على ما فعلتم ، فإن كان هذا ظنكم فهو كفر ، وإلا كان عملكم عمل من يظنه فهو قريب من الكفر والمؤمن حقاً من علم أن الله مطلع على سره وجهره ، فلم يزل مراقباً خائفاً هائباً ، روى الشيخان في صحيحيهما واللفظ للبخاري في كتاب التوحيد عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فأنه يسمع إذا أخفينا ، فأنزل الله ﴿ وما كنتم ﴾ – الآية ، قال البغوي ؛ قيل : الثقفي عبد ياليل وختناه ، والقرشيان : ربيعة وصفوان بن أمية .

ولما كان ذكر المعصية وما جرأ عليها يقتضي انتقاصاً يقدح في الإلهية ، بين أنه الموجب للغضب فقال : ﴿ وذلكم ﴾ أي الأمر العظيم في القباحة ، ثم بينه بقوله : ﴿ ظنكم ﴾ أي الفاسد ، ووصفه بقوله : ﴿ الذي ظننتم بربكم ﴾ أي الذي طال إحسانه إليكم من أنه لا يعلم حالكم ، ثم أخبر عنه بقوله : ﴿ أردناكم ﴾ أي تسبب عنه خاصة أنه أهلككم .

وأما معاصي الجوارح مع التوحيد والتنزيه فأمرها أسهل ، والحاصل أن كل ظن كان غير مأذون فيه من الشارع فهو يردي صاحبه .

(8/681)

ولما كان الصباح محل رجاء الأفراح ، فكان شر الأتراح ما كان فيه ، قال : ﴿ فأصبحتم ﴾ أي بسبب أن ما أعطيتموه من النعم لتستنقذوا به أنفسكم من الهلاك كان سبب هلاككم ﴿ من الخاسرين ﴾ أي العريقين في الخسارة ، المحكوم بخسارتهم في جميع ذلك اليوم ، وصوره بأقبح صورة وهو الصباح ، فالمعنى أنه إذا صار حالكم حال من أصبح كذلك لم يكن للربح وقت يتدارك فيه بخلاف ما لو وجد ذلك عن المساء فإنه كان ينتظر الصباح للسعي في الربح ، ويوم القيامة لا يوم بعده يسعى فيه للربح ، فينبغي للمؤمن أن يكون حال خلوته أشد ما يكون هيبة لله .

ولما كان ذلك ، تسبب عنه قوله لافتاً القول عن خطابهم إيذاناً بشدة الغضب وإشارة ألى أنهم لما وصلوا إلى ما ذكر من الحال أعيا عليهم المقال ، فلم يقدروا على نطق بلسان ، ولا إشارة برأس ولا بنان : ﴿ فإن يصبروا ﴾ أي على ما جوزوا به فليس صبرهم بنافعهم ، وهو معنى قوله : ﴿ فالنار مثوى ﴾ أي منزلاً ﴿ لهم وإن يستعتبوا ﴾ أي يطلبوا الرضى

بزوال العتب وهو المؤاخذة بالذنب ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ أي المرضيين الذين العتب عليهم ليعفي عنهم ويترك عذابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 563 . 566 ﴾

(9/681)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) ﴾

واعلم أنه تعالى لما بيّن كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة ، ليحصل منه تمام الاعتبار في الزجر والتحذير ، وقرأ نافع ﴿ نَحْشُرُ ﴾ بالنون ﴿ أَعْدَاء ﴾ بالنصب أضاف الحشر إلى نفسه ، والتقدير يحشر الله عزّ وجلّ أعداءه الكفار من الأولين والآخرين وحجته أنه معطوف على قوله ﴿ وَنَجَّيْنَا ﴾ [فصلت : 18] فيحسن أن يكون على وفقه في اللفظ ، ويقويه قوله ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ المتقين ﴾ [مريم : 85] ﴿ وحشرناهم ﴾ [الكهف : 47] وأما الباقون فقرؤا على فعل ما لم يسم فاعله لأن قصة ثمود قد تمت وقوله ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ ﴾ ابتداء كلام آخر ، وأيضاً الحاشرون لهم هم

المأمورون بقوله ﴿ احشروا ﴾ [الصافات : 22] وهم الملائكة ، وأيضاً أن هذه القراءة موافقة لقوله ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [فصلت : 19] وأيضاً فتقدير القراءة الأولى أن الله تعالى قال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاء اللهِ إِلَى النار ﴾ فكان الأولى على هذا التقدير أن يقال ويوم نحشر أعداءنا إلى النار .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون إلى النار قال : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ، أي يوقف سوابقهم حتى يصل إليهم تواليهم ، والمقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا سألوا عن أعمالهم .

ثم قال : ﴿ حتى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبصارهم وَجُلُودُهُم ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

التقدير حتى إذا جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ، وعلى هذا التقدير فكلمة ﴿ مَا ﴾ صلة ، وقيل فيها فائدة زائدة وهي تأكيد أن عند مجيئهم لا بد وأن تحصل هذه الشهادة كقوله ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ﴾ [يونس : 51] أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به .

المسألة الثانية :

روي أن العبد يقول يوم القيامة : يا رب العزة ألست قد وعدتني أن لا تظلمني ، فيقول الله تعالى فإن لك ذلك ، فيقول العبد إني لا أقبل على نفسي شاهداً إلا من نفسي ، فيختم الله على فيه وينطق أعضاءه بالأعمال التي صدرت منه ، فذلك قوله ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبصارهم وَجُلُودُهُم ﴾ واختلف الناس في كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال أحدها : أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه والثاني : أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني كما خلق الكلام في الشجرة والثالث : أن يظهر تلك الأعضاء أحوالاً تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمى شهادات ، كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه ، واعلم أن هذه المسألة صعبة على المعتزلة أما القول الأول : فهو صعب على مذهبهم لأن البنية عندهم شرط لحصول العقل والقدرة فاللسان مع كونه لساناً يمتنع أن يكون محلاً للعلم والعقل ، فإن غير الله تعالى تلك البنية والصورة خرج عن كونه لساناً وجلداً ، وظاهر الآية يدل على إضافة تلك الشهادة إلى السمع والبصر والجلود ، فإن قلنا إن الله تعالى ما غير بنية هذه الأعضاء فحينئذ يمتنع عليها كونها ناطقة فاهمة ، وأما القول الثاني : وهو أن يقال إن الله تعالى خلق هذه الأصوات والحروف في هذه الأعضاء ، وهذا أيضاً باطل على أصول المعتزلة لأن مذهبهم أن المتكلم هو الذي فعل الكلام ، لا ما كان موصوفاً

بالكلام ، فإنهم يقولون إن الله تعالى خلق الكلام في الشجرة وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة ، فههنا لو قلنا إن الله خلق الأصوات والحروف في تلك الأعضاء لزم أن يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك ، ولزم أن يكون المتكلم بذلك الكلام هو الله لا تلك الأعضاء ، وظاهر القرآن يدل على أن تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الأعضاء لا من الله تعالى لأنه

(11/681)

تعالى قال : ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبصارهم وَجُلُودُهُم ﴾ وأيضاً أنهم قالوا لتلك الأعضاء ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ فقالت الأعضاء ﴿ أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وكل هذه الآيات دالة على أن المتكلم بتلك الكلمات هي تلك الأعضاء ، وأن تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى ، فهذا توجيه الإشكال على هذين القولين ، وأما القول الثالث : وهو تفسير هذه الشهادة بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، فهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز والأصل عدمه ، فهذا منتهى الكلام في هذا البحث ، أما على مذهب أصحابنا فهذا الإشكال غير لازم ، لأن عندنا البنية ليست شرطاً للحياة ولا للعلم ولا للقدرة ، فالله تعالى قادر على خلق العقل

والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، وعلى هذا التقدير فالإشكال زائل وهذه الآية يحسن التمسك بها في بيان أن البنية ليست شرطاً للحياة ولا لشيء من الصفات المشروطة بالحياة ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

ما رأيت للمفسرين في تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر سبباً وفائدة ، وأقول لا شك أن الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ولا شك أن آلة اللمس هي الجلد ، فالله تعالى ذكر ههنا من الحواس وهي السمع والبصر واللمس ، وأهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم ، لأن الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه ، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان والحنك مماسة لجرم الطعام ، فكان هذا داخلاً فيه فبقي حس الشم وهو حس ضعيف في الإنسان ، وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهي ، إذا عرفت هذا فنقول نقل عن ابن عباس أنه قال المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج قال وهذا من باب الكنايات كما قال : ﴿ ولكن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّا ﴾ [البقرة : 235] وأراد النكاح وقال : ﴿ أَوْ جَاء مّنْكُمْ مّن الغائط ﴾

(12/681)

[النساء : 43] والمراد قضاء الحاجة وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه " وعلى هذا التقدير فتكون هذه الآية وعيداً شديداً في الإتيان بالزنا ، لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالكف ، ونهاية الأمر فيها إنما تحصل بالفخذ .

ثم حكى الله تعالى أنهم يقولون لتلك الأعضاء ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ومعناه أن القادر على خلقكم وإنطاقكم في المرة الأولى حالما كنتم في الدنيا ثم على خلقكم وإنطاقكم في المرة الثانية وهي حال القيامة والبعث كيف يستبعد منه إنطاق الجوارح والأعضاء ؟

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أبصاركم وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾ والمعنى إثبات أنهم كانوا يستترون عند الإقدام على الأعمال القبيحة ، إلا أن استتارهم ما كان لأجل خوفهم من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة ، ولكن ذلك الاستتار لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لا يعلم الأعمال التي يقدمون عليها على سبيل الخفية والاستتار .

عن ابن مسعود قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر على ثقفيان وقرشي فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما تقولون ؟ فقال الرجلان إذا سمعنا أصواتنا سمع وإلا لم يسمع .

فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ وهذا نص صريح في أن من ظن بالله تعالى أنه يخرج شيء من المعلومات عن علمه فإنه يكون من الهالكين الخاسرين ، قال أهل التحقيق الظن قسمان ظن حسن بالله تعالى وظن فاسد ، أما الظن الحسن فهو أن يظن به الرحمة والفضل ، قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله عزّ وجلّ : " أنا عند ظن عبدي بي " وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله " والظن القبيح فاسد وهو أن يظن بالله أنه يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال ، وقال قتادة : الظن نوعان ظن منج وظن مرد ، فالمنج قوله ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 20] وقوله ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 46] ، وأما الظن المردي فهو قوله ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ قال صاحب "الكشاف" ﴿ وذلكم ﴾ رفع بالابتداء ﴿ وظنكم ﴾ و ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ خبران ويجوز أن يكون ظنكم بدلاً من ذلاكم وأرداكم الخبر .

ثم قال : ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ يعني إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم أي مقاماً لهم ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ أي

لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : 21] وقرىء وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين أي أن يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون أي لا سبيل لهم إلى ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 102.99 ﴾

(14/681)

وقال ابن عطية :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ويوم ﴾ نصب بإضمار فعل تقديره : واذكر يوم .

وقرأ نافع وحده والأعرج وأهل المدينة : " نحشر " بالنون " أعداءَ " بالنصب ، إلا أن الأعرج كسر الشين . وقرأ الباقون : " يُحشر " بالياء المرفوعة ، " أعداءُ " رفعاً ، وهي قراءة الأعمش والحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وقتادة وعيسى وطلحة ونافع فيما روي عنه ، وحجتها ﴿ يوزعون ﴾ ، و : ﴿ أعداء الله ﴾ هم الكفار المخالفون لأمره .

و : ﴿ يوزعون ﴾ قال قتادة والسدي وأهل اللغة ، معناه : يكف أولهم حبساً على آخرتهم ، وفي حديث أبي قحافة يوم الفتح : ذلك الوازع . وقال الحسن البصري : لا بد

للقاضي من وزعة . وقال أبو بكر : إني لا أقيد من وزعة الله تعالى . و: ﴿ حتى ﴾ غاية لهذا الحشر المذكور ، وهذا وصف حال من أحوالهم في بعض أوقات القيامة ، وذلك عند وصولهم إلى جهنم فإن الله تعالى يستقرهم عند ذلك على أنفسهم ويسألون سؤال توبيخ عن كفرهم فينكرون ذلك ويحسبون أن لا شاهد عليهم ، ويظنون السؤال سؤال استفهام واستخبار ، فينطق الله تعالى جوارحهم بالشهادة عليهم ، فروي عن النبي عليه السلام " أن أول ما ينطق من الإنسان فخذه الأيسر ثم تنطق الجوارح ، " فيقول الكافر : تباً لك أيها الأعضاء ، فعنك كنت أدافع . وفي حديث آخر : " يجيئون يوم القيامة على أفواههم الفدام فيتكلم الفخذ والكف . " ثم ذكر الله تعالى محاورتهم لجلودهم في قولهم : ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ أي وعذابنا عذاب لكم .

واختلف الناس ما المراد بالجلود ؟ فقال جمهور الناس : هي الجلود المعروفة . وقال عبد الله بن أبي جعفر : كنى بالجلود عن الفروج ، وإياها أراد . وأخبر تعالى أن الجلود ترد جوابهم بأن الله الخالق المبدئ المعيد هو الذي أنطقهم .

وقوله : ﴿ أنطق كل شيء ﴾ يريد كل ناطق مما هي فيه عادة أو خرق عادة .

(15/681)

قوله عز وجل : ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الجلود ومحاورتها ، ويحتمل أن يكون من كلام الله عز وجل لهم ، أو من كلام ملك يأمره تعالى . وأما المعنى فيحتمل وجهين أحدهما أن يريد : وما كنتم تتصاونون وتحجزون أنفسكم عن المعاصي والكفر خوف أن يشهد ، أو لأجل أن يشهد ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم فانهملتم وجاهرتم ، وهذا هو منحى مجاهد . والستر قد يتصرف على هذا المعنى ونحوه ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

والستر دون الفاحشات وما . . . يلقاك دون الخير من ستر

والمعنى الثاني أن يريد : وما كنتم تمتنعون ولا يمكنكم ولا يسعكم الاختفاء عن أعضائكم والاستتار عنها بكفركم ومعاصيكم ، ولا تظنون أنها تصل بكم إلى هذا الحد ، وهذا هو منحى السدي ، كأن المعنى : وما كنتم تدفعون بالاختفاء والستر أن يشهد ، لأن الجوارح لزيمة لكم ، وفي إلزامه إياهم الظن بأن الله تعالى لا يعلم ، هو إلزامهم الكفر والجهل بالله ، وهذا المعتقد يؤدي بصاحبه إلى تكذيب أمر الرسل واحتقار قدرة الإله ، لا رب غيره .

(16/681)

وفي مصحف ابن مسعود : " ولكن زعمتم أن الله " . وحكى الطبري عن قتادة أنه عبر عن ﴿ تستترون ﴾ ب " تبطنون " ، وذلك تفسير لم ينظر فيه إلى اللفظ ولا ارتباط فيه معه .

وذكر الطبري وغيره حديثاً عن عبد الله بن مسعود قال : إني لمستتر بأستار الكعبة إذ دخل ثلاثة نفر قرشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقرشي ، قليل فقه قلوبهم ، كثير شحم بطونهم ، فتحدثوا بحديث ، فقال أحدهم : أترى الله يسمع ما قلنا ؟ قال الآخر إنه يسمع إذا رفعنا ، ولا يسمع إذا أخفينا . وقال الآخر : إن كان يسمع منه شيئاً فإنه يسمعه كله ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ الآية ، فقرأ حتى بلغ : ﴿ وإن تستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ [فصلت : 28] .

وذكر النقاش أن الثلاثة : صفوان بن أمية وفرقد بن ثمامة وأبو فاطمة . وذكر الثعلبي أن الثقفي : عبد ياليل ، والقرشيان : ختناه ربيعة وصفوان ابنا أمية بن خلف ، ويشبه أن يكون هذا بعد فتح مكة فالآية مدنية ، ويشبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ الآية متمثلاً بها عند إخبار عبد الله إياه ، والله أعلم .

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23)

﴿ ذلكم ﴾ رفع بالابتداء ، والإشارة به إلى قوله : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم ﴾ [فصلت : 22] قال قتادة : الظن ظنان : ظن منج ، وظن مهلك .

قال القاضي أبو محمد : فالمنجي : هو أن يظن الموحد العارف بربه أن الله يرحمه والمهلك :

ظنون الكفرة الجاهلين على اختلافها ، وفي هذا المعنى ليحيى بن أكثم رؤيا حسنة مؤنسة .

و﴿ ظنكم ﴾ خبر ابتداء .

(17/681)

وقوله : ﴿ أرداكم ﴾ يصح أن يكون خبراً بعد خبر ، وجوز الكوفيون أن يكون في موضع الحال ، والبصريون لا يجيزون وقوع الماضي حالاً إذا اقترن ب " قد " ، تقول رأيت زيداً قد قام ، وقد يجوز تقديرها عندهم وإن لم تظهر . ومعنى : ﴿ أرداكم ﴾ أهلككم . والردى : الهلاك .

وقوله تعالى : ﴿ فإن يصبروا ﴾ مخاطبة لمحمد عليه السلام ، والمعنى : فإن يصبروا أو لا يصبروا ، واقتصر لدلالة الظاهر على ما ترك . والمثوى : موضع الإقامة .

وقرأ جمهور الناس : " وإن يَستعتِبوا " بفتح الياء وكسر التاء الأخيرة على إسناد الفعل إليهم . " فما هم من المعتبين " بفتح التاء على معنى : وإن طلبوا العتبى وهي الرضى فما هم ممن يعطوها ويستوجبها . وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري : " وإن يُستعتَبوا " بضم الياء وفتح التاء . " فما هم من المعتِبين " بكسر التاء على معنى : وإن طلب منهم خير أو إصلاح فما هم ممن يوجد عنده ، لأنهم قد فارقوا الدنيا دار الأعمال كما

قال عليه السلام : " ليس بعد الموت مستعتب " ويحتمل أن تكون هذه القراءة بمعنى : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(18/681)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

قرأ نافع "نَحْشُرُ" بالنون "أَعْدَاءَ" بالنصب .

الباقون "يُحْشَرُ" بياء مضمومة "أَعْدَاءُ" بالرفع ومعناهما بيّن .

وأعداء الله : الذين كذّبوا رسله وخالفوا أمره .

"فَهُمْ يُوزَعُونَ" يساقون ويدفعون إلى جهنم .

قال قتادة والسدي : يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ؛ قال أبو الأحوص : فإذا تكاملت العدة بدىء بالأكابر فالأكابر جرماً .

وقد مضى في "النمل" الكلام في "يُوزَعُونَ" مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ "مَا" زائدة ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ

وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الجلود يعني بها الجلود بأعيانها في قول أكثر المفسرين .

وقال السدي وعبيد الله بن أبي جعفر والفراء : أراد بالجلود الفروج ؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جُوَيّة :

المرءُ يسعى للسلا . . .

مةِ والسلامةُ حسبه

أو سالم من قد تث . . .

نَّى جلدُه وابيضَّ رأسه

وقال : جلده كناية عن فرجه .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني الكفار ﴿ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ وإنما كنا نجادل عنكم ﴿ قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ لما خاطبتْ وخوطِبَتْ أُجريتْ مُجرى من يعقل .

﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفاً ، فمن قدر عليه قدر على أن يُنطق الجلود وغيرها من الأعضاء .

وقيل : "وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ" ابتداء كلام من الله .

(19/681)

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : " "هل تدرون مِمَّ أضحك" قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : "من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تُجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني قال يقول كفى بنفسِك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكتابيين شهوداً قال فيُخْتَم على فيه فيقال لأركانه انطقي فتَنْطِق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام قال فيقول بُعْداً لكنّ وسُحْقاً فعنكنّ كنت أناضِل" " وفي حديث أبي هريرة ثم قال : " الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيُختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعْذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي سَخِط الله عليه " خرجه أيضاً مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم : ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ؛ قرشيان وثَقَفيّ أو ثَقَفِيّان وقرشيّ ؛ قليلٌ فِقْهُ قلوبهم ، كثيرٌ شحمُ بطونهم : فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ؛ وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ ﴾ الآية ؛ خرجه الترمذي فقال : اختصم عند البيت ثلاثة نفرٍ .

ثم ذكره بلفظه حرفاً حرفاً وقال : حديث حسن صحيح ؛ حدّثنا هَنّاد قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عِمارة بن عُمَير عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قال عبد الله : كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فِقهُ قلوبِهم ، قرشيّ وخَتَناه ثَقَفِيّان ، أو ثَقفيّ وخَتَناه قرشيان ، فتكلموا بكلام لم أفهمه ؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ، فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذ لم نرفع أصواتنا لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئاً سمعه كله ! فقال عبد الله : فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ قال : هذا حديث حسن صحيح .

قال الثعلبي : والثقفيّ عبدُ يَا لِيل ، وخَتَناه ربيعة وصفوان بن أمية .

ومعنى "تَسْتَتِرُونَ" تستخفون في قول أكثر العلماء ؛ أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذراً من شهادة الجوارح عليكم ؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفي من نفسه عملَه ، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية .

وقيل : الاستتار بمعنى الاتقاء ؛ أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة .

وقال معناه مجاهد .

وقال قتادة : "وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ" أي تظنون "أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ" بأن يقول سمعت الحقّ وما وعيت وسمعت ما لا يجوز من المعاصي "وَلاَ أَبْصَارُكُمْ" فتقول رأيت آيات الله وما اعتبرت ونظرت فيما لا يجوز "وَلاَ جُلُودُكُمْ" تقدّم .

﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من أعمالكم فجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم .

روى بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله :

(21/681)

﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾ قال : "إنكم تُدْعون يوم القيامة مُفَدَّمة أفواهُكم بِفِدام فأول ما يبين عن الإنسان فخذه وكفه "

قال عبد الله بن عبد الأعلى الشامي فأحسن :

الْعُمْرُ يَنْقُصُ والذُّنُوبُ تَزِيدُ . . .

وتُقالُ عَثْراتُ الفتى فيعودُ

هل يستطِيعُ جُحُودَ ذنبٍ واحِدٍ . . .

رجلٌ جوارِحُه عليهِ شُهودُ

والمرءُ يسأل عن سِنيهِ فيشتهِي . . .

تقلِيلَها وعنِ المماتِ يحِيدُ

وعن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غداً عليك شهيد فاعمل فيّ خيراً أشهد لك به غداً فإني لو قد مضيت لم ترني أبداً ويقول الليل مثل ذلك " ذكره أبو نعيم الحافظ وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة" في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال .

وقال محمد بن بشير فأحسن :

مَضَى أمسُك الأدْنى شَهيداً معدّلا . . .

ويومُك هذا بالفِعال شهيدُ

فإنْ تكُ بالأمسِ اقترفت إساءةً . . .

فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ

ولا تُرْجِ فِعلَ الخيرِ منك إلى غدٍ . . .

لعلّ غداً يأتِي وأنت فَقِيدُ

قوله تعالى : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أي أهلككم فأوردكم النار .

قال قتادة : الظنّ هنا بمعنى العلم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوماً أساؤوا الظن بربهم فأهلكهم " فذلك قوله : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ .

وقال الحسن البصري : إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إني أحسن الظن بربي وكذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله تعالى : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ .

(22/681)

وقال قتادة : من استطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل ، فإن الظن اثنان ظنّ ينجي وظنّ يردي .

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم .

نظيره : ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النار ﴾ [البقرة : 175] على ما تقدّم .

﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ في الدنيا وهم مقيمون على كفرهم ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ .

وقيل : المعنى "فَإِنْ يَصْبِرُوا" في النار أو يجزعوا "فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ" أي لا محيص لهم عنها ، ودل على الجزع قوله : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ ؛ لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول عتابه ؛ قال النابغة :

فإنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَه . . .

وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ

أي مثلك من قَبِل الصلح والمراجعة إذا سُئِل .

قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجِدة .

تقول : عاتبته معاتبة ، وبينهم أُعْتوبة يتعاتبون بها .

يقال : إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب .

وأعتبني فلان : إذا عاد إلى مَسرَّتي راجعاً عن الإِساءة ، والاسم منه الْعُتْبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب .

واستعتب وأعتب بمعنى ، واستعتب أيضاً طلب أن يُعْتَب ؛ تقول : استعتبته فأعتبني أي

استرضيته فأرضاني .

فمعنى "وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا" أي طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لهم من النار .

وفي التفاسير : وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين .

(23/681)

وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية "وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا" بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول "فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتِبِينَ" بكسر التاء أي إن أقالهم الله وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لما سبق لهم في علم الله من الشقاء ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] ذكره الهروي .

وقال ثعلب : يقال أعتب إذا غضب وأعتب إذا رضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(24/681)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء الله ﴾

(25/681)

شروعٌ في بيانِ عقوباتِهم الآجلةِ إثرَ بيانِ عقوباتِهم العاجلةِ . والتعبيرُ عنهم بأعداءِ الله تعالى لذمّهم والإيذانِ بعلةِ ما يحيقُ بهم من ألوانِ العذاب ، وقيلَ : المرادُ بهم الكفارُ من الأولينَ والآخرينَ ويردُّه ما سيأتي من قولِه تعالى : ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مّنَ الجن والإنس ﴾ وقُرِىءَ يَحْشُر على بناءِ الفاعلِ ونصبِ أعداءُ الله وبنونِ العظمةِ وضمّ الشينِ وكسرِهَا ﴿ إِلَى النار ﴾ أيْ إلى موقفِ الحسابِ إذْ هناكَ تتحققُ الشهادةُ الآتيةُ لا بعد تمامِ السؤالِ والجوابِ وسَوقهم إلى النّارِ والتعبير عنه بالنّارِ إما للإيذانِ بأنَّها عاقبةُ حشرِهم وأنهم على شرفِ دخولِها وإما لأنَّ حسابَهُم يكونُ على شفيرِها . ويومَ إما منصوبٌ باذكُرْ أو ظرفٌ لمضمرٍ مُؤخرٍ قد حُذِفَ إيهاماً لقصورِ العبارةِ عن تفصيلِه كما مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ﴾ وقيل : ظرفٌ لما يدلُّ عليه قولُه تعالى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يُحبسُ أولهم على آخِرِهم ليتلاحقُوا وهو عبارةٌ عن كثرتهم وقيل : يساقُون ويُدفعون إلى النّارِ . وقولُه تعالى ﴿ حتى إِذَا مَا جَاءوهَا ﴾ أي جميعاً غايةٌ لِيُحْشَرُ أو ليوزعونَ أي

حتَّى إذَا حضرُوها . ومَا مزيدةٌ لتأكيدِ اتصالِ الشهادةِ بالحضورِ ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبصارهم وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدُّنيا من فنونِ الكفرِ والمعاصِي بأنْ يُنطقَها الله تعالى أو يظهرَ عليها آثارَ ما اقترفُوا بهَا . وعن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهما أنَّ المرادَ بشهادةِ الجلودِ شهادةُ الفروجِ وهو الأنسبُ بتخصيصِ السؤالِ بَها في قولِه تعالى ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ فإن ما تشهدُ به من الزنا أعظمُ جنايةً وقبحاً وأجلبُ للخِزي والعقوبةِ مما يشهدُ به السمعُ والأبصارُ من الجناياتِ المكتسبةِ بتوسُّطِهما . وقيلَ :

(26/681)

المرادُ بالجلودِ الجوارحُ أي سألُوها سؤالَ توبيخٍ ، لما رُوي أنَّهم قالُوا لها فعنكُنَّ كنا نناضِلُ ، وفي روايةٍ بُعداً لكُنَّ وسُحْقاً ، عنكنَّ كنتُ أجادلُ . وصيغةُ جمعِ العقلاءِ في خطابِ الجلودِ وفي قولِه تعالى : ﴿ قَالُواْ أَنطَقَنَا اللهُ الذى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ لوقوعِها في موقعِ السؤالِ والجوابِ المختصَّينِ بالعقلاءِ أي أنطقنَا الله الذي أنطقَ كلَّ ناطقٍ وأقدرنا على بيانِ الواقعِ فشهدنَا عليكم بمَا عملتُم بواسطتِنا من القبائحِ ما كتمناهَا .

وقيلَ : ما نطقنَا باختيارِنا بلْ أنطقنَا الله الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ وليسَ بذاكَ لما فيهِ من إيهامِ الاضطرارِ في الإخبارِ . وقيلَ : سألُوها سؤالَ تعجبٍ فالمَعْنى حينئذٍ ليس نطقُنا بعجبٍ

من قُدرةِ الله الذي أنطقَ كلَّ حَي . ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فإن من قدرَ على خلقِكم وإنشائِكم أولاً وعلى إعادتِكم ورجْعِكم إلى جزائِه ثانياً لا يُتعجبُ من إنطاقِه لجوارِحِكم . ولعل صيغةَ المضارعِ مع أنَّ هذهِ المحاورةَ بعدَ البعثِ والرجعِ لمَّا أنَّ المرادَ بالرجعِ ليسَ مجردَ الردِّ إلى الحياةِ بالبعثِ بلْ ما يعمُّه وما يترتبُ عليهِ منَ العذابِ الخالدِ المترقَّبِ عندَ التخاطبِ على تغليبِ المتوقعِ على الواقعِ على أنَّ فيه مراعاةَ الفواصلِ .

وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أبصاركم وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾

(27/681)

حكايةٌ لما سيقالُ لهُمْ يومئذٍ من جهتِه تعالى بطريقِ التوبيخِ والتقريعِ تقريراً لجوابِ الجلودِ أي ما كنتُم تستترونَ في الدُّنيا عند مباشرتِكم الفواحشَ مخافةَ أن تشهدَ عليكُم جوارِحُكُم بذلكَ كما كنتُم تستترونَ من الناسِ مخافةَ الافتضاحِ عندهم بلْ كنتُم جاحدينَ بالبعثِ والجزاءِ رأساً ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من القبائحِ المخفيةِ فلا يُظهرها في الآخرةِ ولذلكَ اجترأتُم على ما فعلتُم ، وفيهِ إيذانٌ بأنَّ شهادةَ الجوارحِ بإعلامِه تعالَى حينئذٍ لا بأنَّها كانتْ عالمةً بما شهدتْ به عند صدورِه عنهم . عن ابنِ مسعودٍ رضيَ

الله عنه : كنتُ مستتراً بأستارِ الكعبةِ فدخلَ ثلاثةُ نفرٍ ، ثقفيانِ وقرشيٌّ ، أو قرشيانِ وثقفيٌّ فقال أحدُهم أترونَ أنَّ الله يسمعُ ما نقولُ قال الآخرُ يسمعُ إنْ جهرنا ، ولا يسمعُ أنْ أخفينَا فذكرتُ ذلكَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فأنزلَ الله تعالَى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ الآيةَ . فالحكمُ المحكيُّ حينئذٍ يكونُ خاصّاً بمن كانَ على ذلكَ الاعتقادِ من الكَفَرةِ ، ولعلَّ الأنسبَ أنْ يرادَ بالظنِّ مَعْنى مجازيٌّ يعمُّ معناهُ الحقيقيَّ ومَا يَجري مَجراهُ من الأعمالِ المنبئةِ عنْهُ كما في قولِه تعالَى : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ ليعمَّ ما حُكي من الحالِ جميعَ أصنافِ الكَفَرةِ فتدبرْ .

(28/681)

﴿ وَذَلِكُمْ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ منْ ظنّهم ، وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ للإيذانِ بغايةِ بُعدِ منزلتِه في الشرِّ والسوءِ وهُو مبتدأ . وقولُه تعالى : ﴿ ظَنُّكُمُ الذى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ خبرانِ لهُ ويجوزُ أن يكونَ ظنُّكم بدلاً وأرداكُم خبراً . ﴿ فَأَصْبَحْتُم ﴾ بسببِ ذلكَ الظنِّ السوءِ الذي أهلككُم ﴿ مِّنَ الخاسرين ﴾ إذْ صارَ ما مُنِحوا لنيلِ سَعادةِ الدارينِ سبباً لشقاءِ النشأتينِ ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي محلُّ ثُواءٍ وإقامةٍ أبديةٍ لهم بحيثُ لا براحَ لهم منهَا . والالتفاتُ إلى الغَيبةِ للإيذانِ باقتضاءِ حالِهم أن يُعرضَ عنهم

ويُحكى سوءُ حالِهم لغيرِهم ، أو للإشعارِ بإبعادِهم عن حيزِ الخطابِ وإلقائِهم في غايةِ دركاتِ النارِ . ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ أي يسألُوا العُتْبَى وهُو الرجوعُ إلى ما يحبونَهُ جزعاً مما هُم فيه . ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ المجابينَ إليها ، ونظيرُه قولُه تعالى : ﴿ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ وقُرِىءَ وإنْ يَسْتعتبُوا فما هُم من المعتبين أيْ إنْ يسألُوا أن يُرضوا ربَّهم ، فما هُم فاعلونَ لفواتِ المُكنةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(29/681)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللهِ إِلَى النار ﴾

شروع في بيان عقوباتهم الآجلة بعد ذكر عقوباتهم العاجلة ، والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب وقيل : المراد بهم الكفار من الأولين والآخرين .

وتعقب بأن قوله تعالى الآتي : ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس ﴾ [فصلت : 25] كالصريح في إرادة الكفرة المعهودين ، والمراد من قوله تعالى : ﴿ إِلَى النار ﴾ قيل :

إلى موقف الحساب ، والتعبير عنه بالنار للإيذان بأن النار عاقبة حشرهم وأنهم على شرف دخولها ، ولا مانع من إبقائه على ظاهره والقول بتعدد الشهادة فتشهد عليهم جوارحهم في الموقف مرة وعلى شفير جهنم أخرى ، و﴿ يَوْمٍ ﴾ إما منصوب باذكر مقدر معطوف على قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صاعقة ﴾ [فصلت : 13] أو ظرف لمضمر مؤخر قد حذف إيهاماً لقصور العبارة عن تفصيله ، وقيل : ظرف لما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو كناية عن كثرتهم ، وقيل : يُساقون ويدفعون إلى النار ، والفاء تفصيلية .

وقرأ زيد بن علي .

ونافع .

والأعرج .

وأهل المدينة ﴿ نَحْشُرُ ﴾ بالنون ﴿ أَعْدَاء ﴾ بالنصب وكسر الأعرج الشين .

وقرىء ﴿ يُحْشَرُ ﴾ على البناء للفاعل وهو الله تعالى ونصب ﴿ أَعْدَاء الله ﴾ وقوله تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا ما جَاءوهَا ﴾ أي النار جميعاً غاية ليحشر أو ليوزعون أي حتى إذا حضروها ، و﴿ مَا ﴾ مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور لأنها تؤكد ما زيدت بعده فهي تؤكد معنى إذا ، و﴿ إِذَا ﴾ دالة على اتصال الجواب بالشرط لوقوعهما في زمان

واحد ، وهذا مما لا تعلق له بالنحو حتى يضر فيه أن النحاة لم يذكروه كما شنع به أبو حيان وأكد لأنهم ينكرونه ، وفي الكلام حذف والتقدير حتى إذا ما جاؤها وسؤلوا عما أجرموا فأنكروا .

(30/681)

﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبصارهم وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ واكتفى عن المحذوف بذكر الشهادة لاستلزامها إياه ، ولا يأبى التقدير تأكيد الاتصال إذ يكفي للاتصال وقوع ذلك في مجلس واحد ، والظاهر أن الجلود هي المعروفة ، وقيل : هي الجوارح كني بها عنها ، وقيل : كني بها عن الفروج ، قيل : وعليه أكثر المفسرين منهم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وفي "الإرشاد" أنه الأنسب بتخصيص السؤال في قوله تعالى :

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ فإن ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً واجلب للخزي والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطهما وفيه نظر ولعل إرادة فالظاهر أولى ، ولعل تخصيص السؤال بالجلود لأنها بمرأى منهم بخلاف السمع والبصر أو لأنها هي مدركة العذاب بالقوة المودعة فيها كما يشعر به قوله تعالى : ﴿

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [النساء : 65] قاله الجلبي ، ثم نقل عن العلامة الثاني في ذلك أن الشهادة من الجلود أعجب وأبعد إذ ليس شأنها الإدراك بخلاف السمع والبصر ، وتعقبه بقوله : فيه نظر فإن الجلد محل القوة اللامسة التي هي أهم الحواس للحيوان كما أن السمع والبصر محل السامعة والباصرة والذي ينطق الأعيان دون الأعراض ثم إن اللامسة تشتمل على الذائقة التي هي الأهم بعد اللامسة ، ثم قال : ويلوح مما قررناه وجه آخر للتخصيص فإن الأهمية للإنسان والاشتمال على أهم من غيرها يصلح أن يكون مخصصاً ، فانقلاب ما يرجون منه أكمل النفع أعجب ومثله أحق بالتوبيخ من غيره .

واعترض عليه بأن رده على العلامة لم يصادف محزه إذ ليس المراد مما ذكره من أنها ليس من شأنها الإدراك إلا إدراك أنواع المعاصي التي يشهد عليها كالكفر والكذب والقتل والزنا مثلاً وإدراك مثلها منحصر في السمع والبصر .

(31/681)

وأنت تعلم بعد طي كشح البحث في هذا الجواب أن ما ذكره العلامة لا يناسب ظاهر السؤال أعني ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ وأولى ما قيل من أوجه التخصيص : أن المدافعة عن

الجلود أزيد من المدافعة عن السمع والبصر فإن جلد الإنسان الواحد لو جزئ لزاد على ألف سمع وبصر وهو يدافع عن كل جزء ويحذر أن يصيبه ما يشينه فكانت الشهادة من الجلود عليهم أعجب وأبعد عن الوقوع .

وفي الحديث " إن أول ما ينطق من الإنسان فخذه اليسرى ثم تنطق الجوارح فيقول : تباً لك فعنك كنت أدافع " ، ووجه إفراد السمع قد مر أول التفسير ، ووجه الاقتصار على السمع والبصر والجلد أشار إليه أبو حيان قال : لما كانت الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس وكان الذوق مندرجاً في اللمس إذ بمماسة جلد اللسان الرطب للمذوق يحصل إدراك طعم المذوق وكان حس الشم ليس فيه تكليف لا أمر ولا نهي وهو ضعيف اقتصر من الحواس على السمع والبصر واللمس ، وللبحث فيه مجال .

وكأني بك تختار أن المراد بالجلود ما سوى السمع والأبصار وأن ذكر السمع لما أنه وسيلة إدراك أكثر الآيات التنزيلية وذكر الأبصار لما أنها وسيلة إدراك أكثر الآيات التكوينية .

وقد أشير إلى كل في قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم ﴾ [فصلت : 17] على وجه ، وأن شهادتهما فيما يتعلق بالكفر ، فيشهد السمع عليهم أنهم كذبوا بالآيات التنزيلية التي جاء بها الرسل وسمعوها منهم ، والأبصار أنهم لم يعبئوا بالآيات التكوينية التي أبصروها وكفروا بما تدل عليه ، ولعل شهادة الجلود فيما يتعلق بما سوى الكفر من المعاصي التي نهى عنها الرسل عليهم السلام

كالزنا مثلاً ، وجوز أن تكون شهادة السمع بإدراك الآيات التنزيلية والأبصار بإدراك الآيات التكوينية والجلود بالكفر بما يقتضيه كل وبالمعاصي الأخر ، ولا بعد في شمول ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : 20] لإدراك الآيات والإحساس بها بقسميها فتدبر .

(32/681)

ولعل قوله تعالى : ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ ﴾ سؤال عن العلة الموجبة ، وصيغة جمع العقلاء في ﴿ شَهِدتُّمْ ﴾ وما بعد مع أن المراد منه ليس من ذوي العقول لوقوع ذلك في موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء .

(33/681)

وقرأ زيد بن علي ﴿ لَمْ ﴾ بضمير المؤنثات ﴿ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا الله الذى أَنطَقَ كُلَّ شَىْء ﴾ أي أنطقنا الله تعالى وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح وما كتمنا ، وحيث كان معنى السؤال لأي علة موجبة شهدتم ؟ صلح ما ذكر جواباً له ، وقيل : لا قصد هنا للسؤال أصلاً وإنما القصد إلى التعجب ابتداءً لأن التعجب يكون فيما لا يعلم

سببه وعلته فالسؤال عن العلة المستلزم لعدم معرفتها جعل مجازاً أو كناية عن التعجب ، فقد قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب فكأنه قيل : ليس نطقنا بعجب من قدرة الله تعالى الذي أنطق كل شيء ؛ وأياً ما كان فالنطق على معناه الحقيقي كما هو الظاهر وكذا الشهادة ، ولا يقال : الشاهد أنفسهم والسمع والأبصار والجلود آلات كاللسان فما معنى ﴿ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ لأنه يقال : ليس المراد هذا النوع من النطق الذي يسند حقيقة إلى جملة الشخص ويكون غيره آلة بلا قدرة وإرادة له في نفسه حتى لو أسند إليه كان مجازاً كإسناد الكتابة إلى القلم بل هو نطق يسند إلى العضو حقيقة فيكون نفسه ناطقاً بقدرة وإرادة خلقهما الله تعالى فيه كما ينطق الشخص بالآلة ، وكيف لا وأنفسهم كارهة لذلك منكرة له ، وقيل : الناطق هم بتلك الأعضاء إلا أنهم لا يقدرون على دفع كونها آلات ولذا نسبت الشهادة عليهم إليها وليس بشيء ، وجوز بعضهم أن يكون النطق مجازاً عن الدلالة فالمراد بالشهادة ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت ملتبسة به في الدنيا بتغيير أشكالها ونحوه مما يلهم الله تعالى من رآه أنها تلبست به في الدنيا لارتفاع الغطاء في الآخرة ، وهو خلاف ظاهر الآيات والأحاديث ولا داعي إليه ، وعلى الظاهر لا بد من تخصيص ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ بكل حي نطق إذ ليس كل شيء ولا كل حي ينطق بالنطق الحقيقي ومثل هذا التخصيص شائع ، ومنه ما قيل في

﴿ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: 284] و﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف: 5] ، وجوز أن يكون النطق في ﴿ أَنطَقَنَا ﴾ بمعناه الحقيقي ويحمل النطق في ﴿ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ على الدلالة فيبقى العام على عمومه ولا يحتاج إلى التخصيص المذكور ويكون التعبير بالنطق للمشاكلة وهو خلاف الظاهر ، والموصول المشعر بالعلية يأباه إباءً ظاهراً ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام الجلود ومقول القول ويحتمل أن يكون مستأنفاً من كلامه عز وجل والأول أظهر ، والمراد على كل حال تقرير ما قبله بأن القادر على الخلق أول مرة قادر على الإنطاق ، وصيغة المضارع إذا كان الخطاب يوم القيامة مع أن الرجع فيه متحقق لا مستقبل لما أن المراد بالرجع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث بل ما يعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع ، وجوز أن تكون لاستحضار الصورة مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبصارُكم وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾

(35/681)

حكاية لما سيقال لهم يومئذٍ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريراً لجواب الجلود ، واستظهر أبو حيان أنه من كلام الجوارح و﴿ أَن يَشْهَدَ ﴾ مفعول له بتقدير مضاف أي ما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أو كراهة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك أي ليس استتاركم للخوف مما ذكر أو لكراهته ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي ولكن لأجل ظنكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون وهو ما عملتم خفية فلا يظهره سبحانه يوم القيامة وينطق الجوارح به فلذا سعيتم في الاستتار عن الخلق دون الخالق عز وجل أو هو بتقدير حرف جر متعلق بتستترون فقيل : هو الباء والمستتر عنه الجوارح ، والمعنى ما استترتم عنها بملابسة أن تشهد عليكم أي تتحمل الشهادة إذ ما ظننتم أنها تشهد عليكم بل ظننتم أن الله سبحانه لا يعلم فلذا لم يكن استتاركم بهذا السبب ، وقيل : هو عن والمعنى لم يمكنكم الاستتار عن الجوارح لئلا تتحمل الشهادة عليكم حين ترتكبون ما ترتكبون لكن ظننتم ما ظننتم .

وقيل : ﴿ أَن تَشْهَدَ ﴾ مفعول له والمستتر عنه الجوارح أي ما تستترون عن جوارحكم مخافة أن تشهد عليكم لكن ظننتم الخ ، وقيل : إن ﴿ تَسْتَتِرُونَ ﴾ ضمن معنى الظن فعدى تعديته أي ما كنتم تستترون ظانين شهادة الجوارح عليكم ، ويؤيده قول قتادة : أي ما كنتم تظنون أن تشهد عليكم الخ ، والحق أن هذا بيان لحاصل المعنى .

أخرج أحمد .

والبخاري.

ومسلم.

والترمذي.

والنسائي.

(36/681)

وجماعة عن ابن مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وثقفيان أو ثقفي وقرشيان كثير لحم بطونهم قليل عفة قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم: أترون الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا يسمعه وإذا لم نرفع لم يسمع فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله قال: فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبصارُكم إلى قَوْلُهُ سبحانه مّنَ الخاسرين ﴾ [فصلت: 23] فالحكم المحكي حينئذٍ يكون خاصاً بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفر لكنه قيل في الفكرة.

وفي "الإرشاد" لعل الأنسب أن يراد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي وما يجري مجراه من الأعمال المنبئة عنه كما في قوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ [الهمزة: 3]

ليعم ما حكى من الحال جميع أصناف الكفرة فتدبر .

وفي الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن لا يمر عليه حال إلا بملاحظة أن عليه رقيباً كما قال أبو نواس :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل . . .

خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة . . .

ولا أن ما يخفى عليه يغيب

﴿ وَذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ظنهم المذكور في ضمن قوله سبحانه : ﴿ ظَنَنتُمْ ﴾ [فصلت : 22] وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية بعد منزلته في الشر والسوء ، وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ ظَنُّكُمُ الذى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ بدل منه ، وقوله سبحانه : ﴿ أرديا كم ﴾ أي أهلككم خبره ، وجوز أن يكون ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ ﴾ خبراً و ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ خبراً بعد خبر .

ورده أبو حيان بأن ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى ظنهم السابق فيصير التقدير وظنكم بربكم أنه لا يعلم ظنكم بربكم فما استفيد من الخبر هو ما استفيد من المبتدأ وهو لا يجوز كقولهم : سيد الجارية مالكها وقد منعه النحاة .

وأجيب بأنه لا يلزم ما ذكر لجواز جعل الإشارة إلى الأمر العظيم في القباحة فيختلف المفهوم باختلاف العنوان ويصح الحمل كما في هذا زيد ، ولو سلم فالاتحاد مثله في قوله :

أنا أبو النجم وشعري شعري . . .

مما يدل على الكمال في الحسن كما في هذا المثال أو في القبح كما في الجملة المذكورة ، وقيل : المراد منه التعجب والتهكم ، وقد يراد من الخبر غير فائدة الخبر ولازمها .

واختار بعضهم في الجواب ما أشار إليه ابن هشام في شرح بانت سعاد وبسط الكلام فيه من أن الفائدة كما تحصل من الخبر تحصل من صفته وقيده كالحال ، وجوز في جملة ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ أن تكون حالاً بتقدير قد أو بدونه ، والموصول في جميع الأوجه صفة ﴿ ظَنُّكُمُ ﴾ وقيل : الثلاثة أخبار فلا تغفل ﴿ فَأَصْبَحْتُم ﴾ بسبب ذلك الظن السوء الذي أهلككم ﴿ مِّنَ الخاسرين ﴾ إذ صار ما أعطوا من الجوارح لنيل السعادة في الدنيا والآخرة لأن بها تعيشهم في الدنيا وإدراكهم ما يهتدون به إلى اليقين ومعرفة رب العالمين الموصل للسعادة الأخروية سبباً للشقاء في الدارين حيث أداهم إلى كفران نعم الرازق والكفر بالخالق والانهماك في الغفلات وارتكاب المعاصي واتباع الشهوات .

﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي محل ثواء وإقامة أبدية لهم بحيث لا براح لهم منها ، وترتيب الجزاء على الشرط لأن التقدير إن يصبروا والظن أن الصبر ينفعهم لأنه مفتاح الفرج لا ينفعهم صبرهم إذا لم يصادف محله فإن النار محلهم لا محالة ، وقيل : في الكلام حذف والتقدير أو لا يصبروا كقوله تعالى : ﴿ اصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ [الطور : 16] وقيل : المراد فإن يصبروا على ترك دينك واتباع هواهم فالنار مثوى لهم وليس بذاك ، والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويحكي سوء حالهم للغير أو للإشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب وإلقائهم في غيابة دركات النار ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ أي يسألوا العتبى وهي الرجوع إلى ما يحبونه جزعاً مما هم فيه ﴿ فَمَا هُم مّنَ المعتبين ﴾ أي المجابين إليها .

وقال الضحاك : المراد إن يعتذروا فما هم من المعذورين : وقرأ الحسن .

وعمرو بن عبيد .

وموسى الأسواري ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ فَمَا هُم مّنَ المعتبين ﴾ اسم فاعل أي إن طلب منهم أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون ولا يكون ذلك لأنهم قد فارقوا الدنيا دار الأعمال كما قال صلى الله عليه وسلم : " ليس بعد الموت مستعتب " ويحتمل أن

تكون هذه القراءة بمعنى قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(39/681)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾

لما ذكر سبحانه عادًا ، وثمود إجمالاً ذكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلاً ، فقال : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أي : تكبروا عن الإيمان بالله ، وتصديق رسله ، واستعلوا على من في الأرض بغير الحق ، أي : بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من التكبر ، والتجبر .

ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار ، فقال : ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ، وكانوا ذوي أجسام طوال ، وقوّة شديدة ، فاغترّوا بأجسامهم حين تهدّدهم هود بالعذاب ، ومرادهم بهذا القول : أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ، والاستفهام للاستنكار عليهم ، وللتوبيخ لهم ، أي : أو لم يعلموا بأن الله أشد منهم قدرة ،

فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله كن ، فيكون ﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي : بمعجزات الرسل التي خصهم الله بها ، وجعلها دليلاً على نبوّتهم ، أو بآياتنا التي أنزلناها على رسلنا ، أو بآياتنا التكوينية التي نصبناها لهم ، وجعلناها حجة عليهم ، أو بجميع ذلك .

ثم ذكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه ، فقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾

الصرصر : الريح الشديدة الصوت من الصرّة ، وهي : الصيحة .

قال أبو عبيدة : معنى صرصر : شديدة عاصفة .

وقال الفراء : هي : الباردة تحرق كما تحرق النار .

وقال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وقتادة : هي : الباردة ، وأنشد قطرب قول الحطيئة :

المطعمون إذا هبت بصرصرة . . . والحاملون إذا استودوا عن الناس

أي : إذا سئلوا الدية .

(40/681)

وقال مجاهد : هي : الشديدة السموم ، والأولى تفسيرها بالبرد ، لأن الصرّ في كلام العرب البرد ، ومنه قول الشاعر :

لها غرد كقرون النسا . . . ء ركبن في يوم ريح وصر

قال ابن السكيت : صرصر يجوز أن يكون من الصرّ ، وهو : البرد ، ويجوز أن يكون من صرصر الباب ، ومن الصرة وهي : الصيحة ، ومنه : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِى صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] .

ثم بيّن سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم ، فقال : ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أي : مشئومات ذوات نحوس .

قال مجاهد ، وقتادة : كنّ آخر شوّال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء ، وذلك سبع ليال ، وثمانية أيام حسوماً .

وقيل : نحسات باردات .

وقيل : متتابعات .

وقيل : شداد .

وقيل : ذوات غبار .

قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو : (نحسات) بإسكان الحاء على أنه جمع نحس ، وقرأ الباقون بكسرها ، واختار أبو حاتم القراءة الأولى لقوله : ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرّ ﴾ [القمر : 19] واختار أبو عبيدة القراءة الثانية .

﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزى فِى الحياة الدنيا ﴾ أي : لكي نذيقهم ، والخزي هو : الذل ،

والهوان بسبب ذلك الاستكبار ﴿ وَلَعَذَابُ الأخرة أخزى ﴾ أي : أشدّ إهانة ، وذلاً ، ووصف العذاب بذلك ، وهو في الحقيقة وصف للمعذبين ، لأنهم الذين صاروا متصفين بالخزي ﴿ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ أي : لا يمنعون من العذاب النازل بهم ، ولا يدفعه عنهم دافع .

ثم ذكر حال الطائفة الأخرى ، فقال : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم ﴾ أي : بينا لهم سبيل النجاة ، ودللناهم على طريق الحقّ بإرسال الرسل إليهم ، ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله ، فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله ، ويصدّق رسله .

قال الفراء : معنى الآية : دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل .

قرأ الجمهور : ﴿ وأما ثمود ﴾ بالرفع ، ومنع الصرف .

(41/681)

وقرأ الأعمش ، وابن وثاب بالرفع ، والصرف ، وقرأ ابن عباس ، وابن أبي إسحاق ، وعاصم في رواية بالنصب ، والصرف وقرأ الحسن ، وابن هرمز ، وعاصم في رواية بالنصب ، والمنع ، فأما الرفع ، فعلى الابتداء والجملة بعده الخبر ، وأما النصب فعلى الاشتغال ، وأما الصرف فعلى تفسير الاسم بالأب ، أو الحي ، وأما المنع فعلى تأويله

بالقبيلة ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ أي : اختاروا الكفر على الإيمان ، وقال أبو العالية : اختاروا العمى على البيان ، وقال السدّي : اختاروا المعصية على الطاعة ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صاعقة العذاب الهون ﴾ قد تقدّم أن الصاعقة اسم للشيء المهلك لأيّ شيء كان ، والهون الهوان والإهانة ، فكأنه قال : أصابهم مهلك العذاب ذي الهوان أو الإهانة ، ويقال عذاب هون ، أي : مهين كقوله : ﴿ مَا لَبِثُواْ فِى العذاب المهين ﴾ [سبأ : 14] ، والباء في ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ للسببية ، أي : بسبب الذي كانوا يكسبونه ، أو بسبب كسبهم ﴿ وَنَجَّيْنَا الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ، وهم : صالح ومن معه من المؤمنين ، فإن الله نجاهم من ذلك العذاب ، ثم لما ذكر سبحانه ما عاقبهم به في الدنيا ذكر ما عاقبهم به في الآخرة ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء الله إِلَى النار ﴾ ، وفي وصفهم بكونهم أعداء الله مبالغة في ذمهم ، والعامل في الظرف محذوف دلّ عليه ما بعده تقديره : يساق الناس يوم يحشر ، أو باذكر ، أي : اذكر يوم يحشرهم .

قرأ الجمهور : ﴿ يحشر ﴾ بتحتية مضمومة ، ورفع أعداء على النيابة ، وقرأ نافع : (نحشر) بالنون ، ونصب أعداء ، ومعنى حشرهم إلى النار : سوقهم إليها ، أو إلى موقف الحساب ، لأنه يتبين عنده فريق الجنة ، وفريق النار ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : يحبس أوّلهم على آخرهم ؛ ليتلاحقوا ويجتمعوا ، كذا قال قتادة ، والسدّي ، وغيرهما ، وقد سبق تحقيق معناه في سورة النمل مستوفى .

﴿ حتى إِذَا مَا جَاءوهَا ﴾ أي : جاءوا النار التي حشروا إليها ، أو موقف الحساب ، و "ما" مزيدة للتوكيد ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبصارهم وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من المعاصي .

قال مقاتل : تنطق جوارحهم بما كتمت الألسن من عملهم بالشرك ، والمراد بالجلود هي : جلودهم المعروفة في قول أكثر المفسرين .

وقال السدّي ، وعبيد الله بن أبي جعفر ، والفراء : أراد بالجلود الفروج ، والأوّل أولى ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ وجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها ما ذكره الرازي أن الحواس الخمس وهي : السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس ، وآلة المس هي الجلد ، فالله سبحانه ذكر هنا ثلاثة أنواع من الحواس ، وهي : السمع ، والبصر ، واللمس ، وأهمل ذكر نوعين ، وهما : الذوق ، والشم ، فالذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه ، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام ، وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الحنك مماسة لجرم المشموم ، فكانا داخلين في جنس اللمس ، وإذا عرفت من كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص

الجلود بالسؤال ، لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس ، فكان تأتي المعصية من جهتها أكثر وأما على قول من فسر الجلود بالفروج ، فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر ، لأنه ما يشهد به الفرج من الزنا أعظم قبحاً ، وأجلب للخزي والعقوبة ، وقد قدّمنا وجه إفراد السمع ، وجمع الأبصار ﴿ قَالُواْ أَنطَقَنَا اللهُ الذى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي : أنطق كلّ شيء مما ينطق من مخلوقاته ، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح .

وقيل : المعنى : ما نطقنا باختيارنا ، بل أنطقنا الله ، والأوّل أولى ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قيل : هذا من تمام كلام الجلود .

(43/681)

وقيل : مستأنف من كلام الله ، والمعنى : أن من قدر على خلقكم ، وإنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم ، ورجعكم إليه .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أبصاركم وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾ هذا تقريع لهم ، وتوبيخ من جهة الله سبحانه ، أو من كلام الجلود ، أي : ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة حذراً من شهادة الجوارح عليكم ، ولما كان الإنسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا : ترك المعصية .

وقيل : معنى الاستتار : الاتقاء ، أي : ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة ، فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة و "أن" في قوله : ﴿ أَن تَشْهَدَ ﴾ في محل نصب على العلة ، أي : لأجل أن تشهد ، أو مخافة أن تشهد .

وقيل : منصوبة بنزع الخافض ، وهو : الباء أو عن أو من .

وقيل : إن الاستتار مضمن معنى الظنّ ، أي : وما كنتم تظنون أن تشهد ، وهو : بعيد ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْلَمُونَ ﴾ من المعاصي ، فاجترأتم على فعلها .

قيل : كان الكفار يقولون : إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ، ولكن يعلم ما نظهر دون ما نسرّ .

قال قتادة : الظنّ هنا بمعنى : العلم وقيل : أريد بالظنّ معنى مجازي يعمّ معناه الحقيقي ، وما هو فوقه من العلم ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى ما ذكر من ظنهم ، وهو : مبتدأ وخبره : ﴿ ظَنُّكُمُ الذى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ خبر آخر للمبتدأ .

وقيل : إن أرداكم في محل نصب على الحال المقدّرة .

وقيل : إن ظنكم بدل من ذلكم ، والذي ظننتم خبره ، وأرداكم خبر آخر ، أو حال ، وقيل : إن ظنكم خبر أوّل ، والموصول وصلته خبر ثان ، وأرداكم خبر ثالث ، والمعنى : أن ظنكم بأن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أهلككم ، وطرحكم في النار ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ أي : الكاملين في الخسران .

ثم أخبر عن حالهم ، فقال : ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي : فإن يصبروا على النار ، فالنار مثواهم ، أي : محل استقرارهم ، وإقامتهم لا خروج لهم منها .

وقيل : المعنى : فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار ، فالنار مثوى لهم ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ يقال : أعتبني فلان ، أي : أرضاني بعد إسخاطه إياي ، واستعتبته طلبت منه أن يرضى ، والمعنى : أنهم إن يسألوا أن يرجع بهم إلى ما يحبون لم يرجع ، لأنهم لا يستحقون ذلك .

قال الخليل : تقول : استعبته ، فأعتبني ، أي : استرضيته ، فأرضاني ، ومعنى الآية : إن يطلبوا الرضى لم يقع الرضى عنهم ، بل لا بدّ لهم من النار .

قرأ الجمهور : ﴿ يستعتبوا ﴾ بفتح التحتية ، وكسر التاء الفوقية الثانية مبنياً للفاعل .

وقرءوا : ﴿ من المعتبين ﴾ بفتح الفوقية اسم مفعول ، وقرأ الحسن ، وعبيد بن عمير ، وأبو العالية : (يستعتبوا) مبنياً للمفعول (فما هم من المعتبين) اسم فاعل ، أي : إنهم إن أقالهم الله ، وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] .

وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال : يحبس أوّلهم على

آخرهم .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : يدفعون .

(45/681)

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن مسعود قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر : قرشي وثقفيان ، أو ثقفيّ وقرشيان ، كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخران : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإنا إذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخران : إن سمع منه شيئاً سمعه كله ؛ قال : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِّنَ الخاسرين ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق ، وأحمد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تحشرون ها هنا ، وأومأ بيده إلى الشام ، مشاة وركباناً ، وعلى وجوهكم ، وتعرضون على الله ، وعلى أفواهكم الفدام ، وأوّل ما يعرب عن أحدكم ، فخذه وكتفه " وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ

وَلاَ أبصاركم وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾ " .

وأخرج أحمد ، وأبو داود الطيالسي ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان ، وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يموتنّ أحدكم إلاّ وهو يحسن الظن بالله تعالى ، فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال الله : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(46/681)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) ﴾

لما فُرغ من موعظة المشركين بحال الأمم المكذبة من قبلهم وإنذارهم بعذاب يحلّ بهم في الدنيا كما حل بأولئك ليكون لهم ذلك عبرة فإن لاستحضار المثل والنظائر أثراً في النفس تعتبر به ما لا تعتبر بتوصف المعاني العقلية ، انتقل إلى إنذارهم بما سيحلّ بهم في الآخرة فجملة ﴿ ويَوْمَ نحشر أعداء الله ﴾ الآيات ، معطوفة على جملة ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُم صاعقة ﴾ [فصلت : 13] الآيات .

والتقدير : وأنذرهم يوم نحشر أعداء الله إلى النار .

ودل على هذا المقدر قوله : ﴿ أنذَرتُكُم صاعقة الخ ، أي وأنذرهم يوم عقاب الآخرة .

وأعداء الله : هم مشركو قريش لأنهم أعداء رسوله قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ [الممتحنة : 1] يعني المشركين لقوله بعده : ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ [الممتحنة : 1] ، ولأنها نزلت في قضية كِتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يعلمهم بتهيّؤ النبي صلى الله عليه وسلم لغزو مكة ولقوله في آخر هذه الآيات ﴿ ذلك جَزَاءُ أعْدَاءِ الله ﴾ [فصلت : 28] بعد قوله ﴿ وقال الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لهذا القُرءَانِ والغَوا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26] .

(47/681)

ولا يجوز أن يكون المراد بـ ﴿ أعْدَاءَ الله ﴾ جميع الكفار من الأمم بحيث يدخل المشركون من قريش دخول البعض في العموم لأن ذلك المحمل لا يكون له موقع رشيق في المقام لأن الغرض من ذكر ما أصاب عاداً وثمود هو تهديد مشركي مكة بحلول عذاب مثله في الدنيا لأنهم قد علموه ورأوا آثاره فللتهديد بمثله موقع لا يسعهم التغافل عنه ، وأما عذاب عاد وثمود في الآخرة فهو موعود به في المستقبل وهم لا يؤمنون به فلا يناسب أن يجعل موعظة

لقريش بل الأجدر أن يقع إنذار قريش رأساً بعذاب يعذَّبونه في الآخرة ، ولذلك أطيل وصفه لتهويله ما لم يُطل بمثله حينَ التعرضِ لعذاب عاد في الآخرة بقوله : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أخزى ﴾ [فصلت : 16] المكتفى به عن ذكر عذاب ثمود .

ولهذا فليس في قوله : ﴿ أَعْدَاءَ اللهِ ﴾ إظهار في مقام الإِضمار من ضمير عاد وثمود .

ويجوز أن يكون ﴿ وَيَوْمَ نحشر أعْدَاءَ اللهِ ﴾ مفعولاً لفعل (واذكر) محذوفاً مثل نظائره الكثيرة .

والحشر : جمع الناس في مكَان لمقصد .

ويتعلق قوله : ﴿ إلى النَّارِ ﴾ بـ ﴿ نَحْشر ﴾ لتضمين ﴿ نحشر ﴾ معنى : نرسل ، أي نرسلهم إلى النار .

والفاء في قوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ عطف وتفريع على ﴿ نحشر ﴾ لأن الحشر يقتضي الوزْع إذ هو من لوازمه عُرفاً ، إذ الحشر يستلزم كثرة عدد المحشورين وكثرةُ العدد تستلزم الاختلاط وتداخل بعضهم في بعض فلا غنى لهم عن الوزع لتصفيفهم ورَدِّ بعضهم عن بعض .

والوزْع : كفّ بعضهم عن بعض ومنعهم من الفوضى ، وتقدم في سورة النمل (17) ، وهو كناية عن كثرة المحشورين .

وقرأ نافع ويعقوب ﴿ نَحشر ﴾ بنون العظمة مبنياً للفاعل ونصب ﴿ أَعْدَاءَ ﴾ .

وقرأه الباقون بياء الغائب مبنياً للنائب .

و﴿ حتى ﴾ ابتدائية وهي مفيدة لمعنى الغاية فهي حرف انتهاء في المعنى وحرف ابتداء في اللفظ ، أي أن ما بعدها جملة مستأنفة .

(48/681)

و ﴿ إذا ﴾ ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط وهو متعلق بجوابه ، و ﴿ ما ﴾ زائدة للتوكيد بعد ﴿ إذَا ﴾ تفيد توكيد معنى ﴿ إذَا ﴾ من الارتباط بالفعل الذي بعد ﴿ إذا ﴾ سواء كانت شرطية كما في هذه الآية أم كانت لمجرد الظرفية كقوله تعالى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ [الشورى : 37] .

ويظهر أن ورود ﴿ مَا ﴾ بعد ﴿ إذا ﴾ يقوّي معنى الشرط في ﴿ إذا ﴾ ، ولعلهُ يكون معنى الشرط حينئذٍ نصاً احتمالاً .

وضمير المؤنث الغائب في ﴿ جَاءُوهَا ﴾ عائد إلى ﴿ النَّارِ ﴾ ، أي إذا وصلوا إلى جهنم .

وجملة ﴿ شَهِدَ عَلَيهِم سَمْعُهُم وأبصارهم ﴾ الخ يقتضي كلام المفسرين أنها جواب ﴿ إذا ﴾ ، فاقتضى الارتباط بين شرطها وجوابها وتعليقها بفعل الجواب .

واستشعروا أن الشهادة عليهم تكون قبل أن يوجهوا إلى النار ، فقدَّروا فِعلاً محذوفاً تقديره : وسُئلوا عما كانوا يفعلون فأنكروا فشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ، يعني : سألهم خزنة النار .

وأحسنُ من ذلك أن نقول : إن جواب ﴿ إذا ﴾ محذوف للتهويل وحذف مثله كثير في القرآن ، ويكون جملة ﴿ شَهِدَ عَلَيهِم سَمْعُهُم ﴾ إلى آخرها مستأنفة استئنافاً بيانياً نشأ عن مفاد ﴿ حتى ﴾ من الغاية لأن السائل يتطلب ماذا حصل بين حشرهم إلى النار وبين حضورهم عند النار فأجيب بأنه ﴿ شَهِدَ عَلَيهِم سَمْعُهُم وأبصارهم وَجُلُودُهُم ﴾ إلى قوله : ﴿ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ويتضمن ذلك أنهم حوسبوا على أعمالهم وأنكروها فشهدت عليهم جوارحهم وأجسادهم .

أو أن يكون جواب ﴿ إذا ﴾ قوله : ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فالنَّارُ مَثْوًى لَهُم ﴾ [فصلت : 24] الخ .

وجملة ﴿ شَهِدَ عَلَيهِم سَمْعُهُم وأبصارهم ﴾ وما عطف عليها معترضة بين الشرط وجوابه .

وشهادة جوارحهم وجلودهم عليهم : شهادة تكذيب وافتضاح لأن كون ذلك شهادة يقتضي أنهم لما رأوا النار اعتذروا بإنكار بعض ذنوبهم طمعاً في تخفيف العذاب وإلا فقد علم الله ما كانوا يصنعون وشهدت به الحفظة وقرىء عليهم كتابُهم ، وما أُحضروا للنار إلا وقد تحققت إدانتهم ، فما كانت شهادة جوارحهم إلا زيادة خزي لهم وتحسيراً وتنديماً على سوء اعتقادهم في سعة علم الله .

وتخصيص السمع والأبصار والجلود بالشهادة على هؤلاء دون بقية الجوارح لأن للسمع اختصاصاً بتلقي دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وتلقي آيات القرآن ، فسمعهم يشهد عليهم بأنهم كانوا يصرفونه عن سماع ذلك كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ [فصلت : 5] ، ولأن للأبصار اختصاصاً بمشاهدة دلائل المصنوعات الدالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير فذلك دليل وحدانيته في إلهيته ، وشهادة الجلود لأن الجلد يحوي جميع الجسد لتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على أنفسها فيظهر استحقاقها للحرق بالنار لبقية الأجساد دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر .

ولذلك اقتصروا في توجيه الملامة على جلودهم لأنها حاوية لجميع الحواس والجوارح ، وبهذا يظهر وجه الاقتصار على شهادة السمع والأبصار والجلود هنا بخلاف آية سورة النور (24) ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ ، لأن آية النور تصف الذين يرمون المحصنات وهم الذين اختلقوا تهمة الإِفك ومشَوا في المجامع

يُشيعونها بين الناس ويشيرون بأيديهم إلى من اتهموه إفكاً .

وإنما قالوا لجلودهم ﴿ لِمَ شَهِدتُمْ عَلَيْنَا ﴾ دون أن يقولوه لسمعهم وأبصارهم لأن الجلود مواجهة لهم يتوجهون إليها بالملامة .

وإجراء ضمائر السمع والبصر والجلود بصيغتي ضمير جمع العقلاء لأن التحاور معها صيرها بحالة العقلاء يومئذٍ .

(50/681)

ومن غريب التفسير قول من زعموا أن الجلود أريد بها الفروج ونسب هذا للسدي والفراء ، وهو تعنت في محمل الآية لا داعي إليه بحال ، وعلى هذا التفسير بنى أحمد الجرجاني في كتاب "كنايات الأدباء" فعدّ الجلود من الكنايات عن الفُروج وعزاه لأهل التفسير فجازف في التعبير .

والاستفهام في قولهم : ﴿ لِمَ شَهِدتُمْ عَلَيْنَا ﴾ مستعمل في الملامة وهم يحسبون أن جلودهم لكونها جزءاً منهم لا يحق لها شهادتها عليهم لأنها تجر العذاب إليها .

واستعمال الاستفهام عن العلة في معرض التوبيخ كثير كقوله تعالى : ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ [آل عمران : 66] .

وقول الجلود ﴿ أَنطَقَنَا اللهُ ﴾ اعتذار بأن الشهادة جرت منها بغير اختيار .

وهذا النطق من خوارق العادات كما هو شأن العالم الأخروي .

وقولهم : ﴿ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ تمجيد لله تعالى ولا علاقة له بالاعتذار ، والمعنى : الذي أنطق كل شيء له نطق من الحيوان واختلاف دلالة أصواتها على وجدانها ، فعموم ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مخصوص بالعرف .

﴿ ءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ ﴾

يجوز أن تكون هذه الجملة والتي عطفت عليها من تمام ما أنطق الله به جلودهم قُتُفِّيَ على مقالتها تشهيراً بخطئهم في إنكارهم البعث والمصير إلى الله لزيادة التنديم والتحسير ، وهذا ظاهر كون الواو في أول الجملة واو العطف فيكون التعبير بالفعل المضارع في قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ لاستحضار حالتهم فإنهم ساعتئذٍ في قبضة تصرف الله مباشرة .

وأما رجوعهم بمعنى البعث فإنه قد مضى بالنسبة لوقت إحضارهم عند جهنم ، أو يكون المراد بالرجوع الرجوع إلى ما ينتظرهم من العذاب .

ويجوز أن تكون هذه الجملة وما بعدها اعتراضاً بين جملة ﴿ وَيَوْمَ نُحْشَرُ أَعْدَاءَ اللهِ إلى النَّارِ ﴾ وجملة ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فالنَّارُ مَثْوىً لَهُم ﴾ [فصلت : 24] موجهاً من جانب الله تعالى إلى المشركين الأحياء لتذكيرهم بالبعث عقب ذكر حالهم في القيامة انتهازاً لفرصة الموعظة السابقة عند تأثرهم بسماعها .

ويكون فعل ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ مستعملاً في الاستقبال على أصله ، والكلام استدلال على إمكان البعث .

قال تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ق : 15] .

وتقديم متعلق ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ عليه للاهتمام ورعاية الفاصلة .

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ

قلّ من تصدى من المفسرين لبيان اتصال هذه الآيات الثلاث بما قبلها ، ومن تصدّى منهم لذلك لم يأت بما فيه مقْنع ، وأوْلى كلام في ذلك كلام ابن عطية ولكنه وَجيز وغير محرر وهو وبعض المفسرين ذكروا سبباً لنزولها فزادوا بذلك إشكالاً وما أبانوا انفصالاً .

ولنبدأ بما يقتضيه نظم الكلام ، ثم نأتي على ما روي في سبب نزولها بما لا يفضي إلى الانفصام .

فيجوز أن تكون جملة ﴿ وَمَا كُنتُم تَسْتَتِرُونَ ﴾ بتمامها معطوفة على جملة ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [فصلت : 21] الخ فتكون مشمولة للاعتراض متصلة بالتي قبلها

على كلا التأويلين السابقين في التي قبلها .

ويجوز أن تكون مستقلة عنها : إمّا معطوفة على جملة ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللهِ إلى النَّارِ ﴾ [فصلت : 19] الآيات ، وإما معترضة بين تلك الجملة وجملةِ ﴿ فَإِنْ يَصبِرُوا فالنَّارُ مَثْوًى لَهُم ﴾ [فصلت : 24] ، وتكون الواو اعتراضية ، ومناسبة الاعتراض ما جرى من ذكر شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم .

فيكون الخطاب لجميع المشركين الأحياء في الدنيا ، أو للمشركين في يوم القيامة .

(52/681)

وعلى هذه الوجوه فالمعنى : ما كنتم في الدنيا تخفون شرككم وتستترون منه بل كنتم تجهرون به وتفخرون باتباعه فماذا لومكم على جوار حكم وأجسادكم أن شهدت عليكم بذلك فإنه كان أمراً مشهوراً فالاستتار مستعمل في الإخبار مجازاً لأن حقيقة الاستتار إخفاء الذوات والذي شهدت به جوارحهم هو اعتقاد الشرك والأقوال الداعية إليه .

وحرف ﴿ ما ﴾ نفي بقرينة قوله بعده : ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ ﴾ الخ ، ولا بد من تقدير حرف جر يتعدى به فعل ﴿ تَستَتِرُونَ ﴾ إلى ﴿ أَن يَشْهَدَ ﴾ وهو محذوف على الطريقة المشهورة في حذف حرف الجر مع (أَنْ) .

وتقديره : بحسب ما يدل عليه الكلام وهو هنا يقدر حرف مِن ، أي ما كنتم تستترون من شهادة سمعكم وأبصاركم وجلودكم ، أي ما كنتم تستترون من تلك الشهود ، وما كنتم تتقون شهادتها ، إذ لا تحسبون أن ما أنتم عليه ضائر إذ أنتم لا تؤمنون بوقوع يوم الحساب .

فأما ما ورد في سبب نزول الآية فهو حديث "الصحيحين" و"جامع الترمذي" بأسانيد يزيد بعضها على بعض إلى عبد الله بن مسعود قال : "كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي قليلٌ فِقْهُ قلوبهم كثيرٌ شحْم بطونهم فتكلموا بكلام لم أفهمه ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ، فقال الآخر : يَسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا ، قال عبد الله : فذكرتُ ذلك للنبيء صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتم تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَد عَلَيكُم سَمْعُكُم وَلا أبصاركم ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخاسرين ﴾ .

وهذا بظاهره يقتضي أن المخاطب به نفر معين في قضية خاصة مع الصلاحية لشمول من عسى أن يكون صدر منهم مثل هذا العمل للتساوي في التفكير .

(53/681)

ويجعل موقعها بين الآيات التي قبلها وبعدها غريباً ، فيجوز أن يكون نزولها صادف الوقت الموالي لنزول التي قبلها ، ويجوز أن تكون نزلت في وقت آخر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها في موضعها هذا لمناسبة ما في الآية التي قبلها من شهادة سمعهم وأبصارهم .

ومع هذا فهي آية مكية إذ لم يختلف المفسرون في أن السورة كلها مكية .

وقال ابن عطية : يشبه أن يكون هذا بعد فتح مكة فالآية مدنية ، ويشبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ الآية متمثلاً بها عند إخبار عبد الله إياه ا ه .

وفي كلامه الأول مخالفة لما جزم به هو وغيرهُ من المفسرين أن السورة كلها مكية ، وكيف يصح كلامه ذلك وقد ذكر غيرهُ أن النفر الثلاثة هم : عبد ياليل الثقفي وصفوان وربيعة ابنا أمية بنِ خلف ، فأما عبد ياليل فأسلم وله صحبة عند ابن إسحاق وجماعة ، وكذلك صفوان بن أمية ، وأما ربيعة بن أمية فلا يعرف له إسلام فلا يلاقي ذلك أن تكون الآية نزلت بعد فتح مكة .

وأحسن ما في كلام ابن عطية طرفه الثاني وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الآية متمثلاً بها فإن ذلك يُؤَوِّل قول ابن مسعود فأنزل الله تعالى الآية ، ويبين وجه قراءة النبي صلى الله عليه وسلم إياها عندما أخبره ابن مسعود بأنه قرأها تحقيقاً لمثال من صور معنى الآية ، وهو أن مثل هذا النفر ممن يَشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ، وذلك قاض بأن

هؤلاء النفر كانوا مشركين يومئذٍ ، والآية تحق على من مات منهم كافراً مثل ربيعة بن أمية بن خلف .

وعلى بعض احتمالات هذا التفسير يكون فعل ﴿ تَسْتَتِرُونَ ﴾ مستعملاً في حقيقته أي تستترون بأعمالكم عن سمعكم وأبصاركم وجلودكم ، وذلك توبيخ كناية عن أنهم ما كانوا يرون ما هم عليه قبيحاً حتى يستتروا منه وعلى بعض الاحتمالات فيما ذكر يكون فعل ﴿ تستترون ﴾ مستعملاً في حقيقته ومجازه ، ولا يُعوزك توزيع أصناف هذه الاحتمالات بعضها مع بعض في كل تقدير تَفرِضُه .

(54/681)

وحاصل معنى الآية على جميع الاحتمالات : أن الله عليم بأعمالكم ونياتكم لا يخفى عليه شيء منها إن جهرتم أو سترتم وليس الله بحاجة إلى شهادة جوارحكم عليكم وما أوقعكم في هذا الضر إلا سوء ظنكم بجلال الله .

﴿ وذلكم ظَنُّكُمُ ﴾ الإشارة إلى الظن المأخوذ من فعل ﴿ ظَنَنتُم أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، ويستفاد من الإشارة إليه تمييزه أكمل تمييز وتشهير شناعته للنداء على ضلالهم .

وأتبع اسم الإِشارة بالبدل بقوله : ﴿ ظَنُّكُم ﴾ لزيادة بيانه ليتمكن ما يعقبه من الخبر ، والخبر هو فعل ﴿ أَردَاكُم ﴾ وما تفرع عليه .

و ﴿ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُم ﴾ صفة ل ﴿ ظَنُّكُمُ ﴾ .

والإِتيان بالموصول لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو ﴿ أَرْدَاكُم ﴾ وما تفرع عليه ، أي الذي ظننتم بربكم ظناً باطلاً .

والعدول عن اسم الله العَلَم إلى ﴿ بِرَبِّكُم ﴾ للتنبيه على ضلالِ ظنهم ، إذ ظنوا خفاء بعض أعمالهم عن علمه مع أنه ربهم وخالقهم فكيف يخلقهم وتخفى عنه أعمالهم ، وهو يشير إلى قوله : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] ، ففي وصف ﴿ بِرَبِّكُم ﴾ إيماء إلى هذا المعنى .

والإِرداء : الإِهلاك ، يقال : رَدِيَ كرضِي ، إذا هلَك ، أي مات ، والإِرداء مستعار للإِيقاع في سوء الحالة بحيث أصارهم مثل الأموات فإن ذلك أقصى ما هو متعارف بين الناس في سوء الحالة وفي الإِتيان بالمسند فعلاً إفادة قصرٍ ، أي ما أرداكم إلا ظنكم ذلك ، وهو قصر إضافي ، أي لم تُردِكم شهادة جوارحكم حتى تلوموها بل أرداكم ظنكم أن الله لا يعلم أعمالكم فلم تحذروا عقابه .

وقوله : ﴿ فَأَصبحتم مِنَ الخاسرين ﴾ تمثيل لحالهم إذ يحسبون أنهم وصلوا إلى معرفة ما يحق أن يعرفوه من شؤون الله ووثقوا من تحصيل سعادتهم ، وهم ما عرفوا الله حق معرفته فعاملوا الله بما لا يرضاه فاستحقوا العذاب من حيث ظنوا النجاة ، فشبه حالهم بحال التاجر الذي استعدّ للربح فوقع في الخسارة .

والمعنى : أنه نُعي عليهم سوء استدلالهم وفساد قياسهم في الأمور الإلهية ، وقياسُهم الغائبَ على الشاهد ، تلك الأصولُ التي استدرجتهم في الضلالة فأحالوا رسالة البشر عن الله ونفوا البعث ، ثم أثبتوا شركاء لله في الإلهية ، وتفرع لهم من ذلك كله قطع نظرهم عما وراء الحياة الدنيا وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا ، فذلك جماع قوله تعالى : ﴿ وذلكم ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بربِّكم أرداكم فأَصْبَحْتُم مِنَ الخاسرين ﴾ .

واعلم أن أسباب الضلال في العقائد كلها إنما تأتي على الناس من فساد التأمل وسرعة الإيقان وعدم التمييز بين الدلائل الصائبة والدلائل المشابهة وكل ذلك يفضي إلى الوهَم المعبر عنه بالظن السيِّىء ، أو الباطل .

وقد ذكر الله مثله في المنافقين وأن ظنهم هو ظن أهل الجاهلية فقال : ﴿ يظنون باللَّه غير الحق ظن الجاهلية ﴾ [آل عمران : 154] ، فليحذر المؤمنون من الوقوع في مثل هذه الأوهام فيبُوءُوا ببعض ما نُعي على عبدة الأصنام .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " يريد الظن الذين لا دليل عليه .

و(أصبحتم) بمعنى : صرتم ، لأن أصبح يكثر أن تأتي بمعنى : صار .

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24)

تفريع على جواب ﴿ إذا ﴾ [فصلت : 20] على كلا الوجهين المتقدمين ، أو تفريع على جملة ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت : 21] ، أو هو جواب ﴿ إذا ﴾ ، وما بينهما اعتراض على حسب ما يناسب الوُجوه المتقدمة .

(56/681)

والمعنى على جميع الوجوه : أن حاصل أمرهم أنهم قد زُجَّ بهم في النار فإن صَبَروا واستسلموا فهم باقون في النار ، وإن اعتذروا لم ينفعهم العذر ولم يقبل منهم تنصل .

وقوله : ﴿ فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُم ﴾ دليل جواب الشرط لأن كون النار مثوى لهم ليس مُسبَّباً على حصول صبرهم وإنما هو من باب قولهم : إن قَبِل ذلك فذاك ، أي فهو على ذلك الحال ، فالتقدير : فإن يصبروا فلا يَسَعُهم إلا الصبر لأن النار مثوى لهم .

ومعنى ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا ﴾ إنْ يسألوا العُتْبَى (بضم العين وفتح الموحدة مقصوراً اسم

مصدر الإِعتاب) وهي رجوع المعتُوب عليه إلى ما يُرضي العاتب .

وفي المَثل "مَا مُسيء من أعْتَبَ" أي من رجع عمَّا أساء به فكأنه لم يسيء .

وقلما استعملوا المصدر الأصلي بمعنى الرجوع استغناء عنه باسم المصدر وهو العتبى .

والعاتب هو اللائم ، والسين والتاء فيه للطلب لأن المرء لا يسأل أحداً أن يعاتبه وإنما يسأله ترك المعاتبة ، أي يسأله الصفح عنه فإذا قبل منه ذلك قيل : أَعْتبه أيضاً ، وهذا من غريب تصاريف هذه المادة في اللغة ولهذا كادوا أن يميتوا مصدر : أعتب بمعنى رجَع وأبقوه في معنى قَبِل العُتَبى ، وهو المراد في قوله تعالى : ﴿ فَمَا هُم مِنَ المُعتَبِينَ ﴾ أي أن الله لا يُعتبهم ، أي لا يقبل منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(57/681)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) ﴾

شهدت عليهم أجزاؤهم ، ولم يكن في حسابهم أن الله سيُنْطِقها وهو الذي أنطق كلَّ شيء ، ولم يَدُرْ بخَلَدهم ما استقبهم من المصير الأليم .

﴿ ذلكم ظنكم ﴾ : وكذا مَنْ قعد في وصف الأقوال ، ووَسَمَ موضِعَه ، وحَكَمَ لنفسه انه مُقَدَّمٌ بلده . فلا يُسْمَعُ منه إلا ببرهانٍ ودليلٍ من حاله ، فإن خالف الحالُ قولَه فلا يُعتمد عليه بعد ذلك .

والظنُّ بالله إذا كان جميلاً فلعمري يُقَابَلُ بالتحقيق ، أمَّا إذا كان نتيجةَ الغرورِ وغيرَ مأذونٍ به في الشرع فإنه يُرْدِي صاحبه .

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24)

فإن يصبروا على موضع الخسف فسينقلبون إلى النار ، وإن يستعتبوا –فعلى ما قال – فما هم بمعتبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 324. 325 ﴾

(58/681)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى ﴿ حم ﴾ اسم السورة .

ويقال : حم يعني : قضي ما هو كائن ويقال هو قسم أقسم الله تعالى به .

﴿ تَنزِيلَ ﴾ أي : نزل بهذا القرآن جبريل ، ﴿ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾ تنزيل صار رفعاً

بالابتداء ، وخبره ، ﴿ كتاب فُصّلَتْ ءاياته ﴾ ويقال : صار رفعاً بإضمار فيه .

ومعناه : هذا تنزيل من الرحمن الرحيم ، ﴿ كِتَابٌ ﴾ يعني : القرآن ﴿ فُصّلَتْ ءاياته ﴾

يعني : بينت ، وفسرت دلائله ، وحججه .

ويقال : بيّن حلاله ، وحرامه ، ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ صار نصباً على الحال .

أي : بينت آياته في حال جمعه ، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : يصدقون ، ويقرون بالرسل .

ويقال : يعلمون ما فيه ، ويفهمونه .

﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ أخذ من الجمع ، ولو كان غير عربي لم يعلموه .

قوله تعالى : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ يعني : ﴿ بَشِيراً ﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾

للكافرين بالنار .

﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يعني : أعرض أكثر أهل مكة ، ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ يعني : لا

يسمعون سمعاً ينفعهم ، لأنهم لا يجيبون ، ولا يطيعون .

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ ﴾ يعني : في غطاء لا نفقه ما تقول ، ﴿ مّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من

التوحيد لا يصل إلى قلوبنا ، ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى ﴾ يعني : ثقلاً فلا نسمع قولك .

يعني : نحن في استماع قولك ، كالصم لا نسمع ما تقول ، ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾

أي ستر ، وغطاء ، ﴿ فاعمل إِنَّنَا عاملون ﴾ يعني : اعمل على أمرك ، نعمل على أمرنا .

ويقال : اعمل لإلهك الذي أرسلك ، إننا عاملون لآلهتنا ، وهذا قول مقاتل ، والأول قول

الكلبي .

ويقال : اعمل في هلاكنا ، إننا عاملون في هلاكك .

(59/681)

روى محمد بن كعب القرظي عمن حدثه : أن عتبة بن ربيعة قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش : ألا أقُوم إلى هذا الرجل ، وأكلمه ، وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل منا بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ، وذلك حين رأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يزيدون ، ويكثرون .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد .

فقام عتبة : حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من المكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت جماعتهم ، وعبت آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فإن كنت ، إنما تريد بما جئت به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً شرفناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه ، أي : خيالاً ، لا تستطيع أن تردّه عنك نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا لك فيه

أموالنا حتى نبريك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه .

فلما فرغ منه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بسم الله الرحمن الرحيم حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرحمن الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُه ﴾ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صاعقة مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : 13] " فقام عتبة ، وجاء إلى أصحابه .

فقال بعضهم لبعض : تالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك ؟ قال : سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة .

يا معشر قريش أطيعوني ، وخلوا بيني وبين الرجل ، وبين ما هو فيه .

فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

فقال : هذا الرأي لكم ، فاصنعوا ما بدا لكم .

(60/681)

يقول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ، ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ يعني : آدمياً مثلكم ، ﴿ يوحى إِلَيَّ ﴾ ما أبلغكم من الرسالة ، ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحد

فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ يعني : أقروا له بالتوحيد ، ﴿ واستغفروه ﴾ من الشرك ، ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ يعني : الشدة من العذاب للمشركين ، ﴿ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة ﴾ يعني : لا يعطون الزكاة ، ولا يقرون بها ، ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ يعني : بالبعث بعد الموت .

ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : صدقوا بالله ، وأدوا الفرائض ، ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يعني : غير منقوص .

ويقال : غير مقطوع .

عنهم في حال ضعفهم ، ومرضهم .

فقال عز وجل : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التهديد والزجر .

يعني : أئنكم لتكذبون بالخالق الذي خلق الأرض في يومين ، يوم الأحد ويوم الاثنين .

فبدأ خلقها في يوم الأحد ، وبسطها في يوم الاثنين ، ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ يعني : تصفون له شركاء من الآلهة ، ﴿ ذَلِكَ رَبُّ العالمين ﴾ يعني : الذي خلق الأرض ، فهو رب جميع الخلق ، ولو أراد الله أن يخلقها في لحظة واحدة لفعل ، وكان قادراً .

ولكنه أحب أن يبصر الخلق وجوه الأناة ، والقدرة على خلق السموات والأرض في أيام كثيرة ، وفي لحظة واحدة سواء ، لأن الخلق عاجزون عن مثقال ذرة منها ، وكان ابتداء خلق الأرض في يوم الأحد ، وإتمام خلقها ، وبسطها في يوم الاثنين .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ يعني : وخلق في الأرض الرواسي .

يعني : الجبال الثوابت من فوقها ، ﴿ وبارك فِيهَا ﴾ بالماء ، والشجر ، ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ يعني : قسم فيها الأرزاق .

(61/681)

وقال عكرمة : ﴿ قُدِرَ فِيهَا أقواتها ﴾ يعني : قدر في كل قرية عملاً لا يصلح في الأخرى ، مثل النيسابوري لا يكون إلا بنيسابور ، والهروي لا يكون إلا بهراة .

وقال قتادة : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ قال : جبالها ، ودوابها ، وأنهارها ، وثمارها .

وقال الحسن ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ قال : أرزاقها .

وقال مقاتل : يعني : أرزاقها ، ومعايشها وروى الأعمش عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : أول ما خلق الله من شيء ، خلق القلم .

فقال له اكتب .

فقال : يا رب وما أكتب ؟ فقال : اكتب القدر .

فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم القيامة .

ثم خلق النون ، ثم رفع بخار الماء ، ففتق منه السموات ، ثم بسط الأرض على ظهر النون ،

فاضطرب النون ، فتمادت الأرض ، فأوتدت بالجبال .

ثم قال : ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يعني : من أيام الآخرة .

ويقال : من أيام الدنيا ، ﴿ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ﴾ يعني : لمن سأل الرزق ومن لم يسأل .

وقال مقاتل : ﴿ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ﴾ يعني : عدلاً لمن سأل الرزق ، كقوله :

﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ واهدنا إلى سَوَآءِ الصراط ﴾ [ص : 22] يعني : عدلاً .

وقال ابن عباس : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، فقال : " خَلَقَ الأَرْوَاحَ ، قَبْلَ الأَجْسَادَ بأَرْبَعِ آلافِ سَنَة " ، وهكذا خلق الأرزاق قبل الأرواح بأربع آلاف سنة ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء ﴾ .

قرأ الحسن : ﴿ سَوَآء ﴾ بكسر الألف .

وقرأ أبو جعفر المدني : ﴿ سَوَآء ﴾ بالضم .

وقراءة العامة : بالنصب .

فمن قرأ : بالكسر ، جعل سواء صفة للأيام ، والمعنى في أربعة أيام ، مستويات ، تامات للسائلين .

ومن قرأ : بالضم ، فمعناه في أربعة أيام وقد تم الكلام .

ثم استأنف فقال : ﴿ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ﴾ ومن قرأ : بالنصب .

يعني : قدرها سواء صار نصباً على المصدر .

ومعناه : استوت استواءً .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء ﴾ أي : صعد أمره إلى السماء ، وهو قوله : ﴿ كُنَّ ﴾ ويقال : عمد إلى خلق السماء ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ يعني : بخار الماء كهيئة الدخان .

وذلك أنه لما خلق العرش ، لم يكن تحت العرش شيء سوى الماء كما قال .

وكان عرشه على الماء ، ثم ألقى الحرارة على الماء حتى ظهر منه البخار ، فارتفع بخاره كهيئة الدخان ، فارتفع البخار ، وألقى الريح الزبد على الماء ، فزبد الماء ، فخلق الأرض من الزبد ، وخلق السماء من الدخان وهو البخار .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ ، ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ﴾ يعني : للسماء ، والأرض ، ﴿ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ يعني : اعطيا الطاعة ، طوعاً أو كرهاً .

يعني : ائتيا بالمعرفة لربكما ، والذكر له طوعاً ، أو كرهاً ، ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فأعطيا الطاعة بالطوع .

ويقال : كانت السماء رتقاً عن المطر ، والأرض عن النبات ، فقال لهما ﴿ ائتيا ﴾ يعني :

أعطيا ، وأخرجا ما فيكما من المطر ، والنبات منفعة للخلق إن شئتما طائعين ، وإن شئتما كارهين .

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ يعني : أخرجنا ما فينا طائعين غير كارهين .

وروي عن مجاهد أنه قال : معناه يا سماء أبرزي شمسك ، وقمرك ، ونجومك ، ويا أرض أخرجي نباتك طوعاً ، أو كرهاً .

ويقال : هذا على وجه المثل ، يعني : أمرهما بإخراج ما فيهما ، فأخرجتا طائعتين .

قوله عز وجل ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِى يَوْمَيْنِ وأوحى فِى كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾ يعني : أمر أهل كل سماء بأمرها .

قال السدي : خلق في كل سماء ، خلقاً من الملائكة ، ﴿ وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ يعني : بالنجوم ﴿ وَحِفْظاً ﴾ يعني : من الشياطين أن يسترقوا السمع ﴿ ذلك ﴾ أي : الذي ذكر من صنعه ﴿ تَقْدِيرُ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ العليم ﴾ بخلقه .

(63/681)

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ أي : خوفتكم ، ﴿ صاعقة ﴾ أي : عذاباً ، ﴿ مِّثْلَ صاعقة ﴾ أي : مثل عذاب ﴿ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ .

وقال مقاتل : كان عاد وثمود ابني عم ، وموسى وقارون ابني عم ، وإلياس واليسع ، ابني عم ، وعيسى ويحيى ابني خالة .

ومعنى : الآية إن لم يعتبروا فيما وصف لهم من قدرتي ، وعظمتي ، في خلق السموات والأرض ، وأعرضوا عن الإيمان .

فقال : أنذرتكم عذاباً مثل عذاب عاد وثمود ، أنه يصيبهم مثل ما أصابهم .

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : أخبرني الخليل بن أحمد .

قال : حدّثنا علي بن المنذر .

قال : حدّثنا ابن فضيل ، عن الأجلح ، عن ابن حرملة ، عن جابر بن عبد الله : أن أبا جهل ، والملأ من قريش ، بعثوا عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه ، فقال : له أنت يا محمد خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فلم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك لواء ، وكنت رأساً ما بقيت .

وإن كنت تريد الباءة ، زوجناك عشرة نسوة تختارهن ، من أي حي ، من بنات قريش شئت .

وإن كنت تريد المال ، جمعنا لك من أموالنا ، ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك .

فلما فرغ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم حمتَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾ " إلى قوله : " ﴿ مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ " .

فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرحم أن يكف .

ثم رجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم .

فقال : أبو جهل : والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا وقد صبأ ، فأتوه .

فقال أبو جهل : والله يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبوت إلى دين محمد ، وأعجبك أمره ، فغضب عتبة ، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً .

(64/681)

وقال : إني أتيته ، وقصصت عليه القصة ، فأجابني بقوله : " والله ليس فيه سحر ولا شعر ، ولا كهانة " فأمسكت على فيه ، وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم إذا قال قولاً ، لم يكذب .

فخفت أن ينزل بكم العذاب .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ جَاءتْهُمُ الرسل مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني : من قبل عاد وثمود ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعني : من بعد عاد وثمود ، ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله ﴾ يعني : ألا تطيعوا في التوحيد غير الله .

وهذا قول الرسل لقومهم ، فأجابهم قومهم : ﴿ قَالُواْ لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ ملائكة ﴾ ولم

يرسل إلينا آدمياً ، ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ أي : جاحدون .

وقد قيل في قوله : ﴿ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعني : خوفوهم من بين أيديهم من أمر الآخرة ، وحذروهم النار ، ورغبوهم في الجنة .

﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعني : زهّدوهم في الدنيا ، فلم يقبلوا ، وقد قيل : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني : ما خلق قبلهم ، كيف أهلكهم الله ، ومما خلفهم من أمر الآخرة .

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِى الأرض ﴾ يعني : تعظموا عن الإيمان عن قول لا إله إلا الله ، ﴿ بِغَيْرِ الحق وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذى خَلَقَهُمْ ﴾ وقواهم ، ﴿ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ يعني : بطشاً ، ولم يعتبروا بذلك .

﴿ وَكَانُواْ بآياتنا يَجْحَدُونَ ﴾ يعني : جاحدين بما آتاهم هود عليه السلام ، أنه لا ينزل بهم .

قوله عز وجل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ يعني : ريحاً بارداً ، ذا صوت ودوي تحرق ، كما تحرق النار .

ويقال : ﴿ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي : شديدة الصوت ، ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ .

قال مقاتل : يعني : شدائد .

وقال الكلبي : يعني : أيام مشؤومات .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ بجزم الحاء ، والباقون : بكسر الحاء ، ومعناهما واحد .

ويقال : يوم نحس ، ويوم نحس ، وأيام نحسه ، ونحسه ، والنحسات جمع الجمع .

﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزى ﴾ يعني : العذاب الشديد في الدنيا ، قبل عذاب الآخرة .

وهذا كقوله : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِى البر والبحر بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى الناس لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : 41] يعني : ليصيبهم بعض العقوبة في الدنيا .

كقوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الادنى دُونَ العذاب الاكبر لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يعني : يتوبون .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ﴾ يعني : أشد مما كان في الدنيا .

﴿ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ يعني : لا يمنعهم أحد من عذاب الله ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ قرأ الأعمش : ﴿ ثَمُودُ ﴾ بالتنوين .

وقراءة العامة بغير تنوين .

﴿ فهديناهم ﴾ يعني : بيّنا لهم الحق من الباطل ، والكفر من الإيمان .

وقال مجاهد : ﴿ فهديناهم ﴾ أي : دعوناهم .

وقال قتادة ومقاتل : بيّنا لهم .

وقال القتبي : دعوناهم ، ودللناهم ، ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ يعني : اختاروا الكفر على الإيمان .

ويقال : اختاروا طريق الضلالة ، على طريق الهدى ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صاعقة العذاب الهون ﴾ والصاعقة هي العذاب الْهُونِ .

يعني : يهانون فيه .

ويقال : الهون الشديد .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يعني : يعملون من الشرك ، والمعاصي .

قوله عز وجل : ﴿ وَنَجَّيْنَا الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ يعني : آمنوا بصالح النبي عليه السلام ، وَكَانُوا يَتَّقُونَ عقر الناقة ، ويتقون الشرك ، والفواحش .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء الله ﴾ يعني : يساق أعداء الله ، وهم الكفار والمنافقون ، ﴿ إِلَى النار ﴾ .

قرأ نافع : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ ﴾ بالنون ، أعداء : بالنصب ، على معنى الإضافة إلى نفسه .

وقرأ الباقون : بالياء والضم .

﴿ يُحْشَرُ أَعْدَاء الله ﴾ على معنى فعل ما لم يسم فاعله ، ويوم صار نصباً لإضمار فيه .

يعني : واذكر يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ الله إِلَى النَّارِ ، ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يعني : يحبس أولهم : ليلحق بهم آخرهم .

وأصله من وزعته أي : كففته .

﴿ حتى إِذَا مَا ﴾ يعني : إذا جاؤوها ، ما صلة في الكلام .

يعني : جاؤوا النار ، وعاينوها .

قيل لهم : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : 22] فقالوا عند ذلك وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ فيختم على أفواههم ، وتستنطق جوارحهم ، فتنطق بما كتمت الألسن ، فذلك قوله : ﴿ جَاءوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ ﴾ يعني : آذانهم بما سمعت ، ﴿ وأبصارهم ﴾ يعني : أعينهم بما نظرت ، ورأت ، ﴿ وَجُلُودُهُم ﴾ يعني : فروجهم ، ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : بجميع أعمالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ ﴾ يعني : لجوارحهم .

وقال القتبي : الجلود كناية عن الفروج ، ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا اللهُ الذى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ يعني : أنطق الدواب ، وغيرهم ، ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يعني : أنطقكم في الدنيا ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ يعني : ما كنتم تمتنعون .

(67/681)

ويقال : ما كنتم تحسبون ، وتستيقنون ، ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أبصاركم وَلاَ جُلُودُكُمْ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من الخير ، والشر ، ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ يعني : ذلك الظن الذي أهلككم .

ويقال : ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ يعني : أغواكم .

ويقال : أهلككم سوء الظن .

وروى الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي " .

وقال الحسن : إن المؤمن أحسن الظن بربه ، فأحسن العمل .

وإن المنافق أساء الظن بربه ، فأساء العمل .

﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ يعني : صرتم من المغبونين .

﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ ﴾ على النار ، ﴿ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي : مأوى لهم .

ويقال : هذا جواب ، لقولهم : ﴿ اصبروا على ءَالِهَتِكُمْ ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ ، ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ أي : يسترجعوا من الآخرة ، إلى الدنيا ، ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ أي : من المرجوعين إلى الدنيا .

ويقال : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ يعني : وإن يطلبوا العذر ، ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ أي : لا يسمع ، ولا يقبل منهم عذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 207 . 213 ﴾

(68/681)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حم ﴾ قد مضى تأويله .

﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه على التقديم والتأخير فيكون تقديره حم تنزيل الكتاب من الرحمن الرحيم .

الثاني : أن يكون فيه مضمر محذوف تقديره تنزيل القرآن من الرحمن الرحيم .

ثم وصفه فقال ﴿ كتابٌ فصلت آياتُه ﴾ وفي تفصيل آياته خمسة تأويلات :

أحدها : فسّرت ، قاله مجاهد .

الثاني : فصلت بالوعد والوعيد ، قاله الحسن .

الثالث : فصلت بالثواب والعقاب ، قاله سفيان .

الرابع : فصلت ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته ، قاله قتادة .

الخامس : فصلت من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، فحكم فيما بينه وبين من خالفه ، قال عبد الرحمن بن زيد .

﴿ قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعلمون انه إله واحد في التوراة والإنجيل ، قاله مجاهد .

الثاني : أن القرآن من عند الله نزل ، قاله الضحاك .

الثالث : يعلمون العربية فيعجزون عن مثله .

قوله عز وجل : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنّة ما تدعونا إليه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أغطية ، قاله السدي .

الثاني : كالجعبة للنبل ، قاله مجاهد .

﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم وهما في اللغة يفترقان فالوقر ثقل السمع والصمم ذهاب جميعه .

﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني ستراً مانعاً عن الإجابة ، قاله ابن زياد .

الثاني : فرقة في الأديان ، قاله الفراء .

الثالث : أنه تمثيل بالحجاب ليؤيسوه من الإجابة ، قاله ابن عيسى .

الرابع : أن أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال : يا محمد بيننا وبينك حجاب ، استهزاء منه ، حكاه النقاش .

﴿ فاعمل إننا عامِلون ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : فاعمل بما تَعْلَم من دينك فإنا نعمل بما نعلم من ديننا ، قاله الفراء .

الثاني : فاعمل في هلاكنا فإنَّا نعمل في هلاكك ، قاله الكلبي .

الثالث : فاعمل لإلهك الذي أرسلك فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها ، قاله مقاتل .

(69/681)

ويحتمل رابعاً : فاعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا .

قوله عز وجل : ﴿ وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه قرعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء ، وفيه دلالة على أن الكافر يعذب

بكفره ، مع وجوب الزكاة عليه ، أكثر مما يعذب من لم تكن الزكاة واجبة عليه ، قاله ابن عيسى .

الثاني : معناه انهم لا يزكون أعمالهم ، قاله ابن عمر .

الثالث : معناه لا يأتون به أزكياء ، قاله الحسن .

الرابع : معناه لا يؤمنون بالزكاة ، قاله قتادة .

الخامس : معناه ليس هم من أهل الزكاة ، قاله معاوية بن قرة .

قوله تعالى : ﴿ لهم أجْرٌ غير ممنون ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : غير محسوب ، قاله مجاهد .

الثاني : غير منقوص ، قاله ابن عباس وقطرب ، وأنشد قول زهير :

فَضْل الجياد على الخيل البطاء فما . . . يعطي بذلك ممنوناً ولا نزقا

الثالث : غير مقطوع ، قاله ابن عيسى ، مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته ، قال ذو الأصبع العدواني :

إني لعمرك ما بابي بذي غلق . . . على الصديق ولا خيري بممنون

الرابع : غير ممنون عليهم به ، قاله السدي .

قوله عز وجل : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ قال ابن عباس خلقها في يومي الأحد والاثنين ، وخلقها في يومين أدل على القدرة والحكمة من خلقها دفعة

واحدة في طرفة عين ، لأنه أبعد من أن يظن به الاتفاق والطبع ، وليرشد خلقه إلى الأناة في أمورهم .

﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أشباهاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : شركاء ، قاله أبو العالية .

الثالث : كفواً من الرجال تطيعونهم في معاصي الله تعالى قاله السدي .

الرابع : هو قول الرجل لولا كلبة فلان لأتي اللصوص ، ولولا فلان لكان كذا ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قوله عز وجل : ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها ﴾ اي جبالاً ، وفي تسميتها رواسي وجهان :

أحدهما : لعلوّ رءوسها .

الثاني : لأن الأرض بها راسية أو لأنها على الأرض ثابتة راسية .

(70/681)

﴿ وبارك فيها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي أنبت شجرها من غير غرس وأخرج زرعها من غيره بذر ، قال السدي .

الثاني : أودعها منافع أهلها وهو معنى قول ابن جريج .

﴿ وقَدَّر فيه أقواتها ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : قدر أرزاق أهلها ، قاله الحسن .

الثاني : قدر فيها مصالحها من جبالها وبحارها وأنهارها وشجرها ودوابها قاله قتادة .

الثالث : قدر فيها أقواتها من المطر ، قاله مجاهد .

الرابع : قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد ، قاله عكرمة .

﴿ في أربعة أيام ﴾ يعني تتمة أربعة أيام ، ومنه قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام ، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً ، أي في تتمة خمسة عشر يوماً .

وقد جاء في الحديث المرفوع أن الله عز وجل خلق الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والخراب والعمران ، فتلك أربعة أيام ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة وآدم .

وفي خلقها شيئاً بعد شيء قولان :

أحدهما : لتعتبر به الملائكة الذين أحضروا .

والثاني : ليعتبر به العباد الذين أخبروا .

﴿ سواء للسائلين ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : سواء للسائلين عن مبلغ الأجل في خلق الله الأرض ، قاله قتادة .

الثاني : سواء للسائلين في أقواتهم وأرزاقهم .

قوله عز وجل : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عمد إلى السماء ، قاله ابن عيسى .

الثاني : استوى أمره إلى السماء ، قاله الحسن .

﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوْعاً أو كرهاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه قال ذلك قبل خلقها ، ويكون معنى ائتيا اي كونا فكانتا كما قال تعالى ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كُن فيكون ﴾ قاله ابن بحر .

الثاني : قول الجمهور أنه قال ذلك لهما بعد خلقهما .

فعلى هذا يكون في معناها أربع تأويلات :

أحدها : معناه أعطيا الطاعة في السير المقدر لكما طوعاً أو كرهاً أي اختياراً أو إجباراً قاله سعيد بن جبير .

الثاني : ائتيا عبادتي ومعرفتي طوعاً أو كرهاً باختيار أو غير اختيار .

الثالث : ائتيا بما فيكما طوعاً أو كرهاً ، حكاه النقاش .

الرابع : كونا كما أمرت من شدة ولين ، وحزن وسهل ومنيع وممكن ، قاله ابن بحر .

وفي قوله ﴿ لَهَا ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه قول تكلم به .

الثاني : أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه أعطينا الطاعة ، رواه طاووس .

الثاني : أتينا بما فينا . قال ابن عباس : أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم ، وأتت الأرض بما فيها من الأشجار والأنهار والثمار .

الثالث : معناه كما أراد الله أن نكون ، قاله ابن بحر . وفي قولهما وجهان :

أحدهما : أنه ظهور الطاعة منهما قائم مقام قولهما .

الثاني : أنهما تكلمتا بذلك . قال أبو النصر السكسكي : فنطق من الأرض موضع الكعبة ونطق من السماء ما بحيالها فوضع الله فيها حرمه .

قوله عز وجل : ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين ﴾ أي خلقهن سبع سماوات في يومين ، قيل يوم الخميس والجمعة ، قال السدي : سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السماوات وخلق الأرضين . وقالت طائفة خلق السماوات قبل الأرضين في يوم الأحد والاثنين ، وخلق الأرضين والجبال في يوم الثلاثاء والأربعاء ، وخلق ما سواهما من العالم يوم الخميس والجمعة ، وقالت طائفة ثالثة أنه خلق السماء دخاناً قبل الأرض ثم فتقها سبع سماوات بعد الأرضين والله أعلم بما فعل فقد اختلفت فيه الأقاويل وليس للاجتهاد فيه مدخل .

﴿ وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرها ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه أسكن في كل سماء ملائكتها ، قاله الكلبي .

الثاني : خلق في كل سماء خلقها خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وصلاحها ، قاله قتادة .

(72/681)

الثالث : أوحى إلى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وزينا السماءَ الدنيا بمصابيح وحِفْظاً ﴾ أي جعلناها زينة وحفظاً .

قوله عز وجل : ﴿ إذ جاءتهم الرسلُ مِن بين أيديهم ومِن خلفهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أرسل من قبلهم ومن بعدهم ، قاله ابن عباس والسدي .

الثاني : ما بين أيديهم عذاب الدنيا ، وما خلفهم عذاب الآخرة ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الشديدة البرد ، قاله عكرمة وسعيد بن جبير ، وأنشد قطرب قول الحطيئة :

المطعمون إذا هبت بصرصرة . . . والحاملون إذا استودوا على الناس

استودوا أي سئلوا الدية .

الثاني : الشديدة السموم ، قاله مجاهد .

الثالث : الشديدة الصوت ، قاله السدي مأخوذ من الصرير ، وقيل إنها الدبور .

﴿ في أيام نحسات ﴾ فيها أربعة أقاويل :

أحدها : مشئومات ، قاله مجاهد وقتادة ، كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ قال ابن عباس : ما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء .

الثاني : باردات ، حكاه النقاش .

الثالث : متتابعات ، قاله ابن عباس وعطية .

الرابع : ذات غبار ، حكاه ابن عيسى ومنه قول الراجز :

قد أغتدي قبل طلوع الشمس . . . للصيد في يوم قليل النحس

قوله عز وجل : ﴿ وأمّا ثمود فهديناهم ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : دعوناهم ، قاله سفيان .

الثاني : بيّنا لهم سبيل الخير والشر ، قاله قتادة .

الثالث : أعلمناهم الهدى من الضلالة ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

﴿ فاستحبوا العَمى على الهدى ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : اختاروا العمى على البيان ، قاله أبو العالية .

الثاني : اختاروا الكفر على الإيمان .

الثالث : اختاروا المعصية على الطاعة ، قاله السدي .

﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ وفي الصاعقة هنا أربعة أقاويل :

أحدها : النار ، قاله السدي .

الثاني : الصيحة من السماء ، قاله مروان بن الحكم .

(73/681)

الثالث : الموت وكل شيء أمات ، قاله ابن جريج .

الرابع : أن كل عذاب صاعقة ، وإنما سميت صاعقة لأن كل من سمعها يصعق لهولها .

وفي ﴿ الهون ﴾ وجهان :

أحدهما : الهوان ، قاله السدي .

الثاني : العطش ، حكاه النقاش .

قوله عز وجل : ﴿ فهم يوزعُون ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يدفعون ، قاله ابن عباس .

الثاني : يساقون ، قاله ابن زيد .

الثالث : يمنعون من التصرف ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : يحبس أولهم على آخرهم ، قاله مجاهد ، وهو مأخوذ من وزعته أي كففته .

قوله عز وجل : ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : لفروجهم ، قاله ابن زيد .

الثاني : لجلودهم أنفسها وهو الظاهر .

الثالث : أنه يراد بالجلود الأيدي والأرجل ، قاله ابن عباس وقيل إن أول ما يتكلم منه فخذه الأيسر وكفه الأيمن .

قوله عز وجل : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني وما كنتم تتقون ، قاله مجاهد .

الثاني : وما كنتم تظنون ، قاله قتادة .

الثالث : وما كنتم تستخفون منها ، قاله السدي . قال الكلبي : لأنه لا يقدر على الاستتار من نفسه .

﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ حكى ابن مسعود أنها نزلت في ثلاثة نفر تسارّوا فقالوا أترى الله يسمع إسرارنا ؟

قوله عز وجل : ﴿ وإن يستعتبوا فيما هم مِن المعتبين ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : معناه وإن يطلبوا الرضا فما هم بمرضى عنهم ، والمعتب : الذي قُبل عتابه وأُجيب إلى سؤاله ، قاله ابن عيسى .

الثاني : إن يستغيثوا فما هم من المغاثين .

الثالث : وإن يستقيلوا فما هم من المقالين .

الرابع : وإن يعتذروا فما هم من المعذورين .

الخامس : وإن يجزعوا فما هم من الآمنين .

قال ثعلب : يقال عتب إذا غضب ، وأعتب إذا رضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ حم* تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم * كِتَابٌ فُصِّلَتْ ﴾ بينت ﴿ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ولو كان غير عربي لما علموه .

وفي نصب القرآن وجوه :

أحدها : إنّه شغل الفعل علامات حتّى صارت بمنزلة الفاعل ، فنصب القرآن وقوع البيان عليه .

الثاني : على المدح .

والثالث : على إعادة الفعل ، أي فصّلنا قرآناً .

والرابع : على إضمار فعل ، أي ذكرنا قرآناً .

والخامس : على الحال .

والسادس : على القطع .

﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ نعتان للقرآن ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يسمعونه ولا يصغون إليه ﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني مشركي مكّة ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ أغطية ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ فلا نفقه ما يقول ، قال مجاهد : كالجعبة للنبل ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ فلا نسمع ما يقول ، وإنّما قالوا ذلك ليؤيّسوه من قبولهم لدينه وهو على التمثيل . ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ خلاف في الدين ، فجعل خلافهم ذلك ساتراً وحاجزاً لا يجتمعون ولا

يوافقون من أجله ولا يرى بعضهم بعضاً . ﴿ فاعمل ﴾ بما يقتضيه دينك . ﴿ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ بما يقتضيه ديننا . قال مقاتل : فأعبد أنت إلهك ، وإنّا عابدون آلهتنا .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ قال الحسن : عَلَمَهُ الله التواضع ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ وجهوا وجوهكم إليه بالطاعة والإخلاص ﴿ واستغفروه ﴾ من ذنوبكم الّتي سلفت . ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة ﴾ قال ابن عباس : لا يشهدون لا إله إلاَّ الله وهي زكاة الأنفس ، وقال الحسن وقتادة : لا يقرّون بالزكاة ولا يؤمنون بها ، ولا يرون إيتاءها واجباً ، وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة .

(75/681)

وكان يقال : الزّكاة قنطرة الإسلام ، فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك ، وقد كان أهل الردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : أما الصلاة فنصلي ، وأما الزّكاة فوالله لا تغصب أموالنا .

وقال أبو بكر " رضي الله عنه " : والله لا أفرق بين شيء جمع الله تعالى بينه والله لو منعوني عقالاً ممّا فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه .

وقال مجاهد والربيع : يعني لا يزكّون أعمالهم ، وقال الفراء : هو أنّ قريشاً كانت تطعم الحاج ، فحرموا ذلك على من آمن بمحمّد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس : غير مقطوع . مقاتل : غير منقوص ، ومنه المنون لأنّه ينقص منه الإنسان أي قوته . مجاهد : غير محسوب ، وقيل : غير ممنون به . قال السدي : نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعلمون فيه .

﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ الأحد والأثنين . ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أي في الأرض بما خلق فيها من المنافع ، قال السدي : أنبت شجرها .

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾ قال الحسن والسدي : يعني أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم ، وقال مجاهد وقتادة : وخلق فيها بحارها ، وأنهارها ، وأشجارها ، ودوابها في يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، روى ابن نجيح عن مجاهد ، قال : هو المطر .

قال عكرمة والضحاك : يعني وقدر في كل بلدة منها ، ما لم يجعله في الأخرى ، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد ، فالسابري من سابور ، والطيالسة من الري ، والحبر واليمانية من اليمن ، وهي رواية حصين ، عن مجاهد .

وروى حيان ، عن الكلبي ، قال : الخبز لأهل قِطر ، والتمر لأهل قِطر ، والذرة لأهل قِطر ، والسمك لأهل قِطر ، وكذلك أخواتها .

﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يعني إنّ هذا مع الأول أربعة أيّام ، كما يقول : تزوجت أمس امرأة واليوم اثنتين وأحدهما الّتي تزوجتها أمس ، ويقال : أتيت واسط في خمسة والبصرة في عشرة ، فالخمسة من جملة العشرة . فرد الله سبحانه الآخر على الأوّل ، وأجمله في الذكر .

﴿ سَوَآءً ﴾ رفعه أبو جعفر على الإبتداء ، أي هي سواءٌ ، وخفضه الحسن ويعقوب على نعت قوله : في أربعة أيّام ، ونصبه الباقون على المصدر ، أي استوت إستواءً ، وقيل : على الحال والقطع ، ومعنى الآية : سواءً . ﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ عن ذلك ، قال قتادة والسدي : من سأله عنه ، فهكذا الأمر ، وقيل : للّسائلين الله حوائجهم .

قال ابن زيد : قدر ذلك على قدر مسائلهم ، لأنّه لا يكون من مسائلهم شيء إلاّ قد علمه قبل أن يكون .

قال أهل المعاني : معناه سواءً للّسائلين وغير السائلين ، يعني إنّه بيّن أمر خلق الأرض وما فيها لمن سأل ومن لم يسأل ، ويعطي من سأل ومن لم يسأل .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ ﴾ أي عمد إلى خلق السماء وقصد ، تسويتها ، والإستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال ، يدل عليه قوله سبحانه وتعالى : ثمّ استوى إلى السّماء .

﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ بخار الماء . ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ أي جيئا بما خلقت فيكما من المنافع ، وإخرجاها ، وإظهراها بمصالح خلقي . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسّموات : إطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وقال للأرض : شقي أنهارك اخرجي ثمارك .

(77/681)

﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ولم يقل طائعتين ، لأنّه ذهب به إلى السّماوات والأرض ومن فيهنّ ، مجازه : أَتينا بمن فينا طائعين ، فلمّا وصفهما بالقول أخرجهما في الجمع مجرى ما يعقل ، وبلغنا أنّ بعض الأنبياء ، قال : ياربّ لو إنّ السّماوات والأرض حين قلت لهما ائتيا طوعاً أو كرهاً عصيناك ، ما كنت صانعاً بهما ؟ قال : كنت أأمر دابة من دوابي فتبتلعهما . قال : وأين تلك الدابة ؟ . قال : في مرج من مروجي . قال : وأين ذلك المرج ؟ قال : في علم من علمي .

وقرأ ابن عباس : أئتيا وآتينا بالمد ، أي اعطينا الطاعة من أنفسكما . قالتا : أعطينا .

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أي أتمهنّ وفرغ من خلقهنّ ﴿ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال قتادة والسدي : يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها ، وخلق في

كلّ سماء خلقها من الملائكة والخلق الّذي فيها من البحار وجبال البرد ، وما لا يُعلم ، وقيل : معناه وأوحى إلى أهل كلّ سماء من الأمر والنهي ما أراد .

﴿ وَزَيَّنَّا السماآء الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ كواكب . ﴿ وَحِفْظاً ﴾ لها من الشياطين الّذين يسترقون السمع ، ونصب حفظها على المعنى ، كأنّه قال : جعلها زينة وحفظاً ، وقيل : معناه وحفظاً زيّنّاها على توهم سقوط الواو أي وزيّنا السّماء الدّنيا بمصابيح حفظاً لها ، وقيل : معناه وحفظها حفظاً .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم * فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ يعني هؤلاء المشركين ، ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم . ﴿ صَاعِقَةً ﴾ وقيعة وعقوبة ﴿ مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ﴾ يعني عاداً وثموداً ﴿ الرسل مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعني قبلهم وبعدهم .

(78/681)

وأراد بقوله : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ الرّسل الّذين أرسلوا إلى آباءهم من قبلهم ومن خلفهم ، يعني من بعد الرّسل الّذين أرسلوا إلى آباءهم ، وهو الرسول الّذي أرسل إليهم ، هود وصالح (عليهما السلام) ، والكناية في قوله : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ راجعة إلى عاد وثمود ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ، راجعة إلى الرسل .

﴿ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ بدل هؤلاء الرّسل ملائكة . ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

(79/681)

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد بن محمد الأصبهاني ، قرأه عليه في شوال سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى العبيدي ، حدثنا أحمد بن نجدة بن العُرْيان ، حدثنا الجماني حدثنا ابن فضيل ، عن الأجلح من الذيال بن حرملة ، عن جابر بن عبد اللّه ، قال : قال الملأ من قريش وأبو جهل : قد التبس علينا أمر محمّد ، فلو إلتمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر ، فأتاه فكلمه ثمّ أتانا ببيان من أمره ، فقال عتبة بن ربيع : والله لقد سمعت بالشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علماً ، وما يخفى عليَّ إن كان ذلك . فأتاه ، فلما خرج إليه ، قال : يا محمّد ، أنت خير أم هاشم ؟ ، أنت خير أم عبد المطلب ؟ ، أنت خير أم عبد الله ؟ ، فبم تشتم آلهتنا ، ونضلك إيانا ، فإن تتمنى الرئاسة عقدنا لك ألويتنا ، فكنت رئيسنا ما بقيت ، وإن كانت بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش ، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني أنت وعقبك من بعدك ، ورسول لله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم ، فلما فرغ ، قرأ رسول الله (عليه

السلام) : ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فاحتبس عنهم عتبة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، والله ما نرى عتبة إلاّ قد [صَبَأ] إلى محمّد وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلاّ من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا إليه ، فانطلَقوا إليه .

(80/681)

فأتاه أبو جهل فقال : والله يا عتبة ، ما حبسك عنّا إلاّ إنّك صبوت إلى محمّد ، وأعجبك طعامه ، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمّد . فغضب عتبة وأقسم ألاّ يكلم محمّداً أبداً ، وقال : والله لقد علمتم إنّي مّن أكثر قريش مالاً ، ولّكني أتيته وقصصت عليه القصة ، فأجابني بشيء ، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر . ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم إنّ محمّداً إذا قال شيئاً لم

يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .

﴿ فَأَمَّا عَادٌ ﴾ يعني قوم هود . ﴿ فاستكبروا فِي الأرض بغَيْرِ الحق وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وذلك إنّهم كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي باردة شديدة الصوت والهبوب وأصله من الصرير ، فضوعف كما يقال : نهنهت وكفكفت ، وقد قيل : إنّ النهر الّذي يسمّى صرصراً إنّما سمي بذلك لصوت الماء الجاري فيه .

﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ متتابعات شديدات نكدات مشؤومات عليهم ليس فيها من الخير شيء ، وقرأ أبو جعفر وابن عامر وأهل الكوفة ﴿ نَّحِسَاتٍ ﴾ بكسر الحاء ، غيرهم بجزمه .

(81/681)

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه ، حدثنا مخلد بن جعفر ، حدثنا الحسن بن علي ، حدثنا إسماعيل بن عيسى ، حدثنا إسحاق بن بشر ، حدثنا مقاتل عن الضحاك في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ ، قال : أمسك الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين ودامت الرياح عليهم من غير مطر ، وبه عن مقاتل ، عن إبراهيم التيمي وعن أبي الزبير عن

جابر بن عبد الله ، قال : إذا أراد الله بقوم خيراً ، أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح ، وإذا أراد الله بقوم شرّاً حبس عنهم المطر وأرسل عليهم كثرة الرياح .

﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى ﴾ لهم وأَشد إذلالاً وإهانه . ﴿ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ وأما وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب ، ﴿ ثَمُودُ ﴾ بالرفع والتنوين ، وكانا يجران ثموداً في القرآن كله إلاّ قوله : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة ﴾ [الإسراء : 59] ، فإنّهما كانا لا يجرانه هاهنا من أجل إنّه مكتوب في المصحف هاهنا بغير ألف ، وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ منصوباً غير منون ، وقرأ الباقون مرفوعاً غير منون .

(82/681)

﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ دعوناهم وبيّنا لهم . ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ فاختاروا الكفر على الإيمان . ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ ﴾ مهلكة . ﴿ العذاب الهون ﴾ أي الهوان ، ومجازه : ذي هون . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * وَيَوْمَ يُحْشَرُ ﴾ يبعث ويجمع ، وقرأ نافع ويعقوب ﴿ نَحْشُرُ ﴾ بنون مفتوحة وضم الشين . ﴿ أَعْدَآءُ الله ﴾ نصباً . ﴿ إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يساقون ويدفعون إلى النّار ، وقال

قتادة والسدي : يحبس أولهم على آخرهم . ﴿ حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم ﴾ أي بشراتهم . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وقال السدي وعبيد الله ابن أبي جعفر : أراد بالجلود الفروج.

وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جوين :

المرء يسعى للسلامة والسلامة حسبه . . . أوسالم من قد تثنى جلده وأبيض رأسه

وقال : جلده كناية عن فرجه .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني الكفّار الّذين يحشرون إلى النّار . ﴿ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ حدثنا عقيل بن محمّد : إنّ أبا الفرج البغدادي القاضي أخبرهم عن محمّد بن جرير ، حدثنا أحمد بن حازم الغفاري ، أخبرنا علي بن قادم الفزاري ، أخبرنا شريك ، عن عبيد المكيت ، عن الشعبي ، عن أنس ، قال : ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم حتّى بدت نواجذه ، ثمّ قال : " ألاّ تسألوني مِمَّ ضحكت " . قالوا : مم ضحكت يا رسول الله ؟

قال : " عجبت من مجادلة العبد ربّه يوم القيامة ، قال : يقول يا ربّ أليس وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال : فإنّ لك ذاك . قال : فإنّي لا أقبل عليّ شاهداً ، إلاّ من نفسي . قال : أوَ ليس كفى بيّ شهيداً ، وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال : فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل " .

قال : " فيقول لهنّ بُعداً لَكُنّ وسحقاً عنكنّ كنت أجادل " .

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ أي تستخفون في قول أكثر المفسرين ، وقال مجاهد : تتقون . قتادة : تظنون . ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

أخبرنا الحسين بن محمّد ابن فنجويه ، حدثنا هارون بن محمد بن هارون وعبد الله بن عبد الرّحمن الوراق ، قالا : حدثنا محمد بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن كثير وأبو حذيفة ، قالا : حدثنا سفيان عن الأعمش ، عن عمارة بن عمير ، عن وهب بن ربيعة ، عن ابن مسعود ، قال : إنّي لمستتر بأستارِ الكعبة ، إذ جاء ثلاثة نفر ، ثقفي وختناه قريشيان ، كثير شحم بطونهم ، قليل فقههم ، فحدّثوا الحديث بينهم ، فقال أحدهم : أترى يسمع ما قلنا ؟ فقال الآخر : إذا رفعنا يسمع ، وإذا خفضنا لم يسمع ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا رفعنا فإنّه يسمع إذا خفضنا . فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الخاسرين ﴾ والثقفي عبد ياليل وختناه القريشيان ربيعة

وصفوان بن أمية . ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أهلككم . ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ قال قتادة : الظنّ ها هنا بمعنى العلم ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يموتنّ أحدكم ، إلاّ وهو يحسن الظنّ بالله ، وإنّ قوماً أساءوا الظنّ بربّهم فأهلكهم " فذلك قوله : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم ﴾ . . . الآية .

(84/681)

أخبرنا الحسين بن محمّد بن فنجويه الدينوري ، حدثنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي ، حدثنا عبد الله بن العباس الطيالسي ، حدثنا أحمد بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة ، عن أبي الزياد عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى :

" أنا عند ظنّ عبدي بيّ ، وأنا معه حين يذكرني " .

وقال قتادة : من استطاع منكم أن يموت وهو حسن الظنّ بربّه فليفعل ، فإنّ الظنّ إثنان : ظنّ ينجي ، وظنّ يردي ، وقال محمّد بن حازم الباهلي :

الحسن الظنّ مستريح . . . يهتم من ظنّه قبيح

من روح الله عنه . . . هبّت من كلّ وجه ريح

لم يخب المرء عن منح . . . سخاء وإنّما يهلك الشحيح

﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ يسترضوا ويطلبوا العتبى . ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ المرضيين ، والمعتّب الّذي قَبل عتابة وأجيب إلى ما يسأل ، وقرأ عبيد بن عمير ﴿ وإن تُستعتبوا ﴾ على لفظ المجهول ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ بكسر التاء ، يعني إن سألوا أن يعملوا ما يرضون به ربّهم ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ أي ما هم بقادرين على إرضاء ربّهم لأنهم فارقوا دار العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 292.285 ﴾

(85/681)

وقال الزمخشرى :

سورة [فصلت ، وتسمى] السجدة

مكية ، وآياتها 54 وقيل 53 آية [نزلت بعد غافر] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة فصلت (41) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (2) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4)

إن جعلت حم اسما للسورة كانت في موضع المبتدأ . وتَنْزِيلٌ خبره . وإن جعلتها تعديد للحروف كان تَنْزِيلٌ خبرا لمبتدأ محذوف وكِتابٌ بدل من تنزيل . أو خبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف . وجوز الزجاج أن يكون تَنْزِيلٌ مبتدأ ، وكِتابٌ خبره .

ووجهه أن تنزيلا تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ فُصِّلَتْ آياتُهُ ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة : من أحكام وأمثال ومواعظ ، ووعد ووعيد ، وغير ذلك . وقرئ : فصلت ، أى : فرقت بين الحق والباطل . أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها ، من قولك : فصل من البلد قُرْآناً عَرَبِيًّا نصب على الاختصاص والمدح ، أى : أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كيت وكيت . وقيل : هو نصب على الحال ، أى : فصلت آياته في حال كونه قرآنا عربيا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين ، لا يلتبس عليهم شيء منه . فإن قلت : بم يتعلق قوله لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ؟

قلت : يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت ، أى : تنزيل من اللّه لأجلهم . أو فصلت آياته لهم . والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب ، لئلا يفرق بين الصلات والصفات . وقرئ : بشير ونذير ، صفة للكتاب . أو خبر مبتدأ محذوف فَهُمْ

لا يَسْمَعُونَ لا يقبلون ولا يطيعون ، من قولك . تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ، ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه ، فكأنه لم يسمعه .

(86/681)

[سورة فصلت (41) : آية 5]

وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5)

والأكنة : جمع كنان ، وهو الغطاء . والوقر - بالفتح - الثقل . وقرئ بالكسر . وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده ، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، كقوله تعالى وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ ومج أسماعهم له كأن بها صمما عنه ، ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه ، وبين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما هو عليه : حجابا ساترا وحاجزا منيعا من جبل أو نحوه ، فلا تلاقى ولا ترائى فَاعْمَلْ على دينك إِنَّنا عامِلُونَ على ديننا . أو فاعمل في إبطال أمرنا ، إننا عاملون في إبطال أمرك . وقرئ إنا عاملون . فإن قلت :

هل لزيادة مِنْ في قوله وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فائدة ؟ قلت : نعم ، لأنه لو قيل : وبيننا

وبينك حجاب : لكان المعنى : أن حجابا حاصل وسط الجهتين ، وأما بزيادة مِنْ فالمعنى : أن حجابا ابتدأ منا وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ «1»

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : ما فائدة مِنْ في قوله وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ وأجاب بأن فائدتها الدلالة على أن من جهتهم ابتدأ الحجاب ، ومن جهته أيضا ابتدأ حجاب ، فيلزم أن المسافة المتوسطة بينهما مملوءة بالحجاب لا فراغ فيها ، ولولا ذكر من فيها لكان المعنى : على أن في المسافة بينهما حجابا فقط» قال أحمد : ولا ينفك المعنى بدخول مِنْ عما كان عليه قبل ، ولو كان لأمر كما ذكر لكانت من مقدرة مع بين الثانية ، لأنه جعلها مفيدة للابتداء في الثانية كما هي مفيدة للابتداء في الأولى ، فيكون التقدير إذا : ومن بيننا وبينك حجاب ، وهذا يخل بمعنى «بين» إخلالا بينا ، فإنها تأبى تكرار العامل معها ، حتى لو قال القائل : جلست بين زيد ، وجلست بين عمرو : لم يكن مستقيما ، لأن تكرار العامل يصيرها داخلة على مفرد فقط ، ويقطعه عن قرينه المتقدم . ومن شأنها الدخول على متعدد ، لأن في ضمن معناها التوسط ، وزاد الزمخشري على هذا فجعل «بين» الثانية غير الأولى لأنه جعل الأولى بجهتهم والثانية بجهته ، وليس الأمر كما ظنه ، بل «بين» الأولى هي الثانية بعينها ، وهي عبارة عن الجهة المتوسطة بين المضافين ، وتكرارها إنما كان لأن المعطوف مضمر محفوظ ، فوجب تكرار حافظه وهو بين ، والدليل على هذا : أنه لا

تفاوت باتفاق بين أن تقول : جلست بين زيد وعمرو ، وبين أن تقول : جلست بين زيد وبين عمرو .

وإنما كان ذكرها مع الظاهر جوازا ومع المضمر وجوبا لما بيناه فإذا وضح ذلك فالظاهر – والله أعلم – أن موقع من ها هنا كموقعها في قوله تعالى وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا وذلك للاشعار بأن الجهة المتوسطة مثلا بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام مبدأ الحجاب لا غير ، ووجود من قريب من عدمها ، ألا ترى إلى آخر هذه الآية كيف لم يستعمل فيها من ، وهي قوله تعالى وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً . وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وكلام الزمخشري هذا إذا امتحنته بالتحقيق الذي ذكرناه : تبين ضعفه ، والله الموفق . وفي هذه الآية وأختها من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن ينتظم إلا في درر الكتاب العزيز ، فإنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية : كل واحد منها كاف في فنه ، فأولها الحجاب الحائل الخارج ، ويليه حجاب الصمم . وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله ، فلم تدع هذه الآية حجابا مرتخيا إلا أسبلته ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطمعا ولا صريخا الا استلبته ، فنسأل الله كفايته . [. . . . .]

(87/681)

فيها . فإن قلت : هلا قيل : على قلوبنا أكنة ، كما قيل : وفي آذاننا وقر ، ليكون الكلام على نمط واحد ؟ قلت : هو على نمط واحد ، لأنه لا فرق في المعنى بين قولك : قلوبنا في أكنة . وعلى قلوبنا أكنة . والدليل عليه قوله تعالى إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ولو قيل : إنا جعلنا قلوبهم في أكنة : لم يختلف المعنى ، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة «1» إلا في المعاني .

[سورة فصلت (41) : الآيات 6 إلى 7]

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (7)

فإن قلت : من أين كان قوله إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ جوابا لقولهم قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ «2» ؟ قلت : من حيث أنه قال لهم : إني لست بملك ، وإنما أنا بشر مثلكم ، وقد أوحى إليّ دونكم فصحت - بالوحي إليّ وأنا بشر - نبوّتي ، وإذا صحت نبوّتي : وجب عليكم اتباعي ، وفيما يوحى إليّ : أن إلهكم إله واحد فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يمينا ولا شمالا ، ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ، وتوبوا إليه مما سبق لكم من الشرك وَاسْتَغْفِرُوهُ . وقرئ : قال إنما أنا بشر .

فإن قلت : لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ؟ قلت : لأن أحب شيء إلى الإنسان ما له وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل اللّه فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته . ألا ترى إلى قوله عز وجل وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ أى : يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة «3» من الدنيا فقرّت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردّة بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة ، فنصبت لهم الحرب ،

---

(1) . قوله «و الملاحظة» لعله : والملاحة . (ع)

(2) . قال محمود : «فان قلت : كيف كان هذا جوابا لما تقدمه» قال أحمد : وأجاب بما نلخصه فنقول : لما أبوا القبول منه عليه الصلاة والسلام كل الاباء ، بدأهم باقامة الحجة على وجوب القبول منه ، فانه بشر مثلهم لا قدرة له على إظهار المعجزات التي ظهرت . وإنما القادر على إظهارها هو اللّه تعالى تصديقا له عليه الصلاة والسلام ، ثم بين لهم بعد قيام الحجة عليهم أهم ما بعث به وهو التوحيد ، واندرج تحت الاستقامة جميع تفاصيل الشرع وتمم ذلك بإنذارهم على ترك القبول بالويل الطويل .

(3) . قوله «إلا بلمظة من الدنيا» في الصحاح «لمظ» إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه اه فلمظة : بمعنى ملموظ كمضغة بمعنى ممضوغ . (ع)

وجوهدوا «1» . وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة . وقيل : كانت قريش يطعمون الحاج ، ويحرمون من آمن منهم برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وقيل : لا يفعلون ما يكونون به أزكياء ، وهو الإيمان .

[سورة فصلت (41) : آية 8]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

الممنون : المقطوع . وقيل : لا يمنّ عليهم لأنه إنما يمنّ التفضل . فأما الأجر فحق أداؤه . وقيل : نزلت في المرضى والزمنى والهرمى : إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر ، كأصح ما كانوا يعملون .

[سورة فصلت (41) : الآيات 9 إلى 12]

قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا

طائِعِينَ (11) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

أَإِنَّكُمْ بهمزتين «2» : الثانية بين بين . وءائنكم ، بألف بين همزتين ذلِكَ الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين . هو رَبُّ الْعالَمِينَ . . . . . رَواسِيَ جبالا ثوابت . فإن قلت : ما معنى قوله مِنْ فَوْقِها وهل اختصر على قوله وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ كقوله تعالى وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ ، وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ ، وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ ؟ قلت : لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقر عليها ، أو مركوزة فيها كالمسامير : لمنعت من الميدان أيضا ، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض ،

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : لم خص الزكاة وأجاب بأن أحب الأشياء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فبذله مصداق لاستقامته ونصوع طويته ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ، وأهل الردة ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدوا» قال أحمد : كلام حسن بعد تبديل قوله : وما خدع المؤلفة ، فان استعماله الخداع غير لائق ، لأنهم إنما تألفهم عليه الصلاة والسلام على الايمان من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة ومانحا هذا النحو .

(2) . قوله «أإنكم بهمزتين» لعله : قرئ بهمزتين . . . الخ . (ع)

لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبيها ، حاضرة محصليها ، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه ، وهو ممسكها عز وعلا بقدرته وَبارَكَ فِيها وأكثر خيرها وأنماه وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم . وفي قراءة ابن مسعود : وقسم فيها أقواتها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً فذلكة لمدة خلق اللّه الأرض وما فيها ، كأنه قال : كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان . قيل : خلق اللّه الأرض في يوم الأحد ويوم الاثنين ، وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء . وقال الزجاج . في أربعة أيام في تتمة أربعة أيام ، يريد بالتتمة اليومين . وقرئ : سواء ، بالحركات الثلاث : الجر على الوصف والنصب على : استوت سواء ، أى : استواء : والرفع على : هي سواء . فإن قلت : بم تعلق قوله لِلسَّائِلِينَ ؟ قلت : بمحذوف ، كأنه قيل : هذا الحصر لأجل من سأل : في كم خلقت الأرض وما فيها ؟ أو يقدر : أى : قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين .

وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج «1» . فإن قلت : هلا قيل في يومين ؟ وأى فائدة في هذه الفذلكة ؟ قلت : إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض

خلقت في يومين ، علم أن ما فيها خلق في يومين ، فبقيت المخايرة بين أن تقول في يومين وأن تقول في أربعة أيام سواء ، فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين ، وهي الدلالة على أنها كانت أياما كاملة بغير زيادة ولا نقصان . ولو قال : في يومين – وقد يطلق اليومان على أكثرهما – لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ من قولك :

---

(1) . قال محمود : «إن قوله فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ فذلكة بمدة خلق الله الأرض وما فيها ، كأنه قال : وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين ، فذلك أربعة أيام سواء . وقال : ومعنى سواء : كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان .

ونقل عن الزجاج أن معنى الآية في تتمة أربعة أيام ، يريد بالتتمة : اليومين ، ثم قال : فان قلت بم تعلق قوله لِلسَّائِلِينَ ؟ وأجاب بأنه متعلق بمحذوف ، كأنه قيل : هذا الحصر لأجل من سأل : في كم خلقت الأرض وما فيها ؟ أو يقدر ، أى : قدر فيها الأقوات لأجل السائلين المحتاجين إليها من المقتاتين ، ثم قال : وهذا الوجه الأخير . لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج» قال أحمد : لم يبين استناعه على التفسير الأول ونحن نبينه فنقول : مقتضى التفسير الأول أن قوله في أربعة أيام فذلكة ، ومن شأنها الوقوع في طرف الكلام بعد تمامه ، فلو جعل قوله لِلسَّائِلِينَ متعلقا بمقدر : لزم وقوع الفذلكة في حشو الكلام ، ولا كذلك على تفسير الزجاج ، فان الأربعة على قوله من تتمة الأول ، وهي متعلقة بمقدر على تأويل

حذف التتمة تعلق الظرف بالمظروف ، ليلائم ذلك إتمام الكلام ببيان المقصود من خلق الأقوات بعد بيان من خلقها . وتفسير الزجاج – والله أعلم – أرجح ، فإنه يشتمل على ذكر مدة خلق الأقوات بالتأويل القريب الذي قدره ، ومتضمن لما يقوم مقام الفذلكة ، إذ ذكر جملة العدد الذي هو ظرف لخلقها وخلق أقواتها ، وعلى تفسير الزمخشري تكون الفذلكة مذكورة من غير تقدم تصريح بجملة تفاصيلها ، فانه لم يذكر منها سوى يومين خاصة ، ومن شأن الفذلكة أن يتقدم النص على جميع أعدادها مفصلة ، ثم تأتى هي على الجملة كقوله فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ .

(90/681)

استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه توجها لا يلوى على شيء ، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج ، ونحوه قولهم : استقام إليه وامتد إليه . ومنه قوله تعالى فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ والمعنى : ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك . قيل : كان عرشه قبل خلق السماوات والأرض على الماء ، فأخرج من الماء دخانا ، فارتفع فوق الماء وعلا عليه ، فأيبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها أرضين ، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع . ومعنى أمر السماء والأرض

بالإتيان وامتثالهما : أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع ، «1» وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل . ويجوز أن يكون تخييلا ويبنى الأمر فيه على أن اللّه تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه ، فقالتا . أتينا على الطوع لا على الكره . والغرض تصوير «2» أثر قدرته في المقدورات لا غير ، من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب . ونحوه قول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقني ؟ قال الوتد : اسأل من يدقني ، فلم يتركني ، ورائي الحجر الذي ورائي «3» . فإن قلت ، لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها في الأمر بالإتيان ، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين ؟ قلت : قد خلق جرم الأرض أولا غير مدحوّة ، ثم دحاها بعد خلق السماء ، كما قال تعالى وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحاها فالمعنى . ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف : ائتي يا أرض مدحوّة قرارا ومهادا لأهلك ، وائتي يا سماء مقببة سقفا لهم . ومعنى الإتيان : الحصول والوقوع ، كما تقول :

أتى عمله مرضيا ، وجاء مقبولا . ويجوز أن يكون المعنى : لتأت كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير : من كون الأرض قرارا للسماء ، وكون السماء سقفا للأرض . وتنصره قراءة من قرأ : آتيا ، وآتينا : من المؤاتاة وهي الموافقة : أي : لتوات كل واحدة أختها ولتوافقها . قالتا ، وافقنا وساعدنا . ويحتمل وافقا أمرى

ومشيئتى ولا تمتنعا .

فإن قلت : ما معنى طوعا أو كرها ؟ قلت : هو مثل للزوم تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما

---

(1) . قوله «فعل الآمر المطاع» لعله : أمر الآمر . (ع)

(2) . قوله «تصوير أثر قدرته» لعله : تأثير . (ع)

(3) . قال محمود : «إما أن يكون هذا من مجاز التمثيل كأن عدم امتناعهما على قدرته امتثال المأمور المطيع إذا ورد عليه الأمر المطاع ، فهذا وجه . واما أن يكون تخييلا فيبنى الأمر فيه على أن اللّه تعالى كلم السماوات والأرض فأجابتاه ، والغرض منه تصوير أثر القدرة في المقدور من غير أن يحقق شيئا من الخطاب والجواب ، ومثله قول القائل : قال الحائط للوتد لم تشقني ؟ فقال الوتد : اسأل من يدفنى لم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي» قال أحمد :

قد تقدم إنكارى عليه إطلاق التخييل على كلام اللّه تعالى ، فان معنى هذا الإطلاق لو كان صحيحا والمراد منه التصوير لوجب اجتناب التعبير عنه بهذه العبارة ، لما فيها من إيهام وسوء أدب ، واللّه أعلم .

من تأثير قدرته محال ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، ولتفعلنه طوعا أو كرها . وانتصابهما على الحال ، بمعنى : طائعتين أو مكرهتين . فإن قلت : هلا قيل :

طائعتين على اللفظ ؟ أو طائعات على المعنى ؟ لأنها سماوات وأرضون . قلت : لما جعلن مخاطبات ومجيبات ، ووصفن بالطوع والكره قيل : طائعين ، في موضع : طائعات ، نحو قوله السَّاجِدِينَ «1» .

فَقَضاهُنَّ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال طائِعِينَ ونحوه أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ ويجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سماوات ، والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال ، والثاني على التمييز ، قيل خلق اللّه السماوات وما فيها في يومين : في يوم الخميس والجمعة ، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة . وفي هذا دليل على ما ذكرت ، من أنه لو قيل : في يومين في موضع أربعة أيام سواء ، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان «2» . فإن قلت : فلو قيل : خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أقواتها

---

(1) . قال محمود : فان قلت لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها في الأمر بالإتيان معها

والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين ؟ وأجاب بأنه قد خلق جرم الأرض أولا غير مدحوة ، ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاها فالمعنى : ائتيا على ما ينبغي من الشكل : ائتي يا أرض مدحوة وفرارا ومهادا ، واثنى يا سماء سقفا مقبية . ثم قال : فان قلت ما معنى طوعا أو كرها ، وأجاب بأنه تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : افعل هذا شئت أو أبيت . ثم قال : فان قلت : هلا قيل طائعتين ، على اللفظ . وطائعات ، على المعنى ، لأنها سماوات وأرضون . وأجاب بأنه لما جعلن مخاطبات ومجيبات وموصوفات بالطوع والكره . قيل : طائعين في موضع طائعات ، نحو قوله ساجدين» قال أحمد : لم يحقق الجواب عن السؤال الآخر ، وذلك أن في ضمن الآية سؤالين : أحدهما لم ذكرها وهي مؤنثة ، وهذا هو السؤال الذي أورده . الثاني أنى بها على جمع العقلاء وهي لا تعقل ، وهذا لم يذكره ، فالجواب الذي ذكره مختص بالسؤال الذي لم يذكره ، ولهذا نظره بقوله السَّاجِدِينَ فان تلك الآية ليس فيها سوى السؤال عن كونها جمعت جمع العقلاء ، فأما السؤال الآخر فلا ، لأن الكلام راجع إلى الكواكب وهي مذكرة ، والشمس وإن كانت مؤنثة إلا أنه غلب في الكلام المذكر على المؤنث على المنهاج المعروف ، فأما هذه الآية فتزيد على تلك بهذا السؤال الآخر : وهو أن جميع ما تقدم ذكره من السماوات والأرض مؤنثة ، فيقال أولا :

لم ذكرها ، وثانيا : لم أتى جمعها المذكر على جمع نعت جمع العقلاء ، ليتحقق نسبة السؤال

والجواب ، والطوع اللاتي تختص بالعقلاء لا بها ، ولم يوجد في جمع المؤنث عدول إلى جمع المذكر لوجود الصيغة المرشدة إلى العقل فيه ، فتمت الفائدة بذلك على تأويل السماوات والأرض بالأفلاك مثلا وما في معناه من المذكر ، ثم يغلب المذكر على المؤنث ولا يعدم مثل هذا التأويل في الأرضين أيضا .

(2) . قال محمود : «قيل : إن اللّه تعالى خلق السماوات وما فيها في يوم الخميس ويوم الجمعة ، وفرغ آخر ساعة من يوم الجمعة ، وخلق آدم في تتمة اليوم ، وفيه تقوم القيامة ثم استدل بذلك على ما ذكره من أنه لو قال : في يومين ، في موضع أربعة أيام سواء ، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان» قال أحمد : كأنه يستدل بإهمال اليومين عن التأكيد ، حيث لم يكن خلق السماوات بما فيها في جملة اليومين ، على أنه إنما فذلك أيام خلق الأرض بما فيها : لأنه لو فصلها لم يكن فيها دليل على استيعاب الخلق لكل يومين منها ، بل كان يجوز أن يكون الخلق في أحد اليومين وبعض الآخر ، كما كان في هذه الآية على النقل الذي ذكر ، وهذا لا يتم له منه غرض ، فان للقائل أن يقول : إنما كان خلق السماوات بما فيها في يومين كاملين ، لأن آدم لم يكن في السماوات حينئذ ويخلقه كمل اليومان على مقتضى ما نقله ، فتأمله .

(92/681)

في يومين كاملين . أو قيل بعد ذكر اليومين : تلك أربعة سواء ؟ قلت : الذي أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقا لما عليه التنزيل من مغاصاة القرائح ومصاك المركب ، «1» ليتميز الفاضل من الناقص ، والمتقدم من الناكص ، وترتفع الدرجات ، ويتضاعف الثواب أَمْرَها ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك . أو شأنها وما يصلحها وَحِفْظاً وحفظناها حفظا ، يعنى من المسترقة بالثواقب . ويجوز أن يكون مفعولا له على المعنى ، كأنه قال : وخلقنا المصابيح زينة وحفظا .

[سورة فصلت (41) : الآيات 13 إلى 14]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14)

فَإِنْ أَعْرَضُوا بعد ما تتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته ، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة : أى عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة . وقرئ : صعقة مِثْلَ صعقة عاد وثمود :

وهي المرة من الصعق أو الصعق . يقال : صعقته الصاعقة صعقا فصعق صعقا ، وهو من باب :

فعلته ففعل مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا

فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى اللّه تعالى عن الشيطان لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة ، وتقول : استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لي فيه حيلة . وعن الحسن أنذروهم من وقائع اللّه فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ، لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما حرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم . وقيل : معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم . فإن قلت : الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاءوهم ، وكيف يخاطبونهم بقولهم فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ ؟ قلت : قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم ، أى من قبلهم وممن يجيء من خلفهم ، أى من بعدهم ، فكان الرسل جميعا قد جاءوهم . وقولهم فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم . أن في أَلَّا تَعْبُدُوا بمعنى أى ، أو مخففة من الثقيلة ، أصله : بأنه لا تعبدوا ، أى : بأنّ الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا ، ومفعول شاء محذوف أى لَوْ شاءَ رَبُّنا

---

(1) . قوله «من مغاصاة القرائح ومصاك الركب» أى أمكنة الغوص على اللؤلؤ ، وأمكنة اصطكاك الركب . (ع)

إرسال الرسل لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ معناه : فإذ أنتم بشر ولستم بملائكة ، فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به ، وقولهم أُرْسِلْتُمْ بِهِ ليس بإقرار بالإرسال ، وإنما هو على كلام الرسل ، وفيه تهكم ، كما قال فرعون إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . روى أنّ أبا جهل قال في ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره « 1 » ، فقال عتبة بن ربيعة : واللّه لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى عليّ ، فأتاه فقال : أنت يا محمد خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد اللّه ؟ فبم تشتم آلهتنا وتضللنا ، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تك بك الباءة زوّجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ساكت ، فلما فرغ قال : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم . . . إلى قوله . . .

صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه

وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابنى بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود : أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .

[سورة فصلت (41) : الآيات 15 إلى 16]

فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (16)

فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ أى تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم وهو القوّة وعظم الأجرام . أو استعلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم ، وبلغ من قوّتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة

---

(1) . أخرجه ابن إسحاق في السيرة : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا نحوه مرسلا ، ووصله ابن أبى شيبة . وعنه أبو يعلى وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل ، كلهم من رواية الأجلح الكندي عن الزبال ابن حرملة عن جابر مطولا .

من الجبل فيقتلعها بيده . فإن قلت : القوّة هي الشدّة والصلابة في البنية ، وهي نقيضة الضعف .

وأما القدرة فما لأجله يصح الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية «1» وهي نقيضة العجز والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوّة إلا على معنى القدرة ، فكيف صحّ قوله هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وإنما يصح إذا أريد بالقوّة في الموضعين شيء واحد ؟ قلت : القدرة في الإنسان هي صحة البنية والاعتدال والقوّة والشدّة والصلابة في البنية ، وحقيقتها : زيادة القدرة «2» ، فكما صحّ أن يقال : الله أقدر منهم ، جاز أن يقال : أقوى منهم ، على معنى : أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم يَجْحَدُونَ كانوا يعرفون أنها حق ، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة ، وهو معطوف «3» على فاستكبروا ، أى كانوا كفرة فسقة . الصرصر : العاصفة التي تصرصر ، أى : تصوّت في هبوبها . وقيل : الباردة التي تحرق بشدّة بردها ، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصر أى يجمع ويقبض نَحِساتٍ قرئ بكسر الحاء وسكونها . ونحس نحسا :

نقيض سعد سعدا ، وهو نحس . وأما نحس ، فإمّا مخفف نحس ، أو صفة على فعل ،

كالضخم وشبهه . أو وصف بمصدر . وقرئ : لنذيقهم ، على أنّ الإذاقة للريح أو للأيام النحسات .

وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب ، كأنه قال : عذاب خزى ، كما تقول : فعل السوء ، تريد : الفعل السيئ ، والدليل عليه قوله تعالى وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وهو من الإسناد المجازى ، ووصف العذاب بالخزي : أبلغ من وصفهم به .

---

(1) . قوله «من تمييز بذات أو لصحة بنية» هذا كقوله الآتي : إنه يقدر لذاته ، تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة على أنه تعالى قادر بذاته ، لكن مذهب أهل السنة أنه تعالى قادر بقدرة قائمة بذاته ، وكذا بقية الصفات كما في التوحيد . (ع) [. . . . .]

(2) . قال محمود : «القوة : الشدة في البنية ونقيضها الضعف ، والقدرة ما لأجله يصح الفعل من الفاعل ، وهي نقيضة العجز ، فان وصف اللّه تعالى بالقوة فذاك بمعنى القدرة وليست القوة على حقيقتها ، فكيف صح قوله هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ولا بد أن يراد بالقوة في الموضعين شيء واحد ، وأجاب عنه بأن القدرة في الإنسان صحة البنية والاعتدال والشدة ، والقوة زيادة في القدرة ، فكما صح أن يقال : أقدر منهم ، صح أن يقال : أقوى منهم ، على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرتهم» قال أحمد ، فسر القدرة على خلاف ما هي في اعتقاد المتكلمين ، فان سلم له من حيث اللغة فقد

نكص عنه إلى حمل القدرة في الآية على مقتضاها في فن الكلام ، وجعل التفضيل من حيث أن اللّه تعالى قادر لذاته . أى : بلا قدرة ، والمخلوق قادر بقدرة على القاعدة الفاسدة للقدرية ، ونظير هذا التفسير في الفساد تفسير قول القائل : زيد أعلم من عمرو ، بإثبات صفة العلم للمفضول ، وسلبها بالكلية عن الأفضل ، وهل هذا إلا عنه وعمى في اتباع الهوى وعمه ؟ فالحق أن التفضيل إنما جاء من جهة أن القدرة الثابتة للعبد قدرة مقارنة لفعله ، معلومة قبله وبعده ، مفقودة غير مؤثرة في العقل الراجح في محلها » فضلا عن تجاوزها إلى غيره ، وقدرة اللّه جلت قدرته مؤثرة في المقدورات ، موجودة أزلا وأبدا ، عامة التعلق بجميع الكائنات من الممكنات ، فهذا هو النور الذي لا يلوح إلا من إثبات عقائد السنة لمن سبقت له من اللّه المنة .

(3) . قوله «و هو معطوف على فاستكبروا» أى : قوله تعالى وَكانُوا . . . الخ (ع)

(95/681)

ألا ترى إلى البون بين قوليك : هو شاعر ، وله شعر شاعر .

[سورة فصلت (41) : الآيات 17 إلى 18]

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا

يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18)

وقرئ: ثمود، بالرفع والنصب منونا وغير منون، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء.

وقرئ بضم الثاء فَهَدَيْناهُمْ فدللناهم على طريقى الضلالة والرشد، كقوله تعالى وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ. فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد.

فإن قلت: أليس معنى هديته: حصلت فيه الهدى، والدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، بمعنى: تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: ردعته فارتدع، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجرّدة؟ قلت: للدلالة على أنه مكنهم وأزاح عللهم ولم يبق له عذرا ولا علة، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها صاعِقَةُ الْعَذابِ داهية العذاب وقارعة العذاب.

والْهُونِ الهوان، وصف به العذاب مبالغة. أو أبدله منه، ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة «1» بشهادة نبيها صلى اللّه عليه وسلم - وكفى به شاهدا - إلا هذه الآية، لكفى بها حجة «2».

---

(1). قوله «حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة» يريد أهل السنة، سماهم المعتزلة بذلك لقولهم: جميع الحوادث - خيرا كانت أو شرا من أفعال العباد الاختيارية أو

غيرها – فهي بقضاء اللّه تعالى وقدره ، خلافا للمعتزلة :

حيث ذهبوا إلى أن جميع الأفعال الاختيارية ليست بقضائه تعالى وقدره ، ولا تأثير له فيها أصلا . وهذا أحق بالتنقيص الذي يفيده الحديث . وفسروا الإضلال والهدى في قوله تعالى يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ بخلق الضلال وخلق الاهتداء ، خلافا للمعتزلة : حيث فسروا الإضلال بالخذلان وترك العبد وشأنه ، والهدى بالبيان ونقل النسفي عن أبى منصور الماتريدى : أن الهدى المضاف للخالق يكون تارة بمعنى البيان كما في هذه الآية وتارة بمعنى خلق الاهتداء كما في قوله تعالى يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ والمضاف للمخلوق بمعنى البيان فقط ، ويحتمل أن يكون هدى ثمود بمعنى خلق الاهتداء فيهم . وأنهم آمنوا قبل عقر الناقة ، ثم كفروا وعقروها اه (ع)

(2) . قال محمود : «فدللناهم على طريقى الضلالة والرشد ، ثم قال : فان قلت أليس معنى هديته حصلت له الهدى والدليل عليه قولك : هديته فاهتدى ، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة ؟ وأجاب بأنه مكنهم وأزاح عللهم ، ولم يبق لهم عذرا ولا علة ، فكأنه حصل البغية فيهم بحصول موجبها ، ثم قال : ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبينا عليه الصلاة والسلام – وكفى به شهيدا – إلا هذه الآية ، لكفى بها حجة» قال أحمد : قد أنطقه اللّه الذي أنطق كل شيء ، فان القدرية مجوس هذه الأمة بشهادة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقد شهد صحبه الأكرمون أن

الطائفة الذين قفا الزمخشري أثرهم القدرية المتمجسة ، الذين أديانهم بأدناس الفساد متنجسة فهم أول منخرط في هذا السلك ، ومنهبط في مهواة هذا الهلك ، ولترجع إلى أصل الكلام فنقول : الهدى من اللّه تعالى عند أهل السنة حقيقة : هو خلق الهدى في قلوب المؤمنين ، والإضلال : خلق الضلال في قلوب الكافرين ، ثم ورد الهدى على غير ذلك من الوجوه مجازا واتساعا ، نحو هذه الآية ، فان المراد فيها بالهدى الدلالة على طريقه كما فسره الزمخشري . وقد اتفق الفريقان : أهل السنة وأهل البدعة على أن استعمال الهدى هاهنا مجاز ، ثم إن أهل السنة يحملونه على المجاز في جميع مواردة في الشرع ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، وأى دليل في هذه الآية على أهل السنة لأهل البدعة ، حتى يرميهم بما ينعكس إلى نحره ، ويذيقه وبال أمره .

(96/681)

[سورة فصلت (41) : الآيات 19 إلى 21]

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21)

قرئ يحشر على البناء للمفعول . ونحشر بالنون وضم الشين وكسرها ، ويحشر : على البناء للفاعل ، أى : يحشر اللّه عز وجل أَعْداءُ اللَّهِ الكفار من الأوّلين والآخرين يُوزَعُونَ أى يحبس أوّلهم على آخرهم ، أى : يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم ، وهي عبارة عن كثرة أهل النار ، نسأل اللّه أن يجيرنا منها بسعة رحمته : فإن قلت : ما في قوله حَتَّى إِذا ما جاؤُها ما هي ؟ قلت : مزيدة للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها : أنّ وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ، ولا وجه لأن يخلو منها . ومثله قوله تعالى أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ أى لا بدّ لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام ، وما أشبه ذلك مما يفضى إليها من المحرّمات . فإن قلت : كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق ؟ قلت :

اللّه عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة «1» بأن يخلق فيها كلاما . وقيل ، المراد بالجلود : الجوارح .

وقيل : هي كناية عن الفروج ، أراد بكل شيء : كل شيء من الحيوان ، كما أراد به في قوله تعالى وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كل شيء من المقدورات ، والمعنى : أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة اللّه الذي قدر على إنطاق كل حيوان ، وعلى خلقكم وإنشائكم أوّل مرّة ، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه – وإنما قالوا لهم : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا لما تعاظمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم .

[سورة فصلت (41) : الآيات 22 إلى 23]

وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

---

(1) . قوله «كما أنطق الشجرة» على زعم المعتزلة أن تكليمه مع موسى عليه السلام هو خلقه الكلام في الشجرة التي كانت عند الطور . وعند أهل السنة : هو بأن كشف له عن كلامه القديم وأسمعه إياه كما بين في محله . (ع)

(97/681)

والمعنى : أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش ، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم ، لأنكم كنتم غير عاملين بشهادتها عليكم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلا ، ولكنكم إنما استترتم لظنكم أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا كنتم تَعْمَلُونَ وهو الخفيات من أعمالكم ، وذلك «1» الظنّ هو الذي أهلككم . وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه ، ولا يزل عن ذهنه أن عليه من اللّه علينا كالئة ورقيبا مهيمنا ، حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب

وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وتصونا منه مع الملأ ، ولا يتبسط في سره مراقبة «2» من التشبه بهؤلاء الظانين . وقرئ : ولكن زعمتم وَذِلكُمْ رفع بالابتداء ، وظَنُّكُمُ وأَرْداكُمْ خبران ، ويجوز أن يكون ظَنُّكُمُ بدلا من ذِلكُمْ وأَرْداكُمْ الخبر .

[سورة فصلت (41) : الآيات 24 إلى 25]

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24)

فَإِنْ يَصْبِرُوا لم ينفعهم الصبر ولم ينفكوا به من الثواء في النار ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا وإن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعا مما هم فيه : لم يعتبوا : لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها ، ونحوه قوله عز وعلا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ وقرئ : وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ، أى : إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون ، أى : لا سبيل لهم إلى ذلك وَقَيَّضْنا لَهُمْ وقدّرنا لهم ، يعنى لمشركي مكة : يقال : هذان ثوبان قيضان : إذا كانا متكافئين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 184. 196﴾

---

(1) . قوله «و ذلك الظن هو الذي أهلككم» لعله . وذلكم . (ع)

(2) . قوله «في سره مراقبة من التشبه» أى مخافة ، كما أفاده الصحاح . (ع)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ تنزيلٌ ﴾

قال الفراء : يجوز أن يرتفع " تنزيلٌ " ب ﴿ حم ﴾ ، ويجوز أن يرتفع بإضمار " هذا " .

وقال الزجاج : " تنزيلٌ " مبتدأ ، وخبره ﴿ كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه ﴾ ، هذا مذهب البصريّين

و ﴿ قرآناً ﴾ منصوب على الحال ، المعنى : بُيِّنَتْ آياتُه في حال جَمْعِه ، ﴿ لقومٍ يَعْلَمونَ

﴾ أي : لِمَن يَعلم .

قوله تعالى : ﴿ فأعْرَضَ أكثرُهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ فهم لا يَسمعونَ ﴾ تكبُّراً عنه ، ﴿

وقالوا قلوبُنا في أكِنَّة ﴾ أي : في أغطية فلا نفقه قولك .

وقد سبق بيان " الأكِنَّة " و " الوَقْر " في [الأنعام : 25] .

ومعنى الكلام : إنّا في تَرْكِ القبول منكَ بمنزلة من لا يَسمع ولا يَفهم ، ﴿ ومِن بيننا وبينِكَ

حِجابٌ ﴾ أي : حاجزٌ في النِّحلة والدِّين .

قال الأخفش : و " من " ها هنا للتوكيد .

قوله تعالى : ﴿ فاعْمَلْ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : اعمل في إبطال أمرنا إنا عاملون على إبطال أمرك .

والثاني : اعْمَلْ على دِينكَ إنا عاملون على ديننا .

﴿ قُلْ إنما أنا بَشَرٌ مثلُكم ﴾ أي : لولا الوحي لَمَا دعوتُكم .

﴿ فاستقيموا إليه ﴾ أي : توجَّهوا إليه بالطاعة ، واستغفِروه من الشرك .

قوله تعالى : ﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : لا يشهدون أن " لا إله إلا الله " رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والمعنى : لا يطهِّرون أنفُسَهم من الشرك بالتوحيد .

والثاني : لا يؤمِنون بالزكاة ولا يُقِرُّون بها ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثالث : لا يزكُّون أعمالهم ، قاله مجاهد ، والربيع .

والرابع : لا يتصدَّقون ، ولا يُنفِقون في الطاعات ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

والخامس : لا يُعطُون زكاة أموالهم ، قال ابن السائب : كانوا يحُجُّون ويعتمرون ولا يزكُّون .

قوله تعالى : ﴿ غيرُ ممنون ﴾ أي : غير مقطوع ولا منقوص .

(99/681)

قوله تعالى : ﴿ خَلَق الأرضَ في يومين ﴾ قال ابن عباس : في يوم الأحد والاثنين ، وبه قال عبد الله بن سلام ، والسدي ، والأكثرون .

وقال مقاتل : في يوم الثلاثاء والأربعاء .

وقد أخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، فقال : " خَلَقَ اللهُ عز وجل التربة يومَ السبت ، وخلق الجبال فيها يومَ الأحد ، وخلق الشجر فيها يومَ الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النُّور يوم الأربعاء ، وبثَّ فيها الدواب يومَ الخميس " ، وهذا الحديث يخالِف ما تقدَّم ، وهو أصح .

قوله تعالى : ﴿ وتَجعلونَ له أنداداً ﴾ قد شرحناه في [البقرة : 22] و (ذلك) الذي فعل ما ذُكر (ربُّ العالَمين) .

﴿ وجعل فيها رواسيَ ﴾ أي : جبالاً ثوابت من فوق الأرض ، ﴿ وبارك فيها ﴾ بالأشجار والثمار والحبوب والأنهار ، وقيل : البَركة فيها : أن ينميَ فيها الزرع ، فتخرج الحبّة حبّات ، والنواة نخلةً ﴿ وقدَّر فيها أقواتَها ﴾ قال أبو عبيدة : هي جمعُ قوت ، وهي الأرزاق وما يُحتاج إليه .

وللمفسرين في هذا التقدير خمسة أقوال :

أحدها : أنه شقَّق الأنهار وغرس الأشجار ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه قسم أرزاق العباد والبهائم ، قاله الحسن .

والثالث : أقواتها من المطر ، قاله مجاهد .

والرابع : قدَّر لكل بلدة ما لم يجعله في الأخرى كما أنَّ ثياب اليمن لا تصلح إلا ب " اليمن " والهرويَّة ب " هراة " ، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة ، قاله عكرمة ، والضحاك .

والخامس : قدَّر البُرَّ لأهل قُطْرٍ ، والتَّمْر لأهل قُطْرٍ ، والذُّرَة لأهل قُطْرٍ ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ في أربعة أيّام ﴾ أي : في تتمة أربعة أيّام .

قال الأخفش : ومثله [أن] تقول : تزوجت أمس امرأة ، واليومَ ثنتين ، وإحداهما التي تزوجتها أمس .

قال المفسرون : يعني : الثلاثاء والأربعاء ، وهما مع الأحد والإثنين أربعة أيام .

(100/681)

قوله تعالى : ﴿ سواءً ﴾ قرأ أبو جعفر : ﴿ سواءٌ ﴾ بالرفع .

وقرأ يعقوب ، وعبد الوارث : " سواءٍ " بالجر .

وقرأ الباقون من العشرة : بالنصب قال الزجاج : من قرأ بالخفض ، جعل " سواءٍ " من صفة الأيام فالمعنى : في أربعة أيّامٍ مستوِياتٍ تامَّاتٍ ؛ ومن نصب ، فعلى المصدر ؛ فالمعنى : استوت سواءً واستواءً ؛ ومن رفع ، فعلى معنى : هي سواءٌ .

وفي قوله : ﴿ للسّائِلينَ ﴾ وجهان .

أحدهما : للسائلين القوت ، لأن كلاًّ يطلُب القوت ويسأُله .

والثاني : لمن يسأل : في كم خُلقت الأرضُ ؟ فيقال : خُلقتْ في أربعة أيّام سواء ، لا زيادة

ولا نقصان .

قوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ قد شرحناه في [البقرة : 29] ﴿ وهي دخان ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنه لمّا خلق [الماء] أرسل عليه الريح فثار منه دخان فارتفع وسما ، فسمّاه سماءً .

والثاني : أنه لمّا خلق الأرض أرسل عليها ناراً ، فارتفع منها دخان فسما .

قوله تعالى : ﴿ فقال لها وللأرض ﴾ قال ابن عباس : قال للسماء : أظْهِري شمسكِ وقمرك ونجومك ، وقال للأرض : شقِّقي أنهاركِ ، وأخْرِجي ثمارك ، ﴿ طوعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائِعِين ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على الحال ، وإنما لم يقل : طائعات ، لأنهنَّ جَرَيْنَ مجرى ما يَعْقِل ويميِّز كما قال في النجوم :

﴿ وكُلٌّ في فلك يسبحون ﴾ [يس : 40] ، قال : وقد قيل : أتينا نحن ومَنْ فينا طائعين .

﴿ فقضاهنّ ﴾ أي : خلقهنّ وصنعهنّ ، قال أبو ذئيب الهذلي :

وعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا . . .

دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

معناه : عَمِلَهما وصَنَعهما .

قوله تعالى : ﴿ في يومين ﴾ قال ابن عباس وعبد الله بن سلام : وهما يوم الخميس ويوم

الجمعة.

وقال مقاتل: الأحد والإثنين، لأن مذهبه أنها خُلقتْ قبل الأرض.

وقد بيَّنّا مقدار هذه الأيام في [الأعراف: 54].

﴿ وأوحى في كل سماءٍ أمرها ﴾ فيه قولان.

(101/681)

أحدهما: أوحى ما أراد، وأمر بما شاء، قاله مجاهد، ومقاتل.

والثاني: خَلَقَ في كل سماءٍ خَلْقَها، قاله السدي.

قوله تعالى: ﴿ وزيَّنّا السماءَ الدنيا ﴾ أي: القُرْبى إلى الأرض ﴿ بمصابيحَ ﴾ وهي النّجوم، والمصابيح: السُّرُج فسمِّي الكوكب مصباحاً لإضاءته ﴿ وحِفْظاً ﴾ قال الزجاج: معناه: وحفظناها من استماع الشياطين بالكواكب حِفْظاً.

قوله تعالى: ﴿ فإن أعرضوا ﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فقُل أنذرتُكم صاعقةً ﴾ الصاعقة: المُهلِكُ من كل شيء؛ والمعنى: أنذرتُكم عذاباً مثلَ عذابهم.

وإنما خَصَّ القبيلتين، لأن قريشاً يُمرُّون على قرى القوم في أسفارهم.

﴿ إذ جاءتهم الرُّسُل من بين أيديهم ﴾ أي: أتت آباءهم ومَنْ كان قبلهم ﴿ ومِنْ خَلْفهم

﴿ أي : من خلف الآباء ، وهم الذين أُرسلوا إلى هؤلاء المُهلَكين ﴿ ألاّ تعبُدوا ﴾ أي : بأن لا تعبُدوا ﴿ إلا اللهَ قالوا لو شاءَ ربُّنا ﴾ أي : لو أراد دعوة الخَلْق ﴿ لأنزل ملائكةً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فاستكبَروا ﴾ أي : تكبَّروا عن الإِيمان وعَمِلوا بغير الحقِّ .

وكان هود قد تهدَّدهم بالعذاب فقالوا : نحن نقدر على دفعه بفضل قوَّتنا .

والآيات هاهنا : الحُجج .

وفي الرِّيح الصَّرصر أربعة أقوال :

أحدها : أنها الباردة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك .

وقال الفراء : هي الرِّيح الباردة تحرق كالنار ، وكذلك قال الزجاج : هي الشديدة البرد جداً ؛ فالصَّرصر متكرِّر فيها البرد ، كما تقول : أقللتُ الشيء وقلقلتُه ، فأقللتُه بمعنى رفعتُه ، وقلقلتُه : كرَّرتُ رفعه .

والثاني : أنها الشديدةُ السَّموم ، قاله مجاهد .

والثالث : الشديدة الصَّوت ، قاله السدي ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والرابع : الباردة الشديدة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ في أيامٍ نَحِساتٍ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿ نَحْساتٍ ﴾ بإسكان الحاء ؛ وقرأ الباقون : بكسرها .

قال الزجاج : من كسر الحاء ، فواحدُهن " نَحِس " .

ومن أسكنها فواحدُهن " نَحْس " ؛ والمعنى : مشؤومات .

وفي أوّل هذه الأيام ثلاثة أقوال :

أحدها : غداة يوم الأحد ، قاله السدي .

والثاني : يوم الجمعة ، قاله الربيع بن أنس .

والثالث : يوم الأربعاء ، قاله يحيى بن سلام .

والخِزْي : الهوان .

قوله تعالى : ﴿ وأمّا ثمودُ فهدَيناهم ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : بيّنّا لهم ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

وقال قتادة : بَيّنّا لهم سبيل الخير والشر .

والثاني : دَعَوْناهم ، قاله مجاهد .

والثالث : دَلَلْناهم على مذهب الخير ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ فاستَحبُّوا العمى ﴾ أي : اختاروا الكفر على الإِيمان ، ﴿ فأخذتهم

صاعقةُ العذاب الهُون ﴾ أي : ذي الهوان ، وهو الذي يُهينهم .

قوله تعالى : ﴿ ويومَ يُحْشَرُ أعداء الله ﴾ وقرأ نافع : " نَحْشُرُ " بالنون " أعداءً " بالنصب .

قوله تعالى : ﴿ فهم يُوزَعونَ ﴾ أي : يُحْبَس أوَّلهم على آخرِهم ليتلاحقوا .

﴿ حتَّى إذا ما جاؤوها ﴾ يعني النار التي حُشروا إليها ﴿ شَهِدَ عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم ﴾ ، وفي المراد بالجلود ثلاثة أقوال :

أحدها : الأيدي والأرجل .

والثاني : الفروج ، رويا عن ابن عباس .

والثالث : أنه الجلود نفسها ، حكاه الماوردي .

وقد أخرج مسلم في أفراده من حديث أنس بن مالك قال : " كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : " هل تدرون مِمَّ أضحك ؟ " قال : قلنا : اللهُ ورسولهُ أعلم .

(103/681)

قال : " من مخاطبة العبد ربَّه ، يقول : يارب ألم تُجِرْني من الظُّلْم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : لا أُجيزُ عليَّ إلا شاهداً منِّي ، قال : فيقول : كفى بنفْسك اليومَ عليكَ شهيداً ،

وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيُخْتَمُ على فِيه ، فيقال لأركانه : انْطِقي ، قال : فتَنْطقُ بأعماله ، قال : ثُمَّ يُخَلَّى بينَه وبينَ الكلام ، فيقول : بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً ، فعنكُنَّ كنتُ أُناضِل "

قوله تعالى : ﴿ قالوا أنطَقَنا اللهُ الذي أنطَقَ كُلَّ شيءٍ ﴾ أي : ممّا نطق .

وها هنا تم الكلام .

وما بعده ليس من جواب الجلود .

قوله تعالى : ﴿ وما كنتم تَستترون أن يَشهد عليكم سمْعُكم ولا أبصارُكم ﴾ روى البخاري ومسلم في " الصحيحين " من حديث ابن مسعود قال : كنتُ مستتراً بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفرٍ ، قرشيٌّ وخَتْناه ثقفيَّان ، أو ثقفيٌّ وخَتَنْاه قرشيّان ، كثيرٌ شَحْمُ بُطونهم ، قليلٌ فِقْهُ قُلوبهم ، فتكلَّموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أتُرَوْنَ اللهَ يَسْمَعُ كلامَنا هذا ؟ فقال الآخران : إنّا إذا رفعنا أصواتنا سَمِعَه ، وإن لم نَرفع لم يَسمع ، وقال الآخر : إن سمع منه شيئاً سمعه كُلَّه ، فذكرتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كنتم تَستترون أن يشهد عليكم سمعكم . . .

﴾ إلى قوله : ﴿ من الخاسرين ﴾ ومعنى " تستترون " : تَسْتَخْفون " أن يَشهد " أي : من أن يشهد " عليكم سَمْعُكم " لأنكم لا تَقدرون على الاستخفاء من جوارحكم ، ولا تظُنُّون أنها تَشهد ﴿ ولكن ظَنَنْتم أنَّ اللهَ لا يَعلم كثيراً مما تَعملون ﴾ قال ابن عباس : كان

الكفار يقولون : إن الله لا يَعلم ما في أنفُسنا ، ولكنه يعلم ما يَظهر ، ﴿ وذلكم ظنُّكم ﴾ أي : أن الله لا يَعلم ما تعملون ، ﴿ أرداكم ﴾ أهلككم .

(104/681)

﴿ فإن يَصْبِروا ﴾ أي : على النّار ، فهي مسكنهم ، ﴿ وإن يَسْتَعْتِبوا ﴾ أي : يَسألوا أن يُرجَع لهم إلى ما يحبُّون ، لم يُرْجَع لهم ، لأنهم لا يستحقُّون ذلك .

يقال : أعتبني فلان ، أي : أرضاني بعد إسخاطه إيّاي .

واستعتبتُه ، أي : طلبتُ منه أن يُعْتِب ، أي : يَرضى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 240.252 ﴾

(105/681)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته ﴾

أي بينت وميزت وجعلت معاني مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد ﴿

قرآناً عربياً ﴾ أي باللسان العربي ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي إنما أنزلناه على العرب بلغتهم ليفهموا منه والمراد ولو كان بغير لسانهم ما فهموه ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ نعتان للقرآن أي بشيراً لأولياء الله بالثواب ونذيراً لأعدائه بالعقاب ﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ أي عنه ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أي لا يصغون إليه تكبراً ﴿ وقالوا ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ أي أغطية ﴿ مما تدعونا إليه ﴾ أي فلا نفقه ما تقول ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم فلا نسمع ما تقول والمعنى أنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ أي خلاف في الدين وحاجز في الملة فلا نوافقك على ما تقول ﴿ فاعمل ﴾ أي أنت على دينك ﴿ إننا عاملون ﴾ أي على ديننا ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ أي كواحد منكم ﴿ يوحى إليّ ﴾ أي لولا الوحي ما دعوتكم ، قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع ﴿ إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه ﴾ أي توجهوا إليه بطاعته ولا تميلوا عن سبيله ﴿ واستغفروه ﴾ أي من ذنوبكم وشرككم ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ قال ابن عباس : لا يقولون لا إله إلا الله لأنها زكاة الأنفس ، والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد .

وقيل : لا يقرون بالزكاة المفروضة ولا يرون إتيانها واجباً يقال الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك ، وقيل : معناه لا ينفقون في طاعة الله ولا يتصدقون ، وقيل : لا يزكون أعمالهم ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي جاحدون بالبعث بعد

الموت .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ قال ابن عباس : غير مقطوع ، وقيل : غير منقوص ، وقيل : غير ممنون عليهم به ، وقيل : غير محسوب .

(106/681)

قيل نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن العمل والطاعة يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه (خ) عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غير مرة ولا مرتين يقول " إذا كان العبد يعمل عملاً صالحاً فشغله عنه مرض أو سفر كتب الله تعالى له كصالح ما كان يعمل وهو صحيح مقيم " .

قوله : ﴿ قل أئنكم ﴾ استفهام بمعنى الإنكار وذكر عنهم شيئين منكرين أحدهما الكفر بالله تعالى وهو قوله تعالى ﴿ لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ وثانيهما ﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾ إثبات الشركاء والأنداد له والمعنى كيف يجوز جعل هذه الأصنام الخسيسة أنداداً لله تعالى مع أنه تعالى هو الذي خلق الأرض في يومين يعني الأحد والاثنين ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ أي هو رب العالمين وخالقهم المستحق للعبادة لا الأصنام المنحوتة من الخشب والحجر ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ من فوقها ﴾ أي من

فوق الأرض ﴿ وبارك فيها ﴾ أي في الأرض بكثرة الخيرات الحاصلة فيها وهو ما خلق فيها من البحار والأنهار والأشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج إليه ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ أي قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم وقيل قدر في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة وقيل قدر البر لأهل قطر من الأرض والتمر لأهل قطر آخر والذرة لأهل قطر والسمك لأهل قطر وكذلك سائر الأقوات .

(107/681)

قيل إن الزراعة أكثر الحرف بركة لأن الله تعالى وضع الأقوات في الأرض قال الله تعالى : ﴿ وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ﴾ أي مع اليومين الأولين فخلق الأرض في يومين وقدر الأقوات في يومين وهما يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء فصارت أربعة أيام رد الآخر على الأول في الذكر ﴿ سواء للسائلين ﴾ معناه سواء لمن سأل عن ذلك أي فهكذا الأمر سواء لا زيادة فيه ولا نقصان جواباً لمن سأل في كم خلقت الأرض والأقوات ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أي عمد إلى خلق السماء ﴿ وهي دخان ﴾ ذلك الدخان كان بخار الماء ، قيل كان العرش قبل خلق السموات والأرض على الماء فلما أراد الله تعالى أن يخلق السموات والأرض أمر الريح فضربت الماء فارتفع منه بخار كالدخان فخلق منه السماء ثم أيبس الماء

فخلقه أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبعاً .

فإن قلت هذه الآية مشعرة بأن خلق الأرض كان قبل خلق السماء وقوله ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ مشعر بأن خلق الأرض بعد خلق السماء فكيف الجمع بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ أي أتمهن وفرغ من خلقهن ﴿ في يومين ﴾ وهما الخميس والجمعة ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال ابن عباس خلق في كل سماء خلقاً من الملائكة وخلق ما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه إلا الله تعالى وقيل أوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي ﴿ وزينا السماء الدنيا ﴾ أي التي تلي الأرض ﴿ بمصابيح ﴾ أي بكواكب تشرق كالمصابيح ﴿ وحفظاً ﴾ أي وجعلناها يعني الكواكب حفظاً للسماء من الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿ ذلك ﴾ أي الذي ذكر من صنعه وخلقه ﴿ تقدير العزيز ﴾ أي في ملكه ﴿ العليم ﴾ أي بخلقه وفيه إشارة إلى كمال القدرة والعلم .

(108/681)

قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا ﴾ يعني هؤلاء المشركين عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فقل أنذرتكم ﴾ أي خوفتكم ﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أي هلاكاً مثل هلاكهم

والصاعقة المهلكة من كل شيء ﴿ إذ جاءتهم الرسل ﴾ يعني إلى عاد وثمود ﴿ من بين أيديهم ﴾ يعني الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم ﴿ ومن خلفهم ﴾ يعني ومن بعد الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم وهم الرسل الذين أرسلوا إليهم وهما هود وصالح وإنما خص هاتين القبيلتين لأن قريشاً كانوا يمرون على بلادهم ﴿ أن لا ﴾ أي بأن لا ﴿ تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ يعني لو شاء ربنا دعوة الخلق لأنزل ملائكة بدل هؤلاء الرسل ﴿ فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله قال : " قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فأتاه فكلمه ثم أتينا ببيان من أمره ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى عليّ إن كان كذلك ، فأتاه فلما خرج إليه قال : يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فإن كان ما بك للرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رئيساً ما بقيت وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن من أي بنات قريش وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) ساكت لا يتكلم فلما فرغ قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم ورجع إلى أهله

ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه فانطلقوا إليه

(109/681)

فقال أبو جهل : والله يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمداً أبداً وقال : والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب " وقال محمد بن كعب القرظي : حدثت أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس وحده في المسجد يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضها فنعطيه ويكف عنا وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أن أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) يزيدون ويكثرون قالوا بلى يا أبا الوليد فقم إليه وكلمه فقام عتبة حتى جلس إلى

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكانة في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت جماعتهم وسفهت أحلامهم وعيبت آلهتهم وكفرت من مضى من آبائهم فاستمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها فقال (صلى الله عليه وسلم) قل يا أبا الوليد فقال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاً وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا وإن كان هذا الذي بك رئياً تراه لا تستطيع رده طلبنا لك الطب أو لعل هذا شعر جاش به صدرك فنعذرك فإنكم لعمري بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا يقدر عليه أحد حتى إذا فرغ قال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاستمع مني ، قال : فافعل ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

(110/681)

قوله : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ﴾ وذلك أن هوداً هددهم بالعذاب فقالوا نحن نقدر على دفع العذاب عنا بفضل قوتنا وكانوا ذوي أجسام طوال قال الله تعالى رداً عليهم ﴿ أولم يروا ﴾ أي أو لم يعلموا ﴿ أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ أي

عاصفاً شديد الصوت وقيل هي الريح الباردة فقيل إن الريح ثمانية ، فأربع منها عذاب وهي الريح الصرصر والعاصف والقاصف والعقيم وأربع منها رحمة وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات قيل أرسل عليهم من الريح على قدر خرق الخاتم فأهلكوا جميعاً ﴿ في أيام نحسات ﴾ أي نكدات مشؤومات ذات نحس وقيل ذات غبار وتراب ثائر لا يكاد يبصر فيه وقيل أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ودأبت عليهم الريح من غير مطر ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي ﴾ أي عذاب الذل والهوان وذلك مقابل لقوله ﴿ فاستكبروا في الأرض بغير الحق ﴾ ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أي ذلك الذي نزل بهم من الخزي والهوان في الحياة الدنيا ﴿ ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أي أشد إهانة ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أي لا يمنعون من العذاب .

﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ قال ابن عباس بينا لهم سبيل الهدى وقيل دللناهم على الخير والشر ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ أي ذي الهوان ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي من الشرك .

﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ أي يتقون الشرك والأعمال الخبيثة وهم صالح ومن آمن معه من قومه .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ أي يساقون ويدفعون وقيل يحبس أولهم حتى يلحق آخرهم ﴿ حتى إذا ما جاؤوها ﴾ يعني النار ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ﴾ أي بشراتهم وقيل فروجهم ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ معناه أن الجوارح تنطق بما كتمت الألسن من عملهم (م) عن أنس رضي الله تعالى عنه قال "كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فضحك فقال : هل تدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم ، قال فيقول بلى فيقول فإني لا أجيز اليوم على نفسي إلا شاهداً مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين عليك شهوداً قال فيختم على فيه ويقال لأعضائه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل " ﴿ وقالوا ﴾ يعني الكفار الذين يجرون إلى النار ﴿ لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ معناه أن القادر الذي خلقكم أول مرة في الدنيا وأنطقكم ثم أعادكم بعد الموت قادر على إنطاق الأعضاء والجوارح وهو قوله تعالى : ﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ وقيل تم الكلام عند قوله ﴿ الذي أنطق كل شيء ﴾ ثم ابتدأ بقوله ﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ وقيل إنه ليس من جواب الجلود ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ أي تستخفون وقيل معناه تظنون ﴿ أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا

جلودكم ﴾ والمعنى أنكم لا تقدرون على الاستخفاء من جوارحكم ولا تظنون أنها تشهد عليكم ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ قال ابن عباس : كان الكفار يقولون إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ولكنه يعلم ما يظهر (ق) .

(112/681)

عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال " اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم أترون أن الله تعالى يسمع ما نقول قال الآخر يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إن أخفينا وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ قيل الثقفي هو عبد ياليل وختناه القرشيان ربيعة وصفوان بن أمية .

قوله تعالى : ﴿ وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم ﴾ أي ظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴿ أرداكم ﴾ أي أهلككم قال ابن عباس طرحكم في النار ﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ ثم أخبر عن حالهم بقوله تعالى ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ أي مسكن ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ أي يسترضوا ويطلبوا العتبى والمعتب هو الذي قبل عتابه

وأجيب إلى ما سأل ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ أي المرضيين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 104.110 ﴾

(113/681)

وقال ابن جزى :

﴿ فُصِّلَتْ ﴾ أي بينت وقيل قطعت إلى سورة وآيات ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ منصوب بفعل مضمر على التخصيص أو حال أو مصدر ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ معناه يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل إذا نظروا فيها ، وذلك هو العلم الذي يوجب التكليف وقيل : معناه يعلمون الحق والإيمان والأول عام وهذا خاص ، والأول أولى لقوله : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ لأن الإعراض ليس من صفة المؤمنين ، وقيل : يعلمون لسان العرب فيفهمون القرآن إذ هو بلغتهم ، وقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ ﴾ يتعلق بتنزيل أو فصلت والأحسن أن يكون صفة لكتاب ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يقبلون ولا يطيعون ، وعبّر عن ذلك بعدم السماع على وجه المبالغة . ﴿ فِي أَكِنَّةٍ ﴾ جمع كنان وهو الغطاء ، ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ عبارة عن بعدهم عن الإسلام ﴿ فاعمل إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ قيل : معناه اعمل على دينك ، وإننا عاملون على ديننا فهي متاركة ، وقيل : اعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك ،

فهو تهديد .

﴿ الذين لاَيُؤْتُونَ الزكاة وَهُمْ بالآخرة ﴾ هي زكاة المال ، وإنما خصها بالذكر لصعوبتها على الناس ، ولأنها من أركان الإسلام ، وقيل : يعني بالزكاة التوحيد ، وهذا بعيد . وإنما حمله على ذلك لأن الآيات مكية . لم تفرض الزكاة إلا بالمدينة ، والجواب أن المراد النفقة في طاعة الله مطلقاً ، وقد كانت مأموراً بها بمكة .

﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع من قولك ، مننت الحبل إذا قطعته وقيل : غير منقوص وقيل : غير محصور ، وقيل : لا يمن عليهم به لأن المن يكدر الإحسان .

﴿ أَندَاداً ﴾ أي أمثالاً وأشباهاً من الأصنام وغيرها .

(114/681)

﴿ رَوَاسِيَ ﴾ يعني الجبال ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أكثر خيرها ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾ أي أرزاق أهلها ومعاشهم وقيل : يعني أقوات الأرض من المعادن وغيرها من الأشياء التي بها قوام الأرض ، والأول أظهر ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يريد أن الأربعة كملت باليومين الأولين ، فخلق الأرض في يومين وجعل فيها ما ذكر في يومين ، فتلك أربعة أيام وخلق السموات في يومين فتلك ستة أيام حسبما ذكر في مواضع كثيرة ، ولو كانت هذه الأربعة الأيام زيادة على

اليومين المذكورين قبلها لكانت الجملة ثمانية أيام ، بخلاف ما ذكر في المواضع الكثيرة ﴿ سَوَآءً ﴾ بالنصب مصدر تقديره : استوت استواء قاله الزمخشري ، وقال ابن عطية انتصب على الحال للسائلين قيل : معناه لمن سأل عن أمرها ، وقيل : معناه للطالبين لها ، ويعني بالطلب على هذا حاجة الخلق إليها ، وحرف الجر يتعلق بمحذوف على القول الأول تقديره : يبين ذلك لمن سأل عنه ويتعلق بقدّر على القول الثاني .

(115/681)

﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء ﴾ أي قصد إليها ، ويقتضي هذا الترتيب : أن الأرض خلقت قبل اسماء ، فإن قيل : كيف الجمع بين ذلك وبين قوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النزاعات : 30] فالجواب لأنها خلقت قبل السماء ثم دحيت بعد ذلك ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ روي أنه كان العرش على الماء ، فأخرج إليه من الماء دخان فارتفع فوق الماء فأيبس الماء فصار أرضاً ، ثم خلق السموات من الدخان المرتفع ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ هذه عبارة عن لزوم طاعتها ، كما يقول الملك لمن تحت يده : افعل كذا شئت أو أبيت ، أي : لا بد لك من فعله ، وقيل : تقديره ائتيا طوعاً وإلا أتيتما كرهاً ، ومعنى هذا الإتيان تصويرهما على الكيفية التي أرادها الله ، وقوله لهما ﴿ أَتَيْنَا ﴾ مجاز ، وهو عبارة

عن تكوينه لهما وكذلك قولهما : أتينا طائعين عبارة عن أنهما لم يمتنعا عليه حين أراد تكوينهما ، وقيل : بل ذلك حقيقة وأنطق الله الأرض والسماء بقولهما : ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ وإنما جمع طائعين جمع العقلاء لوصفهما بأوصاف العقلاء ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سماوات ﴾ أي صنعهنّ والضمير للسموات السبع ، وانتصابها على التمييز تفسيراً للضمير ، وأعاد عليها ضمير الجماعة المؤنثة لأنها لا تعقل ، فهو كقولك : الجذوع انكسرت ، وجمعهما جمع المفكر العاقل في قوله : ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ ، لأنه وصفهما بالطوع ، وهو فعل العقلاء فعاملهما معاملتهم فهو كقوله في [سورة يوسف : 4] : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ وأعاد ضمير التثنية في قوله : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا ﴾ لأنه جعل الأرض فرقة والسماء أخرى ﴿ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي أوحى إلى سكانها من الملائكة ، وإليها نفسها ما شاء من الأمور ، التي بها قوامها وصلاحها ، وأضاف الأمر إليها لأنه فيها ﴿ وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ يعني الشمس والقمر والنجوم ، وهي زينة للسماء الدنيا

(116/681)

سواء كانت فيها أو فيما فوقها من السموات ﴿ وَحِفْظاً ﴾ تقديره : وحفظناها حفظاً ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله ، على المعنى كأنه قال : وخلقنا المصابيح زينة وحفظاً .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ الضمير لقريش ﴿ صَاعِقَةً ﴾ يعني واقعة واحدة شديدة ، وهي مستعارة من صاعقة النار ، وقرئ صعقة بإسكان العين وهي الواقعة من قولك صعق الرجل ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ الرسل مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ معنى ما بين الأيدي المتقدم ، ومعنى ما خلف المتأخر ، فمعنى الآية : أن الرسل جاؤوهم في الزمان المتقدم ، واتصلت نذارتهم إلى زمان عاد وثمود ، حتى قامت عليهم الحجة بذلك من بين أيديهم ، ثم جاءتهم رسل آخرون عند اكتمال أعمارهم ، فذلك من خلفهم ، قال ابن عطية وقال الزمخشري : معناه أتوهم من كل جانب ، فهو عبارة عن اجتهادهم في التبليغ إليهم ، وقيل : أخبروهم بما أصاب مَنْ قبلهم ، فذلك ما بين أيديهم ، وأنذرهم ما يجري عليهم في الزمان المستقبل وفي الآخرة فذلك ﴿ إِوَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ ﴿ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله ﴾ أنْ حرف عبارة وتفسير أو مصدرية على تقدير بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ليس فيه اعتراف الكفار بالرسالة ، وإنما معناه بما أرسلتم على قولكم ودعواكم ، وفيه تهكم .

﴿ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ قيل : إنه من الصرّ وهو شدة البرد فمعناه باردة وقيل : إنه من قولك : صرصر إذا صوت فمعناه لها صوت هائل في أيام نحسات معناه من النحس وهو ضد السعد وقيل شديدة البرد وقيل : متتابعة والأول أرجح ، وروي أنها كانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وقرئ نحسات بإسكان الحاء وكسرها فأما الكسر فهو جمع نحس

وهو صفة وأما الإسكان فتخفيف من الكسر على وزن فعل أو وصف بالمصدر .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُ ﴾ أي بينا لهم فهو بمعنى البيان ، لا بمعنى الإرشاد .

(117/681)

﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يدفعون بعنف ﴿ وَجُلُودُهُم ﴾ يعني الجلود المعروفة ، وقيل : هو كناية عن الفروج والأول أظهر ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ الآيات يحتمل أن تكون من كلام الجلود ، أو من كلام الله تعالى أو الملائكة ، وفي معناه وجهان : أحدهما لم تقدروا أن تستتروا من سمعكم وأبصاركم وجلودكم ، لأنها ملازمة لكم ، فلم يمكنكم احتراس من ذلك فشهدت عليكم ، والآخر لم تتحفظوا من شهادة سمعكم وأبصاركم وجلودكم ، لأنكم لم تبالوا بشهادتها ، ولم تظنوا أنها تشهد عليكم ، وإنما استترتم لأنكم ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وهذا أرجح لاتّساق ما بعده معه ، ولما جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود : " أنه قال اجتمع ثلاثة نفر قرشيان وثقفي ، قليل فقه قلوبهم كثير شحم بطونهم ، فتحدثوا بحديث فقال أحدهم : أترى الله يسمع ما قلنا : قال الآخر نه يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا فقال الآخر : إن كان يسمع منا شيئاً فإنه يسمعه كله فنزلت الآية " ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ أي أهلككم ؛ من الردى بمعنى الهلاك ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾

هو من العتب بمعنى الرضا أي : إن طلبوا العتبى ليس فيهم من يعطاها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 13.10 ﴾

(118/681)

وقال النسفى :

﴿ حم ﴾ إن جعلته اسماً للسورة كان مبتدأ ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ خبره ، وإن جعلته تعديداً للحروف كان ﴿ تَنزِيل ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف و ﴿ كِتَابٌ ﴾ بدل من ﴿ تَنزِيل ﴾ أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف أو ﴿ تنزيل ﴾ مبتدأ ﴿ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾ صفته ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبره ﴿ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ ميزت وجعلت تفاصيل في معانٍ مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد وغير ذلك ﴿ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ نصب على الاختصاص والمدح أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت ، أو على الحال أي فصلت آياته في حال كونه قرآناً عربياً ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي .

و ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ يتعلق ب ﴿ تَنزِيل ﴾ أو ب ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ أي تنزيل من الله لأجلهم أو فصلت آياته لهم ، والأظهر أن يكون صفته مثل ما قبله وما بعده أي قرآناً عربياً كائناً لقوم

عرب ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ صفتان ل ﴿ قُرْءَاناً ﴾ ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يقبلون من قولك "تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي" ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه .

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ ﴾ أغطية جمع كنان وهو الغطاء ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ﴿ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ ثقل يمنع من استماع قولك ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ ستر .

وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ومج إسماعهم له كأنه بها صمماً عنه ، ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هو عليه حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي ﴿ فاعمل ﴾ على دينك ﴿ إِنَّنَا عاملون ﴾ على ديننا أو فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك .

(119/681)

وفائدة زيادة "من" أن الحجاب ابتداء منا وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها ، ولو قيل بينا وبينك حجاب لكان المعنى أن حجاباً

حاصل وسط الجهتين .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ هذا جواب لقولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ ﴾ ووجهه أنه قال لهم : إني لست بملك وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحي إلي دونكم فصحت نبوتي بالوحي إليّ وأنا بشر ، وإذا صحت نبوتي وجب عليكم اتباعي وفيما يوحى إليّ أن إلهكم إله واحد ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً ولا ملتفتين إلى ما يسول لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ﴿ واستغفروه ﴾ من الشرك ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة ﴾ لا يؤمنون بوجوب الزكاة ولا يعطونها أو لا يفعلون ما يكونون به أزكياء وهو الإيمان ﴿ وَهُم بالآخرة ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿ هُمْ كافرون ﴾ وإنما جعل منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته وصدق نيته ونصوع طويته ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم ، وما ارتدت بنو حنيفة إلا بمنع الزكاة ، وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة وتخويف شديد من منعها ﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ مقطوع .

قيل : نزلت في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون .

(120/681)

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ الأحد والاثنين تعليماً للأناة ولو أراد أن يخلقها في لحظة لفعل ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ شركاء وأشباهاً ﴿ ذلك ﴾ الذي خلق ما سبق ﴿ رَبُّ العالمين ﴾ خالق جميع الموجودات وسيدها ومربيها ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ في الأرض ﴿ رَوَاسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ مِّن فَوْقِهَا ﴾ إنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها ، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة إلى ممسك وهو الله عز وجل ﴿ وبارك ﴾ بالماء والزرع والشجر والثمر ﴿ فِيهَا ﴾ وفي الأرض .

(121/681)

وقيل : وبارك فيها وأكثر خيرها ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أقواتها ﴾ أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ وقسم فيها أقواتها ﴾ ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ في تتمة أربعة أيام يريد بالتتمة اليومين تقول : سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة وإلى

الكوفة في خمسة عشر أي تتمة خمسة عشر ولا بد من هذا التقدير ، لأنه لو أجرى على الظاهر لكانت ثمانية أيام لأنه قال ﴿ خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ ثم قال ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ ثم قال ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِى يَوْمَيْنِ ﴾ فيكون خلاف قوله ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [ق : 38] في موضع آخر ، وفي الحديث : " إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والعمران والخراب فتلك أربعة أيام ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ، وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة من يوم الجمعة " قيل : هي الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿ سَوَآءً ﴾ ﴿ سَوَآءٍ ﴾ : يعقوب صفة للأيام أي في أربعة أيام مستويات تامات ، ﴿ سَوَآء ﴾ بالرفع : يزيد أي هي سواء ، غيرهما ﴿ سَوَآء ﴾ على المصدر أي استوت سواء أي استواء أو على الحال ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ متعلق ب ﴿ قدر ﴾ أي قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها والمحتاجين إليها ، لأن كلاً يطلب القوت ويسأله ، أو بمحذوف كأنه قيل : هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض وما فيها .

﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وِلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ هو مجاز عن إيجاد الله تعالى السماء على ما أراد ، تقول العرب : فعل فلان كذا .

ثم استوى إلى عمل كذا يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثاني ، ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وعنه أنه قال : أول ما خلق الله تعالى جوهرة طولها وعرضها مسيرة ألف سنة في مسيرة عشرة آلاف سنة فنظر إليها بالهيبة فذابت واضطربت ، ثم ثار منها دخان بتسليط النار عليها فارتفع واجتمع زبد فقام فوق الماء فجعل الزبد أرضاً والدخان سماء .

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما أنه أراد أن يكونهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع .

وإنما ذكر الأرض مع السماء في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين لأنه قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ [النازعات : 30] فالمعنى أن ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، ائتي يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك وائتي يا سماء مقبية سقفاً لهم .

ومعنى الإتيان الحصول والوقوع كما تقول أتى عمله مرضياً ، وقوله ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾

لبيان تأثير قدرته فيهما وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال كما تقول لمن تحت يدك .

لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً .

وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين .

وإنما لم يقل طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى لأنهما سموات وأرضون لأنهن لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره .

قيل : طائعين في موضع طائعات كقوله ﴿ ساجدين ﴾ [يوسف : 4] .

﴿ فَقَضَاهُنَّ ﴾ فأحكم خلقهن .

قال :

وعليهما مسرودتان قضاهما . . .

والضمير يرجع إلى السماء لأن السماء للجنس ، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بقوله ﴿ سَبْعَ سماوات ﴾ .

(123/681)

والفرق بين النصبين في ﴿ سَبْعَ سموات ﴾ أن الأول على الحال والثاني على التمييز ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ في يوم الخميس والجمعة ﴿ وأوحى فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ ما أمر به فيها ودبره

من خلق الملائكة والنيران وغير ذلك ﴿ وَزَيَّنَّآ السمآء الدنيا ﴾ القريبة من الأرض ﴿ بمصابيح ﴾ بكواكب ﴿ وَحِفْظاً ﴾ وحفظناها من المسترقة بالكواكب حفظاً ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿ العليم ﴾ بمواقع الأمور .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم ﴿ صاعقة ﴾ عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة وأصلها رعد معه نار ﴿ مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَآءَتْهُمُ الرسل مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي أتوهم من كل جانب وعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا الإعراض .

وعن الحسن : أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ﴿ أَن ﴾ بمعنى "أي" أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه ﴿ لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله قَالُواْ ﴾ أي القوم ﴿ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا ﴾ إرسال الرسل فمفعول ﴿ شَاء ﴾ محذوف ﴿ لأَنزَلَ ملائكة فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ معناه فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به ، وقوله ﴿ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ ليس بإقرار بالإرسال وإنما هو على كلام الرسل وفيه تهكم كما قال فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] وقولهم : ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ .

خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم .

رُوي أن قريشاً بعثوا عتبة بن ربيعة وكان أحسنهم حديثاً ليكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وينظر ما يريد ، فأتاه وهو في الحطيم فلم يسأل شيئاً إلا أجابه ثم قرأ عليه السلام السورة إلى قوله ﴿ مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فناشده بالرحم وأمسك على فيه ووثب مخافة أن يصب عليهم العذاب فأخبرهم به وقال : لقد عرفت السحر والشعر فوالله ما هو بساحر ولا بشاعر فقالوا : لقد صبأت أما فهمت منه كلمة ؟ فقال : لا ولم أهتد إلى جوابه .

فقال عثمان بن مظعون : ذلك والله لتعلموا أنه من رب العالمين .

ثم بين ما ذكر من صاعقة عاد وثمود فقال ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أي تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظيم وهو القوة وعظم الأجرام ، أو استولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم ، وبلغ قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أولم يعلموا علماً يقوم مقام العيان ﴿ أَنَّ الله الذى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أوسع منهم قدرة لأنه قادر على كل شيء وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ﴿ وَكَانُواْ بآياتنا يَجْحَدُونَ ﴾ معطوف على ﴿ فاستكبروا ﴾ أي كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾

عاصفة تصرصر أي تصوت في هبوبها من الصرير ، أو باردة تحرق بشدة بردها تكرير لبناء الصر وهو البرد قيل إنها الدبور ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ مشئومات عليهم .

﴿ نَّحِسَاتٍ ﴾ مكي وبصري ونافع .

ونُحِس نحساً نقيض سعد سعداً وهو نحس ، وأما نحس فإما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر وكانت من الأربعاء في آخر شوال إلى الأربعاء ، وما عذب قوم إلا في الأربعاء .

(125/681)

﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزى فِى الحياة الدنيا ﴾ أضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل على أنه وصف للعذاب كأنه قال عذاب خزي كما تقول فعل السوء تريد الفعل السيء ، ويدل عليه قوله ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى ﴾ وهو من الإسناد المجازي ، ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به فشتان ما بين قوليك "هو شاعر" و "له شعر شاعر" .

﴿ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ من الأصنام التي عبدوها على رجاء النصر لهم .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ بالرفع على الابتداء وهو الفصيح لوقوعه بعد حرف الابتداء والخبر ﴿ فهديناهم ﴾ وبالنصب المفضّل بإضمار فعل يفسره ﴿ فهديناهم ﴾ أي بينا لهم الرشد

﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صاعقة العذاب ﴾ داهية العذاب ﴿ الهون ﴾ الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدله منه ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ بكسبهم وهو شركهم ومعاصيهم ، وقال الشيخ أبو منصور : يحتمل ما ذكر من الهداية التبيين كما بينا ، ويحتمل خلق الاهتداء فيهم فصاروا مهتدين ثم كفروا بعد ذلك وعقروا الناقة ، لأن الهدى المضاف إلى الخالق يكون بمعنى البيان والتوفيق وخلق فعل الاهتداء ، فأما الهدى المضاف إلى الخلق يكون بمعنى البيان لا غير .

وقال صاحب الكشاف فيه : فإن قلت : أليس معنى قولك هديته جعلت فيه الهدى والدليل عليه قولك هديته فاهتدى بمعنى تحصيل البغية وحصولها كما تقول : ردعته فارتدع ، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة ؟ قلت : للدلالة على أنه مكنهم فأزاح عللهم ولم يبق لهم عذر فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها وإنما تمحل بهذا لأنه لا يتمكن من أن يفسره بخلق الاهتداء لأنه يخالف مذهبه الفاسد ﴿ وَنَجَّيْنَا الذين ءَامَنُواْ ﴾ أي اختاروا الهدى على العمى من تلك الصاعقة ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ اختيار العمى على الهدى .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النار ﴾ أي الكفار من الأولين والآخرين .

﴿ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ ﴾ نافع ويعقوب ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يحبس أولهم على آخرهم أي يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم ، وهي عبارة عن كثرة أهل النار وأصله من وزعته أي كففته ﴿ حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ صاروا بحضرتها و"ما" مزيدة للتأكيد ومعنى التأكيد أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ولا وجه لأن يخلو منها ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبصارهم وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ شهادة الجلود بملامسة الحرام وقيل : وهي كناية عن الفروج ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ لما تعاظمهم من شهادتها عليهم ﴿ قَالُواْ أَنطَقَنَا الله الذى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ من الحيوان والمعنى أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهو قادر على إنشائكم أول مرة وعلى إعادتكم ورجوعكم إلى جزائه ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلآ أبصاركم وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾ أي أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش ، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ولكنكم إنما استترتم لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما كنتم تعملون وهو الخفيات من أعمالكم .

(127/681)

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ وذلك الظن هو الذي أهلككم ، و ﴿ ذلكم ﴾ مبتدأ و ﴿ ظَنُّكُمُ ﴾ خبر و ﴿ الذى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ صفته و ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ خبر ثانٍ أو ﴿ ظَنُّكُمُ ﴾ بدل من ﴿ ذلكم ﴾ و ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ الخبر ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر ولم ينفكوا به من الثواء في النار ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ وإن يطلبوا الرضا فما هم من المرضيّين ، أو إن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه لم يعتبوا لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 87 . 93 ﴾

(128/681)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمَ ﴾ إن جعلته مبتدأ فخبره .

﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾ وإن جعلته تعديداً للحروف ف ﴿ تَنزِيلَ ﴾ خبر محذوف أو مبتدأ لتخصصه بالصفة وخبره :

﴿ كِتَابٌ ﴾ وهو على الأولين بدل منه أو خبر آخر أو خبر محذوف ، ولعل افتتاح هذه السور السبع ب ﴿ حم ﴾ وتسميتها به لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة في النظم والمعنى ، وإضافة ال ﴿ تَنزِيلَ ﴾ إلى ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ للدلالة على أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية . ﴿ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ ميزت باعتبار اللفظ والمعنى . وقرىء ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ أي فصل بعضها من بعض باختلاف الفواصل والمعاني ، أو فصلت بين الحق والباطل . ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ نصب على المدح أو الحال من ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ ، وفيه امتنان بسهولة قراءاته وفهمه . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لقوم يعلمون العربية أو لأهل العلم والنظر ، وهو صفة أخرى ل ﴿ قُرْءاناً ﴾ أو صلة ل ﴿ تَنزِيلَ ﴾ ، أو ل ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ ، والأول أولى لوقوعه بين الصفات .

﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ للعاملين به والمخالفين له ، وقرئا بالرفع على الصفة لل ﴿ كِتَابٌ ﴾ أو الخبر لمحذوف . ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ عن تدبره وقبوله . ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تأمل وطاعة .

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ ﴾ أغطية جمع كنان . ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ صمم ، وأصله الثقل ، وقرىء بالكسر . ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ يمنعنا عن

التواصل ، ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ . وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك ما يدعوهم إليه واعتقادهم ومج أسماعهم له ، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ فاعمل ﴾ على دينك أو في إبطال أمرنا . ﴿ إِنَّنَا عاملون ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك .

(129/681)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ لست ملكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقي منه ، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول والاسماع ، وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل ، وقد يدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل . ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ فاستقيموا في أفعالكم متوجهين إليه ، أو فاستووا إليه بالتوحيد والإِخلاص في العمل . ﴿ واستغفروه ﴾ مما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل ، ثم هددهم على ذلك فقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله . ﴿ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكوة ﴾ لبخلهم وعدم اشفاقهم على الخلق ، وذلك من أعظم الرذائل ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع . وقيل معناه لا يفعلون ما يزكي أنفسهم وهو الإِيمان والطاعة . ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة

لاستغراقهم في طلب الدنيا وإنكارهم للآخرة .

﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ عظيم . ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لا يمن به عليهم من المن وأصله الثقل ، أو لا يقطع من مننت الحبل إذا قطعته . وقيل نزلت في المرضى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصلح ما كانوا يعملون .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ في مقدار يومين ، أو نوبتين وخلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون . ولعل المراد من ﴿ الأرض ﴾ ما في جهة السفل من الأجرام البسيطة ومن خلقها ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أنه خلق لها أصلاً مشتركاً ثم خلق لها صوراً بها صارت أنواعاً ، وكفرهم به إلحادهم في ذاته وصفاته . ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ ولا يصح أن يكون له ند . ﴿ ذلك ﴾ الذي ﴿ خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ . ﴿ رَبّ العالمين ﴾ خالق جميع ما وجد من الممكنات ومربيها .

(130/681)

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ استئناف غير معطوف على ﴿ خَلَقَ ﴾ للفصل بما هو خارج عن الصلة . ﴿ مّن فَوْقِهَا ﴾ مرتفعة عليها ليظهر للنظار ما فيها من وجوه الاستبصار وتكون منافعها معرضة للطلاب . ﴿ وبارك فِيهَا ﴾ وأكثر خيرها بأن خلق

فيها أنواع النبات والحيوان . ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ أقوات أهلها بأن عين لكل نوع ما يصلحه ويعيش به ، أو أقواتاً تنشأ منها بأن خص حدوث كل قوت بقطر من أقطارها ، وقرىء "وقسم فِيهَا أقواتها" . ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ في تتمة أربعة أيام كقولك : سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام ، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً . ولعله قال ذلك ولم يقل في يومين للإشعار باتصالهما باليومين الأولين . والتصريح على الفذلكة . ﴿ سَوَاءً ﴾ أي استوت سواء بمعنى استواء ، والجملة صفة أيام ويدل عليه قراءة يعقوب بالجر . وقيل حال من الضمير في أقواتها أو في فيها ، وقرىء بالرفع على هي سواء . ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ، أو بقدر أي قدر فيها الأقوات للطالبين لها .

(131/681)

﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء ﴾ قصد نحوها من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على غيره ، والظاهر أن ثم لتفاوت ما بين الخلقتين لا للتراخي في المدة لقوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ ودحوها متقدم على خلق الجبال من فوقها . ﴿ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ أمر ظلماني ، ولعله أراد به مادتها أو الأجزاء المتصغرة التي كتب منها ﴿ فَقَالَ

لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا ﴾ بما خلقت فيكما من التأثير والتأثر وأبرزا ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة. أو ﴿ ائتيا ﴾ في الوجود على أن الخلق السابق بمعنى التقدير أو الترتيب للرتبة، أو الإخبار أو إتيان السماء حدوثها وإتيان الأرض أن تصير مدحوة، وقد عرفت ما فيه أو لتأت كل منكما الأخرى في حدوث ما أريد توليده منكما ويؤيده قراءة "آتيا" في المؤاتاة أي لتوافق كل واحدة أختها فيما أردت منكما. ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ شئتما ذلك أو أبيتما والمراد إظهار كمال قدرته ووجوب وقوع مراده لا إثبات الطوع والكره لهما، وهما مصدران وقعا موقع الحال. ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ منقادين بالذات، والأظهر أن المراد تصوير تأثير قدرته فيهما وتأثرهما بالذات عنها، وتمثيلهما بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع كقوله: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وما قيل من أنه تعالى خاطبهما وأقدرهما على الجواب إنما يتصور على الوجه الأول والأخير، وإنما قال طائعين على المعنى باعتبار كونهما مخاطبتين كقوله: ﴿ ساجدين ﴾

(132/681)

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ فخلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن، والضمير ل ﴿ السماء ﴾ على المعنى أو مبهم، و ﴿ سَبْعَ سموات ﴾ حال على الأول وتمييز على

الثاني . ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ قيل خلق السموات يوم الخميس والشمس والقمر والنجوم يوم الجمعة . ﴿ وأوحى فِى كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾ شأنها وما يتأتى منها بأن حملها عليه اختياراً أو طبعاً . وقيل أوحى إلى أهلها بأوامره ونواهيه . ﴿ وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ فإن الكواكب كلها ترى كأنها تتلألأ عليها . ﴿ وَحِفْظاً ﴾ أي وحفظناها من الآفات ، أو من المسترقة حفظاً . وقيل مفعول له على المعنى كأنه قال : وخصصنا السماء الدنيا بمصابيح زينة وحفظاً . ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ البالغ في القدرة والعلم .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان . ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صاعقة ﴾ فحذرهم أن يصيبهم عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة . ﴿ مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وقرىء "صعقة مثل صعقة عاد وثمود" وهي المرة من الصعق أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً .

(133/681)

﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرسل ﴾ حال من ﴿ صاعقة عَادٍ ﴾ ، ولا يجوز جعله صفة ل ﴿ صاعقة ﴾ أو ظرفاً ل ﴿ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ لفساد المعنى . ﴿ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾

أتوهم من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة ، أو من جهة الزمن الماضي بالإنذار عما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل بالتحذير عما أعد لهم في الآخرة ، وكل من اللفظين يحتملهما ، أو من قبلهم ومن بعدهم إذ قد بلغتهم خبر المتقدمين وأخبرهم هود وصالح عن المتأخرين داعين إلى الإيمان بهم أجمعين ، ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ بأن لا تعبدوا أو أي لا تعبدوا . ﴿ قَالُواْ لَوْ شَاء رَبُّنَا ﴾ إرسال الرسل . ﴿ لأَنزَلَ ملائكة ﴾ برسالته . ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ على زعمكم . ﴿ كافرون ﴾ إذ أنتم بشر مثلنا لا فضل لَكُمْ علينا .

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ فتعظموا فيها على أهلها من غير استحقاق . ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتراراً بقوتهم وشوكتهم . قيل كان من قوتهم أن الرجل منهم ينزع الصخرة فيقتلعها بيده . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ قدرة فإنه قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى ، قوي على ما لا يقدر عليه أحد غيره . ﴿ وَكَانُواْ بآياتنا يَجْحَدُونَ ﴾ يعرفون أنها حق وينكرونها وهو عطف على ﴿ فاستكبروا ﴾ .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ باردة تهلك بشدة بردها من الصر وهو البرد الذي يصر أي يجمع ، أو شديدة الصوت في هبوبها من الصرير . ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ جمع نحسة من نحس نحساً نقيض سعد سعداً ، وقرأ الحجازيان والبصريان بالسكون على التخفيف أو النعت على فعل ، أو الوصف بالمصدر قيل كان آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء .

﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزى فِى الحياة الدنيا ﴾ أضاف ال ﴿ عَذَابِ ﴾ إلى ﴿ الخزى ﴾ وهو الذل على قصد وصفة به لقوله : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى ﴾ وهو في الأصل صفة المعذب وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة . ﴿ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم ﴾ فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل ، وقرىء ﴿ ثَمُودَ ﴾ بالنصب بفعل مضمر يفسره ما بعده ومنوناً في الحالين وبضم الثاء . ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ فاختاروا الضلالة على الهدى . ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صاعقة العذاب الهون ﴾ صاعقة من السماء فأهلكتهم ، وإضافتها إلى ﴿ العذاب ﴾ ووصفه ب ﴿ الهون ﴾ للمبالغة . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من اختيار الضلالة .

﴿ وَنَجَّيْنَا الذين ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ من تلك الصاعقة .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النار ﴾ وقرىء "يَحْشُرُ" على البناء للفاعل وهو الله عز وجل . وقرأ نافع "نَحْشُرُ" بالنون مفتوحة وضم الشين ونصب ﴿ أَعْدَاء ﴾ . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يحبس أولهم على آخرهم لئلا يتفرقوا وهو عبارة عن كثرة أهل النار .

﴿ حتى إِذَا مَا جَاؤُوهَا ﴾ إذا حضروها و ﴿ مَا ﴾ مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور . ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبصارهم وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بأن ينطقها الله تعالى ، أو يظهر عليها آثاراً تدل على ما اقترف بها فتنطق بلسان الحال .

(135/681)

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ سؤال توبيخ أو تعجب ، ولعل المراد به نفس التعجب . ﴿ قَالُواْ أَنطَقَنَا الله الذى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، أو ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذي أنطق كل حي ، ولو أول الجواب والنطق بدلالة الحال بقي الشيء عاماً في الموجودات الممكنة . ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يحتمل أن يكون تمام كلام الجلود وأن يكون استئنافاً .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ سَمْعُكُمْ وَلاَ أبصاركم وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾ أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضاحة ، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد

عليكم بها فما استترتم عنها . وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق أنه لا يمر عليه حال إلا وهو عليه رقيب . ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فلذلك اجترأتم على ما فعلتم .

﴿ وَذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ظنهم هذا ، وهو مبتدأ وقوله : ﴿ ظَنُّكُمْ الذى ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ خبران له ويجوز أن يكون ﴿ ظَنُّكُمُ ﴾ بدلاً و ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ خبراً . ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ إذ صار ما منحوا للاستسعاد به في الدارين سبباً لشقاء المنزلين .

﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ لا خلاص لهم عنها . ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ يسألوا العتبى وهي الرجوع إلى ما يحبون . ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ المجابين إليها ونظيره قوله تعالى حكاية ﴿ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ وقرىء ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ ، أي إن يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون لفوات المكنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 105.113 ﴾

(136/681)

قال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) ﴾

التفسير : ﴿ حم ﴾ قال بعضهم : الحاء من الحكمة ، والميم من المنة أي منّ على عباده بتنزيل الحكمة من الرحمن في الأزل ، الرحيم في الأبد وهي ﴿ كتاب فصلت آياته ﴾ أي ميزت أمثالاً ومواعظ وأحكاماً وقصصاً إلى غير ذلك . وقد مر في أوّل " هود " . وانتصب ﴿ قرآناً ﴾ على المدح والاختصاص أو على الحال الموطئة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي لقوم عرب يفهمون معانيه يعني بالأصالة وللباقين بعدهم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم منهم فالدعوة تحصل أوّلاً لهم . والأظهر عندي أنه كقوله ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] وذلك أنه لا ينتفع بالقرآن إلا أهل العلم به . قال أهل السنة : الصفات المذكورة ههنا للقرآن توجب شدة الاهتمام بمعرفته . والوقوف على معانيه بيانه أن كونه نازلاً من الرحمن الرحيم دليل على أن تنزيله رحمة للعالمين ، وفيه شفاء لأمراض القلوب ، وكونه كتاباً . والتركيب يدور على الجمع كما سبق في أول الكتاب يدل على أن فيه علوم الأوّلين والآخرين . وقوله ﴿ فصلت آياته ﴾ دليل على أنه في غاية الكشف والبيان وكونه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ ولغة العرب أفصح اللغات مما يوجب أن تتوفر عليه الرغبات ولا سيما للعرب ومن داناهم . وكونه ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ يدل على أن الاحتياج إليه من أهم المهمات لأنه سعي في معرفة ما يوصل إلى الثواب الأبديّ ، ويخلص من العقاب السرمدي .

فإذا علم المخاطبون هذه الفوائد ثم أعرض أكثرهم عن القرآن ولم يسمعوه سماع قبول دل ذلك على أن المهديّ من هداه الله ومن يضلله فلا هادي له . ثم أكد بيان إعراضهم بقوله ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة ﴾ ولا يخفى أنه سبحانه ذكر هذا في معرض الذم فوجه الجمع بينه وبين قوله ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ [الأنعام : 25] هو أن الذم إنما يتوجه على اعتقادهم أنهم إذا كانوا كذلك لم يجز تكليفهم ولا خطابهم بالأمر والنهي ، أو أنهم قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء . قال جار الله : فائدة " من " في قوله ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ دون أن يقول " وبيننا " هو أن العبارة الثانية تدل على مطلق الحجاب ، ولكن العبارة الواردة في القرآن تفيد أن المسافة التي بينهم وبين رسول الله مملوءة من الحجاب لا فراغ فيها كأنه قيل : إن الحجاب ابتدأ منا ومنك . ثم حكى عنهم ما قالوا على سبيل التهديد أو التحلية ﴿ فاعمل ﴾ أي على دينك أو في إبطال ديننا ﴿ إننا عاملون ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك . ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن شبهتهم بقوله ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ وتوجيه النظم إني لا أقدر أن أحملكم على الإيمان جبراً فإني بشر مثلكم ولا امتياز إلا أني أوحي إليّ بالتوحيد والأمر به ، فعليّ البلاغ

وحده . ثم إن قبلتم قولي أثابكم الله وإلا عاقبكم . قال في الكشاف : أراد إن نبوّتي صحت بالوحي وإذا صحت وجب اتباعي ومن جملة ذلك القول بالتوحيد . ثم بين أن خلاصة الوحي ترجع إلى أمرين : الاستقامة والإقامة على التوحيد المتوجهين إلى الله والاستغفار من تقصير قد يقع في الطاعة . ثم هددّ أهل الشرك بقوله ﴿ وويل للمشركين ﴾ وقرن منع الزكاة بالكفر بالله أوّلاً وبالآخرة ثانياً ، لأن المال شقيق الروح ، وبه وببذله في سبيل الله يعرف الموافق من المنافق ، ففيه بعث شديد لأهل الإيمان على أداء الزكاة ، وفيه أن الشفقة على خلق الله قرينة التعظيم لأمر

(138/681)

الله . وقيل : كانت قريش يطعمون الحاج ولا يطعمون المؤمنين فنزلت قاله الفراء . وقيل : أراد بالزكاة ههنا الإيمان لأنه يزكي النفس من دون الشرك . ثم ذكر جزاء المطيعين وهو ظاهر . والممنون المقطوع . وقيل : هو من المنة . قال جمع من المفسرين : نزلت في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون .

لما حكى بعض قبائح المشركين وسائر الكفرة أراد أن يورد دليلاً على التوحيد فأمر رسوله أن يوبخهم بقوله ﴿ أئنكم لتكفرون بالذي ﴾ سمعتم ممن تصدّقونهم من أهل الكتاب غيركم

أنه ﴿ خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ﴾ عمم الكفر أوّلاً ثم خصص بنوع الشرك ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ ومعنى ﴿ من فوقها ﴾ أي بالنسبة إلى سكان المعمورة تذكيراً لنعمة فوق نعمة فإن الجبال منافعها أكثر من أن تحصى يعرف بعضها أهلها ولعلنا قد عددنا في أوّل " البقرة " طرفاً منها .

(139/681)

﴿ وبارك فيها ﴾ بوضع الخيرات الكثيرة فيها . قال ابن عباس : يريد شق الأنهار وخلق الجبال والأشجار والحيوانات وكل ما يحتاج إليه ﴿ وقدّر فيها أقواتها ﴾ عن مجاهد : يعني المطر فإنه بمنزلة الغذاء للأرض به حياتها . وعن محمد بن كعب : أراد أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم . وقيل : لا حاجة إلى الإضمار فإن الإضافة تحسن لأدنى ملابسة أي وقدر فيها أقواتها التي يختص حدوثها بها ﴿ في أربعة أيام ﴾ يعني مع اليومين الأوّلين فيكون إيجاد نفس الأرض في يومين وإيجاد هذه الأشياء في يومين آخرين والمجموع أربعة أيام وخلق السماء في تتمة ستة فتكون هذه الآية موافقة لسائر الآيات ، وقد سبق هذا المعنى في أوّل سورة البقرة . من قرأ ﴿ سواء ﴾ بالرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو سواء . ثم إن كان الضمير للأربعة فمعناه أن تلك الأيام مستوية في الطول والقصر كأيام خط

الاستواء ، أو هي تامة غير ناقصة بشيء فقد يطلق لفظ الكل على الأكثر ، وهذه إحدى فوائد العدول عن العبارة الصريحة وهي أن لو قال في يومين آخرين . وقال بعضهم : من فوائده أنه لا يجوز عطف قوله ﴿ وجعل ﴾ على ﴿ خلق ﴾ لأن قوله ﴿ وتجعلون ﴾ معطوف على ﴿ لتكفرون ﴾ ولا يجوز أن يحال بين صلة الموصول وما يعطف عليه بأجنبي لا يقال : جاءني الذي يكتب وجلس يقرأ فلا بدّ من إضمار فعل مثل الأول فتقدير الكلام : ذلك أن رب العالمين خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام ، وهو كلام لا يرد عليه سؤال أصلاً . ومن قرأ بالجر فعلى وصف الأربعة بالاستواء والمعنى كما مر . ومن قرأ بالنصب فعلى المصدر أي استوت استواء . ثم إن كان الضمير للأربعة فالمعنى كما قلنا ، وإن كان للأقوات . وكذا في قراءة الرفع احتمل أن يكون ﴿ للسائلين ﴾ متعلقاً به أي الأقوات والأرزاق سواء لمن سأل ولمن لم يسأل لما روى عن ابن عباس قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا رديفه يقول : خلق الله

(140/681)

الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة ، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة سواء لمن سأل ولمن لم يسأل ، وأنا من الذين لم يسألوا الله الرزق ، ومن سأل فهو جهل منه .

واحتمل أن يكون قوله ﴿ للسائلين ﴾ متعلقاً بقوله ﴿ وقدّر ﴾ أي قدّر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها وهم في الاحتياج سواء . وقيل : إنه متعلق بمحذوف كأنه قيل : هذا الحصر والبيان لأجل من سأل في كم خلقت الأرض وما فيها ، لأن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

(141/681)

قوله ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أي توجه بداعي الحكمة بعد خلق الأرض لا دحوها إلى خلق السماء ، وقد مر في أول "البقرة" . قوله ﴿ وهي دخان ﴾ ذكر أصحاب الأثر وجاء في أوّل توراة اليهود أن عرش الله قبل خلق السموات والأرض كان على الماء فأحدث في ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان ، أما الزبد فبقي على وجه الماء فخلق الله منه الأرض ، وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السموات . وزعم المتكلمون أن الله سبحانه خلق الأجزاء التي لا تتجزأ فكانت مظلمة عديمة النور ، ثم ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمراً وأحدث صفة الضوء فيها فحينئذ صارت مستنيرة فصحت تسمية تلك الأجزاء قبل استنارتها بالدخان ، لأنه لا معنى للدخان إلا أنها أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور . واعلم أن ظاهر قوله ﴿ ثم استوى ﴾ يدل على أن خلق

السماء متأخر عن خلق الأرض وقد جاء مثله في آيات أخر . وفي الآثار ، إلا أن الواحدي نقل في البسيط عن مقاتل أنه قال : خلق الله السماء قبل الأرض فتأوّل الآية بأن لفظة كان مضمرة أي ثم كان قد استوى كما في قوله تعالى ﴿ إن يسرق فقد ﴾ [يوسف : 77] أي إن يكن يسرق . وزيف بأن الجمع بين " ثم " الدال على التأخر وبين إضمار " كان " الدال على التقدم جمع بين النقيضين . ويمكن أن يجاب بأن " ثم " ههنا لترتيب الأخبار . وقال الإمام فخر الدين الرازي : المختار عندي أن تكوين السماء مقدم على تكوين الأرض والخلق الوارد في الآية بمعنى التقدير كقوله ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران : 59] فإن إيجاد الموجود محال . فمعنى الآية أنه قضى بحدوث الأرض في يومين أي حكم بأنه سيحدث كذا في مدة كذا . قلت : لو لم يكن قوله تعالى ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها ﴾ إلى قوله ﴿ أربعة أيام ﴾ لكان هذا التأويل له وجه . وقال بعض الصوفية : خلق أرض البشرية في يومي الهواء والطبيعة وهما من الأنداد ، وجعل لها رواسخ العقل من فوقها لتستقر بها ، وبارك

فيها بالحواس الخمسة ، وقدر فيها أقواتها من سائر القوى البشرية في تتمة أربعة أيام يعني في يومي الروح الحيواني والطبيعي ، ثم استوى إلى سماء القلب وهي دخان نار الروحانية فقضى سماء القلب أطواراً سبعة كقوله ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ [نوح : 15] أوّلها الوسوسة ثم الهواجس ثم الرؤية ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ [النجم : 11] ثم الحكمة " ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه " ثم ظهور المغيبات ثم المحبة ثم التجلي في يومي الروح والإلهام الرباني . قوله ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا ﴾ الآية .

(143/681)

للمفسرين فيه قولان : الأول إجراء الكلام على ظاهره فإنه ليس بمستبعد من الله إنطاق أيّ جسم فرض بل إيداع الحياة والفهم فيه ولهذا قال ﴿ طائعين ﴾ على لفظ جمع المذكر السالم ، فإن جمع المؤنث السالم لا يختص بالعقلاء . ووجه الجمع أن أقل الجمع اثنان أو لأن كل واحد منهما سبع . ومن هؤلاء من قال : نطق من الأرض موضع الكعبة ، ومن السماء ما بحذائها ، فجعل الله لها حرمة على سائر الأرض . وعلى هذا القول لا بد أن يكون هذا التخاطب بعد الوجود فقالوا : معناه ائتيا بما خلقت فيكما أما أنت يا سماء فأطلعي الشمس والقمر والنجوم ، وأما أنت يا أرض فاخرجي ما خلقت فيك من النبات فقالتا :

جئنا بما أحدثت فينا مستجيبين لأمرك . ومعنى الإتيان الحصول والوقوع كما يقال : أتى عمله مرضياً . ويجوز أن يراد لتأت كل منكما صاحبتها الإتيان الذي تقتضيه الحكمة من كون الأرض قراراً والسماء سقفاً لها . وقوله ﴿ طوعاً أو كرهاً ﴾ إظهار لكمال القدرة والتقدير أبيتما أو شئتما كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعين أو كارهين . والقول الثاني أن هذا تمثيل لنفوذ قدرته فيهما ولا قول ثمة ، وعلى هذا لا يبعد أن يكون المقصود إيجادهما على وفق إرادته وهما في حيز العدم ، وأن يكون المراد ما تقدم . وقال بعضهم : الطوع يرجع إلى السماء لأن أحوالها على نهج واحد لا يختلف . وشبه مكلف مطيع والكره يعود إلى الأرض لأنها مكان تغيير الأحوال ومحل الحوادث والمكاره . قلت : لعل هذين الوصفين لهما باعتبار سكانهما . قوله ﴿ فقضاهن ﴾ قضاء الشيء إتمامه والفراغ منه مع الإتقان . والضمير إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سموات سبع . وانتصب ﴿ سبع سموات ﴾ على الحال . وإما مبهم مميز بما بعده . يروى أنه خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين ، وخلق سائر ما في الأرض في يوم الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة ، وفرغ

في آخر ساعة من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدم وأسكنه الجنة وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة . ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ أي أمر أهلها من العبادة والتكليف الخاص بكل منهم ، فبعضهم وقوف وبعضهم ركوع وبعضهم سجود ، وعلى هذا احتمل أن يكون خلق الملائكة مع السموات وقبلها . وقيل : الإيحاء ههنا التكوين والإيجاد وأمرها شأنها وما يصلحها ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ أي بالنيرات المضيئة كالمصباح ﴿ وحفظناها ﴾ حفظاً من الشياطين المسترقة للسمع كما مرّ مراراً . وجوّز جار الله أن يكون ﴿ حفظاً ﴾ مفعولاً له على المعنى كأنه قال : وخلقنا المصابيح زينة ﴿ وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ فلكمال عزته قدر على خلق ما خلق ولشمول علمه دبر ما دبر .

ثم قال لنبيه عليه السلام ﴿ فإن أعرضوا ﴾ عن التوحيد بعد هذا البيان الباهر والبرهان القاهر ﴿ فقل أنذرتكم صاعقة ﴾ لأن الإصرار على الجهل بعد وضوح الحق عناد ، ولا علاج للمعاند سوى التأديب بما يناسبه .

(145/681)

يروى أن أبا جهل قال في ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة بن ربيعة : أنا ذاك . فأتاه وقال : أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا وتضللنا . وعرض عليه الرياسة والنساء والأموال إن ترك ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ إلى قوله ﴿ مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فهال عتبة بذاك وناشده بالرحم ورجع ولم يأت قريشاً . فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ . فانطلقوا إليه فقال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء ، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ ﴿ صاعقة عاد وثمود ﴾ ناشدته بالرحم أن يكف . ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب . فإن قيل : كيف يصح هذا الإنذار وقد أخبر الله سبحانه في قوله ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : 33] وإن هذه الأمة آمنون من العذاب ؟ قلنا : الأنفال مدنية وهذه مكية . قوله ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ﴾ قيل : الضميران عائدان إلى الرسل أي جاءهم رسل بعد الرسل . وقيل : من بين أيديهم أي حذروهم الدنيا ﴿ ومن خلفهم ﴾ الآخرة . وقيل : من بين أيديهم الذين عاينوهم ، ومن خلفهم الذين وصل إليهم خبرهم وكتبهم . وحقيقة بين يديه أن يستعمل للشيء الحاضر ، ومجازه أن يستعمل للشيء الماضي بزمان قريب . وقال بعض المحققين : معناه أتاهم الرسل من كل جهة وأعملوا في إرشادهم كل

حيلة ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ ويجوز أن تكون " أن " مفسرة أو مخففة وضمير الشأن مقدر .
والفاء في قوله ﴿ فإنا ﴾ للجزاء كأنه قيل : فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة فانا لا نؤمن بكم .
وقولهم ﴿ ربنا ﴾ وكذا بما أرسلتم أي على زعمكم ، أو أرادوا التهكم . ثم فصل حال
كل فريق قائلاً ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ﴾ وهذا إخلال بالشفقة على

(146/681)

الخلق ﴿ وقالوا من أشد منا قوّة ﴾ وهذا إخلال بالتعظيم لأمر الله ولهذا وبخهم بقوله ﴿
أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوة ﴾ لأن الفاعل والعلة أقوى من القابل
والمعلول ، والقوة في الإنسان نتيجة صحة البنية والاعتدال وحقيقتها زيادة القدرة فلذلك
جاز أن يقال : الله أقوى منهم كما صح أن يقال : الله أقدر ، الله أكبر . وإن كان لا نسبة
للمتناهي إلى غير المتناهي . وقوله ﴿ وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ معطوف على قوله ﴿
فاستكبروا ﴾ وقالوا : إن التوبيخ المذكور وقع اعتراضاً في البين .

(147/681)

ثم أخبر عن إهلاكهم والصرصر الريح الباردة الشديدة ضوعفت من الصر بالكسر وهو البرد الذي يصر أي يجمع ويقبض ، أو من صرير الباب . والتركيب يدور على الضم والجمع . عن ابن عباس أن الله تعالى ما أرسل على عاد من الريح إلا قدر خاتمي ومع ذلك أهلكت الكل . والأيام النحسات هي التي فسرها الله سبحانه في الحاقة ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام ﴾ [الآية : 7] والنحس بالسكون ضد السعد وهو إما مخفف نحس بالكسر أو هو أصل في نفسه كضخم ، أو وصف لمصدر . واستدل به بعض الأحكاميين على أن بعض الأيام يصح وصفه بالسعادة وبعضها بضدها . وأجاب بعض المتكلمين بأن المراد بالنحوسة كونها ذات غبار وتراب وبرد . والإنصاف أنه تكلف خارج عن قانون اللغة . والإضافة في قوله ﴿ عذاب الخزي ﴾ كهي في قولك : رجل صدق . وقوله ﴿ ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ من الإسناد المجازي فإن الذل والهوان لصاحبه . قوله ﴿ وأما ثمود ﴾ مرتفع على الابتداء . قوله ﴿ فهديناهم ﴾ خبره قال سيبويه : هذا أفصح لأن أما من مظان وقوع المبتدأ بعده . وقرىء بالنصب إضماراً على شريطة التفسير . واتفقوا على أن المراد بالهداية ههنا الدلالة المجردة لقوله بعده ﴿ فاستحبوا العمى ﴾ يعني عمى البصيرة وهي الضلالة ﴿ على الهدى ﴾ إلا أن المعتزلة تأوّلوه بأنه إنما شاع استعماله في الدلالة المجردة لأنه مكنهم وأزاح علتهم فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها . على أن المراد المعقولة ونقيضها ، وقد مر هذا البحث في أول " البقرة " في قوله

﴿ هدى للمتقين ﴾ [الآية : 2] وصاعقة العذاب داهيته وقارعته ، والهون مصدر بمعنى الهوان وصف به العذاب مبالغة ، أو أبدله منه وكسبهم شركهم وتكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة . ثم بين أحوال الذين آمنوا واتقوا المعاصي بقوله ﴿ ونجينا ﴾ الآية . وحين بين عقوبتهم في الدنيا أخبر عن عذابهم وعذاب أمثالهم في الآخرة فقال ﴿ ويوم يحشر ﴾ الآية . والعامل فيه " اذكر " محذوفاً ، أو هو ظرف لما يدل

(148/681)

عليه ﴿ يوزعون ﴾ كأنه قيل : يمنعون يوم يحشر فيحبس أوائلهم حتى يلحق بهم أواخرهم . قال جار الله : هو عبارة عن كثرة أهل النار . قلت : وذلك لأن الإيزاع لا يحتاج إليه إلا عند كثرة العدد كما مر في " النحل " . وما الإبهامية في قوله ﴿ حتى إذا ما جاؤها ﴾ تفيد التأكيد . وهو أن عند وقت مجيئهم لا بد أن تحصل هذه الشهادة وشهادة الجلود بملامسة ما هو محرم . وعن ابن عباس : المراد شهادة الفروج فيكون كناية . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " أوّل ما يتكلم من الآدميّ فخذه وكفه " وفيه وعيد شديد في فعل الزنا لأن مقدمته تحصل بالكف ونهايته تكون بمساعدة الفخذ . قوله ﴿ أنطق كل شيء ﴾ من العمومات المخصوصة أي ممن يصح النطق منه . والمراد أن القادر على خلقكم

وإنطاقكم في المرة الأولى في الدنيا ، ثم خلقكم وإنطاقكم مرة أخرى ، وثالثة في القبر وفي القيامة ، كيف يستبعد منه إنطاق الجوارح والأعضاء ؟ وقد مر تمام البحث في " يس " .

(149/681)

عن ابن مسعود قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشيّ فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال آخر : إذا رفعنا أصواتنا يسمع وإلا لم يسمع . وقال الآخر : إن كان يسمع إذا رفعنا أصواتنا يسمع إذا خفضنا . فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزل ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ الآية . وذلك أنهم كانوا يستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب القبائح فقيل لهم : ما كان استتاركم ذلك خفية أن تشهد عليكم جوارحكم هذه ، لأن ذلك غير ممكن فإنها متصلة بكم وهي أعوانكم ومع ذلك لم يكن استتاركم في اعتقادكم أنها تشهد عليكم ولكنكم استترتم لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما كنتم تعملون وهو الخفيات من أعمالكم . وفيه ردّ على بعض الجهلة الذين يستخفون من الناس ولا يمكنهم الاستخفاء من الله ، وفيه تنبيه على أن المؤمن يجب عليه أن يكون في أوقات خلواته أهيب لربه وأوفر احتشاماً ومراقبة . ثم أخبر ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ ولا ينتج الصبر لهم فرجاً وخلاصاً ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ يطلبوا من الله الرضا عنهم

﴿ فما هم من المعتبين ﴾ أي من المرضيين . والمراد أنهم باقون في مكروههم أبداً ، سكتوا أو نطقوا . قال الضعيف مؤلف الكتاب : إذا كان هذا وعيد من ظن أنه يمكن إخفاء بعض الأعمال من الله بالأستار والحجب فما ظنكم بوعيد من جزم أنه سبحانه غير عالم بالجزئيات نعوذ بالله من هذا الاعتقاد والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 48.54 ﴾

(150/681)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة حم فصلت

مكية وتسمى فصلت وهي أربع وخمسون آية وسبعمائة وتسعة وتسعون كلمة وثلاثة آلاف وثلاثمئة وخمسون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له أوصاف الكمال ﴿ الرحمن ﴾ الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ﴿ الرحيم ﴾ الذي فصل الكتاب تفصيلاً وبينه غاية البيان ، وتقدم الكلام على قوله تعالى:

﴿ حم ﴾ ثم إن جعلتها اسماً للسورة كانت في موضع الابتداء وخبره .

﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ وإن جعلتها تعديداً للحروف كان تنزيل خبر المبتدأ محذوف أي : هذا تنزيل وقال الأخفش : تنزيل رفع بالابتداء وخبره .

﴿ كتاب ﴾ فصلت ، وجرى على ذلك الجلال المحلي ﴿ فصلت ﴾ أي : بينت ﴿ آياته ﴾ بالأحكام والقصص والمواعظ بياناً شافياً في اللفظ والمعنى حال كونه ﴿ قرآناً ﴾ أي : جامعاً مع التفصيل وهو مع جمع اللفظ وضبطه منثور اللؤلؤ منتشر المعاني لا إلى حد ولا نهاية عد بل كلما دقق النظر جل المفهوم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ عربياً ﴾ لأن لسان العرب أوسع الألسن ساحة وأعمقها عمقاً وأغمرها باحة وأرفعها بناء وأفصحها لفظاً وأبينها معنى وأجلها في النفوس وقعاً ، وفي ذلك امتنان لسهولة قراءته وفهمه ، وقوله تعالى : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي : العربية أو لأهل العلم وهو النظر وهو متعلق بفصلت أي : فصلت لهؤلاء وبينت لهم لأنهم هم المنتفعون بها وإن كانت مفصلة في نفسها لجميع الناس ، أو بمحذوف صفة لقرآناً أي : كائناً لهؤلاء خاصة لما تقدم من المعنى .

تنبيه : حكم الله تعالى على هذه السورة بأشياء أولها : كونها تنزيلاً والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور كقولك هذا بناء الأمير أي : مبنيه وهذا الدرهم ضرب السلطان أي : مضروبه ومعنى كونها منزلة أن الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام أن يحفظ الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلى الله عليه وسلم ويؤديها إليه ، فلما حصل تفهم هذه الكلمات بواسطة جبريل عليه السلام سمي لذلك تنزيلاً .

وثانيها : كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم ، وذلك يدل على أن ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لأن الفعل المقرون بالصفة لابد وأن يكون مناسباً لتلك الصفة ، فكونه تعالى رحماناً رحيماً صفتان دالتان على كمال الرحمة والتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لا بد وأن يكون دالاً على أعظم وجوه الرحمة والنعمة ، والأمر كذلك لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى والمحتاجين والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية وعلى ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النعم من الله تعالى على أهل هذا العالم إنزال القرآن عليه .

وثالثها : كونه كتاباً وهذا الاسم مشتق من الكتب وهو الجمع ، فسمي كتاباً لأنه جمع فيه علوم الأولين والآخرين .

ورابعها : قوله تعالى ﴿ فصلت آياته ﴾ أي : ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة فبعضها وصف ذات الله تعالى وصفات التنزيه والتقديس وشرح كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وعجائب أحوال خلقه من السموات والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان ، وبعضها في المواعظ والنصائح ، وبعضها في

تهذيب الأخلاق ورياضة النفس ، وبعضها في قصص الأنبياء عليهم السلام وتواريخ الماضين وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس في بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة مثل ما في القرآن .

وخامسها : قوله تعالى : ﴿ قرآناً ﴾ وقد مر توجيه هذا الاسم .

وسادسها : قوله تعالى : ﴿ عربياً ﴾ أي : إنما نزل بلغة العرب ويؤيده قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ (إبراهيم :)

وسابعها : قوله تعالى : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي : جعلناه قرآناً لأجل أنا أنزلناه على قوم عرب بلغتهم ليفهموا منه المراد ، وثامنها وتاسعها : قوله تعالى:

(152/681)

﴿ بشيراً ﴾ أي : لمن اتبع ﴿ ونذيراً ﴾ أي : لمن امتنع وانقطع ، وعاشرها : قوله تعالى ﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ أي : عن تدبره وقبولهم ﴿ فهم ﴾ لذلك ﴿ لا يسمعون ﴾ أي : يفعلون فعل من لم يسمع لأنهم لا يسمعون سماع تأمل وطاعة فهذه صفات عشر وصف الله تعالى القرآن بها .

واحتج القائلون بخلق القرآن بهذه الآية من وجوه أولها : أنه تعالى وصف القرآن بكونه منزلاً

وتنزيلاً والمنزل والتنزيل مشعر بالتغيير من حال إلى حال فوجب أن يكون مخلوقاً ، ثانيها : أن التنزيل مصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين ، ثالثها : أن المراد بالكتاب إما الكتاب وهو المصدر الذي هو المفعول المطلق وإما المكتوب الذي هو المفعول ، رابعها : أن قوله تعالى : ﴿ فصلت آياته ﴾ يدل على أن متصرفاً تصرف فيه بالتفصيل وذلك لا يليق بالقديم ، خامسها : إنما سمي قرآناً لأنه قرن بعض أجزائه ببعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل ، سادسها : وصفه بكونه عربياً وإنما صحت هذه النسبة لأن هذه الألفاظ إنما دلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم وما حصل بجعل جاعل وفعل فاعل فلا بد وأن يكون محدثاً ومخلوقاً . وأجاب أهل السنة بأن كل هذه الوجوه المذكورة عائدة إلى اللغات وإلى الحروف والكلمات وهي حادثة ، وذهب قوم إلى أن في القرآن من سائر اللغات كالاستبرق والسجل فإنهما فارسيان والمشكاة فإنها حبشية والقسطاس فإنه من لغة الروم وهذا فاسد لقوله تعالى : ﴿ قرآناً عربياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ (إبراهيم :)

ولما وصف الله تعالى القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه بين أنهم صرحوا بهذه النفرة ، وذكر ثلاثة أشياء مذكورة عنهم في قوله تعالى:

﴿ وقالوا ﴾ أي : عند إعراضهم ممثلين في عدم قبولهم ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ أي : أغشية محيطة بها والأكنة جمع كنان كأغطية جمع غطاء والكنان هو الذي تجعل فيه السهام والمعنى لانفقه ما تقول ﴿ مما تدعونا ﴾ أيها المخبر بأنه نبي ﴿ إليه ﴾ فلا سبيل إلى الوصول إليها لتفقه أصلاً ، فإن قيل : هلا قالوا على قلوبنا أكنة كما قالوا : ﴿ وفي آذاننا ﴾ أي : التي نسمع بها وهي أحد الطرق الموصلة إلى القلوب ﴿ وقر ﴾ أي : ثقل قد أصمها عن سماعه ليكون على نمط واحد ؟

أجيب : بأنه على نمط واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك قلوبنا في أكنة وعلى قلوبنا أكنة ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ (الكهف :)

ولو قيل : إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى ، والمعنى : إنا في ترك القبول عنك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ أي : حاجز من جبل أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي ﴿ فاعمل ﴾ أي : على دينك ﴿ إننا عاملون ﴾ على ديننا أو فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك ، فإن قيل : هل لزيادة من في قولهم من بيننا وبينك حجاب فائدة ؟

أجيب : بنعم لأنهم لو قالوا وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط بين الجهتين ، وإما بزيادة من ، فالمعنى أن الحجاب ابتداء منا وابتداء منك فالمسافة المتوسطة

لجهتنا وجهتك كلها مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها .

ولما أخبروا بإعراضهم وعللوا بعدم فهمهم لما يدعو إليه أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بجواب يبين أنهم على محض العناد فقال تعالى:

(154/681)

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء الذين عجزوا عن رد شيء من أمرك بشيء يقبله ذو عقل فادعوا ما ينادى عليهم بالعجز ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ أي : لست غير بشر مما لا يرى كالملك والجني بل واحد منكم والبشر يرى بعضهم بعضاً ويسمعه ويبصره فلا وجه لما تقولونه أصلاً ﴿ يوحى إلي ﴾ أي : بطريق تخفى عليكم ولولا الوحي ما دعوتكم ﴿ أنما إلهكم ﴾ أي : الذي يستحق العبادة ﴿ إله واحد ﴾ لا غير واحد ، وهذا ما دلت عليه الفطرة الأولى السوية وقامت عليه الأدلة العقلية وأيدتها في كل عصر الطرق النقلية وانعقد عليه الإجماع في أوقات الضرورة النفسانية ، قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع .

ولما قطع حجتهم وأزال علتهم تسبب عن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ أي : غير معوجين أصلاً على نوع شرك بشفيع ولا غيره ، وعدى بإلى لتضمنه معنى توجهوا والمعنى : وجهوا استقامتكم إليه بطاعته ولا تميلوا عن سبيله ﴿ واستغفروه ﴾

أي : اطلبوا منه غفران ذنوبكم وهو محوها عيناً وأثراً حتى لا تعاقبوا عليها ولا تعاتبوا بالندم عليها والإقلاع عنها حالاً ومآلاً ، ثم هدد على ذلك فقال : ﴿ وويل ﴾ كلمة عذاب أو واد في جهنم ﴿ للمشركين ﴾ أي : من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله تعالى .

﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ أي : لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق وذلك من أعظم الرذائل ﴿ وهم بالآخرة ﴾ أي : الحياة التي بعد هذه ولا بعد لها ﴿ هم كافرون ﴾ واحتج من قال إنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة بهذه الآية فقالوا : إن الله تعالى توعدهم بأمرين أحدهما : كونهم مشركين والثاني : لا يؤتون الزكاة ، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين تأثير في حصول الوعيد وذلك يدل على أن لعدم إيتاء الزكاة مع الشرك تأثيراً عظيماً في زيادة الوعيد وهو المطلوب ، فإن قيل : لِمَ خص تعالى من أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة ؟

(155/681)

أجيب : بأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوح طويته ألا ترى قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ (البقرة :)

أي : يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم ، وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحروب وجوهدوا ، وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة وتخويف شديد في منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة ، وقال ابن عباس : هم الذين لا يقولون لا إله إلا الله وهي زكاة الأنفس ، والمعنى : لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد ، وقال الحسن وقتادة : لا يقرون بالزكاة ولا يرون إيتاءها واجباً وكان يقال : الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك . m

وقال الضحاك ومقاتل : لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون ، وقال مجاهد : لا يزكون أعمالهم .

ولما ذكر تعالى ما للجاهلين وعيداً وتحذيراً ذكر ما لأضدادهم وعداً وتبشيراً فقال تعالى مجيباً لمن تشوق لذلك مؤكداً لإنكار من ينكره:

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي : بما آتاهم الله تعالى من العلم النافع ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ من الزكاة وغيرها من أنواع الطاعات ﴿ لهم أجر ﴾ أي : عظيم ﴿ غير ممنون ﴾ أي : غير مقطوع جزاء على سماحهم بالفاني اليسير من أموالهم في الزكاة وغيرها وما أمر الله تعالى من أقوالهم وأفعالهم في الآخرة والدنيا ، والممنون المقطوع من مننت الحبل إذا قطعته ومنه

قولهم قد منّه السفر أي : قطعه ، وقال مقاتل : غير منقوص ، ومنه المنون لأنه ينقص من الإنسان وقوته ، وأنشدوا لذي الإصبع العدواني:

*إني لعمرك ما بابي بذي غلق **على الصديق ولا أجري بممنون*

(156/681)

وقيل : غير ممنون به عليهم لأن عطاء الله تعالى لا يمن به إنما يمن المخلوق ، وقال السدي : نزلت في المرضى والزمنى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كما صح ما كانوا يعملون فيه ، روى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به : اكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً حتى أطلقه أو ألفته إلي" .

ولما ذكر سبحانه وتعالى سفههم في كفرهم بالآخرة ، شرع في ذكر الأدلة على قدرته عليها وعلى كل ما يريد كخلق الأكوان وما فيها الشامل لهم ولمعبوداتهم من الجمادات وغيرها الدال على أنه واحد لا شريك له ، فقال منكراً عليهم ومقرراً بالوصف لأنهم كانوا عالمين بأصل الخلق:

(157/681)

﴿ قل ﴾ يا أشرف الرسل لمن أنكر الخلق منكراً عليه بقولك : ﴿ أئنكم ﴾ وأكد لإنكارهم التصريح بما يلزمهم من الكفر بقوله تعالى : ﴿ لتكفرون ﴾ أي : توجدون حقيقة الستر لأنوار العقول الظاهرة ﴿ بالذي خلق الأرض ﴾ أي : على سعتها وعظمها من العدم ﴿ في يومين ﴾ فتنكرون قدرته على إعادة ما خلقه منها ابتداء مع اعترافكم بأنه ابتدأ خلقها وخلق ذلك منها وهذان اليومان الأحد والاثنين كما قاله ابن عباس وعبد الله بن سلام ، قال ابن الجوزي والأكثرون قال ابن عباس : إن الله خلق يوماً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ثم خلق خامساً فسماه الخميس ، فخلق الله الأرض في يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء ولذلك يقول الناس إنه يوم ثقيل ، وخلق مواضع الأنهار والشجر والقرى يوم الأربعاء ، وخلق الطير والوحش والسباع والهوام والآفة يوم الخميس ، وخلق الإنسان يوم الجمعة وفرغ من الخلق يوم السبت ولكن ، في حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : "أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر

الخلق في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل" ، فإن قيل : الأيام إنما كانت بدوران الأفلاك وإنما كان ذلك بعد تمام الخلق بالفعل ؟

(158/681)

أجيب : بأن المراد في مقدار يومين أو نوبتين ، خلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون ، قال البيضاوي : ولعل المراد من الأرض ما في جهة السفل من الأجرام البسيطة ، ومن خلقها في يومين أنه خلق لها أصلاً مشتركاً ثم خلق لها صوراً بها صارت أنواعها ، وكفرهم به إلحادهم في ذاته تعالى وصفاته ، وقرأ قالون وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وأدخلوا بين الهمزة المحققة

والمسهلة ألفاً ، وورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير إدخال ، والباقون بتحقيقهما من غير إدخال .

ولما ذكر كفرهم بالبعث وغيره عطف على تكفرون قوله تعالى : ﴿ وتجعلون ﴾ أي : مع هذا الكفر ﴿ له أنداداً ﴾ من الخشب المنجور ومن الحجر المنحوت شركاء في المعبودية ولما بكَّتهم على قبح معتقدهم عظَّم ذلك بتعظيم شأنه سبحانه فقال تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الإله العظيم ﴿ رب العالمين ﴾ أي : موجدهم ومربيهم وذلك يدل قطعاً على جميع ما

له من صفات الكمال .

ولما ذكر تعالى ما هم به مقرون من إبداعها أتبعه بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك : فالأول : قوله تعالى:

﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ أي : جبالاً ثوابت ، وهو مستأنف ولا يجوز عطفه على صلة الموصول للفصل بينهما بأجنبي وهو قوله تعالى : ﴿ وتجعلون ﴾ فإنه معطوف على لتكفرون كما مر ، فإن قيل : ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ من فوقها ﴾ ولم يقتصر على قوله : ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ كما اقتصر على قوله تعالى : ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات ﴾ (المرسلات :)

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ (فصلت :)

وقوله تعالى : ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ ؟

(159/681)

أجيب : بأنه تعالى لو قال وجعل لها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول ، ولكنه تعالى قال : جعلت هذه الجبال الثقال فوق الأرض ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال الثقال على أثقال ،

وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا الله تعالى .

ولما هيأ الأرض لما يراد منها ذكر ما أودعها ، وهو النوع الثاني : بقوله تعالى : ﴿ وبارك فيها ﴾ أي : بما خلق من البحار والأنهار والأشجار والثمار وغير ذلك ، وقال ابن عباس : يريد شق الأنهار وخلق الجبال وخلق الأشجار والنار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج إليه من الحيوانات ، النوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ أي : أقوات أهلها بأن عيّن لكل نوع ما يصلحه ويغني به ، وقال محمد بن كعب : قدر الأقوات قبل أن يخلق الخلق والأبدان أي : أقواتاً تنشأ منها بأن خص حدوث كل قوت بقطر من أقطارها ، فأضاف القوت إلى الأرض لكونه متولداً من تلك الأرض حادثاً فيها لأن النحاة قالوا : يكفي في جنس الإضافة أدنى سبب ، فالشيء يضاف إلى فاعله تارة وإلى محله أخرى ، أي : قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدة لنوع من الأشياء المطلوبة حتى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس ، فصار هذا المعنى سبباً لرغبة الناس في التجارات واكتساب الأموال لتنتظم عمارة الأرض كلها باحتياج بعضهم إلى بعض ، فكان جميع ما تقدم من إبداعها وإيداعها ما ذكر من متاعها دفعة واحدة على مقدار لا يتعداه ومنهاج بديع دبره في الأزل وارتضاه وقدره فأمضاه لا ينقص عن حاجة المحتاجين أصلاً ، وإنما ينقص توصلهم أو توصل بعضهم إليه فلا يجد له حينئذ ما يكفيه ، وفي الأرض أضعاف كفايته .

ثم ذكر فذلكة خلق الأرض وما فيها . فقال تعالى : ﴿ في أربعة أيام ﴾ أي : مع اليومين الماضيين كقولك بنيت بيتي في يوم وأكملته في يومين أي : بالأول ، وقال أبو البقاء : في تمام أربعة أيام ولولا هذا التقدير لكانت ثمانية ، يومان في الأول وهو قوله تعالى ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ ويومان في الآخر وهو قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ وأربعة في الوسط وهو قوله تعالى : ﴿ في أربعة أيام ﴾ ، فإن قيل : إنه تعالى ذكر خلق الأرض في يومين فلو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وعن الغلط فلم ترك التصريح بذكر الكلام المجمل ؟

أجيب : بأن قوله تعالى في : ﴿ أربعة أيام ﴾ ﴿ سواء ﴾ أي : استوت الأربعة استواء لا يزيد ولا ينقص فيه فائدة زائدة على ما إذا قال خلقت هذه الثلاثة في يومين لأنه لو قال تعالى خلقت هذه الأشياء في يومين لا يفيد هذا الكلام كون اليومين مستغرقين بتلك الأعمال لأنه قد يقال عملت هذا العمل في يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل بخلافه لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء ، ثم قال : ﴿ في أربعة أيام سواء ﴾ دل على أن هذه الأيام الأربعة صارت مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ولا نقصان .

ولم يفعل تعالى ذلك في أقل من لمح البصر مع تمام القدرة عليه لأن هذا أدل على الاختيار وأدخل في الابتلاء والاختبار ليضل به كثيراً ويهدي به كثيراً فيكون أعظم لأجورهم لأنه أدل على تسليمهم ، وجعل مدة خلقها ضعف مدة خلق السموات مع كونها أصغر من السموات دلالة على أنها هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين الإنس والجن ، فزادت لما فيها من كثرة المنافع وتباين أصناف الأعراض والجواهر لأن ذلك أدخل في المنة على سكانها والاعتناء بشأنهم وشأنها وزادت أيضاً لما فيها من الابتلاء بالمعاصي والمجاهدات والمجادلات والمعالجات كل ذلك دلالة على أن المدة ما هي لأجل القدرة بل لأجل التنبيه على ما في القدرة من المقدور وعجائب الأمور .

قال البقاعي : ولعل تخصيص السماء بقصر المدة دون العكس لإجراء أمرها على ما نتعارفه من أن بناء السقف أخف من بناء البيت ، تنبيهاً على أنه بنى أمر دارنا هذه على الأسباب تعليماً للتأني وتدريباً للسكينة والبعد عن العجلة ، وقوله تعالى : ﴿ للسائلين ﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه متعلق بسواء بمعنى مستويات للسائلين ، ثانيها : أنه متعلق بقدر أي : قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها المحتاجين المقتاتين ، ثالثها : أنه متعلق

بمحذوف ، كأنه قيل : هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض وما فيها .

ولما كانت السموات أعظم من الأرض في ذاتها باتساعها وزينتها ودوران أفلاكها وارتفاعها ، نبه على ذلك بالتعبير بأداة التراخي ولفظ الاستواء وحرف الغاية الدال على عظم الغاية فقال تعالى:

﴿ ثم استوى ﴾ أي : قصد قصداً ، هو القصد منتهياً قصده ﴿ إلى السماء وهي ﴾ أي : والحال أنها ﴿ دخان ﴾ قال المفسرون : هذا الدخان بخار الماء وذلك أن عرش الرحمن كان على الماء قبل خلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ (هود :)

(162/681)

ثم إن الله تعالى أحدث في ذلك الماء اضطراباً فأزبد وارتفع فخرج منه دخان فأما الزبد فبقي على وجه الماء فخلق منه اليبوسة وأحدث منه الأرض وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات ، فإن قيل : هذه الآية مشعرة بأن خلق الأرض كان قبل السموات وقوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ (النازعات :)

مشعر بأن خلق الأرض بعد خلق السموات وذلك يوجب التناقض ؟ .

أجيب : بأن المشهور أنه تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق بعدها السموات ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ومدها حينئذ فلا تناقض ، قال الرازي : وهذا الجواب مشكل لأن الله تعالى خلق الأرض في يومين ، ثم إنه في اليوم الثالث جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض منبسطة ، ثم إنه تعالى قال بعد ذلك ثم استوى إلى السماء فهذا يقتضي أن الله تعالى خلق السماء بعد خلق الأرض وبعد أن جعلها مدحوة وحينئذ يعود السؤال ثم قال : والمختار عندي أن يقال : خلق السماء مقدم على خلق الأرض وتأويل الآية أن يقال الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (آل عمران :)

(163/681)

فلو كان الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين لصار تقدير الآية أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال ، فثبت أن الخلق ليس عبارة عن الإيجاد والتكوين بل عبارة عن التقدير ، والتقدير في حق الله تعالى هو : كلمته بأن سيوجده ، وإذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى : ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ : معناه : أنه قضى بحدوثها في يومين وقضاء الله تعالى أنه

سيحدث كذا في مدة كذا لا يقتضي حدوث ذلك الشيء في الحال فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض في يومين قد تقدم على إحداث السماء حينئذ يزول السؤال . ﴿ فقال لها ﴾ أي : السماء عقب الاستواء ﴿ وللأرض ائتيا ﴾ أي : تعاليا وأقبلا منقادتين وقوله تعالى : ﴿ طوعاً أو كرهاً ﴾ مصدران في موضع الحال أي : طائعتين أو كارهتين ﴿ قالتا أتينا ﴾ أي : نحن وما فينا وما بيننا ﴿ طائعين ﴾ أي : أتينا على الطوع لا على الكره ، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيئاً من الخطاب والجواب ، ونحو ذلك قول القائل : قال الجدار للوتد لم تشقني قال الوتد سل من يدقني ، فإن قيل : هلا قال طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى لأنهما سموات وأرضون ؟

أجيب : بأنه لما جعلهن مخاطبات ومجيبات ووصفهن بالطوع والكره قال : طائعين في موضع طائعات نحو قوله ساجدين .

تنبيه : جمع الأمر لهما في الإخبار لا يدل على جمعه في الزمان بل قد يكون القول لهما متعاقباً ، فإن قيل : إن الله تعالى أمر السماء والأرض فأطاعتا كما أن الله تعالى أنطق الجبال مع داود عليه السلام فقال تعالى : ﴿ يا جبال أوّبي معه والطير ﴾ (سبأ :)

وأنطق الأيدي والأرجل فقال تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ (النور :)

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾

(فصلت :)

وإذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله تعالى في ذات السموات والأرض حياة وعقلاً ثم يوجه الأمر والتكليف عليهما ؟ .

(164/681)

ووجه هذا بوجوه ؛ الأول : أن الأصل حمل اللفظ على ظاهره إلا أن يمنع منه مانع وههنا لا مانع ، الثاني : أنه تعالى جمعها جمع العقلاء فقال تعالى : ﴿ قالتا آتينا طائعين ﴾ الثالث : قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ (الأحزاب :)

وهذا يدل على كونها عارفة بالله تعالى عالمة بتوجه تكليف الله تعالى ، وأجاب الرازي عن هذا : بأن المراد من قوله تعالى : ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ الاتيان إلى الوجود والحدوث والحصول وعلى هذا التقدير ، فحال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة إذ لو كانت موجودة لم يجز ، فثبت أن حال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة وإذا كانت معدومة لم تكن عارفة ولا فاهمة للخطاب فلم يجز توجه الأمر إليها .

فإن قيل : روى مجاهد وطاووس عن ابن عباس أنه قال : قال الله للسموات والأرض :

أخرجا ما فيكما من المنافع لمصالح العباد أما أنت يا سماء فاطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وأنت يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك وقال لهما : افعلا ما أمرتكما طوعاً وإلا ألجأتكما إلى ذلك حتى تفعلاه ، وعلى هذا لا يكون المراد من قوله ﴿ أتينا طائعين ﴾ حدوثهما في ذاتهما ، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يظهر ما كان مودعاً فيهما ؟

أجيب : بأن هذا لم يثبت لأنه تعالى قال:

﴿ فقضاهن ﴾ أي : خلقهن خلقاً إبداعياً ﴿ سبع سموات ﴾ وهذا يدل على أن حصول السماء إنما حصل بعد قوله ائتيا طوعاً أو كرهاً .

تنبيه : الضمير للسماء على المعنى كما قال تعالى : ﴿ طائعين ﴾ ونحوه ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ (الحاقة :)

(165/681)

ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسبع سموات ، وسبع سموات حال على الأول ، وتمييز على الثاني ، وقوله تعالى : ﴿ في يومين ﴾ قال أهل الأثر : إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق سائر ما في الأرض يوم الثلاثاء والأربعاء وخلق السموات وما فيها

في يوم الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق آدم عليه السلام وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة ، ولذلك لم يقل هنا سواء ووافق هذا آيات خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : "أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يوم الثلاثاء ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمعايش والعمران والخراب فهذه أربعة ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حتى يموت من مات ، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به ، وفي الثالثة خلق آدم فأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش قالوا : قد أصبت لو أتممت قالوا : ثم استراح ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً فنزل ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون ﴾ (ق : ـ) ، فإن قيل : اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك إنما يحصل بطلوع الشمس وغروبها وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم ؟ .

(166/681)

أجيب : بأن معناه أنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدار اليوم كما مر ، وقضاء الشيء إتمامه والفراغ منه قال ابن جرير : وإنما سمي الجمعة لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم وخلق السموات والأرض أي : فرغ من ذلك وأتمه ﴿ فأوحى ﴾ أي : ألقى بطريق خفي وحكم بثبوت قوي ﴿ في كل سماء أمرها ﴾ أي : الأمر الذي دبرها ودبر منافعها به على نظام محكم لا يختل وزمام مبرم لا ينحل ، وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه إلا الله تعالى . وقال السدي : يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها ولله في كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل للكعبة بحيث لو وقعت منه حصاة لوقعت على الكعبة .

ولما عم خص التي تلينا إشارة إلى تشريفنا فقال تعالى صارفاً القول إلى مظهر العظمة تنبيهاً على ما في هذه الآية من العظم ﴿ وزينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ السماء الدنيا ﴾ أي : القربى إليكم لأجلكم ﴿ بمصابيح ﴾ وهي النيرات التي خلقها الله في السموات وخص كل واحدة بضوء معين وسير معين وطبيعة معينة لا يعلمها إلا الله تعالى ولا ينافي كون الدنيا مزينة بذلك أن تكون النجوم في غيرها مما هو أعلى منها لأن السياق دل على أنها زينة .

وقوله تعالى : ﴿ وحفظاً ﴾ في نصبه وجهان ؛ أحدهما : أنه منصوب على المصدر بفعل

مقدر أي : وحفظناها بالثواقب من الكواكب حفظاً ، والثاني : أنه مفعول من أجله على المعنى فإن التقدير : وخلقنا الكواكب زينة وحفظاً قال أبو حيان : وهو تكلف وعدول عن السهل البين ، والمعنى : وحفظناها من الشياطين الذين يسترقون السمع بالشهب أو من الآفات ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر الرفيع والشأن البديع ﴿ تقدير العزيز ﴾ أي : الذي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء ، ﴿ العليم ﴾ أي : المحيط علماً بكل شيء فالعزيز إشارة إلى كمال القدرة والعليم إشارة إلى كمال العلم .

(167/681)

ولما كان المتمادي على إعراضه كأنه جدد إعراضاً غير إعراضه الأول قال تعالى مفصلاً بعد قوله تعالى ﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ :

﴿ فإن أعرضوا ﴾ أي : استمروا على إعراضهم بعد هذا الشأن أو أعرض غيرهم عن قبول ما جئتهم به من الذكر بعد هذا البيان الواضح في هذه الآيات التي دلت على الوحدانية والعلم والقدرة وغيرها من صفات الكمال أتم دلالة ﴿ فقل ﴾ أي : لهم ﴿ أنذرتكم صاعقة ﴾ أي : فحذرهم أن يصيبهم عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة ﴿ مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ وقال المبرد : الصاعقة المرة المهلكة لأي شيء كان والإنذار التخويف ، وإنما

خص هاتين القبيلتين لأن قريشاً كانوا يمرون على بلادهم .

ثم علل إيقاع ذلك بقوله تعالى : ﴿ إذ ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً لصاعقة وظرفيته لا تنافي عليته أي : حين ﴿ جاءتهم ﴾ أي : عاداً أو ثمود ﴿ الرسل ﴾ لأن الزمان الطويل يجوز نسبة ما وقع في جزء منه إليه ﴿ من بين أيديهم ﴾ أي : من قبلهم لأن نذير الأول نذير لكل من أتى بعده بأنه إن واقع ما واقعه أتاه ما عذب به ﴿ ومن خلفهم ﴾ وهم من أتى إليهم لأنهم لم يكونوا يعلمون إتيانهم فالخلف كناية عن الخفاء والقدام عن الجلاء وأنهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم فاعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض .

كما حكى الله تعالى عن الشيطان ﴿ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ (الأعراف :) أي : لآتينهم من كل جهة ، عن الحسن : أنذروهم من وقائع الله تعالى فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاؤوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم ، وأتوهم مقبلين عليهم ومدبرين عنهم ، وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار الذال عند الجيم وأدغمها الباقون . ,

﴿ أن ﴾ أي : بأن ﴿ لا تعبدوا إلا الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال جميعاً ﴿ قالوا ﴾ أي : الكفار لرسلهم ﴿ لو شاء ربنا ﴾ الذي ربانا أحسن تربية أن يرسل إلينا رسولاً ﴿ لأنزل ﴾ إلينا ﴿ ملائكة ﴾ فأرسلهم إلينا بما يريده منا لكنه لم يرسل ملائكة فلم يشأ أن يرسل رسولاً ﴿ فإنا بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ أرسلتم به ﴾ أي : على زعمكم بأنكم رسل ﴿ كافرون ﴾ إذ أنتم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا .

(169/681)

روي : "أن أبا جهل قال في ملأ قريش : التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالسحر والشعر والكهانة وكلمه ثم أتانا ببيان من أمره ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد علمت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي ، فأتاه فقال له : يا محمد أنت خير أم هاشم ، أنت خير أم عبد المطلب ، أنت خير أم عبد الله ، فلم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن كنت أردت الباء زوجناك عشر نسوة تختارهن من أي بنات قريش شئت ، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستعين به على ذلك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرغت ؟ قال : نعم قال : فاسمع ثم إن النبي صلى الله

عليه وسلم تعوذ ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته ﴾ إلى أن بلغ قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم إلا ما سكت ، ثم رجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ فانطلقوا إليه وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ، وقال : والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيته وقصصت عليه القصة وجاءني بشيء والله ما هو شعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة إلى قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم حتى سكت ، ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل عليكم العذاب" .

(170/681)

وفي رواية لمحمد بن كعب أنه قال : إني سمعت قرآناً والله ما سمعت بمثله قط ما هو شعر ولا سحر ولا كهانة يا معشر قريش أطيعوني ، خلوا بينكم وبين هذا الرجل وبين ما هو فيه

فاعتزلوه والله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظفر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وأنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا لوليد بلسانه قال : هذا رأي لكم فاصنعوا ما بدا لكم .

ولما جمعهم الله فيما اجتمعوا فيه حتى كأنهم تواصوا به ، فصّلهم وفصّل ما اختلفوا فيه فقال مسبباً عما مضى من مقالاتهم:

﴿ فأما عاد ﴾ أي : قوم هود عليه السلام ﴿ فاستكبروا ﴾ أي : طلبوا الكبر وأوجدوه ﴿ في الأرض ﴾ أي : كلها التي كانوا فيها بالفعل وغيرها بالقوة أو في الكل بالفعل لكونهم ملكوها كلها ، ثم بين كبرهم أنه ﴿ بغير الحق ﴾ أي : الذي لم يطابق الواقع ، ثم ذكر تعالى سبب الاستكبار بقوله تعالى : ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ وذلك أن هوداً عليه السلام هددهم بالعذاب ، فقالوا : نحن نقدر على دفع العذاب بفضل قوتنا ، وكانوا ذوي أجسام طوال طول الطويل منهم أربعمائة ذراع كما سيأتي في سورة الفجر ، قال الله تعالى رداً عليهم:

﴿ أولم يروا ﴾ أي : يعلموا علماً هو كالمشاهدة ﴿ أن الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ الذي خلقهم ﴾ ولم يكونوا شيئاً ﴿ هو أشد منهم قوة ﴾ ومن علم أن غيره أقوى منه وكان عاقلاً انقاد له فيما ينفعه ولا يضره ، وقوله تعالى : ﴿ وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي : يعرفون أنها حق وينكرونها ، عطف على فاستكبروا .

﴿ فأرسلنا ﴾ أي : بسبب ذلك على مالنا من العظمة ﴿ عليهم ريحاً ﴾ أي : عظيمة ﴿ صرصراً ﴾ أي : شديد البرد والصوت والعصوف حتى كانت تجهد البدن ببردها فتكون كأنها تصره أي : تجمعه في موضع واحد فتمنعه التصرف بقوتها وتقطع القلب بصوتها فتقهر شجاعته وتمحق بشدة بردها كل ما مرت عليه ، وقوله تعالى : ﴿ في أيام نحسات ﴾ أي : مشؤومات جمع نحسة ، وقرأ ابن عامر والكوفيون بكسر الحاء من نحس ، نحساً نقيض سعد سعداً فهو نحس والباقون بسكونها فهو إما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر قال الضحاك : أمسك الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين وكانت الريح عليهم من غير مطر ، روي أن الأيام كانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء قال البيضاوي : وما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء .

وعن عبد الله بن عباس أنه قال : الرياح ثمان : أربع منها عذاب : وهي العاصفة والصرصر والعقيم والقاصف ، وأربع منها رحمة : وهي المبشرات والناشرات والمرسلات والذاريات ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى ما أرسل على عاد من الريح إلا قدر خاتمي ، وفعلنا ذلك بهم ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي ﴾ أي : الذل والهوان ﴿ في الحياة

الدنيا ﴾ كما استكبروا في الأرض بغير الحق فيذبلوا عند من تعظموا عليه في الدار التي اغتروا بها فتعظموا فيها ، فإن ذلك أدل على القدرة عند من تقيد بالوهم ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي : الذي أعد للمتكبرين في الآخرة بغير الحق ﴿ أخزى ﴾ أي : أشد إهانة ، وهو في الأصل صفة المعذب ، وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أي : لا يوجد ولا يتجدد لهم نصر أبداً بوجه من الوجوه .

ولما أنهى تعالى أمر صاعقة عاد ، شرع في بيان صاعقة ثمود فقال تعالى:

(172/681)

﴿ وأما ثمود ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام ﴿ فهديناهم ﴾ أي : بينا لهم طريق الهدى من أنا قادرون على البعث وعلى كل شيء فلا شريك لنا ، وكان بيان ذلك بالناقة غاية البيان فأبصروا ذلك بأبصارهم التي هي سبب إبصار بصائرهم غاية الإبصار ، فكرهوا ذلك لما يلزمه من تركهم طريق آبائهم وأقبلوا على لزوم طريق آبائهم ﴿ فاستحبوا ﴾ أي : اختاروا ﴿ العمى ﴾ أي : الكفر ﴿ على الهدى ﴾ أي : الإيمان ، قال القشيري قيل : إنهم آمنوا وصدقوا ثم ارتدوا وكذبوا فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستبدال .

فإن قيل : أليس معنى هديته حصلت فيه الهدى والدليل عليه قولك : هديته فاهتدى ،

وبمعنى تحصيل البغية وحصولها كما تقول ردعته فارتدع ، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة ؟

أجيب : بأنه لما مكنهم وأزاح عللهم ولم يبق لهم عذراً ولا علة فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها .

﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب ﴾ أي : بسبب ذلك أخذ قهر وهوان ﴿ الهون ﴾ أي : ذي الهوان وهو الذي يهينهم ﴿ بما كانوا ﴾ أي : دائماً ﴿ يكسبون ﴾ أي : من شركهم وتكذيبهم صالحاً عليه السلام .

ولما أنهى الله تعالى الخبر عن الكافرين من الفريقين أتبعه الخبر عن مؤمنيهم بشارة لمن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم ونذارة لمن صد عنه فقال تعالى:

﴿ ونجينا ﴾ أي : تنجية عظيمة بما لنا من القدرة ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : أوجدوا هذا الوصف من الفريقين ﴿ وكانوا ﴾ أي : كوناً عظيماً ﴿ يتقون ﴾ أي : يتجدد لهم هذا الوصف في كل حركة وسكون فلا يقدمون على شيء بغير دليل ، فإن قيل : كيف يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمته ، وقد صرح تعالى بذلك فقال عز من قائل : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (الأنفال :)

وجاء في الحديث الصحيح "أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع" ؟

أجيب : بأنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في الكفر عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة ، وأن السبب الموجب للعذاب واحد وربما يكون العذاب النازل من جنس ذلك العذاب وإن كان أقل درجة وهذا القدر يكفي في التخويف .

ولما بين تعالى كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه ببيان كيفية عقوبتهم في الآخرة ليحصل تمام الاعتبار في الزجر والتحذير فقال تعالى:

﴿ ويوم ﴾ أي : واذكر يوم ﴿ يحشر ﴾ أي : يجمع بكره بأمر قاهر لا كلفة فيه ﴿ أعداء الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ إلى النار ﴾ وقرأ نافع بنون مفتوحة وضم الشين ونصب أعداء على البناء للفاعل وهو الله تعالى ، والباقون بياء الغيبة مضمومة وفتح الشين على البناء للمفعول ورفع أعداء لقيامه مقام الفاعل ، وجه الأول أنه معطوف على نجينا فحسن أن يكون على وفقه في اللفظ ، ووجه الثاني موافقة قوله تعالى : ﴿ فهم ﴾ أي : بسبب حشرهم ﴿ يوزعون ﴾ أي : يساقون ويدفعون إلى النار ، وقال قتادة : يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا أي : يوقف سوابقهم حتى تصل إليهم .

ولما بين تعالى إهانتهم بالوزع بين غايتها بقوله تعالى:

﴿ حتى إذا ما جاؤوها ﴾ أي : النار التي كانوا بها يكذبون ، فما زائدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ، كما قال تعالى : ﴿ شهد عليهم ﴾ وبين الشاهد وعدده بقوله تعالى : ﴿ سمعهم ﴾ وأفرد السمع لعدم تفاوت الناس فيه ﴿ وأبصارهم ﴾ وجمعها لعظم تفاوت الناس فيها ﴿ وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ أي : يجددون عمله مستمرين عليه .

تنبيه : في كيفية تلك الشهادة ثلاثة أقوال ؛ أولها : أن الله تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه ، ثانيها : أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني ، ثالثها : أن يظهر في تلك الأعضاء أحوالاً تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان وتلك الأمارات تسمى شهادات كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه .

(174/681)

فإن قيل : ما السبب في تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر مع أن الحواس خمسة وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ؟

أجيب : بأن الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير

جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام ، وكذلك الشم لا يتأتى حتى يصير جلدة الأنف مماسة لجرم المشموم فكانا داخلين في جنس اللمس ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج وهو من باب الكنايات كما قال تعالى : ﴿ لا تواعدوهن سراً ﴾ (البقرة :)

وأراد النكاح وقال تعالى : ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ (النساء :)

والمراد قضاء الحاجة وقال صلى الله عليه وسلم "أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه" وعلى هذا التقدير تكون الآية وعيداً شديداً في إتيان الزنا لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالفخذ ، وقال مقاتل : تنطق جوارحهم بما كتمت الأنفس من عملهم وعن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : "هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه فيقول يا رب ألم تجرني من الظلم فيقول : بلى قال فيقول فإني لا أجيز اليوم على نفسي إلا شاهداً مني قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين عليك شهوداً قال فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول بعداً لَكُنَّ وسحقاً فعنكنّ كنت أناضل" .

﴿ وقالوا ﴾ أي : الكفار الذين يحشرون إلى النار ﴿ لجلودهم ﴾ مخاطبين لها مخاطبة العقلاء لما فعلت فعل العقلاء ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ مع أنا كنا نحاجج عنكم ﴿ قالوا ﴾ مجيبين لهم معتذرين ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ أراد نطقه على وجه لم يقدر على التخلف عنه فليس بعجب من قدرة الله الذي له مجامع العز ﴿ وهو خلقكم أول مرة ﴾ والعلم القطعي حاصل عندكم بأنكم كنتم عدماً ثم نطفاً لا تقبل النطق في مجاري العادات بوجه ، ثم طوركم في أدوار الأطوار كذلك إلى أن أوصلكم إلى حيز الإدراك فقسركم على النطق بحيث لو أردتم سلبه عن أنفسكم ما قدرتم ﴿ وإليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ فينبئكم بما كنتم تعملون .

تنبيه : اختلف في قوله تعالى : ﴿ وهو خلقكم ﴾ الآية فقيل : هو من كلام الجلود وقيل : هو من كلام الله تعالى كالذي بعده وموقعه تقريب ما قبله بأن القادر على إنشائكم ابتداءً وعلى إعادتكم بعد الموت أحياءً قادر على إنطاق جلودكم وأعضائكم .

﴿ وما كنتم تستترون ﴾ أي : عند ارتكابكم الفواحش خفية ﴿ أن يشهد عليكم سمعكم ﴾ وأكد بتكرير النافي فقال : ﴿ ولا أبصاركم ﴾ جمع وأفرد لما مضى ﴿ ولا جلودكم ﴾ والمعنى : أنكم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم

بل كنتم جاحدين بالبعث جهلاً منكم ﴿ ولكن ﴾ إنما استتاركم لأنكم ﴿ ظننتم ﴾ بسبب إنكار البعث جهلاً منكم ﴿ أن الله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال ﴿ لا يعلم ﴾ أي : في وقت من الأوقات ﴿ كثيراً مما تعملون ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم .

(176/681)

روي عن ابن مسعود قال : "كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ، ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا يسمع إذا أخفينا فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ الآية قيل : الثقفي عبد يا ليل وختناه القرشيان ربيعة وصفوان بن أمية وقوله تعالى: ﴿ وذلكم ﴾ إشارة إلى ظنهم هذا وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ ظنكم ﴾ بدل منه ، وقوله تعالى : ﴿ الذي ظننتم بربكم ﴾ نعت البدل والخبر ﴿ أرداكم ﴾ أي : أهلككم ، وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه ولا يزول عن ذهنه أن عليه من الله تعالى عيناً كالئة ورقيباً مهيمناً حتى يكون في أوقاته وخلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوراً منه مع الملأ ، ولا ينبسط في سره مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين .

ولما كان الصباح محل رجاء للإفراج فكان شر الإتراح ما كان فيه ، قال تعالى

﴿ فأصبحتم ﴾ أي : بسبب ما أعطيتموه من النعم لتستنقذوا أنفسكم به من الهلاك ، كان سبب هلاككم ﴿ من الخاسرين ﴾ أي : العريقين في الخسارة المحكوم بخسارتهم في جميع ذلك اليوم .

قال المحققون : الظن قسمان أحدهما : حسن ، والآخر : فاسد ، فالحسن ، أن يظن بالله تعالى الرحمة والفضل والإحسان قال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى : "أنا عند ظن عبدي بي" . وقال صلى الله عليه وسلم "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله" .

والظن الفاسد أن يظن أن الله تعالى يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال . وقال قتادة : الظن نوعان : منجي ومردي ، فالمنجي : قوله : ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ (الحاقة :) وقوله تعالى : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ (البقرة :) والمردي : هو قوله تعالى : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ .

(177/681)

﴿ فإن يصبروا فالنار مثوىً ﴾ أي : منزل ﴿ لهم ﴾ أي : إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مقاماً لهم ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ أي : يسألوا العتبى وهو

، الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ أي : المجابين إليها ، ونحوه قوله عز وجل : ﴿ أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 337.356 ﴾

(178/681)

وقال القاسمى :

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

قال أبو السعود : إن جعل : ﴿ حم ﴾ اسماً للسورة ، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، وهو الأظهر ، أو مبتدأ خبره : ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ وهو على الأول خبر بعد خبر . وخبر لمبتدأ محذوف ، إن جعل مسروداً على نمط التعديد . وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ متعلق به ، مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية ، بالفخامة الإضافية . أو خبر آخر . أو : ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ مبتدأ لتخصصه بالصفة ، خبره : [: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ﴾] . ﴿ كِتَابٌ ﴾ وهو على الوجوه الأول بدل منه ، أو خبر آخر ، أو خبر لمحذوف . ونسبة

التنزيل إلى الرحمن الرحيم ، للإيذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية ، واقع بمقتضى الرحمة الربانية ، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] ، ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي : بُيِّنت بالاشتمال على جميع المطالب الدينية ، مع الدلائل العقلية : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ أي : بلسان عربي يتيسر فيه من جميع الفوائد ما لا يتيسر في غيره . وانتصاب : ﴿ قُرْآناً ﴾ على المدح ، أو الحالية من : ﴿ كِتَابٌ ﴾ لتخصصه بالصفة ، أو من : ﴿ آيَاتُهُ ﴾ : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : مقداره ومعانيه ، أو لأهل العلم ، والنظر .

(179/681)

﴿ بَشِيراً ﴾ أي : للعاملين به ، الناظرين فيه ، والمستخرجين منه ، بالنعيم المقيم : ﴿ وَنَذِيراً ﴾ أي : للمعرضين عنه بخلود الأبد في نار جهنم : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي : أكثر هؤلاء القوم ، الذين أنزل هذا القرآن بشيراً ونذيراً لهم ، فلم يتدبروه : ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : لا يصنعون له ، عتوّاً واستكباراً .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي : أغطية متكاثفة ، لا يصل إليها شيء مما تدعونا إليه ، من التوحيد وتصديق ما في هذا القرآن من الأمر ، والنهي ، والوعد ، والوعيد

: ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي : صمم ، لا نسمع ذلك ، استثقالاً له وكراهية : ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ أي : فلا تواصل ولا تلاقي على ما ندعي إليه : ﴿ فَاعْمَلْ ﴾ أي : على ما تدعو إليه ، وانصب له : ﴿ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أي : على ما ألفينا عليه آباءنا .

(180/681)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ أي : بالتوحيد ، وإخلاص العبادة ، من غير انحراف إلى الباطل ، والسبل المتفرقة : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أي : بالتوبة من الشرك : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أي : لا يزكون أنفسهم . بطاعة الله ، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها . وهذا ما رجحه ابن جرير ، ذهاباً إلى أن ذلك هو الأشر من معنى الزكاة . لاسيما مع ضميمة الإيتاء .

وفيه إشارة إلى أن من أخص صفات الكفار هو منع الزكاة ، ليحذر المؤمنون من ارتكابه .

وعن قتادة : إن الزكاة قنطرة الإسلام . فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك . قال ابن جرير : وقد كان أهل الردة بعد نبي الله ، قالوا : أما الصلاة فنصلي . وأما الزكاة ، فوالله ! لا تُغصَب أموالنا . قال فقال أبو بكر : والله ! لا أفرق بين شيء جمع الله بينه . والله ! لو منعوني عقالاً مما فرض الله ورسوله ، لقاتلناهم عليه : ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ ﴾ أي : بإحيائهم

بعد مماتهم للمجازاة : ﴿ هُمْ كَافِرُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي : عليهم ، أو غير منقوص ، أو غير منقطع ، أو غير محسوب .

(181/681)

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أي : في مقدارهما . وعلمهم بصلة الموصول ، أما لما تلقوه خلفاً عن سلف ، فاستفاض بينهم . أو لما سمعوه من الكتب السافلة ، كالتوراة ، فأذعنت بذلك نفوسهم ، حتى صار معهوداً لها : ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ أي : أكفاء : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : الذي خلق الأرض في يومين : ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالاً ثوابت : ﴿ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أي : أكثر خيرها : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أي : مستوية بالامتزاج والاعتدال ، للطالبين للأقوات والمعايش ؛ أي : قدرها لهم ، أو لمن سأل عن مبلغ الأجل الذي خلق الله فيه الأرض ، وجعل فيها الرواسي والبركة ، وتقدير الأقوات . فحدّه ، كما أخبر تعالى ، وأنه أربعة أيام .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء ﴾ أي : قصد إلى إيجادهما . وثم ، للتفاوت بين الخلقين في

الإحكام وعدمه ، واختلافهما في الجهة والجوهر ، لا للتراخي في الزمان ؛ إذ لا زمان هناك . قاله القاشاني .

(182/681)

وقال ابن جرير : أي : ثم ارتفع إلى السماء ، أي : بلا تكليف ولا تمثيل : ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ قال القاشاني : أي : جوهر لطيف بخلاف الجواهر الكثيفة الثقيلة الأرضية . وقال القاضي : دخان أمر ظلماني ، ولعله أراد به مادتها ، أو الأجزاء المصغرة التي ركبت منها ، وأصله للرازي حيث قال : لما خلق تعالى الأجزاء التي لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء ، كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سماوات ، وكواكب ، وشمساً ، وقمراً ، وأحدث صفة الضوء فيها ، فحينئذ صارت مستنيرة . فثبت أن تلك الأجزاء ، حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السماوات ، والشمس ، والقمر ، كانت مظلمة . فصح تسميتها بالدخان ؛ لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة ، غير متواصلة ، عديمة النور . ثم قال : فهذا ما خطر بالبال في تفسير الدخان . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية : ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ : أي : ذرات ، أي : غازات أي : سديم . ثم تجاذبت كما يجتمع السحاب فصارت كتلة واحدة . مصداقاً

لقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ [الأنبياء : 30] . أي : كتلة واحدة ، فدارت ثم تقطعت ، وتفصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسماوات ، تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ أي : فصلناهما ، فصارتا كرات من الماء في يومين ، أي : ألفي سنة . لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] ، وفي هذا الوقت كان عرشه على الماء . أي : كان ملكه وسلطانه على الماء ، والله أعلم . انتهى والله أعلم .

(183/681)

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ قال القاشاني : أي : تعلق أمره وإرادته بإيجادهما ، فوجدتا في الحال معاً . كالمأمور المطيع ، إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع لم يلبث في امتثاله . وهو من باب التمثيل ؛ إذ لا قول ثمة . انتهى .

وقال ابن جرير : أي : قال الله جل ثناؤه للسماء والأرض : جيئا بما خلقت فيكما . أما أنت يا سماء ، فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس ، والقمر ، والنجوم . وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار ، والثمار ، والنبات ، وتشققي عن الأنهار : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أي : جئنا بما أحدثت فينا من خلقك ، مستجيبين لأمرك ، لا نعصي

أمرك . انتهى . يعني أن إثبات المقاولة مع السماء والأرض من المجاز . إما بالاستعارة المكنية . كما تقول : نطقت الحال . فتجعل الحال كإنسان يتكلم في الدلالة ، ثم يتخيل له النطق الذي هو لازم المشبه به ، وينسب إليه . وإما بالاستعارة التمثيلية بأن شبه فيه حالة السماء والأرض التي بينهما وبين خالقهما ، في إرادة تكوينهما وإيجادهما ، بحالة أمير ذي جبروت له نفاذ في سلطانه ، وإطاعة من تحت تصرفه من غير تردد .

(184/681)

وقد رد غير واحد قول من ذهب إلى أن في الجمادات تمييزاً ونطقاً على ظاهر أمثال هذه النصوص ، منهم ابن حزم . قال في " الفِصل " : وأما قوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول في اللغة التي نزل بها القرآن ، إنما هو دفع آلات الكلام من أنابيب الصدر ، والحلق ، والحنك ، واللسان ، والشفتين ، والأضراس ، بهواء يصل إلى آذان السامع ، فيفهم به مرادات القائل . فإذ لا شك في هذا ، فلكل من لا لسان له ، ولا شفتين ، ولا أضراس ، ولا حنك ، ولا حلق ، فلا يكون منه القول المعهود منا . هذا مما لا يشك فيه ذو عقل . فإذا هذا هكذا كما قلنا بالعيان ، فكل قول ورد به نص ولفظ مخبر به عمن ليست هذه صفته ، فإنه ليس هو القول المعهود عندنا . لكنه معنى آخر .

فإذ هذا كما ذكرنا ، فبالضرورة صح أن معنى قوله تعالى : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ إنما هو على نفاذ حكمه عز وجل وتصريفه لهما . انتهى .

وكذا الحال في : ﴿ أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ فإنهما لما نزلا . . . وهما من الجمادات - منزلة العقلاء ، إذ أُمرا وخوطبا على طريق المكنية ، أو التمثيلية ، أثبت لهما ما هو من صفات العقلاء من الطوع والكره ترشيحاً . وهما مؤولان بـ : طائع وكاره . لأن المصدر لا يقع حالاً بدون ذلك ، ويجوز كونهما مفعولاً مطلقاً . وإنما قال : ﴿ طَائِعِينَ ﴾ بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء الذكور . وكان مقتضى الظاهر طائعات ، أو طائعتين نظراً إلى الخطاب ، والإجابة ، والوصف بالطوع ، والكره .

(185/681)

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أي : أحكمهن بإزالة رخاوة الدخان . قال المهايمي ولم يجعل لمادتها يوماً ؛ لأنها كمادة الأرض . فدخلت في يومها : ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾ أي : ما أمر به فيها ، ودبره من الملائكة ، والخلق الذي فيها ، وما لا يعلم : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ فإنها كالسقف المرفوع المزين بمصابيح معلقة به ، ما يدعو إلى الاستدلال بها على قدرة صانعها وحكمته : ﴿ وَحِفْظاً ﴾ أي : من الشياطين

أن تسترق أخبارها : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أي : عن هذا الاستدلال ، وعن الإيمان بهذا العزيز الغالب على كل شيء ، الذي اقتضى علمه ترتيب بعض الأمور : ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ لأنكم مثلهما في العناد ، ومثل عاد في الاستكبار ، ومثل ثمود في استحباب العمى على الهدى . قال ابن جرير : قد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة كل ما أفسده الشيء ، وغيّره عن هيئته . وقيل في هذا الموضوع : عني بها وقعة من الله وعذاب .

(186/681)

﴿ إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ قال الزمخشري : أي : أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو ، والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان : ﴿ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [الأعراف : 17] ، يعني لآتينهم من كل جهة ، ولأعلمن فيهم كل حيلة ، وتقول : استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لي فيه حيلة .

(187/681)

وحاصله جعل الجهتين كناية عن جميع الجهات ، علي ما عرف في مثله . والمراد بإتيانهم من جميع الجهات ، بذل الوسع في دعوتهم على طريق الكناية ، ويحتمل أن المعنى : جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي ، وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل ، وما سيجري عليهم . فالمراد بما بين أيديهم الزمن الماضي ، وبما خلفهم المستقبل . ويجوز فيه العكس ، كما ذكر في آية الكرسي : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا ﴾ أي : إرسال رسول : ﴿ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ أي : من السماء بما تدعوننا إليه : ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أي : من عبادة الله وحده : ﴿ كَافِرُونَ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أي : حتى نخاف عذابه ، لو تركنا عبادته ، أو عبدنا معه غيره .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي : فيجب أن يحذر عقابه ويتقى عذابه : ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : التي هي أقوى الدلائل : ﴿ يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : لعتوهم بالقوة : ﴿ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي : شديدة الصوت في هبوبها : ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أي : مشؤومات عليهم : ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أي : في الأخرى ، كما لم ينصروا في الدنيا .

تنبيه :

قال الرازي : استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون نحساً وبعضها قد يكون سعداً ؛ لأن النحس يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافي . ثم أطال الرازي في الجواب والإيراد . ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافي لا ذاتي . وإلا لكان اليوم الذي يراه المنجمون نحساً ، مشؤوم الطالع على كل ما أشرقت عليه الشمس ، وكذا ما يرونه سعداً ، والواقع بخلاف ذلك ؛ إذ اليوم النحس عند زيد ، قد يكون سعداً عند بكر . بل الساعة بل الدقيقة . فأين تلك الدعوى ؟ والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع . ومن لطائفهم تسمية وقت الشدة ، والبؤس بالنحس ، ومقابلها بالسعد . فالنحس نحس على صاحبه ، والسعد سعد على صاحبه .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ أي : بيّنّا لهم سبيل الحق ، وطريق الرشد ، ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة ، وأمرناهم أن يقتفوا الهدى : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : من الآثام ، بكفرهم بالله .

﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ أي : يخشون ربهم ، ويخافون ، وعيده . وذلك بالإيمان به وحده وتصديق رسله .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : يوم يجمع ، لمزيد الفضيحة ، بين الأولين والآخرين ، أعداء الله المشركون والجاحدون ، إلى النار فيجيء أولهم على أخرهم ، ليتم إلزام الحجة عليهم بين جميعهم ، فلا يبقى لهم مقال لهم لأنهم لا يزالون يجادلون عن أنفسهم .

﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا ﴾ أي : فبالغوا في إنكار المخالفة : ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ ﴾ أي : بأنهم سمعوا الحجج فأعرضوا عنها ، وسمعوا الشبه فاتبعوها ، وسمعوا الفواحش فاستحسنوها : ﴿ وَأَبْصَارُهُمْ ﴾ أي : بأنهم رأوا الآيات فلم يعتبروها ، ورأوا القبائح فاختاروها : ﴿ وَجُلُودُهُمْ ﴾ أي : بأنهم باشروا المعاصي ، فوصل أثرها إلى القوة اللامسة منهم ، فيشهد كل عضو وجزء : ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ ﴾ أي : المدركة ألم العذاب الذي لا يدركه السمع والبصر : ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ أي : بما يوجب إيلامكم : ﴿ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ ﴾ أي : بهذه الشهادة : ﴿ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي : أنطق كل شيء من الحيوان . فهو من العام الذي خصه

العقل ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : 284] ، أي : كل شيء من المقدورات . هذا ، على أن النطق على ظاهره وحقيقته .

(190/681)

وقيل المراد ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت متلبسة به في الدنيا ، بتغير أشكالها ونحوه . مما يلهم الله من رآه أنه صدر عنه ذلك ؛ لارتفاع الغطاء في الآخرة .

فالنطق مجاز عن الدلالة . قال القاشاني : معنى : ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ أي : غيرت صور أعضائهم ، وصورت أشكالها على هيئة الأعمال التي ارتكبوها ، وبدلت جلودهم ، وأبشارهم فتنطق بلسان الحال ، وتدل بالأشكال على ما كانوا يعملون ، ولنطقها بهذا اللسان قالت : ﴿ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ إذ لا يخلو شيء ما من النطق ، ولكن الغافلين لا يفهمون . انتهى .

لكن قال الرازي : تفسير هذه الشهادة ، بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء ، دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، عدول عن الحقيقة إلى المجاز . والأصل عدمه .

ثم قال : وهذه الآية يحسن التمسك بها في بيان أن البينة ليست شرطاً للحياة ، ولا لشيء من الصفات المشروطة بالحياة . فالله تعالى قادر على خلق العقل ، والقدرة ، والنطق في

كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء . والله أعلم . تنبيه :

قال الرازي : نقل عن ابن عباس أنه قال : المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج ، وإنه من باب الكنايات كما قال : ﴿ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً ﴾ [البقرة : 235] وأراد النكاح . وقال : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ [النساء : 43] و [المائدة : 6] ، والمراد قضاء الحاجة . فتكون الآية وعيداً شديداً في الزنى . انتهى .

(191/681)

وقد أشار الإمام ابن الأثير في " المثل السائر " إلى ترجيح هذا المعنى . حيث ذكر هذه الآية في الترجيح الذي يقع بين معنيين ، يدل عليهما لفظ واحد ، يكون حقيقة في أحدهما ، مجازاً في الآخر ، وعبارته : الجلود ههنا تفسر حقيقة ومجازاً . أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقاً ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة ، وهذا هو المانع البلاغي الذي يرجح جانب المجاز على الحقيقة ، لما فيه من لطف الكناية عن المكنى عنه .

وقد يسأل ههنا في الترجيح بين الحقيقة والمجاز ، عن غير الجانب البلاغي . ويقال : ما بيان هذا الترجيح ؟ فيقال : طريقة لفظ الجلود عام ، فلا يخلو إما أن يراد به الجلود مطلقاً ، أو يراد به الجوارح التي هي أدوات الأعمال خاصة ، ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق ،

لأن شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة ، شهادة باطلة ؛ إذ هي شهادة غير شاهد . والشهادة هنا يراد بها الإقرار . فتقول اليد : أنا فعلت كذا وكذا . وتقول الرجل : أنا مشيت إلى كذا وكذا . وكذلك الجوارح الباقية تنطق مُقرّة بأعمالها . فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح . وإذا أريد به الجوارح ، فلا يخلو إما أن يراد به الكل أو البعض .

فإن أريد به الكل ، دخل تحته السمع والبصر ، ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة . وإن أريد به البعض ، فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح ؛ لأمرين :

أحدهما – أن الجوارح كلها قد ذكرت في القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرج . فكان حمل الجلد عليه أولى ، ليستكمل ذكر الجميع .

الآخر – إنه ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرج ، فكنى عنه بالجلد ؛ لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته .

(192/681)

فإن قيل : إن تخصيص السمع والبصر بالذكر ، من باب التفصيل ، كقوله تعالى : ﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] . والنخل والرمان من الفاكهة . قلت في الجواب : هذا

القول عليك لا لك ؛ لأن النخل والرمان إنما ذكرا لتفضيلٍ لهما في الشكل ، أو في الطعم ، والفضيلة ههنا في ذكر الشهادة ، إنما هي تعظيم لأمر المعصية . وغير السمع والبصر أعظم في المعصية ؛ لأن معصية السمع إنما تكون في سماع غيبة ، أو في سماع صوت مزمار ، أو وتر ، أو ما جرى هذا المجرى . ومعصية البصر إنما تكون في النظر إلى محرم : وكلتا المعصيتين لا حدّ فيها . وأما المعاصي التي توجد من غير السمع والبصر ، فأعظم ؛ لأن معصية اليد توجب القطع ، ومعصية الفرج توجب جلد مائة ، أو الرجم . وهذا أعظم . فكان ينبغي أن تخص بالذكر دون السمع والبصر ، وإذا ثبت فساد ما ذهبت إليه ، فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة . انتهى كلام ابن الأثير .

وناقشه ابن أبي الحديد في " الفلك الدائر " بما محصله : أن حمل الجلد على الفرج إنما يتعين ، إذا كان بين لفظتي الجلد ، والفرج ، أو معناهما مناسبة ، ولا نجد مناسبة إلا أن يكون لأجل أن الجلد جزء من أجزاء ماهية الفرج . فعبر عن الكل بالبعض ، وهو بعيد جداً . انتهى .

(193/681)

وأقول : مقصود من أثر عنه إرادة الفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأهم والأقوى ؛ وذلك لأن الجلود تصدق على ما حواه الجسم من الأعضاء والعضلات التي تكتسب الجريمة ، ولا

يخفى أن أهمها بالعناية , وأولاها بالإرادة هو الفرج ؛ لأن معصيتها تربى على الجميع ، وقد عهد في مفسري السلف اقتصارهم في التأويل من العام على فرده الأهم . كقصرهم : ﴿ سَبِيْلِ اللَّهِ ﴾ على الجهاد ، مع أن : ﴿ سَبِيْلِ اللَّهِ ﴾ يصدق على كل ما فيه خير وقربة ، ونفع ومعونة ، على الطاعة ، إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق . فذكر الجهاد لا ينفي غيره . وهذه فائدة ينبغي أن يحرص على فهمها كل من له عناية بالتفسير . فإنها من فوائده الجليلة ، وينحل بها إشكالات ليست بالقليلة . والله الموفق .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إما من تمام كلام الجلود ، أو مستأنف من كلامه تعالى : وعلى كل ، فهو مقرر لما قبله ، بأن القادر على الخلق أول مرة ، قادر على إنطاق كل شيء .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ أي : وما كنتم تستترون عند فعلكم الفواحش والمنكرات ، مخالفة أو كراهة أن يشهد عليكم ما ذكر . أي : ليس استتارهم للخوف مما ذكر ، بل من الناس . فـ : ﴿ أَنَ يَشْهَدَ ﴾ مفعول له ، بتقدير مضاف ، أو من أن يشهد ، أو عن أن يشهد ، أو أنه ضمن معنى الظن ، فهو في محل نصب . وفي الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق ، أنه لا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب ، كما قال أبو نواس :

~إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْماً ، فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ . وَلَكِنْ قُلْ : عَلَيَّ رَقِيبُ

~وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْكَ ، يَغِيبُ

﴿ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : ما ظننتم أن الله يعلم فينطق الجوارح ، ولكن ظننتم أنه لا يعلم كثيراً ، وهو ما علمتم خفية ، فما استترتم عنها واجترأتم على المعاصي . وإذا كان : ﴿ أَن يَشْهَدَ ﴾ مفعولاً له ، فالمعنى ما استترتم بالحجب ، لخيفة أن تشهد عليكم الجوارح ، فلذا ما استترتم عنها ، لكن لأجل ظنكم أن الله لا يعلم كثيراً ، فلذا سعيتم في الاستتار عن الخلق ، لا عن الخالق ، ولا عما تنطق به الجوارح .

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أي : أهلككم بالجراءة على مخالفته في الدنيا ، ومجادلته في القيامة : ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي : لأعمال النجاة ، والدرجات في الآخرة .

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا ﴾ أي : على النار : ﴿ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي : منزل ومسكن : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا ﴾ أي : يسألوا العتبى ، وهي الرجعة إلى الذين يحبون : ﴿ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ أي : المجابين إليه ، فلا يخفف عنهم العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 212.223 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر وعيدهم في الدنيا والآخرة ، أتبعه كفرهم الذي هو سبب الوعيد ، وعطفه على ما تقديره : فإنا طبعناهم طبيعة سوء تقتضي أنهم لا ينفكون عما يوجب العتب ، فأعرضوا ولم تنفعهم النذرى بصاعقة عاد وثمود ، فقال صارفاً القول إلى مظهر العظمة إشارة إلى أن التصرف في القلوب أمر عظيم جداً : ﴿ وقيضنا ﴾ أي جئنا وأتحنا وبعثنا وسببنا ووكلنا وهيأنا ، من القيض الذي هو المثل ، وقشر البيضة الأعلى اليابس ﴿ لهم

قرناء ﴾ أي أشخاصاً أمثالهم في الأخلاق والأوصاف أقوياء وهم مع كونهم شديدي الالتصاق بهم والإحاطة في غاية النحس والشدة في اللؤم والخبث واللجاجة فيما يكون به ضيق الخير واتساع الشر من غواة الجن والإنس ﴿ فزينوا لهم ﴾ أي من القبائح ﴿ ما ﴾ وعم الأشياء كلها فلم يأت بالجار فقال : ﴿ بين أيديهم ﴾ أي يعلمون قباحته حتى حسنوه لهم فارتكبوه ورغبوا فيه ﴿ وما خلفهم ﴾ أي ما يجهلون أمره ولا يزالون في كل شيء يزينونه ويلحون فيه ويكررونه حتى يقبل ، فإن التكرير مقرون بالتأثير ، قال القشيري : إذا أراد الله بعبد سوءاً قيض له إخوان سوء وقرناء سوء يحملونه على المخالفات ويدعونه إليها ، وإذا أراد الله بعبد خيراً قيض له قرناء خير يعينونه على الطاعات ويحملونه عليها ويدعونه إليها ، ومن ذلك الشيطان ، وشر منه النفس وبئس القرين ، تدعو اليوم إلى ما فيه الهلاك وتشهد غداً عليه .

ولما كان التقدير : فلم يدعوا قبيحة حتى ارتكبوها ، عطف عليه قوله : ﴿ وحق ﴾ أي وجب وثبت ﴿ عليهم القول ﴾ أي بدوام الغضب .

ولما كان هذا مما يوجب شدة أسفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، خفف منه بقوله : ﴿ في ﴾ أي كائنين في جملة ﴿ أمم ﴾ أي كثيرة .

ولما عبر عنهم بما يقتضي تعظيمهم بأنهم مقصودون ، حقرهم بمضير التأنيث فقال : ﴿ قد

خلت ﴾ أي لم تتعظ أمه منهم بالأخرى .

ولما كان الخلو قد يكون بالموت في زمانهم ، بين أنه مما مضى وفات .

(196/681)

ولما كان بعض من مضى غير مستغرق لجميع الزمان ، عبر ب " من " فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي في الزمان ، وقدم الأقوى لتفهم القدرة عليه القدرة على ما دونه من باب الأولى ، فإن الإنس كانوا يعدون أنفسهم دون الجن فيعوذون بهم فقال : ﴿ من الجن والأنس ﴾ ثم علل حقوق الشقاء عليهم بقوله منبهاً بالتأكيد على أنهم ينكرون أن تكون القبائح موجبة للخسر ﴿ إنهم ﴾ أي جميع المذكورين منهم وممن قبلهم : ﴿ كانوا ﴾ أي طبعاً وفعلاً ﴿ خاسرين ﴾ فعلى العاقل أن يجتهد في اختيار أصحابه وأخدانه وأحبابه ، فإن العاقبة فيهم حسنة جسيمة أو قبيحة وخيمة ، روى صاحب الفردوس عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

" إذا أراد الله بعبد شراً قيض له قبل موته شيطاناً فلا يرى حسناً إلا قبحه ولا قبيحاً إلا حسنه عنده " .

ولأحمد وأبي داود والنسائي وأبي يعلى وابن حبان في صحيحه عن عائشة ـ رضى الله

عنه ـ ا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إذا أراد الله بوالي خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكّره ، وإن ذكر أعانه ، وإن أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه " .

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضى الله عنهما ـ والنسائي عن أبي هريرة وحده ـ رضى الله عنه ـ والبخاري أيضاً عن أبي أيوب رضي الله أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله تعالى " .

وفي رواية النسائي : " ما من وال إلا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خبالاً ، فمن وقي شرها فقد وقي ، وهو إلى من يغلب عليه منهما " ، ورواية البخاري عن أبي أيوب نحوها .

(197/681)

ولما أخبر بخسرانهم ، دل عليه بما عطف على ما أرشد إليه السياق من تقديره من وقولي : فأعرضوا – أي هؤلاء العرب – وقالوا – هكذا كان الأصل ولكنه قال تنبيها على

الوصف الذي أوجب إعراضهم : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دلتهم عليه عقولهم من الحق ﴿ لا تسمعوا ﴾ أي شيئاً من مطلق السماع ﴿ لهذا القرآن ﴾ تعييناً بالإشارة احترازاً من غيره من الكتب القديمة كالتوارة ، قال القشيري : لأنه يغلب القلوب ويسلب العقول ، وكل من استمع له صبا إليه ﴿ وألغوا ﴾ أي أهذوا من لغي – بالكسر يلغى – بالفتح – إذا تكلم بما لا فائدة فيه ﴿ فيه ﴾ أي اجعلوه ظرفاً للغو بأن تكثروا من الخرافات والهذيانات واللغو بالمكاء والتصدية أي الصفير والتصفيق وغيرهما في حال تلاوته ليقع تاليه في السهو والغلط ، قال القشيري : قالوا ذلك ولم يعلموا أن من نور قلبه بالإيمان وأيد بالفهم وأمد بالبصيرة وكوشف بسماع السر من الغيب ، فهو الذي يسمع ويؤمن ، والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمان قلبه ، ولا يباشر السماع سره .

﴿ لعلكم تغلبون ﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجى له أن يغلب ويظفر بمراده في أن يميل إليه أحد ، أو يسكت أو ينسى ما كان يقول ، وهذا يدل على أنهم عارفون بأن من سمعه ولا هوى عنده مال إليه وأقبل بكليته عليه ، وقد فضحوا أنفسهم بهذا فضيحة لا مثل لها ، وذلك لأنهم تحدوا به في أن يأتوا بشيء من مثله ليعدوا غالبين فلم يجدوا شيئاً يترجون به الغلب إلا الصفير والتصفيق ونحوه من اللغو في معارضة ما علا من أعلى ذرى الكلام إلى حيث لا مطمع ولا مرام ، فلا يفيد ما أتوا به معنى غير أنهم عاجزون عن المعارضة قاطعون بأنهم متى أتوا بشيء منها افتضحوا ، وقطع كل من سمعه بأنهم مغلوبون .

ولما استحقوا بهذا العقوبة ، سبب عن ذلك مؤكداً لإنكارهم قوله تعالى : ﴿ فلنذيقن ﴾ وأظهر في موضع الإضمار تعميماً بالوصف فقال : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي هؤلاء وغيرهم ﴿ عذاباً شديداً ﴾ في الدنيا بالحرمان وما يتبعه من فنون الهوان وفي الآخرة بالنيران ﴿ ولنجزينهم ﴾ أي بأعمالهم .

ولما كان من قدر على الأغلظ ، قدر على ما دونه قال : ﴿ أسوأ ﴾ أي جزاء أسوأ العمل ﴿ الذين كانوا ﴾ بما هو لهم كالغرائز ﴿ يعملون ﴾ مواظبين عليه .

ولما أبلغ سبحانه في الترهيب من عقابهم ، زاد في تعظيمه وفضله لطفاً لمن أراد هدايته من عباده وإقامة الحجة على غيرهم فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الجزاء الأسوأ العظيم جداً ﴿ جزاء ﴾ ولما كانت عداوة من لا يطاق آمراً زائد العظمة ، نبه على ذلك بصرف الكلام عن مظهرها إلى أعظم منه فقال : ﴿ أعداء الله ﴾ أي الملك الأعظم ، لأنهم ما كانوا يفعلون ما دون الأسوأ إلا عجزاً عنه لأن جبلتهم تقتضي ذلك ، وبينه بقوله : ﴿ النار ﴾ وفصل بعض ما فيها بقوله : ﴿ لهم فيها ﴾ أي النار ﴿ دار الخلد ﴾ أي المحل المحيط بهم الدائر من غير علم من زاوية أو غيرها يعرف به خصوص موضع منه ، مع إيذانه بالدوام

واللزوم وعدم الانفكاك ، أو هو على التجريد بمعنى : هي لهم دار خلود كما كان لهم في الدنيا دار سرور بمعنى أنها كانت لهم نفسها دار لهو وغرور .

ولما كانوا على أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب مصرين إصراراً يمتنع انفكاكهم عنه ، زاد حسناً قوله : ﴿ جزاء ﴾ أي وفاقاً ﴿ بما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ، ورد الكلام إلى مظهر العظمة المقتضي للنكال فقال : ﴿ بآياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة ﴿ يجحدون ﴾ أي ينكرون عناداً من غير مراعاة لعلوها في نفسها ولا علوها بنسبتها إلينا ، فلأجل جحودهم كانوا يقدمون على ما لا يرضاه عاقل من اللهو وغيره .

(199/681)

ولما تراءى لهم أن الذي أوجب لهم هذا السوء جلودهم بالشهادة عليهم وقرناؤهم بإضلالهم لهم وكان التباغض والعداوة قد وقع بين الجميع ، فصار تمني كل للآخر السوء زيادة في عذابهم ، وكانت مساءة جلودهم مساءتهم ، خصوا القرناء بإرادة الانتقام منهم ، فحكى سبحانه قولهم بقوله عطفاً على ﴿ وقالوا لجلودهم ﴾ أو على ما تقديره : فعلموا حينئذ أنهم كانوا على ضلال لتقصيرهم في النظر وتقليدهم لغيرهم : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي غطوا أنوار عقولهم داعين بما لو سمع لهم ، فهو زيادة في عقوبتهم ، وحكايته لنا

وعظ وتحذير : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها الذي لم يقطع قط إحسانه عنا ﴿ أرنا ﴾ الصنفين ﴿ اللّذين أضلاّنا ﴾ عن المنهج الموصل إلى محل الرضوان ﴿ من الجن والإنس ﴾ المزينين لنا ارتكاب السوء خفية وجهراً ، قرأ الجماعة بكسر الراء من أرنا ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب والسوسي عن أبي عمرو وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء هنا خاصة . قال الأصبهاني : يحكى عن الخليل أنك إذا قلت : أرني ثوبك – بالكسر فالمعنى بصرنيه ، وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء ، ومعناه أعطني ثوبك ، ونظيره اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء ، وأصله الإحضار – انتهى .

﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ في النار إذلالاً لهما كما جعلانا تحت أمرهما ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ أي من أهل الدرك الأسفل وممن هو دوننا كما جعلانا كذلك في الدنيا في حقيقة الحال بإتباعنا لهما فيما أراد بنا ، وفي الآخرة بهذا المال ، والظاهر أن المراد أن كل أحد يتمنى أن يعرف من أضله من القبيلتين ليفعل بهم ذلك إن قدر عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 566 . 570 ﴾

(200/681)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ربنا أرنا ﴾ بسكون الراء : ابن كثير وابن عامر وأبو بكر ورويس أبو عمرو بالاختلاس . الآخرون : بكسر الراء . ﴿ اللذين ﴾ بتشديد النون : ابن كثير . ﴿ يلحدون ﴾ بفتح الياء والحاء : حمزة . الباقون : بضم الياء وكسر الحاء ﴿ أعجمي ﴾ بهمزة واحدة : هشام . وقرأ بتحقيق الهمزتين : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص إلا الخزاز . الباقون : بالمد ﴿ ثمرات ﴾ على الجمع : أبو جعفر ونافع وابن عامر وحفص والمفضل . ﴿ شركاي ﴾ مثل ﴿ من وراي ﴾ على وزن ﴿ عصاي ﴾ قد مر في سورة مريم ﴿ إلى ربي ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ ونأى بجانب ﴾ وقد مر في السورة ﴿ سبحان الذي أسرى ﴾ .

(201/681)

الوقوف : ﴿ والإنس ﴾ ج للابتداء بأن مع احتمال كونه جواب القسم في حق ﴿ خاسرين ﴾ 5 ﴿ تغلبون ﴾ 5 ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ ج لأن ما بعده يصلح مستأنفاً وحالاً أي كائناً لهم فيها ﴿ دار الخلد ﴾ ج ﴿ يجحدون ﴾ 5 ﴿ الأسفلين

﴿ 5 ﴾ ﴿ توعدون ﴾ 5 ﴿ وفي الآخرة ﴾ ج لانقطاع النظم بتقدير الجار مع اتحاد المقول ﴿ تدعون ﴾ 5 ط لحق المحذوف أي أصبتم أو وجدتم نزلاً ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ المسلمين ﴾ 5 ﴿ السيئة ﴾ ط ﴿ حميم ﴾ 5 ﴿ صبروا ﴾ ج لاتفاق الجملتين مع تكرارها للتوكيد ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ بالله ﴾ ط ﴿ العليم ﴾ 5 ﴿ والقمر ﴾ ط ﴿ تعبدون ﴾ 5 ﴿ يسأمون ﴾ 5 سجدة ﴿ اهتزت وربت ﴾ ط ﴿ الموتى ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ 5 ﴿ علينا ﴾ ط ﴿ القيامة ﴾ ط ﴿ شئتم ﴾ 5 لا ليكون ما بعده دالاً على أنه أمر تهديد ﴿ بصير ﴾ 5 ﴿ لما جاءهم ﴾ ج لأن خبر أن محذوف فيتقدر ههنا أو بعد قوله ﴿ من خلفه ﴾ كما يجيء ﴿ عزيز ﴾ 5 لا لاتصال الصفة ﴿ من خلفه ﴾ ط ﴿ حميد ﴾ 5 ﴿ من قبلك ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ وآياته ﴾ ط ﴿ وعربي ﴾ ط ﴿ وشفاء ﴾ ط ﴿ عمى ﴾ ط ﴿ بعيد ﴾ 5 ﴿ فيه ﴾ ط ﴿ بينهم ﴾ ط ﴿ مريب ﴾ 5 ﴿ فعليها ﴾ ط ﴿ للعبيد ﴾ 5 ﴿ الساعة ﴾ ط ﴿ بعلمه ﴾ ط ج ﴿ شركائي ﴾ لا لأن ﴿ قالوا ﴾ عامل ﴿ يوم ﴾ ﴿ آذناك ﴾ لا لأنه في معنى القول وقع على الجملة بعده ﴿ من شهيد ﴾ 5 ج للآية مع العطف ﴿ محيص ﴾ 5 ﴿ الخير ﴾ ز لاختلاف الجملتين إلا أن مقصود الكلام يتم بهما ﴿ قنوط ﴾ 5 ﴿ هذا لي ﴾ لا تحرز إعمالاً يقوله مسلم قائمة كذلك ﴿ للحسنى ﴾ 5 ج لابتداء الأمر بالتوكيد مع فاء التعقيب ﴿ عملوا ﴾ إمهالاً للتذكر في الحالتين مع اتفاق الجملتين ﴿ غليظ ﴾ 5 ﴿

بجانبه ﴾ ج فصلاً بين تناقض الحالين مع اتفاق الجملتين ﴿ عريض ﴾ 5 ﴿ بعيد ﴾ 5 ﴿ الحق ﴾ ط ﴿ شهيد ﴾ 5 ﴿ ربهم ﴾ ج ﴿ محيط ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 56 . 57 ﴾

(202/681)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفار أردفه بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر فقال : ﴿ وَقَيَضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الصحاح" : يقال قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع ، وهما قيضان كما يقال بيعان ، وقيض الله فلاناً أي جاءه به وأتى به له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء ﴾ .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر ، فقالوا إنه تعالى ذكر أنه قيض لهم أولئك القرناء ، وكان عالماً بأنه متى قيض لهم أولئك القرناء فإن يزينوا الباطل لهم ، وكل من فعل فعلاً وعلم أن ذلك الفعل يفضي إلى أثر لا محالة ، فإن فاعل ذلك الفعل لا بد وأن يكون مريداً لذلك الأثر فثبت أنه تعالى لما قيض لهم قرناء فقد أراد منهم ذلك الكفر ، أجاب الجبائي عنه بأن قال لو أراد المعاصي لكانوا بفعلها مطيعين إذ الفاعل لما أراده منه غيره يجب أن يكون مطيعاً له ، وبأن قوله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] يدل على أنه لم يرد منهم إلا العبادة ، فثبت بهذا أنه تعالى لم يرد منهم المعاصي ، وأما هذه الآية فنقول : إنه تعالى لم يقل وقيضنا لهم قرناء ليزينوا لهم ، وإنما قال : ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم ﴾ فهو تعالى قيض القرناء لهم بمعنى أنه تعالى أخرج كل أحد إلى آخر من جنسه ، فقيض أحد الزوجين للآخر والغني للفقير والفقير للغني ثم بيّن تعالى أن بعضهم يزين المعاصي للبعض .

(203/681)

واعلم أن وجه استدلال أصحابنا ما ذكرناه ، وهو أن من فعل فعلاً وعلم قطعاً أن ذلك الفعل يفضي إلى أثر ، فاعل ذلك الفعل يكون مريداً لذلك الأثر ، فههنا الله تعالى قيض أولئك

القرناء لهم وعلم أنه متى قيض أولئك القرناء لهم فإنهم يقعون في ذلك الكفر والضلال ، وما ذكره الجبائي لا يدفع ذلك ، قوله ولو أراد الله منهم المعاصي لكانوا بفعلها مطيعين لله ، قلنا لو كان من فعل ما أراده غيره مطيعاً له لوجب أن يكون الله مطيعاً لعباده إذا فعل ما أرادوه معلوم أنه باطل ، وأيضاً فهذا إلزام لفظي لأنه يقال إن أردت بالطاعة أنه فعل ما أراد فهذا إلزام للشيء على نفسه ، وأن أردت غيره فلا بد ، من بيانه حتى ينظر فيه أنه هل يصح أم لا .

المسألة الثانية :

اختلفوا في المراد بقوله ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وذكر الزجاج فيه وجهين : الأول : زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنّة ولا نار وما خلفهم من أمر الدنيا ، فزينوا أن الدنيا قديمة ، وأنه لا فاعل ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك الثاني : زينوا لهم أعمالهم التي يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يزعمون أنهم يعملونه ، وعبّر ابن زيد عنه ، فقال زينوا لهم ما مضى من أعمالهم الخبيثة وما بقي من أعمالهم الخسيسة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ فقوله في أمم في محل النصب على الحال من الضمير في عليهم ، والتقدير حق عليهم القول حال كونهم كائنين في جملة ﴿ أُمَمٍ ﴾ من المتقدمين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ واحتج أصحابنا أيضاً بأنه تعالى أخبر بأن هؤلاء ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ فلو لم يكونوا كفاراً لانقلب هذا القول الحق باطلاً وهذا العلم جهلاً ، وهذا الخبر الصدق كذباً ، وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال ، فثبت أن صدور الإيمان عنهم ، وعدم صدور الكفر عنهم محال .

واعلم أن الكلام في أول السورة ابتدىء من قوله ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ إلى قوله ﴿ فاعمل إِنَّنَا عاملون ﴾ [فصلت : 5] فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة ، واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع ، ثم إنه حكى عنهم شبهة أخرى فقال : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ ، قال صاحب "الكشاف" قرىء ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ بفتح الغين وضمها يقال لغى يلغي ويلغو واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته .

واعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل في المعنى ، وفي اللفظ وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه ، وأحاط عقله بمعانيه ، وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول ، فدبروا تدبيراً في منع الناس عن استماعه ، فقال بعضهم لبعض ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان ﴾ إذا قرىء وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة ، حتى تخلطوا على القارىء وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته ، كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً ، والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن ما يكون لغواً وباطلاً ، لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير مفهومة للناس ، فبهذا الطريق تغلبون محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهذا جهل منهم لأنهم في الحال أقروا بأنهم مشتغلون بالغو والباطل من العمل والله تعالى ينصر محمداً بفضله ، ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ لأن لفظ الذوق إنما يذكر في القدر القليل الذي يؤتى به لأجل التجربة ، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب الشديد ، فإذا كان القليل منه عذاباً شديداً فكيف يكون حال الكثير منه ، ثم قال : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ واختلفوا فيه فقال الأكثرون المراد جزاء سوء أعمالهم ، وقال الحسن بل المراد أنه لا يجازيهم على محاسن أعمالهم ، لأنهم أحبطوها بالكفر فضاعت تلك الأعمال الحسنة عنهم ، ولم يبق معهم إلا الأعمال القبيحة الباطلة ، فلا جرم لم يتحصلوا إلا على جزاء السيئات .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء الله النار ﴾ والمعنى أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بين أن ذلك الأسوأ الذي جعل جزاء أعداء الله هو النار .

(206/681)

ثم قال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ﴾ أي لهم في جملة النار دار السيئات معينة وهي دار العذاب المخلد لهم ﴿ جَزَاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي جزاء بما كانوا يلغون في القراءة ، وإنما سماه جحوداً لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الاعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة ، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً إلا أنهم جحدوا للحسد .

واعلم أنه تعالى لما بيّن أن الذي حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين أن الكفار عند الوقوع في العذاب الشديد يقولون ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الذين أضلانا مِنَ الجن والإنس ﴾ والسبب في ذكر هذين القسمين أن الشيطان على ضربين جني وإنسي ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبىّ عَدُوّاً شياطين الإنس والجن ﴾ [الإنعام : 112] وقال : ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس مِنَ الجنة والناس ﴾ [الناس : 5 – 6] وقيل

هما إبليس وقابيل لأن الكفر سنة إبليس ، والقتل بغير حق سنة قابيل .

وقرىء ﴿ أَرِنَا ﴾ بسكون الراء لثقل الكسرة كما قالوا في فخذ فخذ ، وقيل معناه أعطنا الذين أضلانا وحكوا عن الخليل أنك إذا قلت أرني ثوبك بالكسر ، فالمعنى بصرنيه وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطني ثوبك .

(207/681)

ثم قال تعالى : ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ قال مقاتل يكونان أسفل منا في النار ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ قال الزجاج : ليكونا في الدرك الأسفل من النار ، وكان بعض تلامذتي ممن يميل إلى الحكمة يقول المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب ، وإليهما الإشارة في قصة الملائكة بقوله ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء ﴾ [البقرة : 30] ثم قال والمراد بقوله ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ يعني يا ربنا أعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية ، والمراد بكونهما تحت أقدامه كونهما مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها ، وأن لا يكونا مسؤولين عليها قاهرين لها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 102 . 104 ﴾

(208/681)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾

ثم وصف عز وجل حالهم في الدنيا وما أصابهم به حين أعرضوا ، فختم عليهم فقال : ﴿ وقيضنا لهم قرناء ﴾ أي يسرنا لهم ﴿ قرناء ﴾ سوء من الشياطين وغواة الإنس .

وقوله : ﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم ﴾ أي علموهم وقرروا في نفوسهم معتقدات سوء في الأمور التي تقدمتهم من أمر الرسل والنبوات ، ومدح عبادة الأصنام واتباع فعل الآباء إلى غير ذلك مما يقال إنه بين أيديهم ، وذلك كل ما تقدمهم في الزمان واتصل إليهم أثره أو خبره ، وكذلك أعطوهم معتقدات سوء فيما خلفهم وهو كل ما يأتي بعدهم من القيامة والبعث ونحو ذلك مما يقال فيه إنه خلف الإنسان ، فزينوا لهم في هذين كل ما يرديهم ويفضي بهم إلى عذاب جهنم .

وقوله : ﴿ وحق عليهم القول ﴾ أي سبق القضاء الحتم ، وأمر الله بتعذيبهم في جملة أمم معذبين كفار ﴿ من الجن والإنس ﴾ وقالت فرقة : ﴿ في ﴾ بمعنى : مع ، أي مع أمم ، والمعنى يتأدى بالحرفين ، ولا نحتاج أن نجعل حرفاً بمعنى حرف إذ قد أبى ذلك رؤساء البصريين .

قوله عز وجل : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ .

حكاية لما فعله بعض قريش كأبي جهل ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن في المسجد الحرام ويصغي إليه الناس من مؤمن وكافر ، فخشي الكفار استمالة القلوب بذلك ، فقالوا : متى قرأ محمد فلنلغط نحن بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والإرجاز حتى يخفى صوته ولا يقع الاستماع منه ، وهذا الفعل منهم هو اللغو .

وقال أبو العالية أرادوا : قعوا فيه وعيبوه . واللغو في اللغة : سقط القول الذي لا معنى له ، وهو من الخساسة والبطول في حكم لا معنى له .

(209/681)

وقرأ جمهور الناس : " والغَوا " بفتح الغين وجزم الواو . وقرأ بكر بن حبيب السهمي : " الغُوا " بضم الغين وسكون الواو ، ورويت عن عيسى وابن أبي إسحاق بخلاف عنهما وهما لغتان ، يقال لغا يلغو ، ويقال لغى يلغي ، ويقال أيضاً لغى يلغى ، أصله يفعِل بكسر العين ، فرده حرف الحلق إلى الفتح ، فالقراءة الأولى من يلغى ، والقراءة الثانية من يلغو ، قاله الأخفش .

وقوله : ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ أي تطمسون أمر محمد عليه السلام وتميتون ذكره وتصرفون القلوب عنه ، فهذه الغاية التي تمنوها .

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27)

وقوله تعالى : ﴿ فلنذيقن ﴾ الفاء دخلت على لام القسم ، وهي آية وعيد لقريش .

والعذاب الشديد : هو عذاب الدنيا في بدر وغيرها . والجزاء بأسوأ أعمالهم : هو عذاب الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الجزاء المتقدم . . و: ﴿ جزاء أعداء الله ﴾ خبر الابتداء . و: ﴿ النار ﴾ بدل من قوله : ﴿ جزاء أعداء ﴾ ويجوز أن يكون : ﴿ ذلك ﴾ خبر ابتداء تقديره : الأمر ذلك ، ويكون قوله : ﴿ جزاء أعداء ﴾ ابتداء ، و: ﴿ النار ﴾ خبره .

وقوله : ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ أي موضع البقاء ومسكن العذاب الدائم ، فالظرفية في قوله : ﴿ فيها ﴾ متمكنة على هذا التأويل ، ويحتمل أن يكون المعنى : هب لهم دار الخلد ، ففي قوله : ﴿ فيها ﴾ معنى التجريد كما قال الشاعر :

وفي الله إن لم ينصفوا حكم عدل . . . وفي قراءة عبد الله بن مسعود : " ذلك جزاء أعداء الله النار دار الخلد " ، وسقط ﴿ لهم فيها ﴾ وجحودهم بآيات الله مطرد في علاماته المنصوبة لملقه وفي آيات كتابه المنزلة على نبيه .

ثم ذكر عز وجل مقالة كفار يوم القيامة إذا دخلوا النار فإنهم يرون عظيم ما حل بهم وسوء منقلبهم فتجول أفكارهم فيمن كان سبب غوايتهم وبادي ضلالتهم فيعظم غيظهم وحنقهم عليه ويودون أن يحصل في أشد عذاب فحينئذ يقولون ﴿ ربنا أرنا اللذين أضلانا ﴾ ، وظاهر اللفظ يقتضي أن الذي في قولهم : ﴿ اللذين ﴾ إنما هو للجنس ، أي ﴿ أرنا ﴾ كل مغوٍ ومضل ﴿ من الجن والإنس ﴾ ، وهذا قول جماعة من المفسرين . وقال علي بن أبي طالب وقتادة . وطلبوا ولد آدم الذي سن القتل والمعصية من البشر وإبليس الأبالسة من الجن .

قال القاضي أبو محمد : وتأمل هل يصح هذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لأن ولد آدم مؤمن عاص ، وهؤلاء إنما طلبوا المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود ، وإنما القوي أنهم طلبوا النوعين ، وقد أصلح بعضهم هذا القول بأن قال : يطلب ولد آدم كل عاص دخل النار من أهل الكبائر ، ويطلب إبليس كل كافر ، ولفظ الآية يزحم هذا التأويل ، لأنه يقتضي أن الكفرة إنما طلبوا اللذين أضلا .

وقرأ نافع وحمزة والكسائي : " أرِنا " بكسر الراء ، وهي رؤية عين ، ولذلك فهو فعل يتعدى إلى مفعولين . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم : " أرْنا " بسكون الراء ، فقال هشام بن عمار : هو خطأ . وقال أبو علي : هي مخففة من : ﴿ أرنا ﴾ كما قالوا :

ضحك وفخذ . وقرأ أبو عمرو : بإشمام الراء الكسر ، ورويت عن أهل مكة .

وقوله : ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ يريدون في أسفل طبقة من النار ، وهي أشد عذاباً .

وهي درك المنافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(211/681)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾

قال النقاش : أي هيأنا لهم شياطين .

وقيل : سلطنا عليهم قرناء يزيّنون عندهم المعاصي ، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضاً ؛ أي سبَّبْنا لهم قرناء ؛ يقال : قيَّض الله فلاناً لفلان أي جاءه به وأتاحه له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾ .

القشيري : ويقال قيّض الله لي رزقاً أي أتاحه كما كنت أطلبه ، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة ، قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع ، وهما قيِّضان كما تقول بيّعان .

﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا فحسّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ حسنّوا لهم ما بعد مماتهم ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة ؛ عن مجاهد .

وقيل : المعنى "قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ" في النار "فَزَيَّنُوا لَهُمْ" أعمالهم في الدنيا ؛ والمعنى قدّرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم .

وقيل : المعنى أحوجناهم إلى الأقران ؛ أي أحوجنا الفقير إلى الغني لينال منه ، والغني إلى الفقير ليستعين به فزيّن بعضهم لبعض المعاصي .

وليس قوله : ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ عطفاً على ﴿ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ بل المعنى وأنسوهم ما خلفهم ففيه هذا الإضمار .

قال ابن عباس : "مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ" تكذيبهم بأمور الآخرة "وَمَا خَلْفَهُمْ" التسويف والترغيب في الدنيا .

الزجاج : "مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ" ما عملوه "وَمَا خَلْفَهُمْ" ما عزموا على أن يعملوه .

وقد تقدم قول مجاهد .

وقيل : المعنى لهم مثل ما تقدّم من المعاصي "وما خلفهم" ما يعمل بعدهم .

﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول في أُمَمٍ ﴾ أي وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم .

وقيل : "في" بمعنى مع ؛ فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرة قبلهم فيما دخلوا فيه .

وقيل : "فِي أُمَمٍ" في جملة أمم ، ومثله قول الشاعر :

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ . . .

فُوكاً فَفِي آخَرِين قد أَفكوا

يريد فأنت في جملة آخرين لست في ذلك بأوحد .

ومحل "فِي أُمَمٍ" النصب على الحال من الضمير في ""عَلَيْهِمْ" أي حق عليهم القول كائنين في جملة أمم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ﴾ أعمالهم في الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن فقالوا : "لاَ تَسْمَعُوا" .

وقيل : معنى "لاَ تَسْمَعُوا" لا تطيعوا ؛ يقال : سمعت لك أي أطعتك .

"وَالْغَوْاْ فِيهِ" قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول .

وقيل : إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن .

وقال مجاهد : المعنى "وَالْغَوْاْ فِيهِ" بالمُكاء والتَّصفيق والتخليط في المنطق حتى يصير لَغْواً .

وقال الضحاك : أكثِروا الكلام ليختلط عليه ما يقول .

وقال أبو العالية وابن عباس أيضاً : قِعُوا فيه وعيِّبوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ محمداً على قراءته فلا يظهر ولا يستميل القلوب .

وقرأ عيسى بن عمر والجحدري وابن أبي إسحاق وأبو حَيْوة وبكر بن حبيب السهمي "وَالْغُوا" بضم الغين وهي لغة من لغا يلغو .

وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى .

قال الهروي : وقوله : ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ قيل : عارِضوه بكلام لا يفهم .

يقال : لغوت أَلْغُو وأَلْغَى ، ولغِيَ يَلْغَى ثلاث لغات .

وقد مضى معنى اللغو في "البقرة" وهو ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل .

قوله تعالى : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ قد تقدّم أن الذوق يكون محسوساً ، ومعنى العذاب الشديد : ما يتوالى فلا ينقطع .

وقيل : هو العذاب في جميع أجزائهم .

(213/681)

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ولنجزينهم في الآخرة جزاء قبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا .

وأسوأ الأعمال الشرك .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ الله النار ﴾ أي ذلك العذاب الشديد ، ثم بينه بقوله "النَّارُ" .

وقرأ ابن عباس "ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ" فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية .

و"ذَلِكَ" ابتداء و"جَزَاءُ" الخبر و"النَّارُ" بدل من "جَزَاءُ" أو خبر مبتدأ مضمر ، والجملة في موضع بيان للجملة الأولى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يعني في النار فذكره بلفظ الماضي والمراد المستقبل ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا اللذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس ﴾ يعني إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه .

عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما ؛ ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع : " ما من مسلم يُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كفل من ذنبه لأنه أوّل من سنّ القتل " خرّجه الترمذي ، وقيل : هو بمعنى الجنس وبُني على التثنية لاختلاف الجنسين .

﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ في النار وهو الدرك الأسفل .

سألوا أن يُضعِّف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس .

وقرأ ابن محيصن والسوسي عن أبي عمرو وابن عامر وأبو بكر والمفضل "أَرْنَا" بإسكان الراء ، وعن أبي عمرو أيضاً باختلاسها .

وأشبع الباقون كسرتها وقد تقدّم في "الأعراف" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(214/681)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) ﴾

لما بين تعالى كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا ، أردفه بكيفية عقوبة الكفار أولئك وغيرهم .

وانتصب يوم باذكر .

وقرأ الجمهور : ﴿ يحشر ﴾ مبنياً للمفعول ، ﴿ وأعداء ﴾ رفعاً ، وزيد بن عليّ ، ونافع ، والأعرج ، وأهل المدينة : بالنون أعداء نصباً ، وكسر الشين الأعرج ؛ وتقدم معنى ﴿ يوزعون ﴾ في النمل ، و ﴿ حتى ﴾ : غاية ليحشروا ، ﴿ أعداء الله ﴾ : هم الكفار

من الأولين والآخرين ، وما بعد إذا زائدة للتأكيد .

وقال الزمخشري : ومعنى التأكيد فيها أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ، ولا وجه لأن يخلو منها ومثله قوله : ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به ﴾ أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به . انتهى .

ولا أدري أن معنى زيادة ما بعد إذ التوكيد فيها ، ولو كان التركيب بغير ما ، كان بلا شك حصول الشرط من غير تأخر ، لأن أداة الشرط ظرف ، فالشهادة واقعة فيه لا محالة ، وفي الكلام حذف ، التقدير : ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾ ، أي النار ، وسئلوا عما أجرموا فأنكروا ، ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ﴾ بما اكتسبوا من الجرائم ، وكانوا حسبوا أن لا شاهد عليهم .

ففي الحديث : " أن أول ما ينطق من الإنسان فخذه اليسرى ، ثم تنطق الجوارح فيقول : تباً لك ، وعنك كنت أدافع "

ولما كانت الحواس خمسة : السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وكان الذوق مندرجاً في اللمس ، إذ بمماسة جلدة اللسان والحنك للمذوق يحصل إدراك المذوق ، وكان حسن الشم ليس فيه تكليف ولا أمر ولا نهي ، وهو ضعيف ، اقتصر من الحواس على السمع والبصر واللمس ، إذ هذه هي التي جاء فيها التكليف ، ولم يذكر حاسة الشم لأنه لا تكليف فيه ، فهذه والله أعلم حكمة الاقتصار على هذه الثلاثة .

والظاهر أن الجلود هي المعروفة .

وقيل : هي الجوارح كنى بها عنها .

(215/681)

وقيل : كنى بها عن الفروج .

قيل : وعليه أكثر المفسرين ، منهم ابن عباس ، كما كنى عن النكاح بالسر .

﴿ بما كانوا يعلمون ﴾ من الجرائم .

ثم سألوا جلودهم عن سبب شهادتها عليهم ، فلم تذكر سبباً غير أن الله تعالى أنطقها .

ولما صدر منها ما صدر من العقلاء ، وهي الشهادة ، خاطبوها بقولهم : ﴿ لم شهدتم ﴾ ؟ مخاطبة العقلاء .

وقرأ زيد بن علي : لم شهدتن ؟ بضمير المؤنثات ؟ و ﴿ كل شيء ﴾ : لا يراد به العموم ، بل المعنى : كل ناطق بما ذلك له عادة ، أو كان ذلك فيه خرق عادة .

وقال الزمخشري : أراد بكل شيء : كل شيء من الحيوان ، كما أراد به في قوله : ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ من المقدورات .

والمعنى : أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان ، وعلى

خلقكم وإنشائكم ، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ، وإنما قالوا لهم : ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ لتعاظمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم .

وقال الزمخشري أيضاً : فإن قلت : كيف تشهد عليهم أبصارهم وكيف تنطق ؟ قلت : الله عز وجل ينطقها ، كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلاماً .

انتهى ، وهذا الرجل مولع بمذهبه الاعتزالي ، يدخله في كل ما يقدر أنه يدخل .

وإنما أشار بقوله : كما أنطق الشجرة بأن يخلق فيها كلاماً إلى أن الله تعالى لم يكلم موسى حقيقة ، وإنما الشجرة هي التي سمع منها الكلام بأن يخلق الله فيها كلاماً خاطبته به عن الله تعالى .

والظاهر أن قوله : ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ من كلام الجوارح ، قيل : ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى توبيخاً لهم ، أو من كلام ملك يأمره تعاليه .

و ﴿ أن يشهد ﴾ : يحتمل أن يكون معناه : خيفة أو لأجل أن يشهد إن كنتم غير عالمين بأنها تشهد ، ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم ﴾ ، فانهمكتم وجاهدتم ، وإلى هذا نحا مجاهد ، والستر يأتي في هذا المعنى ، كما قال الشاعر :

والستر دون الفاحشات وما . . .

يلقاك دون الخير من ستر

ويحتمل أن يكون معناه : عن أن يشهد ، أي وما كنتم تمتنعون ، ولا يمكنكم الاختفاء عن أعضائكم والاستتار عنها بكفركم ومعاصيكم ، ولا تظنون أنها تصل بكم إلى هذا الحد من الشهادة عليكم ، وإلى هذا نحا السدي ، أو ما كنتم تتوقعون بالاختفاء والستر أن يشهد عليكم ، لأن الجوارح لزيمة لكم .

وعبر قتادة عن تستترون بتظنون ، أي وما كنتم تظنون أن يشهد ، وهذا تفسير من حيث المعنى لا من حيث مرادفة اللفظ ، ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً ﴾ ، وهو الخفيات من أعمالكم ، وهذا الظن كفر وجهل بالله وسوء معتقد يؤدي إلى تكذيب الرسل والشك في علم الإله .

﴿ وذلكم ﴾ : إشارة إلى ظنهم أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالهم ، وهو مبتدأ خبره ﴿ أرداكم ﴾ ، و﴿ ظنكم ﴾ بدل من ﴿ ذلكم ﴾ أي وظنكم بربكم ذلكم أهلككم .

وقال الزمخشري : وظنكم وأرداكم خبران .

وقال ابن عطية : أرداكم يصلح أن يكون خبراً بعد خبر . انتهى .

ولا يصح أن يكون ظنكم بربكم خبراً ، لأن قوله : ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى ظنهم السابق ، فيصير التقدير : وظنكم بأن ربكم لا يعلم ظنكم بربكم ، فاستفيد من الخبر ما استفيد من المبتدأ ، وهو لا يجوز ؛ وصار نظير ما منعه النحاة من قولك : سيد الجارية مالكها .

وقال ابن عطية : وجوز الكوفيون أن يكون معنى أرداكم في موضع الحال ، والبصريون لا يجيزون وقوع الماضي حالاً إلا إذا اقترن بقد ، وقد يجوز تقديرها عندهم إن لم يظهر .

انتهى .

وقد أجاز الأخفش من البصريين وقوع الماضي حالاً بغير تقدير قد وهو الصحيح ، إذ كثر ذلك في لسان العرب كثرة توجب القياس ، ويبعد فيها التأويل ، وقد ذكرنا كثرة الشواهد على ذلك في كتابنا المسمى (بالتذييل والتكميل في شرح التسهيل) .

﴿ فإن يصبروا ﴾ : خطاب للنبي عليه السلام ، قيل : وفي الكلام حذف تقديره : أولاً يصبروا ، كقوله : ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ﴾ وذلك في يوم القيامة .

(217/681)

وقيل : التقدير : فإن يصبروا على ترك دينك واتباع أهوائهم ، ﴿ فالنار مثوى لهم ﴾ : أي مكان إقامة .

وقرأ الجمهور : ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ مبنياً للفاعل ، ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ : اسم مفعول .

قال الضحاك : إن يعتذروا فما هم من المعذورين ؛ وقيل : وإن طلبوا العتبى ، وهي الرضا

، فما هم ممن يعطاها ويستوجبها .

وقرأ الحسن ، وعمرو بن عبيد ، وموسى الأسواري : وإن يستعتبوا : مبنياً للمفعول ، فما هم من المعتبين : اسم فاعل ، أي طلب منهم أن يرضوا ربهم ، فما هم فاعلون ، ولا يكون ذلك لأنهم قد فارقوا الدنيا دار الأعمال ، كما قال (صلى الله عليه وسلم) : " ليس بعد الموت مستعتب " وقال أبو ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجع . . .

والدهر ليس بمعتب من يجزع

ويحتمل أن تكون هذه القراءة بمعنى : ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

ولما ذكر تعالى الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفرة ، أردفه بذكر السبب الذي أوقعهم في الكفر فقال : ﴿ وقضينا لهم قرناء ﴾ : أي سببنا لهم من حيث لم يحتسبوا .

وقيل : سلطنا ووكلنا عليهم .

وقيل : قدرنا لهم .

وقرناء : جمع قرين ، أي قرناء سوء من غواة الجن والإنس ؛ ﴿ فزينوا لهم ﴾ : أي حسنوا وقدروا في أنفسهم ؛ ﴿ ما بين أيديهم ﴾ ، قال ابن عباس : من أمر الآخرة ، أنه لا جنة ولا نار ولا بعث .

﴿ وما خلفهم ﴾ ، قال ابن عباس : من أمر الدنيا ، من الضلالة والكفر ولذات الدنيا .

وقال الكلبي : ﴿ ما بين أيديهم ﴾ : أعمالهم التي يشاهدونها ، ﴿ وما خلفهم ﴾ : ما هم عاملوه في المستقبل .

وقال ابن عطية : ﴿ ما بين أيديهم ﴾ ، من معتقدات السوء في الرسل والنبوات ومدح عبادة الأصنام واتباع فعل الآباء ، ﴿ وما خلفهم ﴾ : ما يأتي بعدهم من أمر القيامة والمعاد .

انتهى ، ملخصاً ، وهو شرح قول الحسن ، قال : ﴿ ما بين أيديهم ﴾ من أمر الدنيا ، ﴿ وما خلفهم ﴾ من أمر الآخرة .

(218/681)

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم ؟ قلت : معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين ، والدليل عليه : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً ﴾ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

﴿ وحق عليهم القول ﴾ : أي كلمة العذاب ، وهو القضاء المختم ، بأنهم معذبون .

﴿ في أمم ﴾ : أي في جملة أمم ، وعلى هذا قول الشاعر :

إن تك عن أحسن الصنيعة مأفو . . .

كاً ففي آخرين قد أفكوا

أي : فأنت في جملة آخرين ، أو فأنت في عدد آخرين ، لست في ذلك بأوحد .

وقيل : في بمعنى مع ، ولا حاجة للتضمين مع صحة معنى في .

وموضع في ﴿ أمم ﴾ نصب على الحال ، أي كائنين في جملة أمم ، وذو الحال الضمير في عليهم .

﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ : الضمير لهم وللأمم ، وهذا تعليل لاستحقاقهم العذاب .

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا ﴾ : أي لا تصغوا ، ﴿ لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ : إذا تلاه محمد (صلى الله عليه وسلم) .

قال أبو العالية : وقعوا فيه وعيبوه .

وقال غيره : كان الرسول عليه السلام إذا قرأ في المسجد أصغى إليه الناس من مؤمن وكافر ، فخشي الكفار استمالة القلوب بذلك فقالوا : متى قرأ محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فلنلغط نحن بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأرجاز حتى يخفى صوته ، وهذا الفعل هو اللغو .

وقرأ الجمهور والفراء : بفتح الغين مضارع لغى بكسرها ؛ وبكر بن حبيب السهمي كذا في

كتاب ابن عطية ، وفي كتاب اللوامح .

وأما في كتاب ابن خالويه ، فعبد الله بن بكر السهمي وقتادة وأبو حيوة والزعفراني وابن أبي إسحاق وعيسى : بخلاف عنهما ، بضم الغين مضارع لغى بفتحها ، وهما لغتان ، أي ادخلوا فيه اللغو ، وهو اختلاف القول بما لا فائدة فيه .

وقال الأخفش : يقال لغا يلغى بفتح الغين وقياسه الضم ، لكنه فتح لأجل حرف الحلق ، فالقراءة الأولى من يلغى .

والثانية من يلغو .

(219/681)

وقال صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون الفتح من لغى بالشيء يلغى به إذا رمى به ، فيكون فيه بمعنى به ، أي ارموا به وانبذوه .

﴿ لعلكم تغلبون ﴾ : أي تطمسون أمره وتميتون ذكره .

﴿ فلنذيقن الذين كفروا ﴾ : وعيد شديد لقريش ، والعذاب الشديد في الدنيا كوقعة بدر وغيرها ، والأسوأ يوم القيامة .

أقسم تعالى على الجملتين ، وشمل الذين كفروا القائلين والمخاطبين في قوله : ﴿ وقال الذين

كفروا لا تسمعوا ﴾ .

﴿ ذلك ﴾ : أي جزاؤهم في الآخرة ، فالنار بدل أو خبر مبتدأ محذوف .

وجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر ذلك ، وجزاء مبتدأ والنار خبره .

﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ : أي فكيف قيل فيها ؟ والمعنى أنها دار الخلد ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ والرسول نفسه هو الأسوة ، وقال الشاعر :

وفي الله إن لم ينصفوا حكم عدل . . .

والمعنى أن الله هو الحكم العدل ، ومجاز ذلك أنه قد يجعل الشيء ظرفاً لنفسه ، باعتبار متعلقه على سبيل المبالغة ، كأن ذلك المتعلق صار الشيء مستقراً له ، وهو أبلغ من نسبة ذلك المتعلق إليه على سبيل الإخبارية عنه ﴿ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ .

قال الزمخشري : إن جزاءهم بما كانوا يلغون فيها ، فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو .

ولما رأى الكفار عظم ما حل بهم من عذاب النار ، سألوا من الله تعالى أن يريهم من كان سبب إغوائهم وإضلالهم .

والظاهر أن ﴿ اللذين ﴾ يراد بهما الجنس ، أي كل مغو من هذين النوعين ، وعن علي وقتادة : أنهما إبليس وقابيل ، إبليس سن الكفر ، وقابيل سن القتل بغير حق .

قيل : وهل يصح هذا القول ؟ عن علي : وقابيل مؤمن عاص ، وإنما طلبوا المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود ، وقد أصلح هذا القول بأن قال : طلب قابيل كل عاص من أهل الكبائر ، وطلب إبليس كل كافر ، ولفظ الآية ينبو عن هذا القول وعن إصلاحه ، وتقدم الخلاف في قراءة ﴿ أرنا ﴾ في قوله : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ وقال الزمخشري : حكوا عن الخليل أنك إذا قلت : أرني ثوبك بالكسر ، فالمعنى : بصرنيه ، وإذا قلته بالسكون ، فهو استعطاء معناه : أعطني ثوبك ؛ ونظيره اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء ، وأصله الإحضار . انتهى .

﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ : يريدون في أسفل طبقة من النار ، وهي أشد عذاباً ، وهي درك المنافقين .

وتشديد النون في اللذين واللتين وهذين وهاتين حالة كونهما بالياء لا تجيزه البصريون ، والقراءة بذلك في السبعة حجة عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(221/681)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ ﴾

أيْ قدّرنا وقرّنا للفكرةِ في الدُّنيا ﴿ قُرَنَاء ﴾ جمعُ قرينٍ أي أخداناً من الشياطينِ يستولُون عليهم استيلاءَ القيضِ على البيضِ وهو القشرُ وقيل : أصلُ القيضِ البدلُ ومنه المقايضةُ للمعاوضةِ . ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ مِن أمورِ الدُّنيا واتباعِ الشهواتِ ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمورِ الآخرةِ حيثُ أرَوهم أنْ لا بعثَ ولا حسابَ ولا مكروهَ قطُّ . ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أيْ ثبتَ وتقررَ عليهم كلمةُ العذابِ وتحققَ موجبُها ومصداقُها ، وهو قولُه تعالَى لإبليسَ : ﴿ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كما مرَّ مِراراً . ﴿ فِى أُمَمٍ ﴾ حالٌ من الضميرِ المجرورِ أي كائنتينَ في جملةِ أممٍ وقيلَ : فِي بمعْنى مَعَ ، وهَذا كما ترَى صريحٌ في أنَّ المرادَ بأعداءِ اللهِ تعالى فيما سبقَ المعهودونَ من عادٍ وثمودَ لا الكفارُ من الأولينَ والآخرينَ كما قيلَ .

﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ صفةٌ لأممٍ ، أي مضتْ ﴿ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس ﴾ على الكُفر والعصيانِ كدأبِ هؤلاءِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم العذابَ ، والضميرُ للأولينَ والآخرينَ . ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم أو قالَ بعضُهم لبعضٍ ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان ﴾ أي لا تُنصتوا له ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ وعارِضُوه

بالخُرافاتِ من الرجزِ والشعرِ والتصديةِ والمُكاءِ ، أو ارفعُوا أصواتَكم بَها لتشوشُوه على القارىءِ . وقُرِىءَ بضمِّ الغينِ والمَعْنى واحدٌ ، يُقال لُغَى يَلْغَى ، كلقِي يَلْقَى . ولَغَا يلغُو ، إذا هَذَى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ أي تغلبونَهُ على قراءتِه .

(222/681)

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي فوالله لنذيقنَّ هؤلاءِ القائلينَ واللاغينَ أو جميعَ الكفارِ وهم داخلونَ فيهم دخولاً أولياً ﴿ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ لا يُقادرُ قَدرُهُ ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أيْ جزاءَ سيئاتِ أعمالِهم ، التي هيَ في أنفسِها أسوأُ ، وقيلَ : إنه لا يجازيهم بمحاسنِ أعمالِهم ، كإغاثةِ الملهوفينَ وصلةِ الأرحامِ . وقِرَى الأضيافِ لأنَّها مُحبطةٌ بالكفرِ . وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهُما " عَذاباً شَديداً يومَ بدرٍ ، وأسوأُ الذي كانُوا يعملونَ في الآخرةِ " . ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ . وقولُه تعالَى : ﴿ جَزَاء أَعْدَاء الله ﴾ خبرُهُ أيْ ما ذُكِرَ منَ الجزاءِ جزاءُ معدٌّ لأعدائِه تعالَى . وقولُه تعالَى : ﴿ النار ﴾ عطفُ بيانٍ للجزاءِ أو ذلكَ خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، أي الأمرُ ذلكَ على أنه عبارةٌ عن مضمونِ الجملةِ لا عن الجزاءِ ، وما بعدَهُ جملةٌ مستقلةٌ مبنيةٌ لما قبلَها . وقولُه تعالى ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ﴾ جملةٌ مستقلةٌ مقررةٌ لما قبلَها ، أو النارُ مبتدأٌ هيَ خبرُهُ أي هيَ بعينِها دارُ إقامتِهم على أنَّ

التجريدِ وهُو أنْ يُنتزَعَ من أمرٍ ذي صفةٍ أمرٌ آخرُ مثلُه مبالغةٌ لكماله فيهَا ، كما يقالُ : في البيضةِ عشرونَ مناً حديدٌ وقيلَ : هيَ على مَعناها والمرادُ أنَّ لهم في النارِ المشتملةِ على الدركاتِ داراً مخصوصةً هم فيها خالدونَ ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ بِآيَاتنا يَجْحَدُونَ ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ ، أي يُجزون جزاءً أو بالمصدرِ السابقِ فإن المصدرَ ينتصبُ بمثلِه كما في قولِه تعالى : ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوفُورًا ﴾ والباءُ الأُولى متعلقةٌ بجزاءً ، والثانيةُ بيجحدونَ قدمتْ عليهِ لمراعاةِ الفواصلِ ، أي بسببِ ما كانُوا يجحدونَ بآياتِنا الحقَّةِ أو يلغَون فيها وذِكْرُ الجحودِ لكونِه سبباً للغوِ .

(223/681)

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ وهُم متقلَّبونَ فيما ذُكِرَ من العذابِ ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللذين أضلانا مِنَ الجن والإنس ﴾ يعنونَ فريقَي شياطينِ النوعينِ المقيضَينِ لهم الحاملينَ لهم على الكفرِ والمعاصِي بالتسويلِ والتزيينِ ، وقيلَ : هما إبليسُ وقابيلُ ، فإنَّهما سنَّا الكفرَ والقتلَ بغيرِ الحقِّ . وقُرِىءَ أَرْنَا تخفيفاً ، كفَخْذٍ في فَخِذٍ ، وقيلَ : معناهُ أعطِناهُما . وقُرِىءَ باختلاسِ كسرةِ الراءِ ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أيْ ندوسُهُما انتقاماً منهُمَا وقيلَ : نجعلْهُما في

الدركِ الأسفلِ . ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ أي ذلاً ومنهانةً أو مكاناً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(224/681)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ ﴾

أي قدرنا ، وفي "البحر" أي سببنا لهم من حيث لم يحتسبوا وقيل : سلطنا ووكلنا عليهم ﴿ قُرَنَاء ﴾ جمع قرين أي أخداناً وأصحاباً من غواة الجن ، وقيل : منهم ومن الإنس يستولون عليهم استيلاء القيض وهو القشر على البيض ، وقيل : أصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة فتقييض القرين للشخص إما لاستيلائه عليه أو لأخذه بدلاً عن غيره من قرنائه ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم ﴾ حسنوا وقرروا في أنفسهم ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال ابن عباس : من أمر الآخرة حيث ألقوا إليهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الدنيا من الضلالة والكفر واتباع الشهوات ، وقال الحسن : ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة ، وقال الكلبي : ما بين أيديهم أعمالهم التي يشاهدونها وما خلفهم ما هم عاملوه في المستقبل ولكل وجهة .

ولعل الأحسن ما حكي عن الحسن ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها ومصداقها وهي قوله تعالى لإبليس : ﴿ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 84 ، 85] .

﴿ فِى أُمَمٍ ﴾ حال من الضمير المجرور أي كائنين في جملة أمم ، وقيل : ﴿ فِى ﴾ بمعنى مع ويحتمل المعنيين قوله

: إن تك عن أحسن الصنيعة مأ . . .

فوكاً ففي آخرين قد أفكوا

وفي "البحر" لا حاجة للتضمين مع صحة معنى في ، وتنكير ﴿ أُمَمٌ ﴾ للتكثير أي في أمم كثيرة ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت ﴿ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس ﴾ على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم وللأمم ، وجوز كونه لهم بقرينة السياق .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم أو قال بعضهم لبعض : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان ﴾ أي لا تنصتوا له .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون : لا تسمعوا لهذا القرآن ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ وأتوا باللغو عند قراءته ليتشوش على القارىء ، والمراد باللغو ما لا أصل له وما لا معنى له ، وكان المشركون عند قراءته عليه الصلاة والسلام يأتون بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز ، وقال أبو العالية : أي قعوا فيه وعيبوه ، وفي كتاب ابن خالويه قرأ عبد الله بن بكر السهمي .

وقتادة .

وأبو حيوة .

وأبو السمال .

والزعفراني .

وابن أبي إسحاق .

وعيسى بخلاف عنهما ﴿ والغوا ﴾ بضم الغين مضارع لغا بفتحها وهما لغتان يقال لغى يلغي كرضى يرضي ولغا يلغو كعدا يعدو إذا هذى ، وقال صاحب اللوامح : يجوز أن يكون الفتح من لغى بالشيء يلغي به إذا رمى به فيكون ﴿ فِيهِ ﴾ بمعنى به أي ارموا به وانبذوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ أي تغلبونه على قراءته أو تطمون أمره وتميتون ذكره .

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء القائلين ، والإظهار في مقام الإضمار

للإشعار بالعلية أو جميع الكفار وهم يدخلون فيه دخولاً أولياً .

﴿ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ لا يقادر قدره ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء سيآت أعمالهم التي هي في أنفسها أسوأ فأفعل للزيادة المطلقة ، وقيل : إنه سبحانه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقرى الأضياف لأنها محبطة بالكفر ، والعذاب إما في الدارين أو في إحداهما ، وعن ابن عباس عذاباً شديداً يوم بدر وأسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الجزاء وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ جَزَاء أَعْدَاء الله ﴾ خبره أي ما ذكر من الجزاء جزاء معد لأعدائه تعالى ، وقوله سبحانه : ﴿ النار ﴾ عطف بيان لجزاء أو بدل أو خبر لمبتدأ محذوف .

(226/681)

وجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك و ﴿ جَزَاء ﴾ مبتدأ و ﴿ النار ﴾ خبره ، والإشارة حينئذٍ إلى مضمون الجملة السابقة ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ﴾ جملة مستقلة مقررة لما قبلها ، وجوز أن يكون ﴿ النار ﴾ مبتدأ وهذه الجملة خبره أي هي بعينها دار إقامتهم على أن في للتجريد كما قيل : في قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ

لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] وقول الشاعر

: وفي الله إن لم ينصفوا حكم عدل . . .

وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله مبالغة فيها ، وجوز أن يقال : المقصود ذكر الصفة والدار إنما ذكرت توطئة فكأنه قيل : لهم فيها الخلود ، وقيل : الكلام على ظاهره والظرفية حقيقية ، والمراد أن لهم في النار المشتملة على الدركات دار مخصوصة هم فيها خالدون والأول أبلغ .

﴿ جَزَاء أَعْدَاء اللهِ النار لَهُمْ ﴾ منصوب بفعل مقدر أي يجزون جزاءً أو بالمصدر السابق فإن المصدر ينتصب بمثله كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوفُورًا ﴾ [الإسراء : 63] والباء الأولى متعلقة بجزاء والثانية بيجحدون قدمت عليه لقصد الحصر الإضافي مع ما فيه من مراعاة الفواصل أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة دون الأمور التي ينبغي جحودها ، وجعل بعضهم الجحود مجازاً عن اللغو المسبب عنه أي جزاءً بما كانوا بآياتنا يلغون .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب .

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الذين أضلانا مِنَ الجن والإنس ﴾ يعنون فريقي شياطين النوعين المقيضين لهم الحاملين لهم على الكفر والمعاصي بالتسويل والتزيين ، وعن علي كرم الله وجهه .

وقتادة أنهما إبليس .

وقابيل فإنهما سببا الكفر والقتل بغير حق .

(227/681)

وتعقب بأنه لا يصح عن علي كرم الله تعالى وجهه فإن قابيل مؤمن عاص ، والظاهر أن الكفار إنما طلبوا إراءة المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود وكونهم رئيس الكفرة ورئيس أهل الكبائر خلاف الظاهر ، وقرأ ابن كثير .

وابن عامر .

ويعقوب .

وأبو بكر ﴿ أَرِنَا ﴾ بالتخفيف كفخذ بالسكون في فخذ ، وفي "الكشاف" ﴿ أَرِنَا ﴾ بالكسر للاستبصار وبالسكون للاستعطاء ونقله عن الخليل ، فمعنى القراءة عليه أعطنا اللذين أضلانا ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ ندوسهما بها انتقاماً منهما ، وقيل : نجعلهما في الدرك الأسفل من النار ليشتد عذابهما فالمراد نجعلهما في الجهة التي تحت أقدامنا ، وقرىء في السبعة ﴿ اللذين ﴾ بتشديد النون وهي حجة على البصريين الذين لا يجوزون

التشديد فيها في حال كونها بالياء وكذا في اللتين وهذين وهاتين ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الاسفلين ﴾ ذلاً ومهانة أو مكاناً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(228/681)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

عطف على جملة ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ ﴾ [فصلت : 19] ، وذلك أنه حُكي قولهم المقتضي إعراضهم عن التدبر في دعوة الإيمان ثم ذكر كفرهم بخالق الأكوان بقوله قُل أينكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين [فصلت : 9] ثم ذكر مصيرهم في الآخرة بقوله ويوم نحشر أعداء الله ثم عقب ذلك بذكر سبب ضلالهم الذي نشأتْ عنه أحوالهم بقوله : وَقَيَّضنا لَهُم قُرَنَاءَ ﴾ .

وتخلل بين ما هنالك وما هنا أفانين من المواعظ والدلائل والمنن والتعاليم والقوارع والإيقاظ .

وَقَيَّض : أَتاح وهيَّأ شيئاً للعمل في شيء .

والقرناء جَمْعُ : قرين ، وهو الصاحب الملازم ، والقرناء هنا : هم الملازمون لهم في الضلالة

: إمَّا في الظاهر مثلُ دعاة الكفر وأيمتِه ، وإما في باطن النفُوس مثلُ شياطين الوسواس الذين قال الله فيهم : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ ويأتي في سورة الزخرف (36) .

ومعنى تقييضهم لهم : تَقديرهم لهم ، أي خَلْق المناسبات التي يتسبب عليها تقارن بعضهم مع بعض لتناسب أفكار الدعاةِ والقابلين كما يقول الحُكماء "استفادة القابل من المبدإ تتوقف على المناسبة بينهما" .

فالتقييض بمعنى التقدير عبارة جامعة لمختلف المؤثرات والتجمعات التي توجب التآلف والتحابّ بين الجماعات ، ولمختلف الطبائع المكوَّنَةِ في نفوس بعض الناس فيقتضي بعضها جاذبيةَ الشياطين إليها وحدوثَ الخواطر السيئة فيها .

وللإحاطة بهذا المقصود أُوثر التعبير هنا بـ ﴿ قيضنا ﴾ دون غيره من نحو : بَعثنا ، وأرسلنا .

والتزيين : التحسين ، وهو يشعر بأن المزيَّن غير حسن في ذاته .

و ﴿ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِم ﴾ يستعار للأمور المشاهدة ، وما خلفهم يستعار للأمور المغيبة .

والمراد بـ ﴿ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِم ﴾ أمور الدنيا ، أي زينوا لهم ما يعملونه في الدنيا من الفساد مثل عبادة الأصنام ، وقتل النفس بلا حق ، وأكل الأموال ، والعدول على الناس باليد واللسان ، والميسر ، وارتكاب الفواحش ، والوأد .

فعوّدوهم باستحسان ذلك كله لما فيه من موافقة الشهوات والرغبات العارضة القصيرة المدى ، وصرفوهم عن النظر فيما يحيط بأفعالهم تلك من المفاسد الذاتية الدائمة .

والمراد بـ ﴿ ما خلفهم ﴾ الأمور المغيبة عن الحس من صفات الله ، وأمور الآخرة من البعث والجزاء مثل الشرك بالله ونسبة الولد إليه ، وظنهم أنه يخفى عليه مستور أعمالهم ، وإحالتهم بعثة الرسل ، وإحالتهم البعث والجزاء .

ومعنى تزيينهم هذا لهم تلقينهم تلك العقائد بالأدلة السفسطائية مثل قياس الغائب على الشاهد ، ونفي الحقائق التي لا تدخل تحت المدركات الحسية كقولهم : ﴿ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ [الصافات : 16 ، 17] .

و ﴿ حق عليهم ﴾ أي تحقق فيهم القول وهو وعيد الله إياهم بالنار على الكفر ، فالتعريف في ﴿ القَوْل ﴾ للعهد .

وفي هذا العهد إجمال لأنه وإن كان قد ورد في القرآن ما يُعهد منه هذا القول مثل قوله : ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ [الزمر : 19] وقوله : ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴾

[الصافات : 31] ، فإنه يمكن أن لا تكون الآيات المذكورة قد سبقت هذه الآية .

وقوله : ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ حال من ضمير ﴿ عَلَيْهِم ﴾ ، أي حق عليهم حالة كونهم في أمم أمثالهم قد سبقوهم .

والظرفية هنا مجازية ، وهي بمعنى التبعيض ، أي هم من أمم قد خلت من قبلهم حق عليهم القول .

ومثل هذا الاستعمال قول عمرو بن أُذينة :

إن تَك عَن أَحسن الصنيعة مأفو

كاً ففي آخرينَ قد أُفِكوا . . .

أي فأنت من جملة آخرين قد صُرفوا عن أحسن الصنيعة .

(230/681)

و ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ ﴾ بيانية ، فيجوز أن يكون بياناً ل ﴿ أُمَمٍ ﴾ ، أي من أمم من البشر ومن الشياطين فيكون مثل قوله تعالى : ﴿ قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : 84 ، 85] ، وقوله : ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ﴾ [الأعراف : 38] ويجوز

أن يكون بياناً ل ﴿ قُرَنَاءَ ﴾ أي ملازمين لهم ملازمة خفية وهي ملازمة الشياطين لهم بالوسوسة وملازمة أئمة الكفر لهم بالتشريع لهم ما لم يأذن به الله .

وجملة ﴿ إِنَّهُم كَانُوا خاسرين ﴾ يجوز أن تكون بياناً للقول مثل نظيرتها ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴾ في سورة الصافات (31) ، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن جملة ﴿ وحَقَّ عَلَيهِم القَوْلُ فِي أُمَمٍ ﴾ والمعنيان متقاربان .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26)

عطف على جملة ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ [فصلت : 5] عطفَ القصة على القصة ، ومناسبة التخلص إليه أن هذا القول مما ينشأ عن تزيين قرنائهم من الإِنس ، أو هو عطف على جملة ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُم ﴾ [فصلت : 25] .

(231/681)

وهذا حكاية لحال أخرى من أحوال إعراضهم عن الدعوة المحمدية بعد أن وصف إعراضهم في أنفسهم انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أَساليب الإِعراض ، فالذين كفروا هنا هم أئمة الكفر يقولون لعامتهم : لا تسمعوا لهذا القرآن ، فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام شريفَ معانٍ وبلاغةَ تراكيبَ وفصاحةَ أَلفاظٍ ، وأيقنوا أن كل من يسمعه وتُداخل

نفسَه جزالةُ ألفاظه وسُمُوُّ أغراضه قضى له فهمُه أنه حق إتباعُه ، وقد أدركوا ذلك بأنفسهم ولكنهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبروا تدبيراً لمنع الناس من استماعه ، وذلك خشية من أن تَرِقَّ قلوبهم عند سماع القرآن فصرفوهم عن سماعه .

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكُمُّوا أفواه الناطقين بالحق والحجة ، بما يستطيعون من تخويف وتسويل ، وترهيب وترغيب ولا يَدعوا الناس يتجادلون بالحجة ويتراجعون بالأدلة لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهَضُ ، فهم يسترونها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من البهتان والتضليل ، فإذا أعيتهم الحِيَل ورأوا بوارق الحق تخفق خَشُوا أن يعُمَّ نورُها الناسَ الذين فيهم بقية من خير ورشد عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق ويغمرون الكلام القول الصالح باللغو ، وكذلك شأن هؤلاء .

فقولهم : ﴿ لاَ تَسْمَعُوا لهذا القُرْءَانِ ﴾ تحذيراً واستهزاء بالقرآن ، فاسم الإشارة مستعمل في التحقير كما فيما حُكي عنهم ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ [الأنبياء : 36] .

وتسميتهم إياه بالقرآن حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسميته بذلك .

وتعدية فعل ﴿ تَسْمَعُوا ﴾ باللام لتضمينه معنى : تَطمئنوا أو تركنوا .

واللغو : القول الذي لا فائدة فيه ، ويسمى الكلام الذي لا جدوى له لغواً ، وهو واوي اللام ، فأصل ﴿ وَالغَوْا ﴾ : والغَوُوا استثقلت الضمة على الواو فحذفت والتقى ساكنان فحذف أولهما وسكنت الواو الثانية سكوناً حيًّا ، والواو علامة الجمع .

وهذا الجاري على ظاهر كلام "الصحاح" و"القاموس" في "الكشاف" أنه يقال : لَغِي يلغَى ، كما يقال : لغَا يلغُو فهو إذن واويٌ ويائيٌ .

فمعنى ﴿ وَالغَوْا فِيهِ ﴾ قُولوا أقوالاً لا معنى لها أو تكلموا كلاماً غير مراد منه إفادة أو المقصود إحداث أصوات تغمر صوت النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن .

ولما كان المقصود بتخلُّل أصواتهم صوتَ القارىء حتى لا يفقهه السامعون عُدّي اللغو بحرف (في) الظرفية لإفادة إيقاع لغوهم في خلال صوت القارىء وُقوع المظروف في الظرف على وجه المجاز .

وأدخل حرف الظرفية على اسم القرآن دون اسم شيء من أحواله مثل صوتتِ أو كلامِ ليشمل كل ما يُخفي ألفاظ القرآن أو يشكك في معانيها أو نحو ذلك .

وهذا نظَم له مكانة من البلاغة .

قال ابن عباس : "كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه ويقولون لهم : لا تسمعوا له والغَوْا فيه ، فكانوا يأتُون

بالمُكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز وما يحضرهم من الأقوال التي يصخبون بها " .

وقد ورد في "الصحيح" "أنهم قالوا لمّا استمعوا إلى قراءة أبي بكر وكان رقيق القراءة : إنا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا" .

ومعنى ﴿ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ ﴾ رجاءَ أن تغلبوا محمداً بصرف من يُتوقع أن يتبعه إذا سمع قراءته .

وهذا مشعر بأنهم كانوا يجدون القرآن غالبَهم إذ كان الذين يسمعونه يُداخل قلوبهم فيؤمنون ، أي فإن لم تفعلوا فهو غالبكم .

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27)

(233/681)

دلت الفاء على أن ما بعدها مفرع عما قبلها : فإمّا أن يكون تفريعاً على آخِر ما تقدم وهو قوله : ﴿ وقَالَ الذينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لهذا القُرآن ﴾ [فصلت : 26] الآية ، وإمّا أن يكون مفرعاً على جميع ما تقدم ابتداء من قوله : ﴿ وقالوا قلوبنا في أَكِنَّة مما تَدْعُونا إليه ﴾ [فصلت : 5] الآية وقوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرضُوا ﴾ [فصلت : 13] الآية وقوله : ﴿ ويَوْمَ

نَحْشر أعداء الله إلى النَّار ﴾ [فصلت : 19] الآية وقوله : ﴿ وَقَيَّضْنَا لهم قُرَنَاءَ ﴾ [فصلت : 25] الآية وقوله : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا ﴾ [فصلت : 26] الخ .

وعلى كلا الوجهين يتعين أن يكون المراد بـ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هنا : المشركين الذين الكلام عنهم .

ف ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إظهار في مقام الإِضمار لقصد ما في الموصول من الإِيماء إلى علة إذاقة العذاب ، أي لكفرهم المحكي بعضه فيما تقدم .

وإذاقة العذاب : تعذيبُهم ، استعير له الإِذاقة على طريق المكنية والتخييلة .

والعذاب الشديد عن ابن عباس : أنه عذاب يوم بدر فهو عذاب الدنيا .

وعطف ﴿ ولَنَجْزِيَنَّهُم أسوأَ الذي كانُوا يعمَلُونَ ﴾ عن ابن عباس : لنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة .

و ﴿ أسوأَ الذي كانُوا يعمَلُونَ ﴾ منصوب على نزع الخافض .

والتقدير : على أسوأ ما كانوا يعملون ، ولك أن تجعله منصوباً على النيابة عن المفعول المطلق تقديره : جزاء مماثلاً أسوأَ الذي كانوا يعملون .

وأسوأ : اسم تفضيل مسلوب المفاضلة ، وإنما أريد به السّيىء ، فصيغ بصيغة التفضيل للمبالغة في سوئه .

وإضافتُه إلى ﴿ الذي كانُوا يعمَلُونَ ﴾ من إضافة البعض إلى الكل وليس من إضافة اسم

التفضيل إلى المفضل عليه .

والإِشارة بـ ﴿ ذلك جَزَاءُ أَعْدَاءِ الله ﴾ إلى ما تقدم وهو الجزاء والعذاب الشديد على أسوأ أعمالهم .

(234/681)

وأعداءُ الله : هم المشركون الذين تقدم ذكرهم بقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ الله ﴾ [فصلت : 19] .

والنار عطف بيان من جَزَاءُ أَعْدَاءِ الله ﴾ .

و﴿ دَارُ الخُلْدِ ﴾ : النار .

فقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ﴾ جَاء بالظرفية بتنزيل النار منزلة ظرف لدار الخلد وما دار الخلد إلاّ عين النار .

وهذا من أسلوب التجريد ليفيد مبالغة معنى الخلد في النار .

وهو معدود من المحسنات البديعية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول اللَّه أسوة حسنة ﴾ [الأحزاب : 21] وقول أبي حامد العتَّابي :

وفي الرحمان للضعفاء كافي

أي والرحمان كاف للضعفاء .

و﴿ الخلد ﴾ : طول البقاء ، وأطلق في اصطلاح القرآن على البقاء المؤبد الذي لا نهاية له .

وانتصب ﴿ جَزَآءُ ﴾ على الحال من ﴿ دَارُ الْخُلْدِ ﴾ .

والباء للسببية .

و(ما) مصدرية ، أي جزاء بسبب كونهم يجحدون بآياتنا .

وصيغة المضارع في ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ دالّة على تجدد الجحود حيناً فحيناً وتكرره .

وعدي فعل ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ بالباء لتضمينه معنى : يُكذِّبون .

وتقديم ﴿ بآيَاتِنَا ﴾ للاهتمام وللرعاية على الفاصلة .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

عطف على جملة ﴿ لهم فيها دارُ الخُلدِ ﴾ [فصلت : 28] ، أي ويقولون في جهنم ، فعدل عن صيغة الاستقبال إلى صيغة المضيّ للدلالة على تحقيق وقوع هذا القول وهو في معنى قوله تعالى : ﴿ حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فئآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ [الأعراف : 38] ، فالقائلون ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللذين أضلانا ﴾ : هم عامّةُ المشركين ، كما يدل عليه قوله : ﴿ اللذَيْنِ أَضَلاَّنَا ﴾ .

ومعنى ﴿ أَرِنَا ﴾ عيّن لنا ، وهو كناية عن إرادة انتقامهم منهم ولذلك جُزم ﴿ نَجْعَلْهُمَا ﴾ في جواب الطلب على تقدير : إن ترناهما نجعلهما تحت أقدامنا .

والجعل تحت الأقدام : الوطء بالأقدام والرفسُ ، أي نجعل آحادهم تحت أقدام آحاد جماعتنا ، فإن الدهماء أكثر من القادة فلا يعوزهم الانتقام منهم .

وكان الوطء بالأرجل من كيفيات الانتقام والامتهان ، قال ابن وَعْلَة الجَرمي :

ووَطِئْنَا وَطْأً على حَنَق

وَطْأَ المُقَيَّد نابتَ الهَرْم . . .

وإنما طلبوا أن يُرَوْهُما لأن المضلين كانوا في دركات من النار أسفل من دركات أتباعهم فلذلك لم يعرفوا أين هم .

والتعليل ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾ توطئة لاستجابة الله تعالى لهم أن يريَهُمُوهُما لأنهم علموا من غضب الله عليهم أنه أشد غضباً على الفريقين المضلين فتوسلوا بعزمهم على الانتقام منهم إلى تيسير تمكينهم من الانتقام منهم .

والأسفلون : الذين هم أشد حَقارة من حقارة هؤلاء الذين كفروا ، أي ليكونوا أحقر منا

جزاء لهم ، فالسفالة مستعارة للإِهانة والحقارة .

وقرأ الجمهور ﴿ أَرِنَا ﴾ بكسر الراء .

وقرأه ابن كثير وابن عامر والسوسي عن أبي عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوبُ بسكون الراء للتخفيف من ثقل الكسرة ، كما قالوا : فَخْذ في فَخِذ .

b وعن الخليل إذا قلت : أرِني ثوبك بكسر الراء ، فالمعنى : بصِّرْنيه ، وإذا قلته بسكون الراء فهو استعطاء ، معناه : أعطنيه .

وعلى هذا يَكون معنى قراءة ابن كثير وابن عامر ومَن وافقهما : مَكِّنا من الذين أضلاَّنا كي نجعلهما تحت أقدامنا ، أي ائذَن لنا بإهانتهما وخزيهما .

وقرأ ابن كثير ﴿ اللَّذينِّ ﴾ بتشديد النون من اسم الموصول وهي لغة ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ واللذانِّ يأتيانها منكم ﴾ في سورة النساء (16) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(236/681)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت ﴿ حم ﴾ السجدة بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : " اجتمع قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر ، والكهانة ، والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة قالوا : أنت يا أبا الوليد . فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله . أنت خير أم عبد المطلب . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع لك ، أما والله ما رأينا سلحة قط اشأم على قومه منك ، فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب . حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف .

يا أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً ، وإن كان نما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوّجك عشراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فرغت " قال : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ حتى بلغ ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود ﴾ فقال عتبة : حسبك . . ! ما عندك غير هذا ؟ قال : لا . فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته قالوا : فهل أجابك ؟ قال : والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال ، غير أنه قال ﴿ أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ قالوا : ويلك . . ! يكلمك الرجل بالعربية وما تدري ما قال ؟ قال : لا . والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة " .

(238/681)

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : " حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان أشد قريش حلماً . قال

ذات يوم وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده في المسجد ؛ يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلمه ، فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منها بعضه ، ويكف عنا ؟ قالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث فيما قال له عتبة ، وفيما عرض عليه من المال ، والملك ، وغير ذلك . حتى إذا فرغ عتبة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفرغت يا أبا الوليد " ؟ قال : نعم . قال : " فاستمع مني قال افعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ فلما سمعها عتبة انصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة ، فسجد فيها ثم قال : سمعت يا أبا الوليد ؟ قال : سمعت قال : أنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : والله إني قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . والله ليكونن لقوله الذي سمعت نبا " .

وأخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على عتبة بن ربيعة ﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ أتى

أصحابه فقال : يا قوم أطيعوني في هذا اليوم ، واعصوني بعده ، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت مثله قط ، وما دريت ما أرد عليه .

(239/681)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب رضي الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير ، فنزل في بني غنم على أسعد بن زرارة ، فجعل يدعو الناس ، فجاء سعد بن معاذ فتوعده فقال له : أسعد بن زرارة اسمع من قوله ؟ فإن سمعت منكراً فأرده يا هذا ، وإن سمعت حقاً فأجب إليه . فقال : ماذا تقول ؟ فقرأ مصعب ﴿ حم ، والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لقوم يعقلون ﴾ قال : سعد بن معاذ رضي الله عنه : ما أسمع الا ما أعرف ، فرجع وقد هداه الله .

(240/681)

وأخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : " قال أبو جهل والملأ من قريش : قد انتشر علينا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فلو التمستم رجلاً

عالماً بالسحر ، والكهانة ، والشعر . فقال عتبة : علمت من ذلك علماً ، وما يخفى علي إن كان كذلك ، فأتاه فلما أتاه قال له : يا محمد أنت خير أم هاشم ، أنت خير أم عبد المطلب . فلم يجبه قال : فيم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت ، وإن كان بك الباءة زوّجناك عشرة نسوة تختار من أي بنات قريش ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك – ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم – فلما فرغ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم أن يكف عنه ، لم يخرج إلى أهله ، واحتبس عنهم فقال أبو جهل : يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابته انتقلوا بنا إليه . فأتوه فقال أبو جهل : والله يا عتبة ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره ، فإن كنت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد . فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمداً أبداً وقال : لقد علمتم أني أكثر قريش مالاً ولكني أتيته . فقص عليهم القصة ، فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ، ولا شعر ، ولا كهانة ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ حمتنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً ﴾ حتى بلغ ﴿ أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود ﴾

فأمسكت بغيه وناشدته الرحم فكيف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب " .

(241/681)

وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما ، " أن قريشاً اجتمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ، فقال لهم عتبة بن ربيعة : دعوني حتى أقوم إلى محمد أكلمه ، فإني عسى أن أكون ارفق به منكم . فقام عتبة حتى جلس إليه ، فقال : يا ابن أخي إنك أوسطنا بيتاً ، وأفضلنا مكاناً ، وقد أدخلت في قومك ما لم يدخل رجل على قومه قبلك ، فإن كنت تطلب بهذا الحديث مالاً فذلك لك على قومك أن نجمع لك حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً فنحن مشرفوك حتى لا يكون أحد من قومك فوقك ولا نقطع الأمور دونك ، وإن كان هذا عن لمم يصيبك لا تقدر على النزوع عنه بذلنا لك خزائننا في طلب الطب لذلك منه ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفرغت يا أبا الوليد " ؟ قال : نعم . فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حم ﴾ السجدة حتى مر بالسجدة فسجد وعتبة ملق يده خلف ظهره حتى فرغ من قراءتها ، وقام عتبة لا يدري ما يراجعه به . حتى أتى

نادي قوله ، فلما رأوه مقبلاً قالوا : لقد رجع إليكم بوجه ما قام به من عندكم ، فجلس إليهم فقال : يا معشر قريش قد كلمته بالذي أمرتموني به . حتى إذا فرغت كلمني بكلام لا والله ما سمعت أذناي بمثله قط ، فما دريت ما أقول له ! يا معشر قريش أطيعوني اليوم ، واعصوني فيما بعده . اتركوا الرجل واعتزلوه ، فوالله ما هو بتارك ما هو عليه ، وخلوا بينه وبين سائر العرب ، فإن يكن يظهر عليهم يكن شرفه شرفكم ، وعزه عزكم ، وملكه ملككم ، وان يظهروا عليه تكونوا قد كفيتموه بغيركم . قالوا : أصبأت إليه يا أبا الوليد ؟ " .

(242/681)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قال : " جئت أزور عائشة رضي الله عنها ورسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ، ثم سرى عنه فقال : يا عائشة ناوليني ردائي ، فناولته ، ثم أتى المسجد فإذا مذكر يذكر ، فجلس حتى إذا قضى المذكر تذكره إفتتح ﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ [فصلت : 1-2] فسجد حتى طالت سجدته ، ثم تسامع به من كان على ميلين ، وتلا عليه السجدة فأرسلت عائشة رضي الله عنها في خاصتها أن احضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد رأيت ما لم أره منذ كنت معه ، فرفع رأسه فقال : سجدت هذه

السجدة شكراً لربي فيما أبلاني في أمتي فقال له أبو بكر رضي الله عنه : وماذا ابلاك في أمتك ؟ قال : أعطاني سبعين ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله إن أمتك كثير طيب فازدد قال : قد فعلت فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً ، سبعين ألفاً فقال : يا رسول الله ازدد لأمتك فقال بيده ، ثم قال بها على صدره فقال عمر رضي الله عنه : وعيت يا رسول الله " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الخليل بن مرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ تبارك ، وحم السجدة .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة ﴾ قالوا : كالجعبة للنبل .

(243/681)

وأخرج أبو سهل السري بن سهل الجنديسابوري في حديثه من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله ﴿ وقالوا قلوبنا في

أكنة . . ﴿ الآية . قال : " أقبلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم ما يمنعكم من الإِسلام فتسودوا العرب ؟ فقالوا : يا محمد ما نفقه ما تقول ، ولا نسمعه ، وإن على قلوبنا لغلفا . وأخذ أبو جهل ثوباً فمده فيما بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ . قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أدعوكم إلى خصلتين . أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإني رسول الله . فلما سمعوا شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ [الإسراء : 46] وقالوا ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [ص : 5] وقال بعضهم لبعض ﴿ امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ [ص : 7] .

وهبط جبريل فقال : يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول : أليس يزعم هؤلاء أن على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر فليس يسمعون قولك ؟ كيف ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ [الإسراء : 46] لو كان كما زعموا لم ينفروا ولكنهم كاذبون يسمعون ولا ينتفعون بذلك كراهية له " .

فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد أعرض علينا الإسلام ، فلما عرض عليهم الإِسلام أسلموا عن آخرهم ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم قال : الحمد الله ، ألستم بالأمس تزعمون أن على قلوبكم غلفاً ، وقلوبكم في أكنة مما ندعوكم إليه ، وفي آذانكم وقراً وأصبحتم اليوم مسلمين فقالوا : يا رسول الله كذبنا والله بالأمس لو كان كذلك ما اهتدينا أبداً ، ولكن الله الصادق والعباد الكاذبون عليه ، وهو الغني ونحن الفقراء إليه " .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ قال : لا يشهدون أن لا إله إلا الله . وفي قوله ﴿ لهم أجر غير منون ﴾ قال : غير منقوص .

وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ قال : لا يقولوا لا إله إلا الله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ قال : كان

يقال الزكاة قنطرة الإسلام ، من قطعها برىء ونجا ومن لم يقطعها هلك . والله أعلم .

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9)

(245/681)

أخرج ابن جرير والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما ، " أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال : " خلق الله الأرض يوم الأحد والإثنين ، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب ، فهذه أربعة فقال تعالى ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه . فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حين يموت من مات . وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء من منتفع به . وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة ، وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش " قالوا : لقد

أصبت لو أتممت . ثم قالوا : استراح . فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً . فنزل ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ، فاصبر على ما يقولون ﴾ [ق : 38] " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ قال : شق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ووضع الجبال ، وأجرى البحار ، وجعل في هذه ما ليس في هذه ، وفي هذه ما ليس في هذه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ قال : قدر في كل أرض شيئاً لا يصلح في غيرها .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ قال : لا يصلح النيسابوري إلا بنيسابور ، ولا ثياب اليمن إلا باليمن .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ قال : أرزاقها .

(246/681)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ سواء للسائلين ﴾ قال : من سأل فهو كما قال الله .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : خلق الله السموات من دخان ، ثم ابتدأ خلق الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين فذلك قول الله تعالى ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين . . . وقدر فيها أقواتها ﴾ في يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء فذلك قوله ﴿ وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ فسمكها وزينها بالنجوم والشمس والقمر وأجراهما في فلكهما ، وخلق فيها ما شاء من خلقه وملائكته يوم الخميس ويوم الجمعة ، وخلق الجنة يوم الجمعة ، وخلق اليهود يوم السبت لأنه يسبت فيه كل شيء ، وعظمت النصارى يوم الأحد لأنه ابتدىء فيه خلق كل شيء ، وعظم المسلمون يوم الجمعة لأن الله فرغ فيه من خلقه ، وخلق في الجنة رحمته ، وجمع فيه آدم عليه السلام ، وفيه هبط من الجنة ، وفيه قبلت توبته وهو أعظمها .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن الله تعالى خلق يوماً فسماه الأحد ، ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين ، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ، وخلق خامساً فسماه الخميس ، فخلق الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، ولذلك يقول الناس إنه يوم ثقيل ، كذلك وخلق مواضع الأنهار والشجر والقرى يوم الأربعاء ، وخلق الطير والوحش والسباع والهوام والآفة يوم الخميس ، وخلق الإنسان يوم الجمعة ، وفرغ من الخلق يوم السبت .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : إن الله تعالى ابتدأ الخلق

وخلق الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الأقوات والرواسي يوم الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات يوم الخميس والجمعة إلى صلاة العصر ، وخلق آدم عليه السلام في تلك الساعة التي لا يوافقها عبد يدعو ربه إلا استجاب له ، فهو ما بين صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس .

(247/681)

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة رضي الله عنه " أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يوم الأحد ؟ قال : " خلق الله فيه الأرض قالوا : فيوم الأربعاء ؟ قال : الأقوات قالوا : فيوم الخميس ؟ قال : فيه خلق الله السموات قالوا : فيوم الجمعة ؟ قال : خلق في ساعتين الملائكة ، وفي ساعتين الجنة والنار ، وفي ساعتين الشمس والقمر والكواكب ، وفي ساعتين الليل والنهار قالوا : ألست تذكر الراحة فقال سبحان الله . . ! " فأنزل الله ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ [ق : 38] " .

وأخرج أبو الشيخ من وجه آخر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى فرغ من خلقه في ستة أيام . أولهن يوم الأحد ، والاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، والجمعة ، خلق يوم الأحد السموات ، وخلق

يوم الاثنين الشمس والقمر ، وخلق يوم الثلاثاء دواب البحر ودواب الأرض وفجر الأنهار وقوت الأقوات ، وخلق الأشجار يوم الأربعاء ، وخلق يوم الخميس الجنة والنار ، وخلق آدم عليه السلام يوم الجمعة ، ثم أقبل على الأمر يوم السبت " .

وأخرج ابن جرير عن أبي بكر رضي الله عنه قال : جاء اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة ؟ فقال : " خلق الله الأرض يوم الأحد والإثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق المدائن والاقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء ، وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة ، وخلق في أول ساعة الآجال ، وفي الثانية الآفة ، وفي الثالثة آدم ، قالوا : صدقت أن تمت فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ما يريدون فغضب ، فأنزل الله ﴿ وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون ﴾ [ق : 38] " .

(248/681)

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ قال : قال للسماء أخرجي شمسك اخرجي قمرك ونجومك ، وقال للأرض : شققي أنهارك وأخرجي ثمارك ﴾

فقالتا أتينا طائعين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ائتيا ﴾ قال : اعطيا وفي قوله ﴿ أتينا ﴾ قال : أعطينا .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال : ما أمر به وأراده من خلق النيرات وغير ذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وصلاحها .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الكلبي رضي الله عنه قال : كل شيء في القرآن ﴿ صاعقة ﴾ فهو عذاب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود ﴾ يقول : أنذرتكم وقيعة عاد وثمود . وفي قوله ﴿ ريحاً صرصراً ﴾ باردة . وفي قوله ﴿ نحسات ﴾ قال : مشئومات نكدات .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ قال : شديدة الشؤم ، قال : مشؤومات .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأما ثمود

فهديناهم ﴾ قال : بينا لهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ يقول : بينا لهم سبيل الخير والشر والله أعلم .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19)

أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ قال : يحبس أولهم على آخرهم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وأبي رزين رضي الله عنه ، مثله .

(249/681)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يوزعون ﴾ قال : يدفعون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ قال الوزعة الساقة من الملائكة عليهم السلام يسوقونهم إلى النار ويردون الآخر على الأول .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : عليهم وزعة ترد أولهم على

آخرهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال : يحبسون بعضاً على بعض قال : عليهم وزعة ترد أولهم على آخرهم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لابن الأزرق : إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم فيختصمون ، فيجحد الجاحد بشركه بالله تعالى فيحلفون له كما يحلفون لكم ، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهوداً من أنفسهم جلودهم ، وأبصارهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، ويختم على أفواههم ، ثم تفتح الأفواه فتخاصم الجوارح فتقول ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ فتقر الألسنة بعد .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر ، قرشي ، وثقفيان أو ثقفي ، وقرشيان ، كثير لحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : انا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمع . فقال الآخران : سمع منه شيئاً سمعه كله قال : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه

وسلم فأنزل الله ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ﴾ إلى قوله ﴿ من الخاسرين ﴾ .

(250/681)

وأخرج عبد الرزاق وأحمد والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تحشرون ههنا - وأوما بيده إلى الشام - مشاة وركباناً على وجوهكم ، وتعرضون على الله وعلى أفواهكم الفدام ، وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه وكفه ، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : ما كنتم تظنون .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ قال : تستخفون .

وأخرج أحمد والطبراني وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله عز وجل قال الله عز

وجل ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ " .

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وقيضنا لهم قرناء ﴾ قال : شياطين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم ﴾ قال : الدنيا يرغبونهم فيها ﴿ وما خلفهم ﴾ قال : الآخرة زينوا لهم نسيانها والكفر بها .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته ، فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحب أن يسمع القرآن ، فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ [الإسراء : 110] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والغوا فيه ﴾ قال : بالتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن قريش تفعله .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ والغوا فيه ﴾ قال : يقولون اجحدوا به وانكروه وعادوه . والله أعلم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله ﴿ ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس ﴾ قال : هو ابن آدم الذي قتل أخاه وإبليس .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وإبراهيم ، مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ خبرَ " حم " على القولِ بأنها اسمٌ للسورةِ ، أو خبرَ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هذا تنزيلٌ أو مبتدأٌ ، وخبرُه " كتابٌ فُصِّلَتْ " .

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

قوله : ﴿ كِتَابٌ ﴾ : قد تقدَّم أنه يجوز أَنْ يكونَ خبراً ل " تَنْزِيل " ويجوز أَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، وأَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " تَنْزِيل " ، وأَنْ يكونَ فاعلاً بالمصدرِ ، وهو " تنزيلٌ " أي : نَزَلَ كتابٌ ، قاله أبو البقاء ، و " فُصِّلَتْ آياتُه " صفةٌ لكتاب .

قوله : " قُرْآناً " في نصبه ستةُ أوجهٍ ، أحدُها : هو حالٌ بنفسِه و " عربيّاً " صفتُه ، أو حالٌ موطِّئَةٌ ، والحالُ في الحقيقةِ " عربيّاً " ، وهي حالٌ غيرُ منتقلةٍ . وصاحبُ الحال : إمَّا " كتابٌ " لوَصْفِه ب " فُصِّلَتْ " ، وإمَّا " آياته " ، أو منصوبٌ على المصدرِ أي : تقرؤه قرآناً ، أو على الاختصاصِ والمدحِ ، أو مفعولٌ ثانٍ ل فُصِّلَتْ ، أو منصوبٌ بتقديرِ فعلٍ أي : فَصَّلْناه قرآناً .

قوله : " لقومٍ " فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أَنْ يتعلَّقَ ب فُصِّلَتْ أي : فُصِّلَتْ لهؤلاءِ وبُيِّنَتْ لهم ؛ لأنهم هم المنتفعون بها ، وإنْ كانَتْ مُفَصَّلَةً في نفسِها لجميعِ الناسِ . الثاني : أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً ل " قُرآناً " أي : كائناً لهؤلاءِ خاصةً لِما تقدَّم في المعنى . الثالث : أَنْ يتعلَّقَ ب " تَنْزِيلٌ " وهذا إذا لم يُجْعَلْ " من الرحمنِ " صفةً له ؛ لأنَّك إنْ جَعَلْتَ " من الرحمن " صفةً له فقد أَعْمَلْتَ المصدرَ الموصوفَ ، وإذا لم يكن " كتابٌ " خبراً عنه ولا بَدَلاً منه ؛ لئلا يَلْزَمَ الإخبارُ عن الموصولِ أو البدلِ منه قبلَ تمامِ صلتِه . ومَنْ يَتَّسِعْ في الظرف وعديلِه لم يُبالِ بشيءٍ من ذلك . وأمَّا إذا جَعَلْتَ " من الرحمن " متعلِّقاً به و " كتاب " فاعلاً به فلا يَضُرُّ ذلك ؛ لأنه مِنْ تتمَّاته وليس بأجنبيّ ، وهذا الموضعُ مِمَّا يُظْهِرُ حُسْنَ علمِ الإعرابِ ، ويُدَرِّبُكَ في كثيرٍ من أبوابِه .

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4)

قوله : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ : يجوز أَنْ يكونا نعتَيْن ل " قُرْآناً " ، وأَنْ يكونا حالَيْنِ : إمَّا مِنْ " كتاب " ، وإمَّا مِنْ " آياته " ، وإمَّا من الضميرِ المَنْوِيِّ في " قُرْآناً " . وقرأ زيد بن علي برفعهما على النعتِ ل " كتاب " أو على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هو بشيرٌ ونذيرٌ .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5)

قوله : ﴿ فِي أَكِنَّةٍ ﴾ : قال الزمخشري : " فإنْ قُلْتَ : هَلاَّ قيل : على قلوبنا أكِنَّةٌ كما قيل : وفي آذاننا وَقْرٌ ، ليكونَ الكلامُ على نَمَطٍ واحد . قلت : هو على نَمَطٍ واحدٍ ؛ لأنَّه لا فَرْقَ في المعنى بين قولِك : قلوبُنا في أكِنَّةٍ ، وعلى قلوبنا أكِنَّةٌ ، والدليلُ عليه قولُه تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ [الأنعام : 25] ، ولو قيل : جَعَلْنا قلوبَهم في أكِنَّةٍ لم يختلفِ المعنى ، وترى المطابيعَ منهم لا يَرَوْن الطباقَ والملاحظةَ إلاَّ في المعاني " . قال الشيخ : " و " في " هنا أَبْلَغُ مِنْ " على " لأنَّهم قَصَدوا الإفراطَ في عَدَمِ القبول بحُصول قلوبِهم في أكِنَّةٍ احتوَتْ عليها احتواءَ الظرفِ على المظروفِ ، فلا يمكنُ أَنْ يَصِلَ إليها شيءٌ ، كما تقول : " المالُ في الكيس " بخلافِ قولِك : " على المالِ كيسٌ " ، فإنَّه لا يَدُلُّ على الحصر وعدمِ الوصولِ دلالةَ الوعاءِ ، وأمَّا " وجعلنا " فهو من إخبار اللَّهِ تعالى فلا يَحْتاجُ إلى مبالغةٍ " . وتقدَّمَ تفسيرُ الأَكِنَّة والوقر . /

وقرأ طلحة بكسر الواو وتقدَّم الفرقُ بينهما .

قوله : "مِمَّا تَدْعُوْنا " مِنْ في "مِمَّا " وفي " ومِنْ بَيْنِنا " لابتداءِ الغايةِ فالمعنى : أنَّ الحجابَ ابتدأ مِنَّا وابتدأ منك ، فالمسافةُ المتوسطةُ لجهتِنا وجهتِك مُسْتوعبةٌ لا فراغَ فيها ، فلو لم تأْتِ "

مِنْ " لكان المعنى : أنَّ حجاباً حاصلٌ وسطَ الجهتين ، والمقصودُ المبالغَةُ بالتبأُينِ المُفْرِط ، فلذلك جيْءَ ب " مِنْ " قاله الزمخشري . وقال أبو البقاءِ : " هو محمولٌ على المعنى ؛ لأنَّ المعنى : في أكِنَّةٍ محجوبةٍ عن سماعِ ما تَدْعُونا إليه ، ولا يجوز أَنْ يكونَ نعتاً ل " أكِنَّة " ؛ لأنَّ الأَكِنَّةَ الأغشيةُ ، وليستِ الأغشيةُ مِمَّا يُدْعَوْنَ إليه " .

(255/681)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6)

قوله : ﴿ قُلْ ﴾ : قرأ ابنُ وثَّاب والأعمش " قال " فعلاً ماضياً خبراً عن الرسولِ . والرسمُ يَحْتَملهما ، وقد تقدَّم مثلُ هذا في الأنبياءِ وآخرِ المؤمنين . وقرأ الأعمشُ والنخعيُّ "يُوْحِي " بكسر الحاء أي : اللَّهُ تعالى .

قوله : " فاسْتَقِيموا إليه " عُدِّيَ ب " إلى " لتضمُّنِه معنى تَوَجَّهوا ، والمعنى : وَجِّهوا استقامتَكم إليه .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

قوله : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : قيل : غيرُ منقوص ، وأنشدوا لذي الإِصبع العدواني :

3946 إني لَعَمْرُكَ ما بابي بذي غَلَقٍ . . . على الصديقِ ولا خَيْري بمَمْنُوْنِ

وقيل : مقطوعٌ ، مِنْ مَنَنْتُ الحَبْلَ أي : قطعْتُه ، وأنشدوا :

3947 فَضْلَ الجوادِ على الخيلِ البطاءِ فلا . . . يُعْطِي بذلك مَمْنُوْناً ولا نَزِقا

وقيل : غيرُ ممنونٍ ، مِن المَنّ ؛ لأنَّ عطاءَ اللَّهِ تعالى لا يَمُنُّ به ، إنما يَمُنُّ المخلوقُ .

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9)

قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ ﴾ : عطفٌ على " لَتَكْفُرون " فهو داخلٌ في حَيِّزِ الاستفهام .

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10)

قوله : ﴿ وَجَعَلَ ﴾ : مستأنف . ولا يجوز عَطْفُه على صلةِ الموصولِ للفصلِ بينهما بأجنبيّ ، وهو قولُه : " وتَجْعلون " فإنه معطوفٌ على " لَتَكْفرون " كما تقدَّم .

(256/681)

قوله : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ تقديرُه : في تمامِ أربعةِ أيام باليومَيْن المتقدّمين . وقال الزجاج : " في تتمةِ أربعةِ أيام " يريدُ بالتتمَّةِ اليومين . وقال الزمخشري : " في أربعة أيام فذلكةٌ لمدةِ خَلْقِ اللَّهِ الأرضَ وما فيها ، كأنه قال : كلُّ ذلك في أربعةِ أيامٍ كاملةٍ مستويةٍ بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ " .

قلت : وهذا كقولِك : بَنَيْتُ بيتي في يومٍ ، وأَكْمَلْتُه في يومَيْن . أي : بالأول . وقال أبو البقاء : "أي : في تمامِ أربعةِ أيامٍ ، ولولا هذا التقديرُ لكانَتِ الأيامُ ثمانيةً ، يومان في الأول ، وهو قوله : ﴿ خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ، ويومان في الآخِر ، وهو قوله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [وأربعة في الوسط ، وهو قولُه ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾] .

قوله : "سواءً" العامَّةُ على النصبِ ، وفيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه منصوبٌ على المصدرِ بفعلٍ مقدرٍ أي : استَوتْ استواءً ، قاله مكي وأبو البقاء . والثاني : أنه حالٌ مِنْ "ها" في أقواتها "أو مِنْ "ها" في "فيها" العائدةِ على الأرض أو من الأرض ، قاله أبو البقاء . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ المعنى : إنما هو وصفُ الأيامِ بأنها سواءٌ ، لا وصفُ الأرضِ بذلك ، وعلى هذا جاء التفسيرُ . ويَدُلُّ على ذلك قراءةُ "سَواءٍ" بالجرِّ صفةً للمضافِ أو المضافِ إليه . وقال السدي وقتادة : سواءً معناه : سواءً لمن سأَلَ عن الأمرِ واستفهم عن حقيقةِ وقوعِه ، وأرادَ العِبْرَةَ فيه ، فإنه يَجِدُه كما قال تعالى ، إلاَّ أنَّ ابنَ زيدٍ وجماعةً قالوا شيئاً يَقْرُبُ من المعنى الذي ذكره أبو البقاء ، فإنهم قالوا : معناه مُسْتَوٍ مُهَيَّأٌ أمرُ هذه المخلوقاتِ ونَفْعُها للمحتاجين إليها من البشر ، فعبَّر بالسائلين عن الطالبين .

وقرأ زيد بن علي والحسن وابن أبي إسحاق وعيسى ويعقوب وعمرو بن عبيد " سَواءٍ " بالخفضِ على ما تقدَّمَ ، وأبو جعفرٍ بالرفع ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنه على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هي سواءٌ لا تَزيد ولا تنقصُ . وقال مكي : " هو مرفوعٌ بالابتداء " ، وخبرُه " للسائلين " . وفيه نظرٌ : من حيث الابتداءُ بنكرةٍ من غيرِ مُسَوِّغٍ ، ثم قال : " بمعنى مُسْتوياتٍ ، لمن سأل فقال : في كم خُلِقَتْ ؟ وقيل : للسَّائلين لجميع الخَلْقِ لأنهم يَسْألون الرزقَ وغيرَه مِنْ عند اللَّهِ تعالى " .

قوله : " للسَّائلين " فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه متعلقٌ ب " سواء " بمعنى : مُسْتويات للسائلين . الثاني : أنه متعلّقٌ ب " قَدَّر " أي : قَدَّر فيها أقواتَها لأجلِ الطالبين لها المحتاجين المُقتاتين . الثالث : أَنْ يتعلَّق بمحذوفٍ كأنه قيل : هذا الحَصْرُ لأجلِ مَنْ سأل : في كم خُلِقَتِ الأرضُ وما فيها ؟

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11)

والدُّخان : ما ارتفع مِنْ لَهَبِ النار ، ويُسْتعار لما يُرى مِنْ بخارِ الأرضِ عند جَدْبِها . وقياسُ جَمْعِه في القلةِ : أَدْخِنة ، وفي الكثرة : دِخْنان نحو غُراب وأَغْربة وغِربان ، وشذُّوا في جَمْعِه على دواخِن . قيل : هو جمعُ داخِنة تقديراً على سبيلِ الإِسناد المجازيِّ . ومثله : عُثان وعَواثِن .

قوله : " وهي دُخانٌ " من باب التشبيهِ الصُّوري ؛ لأن صورتها صورةُ الدخان في رأي العَيْنِ .

(258/681)

قوله : " أَتَيْنا " قرأ العامَّةُ " ائْتِيا " أمراً من الإِتْيان ، " قالتا أَتَيْنا " منه أيضاً . وقرأ ابنُ عباس وابنُ جبير ومجاهدٌ : " اِتِيا قالتا آتَيْنا " بالمدّ فيهما . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه من المُؤَاتاة ، وهي الموافَقَةُ أي : ليوافِقْ كلٌّ منكما الأخرى لِما يليقُ بها ، وإليه ذهب الرازي والزمخشري . فوزنُ " اِتِيا " فاعِلا كقاتِلا ، و " آتَيْنا " وزنُه فاعَلْنا كقاتَلْنا . / والثاني : أنَّه من الإِيتاء بمعنى الإِعطاء ، فوزنُ اِتِيا أَفْعِلا كأَكْرِما ، ووزن آتَيْنا أَفْعَلْنا كأَكْرَمْنا . فعلى الأول يكونُ قد حَذَفَ مفعولاً ، وعلى الثاني يكونُ قد حَذَفَ مفعولَيْن إذ التقدير : أَعْطِيا الطاعةَ مِنْ أنفسكما مَنْ أَمَرَكما . قالتا : أَعْطَيْناه الطاعة .

وقد مَنَع أبو الفضل الرازيُّ الوجهَ الثاني . فقال : " آتَيْنا " بالمَدّ على فاعَلْنا من المُؤاتاة ، بمعنى سارَعْنا ، على حَذْفِ المفعولِ به ، ولا تكونُ من الإِيتاء الذي هو الإِعطاءُ لبُعْدِ حَذْفِ مفعولَيْه " . قلت : وهذا هو الذي مَنَعَ الزمخشريّ أَنْ يَجْعَلَه من الإِيتاء .

قوله " طَوْعاً أو كَرْهاً " مصدران في موضعِ الحال أي : طائِعتين أو مُكْرَهَتَيْن . وقرأ

الأعمشُ "كُرْهاً" بالضم . وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك في النساء .

قوله : "قالتا" أي : قالَتِ السماء والأرض . وقال ابنُ عطية : "أراد الفرقتَيْن المذكورتَيْن . جَعَلَ السماواتِ سماءً ، والأرضين أرضاً ، وهو نحوُ قولِ الشاعر :

3948 ألمْ يُحْزِنْكَ أنَّ حبالَ قومي . . . وقومِك قد تبايَنَتا انْقِطاعا

(259/681)

عَبَّر عنهما ب "تَباينتا" . قال الشيخ : "وليس كما ذَكَر ؛ لأنه لم يتقدَّمْ إلاَّ ذِكْرُ الأرضِ مفردةً والسماءِ مفردةً ، فلذلك حَسُن التعبيرُ بالتثنيةِ . وأمَّا البيتُ فكأنه قال : حَبْلَيْ قومي وقومِك ، وأَنَّثَ في "تبايَنَتا" على المعنى لأنه عنى بالحبالِ المودَّة" .

قوله : "طائِعِين" في مجيئِه مجيءَ جَمْعِ المذكرين العقلاءِ وجهان ، أحدهما : أنَّ المرادَ : أتيا بمَنْ فيهما من العقلاء وغيرِهم ، فلذلك غَلَّب العقلاءَ على غيرِهم ، وهو رأْيُ الكسائيِّ . والثاني : أنه لمَّا عامَلهما معاملةَ العقلاء في الإخبارِ عنهما والأمرِ لهما جُمِعا كجَمْعِهم ، كقولِه : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] وهل هذه المحاوَرَةُ حقيقةٌ أو مجازٌ ؟ وإذا كانت مجازاً فهل هو تمثيلٌ أو تخييلٌ ؟ خلافٌ .

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

قوله : ﴿ سَبْعَ ﴾ : في نصبه أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه مفعولٌ ثانٍ ل " قَضاهُنَّ " ؛ لأنه ضُمِّن معنى صَيَّرهُنَّ بقضائِه سبعَ سماواتٍ .

والثاني : أنَّه منصوبٌ على الحالِ مِنْ مفعولِ " قَضاهُنَّ " أي : قضاهُنَّ معدودةً ، و " قضى " بمعنى صَنَع ، كقولِ أبي ذؤيب :

3949 وعليهما مَسْرُوْدتان قَضاهما . . . داوُدُ أو صَنَعُ السَّوابغِ تُبَّعُ

(260/681)

أي : صَنَعهما . الثالث : أنه تمييزٌ . قال الزمخشري : " ويجوزُ أَنْ يكونَ ضميراً مبهماً مُفَسَّراً بسبعِ سماوات [على التمييز "] يعني بقولِه " مبهماً " أَنَّه لا يعودُ على السماء لا من حيث اللفظُ ولا مِنْ حيث المعنى ، بخلاف كونِه حالاً أو مفعولاً ثانياً . الرابع : أنه بدلٌ مِنْ " هُنَّ " في " فقَضاهُنَّ " قاله مكي . وقال أيضاً : " السَّماء تذكَّرُ وتؤنَّثُ . وعلى التأنيثِ جاء القرآن ، ولو جاء على التذكير لقيل : سبعة سماوات " . وقد تقدَّم تحقيقُ تذكيرِه وتأنيثِه في أوائل البقرة .

قوله : " وحِفْظاً " في نصبه وجهان ، أحدهما : أنه منصوبٌ على المصدرِ بفعلٍ مقدرٍ ، أي :

وحَفِظْناها بالثواقب من الكواكِب حِفْظاً . والثاني : أنه مَفْعولٌ مِنْ أجله على المعنى ، فإنَّ التقديرَ : خلقنا الكواكبَ زينةً وحِفْظاً . قال الشيخ : " وهو تكلُّفٌ وعُدولٌ عن السَّهْلِ البيِّنِ " .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)

قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ : التفاتٌ مِنْ خطابِهم بقولِه : " قل أئنَّكم " إلى الغَيْبة لِفِعْلِهم الإعراضَ أعرضَ عن خطابِهم ، وهو تناسُبٌ حَسَنٌ . وقرأ الجمهورُ " صاعقةً مثلَ صاعقةِ " بالألفِ فيهما . وابن الزبير والنخعي والسلمي وابن محيصن " صَعْقَةً مثلَ صَعْقة " بحَذْفِها وسكونِ العين . وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك في أوائلِ البقرة . يقال : صَعَقَتْه الصاعقةُ فصَعِقَ ، وهذا مما جاء فيه فَعَلْته - بالفتح - ففَعِل بالكسر ، ومثله جَدَعْتُه فَجَدِعَ . والصَّعْقَةُ المَرَّة .

إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (14)

قوله : ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه ظرفٌ لـ " أَنْذَرْتُكم " نحو : لَقِيْتُك إذ كان كذا . الثاني : أنه منصوبٌ بصاعقةٍ لأنَّها بمعنى العذاب أي : أنذرتُكم العذابَ الواقعَ في وقتِ مجيْءِ رسُلِهم . الثالث : أنه صفةٌ لـ " صاعِقَة " الأولى . الرابع : أنه حالٌ من " صاعقة " الثانية ، قالهما أبو البقاء وفيهما نظرٌ ؛ إذ الظاهرُ أنَّ الصَّاعقةَ جثةٌ وهي قطعةُ نارٍ تَنْزِلُ من السماء فتحرقُ ، كما تقدَّمَ في تفسيرِها أولَ هذا التصنيفِ ؛ فلا يقعُ الزمانُ صفةً لها ولا حالاً عنها ، وتأويلُها بمعنى العذابِ إخراجٌ لها عن مدلولِها مِنْ غيرِ ضرورةٍ ، وإنما جعلَها وَصْفاً للأولى لأنها نكرةٌ ، وحالاً مِن الثانية لأنها معرفةٌ لإضافتها إلى عَلَم ، ولو جعلها حالاً من الأولى ؛ لأنها تخَصَّصَتْ بالإضافةِ لجاز / فتعودُ الوجوهُ خمسةً .

قوله : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الظاهرُ أنَّ الضميرَيْن عائدان على عادٍ وثمود . وقيل : الضميرُ في " خَلْفِهم " يعودُ على الرسلِ . واسْتُبْعِد هذا من حيث المعنى ؛ إذ يصير التقديرُ : جاءتهم الرسلُ مِنْ خَلْفِ الرسلِ ، أي : مِنْ خَلْفِ أنفسِهم . وقد يُجاب عنه : بأنَّه مِنْ باب " دِرْهمٌ ونصفُه " أي : ومن خَلْفِ رسُلٍ آخرين .

قوله : ﴿ أَلاَّ تعبدوا ﴾ يجوزُ في " أَنْ " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أَنْ تكونَ المخففةَ من الثقيلة ، واسمُها ضميرُ الشأن محذوفٌ ، والجملةُ النَّهْيية بعدها خبرٌ ، كذا أعربه الشيخُ . وفيه نظرٌ مِنْ وجهين ، أحدهما : أنَّ المخففةَ لا تقع بعد فِعْل إلاَّ مِنْ أفعال اليقين . الثاني : أنَّ الخبرَ في بابِ " إنَّ " وأخواتِها لا يكون طلباً ، فإنْ وَرَدَ منه شيءٌ أُوِّلَ ولذلك تأوَّلوا [قولَ الشاعرِ

[:

3950 إنَّ الذينَ قَتَلْتُمْ أمسِ سَيِّدَهُمْ . . . لا تَحْسَبُوا ليلَهم عن ليلِكم ناما

وقول الآخر :

(262/681)

3951 ولو أصابَتْ لقالَتْ وَهْيَ صادِقةٌ . . . إنَّ الرِّياضَةَ لا تُنْصِبْكَ للشَّيْبِ

على إضمارِ القولِ . الثاني : أنها الناصبةُ للمضارعِ ، والجملةُ النَّهْيية بعدها صلتُها وُصِلَتْ بالنهي كما تُوْصَلُ بالأمر في "كَتبتُ إليه بأنْ قُمْ" ، وقد مَرَّ في وَصْلِها بالأمرِ إشكالٌ يأتي مثلُه في النهي . الثالث : أَنْ تكونَ مفسِّرَةً لمجيئِهم لأنه يتضمَّنُ قولاً ، و "لا" في هذه الأوجهِ كلِّها ناهيةٌ ، ويجوزُ أَنْ تكونَ نافيةً على الوجهِ الثاني ، ويكون الفعلُ منصوباً ب "أنْ" بعد "لا" النافية ، فإنَّ "لا" النافيةَ لا تمنعُ العاملَ أَنْ يعملَ فيما بعدها نحو : "جئتُ بلا زيدٍ" ، ولم يذكرْ الحوفي غيرَه .

قوله : "لو شاءَ" قدَّرَ الزمخشريُّ مفعولَ "شاء" : لو شاءَ إرسالَ الرسلِ لأَنْزَلَ ملائكةً .

قال الشيخ : "تَتَبَّعْتُ القرآنَ وكلامَ العربِ فلم أَجِدْ حَذْفَ مفعولِ "شاء" الواقع بعد "لو" إلاَّ مِنْ جنسِ جوابِها نحو :

﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى ﴾ [الأنعام: 35] أي: لو شاءَ جَمْعَهم على الهدى لجَمَعهم عليه، ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ [الواقعة: 65] ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ [الواقعة: 70] ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ ﴾ [يونس: 99] ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام: 112] ﴿ لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ ﴾ [النحل: 35]. وقال الشاعر:

3952 فلو شاءَ رَبِّي كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ . . . ولو شاءَ ربي كنتُ قيسَ بنَ مَرْثدِ

وقال الراجز:

3953 واللذِ لو شاءَ لكنْتُ صَخْراً . . . أو جَبَلاً أشمَّ مُشْمَخِرَّا

(263/681)

قال: "فعلَى ما تقرَّر لا يكونُ المحذوفُ ما قدَّره الزمخشريُّ، وإنما التقديرُ: لو شاء ربُّنا إنزالَ ملائكةٍ بالرسالةِ منه إلى الإنسِ لأَنْزَلهم بها إليهم، وهذا أَبْلَغُ في الامتناع من إرسالِ البشرِ، إذ عَلَّقوا ذلك بإنزال الملائكة، وهو لم يَشَأْ ذلك فكيف يشاء ذلك في البشر؟"

قلت: وتقديرُ أبي القاسم أوقَعُ معنىً وأخلصُ من إيقاع الظاهرِ موقعَ المضمرِ؛ إذ يَصيرُ التقديرُ: لو شاءَ إنزالَ ملائكةٍ لأنزلَ ملائكةً.

قوله : ﴿ بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ هذا خطابٌ لهودٍ وصالحٍ وغيرِهم مِن الأنبياءِ عليهم السلام ، وغَلَّب المخاطبَ على الغائبِ نحو : " أنت وزيدٌ تقومان " . و " ما " يجوزُ أَنْ تكونَ موصولةً بمعنى الذي وعائدُها به ، وأنْ تكونَ مصدريةً أي : بإرسالِكم ، فعلى هذا يكون " به " [يعودُ] على ذلك المصدرِ المؤولِ ، ويكون من بابِ التأكيد كأنه قيل : كافرون بإرسالِكم به .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16)

قوله : ﴿ صَرْصَراً ﴾ : الصَّرْصَرُ : الريحُ الشديدة فقيل : هي الباردةُ مِن الصِّرِّ ، وهو البردُ . وقيل : هي الشديدةُ السَّموم . وقيل هي المُصَوِّتَةُ ، مِنْ صَرَّ البابُ أي : سُمِع صريرُه . والصَّرَّة : الصَّيْحَةُ . ومنه : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] . قال ابن قتيبة : " صَرْصَر : يجوزُ أَنْ يكونَ من الصِّرِّ وهو البردُ ، وأَنْ يكونَ مِنْ صَرَّ البابُ ، وأَنْ تكونَ من الصَّرَّة ، وهي الصيحةُ ، ومنه : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] . وقال الراغب : " صَرْصَر لفظة من الصِّرِّ ، وذلك يرجعُ إلى الشَّدِّ لما في البرودة من التعقُّدِ " .

قوله : " نَحِساتٍ " قرأ الكوفيون وابن عامر بكسرِ الحاءِ ، والباقون بسكونِها . فأمَّا الكسرُ فهو صفةٌ على فَعِل ، وفعلُه فَعِل بكسرِ العين أيضاً كفِعْلِه يقال : نَحِس فهو نَحِسٌ كفَرِح فهو فَرِحٌ ، وأَشِرَ فهو أَشِرٌ . وأمال الليث/ عن الكسائي ألفَه لأجل الكسرةِ ، ولكنه غيرُ مشهورٍ عنه ، حتى نسبه الدانيُّ للوَهْم .

وأمَّا قراءةُ الإسكانِ فتحتملُ ثلاثةَ أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ يكونَ مخففاً مِنْ فَعِل في القراءةِ المتقدمةِ ، وفيه توافُقُ القراءتين . والثاني : أنَّه مصدرٌ وُصِفَ به كرجلٍ عَدْلٍ . إلاَّ أنَّ هذا يُضْعِفُه الجمعُ فإنَّ الفصيحَ في المصدرِ الموصوفِ أَنْ يُوَحَّدَ ، وكأنَّ المُسَوِّغَ للجمع اختلافُ أنواعِه في الأصل . والثالث : أنه صفةٌ مستقلةٌ على فَعْل بسكونِ العينِ . ولكن أهلَ التصريفِ لم يذكروا في الصفةِ الجائيةِ مِنْ فَعِلَ بكسرِ العين ، إلاَّ أوزاناً محصورةً ليس فيها فَعْل بالسكونِ فذكروا : فَرِحَ فهو فَرِحٌ ، وحَوِرَ فهو أحورُ ، وشَبِعَ فهو شبعانُ ، وسَلِمَ فهو سالمٌ ، وبَلِي فهو بالٍ .

وفي معنى " نَحِسات " قولان ، أحدهما : أنها مِن الشُّؤْم . قال السدِّي : أي : مشائيم مِن النَّحْسِ المعروف . والثاني : أنها شديدةُ البردِ . وأنشدوا على المعنى الأول قولَ الشاعرِ :

3954 يَوْمَيْنِ غَيْمَيْنِ ويوماً شَمْسا . . . نَجْمَيْنِ سَعْدَيْنِ ونجماً نَحْسا

وعلى المعنى الثاني قولَ الآخرِ :

3955 كأنَّ سُلافَةً عُرِضَتْ لنَحْسٍ . . . يُحِيْلُ شَفيفُها الماءَ الزُّلالا

ومنه :

3956 قد أَغْتدي قبلَ طُلوعِ الشمسِ . . . للصيدِ في يومٍ قليلِ النَّحْسِ

وقيل : يُريدُ به في هذا البيت الغبارَ أي : قليلِ الغبار ، وقد قيل بذلك في الآيةِ أنها ذاتُ غُبارٍ . و " نَحِسات " نعتٌ لأيَّام ، والجمعُ بالألفِ والتاءِ مُطَّرِدٌ في صفةِ ما لا يَعْقِل كأيامٍ معدوداتٍ . وقد تقدَّم تحقيقُه في البقرة .

(265/681)

و " لِنُذِيْقَهُمْ " متعلِّقٌ ب " أَرْسَلْنا " . وقُرِئ " لِتُذِيقَهم " بالتاءِ مِنْ فوقُ . وفي الضمير قولان ، أحدهما : أنه الريحُ أي : لتذيقَهم الريحُ أو الأيَّامُ على سبيل المجاز . وعذاب الخِزْيِ من إضافةِ الموصوفِ لصفتِه ، ولذلك قال : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى ﴾ فإنه يَقْتضِي المشاركةَ وزيادةً . وإسنادُ الخِزْيِ إلى العذاب مجازٌ لأنه سَبَبُه .

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17)

قوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ : الجمهورُ على رَفْعِه ممنوعَ الصرفِ . والأعمشُ وابنُ وثَّاب مصروفاً ، وكذلك كلُّ ما في القرآن إلاَّ قولَه : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة ﴾ [الإسراء : 59] قالوا : لأنَّ الرسم ثمود بغير ألفٍ . وقرأ ابنُ عباس وابنُ أبي إسحاق والأعمش في روايةٍ ، وعاصمٌ في رواية " ثمود " منصوباً مصروفاً . والحسن وابنُ هرمز وعاصمٌ أيضاً منصوباً غيرَ منصرفٍ . فأمَّا الصرفُ وعَدَمُه فقد تقدَّمَ توجيهُهُما في هود . وأمَّا الرفعُ فعلى الابتداء ، والجملةُ بعده الخبرُ ، وهو مُتَعَيِّنٌ عند الجمهور ؛ لأنَّ " أمَّا " لا يليها إلاَّ المبتدأُ فلا يجوزُ فيما بعدها الاشتغالُ إلاَّ في قليلٍ كهذه القراءةِ ، وإذا قَدَّرْتَ الفعلَ الناصبَ فقدِّرْه بعد الاسمِ المنصوب أي : وأمَّا ثمودَ هَدَيْناهم فهَدَيْناهم قالوا : لأنها لا يَليها الأفعالُ .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19)

(266/681)

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ ﴾ : العاملُ في هذا الظرفِ فيه وجهان ، أحدُهما : محذوفٌ دَلَّ عليه ما بعدَه مِنْ قولِه : " فهم يُوْزَعُون " تقديره : يُساقُ الناسُ يومَ يُحْشَر . وقَدَّرَه أبو البقاء : يُمْنَعون يومَ الحَشْرِ . الثاني : أنه منصوبٌ ب اذْكُرْ أي : اذكُرْ يومَ . وقرأ نافع " نَحْشُرُ بنون العظمة وضمِّ الشين . " أعداءَ " نصباً أي : نَحْشُر نحن . والباقون بياءِ الغَيْبة مضمومةً ،

والشينُ مفتوحةٌ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه، و "أعداءُ" رفعاً لقيامِه مقامَ الفاعلِ. وكَسَر الأعرجُ شين "نَحْشِر" و "حتى" غايةٌ لـ "يُحْشَر".

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22)

قوله: ﴿ أَن يَشْهَدَ ﴾: يجوز فيه أوجهٌ، أحدها: مِنْ أَنْ يَشْهدَ. الثاني: خيفةَ أن يَشْهد. الثالث: لأَجْلِ أَنْ يَشْهد، وكلاهما بمعنى المفعول له. الرابع: عن أَنْ تَشْهَدَ أي: ما كنتم تَمْتَنِعون، ولا يُمْكِنُكم الاختفاءُ عن أعضائِكم والاستتارُ عنها. الخامس: أنه ضُمِّن معنى الظنِّ وفيه بُعْدٌ.

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23)

قوله: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ ﴾: فيه أوجهٌ، أحدها: أنَّ "ظنُّكم" خبرُه، و "الذي ظَنَنْتُمْ" نعتُه، و "أَرْدَاكم" حالٌ و "قد" معه مقدرةٌ على رأْيِ الجمهورِ خلافاً للأخفشِ. ومَنْعُ مكيّ الحاليةَ للخلوِّ مِنْ "قد" ممنوعٌ لما ذكرْتُه. الثاني: أَنْ يكونَ "ظنُّكم" بدلاً والموصولُ خبرُه. و "أَرْدَاكم" حالٌ أيضاً. الثالث: أَنْ يكونَ الموصولُ خبراً ثانياً. الرابع: أَنْ يكونَ

" ظَنُّكم " بدلاً أو بياناً ، والموصول هو الخبر ، و " أَرْداكم " خبرٌ ثانٍ . الخامس : أن يكون " ظَنُّكم " والموصولُ والجملةُ مِنْ " أَرْداكم " أخباراً . إلاَّ أنَّ الشيخ رَدَّ على الزمخشري قوله : " وظَنُّكم وأَرْدَاكم خبران " . قال : " لأنَّ قوله : " وذلكم " إشارةٌ إلى ظَنِّهم السابقِ فيصير التقديرُ : وظَنُّكم بربكم أنه لا يعلم ظَنُّكم بربكم ، فاسْتُفيد من الخبر ما اسْتُفيد من المبتدأ وهو لا يجوزُ ، وهذا نظيرُ ما منعه النحاةُ مِنْ قولك : " سَيِّدُ الجارية مالِكُها " . / وقد منع ابنُ عطية كونَ " أَرْداكم " حالاً لعدمِ وجودِ " قد " وقد تقدَّم الخلافُ في ذلك .

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24)

قوله : ﴿ يَسْتَعْتِبُواْ ﴾ : العامَّةُ على فَتْحِ الياءِ وكسرِ التاءِ الثانيةِ مبنيَّاً للفاعلِ . ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ بفتح التاء اسمَ مفعول ، ومعناه : وإنْ طَلبوا العُتْبى وهي الرِّضا فما هم مِمَّنْ يُعْطاها . وقيل : المعنى : وإنْ طَلَبوا زوالَ ما يُعْتَبُون فيه فما هم من المُجابين إلى إزالةِ العَتَبِ .

(268/681)

وأصلُ العَتَبِ : المكانُ النائي بنازلةٍ ، ومنه قيل لأُسْكُفَّةِ الباب والمِرْقاة : عَتَبة ، ويُعَبَّر بالعَتَبِ عن الغِلْظَة التي يَجدها الإنسانُ في صدرِه على صاحبِه . وعَتَبْتُ فلاناً : أبرزْتُ له

الغِلْظَة . وأَعْتَبْتُه : أَزَلْتُ عُتْباه كأَشْكَيْتُه . وقيل : حَمَلْتُه على العَتَب .

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد " وإن يُسْتَعْتَبوا " مبنيًّا للمفعول . ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ اسمَ فاعلٍ بمعنى : إنْ يُطْلَبْ منهم أن يُرْضُوا فما هم فاعِلون ذلك ، لأنهم فارَقوا دارَ التكليف . وقيل معناه : إنْ يُطْلَبْ ما لا يُعْتَبُون عليه فما هم مِمَّنْ يُزيل العُتْبى . وقال أبو ذؤيب :

3957 أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِه تَتَوَجَّعُ . . . والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25)

قوله : ﴿ وَقَيَّضْنَا ﴾ : أصلُ التَّقْييضِ التيسيرُ والتهيئَةُ . قَيَّضْتُه له لكذا : هَيَّأْتُه ويَسَّرْتُه . وهذان ثوبان قَيْضان أي : كلٌّ منهما مكافِئٌ للآخَر في الثمن . والمقايَضَةُ : المعاوَضَةُ .

وقوله : ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ [الزخرف : 36] أي : نُسَهِّلْ ليَسْتولِيَ عليه استيلاءَ القَيْضِ على البَيْض . والقَيْضُ في الأصلِ : قِشْرُ البيضِ الأعلى .

قوله : " في أُمَمٍ " في محلِّ نصبٍ على الحالِ من الضمير في " عليهم " والمعنى : كائنين في جملةِ أمم ، وهذا كقولِه :

3958 إنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنيعةِ مَأْ . . . فُوكًا ففي آخَرين قد أَفِكُوا

أي : في جملة قومٍ آخرين . وقيل : إن " في " بمعنى مع .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26)

قوله : ﴿ والغوا ﴾ : العامَّةُ على فتحِ الغين . وهي تحتملُ وجهين ، أحدُهما : أَنْ يكون مِنْ لَغِي بالكسر يَلْغَى . وفيها معنيان ، أحدُهما : مِنْ لَغِيَ إذا تكلَّم باللَّغْوِ ، وهو ما لا فائدةَ فيه . والثاني : أنه مِنْ لَغِي بكذا ، أي : رَمى به فتكونُ "في" بمعنى الباء أي : ارْمُوا به وانبذُوه . والثاني من الوجهين الأوَّلين : أَنْ تكونَ مِنْ لَغا بالفتح يَلْغَى بالفتحِ أيضاً ، حكاه الأخفش ، وكان قياسُه الضمّ كغزا يَغْزو ، ولكنه فُتِح لأجلِ حَرْفِ الحلقِ . وقرأ قتادة وأبو حيوة وأبو السَّمَّالِ والزعفراني وابن أبي إسحاق وعيسى بضم الغين ، مِنْ لَغا بالفتحِ يَلْغُو كدَعا يَدْعُو . وفي الحديث : " فقد لَغَوْتَ " ، وهذا موافِقٌ لقراءةِ غيرِ الجمهور .

ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28)

قوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه مبتدأٌ و "جزاءُ" خبره . والثاني : أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : الأمرُ ذلك و ﴿ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللهِ النار ﴾ جملةٌ مستقلةٌ مبيِّنَةٌ للجملةِ قبلَها .

قوله : " النارُ " فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها بدلٌ مِنْ "جزاء" ، وفيه نظرٌ ؛ إذ البدلُ يَحُلُّ

مَحَلَّ المبدلِ منه ، فيصيرُ التقديرُ : ذلك النار . الثاني : أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ . الثالث : أنها مبتدأٌ ، و ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ الخبر . و " دارُ " يجوز ارتفاعُها بالفاعليَّة أو الابتداءِ .

(270/681)

وقوله : ﴿ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ يقتضي أَنْ تكونَ " دارُ الخلد " غيرَ النارِ ، وليس الأمرُ كذلك ، بل النارُ هي نفسُ دارِ الخُلْدِ . وأُجيب عن ذلك : بأَنَّه قد يُجْعَلُ الشيءُ ظَرْفاً لنفسِه باعتبارِ متعلَّقِه على سبيل المبالغةِ ، كأَنَّ ذلك المتعلَّقَ صار مستقَراً له ، وهو أبلغُ مِنْ نسبةِ المتعلَّقِ إليه على سبيلِ الإِخبارِ به عنه ، ومثلُه قولُه :

3959 . . . . . وفي اللَّهِ إنْ لم يُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ

وقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] ، والرسولُ عليه السلام هو نفسُ الأُسْوةِ . كذا أجابوا . وفيه نظرٌ ؛ إذ الظاهرُ – وهو معنىً صحيحٌ منقولٌ – أنَّ في النار داراً تُسَمَّى دارَ الخلدِ ، والنارُ مُحيطةٌ بها .

قوله : " جَزاءً " في نصبِه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أَنَّه منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ ، وهو مصدرٌ

مؤكدٌ أي : يُجْزَوْن جزاءَ . الثاني : أَنْ يكونَ منصوباً بالمصدرِ الذي قبلَه ، وهو ﴿ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللهِ ﴾ ، والمصدرُ يُنْصَبُ بمثلِه كقوله/ : ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً ﴾ [الإسراء : 63] . الثالث : أَنْ يَنْتَصِبَ على أنه مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ ، و " بما " متعلِّقٌ ب " جَزاء " الثاني ، إنْ لم يكنْ مؤكِّداً ، وبالأول إن كان ، و " بآياتِنا " متعلِّقٌ ب " يَجْحَدون " .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

(271/681)

وتقدَّم الخلافُ في " أَرِنا " وفي نونِ " اللذَيْنِ " . قال الخليل : " إذا قلتَ : أَرِني ثوبَك بالكسرِ فمعناه بَصِّرْنيْه ، وبالسكونِ أَعْطِنيه " . وقال الزمخشري : " أي : بما كانوا يَلْغَوْن " ، فذكر الجحودَ ؛ لأنه سببُ اللغْوِ انتهى . يعني أنه مِنْ بابِ إقامةِ السببِ مُقامَ المُسَبَّبِ وهو مجازٌ سائغٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 505.525 ﴾

(272/681)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

إذا أراد الله بعَبْدٍ خيراً قَيَّضَ له قرناءَ خيرٍ يُعينونه على الطاعات ، ويَحْمِلونه عليها ، ويدعونه إليها . وإذا كانوا إخوانَ سوءٍ حملوه على المخالفات ، ودَعَوْه إليها . . . ومن ذلك الشيطانُ ؛ فأنهُ مُقَيَّضٌ مُسَلَّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات . وشرٌّ من ذلك النَّفْسُ . فإنها بئس القرين ! ! فهي تدعو العبدَ –اليومَ– إلى ما فيه هلاكه ، وتشهد عيه غداً بفعل الزَّلة . فالنفسُ – وشرُّ قرينٍ للمرءِ نفسهُ – والشياطينُ وشياطينُ الإنْسِ . . كلها تُزيِّن لهم ﴿ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من طول الأمل ، ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من نسيان الزَّلَلِ ، والتسويف في التوبة ، والتقصير في الطاعة .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26)

استولى على قلوبهم الجَحْدُ والإنكارُ ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ ؛ فاحتالوا بكل وجهٍ ، وتواصَوْا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب ، ويسلب العقول ، وكل مَنْ استمع إليه صَبَا إليه .

وقالوا : إذا أَخَذَ محمدٌ في القرآن فأَكْثِرُوا عند قراءته اللَّغوَ واللغطَ حتى يقع في السهو

الغَلَط .

ولم يعلموا أن الذي نُوِّرَ قلبُه بالإيمان ، وأُيِّدَ بالفهم ، وأُمِّدَ بالنصرة ، وكوشف بسماع السِّرِّ من الغيب هو الذي يسمع ويؤمن . والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمانُ قلبَه ، ولا يباشر السماعُ سِرَّه .

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27)

اليومَ بإدامة الحرمان الذي هو الفراق ، وغداً بالتخليد في النار التي هي الاحتراق .

(273/681)

ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28)

لهم فيها الخزي والهوان بلا انقطاع ولا انصرام .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

من الجنِّ إبليس . ومن الإنس قابيل من آدم فهو أول منْ سَنَّ المعصية (حين قتل أخاه) .

﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ ؛ هذه الإرادة وهذا التمني زيادة في عقوبتهم أيضاً ؛ لأنهم يتأذون بتلك الإرادة وهذا التمني ؛ فهم يجدون أنه لا نَفْعَ لهم من ذلك إذ لن يُجَبوا في شيء ،

ولن يُمْنَعَ عنهم العذاب .

ويفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبَرّي فيما بينهم ، فبعضهم يتبرأ من بعض ، كما يفيد بأن الندمَ في غير وقته لا جدوى منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 327.325 ﴾

(274/681)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر الأعداء وقرناءهم نذارة ، أتبعه ذكر الأولياء وأوداءهم بشارة ، فقال مبيناً لحالهم القابل للإعراض وثمراته جواباً لمن يسأل عنهم مؤكداً لأجل إنكار المعاندين : ﴿ إن الذين ﴾ قال أبو حيان : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : نزلت في الصديق ـ رضى الله

عنه ـ وأرضاه .

﴿ قالوا ﴾ أي قولاً حقيقياً مذعنين به بالجنان وناطقين باللسان تصديقاً لداعي الله في دار الدنيا متذللين حيث ينفع الذل جامعين بين الأسّ الذي هو المعرفة والاعتقاد ، والبناء الذي هو العمل الصالح بالقول والفعل على السداد ، فإن أصل الكمالات النفسانية يقين مصلح وعمل صالح ، تعرف الحق لذاته والخير لتعمل له ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله ، ورأس الأعمال الصالحة الاستقامة على حد الاعتدال من غير ميل إلى طرف إفراط أو تفريط : ﴿ ربنا ﴾ أي المحسن إلينا ﴿ الله ﴾ المختص بالجلال والإكرام وحده لا شريك له .

(275/681)

ولما كان الثبات على التوحيد ومصححاته إلى الممات أمراً في علو رتبته لا يرام إلا بتوفيق ذي الجلال والإكرام ، أشار إليه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم استقاموا ﴾ طلبوا وأوجدوا القوام بالإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب ولم يشركوا به صنماً ولا ثناً ولا آدمياً ولا ملكاً ولا كوكباً ولا غير بعبادة ولا رياء ، وعملوا بما يرضيه وتجنبوا كل ما يسخطه وإن طال الزمان ، امتثالاً لما أمر به أول السورة في قوله ﴿ إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه ﴾ فمن كان له

أصل الاستقامة في التوحيد أمن من النار بالخلود ، ومن كان له كمال الاستقامة في الأصول والفروع أمن الوعيد ﴿ تتنزل ﴾ على سبيل التدريج المتصل ﴿ عليهم ﴾ من حين نفخ الروح فيهم إلى أن يموتوا ثم إلى أن يدخلوا الجنة باطناً فظاهراً ﴿ الملائكة ﴾ بالتأييد في جميع ما ينوبهم فتستعلي الأحوال الملكية على صفاتهم البشرية وشهواتهم الحيوانية فتضمحل عندها ، وتشرق مرائيهم ، ثم شرح ما يؤيدونهم به وفسره فقال : ﴿ ألا تخافوا ﴾ أي من شي مثله يخيف ، وكأنهم يثبتون ذلك في قلوبهم ﴿ ولا تحزنوا ﴾ أي على شيء فاتكم ، فإن ما حصل لكم أفضل منه ، فأوقاتكم الأخراوية فيها بل هي كلها روح وراحة ، فلا يفوتهم لذلك محبوب ولا يلحقهم مكروه ﴿ وابشروا ﴾ أي املأوا صدوركم سروراً يظهر أثره على بشرتكم بتهلل الوجه ونعمة سائر الجسد ﴿ بالجنة التي كنتم ﴾ أي كوناً عظيماً على ألسنة الرسل ﴿ توعدون ﴾ أي يتجدد لكم ذلك كل حين بالكتب والرسل ، وقال الرازي في اللوامع : يبشرون في ثلاثة مواضع : عند الموت ، وفي القبر ، ويوم البعث – انتهى .

وهذا محول على الكلام الحقيقي وما قبله على أنهم يفعلون معه ما ترجمته ذلك .

(276/681)

ولما أثبتوا لهم الخير، ونفوا عنهم الضير، عللوه بقولهم: ﴿ نحن أولياؤكم ﴾ أي أقرب الأقرباء إليكم، فنحن نفعل معكم كل ما يمكن أن يفعله القريب ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ نجتلب لكم المسرات ونبعد عنكم المضرات ونحملكم على جميع الخيرات بحيث يكون لكم فيها ما تؤثره العقول بالامتناع مما تهواه النفوس وإن تراءى للرائين في الدنيا أن الأمر بخلاف ذلك، فنوقظكم من المنام، ونحملكم على الصلاة والصيام، ونبعدكم عن الآثام، ضد ما تفعله الشياطين مع أوليائهم ﴿ وفي الآخرة ﴾ كذلك حيث يتعادى الأخلاء إلا الأتقياء ﴿ ولكم فيها ﴾ أي الآخرة في الجنة وقبل دخولها في جميع أوقات الحشر ﴿ ما تشتهي ﴾ ولو على أدنى وجوه الشهوة بما يرشد إليه حذف المفعول ﴿ أنفسكم ﴾ لأجل ما منعتموها من الشهوات في الدنيا ﴿ ولكم ﴾.

ولما كان السياق للذين استقاموا العام للسابقين وأصحاب اليمين على ما أشير إليه الختم بصفة المغفرة وتقديمها، قيد بالظرف بخلاف ما في يس فقال: ﴿ فيها ﴾ أي الآخرة ﴿ ما تدعون ﴾ أي ما تؤثرون دعاءه وطلبه وتسألونه وتمنونه بشهوة نفوسكم ورغبة قلوبكم.

ولما كان هذا كله بالنسبة إلى ما يعطون شيئاً يسيراً، نبه عليه بقوله: ﴿ نزلاً ﴾ أي هذا كله يكون لكم كما يقدم إلى الضيف عند قدومه إلى أن يتهيأ ما يضاف به.

ولما كان من حوسب عذب، فلا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ من ﴾ أي كائناً النزل من ﴿ غفور ﴾ له صفة المحو للذنوب عيناً وأثراً على غاية لا يمكن

وصفها ﴿ رحيم ﴾ أي بالغ الرحمة بما ترضاه الإلهية ، فالحاصل أن المفسد يقيض الله له قرناء السوء من الجن والإنس يزيدونه فساداً والمصلح ييسر الله له أولياء الخير من الإنس والملائكة يعينونه ويحببونه في جميع الخيرات ويبعدونه ويكرهونه في جميع المضرات – والله يتولى الصالحين .

(277/681)

ولما كان هذا لمن كمل نفسه ، أتبعه بمن أكمل غيره إشارة إلى أن السعادة التامة أن يكتسب الإنسان من الصفات الفاضلة مما يصير بها كاملاً في نفسه ، فإذا فرغ اشتغل بتكميل الناقص عاطفاً على ما تقديره : ما أحسن هذا الذي كمل نفسه ، وقاله تنويهاً بعلو قدر النفع المتعدي وحثاً على مداومة الدعاء وإن أبوا وقالوا ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ ثم قالوا ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ فإنهم لم يقولوا من ذلك شيئاً إلا ذكرت أجوبته الشافية الكافية فاندفعت جميع الشبهات وزالت غياهب الضلالات ، فصار تحذير الدعاء موضعاً للقبول ﴿ ومن أحسن قولاً ﴾ أي من جهة القول ﴿ ممن دعا ﴾ وحد الضمير دلالة على قلة هذا الصنف ﴿ إلى الله ﴾ أي الذي عم بصفات كماله جميع الخلق فهو يستعطف كل أحد بما تعرف إليه سبحانه به من صفاته ﴿ وعمل ﴾ أي والحال أنه قد عمل ﴿ صالحاً ﴾ في

نفسه ليكون ذلك أمكن لدعائه أعم من أن يكون ذلك لصالح نية أو قولاً أو عملاً للجوارح الظاهرة سراً كان أو علناً ، ولذا حذف الموصوف لئلا يوهم تقيده بالأعمال الظاهرة وللاغناء عنها بقوله " دعا " بخلاف ما كان سياقه للتوبة كآية الفرقان أو اعتقاد الحشر كآية الكهف ، فإنه لا بد فيه من إظهار العمل ليكون شاهداً على صحة الاعتقاد وكمال التوبة ، والدعاء هنا مغنٍ عن ذلك ﴿ وقال ﴾ مؤكداً عند المخالف والمؤالف قاطعاً لطمع المفسد فيه : ﴿ إنني من المسلمين ﴾ أي الراسخين في صفة الإسلام متظاهراً بذلك لا يخاف في الله لومة لائم وإن سماه أبناء زمانه كذا جافياً وغليظاً عاسياً لتصلبه في مخالفته إياهم فيما هم عليه بتسهله في انقياده لكل ما أمره به ربه سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 570 . 572 ﴾

(278/681)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا ﴾

(279/681)

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف ، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه ، وقد ذكرنا مراراً أن الكمالات على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية وأشرف المراتب النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية ، وذكرنا أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين العلم اليقيني والعمل الصالح ، فإن أهل التحقيق قالوا كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله وإليه الإشارة بقوله ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ﴾ ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط ، كما قال : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] وقال أيضاً : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وإليه الإشارة في هذه الآية بقوله ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ وسمعت أن القارىء قرأ في مجلس العبادي هذه الآية ، فقال العبادي : والقيامة في القيامة ، بقدر الاستقامة ، إذا عرفت هذا فنقول : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ ليس المراد منه القول باللسان فقط لأن ذلك لا يفيد الاستقامة ، فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة علمنا أن ذلك القول كان مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية ، إذ عرفت هذا فنقول في الاستقامة قولان أحدهما : أن المراد منه الاستقامة في الدين والتوحيد والمعرفة الثاني : أن المراد منه الاستقامة في الأعمال الصالحة أما على القول الأول

ففيه عبارات : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ثم استقاموا أي لم يتلفتوا إلى إله غيره ، قال ابن عباس في بعض الروايات هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، وذلك أن أبا بكر رضي الله عنه وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير ألبتة عن دينه ، فكان هو الذي قال : ﴿ رَبُّنَا الله ﴾ وبقي مستقيماً عليه لم يتغير بسبب من الأسباب ، وأقول يمكن فيه وجوه

(280/681)

أخرى ، وذلك أن من أقر بأن لهذا العالم إلهاً بقيت له مقامات أخرى فأولها : أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل ، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه ، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل ، وأيضاً يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر ، وكذا في الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المتسقيم ، فهذا هو المراد من قوله ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ وأما على القول الثاني وهو أن نحمل الاستقامة على الإتيان بالأعمال الصالحة ، فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ، قالوا وهذا أولى حتى يكون قوله ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ﴾ متناولاً للقول والاعتقاد ويكون قوله ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ متناولاً للأعمال الصالحة .

ثم قال : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ قيل عند الموت وقيل في مواقف ثلاثة عند الموت وفي القبر وعند البعث إلى القيامة ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ ﴾ أن بمعنى أي أو بمخففة من الثقيلة وأصله بأنه لا تخافوا والهاء ضمير لشأن واعلم أن الغاية القصوى في رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع ، ومعلوم أن دفع المضرة أولى بالرعاية من جلب المصلحة ، والمضرة إما أن تكون حاصلة في المستقبل أو في الحال أو في الماضي ، وههنا دقيقة عقلية وهي أن المستقبل مقدم على الحاضر والحاضر مقدم على الماضي ، فإن الشيء الذي لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلاً ، فإذا وجد يصير حاضراً ، فإذا عدم وفني بعد ذلك يصير ماضياً ، وأيضاً المستقبل في كل ساعة يصير أقرب حصولاً والماضي في كل حالة أبعد حصولاً ، ولهذا قال الشاعر :

فلا زال ما تهواه أقرب من غد . . ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

(281/681)

وإذا ثبت هذا فالمضار التي يتوقع حصولها في المستقبل أولى بالدفع من المضار الماضية ، وأيضاً الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة في المستقبل ، والغم عبارة عن تألم القلب بسبب قوة نفع كان موجوداً في الماضي ، وإذا كان كذلك فدفع الخوف أولى

من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم ، إذا عرفت هذا ، فنقول : إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم في أول الأمر يخبرون بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقبلونه من أحوال القيامة ، ثم يخبرون بأنه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا ، وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية ، ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فإن قيل البشارة عبارة عن الخبر الأول بحصول المنافع ، فأما إذا أخبر الرجل بحصول منفعة ثم أخبر ثانياً بحصولها كان الإخبار الثاني إخباراً ولا يكون بشارة ، والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فإذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخباراً ولا يكون بشارة ، فما السبب في تسمية هذا الخبر بالبشارة ، قلنا المؤمن يسمع أن من كان مؤمناً تقياً كان له الجنة ، أما من لم يسمع ألبتة أنه من أهل الجنة فإذا سمع هذا الكلام من الملائكة كان هذا إخباراً بنفع عظيم مع أنه هو الخبر الأول بذلك فكان ذلك بشارة .

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث لا يكون فازعاً من الأهوال ومن الفزع الشديد ، بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لأن قوله ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ يفيد نفي الخوف والحزن على الإطلاق .

ثم إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم قالوا للمؤمنين ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا وَفِى الأخرة ﴾ وهذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار حيث قال :

(282/681)

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء ﴾ [فصلت : 25] ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية ، والمقامات الحقيقية ، كما أن للشياطين تأثيرات في الأوراح بإلقاء الوساوس فيها وتخييل الأباطيل إليها .

(283/681)

وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات ، فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدينا فهي تكون باقية في الآخرة فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال ، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى ، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة ، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر ، والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات " فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية ، فقد

زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس ، فهذا هو المراد من قوله ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا وَفِي الأخرة ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي ما تتمنون ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فاكهة وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس : 57] فإن قيل فعلى هذا التفسير لا يبقى فرق بين قوله ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ وبين قوله ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ قلنا : الأقرب عندي أن قوله ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ إشارة إلى الجنة الجسمانية ، وقوله ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة في قوله ﴿ دعواهم فِيهَا سبحانك اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَءاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [يونس : 10] .

(284/681)

ثم قال : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ والنزل : رزق النزيل وهو الضيف ، وانتصابه على الحال ، قال العارفون : دلّت هذه الآية على أن كل هذه الأشياء المذكورة جارية مجرى النزل ، والكريم إذ أعطى النزل فلا بد وأن يبعث الخلع النفيسة بعدها ، وتلك الخلع النفيسة ليست إلا السعادات الحاصلة عند الرؤية والتجلي والكشف التام ، نسأل الله تعالى أن

يجعلنا لها أهلاً بفضله وكرمه ، إنه قريب مجيب .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدىء حيث قالوا للرسول ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ [فصلت : 5] ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك ، ثم ذكروا طريقة أخرى في السفاهة ، فقالوا ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية ، والبيانات الكافية في دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات ، ثم إنه سبحانه وتعالى بيّن أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة ، إلا أنه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة ، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات ، وعبّر عن هذا المعنى فقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فهذا وجه شريف حسن في نظم آيات هذه السورة .

وفيه وجه آخر وهو أن مراتب السعادات اثنان : التام ، وفوق التام ، أما التام : فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته ، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام ، إذا عرفت هذا فنقول إن قوله ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ [فصلت : 30] إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها ، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الاشتغال بتكميل الناقصين ، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق ، وهو المراد من قوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ فهذا أيضاً وجه حسن في نظم هذه الآيات .

واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصاباً وافياً من العلوم الإلهية الكشفية ، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن .

المسألة الثانية :

من الناس من قال المراد من قوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من قال هم المؤذنون ، ولكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه ، والدعوة إلى الله مراتب :

فالمرتبة الأولى : دعوة الأنبياء عليهم السلام راجحة على دعوة غيرهم من وجوه أحدها : أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولاً ، ثم الدعوة بالسيف ثانياً ، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين وثانيها : أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء ، والشارع في إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل وثالثها : أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهراً ، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة وإشراق الأرواح الكدرة أكمل ، فكانت دعوتهم أفضل ورابعها : أن النفوس على ثلاثة أقسام : ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين فالقسم الأول : العوام والقسم الثاني : هم الأولياء والقسم الثالث : هم الأنبياء ، ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم :

" علماء أمتي كأنبياء إسرائيل " وإذا عرفت هذا فنقول : إن نفس الأنبياء حصلت لها مزيتان : الكمال في الذات ، والتكميل للغير ، فكانت قوتهم على الدعوة أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل ، إذا عرفت هذا فنقول : الأنبياء عليهم السلام لهم صفتان : العلم والقدرة ، أما العلماء ، فهم نواب الأنبياء في العلم ، وأما الملوك ، فهم نواب الأنبياء في القدرة ، والعلم يوجب الإستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد ، فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد .

وإذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات في الدعوة إلى الله بعد الأنبياء درجة العلماء ، ثم العلماء على ثلاثة أقسام : العلماء بالله ، والعلماء بصفات الله ، والعلماء بأحكام الله .

(287/681)

أما العلماء بالله ، فهم الحكماء الذين قال الله تعالى في حقهم ﴿يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 229] وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الأصول ، وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء ، ولكل واحد من هذه المقامات ثلاث درجات لا نهاية لها ، فلهذا السبب كان للدعوة إلى الله درجات لا نهاية لها ، وأما الملوك فهم أيضاً يدعون إلى دين الله بالسيف ، وذلك بوجهين إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار ، وإما بإبقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا المرتد يقتل ، وأما المؤذنون فهم يدخلون في هذا الباب دخولاً ضعيفاً ، أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة ، فكان ذلك داخلاً تحت الدعاء إلى الله ، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعاني تلك الكلمات وبتقدير أن يكون محيطاً بها إلا أنه لا يريد بذكرها تلك المعاني الشريفة ، فهذا هو الكلام ، في مراتب الدعوة

إلى الله .

المسألة الثالثة :

(288/681)

قوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سوها ، إذا عرفت هذا فنقول : كل ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً ، لأن كل ما لا يكون واجباً فالواجب أحسن منه ، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، إذا عرفت هذا فنقول الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية ، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة ، ثم نقول الأذان دعوة إلى الله والدعوة إليه واجبة فينتج الأذان واجب ، واعلم أن الأكثرين من الفقهاء زعموا أن الأذان غير واجب ، وزعموا أن الأذان غير داخل في هذه الآية ، والدليل القاطع عليه أن لدعوة المرادة بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الأقوال ، وثبت أن الأذان ليس أحسن الأقوال ، لأن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل اليقينية أحسن من الأذان ، ينتج من الشكل الثاني أن الداخل تحت هذه الآية ليس هو لأذان .

المسألة الرابعة :

اختلف الناس في أن الأولى أن يقول الرجل أنا المسلم أو الأولى أن يقول أنا مسلم إن شاء الله ، فالقائلون بالقول الأول احتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فإن التقدير ومن أحسن قولاً ممن قال إني من المسلمين ، فحكم بأن هذا القول أحسن الأقوال ، ولو كان قولنا إن شاء الله معتبراً في كونه أحسن الأقوال لبطل ما دل عليه ظاهر هذه الآية .

المسألة الخامسة :

الآية تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة أولها : الدعوة إلى الله وثانيها : العمل الصالح وثالثها : أن يكون من المسلمين ، أما الدعوة إلى الله فقد شرحناها وهي عبارة عن الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية .

وأما قوله ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب وهو المعرفة ، أو عمل الجوارح وهو سائر الطاعات .

(289/681)

وأما قوله ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المسلمين ﴾ فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان ، فيكون هذا الرجل موصوفاً بخصال أربعة أحدها : الإقرار باللسان ، والثاني : الأعمال الصالحة بالجوارح والثالث : الاعتقاد الحق بالقلب والرابع : الاشتغال بإقامة الحجة

على دين الله ، ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم ، وكمال الدرجة في هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 105 . 109 ﴾

(290/681)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ يَعْنِي لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ؛ إذْ لَا يَتِمُّ أَحَدُ الرُّكْنَيْنِ إلَّا بِالْآخَرِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَاسْتَقَرَّ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ اسْتِفْعَالٌ ، مِنْ قَامَ يَعْنِي دَامَ وَاسْتَمَرَّ وَفِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : اسْتَقَامُوا عَلَى قَوْلِ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ حَتَّى مَاتُوا عَلَيْهَا ، وَلَمْ يُبَدِّلُوا وَلَمْ يُغَيِّرُوا .

الثَّانِي : اسْتَقَامُوا عَلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ .

وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ لَازِمٌ ، مُرَادٌ بِالْقَوْلِ .

وَالْمَعْنَى : فَإِنَّ " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " مِفْتَاحٌ لَهُ أَسْنَانٌ ، فَمَنْ جَاءَ بِالْمِفْتَاحِ وَأَسْنَانِهِ فُتِحَ لَهُ ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : يَعْنِي عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَأَنَا أَقُولُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَآكَدُ الْأَيَّامِ يَوْمَ الْمَوْتِ ، وَحِينَ الْقَبْرِ ، وَيَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَفِي ذَلِكَ آثَارٌ بَيَّنَّاهَا فِي مَوَاضِعِهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

(291/681)

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ الْحَسَنُ إِذَا تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ يَقُولُ : هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ ، هَذَا صَفْوَةُ اللَّهِ ، هَذَا خِيرَةُ اللَّهِ ، هَذَا وَاللَّهِ أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ .

وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي الْمُؤَذِّنِينَ ، وَهَذَا ذِكْرٌ ثَانٍ لَهُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَسَيَأْتِي الثَّالِثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَالْأَذَانَ مَدَنِيٌّ ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِيهَا بِالْمَعْنَى ، لَا أَنَّهُ كَانَ الْمَقْصُودَ ، وَيَدْخُلُ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ حِينَ قَالَ فِي النَّبِيِّ وَقَدْ خَنَقَهُ الْمَلْعُونُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ ، وَيَتَضَمَّنُ كُلَّ كَلَامٍ حَسَنٍ فِيهِ ذِكْرُ التَّوْحِيدِ وَبَيَانُ الْإِيمَانِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ .

قَالُوا : هِيَ الصَّلَاةُ ، وَإِنَّهُ لَحَسَنٌ وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ ، وَلَكِنَّ الصَّلَاةَ أَجَلُّهُ ، وَالْمُرَادُ أَنْ يَتْبَعَ الْقَوْلَ الْعَمَلُ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

(292/681)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، وَمَا تَقَدَّمَ يَدُلُّ عَلَى الْإِسْلَامِ ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الدُّعَاءُ بِالْقَوْلِ ، وَالسَّيْفُ يَكُونُ لِلِاعْتِقَادِ ، وَيَكُونُ لِلْحُجَّةِ ، وَكَانَ الْعَمَلُ يَكُونُ لِلرِّيَاءِ وَالْإِخْلَاصِ ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ التَّصْرِيحِ بِالِاعْتِقَادِ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَنَّ الْعَمَلَ لِوَجْهِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ [لَهُ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَقُولُ : أَنَا مُسْلِمٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْأُصُولِ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّهُ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(293/681)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾

قال عطاء عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ؛ وذلك أن المشركين قالوا ربُّنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ؛ فلم يستقيموا .

وقال أبو بكر : ربُّنا الله وحده لا شريك له ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ؛ فاستقام .

وفي الترمذي عن أنس بن مالك : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ قال : "قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن استقام" " قال : حديث غريب .

ويروى في هذه الآية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ معنى ﴿ استقاموا ﴾ ؛ ففي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال : قلت يا رسول

الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك وفي رواية غيرك .

قال : " قل آمنت بالله ثم استقم " زاد الترمذي قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ ؟ فأخذ بلسان نفسه وقال : "هذا" .

وروي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قال : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ لم يشركوا بالله شيئاً .

وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه : ما تقولون في هاتين الآيتين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ و ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : 82] فقالوا : استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة ؛ فقال أبو بكر : لقد حملتموها على غير المحمل ﴿ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ ﴾ بشرك ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر وهو يخطب : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ فقال : استقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يَرغُوا روغان الثعالب .

(294/681)

وقال عثمان رضي الله عنه : ثم أخلصوا العمل لله .

وقال عليّ رضي الله عنه : ثم أدوا الفرائض .

وأقوال التابعين بمعناها .

قال ابن زيد وقتادة : استقاموا على الطاعة لله .

الحسن : استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته .

وقال مجاهد وعكرمة : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا .

وقال سفيان الثوري : عملوا على وِفاق ما قالوا .

وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله .

وقال الفضيل بن عياض : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية .

وقيل : استقاموا إسراراً كما استقاموا إقراراً .

وقيل : استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً .

وقال أنس : لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هم أمتي وربِّ الكعبة "

وقال الإمام ابن فُورك : السين سين الطلب مثل استسقى أي سألوا من الله أن يثبتهم على الدين .

وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة .

قلت : وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها : اعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً

، وداموا على ذلك .

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ قال ابن زيد ومجاهد : عند الموت .

وقال مقاتل وقتادة : إذا قاموا من قبورهم للبعث .

وقال ابن عباس : هي بشرى تكون لهم من الملائكة في الآخرة .

وقال وكيع وابن زيد : البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث .

﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ ﴾ أي ب"أَلاَّ تَخَافُوا" فحذف الجار .

وقال مجاهد : لا تخافوا الموت ﴿ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ على أولادكم فإن الله خليفتكم عليهم .

وقال عطاء بن أبي رباح : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم .

وقال عكرمة : ولا تخافوا أمامكم ، ولا تحزنوا على ذنوبكم .

﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

(295/681)

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ أي تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة "نَحْنُ أَوْلِيَاءُكُمْ" قال مجاهد : أي نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في

الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة .

وقال السدي : أي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة .

ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى ؛ والله وِلي المؤمِنينَ ومولاهم .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ ﴾ أي من الملاذّ .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تسألون وتتمنون .

﴿ نُزُلاً ﴾ أي رزقاً وضيافة .

وقد تقدّم في "آل عمران" وهو منصوب على المصدر أي أنزلناه نزلاً .

وقيل : على الحال .

وقيل : هو جمع نازل ، أي لكم ما تدعون نازلين ، فيكون حالاً من الضمير المرفوع في "تَدَّعُونَ" أو من المجرور في "لَكُمْ" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ هذا توبيخ للذين تواصَوْا باللغو في القرآن .

والمعنى : أيّ كلام أحسن من القرآن ، ومن أحسن قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

قال ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا وليّ الله ،

هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ؛ أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد : نزلت في المؤذّنين .

(296/681)

قال فضيل بن رفيدة : كنت مؤذناً لأصحاب عبد الله بن مسعود ، فقال لي عاصم بن هبيرة : إذا أذّنت فقلت : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، فقل وأنا من المسلمين ؛ ثم قرأ هذ الآية ؛

قال ابن العربي ؛ الأول أصح ؛ لأن الآية مكية والأذان مدني ؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى ؛ لا أنه كان المقصود وقت القول ، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال في النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد خنقه الملعون ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ [غافر : 28] وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان .

قلت : وقول ثالث وهو أحسنها ؛ قال الحسن : هذه الآية عامة في كل من دعا إلى الله .

وكذا قال قيس بن أبي حازم قال : نزلت في كل مؤمن .

قال : ومعنى "وَعَمِلَ صَالِحاً" الصلاة بين الأذان والإقامة .

وقاله أبو أمامة ؛ قال : صلى ركعتين بين الأذان والإقامة .

وقال عكرمة : "وَعَمِلَ صَالِحَاً" صلّى وصام .

وقال الكلبي : أدى الفرائض .

قلت : وهذا أحسنها مع اجتناب المحارم وكثرة المندوب .

والله أعلم .

﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المسلمين ﴾ قال ابن العربي : وما تقدّم يدل على الإسلام ، لكن لما كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة ، وكان العمل يكون للرياء والإخلاص ، دل على أنه لا بدّ من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كله ، وأن العمل لوجهه .

مسألة : لما قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المسلمين ﴾ ولم يقل له اشترط إن شاء الله ، كان في ذلك رد على من يقول أنا مسلم إن شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(297/681)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلَّا تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾

قال سفيان بن عبد اللَّه الثَّقَفِيُّ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ ، قَالَ : «قُلْ : رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ» .

(298/681)

---

* ت * : هذا الحديث خَرَّجه مسلم في «صحيحه» ، قال صاحب «المُفْهِم» : جوابه صلى الله عليه وسلم من جوامع الكَلِم ، وكأَنَّهُ مُنْتَزَعٌ من قول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ . . . ﴾ الآية ، وتلخيصه : اعْتَدَلُوا على طاعته قولاً وفعلاً وعقداً ، انتهى من «شرح الأربعين حديثاً» لِلأبنِ الفَاكِهَانِيّ ، قال * ع * : واخْتَلَفَ النَّاسُ في مقتضى قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ ﴾ فذهب الحَسَنُ وجماعةٌ إلى أَنَّ معناه : استقاموا بالطاعاتِ واجتناب المعاصِي ، وتلا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الآيةُ على المِنْبَرِ ، ثم قال : استقاموا واللَّهِ بطاعتهِ ، ولم يروغوا روغانَ الثَّعَالِبِ ، قال * ع * : فذهب رحمه اللَّه إلى حَمْلِ الناس على الأَتَمِّ الأَفْضَلِ ، وإلاَّ فيلزم على هذا التأويل من دليل الخطاب أَلاَّ تتنزل الملائكةُ عِنْدَ الموت على غير مستقيمٍ على الطاعَةِ ، وذهب أبو بكْرٍ رضي اللَّه عنه وجماعةٌ معه إلى أَنَّ المعنى : ثم : استقاموا على قولهم : رَبُّنَا اللَّهُ ، فلم يختلَّ توحيدُهُمْ ، ولا اضطرب إيمانهم ، قال * ع * : وفي الحديث الصحيح : " مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ

اللَّه ، دَخَلَ الجَنَّةَ " وهذا هو الْمُعْتَقَدُ إن شاء اللَّه ، وذلك أَنَّ العصاة من أُمَّةِ محمَّد وغيرها فرقتان : فأَمَّا مَنْ غفر اللَّه له ، وترك تعذيبه ، فلا محالة أَنَّه مِمَّن تتنزَّل عليهم الملائكة بالبشارة ، وهو إنَّما استقام على توحيده فَقَطْ ، وأَمَّا مَنْ قَضَى اللَّهُ بتَعْذِيبِهِ مُدَّةً ، ثم [يأمر] بإدخاله الجَنَّةَ ، فلا محالة أَنَّه يلقى جميعَ ذلك عند مَوْتِهِ ويَعْلَمُهُ ، وليس يَصِحُّ أَنْ تكون حاله كحالة الكافر واليائِسِ مِنْ رحمة اللَّه ، وإذا كان هذا فقَدْ حَصَلَتْ له بشارة بأَلاَّ يخافَ الخُلُودَ ، ولا يحزنَ منه ، ويدخلَ فيمن يقال لهم : ﴿

(299/681)

وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ومع هذا كله فلا يختلف في أَنَّ المُوَحِّدَ المستقيمَ عَلَى الطَّاعَةِ أَتَمُّ حالاً وأَكمل بشارةً ، وهو مقصد أمير المؤمنين عمر رضي اللَّه عنه ، وبالجملة ، فكُلَّما كان المرءُ أَشَدَّ استعدادا ، كان أَسْرَعَ فوزاً بفَضْلِ اللَّه تعالى ؛ قال الثعلبيُّ : قوله تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ أي : عند الموت ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ ﴾ قال وَكِيعٌ : والبشرى في ثلاثة مَوَاطِنَ : عند الموت ، وفي القبر ، وعند البعث ، وفي البخاريِّ : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ أي عند الموت ، انتهى ، قال ابن العربيِّ في " أحكامه " : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ قال المُفَسِّرُونَ : عند الموت ، وأنا أقول : كُلَّ يَوْم ، وأَوْكَدُ الأيام : يومُ

الموت ، وحينَ القَبْرِ ، ويَوْمُ الفزعِ الأكبر ، وفي ذلك آثار بَيَّنَّاها في موضعها ، انتهى ، قال *ع * : قوله تعالى ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ : أَمَنَةٌ عامَّةٌ في كُلِّ هَمٍّ مستأنفٍ ، وتسليةٌ تامَّةٌ عن كُلِّ فَائِتٍ مَاضٍ ، وقال مجاهدٌ : المعنى : لا تخافُونَ ما تَقْدُمُونَ عليه ، ولا تحزنوا على ما * ت * : وذكر أبو نُعَيْمٍ عن ثابتٍ البُنَانيِّ أَنَّه قرأ : حم السجدةِ حَتَّى بلغ : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ ، فوقف ، وقال : بلغنا أَنَّ العَبْدَ المؤمن حين يُبْعَثُ من قبره يتلقَّاه المَلَكَانِ اللَّذانِ كانا معه في الدنيا ، فيقولان له : لاَ تَخَفْ ، ولا تَحْزَنْ ، وأبشر بالجنة التي كنت تُوْعَدُ ، قال : فَأَمَّنَ اللَّه خوفَه ، وأَقَرَّ عينه ، الحديث . انتهى .

(300/681)

قال ابن المبارك في " رقائقه " : سمعتُ سفيانَ يَقُولُ في قوله تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ : أي عند الموت ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ ﴾ : ما أمامكم ﴿ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ : على ما خلفتم من ضَيْعَاتِكُمْ ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ قال : يُبَشَّرُ بثلاث بشاراتٍ : عند الموت ، وإذا خرج من القبر ، وإذا فَزِعَ ، ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ قال : كانوا معهم ، قال ابن المبارك : وأخبرنا رَجُلٌ عن منصورٍ ، عن مجاهدٍ في قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ

أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ قال : قُرَنَاؤُهُمْ يلقونهم يوم القيامة ، فيقولون : لا نفارقُكُمْ حتى تدخلوا الجنة ، اه .

(301/681)

وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا وَفِى الاخرة ﴾ المتكلم ب ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ ﴾ هم الملائكة القائلون : ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ أي : يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحق : نحن كُنَّا أولياءَكُمْ في الدنيا ، ونحن هُمْ أولياؤكم في الآخرة ؛ قال السُّدِّيُّ : المعنى : نحن حَفَظَتُكُم في الدنيا ، وأولياؤكم في الآخرة ، والضمير في قوله : ﴿ فِيهَا ﴾ عائدٌ على الآخرة ، و ﴿ تَدَّعُونَ ﴾ معناه : تَطْلُبُونَ ؛ قال الفَخْرُ : ومعنى كونِهِمْ أولياءَ للمؤمنين ، إشارةٌ إلى أَنَّ للملائكة تأثيراتٍ في الأرواحِ [البشريَّةِ ، بالإلهاماتِ والمُكَاشَفَاتِ اليقينيَّةِ والمناجاتِ الخفيَّةِ ؛ كما أَنَّ للشياطينِ تَأْثيراتٍ في الأرواحِ] بإلقاء الوسَاوِسِ ، وبالجملة ، فَكَوْنُ الملائكةِ أولياءَ للأرواح الطَّيِّبَةِ الطاهرة ، حاصِلٌ من جهاتٍ كثيرةٍ معلومةٍ لأربابِ المكاشفاتِ والمشاهَدَاتِ ، فَهُمْ يَقُولُونَ : كما أَنَّ تلك الولاياتِ حاصلةٌ في الدنيا ، فهي تكونُ باقيةً في الآخرة ؛ فإنَّ تلك العلائِقَ ذاتيَّةٌ لازمة ، غير مائلة إلى الزوال ؛ بل تصير بعد الموت أقوى وأبقى ؛ وذلك لأَنَّ جوهر النفْسِ من جنس الملائكة ، وهي

كالشُّعْلَةِ بالنسبة إلى الشمس والقطرة بالنسبة إلى البحر ، وإنَّما التَّعَلُّقَاتُ الجَسَدَانِيَّةُ والتدبيراتُ البدنيَّةُ هي الحائلة بَيْنَهَا وبين الملائكة ، فإذا زالَتْ تلك العلائِقُ ، فقد زَالَ الْغِطَاءُ ، واتَّصَلَ الأثر بالمؤثر ، والقطرةُ بالبَحْرِ ، والشعلةُ بالشمْسِ ، انتهى .

* ت * : وقد نقل الثعلبيُّ من كلام أرباب المعاني هنا كلاماً كثيراً حَسَناً جِدًّا ، موقظاً لأربابِ الهِمَمِ ، فانظره إنْ شِئْتَ ، وروى ابن المبارك في «رقائقه» بسنده عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ بأَنَّهُ قال :

(302/681)

« إذَا فَنِيَتْ أَيَّامُ الدُّنْيَا عَنْ هَذَا الْعَبْدِ المُؤْمِنِ ، بَعَثَ اللَّهُ إلى نَفْسِهِ مَنْ يَتَوَفَّاهَا ، قَالَ : فَقَالَ صَاحِبَاهُ اللَّذَانِ يَحْفَظَانِ عَلَيْهِ عَمَلَهُ : إنَّ هَذَا قَدْ كَانَا لَنَا أَخاً وَصَاحِباً ، وَقَدْ حَانَ الْيَوْمَ مِنْهُ فِرَاقٌ ، فَأْذَنُوا لَنَا ، أَوْ قَالَ : دَعُونَا نُثْنِ على أَخِينَا ، فَيُقَالُ : أَثْنِيَا عَلَيْهِ ، فَيَقُولاَنِ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً ، وَرَضِيَ عَنْكَ ، وَغَفَرَ لَكَ ، وأَدْخَلَكَ الجَنَّةَ ؛ فَنِعْمَ الأَخُ كُنْتَ والصَّاحِبُ ؛ مَا كَانَ أَيْسَرَ مُؤْنَتَكَ ، وَأَحْسَنَ مَعُونَتَكَ على نَفْسِكَ ، مَا كَانَتْ خَطَايَاكَ تَمنَعُنَا أَنْ نَصْعَدَ إلى رَبِّنَا ، فَنُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ ، وَنُقَدِّسَ لَهُ ، وَنَسْجُدَ لَهُ ، وَيَقُولُ الَّذِي يتوفى نَفْسَهُ : اخرج أَيُّهَا الرُّوْحُ الطَّيِّبُ إلى خَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ ، فَنِعْمَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ ، اخرج إلى الرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ

وَجَنَّاتِ النَّعِيمِ وَرَبٍّ عَلَيْكَ غَيْرِ غَضْبَانَ ، ، وَإِذَا فَنِيَتْ أَيَّامُ الدُّنْيَا عَنِ الْعَبْدِ الْكَافِرِ ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ مَنْ يَتَوَفَّاهَا ، فَيَقُولُ صَاحِبَاهُ اللَّذَانِ كَانَا يَحْفَظَانِ عَلَيْهِ عَمَلَهُ : إِنَّ هَذَا قَدْ كَانَ لَنَا صَاحِباً ، وَقَدْ حَانَ مِنْهُ فِرَاقٌ ، فَأْذَنُوا لَنَا ، وَدَعُونَا نُثْنِ عَلَى صَاحِبِنَا ، فَيُقَالُ : أَثْنِيَا عَلَيْهِ فَيَقُولاَنِ : لَعْنَةُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ عَلَيْهِ ، وَلاَ غَفَرَ لَهُ ، وَأَدْخَلَهُ النَّارَ فَبِئْسَ الصَّاحِبُ ؛ مَا كَانَ أَشَدَّ مُؤْنَتَهُ ، وَمَا كَانَ يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ ؛ إِنْ كَانَتْ خَطَايَاهُ وَذُنُوبُهُ لَتَمْنَعُنَا أَنْ نَصْعَدَ إِلَى رَبِّنَا فَنُسَبِّحَ لَهُ ، وَنُقَدِّسَ لَهُ ، وَنَسْجُدَ لَهُ ، وَيَقُولُ

(303/681)

الَّذِي يتوفى نَفْسَهُ : اخرج أَيُّهَا الرُّوحُ الخَبِيثُ إِلَى شَرِّ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ ، فَبِئْسَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ ، اخرج إِلَى الحَمِيمِ وَتَصْلِيَةِ الجَحِيمِ وَرَبٍّ عَلَيْكَ غَضْبَانَ » ، انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ . . . ﴾ الآية ابتداءُ توصيةٍ لنبيّه عليه السلام ، وهو لفظ يَعُمُّ كُلَّ مَنْ دعا قديماً وحديثاً إلى اللَّه عزَّ وجلَّ من الأنبياء والمؤمنين ، والمعنى : لا أَحَدَ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ هذه حالُهُ ، وإلى العموم ذهب الحسن ومقاتلٌ وجماعةٌ ، وقيل : إنَّ الآية نزلَتْ في المُؤَذِّنِينَ ، وهذا ضعيفٌ ؛ لأَنَّ الآية مَكِّيَّةٌ ، والأذانُ شُرِعَ بالمدينةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(304/681)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ﴾

شروع في بيان حسن أحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفرة فيهما أي قالوه اعترافاً بربوبيته تعالى وإقراراً بوحدانيته كما يشعر به الحصر الذي يفيده تعريف الطرفين كما في صديقي زيد ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ ثم ثبتوا على الإقرار ولم يرجعوا إلى الشرك ، فقد روي عن الصديق رضي الله تعالى عنه أنه تلا الآية وهي قد نزلت على ما روي عن ابن عباس ثم قال : ما تقولون فيها ؟ قالوا : لم يذنبوا قال : قد حملتم الأمر على أشده قالوا : فما تقول ؟ قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان .

(305/681)

وعن عمر رضي الله تعالى عنه استقاموا لله تعالى بطاعته لم يروغوا روغان الثعالب ، وعن عثمان رضي الله تعالى عنه اخلصوا العمل ، وعن الأمير علي كرم الله تعالى وجهه أدوا

الفرائض ، وقال الثوري : عملوا على وفاق ما قالوا ، وقال الفضيل : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية ، وقال الربيع : اعرضوا عما سوى الله تعالى ، وفي "الكشاف" أي ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته وأراد أن من قال : ربي الله تعالى فقد اعترف أنه عز وجل مالكه ومدبر أمره ومربيه وأنه عبد مربوب بين يدي مولاه فالثبات على مقتضاه أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا يتخطاه وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لمن طلب أمراً يعتصم به : " قل ربي الله تعالى ثم استقم " وذكر أن ما ورد عن الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم جزئيات لهذا المعنى ذكر كل منها على سبيل التمثيل ولا يخفى أن كلام الصديق رضي الله تعالى عنه يبعد كون ما ذكره على سبيل التمثيل ، ولعل ﴿ ثُمَّ ﴾ على هذا للتراخي الرتبي فإن الاستقامة عليه أعظم وأصعب من الإقرار وكذا يقال على أغلب التفاسير السابقة ، وجوز أن تكون للتراخي الزماني لأنها تحصل بعد مدة من وقت الإقرار ، وجعلت على تفسير الاستقامة بأداء الفرائض أو بالعمل للتراخي الرتبي أيضاً بناء على أن الإقرار مبدأ الاستقامة على ذلك ومنشؤها ، وهذا على عكس التراخي الرتبي الذي سمعته أولاً لأن المعطوف عليه فيه أعلى مرتبة من المعطوف إذ هو العمدة والأساس ، وعلى ما تقدم المعطوف أعلى مرتبة من المعطوف عليه كما لا يخفى ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ﴾ من الله ربهم عز وجل ﴿ الملائكة ﴾ قال مجاهد .

والسدي : عند الموت ، وقال مقاتل : عند البعث ، وعن زيد بن أسلم عند الموت وفي القبر وعند البعث ، وقيل : تتنزل عليهم يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح ، قيل : وهذا هو الأظهر لما فيه من الإطلاق والعموم الشامل لتنزلهم في المواطن الثلاثة السابقة وغيرها ، وقد قدمنا لك أن جميعاً من الناس يقولون : بتنزل الملائكة على المتقين في كثير من الأحيايين وأنهم يأخذون منهم ما يأخذون فتذكر .

﴿ أَلَّا تَخَافُواْ ﴾ ما تقدمون عليه فإن الخوف غم يلحق لتوقع المكروه ﴿ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ على ما خلفتم فإنه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار وروى هذا عن مجاهد ، وقال عطاء بن أبي رباح : لا تخافوا رد حسناتكم فإنها مقبولة ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنها مغفورة ، وقيل : المراد نهيهم عن الغموم على الإطلاق .

والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمس من كل غم فلم تذوقوه أبداً .

و﴿ إن ﴾ إما مصدرية و﴿ لا ﴾ ناهية أو نافية وسقوط النون للنصب والخبر في موضع الإنشاء مبالغة ، وإما مخففة من الثقيلة و﴿ تَتَنَزَّلُ ﴾ مضمن معنى العلم ولا ناهية وأن في الوجهين مقدرة بالباء أي بأن لا تخافوا أو بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشأن .

وإما مفسرة و﴿ تَتَنَزَّلُ ﴾ مضمن معنى القول ولا ناهية أيضاً .

وفي قراءة عبد الله ﴿ لا تَخَافُواْ ﴾ بدون ﴿ إن ﴾ أي يقولون لا تخافوا على أنه حال من الملائكة أو استئناف .

﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي التي كنتم توعدونها في الدنيا على ألسنة الرسل عليهم السلام ، هذا من بشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة

(307/681)

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ إلى آخره من بشاراتهم في الدنيا أي أعوانكم في أموركم نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ، ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المسترين على الطاعات من أن ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام ، ويجوز على قول بعض الناس أن تقول الملائكة لبعض المتقين شفاها في غير تلك المواطن : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع من الدعاوي والخصام .

وذهب بعض المفسرين على أن هذا من بشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة أيضاً على معنى كنا نحن أولياءكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة ، وقيل : هذا من كلام الله تعالى دون

الملائكة أي نحن أولياؤكم بالهداية والكفاية في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الآخرة ﴿ مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ من فنون الملاذ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ما تتمنون وهو افتعال من الدعاء بمعنى الطلب أي تدعون لأنفسكم وهو عند بعض أعم من الأول لأنه قد يقع الطلب في أمور معنوية وفضائل عقلية روحانية ، وقيل : بينهما عموم وخصوص من وجه إذ قد يشتهي المرء ما لا يطلبه كالمريض يشتهي ما يضره ولا يريده ، وكون التمني أعم من الإرادة غير مسلم ، نعم قيل : إذا أريد بالمتمني ما يصح تمنيه لا ما يتمنى بالفعل فذاك .

وقال ابن عيسى المراد ما تدعون أنه لكم فهو لكم يحكم ربكم ﴿ وَلَكُمْ ﴾ في الموضعين خبر و ﴿ مَا ﴾ مبتدأ و ﴿ فِيهَا ﴾ حال من ضميره في الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ﴿ مَا تَدَّعُونَ ﴾ على ﴿ مَا تَشْتَهِى ﴾ للإيذان باستقلال كل منهما .

(308/681)

﴿ نُزُلاً ﴾ قال الحسن : منا وقال بعضهم : ثواباً ، وتنوينه للتعظيم وكذا وصفه بقوله تعالى : ﴿ مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ والمشهور أن النزل ما يهيأ للنزيل أي الضيف ليأكله حين نزوله وتحسن إرادته هنا على التشبيه لما في ذلك من الإشارة إلى عظم ما بعد من الكرامة ،

وانتصابه على الحال من الضمير في الظرف الراجع إلى ﴿ مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت : 31] لا من الضمير المحذوف الراجع إلى ﴿ مَا ﴾ لفساد المعنى لأن التمني والإدعاء ليس في حال كونه نزلاً بل ثبت لهم ذلك المدعي واستقر حال كونه نزلاً ، وجعله حالاً من المبتدأ نفسه لا يخفى حاله على ذي تمييز .

وقال ابن عطية : ﴿ نُزُلاً ﴾ نصب على المصدر ، والمحفوظ أن مصدر نزل نزول لا نزل ، وجعله بعضهم مصدراً لأنزل ، وقيل : هو جمع نازل كشارف وشرف فينتصب على الحال أيضاً أي نازلين ، وذو الحال على ما قال أبو حيان : الضمير المرفوع في ﴿ تَدْعُونَ ﴾ ولا يحسن تعلق ﴿ مِّنْ غَفُورٍ ﴾ به على هذا القول فقيل : هو في موضع الحال من الضمير في الظرف فلا تغفل .

وقرأ أبو حيوة ﴿ نُزْلاً ﴾ بإسكان الزاي .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ أي إلى توحيده تعالى وطاعته والظاهر العموم في كل داع إلى تعالى ، وإلى ذلك ذهب الحسن .

ومقاتل .

وجماعة ، وقيل : بالخصوص فقال ابن عباس : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنه أيضاً هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقالت عائشة .

وقيس بن أبي حازم .

وعكرمة .

(309/681)

ومجاهد : نزلت في المؤذنين ، وينبغي أن يتأول قولهم على أنهم داخلون في الآية وإلا فالسورة بكمالها مكية بلا خلاف ولم يكن الأذان بمكة إنما شرع بالمدينة ، والتزام القول بتأخر حكمها عن نزولها كما ترى ، والظاهر أن المراد الدعاء باللسان ، قيل : به وباليد كأن يدعو إلى الإسلام ويجاهد ، وقال زيد بن علي : دعا إلى الله بالسيف ، ولعل هذا والله تعالى أعلم هو الذي حمله على الخروج بالسيف على بعض الظلمة من ملوك بني أمية ، وكان زيد هذا رضي الله تعالى عنه عالماً بكتاب الله تعالى وله تفسير ألقاه على بعض النقلة عنه وهو في حبس هشام بن عبد الملك وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظ وافر . ويقال : إنه كان إذا تناظر هو وأخوه محمد الباقر اجتمع الناس بالمحابر يكتبون ما يصدر عنهما من العلم رحمهما الله تعالى ورضي عنهما ، والاستفهام في معنى النفي أي لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ أي عملاً صالحاً أي عمل صالح كان . وقال أبو أمامة : صلى بين الأذان والإقامة ، ولا يخفى ما فيه ، وقال عكرمة : صلى وصام

، وقال الكلبي : أدى العرائض والحق العموم ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ المسلمين ﴾ أي تلفظ بذلك ابتهاجاً بأنه منهم وتفاخراً به مع قصد الثواب إذ هو لا ينافيه أو جعل واتخذ الإسلام ديناً له من قولهم : هذا قول فلان أي مذهبه ومعتقده ، وبعضهم يرجع الوجهين إلى وجه واحد ، والمعنى على القول بكون الآية خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم اختار النسبة إلى الإسلام دون عز الدنيا وشرفها وهو قولهم رد ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ [فصلت : 26] وتعجيب منه ، وقرأ ابن أبي عبلة .

وإبراهيم بن نوح عن قتيبة المبال ﴿ وَقَالَ إِنِّي ﴾ بنون مشددة دون نون الوقاية .

واستدل أبو بكر بن العربي بالآية على عدم اشتراط الاستثناء في قول القائل : أنا مسلم أو أنا مؤمن .

(310/681)

وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عاملاً عملاً صالحاً ليكون الناس إلى قبول دعائه أقرب وإليه أسكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(311/681)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ .

اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته فربنا الله من باب صديقي زيد يفيد الحصر .

﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ : أي ثبتوا على الإقرار بقولهم : ربنا الله ومقتضياته بأن لا تزل قدمهم عن طريق العبودية قلباً وقالباً ، ولا تتخطاه .

وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات بصفة الدوام وقت الوفاة ، فثم للتراخي في الزمان ، أو في الرتبة ، فإن الاستقامة لها الشأن كله ، يعني : المنتهى ، وهي الاستقامة لكونه مقصوداً أعلى حالاً من المبدأ ، وهو الإقرار واستقامة الإنسان لزومه للمنهج المستقيم .

وما روي عن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في معناها من الثبات على الإيمان ، كما روي عن عمر رضي الله عنه ومن إخلاص العمل ، كما روي عن عثمان رضي الله عنه .

ومن أداء الفرائض كما روي عن علي رضي الله عنه ، فبيان لجزئياتها .

وذلك لأن اليهود والنصارى لم تستقم على دينهم حتى قالوا : عزير بن الله والمسيح بن الله ونحو ذلك .

وكفروا بنبوة رسول الله عليه السلام ، ومن الاستقامة أن لا يرى المرء النفع والضر إلا من الله ، ولا يرجو من أحد دون الله ، ولا يخاف أحداً غيره .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قلت : يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصم به .

قال : "قل ربي الله ، ثم استقم" .

قال : قلت : ما أخوف ما يخاف عليّ .

فأخذ رسول الله بلسان نفسه ، وقال : "هذا" ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية .

قال : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة .

(312/681)

وفي "التأويلات النجمية" : تشير الآية إلى يوم الميثاق لما خوطبوا بقوله : ألست بربكم .

قالوا : بلى ؛ أي : ربنا الله ، وهم الذريات المستخرجة من ظهر آدم عليه السلام أقروا بربوبيته ، ثم استقاموا على إقرارهم بالربوبية ثابتين على أقدام العبودية لما أخرجوا إلى عالم الصورة ، ولهذا ذكر بلفظ ، ثم لأنه للتراخي ، فأقروا في عالم الأرواح ، ثم استقاموا في عالم الأشباح ، وهم المؤمنون بخلاف المنافقين والكافرين ؛ فإنهم أقروا ، ولم يستقيموا على ذلك ، فاستقامة العوام في الظاهر بالأوامر والنواهي .

وفي الباطن بالإيمان والتصديق ، واستقامة الخواص في الظاهر بالتجريد عن الدنيا وترك

زينتها وشهواتها .

وفي الباطن بالتفريد عن نعيم الجنان شوقاً إلى لقاء الرحمن ، وطلب العرفان واستقامة الأخص في الظاهر برعاية حقوق المتابعة على وفق المبايعة بتسليم النفس والمال .

وفي الباطن بالتوحيد في استهلاك الناسوتية في اللاهوتية ليستقيم بالله مع الله فانياً عن الأنانية باقياً بالهوية بلا أرب من المحبوب مكتفياً عن عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام فنائه في وجوده .

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ من جهته تعالى يمدونهم فيما يعرض لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يمدهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح .

وكذا تتنزل عند الموت بالبشرى .

وفي القبر وعند البعث إذا قاموا من قبورهم ﴿ إِنَّ ﴾ مفسرة بمعنى ؛ أي : أو مخففة من الثقيلة .

والأصل بأنه والهاء ضمير الشأن ؛ أي : يتنزلون ملتبسين بهذه البشارة ، وهي ﴿ أَلا تَخَافُوا ﴾ ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ، فلا ترون مكروهاً ؛ فإن الخوف غم يلحق لتوقع المكروه .

﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما خلفتم من أهل وولد ؛ فإنه تعالى يخلفكم عليهم بخير ويعطيكم في الجنة أكثر من ذلك وأحسن ، ويجمع بينكم وبين أهاليكم وأولادكم المسلمين في الجنة ، فإن الحزن غم يحلق من فوات نافع ، أو حصول ضار .

وفي "التأويلات النجمية" : الخوف إنما يكون في المستقبل من الوقت ، وهو بحلول مكروه ، أو فوات محبوب ، والملائكة يبشرونهم بأن كل مطلوب لهم سيكون ، وكل محذور لهم لا يكون ، والحزن من حزونة الوقت والذي هو راضٍ بجميع ما يجري مستسلم للأحكام الأزلية ، فلا حزونة في عيشه ، بل من يكون قائماً بالله وهائماً في الله دائماً مع الله لا يدركه الخوف والحزن والملائكة يبشرونهم أن لا تخافوا ولا تحزنوا على فوات العناية في السابقة .

﴿ وَأَبْشِرُوا ﴾ ؛ أي : سروا .

﴿ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل هذا من بشارتهم في أحد المواطن الثلاثة .

وعن ثابت : بلغنا إذا انشقت الأرض يوم القيامة ينظر المؤمن إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان له : لا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة الموعودة وإنك سترى اليوم أموراً لن ترى مثلها ، فلا تهولنك ، فإنما يراد بها غيرك .

وفي "التأويلات النجمية" : وأبشروا بجنة الوصلة ، فإن الوعد صار نقداً ، فما بقي الوعد

والوعيد .

وما هو إلا عيد في القيد فأوعد الله للعوام من جميع الثواب للخواص من حسن المآب نقد لأخص الخواص من أولي الألباب .

ويقال : لا تخافوا من عزل الولاية ولا تحزنوا على ما أسلفتم من الجناية وأبشروا بحسن العناية في البداية لا تحافظوا فطالما كنتم من الخائفين ، ولا تحزنوا فقد كنتم من العارفين وأبشروا بالجنة فلنعم أجر العاملين .

(314/681)

قال البقلي قدس سره : عجبت ممن استقام مع الله في مشاهدته وإدراك جماله كيف يطيق الملائكة أن يبشروه أين الملك والفلك بين الحبيب والمحب ، وليس وراء بشارة الحق بشارة ، فإن بشارة الحق سمعوها قبل بشارة الملائكة بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس : 62) ليس لهم خوف القطيعة ولا حزن الحجاب ، وهم في مشاهدة الجبار .

وقول الملائكة ها هنا معهم تشريف لهم ؛ لأنهم يحتاجون إلى مخاطبة القوم ، وهم أحباؤنا في نسب المعرفة وخدامنا من حيث الحقيقة ألا ترى كيف سجدوا لأبينا .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى الْحَيَواةِ الدُّنْيَا ﴾ إلخ .

من بشاراتهم في الدنيا ؛ أي : أعوانكم في أموركم نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم بدل ما كانت الشياطين تفعل بالفكرة .

ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات من أن ذلك بتوفيق الله وتأييده لهم بواسطة الملائكة .

قال جعفر رضي الله عنه : من لاحظ في أعماله الثواب والأغراض كانت الملائكة أولياءه ، ومن عملها على مشاهدته تعالى ، فهو وليه ؛ لأنه يقول : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (البقرة : 257) .

﴿ وَفِى الآخِرَةِ ﴾ : نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع من التعادي والتخاصم .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى ولاية الرحمة للعوام وولاية النصرة للخواص وولاية المحبة لأخص الخواص فبولاية الرحمة للعوام في الحياة الدنيا يوفقهم لإقامة الشريعة .

وفي الآخرة يجازيهم بالجنة وبولاية النصرة للخواص في الحياة الدنيا يسلطهم على أعدى

عدوهم ، وهو نفسهم الأمارة بالسوء ليجعلوها مزكاة من اخلاقها الذميمة وأوصافها الدنيئة ، وفي الآخرة بجذبة ارجعي إلى ربك ، وبولاية المحبة لأخص الخواص في الحياة الدنيا يفتح عليهم أبواب المشاهدات والمكاشفات .

وفي الآخرة يجعلهم من أهل القربات والمعاينات .

ومن ولاية الله تعالى عفو الزلل ، فإن الزلل لا يزاحم الأزل .

يبرد العذر عندي لك مبسوط والذنب على مثلك محطوط .

(316/681)

﴿ وَلَكُمْ ﴾ لا لغيركم من الأعداء .

﴿ فِيهَا ﴾ ؛ أي : في الآخرة .

﴿ مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ من فنون اللذائذ .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ما تتمنون .

افتعال من الدعاء بمعنى الطلب ، وهو أعم من الأول إذ لا يلزم أن يكون كل مطلوب مشتهى كالفضائل العلمية ، وإن كان الأول أعم أيضاً من وجه بحسب حال الدنيا ، فالمريض لا يزيد ما يشتهيه ويضر مرضه إلا أن يقال التمني أعم من الإرادة وعدم الاكتفاء بعطف ما تدعون

على ما تشتهي بأن يقول ، وما تدعون للإشباع في البشارة

والإيذان باستقلال كل منهما .

﴿ نُزُلا ﴾ رزقاً كائناً .

﴿ مِّنْ غَفُورٍ ﴾ للذنوب العظام مبدل للسيئات بالحسنات .

﴿ رَّحِيمٍ ﴾ بالمؤمنين من أهل الطاعات بزيادة الدرجات والقربات قوله : نزلا حال مما تدعون ؛ أي : من الموصول ، أو من ضميره المحذوف ؛ أي : ما تدعونه مفيدة ، لكون ما يتمنونه بالنسبة إلى ما يعطون من عظائم الأمور كالنزل ، وهو ما يهيأ للنزيل ؛ أي : الضيف من الرزق ؛ كأنه قيل : وثبت لكم فيها الذي تدعونه حال كونه كالنزل للضيف ، وأما أصل كرامتكم ، فمما لا يخطر ببالكم فضلاً عن الاشتهاء ، أو التمني .

وفي "التأويلات النجمية" نزلاً ؛ أي : فضلاً وعطاء وتقدمة لما سيدوم إلى الأزل من فنون الأعطاف وأصناف الألطاف .

وذلك لأن عطاء الله تعالى يتجدد في كل آن خصوصاً لأهل الاستقامة من أكامل الإنسان ويظهر في كل وقت وموطن ما لم يظهر قبله وفي غيره ويكون ما في الماضي كالنزل لما يظهر في الحال ، ومن هنا قالوا : ما ازداد القوم شرباً إلا ازدادوا عطشاً .

وذلك لأنه لا نهاية للسير إلى الله في الدنيا والآخرة .

وفيه إشارة إلى أن بعض الناس لا نصيب له من العشق والذوق والتجلي ويومه ينقضي بالهموم وتطول حسرته ، ولذلك كان يوم القيامة خمسين ألف سنة .

قال ابن الفارض في آخر القصيدة الخمرية : على نفسه قليبك من ضاع عمره .

وليس له منها نصيب ولا سهم .

ومن الناس من له نصيب من هذا الأمر لكن لا على وجه الكمال ، ومنهم من لم يحصل له الري أصلاً ، وهو حال الكمال .

حكي أن يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه : كتب إلى أبي يزيد البسطامي قدس سره سكرت من كثرة ما شربت من كأس حبه فكتب إليه أبو يزيد :

شربت الحب كأساً بعد كأس

فما نفد الشراب ولا رويت

أشار إلى أن حصول الري إنما هو للضعفاء ، وأما الأقوياء ، فإنهم يقولون : هل من مزيد ولو شربوا سبعة أبحر جعلنا الله ، وإياك هكذا من فضله .

(318/681)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

﴿ وَمَنْ ﴾ استفهام .

﴿ أَحْسَنُ ﴾ نيكوتر ﴿ قَوْلًا ﴾ : (از جهت سخن) .

﴿ مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ ﴾ ؛ أي : إلى توحيده وطاعته .

﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فيما بينه وبين ربه .

﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ابتهاجاً بأنه منهم ، أو اتخاذاً للإسلام ديناً ونحلة إذ لا يقبل طاعة بغير دين الإسلام من قولهم هذا قول فلان ؛ أي : مذهبه لا أنه تكلم بذلك .

وفيه رد على من يقول : أنا مسلم إن شاء الله ، فإنه تعالى قال مطلقاً غير مقيد بشرط إن شاء الله .

وقال علماء الكلام : إن قاله للشك ، فهو كفر لا محالة ، وإن كان للتأدب مع الله وإحالة الأمور إلى مشيئة الله أو للشك في العاقبة والمآل لا في الآن .

والحال وللتبرك بذكر الله ، أو التبري من تزكية نفسه والإعجاب بحاله ، فجائز ، لكن الأولى تركه لما أنه يوهم الشك وحكم الآية عام لكل من جمع ما فيها من الخصال الحميدة التي هي الدعوة والعمل والقول ، وإن نزلت في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو في أصحابه رضي الله عنهم ، أو في المؤذنين ؛ فإنهم يدعون الناس إلى الصلاة ، فإن قلت السورة بكاملها مكية بلا خلاف الآذان إنما شرع بالمدينة قلت :

يجعل من باب ما تأخر حكمه عن نزوله ، وكم من القرآن منه ، وإليه ذهب بعض الحفاظ كابن حجر وغيره .

اعلم أن للدعوة مراتب ، الأولى : دعوة "الأنبياء" عليهم السلام ، فإنهم يدعون إلى الله بالمعجزات والبراهين وبالسيف .

(319/681)

وفي "التأويلات النجمية" : تشير الآية إلى أن أحسن قول قاله الأنبياء والأولياء قولهم بدعوة الخلق إلى الله ، وكان عليه السلام مخصوصاً بهذه الدعوة كما قال تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ (الأحزاب : 45 46) ، وهو أن يكتفي بالله من الله لم يطلب منه غيره :

وقال وعمل صالحاً ؛ أي : كما يدعو الخلق إلى الله يأتي بما يدعوهم إليه يعني : سلكوا طريق الله إلى أن وصلوا إلى الله وصولاً بلا اتصال ولا انفصال فبسلوكهم ومناراتهم عرفوا الطريق إلى الله ، ثم دعوا بعد ما عرفوا الطريق إليه الخلق إلى الله .

﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ لحكمه الراضين بقضائه وتقديره .

والمرتبة الثانية : دعوة العلماء ؛ فإنهم يدعون إلى الله تعالى بالحجج والبراهين فقط .

ثم إن العلماء ثلاثة أقسام : عالم بالله غير عالم بأمر الله وعالم بأمر الله غير عالم بالله وعالم بالله وبأمر الله .

أما الأول : فهو عبد استولت المعرفة الإلهية على قلبه ، فصار مستغرقاً في مشاهدة الجلال وصفات الكبرياء ، فلا يتفرغ لتعلم علم الأحكام إلا قدر ما لا بد له .

وأما الثاني : فهم الذين عرفوا الحلال والحرام ودقائق الأحكام ، ولكنهم لا يعرفون أسرار جلال الله وجماله .

أما مع الإقرار بأصحاب هذا الشأن ، أو بإنكارهم .

(320/681)

والثاني : ليس من عداد العلماء ، وأما العالم بالله وبأحكامه ، فهم الجامعون لفضائل القسمين الأولين ، وهم تارة مع الله بالحب والإرادة وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة ، فإذا رجعوا إلى الخلق صاروا معهم كواحد منهم ؛ كأنهم لا يعرفون الله وإذا خلوا مع ربهم صاروا مشتغلين بذكره ؛ كأنهم لا يعرفون الخلق .

وهذا سبيل المرسلين والصديقين ، فالعارف يدعو الخلق إلى الله ويذكر لهم شمائل القدم ويعرفهم صفات الحق وجلال ذاته ، ويحبب الله في قلوبهم ، ثم يقول بعد كماله وتمكينه إنني

واحد من المسلمين من تواضعه ولطف حاله :

والمرتبة الثالثة : الدعوة بالسيف ، وهي للملوك ؛ فإنهم يجاهدون الكفار حتى يدخلون في دين الله وطاعته ، فالعلماء خلف الأنبياء في عالم الأرواح والملوك خلف الأنبياء في عالم الأجسام .

(321/681)

والمرتبة الرابعة : دعوة المؤذنين إلى الصلاة ، وهي أضعف مراتب الدعوة إلى الله ، وذلك أن ذكر كلمات الأذان ، وإن كان دعوة إلى الصلاة لكنهم يذكرون تلك الألفاظ الشريفة بحيث لا يحيطون بمعناها ، ولا يقصدون الدعوة إلى الله ، فإذا لم يلتفتوا إلى مال الوقف وراعوا شرائط الأذان ظاهراً وباطناً وقصدوا بذلك مقصداً صحيحاً ، كانوا كغيرهم من أهل الدعوة .

وقال : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وفي الحديث : "الملك في قريش والقضاء للأنصار والأذان للحبشة" .

وفيه مدح لبلال الحبشي رضي الله عنه .

وكذا في الآية تعظيم لشأنه خصوصاً ؛ لأنه مؤذن الداعي إلى الله على بصيرة ، وهو

المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم .

قال عمر رضي الله عنه : لو كنت مؤذناً ما باليت أن لا أحج ولا أجاهد ولا أعتمر بعد حجة الإسلام .

صاحب "كشف الأسرار" : (فرموده كه حق جل وعلا مؤذنان امت احمد بنج كرامت كرد) .

حسن الثناء وكمال العطاء ومقارنة الشهداء ومرافقة الأنبياء والخلاص من دار الشقاء .

وفي الخبر : "من كثرت ذنوبه ، فليؤذن بالأسحار" عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(322/681)

والذي بعث بالحق محمداً أن النصارى إذا ضربت نواقيسها في أديارها فيثقل العرش على مناكب حملة العرش ، فيتوقعون المؤذنين من أمتي ، فإذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر .

خف العرش على مناكب حملة العرش .

قال الإمام السيوطي رحمه الله : أول ما حدث التسبيح بالأسحار على المنابر في زمن موسى عليه السلام حين كان بالتيه واستمر بعده إلى أن كان زمن داود عليه السلام وبنى بيت المقدس فرتب فيه عدة يقومون بذلك البيت على الآلات وبغيره بلا آلات من الثلث

الأخير من الليل إلى الفجر إلى أن خرب بيت المقدس بعد قتل يحيى عليه السلام .

وقام اليهود على عيسى عليه السلام ، فبطل ذلك في جملة ما بطل من شرائع بني إسرائيل .

وأما في هذه الملة المحمدية ، فكان ابتداء عمله بمصر .

وسببه أن مسلمة بن مخلد الصحابي رضي الله عنه بني ، وهو أمير مصر مناراً بجامع عمرو واعتكف فيه ، فسمع أصوات النواقيس عالية ، فشكا ذلك إلى شرحبيل بن عامر عريف المؤذنين ، فقال إني أمد الأذان من نصف الليل إلى قرب الفجر ؛ فإنهم لا ينقسون إذا أذنت ، ففعل ثم لما كان أحمد بن طولون رتب جماعة نوباً يكبرون ويسبحون ويحمدون ويقولون قصائد زهدية ، وجعل لهم أرزاقاً واسعة ، ومن ثمة اتخذ الناس قيام المؤذنين في الليل على المنابر ، فلما ولي السلطان صلاح الدين بن أيوب أمر المؤذنين في وقت التسبيح أن يعلنوا بذكر العقيدة الأشعرية ، فواظب المؤذنون على ذكرها كل ليلة إلى وقتنا هذا ، انتهى .

(323/681)

يقول الفقير : آل الأمر في زمننا هذا في بلاد الروم إلى أن السلاطين من ضعف حالهم في الدين صاروا مغلوبين ، فانتقل كثير من البلاد الإسلامية إلى أهل الحرب ، فجعلوا المساجد كنائس والمنارات مواضع النواقيس ، ولما كان الناس على دين ملوكهم صار الأمر في البلاد

الباقية في أيدي المسلمين إلى الوهن والهدم ، بحيث تخربت بعض المحلات بالكلية مع المساجد الواقعة فيها ، وتعطل بعضها عن العمار من المسلمين بسبب توطن أهل الذمة فيها ، وبقيت المساجد بينهم غريبة ، فتعالوا نبك على غربة هذا الدين ، وأما كمال العطاء ، فما روي أن النبي عليه السلام قال : "المؤذنون أمناء المؤمنين على صلاتهم وصيامهم ولحومهم ودمائهم لا يسألون الله شيئاً إلا أعطاهم ، ولا يشفعون بشيء إلا شفعوا فيه" .

(324/681)

قال : "ويغفر للمؤذن مدى صوته

ويشهد له كل شيء سمع صوته من شجر أو حجر ، أو مدر أو رطب ، أو يابس ، ويكتب للمؤذن بكل إنسان صلى معه في ذلك المسجد مثل حسناته ، وأما مقارنة الشهداء ، فما روي أن النبي عليه السلام قال : "من أذن في سبيل الله إيماناً واحتساباً جمع بينه وبين الشهداء في الجنة" وأما مرافقة الأنبياء ، فما روي : أن رجلاً جاء إلى النبي عليه السلام ، فقال : يا رسول الله من أول الناس دخولاً للجنة ، قال : "الأنبياء" .

قال : ثم من ؟ ، قال : "الشهداء" .

قال : ثم من ؟ قال : "مؤذنوا مسجدي هذا .

قال : ثم من ؟ .

قال : سائر المؤذنين على قدر أعمالهم" .

وقال عليه السلام : "من أذن عشرين سنة متوالية أسكنه الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام في الجنة وأما الخلاص من دار الأشقياء .

فما روي أن النبي عليه السلام قال : "إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر أغلقت أبواب النيران السبعة" ، وإذا قال : "أشهد أن لا إله إلا الله فتحت أبواب الجنة الثمانية ، وإذا قال : أشهد أن محمداً رسول الله أشرفت عليه الحور العين" .

وإذا قال : "حي على الصلاة تدلت ثمار الجنة ، وإذا قال : حي على الفلاح قالت الملائكة أفلحت وأفلح من أجابك ، وإذا قال : الله أكبر الله أكبر ، قالت الملائكة : كبرت كبيراً وعظمت عظيماً ، وإذا قال : لا إله إلا الله قال الله تعالى : حرمت بدنك وبدن من أجابك على النار" .

(325/681)

وفي الحديث : "المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة" ؛ أي : يكونون سادات وأكثر الناس ثواباً ، أو جماعات ، أو رجاء ؛ لأن من رجا شيئاً أطال إليه عنقه ، والناس حين يكونون في

الكرب يكون المؤذنون أكثر رجاء بأن يؤذن لهم في دخول الجنة كان ذلك جزاء مد أعناقهم عند رفع أصواتهم ، أو طول العنق كناية عن الفرح كما أن خضوعها كناية عن الحزن ، أو معناه إذا وصل العرق إلى أفواه الناس يوم القيامة طالت أعناق المؤذنين في الحقيقة لئلا ينالهم ذلك ، ومن أجاب دعوة المؤذنين يكون معه .

قال الفقهاء : يقطع سامع الأذان كل عمل باليد والرجل واللسان حتى تلاوة القرآن إن كان في غير المسجد ، وإن كان فيه ، فلا يقطع ولا يسلم على أحد وأما رده ، فقد اختلفوا فيه ، فقيل : يجوز .

وقيل : لا يجوز ويشتغل بالإجابة ، واختلفوا في الوجوب والاستحباب ، فقال بعضهم : الإجابة واجبة عند الأذان والإقامة منهم صاحب "التحفة والبدائع" .

وقال الآخرون : هي مستحبة وعليه صاحب "الهداية" .

ويستحب أن يقول عند سماع الأولى من الشهادة الثانية صلى الله تعالى عليك يا رسول الله وعند سماع الثانية قرة عيني بك يا رسول الله ، ثم يقول : اللهم متعني بالسمع والبصر بعد وضع ظفر الإبهامين على العينين ، كما في "شرح القهستاني" ، وفي "تحفة الصلوات" للكاشفي صاحب "التفسير" نقلاً عن الفقهاء الكبار ، ويقول بعد الأذان : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته .

ويقول عند أذان المغرب خصوصاً : اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك ، فاغفر لي وأول من أذن في السماء جبرائيل وأم ميكائيل عليهما السلام عند البيت المعمور ، وأول من أذن في الإسلام بلال الحبشي رضي الله عنه ، وكان أول مشروعيته في أذان الصبح .

(326/681)

قالت النوار أم زيد بن ثابت : كان بيتي أطول بيت حول المسجد ، فكان بلال يؤذن فوقه من أول ما أذن إلى أن بنى رسول الله عليه السلام مسجده ، فكل يؤذن بعده على ظهر المسجد ، وقد رفع له شيء فوق ظهره ، وأول من أقام عبد الله بن زيد وزاد بلال في أذان الصبح بعد الحيعلات الصلاة خير من النوم مرتين ، فأقرها عليه السلام ؛ أي : اليقظة الحاصلة للصلاة خير من الراحة الحاصلة بالنوم ، ويقول المجيب عنده : صدقت وبالخير نطقت .

وعند قوله في الإقامة : قد قامت الصلاة ، أقامها الله وأدامها ويقيم من أذن لا غيره إلا بإذنه .

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام : "أذن مرة واحدة في السفر على راحلته" .

ويروى : أن بلالاً كان يبدل الشين في أشهد سيناً ، فقال عليه السلام سين بلال عند الله شين كما في "إنسان العيون" .

(327/681)

وأول من زاد الأذان الأول في الجمعة عثمان رضي الله عنه زاده ليؤذن أهل السوق ، فيأتون إلى المسجد .

وكان في زمانه عليه السلام وزمان أبي بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه أذان واحد حين يجلس الإمام على المنبر ، والتذكير قبل الأذان الأول الذي هو التسبيح أحدث بعد السبعمائة في زمن الناصر محمد بن قلاوون لأجل التبكير المطلوب في الجمعة ، وأول ما أحدثت الصلاة والسلام على النبي عليه السلام بعد تمام الأذان في زمن السلطان المنصور الحاجي بن الأشرف شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون في أواخر القرن الثامن ، وأول من أحدث أذان اثنين معاً بنو أمية ، وأول من وضع إحدى يديه عند أذنيه في الأذان ابن الأصم مؤذن الحجاج بن يوسف .

وكان المؤذنون يجعلون أصابعهم في آذانهم ، وأول من رقى منارة مصر للأذان شرحبيل المذكور .

وفي عرافته بنى مسلمة المنابر للأذان بأمر معاوية ، ولم تكن قبل ذلك ، وأول من عرف على المؤذنين سالم بن عامر أقامه عمرو بن العاص ، فلما مات عرف عليهم أخاه شرحبيل ، وأول من رزق المؤذنين عثمان رضي الله عنه ، والجهر واجب في الأذان لإعلام الناس ، ولذا سن أن يكون في موضع عالٍ ، ولو أذن لنفسه خافت ، وأما التكبيرات في الصلاة ، فالمؤذن يرفع صوته لتبليغ التكبير لمن بعد عن الإمام من المقتدين ، فإن كان في صوت الإمام كفاية ، فالتبليغ مكروه ، كما في "إنسان العيون" .

يقول الفقير : أما سر عدد المنارات في الحرم النبوي .

(328/681)

وهي اليوم خمس فإشارة إلى الأوقات الخمسة ، فهو صورة بالدعوات الخمس في الساعات الأربع والعشرين المشتمل عليها الليل والنهار ، وأول من قدر الساعات الاثنتي عشرة نوح عليه السلام في السفينة ، ليعرف بها مواقيت الصلوات ، وأما سر عددها في الحرم المكي ، وهي سبع الآن ، فإشارة إلى مراتب الدعوة إلى الفناء ، وهي سبع عدد الأسماء السبعة التي آخرها القهار ، فإن الكعبة إشارة إلى الذات الأحدية ومراتبها عروجاً هي مراتب الفناء ، إذ البقاء إنما هو بعد النزول ، ولذا أمر عليه السلام بالهجرة إلى المدينة لتتحقق

مرتبة البقاء فللكعبة منارة أخرى هي الثامنة من المنارات ، وهي منارة البقاء ، لكنها في بطن الكعبة مدفونة تحتها ، ولم يكن لها ظهور فوق الأرض إلا بحسب المكاشفة كوشفت عنها حين مجاورتي في الحرم وكان للحرم المكي في الأوائل خمسون منارة على ما طالعته في تاريخ القطبي بعضها في الحرم وبعضها على رؤوس الجبال التي هي بينها كل ذلك لإعلام الأوقات ، فهي إشارة إلى أصل الصلوات المفروضة ليلة المعراج ، وهي خمسون حتى خففها الله تعالى ، فبقيت منها خمس ، ولله في كل شيء حكمة عجيبة ومصلحة بديعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 8 صـ 341. 351 ﴾

(329/681)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾

بعد استيفاء الكلام على ما أصاب الأممَ الماضية المشركين المكذبين من عذاب الدنيا وما أُعدّ لهم من عذاب الآخرة مما فيه عبرة للمشركين الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم بطريق التعريض ، ثم أنذروا بالتصريح بما سيحلّ بهم في الآخرة ، ووصف بعض أهواله ، تشَوَّفَ السامعُ إلى معرفة حظ المؤمنين ووصفِ حالهم فجاء قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا

رَبُّنَا اللهُ ﴾ الخ ، بياناً للمترقب وبشرى للمتطلب ، فالجملة استئناف بياني ناشىء عما تقدم من قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعدَاءَ اللهِ إِلَى النَّارِ ﴾ [فصلت : 19] إلى قوله : ﴿ مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت : 29] .

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد منظور فيه إلى إنكار المشركين ذلك ، ففي توكيد الخبر زيادة قمع لهم .

ومعنى ﴿ قالوا ربُّنا الله ﴾ أنهم صدعوا بذلك ولم يخشَوا أحداً بإعلانهم التوحيد ، فقولُهم تصريح بما في اعتقادهم لأن المراد بهم قالوا ذلك عن اعتقاد ، فإن الأصل في الكلام الصدق وهو مطابقة الخبر الواقع وما في الوجود الخارجي .

وقوله : ﴿ رَبُّنَا اللهُ ﴾ يفيد الحصر بتعريف المسند إليه والمسند ، أي لا ربّ لنا إلا الله ، وذلك جامع لأصل الاعتقادِ الحق لأن الإقرار بالتوحيد يزيل المانع من تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به إذ لم يصُدَّ المشركين عن الإيمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه أمرهم بنبذ عبادة غير الله ، ولأن التكذيب بالبعث تلقوه من دعاة الشرك .

والاستقامة حقيقتها : عدم الاعوجاج والميلِ ، والسين والتاء فيها للمبالغة في التقوّم ، فحقيقة استقام : استقَل غير مائل ولا منحن .

وتطلق الاستقامة بوجه الاستعارة على ما يجمع معنى حسن العمل والسيرة على الحق والصدق قال تعالى : ﴿ فاسْتَقِيموا إليه واستَغْفروه ﴾ [فصلت : 6] وقال : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112] ، ويقال : استقامت البلاد للملك ، أي أطاعت ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ [التوبة : 7] .

ف ﴿ استقاموا ﴾ هنا يشمل معنى الوفاء بما كلفوا به وأول ما يشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التوحيد ، أي لا يغيروا ولا يرجعوا عنه .

ومن معنى هذه الآية ما روي في "صحيح مسلم" عن سفيان الثقفي قال : قلتُ : يا رسول الله قُل لي في الإِسلام قولاً لا أسأَلُ عنه أحداً غيرَك .

قال : " قُل آمنت بالله ثم استقِمْ " .

وعن أبي بكر ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ : لم يشركوا بالله شيئاً .

وعن عمر : استقاموا على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعَالب .

وقال عثمان : ثم أخلَصوا العمل لله .

وعن علي : ثم أدّوا الفرائض .

فقد تولى تفسير هذه الآية الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم .

وكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى الاستقامة في الإِيمان وآثاره ، وعناية هؤلاء الأربعة أقطاب

الإسلام ببيان الاستقامة مُشير إلى أهميتها في الدين .

وتعريب المسند إليه بالموصولية دون أن يقال : إن المؤمنين ونحوه لما في الصلة من الإيماء إلى أنها سبب ثبوت المسند للمسند إليه فيفيد أن تنزل الملائكة عليهم بتلك الكَرامة مسبَّب على قولهم : ﴿ ربُّنَا الله ﴾ واستقامتهم فإن الاعتقاد الحق والإِقبال على العمل الصالح هما سبب الفوز .

و﴿ ثُم ﴾ للتراخي الرتبي لأن الاستقامة زائدة في المرتبة على الإِقرار بالتوحيد لأنها تشمله وتشمل الثبات عليه والعملَ بما يستدعيه ، ولأن الاستقامة دليل على أن قولهم : ﴿ ربُّنَا الله ﴾ كان قولاً منبعثاً عن اعتقاد الضمير والمعرفة الحقيقية .

(331/681)

وجَمَع قولُه : ﴿ قَالُوا ربُّنا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ أَصْلَي الكمال الإسلامي ، فقوله : ﴿ قالُوا ربُّنَا الله ﴾ مشير إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتداء به ، ومعرفة الخير لأجل العمل به ، فالكمال علم يقيني وعمل صالح ، فمعرفة الله بالإِلهية هي أساس العلم اليقيني .

وأشار قوله : ﴿ استقاموا ﴾ إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق ، أي أن يكون وسطاً غير مائل إلى طرفَي الإِفراط والتفريط قال تعالى : ﴿ اهدنا الصراط

المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] وقال : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة ، فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل ، ولا يتوغل في جانب الإِثبات إلى حيث ينتهي إلى التّشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل ، ويستمر كذلك فاصلاً بين الجبريّ والقدَريّ ، وبين الرجاء والقنوط ، وفي الأعمال بين الغلوّ والتفريط .

وتنزُّل الملائكة على المؤمنين يحتمل أن يكون في وقت الحشر كما دل عليه قولهم : ﴿ الَّتِي كُنتُم تُوعَدُونَ ﴾ ، وكما يقتضيه كلامهم لهم لأن ظاهر الخطاب أنه حقيقة ، فذلك مقابل قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [فصلت : 19] ، فأولئك تلاقيهم الملائكة بالوزع ، والمؤمنون تتنزل عليهم الملائكة بالأمن .

وذِكر التنزل هنا للتنويه بشأن المؤمنين أن الملائكة ينزلون من علوياتهم لأجلهم فأما أعداء الله فهم يجدون الملائكة حُضَّراً في المحشر يَزَعُونهم وليسوا يتنزلون لأجلهم فثبت للمؤمنين بهذا كرامة ككرامة الأنبياء والمرسلين إذ يُنزّل الله عليهم الملائكة .

والمعنى : أنه يتنزل على كل مؤمن مَلَكان هما الحافظان اللذان كانا يكتبان أعماله في الدنيا .

(332/681)

ولتضمن ﴿ تَتَنَزَّلُ ﴾ معنى القول وردت بعده (أنْ) التفسيرية والتقدير : يقولون لا تخافوا ولا تحزنوا .

ويجوز أن يكون تنزل الملائكة عليهم في الدنيا ، وهو تنزل خفيّ يعرف بحصول آثاره في نفوس المؤمنين ويكون الخطاب بـ ﴿ لا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ بمعنى إلقائهم في رُوعهم عكس وسوسة الشياطين القرناء بالتزيين ، أي يُلقون في أنفس المؤمنين ما يصرفهم عن الخوف والحزن ويذكرهم بالجنة فتحِل فيهم السكينة فتنشرح صدورهم بالثقة بحلولها ، ويلقُون في نفوسهم نَبذ ولاية من ليسوا من حزب الله ، فذلك مقابل قوله : ﴿ وَقَيَّضْنا لَهُم قُرَنَآءَ ﴾ [فصلت : 25] الآية فإنه تقييض في الدنيا .

وهذا يقتضي أن المؤمنين الكاملين لا يخافون غير الله ، ولا يحزنون على ما يصيبهم ، ويوقنون أن كل شيء بقدر ، وهم فرحون بما يترقبون من فضل الله .

وعلى هذا المعنى فقوله : ﴿ الَّتِي كُنتُم ﴾ تُعتبرُ (كان) فيه مزيدة للتأكيد ، ويكون المضارع في ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ على أصل استعماله للحال والاستقبال ، ويكون قولهم : ﴿ نَحنُ أَولِياؤُكُم فِي الحياةِ الدُّنيا وفِي الآخِرَة ﴾ تأييداً لهم في الدنيا ووعداً بنفعهم في الآخرة .

و ﴿ لا ﴾ ناهية ، والمقصود من النهي عن الخوف : النهي عن سببه ، وهو توقع الضر ، أي لا تحسبوا أن الله معاقبكم ، فالنهي كناية عن التأمين من جانب الله تعالى لأنهم إذا تحققوا الأمن زال خوفهم ، وهذا تطمين من الملائكة لأنفُس المؤمنين .

والخوف : غمّ في النفس ينشأ عن ظن حصول مكروه شديد .

والحزَن : غمّ في النفس ينشأ عن وقوع مكروه بفوَاتتِ نفعٍ أو حصول ضرّ .

وألحقوا بتأمينهم بشارتهم ، لأن وقع النعيم في النفس موقعَ المسرة إذَا لم يخالطه توقع المكروه .

ووصفُ الجنة بـ ﴿ الَّتِي كُنتُم تُوعَدُونَ ﴾ تذكير لهم بأعمالهم التي وعدوا عليها بالجنة ، وتعجيل لهم بمسرة الفوز برضى الله ، وتحقيق وعده ، أي التي كنتم توعدونها في الدنيا .

(333/681)

وفي ذكر فعل الكون تنبيه على أنهم متأصلون في الوعد بالجنة وذلك من سابق إيمانهم وأعمالهم .

وفي التعبير بالمضارع في ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ إفادة أنهم قد تكرر وعدهم بها ، وذلك بتكرر الأعمال الموعود لأجلها وبتكرر الوعد في مواقع التذكير والتبشير .

وقول الملائكة : ﴿ نَحْنُ أَولِيَاؤُكُم فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ ﴾ تعريف بأنفسهم للمؤمنين تأنيساً لهم .

فإن العلم بأن المتلقِّيَ صاحب قديم يزيد نفس القادم انشراحاً وأنساً ويزيل عنه دهشة القدوم ، يُخفف عنه من حشمة الضيافة ، ويزيل عنه وحشة الاغتراب ، أي نحن الذين كنا

في صحبتكم في الدنيا ، إذ كانوا يكتبون حسناتهم ويشهدون عند الله بصلاتهم كما في حديث : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلون " .

وقد حفظوا العهد فكانوا أولياء المؤمنين في الآخرة ، وقد جيء بهذا القول معترضاً بين صفات الجنة ليتحقق المؤمنون أن بشارتهم بالجنة بشارة محب يفرح لحبيبه بالخير ويسعى ليزيده .

واعلم أن قوله : ﴿ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا ﴾ إشارة إلى مقابلة قوله في المشركين ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُم قُرَنَاءَ ﴾ [فصلت : 25] فكما قيّض للكافر قرناء في الدنيا قيّض للمؤمنين ملائكة يكونون قرناءَهم في الدنيا ، وكما أنطق أتباعهم باللائمة عليهم أنطق الملائكة بالثناء على المؤمنين .

(334/681)

وهذه الآية تقتضي أن هذا الصنف من الملائكة خاص برفقة المؤمنين وولائهم ولا حظ للكافرين فيهم ، فإن كان الحفظة من خصائص المؤمنين كما نقله ابن ناجي في "شرح الرسالة" فمعنى ولايتهم للمؤمنين ظاهر ، وإن كان الحفظة موكَّلين على المؤمنين والكافرين

كما مشى عليه الجمهور وهو ظاهر قوله تعالى : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ [الانفطار : 129] فهذا صنف من الملائكة موكّل بحفظ المؤمنين في الدنيا ، وهم غير الحفظة ، وقد يكون هذا الصنف من الملائكة هو المسمى بالمعقبات في قوله تعالى:

﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر اللَّه ﴾ حسب ما تقدم في سورة الرعد (11) .

وقد دلت عدة آثار متفاوتة في القبول على أن الملائكة الذين لهم علاقة بالناس عموماً أو بالمؤمنين خاصة أصناف كثيرة .

وعن عثمان " أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم كم من ملَك على الإِنسان ، فذكر له عشرين مَلكاً " .

ولعل وصف الملائكة المتنزلين بأنهم أولياء يقتضي أن عملهم مع المؤمن عمل صلاح وتأييد مثل إلهام الطاعات ومحاربة الشياطين ونحو ذلك ، وبذلك تتم مقابلة تنزلهم على المؤمنين بذكر تقييض القرناء للكافرين ، وهذا أحسن .

وجملة ﴿ ولَكُم فِيهَا ما تَشْتَهِي أنفُسُكُم ﴾ عطف على ﴿ التي كُنتُم تُوعَدُون ﴾ وما بينهما جملة معترضة كما بينته آنفاً .

ومعنى ﴿ مَا تَدَّعُونَ ﴾ : ما تتمنون .

يقال : ادَّعَى ، أي تمنى ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولهم ما يدَّعون ﴾ في سورة يس (57) .

والمعنى : لكم فيها ما تشتهونه مما يقع تحت الحسّ وما تتمنونه في نفوسكم من كل ما يخطر بالبال مما يجول في الخيال ، فما يدّعون غير ما تشتهيه أنفسهم .

ولهذه المغايرة أعيد ﴿ لكم ﴾ ليؤذن باستقلال هذا الوعد عن سابقه ، فلا يتوهم أن العطف عطف تفسير أو عطف عام على خاص .

(335/681)

والنزُل بضم النون وضم الزاي : ما يُهَيَّأ للضيف من القِرى ، وهو مشتق من النزول لأنه كرامة النزيل ، وهو هنا مستعار لما يُعطَوْنَه من الرغائب سواء كانت رزقاً أم غيره .

ووجه الشبه سرعة إحضاره كأنه مُهَيَّأٌ من قبلِ أن يشتهوه أو يتمنوه .

و﴿ من غَفُورٍ رحيمٍ ﴾ صفة ﴿ نُزُلاً ﴾ ، و ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية .

وانتصب ﴿ نُزُلاً ﴾ على الحال من ﴿ مَا تَشتهي أنفُسُكم ﴾ .

و﴿ مَا تَدَّعُونَ ﴾ حال كونه كالنزل المهيّأ للضيف ، أي تعطونه كما يعطى النزل للضيف .

وأوثرت صفتا (الغفور الرحيم) هنا للإشارة إلى أن الله غفر لهم أو لأكثرهم اللممَ وما تابوا

منه ، وأنه رحيم بهم لأنهم كانوا يحبونه ويخافونه وينا صرون دينه .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)

ليس هذا من حكاية خطاب الملائكة للمؤمنين في الآخرة وإنما هو موجه من الله فالأظهر أنه تكملة للثناء على ﴿ الذين قالوا : ربنا الله ﴾ [فصلت : 30] ، واستقاموا ، وتوجيه لاستحقاقهم تلك المعاملة الشريفة ، وقمع للمشركين إذ تقرع أسماعَهم ، أي كيف لا يكونون بتلك المثابة وقد قالوا أحسن القول وعملوا أحسن العمل .

وذكر هذا الثناء عليهم بحسن قولهم عقب ذكر مذمة المشركين ووعيدُهم على سوء قولهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ [فصلت : 26] ، مشعر لا محالة بأن بين الفريقين بوناً بعيداً ، طَرَفَاه : الأحسنُ المصرحُ به ، والأسوأُ المفهوم بالمقابلة ، أي فلا يستوي الذين قالوا أحسنَ القول وعملوا أصلح العمل مع الذين قالوا أسوأ القول وعملوا أسوأَ العمل ، ولهذا عقب بقوله : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ [فصلت : 34] .

والواو إما عاطفة على جملة ﴿ إِنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ﴾ [فصلت : 30] ، أو حاليَّة من ﴿ الذينَ قالُوا .

والمعنى : أنهم نالوا ذلك إذْ لا أحسن منهم قولاً وعملاً .

ومَنْ ﴾ استفهام مستعمل في النفي ، أي لا أحد أحسن قولاً من هذا الفريق كقوله : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه للَّه ﴾ الآية في سورة النساء (125) .

و ﴿ ممن دعا إلى اللَّه ﴾ : كل أحد ثبت له مضمون هذه الصلة .

والدعاء إلى شيء : أمر غيرك بالإقبال على شيء ، ومنه قولهم : الدعوة العباسية والدعوة العَلوية ، وتسمية الواعظ عند بني عبيد بالداعي لأنه يدعو إلى التشيُّع لآل علي بن أبي طالب .

فالدعاء إلى الله : تمثيل لحال الآمِرِ بإفراد الله بالعبادة ونبذ الشرك بحال من يدعو أحداً بالإقبال إلى شخص ، وهذا حال المؤمنين حين أعلنوا التوحيد وهو ما وُصفوا به آنفاً في قوله : ﴿ إنَّ الَّذِين قالوا ربُّنا ﴾ [فصلت : 30] كما علمتَ وقد كان المؤمنون يدعون المشركين إلى توحيد الله ، وسيّدُ الداعين إلى الله هو محمد .

وقوله : مِمَّن دعا إلى الله ﴾ (مِنْ) فيه تفضيلية لاسْم ﴿ أَحْسَنُ ﴾ ، والكلام على حذف مضاف تقديره : من قول من دعا إلى الله .

وهذا الحذف كالذي في قول النابغة :

وقد خِفت حتى ما تَزيد مخافتي

على وَعِلٍ في ذي المَطارة عاقل . . .

أي لا تزيد مخافتي على مخافة وعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ الآية في سورة البقرة (177) .

والعمل الصالح : هو العمل الذي يصلُح عامِلُه في دينه ودنياه صلاحاً لا يشوبه فساد ، وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين ، فالعمل الصالح : هو ما وصف به المؤمنون آنفاً في قوله : ﴿ ثمَّ استقاموا ﴾ [فصلت : 30] .

وأما ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فهو ثناء على المسلمين بأنهم افتخروا بالإسلام واعتزوا به بين المشركين ولم يتستروا بالإسلام .

والاعتزاز بالدين عمل صالح ولكنه خص بالذكر لأنه أريد به غيظ الكافرين .

ومثال هذا ما وقع يوم أحد حين صَاح أبو سفيان : اعْلُ هُبَلْ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا : " الله أعلى وأجلّ "

(337/681)

فقال أبو سفيان : لنا العُزى ولا عُزى لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " قولوا الله مولانا ولا مولى لكم " .

وإنما لم يذكر نظير هذا القول في الصلة المشيرة إلى سبب تنزّل الملائكة على المؤمنين بالكرامة

وهي ﴿ الذِينَ قَالُوا رَبُّنا اللهُ ثُمَّ استقاموا ﴾ [فصلت : 30] لأن المقصود من ذكرها هنا الثناء عليهم بتفاخرهم على المشركين بعزة الإِسلام ، وذلك من آثار تلك الصلة فلا حاجة إلى ذكره هنالك بخلاف موقعه هنا .

وفي هذه الآية منزع عظيم لفضيلة علماء الدين الذين بينوا السنن ووضحوا أحكام الشريعة واجتهدوا في التوصل إلى مراد الله تعالى من دينه ومن خَلْقه .

وفيها أيضاً منزع لطيف لتأييد قول الماتريدي وطائفة من علماء القيروان وعلى رأسهم مُحمد بن سُحنون : أن المسلم يقول : أَنا مؤمن ولا يقول إن شاء الله خلافاً لقول الأشعري وطائفة من علماء القيروان وعلى رأسهم محمد بن عَبدوس فنُقل أنه كان يقول : أنا مؤمن إن شاء الله .

وقد تطاير شرر هذا الخلاف بين علماء القيروان مدة قرن .

والحق إنه خلاف لفظي كما بينه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ونقله عياض في "المدارك" ووافقه .

وذكرنا المسألة مفصلة عند قوله تعالى : ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء اللَّه ربنا ﴾ في سورة الأعراف (89) وبذلك فلا حجة في هذه الآية لأحد الفريقين وإنما الحجة في آية سورة الأعراف على الماتريدي ومحمد بن سحنون .

والقول في قوله : ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ كالقول في ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [فصلت : 30] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(338/681)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾ وقال تعالى قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني يوسف 108 وسواء كان المعنى انا ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة أو كان الوقف عند قوله ادعو إلى الله ثم يبتدئ على بصيرة انا ومن اتبعني فالقولان متلازمان فإنه امره سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله وهو على بصيرة وهو من اتباعه ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله ولا هو على بصيرة ولا هو من اتباعه فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين واتباعهم وهم خلفاء الرسل في أممهم والناس تبع لهم والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما انزل اليه وضمن له حفظه وعصمته من الناس وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته اياهم بحسب قيامهم بدينه

وتبليغهم لهم وقد أمر النبي بالتبليغ عنه ولو آية ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثا وتبليغ سنته إلى الأمة افضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس واما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه وهم كما قال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبته التي ذكرها ابن وضاح في كتاب الحوادث والبدع له قال الحمد لله الذي امتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى

ويصبرون منهم على الاذى ويحيون بكتاب الله أهل العمى كم من قتيل لإبليس قد احيوه وضال تائه قد هدوه بذلوا دماءهم واموالهم دون هلكة العباد فما أحسن اثرهم على الناس واقبح اثر الناس عليهم يقبلونهم في سالف الدهر والى يومنا هذا فما نسيهم ربك وما كان ربك نسيا مريم 64 وجعل قصصهم هدى وأخبر عن حسن مقالتهم فلا تقصر عنهم فإنهم في منزلة رفيعة وان اصابتهم الوضيعة

(339/681)

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن لله عند كل بدعة كيد بها الإسلام وليا من اوليائه يذب عنها وينطق بعلاماتها فاغتنموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله

ويكفي في هذا قول النبي لعلي رضي الله عنه لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم

وقوله من احيا شيئا من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وضم بين اصبعيه

وقوله من دعا إلى هدى فاتبع عليه كان له مثل اجر من تبعه إلى يوم القيامة

فمتى يدرك العامل هذا الفضل العظيم والحظ الجسيم بشيء من عمله وانما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فحقيق بالمبلغ عن رسول الله الذي اقامه الله سبحانه في هذا المقام أن يفتتح كلامه بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده والاعتراف له بالوحدانية وتعريف حقوقه على العباد ثم بالصلاة على رسول الله وتمجيده والثناء عليه أن يختمه أيضا بالصلاة عليه تسليما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ جلاء الأفهام صـ 317 . 319 ﴾

(340/681)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والثمانون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 34 ﴾ من سورة فصلت

وحتى الآية ﴿ 46 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : لا أحد أحسن قولا منه ، بل هو المحسن وحده ، فلا يستوي هذا المحسن وغيره أصلاً ، رداً عليهم أن حالهم أحسن من حال الدعاة إلى الله ، وكان القيام بتكميل الخلق يحتاج إلى جهاد للنفس عظيم من تحمل المشاق والصبر على الأذى ، وغير ذلك من جميع الأخلاق ، عطف عليه التفرقة بين عمليهما ترغيباً في الحسنات فقال : ﴿ ولا تستوي ﴾ أي وإن اجتهدت في التحرير والاعتبار ﴿ الحسنة ﴾ أي لا بالنسبة إلى أفراد جنسها ولا بالنسبة إلى عامليها عند وحدتها ، لتفاوت الحسنات في أنفسها ، والحسنة

الواحدة باعتبار نيات العاملين لها واجتهادهم فيها ولا بالنسبة إلى غيرها ، وإلى ذلك إشارة بالتأكيد في قوله : ﴿ ولا السيئة ﴾ أي في نفسها ولا بالنسبة إلى جنس آخر .

(5/682)

ولما أنتج هذا الحث على الإقبال على الحسن والإعراض عن السيء ، وأفهم أن كلاً من القسمين متفاوت الجزئيات متعالي الدرجات ، وكان الإنسان لا ينفك عن عوارض تحصل له من الناس ومن نفسه يحتاج إلى دفع بعضها ، أنتج عند قصد الأعلى فقال : ﴿ ادفع ﴾ أي كل ما يمكن أن يضرك من نفسك ومن الناس ﴿ بالتي ﴾ أي الخصال والأحوال التي ﴿ هي أحسن ﴾ على قدر الإمكان من الأعمال الصالحات فالعفو عن المسيء حسن ، والإحسان أحسن منه ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة ﴾ عظيمة قد ملأت ما بين البينين فاجأته حال كونه ﴿ كأنه ولي ﴾ أي قريب ما يفعل القريب ﴿ حميم ﴾ أي في غاية القرب لا يدع مهماً إلا قضاه وسهله ويسره ، وشفا علله ، وقرب بعيده ، وأزال درنه ، كما يزيل الماء الحار الوسخ .

(6/682)

ولما كانت هذه الخصلة أمّا جامعاً لجميع مصالح الدين والدنيا قال منبهاً على عظيم فضلها وبديع نبلها حاثاً على الاستظلال بجميع ظلها مشيراً بالبناء للمفعول إلى أنها هي العمدة المقصودة بالذات على وجه منبه على أنها مخالفة لجبلة الإنسان حثاً على الرغبة في طلبها من واهبها ﴿ وما يلقّاها ﴾ أي يجعل لاقياً لهذه الخصلة التي هي مقابلة الإساءة بأحسن الحسن وهو الإحسان الذي هو أحسن من العفو والحلم والصبر والاحتمال بأن يعلق الله تعالى إرادته على وجه الشدة والمبالغة بإلقائها إليه ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ أي وجدت منهم هذه الحقيقة وركزت في طباعهم ، فصاروا يكظمون الغيظ ويحتملون المكاره ، وكرر إظهار البناء للمفعول للتنبيه على أنه لا قدرة عليها أصلاً إلا بتوفيق الخالق بأمر وطني يقذفه الله في القلب قذفاً وحياً تظهر ثمرته على سائر البدن ، فقال دالاً باعادة النافي على زيادة العظم وعلى أن أصحاب هذه الخصلة على رتبتين كل رتبة منهما مقصودة في نفسها ﴿ وما يلقّاها ﴾ على ما هي عليه من العظمة ﴿ إلا ﴾ وأفرد هنا بعد جمع الصابر دلالة على ندرة المستقيم على هذه لخصلة ﴿ ذو حظ ﴾ أي نصيب وقسم وبخت ﴿ عظيم ﴾ أي جليل في الدنيا والآخرة عند الله وعند الناس .

ولما كان التقدير : فإن لقيت ذلك وأعاذك الله من الشيطان فأنت أنت ، عطف عليه قوله معبراً بأداة الشك المفهمة لجواز وقوع ذلك في الجملة ، مع العلم بأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ معصوم إشارة إلى رتبة الإنسان من حيث هو إنسان وإلى أن الشيطان يتوهم مع علمه بالعصمة أنه يقدر على ذلك فيعلق أمله به ، وكأنه لذلك أكد لأن نزغه له في محل الإنكار ﴿ وإمّا ﴾ ولما كانت وسوسة الشيطان تبعث على ما لا ينبغي ، وكان العاقل لا يفعل ما لا ينبغي إلا بالالجاء ، شبه المتعاطي له بالمنخوس الذي حمله النخس على ارتكاب ما يضر فقال : ﴿ ينزغنك ﴾ أي ينخسنك ويطعننك طعناً مفسداً فيحصل لك تألم ﴿ من الشيطان ﴾ البعيد من الرحمة المحترق باللعنة .

ولما كان المقام خطراً لأن الطبع مساعد للوسواس ، جعل النزغ نفسه نازغاً إشارة إلى ذلك فقال : ﴿ نزغ ﴾ أي وسوسة تحرك نحو الموسوس من أجله وتبعث إليه بعث المنخوس إلى الجهة التي يوجه إليها ، فإن ينبعث إلى تلك الجهة بعزم عظيم ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي استجر بالملك الأعلى واطلب منه الدخول في عصمته مبادراً إلى ذلك حين نخس بالنزغة فإنه لا يقدر على الإعاذة منه غيره ولا تذر النزغة تتكرر بل ارجع إلى المحيط علماً وقدرة في أول الخطرة ، فإنك إن لم تخالف أول الخطرة صارت فكرة فيحصل العزم فتقع الزلة فتصير قسوة فيحصل التمادي – نبه عليه القشيري .

ولما كانت الاستعاذة هنا من الشيطان ، وكان نزغه مما يعلم لا مما يرى وكانت صفة السمع نعم ما يرى وما لا يرى ، قال مؤكداً لوقوف الجامدين مع الظواهر : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده ﴿ السميع ﴾ وختم بقوله : ﴿ العليم ﴾ الذي يسمع كل مسموع من استعاذتك وغيرها ، ويعلم كل معلوم من نزغه وغيره ، فهو القادر على رد كيده ، وتوهين أمره وأيده ، وليس هو كما جعلتموه له من الأنداد الصم البكم التي لا قدرة لها على شيء أصلاً .

(8/682)

ولما ذكر أنهم جعلوا له أنداداً مع أنه خلق الأرض في يومين ، وختم ذلك بأن أحسن الحسن الدعاء إلى الله ، وختم الأمر بالدعاء بصفة العلم ، أتبعه دلائل التوحيد إعلاماً بأن التوحيد أحسن الحسن يطرد كل شيء ، وتنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تنوير الدلائل الدالة على الذات والصفات ، وذلك ببيان الأفعال وآثارها وهو العالم بجميع ما فيه من الأجزاء والأبعاض جوهراً وعرضاً ، وبدأ بذكر الفلكيات لأنها أدل ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فمن آياته الناشئة عن شمول علمه المستلزم لشمول قدرته المنتجة لإعادته لمن يريد ونفوذ تصرفه في كل ما يشاء المستلزم لتفرده بالإلهية أنه خلق الخافقين كما مضى في ستة أيام : ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على وحدانيته :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه الواحد

ولما كانت الظلمة عدماً والنور وجوداً والعدم مقدم قال : ﴿ الليل والنهار ﴾ أي الدالّان باختلافهما وهيئتهما على قدرته على البعث وعلى كل مقدور ﴿ والشمس والقمر ﴾ اللذان هما الليل والنهار كالروح لذوي الأجساد ، وهذه الموجوات – مع ما مضى من خلق الخافقين – كتاب الملك الديان ، إلى الإنس والجان ، المشهود لهم بالعيان كما قيل يا إنسان :

تأمل سطور الكائنات فإنها . . .

من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطة . . .

إلا كل شيء ما خلا الله باطل

(9/682)

ولما ثبت له سبحانه التفرد بالخلق والأمر ، وكان باطناً إلا عند من نور الله أو كانت الشمس والقمر من آياته المعرفة المشيرة في وجود الدنيا والآخرة إليه ، وكانا مشاهدين ، وكان الإنسان قاصر العقل مقيد الوهم بالمشاهدات لما عنده من الشواغل إلا من عصم الله

، أنتج قوله محذراً من عبادتهما لما يرى لهما من البهاء وفيهما من المنافع : ﴿ لا تسجدوا للشمس ﴾ التي هي أعظم أوثانكم فإنها من جملة مبدعاته ، وأعاد النافي تأكيداً للنفي وإفادة لأن النهي عن كل منهما على حدته ولذلك أظهر موضع الإضمار فقال : ﴿ ولا للقمر ﴾ كذلك .

ولما نهى عن السجود لهما ، أمر بالسجود بما يبين استحقاقه لذلك وعدم استحقاقهما أو استحقاق شيء غيرهما له فقال : ﴿ واسجدوا ﴾ ونبه على مزيد عظمته بالإظهار موضع الإضمار فقال : ﴿ لله ﴾ أي الذي له كل كمال من غير شائبة نقص من أقول أو تجدد حلول ﴿ الذي خلقهن ﴾ أي الأربعة لأجلكم فهو الذي يستحق الإلهية ، وأنث لأن ما لا يعقل حكمه حكم المؤنث في الضمير وهي أيضاً آيات ، وفيه إشارة إلى تناهي سفولها عما أهلوها له وذم عابديها بالإفراط في الغباوة ، ويمكن أن يكون عد القمر أقماراً لأنه يكون تارة هلالاً وأخرى بدراً وأخرى محواً ، فلذلك جمع إشارة إلى قهرهما بالتغيير له في الجرم ولمهما بالتسيير ، ولذلك عبر بضمير المؤنث الذي يكون لجمع الكثرة مما لا يعقل .

(10/682)

ولما ظهر أن الكل عبيده ، وكان السيد لا يرضى بإشراك عبده عبداً آخر في عبادة سيده قال : ﴿ إن كنتم إياه ﴾ أي خاصة بغاية الرسوخ ﴿ تعبدون ﴾ كما هو صريح قولكم في الدعاء في وقت الشدائد لا سيما في البحر ، ومحصل قولكم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فإن أشركتم به شيئاً بسجود أو غيره فما خصصتموه بالعبادة لأن السجود من العبادة وفعله ولو في وقت واحد لغيره إشراك في الجملة ، ومن أشرك به لم يعبده وحده ، ومن لم يعبده وحده لم يعبده أصلاً ، لأنه أغنى الأغنياء ، لا يقبل إلا الخالص وهو أقرب إلى عباده من كل شيء فيوشك أن ينتقم بإشراككم ، وفي الآية إشارة إلى الحث على صيانة الآدميين عن أن يقع منهم سجود لغيره رفعاً لمقامهم عن أن يكونوا ساجدين لمخلوق بعد أن كانوا مسجوداً لهم ، فإنه سبحانه أمر الملائكة الذين هم أشرف خلقه بعدهم بالسجود آدم وهم في ظهره فتكبر اللعين إبليس ، فابد لعنه ، فشتان ما بين المقامين .

ولما كانوا في هذا الأمر بين طاعة ومعصية ، وكان درء المفاسد مقدماً ، سبب عن ذلك قوله معبراً بأداة الشك تنبيهاً لهم على أن استكبارهم بعد إقامة هذه الأدلة ينبغي أن لا يتوهم ، وصرف القول إلى الغيبة تحقيراً لهم وإبعاداً على تقدير وقوع ذلك منهم ﴿ فإن استكبروا ﴾ أي أوجدوا الكبر عن اتباعك فيما أمرتهم به من التوحيد فلم يوحدوا الله ولم ينزهوه تعالى عن الشريك ﴿ فالذين عند ﴾ وأظهر موضع الإضمار معبراً بوصف الإحسان بشارة له ونذارة لهم ﴿ ربك ﴾ خاصة لا عندهم لكونهم مقربين لديه في درجة

الرضاء والكرامة ولكونهم مما يستغرق به الآدميون ولكون الكفار لا قدرة لهم على الوصول إليهم بوجه : ﴿ يسبحون له ﴾ أي يوقعون التنزيه عن النقائص ويبعدون عن الشركة لأجل علوه الأقدس وعزه الأكبر لا لشيء غيره إخلاصاً في عبادته وهم لا يستكبرون .

(11/682)

ولما كان حال الكفار في الإخلاص مختلفاً في الشدة والرخاء ، أشار إلى تقبيح ذلك منهم بتعميم خواصه عليهم الصلاة والسلام بالإخلاص حالتي الإثبات الذي هو حالة بسط في الجملة ، والمحو الذي هو حالة قبض كذلك يجددون هذا التنزيه مستمرين عليه في كل وقت فقال : ﴿ بالليل والنهار ﴾ أي على مر الملوين وكر الجديدين لا يفترون .

ولما كان في سياق الفرص لاستكبارهم المقتضي لإنكارهم ، أكد بالعاطف والضمير فقال مؤذناً بأن هذا ديدنهم لا ينفكون عنه : ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم على هذا الدوام ﴿ لا يسئمون ﴾ أي لا يكاد لهم في وقت من الأوقات فتور ولا ملل ، فهو غني عن عبادة هؤلاء بل وعن عبادة كل عابد ، والحظ الأوفر لمن عنده وأما هو سبحانه فلا يزيده شيئاً ولا ينقصه شيء فدع هؤلاء أن استكبروا وشأنهم ، فيعلمون من الخاسر ، فالآية من الاحتباك : ذكر الاستكبار أولاً دليلاً على حذفه ثانياً والتسبيح ثانياً دليلاً على حذفه أولاً ، وسر ذلك أنه

ذكر أقبح ما لأعدائه وأحسن ما لأوليائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 573 . 577 ﴾

(12/682)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ﴾

(13/682)

وعلم أنا بينا أن الكلام من أول السورة ابتدىء من أن الله حكى عنهم أنهم قالوا ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ [فصلت : 5] فأظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه تعالى أطنب في الجواب عنه وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ، ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهي قولهم ﴿ لا تَسْمَعُواْ لهذا القرءان والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] وأجاب عنها أيضاً

بالوجوه الكثيرة ، ثم إنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغب محمداً صلى الله عليه وسلم في أن لا يترك الدعوة إلى الله فابتدأ أولاً بأن قال : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ فلهم الثواب العظيم ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعاً على أحسن وجوه الترتيب ، ثم كأن سائلاً سأل فقال إن الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة عظيمة ، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به ، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعاً لهذا الإشكال فقال : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ﴾ والمراد بالحسنة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الدين الحق ، والصبر على جهالة الكفار ، وترك الانتقام ، وترك الالتفات إليهم ، والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلافة في قولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ وما ذكروه في قولهم ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان والغوا فِيهِ ﴾ فكأنه قال يا محمد فعلك حسنة وفعلهم سيئة ، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، بمعنى أنك إذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجباً للتعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة ، وهم بالضد من ذلك ، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة .

ثم قال : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ يعني ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذي هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ يعني إذا قابلت إساءتهم بالإحسان ، وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة ، ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع في الدين والدنيا والآخرة عظمة فقال : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ قال الزجاج : أي وما يلقى هذه الفعلة إلا الذين صبروا على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام .

ثم قال : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الفضائل النفسانية والدرجة العالية في القوة الروحانية ، فإن الاشتغال بالانتقام والدفع لا يحصل إلا بعد تأثر النفس ، وتأثر النفس من الواردات الخارجية لا يحصل إلا عند ضعف النفس فأما إذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية ، وإذا لم تتأثر منها لم تضعف ولم تتأذ ولم تشتغل بالانتقام ، فثبت أن هذه السيرة التي شرحناها لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر

وطهارة الذات ، ويحتمل أن يكون المراد : وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم من ثواب الآخرة ، فعلى هذا الوجه قوله ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ مدح بفعل الصبر ، وقوله ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظّ عَظِيمٍ ﴾ وعد بأعظم الحظ من الثواب .

(15/682)

ولما ذكر هذا الطريق الكامل في دفع الغضب والانتقام ، وفي ترك الخصومة ذكر عقيبه طريقاً آخر عظيم النفع أيضاً في هذا الباب ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة في آخر سورة الأعراف على الاستقصاء ، قال صاحب "الكشاف" النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس والشيطان ينزغ الإنسان ، كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي وجعل النزغ نازغاً ، كما قيل : جد جده أو أُريد ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر ، وبالجملة فالمقصود من الآية وإن صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتي هي أحسن ، فاستعذ بالله من شره ، وامض على شأنك ولا تطعه ، والله أعلم .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى

أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات ، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن ، وقد عرفت أن الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هي العالم بجميع ما فيه من الأجزاء والأبعاض ، فبدأ ههنا بذكر الفلكيات وهي الليل والنهار وإنما قدم ذكر الليل على ذكر النهار تنبيهاً على أن الظلمة عدم ، والنور وجود ، والعدم سابق على الوجود ، فهذا كالتنبيه على حدوث هذه الأشياء ، وأما دلالة الشمس والقمر والأفلاك وسائر الكواكب على وجود الصانع ، فقد شرحناها في هذا الكتاب مراراً ، لا سيما في تفسير قوله ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] وفي تفسير قوله ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 1] .

(16/682)

ولما بيّن أن الشمس والقمر محدثان ، وهما دليلان على وجود الإله القادر قال : ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ يعني أنهما عبدان دليلان على وجود الإله ، والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم فهي لا تليق إلا بمن كان أشرف الموجودات ، فقال : ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ

لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما عبدان مخلوقان ﴿ واسجدوا لِلَّهِ ﴾ الخالق القادر الحكيم ، والضمير في قوله ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ لليل والنهار والقمر ، لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث ، يقال للأقلام بريتها وبريتهن ، ولما قال : ﴿ ومِنْ ءاياته ﴾ كن في معنى الإناث فقال : ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ وإنما قال : ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ لأن ناساً كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذي خلق الأشياء ، فإن قيل إذا كان لا بد في الصلاة من قبلة معينة ، فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك أولى ، قلنا الشمس جوهر مشرق عظيم الرفعة عالي الدرجة ، فلو أذن الشرع في جعلها قبلة في الصلوات ، فعند اعتياد السجود إلى جانب الشمس ربما غلب على الأوهام أن ذلك السجود للشمس لا لله ، فلأجل الخوف من هذا المحذور نهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس قبلة للسجود ، بخلاف الحجر المعين فإنه ليس فيه ما يوهم الإلهية ، فكان المقصود من القبلة حاصلاً والمحذور المذكور زائلاً فكان هذا أولى ، واعلم أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن موضع السجود هو قوله ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ لأجل أن قوله ﴿ واسجدوا لِلَّهِ ﴾ متصل به ، وعند أبي حنيفة هو قوله ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ لأن الكلام إنما يتم عنده .

ثم إنه تعالى لما أمر بالسجود قال بعده ﴿ فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ وفيه سؤالات :

(17/682)

السؤال الأول : إن الذين يسجدون للشمس والقمر يقولون نحن أقل وأذل من أن يحصل لنا أهلية عبودية الله تعالى ، ولكنا عبيد للشمس وهما عبدان لله ، وإذا كان قول هؤلاء هكذا ، فكيف يليق أن يقال إنهم استكبروا عن السجود لله ؟ والجواب : ليس المراد من لفظ الاستكبار ما ذكرتم ، بل المراد فإن استكبروا عن قبول قولك يا محمد في النهي عن السجود للشمس والقمر .

السؤال الثاني : أن المشبهة تمسكوا بقوله ﴿ فالذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ في إثبات المكان والجهة لله تعالى والجواب : أنه يقال عند الملك من الجند كذا وكذا ، ولا يراد به قرب المكان . فكذا ههنا .

ويدل عليه قوله " أنا عند ظن عبدي بي وأنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي في مقعد صدق عند مليك مقتدر " ويقال عند الشافعي رضي الله عنه إن المسلم لا يقتل بالذمي .

السؤال الثالث : هل تدل هذه الآية على أن الملك أفضل من البشر ؟ الجواب : نعم ، لأنه إنما

يستدل بحال الأعلى على حال الأدون ، فيقال هؤلاء الأقوام إن استكبروا عن طاعة فلان فالأكابر يخدمونه ويعترفون بتقدمه ، فثبت أن هذا النوع من الاستدلال إنما يحسن بحال الأعلى على حال الأدون .

(18/682)

السؤال الرابع : قال ههنا في صفة الملائكة ﴿ يَسْبَحُونَ له بالليل والنهار ﴾ فهذا يدل على أنهم مواظبون على التسبيح ، لا ينفكون عنه لحظة واحدة ، واشتغالهم بهذا العمل على سبيل الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال ككونهم ينزلون إلى الأرض كما قال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] وقال : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحجر : 51] وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ [التحريم : 6] الجواب : إن الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة وهم الأشراف الأكابر منهم ، لأنه تعالى وصفهم بكونهم عنده ، والمراد من هذه العندية كمال الشرف والمنقبة ، وهذا لا ينافي كون طائفة أخرى من الملائكة مشتغلين بسائر الأعمال ، فإن قالوا هب أن الأمر كذلك إلا أنهم لا بد وأن يتنفسوا ، فاشتغالهم بذلك التنفس يصدهم عن تلك الحالة من التسبيح قلنا كما أن التنفس سبب

لصلاح حال الحياة بالنسبة إلى البشر فذكر الله تعالى سبب لصلاح حالهم في حياتهم ، ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة في صفاء جوهرها وإشراق ذواتها واستغراقها في معارج معارف الله بأحوال البشر ، فإن بين الحالتين بعد المشرقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 109.112 ﴾

(19/682)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَك وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ ؛ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُمِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعَفْوِ عَنْهُ .

وَقِيلَ لَهُ : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَك وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : اخْتُلِفَ مَا الْمُرَادُ بِهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قِيلَ الْمُرَادُ بِهَا مَا رُوِيَ فِي الْآيَةِ أَنْ نَقُولَ : إنْ كُنْت كَاذِبًا يَغْفِرُ اللَّهُ لَك ، وَإِنْ كُنْت صَادِقًا يَغْفِرُ اللَّهُ لِي ، وَكَذَلِكَ رُوِيَ أَنَّ

أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَالَهُ لِرَجُلٍ نَالَ مِنْهُ .

الثَّانِي الْمُصَافَحَةُ ، وَفِي الْأَثَرِ : ﴿ تَصَافَحُوا يَذْهَبُ الْغِلُّ ﴾ ، وَإِنْ لَمْ يَرَ مَالِكٌ الْمُصَافَحَةَ ، وَقَدْ اجْتَمَعَ مَعَ سُفْيَانَ فَتَكَلَّمَا فِيهَا ، فَقَالَ سُفْيَانُ : قَدْ صَافَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعْفَرًا حِينَ قَدِمَ مِنْ الْحَبَشَةِ ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ : ذَلِكَ خَاصٌّ لَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ : مَا خَصَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخُصُّنَا ، وَمَا عَمَّهُ يَعُمُّنَا ، وَالْمُصَافَحَةُ ثَابِتَةٌ ، فَلَا وَجْهَ لِإِنْكَارِهَا .

وَقَدْ رَوَى قَتَادَةُ قَالَ : قُلْتُ لِأَنَسٍ : هَلْ كَانَتْ الْمُصَافَحَةُ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ .

(20/682)

وَرَوَى الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا ﴾ .

وَفِي الْأَثَرِ : ﴿ مِنْ تَمَامِ الْمَحَبَّةِ الْأَخْذُ بِالْيَدِ ﴾ .

وَمِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ وَهُوَ إمَامٌ مُقَدَّمٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : ﴿ قَدِمَ

زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْمَدِينَةَ فِي نَفَرٍ ، فَقَرَعَ

الْبَابَ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرْيَانًا يَجُرُّ ثَوْبَهُ ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْته عُرْيَانًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ ، فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ ﴾ .

الثَّالِثُ : السَّلَامُ ، لَا يُقْطَعُ عَنْهُ سَلَامُهُ إذَا لَقِيَهُ ، وَالْكُلُّ مُحْتَمَلٌ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّك يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ .

وَهَذِهِ آيَةُ سُجُودٍ بِلَا خِلَافٍ ، وَلَكِنْ اُخْتُلِفَ فِي مَوْضِعِهِ ؛ فَقَالَ مَالِكٌ : مَوْضِعُهُ : ﴿ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ لِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالْأَمْرِ .

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ وَالشَّافِعِيُّ : مَوْضِعُهُ ﴿ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ لِأَنَّهُ تَمَامُ الْكَلَامِ ، وَغَايَةُ الْعِبَادَةِ وَالِامْتِثَالِ .

وَقَدْ كَانَ عَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ يَسْجُدَانِ عِنْدَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَسْجُدُ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ يَسْأَمُونَ ﴾ .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : اُسْجُدُوا بِالْآخِرَةِ مِنْهُمَا ، وَكَذَلِكَ يُرْوَى عَنْ مَسْرُوقٍ ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ ؛ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ ، وَأَبِي صَالِحٍ ؛ وَيَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ ، وَطَلْحَةَ ، وَالْحَسَنُ ، وَابْنُ سِيرِينَ .

وَكَانَ أَبُو وَائِلٍ ، وَقَتَادَةُ ، وَبَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَسْجُدُونَ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ يَسْأَمُونَ ﴾ ، وَالْأَمْرُ قَرِيبٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(22/682)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾

آية وعد للمؤمنين ، قال سفيان بن عبد الله الثقفي ، قلت للنبي عليه السلام : أخبرني بأمر أعتصم به ، فقال :

" قل ربي الله ثم استقم ، " قلت فما أخوف ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه فقال : هذا .

واختلف الناس في مقتضى قوله : ﴿ ثم استقاموا ﴾ فذهب الحسن وقتادة وجماعة إلى

أن معناه : استقاموا بالطاعات واجتناب المعاصي ، وتلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ثم قال : استقاموا والله لله بطاعته ، ولم يروغوا روغان الثعالب .

(23/682)

قال القاضي أبو محمد : ذهب رضي الله عنه إلى حمل الناس على الأتم الأفضل ، وإلا فلزم على هذا التأويل من دليل الخطاب ألا تنزل الملائكة عند الموت على غير مستقيم على الطاعة وذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجماعة معه إلى أن المعنى ﴿ ثم استقاموا ﴾ على قولهم : ﴿ ربنا الله ﴾ ، فلم يختل توحيدهم ولا اضطرب إيمانهم . وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم ، فمن مات عليها فهو ممن استقام . المعنى فهو في أول درجات الاستقامة من الخلود ، فهذا كقوله عليه السلام : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " وهذا هو المعتقد إن شاء الله ، وذلك أن العصاة من أمة محمد عليه السلام وغيرها فرقتان : فأما من قضى الله بالمغفرة له وترك تعذيبه ، فلا محالة ممن تنزل عليه الملائكة بالبشارة ، وهو إنما استقام على توحيده فقط ، وأما من قضى الله بتعذيبه مرة ثم بإدخاله الجنة ، فلا محالة أنه يلقى جميع ذلك عند موته ويعلمه ، وليس يصح أن يكون حاله كحالة الكافر اليائس من رحمة الله

، وإذ قد كان هذا فقد حصلت له بشارة بأن لا يخاف الخلود ولا يحزن منه وبأنه يصير آخراً إلى الخلود في الجنة ، وهل العصاة المؤمنون إلا تحت الوعد بالجنة ، فهم داخلون فيمن يقال لهم : ﴿ أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ ومع هذا كله فلا يختلف أن الموحد المستقيم على الطاعة أتم حالاً وأكمل بشارة ، وهو مقصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعلى نحو ذلك قال سفيان : ﴿ استقاموا ﴾ ، عملوا بنحو ما قالوا ، وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله . وقال الفضيل زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية ، وبالجملة فكلما كان المرء أشد استعداداً كان أسرع فوزاً بفضل الله تعالى .

(24/682)

وقوله تعالى : ﴿ ألا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ أمنة عامة في كل هم مستأنف ، وتسلية تامة عن كل فائت ماض . وقال مجاهد : المعنى لا تخافون ما تقدمون عليه ، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم . وفي قراءة ابن مسعود : " الملائكة لا تخافوا " بإسقاط الألف ، بمعنى يقولون لا تخافوا .

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31)

المتكلم ب ﴿ نحن أولياؤكم ﴾ هم الملائكة القائلون : " لا تخافوا ولا تحزنوا " أي يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحق نحن كنا أولياءكم في الدنيا ونحن هم في الآخرة . قال السدي المعنى : نحن حفظَتكُم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة ، والضمير في قوله : ﴿ فيها ﴾ عائد على الآخرة . و: ﴿ تدعون ﴾ معناه : تطلبون . و: ﴿ نزلاً ﴾ نصب على المصدر . وقراءة الجمهور : بضم الواو . وقرأ أبو حيوة : بإسكانها .

(25/682)

وقوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ﴾ الآية ابتداء توصية محمد عليه السلام ، وهو لفظ يعم كل من دعا قديماً وحديثاً إلى الله تعالى وإلى طاعته من الأنبياء والمؤمنين ، والمعنى : لا أحد أحسن قولاً ممن هذه حاله ، وإلى العموم ذهب الحسن ومقاتل وجماعة ، وبين أن حالة محمد عليه السلام كانت كذلك مبرزة إلى تخصيصه بالآية ذهب السدي وابن زيد وابن سيرين . وقال قيس بن أبي حازم وعائشة أم المؤمنين وعكرمة : نزلت هذه الآية في المؤذنين . قال قيس : ﴿ وعمل صالحاً ﴾ هو الصلاة بين الآذان والإقامة . وذكر النقاش ذلك عن ابن عباس ، ومعنى القول بأنها في المؤذنين أنهم داخلون فيها ، وأما نزولها فبمكة بلا خلاف ولم يكن بمكة آذان وإنما ترتب بالمدينة ، وأن الآذان لمن الدعاء إلى الله تعالى

ولكنه جزء منه . والدعاء إلى الله بقوة كجهاد الكفار وردع الطغاة وكف الظلمة وغيره أعظم غناء من تولي الاذان إذ لا مشقة فيه والأصوب أن يعتقد أن الآية نزلت عامة . قال زيد بن علي المعنى : دعا إلى الله بالسيف .

وقرأ الجمهور : " إنني " بنونين . وقرأ ابن أبي عبلة : " إني " بنون واحدة .

وقال فضيل بن رفيدة : كنت مؤذناً في أصحاب ابن مسعود ، فقال لي عاصم بن هبيرة : إذا أكملت الآذان فقل : ﴿ إنني من المسلمين ﴾ ثم تلا هذه الآية .

ثم وعظ تعالى نبيه عليه السلام ونبهه على أحسن مخاطبة ، فقرر أن الحسنة والسيئة لا تستوي ، أي فالحسنة أفضل ، وكرر في قوله : ﴿ ولا السيئة ﴾ تأكيداً ليدل على أن المراد : ولا تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة ، فحذف اختصاراً ودلت ﴿ لا ﴾ على هذا الحذف .

(26/682)

وقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ آية جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الحلم ، والمعنى : ادفع أمورك وما يعرضك مع الناس ومخالطتك لهم بالفعلة أو بالسيرة التي هي أحسن السير والفعلات ، فمن ذلك بذل السلام ، وحسن الأدب ، وكظم الغيظ ،

والسماحة في القضاء والاقتضاء وغير ذلك . قال ابن عباس : إذا فعل المؤمن هذه الفضائل عصمه الله من الشيطان وخضع له عدوه ، وفسر مجاهد وعطاء هذه الآية بالسلام عند اللقاء ، ولا شك أن السلام هو مبدأ الدفع بالتي هي أحسن وهو جزء منه ، ثم قال تعالى : ﴿ كأنه ولي حميم ﴾ فدخل كاف التشبيه لأن الذي عنده عداوة لا يعود ولياً حميماً ، وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم .

والحميم : هو القريب الذي يحتّم للإنسان . والضمير في قوله : ﴿ يلقاها ﴾ عائد على هذه الخلق التي يتضمنها قوله : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ . وقالت فرقة : المراد : وما يلقى لا إله إلا الله ، وهذا تفسير لا يقتضيه اللفظ .

وقوله : ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ مدح بليغ للصبر ، وذلك بينّ للمتأمل ، لأن الصبر للطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها . والحظ العظيم : يحتمل أن يريد من العقل والفضل ، فتكون الآية مدحاً . وروي أن رجلاً شتم أبا بكر الصديق بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فسكت أبو بكر ساعة ، ثم جاش بها لغضب فرد على الرجل ، فقام النبي عليه السلام فاتبعه أبو بكر وقال : يا رسول الله قمت حين انتصرت ، فقال إنه كان يرد عنك ملك ، فلما قربت تنتصر ، ذهب الملك وجاء الشيطان ، فما كنت لأجالسه ، ويحتمل أن يريد : ﴿ ذو حظ عظيمٍ ﴾ من الجنة وثواب الآخرة ، فتكون الآية وعداً ، وبالجنة فسر قتادة

الحظ هنا .

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

(27/682)

﴿ إما ﴾ شرط ، وجواب الشرط قوله : ﴿ فاستعذ ﴾ . والنزغ : فعل الشيطان في قلب أو يد من إلقاء غضب وحقد أو بطش في اليد ، فمن الغضب هذه الآية ، ومن الحقد ، قوله : ﴿ نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ [يوسف : 100] ، ومن البطش قول النبي عليه السلام : " لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح لا ينزغ الشيطان في يده فيلقيه في حفرة من حفر النار " .

وندب تعالى في هذه الآية المتقدمة إلى مكارم الخلق في الدفع بالتي هي أحسن ، ثم أثنى على من لقيها ووعده ، وعلم أن خلقة البشر تغلب أحياناً وتثور بهم سورة الغضب ونزغ الشيطان فدلهم على مذهب ذلك وهي الاستعاذة به عز وجل .

ثم عدد آياته لتعبر فيها من صدق عن التوحيد بذكر ﴿ الليل والنهار ﴾ ، وذكرهما يتضمن ما فيهما من القصر والطول والتداخل والاستواء في مواضع وسائر عبرهما ، وكذلك الشمس والقمر متضمن عجائبهما وحكمة الله فيهما ونفعه عباده بهما . ثم قال

تعالى : ﴿ لا تسجدوا ﴾ لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم ، لأن النفع منهما إنما هو بتسخير الله إياهما ، فهو الذي ينبغي أن يسجد له . والضمير في : ﴿ خلقهن ﴾ قالت فرقة : هو عائد على الأيام المتقدم ذكرها . وقالت فرقة : الضمير عائد على الشمس والقمر ، والاثنان جمع ، وجمع ما لا يعقل يؤنث ، فلذلك قال : ﴿ خلقهن ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : ومن حيث يقال شموس وأقمار لاختلافهما بالأيام ، ساغ أن يعود الضمير مجموعاً .

وقالت فرقة : هو عائد على الأربعة المذكورة ، وشأن ضمير ما لا يعقل إذا كان العدد أقل من العشرة أن يجيء هكذا ، فإذا زاد أفرد مؤنثاً ، تقول الأجذاع انكسرن ، والجذوع انكسرت ، ومنه : ﴿ إن عدة الشهور ﴾ [التوبة : 36] ، ومنه قول حسان بن ثابت :

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما . . . وقال السموأل : [الطويل]

ولا عيب فينا غير أن سيوفنا . . . بها من قراع الدارعين فلول

(28/682)

وهذا كثير مهيع وإن كان الأمر يوجد متداخلاً بعضه على بعض ، ثم خاطب تعالى بما يتضمن وعيدهم وحقارة أمرهم ، وأن الله تعالى غير محتاج إلى عبادتهم بقوله : ﴿ فإن

استكبروا ﴾ الآية.

وقوله: ﴿ فالذين ﴾ يعني بهم الملائكة هم صافون يسبحون. و: ﴿ عند ﴾ في هذه الآية ليست بظرف مكان وإنما هي بمعنى المنزلة والقربة، كما تقول زيد عند الملك جليل وفي نفسه رفيع. ويروى أن تسبيح الملائكة قد صار لهم كالنفس لابن آدم. و: ﴿ يسئمون ﴾ معناه: يميلون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(29/682)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الحسنة وَلَا السيئة ﴾

قال الفراء: "لا" صلة أي "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ والسَّيِّئَةُ" وأنشد:

ما كان يَرْضَى رسولُ اللَّهِ فِعْلَهُمُ . . .

والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ

أراد أبو بكر وعمر؛ أي لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشرك.

قال ابن عباس: الحسنة لا إله إلا الله، والسيئة الشرك.

وقيل : الحسنة الطاعة ، والسيئة الشرك .

وهو الأول بعينه .

وقيل : الحسنة المداراة ، والسيئة الغلظة .

وقيل : الحسنة العفو ، والسيئة الانتصار .

وقال الضحاك : الحسنة العلم ، والسيئة الفحش .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : الحسنة حبّ آل الرسول ، والسيئة بغضهم .

قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ نسخت بآية السيف ، وبقي المستحب من ذلك : حسن العشرة والاحتمال والإغضاء .

قال ابن عباس : أي ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك .

وعنه أيضاً : هو الرجل يسبّ الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك .

وكذلك يروى في الأثر : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال ذلك لرجل نال منه .

وقال مجاهد : "بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" يعني السلام إذا لقي من يعاديه ؛ وقاله عطاء .

وقول ثالث ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في الأحكام وهو المصافحة .

وفي الأثر : "تصافحوا يَذهبِ الغِلُّ" .

ولم ير مالك المصافحة ، وقد اجتمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان : قد صافح رسول

الله صلى الله عليه وسلم جعفراً حين قدم من أرض الحبشة ؛ فقال له مالك : ذلك خاص .

فقال له سفيان : ما خَصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصّنا ، وما عَمّه يعمّنا ،

والمصافحة ثابتة فلا وجه لإنكارها .

وقد روى قتادة قال قلت لأنس : هل كانت المصافحة في أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم ؟ قال : نعم .

وهو حديث صحيح .

وفي الأثر : "من تمام المحبة الأخذ باليد" .

(30/682)

ومن حديث محمد بن إسحاق وهو إمام مقدّم ، عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت :

قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي ، فقرع الباب فقام إليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم عرياناً يجر ثوبه والله ما رأيته عرياناً قبله ولا بعده فاعتنقه

وقبّله .

قلت : قد روي عن مالك جواز المصافحة وعليها جماعة من العلماء .

وقد مضى ذلك في "يوسف" وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما " .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي قريب صديق .

قال مقاتل : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، كان مؤذياً للنبي صلى الله عليه وسلم ، فصار له وليًّا بعد أن كان عدوّاً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فصار وليًّا في الإسلام حميماً بالقرابة .

وقيل : هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام ، كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه ، ذكره الماوردي .

والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

وقيل : كان هذا قبل الأمر بالقتال .

قال ابن عباس : أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوّهم .

وروي أن رجلاً شتم قَنْبَراً مولى عليّ بن أبي طالب فناداه عليّ يا قَنْبَر ! دع شاتمك ، والْه عنه ترضي الرحمن وتسخط الشيطان ، وتعاقب شاتمك ، فما عوقب الأحمق بمثل

السكوت عنه .

وأنشدوا :

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللّئيم تَكَرُّماً . . .

أَضَرُّ له مِنْ شَتْمِهِ حين يُشْتَمُ

وقال آخر :

وما شَيْءٌ أحَبُّ إلى سفِيهٍ . . .

(31/682)

إذا سبّ الكَرِيمَ مِن الْجَوَابِ

مُتَارَكَةُ السّفيهِ بلا جوابٍ . . .

أَشَدُّ على السَّفِيهِ من السِّبابِ

وقال محمود الورّاق :

سَأُلْزِمُ نفسي الصَّفْحَ عن كلّ مذنِبٍ . . .

وإن كَثُرتْ منه لَديّ الْجَرائمُ

فما الناس إلاَ واحِدٌ مِن ثلاثةٍ . . .

شريفٌ ومَشْرُوفٌ ومِثْلٌ مقاومُ

فأما الذي فَوْقي فَأَعْرِفُ قَدْرَه . . .

وَأَتْبَعُ فيه الْحَقَّ والْحَقُّ لازِمُ

وأما الذِي دونِي فإنْ قال صُنْتُ عن . . .

إجابتِهِ عِرضِي وإن لامَ لائِمُ

وأما الذي مِثلِي فإنْ زَلَّ أو هَفا . . .

تَفَضَّلْتُ إنّ الفَضْلَ بالحِلم حاكِمُ

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ يعني هذه الفَعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى .

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي نصيب وافر من الخير ؛ قاله ابن عباس .

وقال قتادة ومجاهد : الحظ العظيم الجنة .

قال الحسن : والله ما عظم حظ قط دون الجنة .

وقيل : الكناية في "يُلَقَّاهَا" عن الجنة ؛ أي ما يلقاها إلا الصابرون ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ ﴾ تقدّم في آخر "الأعراف" مستوفًى .

﴿ فاستعذ بالله ﴾ من كيده وشره ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لاستعاذتك ﴿ العليم ﴾ بأفعالك وأقوالك .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ وقد مضى في غير موضع .

ثم نهى عن السجود لهما ؛ لأنهما وإن كانا خلقين فليس ذلك لفضيلة لهما في أنفسهما فيستحقان بها العبادة مع الله ؛ لأن خالقهما هو الله ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما .

﴿ واسجدوا لِلَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ ﴾ وصورهنّ وسخرهنّ ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار .

وقيل : للشمس والقمر خاصة ؛ لأن الاثنين جمع .

(32/682)

وقيل : الضمير عائد على معنى الآيات ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وإنما أنث على جمع التكثير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل .

﴿ فَإِنِ استكبروا ﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿ فالذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ أي لا يملون عبادته .

قال زهير :

سَئِمتُ تكاليف الحياةِ ومَنْ يَعِشْ . . .

ثمانِين حَوْلاً لا أبا لَكَ يَسْأَمِ

مسألة : هذه الآية آية سجدة بلا خلاف ؛ واختلفوا في موضع السجود منها .

فقال مالك : موضعه ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ؛ لأنه متصل بالأمر .

وكان عليّ وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله : ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ .

وقال ابن وهب والشافعي : موضعه ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال .

وبه قال أبو حنيفة .

وكان ابن عباس يسجد عند قوله : "يَسْأَمُونَ" .

وقال ابن عمر : اسجدوا بالآخرة منهما .

وكذلك يروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثاب وطلحة وزبيد اليامِّيَين والحسن وابن سيرين .

وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله : "يَسْأَمُونَ" .

قال ابن العربي : والأمر قريب .

مسألة : ذكر ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : أن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس ؛ وذلك أن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم ، فصلى النبيّ صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف .

قلت : صلاة الكسوف ثابتة في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما .

واختلفوا في كيفيتها اختلافاً كثيراً ، لاختلاف الآثار ، وحسبك ما في صحيح مسلم من ذلك ، وهو العمدة في الباب ، والله الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(33/682)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ﴾

شروعٌ في بيانِ حُسنِ أحوالِ المؤمنينَ في الدُّنيا والآخرةِ بعد بيانِ سوءِ حالِ الكفرةِ فيهَما ، أيُ قالُوه اعترافاً بربوبيتِه تعالَى وإقراراً بوحدانيتِه ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ أي ثبتُوا على الإقرارِ ومقتضياتِه على أن ثمَّ للتراخِي في الزمانِ أو في الرتبةِ فإنَّ الاستقامةَ لها الشأنُ كلُّه ، وما رُويَ عن الخلفاءِ الراشدينَ رضي الله تعالى عنْهُم فِي معناهَا من الثباتِ على الإيمانِ وإخلاصِ العملِ وأداءِ الفرائضِ بيانٌ لجزئياتِها ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ من جهتِه تعالَى يُمدونُهم فيما يَعِنُّ لهم من الأمورِ الدينيةِ والدنيويةِ بما يشرح صدورَهُم ويدفعُ عنهم الخوفَ والحزنَ بطريقِ الإلهامِ ، كما أن الكفرةَ يُغويهم ما قُيضَ لهم من قرناءِ السوءِ بتزيينِ القبائحِ ،

وقيلَ : تتنزلُ عندَ الموتِ بالبُشرى ، وقيلَ : إذا قامُوا من قبورِهم ، وقيلَ : البُشرى في مواطنَ ثلاثةٍ : عندَ الموتِ وفي القبرِ وعند البعثِ ، والأظهر هو العمومُ والإطلاقُ كما ستعرفُه ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ ﴾ ما تُقْدمونَ عليهِ ، فإن الخوفَ غمٌّ يلحقُ لتوقعِ المكروهِ ﴿ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ على ما خلّفتُم ، فإنه غمٌّ يلحقُ لوقوعِه ، من فواتِ نافعٍ أو حصولِ ضارّ وقيلَ : المرادُ نهيُهم عن الغمومِ على الاطلاقِ والمَعنْى الله أن تعالى كتبَ لكُم الأمنَ من كلِّ غمَ فلنْ تذوقُوه أبداً .

وأنْ إمَّا مفسرةٌ أو مخففةٌ من الثقيلةِ والأصلُ بأَنَّه لا تخافُوا ، والهاءُ ضميرُ الشأنِ . وقُرِىءَ لا تخافُوا ، أيْ يقولونَ لا تخافُوا على أنه حالٌ منَ الملائكةِ أو استئنافٌ ﴿ وَأَبْشِرُواْ ﴾ أي سُرُّوا ﴿ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدُّنيا على ألسنةِ الرُّسلِ ، هَذا منْ بشاراتِهم في أحدِ المواطنِ الثلاثةِ .

(34/682)

وقولُه تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ الخ من بشاراتِهم في الدُّنيا ، أي أعوانُكم في أمورِكم نُلهمكُم الحقَّ ، ونُرشدكَم إلى ما فيهِ خيرُكُم وصلاحُكُم ، ولعلَّ ذلكَ عبارةٌ عما يخطرُ ببالِ المؤمنينَ المستمرينَ على الطاعات من أن ذلك بتوفيق الله تعالَى وتأييدِه لهم

بواسطة الملائكةِ عليهم السلام . ﴿ وَفِى الأخرة ﴾ نمدكُم بالشفاعة ونتلقاكُم بالكرامةِ حينَ يقعُ بينَ الكفرةِ وقرنائِهم ما يقعُ من التعادِي والخصامِ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الآخرة ﴿ مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ من فنون الطيباتِ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ما تتمنَّون . افتعالٌ منَ الدُّعاء ، بمعنى الطلبِ أي تدَّعون لأنفسِكم وهو أعمُّ من الأول ، ولكُم في الموضعينِ خبرٌ ومَا مبتدأٌ . وفيها حالٌ من ضميره في الخبرِ ، وعدمُ الاكتفاءِ بعطفِ ما تدَّعُون عَلى ما تشتهِي للإشباعِ في البشارة والإيذانِ باستقلالِ كلٍّ منهما ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ حالٌ مما تدَّعون مفيدةٌ لكون ما يتمنَّونَهُ بالنسبة إلى ما يُعطَون من عظائم الأجورِ كالنزل للضيفِ . ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ أي إلى توحيده تعالى وطاعته . عن ابن عباس رضي الله عنهما : هُو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دعَا إلى الإسلام ، وعنْهُ أنهم أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم . وقيلَ : نزلتْ في المؤذّنين ، والحقُّ أنَّ حُكمَها عامٌّ لكلِّ من جمعَ ما فيها من الخصال الحميدةِ ، وإنْ نزلتْ فيمَنْ ذُكِرَ ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ فيما بينَهُ وبينَ رّبه ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ المسلمين ﴾ ابتهاجاً بأنه منهُم أو اتخاذاً للإسلامِ دينا ونحلةً من قولِهم هذا قولُ فلانٍ أي مذهبُه لا أنَّه تكلَّم بذلكَ . وقُرِىءَ إنّي بنونٍ واحدةٍ .

(35/682)

﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الحسنة وَلاَ السيئة ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقت لبيان محاسنِ الأعمالِ الجاريةِ بين العبادِ إثرَ بيانِ محاسنِ الأعمالِ الجاريةِ بين العبدِ وبين الربِّ عزَّ وجل ترغيباً لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم في الصبرِ على أذية المشركين ، ومقابلةِ إساءتِهم بالإحسان ، أي لا تستوي الخَصلةُ الحسنة والسيئةُ في الآثار والأحكام . ولا الثانيةُ مزيدةٌ لتأكيدِ النَّفي ، وقولُه تعالَى ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ الخ استئنافٌ مبيّن لحسن عاقبةِ الحسنةِ ، أي ادفعْ السيئةَ حيثُ اعترضتْكَ من بعضِ أعاديكَ بالتي هيَ أحسنُ ما يمكنُ دفعُها به من الحسناتِ كالإحسان إلى مَنْ أساءَ فإنه أحسنُ منَ العفوِ ، وإخراجُه مُخرجَ الجوابِ عنْ سؤالِ منْ قال كيفَ أصنعُ للمبالغةِ ولذلكَ وضعَ أحسنُ موضعَ الحسنةِ . وقولُه تعالى : ﴿ فَإِذَا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ بيانٌ لنتيجة الدفعِ المأمورِ بهِ ، أيْ فإذا فعلتَ ذلكَ صارَ عدوُّكَ المُشاقُّ مثلَ الوليِّ الشفيقِ ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ أيُ ما يُلقَّ هذهِ الخَصلةَ والسجيةَ التي هي مقابلةُ الإساءةِ بالإحسانِ ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ أي شأنُهم الصبرُ ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الخيرِ وكمالِ النفسِ ، وقيلَ : الحظُّ العظيم : الجنةُ ، وقيلَ : هو الثوابُ . قيلَ : نزلتْ في أبي سفيانَ بنِ حربٍ وكانَ مؤذياً لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم فصارَ ولياً مصافياً ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ ﴾ النزغُ والنسغُ بمعْنى وهو شبه النخْسِ ، شُبِّه بهِ وسوسةُ الشيطانِ لأنَّها بعثٌ على الشرِّ ، وجُعلَ نازعاً على طريقةِ جدِّ جدِّه ، أو أريدَ : وإمَّا ينزغنَّكَ نازغٌ وصفاً للشيطانِ بالمصدرِ أيْ

وإن صرفكَ الشيطانُ عمَّا وُصِّيتَ به من الدفعِ بالتي هي أحسنُ ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من شرِّه ولا تُطِعْهُ ﴿ إِنَّهُ هُوَ

(36/682)

السميع ﴿ باستعاذتِك ﴿ العليم ﴾ بنيتكَ أو بصلاحِكَ . وفي جَعْلِ تركِ الدفعِ بالأحسنِ منْ آثار نزغاتِ الشيطانِ مزيدُ تحذيرٍ وتنفيرٍ عنه . ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ الدالةِ على شؤونه العظيمةِ ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ الليل ﴾ كلٌّ منها مخلوقٌ منْ مخلوقاتِه مسخرٌ لأمره ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ للشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما من جملةِ مخلوقاتِه المسخرةِ لأوامرِه مثلَكُم ﴿ واسجدوا لِلَّهِ الذى خَلَقَهُنَّ ﴾ الضميرُ للأربعةِ لأنَّ حُكمَ جماعة ما لا يعقلُ حكمُ الأنثى أو الإناثِ ، أو لأنها عبارةٌ عن الآياتِ . وتعليقُ الفعلِ بالكل مع كفايةِ بيانِ مخلوقيةِ الشمسِ والقمرِ للإيذان بكمال سقوطِهما عن رتبة المسجوديةِ بنظمهما في المخلوقية في سلك الأعراضِ التي لا قيامَ لها بذاتها ، وهو السرُّ في نظم الكلِّ في سلك آياتِه تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجودَ أقصى مراتبِ العبادةِ فلا بُدَّ من تخصيصه به سبحانَهُ . وهو موضعُ السجودِ عند الشافعيِّ رحمَهُ الله وعندَنا آخرُ الآيةِ الأُخْرى لأنَّه تمامُ المعْنى ﴿ فَإِنِ استكبروا ﴾ عن الامتثالِ ﴿ فالذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ

بالليل والنهار ﴾ أي دائماً ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ لا يفترُون ولا يَملّون . وقُرِىءَ لا يِسْأَمُون بكسرِ الياءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(37/682)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الحسنة وَلاَ السيئة ﴾

جملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد والرب عز وجل ترغيباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الصبر على أذية المشركين ومقابلة إساءتهم بالإحسان ، والحكم عام أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة في الآثار والأحكام ، و﴿ لا ﴾ الثانية مزيدة لتأكيد النفي مثلها في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ الظل وَلاَ الحرور ﴾ [فاطر : 21] لأن استوى لا يكتفي بمفرد وقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة أي ادفع السيئة حيث اعترضتك من بعض أعاديك بالتي هي أحسن منها وهي الحسنة على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالإحسان إلى من أساء فإنه أحسن من مجرد العفو فأحسن على ظاهره والمفضل عليه عام ولذا حذف كما في الله

تعالى أكبر ، وإخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال : كيف أصنع ؟ للمبالغة والإشارة إلى أنه مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه ، وللمبالغة أيضاً وضع ﴿ أَحْسَنُ ﴾ موضع الحسنة لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه ، ومما ذكرنا يعلم أن ليس المراد بالحسنة والسيئة أمرين معينين .

(38/682)

وعن علي كرم الله تعالى وجهه الحسنة حب الرسول وآله عليهم الصلاة والسلام والسيئة بغضهم ، وعن ابن عباس الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك ، وقال الكلبي : الدعوتان إليهما ، وقال الضحاك : الحلم والفحش ، وقيل : الصبر ، وقيل : المدارة والغلظة ، وقيل غير ذلك ، ولا يخفى أن بعض المروي يكاد لا تصح إرادته هنا فلعله لم يثبت عمن روى عنه ، وجوز أن يكون المراد بيان تفاوت الحسنات والسيئات في أنفسهما بمعنى أن الحسنات تتفاوت إلى حسن وأحسن والسيئات كذلك فتعريف الحسنة والسيئة للجنس و ﴿ لا ﴾ الثانية ليست مزيدة وأفعل على ظاهره ، والكلام في ﴿ ادفع ﴾ الخ على معنى الفاء أي إذا كان كل من الجنسين متفاوت الافراد في نفسه فادفع بأحسن الحسنتين السيء والأسوأ ، وترك الفاء للاستئناف الذي ذكرنا وهو أقوى الوصلين ولعل الأول أقرب ﴿ فَإِذَا الذى

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ بيان لنتيجة الدفع المأمور به أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولي الشفيق .

قال ابن عطية : دخلت ﴿ كَأَنَّ ﴾ المفيدة للتشبيه لأن العدو لا يعدو ولياً حميماً بالدفع بالتي هي أحسن وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم ؛ ولعل ذلك من باب الاكتفاء بأقل اللازم وهذا بالنظر إلى الغالب وإلا فقد تزول العداوة بالكلية بذلك كما قيل

.

إن العداوة تستحيل مودة . . .

بتدارك الهفوات بالحسنات

و ﴿ الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ ﴾ أبلغ من عدوك ولذا اختير عليه مع اختصاره ، والآية قيل : نزلت في أبي سفيان ابن حرب كان عدواً مبيناً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار عند أهل السنة ولياً مصافياً وكأن ما عنده انتقل إلى ولد ولده يزيد عليه من الله عز وجل ما يستحق .

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

(39/682)

﴿ وَمَا يلقاها ﴾ أي ما يلقى ويؤتي هذه الفعلة والخصلة الشريفة التي هي الدفع بالتي هي أحسن فالضمير راجع لما يفهم من السياق ، وجوز رجوعه للتي هي أحسن ، وحكى مكي أن الضمير لشهادة أن لا إله إلا الله فكأنه أرجع للتي هي أحسن وفسرت بالشهادة المذكورة ومع هذا هو كما ترى ، وقيل : الضمير للجنة وليس بشيء .

وقرأ طلحة .

وابن كثير في رواية ﴿ وَمَا يلقاها ﴾ من الملاقاة ﴿ إِلَّا الذين صَبَرُواْ ﴾ أي الذين فيهم طبيعة الصبر وشأنهم ذلك ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ذو نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس كما روى عن ابن عباس ، وقال قتادة : ذو حظ عظيم من الثواب ، وقيل : الحظ العظيم الجنة ، وعليهما فهو وعد وعلى الأول هو مدح ، وكرر ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ تأكيداً لمدح تلك الفعلة الجملة الجليلة ولأوحد أهل عصره الذي بخل الزمان أن يأتي بمثله صالح أفندي كاتب ديوان الإنشاء في الحدباء في هذه الآية عبارة مختصرة التزم الدقة فيها رحمة الله تعالى عليه وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الذين صَبَرُواْ ﴾ الآية يمكن أن يؤخذ من الأول ما هو من أول الأول لا الثاني للاتفاق فيتحقق الاشرف بعد إعطاء المقام حقه فيتحقق الحابس أنه مجدود فيقف عند الحد المحدود انتهت .

(40/682)

وأراد والله تعالى أعلم أنه يمكن أن يؤخذ من الأول أي قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ ومن الثاني وهو قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظّ عَظِيمٍ ﴾ ما أي شكل هو من أول ضروب الشكل الأول الأربعة وهو قياس منه مركب من موجبتين كليتين ينتج موجبة كلية بأن يقال : كل صابر هو الذي يلقاها وكل من يلقاها فهو ذو حظ عظيم ينتج كل صابر هو ذو حظ عظيم ، ولا يمكن أن يؤخذ قياس من الشكل الثاني للاتفاق في الكيف وشرط الشكل الثاني اختلاف المقدمتين فهي كما هو مقرر في محله فيتحقق بعد الأخذ وتركيب المقدمتين الأمر الأشرف أي النتيجة التي هي موجبة كلية وهي أشرف المحصورات الأربع لاشتمالها على الإيجاب الأشرف من السلب والكلية الأشرف من الجزئية بعد إعطاء المقام حقه من جعل الموصول للاستغراق كما أشير إليه ليفيد الكلية فعند ذلك يتحقق ويعلم الحابس أي الصابر أنه مجدود أي ذو جد وحظ فيقف عند الحد المحدود ولا يتجاوز من الصبر إلى غيره .

(41/682)

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ ﴾ النزغ النخس وهو المس بطرف قضيب أو أصبع بعنف مؤلم استعير هنا للوسوسة الباعثة على الشر وجعل نازغاً للمبالغة على طريقة جد جد فمن على هذا ابتدائية ، ويجوز أن يراد به نازغ على أن المصدر بمعنى اسم الفاعل وصفا للشيطان فمن بيانية والجار والمجرور في موضع الحال أو هي ابتدائية أيضاً لكن على سبيل التجريد ، وجوز أن يكون المراد بالنازغ وسوسة الشيطان و﴿ إن ﴾ شرطية و﴿ مَا ﴾ مزيدة أي وإن ينزغنك ويصرفنك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من شره ولا تعطه ﴿ أَنَّهُ ﴾ عز وجل ﴿ هُوَ السميع ﴾ فيسمع سبحانه استعاذتك ﴿ العليم ﴾ فيعلم جل شأنه نيتك وصلاحك ، وقيل : السمع لقول من أذاك العليم بفعله فينتقم منه مغنياً عن انتقامك ، وقيل : العليم بنزغ الشيطان ، وفي جعل ترك الدفع من آثار نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه ، ولعل الخطاب من باب إياك أعني واسمعي يا جاره .

وجوز أن يراد بالشيطان ما يعم شيطان الإنس فإن منهم من يصرف عن الدفع بالتي هي أحسن ويقول : إنه عدوك لذي فعل بك كيت وكيت فانتهز الفرصة فيه وخذ ثأرك منه لتعظم في عينه وأعين الناس ولا يظن فيك العجز وقلة الهمة وعدم المبالاة إلى غير ذلك من الكلمات التي ربما لا تخطر أبداً ببال شيطان الجن نعوذ بالله تعالى السميع العليم من كل شيطان ، وفسر عبد الرحمن بن زيد النزغ بالغضب واستدل بالآية على استحباب

الاستعاذة عنده .

وقد روى الحاكم عن سليمان بن صدر قال : استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد غضب أحدهما فقال النبي عليه الصلاة والسلام : " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال الرجل : أمجنوناً تراني ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله " .

ولعل الغضب من آثار الوسوسة .

(42/682)

﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ الدالة على شؤنه الجليلة جل شأنه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ﴾ في حدوثهما وتعاقبهما وإيلاج كل منهما في الآخر ﴿ والشمس والقمر ﴾ في استنارتهما واختلافهما في قوة النور والعظم والآثار والحركات مثلاً ، وقدم ذكر الليل قيل : تنبيهاً على تقدمه مع كون الظلمة عدماً ، وناسب ذكر الشمس بعد النهار لأنها آيته وسبب تنويره ولأنها أصل لنور القمر بناء على ما قالوا من أنه مستفاد من ضياء الشمس ، وأما ضياؤها فالمشهور أنه غير طارىء عليها من جرم آخر ، وقيل : هو من العرش ، والفلاسفة اليوم يظنون أنه من جرم

آخر وادعوا أنهم يرون في طرف من جرم الشمس ظلمة قليلة ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ لأنها من جملة مخلوقاته سبحانه وتعالى المسخرة على وفق إرادته تعالى مثلكم ﴿ واسجدوا لِلَّهِ الذى خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير قيل للأربعة المذكورة والمقصود تعليق الفعل بالشمس والقمر لكن نظم معهما الليل والنهار إشعاراً بأنهما منم عداد ما لا يعلم ولا يختار ضرورة أن الليل والنهار كذلك ولو ثنى الضمير لم يكن فيه أشعار بذلك .

وحكم جماعة ما لا يعقل على ما قال الزمخشري حكم الأنثى فيقال : الأقلام بريتها وبريتهن فلا يتوهم أن الضمير لما كان لليل والنهار والشمس والقمر كان المناسب تغليب الذكور ، والجواب بأنه لما كن من الآيات عدت كالأناث تكلف عنه غني بالقاعدة المذكورة .

(43/682)

نعم قال أبوحيان : ينبغي أن يفرق بين جمع القلة من ذلك وجمع الكثرة فإن الأفصح في الأول أن يكون بضمير الواحدة تقول الأجذاع انكسرت على الأفصح والأفصح في الثاني أن يكون بضمير الأناث تقول الجذوع انكسرن وما في الآية ليس بجمع قلة بلفظ واحد لكنه منزل منزلة المعبر عنه به ، وقيل : الضمير للشمس والقمر والأثنان جمع وجمع ما لا يعقل يؤنث ، ومن حيث يقال شموس وأقمار لاختلافهما بالأيام والليالي ساغ أن يعود الضمير إليهما جمعاً ،

وقيل : الضمير للآيات المتقدم ذكرها في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادة فلا بد من تخصيصه به عز وجل ، وكان علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن مسعود يسجدان عند ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ ونسب القول بأنه موضع السجدة للشافعي ، وسجد عند ﴿ لاَيَسْئَمُونَ ﴾ ابن عباس .

وابن عمر .

وأبو وائل .

وبكر بن عبد الله ، وكذلك روى عن ابن وهب .

ومسروق .

والسلمي .

والنخعي .

وأبي صالح .

وابن وثاب .

والحسن .

وابن سيرين .

وأبي حنيفة رضي الله تعالى عنهم ، ونقله في التحرير عن الشافعي رضي الله تعالى عنه .

وفي "الكشف" أصح الوجهين عند أصحابنا يعني الشافعية أن موضع السجدة ﴿ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة ، ووجهه أنها تمام المعنى على أسلوب اسجد فإن الاستكبار عنه مذموم ، وعلله بعضهم بالاحتياط لأنها إن كانت عند ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ جاز التأخير لقصر الفصل ، وإن كانت عند ﴿ يَسْئَمُونَ ﴾ لم يجز تعجيلها .

(44/682)

﴿ فَإِنِ استكبروا ﴾ تعاظموا عن اجتناب ما نهوا عنه من السجود لتلك المخلوقات وامتثال ما أمروا به من السجود لخالقهن فلا يعبأ بهم أو فلا يخل ذلك بعظمة ربك ﴿ فالذين عِندَ رَبّكَ ﴾ أي في حضرة قدسه عز وجل من الملائكة عليهم السلام الذين هم خير منهم ﴿ يُسَبّحُونَ لَهُ بالليل والنهار ﴾ أي دائماً وإن لم يكن عندهم ليل ونهار ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ لا يملكون ذلك ، وجواب الشرط في الحقيقة ما أشرنا إليه أو نحوه وما ذكر قائم مقامه ، ويجوز أن يكون الكلام على معنى الاخبار كما قيل في نحو إن أكرمتني اليوم فقد أكرمتك أمس إنه على معنى فأخبرك إني قد أكرمتك أمس .

وقرىء ﴿ لاَيَسْئَمُونَ ﴾ بكسر الياء ، والظاهر أن الآية في أناس من الكفرة كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون

بالسجود لهما السجود لله تعالى فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً .

واستدل الشيخ أبو إسحاق في المهذب بالآية على صلاتي الكسوف والخسوف قال : لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرهما وأخذ من ذلك تفضيلهما على صلاة الاستسقاء لكونهما في القرآن بخلافها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(45/682)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء ﴾

أي : هيأنا قرناء من الشياطين .

وقال الزجاج : سببنا لهم قرناء حتى أضلوهم .

وقيل : سلطنا عليهم قرناء .

وقيل : قدّرنا ، والمعاني متقاربة ، وأصل التقييض التيسير ، والتهيئة ، والقرناء جمع قرين ، وهم : الشياطين ، جعلهم بمنزلة الأخلاء لهم .

وقيل : إن الله قيض لهم قرناء في النار ، والأولى أن ذلك في الدنيا لقوله : ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فإن المعنى : زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها ، وحملوهم على الوقوع في معاصي الله بانهماكهم فيها ، وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة ، فقالوا : لا بعث ، ولا حساب ، ولا جنة ، ولا نار .

وقال الزجاج : ما بين أيديهم ما عملوه ، وما خلفهم ما عزموا على أن يعملوه .

وروي عن الزجاج أيضاً ، أنه قال : ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ، ولا جنة ، ولا نار ، وما خلفهم من أمر الدنيا ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي : وجب ، وثبت عليهم العذاب ، وهو قوله سبحانه : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 85] و ﴿ فِى أُمَمٍ ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم ، والمعنى : كائنين في جملة أمم .

وقيل : في بمعنى مع ، أي : مع أمم من الأمم الكافرة التي ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ ومضت ﴿ مِن قَبْلِهِمْ مّنَ الجن والإنس ﴾ على الكفر ، وجملة : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان ﴾ أي : قال بعضهم لبعض : لا تسمعوه ، ولا تنصتوا له .

وقيل : معنى لا تسمعوا : لا تطيعوا ، يقال : سمعت لك ، أي : أطعتك ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ أي : عارضوه باللغو والباطل ، أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارىء له .

وقال مجاهد : الغوا فيه بالمكاء ، والتصدية ، والتصفيق ، والتخليط في الكلام حتى يصير لغواً .

وقال الضحاك : أكثروا الكلام ؛ ليختلط عليه ما يقول .

وقال أبو العالية : قعوا فيه ، وعيبوه .

قرأ الجمهور : ﴿ والغوا ﴾ بفتح الغين ، من لغا إذا تكلم باللغو ، وهو : ما لا فائدة فيه ، أو من لغى بالفتح يلغى بالفتح أيضاً كما حكاه الأخفش ، وقرأ عيسى بن عمر ، والجحدري ، وابن أبي إسحاق ، وأبو حيوة ، وبكر بن حبيب السهمي ، وقتادة ، والسماك ، والزعفراني بضم الغين .

وقد تقدّم الكلام في اللغو في سورة البقرة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ أي : لكي تغلبوهم ، فيسكتوا .

ثم توعدهم سبحانه على ذلك ، فقال : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ ، وهذا وعيد لجميع الكفار ، ويدخل فيهم الذين السياق معهم دخولاً أوّلياً ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : ولنجزينهم في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في

الدنيا .

قال مقاتل : وهو : الشرك .

وقيل : المعنى : أنه يجازيهم بمساوىء أعمالهم لا بمحاسنها كما يقع منهم من صلة الأرحام ، وإكرام الضيف ، لأن ذلك باطل لا أجر له مع كفرهم ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ، وهو : مبتدأ وخبره جزاء أعداء الله ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي : الأمر ذلك ، وجملة ﴿ جَزَاء أَعْدَاء الله النار ﴾ مبينة للجملة التي قبلها ، والأوّل أولى ، وتكون النار عطف بيان للجزاء ، أو بدلاً منه ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ والخبر : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ﴾ .

وعلى الثلاثة الوجوه الأولى تكون جملة لهم فيها دار الخلد مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، ومعنى دار الخلد : دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها ﴿ جَزَاء أَعْدَاء الله النار لَهُمْ ﴾ أي : يجزون جزاء بسبب جحدهم بآيات الله .

(47/682)

قال مقاتل : يعني : القرآن يجحدون أنه من عند الله ، وعلى هذا يكون التعبير عن اللغو بالجحود لكونه سبباً له ، إقامة للسبب مقام المسبب .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَا أَرِنَا اللذين أضلانا مِنَ الجن والإنس ﴾ قالوا : هذا وهم في النار ، وذكره بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه ، والمراد : أنهم طلبوا من الله سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريق الجن ، والإنس من الشياطين الذين كانوا يسوّلون لهم ، ويحملونهم على المعاصي ، ومن الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر .

وقيل : المراد إبليس ، وقابيل لأنهما سنا المعصية لبني آدم .

قرأ الجمهور : ﴿ أرنا ﴾ بكسر الراء .

وقرأ ابن محيصن ، والسوسي عن أبي عمرو ، وابن عامر بسكون الراء ، وبها قرأ أبو بكر ، والمفضل ، وهما لغتان بمعنى واحد .

وقال الخليل : إذا قلت أرني ثوبك بالكسر ، فمعناه : بصرنيه ، وبالسكون : أعطنيه ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي : ندسهما بأقدامنا ، لنشتفي منهم .

وقيل : نجعلهم أسفل منا في النار ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ فيها مكاناً ، أو ليكونا من الأذلين المهانين .

وقيل : ليكونوا أشد عذاباً منا .

ثم لما ذكر عقاب الكافرين ، وما أعدّه لهم ذكر حال المؤمنين ، وما أنعم عليهم به ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ﴾ أي : وحده لا شريك له ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ على التوحيد ، ولم يلتفتوا إلى إلاه غير الله .

قال جماعة من الصحابة ، والتابعين : معنى الاستقامة : إخلاص العمل لله .

وقال قتادة ، وابن زيد : ثم استقاموا على طاعة الله .

وقال الحسن : استقاموا على أمر الله ، فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته .

وقال مجاهد ، وعكرمة : استقاموا على شهادة أن لا إله إلاّ الله حتى ماتوا .

وقال الثوري : عملوا على وفاق ما قالوا .

وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله .

(48/682)

وقال الفضيل بن عياض : زهدوا في الفانية ، ورغبوا في الباقية ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملئكة ﴾ من عند الله سبحانه بالبشرى التي يريدونها من جلب نفع ، أو دفع ضرر ، أو رفع حزن .

قال ابن زيد ، ومجاهد : تتنزل عليهم عند الموت .

وقال مقاتل ، وقتادة : إذا قاموا من قبورهم للبعث .

وقال وكيع : البشرى في ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفي القبر ، وعند البعث ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ أن هي : المخففة ، أو المفسرة ، أو الناصبة ، و "لا" على الوجهين الأوّلين ناهية ، وعلى الثالث نافية ، والمعنى : لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ، ولا

تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل ، وولد ، ومال .

قال مجاهد : لا تخافوا الموت ، ولا تحزنوا على أولادكم ، فإن الله خليفتكم عليهم .

وقال عطاء : لا تخافوا ردّ ثوابكم ، فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم ، فإني أغفرها لكم .

والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين ، وعدم تقييد نفي الخوف ، والحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق في الجميع ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ بها في الدنيا ، فإنكم واصلون إليها مستقرّون بها خالدون في نعيمها .

ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله ، فقال : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا وَفِى الأخرة ﴾ أي : نحن المتولون لحفظكم ، ومعونتكم في أمور الدنيا ، وأمور الآخرة ، ومن كان الله وليه فاز بكلّ مطلب ، ونجا من كلّ مخافة .

وقيل : إن هذا من قول الملائكة .

قال مجاهد : يقولون لهم : نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة .

وقال السدّي : نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا ، وأولياؤكم في الآخرة .

وقيل : إنهم يشفعون لهم في الآخرة ، ويتلقونهم بالكرامة ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ من صنوف اللذات ، وأنواع النعم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي : ما تتمنون ، افتعال من الدعاء بمعنى : الطلب ، وقد تقدّم بيان معنى هذا في قوله : ﴿ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس : 57] مستوفى ، والفرق بين الجملتين : أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم ، والثانية باعتبار ما يطلبونه أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أولاً .

وقال الرازي : الأقرب عندي أن قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة في قوله : ﴿ دعواهم فِيهَا سبحانك اللهم ﴾ [يونس : 10] الآية ، وانتصاب ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ على الحال من الموصول ، أو من عائده ، أو من فاعل تدّعون ، أو هو مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أي : أنزلناه نزلاً ، والنزل : ما يعدّ لهم حال نزولهم من الرزق ، والضيافة ، وقد تقدم تحقيقه في سورة آل عمران .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ أي : إلى توحيد الله ، وطاعته .

قال الحسن : هو المؤمن أجاب الله دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من طاعته ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ في إجابته ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ المسلمين ﴾ لربي .

وقال ابن سيرين ، والسدّي ، وابن زيد : هو : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروي هذا أيضاً عن الحسن .

وقال عكرمة ، وقيس بن أبي حازم ، ومجاهد : نزلت في المؤذنين .

ويجاب عن هذا بأن الآية مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة .

(50/682)

والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ ، ويدخل فيها من كان سبباً لنزولها دخولاً أولياً ، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله ، وعمل عملاً صالحاً ، وهو : تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه ، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم ، فلا شيء أحسن منه ، ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثواباً من عمله .

ثم بيّن سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال ، ومساويها ، فقال : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الحسنة وَلَا السيئة ﴾ أي : لا تستوي الحسنة التي يرضى الله بها ، ويثيب عليها ، ولا السيئة التي يكرهها الله ، ويعاقب عليها ، ولا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات ، وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصي ، فإن اللفظ أوسع من ذلك .

وقيل : الحسنة التوحيد ، والسيئة الشرك .

وقيل : الحسنة المداراة ، والسيئة الغلظة .

وقيل : الحسنة العفو ، والسيئة الانتصار .

وقيل : الحسنة العلم ، والسيئة الفحش .

قال الفراء : "لا" في قوله ، ﴿ ولا السيئة ﴾ زائدة ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي : ادفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر ، والإغضاء عن الهفوات ، والاحتمال للمكروهات .

وقال مجاهد ، وعطاء : بالتي هي أحسن يعني : بالسلام إذا لقي من يعاديه .

وقيل : بالمصافحة عند التلاقي ﴿ فَإِذَا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن ، والمعنى : أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدوّ كالصديق ، والبعيد عنك كالقريب منك .

وقال مقاتل : نزلت في أبي سفيان بن حرب كان معادياً للنبي صلى الله عليه وسلم ، فصار له ولياً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبينه ، ثم أسلم ، فصار ولياً في الإسلام حميماً بالصهارة .

وقيل غير ذلك ، والأولى حمل الآية على العموم .

(51/682)

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ قال الزجاج : ما يلقى هذه الفعلة ، وهذه الحالة ، وهي : دفع السيئة بالحسنة إلاّ الذين صبروا على كظم الغيظ ، واحتمال المكروه ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظّ عَظِيمٍ ﴾ في الثواب والخير .

وقال قتادة : الحظ العظيم : الجنة ، أي : ما يلقاها إلاّ من وجبت له الجنة .

وقيل : الضمير في يلقاها عائد إلى الجنة .

وقيل : راجع إلى كلمة التوحيد .

قرأ الجمهور : ﴿ يلقاها ﴾ من التلقية ، وقرأ طلحة بن مصرف ، وابن كثير في رواية عنه : (يلاقاها) من الملاقاة ، ثم أمره سبحانه بالاستعاذة من الشيطان ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله ﴾ النزغ شبيه النخس شبه به الوسوسة ، لأنها تبعث على الشرّ ؛ والمعنى : وإن صرفك الشيطان عن شيء مما شرعه الله لك ، أو عن الدفع بالتي هي أحسن ، فاستعذ بالله من شرّه ، وجعل النزغ نازغاً على المجاز العقلي كقولهم : جدّ جدّه ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ تعليل لما قبلها ، أي : السميع لكلّ ما يسمع ، والعليم بكلّ ما يعلم ، ومن كان كذلك ، فهو يعيذ من استعاذ به .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته ، فكان المشركون يطردون الناس عنه ، ويقولون : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ وكان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحبّ

أن يسمع القرآن ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء : 110] .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب : أنه سئل عن قوله : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللذين أضلانا مِنَ الجن والإنس ﴾ قال : هو : ابن آدم الذي قتل أخاه ، وإبليس .

(52/682)

وأخرج الترمذي ، والنسائي ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن عديّ ، وابن مردويه عن أنس قال : "قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ قال : قد قالها ناس من الناس ، ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حين يموت ، فهو ممن استقام عليها" .

وأخرج ابن المبارك ، وعبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، ومسدد ، وابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن عمران ، عن أبي بكر الصديق في قوله : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ قال : الاستقامة

أن لا يشركوا بالله شيئاً .

وأخرج ابن راهويه ، وعبد بن حميد ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية من طريق الأسود بن هلال عن أبي بكر الصديق أنه قال : ما تقولون في هاتين الآيتين : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ ، و ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : 82] ؟ قالوا : الذين قالوا : ربنا الله ، ثم عملوا بها ، واستقاموا على أمره ، فلم يذنبوا ، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم لم يذنبوا ، قال : لقد حملتموهما على أمر شديد ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ يقول : بشرك ، والذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا ، فلم يرجعوا إلى عبادة الأوثان .

وأخرج ابن مردويه عن بعض الصحابة : ثم استقاموا على فرائض الله .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ قال : على شهادة أن لا إله إلاّ الله .

(53/682)

وأخرج ابن المبارك ، وسعيد بن منصور ، وأحمد في الزهد ، وعبد بن حميد ، والحكيم الترمذي ، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾

قال : استقاموا بطاعة الله ، ولم يروغوا روغان الثعلب .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والدارمي ، والبخاري في تاريخه ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، عن سفيان الثقفي ، أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت بالله ، ثم استقم ، قلت : فما أتقي ؟ فأوى إلى لسانه .

قال الترمذي : حسن صحيح .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عائشة في قوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ قالت : المؤذن ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ قالت : ركعتان فيما بين الأذان ، والإقامة .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر ، وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت : ما أرى هذه الآية نزلت إلاّ في المؤذنين .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الحسنة وَلاَ السيئة ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ قال : أمر المسلمين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوّهم ﴿ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عنه ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ قال : القه بالسلام ، فإذا الذي بينك

، وبينه عداوة كأنه وليّ حميم .

وأخرج ابن المنذر عن أنس في قوله : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ قال : الرجل يشتمه أخوه ، فيقول : إن كنت صادقاً ، فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً ، فغفر الله لك .

(54/682)

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن سليمان بن صرد قال : استبّ رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فاشتدّ غضب أحدهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " فقال الرجل : أمجنون تراني ؟ ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(55/682)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾

عَطْفُ هذه الجملة له موقع عجيب ، فإنه يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ وَمَن أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إلى الله ﴾ [فصلت : 33] الخ تكملة لها فإن المعطوف عليها تضمنت الثناء على المؤمنين إثر وعيد المشركين وذمّهم ، وهذه الجملة فيها بيان التفاوت بين مرتبة المؤمنين وحال المشركين ، فإن الحسنة اسم منقول من الصفة فتلمُّحُ الصفة مقارن له ، فالحسنة حالة المؤمنين والسيئة حالة المشركين ، فيكون المعنى كمعنى آيات كثيرة من هذا القبيل مثل قوله تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ﴾ [غافر : 58] ، فعطف هذه الجملة على التي قبلها على هذا الاعتبار يكون من عطف الجمل التي يجمعها غرض واحد وليس من عطف غرض على غرض .

ويجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرءان والغوا فيه لعلكم تَغلبون ﴾ [فصلت : 26] الواقعة بعد جملة ﴿ وقالوا قلوبنا في أَكِنَّة مِمَّا تدعُونَا إليه ﴾ [فصلت : 5] إلى قوله : ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ [فصلت : 5] فإن ذلك مثير في نفس النبي صلى الله عليه وسلم الضجر من إصرار الكافرين على كفرهم وعدم التأثر بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحق فهو بحال من تضيق طاقة صبره على سفاهة أولئك الكافرين ، فأردف الله ما تقدم بما يدفع هذا الضيق عن نفسه بقوله : ﴿ ولا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ ولا السيئة ﴾ الآية .

فالحسنة تعم جميع أفراد جنسها وأُولاها تبادراً إلى الأذهان حسنةُ الدعوة إلى الإسلام لما

فيها من جمّ المنافع في الآخرة والدنيا ، وتشمل صفة الصفح عن الجفاء الذي يلقَى به المشركون دعوةَ الإسلام لأن الصفح من الإحسان ، وفيه ترك ما يثير حميتهم لدينهم ويقرب لين نفوس ذوي النفوس اللينة .

(56/682)

فالعطف على هذا من عطف غرض على غرض ، وهو الذي يعبر عنه بعطف القصة على القصة ، وهي تمهيد وتوطئة لقوله عقبها ﴿ ادْفَع بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الآية .

وقد علمتَ غير مرة أن نفي الاستواء ونحوه بين شيئين يراد به غالباً تفضيل أحدهما على مُقابله بحسب دلالة السياق كقوله تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [السجدة : 18] .

وقولِ الأعشى :

ما يُجْعَلُ الجُدُّ الضَّنُونُ الذي . . .

جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ الماطر

مِثْلَ الفُراتيِّ إذَا مَا طَمَا . . .

يَقْذِفُ بالبُوصِيِّ والماهرِ

فكان مقتضى الظاهر أن يقال : ولا تستوي الحسنة والسيئة ، دون إعادة ﴿ لا ﴾ النافية بعد الواو الثانية كما قال تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ [غافر : 58] ، فإعادة ﴿ لا ﴾ النافية تأكيد لأختها السابقة .

وأحسن من اعتبار التأكيد أن يكون في الكلام إيجاز حذف مؤذن باحتباك في الكلام ، تقديره : وما تسْتوي الحسنة والسيئةُ ولا السيئة والحسنة .

فالمراد بالأول نفي أن تلتحق فضائل الحسنة مساوىء السيئة ، والمراد بالثاني نفي أن تلتحق السيئة بشرف الحسنة .

وذلك هو الاستواء في الخصائص ، وفي ذلك تأكيد وتقوية لنفي المساواة ليدل على أنه نفي تام بين الجنسين : جنسسِ الحسنة وجنس السيئة لا مبالغة فيه ولا مجازَ ، وقد تقدم الكلام على نظيره في سورة فاطر .

وفي التعبير بالحسنة والسيئة دون المُحسن والمسيء إشارة إلى أن كل فريق من هذين قد بلغ الغاية في جنس وصفه من إحسان وإساءة على طريقة الوصف بالمصدر ، وليتأتى الانتقال إلى موعظة تهذيب الأخلاق في قوله : ﴿ ادْفَع بالتي هي أحسن ﴾ ، فيشبه أن يكون إيثارُ نفي المساواة بين الحسنة والسيئة توطئةً للانتقال إلى قوله : ﴿ ادْفَعَ بالتي هي أحسن ﴾ .

وقوله : ﴿ ادْفَعَ بالتي هي أحسن ﴾ يجري موقعُه على الوجهين المتقدمين في عطف جملة ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ .

(57/682)

فالجملة على الوجه الأول من وجهي موقع جملة ﴿ ولاَ تَسْتَوي الحسنة ولا السيئة ﴾ تخلص من غرض تفضيل الحسنة على السيئة إلى الأمر بخُلق الدفع بالتي هي أحسن لمناسبةِ أَن ذلك الدفع من آثار تفضيل الحسنة على السيئة إرشاداً من الله لرسوله وأمته بالتخلق بخلق الدفع بالحسنى .

وهي على الوجه الثاني من وجهيْ موقع جملة ﴿ ولاَ تَسْتَوي الحسنة ولا السيئة ﴾ واقعة موقع النتيجة من الدليل والمقصدِ من المقدمة ، فمضمونها ناشىء عن مضمون التي قبلها .

وكلا الاعتبارين في الجملة الأولى مقتض أن تكون جملة ﴿ ادفَع بالتي هي أحْسَن ﴾ مفصولة غير معطوفة .

وإنما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك لأن منتهى الكمال البشري خُلُقُه كما قال : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

وقالت عائشة لما سئلت عن خلُقه (كان خلقه القرآن) لأنه أفضل الحكماء .

والإحسان كمال ذاتي ولكنه قد يكون تركه محموداً في الحدود ونحوها فذلك معنىً خاص .

والكمال مطلوب لذاته فلا يعدل عنه ما استطاع ما لم يخش فوات كمال أعظم ، ولذلك قالت عائشة : "ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلاّ أن تُنتهك حرمات الله فيغضب لله" .

وتخلُّقُ الأمة بهذا الخلق مرغوب فيه قال تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على اللَّه ﴾ [الشورى : 40] .

وروى عياض في "الشفاء" وهو مما رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله وابنُ جرير في "تفسيره" لما نزل قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ﴾ [الأعراف : 199] سأَلَ النبيءُ صلى الله عليه وسلم جبريلَ عن تأويلها فقال له : حتى أسأل العالِم ، فأتاه فقال : " يا محمد إن الله يأمرك أن تَصِل من قطعك وتُعطيَ من حَرَمَك وتعفوَ عمن ظلمك" .

(58/682)

ومفعول ﴿ ادْفَع ﴾ محذوف دل عليه انحصار المعنى بين السيئة والحسنة ، فلما أمر بأن تكون الحسنة مدفوعاً بها تعيّن أن المدفوع هو السيئة ، فالتقدير : ادفع السيئة بالتي هي

أحسن كقوله تعالى : ﴿ ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ في سورة الرعد (22) وقوله : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ في سورة المؤمنين (96) .

و﴿ التي هي أحسن ﴾ هي الحسنة ، وإنما صيغت بصيغة التفضيل ترغيباً في دفع السيئة بها لأن ذلك يشق على النفس فإن الغضب من سوء المعاملة من طباع النفس وهو يبعث على حب الانتقام من المسيء فلما أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجازي السيئة بالحسنة أشير إلى فضل ذلك .

وقد ورد في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم " ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح " .

وقد قيل : إن ذلك وصفه في التوراة .

وفرع على هذا الأمر قوله : ﴿ فَإِذَا الذي بَيْنَك وبينه عداوة كأَنَّه وليٌّ حَمِيمٌ ﴾ لبيان ما في ذلك الأمر من الصلاح ترويضاً على التخلق بذلك الخُلق الكريم ، وهو أن تكون النفس مصدراً للإحسان .

ولما كانت الآثار الصالحة تدل على صلاح مَثَارِها .

وأَمَرَ الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدفع بالتي هي أحسن أردفه بذكر بعض محاسنه وهو أن يصير العدو كالصديق ، وحُسن ذلك ظاهر مقبول فلا جرم أن يدل حُسنه على حسن سببه .

ولذكر المُثُل والنتائج عقب الإرشاد شأن ظاهر في تقرير الحقائق وخاصة التي قد لا تقبلها النفوس لأنها شاقة عليها ، والعداوة مكروهة والصداقة والولاية مرغوبة ، فلما كان الإحسان لمن أساء يدنيه من الصداقة أو يُكسبه إياها كان ذلك من شواهد مصلحة الأمر بالدفع بالتي هي أحسن .

و(إذا) للمفاجأة ، وهي كناية عن سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدوّ صديقاً .

(59/682)

وعدل عن ذكر العَدوّ معرفاً بلام الجنس إلى ذكره باسم الموصول ليتأتى تنكير عداوة للنوعية وهو أصل التنكير فيصدق بالعداوة القوية ودونها ، كما أن ظرف ﴿ بَيْنَك وبَيْنَه ﴾ يصدق بالبين القريب والبين البعيد ، أعني ملازمة العداوة أو طُرُوَّها .

وهذا تركيب من أعلى طَرَف البلاغة لأنه يجمع أحوال العداوات فيعلم أن الإحسان ناجع في اقتلاع عداوة المحسَن إليه للمحسِن على تفاوت مراتب العداوة قوة وضعفاً ، وتمكناً وبعداً ، ويعلم أنه ينبغي أن يكون الإحسان للعدوّ قوياً بقدر تمكن عداوته ليكون أنجع في اقتلاعها .

ومن الأقوال المشهورة : النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها .

والتشبيه في قوله : ﴿ كأَنَّه وليٌّ حَميمٌ ﴾ ، تشبيه في زوال العداوة ومخالطة شوائب المحبة ، فوجه الشبه هو المصافاة والمقاربة وهو معنى متفاوتُ الأحوال ، أي مقول على جنسه بالتشكيك على اختلاف تأثر النفس بالإِحسان وتفاوت قوة العداوة قبلَ الإحسان ، ولا يبلغ مبلغ المشبَّه به إذ من النادر أن يصير العدوّ وليّاً حميماً ، فإنْ صاره فهو لعوارض غير داخلة تحت معنى الإِسراع الذي آذنتْ به (إذا) الفجائية .

والعداوةُ التي بين المشركين وبين النبي صلى الله عليه وسلم عداوة في الدين ، فالمعنى : فإذا الذي بينك وبينه عداوة لكفره ، فلذلك لا تشمل الآية من آمنوا بعدَ الكفر فزالت عداوتهم للنبيء صلى الله عليه وسلم لأجل إيمانهم كما زالت عداوة عمر رضي الله عنه بعد إسلامه حتى قال يوماً للنبيء صلى الله عليه وسلم لأنتَ أحب إليّ من نفسي التي بين جنَبيَّ ، وكما زالت عداوة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان إذ قالت للنبيء صلى الله عليه وسلم ما كان أهل خِباءٍ أحبُّ إليّ من أن يذلُّوا مِن أهل خبائك واليومَ ما أهلُ خِباء أحبُّ إليَّ من أن يعِزُّوا من أهل خبائك فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم وأيضاً ، أي وستزيدِين حباً .

(60/682)

وعن مقاتل : أنه قال : هذه الآية نزلت في أبي سفيان كان عدواً للنبيء صلى الله عليه وسلم في الجاهلية فصار بعد إسلامه ولياً مصافياً .

وهو وإن كان كما قالوا فلا أحسب أن الآية نزلت في ذلك لأنها نزلت في اكتساب المودة بالإِحسان .

والولي : اسم مشتق من الوَلاية بفتح الواو ، والولاء ، وهو : الحليف والناصر ، وهو ضد العدو ، وتقدم في غير آية من القرآن .

والحميم : القريب والصديق .

ووجه الجمع بين ﴿ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أنه جمَع خصلتين كلتاهما لا تجتمع مع العداوة وهما خصلتا الولاية والقرابة .

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

عطف على جملة ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ [فصلت : 34] ، أو حال من (التي هي أحسن) ، وضمير ﴿ يُلَقَّاهَآ ﴾ عائد إلى (التي هي أحسن) باعتبار تعلقها بفعل (ادْفَعْ) ، أي بالمعاملة والمدافعة التي هي أحسن ، فأما مطلق الحسنة فقد يحصل لغير الذين صبروا .

وهذا تحريض على الارتياض بهذه الخصلة بإظهار احتياجها إلى قوة عزم وشدة مراس للصبر على ترك هوى النفس في حب الانتقام ، وفي ذلك تنويه بفضلها بأنها تلازمها خصلة

الصبر وهي في ذاتها خصلة حميدة وثوابها جزيل كما علم من عدة آيات في القرآن ، وحسبك قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [العصر : 2 ، 3] .

فالصابر مرتاض بتحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ فيهون عليه ترك الانتقام .

و﴿ يُلقَّاها ﴾ يُجعل لاَقِياً لها ، أي كقوله تعالى : ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ [الإنسان : 11] ، وهو مستعار للسعي لتحصيلها لأن التحصيل على الشيء بعد المعالجة والتخلق يشبه السعي لملاقاة أحد فيلقاه .

(61/682)

وجيء في ﴿ يلقاها ﴾ بالمضارع في الموضعين باعتبار أن المأمور بالدفع بالتي هي أحسن مأمور بتحصيل هذا الخلق في المستقبل ، وجيء في الصلة وهي ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ بالماضي للدلالة على أن الصبر خلُق سابق فيهم هو العون على معاملة المسيء بالحسنى ، ولهذه النكتة عدل عن أن يقال : إلا الصابرون ، لنكتة كون الصبر سجية فيهم متأصلة .

ثم زيد في التنويه بها بأنها ما تَحْصُل إلا لِذي حظ عظيم .

والحظ : النصيب من الشيء مطلقاً ، وقيل : خاص بالنصيب من خير ، والمراد هنا :

نصيب الخير ، بالقرينة أو بدلالة الوضع ، أي ما يحصل دفع السيئة بالحسنة إلا لصاحب نصيب عظيم من الفضائل ، أي من الخلق الحسن والاهتداء والتقوى .

فتحصَّل من هذين أن التخلق بالصبر شرط في الاضطلاع بفضيلة دفع السيئة بالتي هي أحسن ، وأنه ليس وحده شرطاً فيها بل وراءه شروط أُخر يجمعها قوله : ﴿ حَظٍ عظيم ﴾ ، أي من الأخلاق الفاضلة ، والصبرُ من جملة الحظ العظيم لأن الحظ العظيم أعمّ من الصبر ، وإنما خص الصبر بالذكر لأنه أصلها ورأس أمرها وعمودُها .

وفي إعادة فعل ﴿ ومَا يُلقاها ﴾ دون اكتفاء بحرف العطف إظهار لمزيد الاهتمام بهذا الخبر بحيث لا يستِتر من صريحه شيء تحتَ العاطف .

وأفاد ﴿ ذُو حَظّ عَظِيمٍ ﴾ أن الحظ العظيم من الخير سجيتُه وملكته كما اقتضته إضافة ﴿ ذو ﴾ .

وحاصل ما أشار إليه الجملتان أنّ مِثْلَك من يتلقى هذه الوصية وما هي بالأمر الهيّن لكل أحد .

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

عطف على جملة ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ [فصلت : 35] ، فبعد أن أُرشد إلى ما هو عون على تحصيل هذا الخلق المأمور به وهو دفع السيئة بالتي هي أحسن ، وبعد أن شرحت فائدة العمل بها بقوله : ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [فصلت : 34] صُرِف العنان هنا إلى التحذير من عوائقها التي تجتمع كثرتها في حقيقة نزغ الشيطان ، فأمر بأنه إن وجد في نفسه خواطر تَصْرِفه عن ذلك وتدعوه إلى دفع السيئة بمثلها فإن ذلك نزغ من الشيطان دواؤه أن تستعيذ بالله منه فقد ضمن الله له أن يعيذه إذا استعاذه لأنه أمره بذلك ، والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم

وفائدة هذه الاستعاذة تجديد داعية العصمة المركوزة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لأن الاستعاذة بالله من الشيطان استمداد للعصمة وصقل لزكاء النفس مما قد يقترب منها من الكدرات .

وهذا سر من الاتصال بين النبي صلى الله عليه وسلم وربه وقد أشار إليه قول النبي صلى الله عليه وسلم " إنه لَيُغانَ على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة " فبذلك تسلم نفسه من أن يغشَاها شيء من الكدرات ويلحق به في ذلك صالحو المؤمنين .

وفي الحديث القدسي عند الترمذي " ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحِبَّه فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأُعطينَّه ولئن استعاذني لأعِيذنَّه " .

ثم يلتحق بذلك بقية المؤمنين على تفاوتهم كما دل عليه حديث ابن مسعود عند الترمذي قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن للشيطان لَمّة بابن آدم وللمَلَك لَمَّة ، فأما لَمّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لَمة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان " .

(63/682)

والنزغ : النخس ، وحقيقته : مسّ شديد للجِلد بِطرَف عُود أو إصبَع ، فهو مصدر ، وهو هنا مستعار لاتصال القوة الشيطانية بخواطر الإنسان تأمره بالشر وتصرفه عن الخير ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ باللَّه إنه سميع عليم ﴾ في سورة الأعراف (200) وإسناد ﴿ يَنزَغَنَّكَ ﴾ إلى ﴿ نَزْغٌ ﴾ مجاز عقلي من باب : جدّ جدّه ، و ﴿ مِن ﴾ ابتدائية .

ويجوز أن يكون المراد بالنزغ هنا : النازغ ، وهو الشيطان ، وصف بالمصدر للمبالغة ، و ﴿ من ﴾ بيانية ، أي ينزغنّك النازغ الذي هو الشيطان .

والمبالغة حاصلة على التقديرين مع اختلاف جهتها .

وجيء في هذا الشرط بـ (إنْ) التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط ترفيعاً لقدر النبي

صلى الله عليه وسلم فإن نزغ الشيطان له إنما يفرض كما يفرض المُحال ، ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ [الأعراف : 201] فجاء في ذلك الشرط بحرف (إذا) التي الأصل فيها الجزم بوقوع الشرط أو بغلبة وقوعه .

و(ما) زائدة بعد حرف الشرط لتوكيد الربط بين الشرط وجوابه وليست لتحقيق حصول الشرط فإنها تزاد كثيراً بعد (إن) دون أن تكون دالة على الجزم بوقوع فعل الشرط .

وضمير الفصل في قوله : إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ لتقوية الحكم وهو هنا حكم كِنائي لأن المقصود لازمُ وصف السميع العليم وهو مؤاخذة من تصدر منهم أقوال وأعمال في أذى النبي صلى الله عليه وسلم والكيدِ له ممن أُمِر بأن يدفع سيئاتهم بالتي هي أحسن .

والمعنى : فإن سوّل لك الشيطان أن لا تعامل أعداءك بالحسنة وزين لك الانتقام وقال لك : كيف تحسن إلى أعداء الدين ، وفي الانتقام منهم قطعُ كيدهم للدين ، فلا تأخذ بنزغه وخذ بما أمرناك واستعذ بالله من أن يزلّك الشيطان فإن الله لا يخفى عليه أمر أعدائك وهو يتولى جزاءهم .

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)

عطف على جملة ﴿ قُل أَئِنَّكُم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ [فصلت : 9] الآية عطف القصة على القصة فإن المقصود من ذكر خلق العوالم أنها دلائل على انفراد الله بالإلهية ، فلذلك أخبر هنا عن المذكورات في هذه الجملة بأنها من آيات الله انتقالاً في أفانين الاستدلال فإنه انتقال من الاستدلال بذواتٍ من مخلوقاته إلى الاستدلال بأحوال من أحوال تلك المخلوقات ، فابتدىء ببعض الأحوال السماوية وهي حال الليل والنهار ، وحال طلوع الشمس وطلوع القمر ، ثم ذكر بعده بعض الأحوال الأرضية بقوله : ﴿ ومن ءاياته أنك ترى الأرض خاشعة ﴾ [فصلت : 39] .

ويدل لهذا الانتقال أنه انتقل من أسلوب الغيبة من قوله : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ﴾ إلى قوله : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ [فصلت : 13 34] إلى أسلوب خطابهم رجوعاً إلى خطابهم الذي في قوله : ﴿ أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض ﴾ [فصلت : 9] .

والآيات : الدلائل ، وإضافتها إلى ضمير الله لأنها دليل على وحدانيته وعلى وجوده .

واختلافُ الليل والنهار آية من آيات القدرة التي لا يفعلها غير الله تعالى ، فلا جرم كانت دليلاً

على انفراده بالصنع فهو منفرد بالإلهية .

وتقدم الكلام على الليل والنهار عند قوله تعالى في سورة البقرة (164) ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ ﴾ .

(65/682)

والمراد بالشمس والقمر ابتداءً هنا حركتُهما المنتظمة المستمرة ، وأمّا خلقهما فقد علم من خلق السماوات والأرض كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ [فصلت : 12] ، فإن الشمس إحدى السماوات السبع والقمر تابع للشمس ، ولمْ يُذكر ما يدل على بعض أحوال الشمس والقمر مثل طلُوع أو غروبٍ أو فَلَك أو نحو ذلك ليَكون صالحاً للاستدلال بأحوالهما وهو المقصود الأول ، ولخلقهما تأكيد لما استفيد من قوله : ﴿ فقضاهن سَبْعَ سموات ﴾ توفيراً للمعاني .

ولما جرى الاعتبار بالشمس والقمر وكان في الناس أقوام عبدوا الشمس والقمر وهم الصابئة ومنبعهم من العراق من زمن إبراهيم عليه السلام ، وقد قصّ الله خبرَهم في سورة الأنعام (76) في قوله : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ﴾ الآيات ، ثم ظهر هذا الدين في سبأ ، عبدوا الشمس كما قصه الله في سورة النمل .

ولم أقف على أن العرب في زمن نزول القرآن كان منهم من يعبد الشمس والقمر ، ويَظهر من كلام الزمخشري أنه لم يقف على ذلك لقوله هنا : (لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر) ا ه .

ولكن وجود عبادة الشمس في اليمن أيام سبأ قبل أن يتهَوَّدُوا يقتضي بقاء آثاره من عبادة الشمس في بعض بلاد العرب .

وقد ذكر من أصنام العرب صنم اسمه (شَمس) وبه سموا (عبدَ شمس) ، وكذلك جعلهم من أسماء الشمس الإلهة ، قالت مَيَّة بنتُ أم عتبة :

تروَّحْنَا من اللَّعْبَاء عَصْراً

فأعْجَلْنا الإلهةَ أن تؤوبا . . .

وكان الصنم الذي اسمه شمس يَعبده بنو تميم وضبة وتَيْم وعُكْل وأُدّ .

وكنت وقفت على أن بعض كنانة عبدوا القمر .

(66/682)

وفي "تلخيص التفسير" للكواشي : (وكان الناس يسجدون للشمس والقمر يزعمون أنهم يقصدون بذلك السجود للَّه كالصابئين فنهوا عن ذلك وأمروا أن يخصوه تعالى بالعبادة)

وليس فيه أن هؤلاء الناس من العرب ، على أن هدي القرآن لا يختص بالعرب بل شيوع دين الصابئة في البلاد المجاورة لهم كاف في التحذير من السجود للشمس والقمر .

وقد كان العرب يحسبون دين الإسلام دين الصابئة فكانوا يقولون لمن أسلم : صَبَأَ ، وكانوا يصفون النبي صلى الله عليه وسلم بالصابىء ، فإذا لم يكن النهي في قوله : ﴿ لاَ تَسْجُدُوا للشَّمْسسِ ولاَ للقَمَرِ ﴾ نهيَ إقلاع بالنسبة للذين يسجدون للشمس والقمر ، فهو نهي تحذير لمن لم يسجد لهما أن لا يتبعوا من يعبدونهما .

ووقوع قوله : ﴿ واسْجُدُوا للهِ الذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ بعد النهي عن السجود للشمس والقمر يفيد مفاد الحصر لأن النهي بمنزلة النفي ، ووقوع الإِثبات بعده بمنزلة مقابلة النفي بالإِيجاب ، فإنه بمنزلة النفي والاستثناء في إفادة الحصر كما تراه في قول السموأل أو عبد الملك الحارثي :

تسيل على حد الظبات نفوسنا

وليست على غير الظبات تسيل . . .

فكأنه قيل : لا تسجدوا إلا لله ، أي دون الشمس والقمر .

فجملة ﴿ لا تَسْجدوا للشَّمس ﴾ إلى قوله : ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وَمِن ءاياته اللَّيْلُ والنَّهَارُ ﴾ ، وبين جملة ﴿ فَإِنْ استَكْبَرُوا ﴾ [فصلت : 38] .

وفي هذه الآية موضع سجود من سجود التلاوة ، فقال مالك وأصحابه عدا ابن وهب :

السجود عند قوله تعالى : ﴿ إن كنتم إِيَّاهُ تعبدون ﴾ وهو قول علي بن أبي طالب وابن مسعود ، وروي عن الشافعي .

وقال أبو حنيفة والشافعي في المشهور عنه وابنُ وهب : هي عند قوله : ﴿ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت : 38] ، وهو عن ابن عمر وابن عباس وسعيد بن المسيب .

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38)

(67/682)

الفاء للتفريع على نهيهم عن السجود للشمس والقمر وأمرِهم بالسجود لله وحده ، أي فإن استكبروا أن يتبعوك وصمموا على السجود للشمس والقمر ، أو فإن استكبروا عن الاعتراف بدلالة الليل والنهار والشمس والقمر على تفرد الله بالإلهية (فيعم ضمير ﴿ اسْتَكْبَرُوا ﴾ جميع المشركين) فالله غني عن عبادتهم إياه .

والاستكبار : قوة التكبر ، فالسين والتاء للمبالغة وأصل السين والتاء المستعملين للمبالغة هما السين والتاء للحسبان ، أي عدوا أنفسهم ذوي كبر شديد من فرط تكبرهم .

وجملة : ﴿ فالذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ دليل جواب الشرط .

والتقدير : فإن تكبروا عن السجود لله فهو غني عن سجودهم ، لأن له عبيداً أفضل منهم لا

يفترون عن التسبيح له بإقبال دون سآمة .

والمراد بالتسبيح : كل ما يدل على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به بإثبات أضداد ما لا يليق به ، أو نفي ما لا يليق ، وذلك بالأقوال قال تعالى : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ [الشورى : 5] ، أو بالأعمال قال : ﴿ ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [النحل : 49 50] وذلك ما يقتضيه قوله : ﴿ وهم لا يسأمون ﴾ من كون ذلك التسبيح قولاً وعملاً وليس مجرد اعتقاد .

والعِندية في قوله : ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ عندية تشريف وكرامة كقوله في سورة الأعراف (206) ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ وهؤلاء الملائكة هم العامرون للعوالم العليا التي جعلها الله مشرفة بأنها لا يقع فيها إلا الفضيلة فكانت بذلك أشد اختصاصاً به تعالى من أماكنَ غيرها قصداً لتشريفها .

والسآمة : الضجر والملل من الإعياء .

وذكر الليل والنهار هنا لقصد استيعاب الزمان ، أي يسبحون له الزمان كله .

وجملة : ﴿ وَهُمْ لا يَسْأَمُون ﴾ في موضع الحال وهو أوقع من محمل العطف لأن كون الإِخبار عنهم مقيداً بهذه الحال أشد من إظهار عجيب حالهم إذ شأن العمل الدائم أن يسلم منه عامله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(69/682)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) ﴾

سبق الحديث عن الافتتاح بالأحرف المقطعة في سور شتى . وتكرار هذا الافتتاح : " حا . ميم " . . يتمشى مع طريقة القرآن في تكرار الإشارة إلى الحقائق التي يلمس بها القلب البشري ، لأن فطرة هذا القلب تحتاج إلى تكرار التنبيه ؛ فهو ينسى إذا طال عليه الأمد ؛ وهو يحتاج ابتداء إلى التكرار بطرق شتى لتثبيت أية حقيقة شعورية فيه . والقرآن يأخذ هذا القلب بما أودع في فطرته من خصائص واستعدادات ، وفق ما يعلم خالق هذا القلب ومصرفه بما يشاء .

﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ . . وكأن " حا . ميم " اسم للسورة . أو لجنس القرآن . إذ

أنها من جنس الأحرف التي صيغ منها لفظ هذا القرآن . وهي تقع مبتدأ . . و ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ خبر المبتدأ .

وذكر الرحمن الرحيم عند ذكر تنزيل الكتاب ؛ يشير إلى الصفة الغالبة في هذا التنزيل . صفة الرحمة . وما من شك أن تنزيل هذا الكتاب جاء رحمة للعالمين . رحمة لمن آمنوا به واتبعوه ورحمة كذلك لغيرهم . لا من الناس وحدهم ، ولكن للأحياء جميعاً . فقد سن منهجاً ورسم خطة تقوم على الخير للجميع . وأثر في حياة البشرية ، وتصوراتها ، ومدركاتها ، وخط سيرها ؛ ولم يقتصر في هذا على المؤمنين به إنما كان تأثيره عالمياً ومطرداً منذ أن جاء إلى العالمين . والذين يتتبعون التاريخ البشري بإنصاف ودقة ؛ ويتتبعونه في معناه الإنساني العام ، الشامل لجميع أوجه النشاط الإنساني ، يدركون هذه الحقيقة ، ويطمئنون إليها . وكثير منهم قد سجلوا هذا واعترفوا به في وضوح .

﴿ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ . .

(70/682)

والتفصيل المحكم ، وفق الأغراض والأهداف ، ووفق أنواع الطبائع والعقول ، ووفق البيئات والعصور ، ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المتنوعة . . التفصيل المحكم وفق هذه

الاعتبارات سمة واضحة في هذا الكتاب . وقد فصلت هذه الآيات وفق تلك الاعتبارات . فصلت قرآناً عربياً ﴿ لقوم يعلمون ﴾ . . لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة والتمييز .

وقام هذا القرآن يؤدي وظيفته :

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ . .

يبشر المؤمنين العاملين ، وينذر المكذبين المسيئين ، ويبين أسباب البشرى وأسباب الإنذار ، بأسلوبه العربي المبين . لقوم لغتهم العربية . ولكن أكثرهم مع هذا لم يقبل ويستجب :

﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾

وقد كانوا يعرضون فلا يسمعون فعلاً ، ويتحامون أن يعرضوا قلوبهم لتأثير هذا القرآن القاهر . وكانوا يحضون الجماهير على عدم السماع كما سيجيء قولهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

.

وأحياناً كانوا يسمعون ، وكأنهم لا يسمعون ، لأنهم يقاومون أثر هذا القرآن في نفوسهم ؛ فكأنهم صم لا يسمعون !

﴿ وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ﴾ . .

قالوا هذا إمعاناً في العناد ، وتيئيساً للرسول صلى الله عليه وسلم ليكف عن دعوتهم ، لما كانوا يجدونه في قلوبهم من وقع كلماته ، على حين يريدون عامدين ألا يكونوا مؤمنين !

قالوا : قلوبنا في أغطية فلا تصل إليها كلماتك . وفي أذاننا صمم فلا تسمع دعوتك . ومن بيننا وبينك حجاب ، فلا اتصال بيننا وبينك . فدعنا واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا . أو أنهم قالوا غير مبالين : نحن لا نبالي قولك وفعلك ، وإنذارك ووعيدك . فإذا شئت فامض في طريقك فإنا ماضون في طريقنا . لا نسمع لك وافعل ما أنت فاعل . وهات وعيدك الذي تهددنا به فإننا غير مبالين .

(71/682)

هذا نموذج مما كان يلقاه صاحب الدعوة الأول صلى الله عليه وسلم ثم يمضي في طريقه يدعو ويدعو ، لا يكف عن الدعوة ، ولا ييأس من التيئيس ، ولا يستبطئ وعد الله له ولا وعيده للمكذبين . كان يمضي مأموراً أن يعلن لهم أن تحقق وعيد الله ليس بيده ؛ فما هو بشر يتلقى الوحي ، فيبلغ به ، ويدعو الناس إلى الله الواحد . وإلى الاستقامة على الطريق ، وينذر المشركين كما أمر أن يفعل . والأمر بعد ذلك لله لا يملك منه شيئاً ، فهو ليس إلا بشراً مأموراً :

﴿ قل : إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ؛ فاستقيموا إليه واستغفروه ، وويل للمشركين ﴾ . .

يا لعظمة الصبر والاحتمال والإيمان والتسليم ! إنه لا يدرك ما في الصبر على هذه الحال ، والتبرؤ من كل حول وقوة في مثل هذا الموقف ، واحتمال الإعراض والتكذيب في تبجح واستهتار ، دون استعجال الآية التي تردع المعرضين المكذبين المستهترين . . إنه لا يدرك ما في الصبر على هذا الحال من مشقة ، ومن عظمة في احتمال هذه المشقة ، إلا من يكابد طرفاً من هذا الموقف في واقع الحياة . ثم يمضي في الطريق !

ومن أجل هذا الموقف وأمثاله كان التوجيه إلى الصبر كثير الورود للأنبياء والرسل . فطريق الدعوة هو طريق الصبر . الصبر الطويل . وأول ما يستوجب الصبر تلك الرغبة الملحة في انتظار الدعوة ، ثم إبطاء النصر . بل إبطاء أماراته . ثم ضرورة التسليم لهذا والرضى به والقبول !

إن أقصى ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمر به في مقابلة التبجح والاستهتار أن يقول :

﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ . .

وتخصيص الزكاة في هذا الموضع لا بد كانت له مناسبة حاضرة ، لم نقف عليها ، فهذه الآية مكية . والزكاة لم تفرض إلا في السنة الثانية من الهجرة في المدينة .

وإن كان أصل الزكاة كان معروفاً في مكة . والذي جد في المدينة هو بيان أنصبتها في المال ، وتحصيلها كفريضة معينة . أما في مكة فقد كانت أمراً عاماً يتطوع به المتطوعون ، غير محدود ، وأداؤه موكول إلى الضمير . . أما الكفر بالآخرة فهو عين الكفر الذي يستحق الويل والثبور .

وقد ذكر بعضهم أن المقصود بالزكاة هنا الإيمان والطهارة من الشرك . وهو محتمل كذلك في مثل هذه الظروف .

ثم يمضي الداعية يكشف لهم عن شناعة الجرم الذي يرتكبونه بالشرك والكفر . يمضي بهم في المجال الكوني العريض . مجال السماوات والأرض ، والكون الذي هم بالقياس إليه شيء ضئيل هزيل . يمضي بهم في هذا المجال ليكشف لهم عن سلطان الله الذي يكفرون به في فطرة هذا الكون الذي هم جزء منه . ثم ليخرجهم من الزاوية الضيقة الصغيرة التي ينظرون منها إلى هذه الدعوة ، حيث يرون أنفسهم وذواتهم كبيرة كبيرة ؛ ويشغلهم النظر إليها وإلى اختيار محمد صلى الله عليه وسلم من دونهم . والحرص على مكانتهم ومصالحهم . . إلى آخر هذه الاعتبارات الصغيرة . . يشغلهم هذا عن النظر إلى الحقيقة الضخمة التي جاءهم

بها محمد ، وفصلها هذا القرآن . الحقيقة التي تتصل بالسماوات والأرض ؛ وتتصل بالبشرية كلها في جميع أعصارها ؛ وتتصل بالحق الكبير الذي يتجاوز زمانهم ومكانهم وشخوصهم ؛ وتتصل بالكون كله في الصميم :

﴿ قل : أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أنداداً ؟ ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً . ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . .

(73/682)

قل لهم : إنكم إذ تكفرون . إذ تلقون بهذه الكلمة الكبيرة في استهتار . إنما تأتون أمراً عظيماً ، مستنكراً قبيحاً ، إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها . وبارك فيها . وقدر فيها أقواتها .

والذي خلق السماوات ونظم أمرها . وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً . والذي أسلمت له السماء والأرض قيادهما طائعتين مستسلمتين . . وأنتم . . أنتم بعض سكان

هذه الأرض تتأبون وتستكبرون !

ولكن النسق القرآني يعرض هذه الحقائق بطريقة القرآن التي تبلغ أعماق القلوب وتهزها هزاً . فلنحاول أن نسير مع هذا النسق بالترتيب والتفصيل :

﴿ قل : أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ . .

إنه يذكر حقيقة خلق الأرض في يومين . ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الأرض . يعقب على الحلقة الأولى من قصة الأرض . ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ .

. وأنتم تكفرون به وتجعلون له أنداداً . وهو خلق هذه الأرض التي أنتم عليها . فأي تبجح وأي استهتار وأي فعل قبيح ؟ !

وما هذه الأيام : الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض . والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسي وقدر فيهما الأقوات ، وأحل فيهما البركة . فتمت بهما الأيام الأربعة ؟

إنها بلا شك أيام من أيام الله التي يعلم هو مداها . وليست من أيام هذه الأرض . فأيام هذه الأرض إنما هي مقياس زمني مستحدث بعد ميلاد الأرض . وكما للأرض أيام ، هي مواعيد دورتها حول نفسها أمام الشمس ، فللكواكب الأخرى أيام ، وللنجوم أيام . وهي غير أيام الأرض . بعضها أقصر من أيام الأرض وبعضها أطول .

والأيام التي خلقت فيها الأرض أولاً ، ثم تكونت فيها الجبال ، وقدرت فيها الأقوات ، هي أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر ، لا نعلمه ، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة .

(74/682)

وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشري أنها هي الأزمان التي مرت بها الأرض طوراً بعد طور ، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها . وهذه قد استغرقت فيما تقول النظريات التي بين أيدينا نحو ألفي مليون سنة من سنوات أرضنا !

وهذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عمر الأرض بوساطتها . ونحن في دراسة القرآن لا نلجأ إلى تلك التقديرات على أنها حقائق نهائية . فهي في أصلها ليست كذلك . وإن هي إلا نظريات قابلة للتعديل . فنحن لا نحمل القرآن عليها ؛ إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآني تقارباً ، ووجدنا أنها تصلح تفسيراً للنص القرآني بغير تمحل . فنأخذ من هذا أن هذه النظرية أو تلك أقرب إلى الصحة لأنها أقرب إلى مدلول النص القرآني .

والراجح الآن في أقوال العلم أن الأرض كانت كرة ملتهبة في حالة غازية كالشمس الآن والأرجح أنها قطعة من الشمس انفصلت عنها لسبب غير متفق على تقديره وأنها استغرقت أزماناً طويلة حتى بردت قشرتها وصلبت . وأن جوفها لا يزال في حالة انصهار لشدة الحرارة حيث تنصهر أقسى الصخور .

ولما بردت القشرة الأرضية جمدت وصلبت . وكانت في أول الأمر صخرية صلبة . طبقات من الصخر بعضها فوق بعض .

وفي وقت مبكر جداً تكونت البحار من اتحاد الإيدروجين بنسبة 2 والأكسجين بنسبة 1 ومن اتحادهما ينشأ الماء .

" والهواء والماء على أرضنا هذه قد تعاونا على تفتيت الصخر وتشتيته ، وحمله وترسيبه ، حتى كانت من ذلك تربة أمكن فيها الزرع . وتعاونا على نحر الجبال والنجاد ، وملء الوهاد ، فلا تكاد تجد في شيء كان على الأرض أو هو كائن إلا أثر الهدم وأثر البناء " .

" إن هذه القشرة الأرضية في حركة دائمة ، وفي تغير دائم ، يهتز البحر بالموج فيؤثر فيها ، ويتبخر ماء البحر .

(75/682)

تبخره الشمس ، فيصعد إلى السماء فيكون سحباً تمطر الماء عذباً ، فينزل على الأرض متدفقاً ، فتكون السيول ، وتكون الأنهار ، تجري في هذه القشرة الأرضية فتؤثر فيها . تؤثر في صخره فتحله فتبدل فيه من صخر صخراً . (أي تحوله إلى نوع آخر من الصخور) وهي من بعد ذلك تحمله وتنقله . ويتبدل وجه الأرض على القرون ، ومئات القرون وآلافها . وتعمل الثلوج الجامدة بوجه الأرض ما يفعله الماء السائل . وتفعل الرياح بوجه الأرض ما يفعل الماء . وتفعل الشمس بوجه الأرض ما يفعله الماء والريح ، بما تطلق على هذا الوجه من نار ومن نور . والأحياء على الأرض تغير من وجهها كذلك . ويغير فيها ما ينبثق فيها من جوف الأرض من براكين " .

" وتسأل عالم الأرض العالم الجيولوجي عن صخور هذه القشرة فيعدد لك من صخورها الشيء الكثير ، ويأخذ يحدثك عن أنواعها الثلاثة الكبرى " .

" يحدثك عن الصخور النارية . تلك التي خرجت من جوف الأرض إلى ظهرها صخراً منصهراً . ثم برد . ويضرب لك منها مثلاً بالجرانيت والبازلت . ويأتيك بعينة منها يشير لك فيها إلى ما احتوته من بلورات ، بيضاء وحمراء أو سوداء ، ويقول لك : إن كل بلورة من هذه تدل على مركب كيماوي ، له كيان بذاته . فهذه الصخور أخلاط . ويلفت فكرك إلى أنه من هذه الصخور النارية ومن أشباهها تكونت قشرة هذه الأرض عندما تمت الأرض تكونا في القديم الأقدم من الزمان . ثم قام يفعل فيها الماء ، هابطاً من السماء أو جارياً في

الأرض ، أو جامداً في الثلج ، وقام يفعل الهواء ويفعل الريح . . وقامت تفعل الشمس . قامت جميعها تغير من هذه الصخور . من طبيعتها ومن كيميائها . فولدت منها صخوراً غير تلك الصخور حتى ما يكاد يجمعها في منظر أو مخبر شيء " .

(76/682)

" وينتقل بك الجيولوجي إلى الصنف الأكبر الثاني من الصخور . إلى الصخور التي أسموها بالمترسبة أو الراسبة ، وهي تلك الصخور التي اشتقت ، بفعل الماء والريح والشمس ، أو بفعل الأحياء من صخور أكثر في الأرض أصالة وأعقد . وأسموها راسبة لأنها لا توجد في مواضعها الأولى . إنها حملت من بعد اشتقاق من صخورها الأولى ، أو وهي في سبيل اشتقاق . حملها الماء أو حملتها الريح ، ثم هبطت ورسبت واستقرت حيث هي من الأرض " .

" ويضرب لك الجيولوجي مثلاً للصخور الراسبة بالحجر الجيري الذي يتألف منه جبل كجبل المقطم ، ومن حجره تبني القاهرة بيوتها . ويقول لك : إنه مركب كيماوي يعرف بكربونات الكلسيوم ، وإنه اشتق في الأرض من عمل الأحياء أو عمل الكيمياء . ويضرب لك مثلا ، بالرمل ، ويقول لك : إن أكثره أكسيد السيلسيوم ، وإنه مشتق كذلك ، ومثلا آخر

بالطفل والصلصال ، وكلها من أصول سابقة " .

" وتسأل عن هذه الأصول السابقة التي منها اشتقت تلك الصخور الراسبة ، على اختلافها ، فتعلم أنها الصخور النارية . بدأت الأرض عندما انجمد سطحها من بعد انصهار ، في قديم الأزل ، ولا شيء على هذا السطح المنجمد غير الصخر الناري . ثم جاء الماء ، وجاءت البحار ، وتفاعل الصخر الناري والماء . وشركهما الهواء . شركهما غازات متفاعلة ، وشركهما رياحاً عاصفة ، وشركتهما الشمس ناراً ونوراً . وتفاعلت كل هذه العوامل جميعا . وفقا لما أودع فيها من طبائع . فغيرت من صخر ناري صلد غير نافع ، إلى صخر نافع . صخر ينفع في بناء المساكن ، وصخر ينفع في استخراج المعادن . وأهم من هذا ، وأخطر من هذا ، أنها استخرجت من هذا المساكن ، وصخر ينفع في استخراج المعادن . وأهم من هذا ، وأخطر من هذا ، أنها استخرجت من هذا الصخر الناري الصلد ، الذي لا ينفع لحياة تقوم عليه ، استخرجت تربة ، رسبت على سطح الأرض ، مهدت لقدوم الأحياء والخلائق " .

(77/682)

" إن الجرانيت لا ينفع لحرث أو زرع أو سقيا ، ولكن تنفع تربة هشة لينة خرجت منه ومن أشباه له . وبظهور هذه التربة ظهر النبات ، وبظهور النبات ظهر الحيوان . وتمهدت الأرض لقيام رأس الخلائق على هذه الأرض . ذلك الإنسان . . "

هذه الرحلة الطويلة كما يقدرها العلم الحديث ، قد تساعدنا على فهم معنى الأيام في خلق الأرض وجعل الرواسي فوقها ، والمباركة فيها ، وتقدير أقواتها في أربعة أيام . . من أيام الله . . التي لا نعرف ما هي ؟ ما طولها ؟ ولكننا نعرف أنها غير أيام هذه الأرض حتماً . . ونقف لحظة أمام كل فقرة من النص القرآني قبل أن نغادر الأرض إلى السماء !

﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها ﴾ . . وكثيراً ما يرد تسمية الجبال ﴿ رواسي ﴾ وفي بعض المواضع يعلل وجود هذه الرواسي ﴿ أن تميد بكم ﴾ أي إنها هي راسية ، وهي ترسي الأرض ، وتحفظ توازنها فلا تميد . . ولقد غبر زمان كان الناس يحسبون أن أرضهم هذه ثابتة راسخة على قواعد متينة ! ثم جاء زمان يقال لهم فيه الآن : إن أرضكم هذه إن هي إلا كرة صغيرة سابحة في فضاء مطلق ، لا تستند إلى شيء . . ولعلهم يفزعون حين يقال لهم هذا الكلام أول مرة أو لعل منهم من ينظر بوجل عن يمينه وعن شماله خيفة أن تتأرجح به هذه الأرض أو تسقط في أعماق الفضاء ! فليطمئن . فإن يد الله تمسكها أن تزول هي والسماء . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ! وليطمئن فإن النواميس التي تحكم هذا الكون متينة من صنع القوي العزيز !

ونعود إلى الجبال فنجد القرآن يقول إنها ﴿ رواسي ﴾ وإنها كذلك ترسي الأرض فلا تميد . ولعلها كما قلنا في موضع آخر من هذه الظلال تحفظ التناسق بين القيعان في المحيطات والمرتفعات في الأرض فتتوازن فلا تميد .

وهذا عالم يقول :

" إن كل حدث يحدث في الأرض ، في سطحها أو فيما دون سطحها ، يكون من أثره انتقال مادة من مكان إلى مكان يؤثر في سرعة دورانها .

(78/682)

فليس المد والجزر هو العامل الوحيد في ذلك . (أي في بطء سرعة الأرض كما قال قبل هذه الفقرة) حتى ما تنقله الأنهار من مائها من ناحية في الأرض إلى ناحية يؤثر في سرعة الدوران . وما ينتقل من رياح يؤثر في سرعة الدوران . وسقوط في قاع البحار ، أو بروز في سطح الأرض هنا أو هنا يؤثر في سرعة الدوران . . ومما يؤثر في سرعة هذا الدوران أن تتمدد الأرض أو تنكمش بسبب ما . ولو انكماشاً أو تمدداً طفيفاً لا يزيد في قطرها منه إلا بضع أقدام " .

فهذه الأرض الحساسة إلى هذا الحد ، لا عجب أن تكون الجبال الرواسي حافظة لتوازنها

ومانعة : ﴿ أن تميد بكم ﴾ كما جاء في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً .

﴿ وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ﴾ . . وقد كانت هذه الفقرة تنقل إلى أذهان أسلافنا صورة الزرع النامي في هذه الأرض وبعض ما خبأه الله في جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما إليها . . فأما اليوم بعد ما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته في الأرض ومن أقواتها التي خزنها فيها على أزمان طويلة ، فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف في أذهاننا . .

وقد رأينا كيف تعاونت عناصر الهواء فكونت الماء . وكيف تعاون الماء والهواء والشمس والرياح فكونت التربة الصالحة للزرع . وكيف تعاون الماء والشمس والرياح فكونت الأمطار أصل الماء العذب كله من أنهار ظاهرة وأنهار باطنة تظهر في شكل ينابيع وعيون وآبار . . وهذه كلها من أسس البركة ومن أسس الأقوات .

وهناك الهواء . ومن الهواء أنفاسنا وأجسامنا . .

" إن الأرض كرة تلفها قشرة من صخر . وتلف أكثر الصخر طبقة من ماء . وتلف الصخر والماء جميعاً طبقة من هواء . وهي طبقة من غاز سميكة . كالبحر ، لها أعماق . ونحن بني الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، نعيش في هذه الأعماق ، هانئين بالذي فيها " .

" فمن الهواء نستمد أنفاسنا ، من أكسجينه . ومن الهواء يبني النبات جسمه ، من كربونه ، بل من أكسيد كربونه ، ذلك الذي يسميه الكيماويون ثاني أكسيد الكربون . يبني النبات جسمه من أكسيد الفحم هذا . ونحن نأكل النبات . ونأكل الحيوان الذي يأكل النبات . ومن كليهما نبني أجسامنا . بقي من غازات الهواء النتروجين ، أي الأزوت ، فهذا لتخفيف الأكسجين حتى لا نحترق بأنفاسنا . وبقي بخار الماء وهذا لترطيب الهواء . وبقيت طائفة من غازات أخرى ، توجد فيه بمقادير قليلة هي في غير ترتيب الأرجون ، والهليوم ، والنيون ، وغيرها . ثم الإدروجين ، وهذه تخلقت على الأكثر في الهواء من بقايا خلقة الأرض الأولى " .

والمواد التي نأكلها والتي ننتفع بها في حياتنا والأقوات أوسع مما يؤكل في البطون كلها مركبات من العناصر الأصلية التي تحتويها الأرض في جوفها أو في جوها سواء . وعلى سبيل المثال هذا السكر ما هو ؟ إنه مركب من الكربون والايدروجين والاكسيجين . والماء علمنا تركيبه من الادروجين والاكسيجين . . وهكذا كل ما نستخدمه من طعام أو شراب أو لباس أو أداة . . إن هو إلا مركب من بين عناصر هذه الأرض المودعة فيها . .

فهذا كله يشير إلى شيء من البركة وشيء من تقدير الأقوات . . في أربعة أيام . . فقد تم هذا في مراحل زمنية متطاولة . . هي أيام الله ، التي لا يعلم مقدارها إلا الله .

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان . فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً . ذلك تقدير العزيز العيم ﴾ .

والاستواء هنا القصد . والقصد من جانب الله تعالى هو توجه الإرادة . و ﴿ ثم ﴾ قد لا تكون للترتيب الزمني ، ولكن للارتقاء المعنوي . والسماء في الحس أرفع وأرقى .

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ . . إن هناك اعتقاداً أنه قبل خلق النجوم كان هناك ما يسمى السديم . وهذا السديم غاز . . دخان

(80/682)

" والسدم من نيرة ومعتمة ليس الذي بها من غاز وغبار إلا ما تبقى من خلق النجوم إن نظرية الخلق تقول : إن المجرة كانت من غاز وغبار . ومن هذين تكونت بالتكثف النجوم . وبقيت لها بقية . ومن هذه البقية كانت السدم . ولا يزال من هذه البقية منتشراً في هذه المجرة الواسعة مقدار من غاز وغبار ، يساوي ما تكونت منه النجوم . ولا تزال النجوم تجر منه بالجاذبية إليها . فهي تكنس السماء منه كنساً . ولكن الكناسين برغم أعدادهم الهائلة قليلون بالنسبة لما يراد كنسه من ساحات أكبر وأشد هولاً " .

وهذا الكلام قد يكون صحيحاً لأنه أقرب ما يكون إلى مدلول الحقيقة القرآنية : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ . . وإلى أن خلق السماوات تم في زمن طويل . في يومين من أيام الله .

ثم نقف أمام الحقيقة الهائلة :

﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : أتينا طائعين ﴾ . .

إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته . فليس هناك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع للناموس كرهاً في أغلب الأحيان . إنه خاضع حتماً لهذا الناموس ، لا يملك أن يخرج عنه ، وهو ترس صغير جداً في عجلة الكون الهائلة ؛ والقوانين الكونية الكلية تسري عليه رضي أم كره . ولكنه هو وحده الذي لا ينقاد طائعاً طاعة الأرض والسماء . إنما يحاول أن يتفلت ، وينحرف عن المجرى الهين اللين ؛ فيصطدم بالنواميس التي لا بد أن تغلبه وقد تحطمه وتسحقه فيستسلم خاضعاً غير طائع .

إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإراداتهم ورغباتهم واتجاهاتهم . . تصطلح كلها مع النواميس الكلية ، فتأتي طائعة ، وتسير هينة لينة ، مع عجلة الكون الهائلة ، متجهة إلى ربها مع الموكب ، متصلة بكل ما فيه من قوى ، وحينئذ تصنع الأعاجيب ، وتأتي بالخوارق ، لأنها مصطلحة مع الناموس ، مستمدة من قوته الهائلة ، وهي منه وهو مشتمل عليها في الطريق إلى الله ﴿ طائعين ﴾ . .

إننا نخضع كرهاً . فليتنا نخضع طوعاً . ليتنا نلبي تلبية الأرض والسماء . في رضى وفي فرح باللقاء مع روح الوجود الخاضعة المطيعة الملبية المستسلمة لله رب العالمين .

إننا نأتي أحياناً حركات مضحكة . . عجلة القدر تدور بطريقتها . وبسرعتها . ولوجهتها . وتدير الكون كله معها . وفق سنن ثابتة . . ونأتي نحن فنريد أن نسرع . أو أن نبطئ . نحن من بين هذا الموكب الضخم الهائل . نحن بما يطرؤ على نفوسنا حين تنفك عن العجلة وتنحرف عن خط السير من قلق واستعجال وأنانية وطمع ورغبة ورهبة . . ونظل نشرد هنا وهناك والموكب ماض . ونحتك بهذا الترس وذاك ونتألم . ونصطدم هنا وهناك ونتحطم . والعجلة ماضية في سرعتها وبطريقتها إلى وجهتها . وتذهب قوانا وجهودنا كلها سدى . فأما حين تؤمن قلوبنا حقاً ، وتستسلم لله حقاً ، وتتصل بروح الوجود حقاً . فإننا حينئذ نعرف دورنا على حقيقته ؛ وننسق بين خطانا وخطوات القدر ؛ ونتحرك في اللحظة المناسبة بالسرعة المناسبة ، في المدى المناسب . نتحرك بقوة الوجود كله مستمدة

من خالق الوجود . ونصنع أعمالاً عظيمة فعلاً ، دون أن يدركنا الغرور . لأننا نعرف مصدر القوة التي صنعنا بها هذه الأعمال العظيمة . ونوقن أنها ليست قوتنا الذاتية ، إنما هي كانت هكذا لأنها متصلة بالقوة العظمى .

(82/682)

ويا للرضى . ويا للسعادة . ويا للراحة . ويا للطمأنينة التي تغمر قلوبنا يومئذ في رحلتنا القصيرة ، على هذا الكوكب الطائع الملبي ، السائر معنا في رحلته الكبرى إلى ربه في نهاية المطاف . .

ويا للسلام الذي يفيض في أرواحنا ونحن نعيش في كون صديق . كله مستسلم لربه ، ونحن معه مستلسمون . ولا تشذ خطانا عن خطاه ، ولا يعادينا ولا نعاديه . لأننا منه . ولأننا معه في الاتجاه :

﴿ قالتا : أتينا طائعين ﴾ . . ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين ﴾ . . ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ . .

واليومان قد يكونان هما اللذان تكونت فيهما النجوم من السدم . أو تم فيهما التكوين كما يعلمه الله . والوحي بالأمر في كل سماء يشير إلى إطلاق النواميس العاملة فيها ، على هدى

من الله وتوجيه ؛ أما ما هي السماء المقصودة فلا نملك تحديداً . فقد تكون درجة البعد سماء . وقد تكون المجرة الواحدة سماء . وقد تكون المجرات التي على أبعاد متفاوتة سماوات . . وقد يكون غير ذلك . مما تحتمله لفظة سماء وهو كثير .

﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ﴾ . .

والسماء الدنيا هي كذلك ليس لها مدلول واحد محدد . فقد تكون هي أقرب المجرات إلينا وهي المعروفة بسكة التبان والتي يبلغ قطرها مائة ألف مليون سنة ضوئية ! وقد يكون غيرها مما ينطبق عليه لفظ سماء . وفيه النجوم والكواكب المنيرة لنا كالمصابيح .

﴿ وحفظاً ﴾ . . من الشياطين . . كما يدل على هذا ما ورد في المواضع الأخرى من القرآن . . ولا نملك أن نقول عن الشياطين شيئاً مفصلاً . أكثر من الإشارات السريعة في القرآن . فحسبنا هذا . .

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . .

وهل يقدر هذا كله ؟ ويمسك الوجود كله ، ويدبر الوجود كله . . إلا العزيز القوي القادر ؟ وإلا العليم الخبير بالموارد والمصادر ؟

فكيف بعد هذه الجولة الكونية الهائلة يكون موقف الذين يكفرون بالله ويجعلون له أندادا ؟ كيف . والسماء والأرض تقولان لربهما : ﴿ أتينا طائعين ﴾ وهذا النمل الصغير العاجز من البشر الذي يدب على الأرض يكفر بالله في تبجح واستهتار ؟

وما يكون جزاء هذا التبجح وهذا الاستهتار ؟

﴿ فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله . قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فإنا بما أرسلتم به كافرون . فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ . .

وهذا الإنذار المرهوب المخيف : ﴿ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ يناسب شناعة الجرم وقبح الذنب ، وتبجح المشركين الذي حُكي في مطلع السورة ، وشذوذ كفار البشر من موكب الوجود الكبير الذي عُرض قبل هذا الإنذار .

وقد روى ابن إسحاق قصة عن هذا الإنذار قال : حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه . " فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخي . إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل يا أبا الوليد أسمع " . قال : يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ؛ وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ؛ وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . . أو كما قال . .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : " أفرغت يا أبا الوليد " قال : نعم . قال : " فاستمع مني " . قال : أفعل . قال : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما ،

(85/682)

يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد . ثم قال : " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك " فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به "

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالسحر . ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي . . خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه !

قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم .

وقد روى البغوي في تفسيره حديثاً بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي (قال ابن كثير : وقد ضُعف بعض الشيء) عن الزيال بن حرملة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه إلى قوله : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه . وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم . . الخ . .

ثم لما حدثوه في هذا قال : " فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف .

وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب . فخشيت أن ينزل بكم العذاب " . .

(86/682)

فهذه صورة من وقع هذا الإنذار من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قلب رجل لم يؤمن ! ولا نترك هذه الرواية قبل أن نقف وقفة قصيرة أمام صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدب النفس الكبيرة وطمأنينة القلب المؤمن . وهو يستمع من عتبة إلى هذه الخواطر الصغيرة التي يعرضها عليه ، وقلبه مشغول بما هو أعظم ، حتى لتبدو هذه الخواطر الصغيرة التي يعرضها عليه ، وقلبه مشغول بما هو أعظم ، حتى لتبدو هذه الخواطر مقززة تثير

الاشمئزاز : ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقاها حليماً ، ويستمع كريماً ، وهو مطمئن هادئ ودود . لا يعجل عتبة عن استكمال هذه الخواطر الصغيرة . " حتى إذا انتهى قال في هدوء وثبات وسماحة : " أفرغت يا أبا الوليد ؟ " . فيقول : نعم . فيقول : صلى الله عليه وسلم " فاستمع مني " ولا يفاجئه بالقول حتى يقول : أفعل . وعندئذ يتلو صلى الله عليه وسلم في ثقة وفي طمأنينة وفي امتلاء روح قول ربه لا قوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . حم . . . ﴾ . . "

إنها صورة تلقي في القلب المهابة . والثقة . والمودة . والاطمئنان . . ومن ثم كان يملك قلوب سامعيه . . الذين قد يقصدون إليه أول الأمر ساخرين أو حانقين !

صلى الله عليه وسلم . . وصدق الله العظيم : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ونعود بعد هذه الوقفة القصيرة إلى النص القرآني الكريم :

﴿ فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . ﴾ . .

إنها جولة في مصارع الغابرين ، بعد تلك الجولة في ملكوت السماوات والأرض . جولة تهز القلوب المستكبرة برؤية مصارع المستكبرين :

﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ﴾ . .

الكلمة الواحدة التي جاء بها الرسل أجمعين . وقام عليها بنيان كل دين .

﴿ قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة . فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ . .

وهي كذلك الشبهة المتكررة التي ووجه بها كل رسول . وما كان لرسول يخاطب البشر أن يكون إلا من البشر . يعرفهم ويعرفونه . ويجدون فيه قدوة واقعية ، ويعاني هو ما يعانونه . ولكن عادا وثمودا أعلنوا كفرهم برسلهم ، لأنهم بشر لا ملائكة كما كانوا يقترحون !

وإلى هنا أجمل مصير عاد وثمود . وهو واحد . إذ انتهى هؤلاء وهؤلاء إلى الأخذ بالصاعقة . ثم فصل قصة كل منهما بعض التفصيل :

﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق . وقالوا : من أشد منا قوة ؟ ﴾ . .

إن الحق أن يخضع العباد لله ، وألا يستكبروا في الأرض ، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله . فكل استكبار في الأرض فهو بغير حق .

استكبروا واغتروا ﴿ وقالوا : من أشد منا قوة ؟ ﴾ . .

وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة . الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم .

وينسون :

﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ ﴾ . .

إنها بديهة أولية . . إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة . لأنه هو الذي مكن لهم في

هذا القدر المحدود من القوة . ولكن الطغاة لا يذكرون :

﴿ وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ . .

وبينما هم في هذا المشهد يعرضون عضلاتهم ! ويتباهون بقوتهم . إذا المشهد التالي في الآية التالية هو المصرع المناسب لهذا العجب المرذول :

﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات . لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ . .

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم . وإنه الخزي في الحياة الدنيا . الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد . .

ذلك في الدنيا . . وليسوا بمتروكين في الآخرة :

﴿ ولعذاب الآخرة أخزى . وهم لا ينصرون ﴾ . .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ . .

ويظهر أن هذه إشارة إلى اهتدائهم بعد آية الناقة ، ثم ردتهم وكفرهم بعد ذلك . وإيثارهم العمى على الهدى . والضلال بعد الهدى عمى أشد العمى !

﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ . .

والهوان أنسب عاقبة . فليس هو العذاب فحسب ، وليس هو الهلاك فحسب . ولكنه كذلك الهوان جزاء على العمى بعد الإيمان .

﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ . .

وتنتهي الجولة على مصرع عاد وثمود . والإنذار بهذا المصرع المخيف المرهوب .

ويتكشف لهم سلطان الله الذي لا ترده قوة ولا يعصم منه حصن ، ولا يبقى على مستكبر مريد .

والآن وقد كشف لهم عن سلطان الله في فطرة الكون ؛ وسلطان الله في تاريخ البشر ، يطلعهم على سلطان الله في ذوات أنفسهم ، التي لا يملكون منها شيئاً ، ولا يعصمون منها شيئاً من سلطان الله . حتى سمعهم وأبصارهم وجلودهم تطيع الله وتعصيهم في الموقف المشهود ، وتكون عليهم بعض الشهود :

﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين . فإن يصبروا

فالنار مثوى لهم . وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ . .

إنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب . وسلطان الله الذي تطيعه جوارحهم وتستجيب . وهم يوصمون بأنهم أعداء الله . فما مصير أعداء الله ؟ إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيع ! إلى أين ؟ إلى النار ! حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب ، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم في حساب . إن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفتري وتستهزئ .

(89/682)

وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم ، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة ، تروي عنهم ما حسبوه سراً . فقد يستترون من الله . ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنواياهم ، ويتخفون بجرائمهم . ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم . وكيف وهي معهم ؟ بل كيف وهي أبعاضهم ؟ ! وها هي ذي تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين . وعن الله رب العالمين !

يا للمفاجأة بسلطان الله الخفي ، يغلبهم على أبعاضهم فتلبي وتستجيب !

﴿ وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ ﴾ . .

فإذا هي تجبههم بالحقيقة التي خفيت عليهم في غير مواربة ولا مجاملة :

﴿ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ ؟

أليس هو الذي جعل الألسنة هي الناطقة ؟ وإنه لقادر على أن يجعل سواها . وقد أنطق كل شيء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين .

﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ . .

فإليه المنشأ وإليه المصير ، ولا مفر من قبضته في الأول وفي الأخير .

وهذا ما أنكروه بالعقول . وهذا ما تقرره لهم الجلود !

وقد تكون بقية التعليق من حكاية أقوال أبعاضهم لهم . وقد تكون تعقيباً على الموقف العجيب :

﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ . .

فما كان يخطر ببالكم أنها ستخرج عليكم ، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم !

﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ . .

وخدعكم هذا الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم :

﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ . .

ثم يجيء التعقيب الأخير :

﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ . .

يا للسخرية ! فالصبر الآن صبر على النار ؛ وليس الصبر الذي يعقبه الفرج وحسن الجزاء .

إنه الصبر الذي جزاؤه النار قراراً ومثوى يسوء فيه الثواء !

﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ . .

(90/682)

فما عاد هناك عتاب ، وما عاد هناك متاب . وقد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلب من ورائه الصفح والرضى بعد إزالة أسباب الجفاء . فاليوم يغلق الباب في وجه العتاب . لا الصفح والرضى الذي يعقب العتاب !

ثم يكشف لهم كذلك عن سلطان الله في قلوبهم ، وهم بعد في الأرض ، يستكبرون عن الإيمان بالله . فالله قد قيض لهم بما اطلع على فساد قلوبهم قرناء سوء من الجن ومن الأنس ، يزينون لهم السوء ، وينتهون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران ، وحقت عليهم كلمة العذاب :

﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين ﴾ . .

فلينظروا كيف هم في قبضة الله الذي يستكبرون عن عبادته . وكيف أن قلوبهم التي بين

جنوبهم تقودهم إلى العذاب والخسارة وقد قيض الله وأحضر قرناء يوسوسون لهم ، ويزينون لهم كل ما حولهم من السوء ، ويحسنون لهم أعمالهم فلا يشعرون بما فيها من قبح . وأشد ما يصيب الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وانحرافه ، وأن يرى كل شيء من شخصه حسناً ومن فعله ! فهذه هي المهلكة وهذا هو المنحدر الذي ينتهي دائماً بالبوار . وإذا هم في قطيع السوء . في الأمم التي حق عليها وعد الله من قبلهم من الجن والإنس . قطيع الخاسرين ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ .

وكان من تزيين القرناء لهم دفعهم إلى محاربة هذا القرآن ، حين أحسوا بما فيه من سلطان : ﴿ وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ . . كلمة كان يوصي بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها الجماهير ؛ وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم وفي نفوس الجماهير .

(91/682)

﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ . فهو كما كانوا يدعون يسحرهم ، ويغلب عقولهم ، ويفسد حياتهم . ويفرق بين الوالد وولده ، والزوج وزوجه . ولقد كان القرآن يفرق نعم ولكن بفرقان الله بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال . كان يستخلص القلوب له ، فلا تحفل

بوشيجة غير وشيجته . فكان هو الفرقان .

﴿ والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

وهي مهاترة لا تليق . ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان ، ينتهي إلى المهاترة ، عند من يستكبر على الإيمان .

ولقد كانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم كما فعل مالك بن النضر ليصرف الناس عن القرآن . ويلغون بالصياح والهرج . ويلغون بالسجع والرجز . ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن ، لأنه يحمل سر الغلب ، إنه الحق . والحق غالب مهما جهد المبطلون !

ورداً على قولتهم المنكرة يجيء التهديد المناسب :

﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ، ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون . ذلك جزاء أعداء الله النار ، لهم فيها دار الخلد ، جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ .

وسرعان ما نجدهم في النار . وسرعان ما نشهد حنق المخدوعين ، الذين زين لهم قرناؤهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وأغروهم بهذه المهلكة التي انتهى إليها مطافهم :

﴿ وقال الذين كفروا : ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ، نجعلهما تحت أقدامنا ، ليكونا من الأسفلين ﴾ .

إنه الحنق العنيف ، والتحرق على الانتقام : ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ . ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ . وذلك بعد الموادة والمخادنة والوسوسة والتزيين !

هذه صلة . صلة الوسوسة والإغراء . وهناك صلة . صلة النصح والولاء . إنهم المؤمنون . الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا على الطريق إليه بالإيمان والعمل الصالح . إن الله لا يقيض لهؤلاء قرناء سوء من الجن والإنس ؛ إنما يكلف بهم ملائكة يفيضون على قلوبهم الأمن والطمأنينة ، ويبشرونهم بالجنة ، ويتولونهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة :

(92/682)

﴿ إن الذين قالوا : ربنا الله . ثم استقاموا . تتنزل عليهم الملائكة : ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾ .

والاستقامة على قولة : ﴿ ربنا الله ﴾ .

الاستقامة عليها بحقها وحقيقتها . الاستقامة عليها شعوراً في الضمير ، وسلوكاً في الحياة . الاستقامة عليها والصبر على تكاليفها . أمر ولا شك كبير . وعسير . ومن ثم يستحق عند الله هذا الإنعام الكبير . صحبة الملائكة ، وولاءهم ، ومودتهم . هذه التي تبدو فيما حكاه الله عنهم . وهم يقولون لأوليائهم المؤمنين : لا تخافوا . لا تحزنوا . أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ثم يصورون لهم الجنة التي

يوعدون تصوير الصديق لصديقه ما يعلم أنه يسره علمه ورؤيته من حظه المرتقب : لكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . ويزيدونها لهم جمالاً وكرامة : نزلاً من غفور رحيم . فهي من عند الله أنزلكم إياها بمغفرته ورحمته . فأي نعيم بعد هذا النعيم ؟

ويختم هذا الشوط برسم صورة الداعية إلى الله ، ووصف روحه ولفظه ، وحديثه وأدبه . ويوجه إليها رسوله صلى الله عليه وسلم وكل داعية من أمته . وكان قد بدأ السورة بوصف جفوة المدعوين وسوء أدبهم ، وتبجحهم النكير . ليقول للداعية : هذا هو منهجك مهما كانت الأمور :

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إنني من المسلمين ! ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم ﴾ . .

(93/682)

إن النهوض بواجب الدعوة إلى الله ، في مواجهة التواءات النفس البشرية ، وجهلها ، واعتزازها بما ألفت ، واستكبارها أن يقال : إنها كانت على ضلالة ، وحرصها على

شهواتها وعلى مصالحها ، وعلى مركزها الذي قد تهدده الدعوة إلى إله واحد ، كل البشر أمامه سواء .

إن النهوض بواجب الدعوة في مواجهة هذه الظروف أمر شاق . ولكنه شأن عظيم :

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال : إنني من المسلمين ﴾ .

إن كلمة الدعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال في الأرض ، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء . ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة ؛ ومع الاستسلام لله الذي تتوارى معه الذات . فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ .

ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض ، أو بسوء الأدب ، أو بالتبجح في الإنكار . فهو إنما يتقدم بالحسنة . فهو في المقام الرفيع ؛ وغيره يتقدم بالسيئة . فهو في المكان الدون :

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ .

وليس له أن يرد بالسيئة ، فإن الحسنة لا يستوي أثرها كما لا تستوي قيمتها مع السيئة والصبر والتسامح ، والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر ، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة ، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ، ومن الجماح إلى اللين :

﴿ ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ .

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» .

وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات . وينقلب الهياج إلى وداعة .

والغضب إلى سكينة .

والتبجح إلى حياء على كلمة طيبة ، ونبرة هادئة ، وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام !

(95/682)

ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجا وغضبا وتبجحا ومرودا . وخلع حياءه نهائيا ، وأفلت زمامه ، وأخذته العزة بالإثم .

غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد .

وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السماحة أثرها . حتى لا يصور الإحسان في نفس المسيء ضعفا . ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه ، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقا .

وهذه السماحة كذلك قاصرة على حالات الإساءة الشخصية . لا العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين عنها .

فأما في هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها . أو الصبر حتى يقضي اللّه أمرا كان مفعولا .

وهذه الدرجة ، درجة دفع السيئة بالحسنة ، والسماحة التي تستعلي على دفعات الغيظ والغضب ، والتوازن الذي يعرف متى تكون السماحة ومتى يكون الدفع بالحسنى . .

درجة عظيمة لا يلقاها كل إنسان . فهي في حاجة إلى الصبر . وهي كذلك حظ موهوب يتفضل به اللّه على عباده الذين يحاولون فيستحقون :

«وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» . .

إنها درجة عالية إلى حد أن رسول اللّه – صلّى اللّه عليه وسلّم – وهو الذي لم يغضب لنفسه قط وإذا غضب للّه لم يقم لغضبه أحد . قيل له – وقيل لكل داعية في شخصه – :

«وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» . .

(6124/1)

فالغضب قد ينزغ . وقد يلقي في الروع قلة الصبر على الإساءة . أو ضيق الصدر عن السماحة . فالاستعاذة باللّه من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية ، تدفع محاولاته ، لاستغلال الغضب ، والنفاذ من ثغرته .

إن خالق هذا القلب البشري ، الذي يعرف مداخله ومساربه ، ويعرف طاقته واستعداده

، ويعرف من أين يدخل الشيطان إليه ، يحوط قلب الداعية إلى اللّه من نزغات الغضب . أو نزغات الشيطان . مما يلقاه في طريقه مما يثير غضب الحليم .

(96/682)

إنه طريق شاق . طريق السير في مسارب النفس ودروبها وأشواكها وشعابها ، حتى يبلغ الداعية منها موضع التوجيه ونقطة القياد ! ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3122.3107 ﴾

(97/682)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(40) ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . . . . *)

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذا النص القرآني المعجز جاء في مطلع الثلث الأخير من سورة فصلت وهي سورة مكية , وآياتها أربع وخمسون , ويدور محورها الرئيسي حول القرآن الكريم وعن كونه هدي وشفاء للمؤمنين , علي الرغم من صد المشركين والكافرين عنه , وعن دعوته الرئيسية إلي توحيد الله والاستقامة علي هديه .

وقد استهلت السورة بقول الحق (تبارك وتعالي) :

حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (فصلت : 1 - 3)

وحم من الحروف المقطعة التي افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم , والتي تضم أسماء نصف عدد حروف الهجاء الثمانية والعشرين , والتي تعتبر من أسرار القرآن علي الرغم من المحاولات العديدة التي بذلت من أجل تفسير دلالاتها .

وبعد هذا الاستهلال , تحدثت السورة عن أن القرآن الكريم هو تنزيل من الله الرحمن الرحيم , وأنه كتاب فصلت آياته أي : ميزت لفظا ومعني , وأنه أنزل بلسان عربي ليخاطب العرب في المقام الأول , وليحمله العرب إلي غيرهم من الأمم , وقد يحتج نفر من غير العرب علي إنزاله بالعربية , ولو أنه أنزل بأية لغة أخري لأثير نفس التساؤل : لماذا أنزل بهذه اللغة

دون غيرها ؟

ويرد عليهم ربنا (تبارك وتعالي) في نفس السورة بقوله (عز من قائل) :

ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته . . .

وتركز السورة علي القرآن الكريم مؤكدة أنه كلام الله الذي أنزله بشيرا ونذيرا , ووصفه بقوله : . . وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (فصلت 41 و 42)

وبينت السورة موقف كل من

المؤمنين والمشركين من هذا الكتاب العزيز , وأمرت رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بالتأكيد علي بشريته , واصطفائه للنبوة وللرسالة ولتلقي الوحي من الله , وتبليغه للناس كافة في دعوة سماوية إلي التوحيد الخالص لله الخالق (بغير شريك ولاشبيه ولامنازع) والتحذير من الوقوع في جريمة الشرك بالله , والتأكيد علي عواقبها الوخيمة في الدنيا والآخرة , واستشهدت السورة الكريمة بعدد من آيات الله في الكون علي تفرد الخالق (سبحانه وتعالي) بالألوهية والربوبية والوحدانية , وعلي طلاقة قدرته في إبداع خلقه ,

ووظفت كل ذلك في إثبات قدرته (تبارك اسمه) علي الإفناء وإعادة الخلق والبعث من جديد .

وتنذر سورة فصلت المعرضين عن دين الله بعقاب من مثل عقاب قوم عاد وثمود , وعقاب غيرهم من الأمم التي قد خلت من قبلهم من كل من الجن والإنس , وتذكر ببعض مشاهد العذاب في الآخرة , ومن أخطرها حوار الخاطئين مع جوارحهم التي سوف تشهد عليهم وعلي جرائمهم التي ارتكبوها في حياتهم الدنيا , وحوار المشركين مع من أشركوا بهم . . . . . ! !

كما تتحدث السورة الكريمة عن عدد من المبشرات للمؤمنين الذين آمنوا بالله ربا , وبالإسلام دينا , وبسيدنا محمد (صلي الله عليه وسلم) نبيا ورسولا , واستقاموا علي منهج الله , ومنها أن الملائكة تتنزل عليهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة , وفي لحظات الموت وسكراته , وفي أثناء حشرجة الصدر , وخروج الروح : مطمئنة إياهم برضاء الله عنهم , ومغفرته لهم , ورحمته بهم , ومبشرة بالنعيم المقيم الذي ينتظرهم إن شاء الله تعالي .

وتقارن السورة الكريمة بين أحوال كل من المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة , وتتحدث عن شيء من أخلاق الدعاة إلي الله , وأساليبهم في الدعوة إليه , كما تمايز بين كل من الخير والشر , والحسنة والسيئة , وتؤكد أنهما لايستويان أبدا , وتثبت رسول الله (صلي الله عليه

وسلم) بأن من قبله من الأنبياء والمرسلين قد جوبهوا بمثل ما قوبل به من الكفار والمشركين , وتطمئنه بأن الله (تعالي) هو صاحب المغفرة وهو في الوقت نفسه ذو عقاب أليم . . . . , وأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها . . وأن الله (تعالي) ليس بظلام للعبيد , وأنه (تعالي) يرد إليه علم الساعة , وعلم كل شيء , وهو (سبحانه) علام الغيوب , وتخلص إلي الحديث عن شيء من طبائع النفس الإنسانية , وتختتم بهذا الوعد الإلهي القاطع :

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد * ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط (فصلت : 53 و 54)

وفي هاتين الآيتين الكريمتين من التأكيد القاطع بأن مستقبل الإنسانية سوف يري من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس ما يشهد علي صدق القرآن الكريم , وأن جدل الكافرين حول قضية البعث وشكهم في إمكانية وقوعه نابع من سقوطهم في خطأ القياس علي الله (تعالي) بقدرات الإنسان المحدودة مما دفعهم إلي ما هم فيه من كفر وضلال . . . ! !

ومن الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة فصلت مايلي :

(1) خلق الأرض في يومين (أي علي مرحلتين) .

(2) خلق الجبال .

(3) مباركة الأرض بتهيئتها للعمران , وتقدير أقواتها فيها في أربعة أيام (أي : أربع مراحل شاملة المرحلتين السابقتين) .

(4) إتمام بناء الكون بجعل السماوات سبعا , كما أن الأراضين سبع , وتزيين السماء الدنيا بالنجوم , وجعلها حفظا لها .

(5) عقاب الكافرين من قوم عاد بريح صرصر عاتية .

(6) عقاب الكافرين من قوم ثمود بالصاعقة والطاغية .

(7) شهادة كل من سمع وأبصار وجلود الكافرين علي جرائمهم التي ارتكبوها في الحياة الدنيا .

(8) قدرة الله (تعالي) علي إنطاق كل شيء .

(9) تبادل كل من الليل والنهار مما يشير إلي دوران الأرض حول محورها .

(10)

حركات كل من الشمس والقمر .

(11) اهتزاز الأرض وربوها (أي انتفاخها وارتفاعها إلي أعلي) بمجرد نزول الماء عليها , وذلك لكي ترق رقة شديدة فتنشق لتفسح طريقا سهلا آمنا للنبتة الطرية (السويقة) المنبثقة من داخل البذرة النابتة , وتشبيه هذا الإحياء للأرض بإحياء الموتي , وإنبات كل من عجب ذنبة كما تنبت البقلة من حبتها طبقا لحديث رسول الله (صلي الله عليه وسلم) .

(12) رد علم الساعة وعلم كل شيء إلي الله تعالي .

(13) الوعد المستقبلي بأن الله (تعالي) سوف يري الإنسان من آيات الخلق في الآفاق والأنفس مايشهد بصدق كل ماجاء بالقرآن الكريم .

(14) التأكيد علي أن من أسباب كفر الكافرين شكهم في إمكانية حدوث البعث لقياسهم علي الله (تعالي) بمقاييس البشر , والتأكيد علي أن الله محيط بكل شيء .

وسوف أقصر حديثي هنا علي تبادل كل من الليل والنهار وأبدأ بأقوال المفسرين السابقين في تلك القضية .

أقوال المفسرين

في قول الحق (تبارك وتعالي) :

أ- صورة من سفينة الفضاء جاليليو لكل من الأرض والقمر فى وسط ظلمة الكون ويرى

نصف كل منهما المواجه للشمس منيرا والنصف الآخر غارقا فى ظلام دامس

ب.أحد رواد الفضاء يسبح فى ظلمة الكون ويرى طبقة نور النهار على سطح الأرض خطا رفيعا ازرق (200 كم)

ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون (فصلت : 37)

(101/682)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) مانصه : يقول تعالي منبها خلقه علي قدرته العظيمة , وأنه الذي لانظير له وأنه علي مايشاء قدير :(ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) أي أنه خلق الليل بظلامه , والنهار بضيائه (نوره) , وهما متعاقبان لايفتران , والشمس وإشراقها والقمر وضياءه (ونوره) وتقدير منازله في فلكه , واختلاف سيره في سمائه , ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار , والشهور والأعوام , ويتبين بذلك حلول أوقات العبادات والمعاملات , ثم لما كانت الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة . . . , نبه تعالي علي أنهما مخلوقان عبدان من عبيده , تحت قهره وتسخيره فقال :(لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) أي :

ولاتشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره , فإنه لايغفر أن يشرك به . . . .

وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) مانصه : وهذه الآيات معروضة للأنظار , يراها العالم والجاهل , ولها في القلب البشري روعة مباشرة , ولو لم يعلم الإنسان شيئا عن حقيقتها العلمية . فبينها وبين الكائن البشري صلة أعمق من المعرفة العلمية , بينها وبينه هذا الاتصال في النشأة , وفي الفطرة , وفي التكوين , فهو منها وهي منه , تكوينه تكوينها , ومادته مادتها , وفطرته فطرتها , وناموسه ناموسها , وإلهه إلهها . . فهو من ثم يستقبلها بحسه العميق في هزة وإدراك مباشر لمنطقها العريق ! !

لهذا يكتفي القرآن غالبا بتوجيه القلب إليها , وإيقاظه من غفلته عنها , هذه الغفلة التي ترد عليه من طول الألفة تارة , ومن تراكم الحواجز والموانع عليه تارة , فيجلوها القرآن عنه , لينتفض جديدا حيا يقظا يعاطف هذا الكون الصديق , ويتجاوب معه بالمعرفة القديمة العميقة الجذور .

(102/682)

وصورة من صور الانحراف تلك التي تشير إليها الآية هنا . فقد كان قوم يبالغون في الشعور بالشمس والقمر شعورا منحرفا ضالا فيعبدونهما باسم التقرب إلي الله بعبادة أبهي

خلائقه ! ! فجاء القرآن ليردهم عن هذا الانحراف , ويزيل الغبش عن عقيدتهم المدخولة ويقول لهم : إن كنتم تعبدون الله حقا فلا تسجدوا للشمس ولا للقمر (واسجدوا لله الذي خلقهن) فالخالق هو وحده الذي يتوجه إليه المخلوقون أجمعون . والشمس والقمر مثلكم يتوجهان إلي خالقهما فتوجهوا معهم إلي الخالق الواحد الذي يستحق أن تعبدوه , ويعيد الضمير عليهما مؤنثا مجموعا (خلقهن) باعتبار جنسهما وأخواتهما من الكواكب والنجوم , ويتحدث عنهن بضمير المؤنث العاقل ليخلع عليهن الحياة والعقل , ويصورهن شخوصا ذات أعيان ! ! .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (علي كاتبه من الله الرضوان) أن في هذه الآية الكريمة ردا قاطعا علي عبدة الشمس والقمر , كالصابئة الذين يعبدون الكواكب .

وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبه خيرا) مانصه : . . . ومن علاماته الدالة علي وحدانيته وقدرته تعاقب الليل والنهار , وتذليل الشمس والقمر , مسخرين لمصالح البشر ! .

الليل والنهار في القرآن الكريم

جاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنتين وتسعين مرة , منها ثلاثة وسبعون بلفظ (الليل) , ومرة واحدة بلفظ (ليل) , وثماني مرات بلفظ (ليلة) , وخمس مرات بلفظ (ليلا) , وثلاث مرات بلفظ (ليال) , ومرة واحدة بكل من اللفظين (ليلها) و (ليالي) .

وفي المقابل جاء ذكر النهار في القرآن الكريم سبعة وخمسين مرة منها أربع وخمسون بلفظ (النهار) , وثلاث مرات بلفظ (نهارا) ,

كما وردت ألفاظ (الصبح) و (الإصباح) , و (الفلق) , و (بكرة) ومشتقاتها بمدلول النهار في آيات أخري عديدة , كما جاءت كلمة (يوم) أحيانا بمعني النهار في عدد من آيات القرآن الكريم

(103/682)

وفي هذه الآيات يمن علينا ربنا (تبارك وتعالي) بتبادل الليل والنهار ويعتبرهما من آياته الكبري لأن في ذلك استقامة للحياة علي الأرض , وعونا للإنسان علي تحديد الزمن , والتأريخ للأحداث المتتالية . . . , وبدون هذا التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير تتوقف الحياة علي الأرض , ويتلاشي إحساس الإنسان بمرور الزمن , وتتوقف قدرته علي متابعة الأحداث والتأريخ لها .

والليل والنهار آيتان كونيتان عظيمتان من آيات الله في الخلق تشهدان علي دقة بناء الكون , وعلي انتظام حركة الأرض حول محورها المائل بقدر محدد , وبدقة فائقة , في مدار محدد حول الشمس , وما يستتبعه ذلك من تحديد لسنة الأرض , وتبادل للفصول المناخية ,

ومرور للشهور , والأسابيع , والأيام , وتعاقب الليل والنهار علي نصفي الأرض .

ويحدد سنتنا دورة كاملة للأرض في مدارها حول الشمس , ويقسمها إلي إثني عشر شهرا دورة القمر حول الأرض دورة كاملة في كل شهر , كما يمكن تحديد كل شهر من تلك الشهور بواسطة البروج التي تتراءي للناظر من فوق سطح الأرض مع جريها في مدارها حول الشمس , كما تحدد منازل القمر كلا من الأسابيع , والأيام بدقة فائقة , ويحدد اليوم تعاقب كل من الليل والنهار بانتظام دقيق , وإحكام بالغ , وتحدد المزولة أوقات اليوم من طلوع الشمس إلي غروبها . علي ذلك فإن السنة الهجرية (الإسلامية) هي سنة شمسية قمرية , ويشير إلي ذلك قول ربنا (تبارك وتعالي) :

ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . . . .

(فصلت : 37)

تبادل الليل والنهار في منظور العلوم الكونية

إن التبادل المنتظم بين الليل المظلم والنهار المنير علي نصفي الكرة الأرضية هو من الضرورات اللازمة للحياة الأرضية , ولاستمرارية وجودها بصورها المختلفة حتي يرث الله (تعالي) الأرض ومن عليها , فبهذا التبادل بين الظلمة والنور يتم التحكم في توزيع

مايصل إلي الأرض من الطاقة الشمسية , وبالتالي يعين علي التحكم في درجات الحرارة , والرطوبة , وكميات الضوء في مختلف البيئات الأرضية , كما يعين علي التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية وغير الحياتية من مثل التنفس والأيض في كل من الإنسان والحيوان , وعمليات النتح والتمثيل الضوئي في النباتات , كما يتم ضبط التركيب الكيميائي للغلافين الغازي والمائي المحيطين بالأرض , وضبط الكثير من دورات النشاط الأرضي من مثل دورة الماء بين الأرض والطبقات الدنيا من غلافها الغازي , وحركات الرياح والسحاب في هذا الغلاف , وتوزيع نزول المطر منه (بتقدير من الله) , كما تتم دورة تعرية الصخور بتفتيتها , ونقل هذا الفتات أو إبقائه في مكانه , من أجل تكوين التربة , أو الرسوبيات والصخور الرسوبية ومابها من خيرات أرضية .

وبالإضافة إلي ذلك فإن في اختلاف الليل المظلم والنهار المنير تقسيما لليوم الأرضي إلي فترة للحركة والعمل والنشاط , وفترة للراحة والاستجمام والسكون , فالإنسان - علي سبيل المثال - محتاج إلي السكينة بالليل كي يخلد فيه إلي شيء من الراحة النفسية بالعبادة والتفكر , والراحة البدنية بالاسترخاء والنوم والإغفاء حتي يستعيد كلا من نشاطه البدني والذهني , ويستجمع قواه فيتهيأ للعمل بالنهار التالي وما يتطلبه ذلك من القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض , وقد ثبت علميا أن أفضل النوم يكون بالليل , وأقله فائدة هو نوم

النهار (فيما عدا فترة القيلولة) , كما ثبت أن كثرة النوم بالنهار تؤثر في نشاط الدورة الدموية في جسم الإنسان , وتتهدده بالتيبس في العضلات , وتؤدي إلي تراكم الدهون , وزيادة الوزن , وإلي العديد من صور التوتر العصبي والقلق النفسي , وربما كان من مبررات التوجيه الرباني بالنوم بالليل والنشاط بالنهار , أن طبقات الحماية التي أوجدها ربنا (تبارك وتعالي) في الغلاف الغازي للأرض , ومن أهمها

النطق المتأينة (Ionospheres)

(105/682)

ومابها من أحزمة الإشعاع (RadiationBelts)

تتمدد بالنهار فتزداد قدراتها علي حماية الحياة الأرضية مما يسمح للانسان بالحركة والنشاط دون مخاطر , وهذه النطق تنكمش انكماشا ملحوظا بالليل مما يقلل من قدراتها علي الحماية فينصح الإنسان بالركون إلي النوم والراحة حماية له من تلك المخاطر , وفي ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالي) :

وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا (النبأ :11,10)

وقال (عز من قائل) :

فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم

(الأنعام :96)

وقال (تبارك اسمه):

هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون

(يونس :67)

وقال (سبحانه):

ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون

(النمل :86)

وقال (تعالي):

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلي يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (القصص : 71.73)

وقال (سبحانه وتعالي):

الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل علي الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون *(غافر : 61)

ثم إن التبادل بين الليل المظلم , والنهار المنير , يحدد لنا يوم الأرض , ويعيننا علي إدراك الزمن , وعلي تحديد الأوقات بدقة وانضباط ضروريين للقيام بمختلف الأعمال , ولأداء كل العبادات , وإنجاز كافة المعاملات , والوفاء بمختلف العهود والمواثيق والعقود , وغير ذلك من النشاطات الإنسانية , وإن هذه النعمة لهي بحق من نعم الله (تعالي) علي الإنسان في هذه الحياة , وعلي كافة

(106/682)

الأحياء الأرضية من حوله , لأنه بدونها لاتستقيم الحياة علي الأرض , ولايستطيع الإنسان أن يميز ماضيا من حاضر أو مستقبل , وبالتالي فإنه بدونها لابد وان تتوقف مسيرة الحياة . . . . ! ! !

من هنا كان التدبر في ظاهرة تعاقب الليل والنهار دعوة إلي الخلق كافة للإيمان بالله , وإدراك شيء من بديع صنعه في هذه الحياة , ومن هنا أيضا جاءت الآية الكريمة التي نحن بصددها , وغيرها من الآيات التي تشير إلي تبادل الليل والنهار في صياغة معجزة ـ شأنها في ذلك شأن كل آيات القرآن الكريم ـ ومن جوانب ذلك الإعجاز إشارتها إلي أعداد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم , ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك مما

يجزم بأنه لايمكن أن يكون صناعة بشرية , بل هو كلام الله الخالق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة الحقة , والرسالة الخاتمة .

الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار

(1) التأكيد علي كروية الأرض : فإن تبادل الليل والنهار علي نصفي الارض وتعاقبهما وإيلاج كل منهما في الآخر , واختلافهما , وتقليبهما , وإدبار أحدهما وسفور الآخر , واغشاء نور النهار بحلكة الليل , وتجلية حلكة الليل بنور النهار , وتكوير الليل علي النهار , وتكوير النهار علي الليل , كل ذلك إشارات ضمنية رقيقة إلي كروية الأرض , فلو لم تكن الأرض كرة ما أمكن حدوث شيء من ذلك أبدا , وأبسطه تبادل الليل والنهار علي نصفي الأرض .

هذه الحقيقة العلمية جاء بها القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين في وقت ساد فيه الاعتقاد باستواء الأرض كل الناس , علي الرغم من اثبات عدد من قدامي المفكرين غير ذلك .

ونزول الآيات القرآنية العديدة بهذه الحقيقة الكونية الثابتة في الجزيرة العربية التي كانت ـ في ذلك الوقت القديم ـ بيئة بدوية بسيطة , ليس لها أدني حظ

من المعرفة العلمية ومناهجها ولا بالكون ومكوناته لمما يقطع بأن القرآن الكريم لايمكن أن يكون صناعة بشرية , بل هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته , والذي هو أدري بصنعته من كل من هم سواه , وأن سيدنا ونبينا محمدا (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض .

(2) التأكيد علي دوران الأرض حول محورها أمام الشمس :

فلو لم تكن الأرض كروية , ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار , وهذا الدوران عبرت عنه الآيات القرآنية في أكثر من عشرين آية صريحة , بتعبيرات ضمنية رقيقة , ولكنها مصاغة صياغة علمية دقيقة , تبلغ من الدقة والشمول والكمال مالم يبلغه العلم الحديث منها :

إيلاج الليل في النهار , وإيلاج النهار في الليل , واختلافهما , وتعاقبهما , وتقليبهما , وإدبار أحدهما وإقبال الآخر , وإغشاء النهار بالليل , وتجلية الليل بالنهار , وتكوير الليل علي النهار , وتكوير النهار علي الليل , وجعل كل منهما خلفة للآخر , وسريان الليل وعسعسته , بعد إظلامه وسجوه , وإسفار الصبح وتنفسه وطلوع ضحاه وتجليه بعد إغشاء الليل وإظلامه (آل عمران :27, الرعد :3, الحج :61, المؤمنون :80, النور :44, الفرقان :62, لقمان :29, الجاثية :3 ـ 5, الحديد :6, المدثر :33 ـ 35, التكوير :17 ـ

19, الفجر :4, الليل :2,1, الضحي :2,1)

وقد أنزلت هذه الآيات مؤكدة حقيقة دوران الأرض حول محورها في وقت ساد فيه الاعتقاد بثبات الأرض ورسوخها , بمعني عدم دورانها أو تحركها , وهو أمر معجز للغاية .

(3) التأكيد علي أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في المراحل الأولي لخلق الكون كانت أعلي من سرعتها الحالية :

وهذه الحقيقة لم يتوصل العلم المكتسب من إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين , وقد سبقها

(108/682)

القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرنا وذلك بالاشارة إلي هذه الحقيقة في قول الحق (تبارك وتعالي) :

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوي علي العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين (الأعراف :54)

وإغشاء النهار بالليل جاء في القرآن الكريم أربع مرات (الأعراف :54, الرعد :3,

الشمس : 1 ـ 4, الليل : 2,1), والمرة الوحيدة التي جاءت فيها الصفة : يطلبه حثيثا أي سريعا , هي هذه الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف لأنها تتحدث عن بداية خلق السماوات والأرض , وهي حقيقة مدونة في هياكل الحيوانات , وأخشاب النباتات بدقة بالغة , ولم يكن لأحد من الخلق إلمام بأية فكرة عنها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين حين اكتشف العلماء أن تبادل الليل والنهار كان يتم في العقود الجيولوجية القديمة بسرعة فائقة جعلت من عدد الأيام في السنة عند بدء الخلق أكثر من ألفي يوم , وجعلت من طول الليل والنهار معا أقل من أربع ساعات , وكان إبطاء سرعة دوران الأرض حول محورها بمعدل جزء من الثانية في كل قرن من الزمان آية من آيات الله في إعداد الأرض لاستقبال الحياة , لأن صور الحياة ـ وفي مقدمتها الإنسان ـ ما كان ممكنا أن تتلاءم مع هذه السرعات الفائقة لدوران الأرض ولا لقصر طول كل من الليل والنهار .

(4) التأكيد علي سبح الأرض في مدارها حول الشمس :

يعبر القرآن الكريم عن الأرض في عدد من آياته بالليل والنهار كما جاء في قول الحق (تبارك وتعالي) :

وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون *(الأنبياء : 33)

وفي قوله (عز من قائل) :

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (يس

(40:

وذلك لأن كلا من الليل والنهار عبارة عن ظرف زمان , وليس جسما ماديا , ولابد

(109/682)

للزمان من مكان يظهر فيه , والمكان في هذه الحالة هو كوكب الأرض الذي يقتسم الليل نصفه , والنهار النصف الآخر في حركة دائبة , وتبادل مستمر , ولو لم تكن الأرض كروية , ولو لم تكن تدور حول محورها أمام الشمس لما تبادل سطحها الليل والنهار في تعاقب مستمر , ولولا جري الأرض في مدارها حول الشمس ما تغيرت البروج , ولو لم تكن الأرض مائلة بمحور دورانها علي دائرة البروج بزاوية مقدارها 66,5 درجة تقريبا ما تبادلت الفصول , ولولا علم الله بجهل الناس لتلك الحقائق في الأزمنة السابقة لأنزل الحقيقة الكونية بلغة صادعة , قاطعة , ولكن لكي لايفزع الخلق في وقت تنزل القرآن الكريم أشار إلي جري الأرض في مدارها المحدد لها حول الشمس يسبح كل من الليل والنهار , والسبح لايكون إلا للأجسام المادية في وسط أقل كثافة منها , فالسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم المادي بحركة ذاتية فيه من مثل حركات كل من الأرض والقمر والشمس وغيرها من أجرام السماء كل في مداره وحول جرم أكبر منه , ويؤكد هذا الاستنتاج صيغة الجمع كل في فلك

يسبحون التي جاءت في الآيتين , لأنه لو كان المقصود بالسبح الشمس والقمر فحسب لجاء التعبير بالتثنية وكلاهما يسبحان .

(5) التأكيد علي الرقة الشديدة لطبقة النهار في الغلاف الغازي لنصف الأرض المواجه للشمس :

وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا بعد ريادة الفضاء , في منتصف الخمسينات وأوائل الستينات من القرن العشرين , وقد سبق القرآن الكريم هذا الكشف العلمي بأربعة عشر قرنا وذلك في قول الحق (تبارك وتعالي) :

وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون (يس : 37)

وهذه الآية الكريمة تؤكد أن الأصل في الكون الظلام , وأن طبقة النهار في الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس , والتي تتحرك باستمرار لتحل محل ظلام الليل بإشراق الفجر , هي طبقة بالغة الرقة لايكاد سمكها أن يتعدي المائتي كيلو

(110/682)

متر فوق مستوي سطح البحر , وإذا نسبنا هذا السمك إلي المسافة بين الأرض والشمس وهي مقدرة بحوالي المائة وخمسين مليون كيلو متر كانت النسبة واحدا إلي سبعمائة

وخمسين ألفا تقريبا

(200كم /150,000,000كم =1/750,000 تقريبا)

وإذا نسبناه إلي نصف قطر الجزء المدرك من الكون و , المقدر بأكثر من اثني عشر بليون (ألف مليون) سنة ضوئية أختفت هذه النسبة تماما أو كادت , ومن هنا تتضح ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار , كما يتضح عدم استقرارها لانتقالها باستمرار من نقطة إلي أخري علي سطح الأرض مع دورانها حول محورها أمام الشمس , ويتضح كذلك أن تلك الطبقة الرقيقة من نور النهار تحجب عنا ظلام الكون الخارجي , لأن الذين تعدوا طبقة النهار من رواد الفضاء رأوا الشمس في منتصف النهار قرصا أزرق في صفحة سوداء , وبهذه المعلومات التي اكتشفت منذ أقل من نصف قرن تتضح روعة تشبيه القرآن الكريم انسلاخ نور النهار عن ظلمة كل من الليل والكون بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها , وهذا يؤكد أن الظلمة هي الأصل في هذا الكون , وأن النهار ليس إلا ظاهرة , نورانية , عارضة , رقيقة جدا , لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي في نصفه المواجه للشمس , وبواسطة دوران الأرض حول محورها أمام ذلك النجم ينسلخ النهار تدريجيا أمام ظلمة ليل الأرض , والتي تلتقي بظلمة السماء .

وتجلي النهار علي الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض بهذا النور الأبيض المبهج هو من نعم الله الكبري علي عباده , ويفسرها تشتت ضوء الشمس بانعكاساته المتكررة علي

هباءات الغبار وعلي جزيئات كل من بخار الماء والهواء العالقة بالغلاف الغازي القريب من الأرض (والتي تثيرها الرياح من سطح الأرض) وبعد تجاوز المائتي كيلو متر فوق سطح البحر يبدأ الهواء في التخلخل لتضاؤل تركيزه , وتناقص كثافته باستمرار مع الارتفاع , وندرة كل من جسيمات الغبار ,

(111/682)

وبخار الماء فيه حتي تتلاشي ولذلك تبدو شمسنا كما يبدو غيرها من نجوم السماء الدنيا بقعا زرقاء باهتة , في بحر غامر من ظلمة الكون .

(6) التأكيد علي دقة الحساب الزمني بواسطة كل من الليل والنهار والشمس والقمر :

من المعروف أن السنة الهجرية هي سنة شمسية / قمرية , لأن هذه السنة تحددها دورة الأرض حول الشمس دورة كاملة تتمها في 365.25 يوما تقريبا , وأن هذه السنة تقسم إلي اثني عشر شهرا بواسطة دوران القمر حول الأرض , كما يقسم الشهر إلي أسابيع وأيام وليال بنفس الواسطة , وقد تقسم الشهور بواسطة البروج التي تمر بها الأرض في أثناء جريها في مدارها حول الشمس , كما تدرك الأيام بتبادل كل من الليل والنهار , ويقسم النهار إلي وحدات أصغر بواسطة المزولة الشمسية , ومن هنا كان القسم القرآني بالليل والنهار

والشمس والقمر في خمس آيات (الأنعام :96, إبراهيم :33, النحل :12, الأنبياء :33, فصلت :37) .

(7) الإشارة إلي أن ليل الأرض كان في بدء الخلق ينار بعدد من الظواهر الكونية :

وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :

وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا (الإسراء :12)

ويستشف من هذه الآية أن ظاهرة الشفق القطبي وأطيافه

(AuroraandAuroralSpectra)

والتي تعرف أيضا باسم ظاهرة الأنوار القطبية (Polarlights)

أو باسم ظاهرة فجر الليل القطبي (PolarNight ص sDawn),

وهي ظاهرة نورانية تري بالليل في سماء المناطق القطبية وحول القطبية , وتتكون نتيجة لارتطام الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الجزء المدرك من الكون (علي هيئة الجسيمات الأولية للمادة) بالغلاف الغازي للأرض مما يؤدي إلي تأينه , وإصدار أشعة كونية ثانوية , ونتيجة لذلك تتصادم الأشعات بشحناتها الكهربية المختلفة مع كل من أحزمة الإشعاع

ونطق التأين في الغلاف الغازي للأرض وتفريغ شحناتها فتوهجها , والجسيمات الأولية للمادة متناهية في الدقة , وتحمل شحنات كهربية عالية , وتتحرك بسرعات تقترب من سرعة الضوء ولم تكتشف إلا في سنة 1936 م .

والأشعة الكونية تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسين فتؤدي إلي تأين الغلاف الغازي للأرض , ومن ثم إلي توهجه , ومن الثابت علميا أن نطق الحماية المتعددة في الغلاف الغازي للأرض من مثل نطاق الأوزون , ونطق التأين , وأحزمة الإشعاع , والنطاق المغناطيسي للأرض لم تكن موجودة في بدء خلق الأرض , ولذلك فقد كانت الأشعة الكونية تصل إلي المستويات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض فتؤدي إلي توهجه ليلا حول كافة الأرض , وبعد تكون نطق الحماية المختلفة أخذت هذه الظاهرة في التضاؤل التدريجي حتي اختفت , فيما عدا مناطق محدودة حول القطبين , تبقي شاهدة علي أن ليل الأرض في المراحل الأولي من خلقها كان يضاء بوهج لايقل في شدته عن نور الفجر الصادق فسبحان الذي أنزل من قبل أربعة عشر قرنا قوله الحق علي لسان نبيه الخاتم :

وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل , وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب (الإسراء :12)

هذه الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار بدءا بتأكيد كروية الأرض , ثم دورانها حول محورها , وتباطؤ هذا الدوران مع الزمن , وجريها في مدارها المحدد حول الشمس , والرقة الشديدة لطبقة النهار , والدقة الفائقة لحساب الزمن بواسطة تتابع كل من الليل والنهار والشمس والقمر , وأن ليل الأرض كان يضاء في بدء الخلق بوهج لايقل في شدته عن نور الفجر الصادق , وأن من بقايا هذا الوهج القديم ظاهرة الفجر القطبي .

هذه الشواهد لم يصل الإنسان إلي إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين , وورودها في كتاب

(113/682)

الله الذي أنزل علي نبي أمي (صلي الله عليه وسلم) في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين , ومن قبل أربعة عشر قرنا لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخاتم والخالد , وأن النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , ولذلك وصفه ربه (سبحانه وتعالي) بقوله :

وما ينطق عن الهوي * إن هو إلا وحي يوحي * علمه شديد القوي (النجم :3-5) .

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(114/682)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر بعض آيات السماء لشرفها ، ولأن بعضها عبد ، ومن آثار الإلهية ، فذكر دلالتها على وحدانيته اللازم منه إبطال عبادتها ، أتبعه بعض آيات الأرض بخلاف ما في يس ، فإن السياق هناك للبعث وآيات الأرض أدل فقال : ﴿ ومن آياته ﴾ أي الدالة على عظم شأنه وعلو سلطانه ﴿ أنك ترى الأرض ﴾ أي بعضها بحاسة البصر وبعضها بعين البصيرة قياساً

على ما أبصرته ، لأن الكل بالنسبة إلى القدرة على حد سواء .

ولما كان السياق للوحدانية ، عبر بما هو أقرب إلى حال العابد بخلاف ما مضى في الحج فقال : ﴿ خاشعة ﴾ أي يابسة لا نبات فيها فهي بصورة الذليل الذي لا منعة عنده لأنه لا مانع من المشي فيها لكونها متطأمنة بعد الساتر لوجهها بخلاف ما إذا كانت مهتزة رابية متزخرفة تختال بالنبات .

ولما كان إنزال الماء مما استأثر به سبحانه ، فهو من أعظم الأدلة على عظمة الواحد ، صرف القول إلى مظهر العظمة فقال : ﴿ فإذا أنزلنا ﴾ بما لنا من القدرة التامة والعظمة ﴿ عليها الماء ﴾ من الغمام أو سقناه إليها من الأماكن العالية وجلبنا به إليه من الطين ما تصلح به للانبات وإن كانت سبخة كأرض مصر ﴿ اهتزت ﴾ أي تحركت حركة عظيمة كثيرة سريعة ، فكانت كمن يعالج ذلك بنفسه ﴿ وربت ﴾ أي تشققت فارتفع ترابها وخرج منها النبات وسما في الجو مغطياً لوجهها ، وتشعبت عروقه ، وغلظت سوقه ، فصار يمنع سلوكها على ما كان فيه من السهولة ، وصار بحسن زيه بمنزلة المختال في أثواب ثرية بعد أن كان عارياً ذليلاً في أطمار رثة وحل زرىء وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما ألمت به من الذنوب أقبل الحق سبحانه عليها فطهرها بمياه المعارف فظهرت فيها بركات الندم وعفا عن أربابها ما قصروا في صدق القدم وأشرقت بحلى الطاعات وزهت بملابس القربات ، وزكت بأنواع التجليات .

ولما كان هذا دليلاً مشاهداً على القدرة على إيجاد المعدوم ، وإعادة البالي المحطوم ، أنتج ولا بد قوله مؤكداً لأجل ما هم فيه من الإنكار صارفاً القول عن مظهر العظمة إلى ما ينبه على القدرة على البعث ولا بد : ﴿ إن الذي أحياها ﴾ بما أخرج من نباتها الذي كان بلي وتحطم وصار تراباً ﴿ لمحيي الموتى ﴾ كما فعل بالنبات من غير فرق .

ولما كانوا مع إقرارهم بتمام قدرته كأنهم ينكرون قدرته لإنكارهم البعث قال معللاً مؤكداً : ﴿ أنه على كل شيء قدير ﴾ لأن الممكنات متساوية الأقدام بالنسبة إلى القدرة ، فالقادر قدرة تامة على شيء منها قادر على غيره .

ولما بين أن الدعوة إلى الله أعظم المناصب ، وأشرف المراتب ، وبين أنها إنما تحصل ببيان دلائل التوحيد التي من اعظمها البعث ، وبينه إلى أن كان بهذا الحد من الوضوح ، كان مجز التهديد من أعرض عن قبوله : فقال في عبارة عامة له ولغيره ، مؤكداً تنبيهاً على أن فعلهم فعل من يظن أنه سبحانه لا يطلع على أعماله : ﴿ إن الذين يلحدون ﴾ أي يميلون بصرف المعاني عن القصد وسنن العدل بنحو قولهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، أو يماحلون باللغو بالمكاء والتصدية وغير ذلك من أنواع اللغط وكل ما يشمله معنى الميل عما

تصح إرادته .

ولما كان الاجتراء على الإلحاد قادحاً في الاعتراف بالعظمة ، أعاد مظهرها فقال : ﴿ في آياتنا ﴾ على ما لها من العظمة الدالة على ما لنا من الوحدانية وشمول العلم وتمام القدرة : ولما كان العلم بالإساءة مع القدرة سبباً للأخذ ، قال مقرراً للعلم بعد تقرير القدرة : ﴿ لا يخفون علينا ﴾ أي في وقت من الأوقات ولا وجه من الوجوه ، ونحن قادرون على أخذهم ، فمتى شئنا أخذنا ، ولا يعجل إلا ناقص يخشى الفوت .

(116/682)

ولما كان الإلحاد سبباً لإلقاء صاحبه في النار ، وكان التقدير : ونحن نحلم عن العصاة فمن رجع إلينا أمن كل مخوف ، ومن أعرض إلى الممات ألقيناه في النار ، سبب عنه قوله تعالى : ﴿ أفمن يلقى في النار ﴾ أي على وجهه بأيسر أمر بسبب إلحاده في الآيات وإعراضه عن الدلالات الواضحات ، فيكون خائفاً يوم القيامة لما يرى من مقدمات ذلك حتى يدهمه ما خاف منه ﴿ خير أم من يأتي ﴾ إلينا ﴿ آمناً يوم القيامة ﴾ حين نجمع عبادنا للعرض علينا للحكم بينهم بالعدل فيدخل الجنة دار السلام فيدوم أمنه ، والآية من الاحتباك : ذكر الإلقاء في النار أولاً دليلاً على دخول الجنة ثانياً ، والأمن ثانياً دليلاً على الخوف أولاً ،

وسره أنه ذكر المقصود بالذات ، وهو ما وقع الخوف لأجله أولاً ، والأمن الذي هو العيش في الحقيقة ثانياً .

ولما كان هذا راداً ولا بد للعاقل عن سوء أعماله إلى الإحسان رجاء إنعام الله وإفضاله ، أنتج قوله مهدداً ومخوفاً ومتوعداً صارفاً القول عن الغيبة إلى الخطاب لأنه أدل على الغضب على التمادي بعد هذا البيان : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ أي فقد علمتم مصير المسيء والمحسن ، فمن أراد شيئاً من الجزاءين فليعمل أعماله ، فإنه ملاقيه .

ولما كان العامل لا يطمع في الإهمال إلى على تقدير خفاء الأعمال ، والمعمول له لا يترك الجزاء إلا لجهل أو عجز ، بين أنه سبحانه محيط العلم عالم بمثاقيل الذر فقال مرغباً مرهباً مؤكداً لأنهم يعملون عمل من يظن أن أعماله تخفى ، عادلاً عن مظهر العظمة إلى ما هو أدل شيء على الفردانية ، لئلا يظن ان مزيد العلم بواسطة كثيرة : ﴿ إنه ﴾ وقدم أعمالهم تنبيهاً على الاهتمام بشأنها جداً فقال : ﴿ بما تعملون ﴾ أي في كل وقت ﴿ بصير ﴾ بصراً وعلماً ، فهو على كل شيء منكم قدير .

(117/682)

ولما جعل إليهم الاختيار في العمل تهديداً ، أتبعه الإخبار بما لمن خالفه ، فقال مؤكداً لإنكارهم مضامين ما دخل عليه التأكيد : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي ستروا مرائي العقول الدالة على الحق مكذبين ﴿ بالذكر ﴾ الذي لا ذكر في الحقيقة غيره ﴿ لمّا جاءهم ﴾ من غير توقف أصلاً فدل ذلك منهم على غاية العناد ﴿ وإنه ﴾ أي والحال أنه ﴿ لكتاب ﴾ أي جامع لكل خير ﴿ عزيز ﴾ أي لا يوجد مثله فهو يغلب كل ذكر ولا يغلبه ذكر ولا يقرب من ذلك ، ويعجز كل معارض ولا يعجز أصلاً عن إقعاد مناهض .

(118/682)

ولما كان من معاني العزة أنه ممتنع بمتانة رصفه وجزالة نظمه وجلالة معانيه من أن يلحقه تغيير ما ، بين ذلك بقوله : ﴿ لا يأتيه الباطل ﴾ أي البين البطلان إتيان غلبة فيصير أو شيء منه باطلاً بيّنا ، ولما كان المراد تعميم النفي ، لا نفي العموم ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بين يديه ﴾ أي من جهة الظاهر مثل ما أمر أخبر به عما كان قبله ﴿ ولا من خلفه ﴾ من جهة العلم الباطن مثل علم ما لم يشتهر من الكائن والآتي سواء كان حكماً أو خبراً لأنه في غاية الحقية والصدق ، والحاصل أنه لا يأتيه من جهة من الجهات ، لأن ما قدام اوضح ما يكون ، وما خلف أخفى ما يكون ، فما بين ذلك من باب الأولى ، فالعبارة كناية عن ذلك لأن صفة

الله لا وراء لها ولا أمام على الحقيقة ، ومثل ذلك ليس وراء الله مرمى ، ولا دون الله منتهى ، ونحوه مما تفهم العرب ومن علم لسانها المراد به دون لبس ، ثم علل ذلك بقوله :

﴿ تنزيل ﴾ أي بحسب التدريج لأجل المصالح ﴿ من حكيم ﴾ بالغ الحكمة فهو يضع كل شيء منه في أتم محاله في وقت النزول وسياق النظم ﴿ حميد ﴾ أي بالغ الإحاطة بأوصاف الكمال من الحكمة وغيرها والتنزه والتطهر والتقدس عن كل شائبة نقص ، يحمده كل خلق بلسان حاله إن لم يحمده بلسان قاله ، بما ظهر عليه من نقصه أو كماله ، والخبر محذوف تقديره : خاسرون لا محالة لأنهم لا يقدرون على شيء مما يوجهونه إليه من الطعن لأنهم عجزة ضعفاء صغرة كما قال المعري :

أرى الجوزاء تكبر أن تصادا . . .

فعاند من تطيق له عنادا

وحذف الخبر أهول لتذهب النفس كل مذهب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 580.577 ﴾

(119/682)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآيات الأربع الفلكية وهي الليل والنهار والشمس والقمر ، أتبعها بذكر آية أرضية فقال : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾ والخشوع التذلل والتصاغر ، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ أي تحركت بالنبات ، وربت : انتفخت لأن النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات ، ثم قال : ﴿ إِنَّ الذي أحياها لَمُحيي الموتى ﴾ يعني أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها ، وقد ذكرنا تقرير هذا الدليل مراراً لا حصر لها ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُ على كُلّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ وهذا هو الدليل الأصلي وتقريره إن عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته ، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضاً أمر ممكن لذاته ، والله تعالى قادر على الممكنات ، فوجب أن يكون قادراً على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه ألبتة ، والله أعلم .

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب ، ثم بيّن أن الدعوة إلى دين الله تعالى ، إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة ، عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات ، ويحاول إلقاء الشبهات فيها ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِي ءاياتنا ﴾ يقال ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق ، فالملحد هو المنحرف ، ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل ، وقوله ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ تهديد كما إذا قال الملك المهيب : إن الذين ينازعونني في ملكي أعرفهم ، فإنه يكون ذلك تهديداً ، ثم قال : ﴿ أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ وهذا استفهام بمعنى التقرير ، والغرض التنبيه على أن الذين يلحدون في آياتنا يلقون في النار ، والذين يؤمنون بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وهذا أيضاً تهديد ثالث ، ونظيره ما يقوله الملك المهيب عند الغضب الشديد إذا أخذ يعاتب بعض عبيده ثم يقول لهم اعملوا ما شئتم فإه هذا مما يدل على الوعيد الشديد .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ وهذا أيضاً تهديد ، وفي جوابه وجهان : أحدهما : أنه محذوف كسائر الأجوبة المحذوفة في القرآن على تقدير : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يجازون بكفرهم أو ما أشبه والثاني : أن جوابه قوله ﴿ أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ والأول أصوب ، ولما بالغ في تهديد الذين يلحدون في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ ﴾ والعزيز له معنيان أحدهما : الغالب القاهر والثاني : الذي لا يوجد نظيره ، أما كون القرآن عزيزاً بمعنى كونه غالباً ، فالأمر كذلك لأنه بقوة حجته غلب على كل ما سواه ، وأما كونه عزيزاً بمعنى عديم النظير ، فالأمر كذلك لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته ، ثم قال : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ وفيه وجوه : الأول : لا تكذبه الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور ، ولا يجيء كتاب من بعده يكذبه الثاني : ما حكم القرآن بكونه حقاً لا يصير باطلاً ، وما حكم بكونه باطلاً لا يصير حقاً الثالث : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه .

والدليل عليه قوله ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] فعل هذا الباطل هو الزيادة والنقصان الرابع : يحتمل أن يكون المراد أنه لا يوجد في المستقبل كتاب يمكن جعله معارضاً وله ولم يوجد فيما تقدم كتاب يصلح جعله معارضاً له الخامس : قال صاحب "الكشاف"

هذا تمثيل ، والمقصود أن الباطل لا يتطرق إليه ، ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يتصل إليه .

واعلم أن لأبي مسلم الأصفهاني أن يحتج بهذه الآية على أنه لم يوجد النسخ فيه لأن النسخ إبطال فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه وإنه على خلاف هذه الآية .

(122/682)

ثم قال تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي حكيم في جميع أحواله وأفعاله ، حميد إلى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه ، ولهذا السبب جعل ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] فاتحة كلامه ، وأخبر أن خاتمة كلام أهل الجنة ، وهو قوله ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الزمر : 75] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 112.114 ﴾

(123/682)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾

الخطاب لكل عاقل أي "وَمِنْ آيَاتِهِ" الدالة على أنه يحيي الموتى ﴿ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً ﴾ أي يابسة جدبة ؛ هذا وصف الأرض بالخشوع ؛ قال النابغة :

رمادٌ كَكُحْلِ الْعَيْنِ لأْيا أُبينُهُ . . .

ونُؤْيٌ كَجِذْمِ الْحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِعِ

والأرض الخاشعة : الغبراء التي تنبت .

وبلدة خاشعة : أي مغبرة لا منزل بها .

ومكان خاشع .

﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت ﴾ أي بالنبات ؛ قاله مجاهد .

يقال : اهتز الإنسان أي تحرك ؛ ومنه :

تراه كَنَصْلِ السيفِ يَهْتَزُّ للنَّدى . . .

إذا لم تَجِدْ عِند امرِىء السَّوْءِ مَطْمَعا

﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي انتفخت وعلت قبل أن تنبت ؛ قاله مجاهد .

أي تصعدت عن النبات بعد موتها .

وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديم وتأخير وتقديره : ربت واهتزت .

والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض ؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض ؛ فرُبُوُّها ارتفاعها .

ويقال للموضع المرتفع : ربوة ورابية ؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالكبر طولاً وعرضاً .

وقرأ أبو جعفر وخالد "وَرَبَأَتْ" ومعناه عظمت ؛ من الربيئة .

وقيل : "اهْتَزَّتْ" أي استبشرت بالمطر "وَرَبَتْ" أي انتفخت بالنبات .

والأرض إذا انشقت بالنبات : وُصِفت بالضحك ، فيجوز وصفها بالاستبشار أيضاً .

ويجوز أن يقال الربو والاهتزاز واحد ؛ وهي حالة خروج النبات .

وقد مضى هذا المعنى في "الحج" ﴿ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي يميلون عن الحق في أدلتنا .

والإلحاد : الميل والعدول .

ومنه اللحد في القبر ؛ لأنه أميل إلى ناحية منه .

يقال : ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل .

ولَحَد لغة فيه .

وهذا يرجع إلى الذين قالوا : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26]

وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحق فقالوا : ليس القرآن من عند الله ، أو هو شعر أو سحر ؛ فالآيات آيات القرآن .

قال مجاهد : "يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا" أي عند تلاوة القرآن بالمُكَاءِ والتَّصْدِيةِ واللَّغو والغِناء .

وقال ابن عباس : هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه .

وقال قتادة : "يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا" يكذبون في آياتنا .

وقال السدي : يعاندون ويشاقون .

وقال ابن زيد : يشركون ويكذبون .

والمعنى متقارب .

وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل .

وقيل : الآيات المعجزات ، وهو يرجع إلى الأوّل فإن القرآن معجز .

﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار ﴾ على وجهه وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره .

﴿ خَيْرٌ أَم مَّن يأتي آمِناً ﴾ قيل : النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مقاتل .

وقيل : عثمان .

وقيل : عمار بن ياسر .

وقيل : حمزة .

وقيل : عمر بن الخطاب .

وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي .

وقيل : المؤمنون .

وقيل : إنها على العموم ؛ فالذي يلقى في النار الكافر ، والذي يأتي آمناً يوم القيامة المؤمن ؛ قاله ابن بحر .

﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمر تهديد ؛ أي بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء .

﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وعيد بتهديد وتوعد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ الذكر ها هنا القرآن في قول الجميع ؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام .

والخبر محذوف (تقديره) هالكون أو معذَّبون .

وقيل : الخبر ﴿ أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44] واعترض قوله : "مَا يُقَالُ لَكَ" ثم رجع إلى الذكر فقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً ﴾ [فصلت : 44] ثم قال : "أُولَئِكَ يُنَادَونَ" والأوّل الاختيار ؛ قال النحاس : عند النحويين جميعاً فيما علمت .

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أي عزيز على الله ؛ قاله ابن عباس ؛ وعنه : عزيز من عند الله .

وقيل : كريم على الله .

وقيل : "عَزِيزٌ" أي أعزه الله فلا يتطرّق إليه باطل .

وقيل : ينبغي أن يعز ويُجلّ وألا يلغى فيه .

وقيل : "عَزِيزٌ" من الشيطان أن يبدّله ؛ قاله السدي .

مقاتل : منع من الشيطان والباطل .

السدي : غير مخلوق فلا مثل له .

وقال ابن عباس أيضاً : "عَزِيزٌ" أي ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله .

﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه ؛ قاله الكلبي .

وقال السدي وقتادة : "لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ" يعني الشيطان ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يستطيع أن يغيّر ولا يزيد ولا ينقص .

وقال سعيد بن جبير : لا يأتيه التكذيب "مِنْ بَيْنِ يدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ" .

ابن جريج : "لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ" فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون .

وعن ابن عباس : "مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ" من الله تعالى ﴿ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ يريد من جبريل صلى

الله عليه وسلم ، ولا من محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ابن عباس : "حَكيم" في خلقه "حَمِيدٍ" إليهم .

قتادة : "حَكِيمٍ" في أمره "حَمِيدٍ" إلى خلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(126/682)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾

قال ابن عباس : نزلت في الصديق ، قال المشركون : ربنا الله ، والملائكة بناته ، وهؤلاء شفعاؤنا عنده .

واليهود : ربنا الله ، والعزير ابنه ، ومحمد ليس بنبي ، فلم يستقيما ، والصديق قال : ربنا الله وحده لا شريك له ، ومحمد عبده ورسوله ، فاستقام .

ولما أطنب تعالى في وعيد الكفار ، أردفه بوعيد المؤمنين ؛ وليس المراد التلفظ بالقول فقط ، بل لا بد من الاعتقاد المطابق للقول اللساني .

وبدأ أولاً بالذي هو أمكن في الإسلام ، وهو العلم بربوبية الله ، ثم أتبعه بالعمل الصالح ، وهو

الاستقامة .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي ، قلت للنبي ، (صلى الله عليه وسلم) : أخبرني بأمر أعتصم به ، قال : " قل ربي الله ثم استقم " قلت : ما أخوف ما تخاف علي ، فأخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بلسان نفسه وقال : "هذا" وعن الصديق : ثم استقاموا على التوحيد ، لم يضطرب إيمانهم .

وعن عمر : استقاموا لله بطاعته لم يروغوا روغان الثعالب .

وعن عثمان : أخلصوا العمل .

وعن علي : أدوا الفرائض .

وقال أبو العالية ، والسدي : استقاموا على الإخلاص والعمل إلى الموت .

وقال الثوري : عملوا على وفاق ما قالوا .

وقال الفضل : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية .

وقال الربيع : أعرضوا عن ما سوى الله تعالى .

وقيل : استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً .

وعن الحسن وقتادة وجماعة : استقاموا بالطاعات واجتناب المعاصي .

قال الزمخشري : وثم لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلها عليه ، لأن الاستقامة

لها الشأن كله ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ والمعنى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته .

(127/682)

وعن الصديق رضي الله عنه أنه تلاها ثم قال : ما تقولون فيها ؟ قالوا : لم يذنبوا ، قال : حملتم الأمر على أشده ، قالوا : فما تقول ؟ قال لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان . انتهى .

﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ ، قال مجاهد والسدي : عند الموت .

وقال مقاتل : عند البعث .

وقيل : عند الموت ، وفي القبر ، وعند البعث .

وأن ناصبة للمضارع ، أي بانتفاء خوفكم وحزنكم ، قال معناه الحوفي وأبو البقاء .

وقال الزمخشري : بمعنى أي أو المخففة من الثقيلة ، وأصله بأنه لا تخافوا ، والهاء ضمير الشأن . انتهى .

وعلى هذين التقديرين يكون الفعل مجزوماً بلا الناهية ، وهذه آية عامة في كل هم مستأنف وتسلية تامة عن كل فائت ماض ، ولذلك قال مجاهد : لا تخافوا ما تقدرون عليه ، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم .

وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿ لا تخافوا ﴾ رد ثوابكم، فإنه مقبول؛ ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ذنوبكم، فإني أغفرها لكم.

وفي قراءة عبد الله: لا تخافوا، بإسقاط أن، أي تتنزل عليهم الملائكة قائلين: لا تخافوا ولا تحزنوا.

ولما كان الخوف مما يتوقع من المكروه أعظم من الحزن على الفائت قدمه، ثم لما وقع الأمن لهم، بشروا بما يؤولون إليه من دخول الجنة، فحصل لهم من الأمن التام والسرور العظيم بما سيفعلون من الخير.

﴿ نحن أوليائكم ﴾: الظاهر أنه من كلام الملائكة، أي يقولون لهم.

وفي قراءة عبد الله: يكون من جملة المقول قبل، أي نحن كنا أولياءكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة.

لما كان أولياء الكفار قرناؤهم من الشياطين، كان أولياء المؤمنين الملائكة.

وقال السدي: نحن حفظتكم في الدنيا، وأولياؤكم في الآخرة.

وقيل: ﴿ نحن أوليائكم ﴾ من كلام الله تعالى، أولياؤكم بالكفاية والهداية، ﴿ ولكم فيها ﴾: الضمير عائد على الآخرة، قاله ابن عطية.

وقال الحوفي: على الجنة، ﴿ ما تشتهي أنفسكم ﴾ من الملاذ، ﴿ ولكم فيها ما تدعون

﴾ .

قال مقاتل : ما تتمنون .

(128/682)

وقيل : ما تريدون .

وقال ابن عيسى : ما تدعي أنه لك ، فهو لك بحكم ربك .

قال ابن عطية : ما تطلبون .

﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ النزل : الرزق المقدم للنزيل وهو الضيف ، قال معناه ابن عطاء ، فيكون نزلاً حالاً ، أي تعطون ذلك في حال كونه نزولاً لا نزلاً ، وجعله بعضهم مصدراً لأنزل .

وقيل نزل جمع نازل ، كشارف وشرف ، فينتصب على الحال ، أي نازلين ، وذو الحال الضمير المرفوع في يدعون .

وقال الحسن : معنى نزلاً منا ، وقيل : ثواباً .

وقرأ أبو حيوة : نزلاً بإسكان الزاي .

ولما تقدم قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ ، ذكر من دعا إلى ذلك

فقال : ﴿ ومن أحسن قولاً ﴾ : أي لا أحد أحسن قولاً ممن يدعو إلى توحيد الله ، ويعمل العمل الصالح ، ويصرح أنه من المستسلمين لأمر الله المنقادين له ، والظاهر العموم في كل داع إلى الله ، وإلى العموم ذهب الحسن ومقاتل وجماعة .

وقيل بالخصوص ، فقال ابن عباس : هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، دعا إلى الإسلام ، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه ، وجعل الإسلام نحلة .

وعنه أيضاً : هم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقالت عائشة ، وقيس بن أبي حازم ، وعكرمة ، ومجاهد : نزلت في المؤذنين ، وينبغي أن يتأول قولهم على أنهم داخلون في الآية ، وإلا فالسورة بكمالها مكية بلا خلاف .

ولم يكن الأذان بمكة ، إنما شرع بالمدينة ، والدعاء إلى الله يكون بالدعاء إلى الإسلام وبجهاد الكفار وكف الظلمة .

وقال زيد بن علي : دعا إلى الله بالسيف ، وهذا ، والله أعلم ، هو الذي حمله على الخروج بالسيف على بعض الظلمة من ملوك بني أمية .

(129/682)

وكان زيد هذا عالماً بكتاب الله ، وقد وقفت على جملة من تفسيره كتاب الله وإلقائه على بعض النقلة عنه وهو في حبس هشام بن عبد الملك ، وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظ وافر ، يقال : إنه كان إذا تناظر هو وأخوه محمد الباقر اجتمع الناس بالمحابر يكتبون ما يصدر عنهما من العلم ، رحمهما الله ورضي عنهما .

وقال أبو العالية : ﴿ وعمل صالحاً ﴾ : صلى بين الأذان والإقامة .

وقال عكرمة : صلى وصام .

وقال الكلبي : أدّى الفرائض .

وقال مجاهد : هي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاثة أن يكون موحداً معتقداً لدين الإسلام ، عاملاً بالخير داعياً إليه ، ومآلهم إلى طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد الدعاة إلى دين الإسلام .

انتهى ، ويعني بذلك المعتزلة ، يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، ويوجد ذلك في أشعارهم ، كما قال ابن أبي الحديد المعتزلي ، صاحب كتاب (الفلك الدائر في الرد على كتاب المثل السائر) ، قال من كلامه : أنشدنا عنه الإمام الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي رحمه الله تعالى :

لولا ثلاث لم أخف صرعتي . . .

ليست كما قال فتى العبد

أن أنصر التوحيد والعدل في . . .

كل مقام باذلاً جهدي

وأن أناجي الله مستمتعاً . . .

بخلوة أحلى من الشهد

وأن أصول الدهر كبراً على . . .

كل لئيم أصعر الخد

لذاك أهوى لا فتاة ولا خمر . . .

ولا ذي ميعة نهد

﴿ وقال إنني من المسلمين ﴾ : ليس المعنى أنه تكلم بهذا ، بل جعل الإسلام معتقده .

كما تقول : هذا قول الشافعي ، أي مذهبه .

وقرأ ابن أبي عبلة ، وإبراهيم بن نوح عن قتيبة الميال : وقال إني ، بنون مشددة واحدة ؛

والجمهور : إنني بها وبنون الوقاية .

وقال أبو بكر بن العربي : لم يشترط إلا إن شاء الله ، ففيه رد على من يقول : أنا مسلم إن شاء الله .

ولما ذكر تعالى أنه لا أحد أحسن ممن دعا إلى الله ، ذكر ما يترتب على ذلك من حسن الأخلاق ، وأن الداعي إلى الله قد يجافيه المدعو ، فينبغي أن يرفق به ويتلطف في إيصال الخير فيه .

قيل : ونزلت في أبي سفيان بن حرب ، وكان عدوًّا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فصار ولياً مصافياً .

وقال ابن عباس : الحسنة لا إله إلا الله ، والسيئة الشرك .

وقال الكلبي : الدعوتان إليهما .

وقال الضحاك : الحلم والفحش .

وعن علي : حب الرسول وآله وبغضهم .

وقيل : الصبر والنفور .

وقيل : المداراة والغلظة .

وقيل : العفو والاقتصاد ، وهذه أمثلة للحسنة والسيئة ، لا على طريق الحصر .

ولما تفاوتت الحسنة والسيئة ، أمر أن يدفع السيئة بالأحسن ، وذلك مبالغة ، ولم يقل : ادفع بالحسنة السيئة ، لأن من هان عليه الدفع بالأحسن هان عليه الدفع بالحسن ، أي وإذا فعلت ذلك ، ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة ﴾ صار لك كالولي : الصديق الخالص

الصداقة ، ولا في قوله : ﴿ ولا السيئة ﴾ زائدة للتوكيد ، كهي في قوله : ﴿ ولا الظل ولا الحرور ﴾ لأن استوى لا يكتفي بمفرد ، فإن إحدى الحسنة والسيئة جنس لم تكن زيادتها كزيادتها في الوجه الذي قبل هذا ، إذ يصير المعنى : ولا تستوي الحسنات ، إذ هي متفاوتات في أنفسها ، ولا السيئات لتفاوتها أيضاً .

قال ابن عطية : دخلت كأن للتشبيه ، لأن الذي عند عداوة لا يعود ولياً حميماً ، وإنما يحسن ظاهره ، فيشبه بذلك الولي الحميم ، وعن ابن عباس : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ : الصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة .

وقال مجاهد ، وعطاء : السلام عند اللقاء .

انتهى ، أي هو مبدأ الدفع بالأحسن ، لأنه محصور فيه .

وعن مجاهد أيضاً : أعرض عن أذاهم .

وقال أبو فراس الحمداني :

يجني عليّ وأجنو صافحاً أبدا . . .

لا شيء أحسن من جان على جان

﴿ وما يلقاها ﴾ : الضمير عائد على الفعلة والسجية التي هي الدفع بالأحسن .

وقرأ طلحة بن مصرف ، وابن كثير في رواية : وما يلاقاها : من الملاقاة .

وقرأ الجمهور : من التلقي ، وكأن هذه الخصلة الشريفة غائبة ، فما يصادفها ويلقيها الله إلا لمن كان صابراً على الطاعات ، صارفاً عن الشهوات ، ذا حظ عظيم من خصال الخير ، قاله ابن عباس ، فيكون مدحاً ؛ أو ﴿ ذو حظ عظيم ﴾ من ثواب الآخرة ، قاله قتادة ، فيكون وعداً .

وقيل : إلا ذو عقل .

وقيل : ذو خلق حسن ، وكرر ﴿ وما يلقاها ﴾ تأكيداً لهذه الفعلة الجميلة الجليلة .

وقيل : الضمير في يلقاها عائد على الجنة .

وحكى مكي : ﴿ وما يلقاها ﴾ : أي شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيه بعد .

ولما أمر تعالى بدفع السيئة بالأحسن ، كان قد يعرض للمسلم في بعض الأوقات مقابلة من أساء بالسيئة ، فأمره ، إن عرض له ذلك ، أن يستعيذ بالله ، فإن ذلك من نزغ الشيطان ، وتقدم تفسير نظير هذه الآية في أواخر الأعراف .

ولما بين تعالى أن أحسن الأعمال والأقوال هو نظير هذه الآية الدعوة إلى الله ، أردفه بذكر الدلائل العلوية والسفلية ، وعلى قدرته الباهرة وحكمته البالغة وحجته القاطعة ، فبدأ بذكر الفلكيات بالليل والنهار ، وقدم ذكر الليل ، قيل تنبيهاً على أن الظلمة عدم والنور

وجود ، وناسب ذكر الشمس بعد النهار ، لأنها سبب لتنويره ويظهر العالم فيه ، ولأنها أبلغ في التنوير من القمر ، ولأن القمر فيما يقولون مستفاد نوره من نور الشمس .

ثم نهى تعالى عن السجود لهما ، وأمر بالسجود للخالق تعالى .

وكان ناس يعبدون الشمس ، كما جاء في قصة بلقيس وقومها .

والضمير في ﴿ خلقهن ﴾ عائد على الليل والنهار والشمس والقمر .

قال الزمخشري : لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى ، أي الإناث ، يقال : الأقلام بريتها وبريتهن .

انتهى ، يريد ما لا يعقل من الذكر ، وكان ينبغي أن يفرق بين جمع القلة من ذلك ، فإن الأفصح أن يكون كضمير الواحدة ، تقول : الأجذاع انكسرت على الأفصح ، والجذوع انكسرن على الأفصح .

(132/682)

والذي تقدّم في الآية ليس بجمع قلة ، أعني بلفظ واحد ، ولكنه ذكر أربعة متعاطفة ، فتنزلت منزلة الجمع المعبر عنها بلفظ واحد .

وقال الزمخشري : ولما قال : ﴿ ومن آياته ﴾ ، كن في معنى الآيات ، فقيل : ﴿ خلقهن

﴾ .

انتهى ، يعني أن التقدير والليل والنهار والشمس والقمر آيات من آياته ، فعاد الضمير على آيات الجمع المقدر في المجرور .

وقيل : يعود على الآيات المتقدم ذكرها .

وقيل : على الشمس والقمر ، والاثنان جمع ، وجمع ما لا يعقل يؤنث ، ومن حيث يقال شموس وأقمار لاختلافهما بالأيام والليالي ، ساغ أن يعود الضمير مجموعاً .

﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ : أي إن كنتم موحدين غير مشركين ، والسجدة عند الشافعي عند قوله : ﴿ تعبدون ﴾ ، وهي رواية مسروق عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها ، وعند أبي حنيفة عند قوله : ﴿ لا يسأمون ﴾ ، لأنها تمام المعنى ، وفي التحرير : كان علي وابن مسعود يسجدان عند ﴿ تعبدون ﴾ .

وقال ابن وهب والشافعي : عند ﴿ يسأمون ﴾ ، وبه قال أبو حنيفة ، وسجد عندها ابن عباس وابن عمر وأبو وائل وبكر بن عبد الله ، وكذلك روي عن مسروق والسلمي والنخعي وأبي صالح وابن سيرين .

انتهى ملخصاً .

﴿ فإن استكبروا ﴾ : أي تعاظموا على اجتناب ما نهيت من السجود لهذين المحدثين المربوبين ، وامتثال ما أمرت به من السجود للخالق لهن ؛ فإن الملائكة الذين هم عند الله

بالمكانة والرتبة الشريفة ينزهونه عن ما لا يليق بكبريائه ، ﴿ وهم لا يسأمون ﴾ : أي لا يملون ذلك ، وهم خير منكم ، مع أنه تعالى غني عن عبادتكم وعبادتهم .

ولما ذكر شيئاً من الدلائل العلوية ، ذكر شيئاً من الدلائل السفلية فقال : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ﴾ : أي غبراء دارسة ، كما قال :

ونؤى كجذم الحوض أبلم خاشع . . .

_@_استعير الخشوع لها ، وهو التذلل لما ظهر بها من القحط وعدم النبات وسوء العيش عنها ، بخلاف أن تكون معشبة وأشجاراً مزهرة ومثمرة ، فذلك هو حياتها .

(133/682)

وقال السدّي : خاشعة ميتة يابسة ، وتقدّم الكلام على قوله : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ تفسيراً وقراءة في أوائل سورة الحج .

﴿ إن الذين أحياها لموحي الموتى ﴾ : يرد الأرواح إلى الأجساد ، ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ : لا يعجزه شيء تعلقت به إرادته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(134/682)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى ﴾

يا من تصح منه الرؤية :

﴿ الأرض خاشعة ﴾ يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء ﴾ أي المطر ﴿ اهتزت وَرَبَتْ ﴾ أي تحركت بالنبات وانتفخت لأن النبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات ، ويجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية شبه حال جدوبة الأرض وخلوها عن النبات ثم إحياء الله تعالى إياها بالمطر وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب وإنبات كل زوج بهيج بحال شخص كئيب كاسف البال رث الهيئة لا يؤبه به ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها تكلف بأنواع الزينة والزخارف فيختال في مشيه زهواً فيهتز بالإعطاف خيلاء وكبراً فحذف المشبه واستعمل الخشوع والاهتزاز دلالة على مكانه ورجح اعتبار التمثيل .

وقرىء ﴿ ربأت ﴾ أي زادت ، وقال الزجاج : معنى ربت عظمت وربأت بالهمز ارتفعت ومنه الربيئة وهي طليعة على الموضع المرتفع ﴿ وَرَبَتْ إِنَّ الذى أحياها ﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿ يُحْيِىَ الموتى ﴾ بالبعث ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإحياء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ مبالغة في القدرة .

﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءاياتنا ﴾ ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة فيحملونها على المحامل الباطلة ، وهو مراد ابن عباس بقوله : يضعون الكلام في غير موضعه ، وأصله من ألحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق ويقال لحد .

وقرىء ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ باللغتين ، وقال قتادة : هنا الإلحاد التكذيب ، وق لمجاهد : المكاء والصفير واللغو فالمعنى يميلون عما ينبغي ويليق في شأن آياتنا فيكذبون القرآن أو فيلغون ويصفرون عند قراته ، وجوز أن يراد بالآيات ما يشمل جميع الكتب المنزلة وبالإلحاد ما يشمل تغيير اللفظ وتبديله لكن ذلك بالنسبة إلى غير القرآن لأنه لم يقع فيه كما وقع في غيره من الكتب على ما هو الشائع .

(135/682)

وعن أبي مالك تفسير الآيات بالأدلة فالإلحاد في شأنها الطعن في دلالتها والإعراض عنها ، وهذا أوفق بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ [فصلت : 37] ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾ [فصلت : 39] الخ ، وما تقدم أوفق بقوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] وبما بعد ، والآية على تفسير مجاهد أوفق وأوفق .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ مجازاتهم على الإلحاد فالآية وعيد لهم وتهديد ، وقوله تعالى :

﴿ أَفَمَن يلقى فِى النار خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى ءامِناً يَوْمَ القيامة ﴾ تنبيه على كيفية الجزاء ، وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء في النار بدخول الجنة لكنه عدل عنه إلى ما في النظم الجليل اعتناء بشأن المؤمنين لأن الأمن من العذاب أعم وأهم ولذا عبر في الأول بالإلقاء الدال على القسر والقهر وفيه بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا مع الأمن ودخول الجنة لا ينفي أن يبدل حالهم من بعد خوفهم أمناً ، وجوز أن تكون الآية من الاحتبارك بتقدير من يأتي خائفاً ويلقى في النار ومن يأتي آمناً ويدخل الجنة فحذف من الأول مقابل الثاني ومن الثاني مقابل الأول وفيه بعد .

والآية كما قال ابن بحر عامة في كل كافر ومؤمن .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ أَفَمَن يلقى فِى النار ﴾ أبو جهل ﴿ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا ﴾ أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وأخرج عبد الرزاق .

وغيره عن بشير بن تميم من يلقى في النار أبو جهل ومن يأتي آمنا عمار .

(136/682)

والآية نزلت فيهما ، وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل وعثمان بن عفان ، وقيل : فيه وفي عمر ، وقيل : فيه وفي حمزة ، وقال الكلبي : فيه وفي الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ تهديد شديد للكفرة الملحدين الذين يلقون في النار وليس المقصود حقيقة الأمر ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْلَمُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر ﴾ وهو القرآن ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ من غير أن يمضي عليهم زمان يتأملون فيه ويتفكرون ﴿ وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ ﴾ لا يوجد نظيره أو منيع لا تتأتى معارضته ، وأصل العز حالة مانعة للإنسان عن أن يغلب ، وإطلاقه على عدم النظير مجاز مشهور وكذا كونه منيعاً ، وقيل : غالب للكتب لنسخه إياها .

وعن ابن عباس أي كريم على الله تعالى ؛ والجملة حالية مفيدة لغاية شناعة الكفر به ، وقوله تعالى :

﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ صفة أخرى لكتاب ، وما بين يديه وما خلفه كناية عن جميع الجهات كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله أي لا يتطرق إليه الباطل من جميع جهاته ، وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمى من جميع جهاته فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين ، وجوز أن يكون المعنى لا يأتيه الباطل من جهة ما أخبر به من الأخبار الماضية والأمور الآتية .

وقيل : الباطل بمعنى المبطل كوارس بمعنى مورس أو هو مصدر كالعافية بمعنى مبطل أيضاً

؛ وقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي محمود على ما أسدي من النعم التي منها تنزيل الكتاب ، وحمده سبحانه : بلسان الحال متحقق من كل منعم عليه وبلسان القال متحقق ممن وفق لذلك خبر مبتدأ محذوف أو صفة أخرى لكتاب مفيدة لفخامته الإضافية كما أن الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية .

(137/682)

وقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ ﴾ الخ اعتراض عند من لا يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن ، واختلفوا في خبر ﴿ إن ﴾ أمذكور هو أو محذوف فقيل : مذكور وهو قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44] وهو قول أبي عمرو بن العلاء في حكاية جرت بينه وبين بلال بن أبي بردة سئل بلال في مجلسه عن هذا فقال : لم أجد لها نفاذاً فقال له أبو عمرو : إنه منك لقريب ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وذهب إليه الحوفي وهو في مكان بعيد ، وذهب أبو حيان إلى أنه قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل ﴾ بحذف العائد أي الكافرون وحاله أنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل منهم أي متى راموا أبطالاً له لم يصلوا إليه أو يجعل أل في الباطل عوضاً من الضمير به على قول الكوفيين أي لا يأتيه باطلهم أو قوله سبحانه : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ [فصلت : 43

] الخ والعائد أيضاً محذوف أي ما يقال لك في شأنهم أو فيهم إلا ما قد قيل للرسل من قبلك أي أوحى إليك في شأن هؤلاء المكذبين لك ولما جئت به مثل ما أوحي إلى من قبلك من الرسل وهو أنهم عاقبتهم سيئة في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالعذاب الدائم ثم قال : وغاية ما في هذين التوجيهين حذف الضمير العائد وهو موجود نحو السمن منوان بدرهم والبركر بدرهم أي منه .

ونقل عن بعض نحاة الكوفة أن الخبر في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت : 41] وتعقبه بأنه لا يتعقل ، وقيل : هو محذوف وخبر ﴿ إن ﴾ يحذف لفهم المعنى ، وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن ذلك فقال عمرو : معناه في التفسير أن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به وأنه لكتاب عزيز فقال عيسى : أجدت يا أبا عثمان .

(138/682)

وقال قوم : تقديره معاندون أو هالكون ، وقال الكسائي ؛ قد سد مسده ما تقدم من الكلام قبل وهو قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يلقى ﴾ [فصلت : 40] وكأنه يريد أنه محذوف دل عليه ما قبله فيمكن أن يقدر يخلدون في النار ، ويقدر الخبر على ما استحسنه ابن عطية بعد ﴿ حَمِيدٌ ﴾ وفي الكشاف أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر ﴾ [فصلت : 41

] بدل من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءاياتنا ﴾ [فصلت : 40] قال في "البحر" : ولم يتعرض بصريح الكلام إلى خبر ﴿ إن ﴾ أمذكور هو أو محذوف لكنه قد يدعى أنه أشار إلى ذلك فإن المحكوم به على المبدل منه هو المحكوم به على البدل فيكون التقدير ان الذين يلحدون في آياتنا أن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم لا يخفون علينا .

وفي "الكشف" فائدة هذا الإبدال التنبيه على أنه ما يحملهم على الإلحاد إلا مجرد الكفر ، وفيه إمداد التحذير من وجوه ما ذكر من التنبيه ؛ ووضع الذكر موضع الضمير الراجع إلى الآيات زيادة تحسير لهم ، وما في ﴿ لَّمّاً ﴾ من معنى مفاجأتهم بالكفر أول ما جاء ، وما فيه من التعظيم لشأن الآيات والتمهيد للحديث عن كمال الكتاب الدال على سوء مغبة الملحد فيه ، ثم الأشبه أن يحمل كلام الكشاف على أن الخبر محذوف لدلالة السابق عليه ولزيادة التهويل لذهاب الوهم كل مذهب وتكون الجملة بدلاً عن الجملة لأن البدل بتكرير العامل إنما جوز في المجرور لشدة الاتصال انتهى فتأمل والله تعالى الموفق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(139/682)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) ﴾

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع (يحشر) بضم الياء وفتح الشين مبنياً للمفعول (أعداء الله) بالرفع على أنه نائب الفاعل .

وقرأه نافع وحمزة ، من السبعة (نحشر أعداء الله) بالنون المفتوحة الدالة على العظمة ، وضم الشين مبنياً للفاعل ، (أعداء الله) بالنصب على أنه مفعول به ، أي واذكر ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ الله ﴾ أي يجمعون إلى النار .

وما دلت عليه هذه الآية ، من أن الله أعداء ، وأنهم يحشرون يوم القيامة إلى النار . جاء مذكوراً في آيات أخر .

فبين في بعضها أن له أعداء وأن أعداءه المؤمنين وأن جزاءهم النار كقوله تعالى ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً للَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : 98]

وقوله تعالى : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : 60]

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الممتحنة : 1] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [طه : 39] وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ الله النار لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ﴾ [فصلت : 28] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يرد أولهم إلى آخرهم ، ويلحق آخرهم بأولهم ، حتى يجتمعوا جميعاً ، ثم يدفعون في النار ، وهو من قول العرب : وزعت الجيش ، إذا حبست أوله على آخره حتى يجتمع .

وأصل الوزع الكف ، تقول العرب وزعه ، يزعه وزعاً ، فهو وازع له ، إذا كفه عن الأمر ، ومنه قول نابغة ذبيان :

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . . فقلت ألماً أصح والشيب وازع

وقول الآخر :

(140/682)

ولن يزع النفس اللجوج عن الهوى . . . من الناس إلا وافر العقل كامله

وبما ذكرنا تعلم أن أصل معنى يوزعون . أي يكف أولهم عن التقدم وآخرهم عن التأخر حتى يجتمعوا جميعاً .

وذلك يدل على أنهم يساقون سوقاً عنيفاً ، يجمع به أولهم مع آخرهم .

وقد بين تعالى أنهم يساقون إلى النار في حال كونهم عطاشاً في قوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] ، ولعل الوزع المذكور في الآية يكون في الزمرة

الواحدة من زمر أهل النار ، لأنهم يساقون إلى النار زمراً زمراً كما قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ [الزمر : 71] الآية .

حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس : 65] الآية ، وفي سورة النساء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] .

وبينا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [النسا : 42] مع قوله ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

قوله تعالى : ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة ص في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ [ص : 27] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ .

قد بينا معناه مع شواهده العربية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل : 84] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .

لعلماء التفسير في تفسير قوله : ﴿ وَقَيَّضْنَا ﴾ عبارات يرجع بعضها ، في المعنى إلى بعض .

كقول بعضهم : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾ أي جئناهم بهم : وأتحناهم لهم .

وكقول بعضهم : ﴿ وَقَيَّضْنَا ﴾ أي هيأنا .

وقول بعضهم : ﴿ وَقَيَّضْنَا ﴾ أي سلطنا .

وقول بعضهم : أي بعثنا ووكلنا .

وقول بعضهم : ﴿ وَقَيَّضْنَا ﴾ أي سببنا .

وقول بعضهم : قدرنا ونحو ذلك من العبارات ، فإن جميع تلك العبارات راجع إلى شيء واحد ، وهو أن الله تبارك وتعالى هيأ للكافرين قرناء من الشياطين يضلونهم عن الهدى ويزينون لهم الكفر والمعاصي وقدرهم عليهم .

والقرناء : جمع قرين وهم قرناؤهم من الشياطين على التحقيق .

وقوله ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي من أمر الدنيا حتى آثروه على الأخرة : ﴿ وَمَا

خَلْفَهُمْ ﴾ أي من أمر الآخرة ، فدعوهم إلى التكذيب به ، وإنكار البعث .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، أنه تعالى قيض للكفار قرناء من الشياطين ، يضلونهم عن الهدى ، بينه في مواضع أخر من كتابه .

وزاد في بعضها سبب تقييضهم لهم ، وأنهم مع إضلالهم لهم ، يظنون أنهم مهتدون ، وأن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه من الشياطين بعد عظيم ، وأنه يذمه ذلك اليوم كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حتى إِذَا جَآءَنَا قَالَ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين فَبِئْسَ القرين ﴾ [الزخرف : 3638] .

(142/682)

فترتيبه قوله : نقيض له شيطاناً ، على قوله ومن يعش عن ذكر الرحمن ، ترتيب الجزاء على الشرط يدل على أن سبب تقييضه له ، هو غفلته عن ذكر الرحمن .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ الوسواس الخناس ﴾ [الناس : 4] لأن الوسواس هو كثير الوسوسة ليضل بها الناس ، والخناس هو كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس ، من قولهم : خنس بالفتح يخنس بالضم إذا تأخر .

فهو وسواس عند الغفلة عن ذكر الرحمن ، خناس عند ذكر الرحمن ، كما دلت عليه آية الزخرف المذكورة ، ودل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 99100] لأن الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ، غافلون عن ذكر الرحمن ، وبسبب ذلك قيضه الله لهم فأضلهم .

ومن الآيات الدالة على تقييض الشياطين للكفار ليضلوهم ، قوله تعالى : ﴿ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ [مريم : 83] ، وقد أوضحنا الآيات الدالة على ذلك في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ الآية . وبينا هناك أقوال أهل العلم في معنى ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ .

وبينا أيضاً هناك أن من الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإنس ﴾ [الأنعام : 128] أي استكثرتم من إضلال الإنس في دار الدنيا ، وقوله : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 202] .

ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ [يس : 60] إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [يس : 62] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد دل قوله في آية الزخرف : ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ [الزخرف : 38] على أن قرناء الشياطين المذكورين في آية فصلت ، وآية الزخرف وغيرهما ، جديرين بالذم الشديد ، وقد صرح تعالى بذلك في سورة النساء في قوله : ﴿ وَمَن يَكُنِ الشيطان لَهُ قَرِيناً فَسَآءَ قِرِيناً ﴾ [النساء : 38] لأن قوله : ﴿ فَسَآءَ قِرِيناً ﴾ بمعنى ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ ، لأن كلا من ساء وبئس فعل جامد لإنشاء الذم كما ذكره في الخلاصة بقوله :

واجعل كبئس ساء واجعل فعلا . . . من ذي ثلاثة كنعم مسجلا

واعلم أن الله تعالى بين أن الكفار الذين أضلهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى ، فهم يحسبون أشد الضلال ، أحسن الهدى ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 37] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 30] . وبين تعالى أنهم بسبب ذلك الظن الفاسد هم أخسر الناس أعمالاً في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 103104] .

وقوله تعالى في سورة الزخرف : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ [الزخرف : 36] من قولهم عشا بالفتح عن الشيء ، يعشو بالضم إذا ضعف بصره عن إدراكه ، لأن الكافر أعمى القلب .

فبصيرته تضعف عن الاستنارة بذكر الرحمن ، وبسبب ذلك يقيض الله له قرناء الشياطين .

قوله تعالى : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ ﴾ [يس : 7] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن ﴾ الآية .

(144/682)

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ خُذُواْ مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ واسمعوا ﴾ [البقرة : 93] .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة مما أعده الله في الآخرة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ذكره الله تعالى في الجملة ، في قوله في الأحقاف ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ أولئك أَصْحَابُ الجنة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف : 1314] لأن انتفاء الخوف والحزن والوعد الصادق ، بالخلود في الجنة المذكور في آية الأحقاف هذه ، يستلزم جميع ما ذكر في هذه الآية الكريمة ، من سورة فصلت .

قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾

قد أوضحناه مع الآيات التي بمعناه في آخر سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف ﴾ [الأعراف : 199] إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 200] .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار ﴾ الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ ﴾ [الإسراء : 12] الآية ، وفي غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة النمل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض ﴾ [النمل : 25] الآية .

قوله تعالى ﴿ فَإِنِ استكبروا ﴾ أي فإن تكبر الكفار عن توحيد الله ، والسجود له وحده ، وإخلاص العبادة له ، فالذين عند ربك وهم الملائكة ، يسبحون له بالليل ، أي يعبدونه وينزهونه دائماً ليلاً ونهاراً وهم لا يسأمون ، أي لا يملون من عبادة ربهم ، لاستلذاذهم لها وحلاوتها عندهم ، مع خوفهم منه جل وعلا كما قال تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد : 13] .

وقد دلت هذه الآية الكريمة من سورة فصلت على أمرين :

أحدهما : أن الله جل وعلا إن كفر به بعض خلقه ، فإن بعضاً آخر من خلقه يؤمنون به ، ويطيعونه كما ينبغي ، ويلازمون طاعته دائماً بالليل والنهار .

والثاني منهما : أن الملائكة يسبحون الله ويطيعونه دائماً لا يفترون عن ذلك .

وهذان الأمران اللذان دلت عليهما هذه الآية الكريمة ، قد جاء كل منهما موضحاً في غير هذا الموضع .

أما الأول منهما : فقد ذكره جل وعلا في قوله : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام : 89] .

وأما الثاني منهما : فقد أوضحه تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأنبياء : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : 1920] وقوله تعالى في آخر الأعراف : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : 206] إلى غير ذلك من الآيات . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت : 38] أي لا يملون .

والسآمة الملل ومنه قول زهير :

(146/682)

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش . . . ثمانين حولاً ، لا أبا لك ، يسأم

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة قد أوضحنا الكلام عليها ، مع ما في معناها من الآيات ، وبينا أن تلك الآيات فيها البرهان القاطع على البعث بعد الموت ، وذكرنا معها الآيات التي يكثر الاستدلال بها في القرآن ، على البعث بعد الموت ، وهي أربعة براهين قرآنية .

ذكرنا ذلك في سورة البقرة وفي سورة النحل وغيرهما وأحلنا عليه مراراً .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتي آمِناً يَوْمَ القيامة ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه ، مع ما يماثله من الآيات ، في سورة الفرقان ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد ﴾ [الفرقان : 15] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(147/682)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾

عطف على جملة ﴿ ومِن آياته الليل والنهار ﴾ [فصلت : 37] ، وهذا استدلال بهذا الصنع العظيم على أنه تعالى منفرد بفعله فهو دليل إلهيته دون غيره لأن من يفعل ما لا يفعله غيره هو الإِله الحق وإذا كان كذلك لم يجز أن يتعدد لكون من لا يفعل مثل فعله ناقص القدرة ، والنقص ينافي الإِلهية كما قال : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ [النحل : 17] .

والخطاب في قوله : ﴿ أَنَّكَ ﴾ لغير معيّن ليصلح لكل سامع .

والخشوع : التذلل ، وهو مستعار لحال الأرض إذا كانت مقحطة لا نبات عليها لأن حالها

في تلك الخصاصة كحال المتذلّل ، وهذا من تشبيه المحسوس بالمعقول باعتبار ما يتخيله الناس من مشابهة اختلاف حالي القحولة والخصب بحالي التذلل والازدهاء .

والاهتزاز حقيقته : مطاوعة هزّهُ ، إذا حرّكه بعد سكونه فتحرّك .

وهو هنا مستعار لربّو وجه الأرض بالنبات ، شبّه حال إنباتها وارتفاعها بالماء والنبات بعد أن كانت منخفضة خامدة بالاهتزاز .

ويؤخذ من مجموع ذلك أن هذا التركيب تمثيل ، شُبه حال قحولة الأرض ثم إنزال الماء عليها وانقلابها من الجدوبة إلى الخِصب والإنباتتِ البهيج بحال شخص كان كاسف البال رثّ اللباس فأصابه شيء من الغنى فلبس الزينة واختال في مشيته زُهُوًّا ، ولذا يقال : هَز عطفيه ، إذا اختال في مشيته .

وفي قوله : ﴿ خاشعة ﴾ و ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ مكنية بأن شبهت بشخص كان ذليلاً ثم صار مهتزًّا لعطْفيْه ورمز إلى المشبه بهما بذكر رديفيهما .

فهذا من أحسن التمثيل وهو الذي يقبل تفريق أجزائه في أجزاء التشبيه .

وعطف ﴿ وَرَبَتْ ﴾ على ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ لأن المقصود من الاهتزاز هو ظهور النبات عليها وتحركه .

والمقصود بالربوّ : انتفاخُها بالماء واعتلاؤها .

وقرأ أبو جعفر ﴿ وربأت ﴾ بهمزة بعد الموحدة من (ربَأ) بالهمز ، إذا ارتفع .

﴿ وَرَبَتْ إِنَّ الذى أحياها لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ ﴾

إدماج لإِثبات البعث في أثناء الاستدلال على تفرده تعالى بالخلق والتدبير ، ووقوعه على عادة القرآن في التفنن وانتهاز فرص الهدى إلى الحق .

والجملة استئناف ابتدائي والمناسبة مشابهة الإِحياءين ، وحرف التوكيد لمراعاة إنكار المخاطبين إحياء الموتى .

وتعريف المسند إليه بالموصولية لما في الموصول من تعليل الخبر ، وشُبه إمداد الأرض بماء المطر الذي هو سبب انبثاق البزور التي في باطنها التي تصير نباتاً بإحياء الميت ، فأطلق على ذلك ﴿ أَحْيَاهَا ﴾ على طريق الاستعارة التبعية ، ثم ارتُقي من ذلك إلى جَعل ذلك الذي سمي إحياء لأنه شبيه الإحياء دليلاً على إمكان إحياء الموتى بطريقة قياس الشبه ، وهو المسمى في المنطق قياس التمثيل ، وهو يفيد تقريب المقيس بالمقيس عليه .

وليس الاستدلال بالشبه والتمثيل بحجة قطعية ، بل هو إقناعي ولكنه هنا يصيرُ حجة لأن المقيس عليه وإن كان أضعف من المقيس إذ المشبه لا يبلغ قوة المشبه به ، فالمشبه به حيث كان لا يَقدر على فعله إلا الخالق الذي اتصف بالقدرة التامة لذاته فقد تساوى فيه قوِّيه

وضعيفه ، وهم كانوا يحيلون إحياء الأموات استناداً للاستبعاد العادي ، فلما نُظِّر إحياء الأموات بإحياء الأرض المشبه تم الدليل الإقناعي المناسب لشبهتهم الإقناعية .

وقد أشار إلى هذا تذييله بقوله : ﴿ إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)

استئناف ابتدائي قصد به تهديد الذين أهملوا الاستدلال بآيات الله على توحيده .

(149/682)

وقوله : ﴿ لا يخفون علينا ﴾ مراد به الكناية عن الوعيد تذكيراً لهم بإحاطة علم الله بكل كائن ، وهو متصل المعنى بقوله آنفاً : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ﴾ [فصلت : 22] الآية .

والإلحاد حقيقته : الميل عن الاستقامة ، والآيات تشمل الدلائل الكونية المتقدمة في قوله : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ [فصلت : 9] وقوله : ﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾ [فصلت : 37] الخ .

وتشمل الآيات القولية المتقدمة في قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا

فيه ﴾ [فصلت : 26] .

فالإِلحاد في الآيات مستعار للعدول والانصراف عن دلالة الآيات الكونية على ما دلت عليه .

والإلحاد في الآيات القولية مستعار للعدول عن سَماعها وللطعن في صحتها وصرف الناس عن سماعها .

وحرف ﴿ في ﴾ مِن قوله : ﴿ فِي ءايا تنا ﴾ للظرفية المجازية لإِفادة تمكن إلحادهم حتى كأنه مظروف في آيات الله حيثما كانت أو كلما سمعوها .

ومعنى نفي خفائهم : نفي خفاء إلحادهم لا خفاء ذواتهم إذ لا غرض في العلم بذواتهم .

﴿ عَلَيْنَآ أَفَمَن يلقى فِى النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتى ءَامِناً يَوْمَ ﴾ .

تفريع على الوعيد في قوله : ﴿ لا يَخْفُونَ عَلَيْنَا ﴾ لبيان أن الوعيد بنار جهنم تعريض بالمشركين بأنهم صائرون إلى النار ، وبالمؤمنين بأنهم آمنون من ذلك .

والاستفهام تقريع مستعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين .

وكنّي بقوله : ﴿ يَأْتِي ءَامِناً ﴾ أن ذلك الفريق مصيره الجنة إذ لا غاية للأمن إلا أنه في نعيم .

وهذه كناية تعريضية بالذين يُلحدون في آيات الله .

وفي الآية محسن الاحتباك ، إذ حذف مقابل : (من يُلقَى في النار) وهو : من يدخل الجنة ،

وحذف مقابل : ﴿ مَن يأتي ءامناً ﴾ وهو : من يأتي خائفاً ، وهم أهل النار .

﴿ القيامة اعملوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(150/682)

الجملة تذييل لجملة ﴿ إنَّ الذين يُلْحِدون في ءاياتنا ﴾ الخ ، كما دل عليه قوله عقبه : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ [فصلت : 41] الآية ، أي لا يخفى علينا إلحادهم ولا غيره من سيِّىء أعمالهم .

وإنما خص الإلحاد بالذكر ابتداء لأنه أشنع أعمالهم ومصدر أسوائها .

والأمر في قوله : ﴿ اعْمَلُوا ما شِئْتُم ﴾ مستعمل في التهديد ، أو في الإغراء المكنّى به عن التهديد .

وجملة : ﴿ إنَّه بِمَا تعمَلونُ بَصِيرٌ ﴾ وعيد بالعقاب على أعمالهم على وجه الكناية .

وتوكيده بـ (إنَّ) لتحقيق معنييه الكنائي والصريح ، وهو تحقيق إحاطة علم الله بأعمالهم لأنهم كانوا شاكين في ذلك كما تقدم في قصة الثلاثة الذين نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ﴾ [فصلت : 22] الآية .

والبصير : العليم بالمبصرات .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41)

أعقب تهديدهم على الإِلحاد في آيات الله على وجه العموم بالتعرض إلى إلحادهم في آيات القرآن وهو من ذكر الخاص بعد العام للتنويه بخصال القرآن وأنه ليس بعُرضَةٍ لأن يُكفر به بل هو جدير بأن يتقبل بالاقتداء والاهتداء بهديه ، فلهذه الجملة اتصال في المعنى بجملة : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ [فصلت : 40] واتصال في الموقع بجملة ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : 40] .

وتحديد هذين الاتصالين اختلفت فيه آراء المفسرين ، وعلى اختلافهم فيهما جرى اختلافهم في موقعها من الإعراب وفي مواقع أجزائها من تصريح وتقدير .

(151/682)

فجعل صاحب "الكشاف" قوله : ﴿ إنَّ الذِين كَفَروا بالذِّكر ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ إنَّ الذين يُلحِدُونَ في آياتنا ، وهو يريد أنه إبدال المفرد من المفرد بدلاً مطابقاً أو بدل اشتمال ، وأنه بتكرير العامل وهو حرف إنَّ ﴾ وإن كانت إعادة العامل مع البدل غير مشهورة إلاّ في حرف الجر كما قال الرضيّ ، فكلام الزمخشري في "المفصل" يقتضي الإِطلاق ، وإن كان أتى بمثالين عاملهما حرف جر .

وعلى هذا القول لا يقدر خبر لأن الخبر عن المبدل منه خبر عن البدل وهو قوله : ﴿ لا يَخْفَون علينا ﴾ [فصلت : 40] .

وعن أبي عمرو بن العلاء والكسائي وعمرو بن عبيد ما يقتضي أنهم يجعلون جملة : ﴿ إنَّ الذين كفروا بالذِكْر ﴾ جملة مستقلة لأنهم جعلوا ل ﴿ إن ﴾ خبراً .

فأما أبو عمرو فقال : خبر ﴿ إن ﴾ قوله : ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ [فصلت : 44] .

حكي أن بلال بن أبي بردة سئل في مجلس أبي عمرو بن العلاء عن خبر ﴿ إن ﴾ فقال : لم أجد لها نفاذاً ، فقال له أبو عمرو : إنه منك لقريب : ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد .

وهو يقتضي جعل الجمل التي بين اسم إنَّ ﴾ وخبرها جملاً معترضة وهي نحو سبع .

وأما الكسائي وعمرو بن عبيد فقدروا خبراً لاسم ﴿ إن ﴾ فقال الكسائي : الخبر محذوف دل عليه قوله قبله : ﴿ أفمن يلقى في النار خير ﴾ [فصلت : 40] ، فنقدر الخبر ، يُلقون في النار ، مثلاً .

وسأل عيسى بنُ عمر عمرو بن عبيد عن الخبر ، فقال عمرو : معناه أن الذين كفروا بالذكر كفروا به وإنه لكتاب عزيز .

فقال عيسى : أجدتَ يا أبا عثمان .

ويجيء على قول هؤلاء أن تكون الجملة بدلاً من جملة : ﴿ إنَّ الذين يُلْحدون في آياتِنا بدل

اشتمال إن أريد بالآيات في قوله : في ءاياتنا مطلق الآيات ، أو بدلاً مطابقاً إن أريد بالآيات آيات القرآن .

(152/682)

وقيل الخبر قوله : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ [فصلت : 43] ، أي ما يقال لك فيهم إلا ما قد قلنا للرسل من قبلك في مكذبيهم ، أو ما يقولون إلا كما قاله الأمم للرسل من قبلك ، وما بينهما اعتراض .

والكفر بالقرآن يشمل إنكار كل ما يوصف به القرآن من دلائل كونه من عند الله وما اشتمل عليه مما خالف معتقدهم ودين شركهم وذلك بالاختلافات التي يختلفونها كقولهم : سحر ، وشعر ، وقول كاهن ، وقول مجنون ، ولو نشاء لقلنا مثل هذا ، وأساطير الأولين ، وقلوبنا في أكنّة ، وفي آذاننا وقر .

والأظهر أن تكون جملة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ الخ واقعة موقع التعليل للتهديد بالوعيد في قوله : ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت : 40] .

والمعنى : لأنهم جديرون بالعقوبة إذ كفروا بالآيات ، وهي آية القرآن المؤيد بالحق ، وبشهادة ما أوصي إلى الرسل من قوله .

وموقع إن ﴾ موقع فاء التعليل .

وخبر ﴿ إنّ ﴾ محذوف دل عليه سياق الكلام .

والأحسن أن يكون تقديره بما تدل عليه جملةُ الحال من جلالة الذكر ونفاسته ، فيكون التقدير : خسروا الدنيا والآخرة ، أو سفهوا أنفسهم أو نحو ذلك مما تذهب إليه نفس السامع البليغ ، ففي هذا الحذف توفير للمعاني وإيجاز في اللفظ يقوم مقام عدة جمل ، وحَذْفُ خبرِ ﴿ إنّ ﴾ إذا دل عليه دليل وارد في الكلام .

وأجازه سيبويه في باب ما يحسن السكوت عليه من هذه الأحرف الخمسة ، وتبعه الجمهور ، وخالفه الفراء فشرطه بتكرر ﴿ إنّ ﴾ .

ومن الحذف قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ الآية في سورة الحج (25) ، وأنشد سيبويه :

يا ليت أيام الصبا رواجعا

إذ روي بنصب (رواجعا) على الحال فلم يذكر خبر (ليت) .

وذكر أن العرب يقولون : "إنّ مالاً وإنَّ وَلَداً" أي إنَّ لهم ، وقول الأعشى :

إنَّ مَحلاًّ وإنَّ مُرْتَحَلا

أي أن لنا في الدنيا حلولاً ولنا عنها مرتحلاً ، إذ ليس بقية البيت وهو قوله :

وإن في السَّفر إذ مَضَوْا مَهَلا

ما يصح وقوعه خبراً عن (إنّ) الأولى .

وقال جميل :

وقالوا نراها يا جميل تنكرتْ

وغَيَّرها الواشي فقلتُ لعلَّها . . .

وقال الجاحظ في "البيان" في باب من الكلام المحذوف عن الحسن : أن المهاجرين قالوا : " يا رسول الله إن الأنصار آوونا ونصرونا ، قال النبي صلى الله عليه وسلم تعرفون ذلك لهم ، قالوا : نعم ، قال : فإن ذلك ليس في الحديث غير هذا " يريد فإن ذلك شكر ومكافأة ا ه .

وفي المقامة الثالثة والأربعين "حسبك يا شيخُ فقد عرفتُ فنَّك ، واستبنتُ أنك" أي أنك أبو زيد .

وقد مثل في "شرح التسهيل" لحذف خبر (إنَّ) بهذه الآية .

وجملة : ﴿ وَإِنَّهُ لكتاب ﴾ الخ في موضع الحال من الذِّكْر ، أي كفروا به في حاله هذا ، ويجوز أن تكون الجملة عطفاً على جملة : ﴿ إنَّ الذينَ كَفَروا بالذِّكْر ﴾ على تقدير خبر ﴿ إن ﴾ المحذوف .

وقد أجري على القرآن ستة أوصاف ما منها واحد إلا وهو كمال عظيم:

الوصف الأول : أنه ذِكر ، أي يذكِّر الناس كلهم بما يغفلون عنه مما في الغفلة عنه فوات فوزهم .

الوصف الثاني من معنى الذكر : أنه ذكر للعرب وسُمعة حسنة لهم بين الأمم يخلد لهم مفخرة عظيمة وهو كونه بلغتهم ونزل بينهم كما قال تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] وفي قوله : ﴿ لما جاءهم ﴾ إشارة إلى هذا المعنى الثاني .

الوصف الثالث : أنه كتاب عزيز ، والعزيز النفيس ، وأصله من العزة وهي المنعة لأن الشيء النفسي يدافعَ عنه ويُحمَى عن النبذ فإنه بيِّن الإتقان وعلوِّ المعاني ووضوح الحجة ومثل ذلك يكون عزيزاً ، والعزيز أيضاً : الذي يَغلب ولا يُغلب ، وكذلك حجج القرآن .

الوصف الرابع : أنه لا يتطرقه الباطل ولا يخالطه صريحُه ولا ضمنيُّه ، أي لا يشتمل على الباطل بحال .

فمُثِّل ذلك بِ ﴿ من بين يديه ولا من خلفه ﴾ .

(154/682)

والمقصود استيعاب الجهات تمثيلاً لحال انتفاء الباطل عنه في ظاهره وفي تأويله بحال طرد المهاجم ليضر بشخص يأتيه من بين يديه فإن صدّه خاتله فأتاه من خلفه ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ثم لآتِيَنّهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ [الأعراف : 17] .

فمعنى : لا يأتِيهِ الباطل ﴾ لا يوجد فيه ولا يداخله ، وليس المراد أنه لا يُدعَى عليه الباطل .

الوصف الخامس : أنه مشتمل على الحكمة وهي المعرفة الحقيقية لأنه تنزيل من حكيم ، ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة : 269] فإن كلام الحكيم يأتي محكماً متقناً رصيناً لا يشوبه الباطل .

الوصف السادس : أنه تنزيل من حميد ، والحميد هو المحمود حمداً كثيراً ، أي مستحقّ الحمد الكثير ، فالكلام المنزل منه يستحق الحمد وإنما يحمد الكلام إذْ يكون دليلاً للخيرات وسائقاً إليها لا مطعن في لفظه ولا في معناه ، فيحمده سامعه كثيراً لأنه يجده مجلبة للخير الكثير ، ويحمد قائله لا محالة خلافاً للمشركين .

وفي إجراء هذه الأوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرطوا فيه ففرطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة ولذلك جيء بجملة الحال من الكتاب عقب ذكر تكذيبهم إياه فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ ﴾ الآيات . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (43) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وصف الذكر بأنه لا يصح ولا يتصور أن يلحقه نقص ، فبطل قولهم ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ ونحوه مما مضى وحصل الأمن منه ، أتبعه التسلية مما يلحق به من الغم ليقع الصبر على جميع أقوالهم فقال : ﴿ ما يقال لك ﴾ أي يبرز إلى الوجود قوله سواء كان في ماضي الزمان أو حاضره آو آتيه من شيء من الكفار أو غيرهم يحصل به ضيق صدر أو تشويش فكر من قولهم ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ إلى آخره .

وغير ذلك مما تقدم أنهم قالوه له متعنتين به ﴿ إلا ما ﴾ أي شيء ﴿ قد قيل ﴾ أي حصل قوله على ذلك الوجه ﴿ للرسل ﴾ وأن لم يقل لكل واحد منهم فإنه قيل للمجموع ، ونبه على أن ذلك ليس لمستغرق للزمان بل تارة وتارة بإدخال الجار في قوله : ﴿ من قبلك ﴾ ولما حصل بهذا الكلام ما أريد من التأسية ، فكان موضع التوقع لهم أن يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم من عذاب الاستئصال ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ شديد الشفقة عليهم والمحبة لصلاحهم ، سكن سبحانه روعه بالإعلام بأن رحمته سبقت غضبه فقال مخوفاً مرجياً لأجل إنكار المنكرين : ﴿ إن ﴾ وأشار إلى مزيد رفعته بذكر صفة الإحسان وإفراد الضمير فقال : ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بارسالك وإنزال كتابه إليك ، ومن أكرم بمثل هذا لا ينبغي له أن يحزن لشيء يعرض ﴿ لذو مغفرة ﴾ أي عظيمة جداً في نفسها وزمانها ومكانها لمن يشاء منهم ، فلا يقطع لأحد بشقاء .

ولما رغبهم باتصافه بالمغفرة ، رهبهم باتصافه بالانتقام ، وأكد باعادة " ذو " والواو فقال : ﴿ وذو عقاب ﴾ والختم بما رويه الميم مع تقديم الاسم الميمي في التي قبلها دال للأشعري الذي قال بأن الفواصل غير مراعية في الكتاب العزيز ، وإنما المعول عليه المعاني لا غير ،

والمعنى هنا على إيلام من كانوا يؤلمون أولياءه باللغو عند التلاوة الدالة على غاية العناد ، فلذلك قدم حكيم ، ولم يقل شديد ، وقال : ﴿ أليم ﴾ أي كذلك ، فلا يقطع لأحد نجاة إلا من أخبر هو سبحانه بإشقائه أو إنجائه ، وقد تقدم فعله لكل من الأمرين أنجى ناساً وغفر لهم كقوم يونس عليه الصلاة والسلام ، وعاقب آخرين ، وسيفعل في قومك من كل من الأمرين ما هو الأليق بالرحمة بإرسالك ، كما أشار إليه ابتداؤه بالمغفرة ، فالآية نحو : إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، ولعله لم يصرح هنا تعظيماً للقرآن الذي الكلام بسببه .

(157/682)

ولما افتتحت السورة بأنه أنزل على أحسن الوجوه وأجملها وأعلاها وأبينها وأكملها من التفصيل ، والجمع والبيان بهذا اللسان العظيم الشأن ، فقالوا فيه ما وقعت هذه التسلية لأجله من قولهم ﴿ فلوبنا في أكنة ﴾ إلى آخره ، وكان ربما قال قائل ؛ لو كان بلسان غير العرب ، وأعطى هذا النبي فهمه والقدرة وعلى تبيينه لكان أقوى في الإعجاز وأجدر بالاتباع ، أخبر أن الأمر ليس كذلك ، لأنهم لم يقولوا : هذا الشك حصل لهم في أمره ، بل عناداً ، والمعاند لا يرده شيء ، فقال على سبيل التأكيد ، معلماً بأن الأمر على غير ما ظنه هذا الظان ، وقال الأصبهاني : إنه جواب عن قولهم ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنه ﴾ .

والأحسن عندي أن يكون عطفاً على ﴿ فصلت آياته قرآناً عربياً ﴾ وبناه للمفعول لأنه بلسانهم فلم يحتج إلى تعيين المفصل ، فيكون التقدير : فقد جعلناه عربياً معجزاً ، وهم أهل العلم باللسان ، فأعرضوا عنه وقالوا فيه ما تقدم ، ولفت القول عن وصف الإحسان الذي اقتضى أن يكون عربياً إلى مظهر العظمة الذي هو محط إظهار الاقتدار وإنفاذ الكلمة ﴿ ولو جعلناه ﴾ أي هذا الذكر بما لنا من العظمة والقدرة ﴿ قرآناً ﴾ أي على ما هو عليه من الجمع ﴿ أعجمياً ﴾ أي لا يفصح وهو مع ذلك على وجه يناسب عظمتنا ليشهد كل أحد أنه معجز للعجم كما أن معجز للعرب وأعطيناك فهمه والقدرة على إفهامهم إياه ﴿ لقالوا ﴾ أي هؤلاء المتعنتون فيه كما يقولون في هذا بغياً وتعنتاً : ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ فصلت آياته ﴾ أي بينت على طريقة نفهمها بلا كلفة ولا مبين ، حال كونه قرآناً عربياً كما قدمنا أول السورة .

(158/682)

ولما تبين بشاهد الوجود أنهم قالوا في العربي الصرف وبشهادة الحكيم الودود ، وأنهم يقولون في الأعجمي الصرف ، لم يبق إلا المختلط منهما المنقسم إليهما ، فقال مستأنفاً منكراً عليهم للعلم بأن ذلك منهم مجرد لدد لا طلباً للوقوف على سبيل الرشد : ﴿ أعجمي ﴾

أي أمطلوبكم أو مطلوبنا – على قراءة الخبر من غير استفهام – أعجمي ﴿ وعربي ﴾ مفصل باللسانين ، والأعجمي كما قاله الرازي في اللوامع : الذي لا يفصح ولو كان عربياً والعجمي من العجم ولو تفاصح بالعربية .

(159/682)

ولما كان من الجائز أن يقولوا : نعم ، ذلك مطلوبنا ، وكان نزولاً من الرتبة العليا إلى ما دونها مع أنه لا يجيب إلى المقترحات إلا مريد للعذاب ، او عاجز عن إنفاذ ما نريد ، بين أن مراده نافذ من غير هذا فقال : ﴿ قل هو ﴾ أي هذا القرآن على ما هو عليه من العلو الذي لا يمكن أن يكون شيء يناظره ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي أردنا وقوع الإيمان منهم ﴿ هدى ﴾ بيان لكل مطلوب ﴿ وشفاء ﴾ لما في صدروهم من داء الكفر والهواء والإفك فآذانهم به سميعة وقلوبهم له واعية وهو لهم بصائر قال القشيري فهو شفاء للعلماء حيث استراحوا عن كد الفكرة وتحير الخواطر وشفاء لضيق صدور المريدين بما فيه من التنعيم بقراءته والتلذذ بالتفكر فيه ، ولقلوب المحبين من لواعج الاشتياق بما فيه من لطائف المواعيد ، ولقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق وآثار خطاب الرب العزيز ﴿ والذين لا يؤمنون ﴾ أي أردنا أنه لا يتجدد منهم إيمان ﴿ في آذانهم وقر ﴾ أي ثقل مذهب للسمع مصم ، فهم

لذلك لا يسمعون سماعاً ينفعهم لأنهم بادروا إلى رده أول ما سمعوه وتكبروا عليه فصاروا لا يقدرون على تأمله فهزهم الكسل وأصمهم الفشل فعز عليهم فهمه ﴿ وهو عليهم ﴾ أي خاصة ﴿ عمى ﴾ مستعلٍ على أبصارهم وبصائرهم لازم لهم ، فهم لا يعونه حق الوعي ، ولا يبصرون الداعي به حق الإبصار ، فلهم به ضلال وداء ، فلذلك قالوا ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ وذلك لما يحصل لهم من الشبه التي هيئت قلوبهم لقبولها ، أو يتمادى بهم في الأوهام التي لا يألفون سوى فروعها وأصولها ، فقد بان لأن سبب الوقر في آذانهم الحكم بعدم إيمانهم للحكم بإشقائهم ، فالآية من الاحتباك : ذكر الهدى والشفاء اولاً دليلاً على الضلال والداء ثانياً ، والوقر والعمى ثانياً دليلاً على السمع والبصائر أولاً ، وسر ذلك أنه ذكر أمدح صفات المؤمنين وأذم صفات الكافرين ، لأنه لا أحقر من أصم أعمى .

(160/682)

ولما بان بهذا بعدهم عن عليائه وطردهم عن فنائه قال : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء مثالهم مثال من ﴿ ينادون ﴾ أي يناديهم من يريد نداءهم غير الله ﴿ من مكان بعيد ﴾ فهم بحيث لا يتأبى سماعهم ، وأما الأولون فهم ينادون بما هيئوا له من القبول من مكان قريب ، فهذه هي القدرة الباهرة ، وذلك أن شيئاً واحداً يكون لناس في غاية القرب ولناس معهم

في مكانهم في أنهى البعد .

ولما كان التقدير : فلقد آتيناك الكتاب على هذه الصفة من العظمة ، فاختلفت فيه أمتك على ما أعلمناك به أول البقرة من انقسام الناس فعاقبنا الذين تكبروا عليه أن ختمنا على مشاعرهم ، عطف عليه مسلياً قوله مؤكداً لمن يقول من أهل الكتاب إضلالاً : لو كان نبياً ما اختلف الناس عليه ونحو ذلك مما يلبس به : ﴿ ولقد آتينا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي الجامع لما فيه هداهم ﴿ فاختلف ﴾ أي وقع الاختلاف ﴿ فيه ﴾ أي من أمته كما وقع في هذا الكتاب لأن الله تعالى خلق الخلق للاختلاف مع ما ركب فيهم من العقول الداعية إلى الإنفاق ﴿ ولولا كلمة ﴾ أي إرادة ﴿ سبقت ﴾ في الأزل ، ولفت القول إلى صفة الإحسان ترضية بالقدر وتسلية ، وزاد ذلك بإفراده بالإضافة فقال : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بتوفيق الصالح لاتباعك وخذلان الطالح بالطرد عنك لإراحتك منه من غير ضرر لدينك وبإهمال كل إلى أجل معلوم ثم إمهال الكل إلى يوم الفصل الأعظم من غير استئصال بعذاب كما صنعنا بغيرهم من الأمم ﴿ لقضي ﴾ أي وقع القضاء الفيصل ﴿ بينهم ﴾ المختلفين بإنصاف المظلوم من ظالمه الآن .

ولما علم بهذا وغيره أن يوم القيامة قد قدره وجعله موعداً من لا يبدل القول لديه ، فاتضح أنه لا بد منه ولا محيد عنه وهو يجادلون فيه ، قال مؤكداً : ﴿ إنهم لفي شك ﴾ أي محيط

بهم ﴿ منه ﴾ أي القضاء يوم الفصل ﴿ مريب ﴾ أي موقع في الريب وهو التهمة والاضطراب بحيث لا يقدرون على التخلص من دائرته أصلاً .

(161/682)

ولما تقرر بما مضى أن المطيع ناجٍ ، وتحرر أن العاصي هالك كانت النتيجة من غير تردد : ﴿ من عمل صالحاً ﴾ كائناً من كان من ذكر أو أنثى ﴿ فلنفسه ﴾ أي فنفع عمله لها ببركتها به لا يتعداها ، والنفس فقيرة إلى التزكية بالأعمال الصالحة لأنها محل النقائص ، فلذا عبر بها ، وكان قياس العبارة في جانب الصلاح .

" ومن عمل سيئاً " فأفاد العدول إلى ما عبر به مع ذكر العمل أولاً الذي مبناه العلم إن الصالح تتوقف صحته على نيته ، وأن السيء يؤاخذ به عامله في الجملة من الله أو الناس ولو وقع خطأً فلذا قال : ﴿ ومن أساء ﴾ أي في عمله ﴿ فعليها ﴾ أي على نفسه خاصة ليس على غيره منه شيء .

ولما كان لمقصد السورة نظر كبير إلى الرحمة ، كرر سبحانه وصف الربوبية فيها كثيراً ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فما ربك بتارك جزاء أحد أصلا خيراً كان أو شراً : ﴿ وما ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك لتتميم مكارم الأخلاق .

ولما كان لا يصح أصلاً ولا يتصور أن ينسب إليه سبحانه ظلم ، عبر للدلالة على ذلك بنكرة في سياق النفي دالة على النسبة مقرونة بالجار فقال : ﴿ بظلام ﴾ أي بذم ظلم ﴿ للعبيد ﴾ أي الجنس فلا يتصور أن يقع منه ظلم لأحد أصلاً لأن له الغنى المطلق والحكمة البالغة ، وعبر ب " عبيد " دون عباد لأنه موضع إشفاق وإعلام بضعف وعدم قدرة على انتصار وعناد يدل على طاعة وعدم حقارة بل إكرام هذا أغلب الاستعمال ، ولعل حكمة التعبير بصيغة المبالغة الإشارة إلى أنه لو ترك الحكم والأخذ للمظلوم من الظالم ، لكان بليغ الظلم من جهة ترك الحكمة التي هي وضع الأشياء في أتقن محالها ثم من جهة وضع الشيء وهو العفو عن المسيء وترك الانتصار للمظلوم في غير موضعه ، ومن جهة التسوية بين المحسن والمسيء ، وذلك أشد في تهديد الظالم لأن الحكيم لا يخالف الحكمة فكيف إذا كانت المخالفة في غاية البعد عنها – هذا مع أن التعبير بها لا يضر لأنها موضوعة أيضاً للنسبة إلى أصل المعنى مطلقاً ولأن نفي مطلق الظلم مصرح به في آيات أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 580.584 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

(164/682)

واعلم أنه تعالى لما هدد الملحدين في آيات الله ، ثم بيّن شرف آيات الله ، وعلو درجة كتاب الله رجع إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يصبر على أذى قومه وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة من أنهم ﴿ قَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ إلى قوله ﴿ فاعمل إِنَّنَا عاملون ﴾ [فصلت : 5] فقال : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ وفيه وجهان : الأول : وهو الأقرب أن المراد ما تقول لك كفار قومك إلا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزّلة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ للمحقين ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ للمبطلين ففوض هذا الأمر إلى الله واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى الثاني : أن يكون المراد ما قال الله لك إلا مثل ما قال لسائر الرسل وهو أنه تعالى أمرك وأمر كل الأنبياء بالصبر على سفاهة

الأقوام فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته ، وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة ، هو ذكر الأجوبة عن قولهم ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فاعمل إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة ، وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولم يعرض عنه ، وامتد الكلام إلى هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل ، ثم إنه تعالى ذكر جوابا آخر عن قولهم ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ فقال : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءَانا أَعْجَمِيّا لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته ءاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(165/682)

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم : أأعجمي بهمزتين على الاستفهام ، والباقون بهمزة واحدة ومدة على أصلهم في أمثاله ، كقوله ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [البقرة : 6] ونحوها على الاستفهام ، وروي عن ابن عباس بهمزة واحدة ، وأما القراءة بهمزتين : فالهمزة الأولى همزة إنكار ، والمراد أنكروا وقالوا قرآن أعجمي ورسول عربي ، أو مرسل إليه عربي ،

وأما القراءة بغير همزة الاستفهام ، فالمراد الإخبار بأن القرآن أعجمي والمرسل إليه عربي .

المسألة الثانية :

نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت ، قالوا لو نزل القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية ، وعندي أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن ، لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض ، وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتاباً منتظماً ، فضلاً عن ادعاء كونه معجزاً ؟ بل الحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد ، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ ﴾ وهذا الكلام أيضاً متعلق به ، وجواب له ، والتقدير : أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب ، ويصح لهم أن يقولوا ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي من هذا الكلام ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ منه لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه ، أما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب ، وبألفاظهم وأنتم من أهل هذه اللغة ، فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها ، وفي آذانكم وقر منها ، فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن ذلك الكلام ، بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم ، وأما على الوجه الذي يذكره الناس فهو عجيب جداً .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَاء والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِى ءاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .

واعلم أن هذا متعلق بقولهم ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ إلى آخر الآية ، كأنه تعالى يقول : إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم ، فلا يمكنكم أن تقولوا إن قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة ، فبقي أن يقال إن كل من آتاه الله طبعاً مائلاً إلى الحق ، وقلباً مائلاً إلى الصدق ، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين ، فإن هذا القرآن يكون في حقه هدىً شفاء .

(167/682)

أما كونه هدىً فلأنه دليل على الخيرات ويرشد إلى كل السعادات ، وأما كونه شفاء فإنه إذا أمكنه الاهتداء فقد حصل الهدى ، فذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل ، وأما من كان غارقاً في بحر الخذلان ، وتائهاً في مفاوز الحرمان ، ومشغوفاً بمتابعة الشيطان ، كان هذا القرآن في آذانه وقراً ، كما قال : ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ [فصلت : 5] وكان القرآن عليهم عمى كما قال : ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : 5] ، ﴿ أولئك يُنَادَوْنَ

مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ بسبب ذلك الحجاب الذي حال بين الانتفاع ببيان القرآن ، وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو غرض واحد ، فيكون هذا التفسير أولى مما ذكروه ، وقرأ الجمهور ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ على المصدر ، وقرأ ابن عباس عم على النعت ، قال أبو عبيد والأول هو الوجه ، كقوله ﴿ هُدًى وَشِفَاء ﴾ وكذلك ﴿ عَمًى ﴾ وهو مصدر مثلها ، ولو كان المذكور أنه هاد وشاف لكان الكسر في ﴿ عَمًى ﴾ أجود فيكون نعتاً مثلهما ، وقوله تعالى : ﴿ أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال ابن عباس : يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء ، وقيل من دعي من مكان بعيد لم يسمع ، وإن سمع لم يفهم ، فكذا حال هؤلاء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ وأقول أيضاً إن هذا متعلق بما قبله ، كأنه قيل إنا لما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه ، فقبله بعضهم ورده الآخرون ، فكذلك آتيناك هذا الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحابك ، ورده الآخرون ، وهم الذين يقولون ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني في تأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ، كما قال : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر : 46] ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني المصدق والمكذب بالعذاب الواقع بمن كذب وإنهم لفي شك من صدقك وكتابك مريب ، فلا ينبغي أن تستعظم استيحاشك من قولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ يعني خفف على نفسك إعراضهم ، فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم ، وإن كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم ، والله سبحانه يوصل إلى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 114.116 ﴾

(169/682)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ أَنَّ قُرَيْشًا قَالُوا : إِنَّ الَّذِي يُعَلِّمُ مُحَمَّدًا يَسَارٌ أَبُو فُكَيْهَةَ مَوْلًى مِنْ قُرَيْشٍ ، وَسَلْمَانُ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .

وَهَذَا يَصِحُّ فِي يَسَارٍ ، لِأَنَّهُ مَكِّيٌّ ، وَالْآيَةُ مَكِّيَّةٌ ؛ وَأَمَّا سَلْمَانُ فَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ ، وَقَدْ كَانَتْ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ بِإِجْمَاعٍ مِنْ النَّاسِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي مَعْنَى الْآيَةِ : وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَوْ نَزَلَ بِاللُّغَةِ الْأَعْجَمِيَّةِ لَقَالَتْ قُرَيْشٌ لِمُحَمَّدٍ : يَا مُحَمَّدُ ؛ إِذَا أُرْسِلْت إِلَيْنَا بِهِ فَهَلَّا فَصَّلْت آيَاتِهِ ، أَيْ بَيَّنْت وَأَحْكَمْت .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، التَّقْدِيرُ : أَنَّى يَجْتَمِعُ مَا يَقُولُونَ أَوْ يَنْتَظِمُ مَا يَأْفِكُونَ ؟ يَسَارٌ أَعْجَمِيٌّ ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ ، فَأَنَّى يَجْتَمِعَانِ ،

(170/682)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي قَوْلِهِ : إِنَّ تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ بِإِبْدَالِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِيهِ بِالْفَارِسِيَّةِ جَائِزٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا ﴾ : كَذَا لِنَفْيِ أَنْ يَكُونَ لِلْعُجْمَةِ إِلَيْهِ طَرِيقٌ ، فَكَيْفَ يُصْرَفُ إِلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَخْبَرَ

أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ التِّبْيَانَ وَالْإِعْجَازَ إنَّمَا يَكُونُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، فَلَوْ قُلِبَ إلَى غَيْرِ هَذَا لَمَا كَانَ قُرْآنًا وَلَا بَيَانًا ، وَلَا اقْتَضَى إعْجَازًا ، فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ عَلَى التَّمَامِ إنْ شَاءَ اللَّهُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ، وَلَا خَيْرَ إلَّا خَيْرُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(171/682)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرض خَاشِعَةً ﴾

ثم ذكر تعالى آية منصوبة ليعتبر بها في أمر البعث من القبور ، ويستدل بما شوهد من هذه على ما لم يشاهد بعد من تلك ، وهي آية يراها عياناً كل مفطور على عقل . وخشوع الأرض هو ما يظهر عليها من استكانة وشعث بالجدب وصليم السموم فهي عابسة كما الخاشع عابس يكاد يبكي ، والماء المنزل : هو المطر ، واهتزاز الأرض : هو تخلخل أجزائها بالماء وتشققها للنبات . وربوها : هو انتفاخها بالماء وعلو سطحها به .

وقرأ الجمهور : " وربت " . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " وربأت " : بألف مهموزة ، ورواها

الرؤاسي عن أبي عمرو ، وهو أيضاً بمعنى : علت وارتفعت ، ومنه الربيئة ، وهو الذي يرتفع حتى يرصد للقوم ثم ذكر تعالى بالأمر الذي ينبغي أن يقاس على هذه الآية والعبرة ، وذلك إحياء الموتى .

وقوله تعالى : ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ عموم ، والشيء في اللغة : الموجود .

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا

هذه آية وعيد . والإلحاد : الميل ، وهو هاهنا عن الحق ، ومن الإلحاد : لحد الميت ، لأنه في جانب ، يقال لحد الرجل وألحد بمعنى .

وقرأ الجمهور : "يُلحدون" بضم الياء من ألحد . وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش : " يَلحَدون " بفتح الياء والحاء من لحد .

واختلف المفسرون في الإلحاد الذي أشير إليه ما هو ؟ فقال قتادة وغيره : الإلحاد بالتكذيب . وقال مجاهد وغيره : الإلحاد بالمكاء والصفير واللغو الذي ذهبوا إليه . وقال ابن عباس : إلحادهم هو أن يوضع الكلام غير موضعه ، ولفظة الإلحاد تعم هذا كله .

(172/682)

وقوله : ﴿ لا يخفون علينا ﴾ أي فنحن بالمرصاد لهم وسنعذبهم ، ثم قرر على هذين القسمين أنهما خير ، وهذا التقرير هم المراد به ، أي فقل لهم يا محمد ﴿ أفمن ﴾ . قال مقاتل : نزلت هذه الآية في أبي جهل وعثمان بن عفان ، وقيل في عمار بن ياسر ، وحسن التفضيل هنا بين الإلقاء في النار والأمن يوم القيامة وإن كانا لا يشتركان في صفة الخير من حيث كان الكلام تقريراً لا مجرد خبر ، لأن المقرر قد يقرر خصمه على قسمين : أحدهما بين الفساد حتى يرى جوابه ، فعساه يقع في الفاسد المعنى فيبين جهله ، وقد تقدم نظير هذه الآية واستيعاب القول في هذا المعنى ، ولا يتجه هنا أن يقال خاطب على معتقدهم كما يتجه ذلك في قوله : ﴿ خير مستقراً ﴾ [الفرقان : 24] فتأمله .

وقوله تعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وعيد في صيغة الأمر بإجماع من أهل العلم ، ودليل الوعيد ومبينه قوله : ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ . يريد قريشاً . و" الذكر " : القرآن بإجماع . واختلف الناس في الخبر عنهم أين هو ؟ فقالت فرقة : هو في قوله : ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ [فصلت : 44] ذكر النقاش أن بلال بن أبي بردة سأل عن هذا في مجلسه وقال : لم أجد لها نفاذاً ، فقال له أبو عمرو بن العلاء : إنه منك لقريب ﴿ أولئك ينادون ﴾ [فصلت : 44] . ويرد هذا النظر كثرة الحائل ، وإن هنالك قوماً قد ذكروا بحسن رد قوله : ﴿ أولئك ينادون ﴾ [فصلت : 44] عليهم . وقالت فرقة : الخبر

مضمر تقديره : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ هلكوا أو ضلوا . وقال بعض نحويي الكوفة الجواب في قوله : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ حكى ذلك الطبري ، وهو ضعيف لا يتجه ، وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن هذا ، فقال عمرو معناه في التفسير : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ كفروا به ﴿ وإنه لكتاب ﴾ ، فقال عيسى بن عمر : أجدت يا أبا عثمان .

(173/682)

قال القاضي أبو محمد : والذي يحسن في هذا هو إضمار الخبر ، ولكنه عند قوم في غير هذا الموضع الذي قدره هؤلاء فيه ، وإنما هو بعد ﴿ حكيم حميد ﴾ وهو أشد إظهاراً لمذمة الكفار به ، وذلك أن قوله : ﴿ وإنه لكتاب ﴾ داخل في صفة الذكر المكذب به ، فلم يتم ذكر المخبر عنه إلا بعد استيفاء وصفه ، وهذا كما تقول : تخالف زيداً وهو العالم الودود الذي من شأنه ومن أمره ، فهذه كلها أوصاف .

ووصف تعالى الكتاب بالعزة ، لأنه بصحة معانيه ممتنع الطعن فيه والإزراء عليه ، وهو محفوظ من الله تعالى ، قال ابن عباس : معناه كريم على الله تعالى ، قال مقاتل : منيع من الشيطان . قال السدي : غير مخلوق .

وقوله : ﴿ لا يأتيه الباطل ﴾ قال قتادة والسدي : يريد الشيطان ، وظاهر اللفظ يعم الشيطان وأن يجيء أمر يبطل منه شيئاً .

وقوله : ﴿ من بين يديه ﴾ معناه ليس فيما تقدمه من الكتب ما يبطل شيئاً منه . وقوله : ﴿ ولا من خلفه ﴾ أي ليس يأتي بعده من نظر ناظر وفكرة عاقل ما يبطل أشياء منه ، والمراد باللفظ على الجملة : لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات . وقوله : ﴿ تنزيل ﴾ خبر ابتداء ، أي هو تنزيل .

وقوله : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون تسلية للنبي عليه السلام عن مقالات قومه ، أي ما تلقى يا محمد من المكروه منهم ، ولا يقولون لك من الأقوال المؤلمة إلا ما قد قيل ولقي به من تقدمك من الرسل ، فلتتأسَّ بهم ولتمض لأمر الله ولا يهمنك شأنهم . والمعنى الثاني : أن تكون الآية تخليصاً لمعاني الشرع ، أي ما يقال لك من الوحي وتخاطب به من جهة الله تعالى إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، ثم فسر ذلك الذي قيل لجميعهم وهو ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ للطائعين ﴿ وذو عقاب ﴾ للكافرين . وفي هذه الكلمات جماع النهي والزجر الموعظة ، وإليها يرجع كل نظر .

(174/682)

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ

الأعجمي : هو الذي لا يفصح عربياً كان أو غير عربي ، والعجمي : الذي ليس من العرب فصيحاً كان أو غير فصيح ، وهذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أقوالهم من أجل الحروف التي وقعت في القرآن ، وهي مما عرِّب من كلام العجم : كالسجين والاستبرق ونحوه ، فقال عز وجل : ولو جعلنا هذا القرآن أعجمياً لا يبين لقالوا واعترضوا لولا بينت آياته .

واختلف القراء في قوله : ﴿ اعجمي وعربي ﴾ فقراءة الجمهور على الاستفهام وهمزة ممدودة قبل الألف . وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم والأعمش : " أأعجمي " بهمزتين ، وكأنهم كانوا ينكرون ذلك فيقولون : لولا بين أأعجمي وعربي مختلط هذا لا يحسن ، وتأول ابن جبير أن معنى قولهم : أتجيئنا عجمة ونحن عرب ؟ ما لنا وللعجمة ؟ وقرأ الحسن البصري وأبو الأسود والجحدري وسلام والضحاك وابن عباس وابن عامر بخلاف عنهما : " أعْجمي وعربي " دون استفهام وبسكون العين ، كأنهم قالوا عجمة وإعراب ، إن هذا لشاذ ، أو كأنهم قالوا لولا فصل فصلين ، فكان بعضه أعجمياً يفهمه العجم ، وبعضه عربياً يفهمه العرب ، وهذا تأويل لابن جبير أيضاً . وقرأ عمرو بن ميمون : " أعَجمي " بهمزة واحدة دون مد وبفتح العين ، فأخبر الله تعالى عنهم أنه لو كان على أي وجه تخيل لكان لهم قول واعتراض فاسد ، هذا مقصد الكلام .

وأمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يقول لهم : إن القرآن ﴿ هدى وشفاء ﴾ للمؤمنين المبصرين للحقائق ، وأنه على الذين لا يؤمنون ولا يصرفون نظرهم وحواسهم في المصنوعات عمي ، لأنهم ﴿ في آذانهم وقر ﴾ وعلى قلوبهم أقفال وعلى أعينهم غشاوة .

(175/682)

واختلف الناس في قوله : ﴿ وهو عليهم ﴾ فقالت فرقة : يريد ب ﴿ هو ﴾ القرآن .

وقالت فرقة : ﴿ وهو ﴾ يريد به الوقر . والوقر : الثقل في الآذن المانع من السمع ، وهذه كلها استعارات ، أي هم لما لم يفهموا ولا حصلوا كالأعمى وصاحب الوقر .

وقرأ ابن عباس ومعاوية وعمرو بن العاصي : " وهو عليهم عمٍ " بكسر الميم وتنوينه .

وقال يعقوب : لا أدري أنونوا أم فتحوا الياء على الفعل الماضي ؟ وبغير ياء رواها عمرو بن دينار وسليمان بن قتة عن ابن عباس .

وهذه القراءة أيضاً فيها استعارة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك ينادون ﴾ يحتمل معنيين ، وكلاهما مفعول للمفسرين : أحدهما أنها استعارة لقلة فهمهم ، شبههم بالرجل ينادى على بعد يسمع منه الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه ، وهذا تأويل مجاهد ، والآخر أن الكلام على الحقيقة وأن معناه أنهم يوم القيامة ينادون بكفرهم وقبيح أعمالهم من بعد حتى

يسمع ذلك أهل الموقف ، فتعظم السمعة عليهم ويحل المصاب ، وهذا تأويل الضحاك بن مزاحم . ثم ضرب تعالى أمر موسى مثلاً للنبي عليه السلام ولقريش ، أي فعل أولئك كأفعال هؤلاء حين جاءهم مثل ما جاء هؤلاء ، والكلمة السابقة هي : حتم الله تعالى بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة ، والضمير في قولهم : ﴿ لفي شك منه ﴾ يحتمل أن يعود على موسى أو على كتابه .

وقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً ﴾ الآية نصيحة بينة للعالم وتحذير وترجية وصدع بين الله تعالى لا يجعل شيئاً من عقوبات عبيده في غير موضعها ، بل هو العادل المتفضل الذي يجازي كل عبد بتكسبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(176/682)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾

أي من الأذى والتكذيب ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ يعزي نبيه ويسليه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لك ولأصحابك ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يريد لأعدائك وجيعاً .

وقيل : أي ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحي إلى من قبلك ، ولا خلاف بين

الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد ، وهو كقوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] أي لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميع الأنبياء ، فلا معنى لإنكارهم عليك .

وقيل : هو استفهام ، أي أيّ شيء يقال لك "إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ" .

وقيل : "إِنَّ رَبَّكَ" كلام مبتدأ وما قبله كلام تام إذا كان الخبر مضمراً .

وقيل : هو متصل ب ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي إنما أمرت بالإنذار والتبشير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً ﴾ أي بلغة غير العرب ﴿ لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية .

فبيّن أنه أنزله بلسانهم ليتقرّر به معنى الإعجاز ؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً .

وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله ، ولو كان بلسان العجم لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان .

الثانية : وإذا ثبت هذا ففيه دليل على أن القرآن عربي ، وأنه نزل بلغة العرب ، وأنه ليس أعجمياً ، وأنه إذا نقل عنها إلى غيرها لم يكن قرآناً .

(177/682)

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي "ااَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ" بهمزتين مخففتين ، والعجميّ الذي ليس من العرب كان فصيحاً أو غير فصيح ، والأعجمي الذي لا يفصح كان من العرب أو من العجم .

فالأعجم ضدّ الفصيح وهو الذي لا يبين كلامه .

ويقال للحيوان غير الناطق أعجم ، ومنه "صلاة النهار عجماء" أي لا يجهر فيها بالقراءة فكانت النسبة إلى الأعجم آكد ، لأن الرجل العجمي الذي ليس من العرب قد يكون فصيحاً بالعربية ، والعربيّ قد يكون غير فصيح ؛ فالنسبة إلى الأعجميّ آكد في البيان .

والمعنى أقرآن أعجميّ ، ونبيّ عربي ؟ وهو استفهام إنكار .

وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر "أَعْجَمِيٌّ" بهمزة واحدة على الخبر .

والمعنى "لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" فكان منهم عربيّ يفهمه العرب ، وأعجمي يفهمه العجم .

وروى سعيد بن جبير قال : قالت قريش : لولا أنزل القرآن أعجمياً وعربياً فيكون بعض آياته عجمياً وبعض آياته عربياً فنزلت الآية .

وأنزل في القرآن من كل لغة فمنه "السجّيل" وهي فارسية وأصلها سنك كيل ؛ أي طين وحجر ، ومنه "الفِرْدَوْس" رومية وكذلك "القِسْطَاس" وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام ، إلا أنهم ليّنُوا الهمزة على أصولهم .

والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع .

﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي صمم عن سماع القرآن .

ولهذا تواصَوْا باللغو فيه .

ونظير هذه الآية : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إِلاَّ خَسَاراً ﴾ [الإسراء : 82] وقد مضى مستوفى .

وقراءة العامة ﴿ عَمًى ﴾ على المصدر .

وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص ومعاوية وسليمان بن قَتَّة "وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٍ" بكسر الميم أي لا يتبين لهم .

واختار أبو عبيدة القراءة الأولى ؛ لإجماع الناس فيها ؛ ولقوله أوّلاً : ﴿ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ ولو كان هادٍ وشافٍ لكان الكسر في "عَمًى" أجود ؛ ليكون نعتاً مثلهما ؛ تقديره : "وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ" في ترك قبوله بمنزلة من في آذانهم "وَقْرٌ وَهُوَ" يعني القرآن "عَلَيْهِمْ" ذو عمى ، لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف .

وقيل المعنى والوقر عليهم عمى .

﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل .

وحكى أهل اللغة أنه يقال للذي يفهم : أنت تسمع من قريب .

ويقال للذي لا يفهم : أنت تنادَى من بعيد .

أي كأنه ينادى من موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .

وقال الضحاك : "يُنَادَوْنَ" يوم القيامة بأقبح أسمائهم "مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ" فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم .

وقيل : أي من لم يتدبر القرآن صار كالأعمى الأصم ، فهو ينادى من مكان بعيد فينقطع صوت المنادي عنه وهو لم يسمع .

وقال علي رضي الله عنه ومجاهد : أي بعيد من قلوبهم .

وفي التفسير : كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون .

وحكى معناه النقاش .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ ﴾ يعني التوراة ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أي آمن به قوم وكذب به قوم .

والكناية ترجع إلى الكتاب ، وهو تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك ، فقد اختلف من قبلهم في كتابهم .

وقيل : الكناية ترجع إلى موسى .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي في إمهالهم .

﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بتعجيل العذاب .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي شديد الريبة .

وقد تقدّم .

وقال الكلبي في هذه الآية : لولا أن الله أخّر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم .

وقيل : تأخير العذاب لما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾ شرط وجوابه وكذا ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ .

والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد ، فمن أطاع فالثواب له ، ومن أساء فالعقاب عليه .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ نَفَى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره ، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها ، دليله قوله الحق : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ﴾ [يونس : 44] وروى العدول الثقات ، والأئمة الأثبات ، عن الزاهد العدل ، عن أمين الأرض ، عن أمين السماء ، عن الرب جل جلاله :

" يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا " الحديث .

وأيضاً فهو الحكيم المالك ، وما يفعله المالك في ملكه لا اعتراض عليه ؛ إذ له التصرف في ملكه بما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾

لما بين تعالى أن الدعاء إلى دين الله أعظم القربات ، وأنه يحصل ذلك بذكر دلائل التوحيد والعدل والبعث ، عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات ويجادل ، فقال : ﴿ إن الذين يلحدون بآيتنا ﴾ ، وتقدم الكلام على الإلحاد في قوله : ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ وذكر تعالى أنهم لا يخفون عليه ، وفي ذلك تهديد لهم .

وقال قتادة : هنا الإلحاد : التكذيب ، ومجاهد : المكاء والصفير واللغو .

وقال ابن عباس : وضع الكلام غير موضعه .

وقال أبو مالك : يميلون عن آياتنا .

وقال السدي : يعاندون رسلنا فيما جاءوا فيه من البينات والآيات .

ثم استفهم تقريراً : ﴿ أفمن يلقى في النار ﴾ ، بإلحاده في آياتنا ، ﴿ خير أم من يأتي آمناً ﴾ ، ولا اشتراك بين الإلقاء في النار والإتيان آمناً ، لكنه ، كما قلنا ، استفهام تقرير ، كما يقرر المناظر خصمه على وجهين ، أحدهما فاسد يرجو أن يقع في الفاسد فيتضح جهله ، ونبه بقوله : ﴿ يلقى في النار ﴾ على مستقر الأمر ، وهو الجنة ، وبقوله : ﴿ آمنا ﴾ على خوف الكافر وطول وجله ، وهذه الآية ، قال ابن بحر : عامة في كل كافر ومؤمن .

وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل وعثمان بن عفان .

وقيل : فيه وفي عمار بن ياسر .

وقيل : فيه وفي عمر .

وقيل : في أبي جهل وحمزة بن عبد المطلب .

وقال الكلبي : وأبو جهل والرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ولما تقدم ذكر الإلحاد ، ناسب أن يتصل به من التقرير من اتصف به .

ولم يكن التركيب : أم من يأتي آمناً يوم القيامة كمن يلقي في النار ، كما قدم ما يشبهه في قوله : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ وكما جاء في سورة القتال : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء علمه ﴾ ﴿ اعلموا ما شئتم ﴾ : وعيد وتهديد بصيغة الأمر ، ولذا جاء ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم بأعمالكم .

(181/682)

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ : هم قريش ومن تابعهم من الكفار غيرهم ، والذكر : القرآن هو بإجماع ، وخبر إن اختلفوا فيه أمذكور هو أو محذوف ؟ فقيل : مذكور ، وهو قوله : ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ ، وهو قول أبي عمرو بن العلاء في

حكاية جرت بينه وبين بلال بن أبي بردة .

سئل بلال في مجلسه عن هذا فقال : لم أجد لها نفاذاً ، فقال له أبو عمرو : وإنه منك لقريب ﴿ أولئك ينادون ﴾ .

وقال الحوفي : ويرد على هذا القول كثرة الفصل ، وأنه ذكر هناك من تكون الإشارة إليهم ، وهو قوله : ﴿ والذين لا يؤمنون في آذناهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون ﴾ .

وقيل : محذوف ، وخبر إن يحذف لفهم المعنى .

وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن ذلك فقال عمرو : معناه في التفسير : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به ، وإنه لكتاب ، فقال عيسى : أجدت يا أبا عثمان .

وقال قوم : تقديره معاندون أو هالكون .

وقال الكسائي : قد سد مسده ما تقدم من الكلام قبل إن ، وهو قوله : ﴿ أفمن يلقى في النار ﴾ .

انتهى ، كأنه يريد : دل عليه ما قبله ، فيمكن أن يقدر يخلدون في النار .

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم اتصل قوله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر ﴾ ؟ قلت : هو بدل من قوله : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ . انتهى .

ولم يتعرض بصريح الكلام في خبر إن أمذكور هو أو محذوف ، لكن قد ينتزع من كلامه هذا أنه تكلم فيه بطريق الإشارة إليه ، لأنه ادّعى أن قوله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر ﴾ بدل

من قوله : ﴿ إن الذين يلحدون ﴾ ، فالمحكوم به على المبدل منه هو المحكوم به على البدل ، فيكون التقدير : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ ، ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ لا يخفون علينا .

وقال ابن عطية : والذي يحسن في هذا هو إضمار الخبر بعد ﴿ حكيم حميد ﴾ ، وهو أشد إظهاراً ، لأن قوله : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ داخل في صفة الذكر المكذب به ، فلم يتم ذكر المخبر عنه إلا بعد استيفاء وصفه .

(182/682)

انتهى ، وهو كلام حسن .

والذي أذهب إليه أن الخبر مذكور ، لكنه حذف منه عائد يعود على اسم إن ، وذلك في قوله : ﴿ لا يأتيه بالباطل ﴾ : أي الباطل منهم ، أي الكافرون به ، وحالة هذه لا يأتيه باطلهم ، أي متى راموا فيه أن يكون ليس حقاً ثابتاً من عند الله وإبطالاً له لم يصلوا إليه ، أو تكون أل عوضاً من الضمير على قول الكوفيين ، أي لا يأتيه باطلهم ، أو يكون الخبر قوله : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ، أي أوحى إليك في شأن هؤلاء المكذبين لك .

ولما جئت به مثل ما أوحى إلي من قبلك من الرسل ، وهو أنهم عاقبتهم سيئة في الدنيا بالهلاك ، وفي الآخرة بالعذاب الدائم .

وغاية ما في هذين التوجهين حذف الضمير العائد على اسم إن ، وهو موجود ، نحو قوله : السمن منوان بدرهم : أي منوان منه والبركرّ بدرهم : أي كر منه .

وعن بعض نحاة الكوفة : الخبر في قوله : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ ، وهذا لا يتعقل .

﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ : جملة حالية ، كما تقول : جاء زيد وأن يده على رأسه ، أي كفروا به ، وهذه حاله وعزته كونه عديم النظير لما احتوى عليه من الإعجاز الذي لا يوجد في غيره من الكتب ، أو غالب ناسخ لسائر الكتب والشرائع .

وقال ابن عباس : عزيز كريم على الله تعالى .

وقال مقاتل : ممتنع من الشيطان .

وقال السدي : غير مخلوق .

وقيل : وصف بالعزة لأنه لصحة معانيه ممتنع الطعن فيه والإزراء عليه ، وهو محفوظ من الله ، ﴿ لا يأتيه بالباطل ﴾ من جعل خبر إن محذوفاً ، أو قوله : ﴿ أولئك ينادون ﴾ ، كانت هذه الجملة في موضع الصفة على ما اخترناه من أحد الوجهين تكون الجملة في موضع خبر إن ، والمعنى أن الباطل لا يتطرق إليه ﴿ من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ، تمثيل : أي لا يجد الطعن سبيلاً إليه من جهة من الجهات ، فيتعلق به .

وأما ظهر من بعض الحمقى من الطعن على زعمهم ، ومن تأويل بعضهم له ، كالباطنية ، فقد رد عليهم علماء الإسلام وأظهروا حماقاتهم .

(183/682)

وقال قتادة : الباطل الشيطان ، واللفظ لا يخص الشيطان .

وقال ابن جبير والضحاك : ﴿ من بين يديه ﴾ : أي كتاب من قبله فيبطله ، ولا من بعده فيكون على هذا الباطل في معنى المبطل نحو : أورس النبات فهو وارس ، أي مورس ، أو يكون الباطل بمعنى المبطل مصدراً ، فيكون كالعافية .

وقيل : ﴿ من بين يديه ﴾ : أي قبل أن يتم نزوله ، ﴿ ولا من خلفه ﴾ : من بعد نزوله .

وقيل عكس هذا .

وقيل : ﴿ من بين يديه ﴾ : قبل أن ينزل ، لأن الأنبياء بشرت به ، فلم يقدر الشيطان أن يدحض ذلك ، ﴿ ولا من خلفه ﴾ : بعد أن أنزل .

وقال الطبري : ﴿ من بين يديه ﴾ : لا يقدر ذو باطل أن يكيده بتغيير ولا تبديل ، ﴿ ولا من خلفه ﴾ : لا يستطيع ذو باطل أن يلحد فيه .

﴿ تنزيل ﴾ : أي هو تنزيل ، ﴿ من حكيم ﴾ : أي حاكم أو محكم لمعانية ، ﴿ حميد

﴾ : محمود على ما أسدى لعباده من تنزيل هذا الكتاب وغيره من النعم .

﴿ ما يقال لك ﴾ : يقال مبني للمفعول ، فاحتمل أن يكون القائل الله تعالى ، كما تقدم تأويلها فيه ، أي ما يوحي إليك الله إلا مثل ما أوحى إلى الرسل في شأن الكفار ، كما تأولناه على أحد الوجهين أو في الشرائع .

وجوزوا على أن القائل هو الله أن يكون .

﴿ إن ربك ﴾ : تفسير لقوله : ﴿ ما قد قيل ﴾ ، فالمقول ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ للطائعين ، ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ للعاصين ، وهذا التأويل فيه بعد ، لأنه حصر ما أوحى الله إليه وإلى الرسل في قوله : ﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو غقاب أليم ﴾ ، وهو تعالى قد أوحى إليه وإليهم أشياء كثيرة .

فإذا أحذناه على الشرائع أو على عاقبة المكذبين كان الحصر صحيحاً ، وكان قوله تعالى : ﴿ إن ربك ﴾ استئناف إخبار عنه تعالى لا تفسير لما قد قيل .

ويحتمل أن يكون القائل الكفار ، أي ما يقول لك كفار قومك إلا ما قد قال كفار الرسل لهم من الكلام المؤذي والطعن فيما أنزل الله عليهم من الكتب .

(184/682)

ثم أخبر تعالى أنه ذو مغفرة وذو عقاب أليم ، وفيه الترجئة بالغفران ، والزجر بالعقاب ، وهو وعظ وتهديد .

وقال قتادة : عزى الله نبيه وسلاه بقوله : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ، ومثله كذلك : ﴿ ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ ولما ذكر تعالى الملحدين في آياته ، وأنهم لا يخفون عليه ، والكافرين بالقرآن ما دل على تعنتهم وما ظهر من تكذيبهم ، وقولهم : هل أنزل بلغة العجم ؟ فقال : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً ﴾ : أي لا يفصح ولا تبين معانيه لهم لكونه بلغة العجم أو بلغة غير العرب ، لم يتركوا الاعتراض ، و ﴿ لولا فصلت آياته ﴾ : أي بينت لنا ، وأوضحت حتى نفهمها .

وقرأ الجمهور : آعجمي بهمزة الاستفهام بعدها مدة هي همزة أعجمي ، وقياسها في التخفيف التسهيل بين بين .

وقرأ الإخوان ، والأعمش ، وحفص : بهمزتين ، أي وقالوا منكرين : أقرآن أعجمي ورسول عربي ؟ أو مرسل إليه عربي ؟ وتأوله ابن جبير أن معنى قوله : ﴿ أعجمي ﴾ ، ونحن عرب ما لنا وللعجمة .

وقال ابن عطية : لانهم ينكرون ذلك فيقولون : لولا بين أعجمي وعربي مختلط هذا لا يحسن . انتهى .

ولا يصح هذا التقسيم لأنه بالنسبة للقرآن ، وهم إنما قالوا ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ولو

جعلناه قرآناً أعجمياً ﴾ ، من اقتراحهم أن يكون أعجمياً ، ولم يقترحوا أن يكون القرآن أعجمياً وعربياً .

وقرأ الحسن ، وأبو الاسود ، والجحدري ، وسلام ، والضحاك ، وابن عباس ، وابن عامر بخلاف عنهما : أعجمي وعربي دون استفهام وسكون العين ، فقيل معناه : أنهم قالوا : أعجمة وأعراب ، إن هذا لشاذ .

وقال ابن جبير معناه : لولا فصل فصلين ، فكان بعضه أعجمياً بفهمه العجم ، وبعضه عربياً يفهمه العرب .

(185/682)

وقال صاحب اللوامح : لأنهم لما قالوا : ﴿ لولا فصلت آياته ﴾ ، أعادوا القول ثانياً فقالوا : ﴿ أعجمي ﴾ ، وأضمر المبتدأ ، أي هو أعجمي ، والقرآن ، أو الكلام ، أو نحوها ، والذي أتى به ، أو الرسول عربي ، كأنهم كانوا ينكرون ذلك .

وقرأ عمرو بن ميمون : أعجمي بهمزة استفهام وفتح العين أن القرآن لو جاء على طريقة كائنة كانوا تعنتوا ، لأنهم لا يطلبون الحق .

وقال صاحب اللوامح : والعجمي المنسوب إلى العجم ، والياء للنسب على الحقيقة ؛ وأما

إذا سكنت العين فهو الذي لا يفصح ، والياء فيه بلفظ النسب دون معناه ، فهو بمنزلة ياء كرسي وبختي ، والله أعلم .

انتهى ، وليست كياء كرسي بنيت الكلمة عليها ، وياء أعجمي لم تبن الكلمة عليها .

تقول العرب : رجل أعجم ورجل أعجمي ، فالياء للنسبة الدالة على المبالغة في الصفة ، نحو : أحمري ودواري مبالغة في أحمر ودوار .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب ؟ قلت : هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً عجمياً كتب إلى قوم من العرب يقول : أكتاب عجمي والمكتوب إليه عربي ؟ لأن نسخ الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه ، لا على أن المكتوب إليه واحد وجماعة ؛ فوجب أن يجرد لما سيق له من الغرض ، ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر .

ألا تراك تقول : وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة ، اللباس طويل واللابس قصير ؟ ولو قلت : واللابسة قصيرة ، جئت بما هو لكنة وفضول قول ، لإن الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته ، إنما وقع في غرض وراءهما .

انتهى ، وهو حسن ، إلا أن فيه تكثيراً على عادته في حب الشقشقة والتفهيق .

﴿ قل هو ﴾ : أي القرآن ، ﴿ للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ ، هدى : أي إرشاد إلى الحق

، وشفاء : أي لما في الصدور من الظن والشك .

والظاهر أن ﴿ والذين لا يؤمنون ﴾ مبتدأ ، و ﴿ وفي آذانهم وقر ﴾ هو موضع الخبر .

(186/682)

وقال الزمخشري : هو في آذانهم وقر على حذف المبتدأ لما أخبر أنه هدى وشفاء للمؤمنين ، أخبر أنه وقر وصمم في آذانهم ، أي الكافرين ، ولا يضطر إلى إضمار هو ، فالكلام تام دونه أخبر أن في آذانهم صمماً عن سماعهم .

ثم أخبر أنه عليهم عمى ، يمنعهم من إبصار حكمته والنظر في معانيه والتقرير لآياته ، وجاء بلفظ عليهم الدالة على استيلاء العمى عليهم ، وجاء في حق المؤمنين باللام الدالة على الاختصاص ، وكون والذين في موضع جر عطفاً على قوله : ﴿ للذين آمنوا ﴾ ، والتقدير : وللذين لا يؤمنون وقر في آذانهم إعراب متكلف ، وهو من العطف على عاملين ، وفيه مذاهب كثيرة في النحو ، والمشهور منع ذلك .

وقرأ الجمهور : عمى بفتح الميم منوناً : مصدر عمى .

وقرأ ابن عمرو ، وابن عباس ، وابن الزبير ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، وابن هرمز : بكسر الميم وتنوينه .

وقال يعقوب القارىء ، وأبو حاتم : لا ندري نونوا أم فتحوا الياء ، على أنه فعل ماض وبغير تنوين ، رواها عمرو بن دينار وسليمان بن قتيبة عن ابن عباس .

والظاهر أن الضمير في ﴿ وهو عليهم ﴾ عائد على القرآن ، وقيل : يعود على الوقر .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين لا يؤمنون ، ومن جعله خبراً ، لأن الذين كفروا كانت الإشارة إليهم .

﴿ ينادون من مكان بعيد ﴾ ، قيل : هو حقيقة .

قال الضحاك : ينادون بكفرهم وقبح أعمالهم بأقبح أسمائهم من بعد حتى يسمع ذلك أهل الموقف فتعظم السمعة عليهم ويحل المصاب .

وقال علي ومجاهد : استعارة لقلة فهمهم ، شبههم بالرجل ينادي من بعد ، فيسمع الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه .

وحكى أهل اللغة أنه يقال للذي لا يفهم : أنت تنادي من بعيد ، أي كأنه ينادي من موضع بعيد ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .

وحكى النقاش : كأنما ينادون من السماء .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ تسلية للرسول في كون قومه اضطربوا فيما جاء به من الذكر ، فذكر أن موسى عليه السلام أوتي الكتاب ، وهو التوراة ؛ فاختلف فيه .

وتقدم شرح هذه الآية في أواخر سورة هود عليه السلام ، والكلام على نظير ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ في قوله في سورة الحج : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(188/682)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾

يابسةً متطامنةً مستعارٌ من الخشوع بمعنى التذللِ ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء ﴾ أي المطرَ ﴿ اهتزت وَرَبَتْ ﴾ أي تحركتْ بالنبات وانتفختْ ، لأنَّ النبتَ إذا دَنا أنْ يظهرَ ارتفعتْ له الأرضُ وانتفختْ ثم تصدعتْ عن النباتِ ، وقيلَ : تزخرفتْ بالنباتِ . وقُرِىءَ رَبَأَتْ أي ارتفعتْ ﴿ إِنَّ الذى أحياها ﴾ بما ذُكِرَ بعدَ موتِها ﴿ لَمُحْيِ الموتى ﴾ بالبعث ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياءِ التي منْ جُملتها الإحياءُ ﴿ قَدِيرٌ ﴾ مبالغٌ في القُدرة .

﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ ﴾ يميلونَ عن الاستقامةِ . وقُرِىءَ يُلحدون ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾

بالطعنِ فيَها وتحريفُها بحملها على المحاملِ الباطلةِ ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فنجازيَهم بإلحادِهم. وقولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءاياتنا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يلقى فِى ﴾ تنبيهٌ على كيفيةِ الجزاءِ ﴿ اعملوا ﴾ من الأعمال المؤديةِ إلى ما ذُكِرَ من الإلقاءِ في النارِ والإتيانِ آمناً، وفيه تهديدٌ شديدٌ ﴿ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكُم بحسبِ أعمالِكم. وقولُه تعالَى:

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ بدلٌ من قولِه تعالى إنَّ الذينَ يُلحدونَ الخ وخبرُ إنَّ هُو الخبرُ السابقُ وقيلَ: مستأنفٌ وخبرُها محذوفٌ وقالَ الكِسائِيُّ: سدَّ مسدّه الخبرُ السابقُ، والذكرُ القرآنُ. وقولُه تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ ﴾ أي كثيرُ المنافعِ عديمُ النظيرِ، أو منيعٌ لا تتأتَّى معارضتُه. جملةٌ حاليةٌ مفيدةٌ لغاية شناعةِ الكُفرِ بهِ.

(189/682)

وقولُه تعالى: ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي لا يتطرقُ إليه الباطلُ من جهةٍ من الجهاتِ. صفةٌ أُخرى يديهِ لكتابٌ. وقولُه تعالَى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أو صفةٌ أُخرى لكتابٌ مفيدةٌ لفخامتِه الإضافيةِ كما أن الصفتينِ السابقتينِ مفيدتانِ لفخامتِه الذاتيةِ. وقولُه تعالَى: لا يأتيه الخ اعتراضٌ عندَ من لا يجوزُ

تقديمَ غيرِ الصريحِ من الصفاتِ على الصريحِ ، كلُّ ذلكَ لتأكيد بطلانِ الكفرِ بالقرآنِ . وقوله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ الخ تسليةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم عَمّا يصيبُه من أذيةِ الكفار أي ما يُقالُ في شأنك وشأنِ ما أُنزلَ إليكَ منَ القُرآن من جهةِ كفارِ قومِك ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي إلا ما قد قيلَ في حقّهم مما لا خيرَ فيه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةَ ﴾ لأنبيائِه ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأعدائِهم وقد نصرَ مَنْ قبلكَ من الرسلِ وانتقمَ من أعدائِهم وسيفعلُ مثلَ ذلكَ بكَ وبأعدائِك أيضاً . ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً أَعْجَمِيّاً ﴾ جوابٌ لقولِهم : هَلاَّ أُنزلَ القرآنُ بلغةِ العجمِ ، والضميرُ للذكرِ ﴿ لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ أي بينتْ بلسانٍ نفقهُه . وقولُه تعالى : ﴿ ءاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ إنكارٌ مقررٌ للتحضيضِ . والأعجميُّ يُقالُ لكلامٍ لا يُفهمُ ، وللمتكلمِ بهِ . والياءُ للمبالغةِ في الوصفِ كأحمريَ ، والمَعْنى أكلامٌ أعجميٌّ ورسولٌ أو مرسلٌ إليه عربيٌّ على أن الإفرادَ مَعَ كونِ المرسلِ إليهمْ أمةً جمةً لما أنَّ المرادَ بيانُ التنافِي والتنافرِ بينَ الكلامِ وبينَ المُخاطَبِ بهِ لا بيانُ كونِ المخاطبِ واحداً أو جمعاً . وقُرِىءَ أعَجميٌّ أيْ أكلامٌ منسوبٌ إلى أمةِ العجمِ . وقُرِىءَ أعجميٌّ على الإخبارِ بأنَّ القرآنَ أعجميٌّ والمتكلمُ والمخاطَبُ عربيٌّ

(190/682)

ويجوزُ أن يرادَ هَلاَّ فصّلتْ آياتُه فجعلَ بعضُها أعجمياً لإفهامِ العجمِ وبعضُها عربياً لإفهامِ العربِ وأياً ما كانَ فالمقصودُ بيانُ أنَّ آياتِ الله تعالَى على أي وجهٍ جاءتْهم وجدُوا فيها متعنتاً يتعللونَ به . ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ هُدًى ﴾ يهديهمْ إلى الحقّ ﴿ وَشِفَاء ﴾ لَما في الصدورِ منْ شكَ وشُبهةٍ ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿ فِى ءَاذَانِهِم وَقْرٌ ﴾ على أن التقدير هُو أي القرآنُ في آذانِهم وَقْرٌ على أنَّ وقرٌ خبرٌ للضمير المقدرِ ، وفي آذانِهم متعلقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالاً من وقرٌ وهُو أوفقُ لقولِه تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ وقيلَ : خبرُ الموصولِ في آذانِهم ووَقْرٌ فاعلُ الظرفِ وقيلَ : وقرٌ مبتدأٌ والظرفُ خبرُهُ والجملةُ خبرٌ للموصولِ وقيلَ : التقديرُ والذينَ لا يؤمنونَ في آذانِهم منْهُ وقرٌ ، ومن جوَّزَ العطفَ على عاملينِ عطفَ الموصولَ على الموصولِ الأولِ أي هُو للأولينَ هُدى وشفاءٌ وللآخرينَ وقرٌ في آذانِهم ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ الثانِي باعتبارِ اتصافِه بما في حيزِ صلتِه وملاحظة ما أُثبتَ لهُ ، وما فيهِ منْ مَعنى العبدِ مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ للإيذانِ ببعدِ منزلتِه في الشرّ معَ ما فيه من كمالِ المناسبةِ للنداءِ من بعيدٍ أي أولئكَ البُعداءُ الموصوفونَ بما ذكرَ من التصامّ عن الحقِّ الذي يسمعُونَهُ والتعامِي عن الآياتِ الظاهرةِ التي يشاهدونَها ﴿ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ تمثيلٌ لهم في عدمِ قبولِهم واستماعِهم له بمنْ ينادى من مسافةٍ نائيةٍ لا يكادُ يَسمعُ من مثلِها الأصواتِ .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ أن الاختلافَ في شأنِ الكتبِ عادةٌ قديمةٌ للأممِ غيرُ مختصٍ بقومكَ على منهاجِ قولِه تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ أيْ وبالله لقد آتينَاه التوراةَ فاختُلفَ فيها فمن مصدقٍ لها ومكذبٍ وهكذا حالُ قومكَ في شأنِ ما آتيناكَ من القرآنِ فمن مؤمنٍ به وكافرٍ . ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ في حقِّ أمتكَ المكذبةِ وهي العِدةُ بتأخيرِ عذابِهم وفصلُ ما بينهم وبينَ المؤمنينَ من الخصومةِ إلى يومِ القيامةِ بنحو قوله تعالى : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ باستئصالِ المكذبينَ كما فعلَ بمكذبي الأممِ السالفةِ ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي كفارُ قومِكَ ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي من القرآنِ ، وَجَعْلُ الضميرِ الأولِ لليهودِ والثاني للتوراةِ مما لا وجْهَ لَهُ . ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا ﴾ بأنْ آمنَ بالكتبِ وعملَ بموجبِها ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي فلنفسِه يعملُه أو فنفعُه لنفسه لا لغيرِه ﴿ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ ضررُه لا على غيرِه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمونِ ما قبلَهُ مبنيٌّ على تنزيلِ تركِ إثابةِ المحسنِ بعملِه أو إثابةِ الغيرِ بعملِه وتنزيلِ التعذيبِ بغيرِ إساءةٍ أو بإساءةِ غيرِه منزلةَ الظلمِ الذي يستحيلُ صدورُه عنه سبحانَهُ وتعالَى وقد مرَّ ما في المقامِ من التحقيقِ والتفصيلِ في سورةِ آلِ عمرانَ وسورةِ الأنفالِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(192/682)

وقال الآلوسى :

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ إلى آخره

تسلية له صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من أذية الكفار من طعنهم في كتابه وغير ذلك فالقائل الكفار أي ما يقول كفار قومك في شأنك وشأن ما أنزل إليك من القرآن ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ ﴾ أي مثل ما قد قال الكفرة السابقون ﴿ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ من الكلام المؤذي المتضمن للطعن فيما أنزل إليهم ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : 52]

(193/682)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قيل : تعليل لما يستفاد من السياق من الأمر بالصبر كأنه قيل : ما يقال لك إلا نحو ما قيل لأمثالك من الرسل فاصبر كما صبروا إن ربك لذو مغفرة عظيمة لأوليائه وذو عقاب أليم لأعدائهم فينصر أولياءه وينتقم من

أعدائهم ، أو جواب سؤال مقدر كأنه قيل : ثم ماذا ؟ فقيل : إن ربك لذو مغفرة لأوليائه وذو عقاب أليم لأعدائهم وقد نصر لذلك من قبلك من الرسل عليهم السلام وانتقم من أعدائهم وسيفعل ذلك بك وبأعدائك أيضاً ، وجوز أن يكون القائل هو الله تعالى والمعنى على ما سمعت عن أبي حيان وقد جعل هذه الجملة خبر ﴿ إن ﴾ أي ما يوحي الله تعالى إليك في شأن الكفار المؤذين لك إلا مثل ما أوحى للرسل من قبلك في شأن الكفار المؤذين لهم من أن عاقبتهم سيئة في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالعذاب الأليم فاصبر إن ربك الخ ، وقد يجعل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الخ باعتبار مضمونه تفسيراً للمقول فحاصل المعنى ما أوحى إليك وإلى الرسل إلا وعد المؤمنين بالمغفرة والكافرين بالعقوبة دون العكس الذي يزعمه الكفرة بلسان حالهم فاصبر فسينجز الله تعالى وعده ، وقيل : المقول هو الشرائع أي ما يوحي إليك إلا مثل ما أوحي إلى الرسل من الشرائع دون أمور الدنيا وقد جرت عادة الكفار بتكذيب ذلك فما عليك إذا كذب كفار قومك واصبر على ذلك ، وجعل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الخ تعليلاً لما يستفاد من السياق أيضاً ، وجعله بعضهم تفسيراً لذلك المقول أعني الشرائع لأنها الأوامر والنواهي الإلهية وهي مجملة فيه ، وفيه من البعد ما فيه ، وإلى نحو ما ذكرناه أولاً ذهب قتادة .

أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ من التكذيب ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ فكما كذبوا كذبت وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر على أذى قومك لك ، واختيار ﴿ أَلِيمٌ ﴾ على شديد مع أنه أنسب بالفواصل للإيماء إلى أن نظم القرآن ليس كالأسجاع والخطب وأن حسنه ذاتي والنظر فيه إلى المعاني دون الألفاظ ، ويحسن وصف العقاب به هنا كون العقاب جزاء التكذيب المؤلم .

(195/682)

﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً أَعْجَمِيّاً ﴾ جواب لقولهم : هلا أنزل القرآن بلغة العجم ، والضمير للذكر ﴿ لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ أي بينت لنا وأوضحت بلسان نفقهه ، وقوله تعالى : ﴿ ءاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ بهمزتين الأولى للاستفهام والثانية همزة أعجمي والجمهور يقرؤون بهمزة استفهام بعدها مدة هي همزة أعجمي إنكار مقرر للتحضيض أي أكلام أعجمي ورسول أو مرسل إليه عربي ، وحاصله أنه لو نزل كما يريدون لأنكروا أيضاً وقالوا مالك وللعجمة أو مالنا وللعجمة ، والأعجمي أصله أعجم بلا ياء ومعناه من لا يفهم كلامه للكنته أو لغرابة لغته وزيدت الياء للمبالغة كما في أحمري ودواري وأطلق على كلامه مجازاً

لكنه اشتهر حتى التحق بالحقيقة ، وزعم صاحب اللوامح أن الياء فيه بمنزلة ياء كرسي وهو وهم ، وقيل : ﴿ عَرَبِيٌّ ﴾ على احتمال أن يكون المراد ومرسل إليه عربي مع أن المرسل إليهم جمع فحقه أن يقال : عربية أو عربيون لأن المراد بيان التنافي والتنافر بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب به واحداً أو جمعاً ، ومن حق البليغ أن يجرد الكلام للدلالة على ما ساقه له ولا يأتي بزائد عليه إلا ما يشد من عضده فإذا رأى لباساً طويلاً على امرأة قصيرة قال : اللباس طويل واللابس قصير دون واللابسة قصيرة لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته فلو قال لخيل إن لذلك مدخلاً فيما سيق له الكلام ، وهذا أصل من الأصول يجب أن يكون على ذكر ، ويبنى عليه الحذف والإثبات والتقييد والإطلاق إلى غير ذلك في كلام الله تعالى وكل كلام بليغ .

وقرأ عمرو بن ميمون ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ بهمزة استفهام بفتح العين أي أكلام منسوب إلى العجم وهم من عدا العرب وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضاً فبين الأعجمي والعجمي عموم وخصوص من وجه ، والظاهر أن المراد بالعربي مقابل الأعجمي في القراءة المشهورة ومقابله العجمي في القراءة الأخرى .

وقرأ الحسن .

وأبو الأسود .

والجحدري .

وسلام .

والضحاك .

وابن عباس .

وابن عامر بخلاف عنهما ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ بلا استفهام وبسكون العين على أن الكلام إخبار بأن القرآن أعجمي والمتكلم به أو المخاطب عربي .

وجوز أن يكون المراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب وروي هذا عن ابن جبير فالكلام بتقدير مبتدأ هو بعض أي بعضها أعجمي وبعضها عربي ، والمقصود به من الجملة الشرطية إبطال مقترحهم وهو كونه بلغة العجم باستلزامه المحذور وهو فوات الغرض منه إذ لا معنى لإنزاله أعجمياً على من لا يفهمه أو الدلالة على أنهم لا ينفكون عن التعنت فإذا وجدت الأعجمية طلبوا أمراً آخر وهكذا .

﴿ قُلْ ﴾ رداً عليهم ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ هُدًى ﴾ يهدي إلى الحق ﴿ وَشِفَاء ﴾ لما في الصدور من شك وشبهة ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ فِى ءاذَانِهِمْ ﴾ على أن ﴿ يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ و ﴿ وَقْرٌ ﴾ فاعل الظرف ، أي مستقر في آذانهم وقر أي صمم منه فلا يسمعونه ، وقيل : خبر الموصول ﴿ فِى ءاذَانِهِمْ ﴾ و ﴿ وَقْرٌ ﴾ فاعل

الظرف ، وقيل : ﴿ وَقْرٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره هو أي القرآن و ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿ وَقْرٌ ﴾ .

(197/682)

ورجح بأنه أوفق بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ومن جوز العطف على معمولي عاملين عطف الموصول على الموصول الأول و ﴿ وَقْرٌ ﴾ على ﴿ هُدًى ﴾ على معنى هو للذين آمنوا هدى وللذين لا يؤمنون وقر ، وقوله تعالى : ﴿ فِى ءاذَانِهِمْ ﴾ ذكر بياناً لمحل الوقر أو حال من الضمير في الظرف الراجع إلى ﴿ وَقْرٌ ﴾ والأول أبلغ ؛ ويرد عليه بعد الإغماض عما في جواز العطف المذكور من الخلاف أن فيه تنافراً بجعل القرآن نفس الوقر لا سيما وقد ذكر محله وليس كجعله نفس العمى لأنه يقابل جعله نفس الهدى فروعي الطباق ولذا لم يبين محله ، وأما الوقر إذا جعل نفس الكتاب فهو كالدخيل ولم يطابق ما ورد في سائر المواضع من التنزيل ، وهذا يرد على الوجه الذي قبله أيضاً ، وجوز ابن الحاجب في الأمالي أن يكون ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ مرتبطاً بقوله سبحانه : ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ هُدًى وَشِفَاء ﴾ والتقدير هو للذين آمنوا هدى وعلى الذين لا يؤمنون عمى ، وقوله تعالى : ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِى ءاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ جملة معترضة على الدعاء ، وتعقب بأن هذا وإن

جاز من جهة الإعراب لكنه من جهة المعاني مردود لفك النظم ، وزعم بعضهم أن ضمير ﴿ هُوَ ﴾ عائد على الوقر وهو من العمى كما ترى .

(198/682)

وأولى الأوجه ما تقدم وجيء بعلى في ﴿ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ للدلالة على استيلاء العمى عليهم ، ولم يذكر حال القلب لما علم من التعريض في قوله سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ هُدًى وَشِفَاء ﴾ بأنه لغيرهم مرض فظيع ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول الثاني باعتبار اتصافه بما في حيز صلته وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الشر مع ما فيه من كمال المناسبة للنداء من مكان بعيد أي أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق الذي يسمعونه والتعامي عن الآيات التي يشاهدونها ﴿ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ تمثيل لهم في عدم فهمهم وانتفاعهم بما دعوا له بمن ينادي من مسافة نائية فهو يسمع الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه أو لا يسمع ولا يفهم ، فقد حكى أهل اللغة أنه يقال للذي لا يفهم : أنت تنادي من بعيد ، وإرادة هذا المعنى مروية عن علي كرم الله تعالى وجهه .

ومجاهد ، وعن الضحاك أن الكلام على حقيقته وأنهم يوم القيامة ينادون بكفرهم وقبيح أعمالهم بأقبح أسمائهم من بعد حتى يسمع ذلك أهل الموقف فتعظم السمعة عليهم وتحل

المصائب بهم ، وحاصل الرد أنه هاد للمؤمنين شاف لما في صدورهم كاف في دفع الشبه فلذا ورد بلسانهم معجزاً بيناً في نفسه مبيناً لغيره والذين لا يؤمنون بمعزل عن الانتفاع به على أي حال جاءهم ، وقرأ ابن عمر .

وابن عباس .

وابن الزبير .

ومعاوية .

وعمرو بن العاص .

وابن هرمز ﴿ عَمَّ ﴾ بكسر الميم وتنوينه ، وقال يعقوب القاري .

وأبو حاتم : لا ندري نونوا أم فتحوا الياء على أنه فعل ماض ، وبغير تنوين رواها عمرو بن دينار .

وسليمان بن قتيبة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

(199/682)

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم غير مختص بقومك على منهاج قوله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ

إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : 43] على ما سمعت أولاً أي وبالله لقد آتينا موسى التوراة فاختلف فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن به وكافر ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ في حق أمتك المكذبة وهي العدة بتأخير عذابهم وفصل ما بينهم وبين المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر : 46] وقوله سبحانه : ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ [النحل : 61] ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبي الأمم السالفة ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي كفار قومك ﴿ لَفِى شَكّ مّنْهُ ﴾ أي من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موجب للقلق والاضطراب ، وقيل : الضمير الثاني للتوراة والأول لليهود بقرينة السياق لأنهم الذين اختلفوا في كتاب موسى عليه السلام وليس بشيء .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا ﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي فلنفسه يعمله أو فلنفسه نفعه لا لغيره ، و ﴿ مِنْ ﴾ يصح فيها الشرطية والموصولية وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ ضره لا على الغير ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مبني على تنزيل ترك إثابة المحسن بعمله أو إثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير إساءة أو بإساءة غيره منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره عنه تعالى ولم يحتج بعضهم إلى التنزيل ، وقد مر الكلام في ذلك وفي توجيه النفي والمبالغة فتذكر . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

شرع سبحانه في بيان بعض آياته البديعة الدالة على كمال قدرته ، وقوّة تصرفه للاستدلال بها على توحيده ، فقال : ﴿ وَمِنْ ءاياته اليل والنهار والشمس والقمر ﴾ ، ثم لما بيّن أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس ، والقمر ، وأمرهم بأن يسجدوا لله عزّ وجلّ ، فقال : ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ ، لأنهما مخلوقان من مخلوقاته ، فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته ﴿ واسجدوا لِلَّهِ الذى خَلَقَهُنَّ ﴾ أي : خلق هذه الأربعة المذكورة ، لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الإناث ، أو الآيات ، أو الشمس ، والقمر ، لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ قيل : كان ناس يسجدون للشمس ، والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله ، فنهوا عن ذلك ، فهذا وجه تخصيص ذكر السجود بالنهي عنه .

وقيل : وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة ، وهذه الآية من آيات السجود بلا خلاف

، وإنما اختلفوا في موضع السجدة ، فقيل : موضعه عند قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ، لأنه متصل بالأمر ، وقيل : عند قوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ ، لأنه تمام الكلام ﴿ فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ أي : إن استكبر هؤلاء عن الامتثال ، فالملائكة يديمون التسبيح لله سبحانه بالليل ، والنهار ، وهم لا يملون ، ولا يفترون .

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾ الخطاب هنا لكل من يصلح له ، أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخاشعة : اليابسة الجدبة .

وقيل : الغبراء التي لا تنبت .

(201/682)

قال الأزهري : إذا يبست الأرض ، ولم تمطر قيل : قد خشعت ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ أي : ماء المطر ، ومعنى اهتزت : تحركت بالنبات يقال : اهتزّ الإنسان : إذا تحرك ، ومنه قول الشاعر :

تراه كنصل السيف يهتزّ للندى . . . إذا لم تجد عند امرىء السوء مطعما

ومعنى ﴿ ربت ﴾ : انتفخت ، وعلت قبل أن تنبت : قاله مجاهد ، وغيره ، وعلى هذا

ففي الكلام تقديم ، وتأخير ، وتقديره : ربت ، واهتزّت .

وقيل : الاهتزاز ، والربو قد يكونان قبل خروج النبات ، وقد يكونان بعده ، ومعنى الربو لغة : الارتفاع ، كما يقال للموضع المرتفع : ربوة ، ورابية ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج .

وقيل : اهتزت استبشرت بالمطر ، وربت انتفخت بالنبات .

وقرأ أبو جعفر ، وخالد : (وربأت) .

﴿ إِنَّ الذى أحياها لَمُحْيِ الموتى ﴾ بالبعث ، والنشور ﴿ إِنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء كائناً ما كان .

﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءاياتنا ﴾ أي : يميلون عن الحق ، والإلحاد الميل ، والعدول ، ومنه اللحد في القبر ، لأنه أميل إلى ناحية منه ، يقال : ألحد في دين الله ، أي : مال ، وعدل عنه ، ويقال : لحد ، وقد تقدّم تفسير الإلحاد .

قال مجاهد : معنى الآية : يميلون عن الإيمان بالقرآن .

وقال مجاهد : يميلون عند تلاوة القرآن بالمكاء ، والتصدية ، واللغو ، والغناء .

وقال قتادة : يكذبون في آياتنا .

وقال السدّي : يعاندون ، ويشاقون .

وقال ابن زيد : يشركون ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ بل نحن نعلمهم ، فنجازيهم بما يعملون .

ثم بيّن كيفية الجزاء ، والتفاوت بين المؤمن ، والكافر ، فقال : ﴿ أَفَمَن يلقى فِى النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتي آمِناً يَوْمَ القيامة ﴾ هذا الاستفهام للتقرير ، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار ، وأن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة .

(202/682)

وظاهر الآية العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقيل : المراد بمن يلقى في النار : أبو جهل ، ومن يأتي آمنا : النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : حمزة ، وقيل : عمر بن الخطاب .

وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ هذا أمر تهديد ، أي : اعملوا من أعمالكم التي تلقيكم في النار ما شئتم إنه بما تعملون بصير ، فهو مجازيكم على كل ما تعملون .

قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه : الوعيد .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، وخبر إن محذوف ، أي : إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم ، أو هالكون ، أو يعذّبون .

وقيل : هو قوله : ﴿ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ، وهذا بعيد ، وإن رجحه أبو عمرو بن العلاء .

وقال الكسائي : إنه سدّ مسدّه الخبر السابق ، وهو : ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ .

وقيل : إن الجملة بدل من الجملة الأولى ، وهي : الذين يلحدون في آياتنا ، وخبر إن هو : الخبر السابق ﴿ وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ ﴾ أي : القرآن الذي كانوا يلحدون فيه ، أي : عزيز عن أن يعارض ، أو يطعن فيه الطاعنون ، منيع عن كل عيب .

ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه ، فقال : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ .

قال الزجاج : معناه : أنه محفوظ من أن ينقص منه ، فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد فيه ، فيأتيه الباطل من خلفه ، وبه قال قتادة ، والسدّي .

ومعنى الباطل على هذا : الزيادة ، والنقصان .

وقال مقاتل : لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله ، وبه قال الكلبي ، وسعيد بن جبير .

وقيل : الباطل هو : الشيطان ، أي : لا يستطيع أن يزيد فيه ، ولا ينقص منه .

وقيل : لا يزاد فيه ، ولا ينقص منه ، لا من جبريل ، ولا من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف ، أو صفة أخرى لكتاب عند من يجوّز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح .

وقيل : إنه الصفة لكتاب ، وجملة لا يأتيه معترضة بين الموصوف ، والصفة .

ثم سلى سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن ما كان يتأثر له من أذية الكفار ، فقال : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي : ما يقال لك من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر ، والكذب ، والجنون إلاّ مثل ما قيل للرسل من قبلك ، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل ما يقول لك هؤلاء .

وقيل : المعنى : ما يقال لك من التوحيد ، وإخلاص العبادة لله إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك ، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك .

وقيل : هو استفهام ، أي : أيّ شيء يقال لك إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين بايعوك ، وبايعوا من قبلك من الأنبياء ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ للكفار المكذّبين المعادين لرسل الله ، وقيل : لذو مغفرة للأنبياء ، وذو عقاب لأعدائهم ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً أَعْجَمِيّاً ﴾ أي : لو جعلنا هذا القرآن الذي تقرؤه على الناس بغير لغة العرب ﴿ لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ أي : بينت بلغتنا ، فإننا عرب لا

نفهم لغة العجم ، والاستفهام في قوله : ﴿ ءاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ للإنكار ، وهو من جملة قول المشركين ، أي : لقالوا أكلام أعجميّ ، ورسول عربيّ .

والأعجمي : الذي لا يفصح سواء كان من العرب ، أو من العجم .

والأعجم ضد الفصيح وهو : الذي لا يبين كلامه ، ويقال للحيوان غير الناطق : أعجم .

قرأ أبو بكر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ ءأعجميّ ﴾ بهمزتين محققتين .

(204/682)

وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، ونصر بن عاصم ، وهشام بهمزة واحدة على الخبر ، وقرأ الباقون بتسهيل الثانية بين بين .

وقيل : المراد : هلا فصلت آياته ، فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم ، وبعضها عربياً لإفهام العرب .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم ، فقال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ هُدًى وَشِفَاء ﴾ أي : يهتدون به إلى الحق ، ويشتفون به من كل شك ، وشبهة ، ومن الأسقام ، والآلام ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِى ءاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي : صمم عن سماعه ، وفهم معانيه ، ولهذا تواصوا باللغو فيه ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ قال قتادة : عموا عن القرآن ،

وصموا عنه .

وقال السدّي : عميت قلوبهم عنه ، والمعنى : وهو عليهم ذو عمى ، أو وصف بالمصدر للمبالغة ، والموصول في قوله : ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ ، أو الموصول الثاني عطف على الموصول الأوّل ، ووقر عطف على هدى عند من جوّز العطف على عاملين مختلفين ، والتقدير : هو للأوّلين هدى ، وشفاء ، وللآخرين ، وقر في آذانهم .

قرأ الجمهور : ﴿ عمى ﴾ بفتح الميم منوّنة على أنه مصدر ، وقرأ ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعمرو بن العاص ، وابن عمر بكسر الميم منوّنة على أنه اسم منقوص على أنه وصف به مجازاً .

وقرأ عمرو بن دينار بكسر الميم ، وفتح الياء على أنه فعل ماض ، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لقوله أوّلاً : "هدى وشفاء" ، ولم يقل هاد ، وشاف .

وقيل : المعنى : والوقر عليهم عمى ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الذين لا يؤمنون ، وما في حيزه ، وخبره : ﴿ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادي من مسافة بعيدة لا يسمع صوت من يناديه منها .

قال الفراء : تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك : أنت تنادي من مكان بعيد .

وقال الضحاك : ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد .

وقال مجاهد : من مكان بعيد من قلوبهم .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنه كان يسجد بآخر الآيتين من حما السجدة ، وكان ابن مسعود يسجد بالأولى منهما .

وأخرج ابن سعد ، وابن أبي شيبة من طريق نافع عن ابن عمر : أنه كان يسجد بالأولى .

وأخرج سعيد بن منصور عنه : أنه كان يسجد في الآية الأخيرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءايا تنا ﴾ قال : هو : أن يضع الكلام على غير موضعه .

وأخرج ابن مردويه عنه في قوله : ﴿ أَفَمَن يلقى فِى النار ﴾ قال : أبو جهل بن هشام ﴿ أَم مَّن يأتي آمِناً يَوْمَ القيامة ﴾ قال : أبو بكر الصديق .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن عساكر عن بشير بن تميم قال : نزلت هذه الآية في أبي جهم ، وعمار بن ياسر .

وأخرج ابن عساكر عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ قال : هذا لأهل بدر خاصة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً أَعْجَمِيّاً ﴾ الآية يقول : لو جعلنا القرآن أعجمياً ، ولسانك يا محمد عربيّ لقالوا : أعجميّ ، وعربيّ تأتينا به مختلفاً ، أو مختلطاً ﴿ لَوْلاَ فُصّلَتْ ءاياته ﴾ هلا بينت آياته ، فكان القرآن مثل اللسان .

يقول : فلم نفعل لئلا يقولوا ، فكانت حجة عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(206/682)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

استئناف بياني جواب لسؤال يثيره قوله : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ [فصلت : 40] ، وقوله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ [فصلت : 41] وما تخلل ذلك من الأوصاف فيقول سائل : فما بال هؤلاء طعنوا فيه ؟ فأجيب بأن هذه

سنة الأنبياء مع أممهم لا يعدمون معاندين جاحدين يكفرون بما جاءوا به .

وإذا بنيت على ما جوزته سابقاً أن يكون جملة : ﴿ مَّا يُقَالُ ﴾ خبر ﴿ إنّ ﴾ [فصلت : 41] كانت خبراً وليست استئنافاً .

وهذا تسلية للنبيء بطريق الكناية وأمر له بالصبر على ذلك كما صبر من قبله من الرسل بطريق التعريض .

ولهذا الكلام تفسيران:

أحدهما : ﴿ أن ما يقوله المشركون في القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم هو دأب أمثالهم المعاندين من قَبلهم فما صدقُ ﴿ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ ﴾ هو مقالات الذين كذبوهم ، أي تشابهت قلوب المكذبين فكانت مقالاتهم متماثلة قال تعالى : ﴿ أتواصوا به ﴾ [الذاريات : 53] .

التفسير الثاني : ما قُلنا لك إلا ما قلناه للرسل من قبلك ، فأنت لم تكن بدعاً من الرسل فيكون لقومك بعض العذر في التكذيب ولكنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، فمَا صدقُ : ﴿ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسل ﴾ هو الدين والوحي فيكون من طريقة قوله تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ [الأعلى : 18] .

وكلا المعنيين وارد في القرآن فيحمل الكلام على كليهما .

وفي التعبير بـ ﴿ ما ﴾ الموصولة وفي حذف فاعل القولين في قوله : ﴿ مَّا يُقَالُ ﴾ وقوله :

﴿ مَا قَدْ قِيلَ ﴾ نظم متين حمَّل الكلام هذين المعنيين العظيمين ، وفي قوله : ﴿ إلاَّ ما قَدْ قِيل للرسل ﴾ تشبيه بليغ .

والمعنى : إلا مثل ما قد قيل للرسل .

واجتلاب المضارع في ﴿ مَا يُقَال ﴾ لإفادة تجدد هذا القول منهم وعدم ارعوائهم عنه مع ظهور ما شأنه أن يصدهم عن ذلك .

(207/682)

واقتران الفعل بـ ﴿ قد ﴾ لتحقيق أنه قد قيل للرسل مثل ما قال المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم فهو تأكيد للازم الخبر وهو لزوم الصبر على قولهم .

وهو منظور فيه إلى حال المردود عليهم إذ حسبوا أنهم جابهوا الرسول بما لم يخطر ببال غيرهم ، وهذا على حد قوله تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ [الذاريات : 52 ، 53] .

﴿ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ ﴾

تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد بأن الله يغفر له .

ووقوع هذا الخبر عقب قوله : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ يومىء إلى

أن هذا الوعد جزاء على ما لقيه من الأذى في ذات الله وأن الوعيد للذين آذوه ، فالخبر مستعمل في لازمه .

ومعنى المغفرة له : التجاوز عما يلحقه من الحزن بما يسمع من المشركين من أذى كثير .

وحرف ﴿ إنَّ ﴾ فيه لإفادة التعليل والتسبب لا للتأكيد .

وكلمة ﴿ ذو ﴾ مؤذنة بأن المغفرة والعقاب كليهما من شأنه تعالى وهو يضعهما بحكمته في المواضع المستحقة لكل منهما .

ووصف العقاب بـ ﴿ أَلِيمٍ ﴾ دون وصف آخر للاشارة إلى أنه مناسب لما عوقبوا لأجله فإنهم آلموا نفس النبي صلى الله عليه وسلم بما عصوا وآذوا .

وفي جملة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مُحسِّن الجمع ثم التقسيم ، فقوله : ﴿ ما يقال لك ﴾ يجمع قائلاً ومقولاً له فكان الإيماء بوصف (ذو مغفرة) إلى المقول له ، ووصف ﴿ ذو عقاب أليم ﴾ إلى القائلين ، وهو جار على طريقة اللف والنشر المعكوس وقرينة المقام ترد كُلاًّ إلى مناسبه .

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ

(208/682)

اتصال نظم الكلام من أول السورة إلى هنا وتناسب تنقلاته بالتفريع والبيان والاعتراض والاستطراد يقتضي أن قوله : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا ﴾ إلى آخره تنقُّلٌ في دَرَجَ إثبات أن قصدهم العناد فيما يتعللون به ليواجهوا إعراضهم عن القرآن والانتفاع بهديه بما يختلقونه عليه من الطعن فيه والتكذيبِ به ، وتكلّفُ الأعذار الباطلة ليتستروا بذلك من الظهور في مظهر المنهزم المحجوج ، فأخَذَ يَنقض دعاويهم عُروة عُروة ، إذْ ابتدئت السورة بتحدّيهم بمعجزة القرآن بقوله : ﴿ حم تَنزِيلٌ مِنَ الرحمن الرَّحِيمِ كتاب فُصِّلَتْ ءاياته قُرءَاناً عَرَبِياً ﴾ إلى قوله ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ [فصلت : 41] فهذا تحدَ لهم ووصف للقرآن بصفة الإعجاز .

ثم أخذَ في إبطال معاذيرهم ومطاعنهم بقوله : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ [فصلت : 5] ، فإن قولهم ذلك قصدوا به أن حجة القرآن غير مقنعة لهم إغاظة منهم للنبيء صلى الله عليه وسلم ثم تَمالُئهم على الأعراض بقوله : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : 26] وهو عجز مكشوف بقوله : ﴿ إن الذين يلحدون في ءاياتنا لا يَخْفَون علينا ﴾ [فصلت : 40] وبقوله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ [فصلت : 41] الآيات .

فأعقبها بأوصاف كمال القرآن التي لا يجدون مطعناً فيها بقوله : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ [فصلت : 41] الآية .

وإذ قد كانت هذه المجادلات في أول السورة إلى هنا إبطالاً لتعللاتهم ، وكان عماده على أن القرآن عربي مفصَّل الدلالةِ المعروفةِ في لغتهم حسبما ابتدىء الكلام بقوله : ﴿ كتاب فُصِّلَتْ ءاياته قُرءاناً عربياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3] وانْتُهي هنا بقوله : ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ [فصلت : 41 ، 42] ، فقد نهضت الحجة عليهم بدلالته على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الجهة فانتقل إلى حجة أخرى عمادها الفرضُ والتقديرُ أن يكون قد جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقرآن من لغة أخرى غير لغة العرب .

ولذلك فجملة : ﴿ ولو جعلناه قرءاناً أعجمياً ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ [فصلت : 41] على الاعتبارين المتقدمين آنفاً في موقع تلك الجملة .

ومعنى الآية متفرع على ما يتضمنه قوله : ﴿ كتاب فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْءاناً عربياً لِقَوم يعلمون ﴾ [فصلت : 3] وقوله : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلي ﴾ [الكهف : 110] من التحدّي بصفة الأمية كما علمت آنفاً ، أي لو جئناهم بلون آخر من معجزة الأمية فأنزلنا على الرسول قُرآناً أعجمياً ، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم علم بتلك اللغة من قبل ،

لقلبوا معاذيرهم فقالوا : لولا بُينت آياتُه بلغة نفهمها وكيف يخاطِبنا بكلام أعجمي .

فالكلام جار على طريقة الفرض كما هو مقتضى حرف ﴿ لو ﴾ الامتناعية .

وهذا إبانة على أن هؤلاء القوم لا تجدي معهم الحجة ولا ينقطعون عن المعاذير لأن جدالهم لا يريدون به تطلب الحق وما هو إلا تعنت لترويج هواهم .

(210/682)

ومن هذا النوع في الاحتجاج قوله تعالى : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ [الشعراء : 198 ، 199] ، أي لو نزلناه بلغة العرب على بعض الأعجمين فقرأه عليهم بالعربية ، لاشتراك الحجتين في صفة الأمية في اللغة المفروضِ إنزالُ الكتاب بها ، إلا أن تلك الآية بينت على فرض أن ينزل هذا القرآن على رسولٍ لا يعرف العربية ، وهذه الآية بنيت على فرض أن ينزل القرآن على الرسول العربي صلى الله عليه وسلم بلغة غير العربية .

وفي هذه الآية إشارة إلى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للعرب والعجم فلم يكن عجباً أن يكون الكتاب المنزل عليه بلغة غير العرب لولا أن في إنزاله بالعربية حكمةً علمها الله ، فإن الله لما اصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم عربياً وبعثه بين أمة عربية كان

أحقُّ اللغات بأن ينزل بها كتابه إليه العربية ، إذ لو نزل كتابه بغير العربية لاستوت لغات الأمم كلها في استحقاق نزول الكتاب بها فأوقع ذلك تحاسداً بينها لأن بينهم من سوابق الحوادث في التاريخ ما يثير الغيرة والتحاسد بينهم بخلاف العرب إذ كانوا في عزلة عن بقية الأمم ، فلا جرم رُجحت العربية لأنها لغة الرسول صلى الله عليه وسلم ولغة القوم المرسل بينهم فلا يستقيم أن يبقى القوم الذين يدعوهم لا يفقهون الكتاب المنزل إليهم .

.

ولو تعددت الكتب بعدد اللغات لفاتت معجزة البلاغة الخاصة بالعربية لأن العربية أشرف اللغات وأعلاها خصائص وفصاحة وحسنَ أداء للمعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة .

ثم العرب هم الذين يتولون نشر هذا الدين بين الأمم وتبيين معاني القرآن لهم .

ووقع في "تفسير الطبري" عن سعيد بن جبير أنه قال : قالت قريش : لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً ؟ فأنزل الله : ﴿ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ بهمزة واحدة على غير مذهب الاستفهام ا ه .

(211/682)

ولا أحسب هذا إلا تأويلاً لسعيد بن جبير لأنه لم يسنده إلى راو ، ولم يرو عن غيره فرأى أن الآية تنبىء عن جواب كلام صدر عن المشركين المعبر عنهم بضمير ﴿ لَّقَالُوا ﴾ .

وسياق الآية ولفظها ينبو عن هذا المعنى ، وكيف و ﴿ لو ﴾ الامتناعية تمتنع من تحمل هذا التأويل وتدفعه .

وأما ما ذكره في "الكشاف" : "أنهم كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ؟ فقيل : لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت ، وقالوا : لولا فصّلت آياته الخ" .

فلم نقف على من ذكر مثله من المفسرين وأصحاب أسباب النزول وما هو إلا من صنف ما روي عن سعيد .

ولو كان كذلك لكان نظم الآية : وقالوا لولا فصلت آياته ، ولم يكن على طريقة ﴿ لو ﴾ وجوابها .

ولا يظن بقريش أن يقولوا ذلك إلا إذا كان على سبيل التهكم والاستهزاء .

وضمير ﴿ جعلناه ﴾ عائد إلى ﴿ الذكر في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ [فصلت : 41] .

وقوله : أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ بقية ما يقولونه على فرض أن يُجعل القرآن أعجمياً ، أي أنهم لا يخلون من الطعن في القرآن على كل تقدير .

و ﴿ لولا ﴾ حرف تحضيض .

ومعنى : ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ هنا : بيِّنت ووضِّحت ، أي لولا جعلت آياته عربية نفهمها .

والواو في قوله : ﴿ وَعَرَبِيٌّ ﴾ للعطف بمعنى المعية .

والمعنى : وكيف يلتقي أعجمي وعربي ، أي كيف يكون اللفظ أعجمياً والمخاطب به عربياً كأنهم يقولون : أيلقى لفظ أعجمي إلى مخاطب عربي .

ومعنى : ﴿ قوآناً ﴾ كتاباً مقروءاً .

وورد في الحديث تسمية كتاب داود عليه السلام قرآناً ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم إن داود يُسّر له القرآن فكان يقرأ القرآن كله في حين يسرج له فرسه (أو كما قال) .

والأعجمي : المنسوب إلى أعجم ، والأعجم مشتق من العجمة وهي الإِفصاح ، فالأعجم : الذي لا يفصح باللغة العربية ، وزيادة الياء فيه للوصف نحو : أحمري ودَوّاري .

فالأعجمي من صفات الكلام .

(212/682)

وأفرد ﴿ وَعَرَبِيٌّ ﴾ على تأويله بجنس السامع ، والمعنى : أكتاب عربي لسامعين عرب فكان حق ﴿ عربي أن يجمع ولكنه أفرد لأن مبنى الإِنكار على تنافر حالتي الكتاب والمرسل إليهم ، فاعتبر فيه الجنس دون أن ينظر إلى إفراد ، أو جمع .

وحاصل معنى الآية : أنها تؤذن بكلام مقدر داخل في صفات الذِّكْر ، وهو أنه بلسان عربي بلغتكم إتماماً لهديكم فلم تؤمنوا به وكفرتم وتعللتم بالتعلّلات الباطلة فلو جعلناه أعجمياً لقلتم : هلا بينت لنا حتى نفهمه .

﴿

هذا جواب تضمنه قوله : ﴿ ما يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ ﴾ [فصلت : 43] ، أي ما يقال من الطعن في القرآن ، فجوابه : أن ذلك الذكر أو الكتاب للذين آمنوا هدى وشفاء ، أي أن تلك الخصال العظيمة للقرآن حَرَمَهم كُفْرُهم الانتفاع بها وانتفع بها المؤمنون فكان لهم هدياً وشفاء .

وهذا ناظر إلى ما حكاه عنهم من قولهم : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ﴾ [فصلت : 5] ، فهو إلزام لهم بحكم على أنفسهم .

وحقيقة الشفاء : زوال المرض وهو مستعار هنا للبصارة بالحقائق وانكشاف الالتباس من النفس كما يزول المرض عند حصول الشفاء ، يقال : شُفيتْ نفسه ، إذا زال حَرجه ، قال قيس بن زهير :

شَفَيْتُ النفسَ من حَمَلِ بنِ بدر

وسيفي من حُذيفة قد شفاني . . .

ونظيره قولهم : شُفي غليله ، وبرد غليله ، فإن الكفر كالداء في النفس لأنه يوقع في العذاب ويبعث على السيئات .

(213/682)

وجملة : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ الخ معطوفة على جملة : ﴿ هُوَ للذِينَ ءامَنُوا هُدًى ﴾ فهي مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ، أي وأما الذين لا يؤمنون فلا تتخلل آياته نفوسَهم لأنهم كمن في آذانهم وقر دون سماعه ، وهو ما تقدم في حكاية قولهم : ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ [فصلت : 5] ، ولهذا الاعتبار كان معنى الجملة متعلقاً بأحوال القرآن مع الفريق غير المؤمن من غير تكلف لتقدير جعل الجملة خبراً عن القرآن .

ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً عن ضمير الذكر ، أي القرآن ، فتكونَ من مقول القول وكذلك جملة ﴿ وَهُوَ عَلَيهِمْ عَمًى ﴾ .

والإِخبار عنهُ بـ ﴿ وَقْرٌ ﴾ و ﴿ عَمًى ﴾ تشبيه بليغ ووجه الشبه هو عدم الانتفاع به مع سماع ألفاظه ، والوقر : داء فمقابلته بالشفاء من محسّن الطِّباق .

وضمير ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ يتبادر أنه عائد إلى الذِّكر أو الكتاب كما عاد ضمير ﴿ هو ﴾ ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى ﴾ .

والعَمى : عدم البصر ، وهو مستعار هنا لضد الاهتداء فمقابلته بالهدى فيها محسِّن الطِّباق .

والإِسناد إلى القرآن على هذا الوجه في معاد الضمير بأنه عليهم عمًى من الإِسناد المجازي لأن عنادهم في قبوله كان سبباً لضلالهم فكان القرآن سَبَبَ سببٍ ، كقوله تعالى : ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 125] .

ويجوز أن يكون ضمير ﴿ وَهُوَ ﴾ ضميرَ شأن تنبيهاً على فظاعة ضلالهم .

وجملة ﴿ عَلَيهم عَمًى ﴾ خبر ضميرَ الشأن ، أي وأعظم من الوقر أن عليهم عمى ، أي على أبصارهم عمى كقوله : ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ [البقرة : 7] .

وإنما علق العمى بالكون على ذواتهم لأنه لما كان عمى مجازياً تعين أن مصيبَته على أنفسهم كلها لا على أبصارهم خاصة فإن عمى البصائر أشدّ ضراً من عمى الأبصار كقوله تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمَى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : 46] .

(214/682)

وجملة ﴿ أولئك يُنَادونَ مِن مَكانٍ بَعِيدٍ ﴾ خبر ثالث عن ﴿ الذين لا يؤمنون ﴾ .

والكلام تمثيل لحال إعراضهم عن الدعوة عند سماعها بحال من يُنادَى من مكان بعيد لا يبلغ

إليه في مثله صوت المنادي على نحو قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ﴾ كما تقدم في سورة البقرة (171) .

وتقول العرب لمن لا يفهم : أنت تُنادَى من مكان بعيد .

والإِشارة بـ ﴿ أولئك ﴾ إلى ﴿ الذين لا يؤمنون ﴾ لقصد التنبيه على أن المشار إليهم بعد تلك الأوصاف أحْرياء بما سيذكر بعدها من الحكم من أجلها نظير ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

ويتعلق ﴿ مِن مكانٍ بعيدٍ ﴾ بـ ﴿ يُنَادونَ ﴾ .

وإذا كان النداء من مكان بعيد كان المنادَى (بالفتح) في مكان بعيد لا محالة كما تقدم في تعلق ﴿ من الأرض ﴾ ، بقوله : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض ﴾ [الروم : 25] أي دعاكم من مكانكم في الأرض ، وبذلك يجوز أن يكون ﴿ مِن مَكَانٍ بعيدٍ ﴾ ظرفاً مستقراً في موضع الحال من ضمير ﴿ يُنَادونَ ﴾ وذلك غير متأتٍ في قوله : ﴿ إذا دعاكم دعوة من الأرض ﴾ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45)

اعتراض بتسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم على تكذيب المشركين وكفرهم بالقرآن بأنه

ليس بأَوحدَ في ذلك فقد أوتي موسى التوراة فاختلف الذين دعاهم في ذلك ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر .

(215/682)

والمقصود الاعتبار بالاختلاف في التوراة فإنه أشد من الاختلاف في القرآن فالاختلاف في التوراة كان على نوعين : اختلاف فيها بين مؤمن بها وكافر ، فقد كفر بدعوة موسى فرعون وقومه وبعض بني إسرائيل مثل قارون ومثل الذين عبدوا العجل في مغيب موسى للمناجاة ، واختلاف بين المؤمنين بها اختلافاً عطلوا به بعض أحكامها كما قال تعالى : ﴿ ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ [البقرة : 253] ، وكلا الاختلافين موضع عبرة وأسوة لاختلاف المشركين في القرآن .

وهذا ما عصم الله القرآن من مثله إذ قال : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ [يوسف : 12] فالتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا أوقع ، وهذا ناظر إلى قوله آنفاً : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ [فصلت : 43] على الوجه الثاني من معنييه بذكر فرد من أفراد ذلك العموم وهو الأعظم الأهم .

﴿ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾

هذا متعلق بالذين كذبوا بالقرآن من العرب لأن قوله : ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ يقتضي أن الله أخر القضاء بينهم وبين المؤمنين إلى أجل اقتضته حكمتُه ، فأَما قوم موسى فقد قضَى بينهم باستئصال قوم فرعون ، وبتمثيل الأشوريين باليهود بعد موسى ، وبخراب بيت المقدس ، وزوال ملك إسرائيل آخراً .

وهذا الكلام داخل في إتمام التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في استبطاء النصر .

والكلمة هي كلمة الإمهال إلى يوم القيامة بالنسبة لبعض المكذبين ، والإِمهالِ إلى يوم بدر بالنسبة لمن صرعوا ببدر .

والتعبير عن الجلالة بلفظ ﴿ رَبِّكَ ﴾ لما في معنى الرب من الرأفة به والانتصار له ، ولما في الإضافة إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم من التشريف .

وكلا الأمرين تعزيز للتسلية .

ولك أن تجعل كلمة (بين) دالة على أخرى مقدرة على سبيل إيجاز الحذف .

(216/682)

والتقدير : بينهم وبينَ المؤمنين ، أي بما يظهر به انتصار المؤمنين ، فإنه يكثر أن يقال : بين كذا وبين كذا ، قال تعالى : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ [سبأ : 54] .

ومعنى ﴿ سَبَقَتْ ﴾ أي تقدمت في علمه على مقتضى حكمته وإرادته .

والأجلُ المسمى : جنس يصدق بكل ما أجل به عقابهم في علم الله .

وأما ضمير ﴿ وإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ فهو خاص بالمشركين الشاكين في البعث والشاكين في أن الله ينصر رسوله والمؤمنين .

والريب : الشك ، فوصف ﴿ شَكٍّ ﴾ بـ ﴿ مُرِيبٍ ﴾ من قبيل الإسناد المجازي لقصد المبالغة بأن اشتق له من اسمه وصف كقولهم : لَيلٌ أَلْيَلُ وشِعْرٌ شَاعِر .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)

هذا من مكملات التسلية ومن مناسبات ذكر الأجل المسمى .

وفيه معنى التذييل لأن ﴿ مَن ﴾ في الموضعين مفيدة للعموم سواء اعتبرت شرطية أو موصولة .

ووجود الفاء في الموضعين : إمّا لأنهما جوابان للشرط ، وإما لمعاملة الموصول معاملةَ الشرط وهو استعمال كثير .

والمعنى : أن الإمهال إعذار لهم ليتداركوا أمرهم .

وتقديم قريب من هذه الآية في سورة الزمر ، كما تقدم نظير ﴿ وما ربُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيد ﴾

لفظاً ومعنى في سورة غافر (31) .

وحرف (على) مؤذن بمؤاخذة وتحمُّل أعباء كما أن اللام في قوله : ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ مؤذن بالعطاء .

والخطاب في ﴿ رَبُّكَ ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم وفيه ما تقدم من تعزيز تسليته عند قوله آنفاً : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ [فصلت : 45] من العدول إلى لفظ الرب المضاف إلى ضمير المخاطب .

(217/682)

والمراد بنفي الظلم عن الله تعالى لعبيده : أنه لا يعاقب من ليس منهم بمجرم ، لأن الله لما وضع للناس شرائع وبيّن الحسنات والسيئات ، ووعد وأوعد فقد جعل ذلك قانوناً ، فصار العدول عنه إلى عقاب من ليس بمجرم ظلماً إذ الظلم هو الاعتداء على حق الغير في القوانين المتلقاة من الشرائع الإلهية أو القوانين الوضعية المستخرجة من العقول الحكيمة .

وأما صيغة (ظلام) المقتضية المبالغة في الظلم فهي معتبرة قبل دخول النفي على الجملة التي وقعت هي فيها كأنه قيل : ليعذب الله المسيء لكان ظلاّماً له وما هو بظلاّم ، وهذا معنى قول علماء المعاني : إن النفي إذا توجه إلى كلام مقيَّد قد يكون النفي نفياً للقيد وقد يكون

القَيد قيداً في النفي ومثلوه بهذه الآية .

وهذا استعمال دقيق في الكلام البليغ في نفي الوصف المصوغ بصيغة المبالغة من تمام عدل الله تعالى أن جعل كل درجات الظلم في رتبة الظلم الشديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(218/682)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا ﴾

أخرج الترمذي والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه قال : قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قال : " قد قالها ناس من الناس ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها " .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن عمران عن أبي بكر الصديق رضي

الله عنه في قوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قال الاستقامة أن لا تشركوا بالله شيئاً .

وأخرج ابن راهويه وعبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق الأسود بن هلال عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : ما تقولون في هاتين الآيتين ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ ﴿ والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [الأنعام : 82] قالوا : لم يذنبوا قال : لقد حملتموها على أمر شديد ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ يقول : بشرك ﴿ والذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ فلم يرجعوا إلى عبادة الأوثان .

وأخرج ابن مردويه من طريق الثوري رضي الله عنه عن بعض أصحابه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قال : على فرائض الله .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قال : على شهادة أن لا إله إلا الله .

(219/682)

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد في الزهد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قال : استقاموا بطاعة الله ولم يروغوا روغان الثعلب .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس أنه سئل أي آية في كتاب الله أرحب ؟ قال : قوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله قيل له : فأين قوله تعالى ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . . ﴾ [الزمر : 53] زاد قرأ ﴿ وأنيبوا إلى ربكم ﴾ [الزمر : 54] فيهما علقه اعملوا .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم ومجاهد رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثم استقاموا ﴾ قال : قالوا لا إله إلا الله لم يشركوا بعدها بالله شيئاً حتى يلقوه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ قالوا ربنا الله ﴾ وحده ﴿ ثم استقاموا ﴾ يقول : على أداء فرائض الله ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال : في الآخرة .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمي والبخاري في تاريخه ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن سفيان الثقفي أن رجلاً قال " يا رسول الله مرني بأمر في الإِسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ؟ قال : قل آمنت بالله ثم استقم قلت : فما اتقى ؟ فأوما إلى لسانه " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الشعب عن مجاهد في قوله ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال : عند الموت .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال ﴿ أن لا تخافوا ﴾ مما تقدمون عليه من الموت وأمر الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتم من أمر دنياكم من ولد وأهل ودين مما استخلفكم في ذلك كله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : يؤتى المؤمن عند الموت فيقال : لا تخف مما أنت قادم عليه فيذهب خوفه ، ولا تحزن على الدنيا ولا على أهلها ، وأبشر بالجنة فيموت وقد قر الله عينه .

(220/682)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية قال : يبشر بها عند موته ، وفي قبره ، ويوم يبعث ، فإنه لقي الجنة وما رميت فرحة البشارة من قلبه .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في الآية قال : ﴿ لا تخافوا ﴾ من ضيعتكم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في ذكر الموت عن علي بن أبي طالب قال : حرام على كل نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم مصيرها ؟

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال : إن المؤمن يبشر بصلاح ولده من بعده لتقر عينه .

وأخرج أحمد والنسائي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه قلنا : يا رسول الله كلنا يكره الموت قال : ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا احتضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه ، فليس شيء أحب إليه من أن يكون لقي الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر والفاجر إذا احتضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر فكره الله لقاءه " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة حتى بلغ ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ فوقف قال : بلغنا أن العبد المؤمن يبعثه الله من قبره يتلقاه ملكاه اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له : لا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد فيؤمن الله خوفه ، ويقر عينه ، وبما عصمه ألا وهي للمؤمن قرة عين لما هداه الله تعالى ولما كان يعمل في الدنيا .

وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ نحن أولياؤكم . . . ﴾ قال : رفقاؤكم في الدنيا لا نفارقكم حتى ندخل معكم الجنة ، ولفظ عبد بن حميد قال : قرناؤهم الذين معهم في الدنيا .

فإذا كان يوم القيامة قالوا : لن نفارقكم حتى ندخلكم الجنة .

وأخرج أبو نعيم في صفة الجنة والبيهقي في البعث عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أهل الجنة في مجلس لهم إذ سطع لهم نور على باب الجنة ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف فقال يا أهل الجنة سلوني فقالوا : نسألك الرضا عنا قال : رضاي أَحَلَّكُمْ داري ، وأَنَالَكُم كرامتي هذه وأيها تسألوني ؟ قالوا : نسألك الزيادة قال : فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر ، أزمتها زبرجد أخضر ، وياقوت أحمر فجاؤوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها ، فأمر الله بأشجار عليها الثمار ، فتجيء حور من العين وهن يقلن : نحن الناعمات فلا نباس ، ونحن الخالدات فلا نموت ، أزواج قوم مؤمنين كرام ، ويأمر الله بكثبان من مسك أبيض أذفر فتنثر عليهم ريحاً يقال لها المثيرة حتى تنتهي بهم إلى جنة عدن وهي قصبة الجنة فتقول الملائكة : يا ربنا قد جاء القوم فيقول : مرحباً بالصادقين فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إلى الله فيتمتعون بنور الرحمن حتى لا يبصر بعضهم بعضاً . ثم يقول ارجعوهم إلى القصور بالتحف ، فيرجعون وقد أبصر بعضهم بعضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذلك قوله تعالى ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ ".

وأخرج ابن النجار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، مثله سواء

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ قالت : المؤذن ﴿ وعمل صالحاً ﴾ قالت : ركعتان فيما بين الآذان والإقامة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه من وجه آخر عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما أرى هذه الآية نزلت إلا في المؤذنين ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ .

(222/682)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ قال : هو النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن سيرين رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ قال : ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال : هو المؤمن عمل صالحاً ودعا إلى الله تعالى .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ قال : هذا عبد صدق قوله ، وعمله ، وموجه ، ومخرجه

، وسره ، وعلانيته ، ومشهده ، ومغيبه .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ قال : قول لا إله إلا الله يعني المؤذن ﴿ وعمل صالحاً ﴾ صام وصلى .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن قيس بن أبي حازم رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ قال : الأذان ﴿ وعمل صالحاً ﴾ قال : الصلاة بين الآذان والاقامة قال الخطيب : قال أبو بكر النقاش رضي الله عنه ، قال لي أبو بكر بن أبي داود في تفسيره عشرون ومائة ألف حديث ليس فيه هذا الحديث .

وأخرج سعيد بن منصور عن عاصم بن هبيرة قال : إذا فرغت من اذانك فقل : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وأنا من المسلمين ، ثم قرأ ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن معاوية رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إن المؤذنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والديلمي عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بلال سيد المؤذنين يوم القيامة ولا يتبعه إلا مؤمن ، والمؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " المؤذن يغفر له مد صوته ويصدقه كل رطب ويابس " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر رضي الله عنه أنه قال لرجل : ما عملك ؟ قال : الآذان قال : نعم العمل عملك ، يشهد لك كل شيء سمعك .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو أطقت الآذان مع الخليفي لأذنت .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعد رضي الله عنه قال : لأن أقوى على الآذان أحب إليّ من أن أحج ، أو أعتمر ، أو أجاهد .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لو كنت مؤذناً ما باليت أن لا أحج ، ولا أغزو .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب رضي الله عنه قال : من أذن كتب له سبعون حسنة ، وإن أقام فهو أفضل .

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق هشام عن يحيى رضي الله عنه قال : حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو علم الناس ما في الآذان لتجاذبوه قال : وكان يقال : ابتدروا الآذان ولا تبتدروا الإِمامة " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه قال : المؤذن المحتسب أول ما يكسى يوم القيامة .

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ﴾ قال : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإِساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم ﴿ كأنه ولي حميم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ﴾ قال : ألقه بالسلام ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ .

(224/682)

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ادفع بالتي هي

أحسن ﴾ قال : السلام ، إن تسلم عليه إذا لقيته .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء رضي الله عنه ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ قال : السلام .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ كأنه ولي حميم ﴾ قال : ولي رقيب . وفي قوله ﴿ إلا ذو حظ عظيم ﴾ قال : الجنة .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ قال : والله لا يصيبها صاحبها حتى يكظم غيظاً ، ويصفح عن بعض ما يكره .

وأخرج ابن المنذر عن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ قال : الرجل يشتمه أخوه فيقول إن كنت صادقاً يغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك . والله أعلم .

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والحاكم وابن مردويه عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد غضب أحدهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . فقال الرجل أمجنون تراني ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع

العليم ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى عرف الغضب في وجه أحدهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب غضبه . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " .

(225/682)

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إتقوا الغضب فإنها جمرة توقد في قلب ابن آدم ، ألم ترَ انتفاخ أوداجه ، وحمرة عينيه ، فمن أحس من ذلك شيئاً فليلزق بالأرض " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن خيثمة رضي الله عنه قال : كان يقال إن الشيطان يقول : كيف يغلبني ابن آدم إذا رضي حيث أكون في قلبه ، وإذا غضب طرت حيث أكون على رأسه ؟ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ قال : " ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم بينما هو

يصلي إذ جعل يسند حتى يستند السارية ، ثم يقول أعنك بلعنة الله التامة فقال بعض أصحابه : يا نبي الله ما شيء رأيناك تصنعه ؟ قال : أتاني الشيطان بشهاب من نار ليحرقني به ، فلعنته بلعنة الله التامة ، فانكب لفيه وطفئت ناره " .

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)

أخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا الليل والنهار ، ولا الشمس ولا القمر ، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم وعذاباً لقوم " .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ لا يسأمون ﴾ قال : لا يملون ولا يفترون قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

من الخوف لا ذي سأمة من عبادة . . . ولا مؤمن طول التعبد يجهد

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه والبيهقي في سننه من طريق سعيد بن جبير رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما كان يسجد بآخر الآيتين من ﴿ حم ﴾ السجدة ، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يسجد الأولى منهما .

وأخرج سعيد بن منصور عن أبي إسحاق قال : كان عبد الله رضي الله عنه وأصحابه يسجدون بالآية الأولى .

وأخرج ابن أبي شيبة عن رجل من بني سليم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد بالآية الأولى .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة من طريق نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يسجد بالآية الأولى .

وأخرج البخاري عن عبدة بن حسن البصري رضي الله عنه وله صحبة أنه سجد في الآية الأولى من ﴿ حم ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يسجد في الآية الأخيرة .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ﴾ قال : غبراء متهشمة ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ قال : تغرف الغيث وربوها إذا ما أصابها .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ اهتزت ﴾ قال : بالنبات ﴿ وربت ﴾ قال : ارتعشت قبل أن تنبت .

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)

أخرج أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ قال : هو أن يوضع الكلام على غير موضعه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ قال : هو أن يوضع الكلام على غير موضعه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ قال : إلحاد ما ذكر معه .

(227/682)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال الإِلحاد التكذيب .

وأخرج أحمد في الزهد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إن هذا القرآن كلام الله

فضعوه على مواضعه ولا تتبعوا فيه هواكم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فمن يلقى في النار خير ﴾ قال : أبو جهل بن هشام ﴿ أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ قال : أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر عن بشير بن تميم رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية في أبي جهل ، وعمار بن ياسر ﴿ أفمن يلقى في النار ﴾ أبو جهل ﴿ أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ عمار .

وأخرج ابن عساكر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ نزلت في عمار بن ياسر ، وفي أبي جهل .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ قال : هذا وعيد .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ قال : خَيَّركُمْ وأمركم بالعمل ، واتخذ الحجة ، وبعث رسوله وأنزل كتابه ، وشرّع شرائعه حجة وتقدمة إلى خلقه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ قال : هذا لأهل بدر خاصة .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه قال : ذكر أن السماء فرجت يوم

بدر فقيل ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : فأبيحت لهم الأعمال .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41)

أخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال : قيل لرسول الله أو سئل : " ما المخرج منها ؟ فقال : كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ " .

(228/682)

وأخرج ابن مردويه عن ابن سعد لا أحسبه إلا أسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مثل القرآن ومثل الناس كمثل الأرض والغيث ، بينما الأرض ميتة هامدة ثم لا يزال ترسل الأدوية حتى تبذر وتنبت ويتم شأنها ، ويخرج الله ما فيها من زينتها ومعايش الناس ، وكذلك فعل الله بهذا القرآن والناس " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ إلى قوله ﴿ حميد ﴾ فقال : " إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أحب إليه من شيء خرج منه يعني

القرآن " .

وأخرج البيهقي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه يعني القرآن " .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن عطية بن قيس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما تكلم العباد بكلام أحب إلى الله من كلامه ، وما أناب العباد إلى الله بكلام أحب إليه من كلامه بالذكر قال بالقرآن " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ لا يأتيه الباطل ﴾ قال : الشيطان .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في الآية ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ قال : لا يدخل فيه الشيطان ما ليس منه ولا أحد من الكفرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن الضريس عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ قال : أعزه الله لأنه كلامه ، وحفظه من الباطل ، والباطل إبليس لا يستطيع أن ينقص منه حقاً ولا يزيد فيه باطلاً .

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (43)

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ما يقال لك ﴾ من التكذيب ﴿ إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ فكما كذبت فقد كذبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر على أذى قومك إليك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ قال : من الأذى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : تعزية .

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً . . ﴾ الآية يقول لو جعلنا القرآن أعجمياً ولسانك يا محمد عربي ﴿ لقالوا أأعجمي وعربي ﴾ يأتينا به مختلفاً أو مختلطاً ﴿ لولا فصلت آياته ﴾ فكان القرآن مثل اللسان يقول فلم يفعل لئلا يقولوا فكانت حجة عليهم .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في الآية قال : لو نزل أعجمياً قال المشركون : كيف يكون أعجمياً وهو عربي ؟

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : قالت : قريش

لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً ، فأنزل الله ﴿ وقالوا : لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ﴾ وأنزل الله تعالى بعد هذه الآية فيه بكل لسان حجارة من سجيل قال ابن جبير رضي الله عنه ، والقراءة على هذا أعجمي بالاستفهام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي ميسرة رضي الله عنه قال : في القرآن بكل لسان .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ قال : بعيد من قلوبهم .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45)

(230/682)

أخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ قال : سبق لهم من الله حين واجلهم بالغرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(231/682)

فصل فى منزلة الاستقامة

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصعلت: 30] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: 1314] وقال لرسوله: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: 112] فبين أن الاستقامة ضد الطغيان وهو مجاوزة الحدود فى كل شىء وقال تعالى: قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه [فصعلت: 6] وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن: 16] سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة فقال: أن لا تشرك بالله شيئا يريد الاستقامة على محض التوحيد

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: استقاموا: أخلصوا العمل لله وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما: استقاموا أدوا الفرائض وقال الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته وقال مجاهد: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: استقاموا على محبته وعبوديته فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال: قل آمنت بالله ثم استقم وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن

والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد فإن لم يقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا: ولا

أنت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها فأمر بالاستقامة وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم كالذي يرمي إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة فلا يركن أحد إلى عمله ولا يعجب به ولا يرى أن نجاته به بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله

(233/682)

فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة

فصل قال صاحب المنازل قدس الله روحه في قوله: ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [

فصعلت: 6] إنه إشارة إلى عين التفريد يريد : أنه أرشدهم إلى شهود تفريده وهو أن لا يروا غير فردانيته

وتفريده نوعان: تفريد في العلم والمعرفة والشهود وتفريد في الطلب والإرادة وهما نوعا التوحيد وفي قوله: عين التفريد إشارة إلى حال الجمع وأحديته التي هي عنده فوق علمه ومعرفته لأن التفرقة قد تجامع علم الجمع وأما حاله: فلا تجامعه التفرقة والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل: قال: الاستقامة: روح تحيا به الأحوال كما تربو للعامة عليها

الأعمال وهي برزخ بين وهاد التفرق وروابي الجمع شبه الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت فكذلك الحال إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد وكما أن حياة الأحوال بها فزيادة أعمال الزاهدين أيضا وربوها وزكاؤها بها فلا زكاء للعمل ولا صحة للحال بدونها

وأما كونها برزخا بين وهاد التفرق وروابي الجمع ف البرزخ هو الحاجز بين شيئين متغايرين و الوهاد الأمكنة المنخفضة من الأرض واستعارها للتفرق لأنها تحجب من يكون فيها عن مطالعة ما يراه من هو على الروابى كما أن صاحب التفرق محجوب عن مطالعة ما يراه صاحب الجمع ويشاهده وأيضا فإن حاله أنزل من حاله فهو كصاحب الوهاد وحال

صاحب الجمع أعلى فهو كصاحب الروابي وشبه حال صاحب الجمع بحال من على الروابي

(234/682)

لعلوه ولأن الروابي تكشف لمن عليها القريب والبعيد وصاحب الجمع تكشف له الحقائق المحجوبة عن صاحب التفرقة

إذا عرف هذا فمعنى كونها برزخا أن السالك يكون في أول سلوكه في أودية التفرقة سائرا إلى روابي الجمع فيستقيم في طريق سيره غاية الاستقامة ليصل باستقامته إلى روابي الجمع فاستقامته برزخ بين تلك التفرقة التي كان فيها وبين الجمع الذي يؤمه ويقصده وهذا بمنزلة تفرقة المقيم في البلد في أنواع التصرفات فإذا عزم على السفر وخرج وفارق البلد واستمر على السير: كان طريق سفره برزخا بين البلد الذي كان فيه والبلد الذي يقصده ويؤمه

فصل قال: وهي على ثلاث درجات الدرجة

الأولى: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد لا عاديا رسم العلم ولا متجاوزا حد الإخلاص ولا مخالفا نهج السنة هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملا واجتهادا فيه وهو بذل المجهود واقتصادا وهو السلوك بين طرفي الإفراط وهو الجور على النفوس والتفريط

بالإضاعة ووقوفا مع ما يرسمه العلم لا وقوفا مع داعي الحال وإفراد المعبود بالإرادة وهو الإخلاص ووقوع الأعمال على الأمر وهو متابعة السنة فبهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجا كليا وإما خروجا جزئيا والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرا وهما الاقتصاد في الأعمال والاعتصام بالسنة فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضا عن كمال الانقياد للسنة: أخرجه عن الاعتصام بها وإن رأى فيه حرصا على السنة وشدة طلب لها: لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها قائلا له: إن هذا

(235/682)

خير وطاعة والزيادة والاجتهاد فيها أكمل فلا تفتر مع أهل الفتور ولا تنم مع أهل النوم فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها فيخرج عن حدها كما أن الأول خارج عن هذا الحد فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة والآخر إلى بدعة

المجاوزة والإسراف

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة وهي الإفراط ولا يبالي بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "يا عبد الله بن عمرو إن لكل عامل شرة ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنة أفلح ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر" قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد وإخلاص مقرون بالاتباع كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم وكذلك الرياء في الأعمال يخرجه عن الاستقامة والفتور والتواني يخرجه عنها أيضا

فصل قال: الدرجة الثانية: استقامة الأحوال وهي شهود الحقيقة لا كسبا ورفض الدعوى لا علما والبقاء مع نور اليقظة لا تحفظا

يعني أن استقامة الحال بهذه الثلاثة

أما شهود الحقيقة فالحقيقة حقيقتان: حقيقة كونية وحقيقة دينية يجمعهما حقيقة ثالثة وهي مصدرهما ومنشؤهما وغايتهما وأكثر أرباب السلوك من المتأخرين: إنما يريدون بالحقيقة الحقيقة الكونية وشهودها هو شهود تفرد الرب بالفعل وأن ما سواه محل جريان

أحكامه وأفعاله فهو كالحفير الذي هو محل لجريان الماء حسب

وعندهم أن شهود هذه الحقيقة والفناء: فيها غاية السالكين

(236/682)

ومنهم: من يشهد حقيقة الأزلية والدوام وفناء الحادثات وطيها في ضمن بساط الأزلية والأبدية وتلاشيها في ذلك فيشهدها معدومة ويشهد تفرد موجدها بالوجود الحق بالحق وأن وجود ما سواه رسوم وظلال

فالأول: شهد تفرده بالأفعال وهذا شهد تفرده بالوجود وصاحب الحقيقة الدينية في طور آخر فإنه في مشهد الأمر والنهي والثواب والعقاب والموالاة والمعاداة والفرق بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يبغضه ويسخطه فهو في مقام الفرق الثاني الذي لا يحصل للعبد درجة الإسلام فضلا عن مقام الإحسان إلا به

فالمعرض عنه صفحا لا نصيب له في الإسلام ألبتة وهو كالذي كان الجنيد يوصى به أصحابه فيقول: عليكم بالفرق الثاني وإنما سمى ثانيا لأن الفرق الأول: فرق بالطبع والنفس وهذا فرق بالأمر والجمع أيضا جمعان: جمع في فرق وهو جمع أهل الاستقامة والتوحيد وجمع بلا فرق وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد

فالناس ثلاثة: صاحب فرق بلا جمع فهو مذموم ناقص مخذول وصاحب جمع بلا فرق وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد فصاحبه ملحد زنديق

وصاحب فرق وجمع يشهد الفرق في الجمع والكثرة في الوحدة فهو المستقيم الموحد الفارق وهذا صاحب الحقيقة الثالثة الجامعة للحقيقتين الدينية والكونية فشهود هذه الحقيقة الجامعة: هو عين الاستقامة

(237/682)

وأما شهود الحقيقة الكونية أو الأزلية والفناء فيها: فأمر مشترك بين المؤمنين والكفار فإن الكافر مقر بقدر الله وقضائه وأزليته وأبديته فإذا استغرق في هذا الشهود وفني به عن سواه: فقد شهد الحقيقة وأما قوله لا كسبا أي يتحقق عند مشاهدة الحقيقة: أن شهودها لم يكن بالكسب لأن الكسب من أعمال النفس فالحقيقة لا تبدو مع بقاء النفس إذ الحقيقة فردانية أحدية نورانية فلابد من زوال ظلمة النفس ورؤية كسبها وإلا لم يشهد الحقيقة وأما رفض الدعوى لا علما ف الدعوى نسبة الحال وغيره إلى نفسك وإنيتك فالاستقامة لا تصح إلا بتركها سواء كانت حقا أو باطلا فإن الدعوى الصادقة تطفىء نور المعرفة فكيف بالكاذبة

وأما قوله: لا علما أي لا يكون الحامل له على ترك الدعوى مجرد علمه بفساد الدعوى ومنافاتها للاستقامة فإذا تركها يكون تركها لكون العلم قد نهى عنها فيكون تاركا لها ظاهرا لا حقيقة أو تاركا لها لفظا قائما بها حالا لأنه يرى أنه قد قام بحق العلم في تركها فيتركها تواضعا بل يتركها حالا وحقيقة كما يترك من أحب شيئا تضره محبته حبه حالا وحقيقة وإذا تحقق أنه ليس له من الأمر شيء كما قال الله عز وجل لخير خلقه على الاطلاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128] ترك الدعوى شهودا وحقيقة وحالا

وأما البقاء مع نور اليقظة فهو الدوام في اليقظة وأن لا يطفىء نورها بظلمة الغفلة بل يستديم يقظته ويرى أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه حفظا من الله له لا أن ذلك حصل بتحفظه واحترازه

فهذه ثلاثة أمور: يقظة واستدامة لها وشهود أن ذلك بالحق سبحانه لا بك فليس سبب بقائه في نور اليقظة بحفظه بل بحفظ الله له وكأن الشيخ يشير إلى أن الاستقامة في هذه الدرجة لا تحصل بكسب وإنما هو مجرد موهبة من الله فإنه قال في الأولى: الاستقامة على الاجتهاد وفي الثانية استقامة الأحوال لا كسبا ولا تحفظا

ومنازعته في ذلك متوجهة وأن ذلك مما يمكن تحصيله كسبا بتعاطي الأسباب التي تهجم بصاحبها على هذا المقام

نعم الذي ينفي في هذا المقام: شهود الكسب وأن هذا حصل له بكسبه فنفي الكسب شيء ونفي شهوده شيء آخر

ولعل أن نشبع الكلام في هذا فيما يأتي إن شاء الله تعالى

فصل قال: الدرجة الثالثة: استقامة بترك رؤية الاستقامة وبالغيبة عن

تطلب الاستقامة بشهود إقامة وتقويمه الحق هذه الاستقامة معناها: الذهول بمشهوده عن شهوده فيغيب بالمشهود المقصود سبحانه عن رؤية استقامته في طلبه فإن رؤية الاستقامة تحجبه عن حقيقة الشهود

وأما الغيبة عن تطلب الاستقامة فهو غيبته عن طلبها بشهود إقامة الحق للعبد وتقويمه إياه فإنه إذا شهد أن الله هو المقيم له والمقوم وأن استقامته وقيامه بالله لا بنفسه ولا بطلبه: غاب بهذا الشهود عن استشعار طلبه لها

وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسمه القيوم وهو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد وقام كل شيء به فكل ما سواه محتاج إليه بالذات وليست حاجته إليه معللة بحدوث كما يقول المتكلمون ولا بإمكان كما يقول الفلاسفة المشاءون بل حاجته إليه ذاتية وما بالذات لا

يعلل

نعم الحدوث والإمكان دليلان على الحاجة فالتعليل بهما من باب التعريف لا من باب العلل المؤثرة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 103 . 112 ﴾

(239/682)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾

" ثم " استقاموا : ثم حرف يقتضي التراخي ، فهو لا يدل على انهم في الحال لا يكونون مستقيمين ، ولكنه معناه استقاموا في الحال ، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانَهم إلى وقت خروجهم من الدنيا ، وهو آخرُ أحوالِ كونِهم مُكَلَّفين .

ويقال : قالوا بشرط الاستجابة أولاً ، ثم استبصروا بموجب الحجة ، ولم يثبتوا على وصف التقليد ، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة .

" استقاموا " : الاستقامة هي الثباتُ على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلالٍ بشيءٍ من أقسامها . ويقال : هم على قسمين .

مستقيم (في أصول) التوحيد والمعرفة . . وهذه صفة جميع المؤمنين .

ومستقيم في الفروع من غير عصيان . . وهؤلاء مختلفون ؛ فمنهم . . ومنهم ، ومنهم .

﴿ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ ﴾ : الذي لهم البشارة هم كل من استقام في التوحيد ، ولم يشرك . فله الأمان من الخلود . ويقال : مَنْ كان له أصل الاستقامة أَمِنَ من الخلود في النار ، ومن كمال الاستقامة أَمِنَ من الوعيد من غير أن يلحقه سوءٌ بحالٍ . . ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم ؛ فمستقيمٌ في عهده ، ومستقيم في عقده ، ومستقيم في جهده ومراعاة حدِّه ، ومستقيم في عقده وجهده حدِّه وحبِّه . وودِّه . . وهذا أتمُّهم .

ويقال : استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله .

ويقال : استقاموا في تصفية العقد ثم في توفية العهد ثم صحة القصد بدوام الوجد .

ويقال : استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم ، ثم بصفاء أحوالهم في وقتهم وفي مآلهم .

ويقال : أقاموا على طاعته ، واستقاموا في معرفته ، وهاموا في محبته ، وقاموا بشرائط خدمته .

(240/682)

ويقال : استقامةُ الزاهدِ ألا يرجعَ إلى الدنيا ، وألا يمنعَه الجاهُ بين الناس عن الله . واستقامةُ العارفِ ألا يشوبَ معرفتَه حظٌّ في الدارَيْن فيحجبه عن مولاه . واستقامةُ العابدَ ألا يعودَ إلى فترته واتباع شهوته ، ولا يتداخله رياءٌ وتصنُّع واستقامة المُحِبّ ألا يكون له أربٌ من محبوبه ، بل يكتفي من عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام عِزّه ووجوده .

﴿ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ : إنما يكون الخوف في المستقل من الوقت ، ومن حلولِ مكروهٍ أو فوات محبوبٍ فالملائكةُ يبشرونهم بأن كل مطلوبٍ لهم سيكون ، وكل محذورٍ لهم لا يكون . والحزن من حُزُونه الوقت ، ومن كان راضياً بما يجري فلا حزنَ له في عيشه . والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزنه في أحوالهم ، وإنما هم الرَّوْح والراحة .

﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ﴾ : أي بحسن المآب ، وبما وَعَدَ اللَّهُ من جميل الثواب .

والذي هو موعودٌ للأولياء بسفارة الملَكِ موجودٌ اليومَ لخواصٌ عباده بعطاء المَلِكِ ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت ؛ فلا يكون له خوفٌ ؛ لأن الخوف –كما قلنا من قبل– ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمَّا من زوالِ محبوبٍ أو حصولِ مكروه (1) ، وإن الذي بصفة الرضا لا حزونة في حاله ووقته .

ويمكن القول : ﴿ لا تخافوا ﴾ من العذاب ، ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتم من الأسباب ، ﴿ وأبشروا ﴾ بحسن الثواب في المآب .

ويقال : ﴿ لا تخافوا ﴾ من عزل الولاية ، ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما أسلفتم من الجناية ، "

وأبشروا " بحسن العناية في البداية .

ويقال : ﴿ لا تخافوا ﴾ مما أسلفتم ، ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتم ، ﴿ وأبشروا ﴾ بالجنة التي لها تكلفتم .

ويقال : ﴿ لا تخافوا ﴾ المذلَّة ، ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما أسلفتم من الزلَّة ، ﴿ وأبشروا ﴾ بدوام الوصلة .

---

(1) هذا من أدق الشروح لمعنى «الرضا» الذي كما نعرف من مذهب القشيري مرحلة انتقال من المقامات إلى الأحوال .

(241/682)

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31)

الولاية من الله بمعنى المحبة ، وتكون بمعنى النصرة .

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قِبَلِ الملائكة الذين تنزلوا عليهم ، ويحتمل أن يكون ابتداءَ خطابٍ من الله .

والنصرة تصدر من المحبة ؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة في الحال . ويقال : ﴿

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بتحقيق المعرفة ، ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ بتحصيل المغفرة .

ويقال ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالعناية ، ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ بحسن الكفاية وجميل الرعاية .

﴿ وفِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالمشاهدة ، ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ بالمعاينة .

في الدنيا الرضاء بالقضاء ، وفي الأخرة باللقاء في دار البقاء .

في الدنيا بالإيمان ، وفي الآخرة بالغفران .

في الدنيا بالمحبة ، وفي الآخرة بالقربة .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ : الولاية نقدٌ ، وتحصيل الشهوات وعدٌ ، فَمَنْ يشتغل بنقده قلَّما يشتغل بوعده . (1)

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ : أي ما تريدون ، وتدعون الله ليُعطيَكم .

﴿ نُزُلاً ﴾ : أي فضلاً وعطاءً ، وتقدمةً لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال ووجوه المبارّ .

﴿ مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ : وفي ذلك مساغٌ لآمال المذنبين ؛ لأنهم هم الذين يحتاجون إلى المغفرة ، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)

أي لا أحدَ أحسنُ قولاً منه ، ويكون المراد منه النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون جميع الأنبياء عليهم السلام .

ويقال هم المؤمنون . ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله .

---

(1) تفيد هذه الإشارة الممتعة حقا في توضيح الفكرة الصوفية الشائعة التي تقول إن العبادة الحقة هي المجردة عن الطمع في الثواب والخوف من العقاب . . وهي عند القشيري من أمارات الولاية والمحبة الصافية . . ويمعن بعض الصوفية في ذلك فيدفعهم طلب اللّه لذاته إلى القول :

أريدك لا أريدك للثواب ولكنى أريدك للعقاب

فكل مآربى قد نلت منها سوى ملذوذ وجدى بالعذاب

(242/682)

وقيل هم المؤذنون . ويقال الداعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاءِ بالله وتَرْكِ طالب العِوَض من الله ، ويَكِلُ أمره إلى الله ، ويرضى من الله بقسمة الله .

﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ : أي كما يدعو الخَلْقَ إلى الله يأتي بما يدعوهم إليه .

ويقال هم الذين عرفوا طريقَ الله ، ثم سلكوا طريقَ الله ، ثم دعوا الناسَ إلى الله .

ويقال بل سلكوا طريق الله ؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله . ثم دعوا الخَلْقَ إليه بعد ما عرفوا الطريق إليه .

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)

ادفعْ بالخصلة التي هي أحسن السيئةَ يعني بالعفو عن المكافأة ، وبالتجاوز والصفح عن الزلة ، وترك الانتصاف .

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ يُشْبِه الوليَّ الحميمَ – ولم يَصِرْ ولياً مخلصاً . . . وهذا من جملة حُسْنِ الأدب في الخدمة في حقِّ صحبتك مع الله ؛ تحلم مع عباده لأَجْلِه .

ومن جملة حُسْن الخُلُق في الصحبة مع الخَلْقِ ألا تنتقم لنفسك ، وأَنْ تعفوَ عن خصمك .

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

لا يقوم بحق هذه الأخلاق إلاّ مَنْ أُكْرِم بتوفيق الصبر ، ورُقِّي عن سفساف الشيم إلى معالي الأخلاق . ولا يصل أحسنَ الدرجاتِ إلا مَنْ صبر على مقاساة الشدائد .

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

إذا اتصلَتْ بقلبك نزغاتُ الشيطان فبادِرْ بذكر ربّك ، وارجعْ إليه قبل أية خطوة . . فإنك إن لم تخالف أولَ هاجسٍ من هواجس الشيطان صار فكرة ، ثم بعد ذلك يحصل العزم على ما يدعو إليه الشيطان . . فإذا لم تتداركْ ذلك تجري الزلَّة ، وإذا لم تتداركْ ذلك بحُسْنِ الرُّجعي صار فسقاً . . . وبتمادي الوقت تصبح في خَطَرِ كل آفة .

ولا يتخلص البعدُ من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة وصدق الاستغاثة وبذلك ينجو من الشيطان ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء : 65] ؛ فكلما ازداد العبدُ في تبرّيه من حَوْله وقوته ، وأخلص بينْ يدي الله بتضرعه واستعانته واستعاذته زاد اللَّهُ في حِفْظه ، ودَفَع الشيطان عنه .

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)

أَوْضَحَ الآياتِ ، وأَلاحَ البينَاتِ ، وأَزاحَ عِلَّةَ مَنْ رام الوصول . واختلافُ الليل والنهار ، ودورانُ الشمسِ والقمر من جملة أمارات قدرته ، ودلالات توحيده .

﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ ﴾ في علائها ، ﴿ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ في ضيائه ، ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ فقد غار عليك أن تسجد لغيره .

والشمسُ – وإنْ عَلَتْ ، والقمر – وإنْ حَسُنُ . . . فلأجْلِكَ خلقناهما ، فلا تسجدْ لهما ،

واسجُدْ لنَا .

ويقال : خَلقَ الملائكة –ومع كثرة عبادتهم ، ومع تقدمهم في الطاعة– قال لهم : اسجدوا لآدم ، وحين امتنع واحدٌ منهم لُعِنَ إلى الأبد . وقال لأولاد آدم العصاةِ المذنبين : ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ فشتّان ما هما ! ! .

والحقُّ –سبحانه وتعالى– يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر . . وأنت لأجْلِ كلِّ حظِّ خَسِيسٍ تنقل قَدَمَكَ إلى كلِّ أحدٍ ؛ وتدخل بمحياك عَلَى كلِّ أحدٍ ! ! .

(244/682)

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38)

أي إنْ تَرَفَّعَ الكفارُ فلا خَلَلَ ؛ لأن الحقَّ غنيٌّ عن كل أحد ، ثم إن الملائكة – الذين هم سكان الآخرَ – يسجدون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأَمون من عبادته .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

الأرضُ تكون جَدْبةً يابسةً في الشتاء ، فإذا نزل عليهما المطر اهتزت بالنبات واخضرّت وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما أَلَمَّتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه

، فظهر فيها بركاتُ الندم ، وعفا عن أربابها ما قصرُّوا في صِدْق القدَم ؛ وكذلك وقعت للعبد فترةٌ في معاملاته – أو غيبةٌ عن بساط طاعاته ، ثم تغمَّده الحقُّ – سبحانه – بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوارُ الوفاق ، فيعود إلى مألوف مقامه ، ويرجع عود سداده غضًّا طرياً ، ويصير شجر وفاقه – بعد ما أصابته الجدوبة – بماء العناية مستقياً . وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة ، أو حدثت لهم من جرَّاء سوء أدبٍ بَدَرَ منهم حجبةٌ ثم نظر الحقِّ – سبحانه – إليهم بالرعاية . . اهتزّت رياضُ أُنسِهم ، واخضرَّت مشاهدُ قربهم ، وانهزمت وفودُ وقفتهم .

﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ : إن الذي أحيا الأرضَ بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر . وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة .

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)

سيلقون من العذاب ما يستوجبونه . . فَلْيَعْمَلوا ما شاءوا . . فليسوا . . يَسْعَونْ إلاَّ في ذَمِّهم ، وليسوا يمشون إلا إلى هلاكهم بأَقدامهم .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41)

الجواب محذوف ومعناه : بقوا عنَّا ، ووقعوا في هوانهم وشقوا إلى الأبد .

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ : كتابٌ عزيزٌ لا مِثْلَ له حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله . كتابٌ عزيز غالبٌ لِشُبَهِ المبتدعين والكفار .

عزيزٌ لا يقدر على معارضته أحدٌ . . من قولهم أرض عزاز .

كتاب عزيزٌ لأنه كلامُ ربٍّ عزيز إلى رسولٍ عزيزٍ بسفارة مَلَكٍ عزيزٍ إلى أُمَّةٍ عزيزة .

كتاب عزيزٌ على المؤمنين لأنه كتابُ حبيبهم . . وكتابُ الحبيبِ إلى الحبيب . عزيزٌ .

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)

أي لا ينقضه كتابٌ آخر لا مما تقدَّمه من الكتب ، ولا مما يأتي من بعده . . أي لا كتابَ بعده ، ولا نسخَ له .

ويقال لا يدفع معناه لفظَه ، ولا يخالف لفظُه معناه . .

ويقال لا يقدر أحدٌ أنْ يأتيَ بمثله .

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (43)

أصولُ التوحيدِ لا تختلف بالشرائع ؛ فجوهرُها في الأحكام واحد : هو أنه تجب موافقة

أوامره ، واجتناب مزاجره . ثم إن الله تعالى قال في كل كتابٍ ، وشَرَعَ لكل أمة أَنْ يعرفوا أنه للمطيعين مُثيبٌ ، وللكافرين ذو عذاب شديد .

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ

أخبر أنه أزاح العِلَّةَ أَنْ يعرفَ صِدْقَ الدعوة ، وصحة الشريعة .

ثم وصفَ الكتابَ بأنه شفاءٌ للمؤمنين ، وسببُ شقاء للكافرين .

(246/682)

وهو شفاءٌ حيث استراحوا به عن كَدِّ الفكر وتحيُّر الخواطر .

وهو شفاءٌ لضيق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته ، والتلذُّذ بالتفكُّر فيه .

وهو شفاءٌ لقلوب المحبين من لواعِج الاشتياق لما به من لُطْفِ المواجيد .

وهو شفاءٌ لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق ، وآثار خطاب الرب العزيز .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ : هم لا يسمعون بقلوبهم من الحق ، ولا يستجيبون . . بقوا في ظلمات الجحد والجهل .

﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ : لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالاً .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45)

آتينا موسى التوراةَ ، وأرسلناه إلى قومه ، فاختلفوا في أمره . . فَمَنْ كَحَّلْنا سرَّه بنور التوحيد صَدَّقه ، ومَنْ أعميناه عن مواقع البيان قابله بالتكذيب وجحده .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهي أن عقوبتَهم في النار بعد قيام القيامة لَعَجَّلنا استئصالهم ، ولأذقناهم في الحال وبالَهم .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)

" فلنفسه " لأن النفعَ عائدٌ إليه . ومَنْ عمل عملاً سيئاً فإنما ظَلَمَ نَفْسَه ، وأساء إليها ؛ لأنه هو الذي يقاصي ضرَّه ويلاقي شرَّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 337.327 ﴾

(247/682)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والثمانون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 47 ﴾ من سورة فصلت

وحتى الآية ﴿ 54 ﴾ آخر السورة الكريمة

قوله تعالى ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48) لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تضمنت الآية السالفة الجزاء على كل جليل وحقير ، وقليل وكثير ، والبراءة من الظلم ، كما قال تعالى ﴿ وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ [آل عمران : 25] ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ وأشير إلى التوعد بالجزاء في يوم الفصل لأنا نشاهد أكثر الخلق يموت من غير جزاء ، وكان من عادتهم السؤال عن علم ذلك اليوم ، وكان ترك الجزاء إنما يكون للعجز ، والظلم إنما يكون للجهل ، لأنه وضع الأشياء في غير محالها فعل الماشي في الظلام ، دل على تعاليه عن كل منهما بتمام العلم المستلزم لشمول القدرة على وجه فيه جوابهم عن السؤال عن علم الوقت الذي تقوم فيه الساعة الذي كان

سبباً لنزول هذه الآية – كما ذكره ابن الجوزي – بقوله على سبيل التعليل : ﴿ إليه ﴾ أي إلى المحسن إليك لا إلى غيره ﴿ يرد ﴾ من كل راد ﴿ علم الساعة ﴾ أي التي لا ساعة في الحقيقة غيرها ، لما لها من الأمور التي لا نسبة لغيرها بها ، فهي الحاضرة لذلك في جميع الأذهان ، وإنما يكون الجزاء على الإساءة والإحسان فيها حتى يظهر لكل أحد ظهوراً بينا لكل أحد أنه لا ظلم أصلاً ، فلا يمكن أن يسأل أحد سواه عنها ويخبر عنها بما يغني في تعيين وقتها وكيفيتها وصنعتها ، وكلما انتقل السائل من مسؤول ألى أعلم منه وجده كالذي قبله حتى يصل الأمر إلى الله تعالى ، والعالم منهم هو الذي يقول : الله أعلم ، فاستئثاره بعلمها دال على تناهي علمه ، وحجبه له عن كل من دونه دال على تمام قدرته ، واجتماع الأمرين مستلزم لبعده عن الظلم ، وأنه لا يصح اتصافه به ، فلا بد من إقامته لها ليوفي كل ذي حق حقه ، ويأخذ لكل مظلوم ظلامته غير متعتع .

(5/683)

ولما كانوا ينازعون في وقوعها فضلاً عن العلم بها ، عدها أمراً محققاً مفروغاً منه وذكر ما يدل على شمول علمه لكل حادث في وقته دليلاً على علمه بما يعين وقت الساعة ، وذلك على وجه يدل على قدرته عليها وعلى كل مقدور بما لا نزاع لهم فيه من ثمرات النبات

والحيوان التي هي خبء في ذوات ما هي خارجة منه ، فهي كخروج الناس بعد موتهم من خبء الأرض ، فقال مقدماً للرزق على الخلق كما هو الأليق ، عطفاً على ما تقديره : فما يعلمها ولا يعلمها إلا هو : ﴿ وما تخرج ﴾ أي في وقت من الأوقات الماضية والكائنة والآية ، فإن " ما " النافية لا تدخل إلا على معناه الحلول ، فالمراد مجرد تصوير إن كان زمانه قد مضى أو لم يأت ، وأكد النفي بالجار فقال : ﴿ من ثمرات ﴾ أي صغيرة أو كبيرة صلحة أو فاسدة من الفواكه والحبوب وغيرها ؛ والإفراد في قراءة الجماعة للجنس الصالح للقليل والكثير ، نبهت قراءة نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بالجمع على كثرة الأنواع ﴿ من أكمامها ﴾ جمع كم وكمامة بالكسر فيهما وهو وعاء الطلع وغطاء النور ، وكل ما غطى على وجه الإحاطة شيئاً من شابه أن يخرج فهو كم ، ومنه قيل للقلنسوة : كمة ، ولكم القميص ونحوه : كم ، أي إلا بعلمه ﴿ وما تحمل من أنثى ﴾ خداجاً أو تماماً ، ناقصاً أو تاماً ، وكذا النفي باعادة النافي ليشمل كلا على حياله ، وعبر ب " لا " لأن الوضع ليس كالحمل يقع في لحظة بل يطول زمان انتظاره فقال : ﴿ ولا تضع ﴾ حملاً حياً أو ميتاً ﴿ إلا ﴾ حال كونه ملتبساً ﴿ بعلمه ﴾ ولا علم لأحد غيره بذلك ، ومن ادعى علماً به فليخبر بأن ثمرة الحديقة الفلانية والبستان الفلاني والبلد الفلاني تخرج في الوقت الفلاني أو لا تخرج العام شيئاً أصلاً والمرأة الفلانية تحمل في الوقت الفلاني وتضع في وقت كذا أو لا تحمل العام شيئاً ، ومن المعلوم أنه لا يحيط بهذا علماً إلا الله سبحانه وتعالى .

ولما ثبت بهذا علمه صريحاً وقدرته لزوماً وعجز من سواه وجهله ، وتقرر بذلك أمر الساعة من أنه قادر عليها بما أقام من الأدلة ، وأنه لا بد من كونها لما وعد به من تكوينها لينصف لمظلوم من ظالمه لأنه حكيم ولا يظلم أحداً وإن كانوا في إيجادها ينازعون ، ولم ينكرون قال تعالى مصوراً ما تضمنه ما سبق من جهلهم ، ومقرراً بعض أحوال القيامة ، عاطفاً على أرشد السياق إلى تقديره من نحو : فهو على كل شيء قدير لأنه على كل شيء شهيد وهم بخلاف ذلك ، مقرراً قدرته تصريحاً وعجز ما ادعوا من الشركاء : ﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي المشركين بعد بعثهم من القبور ، للفصل بينهم في سائر الأمور فيقول المحسن إليك بأنواع الإحسان الذي منه إنصاف المظلوم من ظالمه على سبيل الأمور فيقول المحسن إليك بأنواع الإحسان الذي منه إنصاف المظلوم من ظالمه على سبيل التوبيخ والتقريع والتنديم : ﴿ أين شركائي ﴾ أي الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم ويحمونكم من العقاب واللوم ، والعامل في الظرف ﴿ قالوا ﴾ أي المشركون : ﴿ آذّناك ﴾ أي اعلمناك سابقاً بألسنة أحوالنا والآن بألسنة مقالنا ، وفي كلتا الحالتين أنت سامع لذلك لأنك سامع لكل ما يمكن أن يسمع وإن لم يسمعه غيرك ، ولذا عبروا بما منه الإذن ﴿ ما منا ﴾ وأكدوا

النفي بإدخال الجار في المبتدأ المؤخر فقالوا : ﴿ من شهيد ﴾ أي حي دائماً حاضر دون غيبة ، مطلع على ما يريد من غير خفاء بحيث لا يغيب عن علمه شيء فيخبر بما يخبر به على سبيل القطع والشهادة ، فآل الأمر إلى أن المعنى : لا نعلم أي ما كنا نسميهم شركاء لأنه ما منا من هو محيط العلم .

ولما قرر جهلهم ، أتبعه عجزهم فقال : ﴿ وضل ﴾ أي ذهب وشذ وغاب وخفي ﴿ عنهم ﴾ ولما كانت معبوداتهم إما ممن لا يعقل كالأصنام وإما في عداد ذلك لكونهم لا فعل لهم في الحقيقة ، عبر عنهم بأداة ما لا يعقل فقال : ﴿ ما كانوا ﴾ أي دائماً ﴿ يدعون ﴾ في كل حين على وجه العادة .

(7/683)

ولما كان دعاؤهم لهم غير مستغرق لزمان القبل ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ فهم لا يرونه فضلاً عن أنهم يجدون نفعه ويلقونه ، كأنهم كانوا لما هم عريقون فيه من الجهل وسوء الطبع يتوقعون أن يظفروا بهم فيشفعوا لهم ، فلذلك عبر بالظن في قوله : ﴿ وظنوا ﴾ أي في ذلك الحال ﴿ ما لهم ﴾ وأبلغ في النفي بإدخال الجار على المبتدأ المؤخر فقال ﴿ من محيص ﴾ أي مهرب وملجأ ومعدل .

ولما دل أتباعهم للظن حتى في ذلك اليوم الذي تنكشف فيه الأمور ، وتظهر عظائم المقدور ، وإلقاؤهم بأيديهم فيه على أنهم في غاية العراقة في الجهل والرسوخ في العجز ، أتبع ذلك الدليل على أن ذلك طبع هذا النوع فلا يزال متبدل الأحوال متغير المناهج ، إن أحسن بخير انتفخ عظمه وتطاول كبراً ، وإن مس ببلاء تضاءل ذلاً وأمتلأ ضعفاً وعجزاً ، وذلك ضد مقصود السورة الذي هو العلم ، بياناً لأن حال هذا النوع بعيد من العلم ، عريق الصفات في الجهل والشر إلا من عصمه الله فقال تعالى : ﴿ لا يسئم ﴾ أي يمل ويضجر ﴿ الإنسان ﴾ أي من الأنس بنفسه الناظر في أعطافه ، الذي لم يتأهل للمعارف الإلهية والطرق الشرعية ﴿ من دعاء الخير ﴾ أي من طلبه طلباً عظيماً ، وذلك دال مع شرهه على جهله ، فإنه لو كان عالماً بأن الخير يأتيه أو لا يأتيه لخفف عن نفسه من جهده في الدعاء ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ [الأعراف : 188] ﴿ وإن مسه الشر ﴾ أي هذا النوع قليله وكثيره بغتة من جهة لا يتوقعها ﴿ فيؤوس ﴾ أي عريق في اليأس ، وهو انقطاع الرجاء والأمل والحزن العظيم والقطع بلزوم تلك الحالة بحيث صار قدوة في ذلك ﴿ قنوط ﴾ أي مقيم في دار انقطاع الأمل والخواطر الرديئة ، فهو تأكيد للمعنى على

أحسن وجه وأتمه ، وهذا هو ما طبع عليه الجنس ، فمن أراد الله به منهم خيراً عصمه ، ومن أراد به شراً أجراه مع الطبع فكان كافراً ، لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال أبو حيان : واليأس من صفة القلب وهو أن ينقطع رجاؤه من الخير ، والقنوط أن يظهر عليه آثار اليأس فيتضاءل وينكسر ، وبدأ بصفة القلب لأنها هي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من الانكسار .

(9/683)

ولما دل ذلك على عظيم جهله وغلبة أفكاره الرديئة على عقله ، أتبعه تأكيداً لذلك ما يدل على أن حاله بعد هذا اليأس الذي قطع فيه بلزوم الشر وامتناع حصول الخير أنه لو عاودته النعمة بغتة من وجه لا يرجوه ، وليس له دليل على ما دوامها وانصرامها لعاد إلى البطر والكبر والأشر ، ونسي ما كان فيه من الشدة ، فقال مسنداً إلى نفسه الخير بعد أن ذكر الشر ، ولم يسنده إليه تعليماً للأدب معبراً بمظهر العظمة تنبيهاً على أن ذلك من جليل التدبير ﴿ ولئن أذقناه ﴾ أي الإنسان الذي غلبت عليه حالة الأنس بنفسه حتى أسفلته عن أبناء جنسه إلى رتبة الحيوانات العجم بل دونها .

(10/683)

ولما أخبر آخر الآية السالفة عن حاله عند الشر ، قدم هنا ضده على صلته اهتماماً به بخلاف ما في سورة هود عليه السلام فقال : ﴿ رحمة منا ﴾ أي نعمة عظيمة دلت على إكرامه من جهة لا يرجوها ، وهو من فائدة التعبير بأداة الشك ، ودل بإثبات الجار على انفصالها عن الضر مع قرب زمانها منه ليكون قد جمع مباشرة الأحوال الثلاث : الانتقام والإكرام وما بينهما من الوسط الذي بين حالتي الرضا والسخط ، ثم شرع بيان ذلك فقال : ﴿ من بعد ضراء ﴾ أي محنة وشدة عظيمة ﴿ مسته ﴾ فطال بروكها عليه ؛ وأجاب القسم لتقدمه على الشرط بقوله : ﴿ ليقولن ﴾ بمجرد ذوق تلك الرحمة على أنها ربما كانت بلاء عظيماً لكونها استدراجاً إلى الهلاك : ﴿ هذا ﴾ أي الأمر العظيم ﴿ لي ﴾ أي مختص بي لما لي من الفضل ، لا مشاركة لأحد معي فيه مع أنه ثابت لا يتغير انتقالاً من حالة اليأس إلى حالة الأمن والبطر والكبر والأشر على قرب الزمن من ذوق المحن وينسى أنها من فضل الله ليقيدها بشكرها ، ويطردها بكفرها ﴿ وما أظن الساعة ﴾ أي القيامة التي هي لعظمها المستحقة أن تختص باسم الساعة ﴿ قائمة ﴾ أي ثابتاً قيامها ، فقطع الرجاء منها سواء عبر عن ذلك بلسان قاله أو بلسان حاله ، لكونه يفعل أفعال الشاك فيها كما كان قطع الرجاء من الخير عند مباشرته للشر لكنه هنا قال على سبيل التقدير : والفرض ، لدفع من يعظه محققاً لدوام نعمته : ﴿ ولئن رجعت ﴾ أي على سبيل الفرض

بقسر قاسر ما ﴿ إلى ربي ﴾ أي الذي أحسن إليّ بهذا الخير الذي أنا فيه ﴿ إن لي عنده ﴾ وأكده على من يعظه بأنه يعذب إن لم يحسن قلبه وقالبه ﴿ للحسنى ﴾ أي الحالة والرتبة البالغة في الحسن حداً لا يوصف لأني أهل لذلك ، والدليل على تأهلي له ما أنا فيه الآن من الخير ، ونسي ما يشاهده غالباً من أن كثيراً من النعم يكون للاستدارج ، ومن أن كثيراً من الناس يكون في غاية النعمة فيصبح وقد أحاطت به كل نقمه ، فهو بين أمنيتين في الدنيا بقوله هذا ، وفي الآخرة يقول :

(11/683)

يا ليتي كنت تراباً ، فلا يزال في المحال – نعوذ بالله من سوء الحال .

ولما كان هذا هو الكفر الصراح لنسيان نعمة المنعم وجعله الإنعام من الواجب اللازم وشكه فيما أخبر سبحانه على ألسنة جميع الرسل أنه محط حكمته ، سبب عنه سبحانه قوله ، مؤكداً في نظير تأكيد هذا الناسي : ﴿ فلننبئن ﴾ أي تنبئة عظيمة بخير الوصف فيها مستقصاة على سبيل العدل ، وجعل الضمير الوصف تصريحاً بالعموم وبياناً للعلة الموجبة فقال : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دلت عليه العقول ، وأوجبته صرائح النقول ، من إقامة الساعة لأظهار جلاله وجماله ، ومن أنه تعالى يحل بالإنسان السراء والضراء ليخافه

ويرجوه ويشكره ويدعو ﴿ بما عملوا ﴾ لا ندع منه قليلاً ولا كثيراً صغيراً ولا كبيراً ، فليرون عياناً ضد ما ظنوه في الدنيا من أن لهم الحسنى

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ [الفرقان : 23]

﴿ ولنذيقنهم ﴾ بعد إقامة الحجة عليهم بموازين القسط الوافية لمثاقيل الذر ﴿ من عذاب غليظ ﴾ لا يدع جهة من أجسامهم ولا قواهم إلا أحاط بها ولا تقوى على دفعه قواهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 584 . 588 ﴾

(12/683)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾

واعلم أنه تعالى لما هدد الكفار في الآية المتقدمة بقوله ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : 46] ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة ، وكأن سائلاً قال ومتى يكون ذلك اليوم ؟ فقال تعالى إنه لا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه إلا الله فقال : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة ﴾ وهذه الكلمة تفيد الحصر أي لا يعلم وقت

الساعة بعينه إلا الله ، وكما أن هذا العلم ليس إلا عند الله فكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة في أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله سبحانه وتعالى ، ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين أحدهما : قوله ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرات مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ والثاني : قوله ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ قال أبو عبيدة أكمامها أوعيتها وهي ما كانت فيه الثمرة واحدها كم وكمة ، قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم (من ثمرات) بالألف على الجمع والباقون (من ثمرة) بغير ألف على الواحد .

(13/683)

واعلم أن نظير هذه الآية قوله ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة وَيُنَزِّلُ الغيث ﴾ [القمان : 34] إلى آخر لآية ، فإن قيل أليس أن المنجمين قد يتعرفون من طالع سنة العالم أحوالاً كثيرة من أحوال العالم ، وكذلك قد يتعرفون من طوالع الناس أشياء من أحوالهم ، وههنا شيء آخر يسمى علم الرمل وهو كثير الإصابة وأيضاً علم التعبير بالاتفاق قد يدل على أحوال المغيبات ، فكيف الجمع بين هذه العلوم المشاهدة وبين هذه الآية ؟ قلنا إن أصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم في شيء من المطالب ألبتة وإنما الغاية القصوى ادعاء ظن ضعيف والمذكور في هذه الآية أن علمها ليس إلا عند الله والعلم هو الجزم واليقين وبهذ

لطريق زالت المنافاة والمعاندة والله أعلم ، ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة ، وهذا الذي ذكره ههنا شديد التعلق أيضاً بما وقع الابتداء به في أول السورة ، وذلك لأن أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة عن الأصنام والأوثان بدليل أنه قال في أول السورة ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ [فصلت : 6] فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء ولأنداد فقال : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِى ﴾ أي بحسب زعمكم واعتقادكم ﴿ قَالُواْ آذَنَاكَ ﴾ قال ابن عباس أسمعناك كقوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : 2] بمعنى سمعت ، وقال الكلبي أعلمناك وهذا بعيد ، لأن أهل القيامة يعلمون الله ويعلمون أنه يعلم الأشياء علماً واجباً ، فالإعلام في حقه محال .

(14/683)

ثم قال : ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ وفيه وجوه الأول : ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكاً ، فالمقصود أنهم في ذلك اليوم يتبرءون من إثبات الشريك لله تعالى الثاني : ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ الثالث : أن

قوله ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ كلام الأصنام فإن الله يحييها ، ثم إنها تقول ما منا من أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة ، وعلى هذا التقدير فمعنى أنها لا تنفعهم فكأنهم ضلوا عنهم .

ثم قال : ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ وهذا ابتداء كلام من الله تعالى يقول إن الكفار ظنوا أولاً ثم أيقنوا أنه لا محيص لهم عن النار والعذاب ، ومنهم من قال إنهم ظنوا أولاً أنه لا محيص لهم عن النار ثم أيقنوا ذلك بعده ، وهذا بعيد لأن أهل النار يعلمون أن عقابهم دائم ، ولما بيّن الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله في الدنيا تبرءوا عن تلك الشركاء في الآخرة بين أن الإنسان في جميع الأوقات متبدل الأحوال متغير المنهج ، فإن أحس بخير وقدرة انتفخ وتعظم وإن أحسّ ببلاء ومحنة ذبل ، كما قيل في المثل : إن هذا كالقرلى ، إن رأى خيراً تدلى ، وإن رأى شراً تولى ، فقال : ﴿ لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَاء الخير وَإِن مَّسَّهُ الشر فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ يعني أنه في حال الإقبال ومجيء المرادات لا ينتهي قط إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها ، وفي حال الإدبار والحرمان يصير آيساً قانطاً ، فالانتقال من ذلك الرجاء الذي لا آخر له إلى هذا اليأس الكلي يدل على كونه مبتدل الصفة متغير الحال وفي قوله ﴿ يئوس قنوط ﴾ مبالغة من وجهين أحدهما : من طريق بناء فعول والثاني : من طريق التكرير واليأس من صفة القلب ، والقنوط أن يظهر آثار ليأس في الوجه والأحوال الظاهرة .

ثم بيّن تعالى أن هذا الذي صار آيساً قانطاً لو عاودته النعمة والدولة ، وهو المراد من قوله ﴿ وَلَئِنْ أَذقناه رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ ﴾ فإن هذا الرجل يأتي بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى فأولها أنه لا بد وأن يقول هذا لي وفيه وجهان الأول : معناه أن هذا حقي وصل إلي ، لأني استوجبته بما حصل عندي من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله ولا يعلم المسكين أن أحداً لا يستحق على الله شيئاً ، وذلك لأنه إن كان ذلك الشخص عارياً عن الفضائل ، فهذا الكلام ظاهر الفساد وإن كان موصوفاً بشيء من الفضائل والصفات الحميدة ، فهي بأسرها إنما حصلت له بفضل الله وإحسانه ، وإذ تفضل الله بشيء على بعض عبيده ، امتنع أن يصير تفضله عليه بتلك العطية سبباً لأن يستحق على الله شيئاً آخر ، فثبت بهذا فساد قوله إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاقي والوجه الثاني : أن هذا لي أي لا يزول عني ويبقى علي وعلى أولادي وذريتي .

والنوع الثاني : من كلماتهم الفاسدة أن يقول ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ يعني أنه يكون

شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة ، فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا يقول إنها لي وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ .

(16/683)

والنوع الثالث : من كلماتهم الفاسدة أن يقول ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبِّي إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ يعني أن الغالب على الظن أن القول بالبعث والقيامة باطل ، وبتقدير أن يكون حقاً فإن لي عنده للحسنى ، وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم إلى الثواب من وجوه الأول : أن كلمة إن تفيد التأكيد الثاني : أن تقديم كلمة لي تدل على هذا التأكيد الثالث : قوله ﴿ عِندَهُ ﴾ يدل على أن تلك الخيرات حاضرة مهيئة عنده كما تقول لي عند فلان كذا من الدنانير ، فإن هذا يفيد كونها حاضرة عنده ، فلو قلت إن لي عند فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك والرابع : اللام في قوله ﴿ للحسنى ﴾ تفيد التأكيد الخامس : للحسنى يفيد الكمال في الحسنى .

ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة قال : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي نظهر لهم أن الأمر على ضد ما اعتقدوه وعلى عكس ما تصوروه كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23]

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ في مقابلة قولهم ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 117.119 ﴾

(17/683)

وقال ابن عطية :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾

المعنى : أن وقت علم الساعة ومجيئها يرده كل مؤمن متكلم فيه إلى الله عز وجل . وذكر تعالى الثمار وخروجها من الأكمام وحمل الإناث مثالاً لجميع الأشياء ، إذ كل شيء خفي فهو في حكم هذين .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي والحسن وطلحة والأعمش : " من ثمرة " بالإفراد على أنه اسم جنس . وقرأ نافع وابن عامر : " ثمرات " بالجمع ، واختلف عن عاصم وهي قراءة أبي جعفر وشيبة والأعرج والحسن بخلاف ، وفي مصحف عبد الله : " في ثمرة من أكمامها " . والأكمام : جمع كم ، وهو غلاف التمر قبل ظهوره .

وقوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم ﴾ تقديره : واذكر يوم يناديهم والضمير في : ﴿ يناديهم ﴾ ظاهره والأسبق فيه أنه يريد به الكفار عبدة الأوثان . ويحتمل أن يريد به كل من عبد من

دون الله من إنسان وغيره ، وفي هذا ضعف ، وإنما الضمير في قوله : ﴿ وضل عنهم ﴾ فلا احتمال لعودته إلا على الكفار . و: ﴿ آذناك ﴾ قال ابن عباس وغيره معناه : أعلمناك ﴿ ما منا من شهيد ﴾ ولا من يشهد بأن لك شريكاً . ﴿ وضل عنهم ﴾ أي نسوا ما كانوا يقولون في الدنيا ويدعون من الآلهة والأصنام ، ويحتمل أن يريد : ﴿ وضل عنهم ﴾ الأصنام ، أي تلفت لهم فلم يجدوا منها نصراً وتلاشى لهم أمرها .

(18/683)

وقوله : ﴿ وظنوا ﴾ يحتمل أن يكون متصلاً بما قبله ويكون الوقف عليه ، ويكون قوله : ﴿ ما لهم من محيص ﴾ استئناف نفي أن يكون لهم منجى أو موضع روغان ، يقول : حاص الرجل : إذا راغ يطلب النجاة من شيء ، ومنه الحديث : فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، ويكون الظن على هذا التأويل على بابه ، أي ظنوا أن هذه المقالة : ﴿ ما منا من شهيد ﴾ منجاة لهم ، أو أمر يموهون به ، ويحتمل أن يكون الوقف في قوله : ﴿ من قبل ﴾ ، ويكون : ﴿ وظنوا ﴾ منصلاً بقوله : ﴿ ما لهم من محيص ﴾ أي ظنوا ذلك ، ويكون الظن على هذا التأويل بمعنى اليقين وبه فسر السدي ، وهذه عبارة يطلقها أهل اللسان على الظن ، ولست تجد ذلك إلا فيما علم علماً قوياً وتقرر في النفس ولم يتلبس

به بعد ، وإلا فمتى تلبس بالشيء وحصل تحت إدراك الحواس فلست تجدهم يوقعون عليه لفظة الظن .

وقوله تعالى : ﴿ لا يسئم الإنسان ﴾ آيات نزلت في كفار قريش ، قيل في الوليد بن المغيرة ، وقيل في عتبة بن ربيعة ، وجل الآية يعطي أنها نزلت في كفار وإن كان أولها يتضمن خلقاً ربما شارك فيه بعض المؤمنين . و: ﴿ دعاء الخير ﴾ إضافته المصدر إلى المفعول ، والفاعل محذوف تقديره : من دعاء الخير هو . وفي مصحف ابن مسعود : " من دعاء بالخير " . و﴿ الخير ﴾ في هذه الآية : المال والصحة ، وبذلك تليق الآية بالكافر ، وإن قدرناه خير الآخرة فهي للمؤمن ، وأما اليأس والقنط على الإطلاق فمن صفة الكافر وحده .

(19/683)

وقوله تعالى : ﴿ ليقولن هذا لي ﴾ أي بعلمي وبما سعيت ، ولا يرى أن النعم إنما هي بتفضل من الله تعالى : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ قول بيّن فيه الجحد والكفر . ثم يقول هذا الكافر ، ولئن كان ثم رجوع كما تقولون ، لتكونن لي حال ترضيني من غنى ومال وبنين ، فتوعدهم الله تعالى بأنه سيعرفهم بأعمالهم الخبيثة مع إذاقتهم العذاب عليها ، فهذا

عذاب وخزي . وغلظ العذاب شدته وصعوبته . وقال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : للكافر أمنيتان ، أما في دنياه فهذه : ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ . وأما في آخرته : ﴿ فيا ليتني كنت تراباً ﴾ [النبأ : 40] .

قال القاضي أبو محمد : والأماني على الله تعالى وترك الجد في الطاعة مذموم لكل أحد ، فقد قال عليه السلام : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(20/683)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة ﴾

أي حين وقتها .

وذلك أنهم قالوا : يا محمد إن كنت نبيّاً فخبِّرنا متى قيام الساعة فنزلت : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ ﴾ "مِنْ" زائدة أي وما تخرج ثمرة .

﴿ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أي من أوعيتها ، فالأكمام أوعية الثمرة ، واحدها كُمّة وهي كل ظرف لمال أو غيره ؛ ولذلك سمي قشر الطَّلْع أعني كُفُرّاه الذي ينشق عن الثمرة كُمّة ؛ قال ابن

عباس : الكُمّة الكُفُرّى قبل أن تنشق ، فإذا انشقت فليست بكمة .

وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة "الرحمن" .

وقرأ نافع وابن عامر وحفص "مِنْ ثَمَرَاتٍ" على الجمع .

الباقون "ثَمَرَة" على التوحيد والمراد الجمع ، لقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى ﴾ والمراد الجمع ، يقول : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة ﴾ كما يرد إليه علم الثمار والنتاج .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي ينادي الله المشركين ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِي ﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنها آلهة تشفع .

﴿ قالوا ﴾ يعني الأصنام .

وقيل : المشركون .

ويحتمل أن يريدهم جميعاً العابد والمعبود ﴿ آذَّنَّاكَ ﴾ أسمعناك وأعلمناك .

يقال : آذن يؤذن : إذا أعلم ، قال :

آذَنَّتْنَا بِبَيْنِها أَسْماءُ . . .

رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاء

﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أي نعلمك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً .

لما عاينوا القيامة تبرؤوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم كما تقدّم في غير موضع .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي بطل عنهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ وَظَنُّواْ ﴾

أي أيقنوا وعلموا ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي فرار عن النار .

و"مَا" هنا حرف وليس باسم ؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى ؛ تقديره : وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب .

يقال : حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب .

وقيل : إن الظن هنا الذي هو أغلب الرأي ، لا يشكون في أنهم أصحاب النار ولكن يطمعون أن يخرجوا منها .

(21/683)

وليس يبعد أن يكون لهم ظن ورجاء إلى أن يؤيسوا .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَآءِ الخير ﴾ أي لا يَمَلّ من دعائه بالخير .

والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز .

قال السدي : والإنسان ها هنا يراد به الكافر .

وقيل : الوليد بن المغيرة .

وقيل : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف .

وفي قراءة عبد الله "لاَ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْمَال" .

﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشر ﴾ الفقر والمرض ﴿ فَيَئُوسٌ ﴾ من روح الله ﴿ قَنُوطٌ ﴾ من رحمته .

وقيل : "يَئُوسٌ" من إجابة الدعاء "قَنُوطٌ" بسوء الظن بربه .

وقيل : "يَئُوسٌ" أي يئس من زوال ما به من المكروه "قَنُوطٌ" أي يظن أنه يدوم ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ عافية ورخاء وغِنًى ﴿ مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ ضر وسقم وشدة وفقر .

﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِي ﴾ أي هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي ؛ فيرى النعمة حتماً واجباً على الله تعالى ، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة ؛ ليتبين شكره وصبره .

وقال ابن عباس : "هَذَا لِي" أي هذا من عندي .

﴿ وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى ﴾ أي الجنة ، واللام للتأكيد .

يتمنى الأماني بلا عمل .

قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب : للكافر أمنيتان أما في الدنيا فيقول : "لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى" ، وأما في الآخرة فيقول : ﴿ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنعام : 27] و ﴿ ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ [النبأ :

40] .

﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي لنجزينهم .

قسم أقسم الله عليه .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(22/683)

وقال الآلوسى :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة ﴾

أي إذا سئل عنها قيل الله تعالى يعلم أو لا يعلمها إلا الله عز وجل فالمقصود من هذا الكلام إرشاد المؤمنين في التقصي عن هذا السؤال وكلا الجوابين يلزمه اختصاص علمها به تعالى .

أما الثاني فظاهر ، وأما الأول فلأنك إذا سئلت عن مسألة وقلت .

فلان يعلمه كان فيه نفي عنك كناية وتنبيه على أن فلاناً أهل أن يسئل عنه دونك ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرات مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أي من أوعيتها جمع كم بالكسر وهو وعاء الثمرة كجف الطلعة من كمه إذا ستره وقد يضم وكم القميص بالضم وقرأ الحسن في رواية والأعمش .

وطلحة .

وغير واحد من السبعة ﴿ مِن ثَمَرَةٍ ﴾ على إرادة الجنس والجمع لاختلاف الأنواع .

(23/683)

وقرىء ﴿ مِن ثمرات ﴾ من أكمامهن ، بجميع الضمير أيضاً وما نافية ومن الأولى مزيدة لتأكيد الاستغراق والنص عليه ومن الثانية ابتدائية وكذا ﴿ مَا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ ﴾ أي حملها ، وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ في موضع الحال والباء للملابسة أو المصاحبة والاستثناء من أعم الأحوال أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابساً أو مصاحباً بشيء من الأشياء إلا مصاحباً أو ملابساً بعلمه المحيط سبحانه واقعاً حسب تعلقه به ، وجوز في الأولى أن تكون موصولة معطوفة على الساعة أي إليه يرد علم الساعة وعلم ما يخرج ومن الأولى بيانية والجار والمجرور في موضع الحال ومن الثانية على حاله ، وتأنيث ﴿ تُخْرِجُ ﴾ باعتبار المعنى لأن ما بمعنى ثمرة قيل : ولا يجوز في ما الثانية ذلك لمكان الاستثناء المفرغ وأجاز بعضهم ، ويكفي لصحة التفريغ النفي في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَضَعُ ﴾ وجملة لا تضع إما حال أو معطوفة على جملة ﴿ إِلَيْهِ ﴾ الخ ، ولا يخفى عليك أن المتبادر في الموضعين النفي ثم إن الاستثناء متعلق

بالكل وتبيين القدر المشترك بين الأفعال الثلاثة وجعله الأصل في تعلق المفرغ كما سمعت لإظهار المعنى والايماء إلى أنه لا يحتاج في مثله إلى حذف من الأولين أعني ما تخرج وما تحمل وهو قريب من أسلوب :

وقد حيل بين العير والنزوان . . .

(24/683)

لأن خرج زيد معناه حدث خروجه كما أن معنى ذلك فعل الحيلولة وليس ذاك من باب الاستثناء المتعقب لجمل والخلاف في متعلقه في شيء لأن ذلك في غير المفرغ فقد ذكر النحويون في باب التنازع وإن كان منفياً بالا فالحذف ليس إلا ولو كان منه لم يكن من المختلف فيه لاتحاد الجمل في المقصود وظهور قرينة الرجوع إلى الكل ، والكلام على ما في شرح التأويلات متصل بأمر الساعة والبعث فإنه لا يعلم هذا كله إلا الله تعالى فذكر هذه الأمور لمناسبتها لعلم الساعة وإن الكل إيجاد بعد العدم بقدرته عز وجل فيكون كالبرهان على الحشر ، وجوز أن يكون متصلاً بقوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءاياته الليل والنهار ﴾ [فصلت : 37] الخ وبقوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾ [فصلت : 39] الخ ؛ فالمعنى من آيات ألوهيته تعالى وقدرته أن

تخرج الثمرات وتحمل الحوامل وتضع حسب علمه جل وعلا ، والأول أقرب .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ أي بزعمكم كما نص عليه بقوله سبحانه : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : 62] وفيه تهكم بهم وتفريع لهم ، و ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد ترك إيذاناً بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ﴾ [المائدة : 109] وضمير ﴿ يُنَادِيهِمْ ﴾ عام في كل من عبد غير الله تعالى فيندرج فيه عبدة الأوثان .

(25/683)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي أولئك المنادون ﴿ ءاذَنَّاكَ ﴾ أي أعلمناك والمراد بالإعلام هنا الإخبار لأنه تعالى عالم فلا يصح إعلامه بما هو سبحانه عالم به بخلاف الأخبار فإنه يكون للعالم فكأنه قيل أخبرناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أي بأنه ليس منا أحد يشهد لهم بالشركة فالجملة في محل نصب مفعول ﴿ آنذاك ﴾ وقد علق عنها وفي تعليق باب أعمل وأنبأ خلاف والصحيح أنه مسموع في الفصيح ، و ﴿ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فعيل من الشهادة ونفي الشهادة كناية عن التبرؤ منهم لأن الكفرة يوم القيامة أنكروا عبادة غيره تعالى مرة وأقروا بها وتبرؤا عنها مرة أخرى وفسره السمرقندي بالانكار لعبادتهم غير الله تعالى وشركهم كذباً

منهم وافتراء كقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] وظاهر ﴿ ءاذَنَّاكَ ﴾ يقتضي سبق الإيذان في جواب أين شركائي وإنما سئلوا ثانياً حتى أجابوا بأنه قد سبق الجواب لأنه توبيخ وفي إعادة التوبيخ من تأكيد أمر الجناية وتقبيح حال من يرتكبها ما لا يخفى ، واستظهر أبو حيان أن المراد إحداث إيذان لا إخبار عن إيذان سابق على نحو طلقت وأمثاله ، وجوز أن يقال : إنه إخبار باعلام سابق وذلك الإعلام السابق ما علمه تعالى من بواطنهم يوم القيامة أنهم لم يبقوا على الشرك وعلى تلك الشهادة وكأنه إعلام منهم بلسان الحال وهذا لا يقتضي سبق سؤال ولا جواب وفيه حسن أدب كأنهم يقولون أنت أعلم به ثم يأخذون في الجواب .

(26/683)

قال في "الكشف" : وهذا الوجه هو المختار لاشتماله على النكتة المذكورة وما في الآخرين من سوء الأدب ؛ ويحتمل أن يكون المعنى آذناك بأنه ليس منا أحد يشاهدهم فشهيد من الشهود بمعنى الحضور والمشاهدة ونفي مشاهدتهم الظاهر أنه على الحقيقة وذلك في موقف وجعل بعض العبدة مقرين بمعبوداتهم في آخر فلا تنافي بينهما ، وقيل : هو كناية عن نفي أن يكون له تعالى شريك نحو قولك : لا نرى لك مثلاً تريد لا مثل لك لنراه ، والكلام في

﴿ ءاذَّنَّاكَ ﴾ على ما آذناك ، وقيل : ضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ للشركاء أي قال الشركاء : ليس من أحد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين فشهيد من الشهادة لا غير ، والمراد التبرؤ منهم وفيه تفكيك الضمائر .

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)

(27/683)

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ على ما قيل : إن شركاءهم الذين كانوا يدعونهم من قبل ويرجون نفعهم غابوا عنهم على أن الضلال على معناه الحقيقي وهو الذي يقابل الوجدان أو أن شركاءهم لم ينفعوهم بشيء على أن الضلال مجاز عن عدم النفع و﴿ مَا ﴾ اسم موصول عبارة عن الشركاء ، ويحسن جمع من يعقل ومن لا يعقل في التعبير بما في مثل هذا المقام ، وجوز أن تكون ما عبارة عن القول الذي كانوا يقولونه في شأن الشركاء من أنهم آلهة وشركاء لله سبحانه وتعالى ، والمعنى نسوا ما كانوا يقولونه في شأن شركائهم من نسبة الألوهية إليهم ، ولك أن تجعلها مصدرية والجملة يحتمل أن تكون حالاً وإن تكون اعتراضاً ، وذكر بعض الأجلة أنه يتعين الأخير على القول بأن ضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ [فصلت : 47] للشركاء وكون الضلال مجازاً عن عدم النفع فتدبر ﴿ وَظَنُّواْ ﴾ أي

أيقنوا كما قال السدي وغيره لأنه لا احتمال لغيره هنا والظن يكون بمعنى العلم كثيراً ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي مهرب ، والظاهر أن الجملة في محل نصب سادة مسد مفعولي ظن وهي معلقة عنها بحرف النفي ، وقيل : تم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّواْ ﴾ والظن على ظاهره أي وترجح عندهم أن قولهم : ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ [فصلت : 47] منجاة لهم أو أمر يموهون به ، والجملة بعد مستأنفة أي لا يكون لهم منجي أو موضع روغان .

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49)

﴿ لاَّ يَسْئَمُ الانسان ﴾ لا يمل ولا يفتر ﴿ مِن دُعَاء الخير ﴾ من طلب السعة في النعمة وأسباب المعيشة ، ﴿ ودعاء ﴾ مصدر مضاف للمفعول وفاعله محذوف أي من دعاء الخير هو .

(28/683)

وقرأ عبد الله ﴿ مِن دُعَاء بالخير ﴾ بباء داخلة على الخير ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشر ﴾ الضيقة والعسر ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أي فهو يؤس قنوط من فضل الله تعالى ورحمته ، وهذا صفة الكافر ، والآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقيل : في عتبة بن ربيعة وقد بولغ في يأسه من جهة

الصيغة لأن فعولاً من صيغ المبالغة ومن جهة التكرار المعنوي فإن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ولما كان أثره الدال عليه لا يفارقه كان في ذكره ذكره ثانياً بطريق أبلغ ، وقدم اليأس لأنه صفة القلب وهو أن يقطع رجاءه من الخير وهي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من التضاؤل والانكسار .

﴿ وَلَئِنْ أذقناه رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ ﴾

أي لئن فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق أو غير ذلك ﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِى ﴾ أي حقي استحقه لما لي من الفضل والعمل لا تفضل من الله عز وجل فاللام للاستحقاق أو هو لي دائماً لا يزوال فاللام للملك وهو يشعر بالدوام ولعل الأول أقرب .

﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ أي تقوم فيما سيأتي ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبِّى ﴾ على تقدير قيامها ﴿ إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة ، والتأكيد بالقسم هنا ليس لقيام الساعة بل لكونه مجزياً بالحسنى لجزمه باستحقاقه للكرامة لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وإن نعم الآخرة كذلك فلا تنافي بين أن التي الأصل فيها أن تستعمل لغير المتيقن وبين التأكيد بالقسم وإن واللام وتقديم الظرفين وصيغة التفضيل ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم ولنبصرنهم بعكس ما اعتقدوا فيها فيظهر لهم أنهم مستحقون للإهانة لا الكرامة كما توهموا ﴿

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ لا يمكنهم التفصي عنه لشدته فهو كوثاق غليظ لا يمكن قطعه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(29/683)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾

كانوا إذا أُنذروا بالبعث وساعته استهزأوا فسألوا عن وقتها ، وكان ذلك مما يتكرّر منهم ، قال تعالى : ﴿ يسألونك عن السّاعة أيّان مُرساها لِلْعَبيدِ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرات مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا ﴾ [الأعراف : 187] فلمّا جرى ذكر دليل إحياء الموتى وذكر إلحاد المشركين في دلالته بسؤالهم عنها استهزاء انتقل الكلام إلى حكاية سؤالهم تمهيداً للجواب عن ظاهره وتقديم المجرور على متعلّقه لإفادة الحصر ، أي إلى الله يفوض علم السّاعة لا إليّ ، فهو قصر قلب .

وردّ عليهم بطريق الأسلوب الحكيم ، أي الأجدر أن تعلموا أنْ لا يعلم أحد متى السّاعة وأن تؤمنوا بها وتستعدّوا لها .

ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم وسأله رجل من المسلمين : متى الساعة ؟ فقال له :

﴿ ماذا أعددت لها ﴾ أي استعدادك لها أولى بالاعتناء من أن تسأل عن وقتها .

والرّد : الإرجاع وهو مستعمل لتفويض علم ذلك إلى الله والتبرؤ من أن يكون للمسؤول علم به ، فكأنّه جيء بالسؤال إلى النّبيء صلى الله عليه وسلم فردّه إلى الله .

وفي حديث موسى مع الخضر في "الصحيح" "فعاتب الله موسى أن لم يَرُدّ العِلم إليه" وقال تعالى : ﴿ ولو رَدّوه إلى الرّسول ﴾ [النساء : 83] الآية .

وعطف جملة ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها ﴾ وما بعدها توجيه لصرف العلم بوقت السّاعة إلى الله بذكر نظائرِ لا يعلمها النّاس ، وليس علم السّاعة بأقرب منها فإنّها أمور مشاهدة ولا يعلم تفصيل حالها إلاّ الله ، أي فليس في عدم العلم بوقت السّاعة حجةٌ على تكذيب من أنذَر بها ، لأنّهم قالوا : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يس : 48] ، أي إن لم تبيّن لنا وقته فلست بصادق .

فهذا وجه ذكر تلك النظائر ، وهي ثلاثة أشياء :

(30/683)

أوّلها : علم ما تُخرجه أكمام النخيل من الثَمَر بقدره وجودِته وثباته أو سقوطه ، وضمير ﴿ أكمامها ﴾ راجع إلى الثمرات .

والأكمام : جمع كِمّ بكسر الكاف وتشديد الميم وهو وعاء الثّمر وهو الجُفّ الذي يخرج من النّخلة محتوياً على طلْع الثّمر .

ثانيها : حمل الأنثى من النّاس والحيوان ، ولا يعلم التي تلقح من التي لا تلقح إلاّ الله .

ثالثها : وقت وضع الأجنّة فإن الإناث تكون حوامل مثقلة ولا يعلم وقت وضعها باليوم والسّاعة إلا الله .

وعُدل عن إعادة حرف ﴿ ما ﴾ مرة أخرى للتفادي من ذكر حرف واحد ثلاث مرّات لأنّ تساوي هذه المنفيات الثلاثة في علم الله تعالى وفي كون أزمان حصولها سواءً بالنسبة للحال وللاستقبال يسدّ علينا باب ادعاء الجمهور الفرق بين ﴿ ما ﴾ و (لا) في تخليص المضارع لزمان الحال مع حرف ﴿ ما ﴾ وتخليصه للاستقبال مع حرف (لا) .

ويؤيّد ردّ ابن مالك عليهم فإن الحق في جانب قول ابن مالك .

وحرف ﴿ من ﴾ بعد مدخولي ﴿ ما ﴾ في الموضعين لإفادة عموم النفي ويسمّى حرفاً زائداً .

والباء في ﴿ بعلمه ﴾ للملابسة .

وتقدم نظيره في سورة فاطر .

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ ثمرات ﴾ بالجمع .

وقرأه الباقون ﴿ ثمرةٍ ﴾ واحدةِ الثمرات .

﴿ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن ﴾ ﴿ شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ .

عطف على الجملة قبلها فإنّه لما تضمن قوله : ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ إبطال شبهتهم بأن عدم بيان وقتها يدلّ على انتفاء حصولها ، وأتبع ذلك بنظائر لوقت السّاعة مما هو جار في الدّنيا دَوْماً عاد الكلام إلى شأن السّاعة على وجه الإنذار مقتضياً إثبات وقوع السّاعة بذكر بعض ما يلْقونه في يومها .

و ﴿ يوم ﴾ متعلّق بمحذوف شائعٍ حذفه في القرآن ، تقديره : واذكر يوم يناديهم .

(31/683)

والضّمير في (ينادي) عائد إلى ﴿ ربّك في قوله وما ربّك بظلام للعبيد ﴾ [فصلت : 46] ، والنداء كناية عن الخطاب العلني كقوله : ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم ﴾ [الحديد : 14] .

وقد تقدم الكلام على النداء عند قوله تعالى : ﴿ ربّنا إننا سمِعنا منادياً ينادي للإيمان ﴾ في آل عمران (193) ، وقوله : ﴿ ونُودوا أن تلكُم الجنّة أورثتموها ﴾ في سورة الأعراف (43) .

وجملة ﴿ أين شركائي ﴾ يصح أن يكون مقول قول محذوف كما صرّح به في آية أخرى ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ [القصص : 74] ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ [القصص : 65] .

وحذف القول ليس بعزيز .

ويصحّ أن تكون مبيّنة لما تضمنه ﴿ يناديهم ﴾ من معنى الكلام المعْلن به .

وجاءت جملة ﴿ قالوا آذناك ﴾ غير معطوفة لأنّها جارية على طريقة حكاية المحاورات كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة ﴾ إلى قوله : ﴿ ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : 30] .

و ﴿ آذناك ﴾ أخبرناك وأعلمناك .

وأصل هذا الفعل مشتق من الاسم الجامد وهو الأذن بضم الهمزة وسكون الذال وقال تعالى : ﴿ فقل آذنتكم على سواء ﴾ [الأنبياء : 109] ، وقال الحارث بن حلزة :

أَذَنَّتْنَا بِبَيْنِها أسماء

وصيغة الماضي في ﴿ آذناك ﴾ إنشاء فهو بمعنى الحال مثل : بعْتُ وطلقت ، أي نأذنك ونُقر بأنّه ما منّا من شهيد .

والشهيد يجوز أن يكون بمعنى المشاهد ، أي المبصر ، أي ما أحد منا يَرى الذين كنّا ندعوهم شركاءك الآن ، أي لا نرى واحداً من الأصنام التي كنّا نعبدها فتكون جملة ﴿

وضلّ عنهم ما كانوا يدعون ﴾ في موضع الحال ، والواو واو الحال .

ويجوز أن يكون الشهيد بمعنى الشاهد ، أي ما منّا أحد يشهد أنّهم شركاؤك ، فيكون ذلك اعترافاً بكذبهم فيما مضى ، وتكون جملة ﴿ وضل عنهم ﴾ معطوفة على جملة ﴿ قالوا آذناك ﴾ ، أي قالوا ذلك ولم يجدوا واحداً من أصنامهم .

وفعل ﴿ آذناك ﴾ معلّق عن العمل لورود النفي بعده .

(32/683)

و ﴿ ضلّ ﴾ : حقيقته غاب عنهم ، أي لم يجدوا ما كانوا يدعونهم من قبل في الدّنيا ، قال تعالى : ﴿ بل ضلُّوا عنهم ﴾ [الأحقاف : 28] .

فالمراد به هنا : غيبة أصنامهم عنهم وعدم وجودها في تلك الحضرة بقطع النّظر عن كونها ملقاة في جهنّم أو بقيت في العالم الدنيوي حين فنائه .

وإذ لم يجدوا ما كانوا يزعمونه فقد علموا أنّهم لا محيص لهم ، أي لا ملجأ لهم من العذاب الذي شاهدوا إعداده ، فالظّنّ هنا بمعنى اليقين .

والمحيصُ مصدر ميمي أو اسم مكان من : حاص يَحيصُ ، إذا هرب ، أي ما لهم مفر من النّار .

﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49) ﴾

اعتراض بين أجزاء الوعيد .

والمعنى : وعلموا ما لهم من محيص .

وقد كانوا إذا أصابتهم نعماء كذّبوا بقيام السّاعة فجملة ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ إلى قوله : ﴿ قنوط ﴾ تمهيد لجملة ﴿ ولئن أذقناه رحمةً منا ﴾ الخ . . .

وموقع هذه الآيات عقب قوله ﴿ ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ﴾ [فصلت : 47] الخ يقتضي مناسبة في النّظم داعية إلى هذا الاعتراض فتلك قاضية بأنّ الإنسان المخبر عنه بأنّه لا يسأمُ من دعاء الخير وما عطف عليه هو من صنف النّاس الذين جرى ذِكر قصصهم قبل هذه الآية وهم المشركون ، فإمّا أن يكون المراد فريقاً من نوع الإنسان ، فيكون تعريف ﴿ الإنسان ﴾ تعريف الجنس العام لكن عمومه عرفي بالقرينة وهو الممَثل له في علم المعاني بقولكَ : جمع الأمير الصاغة .

وإمّا أن يكون المراد إنساناً معيناً من هذا الصنف فيكون التعريف تعريف العهد .

كما أن الإخبار عن الإنسان بأنّه يقول : ما أظنّ الساعة قائمة ، صريح أن المخبر عنه من المشركين معيناً كان أو عاماً عموماً عرفياً .

فقيل المراد بالإنسان : المشركون كلّهم ، وقيل أريد به مشرك معين ، قيل هو الوليد بن المغيرة

، وقيل عتبة بن ربيعة .

وأيًّا مَا كان فالإخبار عن إنسان كافر .

(33/683)

ومحمل الكلام البليغ يرشد إلى أنَّ إناطة هذه الأخبار بصنف من المشركين أو بمشرك معين بعنوان إنسان يومىء بأنّ للجبلة الإنسانية أثراً قوياً في الخُلُق الذي منه هذه العقيدة إلا من عصمه الله بوازع الإيمان .

فأصل هذا الخُلق أمر مرتكز في نفس الإنسان ، وهو التوجه إلى طلب الملائم والنافع ونسيان ما عسى أن يحل به من المؤلم والضار ، فبذلك يأنس بالخير إذا حصل له فيزداد من السعي لتحصيله ويحسبه كالملازم الذاتي فلا يتدبر في مُعطيه حتى يشكره ويسأله المزيد تخضعاً ، وينسى ما عسى أن يطرأ عليه من الضرّ فلا يستعد لدفعه عن نفسه بسؤال الفاعل المختار أن يدفعه عنه ويعيذه منه .

فأما أنّ الإنسان لا يسأم من دعاء الخير فمعناه : أنّه لا يكتفي ، فأطلق على الاكتفاء والاقتناع السآمة ، وهي الملَل على وجه الاستعارة بتشبيه استرسال الإنسان في طلب الخير على الدوام بالعمل الدائم الذي شأنه أن يسأم منه عامله فنفيُ السآمة عنه رمزٌ

للاستعارة .

وفي الحديث : " لوْ أن لابن آدم واديين من ذهب لأحبّ لهما ثالثاً ، ولو أن له ثلاثة لأحبّ لهما رابعاً ، ولا يملأ عين ابن آدم إلاّ التراب " وقال تعالى : ﴿ وإنّهِ لحُبّ الخير لشديد ﴾ [العاديات : 8] .

والدعاء : أصله الطلب بالقول ، وهو هنا مجاز في الطلب مطلقاً فتكون إضافته إلى الخير من إضافة المصدر إلى ما في معنى المفعول ، أي الدعاء بالخير أو طلب الخير .

ويجوز أن يكون الدعاء استعارة مكنية ، شبه الخير بعاقل يسأله الإنسان أن يُقبِل عليه ، فإضافة الدعاء من إضافة المصدر إلى مفعوله .

(34/683)

وأما أن الإنسان يؤوس قنوط إن مسه الشر فذلك من خُلق قلة صبر الإنسان على ما يتعبه ويَشق عليه فيضجر إن لحقه شرّ ولا يوازي بين ما كان فيه من خير فيقول : لئن مسني الشرّ زمناً لقد حلّ بي الخير أزماناً ، فمن الحق أن أتحمل ما أصابني كما نعمت بما كان لي من خير ، ثم لا ينتظر إلى حين انفراج الشرّ عنه وينسى الإقبال على سؤال الله أن يكشف عنه الضر بل ييأس ويقنط غضباً وكبراً ولا ينتظر معاودة الخير ظاهراً عليه أثرُ اليأس بانكسار

وحزن .

واليأس فعل قلبي هو : اعتقاد عدم حصوله الميؤوس منه .

والقُنوط : انفعال يدني من أثَر اليأس وهو انكسار وتضاؤل .

ولم يذكر هنا أنّه ذو دعاء لله كما ذكر في قوله الآتي : ﴿ وإذا مسه الشرُّ فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت : 51] .

لأنّ المقصود أهل الشرك وهم إنّما ينصرفون إلى أصنامهم .

وقد جاءت تربية الشريعة للأمّة على ذم القنوط ، قال تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿ قال ومن يَقنَط من رحمة ربّه إلاّ الضَّالون ﴾ [الحجر : 56] ، وفي الحديث " انتظار الفرج بعد الشدّة عبادة " .

فالآية وصفت خُلقين ذميمين : أحدهما خلق البطر بالنعمة والغفلة عن شكر الله عليها .

وثانيهما اليأس من رجوع النعمة عند فقدها .

وفي نظم الآية لطائف من البلاغة:

الأولى : التعبير عن دوام طلب النّعمة بعَدم السآمة كما علمْتَه .

الثانية : التعبير عن محبّة الخير بدُعاء الخير .

الثالثة : التعبير عن إضافة الضر بالمسّ الذي هو أضعف إحساس الإصابة قال تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهم السوء ﴾ [الزمر : 61] .

الرّابعة : اقتران شرط مسّ الشر بـ ﴿ إنْ ﴾ التي من شأنها أن تدخل على النادر وقوعُه فإن إصابة الشر الإنسانَ نادرة بالنسبة لما هو مغمور به من النعم .

الخامسة : صيغة المبالغة في ﴿ يَؤُوس ﴾ .

(35/683)

السّادسة : إتْباع ﴿ يؤوس ﴾ بـ ﴿ قنوط ﴾ الذي هو تجاوز إحساس اليأس إلى ظاهر البدن بالانكسار ، وهو من شدّة يَأسه ، فحصلت مبالغتان في التّعبير عن يأسه بأنّه اعتقاد في ضميره وانفعال في سحناته .

فالمشرك يتأصّل فيه هذا الخُلق ويتزايد باستمرار الزّمان .

والمؤمن لا تزال تربية الإيمان تكفه عن هذا الخلق حتى يزول منه أو يكاد .

ثم بينت الآية خلقاً آخر في الإنسان وهو أنّه إذا زال عنه كربه وعادت إليه النّعمة نسي ما كان فيه من الشّدة ولم يتفكر في لطف الله به فبطر النّعمةَ ، وقال : قد استرجعت خيراتي بحيلتي وتدبيري ، وهذا الخير حق لي حصلت عليه ، ثمّ إذا كان من أهل الشرك وهم المتحدث عنهم تراه إذا سمع إنذار النبي صلى الله عليه وسلم بقيام الساعة أو هجس في نفسه هاجس عاقبة هذه الحياة قال لمن يدعوه إلى العمل ليوم الحساب أو قال في نفسه ﴿

ما أظنّ السّاعة قائمة ﴾ ولئن فرَضت قِيام السّاعة على احتمال ضعيف فإنّي سأجد عند الله المعاملة بالحسنى لأنّي من أهل الثراء والرفاهية في الدّنيا فكذلك سأكون يوم القيامة .

وهذا من سوء اعتقادهم أن يحسبوا أحوال الدّنيا مقارنة لهم في الآخرة ، كما حكى الله تعالى عن العاصي بن وائل حين اقتضاه خبَّاب بن الأرتِّ مالاً له عنده من أجر صناعةِ سيف فقال له : حتى تكفر بمحمد ؟ فقال خبَّاب : لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ويبعثك ، فقال : أوَإنّي لميّت فمبعوث ؟ قال : نعم .

فقال : لئن بعثني الله فسيكون لي مالي فأقضيك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أفرَأيت الذي كفَر بآياتنا وقال لأوتيَنَّ مالاً وولداً ﴾ الآيات من سورة مريم (77) .

ولَعَل قوله : ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ إنّما هو على سبيل الاستهزاء كما في مقالة العاصي بن وائل .

وذِكر إنكار البعث هنا إدماج بذكر أحوال الإنسان المشرك في عموم أحوال الإنسان .

(36/683)

وجيء في حكاية قوله ﴿ ولئن رجعت ﴾ بحرف (إنْ) الشرطية التي يَغلب وقوعها في الشرط المشكوك وقوعه لأنّه جعل رجوعه إلى الله أمراً مفروضاً ضعيف الاحتمال .

وأما دخول اللام الموطئة للقسم عليه فمورد التحقيق بالقسم هو حصول الجواب لو حصل الشرط .

وكذلك التأكيد بـ ﴿ إن ﴾ ولام الابتداء مورده هو جواب الشرط ، وكذلك تقديم ﴿ لي ﴾ و ﴿ عنده ﴾ على اسم ﴿ إنَّ ﴾ هو لتقوّي ترتب الجواب على الشرط .

والحسنى : صفة لموصوف محذوف ، أي الحالة الحسنى ، أو المعاملة الحسنى .

والأظهر أن الحسنى صارت اسماً للإحسان الكثير أخذاً من صيغة التفضيل .

واعلم أن الإنسان متفاوتة أفراده في هذا الخُلق المعزوّ إليه هنا على تفاوت أفراده في الغرور ، ولما كان أكثر النّاس يومئذٍ المشركين كان هذا الخلق فاشياً فيهم يقتضيه دين الشرك .

ولا نظر في الآية لمن كان يومئذٍ من المسلمين لأنهم النادر ، على أن المسلم قد يخامره بعض هذا الخلق وترتسم فيه شِيَات منه ولكن إيمانه يصرفه عنه انصرافاً بقدر قوة إيمانه ، ومعلوم أنّه لا يبلغ به إلى الحد الذي يقول ﴿ وما أظنّ الساعة قائمة ﴾ ، ولكنه قد تجري أعمال بعض المسلمين على صورة أعمال من لا يظنّ أن الساعة قائمة مثل أولئك الذّين يأتون السيئات ثم يقولون : إن الله غفور رحِيم ، والله غني عن عذابنا ، وإذا ذكر لهم يوم الجزاء قالوا : ما ثَمّ إلا الخير ونحو ذلك ، فجعل الله في هذه الآية مذمّة للمشركين وموعظة للمؤمنين

كَمَداً للأوّلين وانتشالاً للآخرين .

﴿ للحسنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ ﴾ .

تفريع على جملة ﴿ ويوم يناديهم أين شركائي ﴾ [فصلت : 47] وما اتصل بها أي فلنعلمنّهم بما عَمِلوا عَلناً يعلَمُون به أنّا لا يخفى علينا شيء مما عملوه وتقريعاً لهم .

(37/683)

وقول : ﴿ الذين كفروا ﴾ إظهار في مقام الإضمار ، ومقتضى الظّاهر أن يقال : ولننبئّنهم بما عملوا ، فعدل إلى الموصول وصلته لما تؤذن به الصلة من علة استحقاقهم الإذاقة بما عملوا وإذاقة العذاب .

وقوله : ﴿ ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ هو المقصود من التفريع .

والغليظ حقيقته : الصلب ، قال تعالى : ﴿ فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ [الفتح : 29] ، وهو هنا مستعار للقويّ في نوعه ، أي عذاب شديد الإيلام والتعذيب ، كما استعير للقساوة في المعاملة في قوله ﴿ واغلظ عليهم ﴾ [التوبة : 73] وقوله : ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ [التوبة : 123] .

والإذاقة : مجاز في مطلق الإصابة في الحسّ لإطماعهم أنّها إصابة خفيفة كإصابة الذوق

باللّسان .

وهذا تجريد للمجاز كما أن وصفه بالغليظ تجريد ثان فحصل من ذلك ابتداء مُطمِع وانتهاء مُؤيِس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(38/683)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الذوق)

ذاقَه ذَوْقًا وذَوَقًا ومَذَاقًا : اختبر طعمه .

وأصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر ؛ فإِن ما يكثر من ذلك يقال له الأَكل .

واختير فى القرآن لفظ الذَّوق للعذاب لأَنَّ ذلك وإِن كان فى التعارف للقليل فهو مستصلَح للكثير ، فخصَّه بالذِّكْرِ ليُعلم الأَمرين .

وكثر استعماله فى العذاب ، وقد جاءَ فى الرّحمة نحو : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ .

ويعبَّر به عن الاختبار ، يقال : أَذقته كذا فذاق ، ويقال : فلان ذاق كذا وأَنا أَكلته ، أَى خَبَرته أَكثر مِمّا خبره .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ فاستعمال الذَّوق مع اللِّباس من أَجْل / أَنه أُريد به التجربة والاختبار ، أَى جعلها بحيث تمارس الجوع ، وقيل : إِنَّ ذلك على تقدير كلامين كأَنَّه قيل أَذاقها الجوعَ والخوف وأَلبسها لباسهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ استُعمل فى الرَّحمة الإِذاقة وفى مقابلتها الإِصابة فى قوله ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ تنبيهاً على أَنَّ الإِنسان بأَدنى ما يعطَى من النعمة يبطَر ويأشَر .

وقال بعض مشايخنا : الذَّوق : مباشرة الحاسّة الظَّاهرة أَو الباطنة ، ولا يختصّ ذلك بحاسة الفم فى لغة القرآن ، بل ولا فى لغة العرب ، قال : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ ، وقال : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

فتأَمَّل كيف جمع الذَّوق واللِّباس حتىَّ يدلَّ على مباشرة الذوق وإِحاطته وشموله ، فأَفاد الإِخبارُ عن إِذاقته أَنَّه واقع مباشر غير منتظر ؛ فإِنَّ الخوف قد يُتوقَّع ولا يباشر ، وأَفاد الإِخبارُ عن لباسه أَنَّه محيطٌ شامل كاللِّباس للبدن .

(39/683)

وفى الصحيح عن النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : "ذاقَ طعم الإِمان مَن رَضِىَ باللهِ ربًّا وبالإِسلام دينًا وبمحمّد رسولاً" فأَخبر أَنَّ للإِيمان طعمًا ، وأَنَّ القلب يذوقه كما يذوق الفم طعمَ الطَّعام والشَّراب .

وقد عبّر النَّبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن إِدراك حقيقة الإِيمان والإِحسان وحصوله للقلب ومباشرته له بالذَّوق تارة ، وبالطعامِ والشراب تارةً ، وبوِجدان الحلاوة تارة ، كما قال : ذاق طعم الإِيمان .

. . "الحديث" ، وقال : "ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإِيمان" .

والذَّوق عند العارفين : منزل من منازل السّالكين أَثبتُ وأَرسخ من منزلة الوَجْد عندهم .

وسيأتى الكلام فيه فى فنِّ علم التصوّف إِن شاءَ الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 23.24 ﴾

(40/683)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين جهل الإنسان في حالات مخصوصة باليأس عند مس الشر ، والأمن عند ذوق النعمة بعد الضر ، بين حاله عند النعمة مطلقاً ودعاءه عند الشر وإن كان قانطاً تكريراً لتقلب أحواله وتناقص أقواله وأفعاله تصريفاً لذلك على وجوه شتى ليكون داعياً له إلى عدم الأنفة من الرجوع عن الكفر إلى الإيمان ، ومسقطاً عنه خوف الشبه بذلك والنسبة إلى الخفة وعدم الثبات ، فقال معبراً بأداة التحقيق دلالة على غلبة نعمه تعالى في الدنيا لنقمه ، ودلالة على حالة الإنسان عند مس النعمة من جهة يتوقعها بعد بيان حاله عند مسها بغتة من غير توقع تأكيداً لبيان جهله حيث جعل ظرف النعمة ظرفاً للإعراض من غير خوف من نزعها على قرب عهده بالضر : ﴿ وإذا أنعمنا ﴾ مما لنا من العظمة والإحسان ﴿ على الإنسان ﴾ أي الواقف مع نفسه نعمة تليق بعظمتنا فمسه الخير ولم يعبر في هذا الجانب بما عبر به في الذي بعده إيذاناً بأن المعرض مسيء لمجرد الإعراض لا المبالغة فيه فقال :

﴿ أعرض ﴾ أي انحرف عن سواء القصد إلينا عنا في جميع مدة النعمة – بما أفهمه الظرف ، فلم يقيد تلك النعمة بالشكر بعد ما رأى من حلالنا ، قاطعاً بأن تلك النعمة خير محض

ظاهراً وباطناً فهو يستديمها ، وربما كانت بلاء استدراجاً وامتحاناً ﴿ وناء ﴾ أي أبعد إبعاداً شديداً بحيث جعل بيننا وبينه حجاباً عظيماً حال كونه مال ﴿ بجانبه ﴾ أي بشقه كناية عن تكبره وبأوه وإعجابه بنفسه وزهوة وتصويراً له بمن كلمته فازور عنك والتوى ، وأبعد في ضلاله وغوى .

(41/683)

ولما تقدم حال الإنسان عند مس الشر بغتة ، بين حاله عند مسه وهو يتوقعه ، فقال معبراً في جانب الشر بأداة التحقيق على غير عادة القرآن في الأغلب ، ليدل على أنه لزيادة جهله على الحد يلزم الكبر وإن كان يتوقع الشر ولا يزال حاله حال الآمن إلى أن يخالطه وحينئذ تنحل عراه وتضمحل قوله : ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي هذا النوع قليله وكثيره لانتقامنا منه ، فالآية من الاحتباك : ذكر الإنعام أولاً دليلاً الانتقام ثانياً وذكر الشر ثانياً دليل الخير أولاً ، وسره تعليم الأدب بنسبة الإنعام دون الشر إليه وإن كان الكل منه .

ولما كان تعظيم العرض دالاً على عظمة الطول ، قال معبراً بما يدل على الملازمة والدوام : ﴿ فذو دعاء ﴾ أي في كشفه ، وربما كان نعمة باطنة وهو لا يشعر ولا يدعو إلا عند المس ، وقد كان ينبغي له أن يشرع في الدعاء عند التوقع بل قبله تعرفاً إلى الله تعالى في الرخاء

ليعرفه في الشدة وهو خلق شريف لا يعرفه إلا أفراد خصهم الله بلطفه ، فدل تركه على عدم شره لما مضى وخفة عقله لما يأتي ومفاجأته للزوم الدعاء عند المس على عدم صبره وتلاشي جلده وقله حيائه ﴿ عريض ﴾ أي مديد العرض جداً ، وأما طوله فلا تسأل عنه ، وهذا كناية عن النهاية في الكثرة .

(42/683)

ولما ذكر سبحانه من أحوالهم المندرجة في أحوال هذا النوع كله ما هو مكشوف بشاهد الوجود من أنه لا ثبات لهم لا سيما عند الشدائد إعلاماً بالعراقة في الجهل والعجز ، دل على الأمرين معا بما لا يمكن عاقلاً دفعه من أنهم لا يجوزون الممكن فيعدون له ما يمنعه على تقدير وقوعه ، فأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكر ذلك إيذاناً بالإعراض عنهم دليلاً على تناهي الغضب : ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن كان ﴾ أي هذا القرآن الذي نصبتم لمغالبته حتى بالإعراض عن السماع باللغو حال قراءته من الصفير والتصفيق وغير ذلك ، وليس ذلك منكم صادراً عن حجة قاطعة في أمره أتم معها على يقين بل هو عن خفة وعدم تأمل منكم أنه ﴿ من عند الله ﴾ الذي له الإحاطة بجميع صفات الجلال والجمال فهو لا يغالب .

ولما كان الكفر به على هذا التقدير في غاية البعد ، وكان مقصود السورة دائراً على العلم ، نبه على ذلك بأداة التراخي مع الدلالة على أن ذلك ما كان منهم إلا بعد تأمل طويل ، فكانوا معاندين حتى نزلوا بالصفير والتصفيق من أعلى رتب الكلام إلى أصوات الحيوانات العجم فقال : ﴿ ثم كفرتم به ﴾ أي بعد إمعان النظر فيه والتحقق لأنه حق ، فكنتم بذلك في شقاق هو في غاية البعد من الملائمة لمن لم يزل يستعطفكم بجميل أفعاله ، ويردكم بجليل أقواله وآمن به غيركم لأنه من عند الله ﴿ من أضل ﴾ منكم - هكذا كان الأصل ولكنه قال : ﴿ ممن هو في شقاق ﴾ أي لأولياء الله ﴿ بعيد ﴾ تنبيهاً على أنهم صاروا كذلك ، وأن من صار كذلك فقد عرض نفسه لسطوات الله وتعالى التي من واقعته هلك لا محالة ، ومن أهدى ممن هو في إسلام قريب وهو الذي آمن لأنه سالم الله الذي من سالمه سالمه كل شيء ، فنجا من كل خطر - فالآية من الاحتباك : ذكر الكفر أولاً دليلاً على الإيمان ثانياً ، والضلال ثانياً دليلاً على الهدى أولاً ، وسره أن ذكر المضار أصدع للقلب فهو أنفع في الوعظ .

(43/683)

ولما كان هذا محزناً للشفوق عليهم لإفهامه لشدة بعدهم عن الرجوع ، قال منبهاً على أنه إذا أراد سبحانه قرب ذلك منهم غاية القرب لافتاً القول إلى مظهر العظمة إيذاناً بسهولة ذلك عليه : ﴿ سنريهم ﴾ أي عن قرب بوعد لا خلف فيه ﴿ آياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة ﴿ في الآفاق ﴾ أي النواحي ، جمع أفق كعنق وأعناق ، أبدلت الهمزة الثانية ألفاً لسكونها بعد مثلها ، أي وما ظهر من نواحي الفلك أو مهب الرياح ، وذلك بما يفتح الله من البلاد بغلب أهلها بوقائع كل واحد منها علم من أعلام النبوة ، وشاهد عظيم كاف في صحة الرسالة ، تصديقاً لوعده سبحانه وما أهلك من أهلها لنصر أنبيائه ورسله وبما فيها من عجائب الصنع وغرائب الآثار والوضع باختلاف الأحكام مع اتفاق جواهرها في التجانس - وغير ذلك من الآيات بالبصر اللاتي يشرحها بآيات السمع .

(44/683)

ولما كان الإيمان بالغيب هو المعتبر ، وكل ما كان أقرب إليه كان أقرب إلى الكمال ، وكانت آيات الآفاق أقرب إلى ذلك ، بدأ بها ، ثم قال : ﴿ وفي أنفسهم ﴾ أي من فتح مكة وما أصابهم من سني الجوع وقصة أبي بصير ونحو ذلك وتفصل لهم مع ذلك ما في الآدمي نفسه من بدائع الآيات وعجائب الخلق وغرائب الصنعة وما فيه من أمارات الحدوث واختلاف

الأوصاف وغير ذلك من الشواهد المطابقة لما تضربه من الأمثال والدلائل المعقولة عند اعتبار الأقوال والأفعال ، وبما في بلاد العرب من الآيات المرئية من نفي بعد إسراعهم إليه وإطباقهم عليه وإثبات التوحيد عند جميعهم بعد إبعادهم عنه وقتالهم الداعي إليه ، وقد بين سبحانه في هذه من آيات الآفاق في آية ﴿ أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ وما شاكلها ، وفي الأنفس في آيات ﴿ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود والذي من بعدهم ﴾ ونحوها ، وآيات ﴿ لا يسئم الإنسان من دعاء الخير ﴾ إلى آخرها الدالة على أن الإنسان مبني أمره على الجهل والعجز ، فأكثر ما يتصوره ليس كما تصوره ، فعليه أن يتأمل كتاب ربه ويتدبره – والله أعلم ، قال الرازي في اللوامع : الاستدلال بالأفعال على فاعلها واضح وطريق لائح ، والأفعال على قسمين أحدهما الآفاق وهو جملة العالم ، والثاني النفوس ، فإن من عرف نفسه عرف ربه أي من عرف روحه وكونها جوهراً متصرفاً في البدن تصرف التدبير وعلم صفاتها من أنها باقية بغير البدن لا يحتاج في قوامها إلى البدن بل البدن محتاج إليها وأنها محل المعرفة فمن عرف أمثال هذه المعارف عرف ربه وصفاته من وحدانيته وعلمه وقدرته وإرادته وتصرفه في جملة العالم يعني وأن وجوده تعالى مباين وجود غيره .

(45/683)

ولما كان التقدير : ولا نزال نواتر ذلك شيئاً في أثر شيء ، عطف عليه قوله : ﴿ حتى يتبين لهم ﴾ غاية البيان بنفسه من غير إعمال فكر ﴿ أنه ﴾ أي القرآن ﴿ الحق ﴾ الكامل في الحقية الذي تطابقه الوقائع وتصادقه الأحوال العارضة والصنائع ، فيجتمعوا عليه ويُقبلوا بكل قلوبهم إليه ، فلا يأباه في جزيرة العرب إنسان ، ولا يختلف فيه منهم اثنان ، ثم ينبثون في أرجاء الأرض بطولها والعرض فيظهر بهم على سائر الأديان ، ويبيد على أيديهم أهل الكفران ، في سائر البلدان ، ويزول كل طغيان ، فيكون ظهورهم في هذا الوقت وضعف المؤمنين بعد أن كان سبباً لازديادهم من الكفر عظة لهم ولكل من يأتي بعدهم يوجب الثبات في محال الزلزال علماً بأن الله أجرى عادته أن يكون للباطل ريح تخفق ثم تسكن ، ودولة تظهر ثم تضمحل ، وصولة تجول ثم تحول .

(46/683)

ولما كان هذا القول منبهاً على أن في الآفاق والأنفس من الآيات المرئية التي يقرأها أولو الأبصار بالبصائر ، ويتأملها بأعين السرائر ، أمراً لا يحيط به الوصف ، فكان حادياً على تجريد الأفكار للنظر والاعتبار ، والوقوف على بعض ما في ذلك من لطائف الأسرار ، كان

كأنه قيل : ألم يروا بعقولهم ما في ذلك من الأدلة على أن القرآن من عند الله فيكفيهم عن شهادة شيء خارج عن أنفسهم ، عطف عليه قوله : ﴿ أو لم يكف ﴾ وأكد بإدخال الجار ، وحقق الفاعل فقال مؤكداً بالباء ومحققاً أنه الفاعل صارفاً القول إلى وصف الإحسان إيذاناً بالرفق بهم بردِّهم إليه دون ارتكابهم ما يوجب نكالهم وإهلاكهم واستئصالهم : ﴿ بربك ﴾ أي المحسن إليك بهذا البيان المعجز للإنس والجان شهادة بأنه من عنده ﴿ أنّه ﴾ أي أو لم يكف شهادة ربك لأنه ﴿ على كل شيء شهيد ﴾ لا يغيب عنه شيء من الأشياء ، لا هذا القرآن ولا غيره ، وقد شهد لك فيه بإعجازه لجميع الخلق بكل ما تضمنته آياته ، ونطقت به كلماته ، ففيه أعظم بشارة بتمام أمر الدين وظهوره على المعتدين ، وذلك لأن كل أحد يجد في نفسه أنه إذا أراد ثبوت حق ينكره من هو عليه لصاحب الحق من الشهود ما يتحقق قولهم فيه ووصوله بهم إليه أنه يكون مطمئناً لا ينزعج بالجحد علماً منه بأن حقه لا بد أن يظهر ويخزي معانده ويقهر ، وفي هذا تأديب لكل من كان على حق ولا يجد من يساعده على ظهوره فإن الله شاهده فلا بد أن يظهر أمره فتوكل على الله إنك على الحق المبين .

(47/683)

ولما لم يبق بعد هذا لمتعنت مقال ، ولا شبهة أصلاً لضال ، كان موضع المناداة على من استمر على عناده بقوله مؤكداً لادعائهم إنهم على جلية من أمرهم ، ﴿ ألا إنهم ﴾ أي الكفرة ﴿ في مرية ﴾ أي جحد وجدال وشك وضلال عن العبث ﴿ من لقاء ﴾ وصرف القول إلى إضافة وصف الإحسان إليهم إشارة إلى أنه لا بد من كمال تربيتهم بالبعث لأنه أحكم الحاكمين فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بأن خلقهم ورزقهم للحساب والجزاء بالثواب والعقاب كما هو شأن كل حكيم فيمن تحت أمره .

ولما كانوا مظهرين الشك في القدرة على البعث ، قرره إيمانهم معترفون به من قدرته على كل شيء من البعث وغيره فقال : ﴿ ألا إنه ﴾ أي هذا المحسن إليهم ﴿ بكل شيء ﴾ أي من الأشياء جملها وتفاصيلها كلياتها وجزئياتها أصولها وفروعها غيبتها وشهادتها ملكها وملكوتها ﴿ محيط ﴾ قدرة وعلماً من كثير الأشياء وقليلها كليها وجزئيها ، فعما قليل يجمعهم على الحق ويبدلهم بالمرية إذعاناً وبالشك يقيناً وبرهاناً ، فرحمته عامة لجميع أهل الوجود وخاصة لمن منَّ عليه الإيمان الموصل إلى راحة الأمان ، فكيف يتصور في عقل أن يترك البعث ليوم الفصل الذي هو مدار الحكمة ، ومحط إظهار النعمة والنقمة ، وقد علم بذلك انطباق آخرها المادح للكتاب المقرر للبعث والحساب على أولها المفصل للقرآن المفيض لقسمي الرحمة : العامة والخاصة لأهل الأكوان ، على ما اقتضاه العدل والإحسان

، بالبشارة لأهل الإيمان ، والنذارة لأهل الطغيان – والله الهادي وعليه التكلان . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 588.592 ﴾

(48/683)

فصل

قال الفخر :

ولما حكى الله تعالى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات حكى أفعاله أيضاً فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ ﴾ عن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم ، ثم إن مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع ، وقد استعير العرض لكثرة الدماء ودوامه وهو من صفات الأجرام ويستعار له الطول أيضاً كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبين أن المشركين يرجعون عن القول بالشرك في يوم القيامة ، ويظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم ، وبين أن الإنسان جبل على التبدل ، فإن وجد لنفسه قوة بالغ في التكبر والتعظم ، وإن أحسّ بالفتور والضعف بالغ في إظهار الذلة والمسكنة ذكر عقيبة كلاماً آخر يوجب على

هؤلاء الكفار أن لا يبالغوا في إظهار النفرة من قبول التوحيد ، وأن لا يفرطوا في إظهار العداوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ وتقرير هذا الكلام أنكم كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه وما تأملتم فيه وبالغتم في النفرة عنه حتى قلتم

(49/683)

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ [فصلت : 5] ثم من المعلوم بالضرورة أنه ليس العلم بكون القرآن باطلاً علماً بديهياً ، وليس العلم بفساد القول بالتوحيد والنبوة علماً بديهياً ، فقبل الدليل يحتمل أن يكون صحيحاً وأن يكون فاسداً بتقدير أن يكون صحيحاً كان إصراركم على دفعه من أعظم موجبات العقاب ، فهذا الطريق يوجب عليكم أن تتركوا هذه الثغرة ، وأن ترجعوا إلى النظرة والاستدلال فإن دل الدليل على صحته قبلتموه ، وإن دل على فساده تركتموه ، فأما قبل الدليل فالإصرار على الدفع والإعراض بعيد عن العقل ، وقوله ﴿ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ موضوع موضع منكم بياناً بحالهم وصفاتهم ، ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة في تقرير التوحيد والنبوة ، وأجاب عن شبهات المشركين وتمويهات الضالين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتنا فِي الآفاق وَفِي أَنفُسِهِمْ حتى

يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ قال الواحدي واحد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحي الأرض ، وكذلك آفاق السماء ونواحيها وأطرافها ، وفي تفسير قوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِي الآفاق وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ قولان الأول : أن المراد بآيات الآفاق الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار وآيات الأضواء والإضلال والظلمات وآيات عالم العناصر الأربعة وآيات المواليد الثلاثة ، وقد أكثر الله منها في القرآن ، وقوله ﴿ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الأجنة في ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] يعني نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزّه عن المثل والضد ، فإن قيل هذا الوجه ضعيف لأن قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يقتضي أنه تعالى ما

(50/683)

أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك ، والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك فثبت أنه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه ، قلنا إن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء إلا أن العجائب التي أودعها الله

تعالى في هذه الأشياء مما لا نهاية لها ، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً ، ومثاله كل أحد رأى بعينه بنية الإنسان وشاهدها ، إلا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها ، والذي وقف على شيء منها فكلما ازداد وقوفاً على تلك العجائب والغرائب فصح بهذا الطريق قوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايا تنا فِي الآفاق وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ والقول الثاني : أن المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة وبآيات أنفسهم فتح مكة والقائلون بهذا القول رجّحوه على القول الأول لأجل أن قوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يليق بهذا الوجه ولا يليق بالأول إلا أنا أجبنا عنه بأن قوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ لائق بالوجه الأول كما قررناه ، فإن قيل حمل الآية على هذا الوجه بعيد لأن أقصى ما في الباب أن محمداً صلى الله عليه وسلم استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة ، ثم استولى على مكة ، إلا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستولي محقاً ، فإنا نرى أن الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الإسلام وعلى ملوكهم ، وذلك لا يدل على كونهم محقين ، ولهذا السبب قلنا إن حمل الآية على الوجه الأول أولى ، ثم نقول إن أردنا تصحيح هذا الوجه ، قلنا إنا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد صلى الله عليه وسلم على تلك البلاد على كونه محقاً في ادعاء النبوة ، بل نستدل به من حيث إنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن مكة أنه يستولي عليها ويقهر أهلها ويصير أصحابه قاهرين للأعداء ، فهذا إخبار عن

الغيب وقد وقع مخبره مطابقاً لخبره ، فيكون هذا إخباراً صدقاً عن الغيب ، والإخبار عن الغيب معجزة ، فبهذا

(51/683)

الطريق يستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقاً .

ثم قال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وقوله ﴿ بِرَبِّكَ ﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل ﴿ يَكْفِ ﴾ و ﴿ أنه على كل شيء شهيد ﴾ بدل منه ، وتقديره : أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ، ومعنى كونه تعالى شهيداً على الأشياء أنه خلق الدلائل عليها ، وقد اسقضينا ذلك في تفسير قوله ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ الله ﴾ [الأنعام : 19] والمعنى ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة وفي كل سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة .

ثم ختم السورة بقوله ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي إن القوم في شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة ، وقرىء ﴿ فِى مِرْيَةٍ ﴾ بالضم .

ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم ، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به إن خيراً

فخير ، وإن شراً فشر فإن قيل قوله ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ يقتضي أن تكون علومه متناهية ، قلنا قوله ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ يقتضي أن يكون علمه محيطاً بكل شيء من الأشياء فهذا يقتضي كون كل واحد منها متناهياً ، لا كون مجموعها متناهياً ، والله أعلم بالصواب .

تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين وصلاته على خاتم النبيين محمد وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 119 . 121 ﴾

(52/683)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾

ذكر الله تعالى الخلق الذميمة من الإنسان جملة ، وهي في الكفار بينه متمكنة ، وأما المؤمن في الأغلب فيشكر عند النعمة ، وكثيراً ما يصبر عند الشدة .

وقرأ جمهور والناس : " ونأى بجانبه " الهمزة عين الفعل . وقرأ ابن عامر : " وناء " الهمزة لام الفعل ، وهي قراءة أبي جعفر ، والمعنى فيهما واحد . قال أبو علي : ناء قلب ابن آدم فعل

فلع ، ومنه قول الشاعر [كثير] : [الطويل]

وكل خليل راءني فهو قائل . . . من اجلك هذا هامة اليوم أو غد

ومنه قول الآخر : [الطويل]

وقد شاءني أهل السباق وأمعنوا . . . ﴿ ونأى ﴾ معناه : بعد ولم يمل إلى شكر ولا طاعة .

وقوله : ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ أي طويل أيضاً ، فاستغنى بالصفة الواحدة عن لزيمتها ، إذ العرض يقتضي الطول ويتضمنه ، ولم يقل طويل ، لأن الطويل قد لا يكون عريضاً ، ف ﴿ عريض ﴾ أدل على الكثرة . ثم أمر تعالى نبيه أن يقف قريشاً على هذا الاحتجاج وموضع تغريرهم بأنفسهم فقال : ﴿ أرأيتم إن كان ﴾ هذا الشرع ﴿ من عند الله ﴾ وبأمره وخالفتموه أنتم ، ألستم على هلكة من قبل الله تعالى ، فمن أضل ممن يبقى على مثل هذا الغرر مع الله ، وهذا هو الشقاق ، ثم وعد تعالى نبيه عليه السلام بأنه سيري الكفار آياته .

واختلف المتأولون في معنى قوله : ﴿ في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ فقال المنهال والسدي وجماعة : هو وعد بما يفتحه الله تعالى على رسوله من الأقطار حول مكة ، وفي غير ذلك من الأرض كخيبر ونحوها . ﴿ وفي أنفسهم ﴾ أراد به فتح مكة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تأويل حسن ينتظم الإعلام بغيب ظهر وجوده بعد كذلك ويجري معه لفظ الاستئناف الذي في الفعل .

وقال الضحاك وقتادة : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾ هو ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً ﴿ وفي أنفسهم ﴾ يوم بدر ، وقال ابن زيد وعطاء : ﴿ الآفاق ﴾ : آفاق السماء . وأراد : الآيات : في الشمس والقمر والرياح وغير لك . ﴿ وفي أنفسهم ﴾ عبرة الإنسان بجسمه وحواسه وغريب خلقته وتدريجه في البطن ونحو ذلك ، وهذه آيات قد كانت مرئية ، فليس هذا المعنى يجري مع قوله : " سنري " والتأويل الأول أرجحها ، والله أعلم . والضمير في قوله تعالى : ﴿ أنه الحق ﴾ عائد على الشرع والقرآن ، فبإظهار الله إياه وفتح البلاد عليه تبين لهم أنه الحق .

ثم قال تعالى وعداً لنبيه عليه السلام : ﴿ أولم يكف بربك ﴾ والتقدير : أولم يكف ربك ، والباء زائدة للتأكيد ، وأنه يحتمل أن يكون في موضع رفع على البدل من الموضع ، إذ التقدير : أولم يكف ربك ، ويحتمل أن يكون في موضع خفض على البدل من اللفظ ، وهذا كله بدل الاشتمال ، ويصح أن يكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجر ، أي لأنه على كل شيء شهيد .

وقرأ الجمهور : " أنه " بفتح الألف ، وقرأ بعض الناس " إنه " بكسرها على الاعتراض أثناء

القول .

وقوله : ﴿ ألا ﴾ استفتاح يقتضي إقبال السامع على ما يقال له ، فاستفتح الإخبار على أنهم في شك وريب وضلال أداهم إلى الشك في البعث .

وقرأ جمهور الناس : " في مِرية " بكسر الميم . وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن : " في مُرية " بضم الميم ، والمعنى واحد ، ثم استفتح الإخبار بإحاطته بكل شيء على معنى الوعيد لهم ، وإحاطته تعالى هي بالقدرة والسلطان ، لا إله إلا هو ، العزيز الحكيم .

نجز تفسير سورة ﴿ حم ﴾ السجدة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(54/683)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَنعَمْنَا عَلَى الإنسان ﴾

يريد الكافر ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ .

وقال ابن عباس : يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه .

ومعنى "نَآى بِجَانِبِهِ" أي ترفَّع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله .

وقيل : "نَآى" تباعد .

يقال : نأيته ونأيت عنه نأياً بمعنى تباعدت عنه ، وأنايته فانتأى : أبعدته فبعُد ، وتناؤوا تباعدوا ، والمنتأى الموضع البعيد ؛ قال النابغة :

فإنَّك كاللَّيلِ الَّذِي هو مُدْرِكِي . . .

وإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عنْكَ واسِعُ

وقرأ يزيد بن القعقاع و"نَاءَ بِجَانِبِهِ" بالألف قبل الهمزة .

فيجوز أن يكون من "ناء" إذا نهض .

ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأوّل .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ أي أصابه المكروه ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير ، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة .

يقال : أطال فلان في الكلام وأعرض في الدعاء إذا أكثر .

وقال ابن عباس : "فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ" فذو تضرع واستغاثة .

والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد "أَرَأَيْتُمْ" يا مَعْشَرَ المشركين ﴿ إِن كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ ﴾ أي فأي الناس أضل ، أي لا أحد

أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم .

وقيل : قوله : ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ يرجع إلى الكتاب المذكور في قوله : "آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ" والأوّل أظهر وهو قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق ﴾ أي علامات وحدانيتنا وقدرتنا "فِي الآفَاقِ" يعني خراب منازل الأمم الخالية ﴿ وفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ بالبلايا والأمراض .

وقال ابن زيد : "فِي الآفَاقِ" آيات السماء "وَفِي أَنْفُسِهِمْ" حوادث الأرض .

(55/683)

وقال مجاهد : "فِي الآفَاقِ" فتح القرى ؛ فيسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً ، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم ، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود خارقة للعادات "وَفِي أَنْفُسِهِمْ" فتح مكة .

وهذا اختيار الطبري .

وقاله المنهال بن عمرو والسدي .

وقال قتادة والضحاك : "فِي الآفَاقِ" وقائع الله في الأمم "وَفِي أَنْفُسِهِمْ" يوم بدر .

وقال عطاء وابن زيد أيضاً "فِي الآفَاقِ" يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها .

وفي الصحاح : الآفاق النواحي ، واحدها أُفْقٌ وَأُفُقٌ مثل عُسْر وعُسُر ، ورجل أَفَقِي بفتح الهمزة والفاء : إذا كان من آفاق الأرض .

حكاه أبو نصر .

وبعضهم يقول : أُفُقِيّ بضمهما وهو القياس .

وأنشد غير الجوهري :

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ . . .

لنا قَمَراها والنُّجُومُ الطَّوالِعُ

"وَفِي أَنْفُسِهِمْ" من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول ؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين ، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة .

وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه .

وقيل : ﴿ وفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ من كونهم نطفاً إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم كما تقدّم في "المؤمنون" بيانه .

وقيل : المعنى سيرَوْن ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن وأخبار الغيوب ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها أنه القرآن .

(56/683)

والثاني الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه .

والثالث أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق .

والرابع أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الرسول الحق .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل ب "يَكْفِ" و ﴿ أَنَّهُ ﴾ بدل من "رَبِّكَ" فهو رفع إن قدّرته بدلاً على الموضع ، وجَرّ إن قدرته بدلاً على اللفظ .

ويجوز أن يكون نصباً بتقدير حذف اللام ، والمعنى أولم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده ؛ لأنه ﴿ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وإذا شهده جازى عليه .

وقيل : المعنى "أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ" في معاقبته الكفار .

وقيل : المعنى "أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ" يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار .

وقيل : "أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ" شاهداً على أن القرآن من عند الله .

وقيل : "أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ" مما يفعله العبد "شَهِيدٌ" والشهيد بمعنى العالم ؛ أو هو من الشهادة التي هي الحضور ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ ﴾ في شك ﴿ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ﴾ في الآخرة .

وقال السدي : أي من البعث .

﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء .

قاله السدي .

وقال الكلبي : أحاطت قدرته بكل شيء .

وقال الخطابي : هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه ، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

وهذا الاسم أكثر ما يجيء في معرض الوعيد ، وحقيقته الإحاطة بكل شيء ، واستئصال المحاط به ، وأصله مُحْيِطٌ نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت .

يقال منه : أحاط يحيط إحاطة وحيطة ؛ ومن ذلك حائط الدار ، يحوطها أهلها .

وأحاطت الخيل بفلان : إذا أخِذ مأخذاً حاصراً من كل جهة ، ومنه قوله تعالى : ﴿

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ [الكهف : 42] والله أعلم بصواب ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(57/683)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾

لما ذكر تعالى ﴿ من عمل صالحاً ﴾ الآية ، كان في ذلك دلالة على الجزاء يوم القيامة ، وكأن سائلاً قال : ومتى ذلك ؟ فقيل : لا يعلمها إلا الله ، ومن سئل عنها فليس عنده علم بتعين وقتها ، وإنما يرد ذلك إلى الله .

ثم ذكر سعة علمه وتعلقه بما لا يعلمه إلا هو تعالى .

وقرأ أبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة ، وقتادة ، والحسن بخلاف عنه ؛ ونافع ، وابن عامر ، في غير رواية : أي جلية ؛ والمفضل ، وحفص ، وابن مقسم : ﴿ من ثمرات ﴾ على الجمع .

وقرأ باقي السبعة ، والحسن في رواية طلحة والأعمش : بالإفراد .

ولما كان ما يخرج من أكمام الشجرة وما تحمل الإناث وتضعه هو إيجاد أشياء بعد العدم ، ناسب أن يذكر مع علم الساعة ، إذ في ذلك دليل على البعث ، إذ هو إعادة بعد إعدام ،

وناسب ذكر أحوال المشركين في ذلك اليوم ، وسؤالهم سؤال الوتبيخ فقال : ﴿ ويوم يناديهم أين شركائي ﴾ : أي الذين نسبتموهم إليّ وزعمتم أنهم شركاء لي ، وفي ذلك تهكم بهم وتقريع .

والضمير في يناديهم عام في كل من عبد غير الله ، فيندرج فيه عباد الأوثان .

﴿ قالوا آذناك ﴾ : أي أعلمناك ، قال الشاعر :

آذنتنا ببينها أسماء . . .

رب ثاو يملّ منه الثواء

وقال ابن عباس : أسمعناك ، كأنه استبعد الإعلام لله ، لأن أهل القيامة يعلمون أن الله يعلم الأشياء علماً واجباً ، فالإعلام في حقه محال .

والظاهر أن الضمير في قالوا عائد على المنادين ، لأنهم المحدث معهم .

﴿ ما منا ﴾ أحد اليوم ، وقد أبصرنا وسمعنا .

يشهد أن لك شريكاً ، بل نحن موحدون لك ، وما منا أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم ، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ .

وقيل : الضمير في قالوا عائد على الشركاء ، أي قالت الشركاء : ﴿ ما منا من شهيد ﴾ أضافوا إلينا من الشرك ، وآذناك معلق لأنه بمعنى الإعلام .

والجملة من قوله : ﴿ ما منا من شهيد ﴾ في موضع المفعول .

وفي تعليق باب أعلم رأينا خلافه ، والصحيح أنه مسموع من كلام العرب .

والظاهر أن قولهم : ﴿ آذناك ﴾ إنشاء ، كقولك : أقسمت لأضربن زيداً ، وإن كان إخباراً سابقاً ، فتكون إعادة السؤال توبيخاً لهم .

﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴾ : أي نسوا ما كانوا يقولون في الدنيا ويدعون من الآلهة ، أو ﴿ وضل عنهم ﴾ : أي تلفت أصنامهم وتلاشت ، فلم يجدوا منها نصراً ولا شفاعة ، ﴿ وظنوا ﴾ : أي أيقنوا .

قال السدي : ﴿ ما لهم من محيص ﴾ : أي من حيدة ورواغ من العذاب .

والظاهر أن ظنوا معلقة ، والجملة المنفية في موضع مفعولي ظنوا .

وقيل : تم الكلام عند قوله : ﴿ وظنوا ﴾ ، أي وترجح عندهم أن قولهم : ﴿ ما منا من شهيد ﴾ منجاة لهم ، أو أمر يموهون به .

والجملة بعد ذلك مستأنفة ، أي يكون لهم منجماً ، أو موضع روغان .

﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ : هذه الآيات نزلت في كفار ، قيل : في الوليد بن المغيرة ؛ وقيل : في عتبة بن ربيعة ، وكثير من المسلمين يتصفون بوصف أولها من دعاء الخير

، أي من طلب السعة والنعمة ودعاء مصدر مضاف للمفعول .

وقرأ عبد الله : من دعاء بالخير ، بباء داخلة على الخير ، وفاعل المصدر محذوف تقديره : من دعاء للخير ، وهو وإن مسه الشر ، أي الفقر والضيق ، ﴿ فيئوس ﴾ : أي فهو يؤوس قنوط ، وأتى بهما صيغتي مبالغة .

واليأس من صفة القلب ، وهو أن يقطع رجاءه من الخير ؛ والقنوط : أن يظهر عليه آثار اليأس فيتضاءل وينكسر .

وبدأ بصيغة القلب لأنها هي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من الإنكسار .

﴿ ولئن آذقناه رحمة منا ﴾ : سمي النعمة رحمة ، إذ هي من آثار رحمة الله .

﴿ من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ﴾ : أي بسعيي واجتهادي ، ولا يراها أنها من الله ، أو هذا لي لا يزول عني .

(59/683)

﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ : أي ظننا أننا لا نبعث ، وأن ما جاءت به الرسل من ذلك ليس بواقع ، كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ ﴿ ولئن رجعت إلى ربي ﴾ : ولئن كان كما أخبرت الرسل ، ﴿ إن لي عنده ﴾ : أي عند

الله ، ﴿ للحسنى ﴾ : أي الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة ، كما أنعم عليّ في الدنيا ، وأكدوا ذلك باليمين وبتقديم لي عنده على اسم إن ، وتدخل لام التأكيد عليه أيضاً ، وبصيغة الحسنى يؤنث الأحسن الذي هو أفعل التفضيل .

ولم يقولوا للحسنة ، أي الحالة الحسنة .

وقال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم : للكافر أمنيتان ، أما في الدنيا فهذه ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ ، وأما في الآخرة ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ .

﴿ لفننبئن الذين كفروا بما عملوا ﴾ من الأفعال السيئة ، وذلك كناية عن جزائهم بأعمالهم السيئة .

﴿ ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ في مقابلة ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ .

وكني بغليظ : العذاب عن شدته .

﴿ وإذا أنعمنا ﴾ : تقدم الكلام على نظيره هذه الجملة في ﴿ سبحان ﴾ إلا أن في أواخر تلك كان يؤوساً ، وآخر هذه ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ : أي فهو ذو دعاء بإزالة الشر عنه وكشف ضره .

والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة .

يقال : أطال فلان في الظلم ، وأعرض في الدعاء إذا كثر ، أي فذو تضرع واستغاثة .

وذكر تعالى في هذه الآية نوعاً من طغيان الإنسان ، إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة ، وإذا

مسه الشر ابتهل إلى الله وتضرع .

﴿ قل أرأيتم إن كان ﴾ : أي القرآن ، ﴿ من عند الله ﴾ : أبرزه في صورة الاحتمال ، وهو من عند الله بلا شك ، ولكنه تنزل معهم في الخطاب .

والضمير في ﴿ أرأيتم ﴾ لكفار قريش .

وتقدم أن معنى أرأيتم : أخبروني عن حالكم إن كان هذا القرآن من عند الله ، وكفرتم به وشاققتم في اتباعه .

﴿ من أضل منكم ﴾ ، إذ أنتم المشاقون فيه والمعرضون عنه والمستهزئون بآيات الله .

(60/683)

وتقدم أن أرأيتم هذه تتعدى إلى مفعول مذكور ، أو محذوف ، وإلى ثانٍ الغالب فيه أن يكون جملة استفهامية .

فالمفعول الأول محذوف تقديره : أرأيتم أنفسكم ، والثاني هو جملة الاستفهام ، إذ معناه : من أضل منكم أيها الكفار ، إذ مآلكم إلى الهلاك في الدنيا والآخرة .

ثم توعدهم بما هو كائن لا محالة فقال : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾ .

قال أبو المنهال ، والسدي ، وجماعة : هو وعيد للكفار بما يفتحه الله على رسوله من

الأقطار حول مكة ، وفي غير ذلك من الأرض كخيبر .

﴿ وفي أنفسهم ﴾ : أراد به فتح مكة ، وتضمن ذلك الإخبار بالغيب ، ووقع كما أخبر .

وقال الضحاك ، وقتادة : ﴿ في الآفاق ﴾ : ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً ، ﴿ وفي أنفسهم ﴾ : يوم بدر .

وقال عطاء ، وابن زيد : في آفاق السماء ، وأراد الآيات في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك ، وفي أنفسهم عبرة الإنسان بجمسه وحواسه وغريب خلقته وتدريجه في البطن ونحو ذلك .

ونبهوا بهذين القولين عن لفظ سنريهم ، لأن هلاك الأمم المكذبة قديماً ، وآيات الشمس والقمر وغير ذلك ، قد كان ذلك كله مريباً لهم ، فالقول الأول أرجح .

(61/683)

وأخذ الزمخشري هذا القول وذيله فقال : يعني ما يسر الله عز وجل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وللخلفاء من بعده ، وأنصار دينه في آفاق الدنيا ، وبلاد المشرق والمغرب عموماً ، وفي ناحية العرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلق الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة ، وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط

ضعافهم على أقويائهم ، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود خارقة للعادة ، ونشر دعوة الإسلام في الأقطار المعمورة ، وبسط دولته في أقاصيها ، والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدوّنة في مشاهد أهله ، وأيامهم على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علماً من أعلام الله وآية من آياته تقوى معها النفس ويزداد بها الإيمان ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر خبيث مغالط نفسه .

انتهى ما كتبناه مقتصراً عليه .

﴿ حتى يتبين لهم أنه ﴾ : أي القرآن ، وما تضمنه من الشرع هو الحق ، إذ وقع وفق ما أخبر به من الغيب ، و ﴿ بربك ﴾ : الباء زائد ، التقدير : أوَلم يكفك أو يكفهم ربك ، و ﴿ أنه على كل شيء شهيد ﴾ بدل من ربك .

أما حالة كونه مجروراً بالباء ، فيكون بدلاً على اللفظ .

وأما حالة مراعاة الموضع ، فيكون بدلاً على الموضع ، وقيل : إنه على إضمار الحرف أي أوَلم يكف ربك بشهادته ، فحذف الحرف ، وموضع أن على الخلاف ، أهو في موضع نصب أو في موضع جر ؟ ويبعد قول من جعل بربك في موضع نصب ، وفاعل كفى إن وما بعدها ، والتقدير عنده : أوَلم يكف ربك شهادته ؟ وقرىء : إن بكسر الهمزة على إضمار القول ، وألا استفتاح تنبه السامع على ما يقال .

وقرأ السلمي والحسن : في مرية بضم الميم ، وإحاطته تعالى بالأشياء علمه بها جملة

وتفصيلاً ، فهو يجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(62/683)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة ﴾

أي إذا سئلَ عنها يقالُ اللهُ يعلمُ أو لا يعلمُها إلا اللهُ تعالى ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرات مّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أي من أوعيتِها جمعُ كِمٍ بالكسرِ وهُو وعاءُ الثمرةِ كَجُفّ الطلعةِ . وقُرِىءَ من ثمرةٍ على إرادةِ الجنسِ والجمعُ لاختلافِ الأنواعَ . وقد قُرِىءَ بجمعِ الضميرِ أيضاً ، ومَا نافيةٌ ومِنْ الأُولى مزيدةٌ للاستغراقِ ، واحتمالُ أَنْ تكونَ مَا موصولةً معطوفةً على الساعةِ ومِنْ مبينةً بعيدٌ ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ ﴾ أي حَملَها . وقولُه تعالى ﴿ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعمِّ الأحوالِ أيْ وما يحدثُ شيىء من خروجِ ثمرةٍ ولا حملِ حاملٍ ولا وضعِ واضعٍ ملابساً بشيءٍ من الأشياءِ إلا ملابساً بعلمِه المحيطِ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِى ﴾ أي بزعمِكم كما نصَّ عليه في قولِه تعالى : ﴿ نَادُواْ شُرَكَائِىَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ وفيهِ تهكمٌ بهم وتقريعٌ لَهُم ويومَ منصوبٌ باذكُرْ أو ظرفٌ لمضمرٍ مؤخرٍ قد تُرِكَ إيذاناً بقصورِ البيانِ عنْه كما

مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل ﴾ ﴿ قَالُواْ ءاذَنَّاكَ ﴾ أي أخبرناكَ ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ لهم بالشركةِ إذ تبرأنَا منهم لَمَّا عاينَّا الحالَ وما منا أحدٌ إلا وهو موحدٌ لكَ ، أو ما منا من أحدٍ يشاهدُهم لأنهم ضلُّوا عنهُم حينئذٍ وقيلَ : هو قولُ الشركاءِ أي ما منَّا من شهيدُ لهم بأنَّهم كانُوا محقّينَ . وقولُهم آذناكَ إما لأنَّ هذا التوبيخَ مسبوقٌ بتوبيخٍ آخر مجابٍ عنْه بهذا الجوابِ أو لأنَّ معناهُ أنك علمتَ من قلوبنا وعقائدِنا الآنَ أنا لا نشهدُ تلكَ الشهادةَ الباطلةَ لأنَّه إذا علمَهُ من نفوسِهم فكأنَّهم أعلمُوه ، أو لأنَّ معناهُ الإنشاءُ لا الإخبارُ بإيذانٍ قد كانَ قبلَ ذلكَ .

(63/683)

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ ﴾ أي يعبدونَ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي غابُوا عنُهم أو ظهر عدمُ نفعِهم فكانَ حضورُهم كغَيبتهم ﴿ وَظَنُّواْ ﴾ أي أيقنُوا ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ مهربٍ والظنُّ معلقٌ عنْه بحرفِ النفي . ﴿ لاَّ يَسْئَمُ الانسان ﴾ أي لا يملُّ ولا يفترُ ﴿ مِن دُعَاء الخير ﴾ من طلبِ السعةِ في النعمةِ وأسبابِ المعيشةِ وقُرِئَ من دعاءٍ بالخيرِ ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشر ﴾ أي العسرُ والضيقةُ ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ فيه مبالغةٌ من جهة البناءِ ومن جهةِ التكريرِ ومن جهةِ أن القنوطُ عبارةٌ عن يأسٍ مفرطٍ يظهرُ أثرُه في الشخصِ فيتضاءلُ

وينكسرُ أي مبالغٌ في قطعِ الرجاءِ من فضلِ الله تعالَى ورحمتِه ، وهذا وصفٌ للجنسِ بوصفِ غالبِ أفرادِه لما أنَّ اليأسَ من رحمتِه تعالى لا يتأتَّى إلا من الكافرِ وسيصرحُ به ﴿ وَلَئِنْ أذقناه رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ ﴾ بتفريجها عنْهُ ﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِى ﴾ أي حَقِّي أستحقُّه لما لِي من الفضلِ والعملِ أو لي لا لغَيري فَلاَ يزولَ عنّي أبداً ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ أي تقومُ فيما سيأتي ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبِّى ﴾ على تقديرِ قيامِها ﴿ إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ أي للحالةَ الحُسنى من الكرامةِ وذلك لاعتقادِه أن ما أصابَهُ من نعمِ الدنيا لاستحقاقِه له وأنَّ نعمَ الآخرةِ كذلكَ ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي لنعلمنَّهم بحقيقةِ أعمالِهم حينَ أظهرناهَا بصورةِ الحقيقيةِ وقد مرَّ تحقيقُه في الأعرافِ عند قولِه تعالى : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق ﴾ وفي قولِه تعالَى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ﴾ من سورةِ يونس ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ لا يُقادرُ قدرُه ولا يُبلغ كُنهه .

(64/683)

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ ﴾ أي عنِ الشكرِ ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي ذهبَ بنفسِه وتباعدَ بكليتِه تكبيراً وتعظيماً والجانبُ مجازٌ عن النفسِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ فِى جَنبِ الله ﴾ ويجوزُ أن يرادَ به عِطْفُه ويكونَ عبارةً عن الانحرافِ والازورارِ كما قالُوا :

"ثَنَى عِطْفَهُ وتولَّى بركنِه" : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ أي كثيرٍ مستعارٌ مما لَه عَرْضٌ متسعٌ للإشعارِ بكثرته واستمرارِه وهو أبلغُ من الطويلِ إذ الطول أطولُ الامتدادين فإذا كان عرضُه كذلكَ فما ظنُّك بطولِه . ولعلَّ هذا شأنُ بعضٍ غيرِ البعضِ الذي حُكِيَ عنه اليأسُ والقنوطُ أو شأنُ الكلِّ في بعضِ الأوقاتِ .

(65/683)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن كَانَ ﴾ أي القرآنُ ﴿ مِنْ عِندِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ مع تعاضدِ موجباتِ الإيمانِ به ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من أضلُّ منكُم ، فوضعَ الموصولَ موضعَ الضميرِ شرحاً لحالِهم وتعليلاً لمزيدِ ضلالِهم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايا تنا ﴾ الدالَةَ على حقّيته وكونِه من عندِ الله ﴿ فِى الأفاق ﴾ هو ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الحوادثِ الآتيةِ وآثارِ النوازلِ الماضيةِ وما يسرّ الله تعالَى له ولخلفائِه من الفتوحِ والظهورِ على آفاقِ الدنيا والاستيلاءِ على بلادِ المشارقِ والمغاربِ على وجهٍ خارقٍ للعادةِ ﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ هو ما ظهرَ فيما بينَ أهلِ مكةَ وما حلَّ بهم وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما في الآفاق أي منازلِ الأممِ الخاليةِ وآثارِهم وفي أنفسِهم يومُ بدرٍ وقال مجاهدٌ والحسنُ والسُدّيُّ في الآفاقِ ما يفتحُ الله من القُرَى عليهِ عليه الصلاةُ والسلامُ

والمسلمينَ وفي أنفسِهم فتحُ مكةَ وقيلَ : في الآفاقِ أي في أقطار السمواتِ والأرضِ من الشمسِ والقمرِ والنجومِ وما يترتبُ عليها من الليلِ والنهارِ والأضواءِ والظلالِ والظلماتِ ومن النباتِ والأشجارِ والأنهارِ وفي أنفسهم من لطيفِ الصنعة وبديعِ الحكمةِ في تكوينِ الأجنةِ في ظلماتِ الأرحامِ وحدوثِ الأعضاءِ العجيبةِ والتركيباتِ الغريبةِ كقولِه تعالى : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ واعتذرَ بأنَّ معنَى السينِ مع أنَّ إراءةَ تلك الآياتِ قد حصلتْ قبلَ ذلكَ أنه تعالَى سيطلعُهم على تلك الآياتِ زماناً فزماناً ويزيدُهم وقوفاً على حقائِقِها يوماً فيوماً ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ بذلكَ ﴿ أَنَّهُ الحق ﴾ أي القرآنُ أو الإسلامُ والتوحيدُ .

(66/683)

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ استئنافٌ واردٌ لتوبيخِهم عَلى ترددهم في شأنِ القرآنِ وعنادِهم المُحوجِ إلى إراءةِ الآياتِ وعدمِ اكتفائِهم بإخبارِه تعالَى ، والهمزةُ للإنكارِ ، والواوُ للعطفِ عَلى مقدرَ يقتضيه المقامُ أيْ ألَمْ يغنِ ولم يكفِ ربُّكَ والباءُ مزيدةٌ لتأكيدِ ولاَ تكادُ تزاد إلا معَ كَفَى . وقولُه تعالى : ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بدلٌ منهُ أيْ ألَم يُغنِهم عن إراءةِ الآياتِ الموعودةِ المبينةِ لحقيةِ القُرانِ ولم يكفهم في ذلكَ أنه تعالَى شهيدٌ على جميعِ الأشياءِ ، وقد

أخبرَ بأنَّه منْ عندِه وقيلَ : معناهُ أنَّ هَذا الموعودَ من إظهارِ آياتِ اللهِ في الآفاقِ وفي أنفسِهم سيرونَهُ ويشاهدونَهُ فيتبينونَ عند ذلكَ أنَّ القرآنَ تنزيلُ عالمِ الغيبِ الذي هُو عَلى كلِّ شيءٍ شهيدٌ أي مطّلعٌ يستوِي عندَهُ غيبُه وشهادتُه فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حقٌّ وأنَّه منْ عندِه ولو لم يكُن كذلكَ لما قُوِيَ هذه القوةَ ولما نُصرَ حاملُوه هذهِ النُصرةَ فتأملُ .

وأما ما قيلَ : من أنَّ المَعنى أَوَلَم يكفكَ أنه تعالَى على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ محققٌ له فيحققَ أمركَ بإظهارِ الآياتِ الموعودةِ كما حققَ سائرَ الأشياءِ الموعودةِ فمع إشعارِه بما لا يليقُ بجلالةِ منصبِه عليه السلامُ من التردِدِ فيما ذكر من تحقيق الموعودِ يرده قولُه تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي في شكَ عظيمٍ منْ ذلكَ بالبعثِ والجزاءِ فإنه صريحٌ في أن عدمَ الكفايةِ معتبرٌ بالنسبةِ إليهم وقُرِيءَ مُريةٍ بالضمِّ وهُو لُغةٌ فيها ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ عالمٌ بجميعِ الأشياءِ جُمَلِها وتفاصيلِها وظواهرِها وبواطنِها فلا تَخْفى عليها خافيةٌ منهم وهو مجازيهُمْ على كُفرِهم ومريتِهم لا محالةَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(67/683)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسانِ أَعْرَضَ ﴾

عن الشكر ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ تكبر واختال على أن الجانب بمعنى الناحية والمكان ثم نزل مكان الشيء وجهته كناية منزلة الشيء نفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ [الرحمن : 46] وقول الشاعر :

ذعرت به القطا ونفيت عنه . . .

مقام الذئب كالرجل اللعين

وقول الكتاب حضرة فلان ومجلسه العالي وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز يريد نفسه وذاته فكأنه قيل : نأى بنفسه ثم كنى بذهب بنفسه عن التكبر والخيلاء ، وجوز أن يراد ﴿ بِجَانِبِهِ ﴾ عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا ثنى عطفه وتولى بركنه والأول مشتمل على كنايتين ، وضع الجانب موضع النفس والتعبير عن التكبر البالغ بنحو ذهب بنفسه وهذا على واحدة على ما في "الكشف" ، وجعل بعضهم الجانب والجنب حقيقة كالعطف في الجارحة وأحد شقي البدن مجازاً في الجهة فلا تغفل ، وعن أبي عبيدة نأى بجانبه أي نهض به وهو عبارة عن التكبر كشمخ بأنفه ، والباء للتعدية ثم إن التعبير عن ذات الشخص بنحو المقام والمجلس كثيراً ما يكون لقصد التعظيم والاحتشام عن التصريح بالاسم وهو يتركون التصريح به عند إرادة تعظيمه قال زهير :

فعرض إذا ما جئت بالبان والحمى . . .

وإياك أن تنسى فتذكر زينبا

سيكفيك من ذاك المسمى إشارة . . .

فدعه مصوناً بالجلال محجباً

ومن هنا قال الطيبي : إن ما هنا وارد على التهكم .

(68/683)

وقرىء ﴿ ونآ ﴾ بإمالة الألف وكسر النون للاتباع ﴿ وناء ﴾ على القلب كما قالوا راء في رأى ﴿ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ أي كثير مستمر مستعار مما له عرض متسع وأصله مما يوصف به الأجسام وهو أقصر الامتدادين وأطولهما هو الطول ، ويفهم في العرف من العريض الاتساع وصيغة المبالغة وتنوين التكثير يقويان ذلك ، ووصف الدعاء بما ذكر يستلزم عظم الطول أيضاً لأنه لا بد أن يكون أزيد من العرض وإلا لم يكن طولاً ، والاستعارة في كل من الدعاء والعريض جائزة ولا يخفى كيفية إجرائها .

(69/683)

وذكر بعض الأجلة أن الآيات قد تضمنت ضربين من طغيان جنس الإنسان فالأول : في بيان شدة حرصه على الجمع وشدة جزعه على الفقد والتعريض بتظليم ربه سبحانه في قوله : ﴿ هذا لِي ﴾ [فصلت : 50] مدمجاً فيه سوء اعتقاده في المعاد المستجلب لتلك المساوي كلها ، والثاني : في بيان طيشه المتولد عنه إعجابه واستكباره عند وجود النعمة واستكانته عند فقدها وقد ضمن في ذلك ذمه بشغله بالنعمة عن المنعم في الحالتين ، أما في الأول : فظاهر ، وأما في الثاني : فلأن التضرع جزعاً على الفقد ليس رجوعاً إلى المنعم بل تأسف على العقد المشغل عن المنعم كل الاشغال ، وذكر أن في ذكر الوصفين ما يدل على أنه عديم النهية أي العقل ضعيف المنة أي القوة فإن اليأس والقنوط ينافيان الدعاء العريض وأنه عند ذلك كالغريق المتمسك بكل شيء انتهى ، ومنه يعلم جواب ما قيل : كونه يدعو دعاء عريضاً متكرراً ينافي وصفه بأنه يؤس قنوط لأن الدعاء فرع الطمع والرجاء وقد اعتبر في القنوط ظهور أثر اليأس فظهور ما يدل على الرجال يأباه ، وأجاب آخرون بأنه يجوز أن يقال : الحال الثاني شأن بعض غير البعض الذي حكى عنه اليأس والقنوط أو شأن الكل في بعض الأوقات ، واستدل بعضهم بقوله تعالى : ﴿ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ على أن الايجاز غير الاختصار وفسره لهذه الآية بحذف تكرير الكلام مع اتحاد

المعنى والإيجاز بحذف طوله وهو الاطناب وهو استدلال بما لا يدل إذ ليس فيها حذف ذلك العرض فضلاً عن تسميته .

(70/683)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ الخ رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين وختم للسورة بما يلتفت لفت بدئها وهو من الكلام المنصف وفيه حث على التأمل واستدراج للإقرار مع ما فيه من سحر البيان وحديث الساعة وقع في البين تتميماً للوعيد وتنبيهاً على ما هم فيه من الضلال البعيد كذا قيل ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بسط الكلام في ذلك ، ومعنى ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ إِن كَانَ ﴾ أي القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ مع تعاضد موجبات الايمان به ، و﴿ ثُمَّ ﴾ كما قال النيسابوري للتراخي الرتبي ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ ﴾ أي خلاف ﴿ بَعِيدٍ ﴾ غاية البعد عن الحق ، والمراد ممن هو في شقاق المخاطبون ، ووضع الظاهر موضع ضميرهم شرحاً لحالهم بالصلة وتعليلاً لمزيد ضلالهم ، وجملة ﴿ مَنْ أَضَلَّ ﴾ على ما قال ابن الشيخ سادة مسد مفعولي ﴿ رأيتم ﴾ وفي "البحر" المفعول الأول محذوف تقديره أرأيتم أنفسكم والثاني هو جملة الاستفهام ، وأياً ما كان فجواب الشرط محذوف ، قال النيسابوري : تقديره مثلاً فمن أضل منكم ، وقيل : إن

كان من عند الله ثم كفرتم به فأخبروني من أضل منكم ، ولعله الأظهر .

وقوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ الخ

(71/683)

مرتبط على ما اختاره "صاحب الكشاف" بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ [فصلت : 52] الخ على وجه التتميم والإرشاد إلى ما ضمن من الحث على النظر ليؤدي إلى المقصود فيهدوا إلى إعجازه ويؤمنوا بما جاء به ويعملوا بمقتضاه ويفوزوا كل الفوز ، وفسر الآيات بما أجرى الله تعالى على يد نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى أيدي خلفائه وأصحابهم رضي الله تعالى عنهم من الفتوحات الدالة على قوة الإسلام وأهله ووهن الباطل وحزبه ، والآفاق النواحي الواحد أفق بضمتين وأفق بفتحتين أي سنريهم آياتنا في النواحي عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها ، وفيه أن هذه الإراءة كائنة لا محالة حق لا يحوم حولها ريبة ﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ في بلاد العرب خصوصاً وهو من عطف ﴿ جبريل ﴾ على ﴿ ملائكته ﴾ [البقرة : 98] .

وفي العدول عنها إلى المنزل ما لا يخفى من تمكين ذلك النصر وتحقيق دلالته على حقية

المطلوب إثباته وإظهار أن كونه آية بالنسبة إلى الأنفس وإن كان كونه فتحا بالنسبة إلى الأرض والبلدة ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ ﴾ يظهر ﴿ لَهُمْ أَنَّهُ ﴾ أي القرآن هو ﴿ الحق ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو الحق كله من عند الله تعالى المطلع على كل غيب وشهادة فلهذا نصر حاملوه وكانوا محقين ، وفي التعريف من الفخامة ما لا يخفى جلالة وقدراً ، وفيما ذكر إشارة إلى أنه تعالى لا يزال ينشيء فتحاً بعد فتح وآية غب آية إلى أن يظهر على الدين كله ولو كره المشركون فانظر إلى هذه الآية الجامعة كيف دلت على حقية القرآن على وجه تضمن حقية أهله ونصرتهم على المخالفين وأعظم بذاك تسلياً عما أشعرت به الآية السابقة من انهماكهم في الباطل إلى حد يقرب من اليأس ، وقيل : الضمير للرسول عليه الصلاة والسلام أو الدين أو التوحيد ولعل الأول أولى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ استئناف وارد لتوبيخهم على إنكارهم تحقق الإراءة .

(72/683)

والهمزة للإنكار والواو على أحد الرأيين للعطف على مقدر دخلت عليه الهمزة يقتضيه المقام والباء مزيدة للتأكيد و ﴿ رَبِّكَ ﴾ فاعل كفى وزيادة الباء في فاعلها هو القول المشهور المرضى للنحاة وتزاد في فاعل فعل التعجب أيضاً نحو أحسن بزيد فإن أحسن فعل

ماض جيء به على صيغة الأمر والباء زائدة وزيد فاعل عند جماعة من النحويين ولا تكاد تزاد في غيرهما ، وقوله :

ألم يأتيك والانباء تنمى . . .

بما لاقت لبون بني زياد

شاذ قبيح على ما قال الشهاب ، وقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بدل من الفاعل بدل اشتمال ، وقيل : هو بتقدير حرف الجر أي أو لم يكفهم ربك بأنه الخ ، وما للنحويين في مثل هذا التركيب من الكلام شهير ، أي انكروا إراءة ذلك الدالة على حقية القرآن ولم يكفهم دليلاً أنه عز وجل مطلع على كل شيء عالم به ومن ذلك حالهم وحالك الموجبان حكمة نصرك عليهم وخذلانهم ، وكأن ذلك لظهوره نزل منزلة المعلوم لهم .

وفي "الكشف" أي أو لم يكفهم أن ربك سبحانه مطلع على كل شيء يستوي عنده غيب الأشياء وشهادتها على معنى أو لم يكفهم هذه الإراءة دليلاً قاطعاً ولما كان ما وعده غيباً عنهم كيف وقد نزل وهم في حال ضعف وقلة يقاسون ما يقاسون من مشركي مكة قيل : أو لم يكفهم إطلاع من هذا الكتاب الحق من عنده على كل غيب وشهادة دليلاً على كينونة الإراءة وإحضار ذلك الغيب عندهم إذ لا غيب بالنسبة إليه تعالى ، وفي العدول إلى هذه العبارة فائدتان .

إحداهما : تحقيق إنجاز ذلك الموعود كأنه مشاهد بذكر الدليل القاطع على الوقوع .

والثانية الدلالة على أن هذه الإراءة الآن وهم في ضعف وقلة قد تمت بالنسبة إلى إثبات حقية القرآن لأن من علم أنه تعالى على كل شيء شهيد وعلم أن القرآن معجز من عنده علم أن جميع ما فيه حق وصدق فعلم أن تلك النصرة كائنة .

(73/683)

والحاصل أنه كما يستدل من تلك الآيات على حقيقة القرآن وحقية أهله تارة يستدل من إعجاز القرآن على حقية تلك الآيات وقوعاً وحقية أهل الإسلام أخرى فأدى المعنيان في عبارة جامعة تؤدي الغرضين على وجه لا يمكن أتم منه انتهى .

ولا يخفى أن في الآية عليه نوعاً من الألغاز ، وقيل : أي ألم يغنهم عن إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم في ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده عز وجل ، وهو كما ترى ، وقيل : المعنى ولم يكفك أنه تعالى عل كل شيء شهيد محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة .

وتعقب بأنه مع إيهامه ما لا يليق بجلالة منصبه صلى الله عليه وسلم من التردد فيما ذكر من تحقق الموعود لا يلائم قوله تعالى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي في شك عظيم من ذلك بالبعث لاستبعادهم إعادة

الموتى بعد تبدد أجزائهم وتفرق أعضائهم فلا يلتفتون إلى أدلة ما ينفعهم عند لقائه تعالى كحقية القرآن لأنه صريح في أن عدم الكفاية معتبر بالنسبة إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ لبيان ما يترتب على تلك المرية بناء على أن المعنى أنه تعالى عالم بجميع الأشياء على أكمل وجه فلا يخفى عليه جل وعلا خافية منهم فيجازيهم جل جلاله على كفرهم ومريتهم لا محالة .

وقيل : دفع لمريتهم وشكهم في البعث وإعادة ما تفرق واختلط مما يتوهمون عدم إمكان تمييزه أي أنه تعالى عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها مقتدر عليها لا يفوته شيء منها فهو سبحانه يعلم الأجزاء ويقدر على البعث .

هذا وما ذكر في تفسير ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الافَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] في معنى ما روى عن الحسن .

ومجاهد .

والسدي .

وأبي المنهال .

وجماعة قالوا : إن قوله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ الخ وعيد للكفار بما يفتحه الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من الأقطار حول مكة وفي غير ذلك من الأرض كخيبر وأراد بقوله تعالى : ﴿ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ فتح مكة ، وقال الضحاك .

وقتادة : في الآفاق ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً وفي أنفسهم ما كان يوم بدر فإن في ذلك دلالة على نصرة من جاء بالحق وكذب من الأنبياء عليهم السلام فيدل على حقية النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من القرآن .

وأورد عليه أن ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يأبى كون ما في الآفاق ما أصاب الأمم المكذبة لكونه مرئياً لهم قبل ، وقال عطاء .

وابن زيد : أن معنى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتنا فِى الافاق ﴾ أي أقطار السماء والأرض من الشمس والقمر وسائر الكواكب والرياح والجبال الشامخة وغير ذلك وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، وضعف ذلك الإمام بنحو ما سمعت آنفاً .

وأجيب بأن القوم وإن كانوا قد رأوا تلك الآيات إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى فيها مما لا نهاية لها فهو سبحانه يطلعهم عليها زماناً قريباً حالاً فحالاً فإن كل أحد يشاهد بنية الإنسان إلا أن العجائب المودعة في تركيبها لا تحصى وأكثر الناس غافلون عنها فمن حمل على التفكير فيها بالقوارع التنزيلية والتنبيهات الإلهية كلما ازداد تفكراً ازداد وقوفاً فصح معنى الاستقبال .

واختار ذلك "صاحب الكشف" تبعاً لغيره وبين وجه مناسبة الآيات لما قبلها عليه ، وجعل ضمير ﴿ أَنَّهُ الحق ﴾ لله عز وجل فقال : إن في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ﴾ [الأحقاف : 10] إشعاراً بأن كونه من عنده سبحانه ينافي الكفر به وأنهم مسلمون ذلك لكن يطعنون في كونه من عنده عز وجل ولذا جعل نحول ﴿ أساطير الاولين ﴾ في جواب قولهم

(75/683)

﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ [النحل : 24] أنه إعراض عن كونه منزلاً وجواب بأنه أساطير لا منزل فاريد ان يبين إثبات كونه حقاً من عنده تعالى على سبيل الكناية ليكون أوصل إلى الغرض ويناسب ما بني عليه الكلام من سلوك طريق الانصاف فقيل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ أي سيرى الله تعالى ، والالتفات للدلالة على زيادة الاختصاص وتحقيق ثبوت الإراءة ثم قيل : ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ أي أن الله جل جلاله هو الحق من كل وجه ذاتاً وصفة وقولاً وفعلاً وما سواه باطل من كل وجه لا حق إلا هو سبحانه وإذا تبين لهم حقيته عز شأنه من كل وجه يلزم ثبوت القرآن وكونه من عنده تعالى بالضرورة ، ثم قيل : أولم يكف بربك أي أو لم يكفك شهوده تعالى على كل شيء فمنه سبحانه تشهد كل شيء لا من آيات الآفاق

والأنفس تشهده تعالى فالأول استدلال بالأثر على المؤثر والثاني من المؤثر على الأثر وهذا هو اللمي اليقيني ، وفي قوله تعالى : ﴿ برك ﴾ مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم وإيثاره على أو لم يكف به إشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وأتباعه من كل العارفين هم الذين يكفيهم شهوده على كل شيء دليلاً وأن ذلك لهم نفس عنايته تعالى وتربيته من دون مدخل لتعلمهم فيه بخلاف الأول ، ثم قيل : ﴿ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ فلهذا لا يكفيهم أنه تعالى على كل شيء شهيد لأنه لا شهود لهم ليشدوا شهوده تعالى فهو شامل لفريقي الأبرار والكفار ، أما الكفار فلأنهم في شك في الأصل ، وأما الأبرار فلأنهم في شك من الشهود أي لا علم لهم به إلا إيماناً متمحضاً عن التقليد .

(76/683)

وإطلاق المرية للتغليب ولا يخفى حسن موقعه ، ثم قيل : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ تتميماً لقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ لأن من أحاط بكل شيء علماً وقدرة لم يتخلف شيء عن شهوده فمن شهده شهد كل شيء فهذا هو الوجه في تعميم الآيات من غير تخصيص لها بالفتوح وهو أنسب من قول الحسن .

ومجاهد وأجرى على قواعد الصوفية وعلماء الأصول رحمة الله تعالى عليهم أجمعين انتهى

، وقد أبعد عليه الرحمة المغزى وتكلف ما تكلف ، ونقل العارف الجامي قدس سره في نفحاته عن القاشاني أن قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ الخ يدل على وحدة الوجود ، وقد رأيت في بعض كتب القوم الاستدلال به على ذلك وجعل ضمير ﴿ أَنَّهُ الحق ﴾ إلى المرئي وتفيسر ﴿ الحق ﴾ بالله عز وجل ، ومن هذا ونحوه قال الشيخ الأكبر قدس سره :

سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها وهذه الوحدة هي التي حارت فيها الأفهام وخرجت لعدم تحقيق أمرها رقاب من ربقة الإسلام ، وللشيخ إبراهيم الجوراني قدس سره النوراني عدة رسائل في تحقيق الحق فيها وتشييد مبانيها نسأل الله تعالى أن يمن علينا بصحيح الشهود ويحفظنا بجوده عما علق بأذهان الملاحدة من وحدة الوجود ، وقرىء ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بكسر همزة أن على إضمار القول ، وقرأ السلمي .

والحسن ﴿ فِى مِرْيَةٍ ﴾ بضم الميم وهي لغة فيها كالكسر ونحوها ﴿ خفية ﴾ [الأنعام : 63] بضم الخاء وكسرها والكسر أشهر لمناسبة الياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(77/683)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾

هذا كلام مستأنف يتضمن تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه ، وطعنهم في القرآن ، فأخبره أن هذا عادة قديمة في أمم الرسل ، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة إليهم ، والمراد بالكتاب : التوراة ، والضمير من قوله : ﴿ فِيهِ ﴾ راجع إليه .

وقيل : يرجع إلى موسى ، والأوّل أولى ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ في تأخير العذاب عن المكذّبين من أمتك كما في قوله : ﴿ ولكن يُؤَخِرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ [النحل : 61] ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بتعجيل العذاب لمن كذب منهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي : من كتابك المنزّل عليك ، وهو : القرآن ، ومعنى الشك المريب : الموقع في الريبة ، أو الشديد الريبة .

وقيل : إن المراد اليهود ، وأنهم في شك من التوراة مريب ، والأوّل أولى ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي : من أطاع الله ، وآمن برسوله ، ولم يكذّبهم ، فثواب ذلك راجع إليه ، ونفعه خاصّ به ﴿ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ أي : عقاب إساءته عليه لا على غيره ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، فلا يعذبّ أحداً إلاّ بذنبه ، ولا يقع منه الظلم لأحد كما في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ﴾ [يونس : 44] وقد تقدّم الكلام على معنى هذه الآية

في سورة آل عمران عند قوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بظلام للْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران : 182] ، وفي سورة الأنفال أيضاً .

ثم أخبر سبحانه : أن علم القيامة ، ووقت قيامها لا يعلمه غيره ، فقال : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة ﴾ ، فإذا وقع السؤال عنها وجب على المسئول أن يردّ علمها إليه لا إلى غيره ، وقد روي أن المشركين قالوا : يا محمد إن كنت نبياً ، فخبرنا متى تقوم الساعة ؟ فنزلت .

(78/683)

و ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرات مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ نافية ، و ﴿ من ﴾ الأولى للاستغراق ، و ﴿ من ﴾ الثانية لابتداء الغاية .

وقيل : هي موصولة في محلّ جرّ عطفاً على الساعة ، أي : علم الساعة ، وعلم التي تخرج ، والأوّل أولى .

والأكمام جمع كمّ بكسر الكاف ، وهو : وعاء الثمرة ، ويطلق على كل ظرف لمال ، أو غيره .

قال أبو عبيدة : أكمامها أوعيتها ، وهي ما كانت فيه الثمرة ، واحدها كمّ ، وكمة .

قال الراغب : الكمّ ما يغطي اليد من القميص ، وما يغطي الثمرة ، وجمعه أكمام ، وهذا

يدلّ على أن الكمّ بضمّ الكاف ، لأنه جعله مشتركاً بين كمّ القميص ، وكمّ الثمرة ، ولا خلاف في كمّ القميص أنه بالضمّ .

ويمكن أن يقال : إن في الكمّ الذي هو وعاء الثمر لغتين .

وقرأ الجمهور : (من ثمرة) بالإفراد ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص بالجمع ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أي : ما تحمل أنثى حملاً في بطنها ، ولا تضع ذلك الحمل إلاّ بعلم الله سبحانه ، والاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال أي : ما يحدث شيء من خروج ثمرة ، ولا حمل حامل ، ولا وضع واضع في حال من الأحوال إلاّ كائناً بعلم الله ، فإليه يردّ علم الساعة كما إليه يرد علم هذه الأمور ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي : ينادي الله سبحانه المشركين ، وذلك يوم القيامة ، فيقول لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في الدنيا من الأصنام ، وغيرها ، فادعوهم الآن ، فليشفعوا لكم ، أو يدفعوا عنكم العذاب ، وهذا على طريقة التهكم بهم .

قرأ الجمهور : ﴿ شركائي ﴾ ، بسكون الياء ، وقرأ ابن كثير بفتحها ، والعامل في يوم محذوف ، أي : اذكر ﴿ قَالُواْ ءاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ يقال : آذن يأذن : إذا أعلم ، ومنه قول الشاعر :

آذنتنا ببينها أسماء . . . ربّ ثاو يمل منه الثواء

والمعنى : أعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً ، وذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرءوا من الشركاء ، وتبرّأت منهم تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها .

وقيل : إن القائل بهذا هي : المعبودات التي كانوا يعبدونها ، أي : ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين ، والأوّل أولى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : زال ، وبطل في الآخرة ما كانوا يعبدون في الدنيا من الأصنام ، ونحوها ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي : أيقنوا ، وعلموا أنه لا محيص لهم ، يقال : حاص يحيص حيصاً : إذا هرب .

وقيل : الظنّ على معناه الحقيقي ؛ لأنه بقي لهم في تلك الحال ظنّ ، ورجاء ، والأوّل أولى .

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الإنسان ، فقال : ﴿ لاَّ يَسْئَمُ الانسان مِن دُعَاء الخير ﴾ أي : لا يملّ من دعاء الخير لنفسه ، وجلبه إليه ، والخير هنا : المال ، والصحة ، والسلطان ، والرفعة .

قال السدّي : والإنسان هنا يراد به الكافر .

وقيل : الوليد بن المغيرة .

وقيل : عتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، وأمية بن خلف .

والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب ، فلا ينافيه خروج خلص العباد .

وقرأ عبد الله بن مسعود : (لا يسأم الإنسان من دعاء المال) ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشر فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أي : وإن مسه البلاء ، والشدّة ، والفقر ، والمرض ، فيئوس من روح الله قنوط من رحمته .

وقيل : يئوس من إجابة دعائه قنوط بسوء الظنّ بربه .

وقيل : يئوس من زوال ما به من المكروه قنوط بما يحصل له من ظنّ دوامه ، وهما صيغتا مبالغة يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط .

(80/683)

﴿ وَلَئِنْ أذقناه رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ ﴾ أي : ولئن آتيناه خيراً ، وعافية ، وغنى من بعد شدّة ، ومرض ، وفقر ﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِى ﴾ أي : هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي ، فظنّ أن تلك النعمة التي صار فيها ، وصلت إليه باستحقاقه لها ، ولم يعلم أن الله يبتلي عباده بالخير والشرّ ، ليتبين له الشاكر من الجاحد ، والصابر من الجزع .

قال مجاهد : معناه : هذا بعملي ، وأنا محقوق به ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ أي : ما أظنها تقوم كما يخبرنا به الأنبياء ، أو لست على يقين من البعث ، وهذا خاص بالكافرين ، والمنافقين ، فيكون المراد ، بالإنسان المذكور في صدر الآية : الجنس باعتبار غالب أفراده

، لأن اليأس من رحمة الله ، والقنوط من خيره ، والشك في البعث لا يكون إلاّ من الكافرين ، أو المتزلزلين في الدين المتظهرين بالإسلام المبطنين للكفر ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَى رَبِّي ﴾ على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء : من قيام الساعة ، وحصول البعث ، والنشور ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ أي : للحالة الحسنى من الكرامة ، فظنّ أنه استحق خير الدنيا بما فيه من الخير ، واستحق خير الآخرة بذلك الذي اعتقده في نفسه ، وأثبته لها ، وهو : اعتقاد باطل ، وظنّ فاسد ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي : لنخبرنهم بها يوم القيامة ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد بسبب ذنوبهم ، واللام هذه ، والتي قبلها هي الموطئة للقسم .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ ﴾ أي : على هذا الجنس باعتبار غالب أفراده ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن الشكر ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي : ترفع عن الانقياد للحق ، وتكبر ، وتجبر ، والجانب هنا مجاز عن النفس ، ويقال : نأيت ، وتناءيت ، أي : بعدت وتباعدت ، والمنتأى : الموضع البعيد .

ومنه قول النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي . . . وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقرأ يزيد بن القعقاع : (وناء بجانبه) بالألف قبل الهمزة ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ أي : البلاء ، والجهد ، والفقر ، والمرض ﴿ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ أي : كثير ، والعرب تستعمل الطول ، والعرض في الكثرة مجازاً ، يقال : أطال فلان في الكلام ، وأعرض في الدعاء : إذا أكثر ، والمعنى : أنه إذا مسه الشرّ تضرّع إلى الله ، واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به ، واستكثر من ذلك ، فذكره في الشدّة ، ونسيه في الرخاء ، واستغاث به عند نزول النقمة ، وتركه عند حصول النعمة ، وهذا صنيع الكافرين ، ومن كان غير ثابت القدم من المسلمين ، ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة الكفار ، ومحاجتهم ، فقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي : أخبروني ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ﴾ أي : القرآن ﴿ ثُمّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أي : كذبتم به ، ولم تقبلوه ، ولا عملتم بما فيه ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : لا أحد أضلّ منكم لفرط شقاوتكم ، وشدّة عداوتكم ، والأصل : أيّ شيء أضلّ منكم ، فوضع : ﴿ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ ﴾ موضع الضمير لبيان حالهم في المشاقة ، وأنها السبب الأعظم في ضلالهم .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتنا فِى الأفاق ﴾ أي : سنريهم دلالات صدق القرآن ، وعلامات كونه من عند الله في الآفاق ﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ الآفاق جمع أفق ، وهو : الناحية .

والأفق بضم الهمزة ، والفاء ، كذا قال أهل اللغة .

ونقل الراغب أنه يقال : أفق بفتحهما ، والمعنى : سنريهم آياتنا في النواحي ، وفي أنفسهم .

قال ابن زيد : في الآفاق آيات السماء ، وفي أنفسهم حوادث الأرض .

وقال مجاهد : في الآفاق فتح القرى التي يسر الله فتحها لرسوله ، وللخلفاء من بعده ، ونصار دينه في آفاق الدنيا شرقاً ، وغرباً ، ومن الظهور على الجبابرة ، والأكاسرة ، وفي أنفسهم فتح مكة ، ورجح هذا ابن جرير .

وقال قتادة ، والضحاك : في الآفاق وقائع الله في الأمم ، وفي أنفسهم في يوم بدر .

(82/683)

وقال عطاء : في الآفاق يعني : أقطار السموات ، والأرض من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والليل ، والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والرعد ، والبرق ، والصواعق ، والنبات ، والأشجار ، والجبال ، والبحار ، وغير ذلك ، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة ، وبديع الحكمة ، كما في قوله : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ الضمير راجع إلى القرآن .

وقيل : إلى الإسلام الذي جاءهم به رسول الله .

وقيل : إلى ما يريهم الله ، ويفعل من ذلك .

وقيل : إلى محمد صلى الله عليه وسلم : أنه الرسول الحق من عند الله ، والأول أولى ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ الجملة مسوقة لتوبيخهم ، وتقريعهم ، و ﴿ بربك ﴾ في موضع رفع على أنه الفاعل ؛ ليكف ، والباء زائدة ، و ﴿ أنه ﴾ بدل من ربك ، والهمزة للإنكار .

والمعنى : ألم يغنهم عن الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن أنه سبحانه شهيد على جميع الأشياء .

وقيل : المعنى : أو لم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار .

وقيل : أو لم يكف بربك شاهداً على أن القرآن منزل من عنده .

والشهيد بمعنى : العالم ، أو هو بمعنى : الشهادة التي هي : الحضور .

قال الزجاج : ومعنى الكناية ها هنا : أن الله عزّ وجلّ قد بين لهم ما فيه كفاية في الدلالة ، والمعنى : أو لم يكف ربك أنه على كل شيءٍ شهيد شاهد للأشياء لا يغيب عنه شيء ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : في شك من البعث ، والحساب ، والثواب ، والعقاب ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات ، وأحاطت قدرته بجميع المقدورات ، يقال : أحاط يحيط إحاطة ، وحيطة ، وفي هذا وعيد شديد ؛ لأن من أحاط بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

وقد أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: في قوله: ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ سبق لهم من الله حين، وأجل هم بالغوه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ قال: حين تطلع.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ ءاذَنَّاكَ ﴾ قال: أعلمناك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿ لاَّ يَسْئَمُ الانسان ﴾ قال: لا يملّ.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الأفاق ﴾ قال: محمداً صلى الله عليه وسلم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عنه في الآية قال: ما يفتح الله من القرى ﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ قال: فتح مكة.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: أمسك المطر عن الأرض كلها ﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ قال: البلايا التي تكون في أجسامهم.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال : كانوا يسافرون ، فيرون آثار عاد ، وثمود ، فيقولون : والله لقد صدق محمد ، وما أراهم في أنفسهم قال : الأمراض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(84/683)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة البقرة ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] ، وفي سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : 82] الآية .

قوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] وفي سورة النمل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ [النمل : 40] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من كونه ليس بظلام للعبيد ، ذكره في مواضع أخر ، كقوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ الذين قالوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ [آل عمران : 182183] الآية . وقوله في الأنفال ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [الأنفال : 5152] الآية . وقوله في الحج : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ ﴾ [الحج : 1011] الآية . وقوله في سورة ق : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : 29] .

وفي هذه الآيات سؤال معروف ، وهو أن لفظة ظلام فيها صيغة مبالغة .

ومعلوم أن نفي المبالغة ، لا يستلزم نفي الفعل من أصله .

(85/683)

فقولك مثلاً : زيد ليس بقتال للرجال لا ينفي إلا مبالغته في قتلهم ، فلا ينافي أنه ربما قتل بعض الرجال .

ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة ، في الآيات المذكورة هو نفي الظلم من أصله .

والجواب عن هذا الإشكال من أربعة أوجه :

الأول : أن نفي صيغة المبالغة في الآيات المذكورة ، قد بينت آيات كثيرة ، أن المراد به نفي الظلم من أصله .

ونفي صيغة المبالغة ، إذا دلت منفصلة على أن يراد به نفي أصل الفعل ، فلا إشكال لقيام الدليل على المراد .

والآيات الدالة على ذلك كثيرة معروفة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النساء : 40] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : 44] . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : 49] وقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ [الأنبياء : 47] الآية . إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه في سورة الكهف والأنبياء .

الوجه الثاني : أن الله جل وعلا نفي ظلمه للعبيد ، والعبيد في غاية الكثرة .

والظلم المنفي عنهم تستلزم كثرتهم كثرته ، فناسب ذلك الإتيان بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة المنفي التابعة لكثرة العبيد ، المنفي عنهم الظلم ، إذ لو وقع على كل عبد ظلم ولو قليلاً ، كان مجموع ذلك الظلم في غاية الكثرة ، كما ترى .

وبذلك تعلم اتجاه التعبير بصيغة المبالغة ، وأن المراد بذلك نفي أصل الظلم ، عن كل عبد من أولئك العبيد ، الذين هم في غاية الكثرة ، سبحانه وتعالى عن أن يظلم أحداً شيئاً ، كما

بينته الآيات القرآنية المذكورة .

وفي الحديث : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي "

الحديث .

(86/683)

الوجه الثالث : أن المسوغ لصيغة المبالغة ، أن عذابه تعالى بالغ من العظم والشدة ، أنه لولا استحقاق المعذبين لذلك العذاب بكفرهم ، ومعاصيهم لكان معذبهم به ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه ، سبحانه وتعالى في ذلك علواً كبيراً .

وهذا الوجه والذي قبله أشار لهما الزمخشري في سورة الأنفال .

الوجه الرابع : ما ذكره بعض علماء العربية وبعض المفسرين ، من أن المراد بالنفي في قوله ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] نفي نسبة الظلم إليه ، لأن صيغة فعال مراداً بها النسبة فتغني عن ياء النسب كما أشار له في الخلاصة بقوله :

ومع فاعل وفعَّال فِعلْ . . . في نَسَب أغنى عَنِ اليَا فقبلْ

ومعنى البيت المذكور ، أن الصيغ الثلاثة المذكورة فيه التي هي فاعل كظالم وفعَّال كظالم ، وفِعِل كفرح ، كل منها قد تستعمل مراداً بها النسبة ، فيستغنى بها عن ياء النسب ، ومثاله

في فاعل قول الحطيئة فيه هجوه الزبرقان بن بدر التميمي :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها . . . واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالمراد بقوله الطاعم الكاسي النسبة ، أي ذو طعام وكسوة ، وقول الآخر وهو من شواهد سيبويه :

وغررتني وزعمت أنك . . . لابن في الصيف تامر

أي ذو لبن وذو تمر ، وقول نابغة ذبيان :

كليني لهم يا أميمة ناصب . . . وليل أقاسيه بطيء الكواكبي

فقوله : ناصب أي ذو نصب ، ومثاله في فعال قول امرئ القيس :

وليس بذي رمح فيطعنني به . . . وليس بذي سيف وليس بنبال

فقوله : وليس بنبال أي ليس بذي نبل ، ويدل عليه قوله قبله :

وليس بذي رمح وليس بذي سيف .

وقال الأشموني بعد الاستشهاد بالبيت المذكور : قال المصنف يعني ابن مالك : وعلى هذا حمل المحققون قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] أي بذي ظلم اه .

وما عزاه لابن مالك جزم به غير واحد من النحويين والمفسرين ، ومثاله في فعل قول الراجز وهو من شواهد سيبويه :

لست بليلى ولكني نهر . . . لا أدلج الليل ولكن أبتكر

فقوله نهر بمعنى نهاري ، وقد قدمنا إيضاحه معنى الظلم بشواهده العربية ، في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ .

تقدم الكلام على نحوه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] وفي الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرحام وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ .

الظن هنا بمعنى اليقين ، لأن الكفار يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، وشاهدوا الحقائق ،

علموا في ذلك الوقت أنهم ليس لهم من محيص ، أي ليس لهم مفر ولا ملجأ .

والظاهر أن المحيص مصدر ميمي ، من حاص يحيص بمعنى حاد وعدل وهرب .

(88/683)

وما ذكرنا من أن الظن في هذه الآية الكريمة بمعنى اليقين والعلم ، هو التحقيق إن شاء الله ، لأن يوم القيامة تنكشف فيه الحقائق ، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم في ذلك شك ، كما قال تعالى عنهم ، إنهم يقولون يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 12] . وقال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : 38] . وقال تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22] . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هذا بالحق قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا ﴾ [الأنعام : 30] وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ [النمل : 66] الآية .

ومعلوم أن الظن يطلق في لغة العرب ، التي نزل بها القرآن على معنيين :

أحدهما : الشك كقوله ﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ [يونس : 36] ، وقوله تعالى عن الكفار : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : 32] .

والثاني : هو إطلاق الظن مراداً به العلم واليقين ، ومنه قوله تعالى هنا : ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ [فصلت : 48] أي أيقنوا ، أنهم ليس لهم يوم القيامة محيص ، أي لا مفر ولا مهرب لهم من عذاب ربهم ، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف : 53] أي أيقنوا ذلك وعلموه ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : 46] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُواْ اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ ﴾ [البقرة : 249] وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَؤاْ كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 1920] ، فالظن في الآيات المذكورة كلها بمعنى اليقين .

ونظير ذلك من كلام العرب قول دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج . . . سراتهم في الفارسي المسرد

وقول عميرة بن طارق :

بأن تفتروا قومي وأقعد فيكم . . . وأجعل مني الظن غيباً مرجما

والظن في البيتين المذكورين بمعنى اليقين ، والفعل القلبي في الآية المذكورة التي هي قوله : ﴿

وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ [فصلت : 48] معلق عن العمل في المفعولين بسبب النفي بلفظة ما في قوله : ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ كما أشار له في الخلاصة بقوله :

*والتزم التعليق قبل نفي " ما " *

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ .

(90/683)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] . [الكهف : 36] .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51)

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وبعض الأحاديث الصحيحة ، الموافقة لها في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [يونس : 12] .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ ﴾ [غافر : 13] الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ﴾

المرية : الشك .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من شك الكفار في البعث والجزاء ، قد قدمنا الآيات الموضحة له ، ولما يترتب عليه من الخلود في النار ، في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ [الفرقان : 11] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(91/683)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾

هذا وصف وتذكير بضرب آخر من طغيان النفس الإنسانية غير خاص بأهل الشرك بل هو منبث في جميع النّاس على تفاوتٍ إلاَّ من عصم الله .

وهو توصيف لنَزَق النفْس الإنساني وقلّة ثباته فإذا أصابته السراء طغا وتكبر ونسِي

شكر ربّه نسياناً قليلاً أو كثيراً وَشُغل بلذاته ، وإذا أصابته الضراء لم يصبر وجزِع ولجأ إلى ربّه يُلحّ بسؤال كشف الضراء عنه سريعاً .

وفي ذكر هذا الضرب تعرُّض لفعل الله وتقديره الخَلتين السراء والضراء .

وهو نقد لسُلوك الإنسان في الحالتين وتعجيب من شأنه .

ومحل النقد والتعْجيب من إعراضه ونأيه بجانبه واضح ، وأمّا محل الانتقاد والتعجيب من أنّه ذو دُعاء عريض عندما يمسه الشرّ فهو من حيث لم يتذكر الإقبالَ على دعاء ربّه إلا عندما يَمَسُّه الشر وكان الشأن أن لا يغفل عن ذلك في حال النعمة فيدعو بدوامها ويشكر ربّه عليها وقبولِ شكره لأن تلك الحالة أولى بالعناية من حالة مسّ الضر .

وأما ما تقدم من قوله : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ إلى قوله : ﴿ للحسنى ﴾ [فصلت : 49 ، 50] فهو وصف لضرب آخر أشدّ ، وهو خاص بأهل الشركِ لما وقع فيه من قوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ [الكهف : 36] ، فليس قوله : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأا بجانبه ﴾ الخ تكريراً مع قوله : ﴿ لا يسأم الإنسان ﴾ [فصلت : 49] الآية .

فهذا التفنن في وصف أحوال الإنسان مع ربّه هو الذي دعا إلى ما اشتمل عليه قوله : ﴿ وإذا أنعمنا ﴾ من بعض التكرير لما ذكر في الضرب المتقدم لزيادة تقريره ، وللإشارة إلى اختلاف الحالتين باعتبار الشرك وعدمه مع اتحادهما في مثار الجبلة الإنسانية ، وباعتبار ما

قدره الله للإنسان .

والإعراض : الانصراف عن شيء ، وهو مستعار هنا للغفلة عن شكر المنعم أو التعمد لترك الشكر .

(92/683)

ومتعلق فعل ﴿ أعرض ﴾ محذوف لدلالة السياق عليه ، والتقدير : أعرض عن دعائنا .

والنأي : البعد ، وهو هنا مستعار لعدم التفكر في المنعِم عليه ، فشبّه عدم اشتغاله بذلك بالبُعد .

والجانب للإنسان : منتهى جسمه من إحدى الجهتين اللّتين ليستا قُبالَة وجهه وظهرِه ، ويسمى الشِقّ ، والعِطف بكسر العين .

والباء للتعدية .

والمعنى : أبعد جانبه ، كناية عن إبعاد نفسه ، أي ولَّى معرضاً غير ملتفت بوجهه إلى الشيء الذي ابتعد هو عنه .

ومعنى ﴿ مسه الشر ﴾ أصابه شر بسبب عاديّ .

وعدل عن إسناد إصابة الشر إلى الله تعليماً للأدب مع الله كما قال إبراهيم ﴿ الذي

خلقني فهو يهدين ﴾ [الشعراء : 78] الخ .

ثم قال : ﴿ وإذا مَرِضْت فهو يشفين ﴾ [الشعراء : 80] فلم يقل : وإذا أمرضني ، وفي ذلك سرّ وهو أن النعم والخير مسخّران للإنسان في أصل وضع خلقته فهما الغالبان عليه لأنّهما من مظاهر ناموس بقاء النوع .

وأمّا الشرور والأضرار فإن معظمها ينجرّ إلى الإنسان بسوء تصرفه وبتعرضه إلى ما حذرته منه الشرائع والحكماء الملهمون فقلما يقع فيهما الإنسان إلا بعلمه وجُرأته .

والدعاء : الدعاء لله بكشف الشرّ عنه .

ووصفُه بالعريض استعارة لأن العَرض بفتح العين ضد الطول ، والشيء العريض هو المتسع مساحة العَرض ، فشبه الدعاء المتكرر الملَحُّ فيه بالثوب أو المكان العريض .

وعُدل عن أن يقال : فداع ، إلى ﴿ ذو دعاء ﴾ لما تشعر به كلمة ﴿ ذو ﴾ من ملازمة الدعاء له وتملكه منه .

والدّعاء إلى الله من شيم المؤمنين وهم متفاوتون في الإكثار منه والإقلال على تفاوت ملاحظة الحقائق الإلهيّة .

وتَوجه المشركين إلى الله بالدعاء هو أقوال تجري على ألسنتهم توارثوها من عادات سالفة من أزمان تدينهم بالحنيفية قبل أن تدخل عليهم عبادة الأصنام وتتأصل فيهم فإذا دعوا الله غفلوا عن منافاة أقوالهم لعقائد شركهم .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52)

استئناف ابتدائي متصل بقوله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لمَّا جاءهم ﴾ إلى قوله : ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ [فصلت : 41 ، 45] .

فهذا انتقال إلى المجادلة في شأن القرآن رجع به إلى الغرض الأصلي من هذه السورة وهو بيان حقّيّة القرآن وصدقه وصدق من جاء به .

وهذا استدعاء ليُعمِلُوا النظر في دلائل صدق القرآن مثل إعجازه وانتساقه وتأييد بعضه بعضاً وكونه مؤيّداً للكتب قبلَه ، وكونِ تلك الكتب مؤيدة له .

والمعنى : ما أنتم عليه من إنكار صدق القرآن ليس صادراً عن نظر وتمحيص يحصّل اليقين وإنما جازفتم به قبل النظر فلو تأملتم لاحتمل أن يُنتج لكم التأمل أنه من عند الله وأن لا يكون من عنده ، فإذا فُرض الاحتمال الأول فقد أقحمتم أنفسكم في شقاق قويّ .

وهذا من الكلام المنصِف واقتُصر فيه على ذكر الحالة المنطبقة على صفاتهم تعريضاً بأن ذلك هو الطرَف الرّاجح في هذا الإجمال كأنه يقول : كما أنكم قضيتم بأنه ليس من عند الله وليس ذلك معلوماً بالضرورة فكذلك كونه من عند الله فتعالوا فتأملوا في الدّلائل ، فهم لمّا

أنكروا أن يكون من عند الله وصدوا أنفسهم وعامتهم عن الاستماع إليه والتدبر فيه فقد أعملوا شهوات أنفسهم وأهملوا الأخذ بالحيطة لهم أن يتدبروه حتى يكونوا على بينة من أمرهم في شأنه ، وهم إذا تدبروه لا يلبثون أن يعلموا صدقه ، فاستدعاهم الله إلى النظر بطريق تجويز أن يكون من عند الله فإنه إذا جاز ذلك وكانوا قد كفروا به دون تأمل كانوا قد قضوا على أنفسهم بالضلال الشديد ، وإذا كانوا كذلك فقد حقّت عليهم كلمات الوعيد .

و﴿ إن ﴾ الشرطية شأنها أن تدخل على الشرط المشكوك فيه ، فالإتيان بها إرخاء للعنان معهم لاستنزال طائر إنكارهم حتى يقبلوا على التأمل في دلائل صدق القرآن .

(94/683)

ويشبه أن يكون المقصود بهذا الخطاب والتشكيك أولاً دَهماءَ المشركين الذين لم ينظروا في دلالة القرآن أو لم يطيلوا النظر ولم يبلغوا به حد الاستدلال .

وأما قادتهم وكبراؤهم وأهل العقول منهم فهم يعلمون أنه من عند الله ولكنّهم غلب عليهم حبّ الرئاسة على أنهم متفاوتون في هذا العلم إلى أن يبلغ بعضهم إلى حدّ قريب من حالة الدّهماء ولكن القرآن ألقى بينهم هذا التشكيك تغليباً ومراعاةً لاختلاف درجات المعاندين ومجاراةً لهم ادعاءهم أنّهم لم يهتدوا نظراً لقولهم ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه

وفي ءاذاننا وقر ﴾ [فصلت : 5] .

و﴿ ثُمّ ﴾ في قوله : ﴿ ثم كفرتم ﴾ للتراخِي الرتبي لأن الكفر بما هو من عند الله أمره أخطر من كون القرآن من عند الله .

و﴿ مَن ﴾ الأولى للاستفهام وهو مستعمل في معنى النفي ، أي لا أضل ممن هو في شقاق بعيد إذا تحقق الشرط .

و﴿ مَن ﴾ الثانية موصولة ومَا صْدَقُها المخاطبون بقوله : ﴿ كفرتم به ﴾ فعُدل عن الإضمار إلى طريق الموصول لما تأذن به الصلة من تعليل أنّهم أضلُّ الضالّين بكونهم شديدي الشقاق ، وذلك كناية عن كونهم أشد الخلق عقوبة لما هو معلوم من أن الضلال سبب للخسران .

والشقاق : العصيان .

والمراد : عصيان أمر الله لظهور أن القرآن من عنده على هذا الفرض بيننا .

والبعيد : الواسع المسافة ، واستعير هنا للشديد في جنسه ، ومناسبة هذه الاستعارة للضلال لأن الضلال أصله عدم الاهتداء إلى الطريق ، وأن البعد مناسب للشقاق لأن المنشقّ قد فارق المنشقَّ عنه فكان فراقه بعيداً لا رجاء معه للدنوّ ، وتقدم في قوله : ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ في سورة البقرة (176) .

وفعل ﴿ أرأيتم ﴾ معلق عن العمل لوجود الاستفهام بعده ، والرؤية علمية .

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ

(95/683)

أعقب الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين ما فيه تخويفهم من عواقب الشقاق على تقدير أن يكون القرآن من عند الله وهم قد كفروا به إلى آخر ما قرر آنفاً ، بأن وَعَدَ رسوله صلى الله عليه وسلم على سبيل التسلية والبشارة بأن الله سيغمر المشركين بطائفة من آياته ما يتبيّنون به أن القرآن من عند الله حقاً فلا يسعهم إلا الإيمان به ، أي أن القرآن حقّ بَيِّنٌ غير محتاج إلى اعترافهم بحقيته ، وستظهر دلائل حقّيّته في الآفاق البعيدة عنهم وفي قبيلتهم وأنفسهم فتتظاهر الدلائل على أنّه الحق فلا يجدوا إلى إنكارها سبيلاً ، والمراد : أنهم يؤمنون به يومئذٍ مع جميع من يؤمن به .

وفي هذا الوعد للرّسول صلى الله عليه وسلم تعريض بهم إذْ يسمعونه على طريقة : فاسمعي يا جارة .

فموقع هذه الجملة بصريحها وتعريضها من الجملة التي قبلها موقع التعليل لأمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما أمر به ، والتعليل راجع إلى إحالتهم على تشكيكهم في

موقفهم للطعن في القرآن .

وقد سكت عما يترتب على ظهور الآيات في الآفاق وفي أنفسهم المبينة أن القرآن حقّ لأن ما قبله من قوله : ﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ [فصلت : 52] ينبىء عن تقديره ، أي لا يسعهم إلا الإيمان بأنه حق فمن كان منهم شاكّاً من قبلُ عن قلة تبصر حصل له العلم بعد ذلك ، ومن كان إنّما يكفر عناداً واحتفاظاً بالسيادة افتضح بهتانه وسفَّه جيرانه .

وكلاهما قد أفات بتأخير الإيمان خيراً عظيماً من خير الآخرة بما أضاعه من تزود ثواب في مدة كفره ومن خير الدّنيا بما فاته من شرف السبق بالإيمان والهجرة كما قال تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفقَ مِن قبلِ الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ [الحديد : 10] .

(96/683)

وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار عن الغيب إذ أخبرتْ بالوعد بحصول النصر له ولدينه وذلك بما يسَّر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ولخلفائه مِن بعده في آفاق الدّنيا والمشرق والمغرب عامة وفي بَاحة العرب خاصة من الفتوح وثباتها وانطباع الأمم بها ما لم

تتيسر أمْثالها لأحد من ملوك الأرض والقياصرة والأكاسرة على قلة المسلمين إن نسب عددهم إلى عدد الأمم التي فتحوا آفاقها بنشر دعوة الإسلام في أقطار الأرض ، والتّاريخ شاهد بأن ما تهيأ للمسلمين من عجائب الانتشار والسلطان على الأمم أمر خارق للعادة ، فيتبيّن أن دين الإسلام هو الحق وأن المسلمين كلما تمسّكوا بعُرى الإسلام لَقُوا من نصر الله أمراً عجيباً يشهد بذلك السابق واللاحق ، وقد تحدّاهم الله بذلك في قوله:

﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾ [الرعد : 41] ثم قال ﴿ ويقول الذّين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ [الرعد : 43] .

ولم يقف ظهور الإسلام عند فتح الممالك والغلب على الملوك والجبابرة ، بل تجاوز ذلك إلى التغلغل في نفوس الأمم المختلفة فتقلّدوه ديناً وانبثت آدابه وأخلاقه فيهم فأصلحت عوائدهم ونُظُمهم المدنِيّة المختلفة التي كانوا عليها فأصبحوا على حضارة متماثلة متناسقة وأوجدوا حضارة جديدة سالمة من الرعونة وتفشت لغة القرآن فتخاطبت بها الأمم المختلفة الألسن وتعارفت بواسطتها ونبغت فيهم فطاحل من علماء الدّين وعلماء العربية وأيمة الأدب العربي وفحول الشعراء ومشاهير الملوك الذين نشروا الإسلام في الممالك بفتوحهم .

فالمراد بالآيات في قوله : ﴿ سنريهم آياتنا ﴾ ما يشمل الدلائل الخارجة عن القرآن وما

يشمل آيات القرآن فإن من جملة معنى رؤيتها رؤية ما يصدّقِ أخبارها ويبيّن نصحها إياهم بدعوتها إلى خير الدّنيا والآخرة .

(97/683)

والآفاق : جمع أُفُق بضمتين وتسكن فاؤه أيضاً هو : الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها ، والناحية من قبة السماء .

وعطف ﴿ وفي أنفسهم ﴾ يجوز أُن يكون من عطف الخاص على العام ، أي وفي أفق أنفسهم ، أي مكّة وما حولها على حذف مضاف .

والأحسن أنْ يكون في الآفاق على عمومه الشامل لأفقهم ، ويكون معنى ﴿ وفي أنفسهم ﴾ أنّهم يرون آيات صدقه في أحوال تصيب أنفسهم ، أي ذواتهم مثل الجوع الذي دعا عليهم به النبي صلى الله عليه وسلم ونزل فيه قوله تعالى : ﴿ فارتَقِبْ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ [الدخان : 10] ، ومثل ما شاهدوه من مَصارِع كبرائهم يوم بدر وقد توعدهم به القرآن بقوله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنّا منتقمون ﴾ [الدخان : 16] .

وأيّة عبرة أعظم من مقتل أبي جهل يوم بدر رماه غلامان من الأنصار وتولى عبد الله بن مسعود ذبحه وثلاثتهم من ضعفاء المسلمين وهو ذلك الجبار العنيد .

وقد قال عند مَوته : لو غيرُ أكَّار قتلني ، ومن مقتل أُبيّ بن خلف يومئذٍ بيد النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان قال له بمكة : أنا أقتلُك وقد أيقن بذلك فقال لزوجه ليلة خروجه إلى بدر : والله لو بصق علي لقتلني .

﴿ الحق أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

عَطْفٌ على إعلام الرّسول بما سيظهر من دلائل صدق القرآن وصدق الرّسول صلى الله عليه وسلم زيادة لتَثبيتِ الرّسول وشرح صدره بأن الله تكفل له بظهور دينه ووضوح صدقه في سائر أقطار الأرض وفي أرض قومه ، على طريقة الاستفهام التقريري تحقيقاً لتيقن النبي صلى الله عليه وسلم بكفالة ربّه بحيث كانت ممّا يقرر عليها كنايةً عن اليقين بها ، فالاستفهام تقريري .

(98/683)

والمعنى : تكفيك شهادة ربّك بصدقك فلا تلتفت لتكذيبهم ، وهذا على حدّ قوله : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ [النساء : 166] وقوله : ﴿ وأرسلناك للنّاس رسولاً وكفى بالله شهيداً ﴾ [النساء : 79] فهذا وجه في موقع هذه الآية .

وهنالك وجه آخر أن يكون مساقها مساق تلقين النبي صلى الله عليه وسلم أن يستشهد بالله على أن القرآن من عند الله ، فيكون موقعها موقع القَسم بإشهاد الله ، وهو قسم غليظ فيه معنى نسبة المقسَم عليه إلى أنه مما يشهَد الله به فيكون الاستفهام إنكارياً إنكاراً لعدم الاكتفاء بالقَسَم بالله ، وهو كناية عن القسم ، وعن عدم تصديقهم بالقسَم ، فيكون معنى الآية قريباً من معنى قوله تعالى : ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ [الرعد : 43] وقوله تعالى : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ [العنكبوت : 52] .

وليس معنى الآية إنكاراً على المشركين أنّهم لم يكتفوا بشهادة الله على صدق القرآن ولا على صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم لأنّهم غير معترفين بأن الله شهد بذلك فلا يظهر توجه الإنكار إليهم .

ولقد دلّت كلمات المفسرين في تفسير هذه الآية على تردد في استخراج معناها من لفظها .

وقوله : ﴿ أنه على كل شيء شهيد ﴾ بدل اشتمال من ﴿ بربّك ﴾ والتقدير : أو لم يكفهم ربُّك عِلمُه بكل شيء ، أي فهو يحقق ما وعدك من دمغهم بالحجة الدالة على صدقك ، أو فمن استشهدَ به فقد صدق لأن الله لا يُقرّ من استشهد به كاذباً فلا يلبثُ أن يأخذه .

وفي الآية على الوجه الثاني من وجهي قوله : ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ إشارة إلى أن الله لا يصدق من كذب عليه فلا يتم له أمر وهو معنى قول أئمة أصول

الدّين : إن دلالة المعجزة على الصدق أن تغيير الله العادة لأجل تحدّي الرّسول صلى الله عليه وسلم قائم مقام قوله : صَدَق عبدي فيما أخبر به عني .

(99/683)

أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

تذييلان للسورة وفذلكتان افتتحا بحرف التنبيه اهتماماً بما تضمناه .

فأما التذييل الأول فهو جُماع ما تضمنته السورة من أحوال المشركين المعاندين إذ كانت أحوالهم المذكورة فيها ناشئة عن إنكارهم البعث فكانوا في مأمن من التفكير فيما بعد هذه الحياة ، فانحصرت مساعيهم في تدبير الحياة الدّنيا وانكبُّوا على ما يعود عليهم بالنفع فيها . وضمير ﴿ إنهم ﴾ عائد إليهم كما عاد ضمير الجمع في ﴿ سنريهم ﴾ [فصلت : 53] .

وأما التذييل الثاني فهو جامع لكل ما تضمنته السورة من إبطالٍ لأقوالهم وتقويمٍ لاعوجاجهم ، لأن ذلك كله من آثار علم الله تعالى بالغيب والشهادة .

وتأكيد الجملتين بحرف التأكيد مع أن المخاطب بهما لا يشكّ في ذلك لقصد الاهتمام بهما واستدعاء النّظر لاستخراج ما تحويانه من المعاني والجزئيات .

والمرية بكسر الميم وهو الأشهر فيها واتفقت عليه القراءات المتواترة ، وبكسر الميم وهو لغة مثل : خِفْية وخُفية .

والمرية : الشك .

وحرف الظرفية مستعار لتمكن الشك بهم حتى كأنّهم مظروفون فيه و ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية وتعدى بها أفعال الشك إلى الأمر المشكوك فيه بتنزيل متعلق الفعل منزلة مثار الفعل بتشبيه المفعول بالمَنشإ كأن الشك جاء من مكان هو المشكوك فيه .

وفي تعليقه بذات الشيء مع أن الشك إنما يتعلق بالأحكام مبالغة على طريقة إسناد الأمور إلى الأعيان والمرادُ أوصافها ، فتقدير ﴿ في مرية من لقاء ربهم ﴾ : في مرية من وقوع لقاء ربّهم وعدمِ وقوعه كقوله تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ [البقرة : 23] أي في ريب من كونه منزلاً .

وأطلق الشك على جزمهم بعدم وقوع البعث لأن جزمهم خلي عن الدّليل الذي يقتضيه ، فكان إطلاق الشك عليه تعريضاً بهم بأن الأوْلى بهم أن يكونوا في شك على الأقل .

(100/683)

ووصف الله بالمحيط مجاز عقلي لأن المحيط بكل شيء هو علمه فأسندت الإحاطة إلى اسم الله لأن (المحيط) صفة من أوصافه وهو العلم.

وبهاتين الفذلكتين آذن بانتهاء الكلام فكان من براعة الختام. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(101/683)

"فصل"

قال السيوطى:

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما تخرج من ثمرة من أكمامها ﴾ قال: حين تطلع.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ آذناك ﴾ أعلمناك.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله ﴿ لا يسأم الإِنسان ﴾ قال: لا يمل.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا . . ﴾

الآية. قال: عافية.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾ قال: كانوا يسافرون فيرون آثار عاد وثمود يقولون والله لقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أراهم في أنفسهم ﴾ قال: الأمراض. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(102/683)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله:

قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾.

فِيهِ بَيَانُ أَنَّ ذَلِكَ أَحْسَنُ قَوْلٍ وَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى لُزُومِ فَرْضِ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ؛ إذْ لَا جَائِزَ أَنْ يَكُونَ النَّفْلُ أَحْسَنَ مِنْ الْفَرْضِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ الدُّعَاءُ إلَى اللَّهِ فَرْضًا، وَقَدْ جَعَلَهُ مِنْ أَحْسَنِ قَوْلٍ اقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ النَّفْلُ أَحْسَنَ مِنْ الْفَرْضِ، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ.

وقَوْله تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ الْآيَةَ.

قِيلَ: إنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الْمَوْتِ فَيَقُولُونَ لَا تَخَفْ مِمَّا أَنْتَ قَادِمٌ عَلَيْهِ فَيُذْهِبُ اللَّهُ

خَوْفَهُ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَى الدُّنْيَا ، وَلَا عَلَى أَهْلِهَا فَيُذْهِبُ اللَّهُ خَوْفَهُ ، وَأَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ .

وَقَالَ غَيْرُهُ : إِنَّمَا يَقُولُونَ لَهُ ذَلِكَ فِي الْقِيَامِ عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْ الْقَبْرِ فَيَرَى تِلْكَ الْأَهْوَالَ ، فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ : لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهَذَا غَيْرُك ، وَيَقُولُونَ لَهُ : نَحْنُ أَوْلِيَاؤُك فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَلَا يُفَارِقُونَهُ تَأْنِيسًا لَهُ إلَى أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ قَالَ : " أَخْلَصُوا لَهُ الدِّينَ وَالْعَمَلَ وَالدَّعْوَةَ " .

(103/683)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَك وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : ذَكَرَ اللَّهُ الْعَدُوَّ فَأَخْبَرَ بِالْحِيلَةِ فِيهِ حَتَّى تَزُولَ عَدَاوَتُهُ وَيَصِيرَ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الْآيَةَ .

قَالَ : وَأَنْتَ رُبَّمَا لَقِيتَ بَعْضَ مَنْ يَنْطَوِي لَك عَلَى عَدَاوَةٍ وَضِغْنٍ فَتَبْدَأُهُ بِالسَّلَامِ أَوْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ فَيَلِينُ لَك قَلْبُهُ وَيُسْلِمُ لَك صَدْرُهُ .

قَالَ : ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ الْحَاسِدَ

فَعَلِمَ أَنْ لَا حِيلَةَ عِنْدَنَا فِيهِ وَلَا فِي اسْتِمْلَاكِ سَخِيمَتِهِ وَاسْتِخْرَاجِ ضَغِينَتِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذَا حَسَدَ ﴾ فَأَمَرَ بِالتَّعَوُّذِ مِنْهُ حِينَ عَلِمَ أَنْ لَا حِيلَةَ عِنْدَنَا فِي رِضَاهُ .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ الْآيَةَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اُخْتُلِفَ فِي مَوْضِعِ السُّجُودِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٍ وَقَتَادَةَ أَنَّهُ عِنْدَ قَوْلِهِ ﴿ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ وَرُوِيَ عَنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَسَنِ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَوْلَى أَنَّهَا عِنْدَ آخِرِ الْآيَتَيْنِ ؛ لِأَنَّهُ تَمَامُ الْكَلَامِ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ السَّلَفَ لَمَّا اخْتَلَفُوا كَانَ فِعْلُهُ بِالْآخِرِ مِنْهُمَا أَوْلَى ؛ لِاتِّفَاقِ الْجَمِيعِ عَلَى جَوَازِ فِعْلِهَا بِأُخْرَاهُمَا وَاخْتِلَافِهِمْ فِي جَوَازِهَا بِأُولَاهُمَا .

(104/683)

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ﴾ الْآيَةَ .

يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَوْ جَعَلَهُ أَعْجَمِيًّا كَانَ أَعْجَمِيًّا فَكَانَ يَكُونُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ، وَأَنَّهُ إنَّمَا كَانَ عَرَبِيًّا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَقْلَهُ إلَى لُغَةِ الْعَجَمِ لَا يُخْرِجُهُ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ قُرْآنًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾

لَمَّا استعجلوا وقالوا : متى تقوم هذه القيامةُ التي يَتوعَّدنا بها ؟ قال الله تعالى : إنَّ علمَ القيامة ينفرد به الحقُّ فلا يعلم غيره ، فكما لا يعلم أحدٌ ما الذي يخرج من الاشجار من الثمار ، وما الذي تنطوي عليه أرحامُ النساءِ من أولادها ذكوراً وإناثاً ، وما هم عليه من أوصاف الخِلْقة ، ويحصل من الحيوانات من نتاجها – فلا يعلم هذه الأشياء إلا الله – فكذلك لا يعلم أحدٌ متى تقوم القيامة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾ : يتبرؤون من شركائهم ، ولكن في وقت لا تنفعهم كثرةُ نَدَمِهم وبكائهم .

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49)

لا يَمَلُّ الإنسانُ من إرادة النفع والسلامة ، وإنْ مَسَّه الشرُّ فيئوسٌ لا يرجو زوالَه لِعَدَمِ علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إليه .

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي

لئن كَشَفْنا عنه البلاءَ ، وأوجبنا له الرجاء لادَّعاه استحقاقاً أو اتفاقاً ، وما اعتقد أن ذلك مِنَّا فضلٌ وإيجاب .

ويقول : لو كان حشرٌ ونشرٌ لكان لي من الله لطفٌ وخير ، وغداً يعلم الأمر ، وأنه بخلاف ما تَوَهَّمَ . . . وذلك عندما نذيقه ما يستوجبه من عذاب .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51)

هو لا يميز بين البلاء والعطاء ؛ فكثيرٌ مما يتوهمه عطاءً هو مكرٌ واستدراجٌ . . وهو يستديمه . وكثيرٌ مما فضلٌ وصَرْفٌ وعطاءٌ يظنه من البلاء فيعافُه ويكرهه .

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحَبَه بالبَطَر ، وإذا أبليناه قابَلَه بالضجر .

(106/683)

ويقال إذا أنعمنا عليه أُعْجِبَ بنفسه ، وتكبَّر مختالاً في زَهْوِه ، لا يشكر ربَّه ، ولا يدرك فضلَه ، ويتباعد عن بِساط طاعته .

والمستغني عنَّا يهيم على وجهه ، وإذا مسَّه الشرُّ فذو دعاءٍ كثيرٍ ، وتضرُّعٍ عريض ، وابتهالٍ شديد ، واستكشافٍ دائم .

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عُتُوّه ونُبُوّه عَوْدٌ ، ولسوء طريقته في الجحود إعادة .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52)

﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ : السن للأستقبال ؛ اي سيُظهر لهم من الآيات ، ومن الأحداث التي تجري في أحوال العالَم ، وما سيحِلُّ بهم من اختلاف الأمور ما يتبيَّن لهم من خلاله أنَّ هذا الدِّين حقٌّ ، وأنَّ هذا الكتابَ حقٌّ ، وأن محمداً – صلى الله عليه وسلم – حقٌّ ، وأن المُجْرِيَ لهذه الآياتِ والأحداثِ والأمورِ والمنشىءَ له هو الحقُّ – سبحانه .

ومن تلك الآيات ما كان من قَهْرِ الكفار ، وعُلُوِّ الإسلام ، وتلاشي أعداء الدين .

ويقال من تلك الآيات في الأفاق اختلافُ أحكام الأعين مع اتفاق جواهرها في التجانس . .

وهذه آيات حدوثِ العالَم ، واقتضاء المُحدَثِ لصفاته .

﴿ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ : من أمارات الحدوثِ واختلافِ الأوصاف ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : ﴿ فِي الأَفَاقِ ﴾ للعلماء ، ﴿ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا أَلَمُّوا بذنْبٍ ، ومن الثواب إذا أخلصوا في طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط ، وجمع وفَرْقٍ ، وحجبٍ وجذبٍ . . . وما يجدونه بالضرورة في معاملاتهم ومنازلاتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ : هو الكافي ، ولكنهم – أي الكفار – في مِرْيَةٍ من لقاء ربهم في القيامة . والإشارة فيه : أن العوامَّ لَفي شكٍ من تجويز ما يُكاشَفُ به

أهلُ الحضورِ من تعريفات السرّ .

﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ : عالِمٌ لا يَخْفَى عليه شيءٌ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 337.340 ﴾

(107/683)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء ﴾

قال القتبي : يعني : ألزمناهم قرناء من الشياطين .

وقال أهل اللغة : قيض يعني : سلط .

ويقال : قيض بمعنى قدر .

﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم ﴾ يعني : زينوا لهم التكذيب بالحساب ، وقال الحسن : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء ﴾ أي : خلينا بينهم ، وبين الشياطين بما استحقوا من الخذلان ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ ، ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ قال الضحاك .

يعني : شككوهم في أمر الآخرة ، وَمَا خَلْفَهُمْ يعني : رغبوهم في الدنيا .

ويقال : زينوا لهم ما بين أيديهم .

يعني : ما كان عليه آباؤهم من أمر الجاهلية ، وما خلفهم .

يعني : تكذيبهم بالبعث ، ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ يعني : وجب عليهم العذاب ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : مع أمم قد خلت من قبل أهل مكة ، ﴿ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ بالعقوبة .

ويقال : إِنَّهُمْ كَانوا خاسِرِين مثلهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان ﴾ نزلت الآية في أبي جهل ، وأصحابه ، فإنه قال : إذا تلى محمد القرآن ، فارفعوا أصواتكم ، بالأشعار ، والكلام في وجوههم ، حتى تلبسوا عليهم ، فذلك قوله : ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ يعني : الغطوا ، واللغط هو الشغب ، والجلب ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ أي : تغلبوهم فيسكتون .

قال الزجاج : قوله : ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ أي : عارضوه بكلام لا يفهم ، يكون ذلك الكلام لغواً .

يقول الله تعالى : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ يعني : في الدنيا بالقتل ، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ أَسْوَأَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : أقبح ما كانوا يعملون ، ويقال : هذا كله من عذاب الآخرة .

يعني : فلنذيقن الذين كفروا في الآخرة عذاباً شديداً ، ولنجزينهم من العذاب أَسْوَأَ ما كانوا يعملون .

(108/683)

يعني : بأسوإ أعمالهم ، وهو الشرك .

﴿ ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء الله النار ﴾ يعني : ذلك العذاب الشديد هو جزاء أعداء الله النَّارُ .

يعني : ذلك العذاب هو النار ويقال : صار رفعاً بالبدل عن الجزاء .

ثم قال : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ يعني : في النار موضع المقام أبداً ، ﴿ جَزَاء أَعْدَاء الله النار لَهُمْ ﴾ يعني : بالكتاب ، والرسل .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَا أَرِنَا اللذين ﴾ يعني : الصنفين اللذين ﴿ أضلانا ﴾ يعني : استنا ضلالتنا ، ﴿ مّنَ الجن والإنس ﴾ ويقال : جهلانا حتى نسينا الآخرة .

ثم قال : ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الاسفلين ﴾ في النار .

ويقال : من الجن .

ويقال : يعني : إبليس هو الذي أضلنا ، ومن الإنس يعني : ابن آدم الذي قتل أخاه .

ويقال : يعني : رؤساؤهم في الضلالة .

كقوله : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] الآية .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ أَرِنَا ﴾ بجزم الراء .

والباقون : بالكسر ومعناهما واحد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ يعني : قالوا ربنا الله ، فعرفوه ، واستقاموا على المعرفة .

وقال القتبي : يعني : آمنوا ، ثم استقاموا على طاعة الله .

وقال ابن عباس في رواية الكلبي : ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ على ما افترض الله عليهم .

وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ، ثم قال : أتدرون ما استقاموا عليه ؟ فقالوا : ما هو يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : " اسْتَقَامُوا ، وَلَمْ يُشْرِكُوا " .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ ولم يروغوا روغان الثعلب على طاعة الله .

فقال ابن عباس في رواية القتبي : ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ .

وعن أبي العالية أنه قال : ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ أي : أخلصوا له الدين ، والعمل .

ويقال : وحّدوا الله تعالى ، واستقاموا على طاعته ، ولزموا سنة نبيه .

وقال بعض المتأخرين : معناه : ثم استقاموا أفعالاً ، كما استقاموا أقوالاً .

وقد قيل أيضاً : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ يعني : يقولون الله مانعنا ، ومعطينا ، وضارنا ، ونافعنا ، ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ على ذلك القول ، ولا يرون النفع ، ولا يرجون من أحد دون الله تعالى ، ولا يخافون أحداً دون الله ، فذكر أعمالهم ، ثم ذكر ثوابهم .

فقال : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملئكة ﴾ قال الكلبي يعني : تتنزل عليهم الملائكة عند قبض أرواحهم ، ويبشرونهم ، ويقولون : ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ يعني : لا تخافوا ما أمامكم من العذاب .

ولا تحزنوا على ما خلفكم من الدنيا .

وقال مقاتل : تتنزل عليهم الملائكة يعني : تتنزل عليهم الحفظة من السماء ، يوم القيامة ، فتقول له : أتعرفني ؟ فيقول : لا .

فيقول : أنا الذي كنت أكتب عملك ، وبشره بالجنة ، فذلك قوله : ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا .

وقال زيد بن أسلم البشرى : في ثلاث مواطن ، عند الموت ، وفي القبر ، وفي البعث .

وقال بعض المتأخرين : هذه البشرى للخائف الحزين ، لا للآمن المستبشر .

يعني : الذي كان خائفاً في الدنيا .

ثم قال عز وجل : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الحياة ﴾ يعني : تقول لهم الحفظة ، نحن كنا أولياءكم في الحياة الدنيا ، ونحن أولياؤكم ، ﴿ وَفِى الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ يعني : لكم في الجنة ما تحب ، وتتمنى قلوبكم ، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ يعني : تسألون .

ثم قال : ﴿ نُزُلاً ﴾ أي : رزقاً ﴿ مِّنْ غَفُورٍ ﴾ للذنوب العظام ، ﴿ رَّحِيمٍ ﴾ بالمؤمنين .

(110/683)

حكى الزجاج عن الأخفش : ﴿ نُزُلاً ﴾ منصوباً من وجهين ، أحدهما على المصدر ، فمعناه : أنزلناه نزلاً .

ويجوز أن يكون على الحال .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صالحا ﴾ قال بعضهم : الآية نزلت في شأن المؤذنين ، يدعون الناس إلى الصلاة .

﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ يعني : صلى بين الأذان ، والإقامة .

ويقال : الأنبياء يدعون الخلق إلى توحيد الله تعالى ﴿ عَمِلَ صالحا ﴾ يعني : الطاعات .

ويقال : العلماء يعلمون الناس أمور دينهم ، ويدعونهم إلى طريق الآخرة ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ يعني : عملوا بالعلم .

ويقال : نزلت الآية في الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر .

يعني : يأمرون بالمعروف ، ويعملون به ، ويصبرون على ما أصابهم .

قوله : ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ المسلمين ﴾ يعني : أكون على دين الإسلام ، لأنه لا تقبل طاعة بغير دين الإسلام .

فقال عز وجل : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الحسنة وَلاَ السيئة ﴾ قال الزجاج : لا زائدة ، مؤكدة ، والمعنى : ﴿ لا تَسْتَوِى الحسنة ﴾ يعني : لا تستوي الطاعة ، والمعصية .

ولا يستوي الكفر ، والإيمان .

ويقال : لا يستوي البصير ، والأعمى .

ويقال : لا يستوي الصبر ، والجزع ، واحتمال الأذى ، والإساءة .

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤذيه أبو جهل لعنة الله عليه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره رؤيته بُغْضاً له ، فأمره الله تعالى بالعفو ، والصفح ، فقال : ﴿ لقادرون ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ يعني : ادفع بالكلمة الحسنة ، الكلمة القبيحة ، ﴿ فَإِذَا الذى

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ يعني : إذا فعلت ذلك ، يصير الذي بينك وبينه عداوة ، بمنزلة القرابة في النسب .

(111/683)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ يعني : الكلمة الحسنة ، ودفع السيئة ، ما يعطاها إلا الذين صبروا على طاعة الله ، وأداء الفرائض ، ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ يعني : ذو نصيب وافر في الآخرة .

ويقال : ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ يعني : بقول لا إله إلا الله السيئة .

يعني : الشرك .

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ على كظم الغيظ .

ثم قال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ يعني : يصيبك ﴿ مِنَ الشيطان نَزْغٌ ﴾ يعني : وسوسة على الاحتمال ، ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من شره ، وامض على احتمالك .

وقال مقاتل : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ يعني : يفتنك مِنَ الشَّيْطَانِ .

﴿ نَّزغَ ﴾ أي : فتنة .

وقال الكلبي : الذنب عند دفع السيئة .

ويقال : ﴿ يَنزَغَنَّكَ ﴾ يعني : يغوينك ﴿ فاستعذ بالله ﴾ يعني : تعوذ بالله ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ للاستعاذة ، ﴿ العليم ﴾ بقول الكفار وعقوبتهم .

﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ يعني : من علامات وحدانيته ، ﴿ وَمِنْ ءاياته الليل والنهار والشمس والقمر لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ ﴾ يعني : خلق الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، دلالة لوحدانيته ، لتعرفوا وحدانيته فتعبدوه ، ولا تعبدوا هذه الأشياء ، ﴿ واسجدوا لِلَّهِ الذى خَلَقَهُنَّ ﴾ يعني : اعبدوا خالق هذه الأشياء ، واسجدوا له ، وأطيعوه ، ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : إن أردتم بعبادة الشمس ، والقمر ، رضا الله تعالى .

فإن رضاه أن تعبدوه ، ولا تعبدوا غيره .

ويقال : ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : إن أردتم بعبادتهما عبادة الله تعالى ، فاعبدوا الله ، وأطيعوه ، ولا تسجدوا لغيره ، ﴿ فَإِنِ استكبروا ﴾ يعني : تكبروا عن السجود لله تعالى ، وعن توحيده .

﴿ فالذين عِندَ رَبّكَ ﴾ يعني : الملائكة ، ﴿ يُسَبّحُونَ لَهُ ﴾ يعني : يصلون لله تعالى ﴿ الذين يُنفِقُونَ ﴾ يقال : هو التسبيح بعينه .

(112/683)

يعني : يسبحونه ، ويذكرونه ، ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ يعني : لا يملون من الذكر ، والعبادة ، والتسبيح .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ أي : من علامات وحدانيته ، ﴿ أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾ أي : غبراء ، يابسة ، لا نبت فيها ، ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء ﴾ يعني : المطر ﴿ اهتزت ﴾ يعني : تحركت بالنبات ، ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي : علت يعني : انتفخت الأرض إذا أرادت أن تنبت ﴿ إِنَّ الذى أحياها ﴾ بعد موتها ﴿ فانظر إلى ﴾ للبعث في الآخرة ، ﴿ إِنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : من البعث وغيره .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءاياتنا ﴾ قال مقاتل : يعني : يميلون عن الإيمان بالقرآن .

وقال الكلبي : يعني : يميلون في آياتنا بالتكذيب .

وقال قتادة : الإلحاد التكذيب .

وقال الزجاج : أي يجعلون الكلام على غير وجهه .

ومن هذا سمي اللحد لحداً ، لأنه في جانب القبر .

قرأ حمزة : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ بنصب الحاء ، والياء .

والباقون : بضم الياء ، وكسر الحاء ، ومعناهما واحد ، لحد وألحد بمعنى واحد .

قوله : ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ أي : لا يقدرون على أن يهربوا من عذابنا ، ولا يستترون منا

، ﴿ أَفَمَن يلقى فِى النار ﴾ يعني : أبا جهل وأصحابه ، ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ﴾ يعني : النبي صلى الله عليه وسلم .

ويقال : نزلت في شأن جميع الكفار ، وجميع المؤمنين .

يعني : من كان مرجعه إلى النار ، حاله يكون خيراً أم حال من يدخل الجنة .

ثم قال لكفار مكة : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ لفظه لفظ التخيير والإباحة ، والمراد به التوبيخ ، والتهديد ، لأنه بيّن مصير كل عامل .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ من الخير ، والشر .

قوله تعالى : بصير أي : عالم ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ يعني : جحدوا بالقرآن لما جاءهم ، ﴿ وَأَنَّهُ ﴾ يعني : القرآن ، ﴿ لكتاب عَزِيزٌ ﴾ يعني : كريم عند المؤمنين .

(113/683)

ويقال : كريم على الله ، أنزله آخر الكتب .

وقال مقاتل : كتاب عزيز يعني : منيع عن الباطل .

ويقال : عزيز لا يوجد مثله في النظم ، وكثرة فوائده .

﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ قال الكلبي ومقاتل : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل ﴾ أي : لا يأتيه التكذيب من الكتاب الذي قبله ، كل يصدق هذا ، ولا يجيء من بعده كتاب يكذبه .

وقال قتادة : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ يعني : لا يستطيع الشيطان أن يبطل منه حقاً ، ولا يؤيد فيه باطلاً .

قال أبو الليث : حدثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدثنا الباغندي .

قال : حدثنا محمد بن سلمة ، عن أبي سنان ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البحتري ، عن الحارث الأعور ، عن علي بن أبي طالب قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أمتك ستفترق من بعدك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بَلَى" .

فقالوا : ما المخرج منها .

فقال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

من ابتغى العلم في غيره ، أضله الله ، ومن حكم بغيره ، قصمه الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، فيه خبر من كان قبلكم ، وبيان من بعدكم ، والحكم

فيما بينكم هو الفصل المبين ، وهو الفصل ، وليس بالهزل ، وهو الذي سمعته الجن ، فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً لا يخلق على طول الدهر ، ولا تنقضي عبره ، ولا تفنى عجائبه ، ثم قال للحارث خذها إليك يا أعور .

ثم قال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ يعني : القرآن تنزيل من الله تعالى ، الحكيم في أمره ، المحمود في فعاله .

وقال بعضهم : قوله : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ ، لم يذكر جوابه ، وجوابه مضمر .

(114/683)

وقال بعضهم : جوابه في قوله : ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ويقال : جوابه في قوله ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءَاناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته ءَاعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44] .

قوله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني : اصبر على مقالة الكفار ، فإنهم لا يقولون من التكذيب لك ، إلا ما قد قيل للرسل من قبلك من التكذيب .

ويقال : معناه ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ يعني : لا يؤمر لك .

يعني : في الرسالة إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، بأن يعبدوا الله .

فيقال لك : أن تعبد الله أيضاً .

ويقال : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ إلا بأن تبلغ الرسالة ، ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ بأن يبلغوا الرسالة ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ قال مقاتل : أي ذو تجاوز في تأخير العذاب عنهم إلى أجلهم .

وقال الكلبي : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لمن تاب من الشرك ، ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لمن لم يتب ، ومات على الكفر .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً أَعْجَمِيّاً ﴾ يعني : لو أنزلناه بلسان العبرانية ، ﴿ لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ يعني : هلا بيّن بالعربية .

﴿ ءاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ ويقولون : القرآن أعجمي ، والرسول عربي ، فكان ذلك أشد لتكذيبهم .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، في رواية أبي بكر : بهمزتين بغير مد .

والباقون بهمزة واحدة مع المد ، ومعناهما واحد ويكون على معنى الاستفهام .

وقرأ الحسن ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ بهمزة واحدة بغير مد .

ويكون على غير وجه الاستفهام .

وقرأ بعضهم ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ بنصب العين ، والجيم .

يقال : رجل عجمي إذا كان من العجم ، وإن كان فصيحاً .

(115/683)

ورجل أعجمي إذا كان لا يفصح ، وإن كان من العرب .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ هُدًى ﴾ يعني : القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة ، ﴿ وَشِفَاء ﴾ أي : شفاء لما في الصدور من العمى ، ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالآخرة ، ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً ﴾ يعني : ثقل ، وصم ، ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ عَمي بالكسر على معنى النعت ، وقراءة العامة بالنصب .

يعني : القرآن عليهم حجة ، وهذا قول الكلبي .

وقال مقاتل : يعني : عموا عنه فلا ينظرونه ، ولا يفهمونه .

وروي عن ابن عباس أنه قرأ : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ بالكسر على معنى النعت ، وقراءة العامة بالنصب ، على معنى المصدر .

كما أنه قال : ﴿ هُدًى وَشِفَاء ﴾ على معنى المصدر .

ثم قال : ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وهذا على سبيل المثل .

يقال للرجل إذا قل فهمه : إنك تنادي من مكان بعيد يعني : إنك لا تفهم شيئاً ويقال ينادون من مكان بعيد .

يعني : من السماء .

وقال مجاهد : يعني : بعيداً من قلوبهم .

وقال الضحاك : ينادون يوم القيامة من مكان بعيد ، فينادى الرجل بأشنع أسمائه .

يعني : يقال له يا فاسق ، يا منافق يا ، كذا يا كذا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ يعني : أعطينا موسى التوراة ، ويقال : الألواح .

قوله : ﴿ فاختلف فِيهِ ﴾ يعني : صدق بعضهم ، وكذب بعضهم ، ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني : وجبت بتأخير العذاب ، ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : لفرغ من أمرهم ، ولهلك المكذب .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ يعني : من العذاب بعد البعث ﴿ مُرِيبٍ ﴾ لا يعرفون شكهم .

ويقال : ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي : ظاهر الشك .

ويقال : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة ، لأتاهم العذاب ، إذ كذبوه كما فعل بغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ ﴾ يعني : ثوابه لنفسه ، ﴿ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ يعني : العذاب على نفسه ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ يعني : لا يعذب أحداً بغير ذنب .

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة ﴾ يعني : لا يعلم قيام الساعة أحد إلا الله .

يعني : يرد الخلق كلهم علم قيام الساعة إلى ربهم .

﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرات مّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ يعني : من أجوافها .

يعني : حين تطلع ، وغلاف كل شيء كمه أي : تخرج من موضعها الذي كانت فيه .

قرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، في إحدى رواية حفص : ﴿ مِن ثمرات ﴾ بلفظ الجمع .

والباقون : ﴿ مِن ثَمَرَةٍ ﴾ بلفظ الواحد .

ثم قال : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ يعني : إلا وهو يعلمه ، ولا يعلم أحد قبل الولادة ، قبل صفته ، ولا يعلم أحد بعد وضعه ، كم أجله .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ يعني : يدعوهم ، ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ يعني : الذين كنتم تدعون من دون الله ، ﴿ قَالُواْ ءاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ يعني : أعلمناك ، وقلنا لك : ﴿ مَا مِنَّا مِن

شَهِيدٍ ﴾ يعني : يشهد بأن لك شريك تبرؤوا من أن يكون مع الله شريك .

وقالوا : ما منا من أحد يشهد لك أنه عبد أحد دونك .

وقال القتبي : هذا قول الآلهة التي كانوا يعبدون في الدنيا .

ما منا من شهيد لهم كما قالوا .

وادعوه في الدنيا فينا .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ يعني : بطل عنهم ، ﴿ مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ في الدنيا ، ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ يعني : علموا ، واستيقنوا ما لهم من ملجأ ، ولا مفر من النار .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَّ يَسْئَمُ ﴾ يعني : لا يمل الكافر .

قال الضحاك : نزلت في شأن النضر بن الحارث .

﴿ مِن دُعَاء الخير ﴾ يعني : من سؤال الخير .

يعني : العافية في الجسد ، والسعة في الرزق .

(117/683)

﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشر ﴾ يعني : أصابته الشدة ، والبلاء ، والفقر ، ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ يعني : آيساً من الخير ، قانطاً من رحمة الله تعالى .

ويقال : لا يمل من دعاء الخير ، وإذا نزلت به شدة .

يقول : اللهم عافني ، وإذا مسه الشر ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ يعني : آيساً من معبوده .

﴿ وَلَئِنْ أذقناه رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ يعني : أصبناه عافية منا ، وَغِنًى ، ﴿ مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ ﴾ يعني : من بعد شدة أصابته ، ﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِى ﴾ يعني : أنا أهل لهذا ، ومستحق له .

ويقال : أنا أحق بهذا .

ويقال : هذا بعملي ، وأنا محقوق به .

﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ يعني : ما أحسب القيامة كائنة ، ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبِّى ﴾ يعني : يوم القيامة ، ﴿ إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ يعني : الجنة ولئن كان يوم القيامة ، كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فلي الجنة .

يقول الله تعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : لنخبرنهم ، ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ من أعمالهم الخبيثة ، ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ ﴾ يعني : لنجزينهم ، ﴿ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يعني : عذاب شديد لا يفتر عنهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ يعني : أعرض الكافر ، فلا يدعو ربه .

وقال الكلبي : أعرض عن الإيمان .

﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ يعني : تباعد بجانبه عن الدعاء ، وعن الإيمان .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ يعني : أصابته الشدة ﴿ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ قال مقاتل والكلبي : يعني : كثيراً .

ويقال : يعني : طويلاً .

فإن قيل : قد قال في موضع .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ وقال في موضع آخر : ﴿ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ مرة ذكر أنه يَؤُوس ، ومرة أُخرى ذكر أنه يدعو ، فكيف هذا ؟ قيل له : هذا في شأن رجل ، وهذا في شأن رجل آخر ، ويجوز أن يكون في شأن إنسان واحد .

(118/683)

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ عن كل معبود دون الله ، فيدعو الله دائماً .

فقال عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ﴾ يعني : إن كان هذا الكتاب من عند الله ، ﴿ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ يعني : جحدتم أنه ليس من عند الله ، ماذا تقولون ؟ وماذا تجيبون ؟ وماذا تحتالون .

إذا نزل بكم العذاب يوم القيامة ؟

﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : في خلاف طويل ، بعيد عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتنا فِى الافاق ﴾ يعني : عذابنا في البلاد ، مثل هلاك عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وهم يرون إذا سافروا ، آثارهم ، وديارهم .

﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ يبتلون بأنفسهم من البلايا .

ويقال : من قتل أصحابهم الكفار في الحرب ، ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ يعني : إن الذي قلت هو الحق ، فيصدقونك .

وقال مجاهد : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتنا فِى الافاق ﴾ يعني : ما يفتح الله عليهم من القرى ، ﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ قال : فتح مكة .

وقال الضحاك : معناه أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ائتنا بعلامة ، فانشق القمر نصفين .

فقال : أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كان القمر قد انشق ، فهي آية .

ثم قال : يا معشر قريش ، إن محمداً قد سحر القمر ، فوجهوا رسلكم إلى الآفاق .

هل عاينوا القمر ؟ إنْ كان كذلك ، فهي آية وإلا فذلك سحر ، فوجهوا .

فإذا أهل الآفاق ، يتحدثون بانشقاقه .

فقال أبو جهل عليه اللعنة : هَذَا سِحْرٌ مُسْتَمِر .

يعني : ذاهباً في الدنيا .

فنزل ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتِنَا فِى الافَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَق ﴾ وقال بعض المتأخرين .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتِنَا فِى الافَاقِ ﴾ ما وضع في العالم من الدلائل ، وفي أنفسهم ما وضع فيها من الدلائل ، التي تدل على وحدانية الله تعالى ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق ينطق بالوحي فيما يقول .

(119/683)

وهذا كما قال : ﴿ وَفِى الأَرضِ ءايَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ شاهداً أن القرآن من الله تعالى ، ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي : عالم بأعمالهم ، بالبعث وغيره .

وقال الكلبي : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ يعني : أنه قد أخبرهم بذلك ، وإن لم يسافروا .

ويقال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ ومعنى الكفاية ها هنا ، أنه قد بيّن لهم ما فيه كفاية ، بالدلالة على توحيده ، وتثبيت رسله .

ثم قال : ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ ألا : كلمة تنبيه .

يعني : اعلم أنهم في شك من البعث ، ﴿ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ يعني : ألا إن الله

تعالى عالم بأعمالهم ، وعقوبتهم ، والإحاطة إدراك الشيء بكماله .

يعني : أحاط علمه سبحانه وتعالى بكل شيء من البعث ، وغيره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعده وآله وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 222.213 ﴾

(120/683)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وقيضنا لهم قرناءَ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : هيأنا لهم شياطين ، قاله النقاش .

الثاني : خلينا بينهم وبين الشياطين ، قاله ابن عيسى .

﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها ما بين أيديهم من أمر الدنيا ، وما خلفهم من أمر الآخرة ، قاله السدي ومجاهد .

الثاني : ما بين أيديهم من أمر الآخرة فقالوا لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا لهم اللذات ، قاله الكلبي .

الثالث : ما بين أيديهم هو فعل الفساد في زمانهم ، وما خلفهم هو ما كان قبلهم ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : ما بين أيديهم ما فعلوه ، وما خلفهم ما عزموا أن يفعلوه .

ويحتمل خامساً : ما بين أيديهم من مستقبل الطاعات أن لا يفعلوها ، وما خلفهم من سالف المعاصي أن لا يتوبوا منها .

قوله عز وجل : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعُوا لهذا القرآن ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا تتعرضوا لسماعه .

الثاني : لا تقبلوه .

الثالث : لا تطيعوه من قولهم السمع والطاعة .

﴿ والغوا فيه ﴾ وفيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني قعوا فيه وعيبوه ، قاله ابن عباس .

الثاني : جحدوه وأنكروه ، قاله قتادة .

الثالث : عادوه ، رواه سعيد بن أبي عروبة .

الرابع : الغوا فيه بالمكاء والتصدية ، والتخليط في النطق حتى يصير لغواً ، قاله مجاهد .

قوله عز وجل : ﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضَلاّنا من الجن والإنس ﴾ فيهما قولان :

أحدهما : دعاة الضلالة من الجن والإنس ، حكاه بن عيسى .

الثاني : أن الذي من الجن إبليس ، يدعوه كل من دخل النار من المشركين ، والذي من الإنس ابن آدم القاتل أخاه يدعوه كل عاص من الفاسقين ، قاله السدي .

وفي قوله : ﴿ أرنا اللذَين ﴾ وجهان :

أحدهما : أعطنا اللذين أضلانا .

الثاني : أبصرنا اللذين أضلانا .

﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : انتقاماً منهم .

الثاني : استذلالاً لهم .

(121/683)

﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ يعني في النار ، قالوا ذلك حنقاً عليهما وعداوة لها .

ويحتمل قوله ﴿ من الأسفلين ﴾ وجهين :

أحدهما : من الأذلين .

الثاني : من الأشدين عذاباً لأن من كان في أسفل النار كان أشد عذاباً .

قوله عز وجل : ﴿ إن الذين قالوا ربنا اللّهُ ﴾ قال ابن عباس : وحّدوا الله تعالى .

﴿ ثم استقاموا ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : ثم استقاموا على أن الله ربهم وحده ، وهو قول أبي بكر رضي الله عنه ومجاهد .

الثاني : استقاموا على طاعته وأداء فرائضه ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة .

الثالث : على إخلاص الدين والعلم إلى الموت ، قاله أبو العالية والسدي .

الرابع : ثم استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم .

الخامس : ثم استقاموا سراً كما استقاموا جهراً .

ويحتمل سادساً : أن الاستقامة أن يجمع بين فعل الطاعات واجتناب المعاصي لأن التكليف يشتمل على أمر بطاعة تبعث على الرغبة ونهي عن معصية يدعو إلى الرهبة .

﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ فيه قولان :

أحدهما : تتنزل عليهم عند الموت ، قاله مجاهد وزيد بن أسلم .

الثاني : عند خروجهم من قبورهم للبعث ، قاله ثابت ومقاتل .

﴿ ألا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : لا تخافوا أمامكم ولا تحزنوا على ما خلفكم ، قاله عكرمة .

الثاني : لا تخافوا ولا تحزنوا على أولادكم . وهذا قول مجاهد .

﴿ وأبشروا بالجنة ﴾ الآية . قيل إن بشرى المؤمن في ثلاثة مواطن : أحدها عند الموت ، ثم في القبر ، ثم بعد البعث .

قوله عز وجل : ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة ، قاله السدي .

الثاني : نحفظكم في الحياة الدنيا ولا نفارقكم في الآخرة حتى تدخلوا الجنة .

ويحتمل ثالثاً : نحن أولياؤكم في الدنيا بالهداية وفي الآخرة بالكرامة .

﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ فيه وجهان :

(122/683)

أحدهما : أنه الخلود لأنهم كانوا يشتهون البقاء في الدنيا ، قاله ابن زيد .

الثاني : ما يشتهونه من النعيم ، قاله أبو أمامة .

﴿ ولكم فيها ما تدَّعون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما تمنون ، قاله مقاتل .

الثاني : ما تدعي أنه لك فهو لك بحكم ربك ، قاله ابن عيسى .

﴿ نزلاً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني ثواباً .

الثاني : يعني منزلة .

الثالث : يعني منّاً ، قاله الحسن .

الرابع : عطاء ، مأخوذ من نزل الضيف ووظائف الجند ﴿ من غفور رحيم ﴾

قوله عز وجل : ﴿ ومَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ الآية . فيه قولان :

أحدهما : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الحسن والسدي .

الثاني : أنهم المؤمنون دعوا إلى الله ، قاله قيس بن أبي حازم ومجاهد .

﴿ وعمل صالحاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه أداء الفرائض ، قاله الكلبي .

الثاني : أنهم المصلون ركعتين بين الأذان والإقامة ، قالته عائشة رضي الله عنها .

وروى هشام بن عروة عن عائشة قالت : كان بلال إذا قام يؤذن قالت اليهود قام غراب – لا قام – فنادى بالصلاة ، وإذا ركعوا في الصلاة قالوا قد جثوا – لا جثوا – فنزلت هذه الآية في بلال والمصلين .

قوله عز وجل : ﴿ ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أن الحسنة المداراة ، والسيئة الغلظة ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : الحسنة الصبر والسيئة النفور .

الثالث : الحسنة الإيمان ، والسيئة الشرك ، قاله ابن عباس .

الرابع : الحسنة العفو والسيئة الانتصار ، حكاه ابن عمير .

الخامس : الحسنة الحلم والسيئة الفحش ، قاله الضحاك .

السادس : الحسنة حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم والسيئة بغضهم ، قاله علي كرم الله وجهه .

﴿ ادفع بالتي هي أحسنُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ادفع بحلمك جهل من يجهل ، قاله ابن عباس .

الثاني : ادفع بالسلامة إساءة المسيء ، قاله عطاء .

ويحتمل ثالثاً : ادفع بالتغافل إساءة المذنب ، والذنب من الأدنى ، والإساءة من الأعلى .

(123/683)

﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولي حميمٌ ﴾ قاله عكرمة : الولي الصديق ، والحميم القريب .

وقيل هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمره بالصبر عليه والصفح عنه .

قوله عز وجل : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما يلقى دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على الحلم .

الثاني : ما يلقى الجنة إلا الذين صبروا على الطاعة .

﴿ وما يلقاها إلا ذو حَظٍ عظيمٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ذو جد عظيم ، قاله السدي .

الثاني : ذو نصيب [وافر] من الخير ، قاله ابن عباس .

الثالث : أن الحظ العظيم الجنة . قال الحسن : والله ما عظم حظ قط دون الجنة .

ويحتمل رابعاً : أنه ذو الخلق الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ وإما ينزغنك مِن الشيطان نزغ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أنه النزغ الغضب ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه الوسوسة وحديث النفس ، قاله السدي .

الثالث : أنه النجس ، قاله ابن عيسى .

الرابع : أنه الفتنة ، قاله ابن زياد .

الخامس : أنه الهمزات ، قاله ابن عباس .

﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي اعتصم بالله .

﴿ إنه هو السميع ﴾ لاستعاذتك ﴿ العليم ﴾ بأذيتك .

قوله عز وجل : ﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾ ووجه الآيات فيهما تقديرهما على حد مستقر ، وتسييرهما على نظم مستمر ، يتغايران لحكمة ويختلفان لمصلحة .

﴿ والشمس والقمر ﴾ ووجه الآية فيهما ما خصهما به من نور ، وأظهره فيهما من تدبير وتقدير .

﴿ لا تسجُدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ قال الزجاج : أي خلق هذه الآيات .

وفي موضع السجود من هذه الآية قولان :

أحدهما : عند قوله ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ قاله ابن مسعود والحسن .

الثاني : عند قوله ﴿ وهم لا يسأمون ﴾ قاله ابن عباس وقتادة .

قوله عز وجل : ﴿ ومِن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : غبراء دراسة ، قاله قتادة .

الثاني : ميتة يابسة ، قاله السدي .

(124/683)

ويحتمل ثالثاً : ذليلة بالجدب لأنها مهجورة ، وهي إذا أخصبت عزيزة لأنها معمورة .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اهتزت بالحركة للنبات ، وربت بالارتفاع قبل أن تنبت ، قاله مجاهد .

الثاني : اهتزت بالنبات وربت بكثرة ريعها ، قاله الكلبي . فيكون على قول مجاهد تقديم وتأخير تقديره : ربت واهتزت .

﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى ﴾ الآية ، جعل ذلك دليلاً لمنكري البعث على إحياء الخلق بعد الموت استدلالاً بالشاهد على الغائب .

قوله عز وجل : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : يكذبون بآياتنا ، قاله قتادة .

الثاني : يميلون عن آياتنا ، قاله أبو مالك .

الثالث : يكفرون بنا ، قاله ابن زيد .

الرابع : يعاندون رسلنا ، قاله السدي .

الخامس : هو المكاء والتصفيق عند تلاوة القرآن ، قاله مجاهد .

﴿ لا يخفون علينا ﴾ وهذا وعيد .

﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن الذي يلقى في النار أبو جهل ، والذي يأتي آمناً عمار بن ياسر ، قاله عكرمة .

الثاني : أن الذي يلقى في النار أبو جهل ، والذي يأتي آمنا يوم القيامة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قاله ابن زياد .

الثالث : أن الذي يلقى في النار أبو جهل وأصحابه قال الكلبي ، والذي يأتي آمناً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله مقاتل .

الرابع : أنها على العموم فالذي يلقى في النار الكافر ، والذي يأتي آمناً يوم القيامة المؤمن ، قاله ابن بحر .

﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ هذا تهديد .

﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ وعيد ، فهدد وتوعد .

قوله عز وجل : ﴿ إنّ الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ الذكر هنا القرآن في قول الجميع ، وله جواب محذوف تقديره : هالكون أو معذبون .

﴿ وإنه لكتابٌ عزيز ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عزيز من الشيطان أن يبدله ، قاله السدي .

الثاني : يمتنع على الناس أن يقولوا مثله ، قاله ابن عباس .

(125/683)

﴿ لا يأتيه الباطل ﴾ في ﴿ الباطل ﴾ هنا أربعة أقاويل :

أحدها : أنه إبليس ، قاله قتادة .

الثاني : أنه الشيطان ، قاله ابن جريج .

الثالث : التبديل ، قاله مجاهد .

الرابع : التعذيب ، قاله سعيد .

ويحتمل خامساً : أن الباطل التناقض والاختلاف .

﴿ من بين يديه ولا من خلفِه ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يأتيه الباطل من كتاب قبله ، ولا يأتيه من كتاب بعده ، قاله قتادة .

الثاني : لا يأتيه الباطل من أول التنزيل ولا من آخره .

الثالث : لا يأتيه الباطل في إخباره عما تقدم ولا في إخباره عما تأخر ، قاله ابن جريج .

ويحتمل رابعاً : ما بين يديه : لفظه وما خلفه : تأويله ، فلا يأتيه الباطل في لفظ ولا تأويل :

﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ قال قتادة : حكيم في أمره حميد إلى خلقه .

قوله عز وجل : ﴿ ما يُقال لك إلا ما قد قِيل للرسل من قبلك ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما يقول المشركون لك إلا ما قاله من قبلهم لأنبيائهم إنه ساحر أو مجنون ، قاله قتادة .

الثاني : ما تخبر إلا بما يخبر الأنبياء قبلك ب ﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾

حكاه ابن عيسى وقاله الكلبي .

قوله عز وجل : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني بالأعجمي غير المبين وإن كان عربيّاً ، قاله المفضل .

الثاني : بلسان أعجمي .

﴿ لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ أي بينت آياته لنا بالعربية على الوجه الثاني ، والفصح على الوجه الأول .

﴿ ءاعجميٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كيف يكون القرآن أعجمياً ومحمد صلى الله عليه وسلم عربي ؟ قاله سعيد بن جبير .

الثاني : كيف يكون القرآن أعجميّاً ونحن قوم عرب ؟ قاله السدي . قال مجاهد أعجمي الكلام وعربي الرجل .

﴿ قل هو للذين آمنوا هُدىً وشفاءٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : هدى للأبصار وشفاء للقلوب .

الثاني : هدى من الضلال وشفاء من البيان .

﴿ والذين لا يؤمنون في آذنهم وقرٌ ﴾ أي صمم .

﴿ وهو عليهم عَمىً ﴾ أي حيرة ، وقال قتادة : عموا عن القرآن وصموا عنه .

﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من مكان بعيد من قلوبهم ، قاله علي كرم الله وجهه ومجاهد .

الثاني : من السماء ، حكاه النقاش .

الثالث : ينادون بأبشع أسمائهم ، قاله الضحاك .

ويحتمل رابعاً : من مكان بعيد من الإجابة .

قوله عز وجل : ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : علمواْ ما لهم من معدل .

الثاني : استيقنوا أن ليس لهم ملجأ من العذاب ، قاله السدي ، وقد يعبر بالظن عن اليقين فيما طريقه الخبر دون العيان لأن الخبر محتمل والعيان غير محتمل .

قوله عز وجل : ﴿ لاَّ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ ﴾ أي لا يمل من دعائه بالخير ، والخير هنا المال والصحة ، قاله السُدي ، والإنسان هنا يراد به الكافر .

﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ يعني الفقر والمرض ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : يؤوس من الخير قنوط من الرحمة .

الثاني : يؤوس من إجابة الدعاء ، قنوط بسوء الظن بربه .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : رخاء بعد شدة .

الثاني : غنى بعد فقر .

﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هذا باجتهادي .

الثاني : هذا باستحقاقي .

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ إنكاراً منه للبعث والجزاء مع ما حظ به من النعمة والرخاء ودفع عنه من الضر والبلاء .

﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ الآية . إن كان كما زعمتم رجعة وجزاء فإن لي عنده آجلاً مثل ما أولانيه عاجلاً . وقيل إنها نزلت في النضر بن الحارث .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَا بِجَانِبِهِ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : أعرض عن الإيمان وتباعد من الواجب .

الثاني : أعرض عن الشكر وبعد من الرشد .

الثالث : أعرض عن الطاعة وبعد من القبول .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تام لخلوص الرغبة فيه .

الثاني : كثير لدوام المواصلة له ، وهو معنى قول السدي ، وإنما وصف التام والكثير بالعريض دون الطويل لأن العرض يجمع طولاً وعرضاً فكان أعم ، قال ابن عباس : الكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء .

قوله عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن في الآفاق فتح أقطار الأرض ، وفي أنفسهم فتح مكة ، قاله السدي .

الثاني : في الآفاق ما أخبر به من حوادث الأمم ، وفي أنفسهم ما أنذرتهم به من الوعيد .

الثالث : أنها في الآفاق آيات السماء وفي أنفسهم حوادث الأرض .

الرابع : أنها في الآفاق إمساك القطر عن الأرض كلها وفي أنفسهم البلاء الذي يكون في أجسادهم ، قاله ابن جريج .

الخامس : أنها في الآفاق انشقاق القمر ، وفي أنفسهم كيف خلقناهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، وكيف إدخال الطعام والشراب من موضع واحدٍ وإخراجه من موضعين آخرين ، قاله الضحاك .

﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يتبين لهم أن القرآن حق .

الثاني : أن ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم إليه حق .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ يعني أولم يكفك من ربك .

﴿ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : عليم .

الثاني : حفيظ .

قوله عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ قال السُّدي في شكٍ من البعث .

﴿ أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أحاط علمه بكل شيء ، قاله السدي .

الثاني : أحاطت قدرته بكل شيء ، قاله الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(128/683)

وقال الثعلبى :

﴿ وَقَيَّضْنَا ﴾ سلّطنا وبعثنا ووكلنا . ﴿ لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾ نظراء من الشياطين . ﴿ فَزَيَّنُواْ

لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدّنيا حتّى آثروه على الآخرة . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الآخرة ، فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث .

﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول في أُمَمٍ ﴾ مع أمم . ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ * وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ من مشركي قريش . ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ قال ابن عباس : يعني والغطوا فيه ، كان بعضهم يوصي إلى بعض ، إذا رأيتم محمداً يقرأ ، فعارضوه بالزجر والإبتعاد .

مجاهد ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ بالمكاء والصفير وتخليط في المنطق على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ .

قال الضحاك : إكثروا الكلام فيختلط عليه القول .

السدي : صيحوا في وجهه .

مقاتل : إرفعوا أصواتكم بالأشعار والكلام في وجوههم حتّى تلبسوا عليهم قولهم ، فيسكتوا .

أبو العالية : قعوا فيه وعيبوه .

وقرأ عيسى بن عمرو ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ بضم الغين . قال الأخفش : فتح الغين ، كان من لغا يلغا مثل طغا يطغا ، ومن ضم الغين كان من لغا يلغوا مثل دعا يدعوا .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ محمداً على قراءته .

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ﴾ أقبح . ﴿ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدّنيا . ﴿ ذَلِكَ ﴾ الّذي ذكرت . ﴿ جَزَآءُ أَعْدَآءِ الله ﴾ ثمّ بيّن ذلك الجزاء ما هو ، فقال : ﴿ النار ﴾ أي هو النّار . ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فقد ذكر إنّها في قراءة ابن عباس ذلك جزاء أعداء الله النّار دار الخلد ، ترجم بالدار عن النّار ، وهو مجاز الآية .

(129/683)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن ﴾ وهو إبليس الأبالسة . ﴿ والإنس ﴾ وهو ابن آدم الّذي قتل أخاه . ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ في النّار . ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ في الدرك الأسفل لأنهما سنا المعصية .

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ أخبرنا الحسين بن محمد الثقفي بقراءتي عليه ، حدثنا الفضل الكندي ، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الزيدي العسكري ، حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا أبو قتيبة سلمة بن قتيبة ، حدثنا سهل بن أبي حزم عن ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ قال : من مات عليها ، فهو ممّن استقام .

أخبرنا الحسين بن محمد الثقفي بقراءتي عليه ، حدثنا عبيد بن محمد بن شنبه ، حدثنا جعفر ابن الفريابي ، حدثنا محمد بن الحسن البلخي ، أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن عامر بن سعد ، عن سعيد بن عمران ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ قال : لم يشركوا بالله شيئاً . أخبرنا ابن فنجويه الثقفي ، حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثني أبي ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا يونس ، عن الزهري إنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال وهو يخطب النّاس على المنبر : ﴿ الذين قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ استقاموا ﴾ فقال : استقاموا على طريقة الله بطاعته ، ثمّ لم يروغوا روّغان الثعالب ، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : يعني أخلصوا العمل لله ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أدُّوا الفرائض . ابن عباس استقاموا على أداء فرائضه .

(130/683)

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ، حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك ، حدثنا محمد بن موسى الحلواني ، حدثنا إسماعيل بن بشر بن منصور ، حدثنا مسكين أبو فاطمة عن شهر بن حوشب ، قال : قال الحسن : وتلا هذه الآية ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ

استقاموا ﴾ فقال : استقاموا على أمر الله تعالى ، فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته . مجاهد وعكرمة : استقاموا على شهادة أن لا إله إلاّ الله ، حتّى لحقوا به . قتادة وابن زيد : استقاموا على عبادة الله وطاعته ، ابن سيرين : لم يعوجّوا ، سفيان الثوري : عملوا على وفاق ما قالوا . مقاتل بن حيان : استقاموا على المعرفة ولم يرتدوا . مقاتل بن سليمان : استقاموا على إنّ الله ربّهم . ربيع : أعرضوا عما سوى الله تعالى . فضيل بن عياض : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية . بعضهم : استقاموا إسراراً كما استقاموا إقرار ، وقيل : استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً . روى ثابت عن أنس إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : " أمتي وربّ الكعبة " .

أخبرنا الحسن بن محمد الثقفي ، حدثنا الفضل بن الفضل الكندي وأحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم السني ، قالا : حدثنا أبو خليفة الفضل بن حيان الجمحي ، حدثنا أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن الزهري ، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز ، عن سفيان بن عبد الله الثقفي . قال : " قلت : يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصم به ، فقال : " قل ربّي اللّه ثمّ استقم " قال : قلت : ما أخوف ما تخاف عليّ ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه ، وقال : " هذا " " .

وروي إنّ وفداً أقدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم القرآن ، ثمّ بكى ، فقالوا

: أمن خوف الّذي بعثك تبكي ؟ قال : " نعم ، إنّي قد بعثت على طريق مثل حد السيف ، إن استقمت نجوت ، وإن زغت عنه هلكت " .

(131/683)

وقال قتادة : كان الحسن إذا تلا هذه الآية ، قال : اللَّهم أنت ربّنا فارزقنا الاستقامة .

﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ عند الموت ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ قال قتادة : إذا قاموا من قبورهم . قال وكيع بن الجراح البسري : تكون في ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفي القبر ، وفي البعث ، ألاّ يخافوا ولا يحزنوا . قال أبو العالية : لا تخافوا على صنيعكم ولا تحزنوا على مخلفكم . مجاهد : لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتم في دنيّاكم من أهل وولد ونشيء ، فإنّا نخلفكم في ذلك كله . السدي : لا تخافوا ما أمامكم ، ولا تحزنوا على ما بعدكم . عطاء بن رباح : لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم ، فإنّي أغفرها لكم .

(132/683)

وقال أهل اللسان في هذه الآية : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ استقاموا ﴾ بالوفاء على ترك الجفاء ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ بالرضا أن لا تخافوا من العناء ولا تحزنوا على الفناء ، وأبشروا بالبقاء مع الّذين كنتم توعدون من اللقاء ، لا تخافوا فلا خوف على أهل الإستقامة ، ولا تحزنوا فإن لكم أنواع الكرامة ، وابشروا بالجنّة الّتي هي دار السلامة . لا تخافوا فعلى دين الله استقمتم ، ولا تحزنوا فبحبل الله اعتصمتم ، وأبشروا بالجنّة وإن ارتبتم وأُحزنتم ، لا تحزنوا فطالما رهبتم ، ولا تحزنوا فقد نلتم ما طلبتم ، وأبشروا بالجنّة الّتي فيها رغبتم ، لا تخافوا فأنتم أهل الإيمان ، ولا تحزنوا فأنتم أهل الغفران ، وإبشروا بالجنّة الّتي هي دار الرضوان ، لا تخافوا فأنتم أهل الشهادة ، ولا تحزنوا فأنتم أهل السعادة ، وإبشروا بالجنّة الّتي هي دار الزيادة ، لا تخافوا فأنتم أهل النوال ، ولا تحزنوا فأنتم أهل الوصال ، وأبشروا بالجنّة الّتي هي دار الجلال ، لا تخافوا فقد أمنتم الثبور ولا تحزنوا فقد آن لكم الحبور وإبشروا بالجنّة الّتي هي دار السرور ، لا تخافوا فسعيكم مشكور ولا تحزنوا فذنبكم مغفور ، وإبشروا بالجنّة الّتي هي دار النون ، لا تخافوا فطالما كنتم من الخائفين ، ولا تحزنوا فقد كنتم من العارفين ، وإبشروا بالجنّة الّتي عجز عنها وصف الواصفين ، لا تخافوا فلا خوف على أهل الإيمان ، ولا تحزنوا فلستم من أهل الحرمان ، وإبشروا بالجنّة الّتي هي دار الإيمان ، لا تخافوا فلستم من أهل الجحيم ، ولا تحزنوا فقد وصلتم إلى الربّ الرحيم ، وإبشروا بالجنّة الّتي هي دار النعيم ، لا تخافوا فقد زالت عنكم المخافة ، ولا تحزنوا فقد سلمتم من كلّ آفة

، وإبشروا بالجنّة الّتي هي دار الضيافة ، لا تحزنوا العزل عن الولاية ، ولا تحزنوا على ما قدمتم من الخيانة ، وابشروا بالجنّة الّتي هي دار الهداية ، لا تخافوا حلول

(133/683)

العذاب ، ولا تحزنوا من هول الحساب وابشروا بالجنّة الّتي دار الثواب .

لا تخافوا فأنتم سالمون من العقاب ، ولا تحزنوا فأنتم واصلون إلى الثواب ، وابشروا بالجنّة فإنها نعم المآب . لا تخافوا فأنتم أهل الوفاء ولا تحزنوا على ما كسبتم من الجفاء وإبشروا بالجنّة فإنها دار الصفاء لا تخافوا فقد سلمتم من العطب ، ولا تحزنوا فقد نجوتم من النصب ، وإبشروا بالجنّة فإنّها دار الطرب .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ ﴾ تقول لهم الملائكة الّذين تتنزل عليهم بالبشارة : نحن أولياؤكم وأنصاركم وأحبّاءكم ، ﴿ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ قال السدي : نحن أولياؤكم يعني نحن الحفظة الّذين كنا معكم في الدّنيا ، ونحن أولياؤكم في الآخرة . أخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا ابن خالد ، أخبرنا داود بن عمرو الضبّي أخبرنا إبراهيم ابن الأشعث عن الفضيل بن عياض عن منصور عن مجاهد ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ ﴾ في الحياة الدّنيا وفي الآخرة . قال : قرناؤهم الّذين كانوا معهم في الدّنيا ، فإذا كان يوم القيامة ، قالوا : لن نفارقكم حتّى

ندخلكم الجنّة .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تريدون وتسألون وتتمنون ، وأصل الكلمة إنّ ما تدّعون إنّه لكم ، فهو لكم بحكم ربّكم .

﴿ نُزُلاً ﴾ أي جعل ذلك رزقاً . ﴿ مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى الله ﴾ إلى طاعة الله . ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المسلمين ﴾ قال ابن سيرين والسدي وابن زيد : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مقاتل : هو جميع الأئمّة والدعاة إلى الله تعالى ، وقال عكرمة : هو المؤذن . قال أبو أُمامة الباهلي : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ يعني صلّى ركعتين بين الآذان والإقامة .

(134/683)

أنبأني عبد الله بن حامد ، أخبرنا حاجب بن أحمد بن يرحم بن سفيان ، حدثنا عبد الله بن هاشم ، حدثنا وكيع ، حدثنا عبيد الله بن الوليد الوصاني عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن عائشة خ قالت : إنّي لأرى هذه الآية نزلت ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى الله ﴾ . . الآية في المؤذنين .

وروى جرير بن عبد الحميد عن فضيل بن رفيدة ، قال : كنت مؤذناً في زمن أصحاب عبد

الله ، فقال لي عاصم بن هبيرة : إذا أذّنت وفرغت من آذانك ، فقل : الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله ، وأنا من المسلمين ، ثمّ أقرأ هذه الآية : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ﴾ قال الفراء : ﴿ وَلاَ ﴾ هاهنا صلة معناه ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، وأنشده :

ما كان يرضي رسول الله فعلهما . . . والطيبان أبو بكر وعمر

أي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ قريبٌ صديق ، قال مقاتل : نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار له وليًّا ، بعد أن كان عدواً . نظيره قوله تعالى : ﴿ عَسَى الله أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة : 7] ، قال ابن عباس : أمر الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنّه وليّ حميم .

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ يعني هذه الخصلة والفعلة . ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ في الخير والثواب ، وقيل : ذو حظ . ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لإستعاذتك وأقوالك . ﴿ العليم ﴾ بأفعالك وأحوالك .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار والشمس والقمر لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ واسجدوا لِلَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ ﴾ إنما قال خلقهنّ بالتأنيث لإنّه أجرى على طريق جمع التكسير ، ولم يجر على طريق التغليب للمذكر على المؤنث ؛ لأنّه فيما لا يعقل . ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ استكبروا ﴾ عن السجود . ﴿ فالذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني الملائكة . ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ . لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً ﴾ يابسة دارسة لا نبات فيها . ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي يميلون عن الحقّ في أدلتنا .

قال ابن عباس : هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه ، وقال مجاهد : ﴿ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالمكاء والتصدية واللغو واللغط . قتادة : يعني يكذبون في آياتنا . السدي : يعاندون ويشاققون . ابن زيد : يشركون ويكذبون . قال مقاتل : نزلت في أبي جهل لعنه الله .

﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يلقى فِي النار ﴾ أبو جهل . ﴿ خَيْرٌ أَم مَّن يأتي آمِناً يَوْمَ القيامة

﴿ عثمان بن عفان وقيل : عمار بن ياسر ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمر وعيد وتهديد ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عالم فيجازيكم به .

(136/683)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر ﴾ بالقرآن . ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ حين جاءهم . ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ كريم على الله عن ابن عباس ، وقال مقاتل : منيع من الشّيطان والباطل . السدي : غير مخلوق . ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل ﴾ قال قتادة والسدي : يعني الشيطان . ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . فلا يستطيع أن يُغيّر أو يُزيد أو يُنقص ، وقال سعيد بن جبير : يعني لا يأتيه النكير من بين يديه ولا من خلفه ، وقيل : لا يأتيه ما يبطله أو يكذّبه من الكتب المتقدّمة ، بل هو موافق لها مصدّق ولا يجي بعده كتاب يبطله وينسخه ، بل هو موافق لها مصدق . عن الكلبي . ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ من الأذى . ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ يعزّي نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لمن تاب . ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لمن أصر .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً ﴾ بغير لغة العرب . ﴿ لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ﴾ بيّنت . ﴿ آيَاتُهُ ﴾ بلغتنا حتّى نفقهها ، فإنّا قومٌ عربٌ ، ما لنا وللأعجمية . ﴿ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾

يعني أكتاب أعجميّ ونبي عربي . قال مقاتل : وذلك إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على يسار غلام ابن الحضرمي وكان يهودياً أعجميّاً ويكنى (أبا فكيهة) ، فقال المشركون : إنّما يعلّمه يسار ، فأخذه سيده عامر بن الحضرمي ، وضربه ، وقال : إنّك تعلم محمداً . فقال يسار : هو يعلمني . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقرأ الحسن : أعجمي بهمزة واحدة على الخبر ، وكذلك رواه هشام عن أهل الشام .

(137/683)

ووجهه ما روى جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير ، قال : قالت قريش : لولا أنزل هذا القرآن أعجميًّا وعربيًّا حتّى تكون بعض آياته أعجميًّا وبعضها عربيًّا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأنزل في القرآن بكلّ لسان ، فمنه السجيل ، وهي فارسية عربت سنك وكل ، والقراءة الصحيحة قراءة العامة بالإستفهام على التأويل الأول .

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَاءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾

أخبرنا محمد بن نعيم ، أخبرنا الحسين بن الحسين بن أيوب ، أخبرنا علي بن عبد العزيز ، أخبرنا القاسم بن سلام ، حدثنا حجاج بن أيوب ، عن شعبة ، عن موسى بن أبي عائشة ، عن سلمان بن قتيبة ، عن ابن عباس ومعاوية وعمرو ابن العاص ، إنّهم كانوا يقرأون هذه

الحروف بكسر الميم ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ، وقرأه الباقين بفتح الميم على المصدر ، وإختاره أبو عبيد ، قال : لقوله : ﴿ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ فكذلك ﴿ عَمًى ﴾ مصدر مثلها ، ولو إنّها هاد وشاف لكان الكسر في عمىً أجود ليكون نعتاً مثلهما .

﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال بعض أهل المعاني : قوله : ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ خبر لقوله : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ ، وحديث عن محمد بن جرير ، قال : حدثني شيخ من أهل العلم ، قال : سمعت عيسى بن عمر سأل عمرو بن عبيد ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ ، أين خبره ؟ فقال عمرو : معناه في التفسير ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ فقال عيسى بن عمر : أجدت يا أبا عثمان .

وقوله تعالى : ﴿ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ مثل لقلت إستماعهم وإنتفاعهم بما يوعظون به ، كأنهم ينادون إلى الإيمان وبالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة .

(138/683)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ فمؤمن به وكافر ، ومصدّق ومكذّب . كما أختلف قومك في كتابك . ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ في تأخير العذاب . ﴿

لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ من عذابهم وعجل إهلاكهم .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ فإنّه لا يعلمه غيره ، وذلك إنّ المشركين ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم لئن كنت نبياً ، فأخبرنا عن الساعة متى قيامها ؟ ، ولئن كنت لا تعلم ذلك فإنّك لست بنبيّ . فانزل الله تعالى هذه الآية .

﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ ﴾ من صلة ثمرات ، بالجمع أهل المدينة والشام ، غيرهم ثمرة على واحدة . ﴿ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أوعيتها ، واحدتها كمة ، وهي كلّ ظرف لمال أو وغيره ، وكذلك سمّي قشرة الكفري ، أي الذي ينشق عن الثمرة كمه . قال ابن عباس : يعني الكفري قبل أن ينشق ، فإذا أنشقت فليست بأكمام . ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ يقول إليه يردّ علم السّاعة كما يردّ إليه علم الثمار والنتاج .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ يعني ينادي الله تعالى المشركين . ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِي ﴾ الّذين تزعمون في الدّنيا إنّها آلهة . ﴿ قَالُوا ﴾ يعني المشركين ، وقيل : الأصنام ، يحتمل أن يكون القول راجعاً إلى العابدين وإلى المعبودين أيضاً ﴿ آذَنَّاكَ ﴾ أعلمناك وقيل : أسمعناك . ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ شاهد إنّ لك شريك لما عاينوا القيامة تبرؤا من الأصنام ، وتبرأ الأصنام منهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ في الدنيا .

﴿ وَظَنُّواْ ﴾ أيقنوا . ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ مهرب ، و ﴿ مَا ﴾ ها هنا حرف وليس باسم ، فلذلك لم يعمل فيه الظنّ ، وجعل الفعل ملقى .

(139/683)

﴿ لاَّيَسْأَمُ ﴾ يمل . ﴿ الإنسان ﴾ يعني الكافر . ﴿ مِن دُعَآءِ الخير ﴾ أي من دعائه بالخير ومسألته ربّه ، ودليل هذا التأويل ، قراءة عبد الله ﴿ لاَّيَسْأَمُ الإنسان ﴾ من دعائه بالخير ، أي بالصحّة والمال .

﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشر فَيَئُوسٌ ﴾ من روح الله . ﴿ قَنُوطٌ ﴾ من رحمته . ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً ﴾ عافية ونعمة . ﴿ مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ شدة وبلاء أصابته . ﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِي ﴾ أي بعملي ، وأنا محقوق بهذا .

﴿ وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى ﴾ أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ، حدثنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان ، حدثنا عبد الله بن ثابت ، حدثنا أبو سعيد الكندي ، حدثنا أحمد بن بشر ، عن أبي شرمة ، عن الحسن بن محمد بن علي أبي طالب ، قال : الكافر في أمنيتين ، أما في الدّنيا ، فيقول : لئن رجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى ، وأما في الآخرة ، فيقول ياليتني كنت تراباً .

﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير ، والعرب تستعمل الطول والعرض كلاهما في الكثرة ، يقال : أطال فلان الكلام والدعاء ، وأعرض إذا أكثر .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ القرآن . ﴿ مِنْ عِندِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق ﴾ قال ابن عباس : يعني منازل الأمم الخالية .

(140/683)

﴿ وفي أَنفُسِهِمْ ﴾ بالبلاء والأمراض ، وقال المنهال والسدي : في الآفاق يعني ما يفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم من الآفاق ، وفي أنفسهم : مكّة ، وقال قتادة : في الآفاق يعني وقائع الله تعالى في الأمم ، وفي أنفسهم ، يوم بدر . عطاء وابن زيد : في الآفاق يعني أقطار الأرض والسّماء من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار والبحار والأمطار ، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، وسبيل الغائط والبول ، حتّى إنّ الرجل ليأكل ويشرب من مكان واحد ، ويخرج ما يأكل ويشرب من مكانين .

﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ يعني إنّ ما نريهم ونفعل من ذلك هو الحقّ ، وقيل : إنّه يعني

الإسلام ، وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : القرآن ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 292. 300 ﴾

(141/683)

وقال الزمخشري :

﴿ وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (25) ﴾

والمقايضة : المعاوضة قُرَناءَ أخدانا «1» من الشياطين جمع قرين ، كقوله تعالى وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ فإن قلت : كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم ؟ قلت : معناه أنه خذلهم «2» ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين «3» . والدليل عليه وَمَنْ يَعْشُ نقيض

---

(1) . قوله «قرناأ أخدانا» أى أصدقاء . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «قلت معناه أنه خذلهم» هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يقدر الشر . أما

على مذهب أهل السنة أنه تعالى يقدره كالخير ، فلا داعي إلى هذا التكلف . قال تعالى أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ الخ . (ع)

(3) . قال محمود : «كيف جاز أن يقيض لهم قرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم ؟ وأجاب بأن معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين . والدليل عليه قوله تعالى وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ . . . الآية

قال أحمد : جواب هذا السؤال على مذهب أهل السنة : أن الأمر على ظاهره ، فان قاعدة عقيدتهم أن اللّه تعالى قد ينهى عما يريد وقوعه ، ويأمر بما لا يريد حصوله ، وبذلك نطقت هذه الآية وأخواتها ، وإنما تأولها الزمخشري ليتبعها هواه الفاسد في اعتقاده أن اللّه تعالى لا ينهى عما يريد ، وإن وقع النهي عنه فعلى خلاف الارادة – تعالى اللّه عن ذلك وبه نستعيذ من جعل القرآن تبعا للهوى ، وحينئذ فنقول : لو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام سوى هذه الآية ، لكفى بها ، فهذا موضع هذه المقالة التي أنطقه اللّه بها الذي أنطق كل شيء في الآية التي قبل هذه .

ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ما تقدّم من أعمالهم وما هم عازمون عليها . أو بين أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات ، وما خلفهم : من أمر العاقبة ، وأن لا بعث ولا حساب وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ يعنى كلمة العذاب فِي أُمَمٍ في جملة أمم . ومثل في هذه ما في قوله :

إن تك عن أحسن الصّنيعة مأ فوكا ففي آخرين قد أفكوا «1»

يريد : فأنت في جملة آخرين ، وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد . فإن قلت : فِي أُمَمٍ ما محله ؟ قلت : محله النصب على الحال من الضمير في عليهم القول كائنين في جملة أمم إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ تعليل لاستحقاقهم العذاب . والضمير لهم وللأمم .

[سورة فصلت (41) : الآيات 26 إلى 28]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (28)

قرئ : والغوا فيه ، بفتح الغين وضمها . يقال : لغى يلغى ، ولغا يلغو . واللغو : الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته . قال : من اللغا ورفث التكلم . والمعنى : لا تسمعوا له إذا قرئ ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل «2» وما أشبه ذلك ، حتى تخلطوا على القارئ وتشوّشوا عليه وتغلبوه على قراءته . كانت قريش يوصى بذلك بعضهم

(1) . لعروة بن أذينة ، يقول : إن تك مأفوكا - أى : مصروفا ومنقلبا عن أحسن العطاء - فلا عجب ، فأنت في جملة ناس آخرين قد أفكوا وصرفوا عن الإحسان . ومنه : المؤتفكات ، وهي المدن المنقلبة على قوم لوط وتقول العرب : إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض ، يعنون : الرياح المختلفة المهاب .

(2) . قوله «و الزمل» الذي في الصحاح «الأزمل» الصوت : والأزمولة - بالضم - : المصوت من الوعول وغيرها . (ع)

(143/683)

بعضا فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يجوز أن يريد بالذين كفروا : هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة ، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا تحت ذكرهم . قد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته . وعن ابن عباس عَذاباً شَدِيداً يوم بدر . وأَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ في الآخرة ذلِكَ إشارة إلى الأسوإ ، ويجب أن يكون التقدير : أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون ، حتى تستقيم هذه الإشارة . والنَّارُ عطف بيان للجزاء . أو خبر مبتدإ محذوف .

فإن قلت : ما معنى قوله تعالى لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ ؟ قلت : معناه أن النار في نفسها دار الخلد ، كقوله تعالى لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ والمعنى : أن رسول الله صلى

اللّه عليه وسلم أسوة حسنة ، وتقول : لك في هذه الدار دار السرور . وأنت تعنى الدار بعينها جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أى جزاء بما كانوا يلغون فيها ، فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو .

[سورة فصلت (41) : آية 29]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

الَّذَيْنِ أَضَلَّانا أى الشيطانين اللذين أضلانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لأنّ الشيطان على ضربين : جنى وإنسى . قال اللّه تعالى وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وقال تعالى الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ وقيل : هما إبليس وقابيل ، لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق . وقرئ : أرنا ، بسكون الراء لثقل الكسرة ، كما قالوا في فخذ : فخذ .

وقيل : معناه أعطنا للذين أضلانا . وحكوا عن الخليل : أنك إذا قلت : أرنى ثوبك بالكسر ، فالمعنى : بصرنيه . وإذا قلته بالسكون ، فهو استعطاء ، معناه : أعطنى ثوبك : ونظيره : اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء . وأصله : الإحضار

[سورة فصلت (41) : الآيات 30 إلى 32]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا

بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)

ثُمَّ لتراخى الاستقامة عن الإقرار في المرتبة. وفضلها عليه، لأنّ الاستقامة لها الشأن كله. ونحوه قوله تعالى إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه: استقاموا فعلا كما استقاموا قولا.

(144/683)

وعنه: أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال حملتم الأمر على أشدّه.

قالوا:

فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضى اللّه عنه: استقاموا على الطريقة لم يروغوا روغان الثعالب. وعن عثمان رضى اللّه عنه: أخلصوا العمل. وعن على رضى اللّه عنه:

أدّوا الفرائض. وقال سفيان بن عبد اللّه الثقفي رضى اللّه عنه: قلت يا رسول اللّه، أخبرنى بأمر أعتصم به. قال: «قل ربىّ اللّه، ثم استقم» قال فقلت: ما أخوف ما تخاف

عليّ ؟ فأخذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بلسان نفسه فقال «هذا» «1» تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ عند الموت بالبشرى.

وقيل البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم أَلَّا تَخافُوا أن بمعنى أى. أو مخففة من الثقيلة. وأصله: بأنه لا تخافوا، والهاء ضمير الشأن. وفي قراءة ابن مسعود رضى اللّه عنه: لا تخافوا، أى: يقولون لا تخافوا، والخوف: غم يلحق لتوقع المكروه، والحزن: غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضارّ. والمعنى: أنّ اللّه كتب لكم الأمن من كل غم، فلن تذوقوه أبدا. وقيل لا تخافوا ما تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم. كما أنّ الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين تَدَّعُونَ

تتمنون: والنزل: رزق النزيل وهو الضيف، وانتصابه على الحال.

[سورة فصلت (41): آية 33]

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)

مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ عن ابن عباس رضى اللّه عنهما: هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دعا إلى الإسلام وَعَمِلَ صالِحاً فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نحلة له. وعنه: أنهم أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وعن عائشة رضى اللّه عنها: ما كنا نشك أنّ هذه الآية نزلت في المؤذنين، وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون موحدا

معتقدا لدين الإسلام ، عاملا بالخير داعيا إليه ، وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد ، الدعاة إلى دين اللّه «2» وقوله وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام ، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده ، كما تقول : هذا قول أبى حنيفة ، تريد مذهبه .

[سورة فصلت (41) : الآيات 34 إلى 35]

وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

---

(1) . أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد وابن حبان بتمامه ، وأصله في مسلم .

(2) . قوله «العاملين من أهل العدل والتوحيد الدعاة» إن أراد بهم المعتزلة سموا أنفسهم بذلك ، فلا وجه التخصيص . (ع) [. . . . .]

يعنى أنّ الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها - إذا اعترضتك حسنتان - فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك . ومثال ذلك

: رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة : أن تعفو عنه ، والتي هي أحسن : أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقّ مثل الولي الحميم مصافاة لك . ثم قال : وما يلقى هذه الخليقة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر ، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير . فإن قلت :

فهلا قيل : فادفع بالتي هي أحسن ؟ قلت : هو على تقدير قائل قال : فكيف أصنع ؟ فقيل :

ادفع بالتي هي أحسن . وقيل لا مزيدة . والمعنى : ولا تستوي الحسنة والسيئة ، فإن قلت : فكان القياس على هذا التفسير أن يقال : ادفع بالتي هي حسنة : قلت : أجل ، ولكن وضع التي هي أحسن موضع الحسنة ، ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة ، لأنّ من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، وفسر الحظ بالثواب . وعن الحسن رحمه اللّه : واللّه ما عظم حظ دون الجنة ، وقيل : نزلت في أبى سفيان بن حرب وكان عدوا مؤذيا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فصار وليا مصافيا .

[سورة فصلت (41) : آية 36]

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

النزغ والنسغ بمعنى ، وهو شبه النخس . والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي . وجعل النزغ نازغا ، كما قيل : جد جدّه . أو أريد : وإما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر . أو لتسويله . والمعنى : وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ من شرّه ، وامض على شأنك ولا تطعه .

[سورة فصلت (41) : الآيات 37 إلى 38]

وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (38)

الضمير في خَلَقَهُنَّ لليل والنهار والشمس والقمر ، لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث . يقال : الأقلام بريتها وبريتهنّ : أو لما قال وَمِنْ آياتِهِ كن في معنى الآيات ، فقيل : خلقهنّ . فإن قلت . أين موضع السجدة ؟ قلت : عند الشافعي رحمه اللّه تعالى تَعْبُدُونَ وهي رواية مسروق عن عبد اللّه لذكر لفظ السجدة قبلها . وعند أبى حنيفة رحمه اللّه : يسأمون ،

لأنها تمام المعنى ، وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب : لعل ناسا منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود للّه ، فنهوا عن هذه الواسطة ، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه اللّه تعالى خالصا ، إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة ، فدعهم وشأنهم فإنّ اللّه عز سلطانه لا يعدم عابدا ولا ساجدا بالإخلاص ، وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد ، وقوله عِنْدَ رَبِّكَ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة . وقرئ : لا يسأمون ، بكسر الياء .

[سورة فصلت (41) : آية 39]

وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

الخشوع : التذلل والتقاصر ، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربق وهو الانتفاخ : إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه ، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة «1» . وقرئ : وربأت ، أى ارتفعت لأن النبت إذا همّ أن يظهر : ارتفعت له الأرض .

[سورة فصلت (41) : آية 40]

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)

يقال: ألحد الحافر ولحد، إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شق، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة. وقرئ: يلحدون ويلحدون، على اللغتين. وقوله لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا وعيد لهم على التحريف.

[سورة فصلت (41): الآيات 41 إلى 42]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)

فإن قلت: بم اتصل قوله إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ؟ قلت: هو بدل من قوله إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنا والذكر: القرآن، لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرّفوا تأويله وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ أى منيع محمى بحماية اللّه تعالى لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ

---

(1). قوله «في الأطمار الرثة» في الصحاح «الطمر» الثوب الخرق، والجمع: الأطمار.

(ع)

مثل كأن الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به . فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون ، وتأوّله المبطلون ؟ قلت : بلى ، ولكن اللّه قد تقدّم في حمايته عن تعلق الباطل به : بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم ، فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقا ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا . ونحوه قوله تعالى إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ .

[سورة فصلت (41) : آية 43]

ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43)

ما يقال لك أى : ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ورحمة لأنبيائه وَذُو عِقابٍ لأعدائهم . ويجوز أن يكون : ما يقول لك اللّه إلا مثل ما قال للرسل من قبلك ، والمقول : هو قوله تعالى إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته ، والغرض : تخويف العصاة .

[سورة فصلت (41) : آية 44]

وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44)

كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم «فقيل : لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أى بينت ولخصت بلسان نفقهه أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى ، أو مرسل إليه عربى ، وقرئ : أعجمى ، والأعجمى : الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أى جنس كان ، والعجمي : منسوب إلى أمّة العجم . وفي قراءة الحسن : أعجمى بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمى ، والمرسل أو المرسل إليه عربى . والمعنى : أنّ آيات اللّه على أى طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتا ، لأنّ القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم . ويجوز في قراءة الحسن : هلا فصلت آياته تفصيلا ، فجعل بعضها بيانا للعجم ، وبعضها بيانا للعرب . فإن قلت :

كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمّة العرب ؟ قلت : هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتابا أعجميا كتب إلى قوم من العرب يقول : كتاب أعجمى ومكتوب

إليه عربى ، وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه ، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة ، فوجب أن يجرّد لما سيق إليه من الغرض ، ولا يوصل به ما

يخل غرضا آخر . ألا تراك تقول – وقد رأيت لباسا طويلا على امرأة قصيرة : – اللباس طويل واللابس قصير . ولو قلت : واللابسة قصيرة ، جئت بما هو لكنة وفضول قول ، لأنّ الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته ، إنما وقع في غرض وراءهما هُوَ أى القرآن هُدىً وَشِفاءٌ إرشاد إلى الحق وشفاء لِما فِي الصُّدُورِ من الظن والشك . فإن قلت : وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ منقطع عن ذكر القرآن ، فما وجه اتصاله به ؟ قلت : لا يخلو إما أن يكون الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ في موضع الجر معطوفا على قوله تعالى لِلَّذِينَ آمَنُوا على معنى قولك : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، إلا أنّ فيه عطفا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه . وإمّا أن يكون مرفوعا على تقدير : والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر «1» على حذف المبتدإ . أو في آذانهم منه وقر . وقرئ : وهو عليهم عم . وعمى ، كقوله تعالى فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ . يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ يعنى : أنهم لا يقبلونه ولا يرعونه أسماعهم ، فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء .

[سورة فصلت (41) : آية 45]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45)

فَاخْتُلِفَ فِيهِ فقال بعضهم : هو حق ، وقال بعضهم : هو باطل . والكلمة السابقة :

هي العدة بالقيامة ، وأنّ الخصومات تفصل في ذلك اليوم ، ولولا ذلك لقضى بينهم في الدنيا .

قال اللّه تعالى بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

[سورة فصلت (41) : آية 46]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (46)

فَلِنَفْسِهِ فنفسه نفع فَعَلَيْها فنفسه ضرّ وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ فيعذب غير المسيء .

---

(1) . أجاز الزمخشري في الواو في هذه الآية وجهين ، أحدهما : أن تكون الواو لعطف الذين على الذين ، ووقر على هدى وشفاء ، ويكون من العطف على عاملين . قال : وإما أن يكون الَّذِينَ مرفوعا على تقدير :

والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، على حذف المبتدإ . أو في آذانهم منه وقر اه قال أحمد : أى وبتقدير الرابط يستغنى عن تقدير المبتدإ .

.

(149/683)

[سورة فصلت (41) : الآيات 41 إلى 48]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا

مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43) وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45)

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (46) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ أى إذا سئل عنها قيل : اللّه يعلم . أو لا يعلمها إلا اللّه . وقرئ : من ثمرات من أكمامهن «1» . والكم - بكسر الكاف وعاء الثمرة ، كجف الطلعة ، أى : وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به ، يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله : من الخداج «2» والتمام ، والذكورة والأنوثة ، والحسن والقبح وغير ذلك أَيْنَ شُرَكائِي أضافهم إليه تعالى على زعمهم ، وبيانه في قوله تعالى أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ وفيه تهكم وتقريع آذَنَّاكَ أعلمناك ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ أى ما منا أحد اليوم - وقد أبصرنا وسمعنا - يشهد بأنهم شركاؤك ، أى : ما منا إلا من هو موحد لك : أو ما

منا من أحد يشاهدهم ، لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم ، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ وقيل : هو كلام الشركاء ، أى : ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة . ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير :

أنهم لا ينفعونهم ، فكأنهم ضلوا عنهم وَظَنُّوا وأيقنوا . والمحيص : المهرب . فإن قلت : آذَنَّاكَ إخبار بإيذان كان منهم ، فإذ قد آذنوا فلم سئلوا ؟ قلت : يجوز أن يعاد عليهم أَيْنَ شُرَكَائِي ؟ إعادة للتوبيخ ، وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية : دليل على إعادة المحكي .

ويجوز أن يكون المعنى : أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة ، لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه . ويجوز أن يكون إنشاء للإيذان ولا يكون إخبارا بإيذان قد كان ، كما تقول : أعلم الملك أنه كان من الأمر كيت وكيت .

[سورة فصلت (41) : الآيات 49 إلى 50]

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50)

---

(1) . قوله «و قرئ من ثمرات من أكمامهن» يفيد أن القراءة المشهورة : من ثمرة من أكمامها . والذي في النسفي : من ثمرات من أكمامها . ومن ثمرة من أكمامها . وأما : من

ثمرات من أكمامهن . فهي المزيدة هنا ، فحرر . (ع)

(2) . قوله «من الخداج» أى النقصان ، كما في الصحاح . (ع)

(150/683)

مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ من طلب السعة في المال والنعمة . وقرأ ابن مسعود : من دعاء بالخير وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ أى الضيقة والفقر فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فعول ، ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، أى : يقطع الرجاء من فضل اللّه وروحه ، وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال هذا لِي أى هذا حقي وصل إلىّ ، لأنى استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال برّ . أو هذا لي لا يزول عنى ، ونحوه قوله تعالى فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ ونحوه قوله تعالى وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ يريد : وما أظنها تكون ، فإن كانت على طريق التوهم إِنَّ لِي عند اللّه الحالة الحسنى من للكرامة والنعمة ، قائسا أمر الاخرة على أمر الدنيا .

وعن بعضهم : للكافر أمنيتان ، يقول في الدنيا : ولئن رجعت إلى ربى إنّ لي عنده للحسنى . ويقول في الآخرة : يا ليتني كنت ترابا . وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة .

فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب. ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند اللّه وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلبا للافتخار والاستكبار لا غير، وكانوا يحسبون أنّ ما هم عليه سبب الغنى والصحة، وأنهم محقوقون بذلك.

[سورة فصلت (41) : آية 51]

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51)

هذا أيضا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه اللّه بنعمة أبطرته النعمة، وكأنه لم يلق بؤسا قط فنسي المنعم وأعرض عن شكره وَنَأى بِجانِبِهِ أى ذهب بنفسه وتكبر وتعظم. وإن مسه الضرّ والفقر: أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام، ويستعار له الطول أيضا كما استعير الغلظ بشدّة العذاب. وقرئ: ونأى بجانبه، بإمالة الألف وكسر النون للإتباع. وناء على القلب، كما قالوا: راء في رأى. فإن قلت: حقق لي معنى قوله تعالى وَنَأى بِجانِبِهِ قلت: فيه وجهان: أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا في قوله تعالى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه، ومنه قوله:

. . . . . ونفيت عنه مقام الذئب . . . . . «1» . .

---

(1) وماء قد وردت لأجل أروى عليه الطير كالورق اللجين

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذيب كالرجل اللعين

للشماخ : وأروى ، اسم محبوبته . واللجين - بفتح اللام وكسر الجيم - : ما يتساقط من الورق من اللجن وهو الدق ، لأنه يضربه الهوى أو الراعي ، فيسقط من الشجر . وذعرت - بفتحتين» أى : أخفت فيه القطا ، وخصها لأنها أسبق الطير إلى الماء . ومقام الذيب : إقامته أو محلها ، وعبر به كناية عن ذاته ، وخصه لأن غالب وروده الماء ليلا .

والرجل اللعين : هو الصورة التي تنصب وسط الزرع على شكل الرجل تطرد عنه الهوام ، يقول : ورب ماء قد وردته لأجل محبوبتى ، عسى أن تجيء عنده فأراها . ويروى : لوصل أروى ، فلعله كان موعدا بينهما . وشبه الطير حول الماء بورق الشجر المتساقط في الكدرة والكثرة والانتشار ، وهذا يدل على أنه لا يكثر وروده ، فيصلح موعدا للوصل . وذعرت - إلى آخره : كناية عن وروده ليلا ، وكالرجل اللعين : حال من ضمير الشاعر ، فيفيد أنه سبق القطا والذيب وقعد هناك ، أو حال من الذيب ، أى : على هيئة مفزعة . وفيه دليل على شجاعة الشاعر وجرأته

(151/683)

يريد : ونفيت عنه الذئب . ومنه : ولمن خاف مقام ربه . ومنه قول الكتاب : حضرت فلان ومجلسه ، وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز ، يريدون نفسه وذاته ، فكأنه قال : ونأى بنفسه ، كقولهم في المتكبر : ذهب بنفسه ، وذهبت به الخيلاء كل مذهب ، وعصفت به الخيلاء ، وأن يراد بجانبه : عطفه ، ويكون عبارة عن الانحراف والازورار ، كما قالوا : ثنى عطفه ، وتولى بركنه .

[سورة فصلت (41) : آية 52]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52)

أَرَأَيْتُمْ أخبرونى إِنْ كانَ القرآن مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يعنى أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدور ، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر محتمل ، يجوز أن يكون من عند اللّه وأن لا يكون من عنده ، وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا ، فما أنكرتم أن يكون حقا وقد كفرتم به ، فأخبرونى من أضلّ منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكتم أنفسكم ؟ وقوله تعالى مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ موضوع موضع منكم ، بيانا لحالهم وصفتهم .

[سورة فصلت (41) : الآيات 53 إلى 54]

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ يعنى ما يسر اللّه عز وجل لرسوله صلى اللّه عليه وسلم وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما وفي باحة العرب «1»

---

(1) . قوله «وفي باحة العرب» أى ساحتهم. أفاده الصحاح. (ع)

خصوصا : من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة ، وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعافهم على أقويائهم ، وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة من المعهود خارقة للعادات ، ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة ، وبسط دولته في أقاصيها ، والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدوّنة في مشاهد أهله وأيامهم : على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام اللّه وآية من آياته ، يقوى معها اليقين ، ويزداد بها الإيمان ، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه ، وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق ، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور ، وأن للباطل ريحا تخفق ثم تسكن ، ودولة تظهر ثم تضمحل بِرَبِّكَ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى . وأَنَّهُ عَلى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدٌ بدل منه ، تقديره . أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد . ومعناه : أن هذا الموعود من إظهار آيات اللّه في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه ، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد ، أى : مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته ، فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده ، ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة . وقرئ : في مرية ، بالضم وهي الشك مُحِيطٌ عالم يجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها ، فلا تخفى عليه خافية منهم ، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة السجدة أعطاه اللّه بكل حرف عشر حسنات» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 196. 207﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى .

(153/683)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقيَّضْنا لهم قُرَناءَ ﴾

أي : سبَّبنا لهم قرناء من الشياطين ﴿ فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ﴾ فيه ثلاثة

أقوال :

أحدها : ما بين أيديهم : من أمر الآخرة أنه لا جنّة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، وما خَلْفَهم : من أمر الدنيا ، فزيّنوا لهم اللذّات وجمع الأموال وترك الإنفاق في الخير .

والثاني : ما بين أيديهم : من أمر الدنيا ، وما خلفهم : من أمر الآخرة ، على عكس الأول .

والثالث : ما بين أيديهم : ما فعلوه ، وما خلفهم : ما عزموا على فعله .

وباقي الآية [قد] تقدم تفسيره [الإسراء : 16] [الأعراف : 38] .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ أي : لا تسمعوه ﴿ والْغَوْا فيه ﴾ أي : عارِضوه باللَّغو ، وهو الكلام الخالي عن فائدة .

وكان الكفَّار يوصي بعضُهم بعضاً : إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم حتى تُلبِّسوا عليهم قولهم .

وقال مجاهد : والغَوْا فيه بالمكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿ لعلَّكم تَغْلِبون ﴾ فيسكُتون .

قوله تعالى : ﴿ ذلكَ جزاءُ أعداءِ الله ﴾ يعني العذاب المذكور .

وقوله : ﴿ النارُ ﴾ بدل من الجزاء ﴿ لهم فيها دارُ الخُلْد ﴾ أي : دار الإقامة .

قال الزجاج : النار هي الدّار ، ولكنه كما تقول : لك في هذه الدّار دار السُّرور ، وأنت تعني الدّار بعينها ، قال الشاعر :

أخور رغائبَ يُعطيها ويسألها . . .

يأبى الظُّلامَةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ لمّا دخلوا النار ﴿ ربَّنا أَرِنا اللَّذَيْنِ أضلاَّنا ﴾ وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : " أَرْنا " بسكون الراء .

قال المفسرون : يعنون إبليس وقابيل ، لأنهما سنّا المعصية ، ﴿ نجعلْهما تحتَ أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ أي : في الدَّرْك الأسفل ، وهو أشدُّ عذاباً من غيره .

(154/683)

ثم ذكر المؤمنين فقال : ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللهُ ﴾ [أي : وحَّدوه] ﴿ ثم استقاموا ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : استقاموا على التوحيد ، قاله أبو بكر الصِّدِّيق ، ومجاهد .

والثاني : على طاعة الله وأداء فرائضه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة .

والثالث : على الإِخلاص والعمل إلى الموت ، قاله أبو العالية ، والسدي ، وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصِّدِّيق ، وذلك أن المشركين قالوا : ربُّنا الله ، والملائكة بناتُه ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فلم يستقيموا ، وقالت اليهود : ربُّنا الله ،

وعزيرٌ ابنُه ، ومحمد ليس بنبيّ ، فلم يستقيموا ، وقالت النصارى : ربُّنا الله ، والمسيح ابنه ، ومحمد ليس بنبيّ ، فلم يستقيموا ، وقال أبو بكر : ربنا الله وحده ، ومحمدٌ عبدُه ورسولُه ، فاستقام .

قوله تعالى : ﴿ تتنزَّل عليهم الملائكةُ ألاّ تَخافوا ﴾ أي : بأن لا تخافوا .

وفي وقت نزولها عليهم قولان :

أحدهما : عند الموت ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ؛ فعلى هذا في معنى ﴿ لا تخافوا ﴾ قولان .

أحدهما : لا تخافوا الموت ، ولا تحزنوا على أولادكم ، قاله مجاهد .

والثاني : لا تخافوا ما أمَامكم ، ولا تحزنوا على ما خَلْفكم ، قاله عكرمة ، والسدي .

والقول الثاني : تتنزَّل عليهم إذا قاموا من القبور ، قاله قتادة ؛ فيكون معنى " لا تخافوا " : أنهم يبشِّرونهم بزوال الخوف والحزن يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ نحن أولياؤكم ﴾ قال المفسرون : هذا قول الملائكة لهم ، والمعنى : نحن [الذين] كنّا نتولّاكم في الدُّنيا ، لأن الملائكة تتولَّى المؤمنين وتحبُّهم لما ترى من أعمالهم المرفوعة إلى السماء ، ﴿ وفي الآخرة ﴾ أي : ونحن معكم في الآخرة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة .

وقال السدي : هم الحَفظة على ابن آدم ، فلذلك قالوا : ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ ؛ وقيل : هم الملائكة الذين يأتون لقبض الأرواح .

(155/683)

قوله تعالى : ﴿ ولكم فيها ﴾ أي : في الجنة .

﴿ نُزُلاً ﴾ قال الزجاج : معناه : أبشروا بالجنة تنزلونها [نُزُلاً] .

وقال الأخفش : لكم فيها ما تشتهي أنفسُكم أنزلناه نُزُلاً .

قوله تعالى : ﴿ ومَن أحسنُ قولاً ممَّن دعا إلى الله ﴾ فيمن أُريد بهذا ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم المؤذِّنون .

روى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نزلت في المؤذنين " ، وهذا قول عائشة ، ومجاهد ، وعكرمة .

والثاني : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس ، والسدي ، وابن زيد .

والثالث : أنه المؤمن أجابَ اللهَ إلى ما دعاه ، ودعا الناسَ إلى ذلك ﴿ وعمل صالحاً ﴾ في إجابته ، قاله الحسن .

وفي قوله : ﴿ وعَمِل صالحاً ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : صلّى ركعتين بعد الأذان ، وهو قول عائشة ، ومجاهد .

وروى إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم : ﴿ ومن أحسنُ قولاً ممَّن دعا إلى الله ﴾ قال : الأذان ﴿ وعمل صالحاً ﴾ قال : الصلاة بين الأذان والإِقامة .

والثاني : أدَّى الفرائض وقام لله بالحقوق ، قاله عطاء .

والثالث : صام وصلَّى ، قاله عكرمة .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَستوي الحسنةُ ولا السَّيِّئةُ ﴾ قال الزجاج : " لا " زائدة مؤكِّدة ؛

والمعنى : ولا تستوي [الحسنة] والسَّيِّئة .

وللمفسرين فيهما ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الحسنة : الإِيمان ، والسَّيِّئة : الشِّرك ، قاله ابن عباس .

والثاني : الحِلْم والفُحْش ، قاله الضحاك .

والثالث : التُّفور والصَّبر ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ادفَعْ بالَّتي هي أحسنُ ﴾ وذلك كدفع الغضب بالصبر ، والإِساءة بالعفو ، فإذا فعلتَ ذلك صار الذي بينك وبينه عداوة كالصَّديق القريب ، وقال عطاء : هو السَّلام على من تعاديه إذا لَقِيتَه .

قال المفسرون : وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ وما يُلَقَّاها ﴾ أي : ما يُعْطاها .

(156/683)

قال الزجاج : ما يُلَقَّى هذه الفَعْلَة : وهي دفع السَّيِّئة بالحسنة ﴿ إلاّ الذين صبروا ﴾ على كظم الغيظ ﴿ وما يُلَقَّاها إلاّ ذو حَظٍّ عظيمٍ ﴾ من الخير .

وقال السدي : إلاّ ذو جَدٍّ .

وقال قتادة : الحظُّ العظيم : الجنة ؛ فالمعنى : ما يُلَقَّاها إلاّ مَنْ وجبت له الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وإمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نَزْغٌ ﴾ قد فسَّرناه في [الأعراف : 200] .

قوله تعالى : ﴿ فإن استَكْبَروا ﴾ [أي : تكبَّروا عن التوحيد والعبادة] ﴿ فالذين عند ربِّكَ ﴾ يعني الملائكة ﴿ يسبِّحون ﴾ أي : يصلُّون .

و "يَسأمون " بمعنى يَمَلُّون .

وفي موضع السجدة قولان :

أحدهما : أنه عند قوله : "يَسأمون " ، قاله ابن عباس ، ومسروق ، وقتادة ، واختاره القاضي أبو يعلى ، لأنه تمام الكلام .

والثاني : [أنه] عند قوله : ﴿ إن كنتم إيَّاه تعبُدون ﴾ ، روي عن أصحاب عبد الله ، والحسن ، وأبي عبد الرحمن .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنَّكَ تَرى الأرضَ خاشعةً ﴾ قال قتادة : غبراء متهشّمة قال الأزهري : إذا يَبِست الأرضُ ولم تُمْطَر ، قيل : خَشَعَتْ .

قوله تعالى : ﴿ اهتزَّت ﴾ أي : تحرَّكَتْ بالنَّبات ﴿ ورَبَتْ ﴾ أي : عَلَتْ ، لأن النبت إذا أراد أن يَظْهَر ارتفعت له الأرضُ ؛ وقد سبق بيان هذا [الحج : 5] .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين يُلْحِدونَ في آياتنا ﴾ قال مقاتل : نزلت في أبي جهل .

وقد شرحنا معنى الإلحاد في [النحل : 103] ؛ وفي المراد به هاهنا خمسة أقوال :

أحدها : أنه وَضْع الكلام على غير موضعه ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه المُكاء والصفير عند تلاوة القرآن ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه التكذيب بالآيات ، قاله قتادة .

والرابع : أنه المُعانَدة ، قاله السدي .

والخامس : أنه المَيْل عن الإيمان بالآيات ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ لا يَخْفَوْنَ علينا ﴾ هذا وعيد بالجزاء ﴿ أفمن يُلْقَى في النار خير أم مَنْ يأتي آمِناً يومَ القيامة ﴾ وهذا عامّ ، غير أن المفسرين ذكَروا فيمن أُريدَ به سبعةَ أقوال :

أحدها : أنه أبو جهل وأبو بكر الصِّدِّيق ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أبو جهل وعمّار بن ياسر ، قاله عكرمة .

والثالث : أبو جهل ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والرابع : أبو جهل وعثمان بن عفّان ، حكاه الثعلبي .

والخامس : أبوجهل وحمزة ، حكاه الواحدي .

والسادس : أبو جهل وعمر بن الخطاب .

والسابع : الكافر والمؤمن ، حكاهما الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ اعْمَلوا ما شئتم ﴾ قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الوعيد والتهديد .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين كَفَروا بالذِّكْر ﴾ يعني القرآن ؛ ثم أخذ في وصف الذِّكر ؛ وتَرَكَ جواب "إنَّ" ، وفي جوابها هاهنا قولان :

[أحدهما] : أنه "أولئك ينادَوْنَ من مكان بعيد" ، ذكره الفراء .

والثاني : أنه متروك ، وفي تقديره قولان : أحدهما : إن الذين كفروا بالذِّكْر لمّا جاءهم كفروا به .

والثاني : إن الذين كفروا يجازَون بكفرهم .

قوله تعالى : ﴿ وإنَّه لَكِتابٌ عزيزٌ ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : مَنيعٌ من الشيطان لا يجد إليه سبيلاً ، قاله السدي .

والثاني : كريمٌ على الله ، قاله ابن السائب .

والثالث : مَنيعٌ من الباطل ، قاله مقاتل .

والرابع : يمتنع على الناس أن يقولوا مِثْلَه ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطل ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : التكذيب ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : الشيطان .

والثالث : التبديل ، رويا عن مجاهد .

قال قتادة : لا يستطيع إبليس أن ينقص منه حقاً ، ولا يَزيد فيه باطلاً ، وقال مجاهد : لا يدخل فيه ما ليس منه .

وفي قوله : ﴿ مِنْ بينِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفه ﴾ ثلاثة اقوال .

أحدها : بين يَدَي تنزيله ، وبعد نزوله .

والثاني : أنه ليس قَبْلَه كتاب يُبْطِله ، ولا يأتي بعده كتاب يُبْطِله .

والثالث : لا يأتيه الباطل في إخباره عمّا تقدَّم ، ولا في إخباره عمّا تأخر .

قوله تعالى : ﴿ ما يُقالُ لكَ إلاّ ما قد قِيل للرُّسُل مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه قد قيل فيمن أُرْسِل قَبْلَكَ : ساحر وكاهن ومجنون .

وكُذِّبوا كما كُذِّبتَ ، هذا قول الحسن ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : ما تُخْبَر إلاّ بما أُخْبِر الأنبياءُ قَبْلَك من أن الله غفور ، وأنه ذو عقاب ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ولو جَعَلْناه ﴾ يعني الكتاب الذي أُنزل عليه ﴿ قرآناً أعجميّاً ﴾ أي : بغير لغة العرب ﴿ لقالوا لولا فُصِّلت آياتُه ﴾ أي : هلاّ بيِّنت آياتُه بالعربية حتى نفهمه ؟ ! ﴿ أأعجميٌّ وعربيٌّ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : " آعجمي " [بهمزة] ممدودة ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ أأعجمي ﴾ بهمزتين ، والمعنى : أكِتابٌ أعجميٌّ ونبيٌّ عربي ؟ ! وهذا استفهام إنكار ؛ أي : لو كان كذلك لكان أشدَّ لتكذيبهم .

﴿ قُلْ هو ﴾ يعني القرآن ﴿ للذين آمنوا هُدىً ﴾ من الضلالة ﴿ وشفاءٌ ﴾ للشُّكوك والأوجاع .

و" الوَقْر " : الصَّمم ؛ فهُم في ترك القبول بمنزلة مَنْ في أُذنه صمم .

﴿ وهو عليهم عمىً ﴾ أي : ذو عمىً .

قال قتادة : صَمُّوا عن القرآن وعَمُوا عنه ﴿ أولئك ينادَوْنَ من مكان بعيدٍ ﴾ أي : إنهم لا يسمعون ولا يفهمون كالذي يُنادي من بعيد .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ والمعنى : كما آمن بكتابك قومٌ وكذَّب به قومٌ .

فكذلك كتاب موسى ، ﴿ ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّكَ ﴾ في تأخير العذاب إلى أجل مسمّىً وهو القيامة ﴿ لقُضيَ بينَهم ﴾ بالعذاب الواقع بالمكذِّبين ﴿ وإنَّهم لفي شَكٍّ ﴾ مِنْ صِدقك وكتابك ، ﴿ مريبٍ ﴾ أي : مُوقع لهم الرِّيبة .

(159/683)

قوله تعالى : ﴿ إليه يُرَدُّ عِلْمُ السّاعة ﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أَخْبِرنا عن السّاعة إن كنتَ رسولاً كما تزعم ، قاله مقاتل .

ومعنى الآية : لا يَعْلَم قيامَها إلا هو ، فإذا سُئل عنها فِعلْمُها مردودٌ إليه .

﴿ وما تَخْرُجُ من ثمرةٍ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن

عاصم : " من ثمرةٍ " .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : " من ثمراتٍ " على الجمع ﴿ مِنْ أكمامها ﴾ أي : أوعيتها .

قال ابن قتيبة : أي : من المواضع التي كانت فيها مستترةً ، وغلاف كل شيء : كُمُّه ، وإنما قيل : كُمُّ القميص ، من هذا .

قال الزجاج : الأكمام : ما غَطَّى ، وكلُّ شجرة تُخْرِج ما هو مُكَمَّم فهي ذات أكمام ، وأكمامُ النخلة : ما غطَّى جُمَّارَها من السَّعَفِ والليف والجِذْع ، وكلُّ ما أخرجتْه النخلة فهو ذو أكمام ، فالطَّلْعة كُمُّها قشرها ، ومن هذا قيل للقَلَنْسُوة : كُمَّة ، لأنها تُغَطِّي الرأْس ، ومن هذا كُمّا القميص ، لأنهما يغطِّيان اليدين .

قوله تعالى : ﴿ ويومَ يُناديهم ﴾ أي : ينادي اللهُ تعالى المشركين ﴿ أين شركائِي ﴾ الذين كنتم تزعُمون ﴿ قالوا آذَنّاكَ ﴾ قال الفراء ، وابن قتيبة : أعلمناكَ ، وقال مقاتل : أسمعناكَ ﴿ ما مِنّا من شهيدٍ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه من قول المشركين ؛ والمعنى : ما مِنّا مِنْ شهيد بأنَّ لكَ شريكاً ، فيتبرَّؤون يومئذ ممّا كانوا يقولون ، هذا قول مقاتل .

والثاني : [أنه] من قول الآلهة التي كانت تُعبد ؛ والمعنى : ما مِنّا من شهيد لهم بما قالوا ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ وضَلَّ عنهم ﴾ أي : بَطَلَ عنهم في الآخرة ﴿ ما كانوا يَدْعُونَ ﴾ أي : يعبُدون في الدنيا ، ﴿ وظنُّوا ﴾ أي : أيقنوا ﴿ ما لهم مِنْ مَحيصٍ ﴾ وقد شرحنا المحيص في سورة [النساء : 121] .

(160/683)

قوله تعالى : ﴿ لا يَسأَمُ الإِنسانُ ﴾ قال المفسرون : المراد به الكافر ؛ فالمعنى : لا يَمَلُّ الكافرُ ﴿ من دعاء الخير ﴾ أي : من دعائه بالخير ، وهو المال والعافية .

﴿ وإِن مَسَّه الشَّرُّ ﴾ وهو الفقر والشِّدة ؛ والمعنى : إذا اختُبر بذلك يئس من رَوْح ال ، له وقَنْط من رحمته .

وقال أبو عبيدة : اليؤوس ، فَعُول من يأس ، والقَنُوط ، فَعُول من قَنَط .

قوله تعالى : ﴿ لئن أَذَقْناه رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي : خيراً وعافية وغِنىً ، ﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِي ﴾ أي : هذا واجب لي بعملي وأنا محقوق به ، ثم يشُكُّ في البعث فيقول ﴿ وما أَظُنُّ السّاعةَ قائمةً ﴾ أي : لست على يقين من البعث ﴿ ولئن رُجِعْتُ إلى ربِّي إنَّ لي عندَه لَلْحُسنى ﴾ يعني الجنة ، أي : كما أعطاني في الدنيا يعطيني في الآخرة ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كفَروا ﴾ أي : لَنُخبِرَنَّهم بمساوئ أعمالهم .

وما بعده قد سبق [إبراهيم : 17] [الإسراء : 83] إلى قوله تعالى ﴿ ونأى بجانبه ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿ ونأى ﴾ مثل " نعى " .

وقرأ ابن عامر : " وناء " مفتوحة النون ممدودة والهمزة بعد الألف .

وقرأ حمزة : " نئى " مكسورة النون والهمزة .

﴿ فذو دُعاءٍ عريضٍ ﴾ قال الفراء ، وابن قتيبة : معنى العريض : الكثير ، وإن وصفته بالطول أو بالعَرْض جاز في الكلام .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿ أرأيتم إن كان ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عند الله ثُمَّ كَفَرتُم به مَنْ أَضَلُّ مِمَّن هو في شِقاق ﴾ أي : خلاف للحق (بعيدٍ) عنه ؟ ! وهو اسم ؛ والمعنى : فلا أحدٌ أَضَلّ منكم .

وقال ابن جرير : معنى الآية : [ثُمَّ] كفرتم به ، ألستُم في شقاقٍ للحق وبُعد عن الصواب ؟ ! فجعل مكان هذا باقي الآية .

قوله تعالى : ﴿ سنُريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسُهم ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : في الآفاق : فتح أقطار الأرض ، وفي أنفسهم : فتح مكة ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والسدي .

والثاني : أنها في الآفاق : وقائع الله في الأمم الخالية ، وفي أنفسهم : يوم بدر ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والثالث : أنها في الآفاق : إمساك القَطْر عن الأرض كلِّها ، وفي أنفسهم : البلايا التي تكون في أجسادهم ، قاله ابن جريج .

والرابع : أنها في الآفاق : آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم ، وفي أنفسهم : حوادث الأرض ، قاله ابن زيد .

وحكي عن ابن زيد ؛ أن التي في أنفُسهم : سبيل الغائط والبول ، فإن الإنسان يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويخرج من مكانين .

والخامس : أنها في الآفاق : آثار مَنْ مضى قَبْلَهم من المكذِّبين ، وفي أنفسهم : كونهم خُلِقوا نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عظاماً إلى أن نُقِلوا إلى العقل والتمييز ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ حتى يَتَبَيَّن لهم أَنَّه الحَقُّ ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى القرآن .

والثاني : إلى جميع ما دعاهم إليه الرسول .

وقال ابن جرير : معنى الآية : حتى يعلموا حقيقة ما أَنزلْنا على محمد وأوحينا إليه من الوعد له بأنّا مُظْهِرو دينه على الأديان كلِّها .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنه على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ ﴾ أي : أوَلَمْ يكفِ به أنه شاهدٌ على كل شيء ؟ ! قال الزجاج : المعنى : أو لم يكفِهم شهادةُ ربِّك ؟ ! ومعنى الكفاية ها هنا : أنه قد بيَّن لهم ما فيه كفاية في الدّلالة على توحيده وتثبيت رسله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 252. 269 ﴾

(162/683)

وقال الخازن :

﴿ وقيضنا لهم ﴾

أي بعثنا ووكلنا وقيل هيأنا لهم وسببنا لهم ﴿ قرناء ﴾ أي نظراء من الشياطين حتى أضلوهم ﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم ﴾ أي من أمر الدنيا حتى آثروهم على الآخرة ﴿ وما خلفهم ﴾ أي فدعوهم إلى التكذيب بالآخرة وإنكار البعث وقيل حسنوا لهم أعمالهم القبيحة الماضية والمستقبلة ﴿ وحق عليهم القول ﴾ أي وجب ﴿ في أمم ﴾ أي مع أمم ﴿ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعني مشركي قريش ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ قال ابن عباس : والغطوا فيه من اللغط وهو كثرة الأصوات كان بعضهم يوصي إلى بعض إذا رأيتم محمداً يقرأ

فعارضوه بالرجز والشعر وقيل أكثروا الكلام حتى يتخلط عليه ما يقول وقيل والغوا فيه بالمكاء والصفير وقيل صيحوا في وجهه ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ يعني محمداً على قراءته ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ ﴾ يعني بأسوأ ﴿ الذي كانوا يعملون ﴾ أي في الدنيا وهو الشرك ﴿ ذلك ﴾ أي الذي ذكر من العذاب ﴿ جزاء أعداء الله ﴾ ثم بين ذلك الجزاء فقال ﴿ النار لهم فيها دار الخلد ﴾ أي دار الإقامة لا انتقال لهم عنها ﴿ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون وقال الذين كفروا ﴾ أي في النار ﴿ ربنا ﴾ أي يقولون يا ربنا ﴿ أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ﴾ يعنون إبليس وقابيل بن آدم الذي قتل أخاه لأنهما سنَّا المعصية ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ أي في النار ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ أي في الدرك الأصفل من النار وقال ابن عباس : ليكونا أشد عذاب منا .

(163/683)

قوله : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قال أهل التحقيق كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته لأجل العمل به ، ورأس المعرفة اليقينية معرفة الله تعالى وإليه الإشارة بقوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ﴾ ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط فتكون الاستقامة في أمر الدين والتوحيد فتكون في

الأعمال الصالحة .

سئل أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عن الاستقامة فقال : أن لا تشرك بالله شيئاً

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب .

وقال عثمان رضي الله تعالى عنه : استقاموا أخلصوا في العمل ، وقال علي بن أبي طالب : أدوا الفرائض ، وهو قول ابن عباس .

(164/683)

وقيل استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه ، وقيل : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله وكان الحسن إذا تلا هذه الآية قال اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال ابن عباس عند الموت وقيل إذا قاموا من قبورهم وقيل البشرى تكون في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث ﴿ أن لا تخافوا ﴾ أي من الموت وقيل لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ أي على ما خلفتم من أهل وولد فإنا نخلفكم في ذلك كله وقيل لا تخافوا من ذنوبكم ولا تحزنوا فأنا أغفرها لكم ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم ﴾ أي تقول

الملائكة عند نزولهم بالبشرى نحن أولياؤكم أي أنصاركم وأحباؤكم وقيل تقول لهم الحفظة نحن كنا معكم ﴿ في الحياة الدنيا و ﴾ نحن أولياؤكم ﴿ في الآخرة ﴾ لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة ﴿ ولكم فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ ما تشتهي أنفسكم ﴾ أي من الكرامات واللذات ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي تتمنون ﴿ نزلاً ﴾ أي رزقاً والنزل رزق النزيل والنزيل هو الضيف ﴿ من غفور رحيم ﴾ قال أهل المعاني كل هذه الأشياء المذكورة في هذه الآية جارية مجرى النزل والكريم إذا أعطى هذا النزل فما ظنك بما بعده من الألطاف و الكرامة .

قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ أي إلى طاعة الله تعالى وقيل هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعا الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وقيل : هو المؤمن أجاب الله تعالى فيما دعاه إليه ودعا الناس إلى ما أجاب إليه ﴿ وعمل صالحاً ﴾ في إجابته وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : أرى أن هذه الآية نزلت في المؤذنين وقيل إن كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق فهو داخل في هذه الآية .

(165/683)

قوله تعالى ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ يعني الصبر والغضب والحلم والجهل والعفو والإساءة ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ قال ابن عباس أمره بالصبر عند الغضب وبالحلم عند الجهل وبالعفو عند الإساءة ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ أي صديق قريب ، قيل نزلت في أبي سفيان بن حرب وذلك حيث لان للمسلمين بعد شدة عداوته بالمصاهرة التي حصلت بينه وبين النبي (صلى الله عليه وسلم) فصار ولياً بالإسلام حميماً بالقرابة ﴿ وما يلقاها ﴾ أي وما يلقى هذه الخصلة والفعلة وهي دفع السيئة بالحسنة ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ أي على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام وما يلقاها ﴿ إلا ذو حظ عظيم ﴾ أي من الخير والثواب وقيل الحظ العظيم الجنة يعني ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ النزغ شبه النخس والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه أي يبعثه إلى ما لا ينبغي ومعنى الآية وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي من شره ﴿ إنه هو السميع ﴾ أي لاستعاذتك ﴿ العليم ﴾ بأحوالك .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ أي ومن دلائل قدرته وحكمته الدالة على وحدانيته ﴿ الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ﴾ أي إنهما مخلوقان مسخران فلا ينبغي السجود لهما لأن السجود عبارة عن نهاية التعظيم ﴿ واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ أي المستحق للسجود والتعظيم هو الله خالق الليل والنهار والشمس

والقمر ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ يعني أن ناساً كانوا يسجدون للشمس والقمر والكواكب ويزعمون أن سجودهم لهذه الكواكب هو سجود لله فنهوا عن السجود لهذه الوسايط وأمروا بالسجود لله الذي خلق هذه الأشياء كلها ﴿ فإن استكبروا ﴾ أي عن السجود لله ﴿ فالذين عند ربك ﴾ يعني الملائكة ﴿ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ أي لا يفترون ولا يملون .

(فصل)

(166/683)

وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة وفي موضع السجود فيها قولان للعلماء وهما وجهان لأصحاب الشافعي أحدهما أنه عند قوله تعالى : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ وهو قول ابن مسعود والحسن وحكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد لأن ذكر السجدة قبله والثاني وهو الأصح عند أصحاب الشافعي وكذلك نقله الرافعي أنه عند قوله تعالى : ﴿ وهم لا يسأمون ﴾ وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وقتادة وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة لأن عنده يتم الكلام .

(167/683)

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ قوله تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون ﴾ أي يميلون عن الحق ﴿ في آياتنا ﴾ أي في أدلتنا قيل بالمكاء والتصدية واللغو واللغط وقيل يكذبون بآياتنا ويعاندون ويشاقون ﴿ لا يخفون علينا ﴾ تهديد ووعيد قيل نزلت في أبي جهل ﴿ أفمن يلقى في النار ﴾ هو أبو جهل ﴿ خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ المعنى الذين يلحدون في آياتنا يلقون في النار والذين يؤمنون بآياتنا آمنون يوم القيامة قيل هو حمزة وقيل عثمان وقيل عمار بن ياسر ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ أمر تهديد ووعيد ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ أي إنه عالم بأعمالكم فيجازيكم عليها ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ يعني القرآن وفي جواب إن وجهان أحدهما أنه محذوف تقديره إن الذين كفروا بالذكر يجازون بكفرهم ، والثاني جوابه أولئك ينادون من مكان بعيد ثم أخذ في وصف الذكر فقال تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ قال ابن عباس : كريم على الله تعالى ، وقيل : العزيز العديم النظير وذلك أن الخلق عجزوا عن معارضته وقيل أعزه الله بمعنى منعه فلا يجد الباطل إليه سبيلاً وهو قوله تعالى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ قيل الباطل هو الشيطان فلا يستطيع أن يغيره وقيل إنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيأتيه الباطل من خلفه فعلى هذا يكون معنى الباطل الزيادة والنقصان

وقيل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يجيء بعده كتاب فيبطله وقيل معناه أن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه وقيل : لا يأتيه الباطل عما أخبر فيما تقدم من الزمان ولا فيما تأخر ﴿ تنزيل من حكيم ﴾ أي في جميع أفعاله ﴿ حميد ﴾ أي إلى جميع خلقه بسبب نعمه عليهم ثم عزى الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) على تكذيبهم إياه فقال : ﴿ ما يقال لك ﴾ أي من

(168/683)

الأذى والتكذيب ﴿ إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ يعني أنه قد قيل للأنبياء قبلك ساحر كما يقال لك وكذبوا كما كذبت ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ أي لمن تاب وآمن بك ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ أي لمن أصر على التكذيب .

(169/683)

قوله : ﴿ ولو جعلناه ﴾ أي هذا الكتاب الذي تقرأه على الناس ﴿ قرآناً أعجمياً ﴾ يعني بغير لغة العرب ﴿ لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ يعني هلا بينت آياته بالعربية حتى نفهمها

﴿ أأعجمي وعربي ﴾ يعني أكتاب أعجمي ورسول عربي وهذا استفهام إنكار والمعنى لو نزل الكتاب بلغة العجم لقالوا كيف يكون المنزل عليه عربياً والمنزل أعجمياً ، وقيل في معنى الآية : أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا كيف أنزلنا الكلام العجمي إلى القوم العرب ولصح قولهم أن يقولوا قلوبنا في أكنة وفي آذاننا وقر لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه ، وأنا لما أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب وهم يفهمونه فكيف يمكنهم أن يقولوا قلوبنا في أكنة وفي آذاننا وقر وقيل إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يدخل على يسار غلام عامر بن الحضرمي وكان يهودياً أعجمياً يكنى أبا فكيهة فقال المشركون إنما يعلمه يسار فضربه سيده وقال إنك تعلم محمداً فقال هو والله يعلمني فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ هو ﴾ يعني القرآن ﴿ للذين آمنوا هدى ﴾ يعني من الضلالة ﴿ وشفاء ﴾ يعني لما في القلوب من مرض الشرك والشك وقيل شفاء من الأوجاع والأسقام ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ يعني صموا عن استماع القرآن وعموا عنه فلا ينتفعون به ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ يعني كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم كذلك هؤلاء في قلة انتفاعهم بما يوعظون به كأنهم ينادون من حيث لا يسمعون ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ يعني فمصدق به ومكذب كما اختلف قومك في كتابك ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ يعني في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن ﴿ لقضي بينهم ﴾ يعني لفرغ من عذابهم وعجل إهلاكهم

﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ يعني من كتابك وصدقك ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ يعني يعود نفع إيمانه وعمله لنفسه ﴿ ومن أساء فعليها ﴾ يعني ضرر إساءته أو كفره يعود على نفسه

(170/683)

أيضاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ يعني فيعذب غير المسيء .

قوله : ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ يعني إذا سأل عنها سائل قيل له لا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله تعالى ولا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها ﴾ أي من أوعيتها ، وقال ابن عباس : هو الكفرى قبل أن ينشق ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أي يعلم قدر أيام الحمل وساعاته ومتى يكون الوضع وذكر الحمل هو أم أنثى ومعنى الآية كما يرد إليه علم الساعة فكذلك يرد إليه علم ما يحدث من كل شيء كالثمار والنتاج وغيره .

﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴾ أي يعبدون في الدنيا ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أي مهرب .

(171/683)

قوله تعالى : ﴿ لا يسأم الإنسان ﴾ أي لا يمل الكافر ﴿ من دعاء الخير ﴾ يعني لا يزال يسأل ربه الخير وهو المال والغنى والصحة ﴿ وإن مسه الشر ﴾ أي الشدة والفقر ﴿ فيؤوس ﴾ أي من روح الله تعالى ﴿ قنوط ﴾ أي من رحمته ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا ﴾ أي آتيناه خيراً وعافية وغنى ﴿ من بعد ضراء مسته ﴾ أي من بعد شدة وبلاء أصابه ﴿ ليقولن هذا لي ﴾ أي أستحقه بعملي ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي ولست على يقين من البعث ﴿ ولئن رجعت إلى ربي ﴾ يقول هذا الكافر أي فإن كان الأمر على ذلك ورددت إلى ربي ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ أي الجنة والمعنى كما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ﴾ قال ابن عباس لنوقفنهم على مساوي أعمالهم ﴿ ولنذيقنهم من عذاب غليظ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي الشدة والفقر ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ أي كثير ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة ﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ أي هذا القرآن ﴿ ثم كفرتم به ﴾ أي جحدتموه ﴿ من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ أي في خلاف للحق بعيد عنه والمعنى فلا أحد أضل منكم ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾ قال ابن عباس يعني منازل الأمم الخالية ﴿ وفي أنفسهم ﴾ أي البلاء والأمراض وقيل ما نزل بهم يوم بدر وقيل في الآفاق هو ما يفتح من القرى والبلاد على محمد (صلى الله

عليه وسلم) والمسلمين وفي أنفسهم هو فتح مكة ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ يعني دين الإسلام ، وقيل يتبين القرآن أنه من عند الله وقيل يتبين لهم أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) مؤيد من قبل الله تعالى وقيل في الآفاق يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والأنهار والنبات وفي أنفسهم يعني من لطيف الحكمة وبديع الصنعة حتى يتبين لهم أنه الحق يعني لا يقدر على هذه الأشياء إلا الله تعالى : ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ يعني يشهد أن القرآن

(172/683)

من عند الله تعالى ، وقيل أولم يكفهم الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله لهم على التوحيد وأنه شاهد لا يغيب عنه شيء .

﴿ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ﴾ أي في شك عظيم من القيامة ﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها ، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 115.110 ﴾

(173/683)

وقال ابن جزى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾

أي يسرنا لهم قرناء سوء من الشياطين وغواة الإنس ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ما بين أيديهم ما تقدم من أعمالهم ، وما خلفهم ما هم عازمون عليه ، أو ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة ، والتكذيب بها ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي سبق عليهم القضاء بعذابهم ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أي في جملة أمم ، وقيل : في بمعنى مع .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن ﴾ روي أن قائل هذه المقالة أبو جهل بن هشام لعنه الله ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ المعنى لا تسمعوا إليه ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات وإنشاد الشعر ، وشبه ذلك حتى لايسمعه أحد ، وقيل : معناه قعوا فيه وعيبوه .

﴿ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا ﴾ يقولون هذا إذا دخلوا جهنم ، فقولهم مستقبل ذكر بلفظ الماضي ، ومعنى اللذين أضلانا : كل من أغوانا من الجن والإنس ، وقيل : المراد ولد آدم الذي سن القتل وإبليس الذي أمر بالكفر والعصيان ، وهذا باطل لأن ولد آدم مؤمن عاصي ، وإنما طلب هؤلاء من أضلهم بالكفر ﴿ تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي في أسفل طبقة من النار ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، استقاموا على قولهم : ربنا الله ، فصح إيمانهم ودام توحيدهم وقال عمر بن الخطاب : المعنى استقاموا على الطاعة وترك

المعاصي ، وقول عمر أكمل وأحوط ، وقول أبي بكر أرجح لما روى أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : قد قالها قوم كفروا فمن مات عليها فهو ممن استقام " ، وقال بعض الصوفية : معنى استقاموا أعرضوا عما سوى الله ، وهذه حالة الكمال على أن اللفظ لا يقتضيه ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ يعني عند الموت ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ الضمير للآخرة ﴿ مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي ما تطلبون .

(174/683)

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى الله ﴾ أي : لا أحد أحسن قولاً منه ، ويدخل في ذلك كل من دعا إلى عبادة الله أو طاعته على العموم ، وقيل : المراد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل المؤذنون وهذا بعيد ؛ لأنها مكية ، وإنما شرع الأذان بالمدينة ولكن المؤذنين يدخلون في العموم ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ الضمير يعود على الخلق الجميل الذي يتضمنه قوله : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ﴿ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي حظ من العقل والفضل وقيل : حظ عظيم في الجنة .

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ إن شرطية دخلت عليها ما الزائدة ، ونزغ الشيطان : وساوسه وأمره بالسوء ﴿ الذي خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير يعود على الليل والنهار والشمس والقمر ، لأن

جماعة ما لا يعقل كجماعة المؤنث ، أو كالواحدة المؤنثة ، وقيل : إنما يعود على الشمس والقمر ، وجمعهما لأن الاثنين جمع هذا بعيد ﴿ فالذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ الملائكة ﴿ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ أي لا يملون .

﴿ الأرض خَاشِعَةً ﴾ عبارة عن قلة النبات ﴿ اهتزت ﴾ ذكر في [الحج : 5] ﴿ نَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى ﴾ تمثيل واحتجاج على صحة البعث .

﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي يطعنون عليها ، وهذا الإلحاد هو بالتكذيب وقيل : باللغو فيه حسبما تقدم في السورة ﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار ﴾ الآية : قيل إن المراد بالذي يلقى بالنار أبو جهل ، وبالذي يأتي آمناً عثمان بن عفان وقيل : عمار بن ياسر واللفظ أعم من ذلك ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ تهديد لا إباحة .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر ﴾ الذكر هنا القرآن باتفاق ، وخبر إن محذوف تقديره ؛ ﴿ ضَلُّواْ ﴾ أو هلكوا ، وقيل : خبرها : ﴿ أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ، وذلك بعيد .

(175/683)

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أي كريم على الله ، وقيل منيع من الشيطان ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل ﴾ أي ليس فيما تقدمه ما يبطله ، ولا يأتي ما يبطله والمراد على الجملة أنه لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ في معناه قولان : أحدهما : ما يقول الله لك من الوحي والشرائع ، إلا مثل ما قال للرسل من قبلك ، والآخر : ما يقول لك الكفار من التكذيب والأذى إلا مثل ما قالت الأمم المتقدمون لرسلهم ، فالمراد على هذا تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بالتأسي ، والمراد على القول الأوّل أنه عليه الصلاة والسلام أتى بما جاءت به الرسل فلا تنكر رسالته ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ يحتمل أن يكون مستأنفاً ، أو يكون هو المقول في الآية المتقدمة ، وذلك على القول الأوّل ، وأما القول الثاني فهو مستأنف منطقع مما قبله .

(176/683)

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ الأعجمي الذي لا يفصح ، ولا يبين كلامه سواء كان من العرب أو من العجم ، والعجمي الذي ليس من العرب فصيحاً كان أو غير فصيح ، ونزلت الآية بسبب طعن قريش في القرآن ، فالمعنى أنه كان أعجمياً لطعنوا فيه وقالوا : هلا كان مبيناً فظهر أنهم يطعنون فيه على أي وجه كان ﴿ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ

﴿ هذا من تمام كلامهم ، والهمزة للإنكار ، والمعنى : أنه لو كان القرآن أعجمياً لقالوا قرآن أعجمي ، ورسول عربي ، أو مرسل إليه عربي ، وقيل : إنما طعنوا فيه لما فيه من الكلمات العجمية ، كسجين وإستبرق ، فقالوا أقرآن أعجمي وعربي ، أي مختلط من كلام العرب والعجم ، وهذا يجري على قراءة أعجمي بفتح العين ﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ عبارة عن إعراضهم عن القرآن ، فكأنهم صم لا يسمعون وكذلك ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ عبارة عن قلة فهمهم له ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فيه قولان : أحدهما عبارة عن قلة فهمهم فشبههم بمن ينادي من مكان بعيد فهو لا يسمع الصوت ولا يفقه ما يقال ، والثاني : أنه حقيقة في يوم القيامة أي ينادون من مكان بعيد ليسمعوا أهل الموقف توبيخهم ، والأوّل أليق بالكنايات التي قبلها .

﴿ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني القدر .

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي علم زمان وقوعها ، فإذا سئل أحد عن ذلك قال : الله هو الذي يعلمها ﴿ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ جمع كم بكسر الكاف وهو غلاف الثمرة قبل ظهورها .

(177/683)

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِي ﴾ العامل في يوم محذوف والمراد به يوم القيامة ، والضمير للمشركين وقوله : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِي ﴾ توبيخ لهم ، وأضاف الشركاء إلى نفسه على زعم المشركين ، كأنه قال : الشركاء الذين جعلتم لي ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ المعنى : أنهم قالوا : أعلمناك ما منا من يشهد اليوم بأن لك شريكاً ، لأنهم كفروا يوم القيامة بشركائهم .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي ضل عنهم شركاؤهم ، بمعنى أنهم لا يرونهم حينئذ ، فما على هذا موصولة ، أو ضل عنهم قولهم الذي كانوا يقولون من الشرك ، فما على هذا مصدرية ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ الظنّ هنا بمعنى اليقين ، والمحيص المهرب : أي علموا أنهم لا مهرب لهم من العذاب ؛ وقيل : يوقف على ظنوا ، ويكون ما لهم ؛ استئنافاً ، وذلك ضعيف .

﴿ لاَّ يَسْأَمُ الإِنسانُ مِن دُعَآءِ الخَيرِ ﴾ أي لا يمل من الدعاء بالمال والعافية وشبه ذلك ، ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة ، وقيل في غيره من الكفار واللفظ أعم من ذلك .

﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِي ﴾ أي هذا حقي الواجب لي ، وليس تفضلاً من الله ولا يقول هذا إلا كافر ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ وقوله : ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ معناه إن بعثت تكون لي الجنة ، وهذا تخرص وتكبر ، وروي أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ ذكر في [الإسراء : 83] أي كثير ،

وذكر الله هذه الأخلاق على وجه الذم لها .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ الآي معناها أخبروني إن كان القرآن من عند الله ثم كفرتم به ألستم في شقاق بعيد ؟ فوضع قوله (من أحل) موضع الخطاب لهم .

(178/683)

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ الضمير لقريش وفيها ثلاثة أقوال : أحدها أن الآيات في الآفاق هي فتح الأقطار للمسلمين ، والآيات في أنفسهم هي فتح مكة فجمع ذلك وعداً للمسلمين بالظهور ، وتهديداً للكفار ، واحتجاجاً عليهم بظهور الحق وخمول الباطل ، والثاني أن الآيات في الآفاق : هي ما أصاب الأمم المتقدمة من الهلاك وفي أنفسهم يوم بدر الثالث أن الآيات في الآفاق : هي خلق السماء وما فيها من العبر والآيات ، وفي أنفسهم خلقة بني آدم وهذا ضعيف لأنه قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ بسين الاستقبال ، وقد كانت السموات وخلقة بني آدم مرئية والأول هو الراجح ﴿ أَنَّهُ الحق ﴾ الضمير للقرآن أو للإسلام ﴿ مُّحِيطٌ ﴾ أي بعلمه وقدرته وسلطانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 13 . 16 ﴾

(179/683)

وقال النسفى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ ﴾

أي قدرنا لمشركي مكة ، يقال : هذان ثوبان قيضان أي مثلان والمقايضة المعاوضة ، وقيل : سلطنا عليهم ﴿ قُرَنَآءَ ﴾ أخداناً من الشياطين جمع قرين كقوله ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : 36] ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها ، أو ما بين أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات وما خلفهم من أمر العاقبة وأن لا بعث ولا حساب ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ كلمة العذاب ﴿ فِى أُمَمٍ ﴾ في جملة أمم ومحله النصب على الحال من الضمير في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي حق عليهم القول كائنين في جملة أمم ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قبل أهل مكة ﴿ مّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ هو تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم وللأمم .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان ﴾ إذاً قريء ﴿ والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ وعارضوه بكلام غير مفهوم حتى تشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة ، ولكن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا

تحت ذكرهم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم وهو الكفر .

(180/683)

﴿ ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ الله ﴾ ذلك إشارة إلى الأسوأ ويجب أن يكون التقدير أسوأ جزاء الذي كانوا يعملون حتى تستقيم هذه الإشارة ﴿ النار ﴾ عطف بيان للجزاء أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ﴾ أي النار في نفسها دار الخلد كما تقول : لك في هذه الدار دار السرور وأنت تعني الدار بعينها ﴿ جَزَآءً ﴾ أي جوزوا بذلك جزاء ﴿ بِمَا كَانُوا بآياتنا يَجْحَدُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَا أَرِنَا ﴾ وبسكون الراء لثقل الكسرة كما قالوا في فخْذِ فَخْذ : مكي وشامي وأبو بكر .

وبالاختلاس : أبوعمرو ﴿ اللذين أضلانا ﴾ أي الشيطانين اللذين أضلانا ﴿ مِّنَ الجن والإنس ﴾ لأن الشيطان على ضربين جني وإنسي ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبىّ عَدُوّاً شياطين الإنس والجن ﴾ ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ في النار جزاء إضلالهم إيانا .

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ﴾ أي نطقوا بالتوحيد ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ ثم ثبتوا على الإقرار

ومقتضيانه ، وعن الصديق رضي الله عنه : استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً : وعنه أنه تلاها ثم قال : ما تقولون فيها ؟ قالوا : لم يذنبوا .

قال : حملتم الأمر على أشده .

قالوا : فما تقول ؟ قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان .

وعن عمر رضي الله عنه : لم يروغوا روغان الثعالب أي لم ينافقوا .

وعن عثمان رضي الله عنه : أخلصوا العمل .

وعن علي رضي الله عنه : أدوا الفرائض .

وعن الفضيل : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية .

(181/683)

وقيل : حقيقة الاستقامة القرار بعد الإقرار لا الفرار بعد الإقرار ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملئكة ﴾ عند الموت ﴿ أن ﴾ بمعنى "أي" أو مخففة من الثقيلة وأصله بأنه ﴿ لاَ تَخَافُواْ ﴾ والهاء ضمير الشأن أي لا تخافوا ما تقدمون عليه ﴿ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ على ما خلفتهم فالخوف غم يلحق الإنسان لتوقع المكروه ، والحزن غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار والمعنى أن الله كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة

التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا ، وقال محمد بن علي الترمذي : تتنزل عليهم ملائكة الرحمن عند مفارقة الأرواح الأبدان أن لا تخافوا سلب الإيمان ، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان ، وأبشروا بدخول الجنان التي كنتم توعدون في سالف الزمان ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى الحياة الدنيا وَفِى الآخرة ﴾ كما أن الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ من النعيم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تتمنون ﴿ نُزُلاً ﴾ هو رزق نزيل وهو الضيف وانتصابه على الحال من الهاء المحذوفة أو من "ما" ﴿ مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ نعت له .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى الله ﴾ إلى عبادته هو رسول الله دعا إلى التوحيد ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ خالصاً ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ المسلمين ﴾ تفاخراً بالإسلام ومعتقداً له ، أو أصحابه عليه السلام ، أو المؤذنون ، أو جميع الهداة والدعاة إلى الله .

(182/683)

﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الحسنة وَلاَ السيئة ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ يعني أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك كما لو أساء إليك رجل إساءة ،

فالحسنة أن تعفو عنه ، والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك مثل أن يذمك فتمدحه أو يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ﴿ فَإِذَا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك .

ثم قال ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَآ ﴾ أي وما يلقي هذه الخصلة التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ إلا أهل الصبر ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ إلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير .

(183/683)

وإنما لم يقل "فادفع بالتي هي أحسن" لأنه على تقدير قائل قال : فكيف أصنع ؟ فقيل : ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وقيل : "لا" مزيدة للتأكيد والمعنى : لا تستوي الحسنة والسيئة ، وكان القياس على هذا التفسير أن يقال : ادفع بالتي هي حسنة ، ولكن وضع ﴿ التى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ موضع "الحسنة" ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة ، لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : بالتي هي أحسن : الصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة وفسر الحظ بالثواب ، وعن الحسن : والله ما عظم حظ دون الجنة ، وقيل : نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدواً مؤذياً للنبي

صلى الله عليه وسلم فصار ولياً مصافياً ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ ﴾ النزغ شبه النخس والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه يبعثه على ما لا ينبغي ، وجعل النزغ نازغاً كما قيل جد جده ، أو أريد وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر أو لتسويله ، والمعنى وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من شره وامض على حلمك ولا تطعه ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لاستعاذتك ﴿ العليم ﴾ بنزغ الشيطان .

(184/683)

﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ الدالة على وحدانيته ﴿ الليل والنهار ﴾ في تعاقبهما على حد معلوم وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿ والشمس والقمر ﴾ في اختصاصهما بسير مقدور ونور مقرر ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ فإنهما مخلوقان وإن كثرت منافعهما ﴿ واسجدوا لِلَّهِ الذى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ الضمير في ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ للآيات أو الليل والنهار والشمس والقمر ، لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث ، تقول : الأقلام بريتها وبريتهن ، ولعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود لله تعالى ، فنهوا عن هذه

الواسطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله خالصاً إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين ، فإن من عبد مع الله غيره لا يكون عابداً لله .

﴿ فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ لا يملون .

والمعنى فإن استكبروا ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله خالصاً ، فدعهم وشأنهم فإن الله تعالى لا يعدم عابد أو ساجد بالإخلاص وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد .

و ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة .

وموضع السجدة عندنا ﴿ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ وعند الشافعي رحمه الله عند ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ والأول أحوط .

(185/683)

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾ يابسة مغبرة والخشوع التذلل فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء ﴾ المطر ﴿ اهتزت ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ انتفخت ﴿ إِنَّ الذى أحياها لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ

شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيكون قادراً على البعث ضرورة ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءايا تنا ﴾ يميلون عن الحق في أدلتنا بالطعن ، يقال : ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق فاستعير لحال الأرض إذا كانت ملحودة ، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة .

﴿ يُلْتحِدُونَ ﴾ حمزة ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ وعيد لهم على التحريف ﴿ أَفَمَن يلقى فِى النار خَيْرٌ أم مَّن يَأْتِى ءَامِناً يَوْمَ القيامة ﴾ هذا تمثيل للكافر والمؤمن ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ هذا نهاية في التهديد ومبالغة في الوعيد ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم عليه ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر ﴾ بالقرآن لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرفوا تأويله ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ حين جاءهم .

وخبر "إن" محذوف أي يعذبون أو هالكون أو ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وما بينهما اعتراض ﴿ وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ ﴾ أي منيع محمي بحماية الله ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل ﴾ التبديل أو التناقض ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ مستحق للحمد .

(186/683)

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ ما يقول لك كفار قومك ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأعدائهم ، ويجوز أن يكون ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسل من قبلك ، والمقول هو قوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

﴿ وَلَوْ جعلناه ﴾ أي الذكر ﴿ قُرْءَاناً أَعْجَمِيّاً ﴾ أي بلغة العجم كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم فقيل في جوابهم : لو كان كما يقترحون ﴿ لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ أي بينت بلسان العرب حتى نفهمها تعنتاً ﴿ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ بهمزتين كوفي غير حفص ، والهمزة للإنكار يعني لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي .

الباقون بهمزة واحدة ممدودة مستفهمة .

والأعجمي الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه سواء كان من العجم أو العرب ، والعجمي منسوب إلى أمة العجم فصيحاً كان أو غير فصيح ، والمعنى أن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً لأنهم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم ، وفيه إشارة إلى أنه لو أنزله بلسان العجم لكان قرآناً فيكون دليلاً لأبي حنيفة رضي الله عنه في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسية .

﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي القرآن ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى ﴾ إرشاد إلى الحق ﴿ وَشِفَاءٌ ﴾ لما في الصدور من الشك إذ الشك مرض ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ في موضع الجر لكونه معطوفاً على ﴿ الذين آمَنُوا ﴾ أي هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر أي صمم إلا أن فيه عطفاً على عاملين وهو جائز عند الأخفش ، أو الرفع وتقديره والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر على حذف المبتدأ أو في آذانهم منه وقر ﴿ وَهُوَ ﴾ أي القرآن ﴿ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ظلمة وشبهة ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعني أنهم لعدم قبولهم وانتفاعهم كأنهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة .

وقيل : ينادون في القيامة من مكان بعيد بأقبح الأسماء .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ فقال بعضهم : هو حق .

وقال بعضهم : هو باطل كما اختلف قومك في كتابك ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بتأخير العذاب ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأهلكهم إهلاك استئصال .

وقيل : الكلمة السابقة هي العدة بالقيامة وأن الخصومات تفصل في ذلك اليوم ولولا ذلك

لقضي بينهم في الدنيا ﴿ وإِنَّهُمْ ﴾ وإن الكفار ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ ﴾ فنفسه نفع ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ فنفسه ضر ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فيعذب غير المسيء .

(188/683)

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة ﴾ أي علم قيامها يرد إليه أي يجب على المسؤول أن يقول الله يعلم ذلك ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرات ﴾ مدني وشامي وحفص وغيرهم بغير ألف ﴿ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أوعيتها قبل أن تنشق جمع "كم" ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى ﴾ حملها ﴿ وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به ، يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِى ﴾ أضافهم إلى نفسه على زعمهم وبيانه في قوله ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ وفيه تهكم وتقريع ﴿ قَالُواْ ءَاذَنَّاكَ ﴾ أعلمناك وقيل أخبرناك وهو الأظهر إذ الله تعالى كان عالماً بذلك وإعلام العالم محال ، أما الإخبار للعالم بالشيء فيتحقق بما علم به إلا أن يكون المعنى إنك علمت من قلوبنا الآن إنا لنشهد تلك الشهادة الباطلة ، لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنه أعلموه .

﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أي ما منا أحد اليوم يشهد بأن لك شريكاً وما منا إلا من هو موحد لك ، أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ .

وقيل : هو كلام الشركاء أي ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ ﴾ يعبدون ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ وَظَنُّواْ ﴾ وأيقنوا ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ مهرب .

﴿ لاَّ يَسْئَمُ ﴾ لا يمل ﴿ الإنسانُ ﴾ الكافر بدليل قوله ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ ﴿ مِن دُعَآءِ الخير ﴾ من طلب السعة في المال والنعمة والتقدير من دعائه الخير فحذف الفاعل وأضيف إلى المفعول ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشر ﴾ الفقر ﴿ فَيَئُوسٌ ﴾ من الخير ﴿ قَنُوطٌ ﴾ من الرحمة بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فعول ، ومن طريق التكرير .

(189/683)

والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر أي يقطع الرجاء من فضل الله وروحه وهذا صفة الكافر بدليل قوله تعالى ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] ﴿ وَلَئِنْ أذقناه رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِى ﴾ وإذا

فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال هذا لي أي هذا حقي وصل إليّ لأني استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال بر ، أو هذا لي لا يزول عني ﴿ وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي ما أظنها تكون قائمة ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي ﴾ كما يقول المسلمون ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ ﴾ عند الله ﴿ لَلْحُسْنَى ﴾ أي الجنة أو الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ فلنخبرنهم بحقيقة ما علموا من الأعمال الموجبة للعذاب ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد لا يفتر عنهم .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ ﴾ هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة فنسي المنعم وأعرض عن شكره ﴿ وَنَأَا بِجَانِبِهِ ﴾ وتباعد عن ذكر الله ودعائه أو ذهب بنفسه وتكبر وتعظم ، وتحقيقه أن يوضع جانبه موضع نفسه لأن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة نفسه ومنه قول الكتاب كتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز يريدون نفسه وذاته فكأنه قال : ونأى بنفسه ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ الضر والفقر ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير أي أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع .

(190/683)

وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام كما استعير الغلظ لشدة العذاب ، ولا منافاة بين قوله ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ وبين قوله ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ لأن الأول في قوم والثاني في قوم ، أو قنوط في البر وذو دعاء عريض في البحر ، أو قنوط بالقلب ذو دعاء عريض باللسان ، أو قنوط من الصنم ذو دعاء لله تعالى .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ إِن كَانَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ ثم جحدتم أنه من عند الله ﴿ مَنْ أَضَلُّ ﴾ منكم إلا أنه وضع قوله ﴿ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ موضع "منكم" بياناً لحالهم وصفتهم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتنا فِى الآفاق ﴾ من فتح البلاد شرقاً وغرباً ﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ فتح مكة ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ أي القرآن أو الإسلام ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ موضع ﴿ بِرَبِّكَ ﴾ الرفع على أنه فاعل والمفعول محذوف وقوله ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بدل منه تقديره أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد أي أولم تكفهم شهادة ربك على كل شيء ، ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ ﴾ شك ﴿ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية فيجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 93 . 99 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَقَيَّضْنَا ﴾ وقدرنا . ﴿ لَهُمْ ﴾ للكفرة . ﴿ قُرَنَاءَ ﴾ أخدانا من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القبض على البيض وهو القشر . وقيل أصل القيض البدل ومنه المقايضة لمعاوضة . ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا واتباع الشهوات . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ مِنْ أمر الآخرة وإنكاره . ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي كلمة العذاب . ﴿ فِى أُمَمٍ ﴾ في جملة أمم كقول الشاعر :

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ . . . فُوكاً فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا

وهو حال من الضمير المجرور . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس ﴾ وقد عملوا مثل أعمالهم . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب ، والضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ وللـ ﴿ أُمَمٌ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان والغوا فِيهِ ﴾ وعارضوه بالخرافات أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوه على القارىء ، وقرىء بضم الغين والمعنى واحد يقال لغى يلغي ولغا يلغو إذا هذى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ أي تغلبونه على قراءته .

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ المراد بهم هؤلاء القائلون، أو عامة الكفار.

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ سيئات أعمالهم وقد سبق مثله.

﴿ ذلك ﴾: إشارة إلى الأسوأ. ﴿ جَزَاءُ أَعْدَاءِ الله ﴾ خبره. ﴿ النار ﴾ عطف بيان لل ﴿ جَزَاء ﴾ أو خبر محذوف. ﴿ لَّهُمْ فِيهَا ﴾ في النار. ﴿ دَارُ الخُلْدِ ﴾ فإنها دار إقامتهم، وهو كقولك: في هذه الدار دار سرور، وتعني بالدار عينها على أن المقصود هو الصفة. ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بآياتنا يَجْحَدُونَ ﴾ ينكرون الحق أو يلغون، وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

(192/683)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَا أَرِنَا اللذين أضلانا مِنَ الجن والإنس ﴾ يعني شيطاني النوعين الحاملين على الضلالة والعصيان. وقيل هما إبليس وقابيل فإنهما سنا الكفر والقتل، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو بكر والسوسي ﴿ أَرِنَا ﴾ بالتخفيف كفخذ في فخذ، وقرأ الدوري باختلاس كسرة الراء. ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ ندوسهما انتقاماً منهما، وقيل نجعلهما في الدرك الأسفل. ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ مكاناً أو ذلاً.

﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته.

﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ في العمل و﴿ ثُمَّ ﴾ لتراخيه عن الإقرار في الرتبة من حيث أنه مبدأ الاستقامة ، أو لأنها عسر قلما تتبع الإقرار ، وما روي عن الخلفاء الراشدين في معنى الاستقامة من الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض فجزئياتها . ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ فيما يعن لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن ، أو عند الموت أو الخروج من القبر . ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ ﴾ ما تقدمون عليه . ﴿ وَلاَ تَحْزَنُواْ ﴾ على ما خلفتم وأن مصدرية أو مخففة مقدرة بالباء أو مفسرة . ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على لسان الرسل .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ نلهمكم الحق ونحملكم على الخير بدل ما كانت الشياطين تفعل بالكفرة . ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ بالشفاعة والكرامة حيثما يتعادى الكفرة وقرناؤهم . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ في الآخرة ﴿ مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ من اللذائذ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ما تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من الأول .

﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ حال من ما تدعون للإشعار بأن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم كالنزل للضيف .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ إلى عبادته . ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ فيما بينه وبين ربه . ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ المسلمين ﴾ تفاخراً به واتخاذاً للإسلام ديناً ومذهباً من قولهم : هذا قول فلان لمذهبه . والآية عامة لمن استجمع تلك الصفات . وقيل نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وقيل في المؤذنين .

﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الحسنة وَلاَ السيئة ﴾ في الجزاء وحسن العاقبة و﴿ لا ﴾ الثانية مزيدة لتأكيد النفي . ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ادفع السيئة حيث اعترضتك بالتي هي أحسن منها وهي الحسنة على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً ، أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، وإنما أخرجه مخرج الاستئناف على أنه جواب من قال : كيف أصنع ؟ للمبالغة ولذلك وضع ﴿ أَحْسَنُ ﴾ موضع الحسنة . ﴿ فَإِذَا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي إذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولي الشفيق .

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ وما يلقى هذه السجية وهي مقابلته الإساءة بالإحسان . ﴿ إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ فإنها تحبس النفس عن الانتقام . ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الخير وكمال النفس وقيل الحظ الجنة .

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان ﴾ نخس شبه به وسوسته لأنها تبعث الإنسان على ما لا ينبغي كالدفع بما هو أسوأ ، وجعل النزغ نازغاً على طريقة جديدة ، أو أريد به نازغ وصفاً

للشيطان بالمصدر . ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من شره ولا تطعه . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لاستعاذتك . ﴿ العليم ﴾ بنيتك أو بصلاحك .

(194/683)

﴿ وَمِنْ ءاياته اليل والنهار والشمس والقمر لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما مخلوقان مأموران مثلكم . ﴿ واسجدوا لِلَّهِ الذى خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير للأربعة المذكورة ، والمقصود تعليق الفعل بهما إشعاراً بأنهما من عداد ما لا يعلم ولا يختار . ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجود أخص العبادات وهو موضع السجود عندنا لاقتران الأمر به ، وعند أبي حنيفة آخر الآية الأخرى لأنه تمام المعنى .

﴿ فَإِنِ استكبروا ﴾ عن الامتثال . ﴿ فالذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة . ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار ﴾ أي دائماً لقوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْئَمُونَ ﴾ أي لا يملون .

﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾ يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل . ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ تزخرفت وانتفخت بالنبات ، وقرىء "ربأت" أي زادت . ﴿ إِنَّ الذى أحياها ﴾ بعد موتها . ﴿ لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الإحياء والإماتة .

﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ ﴾ يميلون عن الاستقامة . ﴿ فِي ءَايَاتِنَا ﴾ بالطعن والتحريف والتأويل الباطل والإلغاء فيها . ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فنجازيهم على إلحادهم . ﴿ أَفَمَن يُلْقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ قابل الإلقاء في النار بالإتيان آمناً مبالغة في إحماد حال المؤمنين . ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ تهديد شديد . ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وعيد بالمجازاة .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ بدل من قوله : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءاياتنا ﴾ أو مستأنف وخبر ﴿ إن ﴾ محذوف مثل معاندون أو هالكون ، أو ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ ﴾ و"الذكر" القرآن . ﴿ وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ ﴾ كثير النفع عديم النظير أو منيع لا يتأتى إبطاله وتحريفه .

(195/683)

﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات أو مما فيه من الأخبار الماضية والأمور الآتية . ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ ﴾ أي حكيم . ﴿ حَمِيدٍ ﴾ يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من نعمه .

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك . ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ إلا

مثل ما قال لهم كفار قومهم ، ويجوز أن يكون المعنى ما يقول الله لك إلا مثل ما قال لهم . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لأنبيائه . ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأعدائهم ، وهو على الثاني يحتمل أن يكون المقول بمعنى أن حاصل ما أوحي إليك وإليهم ، وعد المؤمنين بالمغفرة والكافرين بالعقوبة .

(196/683)

﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً أَعْجَمِيّاً ﴾ جواب لقولهم : هلا أنزل القرآن بلغة العجم والضمير "للذكر" . ﴿ لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ بينت بلسان نفقهه . ﴿ ءأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أكلام أعجمي ومخاطب عربي إنكار مقرر للتخصيص ، والأعجمي يقال للذي لا يفهم كلامه . وهذا قراءة أبي بكر وحمزة والكسائي ، وقرأ قالون وأبو عمرو بالمد والتسهيل وورش بالمد وإبدال الثانية ألفاً ، وابن كثير وابن ذكوان وحفص بغير المد بتسهيل الثانية وقرىء "أعجمي" وهو منسوب إلى العجم ، وقرأ هشام "أعجمي" على الإخبار ، وعلى هذا يجوز أن يكون المراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب ، والمقصود إبطال مقترحهم باستلزامه المحذور ، أو للدلالة على أنهم لا ينفكون عن التعنت في الآيات كيف جاءت . ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى ﴾ إلى الحق .

﴿ وَشِفَاءٌ ﴾ لما في الصدور في الشك والشبه ﴿ والذين لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ مبتدأ خبره . ﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ على تقدير هو في ﴿ آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ لقوله : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ وذلك لتصامهم عن سماعه وتعاميهم عما يريهم من الآيات ، ومن جوز العطف على عاملين مختلفين عطف ذلك على ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى ﴾ . ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي صم ، وهو تمثيل لهم في عدم قبولهم الحق واستماعهم له بمن يصاح به من مسافة بعيدة .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ بالتصديق والتكذيب كما اختلف في القرآن . ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهي العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ ، أو تقدير الآجال . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ باستئصال المكذبين . ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ وإن اليهود أو ﴿ الذين لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ . ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ من التوراة أو القرآن . ﴿ مُرِيبٌ ﴾ موجب للاضطراب .

(197/683)

﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ ﴾ نفعه . ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ضره . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ فيفعل بهم ما ليس له أن يفعله .

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة ﴾ أي إذا سئل عنها إذ لا يعلمها إلا هو . ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَةٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ من أوعيتها جمع كم بالكسر . وقرأ نافع وابن عامر وحفص "مِن ثمرات" بالجمع لاختلاف الأنواع ، وقرىء بجمع الضمير أيضاً و ﴿ مَا ﴾ نافية و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى مزيدة للاستغراق ، ويحتمل أن تكون موصولة معطوفة على ﴿ الساعة ﴾ و ﴿ مِنْ ﴾ مبينة بخلاف قوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ ﴾ بمكان . ﴿ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ إلا مقروناً بعلمه واقعاً حسب تعلقه به . ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِى ﴾ بزعمكم . ﴿ قَالُواْ ءَاذَنَّاكَ ﴾ أعلمناك . ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ من أحد يشهد لهم بالشركة إذ تبرأنا عنهم لما عاينا الحال فيكون السؤال عنهم للتوبيخ ، أو من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنا . وقيل هو قول الشركاء أي ما منا من يشهد لهم بأنهم كانوا محقين .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ ﴾ يعبدون . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ لا ينفعهم أو لا يرونه . ﴿ وَظَنُّواْ ﴾ وأيقنوا . ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ مهرب والظن معلق عنه بحرف النفي .

﴿ لاَّ يَسْئَمُ الإنسان ﴾ لا يمل . ﴿ مِن دُعَاءِ الخير ﴾ من طلب السعة في النعمة ، وقرىء "من دعاء بالخير" . ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشر ﴾ الضيقة . ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ من فضل الله ورحمته وهذا صفة الكافر لقوله : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ وقد بولغ في يأسه من جهة البنية والتكرير وما في القنوط من ظهور أثر اليأس .

﴿ وَلَئِنْ أذقناه رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ بتفريجها عنه . ﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِى ﴾ حقي أستحقه لما لي من الفضل والعمل ، أولي دائماً لا يزول . ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ تقوم . ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ أي ولئن قامت على التوهم كان لي عند الله الحالة الحسنى من الكرامة ، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا فلاستحقاق لا ينفك عنه . ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ فلنخبرنهم . ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ بحقيقة أعمالهم ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها . ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ لا يمكنهم التقصي عنه .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ ﴾ عن الشكر . ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ وانحرف عنه أو ذهب بنفسه وتباعد عنه بكليته تكبراً ، والجانب مجاز عن النفس كالجنب في قوله : ﴿ فِى جَنبِ الله ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير مستعار مما له عرض متسع للاشعار بكثرته واستمراره ، وهو أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الامتدادين ، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله ؟

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني .

﴿ إِن كَانَ ﴾ أي القرآن . ﴿ مِنْ عِندِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ من غير نظر واتباع دليل . ﴿

مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من أضل منكم ، فوضع الموصول موضع الضمير شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم .

(199/683)

﴿ سَنُرِيهِمْ ءايَاتِنَا فِى الأفَاقِ ﴾ يعني ما أخبرهم النبي عليه الصلاة والسلام به من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية ، وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة . ﴿ وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم ، أو ما في بدن الإنسان من عجائب الصنع الدالة على كمال القدرة . ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول أو التوحيد أو الله ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ أي أو لم يكف ربك ، والفاء مزيدة للتأكيد كأنه قيل : أو لم تحصل الكفاية به ولا تكاد تزاد في الفاعل إلا مع كفى . ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بدل منه ، والمعنى أو لم يكفك أنه تعالى على كل شيء شهيد محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة ، أو مطلع فيعلم حالك وحالهم ، أو لم يكف الإنسان رادعاً عن المعاصي أنه تعالى مطلع على كل شيء لا يخفى عليه خافية .

﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ ﴾ شك ، وقرىء بالضم وهو لغة كخفية وخفية . ﴿ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ

﴿ بالبعث والجزاء . ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها ، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها .

عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 113.120 ﴾

(200/683)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

التفسير : لما ذكر وعيد الكفار أردفه بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر .

ومعنى ﴿ قيضنا ﴾ سببنا لهم من حيث لا يحتسبون أو قدرنا أو سلطنا وأصله من القيض وهو البدل ، والمقايضة المعاوضة كأن القرينين يصلح كل منهما أن يقوم مقام الآخر .

(201/683)

والقرناء إخوانهم من الشياطين جمع قرين ﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم ﴾ وهو الدنيا وما فيها من الشهوات ﴿ وما خلفهم ﴾ وهو الآخرة بأن لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب وقيل : ما بين أيديهم أعمالهم التي عملوها ، وما خلفهم ما عزموا على فعله وزينوا لهم فعل مفسدي زمانهم والذين تقدم عصرهم . والآية على مذهب الأشاعرة واضحة . وقالت المعتزلة : معناها أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين . ومعنى ﴿ في أمم ﴾ كائنين في جملة أمم وقد مر في أوائل الأعراف كانوا يقولون إذا سمعتم القرآن من محمد فارفعوا أصواتكم باللغو وهو الساقط من الكلام فنزلت ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ الآية . يقال : لغى بكسر الغين يلغى بالفتح ، ولغا يلغو فلهذا قرىء بالضم أيضاً ، والمقصود أنهم علموا أن القرآن كلام كامل لفظاً ومعنى ، وكل من سمعه ووقف على معانيه وأنصف حكم بأنه واجب القبول فدبروا هذا التدبير الفاسد وهو قول بعضهم لبعض ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ إذا قرىء وتشاغلوا عن قراءته برفع الصوت بالمكاء والهذيان والرجز ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ القارىء على قراءته فلا يحصل غرضه من التفهيم والإرشاد . وحين حكى حيلتهم ذكر وعيدهم بقوله ﴿ فلنذيقن ﴾ الآية . والمضاف في قوله ﴿ أسوأ ﴾ محذوف أي جزاء أسوأ الذي ولذلك أشار اليه بقوله ﴿ ذلك جزاء أعداء الله ﴾ وقوله ﴿ النار ﴾ بدل من الجزاء أو خبر مبتدأ مضمر . و ﴿ دار الخلد ﴾ موضع المقام . قال الزجاج : هو كما يقول لك في هذه الدار دار السرور وأنت

تعني الدار بعينها وقد وضع قوله ﴿ بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ موضع أن لو قال بما كانوا يلغون إقامة للسبب مقام المسبب ثم حكى عنهم ما سيقولون في النار وهو قولهم ﴿ ربنا أرنا ﴾ أي أبصرنا ﴿ اللذين أضلانا من الجن والإنس ﴾ وذلك أن الشياطين ضربان : جني وإنسي ، وقد ورد في القرآن كثيراً ، وقيل : هما إبليس الذي سن الكفر ، وقابيل الذي سن القتل . ومن قرأ بسكون

(202/683)

الراء فلثقل الكسرة . وقد يقال : معناه إذ ذاك أعطناه . وحكوا عن الخليل أنك إذا قلت أرني ثوبك بالكسر فمعناه بصرنيه ، وإذا قلت بالسكون فهو بمعنى الإعطاء ونظيره اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء وأصله الإحضار . ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ أي نطأهما إذلالاً وإهانة ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ الأذلين وقيل : في الدرك الأسفل . وتأوله بعض حكماء الإسلام بأنهما الشهوة والغضب المشار إليهما في قوله ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ [البقرة : 30] كأنهم سألوا توفيق أن يجعلوا القرينين تحت قدم النفس الناطقة .

وحين أطنب في الوعيد أردفه بالوعد على العادة المستمرة فقوله ﴿ ربنا الله ﴾ إشارة إلى

العلوم النظرية التي هذه المسألة رأسها وأصلها . وقوله ﴿ ثم استقاموا ﴾ إشارة إلى الحكمة العملية وجملتها الاستقامة على الوسط دون الميل إلى أحد شقي الإفراط والتفريط كما سبق تقرير ذلك في تفسير قوله

(203/683)

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 5] ومعنى " ثم " تراخي الاستقامة في الرتبة عن الإقرار ، وفيه أن حصول العلوم النظرية بدون القسم العملي كشجرة بلا ثمرة . وقال أهل العرفان : قالوا ربنا الله يوم الميثاق في عالم الأرواح ، ثم استقاموا على ذلك في عالم الأشباح . وعن أبي بكر الصديق : معناه لم يلتفتوا إلى إله غيره . ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ عند الموت أو عنده وفي القبر وفي القيامة . و " أن " مفسرة أو مخففة . ولقد فسرنا الخوف والحزن مراراً والإبشار لازم . قال الجوهري : يقال بشرته بمولود فأبشر إبشاراً . وقوله ﴿ ألا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ إشارة إلى رفع المضار في المآل وفي الحال . وقوله ﴿ وأبشروا ﴾ إخبار عن حصول المنافع . وقوله ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا ﴾ يقابل قوله ﴿ وقضينا لهم قرناء ﴾ فللملائكة تأثيرات في الأرواح بالإلهامات الحسنة والخواطر الشريفة كما للشياطين تأثيرات بإلقاء الوساوس والهواجس ، وقد تقدم في أول الكتاب في

تفسير الاستعاذة . وإذا كانت هذه الولاية ثابتة في الدنيا بحكم المناسبة النورية كانت بعد الموت أقوى وأظهر لزوال العلائق الجسمانية . وقيل : في الحياة الدنيا بالاستغفار . ﴿ وفي الآخرة ﴾ بالشفاعة . وقيل : كنا نحفظكم في الدنيا ولا نفارقكم في الآخرة حتى تدخلوا الجنة ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ يعني الحظوظ الجسمانية ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي تمنون من المواهب الروحانية ، وقد مر في " يس " سائر الوجوه . والنزل ما يهيأ للضيف وقد مر . وفي ذكر الغفور الرحيم ههنا مناسبة لا تخفى . قال أهل النظم إن القوم لما أتوا بأنواع السفاهة والإيذاء كقولهم ﴿ قلوبنا غلف ﴾ [البقرة : 88] ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ حرض سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم على مواظبة التبليغ والدعوة واحتمال أعباء الرسالة والتزام السيرة الفاضلة إظهار المزية على الجهال وتحصيلاً للغرض بالرفق واللطف ما أمكن فقال ﴿ ومن أحسن قولاً ﴾ ووجه

(204/683)

آخر في النظم وهو أنه لما مدح الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وذكر جزاءهم وهم أهل الكمال ، أراد أن يبين حال المشتغلين بتكميل الناقصين . زعم بعض المفسرين أن المراد بهذا الدعاء الأذان ، والعمل الصالح الصلاة بين الأذان والإقامة ، ورفعوه إلى عائشة . والأصح

أنه عام لجميع الأئمة والدعاة إلى طاعة الله وتوحيده ، ولا ريب أن مصطفاهم ومقتداهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وبعده العلماء بالله وهم الحكماء المتألهون ، وبعدهم العلماء بصفات الله وهم الأصوليون ، ثم العلماء بأحكام الله وهم الفقهاء ، ثم الملوك العادلون الذين يدعون إلى الله بالسيف والسبب . وفي الاستفهام الإنكاري دلالة على أنه لا قول أحسن من الدعاء إلى الله فمن زعم أنه الأذان ذهب إلى أنه واجب وإلا لكان الواجب أحسن منه .

(205/683)

ونوقض بأنا نعلم بالدلائل اليقينية أن الدعوة إلى الدين القويم بالحجة أو السيف أحسن من الأذان فلا يدخل الأذان تحت الآية . قال جار الله : ليس معنى قوله ﴿ وقال إنني من المسلمين ﴾ أنه تكلم بهذا الكلام ، ولكن المراد أنه جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده كما تقول : هذا قول أبي حنيفة . وقال آخرون : أراد به التلفظ به تفاخراً بالإسلام وتمدحاً . وزعموا أن فيه إبطال قول من جوز : أنا مسلم إن شاء الله . فإنه لو كان ذلك معتبراً لورد في الآية كذلك ولا يخفى ضعفه ، فإن التجويز غير الإيجاب . ثم صبر رسوله صلى الله عليه وسلم على سفاهة الكفار وعلمه الأدب الجميل في باب الدعاء أي الدين بل في مطلق أمور

التمدن فقال ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ " لا " زائدة لتأكيد نفي الاستواء ، والمعنى لا تستوي الحسنة والسيئة قط ومثالهما الإيمان والشرك والحلم والغضب والطاعة والمعصية واللطف والعنف ثم إن سائلاً كأنه سأل : فكيف نصنع ؟ فأجيب ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ فإن الحسنة أحسن من السيئة كما يقال : الصيف أحر من الشتاء وذهب صاحب الكشاف إلى أن " لا " غير مزيدة والمعنى أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة . مثاله : رجل أساء إليك فالحسنة أن تعفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إسائته . قال : ومن جعل " لا " مزيدة فالقياس على تفسيره أن يقال : ادفع بالتي هي حسنة . ولكنه وضع أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها . قال العارفون : الحسنة التوجه إلى الله بصدق الطلب ، والسيئة الالتفات إلى غيره . ﴿ فإذا الذي ﴾ إذا فعلت ذلك انقلب عدوك ولياً مصافياً . قال مقاتل : نزلت في أبي سفيان وكان مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار يتحاب بعد ذلك لما رأى من لطف رسول الله صلى الله عليه وسلم وعطفه . ثم مدح هذه السيرة وأهلها بقوله ﴿ وما يلقاها إلا

الذين صبروا ﴾ أي لا يعمل بها إلا كل صبار على تجرع المكاره. ﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ من قوة جوهر النفس الناطقة بحيث لا يتأثر من الواردات الخارجية، وقد يفسر الحظ العظيم بالثواب الجزيل. وعن الحسن: ما عظم حفظ دون الجنة. ثم ذكر طريقاً آخر في دفع الغضب والانتقام قائلاً ﴿ وإما ينزغنك ﴾ وقد مر في آخر الأعراف. والمعنى إن صرفك الشيطان عما أمرت به فاستعذ بالله من شره وإنما قال ههنا ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ بالفصل وتعريف الخبر ليكون مناسباً لما تقدّمه من قوله ﴿ وما يلقاها ﴾ مؤكداً بالتكرار وبالنفي والإثبات ولم يكن هذا المقتضى في الأعراف فجاء على أصل الاسم معرفة والخبر نكرة.

وحين ذكر أن أحسن الأقوال هو الدعوة إلى الله بين الدلائل على وجوده فقال ﴿ ومن آياته ﴾ الخ. والضمير في ﴿ خلقهن ﴾ للآيات أو الليل وما عطف عليه. ولم يغلب المذكر لأن ذلك قياس مع العقلاء. وفي قوله ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ تزييف لطريقة الصابئين وسائر عبدة الكواكب جهلاً منهم وزعماً أنها الواسطة بين الخلق والإله، فنهوا عن هذا التوسيط لأن ذلك مظنة العبادة المستقلة لرفعة شأنها وارتفاع مكانها، وهذا بخلاف التوجه في الصلاة إلى القبلة فإن الحجر قلما يظن به أنه معبود بالحق والجزم حاصل بأنه لتوحيد متوجهات المصلين عند صلاتهم مع أن للبيت شرفاً ظاهراً في نفسه ﴿ فإن استكبروا ﴾

عن قبول قولك يا محمد في النهي عن السجود للشمس والقمر ﴿ فالذين عند ربك ﴾ عندية بالشرف والرتبة وهم الملائكة المقربون ﴿ يسبحون له بالليل والنهار ﴾ أي على الدوام والاستمرار ﴿ وهم لا يسأمون ﴾ من السآمة والملالة . والحاصل أنهم إن يمتثلوا ما أمروا به ونهوا عنه وأبوا إلا الواسطة فدعهم وشأنهم فإن ربك لا يعدم عابداً مخلصاً .

(207/683)

ولما فرغ من تقرير الآيات السماوية شرع في الدلائل الأرضية فقال ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ﴾ وأصل الخشوع التذلل فاستعير للأرض التي لا خضرة بها ولا نفع كما وصفها بالهمود وقد مرّ في سورة الحج ، وذلك أنها إذا اهتزت وربت أي انتفخت حين يهم النبت بالخروج منها كانت بمنزلة المختال في زيه وهي قبل ذلك كالفقير الكاسف البال المتلبس بثوب أطمار . وبعد تقرير الدلائل الباهرة ذكر وعيد الملحدين في آياته المنحرفين عن الجادة والوعيد قوله ﴿ لا يخفون علينا ﴾ وكفى به وعيداً . ثم أكده بالاستفهام على سبيل التقرير وهو قوله ﴿ أفمن يلقى ﴾ الخ . وقوله ﴿ يوم القيامة ﴾ ظرف لآمنا أو ليأتي . ثم هددهم بقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ الخ . ثم أبدل من قوله ﴿ إن الذين كفروا بالذكر ﴾ أي القرآن لأنهم بكفرهم به طعنوا فيه وحرفوا معانيه ، وعلى هذا فالخبر هو ما

تقدم من قوله ﴿ لا يخفون ﴾ وإنه كلام مستأنف . وعلى هذا فاختلفوا في خبر " إن " . فالأكثرون على أنه ﴿ أولئك ينادون ﴾ وما بينهما اعتراض من تتمة الذكر . وقيل : خبره ما يقال إذ التقدير ما يقولون لك . وقيل : هو محذوف . ثم اختلفوا فقال قوم : إن الذين كفروا بالذكر كفروا لما جاءهم . وقال آخرون : هلكوا أو يجازون بكفرهم ونحو ذلك ، وهذا يمكن تقديره بعد قوله ﴿ لما جاءهم ﴾ وبعد قوله ﴿ من خلفه ﴾ وبعد قوله ﴿ حميد ﴾ والعزيز معناه الغالب القاهر بقوة حجته على ما سواه من الكتب ، والمراد أنه عديم النظير لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته . ثم أكد هذا الوصف بقوله ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ قال جار الله : وهو تمثيل أي لا يتطرق البطلان إليه بجهة من الجهات فلا ينقص منه شيء ولا يزاد عليه شيء .

(208/683)

وقيل : أراد أنه لا تكذبه الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل ولن يجيء بعده ما يخالفه . وقد يحتج أبو مسلم بالآية على عدم وقوع النسخ في القرآن زعماً منه أن النسخ نوع من البطلان ، ولا يخفى ضعفه فإن بيان انتهاء حكم لا يقتضي إبطاله فإنه حق في نفسه ومأمور به في وقته . ﴿ تنزيل ﴾ أي هو منزل ﴿ من ﴾ إله ﴿ حكيم ﴾ في جميع أفعاله ﴿ حميد

﴿ إلى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه . ثم سلى نبيه عليه السلام بقوله ﴿ ما يقال لك ﴾ وفيه وجهان : أحدهما ما يقول لك كفار قريش إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من المطاعن فيهم وفي كتبهم . ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ للمحقين ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ للمبطلين ، ففوض الأمر إلى الله واشتغل بما أمرت به من الدعاء إلى دينه . وثانيهما ما يقول لك الله إلا مثل ما قال لغيرك من الرسل من الصبر على سفاهة الأقوام وإيذائهم . ويجوز أن يكون المقول هو قوله ﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب ﴾ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخشاه أهل عصيانه . كانوا يقولون : لولا أنزل القرآن بلغة العجم تعنتاً منهم فأجابهم الله بقوله ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا ﴾ معترضين منكرين ﴿ لولا فصلت آياته ﴾ أي بينت بلسان نفهمه . أقرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي ؟ وإنما جاز هذا التقدير الثاني مع أن المرسل إليهم كثيرون وهم غير أمة العرب ، لأن الغرض بيان تنافر حالتي القرآن ، والذين أنزل القرآن إليهم من العجمية والعربية لا بيان أنهم جمع أو واحد كما تقول : وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة اللباس طويل واللابس قصير . ولو قلت : واللابسة قصيرة جئت بما هو أفضل . ومن قرأ بغير همزة الاستفهام فعلى حذفها أو على الإخبار بأن القران أعجمي والرسول أو المرسل إليه عربي ، والغرض أنهم لعنادهم لا ينفكون عن المراء والاعتراض سواء كان القرآن عربياً أو أعجمياً . وفيه إفحام لهم وجواب عن قولهم ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ فإن القرآن إذا كان بلغتهم وهم فصحاء وبلغاء

(209/683)

فكيف لا يفهمونه إلا إذا كان هناك مانع إلهي ولذلك قال ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ لداء الجهل ﴿ والذين ﴾ أي وللذين ﴿ لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ وهذا التقدير عند من يجوز العطف على عاملين ، ومن لم يجوز زعم أن الرابط محذوف تقديره : والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر أو في آذانهم منه . وقرأ والذين لا يؤمنون به الخ .

والحاصل أنهم لعدم انتفاعهم بالقرآن كأنهم صم عمي . ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ فلهذا لا يسمعون النداء أي مثلهم كمثل الشخص الذي ينادي من بعد فلا يسمع ، وإن سمع لم يفهم .

(210/683)

ثم شبه حال القرآن بحال الكتب المتقدمة في أنها اختلف فيها كما اختلف فيه إلا أنه خص كتاب موسى بالذكر لكثرة أحكامه وعجيب قصته . والكلمة السابقة هي العدة بالقيامة وتأخر العذاب والقضاء بين المصدقين والمكذبين إلى وقتئذ . ثم ذكر أن جزاء كل أحد

يختص به سواء كان له أو عليه وأن الله لا يظلم أحداً ثم كان لسائل أن يسأل : متى القيامة التي يتعلق بها الجزاء فقال ﴿ إليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ يرد علم الساعة ﴾ أي إذا سأل عنها . قيل : لا يعلمها إلا هو . ثم عمم بعد هذا التخصيص وذكر مثالين يعرف منهما أن علم جميع الحوادث المستقبلة في أوقاتها المعينة ليس إلا له سبحانه . والكم بكسر الكاف وعاء الثمرة . ثم ذكر من أحوال القيامة طرفاً آخر فقال ﴿ ويوم يناديهم أين شركائي ﴾ وهو نداء تهكم أو توبيخ كما مر مراراً ﴿ قالوا آذناك ﴾ قال ابن عباس : أي أسمعناك من أذن بالكسر أذناً بالفتح إذا استمع . وقال الكلبي : أعلمناك قال الإمام فخر الدين الرازي : هو بعيد لأن أهل القيامة يعلمون أنه تعالى يعلم الأشياء علماً واجباً ، فالإعلام في حقه محال . قلت : لو أريد أظهرنا معلومك أين الاستبعاد ؟ والمعنى ظهر وحصل في الواقع من جهة قولنا ما كان ثابتاً في علمك القديم أنا سنقوله كقوله ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا ﴾ [آل عمران : 142] أي لم يحصل بعد معلومه في الواقع وقد مر . وقولهم ﴿ آذناك ﴾ ماض في معنى المستقبل على عادة القرآن أو إنشاء للإيذان أو إخبار عما قيل لهم قبل ذلك فإنه يمكن أن يعاد عليهم هذا الاستفهام مرات لمزيد التوبيخ . ومعنى ﴿ ما منا من شهيد ﴾ ليس منا من يشهد اليوم بأنهم شركاؤك لأنا عرفنا عياناً أنه لا شريك لك . أو هو كلام الشركاء أحياها الله وأنطقها فتبرأ مما أضيف إليها من الشركة . ومعنى الضلال على هذا

التفسير عدم النفع ، ويجوز أن يراد ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم غابوا عنا . ومعنى ﴿ يدعون ﴾ يعبدون . والظن بمعنى اليقين ، والمحيص المهرب .

(211/683)

وحين بين أن الكفار تبرؤا في الآخرة من شركائهم بعد أن كانوا مصرين في الدنيا على عبادتهم ، بين أن الكافر تبدله في حالاته كلي أو أكثري . ففي حالة الإقبال لا يسأم من طلب الجاه والمال ، في حالة الإدبار يصير في غاية اليأس والانكسار ، وإن عاودته النعمة بعد يأسه فلا بد أن يقول هذا إنما وجدته باستحقاق لي وهذا لا يزول عني ويبقى علي وعلى عقبي وأنكر البعث ، وعلى فرض وجوده زعم بل جزم أن له عند الله الحالة الحسنى قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا ، ونظير الآية ما سبق في سورة الكهف ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ [الآية : 36] فلا جرم خيب الله أمله وعكس ما تصوره بقوله ﴿ فلننبئن ﴾ وحين حكى قول الكافر أخبر عن أفعاله بقوله ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ أي تعظم وتجبر .

وقد سلف في " سبحان " . واستعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه ، وقد يستعار الطول لكثرة الدعاء ودوامه أيضاً وإن لم يكن الشيء ذا جزم كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

فإن قيل : كيف قال أولاً ﴿ فيؤس قنوط ﴾ ثم قال ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ ؟ قلنا : أراد أنه يؤس بالقلب دعاء باللسان ، أو قنوط من الصنم دعاء الله ، أو الأول في قوم والثاني في آخرين .

(212/683)

ولما ذكر مرات في السورة مبالغة الكفار في العداوة والنفرة من اتباع الرسول والقرآن أرشدهم إلى طريق أحوط مما فيه فقال ﴿ قل أرأيتم ﴾ الآية . وتقريره أنكم كما سمعتم القرآن أعرضتم عنه ثم كفرتم به حتى قلتم ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ [فصلت : 5] ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ ومن المعلوم أن هذا ليس ببديهي فقبل الدليل يحتمل أن يكون صحيحاً وحينئذ يلزم أن يكون بعدم قبوله العقاب الأبدي . وقوله ﴿ ممن هو في شقاق بعيد ﴾ من وضع الظاهر مقام المضمر وهو منكم بياناً لبعد شوطهم في الشقاق والخلاف قاله في الكشاف . وأقول : جواب الشرط بالحقيقة محذوف وهو قوله مثلاً فمن أضل منكم . وإنما قال في الأحقاف ﴿ وكفرتم ﴾ [الآية : 10] بالواو لأن معناه في السورة كان عاقبة أمركم بعد الإمهال للنظر الكفر فحسن دخول " ثم " مع أنها تفيد التراخي في الرتبة ، وهناك عطف عليه قوله ﴿ وشهد شاهد ﴾ فلم يحسن إلا الواو . ثم بين أن الإسلام يعلو

ولا يعلى وأن الغلبة والنصرة تكون لذويه فقال ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾ وهي الفتوح الواقعة على أيدي الخلفاء الراشدين والتي ستقع على أيدي أنصار دينه إلى يوم القيامة . ﴿ وفي أنفسهم ﴾ وهي فتح مكة وسائر الفتوح التي وجدت في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ حتى يتبين لهم أنه ﴾ أي محمداً أو القرآن أو الدين ﴿ الحق ﴾ ووجه التبين أن هذا إخبار عن الغيب فإذا وقع مطابقاً دل على صدق المخبر بل إعجازه . وواحد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحي الأرض والسماء . وعند المحققين الآيات الآفاقية هي الخارجة عن حقيقة الإنسان وبدنه كالأفلاك والكواكب والظلم والأنوار والعناصر والمواليد سواه . ولا ريب أن العجائب المودعة في هذه الأشياء مما لا نهاية لها ، وإنما يوقف عليها حيناً بعد حين . وقد أكثر الله تعالى من تقدير تلك الدلائل في القرآن ، بعضها في السور المكيات وكثير منها في المدنيات ، والآيات النفسية هي التي أودعها في تركيب الإنسان وفي ربط

روحه العلوي ببدنه السفلي كقوله ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : 21] وفي قوله ﴿ سنريهم ﴾ دلالة على أن رؤية الأدلة إنما تكون بإراءة الله . قال جار الله : معنى قوله ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ هو أن هذه الآيات الموعودة

تكفيهم دلالة على أن القرآن منزل من عالم الغيب المطلع على كل شيء .

وقال حكماء الإسلام : أراد بقوله ﴿ أو لم يكف ﴾ توبيخ من ليس له رتبة الاستدلال بنفس الوجود على واجب الوجود ، فإن هذا هو طريقة الصديقين ، وأما غيرهم فإنهم يستدلون بالممكن على الواجب فيفتقرون إلى النظر في الآفاق . قال أهل المعرفة : النظر في الآفاق لأجل العوام والأنفس للخواص وقوله ﴿ أو لم يكف ﴾ لخواص الخواص . وقيل : أولم يكف الإنسان من الزاجر والرادع عن المعاصي كون الله شهيداً عليهم . وقيل : أراد أنه لا يخلف ما وعد لاطلاعه على الأشياء كلها . ثم ختم السورة بتوبيخ الشاكين في أمر البعث وبالنعي عليهم وأوعدهم بأنه عالم بكل شيء فيجازي كلاً على حسب ما يستحقه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 57.64 ﴾

(214/683)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما ذكر وعيدهم في الدنيا والآخرة أتبعه سبب كفرهم الذي هو سبب الوعيد فقال تعالى:

﴿ وقيضنا ﴾ قال مقاتل : هيأنا وقال الزجاج : سببنا ﴿ لهم ﴾ أي : للكفرة وأصل

التقييض : التيسير والتهيئة يقال : قيضته للدواء هيأته له ويسرته ، وهذان ثوبان قيضان أي : كل منهما مكافئ للآخر في الثمن وقوله تعالى : ﴿ قرناء ﴾ أي : نظراء من الشياطين حتى أضلوهم ، جمع قرين قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ ﴿ فزينوا لهم ﴾ أي : من القبائح ﴿ ما بين أيديهم ﴾ أي : من أمر الدنيا حتى آثروها على الآخرة ﴿ وما خلفهم ﴾ أي : من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب وإنكار البعث ، وقال الزجاج : زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ، وما خلفهم من أمر الدنيا بأن الدنيا قديمة ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك ، قال القشيري : إذا أراد الله بعبده سوءاً قيض له إخوان سوء وقرناء سوء يحملونه على المخالفات ويدعونه إليها ، ومن ذلك الشيطان ، وشر منه النفس وبئس القرين ، تدعو اليوم إلى ما فيه الهلاك وتشهد غداً عليه ، وإذا أراد الله بعبده خيراً قيض الله له قرناء خير يعينونه على الطاعة ويحملونه عليها ويدعونه إليها .

وروي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أراد الله بعبد شراً قيض له قبل موته شيطاناً فلا يرى حسناً إلا قبحه عنده ولا قبيحاً إلا حسنه عنده" . وعن عائشة : إذا أراد الله بالوالي خيراً قيض له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه ، وإن أراد غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه ، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة

إلا كانت له بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله تعالى" .

(215/683)

تنبيه : في الآية دلالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافرين لأنه تعالى قيض لهم قرناء سوء فزينوا لهم الباطل ، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منهم الكفر ولكن لا يرضاه كما قال تعالى : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ (الزمر :)

﴿ وحق ﴾ أي : وجب وثبت ﴿ عليهم القول ﴾ أي : كلمة العذاب ، وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم ، وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم ، والباقون بكسر الهاء وضم الميم وقوله تعالى : ﴿ في أمم ﴾ محله نصب على الحال من الضمير في عليهم أي : حق عليهم القول كائنين في جملة أمم كثيرة ، وفي بمعنى مع ﴿ قد خلت ﴾ أي : لم تتعظ أمة منهم بالأخرى ﴿ من قبلهم ﴾ أي : في الزمان ﴿ من الجن والأنس ﴾ قد عملوا مثل أعمالهم ، وقوله تعالى : ﴿ إنهم ﴾ أي : جميع المذكورين منهم وممن قبلهم ﴿ كانوا خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب وقوله تعالى:

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أصله وقالوا أي : المعرضون ، ولكنه قال ذلك تنبيهاً على

الوصف الذي أوجب إعراضهم ﴿ لا تسمعوا ﴾ أي : شيئاً من مطلق السماع ﴿ لهذا القرآن ﴾ وعينوه بالإشارة احترازاً عن غيره من الكتب القديمة كالتوراة ، قال القشيري : لأنه مقلب القلوب وكل من استمع له صبا إليه ﴿ والغوا ﴾ أي : اهزؤوا ﴿ فيه ﴾ أي : اجعلوه ظرفاً للغو بأن تكثروا من الخرافات والهذيانات واللغط واللغو والتصدية أي : التصفير والتصفيق وغيرها ، وقال ابن عباس : كان بعضهم يعني قريشاً يعلم بعضاً إذا رأيتم محمداً يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر ، واللغو : هو من باب لغي بالكسر يلغى بالفتح إذا تكلم بما لا فائدة فيه ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ أي : ليكون حالكم حال من يرجى له أن يغلب ويظفر بمراده في أن لا يميل إليه أحد وسكت ونسي ما كان يقول ، وهذا يدل على أنهم عارفون بأن من يسمعه مال إليه وأقبل بكليته عليه وقد فضحوا أنفسهم بهذا فضيحة لا مثل لها .

(216/683)

﴿ فلنذيقن الذين كفروا ﴾ أظهر في موضع الإضمار إذ أصله فلنذيقنهم ، لكنه أظهر تعميماً وتعليقاً بالوصف ﴿ عذاباً شديداً ﴾ في الدنيا بالحرمان وما يتبعه من فنون الهوان ، وفي الآخرة بالنيران ﴿ ولنجزينهم ﴾ أي : بأعمالهم ﴿ أسوأ ﴾ أي : سوء العمل

﴿ الذي كانوا يعملون ﴾ أي : مواظبين عليه .

﴿ ذلك ﴾ أي : الجزاء الأسوأ العظيم جداً ﴿ جزاء أعداء الله ﴾ أي : الملك الأعظم ، ثم بينه بقوله تعالى : ﴿ النار ﴾ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بإبدال الهمزة الثانية المفتوحة واواً خالصة ، والباقون بتحقيقهما ، وأما الابتداء بالثانية فالجميع بالتحقيق ، ثم فصّل بعض ما في النار بقوله تعالى : ﴿ لهم فيها ﴾ أي : النار ﴿ دار الخلد ﴾ أي : فإنها دار إقامة ، قال الزمخشري : فإن قلت ما معنى قوله : ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ قال : قلت : إن النار في نفسها دار الخلد كقوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ (الأحزاب :)

أي : الرسول هو نفس الأسوة .

وقال البيضاوي : هو كقولك في هذه الدار دار سرور يعني بالدار عينها على أن المقصود هو الصفة قال ابن عادل : في هذا نظر إذ الظاهر وهو معنى صحيح منقول أن في النار داراً تسمى دار الخلد والنار محيطة بها وهذا أولى ، وقوله تعالى : ﴿ جزاءً ﴾ منصوب بالمصدر الذي قبله وهو ﴿ جزاء أعداء الله ﴾ والمصدر ينصب بمثله كقوله تعالى :

﴿ فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾ (الإسراء :)

﴿ بما كانوا بآياتنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ يجحدون ﴾ أي : يلغون في القراءة وسماه جحداً لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس

لآمنوا فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة ، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً وأنهم جحدوا حسداً .

ولما بين تعالى أن الذي حملهم على الكفر الموجب للعذاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين ما يقولون في النار بقوله تعالى:

(217/683)

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي : غطوا أنوار عقولهم داعين بما لا يسمع لهم فهو زيادة في عقوبتهم وحكايته لها وعظ وتحذير ﴿ ربنا ﴾ أي : يا أيها الذي لم يقطع قط إحسانه عنا ﴿ أرنا ﴾ الصنفين ﴿ اللذين أضلانا ﴾ أي : عن المنهج الموصل إلى محل الرضوان ﴿ من الجن والإنس ﴾ لأن الشيطان على ضربين جني وإنسي ، قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن ﴾ (الأنعام :)

وقال تعالى : ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ (الناس : ـ)

وقيل : هما إبليس وقابيل بن آدم الذي قتل أخاه ، لأن الكفر سنه إبليس ، والقتل بغير حق سنه قابيل ، فهما سنا المعصية ، وقرأ ابن كثير والسوسي ، وابن عامر وشعبة بسكون الراء من أرنا ، واختلس الدوري كسر الراء ، وكسرها الباقون ، وشدد ابن كثير النون من

اللذين ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ في النار إذلالاً لهما كما جعلانا تحت أمرهما ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ قال مقاتل : أسفل منا في النار ، وقال الزجاج : ليكونا في الدرك الأسفل من النار أي : من أهل الدرك الأسفل وممن هودوننا كما جعلانا كذلك في الدنيا في حقيقة الحال باتباعنا لهما ، وقال بعض الحكماء : المراد باللذين أضلانا : الشهوة والغضب ، والمراد بجعلهما تحت أقدامهم : كونهما مسخرين للنفس مطيعين لها وأن لا يكونا مستوليين عليها ظاهرين عليها .

ولما ذكر تعالى الوعيد أردفه بذكر الوعد كما هو الغالب فقال تعالى:

﴿ إن الذين قالوا ﴾ أي : قولاً حقيقياً مذعنين به بالجنان وناطقين باللسان تصديقاً لداعي الله تعالى في الدنيا ﴿ ربنا ﴾ أي : المحسن إلينا ﴿ الله ﴾ أي : المختص بالجلال والإكرام وحده لا شريك له ، وثم في قوله تعالى : ﴿ ثم استقاموا ﴾ لتراخي الرتبة في الفضيلة فإن الثبات على التوحيد ومصححاته إلى الممات أمر في علو رتبته لا يرام إلا بتوفيق ذي الجلال والإكرام .

(218/683)

سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة فقال : أن لا تشرك بالله شيئاً ، وقال عمر رضي الله عنه ، الاستقامة : أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب . وقال عثمان رضي الله عنه : أخلصوا العمل لله ، وقال علي رضي الله عنه : أدوا الفرائض ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : استقاموا على أمر الله تعالى بطاعته واجتنبوا معصيته ، وقال مجاهد وعكرمة : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله ، وقال قتادة : كان الحسن إذا تلا هذه الآية قال : اللهم ربنا ارزقنا الاستقامة ، وقال سفيان بن عبد الله الثقفي : قلت : يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصم به قال : "قل ربي الله ثم استقم فقلت : ما أخوف ما تخاف علي ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه فقال : هذا" . قال أبو حيان : قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال ابن عباس : عند الموت وقال قتادة : إذا قاموا من قبورهم ، وقال وكيع بن الجراح : البشرى : تكون في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث وهي ﴿ ألا تخافوا ﴾ قال مجاهد : لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتم من أهل وولد فإنا نخلفكم في ذلك كله ، وقال عطاء بن أبي رباح : لا تخافوا من ذنوبكم ولا تحزنوا فإني أغفرها لكم ، والخوف غم يلحق لتوقع المكروه ، والحزن يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار ، والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمن

من كل غم فلن تذوقوه أبداً .

تنبيه : يجوز في أن : أن تكون المخففة أو الفسرة أو الناصبة ، ولا ناهية على الوجهين الأولين ، ونافية على الثالث ﴿ وأبشروا ﴾ أي : املؤوا صدوركم سروراً يظهر أثره على بشرتكم بتهلل الوجه ويعم سائر الجسد ﴿ بالجنة التي كنتم ﴾ أي : كوناً عظيماً على ألسنة الرسل عليهم السلام ﴿ توعدون ﴾ أي : يتجدد لكم ذلك كل حين بالكتب والرسل .

(219/683)

تنبيه : فيما ذكر دلالة على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث يكون فارغاً من الأهوال والفزع الشديد .

فإن قيل : البشارة عبارة عن الخبر الأول بحصول المنافع فأما إذا أخبر الشخص بحصول المنفعة ثم أخبر ثانياً بحصولها كان الإخبار الثاني إخباراً ولا يكون بشارة والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فإذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخباراً ولا يكون بشارة فما السبب في تسمية هذا الخبر بشارة ؟

أجيب : بأن المؤمن قد يسمع بشارات الخير ولم يعلم بأن له الجنة فيكون ذلك بشارة ، أما إذا علم أنه من أهل الجنة بإخبار نبي فإنه إذا سمع هذا الكلام من الملائكة فإنه يكون إخباراً .

ولما أثبتوا لهم الخير ونفوا عنهم الضير عللوه بقولهم:

﴿ نحن أولياؤكم ﴾ أي : أقرب الأقرباء إليكم فنحن نفعل معكم كل ما يمكن أن يفعله القريب ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ نجلب لكم المسرات وندفع عنكم المضرات ونحملكم على جميع الخيرات ، فنوقظكم من المنام ونحملكم على الصلاة والصيام ونبعدكم عن الآثام ضد ما تفعله الشياطين مع أوليائهم ﴿ وفي الآخرة ﴾ كذلك حيث تتعادى الأخلاء إلا الأتقياء .

قال السدي : تقول الملائكة عليهم السلام : نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة . أي : لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة ﴿ ولكم فيها ﴾ أي : في الآخرة أي : في الجنة وقبل دخولها في جميع أوقات المحشر ﴿ ما تشتهي ﴾ ولو على أدنى وجوه الشهوات ، كما يرشد إليه حذف المفعول ﴿ أنفسكم ﴾ من اللذائذ لأجل ما منعتموها من الشهوات في الدنيا ﴿ ولكم فيها ﴾ أي : في الآخرة ﴿ ما تدعون ﴾ أي : تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من القول ، وقوله تعالى:

﴿ نزلاً ﴾ حال مما تدعون أي : هذا كله يكون لكم نزلاً كما يقدم إلى الضيف عند قدومه إلى أن يهيأ له ما يضاف به ، وأما ما يعطون فهو مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولما كان من وحُوسب عُذِّب فلا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى ، أشار إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ من ﴾ أي : كائن ذلك النزل من ﴿ غفور ﴾ له صفة المحو للذنوب عيناً وأثراً على غاية لا يمكن وصفها ﴿ رحيم ﴾ أي : بالغ الرحمة وهو الله تعالى ، واختلف في تفسير قوله تعالى:

﴿ ومن أحسن قولاً ﴾ أي : من جهة القول ﴿ ممن دعا إلى الله ﴾ أي : الذي عم بصفات كماله جميع الخلق ، فقال ابن سيرين والسدي : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال الحسن : هو المؤمن الذي أجاب الله تعالى دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب إليه ﴿ وعمل ﴾ أي : والحال أنه قد عمل ﴿ صالحاً ﴾ في نفسه ليكون ذلك أمكن لدعائه ﴿ وقال إنني من المسلمين ﴾ تفاخراً به وقطعاً لطمع المفسدين ، وقال عكرمة : هم المؤذنون ، وقالت عائشة رضي الله عنها : إن هذه الآيات نزلت في المؤذنين ، وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه : وعمل صالحاً صلى ركعتين بين الأذان والإقامة ، وعن عبد الله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة ثلاث مرات ثم قال في الثالثة لمن شاء ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد .

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ أي : الصبر والغضب والحلم والجهل والعفو والإساءة

في الجزاء وحسن العاقبة .

تنبيه : في لا الثانية وجهان : أحدهما : أنها زائدة للتأكيد كقوله تعالى : ﴿ ولا الظل ولا الحرور ﴾ (فاطر :)

(221/683)

لأن الاستواء لا يكتفي بواحد ، الثاني : أنها مؤسسة غير مؤكدة ، إذ المراد بالحسنة والسيئة الجنس ، إذ لا تستوي الحسنات في أنفسها فإنها متفاوتة ولا تستوي السيئات أيضاً فرب واحدة أعظم من أخرى وهو مأخوذ من كلام الزمخشري ﴿ ادفع ﴾ كل ما يمكن أن يضرك من نفسك ومن الناس ﴿ بالتي ﴾ أي : بالخصال والأحوال التي ﴿ هي أحسن ﴾ على قدر الإمكان من الأعمال الصالحات والعفو عن المسيء حسن والإحسان إليه أحسن منه .

﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة ﴾ عظيمة فاجأته حال كونه ﴿ كأنه ولي ﴾ أي : قريب فاعل ما يفعله القريب ﴿ حميم ﴾ أي : في غاية القرب لا يدع مهماً إلا قضاه وسهله ويسره وشفى علله وقرب بعيده وأزال درنه كما يزيل الماء الحار الوسخ ، وقيل : نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدواً مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وصار ولياً

مصافياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم نبه على عظيم فضل هذه الخصلة بقوله تعالى:

﴿ وما يلقاها ﴾ أي : على ما هي عليه من العظمة ﴿ إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ من الفضائل النفسانية ، وقال قتادة : الحظ العظيم الجنة أي : وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة وقوله تعالى:

(222/683)

﴿ وإما ﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية في ما الزائدة ﴿ ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ قال الزمخشري : النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبيه النخس ، والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه فيبعثه على ما لا ينبغي ، وجعل النزغ نازغاً كما قيل : جد جده أو أريد وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر أو تسويله ، والمعنى : وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي : استجر بالملك الأعلى من شر الشيطان واطلب من الله الدخول في عصمته مبادراً إلى ذلك وامض على شأنك ولا تطعه وتوكل على الله تعالى ﴿ إنه هو ﴾ أي : وحده ﴿ السميع ﴾ أي : لكل مسموع من استعاذتك وغيرها ﴿ العليم ﴾ أي : بكل معلوم من نزغه وغيره فهو القادر على رد كيده

وتوهين أمره ثم استدل على ذلك بقوله تعالى:

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على وحدانيته وأنه سميع عليم ﴿ الليل والنهار ﴾ باختلاف هيئتهما على قدرته على البعث وكل مقدور ، وقدم الليل على ذكر النهار تنبيهاً على أن الظلمة عدم ، والنور وجود والعدم سابق على الوجود ، ﴿ والشمس والقمر ﴾ اللذان هما الليل والنهار ، وقدم الشمس على ذكر القمر لكثرة نفعها .

ولما ثبت أنه تعالى المنفرد بالخلق قال سبحانه : ﴿ لا تسجدوا للشمس ﴾ التي هي من أعظم أوثانكم وأعاد النافي تأكيداً فقال : ﴿ ولا للقمر ﴾ فإنهما دالان على وجود الإله مخلوقان مسخران فلا ينبغي السجود لهما لأن السجود عبارة عن نهاية التعظيم وهو لا يليق إلا بالذي أوجدهما من العدم كما قال تعالى : ﴿ واسجدوا لله ﴾ (فصلت :) أي : الذي له كل كمال من غير شائبة نقص .

(223/683)

واختلف في عود الضمير في قوله تعالى : ﴿ الذي خلقهن ﴾ على أوجه ؛ أولاها : عوده للآيات الأربع كما جرى عليه الجلال المحلي ، وقيل : يرجع لليل والنهار والشمس والقمر ، قال الزمخشري : لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى والإناث ، يقال : الأقلام بريتها

وبريتهن ، وناقشه أبو حيان من حيث أنه لم يفرق بين جمع القلة والكثرة في ذلك لأن الأفصح في جمع القلة أن يعامل معاملة الإناث وفي جمع الكثرة أن يعامل معاملة الأنثى ، والأفصح أن يقال : الأجذاع كسرتهن والجذوع كسرتها ، وأجاب بعضهم : بأن الزمخشري ليس في مقام بيان الفصيح من الأفصح بل في مقام كيف يجيء الضمير ضمير إناث بعد تقدم ثلاثة أشياء مذكرات وواحد مؤنث والقاعدة تغليب المذكر على المؤنث ، وقال البغوي : إنما قال خلقهن بالتأنيث لأنه أجراها على طريق جمع التكسير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر على المؤنث .

ولما ظهر أن الكل عبيده وكان السيد لا يرضى بإشراك عبده عبداً آخر في عبادة سيده قال تعالى : ﴿ إن كنتم إياه ﴾ أي : خاصة بغاية الرسوخ ﴿ تعبدون ﴾ كما هو صريح قولكم في الدعاء في وقت الشدائد لا سيما في البحر ، وفي الآية إشارة إلى الحث على صيانة الآدميين على أن يقع منهم سجود لغيره رفعاً لمقامهم عن أن يكونوا ساجدين لمخلوق بعد أن كانوا مسجوداً لهم ، فإنه تعالى أمر الملائكة عليهم السلام الذين هم من أشرف خلقه بالسجود لآدم عليه السلام وهم في ظهره فتكبر إبليس فأبَّد لعنته إلى يوم القيامة .

(224/683)

﴿ فإن استكبروا ﴾ أي : أوجدوا التكبر عن اتباعك فيما أمرتهم به من التوحيد فلم ينزهوا الله تعالى عن الشريك ﴿ فالذين عند ربك ﴾ أي : من الملائكة ، قال الرازي : ليس المراد بهذه العندية : قرب المكان بل كما يقال عن الملك من الجند كذا وكذا ، ويدل عليه قوله تعالى : "أنا عند ظن عبدي بي" ، ﴿ وأنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي ﴾

﴿ يسبحون له بالليل والنهار ﴾ أي : دائماً لقوله تعالى : ﴿ وهم لا يسأمون ﴾ أي : لا يملون ولقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (الأنبياء :) ، فإن قيل : اشتغالهم بهذا العمل على الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال مع أنهم ينزلون إلى الأرض كما قال تعالى ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ (الشعراء : ـ)

وقال تعالى عن الذين قاتلوا يوم بدر ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ (آل عمران :)

؟

أجيب : بأن الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة .

تنبيه : اختلف في مكان السجدة فقيل : هو عند قوله تعالى : ﴿ إياه تعبدون ﴾ وهو قول ابن مسعود والحسن رضي الله عنهما حكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد رضي الله تعالى عنهما لأنه ذكر السجدة قبيله ، والصحيح عند الشافعي رضي الله تعالى عنه عند

قوله تعالى ﴿ لا يسأمون ﴾ وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وقتادة وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة رضي الله عنه لأن عنده تم الكلام .

ولما ذكر تعالى الدلائل الأربعة الفلكية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال تعالى:

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على قدرته ووحدانيته ﴿ أنك ﴾ أي : أيها الإنسان ﴿ ترى الأرض ﴾ أي : بعضها بحاسة البصر وبعضها بعين البصيرة قياساً على ما أبصرت ﴿ خاشعة ﴾ أي : يابسة لا نبات فيها والخشوع التذلل والتقاصر فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ (الحج :)

(225/683)

وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو ، كما قال تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ عليها الماء ﴾ من الغمام أو غيره ﴿ اهتزت ﴾ أي : تحركت حركة عظيمة كثيرة سريعة فكان كمن يعالج ذلك بنفسه ﴿ وربت ﴾ أي : تشققت فارتفع ترابها وخرج منها النبات وسما في الجو مغطياً لوجهها وتشعبت عروقه وغلظت سوقه فصار يمنع سلوكها على ما كانت فيه من السهولة وتزخرفت بذلك النبات كأنها بمنزلة المختال في زيه

بعد ما كانت قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة ، وقرأ السوسي : ترى الأرض في الوصل بالإمالة بخلاف منه ، والباقون بالفتح ، وفي الوقف أمال محضة أبو عمرو وحمزة والكسائي ، وورش بين بين ، والباقون بالفتح ، ثم استدل بذلك على القدرة على البعث فقال تعالى : ﴿ إن الذي أحياها ﴾ أي : بما أخرج من نباتها بعد أن كانت ميتة ﴿ لمحيي الموتى ﴾ كما فعل بالنبات من غير فرق ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ فهو قادر على إحياء الأرض بعد موتها وعلى إحياء هذه الأجساد بعد موتها لأن الممكنات بالنسبة إلى القدرة متساوية فالقادر قدرة تامة على شيء منها قادر على غيره .

ثم إنه تعالى هدد من يجادل في آياته بإلقاء الشبهات فيها بقوله تعالى:

(226/683)

﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ أي : القرآن على ما لها من العظمة بالطعن والتحريف والتأويل الباطل والإلغاز فيها ، وقرأ حمزة بفتح الياء والحاء من لحد ، والباقون بضم الياء وكسر الحاء من ألحد يقال : لحد الحافر وألحد إذا مال عن الاستقامة بحفره في شق ، فالملحد هو المنحرف ، ثم اختص في العرف بالمنحرف عن الحق إلى الباطل ، قال مجاهد : يلحدون في آياتنا بالمكاء والتصدية واللغو واللغط ، وقال السدي : يعاندون ويشاقون ﴿ لا

يخفون علينا ﴾ أي : في وقت من الأوقات ونحن قادرون على أخذهم متى شئنا أخذنا ولا يعجل إلا من يخشى الفوات ، قال مقاتل : نزلت في أبي جهل وقوله تعالى ﴿ أفمن يلقى في النار ﴾ أي : على وجهه بأيسر أمر ﴿ خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ استفهام بمعنى التقرير والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار وأن المؤمنين بالآيات يأتون آمنين يوم القيامة حين يجمع الله تعالى عباده للعرض عليه للحكم بينهم بالعدل ، قال البغوي قيل : هو حمزة وقيل : هو عثمان وقيل : عمار بن ياسر .

فائدة : أم في الرسم مقطوعة وقوله تعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ أي : فقد علمتم مصير المسيء والمحسن تهديد فمن أراد شيئاً من الجزاءين فليعمل أعمله فإنه ملاقيه ، وقوله تعالى ﴿ إنه بما تعملون ﴾ أي : في كل وقت ﴿ بصير ﴾ أي : عالم بأعمالكم فيه ، وعيد بالمجازاة وقوله تعالى:

(227/683)

﴿ إن الذين كفروا بالذكر ﴾ أي : القرآن ﴿ لما جاءهم ﴾ بدل من قوله تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون ﴾ أو مستأنف وخبر إن محذوف مثل معاندون أو هالكون أو أولئك ينادون ، ولما بالغ تعالى في تهديد الملحدين في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال

تعالى : ﴿ وإنه ﴾ أي : والحال إنه ﴿ لكتاب ﴾ أي : جامع لكل خير ﴿ عزيز ﴾ أي : فهو كثير النفع عديم النظير يغلب كل ذكر ولا يغلبه ذكر ولا يقرب منه ذلك ويعجز كل معارض ولا يعجز عن إقعاد مناهض ، وقال الكلبي : عن ابن عباس رضي الله عنهما كريم على الله تعالى ، وقال قتادة : أعزه الله تعالى .

﴿ لا يأتيه الباطل ﴾ لأنه يمتنع منه بمتانة وصفه وجزالة نظمه وحلاوة معانيه فلا يلحقه تغيير ﴿ من بين يديه ولا من خلفه ﴾ أي : لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات لأن قدام أوضح ما يكون وخلف أخفى ما يكون فما بين ذلك من باب أولى ، والعبارة كناية عن ذلك لأن صفة الله تعالى لا وراء لها ولا أمام لها على الحقيقة ، ومثل ذلك ليس وراء الله تعالى مرمى ولا دونه منتهى ، وقال قتادة والسدي : الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه ، وقال الزجاج : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه ، وعلى هذا فمعنى الباطل الزيادة أو النقصان ، وقال مقاتل : لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يأتي بعده كتاب فيبطله ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ تنزيل ﴾ أي : بحسب التدريج لأجل المصالح ﴿ من حكيم ﴾ أي : بالغ الحكمة فهو يضع كل شيء منه في أتم محله من وقت النزول وسياق النظم ﴿ حميد ﴾ أي : بالغ الإحاطة بأوصاف الكمال من الحكمة وغيرها والتطهر

والتقديس عن كل شائبة نقصٍ يحمده كل خلقه بلسان حاله إن لم يحمده بلسان قاله ، فإن قيل : أما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون ؟

(228/683)

أجيب : بأن الله تعالى حماه عن تعلق الباطل به بأن قيض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم ، فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقاً ولا قول مبطل إلا مضمحلاً ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (الحجر :)

ثم سلَّى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ ما يقال ﴾ أي : من الكفار أو من غيرهم ﴿ لك ﴾ يا أكرم الخلق مما يحصل به ضيق صدر وتشويش فكر ﴿ إلا ما ﴾ أي : شيء ﴿ قد قيل ﴾ أي : حصل قوله على ذلك الوجه ﴿ للرسل من قبلك ﴾ فصبروا على ما أوذوا فاصبر كما صبروا ﴿ إن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإرسالك وإنزال كتابه إليك ومن يكرم بمثل هذا لا ينبغي له أن يحزن لشيء يعرض له ﴿ لذو مغفرة ﴾ أي : لمن تاب وآمن بك ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ أي : مؤلم لمن أصر على التكذيب وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ إن ربك ﴾ الآية مستأنف ، وقيل : مفسر للمقول كأنه قيل للرسل : إن ربك لذو مغفرة وجرى على ذلك الزمخشري ونزل جواباً لقولهم

هلا نزل القرآن بلغة العجم .

﴿ ولو جعلناه ﴾ أي : هذا الذكر بما لنا من العظمة ﴿ قرآناً ﴾ أي : على ما هو عليه من الجمع ﴿ أعجمياً ﴾ أي : لا يفصح ﴿ لقالوا ﴾ أي : هؤلاء المتعنتون ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ولِمَ لا ﴿ فصلت ﴾ أي : بينت ﴿ آياته ﴾ حتى نفهمها وقولهم : ﴿ أأعجمي ﴾ أي : أقرآن أعجمي ﴿ و ﴾ نبي ﴿ عربي ﴾ استفهام إنكار منهم ، وقال مقاتل : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على يسار غلام عامر بن الحضرمي وكان يهودياً أعجمياً يكنى أبا فكيهة فقال المشركون : إنما يعلمه يسار غلام عامر فضربه سيده وقال : إنك تعلم محمداً فقال : هو يعلمني فأنزل الله تعالى هذه الآية" .

وقرأ قالون وأبو عمرو بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية وإدخال ألف بينهما ، وورش وابن كثير وابن ذكوان وحفص بتسهيل الثانية ولا إدخال ، وأسقط هشام الأولى والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

(229/683)

﴿ قل هو ﴾ أي : هذا القرآن ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : أردنا وقوع الإيمان منهم ﴿ هدى ﴾ أي : بيان لكل مطلوب ﴿ وشفاء ﴾ أي : لما في صدورهم من داء الكفر والهوى وقيل :

من الأوجاع والأسقام متعلق كما قال الرازي بقولهم : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ (فصلت :)

الآية كأنه تعالى يقول هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم ، فلا يمكنكم أن تقولوا قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا هذه اللغة فكل من أعطاه الله تعالى طبعاً مائلاً إلى الحق وقلباً داعياً إلى الصدق فإن هذا القرآن يكون في حقه هدى وشفاء ، وأما من غرق في بحر الخذلان وشغف بمتابعة الشيطان فهو في ظلمة وعمى كما قال تعالى : ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ أي : ثقل فلا يسمعون سماعاً ينفعهم ﴿ وهو عليهم عمى ﴾ فلا يبصرون الداعي حق الإبصار ، ثم قال الرازي : وكل من أنصف علم أن التفسير على هذا الوجه الذي ذكرناه أولى مما ذكروه ، أي : أنه متعلق بما قبله لأن السورة تصير بذلك من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً لغرض واحد انتهى .

ولما بين بهذا بعدهم عن عليائه وطردهم عن فنائه قال تعالى:

﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء مثالهم مثال من ﴿ ينادون ﴾ أي : يناديهم من يريد نداءهم غير الله تعالى ﴿ من مكان بعيد ﴾ أي : هم كالمنادي من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به .

﴿ ولقد آتينا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي : التوراة

﴿ فاختلف ﴾ أي : وقع الاختلاف ﴿ فيه ﴾ وجه تعلقه بما قبله كأنه قيل : إنا لما آتينا موسى الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحاب الهدى ورده بعضهم ، فكذلك آتيناك الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحابك ورده آخرون وهم الذين يقولون قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه

﴿ ولولا كلمة ﴾ أي : إرادة ﴿ سبقت ﴾ في الأزل ﴿ من ربك ﴾ أي : المحسن إليك بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي : في الدنيا فيما اختلفوا فيه من إنصاف المظلوم من ظالمه قال تعالى : ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ (القمر :) ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ (فاطر :)

﴿ وإنهم لفي شك ﴾ أي : المكذبين محيط بهم ﴿ منه ﴾ أي : القضاء يوم الفصل

﴿ مريب ﴾ أي : موقع في الريب وهو التهمة والاضطراب بحيث لا يقدرون على التخلص من دائرته أصلاً . ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ من عمل صالحاً ﴾ أي : كائناً من كان ﴿ فلنفسه ﴾ أي : فنفع عمله لها لا لأحد يتعداها والنفس فقيرة إلى التزكية بالأعمال الصالحة لأنها محل النقائص فلذا عبر بها

﴿ ومن أساء ﴾ في عمله ﴿ فعليها ﴾ أي : على نفسه خاصة ليس عليك منه شيء فخفف عن نفسك إعراضهم فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود إليهم ، وإن كفروا فضرر

كفرهم يعود إليهم ، والله سبحانه وتعالى يوصل إلى كل أحد ما يليق به من الجزاء ﴿ وما ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإرسالك لتتميم مكارم الأخلاق ﴿ بظلام ﴾ أي : بذي ظلم ﴿ للعبيد ﴾ أي : هذا الجنس فلا يتصور أن يقع ظلم لأحد منهم أصلاً لأن له الغنى المطلق والحكمة البالغة .

﴿ إليه ﴾ أي : المحسن إليك لا إلى غيره ﴿ يرد علم الساعة ﴾ أي : لا سبيل إلى معرفة وقت ذلك اليوم ولا يعلمه إلا الله ، وكذا العلم بحدوث الحوادث المستقبلة في أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله ، ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين:

(231/683)

أحدهما قوله تعالى : ﴿ وما تخرج من ثمرات ﴾ أي : في وقت من الأوقات ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بألف بعد الراء جمعاً ، والباقون بغير ألف إفراداً وقوله تعالى : ﴿ من أكمامها ﴾ جمع كم وكمامة ، قال البقاعي تبعاً للزمخشري : بالكسر فيهما وهو وعاء الطلع وكل ما غطى على وجه الإحاطة شيئاً من شأنه أن يخرج فهو كم ، وقال الراغب : الكم ما يغطي البدن من القميص وما يغطي الثمرة وجمعه أكمام وهذا يدل على أنه مضموم الكاف أو جعله مشتركاً بين كم القميص وكم الثمرة ، ولا خلاف في كم القمص أنه بالضم فيجوز أن

يكون في وعاء الثمرة لغتان دون كم القميص جمعاً بين القولين .

والمثال الثاني قوله تعالى : ﴿ وما تحمل من أنثى ﴾ حملاً ناقصاً أو تاماً ، وأكد النفي بإعادة النافي ليشهد كل على حياله ﴿ ولا تضع ﴾ حملاً حياً أو ميتاً ﴿ إلا ﴾ حال كونه متلبساً ﴿ بعمله ﴾ ولا علم لأحد غيره بذلك ، ومن ادعى علماً به فليخبر بأن ثمرة الحديقة الفلانية والبستان الفلاني والبلد الفلاني تخرج في الوقت الفلاني أو لا تخرج العام شيئاً ، والمرأة الفلانية تحمل في الوقت الفلاني وتضع في وقت كذا أو لا تحمل العام شيئاً ، ومن المعلوم أنه لا يحيط بهذا علماً إلا الله تعالى .

فإن قيل : قد يقول الرجل الصالح من أصحاب الكشوف قولاً فيصيب فيه وكذلك الكهان والمنجمون ؟

(232/683)

أجيب : بأن أصحاب الكشوف إذا قالوا قولاً فهو من إلهام الله تعالى واطلاعه إياهم عليه فكان من علمه الذي يرد إليه ، وأما الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم في شيء مما يقولونه البتة وإنما غايتهم ادعاء ظن ضعيف قلما يصيب ، وعلم الله تعالى هو العلم اليقين المقطوع به الذي لا يشاركه فيه أحد جل ربنا وعلا ﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي : المشركين بعد

بعثهم من القبول للفصل بينهم في سائر الأمور ﴿ أين شركائي ﴾ أي : الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم ويحمونكم من العقاب واللوم ﴿ قالوا ﴾ أي : المشركون ﴿ آذناك ﴾ أي : أعلمناك ﴿ ما منا ﴾ وأكدوا النفي بإدخال الجار في المبتدأ ﴿ من شهيد ﴾ أي : يشهد أن لك شريكاً وذلك لما رأوا العذاب تبرؤوا من الأصنام وقيل : معناه ما منا أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم فلا يبصرونها في ساعة التوبيخ ، وقيل : هذا كلام الأصنام كأن الله تعالى يحييها وأنها تقول ما منا من شهيد أي : أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة ، وعلى هذا التقدير فمعنى ضلالتهم عنهم أنهم لا ينفعونهم فكأنهم ضلوا عنهم وهو معنى قوله تعالى:

﴿ وضل ﴾ أي : ذهب وغاب وخفي ﴿ عنهم ما كانوا ﴾ أي : دائماً ﴿ يدعون ﴾ في كل حين على وجه العبادة ﴿ من قبل ﴾ فهم لا يرونه فضلاً عن أنهم يجدون نفعه ﴿ وظنوا ﴾ أي : في ذلك الحال ﴿ ما لهم ﴾ وأبلغ في النفي بإدخال الجار على المبتدأ المؤخر فقال : ﴿ من محيض ﴾ أي : مهرب وملجأ ومعدل ، ولما بين تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله تعالى في الدنيا تبرؤوا عن تلك الشركاء في الآخرة ، بين تعالى أن الإنسان في جميع الأوقات متغير الأحوال فإن أحس بخير وقدرة تعاظم وإن أحس ببلاء ومحنة ذلّ بقوله تعالى:

﴿ لا يسأم ﴾ أي : لا يمل ولا يعجز ﴿ الإنسان ﴾ أي : الآنس بنفسه الناظر في إعطافه الذي لم يتأهل للمعارف الإلهية والطرق الشرعية ﴿ من دعاء الخير ﴾ أي : لا يزال يسأل ربه المال والصحة وغيرهما ﴿ وإن مسه الشر ﴾ أي : من فقر وشدة وغيرهما ﴿ فيؤوس ﴾ من فضل الله تعالى ﴿ قنوط ﴾ من رحمة الله تعالى ، والمعنى : أن الإنسان في حال الإقبال لا ينتهي إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها ، وفي حال الإدبار والحرمان يصير آيساً قانطاً ، وهذه صفة الكافر لقوله تعالى : ﴿ لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (يوسف :)

تنبيه : في قوله تعالى ﴿ يؤوس قنوط ﴾ مبالغة من وجهين ؛ أحدهما : من طريق فعول ، والثاني : من طريق التكرار واليأس من صفة القلب ، والقنوط أن تظهر آثار اليأس في الوجه والأحوال الظاهرة ، ثم بين تعالى حال هذا الذي صار آيساً قانطاً بقوله تعالى:

﴿ ولئن ﴾ اللام لام القسم ﴿ أذقناه ﴾ أي : آتينا ذلك الإنسان ﴿ رحمة ﴾ أي : غنى وصحة ﴿ منا ﴾ أي : بما لنا من العظمة والقدرة ﴿ من بعد ضراء ﴾ أي : شدة وبلاء ﴿ مسته ﴾ فإنه يأتي بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة الموجبة للكفر والبعد من الله تعالى ، الأول منها ما حكاه الله بقوله سبحانه : ﴿ ليقولن ﴾ بمجرد ذوق تلك الرحمة على أنها ربما كانت بلاء عظيماً لكونها استدراجاً إلى الهلاك ﴿ هذا ﴾ الأمر العظيم ﴿ لي ﴾ أي

: حقي مختص بي وصل إلي لأني استوجبته بعلمي وعملي ولا يعلم المسكين أن أحداً لا يستحق على الله تعالى شيئاً لأنه إن كان عارياً من الفضائل فكلامه ظاهر الفساد ، وإن كان موصوفاً بشيء من الفضائل والصفات الحميدة فهي إنما حصلت بفضل الله وإحسانه .

(234/683)

النوع الثاني : من كلامه الفاسد قوله : ﴿ وما أظن الساعة ﴾ أي : القيامة ﴿ قائمة ﴾ أي : ثابتاً قيامها فقطع الرجاء منها سواء عبر عن ذلك بلسان قاله أو بلسان حاله لكونه يفعل أفعال الشاك فيها ، النوع الثالث : من كلامه الفاسد قوله ﴿ ولئن ﴾ اللام لام القسم ﴿ رجعت ﴾ أي : على سبيل الفرض أي : أن هذا الكافر يقول لست على يقين من البعث وإن كان الأمر على ذلك ورددت ﴿ إلى ربي ﴾ أي : الذي أحسن إلي بهذا الخير الذي أنا فيه ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ أي : الحالة الحسنى من الكرامة وهي الجنة ، فكما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة ، ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة قال تعالى شأنه : ﴿ فلننبئن ﴾ أي : فلنخبرن ﴿ الذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما دلت عليه العقول وصرائح النقول ﴿ بما عملوا ﴾ لا ندع منه كثيراً ولا قليلاً صغيراً ولا

كبيراً فيرون عياناً ضد ما ظنوه من الدنيا من أن لهم الحسنى ﴿ وقدمنا إلى ما علموا من عمل فجعلنا هباء منثوراً ﴾ (الفرقان :)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لنوقفهم على مساوي أعمالهم ﴿ ولنذيقهم ﴾ أي : بعد إقامة الحجة عليهم بموازين القسط الوافية كمثاقيل الذر ﴿ من عذاب غليظ ﴾ أي : شديد لا يدع جهة من أجسامهم إلا أحاط بها .

ولما حكى الله تعالى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات حكى أفعاله أيضاً فقال:

(235/683)

﴿ وإذا أنعمنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ على الإنسان ﴾ أي : الواقف مع نفسه نعمة تليق بعظمتنا ﴿ أعرض ﴾ أي : عن التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى ﴿ ونأى ﴾ أي : أبعد بعداً جعل بيننا وبينه حجاباً عظيماً ﴿ بجانبه ﴾ أي : ثنى عطفه متبختراً ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي : هذا النوع قليله وكثيره ﴿ فذو دعاء ﴾ أي : في كشفه وربما كان نعمة باطنة وهو لا يشعر ولا يدعو إلا عند المس ، وقد كان ينبغي له أن يشرع في الدعاء عند التوقع بل قبله تعرفاً إلى الله تعالى في الرخاء ليعرفه في الشدة وهو خلق شريف لا يفعله إلا أفراد خصهم الله بلطفه ﴿ عريض ﴾ أي : مديد العرض جداً وأما

طوله فلا يسئل عنه ، وهذا كناية عن النهاية في الكثرة ، تقول العرب أطال فلان الدعاء وأعرض أي : أكثر ، ثم أمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء المعرضين ﴿ أرأيتم ﴾ أي : أخبروني ﴿ إن كان ﴾ أي : هذا القرآن ﴿ من عند الله ﴾ الذي له الإحاطة بجميع صفات الجلال والجمال ﴿ ثم كفرتم به ﴾ أي : من غير نظر واتباع دليل ﴿ من أضل ﴾ منكم هكذا كان الأصل ولكنه قال : ﴿ ممن هو في شقاق ﴾ أي : خلاف لأولياء الله تعالى ﴿ بعيد ﴾ أي : عن الحق تنبيها على أنهم صاروا كذلك ومن صار كذلك فقد عرض نفسه لسطوات الله عز وجل .

(236/683)

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾ قال ابن عباس : يعني منازل الأمم الخالية ﴿ وفي أنفسهم ﴾ أي : بالبلايا والأمراض ، وقال قتادة : يعني وقائع الله تعالى في الأمم الخالية وفي أنفسهم يوم بدر ، وقال مجاهد : في الآفاق ما يفتح الله تعالى من القرى على محمد صلى الله عليه وسلم وفي أنفسهم فتح مكة ، وقال عطاء : في الآفاق يعني : أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم في آفاق الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات والنبات والأشجار والأنهار وفي أنفسهم من لطائف الصنعة وبديع الحكمة في كيفية تكوين الأجنة في ظلمات

الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات :)

تنبيه : قال النووي في تهذيبه : قال أهل اللغة : الآفاق النواحي ، الواحد أفق بضم الهمزة والفاء ، وأفق بإسكان الفاء .

ولما كان التقدير ولا نزال نكرر عليهم هذه الدلائل عطف عليه ﴿ حتى يتبين لهم ﴾ غاية البيان بنفسه من غير إعمال فكر ﴿ أنه ﴾ أي : القرآن ﴿ الحق ﴾ أي : الكامل في الحقبة الذي يطابق الواقع المنزل من الله تعالى بالبعث والحساب والعقاب فيعاقبون على كفرهم به وبالجائي به ، وقيل : الضمير في أنه لدين الإسلام ، وقيل : لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أولم يكف بربك ﴾ أي : المحسن إليك بهذا البيان المعجز للأنس والجان شهادة بأن القرآن من عند الرحمن .

تنبيه : الباء زائدة للتأكيد كأنه قيل : أو لم تحصل الكفاية به ولا تكاد تزاد في الفاعل إلا مع كفى وقوله تعالى : ﴿ أنه على كل شيء شهيد ﴾ بدل من ربك ، والمعنى : أولم يكفهم في صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء ما وقد شهد لك فيه بالإعجاز لجميع الخلق بكل ما تضمنته آياته ونطقت به كلماته ، ففيه أعظم بشارة بتمام الدين وظهوره على المعتدين .

ولما لم يبق بعد هذا التعنت مقال ولا شبهة أصلاً لضال ، قال تعالى منادياً على من جحد واستمر على عناده:

(237/683)

﴿ ألا إنهم ﴾ أي : هؤلاء الكفرة ﴿ في مرية ﴾ أي : جحد وجدال وشك وضلال عن البعث ﴿ من لقاء ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم بأن خلقهم ورزقهم لإنكارهم البعث ، ثم كرر كونه قادراً على البعث وغيره بقوله تعالى : ﴿ ألا إنه ﴾ أي : هذا المحسن إليهم ﴿ بكل شيء ﴾ أي : من الأشياء جملتها وتفصيلها كلياتها وجزئياتها أصولها وفروعها غيبتها وشهادتها ملكها وملكوتها ﴿ محيط ﴾ قدرة وعلماً بكثير الأشياء وقليلها كلياتها وجزئياتها فيجازيهم بكفرهم ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات" حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 356.372 ﴾

(238/683)

وقال القاسمي :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء ﴾

أي : بعثنا لهم نظراء من الشياطين اقترنوا بهم : ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي : حسّنوا لهم أعمالهم كلها ، الحاضرة والمستقبلة . فالطرفان كناية عن الجميع ، أو ما بين أيديهم من جرائم الدنيا ، وما خلفهم من التكذيب بالمعاد . قال الشهاب : وتفسير أمور الدنيا بما بين أيديهم ، لحضورها عندهم ، كالشيء الذي بين يديك تقلّبه كيف تشاء ، والآخرة بما خلفهم ، لعدم مشاهدتها ، كالشيء الذي خلفك ، أو لكونها ستلحق بهم ، وقد يعكس فيجعل ما بين أيديهم الآخرة ؛ لأنها مستقبلة ، وما خلفهم الدنيا لمضيّها وتركها كما مرّ قريباً .

(239/683)

وقال القاشاني في تفسير الآية : أي : قدرنا لهم أخداناً وأقراناً من شياطين الإنس أو الجن ، من الوهم والتخيل ، لتباعدهم من الملأ الأعلى ، ومخالفتهم بالذات للنفوس القدسية والأنوار الملكوتية ، بانغماسهم في المواد الهيولانية . واحتجابهم بالصفات النفسانية ، وانجذابهم إلى الأهواء البدنية والشهوات الطبيعية . فناسبوا النفوس الأرضية الخبيثة والكدرة المظلمة . وخالفوا الجواهر القدسية . فجعلت الشياطين أقرانهم وحجبوا عن نور الملكوت : ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : ما بحضرتهم من اللذات البهيمية

والسبعية ، والشهوات الطبيعية في : ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي : من الآمال والأماني التي لا يدركونها : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي : في القضاء الإلهي . بالشقاء الأبدي : ﴿ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم ﴾ من المكذبين بأنبيائهم ، الضالين المضلين : ﴿ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : ستروا زينة أدلة القرآن عن أتباعهم ، الذين زينوا لهم شبهاتهم الواهية : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أي : إذا قرأه ، ولا تصغوا له ، كيلا يؤثر عليكم وعظه : ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ أي : ائتوا باللغو عند قراءته ، ليختلط . فلا يمكنه القراءة . والمراد باللغو ما لا أصل له ، أو ما لا معنى له : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ أي : تصدّون من أراد استماعه ، عن استماعه ، فلا يسمعه . وإذا لم يسمعه ، ولم يفهمه ، لم يتبعه . فتغلبون بكيدكم هذا حججه ، التي يغلب بها عقولكم .

(240/683)

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ أي : المكث الأبدي . وفي النظم الكريم من البديع ، التجريد ، وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة ، آخر مثله ، مبالغة فيها ؛ لأنها نفسها دار الخلد . ويجعله للظرفية الحقيقية ، تكلف لا داعي له . مع أن المذكور أبلغ . قال الشهاب : ﴿

جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي : ينكرون أو يلغون . وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي : ندوسهما انتقاماً منهما : ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ قال القاشاني : أي : حنق المحجوبون واغتاظوا على من أضلهم من الفريقين ، عند وقوع العذاب . وتمنوا أن يكونوا في أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم ، لما لقوا من الهوان ، وألم النيران ، وعذاب الحرمان ، والخسران ، بسببهم ، وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم في أسوأ أحوالهم ، وأنزل مراتبهم . كما ترى من وقع في البلية ، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها ، يتحرد عليه ويتغيظ ، ويكاد أن يقع فيه ، مع غيبته ويتحرق . انتهى .

(241/683)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أي : وحدوه بنفي غيره ، وعرفوه بالإيقان حق معرفته : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أي : في أخلاقهم ، وعقائدهم ، وأعمالهم . وذلك بالسلوك في طريقه تعالى ، والثبات على صراطه ، مخلصين لأعمالهم ، عاملين لوجهه ، غير ملتفتين بها إلى غيره : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أي : في الدنيا ، بإلهامهم ، أو عند الموت ، أو حين

البعث

﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أي : ما تقدمون عليه بعد مماتكم : ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ أي : على ما خلفتم من دنياكم ، من أهل وولد . فإنا نخلفكم في ذلك كله ، أو من الفزع الأكبر ، وهوله ، فإنكم آمنون لآية : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ [الأنبياء : 103] ، والتنزيل يفسر بعضه بعضاً ، أو الآيتان في مقامين ، وبشارتين ، وفضله تعالى أوسع ، وجوده أعم وأشمل .

قال القاشاني : وإنما تنزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم في التوحيد الحقيقي ، والإيمان اليقيني ، والعمل الثابت على منهاج الحق والاستقامة في الطريقة إليه . غير ناكثين في عزيمة ، ولا منحرفين عن وجهة ، ولا زائغين في عمل . كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين ، بالجواهر المظلمة , والأعمال الخبيثة . فتنزلت عليهم . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي : في الدنيا ، حال الإيمان بالغيب .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أي : أحباؤكم في الدارين ، للتناسب بيننا وبينكم . كما أن الشياطين أولياء الكافرين ، لما بينهم من الجنسية ، والمشاركة في الظلمة والكدورة . قال ابن كثير : أي : تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا قرناءكم في الحياة الدنيا ، نسددكم ، ونوفقكم ، ونحفظكم بأمر الله . وكذلك نكون معكم في الآخرة ، نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوزكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم .

وقال الرازي : معنى كونهم أولياء للمؤمنين ، أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية ، بالإلهامات ، والمكاشفات اليقينية ، كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح ، بإلقاء الوساوس فيها ، وتخييل الأباطيل إليها ، وبالجملة ، فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة ، حاصل من جهات كثيرة معلومة ، لأرباب المكاشفات والمشاهدات . فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا ، فهي تكون باقية في الآخرة . فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال . بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى . وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة ، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر ، والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة . كما قال صلى الله عليه وسلم : < لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ، لنظروا إلى ملكوت

السماوات . فإذا زالت العلائق الجسمانية ، والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس > . انتهى .

(243/683)

وهو مشرب صوفيّ ومنزع فلسفيّ ، فيه شية من الرقة : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أي : في الآخرة : ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ﴾ أي : من الروح ، والريحان ، والنعيم المقيم : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي : تتمنون : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ أي : إكراماً معداً لكم ، من غفور لذنوبكم ، ورحيم بتفضله وتطوله .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي : لا أحد أحسن مقالاً ممن دعا الناس إلى عبادته تعالى ، وكان من الصالحين المؤتمرين ، والمسلمين وجوههم إليه تعالى في التوحيد .

لطائف :

الأولى – قال القاشاني : وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل ؛ لكونه أشرف المراتب ، ولاستلزامه الكمال العلمي والعملي ، وإلا لما صحت الدعوة . انتهى .

الثانية – في الآية إشارة إلى ترغيبه صلى الله عليه وسلم في الإعراض عن المشركين ، وعما

كانوا يقولونه من اللغو في التنزيل ، مما قصه تعالى عنهم فيما تقدم . وإرشاده إلى المواظبة على التبليغ ، والدعوة ، ببيان أن ذلك أحسن الطاعات ورأس العبادات ، فهذا هو سر انتظام هذه الآية في إثر ما سبق . وثمة وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنان : كامل وأكمل . أما الكامل فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته . فإذا فرغ من هذه الدرجة ، اشتغل بعدها بتكميل الناقصين .

(244/683)

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت : 30] و [الأحقاف : 13] ، إشارة إلى المرتبة الأولى . وهي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها . فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة ، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية ، وهي الانتقال بتكميل الناقصين ، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً ﴾ الآية .

واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ، ونصيباً وافياً من العلوم الإلهية ، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن ، أفاده الرازي .

الثالثة – يدخل في الآية كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق المشروعة ، وسبيل من السبل

المأثورة ؛ لأن الدعوة الصحيحة هي الدعوة النبوية ، ثم ما انتهج منهجها في الصدع بالحق ، وإيثاره على الخلق .

الرابعة – في الآية دليل على وجوب الدعوة إلى الله تعالى – على ما قرره الرازي – لأن الدعوة إلى الله أحسن الأعمال ، وكل ما كان أحسن الأعمال ، فهو واجب .

الخامسة – احتج من جوز قول : أنا مسلم . بدون تعليق على المشيئة بهذه الآية . وقال : إطلاقها يدل على أن ذلك هو الأولى ، والمسألة معروفة بسطها الغزالي في " الأحياء " .

وللإمام ابن حزم في " الفِصل " تحقيق لطيف لا بأس بإيراده . قال رحمه الله : اختلف الناس في قول المسلم : أنا مؤمن . فروينا عن ابن مسعود وجماعة من أصحابه الأفاضل ، ومن بعده من الفقهاء ، أنه كره ذلك . وكان يقول : أنا مؤمن إن شاء الله . وقال بعضهم : آمنت بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله . وكانوا يقولون : من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة .

(245/683)

ثم قال ابن حزم : والقول عندنا في هذه المسألة ، أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه . فإن كان يدري أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبكل ما أتى به عليه

السلام ، وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك . كما أمر تعالى ، إذا قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : 11] ولا نعمة أوكد ، ولا أفضل ، ولا أولى بالشكر ، من نعمة الإسلام . فواجب عليه أن يقول : أنا مسلم قطعاً عند الله تعالى ، وفي وقتي هذا . ولا فرق بين قوله : أنا مؤمن مسلم . وبين قوله : أنا أسود وأنا أبيض .

(246/683)

وهكذا سائر صفاته التي لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح ، والتعجب في شيء ؛ لأنه فرض عليه أن يحص دمه بشهادة التوحيد . قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 136] ، وقول ابن مسعود عندنا صحيح ؛ لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما في اللغة ، إلى جميع البر والطاعات ، فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه مسلم مؤمن ، على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات . وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك ، وما منع رضي الله عنه من أن يقول المرء : إني مؤمن . بمعنى مصدق

. كيف ؟ وهو يقول : قل آمنت بالله ورسله . أي : صدقت . وأما من قال فقل إنك في الجنة ، فالجواب أننا نقول : إن متنا على ما نحن عليه الآن ، فلا بد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن ، والسنة ، والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه في الجنة ، إلا أننا لا ندري ما يفعل بنا في الدنيا ، ولا نأمن من مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان ، ولا ندري ماذا نكسب غداً ، ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى .

(247/683)

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ أي : لكون الأولى من مقام العقل تجرّ صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائكة . والثانية من مقام النفس تجر صاحبها إلى النار ومقارنة الشياطين : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي : ادفع السيئة حيث اعترضتك ، بالتي هي أحسن منها ، وهي الحسنة . على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً ، أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات . وإنما عدل من مقتضى الظاهر وهو : ادفع بالحسنة ، إلى الأبلغ – لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه . وهذا الكلام أبلغ في الحمل والحث على ما ذكر ؛ لأنه يومئ إلى أنه مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه .

قال القاشاني : أي : إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة ، التي هي أحسن فلا تدفعها بالحسنة التي دونها ، فكيف بالسيئة ؟ فإن السيئة لا تندفع بالسيئة ، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالحطب . فإن قابلتها بمثلها كنت منحطاً إلى مقام النفس ، متبعاً للشيطان ، سالكاً طريق النار ، ملقياً لصاحبك في الأوزار ، وجاعلاً له ولنفسك من جملة الأشرار ، متسبباً لازدياد الشر ، معرضاً عن الخير . وإن دفعتها بالحسنة ، سكّنت شرارته ، وأزلت عداوته ، وتثبت في مقام القلب على الخير ، وهديت إلى الجنة ، وطردت الشيطان ، وأرضيت الرحمن ، وانخرطت في سلك الملكوت ، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة ، ثم أشار تعالى إلى علة الأمر ، وثمرته بقوله : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ ﴾ أي : صديق أو قريب : ﴿ حَمِيمٌ ﴾ أي : شديد الولاء . وأصل الحميم الماء الشديد حرارته . كنى به عن الولي المخلص في وده ، لما يجد في نفسه من حرارة الحب ، والشوق ، والاهتمام نحو مواليه .

(248/683)

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ أي : هذه الخصلة الشريفة ، والفضيلة العظيمة ، وهي مقابلة الإساءة بالإحسان : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي : على تجرع الشدائد ، أو على طاعته تعالى ،

وأمره ، تخلقاً بالعلم والعفو : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي : من الخير وكمال النفس ، ومن الله تعالى بالتخلق بأخلاقه ، ومن الثواب وكمال العقل .

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : وإما يلقين الشيطان في نفسك وسوسة من حديث النفس ، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة ، والانتقام منه ، فاستجر بالله واعتصم من خطواته ، بالرجوع إلى جنابه تعالى ، واللجأ إلى حضرته ، من شره ووسوسته ونزغه . قال ابن كثير : قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف ، وهو قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 199 - 200] ، وفي سورة المؤمنون ، وهو قوله سبحانه : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : 96 - 98] .

(249/683)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ أي : حججه تعالى على خلقه ، ودلالته على وحدانيته وعظيم سلطانه ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴾ أي : اختلافهما ، ومعاقبة كل واحد منها صاحبه : ﴿ وَالشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ ﴾ أي : نورهما وإشراقهما وتقدير منازلهما ، واختلاف سيرهما في سمائهما ، لبقاء صلاح الكون : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما مسخران بتسخير خالق قادر عليهم ، فهما مخلوقان : ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي : تفرّدونه بالعبادة . فإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة ، ولا تشركوا في طاعته أحداً ؛ لأنها لا تنبغي لأحد سواه . تنبيه :

استدل بالآية الشيخ أبو إسحاق في " المهذب " على صلاة الكسوف . قال : لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرها ، وأخذ من ذلك تفضيلها على صلاة الاستسقاء ، لكونها في القرآن ، بخلافها . كذا في " الإكليل " .

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أي : عن عبادته كبراً وعتواً : ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي : من الملائكة

﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أي : لا يملّون عبادته ، لأنها قرة أعينهم ، وحياة أنفسهم .

(250/683)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ أي : ساكنة لا حركة لعشب فيها ، ولا نبات ، ولا زرع : ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ أي : اهتزت بالنبات وتحركت بزينته ، وربت بارتفاعه على سطحها ، أي : صارت ربوة مرتفعة : ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا ﴾ أي : هذه الأرض الدارسة ، فأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها : ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي : يميلون عن حججنا وأدلتنا ، ويزيغون عنها تكذيباً لها ، وجحوداً لها : ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ أي : لإحاطة علمه بهم ، وكونه بالمرصاد لهم ، فسيجزيهم .

تنبيه :

(251/683)

شملت الآية من بضع الكلام في الآيات على غير مواضعه ، كما فسّرها ابن عباس . قال في " الإكليل " : ففيها الرد على من تعاطى تفسير القرآن بما لا يدل عليه جوهر اللفظ ، كما يفعله الباطنية ، والاتحادية ، والملاحدة ، وغلاة المتصوفة : ﴿ أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ أي : بهذا القرآن : ﴿ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ أي : فهم هالكون . فالخبر محذوف ، أو الجملة بدل من

جملة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أي : منيع محمي عن التغيير والتبديل ، وعن محاكاته بنظير .

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [42] .

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي لا يتطرق إليه البطلان من جهة من الجهات .

(252/683)

قال القاشاني : لا من جهة الحق فيبطله بما هو أبلغ منه وأشد إحكاما في كونه حقا وصدقا . ولا من جهة الخلق فيبطلونه بالإلحاد في تأويله, ويغيرونه بالتحريف لكونه ثابتا في اللوح محفوظا من جهة الحق, كما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : 9) , وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمي من جميع جهاته . فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين . هذا على أن ما بين يديه وما خلفه, كناية عن جميع الجهات . كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله . أو المعنى : لا يتطرق إليه باطل في كل ما أخبر عنه من الأخبار الماضية والآتية . والماضية ما بين يديه, والآتية ما خلفه . أو العكس كما مر ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ قال ابن جرير : أي هو تنزيل من عند ذي

حكمة, بتدبير عباده وصرفهم فيما فيه مصالحهم, محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم

.

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي : ما يقول لك كفار قومك ، إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم ، من الكلمات المؤذية ، والمطاعن في الكتب المنزلة ؛ أي : فاصبر كما صبروا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي : لذنوب التائبين إليه من ذنوبهم ، بالصفح عنهم : ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي : لمن أصرّ على كفره وذنوبه ، ومات قبل التوبة منها .

(253/683)

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي : بينت أدلته وما فيه ، بلسان نعرفه لنفهم ما فيه . قال الزمخشري : كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ؟ فقيل : لو كان كما يقترحون ، لم يتركوا الاعتراض والتعنت ، وقالوا : لولا فصلت آياته ؟ أي : بينت ولخصت بلسان نفقهه : ﴿ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ الهمزة همزة الإنكار ، يعني : لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمي ورسول عربي ؟ أو مرسل إليه عربي ؟ والمعنى : إن آيات الله على أي : طريقة جاءتهم ، وجحدوا فيها متعنتاً ؛ لأن القوم غير طالبين للحق ، وإنما يتعبون أهواءهم . انتهى .

قال الشهاب : والأعجمي أصله أعجم ، ومعناه من لا يفهم كلامه للكنة ، أو لغرابة لغته وزيدت الياء للمبالغة . كما في أحمري . ويطلق على كلامه مجازاً . لكنه اشتهر حتى ألحق بالحقيقة . وأما العجمي فالمنسوب إلى العجم . وهم مَن عدا العرب ، وقد يخص بأهل فارس ، ولغتهم العجمية أيضاً . فبين الأعجمي والعجمي عموم وخصوص وجهي . انتهى .

(254/683)

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء ﴾ أي : وهو للمؤمنين بالغيب هداية تهديهم إلى الحق ، وتبصّرهم بالمعرفة ، وشفاء يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل . كالنفاق والشك ، أي : تبصّرهم بطريق النظر والعمل ، فتعلمهم وتزكيهم : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أي : لا يسمعونه ولا يفهمونه . بل يشتبه عليهم لاستيلاء الغفلة عليهم ، وسد الغشاوات الطبيعية طرق أسماع قلوبهم وأبصارها ، فلا ينفذ فيها ولا يتنبهوا بها ولا يتيقظوا : ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : مثلهم في عدم قبولهم الحق ، واستماعهم له ، مثل من يُصيّح به من مسافة شاطة ، لا يسمع من مثلها الصوت ، فلا يسمع النداء . وذلك لبعدهم عن منبع النور الذي [في المطبوع : الى] يدرك به الحق ويرى .

وانهماكهم في ظلمات الهيولى .

قال الشهاب : وجعل النداء من مكان بعيد ، تمثيلاً لعدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعُوا له . يقال : أنت تنادى من مكان بعيد ، أي : لا تفهم ما أقول . وقيل : إنه على حقيقته ، وإنهم يوم القيامة ينادون كذلك ، تفضيحاً لهم .

(255/683)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ قال ابن جرير : أي : فاختلف في العمل بما فيه الذين أوتوه من اليهود . وقال ابن كثير : أي : كذب وأوذي ، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهي العدة بالقيامة ، وفصل الخصومة حينئذ ؛ أي : لولا أنه تعالى قدر الجزاء في الآخرة : ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : بتعجيل العذاب : ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ [الكهف : 58] ، ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : 46] ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي : موقع للريب والاضطراب لأنفسهم وأتباعهم ، لعمى بصائرهم وتبلد عقولهم ، وإلا فالحق أجلى من أن يخفى . وقال ابن كثير : أي : وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم ، لما قالوا . بل كانوا شاكّين فيما قالوه ، غير محققين لشيء كانوا فيه ، هكذا وجّهه ابن جرير . وهو

محتمل . والله أعلم .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي : من عمل بطاعة الله ، فائتمر لأمره ، وانتهى عما نهان ، فلنفسه نفعه ؛ لأنه يجازى عليه جزاءه الحسن : ﴿ وَمَنْ أَسَاء ﴾ أي : عمل السيء وعصى

﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ ضره ؛ لأنه جنى على نفسه بذلك ، ما أكسبها سخط الله تعالى والعقاب الأليم و : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي : لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلا بقيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

(256/683)

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي : لا يعلمها إلا هو . أو المعنى : إذا سئل عنها يقال : الله عالم بها : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أي : أوعيتها : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أي : مقروناً بعلمه . قال الزمخشري : يعلم عدد أيام الحمل وساعاته ، وأحواله من الخداج ، والتمام ، والذكورة ، والأنوثة ، والحسن ، والقبح ، وغير ذلك : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ أي : الذين كنتم تشركونهم في عبادتي : ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أي : أعلمناك ما منا من يشهد لهم بالشركة ويقرّ بها الآن . فـ : ﴿ شَهِيدٍ

﴿ فعيل من الشهادة ، ونفي الشهادة كناية عن التبرؤ منهم ، أو هو منهم إنكار لعبادتها ، فيكون كذباً ، كقولهم : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : يعبدون من الأوثان ، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً : ﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي : وأيقنوا يومئذ ما لهم من ملجأ يلجأون إليه من عذاب الله .

(257/683)

﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أي : لا يمل من مسألته ربه بالخير ، كالمال وصحة الجسم : ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي : الضرّ في نفسه من سقم أو جهد في معيشته : ﴿ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أي : من روح الله ورحمته ، ومن أن يكشف ما نزل به . قال الزمخشري : بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فعول ، ومن طريق التكرير . والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ أي : بتفريجها عنه : ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ أي : حقي نلته بعملي ، لا بفضل من الله ، جحداً للمنعم : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ أي : للحالة الحسنى من الكرامة ، حرصاً

ورجماً بالغيب ، وتلاعباً بما شاء الهوى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي : فلنخبرن هؤلاء المتمنين على الله الأباطيل ، بحقيقة أعمالهم ، ولنبصرنّهم عكس ما اعتقدوا فيها : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وهو تخليدهم في النار .

(258/683)

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي : إذا كشفنا ما به من ضر ، ورزقناه غنى ، وصحة ، وسعة ، أعرض عما دعي إليه من الطاعة ، وتكبر وشمخ بأنفه عن الإجابة ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي : كثير ، يديم تضرعه ، ويستغرق في الابتهال أنفاسه . وقد استعير العرض لكثرة الدعاء . كما يستعار له الطول أيضاً . فيقال : أطال فلان الدعاء ، إذا أكثر . وكذلك أعرض دعاءه .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ أي : القرآن : ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ ﴾ أي : من غير نظر ، واتباع دليل : ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : من أضل منكم ، فوضع الموصول موضع الصلة ، شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم ، والشقاق الخلاف ، لكون المخالف في شق ، وجانب ممن خالفه . قال الشهاب : الآية رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين ، وختم السورة بما يلفت لفت بدئها ، وهو من الكلام المنصف ، وفيه حث على

التأمل ، واستدراج للإقرار ، مع ما فيه من سحر البيان . وحديث الساعة وقع في البين تتميماً للوعيد ، وتنبيهاً على ما هم عليه من الضلال البعيد .

(259/683)

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ﴾ يعني وقائع النبي صلى الله عليه وسلم بنواحي بلد المشركين من أهل مكة وأطرافها ، وظهوره على الناس تصديقاً للوعد : ﴿ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : من غلبتهم وقهرهم وكسر شوكتهم ، وكما وقع في بدر وفتح مكة : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ أي : أن هذا القرآن ، بوعده ووعيده ، هو الحق الثابت ؛ إذ [في المطبوع : إذا] لا برهان بعد عيان ، فقد نصر الله رسوله وصحبه ، وخذل الباطل وحزبه : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي : لا يخفى عليه شيءٌ ما ، مما يفعله خلقه ، وهو مجازيهم عليه ، ففيه وعد ، ووعيد .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : في شك عظيم من البعث بعد الممات ، ومعادهم إلى ربهم : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أي : فلا يخرج عن إحاطته شيء : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : 14] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 223.236 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) ﴾

هذا شوط جديد مع القلب البشري في مجال الدعوة . يبدأ بجولة مع آيات الله الكونية : الليل والنهار والشمس والقمر ، وفي المشركين من كان يسجد للشمس وللقمر مع الله . وهما من خلق الله . ويعقب على عرض هذه الآيات بأنهم إن استكبروا عن عبادة الله فهناك من هم أقرب منهم إلى الله يعبدونه . ثم هناك الأرض كلها في مقام العبادة وهي تتلقى من ربها الحياة ، كما تلقوها فلم يتحركوا بها إلى الله . إنما هم يلحدون في آيات الله الكونية ، ويجادلون في آياته القرآنية ؛ وهو قرآن عربي غير مشوب بأعجمية . وينتقل بهم إلى مشهد من مشاهد القيامة . ثم يعرض عليهم أنفسهم عارية بكل ما فيها من ضعف وتقلب ونسيان ، وبكل ما فيها من حرص على الخير وجزع من الضر . ثم هم لا يقون أنفسهم من شر ما يصيبها عند الله . وتنتهي السورة بوعد الله سبحانه أن يكشف للناس عن آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، ويذهب ما في قلوبهم من ريب وشك . .

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذي خلقهن . إن كنتم إياه تعبدون ﴾ . .

وهذه الآيات معروضة للأنظار ، يراها العالم والجاهل . ولها في القلب البشري روعة مباشرة . ولو لم يعلم الإنسان شيئاً عن حقيقتها العلمية . فبينها وبين الكائن البشري صلة أعمق من المعرفة العلمية . بينها وبينه هذا الاتصال في النشأة ، وفي الفطرة ، وفي التكوين . فهو منها وهي منه . تكوينه تكوينها ، ومادته مادتها ، وفطرته فطرتها ، وناموسه ناموسها ، وإلهه إلهها . . فهو من ثم يستقبلها بحسه العميق في هزة وإدراك مباشر لمنطقها العريق !

(261/683)

لهذا يكتفي القرآن غالباً بتوجيه القلب إليها ، وإيقاظه من غفلته عنها ، هذه الغفلة التي ترد عليه من طول الألفة تارة ، ومن تراكم الحواجز والموانع عليه تارة ، فيجلوها القرآن عنه ، لينتفض جديداً حياً يقظاً يعاطف هذا الكون الصديق ، ويتجاوب معه بالمعرفة القديمة العميقة الجذور .

وصورة من صور الانحراف تلك التي تشير إليها الآية هنا . فقد كان قوم يبالغون في الشعور بالشمس والقمر شعوراً منحرفاً ضالاً فيعبدونهما باسم التقرب إلى الله بعبادة أبهى

خلائقه ! فجاء القرآن ليردهم عن هذا الانحراف ؛ ويزيل الغبش عن عقيدتهم المدخولة .

ويقول لهم : إن كنتم تعبدون الله حقاً فلا تسجدوا للشمس والقمر . . ﴿ واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ فالخالق هو وحده الذي يتوجه إليه المخلوقون أجمعين . والشمس والقمر مثلكم يتوجهون إلى خالقهما فتوجهوا معهم إلى الخالق الواحد الذي يستحق أن تعبدوه .

ويعيد الضمير عليهما مؤنثاً مجموعاً : ﴿ خلقهن ﴾ باعتبار جنسهما وأخواتهما من الكواكب والنجوم ؛ ويتحدث عنهن بضمير المؤنث العاقل ليخلع عليهن الحياة والعقل ، ويصورهن شخوصاً ذات أعيان !

فإن استكبروا بعد عرض هذه الآيات ، وبعد هذا البيان ، فلن يقدم هذا أو يؤخر ؛ ولن يزيد هذا أو ينقص .

فغيرهم يعبد غير مستكبر :

﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون ﴾ . . وأقرب ما يرد على القلب عند ذكر ﴿ الذين عند ربك ﴾ الملائكة . ولكن قد يكون هناك غير الملائكة من عباد الله المقربين ؛ وهل نعلم نحن شيئاً إلا اليسير الضئيل ؟ !

هؤلاء . الذين عند ربك . وهم أرفع وأعلى . وهم أكرم وأمثل . لا يستكبرون كما يستكبر أولئك المنحرفون الضالون في الأرض . ولا يغترون بقرب مكانهم من الله . ولا

يفترون عن تسبيحه ليلاً ونهاراً ﴿ وهم لا يسأمون ﴾ . . فماذا يساوي أن يتخلف من أهل الأرض من يتخلف في حقيقة العبودية لله من الجميع ؟

(262/683)

وهنالك الأرض أمهم التي تقوتهم الأرض التي منها خرجوا وإليها يعودون . الأرض التي هم على سطحها نمال تدب ولا طعام لها ولا شراب إلا ما تستمده منها . . هذه الأرض تقف خاشعة لله ، وهي تتلقى من يديه الحياة :

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير ﴾ . .

ونقف لحظة أمام دقة التعبير القرآني في كل موضع . فخشوع الأرض هنا هو سكونها قبل نزول الماء عليها . فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . وكأنما هي حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة . ذلك أن السياق الذي وردت فيه هذه الآية سياق خشوع وعبادة وتسبيح ، فجيء بالأرض في هذا المشهد ، شخصاً من شخوص المشهد ، تشارك فيه بالشعور المناسب وبالحركة المناسبة . .

ونستعير هنا صفحة من كتاب " التصوير الفني في القرآن " عن التناسق الفني في مثل هذا

التعبير :

" عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر . وقبل تفتحها بالنبات ، مرة بأنها ﴿ هامدة ﴾ ، ومرة بأنها ﴿ خاشعة ﴾ . وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع في التعبير . فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان :

لقد وردتا في سياقين مختلفين على هذا النحو :

وردت ﴿ هامدة ﴾ في هذا السياق : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ، فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة . لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ؛ ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ؛ ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكي لا يعلم من بعد علم شياً . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ووردت ﴿ خاشعة ﴾ في هذا السياق : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن ، إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون .

ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ .

" وعند التأمل السريع في هذين السياقين ، يتبين وجه التناسق في ﴿ هامدة ﴾ و ﴿ خاشعة ﴾ . إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج ؛ فمما يتسق معه تصوير الأرض ﴿ هامدة ﴾ ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود ، يتسق معه تصوير الأرض ﴿ خاشعة ﴾ فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت .

ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا ، الإنبات والإخراج ، كما زاد هناك ، لأنه لا محل لها في جو العبادة والسجود . ولم تجئ ﴿ اهتزت وربت ﴾ هنا للغرض الذي جاءتا من أجله هناك . إنهما تخيلان حركة للأرض بعد خشوعها . وهذه الحركة هي المقصودة هنا ، لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم ، ولكي لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكناً ، وكل الأجزاء تتحرك من حوله . وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير " الخ . الخ .

ونعود إلى النص القرآني فنجد أن التعقيب في نهاية الآية يشير إلى إحياء الموتى ، ويتخذ من إحياء الأرض نموذجاً ودليلاً :

﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير ﴾ . .

ويتكرر في القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجاً للإحياء في الآخرة ، ودليلاً كذلك على القدرة . ومشهد الحياة في الأرض قريب من كل قلب ، لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول ، والحياة حين تنبض من بين الموات ، توحي بالقدرة المنشئة إيحاء خفياً ينبض في أعماق الشعور . والقرآن يخاطب الفطرة بلغتها من أقرب طريق .

وأمام مشهد هذه الآيات الكونية ذات الأثر الشعوري العميق يجيء التنديد والتهديد لمن يلحدون في هذه الآيات الظاهرة الباهرة ؛ فيكفرون بها ، أو يغالطون فيها :

﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا . أفمن يلقى في النار خير ؟ أم من يأتي آمناً يوم القيامة . اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾ .

ويبدأ التهديد ملفوفاً ولكنه مخيف : ﴿ لا يخفون علينا ﴾ . . فهم مكشوفون لعلم الله . وهم مأخوذون بما يلحدون ، مهما غالطوا والتووا ، وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يفلتون بالمغالطة من حساب الناس .

ثم يصرح بالتهديد : ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ؟ ﴾ . . وهو تعريض بهم ، وبما ينتظرهم من الإلقاء في النار والخوف والفزع ، بالمقابلة إلى مجيء المؤمنين

آمنين .

وتنتهي الآية بتهديد آخر ملفوف : ﴿ اعملوا ما شئتم . إنه بما تعملون بصير ﴾ . . ويا خوف من يترك ليعمل فليحد في آيات الله . والله بما يعمل بصير .

ويستطرد إلى الذين يكفرون بآيات الله القرآنية ، والقرآن كتاب عزيز قوي منيع الجانب ، لا يدخل عليه الباطل من قريب ولا من بعيد :

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته ! أأعجمي وعربي ؟ قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمىً ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ .

والنص يتحدث عن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ؛ ولا يذكر ماذا هم ولا ماذا سيقع لهم . فلا يذكر الخبر : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم . . ﴾ كأنما ليقال : إن فعلتهم لا يوجد وصف ينطبق عليها ويكافئها لشدة بشاعتها !

لذلك يترك النص خبر ﴿ إن ﴾ لا يأتي به ويمضي في وصف الذكر الذي كفروا به لتفظيع الفعلة وتبشيعها :

﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حيكم حميد ﴾ . .

(265/683)

وأنى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب . وهو صادر من الله الحق . يصدع بالحق . ويتصل بالحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض ؟

وأنى يأتيه الباطل وهو عزيز . محفوظ بأمر الله الذي تكفل بحفظه فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ والمتدبر لهذا القرآن يجد فيه ذلك الحق الذي نزل به ، والذي نزل ليقره . يجده في روحه ويجده في نصه . يجده في بساطة ويسر . حقاً مطمئناً فطرياً ، يخاطب أعماق الفطرة ، ويطبعها ويؤثر فيها التأثير العجيب .

وهو ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ . . والحكمة ظاهرة في بنائه ، وفي توجيهه ، وفي طريقة نزوله ، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق . والله الذي نزله خليق بالحمد . وفي القرآن ما يستجيش القلب لحمده الكثير .

ثم يربط السياق بين القرآن وسائر الوحي قبله ؛ وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الرسل قبله . ويجمع أسرة النبوة كلها في ندوة واحدة تتلقى من ربها حديثاً واحداً ،

ترتبط به أرواحها وقلوبها ، وتتصل به طريقها ودعوتها ؛ ويحس المسلم الأخير أنه فرع من شجر وارفة عميقة الجذور ، وعضو من أسرة عريقة قديمة التاريخ :

﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ . .

إنه وحي واحد ، ورسالة واحدة ، وعقيدة واحدة . وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية ، وتكذيب واحد ، واعتراضات واحدة . . ثم هي بعد ذلك وشيجة واحدة ، وشجرة واحدة ، وأسرة واحدة ، وآلام واحدة ، وتجارب واحدة ، وهدف في نهاية الأمر واحد ، وطريق واصل ممدود .

أي شعور بالأنس ، والقوة ، والصبر ، والتصميم . توحيه هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة ، السالكين في طريق سار فيها من قبل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؟

(266/683)

وأي شعور بالكرامه والاعتزاز والاستعلاء على مصاعب الطريق وعثرتها وأشواكها وعقباتها ، وصاحب الدعوة يمضي وهو يشعر أن أسلافه في هذا الطريق هم تلك العصبة المختارة من بني البشر أجمعين ؟

إنها حقيقة : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ .

. ولكن أي آثار هائلة عميقة ينشئها استقرار هذه الحقيقة في نفوس المؤمنين ؟

وهذا ما يصنعه هذا القرآن ، وهو يقرر مثل هذه الحقيقة الضخمة ويزرعها في القلوب .

ومما قيل للرسل وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل :

﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ . .

ذلك كي تستقيم نفس المؤمن وتتوازن . فيطمع في رحمة الله ومغفرته فلا ييأس منها أبداً .

ويحذر عقاب الله ويخشاه فلا يغفل عنه أبداً .

إنه التوازن طابع الإسلام الأصيل .

ثم يذكرهم بنعمة الله عليهم أن جعل هذا القرآن عربياً بلسانهم ؛ كما يشير إلى طريقتهم في العنت والإلحاد والجدل والتحريف :

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته ! أأعجمي وعربي ؟ ﴾ . .

فهم لا يصغون إليه عربياً ، وهم يخافون منه لأنه عربي يخاطب فطرة العرب بلسانهم .

فيقولون : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . ولو جعله الله قرآناً أعجمياً لاعترضوا عليه أيضاً ، وقالوا لولا جاء عربياً فصيحاً مفصلاً دقيقاً ! ولو جعل بعضه أعجمياً وبعضه عربياً لاعترضوا كذلك وقالوا أأعجمي وعربي ؟ ! فهو المراء والجدل والإلحاد .

والحقيقة التي تخلص من وراء هذا الجدل حول الشكل ، هي أن هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء ، فقلوب المؤمنين هي التي تدرك طبيعته وحقيقته ، فتهتدي به وتشتفي . فأما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة لا تخالطها بشاشة هذا الكتاب ، فهو وقر في آذانهم ، وعمىً في قلوبهم . وهم لا يتبينون شيئاً . لأنهم بعيدون جداً عن طبيعة هذا الكتاب وهواتفه :

﴿ قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمىً ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ . .

(267/683)

ويجد الإنسان مصداق هذا القول في كل زمان وفي كل بيئة . فناس يفعل هذا القرآن في نفوسهم فينشئها إنشاء ، ويحييها إحياء ؛ ويصنع بها ومنها العظائم في ذاتها وفيما حولها . وناس يثقل هذا القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم ، ولا يزيدهم إلا صمماً وعمى . وما تغير القرآن . ولكن تغيرت القلوب . وصدق الله العظيم .

ويشير إلى موسى وكتابه واختلاف قومه في هذا الكتاب . يشير إليه نموذجاً للرسل الذين ورد ذكرهم من قبل إجمالاً . وقد أجل الله حكمه في اختلافهم ، وسبقت كلمته أن يكون

الفصل في هذا كله في يوم الفصل العظيم :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ، وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ . .

وكذلك سبقت كلمة ربك أن يدع الفصل في قضية الرسالة الأخيرة إلى ذلك اليوم الموعود .

وأن يدع الناس يعملون ، ثم يجازون على ما يعملون :

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

.

لقد جاءت هذه الرسالة تعلن رشد البشرية ، وتضع على كاهلها عبء الاختيار ؛ وتعلن مبدأ التبعة الفردية . ولمن شاء أن يختار ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ . .

وبمناسبة الإشارة إلى الأجل المسمى ، وتقرير عدل الله فيه ، يقرر أن أمر الساعة وعلمها إلى الله وحده ، ويصور علم الله في بعض مجالاته صورة موحية تمس أعماق القلوب . وذلك في الطريق إلى عرض مشهد من مشاهد القيامة يسأل فيه المشركون ويجيبون :

﴿ إليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . ويوم يناديهم : أين شركائي ؟ قالوا : آذناك ما منا من شهيد . وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا ما لهم من محيص ﴾ . .

والساعة غيب غائر في ضمير المجهول . والثمرات في أكمامها سر غير منظور ، والحمل في الأرحام غيب كذلك مستور . وكلها في علم الله ، وعلم الله بها محيط . ويذهب القلب يتتبع الثمرات في أكمامها ، والأجنة في أرحامها . يذهب في جنبات الأرض كلها يرقب الأكمام التي لا تحصى ؛ ويتصور الأجنة التي لا يحصرها خيال ! وترتسم في الضمير صورة لعلم الله بقدر ما يطيق الضمير البشري أن يتصور من الحقيقة التي ليس لها حدود .

ويتصور القطيع الضال من البشر ، واقفاً أمام هذا العلم الذي لا يند عنه خاف ولا مستور :

﴿ ويوم يناديهم : أين شركائي ؟ ﴾ . .

هنا في هذا اليوم الذي لا يجدي فيه جدال ، ولا تحريف للكلم ولا محال . فماذا هم قائلون ؟

﴿ قالوا : أذناك ما منا من شهيد ؟ ﴾ . .

أعلمناك ، أن ليس منا اليوم من يشهد أنك لك شريك !

﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا ما لهم من محيص ﴾ . .

فما عادوا يعرفون شيئاً عن دعواهم السابقة . ووقع في نفوسهم أن ليس لهم مخرج مما هم فيه وتلك أمارة الكرب المذهل ، الذي ينسي الإنسان ماضيه كله ؛ فلا يذكر إلا ما هو فيه . ذلك هو اليوم الذي لا يحتاطون له ، ولا يحترسون منه ، مع شدة حرص الإنسان على الخير ، وجزعه من الضر . . وهنا يصور لهم نفوسهم عارية من كل رداء ، مكشوفة من كل ستار ،

عاطلة من كل تمويه :

﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ، ليقولن : هذا لي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى . فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ . .

إنه رسم دقيق صادق للنفس البشرية ، التي لا تهتدي بهدى الله ، فتستقيم على طريق . . رسم يصور تقلبها ، وضعفها ، ومراءها ، وحبها للخير ، وجحودها للنعمة ، واغترارها بالسراء ، وجزعها من الضراء .

. رسم دقيق عجيب . .

(269/683)

هذا الإنسان لا يسأم من دعاء الخير . فهو ملح فيه ، مكرر له ، يطلب الخير لنفسه ولا يمل طلبه . وإن مسه الشر . مجرد مس . فقد الأمل والرجاء ؛ وظن أن لا مخرج له ولا فرج ، وتقطعت به الأسباب ؛ وضاق صدره وكبر همه ؛ ويئس من رحمة الله وقنط من رعايته . ذلك أن ثقته بربه قليلة ، ورباطه به ضعيف !

وهذا الإنسان إذا أذاقه الله منه رحمة بعد ذلك الضر ، استخفته النعمة فنسي الشكر ، واستطاره الرخاء فغفل عن مصدره . وقال : هذا لي . نلته باستحقاقي وهو دائم علي ! ونسي الآخرة واستبعد أن تكون ؛ ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ . . وانتفخ في عين نفسه فراح يتألى على الله ، ويحسب لنفسه مقاماً عنده ليس له ، وهو ينكر الآخرة فيكفر بالله . ومع هذا يظن أنه لو رجع إليه كانت له وجاهته عنده ! ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ ! وهو غرور . . عندئذ يجيء التهديد في موضعه لهذا الغرور :

﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ . .

وهذا الإنسان إذا أنعم الله عليه : استعظم وطغى . وأعرض ونأى بجانبه . فأما إذا مسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ، ويصغر ويتضاءل ، ويتضرع ولا يمل الضراعة . فهو ذو دعاء عريض !

أية دقة ، وأي تسجيل للصغيرة في نفس الإنسان والكبيرة ! إنه خالقه الذي يصفه . خالقه الذي يعرف دروب نفسه . ويعرف أنها تظل تدور في هذه الدروب المنحنية ، إلا أن تهتدي إلى الطريق المستقيم . . فتستقيم . .

وأمام هذه النفس العارية من كل رداء ، المكشوفة من كل ستار ، يسألهم : فماذا أنتم إذن صانعون إن كان هذا الذي تكذبون به ، من عند الله ، وكان هذا الوعيد حقاً ؛ وكنتم تعرضون أنفسكم لعاقبة التكذيب والشقاق :

﴿ قل : أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ؟ من أضل ممن هو في شقاق بعيد ؟ ﴾ . .

إنه احتمال يستحق الاحتياط . فماذا أخذوا لأنفسهم من وسائل الاحتياط ؟ !

ويدعهم بعدئذ يفكرون ويحسبون . ويتجه إلى الكون العريض . يكشف عن بعض ما قدر فيه وفي ذوات أنفسهم من مقادير :

(270/683)

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم . ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ . .

إنه الإيقاع الأخير . وإنه لإيقاع كبير . .

إنه وعد الله لعباده بني الإنسان أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم على السواء . وعدهم أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . هذا الدين . وهذا الكتاب . وهذا المنهج . وهذا القول الذي يقوله لهم . ومن أصدق من الله حديثاً ؟

ولقد صدقهم الله وعده ؛ فكشف لهم عن آياته في الآفاق في خلال القرون الأربعة عشر التي تلت هذا الوعد ؛ وكشف لهم عن آياته في أنفسهم .

(271/683)

وما يزال يكشف لهم في كل يوم عن جديد .

وينظر الإنسان فيرى البشر قد كشفوا كثيرا جدا منذ ذلك الحين . فقد تفتحت لهم الآفاق . وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذي شاءه الله .

لقد عرفوا أشياء كثيرة . لو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير .

عرفوا منذ ذلك الحين أن أرضهم التي كانوا يظنونها مركز الكون . . إن هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس . وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة منها في الكون مئات الملايين . وعرفوا طبيعة أرضهم وطبيعة شمسهم – وربما طبيعة كونهم , إن صح ما عرفوه !

(272/683)

وعرفوا الكثير عن مادة هذا الكون الذي يعيشون فيه . إن صح أن هناك مادة . عرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة . وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع . وعرفوا إذن أن الكون كله من إشعاع . . في صور شتى: هي التي تجعل منه هذه الأشكال والأحجام !

وعرفوا الكثير عن كوكبهم الأرضي الصغير . عرفوا أنه كرة أو كالكرة . وعرفوا أنه يدور حول نفسه وحول الشمس . وعرفوا قاراته ومحيطاته وأنهاره . وكشفوا عن شيء من باطنه . وعرفوا الكثير من المخبوء في جوف

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (54)

هذا الكوكب من الأقوات . والمنثور في جوه من هذه الأقوات أيضاً !

وعرفوا وحدة النواميس التي تربط كوكبهم بالكون الكبير , وتصرف هذا الكون الكبير .

ومنهم من اهتدى فارتقى من معرفة النواميس إلى معرفة خالق النواميس . ومنهم من انحرف فوقف عن ظاهر العلم لا يتعداه . ولكن البشرية بعد الضلال والشرود من جراء العلم , قد أخذت عن طريق العلم تثوب , وتعرف أنه الحق عن هذا الطريق .

ولم تكن فتوح العلم والمعرفة في أغوار النفس بأقل منها في جسم الكون . فقد عرفوا عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير . عرفوا عن تكوينه وتركيبه ووظائفه وأمراضه , وغذائه وتمثيله , وعرفوا عن أسرار عمله وحركته , ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله .

وعرفوا عن النفس البشرية شيئاً . . إنه لا يبلغ ما عرفوه عن الجسم . لأن العناية كانت متجهة بشدة إلى مادة هذا الإنسان وآلية جسمه أكثر مما كانت متجهة إلى عقله وروحه .

ولكن أشياء قد عرفت تشير إلى فتوح ستجيء . .

وما يزال الإنسان في الطريق !

(273/683)

ووعد الله ما يزال قائماً : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) . .

والشطر الأخير من الوعد قد بانت طلائعه منذ مطلع هذا القرن بشكل ملحوظ . فموكب الإيمان يتجمع من فجاج شتى . وعن طريق العلم المادي وحده يفد كثيرون ! وهناك أفواج وأفواج تتجمع من بعيد . ذلك على الرغم من موجة الإلحاد الطاغية التي كادت تغمر هذا الكوكب في الماضي . ولكن هذه الموجة تنحسر الآن . تنحسر – على الرغم من جميع الظواهر المخالفة – وقد لا يتم تمام هذا القرن العشرين الذي نحن فيه , حتى يتم انحسارها أو يكاد إن شاء الله . وحتى يحق وعد الله الذي لا بد أن يكون:

أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ? . .

وهو الذي أعطى وعده عن علم وعن شهود .

(ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم) . .

ومن ثم يقع ما يقع منهم , بسبب هذا الشك في اللقاء . وهو أكيد .

(ألا إنه بكل شيء محيط) . .

فأين يذهبون عن لقائه وهو بكل شيء محيط ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3124.3131 ﴾

(274/683)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) ﴾

قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتقاموا ﴾ : ثم لتراخي الرتبة في الفضيلة .

قوله : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ : يجوزُ في " أَنْ " أن تكونَ المخففةَ ، أو المفسِّرةَ ، أو الناصبةَ . و " لا " ناهيةٌ على الوجهين الأوَّلين ، ونافيةٌ على الثالث . وقد تقدَّم ما في ذلك من الإشكالِ ، والتقديرُ : بأنْ لا تَخافوا أي : بانتفاءِ الخَوْفِ . وقال أبو البقاء : " التقديرُ بأَنْ لا تَخافوا ، أو قائلين : أن لا تخافوا ، فعلى الأولِ هو حالٌ أي : نَزَلوا بقولِهم : لا تخافوا ، وعلى الثاني الحالُ محذوفةٌ " . قلت يعني أنَّ الباءَ المقدرةَ حاليةٌ ، فالحالُ غيرُ محذوفةٍ ، وعلى الثاني الحالُ هو

القولُ المقدَّر . وفيه تسامحٌ ، وإلاَّ فالحالُ محذوفةٌ في الموضعَيْن ، وكما قام المقولُ مَقامَ الحالِ كذلك قام الجارُّ مَقامَها .

وقرأ عبدُ الله " لا تَخافوا " بإسقاط " أنْ " ، وذلك على إضمارِ القول أي : يقولون : لا تَخافوا .

نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)

قوله : ﴿ نُزُلاً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه منصوبٌ على الحالِ من الموصولِ ، أو من عائدِه . والمراد بالنُزُلِ الرزقُ المُعَدُّ للنازِل ، كأنه قيل : ولكم فيها الذي تَدَّعُونه حال كونِه مُعَدًّا . الثاني : أنَّه حالٌ مِنْ فاعل " تَدَّعُوْن " ، أو من الضمير في " لكم " على أَنْ يكونَ " نُزُلاً " جمعَ نازِل كصابِر وصُبُر ، وشارِف وشُرُف . الثالث : أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ مصدرَ نَزَل النزولُ لا النُّزُل . وقيل : هو مصدرُ أَنْزَل .

(275/683)

قوله : " مِنْ غَفَورٍ " يجوزُ تعلُّقه بمحذوفٍ على أنه صفةٌ لـ " نُزُلاً " ، وأَنْ يتعلَّقَ بتَدَّعون ، أي : تَطْلبونه مِنْ جهةِ غفورٍ رحيمٍ ، وأَنْ يتعلَّقَ بما تعلَّقَ الظرفُ في " لكم " من الاستقرارِ أي : استقرَّ لكم مِنْ جهةِ غفورٍ رحيم . قال أبو البقاء : " فيكونُ حالاً مِنْ " ما " . قلت : وهذا

البناءُ منه ليس بواضحٍ ، بل هو متعلّقٌ بالاستقرارِ فَضْلةً كسائرِ الفضلاتِ ، وليس حالاً مِنْ "ما" .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)

قوله : ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي ﴾ : العامَّةُ على "إنني" بنونين ، وابن أبي عبلةَ وابنُ نوح بنونٍ واحدةٍ .

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)

قوله : ﴿ وَلَا السيئة ﴾ : في "لا" هذه وجهان ، أحدهما ، أنها زائدةٌ للتوكيدِ ، كقوله : ﴿ وَلَا الظل وَلَا الحرور ﴾ [فاطر : 21] وكقوله : ﴿ وَلَا المسياء ﴾ [غافر : 58] ؛ لأنَّ "استوى" لا يكتفي بواحدٍ . والثاني : أنها مؤسِّسَةٌ غيرُ مؤكِّدةٍ ، إذ المرادُ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ الجنسُ أي : لا تَسْتوي الحسناتُ في أنفسِها ، فإنها متفاوتةٌ ولا تستوي السيئاتُ أيضاً فرُبَّ واحدةٍ أعظمُ مِنْ أخرى ، وهو مأخوذٌ من كلامِ الزمخشري . وقال الشيخُ : " فإنْ أَخَذْتَ الحسنةَ والسيئةَ جنساً لم تكنْ زيادتُها كزيادتِها في الوجهِ الذي قبلَ هذا " .

قلت : فقد جَعَلها في المعنى الثاني زائدةً . وفيه نظرٌ لما تَقَدَّم .

قوله : "كأَنَّه وليٌّ" في هذه الجملةِ التشبيهيةِ وجهان ، أحدُهما : أنَّها في محلِّ نصبٍ على الحال ، والموصولُ مبتدأٌ ، و "إذا" التي للمفاجأةِ خبرُه . والعاملُ في هذا الظرفِ من الاستقرارِ هو العاملُ في هذه الحالِ ، ومَحَطُّ الفائدةِ في هذا الكلامِ هي الحالُ ، والتقدير : فبالحضرة المُعادي مُشْبِهاً القريبَ الشَّفوقَ . والثاني : أن الموصولَ مبتدأٌ أيضاً ، والجملةُ بعده خبرُه ، و "إذا" معمولةٌ لمعنى التشبيه ، والظرفُ يتقدَّمُ على عامِله المعنويِّ . هذا إن قيل : إنها ظرفٌ ، وإن قيل : إنها حرف فلا عاملَ .

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

قوله : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ : العامَّةُ على "يُلَقَّاها" من التَّلْقِيَةِ . وابنُ كثيرٍ في روايةٍ وطلحة بن مصرف "يُلاقاها" مِن الملاقاةِ والضميرُ للخَصْلَة ، أو الكلمةِ أو الجنةِ أو لشهادةِ التوحيدِ .

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)

قوله : ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ : في هذا الضميرِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : / أنه يعودُ على الأربعةِ المتعاطفةِ . وفي مجيءِ الضميرِ كضميرِ الإناثِ – كما قال الزمخشري – هو أنَّ جَمْعَ ما لا يَعْقِلُ حكمُه حكمُ الأنثى أو الإناث نحو : " الأقلامُ بَرَيْتُها وبَرَيْتُهنَّ " . وناقشه الشيخ من حيث إنه لم يُفَرِّقْ بين جمعِ القلةِ والكثرةِ في ذلك ؛ لأنَّ الأفصحَ في جمعِ القلةِ أَنْ يُعامَلَ معاملةَ الإناثِ ، وفي جمع الكثرةِ أَنْ يُعامَلَ معاملةَ الأنثى فالأفْصحُ أَنْ يُقال : الأجذاعُ كَسَرْتُهُنَّ ، والجذوعُ كَسَرْتُها . والذي تقدَّمَ في هذه الآيةِ ليس بجمعِ قلةٍ أعني بلفظٍ واحدٍ ، ولكنه ذكر أربعةً متعاطفةً فتنزَّلَتْ منزلةَ الجمعِ المعبَّرِ به عنها بلفظٍ واحد . قلت : والزمخشري ليس في مقام بيانِ الفصيح والأفصح ، بل في مقامِ كيفيةِ مجيء الضميرِ ضميرَ إناث بعد تقدُّم ثلاثةِ أشياءَ مذكَّراتٍ وواحدٍ مؤنثٍ ، فالقاعدةُ تغليبُ المذكرِ على المؤنثِ ، أو لَمَّا قال : " ومِنْ آياته " كُنَّ في معنى الآياتِ فقيل : خلقهنَّ ، ذكره الزمخشريُّ أيضاً أنه يعود على لفظ الآياتِ . الثالث : أنه يعودُ على الشمس والقمر ؛ لأنَّ الاثنين جمعٌ ، والجمعُ مؤنثٌ ، ولقولهم : شموس وأقمار .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41)

قوله : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ : في خبرها ستةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه مذكورٌ وهو قولُه : " أولئك ينادَوْن " . وقد سُئِل بلال بن أبي بردة عن ذلك في مَحْكِيَّته فقال : لا أجدُ لها نفاذاً . فقال له أبو عمرو بن العلاء : إنَّه منك لقريبٌ ، أولئك ينادَوْن . وقد اسْتُبْعِدَ هذا من

وجهَيْن ، أحدُهما : كثرةُ الفواصلِ . والثاني : تقدُّمُ مَنْ تَصِحُّ الإشارةُ إليه بقوله : " أولئك " ، وهو قولُه : ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، واسمُ الإشارةِ يعودُ على أقربِ مذكورٍ .

(278/683)

والثاني : أنه محذوفٌ لفَهْمِ المعنى وقُدِّر : مُعَذَّبون ، أو مُهْلَكون ، أو معانِدون . وقال الكسائي : " سَدَّ مَسَدَّه ما تقدَّم من الكلامِ قبلَ " إنَّ " وهو قولُه : ﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار ﴾ . قلت : يعني في الدلالةِ عليه والتقديرُ : يُخَلَّدون في النارِ . وسأل عيسى بن عمر عمرَو بن عبيدٍ عن ذلك فقال : معناه في التفسير : إنَّ الذين كفروا بالذكْرِ لَمَّا جاءهم كفروا به . فقدَّر الخبرَ مِنْ جنسِ الصلةِ . وفيه نظرٌ ؛ من حيث اتحادُ الخبرِ والمخبرِ عنه في المعنى من غيرِ زيادةِ فائدةٍ نحو : " سيدُ الجاريةِ مالكُها " .

الثالث : أنَّ " الذين " الثانيةَ بدلٌ مِنْ " إنَّ الذين " الأولى ، والمحكومُ به على البدلِ محكومٌ به على المبدلِ منه فيلزَمُ أَنْ يكونَ الخبرُ ﴿ لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ . وهو منتزَعٌ من كلامِ الزمخشري .

الرابع : أنَّ الخبرَ قولُه : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل ﴾ والعائدُ محذوفٌ تقديره : لا يأتيه الباطلُ منهم نحو : السَّمْنُ مَنَوان بدرهم أي : مَنَوان منه . أو تكون أل عوضاً من الضمير في رأيِ

الكوفيين تقديرُه : إنَّ الذين كفروا بالذِّكر لا يأتيه باطلُهم .

الخامسُ : أنَّ الخبرَ قولُه : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ ، والعائدُ محذوفٌ أيضاً تقديرُه : إنَّ الذين كفروا بالذكرِ ما يُقال لك في شأنِهم إلاَّ ما قد قيل للرسلِ مِنْ قبلِك . وهذان الوجهان ذهب إليهما الشيخُ .

السادس : ذهب إليه بعضُ الكوفيين أنه قولُه : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ وهذا غيرُ متعقَّلٍ .

(279/683)

والجملةُ مِنْ قوله : " وإنَّه لكتابٌ " حاليةٌ ، و ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل ﴾ صفةٌ لـ " كتاب " . و " تنزيلٌ " خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، أو صفةٌ لـ " كتابٌ " على أنَّ " لا يأتيه " معترِضٌ أو صفةٌ كما تقدَّم على رأي مَنْ يجوِّزُ تقديمَ غيرِ الصريح من الصفاتِ على الصريح . وتقدَّم تحقيقُه في المائدة . و " مِنْ حكيمٍ " صفةٌ لـ " تَنْزيلٌ " أو متعلقٌ به . و " الباطلُ " اسمُ فاعلٍ . وقيل : مصدرٌ كالعافية والعاقبة .

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (43)

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ : قيل : هو مُفَسِّر للمقولِ كأنه قيل : قيل للرسل : إنَّ ربَّك

لَذو/ . وقيل : هو مستأنفٌ .

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44)

قوله : ﴿ ءَاعْجَمِيٌّ ﴾ : قرأ الأخوان وأبو بكر بتحقيقِ الهمزة ، وهشام بإسقاطِ الأولى . والباقون بتسهيلِ الثانية بينَ بينَ . وأمَّا المدُّ فقد عُرِف حكمُه مِنْ قولِه : " أأنذرْتَهم " في أول هذا الموضوع . فمَنْ استفْهَم قال : معناه أكتابٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ . وقيل : ومُرْسَلٌ إليه عَربيٌّ . وقيل : معناه أبَعْضُهُ أعجميٌّ وبعضُه عربيٌّ . ومَنْ لم يُثْبِتْ همزةَ استفهامٍ فيُحتمل أنه حَذَفها لفظاً وأرادها معنًى . وفيه توافُقُ القراءتين . إلاَّ أنَّ ذلك لا يجوز عند الجمهور ، إلاَّ إنْ كان في الكلام " أم " نحو :

3960 . . . . . بسَبْعٍ

رَمَيْنَ الجَمْرَ أم بثمان

(280/683)

فإنْ لم تكنْ " أم " لم يَجُزْ إلاَّ عند الأخفش . وتقدَّم ما فيه ، ويحتمل أَنْ يكونَ جعله خبراً مَحْضاً ويكونُ معناه : هَلاَّ فُصِّلَتْ آياتُه فكان بعضُها أعجمياً تفهمُه العجمُ ، وبعضُها عربياً يفهمُه العربُ .

والأعجميُّ مَنْ لا يُفْصِحُ ، وإن كان مِنَ العرب ، وهو منسوبٌ إلى صفته كأحمريّ ودَوَّاريّ ، فالياءُ فيه للمبالغةِ في الوصفِ وليس النسبُ منه حقيقياً . وقال الرازيُّ في لوامحه : " فهو كياء كُرْسِيّ وبُخْتِيّ " . وفرَّق الشيخُ بينهما فقال : " وليسَتْ كياءِ كُرْسِيّ فإن كرسيّ وبُخْتيّ بُنِيَتِ الكلمةُ عليها بخلافِ ياء " أعجميّ " فإنهم يقولون : رجل أَعْجم وأَعْجميّ " .

وقرأ عمرو بن ميمون " أَعَجَمِيٌّ " بفتح العين وهو منسوبٌ إلى العجم ، والياءُ فيه للنسَبِ حقيقةً يُقال : رجل أعجميٌّ وإنْ كان فصيحاً . وقد تقدَّم الكلامُ في الفرقِ بينهما في سورةِ الشعراء .

وفي رفع " أَعْجميّ " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه مبتدأٌ ، والخبرُ محذوف تقديرُه ، أعجميٌّ وعربيٌّ يَسْتويان . والثاني : أنه خبرُ مبتدأ محذوف أي : هو ، أي : القرآن أعجميٌّ والمرسلُ به عربيٌّ . والثالث : أنه فاعلُ فعلٍ مضمرٍ أي : أيَسْتوي أعجميٌّ وعربيٌّ . وهذا ضعيفٌ ؛ إذ لا يُحذف الفعلُ إلاَّ في مواضعَ بَيَّنْتُها غيرَ مرةٍ .

قوله : ﴿ والذين لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أَنْ يكونَ مبتدأً ، و " في آذانِهم " خبرُه و " وَقْرٌ " فاعلٌ ، أو " في آذانهم " خبرٌ مقدم " ووقرٌ " مبتدأٌ مؤخر ، والجملةُ خبرُ الأول . الثاني : أنَّ وَقْراً خبرُ مبتدأ مضمرٍ . والجملةُ خبرُ الأولِ والتقديرُ : والذين لاَيُؤْمنون هو وَقْرٌ في آذانهم لَمَّا أَخْبر عنه بأنه هدىً لأولئك ، أخبر عنه أنه وَقْرٌ في آذان هؤلاءِ وَعَمَىً عليهم . قال معناه الزمخشري . ولا حاجةَ إلى الإِضمار مع تمام الكلامِ بدونه . الثالث : أن يكونَ ﴿ الذين لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ عطفاً على " الذين آمنوا " ، و " وَقْرٌ " عطفٌ على " هدىً " وهذا من بابِ العطفِ على معمولَيْ عامِلَيْنِ . وفيه مذاهبُ تقدَّم تحريرُها .

قوله : " عَمَىً " العامَّةُ على فتحِ الميم المنونةِ وهو مصدرٌ ل عَمِي يَعْمَى نحو : صَدِي يَصْدَى صَدَىً ، وهَوِي يَهْوَى هَوَىً .

وقرأ ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وجماعة " عَمٍ " بكسرِها منونةً اسماً منقوصاً وُصِفَ بذلك مجازاً . وقرأ عمرو بن دينار ورُوِيت عن ابن عباس " عَمِيَ " بكسر الميم وفتح الياء فعلاً ماضياً . وفي الضمير وجهان أظهرُهما : أنه للقرآن . والثاني : أنه للوَقْر والمعنى يأباه ، و " في آذانهم " - إنْ لم تجعَلْه خبراً - متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ منه ؛ لأنه صفةٌ في الأصلِ ولا يتعلَّق به ، لأَنَّه مصدرٌ ، فلا يتقدَّم معمولُه عليه وقوله : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ كذلك في قراءة العامَّةِ ، وأمَّا في القراءتين المتقدمتين فتتعلَّق " على " بما بعده ؛ إذ ليس

بمصدر .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)

قوله : ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّقَ بفعلٍ مقدر أي : فلنفسِه عملُه ، وأَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : فالعملُ الصالحُ لنفسِه . وقوله " فعليها " مثلُه . /

(282/683)

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47)

قوله : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ ﴾ : " ما " هذه يجوز أَنْ تكونَ نافيةً وهو الظاهرُ ، وأَنْ تكونَ موصولةً ، جَوَّز ذلك أبو البقاء ، ولم يُبَيِّنْ وجهَه . وبيانُه أنها تكونُ مجرورةَ المحلِّ عطفاً على الساعة أي : عِلْمُ الساعةِ وعِلْمُ التي تخرج ، و " مِنْ ثمرات " على هذا حالٌ ، أو تكون " مِنْ " للبيان . و " مِنْ " الثانية لابتداء الغاية . وأما " ما " الثانيةُ فنافيةٌ فقط . قال أبو البقاء : " لأَنَّه عَطَفَ عليها " ولا تَضَعُ " ، ثم نقض النفيَ ب " إلاَّ " ، ولو كانَتْ بمعنى الذي معطوفةً على " الساعة " لم يَجُز ذلك " .

وقرأ نافع وابن عامر " ثمرات " ويُقَوِّيه أنها رُسِمَتْ بالتاءِ المطوطة . والباقون " ثمرة "

بالإِفرادِ والمرادُ بها الجنسُ . فإنْ كانَتْ " ما " نافيةً كانَتْ " مِنْ " مزيدةً في الفاعلِ ، وإنْ كانَتْ موصولةً كانت للبيانِ كما تقدَّم .

والأَكْمام : جمع كِمّ بكسرِ الكاف ، كذا ضبطه الزمخشري ، وهو ما يُغَطِّي الثمرةَ كجُفِّ الطَّلْعِ . وقال الراغب : " الكمُّ ما يُغَطِّي اليدَ من القميصِ ، وما يغطي الثمرة ، وجمعُه أَكْمام فهذا يدلُّ على أنه مضموم الكاف ، إذ جعله مشتركاً بين كُمِّ القيمصِ وكمِّ الثمرةِ . ولا خلافَ في كُمِّ القميصِ أنه بالضم ، فيجوز أَنْ يكونَ في وعاءِ الثمرةِ لغتان ، دون كُمِّ القميصِ ، جمعاً بين قولَيْهما . وأمَّا أَكِمَّة فواحدُه كِمام كأَزِمَّة وزِمام . وفتح ابن كثير ياءَ " شُركائيَ " .

قوله : ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ هذه الجملةُ المنفيةُ معلِّقةٌ لـ " آذَنَّاك " لأنها بمعنى أَعْلَمْناك قال :

(283/683)

3961 آذَنَّتْنا بِبَيْنِها أسماءُ . . . رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ

وتقدَّم لنا خلافٌ في تعليقِ أعلم . . . ، والصحيحُ وقوعُه سماعاً من العربِ . وجَوَّز أبو حاتمٍ أَنْ يوقف على " آذَنَّاك " وعلى " ظنُّوا " ويُبتدأَ بالنفي بعدَهما على سبيلِ الاستئناف . و " مِنَّا " خبرٌ مقدمٌ . و " مِنْ شهيد " مبتدأٌ . ويجوز أَنْ يكونَ " مِنْ شهيد " فاعلاً

بالجارّ قبلَه لاعتمادِه على النفي .

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)

قوله : ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ : كقوله : ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ من غيرِ فرقٍ .

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49)

قوله : ﴿ مِن دُعَآءِ الخير ﴾ : مصدرٌ مضافٌ لمفعولِه ، وفاعلُه محذوفٌ أي هو . وقرأ عبد الله " مِن دُعَآءِ بالخير " .

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50)

قوله : ﴿ لَيَقُولَنَّ هذا لِي ﴾ : جوابُ القسمِ لسَبْقِهِ الشرطَ ، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ ، كما عُرِف تقريرُه . وقال أبو البقاء : " ليقولَنَّ " جوابُ الشرطِ ، والفاءُ محذوفةٌ " . قلت : وهذا لا يجوزُ إلاَّ في شعرٍ كقولِه :

3962 مَنْ يَفْعلِ الحسناتِ اللَّهُ يَشْكُرُها . . . . . .

. . . . .

حتى إنَّ المبردَ يمنعُه في الشعر . ويَرْوي البيت : " فالرحمن يشكرُه " .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52)

قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : قد تقدَّم الكلامُ عليها مراراً . ومفعولُها الأولُ هنا محذوفٌ تقديرُه : أرأيتم أنفسَكم ، والثاني : هو الجملةُ الاستفهامية .

والآفاق جمع أُفُق وهو الناحيةُ . قال الشاعر :

3963 لو نالَ حيٌّ مِن الدنيا بمنزلةٍ . . . أُفْقَ السماءِ لنالَتْ كفُّه الأُفُقا

وهو كأَعْناق في عُنُق ، أُبْدِلَتْ همزتُه ألفاً . ونقل الراغب أنه يقال : أَفَق بفتحِ الهمزةِ والفاءِ ، فيكون كـ جَبَل وأَجْبال . وآفَقَ فلانٌ أي : ذهب في الآفاقِ . والآفِقُ : الذي بلغ نهايةَ الكرم تشبيهاً في ذلك بالذاهبِ في الآفاقِ . والنسَبُ إلى الأُفُقِ أُفَقيٌّ بفتحهما قلت : ويُحتمل أنه نسبه إلى المفتوح واسْتَغنوا بذلك عن النسبة إلى المضموم . وله نظائر .

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أن الباءَ مزيدةٌ في الفاعلِ ، وهذا هو الراجحُ . والمفعولُ محذوفٌ أي : أو لم يَكْفِكَ ربُّكَ . وفي قوله : ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وجهان ، أحدهما : أنه بدلٌ مِنْ " بربك " فيكون مرفوعَ المحلِّ مجرورَ اللفظِ

كمتبوعِه . والثاني : أنَّ الأصلَ بأنَّه ، ثم حَذَفَ الجارَّ فجرى الخلافُ . الثاني من الوجهين الأولين : أَنْ يكون " بربك " هو المفعولَ ، وأنه وما بعده هو الفاعل أي : أو لم يكْفِ ربُّك شهادتَه . وقُرئ ﴿ أَنَّهُ على كُلِّ ﴾ بالكسر ، وهو على إضمارِ القولِ ، أو على الاستئناف .

أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن " في مُرْيَة " بضم الميم ، وقد تقدم أنَّها لغةٌ في المكسورةِ الميم . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 525.536 ﴾

(285/683)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن كلمات القوم في الآيات : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت : 8] فيه إشارة إلى أن أجر المؤمن الغير العامل ممنون أي منقوص بالنسبة إلى أجر المؤمن العامل وأجر هذا العامل على الأعمال البدنية كالصلاة والحج الجنة ، وعلى الأعمال القلبية كالرضا والتوكل الشوق والمحبة وصدق الطلب ، وعلى الأعمال الروحانية كالتوجه

إلى الله تعالى كشف الأسرار وشهود المعاني والاستئناس بالله تعالى والاستيحاش من الخلق والكرامات ، وعلى أعمال الإسرار كالإعراض عن السوي بالكلية دوام التجلي ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض ﴾ أي أرض البشرية ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ يومي الهوى والطبيعة ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ [فصلت : 9] من الهوى والطبيعة ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ العقول الإنسانية ﴿ وبارك فِيهَا ﴾ بالحواس الخمس ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ [فصلت : 10] أقواتها من القوى البشرية ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء ﴾ سماء القلب ﴿ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] هيولى إلهية ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ هي الأطوار السبعة للقلب فالأول : محل الوسوسة والثاني : مظهر الهواجس والثالث : معدن الرؤية ويسمى الفؤاد والرابع : منبع الحكمة ويسمى القلب والخامس : مرآة الغيب ويسمى السويداء والسادس : مثوى المحبة ويسمى الشغاف والسابع : مورد التجلي ومركز الإسرار ومهبط الأنوار ويسمى الحبة ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ يومي الروح الإنساني والإلهام ﴿ وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [فصلت : 12] وهي أنوار الإذكار والطاعات ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ﴾ يوم خوطبوا بألست بربكم ؟ ﴿ ثُمَّ استقاموا ﴾ على إقرارهم لما خرجوا إلى عالم الصور ولم ينحرفوا عن ذلك كالمنافقين والكافرين ، وذكر أن الاستقامة متفاوتة فاستقامة العوام في الظاهر بالأوامر والنواهي وفي الباطن بالإيمان واستقامة

الخواص في الظاهر بالرغبة عن الدنيا وفي الباطن بالرغبة عن الجنان شوقاً إلى الرحمن واستقامة خواص الخواص في الظاهر برعاية حقوق المبايعة بتسليم النفس والمال وفي الباطن بالفناء والبقاء ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ تنزلاً متفاوتاً حسب تفاوت مراتبهم ، وعن بعض أئمة أهل البيت أن الملائكة لتزاحمنا بالركب أو ما هذا معناه ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] هي أيضاً متفاوتة فمنهم من يبشر بالجنة المعروفة ومنهم من يبشر بجنة الوصال ورؤية الملك المتعال ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ بترك ما سواه ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ لئلا يخالف حاله قاله ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ المسلمين ﴾

[فصلت : 33] المنقادين لحكمه تعالى الراضين بقضائه وقدره ، وفيه إشارة إلى صفات الشيخ المرشد وما ينبغي أن يكون عليه ويحق أن يقال في كثير من المتصدين للإرشاد في هذا الزمان المتلاطمة أمواجه بالفساد :

خلت الرقاع من الرخاخ . . .

وتفرزنت فيها البيادق

وتصاهلت عرج الحمير . . .

وذاك من عدم السوابق

﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الحسنة ﴾ وهي التوجه إلى الله تعالى بصدق الطلب وخلوص المحبة ﴿ وَلاَ السيئة ﴾ وهي طلب السوى والرضا بالدون ﴿ ادفع بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وهي طلب الله تعالى طلب ما سواه سبحانه ﴿ فَإِذَا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ ﴾ وهو النفس الأمارة بالسوء ﴿ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] لتزكي النفس عن صفاتها الذميمة وانفطامها عن المخالفات القبيحة ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ ﴾ لتميل إلى ما يهوى ﴿ فاستعذ بالله ﴾ [فصلت : 36] وارجع إليه سبحانه لئلا يؤثر فيك نزغه ، وفيه إشارة إلى أنه لا ينبغي الأمن من المكر والغفلة عن الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِى ءاياتنا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت : 40] فيه إشارة إلى سوء المنكرين على الأولياء فإنهم من آيات الله تعالى والإنكار من الإلحاد نسأل الله تعالى العفو والعافية ﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي القرآن ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ هُدًى وَشِفَاء ﴾ [فصلت : 44] على حسب مراتبهم فمنهم من يهديه إلى شهود الملك العلام فعن الصادق على آبائه وعليه السلام لقد تجلى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الافاق وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ فيه إشارة إلى أن الخلق لا يرون الآيات إلا بإراءته عز وجل وهي كشف الحجب ليظهر أن الأعيان ما

شمت رائحة الوجود ولا تشمه أبداً وأنه عز وجل هو الأول والآخر والظاهر والباطن كان الله ولا شيء معه وهو سبحانه الآن على ما عليه كان وإليه الإشارة عندهم بقوله تعالى : ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت : 53] ومن هنا قال الشيخ الأكبر قدس سره :

ما آدم في الكون ما ابليس . . .

ما ملك سليمان وما بلقيس

الكل إشارة وأنت المعنى . . .

يا من هو للقلوب مغناطيس

(288/683)

وأكثر كلامه قدس سره من هذا القبيل بل هو أم وحدة الوجود وأبوها وابنها وأخوها ، وإياك أن تقول كما قال ذلك الأجل حتى تصل بتوفيق الله تعالى إلى ما إليه وصل والله عز وجل الهادي إلى سواء السبيل ، تم الكلام على السورة والحمد لله على جزيل نعمائه والصلاة والسلام على رسوله محمد مظهر أسمائه وعلى آله وأصحابه وسائر أتباعه وأحبائه وصلاة وسلاماً باقيين إلى يوم لقائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة فصّلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (2) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4)

وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5)

الإعراب :

(تنزيل) مبتدأ مرفوع خبره كتاب " 1 " ، (من الرحمن) متعلّق بنعت لـ (تنزيل) (الرحيم) نعت للرحمن مجرور .

جملة : " تنزيل . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة . .

(3) (قرآنا) حال من آيات منصوبة " 2 " (لقوم) متعلّق بـ (فصّلت) .

---

(1) الذي سوّغ الابتداء بالنكرة كونها موصوفة بالجارّ . . ويجوز أن يكون اللفظ خبرا

لمبتدأ محذوف أي هذا القرآن .

(2) أو حال من كتاب لكونه موصوفا .

(290/683)

وجملة : " فصّلت آياته . . . " في محلّ رفع نعت لكتاب .

وجملة : " يعلمون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

(4) (بشيرا) نعت ثان لـ (قرآنا) منصوب " 1 " ، (الفاء) عاطفة في الموضعين (لا) نافية .

وجملة : " أعرض أكثرهم . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة . .

وجملة : " هم لا يسمعون " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعرض أكثرهم .

وجملة : " لا يسمعون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(5) (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (في أكنّة) متعلّق بخبر المبتدأ قلوبنا (ممّا) متعلّق بأكنّة بتقدير محجوبة (إليه) متعلّق بـ (تدعونا) ، (في (آذاننا) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ وقر (من بيننا) خبر مقدّم للمبتدأ حجاب ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر . . .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعرض أكثرهم .

وجملة : " قلوبنا في أكنّة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(1) أو حال من كتاب أو من آياته .

(291/683)

وجملة : " تدعونا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " في آذاننا وقر . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " من بيننا . . حجاب " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " اعمل " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردت الاستمرار في الدعوة فاعمل .

وجملة : " إنّنا عاملون " لا محلّ لها تعليليّة – أو استئناف بيانيّ –

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ " إلى قوله " عامِلُونَ " ففي الآية ثلاث استعارات تمثيلية ، لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ، ومج أسماعهم له ، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول (صلّى اللّه عليه وسلم) . وأرادوا بذلك إقناطه عليه الصلاة والسلام عن اتباعهم إياه حتى لا يدعوهم إلى الصراط المستقيم .

وقد ذكر الزمخشري في كتابه الكشاف أن في هذه الآية من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن

ينتظم إلا في درر الكتاب العزيز ، فإنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية : كل واحد منها كاف في فنه ، فأولها الحجاب الحائل الخارج ، ويليه حجاب الصمم ، وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله ، فلم تدع هذه الآية حجابا مرتخيا ، إلا أسبلته ، ولم تبق لهولاء الأشقياء مطمعا ولا صريخا إلا استلبته .

[سورة فصلت (41) : الآيات 6 إلى 7]

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (7)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (مثلكم) نعت لبشر مرفوع (إليّ) متعلّق بـ (يوحى) ، (أنّما) كافّة ومكفوفة . .

والمصدر المؤوّل (أنّما إلهكم إله . . .) في محلّ رفع نائب الفاعل .

(292/683)

(الفاء) عاطفة " 1 " ، (إليه) متعلّق بـ (استقيموا) بتضمينه معنى توجهوا (الواو) استئنافيّة (ويل) مبتدأ مرفوع " 2 " . (للمشركين) متعلّق بخبر المبتدأ ويل .

(1) قد يكون فيها معنى السببيّة فتعطف الجملة بعدها على جملة مقول القول .

(2) صحّ الابتداء به لأنه دال على ذمّ .

(293/683)

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنا بشر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يوحى . . . " في محلّ رفع نعت ثان لبشر .

وجملة : " استقيموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل " 1 " .

وجملة : " استغفروه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل .

وجملة : " ويل للمشركين " لا محلّ لها استئنافيّة .

(7) (الذين) نعت للمشركين في محلّ جرّ " 2 " ، (لا) نافية (الواو) عاطفة في الموضعين (هم) الثاني توكيد للأول .

وجملة : " لا يؤتون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " هم . . . كافرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

[سورة فصلت (41) : آية 8]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

الإعراب:

(لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (أجر) ، (غير) نعت لأجر مرفوع . .

جملة: "إنّ الذين آمنوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "عملوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا . . .

وجملة: "لهم أجر . . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(ممنون) ، اسم مفعول من الثلاثيّ منّ بمعنى قطع باب نصر ، وزنه مفعول.

[سورة فصلت (41) : الآيات 9 إلى 12]

---

(1) هي نظير قوله عليه السلام: "قل لا إله إلّا اللّه ثمّ استقم" .

(2) أو خبر لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هم.

قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9)
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ
(10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (اللام) المزحلقة للتوكيد (بالذي) متعلّق بـ (تكفرون) ، (في يومين) متعلّق بـ (خلق) ، (له) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّكم لتكفرون . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تكفرون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " تكفرون . . . " في محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تجعلون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة تكفرون . .

وجملة : " ذلك ربّ . . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(10) (الواو) عاطفة (فيها) متعلّق بـ (جعل) بتضمينه معنى خلق " 1 " ، (من فوقها) متعلّق بنعت لرواسي (فيها) متعلّق بـ (بارك) ، والثالث متعلّق بـ (قدّر) ، (في أربعة) متعلّق

بـ (قدّر) بحذف مضاف أي في تمام أربعة (سواء) مفعول مطلق لفعل محذوف " 2 " ، (للسائلين) متعلّق بالفعل المحذوف .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان .

(2) أو مصدر في موضع الحال من أقواتها .

(295/683)

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

وجملة : " بارك . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

وجملة : " قدّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

(11) (ثمّ) حرف عطف (إلى السماء) متعلّق بـ (استوى) بتضمينه معنى قصد (الواو) حاليّة (الفاء) عاطفة (لها ، للأرض) متعلّقان بـ (قال) ، متعاطفان ، (طوعا) مصدر في موضع الحال (طائعين) حال منصوبة من فاعل أتينا .

وجملة : " استوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قدّر .

وجملة : " هي دخان . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استوى .

وجملة : " ائتيا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالتا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أتينا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(12) (الفاء) عاطفة (سبع) مفعول به ثان عامله قضاهنّ بتضمينه معنى صيّرهنّ " 1 " ، منصوب (في يومين) متعلّق بـ (قضاهنّ) ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (في كلّ) متعلّق بـ (أوحى) ، (بمصابيح) متعلّق بـ (زيّنا) ، (حفظا) مفعول مطلق لفعل محذوف ، والإشارة في (ذلك) إلى المذكور المتقدّم (العليم) نعت للعزيز مجرور .

وجملة : " قضاهنّ . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال برابط السببيّة . أو برابط التفسير .

وجملة : " أوحى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قضاهنّ .

وجملة : " زيّنا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوحى بملاحظة الالتفات فيها .

---

(1) أو حال من الهاء في (قضاهنّ) بمعنى صنعهنّ .

وجملة : " (حفظناها) حفظا " لا محلّ لها معطوفة على جملة زيّنا . . .

وجملة : " ذلك تقدير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(10) أقواتها : جمع قوت اسم للطعام وزنه فعل بضمّ فسكون ، ووزن أقوات أفعال .

(11) دخان : اسم لبخار الماء المتكاثف أو غيره ، وزنه فعال بضمّ الفاء .

(طائعين) ، جمع طائع – جاء مذكّرا للتغليب – اسم فاعل من الثلاثيّ طاع باب باع ، وزنه فاعل وفيه إبدال عين الكلمة – وهي (الياء) – همزة قياسا على كلّ اسم فاعل يأتي من المعتلّ الأجوف . . أصله طائع .

البلاغة

1 – التشبيه البليغ الصوري : في قوله تعالى " ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ " .

تشبيه بليغ صوري ، لأن صورتها صورة الدخان في رأي العين ، والمراد بالدخان البخار الذي تتشكل منه الطبقات الهوائية ، فلا منافاة مع أحدث نظريات العلم .

2 – التمثيل : في قوله تعالى " فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ "

فمعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما : أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع ، وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل ، ويجوز أن يكون تخييلا ويبنى الأمر فيه على أن اللّه تعالى كلّم السماء

والأرض وقال لهما : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه ، فقالتا : أتينا على الطوع لا على الكره .

والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير ، من غير أن يحقق شي ء من الخطاب والجواب . ونحوه قول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقني ؟ قال الوتد : اسأل من يدقني ، فلم يتركني ، ورائي الحجر الذي ورائي .

3 - الالتفات : في قوله تعالى " وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ " .

التفات من الغيبة إلى التكلم فقد أسند التزيين إلى ذاته سبحانه لإبراز مزيد العناية بالأمر .

[سورة فصلت (41) : الآيات 13 إلى 18]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ

صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (17)

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (18)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة والثانية رابطة (أعرضوا) في محلّ جزم فعل الشرط (صاعقة) مفعول به ثان منصوب (مثل) نعت لصاعقة منصوب .

جملة : "أعرضوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة قل " 1 " .

وجملة : "قل . . . "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : "أنذرتكم . . . "في محلّ نصب مقول القول .

(14) (إذ) ظرف في محلّ نصب متعلّق بصاعقة عاد لأنها بمعنى العذاب " 2 " ، (من بين) متعلّق بحال من الرسل وكذلك (من خلفهم) ،

---

(1) في الآية (9) من هذه السورة .

(2) أو متعلّق بحال من صاعقة عاد .

(أن) مخفّفة من الثقيلة " 1 " ، واسمها ضمير الشأن محذوف (لا) ناهية (إلّا) للحصر (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب (لو) (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (بما) متعلّق بالخبر كافرون (به) متعلّق بـ (أرسلتم) ، وضمير الخطاب فيه نائب الفاعل .

وجملة : " جاءتهم الرسل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تعبدوا . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

والمصدر المؤوّل (أن لا تعبدوا . .) في محلّ جرّ بـ (باء) محذوفة . . متعلّق بـ (جاءتهم) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لو شاء اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّا . . . كافرون " في محلّ نصب معطوفة على جملة لو شاء . .

وجملة : " أرسلتم به . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(15) (الفاء) عاطفة تفريعيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (عاد) مبتدأ مرفوع (الفاء) رابطة لجواب أمّا (في الأرض) متعلّق بـ (استكبروا) ، (بغير) حال من فاعل استكبروا (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (من) اسم استفهام مبتدأ خبره أشدّ (منّا) متعلّق بأشدّ (قوّة) تمييز منصوب (الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (الذي) موصول في محلّ نصب نعت للفظ

الجلالة (هو) ضمير

---

(1) وحينئذ تكتب منفصلة عن (لا) ، ويجوز أن تكون حرف تفسير لتقدّم مجيء الرسل وفيه معنى القول ، و(لا) ناهية ، والجملة لا محلّ لها . . ويجوز أن تكون حرفا مصدريّا ونصب ، و(لا) نافية ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بـ (الباء) المقدّرة .

(299/683)

فصل " 1 " ، (منهم قوّة) مثل منّا قوّة . . . (بآياتنا) متعلّق بـ (يجحدون) .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعوليّ يروا .

وجملة : " أمّا عاد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعرضوا " 2 " .

وجملة : " استكبروا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ عاد .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة استكبروا .

وجملة : " من أشدّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على مستأنف مقدّر في حيّز القول أي : أغفلوا ولم يروا . . .

وجملة : " خلقهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : "كانوا . . . يجحدون " في محلّ رفع معطوفة على جملة استكبروا .

وجملة : "يجحدون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

(16) (الفاء) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (في أيّام) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (اللام) للتعليل (نذيقهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (عذاب) مفعول به ثان منصوب (في الحياة) متعلّق بـ (نذيقهم) . . .

والمصدر المؤوّل (أن نذيقهم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أرسلنا) .

(الواو) اعتراضيّة (اللام) لام الابتداء للتوكيد (الواو) عاطفة – أو حاليّة – (لا) نافية ، و(الواو) في (ينصرون) نائب الفاعل .

وجملة : "أرسلنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كانوا . . .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره أشدّ ، والجملة الاسميّة خبر إنّ . [. . . . .]

(2) أو هي استئنافيّة في سياق التفريع .

الجدول ج 24 ، ص : 295

وجملة : " نذيقهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " عذاب الآخرة أخزى . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " هم لا ينصرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة عذاب الآخرة . . . . " 1 "

وجملة : " لا ينصرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(17 – 18) (الواو) عاطفة (أما ثمود) مثل أمّا عاد (الفاء) رابطة لجواب (أمّا) ، والثانية عاطفة (على الهدى) متعلّق بفعل (استحبّوا) بتضمينه معنى اختاروا (الفاء) عاطفة (الهون) نعت لـ (العذاب) مجرور (بما) متعلّق بـ (أخذتهم) " 2 " .

وجملة : " أمّا ثمود فهديناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمّا عاد . . .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من الضمير الغائب في (نذيقهم) .

(2) هو حرف مصدري يؤوّل مع ما بعده بمصدر ، أو اسم موصول والعائد محذوف .

(300/683)

وجملة : " هديناهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ثمود) .

وجملة : " استحبّوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة هديناهم .

وجملة : " أخذتهم صاعقة . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة استحبّوا .

وجملة : " كانوا يكسبون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أو الاسميّ (ما) .

وجملة : " يكسبون " في محلّ نصب خبر كانوا .

وجملة : " نجّينا . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أخذتهم . . .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "كانوا يتّقون . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا " 1 " .

وجملة : "يتّقون . . . "في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(16) صرصرا : اسم للريح الشديدة أو صفة مشتقّة من الصرّ وهو البرد أو من الثلاثيّ صرّ باب ضرب بمعنى صوّت وصاح شديدا ، وزنه فعلل بفتح الفاء واللام الأولى .

(نحسات) ، جمع نحس صفة مشتقّة من الثلاثيّ نحس باب فرح ، وزنه فعل بفتح فكسر كأشر .

(أخزى) ، اسم تفضيل من الثلاثيّ خزي باب فرح ، وزنه أفعل ، وفيه إعلال بالقلب أصله أخزي – بالياء – تحرّكت الياء وفتح ما قبلها قلبت ألفا .

(17) العمى : مصدر عمي يعمى باب فرح ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وفيه إعلال بالقلب أصله العمي – بالياء – جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا . . ورسمت برسم الياء غير المنقوطة بسبب أصلها

البلاغة

1 – الالتفات : في قوله تعالى " فَإِنْ أَعْرَضُوا " .

فقد خاطبهم أولا بقوله : " أ إنكم " ، بيد أنهم لم يأبهوا لخطابه ولم يستوعبوا نصحه ، فالتفت من الخطاب إلى الغيبة ، لأنهم فعلوا الإعراض ، فليس له إلا أن يعرض عن خطابهم ، ليصح

التلاؤم ، ويناسب اللفظ المعنى ، وهذا من أرفع أنواع البلاغة وأرقاها . وكم للالتفات من أسرار .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الموصول بتقدير (قد) ، أو حال من فاعل آمنوا بتقدير (قد) أيضا . .

---

2 - العدول عن المضارع المستقبل إلى الماضي : في قوله تعالى " فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ " .

فصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبئ عن تحقق المنذر به .

3 - الإسناد المجازي : في قوله تعالى " وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى " .

والعذاب في الأصل صفة المعذب ، وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة ، فإنه يدل على أنه ذل الكافر زاد حتى اتصف به عذابه ، كما قرر في قولهم : شعر شاعر .

4 - المشاكلة : في قوله تعالى " وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى . . . " .

جعل الخزي هذه المرة خبرا ، للمشاكلة على حد قول الشاعر :

" قلت اطبخوا لي جبة وقميصا "

5 – الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى " .

فقد شبه الكفر بالعمى ، لأن الكافر ضال عن القصد ، متعسف الطريق كالأعمى ، وشبه الإيمان بالهدى ، لأن المؤمن مهتد إلى القصد وسواء السبيل ثم حذف المشبه في كليهما وأثبت المشبه به .

الفوائد

– الفاصل بين أما والفاء :

1 – المبتدأ : كقوله تعالى فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ .

2 – الخبر : كقولنا (أما في الدار فزيد) .

3 – جملة الشرط : كقوله تعالى فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ .

4 – اسم منصوب لفظا أو محلا بالجواب : كقوله تعالى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ 5 – اسم معمول لمحذوف يفسره ما بعد الفاء . نحو (أما زيدا فاضربه) . وقراءة بعضهم في الآية التي نحن بصددها وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى بالنصب ، ويجب تقدير العامل بعد الفاء .

[سورة فصلت (41) : الآيات 19 إلى 25]

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (إلى النار) متعلّق بـ (يحشر) ، (الفاء) عاطفة ، و(الواو) في (يوزعون) نائب الفاعل .

جملة : " (اذكر) يوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحشر أعداء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هم يوزعون . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يحشر أعداء .

وجملة : " يوزعون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(20) (حتّى) حرف ابتداء (ما) زائدة (عليهم) متعلّق بـ (شهد) ، (بما)

(303/683)

متعلّق بـ (شهد) " 1 " ، و(الباء) سببيّة .

وجملة : " جاءوها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " شهد . . . سمعهم " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أو الاسميّ (ما) .

وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(21) (الواو) في المواضع الثلاثة عاطفة (لجلودهم) متعلّق بـ (قالوا) ، (لم) متعلّق بـ (شهدتم) " 2 " ، (علينا) متعلّق بـ (شهدتم) ، (الذي) موصول في محلّ رفع نعت للفظ الجلالة (أوّل) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته (إليه) متعلّق بـ (ترجعون) و(الواو) فيه نائب الفاعل .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف متقدّم وهو جملة حتّى إذا . . .

وجملة : " شهدتم . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالوا . . . (الثانية) " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أنطقنا اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنطق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " هو خلقكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أنطقنا اللّه " 3 " .

وجملة : " خلقكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

---

(1) (ما) حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ ، أو اسم موصول والعائد محذوف .

(2) (ما) اسم استفهام حذفت منه الألف لتقدّم الجارّ عليه .

(3) يحتمل أن يكون هذا من كلام اللّه تعالى أيضا أو من كلام الملائكة ، فالجملة حينئذ استئنافيّة .

وجملة : " ترجعون . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة خلقكم " 1 " .

(22) (الواو) استئنافيّة " 2 " ، (ما) نافية (عليكم) متعلّق بـ (يشهد) ، (الواو) عاطفة

في المواضع الثلاثة (لا) زائدة لتأكيد النفي في الموضعين .

والمصدر المؤول (أن يشهد . . .) في محلّ نصب مفعول لأجله بحذف مضاف أي مخافة أن يشهد . . . " 3 " .

(لكن) للاستدراك لا عمل له (لا) نافية (ممّا) متعلّق بنعت لـ (كثيرا) " 4 " .

وجملة : " ما كنتم تستترون . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تستترون . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

وجملة : " يشهد عليكم سمعكم . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ظننتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كنتم . . .

وجملة : " لا يعلم . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه لا يعلم . .) في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي ظننتم .

وجملة : " تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أو الاسميّ .

(23) (الواو) عاطفة (ظنّكم) بدل من اسم الإشارة " 5 " ، (الذي) موصول في

---

(1) يحتمل أن تكون معطوفة على الجملة الاسميّة هو خلقكم إذا جعلت استئنافيّة ،

(2) ويحتمل أن تكون معطوفة على جملة الصلة وما بينهما اعتراض .

لأن الكلام في ما بعد هو كلام اللّه تعالى لا كلام الجلود .

(3) أو في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي : من أن يشهد . . متعلّق بـ (تستترون) .

(4) (ما) حرف مصدريّ ، أو اسم موصول والعائد محذوف .

(5) أو هو خبر المبتدأ (ذلكم) ، والموصول بدل من ظنّكم - أو عطف بيان عليه - وجملة أرداكم حال . . ويجوز أن يكون (ظنّكم) والموصول ، وجملة أرداكم أخبارا .

الجدول ج 24 ، ص : 301

محلّ رفع نعت لظنّكم (بربّكم) هو في موضع المفعول الثاني أي ظننتموه كائنا بربّكم (الفاء) عاطفة (من الخاسرين) متعلّق بمحذوف خبر أصبحتم .

وجملة : " ذلكم ظنّكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لكن ظننتم .

وجملة : " ظننتم بربّكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أرداكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلكم) .

وجملة : " أصبحتم من الخاسرين " في محلّ رفع معطوفة على جملة أرداكم .

(24) (الفاء) عاطفة ، ، والثانية رابطة لجواب الشرط (لهم) متعلّق بنعت لمثوى (الواو) عاطفة (الفاء) رابطة (ما) نافية عاملة أو مهملة (من المعتبين) متعلّق بخبر محذوف .

وجملة : " إن يصبروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلكم ظنّكم .

وجملة : " النار مثوى . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

(قيّضنا) " 1 " ، والثاني بـ (زيّنوا) ، (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما و(ما) الثاني معطوف على الأول (خلفهم) ظرف منصوب

(1) أو بمحذوف حال من قرناء .

(306/683)

وجملة : " إن يستعتبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصبروا . .

وجملة : " ما هم من المعتبين " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

(25) (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (لهم)

متعلّق بصلة ما الثاني (عليهم) متعلّق بـ (حقّ) ، (في أمم) متعلّق بحال من الضمير في (عليهم) ، (من قبلهم) متعلّق بـ (خلت) ، (من الجنّ) متعلّق بحال من فاعل خلت . . .

وجملة : " قيّضنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصبروا . .

وجملة : " زيّنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قيّضنا .

وجملة : " حقّ . . . القول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة زيّنوا . .

وجملة : " قد خلت . . " في محلّ جر نعت لأمم .

وجملة : " إنّهم كانوا خاسرين . . . " لا محلّ لها تعليل لاستحقاقهم العذاب .

وجملة : " كانوا خاسرين . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(أرداكم) ، فيه إعلال بالقلب أصله أرديكم ، تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(المعتبين) ، جمع المعتب ، اسم مفعول من (أعتب) الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ " .

قيل المراد بالجلود : الجوارح . وقيل : هي كناية عن الفروج .

[سورة فصلت (41) : آية 26]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (لهذا) متعلّق بـ (تسمعوا) ، (القرآن) بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان عليه -

(الغوا) أمر مبني على حذف النون . . و(الواو) فاعل (فيه) متعلّق بـ (الغوا) .

جملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا تسمعوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " الغوا . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا تسمعوا .

وجملة : " لعلّكم تغلبون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تغلبون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(الغوا) ، فيه إعلال بالحذف بدءا من المضارع يلغون – بفتح الغين وسكون الواو – أصله يلغاون ، التقى ساكنان فحذفت الألف – لام الكلمة – وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة عليها فأصبح يلغون واستمرّ الإعلال في الأمر . . ووزنه في الأمر افعوا بفتح العين ، وهو من باب فرح ، لغي يلغى ، إذا تكلّم بما لا فائدة فيه .

الفوائد

1 – لعلّ :

هي حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر ، وبنو عقيل يخفضون بها المبتدأ كقول كعب بن سعد

في رثاء أخيه : فقلت :

ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعلّ أبي المغوار منك قريب

ولم يثبت تخفيف (لعلّ) . واعلم أن مجرور لعل في موضع رفع بالابتداء كما في البيت السابق ، لتنزيل لعل منزلة الجار الزائد ، كما في قولنا (بحسبك درهم) . والخبر (قريب) في البيت السابق .

وتتصل بـ (لعل) (ما) الحرفية ، فتكفها عن العمل ، لزوال اختصاصها حينئذ ، بدليل قول الفرزدق :

الجدول ج 24 ، ص : 304

أعد نظرا يا عبد قيس لعلما أضاءت لك النار الحمار المقيدا

(308/683)

وقيل : أول لحن سمع بالبصرة : " لعل لها عذر وأنت تلوم " . ولعلّ تفيد الترجيّ ، ومعناه توقّع حصول المأمول ، والإشفاق من وقوع المكروه كقولنا (لعلي ناجح) و(لعل الشرّ بعيد) . وقد ورد معنى الترجي في الآية التي نحن بصددها قوله تعالى وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . وترد معظم الأحيان في القرآن الكريم بمعنى التحقيق

والحصول ، كقوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ فمعنى لعلكم تتقون أي أنه سيتحقق لكم حصول التقوى بسبب الصيام .

2 – الفرق بين الترجيّ والتمنيّ :

الترجي : هو تأمّل وقوع شيء ممكن مثل : (لعل المسافر يقدم) (لعل صاحب الحق يعفو) .

أما التمنيّ : فهو رجاء حصول شيء غير ممكن ، كقول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما صنع المشيب

[سورة فصلت (41) : آية 27]

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (27)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نذيقنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) نون التوكيد والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (عذابا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (لنجزينّهم) مثل لنذيقنّ (أسوأ) مفعول به ثان منصوب (الذي) موصول مضاف إليه ، والعائد محذوف .

جملة : " نذيقنّ . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لنجزينّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر الثاني ، وجملة القسم المقدّرة معطوفة على جملة القسم المقدّرة الأولى الاستئنافيّة .

وجملة : " كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

(309/683)

وجملة " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

]

سورة فصلت (41) : آية 28]

ذِلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (28)

الإعراب :

(ذلك) مبتدأ ، والإشارة إلى العذاب (جزاء) خبر مرفوع (النار) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي " 1 " (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (دار) ، (فيها) متعلّق بحال من الضمير في (لهم) ، (جزاء) مفعول مطلق لفعل محذوف " 2 " ، (ما) حرف مصدريّ (بآياتنا) متعلّق بـ (يجحدون) .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بجزاء الأول ، و(الباء)

سببيّة .

وجملة : " ذلك جزاء . . . " لا محلّ لها تعليل – أو استئناف بيانيّ – وجملة : " لهم فيها دار الخلد . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يجحدون " في محلّ نصب خبر كانوا .

البلاغة

التجريد : في قوله تعالى " النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ " .

أي هي بعينها دار إقامتهم ، على أن في للتجريد ، كما قيل : في قوله تعالى " لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ " وقول الشاعر :

وفي اللّه إن لم ينصفوا

---

(1) والجملة استئناف بيانيّ . . ويجوز أن تكون مبتدأ خبره جملة لهم فيها دار الخلد ، والجملة استئناف بيانيّ أيضا . . ويجوز أن تكون بدلا من جزاء وفيه نظر إذ البدل يحلّ محلّ المبدل منه فيكون التقدير ذلك النار . [. . . . .]

(2) أو مفعول مطلق عامله جزاء الأول . . ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال .

حكم عدل .

والتجريد : أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله ، مبالغة فيها ، فقد انتزع من النار دارا أخرى سماها دار الخلد .

[سورة فصلت (41) : آية 29]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ربّنا) منادى مضاف محذوف منه أداة النداء ، منصوب (اللذين) موصول مبنيّ على (الياء) في محلّ نصب مفعول به ثان (من الجنّ) متعلّق بحال من فاعل (أضلانا) (نجعلهما) مضارع مجزوم جواب الطلب والفاعل نحن و(هما) مفعول به (تحت) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (اللام) للتعليل (يكونا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من الأسفلين) متعلّق بمحذوف خبر يكون .

والمصدر المؤوّل (أن يكونا . .) في محلّ جرّ متعلّق بـ (نجعلهما) .

وجملة : " قال الذين . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . " لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أضلّانا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (اللذين) .

وجملة : " نجعلهما . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي إن ترنا اللذين . . نجعلهما . .

وجملة : " يكونا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ .

الجدول ج 24 ، ص : 307

[سورة فصلت (41) : الآيات 30 إلى 32]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)

الإعراب :

(ربّنا) مبتدأ خبره اللّه (عليهم) متعلّق بـ (تتنزّل) ، (أن) مخفّفة من الثقيلة " 1 " ، واسمها ضمير الشأن محذوف (لا) ناهية جازمة في الموضعين (بالجنّة) متعلّق بـ (أبشروا) ، (التي) موصول في محلّ جرّ نعت للجنّة والعائد محذوف . .

والمصدر المؤوّل (أن لا تخافوا . .) في محلّ جرّ بـ (باء) محذوفة متعلّق بـ (تتنزّل) .

جملة : " إنّ الذين قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ربّنا اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " استقاموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا .

وجملة : " تتنزل عليهم الملائكة " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا تخافوا . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة " 2 " .

---

(1) يجوز أن تكون ناصبة مصدريّة ، والمصدر المؤوّل مجرور بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (تتنزّل) ، و(لا) يحتمل أن تكون ناهية والفعل بعدها مجزوم ، وأن تكون نافية والفعل بعدها منصوب . . ويحتمل أن تكون تفسيريّة لأن التنزل بمعنى القول دون حروفه و(لا) ناهية .

(2) أو لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أن . . أو تفسيريّة ، وجملة لا تحزنوا ، وأبشروا معطوفتان عليها تأخذان محلّها من الإعراب .

وجملة : " لا تحزنوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا تخافوا .

وجملة : " أبشروا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا تخافوا .

وجملة : " كنتم توعدون " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " توعدون . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

(31) (في الحياة) متعلّق بـ (أولياؤكم) وكذلك (في الآخرة) ، (الواو) عاطفة (لكم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (ما) ، (فيها) متعلّق بالخبر المحذوف في الموضعين " 1 " .

وجملة : " نحن أولياؤكم . . . " لا محلّ لها تعليليّة مقرّرة لما سبق .

وجملة : " لكم فيها ما تشتهي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " لكم فيها ما تدّعون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " تشتهي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " تدّعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

(32) (نزلا) حال منصوبة من العائد المحذوف أي تدّعونه نزلا " 2 " ، (من غفور) متعلّق بنعت لـ (نزلا) " 3 " .

الفوائد

الاستقامة :

قال أهل التحقيق : كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته لأجل العمل به ،

---

(1) أو متعلّق بحال من الضمير في (لكم) ، والعامل فيها الاستقرار .

(2) يجوز أن يكون (نزلا) حالا من فاعل تدعون على أنّه جمع نازل ، و(من غفور) متعلّق بـ (تدعون) .

(3) أو متعلّق بـ (تدعون) .

الجدول ج 24 ، ص : 309

ورأس المعرفة اليقينية معرفة اللّه تعالى ، وإليه الإشارة بقوله إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيما في الوسط ، غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط ، فتكون الاستقامة في أمر الدين والتوحيد ، وتكون في الأعمال الصالحة . سئل أبو بكر الصديق رضي اللّه تعالى عنه عن الاستقامة فقال :

أن لا تشرك باللّه شيئا ، وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه : الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ، ولا تروغ روغان الثعلب ، وقال عثمان رضي اللّه تعالى عنه : معنى استقاموا : أخلصوا في العمل ، و

قال علي رضي اللّه تعالى عنه : معنى استقاموا أدوا الفرائض ،

و هو قول ابن عباس ، وقيل : استقاموا على أمر اللّه فعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه ، وقيل : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا اللّه حتى لحقوا باللّه ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية قال : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة . وقوله تعالى في هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا بهاتين الجملتين يتلخص معنى الدين والإسلام ، فهما جملتان قصيرتان ، لكنهما كبيرتان في معناهما ، وقد جمعتا مفهوم الدين والإسلام والرسالات السماوية ورسمتا منهجا كاملا دقيقا لسلوك المسلم في حياته ، فما أعظم كلام اللّه وما أبعد مداه !

[سورة فصلت (41) : آية 33]

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبتدأ خبره أحسن (قولا) تمييز منصوب (ممّن) متعلّق بأحسن (إلى اللّه) متعلّق بـ (دعا) ، (الواو) عاطفة - أو حاليّة - والثانية عاطفة (صالحا) مفعول به منصوب " 1 " ، (من المسلمين) متعلّق بخبر إنّ .

جملة : " من أحسن . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " دعا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) محتمل أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر ، والمفعول به مقدّر .

وجملة: " عمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 1 " .

وجملة: " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة: " إنّني من المسلمين " في محلّ نصب مقول القول .

[سورة فصلت (41) : الآيات 34 إلى 35]

وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لا) نافية (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي " 2 " ، (بالتي) متعلّق بـ (ادفع) (الفاء) تعليليّة (إذا) فجائية (الذي) مبتدأ (بينك) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (بينه) ظرف متعلّق بما تعلّق به الأول فهو معطوف عليه (عداوة) مبتدأ مؤخّر مرفوع.

جملة : "لا تستوي الحسنة . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "ادفع . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "هي أحسن . . "لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : "الذي بينك . . عداوة . . "لا محلّ لها تعليليّة" 3 " .

وجملة : "بينك وبينه عداوة . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : "كأنّه وليّ . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذي) .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل دعا بتقدير قد .

(2) يجوز أن تكون مؤسّسة ، لا زائدة مؤكّدة ، أي الحسنات بالنسبة إلى بعضها وكذلك السيّئات .

(3) يجوز أن تكون الجملة معطوفة على تعليل مقدّر أي : ذلك أفعل في دفعها فإذا الذي بينك . . .

الجدول ج 24 ، ص : 311

(35) (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) نافية (إلّا) للحصر (الذين) موصول في محلّ رفع نائب الفاعل ومثله (ذو) ، وجملة : "ما يلقّاها . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تستوي الحسنة" 1 " .

وجملة : "صبروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ما يلقّاها (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما يلقّاها (الأولى) .

[سورة فصلت (41) : آية 36]

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إمّا) حرف شرط جازم ، و(ما) زائدة (ينزغنّك) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط ، و(النون) للتوكيد ، و(الكاف) مفعول به (من الشيطان) متعلّق بحال من الفاعل (نزغ) (الفاء) رابطة لجواب الشرط (باللّه) متعلّق بـ (استعذ) ، (هو) ضمير أستعير لمحلّ النصب لتوكيد اسم (إنّ) " 2 " ، (العليم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " ينزغنّك من الشيطان نزغ " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تستوي الحسنة .

وجملة : " استعذ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّه هو السميع . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(نزغ) : مصدر سماعيّ لفعل نزغ الثلاثيّ من بابي فتح وضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون . . و(النزغ) هو الوسوسة أو الإفساد أو

---

(1) أو هي استئنافيّة أصلا .

(2) أو هو ضمير منفصل مبتدأ خبره السميع والجملة خبر إنّ . . ويجوز أن يكون للفصل .

الحثّ على المعصية.

[سورة فصلت (41) : الآيات 37 إلى 38]

وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (38)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من آياته) متعلّق بخبر مقدم للمبتدأ (الليل) . . (لا) ناهية جازمة (للشمس) متعلّق بـ (تسجدوا) ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (للقمر) متعلّق بما تعلّق به للشمس فهو معطوف عليه (اسجدوا) أمر مبنيّ على حذف (النون) . . و(الواو) فاعل (للّه) متعلّق بـ (اسجدوا) ، (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (كنتم) ماض ناقص مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (إيّاه) ضمير منفصل في محلّ نصب مفعول به عامله تعبدون.

جملة : " من آياته الليل . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تسجدوا للشمس . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " اسجدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تسجدوا للشمس .

وجملة : " خلقهنّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " كنتم إيّاه تعبدون . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فاسجدوا له .

وجملة : " تعبدون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي قل لهم يا محمّد لا تسجدوا . . .

---

(38) (الفاء) استئنافيّة (استكبروا) في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة أو تعليليّة (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين (له) متعلّق بحال من فاعل

يسبّحون " 1 " ، (بالليل) متعلّق بـ (يسبّحون) ، (الواو) حاليّة (لا) نافية .

وجملة : " إن استكبروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو معطوفة على جملة القول المقدّرة ، وجواب الشرط مقدّر أي إن استكبروا فدعهم ، أو لا تهتمّ بعصيانهم .

وجملة : " الذين عند ربّك . . . " لا محلّ لها تعليليّة للجواب المقدّر " 2 " .

وجملة : " يسبّحون له . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ الذين .

وجملة : " هم لا يسأمون . . " في محلّ نصب حال من فاعل يسبحون " 3 " .

وجملة : " لا يسأمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الفوائد

- آية السجدة :

---

(1) أو متعلّق بـ (يسبّحون) بتضمينه معنى يصلّون . [. . . . .]

(2) أو هي جواب الشرط في محلّ جزم .

(3) أو في محلّ رفع معطوفة على جملة يسبّحون .

يسن لقارئ القرآن أن يسجد سجدة التلاوة ، كلما مر بآية سجدة ، فإن كان خارج الصلاة نوى سجود التلاوة وكبر ، ثم كبر ثانية للسجود ، وسجد سجدة واحدة وسلم بعدها .

أما أثناء الصلاة ، فيهوي للسجود ناويا بقلبه سجدة التلاوة ، فإذا تلفظ بالنية بطلت صلاته ، ويسجد سجدة واحدة ثم يعود لمتابعة صلاته ، وتصبح هذه السجدة واجبة في حق المأموم إن سجد إمامه ، لأن متابعة الإمام واجبة ، ومن كان خارج الصلاة وقرأ آية سجدة ، ولم يكن متوضئا ، فيقول : سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه اللّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم (أربع مرات) وهذه

السجدة في هذه السورة من عزائم سجود التلاوة ، وفي موضع السجود فيها قولان للعلماء ، وهما وجهان لأصحاب الشافعي ، أحدهما : أنه عند قوله تعالى إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ وهو قول ابن مسعود والحسن وحكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد لأن ذكر السجدة قبله ، والثاني وهو الأصح عند أصحاب الشافعي ، وكذلك نقله الرافعي ، عند قوله تعالى وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد ابن المسيب وقتادة ، وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة ، لأن عنده يتم الكلام .

[سورة فصلت (41) : آية 39]

وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من آياته) متعلّق بخبر مقدّم . .

والمصدر المؤوّل (أنّك ترى . . .) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر . . .

(319/683)

(خاشعة) حال منصوبة (الفاء) عاطفة (عليها) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (على كلّ) متعلّق بقدير .

جملة : " من آياته أنّك ترى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ترى . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " أنزلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اهتزّت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ربت . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اهتزّت .

وجملة : " إنّ الذي أحياها . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أحياها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " إنّه على كلّ شيء قدير " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(خاشعة) ، مؤنّث خاشع اسم فاعل من (خشع)

انظر الآية (45) من سورة البقرة .

(ربت) ، فيه إعلال بالحذف – بعد الإعلال بالقلب – فالفعل (ربا) قلبت فيه الألف عن واو ، مضارعه يربو والأصل ربو ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا – الإعلال بالقلب – ثمّ دخلت تاء التأنيث الساكنة فالتقى ساكنان فحذفت الألف – إعلال بالحذف – وزنه فعت . .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ " .

حيث شبه حال جدوبة الأرض وخلوها عن النبات ، ثم إحياء اللّه تعالى إياها بالمطر ، وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب ، وإنبات كل زوج بهيج ، بحال شخص كئيب كاسف البال ، رث الهيئة ، لا يؤبه ، ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها تكلف بأنواع الزينة والزخارف ، فيختال في مشيه زهوا ، فيهتز بالأعطاف خيلاء وكبرا ، فحذف المشبه ، واستعمل الخشوع والاهتزاز دلالة على مكانه .

الفوائد

- اختيار اللفظ بما يناسب المقام :

(320/683)

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً وورد في موضع آخر صفة (هامدة) فهاتان الصفتان لم تردا عبثا ، ودون تنظيم وتنسيق . فصفة (خاشعة) جاءت لتناسب جو العبادة ، لأنها جاءت في سياق يتحدث عن عبادة اللّه عز وجل والسجود له ، أما صفة (هامدة) فجاءت في جو يتحدث عن الموت والسكون ، ومن هنا كان سر اختيار هاتين الصفتين لتناسبا جو الآيات ، وتتناسقا مع الجو العام للمعنى ، فما أروع كلام اللّه ، وما أدقّ معناه !

[سورة فصلت (41) : آية 40]

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)

الإعراب :

(في آياتنا) متعلّق بـ (يلحدون) ، (لا) نافية (علينا) متعلّق بـ (يخفون) ، (الهمزة) للاستفهام

التقريريّ (الفاء) عاطفة (من) اسم موصول مبتدأ في محلّ رفع ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (في النار) متعلّق بـ (يلقى) ، (خير) خبر المبتدأ (أم) عاطفة معادلة للهمزة (من) موصول في محلّ رفع معطوف على الأول (آمنا) حال منصوبة من فاعل يأتي (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يأتي) والأمر (اعملوا) فيه معنى التهديد (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف أي شئتم فعله (ما) حرف مصدريّ . . .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق ببصير .

جملة : "إنّ الذين يلحدون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يلحدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "لا يخفون . . " في محل رفع خبر إنّ .

وجملة : "من يلقى . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "يلقى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

(321/683)

وجملة : " يأتي . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " اعملوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " شئتم . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّه . . . بصير " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تعملون . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الصرف :

(يخفون) ، فيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين ، أصله يخفاون ، حذفت الألف وبقي ما قبلها مفتوحا وزنه يفعون بفتح العين .

(يلقي) ، فيه إعلال بالقلب لمناسبة البناء للمجهول ، فالمعلوم يلقي ، وفي البناء للمجهول فتح ما قبل الياء فقلبت ألفا .

[سورة فصلت (41) : الآيات 41 إلى 42]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)

الإعراب :

(بالذكر) متعلّق بـ (كفروا) ، وخبر إنّ محذوف تقديره معذّبون أو مهلكون " 1 " ، (لمّا) ظرف بمعنى حين مجرّد من الشرط متعلّق بـ (كفروا) ، (الواو) حاليّة (اللام) المزحلقة

للتوكيد .

جملة : "إنّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " جاءهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّه لكتاب . . . " في محلّ نصب حال من الذكر " 2 " .

(42) (لا) نافية (من بين) متعلّق بـ (يأتيه) ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (من خلفه) متعلّق بما تعلّق به الجارّ الأول فهو معطوف عليه (تنزيل) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (من حكيم) متعلّق بتنزيل (حميد) نعت لحكيم .

وجملة : " لا يأتيه الباطل . . . " في محلّ رفع نعت لكتاب .

وجملة : " (هو) تنزيل . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

---

(1) أو هو مذكور آت في الآيات اللاحقة وهو قوله : " أولئك ينادون . . " أو قوله :

"

ما يقال لك ، " والرابط مقدّر أي : " ما يقال لك في شأنهم . . . " أو قوله : " لا يأتيه الباطل

" والرابط مقدّر أي منهم . . . إلخ .

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

[سورة فصلت (41) : آية 43]

ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43)

الإعراب :

(ما) نافية (لك) متعلّق بـ (يقال) ، (إلّا) للحصر (ما) اسم موصول في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " للمبني للمجهول يقال (قد) حرف تحقيق (للرسل) متعلّق بـ (قيل) ، ونائب الفاعل للفعل الثاني ضمير مستتر يعود على (ما) (من قبلك) متعلّق بحال من الرسل (اللام) المزحلقة للتوكيد (ذو) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو ، والثاني معطوف على الأول مرفوع . . .

جملة : " ما يقال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قد قيل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّ ربّك لذو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

[سورة فصلت (41) : آية 44]

وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً

وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (قرآنا) مفعول به ثان منصوب (اللام) واقعة في جواب (لو) (لولا) حرف تحضيض (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (أعجميّ) خبر لمبتدأ محذوف

---

(1) على حذف مضاف أي مثل ما قيل . . والقائل حينئذ هم كفار مكة ،

(2) يجوز أن تكون في محلّ رفع بدل من الموصول (ما) وذلك إذا كان القائل للنبي هو اللّه لا كفار قريش .

(323/683)

تقديره هو أي القرآن " 1 " ، (الواو) عاطفة (عربيّ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي النبيّ (للذين) متعلّق بحال من هدى " 2 " ، (الواو) استئنافيّة (في آذانهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (وقر) (عليهم) متعلّق بحال من (عمى) " 3 " ، و(الواو) في (ينادون) نائب الفاعل (من مكان) متعلّق بـ (ينادون) .

جملة : " جعلناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لولا فصّلت آياته . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " (أهو) أعجميّ . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " (هو) عربيّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو أعجميّ .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو . . هدى " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " لا يؤمنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " في آذانهم وقر . . . " في محلّ رفع خبر للمبتدأ (الذين لا يؤمنون) والجملة الاسميّة من المبتدأ والخبر لا محلّ لها من الإعراب استئنافيّة .

وجملة : " هو عليهم عمى . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر بتقدير هو في آذانهم وقر وهو عليهم عمى .

وجملة : " أولئك ينادون . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو هو مبتدأ وعربيّ معطوف عليه ، والخبر محذوف تقديره يستويان – أو مستويان –

(2) أو متعلّق بهدى . .

(3) أو متعلّق بالمصدر عمى بتضمينه معنى ظلام .

(324/683)

وجملة : " ينادون : . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

البلاغة

1 - التشبيه البليغ : في قوله تعالى " قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ " .

تشبيه بليغ ، جعل القرآن الهدى نفسه والشفاء نفسه ، يهديهم إلى سبل الرشاد ويشفيهم من أوصاب الجنون .

2 - الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ " .

تمثيل لهم في عدم فهمهم وانتفاعهم بما دعوا له ، بمن ينادى من مسافة نائية فهو يسمع الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه ، أولا يسمع ولا يفهم .

الفوائد

رأى واعتراض :

بين ابن هشام رأي الزمخشري في هذه الآية ، وردّ عليه قائلا : (وأما قول الزمخشري في قول

اللّه عز وجل) قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ إنه يجوز أن يكون تقديره ، هو في آذانهم وقر ، فحذف المبتدأ ، أو في آذانهم من وقر ، والجملة خبر الذين ، مع إمكان أن يكون لا حذف فيه ، فوجهه أنه لما رأى ما قبل هذه الجملة وما بعدها حديثا في القرآن قدّر ما بينهما كذلك ، اللهم إلا أن يقدر عطف الذين على الذين و " وقر " على " هدى " فيلزم العطف على معمولي عاملين ، وسيبويه لا يجيزه ، وعليه فيكون (في آذانهم) نعتا لوقر قدم عليه فصار حالا .

الجدول ج 25 ، ص : 6

الجزء الخامس والعشرون

بقية سورة فصّلت

[سورة فصلت (41) : آية 45]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (الكتاب) مفعول به ثان منصوب ، (الفاء) عاطفة (فيه) نائب الفاعل للمجهول (الواو) عاطفة (لولا) حرف شرط غير جازم (كلمة) مبتدأ مرفوع والخبر محذوف تقديره موجودة (من ربّك) متعلّق

بنعت ثان لكلمة (اللام) واقعة في جواب (لولا) (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (قضي) " 1 " ونائب الفاعل محذوف هو مصدر الفعل قضي أي قضى القضاء (الواو) استئنافيّة (اللام) المزحلقة للتوكيد (في شك) متعلّق بخبر إنّ (منه) متعلّق بنعت لشكّ (مريب) نعت لشكّ مجرور مثله.

---

(1) أو ظرف مبنيّ على الفتح في محلّ رفع نائب الفاعل.

(325/683)

جملة: "لقد آتينا . . . "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر، وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "اختلف فيه . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

وجملة: "لولا كلمة . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

وجملة: "سبقت . . "في محلّ رفع نعت لكلمة.

وجملة: "قضي بينهم . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "إنّهم لفي شكّ . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة فصلت (41): آية 46]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (46)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (عمل) في محلّ جزم فعل الشرّط (الفاء) رابطة لجواب الشرّط (لنفسه) متعلّق بخبر ، والمبتدأ محذوف تقديره عمله (الواو) عاطفة (من أساء) مثل من عمل (فعليها) مثل فلنفسه " 1 " ، (الواو) استئنافيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (ظلّام) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (للعبيد) متعلّق بظلّام " 2 " .

جملة : " من عمل صالحا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عمل صالحا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " (عمله) لنفسه . . . " في محلّ جزم جواب الشرّط مقترنة بالفاء .

وجملة : " من أساء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أساء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 4 " .

وجملة : " (إساءته) عليها " في محلّ جزم جواب الشرّط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ما ربّك بظلّام " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) والضمير في (عليها) يعود على النفس ، وتقدير المبتدأ إساءته أو ضرر إساءته .

(2) يجوز أن تكون اللام زائدة للتقوية ، و(العبيد) مفعول ظلّام .

(3 ، 4) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرّط والجواب معا .

[سورة فصلت (41) : الآيات 47 إلى 48]

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)

الإعراب :

(إليه) متعلّق بالمبنيّ للمجهول (يردّ) ، (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (ما) نافية (ثمرات) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل تخرج (من أكمامها) متعلّق بـ (تخرج) ، (ما تحمل من أنثى) مثل ما تخرج من ثمرات (لا) للنفي (إلّا) للحصر (بعلمه) متعلّق بـ (تضع) ، (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 " (أين) اسم استفهام في محلّ نصب على الظرفيّة المكانيّة متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (شركائي) (ما) نافية (منّا) متعلّق بخبر مقدّم (شهيد) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر .

جملة : " إليه يردّ علم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما تخرج من ثمرات . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 2 " وجملة : "

ما تحمل من أنثى . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة ما تخرج . . .

وجملة : "لا تضع . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة ما تحمل . . .

وجملة : " (اذكر) يوم . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : "يناديهم . . . "

في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) أو ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (قالوا) . . [. . . . .]

(2) أو استئنافيّة .

(327/683)

وجملة : "أين شركائي . . . "في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر " 1 " وجملة : " قالوا

. . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "آذّناك . . . "في محلّ نصب مقول القول وجملة : " ما

منّا من شهيد "لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " 48 - (الواو) عاطفة (عنهم) متعلّق بـ

(ضلّ) بتضمينه معنى غاب (ما) اسم موصول - أو نكرة موصوفة - فاعل (قبل) اسم

ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جر متعلّق بـ (يدعون) ، (الواو) عاطفة (ما لهم من محيص)

مثل ما منّا من شهيد .

وجملة : " ضلّ عنهم ما . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا وجملة : "كانوا يدعون

. . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 3 " وجملة : "يدعون . . . "في محلّ نصب خبر كانوا وجملة : " ظنّوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة ضلّ . . .

وجملة : " ما لهم من محيص " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي ظنّ المعلّق بالنفي ما .

الصرف :

(أكمامها) ، جمع كمّ أو كمّة ، اسم لوعاء الثمرة ، ووزن كمّ فعل بكسر فسكون ، ووزن كمّة فعلة بضمّ فسكون ، وفي كليهما جاءت العين واللام من حرف واحد . . . ويجمع كذلك (كمّ) على أكمّه زنة أفعله كأفئدة ، وكمام زنة فعال بكسر الفاء وأكاميم زنة أفاعيل .

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(2) يجعلها بعضهم سادّة مسدّ المفعولين الثاني والثالث لفعل آذناك فهو بمعنى أعلمناك ، ولكنّ الأفعال المتعدّية لثلاثة مفعولات ليس فيها آذن . . . جاء في لسان العرب : آذنه بالشيء : أعلمه .

(3) أو في محلّ رفع نعت لـ (ما) بكونها نكرة موصوفة .

الفوائد

- لا يعلم الغيب إلّا اللّه :

بينت هذه الآية أن يوم القيامة لا يعلمه إلّا اللّه عز وجل ، فقال تعالى يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها . إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها وقال تعالى لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ .

وعند ما

سأل جبريل رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) عن الساعة قال له : (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)

لذا يبطل أيّ زعم يدعي علم الساعة أو ما شابهها من علم الغيب ، وبذا يبطل ما يقوله الكهنة والمنجمون ، فإنما هو وهم وظنّ وافتراء .

قال صلى اللّه عليه وسلم من أتى كاهنا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ،

لأن علم الغيب يختص باللّه ، فإذا اعتقد الإنسان بقول المنجم فقد أشرك باللّه عزّ وجل .

[سورة فصلت (41) : الآيات 49 إلى 51]

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51)

الإعراب :

(لا) نافية (من دعاء) متعلّق بـ (يسأم) ، (الواو) عاطفة (مسّه) ماض في محلّ جزم فعل الشرّط (الفاء) رابطة لجواب الشرّط (يئوس) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (قنوط) خبر ثان مرفوع وهو للتوكيد .

جملة : "لا يسأم الإنسان . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "مسّه الشّر . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يسأم

الجدول ج 25 ، ص : 11

(329/683)

وجملة : " (هو) يئوس . . . "في محلّ جزم جواب الشرّط مقترنة بالفاء 50 - (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (أذقناه) مثل مسّه (منّا) متعلّق بنعت لـ (رحمة) (من بعد) متعلّق بـ (أذقناه) ، (اللام) لام القسم (يقولّن) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع ، و(النون) نون التوكيد ، والفاعل هو ، (لي) متعلّق بخبر المبتدأ (هذا) ، (ما) نافية (لئن) مثل الأول ، و(التاء) في (رجعت) نائب الفاعل ، وهو مثل مسّه (إلى ربّي) متعلّق بـ (رجعت) ، (لي) متعلّق بخبر إنّ مقدّم (عنده) ظرف منصوب

متعلّق بحال من الحسنى (اللام) لام القسم (الحسنى) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (ننبّئنّ) مثل يقولّن (ما) حرف مصدري "

، والمصدر المؤوّل (ما عملوا . . .) في محلّ جرّ متعلّق بـ (ننبّئنّ) .

(لنذيقنّهم) مثل لننبّئنّ (من عذاب) متعلّق بـ (نذيقنّهم) وجملة : " أذقناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مسّه الشرّ وجملة : " مسّته . . . " في محلّ جرّ نعت لضرّاء وجملة : " يقولّن . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرّط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " هذا لي . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " ما أظنّ الساعة قائمة " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول وجملة : " رجعت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أذقناه .

وجملة : " إنّ لي عنده للحسنى " لا محلّ لها جواب القسم ، وجواب الشرّط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي بما عملوه . .

وجملة : " ننبّئنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة جواب شرط مقدّر أي : إن قامت الساعة فلننبّئنّ الذين كفروا . . .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " لنذيقنّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لننبّئنّ . . .

51 – (الواو) عاطفة في الموضعين (على الإنسان) متعلّق بـ (أنعمنا) ، (بجانبه) متعلّق بـ (نأى) ، و(الباء) للتعدية (إذا مسّه الشرّ فذو . .) مثل إن مسّه الشرّ فيئوس .

وجملة : " أنعمنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أعرض . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " نأى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعرض وجملة : " مسّه الشرّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " (هو) ذو . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم

الصرف :

(قنوط) ، صيغة مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ قنط ، وزنه فعول بفتح الفاء .

(نأى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله نأى – بياء في آخره – مصدره النأى . . تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا (عريض) ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ عرض باب كرم ، وزنه فعيل .

البلاغة

الاستعارة المكنية التخييلية : في قوله تعالى " فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ " .

" عريض " أي : كثير مستمر ، مستعار مما له عرض متسع ، وأصله مما يوصف به الأجسام ، هو أقصر الامتدادين ، ويفهم في العرف من العريض الاتساع ، وصيغة

الجدول ج 25 ، ص : 13

المبالغة وتنوين التكثير يقويان ذلك . وطبعا استعارة العرض أبلغ من استعارة الطول ، لأنه إذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله ، حيث شبه الدعاء بأمر يوصف بالامتداد ثم أثبت له العرض .

الفوائد

- حذف المبتدأ . .

1 - يكثر حذف المبتدأ في جواب الاستفهام كقوله تعالى : وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ ؟ نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ أي هي نار اللّه وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ ؟ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ أي هم في سدر مخضود .

(331/683)

2 – وبعد فاء الجواب : كقوله تعالى مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها أي فعمله لنفسه وإساءته عليها . وكذلك كما في قوله تعالى في هذه التي نحن بصددها وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ أي فهو يئوس قنوط .

3 – وبعد القول : كقوله تعالى : قالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي :

هي أساطير الأوّلين .

4 – وبعد ما الخبر صفة له في المعنى : كقوله تعالى : التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ أي هم التائبون .

فالتائبون خبر للمبتدأ هم المحذوف كإعراب ، أما كمعنى فهو صفة له . وكذلك (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) أي هم صمّ .

5 – وقد وقع في غير ذلك أيضا كقوله تعالى : لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ أي تقلبهم متاع . و(لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) أي هذا بلاغ . و(سُورَةٌ أَنْزَلْناها) أي هذه سورة .

[سورة فصلت (41) : آية 52]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52)

الإعراب :

(أرأيتم) أخبروني ، والمفعول الأول محذوف تقديره أنفسكم (كان) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط واسمه ضمير مستتر يعود على القرآن المفهوم من السياق (من عند) متعلّق

بخبر كان (به) متعلّق بـ (كفرتم) ، (من) اسم استفهام مبتدأ خبره (أضلّ) ، (ممّن) متعلّق بـ (أضلّ) (في شقاق) متعلّق بخبر المبتدأ (هو) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرأيتم . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " إن كان من عند . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرّط محذوف دلّ عليه الجملة الاسميّة بعده أي فأنتم أضلّ . . أو فلا أحد أضلّ منكم وجملة : " كفرتم به . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان . .

(332/683)

وجملة : " من أضلّ . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله أرأيتم وجملة : " هو في شقاق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من)

[سورة فصلت (41) : آية 53]

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)

الإعراب :

(في الآفاق) متعلّق بحال من آياتنا وكذلك (في أنفسهم) فهو معطوف على الأول (حتّى) حرف غاية وجر (يتبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (لهم) متعلّق بـ (يتبيّن) . .

والمصدر المؤوّل (أن يتبيّن . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (نريهم) والمصدر المؤوّل (أنّه الحقّ . .) في محلّ رفع فاعل يتبيّن (الهمزة) للاستفهام التقريري (الواو) عاطفة (ربّك) مجرور لفظا بالباء منصوب محلّا مفعول يكف " 1 " ، (على كلّ) متعلّق بـ (شهيد) خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّه على كلّ شيء شهيد) في محلّ رفع فاعل يكفى جملة : " سنريهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يتبيّن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يكف بربّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي ألم يغن ربّك ويكفه أنّه . . .

[سورة فصلت (41) : آية 54]

أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

الإعراب :

(ألا) أداة تنبيه (في مرية) متعلّق بخبر إنّ (من لقاء) متعلّق بـ (مرية) ، (ألا) مثل الأولى (بكلّ)

متعلّق بـ (محيط) .

جملة : " إنّهم في مرية . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّه بكلّ شيء محيط " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(53) الآفاق : جمع الأفق بمعنى الناحية ، وزنه فعل بضمّتين ، المدّة في الآفاق أصلها همزتان الأولى مفتوحة والثانية ساكنة على وزن أفعال أي أأفاق . .

(يكف) ، إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، فهو معتلّ ناقص جزم بـ (لم) ، وزنه يفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 24 صـ 285 : حـ 25 صـ 16 ﴾

---

(1) يجوز أن يكون هو الفاعل مرفوع محلّا ، والمصدر المؤوّل بعده بدلّ منه ، أو في محلّ جرّ بباء محذوفة أي : ألم يكفهم ربّك بأنّه على كلّ شيء شهيد .

(333/683)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(41) سورة فصلت

مكية وآياتها اربع وخمسون

[سورة فصلت (41) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (2) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)
بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4)
وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا
عامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ
وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (7)

الإعراب :

(حم ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) حم خبر لمبتدأ محذوف وتنزيل خبر لمبتدأ محذوف أيضا أي هو تنزيل ومن الرحمن الرحيم متعلقان بتنزيل وأجاز الزجاج أن يكون تنزيل مبتدأ وقوله كتاب الآتي خبره وساغ الابتداء بتنزيل لأنه تخصص بالصفة وعليه درج الجلال وشراحه وما ذكرناه أولا أولى (كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) كتاب بدل من تنزيل أو خبر بعد خبر وجملة فصلت آياته صفة للكتاب أي ميزت وجعلت تفاصيل في شتى المعاني وآياته نائب فاعل وقرآنا حال من كتاب وعربيا نعت وأجاز الزمخشري إعراب قرآنا بالنصب على الاختصاص ولقوم متعلقان بفصلت وجملة يعلمون نعت لقوم وأعرب الزمخشري لقوم بقوله : " والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله " .

(334/683)

(بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ) يجوز أن يكونا نعتين لقرآنا وأن يكونا حالين إما من كتاب وإما من آياته وإما من الضمير المنوي في قرآنا ، فأعرض الفاء عاطفة على فصلت وأكثرهم فاعل ، فهم الفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة لا يسمعون خبرهم .

(وَقالُوا : قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ) الواو عاطفة أو استئنافية وقالوا فعل ماض وفاعل وقلوبنا مبتدأ وفي أكنة خبر أي أغطية ومما متعلقان بمحذوف أي تمنعنا مما تدعونا وقال أبو البقاء : " هو محمول على المعنى إذ معنى في أكنة أنها محجوبة عن سماع ما تدعونا إليه ولا يجوز أن يكون نعتا لأكنة لأن الأكنة الأغشية وليست الأغشية مما يدعو إليه " وهذا كلام شامل لا يعين الاعراب ولهذا جنحنا إلى تقدير تمنعنا وقريب من الوجه الذي اخترناه قول زاده في حاشيته على البيضاوي : " في الكلام حذف تقديره في أكنة تمنعنا من فهم ما تدعونا إليه فحذف المضاف " فما يتعلق به مما هو النعت لأكنة . ولواو حرف عطف وفي آذاننا خبر مقدم ووقر مبتدأ مؤخر .

(335/683)

)

وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ) الواو حرف عطف ومن بيننا خبر مقدم وبينك معطوف على بيننا وحجاب مبتدأ مؤخر ، فاعمل الفاء الفصيحة أي إن عرفت ما قلناه لك ووعيته فاعمل ، وإننا إن واسمها وعاملون خبرها أي فاستمر على دعوتك فإننا مستمرون على ديننا وهو الإشراك وسيأتي مزيد بسط لهذا الكلام في باب البلاغة . (قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ) إنما كافة ومكفوفة وأنا مبتدأ وبشر خبر ومثلكم نعت وجملة يوحى نعت ثان لبشر ، وإلي متعلقان بيوحى ونائب الفاعل أن وما بعدها وأنما كافة ومكفوفة وهي مع مدخولها نائب فاعل يوحى وإلهكم مبتدأ وإله خبر وواحد نعت . (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ) الفاء الفصيحة واستقيموا فعل أمر وفاعل وهو متضمن معنى توجهوا ولذلك عدي بإلى واستغفروه عطف على فاستقيموا وويل الواو عاطفة وويل مبتدأ ساغ الابتداء به لما فيه من معنى الدعاء وللمشركين خبر والذين نعت وجملة لا يؤتون الزكاة صلة ولا يتنافى عطف الاسمية على الفعلية لأن الأول متجدد وهو عدم إيتاء الزكاة والثاني مستمر وهو الكفر (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ) الواو عاطفة وهم مبتدأ وبالآخرة متعلقان بهم وهم الثانية تأكيد للأولى وكافرون خبرهم .

البلاغة :

اشتملت الآية " وقالوا قلوبنا في أكنة " إلى قوله " عاملون " على نكت بلاغية تستحق أن تكتب بذوب التبر ففيها ثلاث استعارات تمثيلية لنبو قلوبهم عن إدراك ما يدعوهم اليه واعتقاده ومج أسماعهم له وامتناع مواصلتهم وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول .

1 - فأولها الحجاب الحائل الخارج فقد شبهوا قلوبهم بالشيء المحوى المحاط بالغطاء المحيط له .

(336/683)

---

2 - وثانيها حجاب الصمم فقد شبهوا أسماعهم بآذان بها صمم من حيث أنها تمج الحق ولا تميل إلى استماعه .

3 - وثالثها وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله فقد شبهوا حال أنفسهم مع الرسول بحال شيئين بينهما حجاب عظيم يمنع من وصول أحدهما إلى الآخر فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها فلم تدع هذه الآية حجابا مرتخيا إلا سدلته ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطمعا ولا صريخا إلا استلبته .

هذا ولا بد من الاشارة إلى ما تضمنته من إشارات فهي تفيد الابتداء والمعنى أن حجابا ابتدأ منّا وابتدأ منك . أما بين فقد تكررت ومعناها واحد وقد وهم الزمخشري فجعل بين

الثانية غير الأولى لأنه جعل الأولى بجهتهم والثانية بجهته وليس الأمر كما ظنه بل بين الأولى هي الثانية بعينها وهي عبارة عن الجهة المتوسطة بين المضافين وتكرارها إنما كان لأن المعطوف مضمر محفوظ فوجب تكرار حافظه وهو بين والدليل على هذا أنه لا تفاوت بين أن تقول جلست بين زيد وعمرو وبين أن تقول جلست بين زيد وبين عمرو وإنما كان ذكرها مع الظاهر جوازا ومع المضمر وجوبا لما بيناه فإذا وضح ذلك فموقع من ها هنا كموقعها في قوله تعالى : " وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا " وذلك للإشعار بأن الجهة المتوسطة مثلا بينهم وبين النبي صلى اللّه عليه وسلم مبدأ الحجاب .

الفوائد :

منع الزكاة وسرها :

تساءل المفسرون جميعا : لم خص تعالى من أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ، وأجابوا بأسئلة متشابهة فحواها أن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه فإذا بذله في سبيل اللّه فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته ، ونص عبارة الزمخشري في هذا الصدد : " ألا ترى إلى قوله عز وجل :

"

مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة اللّه وتثبيتا من أنفسهم " أي يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال " هذا ولو استعرضنا معنى اسم الزكاة لوجدناه يرمز إلى أسمى الخصائص وأعلاها فهي تطهر المال من الخبث وتنقيه من الآفات وتبعد النفس عن رذيلة البخل ، وتنميها على فضيلة الكرم وتستجلب بها البركة ، وتزيد المتصدق ثناء ومدحا ويكفر جاحدها ويقاتل الممتنعون من أدائها وتؤخذ منهم وإن لم يقاتلوا قهرا ، وعن أنس بن مالك قال : " أتى رجل من تميم إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه إني ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضرة فأخبرني كيف أصنع وكيف أنفق ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك وتصل أقرباءك وتصرف حق المسكين والجار والسائل " .

[سورة فصلت (41) : الآيات 8 إلى 12]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً

ذِلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

الاعراب :

)

(338/683)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) كلام مستأنف مسوق لذكر ما أعد للصالحين بعد ما ذكر ما أعد للجاهلين ، وإن واسمها وجملة آمنوا صلة وعملوا عطف على آمنوا والصالحات مفعول به منصوب بالكسرة ولهم خبر مقدم وأجر مبتدأ مؤخر وغير ممنون نعت والجملة الاسمية خبر إن ومعنى غير ممنون : غير مقطوع وقيل غير ممنون به عليهم . (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) الهمزة للاستفهام الإنكاري وإن واسمها واللام المزحلقة وجملة تكفرون خبر إن وبالذي متعلقان وبتكفرون وجملة خلق الأرض صلة وفي يومين متعلقان بخلق والمراد مقدار يومين أو في نوبتين كل نوبة أسرع مما يكون في يوم . (وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذِلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ) الواو عاطفة وتجعلون عطف على تكفرون وله في محل نصب مفعول تجعلون الثاني وأندادا مفعوله الأول وذلك مبتدأ والإشارة إلى الذي باعتبار اتصافه بما دلت عليه الصلة ورب العالمين خبره .

)

وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها) الواو عاطفة على الأصح فقد منع أبو البقاء وغيره العطف قال : " وجعل فيها هو مستأنف غير معطوف على خلق لأنه لو كان معطوفا عليه لكان داخلا في الصلة ولا يجوز ذلك لأنه فصل بينهما بقوله تعالى : وتجعلون إلى آخر الآية وليس من الصلة في شيء " ويمكن أن يرد على ذلك بأن قوله وتجعلون وإن كان معطوفا على تكفرون فهو بمثابة الاعتراض بين المتعاطفين والاعتراض كثيرا ما يأتي بينهما فالحق الذي لا مرية فيه أنه معطوف على خلق الأرض فهو من جملة الصلة وفيها في محل المفعول الثاني ورواسي مفعول جعل الأول ، ولك أن تعلق الجار والمجرور بجعل على أنه بمعنى خلق فهو ينصب مفعولا واحدا ومن فوقها نعت لرواسي وما أجمل وقع هذا النعت لئلا يتوهم أنها من تحتها فتكون ممسكة لها ومانعة من الميدان ثم لتكون الجبال معروضة للناظرين بحيث تحتاج هي والأرض إلى ممسك لها وبارك فيها عطف على جعل فيها .

(وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ) وقدر فيها عطف على ما تقدم أي أرزاق أهلها ومعايشهم وفي أربعة أيام متعلقان بقدر أي في تمام ومقدار أربعة أيام وسواء نصب

على المصدر أي استوت الأيام الأربعة استواء لا تزيد ولا تنقص وقرىء بالجر على الوصف وبالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وللسائلين متعلقان بسواء بمعنى مستويات للسائلين أو بمحذوف كأنه قيل : هذا الحصر لأجل من سأل في كم يوم خلقت الأرض وما فيها أو متعلقان بمقدر أي قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين والمحتاجين إليها من المقتاتين . وأجاز أبو البقاء إعراب سواء حلا بعد أن ذكر الأوجه المتقدمة وهو جائز على أنه حال من الضمير في أقواتها أو فيها أو من الأرض .

(340/683)

)

ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ) ثم حرف عطف للترتيب الإخباري لا الزماني واستوى فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وإلى السماء متعلقان باستوى من قولك استوى إلى مكان كذا إذا قصده وتوجه إليه توجها مستقيما لا يلوي غلى شيء والواو للحال وهي مبتدأ ودخان خبر وسيأتي معنى هذا التشبيه في باب البلاغة .

(فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ) الفاء عاطفة وقال فعل ماض وفاعله مستتر يعود على اللّه تعالى ولها متعلقان بقال وللأرض عطف على لها وائتيا فعل

أمر مبني على حذف النون وألف الاثنين فاعل وطوعا وكرها مصدران في موضع الحال أي طائعتين أو كارهتين وسيأتي مزيد بحث عن هذه الآية في باب البلاغة .

(فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها) الفاء عاطفة وقضاهن فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وسبع سموات مفعول ثان لقضاهن لأنه ضمن معنى صير ويجوز أن يكون منصوبا على الحال من مفعول قضاهن فتكون قضى بمعنى صنع أي معدودة ويجوز أن يكون منصوبا على البدلية من الضمير ويجوز أن يكون تمييزا وإليه جنح الزمخشري قال " ويجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسرا لسبع سنوات على التمييز " ويعني الزمخشري بقوله مبهما أنه لا يعود على السماء لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى بخلاف كونه حالا أو مفعولا ثانيا ، وأوحى عطف على فقضاهن وفي كل سماء متعلقان بأوحى وأمرها مفعول به .

(وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) وزينا عطف على ما تقدم على طريق الالتفات كما سيأتي في باب البلاغة وزينا فعل وفاعل والسماء مفعول به والدنيا نعت وبمصابيح متعلقان بزينا أي بنجوم وحفظا مفعول مطلق لفعل محذوف أي وحفظناها

حفظا من استراق الشياطين السمع للشهب وأجاز الزمخشري أن يكون مفعولا لأجله على المعنى كأنه قال وخلقنا المصابيح زينة وحفظا وذلك مبتدأ والاشارة إلى ما ذكر كله بتفاصيله وتقدير العزيز العليم مضاف إليه .

البلاغة :

1- التشبيه البليغ الصوري :

في قوله " ثم استوى إلى السماء وهي دخان " تشبيه بليغ صوري لأن صورتها صورة الدخان في رأي العين والمراد بالدخان البخار الذي تتشكل منه الطبقات الهوائية فلا منافاة مع أحدث نظريات العلم .

2- الاستعارة المكنية :

وفي قوله استوى إلى السماء استعارة مكنية فالمستعار الاستواء والمستعار منه كل جسم مستو والمستعار له هو الحق عز وجل وقد تقدم تفصيل هذه الاستعارة كثيرا فتدبره .

3- وفي قوله " فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين " فنون شتى نجملها بما يلي :

أ- إسناد القول للأرض والسماء وتوجيه الخطاب لهما من باب المجاز العقلي والقصد من هذا المجاز تصوير قدرته سبحانه واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات للطوع والكره لهما

، ويجوز أن يكون هذا من باب الاستعارة المكنية فقد شبههما بكائنين حين عاقلين ثم حذف المشبه به وأثبت شيئا من لوازمه لتمثيلهما بأمر المطاع وإجابة الطائع كما تقول نطقت الحال بكذا بدل دلت فيجعل الحال كالانسان الذي يتكلم في الدلالة والبرهان ثم يتخيل له النطق الذي هو من لازم المشبه به وينسب اليه .

ب- الطباق بين طوعا وكرها .

ج- تغليب المذكر العاقل على المؤنث أو التنزيل منزلته في قوله " قالتا أتينا طائعين " .

4- الالتفات :

وفي قوله " وزينا السماء الدنيا بمصابيح الآية " التفات من الغيبة إلى التكلم فقد أسند التزيين إلى ذاته سبحانه لإبراز مزيد العناية بالتزيين المذكور .

[سورة فصلت (41) : الآيات 13 إلى 16]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا

أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16)

اللغة :

(صَرْصَراً) : قال الزمخشري : " الصرصر : العاصفة التي تصرصر أي تصوت في هبوبها وقيل : الباردة التي تحرق بشدة بردها ، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصر أي يجمع ويقبض " وفي القاموس " الصرة بالكسر شدة البرد أو البرد كالصرّ فيهما وأشد الصياح وبالفتح الشدة من الكرب والحرب والحر . . . وصرّ يصرّ من باب ضرب صرّا وصريرا صوّت وصاح شديدا " وقال ابن قتيبة صرصر يجوز أن يكون من الصرّ وهو البرد ويجوز أن يكون من صر الباب وأن يكون من الصرة وهي الصيحة ومنه فأقبلت امرأته في صره " وقال الراغب : " صرصر لفظه من الصر وذلك يرجع إلى الشد لما في البرودة من التعقّد " .

وللصاد مع الراء فاء وعينا للكلمة معنى الشدة والظهور النصوع ، فصرب : جاء بضربة تزري الوجه وتقول : جزى اللّه بضربة ، من جاءنا بصربة ، وصرح بما في نفسه وبنى صرحا وصروحا وقعد في صرحة داره أي في ساحتها وصرحت الخمرة : ذهب عنها الزبد ، والصراخ : صوت المستغيث وصوت المغيث إذا خرج بقومه للإغاثة قال سلامة :

إنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنابيب

أي كان الغياث له ، وهذا يوم صرد وصرد ويوم صرد وقد صرد يومنا وليلة صردة ورجل صرد وريح مصراد باردة شديدة البرد ، وصرعته تركته صريعا وتركتهم صرعى وصرعهم ريب المنون

وليس أشد من ذلك وبات صريع الكأس ، قال مسلم بن الوليد صريع الغواني :

هل العيش إلا أن أروح مع الصبا وأغدو صريع الراح والأعين النجل

وحفظك اللّه من صرف الزمان وصروفه وتصاريفه ، وزرع صريم ومصروم مجزوز وصرم النخل واصطرمه ، وماء صريّ مجموع .

ولا يجتمع إلا ليظهر ، قال ذو الرمة :

صرى آجن يزوي له المرء وجهه ولو ذاقه ظمآن في شهر ناجر

وهذا من الغريب الذي يبز اللغات .

(نَحِساتٍ :) بكسر الحاء وسكونها وهما قراءتان سبعيتان أي مشئومات عليهم فأما الكسر فهو صفة على فعل وفعله فعل بكسر العين أيضا يقال نحس فهو نحس كفرح فهو فرح وأشر فهو أشر وأما السكون فهو مصدر وصف به كرجل عدل ولكن يشكل على هذه القراءة جمعه فإن الفصيح في المصدر الموصوف به أن يوحد وكأن المسوغ له اختلاف أنواعه

في الأصل .

الاعراب :

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ) كلام مستأنف على طريق الالتفات ، مسوق لتحذيرهم بعد إعراضهم ، وللالتفات سر بليغ نورده في باب البلاغة ، وإن شرطية وأعرضوا فعل

ماض والواو فاعل والفعل في محل جزم فعل الشرط ، فقل الفاء رابطة وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وأنذرتكم فعل ماض وفاعل ومفعول به ، وعبّر بالماضي وسياق الكلام يقتضي الاستقبال للدلالة على تحقق الإنذار ، وصاعقة مفعول به ثان ومثل نعت لصاعقة .

)

(344/683)

إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) الظرف متعلق بصاعقة لأنها بمعنى العذاب وجملة جاءتهم الرسل في محل جر بإضافة الظرف إليها ومن بين أيديهم متعلقان بجاءتهم ومن خلفهم عطف عليه أي من جميع جوانبهم أو من جهة الزمان الماضي بالإنذار ومن جهة

المستقبل بالتحذير وأعربه بعضهم متعلقا بمحذوف حال من الرسل أي حال كون الرسل من بين أيدي عاد وثمود ومن خلفهم ورجح الزمخشري الأول في تفسيره لمعناه قال : " أي أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة وتقول استدرت بفلان من كل جانب فلم يكن لي فيه حيلة " .

(أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) يجوز في أن هذه ثلاثة أوجه : أحدها أن تكون مخففة من الثقيلة أصله أنه لا تعبدوا أي بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره قائلين وهو حال من الرسل ولا ناهية وتعبدوا فعل مضارع مجزوم بلا وإلا أداة حصر ولفظ الجلالة مفعول به ، والوجه الثاني أن تكون مصدرية تنصب الفعل المضارع ولا نافية وتعبدوا فعل مضارع منصوب بأن بعد لا النافية فإن لا النافية لا تمنع عمل العامل فيما بعدها ، والوجه الثالث أن تكون مفسرة لأن مجيء الرسل يحمل القول وتكون الجملة لا محل لها لأنها مفسرة . (قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ) قالوا فعل ماض وفاعل ولو حرف شرط غير جازم وشاء

ربنا فعل وفاعل والمفعول به محذوف تقديره إرسال الرسل والأحسن أن يقدر من جنس جوابها أي لو شاء ربنا إنزال ملائكة بالرسالة إلى الإنس لأنزل إليهم بها ملائكة والفاء الفصيحة وان واسمها وبما متعلقان بكافرون وجملة أرسلتم به صلة وكافرون خبر إن

والمعنى فإذ أنتم بشر ولستم ملائكة فإننا لا نؤمن بكم .

)

(345/683)

فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) الفاء استئنافية والكلام مستأنف مسوق للشروع في حكاية ما يختص به كل واحد منهما وأما حرف شرط وتفصيل وعاد مبتدأ والفاء رابطة لجواب أما وجملة استكبروا خبر عاد وفي الأرض متعلقان باستكبروا وبغير الحق حال . (وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) وقالوا عطف على فاستكبروا ومن اسم استفهام مبتدأ وأشد خبر والجملة مقول القول ومنا متعلقان بأشد وقوة تمييز . (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو حرف عطف وجملة لم يروا معطوفة على مقدر يقتضيه السياق أي اغفلوا وضلوا ولم يروا وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يروا لأنها بمعنى العلم وأن واسمها والذي نعت وجملة خلقهم صلة وهو مبتدأ وأشد خبر ومنهم متعلقان بأشد وقوة تمييز والجملة خبر أن .

(وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ) عطف على قوله فاستكبروا أيضا والجملة المعطوفة والمعطوف عليه المقدر اعتراض وبآياتنا متعلقان بيجحدون لأنه متضمن معنى يكفرون . (فَأَرْسَلْنا

عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا) الفاء عاطفة وأرسلنا فعل وفاعل وعليهم متعلقان بأرسلنا وريحا مفعول به وصرصرا نعت وفي أيام نعت ثان أو حال ونحسات نعت لأيام ، ولنذيقهم اللام

للتعليل ونذيقهم فعل مضارع منصوب بأن بعد لام التعليل والهاء مفعول به والجار والمجرور متعلقان بأرسلنا وعذاب الخزي مفعول به ثان لنذيقهم وهو من إضافة الموصوف إلى صفته وسيأتي تفصيله في باب البلاغة وفي الحياة متعلقان بنذيقهم والدنيا نعت للحياة .

)

(346/683)

وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ) الواو استئنافية واللام للابتداء وعذاب الآخرة مبتدأ وأخزى خبر والواو عاطفة وهم مبتدأ وجملة لا ينصرون خبر وينصرون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

البلاغة :

اشتملت هذه الآيات على أفانين متعددة من البلاغة نوردها فيما يلي :

1 - الالتفات في قوله : " فإن أعرضوا " الآية فقد خاطبهم أولا بقوله : " أئنكم " بيد أنهم لم

يأبهوا لخطابه ولم يستوعبوا نصحه فالتفت من الخطاب إلى الغيبة لأنهم فعلوا الإعراض فليس له إلا أن يعرض عن خطابهم ليصح التلاؤم ، ويناسب اللفظ المعنى ، وهذا من أرفع أنواع البلاغة وأرقاها وكم للالتفات من أسرار .

2- العدول عن المضارع المستقبل إلى الماضي بقوله " فقد أنذرتكم " للدلالة على أن ما ينذرهم به أمر متحقق لا مندوحة عنه .

3- الاسناد المجازي في قوله " عذاب الخزي " فإنه أضاف العذاب إلى الخزي الذي هو الذل ، والخزي الذي هو الذل

والاستكانة في الأصل صفة المعذب ولكنه جنح إلى وصف العذاب به للمبالغة فهو كما قلنا في الاعراب من اضافة الموصوف إلى صفته .

4- المشاركة في قوله " ولعذاب الآخرة أخزى " وجعل الخزي هذه المرة خبرا للمشاكلة على حد قول الشاعر :

" قلت اطبخوا لي جبة وقميصا " وقد تقدم بحث هذا الفن .

5- في قوله " فاستحبوا العمى على الهدى " استعارة تصريحية فقد شبه الكفر بالعمى لأن الكافر ضال عن القصد ، متعسف الطريق كالأعمى ، وشبه الإيمان بالهدى لأن المؤمن مهتد إلى محجة القصد وسواء السبيل ثم حذف المشبه في كليهما وأثبت المشبه به .

6- الطباق بين العمى الهدى وقد تقدم.

[سورة فصلت (41) : الآيات 17 إلى 25]

(347/683)

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21)

وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (25)

اللغة :

(يُوزَعُونَ) : يحبس أولهم على آخرهم أي يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم وتشير إلى معنى الكثرة وفي معاجم اللغة :

" وزع يزع من باب فتح ووزع يزع من باب ضرب فلان وبفلان :

كفه ومنعه ووزع الجيش حبس أولهم على آخرهم يقال رأيته يزع الجيش أي يرتبهم ويسويهم ويصفهم للحرب " وقد تقدم ذكر هذه المادة .

(يَسْتَعْتِبُوا) : يطلبوا العتبي أي الرضا والرجوع لهم إلى ما يحبون جزعا مما هم فيه .

)

(348/683)

قَيَّضْنا) : هيأنا ، وأصل التقييض التيسير والتهيئة ، والمقايضة المعاوضة .

الاعراب :

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى) عطف على قوله فأما عاد وأما حرف شرط وتفصيل وثمود مبتدأ وجملة فهديناهم الخبر والفاء عاطفة واستحبوا عطف على هديناهم والعمى مفعول به وعلى الهدى متعلقان باستحبوا لأنه متضمن معنى آثروا (فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ) الفاء عاطفة وأخذتهم فعل ماض

ومفعول به مقدم وصاعقة العذاب فاعل مؤخر والهون نعت للعذاب أو بدل منه وبما متعلقان بأخذتهم والباء معناها السببية وما موصولة وجملة كانوا صلة وكان واسمها وجملة يكسبون خبرها والعائد محذوف أي بالذي كانوا يكسبونه من شركهم وتكذيبهم نبيهم صالحا .

(وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) الواو حرف عطف ونجينا فعل وفاعل والذين مفعول به وجملة آمنوا صلة وكانوا عطف على آمنوا وكان واسمها وجملة يتقون خبرها . (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) الواو استئنافية ويوم مفعول لفعل محذوف تقديره اذكر يوم وجعله أبو البقاء ظرفا لما دل عليه بعده وهو قوله تعالى " فهم يوزعون " كأنه قال يمنعون يوم نحشر ، وليس ببعيد ، وجملة يحشر في محل جر بالإضافة وأعداء اللّه نائب فاعل والى النار متعلقان بيحشر والفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة يوزعون خبر . (حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) حتى حرف غاية وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط متعلق بجوابه وهو شهد وما زائدة لتأكيد

الشهادة وما المزيدة تؤكد معنى ما اتصلت به في النسبة التي تعلقت به وهنا أكدت ظرفية الوقت المحدد للشهادة وجملة جاءوها في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة شهد لا محل لها وعليهم متعلقان بشهد وسمعهم فاعل وأبصارهم وجلودهم معطوفان على سمعهم وبما متعلقان بشهد أيضا وجملة كانوا صلة ما وجملة يعملون خبر كان .

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) الواو عاطفة وقالوا فعل وفاعل ولجلودهم متعلقان بقالوا واللام حرف جر وما اسم استفهام مجرور بما ولذلك حذفت ألفها والجار والمجرور متعلقان بشهدتم وعلينا متعلقان بشهدتم والجملة مقول القول والاستفهام هنا للتوبيخ والتعجب من هذا الأمر (قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) قالوا فعل وفاعل وأنطقنا اللّه فعل ماض ومفعول به وفاعل والجملة مقول القول والذي صفة للّه وجملة أنطق كل شيء صلة الذي .

(وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) الواو عاطفة وهو مبتدأ وجملة خلقكم خبر وأول مرة ظرف متعلق بخلقكم وإليه متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل . (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ)

عطف على ما تقدم وما نافية وكنتم كان واسمها وجملة تستترون خبرها وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بتستترون أي من أن يشهد عليكم لأن تستترون لا يتعدى بنفسه وقيل هو مفعول لأجله أي لأجل أن يشهد عليكم سمعكم وعليكم متعلقان بيشهد وسمعكم فاعل ولا أبصاركم ولا جلودكم عطف على سمعكم أي

ما كان استتاركم خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم لأنكم لم تكونوا تتصورون شهادتها بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلا .

(350/683)

)

وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ) الواو عاطفة ولكن حرف استدراك مهمل وظننتم فعل وفاعل وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي ظننتم وان واسمها وجملة لا يعلم خبرها وكثيرا مفعول به ومما نعت لكثير وجملة تعملون صلة والعائد محذوف أي تعملونه .

(وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ) الواو عاطفة وذلكم مبتدأ وظنكم خبر والذي ظننتم نعت أو بدل وبربكم متعلقان بظننتم وجملة أرداكم خبر ثان ويجوز إعراب ظنكم بدلا من ذلكم أو ظنكم خبر وجملة أرداكم حال فأصبحتم عطف على أرداكم وأصبح واسمها ومن الخاسرين خبرها . (فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) الفاء استئنافية وإن شرطية ويصبروا فعل الشرط والفاء رابطة والنار مبتدأ ومثوى خبر ولهم نعت لمثوى .

(وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) عطف على الجملة السابقة وما نافية حجازية وهم اسمها ومن المعتبين خبرها . (وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ) فعل وفاعل ولهم متعلقان بقيضنا وقرناء مفعول به أي يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض ، والقيض قشر البيض الأعلى اليابس على البيضة أو هي التي خرج ما فيها من فرخ أو ماء وموضعهما المقيض ، فزينوا فعل وفاعل ولهم متعلقان بزينوا وما مفعول به والظرف متعلق بمحذوف صلة ما وأيديهم مضاف إليه وما خلفهم عطف على ما بين أيديهم .

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ) الواو عاطفة وحق فعل ماض وعليهم متعلقان بحق والقول فاعل وفي أمم متعلقان بمحذوف حال أي كائنين في جملة أمم

أو مندرجين وهو حال من الضمير في عليهم ومثل هذا التعبير قول عروة بن أذينة :

(351/683)

إن تك عن أحسن الضيعة مأفوكا ففي آخرين قد أفكوا

يقول : إن تكن مأفوكا أي مصروفا ومنقلبا عن أحسن العطاء فلا عجب فأنت في جملة

أناس آخرين قد أفكوا وصرفوا عن الإحسان .

وجملة قد خلت صفة لأمم ومن قبلهم متعلقان بخلت ومن الجن والانس نعت ثان لأمم أو حال لأنها وصفت وان واسمها وجملة كانوا خبرها وكان واسمها وخاسرين خبر كان وجملة إن وما بعدها تعليلية لاستحقاقهم العذاب .

البلاغة :

الكناية :

في قوله (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) كناية عن موصوب فقد كنى عن الفروج بالجلود وقيل أراد بالجلود الجوارح عامة والعطف من عطف العام على الخاص فليس في الكلام كناية إذن ، فالجلود هنا تفسّر حقيقة ومجازا ، أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة وهذا هو الجانب البلاغي الذي يرجح جانب المجاز على الحقيقة لما فيه من لطف الكناية عن المكنى عنه .

[سورة فصلت (41) : الآيات 26 إلى 29]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (28) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

اللغة :

)

(352/683)

الْغَوْا فِيهِ :) فعل أمر من لغي بالكسر يلغى بالفتح وفيها معنيان أحدهما أنه من لغى إذا تكلم باللغو وهو مالا فائدة فيه والثاني انه من لغي بكذا إذا رمى به فتكون في بمعنى الباء أي ارموا به وانبذوه ، وإما أن يكون من لغى بالفتح يلغى بالفتح أيضا ، حكاه الأخفش وكان قياسه الضم كغزا يغزو ولكنه فتح لأجل حرف الحلق وقرىء بضم الغين من لغا يلغو كدعا يدعو ، هذا ما قرره السمين ، وعبارة الزمخشري " والغوا فيه بفتح الغين وضمها يقال لغى يلغى ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته " .

الاعراب :

(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) كلام مستأنف مسوق لتقرير حالهم ومكابرتهم عند قراءة القرآن وقال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة ولا ناهية وتسمعوا فعل مضارع مجزوم بلا والجملة مقول القول ولهذا متعلقان بتسمعوا والقرآن بدل والغوا فعل أمر وفاعل وفيه متعلقان بالغوا ولعل واسمها وجملة تغلبون خبرها والمراد

بالغلبة حمله على السكوت عن القراءة لئلا يستهوي القلوب ويستميلها بقراءة ما لم يعهده من بيان . (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً) الفاء الفصيحة أي إن استمرءوا ذلك واستمروا فيه فلنذيقن ، واللام موطئة للقسم ونذيقن فعل مضارع مبني على الفتح واجب التأكيد والفاعل مستتر تقديره نحن والذين مفعول به وجملة كفروا صلة وعذابا مفعول به وشديدا نعت .

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ) عطف على ما تقدم وأسوأ الذي كانوا يعملون مفعول ثان لنجزينهم .

)

(353/683)

ذِلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ) ذلك مبتدأ والإشارة إلى المذكور من الأمرين وهما قوله فلنذيقن وقوله ولنجزينهم وجزاء أعداء اللّه خبر والنار بدل أو عطف بيان من جزاء ، واعترض بعضهم على هذا الاعراب بأن علامة البدل صحة حلوله محل المبدل منه فيصير التقدير ذلك النار وهذا لا يصح ولذلك ينبغي العدول عن الإعراب الأرجح إلى المرجوح وهو أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره سيأتي فيما بعد .

(لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ) لهم خبر مقدم وفيها حال ودار الخلد مبتدأ مؤخر والجملة إما خبر النار بناء على إعرابها مبتدأ أو في محل نصب حال أو مستأنفة مستقلة مقررة لما قبلها وهذا أقعد بمكان البلاغة كما سيأتي ، وجزاء مفعول مطلق منصوب بفعل مقدر وهو مصدر مؤكد أي يجزون جزاء أو منصوب بالمصدر المذكور قبله والمصدر ينصب بمصدر مثله وقد تقدمت له نظائر ولك أن تجعل جزاء مصدرا واقعا موقع الحال وبما متعلقان بجزاء الثاني أو الأول وجملة كانوا صلة وجملة يجحدون خبر كانوا وبآياتنا متعلقان بيجحدون لتضمنه معنى يكفرون وذلك خير من جعلها زائدة .

(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) الواو استئنافية وقال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وأرنا فعل أمر مبني على حذف حرف

(354/683)

العلة ونا مفعول به أول واللذين مفعول به ثان لأن الرؤية بصرية وقد عديت إلى اثنين بالهمزة وجملة أضلّانا صلة ومن الجن والإنس حال قيل هما إبليس وقابيل الأول سن الكفر والثاني

سن القتل بغير حق لأنه قتل أخاه كما تقدم . (نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)

نجعلهما فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به أول وتحت أقدامنا الظرف في موضع المفعول الثاني ، ليكونا اللام للتعليل ويكونا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والألف اسمها ومن الأسفلين خبرها والجار والمجرور متعلقان بفعل الرؤية لأنه تعليل لها .

البلاغة :

1 – في قوله " فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا " استعارة مكنية وقد تقدم اجراؤها كثيرا .

2 – وفي قوله " لهم فيها دار الخلد " تجريد ، وهو أن ينتزع من أمر ذي بال صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة لكماله فيها ، فقد انتزع من النار دارا أخرى سماها دار الخلد .

أقسام التجريد :

واعلم أن للتجريد أقسام ذكرها علماء البيان ، وسنحاول أن نورد ما قالوه فيها على سبيل الإيجاز :

1 – فمنه ما يكون بمن التجريدية كقولهم لي من فلان صديق حميم أي قد بلغ فلان حدا من الصداقة يصح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها ، ومثاله من الشعر قول القاضي الفاضل :

تمد إلى الأعداء منها معاصما فترجع من ماء الكلى بأساور

2- ومنه ما يكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه نحو قولهم : لئن سألت فلانا لتسألن به البحر ، بالغ في اتصافه بالسماحة حتى انتزع منه بحرا في السماحة .

3- ومنه ما يكون بدخول باء المعية والمصاحبة في المنتزع كقول ابن هانىء :

وضربتم هام الكماة ورعتم بيض الخدور بكل ليث مخدر

وقول أبي تمام :

هتك الظلام أبو الوليد بغرة فتحت لنا باب الرجاء المقبل

بأتم من قمر السماء إذا بدا بدرا وأحسن في العيون وأجمل

(355/683)

وأجل من قيس إذا استنطقته رأيا وألطف في الأمور وأجزل

هذا والمراد بأتم من قمر السماء نفس أبي الوليد كما لا يخفى .

4- ومنه أن يكون بدخول في على المنتزع منه أو مدخول ضميره كالآية التي نحن بصددها " لهم فيها دار الخلد " أي في جهنم وهي دار الخلد لكنه انتزع منها دارا أخرى مبالغة ، وقول المتنبي :

تمضي المواكب والأبصار شاخصة منها إلى الملك الميمون طائره

قد حرن في بشر في تاجه قمر في درعه أسد تدمى أظافره

فإن الأسد هو نفس الممدوح لكنه انتزع منه أسدا آخر تهويلا لأمره ومبالغة في اتصافه بالشجاعة .

5- ومنه أن يكون بدخول بين كقول ابن النبيه :

يهتزّ بين وشاحيها قضيب نقا حمائم الحلي في أفنانه صدحت

6- ومنه أن يكون بدون توسط شيء كقول قتادة بن سلمة الحنفي :

فلئن بقيت لأرحلن بعزة تحوي الغنائم أو يموت كريم

يعني بالكريم نفسه فكأنه انتزع من نفسه كريما مبالغة في كرمه ولذا لم يقل أو أموت ، وقول أبي تمام :

ولو تراهم وإيانا وموقفنا في مأتم البين لاستهلاكنا زجل

من حرقة أطلقتها فرقة أسرت قلبا ومن غزل في نحره عذل

وقد طوى الشوق في أحشائنا بقرا عينا طوتهن في أحشائها الكلل

ومراده بالبقر العين الذين أخبر عنهم أولا بقوله ولو تراهم فكأنه انتزع منهم موصوفين بهذه الصفة مبالغة فيها .

7- ومنه أن ينتزع الإنسان من نفسه شخصا آخر مثله في الصفة التي سيق لها الكلام ثم

يخاطبه كقول أبي الطيب المتنبي :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

أراد بالحال الغنى فكأنه انتزع من نفسه شخصا آخر مثله في فقد الخيل والمال والحال ، ومنه

قول الأعشى :

ودّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وقول أبي نواس الممتع :

يا كثير النوح في الدمن لا عليها بل على السكن

سنة العشاق واحدة فإذا أحببت فاستنن

ومراده الخطاب مع نفسه ولذلك قال بعده :

(356/683)

ظنّ بي من قد كلفت به فهو يجفوني على الظّن

بات لا يعنيه ما لقيت عين ممنوع من الوسن

رشأ لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتن

تقسيم آخر للتجريد :

وقسمه آخرون إلى قسمين فقط وهما : تجريد محض وتجريد غير محض فالأول ، وهو المحض ، أن يأتي بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك كقول الحيص بيص في مطلع قصيدة له :

إلام يراك المجد في زيّ شاعر وقد بخلت شوقا فروع المنابر

كتمت بعيب الشعر حلما وحكمة ببعضهما ينقاد صعب المفاخر

أما وأبيك الخير انك فارس المقال ومحيي الدارسات الغوابر

وأنك أعييت المسامع والنهى بقولك عما في بطون الدفاتر

فهذا من محاسن التجريد ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه كي يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة وعدّ ما عدّه من الفضائل التائهة ، وكل ما يجيء من هذا القبيل فهو التجريد المحض .

وأما القسم الثاني ، وهو غير المحض ، فإنه خطاب لنفسك لا لغيرك ، وبين هذا القسم والذي قبله فرق ظاهر وذاك أولى بأن

يسمى تجريدا لأن التجريد لائق به وهذا هو نصف تجريد لأنك لم تجرد به عن نفسك شيئًا وإنما خاطبت نفسك بنفسك كأنك فصلتها عنك وهي منك ، ومما جاء منه قول عمرو بن الاطنابة :

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

وقول الآخر وقد قتل أخواه ابنا له فقدم إليه أخوه ليقتاد منه فألقى السيف من يده وأنشأ يقول :

أقول للنفس تأساء وتعزية إحدى يديّ أصابتني ولم ترد

كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وذكر أبو علي الفارسي كلاما جميلا بصدد التجريد فقال :

"

(357/683)

إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره وهو هو بعينه نحو قولهم : لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ولئن سألته لتسألن به البحر وهو عينه الأسد والبحر لا أن هناك شيئا منفصلا عنه أو متميزا منه " ثم قال " وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره كما قال الأعشى :

ودّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وهو الرجل نفسه لا غيره .

وقد عقب ابن الأثير على ما ذكره أبو علي فقال : " والذي عندي أنه أصاب في الثاني ولم يصب في الأول لأن الثاني هو التجريد ، ألا ترى أن الأعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها وأما الأول وهو قوله لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ولئن سألته لتسألن به البحر فإن هذا تشبيه مضمر الأداة إذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه " إلى أن يقول : " ويبطل على أبي علي قوله أيضا من وجه آخر وذاك أنه قال :

إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره وهو هو ، وهذا ينتقض بقولنا لئن رأيت الأسد لترين منه هضبته . ولئن لقيته لتلقينّ منه الموت فإن الصورة التي أوردها في الإنسان وزعم أن العرب تعتقد أن ذلك معنى كامن فيه قد أوردنا مثلها في الأسد فتخصيصه بالإنسان باطل وكلا الصورتين ليس بتجريد وإنما هو تشبيه مضمر الأداة " .

والذي نراه أن ابن الأثير تحامل على أبي علي لأن كون هذا المثال من التشبيه المضمر الأداة لا يمنع كونه تجريدا في وقت واحد .

وحسبنا ما تقدم .

[سورة فصلت (41) : الآيات 30 إلى 36]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

اللغة :

(يَنْزَغَنَّكَ) : النزغ والنسغ بمعنى وهو شبه النخس والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي والمراد الوسوسة وفي معاجم اللغة : نزغ ينزغ من باب ضرب نزغا بين القوم أفسد ويقال نزغ الشيطان بينهم أي أغرى بعضهم ببعض ونزغه الشيطان إلى المعاصي أي حثه ونزغ الشيطان وساوسه وما يحمل الإنسان على المعاصي .

الاعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان حال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيان حال الكافرين . وان واسمها وجملة قالوا

صلة وربنا مبتدأ والله خبر والجملة مقول القول وثم حرف عطف للتراخي في الزمان واستقاموا فعل ماض وفاعل وجملة تتنزل عليهم الملائكة خبر إن .

(359/683)

)

أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) أن مصدرية أو مخففة فعلى الأول يصح أن تكون لا ناهية وأن تكون نافية وتخافوا منصوب بأن وعلى الثاني لا يصح إلا أن تكون مخففة ولا ناهية وعلى كل حال هي ومدخولها منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بمحذوف في موضع الحال أي قائلين ، وعلى هذا لا يبعد احتمال كونها مفسرة لأن التنزيل فيه معنى القول ولا تحزنوا عطف على لا تخافوا وأبشروا فعل أمر معطوف على ما قبله وبالجنة متعلقان بأبشروا والتي نعت وجملة كنتم صلة وكان واسمها وجملة توعدون خبر كنتم .

(نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ)

تتمة مقول قول الملائكة ونحن مبتدأ وأولياؤكم خبر وفي الحياة الدنيا متعلقان بأولياؤكم لأنه جمع ولي من الولاية وهي الحفظ أي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وفي الآخرة ويجوز تعليقه

بمحذوف حال وفي الآخرة عطف . (وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ) الواو عاطفة ولكم خبر مقدم وفيها متعلقان بمحذوف حال والضمير يعود على الجنة وما مبتدأ مؤخر وجملة تشتهي أنفسكم صلة ولكم فيها ما تدعون عطف على الجملة السابقة وتدعون من الدعاء بمعنى الطلب والتمني وفي المصباح : " ادعيت الشيء تمنيته وادعيته طلبته " (نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ) نزلا حال مما تدعون والنزل تقدم شرحه وهو القرى الذي يهيأ لاكرامة وسمي به المكان مجاز فهو مصدر وقال أبو البقاء : " نزلا فيه وجهان أحدهما هو مصدر في موضع الحال من الهاء المحذوفة أو من ما أي لكم الذي تدعونه معدا وما أشبهه ومن نعت له والثاني هو جمع نازل مثل صار وصبر فيكون حالا من الواو في تدعون أو من الكاف في لكم فعلى هذا يتعلق من

(360/683)

بتدعون أي يطلبونه من غفور أو بالظرف أي استقر ذلك من غفور فيكون حالا من ما " هذا وقد نصبه الجلال بجعله مقدرا .

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ . وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) الواو عاطفة ومن اسم استفهام مبتدأ ومعناه النفي أي لا أحد أحسن وأحسن خبر وقولا تمييز وممن

متعلقان بأحسن وجملة دعا إلى اللّه صلة من وجملة وعمل صالحا عطف على دعا إلى اللّه ، وجعلها أبو حيان حالية وليس ثمة ما يمنع ذلك ، وصالحا مفعول به أو نعت لمصدر محذوف أي عمل عملا صالحا وقال عطف على ما قبله وإنني من المسلمين إن واسمها وخبرها في موضع نصب لأنها مقول القول . (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) كلام مستأنف مسوق لتشريع المعاملة بين البشر بعد بيان حسن المعاملة بين العبد وبين ربه ولا نافية وتستوي الحسنة فعل مضارع وفاعل ولا السيئة عطف على الحسنة وادفع فعل أمر وبالتي متعلقان بادفع والتي صفة لموصوف محذوف أي بالخصلة وهي مبتدأ وأحسن خبر والجملة صلة وفي هذا الكلام تأويلان ألمع إليهما البيضاوي تبعا للكشاف قال : " أي ادفع السيئة حيث اعترضتك بالتي هي أحسن منها وهي الحسنة على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقا أو ادفع بالتي هي أحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات " واختار الجلال الأول ومثل له بقوله :

" كالغضب بالصبر والجهل بالحلم والإساءة بالعفو " .

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) قالوا ان الفاء هي التعليلية الدالة على أن ما بعدها علة ما قبلها وأرى أن الفصيحة هنا أولى لأنها جواب شرط مقدر والتقدير أي إذا دفعت بالتي هي أحسن فإذا الذي ، وإذا للمفاجأة ولا بد من جعلها ظرفا للمكان لمعنى

التشبيه وهذا مبني على القول باسميتها وجاز تقدم هذا الظرف على عامله المعنوي لأنه يتسع في الظروف ما لا يتسع في غيرها والذي مبتدأ وبينك ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وعداوة مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة ، وكأنه كان واسمها وولي حميم خبران كأن والجملة التشبيهية في رفع خبر الذي وعبارة أبي البقاء "كأنه ولي فيه وجهان أحدهما حال من الذي بصلته والذي مبتدأ وإذا للمفاجأة وهي خبر المبتدأ أي فبالحضرة المعادي مشبها للولي الحميم والفائدة تحصل من الحال والثاني أن يكون خبر المبتدأ وإذا ظرف لمعنى التشبيه والظرف يتقدم على العامل المعنوي" .

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) الواو حرف عطف وما نافية ويلقاها فعل مضارع مبني للمجهول والهاء مفعول به ثان والضمير يعود على الخصلة الحسنة وهي مقابلة السيئة بالحسنة وإلا أداة حصر والذين نائب فاعل يلقاها وجملة صبروا لا محل لها لأنها صلة .

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) عطف على سابقتها مماثلة لها في اعرابها .

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الواو عاطفة وإن شرطية أدغمت نونها في ما الزائدة وينزغنك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم فعل الشرط والكاف مفعول به مقدم ومن الشيطان حال لأنه كان في الأصل صفة لنزغ ونزغ فاعل مؤخر ، فاستعذ الفاء رابطة واستعذ فعل أمر والفاعل

مستتر تقديره أنت وباللّه متعلقان باستعذ وان واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والسميع العليم خبران لإن أو لهو والجملة خبر إن .

البلاغة :

في قوله " إن الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا " إيجاز بليغ لأن الاستقامة كلمة شملت جميع صفات التقوى قال عمر : الاستقامة :

(362/683)

أن تستقم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب وأنت تعلم ما ينطوي تحت الأمر والنهي من أوامر ومناه . وأقل انحراف عن الطريق المستقيم يخرجه عن استقامته ، ذلك لأن الخط المستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين فهو لا يحتمل الانحراف ولو كان أدنى من اليسير .

وفي الآيات من الطباق وجناس الاشتقاق ما لا يخفى فلذلك اكتفينا بالإشارة إليها .

[سورة فصلت (41) : الآيات 37 إلى 39]

وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ

وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (38) وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

اللغة :

(رَبَتْ) : انتفخت وعلت قبل أن تنبت ويقال للموضع المرتفع ربوة ورابية وسيأتي مزيد من شرحه في باب البلاغة .

الاعراب :

)

(363/683)

وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) كلام مستأنف مسوق لإيراد أربع آيات من آياته تعالى ومن آياته خبر مقدم والليل مبتدأ مؤخر وما بعده عطف عليه . (لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) لا ناهية وتسجدوا فعل مضارع مجزوم بلا وللشمس متعلقان بتسجدوا ولا للقمر عطف ، واسجدوا للّه عطف آخر والذي نعت للّه وجملة خلقهن صلة والضمير يعود إلى الآيات ولذلك عبّر عن الأربع بضمير الإناث مع أن فيها ثلاثة مذكرة والعادة تغليب المذكر على المؤنث لأنه لما قال

ومن آياته فنظم الأربعة في سلك الآيات صار كل واحد منها آية فعبّر عنها بضمير الإناث .

وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص والتاء اسمها وهو فعل الشرط وإياه مفعول مقدم لتعبدون وجملة تعبدون خبر كنتم وجواب الشرط محذوف تقديره فاسجدوا له .

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ) الفاء عاطفة وإن شرطية واستكبروا فعل ماض وفاعله وهو في محل جزم فعل الشرط ، فالذين الفاء تعليل لجواب الشرط المحذوف وتقديره فدعهم وشأنهم والذين مبتدأ وعند ربك الظرف متعلق بمحذوف صلة الذين والظرفية هنا مكانة وتشريف وهي تعبير عن الزلفى والكرامة وجملة يسبحون خبر الذين وله متعلقان بيسبحون والليل والنهار متعلقان بيسبحون أيضا والواو عاطفة أو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يسأمون خبر . (وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) الواو عاطفة على

(364/683)

ما سبق ومن آياته خبر مقدم وأن وما في حيزها مبتدأ مؤخر وانك ان واسمها وجملة ترى الأرض خبر وخاشعة حال أي يابسة لا نبات فيها ، وسيأتي مزيد من هذا البحث في باب البلاغة ، ولك أن تجعل الرؤية علمية فتكون خاشعة مفعولا به ثانيا ، فإذا الفاء عاطفة وإذا

ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة أنزلنا في محل جر بإضافة الظرف إليها وعليها متعلقان بأنزلنا والماء مفعول به وجملة اهتزت لا محل لها وربت عطف على اهتزت .

(إِنَّ الَّذِي أَحْيَاها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تعليل لاهتزاز الأرض اليابسة وربوها وإن واسمها وجملة أحياها صلة واللام المزحلقة ومحيي الموتى خبر إن وإن واسمها وعلى كل شيء متعلقان بقدير وقدير خبرها .

البلاغة :

في قوله " أنك ترى الأرض خاشعة " استعارة مكنية فقد استعير الخشوع وهو التذلل والتقاصر لحال الأرض عند قحطها وجفافها كما استعير الهمود لها في قوله " وترى الأرض هامدة " وكذلك يسري القول على الاهتزاز والربو ، يقال اهتز الإنسان أي تحرك ، وربت أي انتفخت وعلت قبل أن تنبت وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديم وتأخير وتقديره ربت واهتزت ، والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض فربوها ارتفاعها ، وقيل : اهتزت أي تحركت حركة عظيمة فكان كمن يعالج ذلك بنفسه وربت أي تشققت فارتفع ترابها وخرج منها النبات وسما في الجو مغطيا لوجهها وتزخرفت بذلك النبات كأنها بمنزلة المختال في زيه لما كانت قبل ذلك كالذليل .

الفوائد :

1- تأثير القرآن في نفس عتبة :

(365/683)

أدركت قريش أن أساليبها في صد الدعوة الاسلامية عن المصي في طريقها لم تنجح وانه لا بد من اللجوء إلى عمل آخر فتشاوروا على عادتهم وانتدبوا عتبة بن ربيعة لكي يذهب إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم يفاوضه في ترك الدعوة على أن يجمعوا له الأموال حتى يصير أغنى قريش ثم يجعلوا له الرياسات التي يصبح بها أرفعهم مقاما وأعزهم ملكا أو يلتمسوا له الطب حتى يبرأ من هذا الذي يأتيه فينطقه بكلام عجيب ، وقد استمع النبي إلى عتبة صابرا ، فلما انتهى قال له :

أفرغت يا أبا الوليد ؟ فقال : نعم ، قال له النبي : فاستمع مني ، ثم أخذ يتلو عليه قوله تعالى : " حم تنزيل من الرحمن الرحيم " ومضى رسول اللّه يتلو على زائره سورة فصلت حتى انتهى إلى قوله تعالى :

" ومن آياته الليل والنهار " الآية ولما تلا هذه الآية سجد لربه سجودا طويلا ثم رفع رأسه واستوى في مجلسه وأخذ يكمل السورة حتى إذا فرغ منها نظر إلى عتبة فإذ هو ملق يديه

خلف ظهره يصغي في هدوء وقد بلغت الآيات منه مبلغا عظيما ، قال له النبي :

- قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فلم يعقب عتبة بكلمة وانصرف مهموما يفكر أعمق تفكير في هذا الذي سمع ، فما أن رأت قريش صاحبها حتى قال بعضهم لبعض :

- فحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا له :

- ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال :

- ورائي اني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس .

فقالت قريش :

- سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! فأشاح عنهم وقال :

- هذا رأيي فيكم فاصنعوا ما بدا لكم .

2- موضع السجدة :

اختلف في موضع السجدة ، فهو عند الشافعي " تعبدون " لذكر لفظة السجدة قبلها وعند أبي حنيفة " يسأمون " لأنها تمام المعنى .

[سورة فصلت (41) : الآيات 40 إلى 44]

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43) وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44)

اللغة :

(يُلْحِدُونَ) : بضم الياء مضارع ألحد في دين اللّه أي جار وعدل وقرىء بفتح الياء مضارع لحد من باب قطع لغة فيه وقال في الكشاف :

" يقال ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة . ولم يصب الزمخشري في تقييد المستعار له بقوله

في آيات القرآن ، فإنها في الآية الكريمة مستعارة للانحراف من جهة الصحة والاستقامة مطلقا لا للانحراف عنها في آيات اللّه وإلا لما احتيج إلى قوله في آياتنا ، ومن هنا يبدو الفرق بين الملحد والزنديق والدهري والمنافق .

)

(367/683)

أَعْجَمِيًّا) : تقدم بحث هذه الكلمة ونضيف هنا ما قالوه في يائه قال أبو حيان : " الياء للمبالغة في الوصف وليس النسب فيه حقيقيا " وقال الرازي في لوامحه : " فهي كياء كرسي " والأعجمي هو الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه .

الاعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا) كلام مستأنف مسوق لبيان حال الملحدين وإن واسمها وجملة يلحدون صلة الموصول وفي آياتنا متعلقان بيلحدون وجملة لا يخفون علينا خبر إن .

(أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ) الهمزة للاستفهام التقريري والفاء عاطفة على مقدر يقتضيه السياق ومن اسم موصول مبتدأ وجملة يلقى في النار صلة من

وخير خبرها وأم حرف عطف ومن عطف على من الأولى وجملة يأتي صلة وآمنا حال وكان السياق يقتضي أن يقول أم من يدخل الجنة ولكن عدل عن مقتضى السياق ليصرح بأمنهم وانتفاء الخوف عنهم وذلك أثلج لصدورهم وأقر لعيونهم ويوم القيامة متعلق بيأتي أو بآمنا .

(اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) اعملوا فعل أمر والمراد به التهديد لهم والواو فاعل وما مفعول به وجملة شئتم صلة ما وجملة إنه تعليل للأمر وان واسمها وبما تعملون متعلقان ببصير وبصير خبر إن .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ) الجملة بدل من جملة إن السابقة وان واسمها وجملة كفروا بالذكر صلة ولما حينية أو رابطة وجاءهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، وفي خبر إن وجوه أظهرها أنه محذوف تقديره لا يخفون علينا ويؤيد هذا الوجه كون إن الثانية بدلا من إن الأولى فيسري عليها ما يسري على الأولى والقاعدة ان المحكوم به على البدل محكوم به على المبدل منه وذكر المعربون أوجها أخرى نورد خلاصتها فيما يلي :

1- انه محذوف لفهم المعنى وتقديره معذبون أو مهلكون وهو وجه سديد أيضا .

2- انه محذوف قدره الجلال بقوله : نجازيهم .

3- انه موجود مذكور وهو قوله فيما بعد " أولئك ينادون " .

4- انه موجود مذكور وهو قوله : " لا يأتيه الباطل " والعائد محذوف أي لا يأتيه الباطل منهم نحو المشمش منوان بدرهم أي منون منه وتكون أل عوضا من الضمير في رأي الكوفيين تقديره إن الذين كفروا بالذكر لا يأتيه باطلهم .

5- ان الخبر قوله ما يقال لك والعائد محذوف تقديره : إن الذين كفروا بالذكر ما يقال لك في شأنهم الا ما قد قيل للرسل من قبلك .

وانه الواو حالية وان واسمها واللام المزحلقة وكتاب خبرها وعزيز نعت والجملة نصب على الحال أي ممتنع عن ان ينال منه أحد بحماية اللّه وكلاءته ويؤيده قوله تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " فلا يستطيع أحد أن يبطله أو يخرمه ، (لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) الجملة نعت ثان للكتاب ولا نافية ويأتيه الباطل فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ومن بين يديه متعلقان بيأتيه ولا من خلفه عطف على من بين يديه وتنزيل خبر رابع ومن حكيم متعلقان بتنزيل وحميد نعت لحكيم .

(ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ) كلام مستأنف مسوق لتسليته صلّى اللّه عليه وآله على ما يناله من أذاهم وما نافية ويقال فعل مضارع مبني للمجهول ولك متعلق بيقال

وإلا أداة حصر وما نائب

فاعل أي إلا مثل الذي وقد حرف تحقيق وقيل للرسل صلة ومن قبلك حال .

(إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) إن واسمها واللام المزحلقة وذو مغفرة خبرها وعقاب أليم عطف على ما تقدم .

)

(369/683)

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) كلام مستأنف مسوق للرد على تساؤلهم : هلا أنزل القرآن بلغة العجم ولو شرطية وجعلناه فعل وفاعل ومفعول به وقرآنا مفعول به ثان وأعجميا نعت واللام واقعة في جواب الشرط وجملة قالوا لا محل لها ولو لا حرف تحضيض أي هلا وفصلت فعل ماض مبني للمجهول وآياته نائب فاعل والمعنى بنيت بلسان نفهمه ونفقهه ، أأعجمي الهمزة للاستفهام الانكاري وأعجمي خبر لمبتدأ محذوف أي أهو أي القرآن أعجمي والمرسل به عربي وفيه قراءات بتحقيق الهمزة الثانية وقبلها ألفا ممدودة ويقرأ بهمزة واحدة وفتح العين على النسب إلى عجم ويجوز أن يعرب أأعجمي مبتدأ والخبر محذوف تقديره أأعجمي وعربي يستويان .

(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ) قل فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت أي قل في الرد عليهم وهو مبتدأ وللذين آمنوا حال لأنه كان نعتا وتقدم ، وهدى وشفاء خبر هو أي انه هاد لهم وشاف لما في صدورهم وكاف في درء الشبه ولهذا ورد معجزا بلسانهم وسيأتي تفصيل واف لهذا الموضوع في باب البلاغة .

(وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ) والذين الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة لا يؤمنون صلة والعائد محذوف أي به وفي آذانهم خبر مقدم ووقر مبتدأ مؤخر

ولا بد من تقدير رابط أي منه والجملة خبر الذين وهو مبتدأ وعليهم متعلقان بمحذوف حال ولا يتعلق بالمصدر لتقدمه عليه وعمى مبتدأ مؤخر وأولئك مبتدأ وجملة ينادون خبر ومن مكان متعلقان بينادون وبعيد نعت لمكان وسيأتي معنى هذا الكلام في باب البلاغة .

البلاغة :

1 - الطباق :

"

أأعجمي وعربي " طباق بديع يحتمل معنيين أولهما أن الإنكار واقع على كون القرآن أعجمي والرسول عربي وثانيهما أن القرآن أعجمي والمرسل إليهم أو إليه عربي وإنما جاء مفردا والمرسل إليهم هم أمة العرب لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة فوجب أن يجرد لما سبق إليه من الغرض ولا يوصل به ما يخل غرضا آخر ، ألا تراك تقول وقد رأيت لباسا طويلا على امرأة قصيرة : اللباس طويل واللابس قصير ، ولو قلت واللابسة قصيرة جئت بما هو لكنة وفضول قول لأن الكلام يقع في ذكورة اللابس وأنوثته وانما وقع في غرض وراءهما فصح الطباق .

2- التشبيه البليغ :

وفي قوله " قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء " تشبيه بليغ ، جعل القرآن نفس الهدى ونفس الشفاء يهديهم إلى سبل الرشاد ويشفيهم من أوصاب الجنون والالتياث .

3- الاستعارة التمثيلية :

وفي قوله " أولئك ينادون من مكان بعيد " استعارة تمثيلية شبهت حالهم في النبوّ عن قبول مواعظ القرآن ودلائله بحال من ينادى من مكان بعيد فكما انه لا يفهم ولا يقبل قول المنادي فكذلك هؤلاء لا يقبلون دعوة من دعاهم إلى الرشد والصلاح لاستيلاء الضلالة عليهم .

[سورة فصلت (41) : الآيات 45 إلى 48]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (46) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)

اللغة :

(أَكْمامِها) : جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الثمر أو ما يسمى فنيا الكأس ، وفي الكشاف " الكم بكسر الكاف وعاء الثمر " ولكن قال الراغب في مفرداته : " الكم ما يغطي اليد من القميص وما يغطي الثمرة وجمعه أكمام " فكلام الراغب يدل على مضموم الكاف إذ جعله مشتركا بين كم القميص وكم الثمرة ، ولا جدال في كم القميص أنه بالضم فلعل في وعاء الثمرة لغتين دون كم القميص جمعا بين قول

الزمخشري وقول الراغب ، أما معاجم اللغة فتفرق بين كم الثوب وكم الثمر فنصوا على ضم الأول وكسر الثاني قال في القاموس : " الكم بالضم مدخل اليد ومخرجها من الثوب والجمع أكمام وكممة وبالكسر وعاء الطلع وغطاء النور كالكمامة والكمة بالكسر فيهما والجمع أكمة وأكمام وكمام " ويؤخذ من الأساس وغيره من المعاجم الكبرى ما يلي لتتدبره :

الكم بضم الكاف مدخل اليد ومخرجها من الثوب جمعه أكمام وكمة بكسر الكاف ، والكمة بضم الكاف القلنسوة المدورة وكل ظرف غطيت به شيئا وألبسته إياه فصار له كالغلاف .

والكم بكسر الكاف الغلاف الذي يحيط بالزهر أو الثمر أو الطلع فيستره ثم ينشق عنه جمعه أكمة وأكمام وكمام وأكاميم ومن ذلك أكمام الزرع أي غلفها التي يخرج منها .

(372/683)

وأكمة الخيل : مخاليها المعلقة على رؤوسها الواحد منها كمام والكمامة بكسر الكاف غطاء الزهر ووعاء الطلع ، والكمامة أيضا بالكسر والكمال ما يكم به فم الحيوان لئلا يعض أو يأكل إلى آخر هذه المادة المطولة .

(مَحِيصٍ) : مهرب من حاص يحيص حيصا إذا هرب .

الاعراب :

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان أن الاختلاف في أمر الكتب المنزلة ليس بدعا فهو قديم في الأمم ، واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل

وموسى مفعول به أول والكتاب مفعول به ثان والفاء عاطفة واختلف فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر وفيه متعلقان باختلف .

(وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) الواو عاطفة ولو لا حرف امتناع لوجود وكلمة مبتدأ محذوف الخبر وجملة سبقت نعت لكلمة ومن ربك متعلقان بسبقت واللام واقعة في جواب لو لا وقضي فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر يعود على المصدر المفهوم من قضي أي القضاء وبينهم ظرف متعلق بقضي والضمير في بينهم يعود على كفار قومه ، وانهم الواو حاليه وان واسمها واللام المزحلقة وفي شك خبر إن ومنه متعلقان بمحذوف نعت ومريب نعت ثان .

(373/683)

(مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) من اسم شرط جازم مبتدأ وعمل فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وصالحا مفعول به أو نعت لمصدر محذوف وقد تقدمت له نظائر والفاء رابطة لجواب الشرط ولنفسه متعلقان بفعل محذوف تقديره نفع أو عمل ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أي فالعمل الصالح لنفسه ، ومن أساء فعليها عطف على ما تقدم وإعرابه مماثل له والواو يصح أن تكون حالية أو عاطفة وما نافية

حجازية وربك اسمها وبظلام الباء حرف جر زائد وظلام مجرور لفظا منصوب محلّا على انه خبر ما وللعبيد متعلقان بظلام ، ويصح أن تكون ظلام صيغة نسب كتمّار وبقّال وخبّاز كما سيأتي تفصيها في باب الفوائد ويصح أن تكون صيغة مبالغة وعلى الأول يكون معناه ليس بذي ظلم وقد رجحه غير واحد من المعربين . (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ) اليه جار ومجرور متعلقان بيرد ويرد فعل مضارع مبني للمجهول وعلم الساعة نائب فاعل .

(374/683)

)

وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) الواو عاطفة وما نافية وتخرج فعل مضارع مرفوع ومن حرف جر زائد وثمرة مجرور بمن لفظا في محل رفع فاعل تخرج ومن أكمامها متعلقان بتخرج وقرىء من ثمرات . وقيل ما موصولة في محل جر عطف على الساعة أي علم الساعة وعلم التي تخرج ، ومن الأولى للاستغراق ومن الثانية لابتداء الغاية والواو حرف عطف وما نافية وتضع فعل مضارع مرفوع ومن حرف جر زائدة وأنثى مجرور لفظا في محل رفع فاعل وإلا أداة حصر وبعلمه استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي إلا مقرونا بعلمه . (وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ) الظرف متعلق باذكر

محذوفا فهو مفعول به أو انه ظرف لمضمر يقصر البيان عنه وجملة يناديهم في محل جر بإضافة الظرف إليها وأين اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم وشركائي مبتدأ مؤخر وقالوا فعل وفاعل وآذناك فعل ماض وفاعل ومفعول به أي أعلمناك الآن وعبارة أبي البقاء : " هذا الفعل يتعدى إلى مفعول بنفسه والى آخر بحرف جر وقد وقع النفي وما في خبره موقع الجار والمجرور وقال أبو حاتم يوقف على آنذاك ثم يبتدأ فلا موضع للنفي " . وما نافية ومنّا خبر مقدم ومن حرف جر زائد وشهيد مجرور لفظا في محل رفع مبتدأ مؤخر .

(وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ) الواو عاطفة وضل فعل ماض وعنهم متعلقان بضل وما فاعل وجملة كانوا صلة وكان واسمها وجملة يدعون خبر كانوا ومن قبل حال . (وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ) الواو عاطفة وظنوا فعل ماض وفاعل وما نافية ولهم خبر مقدم ومن

حرف جر زائد ومحيص مجرور لفظا في محل رفع مبتدأ مؤخر والنفي معلق للظن عن العمل لفظا مع بقائه محلا وجملة النفي سدت مسد المفعولين لآذناك لأنها بمعنى أعلمناك كما سدت . جملة النفي السابقة مسد المفعول الثاني لآذناك وعبارة أبي البقاء : " وأما قوله

تعالى :

وظنوا فمفعولاها قد أغنى عنهما ما لهم من محيص وقال أبو حاتم يوقف على ظنوا ثم أخبر عنهم بالنفي " .

الفوائد :

النسبة على وزن فعّال وفاعل :

اعلم أن العرب نسبوا على غير المنهاج المعروف في النسبة وذلك لأنهم لم يأتوا بياء النسبة ولكنهم يبنون بناء يدل على نحو ما دلت عليه ياء النسبة كقولهم لصاحب البتوت وهي الأكسية وواحدها بت :

بتّات ، ولصاحب الثياب : ثواب ، ولصاحب البزّ : بزّاز ، ولصاحب العاج عوّاج ، ولصاحب الجمال التي ينقل عليها : جمّال ، ولصاحب الحمير التي ينقل عليها : حمّار ، وللصيرفي : صراف ، وهو أكثر من أن يحصى كالعطّار والنقّاش ، وهذا النحو إنما يعملون فيما كان صنعة ومعالجة للتكثير إذ صاحب الصنعة مداوم لصنعته فجعل له البناء الدّال على التكثير وهو فعّال بتضعيف العين لأن التضعيف للتكثير . وما كان من هذا ذا شيء وليس بصنعة يعالجها أتوا بها على صيغة فاعل وذلك لأن فاعلا هو الأصل وإنما يعدل عنه إلى فعال للمبالغة فإذا لم ترد المبالغة جيء به على الأصل لأنه ليس فيه تكثير

قالوا لذي الدرع : دارع ، ولذي النبل : نابل ، ولذي النشاب :

ناشب ، ولذي اللبن : لابن ، ولذي التمر : تامر . وقال الحطيئة :

وغررتني وزعمت أنّك لابن بالصيف تامر أي ذو لبن وذو تمر . وإن كان شيء من هذه الأشياء صنعة وما شا يداومها صاحبها نسب على فعّال فيقال لمن يبيع اللبن والتمر :

لبّان وتمّار ، ولمن يرمي بالنبل : نبال . قال امرؤ القيس :

وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذي سيف وليس بنبال

وربما جمعوا بين اللفظين في شيء واحد ، قال الحطيئة :

(376/683)

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطّاعم الكاسي

والمراد المطعوم المكسوّ ، وهذا القبيل وإن كان كثيرا واسعا ليس بالقياس بل هو مقتصر على السماع فلا يقال لبائع البر : برار :

ولا لصاحب الفاكهة : فكاه ، وحمل عليه كثير من المحققين كما قال ابن مالك " وما ربك بظلام للعبيد " أي بذي ظلم والذي حملهم على ذلك أن النفي منصبّ على المبالغة فيثبت أصل الفعل واللّه تعالى منزه عن ذلك .

[سورة فصلت (41) : الآيات 49 إلى 54]

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)

أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

الإعراب :

)

(377/683)

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ) كلام مستأنف للشروع في وصف الإنسان في حالتي شدته ورخائه . ولا نافية ويسأم الإنسان فعل مضارع وفاعل ومن دعاء الخير متعلقان بيسأم

(وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ) الواو عاطفة وإن شرطية ومسّه فعل ماض في محل جزم فعل

الشرط والهاء مفعول به والشر فاعل والفاء رابطة للجواب ويئوس خبر لمبتدأ محذوف أي فهو يئوس وقنوط خبر ثان . والفرق بين اليأس

والقنوط وكلاهما بمعنى قطع الرجاء من رحمة أن اليأس من منعات القلب والقنوط ظهور آثاره على ظاهر البدن وقيل هما مترادفان من غير فارق بينهما ، وفي المختار : " اليأس القنوط وقد يئس من الشيء من باب فهم وفيه لغة أخرى يئس ييئس بالكسر فيهما وهي شاذة ورجل يئوس ، ويئس أيضا بمعنى علم في لغة النخع ومنه قوله تعالى : (أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا) ، وآيسه الله من كذا فاستيئس منه بمعنى أيس " وفي المختار أيضا : " أيس منه لغة في يئس وبابهما فهم وآيسه منه غيره بالمدّ مثل أيأسه وكذا أيسه بتشديد الياء تأييسا " وفيه أيضا : " القنوط : اليأس وبابه جلس ودخل وطرب وسلم فهو قنط وقنوط وقانط فأما قنط يقنط بالفتح فيهما ، وقنط يقنط بالكسر فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين " وعبارة الكشاف : " فيئوس قنوط بولغ فيه من طريقين من طريق بناء فعول ومن طريق التكرير .

(378/683)

و القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر أي يقطع الرجاء من فضل الله وروحه وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى : (إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ) ، (وَلَئِنْ

أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية وأذقناه فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جزم فعل الشرط ورحمة مفعول به ثان ومن بعد نعت لرحمة أو متعلقان بأذقناه وضرّاء مضاف إليه وجرّ بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف لألف التأنيث الممدودة واللام جواب القسم وجواب الشرط محذوف لسدّ جواب القسم مسدّه على القاعدة المشهورة وهذا مبتدأ ولي خبر واللام للاستحقاق أي أستحقه بعملي (وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى) الواو عاطفة وما نافية وأظن فعل مضارع والفاعل مستتر والساعة مفعول أظن الأول وقائمة مفعولها الثاني والواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية ورجعت في محل جزم الشرط وإلى ربي متعلقان برجعت وإن وما في حيزها جواب القسم

(379/683)

ولي خبر إن وعنده حال واللام المزحلقة والحسنى اسم إن وجملة إن لي عنده للحسنى لا محل لها لأنها جواب القسم لسبقه الشرط (فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ) الفاء الفصيحة لأنها جواب لقول الكافر ولئن رجعت ، واللام موطئة للقسم وننبئنّ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والذين مفعول به وجملة

كفروا صلة وبما في محل نصب مفعول ثان لننبئنّ و" ما " يحتمل أن تكون موصولة أو مصدرية ولنذيقنّهم عطف على فلننبئنّ ومن عذاب في موضع المفعول الثاني وغليظ نعت (وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة أنعمنا في محل جر بإضافة الظرف إليها وعلى الإنسان متعلقان بأنعمنا وجملة أعرض لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ونأى بجانبه عطف على أعرض والجار والمجرور متعلقان بنأى لأن اللام للتعدية وفيما يلي نص عبارة الزمخشري عن هذا التعبير قال :

" فإن قلت : حقق لي معنى قوله تعالى : ونأى بجانبه ، قلت : فيه وجهان : أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا في قوله تعالى " على ما فرطت في جنب اللّه " أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه ومنه قوله :

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

يريد ونفيت عنه الذئب ومنه " ولمن خاف مقام ربه جنتان " إلى أن يقول : فكأنه قال : ونأى بنفسه كقولهم في المتكبر ذهب بنفسه وذهبت به الخيلاء كلّ مذهب وعصفت به الخيلاء وأن يراد بجانبه عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا " ثنى عطفه وتولى بركنه " وفي قراءة وناء بجانبه فالهمزة مؤخرة عن الألف (وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة مسه

(380/683)

الشر في محل جر بإضافة الظرف إليها ، فذو : الفاء رابطة وذو دعاء خبر لمبتدأ محذوف وعريض نعت لدعاء وسيأتي في باب البلاغة معنى هذا النعت (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ) أرأيتم : أي أخبروني عن حالتكم العجيبة وقد تقدم القول في أرأيتم .

(381/683)

و مفعول رأى الاول محذوف تقديره أرأيتم أنفسكم والثاني هو الجملة الاستفهامية وإن شرطية وكان فعل الشرط واسمها مستتر تقديره هو أي القرآن ومن عند اللّه خبر ، ثم كفرتم عطف على كان من عند اللّه وجواب الشرط محذوف تقديره فأنتم أضلّ من غيركم أو ليس ثمة أضلّ منكم وجملة الشرط اعتراض بين المفعولين الأول والثاني ومن اسم استفهام مبتدأ وأضلّ خبر وممّن متعلقان بأضل وهو مبتدأ وفي شقاق بعيد خبر والجملة الاسمية صلة الموصول (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) السين للاستقبال ونريهم فعل مضارع

ومفعول به أول وآياتنا مفعول به ثان والرؤية هنا بصرية فلذلك عدّيت إلى اثنين فقط وفي الآفاق حال من الآيات والآفاق جمع أفق وهو الناحية وهو كأعناق في عنق أبدلت همزته ألفا ، ونقل الراغب " أنه يقال أفق بفتح الهمزة والفاء فيكون كجبل وأجبال والأفق الذي بلغ نهاية الكرم تشبيها في ذلك بالذاهب في الآفاق والنسبة إلى الأفق أفقي بفتحهما قلت : ويحتمل أنه نسبة إلى المفتوح واستغنوا بذلك عن النسبة إلى المضموم وله نظائر " وفي أنفسهم عطف على في الآفاق (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) حتى حرف غاية وجر ويتبين فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وحتى وما بعدها متعلق بقوله سنريهم وأن وما في حيزها فاعل تبين (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي والواو حرف عطف على مقدر يقتضيه السياق أي ألم يغنهم ولم يكفهم والباء حرف جر زائد وربك مجرور لفظا مرفوع محلا والمفعول به محذوف أي أو لم يكفك ربك ، وأن وما في

حيزها بدل من ربك فيكون مرفوع المحل مجرور اللفظ وقيل الباء مزيدة في المفعول وأن ما بعدها في محل رفع فاعل أي أو لم يكف بربك شهادته وأن واسمها وشهيد خبرها وعلى كل

شيء متعلقان بشهيد (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ) تقدّم إعراب نظيرتها .

البلاغة :

في قوله " فذو دعاء عريض " استعارة مكنية تخييلية فقد استعير العرض لكثرة الدعاء وديمومته وهو من صفات الأجرام ويستعار له الطول أيضا ولكن استعارة العرض أبلغ لأنه إذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله شبّه الدعاء بأمر يوصف بالامتداد ثم أثبت له العرض ، والطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه بهذه المثابة فناهيك بطوله .

الفوائد :

الرجل اللعين : شيء ينصب وسط الزرع لإخافة الطيور ، والبيت للشماخ وقبله :

وماء قد وردت لأجل أروى عليه الطير كالورق اللجين

ذعرت به القطا البيت .

وأروى اسم حبيبة الشاعر واللجين : بفتح اللام وكسر الجيم ما يتساقط من الورق من اللجن وهو الدق لأنه يضربه الهواء أو الراعي فيسقط من الشجر وذعرت بفتحتين أي أخفت فيه القطا وخصّها لأنها أسبق الطير إلى الماء والرجل اللعين هو الصورة التي تنصب وسط الزرع تطرد عنه الطير والهوام ، يقول : ورب ماء قد وردته لأجل محبوبتي على أن تجيء عنده فأراها وشبّه الطير حول الماء بورق الشجر المتساقط في الكدرة والكثرة

والانتشار وكالرجل اللعين حال من ضمير الشاعر فيفيد أنه سبق القطا والذئب وقعد هناك ، أو حال من الذئب أي على هيئة مفزعة وفيه دليل على شجاعة الشاعر وجرأته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 8 صـ 529 : حـ 9 صـ 9 ﴾

(383/683)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/684)

الجزء الرابع والثمانون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الشورى)

(4/684)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الشورى)

(5/684)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

فيه حديث ضعيف جدًّا : من قرأَ حم عسق كان ممَّن يصلى عليه الملائكةُ ، ويستغفرون له ، ويسترحمون له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 420 ﴾

(6/684)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الشورى مكية – آياتها ثلاث وخمسون وتسمى حم عسق مقصودها الاجتماع على الدين الذي أساسه الإيمان ، وأم دعائمه الصلاة ، وورح أمره الألفة بالمشاورة المقتضية لكل أهل الدين كلهم في سواء كما أنهم في العبودية لشارعه سواء ، وأعظم نافع في ذلك الإنفاق والمؤاساة فيما في اليد ، والعفو والصفح عن المسيء ، والإذعان للحق وإن صعب وشق ، وذلك كله الداعي إليه هذا الكتاب الذي هو روح جسد هذا الدين المعبر عما دعا إليه من محاسن الأعمال ، وشرائف الخلال بالصراط المستقيم ، وإلى ذلك لوح آخر آخر السورة

الماضية (حتى يتبين لهم أنه الحق) (ألا إنه بكل شيء محيط) وصرح ما في هذه من قوله : (أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه إلا المودة في القربى) (استجيبوا لربكم) (نهدي به من نشاء من عبادنا) (وإنك لتهدي إلى صارط مستقيم) (ألا إلى الله تصير الأمور)

وتسميتها بالشورى واضح المطابقة لذلك لما في الانتهاء وكذلك بالأحرف المتقطعة فإنها جامعة للمخارج الثلاثة : الحلق والشفة واللسان ، وكذا جمعها لصنفي المنقطوطة والعاطلة ، ووصفي المجهورة والمهموسة ، وهي واسطة جامعة بين حروف أم الكتاب الذكر الأول ، وحروف الرقآن العظيم ، وهذا المقصود هو غاية المقصود من أختها سورة مريم الموافقة لها في الابتداء بالتساوي في عدد الحروف المقطعة ، وفي الانتهاء من حيث أن من اختص بمصير الأمور ، كان المختص بالقدرة على إهلاك القرون ، وذلك لأن مقصودها اتصافه تعالى بشمول الرحمة بإفاضة جميع النعم على جميع خلقه ، وغاية

(7/684)

هذا الاجتماع على الدين ، ولما توافقتا في المقصود في الابتداء والانتهاء ، واختصت الشورى بأن حروفها اثنان ، دل سبحانه بذلك أرباب البصائر على أنه إشارة إلى أن الدين قسمان : أصول وفروع ، دلت مريم على الأصول

(ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه تمترون)

[مريم : 34] ، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، (هل تعلم له سميا)

[مريم : 65] والشورى على مجموع الدين أصولاً وفروعاً (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك) الآية ، هذا موافقة البداية ، وأما موافقة النهاية فهو أنهما ختمتا بكلمتين : أول كل منهما آخر الأخرى وآخر كل أول الأخرى وإيذاناً بأن السورتين دائرة واحدة محيطة بالدين متصلة لا انفصام لها ، وذلك أن آخر مريم أول الشورى وآخر الشورى أو مريم (فإنما يسرناه بلسانك) ، الآية (هو كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) إلى آخرها هو (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) - إلى آخر القصة في الدعاء بارث الحكمة والنبوة الذي روحه الوحي والله الهادي ، وكذا تسميتها ببعضها بدلالة الجزء على الكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 593 . 594 ﴾

(8/684)

فصل

قال الآلوسى :

سورة الشورى

وتسمى سورة حم عسق وعسق نزلت على ما روي عن ابن عباس وابن الزبير بمكة وأطلق غير واحد القول بمكيتها من غير استثناء وفي البحر هي مكية إلا أربع آيات من قوله تعالى : قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى إلا آخر أربع آيات وقال مقاتل : فيها مدنية قوله تعالى : ذلك الذي يبشر الله عباده إلى الصدور واستثنى بعضهم قوله تعالى : أم يقولون افترى الخ قال الجلال السيوطي : ويدل لهما أخرجه الطبراني والحاكم في سبب نزولها فإنها نزلت في الأنصار وقوله سبحانه : ولو بسط الله الرزق الخ فإنها نزلت في أصحاب الصفة رضي عنهم واستثنى أيضا الذين إذا أصابهم البغي إلى قوله تعالى : من سبيل حكاه ابن الفرس وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يدل على استثناء غير ذلك على بعض الروايات وجوز أن يكون الإطلاق باعتبار الأغلب وعدد آياتها ثلاث وخمسون في الكوفي وخمسون فيما عداه والخلاف في حم عسق وقوله تعالى : كالأعلام كما فصله الداني وغيره ومناسبة أولها لآخر السورة قبلها اشتمال كل على ذكر القرآن وذب طعن الكفرة فيه وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ 10 ﴾

(9/684)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . حم عسق)

السّورة مكّية إجماعاً .

عدد آياتها ثلاث وخمسون فى الكوفى ، وخمسون فى الباقين .

كلماتها ثمانمائة وستّ وستّون .

وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمان وثمانون .

المختلف فيها من الآى ثلاث : حم عسق ، كالأَعلم مجموع فواصل آياتها (زر لصب قدم)

ولها اسمان : عسق ؛ لافتتاحها بها ، وسورة الشورى ؛ لقوله ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان حُجّة التوحيد ، وتقرير نبوّة الرّسول ، وتأْكيد شريعة الإِسلام ، والتَّهديد بظهور آثار القيامة ، وبيان ثواب العاملين دنيا وأُخرى ، وذلّ الظَّالمين فى عَرَصات القيامة ، واستدعاء الرّسول – صَلَّى الله عليه وسلَّم – من الأُمّة محبّة أَهل البيت العِترة الطَّاهرة ، ووعد التَّائبين بالقبول ، وبيان الحكمة فى تقدير الأَرزاق وقسمتها ، والإِخبار عن شؤم الآثام والذنوب ، والمدح والثناءِ على العافين من النَّاس ذنوبَ المجرمين ، وذلّ الكفَّار فى مَقَام الحساب ، والمِنَّة على الخَلْق بما مُنحوا : من الأَولاد وبيان كيفيّة نزول

الوحى على الأَنبياءِ ، والمنّة على الرّسول بعطيّة الإيمان ، والقرآن ، وبيان أَن مرجع الأُمور إلى الله الدّيان فى قوله : ﴿ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ ثمان آيات : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ م ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ ن ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ م ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ن ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ ﴾ م ﴿ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ ن ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ م ﴿ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ ن وقيل : محكمة ﴿ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ﴾ وقوله : ﴿ وَلِمَنِ انْتَصَرَ ﴾ م ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ ن ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 418. 419 ﴾

(10/684)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة حم عسق (1)

397 – مسألة :

قوله تعالى : (وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) وقال تعالى في آل عمران في بعض الصحابة : (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا) ونصيبهم في الآخرة وافر ؟ .

جوابه :

أن المراد من يريد الدنيا خاصة دون الآخرة ، لعدم ايمانه بها لا مطلقا .

398 – مسألة :

قوله تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) وقال تعالى : (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) وقد سماه تعالى في الجزاء سيئة ؟ .

جوابه :

ليس المراد بالسيئة ضد الحسنة الشرعية ، وإنما المراد جزاء من عمل ما يسوء غيره أن يعامل بما يسوءه ، والمشاكلة في الألفاظ من بديع الفصاحة ، فسمى المباح سيئة لمقابلته للسيئة كقوله

تعالى : (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ) .

399 – مسألة :

قوله تعالى : (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) وفى لقمان (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) ؟ .

جوابه :

لما ذكر هنا جواز الانتقام ، وذكر ترك ذلك لصفتين : الصبر والغفران ، ناسب ذلك التوكيد ، و " اللام " ، لأن الصبر والغفران مع القدرة أشد على النفوس منهما مع عدم القدرة .

وأية لقمان : في صفة واحدة وهي : الصبر ، ولعله فيها ليس

له الانتقام فيه فلم يؤكد .

400 - مسألة :

قوله تعالى : (إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ) فقوله تعالى : (فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ) مفهوم من الأول وهو قوله تعالى : (إِلَّا وَحْيًا) فما فائدة ذلك ؟ .

أن المراد بالوحي الأول : الإلهام ، لا الرسالة ، والإلقاء في

قلب الإنسان ما يكون ، وهو كقوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى) (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 330.332 ﴾

(11/684)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ وفى لقمان : ﴿ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ ؛ لأَنَّ الصّبر على وجهين : صبرٍ على مكروه ينال الإنسان ظلمًا ؛ كمن قُتل بعضُ أَعِزّته ، وصبر على مكروه ليس بظلم ؛ كمن مات بعضُ أَعِزَّته .

فالصّبر على الأَوّل أَشدّ ، والعزم عليه أَوكد .

وكان ما فى هذه السّورة من الجنس الأَوّل ؛ لقوله : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ فأَكَّد الخبر باللاَّم .

وما فى لقمان من الجنس الثانى فلم يؤكده .

قوله : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ ﴾ وبعده : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَنَّ المعنى : ليس له من هاد ولا مَلْجَأ .

قوله : ﴿ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ ليس له نظير .

والمعنى : تعالى عن أَن يُكَلّم شِفَاهًا ، حكيم فى تقسيم وجوه التكليم .

قوله : ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ وفى الأَحزاب ﴿ تَكُونَ قَرِيبًا ﴾ زيد معه (تكون) مراعاة للفواصل .

وقد سبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 419.420 ﴾

(12/684)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الشورى

463 – قوله إن ذلك لمن عزم الأمور 43 وفي لقمان من عزم الأمور 17 لأن الصبر على وجهين صبر على مكروه ينال الإنسان ظلما كمن قتل بعض بعض أعزته فالصبر على الأول أشد والعزم عليه أوكد وكان ما في هذه السورة من الجنس الأول لقوله ولمن صبر وغفر 43 فأكد الخبر باللام

وفي لقمان من الجنس الثاني فلم يؤكده

464 – قوله ومن يضلل الله فما له من ولي 44 وبعده ومن

يضلل الله فما له من سبيل 46 ليس بتكرار لأن المعنى ليس له من هاد ولا ملجأ

465 – قوله إنه على حكيم 51 ليس له نظير والمعنى تعالى أن يكلم أو يتناهى حكيم في تقسيم وجوه التكليم

466 – قوله لعل الساعة قريب 17 وفي الأحزاب تكون قريبا 63 زيد معه تكون مراعاة للفواصل وقد سبق

467 – قوله تبارك وتعالى جعل لكم 11 قد سبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 190 . 191﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الشورى

اشتهرت تسميتها عند السلف حم عسق ، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير والترمذي في جامعه ، وكذلك سميت في عدة من كتب التفسير وكثير من المصاحف .

وتسمى سورة الشورى بالألف واللام كما قالوا سورة المؤمن ، وبذلك سميت في كثير من المصاحف والتفاسير ، وربما قالوا سورة شورى بدون ألف ولام حكاية للفظ القرآن .

وتسمى سورة عسق بدون لفظ ﴿ حم ﴾ لقصد الاختصار .

ولم يعدها في الإتقان في عداد السور ذات الاسمين فأكثر .

ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء في تسميتها .

وهي مكية كلها عند الجمهور ، وعدها في الإتقان في عداد السور المكية ، وقد سبقه إلى ذلك الحسن بن الحصار في كتابه في الناسخ والمنسوخ كما عزاه إليه في الإتقان .

وعن ابن عباس وقتادة استثناء أربع آيات أولاها قوله ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى : 23] إلى آخر الأربع الآيات .

وعن مقاتل استثناء قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى : 24] .

رؤي أنها نزلت في الأنصار وهي داخلة في الآيات الأربع التي ذكرها ابن عباس .

وفي أحكام القرآن لابن الفرس عن مقاتل : أن قوله تعالى ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ﴾ [الشورى : 27] الآية نزل في أهل الصفة فتكون مدنية ، وفيه عنه أن قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : 41,39] نزل بالمدينة .

نزلت بعد سورة الكهف وقبل سورة إبراهيم وعدت التاسعة والستين في ترتيب نزول السور عند الجعبري المروي عن جابر بن زيد .

(14/684)

وإذا صح أن آية ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ [الشورى : 28] نزلت في انحباس المطر عن أهل مكة كما قال مقاتل تكون السورة نزلت في حدود سنة ثمان بعد

البعثة ، ولعل نزولها استمر إلى سنة تسع بعد أن آمن نقباء الأنصار ليلة العقبة فقد قيل : إن قوله ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : 38] أريد به الأنصار قبل الهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وعدت آيها عند أهل المدينة ومكة والشام والبصرة خمسين ، وعند أهل الكوفة ثلاثا وخمسين .

أغراض هذه السورة

أول أغراضها الإشارة إلى تحدي الطاعنين في أن القرآن وحي من الله بأن يأتوا بكلام مثله ، فهذا التحدي لا تخلو عنه السور المفتتحة بالحروف الهجائية المقطعة ، كما تقدم في سورة البقرة .

واستدل الله على المعاندين بأن الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما هو إلا كالوحي إلى الرسل من قبله لينذر أهل مكة ومن حولها بيوم الحساب .

وأن الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض لا تعارض قدرته ولا يشك في حكمته ، وقد خضعت له العوالم العليا ومن فيها وهو فاطر المخلوقات فهو يجتبي من يشاء لرسالته فلا بدع أن يشرع للأمة المحمدية من الدين مثل ما شرع لمن قبله من الرسل ، وما أرسل الله الرسل إلا من البشر يوحي إليهم فلم يسبق أن أرسل ملائكة لمخاطبة عموم الناس مباشرة .

وأن المشركات بالله لا حجة لهم إلا تقليد أئمة الكفر الذين شرعوا لهم الإشراك وألقوا إليهم

الشبهات .

وحذرهم يوم الجزاء واقتراب الساعة وما سيلقى المشركون يوم الحساب من العذاب مع إدماج التعريض بالترغيب فيما سيلقاه المؤمنون من الكرامة ، وأنهم لو تدبروا لعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأتي عن الله من تلقاء نفسه لأن الله لا يقره على أن يقول عليه ما لم يقله .

وذكرت دلائل الوحدانية وما هو من تلك الآيات نعمة على الناس مثل دليل السير في البحر وما أوتيه الناس من نعم الدنيا .

(15/684)

وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله هو متولي جزاء المكذبين وما على الرسول صلى الله عليه وسلم من حسابهم من شيء فما عليه إلا الاستمرار على دعوتهم إلى الحق القويم .

ونبههم إلى أنه لا يبتغي منهم جزاء على نصحه لهم وإنما يبتغي أن يراعوا أواصر القرابة بينه وبينهم .

وذكرهم نعم الله عليهم ، وحذرهم من التسبب في قطعها بسوء أعمالهم ، وحرضهم على

السعي في أسباب الفوز في الآخرة والمبادرة إلى ذلك قبل الفوات ، فقد فاز المؤمنون المتوكلون ، ونوه بجلائل أعمالهم وتجنبهم التعرض لغضب الله عليهم .

وتخلل ذلك تنبيه على آيات كثيرة من آيات انفراده تعالى بالخلق والتصرف المقتضي إنفراده بالإلهية إبطالا

(16/684)

للشرك .

وختمها بتجدد المعجزة الأمية بأن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بهدى عظيم من الدين وقد علموا أنه لم يكن ممن تصدى لذلك في سابق عمره وذلك أكبر دليل على أن ما جاء به أمر قد أوحي إليه به فعليهم أن يهتدوا بهديه فمن اهتدى بهديه فقد وافق مراد الله .

وختم ذلك بكلمة جامعة تتضمن التفويض إلى الله وانتظار حكمه وهي كلمة ﴿ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : 53] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ 96 ـ 98 ﴾.

(17/684)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف سورة الشورى

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ; ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة , حتى ليصح أن يقال: إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها ; وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوحدانية , وتعرضها من جوانب متعددة ; كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ; ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها . وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها . كما تلم بقضية الرزق: بسطه وقبضه ; وصفة الإنسان في السراء والضراء .

ولكن حقيقة الوحي والرسالة , وما يتصل بها , تظل – مع ذلك – هي الحقيقة البارزة في محيط السورة , والتي تطبعها وتظللها . وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة , وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة . فهي تعرض من جوانب متعددة . يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق . أو وحدانية الرازق . أو وحدانية

المتصرف في القلوب . أو وحدانية المتصرف في المصير . . ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحي – سبحانه – ووحدة الوحي . ووحدة العقيدة . ووحدة المنهج والطريق . وأخيراً وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة .

ومن ثم يرتسم في النفس خط الوحدانية بارزاً واضحاً , بشتى معانيه وشتى ظلاله وشتى إيحاءاته , من وراء موضوعات السورة جميعاً . . ونضرب بعض الأمثلة من السورة إجمالاً , قبل أن نأخذ في التفصيل:

(18/684)

تبدأ بالأحرف المقطعة: حا . ميم . عين . سين . قاف . . يليها :(كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) . . مقرراً وحدة مصدر الوحي في الأولين والآخرين: (إليك وإلى الذين من قبلك) . .

ثم يستطرد السياق في صفة الله العزيز الحكيم:(له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم) . . مقرراً وحدانية المالك لما في السماوات والأرض واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد .

ثم يستطرد استطراداً آخر في وصف حال الكون تجاه قضية الإيمان بالمالك الواحد , وتجاه الشرك الذي يشذ به بعض الناس: (تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن , والملائكة يسبحون بحمد ربهم , ويستغفرون لمن في الأرض , ألا إن الله هو الغفور الرحيم , والذين اتخذوا من دونه أولياء , الله حفيظ عليهم , وما أنت عليهم بوكيل) . . فإذا الكون كله مشغول بقضية الإيمان والشرك حتى إن السماوات ليكدن يتفطرن من شذوذ بعض أهل الأرض , بينما الملائكة يستغفرون لمن في الأرض جميعاً من هذه الفعلة الشنعاء التي جاء بها بعض المنحرفين !

وبعد هذه الجولة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى: (وكذلك أوحينا إليك , قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها , وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه , فريق في الجنة وفريق في السعير) . . ثم يستطرد مع (فريق في الجنة وفريق في السعير) . . فيقرر أن لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن مشيئته اقتضت – بما له من علم وحكمة – أن يدخل من يشاء في رحمته (والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير) . . ويقرر أن الله وحده هو الولي (وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) . .

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى , حقيقة الوحي والرسالة , فيقرر أن الحكم فيما يختلف فيه البشر من شيء هو الله الذي أنزل هذا القرآن ليرجع إليه الناس في كل اختلاف: (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربي عليه توكلت , وإليه أنيب) . .

ويستطرد مع الربوبية إلى وحدانية الخالق , وتفرد ذاته . ووحدانية المتصرف في مقادير السماوات والأرض , وفي بسط الرزق وقبضه . وفي علمه بكل شيء : (فاطر السماوات والأرض , جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ,ومن الأنعام أزواجاً , يذرؤكم فيه , ليس كمثله شيء , وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض , يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر , إنه بكل شيء عليم) . .

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً , والذي أوحينا إليك , وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى:أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء , ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم , ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم , وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت , ولا تتبع أهواءهم وقل:آمنت بما أنزل الله من كتاب . . . الخ . .

وعلى مثل هذا النسق تمضي السورة في عرض هذه الحقيقة ; محوطة بمثل هذا الجو , وهذه الاستطرادات المتعلقة بقضايا العقيدة الأخرى , المثبتة في الوقت ذاته للحقيقة الأولى التي

تبدو كأنها موضوع السورة الرئيسي .

وهذا النسق واضح وضوحا كاملاً في هذا الدرس الأول من السورة . فالقارىء يلتقي بعد كل بضع آيات بحقيقة الوحي والرسالة في جانب من جوانبها .

(20/684)

فأما الدرس الثاني ويؤلف بقية السورة , فيبدأ باستعراض بعض آيات الله في بسط الرزق وقبضه وفي تنزيل الغيث برحمته(وفي خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وفي الفلك الجواري في البحر كالأعلام . ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التي تفردهم وتميز جماعتهم . فإلى مشهد من مشاهد القيامة يعرض صورة الظالمين لما رأوا العذاب:

(يقولون هل إلى مرد من سبيل , وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي) . . واستعلاء المؤمنين يومئذ ووقوفهم موقف المقرر لحال الظالمين:

(وقال الذين آمنوا :إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا إن الظالمين في عذاب مقيم) . . وفي ظل هذا المشهد يدعو الناس إلى إنقاذ انفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان:(استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله , ما لكم من ملجأ يومئذ , وما لكم من نكير) . .

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى في السورة . حقيقة الوحي والرسالة . في جانب من جوانبها : (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ . . .) .

ويمضي سياق السورة حتى ختامها يدور حول هذا المحور مباشرة أو غير مباشرة , مع طابع الاستطراد بين كل إشارة وإشارة إلى تلك الحقيقة , حتى يكون ختام السورة هذا البيان في شأن الوحي والرسالة: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب , أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء , إنه عليّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا , ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ; ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا , وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) . .

وبعد فمن وراء التركيز على حقيقة الوحي والرسالة في سياق السورة كله يبرز هدف خاص لعرضها على هذا النحو وفي هذا التتابع .

(21/684)

هذا الهدف هو تعيين القيادة الجديدة للمبشرين ممثلة في الرسالة الأخيرة , ورسولها , والأمة المسلمة التي تتبع نهجه الإلهي الثابت القويم .

وتبدأ أول إشارة مع مطلع السورة (كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) . . لتقرر أن الله هو الموحي بجميع الرسالات لجميع الرسل , وأن الرسالة الأخيرة هي امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتي الإشارة الثانية بعد قليل: (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) . . لتقرر مركز القيادة الجديدة التي سترد الإشارة إليها فيما بعد .

وفي الإشارة الثالثة يقرر وحدة الرسالة بعد ما قرر في الإشارة الأولى وحدة المصدر: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) . .

وتستطرد هذه الإشارة إلى تقرير أن التفرق قد وقع , مخالفاً لهذه التوصية , ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم . وقع بغيا وظلما وحسدا: (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) . .

ثم تستطرد كذلك إلى بيان حال الذين جاءوا من بعد أولئك الذين اختلفوا: (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب) . .

وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتياب , ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم . . فرسالة السماء التي تقود البشرية قد آلت إلى اختلاف بين

أتباعها . والذين جاءوا من بعدهم تلقوها في ريبة وفي شك لا تستقيم معهما قيادة راشدة

.

(22/684)

ومن ثم يعلن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها (صلى الله عليه وسلم) لهذه القيادة:

فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم . وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب , وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . . . الخ . . ومن ثم تجيء صفة الجماعة المؤمنة المميزة لها طبيعية في سياق هذه السورة - في الدرس الثاني - بوصفها الجماعة التي ستقوم على قيادة هذه البشرية على ذلك النهج الثابت القويم .

وعلى ضوء هذه الحقيقة يصبح سياق السورة وموضوعها الرئيسي والموضوعات الأخرى فيه واضحة القصد والاتجاه . وتتبع هذا السياق بالتفصيل يزيد هذا الأمر وضوحا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 3136 . 3139 ﴾

(23/684)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الشورى

مكية وآياتها ثلاث وخمسون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية ، وموضوعها نفس موضوع السور المكية التي تعالج أمور العقيدة (الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء) والمحور الذي تدور عليه السورة هو " الوحي والرسالة " وهو الهدف الأساسي للسورة الكريمة .

* تبتدىء السورة بتقرير مصدر الوحي ، ومصدر الرسالة ، فألله رب العالمين ، هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين ، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده ، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور الهداية والإيمان [كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم . .] الآيات .

* ثم تعرض السورة لحالة بعض المشركين ، ونسبتهم لله الذرية والولد ، حتى إن السموات ليكدن يتفطرن ، من هول تلك المقالة الشنيعة ، وبينما هؤلاء المشركون في ضلالهم يتخبطون ، إذا بالملأ الأعلى في تسبيحهم وتمجيدهم لله يستغرقون ، وذلك للمقارنة بين كفر أهل الأرض وطغيانهم ، وإيمان أهل السماء وإذعانهم [تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض . .] الآيات .

* ثم تعود السورة للحديث عن حقيقة (الوحي والرسالة) فتقرر أن الدين واحد أرسل الله تعالى به جميع المرسلين ، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت في الفروع ، إلا أن دينهم في الأصول واحد ، وهو الإسلام الذي بعث به نوحا وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام [شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى] الآيات .

* وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين بالقرآن ، المنكرين للبعث والجزاء ، وتنذرهم بالعذاب الشديد ، في يوم تشيب له الرءوس ، وتطير لهوله الأفئدة ، بينما هم في الدنيا يستهزءون ويسخرون ، ويستعجلوا قيام الساعة [الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها . .] الآيات .

(24/684)

---

* وبعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور ، الذي هو الذى هو أثر من آثار صنع الله الباهر ، وحكمته وقدرته ، تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله ، والانقياد والاستسلام لحكمه ، قبل أن يفأجئهم ذلك اليوم العصيب ، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب [استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله] الآيات . ، وتختم السورة

بالحديث عن الوحي وعن القرآن ، كما بدأت به في مطلع السورة الكريمة ، ليتناسق الكلام في البدء والختام [وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . .] الآية .

التسمية :

سميت " سورة الشورى " تنويها بمكانة الشورى في الإسلام ، وتعليما للمؤمنين أن يقيموا حياتهم ، على هذا المنهج الأصيل الأكمل (منهج الشورى) لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع ، كما قال تعالى [وأمرهم شورى بينهم] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 131 ﴾

(25/684)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الشورى

حم عسق – تقدم أن قلنا إن الحروف المقطعة التي جاءت فى أوائل السور حروف تنبيه نحو ألا ويا ونحوهما ، يؤتى بها لإيقاظ السامع وتنبيهه إلى ما سيلقى إليه من الأمور العظام

المشتملة عليها هذه السورة ، وينطق بأسمائها هكذا (حاميم . عين .

سين . قاف .) يتفطرن : أي يتشققن ، يسبحون : أي ينزهون اللّه عما لا يليق به ، والأولياء

: الشركاء والأنداد ، حفيظ : أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم ، بوكيل :

أي بموكول إليك أمورهم حتى تؤاخذهم بها ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنما عليك البلاغ

فحسب .

الإنذار : التخويف : وأم القرى : مكة ، ويوم الجمع يوم القيامة : سمى بذلك لاجتماع الخلائق

فيه كما قال تعالى : "يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ " والفريق :

الجماعة ، والسعير : النار المستعرة الموقدة .

الولي : الناصر والمعين ، أنيب : أي أرجع ، فاطر السموات والأرض : أي مبدعهما لا على

مثال سابق ، من أنفسكم : أي من جنسكم ، يذرؤكم : أي يكثّركم يقال ذرأ اللّه

الخلق : بثهم وكثّرهم ، مقاليد : واحدها مقلاد أو مقليد أو إقليد ، وهو المفتاح ، يبسط

أي يوسع ، يقدر : أي يقتّر ويضيق .

أقيموا الدين : أي حافظوا عليه ، ولا تخلّوا بشيء من مقوّماته ، والمراد بالدين دين الإسلام

، وهو توحيد اللّه وطاعته ، والإيمان برسله ، واليوم الآخر ، وسائر ما يكون به العبد مؤمنا

، ولا تتفرقوا فيه : أي ولا تختلفوا فيه ، فتأتوا ببعض وتتركوا بعضا ، كبر : أي عظم وشق

عليهم ، يجتبى : أي يصطفى ، ينيب : أي يرجع ، والبغي : الظلم ومجاوزة الحد فى كل

شيء ، لقضى بينهم : أي باستئصال المبطلين حين تفرقوا .

ادع : أي إلى الائتلاف والاتفاق ، واستقم : أي اثبت على الدعاء كما أوحى إليك ، آمنت بما أنزل من كتاب : أي صدقت بجميع الكتب المنزلة ، لا حجة : أي لا احتجاج ولا خصومة

(26/684)

يحاجون فى اللّه : أي يخاصمون فى دينه ، استجيب له : أي استجاب الناس لدينه ودخلوا فيه لوضوح حجته ، داحضة : أي زائفة باطلة ، والميزان : العدل بين الناس ، يدريك : يعلمك ، الساعة : القيامة ، مشفقون : خائفون منها حذرون من مجيئها ، الحق : أي الأمر المحقق الكائن لا محالة ، يمارون : أي يجادلون وأصله من مريت الناقة : أي مسحت ضرعها للحلب ، إذ كل من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه .

لطيف بعباده : أي هو برّ بهم يفيض عليهم من جوده وإحسانه ، حرث الآخرة : ثمرات أعمالها تشبيها لها بالغلة الحاصلة من البذور ، حرث الدنيا : لذّاتها وطيباتها ، شركاء : أي فى الكفر وهم الشياطين ، شرعوا لهم : أي زينوا لهم ، ما لم يأذن به اللّه : أي كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فحسب ، كلمة الفصل : هى القضاء والحكم

السابق منه بالنّظرة إلى يوم القيامة ، الروضة : مستنقع الماء والخضرة ، وروضات الجنات : أطيب بقاعها وأنزهها .

البشارة : الإخبار بحصول ما يسرّ فى المستقبل ، والقربى : التقرب ، يقترف : أي يكتسب ، يختم على قلبك : أي يجعل قلبك من المختوم عليهم حتى تجترىء على الافتراء ، يمحو : أي يزيل ، يحق : أي يثبت ، وكلماته : هى حججه وأدلته ، يستجيب الذين آمنوا : أي يجيب دعاءهم .

البسط : السعة ، والبغي : الظلم ومجاوزة الحد ، بقدر : أي بتقدير يقال قدره قدرا وقدرا إذا قدّره ، والغيث : المطر ، وقنط : يئس ، ورحمته : هى منافع الغيث وآثاره التي تعم الحيوان والنبات والسهل والجبل ، والولي : هو الذي يتولى عباده بالإحسان ، الحميد : أي المستحق للحمد على نعمه ، بث : نشر وفرّق ، والدابة : كل ماله دبيب وحركة ، على جمعهم : أي حين الحشر والحساب : بمعجزين : أي بجاعلين اللّه تعالى عاجزا بالهرب منه ، والجواري : أي السفن الجارية ، والأعلام : واحدها علم : وهو الجبل ، قالت الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

وإن صخرا لتأتمّ الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

يسكن الريح : أي يجعلها ساكنة لا تموج ، رواكد : أي ثوابت ، والصبار :

كثير الصبر وهو حبس النفس حين الشدائد عن الجزع وعن التوجه إلى من لا ينبغى التوجه

إليه ، وشكور : أي كثير الشكر للنعم ، يوبقهن : أي يهلكهن يقال للمجرم أوبقته ذنوبه : أي

أهلكته ، محيص : أي مهرب ومخلص .

آتاه الشيء : أعطاه إياه ، والمتاع : ما ينتفع ويتمتع به من رياش وأثاث ونحوهما ، يتوكلون :

يفوّضون إليه أمورهم ، كبائر الإثم : هى كل ما يوجب حدّا ، والفواحش :

هى ما فحش وعظم قبحه كالزنا والقتل ونحوهما ، واستجابوا : أي أجابوا داعى اللّه ،

فأدّوا فرائضه ، وتركوا نواهيه ، والشّورى والمشاورة : المراجعة فى الآراء ، ليتبين الصواب

منها ، والبغي : الظلم ، ينتصرون : أي ينتقمون .

السيئة : مأخوذة من السوء ، وهو القبيح ، وانتصر : أي سعى فى نصر نفسه بجهده ، من

سبيل : أي من عقاب ولا عتاب ، لمن عزم الأمور : أي لمن الأمور المشكورة والأفعال التي

ندب إليها عباده ، ولم يرخّص بالتهاون فيها .

استجيبوا لربكم : أي أجيبوه إذا دعاكم إلى ما فيه نجاتكم ، لا مردّ له : أي لا يرده أحد بعد

ما حكم به ، ملجأ : أي ملاذ تلجئون إليه ، نكير : أي إنكار وجحود لما اقترفتم ، حفيظا :

أي محاسبا لأعمالهم رقيبا عليها ، رحمة : أي نعمة من صحة وغنى ، سيئة : أي بلاء من

فقر ومرض وخوف ، كفور : نسّاء للنعمة ذكّار للبلية ، يزوجهم أي يجعلهم جامعين بين البنين والبنات ، عقيما : أي لا يولد له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 25 صـ 60.13 ﴾ . باختصار .

(28/684)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الشورى

وهي مكية

1 - من ذلك قوله جل وعز (حم .

عسق) (آية 1) وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس (حم .

سق) قال ابن عباس وكان علي عليه السلام يعرف الفتن بها وروى معمر عن قتاده في قوله تعالى (حم .

عسق) قال: اسم من اسماء القرآن

2 - وقوله جل وعز (كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) (آية 3)

المعنى يوحي إليك وإلى الذين من قبلك كذلك الوحي الذي تقدم أو كحروف المعجم وقيل إنه لم ينزل كتاب إلا وفيه (حم .

عسق) فالمعنى على هذا كذلك الذي أنزل من هذه السورة وهذا مذهب الفراء قال ويقرا (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك) قال أبو جعفر يجوز على هذه القراءة ان يكون هذا التمام ثم ابتدأ فقال (الله العزيز الحكيم) على أن العزيز الحكيم خبر أو صفة والخبر (له ما في السموات وما في الأرض) وكذلك يكون على قراءة من قرأ (نوحي) بالنون ويجوز على قراءة من قرأ يوحى ان يكون المعنى يوحي الله وأنشد سيبويه:

ليبك يزيد ضارع لخصومة * وأشعث ممن طوحته الطوائح فقال ليبك يزيد ثم بين من ينبغي أن يبكيه فالمعنى يبكيه ضارع 3 – وقوله جل وعز (تكاد السموات ينفطرن من فوقهن) (آية 5) أي ينشققن كما من أعلاهن عقوبة وقال قتادة لجلالة الله وعظمته قال أبو جعفر وقيل أي من فوق الأمم المخالفة

ويقرأ (يتفطرن من فوقهن) أي من عظمة من فوقهن 4 – ثم قال جل وعز (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض) (آية 5) وفي الأرض المؤمن والكافر ! ! فروى معمر عن قتادة قال (يستغفرن لمن في الأرض) من المؤمنين قال أبو جعفر ويبين هذا قوله جل وعلا (ويستغفرون للذين آمنوا) وقال في الكفار (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)

5 - وقوله جل وعز (لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه) (آية 7) روى أشعث عن الحسن قال (أم القرى) مكة قال أبو جعفر وإنما قيل لها أم القرى لنها أول ما عظم من خلق الله عز وجل أو لأنها ما وضع كما قال جل وعز (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) وفي الحديث (إن الأرض منها دحيت) قال أبو جعفر والمعنى لتنذر أهل أم القرى وتنذر من حولها

(وتنذر يوم الجمع) أي يوم يبعث الناس جميعا المعنى وتنذرهم بيوم القيامة ثم حذف المفعول والباء كما قال تعالى (لينذر باسا شديدا من لدنه) 6 - وقوله جل وعز (فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا) (آية 11) (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أي إناثا (ومن الأنعام ازواجا يذرؤكم فيه) قال مجاهد نسلا من بعد نسل من الناس والإنعام قال قتادة (يذرؤكم فيه) يعيشكم فيه قال أبو جعفر المعنى انه لما قال (جعل) دل على الجعل كما يقال من كذب كان شرا له أي يخلقكم ويكثركم في الجعل وقال الفراء (فيه) بمعنى به والله اعلم وقال القتبي (يذرؤكم فيه) في الزوج قال أبو جعفر كأن المعنى عنده يخلقكم في بطون الإناث ويكون (فيه) في الرحم وهذا خطأ لأن الرحم مؤنثة ولم

يجر لها ذكر 7 - وقوله جل وعز (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (آية 11) الكاف زائدة التوكيد وأنشد سيبويه:

(وصاليات ككما يؤثفين) 8 - وقوله جل وعز (له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) (آية 12) قال الحسن ومجاهد وقتادة المقاليد المفاتيح قال أبو جعفر والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن يقال للمفتاح إقليد وجمعه على غير قياس كمحاسن والواحد حسن 9 - وقوله جل وعز (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك) (آية 13) قال أبو العالية الذي وصى به نوحا الإخلاص لله

(30/684)

وعبادته لا شريك له وقال مجاهد وصى نوحا ووصاك ووصى الأنبياء كلهم دينا واحدا وقال الحكم جاء نوح بالشريعة بتحريم الأمهات والبنات والأخوات وقال قتادة جاء نوح بالشريعة بتحليل الحلال وتحريم الحرام قال أبو جعفر قول أبي العالية ومجاهد بين لأن الإسلام والإخلاص دين جميع الأنبياء والشرائع مختلفة

10 - قوله جل وعز (وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) (آية 13) قال أبو العالية (ولا تتفرقوا) أي لا تتعادوا هو وكونوا

إخوانا قال قتادة فأخبر أن الهلكة في التفرق وأن الإلفة في الاجتماع 11 - ثم قال جل وعز (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) (آية 13) قال قتادة أكبروا وسلم واشتد عليهم شهادة ان لا إله إلا الله وحده وضاق بها إبليس وجنوده فأبى الله جل وعز إلا أن ينصرها ويفلجها ويظهرها على من ناوأها

12 - ثم قال جل وعز الله (يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) (آية 13) قال أبو العالية يخلصه من لاشرك ولا يكون الاجتباء إلا من الشرك وقال مجاهد (يجتبي) يخلص

13 - وقوله جل وعز (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) (آية 14) المعنى وما تفرقوا إلا من أجل البغي (من بعد ما جاءهم العلم) القرآن والدلالات على صحة نبوة محمد عليه السلام

14 - وقوله جل وعز (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم) (آية 14) قال مجاهد أخروا إلى يوم القيامة 15 - وقوله جل وعز (فلذلك فادع واستقم كما أمرت) (آية 15) مؤخر ينوى به التقديم والمعنى كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع واستقم كما أمرت (فلذلك) أي فإلى ذلك أي فإلى إقامة الدين كما قال:

(أوحى لها القرار فاستقرت) أي أوحى إليها 16 – وقوله جل وعز (والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة) (آية 16) قال مجاهد أي من بعد ما اسلم الناس قال وهؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود وقال قتادة الذين حاجوا في الله من بعد ما استجيب له اليهود والنصارى قالوا نبينا قبل نبيكم ودينا قبل دينكم ونحن

خير منكم 17 – قوله جل وعز (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) (آية 17)

قال قتادة الميزان العدل 18 – ثم قال جل وعز (وما يدريك لعل الساعة قريب) (آية 17)

(لعل الساعة) أي البعث قريب أو لعل مجئ الساعة قريب 19 – وقوله جل وعز (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) (آية 18) أي يقولون متى تكون على وجه التكذيب بها

(والذين آمنوا مشفقون منها) أي خائفون لأنهم قد أيقنوا بكونها (ألا إن الذين يمارون في الساعة) أي يجادلون فيها ليشككوا المؤمنين (لفي ضلال بعيد) لأنهم لو أفكروا عنه لعلموا أن الذي أنشأهم وخلقهم أول مرة قادر على أن يبعثهم 20 – وقوله جل وعز (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه) (آية 20) الحرث: العمل ومنه قول عبد الله بن عمر (احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ومنه

سمي الرجل حارثا والمعنى من كان يريد بعمله الآخرة (نزد له في حرثه) أي نوفقه ونضاعف

له الحسنات

وقوله جل وعز (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها) (آية 20) في معناه ثلاثة أقوال: أ - منها أن المعنى نؤته منها ما نريد كما قال سبحانه (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) ب - ومنها أن يكون المعنى ندفع عنه من آفات الدنيا والقول الثالث أن المعنى: من كان يفعل الخير ليثنى عليه تركناه وذلك ولم يكن له في الآخرة نصيب

(32/684)

---

21 - وقوله جل وعز (ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم) (آية 22) أي من جزاء ما كسبوا وهو العذاب وهو واقع بهم 22 - وقوله جل وعز (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) (آية 23) في معناها أربعة أقوال: 1 - روى قزعة بن سويد عن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قل لا أسألكم على ما أتيتكم به أجرا إلا أن تتوددوا لله وتتقربوا إليه بطاعته وروى منصور وعوف عن الحسن (قل لا أسألكم عليه أجرا

إلا المودة في القربى) قال تتوددون إن إلى الله جل وعز وتتقربون منه بطاعته فهذا قول 2 - وقال الشعبي ومجاهد وعكرمة وقتادة المعنى قل لا

أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوني لقرابتي منكم فتحفظوني ولا تكذبوني قال عكرمة وكانت قريش تصل أرحامها فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قطعته فقال صلوني كما كنتم تفعلون قال أبو جعفر والمعنى على هذا قل لا أسألكم عليه أجرا لكن أذكركم قرابتي على أنه استثناء ليس من الأول فهذان قولان

3 - وقال الضحاك هذه الآية منسوخة نسخها قوله جل وعز (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) فالذي سئلوه أن يودوه بقرابته ثم رده الله إلى ما كان عليه الأنبياء كما قال نوح وهود (قل لا أسألكم عليه أجرا) فهذه ثلاثة أقوال 4 - وروى قيس عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين نودهم ؟ قال علي وفاطمة وولدها

23 - وقوله جل وعز (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا) (آية 23) الاقتراف الاكتساب وهو مأخوذ من قولهم رجل قرفة إذا كان محتالا 24 - وقوله جل وعز (أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله

يختم على قلبك) (آية 24) قال قتادة أي إن شاء أنساك ما علمك وقيل المعنى إن يشأ يزل تمييزك فاشكره إذ لم يفعل

وقيل معنى (فإن يشأ الله يختم على قلبك) إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم وقولهم (افترى على الله كذبا تم الكلام 25 – ثم قال جل وعز (ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته) (آية 24) أي يمحو الله الشرك ويزيله

وقوله جل وعز (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) (آية 24) في الحديث أن عبد الله بن مسعود سئل عن رجل زنى بامرأة أيجوز له أن يتزوجها ؟ فقال (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون) 26 – وقوله جل وعز (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) (آية 26) (الذين) في موضع نصب بمعنى ويستجيب للذين آمنوا كما قال سبحانه وإذا كالوهم أي كالوا لهم يقال إستجبته إلا بمعنى أجبته وانشد الأصمعي: وداع دعا يا من يجيب إلى الندى * فلم يستجبه عند ذاك مجيب

ويجوز أن يكون في موضع رفع ويكون (ويستجيب

الذين آمنوا) بمعنى يجيب الذين آمنوا كما قال عز وجل (فليستجيبوا لي) قال محمد بن يزيد حقيقته فليستدعوا فيه الإجابة هكذا حقيقة معنى (استفعل) 27 – وقوله جل وعز (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) (آية 27) روى سعيد عن قتادة قال خير الرزق ما لا يطغي ولا يلهي 28 – وقوله جل وعز (وهو الذي

ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) (آية 28)

قال مجاهد (من بعد ما قنطوا) أي يئسوا قال أبو جعفر يقال قنط يقنط وقنط يقنط إذا اشتد يأسه من الشئ 29 - وقوله جل وعز (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة) (آية 29) قال الفراء أراد بث في الأرض دون السماء كما قال سبحانه (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح قال أبو جعفر هذا غلط روى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (وما بث فيهما من دابة قال الناس والملائكة

(34/684)

وهذا قول حسن يقال لكل حي دابة من دب فهو داب والهاء للمبالغة كما يقال رواية وعلامة ثم قال جل وعز (وهو على جمعهم) أي على إحيائهم (إذا يشاء قدير) 30 - وقوله جل وعز (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) (آية 30) يقال قد تكون المصيبة بغير هذا ففيه أجوبة:

1 - أروى معمر عن قتادة عن الحسن في قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) قال الحدود فالمعنى في هذا إن الله جل وعز جعل الحدود بما يعمل من المعاصي

ب – وقيل ما ههنا بمعنى (الذي) وهو حسن والدليل على هذا أن أهل المدينة قرؤوا (بما) بغير فاء فالمعنى على هذا والذي كان أصابكم بذنوب عملتموها ج – وروى سفيان عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر) ثم تلا (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) قال أبو جعفر فالمعنى على هذا وما أصابكم من مصيبة مقصود بها العقوبة فبما كسبت أيديكم قال أبو جعفر وفي الآية قول رابع وهو أن كل مصيبة تصيب فإنما هي من اجل ذنب إما أن يكون الإنسان عمله وإما أن يكون تنبيها له لئلا يعمله وإما أن يكون امتحانا له ليعتبر والداه فقد صارت كل مصيبة على هذا من أجل الذنوب وصارت القراءة بالفاء أحسن لأنه شرط وجوابه

31 – وقوله جل وعز (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام) (آية 32) قال مجاهد الجواري السفن والأعلام الجبال 32 – ثم قال جل وعز (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) (آية 33) أي سواكن 33 – وقوله جل وعز (أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير) (آية 34)

قال مجاهد يوبقهن يهلكهن قال أبو جعفر يقال أوبقته ذنوبه أي أهلكته قال قتادة (أو يوبقهن بما كسبوا) يهلك من فيهن بذنوبهم

قال أبو جعفر تقديره مثل (واسأل القرية) 34 - وقوله جل وعز (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) (آية 37) روي عن ابن عباس (كبائر الإثم) الشرك ويقرأ (كبير الإثم) قال الحسن الكبائر كل ما وعد الله جل وعز عليه النار وقيل الكبائر كل ما وعد الله عليه النار وأجمع المسلون على أنه من الكبائر فقد أجمعوا على أن الخمر من الكبائر

حدثنا بكر بن سهل قال حدثنا أبو صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) الإشراك واليأس من روح الله والأمن لمكر الله ومنه عقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل

الربا والسحر والزنى واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة المفروضة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمدا أو شيء مما افترض الله ونقض العهد وقطيعة الرحم

35 - وقوله جل وعز (وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) (آية 38) اي يتشاورون 36 - وقوله جل وعز (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) (آية 39)

روى منصور إبراهيم كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق 37 - ثم قال جل وعز (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (آية 40) قال ابن أبي نجيح إذا قال أخزاه الله قال له أخزاه الله

قال أبو جعفر الأولى سيئة في اللفظ والمعنى والثانية سيئة في اللفظ وليست في المعنى سيئة ولا الذي عملها مسئ وسميت سيئة لازدواج الكلام ليعلم إنها جزاء على الأولى 38 - وقوله جل وعز (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما

عليهم من سبيل) (آية 41) قال قتادة هذا في القصاص فأما من ظلمك فلا يحل لك أن تظلمه قال الحسن (ولمن انتصر بعد ظلمه) هذا إذا لم يكن ظلمه لا يصلح أي هذا فيما أباح الله الانتصار منه

(36/684)

وقد روى يونس عن الحسن في قوله (ولمن انتصر بعد ظلمه) قال إذا لعن لعن وإذا سب سب ما لم يكن حدا أو كلمة لا تصلح 39 - وقوله جل وعز (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي) (آية 45) أي ينظرون إلى النار قال مجاهد (خفي) أي ذليل قال أبو جعفر وقيل ينظرون بقلوبهم لأنهم يحشرون عميا

40 - وقول جل وعز (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) (آية 45) قال قتادة خسروا أهليهم الذين في الجنة اعدوا لهم لو أطاعوا وقيل لما كان المؤمنون يلحق بهم أهلوهم في الجنة وكان

الكفار لا يجتمعون معهم في خير كانوا قد خسروهم قال الله تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) 41 - وقوله جل وعز (ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير) (آية 47) قال مجاهد (من ملجأ) من محرز و (من نكير) من ناصر وقيل (من ملجأ) من مخلص من عذاب الله (وما لكم من نكير) أي لا تقدرون أن تنكروا الذنوب التي توقفون عليها 42 - وقوله جل وعز (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما) (آية 50) قال عبيدة وأبو مالك والحسن ومجاهد والضحاك والمقصود لفظ عبيدة أي يهب لمن يشاء ذكورا يولدون له ولا يولد له إناث ويهب لمن يشاء إناثا يولدون له ولا يولد له ذكر (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) يولد له ذكور ويولد له إناث قال عبيدة (ويجعل من يشاء عقيما) لا يولد له قال أبو جعفر يقال لكل اثنين مقترنين زوجان كل واحد منهما زوج من ذلك الرجل والمرأة والخفان والنعلان فمعنى (يزوجهم ذكرانا وإناثا) يقرنهم أي يقرن لهم كما قال

(والقمر قدرناه منازل) ويقال زوجت إبلي صغيرها وكبيرها أي قرنت صغيرها مع كبيرها ويقال رجل عقيم لا يولد له وامرأة عقيم لا تلد وريح عقيم لا تأتي بمطر ولا خير 43 – وقوله جل وعز (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) (آية 51) في المعنى قولان: أ – فالذي عليه أهل التفسير ما قاله مجاهد قال (إلا وحيا) أن ينفث في قلبه

(أو من وراء حجاب) كما كلم موسى صلى الله عليه وسلم (أو يرسل رسولا) كما أرسل جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى أشباهه والقول الآخر أن معنى (إلا وحيا) كما أوحي إلى الأنبياء صلى الله عليهم بإرسال جبريل صلى الله عليه (أو من وراء حجاب) كما كلم موسى صلى الله عليه وسلم (أو يرسل رسولا) إلى الناس عامة ويقرأ (أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه) وهذا في موضع الحال أي الذي يقوم مقام الكلام ما ذكر ويجوز أن يكون مقطوعا من الأول

44 – وقوله جل وعز (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا)

(آية 52) قال ابن عباس النبوة قال أبو جعفر أي وكذلك أوحينا إليك ما تحيا به النفوس أي ما تهتدي به وقال قتادة والحسن (روحا من أمرنا) أي رحمة من عندنا 45 – وقوله جل وعز (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) (أية 52) أي بما أوحينا إليك وقال معلى سمعت

حوشبا يقرأ (وإنك لتهدى إلى

صراط مستقيم) وفي قراءة أبي (وإنك لتدعو إلى صراط مستقيم) قال أبو جعفر وهذا لا يقرا به لأنه مخالف للسواد وإنما يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير كما قال سفيان في قوله جل وعز (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) أي لتدعو وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) قال لكل قوم هاد انتهت سورة الشورى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 291. 329 ﴾

(38/684)

وقال الفراء :

سورة (الشورى)

﴿ حم عسق ﴾

قوله عز وجل: ﴿ عسق . . . ﴾ .

ذكر عن ابن عباس أنه كان يقول: حم سق ، ولا يجعل فيها عينا ، ويقول: السين كل فرقة تكون ، والقاف كل جماعة تكون .

قال الفراء: [و] رأيتها فى بعض مصاحف (عبد الله) "حم سق" كما قال ابن عباس .

﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ . . . ﴾ .

﴿ حم عسق ﴾ يقال: إنها أوحيت إلى كل نبى ، كما أوحيت إلى محمد صلى الله عليه .

قال ابن عباس: وبها كان على بن أبى طالب يعلم الفتن . وقد قرأ بعضهم: "كذلك يوحَى" ، لا يُسَمّى فاعلَه ، ثم ترفع الله العزيز الحكيم يرد الفعل إليه . كما قرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمى "وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلادِهِمْ" ثم قال: (شركاؤهم) أى زينه لهم شركاؤهم ومثله قول من قرأ: "يُسَبَّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ" ثم تقول: (رجالٌ) فترفع يريد : يسبّح له رجال .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾

وقوله: ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا . . . ﴾ وأمّ القرى: مكة ومن حولها من العرب ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ . معناه: وتنذرهم يوم الجمع ، ومثله قوله: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَولِيَاءَهُ ﴾ معناه: ؛ يخوفكم أولياءه .

وقوله: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ . . . ﴾ .

رفع بالاستئناف كقولك: رأيت الناس شقى وسعيد ، ولو كان فريقاً فى الجنة ، وفريقا فى السعير كان صوابا ، والرفع أجود فى العربية .

﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

وقوله: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً . . . ﴾ .

يقول: جعل لكل شىء من الأنعام زوجا ليكثروا ولتكثروا .

وقوله: ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ . . . ﴾ معنى فيه: أى به ، والله أعلم .

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

وقوله: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ . . . ﴾ ، أى فلهذا القرآن ومثله كثير فى القرآن ، قد ذكرناه ، هذا فى موضع ذلك ، وذلك فى موضع هذا ، والمعنى: فإلى ذلك فادع . كما تقول [/ب] دعوتُ إلى فلان ، ودعوت لفلان .

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

وقوله: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . . . ﴾ .

ذُكِر: أن الأنصار جمعت للنبى صلى الله عليه – نفقة يستعين بها على ما ينوبه فى أصحابه ، فأتوا بها النبى – صلى الله عليه – ، فقالوا: أن الله عز وجل قد هدانا بك ، وأنت ابن اختنا فاستعِنْ بهذه النفقة على ما ينوبك ، فلم يقبلها ، وأنزل الله فى ذلك: قل لهم لا أسألكم على الرسالة أجراً إلى المودة فى قرابتى بكم .

(40/684)

وقال ابن عباس: ﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ فى قرابتى من قريش .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

وقوله: ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ . . . ﴾ .

ليس بمردود على ﴿ يختم ﴾ ، فيكون مجزوما ، هو مستأنف فى موضع رفع ، وإن لم تكن فيه واو فى الكتاب ، ومثله مما حذفت منه الواو وهو فى موضع رفع قوله: ﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ ﴾ وقوله: ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

وَقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . . . ﴾ .

ذَكر العباد ، ثم قال: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ كأنه خاطبهم ، والعوام يقرءونها بالياء .

حدثنا الفراء قال: حدثنى قيس عن رجل قد سماه عن بُكَيْر بن الأخنس عن أبيه قال: قرأت من الليل: ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ فلم أدر أأقول: يفعلون أم تفعلون ؟ فغدوت إلى عبد الله بن مسعود لأسأله عن ذلك ، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن ، رجلٌ أَلَمّ بامرأة فى شبيبة ، ثم تفرقا وَتابا ، أيحل له أن يتزوجها ؟

قال ، فقال عبد الله رافعا صوته: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . . . ﴾ .

قال الفراء: وكذلك قرأها علقمة بن قيس ؛ وإبراهيم ؛ ويَحيى بن وَثاب ؛ وَذكر عن أبى عبد الرحمن السلمى: أنه قرأ كذلك بالتاء .

﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ [وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ] . . . ﴾ .

يكون الذين فى موضع نصب بمعنى: ويجيب الله الذين آمنوا ، وقد جاء فى التنزيل:

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ ، والمعنى ، والله أعلم: فأجابهم ربهم ، إلاّ أنك إذا قلت:

استجاب أدخلت اللام فى المفعول به ، وإذا قلت: أجاب حذفت اللام ، ويكون

استجابهم بمعنى: استجاب لهم ، كما قال: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ المعنى ، والله

أعلم: وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، يُخْسرون ؛ ويكون الذين – فى موضع رفع ؛ يجعل الفعل

لهم أى: الذين آمنوا يستجيبون لله ؛ ويزيدهم الله على إجابتهم والتصديق من فضله .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ . . . ﴾ .

أراد: وما بث فى الارض دون السماء ، بذلك جاء فى التفسير ؛ ومثله مما ثنى ومعناه

واحد قوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ وإنما يخرج من الملح دون العذب .

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ . . . ﴾ ويعلَمَ الذين مردودة على الجزم ؛ إلا أنه صُرف ؛ والجزم

إذا صُرف عنه معطوفُه نصب كقول الشاعر:

فإن يهلك أبو قابوس يَهلك * ربيعُ الناسِ والبلدُ الحرامُ

ونُمسكَ بعده بذناب عَيْسٍ * أجبِّ الظهرِ ليس له سَنام

والرفع جائز فى المنصوب على الصرف .

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾

وقد قرأ بذلك قوم فرفعوا : ﴿ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ . . . ﴾ ومثله مما استؤنف فرفع قوله: ﴿ ثم يتوبُ اللّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِك على من يشاء ﴾ فى براءة ؛ ولو جزم ويعلمُ – جازم كان مصيباً .

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾

(42/684)

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كبير الإِثْمِ . . . ﴾ .

قرأه يحيى بن وثاب "كبير" : وفسر عن ابن عباس: أن كبير الإثم هو الشرك ؛ فهذا موافق لمن قرأ: كبير [الإثم] بالتوحيد ؛ وقرأ العوام: ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ . فيجعلون كبائر كأنه شىء عام ، وهو فى الأصل واحد ؛ وكأنى أستحبّ لمن قرأ: كبائر أن خفض الفواحش .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ . . . ﴾ .

نزلت خاصة فى أبى بكر الصديق (رحمه الله) ، وذلك: أن رجلا من الأنصار وقع به عند رسول الله فسبّه ، فلم يردد عليه أبو بكر ؛ ولم يَنْهَ رسول الله صلى الله عليه الأنصارى ؛ فأقبل عليه أبو بكر فرد عليه ، فقام النبى - صلى الله عليه - كالمغضب واتبعه أبو بكر فقال: يا رسول الله ، ما صنعتَ بى أشدّ علىّ مما صنع بى: سبّنى فلم تَنْهَهُ ، ورددتُ عليه فقمت كالمغضب ، فقال النبى - صلى الله عليه -: كان الملك يرد عليه إذا سكتَّ ، فلما رددتَ عليه رجع الملك ، فوثبتُ معه ؛ فنزلت هذه الآية . وفسرها شريك عن الأعمش عن إبراهيم فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ، قالوا: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم للفساق فيجترئوا عليهم .

﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَائِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَائِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . . . ﴾ .

نزلت أيضاً فى أبى بكر .

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ . . . ﴾ .

قال بعضهم: يُخفونه من الذل الذى بهم ، وقال بعضهم: نظروا إلى النار بقلوبهم ، ولَم يروها بأعينهم لأنهم يحشرون عمياً .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ . . . ﴾ .

وإنما ذكر قبلهم الإنسان مفرداً ، والإنسان يكون واحداً ، وفى معنى جمع فردّ الهاء والميم على التأويل ، ومثل قوله: ﴿ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ يراد به: كل الناس ، ولذلك جاز فيه الاستثناء وهو موحّد فى اللفظ كقول الله ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ إلا الذين آمنوا ﴾ ، ومثله: ﴿ وَكَمْ مِّنْ مَلَكٍ فِى السَّماواتِ ﴾ ثم قال: ﴿ لاَ تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ ﴾ وإنما ذكر ملكا ؛ لأنه فى تأويل جمع .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ ﴾

وقوله: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً . . . ﴾ .

محضاً لا ذكور فيهن ، ويهب لمن يشاء الذكور محضاً لا إناث فيهم ، أو يزوجهم يقول: يجعل بعضهم بنين ، ويجعل بعضهم بنات ذلك التزويج فى هذا الموضع . والعرب تقول: له بنون

شِطْرة إذا كان نصفهم ذكوراً ، ونصفهم إناثاً ، ومعنى هذا – والله أعلم – كمعنى ما فى كتاب الله .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً . . . ﴾ .

(44/684)

كما كان النبى صلى الله عليه يرى فى منامه ، ويُلْهَمُ ، أو من وراء حجاب ، كما كلّم موسى من وراء حجاب ، أو يرسل رسُولا ملكا [من ملائكته] فيوحى بإذنه ، ويكلم النبى بما يشاء الله [وذلك فى قوله: "أو يرسلُ رسولا . . . " الرفع والنصب أجود .

قال الفراء: رفع نافع المدينىّ ، ونصبت العوام] ومن رفع "يرسل" قال: "فيوحى" مجزومة الياء .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَاكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَاكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً . . . ﴾ .

يعنى التنزيل ، وقال بعضهم: أراد القرآن والإيمان ، وجاز أن يقول: جعلناه لاثنين ؛ لأن الفعل فى كثرة أسمائه يضبطه الفعل ، ألا ترى أنك تقول: إقبالك وَإِدبارك يغمنى ، وهما اثنان فهذا من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 21.27 ﴾

(45/684)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة عسق

(يتفطرن) [5] أي: تكاد القيامة [تقوم ،] والعذاب يعجل لهم . ([و]يستغفرون لمن في الأرض) [5] أي: ليدفع عذاب الاستئصال عنهم كيلا يهلك المؤمنون مع الكافرين . (ليس كمثله شيء) [11] قال المغربي: والمراد به أنه لا مثل له ، ولا ما يقاربه في المماثلة . وهذا مفهوم في قول الناس ، يقولون: هو كزيد ، إذا أرادوا التشبيه المقارب ، وإذا أرادوا أبعد منه قالوا: هو كأنه زيد ، كما قال الهذلي: 1070 - فوالله لا ألقى ابن عم كأنه نشيبة ما دام الحمام [ينوح]

أي: [لا] ألقى أخاً يشبهه ، ولا شبهاً بعيداً . وقيل: إن "مثلاً" بمعنى "مثل" كشبه وشبه . والمثل: الوصف ، كقوله: (مثل الجنة) ، أي: وصفها / ، فيكون معنى الآية: ليس كوصفه

شيء ، أي: ليس وصفه شيء . وذكر القاضي كثير -رحمه الله- أن الكاف أبلغ في نفي التشبيه ، تقديره: أنه لو قدر له [مثل] في الوهم ، لم يكن لذلك المثل شبيه ، فكيف يكون لمن لا مثل له شبيه وشريك . وهذه المعاني أحسن من أن يطلق القول بزيادة الكاف ، وإن جاء ذلك في الشعر ، قال رؤبة:

1071- لواحق الأقراب فيها كالمقق ، والمقق: الطول ، أي: فيها طول . وعلى [لفظ] القرآن في شعر الهذليين: 1072- فلا تجزعوا إنا رجال كمثلكم قدعنا ونجتنا المنى والعواقب . (يذرؤكم فيه) [11] أي: على هذا الخلق المشتمل عليكم وعلى أنعامكم . (لا حجة بيننا وبينكم) [15]

(46/684)

لا حجاج بعد الذي أوضحناه من البينات وتصديتم لها بالعناد . (أمرت لأعدل بينكم) أي: في التبليغ والإعلام . (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها) [20] أي: نؤتيه كما نؤتي غيره ، لا أنه يجاب إلى كل ما سأله . (ولولا كلمة الفصل) [21] الكلمة التي سبقت في تأخير عذابهم . (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا) [27] هذه الكلمة مع فرط إيجازها ، وقلة حروفها ، متضمنة لمعاني أسفار من خطب وأشعار ، في حكمة تقدير الأرزاق ،

وتضييق المعاش. والجاحظ كثير الإلهام بها في كتبه، وله فيها رسالة فريدة بديعة. وقد أحسن الأعرابي الإلغاز عنها فقال:

1073- وفي البقل إن لم يدفع الله شره شياطين ينزو [بعضهن] على بعض. ومثله قال آخر: 1074- أصابهم من مطلع الفجر الصبا والغيث حل عقود كل صلاح. وقال آخر: 1075- أليس من بلاء وجيب قلبي وإيضاعي الهموم مع النجو 1076- فأحزن أن يكون على صديق وأفرح أن يكون على عدو/. أي: السحاب، وهو النجو كما يفسره في الشرع إذا وقع بمكان بطر أهلها وبغوا، فأخاف من ذلك على صديق، وهو كالأصدقاء في كلام العرب.

(ويعلم) [35] بالنصب، بإضمار "أن"، أي: وأن يعلم، والضمير للمجادلين. و(الذين) في موضع الرفع بالفاعل، وأن مع الفعل بمعنى المصدر، فعطف على مصدر الفعل الأول، وتقديره: إن نشأ يكن الهلاك وعلم المجادلين: أن لا محيص لهم. وقيل: إن نصبه على الصرف من [الجزم] عطفاً على قوله: (ويعف عن كثير). (وأمرهم شورى بينهم) [38] يأمرهم بترك الاختلاف، [والتوفر] على الائتلاف، كقولك: أمرهم [فوضى] بينهم. أي: لا يستأثر بعضهم على بعض، وأصل هذه الكلمة من [الشور] وهو العرض. (من طرف خفي) [45] يسارقون النظر. (إلا وحياً) [51] قيل: إنه داود عليه السلام، ألقي في روعه ونفث في قلبه فزبر الزبور. (أو من وراء حجاب) موسى. (أو يرسل

رسولاً) [51] جبريل إلى محمد عليهم السلام. (روحاً من أمرنا) [52]

أي: القرآن.

[تمت سورة الشورى]. انتهى انتهى. ا هـ ﴿باهر البرهان صـ 1282. 1289﴾

(47/684)

وقال الأخفش:

سورة (الشورى)

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

قال ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ [تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ] ﴾ على التفسير كأنه قال "هو أَنْ أَقِيمُوا الدين

[168 ب] على البدل.

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

وقال ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي: أُمِرْتُ كَيْ أَعدل.

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ استثناء خارج. يريد - والله أعلم - إلاَّ أَنْ أذكر مودة قرابتي.

وأما ﴿ يُبَشِّرُ ﴾ فتقول "بَشَّرْتُه" و"أبشَرْتُه" [و] قال بعضهم "أَبْشُرُه" خفيفة فذا من "بَشَرْتُ" وهو في الشعر. قال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد السادس والستون بعد المئتين]:

وَقَدْ أَرُوحُ إِلَى الحانوتِ أَبْشُرُهُ * بالرَّحْلِ فَوْقَ ذُرَى العَيْرانَةِ الأُجُدِ

(48/684)

قال أبو الحسن: "انشدني يونس هذا البيت هكذا وجعل ﴿ الَّذِي يُبَشِّرُ ﴾ اسما للفعل كأنه "التَبْشِير" كما قال ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي: اصدع بالأمر. ولا يكون ان تضمر فيها الباء وتحذفها لأنك لا تقول "كَلِّمْ الذِي مَرَرْتُ" وانت تريد "بِهِ".

﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ

شَدِيدٌ ﴾

وقوله ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أي: استجاب . فجعلهم هم الفاعلين .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

وقال ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ اما اللام التي في ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ فلام الابتداء واما ذلك فمعناه – والله أعلم – ان ذلك منه لمن عزم الأمور . وقد تقول: "مَرَرْتُ بدارِ الذراعُ بِدِرْهَمٍ" أي . الذراع مِنْهَا بِدِرْهَمٍ" و: "مررت ببُرٍّ قفيزٌ بدرهم" أي: "قَفيزٌ منه" واما ابتداء "إن" في هذا الموضوع فكمثل ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ﴾ يجوز ابتداء مثل هذا اذا طال الكلام في مثل هذا الموضع . [169]

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾

وقال ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ جعل "الطَرْفَ" العين كأنه قال "ونظرهم من عين ضعيفة" – والله أعلم – وقال يونس: "ان ﴿ مِن طَرْفٍ ﴾ مثل: "بِطَرْفٍ" كما تقول العرب: "ضربتُه في السَّيْف" و "بالسَّيْفِ" .

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾

وقال ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ لأن الله تبارك وتعالى يتولى الأشياء دون خلقه يوم القيامة وهو في الدنيا قد جعل بعض الأمور اليهم من الفقهاء والسلطان واشباه ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 510.512 ﴾

(50/684)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الشورى

مكية كلها

5 - يَتَفَطَّرْنَ : يتشققن من جلال اللّه تعالى وعظمته .

7 - وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ أي تنذرهم بيوم الجمع ، هو يوم القيامة .

كما قال عز وجل : لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً [سورة الكهف آية : 2] ، أي بباس شديد .

11 - جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً يريد : الإناث ، وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يريد : جعل للأنعام منها أزواجا ، أي إناثا . يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ أي يخلقكم في الرحم ، او في الزوج .

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ أي ليس كهو شيء . والعرب تقيم المثل مقام النفس ، فتقول : مثلي لا يقال

له هذا ، أي انا لا يقال لي .

12 - لَهُ مَقَالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي مفاتيحها . ومالك المفاتيح :

مالك الخزائن . واحدها : «إقليد» ، جمع على غير واحد كما قالوا : «مذاكير» جمع

ذكر . وقالوا : «محاسن» جمع حسن .

17 - اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ أي العدل .

18 - مُشْفِقُونَ مِنْها أي خائفون .

(51/684)

---

20 - مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ أي عمل الآخرة .

يقال : فلان يحرث للدنيا ، أي يعمل لها ويجمع المال .

ومنه قول عبد اللّه بن عمرو «1» : «احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك

كأنك تموت غدا» .

ومن هذا سمي الرجل : «حارثا» .

وإنما أراد : من كان يريد بحرثه الآخرة ، أي بعمله . نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ أي نضاعف له

الحسنات . وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها ، أي أراد بعمله الدنيا آتيناه منها .

21 - أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ ؟ ! وهم : الآلهة . جعلها شركاءهم : لأنهم جعلوها شركاء اللّه عز وجل ، فأضافها إليهم : لادعائهم فيها ما ادعوا .

وكذلك قوله : هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؟ ! [سورة الروم آية : 40]

أي من الشركاء الذين ادعيتموهم لي .

شَرَعُوا لَهُمْ أي ابتدعوا لهم .

وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ أي القضاة السابق الفصل : بأن الجزاء يوم القيامة ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ في الدنيا .

قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى .

قال قتادة : «لا أسألكم أجرا على هذا الذي جئتكم به ، إلا أن تودوني في قرابتي منكم . وكلّ قريش بينهم وبين رسول اللّه - صلى اللّه عليه وعلى آله وسلّم - قرابة» .

---

(1) هو عبد اللّه بن عمرو بن العاص السهمي ، لم يكن بينه وبين أبيه في الولادة إلّا إحدى عشرة سنة ، وكان من فضلاء الصحابة وعبادهم المكثرين في الرواية وأسلم قبل أبيه . توفي سنة خمس وستين . (انظر شذرات الذهب ص 73 ج 1) .

قال مجاهد : «لم يكن من قريش بطن ، إلا ولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم» .

وقال الحسن : «إلا أن تتوددوا إلى اللّه عز وجل ، بما يقربكم منه» .

وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً أي يكتسب .

26 - وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا أي يجيبهم ، كما قال الشاعر :

وداع دعا : يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه - عند ذاك - مجيب

29 - وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ أي نشر .

32 - وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ يعني : السفن ، كَالْأَعْلامِ أي الجبال . واحدها : علم .

33 - فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ ، أي سواكن على ظهر البحر .

34 - أَوْ يُوبِقْهُنَّ : يهلكهن . يقال : فلان قد اوبقته ذنوبه .

وأراد : أهل السفن .

38 - وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أي يتشاورون فيه .

45 - يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ، أي قد غضوا أبصارهم من الذل .

50 - أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً أي يجعل بعضهم بنين ، وبعضهم بنات . تقول العرب : زوجت إبلى ، إذا قرنت بعضها ببعض . وزوجت الصغار بالكبار : إذا قرنت كبيرا بصغير .

51 - أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً : في المنام ، أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ : كما كلم موسى عليه

السلام ، أَوْيُرْسِلَ رَسُولًا أي ملكا ، [فيوحي بإذنه ما يشاء] : فيكلمه عنه بما يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 338.340 ﴾

(53/684)

وقال الغزنوى :

ومن سورة حم . عسق

3 كَذَلِكَ يُوحِي : كالوحي المتقدم يوحي إليك .

5 يَتَفَطَّرْنَ : أي : تكاد القيامة تقوم والعذاب يحضر .

11 لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ : لا مثل له ولا ما يقاربه في المماثلة ، تقول : هو كزيد إذا أردت التشبيه المقارب «1» ، وإذا أردت أبعد منه قلت : هو كأنه زيد ، والكاف أبلغ في نفي التشبيه «2» ، أي : لو قدّر له مثل في الوهم لم يكن لذلك المثل شبيه فكيف يكون لمن لا مثل له شبيه وشريك «3» ؟ .

يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ : يخلقكم «4» ، أو يكثّركم «5» ، أي : على هذا الخلق المشتمل عليكم وعلى أنعامكم .

12 لَهُ مَقَالِيدُ السَّماواتِ : مفاتيحها بالمطر ، وَالْأَرْضِ بالثمار والنّبات «6» .

15 لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ : لا حجاج بعد الذي أوضحناه من البينات ، وتصديتم لها بالعناد .

وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ : أي : في التبليغ والإعلام «7» .

16 مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ : لظهور حجته بالمعجزات «8» .

19 لَطِيفٌ بِعِبادِهِ : في إيصال المنافع وصرف الآفات من وجه يلطف إدراكه .

---

(1) في «ج» : المتقارب .

(2) كذا في «ك» ووضح البرهان للمؤلف ، وعزا هذا القول هناك إلى القاضي كثير بن سهل ، ولعل العبارة نفي الشبيه ، وقد يكون المراد نفي التشبيه ، لأن نفيه أبلغ من نفي المشابهة .

(3) راجع ما سبق في تفسير الفخر الرازي : (27/ 152 ، 153) .

(4) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 199 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 391 ، ومكي في تفسير المشكل : 307 . [. . . . .]

(5) اختاره الزجاج في معانيه : 4/ 395 ، والفخر الرازي في تفسيره : 27/ 149 ، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 276 إلى الفراء ، والزجاج .

(6) نقل البغوي هذا القول في تفسيره : 4/ 122 عن الكلبي .

وذكره الفخر الرازي في تفسيره : 27/ 154 ، والقرطبي في تفسيره : 15/ 274 .

(7) ينظر تفسير الماوردي : 3/ 516 ، والمحرر الوجيز : 4/ 211 ، وتفسير القرطبي : 16/ 13 .

(8) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 517 .

(54/684)

---

20 وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها : أي : كما نؤتي غيره ، لا أنّه يؤتى كل ما يسأل وفي الحديث «1» : «اخرجوا إلى معايشكم وخرائثكم» .

23 إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى : إلّا أن تودوني لقرابتي منكم «2» ، أو إلّا أن تودّدوا قرابتي «3» ، أو إلّا التّودّد على التقرّب إلى اللّه بالعمل الصالح «4» .

24 يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ : ينسك القرآن «5» .

---

(1) أخرجه الخطابي في غريب الحديث : 1/ 554 عن معتمر بن سليمان عن أبيه ، وهو من قول المشركين في غزوة بدر عند ما بلغهم خروج أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى بدر يرصدون العير ، وفي إسناد الخطابي يعقوب بن زهير ، لم أجد له ترجمة ، وبقية رجاله ثقات .

والحديث أيضا في الفائق : 1/ 274 ، وغريب الحديث لابن الجوزي : 1/ 200 .

قال الخطابي رحمه اللّه : «الحرائث : أنضاء الإبل ، واحدتها حريثة ، وأصله في الخيل إذا هزلت . . . » .

(2) يدل على هذا القول الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 6/ 37 ، كتاب التفسير ، باب قوله : إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه سئل عن قوله : إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد صلى اللّه عليه وسلم . فقال ابن عباس :

عجلت أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلّا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة . اه .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 25/ 23 عن ابن عباس ، وعكرمة ، وأبي مالك .

وهو قول الأكثرين كما في زاد المسير : 7/ 284 ، ورجحه – أيضا – ابن كثير في تفسيره : (7/ 187 ، 188) .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 25/ 25 عن علي بن الحسين ، وسعيد بن جبير ، وعمرو بن شعيب .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 518 عن علي بن الحسين ، وعمرو بن شعيب ، والسدي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 348 ، وعزا إخراجه إلى سعيد بن منصور عن

سعيد ابن جبير .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (25/ 25 ، 26) عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 518 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 285 عن الحسن ، وقتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 350 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد ، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن رحمه اللّه .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 25/ 27 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 350 ، وزاد نسبته إلى عبد الرازق ، وعبد بن حميد عن قتادة .

وانظر تفسير الماوردي : 3/ 518 ، وتفسير البغوي : 4/ 126 ، وتفسير القرطبي : 16/ 25 .

(55/684)

26 وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا : أي : دعاء ربهم ، أو في دعاء بعضهم لبعض .

و«السين» في مثله لتوكيد الفعل ، كقولك : ثبت واستثبت ، وتعظم واستعظم .

31 وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ : الكلمة التي سبقت في تأخير عذابهم .

35 وَيَعْلَمَ : نصبه على الصرف «1» من الجزم عطفا على قوله : وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ .

38 وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ : لا يستأثر بعضهم على بعض / ولا ينفرد [87/أ] برأي . ومثله : أمرهم فوضى . والشّور : العرض «2» .

48 كَفُورٌ : يعدّد المصائب ويجحد النعم «3» .

51 وَحْياً : إلهاما «4» .

أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ : بكلام بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب .

52 رُوحاً مِنْ أَمْرِنا : القرآن «5» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 732. 735 ﴾

---

(1) يعني أن يَعْلَمَ منصوب ، وصرف عن الجزم مع أنه معطوف على الفعل وَيَعْفُ ، وهو مجزوم ، وعلامة الجزم حذف حرف العلة وهو الواو والضمة قبلها دليل عليها ، وقد ورد هذا التوجيه على قراءة النصب ، وهي لعاصم ، وابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وأبي عمرو .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 581 ، والكشف لمكي : 2/ 252 ، والبيان لابن الأنباري :

2/ 349 .

(2) ينظر اللسان : 4/ 435 ، وتاج العروس : 12/ 253 (شور) .

(3) نص هذا القول في تفسير الطبري : 25/ 44 .

(4) ذكره الطبري في تفسيره : 25/ 45 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 525 عن مجاهد ، وكذا القرطبي في تفسيره : 16/ 53 .

(5) ذكر الطبري هذا القول في تفسيره : 25/ 46 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 298 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما . [. . . . .]

(56/684)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الشورى

عدد 12 - 62 و42

نزلت بمكة بعد سورة فصلت عدا الآيات 23 إلى 27 فإنهن نزلن بالمدينة ، وهي ثلاث وخمسون آية ، وثلاثمائة وستون كلمة ، وثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانية وثمانون حرفا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "حم عسق" 1 فصل بينهما بعض القراء وجاءت عليه المصاحف خطأ هكذا (حم) 1 (عسق) 2 ولم يفصل بين (المص) و(كهيعص) و(المر) لأنه وقع بين سور أوائلها حم فقط فأجريت

مجرى نظائرها ، ويجوز وصلها ، وعلى الفصل يكون حم مبتدأ وعسق خبر ، وعلى الوصل تكون كلها مبتدأ لخبر مقدر أو خبر لمبتدأ محذوف ، وفيه من مبادئ أسماء اللّه الحسنى الحليم والمالك والعالم والسلام والقهار والقادر ، ويكون اسما للسورة ، ولا يعلم المراد منه على الحقيقة إلا اللّه تعالى ، راجع تفسير ما قبله ، هذا ، وإن ما جاء في تفسير روح البيان لاسماعيل حقي وابن كثير في تفسيره من أن ملكا من آل النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم اسمه عبد اللّه أو عبد الإله يكون خراب الدولة على يده إلى آخر ما ذكراه ، قيل لا ثقة به ولا عمدة عليه ، ولا ينطبق على الواقع ولا يوجد ما يؤيده ولا يعرف مصدر نقله ولا من أين تلقيا ذلك ، فهي خرافة لا يلتفت إليها ، ولذلك لم ننقلها ، وإن آل النبي الذين هم آله حقا لا يقع منهم إلا الإصلاح وهم أغير على هذه الأمة وملكها من كل أحد على الإطلاق ، وإنك إذا قرأت تلك الأسطورة تمجها وتكذبها من عبارتها ، سامحهم اللّه كم يودعون كتبهم من الغث ما لا فائدة فيه .

راجع الآية 58 من الإسراء في ج 1 ، "كَذَلِكَ" مثل ما أوحي إلى الرسل قبلك يا سيدهم "يُوحِي إِلَيْكَ" ربك الذي رباك هذا القرآن "وَ" أوحى كتبا سماوية أيضا "إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ" كموسى وداود وعيسى وصحفا إلى غيرهم كشيث وإبراهيم ، وأوحى وحيا بالتكلم وبواسطة الرسل والإلهام لهؤلاء وغيرهم من كافة الأنبياء والرسل ربهم ومرسلهم ومتولي أمورهم "اللَّهُ" الواحد في ملكه "الْعَزِيزُ" الغالب بقهره "الْحَكِيمُ" 3 المصيب في صنعه الذي "لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" ملكا وعبيدا "وَهُوَ الْعَلِيُّ" الشأن "الْعَظِيمُ" 4 السلطان الذي لا يشغله شأن عن شأن "تَكادُ السَّماواتُ" على عظمهنّ وقوتهنّ "يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ" من عظمته وهيبته ويكدن يتشققن أيضا من قول الكافرين إن له شريكا وإن الملائكة بناته وقول أهل الكتابين إن عزيرا وعيسى ابناه وهو منزه عن الصاحبة والولد والشريك والنظير والوزير والمعين .

هذا ، والقياس أن يكون التفطر من تحت وقد بولغ فيه لكبير ما يسنده لصاحب الجلالة والعظمة فأسند إلى الفوق ، فيا أيها الناس نزهوا ربّكم عن ذلك كله ، وخذوا بقول أنبيائكم عنه كيف لا تفعلون ذلك "وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ"

وينزهونه عما يقول الظالمون مما لا يليق بكبريائه من البهت والافتراء "وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ" من المؤمنين الذين يبرئون الحضرة الإلهية مما عزي إليها فانتبهوا أيها الناس لتقديس الملائكة وقدسوا ذلك الإله القوي البرهان ، ولأجل أن تنتبهوا لذلك جاء جل جلاله بأداة التنبيه ، فقال عز قوله "أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ" لمن يرجع إليه تائبا منيبا "الرَّحِيمُ" 5 بعباده كلهم ومن رحمته يريد لهم الخير ومن عميم إحسانه شاء أن يبدل سيئات من يخلص إليه التوبة حسنات بعظيم فضله وكبير كرمه وجليل رأفته راجع الآية 70 من سورة الفرقان في ج 1 ، قال تعالى "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ" لينصروهم ويشفعوا لهم جهلا وعنادا اتركهم الآن يا حبيبي ما عليك منهم "اللَّهُ" ربك ومالك أمرك وأمرهم "حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ" رقيب على أحوالهم محيط بهم وهو الذي يجازيهم على ذلك إذا بقوا مصرّين "وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" 6 تدافع عنهم وتجهد نفسك لأجلهم لأن أمرهم غير مفوض إليك وإنما أنت منذر لهم فقط وإن قولهم هذا ليس بضائرنا ، ولله در القائل في هذا المعنى :

ما حطك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مغتاب

كأنهم اثنوا ولم يعلموا عليك عندي بالذي عابوا

"وَكَذلِكَ" مثل ما أوحينا إلى غيرك من الأنبياء ما أنزلناه عليهم من الكتب والصحف والتكلم بلسانهم ولسان أقوامهم لينذروهم بلغاتهم "أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا" بلغتك ولغة

قومك "لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى " مكة أي أهلها من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه بلغتهم دون حاجة إلى ترجمة ، لأن الأنبياء يترجمون الموحى المنزل إليهم بلغة قومهم ليفهموه وأنت لم يحجك ربك إلى الترجمة .

مطلب تسمية مكة أم القرى وقوله ليس كمثله شيء وإقامة الدين وعدم التفرقة فيه ومقاليد السموات :

(59/684)

وإنما سميت مكة أمّا لأن الأرض دحيت من تحتها أو لأنها من أشرف البقاع "وَمَنْ حَوْلَها" من البلاد بما يعم منتهى أطرافها الأربع لغاية الشرق والغرب ونهاية الجنوب والشمال ، لأن رسالته عامة لجميع أهل الأرض ، فلا تقيد هذه الآية

رسالته بمن حوالي مكة من العرب وغيرهم ، بل عامة كما ذكرنا ، راجع الآية 158 من الأعراف في ج 1 والآية 28 من سورة سبأ المارة وغيرها من الآيات الصريحة القاطعة بعموم رسالته صلّى اللّه عليه وسلم ، وكذلك الأحاديث الصحيحة شاهدة على عموم رسالته ، ولهذا البحث صلة في الآية 4 من سورة السجدة الآتية فراجعها .

(60/684)

"وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ" يوم القيامة وسمي به لقوله تعالى (فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً) الآية 99 من الكهف الآتية ، وقوله تعالى (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ) الآية 103 من سورة هود المارة وغيرها ولأن فيه اجتماع الأولين والآخرين وأهل الأرض والسماء "لا رَيْبَ فِيهِ" فهو كائن لا شك وفيه يفترق الناس لا محال منهم "فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ" للنعيم والسعادة "وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ" 7 للعذاب والشقاوة وذلك بعد أن يحاسبوا في الموقف الذي جمعوا فيه "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً" على دين واحد "وَلَكِنْ" لم يشأ ذلك ل "يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ" بتوفيقه للإيمان "وَالظَّالِمُونَ" الذين خذلهم كما سبق في علمه اختيارهم للكفر يدخلهم في عذابه "مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" 8 يمنعهم من العذاب المقدر عليهم "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ" أم منقطعة مقدرة ببل وهي حرف انتقال من بيان ما قبلها إلى ما بعدها ، والاستفهام لإنكار الوقوع ، ونفيه على أبلغ وجه وآكده لإنكار الواقع واستقباحه ، كما قيل إن المراد بيان اتخاذهم الأولياء ليس بشيء لأنها أصنام لا تقدر على نصرتهم بل على الحقيقة لأن المعنى اتخذوا أصناما من دون اللّه وهو باطل ، لأن الولي من يقدر على نصرة مواليه وهي ممتنعة في الأوثان ، وإذا أرادوا أولياء على الحقيقة "فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ" وحده "وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى" وإن الأوثان لا تقدر على إحياء شيء "وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" 9

والأصنام عاجزة عن كل شيء ، وعليه يكون المعنى أن الجدير بأن يتخذوا وليا يقدر على الإحياء والإماتة وعلى كل شيء لا الأوثان العاجزة عن حفظ نفسها .

(61/684)

قال تعالى "وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ" أيها المؤمنون مع هؤلاء الكافرين من أمر الدين كالتوحيد وإنكار البعث واتخاذ الأوثان آلهة وشركاء مع اللّه الواحد وجعلهم أولياء لكم من دونه ، فلا تكثروا الجدال فيه معهم لأنهم عاتون
معاندون "فَحُكْمُهُ" أي حكم ما اختلف فيه مفوض "إِلَى اللَّهِ" وحده وهو الذي يحاسبهم عليه ويجازيهم يوم يعاقب فيه المبطلون والظالمون ويثاب فيه المحقون والمهتدون "ذَلِكُمُ" الحاكم العدل الذي يقضي بينكم بالحق في ذلك اليوم العصيب هو "اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" 10 أرجع في كل ما يهمني كيف لا وهو

(62/684)

"فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وشافيا عن بعضهما ، راجع قوله تعالى (كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما) الآية 31 من سورة الحج في ج 3 "جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً" قال جل قوله من أنفسكم لأنه خلق حواء من آدم وهي أصل في الزوجات كما قال (خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ) يريد به آدم ، لأنه أصل البشر والمعنى أنه استق حواء من آدم كما استق السماء من الأرض ، راجع الآية 27 من سورة الحج وأول آية من النساء في ج 3 والآية 189 من الأعراف في ج 1 "وَمِنَ الْأَنْعامِ" خلق لكم "أَزْواجاً" أصنافا راجع الآية 143 من سورة الأنعام المارة "يَذْرَؤُكُمْ" يخلقكم ويكثركم ، لأن ذرّ وذرأ بمعنى كثر وخلق "فِيهِ" أي التزويج المستفاد مما ذكر قبله "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" أبدا فلا يشبه ذاته المقدسة شيء أصلا ، ويطلق الشيء على جميع المكونات عرضا كان أو جوهرا ، والله تعالى منزه عن ذلك ، ولا كاسمه اسم ، قال تعالى (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) الآية 66 من سورة مريم في ج 1 ، والمحال كل المحال أن تكون الذات القديمة مثل المحدثة أو يكون لها صفة حادثة أيضا ، وهذا لا يتوقف على تحقيق مثله في الخارج فعلا ، بل يكفي تقرير المثل بالقوة فقط لأن ذاته لا يماثلها ذات في الوجود بوجه ما ، وكنى بالمثل عن الذات ، لأن المماثلة إذا كانت منتفية عمن يكون مثله وعلى صفته ، فلأن تكون منتفية عمن يكون كذاته من باب أولى ، وتقدم جواز إطلاق الشيء على الله تعالى في الآية 19 من سورة الأنعام المارة ، وإقامة المثل مقام النفس شائع في كلام العرب ، يقولون مثلك لا يبخل ، وهو أبلغ من قولهم أنت لا تبخل ، لأنه إذا نفي عمن يناسبه كان نفيه عنه

أولى ، قال القائل :

جلّ المهيمن أن تدرى حقيقته من لا له مثل لا تضرب له مثلا

لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسدّه فقد نفوه عنه ، قال أوس بن حجر :

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه في الفضائل

(63/684)

و قال الآخر :

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم ما ان كمثلهم في الناس من أحد

أما قوله تعالى : (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى) فهو الوصف الأعلى الذي ليس لغيره جلّ شأنه ، كما سيأتي في الآية 60 من سورة النحل والآية 27 من سورة الروم الآتيتين إن شاء اللّه ، ويجوز عقيدة إطلاق الشيء على اللّه تعالى ، قال في بدء الأمالي :

نسمي اللّه شيئا لا كالاشيا وذاتا عن جهات الست خالي

"وَهُوَ السَّمِيعُ" لأقوالنا خفيها وجليها لفظها ورمزها "الْبَصِيرُ" 11 بأعمالنا كلها "لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" مفاتحها بيده ، وهي وما فيهما ملكه يتصرف فيهما كيف يشاء .

وتقدم البحث في هذا في الآية 63 من سورة الزمر بصورة مفصلة فراجعها ، "يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ" يضيق على من يشاء بحسب الحكمة "إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" 12 ومن مقتضى علمه إعطاء كل ما يستحقه "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً" أي أن الذين الذي شرعه لك ربك يا محمد ليس بشيء جديد ، وإنما هو الذي شرعه لمن قبلك من الأنبياء ، وقد تطابقت الشرائع على صحته وأجمعت على دعوة أممهم إليه من حيث أصوله الراسخة ، لأن الكل مرسلون من قبله على نمط واحد ووتيرة واحدة ، فكلهم يدعون إلى توحيد اللّه وعبادته والاعتراف بأنبيائه ، وبالبعث بعد الموت ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(64/684)

"وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" يا أكرم الرسل من القرآن فيه ما أوحينا به لمن قبلك "وَما" أي الذي "وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى" من قبلك عبارة عن أمرنا لهم "أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ" وأمروا أممكم بالاستقامة فيه وواظبوا عليه وشيدوا أركانه يحفظه من الزيغ وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في الآية 194 من سورة الشعراء المارة في ج 1 ، وإنما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء دون غيرهم لأنهم من أولي العزم ، ولأنهم أكثر الناس أتباعا ، ولأنهم

أصحاب الشرائع المعظمة ، وقد ذكرهم اللّه تعالى في الآية 7 من سورة الأحزاب مجتمعين أيضا ، لأنهم خمسة لا سادس لهم على القول الصحيح ،

وإن شأنهم في قدم النبوة أعلى من غيرهم وشهرتهم في الكون أكثر من غيرهم ، ولأن جهادهم في استمالة قلوب الكفرة وأهل الزيغ بلغ الغاية القصوى ، ولهذا فإن كلّا من الأمم متفقة على نبوتهم وحبهم عدا قسم من اليهود المنكرين نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وتقدم البحث في هذا أيضا في الآية 57 من سورة المؤمن المارة واعلم مما أنه لم يرسل نبي إلا وله شرع أمر بإقامته ، وإن الدين عند اللّه هو دين الإسلام ، دين إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء ، وخاصة فيما لم يقع فيه اختلاف قط ، وهي الأصول الثلاثة : التوحيد والنبوة والمعاد ، وتوابع هذه الأصول ثلاثة أيضا : الإيمان بالكتب السماوية وبالقضاء والقدر والطاعة للرسل .

"وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ" لأن إقامته مع الاختلاف تؤدي إلى التفرقة وهي مذمومة في غير أمر الدّين فكيف به ، هذا أمر اللّه عباده بإقامة الدين والاجتماع عليه ، وتقدم بحث هذا أيضا في الآية 159 من سورة الأنعام المارة فراجعها .

وأعلم أن ليس المراد من إقامة الدين هنا الشرائع الأخرى ، لقوله تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً) الآية 48 من سورة المائدة ، لذلك فإن ما يعود المرسل الأول يكون بمقتضى شرائعهم ، وما يعود لنبينا محمد وأمته يكون بحسب ما أنزل اللّه عليه وشرعه على لسانه لأن شريعته ناسخة لما قبلها وباقية إلى الأبد وصالحة لكل زمان ، ولهذا ختم بها جميع الشرائع كما ختم بصاحبها باب النبوة ، إذ بلغت الكمال اللائق ، ولا يصلح الكون إلا بتطبيقها ، فعلى أولي الأمر السهر عليها والعمل بها ليتم لهم الأمر ويستتب الأمن ، قال تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً) الآية 3 من سورة المائدة في ج 3 ، وقال تعالى (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ) الآية 85 من آل عمران في ج 3 ، فيا أيها الناس أرضوا بما رضيه اللّه لكم ، واعملوا به ، لأن العمل بغيره لا يقبله اللّه وتكون عاقبته الخسران "كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ" من رفض عبادة الأوثان ولم يعظم عليهم رفض عبادة الرحمن ، لهذا فإنهم ليسوا بأهل لأن يختارهم اللّه لإقامة دينه "اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ" من عباده الصالحين لذلك الدين القويم "وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ"

13 لجنابه ويرجعه عن خطأه لصوابه .

ونظير صدر هذه الآية في المعنى الآية 163 من النساء في ج 3 ، قال تعالى "وَما تَفَرَّقُوا" أي الأمم السابقة من أهل الكتابين خاصة فمن قبلهم عامة عن الدين القويم والشرع الصحيح "إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ" بصحته من قبل الله على لسان رسلهم وكان ذلك التفريق "بَغْياً بَيْنَهُمْ" على أنبيائهم وحسدا لهم ببقاء الرياسة ليس إلا "وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ" يا سيد الرسل بتأخير عذابهم "إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" عنده لا ينقدم ولا يتأخر لأنه من الأمور المقضية المبرمة في الأزل "لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ" بتعجيل العقوبة وإنزال العذاب بسبب اختلافهم في الدين وتفريقه "وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ" من أبنائهم وأحفادهم "لَفِي شَكٍّ مِنْهُ" أي الكتاب تقليدا لما كان عليه آباؤهم وأجدادهم ، ثم وصف ذلك الشك بأنه "مُرِيبٍ" 14 مبالغة فيه لأن الريب قلق النفس واضطرابها ويسمى الشك مريبا لأنه يزيل الطمأنينة "فَلِذلِكَ" لأجل تفرقهم وبغيهم على رسلهم وشكهم في كتبهم المنوهة بك وبنبوتك وصدق ما جئتهم به من ربك ، ولأجل ما شرع لهم من الدين المستقيم الجدير بأن يتنافس فيه المتنافسون "فَادْعُ" إلى الائتلاف والتوحيد اللذين وصى بهما الأنبياء قبلك وإلى الاتفاق على الملة الحنيفية .

مطلب في الاستقامة والمراد بالميزان وآل البيت وعدم أخذ الأجرة على تعليم الدين :

"وَاسْتَقِمْ" عليها أنت وأمتك ، وأدم الدعوة إليها "كَما أُمِرْتَ" من قبلنا "وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ"

الباطلة المختلفة وآراءهم الفاسدة "وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ" أي بجميع الكتب المنزلة من عند اللّه ، لأن النكرة إذا أطلقت عمت ، فتشمل كل كتاب أنزله اللّه من لدن آدم إلى زمنه ، وقدمنا ما يتعلق في بحث الاستقامة على الدين في الآيتين 112/ 119 من سورة هود المارة بصورة مفصلة فراجعهما .

(67/684)

واعلم أن في هذه الآية تعريضا بالكافرين وبعض أهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض من الكتب السالفة والآيات القرآنية ، ولهذا قال تعالى على لسان رسوله صلّى اللّه عليه وسلم "وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ" فيما أمرني فيه ربي من الأحكام المنزلة عليّ من لدنه فلا أخص بعضا دون بعض ،

وأبلغ شريعته جميع خلقه الذين أراهم بنفسي ، وبالواسطة لمن لم أرهم ، وأعدل بينكم في الخصومات إذا تحاكمتم لدي ، فلا أجور ولا أحيف على أحد ، ولا أخاصم أحدا إلا بالحق ولأجل الحق ، لأن الذي أدعوكم إليه هو "اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ" ورب الخلق أجمع فكما لا يختص به واحد دون آخر لا يرضى أن يتميز أحد على أحد بدون الحق ، فهذه خطتي التي أمرت بها يا قوم ، فإن لم تقبلوا فتكون "لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ" لا تسألون عما أعمل ولا

نسأل مما تعملون .

وهذه الجملة على حد قوله تعالى (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) الآية الأخيرة من سورة الكافرون في ج 1 ، وعلي حد قوله (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الآية 24 من سورة سبأ المارة ، وإذ ظهر الحق الصريح فأقول لكم "لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ" ولا خصومة ولا محاججة وجاءت هنا الحجة بمعنى الاحتجاج وهي الأصل "اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا" فيجازي كلا على عمله "وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" 15 في الخصومات والمحاججات ، ولا وجه لقول من قال بنسخ هذه الآية بآية السيف من المفسرين إذ ليس فيها ما يدل على المتاركة وإقرار الكفار على ما هم عليه من الكفر وإنما هي من باب التعريض راجع الآية 25 من سورة سبأ المارة تجد مثل هذا .

(68/684)

قال تعالى "وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ" ويخاصمون في دينه "مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ" بعد استجابة الناس لدينه ودخولهم فيه فهولاء "حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ" . " باطلة زائلة مهجورة غير مقبولة "عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ" 16 في الآخرة ، وهذه الآية عامة في كل من هذا شأنه من الناس أجمع ، وما قيل إنها نزلت في كفار بدر بعد أن استجاب اللّه

تعالى دعاء حضرة الرسول بظفره عليهم قول لا دليل لقائله عليه ، لأن هذه الآية مكية بالاتفاق وواقعة بدر بعد الهجرة وهو لم يهاجر بعد وكذلك القول بحمل الاستجابة على استجابة أهل الكتاب لا يتجه لأن أهل الكتاب لم يباحثهم حضرة الرسول إلا في المدينة ولم يجب دعوته أحد منهم إلا فيها ، لذلك فحمل الاستجابة على من أجابه لدين الحق وهو في مكة من أهل مكة ، والمحاججون هم روساء الكفر أولى وأنسب في المقام .

قال تعالى "اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ" مفصلا فيه الدلائل والأحكام ليجري عليه الناس "وَالْمِيزَانَ" آلة العدل ، لأن المراد به والله أعلم نفس العدل والإنصاف والتسوية بين الناس ، أنزله أيضا وأمر خلقه فيه ليتحلوا به فيستقيم أمرهم ويعدلوا فيما بينهم .

راجع رسالة القسطاس المستقيم للإمام الغزالي رحمه الله تجد أن المراد بالميزان ما ذكرته ، لأنه يقول في قوله تعالى (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) الآية 7 من سورة الرحمن في ج 3 ، إن هذا الميزان الذي قابله الله بالسماء لا يتصور أنه الذي يزن به الناس الخس والبصل مثلا ، بل إنما هو العدل الذي به قوام الدنيا والآخرة إلخ ، ما جاء فيها .

"وَمَا يُدْرِيكَ" يا سيد الرسل "لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ" 17 حدوثها ولعلّها مظلّة عليك ولا تراها ، فعليك أن تأمر الناس باتباع الكتاب وإجراء العدل بينهم قبل أن يفاجئهم الأجل وقبل حلول يوم وزن العمل الذي يظهر فيه الرابح في هذه الدنيا من الخاصر .

واعلم انما "يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا" استعجال إنكار واستهزاء فيقولون لك لما تخوفهم بها متى هي ، ليتها تأتي الآن حتى يظهر لنا الذي نحن عليه حق أم أنت وأصحابك .

وذلك لجهلهم بها وبعظمة اللّه "وَالَّذِينَ آمَنُوا" بها وصدقوا بوجودها "مُشْفِقُونَ" خائفون وجلون "مِنْهَا" لعلمهم بحقيقتها وحقيقة ما فيها من الأهوال "وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ" الكائن لا محالة فانتبهوا أيها ؟ ؟ ؟

"أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ" يجادلون "فِي السَّاعَةِ" ويخاصمون بوجودها جهلا ويشكون بحقيقتها "لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ" 18 عن الصواب ، لأن البعث بعد الموت أقرب الغائبات بالمحسوسات ، لأنه يعلم من إحياء الأرض بعد موتها وغيره من الأدلة العقلية فضلا عن السمعية "اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ" كثير الإحسان إليهم جليل النعم عليهم بالغ البرّ بهم "يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ" من كل نام بحسبه وبقدر ما يكفيه "وَهُوَ الْقَوِيُّ" باهر القوة على كل شيء "الْعَزِيزُ" 19 الغالب على كل شيء المنيع الذي لا يدافع ولا يرافع "مَنْ كَانَ" منكم أيها الناس "يُرِيدُ" بأعماله وكسبه "حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ" من واحد إلى عشرة إلى سبعمئة إلى ما لا

نهاية والله كثير الخير جليل العطاء واسع الفضل "وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا" مؤثرا لها على الآخرة فإنا أيضا "نُؤْتِهِ مِنْها"

(70/684)

ما قدرناه وقسمناه له فيها أزلا لا نعطيه غيره "وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ" 20 أبدا لأن همته كانت مقصورة على الدنيا ، ومن كان كذلك فإنه يؤتى حظه المقدر له من كل ما فيها كاملا ويكافأ على أعماله الحسنة كالصدقة والصلة وقول المعروف وإماطة الأذى وغيرها من عافية ورزق وجاه وولد وغيره ، فيأتي في الآخرة محروما من ثوابها ، لأنه لم يقصد بها وجه الله ،

قال تعالى "أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ" من الأوثان "شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ" من الشرك فيه وإنكار البعث والكتب والرسل والجنة والنار .

والاستفهام هنا إنكاري أي ليس لهم شرع ولا شارع على حد قوله تعالى (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا) الآية 43 من سورة الأنبياء الآتية ، قال تعالى مهددا لهؤلاء الفجرة "وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ" السابقة منا بتأخير العذاب "لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ" بإنزاله وفرغ من عذابهم وجد الهم وإنكارهم "وَإِنَّ الظَّالِمِينَ" أنفسهم بالكفر أمثال هؤلاء "لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ" 21 في الآخرة غير

عذاب الدنيا ويوم القيامة بأكرم الرسل "تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا" خائفين أشد الخوف من وبال أعمالهم الدنيوية "وَهُوَ" أي العذاب المترتب عليهم جزاء أعمالهم "وَاقِعٌ بِهِمْ" لا محالة لأنه محتم عليهم أزلا "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ" يكونون في أطيب بقاعها جزاء لأعمالهم الحسنة "لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ" فيها من كل ما لذّ وطاب وخطر بالبال "عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ" الجزاء الحسن "هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" 22 الذي لا أكبر منه لأنه من الإله الكبير، وهذه الآيات المدنيات في هذه السورة.

(71/684)

قال تعالى "ذَلِكَ" النعيم العظيم "الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" بأن قرنوا أعمالهم الطيبة بفعل ما هو صالح لأن الإيمان بلا عمل كالصوم بلا صلاة والحج بلا زكاة "قُلْ" يا حبيبي لمن تبلغهم أحكامي "لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ" أي التبليغ "أَجْرًا" جعلا ما ليكون مدار للتهمة والظن بي، ولا أطلب منكم شيئا عما أبلغه لكم من كلام ربي ولا لموعظة ما لإرشادكم "إِلَّا" شيئا واحدا "الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى" لا غيرها أريد منكم أبدا، قال ابن عباس لم تكن بطن من قريش إلا وله صلّى اللّه عليه وسلم فيهم قرابة، لهذا قال لا أريد منكم لقاء نصحي وإرشادي للأخذ بكلام ربي إلا أن تحفظوا قرابتي وتصلوا

رحمي وتكرموهم ، لأن هذه الآية نزلت في الأنصار حينما قالوا له تمنّ علينا يا رسول اللّه ، قال لا أريد شيئا إلا المودة في القربى .

قال أبو بكر رضي اللّه عنه وأرضاه فيما يرويه البخاري عن ابن عمر ارقبوا محمدا في أهل بيته .

وروى مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال إني تارك فيكم ثقلين أولها كتاب اللّه فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب اللّه واستمسكوا به وأهل بيتي ، أذكركم اللّه في أهل بيتي ، أذكركم في أهل بيتي ، كررها صلّى اللّه عليه وسلم تأكيدا في حبهم وإكرامهم والصحيح أن أهل بيته نساؤه ومن حرمت عليهم الصدقة بعده ، وآل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضوان اللّه عليهم .

وهذا الطلب لا يسمى أجرا بالنسبة لقريش في الحقيقة ، لأن قرابته قرابتهم ، فتكون مودتهم لازمة بل يكون فيه الأجر بالنسبة للأنصار المخاطبين في هذه الآية .

أخرج الترمذي عن ابن عباس قال قال صلّى اللّه عليه وسلم أحبّوا اللّه لما يغذوكم به ، وأحبوني لحب اللّه ، وأحبوا أهل بيتي لحبّي .

(72/684)

وعلى كل لا يقال إنه لا يجوز طلب الأجر على تبليغ الرسالة ، لأن ذلك ممنوع إذا كان أجرا ماديا كالدراهم وغيرها ، أما الكفّ عن أذية أهله وإرادة مودتهم فلا يسمى أجرا بالمعنى المتعارف ، وعليه فإن طلب المودة في القربى ليس بأجر ، فيرجع الحاصل على لا أجر البتة ، ولهذا فلا ينتقد عليه إلا كما ينتقد على القول فيهم .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

لأن هذا ليس بعيب يلام عليه ، بل يمدح فيه ، ولأن المودة بين المسلمين واجبة ، فهي في أهل البيت أوجب ، ولهذا كان الاستثناء متصلا .

أما من جعل الاستثناء منقطعا فقد ركن إلى تقدير فعل (تَوَدُّونَ) وعمد على الوقف على كلمة أجرا أي إلا أن تودوا أقاربي أو تقدير أذكركم المودة في القربى ، والأول أولى كما ترى لما في الأخير من لزوم وتقدير ما الأمر في غنى عنه ولا حاجة فيه .

هذا ولا معنى لقول من قال إن هذه الآية منسوخة بآية (قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) الآية 47 من سورة سبأ المارة ، وهي آية مقدمة في النزول على هذه الآية لفظا ورتبة ومن المعلوم أن المقدم لا ينسخ المؤخر ، راجع

بحث النسخ في المقدمة ، وهذا من جملة المرامي التي من أجلها أقدمت على هذا التفسير المبارك ورتبته بحسب النزول ليعلم القارئ خطأ القائلين بنسخ أمثال هذه الآية متى ما عرف أنها متقدمة ، لأن العلماء رحمهم اللّه أكثروا من أقوالهم بالنسخ ومنهم من تغالى فيه

حتى خالف الأصول التي وضعت لمعرفة الناسخ والمنسوخ كهذه الآية وآيات الإخبار والوعد والوعيد وغيرها ، سامحهم اللّه .

وليعلم أن مودته صلّى اللّه عليه وسلم وأقاربه وكفّ الأذى عنهم من فرائض الدين ، فقد روي أنه لما نزلت هذه الآية قيل يا رسول اللّه من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال علي وفاطمة وابناهما .

(73/684)

وقد أجمع السلف والخلف الصالحون على مودتهم ، فلا يصح القول بوجه من الوجوه بنسخ هذه الآية أبدا ، وعفا اللّه عن هؤلاء الذين لا هم لهم إلا أن يقولوا هذا ناسخ وهذا منسوخ ولولا الراسخون في العم الواضعون أصول علم الناسخ والمنسوخ والوافقون لأمثالهم على ما يتقولون به من النسخ بالمرصاد لتوسعوا بأكثر من هذا .

وأخرج بن جرير عن أبي الديلم قال لما جيء بعلي بن الحسين رضي اللّه عنهما أسيرا ، أقيم على درج دمشق ، فقام رجل من أهل الشام فقال الحمد للّه الذي قتلكم واستأصلكم ، فقال له علي : أقرأت القرآن ؟ قال نعم ، قال أقرأت آل حم ؟ قال نعم ، قال أما قرأت (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى) ؟ قال فإنكم لأنتم هم ؟ قال نعم ، قال فأطرق

أي ندما على ما قال وأسفا .

فانظروا أيها الناس كيف قاتل من قاتل من أهل الشام أناسا لا يعرفونهم ولا يقدرون مكانتهم .

راجع الآية 137 من الأعراف في ج 1 ، وقال علي كرم اللّه وجهه قال اللّه فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا مؤمن .

يعني هذه الآية .

وقال الكميت :

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومعرب

وقال عمر الهيتي :

بأية آية يأتي يزيد غداة صحائف الأعمال تتلى

وقام رسول رب العرش يتلو – وقد صمت جميع الخلائق – قل لا وقال الآخر :

أترجو أمة قتلت حسينا شفاعة جدّه يوم الحساب

وأخرج ابن حبان عن أبي سعيد قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله اللّه تعالى النار ، وأخرج احمد والترمذي وصححه النسائي عن المطلب بن ربيعة قال دخل العباس على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال إنا لنخرج فترى قريشا تتحدث ، فإذا رأونا سكتوا ، فغضب صلّى اللّه عليه

وسلم ودر عرق بين جبينه ، ثم قال والله لا يدخل قلب امرئ ايمان حتى يحبكم لله تعالى ولقرابتي .

وما أحسن ما قيل :

(74/684)

داريت أهلك في هواك وهم عدا ولأجل عين الف عين تكرم

وقد سئل ابن الجوزي في جامع دمشق هل يوجد لهذا المثل في القرآن ما يشير اليه ، قال نعم قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ) الآية 33 من سورة الأنفال في ج 3 ولهذا أكثر الناس من الثناء عليهم إرضاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعة لربه ، حتى أنهم أفرطوا بذلك ، ومنهم من يمدحهم رياء ، قال علي رضي الله عنه لرجل أفرط في الثناء عليه وكان يتهمه في مودته : أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك رضي الله عنه ما أعظمه وأحلمه .

قالوا كان الشيخ محي الدين العربي يكره الشريف عونا ويندد به ، فرأى في النوم السيدة فاطمة رضي الله عنها وهي معرضة عنه ، فقال لها لما ذا يا سيدتي ؟ فقالت لكراهتك عونا ، فقال أما تعلمين ما يفعل من المظالم ؟ فقالت له أما تعلم أنه منا أهل البيت ؟ فانتبه

مرعوبا لشدة غيظها عليه ، فذهب اليه ، فلما رآه عرف الغضب في وجهه لما كان يسمعه من ذمه ، فقال على رسلك يا ابن بنت رسول اللّه واللّه ما جاء بي إليك وأنت تعلم ما أنا عليه من كراهتك إلّا اني رأيت كذا وكذا ، ولهذا جئتك معتذرا ، فلما سمع منه الرؤيا تهلل وجهه ، وقال اشهد يا محي الدين اني أشهد اللّه بأني تبت اليه من كل ما كنت أفعل ولا أعود اليه وحسن حاله بعد ذلك .

رحم اللّه الجميع رحمة واسعة فهؤلاء أهل البيت أيها الناس ، حبهم ايمان وبغضهم كفر ا ه ملخصا من الفتوحات المكية ، وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد ، وقد تساهل الناس في هذا الزمن في حبهم حتى انهم لم يلتفتوا إليهم ، وأفرط آخرون فجعلوا

(75/684)

حبهم رفضا وسلكوا محببهم في سلك الروافض وهم فرقة من إخواننا الشيعة لا الشيعة أنفسهم الذين يفضلون عليا فضله اللّه على غيره من الأصحاب رضوان اللّه عليهم أجمعين لقرابته من رسول اللّه ومصاهرته له ولقوله إن عليا مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي .

ولأن نسبه بسببه ، ولميزات أخرى كثيرة سنأتي عليها في غير هذا الموضع إن شاء اللّه .

وآخرون قالوا بحبه وادعوا فيه ما هو براء منه ، وهو من التفريط بمكان ، أما أنا فأقول ما قاله الشافعي رحمه اللّه :

ان كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

ولكنه ليس برفض من واجبات الدين ، ولكن بلا تفريط ولا افراط ، وقد سئل الإمام الجوزي عن المثل السائر (مدّ رجلك على طول فراشك) هل يوجد في القرآن ما يشير اليه ؟ قال نعم قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا) الآية 45 من سورة الفرقان في ج 1 أي لا إفراط ولا تفريط ، رحمه اللّه ما أكثر دقة نظره في القرآن وقدمنا ما يتعلق بهذا في الآية 38 من سورة الانعام فراجعها .

(76/684)

وعلى هذا فيجب على كل مؤمن احترامهم وتعظيمهم والقيام بحقوقهم وقضاء مصالحهم وعدم النظر إلى بعض هفواتهم ، فإن غصن الشجرة منها وإن مال ، والعبرة بالخاتمة نسأل اللّه حسنها ، قال تعالى "وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً" مضاعفا "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ" 23 للمحبين الطائعين "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" بما جاء به من الكتاب وقد كذبوا "فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ" فينسيك القرآن أو يجعلك من المختوم على قلوبهم لو

كذبت علينا يا محمد ، لأنه لا يجترئ على افتراء الكذب علينا إلا من كان كذابا مثل بعض قومك ، وهذا تعريض حسن بأنهم هم المفترون المطبوع على قلوبهم ، لأن الكلام جاء بمثابة التعليل لقولهم ، وقد أتى بأن بدل إذا مع أن عدم مشيئته تعالى مقطوع به إرخاء للعنان ليفهموا بأنه لو كان محمد نفسه فعل ذلك لختم على قلبه ، وهو معصوم بعصمة اللّه محال عليه أن يقع منه شيء يغضبه ، فكيف بغيره "وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ" وهذا تأكيد بأن ما يقوله محمد صلّى اللّه عليه وسلم ليس بمفترى ، وكيف يكون مفترى ومن عادته تعالى أن يمحق الباطل "وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ" المنزلة على رسوله بطريق الوحي "إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ" 24 ودخائلها وخفيات الأمور وبواطنها فلا يخفى عليه شيء مما يحوك في صدورهم وما هو قار في قلب محمد .

وهذه الآية تدل دلالة تامة على تنزيهه من الافتراء وطهارة ما هو ثابت في خلده عن أن يصره بشيء من ذلك .

وقال بعض المفسرين في هذه الآية إن يشأ يربط على قلبك بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم ، وهو حسن ولكن ما جرينا عليه أحسن وأوفى بالمرام وأنسب بالمقام وأليق لسياق الكلام ، وقد مشى عليه جهابذة من العلماء ، قال ابن عباس رضي اللّه عنهما لما نزلت (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً)

الآية ، قالوا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده فأخبره جبريل عليه السلام بأنهم لتهموه فأنزل اللّه تعالى هذه الآية "وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ" بالتجاوز مما تابوا عنه "وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ" صغارها وكبارها "وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ" 25 سرا وعلما من خير وشر .

انتهت الآيات المدنيات وهي لها مناسبة بما قبلها وبعدها كما لا يخفى بخلاف غيرها وإن كانت معترضة ، فالقاعدة من كونها تأتي معترضة ، وإنك إذا حذفتها وقرأت ما بعدها متصلا بما قبلها صح المعنى ، أغلبية ، تدبر .

قال تعالى "وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" دعوة ربهم ويجيب اللّه دعاء المؤمنين إذا دعوه وفعل استجاب وأجاب بمعنى واحد ، وكل منهما يتعدى باللام للداعي وبنفسه الدماء وعليه قوله :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب

"وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ" فوق ما يستحقون بحسب أعمالهم "وَالْكافِرُونَ" باللّه تعالى الذين لا يدعون ولا يعترفون بألوهيته "لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ" 26 جزاء ألفتهم عن دعاء اللّه وكفرهم به .

تدل هذه الآية المكية بأن اللّه تعالى لا يجيب دعاء الكافرين ، وهو كذلك ، قال تعالى (وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ) الآية 16 من سورة الرعد ج 3 ، ومن قال إنه تعالى

يستجيب لهم فإنه على طريق الاستدراج ، والمؤمنون على طريق التشريف ، وهذه الآية المدنية الرابعة ، وقد

نزلت في أصحاب الصفّة حينما سألوا رسول اللّه أن يغنيهم اللّه من فضله ويبسط عليهم الرزق ويدر عليهم الأموال .

مطلب بسط الرزق وضيقه والتوبة وشروطها والحديث الجامع ونسبة الخير والشر :

(78/684)

قال جل قوله "وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ" بعضهم على بعض ، وعتوا عتوا كبيرا ، إذا أعطوا زيادة على حاجتهم النسبية لأن الإنسان شرير بالطبع ، فإذا وجد الغنى والقدرة والصحة رجع لمقتضى طبيعته ، ولو أن اللّه تعالى يرزق عباده من غير كسب لتفرغوا إلى الفساد ، ولكن شغلهم به حكمة منه قال الشاعر :

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسدة

وقال الآخر :

عليك بالقصد لا تضب مكاثرة فالقصد أفضل شيء أنت طالبه

فالمرء يفرح بالدنيا وبهجتها ولا يفكر ما كانت عواقبه

حتى إذا ذهبت عنه رفارقها تبين الغين فاشتدت مصائبه

وعلى القانع أن يثق بالله فإنه لا يضيعه ويعطيه ما يكفيه وليقل كما قال :

أتتركني وقد أيقنت حقا بأنك لا تضيع من خلقت

وأنّك قاسم للرزق حتما تؤدّي ما رزقت كما قسمت

وإني واثق بك يا إلهي ولكن القلوب كما علمت

"وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ" لمن يشاء بقدر حاجته "إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ" 27 بما يناسبهم يغني هذا والغناء خير له ويفقر هذا والفقر خير له بمقتضى حكمته ، فلو أغناهم جميعا أو أفقرهم جميعا لتعطلت مصالح الكون ، ولا يخفى ان البغي مع الفقر أقل منه مع البسط ، وكلاهما سبب ظاهري للإقدام على البغي ، والإحجام عنه ، فلو عم البسط القلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن .

ولهذا يشير قوله صلّى الله عليه وسلم إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا كما يضل أحدكم يحمي مقيمه الماء .

وإلى ذلك يوعز سبب النزول المشار اليه أعلاه ، وينظر إليه قول خبّاب بن الأرت : نظرنا إلى أموال بني قريظة ،

والنضير وبني قينقاع فتمنيناها ، فنزلت هذه الآية .

ولا يضرّ تعدد أسباب النزول ، فقد تكون آية واحدة لأسباب كثيرة .

هذا ، واعلم أن التوبة واجبة في كل ذنب ، وشروطها أن يقلع عن المعصية ، وأن يندم على فعلها ، وأن يعزم على أن لا يعود أبدا "فإن فقد أحدها لا تصح ، وهذا فيما يتعلق بالذنوب التي بين العبد وربه ، أما إذا كانت بين الناس يزيد عليها شرط رابع وهو الاستحلال من صاحبها وإبراء ذلك من كل حق ، مثلا إذا كان غصب مالا من أحد فيجب ردّه اليه أو مسامحته من قبله ، وإن قولا أو فعلا فبالمسامحة والعفو من قبله ، وإن لم يعين له ما قال وما فعل إذ قد يكون مما لا يقال خشية الفتنة فيكون الإفشاء أشد ضررا من الذنب .

وليعلم أن مصائب الدنيا لا تختص بواحد دون آخر فيشترك فيها الصديق والزنديق ، إلا ان المؤمن أكثر مصابا من غيره ، ولهذا قال صلّى اللّه عليه وسلم : خص البلاء بالأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

أو ان أكثره في هؤلاء لأنه لا يتعداهم تدبر .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : واللّه اني لأستغفر اللّه وأتوب اليه في اليوم أكثر من مائة مرة ، وفي رواية للغزالي انه صلّى اللّه عليه وسلم قال إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر اللّه في اليوم والليلة سبعين مرة ، وذلك

لترقيه سبعين مقاما عما كان فيه حيث يرى دائما بعدا بين حالته الحاضرة والماضية بسبعين درجة ، ولهذا قيل حسنات الأبرار سيّئات المقربين ، لأن الأبرار إذا وصلوا إلى درجة المقربين رأوا أنفسهم مقصرين ، وان عملهم الأول يحتاج إلى توبة واستغفار .

وروى مسلم عن الأعز بن يسار قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : يا أيها الناس توبوا إلى اللّه جميعا ، فاني أتوب إليه في اليوم مائة مرة .

(80/684)

ورويا عن عبد اللّه بن مسعود قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول للّه أفرح بتوبة عبده من المؤمن من رجل نزل في أرض دوّية مهلكة (أي فلاة لا ماء فيها ولا نبات والمفازة في الجبل والأرض الوعرة وتسميها العامة الدوّة) معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد الحر والعطش أو ما شاء اللّه قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه ، فاللّه أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده .

وفي رواية لهما من لفظ

مسلم : فأخذ بخطامها ثم قال من شدة فرحه اللهم أنت عبدي وأنا ربك من شدة الفرح ، أي بدلا من أنت ربي وأنا عبدك .

وروى مسلم عن أبي موسى الأشعري ان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال اللّه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .

وروى انس بن مالك رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم عن جبريل عن اللّه عز وجل من أهان لي وليا بارزني بالمحاربة ، واني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرود ، وما تقرّب إليّ عبدي المؤمن بمثل ما افترضته عليه ، وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته و

(81/684)

لا بد له منه ، وإن في عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة ، فأكفه عنه ان لا يدخله عجب فيفسده ذلك ، وان من من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته

لأفسده ذلك ، وان من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانهم إلا الفقر ، فلو أغنيته لأفسده ذلك ، وان من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو صححته لأفسده ذلك ، إني أدير أمر عبادى بعلمي بقلوبهم ، إني عليم خبير ، أخرجه البغوي بإسناده وهذا الحديث الجامع لأحوال العباد من أحاديث الصفات ، وقدمنا ما يتعلق بأمثاله في الآية 158 من الأنعام المارة ، وفيها ما يرشدك إلى المواقع التي فيها ما يتعلق بذلك ، فراجعها .

وجاء عن صفوان بن عسال المرادي قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه جعل بالمغرب بابا عرضه مسيرة سبعين عاما للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله ، وذلك قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها) الآية 158 المنوه بها أعلاه ، أخرجه الترمذي حديث حسن صحيح انتهت الآية المدنية ، وهي كالتي قبلها .

قال تعالى :

"وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا" أي اشتد يأسهم من نزوله ، اللّه حبسه عنهم ولا يعلمون وقت إطلاقه "وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ" بقيض الغيث عليهم

"وَهُوَ الْوَلِيُّ" الذي يتولى أمور عباده بإحسانه ولطفه بسائق رأفته "الْحَمِيدُ" 27 على انعامه المحمود على إنزال بركات السماء وبسط منافعها ، المتعطف على خلقه بما ينفعهم

وكشف ما يضرهم ، وقد ذكرهم اللّه تعالى في هذه النعمة لأن الفرح بعد الشدة بحصول النعمة اتمّ وأدعى للشكر .

(82/684)

قال تعالى "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ" أوجد وفرق "فِيهِما مِنْ دابَّةٍ" هي لغة ما دبّ على وجه الأرض ، وعرفا ذوات الأربع من الحيوان فقط "وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ" بعد تفرقهم وتشتتهم "إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ" 29 وجاز إطلاق لفظ الدابة على من في السماء لأن الدبيب لغة المشي الخفيف ويحتمل أن يكون للملائكة مشي مع الطيران أو أن اللّه تعالى خلق فيها أنواعا من الملائكة أو أصنافا من الحيوانات يدبون دبّا كالإنسان ، أو أن الملائكة أنفسهم قد يتمثون بالبشر فيمشون مشيا ، لأن لهم التشكل بصور غير صورهم ، كجبريل حينما تمثل للنبي مرة بصورة أعرابي في حديث الإيمان والإسلام والإحسان ، ومرة بصورة دحية الكلبي ، قال تعالى "وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ" من الذنوب ، لأن جل البلاء من الأوجاع والقحط والغرق والحرق وغيرها من المصائب يوجدها اللّه تعالى عقوبة لمقتر في الأعمال المكروهة ، وقد يوجدها عفوا للثواب كما ذكر آنفا ، وبما أن البشر هو المسبب لعملها نسبها اللّه إليه ، وإلا في الحقيقة كل من عند اللّه ، قال إبراهيم عليه

السلام بعد أن نسب الهداية والطعام والشراب للّه تعالى "وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) الآية 80 من سورة الشعراء ج 1 ، نسب الشفاء للّه كما نسب الإحياء والإماتة إليه ، لأنها متحققة منه لا علاقة للعبد وغيره فيها البتة ، ونسب المرض لنفسه لأن أكثر أسبابه من الأكل والشرب والحر والقر وإن كانت بإيجاد اللّه تعالى ، إلا أنه هو المسبب لها باختياره ورغبته ، و

هذا من قبيل التأدب مع اللّه تعالى ، إذ ينبغي للعاقل أن ينسب الخير إلى اللّه والشر لنفسه ، لأن اقترافه له برضاه وشهوته ، وإن عقابه عليها من هذه الحيثية "وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ" 30 من الذنوب فلا يعاقب عليها وعن كثير من خلقه فلا يجازيهم على سيئتهم .

(83/684)

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي ثميلة قال : قال علي رضي اللّه عنه ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب اللّه حدثنا بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم (وَما أَصابَكُمْ) الآية هذه وسأفسرها لكم يا علي ، ما أصابكم من مصيبة أو مرض وعقوبة أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم ، واللّه أكرم من أن يثني عليكم عقوبته في الآخرة ، وما عفا اللّه عنه في الدنيا فاللّه أحلم من أن يعود بعد عفوه .

وفي هذا الحديث بشارة عظيمة للمؤمنين المصابين ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية وأن ترزقنا الصبر إذا ابتلينا ، وتعظم لنا الأجر عليه .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي اللّه عنها قالت :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه اللّه بها درجة وحط عنه خطيئة .

وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو اللّه عنه أكثر .

قال ابن عطاء من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه وأن ما عفا عنه مولاه أكثر ، كان قليل النظر في إحسان ربه إليه .

مطلب أرجى آية في القرآن والقول بالتناسخ والتقمص وفي معجزات القرآن وبيان الفواحش والكبائر :

وقال علي كرم اللّه وجهه : هذه أرجى آية في القرآن لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب ثانيا وإذا عفا لا يعود .

راجع الآية 84 من سورة الإسراء والآية 5 من سورة الضحى في ج 1 والآية 160 من سورة الأنعام والآية 53 من سورة الزمر المارتين .

هذا ، وقد تعلق في هذه الآية من يقول بالتناسخ بحجة أنه لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألموا ، مع أن السياق والسياق من هذه الآية يدلان على أنها مخصوصة بالمكلفين أصحاب الذنوب فإن من لا ذنب له كالأنبياء قد تصيبهم مصائب ، لما جاء في الخبر : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، كما مر آنفا ، ويكون ذلك لرفع درجاتهم أو لحكم أخرى خفيت علينا ، فالأطفال والمجانين غير داخلين في الخطاب لأنهم غير مكلفين ، وبفرض دخولهم أخرجهم التخصيص بأصحاب الذنوب فيما يصيبهم من المصائب ، فهي لحكم خفية ، قيل مصائب الطفل رفع درجته ودرجة أبويه أو من يشفق عليه بحسن الصبر ، لا لأن لهم حالة سابقة كما زعموا ، ثم إن المصائب قد تكون عقوبة على الذنب

وجزاء عليه بحيث لا يعاقب عليه يوم القيامة بدليل الأحاديث المذكورة آنفا ، فلا وجه إذا لما تعلق به القائل بالتناسخ ولا دلالة في الآية .

والقائلون بالتناسخ هم فرقة من الفلاسفة يعتقدون أن الروح إذا ماتت ولم تستكمل فضائلها تنسخ أي تنقل إلى نطفة أخرى لاستكمال الفضائل المزعومة ، ويقرب من هذه عقيدة الدروز الذين يقولون بالتقمص أي إذا مات الميت تتقمص روحه أي تنقل إلى إنسان أو حيوان ولد ساعة موته ، وهذه عقائد عقلية ساذجة لا أصل لها ولعلها سرت عليهم من

الخوارج الخارجين عن شرائع الإسلام (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) ، والدين عند اللّه هو الإسلام دين أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

(85/684)

"وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ" اللّه ولا فائتينه عن أن يصيبكم بذنوبكم بل هو قادر عليكم لا تستطيعون الهرب من قضائه والتفلّت من قبضته "وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ" إذا أراد معاجلتكم بالعقوبة "مِنْ وَلِيٍّ" يدافع عنكم "وَلا نَصِيرٍ" 31 ينصركم ويحميكم منه "وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ" السفن الجاريات على الماء "فِي الْبَحْرِ" والأنهار التي هي في عظمها "كَالْأَعْلامِ" 32 الجبال العالية وأصل العلم بفتح العين الأثر الذي يعلم به الشيء كعلم الطريق والجيش ، ولذلك سمي الجبل علما سواء كان عليه نار كما قالت الخنساء :

وإن صخرا لنأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

أو لم يكن قيل إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما سمع قولها هذا قال قاتلها اللّه ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا .

وهذه الآية من الإخبار بالغيب أيضا ، لأنه عند نزولها لم تكن هذه المراكب الضخمة ، والبواخر العظيمة التي هي حقيقة في كبرها كالجبال ، فسبحان من أودع كتابه ما كان وما

يكون إلى يوم القيامة وما بعده ، لأن فيه ما يكون من حالتي أهل الجنة والنار بعد يوم القيامة أيضا ، قال تعالى "إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ" تلك السفن "رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ" أي البحر أو النهر ، لأن السفن إذ ذاك والآن أيضا تجريها الرياح بالشراع "فإذا سكنت وقفت بخلاف سفينة سيدنا نوح الجسيمة التي كان سيرها ووقوفها بكلمة اسم اللّه راجع الآية 46 من سورة هود المارة ، وهذا معجزة له

(86/684)

عليه السلام ، أما المراكب العظيمة ذوات المحركات وإن كانت تسير بقوة البخار فإن الرياح تؤثر فيها تأثيرا قد يلجىء ربانها إلى الوقوف إذا رأى مريا خوفا من الغرق لأنه لا يقدر أن يسيرها بانتظام لما تلعب فيها الرياح يمينا وشمالا حتى تكون كالكرة بيد الشاب ، فيمشيها بتؤده لأنها مهما عظمت فهي عند اشتداد الريح وهيجان البحر كتبنة صغيرة ، وقد رأيناها عيانا هكذا بسفرنا إلى الحجاز ، وممن عظيم ما رأينا لم تسمح أنفسنا بالعودة بحرا ونسأل اللّه تعالى أن يوفقنا لزيارة بيته الحرام وضريح نبيه عليه الصلاة والسلام "إِنَّ فِي ذَلِكَ" المذكور من آيات اللّه "لَآيَاتٍ" عظيمات دالات على قدرة القادر وعبرة مؤثرة "لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ" 33 لنعم اللّه من كاملي الإيمان ، لأن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ، وهذه

صفه المؤمن يصبر في الشدة ويشكر في الرخاء فيظفر بمطلوبه كما قيل :

وقلّ من جد في أمر يطالبه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

قال تعالى "أَوْ يُوبِقْهُنَّ" يغرقهن ويهلكهن "بِما كَسَبُوا" ركابها من الذنوب الموجبة لذلك ، لأن السفن لا جرم لها ، ولهذا عاد الضمير على راكبيها وعود الضمير على ما ليس بمذكور جائز إذا تقدم ما يدل عليه أو كان معلوما كما هنا ، راجع الآية 4 من سورة القدر في ج 1 ، "وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ" 34 بأن ينجيهم بفضله ورحمته ومنّه وعطفه ولطفه "وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ" 35 محيد يحيدون عنه ويلجأون إليه إذا وقفوا في مثل هذه الشدائد وعرفوا بطل جدالهم .

(87/684)

واعلم أن (وَيَعْلَمَ) في صدر هذه الآية جار على الاستئناف على قراءة نافع وابن عامر ، وقرأ الباقون بالنصب عطفا على تعليل محذوف ، أي لينتقم منهم وليعلم الذين يجادلون إلخ ، "فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ" أيها الناس من الحطام "فَمَتاعُ الْحَياةِ" في هذه "الدُّنْيا" تتمتعون فيها به لانقضاء آجالكم ، ثم تتركونه ، وهذا مما يستوي فيه المؤمن والكافر "وَما عِنْدَ اللَّهِ" من الثواب الذي خبأه لكم بمقابل أعمالكم الصالحة "خَيْرٌ" من زخارف الدنيا وجاهها "وَأَبْقى

" منها وأدوم وأحسن "لِلَّذِينَ آمَنُوا" بنعيم الآخرة "وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" 36 في أمورهم كلها ،

وما قيل إن هذه الآيات نزلت في أبي بكر رضي اللّه عنه حين تصدق بكل ماله لا يتجه ، لأن هذه الآية مكية وهو رضي اللّه عنه تصدق بالمدينة لا بمكة ، لهذا فإنها عامة في كل من اتصف بما جاء فيها ، ويدخل فيها الصديق دخولا أوليا ، لأنها غير مقيدة بزمان فتشمل كل من هذا شأنه إلى يوم القيامة .

ثم قسم اللّه تعالى عباده من جهة التحمل إلى ستة أقسام فقال أولا "وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ" كالشرك باللّه ونسبة الولد والزوجة إليه تعالى عن ذلك "وَ" يجتنبون "الْفَواحِشَ" كل ذنب عظيم قبحه يسمى فاحشا كالزنى واللواطة والقذف والسرقة من محل محرم والقتل عمدا ، راجع تفصيلها في الآية 32 من سورة الأعراف في ج 1 "وَإِذا ما غَضِبُوا" على من أساء إليهم "هُمْ يَغْفِرُونَ" 37 إساءته لا يعاقبونه عليها ويكظمون غيظهم حلما وعفوا ، فهؤلاء داخلون في قوله تعالى :

(وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ) الآية 134 من آل عمران في ج 3 ، ثانيا "وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ" لما دعاهم إلى الإيمان به "وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ" إذا أرادوا عمل شيء يهمّ المجتمع تذاكروا فيه فيما بينهم لا يستبدون برأيهم ، فقد ورد : ما تشاور قوم إلا هدوا لما فيه رشدهم ، "وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ" 38 في سبيل الخير ووجوه البر .

واعلم أن المشورة هي استخراج الرأي بمراجعة الناس بعضهم إلى بعض ، فتحصل من تصادم الآراء واحتكاك الأقوال النتيجة المرضية التي يجمع عليها المتشاورون أو أكثرهم ، كما تحصل النار من قدح الحجر بعضه ببعض أو بالزناد .

وتشير الآية إلى مدح المشاورة والمتشاورين ، وقد جاء في الخبر : ما خاب من استشار ولا ندم من استخار .

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي اللّه عنهما عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : من أراد أمرا فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الأمور .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري في الأدب وابن المنذر عن الحسن قال : ما تشاور قوم قط إلا هدوا وأرشد أمرهم ، ثم تلا هذه الآية .

وقد كانت الشورى بين النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب ، وكذا بين الأصحاب رضي اللّه عنهم بعده ، وكانت بينهم في الأحكام كقتال أهل الردة وميراث الجد وعدد حد الخمر وغير ذلك مما لم يرد فيه نص شرعي ، لأن

الشورى تكون إذا لم يكن نص ، ولهذا أتت القاعدة الشرعية (لا اجتهاد في مورد النص) هذا في الأحكام والحدود ، أما في الأمور الإدارية والسياسية والتي مصدرها العرف والعادة فيؤخذ بما يقر عليه رأي الجماعة ، لأن الأمة لا تجمع على ضلالة .

وفيما يتعلق بالحروب لا بأس من اتخاذ ما لم يتخذه العدو ، لأن الحرب خدعة ، ولذا جاز فيه الكذب على العدو .

(89/684)

أخرج الخطيب عن علي كرم اللّه وجهه قال : قلت يا رسول اللّه الأمر ينزلبنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء ؟ قال اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ، ولا تقصوا برأي واحد .

فعلى هذا ينبغي أن يكون المستشار عاقلا عابدا وأن يؤخذ بقول الأكثر كما يستفاد من قوله ولا تقضوا برأي واحد .

وأخرج الخطيب أيضا عن أبي هريرة مرفوعا :

استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا .

والشورى على هذا الوجه من جملة أسباب صلاح الأرض ، ففي الحديث : إذا كان

أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم أسخياءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم أشراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها .

وقيل :

إذا استشارك عدوك فاخلص له النصيحة لأنه بها خرج من عداوتك ودخل في مودتك .

وهذه الآية عامة محكمة نافذة إلى الأبد ، حكي عن ابن الفرس أن هذه الآية نزلت بالمدينة وقد انفرد وحده بهذا إذ لم يقل به غيره ، وان الغرس ما احتج به على ذلك من أن وقوع المشورة في القتال وغيره لم يكن إلا في المدينة لا يؤيد كون هذه الآية مدنية ، لأن كثيرا من الآيات المكيات تنطبق على حوادث وقعت في المدينة ، وكثيرا من الآيات المدنيات تنطبق على وقائع حدثت في مكة ، فلا يعني أن هذا مكي وذلك مدني ، لأن إثبات ذلك متوقف على السماع الصحيح والقول غير المطعون فيه من الرجال الثقات ، وقدمنا في الآية 32 من سورة النمل في ج 1 ما يتعلق في هذا البحث وله صلة في الآية 159 من آل عمران الآتية في ج 3 فراجعهما ، وثالثا "وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ" بأن تعدي عليهم ظلما وعدوانا "هُمْ يَنْتَصِرُونَ" 39 لأنفسهم ممن بغى عليهم من غير تعد عليه مراقبا قوله تعالى (فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ) الآية 195 من سورة

البقرة ج 3 ، وذلك أن المؤمن خلق عزيزا يأبى الذل وسكوته في مثل هذه الحالة هوان فيه ومهانة عليه ، وقال تعالى (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) الآية 9 من سورة المنافقين ج 3 ،

وعلى هذا يؤول قول الإمام الشافعي : زن من وزنك ، بما اتزنك .

وما وزنك به فزنه .

من جاء إليك ، فرح إليه .

ومن جفاك ، فصدّ عنه .

ومع هذا إذا عفا وهو قادر على الانتصار لنفسه فهو أحسن وقد أخذ بالعزيمة وهي أحسن من الرخصة إذا لم يكن فيها إغراء للسفيه إذ يكون حط من الكرامة وقد يأباها خلق المؤمن ، قال :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمّته وذا يشجّ فلا يرثي له أحد

وقال الآخر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقال الآخر :

فوضع الندى في موضع السيف بالعدى مضر كوضع السيف في موضع الندى

أما إذا كان يملك نفسه كالقائل :

إذا فاه السفيه يسب عرضي كرهت أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة وأزيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا

وقول الآخر :

فأعرض عن شتم الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

فلا بأس ، فقد أخذ بالعفو والصفح المحمودين ، وكان من ذوي النفوس الطاهرة النقية يأبى أن يطرأ عليها معنى الذل وخاصة إذا كان يقصد تحمل الأذى قربة إلى اللّه تعالى فلا يحب الانتصاف لنفسه ، فهو من الكاملين ولا يظن به ما يظن بغيره من الهوان والضعف .

وإذا كان الإعراض عن المقابلة تمدها كقوله في السكوت عن إجابة اللئيم في سبابه :

ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني فأكره أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة وأزيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا

فلا بأس أيضا لأنه مهما كان يعد من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

(91/684)

ورابعا المقابلة المعنية بقوله تعالى "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ" عملها المساء إليه بالسيء هي أيضا "سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا" لأنه إذا جازى الرجل من أساء إليه بمثل إساءته له فقد أساء أيضا ، إلا أنه لا يجازى على ذلك ، لأنها بالمقابلة بلا زيادة ، لهذا سمى جزاء السيئة سيئة أيضا ، لمشابهتها لها صورة وإلا فليست بسيئة حقيقة ، وبما أن اللّه تعالى لا يرغب الانتصار للنفس ويحب العفو فقد سمى الانتصار سيئة ، ولهذا أعقبها بقوله "فَمَنْ عَفَا" عمن أساء إليه "وَأَصْلَحَ" بغض النظر عن العقوبة ولم يجابه خصمه بمثل سيئته "فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ" ومن كان أجره على اللّه سعد وفاز ، لأن اللّه تعالى يكافىء عن القليل كثيرا ، ومن انتقم حرم من هذا الأجر العظيم ، لأن الانتقام قد يقع فيه تعدي لأنه من الصعب أن يقابل التعدّي بمثله تماما ، ولهذا حذر اللّه تعالى عن التعدي المستلزم للظلم ، فختم هذه الآية بقوله عز قوله "إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" 40 الذين يتجاوزون حد الانتصار والبادئين غيرهم بالظلم لا بالمقابلة ، وعلى كل البادي أظلم .

(92/684)

خامسا قال تعالى "وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ" لنفسه بأن قابل الاعتداء بمثله لأن نفسه لم تسمح بالعفو وليس من أولي التحمل ولا التمدح "فَأُولَئِكَ" الآخذين تارهم ذيّا عن كرامتهم

وحفظا لعزّهم "ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ" 41 يؤاخذون به لأنهم أخذوا بالعزيمة وفعلوا ما خول لهم فلا عقاب عليهم ولا عتاب ولا عيب عليهم "إِنَّمَا السَّبِيلُ" الطريق الموجب للعقوبة يكون "عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ" مبدئيا بلا سبب "وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ" يفسدون فيها ويتكبرون على أهلها ويعملون المعاصي ويطفون على الناس "بِغَيْرِ الْحَقِّ" تجبرا وأنفة وأنانية بقصد التعاظم عليهم "أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" 42 في الآخرة غير الذي يبتليهم اللّه به في الدنيا مما لم يعف عنه ، إذ قد يسلط عليهم من هو أظلم منهم فينتقم لذلك المظلوم .

وقد جاء في الخبر : الظالم سيفى انتقم به وأنتقم منه .

قال تعالى في وصف الصنف السادس وهو أحسنهم "وَلَمَنْ صَبَرَ" على ما نابه من الغير "وَغَفَرَ" له تعديه عليه فضلا عن أنه لم يقابله به ولم يؤنبه عليه ولم يعاتبه به أيضا مع قدرته على الانتقام "إِنَّ ذَلِكَ" الصبر على الأذى

مع المغفرة عمل مبرور .

ولهذا أشار إليه بالصبر إعلاما بحسنه وتعاظمه على النفس إذ قل أن تجد من يتخلق بهذه الأخلاق الحميدة غير الأولياء وقليل ما هم ، ولهذا أشار تعالى بجليل ثوابه وكبير أجره وجميل عمله عنده بقوله عزّ قوله "لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ 43 التي أمر اللّه تعالى بها خلّص عباده لأن الصبر على المكاره من خصال الأنبياء والغفران مع القدرة من أفعال العظماء وهاتان الخصلتان من شأن أولي العزم .

هذا ، وقد ذكر اللّه تعالى في هذه الآيات ألست من قوله (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ) إلى هنا اثنتي عشرة خصلة متداخلة ، ولذا قلنا ستة أقسام ، لأن في كل قسم خصلتين ، وكلها من كرائم أخلاق المؤمن وأحاسن صفاته ، إرشادا لعباده للأخذ بها ، وحثا لهم على التحلي بمكارم الآداب .

قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما صلحت فإن هم فسدت أخلاقهم فسدوا

وقائله حميد بن ثور الهلالي ، وإن أمير الشعراء السيد شوقي قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فانظر بين المتقدم والمتأخر تجد البون شاسعا .

هذا ، والتمسك بآداب الأنبياء تعليما للأمراء والحكام أن يتقيدوا بهم ، فيفعلوا ما أرشدوا إليه من تلك الخصال العالية ، فيكونوا أكبر شأنا من غيرهم ، وعلى الناس أن تتأسى بهم ، لأن العبد إذا عفا عن أخيه فاللّه تعالى أولى بأن يعفو عنه ، إذ لا يخلو أحد من قصور تجاه مولاه ، ومن هنا أخذت قاعدة إسقاط الحق العام تبعا للحق الشخصي .

وأعلم أن اللّه تعالى جعل عباده شطرين ، شطر أخذ بالعزيمة التي هي من العزم وهو عقد القلب على إمضاء الأمر بالصبر والمغفرة والصفح مما هو موافق لشريعة سيدنا عيسى عليه السلام ، راجع الآية 34 من سورة السجدة المارة ، وهؤلاء الذين مدحهم اللّه تعالى فيها وقليل ما هم ، وشطر أخذ بالرخصة وهي الانتصاف والمقابلة بالمثل وهذه من خصائص هذه الأمة التي جعلها اللّه سبحانه أمة وسطا وخير أمة أخرجت للناس وخير الأمور أوساطها ، ومما خصت به من السنّة مما يوافق هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم :

أنصر أخاك ظالما أو مظلوما .

ونصر الظالم ردعه عن الظلم ، وخيرها في هذه الآية بين الأمرين الرخصة والعزيمة وندبها إلى ما هو الاحسن بقوله (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

(94/684)

الآية 55 من سورة الزمر المارة ، ومدح هؤلاء بقوله عز قوله (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الآية 19 منها فراجع هاتين الآيتين ففيهما كفاية .

قيل دخل رجل دميم على امرأته وقد تزينت له فقال لها :

لقد أصبحت رائعة في الجمال ، فقالت له أبشر فإن مصيرنا الجنة ، قال وكيف ؟

قالت لأنك أعطيت مثلي فشكرت ولأني ابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر في الجنة .

وهذا إذا حسنت النية في الصبر والشكر وكان القصد من الانتصاف والمقابلة ما ذكرناه آنفا في تفسير الآيتين المذكورتين فيكونون ممدوحين أيضا كما يشير إليه سياق التنزيل وسياقه ، إذ جاء بمعرض المدح وإلا فلا ثواب ولا عقاب ، وقد أثبتنا لك أيها القارئ فيما يلي جملة أحاديث في هذا الموضوع لتلين عريكتك وتخفض جناحك وتجنح إلى العفو رغبة بما يعده اللّه تعالى للعافين أمثالك في يوم أنت أكثر احتياجا إليه ، عنك تمتنع من الانتقام الذي فيه حظ النفس الخبيثة الأمارة بالسوء فتحرم من الأجر المقدر على العفو والصفح ، فمنها ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : قال موسى ابن عمران عليه السلام يا ربّ من أعزّ عبادك عندك ؟ قال من إذا قدر غفر .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذا وقف العباد للحساب نادى مناد ليقم من كان أجره على اللّه فليدخل الجنة ، ثم نادى الثانية ليقم من أجره على اللّه تعالى ، قالوا ومن ذا الذي أجره على اللّه تعالى ؟ قال العافون عن الناس ، فقام كذا وكذا ألفا فدخلوا الجنة بغير حساب .

وأخرج أحمد وأبو داود عن أبي هريرة أن رجلا شتم أبا بكر رضي اللّه عنه والنبي صلّى اللّه عليه وسلم جالس فجعل عليه الصلاة والسلام يعجب ويتبسّم فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي صلّى اللّه عليه وسلم وقام ، فلحقه أبو بكر فقال يا رسول اللّه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ؟ قال إنه كان معك ملك يردّ عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان ، ثم قال عليه الصلاة والسلام ثلاث من الحق : ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها للّه تعالى إلا أعزّ اللّه عز وجل بها نصره ، وما فتح رجل باب عطية

يريد بها صلة إلا زاده اللّه تعالى بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده اللّه تعالى بها قلة .

وفي هذا الحديث تنبيه لأبي بكر رضي اللّه عنه على ترك الأولى والأخذ بالعزيمة ، ولا وجه لقول من قال إن فيه عتبا من حضرة الرسول وهو فعل بعض ما وقع عليه ، واللّه تعالى يقول في مثله (ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) الآية 41 المارة ، لأن التنبيه شيء والعتب شيء آخر ، وكذلك لا يعد لوما لأنه لم يقترن بقول الرسول له لم فعلت أو لم قابلته .

هذا وقد أمر صلّى اللّه عليه وسلم بعض الأشخاص برد الشتم فقد أخرج النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : دخلت عليّ زينب رضي اللّه عنها

وعندي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فأقبلت عليّ تسبني ، فردعها النبي صلّى اللّه عليه وسلم فلم تنته ، فقال لي سبّيها ، وفي رواية دونك فانتصري ، فسببتها حتى جفّ ريقها في فمها ووجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يتهلل سرورا .

وهذا من قبيل التعزير لزينب بلسان عائشة ، لما أن لها حقا في الرد ، وقد رأى صلّى اللّه عليه وسلم المصلحة في ذلك ففوض إليها إقامة هذا الحق عنه .

(96/684)

الحكم الشرعي : هو أن للقاضي أن يعزر من استحق التعزير بشتم غير القذف ، وكذا للزوج أن يعزر زوجته على شتمها غير محرم ، وقد يغلب في التعزير حق العبد فيجوز فيه الإبراء والعفو واليمين والشهادة على الشهادة وشهادة رجل وامرأتين ، وقد يكون حقا محضا للّه فلا عفو فيه إلا إذا علم الإمام انزجار الفاعل فله ذلك ، وإذا لم تطاوع نفسه على العفو فعليه السكوت حالئذ لئلا يفرط منه ما لا يتلافى فهو سبيل السلامة قال أحمد بن عبيد :

لعمرك ما شهود الناس إلا بلاء والسلامة في الغياب

فغب ما استطعت إلا عن كريم يرى لقياك من خير الطلاب

يهدّي إن دللت على صواب ويهدي إن زللت إلى الصواب

ويهدي بصدر هذا البيت بمعنى يهتدي .

وسيأتي لهذا البحث صلة عند قوله تعالى (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ) الآية 178 من سورة البقرة في ج 3 إن شاء الله "وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ" يتولى أمره ويهديه إلى رشده "مِنْ بَعْدِهِ" كما أن من يهديه فما له من مضل "وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ" يوم القيامة "يَقُولُونَ" يسألون ربهم ثم بين صورة سؤالهم بقوله عزّ قوله

"هَلْ إِلى مَرَدٍّ" إلى الدنيا لنعمل صالحا وهل "مِنْ سَبِيلٍ" 44 إلى ذلك لنؤمن بالله ورسله وكتبه فلا يجابون إلى طلبهم "وَتَراهُمْ" يا سيد الرسل "يُعْرَضُونَ عَلَيْها" أي النار المستفادة من لفظ العذاب آنفا "خاشِعِينَ" متقاصرين متضائلين خاشعين "مِنَ الذُّلِّ" الذي رأوه والهوان الذي حلّ بهم "يَنْظُرُونَ" إلى النار القادمين إليها "مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ" أي بمسارقة لشدة الخوف كنظر المقتول إلى الجلاد والتيس إلى الجزار والمحكوم بالإعدام إلى المشنقة .

(97/684)

"وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا" عند رؤيتهم أولئك "إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ" الذين اتبعوهم في الدنيا وعملوا بأعمالهم "يَوْمَ الْقِيامَةِ" إذ عرضوهم للعذاب باتباعهم

أعمالهم ، وكذلك خسروا الذين لم يتبعوهم من أهليهم لأنهم صاروا إلى الجنة وانفردوا عنهم في النار ، فصارت خسارتهم مزدوجة فانتبهوا أيها الناس لهذه الخسارة الفظيعة "أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ" 45 لا يتحول عنهم ولا يتحولون عنه "وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ" من عذاب ذلك اليوم "مِنْ دُونِ اللَّهِ" لأن الأمر كله له "وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ" 46 طريق إلى النجاة فلا يصل إلى الحق في الدنيا ولا إلى الجنة في الآخرة ، فيا أيها الناس "اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ" وآمنوا به وانقادوا لرسله "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ" حين لا يستطيع من بالكون كله على دفعه أو تأخيره ، واعلموا أنه "مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ" يقيكم من عذابه ولا ملتجى تلجأون إليه منه "يَوْمَئِذٍ" يوم يأتيكم وهذا التنوين عوض عن جملة وقد يكون عن كلمة ويكون عن حرف كما سنبين كلا بمحله "وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ" 47 مما اقترفتموه من الذنوب لأنكم إذا جحدتموها أقرت بها جوارحكم "فَإِنْ أَعْرَضُوا" عن إجابتك يا حبيبي ولم يلتفتوا إلى نصحك "فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا" حتى تهتم بشأنهم ويضيق صدرك من عدم إيمانهم "إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ" لما أرسلت به إليهم ما عليك غيره ، وليس لك أن تقسرهم على الأخذ بإرشادك ، وقد علمنا أنك قمت بما أمرناك به ، فاتركهم الآن حتى يحين اليوم الذي قدر فيه إيمان من يؤمن منهم وتعذيب من بصر على

كفره "وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً" من غنى وصحة وأمن وأولاد ورياسة "فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ" من فقر ومرض وخوف وذل "بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ" من الخبائث التي جنوها "فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ" 48 لما أسلفناه من النعم قبلها وكان عليه قبل أن يغمط حق النعمة أن يتأمل أن زوالها كان بسبب كفره وأنه إذا تاب وأناب فاللّه أكرم من أن يرد عليه نعمه لا أن يقابلها بالإعراض والجحود .

مطلب أنواع التوالد وأقسام الوحي ومن كلم اللّه من رسله ورآه :

قال تعالى "لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وما فيهما لا لغيره ولا لأحد شركة معه فيهما ، فهو وحده يتصرف بهما كيفما شاء وأراد "يَخْلُقُ ما يَشاءُ" لا يحق لأحد الاعتراض عليه ، وليس يوجب عليه إجابة طلب أحد من خلقه "يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ" 49 فقط "أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً" كثيرين بدلالة التنوين ، قالوا ولد لأنس بن مالك مئة ولد ، وكذلك لعبد الرحمن بن عمر الليثي ، وخليفة السعدي ، وجعفر بن سليمان الهاشمي ، وهذا من الغرائب ولكن ليس على اللّه بغريب ولا عجيب "وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً" لا يولد له البتة من الذكور والإناث "إِنَّهُ عَلِيمٌ" بما يناسب كلا من خلقه فعطاؤه عن حكمة وتخصيصه عن حكمة ومنعه عن حكمة "قَدِيرٌ" 50 على ما يريده من هذا وغيره .

وما قيل إن هذه الآية نزلت في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأن منهم لوطا وشعيا لم يرزقا إلا بنات وإبراهيم لم يرزق إلا ذكورا ومحمدا صلّى اللّه عليه وسلم ذكورا وإناثا وعيسى ويحيى لم يولد لهما ، لا يتجه ، لأن عيسى ويحيى لم يتزوجا ، والآية عامة في جميع خلقه ، وليس المراد من يزوجهم أن يولد ذكر وأنثى في بطن واحدة توءما كما قاله بعض المفسرين إذ لا دليل على التخصيص بل مجرد إعطائهم ذكورا وإناثا في بطن أو بطون متفرقين لا مجتمعين ، كما هو الظاهر ، واللّه أعلم .

وقدم اللّه تعالى الإناث على الذكور في هذه الآية لا لشرفهن ولكن لسياق التنزيل بأنه يفعل ما يشاء هو لا ما يشاءونه فصار تقديمهن أهم والأهم واجب التقديم ، تدبر .

قال تعالى "وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ"

كما يكلم أحدكم صاحبه وما يكلمه جل شأنه "إِلَّا وَحْياً" إلهاما كما روي عنه صلّى اللّه عليه وسلم قوله فنفث في روعي ، أو مناما كما وقع لإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده ، وكما ألهمت أم موسى بقذفه في البحر ، قال صلّى اللّه عليه وسلم رؤيا الأنبياء وحي .

وما جاء أنه صلّى اللّه عليه وسلم كلم ربه ليلة الإسراء كما أشرنا إليه أول سورة الإسراء

في ج 1 في بحث الإسراء والمعراج فهو مخصوص به دون سائر الأنبياء إذ ما من عموم إلا وخصص منه البعض ، ولرؤيته صلّى اللّه عليه وسلم لربه عز وجل في الدنيا من خصوصياته أيضا وهي حق ثابت لا مرية فيها ، ولم يره بالدنيا بعيني رأسه غيره ولم يكلمه أحد مشافهة مع الرؤية غيره أيضا .

وقد ثبت لموسى عليه السلام تكليم اللّه فقط من غير رؤية ، وليعلم أن رؤية اللّه تعالى وتكليمه جل شأنه لا بوصفان بوصف ، ولا يكيفان بكيفية ، لأن النطق عاجز عن بيان ذلك ، وهذا أنكر من أنكر لسوء ظنه ويقينه ، وصدّق من صدق بحسن إيمانه وعقيدته ، وهذا نوع من أنواع الوحي .

(100/684)

والثاني بيّنه بقوله "أَوْ" يسمع الموحى إليه كلامه المقدس الخالي عن الحرف والصوت المنزه عن الشبيه والمثيل "مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ" يحجب السامع في الدنيا عن الرؤية لا أن يحجب اللّه عن رؤيته ، لأنه جل شأنه لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام ولا يحجبه حجاب ، وذلك من غير رؤية كما سمع موسى عليه السلام كلامه من الشجرة وكما سمعت الملائكة كلامه في دعوتهم للسجود لآدم عليهم السلام ، راجع الآية 45 من سورة الإسراء في ج 1 في بحث

الحجاب ، هذا .

والنوع الثالث هو المذكور في قوله "أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا" من ملائكته الكرام "فَيُوحِيَ" ما يتلقاه منه بِإِذْنِهِ" عز وجل إلى المرسل إليه "ما يَشاءُ" أن بوحيه من الوحي المقدس "إِنَّهُ عَلِيٌّ" عن سمات وصفات خلقه "حَكِيمٌ" 51 صائب المرمى فيما بوحيه من الأمور القولية والفعلية .

وسبب نزول هذه الآية على ما نقله الآلوسي رحمه اللّه في تفسيره روح البيان نقلا عن البحر أن قريشا قالت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ألا تكلم ربك وتنظر إليه إن كنت صادقا كما كلمه موسى ؟ فقال لهم لم ينظر موسى ربه ، فنزلت .

وهذا أصح مما نقله الإمام علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي في تفسير الخازن المسمى لباب التأويل من أن سبب نزولها هو أن اليهود قالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلم ألا تكلم

ربك إلخ ، لأن السورة مكية والآية ليست بمستثناة منها ، واليهود لم يجادلوا حضرة الرسول في مكة ولم يقع معهم أخذ ورد إلا بالمدينة ، وهذه الآية محمولة على عدم جواز النظر في الدنيا ولا دليل فيها على عدم جواز الرؤية في الآخرة ، وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث

وتقسيم الوحي وجواز رؤية اللّه تعالى في الدنيا والآخرة في الآية 52 من سورة المزمل ، والآية 60 من سورة والنجم ، والآية 60 من الإسراء في ج 1 ، وتطرقنا لها في غيرها من السور وفي الآية 53 من سورة يونس ، والآية 36 من سورة يوسف ، والآية 103 من سورة الأنعام المارات ، وأشرنا إلى المواقع التي تطرقنا فيها لهذا البحث فراجعها .

قال تعالى "وَكَذَلِكَ" كما أوحينا للرسل من قبلك كتبّا وصحفا "أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" يا خاتم الرسل "رُوحاً مِنْ أَمْرِنا" قرآنا فيه حياة الأرواح في الدنيا والنجاة الطيبة والنعيم الدائم في الآخرة ، وما قيل إن المراد بالروح هنا جبريل عليه السلام قيل غير سديد ، لأنه لو كان المقصود هو لقال جل شأنه وهو أعلم بما يقول أرسلنا إليك روحا فقط ، لأن جبريل هو من أمر اللّه أيضا فيكون في الكلام تكرار دون حاجة .

هذا ، وقد اجتمعت له عليه الصلاة والسلام أنواع الوحي كلها ، إذ تشرف في بداية رسالته بالرؤيا الصادقة والنفث في الروع أي القلب ، ثم بإرسال الملك جبريل عليه السلام إليه ، ثم تكليمه ليلة الإسراء ، وزاده اللّه شرفا على سائر الرسل بالرؤيا الدنيوية .

(102/684)

قال تعالى "ما كُنْتَ تَدْرِي" يا سيد الرسل قبل أن شرفناك بالرسالة "مَا الْكِتَابُ" القرآن الذي أكرمناك به "وَلَا الْإِيمَانُ" بنا على وجه التفصيل الذي علمته بعد ذلك ، وليس المراد بالإيمان هنا معناه الحقيقي الذي هو ضدّ الكفر ، لأن الأنبياء مجمع على إيمانهم الإجمالي قبل النبوة كما علمت من ذكرهم ، وكان صلّى اللّه عليه وسلم كغيره من الأنبياء يوحد اللّه تعالى قبل النبوة ويبغض الأصنام ويتعبّد على دين إبراهيم عليه السلام كما من قبله يتعبّد على دين من قبله من الأنبياء ، بل المراد من الإيمان هنا واللّه أعلم الإيمان بتفاصيل الشرائع المذكورة في الكتاب المنزل عليه ، لأنه في بداية أمره لم يعلم أنّ كتابا ينزل إليه ، فكيف يعلم تفصيلات ما فيه ، وقد يأتي الإيمان بمعنى الصلاة ، قال تعالى (وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ) الآية 149 من البقرة

(103/684)

في ج 3 ، إذ أجمع المفسرون على أن المراد به في هذه الآية الصلاة كما سيأتي في تفسيرها إن شاء اللّه ، ولهذه الأسباب يجوز أن يعدل هنا عن الحقيقة إلى المجاز لوجود الصارف وعدم إمكان الصيرورة إليها والأخذ بمجرد الظاهر ، وقد ألمعنا في المقدمة أن طريقتنا في هذا التفسير لزوم الظاهر ما استطعنا ، وأن لا نحيد عنه ، وهذا مما لم نتمكن من التقيد بظاهره

لما علمت "وَلَكِنْ جَعَلْناهُ" أي ذلك الكتاب "نُوراً" يهتدى به من الضلال ، ومما يؤيد عود الضمير إلى الكتاب لا إلى الإيمان قوله "نَهْدِي بِهِ" بذلك الكتاب "مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا" لأنه أمر محسوس يهتدى به ، أما الإيمان فمعنى من المعاني يقر في القلب ويعبر عنه اللسان "وَإِنَّكَ" يا خاتم الرسل "لَتَهْدِي" الناس "إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ" 52 عدل سوي "صِراطِ اللَّهِ" وطريقه الموصل إلى الحق الدال على الرشد ، كيف لا وهو سبيل اللّه العظيم "الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" ملكا وعبيدا يتصرف بهم كيف يشاء ويريد لا يسأل عما يفعل فانتبهوا أيها الناس "أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ" 53 كلها في الآخرة مشاهدة كما هي الآن في الدنيا وما ترى منها بيد غيره فهو صورة إذ في الحقيقة لا أمر إلا للّه ولا يقع شيء إلا بأمره وإرادته ، وهناك يجد المحسن ثواب إحسانه والمسيء عقاب وجزاء إساءته .

ولا يوجد سورة مختومة بمثل هذه الكلمة ، ولا مثلها في عدد الآي .

هذا ، واللّه أعم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 60.26 ﴾

(104/684)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الشورى

مكية إلا قوله قل لا أسألكم عليه أجرا الآيات الأربع فمدني

وتقدم الكلام على حم عسق والى الذين من قبلك كاف لمن قرا نوحي إليك بلنون وكسر

الحاء أو بالياء وفتح الحاء وليس بوقف لمن قراه بالياء وكسر الحاء للفصل بين الفعل والفاعل

وعلى الأول يبتدئ الله بمعنى هو الله أو يوحيه الله الحكيم تام على القراءتين وكذا العظيم

من فوقهن كاف وكذا لمن في الأرض الرحيم تام بوكيل حسن لا ريب فيه كاف في السعير تام

وكذا في رحمته ولا نصير كاف قدير إلى الله كاف وكذا لكم الله ربي عليه توكلت جائز

أنيب تام يذرؤكم فيه حسن شيء مفهوم البصير تام والأرض كاف وكذا وبقدر عليم تام ولا

تتفرقوا فيه حسن ما تدعوهم اليه من يشاء مفهوم من ينيب تام بغيا بينهم كطاف وكذا

لقضى بينهم منه مريب تام أهواءكم كاف لا عدل بينكم تام وربكم حسن أعمالكم كاف

وكذا بيننا وبينكم المصير تام وكذا شديد بالحق والميزان قريب حسن وكذا الذين لا

يؤمنون بها أتلنها الحق تام وكذا لفي ضلال بعيد والقوي العزيز في حرثه كاف نؤته منها مفهوم

من نصيب كاف وكذا به الله ولقضي بينهم واليم واقع بهم تام روضات الجنات كاف وكذا

عند ربهم الكبير الصالحات كاف في القربى تام حسنا كاف وكذا شكور كذبا كاف على

قلبك تام بكلماته كاف بذات الصدور تام ما تفعلون حسن من فضله تام وكذا شديد ما يشاء كاف بصير تام وكذا الحميد كم دابة كاف قدير تام وكذا عن كثير في الأرض ولا نصير تام كالإعلام كاف على ظهره صالح وكذا شكور ويعفون عن كثير تام لمن قرا ويعلم بالرفع والنصب وليس بوقف لمن جزمه من محيص تام الدنيا حسن يتوكلون كاف وكذا هم يغفرون وينفقون ينتصرون تام مثلها كاف وكذا فأجره على الله الظالمين تام من سبيل حسن بغير الحق كاف اليم تام وكذا لمن عزم الأمور ومن بعده من سبيل حسن خاشعين قيل وقف وقيل الوقف على من الذل على الخلاف في قوله من الذل بماذا يتعلق فقيل يتعلق ينظرون فالوقف على خاشعين وقيل يتعلق بخاشعين فالوقف على من الذل هو على التقديرين كاف من طرف خفي

(105/684)

مقيم تام من دون الله كاف من سبيل حسن من الله وكذا من نكير حفيظا جائز الا البلاغ تام فرح بها كاف كفرو تام ما يشاء كاف وكذا عقيما قدير ما يشاء كاف حكيم تام من أمرنا كاف وكذا من عبادنا وما في الأرض تام وكذا آخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 696.689 ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الشورى

مكية كلها ثمانمائة وست وستون كلمة ، حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانية وثمانون حرفا ، وآياتها خمسون أو إحدى أو ثلاث آيات ، ورسموا حم مقطوعة عن عسق ولم يقطعوا كهيعص لأن الحواميم سور متعددة فجرت مجرى نظائرها ، أو لأن حم مبتدأ و عسق خبر فهما كلمتان و كهيعص كلمة واحدة وتقدم الكلام على الحروف ومعاني الوقوف 0

حم عسق (تام) على أن التشبيه بعد مبتدأ أي مثل ذلك الوحي ، أو مثل الكتاب يوحى إليك وإلى الذين من قبلك من الرسل ووقف بعضهم على كذلك ثم ابتدأ يوحى بكسر الحاء أي يوحي الله إيحاء مثل الإيحاء السابق الذي كفر به هؤلاء ، ويوحي مبني للفاعل والجلالة فاعل ، وقرأ ابن كثير يوحى بفتح الحاء بالبناء للمفعول ونائب الفاعل ضمير يعود على كذلك مبتدأ أي مثل ذلك الإيحاء يوحى هو إليك فمثل مبتدأ و يوحى هو إليك خبره أو النائب إليك بإضمار فعل أي يوحيه الله إليك وهذا مثل قوله يسبح له فيها بالغدو والآصال بفتح الباء 0

من قبلك (حسن) على قراءة ابن كثير وليس بوقف على قراءة يوحى مبنيا للفاعل لان فاعل يوحى لم يأت وهو الله ولا يفصل بين الفعل وفاعله بالوقف ثم يبتدئ الله العزيز الحكيم ويقف على من قبلك أيضا من قرأ نوحى بالنون ويرتفع ما بعده على الابتداء والعزيز الحكيم خبران أو صفتان والخبر الظرف

العزيز الحكيم (تام) على القراءتين

وما في الأرض (حسن) العظيم (تام)

من فوقهنّ (كاف) وتام عند أبي حاتم على استئناف ما بعده

لمن في الأرض (كاف)

الرحيم (تام)

حفيظ عليهم (حسن)

بوكيل (كاف) ولا وقف من قوله وكذلك أوحينا اليك إلى لا ريب فيه فلا يوقف على عربي لان بعده لام العلة ولا على من حولها للعطف

لا ريب فيه (حسن)

في السعير (تام) ولا يوقف على واحدة لان بعده حرف الاستدراك

في رحمته (كاف) ومثله ولا نصير

أولياء (حسن) ومثله الولي وكذا الموتى

قدير (تام)

من شيء ليس بوقف لمكان لفاء

(107/684)

الى الله (حسن) ومثله ذلكم الله ربي

عليه توكلت (جائز) لان توكلت ماض

وأنيب (تام) ان رفع ما بعده بالابتداء وان جعل ما بعده خبر مبتدأ محذوف كان كافيا

وكذا أن نصب على المدح بتقدير أعنى أو على المنادى المضاف وليس بوقف ان رفع تبعا

لربى أو خبر ذلكم أو جر بدلا من الهاء في اليه أو جر صفة لله ويكون من قوله ذلكم الله ربي

الى أنيب اعتراضا بين الصفة والموصوف

يذرؤكم فيه (كاف) ومثله شيء

البصير (تام)

والأرض (كاف) على استئناف ما بعده 0

ويقدر (كاف)

عليم (تام)

نوحا ليس بوقف لان قوله والذي أوحينا اليك موضعه نصب بالعطف على ما وكذا لا

يوقف على إليك لان قوله وما وصينا به عطف على ما قبله ولا على عيسى لان قوله أن

أقيموا الدين بدل مما قبله وان جعل في موضع رفع مبتدأ كان الوقف على عيسى كافيا 0

ولا تتفرقوا فيه (تام) عند نافع 0

ما تدعوهم اليه (تام)

من يشاء (حسن)

من ينيب (تام)

بغيا بينهم (كاف) ومثله لقضى بينهم

منه مريب (تام)

فادع (جائز)

كما أمرت (حسن) مثله أهواءهم وكذا من كتاب

بينكم (تام)

الله ربنا وربكم (حسن) ومثله ولكم أعمالكم وكذا وبينكم

يجمع بيننا (جائز) المصير (تام)

من بعد ما استجيب له ليس بوقف لان قوله والذين يحاجون مبتدأ وحجتهم مبتدأ ثان

وداحضة خبر الثاني والثاني وخبره خبر علن الأول وأعرب مكى حجتهم بدلا عن

الموصول بدل اشتمال وعلى كل فالوقف على عند ربهم 0

وعند ربهم (حسن) ومثله وعليهم غضب

شديد (تام)

والميزان (حسن)

قريب (كاف) على استئناف ما بعده

لا يؤمنون بها (حسن)

مشفقون منها ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

أنها الحق (حسن)

بعيد (تام)

يرزق من يشاء (حسن) سواء جعل قوله يرزق صفة لقوله الله لطيف أو جعل خبرا بعد

خبر فان جعلته صفة كانتا جملتين متفقتين وان جعلت يرزق خبرا بعد بعد خبر كانتا

مختلفتين 0

وهو القوى العزيز (تام) للابتداء بالشرط

(108/684)

نزد له في حرثه (حسن) وقال ابن نصير النحوى لا يوقف عليه حتى يؤتى بمعادله والأصح

التفرقة بينهما بالوقف

نؤته منها (جائز) وقيل لا يجوز لان الذي بعده قد دخل في الجواب

من أصيب (كاف) وقيل تام

ما لم يأذن به الله (كاف) ومثله لقضى بينهم وقال أبو حاتم تام لمن قرأ وأن الظالمين بفتح الهمزة

وهو عبد الرحمن بن هرمز الاعرج بتقدير واعلموا أن الظالمين

أليم (كاف)

واقع بهم (تام) وهو أي الاشفاق أو العذاب وهو تام ان جعل ما بعده مبتدأ وليس بوقف ان

جعل ما بعده منصوبا يعطف على ما قبله

الجنات (كاف) ومثله عند ربهم وكذا الكبير

الصالحات (تام) عند نافع

في القربى (كاف) وتام عند أبى حاتم

فيها حسنا (كاف)

شكور (تام)

كذبا (حسن) للابتداء بالشرط

على قلبك (تام) لان قوله ويمح الله الباطل مرفوع مستأنف غير داخل في جزاء الشرط لانه

تعالى يمحو الباطل مطلقا وسقطت الواو من يمح لفظا لالتقاء الساكنين في الدرج وخطأ جلا للخط على اللفظ كما كتبوا سندع الزبانية ولا ينبغي الوقف على يمح لاننا ان وقفنا عليه بالاصل وهو الواو خالفنا خط المصحف الامام وان وقفنا عليه بغيرها موافقة للرسم العثماني خالفنا الاصل وتأويله ويمح الله الشرك ويحق الحق بما أنزل به على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقيل موضع يمح جزم عطفا على يختم وليس كذلك لفساد المعنى لان الله قد محا الباطل بابطاله اياه بقوله ليحق الحق ويبطل الباطل والاصح ارتفاعه لرفع ما بعده وهو ويحق الحق بكلماته

وبكلماته (كاف)

بذات الصدور (تام)

عن عباده (جائز) ومثله عن السيئات

يفعلون (تام) ان جعل الذين في موضع رفع فاعل يستجيب وان جعل في موضع نصب مفعول يستجب والفاعل مضمر يعود على الله كان جائزا قال النخعى ويستجيب الذين آمنوا

يشفعهم في إخوانهم 0

وعملوا الصالحات (جائز)

من فضله (كاف)

شديد (تام)

في الأرض ليس بوقف للاستدراك بعده

ما يشاء (كاف)

بصير (تام)

من بعد ماقنطوا (جائز)

رحمته (كاف)

(109/684)

الحميد (تام)

والأرض ليس بوقف لان قوله وما بث فيهما موضعه رفع بالعطف على ماقبله

من دابة (كاف)

قدير (تام)

عن كثير (كاف) وكذا في الأرض

ولا نصير (تام) وكان أبو عمرو ونافع يقفان على الجوار بغير ياء ويصلان بياء .

كالأعلام (كاف) لابتداء بالشرط .

على ظهره (كاف)

شكور ليس بوقف لان قوله أو يوبقهن مجزوم بالعطف على يسكن ولكونه رأس آية يجوز .

ويعف كثير (تام) لمن قرأ ويعلم بالرفع وبها قرأ نافع وابن عامر على الاستئناف وليس بوقف لمن نصبه أو جزمه فنصبه باضمار أن كأنه قال وان يعلم الذين وجزمه عطفا على أو يوبقهن وهما كلام واحد .

من محيص (تام)

الدنيا (حسن) ومثله وأبقى .

يتوكلون (كاف) ان جعل ما بعده مستأنفا وإن عطف على للذين آمنوا كان جائزا 0

والفواحش (حسن)

هم يغفرون (كاف) على استئناف ما بعده ورسموا غضبوا كلمة وحدها وهم كلمة وحدها كما ترى وموضع هم رفع لانه مؤكد للضمير المرفوع في غضبوا .

ينفقون (كاف)

ينتصرون (تام)

مثلها (كاف) وقال الاخفش تام 0

فأجره على الله (كاف)

الظالمين (تام)

بعد ظلمه ليس بوقف لان خبر المبتدأ وهو من لم يأت بعده 0

من سبيل (حسن)

بغير الحق (كاف)

أليم (تام)

لمن عزم الامور (تام)

من بعده (حسن)

من سبيل (حسن)

واختلف في قوله من الذل بماذا يتعلق فإن علق بخاشعين كانك قلت من الذل خاشعين كان الوقف على من الذل وان علقته بينظرون كأنك قلت من الذل ينظرون كان الوقف على خاشعين ثم تبتدئ من الذل ينظرون .

من طرف خفى (تام)

يوم القيامة (كاف) سواء علقت يوم القيامة بخسروا ويكون المؤمنون قد قالوا ذلك في الدنيا أو يقال ويكون معناه يقول المؤمنون هذا القول يوم القيامة إذا رأوا الكفار في تلك الحالة .

مقيم (تام)

من دون الله (كاف)

من سبيل (تام)

من الله (كاف) ومثله يومئذ وكذا من نكير .

حفيظا (حسن)

إلا البلاغ (تام)

(110/684)

فرح بها (كاف) وقال ابن نصير النحوي لا يوقف على أحد المعادلين حتى يؤتى بالثاني

والإولى الفصل بالوقف بينهما 0

بما قدّمت أيديهم ليس بوقف لمكان الفاء .

كفور (تام)

والأرض (حسن)

يخلق ما يشاء (أحسن) مما قبله .

الذكور ليس بوقف للعطف بأو .

واناثا (جائز) لان ما بعده يصلح عطفا ومستأنفا أي وهو يجعل بدلالة تكرار المشيئة 0

عقيما (كاف)

قدير (تام)

حجاب (حسن) لمن قرأ أو يرسل بالرفع على الاستئناف وبها قرأ نافع وابن عامر وليس

بوقف لمن قرأ بنصبه لان ما بعد أو معطوف على ما قبلها وقيل أو يرسل فيوحي معطوفان على وحيا أي الاموحيا أو مرسلا فيكون من عطف المصدر الصريح على المصدر المسبوك كما قال :

للبس عباءة وتقر عيني . أحب الى من لبس الشفوف

لكن نص سيبويه أن ان والفعل لا يقعان حالا وانما يقع المصدر الصريح تقول جاء زيد ضحكا ولا تقول جاء زيد أن يضحك ولا يجوز عطفه على يكلمه لفساد المعنى إذ يصيرا لتقدير وما كان لبشر أن يرسل رسولا ويلزم عليه نفي الرسل .

ما يشاء (كاف)

حكيم (تام)

من أمرنا (كاف) عند نافع للابتداء بالنفي .

ولا الإيمان ليس بوقف لان لكن يستدرك بها الاثبات بعد النفي والنفي بعد الاثبات فهي لابد أن تقع بين متناقضين ولا يصح الكلام الا بها كما تقدم . ما كنت تدرى ما لكتاب فالاولى نافية والثانية استفهامية معلقة للدراية فهي في محل نصب لسدّها مسدّ مفعولين والجملة المنفية بأسرها في محل نصب على الحال من الكاف في اليك كذا في السمين .

جعلناه نورا (جائز) .

من عبادنا (كاف)

مستقيم ليس بوقف لان الذي بعده بدل من صراط الاوّل قبله .

وما في الأرض (كاف) آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 689.

696 ﴾

(111/684)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة عسق :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

روى محبوب عن إسماعيل عن الأعمش عن ابن مسعود : "حم سق 1" .

قال أبو الفتح هذا مما يؤكد أن الغرض في هذه الفواتح إنما هو لكونها 2 فواصل بين السور ، ولو كانت أسماء الله سبحانه لما جاز تحريف شيء منها ن وذلك لأنها لو كانت أسماء له لكانت أعلاما ، كزيد وعمرو ، فالأعلام لا طريق إلى تحريف شيء منها ، بل هي مؤداة بأعيانها .

فأما الخلاف الذي في باب جبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وإبراهيم ، ونحو ذلك فالعذر

فيها أنها أسماء أعجمية ، ولام التعريف لا تدخلها ؛ فبعدت عن أصول كلام العرب ، واجترأت عليه وتلعبت بها لفظا ، تارة كذا ، وأخرى كذا . وليس كذلك "حم؟ ، عسق" وبقية الفواتح ؛ لأنها حروف [144و] العرب المركب منها كلامها . فأما ترك إعرابها فكترك إعراب كثير من كلامها ، كالأفعال غير المضارعة ، وجميع الحروف . وعلى أن الأعجمي على ما ذكرنا من حاله معرب فهذا هذا .

وكان ابن عباس قرأها بلا عين أيضا ، ويقول : السين : كل فرقة تكون ، والقاف : كل جماعة تكون .

ومن ذلك قراءة سلام : "نُؤْتِهِ مِنْهَا 3" .

قال أبو الفتح : هذا على لغة أهل الحجاز ، ومثله قراءتهم : "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ 4" ، وقد تقدم القول عليه .

---

1 سورة عسق : 1 ، 2 وعسق اسم آخر لسورة الشورى . انظر بصائر ذوي التمييز : 1 : 418 .

2 كذا في نسختي الأصل .

3 سورة عسق : 20 .

4 سورة القصص : 81 وانظر الصفحة 67 من الجزء الأول .

ومن ذلك قراءة مسلم بن جندب : "وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم1" ، نصب .

قال أبو الفتح : هو معطوف على كلمة "الفصل" ، أي : ولولا كلمة الفصل ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم ، ولولا أن الظالمين قد علم منهم أنهم سيختارون ما يوجب عليهم العذاب لهم2 لقضى بينهم .

ونعوذ بالله مما يجنيه الضعف في هذه اللغة العربية على من لا يعرفها ، فإن أكثر من ضل عن القصد حتى كب على منخريه في قعر الجحيم إنما هو لجهله بالكلام الذي خوطب به ، ثم لا يكفيه عظيم ما هو عليه وفيه دون أن يجفوها ، ويعرض عما يوضحه له أهلوها . نعم ، ويقول : ما الحاجة إليها ؟ وأين وجه3 الضرورة الحاملة عليها ؟ نعوذ بالله من التتابع في الجهالة ، والعدول عما عليه أهل الوفور والمثالة .

وجاز الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب "لولا" الذي هو قوله : ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ ، لأن ذلك شائع ، وكثير عنهم . قال لبيد :

فصلقنا في مراد صلقة وصداء ألحقتهم بالثلل4

أي : فصلقنا في مراد وصداء صلقة .

وفيه أيضا فصل بين الموصوف الذي هو صلقة ، والصفة التي هي قوله : ألحقتهم بالثلل – بالمعطوف الذي هو قوله : وصداء ، والموصوف مع ذلك نكرة . وما أقوى حاجتها إلى الصفة ! ومثله ما أنشدناه أبو علي من قول الآخر :

أمرت من الكتاب خيطا وأرسلت رسولا إلى أخرى جريا يعينها 5

---

1 سورة عسق : 21 .

2 ساقطة في ك .

3 في ك : وما .

4 فصلقنا : فصحنا . والثلل : الهلاك ، كما في الديوان ، قال : ومن قرأ بالثلل "بكسر الثاء" أراد الثلال ، جمع ثلة من الغنم ، فقصرى ، أي أغنام يرعونها . قال ابن سيده : والصحيح الأول . وفي القاموس : الثلة "بالفتح" جماعة الغنم ، وجمعها كبدر . وفيه والثلة بالكسر : الهلكة ، وجمعها كعنب . يشير الشاعر في هذا البيت إلى يوم فيف الريح ، وكانت تجمعت فيه بنو الحارث ، وبنو جعفر ، وقبائل سعد العشيرة ومراد وصداء . وانظر الديوان : 193 .

5 أمرت خيطا : شدت فتله . الجرى : الوكيل ، وقد يكون مخفف جرئ ، وانظر الخصائص : 2 : 396 .

ففصل بين قوله : "رسولا" ، وبين صفته التي هي "جريا" بقوله : إلى أخرى ، وهو معمول أرسلت, على هذا حمله أبو علي وإن كان يجوز أن يكون صفة لـ"رسول" متعلقة بمحذوف ، وأن يكون أيضا متعلقا بنفس "رسول" .

وقد يجوز في "أنَّ1" أن تكون مرفوعة بفعل مضمر ، حتى كأنه قال : ووجب ، أو وحق أن الظالمين لهم عذاب أليم . يؤنسك بانقطاعه عن الأول إلى هنا قراءة الجماعة بالكسر و "إن" بالكسر فهذا استئناف - كما ترى - لا محالة .

ومن ذلك قراءة مجاهد وحميد : "ذِلَكَ الَّذِي يُبَشِّرُ2" ، بضم الياء ، وسكون الباء ، وكسر الشين .

قال أبو الفتح : وجه هذه القراءة أقوى في القياس ، وذلك أنه يقال : بشر زيد بكذا ، ثم نقل بهمزة النقل ، فقيل : أبشره الله بكذا ، فهذا كمر زيد بفلان ، وأمره الله به . ورغب فيه ، وأرغب الله فيه .

نعم ، وأفعلت ههنا كفعلت فيه ، وهو أبشرته وبشرته ، وكلاهما منقول للتعدي : أحدهما بهمزة أفعل ، والآخر بتضعيف [144ظ] العين . فهذا كفرح وأفرحته وفرحته ، وهو

بشر وأبشرته وبشرته . وأما بشرته – بالتخفيف – فعلى معاقبة فعل لأفعل في معنى واحد ، نحو جد في الأمر وأجد ، وصد عن كذا وأصد .

قال أبو عمرو : وإنما قرأت هذا الحرف وحده "يبشر" لأنه ليس معه "به3" ، وهذا صحيح حسن .

---

1 أي من قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ و "بالكسر" الأولى مقحمة في العبارة كما لا يخفى .

2 سورة عسق : 23 .

3 وردت الباء بعد "بشر" المشدد في آيات شتى منها قالوا : ﴿ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ في سورة الحجر : 55 ، و ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ في سورة الصافات : 101 .

(114/684)

ومن ذلك قراءة قتادة : "فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ1" ، بكسر اللام2 .

قال أبو الفتح : هذه القراءة على ظللت أظل ، كفررت أفر . والمشهور فيها فعلت أفعل : ظللت أظل .

وأما ظللت أظل فلم يمر بنا ، لكن قد مر نحو ضللت أضل ، وضللت أضل . ولم يقرأ قتادة

- إن شاء الله - إلا بما رواه ، وأقل ما في ذلك أن يكون سمعه لغة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 248 . 251 ﴾

---

1 سورة عسق : 33 .

2 سقط في ك : "بكسر اللام" .

(115/684)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الشورى

مكية إلا أربع آيات من قل لا أسئلكم إلى أربع فبالمدينة وآيها تسع وأربعون بصري بخلف وخمسون حجازي ودمشقي وآية حمصي وثلاث كوفي خلافها أربع حم وعسق كالإعلام كوفي وحمصي في اتفاق وقال أيوب أبدل بعض البصريين عن كثير الأول بكا لأعلام مشبه الفاصلة ستة أن أقيموا الدين كبر على المشركين من كتاب طرف خفي عليهم حفيظا عقيما القراآت تسبق حكم إمالة حم وسكت أبي جعفر على الحروف الخمسة وتقدم التنبيه على إخفاء نون عين عند السين آخر الإدغام الصغير ولم أر من نبه عليه فلينظر وفي عين من عسق المد المشبع لأجل الساكن والتوسط لفتح ما قبل الياء مع رعاية الساكن وهما

في الشاطبية والقصر إجراء لها مجرى الحروف الصحيحة والثلاثة في الطيبة

واختلف في ( ) يوحى إليك (الآية 3 فابن كثير بفتح الحاء مبنيا للمفعول والنائب إما إليك وإما ضمير يعود إلى ذلك لأنه مبتدأ أي مثل ذلك الإيحاء يوحي هو إليك كذا في الدر وجعله ضمير المصدر المقدر ضعيف واسم الله تعالى فاعل بمقدر مفسر كأنه قيل من يوحي قيل يوحي الله وتالياه صفتاه وافقه ابن محيصن والباقون بكسر الحاء مبنيا للفاعل وهو الله تعالى وإليك في محل النصب أي مثل ما أوحى إلى الأنبياء المتقدمين صلوات الله على نبينا وعليهم وقيل في هذه السورة أوحيت إلى كل نبي قبله وقرأ يكاد بالياء على التذكير نافع والكسائي والباقون بتاء التأنيث

واختلف في ﴿ ينفطرن ﴾ الآية 5 فأبو عمرو وشعبة ويعقوب بنون ساكنة بعد الياء وكسر الطاء مخففة مضارع انفطر انشق وافقهم اليزيدي والشنبوذي والباقون بتاء فوقية مفتوحة مكان النون وفتح الطاء مشددة مضارع تفطر تشقق وقرأ قرانا بالنقل ابن كثير ومد لا ريب متوسطا حمزة بخلفه وقرأ به إبراهيم بالألف ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان وقرأ نؤته منها بإسكان الهاء أبو عمرو وهشام من طريق الداجوني وأبو بكر

وحمزة وابن وردان من طريق النهرواني عن ابن شبيب وابن جماز من طريق الهاشمي وقرأ قالون وهشام من طريق الحلواني بخلفه وابن ذكوان من أكثر طرق الصوري ويعقوب وابن وردان من باقي طرقه وابن جماز من طريق الدوري باختلاس كسرة الهاء والباقون بالإشباع وبه قرأ هشام من طريق الحلواني فتلخص لهشام ثلاثة الإسكان والقصر والصلة ولأبي جعفر وجهان القصر والإسكان ولقالون ويعقوب الاختلاس فقط ولأبي عمرو وأبي بكر وحمزة الإسكان فقط وللباقين الصلة فقط ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على أم لهم شركوا باثني عشر وجها مرت في النظير مما رسم بواو كأنبؤا أول الأنعام وأمال ترى الظالمين وصلا السوسي بخلفه وقرأ يبشر بفتح الياء وسكون الموحدة وضم الشين مخففة من بشر الثلاثي ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي والباقون بالتشديد للتكثير لا للتعدية ومر بآل عمران ويوقف للكل على ويمح الله بحذف الواو للرسم وما ذكره في الأصل هنا من القطع ليعقوب بالوقف بالواو فهو مما انفرد به الداني ولم يتابع عليه فلا يقرأ به وكذا ما ذكره من إثبات الواو لقنبل في أحد وجهيه لا يقرأ به ولا يعول عليه إذ هو مما انفرد به فارس عن ابن شنبوذ عن قنبل فخالف سائر الناس كما في النشر ولذا أسقط جميع ذلك من الطيبة على عادته ومثل يمح ويدع الإنسان ويدع الداع بالقمر وسندع بالعلق فالوقف في الكل للكل على الرسم كما مر في بابه

واختلف في ﴿ ما يفعلون ﴾ الآية 25 فحفص وحمزة والكسائي وخلف ورويس بخلف عنه بالتاء من فوق وافقهم الحسن والأعمش والباقون بالياء من تحت وبه قرأ رويس من غير طريق أبي الطيب وقرأ ينزل الغيث بالتخفيف ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وعن الأعمش قنطوا بكسر النون لغة وضم الهاء من فيهما يعقوب واختلف في ﴿ فيما كسبت) ﴾ الآية 30 فنافع وابن عامر وأبو جعفر بما بغير فاء على جعل ما في ما أصابكم موصولة مبتدأ وبما كسبت خبره وعلى جعلها شرطية تكون الفاء محذوفة نحو قوله تعالى وإن أطعتموهم إنكم والباقون بالفاء فما شرطية وهو الأظهر أي فهي بما كسبت أو موصولة والفاء تدخل في حيز الموصول إذا أجري مجرى الشرط وأثبت الياء في الجوار وصلا نافع وأبو عمرو وابو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب وأما لها الدوري عن الكسائي وكذا الجوار بالرحمن والتكوير وقرأ (الريح) الآية 23 بالجمع نافع وأبو جعفر واختلف في ( ) ويعلم الذين ( ) الآية 35 فنافع وابن عامر وأبو جعفر برفع الميم على القطع والاستئناف بجملة فعلية والباقون بنصبها قال أبو عبيد والزجاج على الصرف أي صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى وذلك أنه لما لم يحسن عطف ويعلم مجزوما على ما قبله إذ يكون المعنى إن يشاء يعلم عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذي قبله بإضمار أن ليكون في تأويل

مصدر والكوفيون يجعلون الواو نفسها ناصبة وجعله القاضي تبعا للزمخشري عطفا على علة مقدرة مثل لينتقم ويعلم واختلف في ﴿ كبير الإثم ﴾ الآية 37 هنا وفي النجم الآية 32 فحمزة والكسائي وخلف (كبير) بكسر الباء بلا ألف ولا همز بوزن قدير على التوحيد في الموضعين على إرادة الجنس وافقهم الأعمش والباقون بفتح الباء وألف بعدها ثم همزة مكسورة فيهما جمع كبيرة ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على وجزاء سيئة باثني عشر وجها بينت أول الأنعام وغيرها في النظير وسهل الثانية كالياء من يشاء إناثا وأبدلها واوا مكسورة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس ونظيره يشاء إنه الآتي قريبا ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على من ورأى بتسعة أوجه مبينة في النظير من تلقاىء بيونس واختلف في ( ) أو يرسل ( ) فيوحي ( ) الآية 51 فنافع وابن ذكوان بخلف عنه من طريقيه برفع اللام من يرسل وسكون الياء من فيوحي خبر أي هو يرسل أو مستأنف أو حال عطفا على متعلق من وراءة ووحيا مصدر في موضع الحال عطف عليه ذلك المتعلق والتقدير إلا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا فيوحي رفع تقديرا بالعطف عليه والباقون بنصبهما بأن مضمرة وهي ومدخولها عطف على وحيا وهو حال أي إلا موحيا أو مرسلا

وفيوحي عطف عليه وقرأ صراط بالسين قنبل بخلفه ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة المرسوم كتب فيما رواه نافع كبير الإثم بحذف الألف وكذا يسكن الريح وفي مصاحف المدينة والشام بما كسبت بلا فاء وفي غيرها بها واتفقوا على رسم من وراي بالياء بعد الألف ويمح الله بحذف الواو وعلى رسم وجزوا سيئة وأم لهم شركوا بواو بعد الزاي والكاف وألف بعدها فيها زائدة (الجوار) الآية 32 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 491.493﴾

(119/684)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الشورى "

" حم عسق " سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الخمسة من غير تنفس وظاهر أنه يلزم من السكت على نون عين إظهارها وعدم إخفائها في السين . ويلزم من السكت على نون سين إظهارها أيضا وعدم إخفائها في القاف ، ولكل من القراء العشرة المد المشبع في عين والتوسط قال صاحب (حل المشكلات) ولا يجوز الوقف على حم هنا اختيارا لأنه نص في النشر على أن حروف الفواتح يوقف على آخرها لأنها كالكلمة الواحدة إلا أنه رسم

حم مفصولا عن عسق انتهى من النشر ولم ينص على جواز الوقف على حم وحدها فمن وقف عليها من ضرورة أعاد ، انتهى .

" يوحي إليك " قرأ المكي بفتح الحاء وبعدها ألف رسمت ياء والباقون بكسر الخاء وبعدها ياء .

" تكاد " قرأ نافع والكسائي بالياء التحتية وغيرهما بالتاء الفوقية .

" يتفطرن " قرأ شعبة والبصريان بنون ساكنة بعد الياء وكسر الطاء المهملة مخففة والباقون بتاء فوقية مفتوحة في مكان النون مع تشديد الطاء وفتحها .

" وهو " " ويستغفرون "عليهم معا . قرآنا . لتنذر . وتنذر . فيه . وهو معا . وإليه . فاطر . يذرؤكم . ويقدر . لايخفى .

" عليم " آخر الربع .

الممال

أنثى وللحسنى والموتى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . القرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ونآى بإمالة الهمزة والنون للكسائي وخلف عن حمزة وخلف في اختياره وبإمالة الهمزة وحدها لخلاد وبتقليل الهمزة وحدها لورش بخلف عنه وقد عرفت أن له أربعة أوجه: قصر البدل مع فتح ذات الباء والتوسط مع التقليل والمد معهما والباقون بفتحهما ومنهم السوسي فذكر الشاطبي الخلاف له في إمالة

الهمزة خروج عن طريقه فلا يقرأ به . حم بإمالة حا لابن ذكوان وشعبة والأخوين وخلف وبتقليلها لورش والبصري شاء لابن ذكوان وخلف وحمزة .

المدغم

" الكبير " من بعد ضراء يتبين لهم ، إن الله هو ، فالله هو ، جعل لكم ، البصير له .

(120/684)

" إبراهيم " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها وغيره بكسرها وياء بعدها .

" ولا تتفرقوا " وما تفرقوا ، أجمعوا على قراءة الأول بتاءين مفتوحتين مخففتين وعلى قراءة الثاني بتاء واحدة مخففة .

" إليه " منه ، وعليهم ، وهو ، الكافرون ، جلي .

" نؤته " قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة وأبو جعفر بإسكان الهاء ، وقالون ويعقوب بكسر الهاء من غير صلة وهشام بكسرها مع الصلة وتركها والباقون بالكسر مع الصلة .

" شركاؤا " رسمت الهمزة بواو فلحمزة وهشام عند الوقف عليه اثنا عشر وجها تقدمت في جزاؤا بالمائدة وأنباؤا بالأنعام .

" يبشر " قرأ ابن كثير وأبو عمرو والأخوان بفتح الباء وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء

وفتح الباء وكسر الشين مشددة .

" فإن يشاء الله " لو وقف على يشأ فلا يبدل همزه السوسي بل يبدله أبو جعفر وحمزة .

" ويمحو " : وقف الجميع عليه بحذف الواو تبعا للرسم .

" تفعلون " قرأ حفص والأخوان وخلف بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة .

" شديد " آخر الربع .

الممال

وصى ومسمى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . موسى وعيسى والدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . وترى لدى الوقف عليه والقرى وافترى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش فإن وصل ترى بالظالمين فبالإمالة للسوسي بخلف عنه ، جاءهم لحمزة وخلف وابن ذكوان .

المدغم

" الكبير " الكتاب بالحق ، الفصل لقضي ، وهو واقع ، ويعلم ما .

" ينزل بقدر " خفف ينزل المكي والبصريان وشدده غيرهم .

" يشاء إنه " يشاء إناثا خبير بصير ، فيهما ، إن يشأ ، فيظللن ، خير ، يغفرون ، الصلاة ، ينتصرون ، وأصلح ، عليهم ، خسروا وأهليهم ، أيديهم ، كله جلي .

" ينزل الغيث " خفف ينزل المكي والبصريان والأخوان وخلف وشدده غيرهم:

" فيما " قرأ المدنيان والشامي بغير فاء قبل الباء والباقون بالفاء .

" الجوار " أثبت الياء وصلا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب وحذفها الباقون مطلقا .

(121/684)

" الريح " قرأ المدنيان بالجمع وغيرهما بالإفراد .

" ويعلم " قرأ المدنيان والشامي برفع الميم والباقون بنصبها .

" كبائر الإثم " قرأ الأخوان وخلف بكسر الباء الموحدة وبعدها ياء ساكنة من غير همز بعدها على التوحيد والباقون بفتح الباء وبعدها ألف وبعد الألف همزة مسكورة على الجمع ولا يخفى ترقيق رائه لورش .

" وجزاؤا " مثل أم لهم شركاؤا لهشام وحمزة وقفا .

" قدير " آخر الربع .

الممال

الجوار لدوري الكسائي ولا تقليل فيه لورش و صبار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش . الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . شورى وترى

الظالمين لدى الوقف على ترى وتراهم بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش وعند وصل ترى الظالمين فبالإمالة للسوسي عنه . وأبقى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . ولا إمالة في عفا لأنه واوي .

المدغم

" الكبير " وينشر رحمته ، يأتي يوم ، ولا إدغام في بعد ظلمه لأن الدال مفتوحة بعد ساكن .

" من ورائ " رسمت الهمزة على ياء ففيه لحمزة وهشام وقفا تسعة أوجه: الإبدال ألفا مع القصر والتوسط والمد ثم التسهيل بالروم مع المد والقصر ثم الإبدال ياء ساكنة مع القصر والتوسط والمد ثم روم حركتها مع القصر .

" أو يرسل " فيوحي ، قرأ نافع برفع اللام من يرسل وبإسكان الياء بعد الحاء من فيوحي والباقون بنصب اللام والياء .

" يشاء إنه " جعلناه ، صراط معا ، تصير ، كله لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 291 . 294 ﴾

(122/684)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة حم عسق الشورى

قوله تعالى ﴿ عسق ﴾ أجمع القراء على إدغام النون في القاف وبينهما متباعد في المخرج وأظهر حمزة النون عند الميم في ﴿ طسم ﴾ فالحجة في الإظهار أن الميم قد أفردت من السين في أول سورة النمل وألحقت بها في اول الشعراء والقصص فبين فيهما ليعلم أن الميم زائدة على هجاء السين ولم تنفرد السين من القاف فيحتاج في ذلك إلى فصل فبنى فيه الكلام على الأصل والنون تدغم عند الميم وتخفى عند القاف والمخفي بمنزلة المظهر فلما ثقل عليه التشديد وكرهه في طسم أظهر ولما كان المخفي بمنزلة المظهر لم يحتج إلى إظهار ثان

قوله تعالى ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله ﴾ يقرأ بكسر الحاء وفتحها فالحجة لمن كسر أنه جعله فعلا لله عز وجل فرفع لفظ الاسم بفعله والحجة لمن فتحها أنه جعل الفعل مبنيا لما لم يسم فاعله ورفع اسم الله تعالى بدلا من الضمير الذي في الفعل أو بإعادة فعل مضمر أو بإضمار اسم مبتدأ يكون اسم الله تعالى خبرا له

قوله تعالى ﴿ يتفطرن من فوقهن ﴾ يقرأ بالياء والتاء فيه وفي تكاد والنون مع التاء والياء والتخفيف وبالتاء في مكان النون بعد التاء والياء والتشديد وتقدم شرح جميع علل ذلك في

سورة مريم بما يغني عن إعادة قول فيه

قوله تعالى ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ يقرأ بالتاء والياء على ما قدمناه في أمثاله

قوله تعالى ﴿ ومن آياته الجوار ﴾ اتفقت المصاحف على حذفها خطا واختلف القراء في اللفظ بها

فمنهم من أثبتها وصلا ووقفا واحتج أنه إنما كان حذفها لمقارنة التنوين فلما زال التنوين بدخول الألف واللام عادت إلى أصلها

ومنهم من حذفها وقفا وأثبتها وصلا ليكون متبعا للخط وقفا وللأصل وصلا

(123/684)

ومنهم من حذفها وقفا ووصلا واحتج بأن النكرة الأصل والمعرفة فرع عليها فلما حذفت الياء في النكرة لمقارنة التنوين ثم لما دخلت الألف واللام دخلتا على شيء قد حذف أصلا فلم يعيداه لأن الأصل أقوى من الفرع

قوله تعالى ﴿ ويعلم الذين يجادلون ﴾ يقرأ بالنصب والرفع فالحجة لمن نصب أنه صرفه عن المجزوم والنصب بالواو عند الكوفيين وبإضمار أن عند البصريين ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ بالنصب والحجة لمن رفع أنه

استأنف بالواو لتمام الشرط والجزاء بابتدائه وجوابه

قوله تعالى ﴿ كبائر الإثم ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أنه أراد به الشرك بالله فقط لأن الله تعالى أوجب على نفسه غفران ما سواه من الذنوب ولذلك سماه ظلما عظيما والحجة لمن جمع أنه أراد بذلك الشرك والقتل والزنا والقذف وشرب الخمر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين فذلك سبع

وقال ابن عباس هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وقيل هي من أول النساء إلى قوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ وإذا ثبت أن أكبر المعاصي الشرك بالله فأكبر الطاعات الإيمان بالله وهو الإقرار باللسان والتصديق بالقلب وقيل أكبر من الشرك ما أدعاه فرعون لنفسه من الربوبية وقيل إذا اجتمعت صغائر الذنوب صارت كبيرة

قوله تعالى ﴿ أو يرسل رسولا فيوحي ﴾ يقرآن بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه استأنف ب أو فخرج من النصب إلى الرفع والحجة لمن نصب أنه عطفه على معنى قوله ﴿ إلا وحيا ﴾ لأنه بمعنى أن يوحي إليه أو يرسل رسولا فيوحى فيعطف بعضا على بعض بـأو وبالفاء ومعنى قوله ﴿ إلا وحيا ﴾ يريد إلهاما أو من وراء حجاب كما كلم موسى أو يرسل رسولا يريد به جبريل صلى الله عليه وسلم وعلى جميع النبيين والملائكة والمقربين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 318 .

﴿ 320 ﴾

وقال ابن زنجلة :

42 - سورة حم عسق الشورى

كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم 3

قرأ ابن كثير كذلك يوحى إليك بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون يوحي بكسر الحاء

من قال يوحى بالفتح بني الفعل للمفعول به احتمل أمرين جاء في التفسير أن حم عسق قد أوحيت لى كل نبي قبل محمد صلى الله عليه و سلم فعلى هذا يجوز أن يكون يوحى إليك السورة كما أوحي إلى الذين من قبلك ويجوز أن يكون الجار والمجرور يقومان مقام الفاعل وقوله الله العزيز الحكيم مبين للفاعل كقوله يسبح له فيها ثم قال رجال كأنه قيل من يسبح له فقيل يسبح له رجال

فأما من قرأ يوحي بكسر الحاء فإن اسم الله يرتفع بفعله وهو يوحي وما بعده يرتفع بالوصف وحجتهم في بناء الفعل للفاعل

قوله إنا أوحينا إليك

تكاد السموات يتفطرن من فوقهن 5

قرأ نافع والكسائي يكاد السموات بالياء لأن السماوات جمع قليل والعرب تذكر فعل المؤنث إذا كان قليلا كقوله فإذا انسلخ الأشهر الحرم ولم يقل انسلخت وقال نسوة ولم يقل وقالت قال ثعلب لأن الجمع القليل قبل الكثير والمذكر قبل المؤنث فجعل الأول على الأول

وقرأ الباقون تكاد بالتأنيث لتأنيث السموات والفعل متصل بالاسم

قرأ أبو عمرو وأبو بكر ينفطرن بالنون أي ينشققن وحجتهما قوله السماء منفطر به ولم يقل متفطر وقرأ الباقون يتفطرن بالتاء أي يتشققن والأمر في التاء والنون يرجع إلى معنى واحد إلا أن التاء للتكثير وذلك أن ينفطرن من فطرت فانفطرت مثل كسرت فانكسرت و يتفطرن من قولك فطرت فتفطرت مثل كسرت فتكسرت فهذا لا يكون إلا للتكثير

ذلك الذي يبشر الله عباده الذين ءامنوا وعملوا الصلحت 23

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ذلك الذي يبشر

(125/684)

الله بالتخفيف أي يبشر الله وجوههم أي ينور الله وجوههم وحجة أبي عمرو في تفريقه بين التي في عسق وبين غيرها ذكرها اليزيدي فقال لما لم يكن بعدها بكذا وكذا كانت بمعنى

ينضر الله وجوههم فترى النضرة فيها

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم يبشر الله بالتشديد قالوا إذا كان من البشرى فليس إلا يبشر بالتشديد

وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون 25

قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعلم ما تفعلون بالتاء وقرأ الباقون بالياء وحجتهم أنه أخبر عن عباده المذكورين في سياق الكلام فكأنه قال وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعل عباده

وحجة الباقين أن الخطاب يدخل فيه الغائب والحاضر

وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد 28

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وهو الذي ينزل الغيث بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان مثل نبأته وأنبأته وعظمته وأعظمته وإنما خص حمزة والكسائي الحرفين ها هنا وفي لقمان

لأن ينزل فيهما من إنزال الغيث وقد قال الله تعالى وأنزلنا من السماء ماء

وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم 30

قرأ نافع وابن عامر وما أصابكم من مصيبة بما كسبت بغير فاء وقرأ الباقون فبما كسبت أيديكم بالفاء وهو في العربية أجود لأن الفاء مجازاة جواب الشرط المعنى ما يصيبكم من

مصيبة فبما كسبت أيديكم ومثله قوله ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك فأما من قرأ بما كسبت أيديكم على أن ما في معنى الذي والمعنى والذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم

ومن ءايته الجوار في البحر كالأعلم 32

قرأ ابن كثير ومن آياته الجواري بالياء في الوصل والوقف على الأصل واحدها جارية فلام الفعل ياء

وقرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء في الوصل وحذفها في الوقف وإنما قرأ كذلك ليكونا متبعين للكتاب وللأصل

(126/684)

وقرأ أهل الشام الكوفة بحذف الياء في الوصل والوقف لأن مرسوم المصاحف بغير ياء فاتبعوا المصاحف

ويعلم الذين يجدلون في ءايتنا ما لهم من محيص 35

قرأ نافع وابن عامر ويعلم الذين يجادلون في آياتنا بالرفع على الاستئناف لأن الشرط والجزاء قد تم فجاز الابتداء بما بعده

وقرأ الباقون ويعلم الذين بالنصب على إضمار أن لأن قبلها جزاء تقول ما تصنع أصنع مثله وأكرمك على إضمار أن أكرمك وإن شئت قلت أكرمك على تقدير أنا أكرمك على الاستئناف وإن شئت قلت وأكرمك

والذين يجتنبون كبئر الإثم والفواحش 37

قرأ حمزة والكسائي كبير الإثم على الواحد وفي النجم مثله وحجتهما ما روي عن ابن عباس أنه قال عنى بذلك الشرك بالله ويجوز أن تقول بالتوحيد لأن التوحيد يؤدي عن معنى الجمع فيكون المعنى كبير كل إثم

وقرأ الباقون كبائر الإثم على الجمع وحجتهم ما في الآية وهو قوله والفواحش قالوا ولو كان كبير الإثم لكان والفحش ويقوي الجمع أيضا إجماع الجميع على قوله إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه

وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء 51

قرأ نافع أو يرسل بالرفع فيوحي ساكنة الياء وقرأ الباقون أو يرسل بفتح اللام فيوحي بالفتح قال سيبويه سألت الخليل عن قوله أو يرسل رسولا بالنصب فقال يرسل محمول على أن سوى هذه التي في قوله أن يكلمه الله قال لأن ذلك غير وجه الكلام لأنه يصير المعنى ما كان لبشر أن يرسل الله رسولا وذلك غير جائز وإنما يرسل محمول على معنى وحي المعنى ما

كان لبشر أن يكلمه الله إلا بأن يوحي أو يرسل ويجوز الرفع في يرسل على معنى الحال ويكون المعنى ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا موحيا أو مرسلا ويجوز أن يرفع أو يرسل على هو يرسل وهذا قول الخليل وسيبويه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 639 . 644 ﴾

(127/684)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الشورى

مكية ونظيرتها في غير الكوفي والمرسلات ولا نظير لها فيه

وكلمها ثماني مئة وست وستون كلمة

وحروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وثمانية وثمانون حرفا

وهي خمسون وثلاث آيات في الكوفي وخمسون في عدد الباقين

اختلافها ثلاث آيات (﴿ حم ﴾) و (﴿ عسق ﴾ وكالأعلام) عدهن الكوفي ولم يعدهن الباقون وكلهم عد (﴿ ويعف عن كثير ﴾) في الموضعين من هذه السورة وقد

جاء عن أيوب بن المتوكل أنه لم يعد الأول ولا يصح ذلك عنه

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع خمسة مواضع (﴿ أن أقيموا الدين ﴾ كبر على المشركين) (﴿ من طرف خفي ﴾ عليهم حفيظا) (﴿ من يشاء عقيما ﴾)

ورؤوس الآي

الحكيم

3 العظيم

4 الرحيم

5 بوكيل

6 السعير

7 نصير

8 قدير

9 أنيب

10 البصير

11 عليم

12 ينيب

13 مريب

14 المصير

15 شديد

16 قريب

17 بعيد

18 العزيز

19 نصيب

20 أليم

21 الكبير

22 شكور

23 الصدور

24 يفعلون

25 شديد

26 بصير

27 الحميد

28 قدير

29 كثير

30 نصير

31 شكور

33

كثير

34 محيص

35 يتوكلون

36 يغفرون

37 ينفقون

38 ينتصرون

39 الظالمين

40 سبيل

41 أليم

42 الأمور

43 سبيل

44 مقيم

45 سبيل

46 نكير

47 كفور

48 الذكور

49 قدير

50 حكيم

51 مستقيم

52 الأمور

53 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 221 . 223﴾

(128/684)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (كذلك يوحى) يقرأ بياء مضمومة على ما سمى فاعله والفاعل (الله) وما بعده

نعت له ، والكاف في موضع نصب بيوحى ، ويقرأ على ترك التسمية .

وفيه

وجهان: أحدهما أن كذلك مبتدأ ، ويوحى الخبر ، والله فاعل لفعل محذوف كأنه قيل: من يوحى فقال الله ، وما بعده نعت له ، ويجوز أن يكون (العزيز) مبتدأ ، و (الحكيم) نعت له أو خبر ، و (له مافى السموات) خبر أو خبر ثان .

والثانى أن يكون كذلك نعتا لمصدر محذوف ، وإليك القائم مقام الفاعل: أي وحيا مثل ذلك .

قوله تعالى (فريق) هو خبر مبتدإ محذوف: أي بعضهم فريق في الجنة وبعضهم فريق في السعير ، ويجوز أن يكون التقدير: منهم فريق .

قوله تعالى (والظالمون) هو مبتدأ وما بعده الخبر ، ولم يحسن النصب لأنه ليس في الجملة بعده فعل يفسر الناصب .

قوله تعالى (ذلكم) يجوز أن يكون مبتدأ ، و (الله) عطف بيان أو بدل ، و (ربى) الخبر ، وأن يكون الله الخبر ، وربى خبر ثان أو بدل ، أو يكون صفة الله تعالى ، و (عليه توكلت) الخبر .

قوله تعالى (فاطر السموات) أي هو فاطر ، ويجوز أن يكون خبرا آخرا ، ويقرأ بالجر بدلا من الهاء في عليه ، والهاء في (فيه) ضميرا لجعل ، والفعل قد دل عليه .

ويجوز أن يكون ضمير المخلوق الذى دل عليه يذرؤكم: والكاف في (كمثله) زائدة: أي

ليس مثله شئ ، فمثله خبر ليس ، ولو لم تكن زائدة لأفضى إلى الحال إذ كان يكون المعنى أن له مثلا ، وليس لمثله مثل ، وفي ذلك تناقض لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل ، وهو هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال ، وقيل مثل زائدة ، والتقدير : ليس كهو شئ كما في قوله تعالى " فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به " وقد ذكر وهذا قول بعيد .

قوله تعالى (أن أقيموا) يجوز أن يكون بدلا من الهاء في به ، أو من " ما " أو من الدين كل صالح ، ويجوز أن تكون إن بمعنى أي ، فلا يكون له موضع .

(129/684)

قوله تعالى (لعل الساعة قريب) يجوز أن يكون ذكر على معنى الزمان ، أو على معنى البعث أو على النسب : أي ذات قرب (وهو واقع) أي جزاء كسبهم ، وقيل هو ضمير الإشفاق .

قوله تعالى (يبشر الله) العائد على الذى محذوف : أي يبشر به (إلا المودة) استثناء منقطع ، وقيل هو متصل ، أي لا أسألكم شيئا إلا المودة في القربى فإنى أسألكموها .

قوله تعالى (يختم) هو جواب الشرط (ويمح) مرفوع مستأنف ، وليس من الجواب لأنه يمحو الباطل من غير شرط ، وسقطت الواو من اللفظ لالتقاء الساكنين ، ومن المصحف حملا على اللفظ .

قوله تعالى (ويستجيب) هو بمعنى يجيب ، و (الذين آمنوا) مفعول به ، وقيل يستجيب دعاء الذين آمنوا ، وقيل الذين في موضع رفع: أي ينقادون له .

قوله تعالى (إذا يشاء) العامل في إذا جمعهم لاقدير ، لأن ذلك يؤدى إلى أن يصير المعنى وهو على جمعهم قدير إذا يشاء ، فتعلق القدرة بالمشيئة وهو محال وعلى يتعلق بقدير .

قوله تعالى (وما أصابكم) " ما " شرطية في موضع رفع بالابتداء (فيما كسبت) جوابه . والمراد بالفعلين الاستقبال ، ومن حذف الفاء من القراء حمله على قوله ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون " وعلى ما جاء من قول الشاعر: * من يفعل الحسنات الله يشكرها * ويجوز أن تجعل " ما " على هذا المذهب بمعنى الذى ، وفيه ضعف .

قوله تعالى (الجوار) مبتدأ أو فاعل ارتفع بالجار و (في البحر) حال منه ، والعامل فيه الاستقرار ، ويجوز أن يتعلق في بالجوار ، و (كالأعلام) على الوجه الأول حال ثانية ، وعلى الثاني هي حال من الضمير في الجوار ، و (يسكن) جواب الشرط (فيظللن) معطوف على الجواب ، وكذلك (أو يوبقهن – ويعف) .

وأما قوله تعالى (ويعلم الذين) فيقرأ بالنصب على تقدير: وإن يعلم لأنه صرفه عن الجواب وعطفه على المعنى ، ويقرأ بالكسر على أن يكون مجزوما حرك لالتقاء الساكنين ، ويقرأ

بالرفع على الاستئناف .

قوله تعالى (مالهم من محيص) الجملة المنفية تسد مسد مفعولي عملت .

(130/684)

قوله تعالى (فمتاع الحياة) أي فهو متاع .

قوله تعالى (والذين يجتنبون) معطوف على قوله تعالى " للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون "

ويجوز أن يكون في موضع نصب بإضمار أعنى ، أو رفع على تقديرهم .

و(كبائر) بالجمع واحدتها كبيرة ، ومن أفرد ذهب به إلى الجنس ، و (هم) مبتدأ ، و

(يغفرون) الخبر ، والجملة جواب إذا ، وقيل هم مرفوع بفعل محذوف تقديره: غفروا

فحذف الفعل لدلالة يغفرون عليه .

قوله تعالى (ولمن صبر) " من " شرطية ، وصبر في موضع جزم بها ، والجواب (إن ذلك)

وقد حذف الفاء ، وقيل " من " بمعنى الذى ، والعائد محذوف: أي إن ذلك منه .

قوله تعالى (ينصرونهم) يجوز أن يكون في موضع جر حملا على لفظ الموصوف ورفعا على

موضعه .

قوله تعالى (فإن الإنسان كفور) أي إن الإنسان منهم .

قوله تعالى (ذكرانا وإناثا) هما حال ، والمعنى يقرين الصنفين .

قوله تعالى (أن يكلمه الله) " أن " والفعل في موضع رفع بالابتداء ، وما قبله الخبر أو فاعل بالجار لاعتماده على حرف النفى ، و (إلا وحيا) استثناء منقطع ،

لأن الوحى ليس بتكليم (أو من وراء حجاب) الجار متعلق بمحذوف تقديره: أو أن يكلمه ، وهذا المحذوف معطوف على وحى تقديره: إلا أن يوحى إليه أو يكلمه ، ولايجوز أن يتعلق من بيكلمه الموجودة في اللفظ ، لأن ما قبل الاستثناء المنقطع لا يعمل فيما بعد إلا ، وأما (أو يرسل) فمن نصب فمعطوف على موضع وحيا : أي يبعث إليه ملكا ، وقيل في موضع جر: أي بأن يرسل .

وقيل في موضع نصب على الحال ، ولايجوز أن يكون معطوفا على أن يكلمه لأنه يصير معناه: ما كان لبشر أن يكلمه الله ، ولا أن يرسل إليه رسولا .

وهذا فاسد ولأن عطفه على أن يكلم الموجودة يدخله في صلة أن وإلا وحيا يفصل بين بعض الصلة وبعض لكونه منقطعا ، ومن رفع يرسل استأنف ، وقيل " من " متعلقة بيكلمه لأنه ظرف ، والظرف يتسع فيه .

قوله تعالى (ما كنت تدرى) الجملة حال من الكاف في إليك .

قوله تعالى (صراط الله) هو بدل من صراط مستقيم بدل المعرفة من النكرة.

والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 223. 226 ﴾

(132/684)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الشورى

[سورة الشورى (42): الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) عسق (2) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

"حم عسق" هذه حروف لا إعراب لها "كَذَلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف أي مثل ذلك الإيحاء أوحينا "يُوحِي" مضارع "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "وَإِلَى الَّذِينَ" معطوف على إليك "مِنْ قَبْلِكَ" جار ومجرور صلة والجملة الفعلية مستأنفة "اللَّهُ" فاعل مؤخر "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" بدلان من لفظ الجلالة "لَهُ" جار ومجرور خبر مقدم "ما" مبتدأ مؤخر "فِي السَّماواتِ" جار ومجرور صلة والجملة مستأنفة "وَما فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما قبله "وَهُوَ" حرف استئناف ومبتدأ "الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ" خبران للمبتدأ والجملة مستأنفة "تَكادُ السَّماواتُ" مضارع ناقص واسمه "يَتَفَطَّرْنَ" مضارع وفاعله والجملة خبر تكاد وجملة تكاد مستأنفة "مِنْ فَوْقِهِنَّ" متعلقان بالفعل "وَالْمَلائِكَةُ" حرف استئناف ومبتدأ "يُسَبِّحُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "بِحَمْدِ" متعلقان بالفعل "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "وَيَسْتَغْفِرُونَ" الواو حرف عطف ومضارع مرفوع والواو فاعله "لِمَنْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي الْأَرْضِ" جار ومجرور صلة من "أَلا" أداة تنبيه "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" خبران وجملة إن مستأنفة "وَالَّذِينَ" حرف استئناف ومبتدأ "اتَّخَذُوا"

ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بالفعل "أَوْلِياءَ" مفعول به "اللَّهُ حَفِيظٌ" لفظ الجلالة مبتدأ وخبره "عَلَيْهِمْ" متعلقان بحفيظ والجملة الاسمية خبر "وَما" الواو حالية وما عاملة عمل ليس "أَنْتَ" اسمها "عَلَيْهِمْ" متعلقان بوكيل "بِوَكِيلٍ" الباء حرف جر زائد واسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة حال.

[سورة الشورى (42) : الآيات 7 الى 10]

(134/684)

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)

(135/684)

"وَكَذٰلِكَ" الواو حرف استئناف والكاف بمعنى مثل صفة مفعول مطلق محذوف واسم الإشارة في محل جر مضاف إليه أو الكاف حرف جر والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "أَوْحَيْنا" ماض وفاعله "إِلَيْكَ" الجمع "الْجَمْعِ" مضاف إليه "لا" نافية للجنس "رَيْبَ" اسمها المبني على الفتح "فِيهِ" متعلقان بخبرها المحذوف والجملة حال "فَرِيقٌ" مبتدأ "فِي الْجَنَّةِ" جار ومجرور خبر والجملة مستأنفة "وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ" معطوف على فريق في الجنة "وَلَوْ" الواو حرف استئناف ولو شرطية غير جازمة "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة ابتدائية "لَجَعَلَهُمْ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض ومفعوله الأول "أُمَّةً" مفعوله الثاني "واحِدَةً" صفة والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "وَلٰكِنْ" الواو حالية ولكن حرف استدراك "يُدْخِلُ مَنْ" مضارع فاعله مستتر ومن مفعول به والجملة حال "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "فِي رَحْمَتِهِ" متعلقان بالفعل "وَالظَّالِمُونَ" الواو حرف استئناف والظالمون مبتدأ "ما" نافية "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "مِنْ وَلِيٍّ" من حرف جر زائد وولي مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر المبتدأ وجملة الظالمون مستأنفة "وَلا نَصِيرٍ" معطوف على ما قبله "أَمِ" حرف عطف "اتَّخَذُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال "أَوْلِياءَ" مفعول به "فَاللَّهُ" الفاء حرف عطف ولفظ الجلالة مبتدأ "هُوَ" ضمير فصل "الْوَلِيُّ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهُوَ" الواو حرف عطف ومبتدأ "يُحْيِ الْمَوْتى

" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ "وَهُوَ" الواو حرف عطف ومبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَمَا" الواو حرف استئناف

(136/684)

و ما اسم شرط جازم مبتدأ "اخْتَلَفْتُمْ" ماض وفاعله "فِيهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ شَيْءٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَحُكْمُهُ" الفاء واقعة في جواب الشرط ومبتدأ "إِلَى اللَّهِ" جار ومجرور خبر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر ما وجملة ما اختلفتم مستأنفة "ذلِكُمُ" مبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة بدل "رَبِّي" خبر "عَلَيْهِ" متعلقان بتوكلت "تَوَكَّلْتُ" ماض وفاعله "وَإِلَيْهِ" حرف عطف والجار والمجرور متعلقان بأنيب "أُنِيبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الشورى (42) : الآيات 11 الى 13]

فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي

أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)

"فاطِرُ" مبتدأ "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ أَنْفُسِكُمْ" حال "أَزْواجاً" مفعول به لجعل "وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً" معطوف على ما قبله "يَذْرَؤُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حال من فاعل جعل

المستتر "فِيهِ" متعلقان بالفعل "لَيْسَ" ماض ناقص "كَمِثْلِهِ""

(137/684)

الكاف حرف جر زائد ومثله مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس "شَيْءٌ" اسمها وجملة يذرؤكم خبر ثان لفاطر "وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" خبران والجملة الاسمية حالية "لَهُ" خبر مقدم "مَقالِيدُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" عطف على السموات والجملة خبر آخر لفاطر "يَبْسُطُ" مضارع فاعله مستتر "الرِّزْقَ" مفعوله "لِمَنْ" متعلقان بالفعل والجملة خبر آخر لفاطر "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَقْدِرُ" معطوف على يشاء "إِنَّهُ" إن واسمها "بِكُلِّ" متعلقان بعليم "شَيْءٍ" مضاف

إليه "عَلِيمٌ" خبر والجملة الاسمية تعليل "شَرَعَ" ماض والفاعل مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنَ الدِّينِ" متعلقان بالفعل أيضا والجملة مستأنفة "ما" مفعول به "وَصَّى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بالفعل "نُوحاً" مفعول به "وَالَّذِي" الواو حرف عطف واسم الموصول معطوف على ما "أَوْحَيْنا" ماض وفاعله "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى" معطوف على ما قبله "أَنْ" تفسيرية "أَقِيمُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "الدِّينِ" مفعوله والجملة تفسيرية لا محل لها "وَلا" الواو حرف عطف ولا ناهية "تَتَفَرَّقُوا" مضارع مجزوم والواو فاعله والجملة معطوفة "فِيهِ" متعلقان بالفعل "كَبُرَ" ماض "عَلَى الْمُشْرِكِينَ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل والجملة مستأنفة "تَدْعُوهُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صلة "إِلَيْهِ" الجار والمجرور متعلقان بالفعل "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَجْتَبِي" مضارع والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل "مِنَ" مفعول به "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَهْدِي" معطوف على يجتبي "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل "مِنَ"

مفعول به "يُنِيبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة.

[سورة الشورى (42) : الآيات 14 الى 15]

وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14)

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "تَفَرَّقُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِلَّا" حرف حصر "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل "ما" مصدرية "جاءَهُمُ" ماض ومفعوله "الْعِلْمُ" فاعله وما وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة "بَغْياً" مفعول لأجله "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان "وَلَوْ لا" الواو حرف استئناف ولولا حرف شرط غير جازم "كَلِمَةٌ" مبتدأ خبره محذوف وجوبا "سَبَقَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة صفة كلمة "مِنْ"

---

(1) إذا أردت التوسع راجع ما كتبه محمد عبد اللّه دراز في كتابه النبأ العظيم ص 132 عن إعراب الكاف في هذه الآية.

"رَبِّكَ" متعلقان بالفعل "إِلى أَجَلٍ" متعلقان بمحذوف حال "مُسَمًّى" صفة والجملة الاسمية ابتدائية "لَقُضِيَ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بالفعل والجملة جواب شرط غير جازم "وَإِنَّ" الواو حالية وحرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسمها "أُورِثُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة "الْكِتابَ" مفعول به ثان "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "لَفِي" اللام المزحلقة "في شَكٍّ" متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة الاسمية حال "مِنْهُ" متعلقان بشك "مُرِيبٍ" صفة شك "فَلِذلِكَ" الفاء حرف استئناف وجار ومجرور متعلقان بادع "فَادْعُ" الفاء زائدة وأمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "وَاسْتَقِمْ" معطوف على ادع "كَما" الكاف حرف تشبيه وجر وما مصدرية "أُمِرْتَ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل وما وما بعدها في تأويل مصدر مجرور بالكاف "وَلا" الواو حرف عطف ولا ناهية جازمة "تَتَّبِعْ" مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَهْواءَهُمْ" مفعول به "وَقُلْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "آمَنْتُ" ماض وفاعله "بِما" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "أَنْزَلَ" ماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "مِنْ كِتابٍ" متعلقان بمحذوف حال والجملة صلة "وَأُمِرْتُ" الواو حالية وماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة حال "لِأَعْدِلَ"

مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل "بَيْنَكُمُ" ظرف مكان متعلق بالفعل "اللَّهُ رَبُّنا" لفظ الجلالة مبتدأ وخبره "وَرَبُّكُمْ" معطوف على ما قبله والجملة الاسمية مستأنفة "لَنا" جار ومجرور خبر مقدم "أَعْمالُنا" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "وَلَكُمْ

(140/684)

أَعْمالُكُمْ" معطوف على ما قبله "لا حُجَّةَ" لا نافية للجنس واسمها مبني على الفتح "بَيْنَنا" ظرف مكان متعلق بخبر محذوف "وَبَيْنَكُمُ" معطوف على بيننا والجملة الاسمية مستأنفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَجْمَعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "بَيْنَنا" ظرف متعلق بالفعل "وَإِلَيْهِ" الواو حالية وجار ومجرور متعلقان بخبر مقدم محذوف "الْمَصِيرُ" مبتدأ مؤخر والجملة حال.

[سورة الشورى (42) : الآيات 16 الى 19]

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (16) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ

أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)

"وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف واسم الموصول مبتدأ "يُحَاجُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "فِي اللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بمحذوف حال "ما" مصدرية "اسْتُجِيبَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "لَهُ" متعلقان بالفعل وما وما بعدها في تأويل مصدر مضاف إلى الظرف "حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية خبر الذين وجملة الذين مستأنفة "عِنْدَ" ظرف مكان

(141/684)

متعلق بداحضة "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "وَعَلَيْهِمْ" حرف عطف وجار ومجرور خبر مقدم "غَضَبٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلَهُمْ" الواو حرف عطف وجار ومجرور خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "شَدِيدٌ" صفة عذاب والجملة معطوفة على ما قبلها "اللَّهُ الَّذِي" لفظ الجلالة مبتدأ واسم الموصول خبره والجملة مستأنفة "أَنْزَلَ الْكِتابَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل "وَالْمِيزانَ" معطوف على الكتاب "وَما" الواو حرف استئناف وما استفهامية مبتدأ "يُدْرِيكَ" مضارع ومفعوله

والفاعل مستتر والجملة خبر ما "لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ" لعل واسمها وخبرها والجملة سدت مسد المفعول الثاني ليدريك "يَسْتَعْجِلُ" مضارع مرفوع "بِهَا" متعلقان بالفعل "الَّذِينَ" فاعل والجملة مستأنفة "لا" نافية "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "بِهَا" متعلقان بالفعل "وَالَّذِينَ" الواو حالية والذين مبتدأ "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مُشْفِقُونَ" خبر مرفوع بالواو والجملة الاسمية حال "مِنْهَا" متعلقان بمشفقون "وَيَعْلَمُونَ" الواو حرف عطف ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنَّهَا الْحَقُّ" أن واسمها وخبرها وأن وما بعدها سد مسد مفعولي يعلمون "أَلا" حرف تنبيه "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يُمارُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "فِي السَّاعَةِ" متعلقان بالفعل "لَفِي" اللام المزحلقة "في ضَلالٍ" جار ومجرور خبر إن "بَعِيدٍ" صفة ضلال والجملة الاسمية مستأنفة "اللَّهُ لَطِيفٌ" لفظ الجلالة مبتدأ وخبره "بِعِبادِهِ" متعلقان بلطيف "يَرْزُقُ" مضارع فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به "يَشاءُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صلة "وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ" الواو حالية ومبتدأ وخبران والجملة حال.

[سورة الشورى (42) : الآيات 20 الى 22]

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (21) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22)

"مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "كانَ" ماض ناقص اسمها مستتر "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كان "حَرْثَ" مفعول به "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "نَزِدْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط وفاعله مستتر "لَهُ" متعلقان بالفعل "فِي حَرْثِهِ" متعلقان بالفعل أيضا وجملتا الشرط وجوابه خبر المبتدأ "وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها" الكلام عطف على ما سبق وإعرابه مثله "وَما" الواو حالية وما نافية "لَهُ" جار ومجرور خبر مقدم "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان بمحذوف حال "مَنْ" حرف جر زائد "نَصِيبٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ والجملة الاسمية في محل نصب حال "أَمْ" حرف عطف بمعنى بل "لَهُمْ"

(143/684)

جار ومجرور خبر مقدم "شُرَكاءُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة "شَرَعُوا" ماض وفاعله والجملة صفة شركاء "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "مِنَ الدِّينِ" متعلقان بالفعل أيضا "ما" موصولية مفعول به "لَمْ يَأْذَنْ" مضارع مجزوم بلم والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بيأذن "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "وَلَوْلا" الواو حرف استئناف ولولا حرف شرط غير جازم "كَلِمَةُ" مبتدأ خبره محذوف والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها "الْفَصْلِ" مضاف إليه "لَقُضِيَ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بَيْنَهُمْ" ظرف متعلق بالفعل والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "وَإِنَّ الظَّالِمِينَ" الواو حرف استئناف وإن واسمها "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن استئنافية لا محل "أَلِيمٌ" صفة عذاب "تَرَى" مضارع فاعله مستتر "الظَّالِمِينَ" مفعوله "مُشْفِقِينَ" حال منصوبة بالياء "مِمَّا" متعلقان بمشفقين والجملة مستأنفة "كَسَبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "واقِعٌ" خبره "بِهِمْ" متعلقان بواقع والجملة حال "وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "فِي رَوْضاتِ" خبر المبتدأ "الْجَنَّاتِ" مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة "لَهُمْ" خبر مقدم و"ما" مبتدأ مؤخر "يَشاؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة وجملة لهم ما مستأنفة "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف حال "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "ذلِكَ" مبتدأ "هُوَ" ضمير فصل "الْفَضْلُ"

خبر "الْكَبِيرُ" صفة الفضل والجملة الاسمية ذلك هو الفضل مستأنفة.

[سورة الشورى (42) : الآيات 23 الى 25]

(144/684)

ذِلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (25)

"ذِلِكَ الَّذِي" مبتدأ وخبره "يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صلة الذي "الَّذِينَ" صفة عباد "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "وَعَمِلُوا" ماض وفاعله "الصَّالِحاتِ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "قُلْ" أمر فاعله مستتر "لا" نافية "أَسْئَلُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول وجملة قل مستأنفة "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "أَجْراً" مفعول به ثان "إِلَّا" أداة استثناء "الْمَوَدَّةَ" مستثنى "فِي الْقُرْبى" متعلقان بمحذوف حال "وَمَنْ" الواو حرف استئناف من اسم شرط جازم مبتدأ "يَقْتَرِفْ"

مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر "حَسَنَةً" مفعول به "نَزِدْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والفاعل مستتر "لَهُ" متعلقان بالفعل "فِيها" متعلقان بالفعل "حُسْناً" مفعول به وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من مستأنفة "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "غَفُورٌ"

(145/684)

"شَكُورٌ" خبران والجملة الاسمية تعليلية "أَمْ" حرف عطف بمعنى بل "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "افْتَرى" ماض وفاعله مستتر والجملة مقول القول "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل "كَذِباً" مفعول به "فَإِنْ" الفاء حرف استئناف وإن شرطية "يَشَإِ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وجملة يشأ ابتدائية لا محل لها وجملة "يَخْتِمْ" جواب شرط لا محل لها "عَلى قَلْبِكَ" متعلقان بيختم "وَيَمْحُ اللَّهُ" الواو حرف استئناف ومضارع ولفظ الجلالة فاعله "الْباطِلَ" مفعول به والجملة مستأنفة "وَيُحِقُّ الْحَقَّ" معطوف على يمحو الباطل "بِكَلِماتِهِ" متعلقان بمحذوف حال "إِنَّهُ" إن واسمها "عَلِيمٌ" خبر "بِذاتِ" متعلقان بعليم "الصُّدُورِ" مضاف إليه والجملة الاسمية تعليلية "وَهُوَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "الَّذِي" خبر والجملة مستأنفة "يَقْبَلُ" مضارع فاعله مستتر "التَّوْبَةَ" مفعول به

والجملة صلة "عَنْ عِبادِهِ" متعلقان بالفعل "وَيَعْفُوا" معطوف على يقبل "عَنِ السَّيِّئاتِ" متعلقان بالفعل "وَيَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "ما" موصولية مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "تَفْعَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة.

[سورة الشورى (42) : الآيات 26 الى 28]

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (26) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

(146/684)

"وَيَسْتَجِيبُ" الواو حرف عطف ومضارع "الَّذِينَ" فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "وَيَزِيدُهُمْ" الواو حرف عطف ومضارع ومفعوله "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بالفعل "وَالْكافِرُونَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ مرفوع بالواو "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "شَدِيدٌ" صفة والجملة الاسمية خبر الكافرون وجملة الكافرون مستأنفة "وَلَوْ" الواو

حرف استئناف ولو شرطية غير جازمة "بَسَطَ اللَّهُ" ماض وفاعله "الرِّزْقَ" مفعول به والجملة الفعلية ابتدائية "لِعِبادِهِ" متعلقان بالفعل "لَبَغَوْا" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط غير جازم "وَلَكِنْ" الواو حرف عطف ولكن حرف استدراك "يُنَزِّلُ" مضارع فاعله مستتر "بِقَدَرٍ" متعلقان بالفعل "ما" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة ما "إِنَّهُ" إن واسمها "بِعِبادِهِ" متعلقان بخبير "خَبِيرٌ" خبر أول "بَصِيرٌ" خبر ثان والجملة الاسمية تعليلية "وَهُوَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "الَّذِي" خبر "يُنَزِّلُ الْغَيْثَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة الذي وجملة هو مستأنفة "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل "ما" مصدرية "قَنَطُوا" ماض وفاعله والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالإضافة "وَيَنْشُرُ" معطوف على ينزل "رَحْمَتَهُ" مفعول به "وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ" الواو حرف عطف ومبتدأ وخبران والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الشورى (42) : الآيات 29 الى 33]

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (30) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (31) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33)

(148/684)

"وَمِنْ" الواو حرف عطف ومن حرف جر "مِنْ آيَاتِهِ" اسم مجرور بمن ومتعلقان بمحذوف خبر مقدم "خَلْقُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "السَّمَاوَاتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَمَا" الواو حرف عطف وما موصولية معطوفة على خلق "بَثَّ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "فِيهِمَا" متعلقان بالفعل "مِنْ دَابَّةٍ" متعلقان بمحذوف حال "وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "عَلَى جَمْعِهِمْ" متعلقان بقدير "إِذَا" ظرفية زمانية "يَشَاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "قَدِيرٌ" خبر والجملة الاسمية حال "وَمَا" الواو حرف استئناف وما اسم شرط جازم مبتدأ "أَصَابَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "مِنْ مُصِيبَةٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَبِمَا" الفاء واقعة في جواب

الشرط وبما متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهو بسبب الذي "كَسَبَتْ" ماض "أَيْدِيكُمْ" فاعل والجملة صلة والجملة الاسمية هو بسبب في محل جزم جواب الشرط "وَيَعْفُوا" الواو حالية ومضارع فاعله مستتر "عَنْ كَثِيرٍ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف والتقدير واللّه يعفو والجملة الاسمية حال "وَما" حرف عطف وما نافية تعمل عمل ليس "أَنْتُمْ" اسمها "بِمُعْجِزِينَ" الباء حرف جر زائد ومجرور لفظا منصوب محلا خبر ما "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمعجزين والجملة معطوفة على ما قبلها "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "لَكُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "مِنْ" حرف جر زائد "وَلِيٍّ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ "وَلا نَصِيرٍ" معطوف على من ولي والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَمِنْ" الواو حرف استئناف ومن حرف جر "آياتِهِ" اسم مجرور والجار والمجرور خبر مقدم "الْجَوارِ" مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة للتخفيف "فِي

(149/684)

الْبَحْرِ" جار ومجرور حال "كَالْأَعْلامِ" حال ثانية والجملة الاسمية من آياته مستأنفة "إِنْ يَشَأْ" إن شرطية ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر والجملة ابتدائية "يُسْكِنِ

الرِّيحَ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والفاعل مستتر والريح مفعوله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها . "فَيَظْلَلْنَ" الفاء حرف عطف ومضارع ناقص واسمه "رَواكِدَ" خبره "عَلى ظَهْرِهِ" متعلقان برواكد والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنْ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم "لَآياتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسمها المؤخر "لِكُلِّ" متعلقان بمحذوف صفة آيات "صَبَّارٍ" مضاف إليه "شَكُورٍ" صفة صبار والجملة الاسمية إن في ذلك مستأنفة .

[سورة الشورى (42) : الآيات 34 الى 37]

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37)

(150/684)

"أَوْ" حرف عطف "يُوبِقْهُنَّ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِما" متعلقان بالفعل "كَسَبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ما "وَيَعْفُ" معطوف على

يسكن فهو مجزوم مثله وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر "عَنْ كَثِيرٍ"
متعلقان بالفعل "وَيَعْلَمَ" الواو حرف عطف ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد الواو والجملة
معطوفة على ما قبلها "الَّذِينَ" فاعل "يُجادِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة
"فِي آياتِنا" متعلقان بالفعل "ما" نافية "لَهُمْ" خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "مَحِيصٍ"
مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة مفعول به "فَما" الفاء حرف استئناف وما
اسم شرط في محل نصب مفعول به ثان مقدم "أُوتِيتُمْ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب
فاعل "مِنْ شَيْءٍ" متعلقان بمحذوف حال من ما "فَمَتاعُ" الفاء واقعة في جواب الشرط
ومتاع خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط "الْحَياةِ" مضاف
إليه "الدُّنْيا" صفة وجملة ما أوتيتم مستأنفة "وَما" الواو حالية وما مبتدأ "عِنْدَ" ظرف
مكان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر المبتدأ والجملة حال "وَأَبْقى" معطوف
على خير "لِلَّذِينَ" متعلقان بأبقى "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَلى رَبِّهِمْ" الواو
حرف عطف وجار ومجرور متعلقان بيتوكلون "يَتَوَكَّلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله
والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "وَالَّذِينَ" الواو حرف عطف والذين معطوف على
للذين "يَجْتَنِبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "كَبائِرَ" مفعول به "الْإِثْمِ" مضاف
إليه "وَالْفَواحِشَ" معطوف على كبائر "وَإِذا" الواو حرف عطف وإذا ظرفية شرطية غير

جازمة "ما" زائدة "غَضِبُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "هُمْ" مبتدأ "يَغْفِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر هم و

(151/684)

الجملة الاسمية لا محل لها جواب شرط غير جازم.

[سورة الشورى (42) : الآيات 38 الى 41]

وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41)

"وَالَّذِينَ" الواو حرف عطف الذين معطوف على ما قبله "اسْتَجابُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لِرَبِّهِمْ" متعلقان بالفعل "وَأَقامُوا" معطوف على استجابوا "الصَّلاةَ" مفعول به "وَأَمْرُهُمْ" الواو حرف عطف وأمرهم مبتدأ "شُورى" خبره والجملة معطوفة على ما قبلها "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بشورى "وَمِمَّا" متعلقان بينفقون "رَزَقْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "يُنْفِقُونَ" مضارع مرفوع

و الواو فاعله والجملة معطوفة على جملة الصلة "وَالَّذِينَ" الواو حرف عطف والذين معطوف على ما قبله "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "أَصابَهُمُ" ماض ومفعوله "الْبَغْيُ" فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "هُمْ" مبتدأ "يَنْتَصِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر هم والجملة الاسمية جواب شرط غير جازم لا محل لها "وَجَزاءُ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "سَيِّئَةٍ" مضاف إليه "سَيِّئَةٍ" خبر "مِثْلُها" صفة سيئة والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "فَمَنْ" الفاء حرف استئناف وتفريع واسم شرط جازم مبتدأ "عَفا" ماض فاعله مستتر "وَأَصْلَحَ" معطوف على عفا "فَأَجْرُهُ" الفاء واقعة في جواب الشرط ومبتدأ "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى ومتعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من "إِنَّهُ" إن واسمها "لا" نافية "يُحِبُّ" مضارع فاعله مستتر "الظَّالِمِينَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "وَلَمَنِ" الواو حرف استئناف واللام لام الابتداء ومن اسم شرط جازم مبتدأ "انْتَصَرَ" ماض فاعله مستتر "بَعْدَ" ظرف زمان "ظُلْمِهِ" مضاف إليه "فَأُولئِكَ" الفاء رابطة لجواب الشرط وأولئك مبتدأ "ما" نافية "عَلَيْهِمْ" خبر مقدم "مِنْ"

حرف جر زائد "سَبِيلٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر أولئك وجملة أولئك في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من .

[سورة الشورى (42) : الآيات 42 الى 45]

(153/684)

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44) وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (45)

"إِنَّمَا" كافة ومكفوفة "السَّبِيلُ" مبتدأ "عَلَى الَّذِينَ" الجار والمجرور خبره "يَظْلِمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "النَّاسَ" مفعول به "وَيَبْغُونَ" الواو حرف عطف ومضارع مرفوع والواو فاعله "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال "الْحَقِّ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "أُولَئِكَ" مبتدأ "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "أَلِيمٌ" صفة عذاب والجملة الاسمية خبر أولئك وجملة أولئك

مستأنفة لا محل لها "وَلَمَنْ" الواو حرف عطف واللام للابتداء ومن مبتدأ "صَبَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "وَغَفَرَ" معطوف على صبر "إِنَّ ذَلِكَ" إن واسمها "لَمَنْ" اللام المزحلقة ومن حرف جر "عَزْمِ" اسم مجرور والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر إن "الْأُمُورِ" مضاف إليه وجملة إن ذلك خبر من "وَمَنْ" الواو حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "يُضْلِلِ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "اللَّهُ" لفظ الجلالة

(154/684)

فاعل "فَما" الفاء رابطة لجواب الشرط وما نافية "لَهُ" جار ومجرور خبر مقدم "مِنْ وَلِيٍّ" من حرف جر زائد وولي مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان بمحذوف صفة ولي وجملة ماله من ولي في محل جزم جواب الشرط وجملة من يضلل مستأنفة لا محل لها وجملتا الشرط وجوابه خبر من "وَتَرَى" الواو حرف استئناف ومضارع فاعله مستتر "الظَّالِمِينَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها "لَمَّا" ظرفية حينية "رَأَوُا" ماض وفاعله "الْعَذابَ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "هَلْ" حرف استفهام "إِلى مَرَدٍّ" جار ومجرور خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "سَبِيلٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مقول القول

"وَتَراهُمْ" الواو حرف عطف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر "يُعْرَضُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة حالية وجملة تراهم معطوفة على ما قبلها "عَلَيْها" متعلقان بيعرضون "خاشِعِينَ" حال "مِنَ الذُّلِّ" متعلقان بخاشعين "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "مِنْ طَرْفٍ" متعلقان بالفعل "خَفِيٍّ" صفة طرف والجملة حالية "وَقالَ" الواو حرف استئناف وماض "الَّذِينَ" فاعل والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنَّ الْخاسِرِينَ" إن واسمها المنصوب بالياء "الَّذِينَ" خبرها والجملة الاسمية مقول القول "خَسِرُوا" ماض وفاعله "أَنْفُسَهُمْ" مفعوله والجملة صلة الذين "وَأَهْلِيهِمْ" معطوف على أنفسهم "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "أَلا" أداة تنبيه "إِنَّ الظَّالِمِينَ" إن واسمها "فِي عَذابٍ" جار ومجرور خبر إن "مُقِيمٍ" صفة عذاب.

[سورة الشورى (42) : الآيات 46 الى 48]

(155/684)

وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)
اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ
نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا

الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (48)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "كانَ" ماض ناقص "لَهُمْ" خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "أَوْلِياءَ" مجرور لفظا مرفوع محلا اسم كان والجملة مستأنفة "يَنْصُرُونَهُمْ" مضارع مرفوع والواو فاعله والهاء مفعول به "مِنْ دُونِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر صفة أولياء "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَمَنْ" الواو حرف عطف ومن اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم ليضلل "يُضْلِلِ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وما نافية "لَهُ" خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "سَبِيلٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر وجملة فما له في محل جزم جواب الشرط وجملة يضلل معطوفة على ما قبلها "اسْتَجِيبُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "لِرَبِّكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بالفعل "أَنْ يَأْتِيَ" مضارع منصوب بأن "يَوْمٌ" فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر

(156/684)

بالإضافة "لا" نافية للجنس "مَرَدَّ" اسمها المبني على الفتح "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر لا والجملة الاسمية لا مرد له في محل رفع صفة يوم "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بمرد وجملة استجيبوا ابتدائية "ما" نافية "لَكُمْ" خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "مَلْجَإٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا

مبتدأ مؤخر "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان "وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ" معطوف على ما لكم من ملجأ وإعرابهما واحد وجملة ما لكم من ملجأ مستأنفة "فَإِنْ" الفاء حرف استئناف وإن شرطية "أَعْرَضُوا" ماض وفاعله "فَما" الفاء رابطة لجواب الشرط وما نافية "أَرْسَلْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "حَفِيظاً" مفعوله الثاني وجملة أعرضوا ابتدائية وجملة أرسلناك في محل جزم جواب الشرط "إِنْ" نافية "عَلَيْكَ" خبر مقدم "إِلَّا" حرف حصر "الْبَلاغُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية تعليل لا محل لها "وَإِنَّا" حرف استئناف وإن واسمها "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "أَذَقْنَا" ماض وفاعله "الْإِنْسانَ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "مِنَّا" متعلقان برحمة "رَحْمَةً" مفعول به ثان "فَرِحَ" ماض فاعله مستتر "بِها" متعلقان بالفعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة الشرط في محل رفع خبر إن وجملة إنا مستأنفة "وَإِنْ تُصِبْهُمْ" الواو حرف عطف ومضارع فعل الشرط والهاء مفعول به "سَيِّئَةٌ" فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها "بِما" متعلقان بالفعل "قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ" ماض وفاعله والجملة صلة ما "فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ" الفاء رابطة وإن واسمها وخبرها والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط.

[سورة الشورى (42) : الآيات 49 الى 51]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51)

"لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام والجار والمجرور خبر مقدم "مُلْكُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة الاسمية مستأنفة "يَخْلُقُ" مضارع فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة حال "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة ما "يَهَبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة بدل من يخلق "لِمَنْ" متعلقان بالفعل "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر "إِناثاً" مفعول به والجملة صلة من "وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ" معطوف على ما قبله والإعراب واحد "أَوْ" حرف عطف "يُزَوِّجُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "ذُكْراناً" حال "وَإِناثاً" معطوف على ذكرانا والجملة معطوفة على ما قبلها "وَيَجْعَلُ" الواو حرف عطف ومضارع فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به أول والجملة معطوفة على ما قبلها "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر "عَقِيماً" مفعول به ثان والجملة صلة من "إِنَّهُ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبرها الأول "قَدِيرٌ" خبرها الثاني والجملة الاسمية تعليل "وَما" الواو حرف استئناف

وما نافية "كانَ" ماض ناقص "لِبَشَرٍ" جار ومجرور خبرها المقدم "أَنْ يُكَلِّمَهُ" مضارع منصوب بأن والهاء مفعول به "اللَّهُ" فاعل

(158/684)

و المصدر المؤول من أن والفعل اسم كان المؤخر "إِلَّا" حرف حصر "وَحْياً" مفعول مطلق "أَوْ" حرف عطف "مِنْ وَراءِ" متعلقان بمحذوف تقديره يسمع وهو معطوف على ما قبله "حِجابٍ" مضاف إليه "أَوْ" حرف عطف "يُرْسِلَ" مضارع معطوف على يكلمه منصوب والفاعل مستتر "رَسُولًا" مفعول به وأن المضمرة والفعل في تأويل مصدر معطوف على وحيا والجملة معطوفة على ما قبلها "فَيُوحِيَ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفد على ما قبلها "بِإِذْنِهِ" متعلقان بالفعل "ما" مفعول به "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة الشورى (42) : الآيات 52 الى 53]

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)

"وَكَذلِكَ" الواو حرف استئناف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "أَوْحَيْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "رُوحاً" مفعول به "مِنْ أَمْرِنا" صفة روحا "ما" نافية "كُنْتَ" كان واسمها "تَدْرِي" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كان وجملة ما كنت حال "ما" مبتدأ "الْكِتابُ" خبره والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي تدري "وَلَا" الواو حرف عطف ولا نافية "الْإِيمانُ" معطوف على الكتاب "وَلكِنْ" الواو حرف عطف ولكن حرف استدراك "جَعَلْناهُ نُوراً" ماض وفاعله ومفعوله الأول ونورا مفعوله الثاني والجملة معطوفة على جملة ما كنت "نَهْدِي" مضارع فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صفة نورا "مِنْ" مفعول به "نَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "مِنْ عِبادِنا" متعلقان بمحذوف حال "وَإِنَّكَ" الواو حالية وإن واسمها "لَتَهْدِي" اللام المزحلقة ومضارع فاعله مستتر "إِلى صِراطٍ" متعلقان بالفعل "مُسْتَقِيمٍ" صفة صراط والجملة خبر إن والجملة الاسمية حال "صِراطِ" بدل مما قبله "اللَّهِ" مضاف إليه "الَّذِي" صفة الله "لَهُ" خبر مقدم "ما" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَما فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما قبله "أَلا"

أداة تنبيه "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "تَصِيرُ الْأُمُورُ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 181. 193﴾

(160/684)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة الشورى

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة عشر حَدِيثا

1142 - قَوْله

فِي حَدِيث رقيقَة بنت صَيْفِي فِي سقيا عبد الْمطلب أَلا وَفِيهِمْ الطّيب الطَّاهِر لذاته

قلت حَدِيث سقيا عبد الْمطلب رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَلَيْسَ فِيهِ هَذَا اللَّفْظ فَرَوَاهُ فِي تَرْجَمَة رقيقَة بنت أبي صَيْفِي فِي بَاب الرَّاء من مُسْند النّسَاء حَدثنَا مُحَمَّد بن مُوسَى بن حَمَّاد الْبَرْبَرِي ثَنَا زَكَرِيَّا بن يَحْيَى أَبُو السكين الطَّائِي ثَنَا عمر أبي زحر بن حصن عَن جده حميد بن منْهب ثني عُرْوَة بن مُضرس قَالَ حدث مخرمَة بن نَوْفَل عَن أمه رقيقَة بنت أبي صَيْفِي بن هَاشم وَكَانَت لِدَة عبد الْمطلب قَالَت تَتَابَعَت عَلَى قُرَيْش سنُون أَمْحَلت

الضَّرع وأدقت الْعظم فَبينا أَنا رَاقِدَة إِذا هَاتِف يصْرخ بِصَوْت صَحِل يَقُول معشر قُرَيْش إِن هَذَا النَّبِي الْمَبْعُوث قد أَظَلَّتْكُم أَيَّامه وَظَهرت أَعْلَامه فَحَيَّهَلا بِالْحيَاءِ وَالْخصب أَلا فانظروا رجلا مِنْكُم أَبيض وَسِيطًا جسَامًا عظاما أَوْطَفُ الْأَهْدَاب سهل الْخَدين أَشمّ الْعرنين لَهُ فَخر يَكْظِم عَلَيْهِ وَسنة يهدي إِلَيْهِ فَلْيخْلص هُوَ وَولده وليهبط إِلَيْهِ من كل بطن رجل فليشنوا من المَاء وليمسوا من الطّيب وليستلموا الرُّكْن ثمَّ ليرقوا أَبَا قبيس ثمَّ ليَدع الرجل ثمَّ ليؤمن من الْقَوْم فَأَصْبَحت مَذْعُورَة قد أقشعر جلدي وَوَلَهَ عَقْلِي فَاقْتَصَصْت رُؤْيَاي ثمَّ نمت فِي شعاب مَكَّة فوالحرمة وَالْحرم مَا بَقِي بهَا أبطحي إِلَّا قَالَ هَذَا شِيمَة الْفرج هَذَا شيبَة الْحَمد وَتَنَاهَتْ إِلَيْهِ رجال قُرَيْش وَهَبَطَ إِلَيْهِ من كل بطن رجل فَشُنُّوا

(161/684)

من المَاء وَمَسُّوا من الطّيب ثمَّ مَسُّوا واستلموا الرُّكْن ثمَّ ارْتَقَوْا أَبَا قبيس وَاصْطَفُّوا حوله حَتَّى اسْتَووا بِذرْوَة الْجَبَل قَامَ عبد الْمطلب وَمَعَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم غُلَام قد أَيفع أَو كرب فَرفع يَدَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ سَاد الْخلَّة وَكَاشف الْكُرْبَة أَنْت معلم غير معلم وَمَسْئُول غير مبخل وَهَذِه عبيدك وإماؤك بعَذِرَاتٍ حَرمك يَشكونَ إِلَيْك سنتهمْ أذهبت الْخُف وأمحقت الظلْف اللَّهُمَّ فَأمْطر علينا مُغْدِقًا مربعًا قَالَت فَوَرَبّ الْكَعْبَة مَا انصرفوا

حَتَّى تَفَجَّرَتْ السَّمَاء بِمَائِهَا واكتظ الْوَادي بثجيجه وَسمعت شَيْخَانِ قُرَيْش وجلتها عبد الله بن جدعَان وَحرب بن أُمَيَّة وَهِشَام بن الْمُغيرَة يَقُولُونَ لعبد الْمطلب هَنِيئًا لَك أَبَا الْبَطْحَاء وَقَالَت رقيقَة

(بِشَيْبَة الْحَمد أسْقَى الله بَلْدَتنَا . . . وَقد فَقدنَا الْحَيَاة واجلوذ الْمَطَر)

(فجَاء بِالْمَاءِ جَوْنِي لَهُ سبل . . . سَحا فَعَاشَتْ بِهِ الْأَنْعَام وَالشَّجر)

(منا من الله باليمون طَائِره . . . وَخير من بشرت يَوْمًا بِهِ مُضر)

(مبارك الْأَمر يُسْتَسْقَى الْغَمَام بِهِ . . . مَا فِي الْأَنَام لَهُ عدل وَلَا خطر)

وَعَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة لَهُ

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أَنا هِشَام بن مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ ثني الْوَلِيد بن عبد الله بن جَمِيع عَن ابْن لعبد الرَّحْمَن بن موهب بن رَبَاح الْأَشْعَرِيّ حَلِيف بني زهرَة عَن أَبِيه قَالَ حَدثنِي مخرمَة بن نَوْفَل بِهِ

1143 - الْحَدِيث الأول

رُوِيَ أَنه لما نزلت قل لَا أَسأَلكُم عَلَيْهِ أجرا إِلَّا الْمَوَدَّة فِي الْقُرْبَى قيل يَا رَسُول الله من قربتك الَّذين وَجَبت علينا مَوَدَّتهمْ قَالَ (عَلّي وَفَاطِمَة وَأَبْنَاؤُهُمَا)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الله الْحَضْرَمِيّ ثَنَا

حَرْب بن الْحسن الطَّحَّان ثَنَا حُسَيْن الْأَشْقَر عَن قيس بن الرّبيع عَن الْأَعْمَش عَن سعيد بن

جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت قل لَا أَسأَلكُم عَلَيْهِ أجرا إِلَّا الْمَوَدَّة فِي الْقُرْبَى قَالُوا يَا

رَسُول الله إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم وَابْن مرْدَوَيْه فِي تفسيريهما ثَنَا عَلّي بن الْحُسَيْن ثَنَا رجل سَمَّاهُ ثَنَا

حُسَيْن الْأَشْقَر بِهِ سَوَاء وحسين الْأَشْقَر شيعي مختلق

وَذكر نزُول هَذِه الْآيَة فِي الْمَدِينَة بعيد فَإِنَّهَا مَكِّيَّة وَلم تكن إِذْ ذَاك لفاطمة أَوْلَاد بالْكُلِّيَّة فَأَنَّهَا

لم تتَزَوَّج بعلي إِلَّا بعد بدر من السّنة الثَّانِيَة وَالْحق تَفْسِير الْآيَة بِمَا فَسرهَا حبر الْأمة ابْن

عَبَّاس أخرجه الْبُخَارِيّ من رِوَايَة طَاوس عَنهُ أَنه سُئِلَ عَن قَوْله تَعَالَى إِلَّا الْمَوَدَّة فِي الْقُرْبَى

فَقَالَ سعيد بن جُبَير قربى آل مُحَمَّد فَقَالَ ابْن عَبَّاس عجلت إِن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّم لم يكن بطن من قُرَيْش إِلَّا كَانَ لَهُم فِيهِ قرَابَة فَقَالَ إِلَّا أَن يصلوا مَا بيني وَبَيْنكُم من الْقَرَابَة

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي كتاب مَنَاقِب الشَّافِعِي عَن حَرْب بن الْحسن بن الطَّحَّان بِهِ سندا ومتنا

ثمَّ أخرجه عَن مُحَمَّد بن حدير ثَنَا الْقَاسِم بن إِسْمَاعِيل أَبُو الْمُنْذر ثَنَا حُسَيْن الْأَشْقَر

فَذكره مَوْقُوفا

1144 - الحَدِيث الثَّانِي

(163/684)

رُوِيَ عَن عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ شَكَوْت إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حسد النَّاس لي فَقَالَ (أما ترْضَى أَن تكون رَابِع أَرْبَعَة أول من يدْخل الْجنَّة أَنا وَأَنت وَالْحسن وَالْحُسَيْن وَأَزْوَاجنَا عَن أَيمَاننَا وَشَمَائِلنَا وَذُرِّيَّتنَا خلف أَزوَاجنَا)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه بنَقص يسير ثَنَا الْحُسَيْن بن إِسْحَاق التستري ثَنَا يَحْيَى الْحمانِي ثَنَا منْدَل بن عَلّي عَن مُحَمَّد بن عبيد الله بن أبي رَافع عَن أَبيه عَن جده أبي رَافع أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لعَلي (إِن أول أَرْبَعَة يدْخلُونَ الْجنَّة أَنا وَأَنت وَالْحسن وَالْحُسَيْن وَذُرِّيَّاتنَا خلف ظُهُورنَا وَأَزْوَاجنَا خلف ذرياتنا شِيعَتِنَا عَن أَيمَاننَا وَعَن شَمَائِلنَا) انْتَهَى

حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد المري الْقَنْطَرِي ثَنَا حَرْب بن الْحسن الطَّحَّان ثَنَا يَحْيَى بن يعلي عَن مُحَمَّد بن عبيد الله بِهِ

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا أَبُو مَنْصُور الحمشادي ثَنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ ثني أَبُو بكر بن مَالك ثني

مُحَمَّد بن يُونُس ثَنَا عبيد الله بن عَائِشَة ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عَمْرو عَن عمر بن مُوسَى عَن زيد بن عَلّي بن الْحُسَيْن عَن أَبيه عَن جده عَن عَلّي بن أبي طَالب قَالَ شَكَوْت إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى آخِره بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

1145 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (حرمت الْجنَّة عَلَى من ظلم أهل بَيْتِي وَآذَانِي فِي عِتْرَتِي وَمن اصْطنع صَنِيعَة إِلَى أحد من ولد عبد الْمطلب وَلم يُجَازِهِ عَلَيْهَا فَأَنَا أُجَازِيهِ عَلَيْهَا إِذا لَقِينِي يَوْم الْقِيَامَة

(164/684)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا يَعْقُوب بن السّري ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الله الْحَفِيد ثَنَا عبد الله بن أَحْمد بن عَامر أَنا أبي ثَنَا عَلّي بن مُوسَى الرِّضَا ثني أبي مُوسَى ابْن جَعْفَر أَنا أبي جَعْفَر بن مُحَمَّد أَنا أبي مُحَمَّد بن عَلّي ثني أبي عَلّي بن الْحُسَيْن ثني أبي الْحُسَيْن بن عَلّي ثني أبي عَلّي بن أبي طَالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (حرمت الْجنَّة) إِلَى آخِره

1146 - الْحَدِيث الرَّابِع

رُوِيَ أَن الْأَنْصَار قَالُوا فعلنَا وَفعلنَا كَأَنَّهُمْ افْتَخرُوا فَقَالَ عَبَّاس أَو ابْن عَبَّاس لنا الْفضل عَلَيْكُم يَا معشر الْأَنْصَار فَبلغ ذَلِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَتَاهُم فِي مجَالِسهمْ فَقَالَ (يَا معشر الْأَنْصَار ألم تَكُونُوا أَذِلَّة فَأَعَزكُم الله بِي) قَالُوا بلَى يَا رَسُول الله (ألم تَكُونُوا ضلالا فَهدَاكُم الله بِي) قَالُوا بلَى يَا رَسُول الله قَالَ (أَفلا تُجِيبُونِي) قَالُوا مَا نقُول يَا رَسُول الله قَالَ (أَلا تَقولُونَ ألم يخْرجك قَوْمك فآويناك أولم يُكذّبُوك فَصَدَّقْنَاك أولم يَخْذلُوك فَنَصَرْنَاك) قَالَ فَمَا زَالَ يَقُول حَتَّى جثوا عَلَى الركب وَقَالُوا أَمْوَالنَا وَمَا فِي أَيْدِينَا لله وَرَسُوله فَنزلت قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثَنَا أَبُو كريب ثَنَا مَالك بن إِسْمَاعِيل ثَنَا عبد السَّلَام ثَنَا يزِيد بن أبي زِيَاد عَن مقسم عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَت الْأَنْصَار فعلنَا وَفعلنَا كَأَنَّهُمْ افْتَخرُوا فَقَالَ ابْن عَبَّاس أَو الْعَبَّاس شكّ عبد السَّلَام لنا الْفضل عَلَيْكُم إِلَى آخِره قَالَ فَنزلت قل لَا أَسأَلكُم عَلَيْهِ أجرا إِلَّا الْمَوَدَّة فِي الْقُرْبَى

انْتَهَى

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ

(165/684)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره عَن عَلّي بن الْحُسَيْن عَن عبد الْمُؤمن ابْن عَلّي عَن عبد السَّلَام عَن يزِيد بن أبي زِيَاد مثله

وَفِي نزُول هَذِه الْآيَة بِالْمَدِينَةِ نظر فَإِن السُّورَة مَكِّيَّة وَلَيْس يظْهر من هَذِه الْآيَة وَهَذَا السِّيَاق مُنَاسبَة فَالله أعلم

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره عَن عبد السَّلَام بن حَرْب عَن يزِيد ابْن أبي زِيَاد بِهِ سندا ومتنا

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط ثَنَا عَلّي بن سعيد الرَّازِيّ ثَنَا عبد السَّلَام ابْن حَرْب عَن يزِيد بن أبي زِيَاد عَن مقسم عَن ابْن عَبَّاس قَالَ سمع النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَيْئًا فَخَطب فَقَالَ للْأَنْصَار (ألم تَكُونُوا أَذِلَّة فَأَعَزكُم الله) إِلَى آخِره وَقَالَ لم يروه عَن يزِيد إِلَّا عبد السَّلَام

1147 - الْحَدِيث الْخَامِس

(166/684)

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد مَاتَ شَهِيدا أَلا وَمن مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد مَاتَ مغفورا لَهُ أَلا وَمن مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد مَاتَ تَائِبًا أَلا

وَمن مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد مَاتَ مُؤمنا مُسْتَكْمل الْإِيمَان أَلا وَمن مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد بشره ملك الْمَوْت بِالْجنَّةِ ثمَّ مُنكر وَنَكِير أَلا وَمن مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد يزف إِلَى الْجنَّة كَمَا تزف الْعَرُوس إِلَى بَيت زَوجهَا أَلا وَمن مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد فتح الله لَهُ فِي قَبره بَابَيْنِ إِلَى الْجنَّة أَلا وَمن مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد جعل الله قَبره مَزَار مَلَائِكَة الرَّحْمَة أَلا وَمن مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد مَاتَ عَلَى السّنة وَالْجَمَاعَة أَلا وَمن مَاتَ عَلَى بغض آل مُحَمَّد جَاءَ يَوْم الْقِيَامَة مَكْتُوبًا بَين عَيْنَيْهِ آيس من رَحْمَة الله أَلا وَمن مَاتَ عَلَى بغض آل مُحَمَّد مَاتَ كَافِرًا أَلا وَمن مَاتَ عَلَى بغض مُحَمَّد لم يشم رَائِحَة الْجنَّة)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ اُخْبُرْنَا عبد الله بن أبي عبد الله مُحَمَّد بن عَلّي بن الْحسن الْبَلْخِي ثَنَا يَعْقُوب بن يُوسُف بن إِسْحَاق ثَنَا مُحَمَّد بن أسلم الطوسي ثَنَا يعلي ابْن عبيد عَن إِسْمَاعِيل بن أبي خَالِد عَن قيس بن أبي حَازِم عَن جرير بن عبد الله البَجلِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من مَاتَ عَلَى حب آل مُحَمَّد فَذكره سَوَاء

1148 - الحَدِيث السَّادِس

رُوِيَ أَن الْأَنْصَار أَتَوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِمَال جَمَعُوهُ فَقَالُوا يَا رَسُول الله هدانَا الله بك وَأَنت ابْن أُخْتنَا وتعروك نَوَائِب وَحُقُوق وَمَا لَك سَعَة فَاسْتَعِنْ بِهَذَا عَلَى مَا ينُوبك فَنزلت ورده

قلت غَرِيب

وَنقله الثَّعْلَبِيّ عَن ابْن عَبَّاس أَن الْأَنْصَار أَتَوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى آخِره من غير سَنَد وَكَذَلِكَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِمَعْنَاهُ فَقَال ثَنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد وَهُوَ الطَّبَرَانِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الله الْحَضْرَمِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن مَرْزُوق ثَنَا حُسَيْن الْأَشْقَر ثَنَا نصير بن زِيَاد عَن عُثْمَان بن أبي الْيَقظَان عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَال قَالَت الْأَنْصَار فِيمَا بَينهم لَو جَمعنَا لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَالا فَبسط يَدَيْهِ لَا يحول بَينه وَبَين أحد فَأَتوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالُوا يَا رَسُول الله إِنَّا أردنَا أَن نجمع لَك من أَمْوَالنَا فَأنْزل الله قل لَا أَسأَلكُم عَلَيْهِ أجرا إِلَّا الْمَوَدَّة فِي الْقُرْبَى فَخَرجُوا مُخْتَلفين فَقَال بَعضهم أَلم تروا إِلَى مَا قَال رَسُول الله وَقَال بَعضهم إِنَّمَا قَال هَذَا لِيُقَاتل عَن أهل بَيته وَيَنْصرهُمْ فَأنْزل الله أَم يَقُولُونَ افترَى عَلَى الله كذبا إِلَى قَوْله وَهُوَ الَّذِي يقبل التَّوْبَة عَن عباده فعرض لَهُم بِالتَّوْبَةِ انْتَهَى

1149 - الْحَدِيث السَّابِع

قَال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أخوف مَا أَخَاف عَلَى أمتِي زهرَة الدُّنْيَا وَكَثْرَتهَا)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون

ثَنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أخوف مَا أَخَاف عَلَى أمتِي زهرَة الدُّنْيَا وَكَثْرَتهَا) وَكَانَ يُقَال خير الرزق مَا لَا يُطْغِيك وَلَا يُلْهِيك انْتَهَى

وَذكر الثَّعْلَبِيّ عَن قَتَادَة من غير سَنَد

(168/684)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن أخوف مَا أَخَاف عَلَيْكُم من زهرَة الدُّنْيَا وَزينتهَا) ذكره الْبُخَارِيّ فِي مَوَاضِع وَمُسلم فِي الزَّكَاة

1150 - قَوْله

وَعَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أَنه قيل لَهُ اشْتَدَّ الْقَحْط وَقَنط النَّاس فَقَالَ مُطِرُوا إِذن وَقَرَأَ وَهُوَ الَّذِي ينزل الْغَيْث من بعد مَا قَنطُوا

قلت رَوَاهُ عبد الرازق فِي تَفْسِيره أَنا معمر عَن قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى وَهُوَ الَّذِي ينزل الْغَيْث من بعد مَا قَنطُوا قَالَ ذكر لنا أَن رجلا أَتَى عمر ابْن الْخطاب فَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ قحط الْمَطَر وَقَنط النَّاس فَقَالَ مُطِرُوا إِذن انْتَهَى

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث روح ثَنَا سعيد عَن قَتَادَة فَذكره وَزَاد ثمَّ قَرَأَ وَهُوَ الَّذِي ينزل الْغَيْث من بعد مَا قَنطُوا الْآيَة

1151 - الْحَدِيث الثَّامِن

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (مَا من اخْتِلَاج عرق وَلَا خدش عود وَلَا نكبة حجر إِلَّا بذنب وَلما يعْفُو الله عَنهُ أَكثر)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان لم يذكر فِيهِ الْحجر فَقَالَ فِي الْبَاب السّبْعين مِنْهُ أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن يَعْقُوب ثَنَا أَبُو جَعْفَر الْمُنَادِي ثَنَا يُونُس بن مُحَمَّد ثَنَا شَيبَان عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا أَن

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يَقُول (لَا يصب ابْن آدم خدش عود وَلَا عَثْرَة قدم وَلَا اخْتِلَاج عرق إِلَّا بذنب وَمَا يعْفُو الله عَنهُ أَكثر) انْتَهَى قَالَ وَهَذَا مُرْسل وَقد رَوَاهُ الْحسن عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْتَهَى

(169/684)

قلت رَوَاهُ كَذَلِك عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أَنا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن إِسْمَاعِيل ابْن مُسلم عَن الْحسن الْبَصْرِيّ قَالَ قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مَا من خدش عود وَلَا عَثْرَة قدم وَلَا

اخْتِلَاج عرق إِلَّا بذنب وَمَا يعْفُو الله عَنهُ أَكثر) ثمَّ قَرَأَ وَمَا أَصَابَتْكُم من مُصِيبَة فبمَا كسبت أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَن كثير انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره حَدثنَا عَمْرو بن عبد الله الأودي ثَنَا أَبُو أُسَامَة عَن إِسْمَاعِيل بن مُسلم بِهِ

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث احْمَد بن عبد الْجَبَّار ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة الضَّرِير عَن إِسْمَاعِيل بن مُسلم بِهِ فَذكره بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره أَنا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد ابْن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة فَذكر بِلَفْظ الْبَيْهَقِيّ سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُحَمَّد بن بكير عَن ابْن فُضَيْل عَن الصَّلْت بن بهْرَام عَن أبي وَائِل عَن الْبَراء عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَذكره بِلَفْظ عبد الرَّزَّاق سَوَاء

1152 - الْحَدِيث التَّاسِع

عَن عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وَقد رَفعه من عُفيَ عَنهُ فِي الدُّنْيَا عُفيَ عَنهُ فِي الْآخِرَة وَمن عُوقِبَ فِي الدُّنْيَا لم يثن عَلَيْهِ الْعقُوبَة فِي الْآخِرَة

قلت رَوَى ابْن ماجة مَعْنَاهُ فِي سننه فِي كتاب الْحُدُود من حَدِيث يُونُس ابْن أبي إِسْحَاق

عَن أبي إِسْحَاق عَن أبي جُحَيْفَة عَن عَلّي قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من أصَاب ذَنبا فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ فَالله أعدل من أَن يثني عَلَى عَبده

(170/684)

عُقُوبَته وَمن أذْنب ذَنبا فَستر الله عَلَيْهِ وَعَفا عَنهُ فَالله أكْرم من أَن يعود فِي شَيْء عَفى عَنهُ) انْتَهَى

قَال ابْن طَاهِر فِي كَلَامه عَلَى أَحَادِيث الشهَاب رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن ماجة بِإِسْنَاد مُتَّصِل ثَابت انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَال صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْن وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ أَحْمد وَعبد بن حميد وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم وَكَذَلِكَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي سننه فِي آخر الْحُدُود وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السَّابِع وَالْأَرْبَعِينَ وَيُونُس ابْن أبي إِسْحَاق السبيعِي فِيهِ مقَال

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا عِيسَى بن يُونُس عَن إِسْمَاعِيل ابْن عبد الْملك بن أبي الصَّغِير الْمَكِّيّ عَن يُونُس بن حباب عَن عَلّي مَرْفُوعا بِلَفْظ الْحَاكِم

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1153 - قَوْله

عَن الْحسن قَالَ مَا تشَاور قوم قطّ إِلَّا هُدُوا لأَرْشَد أَمرهم

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتَاب الْأَدَب ثَنَا الْفضل بن دُكَيْن عَن إِيَاس بن دَغْفَل قَالَ قَالَ الْحسن فَذكره

وَعَن ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ عبد الله بن أَحْمد فِي كتَاب الزّهْد لِأَبِيهِ بسَنَدِهِ وَمَتنه

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب ثَنَا آدم بن أبي إِيَاس ثَنَا حَمَّاد بن زيد عَن الْحسن أَنه قَالَ وَالله مَا تشَاور قوم إِلَّا هُدُوا لأَفْضَل مَا يحضر بهم ثمَّ تَلا وَأمرهمْ شُورَى بَينهم انْتَهَى

وَذكره الْمُصَنّف فِي سُورَة آل عمرَان مَرْفُوعا وَذَكَرْنَاهُ هُنَاك للبيهقي بِمَعْنَاهُ

1154 - الْحَدِيث الْعَاشِر

(171/684)

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (إِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة نَادَى مُنَاد من كَانَ لَهُ عَلَى الله أجر فَليقمْ فَيقوم خلق فَيُقَال لَهُم مَا أجركُم عَلَى الله فَيَقُولُونَ نَحن الَّذين عَفَوْنَا عَمَّن ظلمنَا فَيُقَال لَهُم ادخُلُوا الْجنَّة بِإِذن الله تَعَالَى)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي كتَاب مَكَارِم الْأَخْلَاق وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السَّابِع

وَالْخمسين وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية من حَدِيث يَحْيَى بن خلف أبي سَلمَة الْبَاهِلِيّ ثَنَا الْفضل بن يسَار عَن غَالب الْقطَّان عَن الْحسن عَن أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِذا وقف الْعباد لِلْحساب يُنَادي مُنَاد لَهُم من كَانَ أجره عَلَى الله فَلْيدْخل الْجنَّة فَيُقَال وَمن ذَا الَّذِي أجره عَلَى الله فَيَقُول الْعَافُونَ عَن النَّاس فَقَامَ كَذَا وَكَذَا فَدَخَلُوهَا بِغَيْر حِسَاب) انْتَهَى

وَزَاد الْبَيْهَقِيّ ثمَّ قَرَأَ فَمن عَفا وَأَصْلح فَأَجره عَلَى الله انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي كِتَابه وَأَعله بِالْفَضْلِ بن يسَار وَقَالَ لَا يُتَابع عَلَى حَدِيثه وَقد رَوَى من غير هَذَا الْوَجْه بِإِسْنَاد أصلح من هَذَا انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ أَخْبرنِي مُحَمَّد بن عبد الله الْعدْل ثَنَا مُحَمَّد بن الْحُسَيْن بن بشر ثَنَا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن جَعْفَر بن جلاس الدّمَشْقِي ثَنَا أَبُو عبد الْملك أَحْمد بن إِبْرَاهِيم بن بشر الْقرشِي ثَنَا زُهَيْر بن عباد الرواسِي ثَنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن عَمْرو بن دِينَار عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة) إِلَى آخِره إِلَّا أَنه قَالَ عوض فَيقوم خلق فَيقوم عنق كَبِير

(172/684)

وَكَذَلِكَ أخرجه ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره عَن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم بن عبد الْملك الدّمَشْقِي ثَنَا زُهَيْر بن عباد بِهِ سندا ومتنا

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ أَيْضا فِي الْبَاب السَّادِس وَالْخمسين من حَدِيث خلف بن هِشَام ثَنَا أَبُو الْمطرف مُغيرَة الشَّامي عَن الْعَرْزَمِي عَن عَمْرو بن شُعَيْب عَن أَبِيه عَن جده قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِذْ جمع الله الْخَلَائق يَوْم الْقِيَامَة نَادَى مُنَاد أَيْن أهل الْفضل فَيقوم نَاس وهم يسير فَيَنْطَلِقُونَ سرَاعًا إِلَى الْجنَّة فَتَلقاهُمْ الْمَلَائِكَة فَيَقُولُونَ إِنَّا نرَاكُمْ سرَاعًا إِلَى الْجنَّة فَمن أَنْتُم فَيَقُولُونَ نَحن أهل الْفضل فَيَقُولُونَ وَمَا فَضلكُمْ فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذا ظلمنَا صَبرنَا وَإِذا أُسِيء علينا حملنَا فَيُقَال لَهُم ادخُلُوا الْجنَّة فَنعم أجر العاملين) انْتَهَى قَالَ الْبَيْهَقِيّ مَتنه غَرِيب وَإِسْنَاده ضَعِيف

1155 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن زَيْنَب أسمعت عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها بِحَضْرَة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانَ بَيْنَهَا فَلَا تَنْتَهِي فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لعَائِشَة (دُونك فَانْتَصِرِي)

(173/684)

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ بتغيير يسير من حَدِيث خَالِد بن سَلمَة عَن الْبَهِي عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت مَا علمت حَتَّى دخلت عَلّي زَيْنَب بِغَيْر إِذن وَهِي غَضْبَى ثمَّ قَالَت لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَسبك إِذا قلبت لَك ابْنة أبي بكر ذويبتيها ثمَّ أَقبلت عَلّي فَأَعْرَضت عَنْهَا حَتَّى قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (دُونك فَانْتَصِرِي) فَأَقْبَلت عَلَيْهَا حَتَّى رَأَيْتهَا قد يبس رِيقهَا فِي فِيهَا مَا ترد عَلَى شَيْئًا فَرَأَيْت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَتَهَلَّل وَجهه انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مَاجَه فِي سننه فِي النِّكَاح كَذَلِك إِلَّا أَنه قَالَ أَقبلت لَك بنية أبي بكر ذُرَيْعَتَيْهَا

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُسْنده وَقَالَ زيبعتيها

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل ولين خَالِد بن سَلمَة وَنقل عَن ابْن معِين أَنه قَالَ فِيهِ كَانَ ثِقَة إِلَّا أَنه كَانَ يبغض عليا

وَمَعْنَاهُ فِي سنَن أبي دَاوُد رَوَاهُ فِي كتاب الْأَدَب من حَدِيث عَلّي بن زيد ابْن جدعَان عَن أم مُحَمَّد امْرَأَة أَبيه زيد بن جدعَان عَن عَائِشَة قَالَت دخل عَلّي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعِنْدنَا زَيْنَب بنت جحش إِلَى أَن قَالَ فَأَقْبَلت زَيْنَب تقحم لعَائِشَة فَنَهَاهَا عَلَيْهِ السَّلَام فَأَبت أَن تَنْتَهِي فَقَالَ لعَائِشَة (سبيهَا) فَسَبَّتْهَا فغلبتها مُخْتَصر وَعلي بن زيد بن جدعَان لَا يحْتَج بِهِ وَأم مُحَمَّد هَذِه مَجْهُولَة

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره الْحَدِيثين الْمَذْكُورين بِسَنَدَيْهِمَا وَمَتْنهمَا سَوَاء

1156 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

(174/684)

رُوِيَ أَن الْيَهُود قَالُوا للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَلا تكلم الله وَتنظر إِلَيْهِ فَإِنَّا لن نؤمن لَك حَتَّى تفعل ذَلِك فَقَالَ (لم ينظر مُوسَى إِلَى الله) فأنزلت وَمَا كَانَ لبشر أَن يكلمهُ الله إِلَّا وَحيا

1157 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن عَائِشَة من زعم أَن مُحَمَّدًا رَأَى ربه فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة ثمَّ قَالَت أولم تسمعوا ربكُم وَمَا كَانَ لبشر أَن يكلمهُ الله إِلَّا وَحيا الْآيَة

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي الْإِيمَان من حَدِيث مَسْرُوق عَن عَائِشَة قَالَت ثَلَاث من تكلم بِوَاحِدَة مِنْهُنَّ فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة من زعم أَن مُحَمَّدًا رَأَى ربه فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة ثمَّ قَرَأَت لَا تُدْرِكهُ الْأَبْصَار وَهُوَ يدْرك الْأَبْصَار وَمَا كَانَ لبشر أَن ، يكلمهُ الله إِلَّا وَحيا أَو من

وَرَاء حجاب) وَمن زعم أَن مُحَمَّدًا يعلم مَا فِي غَد الْغَيْب فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة ثمَّ قَرَأَت وَمَا تَدْرِي نَفْس مَاذَا تكسب غَدا وَمن زعم أَن مُحَمَّدًا كتم شَيْئًا مِمَّا أوحى إِلَيْهِ

ربه فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة ثمَّ قَرَأت يأيها الرَّسُول بلغ مَا أنزل إِلَيْك الْآيَة انْتَهَى

وَتقدم فِي الْأَحْزَاب

1158 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ حم عسق كَانَ مِمَّن تصلي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَة وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ويسترحمون لَهُ)

(175/684)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ حم عسق كَانَ مِمَّن تصلي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَة وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَتَرَحَّمُونَ عَلَيْهِ) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان وَلَفظ الْمُصَنّف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 233.246 ﴾

(176/684)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة حم عسق

قوله تعالى : (مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها) ، الآية/ 20 ، هو معنى قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «من كانت هجرته إلى اللّه ورسوله ، فهجرته إلى اللّه ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه» «1» .

فيه دليل على أن من حج عن غيره ، لا يقع الحج عن الحاج ، ومن توضأ للتبرد والتنظيف لا يكون متوضئا للصلاة ، ولا يصح وضوءه عن جهة القربة شرعا .

قوله تعالى : (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى) ، الآية/ 23 .

قال قائلون في معناه : محبة الأقارب .

وقال قائلون : معناه إلا المودة في القربى إلى اللّه تعالى ، أي التقرب إلى اللّه عز وجل ، والمودة بالعمل الصالح ، ويدل عليه ما بعده : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً) .

---

(1) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

وقد قيل في معناه : قل لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوه مع القرابة التي بينكم وبينه «1» ، وخاطب بذلك قريشا ، لأن كل قريش كانت بينها وبين رسول اللّه عليه السلام رحم ماسة وقرابة .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) ، الآية/ 39 .

قال إبراهيم النخعي في معنى الآية : يكره للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق .

وقال السدي : هم ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا .

وقد ندبنا اللّه تعالى في مواضع من كتابه إلى العفو عن حقوقنا قبل الناس ، فمنها قوله تعالى : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى) «2» .

وقوله في شأن القصاص : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) «3» . وأحكام هذه الآي غير منسوخة .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) :

يدل ظاهره على أن الإنتصار في هذه المواضع أفضل ، ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة

للّه تعالى ، وإقام الصلاة ، وهو محمول على ما ذكره إبراهيم النخعي ، أنهم كانوا يكرهون للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق ، وهذا فيمن تعدى وأصر على ذلك . والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادما .

---

(1) انظر تفسير الطبري وتفسير الفخر الرازي ، والدر المنثور للسيوطي .

(2) سورة البقرة آية 237 .

(3) سورة النور آية 22 .

(178/684)

وقد قال عقيب هذه الآية : (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) ، الآية/ 41 .

يقتضي ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به ،

وقد عقبه بقوله تعالى :

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) ، الآية 43 :

وذلك محمول على الغفران عن غير المصر ، فأما المصر على البغي والظلم فالأفضل

الإنتصار منه بدلالة ما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 367.365﴾

(179/684)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة عسق» (42)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«حم عسق» (42) مجازها مجاز ابتداء أوائل السور . .

«يَتَفَطَّرْنَ «1»» (5) يتشققن ويقال للزجاجة إذا انصدعت : قد انفطرت وكذلك الحجر . .

«يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» (11) يخلقكم . .

«وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» (14) نصبها على مجاز نصب المصادر . .

«وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» (17) لم يجىء مجازها على صفة التأنيث فيقول إن

الساعة قريبة والعرب إذا وصفوها بعينها كذاك يصنعون وإذا أرادوا ظرفا «2» «3»

---

(1) . - 4 «يتفطرن» : قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد فى الطاء وهى قراءة العامة وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضل وابو عبيد ينفطرن من الانفطار (القرطبي 16/ 4) .

(2) . - 820 : لم أجده فى ديوانه .

(3) . - 821 : لم أجده فى ديوانه .

(180/684)

لها أو أرادوا بها الظرف جعلوها بغير الهاء وجعلوا لفظها لفظا واحدا فى الواحد والاثنين والجميع من الذكر والأنثى تقول هما قريب وهى قريب . .

«شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ» (21) ابتدعوا «1» . .

«ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ» (23) معناها يبشّر قال خفاف :

وقد غدوت إلى الحانوت أبشره

«2» [822] أي أبشّره . .

«وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا» (26) أي يجيب الذين آمنوا . .

«وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ» (32) أي الجبال . .

«إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ» (33) المعنى للجوارى . .

«رَوَاكِدَ» (33) سواكن . .

«أَوْ يُوبِقْهُنَّ» (34) يهلكهن . «3»

---

(1) . - 3 «ابتدعوا» : كما فى البخاري وأشار إليه ابن حجر بقوله : هو قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 433) .

(2) . - 822 : لا أدرى هل هذا البيت لخفاف وهو يشبه صدر بيت للأعشى أو هو من أوهام أبى عبيدة المعدودة . وبيت الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشلّ شلول شلشل شول

وهو من قصيدة جيدة للأعشى وهى أحسن شعره وقد ألحقت بالمعلقات السبع انظره فى ديوان الأعشى ص 45 وشرح العشر ص 148 .

(3) . - 823 : فى ديوانه الذي فى ملحق ديوان أعشى ميمون ص 337 .

«وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ» (38) أجابوا . .

«إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (43) ما عزمت عليه قال الخثعمىّ :

عزمت على إقامة ذى صباح لشىء ما يسوّد من يسود

«1» [824] .

«مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» (45) لا يفتح عينه إنما ينظر ببعضها . .

«يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً» (49) أي أنثى «وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ» (49) أي ذكرا . .

«أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً» (50) أنثى وأنثى وذكرا وذكرا أو ذكرا وأنثى . «2» «3» .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 199. 201 ﴾

---

(1) . - 824 : الخثعمي ، قال البغدادي هو أنس بن مدرك الخثعمي وهو جاهلى وصحفه ابن خلف فى شرح أبيات سيبويه بأوس بن مدرك وكلامه يطول على تحقيقه وانظر طرة العلامة الميمنى فى الخزانة (السلفية) 3/ 80 . والبيت فى الكتاب 1/ 95 والشنتمرى 1/ 116 وابن يعيش 122 والخزانة 1/ 476 ، 2/ 545 .

[. . . . .]

(2) . - 825 : ديوانه ص 64 .

(3) . - 826 : ديوانه ص 54 .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن حم عسق وهى السورة التي يذكر فيها «الشورى»

[سورة الشورى (42) : آية 13]

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)

قوله تعالى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [13] وهذه استعارة . والمراد بإقامة الدين إعلان شعاره ، وإعلاء مناره ، والدوام على اعتقاده ، والثبات على العمل بواجباته .

وقد مضى الكلام على نظائر هذه الاستعارة فيما تقدم .

[سورة الشورى (42) : آية 16]

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (16)

وقوله سبحانه : حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ [16] وهذه استعارة . والدحض : الزّلق . فكأنه تعالى قال : حجتهم ضعيفة غير ثابتة ، وزالّة غير متماسكة ، كالواطىء الذي تضعف قدمه فيزلق عن مستوى الأرض ، ولا يستمر على الوطء .

وداحضة هاهنا بمعنى مدحوضة . وإذا نسب الفعل إليها فى الدحوض كان أبلغ فى ضعف سنادها ، ووهاء عمادها . فكأنها هى المبطلة لنفسها من غير مبطل أبطلها ، لظهور أعلام الكذب فيها ، وقيام شواهد التهافت عليها . وأطلق تعالى اسم الحجة عليها وهى شبهة ، لاعتقاد المدلى بها أنها حجة ، وتسميته لها بذلك فى حال النزاع والمناقلة . وأيضا فإن المتكلم بها لما أوردها مورد الحجة ، وأسلكها طريقها ، وأقامها مقامها ، جاز أن يطلق عليها اسمها .

[سورة الشورى (42) : آية 20]

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20)

وقوله سبحانه : مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ

كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها ، وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ

[20] وهذه استعارة . والمراد بحرث الآخرة والدنيا كدح الكادح لثواب الآجلة وحطام العاجلة ، فهذا من التشبيه العجيب ، والتمثيل المصيب . لأن الحارث المزدرع إنما يتوقع عاقبة حرثه ، فيجنى ثمرة غراسه ، ويفوز بعوائد ازدراعه .

وقيل معنى : نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ أي نعطيه بالحسنة عشرا إلى ما شئنا من الزيادة على ذلك .

ومن عمل للدنيا دون الآخرة أعطيناه نصيبا من الدّنيا دون الآخرة .

[سورة الشورى (42) : آية 28]

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

وقوله سبحانه : وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ [28] وهذه استعارة . وليس المراد أن هناك رحمة كانت مطويّة فنشرت ، وخفيّة فأظهرت .

وإنما معنى الرحمة ها هنا الغيث المنزّل لإحياء الأرض ، وإخراج النّبت . ونشره عبارة عن إظهار النفع به ، وتعريف الخلق عواقب المصالح بموقعه .

[سورة الشورى (42) : آية 45]

وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (45)

وقوله تعالى : وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ [45]

وهذه استعارة. وقد أشرنا إليها فيما تقدم لمعنى جرّ ذكرها .

والمراد بذلك أن نظرهم نظر الخائف الذليل ، والمرتاب الظّنين . فهو لا ينظر إلا مسترقا ، ولا يغضى إلا مشفقا . وهذا معنى قولهم : فلان لا يملأ عينيه من فلان . إذا وصفوه بعظم الهيبة له ، وشدّة المخافة منه . فكأنهم لا ينظرون بمتّسعات عيونهم ، وإنما ينظرون بشفافاتها «1» . من ذلّهم ومخافتهم .

---

(1) لعلها جمع شفافة وهى بقية الشيء .

وقد يجوز أن يكون الطرف هاهنا بمعنى العين نفسها . فكأنه تعالى وصفهم بالنظر من عين ضعيفة ، على المعنى الذي أشرنا إليه ، أو يكون الطرف مصدر قولك : طرفت ، أطرف ، طرفا . إذا لحظت . فيكون المعنى أن لحظهم خفىّ ، لأن نظرهم استراق- كما قلنا أولا- من عظيم الخيفة ، وتوقّع العقوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 297 .

﴿ 299

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الشورى

بعد خمسة من حروف الهجاء فى أول سورة الشورى ، قال الله لنبيه "كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم" . إن الأنبياء يبعثون بلغات أممهم ، والكلمات تتكون بداهة من هذه الحروف المأنوسة ، وقد نزل القرآن على محمد بلسان عربى مبين ، ثم بلغه النبى صلى الله عليه وسلم كما أنزل إليه ، وفسره خلقا وسلوكا فى سيرته المشرقة .

وكذلك فعل أصحابه وتلامذته من بعده ، فهل محوا الشر من الأرض ، وهل صوبوا كل خطأ ؟ لقد بذلوا الجهد ، ولكن الأرض مذ دب عليها البشر نسيت الوحى أو تناسته ، وكانت كوكبا متمردا فى ملكوت يسبح بحمد خالقه " تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم " .

وقد ذكر الوحى وحملته أول السورة وآخرها ، وذكر خلالها ما كلفت به الأمة العربية من واجبات بعد ما اصطفاها الله لختام الوحى ، وشرحت علاقتها بأهل الكتاب الأولين . " وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير " . ومعروف أن الإسلام دين عام خالد ، وأنه للقارات

الخمس إلى آخر الدهر ، ولكن لابد من نقطة ارتكاز يبدأ منها انطلاقه ، فكانت نقطة البداية " أم القرى ومن حولها " . أما ميدان البلاغ فهو العالم كله شرقه وغربه ، وقد أدى محمد وصحابته واجبهم ، وما مضى نصف قرن على البعثة حتى كان الإسلام قد بلغ المشارق والمغارب ، وأسقط أعلام الأمم المستكبرة التى استعمرت آسيا وإفريقية ! فما خبر حملة الوحى الأول ؟ أما اليهود فقد انقطعت صلتهم بالدعوة إلى الله ، وجعلوا الدين ميراثا قوميا يتأكلون به

(186/684)

ويفخرون ، وأما النصارى فقد غلبتهم على حقائق الوحى فلسفات التعدد والفداء ، والحديث الطويل عن ابن الله ! ! وقد جاء الإسلام فأعلن صلته الوثقى بموسى وعيسى ، وقرر أنه يؤكد ويجدد الوحى الذى أرسلا به " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب " . والواقع أن دين الله واحد من بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . رب تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وعباد خلقهم بقدرته ورباهم بنعمته ليس بينهم من يفارقه

وصف العبودية ، وأقربهم إليه منزلة أكثرهم له سجودا ، وأشدهم له رغبة ورهبة . وهذا المعنى شائع فى القرآن طولا وعرضا ، وهو لب دين محمد . . وقد عرفنا صدق محمد بعدما عرفنا الله بعقولنا ، وبعدما رأينا الوحى المحمدى طابق العقل !ا نسب لله من حمد ومجد ، ولم يقصر أنملة فى تقديسه وتوحيده ! إن العقل أفضل مواهب البشر وما جرى على لسان محمد صورة طبق الأصل لما ينبغى لله من عظمة وخشوع وفق أدق مقاييس العقل البشرى . فلنترك الحاقدين على محمد يكذبونه ، فإن إساءتهم له نابعة من إساءتهم لمولاه ! ! " وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب " . فما العمل من هؤلاء الكتابيين الجائرين ؟ لا تنشغل بأحقادهم ولا تتجاوب معهم وامض فى طريقك هاديا ومقسطا " فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير " . وقد مضى الإسلام فى طريق الدعوة الحسنة والتفكير الواعى ، واستجابت له جماهير أهل الكتاب فى آسيا

(187/684)

الوسطى وشمال إفريقية ، كما ثاب الوثنيون إلى رشدهم فى إيران وآذربيجان والهند والصين . لقد انزاحت السدود أمام الفيضان ، فانطلق . ومع ذلك فقد بقى الآن فى أوربا وأمريكا من يكابرون الحق ويحاربون التوحيد ويضيقون

بمحمد ، ليكن ، فلن يضيروا الله شيئا " والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد " . وعاد الوحى مرة أخرى يحكى أقاويل خصوم الإسلام وخصوم محمد " أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور " . أى لو كان محمد كاذبا ما تركه الله يفترى عليه وينسب إليه هذا الدين الخطير ، بل لسلبه العقل ، ومحا ما ادعاه ! وهذا مثل قوله تعالى فى سورة أخرى " ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين " . ولكن الإسلام استبحر وشق طريقه حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار . ولا يزال الأذان فى كل قطر يشهد لله بالوحدة ولمحمد بالصدق ، كأنه ساعة تحصى الزمان لا يتوقف لها دق . ولقد كذب على الله بعض الناس وزوروا عليه وحيا مضحكا ، فماذا كان مصيرهم ؟ لقد امَّحى أثرهم وانقضى زيفهم ، وبقى الخلود للحق وحده . . يصنع الإسلام من أفراد الأمة ربانيين يجعلون الله غايتهم ورضوانه أملهم والاستعداد للقائه شغلهم ! هل معنى ذلك أنه يصنع أمة دراويش ؟ كلا إنه يصنع أمة كدح وجهاد تخدم الدنيا والآخرة معا . والمهم أنها

عندما تباشر شئون الحياة تدرك أن الله رقيب عليها ، وأنها مسئولة عن إحسان كل ما يخرج من بين أصابعها ، ولها على ذلك خير الدنيا والآخرة " وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله . . " . والفرق واسع بين مجتمع يعبد التراب وآخر يرمق رب الأرباب ! ولذلك فإن السورة هنا ذكرت المؤمنين بعظمة بديع السموات

(188/684)

والأرض ، وساقت من الآيات ما يربط الألباب والقلوب بعظمته " وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته . . " . " ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة . . . " . " ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام " .

والآيات المذكورة تشير إلى القوانين الطبيعية التى تحكم البحار ، وما يطفو فى عبابها من سفن ، كما أنها تشير إلى قوانين الجاذبية التى تحكم الأجرام السماوية كلها . ونحن نعلم أن السماوات ملأى بالملائكة المسبحة بحمد الله أبدا ، فهل هناك كائنات أخرى ؟ هناك الجن وهو عالم آخر مكلف مثلنا . وربما كانت هناك مخلوقات أخرى سوف نجتمع بها يوما ، لا ننفى ولا نثبت ، المهم أن نحسن العيش على الأرض التى مهدها الله لنا ، واختبرنا فوق

ثراها . والغريب أن الحضارة الحديثة – مع تفوقها على الحضارات السابقة – عصفت بها الأهواء التى عصفت بالأمم البائدة ، فلم تنجح فى مضمار الفضيلة والعدالة . وتحذيرا من ذلك تذكر السورة تسع خصال لابد منها كى ينجو الناس من الغضب الإلهى " فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى (1) للذين آمنوا (2) وعلى ربهم يتوكلون * (3) والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش (4) وإذا ما غضبوا هم يغفرون * (5) والذين استجابوا لربهم (6) وأقاموا الصلاة (7) وأمرهم شورى بينهم (8) ومما رزقناهم ينفقون * (9) والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين " (10) . وربما ضحكت الدنيا للطغاة والمجرمين ، فعاشوا وافرين مراحين ، فما قيمة ذلك ؟ " قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين " . من حق الناس أن يروا بينهم أمة تصون الوحى ، وترعى أمره ونهيه وتقيم موازينه فى كل مكان ، والأمة العربية التى شرفت بالوحى الخاتم جديرة أن تتبوأ هذا المنصب ! وقد قامت أول أمرها بحقوقه ، ولكنها على مر الأيام نسيت ، بل

جهلت ! ! وفى عصرنا هذا رأينا عجبا ، رأينا العرب يبتعدون عن الإسلام ويعتزون بقوميتهم . . وتفرست فى هذه القومية المزعومة ، ووضعت يدى فى جرابها ، فوجدت زهدا فى الإسلام وفى لغته الفصحى على حد سواء ! وباسم القومية العربية ، ازدهرت الإنجليزية والفرنسية والعامية ، وذيلت لغة القرآن وتقهقرت ، واخترعت آداب خالية من القيم المحترمة ، وفرض على الأمة الكبيرة أن تعيش بلا روح ولا تاريخ ولا شعائر ولا شرائع . لقد نجح الإلحاد فى طى صفحتها المشرقة ، وهو مصر على سياسته ، وهيهات فلن نقبل ذلك .

(190/684)

وقد استمعت فى هذه السورة إلى تنبيه للعرب وتحذير يقول الله فيه " استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير * فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ . . . " . ومما يزيد السخط أن عرب اليوم تهى علاقتهم بالإسلام فى وقت يزداد اليهود وغيرهم تعلقا بمواريثهم ، أى أن العقائد كلها تنتعش إلا الإسلام وحده فمحكوم عليه بالانكماش . بل مطلوب له التلاشى ! وكما بدأت سورة الشورى بالحديث عن الوحى الإلهى ، ختمت بالحديث عنه ؟ فبينت أولا كيف يقع

الوحى " وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم " . وليس كل بشر يرشح للوحى ، بل يصطفى الله له طبائع خاصة ومعادن قوية ، والأنبياء ليسوا سواء فى طاقاتهم واستعداداتهم ، كما أن نجوم السماء ليست سواء فى أحجامها وأشعتها . والذى يكلف بهداية مدينة غير الذى يكلف بهداية قطر غير الذى يكلف بهداية العالم على كر العصور . وقد بعث الله محمدا بكتاب فيه شفاء الإنسانية على اختلاف الزمان والمكان ، وقد بلغ الكتاب علما ، وأقامه دولة ، وورثه حضارة ، وتركه حصانة للعالم أجمع من الزيغ والتردى " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 374 . 378 ﴾

(191/684)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والثمانون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الشورى

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من نفس السورة

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/685)

قوله تعالى ﴿ حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي أحاط بصفات الكمال ، فنفذ أمره ، فاستجاب له كل شيء طوعاً أو كرهاً (الرحمن) الذي عمت رحمته فهيأت عباده لقبول أمره (الرحيم) الذي خص اولياءه بما ترتضيه الإلهية من رحمته ، فجمع كلمتهم على دينه عقداً وفعلاً ومآلاً)

﴿ حم عسق ﴾ هذه الحروف يجوز أن تكون إشارة إلى كلمات منتظمة من كلام عظيم يشير إلى أن معنى هذا الجمع يجوز أن يقال : حكمة محمد علت وعمت فعفت سقام القلوب ، وقسمت حروفها قسمين موافقة لبقية أخواتها وبعدها آيتين ، ولم تقسم ﴿ كهيعص ﴾ لأنها آية واحدة ولا أخت لها ولم تقسم ﴿ المص ﴾ مثلاً وإن كان لها أخوات لأنها آية واحدة ، ولم يعد في شيء من القرآن حرف واحد آية ، ويجوز أن يعتبر مفردة فتكون إشارة إلى أسرار تملأ الأقطار ، وتشرح الصدور والأفكار ، فإن نظرت إلى مخارجها وجدتها قد حصل الابتداء فيها بأدنى وسط الحلق إلى اللسان باسم الحاء وثنى بأوسط حروف الشفة وهي الميم وحصل الرجوع إلى وسط الحلق بأقصاه من اللسان في اسم العين ، وهو جامع للحلق واللسان ، وقصد رابعاً إلى اللسان بالسين التي هي من أدناه إلى الشفتين وهو رأسه ولها التصاق بالشفتين واتصال بأعلى الفم ففيها بهذا الاعتبار جمع ثم جعل بعد هذا الظهور بطوناً إلى أصل اللسان ، وهو أقصاه من الشفة بالقاف ، ولاسم هذا الحرف جمع بالابتداء بأصل اللسان مع سقف الحلق والاختتام بالشفة العليا والثنيتين السفليين ، ففي هذه الحروف ثلاثة وهي أكثرها لها نظر بما فيها من الجمع إلى مقصود

السورة ، وقد اتسق الابتداء فيها فيما كان من حرفين جمعهما مخرج بالأعلى ثم بالأدنى إشارة إلى أنه يكون لأهل هذا الدين بعد الظهور بطون كما كان في أول الإسلام حيث حصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقاربه في الشعب ، وذلك أيضاً إشارة إلى أنه من تحلية الظاهر ينتقل إلى تصفية الباطن من زين ظاهره بجمع الأعمال الصالحة صحح الله باطنه بالمراقبة الخالصة الناصحة على أن في هذا التدلي بشرى بأن الحال الثاني يكون أعلى من الأول ، كما كان عند الظهور من الشعب بما حصل من نقض الصحيفة الظالمة الذي كان الضيق سبباً له ، لأن الثاني من مراتب هذه الحروف أقوى صفة مما هو أعلى منه مخرجاً ، فإن الحاء لها من الصفات الهمس

(7/685)

والرخاوة والاستفال والانفتاح والميم له من الصفات الجهر والانفتاح والاستفال وبين الشدة والرخاوة ، والعين لها من الصفات ما للميم سواء ، والسين لها من الصفات ما للحاء ، وتزيد بالصفير ، والقاف له من الصفات الجهر والشدة والانفتاح والاستعلاء والقلقلة فالحرف الأول أكثر صفاته الضعف ، ويزيد بالإمالة التي قرأ بها كثير من القراء ، والثاني والثالث على السواء ، وهما إلى القوة أرجح قليلاً ، وذلك كما تقدم من وسط الحال عند

الخروج من الشعب ، والرابع فيه قوة وضعف وضعفه أكثر ، فإن فيه للضعف ثلاث صفات وللقوة صفتين ، وذلك كما كان حال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند آخر أمره بمكة المشرفة حين مات الوزيران خديجة ـ رضى الله عنه ـ ا وأبو طالب لكن ربما كانت الصفتان القويتان عاليتين على الصفات الضعيفة بما فيهما بالانتشار بالصفير والجمع الذي مضت الإشارة إليه من الإشارة إلى ضخامة تكون باجتماع أنصار كما وقع من بيعة الأنصار ، والخامس وهو الأخير كله قوة كما وقع بعد الهجرة عند اجتماع الكلمة وظهور العظمة ، كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(8/685)

" فلما هاجرنا انتصفنا من القوم وكانت سجال الحرب بيننا وبينهم " ثم تكاملت القوة عند تكامل الاجتماع بعد قتال أهل الردة بعد موته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا جرم انتشر أهل هذا الدين في الأرض يميناً وشمالاً ، فما قام لهم مخالف ، ولا وافقتهم أمه من الأمم على ضعف حالهم وقلتهم وقوة غيرهم وكثرتهم إلا دمروا عليهم فجعلوهم كأمس الدار ، وقد جمعت هذه الحروف كما مضى وصفي المجهورة والمهموسة كانت المجهورة أغلبها إشارة إلى ظهور هذا الدين على كل دين كما حققه شاهد الوجود ، وصنفي المنقطوطة والعاطلة ،

وكانت كلها عاطلة إلا حرفاً واحداً ، إشارة إلى أن أحسن أحوال المؤمن أن يكون أغلب أحواله محواً لا يرى له صفة من الصفات بل يعد في زمرة الأموات وإلى أن المتحلي بالأعمال الصالحة الخالصة من أهل القلوب من أرباب هذا الدين قليل جداً ، وكان المنقوط آخرها إشارة إلى أن نهاية المراتب عند أهل الحق الجمع بعد المحو والفرق وكان حرف الشفة من بين حروفها الميم ، وهي ذات الدائرة المستوية الاستدارة إشارة إلى أن لأهل هذا الدين من الاجتماع فيه والانطباق عليه والإطافة به والإسراع إليه ما ليس لغيرهم وإلى أن هم من القدم الراسخ في القول المقتطع من الفم المختتم بالشفتين ما لا يبلغه غيرهم بحيث أنه لا نهاية له مع حسن استنارته بتناسب استدارته ، ثم إنك إذا بلغت نهاية الجمع في هذه الأحرف بأن جمعت أعداد مسمياتها وهو مائتان وثمانية وسبعون وفي السنة الموافقة لهذا العدد كانت ولادتي ، فكان الابتداء في هذا الكتاب الديني حينئذ بالقوة القريبة من الفعل وسنة ابتدائي فيه بالفعل وهي سنة إحدى وستين في شعبان كان سني إذا ذاك قد شارف أربعاً وخمسين سنة ، وهو موافق لعدد حرفي ﴿ دن ﴾ أمراً من الدين الذي هو مقصود السورة ، فكأنه أمر إذ ذاك بالشروع في الكتاب ليحصل مقصودها ، وسنة وصولي إلى هذه السورة وهي سنة إحدى وسبعين في شعبان منها كان سني قد شارف أربعاً

(9/685)

وستين سنة ، وهو عدد موافق لعدد أحرف ﴿ دين ﴾ الذي هو مقصود السورة ، فأنا أرجو بهذا الاتفاق الغريب أن يكون ذلك مشيراً إلى أن الله تعالى يجمع بكتابي هذا الذي خصني بإلهامه وادخر لي المنحة بحله وإبرامه ، واعتناقه والتزامه ، أهل هذا الدين القيم جمعاً عظيماً جليلاً جسيماً ، يظهر له أثر بالغ في اجتماعهم وحسن تأسيهم برؤوس نقلته وأتباعه ، ومن الآثار الجليلة في لحظها للجمع أنه لما كان مقصود سورة مريم عليها السلام بيان اتصاف الرحمن ، المنزل لهذا القرآن ، بشمول الرحمة لجميع الأكوان ، وكانت هذه السورة لرحمة خاصة من آثار تلك الرحمة العامة ، وهي الاجتماع على هذا الدين المراد ظهوره وعلوه على كل دين وقهره لكل أمر ، فكان لذلك محيطاً قاهراً لحظ كل قاهر وظالم ، وكانت هذه الرحمة الخاصة – لنسبتها إلى الخلق – ثانية لتلك العامة ومنشعبة منها ، كانت لكونها من أوصاف الخلق بمنزلة اليسار ، وتلك لكونها من صفة الحق بمنزلة اليمين ، لذلك – والله أعلم – قال الاستاذ أبو الحسن الحرالي في كتاب له في الحرف : ولما كان ذلك – أي هذه الاسم المجتمع من هذه الأحرف المقطعة – أول هذه السورة مما ينسب إلى أمر الشمال كان متى وضع على أصابع اليسار ثم وضعت على هانجة ظلم أو جور استولى عليه بحكم إحاطة حكمة الله ، وكانت خمسها مضافة إلى خمس ﴿ كهيعص ﴾ المستولية على

حكمة اليمين محيطاً ذلك بالعشر المحيط بكل الحكمة التي مسندها الياء الذي هو أول العشر ومحل الاستواء بما هو عائد وحدة الألف - انتهى .

(10/685)

ولما كانت هذه الحروف - والله أعلم - مشيرة إلى الاجتماع كما أشار إليه آخر السورة الماضية ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا الإيحاء العظيم الشأن الذي أخبرك به ربك صريحاً أول " فصلت " من أن الإله إله واحد وآخرها من أنه ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، ومن أنه يجمع أمتك على هذا الدين بما يتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق بما يريهم من الآيات البينات والدلالات الواضحات في الآفاق وفي أنفسهم وبشهادته سبحانه باعجاز القرآن لجميع الإنس والجان ولا سيما إذا أقدم ضال على معارضته كمسيلمة فإنه يتبين لهم الأمر بذلك غاية البيان " وبضدها تتبين الأشياء " ورمز لك به سبحانه تلويحاً اول هذه السورة بهذه الأحرف المقطعة التي هي أعلى وأغلى من الجواهر المرصعة - إلى مثل ذلك ، فهما نوعان من الوحي : صريح وعبارة ، وتلويح وإشارة .

ولما كان المقصود الإفهام لأن الإيحاء منه سبحانه عادة مستمرة إلى جميع أنبيائه ورسله

والبشارة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتجديده له ، مدة حياته تثبيتاً لفؤاده ، ودلالة على دوام وداده ، عبر بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار ، وتقدم في أول البقرة نقلاً عن أبي حيان ومن قبله الزمخشري وغيره أنه قد لا يلاحظ منه زمن معين ، بل يراد مطلق الوجود فقال : ﴿ يوحى إليك ﴾ أي سابقاً ولاحقاً ما دمت حياً لا يقطع ذلك عنك أصلاً توديعاً ولا قلى بما يريد من أمره مما يعلي لك مقدارك ، وينشر أنوارك ويعلي منارك .

ولما كان الاهتمام بالوحي لمعرفة أنه حق - كما أشارت إليه قراءة ابن كثير بالبناء للمفعول - والموحي إليه لمعرفة أنه رسول حقاً وكان المراد بالمضارع مجرد إيقاع مدلوله لا يفيد الاستقبال صح أن يتعلق به قوله مقدماً على الفاعل : ﴿ وإلى الذين ﴾ والقائم مقام الفاعل في قراءة ابن كثير ضمير يعود على "كذلك" .

(11/685)

ولما كان الرسل بعض من تقدم في بعض أزمنة القبل ، ادخل الجار فقال : ﴿ من قبلك ﴾ أي من الرسل الكرام والأنبياء الأعلام ، بأن أمتك أكثر الأمم وأنك أشرف الأنبياء ، وأخذ على كل منهم العهد باتباعك ، وأن يكون من أنصارك وأشياعك .

ولما قدم ما هو الأهم من الوحي والموحى إليه ، أتى بفاعل ﴿ يوحي ﴾ في قراءة العامة

فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال .

.

وهو مرفوع عند ابن كثير بفعل مضمر تقديره الذي يوحيه .

ولما كان نفوذ الأمر دائراً على العزة والحكمة قال : ﴿ العزيز ﴾ أي الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي يضع ما يصنعه في أتقن محاله ، فلأجل ذلك لا يقدر على نقض ما أبرمه ، ولا نقص ما أحكمه .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمنت سورة غافر ما تقدم من بيان حالي المعاندين والجاحدين ، وأعقبت بسورة السجدة بياناً أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمه وإيضاحاً لأنه الكتاب العزيز وعظيم برهانه ، ومع ذلك فلم يجد على من قضى عليه تعالى بالكفر ، اتبعت السورتان بما اشتملت عليه سورة الشورى من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم الأزلية ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ ﴿ ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم ﴾ ﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ ﴿ نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ فتأمل هذه وما التحم بها مما لم يجر في السورة المتقدمة منه إلا النادر ، ومحكم ما

استجره ، وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها ، يلح لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها .

(12/685)

ولما ختمت سورة السجدة بقوله تعالى ﴿ إلا أنهم في مرية من لقاء ربهم ﴾ أعقبها سبحانه بتنزيهه وتعاليه عن ريبهم وشكهم ، فقال تعالى ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ﴾ كما أعقب بمثله في قوله تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدا تكاد السماوات يتفطرن منه ولما تكرر في سورة حم السجدة ذكر تكبر المشركين وبعد انقيادهم في قوله تعالى ﴿ فأعرض أكثرهم وقالوا قلوبنا في أكنة ﴾ إلى ما ذكر تعالى من حالهم المنبئة عن بعد استجابتهم فقال تعالى في سورة الشورى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ - انتهى .

ولما أخبر سبحانه أنه صاحب الوحي بالشرائع دائماً قديماً وحديثاً ، علل ذلك بأنه صاحب الملك العام فقال : ﴿ له ما في السماوات ﴾ أي من الذوات والمعاني ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك .

ولما كان العلو مستلزماً للقدرة قال : ﴿ وهو العلي ﴾ أي على العرش الذي السماوات فيه

علو رتبة وعظمة ومكانة لا مكان وملابسة ، فاستلزم ذلك أن تكون له السماوات كلها والأراضي كلها مع ما فيها ﴿ العظيم ﴾ أي فلا يتصور شيء في وهم ولا يتخيل في عقل إلا وهو أعظم منه بالقهر والملك ، فلذلك يوحي إلى من يشاء بما يشاء من إقرار وتبديل ، لا اعتراض لأحد عليه .

(13/685)

ولما كان السياق مفهماً عظيم ملكه سبحانه وقدرته بكثرة ما في الأكوان من الأجسام والمعاني التي هي لفظاعتها لا تحتمل ، قال مبيناً لذلك : ﴿ تكاد السماوات ﴾ أي على عظم خلقهن ووثاقة إبداعهن ، وفلقهن بما أعلم به الواقع ، ونبه عليه بتذكير ﴿ تكاد ﴾ في قراءة نافع والكسائي ﴿ يتفطرن ﴾ أي يتشققن ويتفرط أجزاؤهن مطلق انفطار في قراءة من قرأ بالنون وخفف وهم هنا أبو عمرو ويعقوب وشعبة عن عاصم ، وتفطراً شديداً في قراءة الباقين بالتاء المثناة من فوق مفتوحة وتشديد الطاء ، مبتدئاً ذلك ﴿ من فوقهن ﴾ الذي جرت العادة أن يكون أصلب مما تحته ، فانفطار غيره من باب الأولى ، وابتداء الانفطار من ثم لأن جهة الفوق أجدر بتجلي ما يشق حمله من عظيم العظمة والجلال والكبرياء والعزة التي منها ما يحمل من الملائكة الذين لا تسع عقولهم وصفهم على ما عليه

من كل واحد منهم من عظم الخلق في الهيئة والطول والمتانة والكبر إلى غير ذلك مما لا يحيط به علماً إلا الذي يراهم بحيث إنّ أحدهم إذا أشير له إلى الأرض حملها كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا فيه ملك قائم يصلي " ومن غير ذلك من العظمة والكبرياء والجبروت والعلاء ، أو يكون انفطارهن من عظيم شناعة الكفر بالذي خلق الأرض في يومين وجعلهم له أنداداً كما قال في السورة المناظرة لهذه سورة مريم ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ [آية : 90-91] ونقص ما في هذه عن تلك لأنه لم يذكر هنا للولد ، وهذا كناية عن التخويف بالعذاب لأن من المعلوم أن العالي إذا انفطر تهيأ للسقوط ، فإذا سقط أهلك من تحته فكيف إذا كان من العلو والعظم وثقل الجسم على صفة لا يحيط بها إلا بارئها ، فذكر الفوق تصوير لما يترتب على هذا الانفطار من البلايا الكبار ، وعلى هذا يحسن أني يعود الضمير على الأراضي التي كفروا بفاطرها .

(14/685)

ولما بين أن سبب كيدودة انفطارهن حلالة العظمة التي منها كثرة الملائكة وشناعة الكفر ، بين لها سبباً آخر وهو عظيم قولهم ، فقال : ﴿ والملائكة ﴾ أي والحال أنهم ، وعدل عن

التأنيث مراعاة للفظ إلى التذكير وضمير الجمع ، إشارة إلى قوة التسبيح وكثرة المسبحين فقال : ﴿ يسبحون ﴾ أي يوقعون التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى ملتبسين ﴿ بحمد ربهم ﴾ أي بإثبات الكمال للمحسن إليهم تسبيحاً يليق بما لهم - بما أشارت إليه الإضافة دائماً لا يفترون ، فلهم بذلك زجل وأصوات لا تحملها العقول ، ولا تثبت لها الجبال ، فلا تستبعدن ذلك ، فكم من صاعقة سمعتها من السحاب فرجت لها الأرض فتصدعت لها الأبنية المتينة والجبال الصلاب ، ولفت القول إلى صفة الإحسان لمدح الملائكة بالإشارة إلى أنهم عرفوا إحسان المحسن وعملوا في الشكر بما اقتضاه إحسانه فصار تعريضاً بذم الكفرة بما غطوا من إحسانه ، وتذرعوا من كفرانه .

ولما كانوا لما عندهم من العلم بجلال الله سبحانه يستحيون منه سبحانه كما يفعل أهل الأرض ويقولون ما لا يليق بحضرته الشماء وجنابه الأسمى ، وكانوا يعلمون مما جادلهم سبحانه عنهم أن له بهم عناية ، فكانوا يرون أن الأقرب إلى رضاه الاستغفار لهم ، فلذلك عبر عنهم سبحانه بقوله حاذقاً ما أوجبه السياق في ﴿ غافر ﴾ من ذكر الإيمان ، إشارة إلى أن أقرب الخلق من العرش كأبعد الناس في الإيمان المشروط بالغيب إبلاغاً في التنزيه لأنه لا مقتضى له هنا : ﴿ ويستغفرون ﴾ أي وهم مع التسبيح يطلبون الغفران ﴿ لمن في الأرض ﴾ لما يرون من شدة تقصيرهم في الوفاء بحق تلك العظمة ، التي لا تضاهى ، أما

للمؤمن فمطلقاً ، وأما للكافر فبتأخير المعالجة ، وكذا لبقية الحيوانات ، وذلك لما يهولهم مما يشاهدونه من عظمة ذي الكبرياء وجلالة ذي الجبروت .

(15/685)

قال ابن برجان : لم يشأ الله جل ذكره كون شيء إلا قيض ملائكة من عباده يشفعون في كونه ، وكذلك في إبقاء ما شاء إبقاءه وإعدام ما شاء إعدامه ، وهذه أصول الشفاعة فلا تكن من الممترين ، وألطف من ذلك أن تكون كيدودة انفطارهن في حال تسبيح الملائكة واستغفارهم لما يرين من فوقهن من العظمة ، ومن تحتهن من ذنوب الثقلين ، فلولا ذكرهم لتفطرن وحضر العذاب ، فعوجل الخلق بالهلاك ، وقامت القيامة ، وقضي الأمر ، وإذا كانت كيدودة الانفطار مع هذا التنزيه والاستغفار ، فما ظنك بما يكون لو عرى الأمر عنه وخلا منه ، ولذلك ذكر العموم هنا ولم يخص المؤمنين بالاستغفار كما في ﴿ غافر ﴾ لما اقتضاه السياق هنا من العموم ، ولأن مقصود غافر تصنيف الناس في الآخرة صنفين وتوفية كل ما يستحقه فناسب ذلك إفراد الذين تلبسوا بالإيمان ومقصود هذه الجمع على الدين في الدنيا فناسب الدعاء للكل ليجازى كل بما يستحقه من إطلاق المغفرة في الدارين للمؤمن وتقييدها بالتأخير في الدنيا للكافر .

ولما كانت أفعال أهل الأرض وأقوالهم عظيمة المخالفة لما يرضيه سبحانه فهم يستحقون المعاجلة بسببها ، أجاب من كأنه قال : هذا يستجاب لهم في المؤمنين ، فكيف يستجاب لهم في الكافرين ليجمع الكلام التهييب والتهويل في أوله والبشارة واللطف والتيسير في آخره ، فقال لافتاً القول عن صفة الإحسان إلى الاسم الأعظم تعريفاً بعظيم الأمر حملاً على لزوم الحمد وإدامة الشكر : ﴿ ألا إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال ، فله جميع العظمة ، وأكد لأن ذلك لعظمه لا يكاد يصدق ﴿ هو ﴾ أي وحده ، ورتب وصفيه سبحانه على أعلى وجوه البلاغة فبدأ بما أفهم إجابة الملائكة وأتبعه الإعلام بمزيد الإكرام فقال : ﴿ الغفور الرحيم ﴾ أي العام الستر والإكرام على الوجه الأبلغ أما لأهل الإيمان فواضح دنيا وآخرة ، وأما لأهل الكفران ففي الدنيا فهو يرزقهم ويعافيهم ويملي لهم ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ [فاطر : 45] وأما غير الله فلا يغفر لأهل معصيته ، ولو أراد ذلك ما تمكن .

ولما كان التقدير : فالذين تولوه وماتوا في ولايته فهو يغفر ذنوبهم بمعنى أنه يزيلها عيناً وأثراً ، عطف عليه قوله : ﴿ والذين اتخذوا ﴾ أي عالجوا فطرهم الأولى وعقولهم حتى أخذوا

﴿ من دونه ﴾ أي من أدنى رتبة من رتبته ﴿ أولياء ﴾ يعبدونهم كالأصنام وكل من اتبع هواه في شيء من الأشياء ، فقد اتخذ الشيطان الآمر له بذلك ولياً من دون الله بمخالفة أمره .

(17/685)

ولما كان ما فعلوه عظيم البشاعة ، اشتد التشوف إلى جزائهم عليه فأخبر عنه سبحانه بقوله معبراً بالاسم الأعظم إشارة إلى وضوح ضلالهم وعظم تهديدهم معرياً له عن الفاء لئلا يتوهم أن الحفظ مسبب عن الاتخاذ المذكور عادلاً إلى التعبير بالجلالة تعظيماً لما في الشرك من الظلم وتغليظاً لما يستحق فاعله من الزجر : ﴿ الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿ حفيظ عليهم ﴾ أي رقيب وراع وشهيد على اعمالهم ، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم ، فهو إن شاء أبقاهم على كفرهم وجازاهم عليه بما أعده للكافرين ، وإن شاء تاب عليهم ومحا ذلك عيناً وأثراً ، فلم يعاقبهم ولم يعاتبهم ، وإن شاء محاه عيناً وأبقى الأثر حتى يعاتبهم ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي حتى يلزمك أن تراعي جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم ، فتحفظها وتقسرهم على تركها ونحو ذلك مما يتولاه الوكيل مما يقوم فيه مقام

الموكل سواء قالوا ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ أو قالوا ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ أو غير ذلك.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 593. 598 ﴾

(18/685)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله:

القراءات: ﴿ يوحي ﴾ على البناء للمفعول: ابن كثير وعباس ﴿ يكاد ﴾ بالياء التحتانية: نافع وعلي ﴿ تنفطرن ﴾ بالنون: أبو عمرو وسهل ويعقوب وأبو بكر وحماد والمفضل ﴿ إبراهام ﴾ كنظائره. ﴿ يبشر الله ﴾ مخففاً من البشارة: ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعلي.

(19/685)

الوقوف: ﴿ حم عسق ﴾ كوفي ﴿ من قبلك ﴾ ط لمن قرأ ﴿ يوحى ﴾ مجهولاً كأنه قيل: من الموحي فقال الله أي هو الله ﴿ الحكيم ﴾ 5 ﴿ في الأرض ﴾ ط ﴿ العظيم

﴿ 5 ﴾ لمن في الأرض ﴾ ط ﴿ الرحيم ﴾ 5 ﴿ عليهم ﴾ ز والوصل أوجه لأن نفي ما بعده تقرير لإثبات ما قبله ﴿ بوكيل ﴾ 5 ﴿ لا ريب فيه ﴾ ط ﴿ السعير ﴾ 5 ﴿ رحمته ﴾ ط ﴿ نصير ﴾ 5 ﴿ أولياء ﴾ ج للفصل بين الاستخبار والأخبار مع دخول الفاء ﴿ الموتى ﴾ ط فصلاً بين المقدور المخصوص وبين القدرة على العموم مع اتفاق الجملتين ﴿ قدير ﴾ 5 ﴿ إلى الله ﴾ ط ﴿ أنيب ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ أزواجاً ﴾ الثاني ط لأن ضمير ﴿ فيه ﴾ يحتمل أن يعود إلى الازدواج الذي في مدلول الأزواج أو إلى التدبير وإن لم يسبق ذكره ﴿ فيه ﴾ ط ﴿ شيء ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ البصير ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ج لاحتمال ما بعده الاستئناف والحال والعامل معنى الفعل في له أو في الملك. ﴿ ويقدر ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ فيه ﴾ ط ﴿ إليه ﴾ ط ﴿ ينيب ﴾ 5 ﴿ بينهم ﴾ ط كذلك ما بعده ط ﴿ مريب ﴾ 5 ﴿ فادع ﴾ ج ﴿ كما أمرت ﴾ ج ﴿ أهواءهم ﴾ ج ﴿ كتاب ﴾ ج كل ذلك للترتيل في القراءة وإن اتفقت الجملتان ﴿ بينكم ﴾ ط ﴿ وربكم ﴾ ط ﴿ أعمالكم ﴾ ط ﴿ وبينكم ﴾ ط ﴿ بيننا ﴾ ج ﴿ المصير ﴾ 5 ﴿ شديد ﴾ 5 ﴿ والميزان ﴾ ط ﴿ قريب ﴾ 5 ﴿ بها ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ منها ﴾ ج للعطف أو الحال ﴿ الحق ﴾ ط ﴿ بعيد ﴾ 5 ﴿ من يشاء ﴾ ج لاحتمال عطف وهو على جملة قوله ﴿ الله لطيف ﴾ وهما متفقتان ﴿ العزيز ﴾ 5 ﴿ في حرثه ﴾ ج لعطف جملتي الشرط ﴿

نصيب ﴿ 5 ﴿ به الله ﴾ ط ﴿ بينهم ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ بهم ﴾ ط ﴿ الجنات ﴾ ط لاحتمال ما بعده الاستئناف والحال ﴿ ربهم ﴾ ط ﴿ الكبير ﴾ 5 ﴿ الصالحات ﴾ ط ﴿ في القربى ﴾ ط ﴿ حسناً ﴾ ط ﴿ شكور ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 66 . 67 ﴾

(20/685)

فصل

قال الفخر :

﴿ حم (1) عسق (2) ﴾

اعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح معلوم إلا أن في هذا الموضع سؤالان زائدان الأول : أن يقال إن هذه السور السبعة مصدرة بقوله ﴿ حم ﴾ فما السبب في اختصاص هذه السورة بمزيد ﴿ عسق ﴾ ؟ الثاني : أنهم أجمعوا على أنه لا يفصل بين ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] وههنا يفصل بين ﴿ حم ﴾ وبين ﴿ عسق ﴾ فما السبب فيه ؟

واعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح يضيف ، وفتح باب المجازفات مما لا سبيل إليه ، فالأولى أن يفوض علمها إلى الله ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود ﴿ حم * عسق ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ فالكاف معناه الثل وذا للإشارة إلى شيء سبق ذكره ، فيكون المعنى : مثل حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك وعند هذا حصل قولان :

الأول : نقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : " لا نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحي إليه حم عسق " وهذا عندي بعيد .

(21/685)

الثاني : أن يكون المعنى : مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله إليك وإلى الذين من قبلك ، وهذه المماثلة المراد منها المماثلة في الدعوة إلى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب في التوجه إلى الآخرة ، والذي يؤكد هذا أنا بينا في سورة ﴿سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى﴾ [الأعلى : 1] أو أولها في تقرير التوحيد ، وأوسطها في تقرير النبوة ، وآخرها في تقرير المعاد ، ولما تم الكلام في تقرير هذه المطالب الثلاثة قال : ﴿إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى : 18 ، 19] يعني أن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية ليس إلا هذه المطالب الثلاثة ، فكذلك ههنا يعني مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله إليك وإلى كل من قبلك من الأنبياء ، والمراد

بهذه المماثلة الدعوة إلى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الإلهية ، قال صاحب "الكشاف" ولم يقل أوحي إليك ، ولكن قال : ﴿يُوحِي إِلَيْكَ﴾ على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته ، وقرأ ابن كثير ﴿كَذَلِكَ يُوحِى﴾ بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله وهي إحدى الروايتين عن أبي عمرو وعن بعضهم ﴿نُوحِي﴾ بالنون ، وقرأ الباقون ﴿يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ﴾ بكسر الحاء ، فإن قيل فعلى القراءة الأولى ما رافع اسم الله تعالى ؟ قلنا ما دل عليه بوحي ، كأن قائلاً قال من الموحي ؟ فقيل الله ونظيره قراءة السلمي ﴿وكذلك زُيِّنَ لكَثِيرٍ منَ المشركين قَتْلَ أولادهم شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام : 137] على البناء للمفعول ورفع شركاؤهم ، فإن قيل فما رافعه فيمن قرأ ﴿نُوحِي﴾ بالنون ؟ قلنا يرفع بالابتداء ، والعزيز وما بعده أخبار ، أو ﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان والظرف خبره ، ولما ذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحي بين أن الموحي من هو فقال إنه هو العزيز الحكيم وقد بينا في أول سورة حم المؤمن أن كونه عزيزاً يدل على كونه قادراً على ما لا نهاية له

(22/685)

وكونه حكيماً يدل على كونه عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحاجات فيحصل لنا من كونه عزيزاً حكيماً كونه قادراً على جميع المقدورات عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحاجات ومن كان كذلك كانت أفعاله وأقواله حكمة وصواباً ، وكانت مبرأة عن العيب والعبث ، قال مصنف الكتاب قلت في قصيدة :

الحمد لله ذي الآلاء والنعم . . والفضل والجود والإحسان والكرم

منزّه الفعل عن عيب وعن عبث . . مقدس الملك عن عزل وعن عدم

(23/685)

والصفة الثالثة قوله ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ وهذا يدل على مطلوبين في غاية الجلال أحدهما : كونه موصوفاً بقدرة كاملة نافذة في جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتها وسعتها بالإيجاد والإعدام والتكوين والإبطال والثاني : أنه لما بيّن بقوله ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أن كل ما في السموات وما في الأرض فهو ملكه وملكله ، وجب أن يكون منزّهاً عن كونه حاصلاً في السموات وفي الأرض ، وإلا لزم كونه ملكاً لنفسه ، وإذا ثبت أنه ليس في شيء من السموات امتنع كونه أيضاً في العرش ، لأن كل ما سماك فهو سماء فإذا كان العرش موجوداً فوق السموات كان في الحقيقة سماء ، فوجب أن يكون كل ما

كان حاصلاً في العرش ملكاً لله وملكاً له ، فوجب أن يكون منزّهاً عن كونه حاصلاً في العرش ، وإن قالوا إنه تعالى قال : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات ﴾ وكلمة ما لا تتناول من يعقل قلنا هذا مدفوع من وجهين الأول : أن لفظة ما واردة في حق الله تعالى قال تعالى : ﴿ والسماء وَمَا بناها * والأرض وَمَا طحاها ﴾ [الشمس : 5 ، 6] وقال : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 2 ، 3] والثاني : أن صيغة من وردت في مثل هذه السورة قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض إِلاَّ آتِى الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 93] وكلمة من لا شك أنها واردة في حق الله تعالى فدلّت هذه الآية على أن كل من في السموات والأرض فهو عبد الله فلو كان الله موجوداً في السموات والأرض وفي العرش لكان هو من جملة من في السموات فوجب أن يكون عبد الله ، ولما ثبت بهذه الآية أن كل من كان موجوداً في السموات والعرش فهو عبد لله وجب فيمن تقدست كبرياؤه عن تهمة العبودية أن يكون منزّهاً عن الكون في المكان والجهة والعرش والكرسي .

(24/685)

والصفة الرابعة والخامسة قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العلي العظيم ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد بكونه علياً العلو في الجهة والمكان لما ثبتت الدلالة على فساده ، ولا يجوز أن يكون المراد من

العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم ، لأن ذلك يقتضي كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض ، وذلك ضد قوله

﴿ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] فوجب أن يكون المراد من العلي المتعالي عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات ، ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء وكمال الإلهية .

ثم قال : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ تَكَادُ ﴾ بالتاء ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ بالياء والنون ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة ﴿ تَكَادُ ﴾ بالتاء ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ بالياء والتاء ، وقرأ نافع والكسائي : ﴿ يَكَادُ ﴾ بالياء ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ أيضاً بالتاء ، قال صاحب "الكشاف" : وروى يونس عن أبي عمرو قراءة غريبة ﴿ تتفطرن ﴾ بالتاءين مع النون ، ونظيرها حرف نادر ، روي في نوادر ابن الإعرابي : الإبل تتشمسن .

المسألة الثانية :

في فائدة قوله ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ وجوه الأول : روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ قال والمعنى أنها تكاد تتفطر من ثقل الله عليها .

واعلم أن هذا القول سخيف ، ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه ، ويدل على فساده وجوه : الأول : أن قوله ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ لا يفهم منه ممن فوقهن وثانيها : هب أنه يحمل على ذلك ، لكن لم قلتم إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الله عليها ، ولم لا يجوز أن يقال إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الملائكة عليها ، كما جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : " أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد " وثالثها : لم لا يجوز أن يكون المراد تكاد السموات تنشق وتنفطر من هيبة من هو فوقها فوقية بالإلهية والقهر والقدرة ؟ ، فثبت بهذه الوجوه أن القول الذي ذكروه في غاية الفساد والركاكة والوجه الثاني : في تأويل الآية ما ذكره صاحب "الكشاف" : وهو أن كلمة الكفر إنما جاءت من الذين تحت السموات ، وكان القياس أن يقال : يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ في ذلك فقلب فجعلت مؤثرة في جهة الفوق ، كأنه قيل : يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن ، ودع الجهة التي تحتهن ، ونظيره في المبالغة قوله تعالى ؛ ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحميم * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ والجلود ﴾ [الحج : 19 ، 20] فجعل مؤثراً في أجزائه الباطنة الوجه الثالث : في تأويل الآية أن يقال ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي من فوق الأرضين ، لأنه تعالى قال قبل هذه الآية ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ ثم قال : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي من فوق الأرضين والوجه

الرابع : في التأويل أن يقال معنى ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي من الجهة التي حصلت هذه السموات فيها ، وتلك الجهة هي فوق ، فقوله ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي من الجهة الفوقانية التي هن فيها .

المسألة الثالثة :

(26/685)

اختلفوا في أن هذه الهيئة لم حصلت ؟ وفيه قولان الأول : أنه تعالى لما بيّن أن الموحي لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم ، بيّن وصف جلاله وكبريائه ، فقال : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي من هيبته وجلالته والقول الثاني : أن السبب في إثباتهم الولد لله لقوله ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ [مريم : 90] ، وههنا السبب فيه إثباتهم الشركاء لله ، لقوله بعد هذه الآية ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ والصحيح هو الأول ، ثم قال : ﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض ﴾ .

واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان : عالم الجسمانيات وأعظمها السموات ، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة ، والله تعالى يقرر كمال عظمته لأجل نفاذ قدرته وهيبته في الجسمانيات ، ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات ، والدليل عليه أنه تعالى قال في سورة ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [النبأ : 1] لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ

بذكر الجسمانيات ، فقال : ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا الرحمن لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ [النبأ : 37] ثم انتقل إلى ذكر عالم الروحانيات ، فقال ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : 38] فكذلك القول في هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات ، فقال : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ ثم انتقل إلى ذكر الروحانيات ، فقال : ﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ فهذا ترتيب شريف وبيان باهر .

(27/685)

واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام : مؤثر لا يقبل الأثر ، وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الأقسام ، ومتأثر لا يؤثر ، وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الأقسام ، وموجود يقبل الأثر من القسم الأول ، ويؤثر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانيات المقدسة ، وهو المرتبة المتوسطة ، إذا عرفت هذا فنقول الجواهر الروحانية لها تعلقان : تعلق بعالم الجلال والكبرياء ، وهو تعلق القبول ، فإن الجلايا القدسية والأضواء الصمدية إذا أشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها وأشرقت ماهياتها ، ثم إن الجواهر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الروحانية ، قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات ، وإذا

كان كذلك فلها وجهان : وجه إلى جانب الكبرياء وحضرة الجلال ، ووجه إلى عالم الأجسام والوجه الأول أشرف من الثاني .

إذا عرفت هذا فنقول :

قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الجلال والكبرياء ، وقوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الأجسام ، فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها وما أشد تأثيرها في جذب الأرواح من حضيض الخلق إلى أوج معرفة الحق ، إذا عرفت هذا فنقول : أما الجهة الأولى وهي الجهة العلوية المقدسة ، فقد اشتملت على أمرين : أحدهما : التسبيح ، وثانيهما : التحميد ، لأن قوله ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ يفيد هذين الأمرين ، والتسبيح مقدم على التحميد ، لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي ، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضاً لكل الخيرات وكونه منزّهاً في ذاته عما لا ينبغي ، مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات والسعادات ، لأن وجود الشيء مقدم على إيجاد غيره ، وحصوله في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره ، فلهذا السبب كان التسبيح مقدماً على التحميد ، ولهذا قال : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

(28/685)

وأما الجهة الثانية : وهي الجهة التي لتلك الأرواح إلى عالم الجسمانيات ، فالإشارة إليها بقوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرض ﴾ والمراد منه تأثيراتها في نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب الأصلح فيها ، فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة ، ولنرجع إلى ما يليق بعلم التفسير ، فإن قيل كيف يصح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار ، وقد قال تعالى : ﴿ أولئك عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ الله والملائكة ﴾ فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم ؟ ، قلنا الجواب : عنه من وجوه :

الأول : أن قوله ﴿ لِمَن فِي الأَرض ﴾ لا يفيد العموم ، لأنه يصح أن يقال إنهم استغفروا لكل من في الأرض وأن يقال إنهم استغفروا لبعض من في الأرض دون البعض ، ولو كان قوله ﴿ لِمَن فِي الأَرض ﴾ صريحاً في العموم لما صح ذلك التقسيم الثاني : هب أن هذا النص يفيد العموم إلا أنه تعالى حكى عن الملائكة في سورة حام المؤمن فقال : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ [غافر : 7] الثالث : يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : 41] الرابع : يجوز أن يقال إنهم يستغفرون لكل من في الأرض ، أما في حق الكفار فبواسطة طلب الإيمان لهم ، وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم ،

فإنا نقول اللّهم اهد الكافرين وزين قلوبهم بنور الإيمان وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر ، وهذا في الحقيقة استغفار .

(29/685)

واعلم أن قوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض ﴾ يدل على أنهم لا يستغفرون لأنفسهم ، ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لأنفسهم قبل استغفارهم لمن في الأرض ، وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لأنفسهم علمنا أنهم مبرءون عن كل الذنوب والأنبياء عليهم السلام لهم ذنوب والذي لا ذنب له ألبتة أفضل ممن له ذنب وأيضاً فقوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض ﴾ يدل على أنهم يستغفرون للأنبياء لأن الأنبياء في جملة من في الأرض ، وإذا كانوا مستغفرين للأنبياء عليهم السلام كان الظاهر أنهم أفضل منهم . ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال : ﴿ أَلَا إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم ﴾ والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر إلا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى وبيانه ممن وجوه الأول : أن إقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى إنما كان لأن الله تعالى خلق في قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة ، ولولا أن الله تعالى خلق في قلوبهم تلك الدواعي وإلا لما أقدموا على

ذلك الطلب وإذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى

الثاني : أن الملائكة قالوا في أول الأمر

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30] ثم في آخر الأمر صاروا يستغفرون لمن في الأرض ، وأما رحمة الحق وإحسانه فقد كان موجوداً في الأولى والآخر فثبت أن الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى الثالث : أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستغفرون لمن في الأرض ولم يحك عنهم أنهم يطلبون الرحمة لمن في الأرض فقال : ﴿ أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم ﴾ يعني أنه يعطي المغفرة التي طلبوها ويضم إليها الرحمة الكاملة التامة .

(30/685)

ثم قال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿ الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم ، لا يفوته منها شيء وهو محاسبهم عليها لا رقيب عليهم إلا هو وحده وما أنت يا محمد بمفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان ، إنما أنت منذر فحسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 122 .

﴿ 127

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ حم* عسق ﴾

قال عبد المؤمن : سألت الحسين بن الفضل : لم قطع "حام" من "عاساقا" ولم تقطع "كهيعص" و "المارا" و "الماصا" ؟ فقال : لأن "حاما .

عسق" بين سُوَرٍ أوّلها "حام" فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ؛ فكأن "حام" مبتدأ و "عاساقا" خبره .

ولأنها عدّت آيتين ، وعدّت أخواتها اللواتي كتبت جملة آية واحدة .

وقيل : إن الحروف المعجمة كلها في المعنى واحد ، من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام ؛ ذكره الجُرْجَانِي .

وكتبت "حام .

عساقا" منفصلاً و "كهيعص" متصلاً لأنه قيل : حام ؛ أي حمّ ما هو كائن ، ففصلوا بين ما يقدّر فيه فعل وبين ما لا يقدّر .

ثم لو فُصل هذا ووُصِل ذا لجاز ؛ حكاه القُشيري .

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس "حام.

سق" قال ابن عباس: وكان عليّ رضي الله عنه يعرف الفتن بها.

وقال أرطاة بن المنذر، قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان: أخبرني عن تفسير قوله تعالى: "حام.

عساقا"؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثاً فأعرض عنه.

فقال حذيفة بن اليمان: أنا أنبئك بها، قد عرفتِ لِم تركها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقاً، فإذا أراد الله زوال ملكهم وانقطاع دولتهم، بعث على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مظلمة، فتحترق كلها كأنها لم تكن مكانها؛ فتصبح صاحبتها متعجبة، كيف قُلبت! فما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد، ثم يخسف الله بها وبهم جميعاً؛ فذلك قوله: "حام.

عاساقا" أي عزمة من عزمات الله، وفتنة وقضاء حُمّ: حام.

"ع": عدلاً منه، "س": سيكون، "ق": واقع في هاتين المدينتين.

(32/685)

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَليّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " تُبنى مدينة بين دجْلة ودُجيل وقُطْرُبُلّ والصَّراة ، يجتمع فيها جبابرة الأرض تجبى إليها الخزائن يخسف بها وفي رواية بأهلها فَلهِيَ أسرع ذهاباً في الأرض من الوَتِد الجيّد في الأرض الرَّخوة " وقرأ ابن عباس "حام .

ساقا" بغير عين .

وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود ؛ حكاه الطبري .

وروى نافع عن ابن عباس : "الحاء" حلمه ، و "الميم" مجده ، و "العين" علمه ، و "السين" سَنَاه ، و "القاف" قدرته ؛ أقسم الله بها .

وعن محمد بن كعب : أقسم الله بحلمه ومجده وعلوّه وسَنَاه وقدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مخلصاً من قلبه .

وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير : "الحاء" من الرحمن ، و "الميم" من المجيد ، و "العين" من العليم ، و "السين" من القدّوس ، و "القاف" من القاهر .

وقال مجاهد : فواتح السور .

وقال عبد الله بن بُريدة : إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا .

وذكر القشيريّ ، واللفظ للثعلبيّ : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية عُرفت الكآبة في وجهه ؛ فقيل له : يا رسول الله ، ما أحزنك ؟ قال : "أخبِرت ببلايا تنزل

بأمتي من خَسْف وقذف ونارٍ تحشرهم وريح تقذفهم في البحر وآياتٍ متتابعات متّصلات بنزول عيسى وخروج الدجال" " والله أعلم .

وقيل : هذا في شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ف "الحاء" حوضه المورود ، و "الميم" ملكه الممدود ، و "العين" عزه الموجود ، و "السين" سناه المشهود ، و "القاف" قيامه في المقام المحمود ، وقربه في الكرامة من المِلك المعبود .

وقال ابن عباس : ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أوحي إليه : "حام .

عاساقا" ؛ فلذلك قال : ﴿ يوحي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ .

المهدويّ : وقد جاء في الخبر أن "حام .

عاساقا" معناه أوْحيت إلى الأنبياء المتقدّمين .

(33/685)

وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ومجاهد "يُوحَى" (بفتح الحاء) على ما لم يُسَمَّ فاعله ؛ وروي عن ابن عمر .

فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل ، ويجوز أن يكون اسم ما لم يسمّ فاعله مضمراً ؛ أي يوحى إليك القرآن الذي تضمنته هذه السورة ، ويكون اسم الله مرفوعاً

بإضمار فعل ، التقدير : يوحيه الله إليك ؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ ﴾ [النور : 36- 37] أي يسبحه رجال .

وأنشد سيبويه :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومة . . .

وأشعثُ ممن طوّحته الطوائح

فقال : لِيُبْكَ يزيد ، ثم بيّن من ينبغي أن يبكيه ، فالمعنى يبكيه ضارع .

ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ؛ كأنه قال : الله يوحيه .

أو على تقدير إضمار مبتدأ أي الموحي الله .

أو يكون المبتدأ والخبر "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" .

وقرأ الباقون "يُوحِي إِلَيْكَ" بكسر الحاء ، ورفع الاسم على أنه الفاعل : ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العلي العظيم ﴾ تقدّم في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السماوات ﴾ قراءة العامة بالتاء .

وقرأ نافع وابن وَثّاب والكسائيّ بالياء .

﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد في الطاء ، وهي قراءة العامة .

وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عبيد "يَنْفَطِرْنَ" من الانفطار ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] وقد مضى في سورة "مريم" بيان هذا .

وقال ابن عباس : "تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ" أي تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التي تليها ؛ من قول المشركين : ﴿ اتخذ الله وَلَداً ﴾ [الكهف : 4] .

وقال الضحاك والسدي : "يَتَفَطَّرْنَ" أي يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن .

وقيل : "فوقهن" : فوق الأرضين من خشية الله لو كنّ مما يعقل .

(34/685)

قوله تعالى : ﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ينزهونه عما لا يجوز في وصفه ، وما لا يليق بجلاله .

وقيل يتعجبون من جرأة المشركين ؛ فيُذكر التسبيح في موضع التعجّب .

وعن عليّ رضي الله عنه : أن تسبيحهم تعجّب مما يرون من تعرّضهم لسخط الله .

وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله .

ومعنى "بِحَمْدِ رَبِّهِمْ" : بأمر ربهم ؛ قاله السُّدّي .

﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ قال الضحاك : لمن في الأرض من المؤمنين ؛ وقاله السدي .

بيانه في سورة المؤمن : "وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا" .

وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش .

وقيل : جميع ملائكة السماء ؛ وهو الظاهر من قول الكلبيّ .

وقال وهب بن منبّه : هو منسوخ بقوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ .

قال المهدوِيّ : والصحيح أنه ليس بمنسوخ ؛ لأنه خبر ، وهو خاص للمؤمنين .

وقال أبو الحسن الماوَرْدِيّ عن الكلبيّ : إن الملائكة لما رأت الملكين اللَّذَين اخْتُبِرا وبُعِثا إلى الأرض ليحكما بينهم ، فافتتنا بالزُّهَرَة وهربا إلى إدريس وهو جَدّ أبي نوح عليهما السلام وسألاه أن يدعُوَ لهما ، سبَّحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم .

قال أبو الحسن بن الحصار : وقد ظن بعض مَن جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت ، وأنها منسوخة بالآية التي في المؤمن ، وما علموا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة ، ولله ملائكة أُخر يستغفرون لمن في الأرض .

الماورديّ : وفي استغفارهم لهم قولان : أحدهما من الذنوب والخطايا ؛ وهو ظاهر قول مقاتل .

الثاني أنه طلب الرزق لهم والسَّعة عليهم ؛ قاله الكلبيّ .

قلت : وهو أظهر ، لأن الأرض تعمّ الكافر وغيره ، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر .

وقد روي في هذا الباب خبر رواه عاصم الأحول عن أبي عثمان عن سَلْمان قال : إن العبد إذا كان يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة : صوت معروف من آدميّ ضعيف ، كان يذكر الله تعالى في السراء فنزلت به الضراء ؛ فيستغفرون له .

فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة : صوت منكر من آدمي كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء فلا يستغفرون الله له .

وهذا يدل على أن الآية في الذاكرِ للّهِ تعالى في السراء والضراء ، فهي خاصّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين .

والله أعلم .

ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ إلى أن قال إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [فاطر : 41] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد : 6] .

والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام ؛ فيكون عاماً ؛ قاله الزمخشريّ .

وقال مُطَرِّف : وجدنا أنصح عبادِ الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشياطين .

وقد تقدّم .

﴿ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ قال بعض العلماء : هَيّب وعَظَّم جلّ وعزّ في الابتداء ، وألطف وبشّر في الانتهاء .

قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني أصناماً يعبدونها .

﴿ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها .

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ وهذه منسوخة بآية السيف .

وفي الخبر : "أطّت السماء وحُقّ لها أن تَئِطّ" أي صوّتت من ثقل سكانها لكثرتهم ، فهم مع كثرتهم لا يفترون عن عبادة الله ؛ وهؤلاء الكفار يشركون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(36/685)

وقال الآلوسى :

﴿ حم عسق ﴾

لعلهما اسمان للسورة وأيد بعدهما آيتين والفصل بينهما في الخط وبورود تسميتها ﴿ عسق ﴾ من غير ذكر ﴿ حم ﴾ ، وقيل : هما اسم واحد وآية واحدة وحقه أن يرسم متصلاً كما في ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] لكنه فصل ليكون مفتتح السورة على طرز مفتتح

أخواتها حيث رسم في كل مستقلاً وعلى الأول : هما خبران لمبتدأ محذوف ، وقيل : ﴿ حم ﴾ مبتدأ و ﴿ عسق ﴾ خبره وعلى الثاني : الكل خبر واحد ، وقيل : إن ﴿ حم عسق ﴾ إشارة إلى هلاك مدينتين تبنيان على نهر من أنهار المشرق يشق النهر بينهما يجتمع فيهما كل جبار عنيد يبعث الله تعالى على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها ويخسف بالأخرى في الليلة الأخرى ، وروي ذلك عن حذيفة ، وقيل : إن ﴿ حم ﴾ اسم من أسماء الله تعالى و ﴿ عِينٌ ﴾ إشارة إلى عذاب يوم بدر و ﴿ سين ﴾ إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمْ الذين ظَلَمُواْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : 227] و ﴿ قاف ﴾ إلى قارعة من السماء تصيب الناس ، وروي ذلك بسند ضعيف عن أبي ذر ، والذي يغلب على الظن عدم ثبوت شيء من الروايتين .

وفي "البحر" ذكر المفسرون في ﴿ العالمين حم عسق ﴾ أقوالاً مضطربة لا يصح منها شيء ضربنا عن ذكرها صفحاً ، وما ذكرناه أولاً قد اختاره غير واحد ، ومنهم من اختار أنها مقطعات جيء بها للإيقاظ ، وقرأ ابن عباس .

وابن مسعود (حم سق) بلا عين .

وقوله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم ﴾ كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما في تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل المتقدمين في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق أو أن إيحاءها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها ، والكاف مفعول ﴿ يُوحَى ﴾ على الأول : أي يوحى مثل ما في هذه السورة من المعاني أو نعت لمصدر مؤكد على الثاني : أي يوحى إيحاء مثل إيحائها إليك وإلى الرسل أي بواسطة الملك ، وهي في الوجهين اسم كما هو مذهب الأخفش وإن شئت فاعتبرها حرفاً واعتبر الجار والمجرور مفعولاً أو متعلقاً بمحذوف وقع نعتاً ، وقول العلامة الثاني في التلويح : إن جار الله لا يجوز الابتداء بالفعل ويقدر المبتدأ في جميع ما يقع فيه الفعل ابتداء كلام غير مسلم وقد ترددوا فيه حتى قيل : إنه لم يظهر له وجه .

وجوز أبو البقاء كون ﴿ كذلك ﴾ مبتدأ ﴿ ويوحى ﴾ الخبر والعائد محذوف أي مثل ذلك يوحيه إليك الخ وحذف مثله شائع في الفصيح ، نعم هذا الوجه خلاف الظاهر ، والإشارة كما أشرنا إليه إلى ما في السورة أو إلى إيحائها ، والدلالة على البعد لبعد منزلة المشار إليه في الفضل ، وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمراره في الأزمنة الماضية وأن إيحاء مثله عادته عز وجل ، وقيل : إنها على التغليب فإن الوحي إلى من مضى مضى وإليه عليه الصلاة والسلام بعضه ماض وبعضه مستقبل ، وجوز أن

تكون على ظاهرها ويضمر عامل يتعلق به ﴿ تَرَ إِلَى الذين ﴾ أي وأوحى إلى الذين وهو كما ترى ، وفي جعل مضمون السورة أو إيحائها مشبهاً به من تفخيمها ما لا يخفى .

وقرأ مجاهد .

وابن كثير .

وعياش .

(38/685)

ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو ﴿ يُوحَى ﴾ مبنياً للمفعول على أن ﴿ كذلك ﴾ مبتدأ ﴿ ويوحى ﴾ خبره المسند إلى ضميره أو مصدر و ﴿ لِمَا يُوحَى ﴾ مسند إلى ﴿ إِلَيْكَ ﴾ و ﴿ الله ﴾ مرتفع عند السكاكي على الفاعلية ليوحى الواقع في جواب من يوحى ؟ نحو ما قرروه في قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والاصال رِجَالٌ ﴾ [النور : 36 ، 37] على قراءة ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بالبناء للمفعول ، وقوله :

ليبك يزيد ضارع لخصومة . . .

ومختبط مما تطيح الطوائح

وقال الزمخشري : رافعه ما دل عليه ﴿ يُوحَى ﴾ كأن قائلاً قال : من الموحي ؟ فقيل : الله

وإنما قدر كذلك على ما قاله صاحب الكشف ليدل على أن الإيحاء مسلم معلوم وإنما الغرض من الإخبار إثبات اتصافه بأنه تعالى من شأنه الوحي لا إثبات أنه موح، ولم يرتض القول بعدم الفرق بين هذا وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والاصال رِجَالٌ ﴾ بل أوجب الفرق لأن الفعل المضارع هنالك على ظاهره لم يؤت به للدلالة على الاستمرار ولهم فيه مقال.

و﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان له تعالى عند الشيخين، وجوز أبو حيان كون الاسم الجليل مبتدأ وما بعده خبر له وقيل: ﴿ الله العزيز الحكيم ﴾ إلى آخر السورة قائم مقام فاعل ﴿ يُوحِى ﴾ أي هذه الكلمات.

وقرأ أبو حيوة.

والأعشى عن أبي بكر.

وأبان ﴿ نُوحِى ﴾ بنون العظمة فالله مبتدأ وما بعده خبر أو ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان، وقوله تعالى:

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العلى العظيم ﴾ خبر له، وعلى الأوجه السابقة استئناف مقرر لعزته تعالى وحكمته عز وجل.

﴿ تَكَادُ السموات ﴾ وقرىء ﴿ يَكَادُ ﴾ بالياء ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ يتشققن من عظمة الله تعالى وجلاله جل شأنه وروي ذلك عن قتادة.

وأخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال : تكاد السماوات يتفطرن من الثقل ، وقيل : من دعاء الشريك والولد له سبحانه كما في سورة مريم ، وأيد هذا بقوله تعالى بعد : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ [الشورى : 6] فإيراد الغفور الرحيم بعد لأنهم استوجبوا بهذه المقالة صب العذاب عليهم لكنه صرف عنهم لسبق رحمته عز وجل ، والآية عليه واردة للتنزيه بعد إثبات المالكية والعظمة ، والأول أولى في هذا المقام لأن الكلام مسوق لبيان عظمته تعالى وعلوه جل جلاله ويؤيده ترك العاطف ، ويليه ما روي عن الحبر فإن الآية وإن تضمنت عليه الغرض المسوق له الكلام لكن دلالتها عليه بناءً على القول الأول أظهر .

وقرأ البصريان .

وأبو بكر ﴿ ينفطرن ﴾ بالنون ، والأول أبلغ لأن المطاوع والمطاوع من التفعيل والتفعل الموضوع للمبالغة بخلاف الثاني فإنه انفعال مطاوع للثلاثي ، وروى يونس عن أبي عمرو أنه قرأ ﴿ تتفطرن ﴾ بتاءين ونون في آخره على ما في "الكشاف" ، و ﴿ تنفطرن ﴾ بتاء واحدة ونون على ما في "البحر" عن ابن خالويه وهو على الروايتين شاذ عن القياس

والاستعمال لأن العرب لا تجمع بين علامتي التأنيث فلا تقول النساء تقمن ولا الوالدات ترضعن ، والوجه فيه تأكيد التأنيث كتأكيد الخطاب في أرأيتك ؛ ومثله ما رواه أبو عمر الزاهد في نوادر ابن الأعرابي الإبل تتشممن .

(40/685)

﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي يبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية ، وتخصيصها على الأول في سبب التفطر لما أن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال كالعرش والكرسي والملائكة من تلك الجهة ولذا كانت قبلة الدعاء ، وعلى الثالث للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حين أثرت من جهة الفوق فلأن تؤثر من جهة التحت أولى ، وكذا على الثاني لأن العادة تفطر سطح البيت مثلاً من جهة التحتانية بحصول ثقل عليه ، وقيل : الضمير للأرض أي لجنسها فيشمل السبع ولذا جمع الضمير وهو خلاف الظاهر ، وقال علي بن سليمان الأخفش : الضمير للكفار والمراد من فوق الفرق والجماعات الملحدة ، وبهذا الاعتبار أنث الضمير ، وفي ذلك إشارة إلى أن التفطر من أجل أقوال هاتيك الجماعات ، وفيه ما فيه .

﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ينزهونه سبحانه عما لا يليق به جل جلاله ملتبسين

بحمده عز وجل ، وقيل : يصلون والظاهر العموم في الملائكة ، وقال مقاتل : المراد بهم حملة العرش ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وترتيب الأمور المقربة إلى الطاعة كالمعاونة في بعض أمور المعاش ودفع العوائق واستدعاء تأخير العقوبة طمعاً في إيمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد ، وهو فيما ذكر مجاز مرسل أو استعارة .

وقال السدي .

وقتادة : المراد بمن في الأرض المؤمنون لقوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ [غافر : 7] والمراد بالاستغفار عليه حقيقته ، وقيل : الشفاعة .

(41/685)

﴿ أَلَا إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم ﴾ إذ ما من مخلوق إلا وله حظ عظيم من رحمته تعالى وأنه سبحانه لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وفيه إشارة إلى قبول استغفار الملائكة عليهم السلام وأنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة ، والآية على كون قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ ﴾ لبيان عظمته جل شأنه مقررة لما دل عليه ذلك ومؤكدة له

لأن تسبيح الملائكة وتنزيههم له تعالى لمزيد عظمته تبارك وتعالى وعظيم جلاله جل وعلا والاستغفار لغيرهم للخوف عليهم من سطوة جبروته عز وجل والتذييل بقوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ الله ﴾ الخ على هذا ظاهر ، وعلى كون تفطر السموات لنسبة الولد والشريك بيان لكمال قدسه تعالى عما نسب إليه عز وجل فيكون تسبيحهم عما يقوله الكفرة واستغفارهم للمؤمنين الذين تبرأوا عما صدر من هؤلاء والتذييل للإشارة إلى سبب ترك معاجلة العذاب مع استحقاقهم له وعمم بعض المستغفر لهم وأدخل استغفار الملائكة في سبب ترك المعاجلة .

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ شركاء وأنداداً ﴿ الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي بموكل بهم أو بموكول إليك أمرهم وإنما وظيفتك البلاغ والإنذار فوكيل فعيل بمعنى مفعول من المزيد أو الثلاثي ، وما في هذه الآية من الموادعة على ما في "البحر" منسوخ بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(42/685)

وقال ابن عاشور :

﴿ حم (1) عسق (2) ﴾

ابتدئت بالحروف المقَطَّعة على نحو ما ابتدئت به أمثالها مثل أول سورة البقرة لأن ابتداءها مشير إلى التحدّي بعجزهم عن معارضة القرآن وأن عجزهم عن معارضته دليل على أنه كلام منزل من الله تعالى .

وخصت بزيادة كلمة ﴿ عسق ﴾ على أوائل السور من آل ﴿ حم ﴾ ولعل ذلك لحال كانوا عليه من شدّة الطعن في القرآن وقت نزول هذه السورة ، فكان التحدي لهم بالمعارضة أشد فزيد في تحدّيهم من حروف التهجّي .

وإنّما لم تُوصل الميم بالعين كما وصلت الميم بالراء في طالعة سورة الرعد ، وكما وصلت الميم بالصاد في مفتتح سورة الأعراف ، وكما وصلت العين بالصاد في مفتتح سورة مريم ، لأن ما بعد الميم في السور الثلاث حرف واحد فاتصاله بما قبله أولى بخلاف ما في هذه السورة فإنه ثلاثة حروف تشبه كلمة فكانت أولى بالانفصال .

كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)

موقع الإشارة في قوله : ﴿ كذلك يوحي إليك ﴾ كموقع قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) .

والمعنى : مِثْلَ هذا الوحي يُوحِي الله إليك ، فالمشار إليه : الإيحاء المأخوذ من فعل يوحي

﴾ .

وأما ﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ فإدماج .

والتشبيه بالنسبة إليه على أصله ، أي مثل وحيه إليك وحيه إلى الذين من قبلك ، فالتشبيه مستعمل في كلتا طريقتيه كما يستعمل المشترك في معنييه .

والغرض من التشبيه إثبات التسوية ، أي ليس وحي الله إليك إلا على سنة وحيه إلى الرّسل من قبلك ، فليس وحيه إلى الرّسل من قبلك بأوضح من وحيه إليك .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعده ﴾ [النساء : 163] ، أي ما جاء به من الوحي إن هو إلا مِثْلُ ما جاءت به الرّسل السابقون ، فما إعراض قومه عنه إلا كإعراض الأمم السالفة عما جاءت به رسلهم .

(43/685)

فحصل هذا المعنى الثاني بغاية الإيجاز مع حسن موقع الاستطراد .

وإجراء وصفي ﴿ العزيز الحكيم ﴾ على اسم الجلالة دون غيرهما لأن لهاتين الصفتين مزيدَ اختصاص بالغرض المقصود من أن الله يصطفي من يشاء لرسالته .

ف ﴿ العزيز ﴾ المتصرف بما يريد لا يصده أحد .

و﴿ الحكيم ﴾ يُحَمِّل كلامَه معاني لا يبلغ إلى مثلها غيرُه ، وهذا من متممات الغرض الذي افتتحت به السورة وهو الإشارة إلى تحدّي المعاندين بأن يأتوا بسورة مثل سور القرآن .

وجملة ﴿ كذلك يوحي إليك ﴾ إلى آخرها ابتدائية ، وتقديم المجرور من قوله ﴿ كذلك ﴾ على ﴿ يوحي إليك ﴾ للاهتمام بالمشار إليه والتشويق بتنبيه الأذهان إليه ، وإذ لم يتقدم في الكلام ما يحتمل أن يكون مشاراً إليه بـ ﴿ كذلك ﴾ عُلم أن المشار إليه مقدر معلوم من الفعل الذي بعد اسم الإشارة وهو المصدر المأخوذ من الفعل ، أي كذلك الإيحاء يوحي إليك الله .

وهذا استعمال متّبع في نظائر هذا التركيب كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) .

وأحسب أنّه من مبتكرات القرآن إذ لم أقف على مثله في كلام العرب قبل القرآن .

وما ذكره الخفاجي في سورة البقرة من تنظيره بقول زهير :

كذلك خِيمهم ولكلِّ قوم

إذا مسَّتهم الضّراء خِيم . . .

لا يصحّ لأن بيْت زهير مسبوق بما يصلح أن يكون مشاراً إليه ، وقد فاتني التنبيه على ذلك فيما تقدم من الآيات فعليك بضم ما هنا إلى ما هنالك .

والجار والمجرور صفة لمفعول مطلق محذوف دلّ عليه ﴿ يوحي ﴾ أي إيحاءً كذلك

الإيحاء العجيب .

والعدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع في قوله : ﴿ يوحي ﴾ للدلالة على أن إيحاءه إليه متجدد لا ينقطع في مدة حياته الشريفة ليأس المشركون من إقلاعه بخلاف قوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] وقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ [الشورى : 7] إذ لا غرض في إفادة معنى التجدد هناك .

(44/685)

وأمّا مراعاة التجدّد هنا فلأنَّ المقصود من الآية هو ما أوحي به إلى محمّد صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وأنَّ قوله : ﴿ إلى الذين من قبلك ﴾ إدماج .

ولك أن تعتبر صيغة المضارع منظوراً فيها إلى متعلّقي الإيحاء وهو ﴿ إليك ﴾ و ﴿ إلى الذين من قبلك ﴾ ، فتجعل المضارع لاستحضار الصورة من الإيحاء إلى الرّسل حيث استبعد المشركون وقوعه فجعل كأنّه مشاهد على طريقة قوله تعالى : ﴿ الله الذي أرسل الرّياح فتثير سحاباً ﴾ [فاطر : 9] وقوله : ﴿ ويصنع الفلك ﴾ [هود : 38] .

وقرأ الجمهور ﴿ يوحي ﴾ بصيغة المضارع المبني للفاعل واسم الجلالة فاعل .

وقرأه ابن كثير ﴿ يوحَى ﴾ بالبناء للمفعول على أن ﴿ إليك ﴾ نائب فاعل ، فيكون

اسم الجلالة مرفوعاً على الابتداء بجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنّه لما قال : يوحى إليك ، قيل : ومن يُوحيه ، فقيل : الله العزيز الحكيم ، أي يوحيه الله على طريقة قول ضِرار بن نَهشل أو الحارث بن نهيك :

لُيْبْك يزيدُ ضارعٌ لخُصومة

ومختَبِط ممّا تُطيح الطوائح . . .

إذ كانت رواية البيت بالبناء للنائب .

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)

جملة ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ مقررة لوصفه ﴿ العزيز الحكيم ﴾ [الشورى : 3] لأن من كان ما في السماوات وما في الأرض مِلكاً له تتحقق له العزّة لقوة ملكوته ، وتتحقق له الحكمة لأن الحكمة تقتضي خلقَ ما في السماوات والأرض وإتقانَ ذلك النظام الذي تسير به المخلوقات .

ولكون هذه الجملة مقررةً معنى التي قبلها كانت بمنزلة التأكيد فلم تعطف عليها .

وجملة ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ عطف عليها مقررة لما قررته الجملة قبلها فإن مَن اتصف بالعلاء والعظمة لو لم يكن عزيزاً لتخلف علاؤهُ وعظمته ، ولا يكون إلا حكيماً لأن عَلاءه يقتضي سموّه عن سفاسف الصفات والأفعال ، ولو لم يكن عظيماً لتعلقت إرادته بسفاسف الأمور ولتنازل إلى عبث الفعال .

والعلو هنا علو مجازي ، وهو السموّ في الكمال بحيث كان أكمل من كل موجود كامل .

والعظمة مجازية وهي جلالة الصفات والأفعال .

وأفادت صيغة الجملة معنى القصر ، أي لا عليّ ولا عظيم غيره لأن مَن عداه لا يخلو عن افتقار إليه فلا علوّ له ولا عظمة .

وهذا قصر قلب ، أي دون آلهتكم فلا علو لها كما تزعمون .

قال أبو سفيان : أعْلُ هُبل .

وتقدم معنى هاتين الجملتين في خلال آية الكرسي من سورة البقرة .

﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

جملة مستأنفة مقررة لمعنى جملة ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ [الشورى : 4] ولذلك لم تعطف عليها ، أي يكاد السماوات على عظمتهن يتشققن من شدّة تسخرهن فيما يسخرهُن الله له من عمل لا يخالف ما قدّره الله لهنّ ، وأيضاً قد قيل : إن المعنى : يكاد السماوات يتفطرن من كثرة ما فيهن من الملائكة والكواكب وتصاريف الأقدار ، فيكون في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " أطَّتِ السماء وحِقَّ لها أن تَئِطّ .

والذي نفسُ محمّد بيده ما فيها موضع شِبر إلا فيه جبهة مَلَك ساجد يسبح الله بحمده "

ويرجّحه تعقيبه بقوله تعالى : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ كما سيأتي .

وقرأ نافع وحده والكسَائِي ﴿ يكاد ﴾ بتحتية في أوّله .

وقرأه الباقون بفوقية وهما وجهان جائزان في الفعل المسند إلى جمع غيرِ المذكر السالم وخاصة مع عدم التأنيث الحقيقي .

وتقدم في سورة مريم (90) قوله : ﴿ يكاد السماوات يتفَطَّرْنَ منه .

وقرأ الجمهور يتفطرن ﴾ بتحتية ثم فوقية وأصله مضارع التفطر ، وهو مطاوع التفطير الذي هو تكرير الشقّ .

(46/685)

وقرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بِتَحتيّة ثم نون وهو مضارع : انفطَر ، مطاوع الفطر مصدر فطَر الثلاثي ، إذا شَقّ ، وليس المقصود منه على القراءتين قبول أثر الفاعل إذ لا فاعل هنا للشقّ وإنّما المقصود الخبر بحصول الفعل ، وهذا كثير ، كقولهم : انشقّ ضوء الفجر ، فلا التفات هنا لما يقصد غالباً في مادة التفعل من تكرير الفعل إذ لا فاعل للشقّ هنا ولا لتكرره ، فاستوت القراءتان في باب البلاغة ، على أنّ استعمال صيغ المطاوعة في اللّغة

ذو أنحاء كثيرة واعتبارات كما نبه عليه كلام الرضيّ في "شرح الشافية" .

وقوله : ﴿ من فوقهن ﴾ يجوز أن يكون ضمير ﴿ فوقهن ﴾ عائداً على ﴿ السماوات ﴾ ، فيكون المجرور متعلقاً بفعل ﴿ يتفطرن ﴾ بمعنى : أن انشقاقهن يحصل من أعلاهنّ ، وذلك أبلغ الانشقاق لأنه إذا انشقّ أعلاهن كان انشقاق ما دونه أولى ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وهي خاوية على عروشها ﴾ كما تقدم في سورة البقرة (259) وفي سورة الحج (45) .

وتكون ﴿ من ﴾ ابتدائيّة .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى ﴿ الأرض ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وما في الأرض ﴾ [الشورى : 4] على تأويل الأرض بأرضين باعتبار أجزاء الكرة الأرضية أو بتأويل الأرض بسكانها من باب ﴿ واسْأل القرية ﴾ [يوسف : 82] .

وتكون ﴿ من ﴾ زائدة زيادتها مع الظروف لتأكيد الفوقية ، فيفيد الظرف استحضار حالة التفطر وحالة موقعه ، وقد شبه انشقاق السماء بانشقاق الوَردة في قوله تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدِّهان ﴾ [الرحمن : 37] .

والوردة تنشق من أعلاها حين ينفتح بُرْعُومُها فيوشك إنْ هُن تفطَّرْنَ أن يخْررْنَ على الأرض ، أي يكاد يقع ذلك لِما فشا في الأرض من إشراك وفساد على معنى قوله تعالى :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إِدًّا يكاد السماوات يتفطَّرْنَ منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً ﴾

(47/685)

[مريم : 88 90] ويرجحه قوله الآتي : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ﴾ [الشورى : 6] .

وعن ابن عباس ﴿ يكاد السماوات يتفطَّرن ﴾ من قول المشركين ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ [البقرة : 116] .

﴿ فَوْقِهِنَّ والملائكةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض أَلَا إِنَّ الله هُوَ الغفور ﴾ .

جملة عطفت على جملة ﴿ يكاد السماوات يتفطرن ﴾ لإفادتها تقرير معنى عظمة الله تعالى وجلاله المدلول عليهما بقوله : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ [الشورى : 4] .

مرتبة واجب الوجود سبحانه وهو أهل التنزيه والحمد ومرتبة الروحانيات وهي الملائكة وهي واسطة المتصرف القدير ومفيض الخير في تنفيذ أمره من تكوين وهدى وإفاضة خير على النّاس ، فهي حين تتلقى من الله أوامره تسبّحُه وتحمده ، وحين تفيض خيرات ربّها

على عباده تستغفر للذين يتقبلونها تقبل العبيد المؤمنين بربّهم ، وتلك إشارة إلى حصول ثمرات إبلاغها ، وذلك بتأثيرها في نظم أحوال العالم الإنساني .

ومرتبة البشرية المفضلة بالعقل إذ أكمله الإيمانُ وهي المراد بـ (من في الأرض) .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

جملة معطوفة على جملة ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ [الشورى : 4] بعد أن أفيد ما هو كالحجة على أن لله ما في السماوات وما في الأرض من قوله ﴿ وهو العليُ العظيم يكاد السموات ﴾ [الشورى : 4 ، 5] الآيتين .

فالمعنى : قد نهضت حجة انفراده تعالى بالعزة والحكمة والعلوّ والعظمة وعلمها المؤمنون فاستغفرْت لهم الملائكة .

وأما الذين لم يبصروا تلك الحجة وعميت عليهم الأدلة فلا تَهْتَمَّ بشأنهم فإن الله حَسْبُهم وما أنت عليهم بوكيل .

فهذا تسكين لحزن الرّسول صلى الله عليه وسلم من أجل عدم إيمانهم بوحدانية الله تعالى .

(48/685)

وهذه مقدّمة لما سيأمر به الرّسول صلى الله عليه وسلم من الدعوة ابتداء من قوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ﴾ [الشورى : 7] الآية ، ثم قوله : ﴿ شَرَع لكم من الدّين ما وصَّى به نوحاً ﴾ [الشورى : 13] الآيات ، ثم قوله : ﴿ فلذلك فادع واستقم ﴾ [الشورى : 15] ، وقوله : ﴿ قل لا أسألُكم عليه أجراً ﴾ [الشورى : 23] الآية .

وقوله : ﴿ الذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ خبر عن ﴿ الذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ .

والحفيظ : فعيل بمعنَى فاعل ، أي حافظ ، وتختلف معانيه ومرجعها إلى رعاية الشيء والعناية به : ويكثر أن يستعمل كناية عن مراقبة أحوال المرقوب وأعماله ، وباختلاف معانيه تختلف تعديته بنفسه أو بحرف جرّ يناسب المعنى ، وقد عُدّي هنا بحرف (على) كما يُعدّى الوكيل لأنه بمعناه .

والوكيل فعيل بمعنى مفعول وهو الموكول إليه عملٌ في شيء أو اقتضاءُ حق .

يقال : وكله على كذا ، ومنه الوكالة في التصرفات المالية والمخاصمة ، ويكثر أن يستعمل كناية عن مراقبة أحوال الموكّل عليه وأعماله .

وقد استعمل ﴿ حفيظ ﴾ و (وكيل) هنا في استعمالهما الكنائي عن مُتقارب المعنى

فلذلك قد يفسر أهل اللّغة أحد هذين اللفظين بما يقرب من تفسير اللّفظ الآخر كتفسير المرادف بمرادفه ، وذلك تسامحٌ .

(49/685)

/ فعلَى من يريد التفرقة بين اللّفظين أن يرجع بهما إلى أصل مادتي (حَفِظ) و (وكَل) ، فمادة (حفظ) تقتضي قيام الحدث بفاعل وتعديته إلى مفعول ، ومادة (وكَل) تقتضي قيام الحدث بفاعل وتعديته إلى مفعول وتجاوزه من ذلك المفعول إلى شيء آخر هو متعلق به ، وبذلك كان فعل (حفظ) مفيداً بمجرد ذكر فاعله ومفعوله دون احتياج إلى متعلَّق آخر ، بخلاف فعل (وكَلَ) فإفادته متوقفة على ذكرِ أو على تقديرِ ما يدل على شيء آخر زائد على المفعول ومن علائقه ، فلذلك أوثر وصف ﴿ حفيظ ﴾ هنا بالإسناد إلى اسم الجلالة لأن الله جلّ عن أن يكلفه غيره حفظ شيء فهو فاعل الحفظ ، وأوثر وصف (وكيل) بالإسناد إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم لأن المقصود أن الله لم يكلفه بأكثر من التبليغ ، والمعنى : الله رقيب عليهم لا أنتَ وما أنت بموكل من الله على جبرهم على الإيمان .

وفي معناه قوله في آخر هذه السورة ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إنْ عليك

إلا البلاغ ﴾ [الشورى : 48] .

وأيضاً هي كالبيان لما في جملة ﴿ يكاد السموات يتفطرن ﴾ [الشورى : 5] لأنّ من أسباب مقاربة تفطرهن كثرة ما فيهن من الملائكة .

ولولا أنّها أريد منها زيادة تقرير معنى جملة ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ [الشورى : 4] لكانت جديرة بأن تفصل ولكن رُجح العطف لأجل الاهتمام بتقرير العلوّ والعظمة لله تعالى .

وأما التبيين فيحصل بمجرد تعقيب جملة يكاد السماوات يتفطرن بها كما علمته آنفاً .

فقوله : ﴿ الملائكة ﴾ [الشورى : 5] مبتدأ وجملة ﴿ يسبحون ﴾ [الشورى : 5] خبر والمقصود الإعلام بجلال الله .

وتسبيح الملائكة بحمد الله : خضوع لعظمته وعلوه ، والتسبيح : التنزيه عن النقائص .

(50/685)

فتسبيح الملائكة قد يكون عبارة عن إدراكهم عظمة الله تعالى فهو : انفعال رُوحاني كقوله تعالى : ﴿ اذكر ربّك في نفسك تضرعاً وخيفةً ﴾ [الأعراف : 205] ، وقد يكون دلالة على التنزيه بما يناسب الملائكة من ظواهر الانفعال بالطاعة أو من كلام مناسب

للحالة الملَكية وكذلك حمدهم ربّهم واستغفارهم لمن في الأرض .

ومفعول ﴿ يسبحون محذوف دلّ عليه مصاحبته ﴿ بحمد ربهم ﴾ [الشورى : 5]

تقديره : يسبحون ربّهم ، والباء للمصاحبة ، أي يسبحون تسبيحاً مصاحباً لحمدهم ربّهم ، أي الثناء عليه بصفاته الكمالية ، ومن الثناء ما هو شكر على نعمه عليهم وعلى غيرهم ، فالمعنى : يسبحون الله ويحمدونه .

وهذا تعريض بالمشركين إذ أعرضوا عن تسبيح ربّهم وحمده وشُغلوا بتحميد الأصنام التي لا نعمة لها عليهم ولا تنفعهم ولا تضرهم .

وتقديم التسبيح على الحمد إشارة إلى أن تنزيه الله عمّا لا يليق به أهم من إثبات صفات الكمال له لأن التنزيه تمهيد لإدراك كمالاته تعالى .

ولذلك كانت الصفات المعبّر عنها بصفات السُّلُوب مقدمة في ترتيب علم الكلام على صفات المعاني عندنا والصفاتِ المعنوية .

والاستغفار لمن في الأرض : طلب المغفرة لهم بحصول أسبابها لأن الملائكة يعلمون مراتب المغفرة وأسبابها ، وهم لكونهم من عالم الخير والهدى يحرصون على حصول الخير للمخلوقات وعلى اهتدائهم إلى الإيمان بالله والطاعات ويناجون نفوس الناس بدواعي الخير ، وهي الخواطر الملَكية .

فالمراد بـ ﴿ لمن في الأرض ﴾ [الشورى : 5] من عليها يستحقون استغفار الملائكة كما

قال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومَن حوله يسبحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربّنا وَسِعتَ كل شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقِهِمْ عذاب الجحيم ﴾ [غافر : 7] ثم قال : ﴿ وقِهِمْ السيّئات ﴾ في سورة المؤمن (9) .

(51/685)

وقد أثبت القرآن أن الملائكة يلعنون من تحق عليه اللّعنة بقوله تعالى : ﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة ﴾ في سورة البقرة (161) .

فعموم من في الأرض هنا مخصوص بما دلّت عليه آية سورة المؤمن .

وجملة ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ [الشورى : 5] تذييل لجملة ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ [الشورى : 5] إلى آخرها لإبطال وهَم المشركين أن شركاءهم يشفعون لهم ، ولذلك جيء في هذه الجملة بصيغة القصر بضمير الفصل ، أي أن غير الله لا يغفر لأحد .

وصُدرت بأداة التنبيه للاهتمام بمُفادها .

وقد أشارت الآية إلى مراتب الموجودات ، وهي:

والمقصود رفع التبعية عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدم استجابتهم للتوحيد ، أي لا

تخشَ أن نسألك على عدم اهتدائهم إذ ما عليك إلا البلاغ ، وتقدم في قوله:

﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ في سورة الأنعام (107) .

وإذ قد كان الحفيظ الوكيل بمعنًى كان إثبات كون الله حفيظاً عليهم ونفيُ كون الرّسول وكيلاً عليهم مفيداً قصر الكون حفيظاً عليهم على الله تعالى دون الرّسول بطريقٍ غيرِ أحدِ طرق القصر المعروفة فإن هذا من صريح القصر ومنطوقِهِ لا من مفهومه وهو الأصل في القصر وإن كان قليلاً ، ومنه قول السمَوْأل :

تَسيل على حد الظبات نفوسُنا

وليستْ على غير الظُبات تسيل . . .

وأما طرق القصر المعروفة في علم المعاني فهي من أسلوب الإيجاز ، والقصر قصر قلب كما هو صريح طرفه الثاني في قوله : وما أنت عليهم بوكيل ﴾ ، نزل الرّسول صلى الله عليه وسلم منزلة من يحسب أنه وكيل على إيمانهم وحصل من هذا التنزيل تعريض بهم بأنهم لا يضرّون الرّسول صلى الله عليه وسلم إذا لم يصدّقوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير جـ 25 صـ ﴾

(52/685)

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الإيحاء السابق أول السورة للبشرى لأنها المقصود بالذات وكانت البشرى مقتضية تلويحاً ورمزاً بالأحرف المقطعة لاجتماع أهل الدين وغلبتهم على سائر الأديان وأن دينهم يعم سائر الأمم ويحيط بجميع الخلق ، ولا يريد أحد بأهله سوءاً إلا كان له فيه رفعة كما مضى بيانه ، وكانت رمزاً لأن المقام للانذار بما تشهد به السورة الماضية ، وكان المراد بها التكرار حتى لا تزال لذاذتها في أذن المبشر وحلاوتها في قلبه ، ذكرها بلفظ المضارع الدال على التجدد والتكرار والحدوث والاستمرار ، وكان المتعنت ربما حمله له على الوعد بالإيحاء في المستقبل ، وكان العاقل يكفيه في النذرى مرة واحدة فقال معبراً بالماضي الدال على الإمضاء والقطع والقضاء الحتم في كل من الإيحاء وفائدته التي هي الأنذار ، عاطفاً على ما يتصل بالآية السالفة المختومة بنفي الوكالة مما تقديره : إنما عليك البلاغ بالبشارة والنذارة ، وقد أوحينا إليك البشارة رمزاً ، كما جرت به عادة الأحباب في محاورات

الخطاب ، ولفت القول إلى مظهر العظمة لأن الإنذار من مجازه : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الإيحاء الذي قدمنا أنا حبوناك به من وحي الإشارة بالحروف المقطعة ﴿ أوحينا ﴾ بما لنا من العظمة مع الفرق بين كل ملبس ﴿ إليك قرآناً ﴾ جامعاً لكل حكمة ﴿ عربياً ﴾ فهو بين الخطاب واضح الصواب معجز الجناب ﴿ لتنذر ﴾ أي به ﴿ أم القرى ﴾ مكة التي هي أم الأرض وأصلها ، منها دحيت ولشرفها أوقع الفعل عليها ، عدا لها عداد العقلاء ، ثم بين أن المراد أهلها بقوله : ﴿ ومن ﴾ أي وتنذر من ﴿ حولها ﴾ وهم سكان جميع الأرض التي هي امها ، وبذلك فسره البغوي فقال : قرى الأرض كلها ، وكذا القشيري وقال : العالم محدق بالكعبة ومكة لأنها سرة الأرض .

(53/685)

ولما كان مفعول ﴿ تنذر ﴾ الثاني على ما هدى إليه السياق ما عذبت به الأمم السالفة والقرون الماضية حين تمادى بهم الكفر وغلب عليهم الظلم في اتخاذهم أولياء من دون الله ، عطف عليه : ﴿ وتنذر ﴾ أي أم القرى ومن حولها مع عذاب الأمم في الدنيا ﴿ يوم الجمع ﴾ أي لجميع الخلائق ببعثهم من الموت ، حذف المفعول الأول من الشق الثاني ، والمفعول الثاني من الأول ، فالآية من الاحتباك : ذكر المنذرين أولاً دلالة على إرادتها ثانياً ،

وذكر المنذر به وهو يوم الجمع ثانياً دلالة على المنذر به من عذاب الأمم أولاً ، ليذهب به الوهم في المحذوف كل مذهب ، فيكون أهول ، وذكر هذا المذكور أفخم وأوجل .

ولما كان الإنذار – وهو الإعلام بموضع المخافة – تارة يكون عما لا علم به ، وهو الأغلب ، وتارة عما وقع العمل به ثم خالف المنذر به علمه فعمل أعمال من لا علم له به ، نبه على أنه هذا من القسم الثاني بقوله في جملة حالية : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لأنه قد ركز في فطرة كل أحد أن الحاكم إذا استعمل عبيده في شيء ثم تظالموا فلا بد له بما تقتضيه السياسة من جمعهم لينصف بينهم وإلا عد سفيهاً ، فما ظنك بأحكم الحاكمين .

ولما تشوف السامع إلى ما يفعل في جمعهم ، وكان الثقلان لما طبعوا عليه من النقصان أهل فرقة وطغيان ، ذكر نهايته معبراً بما هو من الفرقة بقوله مسوغاً الابتداء بالنكرة للتفصيل أو تقرير الوصف : ﴿ فريق ﴾ أي من المجموعين أهل فرقة تداركهم الله بأن جعلهم أهل جمع ﴿ في الجنة ﴾ فصلاً منه وهم الذين قبلوا الإنذار وبالغوا في الحذار ﴿ وفريق ﴾ أي منهم خذلهم الله ووكلهم إلى أنفسهم فزادوا في الفرقة ﴿ في السعير ﴾ عدلاً منه ، قال القشيري : كما أنهم في الدنيا فريقان : فريق في درجات الطاعة وحلاوات العبادات ، وفريق في ظلمات الشرك وعقوبات الجحد والشك ، فلذلك غداهم فريقان : فريق هم أهل اللقاء ، وفريق هم أهل البلاء والشقاء .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال : خرج علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي يده كتابان فقال : " أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قال : قلنا لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله ! قال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ، ثم قال للذي في يساره : هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ، فقال أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمراً قد فرغ منه ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة وإن عمل أي عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل النار وإن عمل أي عمل ، قال بيده فقبضها ، ثم قال : فرغ ربكم عز وجل من العباد ، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال : فريق في الجنة ، ونبذ باليسرى فقال : فريق في السعير "

قال ابن كثير : وهكذا رواه النسائي والترمذي جميعاً ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب .

(55/685)

ولما كان ملوك الدنيا غالباً لا يريدون أن يعصى أمرهم ، فإذا حذروا من شيء أرادوا أن لا يقرب ، فإن فعله أحد كان فعله له خارجاً عن مرادهم ، فكانت عقوبتهم له لخروجه عن المراد شفاء لما حصل لهم من داء الغيظ ، بين أنه سبحانه على غير ذلك ، وأنه منزه عن خروج شيء عن مراده ، وعن أن يلحقه نفع بطاعة أو ضر بمعصية ، وإن عقوبته إنما هي على مخالفة أمره مع الدخول تحت مراده بإلجائه وقسره ، وهذا في نفس الأمر ، وأما في الظاهر فالأمر أن لا يظهر أنه لشيء منهما مانع إلا صرف الاختيار ، فقال صارفاً القول عن مظهر العظمة استيفاء لإنذار ما هو حقيق به منها إلى الاسم الجامع صفات العظمة وغيرها لاقتضاء الحال له : ﴿ ولو شاء الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ لجعلهم ﴾ أي المجموعين ﴿ امة واحدة ﴾ للعذاب أو الثواب ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء أن يكونوا فريقين : مقسطين وظالمين ، ليظهر فضله وعدله وأنه إله جبار واحد قهار ، لا يبالي بأحد وهو معنى قوله : ﴿ ولكن يدخل من يشاء ﴾ أي إدخاله ﴿ في رحمته ﴾ بخلق الهداية في قلبه فتكون أفعالهم في مواضعها وهم المقسطون ، ويدخل من يشاء في نقمته بخلق الضلال في قلوبهم فيكونون ظالمين ، فلا يكون لهم فعل في حاق موضعه ، فالمقسطون ما لهم من عدو ولا نكير ﴿ والظالمون ﴾ أي العريقون في الظلم الذين شاء ظلمهم فيدخلهم في لعنته ﴿ ما لهم من ولي ﴾ يلي أمورهم فيجتهد في إصلاحها ﴿ ولا نصير ﴾ ينصرهم من الهوان ،

فالآية من الاحتباك وهو ظاهر ذكر الرحمة أولاً دليلاً على اللعنة ثانياً والظلم وما معه ثانياً دليلاً على أضداده أولاً ، وسره أنه ذكر السبب الحقيقي في أهل السعادة ليحملهم على مزيد الشكر ، والسبب الظاهري في أهل الشقاوة لينهاهم عن الكفر .

(56/685)

ولما كان التقدير : هل قصر هؤلاء الذين تنذرهم هممهم وعزائمهم وأقوالهم وأفعالهم على الله تعالى اتعاظاً وانتذاراً بهذا الكلام المعجز ، عادل به قوله : ﴿ أم اتخذوا ﴾ أي عالجوا فطرهم الشاهدة بذلك بشهادة أوقات الاضطرار حتى لفتوها عنه سبحانه فأخذوا ﴿ من دونه أولياء ﴾ هم عالمون بأنهم لا يغنون عنهم شيئاً ولهذا قال : ﴿ فالله ﴾ أي فتسبب عما أفهمته صيغة الافتعال من أنهم عالمون بأنه وحده الضار النافع علمُهم بأنه ﴿ هو ﴾ وحده ﴿ الولي ﴾ لا غيره ، ويجوز أن يكون مسبباً عن هذا الاستفهام الإنكاري التوبيخي كأنه قيل : هل قصروا هممهم عليه سبحانه ، فسبب أنه وحده المستحق لما يقصدونه من التولي ﴿ وهو ﴾ أيضاً وحده لا غيره ﴿ يحيي الموتى ﴾ أي يجدد إحيائهم في أي وقت يشاؤه ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ على كل شيء قدير ﴾ أي بالغ القدرة لا يشاركه

شيء في ذلك بشهادة كل عاقل ، وأكده بالقصر لأن شركهم بالأولياء إنكار لاختصاصه بالولاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 598 . 604 ﴾

(57/685)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

واعلم أن كلمة (ذلك) للإشارة إلى شيء سبق ذكره فقوله ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء ها هنا قد سبق ذكره ، وليس ها هنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الشورى : 6] يعني كما أوحينا إليك أنك لست حفيظاً عليهم ولست وكيلاً عليهم ، فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتكون نذيراً لهم وقوله تعالى : ﴿ لّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ أي لتنذر أهل أم القرى لأن البلد لا تعقل وهو كقوله ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] وأم القرى أصل القرى وهي مكة وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها لأن فيها البيت ومقام إبراهيم ، والعرب تسمي أصل كل شيء أمة حتى

يقال هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان ، ومن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر ، والإنذار التخويف ، فإن قيل فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحى إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة وهذا يقتضي أن يكون رسولاً إليهم فقط وأن لا يكون رسولاً إلى كل العالمين الجواب : أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه ، فهذه الآية تدل على كونه رسولاً إلى هؤلاء خاصة وقوله ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : 28] يدل على كونه رسولاً إلى كل العالمين ، أيضاً لما ثبت كونه رسولاً إلى أهل مكة وجب كونه صادقاً ، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر كان يدعى أنه رسول إلى كل العالمين ، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه ، فثبت أنه رسول إلى كل العالمين .

(58/685)

ثم قال تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ الأصل أن يقال أنذرت فلاناً بكذا فكان الواجب أن يقال لتنذر أم القرى بيوم الجمع وأيضاً فيه إضمار والتقدير لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع وفي تسميته بيوم الجمع وجوه الأول : أن الخلائق يجمعون فيه قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ [التغابن : 9] فيجتمع فيه أهل السموات من أهل الأرض الثاني : أنه يجمع بين الأرواح والأجساد الثالث : يجمع بين كل عامل وعمله الرابع : يجمع بين الظالم

والمظلوم وقوله ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ صفة ليوم الجمع الذي لا ريب فيه ، وقوله ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ تقديره ليوم الجمع الذي من صفته يكون القوم فيه فريقين ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، فإن قيل قوله ﴿ يَوْمَ الجمع ﴾ يقتضي كون القوم مجتمعين وقوله ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ يقتضي كونهم متفرقين ، والجمع بين الصفتين محال ، قلنا إنهم يجتمعون أولاً ثم يصيرون فريقين .

ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ والمراد تقرير قوله ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الشورى : 6] أي لا يكن في قدرتك أن تحملهم على الإيمان ، فلو شاء الله ذلك لفعله لأنه أقدر منك ، ولكنه جعل البعض مؤمناً والبعض كافراً ، فقوله ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ ﴾ يدل على أنه تعالى هو الذي أدخلهم في الإيمان والطاعة ، وقوله ﴿ والظالمون مَا لَهُمْ مِّن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يعني أنه تعالى ما أدخلهم في رحمته ، وهذا يدل على أن الأولين إنما دخلوا في رحمته ، لأنه كان لهم ولي ونصير أدخلهم في تلك الرحمة ، وهؤلاء ما كان لهم ولي ولا نصير يدخلهم في رحمته .

(59/685)

ثم قال تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ والمعنى أنه تعالى حكى عنهم أولاً أنهم اتخذوا من دونه أولياء ، ثم قال بعده لمحمد صلى الله عليه وسلم لست عليهم رقيباً ولا حافظاً ، ولا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان شاءوا أم أبوا ، فإن هذا المعنى لو كان واجباً لفعله الله ، لأنه أقدر منك ، ثم إنه تعالى أعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار ، فإن قوله ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ استفهام على سبيل الإنكار .

ثم قال تعالى : ﴿ فالله هُوَ الولي ﴾ والفاء في قوله ﴿ فالله هُوَ الولي ﴾ جواب شرط مقدر ، كأنه قال : إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي بالحق لا ولي سواه ، لأنه يحيي الموتى وهو على كل شيءٍ قدير ، فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 127.128 ﴾

(60/685)

وقال ابن عطية :

﴿ حم (1) عسق (2) ﴾

فصلت : ﴿ حم ﴾ من : ﴿ عسق ﴾ ، ولم يفعل ذلك ب ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] لتجري هذه مجرى الحواميم أخواتها .

وقرأ الجمهور : " حم عسق " . وقرأ ابن مسعود وابن عباس : " حم سق " بسقوط عين ، والأقوال في هذه كالأقوال في أوائل السور . وروى حذيفة في هذا حديثاً مضمنه : أنه سيكون في هذه الأمة مدينتان يشقهما نهر بالمشرق ، تهلك إحداهما ليلاً ثم تصبح الأخرى سالمة ، فيجتمع فيها جبابرة المدينتين متعجبين من سلامتها ، فتهلك من الليلة القابلة ، وأن ﴿ حم ﴾ معناه : حم هذه الأمر . وعين : معناه عدلاً من الله . وسين : سيكون ذلك . وقاف : معناه يقع ذلك بهم . وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يستفيد علم الفتن والحروب من هذه الأحرف التي في أوائل السور . والكاف في قوله : ﴿ كذلك ﴾ نعت لمصدر محذوف ، والإشارة بذلك تختلف بحسب الأقوال في الحروف .

وقرأ جمهور القراء : " يوحي " بالياء على إسناد الفعل إلى الله تعالى ، وهي قراءة الحسن والأعرج وأبي جعفر والجحدري وعيسى وطلحة والأعمش . وقرأ أبو حيوة والأعشى عن أبي بكر عن عاصم : " نوحي " : بنون العظمة ، ويكون قوله : ﴿ الله ﴾ ابتداء وخبره : ﴿ العزيز ﴾ ويحتمل أن يكون خبره : ﴿ له ما في السماوات ﴾ . وقرأ ابن كثير وحده : " يوحَى " بالياء وفتح الحاء على بناء الفعل للمفعول ، وهي قراءة مجاهد ، والتقدير : يوحى إليك القرآن يوحيه الله ، وكما قال الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة . . . ومنه قوله تعالى : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال

﴾ [النور : 36] .

وقوله تعالى : ﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ يريد من الأنبياء الذين نزلت عليهم الكتب .

(61/685)

وقوله تعالى : ﴿ له ما في السماوات ﴾ أي الملك والخلق والاختراع . و : ﴿ العلي ﴾ من علو القدر والسلطان . و : ﴿ العظيم ﴾ كذلك ، وليس بعلو مسافة ولا عظم جرم ، تعالى الله عن ذلك وقرأ نافع والكسائي : " يكاد " بالياء . وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة وأبو عمرو وعاصم : " تكاد " بالتاء . وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي ونافع وابن عباس وأبو جعفر وشيبة وقتادة : " يتفطرون " من التفطر ، وهو مطاوع فطرت . وقرأ أبو عمرو وعاصم والحسن والأعرج وأبو رجاء والجحدري : " ينفطرون " من الإفطار وهو مطاوع فطر ، والمعنى فيهما : يتصدعن ويتشققن من سرعة جريهن خضوعاً وخشية من سلطان الله تعالى وتعظيماً له وطاعة ، وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود ، لأن الله تعالى لا يوصف به .

وقوله : ﴿ من فوقهن ﴾ أي من أعلاهن . وقال الأخفش علي بن سليمان : الضمير للكفار .

قال القاضي أبو محمد : المعنى من فوق الفرق والجماعات الملحدة التي من أجل أقوالها تكاد السماوات يتفطرن ، فهذه الآية على هذا كالآية التي في :

﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] . وقالت فرقة معناه : من فوق الأرضين ، إذ قد جرى ذكر الأرض ، وذكر الزجاج أنه قرئ " يتفطرن ممن فوقهن " .

وقوله تعالى : ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ قيل معناه : يقولون سبحان الله ، وقيل معناه : يصلون لربهم .

(62/685)

وقوله تعالى : ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ قالت فرقة : هذا منسوخ بقوله تعالى : في آية أخرى : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [غافر : 7] وهذا قول ضعيف ، لأن النسخ في الإخبار لا يتصور . وقال السدي ما معناه : إن ظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص في المؤمن ، فكأنه قال : ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ من المؤمنين ، إذ الكفار عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وقالت فرقة : بل هي على عمومها ، لكن استغفار الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالى للكفرة على أن يبقوا كفرة ، وإنما استغفارهم لهم بمعنى طلب الهداية التي تؤدي إلى الغفران لهم ، وكأن الملائكة تقول : اللهم اهد أهل الأرض واغفر لهم .

ويؤيد هذا التأويل تأكيده صفة الغفران والرحمة لنفسه بالاستفتاح ، وذلك قوله : ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ أي لما كان الاستغفار لجميع من في الأرض يبعد أن يجاب ، رجا عز وجل بأن استفتح الكلام تهيئة لنفس السامع فقال : ﴿ ألا إن الله ﴾ هو الذي يطلب هذا منه ، إذ هذه أوصافه ، وهو أهل المغفرة .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

(63/685)

هذه آية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفار وإزالة عن النبي صلى الله عليه وسلم جميع الكلف سوى التبليغ فقط ، لئلا يهتم بعدم إيمان قريش وغيرهم ، فقال تعالى لنبيه : إن الذين اتخذوا الأصنام والأوثان أولياء من دون الله ، الله هو الحفيظ عليهم كفرهم ، المحصي لأعمالهم ، المجازي لهم عليها بعذاب الآخرة ، وأنت فلست بوكيل عليهم ولا ملازم لأمرهم حتى يؤمنوا . والوكيل : المقيم على الأمر ، وما في هذا اللفظ من موادعة فهو منسوخ بآية السيف ، ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ أي وكما قضينا أمرك هكذا وأمضيناه في هذه الصورة ، كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً مبيناً لهم ، لا يحتاجون معه إلى آخر سواه ولا محتج غيره ، إذ فهمه متأت لهم ولم يكلفك إلا إنذاراً من ذكر . و: ﴿

أم القرى ﴿ مكة ، والمراد أهل مكة ، ولذلك عطف ﴿ من ﴾ ، وهي في الأغلب لمن يعقل . و: ﴿ يوم الجمع ﴾ هو يوم القيامة ، واقتصر في ﴿ تنذر ﴾ على المفعول الأول ، لأن المعنى : وتنذر أهل أم القرى العذاب ، وتنذر الناس يوم الجمع ، أي تخوفهم إياه لما فيه من عذاب من كفر ، وسمي ﴿ يوم الجمع ﴾ لاجتماع أهل الأرض فيه بأهل السماء ، أو لاجتماع بني آدم للعرض .

وقوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي في نفسه وذاته ، وارتياب الكفار به : لا يعتد به .

وقوله : ﴿ فريق ﴾ مرتفع على خبر الابتداء المضمر ، كأنه قال : هم فريق في الجنة ، وفريق في السعير . ثم قوى تعالى تسلية نبيه عليه السلام بأن عرفه أن الأمر موقوف على مشيئة الله من إيمانهم أو كفرهم ، وأنه لو أراد كونهم أمة واحدة لجمعهم عليه ، ولكنه يدخل من سبقت له السعادة عنده في رحمته ، وييسره في الدنيا لعمل أهل السعادة ، وأن الظالمين بالكفر الميسرين لعمل الشقوة ما لهم من وليٍّ ولا نصير .

(64/685)

وقوله : ﴿ أم اتخذوا ﴾ كلام منقطع مما قبله ، وليست معادلة ، ولكن الكلام : كأنه أضرب عن حجة لهم أو مقالة مقررة فقال : " بل اتخذوا " هذا مشهور قول النحويين في مثل

هذا ، وذهب بعضهم إلى أن ﴿ أم ﴾ هذه هي بمنزلة ألف الاستفهام دون تقدير إضراب ، ثم أثبت الحكم بأنه عز وجل هو الولي الذي تنفع ولايته ، وأنه هو الذي يحيي الموتى ويحشرهم إلى الآخرة ويبعثهم من قبورهم ، وأن قدرته على كل شيء تعطي هذا وتقتضيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(65/685)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾

أي وكما أوحينا إليك وإلى من قبلك هذه المعاني فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيًّا بيّناه بلغة العرب .

قيل : أي أنزلنا عليك قرآناً عربياً بلسان قومك ؛ كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه .

والمعنى واحد .

﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ يعني مكة .

وقيل لمكة أم القُرَى لأن الأرض دُحيت من تحتها .

﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من سائر الخلق .

﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ أي بيوم الجمع ، وهو يوم القيامة .

﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه .

﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ ابتداء وخبر .

وأجاز الكسائيّ النصب على تقدير : لتنذر فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال الضحاك : أهل دين واحد ؛ أهل ضلالة أو أهل هُدًى .

﴿ ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قال أنس بن مالك : في الإسلام .

﴿ والظالمون ﴾ رفع على الابتداء ، والخبر ﴿ مَا لَهُمْ مِّن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ عطف على اللفظ .

ويجوز "وَلاَ نَصِيرٌ" بالرفع على الموضع و "مِنْ" زائدة .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ أي بل اتخذوا .

﴿ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني أصناماً .

﴿ فالله هُوَ الولي ﴾ أي وليك يا محمد ووليّ من اتبعك ، (لا وَلِيّ سواه) .

﴿ وَهُوَ يُحْيِي الموتى ﴾ يريد عند البعث .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءانًا عَرَبِيًّا ﴾

ذلك إشارة إلى مصدر ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ ومحل الكاف على ما ذهب إليه الأخفش من ورودها اسما النصب على المصدرية ﴿ وَقُرْءانًا ﴾ مفعول لأوحينا أي ومثل ذلك الإيحاء البديع البين المفهوم أوحينا إليك قرآناً عربياً لا لبس فيه عليك ولا على قومك ، وقيل : إشارة إلى ما تقدم من ﴿ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الشورى : 6] فالكاف مفعول لأوحينا ﴿ وَقُرْءانًا عَرَبِيًّا ﴾ حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي ، وجوز نصبه على المدح أو البدلية من كذلك ، وقيل : أولى من هذا أن يكون إشارة إلى معنى الآية المتقدمة من أنه تعالى هو الحفيظ عليهم وأنه عليه الصلاة والسلام نذير فحسب لأنه أتم فائدة وأشمل عائدة ولا بد عليه من التجوز في قرآناً عربياً إذ لا يصح أن يقال أوحينا ذلك المعنى وهو قرآن عربي لأن القرآنية والعربية صفة اللفظ لا المعنى لكن أمره سهل لقربه من الحقيقة لما بين اللفظ والمعنى من الملابسة القوية حتى يوصف أحدهما بما يوصف به الآخر مع ما في المجاز من البلاغة ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ أي أهل أم القرى على

التجوز في النسبة أو بتقدير المضاف والمراد بأم القرى مكة ، وسميت بذلك على ما قال الراغب لما روي أنه دحيت الدنيا من تحتها فهي كالأصل لها والام تقال لكل ما كان أصلاً لشيء ، وقد يقال : هي أم لما حولها من القرى لأنها حدثت قبلها لا كل قرى الدنيا ، وقد يقال لبلد : هي أم البلاد باعتبار احتياج أهالي البلاد إليها ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العرب على ما ذهب إليه كثير وخص المذكورون بالذكر لأن السورة مكية وهم أقرب إليه عليه الصلاة والسلام وأول من أنذر أو لدفع ما يتوهم من أن أهل مكة ومن حولها لهم طمع في شفاعته صلى الله عليه وسلم وإن لم يؤمنوا لحق القرابة والمساكنة والجوار فخصهم بالإنذار لإزالة ذلك الطمع الفارغ ، وقيل : ﴿ مِنْ حَوْلَهَا ﴾ جميع أهل الأرض واختاره البغوي وكذا

(67/685)

القشيري وقال : لأن الكعبة سرة الأرض والدنيا محدقة بما هي فيه أعني مكة .

وهذا عندي لا يكاد يصح مع قولهم : إن عرضها كأم وذولها عز وإن المعمور في جانب الشمال أكثر منه في جانب الجنوب ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ أي يوم القيامة لأنه يجمع فيه الخلائق قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ [التغابن : 9] وقيل : تجمع فيه الأرواح والأشباح ، وقيل : الأعمال والعمال ، والإنذار يتعدى إلى مفعولين وقد يستعمل

ثانيهما بالباء وقد حذف ههنا ثاني مفعولي الأول وهو ﴿ يَوْمَ الجمع ﴾ والمراد به عذابه وأول مفعولي الثاني وهو ﴿ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ فقد حذف من الأول ما أثبت في الثاني ومن الثاني ما أثبت في الأول وذلك من الاحتباك .

(68/685)

وقال جار الله : الأول عام في الإنذار بأمور الدنيا والآخرة ثم خص بقوله تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ يوم القيامة زيادة في الإنذار وبياناً لعظمة أهواله لأن الإفراد بالذكر يدل عليه وكذلك إيقاع الإنذار عليه ثانياً والظاهر عليه أن حذف المفعول الثاني من الأول لإفادة العموم وإن كان حذف الأول من الثاني لذلك أيضاً وتنذر كل أحد يوم الجمعة ، وقيل : يوم الجمعة ظرف فيكون المفعولان محذوفين وقرىء ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ بياء الغيبة على أن الفاعل ضمير القرآن لعدم حسن الالتفات ههنا ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراض في آخر الكلام مقرر لما قبله ويحتمل الحالية من ﴿ يَوْمَ الجمع ﴾ أو الاستئناف ﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف فإنهم يجمعون فيه أولاً ثم يفرقون بعد الحساب ، ﴿ وَفَرِيقٌ ﴾ مبتدأ ﴿ وَفِى الجنة ﴾ صفته والخبر محذوف وكذا ﴿ فَرِيقٌ فِى السعير ﴾ أي منهم فريق كائن في الجنة ومنهم فريق كائن في النار ، وضمير منهم للمجموعين لدلالة الجمع

عليه ، وجملة المبتدأ والخبر استئناف في جواب سؤال تقديره ثم كيف يكون حالهم ؟ أو حال ولا ركاكة فيه ؛ واشتراط الواو فيه غير مسلم ، وجوز كون ﴿ فَرِيقٌ ﴾ فاعلاً للظرف المقدر ، وفيه ضعف ، وكونه مبتدأ والظرف المقدر في موضع الصفة له وفي الجنة خبره أي ﴿ فَرِيقٌ ﴾ كائن منهم مستقر في الجنة ، وكونه مبتدأ خبره ما بعده من غير أن يكون هناك ظرف مقدر واقع صفة ، وساغ الابتداء بالنكرة لأنها في سياق التفصيل والتقسيم كما في قوله :

فثوب لبست وثوب أجر . . .

وكونه خبر مبتدأ محذوف أي المجموعون فريق الخ .

(69/685)

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ فَرِيقاً وَفَرِيقاً ﴾ بنصبهما فقيل : هو على الحال من مقدر أي افترقوا أي المجموعون فريقاً وفريقاً أو من ضمير جمعهم المقدر لأن أل قامت مقامه أي وتنذر يوم جمعهم متفرقين وهو من مجاز المشارفة أي مشارفين للتفرق أو الحال مقدرة فلا يلزم كون افتراقهم في حال اجتماعهم أو يقال إن اجتماعهم في زمان واحد لا ينافي افتراق أمكنتهم كما تقول : صلوا الأفي وقت واحد في مساجد متفرقة فالمراد

متفرقين في داري الثواب والعقاب ، وإذا أريد بالجمع جمع الأرواح بالأشباح أو الأعمال بالعمال لا يحتاج إلى توفيق أصلاً ، وجوز كون النصب بتنذر المقدر أو المذكور والمعنى تنذر فريقاً من أهل الجنة وفريقاً من أهل السعير لأن الإنذار ليس في الجنة والسعير ولا يخفى تكلفه .

(70/685)

﴿ وَلَوْ شَاء الله ﴾ جعلهم أمة واحدة ﴿ لَجَعَلَهُمْ ﴾ أي في الدنيا ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس في قوله : على دين واحد ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِى رَحْمَتِهِ ﴾ أنه تعالى يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها ويدخل من يشاء في عذابه أن يدخله فيه ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول ما أدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعاً فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين وإنما قيل ﴿ والظالمون مَا لَهُمْ مّن وَلِىّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ وكان الظاهر أن يقال ويدخل من يشاء في عذابه ونقمته للإيذان بأن الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهته عز وجل كما في الإدخال في الرحمة ، واختار الزمخشري كون المراد

أمة واحدة مؤمنين وهو ما قاله مقاتل على دين الإسلام كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى ﴾ [الأنعام : 35] وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 13] والمعنى ولو شاء الله تعالى مشيئة قدرة لقسرهم على الإيمان ولكنه سبحانه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بقوله تعالى : ﴿ مَن يَشَآء ﴾ وترك الظالمين بغير ولي ولا نصير ، والكلام متعلق بقوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الشورى : 6] كالتعليل للنهي عن شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على إيمانهم ، فالظالمون مظهر أقيم مقام ضمير المتخذين ليفيد أن ظلمهم علة لما بعده أو هو للجنس ويتناولهم تناولاً أولياً ، وعدل عن الظاهر إلى ما في "النظم الجليل" إذ الكلام في الإنذار وهو أبلغ في تخويفهم لإشعاره بأن كونهم في العذاب

(71/685)

أمر مفروغ منه وإنما الكلام في أنه بعد تحتمه هل لهم من يخلصهم بالدفع أو الرفع فإذا نفى ذلك علم أنهم في عذاب لا خلاص منه .

وتعقب بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم في رحمته

تعالى إذ الكل حينئذٍ داخلون فيها فكان المناسب حينئذٍ تصديره بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم في عذابه ، وربما يقال : حيث أن الآية متعلقة بما سمعت كان المراد ولو شاء الله تعالى لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك بل جعل بعضهم مؤمناً كما أردت وجعل بعضهم الآخر وهم أولئك المتخذون من دونه أولياء كفاراً لا خلاص لهم من العذاب حسبما تقتضيه الحكمة وكان التصدير بما صدر به مناسباً كما لا يخفى على من له ذوق بأساليب الكلام إلا أن الظاهر على هذا أدخل من شاء دون "يدخل من يشاء" لكن عدل عنه إليه حكاية للحال الماضية ، وقال شيخ الإسلام : الذي يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه أن يراد الاتحاد في الكفر كما في قوله تعالى : ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً واحدة فَبَعَثَ الله النبيين ﴾ [البقرة : 213] الآية على أحد الوجهين ، فالمعنى ولو شاء الله تعالى لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولاً لينذرهم ما ذكر من يوم الجمع وما فيه من ألوان الأهوال فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء في رحمته سبحانه أي شأنه عز شأنه ذلك فيرسل إلى الكل من ينذرهم ما ذكر فيتأثر بعضهم بالإنذار فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله تعالى للإيمان والطاعات ويدخلهم في رحمته عز وجل ولا يتأثر به الآخرون ويتمادون في غيهم وهم الظالمون فيبقون في الدنيا على ما هم عليه من الكفر ويصيرون في الآخرة إلى السعير من غير ولي يلي أمرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب انتهى .

ولا يخفى أن بين قوله تعالى : ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً واحدة ﴾ الآية ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ بالمعنى الذي اختاره هنا فيهما نوع تناف فتدبر جميع ذلك والله تعالى الموفق .

﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولي أو نصير وكلام الكشاف يومىء إلى أنه متصل بقوله تعالى ﴿ والذين اتخذوا ﴾ [الشورى : 6] الخ على معنى دع الاهتمام بشأنهم واقطع الطمع في إيمانهم وكيت وكيت أليسوا الذين اتخذوا من دون الله تعالى أولياء وهو سبحانه الولي الحقيقي القادر على كل شيء وعدلوا عنه عز وجل إلا ما لا نسبة بينه تعالى وبينه أصلاً وإن قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا ﴾ [الشورى : 7] الآية اعتراض مؤكد لمضمون الآيتين ، و ﴿ أَمْ ﴾ على القولين منقطعة وهي تقدر في الأغلب ببل والهمزة ، وقدرها جماعة هنا بهما إلا أن بل على القول الثاني للإضراب وعلى القول الأول للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها ، والهمزة قيل : لإنكار الواقع واستقباحه ، وقيل : لا بل لإنكار الوقوع ونفيه على أبلغ وجه وآكده إذ المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الأولياء في شيء لأن ذلك فرع كون الأصنام

أولياء وهو أظهر الممتنعات أي بل اتخذوا متجاوزين الله تعالى أولياء من الأصنام وغيرها ﴿ فالله هُوَ الولى ﴾ قيل : هو جواب شرط مقدر أي إن أرادوا ولياً بحق فالله تعالى هو الولي بحق لا ولي بحق سواه عز وجل ، وكونه جواب الشرط على معنى الإخبار ونحوه . وقال في "البحر" : لا حاجة إلى اعتبار شرط محذوف والكلام يتم بدونه ، ولعله يريد ما قيل : إنه عطف على ما قبله أو أنه تعليل للإنكار المأخوذ من الاستفهام كقولك أتضرب زيداً فهو أخوك أي لا ينبغي لك ضربه فإنه أخوك .

(73/685)

وتعقب بأن المعروف في مثله استعماله بالواو وإنما يحسن التعليل في صريح الإنكار ، ولا يناسب معنى المضي أيضاً ﴿ وَهُوَ يُحْيِ الموتى ﴾ أي شأنه ذلك نحو فلان يقري الضيف ويحمي الحريم ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو سبحانه الحقيق بأن يتخذ ولياً فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شيء ما أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(74/685)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

عطف على جملة ﴿ كذلك يُوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله ﴾ [الشورى : 3] الخ باعتبار المغايرة بين المعطوفة والمعطوف عليها بما في المعطوفة من كون المُوحَى به قرآناً عربيّاً ، وما في المعطوف عليها من كونه من نوع ما أوحي به إلى الذين من قبله .

والقول في ﴿ وكذلك أوحينا ﴾ كالقول في ﴿ كذلك يوحِي إليك ﴾ [الشورى : 3] .

وإنّما أعيد ﴿ وكذلك أوحينا ﴾ ليبنى عليه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ لِما حجز بينهما من الفصل وأصل النظم : كذلك يوحي إليك الله العزيز الحكيم قرآناً عربياً مع ما حصل بتلك الإعادة من التأكيد لتقرير ذلك المعنى أفضل تقرير .

والعدول عن ضمير الغائب إلى ضمير العظمة التفات .

وفي هذا إشارة إلى أنه لا فرق بين ما أوحي إليك وما أوحي إلى مَن قبلك ، إلا اختلاف اللّغات كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ [إبراهيم : 4] .

والقرآن مصدر : قرأ ، مثل : غُفران وسُبحان ، وأطلق هنا على المقروء مبالغة في الاتصاف بالمقروئية لكثرة ما يقرأه القارئون وذلك لحسنه وفائدته ، فقد تضمن هذا الاسم

معنى الكمال بين المقروءات .

و ﴿ عربياً ﴾ نسبة إلى العربية ، أي لغة العرب لأنّ كونه قرآناً يدلّ على أنه كلام ، فوصفه بكونه ﴿ عربياً ﴾ يفيد أنه كلام عربي .

وقوله : ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ تعليل ل ﴿ أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ لأن كونه عربيّاً يليق بحال المنذَرين به وهم أهل مكّة ومَن حولها ، فأولئك هم المخاطبون بالدِّين ابتداء لما اقتضته الحكمة الإلهية من اختيار الأمة العربية لتكون أوّل من يتلقّى الإسلام وينشره بين الأمم ، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبين بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل بلغات لا تُحصى ، فلا جرم اختار الله له أفضل اللّغات واختار إنزاله على أفضل البشر .

(75/685)

و ﴿ أم القرى ﴾ مكّة ، وكنيت : أم القرى لأنها أقدم المدن العربية فدعاها العرب : أم القرى ، لأن الأم تطلق على أصل الشيء مثل : أم الرأس ، وعلى مرجعه مثل قولهم للراية : أم الحرب ، وقولهم : أم الطريق ، للطريق العظيم الذي حوله طرق صغار .

ثم إن إنذار أم القرى يقتضي إنذار بقية القُرى بالأحرى ، قال تعالى : ﴿ وما كان ربّك مهلك القرى حتى يبعث في أمّها رسولاً ﴾ [القصص : 59] ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿

ولتنذر أم القرى ﴾ في سورة الأنعام (92) .

والمراد : لتنذر أهلَ أمّ القُرى ، فأطلق اسم البلد على سكانه كقوله تعالى : ﴿ واسألْ القريةَ ﴾ [يوسف : 82] .

وأهل مكّة هم قريش ، وأما من حولها فهم النازلون حولها من القبائل مثل خُزاعة وكنانة ، ومن الذين حولها قريشُ الظواهر وهم الساكنون خارج مكة في جبالها .

والاقتصار على إنذار أمّ القُرى ومن حولها لا يقتضي تخصيص إنذار الرّسول صلى الله عليه وسلم بأهل مكة ومَن حولها ، ولا تخصيص الرّسول صلى الله عليه وسلم بالإنذار دون التبشير للمؤمنين لأن تعليل الفعل بعلة باعثه لا يقتضي أن الفعل المعلّل مخصص بتلك العلّة ولا بمتعلِّقاتها إذ قد يكون للفعل الواحد عللُ باعثة فإن الرّسول صلى الله عليه وسلم بُعث للنّاس كافة ، كما قال تعالى:

﴿ وما أرسلناك إلا كافّة للنّاس بشيراً ونذيراً ﴾ [سبأ : 28] .

والاقتصار هنا على إنذار أهل مكّة ومَن حولها لأنهم المقصود بالردّ عليهم لإنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

وانتصب ﴿ أم القرى ﴾ على المفعول بهِ لفعل ﴿ تنذر ﴾ بتنزيل الفعل منزلة المعدّى إلى مفعول واحد إذ لم يذكر معه المنذَر منه وهو الذي يكون مفعولاً ثانياً لفعل الإنذار .

لأنّ (أنذر) يتعدّى إلى مفعولين كقوله تعالى : ﴿ فقل أنذرتكم صاعقةً ﴾ [فصلت : 13] ، وفي حديث الدجال : " مَا من نبيء إلاّ أنذَر قومَه " .

(76/685)

فالمعنى : لتنذر أهل القرى ومن حولها ما يُنذرونه من العذاب في الدّنيا والآخرة .

وقولُه : ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ أعيد فعل ﴿ تنذر ﴾ لزيادة تهويل أمر يوم الجمع لأن تخصيصه بالذكر بعد عموم الإنذار يقتضي تهويله ، ولأن تعدية فعل ﴿ وتنذر ﴾ إلى ﴿ يوم الجمع ﴾ تعدية مخالفة لإنذار أم القرى لأن ﴿ يوم الجمع ﴾ مفعول ثان لفعل ﴿ وتنذر ﴾ ، أي وتنذر الناس يوم الجمع ، فمفعول ﴿ وتنذر ﴾ الثاني هو المنذر به ومفعول ﴿ لتنذر ﴾ الأول هو المنذر .

وانتصب ﴿ يوم الجمع ﴾ على أنّه مفعول ثانٍ لفعل ﴿ تنذر ﴾ وحذف مفعوله الأول لدلالة ما تقدم عليه ، أي وتنذرهم ، أي أهل أم القرى يومَ الجمع بالخصوص كقوله ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ [غافر : 18] .

ويومُ الجمع : يومُ القيامة ، سمي ﴿ يوم الجمع ﴾ لأن الخلائق تُجمَع فيه للحساب ، قال تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ [التغابن : 9] .

والجمع مصدر ، ويجوز أن يكون اسماً للمجتمعين كقوله تعالى : ﴿ هذا فَوْجٌ مقتحمٌ معكم ﴾ [ص : 59] ، أي يوم جماعة النّاس كلهم .

وجملة ﴿ فريق في الجنة ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، وعطفت عليها جملة ﴿ وفريق في السعير ﴾ فكان الجملتان جواباً لسؤال سائل عن شأن هذا الجمع إن كان بمعنى المصدر .

فقيل : فريق في الجنّة وفريق في السعير ، أي فريق من المجموعين بهذا الجمع في الجنّة وفريق في السعير ، أو لسؤال سائل عن حال هذا الجمع إن كان الجمعُ بمعنى المجموعين .

والتقدير : فريق منهم في الجنّة وفريق منهم في السعير .

وتقدم السعير عند قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا خبت زدناهم سعيراً ﴾ في سورة الإسراء (97) .

وسوغ الابتداء بـ ﴿ فريق ﴾ وهو نكرة لوقوعها في معرض التفصيل كقول امرىء القيس :

فأقبلتُ زحفاً على الركبتين

فثوبٌ لبِستُ وثوبٌ أَجُرّ . . .

وجملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ معترضة بين البيان والمبيَّن .

ومعنى ﴿ لا ريب فيه ﴾ أن دلائله تنفي الشك في أنه سيقع فنزّل ريب المرتابين في منزلة العدم لأن موجبات اليقين بوقوعه بينة كقوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ في سورة البقرة (2) .

وظرفية الريب المنفي في ضمير اليوم في قوله : لا ريب فيه ﴾ من باب إيقاع الفعل ونحوه على اسم الذات ، والمراد : إيقاعه على بعض أحوالها التي يدل عليها المقام مثل ﴿ حُرِّمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] ، أي أكلُها ، أي لا ريبَ في وقوعه .

وجملة ﴿ فريق في الجنة ﴾ الخ معترضة و ﴿ فريق ﴾ خبر مبتدأ محذوف على طريقة الحذف المتابع فيه الاستعمال كما سماه السكاكي ، أي هم فريق في الجنّة الخ .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

عطف على جملة ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : 7] .

والغرض من هذا العطف إفادة أن كونهم فريقين أمرٌ شاء الله تقديره ، أي أوجد أسبابه بحكمته ولو شاء لقدّر أسباب اتحادهم على عقيدة واحدة من الهُدى فكانوا سواء في المصير ، والمراد : لكانوا جميعاً في الجنّة .

وهذا مسوق لتسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تمنّيهم أن يكون النّاس كلّهم مهتدين ويكون جميعهم في الجنّة ، وبذلك تعلم أن ليس المراد : لو شاء الله لجعلهم أمّة واحدة في الأمرين الهُدى والضلال ، لأن هذا الشقّ الثاني لا يتعلق الغرض ببيانه هنا وإن

كان في نفس الأمر لو شاء الله لكان .

فتأويل هذه الآية بما جاء في قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حقّ القول مني لأملان جهنم من الجنّة والنّاس أجمعين ﴾ [السجدة : 13] وقوله : ﴿ ولو شاء ربُّك لآمَنَ مَنْ في الأرض كلّهم جميعاً أفأنت تكره النّاس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : 99] .

(78/685)

وقد دلّ على ذلك الاستدراكُ الذي في قوله : ﴿ ولكن يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أي ولكن شَاء مشيئةً أخرى جرت على وفق حكمته ، وهي أنْ خلقهم قابلين للهدى والضلال بتصاريف عُقولهم وأميالهم ، ومكَّنهم من كسب أفعالهم وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر بالتكليف فكان منهم المهتدون وهم الذين شاء الله إدخالهم في رحمته ، ومنهم الظالمون الذين ما لهم من ولي ولا نصير .

فقوله : ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أحدُ دليلين على المعنى المستدرَك إذ التقدير : ولكنه جعلهم فريقين فريقاً في الجنّة وفريقاً في السعير ليدخل من يشاء منهم في رحمته وهي الجنة .

وأفهم ذلك أنّه يدخل منهم الفريق الآخر في عقابه ، فدلّ عليه أيضاً بقوله : ﴿ والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ﴾ لأن نفي النصير كناية عن كونهم في بؤس وضُر ومغلوبية بحيث يحتاجون إلى نصير لو كان لهم نصير ، فيدخل في الظالمين مشركو أهل مكّة دخولاً أوليًّا لأنهم سبب ورود هذا العموم .

وأصل النظم : ويُدخل من يشاء في غضبه ، فعُدِل عنه إلى ما في الآية للدلالة على أن سبب إدخالهم في غضبه هو ظلمهم ، أي شركهم ﴿ إن الشرك لظلمٌ عظيمٌ ﴾ [لقمان : 13] مع إفادة أنّهم لا يجدون وليًّا يدفع عنهم غضبه ولا نصيرا يثْأر لهم .

وضمير (جعلهم) عائد إلى فريق الجنّة وفريق السعير باعتبار أفراد كل فريق .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)

﴿ أمْ ﴾ للإضراب الانتقالي كما يقال : دَعِ الاهتمامَ بشأنهم وإنذارَهم ولنعُدْ إلى فظاعة حالهم في اتخاذهم من دون الله أولياء .

وتُقَدَّر بعد ﴿ أمْ ﴾ همزة استفهام إنكاري .

فالمعنى : بل أأتخذوا من دونه أولياء ، أي أتوا منكراً لمَّا اتخذوا من دونه أولياء .

فضمير ﴿ اتخذوا ﴾ عائد إلى ﴿ الذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ [الشورى : 6] في الجملة السابقة .

والفاء في قوله : ﴿ فالله هو الولي ﴾ فاء جوابٍ لشرط مقدر دلّ عليه مقام إنكار اتخاذِهم أولياء من دون الله ، لأن إنكار ذلك يقتضي أن أولياءهم ليست جديرة بالوَلاية ، وأنهم ضلّوا في ولايتهم إياها ، فنشأ تقدير شرط معناه : إنْ أرادوا وَلِيًّا بحقَ فالله هوَ الوليّ .

قال السكاكي في "المفتاح" : وتقديرُ الشرط لقرائنِ الأحوال غيرُ ممتنع قال تعالى : ﴿ فَلَمْ تقتلوهم ولكنّ الله قتلَهم ﴾ [الأنفال : 17] على تقدير إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ، وقال ﴿ فالله هو الولي ﴾ على تقدير : إن أرادوا وليًّا بحق فالله هو الوليّ بالحق لا وليّ سواه .

والمراد بالوِلاية في قوْله ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي ﴾ ، وِلايةُ المعبودية ، فأفاد تعريفُ المسند في قوله : ﴿ فالله هو الولي ﴾ قصرَ جنس الولي بهذا الوصف على الله ، وإذ قد عبدوا غير الله تعيّن أن المراد قصرُ الوِلاية الحَقّ عليه تعالى .

وأفاد ضمير الفصل في قوله : ﴿ فالله هو الولي ﴾ تأكيدَ القصر وتحقيقَه وأنه لا مبالغة فيه تذكيراً بأن الولاية الحقّ في هذا الشأن مختصة بالله تعالى .

وهذا كلّه مسوق إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تسلية وتثبيتاً وتعريضاً بالمشركين فإنهم لا يَخلُون من أن يسمعوه .

وعطفُ ﴿ وهو يحيي الموتى ﴾ على جملة ﴿ فالله هو الولي ﴾ إدماج لإعادة إثبات

البعث ترسِيخاً لعلم المسلمين وإبلاغاً لمسامع المنكرين لأنّهم أنكروا ذلك في ضمن اتخاذهم أولياء من دون الله ، فلمّا أُبطل معتقدهم إلهية غير الله أُردف بإبطال ما هو من علائق شركهم وهو نفي البعث ، وليس ذلك استدلالاً عليهم لإبطال إلهاية آلهتهم لأن وقوع البعث مجحود عندهم .

(80/685)

فأما عطف جملة ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ فهو لإثبات هذه الصفة لله تعالى تذكيراً بانفراده بتمام القدرة ، ويفيد الاستدلال على إمكان البعث قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] ، ويفيد الاستدلال على نفي الإلهاية عن أصنامهم لأن من لا يَقْدر على كل شيء لا يصلح للإلهاية : قال تعالى : ﴿ أفَمَنْ يخلُق كمَن لا يخلق ﴾ [النحل : 17] وقال : ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقون ﴾ [النحل : 20] وقال ﴿ وإنْ يسلِبْهم الذُّبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ [الحج : 73] .

والغرض من هذا تعريض بإبلاغه إلى مسامع المشركين .

ولما كان المقصود إثباتَ القدرة لله تعالى عطفت الجملة على التي قبلها لأنها مثلُها في إفادة

الحكم ، وكانت إفادة التعليل بها حاصلة من مَوقعها عقبَها ، ولو أريد التعليل ابتداءً لفُصلت الجملة ولم تعطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(81/685)

قوله تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانوا جميعاً يقرون بجميع ما وصف به نفسه المقدسة في هذه الآية عند الشدائد ، بعضه تصريحاً من الوحدانية في الولاية والإحياء في هذه الدار والقدرة على كل شيء ،

وبعضه لزوماً وهو الإحياء بالبعث ، تسبب عن ذلك قطعاً أن يقال مع صرف القول إلى الخطاب إشارة إلى أنه تعالى قرب إليهم كل خير وقرب إليهم فهم الوحدانية لعقولهم بعد أن فطرهم على لزومها عند الاضطرار ، فما اتفقتم فيه من أمره سبحانه فهو الحق ، وذلك هو أصل الدين الذي أطبق عليه الخلائق في وقت الاضطرار ، لم يتلعثم فيه منهم ضعيف ، ولا جبار منيف ، عطف عليه قوله : ﴿ وما اختلفتم ﴾ أي أيها الخلق ﴿ فيه من شيء ﴾ وذلك هو الفروع مطلقاً والأصول في حال الرفاهية ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ أي الذي هو الولي لا غيره وهو القدير لا غيره ، فلا يخرج شيء عن أمره ، فحصوا عنه تجدوه في كتابه لأن فيه تبيان كل شيء ، فإن قصرت أفهامكم عن إخراجه منه فاطلبوه في سنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإن عز عليكم ففي إجماع أهل دينه ، فإن أعوزكم ذلك ففي القياس على شيء من ذلك .

قال القشيري : هذه الأشياء هي قانون الشريعة ، وجملتها من كتاب الله ، فإن الكتاب هو الذي يدل على صحة هذه الجملة – انتهى .

وما اجتهدتم فيه على ما شرع لكم وفصلتموه بما ظهر لكم على حكم بذل الجهد مضى ، وما لا فصله بينكم سبحانه في هذا اليوم أن أراد بنصر المحق وخذلان الظالم ، وإن أراد أخره إلى يوم الدين ، فإن شاء عفا وإن شاء عاقب عليه ، فلا حكم لغيره لا في الدنيا ولا في الآخرة .

ولما أنتج هذا أنه لا عظيم غيره ، ولا إله إلا هو ، ترجم ذلك بقوله مخاطباً للكل :

﴿ ذلكم ﴾ أي العظيم الرتبة جداً ﴿ الله ﴾ المحيط بجميع أوصاف الكمال ، فلا شريك له في شيء منه بوجه ﴿ ربي ﴾ الذي لا مربي له غيره في ماضٍ ولا حال ولا استقبال .

(82/685)

ولما كان ذلك ، أنتج ولا بد قوله : ﴿ عليه ﴾ أي وحده ﴿ توكلت ﴾ أي أسلمت جميع أمري ﴿ وإليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ أنيب ﴾ أي أرجع بالتوبة إذا قصرت في شيء من فروع شرعه وأرجع إلى كتابه إذا نابني أمر من الأمور ، فأعرف منه حكمه فافعلوا أنتم كذلك ، اجعلوه الحكم تفلحوا ، ولا تعدلوا عنه في شيء من الأشياء تهلكوا .

ولما تقرر بهذا الكلام أنه قد ركز في الفطر أنه لا إله غيره لأنه خالق سواه كما يهدي إليه الاضطرار وإن أغفل عنه البطر ، وصفه بالدليل على ذلك الذي جبل عليه جميع الفطر :

﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ أي مبتدئهما بالخلق والإخراج من العدم ، وكل ما اتخذتموه ولياً من دونه فهو منهما ، فهو مما فطره كما يعلم كل أحد منكم ذلك لا يتمارى فيه ، فهذا هو السبب في العلم المركوز في الفطر من أنه الواحد الذي لا إله معه كما كان في الأزل ولا شيء معه .

ولما ذكر سبحانه ما شق العدم بإيجاده من غير سبب أصلاً ، أتبعه ما سببه عن ذلك فأنشأه من العناصر التي أبدعتها يد القدرة في الخافقين ، فقال معبراً بالفعلية تذكيراً بما يوجب لهم الاعتراف بما اعترف به نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أنه وحده ربه لا شريك له في ذلك ، فيوجب التوكل عليه وحده : ﴿ جعل لكم ﴾ أي بعد أن خلقكم من الأرض ﴿ من أنفسكم أزواجاً ﴾ يكون بالسكون إليها بقاء نوعكم ، ولما كانت الأنعام ومنافعها لأجلنا قال : ﴿ ومن ﴾ أي وجعل لكم من ﴿ الأنعام ﴾ الي هي أموالكم وجمالكم وبها أعظم قوامكم ﴿ أزواجاً ﴾ أي من أنفسها ، يكون بها أيضاً بقاء نوعها ، وكذا جميع الحيوانات ، ومعنى قوله مغلباً العقلاء : ﴿ يذرؤكم ﴾ أي يخلقكم ويكثركم ولما كان الأزواج في غاية المحبة للزواج بحيث إنه مستول على القلوب ، كان كأنه محيط بهم فقال : ﴿ فيه ﴾ أي في ذلك التزاوج بحيث يجعلكم مولعين به ، من قوله ذراه : خلقه وكثره وأولعه بالشيء ، فيكون لكم في الأزواج من البشر نطفاً وجمالاً وولادة ، وفي الأنعام غذاء وشراباً وأكلاً ، وغير ذلك مما لكم فيه من المنافع ، ولا تزالون في هذا الوجه من الخلق والتزاوج نسلاً بعد نسل وجيلاً بعد جيل .

ولما تقرر في الأوهام وثبت في كثير من الأذهان أنه لا يكون شيء إلا بسبب التزواج، كان ربما سرى شيء من هذا الوهم في حق الخالق سبحانه فنفاه على أبلغ وجه بقوله: استئنافاً في جواب من يسأل عنه: ﴿ليس﴾ وقدم الخبر لأن المراد نفيه فأولاه النافي دلالة على شدة العناية بنفسه فقال: ﴿كمثله﴾ أي مثل نفسه في ذاته ولا في شيء من صفاته: ﴿شيء﴾ يزاوجه أو يناسبه، وكل ما اتخذتموه ولياً من دونه، فله ما يزاوجه ويماثله، فالمراد بالمثل هنا النفس وهو أصله وحقيقته في اللغة من قولهم: مثل الرجل يمثل - إذا قام وانتصب، قال الإمام عبد الحق الإشبيلي في كتابه الواعي: والمثل يكون هو الحديث نفسه ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ [الرعد: 35] فمثلها هو الخبر عنها، وقيل: المثل ههنا الصفة ﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ [البقرة: 214] أي صفتهم، نقل ذلك الهروي ونقل عن أبي عبد الله القزاز قوله: ﴿ضرب مثل فاستمعوا له﴾ [الحج: 73] كذلك، لأنه قال: ﴿إن الذين تدعون﴾ الآية فصار الخبر عن ذلك هو المثل، قال: وهو على أصل ما ذكرنا أن مثل الشيء صفته وصورته، وروي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قرأ ﴿مثال﴾ وقرأ ﴿أمثال الجنة التي وعد المتقون﴾ ثم قال: وهذا

كله يدل على أن معنى ﴿ مثل ﴾ صفة صورة ، قال أبو عبد الله : مثلت له الشيء تمثيلاً : صورته له حتى كأنه ينظر إليه ، وفي الحديث :

" مثلت لي الجنة والنار " انتهى .

في القاموس : المثل – بالكسر والتحريك وكأمر : المشبه ، والمثل محركة : الحجة والحديث والصفة ، والمثيل : المقدار والقصاص وصفة الشيء والفراش ، جمعه أمثلة ومثل ، والتمثال – بالكسر : الصورة ومثل قائماً : قام منتصباً كمثل بلاضم مثولاً – انتهى .

وفي شمس العلوم : والعرب تقيم المثل مقام النفس فتقول : مثلي لا يقول هذا أي أنا انتهى .

(85/685)

فقد بان أن المثل بالإسكان والتحريك واحد ، وأنه في الأصل عبارة عن نفس الشيء وصورته ، ثم شاع فيما يشابهه ، فمعنى مثل أي انتصب تشكل وتصور فكانت له صورة وشكل لأن بالانتصاب تتحقق صورته وتظهر ، وكذا مثل بمعنى لصق الأرض وإن كان ظهوره بالقيام أوضح ، وكذا مثل إذا زال عن مكانه لأنه حصل الانتصاب أو اللصوق ، وزاد الانتقال ، ويوضح ذلك قولهم : مثله له – إذا صوره حتى كأنه ينظر إليه ، فعلم قطعاً أن معنى الآية ما قلته ، وأنه لو قيل ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، من غير كاف ، لربما قال بعض

أهل التعنت : هذا معناه أنه ليس شيئاً ، لأنا قد علمنا أن المثل هو الشيء ، وقد كانوا يتعنتون بدون هذا ، فأتى بالكاف إزالةً لهذا التعنت مع العلم القطعي بأن ظاهر ما نفهمه غير مراد لأنه يؤدي إلى محالين هما في غاية الضمور يحاشى عن أحدهما فكيف إذا اجتمعا من له أدنى حكمة فكيف بأحكم الحكماء ، أحدهما أن له مثلاً ، والثاني أن مثله لا مثل له مع الحكم بأنه مثله ، وذلك تناقض ظاهر يتعالى الله عن إرادة مثله علواً كبيراً – والله الموفق .

ولما كان قد أبطن نفسه سبحانه بهذا التنزيه إبطاناً عظيماً ، وكان هذا الإعراق في البطون لا تحتمله العقول ، فلا يؤمن عليها النزوع إلى التعطيل ، قربه بنوع ظهور بذكر ما نعقله من الأوصاف بعد الأمن من التشبيه لمن يأمل الكلام ، وحكم العقل وطرد الوهم ، فأتى بأوضح ما نحسه من أوصافنا .

(86/685)

وأظهره مع استلزامه لبقية الصفات فقال : ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه لا غيره ﴿ السميع البصير ﴾ أي الكامل في السمع والبصر والعلم من البصر والبصيرة ، ومن المقطوع به أن ذلك لا يكون على وجه الخصوص إلا بالوحدانية والحياة والقدرة والإرادة والكلام ، فاستوفت

هذه الآية ما لوح إليه العاطف فيب قوله " وما اختلفتم " بعد ما صرح به ، فالله هو الولي من أصول الدين بالصفات السبع على أتم وجه – والله الموفق ، قال الحرالي : السمع إدراك ألطف المثلين وهو الاسم ، والصر إدراك أظهر المثلين وهو الصورة ، وبالحق سبحانه بدأ كل مثل لطيف فهو السميع بالحقيقة أن لا يسمع ما هو مبدىء ألطف مثيله ، أو لا يبصر ما هو مبدىء أظهر مثيله ، ولما كان سبحانه وتعالى عليماً بأمثال البادئات قبل كونها كان سميعاً لها بصيراً لها قبل كونها ، وإنما يستجد السمع والبصر من يتبع علمه إدراك حسه ، لا من هو دائماً سميع بصير بما هو دائماً عليم ، فهو سبحانه يسمع الأشياء وإن لم تتسم ، ويراها وإن لم تتصور ، رؤيته لها وسمعه في خلقها وبريها وتصويرها رؤية دائمة وسمع دائم ، والخلق لا يرون الشيء قبل تصوره ولا يسمعونه قبل تكلمه – انتهى .

فقد صرحت الآية بتنزيهه عن مساوٍ في شيء ما ، فمن ادعى لأحد مساواته في شيء من صفاته علم أو غيره فقد أشرك به في تلك الصفة وهو أشد ملامة من المشرك بالصنم ونحوه من المخلوقات لأن إشراك هذا ظاهر الوهي واضح الخلل بين السفسفة ، وإشراك الأول خفي لا يقدر على حله إلا راسخ وإن كان كل منهما يصير إلى الركاكة والهذيان لأنه لا يسوغ في عقل أن يكون أحد شريكاً لأحد في شيء إلا وهو مساوٍ له في حقيقة الذات ، وصالح في الجملة لأن يقوم مقامه في جميع الصفات ، فإياك ثم إياك من مزلة ربما استغوى بها الشيطان بعض من يريد الترقي في درجات العرفان ، ليخرجه من جميع الأديان .

ولما قرر أمر الوحي بما ثبت به من الإعجاز ، وأراهم الآيات في الآفاق ، بأن له ما في الوجود ، وأنه هو الذي فطره ، وكان ربما كان للإنسان شيء ولم يكن كامل التصرف فيه بأن يكون مفاتيح خزائنه مع غيره من شريك أو غيره ، وكان ربما اخترع الإنسان بناء وكان لغيره ، أخبر إكمالاً لتنزيه الآية السالفة وشرحاً له أنه تعالى ليس كمثله شيء كغيره في هذا أيضاً بل كما كان أن له ما في الخافقين وهو مخترعهما فله مفاتيح خزائنهما ، فقال : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ مقاليد السماوات والأرض ﴾ أي خزائنهما ومفاتيح خزائنهما من الأمطار والأنبات وغيرهما وقد ثبت أنه ابتدعهما ، وأن له جميع ما فيهما مما اتخذ من دونه ولياً وغيره ، قال القشيري : والمفاتيح الخزائن وخزائنه مقدوراته – انتهى .

ولما كان قد حصر الأمر فيه دل عليه بقوله : ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي الذي فيهما ولا مانع منه إلا قدرته ﴿ لمن يشاء ﴾ أي أن يبسطه له ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق ويقبض على من يشاء كما وسع على فارس والروم وضيق على العرب وفاوت في الأفراد ، بين أفراد من وسع عليهم ومن ضيق عليهم ، فدل ذلك قطعاً على أنه لا شريك له وأنه هو المتصرف وحده فقطع بذلك أفكار الموفقين من عباده من غيره ليقبلوا عليه ويتفرغوا له ، فإن عبادته

هي المقاليد بالحقيقة ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال ﴾

[الآية 12 : نوح] ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ [الطلاق : 11] ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ﴾ ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ﴾ [الآية 66 : المائدة] .

(88/685)

ولما كان كأنه قيل : لم فعل ذلك ؟ علله بقوله مؤكداً لأن أعمال غالب الناس في المعاصي عمل من يظن أنه سبحانه يخفى عليه عمله : ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ فلا فعل له إلا وهو جار على أتقن ما يكون من قوانين الحكمة ، فلو أنه وسع العرب وقواهم ثم أباحهم ملك أهل فارس والروم لقبل بقوتهم ومكنتهم ، وله في كل شيء دق أو جل من الحكم ما يعجز عن إدراك لطائفة أفاضل الأمم .

ولما ثبت أن له كل شيء وأنه لا متصرف في الوجود سواه ، أنتج ذلك أنه لا ناهج لطرق

الأديان التي هي أعظم الرزق وأعظم قاسمة للرزق غيره ، فأعلمهم أنه لم يشرع ديناً قديماً وحديثاً غير ما اتفقوا عليه وقت الشدائد .

فقال دالاً على ما ختم به الآية التي قبلها من شمول علمه ومرغباً في لزوم ما هدى إليه ودل عليه : ﴿ شرع ﴾ أي طرق وسن طريقاً ظاهراً بيناً واضحاً ﴿ لكم ﴾ أيتها الأمة الخاتمة من الطرق الظاهرة المستقيمة ﴿ من الدين ﴾ وهو ما يعمل فيجازي عليه .

ولما كان السياق للدين ، وكانوا هم المقصودين في هذا السياق بالأمر به ، لأن الشارع لهم قد أنتجه ، وكانوا لتقليدهم الآباء يرون أن ما كان منه أقدم كان أعظم وأحكم ، ذكر لهم أول الآباء المرسلين إلى المخالفين فقال : ﴿ ما ﴾ أي الذي ﴿ وصى به ﴾ توصية عظيمة بعد إعلامه بانه شرعه ﴿ نوحاً ﴾ في الزمان الأقدم كما ختم به على لسان الخاتم ، وأرسل به من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير لأنه لا يرضيه سواه ، فإن كنتم إنما تأنفون من الدخول في هذا الدين لحدوثه فإنه أقدم الأديان وكل ما سواه حادث مع أنه ما بعث نبياً من أنبيائكم ولا من غيرهم إلا به ومع أنه توفرت على الشهادة به الفطر الأولى دائماً والفطر اللاحقة حتى من القلوب العاتية في أوقات الشدائد أبداً فأدخلوا فيه على بصيرة .

(89/685)

ولما كان الإعجاز خاصاً بنا ، أبرزه في مظهر العظمة معبراً بالوحي ، وبالأصل في الموصلات ، ودالاً على زيادة عظمته بتقديمه على من كانوا قبله مع ترتيبهم عند ذكرهم على ترتيبهم في الوجود فقال : ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ وأفرد الضمير زيادة في عظمته دلالة على أنه لا يفهمه حق فهمه غيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ودل على عظمه ما كان لإبراهيم وبنيه بما ظهر من آثاره بمظهر العظمة ، وعلى نقصه عما إلى نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتعبير بالوصية فقال : ﴿ وما وصينا ﴾ أي على ما لنا من العظمة الباهرة التي ظهرت بها تلك المعجزات ﴿ به إبراهيم ﴾ الذي نجيناه من كيد نمرود بالنار وغيرها ووهبنا له على الكبر إسماعيل وإسحاق ، وهو أعظم آباء العرب وهم يدعون أكبر بالآباء فليكونوا على ما وصيناه به ﴿ وموسى ﴾ الذي أنزلنا عليه التوراة موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴿ وعيسى ﴾ الذي أنزلنا عليه الإنجيل فيه هدى ونور وموعظة ، ودخرناه في سمائنا شريعة الخاتم الفاتح .

ولما اشتد تشوف السامع إلى الموحى الموصى به ، أبرزه في أسلوب الأمر فقال مبدلاً من معمول " شرع " أو مستأنفاً : ﴿ أن أقيموا ﴾ أي أيها المشروع لهم من هذه الأمة الخاتمة ومن الأمم الماضية ﴿ الدين ﴾ أي الذي اتفق عليه الخلائق بالرجوع إلى ما فطروا عليه وقت الاضطرار وهو التوحيد والوصف بجميع صفات الكمال على الإطلاق وغير ذلك

من كل ما أرسل به رسله هذا على تقدير أن تكون ﴿ أن ﴾ مصدرية ، ويجوز أن تكون مفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول .

(90/685)

ولما عظمه الأمر بالاجتماع ، أتبعه التعظيم بالنهي عن الافتراق فقال : ﴿ ولا تتفرقوا ﴾ أي تفرقاً عظيماً بما أشار إليه إثبات التاء ، وكأن ذلك إشارة إلى التحذير من التفرق في الأصل وإذن في الاجتهاد على قدر القوة في الفرع ﴿ فيه ﴾ أي الدين في أوقات الرخاء عند التقلب في لذيذ ما أنعم به الشارع له الآمر به المرغب في اتباعه المرهب من اجتنابه ، واجتمعوا على ما أرسله الذي أثبتم له جميع صفات الكمال عند الشدائد من غير خلاف أصلاً في شيء من الأشياء ، فإن التفرق سبب الهلاك ، والاجتماع سبب النجاة ، فكونوا يداً واحدة يا أهل الكتاب قال تعالى ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ .

ولما نهى عن التفرق ، حث على لزوم الاجتماع اللازم به بتعليل النهي بقوله : ﴿ كبُر على المشركين ﴾ أي جل وعظم وشق حتى ضاقت به صدورهم ، وهو ﴿ ما تدعوهم إليه ﴾ أيها النبي الفاتح الخاتم من الاجتماع أبداً على ما اجتمعوا عليه وقت الاضطرار من

وحدانية الواحد القهار ، فلأجل كبره عليهم هم يسعون في تفرقكم عنه فإن تفرقتم عنه كنتم قد تابعتم العدو الحسود وخالفتم الولي الودود .

ولما كان الإخبار بكرّه عليهم ربنا أوهم اتباع أتباعهم له ، أزال ذلك الوهم بقوله جواباً لمن كأنه قال : كيف السبيل مع ذلك إلى دخول أحد في هذا الدين ، عادلاً عن مظهر العظمة إلى أعظم منه تعظيماً للقدرة على جميع القلوب : ﴿ الله ﴾ أي الذي له مجامع العظمة ونفوذ الأمر ﴿ يجتبي ﴾ أي يختار بغاية العناية ويصرف ﴿ إليه ﴾ أي إلى هذا الدين الذي تدعوهم إليه ﴿ من يشاء ﴾ اجتباءه .

(91/685)

ولما ذكر سبحانه بهذا المراد بغير تكسب منه ، أتبعه المزيد المعنى بالسلوك فقال : ﴿ ويهدي إليه ﴾ بالتوفيق للطاعة ﴿ من ينيب ﴾ أي فيه أهلية لأن يجدد الرجوع إلى مراتب طاعاته كل حين بباطنه بعد الرجوع بظاهر إلى ما كتبه له من الدرجات كأنه كان الوصول إليها قد نزل عنها وهو بترقيه في المنازلات بأحوال الطاعات يرجع إليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 604 . 611 ﴾

(92/685)

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

وجه النظم أنه تعالى كما منع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحمل الكفار على الإيمان قهراً ، فكذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معهم في الخصومات والمنازعات فقال : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ وهو إثابة المحقين فيه ومعاقبة المبطلين ، وقيل وما اختلفتم فيه من شيء وتنازعتم فتحاكموا فيه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا تؤثر حكومة غيره على حكومته ، وقيل وما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور التي لا تصل بتكليفكم ، ولا طريق لكم إلى عمله كحقيقة الروح ، فقولوا الله أعلم به ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] .

المسألة الثانية :

تقدير الآية كأنه قال : قل يا محمد ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

المسألة الثالثة :

احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا قوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ إما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه ، أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على ما نص الله عليه ، والثاني باطل لأنه يقتضي كون كل الأحكام مثبتة بالقياس بأنه باطل فيعتبر الأول ، فوجب كون كل الأحكام مثبتة بالنص وذلك ينفي العمل بالقياس ، ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه يعرف من بيان الله تعالى ، سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس ؟ أجيب عنه بأن المقصود من التحاكم إلى الله قطع الاختلاف ، والرجوع إلى القياس يقوي حكم الاختلاف ولا يوضحه ، فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع إلى نصوص الله تعالى .

(93/685)

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبِّي ﴾ أي ذلكم الحاكم بينكم هو ربي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في دفع كيد الأعداء وفي طلب كل خير ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي وإليه أرجع في كل المهمات ، وقوله ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يفيد الحصر ، أي لا أتوكل إلا عليه ، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله ولياً .

ثم قال : ﴿ فَاطِرُ السموات والأرض ﴾ قرىء بالرفع والجر ، فالرفع على أنه خبر ذلاكم ، أو خبر مبتدأ محذوف ، والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله فاطر السموات والأرض وقوله ﴿ ذِلَكُمُ الله رَبِّي ﴾ اعتراض وقع بين الصفة والموصوف ، ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ من جنسكم من الناس ﴿ أزواجا وَمِنَ الأنعام أزواجا ﴾ أي خلق من الأنعام أزواجاً ، ومعناه وخلق أيضاً للأنعام من أنفسها أزواجاً ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ أي يكثركم ، يقال : ذرأ الله الخلق ، أي كثرهم ، وقوله ﴿ فِيهِ ﴾ أي في هذا التدبير ، وهو التزويج وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل ، والضمير في ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يرجع إلى المخاطبين ، إلى أنه غلب فيه جانب الناس من وجهين الأول : أنه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء الثاني : أنه غلب فيه جانب المخاطبين على الغائبين ، فإن قيل ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير ، ولم لم يقل يذرؤكم به ؟ قلنا جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير ، ألا ترى أنه يقال للحيوان في خلق الأزواج تكثير ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حياة ﴾ [البقرة : 179] .

ثم قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ وهذه الآية فيها مسائل :

المسألة الأولى :

احتج علماء التوحيد قديماً وحديثاً بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسماً مركباً من الأعضاء والأجزاء وحاصلاً في المكان والجهة ، وقالوا لو كان جسماً لكان مثلاً لسائر الأجسام ، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له ، وذلك باطل بصريح قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ويمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر ، فيقال إما أن يكون المراد ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ في ماهيات الذات ، أو أن يكون المراد ليس كمثله في الصفات شيء ، والثاني باطل ، لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين ، كما أن الله تعالى يوصف بذلك ، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين ، مع أن الله تعالى يوصف بذلك ، فثبت أن المراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات ، فيكون المعنى أن شيئاً من الذوات لا يساوي الله تعالى في الذاتية ، فلو كان الله تعالى جسماً ، لكان كونه جسماً ذاتاً لا صفة ، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له في الجسمية ، أعني في كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة ، فحينئذ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله تعالى في كونه ذاتاً ، والنص ينفي ذلك فوجب أن لا يكون جسماً .

(95/685)

واعلم أن محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه "بالتوحيد" ، وهو في الحقيقة كتاب الشرك ، واعترض عليها ، وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات ، لأنه كان رجلاً مضطرب الكلام ، قليل الفهم ، ناقص العقل ، فقال : " نحن نثبت لله وجهاً ونقول : إن لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء ، ما لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره ، ووجه ربنا منفي عنه الهلاك والفناء ، ونقول إن لبني آدم وجوهاً كتب الله عليها الهلاك والفناء ، ونفى عنها الجلال والإكرام ، غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء ، ولو كان مجرد إثبات الوجه لله يقتضي التشبيه لكان من قال إن لبني آدم وجوهاً وللخنازير والقردة والكلاب وجوهاً ، لكان قد شبّه وجوه بني آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب .

ثم قال : ولا شك أنه اعتقاد الجهمية لأنه لو قيل له : وجهك يشبه وجه الخنازير والقردة لغضب ولشافهه بالسوء ، فعلمنا أنه لا يلزم من إثبات الوجه واليدين لله إثبات التشبيه بين الله وبين خلقه " .

(96/685)

وذكر في فصل آخر من هذا الكتاب " أن القرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعالى وبين خلقه في صفات كثيرة ، ولم يلزم منها أن يكون القائل مشبهاً فكذا ههنا " ونحن نعد الصور التي ذكرها على الاستقصاء فالأول : أنه تعالى قال في هذه الآية ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ وقال في حق الإنسان ﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الإنسان : 2] ، الثاني : قال : ﴿ وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : 105] وقال في حق المخلوقين ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير مسخرات فِى جَوّ السمآء ﴾ [النحل : 79] الثالث : قال : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود : 37] ﴿ واصبر لِحُكْمِ رَبّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : 48] وقال في حق المخلوقين ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع ﴾ [المائدة : 83] الرابع : قال لإبليس ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] وقال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : 64] وقال : في حق المخلوقين ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [آل عمران : 182] ، ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : 10] الخامس : قال تعالى : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] وقال في الذين يركبون الدواب ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ [الزخرف : 13] وقال في سفينة نوح ﴿ واستوت عَلَى الجودى ﴾ [هود : 44] ، السادس : سمى نفسه عزيزاً فقال : ﴿ العزيز الجبار ﴾

[الحشر : 23] ، ثم ذكر هذا الاسم في حق المخلوقين بقوله ﴿ يا أَيُّهَا العزيز إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ [يوسف : 78] ، ﴿ يا أيها العزيز مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ﴾ [يوسف : 88] ، السابع : سمى نفسه بالملك وسمى بعض عبيده أيضاً بالملك فقال : ﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ ﴾ [يوسف : 50] وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال : ﴿ رَبُّ العرش العظيم ﴾ [التوبة : 129] وسمى نفسه بالجبار المتكبر وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : 35] ثم طول في ضرب الأمثلة من هذا الجنس ، وقال ومن وقف على الأمثلة التي ذكرناها أمكنه الإكثار منها ، فهذا ما أورده هذا الرجل في هذا الكتاب .

وأقول هذا المسكين الجاهل إنما وقع في أمثال هذه الخرافات لأنه لم يعرف حقيقة المثلين وعلماء التوحيد حققوا الكلام في المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية ، فنقول المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته ، وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول : المعتبر في كل شيء ، إما تمام ماهيته وإما جزء من أجزاء ماهيته وإما أمر خارج عن ماهيته ، ولكنه من لوازم تلك الماهية ، وأما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية وهذا التقسيم مبني على الفرق بين ذات الشيء وبين الصفات القائمة به وذلك معلوم بالبديهة ، فإنا نرى الحبة من الحصرم كانت في غاية

الخضرة والحموضة ثم صارت في غاية السواد والحلاوة ، فالذات باقية والصفات مختلفة والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة ، وأيضاً نرى الشعر قد كان في غاية السواد ثم صار في غاية البياض ، فالذات باقية والصفات متبدلة والباقي غير المتبدل ، فظهر بما ذكرنا أن الذوات مغايرة للصفات .

(98/685)

إذا عرفت هذا فنقول : اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات ألبتة ، لأنا نرى الجسم الواحد كان ساكناً ثم يصير متحركاً ، ثم يسكن بعد ذلك ، فالذوات باقية في الأحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد ، والصفات متعاقبة متزايلة ، فثبت بهذا أن اختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات ، إذا عرفت هذا فنقول : الأجسام منها تألف وجه الكلب والقرد مساوية للأجسام التي تألف منها وجه الإنسان والفرس وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة وهي الألوان والأشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها ، فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف في الصفات والأعراض ، فأما ذوات الأجسام فهي متماثلة إلا أن العوام لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات ، فلا جرم يقولون إن وجه الإنسان مخالف لوجه الحمار ، ولقد

صدقوا فإنه حصلت تلك بسبب الشكل واللون وسائر الصفات ، فأما الأجسام من حيث إنها أجسام فهي متماثلة متساوية ، فثبت أن الكلام الذي أورده إنما ذكره لأجل أنه كان من العوام وما كان يعرف أن المعتبر في التماثل والاختلاف حقائق الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة بها ، بقي ههنا أن يقال فما الدليل على أن الأجسام كلها متماثلة ؟ فنقول لنا ها هنا مقامان :

(99/685)

المقام الأول : أن نقول هذه المقدمة إما أن تكون مسلمة أو لا تكون مسلمة ، فإن كانت مسلمة فقد حصل المقصود ، وإن كانت ممنوعة ، فنقول فلم لا يجوز أن يقال إله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسي ، ويكون ذلك الجسم مخالفاً لماهية سائر الأجسام فكان هو قديماً أزلياً واجب الوجود وسائر الأجسام محدثة مخلوقة ، ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن المجسمة لا يقدرون عليه ؟ فإن قالوا هذا باطل لأن القرآن دلّ على أن الشمس والقمر والأفلاك كلها محدثة مخلوقة فيقال هذا من باب الحماقة المفرطة لأن صحة القرآن وصحة نبوّة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله ، فإثبات معرفة الإله بالقرآن وقول النبي لا يقوله عاقل يفهم ما يتكلم به .

والمقام الثاني : أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات والحقيقة ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسماً لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل ، أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام ، فيلزم كونه محدثاً مخلوقاً قابلاً للعدم والفناء قابلاً للتفرق والتمزق .

(100/685)

وأما النقل فقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر أنا لا نقول بأنه متى حصل الاستواء في الصفة لزم حصول الاستواء في تمام الحقيقة إلا أنا نقول لما ثبت أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية ، فلو كانت ذاته جسماً لكن ذلك الجسم مساوياً لسائر الأجسام في تمام الماهية ، وحينئذ يلزم أن يكون كل جسم مثلاً له ، لما بينا أن المعتبر في حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي هي ، لا اعتبار الصفات القائمة بها فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن حجة أهل التوحيد في غاية القوة ، وأن هذه الكلمات التي أوردها هذا الإنسان إنما أوردها لأنه كان بعيداً عن معرفة الحقائق ، فجرى على منهج كلمات العوام فاغتر بتلك الكلمات التي ذكرها ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة .

المسألة الثانية :

في ظاهر هذه الآية إشكال ، فإنه يقال المقصود منها نفي المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب إثبات المثل لله ، فإنه يقتضي نفي المثل عن مثله لا عنه ، وذلك يوجب إثبات المثل لله تعالى ، وأجاب العلماء عنه بأن قالوا إن العرب تقول مثلك لا يبخل أي أنت لا تبخل فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عنه ، ويقول الرجل : هذا الكلام لا يقال لمثلي أي لا يقال لي قال الشاعر :

(101/685)

"ومثلي كمثل جذوع النخيل" . . والمراد منه المبالغة فإنه إذا كان ذلك الحكم منتفياً عمن كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له ، فلأن يكون منتفياً عنه كان ذلك أولى ، ونظيره قولهم : سلام على المجلس العالي ، والمقصود أن سلام الله إذا كان واقعاً على مجلسه وموضعه فلأن يكون واقعاً عليه كان ذلك أولى ، فكذا ههنا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ والمعنى ليس كهو شيء على سبيل المبالغة من الوجه الذي ذكرناه ، وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ ساقطاً عديم الأثر ، بل كان مفيداً للمبالغة من الوجه الذي ذكرناه ، وزعم جهم بن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء قال لأن كل

شيء فإنه يكون مثلاً لمثل نفسه فقول ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ معناه ليس مثل مثله شيء وذلك يقتضي أن لا يكون هو مسمى باسم الشيء ، وعندي فيه طريقة أخرى ، وهي أن المقصود من ذكر الجمع بين حرفي التشبيه الدليل الدال على كونه منزّهاً عن المثل ، وتقريره أن يقال لو كان له مثل لكن هو مثل نفسه ، وهذا محال فإثبات المثل له محال ، أما بيان أنه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالأمر فيه ظاهر ، وأما بيان أن هذا محال فلأنه لو كان مثل مثل نفسه لكان مساوياً لمثله في تلك الماهية ومبايناً له في نفسه ، وما به المشاركة غير ما به المباينة .

فتكون ذات كل واحد منهما مركباً وكل مركب ممكن ، فثبت أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان هو في نفسه واجب الوجود ، إذا عرفت هذا فقوله ليس مثله مثله شيء إشارة إلى أنه لو صدق عليه أنه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئاً بناءً على ما بينا أنه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان واجب الوجود ، فهذا ما يحتمله اللفظ .

المسألة الثالثة :

هذه الآية دالة على نفي المثل وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى ﴾ [الروم : 27] يقتضي إثبات المثل فلا بد من الفرق بينهما ، فنقول المثل هو الذي يكون مساوياً للشيء في تمام الماهية والمثل هو الذي يكون مساوياً له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفاً في تمام الماهية .

المسألة الرابعة :

قوله ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ يدل على كونه تعالى سامعاً للمسموعات مبصراً للمرئيات ، فإن قيل يمتنع إجراء هذا اللفظ على ظاهره وذلك لأنه إذا حصل قرع أو قلع انقلب الهواء من بين ذينك الجسمين انقلاباً يعنف فيتموج الهواء بسبب ذلك ويتأدى ذلك التموج إلى سطح الصماخ فهذا هو السماع ، وأما الإبصار فهو عبارة عن تأثر الحدقة بصورة المرئي ، فثبت أن السمع والبصر عبارة عن تأثر الحاسة ، وذلك على الله محال ، فثبت أن إطلاق السمع والبصر على علمه تعالى بالمسموعات والمبصرات غير جائز والجواب : الدليل على أن السماع مغاير لتأثر الحاسة أنا إذا سمعنا الصوت علمنا أنه من أي الجوانب جاء فعلمنا أنا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت في نفسه ، وهذا يدل على أن إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء .

وأما الرؤية فالدليل على أنها حالة مغايرة لتأثر الحدقة ، فذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه ، فنقول الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية في نفس العالم عظيمة ، وهذا يدل على أن الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع ، وإذا ثبت هذا فنقول لا يلزم من امتناع التأثر في حق الله امتناع السمع والبصر في حقه ، فإن قالوا هب أن السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة إلا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر ، فلما كان حصول ذلك التأثر في حق الله تعالى ممتنعاً كان حصول السمع والبصر في حق الله ممتنعاً ، فنقول ظاهر قوله ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ يدل على كونه سميعاً بصيراً فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر إلا إذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر ، والتأثر في حق الله تعالى ممتنع ، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعاً ، وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله ، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلى أن تذكروا ما يوجب العدول عنه ، فإن قال قائل قوله ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ يفيد الحصر ، فما معنى هذا الحصر ، مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين ؟ فنقول السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال ، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله ، فهذا هو المراد من هذا الحصر .

أما قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ فاعلم أن المراد من الآية أنه تعالى : فاطر السموات والأرض والأصنام ليست كذلك ، وأيضاً فهو خالق أنفسنا وأزواجنا وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا ، والأصنام ليست كذلك ، وأيضاً فله مقاليد السموات والأرض والأصنام ليست كذلك ، والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم ، فكيف يجوز جعل الأصنام التي هي جمادات مساوية له في المعبودية ؟ فقوله ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ يريد مفاتيح الرزق من السموات والأرض ، فمقاليد السموات الأمطار ، ومقاليد الأرض النبات ، وذكرنا تفسير المقاليد في سورة الزمر عند قوله ﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ [الزمر : 52] لأن مفاتيح الأرزاق بيده ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شيْء ﴾ من البسط والتقدير ﴿ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾

اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم ﴾ [الشورى : 3] ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال : ﴿ شَرَعَ لَكُم مّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ والمعنى شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحاً ومحمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، هذا هو المقصود من لفظ الآية ، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة ، إلا أنه بقي في لفظ الآية إشكالات أحدها : أنه قال في أول الآية ﴿ مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ وفي آخرها ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وفي الوسط ﴿ والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ فما الفائدة في هذا التفاوت ؟ وثانيها : أنه ذكر نوحاً عليه السلام على سبيل الغيبة فقال : ﴿ مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال : ﴿ والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وثالثها : أنه يصير تقدير الآية : شرع الله لكم من الدين الذي أوحينا إليك فقوله ﴿ شَرَعَ لَكُم ﴾ خطاب الغيبة وقوله ﴿ والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ خطاب الحضور ، فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد ، وهو مشكل ، فهذه المضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها ، وبالجملة فالمقصود من الآية أنه يقال شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته ، وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام ، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة قال تعالى : ﴿ لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

ومنهاجا ﴾ [المائدة : 48] فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي في مكارم الأخلاق والاحتراز عن

(106/685)

رذائل الأحوال ، ويجوز عندي أن يكون المراد من قوله ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا ﴾ أي لا تتفرقوا بالآلهة الكثيرة ، كما قال يوسف عليه السلام : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلَّا أَنَا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 25] واحتج بعضهم بقوله ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ على أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول الأمر كان مبعوثاً بشريعة نوح عليه السلام ، والجواب ما ذكرناه أنه عطف عليه سائر الأنبياء وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل ، ومحل ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدين ﴾ إما نصب بدل من مفعول ﴿ شَرَعَ ﴾ والمعطوفين عليه ، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل ما ذاك المشروع ؟ فقيل هو إقامة الدين ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين ﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من إقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والإجماع ، بدليل أن الكفار

قالوا

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

احتج نفاة القياس بهذه الآية قالوا إنه تعالى أخبر أن أكابر الأنبياء أطبقوا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لا يفضي إلى الاختلاف والتنازع ، والله تعالى ذكر في معرض المنّة على عباده أنه أرشدهم إلى الدين الخالي عن التفرق والمخالفة ومعلوم أن فتح باب القياس يفضي إلى أعظم أنواع التفرق والمنازعة ، فإن الحس شاهد بأن هؤلاء الذين بنوا دينهم على الأخذ بالقياس تفرقوا تفرقاً لا رجاء في حصول الاتفاق بينهم إلى آخر القيامة ، فوجب أن يكون ذلك محرماً ممنوعاً عنه .

المسألة الثانية :

هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع قسمين منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه ، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان ، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان ، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء ، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان ، ودلت

هذه الآية على أن سعي الشرع في تقرير النوع الأول أقوى من سعيه في تقرير النوع الثاني ، لأن المواظبة على القسم الأول مهمة في اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة في الدار الآخرة .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل ، وبيان منفعته من وجوه الأول : أن للنفوس تأثيرات ، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد قوي التأثير الثاني : أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معيناً للآخر في ذلك المقصود المعين ، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود ، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود الثالث : أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب ، فلهذا السبب أمر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق وقال في آية أخرى ﴿ وَلاَ تنازعوا فَتَفْشَلُواْ ﴾ [الأنفال : 46] .

(108/685)

ثم قال تعالى : ﴿ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ وفيه وجهان الأول : أنه تعالى لما أرشد أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بالدين المتفق عليه بيّن أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير ، لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة الثاني : أنه إنما كبّر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبراً وأنفة فبيّن تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم ، ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى ، بل الكل سواء في أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى ، واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع ، فمنه جبى الخراج واجتباه وجبى الماء في الحوض فقوله ﴿ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ ﴾ أي يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة ، وقوله ﴿ مَن يَشَآء ﴾ كقوله تعالى :

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء ﴾ [العنكبوت : 21] .

ثم قال : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ وهو كما روي في الخبر "من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " أي من أقبل إليّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي بأن أشرح له صدره وأسهل أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 128 . 136 ﴾

(109/685)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾

المعنى : قل لهم يا محمد : ﴿ وما اختلفتم فيه ﴾ أيها الناس من تكذيب وتصديق وإيمان وكفر وغير ذلك ، فالحكم فيه والمجازاة عليه ليست إلي ولا بيدي ، وإنما ذلك ﴿ إلى الله ﴾ الذي صفاته ما ذكر من إحياء الموتى والقدرة على كل شيء ، ثم قال : ذلكم الله ربي وعليه توكلي وإليه إنابتي ورجوعي ، وهو ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ ، أي مخترعها وخالقها شق بعضها من بعض .

وقوله تعالى : ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ يريد : زوج الإنسان الأنثى ، وبهذه النعمة اتفق الذرء ، وليست الأزواج هاهنا الأنواع ، وأما الأزواج المذكورة مع الأنعام ، فالظاهر أيضاً والمتسق : أنه يريد : إناث الذكران ، ويحتمل أن يريد الأنواع ، والأول أظهر .

وقوله : ﴿ يذرؤكم ﴾ أي يخلقكم نسلاً بعد نسل وقرناً بعد قرن ، قاله مجاهد والناس ، فلفظة ذرأ : تزيد على لفظة : خلق معنى آخر ليس في خلق ، وهو توالي الطبقات على مر الزمان .

وقوله : ﴿ فيه ﴾ الضمير عائد على الجعل الذي يتضمنه قوله : ﴿ جعل لكم ﴾ ، وهذا كما تقول : كلمت زيداً كلاماً أكرمته فيه . وقال القتبي : الضمير للتزويج ، ولفظة : " في "

مشتركة على معان ، وإن كان أصلها الوعاء وإليه يردها النظر في كل وجه .

وقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ الكاف مؤكدة للتشبيه ، فبقي التشبيه أوكد ما يكون ، وذلك أنك تقول : زيد كعمرو ، وزيد مثل عمرو ، فأذا أردت المبالغة التامة قلت : زيد كمثل عمرو ، ومن هذا قول أوس بن حجر : [المتقارب]

وقتلى كمثل جذوع النخي . . . ل يغشاهمُ سيل منهمر

ومنه قول الآخر : [البسيط]

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهمُ . . . ما إن كمثلهم في الناس من أحد

(110/685)

فجرت الآية في هذا الموضع على عرف كلام العرب ، وتفترق الآية مع هذه الشواهد متى أردت أن تتبع بذهنك هذا اللفظ فتقدر للجزوع مثلاً موجوداً وتشبه القتل بذلك المثل أمكنك أو لا يمكنك هذا في جهة الله تعالى إلا أن تجعل المثل ما يتحصل في الذهن من العلم بالله تعالى ، إذ المثل والمثال واحد ، وذهب الطبري وغيره إلى أن المعنى : ليس كهو شيء . وقالوا لفظة مثل في الآية توكيد أو واقعة موقع هو .

قال القاضي أبو محمد : ومما يؤيد دخول الكاف تأكيداً أنها قد تدخل على الكاف نفسها ،

وأنشد سيبويه :

وصاليات ككما يؤثفين . . . والمقاليد : المفاتيح ، قاله ابن عباس والحسن ، وقال مجاهد : أصلها بالفارسية ، وهي هاهنا استعارة لوقع كل أمر تحت قدرته . وقال السدي : المقاليد : الخزائن ، وفي العبارة على هذا حذف مضاف ، قال قتادة : من ملك مقالد خزائن ، فالخزائن في ملكه ، وبسط الرزق وقدره بيّن ، وقد مضى تفسيره .

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

المعنى : ﴿ شرع لكم ﴾ وبين من المعتقدات والتوحيد ﴿ ما وصى به نوحاً ﴾ قبل . وقوله : ﴿ والذي ﴾ عطف على ﴿ ما ﴾ ، وكذلك ما ذكر بعد من إقامة الدين مشروع اتفقت النبوات فيه ، وذلك في المعتقدات أو في جملة أمرها من أن كل نبوة فإنما مضمنها معتقدات وأحكام ، فيجيء المعنى على هذا : شرع لكم شرعة هي كشرعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام في أنها ذات المعتقدات المشهورة التي هي في كل نبوءة وذات أحكام كما كانت تلك كلها ، وعلى هذا يتخرج ما حكاه الطبري عن قتادة قال : ﴿ ما وصى به نوحاً ﴾ يريد الحلال والحرام ، وعليه روي أن نوحاً أول من أتى بتحريم البنات والأمهات . وأما الأحكام بانفرادها فهي في الشرائع مختلفة ، وهي المراد في قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ [المائدة : 48]

و ﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ أن أقيموا ﴾ يجوز أن تكون في موضع نصب بدلاً من ﴿ ما ﴾ ، ويجوز في موضع خفض بدلاً من الضمير في ﴿ به ﴾ ، وفي موضع رفع على خبر ابتداء تقديره : ذلك أن ، و ﴿ أن ﴾ تكون مفسرة بمعنى : أي ، لا موضع لها من الإعراب ، وإقامة الدين هو توحيد الله تعالى ورفض سواه .

وقوله : ﴿ ولا تفرقوا ﴾ نهي عن المهلك من تفرق الأنحاء والمذاهب ، والخير كله في الإلفة واجتماع الكلمة . ثم أخبر تعالى نبيه بصعوبة موقع هذه الدعوة إلى إقامة الدين على المشركين بالله العابدين الأصنام . قال قتادة : كبّرت عليهم : لا إله إلا الله ، وأبى الله إلا نصرها ، ثم سلاه عنهم بقوله : ﴿ الله يجتبي ﴾ أي يختار ويصطفي ، قاله مجاهد وغيره : و: ﴿ ينيب ﴾ معناه يرجع عن الكفر ويحرص على الخير ويطلبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(112/685)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾

حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين ؛ أي وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين ، فقولوا لهم حُكمه إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدين هو الإسلام لا غيره .

وأمور الشرائع إنما تُتَلَقَّى من بيان الله .

﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي ﴾ أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده ؛ وفيه إضمار : أي قل لهم يا محمد ذلكم الله الذي يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّي .

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت .

﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع .

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السماوات والأرض ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله ، أو على تقدير هو فاطر .

ويجوز النصب على النداء ، والجرّ على البدل من الهاء في "عَلَيْهِ" .

والفاطر : المبدع والخالق .

وقد تقدّم .

﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ قيل معناه إناثاً .

وإنما قال : "مِنْ أَنْفُسِكُمْ" لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم .

وقال مجاهد : نَسْلاً بعد نسل .

﴿ وَمِنَ الأنعام أَزْواجاً ﴾ يعني الثمانية التي ذكرها في "الأنعام" ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز وإناثها .

﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يخلقكم وينشئكم "فِيهِ" أي في الرحم .

وقيل : في البطن .

وقال الفرّاء وابن كيسان : "فيه" بمعنى به .

وكذلك قال الزجاج : معنى "يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ" يكثركم به ؛ أي يكثركم بجعلكم أزواجاً ، أي حلائل ؛ لأنهن سبب النسل .

وقيل : إن الهاء في "فِيهِ" للجعل ، ودلّ عليه "جَعَلَ" ؛ فكأنه قال : يخلقكم ويكثركم في الجعل .

ابن قتيبة : "يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ" أي في الزوج ؛ أي يخلقكم في بطون الإناث .

وقال : ويكون "فِيهِ" في الرحم ، وفيه بُعْدٌ ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدّم لها ذكر .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ قيل : إن الكاف زائدة للتوكيد ؛ أي ليس مثله شيء .

قال :

وصالياتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْن . . .

فأدخل على الكاف كافاً تأكيداً للتشبيه .

وقيل : المثل زائدة للتوكيد ؛ وهو قول ثعلب : ليس كهو شيء ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهتدوا ﴾ [البقرة : 137] .

وفي حرف ابن مسعود "فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا" قال أوْس بن حَجَر :

وقَتْلَى كمثل جذوع النخ . . .

يل يغشاهم مطر منهمر

أي كجذوع .

والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعليّ صفاته ، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يشبّه به ، وإنما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق ، فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي ؛ إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق ؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض ، وهو تعالى منزّه عن ذلك ؛ بل لم يزل بأسمائه وبصفاته على ما بيّناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) ، وكفى في هذا قوله الحق : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطّلة من الصفات .

وزاد الواسطيّ رحمه الله بياناً فقال : ليس كذاته ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ؛ وجلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة .

وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة .

رضي الله عنهم !

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ تقدّم في "الزُّمَر" بيانه .

النحاس : والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن ؛ يقال للمفتاح : إقليد ، وجمعه على غير قياس ؛ كمحاسن والواحد حسن .

﴿ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدّم أيضاً في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ فيه مسألتان :

(114/685)

الأولى قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين ﴾ أي الذي له مقاليد السموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ؛ ثم بيّن ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ وهو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء ، وبسائرِ ما

يكون الرجل بإقامته مسلماً .

ولم يرِد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ؛ قال الله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : 48] وقد تقدّم القول فيه .

ومعنى "شَرَعَ" أي نهج وأوضح وبيّن المسالك .

وقد شَرَعَ لهم يَشْرَعُ شَرْعاً أي سنّ .

والشارع : الطريق الأعظم .

وقد شَرَعَ المنزِلُ إذا كان على طريق نافذ .

وشرعت الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة .

وشرعت الأديم إذا سلخته .

وقال يعقوب : إذا شققت ما بين الرجلين ، قال : وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِيّة .

وشرعت في هذا الأمر شروعاً أي خضت .

﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ "أَنْ" في محل رفع ، على تقدير والذي وصّى به نوحاً أن أقيموا الدّين ، ويوقف على هذا الوجه على "عيسى" .

وقيل : هو نصب ، أي شرع لكم إقامة الدين .

وقيل : هو جرّ بدلاً من الهاء في "به" ؛ كأنه قال : به أقيموا الدين .

ولا يوقف على "عيسى" على هذين الوجهين .

ويجوز أن تكون "أن" مفسرة؛ مثل: أن امشوا، فلا يكون لها محل من الإعراب.

الثانية قال القاضي أبو بكر بن العربيّ: ثبت في الحديث الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور: "ولكن ائتوا نوحاً فإنه أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقولون له أنت أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . . .

(115/685)

"وهذا صحيح لا إشكال فيه، كما أن آدم أوّل نبيّ بغير إشكال؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نبوّة، ولم تفرض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان تنبيهاً على بعض الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء؛ واستقرّ المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظّف عليه الواجبات وأوضح له الآداب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكّد بالرسل ويتناصر بالأنبياء صلوات الله عليهم واحداً بعد واحد وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، والزَّلَف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه، والصدق

والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذاية للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات ؛ فهذا كله مشروع دِيناً واحداً وملة متحّدة ، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ أي اجعلوه قائماً ؛ يريد دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب ؛ فمن الخلق مَن وفّى بذلك ومنهم من نكث :

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ﴾ [الفتح : 10] .

واختلفت الشرائع وراء هذا في معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم .

والله أعلم .

قال مجاهد : لم يبعث الله نبيًّا قطُّ إلا وصّاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار للّه بالطاعة ، فذلك دينه الذي شرع لهم ؛ وقاله الوالِبيّ عن ابن عباس ، وهو قول الكلبيّ .

(116/685)

وقال قتادة : يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام .

وقال الحكم : تحريم الأمهات والأخوات والبنات .

وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها .

وخصّ نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع .

قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين ﴾ أي عظم عليهم .

﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان .

قال قتادة : كَبُرَ على المشركين فاشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويُعليها ويظهرها على من ناوأها .

ثم قال : ﴿ اللهُ يجتبي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يختار .

والاجتباء الاختيار ؛ أي يختار للتوحيد من يشاء .

﴿ ويهدي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي يستخلص لدينه من رجع إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(117/685)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) عسق (2) ﴾

هذه السورة مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر .

وقال ابن عباس : مكية إلا أربع آيات من قوله : ﴿ قل لا أسلكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ إلى آخر الأربع آيات ، فإنها نزلت بالمدينة .

وقال مقاتل : فيها مدني قوله : ﴿ ذلك الذين يبشر الله عباده ﴾ الى ﴿ الصدور ﴾ .

ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها أنه قال : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ الآية ، وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال .

لما كفروا به قال هنا : ﴿ كذلك ﴾ ، أي مثل الإيحاء السابق في القرآن الذي كفر به هؤلاء ، ﴿ يوحى إليك ﴾ : أي إن وحيه تعالى إليك متصل غير منقطع ، يتعهدك وقتاً بعد وقت .

وذكر المفسرون في ﴿ حم عسق ﴾ أقوالاً مضطربة لا يصح منها شيء كعادتهم في هذه الفواتح ، ضربنا عن ذكرها صفحاً .

وقرأ الجمهور : يوحي مبنياً للفاعل ؛ وأبو حيوة ، والأعشى عن أبي بكر ، وأبان : نوحي بنون العظمة ؛ ومجاهد ، وابن وكثير ، وعباس ، ومحبوب ، كلاهما عن أبي عمرو : يوحي مبنياً للمفعول ؛ والله مرفوع بمضمر تقديره أوحي ، أو بالابتداء ، التقدير : الله العزيز الحكيم

الموحي ؛ وعلى قراءة نوحي بالنون ، يكون ﴿ الله العزيز الحكيم ﴾ مبتدأ وخبراً .

ويوحي ، إما في معنى أوجب حتى ينتظم قوله : ﴿ وإلذين من قبلك ﴾ ، أو يقرأ على موضوعه ، ويضمر عامل يتعلق به إلى الذين تقديره : وأوحي إلى الذين من قبلك .

وتقدم الكلام على ﴿ تكاد السموات يتفطرن ﴾ في سورة مريم قراءة وتفسيراً .

وقال الزمخشري : وروى يونس عن أبي عمر وقراءة عربية : تتفطرن بتاءين مع النون ، ونظيرها حرف نادر روي في نوادر ابن الأعرابي : الإبل تتشممن . انتهى .

والظاهر أن هذا وهم من الزمخشري في النقل ، لأن ابن خالويه ذكر في شواذ القراآت له ما نصب : تفطرن بالتاء والنون ، يونس عن أبي عمرو .

وقال ابن خالويه : هذا حرف نادر ، لأن العرب لا تجمع بين علامتي التأنيث .

(118/685)

لا يقال : النساء تقمن ، ولكن يقمن ، والوالدات يرضعن .

قد كان أبو عمر الزاهد روى في نوادر ابن الأعرابي : الإبل تتشممن ، فأنكرناه ، فقد قواه ، لأن هذا كلام ابن خالويه .

فإن كانت نسخ الزمخشري متفقة على قوله بتاءين مع النون فهو وهم ، وإن كان في بعضها

بتاء مع النون ، كان موافقاً لقول ابن خالويه ، وكان بتاءين تحريفاً من النساخ .

وكذلك كتبهم تتفطرن وتتشممن بتاءين .

والظاهر عود الضمير في ﴿ فوقهن ﴾ على ﴿ السموات ﴾ .

قال ابن عطية : من أعلاهن .

وقال الزمخشري : ينفطرن من علو شأن الله تعالى وعظمته ، ويدل عليه مجيئه بعد ﴿ العلي العظيم ﴾ .

وقيل : من دعائهم له ولداً ، كقوله : ﴿ تكاد الصمات يتفطرن منه ﴾ فإن قلت : لم قال ﴿ من فوقهن ﴾ ؟ قلت : لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السموات ، وهي العرض والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله من آثار ملكوته العظمى ، فلذلك قال : ﴿ يتفطرن من فوقهن ﴾ : أي يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية .

وقال جماعة ، منهم الحوفي ، قال : ﴿ من فوقهن ﴾ ، والهاء والنون كناية عن الأرضين . انتهى .

﴿ من فوقهن ﴾ متعلق يتفطرن ، ويدل على هذا القول ذكر الأرض قبل .

وقال علي بن سليمان الأخفش : الضمير للكفار ، والمعنى : من فوق الفرق والجماعات الملحدة ، أي من أجل أقوالها . انتهى .

فهذه الآية كالذي في سورة مريم ، واستبعد مكي هذا القول ، قال : لا يجوز في الذكور من بني آدم ، يعني ضمير المؤنث والاستشعار ما ذكره مكي .

قال علي بن سليمان : من فوق الفرق والجماعات ، وظاهر الملائكة العموم .

وقال مقاتل : حملة العرش والتسبيح ، قيل : قولهم سبحان الله ، وقيل : يهللون ؛ والظاهر يستغفرون طلب الغفران ، ولأهل الأرض عام مخصوص بقوله : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ قاله السدي .

وقيل : عام .

(119/685)

ومعنى الاستغفار : طلب الهداية المؤدية إلى المغفرة ، كأنهم يقولون : اللهم اهد أهل الأرض ، فاغفر لهم .

ويدل عليه وصفه بالغفران والحرمة والاستفتاح .

وقال الزمخشري : ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار لهم : طلب الحلم والغفران في قوله : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ وقوله : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ والمراد : الحلم عنهم ، وأن لا

يعاجلهم بالانتقام فيكون عاماً . انتهى .

وتكلم أبو عبد الله الرازي في قوله : ﴿ تكاد السموات ﴾ كلاماً خارجاً عن مناحي مفهومات العرب ، منتزعاً من كلام الفلاسفة ومن جرى مجراهم ، يوقف على ذلك في كتابه .

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ : أي أصناماً وأوثاناً ، ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ : أي على أعمالهم ومجازيهم عليها ، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ : أي بمفوض إليك أمرهم ولا قائم .

وما في هذا من الموادعة منسوخ بآية السيف .

﴿ وكذلك ﴾ : أي ومثل هذا الإيحاء والقضاء ، إنك لست بوكيل عليهم ، ﴿ أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ .

والظاهر أن ﴿ قرآناً ﴾ مفعول ﴿ أوحينا ﴾ .

وقال الزمخشري : الكاف مفعول به ، أي أوحيناه إليك ، وهو قرآن عربي لا لبس فيه عليك ، إذ نزل بلسانك . انتهى .

فاستعمل الكاف اسماً في الكلام ، وهو مذهب الأخفش .

﴿ لتنذر أم القرى ﴾ : مكة ، أي أهل أم القرى ، وكذلك المفعول الأول محذوف ، والثاني هو : ﴿ يوم الجمع ﴾ : أي اجتماع الخلائق ، والمنذر به هو ما يقع في يوم الجمع من الجزاء

وانقسام الجمع إلى الفريقين ، أو اجتماع الأرواح بالأجساد ، أو أهل الأرض بأهل السماء ، أو الناس بأعمالهم ، أقوال أربعة .

لينذر بياء الغيبة ، أي لينذر القرآن .

﴿ لا ريب فيه ﴾ : أي لا شك في وقوعه .

وقال الزمخشري : ﴿ لا ريب فيه ﴾ : اعتراض لا محالة . انتهى .

ولا يظهر أنه اعتراض ، أعني صناعياً ، لأنه لم يقع بين طالب ومطلوب .

(120/685)

وقرأ الجمهور : ﴿ فريق ﴾ بالرفع فيهما ، أي هم فريق أو منهم فريق .

وقرأ زيد بن عليّ بنصبهما ، أي افترقوا ، فريقاً في كذا ، وفريقاً في كذا ؛ ويدل على الافتراق : الاجتماع المفهوم من يوم الجمع .

﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمّة واحدة ﴾ : يعني من إيمان أو كفر ، قال معناه الضحاك ، وهو قول أهل السنة ، وذلك تسلية للرسول .

كما كان يقاسيه من كفر قومه ، وتوقيف على أن ذلك راجع إلى مشيئته ، ولكن من سبقت له السعادة أدخله في رحمته .

وقال الزمخشري : ﴿ لجعلهم أمة واحدة ﴾ : أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه ، كقوله : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ وقوله : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ والدليل على أن المعنى هو الإيحاء إلى الإيمان قوله : ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ، وذكر ما ظنه استدلالاً على ذلك ، وهو على طريق الاعتزال .

وقال أنس بن مالك : ﴿ في رحمته ﴾ : في دين الإسلام .

﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ ، أم بمعنى بل ، للانتقال من كلام إلى كلام ، والهمزة للإنكار عليهم اتخاذ أولياء من دون الله .

وقيل : أم بمعنى الهمزة فقط ، وتقدّم الكلام على مثل هذا ، حيث جاءت أم المنقطعة ، والمعنى : اتخذوا أولياء دون الله ، وليسوا بأولياء حقيقة ، فالله هو الولي ، والذي يجب أن يتولى وحده ، لا ما لا يضر ولا ينفع من أوليائهم .

ولما أخبر أنه هو الولي ، عطف عليه هذا الفعل الغريب الذي لا يقدر عليه غيره ، وهو إحياء الموتى .

ولما ذكر هذا الوصف ، ذكر قدرته على كل شيء تتعلق إرادته به .

وقال الزمخشري : في قوله : ﴿ فالله هو الولي ﴾ ، والفاء في قوله : ﴿ فالله هو الولي ﴾ جواب شرط مقدر ، كأنه قيل : بعد إنكار كل ولي سواه ، وإن أراد ولياً بحق ، فالله هو

الولي بالحق ، لا ولي سواه . انتهى .

ولا حاجة إلى تقدير شرط محذوف ، والكلام يتم بدونه .

(121/685)

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء ﴾ : هذا حكاية لقول الرسول ، أي ما اختلفتم فيه أيها الناس من تكذيب أو تصديق وإيمان وكفر وغير ذلك ، فالحكم فيه والمجازاة عليه ليس ذلك إلا إلى الله ، لا إليّ ، ولفظة من شيء تدل على العموم .

وقيل : من شيء من الخصومات ، فتحاكموا فيه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره ، كقوله : ﴿ وإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ﴾ وقيل : ﴿ من شيء ﴾ : من تأويل آية واشتبه عليكم ، فارجعوا في بيانه إلى آي المحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : ما وقع منكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ، ولا طريق لكم إلى علمه ، فقولوا : الله أعلم ، كمعرفة الروح .

وقال الزمخشري : أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمور الدين ، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله ، وهو إثابة المحقين فيه من

المؤمنين ومعاتبة المبطلين .

﴿ ذلكم ﴾ : الحكم بينكم هو ﴿ ربي عليه توكلت ﴾ في رد كيد أعداء الدين ، وإليه أرجع في كفاية شرهم .

انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ فاطر ﴾ بالرفع ، أي هو فاطر ، أو خبر بعد خبر كقوله : ﴿ ذلكم ﴾ .

وقرأ زيد بن عليّ : فاطر بالجر ، صفة لقوله : ﴿ إلى الله ﴾ ، والجملة بعدها اعتراض بين الصفة والموصوف .

﴿ جعل لكم من أنفسكم ﴾ : أي من جنس أنفسكم ، أي آدميات ، ﴿ أزواجاً ﴾ : إناثاً ، أو جعل الخلق لأبينا آدم من ضلعه حواء زوجاً له خلقاً لنا ، ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ : أي أنواعاً كثيرة ، ذكوراً وإناثاً ، أو أزواجاً إناثاً .

﴿ يذرؤكم فيه ﴾ ، قال ابن عباس : أي يجعل لكم فيه معيشية تعيشون بها .

وقال ابن زيد : يرزقكم فيه ، وهو قريب من القول قبله .

وقال مجاهد : يخلقكم في بطون الإناث .

وقال ابن زيد أيضاً : يذرأكم فيما خلق من السموات والأرض .

وقال الزجاج : يكثركم به ، أي فيه ، أي يكثركم في خلقكم أزواجاً .

وقال عليّ بن سليمان : ينقلكم من حال إلى حال .

وقال ابن عطية : الضمير في فيه للجعل ، أي يخلقكم ويكثركم في الجعل ، كما تقول : كلمت زيداً كلاماً أكرمته فيه ، قال : ولفظة ذرأ تزيد على لفظة خلق معنى آخر ليس في خلق ، وهو توالي الطبقات على مر الزمان .

وقال الزمخشري : ﴿ يذرؤكم ﴾ : يكثركم ، يقال ذرأ الله الخلق : بثهم وكثرهم ، والذرء والذروء والذرواء أخوات في هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل .

والضمير في يذرؤكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيه مما لا يعقل ، وهي من الأحكام ذات العلتين . انتهى .

وقوله : وهي من الأحكام ذات العلتين ، اصطلاح غريب ، ويعني أن الخطاب يغلب على الغيبة إذا اجتمعا فتقول : أنت وزيد تقومان ؛ والعاقل يغلب على غير العاقل إذا اجتمعا ، فتقول : الحيوان وغيرهم يسبحون خالقهم .

قال الزمخشري ؛ فإن قلت : ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذرؤكم به ؟ قلت : جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير .

ألا تراك تقول للحيوان في خلق الأزواج تكثير ؟ كما قال تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ انتهى .

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، تقول العرب : مثلك لا يفعل كذا ، يريدون به المخاطب ، كأنهم إذا نفوا الوصف عن مثل الشخص كان نفياً عن الشخص ، وهو من باب المبالغة ، ومثل الآية قول أوس بن حجر :

ليس كمثل الفتى زهير . . .

خلق يوازيه في الفضائل

وقال آخر :

وقتلى كمثل جذوع النخيل تغشاهم مسبل منهمر . . .

وقال آخر :

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم . . .

ما إن كمثلهم في الناس من أحد

فجرت الآية في ذلك على نهج كلام العرب من إطلاق المثل على نفس الشيء .

وما ذهب إليه الطبري وغيره من أن مثلاً زائدة للتوكيد كالكاف في قوله : _@_

فأصبحت مثل كعصف مأكول . . .

وقوله _@_ :

وصاليات ككما يؤثفين . . .

ليس بجيد ، لأن مثلاً اسم ، والأسماء لا تزاد ، بخلاف الكاف ، فإنها حرف ، فتصلح للزيادة .

ونظير نسبة المثل إلى من لا مثل له قولك : فلان يده مبسوطة ، يريد أنه جواد ، ولا نظير له في الحقيقة إلى اليد حتى تقول ذلك لمن لا يد له ، كقوله : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ فكما جعلت ذلك كناية عن الجواد فيمن لا يد له ، فكذلك جعلت المثل كناية عن الذوات في من لا مثل له .

ويحتمل أيضاً أن يراد بالمثل الصفة ، وذلك سائغ ، يطلق المثل بمعنى المثل وهو الصفة ، فيكون المعنى : ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره ، وهذا محمل سهل ، والوجه الأول أغوص .

قال ابن قتيبة : العرب تقيم المثال مقام النفس ، فيقول : مثلي لا يقال له هذا ، أي أنا لا يقال لي هذا . انتهى .

فقد صار ذلك كناية عن الذات ، فلا فرق بين قولك : ليس كالله شيء ، أو ليس كمثل الله

شيء .

وقد أجمع المفسرون على أن الكاف والمثل يراد بهما موضوعهما الحقيقي من أن كلاً منهما يراد به التشبيه ، وذلك محال ، لأن فيه إثبات مثل لله تعالى ، وهو محال .

﴿ وهو السميع ﴾ لأقوال الخلق ، ﴿ البصير ﴾ لأعمالهم .

وتقدم تفسير : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ في سورة الزمر ؛ وقرىء : ﴿ ويقدر ﴾ : أي يضيق .

﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ : أي يوسع لمن يشاء ، ويضيق على من يشاء .

وقال الزمخشري : فإذا علم أن الغنى خير للعبد أغناه لا أفقره .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(124/685)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

(125/685)

﴿ حم * عسق ﴾ اسمانِ للسورةِ ، ولذلكَ فصِلَ بينهما . وعُدّا آيتينِ ، وقيلَ : اسمٌ واحدٌ والفصلُ ليناسبَ سائرَ الحواميمِ . وقُرِئَ حم سق . فعلى الأولِ هُما خبرانِ لمبتدأٍ محذوفٍ ، وقيلَ : حم مبتدأٌ وعسق خبرُهُ وعَلى الثَّانِي الكلُّ خبرٌ واحدٌ . وقولُه تعالَى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم ﴾ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لتحقيق أنَّ مضمونَ السورةِ موافقٌ لما في تضاعيفِ سائرِ الكتبِ المنزَّلةِ على الرسلِ المتقدمةِ في الدعوةِ إلى التوحيدِ والإرشادِ إلى الحقِّ أو أنَّ إيحاءَهَا مثلُ إيحائِها بعدَ تنويهِها بذكرِ اسمِها والتنبيه على فخامةِ شأنها . والكافُ في حيزِ النصبِ على أنَّه مفعولٌ ليُوحِي عَلى الأولِ وعلى أنه نعتٌ لمصدرٍ مؤكدٍ لهُ على الثَّانِي وذلك على الأولِ إشارةٌ إلى ما فيها وعلى الثَّانِي إلى إيحائِها ، وما فيه مِنْ مَعْنى البُعدِ للإيذانِ بعلوِّ رتبةِ المشارِ إليه وبُعدِ منزلتِه في الفضلِ أي مثل ما في هذه السورةِ من المعانِي أُوحيَ إليكَ في سائرِ السورِ وإلى من قبلك من الرسلِ في كتبِهم ، على أنَّ مناطَ المماثلةِ ما أُشيرَ إليه من الدعوةِ إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وما فيه صلاحُ العبادِ في المعاشِ والمعادِ ، أو مثلَ إيحائِها أُوحيَ إليكَ عند إيحاءِ سائرِ السورِ وإلى سائرِ الرسلِ عند إيحاءِ كتبِهم إليهم لا إيحاءً مغايراً له كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إلى نُوحٍ ﴾ الآيةَ . على أنَّ مدارَ المثْليةِ كونُه بواسطةِ الملكِ . وصيغةُ المضارعِ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ للإيذانِ باستمرارِ الوحي وأنَّ إيحاءَ مثلِه عادتُه . وفي جعلِ مضمونِ السورةِ أو إيحائها مشبهاً به من تفخيمِها مالا يخفى وكذا في

وصفِه تعالَى بوصفي العزةَ والحكمةِ . وتأخيرُ الفاعلِ لمراعاةِ الفواصلِ مع ما فيهِ من التشويقِ . وقُرِئَ يُوحَى ، على البناءِ

(126/685)

للمفعولِ على أنّ كذلكَ مبتدأٌ ويُوحَى خبره المسندُ إلى ضميرِه أو مصدرٍ ، ويُوحَى مسندٌ إلى إليكَ والله مرتفعٌ بما دلَّ عليهِ يُوحَى كأنَّه قيلَ : مَنْ يُوحِي ، فقيلَ الله . والعزيزُ الحكيمُ صفتانِ لهُ ، أو مبتدأٌ كما في قراءةِ نُوحِي ، والعزيزُ وما بعدَهُ خبرانِ له أو العزيزُ الحكيمُ صفتانِ له .

وقولُه تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العلى العظيم ﴾ خبرانِ له وعلى الوجوهِ السابقةِ استئنافٌ مقرِّرٌ لعزته وحكمتِه .

(127/685)

﴿ تَكَادُ السموات ﴾ وقُرِئَ بالياءِ ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ يتشقّقنَ من عظمةِ الله تعالَى وقيلَ : من دعاءِ الولدِ له كما في سُورةِ مريمَ وقُرِئَ يَنْفَطرنَ ، والأولُ أبلغُ لأنَّه مطاوعُ فطَّر ، وهذا

مطاوعُ فَطَر . وقُرِىءَ تَنْفطِرْنَ بالتاءِ لتأكيدِ التأنيثِ وهو نادرٌ ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي يبتدأُ التفطرُ من جهتهنَّ الفوقانيةِ وتخصيصُها على الأولِ لما أنَّ أعظمَ الآياتِ وأدلَّها على العظمةِ والجلالِ من تلكَ الجهةِ ، وعلى الثَّانِي للدلالةِ على التفطرِ من تحتهنَّ بالطريقِ الأَولى ، لأنَّ تلكَ الكلمةَ الشنعاءَ الواقعةَ في الأرضِ حيثُ أثرتْ في جهةِ الفوقِ فلأنْ تؤثرَ في جهةِ التحتِ أَوْلى وقيلَ : الضميرُ للأرضِ فإنَّها في مَعنى الأرضينَ ﴿ والملائكةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ينزهونَهُ تعالى عمَّا لا يليقُ به ملتبسينَ بحمدِه ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض ﴾ بالسَّعي فيما يستدعِي مغفرتَهُم من الشفاعةِ والإلهامِ وترتيبِ الأسبابِ المقربةِ إلى الطاعةِ واستدعاءِ تأخيرِ العقوبةِ طمعاً في إيمانِ الكافرِ وتوبةِ الفاسقِ . وهذا يعمُّ المؤمنَ والكافرَ ، بلْ لو فُسِّرَ الاستغفارُ بالسَّعي فيما يدفعُ الخللَ المتوقعَ عمَّ الحيوانَ بلِ الجمادَ وحيثُ خُصَّ بالمؤمنينَ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ فالمرادُ به الشفاعةُ ﴿ أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم ﴾ إذْ ما منْ مخلوقٍ إلا ولَهُ حظٌّ عظيمٌ من رحمتِه تعالَى ، والآيةُ عَلى الأولِ زيادةُ تقريرٍ لعظمتِه تعالَى ، وعلى الثَّاني بيانٌ لكمالِ تقدُّسِه عمَّا نُسبَ إليهِ ، وأنَّ تركَ معاجلتِهم بالعقابِ على تلك الكلمةِ الشنعاءِ بسببِ استغفارِ الملائكةِ وفرطِ غفرانِه ورحمتِه ، ففيها رمزٌ إلى أنَّه يقبلُ استغفارَهُم ويزيدُهُم على ما طلبُوه من المغفرةِ رحمةً . ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ شركاءَ

وأنداداً ﴿ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيبٌ على أحوالِهم وأعمالِهم فيجازيهمُ بها ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ بموكّلٍ بهم أو بموكولٍ إليك أمرُهم وإنما وظيفتُكَ الإنذارُ.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ ذلكَ إشارةٌ إلى مصدر أَوْحَينا ومحلُّ الكافِ النصبُ على المصدريةِ، وقرآناً عربياً مفعول لأوحينَا أي ومثلَ ذلكَ الإيحاءِ البديعِ البيّنِ المفهِم أَوْحينا إليكَ قرآناً عربياً لا لَبْسَ فيه عليكَ ولا على قومكَ، وقيلَ: إشارةٌ إلى مَعْنى الآيةِ المتقدمةِ من أنَّه تعالى هُو الحفيظُ عليهم وإنما أنتَ نذيرٌ فحسب، فالكافُ مفعولٌ به لأَوحينا، وقرآناً عربياً حالٌ من المفعولِ به أيْ أوحيناهُ إليكَ وهو قرآنٌ عربيٌّ بيّنٌ. ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ أيْ أهلَها وهيَ مكةُ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العربِ ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ أي يومَ القيامةِ لأنه يُجمعُ فيه الخلائقُ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ وقيلَ: تُجمعُ فيه الأرواحُ والأشباحُ، وقيلَ: الأعمالُ والعُمالُ. والإنذارُ يتعدَّى إلى مفعولينِ، وقد يستعملُ ثانيهما بالباءِ، وقد حُذفَ هنها ثانِي مفعولَيْ الأولِ وأولُ مفعولَيْ الثَّانِي للتهويلِ وإيهامِ التعميمِ. وقُرِئَ لينذرَ بالياءِ على أنَّ فاعلَهُ ضميرُ القرآنِ. ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراضٌ مقررٌ لما قبلَهُ ﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ أي بعدَ جمعِهم في الموقفِ فإنَّهم يُجمعونَ فيه أولاً ثمَّ يفرقونَ بعد الحسابِ، والتقديرُ منهمُ فريقٌ والضميرُ للمجموعينَ

لدلالةِ الجمعِ عليهِ وقِرئَا منصوبينِ على الحاليةِ منهُم أيْ وتنذرَ يومَ جمعِهم متفرقين أي مشارفينَ للتفرقَ أو متفرقينَ في داريْ الثوابِ والعقابِ .

(129/685)

﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَهُمْ ﴾ أي في الدُّنيا ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ وقيل : مهتدينَ أو ضَالّينَ وهو تفصيلٌ لما أجملَهُ ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قولِه على دينٍ واحدٍ فمعنى قولِه تعالى ﴿ ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِى رَحْمَتِهِ ﴾ أنه تعالَى يُدخلُ في رحمتِه من يشاءُ أنْ يدخلَهُ فيها ويدخلُ في عذابِه من يشاءُ أن يدخلَهُ فيهِ ولا ريبَ في أنَّ مشيئَته تعالَى لكلَ من الإدخالينِ تابعةٌ لاستحقاقِ كلَ من الفريقينِ لدخولِ مُدخلِه . ومن ضرورةِ اختلافِ الرحمةِ والعذابِ اختلافُ حالِ الداخلينَ فيهما قطعاً فلم يشأْ جعلَ الكلِّ أمةً واحدةً بلْ جعلَهُم فريقينِ ، وإنَّما قيلَ : ﴿ والظالمون مَا لَهُمْ مّن وَلِىّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ للإيذانِ بأنَّ الإدخالَ في العذابِ من جهةِ الداخلينَ بموجبِ سُوءِ اختيارِهم لا من جهتِه تعالَى كما في الإدخالِ في الرحمةِ لا لِما قيلَ من المبالغةِ في الوعيدِ وقيلَ مؤمنين كلَّهم وهو ما قالَه مقاتلٌ على دينِ الإسلامِ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى ﴾ وقوله تعالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لاَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ والمَعنى ولو شاءَ اللهُ مشيئةَ قُدرةٍ لقسرَهُم على الإيمانِ ولكنَّه شاءَ مشيئةَ حكمةٍ ،

وكلَّفَهم وبنى أمرَهُم على مَا يختارُون ليدخلَ المؤمنينَ في رحمتِه وهم المُرادونَ بقولِه تعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاء ﴾ وتركَ الظالمينَ بغيرِ وَلِيَ ولا نصيرٍ ، وأنت خبيرٌ بأنَّ فرضَ جعلِ الكلِّ مؤمنينَ يأباهُ تصديرُ الاستدراكِ بإدخالِ بعضِهم في رحمته إذِ الكلُّ حينئذٍ داخلونَ فيها فكانَ المناسبُ حينئذٍ تصديرَه بإخراجِ بعضِهم مِنْ بينِهم وإدخالِهم في عذابِه فالذي يقتضيهِ سياقُ النظمِ الكريمِ وسباقُه أنْ يرادَ الاتحادُ في الكُفرِ ، كما في قولِه تعالى : ﴿ كَانَ الناس أُمَّةً واحدة فَبَعَثَ الله النبيين ﴾ الآيةَ على أحدِ الوجهينِ بأنْ

(130/685)

يُرادَ بهم الذين في فترة إدريسَ أو في فترةِ نوحٍ عليهما السلامُ فالمَعْنى ولو شاءُ الله لجعلَهُم أمةً واحدةً متّفقةً على الكُفرِ ، بأنْ لا يرسلَ إليهم رسولاً لينذرَهُم ما ذُكِرَ من يومِ الجمعِ وما فيهِ من ألوانِ الأهوالِ فيبقُوا على ما هُم عليهِ من الكُفرِ ولكنْ يدخلُ منْ يشاءُ في رحمتِه أي شأنُه ذلكَ فيرسلُ إلى الكلِّ مَن ينذرُهم ما ذُكِرَ فيتأثرُ بعضُهم بالإنذارِ فيصرفونَ اختيارَهُم إلى الحقِّ فيوفقُهم الله للإيمانِ والطاعةِ ويُدخلُهم في رحمتِه ولا يتأثرُ به الآخرونَ ويتمادَوْنَ في غيِّهم ، وهم الظالمونَ فيبقَونَ في الدُّنيا على ما هُم عليهِ من الكُفرِ ويصيرونَ في الآخرة إلى السعير من غير وَلِيَ يَلي أمرَهُم ولا نصيرٍ يخلصُهم من العذابِ .

﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مقربةٌ لما قبلَها من انتفاءِ أنْ يكونَ للظالمينَ ولي أو نصيرٌ وأمْ منقطعةٌ وما فيَها من بلْ للانتقال من بيانِ ما قبلَها إلى بيانِ ما بعدَها والهمزةُ لإنكارِ الوقوعِ ونفيِه على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه لا لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه ، قيلَ : إذِ المرادُ بيانُ أنَّ ما فعلُوا ليسَ من اتخاذِ الأولياءِ في شيءٍ لأنَّ فرعُ كونِ الأصنامِ أولياءَ ، وهو أظهرُ الممتنِعاتِ أيْ بلْ أتخذُوا متجاوزينَ اللهَ أولياءَ من الأصنامِ وغيرِها هيهاتَ . وقولُه تعالَى ﴿ فاللهُ هُوَ الولى ﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ ، كأنَّه قيلَ بعدَ إبطالِ ولايةِ ما اتخذُوه أولياءَ إنْ أرادُوا ولياً في الحقيقةِ فاللهُ هُو الوليُّ لا وليَّ سواهُ ﴿ وَهُوَ يُحْيِ الموتى ﴾ أيْ ومن شأنِه ذلكَ ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهُو الحقيقُ بأنْ يتخذَ ولياً فليخصُّوه بالاتخاذِ دونَ من لا يقدرُ على شيءٍ .

(131/685)

﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَىْءٍ ﴾ حكايةٌ لقولِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم للمؤمنينَ أيْ وما خالفَكُم الكفارُ فيهِ منْ أمورِ الدِّينِ فاختلفتُم أنتمُ وهُم ﴿ فَحُكْمُهُ ﴾ راجعٌ ﴿ إِلَى اللهِ ﴾ وهو إثابةُ المحقِّينَ وعقابُ المُبطلينَ ﴿ ذلكم ﴾ الحاكمُ العظيمُ الشأنِ ﴿ اللهُ رَبِّى ﴾ مالِكِي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في مجامعِ أُمُورِي خاصَّةً لا على غيرِه ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

﴿ أرجعُ في كلِّ ما يَعنُّ لي منْ مُعضلاتِ الأمورِ لا إلى أحدٍ سواهُ وحيثُ كانَ التوكُّل أمراً واحداً مستمراً والإنابةُ متعددة متجددة حسب تجدُّدِ موادّهِا أُوثرَ في الأولِ صيغةُ الماضِي ، وفي الثَّانِي صيغةُ المضارعِ ، وقيلَ : وما اختلقتُم فيه وتنازعتُم في شيءٍ من الخصوماتِ فتحاكمُوا فيهِ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ولا تُؤثروا على حكومتِه حكومةَ غيرِه ، وقيلَ : وما اختلفتُم فيه من تأويلٍ واشتبَه عليكُم فارجعوا في بيانه إلى المحكمِ من كتابِ الله والظَّاهرِ من سُنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقيلَ : وما وقعَ بينكُم الخلافُ فيهِ من العلومِ التي تتعلقُ بتكليفِكم ولا طريقَ لكُم إلى علمِه فقولُوا الله أعلمُ كمعرفةِ الرُّوحِ ولا مساغَ لحملِ هذا على الاجتهادِ لعدمِ جوازِه بحضرةِ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ خبرٌ آخرُ لذلكُم أو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أو مبتدأ خبرُهُ ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ﴾ وقُرِئَ بالجرِّ على أنَّه بدلٌ منَ الضميرِ أو وصفٌ للاسمِ الجليلِ في قولِه تعالَى إلى الله وما بينُهَما اعتراضٌ بينَ الصفةِ والموصوفِ ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ من جنسِكم ﴿ أزواجا ﴾ نساءً وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الصريحِ قد مرَّ سرُّه غيرَ مرةٍ ﴿ وَمِنَ الأنعام ﴾ أي وجعلَ للأنعامِ من جنْسِها ﴿ أزواجا ﴾ أو خلقَ لكُم من الأنعامِ أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً ﴿ يَذرَؤُكُمْ ﴾ يكثّركم من

الذرْءِ وهو البثُّ وفي معناهُ الذَّرو والذَّرُّ ﴿ فِيهِ ﴾ أي فيما ذُكِرَ من التدبيرِ فإنَّ جعلَ الناسِ والأنعامِ أزواجاً يكونُ بينَهم توالدٌ كالمنبعِ للبثّ والتكثيرِ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْء ﴾ أي ليسَ مثلَه شيءٌ في شأنٍ من الشؤونِ التي من جُمْلتِها هَذا التدبيرُ البديعُ والمراد من مثله ذاتُه كَما في قولِهم مثلُكَ لا يفعل كَذا على قصدِ المبالغةِ في نفيهِ عنهُ فإنَّه إذا نُفيَ عمَّن يناسبُه كانَ نفيُه عنْهُ أَوْلى ثمَّ سُلكتْ هذهِ الطريقةُ في شأنِ مَنْ لا مثلَ لهُ وقيلَ : مثلُه صفتُه أيْ ليسَ كصفتِه صفةٌ ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ المبالغُ في العلمِ بكلِّ ما يسمعُ ويُبصرُ .

(133/685)

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ أيْ خزَائنُهما ﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ يوسعُ ويضيقُ حسبما تقتضيهِ مشيئتُه المؤسسةُ على الحِكَمِ البالغةِ ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْء عَلِيمٌ ﴾ مبالغٌ في الأحاطةِ به فيفعلُ كلَّ ما يَفعلُ على ما ينبغِي أنْ يُفعلَ عليه ، والجملةُ تعليلٌ لما قبلَها وتمهيدٌ لما بعدَها من قولِه تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى ﴾ وإيذانٌ بأنَّ ما شرعَ لهم صادرٌ عن كمالِ العلمِ والحكمةِ كما أن بيانَ نسبتِه إلى المذكورينَ عليهم الصلاةُ والسلامُ تنبيهٌ على

كونِه ديناً قديماً أجمعَ عليه الرسلُ . والخطابُ لأمّتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أيْ شرعَ لكُم من الدينِ ما وصَّى به نوحاً ومَنْ بعدَه من أربابِ الشرائعِ وأولي العزائمِ من مشاهيرِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وأمرَهُم به أمراً مؤكداً ، على أنَّ تخصيصَهُم بالذكرِ لما ذُكِرَ من علوِّ شأنِهم ولاستمالةِ قلوبِ الكفرةِ إليه لاتفاقِ الكلِّ على نبوةِ بعضِهم ، وتفردِ اليهودِ في شأنِ مُوسى عليه السَّلامُ وتفردِ النَّصارى في حقِّ عيسى عليه السلام وإلا فما منْ نبيٍ إلا وهُو مأمورٌ بما أُمِروا به ، وهو عبارةٌ عنِ التوحيدِ ودينِ الإسلامِ وما لا يختلفُ باختلافِ الأممِ وتبدلِ الأعصارِ من أصولِ الشرائعِ والأحكامِ كما ينبىءُ عنه التوصيةُ فإنها معربةٌ عن تأكيد الأمرِ والاعتناءِ بشأنِ المأموريةِ والمرادُ بإيحائِه إليهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إمَّا مَا ذُكِرَ في صدرِ السُّورةِ الكريمةِ وفي قولِه تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا ﴾ الآيةَ أو ما يعمُّهما وغيرَهُما مما وقعَ في سائرِ المواقعِ التي من جُمْلتِها قولُه تعالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ قُلْ

(134/685)

إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ وغيرُ ذلكَ . والتعبيرُ عن ذلكَ عند نسبتِه إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالذي لزيادة تفخيمِ شأنِه من تلك الحيثيةِ ، وإيثارُ الإيحاءِ

على ما قبلَهُ وما بعَدُه من التوصيةِ لمراعاة ما وقعَ في الآيات المذكورةِ ولِما في الإيحاءِ من التصريحِ برسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ القامعِ لإنكار الكفرةِ ، والالتفاتُ إلى نون العظمةِ لإظهار كمالِ الاعتناءِ بإيحائِه وهو السرُّ في تقديمِه على ما بَعدُه مع تقدّمِه عليهِ زماناً ، وتقديمُ توصيةِ نوحٍ عليهِ السَّلامُ للمسارعة إلي بيان كونِ المشروعِ لهم ديناً قديماً ، وتوجيه الخطابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيهِ على أنَّه تعالَى شرعَهُ لهم على لسانِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ أي دينَ الإسلامِ الذي هو توحيدُ الله تعالى وطاعتُه والإيمانُ بكتبه وبرسله وبيوم الجزاءِ وسائرِ ما يكونُ الرجلُ بِهِ مُؤمناً . والمرادُ بإقامتِه تعديلُ أركانِه وحفظُه منْ أنْ يقعَ فيه زيغٌ أو المواظبةُ عليه والتشمّرُ له ، ومحلُّ أنْ أقيمُوا إما النصبُ على أنَّه بدلٌ منْ مفعول شرع ، والمعطوفين عليهِ أو الرفعُ على أنه جوابٌ عن سؤالٍ نشأَ منْ إبهامِ المشروعِ كأنَّه قيلَ : وما ذاكَ فقيلَ هو إقامةُ الدينِ ، وقيلَ : بدلٌ من ضمير به وليسَ بذاكَ لما أنَّه معَ إفضائه إلى خروجه عن حيز الإيحاءِ إلى النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مستلزمٌ لكون الخطابِ في قوله تعالَى : ﴿ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ للأنبياءِ المذكورينَ عليهمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ وتوجيه النَّهي إلى أممهم تمحّلٌ ظاهرٌ مع أنَّ الأظهرُ أنَّه متوجهٌ إلى أمته صلى الله عليه وسلم وأنَّهم المتفرقونَ كما ستحيطُ به خبراً أي تتفرقُوا في الدين الذي هُو عبارةٌ عمَّا ذكر من الأصولِ دونَ الفروعِ

المختلفةِ حسبَ اختلافِ الأممِ باختلافِ الأعصارِ كما ينطقُ بهِ قولُه تعالَى :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين ﴾ شروعٌ في بيانِ أحوالِ بعضِ مَنْ شرعَ لهم ما شرع من الدينِ القويمِ أي عظُم وشقّ عليهم ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيدِ ورفضِ عبادةِ الأصنامِ واستبعدُوه حيثُ قالُوا : ﴿ أَجَعَلَ الأَلهة إلها واحدا إِنَّ هذا لَشَيْء عُجَابٌ ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاء ﴾ استئنافٌ واردٌ لتحقيق الحقّ وفيه إشعارٌ بأنَّ منهُم من يجيبُ إلى الدعوة أي اللهُ يجتلبُ إلى ما تدعُوهم إليهِ مَنْ يشاءُ أنْ يجتبيُه إليهِ وهُو من صَرفَ اختيارَهُ إلى ما دُعِيَ إليه كما ينبىءُ عنه قولُه تعالى : ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي يُقبلُ إليه حيثُ يمدُّه بالتوفيق والألطافِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(136/685)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْء ﴾ إلى آخره

حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أي ما خالفكم الكفار فيه من أمور

الدين كاتخاذ الله تعالى وحده ولياً فاختلفتم أنتم وهم ﴿ فَحُكْمُهُ ﴾ راجع ﴿ إِلَى الله ﴾ وهو إثابة المحقين وعقاب المبطلين ، ويجوز أن يكون كلاماً من جهته تعالى متضمناً التسلية ويكون قوله تعالى : ﴿ ذلكم ﴾ الخ بتقدير قل ، والإمام اعتبره من أول الكلام ، وأياً ما كان فالإشارة إليه تعالى من حيث اتصافه بما تقدم من الصفات على ما قاله الطيبي من كونه تعالى هو يحيي الموتى وكونه سبحانه على كل شيء قدير وكونه عز وجل ما اختلفوا فيه فحكمه إليه ، وقال في "الإرشاد" : أي ذلكم الحاكم العظيم الشأن ﴿ الله ربّى ﴾ مالكي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في مجامع أموري خاصة لا على غيره ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع في كل ما يعن لي من معضلات الأمور لا إلى أحد سواه وحيث كان التوكل أمراً واحداً مستمراً والإنابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها أوثر في الأول صيغة الماضي وفي الثاني صيغة المضارع ، وقيل : وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول ﴾ [النساء : 59] . وقيل : وما اختلفتم فيه من شيء من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله تعالى والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا الله تعالى أعلم كمعرفة الروح .

وأورد على الكل أنه مخالف للسياق لأن الكلام مسوق للمشركين وهو على ذلك مخصوص بالمؤمنين ، وظاهر كلام الإمام اختيار الاختصاص فإنه قال في وجه النظم الكريم : إنه تعالى كما منع رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحمل الكفار على الإيمان كذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معه في الخصومات والمنازعات ، وذكر أنه احتج نفاة القياس به فقالوا : إما أن يكون المراد منه وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه مستفاد من نص الله تعالى أو من القياس على ما نص سبحانه عليه والثاني باطل لأنه يقتضي أن تكون كل الأحكام مبنية على القياس فتعين الأول ، ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه معروف من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس ، وأجيب عنه بأن المقصود من التحاكم إلى الله تعالى قطع الاختلاف لقوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلفتم ﴾ والرجوع إلى القياس مما يقوي الاختلاف فوجب الرجوع إلى النصوص اه .

وأنت تعلم أن النصوص غير كافية في جميع الأحكام وأن الآية على ما سمعت أولاً مما لا يكاد يصح الاستدلال بها على هذا المطلب من أول الأمر .

وفي "الكشاف" لا يجوز حمل الاختلاف فيها على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة

لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يخفى عليك أن هذه المسألة مختلف فيها فقال الأكثرون بجواز الاجتهاد المذكور عقلاً ومنهم من أحاله ، ثم المجوزون منهم من منع وقوع التعبد به وهو مذهب أبي علي .

وابنه أبي هاشم ، وإليه ذهب صاحب الكشاف وذكر ما يخالفه نقل لمذهب الغير وإن لم يعقبه برد كما هو عادته في الأكثر ومنهم من ادعى الوقوع ظناً ومنهم من جزم بالوقوع ، وقيل : إنه الأصح عند الأصوليين ومنهم من توقف ، والبحث فيها مستوفى في أصول الفقه ، والذي نقوله هنا : إن الاستدلال بالآية على منعه لا يكاد يتم وأقل ما يقال فيه : إنه استدلال بما فيه احتمال ، وقوله تعالى :

(138/685)

وقوله تعالى : ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ خبر آخر لذلكم أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو فاطر أو صفة لربي أو بدل منه أو مبتدأ خبره ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما بالجر على أنه بدل من ضمير ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أو ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أو وصف للاسم الجليل في قوله تعالى : ﴿ إِلَى الله ﴾ [الشورى : 10] وما بينهما جملة معترضة بين الصفة والموصوف وقد تقدم معنى ﴿ فَاطِرَ ﴾ وجعل أي خلق ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

من جنسكم ﴿ أزواجا ﴾ نساء .

وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة ﴿ وَمِنَ الأنعام أزواجا ﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً كما خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ففيه جملة مقدرة لدلالة القرينة أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يكثركم يقال ذرأ الله تعالى الخلق بثهم وكثرهم والذرء والذر إخوان ﴿ فِيهِ ﴾ أي فيما ذكر من التدبير وهو أن جعل سبحانه للناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالد وجعل التكثر في هذا الجعل لوقوعه في خلاله وأثنائه فهو كالمنبع له ، ويجوز أن تكون في للسببية وغلب في ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل فهناك تغليب واحد استمل على جهتي تغليب وذلك لأن الأنعام غائب غير عاقل فإذا ادخلت في خطاب العقلاء كان فيه تغليب العقل والخطاب معا ، وهذا التغليب أعني التغليب لأجل الخطاب والعقل من الأحكام ذات العلتين وهما هنا الخطاب والعقل وهذا هو الذي عناه جار الله وهو مما لا بأس فيه لأن العلة ليست حقيقية ، وزعم ابن المنير أن الصحيح أنهما حكمان متباينان غير متداخلين أحدهما .

مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطباً أو غائباً .

والثاني مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب فالأول لتغليب العقل والثاني لتغليب الخطاب

ليس بشيء ولا يحتاج إليه ، وكلام صاحب المفتاح يحتمل اعتبار تغليبين .

أحدهما تغليب المخاطبين على الغيب .

(139/685)

وثانيهما تغليب العقلاء على ما لا يعقل ، وقال الطيبي : إن المقام يأبى ذلك لأنه يؤدي إلى أن الأصل يذرؤكم ويذرؤها ويذرؤكن ويذرؤها لكن الأصل يذرؤكم ويذرؤها لا غير لأن كم في ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ هو كما ﴿ فِى جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ بعينه لكن غلب ههنا على الغيب فليس في يذرؤكم إلا تغليب واحد انتهى ، ثم أنه لا ينبغي أن يقال : إن التذرئة حكم علل في الآية بعلتين : احداهما جعل الناس أزواجاً .

والثانية جعل الأنعام أزواجاً ويجوز أن يكون هو الذي عناه جار الله لأن الحكم هو البث المطلق وعلته المجموع وإن جعل كل جزء منه علة فكل بث حكم أيضاً فأين الحكم الواحد المتعدد علته فافهم ، وعن ابن عباس أن معنى ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ فيه يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها ، وقريب منه قول ابن زيد يرزقكم فيه ، والظاهر عليه أن الضمير لجعل الأزواج من الأنعام .

(140/685)

وقال مجاهد أي يخلقكم نسلا بعد نسل وقرنا بعد قرن ، ويتبادر منه أن الضمير للجعل المفهوم من ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ويجوز أن يكون كما في الوجه الأول ويفهم منه أن الذرء أخص من الخلق وبه صرح ابن عطية قال : ولفظة ذرأ تزيد على لفظة خلق معنى آخر ليس في خلق وهو توالى الطبقات على مر الزمان ، وقال العتبي : ضمير ﴿ فِيهِ ﴾ للبطن لأنه في حكم المذكور والمراد يخلقكم في بطون الأناث ، وفي رواية عن ابن زيد أنه لما خلق من السموات والأرض ، وهو كما ترى ومثله ما قبله والله تعالى أعلم ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ نفى للمشابهة من كل وجه ويدخل في ذلك نفى أن يكون مثله سبحانه شيء يزاوجه عز وجل وهو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها أو المراد ليس مثله تعالى شيء في الشؤون التي من جملتها التدبير البديع السابق فترتبط بما قبلها أيضاً ، والمراد من مثله ذاته تعالى فلا فرق بين ليس كذاته شيء وليس كمثله شيء في المعنى إلا أن الثاني كناية مشتملة على مبالغة وهي أن المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه وهذا لا يستلزم وجود المثل إذ الفرض كاف في المبالغة ومثل هذا شائع في كلام العرب نحو قول أوس بن حجر :

ليس كمثل الفتى زهير . . .

خلق يوازيه في الفضائل

وقول الآخر :

وقتلى كمثل جذوع النخيل . . .

تغشاهم مسبل منهمر

وقول الآخر :

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم . . .

ما أن كمثلهم في الناس من أحد

وقد ذكر ابن قتيبة وغيره أن العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول مثلك لا يبخل وهي تريد أنت لا تبخل أي على سبيل الكناية وقد سمعت فائدتها .

وفي الكشف أنها الدلالة على فضل إثبات لذلك الحكم المطلوب وتمكينه وذلك لوجهين .

أحدهما أنه فرض جامع يقتضي ذلك فإذا قلت مثلك لا يبخل دل على أن موجب عدم البخل موجود بخلافه إذا قلت أنت لا تبخل .

(141/685)

والثاني أنه إذا جعل من جماعة لا يبخلون يكون أدل على عدم البخل لأنه جعل معدودا من جملتهم ، ومن ذلك قولهم قد أيفعت لذاته أي أترابه وأمثاله في السن ، وقول رقيقة بنت أبي

صيفي بن هاشم في سقيا عبد المطلب : إلا وفيهم الطيب الطاهر لذاته تعني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك ، وقيل : إن مثلا بمعنى الصفة وشيئاً عبارة عنها أيضاً حكاه الراغب ثم قال : والمعنى ليس كصفته تعالى صفة تنبيها على أنه تعالى وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر فليست تلك الصفات له عز وجل حسب ما يستعمل في البشر .

وذهب الطبري .

وغيره إلى أن مثلا زائدة للتأكيد كالكاف في قوله :

بالأمس كانوا في رخاء مأمول . . .

فأصبحت مثل كعصف مأكول

وقول الآخر :

أهل عرفت الدار بالغربين . . .

وصاليات ككما يؤثفين

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بجيد لأن مثلا اسم والأسماء لا تزاد بخلاف الكاف فإنها حرف فتصلح للزيادة ، ونسب إلى الزجاج .

وابن جني .

والأكثرين القول بأن الكاف زائدة للتأكيد ، ورده ابن المنير بأن الكاف تفيد تأكيد التشبيه لا تأكيد النفي ونفي المماثلة المهملة أبلغ من نفي المماثلة المؤكدة فليست الآية نظير شطري البيتين ، ويقال نحوه فيما نقل عن الطبري ومن معه ، وأجيب بأنه يفيد تأكيد التشبيه إن سلباً فسلب وإن إثباتاً فإثبات فيندفع ما أورد ، نعم الأول هو الوجه ، والمثل قال الراغب : أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة وذاك أن الند يقال لما يشارك في الجوهر فقط والشبه لما يشارك في الكيفية فقط والمساوي لما يشارك في الكمية فقط والشكل لما يشارك في القدر والمساحة فقط والمثل عام في جميع ذلك ، ولهذا لما أراد الله تعالى نفي الشبه من كل وجه خصه سبحانه بالذكر ، وذكر الإمام الرازي أن المثلين عند المتكلمين هما اللذان يقوم كل منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته وحمل المثل في الآية على ذلك أي لا يساوي الله تعالى في حقيقة الذات شيء ، وقال : لا يصح أن يكون المعنى ليس كمثله تعالى في الصفات شيء لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله تعالى يوصف بذلك وكذا يوصفون بكونهم معلومين مذكورين مع أن الله تعالى يوصف بذلك ، وأطال الكلام في هذا المقام وفي القلب منه شيء .

وفي شرح جوهرة التوحيد اعلم أن قدماء المعتزلة كالجبائي .

وابنه أبي هاشم ذهبوا إلى أن المماثلة هي المشاركة في أخص صفات النفس فمماثلة زيد

لعمر ومثلاً عندهم مشاركته إياه في الناطقية فقط ، وذهب المحققون من الماتريدية إلى أن المماثلة هي الاشتراك في الصفات النفسية كالحيوانية والناطقية لزيد وعمرو .

ومن لازم الاشتراك في الصفة النفسية أمران أحدهما : الاشتراك فيما يجب ويجوز ويمتنع .

وثانيهما : أن يسد كل منهما مسد الآخر والمتماثلان وان اشتركا في الصفات النفسية لكن لا بد من اختلافهما بجهة أخرى ليتحقق التعدد والتمايز فيصح التماثل ، ونسب إلى الأشعري أنه يشترط في التماثل التساوي من كل وجه .

(143/685)

واعترض بأنه لا تعدد حينئذ فلا تماثل ، وبأن أهل اللغة مطبقون على صحة قولنا : زيد مثل عمرو في الفقه إذا كان يساويه فيه ويسد مسده وإن اختلف في كثير من الأوصاف ، وفي الحديث

(144/685)

" الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل " وأريد به الاستواء في الكيل دون الوزن وعدد الحبات وأوصافها ، ويمكن أن يجاب بأن مراده التساوي في الوجه الذي به التماثل حتى أن زيداً وعمراً لو اشتركا في الفقه وكان بينهما مساواة فيه بحيث ينوب أحدهما مناب الآخر صح القول بأنهما مثلان فيه وإلا فلا فلا يخالف مذهب الماتريدية ، وفيه أيضاً أنه عز وجل ليس له سبحانه مماثل في ذاته فلا يسد مسد ذاته تعالى ذات ولا مسد صفته جلت صفته صفة ، والمراد بالصفة الصفة الحقيقية الوجودية ، ومن هنا تعلم ما في قول الإمام لا يصح أن يكون المعنى ليس كمثله تعالى في الصفات شيء لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله سبحانه يوصف بذلك فإن معنى ذلك أنه تعالى ليس مثل صفته سبحانه صفة ، ومن المعلوم البين أن علم العباد وقدرتهم ليسا مثل علم الله عز وجل وقدرته جل وعلا أي ليسا سادين مسدهما ، وأما كونه تعالى مذكوراً ونحوه فهو ليس من الصفات المعتبرة القائمة بذاته تعالى كما لا يخفى ، وزعم جهم بن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء لأن كل شيء فإنه يكون مثلاً لمثل نفسه فقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ معناه ليس مثل مثله شيء وذلك يقتضي أن لا يكون هو سبحانه مسمى باسم الشيء فلم يجعل المثل كناية عن الذات على ما سمعت ولا حكم بزيادته ولا بزيادة الكاف ومع هذا واغماض العين عما في كلامه لا يتم له مقصوده إذ لنا أن نجعل ليس مثل مثله شيء نفياً للمثل على سبيل الكناية أيضاً لكن بوجه آخر وهو أنه نفي للشيء بنفي لازمه لأنه نفي

اللازم يستلزم نفي الملزوم كما يقال : ليس لأخي زيد أخ فأخو زيد ملزوم والأخ لازمه لأنه لا بد لأخي زيد من أخ هو زيد فنفيت هذا اللازم والمراد نفي ملزومه أي ليس لزيد أخ إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ هو زيد فكذا نفيت أن يكون لمثل الله تعالى مثل ، والمراد نفي مثله سبحانه وتعالى إذ لو كان له

(145/685)

مثل لكان هو مثل مثله إذ التقدير أنه موجود ، ومغايرته لما تقدم أن مبناه إثبات اللزوم بين وجود المثل ووجود مثل المثل ليكون نفي اللازم كناية عن نفي الملزوم من غير ملاحظة والتفات إلى أن حكم الأمثال واحد وأنه يجري في النفي دون الإثبات فإن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم دون العكس بخلاف ما تقدم فإن مبناه أن حكم المتماثلين واحد وإلا لم يكونا متماثلين ولا يحتاج إلى إثبات اللزوم بين وجود المثل ومثل المثل وانه يجري في النفي والإثبات كما سمعت من الأمثلة وليس ذاك من المذهب الكلامي في شيء ، أما أولاً فلأنه إيراد الحجة وليس في الآية إشعار بها فضلاً عن الإيراد ، وأما ثانياً فلأنه حينئذ تكون الحجة قياساً استثنائياً استثنى فيه نقيض التالي هكذا لو كان له سبحانه مثل لكان هو جل شأنه مثل مثله لكنه ليس مثلا لمثله فلا بد من بيان بطلان التالي حتى تتم الحجة إذ ليس بينا

بنفسه بل وجود المثل ووجود مثل المثل في مرتبة واحدة في العلم والجهل لا يجوز جعل أحدهما دليلاً على الآخر ، لكن قيل : إن المفهوم من ليس مثل مثله شيء على ذلك التقدير نفى أن يكون مثل لمثله سواه تعالى بقرينة الإضافة كما أن المفهوم من قول المتكلم : إن دخل داري أحد فكذا غير المتكلم ، وأيضاً لا نسلم أنه لو وجود له سبحانه مثل لكان هو جل وعلا مثل مثله لأن وجود مثله سبحانه محال والمحال جاز أن يستلزم المحال .

(146/685)

وأجيب عن الأول أن اسم ليس ﴿ شَيْءٌ ﴾ وهو نكرة في سياق النفي فتعم الآية نفي شيء يكون مثلاً لمثله ، ولا شك أنه على تقدير وجود المثل يصدق عليه أنه شيء مثل لمثله ، والإضافة لا تقتضي خروجه عن عموم شيء بخلاف الماثال المذكور فإن القرينة العقلية دلت على تخصيص أحد بغير المتكلم لأن مقصوده المنع عن دخول الغير وعن الثاني أن وجود المثل لشيء مطلقاً يستلزم المثل مع قطع النظر عن خصوصية ذلك الشيء وذلك بين فالمنع بتجويز أن يكون لذاته تعالى مثل ولا يكون هو سبحانه مثلاً لمثله مكابرة ، ثم إن هذا الوجه لكثرة ما فيه من القيل والقال بالنسبة إلى غيره من الأوجه السابقة لم نذكره عند ذكرها وهو على علاته أحسن من القول بالزيادة كما لا يخفى على من وفقه الله عز وجل

﴿ وَهُوَ السميع ﴾ المدرك إدراكاً تاماً لا على طريق التخيل والتوهم لجميع المسموعات ولا على طريق تأثر حاسة ولا وصول هواء ﴿ البصير ﴾ المدرك إدراكاً تاماً لجميع المبصرات أو الموجودات لا على سبيل التخيل والتوهم ولا على طريق تأثر حاسة ولا وصول شعاع فالسمع والبصر صفتان غير العلم على ما هو الظاهر وأرجعهما بعضهم إلى صفة العلم ، وتمام الكلام على ذلك في الكلام ، وقدم سبحانه نفي المثل على إثبات السمع والبصر لأنه أهم في نفسه وبالنظر إلى المقام .

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ .

وقرىء ﴿ يُقَدِّرُ ﴾ بالتشديد ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْء عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في الإحاطة به فيفعل كل ما يفعل جل شأنه على ما ينبغي أن يفعل عليه ، والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى ﴾

(147/685)

وإيذان بأن ما شرع سبحانه لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه ديناً قديماً أجمع عليه الرسل ، والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام أي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ومن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمراً مؤكداً ، وتخصيص المذكورين بالذكر لما أشير إليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الأتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعيسى عليه السلام وإلا فما من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الإعصار من أصول الشرائع والأحكام كما ينبىء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به ، والمراد بإيحائه إليه صلى الله عليه وسلم إما ما ذكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الشورى : 7] الآية وإما ما يعمهما وغيرهما مما وقع في سائر المواقع التي من جملتها قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا ﴾ [النحل : 123] وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحِى إِلَىَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : 110] وغير ذلك ، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده مْ التوصية لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة ولما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة ، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه ، وفي ذلك

إشعاء بأنه شريعته صلى الله عليه وسلم هي الشريعة المعتني بها غاية الاعتناء ولذا عبر فيها بالذي التي هي أصل الموصولات وذلك هو السر في تقديم الذي أوى إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً ، وتقديم

(148/685)

توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً ، وقد قيل : إنه عليه الصلاة والسلام أول الرسل ، وتوجيه الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه صلى الله عليه وسلم ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون العبد به مؤمناف ، والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ والمواظبة عليه ، و ﴿ إن ﴾ مصدرية وتقدم الكلام في وصلها بالأمر والنهي أو مخففة من الثقيلة لما في ﴿ شَرَعَ ﴾ من معنى العلم ، والمصدر اما منصوب على أنه بدل من مفعول ﴿ شَرَعَ ﴾ والمعطوفين عليه أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب عن سؤال نشأ من إبهام المشروع كأنه قيل : وما ذاك ؟ فقيل : هو أن أقيموا الدين ، وقيل : هو مجرور على أنه بدل من ضمير ﴿ بِهِ ﴾ ولا يلزمه بقاء

الموصول بلا عائد لأن المبدل منه ليس في نية الطرح حقيقة ، نعم قال شيخ الإسلام : إنه ليس بذاك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيز الإيحاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستلزم لكون الخطاب في النهي الآتي عن التفرق للأنبياء المذكورين عليهم السلام وتوجيه النهي إلى أممهم تمحل ظاهر مع أن الأظهر أنه متوجه إلى أمته صلى الله عليه وسلم وأنهم مالتفرقون ، ثم بين ما استظهره وسنشير إليه إن شاء الله تعالى .

(149/685)

وجوز كونه بدلاً من ﴿ الدين ﴾ ويجوز كون ﴿ إن ﴾ مفسرة فقد تقدمها ما يتضمن معني القول دون حروفه والخطاب في ﴿ أَقِيمُواْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ على ما اختاره غير واحد من الأجلة شامل للنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه وللأنبياء والأمم قبلهم وضمير ﴿ فِيهِ ﴾ للدين أي ولا تتفرقوا في الدين الذي هو عبارة عما تقدم من الأصول بأن يأتي به بعض ولا يأتي بعض ويأتي بعض ببعض منه دون بعض وهو مراد مقاتل أي لا تختلفوا فيه ، ولا يشمل هذا النهي عن الاختلاف في الفروع فإنها ليست من الأصول المرادة هنا ولم يتحد بها النبيون كما يؤذن بذلك قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

ومنهاجا ﴾ [المائدة : 48] وبعضهم أدخل بعض الفروع في أصول الدين المرادة هنا من الدين .

(150/685)

قال مجاهد : لم يبعث نبي إلا أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه وذلك إقامة الدين ، وقال الحافظ أبو بكر بن العربي : لم يكن مع آدم عليه السلام إلا بنوه ولم يفرض له الفرائض ولا شرعة له المحارم وإنما كان منبهاً على بعض الأمور مقتصراً على بعض ضروريات المعاش واستمر الأمر إلى نوح عليه السلام فبعثه الله تعالى بتحريم الأمهات والبنات ووظف عليه الواجبات وأوضح له الأدب في الديانات ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر الأنبياء واحداً بعد واحد وشريعة أثر شريعة حتى ختمه سبحانه بخير الملل على لسان أكرم الرسل ، فمعنى الآية شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء ديناً واحداً في الأصول وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب بصالح الأعمال والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الكبر والزنا والإيذاء للخلق والاعتداء على الحيوان واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة لم يختلف على ألسنة الأنبياء وان اختلفت أعدادهم ، ومعنى ﴿ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ

تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ اجعلوه قائماً أي دائماً مستمراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب انتهى ، ولعله أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج مطلقها لا ما نعرفه في شرعنا منها فإن الصلوات الخمس والزكاة المخصوصة وصيام شهر رمضان من خواص هذه الأمة على الصحيح ، والظاهر أن حج البيت لم يشرع لأمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام ولا لأكثر الأمم قبلهما على أن الآية مكية ولم تشرع الزكاة المعروفة وصيام رمضان إلا في المدينة ، وبالجملة لا شك في اختلاف الأديان في الفروع ، نعم لا يبعد اتفاقها فيما هو من مكارم الأخلاق واجتناب الرذائل ﴿ كَبُرَ ﴾ أي عظم وشق ﴿ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ على سبيل الاستمرار التجددي من التوحيد ورفض عبادة الأصنام ويشعر بإرادته التعبير بالمشركين وهو أصل الأصول

(151/685)

وأعظم ما شق عليهم كما تنبىء بذلك الآيات أو ما تدعوهم إليه من إقامة الدين وعدم التفرق فيه ﴿ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاء ﴾ تسلية له صلى الله عليه وسلم بأن منهم من يجيب ، و﴿ يَجْتَبِى ﴾ من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والضمير في ﴿ إِلَيْهِ ﴾ لله تعالى كما ذكر محيي السنة وغيره وكذا الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أي

يصطفي إليه سبحانه من يشاء اصطفاءه ويخصصه سبحانه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع النعم ويهدي إليه عز وجل بالإرشاد والتوفيق من يقبل إليه تعالى شأنه .

وعدى الإجتباء بإلى لما فيه من الجمع على ما يفهم من كلام الراغب ، وجعله جمع من الجباية بمعنى الجمع يقال جبيت الماء في الحوض جمعته فيه فمنهم من اختار جعل ضمير ﴿ إليه ﴾ في الموضعين لما لما فيه من اتساق الضمائر أي يجتلب ويجمع من يشاء اجتلابه وجمعه إلى ما تدعوهم إليه ، ومنهم من اختار جعله للدين لمناسبة معنوية هي اتحاد المتفرق فيه والمجتمع عليه والزمخشري اختار كونه من الجباية بمعنى الجمع وعود الضمير على الدين ، وما ذكره محيي السنة وغيره قال في الكشف أظهر وأملأ بالفائدة ، أما الثاني فللدلالة على أن أهل الاجتباء غير أهل الاهتداء وكلتا الطائفتين هم أهل الدين والتوحيد الذين لم يتفرقوا فيه وعلى مختار طائفة واحدة .

(152/685)

وأما الأول فلأن الاجتباء بمعنى الاصطفاء أكثر استعمالاً ولأنه يدل على أن أهل الدين هم صفوة الله تعالى اجتباهم إليه واصطفاهم لنفسه سبحانه ، وأما الذي آثره الزمخشري فكلام ظاهري بناه على أن الكلام في عدم التفرق في الدين فناسب الجمع والانتهاء إليه ،

وقيل : ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ على معنى ما تدعوهم إلى الإيمان به والمراد به الرسالة أي ثقلت عليهم رسالتك وعظم لديهم تخصيصنا إياك بالرسالة والوحي دونهم وقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء ﴾ رد عليهم على نحو ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] وما قدمنا أظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(153/685)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ حم . عسق ﴾

قد تقدّم الكلام في أمثال هذه الفواتح ، وسئل الحسن بن الفضل لم قطع : ﴿ حم عسق ﴾ ، ولم يقطع : ﴿ كهيعص ﴾ ، فقال : لأنها سور أوّلها ﴿ حم ﴾ ، فجرت مجرى نظائرها ، فكأن ﴿ حم ﴾ مبتدأ ، و ﴿ عسق ﴾ خبره ، ولأنهما عدا آيتين .

وأخواتهما مثل : ﴿ كهيعص ﴾ ، و ﴿ المرا ﴾ ، و ﴿ المص ﴾ آية واحدة .

وقيل : لأن أهل التأويل لم يختلفوا في : ﴿ كهيعص ﴾ ، وأخواتها أنها حروف التهجي لا غير ، واختلفوا في ﴿ حم ﴾ ، فقيل معناها : حم ، أي : قضى كما تقدّم .

وقيل : إن "ح" حلمه ، و "م" مجده ، و "ع" علمه ، و "س" سناه ، و "ق" قدرته ،

أقسم الله بها .

وقيل غير ذلك مما هو متكلف متعسف لم يدلّ عليه دليل ، ولا جاءت به حجة ، ولا شبهة حجة ، وقد ذكرنا قبل هذا ما روي في ذلك مما لا أصل له ، والحق ما قدّمناه لك في فاتحة سورة البقرة .

وقيل : هما اسمان للسورة .

وقيل : اسم واحد لها ، فعلى الأوّل يكونان خبرين لمبتدأ محذوف ، وعلى الثاني يكون خبراً لذلك المبتدأ المحذوف .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : (حم* سقا) .

﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم ﴾ هذا كلام مستأنف غير متعلق بما قبله أي : مثل ذلك الإيحاء الذي أوحي إلى سائر الأنبياء من كتب الله المنزلة عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد ، والبعث يوحى إليك يا محمد في هذه السورة .

وقيل : إن حمعاسقا ، أوحيت إلى من قبله من الأنبياء ، فتكون الإشارة بقوله : ﴿ كذلك ﴾ إليها .

قرأ الجمهور : ﴿ يوحي ﴾ بكسر الحاء مبنياً للفاعل ، وهو : الله .

وقرأ مجاهد ، وابن كثير ، وابن محيصن بفتحها مبنياً للمفعول ، والقائم مقام الفاعل ضمير مستتر يعود على كذلك ، والتقدير : مثل ذلك الإيحاء يوحى هو إليك ، أو القائم مقام الفاعل إليك ، أو الجملة المذكورة أي : يوحى إليك هذا اللفظ ، أو القرآن ، أو مصدر يوحي ، وارتفاع الاسم الشريف على أنه فاعل لفعل محذوف كأنه قيل : من يوحي ؟ فقيل : الله العزيز الحكيم .

وأما قراءة الجمهور فهي واضحة اللفظ ، والمعنى ، وقد تقدّم مثل هذا في قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والأصال رِجَالٌ ﴾ [النور : 36 ، 37] ، وقرأ أبو حيوة ، والأعمش ، وأبان : "نوحي" بالنون ، فيكون قوله : ﴿ الله العزيز الحكيم ﴾ في محلّ نصب ، والمعنى : نوحي إليك هذا اللفظ ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العلى العظيم ﴾ ذكر سبحانه لنفسه هذا الوصف ، وهو ملك جميع ما في السماوات ، والأرض لدلالته على كمال قدرته ، ونفوذ تصرّفه في جميع مخلوقاته .

﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تكاد ﴾ بالفوقية ، وكذلك : (تتفطرن) قرؤوه بالفوقية مع تشديد الطاء .

وقرأ نافع ، والكسائي ، وابن وثاب يكاد (يتفطرن) بالتحتية فيهما ، وقرأ أبو عمرو ، والمفضل ، وأبو بكر ، وأبو عبيد : (يتفطرن) بالتحتية ، والنون من الانفطار كقوله : ﴿ إِذَا

السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] .

والتفطر : التشقق .

قال الضحاك ، والسدّي : يتفطرن يتشققن من عظمة الله ، وجلاله من فوقهنّ .

وقيل : المعنى : تكاد كلّ واحدة منها تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين اتخذ الله ولداً .

وقيل : من فوقهنّ : من فوق الأرضين ، والأوّل أولى .

و" من " في ﴿ من فوقهنّ ﴾ لابتداء الغاية ، أي : يبتدىء التفطر من جهة الفوق .

(155/685)

وقال الأخفش الصغير : إن الضمير يعود إلى جماعات الكفار ، أي : من فوق جماعات الكفار ، وهو بعيد جداً ، ووجه تخصيص جهة الفوق : أنها أقرب إلى الآيات العظيمة ، والمصنوعات الباهرة ، أو على طريق المبالغة كأن كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت في جهة الفوق ، فتأثيرها في جهة التحت بالأولى .

﴿ والملائكةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : ينزهونه عما لا يليق به ، ولا يجوز عليه متلبسين بحمده .

وقيل : إن التسبيح موضوع موضع التعجب ، أي : يتعجبون من جراءة المشركين على الله .

وقيل : معنى ﴿ بحمد ربهم ﴾ : بأمر ربهم قاله السدّي ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض ﴾ من عباد الله المؤمنين كما في قوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ [غافر : 7] ، وقيل : الاستغفار منهم بمعنى : السعي فيما يستدعي المغفرة لهم ، وتأخير عقوبتهم طمعاً في إيمان الكافر ، وتوبة الفاسق ، فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين ، وإن كانوا داخلين فيها دخولاً أوّلياً ﴿ أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم ﴾ أي : كثير المغفرة والرحمة لأهل طاعته ، وأوليائه ، أو لجميع عباده ، فإن تأخير عقوبة الكفار ، والعصاة نوع من أنواع مغفرته ، ورحمته .

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي : أصناماً يعبدونها ﴿ الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : يحفظ أعمالهم ؛ ليجازيهم بها ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي : لم يوكلك بهم حتى تؤاخذ بذنوبهم ، ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنما عليك البلاغ .

(156/685)

قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ أي : مثل ذلك الإيحاء أوحينا إليك ، وقرآناً مفعول أوحينا ؛ والمعنى : أنزلنا عليك قرآناً عربياً

بلسان قومك كما أرسلنا كلّ رسول بلسان قومه ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ ، وهي : مكة ، والمراد : أهلها ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من الناس ، والمفعول الثاني محذوف ، أي : لتنذرهم العذاب ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ أي : ولتنذر بيوم الجمع وهو : يوم القيامة ، لأنه مجمع الخلائق .

وقيل : المراد جمع الأرواح بالأجساد .

وقيل : جمع الظالم ، والمظلوم .

وقيل : جمع العامل ، والعمل ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : لا شك فيه .

والجملة معترضة مقررة لما قبلها ، أو صفة ليوم الجمع ، أو حال منه ﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ قرأ الجمهور برفع : ﴿ فريق ﴾ في الموضعين ، إما على أنه مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور ، وشاع الابتداء بالنكرة ، لأن المقام مقام تفصيل ، أو على أن الخبر مقدّر قبله ، أي : منهم فريق في الجنة ، ومنهم فريق في السعير ، أو أنه خبر مبتدأ محذوف ، وهو ضمير عائد إلى المجموعين المدلول عليهم بذكر الجمع ، أي : هم فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

وقرأ زيد بن علي : (فريقاً) بالنصب في الموضعين على الحال من جملة محذوفة ، أي : افترقوا حال كونهم كذلك ، وأجاز الفراء ، والكسائي النصب على تقدير : لتنذر فريقاً .

﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ قال الضحاك : أهل دين واحد ، إما على هدى ، وإما على ضلالة ، ولكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية ، وهو معنى قوله : ﴿ ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِى رَحْمَتِهِ ﴾ في الدين الحق وهو : الإسلام ﴿ والظالمون مَا لَهُمْ مّن وَلِىّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ أي : المشركون ما لهم من وليّ يدفع عنهم العذاب ، ولا نصير ينصرهم في ذلك المقام ، ومثل هذا قوله : ﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى ﴾ [الأنعام : 35] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 13] ، وها هنا مخاصمات بين المتمذهبين المحامين على ما درج عليه أسلافهم ، فدبوا عليه من بعدهم ، وليس بنا إلى ذكر شيء من ذلك فائدة كما هو عادتنا في تفسيرنا هذا ، فهو تفسير سلفي يمشي مع الحق ، ويدور مع مدلولات النظم الشريف ، وإنما يعرف ذلك من رسخ قدمه ، وتبرأ من التعصب قلبه ، ولحمه ، ودمه .

وجملة : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ مستأنفة مقررّة لما قبلها من انتفاء كون للظالمين ، ولياً ، ونصيراً ، وأم هذه هي المنقطعة المقدّرة ببل المفيدة للانتقال ، وبالهمزة المفيدة للإنكار ، أي : بل أأتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها ؟ ﴿ فالله هُوَ الولى ﴾ أي : هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً ، فإنه الخالق الرازق الضار النافع ، وقيل : الفاء جواب شرط محذوف ، أي : إن أرادوا أن يتخذوا ولياً في الحقيقة فالله هو الوليّ ﴿ وَهُوَ ﴾ أي :

ومن شأنه أنه ﴿ يُحْيِ الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : يقدر على كل مقدور ، فهو : الحقيق بتخصيصه بالألوهية ، وإفراده بالعبادة .

(158/685)

﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ هذا عامّ في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين ، فإن حكمه ، ومرجعه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بحكمه ، ويفصل خصومة المختصمين فيه ، وعند ذلك يظهر المحقّ من المبطل ، ويتميز فريق الجنة ، وفريق النار .

قال الكلبي : وما اختلفتم فيه من شيء ، أي : من أمر الدين ، فحكمه إلى الله يقضي فيه .

وقال مقاتل : إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن ، وآمن به بعضهم ، فنزلت ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ويمكن أن يقال : معنى حكمه إلى الله : أنه مردود إلى كتابه ، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه ، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه يردّ إلى كتاب الله .

ومثله قوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول ﴾ [النساء : 59] ، وقد حكم سبحانه بأن الدين هو : الإسلام ، وأن القرآن حق ، وأن المؤمنين في الجنة ،

والكافرين في النار ، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقاً إلاّ في الدار الآخرة ، وعدهم الله بذلك يوم القيامة ﴿ ذلكم ﴾ الحاكم بهذا الحكم ﴿ الله ربّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت عليه في جميع أموري ، لا على غيره ، وفوّضته في كلّ شؤوني ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي : أرجع في كل شيء يعرض لي لا إلى غيره .

﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر آخر لذلكم ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره ما بعده ، أو نعت لربي ؛ لأن الإضافة محضة ، ويكون ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ معترضاً بين الصفة ، والموصوف .

وقرأ زيد بن عليّ : (فاطر) بالجرّ على أنه نعت للاسم الشريف في قوله : ﴿ إِلَى الله ﴾ ، وما بينهما اعتراض ، أو بدل من الهاء في عليه أو إليه ، وأجاز الكسائي النصب على النداء ، وأجازه غيره على المدح .

(159/685)

والفاطر : الخالق المبدع ، وقد تقدّم تحقيقه ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي : خلق لكم من جنسكم نساء ، أو المراد : حوّاء لكونها خلقت من ضلع آدم .

وقال مجاهد : نسلاً بعد نسل ﴿ وَمِنَ الأنعام أزواجا ﴾ أي : وخلق للأنعام من جنسها

إناثاً ، أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور ، والإناث ، وهي : الثمانية التي ذكرها في الأنعام ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أي : يبثكم ، من الذرء وهو : البثّ ، أو يخلقكم ، وينشئكم ، والضمير في يذرؤكم للمخاطبين ، والأنعام إلاّ أنه غلب فيه العقلاء ، وضمير فيه راجع إلى الجعل المدلول عليه بالفعل .

وقيل : راجع إلى ما ذكر من التدبير ، وقال الفراء ، والزجاج ، وابن كيسان : معنى يذرؤكم فيه : يكثركم به ، أي : يكثركم بجعلكم أزواجاً ؛ لأن ذلك سبب النسل .

وقال ابن قتيبة : يذرؤكم فيه ، أي : في الزوج .

وقيل : في البطن .

وقيل : في الرحم .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ المراد بذكر المثل هنا : المبالغة في النفي بطريق الكناية ، فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى كقولهم : مثلك لا يبخل ، وغيرك لا يجود .

وقيل : إن الكاف زائدة للتوكيد ، أي : ليس مثله شيء .

وقيل : إن مثل زائدة قاله ثعلب ، وغيره كما في قوله : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُمْ بِهِ ﴾ [البقرة : 137] أي : بما آمنتم به ، ومنه قول أوس بن حجر :

وقتلى كمثل جذوع النخي . . . ل يغشاهم مطر منهمر

أي : كجذوع ، والأوّل أولى ، فإن الكناية باب مسلوك للعرب ، ومهيع مألوف لهم ، ومنه

قول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير . . . خلق يوازيه في الفضائل

وقال آخر :

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه . . . وإن بات من ليلى على اليأس طاويا

وقال آخر :

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم . . . فما كمثلهم في الناس من أحد

قال ابن قتيبة : العرب تقيم المثل مقام النفس ، فتقول : مثلي لا يقال له هذا ، أي : أنا لا يقال لي .

(160/685)

وقال أبو البقاء مرجحاً لزيادة الكاف : إنها لو لم تكن زائدة ، لأفضى ذلك إلى المحال ، إذ يكون المعنى : أن له مثلاً ، وليس لمثله مثل ، وفي ذلك تناقض ، لأنه إذا كان له مثل ، فلمثله مثل ، وهو : هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال ، وهذا تقرير حسن ، ولكنه يندفع ما أورده بما ذكرنا من كون الكلام خارجاً مخرج الكناية ، ومن فهم هذه الآية الكريمة حقّ فهمها ، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء

واضحة ، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله : ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ ، فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للماثل قد اشتمل على برد اليقين ، وشفاء الصدور ، وانثلاج القلوب ، فاقدر يا طالب الحقّ قدر هذه الحجة النيرة ، والبرهان القويّ ، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع ، وتهشم بها رؤوساً من الضلالة ، وترغم بها آناف طوائف من المتكلفين ، ولا سيما إذا ضممت إليه قول الله سبحانه : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه : 110] ، فإنك حينئذٍ قد أخذت بطرفي حبل ما يسمونه علم الكلام ، وعلم أصول الدين :

ودع عنك نهبا صيح في حجراته . . . ولكن حديث ما حديث الرواحل

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ أي : خزائنهما ، أو مفاتيحهما ، وقد تقدّم تحقيقه في سورة الزمر ، وهي : جمع إقليد ، وهو : المفتاح جمع على خلاف القياس .

قال النحاس : والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن .

ثم لما ذكر سبحانه أن بيده مقاليد السموات ، والأرض ذكر بعده البسط ، والقبض ، فقال : ﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يوسعه لمن يشاء من خلقه ، ويضيقه على من يشاء ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فلا تخفى عليه خافية ، وإحاطة علمه بكل شيء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع ، ومعصية العاصي .

فهو يجازي كلا بما يستحقه من خير ، وشرّ .

وقد أخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي يده كتابان ، فقال : " أتدرون ما هذان الكتابان ؟ " قلنا : لا ، إلاّ أن تخبرنا يا رسول الله ، قال : للذي في يده اليمنى : " هذا كتاب من ربّ العالمين بأسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم " ثم قال للذي في شماله : " هذا كتاب من ربّ العالمين بأسماء أهل النار ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم أبداً "

فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه ؟ ، فقال : " سدّدوا ، وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أيّ عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أيّ عمل له " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه ، فنبذهما ، ثم قال : " فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة ، وفريق في السعير " قال الترمذي بعد إخراجه : حديث حسن صحيح غريب .

وروى ابن جرير طرفاً منه عن ابن عمرو موقوفاً عليه .

قال ابن جرير : وهذا الموقوف أشبه بالصواب ، قلت : بل المرفوع أشبه بالصواب .

فقد رفعه الثقة ، ورفعه زيادة ثابتة من وجه صحيح ، ويقوّي الرّفع ما أخرجه ابن مردويه

عن البراء .

قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده كتاب ينظر فيه قالوا : انظروا إليه كيف ، وهو أميّ لا يقرأ ، قال : فعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " هذا كتاب من ربّ العالمين بأسماء أهل الجنة ، وأسماء قبائلهم لا يزاد منهم ، ولا ينقص منهم " وقال : " فريق في الجنة ، وفريق في السعير فرغ ربكم من أعمال العباد " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(162/685)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ﴾

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة هود .

وقول الزمخشري في تفسير هذه الآية ﴿ كَذَلِكَ يوحي إِلَيْكَ ﴾ أي مثل ذلك الوحي ، أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل من قبلك الله .

يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني ، قد أوحى الله إليك مثله ، في غيرها من السور

، وأوحاه من قبلك إلى رسله ، على معنى أن الله تعالى كرر هذه المعاني ، في القرآن وفي جميع الكتب السماوية ، لما فيها من التنبيه البليغ ، واللطف العظيم ، لعباده من الأولين والآخرين . اه منه .

وظاهر كلامه ، أن التشبيه في قوله : كذلك يوحى بالنسبة إلى الموحى باسم المفعول .

والأظهر أن التشبيه في المعنى المصدري الذي هو الإيحاء .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ لم يصرح هنا بشيء من أسماء الذين من قبله الذين أوحى إليهم ، كما أوحى إليه ، ولكنه قد بين أسماء جماعة منهم في سورة النساء ، وبين فيها أن بعضهم لم يقصص خبرهم عليه ، وأنه أوحى إليهم وأرسلهم لقطع حجج الخلق ، في دار الدنيا وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وعيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : 163165] .

(163/685)

وقوله تعالى : ﴿ الله العزيز الحكيم ﴾ ذكر جل وعلا فيه الثناء على نفسه ، باسمه العزيز واسمه الحكيم بعد ذكره إنزاله وحيه على أنبيائه ، كما قال في آية النساء المذكورة ﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : 165] بعد ذكره إيحاءه إلى رسله .

وقد قدمنا في أول سورة الزمر أن استقراء القرآن . قد دل على أن الله جل وعلا إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وذكرنا كثيراً من أمثلة ذلك .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير (يوحي) بكسر الحاء بالبناء للفاعل ، وعلى قراءة الجمهور هذه فقوله : الله العزيز الحكيم فاعل يوحي .

وقرأه ابن كثير (يُوحى إليك) بفتح الحاء بالبناء للمفعول ، وعلى هذه القراءة ، فقوله : الله العزيز الحكيم ، فاعل فعل محذوف تقديره يوحى كما قدمنا إيضاحه في سورة النور في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ ﴾ [النور : 3637] الآية .

وقد قدمنا معاني الوحي مع الشواهد العربية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] وغير ذلك من المواضع .

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العلي العظيم ﴾ .

وصف نفسه جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، بالعلو والعظمة ، وهما من الصفات الجامعة

كما قدمناه في سورة الأعراف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : 54] .

(164/685)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من وصفه تعالى نفسه بهاتين الصفتين الجامعتين المتضمنتين لكل كمال وجلال ، جاء مثله في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : 255] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء : 34] . وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : 9] وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الجاثية : 37] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع والكسائي (تكاد) بالتاء الفوقية ، لأن السماوات مؤنثة وقرأه نافع والكسائي (يكاد) بالياء التحتية لأن تأنيث السماوات غير حقيقي .

وقرأه عامة السبعة غير أبي عمرو ، وشعبة عن عاصم (يَتَفَطَّرْنَ) بتاء مثناة فوقية

مفتوحة بعد الياء وفتح الطاء المشددة مضارع. تفطر أي تشقق.

وقرأه أبو عمرو وشعبة عن عاصم (ينفطرن) بنون ساكنة بعد الياء وكسر الطاء، المخففة مضارع انفطرت كقوله: ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الأنفطار: 1] أي انشقت.

وقوله: تكاد مضارع كاد، التي هي فعل مقاربة، ومعلوم أنها تعمل في المبتدأ والخبر معنى كونها فعل مقاربة، أنها تدل على قرب اتصاف المبتدأ والخبر.

وإذاً، فمعنى الآية أن السماوات قاربت أن تتصف بالتفطر على القراءة الأولى، والانفطار على القراءة الثانية.

واعلم أن سبب مقاربة السماوات للتفطر، في هذه الآية الكريمة، فيه للعلماء وجهان كلاهما يدل له قرآن.

(165/685)

الوجه الأول: أن المعنى تكاد السماوات يتفطرن خوفاً من الله، وهيبة وإجلالاً، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ العلي العظيم ﴾ [الشورى: 4] لأن علوه وعظمته سبب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفطر.

وعلى هذا الوجه فقوله بعده : ﴿ والملائكةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض ﴾ [الشورى : 5] مناسبته لما قبله واضحة .

لأن المعنى : أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له ، وكذلك سكانها من الملائكة فهم يسبحون بحمد ربهم أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، مع إثباتهم له كل كمال وجلال ، خوفاً منه وهيبة وإجلالاً ، كما قال تعالى ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد : 13] وقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ والملائكة وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : 4950] .

فهم لشدة خوفهم من الله ، وإجلالهم له يسبحون بحمد ربهم ، ويخافون على أهل الأرض ، ولذا يستغفرون لهم خوفاً عليهم من سخط الله ، وعقابه ، ويستأنس لهذا الوجه بقوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض ﴾ [الأحزاب : 72] إلى قوله : ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب : 72] لأن الإشفاق الخوف .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض ﴾ يعني لخصوص الذين آمنوا منهم وتابوا إلى الله واتبعوا سبيله ، كما أوضحه تعالى بقوله : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [غافر : 7] .

فقوله : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ يوضح المراد من قوله : ﴿ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى : 5] .

(166/685)

ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى عنهم إنهم يقولون في استغفارهم للمؤمنين ﴿ فاغفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ [غافر : 7] لأن ذلك يدل دلالة واضحة على عدم استغفارهم للكافر .

الوجه الثاني : أن المعنى ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ ﴾ من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض جل وعلا ، من كونه اتخذ ولداً ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وهذا الوجه جاء موضحاً في سورة مريم ، في قوله تعالى :

﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْاْ للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 8893] كما قدمنا إيضاحه .

وغاية ما في هذا الوجه أن آية شورى هذه فيها إجمال في سبب تفطر السماوات ، وقد جاء ذلك موضحاً في آية مريم المذكورة . وكلا الوجهين حق .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ فيه للعلماء أوجه .

قيل : يتفطرن ، أي السماوات من فوقهن أي الأرضين ، ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى .

وقال بعضهم : من فوقهن أي كل سماء تتفطر فوق التي تليها .

وقال الزمخشري في الكشاف : فإن قلت لم قال : ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ [الشورى : 5] قلت : لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السماوات ، وهي العرش والكرسي ، وصفوف الملائكة ، المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى ، فلذلك قال : ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ [الشورى : 5] أي يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية .

أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذي تحت السموات ، فكان القياس أن يقال : يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة .

(167/685)

ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في وجهة الفوق . كأنه قيل : يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن ، دع الجهة التي تحتهن .

ونظيره في المبالغة قوله عز وجل ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ

﴾ [الحج : 1920] فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة اه . محل الغرض منه .

وهذا إنما يتمشى على القول بأن سبب التفطر المذكور هو افتراؤهم على الله في قولهم ﴿ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 88] .

وقد قدمنا آنفاً أنه دلت عليه آية مريم المذكورة وعليه فمناسبة قوله : ﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنعه ، فإن الملائكة بخلافهم فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته .

ويوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت : 38] وقوله تعالى : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام : 89] ، كما قدمنا إيضاحه في آخر سورة فصلت .

قوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم ﴾ .

أكد جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه هو الغفور الرحيم ، وبَين فيها أنه هو وحده المختص بذلك .

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة ، قد جاءا موضحين في غير هذا الموضع .

أما اختصاصه هو جل وعلا بغفران الذنوب ، فقد ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله ﴾ [آل عمران : 135] ، والمعنى لا يغفر الذنوب إلا الله ، وفي الحديث

" رب إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت " الحديث . وفي حديث سيد الاستغفار : " اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني " الحديث . وفيه " وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " .

(168/685)

ووجه دلالة هذه الآية على أن الله وحده هو الذي يغفر الذنوب ، هو أن ضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله : ﴿ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ [الشورى : 5] يدل على ذلك كما هو معلوم في محله ، وأما الأمر الثاني ، هو توكيده تعالى أنه هو الغفور الرحيم فإنه أكد ذلك هنا بحرف الاستفتاح الذي هو ألا ، وحرف التوكيد الذي هو إن .

وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ [الزمر : 53] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ ﴾ [طه : 82] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة ﴾ [النجم : 32] وقوله في الكفار : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : 38] . وقوله في الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 74] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

فنرجو الله جل وعلا الكريم الرؤوف الغفور الرحيم ، أن يغفر لنا جميع ذنوبنا ويتجاوز عن جميع سيئاتنا ويدخلنا جنته على ما كان منا ، ويغفر لإخواننا المسلمين . إنه غفور رحيم .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

(169/685)

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ، ﴿ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي أشركوا معه شركاء يعبدونهم من دونه ، كما أوضح تعالى ذلك في قوله : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : 3] وقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النور إِلَى الظلمات أولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : 257] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 30] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران : 175] أي يخوفكم أولياءه . وقوله تعالى : ﴿ فقاتلوا أَوْلِيَاءَ الشيطان ﴾ [النساء : 76] الآية .

وقد وبخهم تعالى على اتخاذهم الشيطان وذريته أولياء من دونه تعالى في قوله : ﴿

أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : 50] .

وقد أمر جل وعلا باتباع هذا القرآن العظيم ، ناهياً عن اتباع الأولياء المتخذين من دونه تعالى ، في أول سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿ اتبعوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 3] .

وقد علمت من الآيات المذكورة أن أولياء الكفار الذين اتخذوهم وعبدوهم من دون الله نوعان :

(170/685)

الأول منهما : الشياطين ، ومعنى عبادتهم للشيطان طاعتهم له فيما يزين لهم ، من الكفر والمعاصي ، فشركهم به شرك طاعة ، والآيات الدالة على عبادتهم للشياطين بالمعنى المذكور كثيرة كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ [يس : 60] الآية . وقوله تعالى عن إبراهيم ﴿ يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ [مريم : 44] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً ﴾ [النساء : 117] أي وما يعبدون إلا شيطاناً مريدا . وقوله تعالى ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن

دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : 41] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 100] وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] إلى غير ذلك من الآيات .

والنوع الثاني : هو الأوثان ، كما بين ذلك تعالى بقوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ الله حَفِيظٌ عَلَيْهِم ﴾ .

أي رقيب عليهم حافظ عليهم كل ما يعملونه من الكفر والمعاصي ، وفي أوله اتخاذهم الأولياء ، يعبدونهم من دون الله .

وفي الآية تهديد عظيم لكل مشرك .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ .

أي لست يا محمد ، بموكل عليهم تهدي من شئت هدايته منهم ، بل إنما أنت نذير فحسب ، وقد بلغت ونصحت .

(171/685)

والوكيل عليهم هو الله الذي يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ والله على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل ﴾ [هود : 12] . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَجْعَلُ الرجس عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 99100] وقال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن استطعت أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأرض أَوْ سُلَّماً فِي السمآء فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَآءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ [الأنعام : 35] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ ، وما جرى مجراه من الآيات ليس منسوخاً بآية السيف والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 194195] ، وفي الزمر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر : 28] وفي غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ .

خص الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة إنذاره ، صلى الله عليه وسلم بأم القرى ومن حولها ، والمراد بأم القرى مكة حرسها الله .

ولكنه أوضح في آيات أخر أن إنذاره عام لجميع الثقلين كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 158] وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : 28] الآية . كما أوضحنا ذلك مراراً في هذا الكتاب المبارك .

وقد ذكرنا الجواب عن تخصيص أم القرى ومن حولها هنا وفي سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الأنعام : 92] الآية ، في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، فقلنا فيه : والجواب من وجهين .

الأول : أن المراد بقوله : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : 92] شامل لجميع الأرض ، كما رواه ابن جرير وغيره ، عن ابن عباس .

الوجه الثاني : أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً ، أن قوله ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : 92] لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة حرسها الله ، كجزيرة العرب مثلاً ، فإن الآيات الأخر ، نصت على العموم كقوله ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] وذكر بعض أفراد العام بحكم العام ، لا يخصصه عند عامة العلماء ، ولم يخالف فيه إلا أبو ثور .

وقد قدمنا ذلك واضحاً بأدلته في سورة المائدة ، فالآية على هذا القول كقوله ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] فإنه لا يدل على عدم إنذار غيرهم ، كما هو واضح . والعلم عند الله تعالى اه منه .

قوله تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع لاَ رَيْبَ فِيه ﴾ .

تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين :

(173/685)

أحدهما : أن من حكم إيحائه تعالى ، إلى نبينا صلى الله عليه وسلم هذا القرآن العربي ، إنذار يوم الجمع ، فقوله تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ معطوف على قوله : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ أي لا بد أن تنذر أم القرى وأن تنذر يوم الجمع فحذف في الأول ، أحد المفعولين وحذف في الثاني أحدهما ، فكان ما أثبت في كل منهما ، دليلاً على ما حذف في الثاني ، ففي الأول حذف المفعول الثاني ، والتقدير " لتنذر أم القرى " أي أهل مكة ومن حولها ، عذاباً شديداً إن لم يؤمنوا ، وفي الثاني حذف المفعول الأول ، أي وتنذر الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة أي تخوفهم مما فيه من الأهوال ، والأوجال ليستعدوا لذلك في دار الدنيا .

والثاني : أن يوم الجمع المذكور لا ريب فيه ، أي لا شك في وقوعه ، وهذان الأمران اللذان

تضمنتهما هذه الآية الكريمة ، جاءا موضحين في آيات أخر .

أما تخويفه الناس يوم القيامة ، فقد ذكر في مواضع من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ [البقرة : 281] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾ [غافر : 18] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 1718] : وقوله تعالى : ﴿ أَلا يَظُنُّ أولئك أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ [المطففين : 46] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

(174/685)

وأما الثاني منهما : وهو كون يوم القيامة لا ريب فيه فقد جاء في مواضع أخر كقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء : 87] وقوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران : 25] وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الحج : 7] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله حَقٌّ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا الساعة ﴾ [الجاثية : 32] الاية . إلى غير ذلك من الآيات .

وإنما سمي يوم القيامة يوم الجمع ، لأن الله يجمع فيه جميع الخلائق . والآيات الموضحة لهذا

المعنى ، كثيرة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : 4950] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمُ الفصل جَمَعْنَاكُمْ والأولين ﴾ [المرسلات : 38] . وقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ [النساء : 87] الآية . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ [التغابن : 9] وقوله تعالى : ﴿ ذلك لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : 25] وقوله تعالى : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 47] .

(175/685)

وقد بين تعالى شمول ذلك الجمع لجميع الدواب والطير في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : 38] ، والآيات الدالة على الجمع المذكورة كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ .

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله خلق الخلق ، وجعل منهم فريقاً سعداء ، وهم

أهل الجنة ، وفريقاً أشقياء وهم أصحاب السعير ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : 2] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : 118119] أي ولذلك الاختلاف ، إلى المؤمن وكافر وشقي وسعيد ، خلقهم على الصحيح ، ونصوص الوحي الدالة على ذلك كثيرة جداً .

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وجه الجمع بين قوله : ﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ على التفسير المذكور ، وبين قوله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ، وسنذكر ذلك إن شاء الله في سورة الذاريات .

وقد قدمنا معنى السعير بشواهده العربية في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ﴾ [الحج : 4] ، والجنة في لغة العرب البستان .

ومنه قوله زهير بن أبي سلمى :

كأن عيني في غربي مقتلة . . . من النواضح تسقي جنة سحقا

فقوله : جنة سحقا ، يعني بستاناً طويل النخل ، وفي اصطلاح الشرع هي دار الكرامة التي أعد الله لأوليائه يوم القيامة .

والفريق : الطائفة من الناس ، ويجوز تعدده إلى أكثر من اثنين ، ومنه قول نصيب :

فقال فريق القوم لا ، وفريقهم . . . نعم وفريق قال ويحك ما ندري

والمسوغ للابتداء بالنكرة في قوله : فريق في الجنة ، أنه في معرض التفصيل .

ونظيره من كلام العرب قول امرئ القيس :

فلما دنوت تسديتها . . . فثوب نسيت وثوب أجر

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ .

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلى الله وحده ، لا إلى غيره ، جاء موضحاً في آيات كثيرة .

فالإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته قال في حكمه ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 26] ، وفي قراءة ابن عامر من السبعة ﴿ ولا تشرك في حكمه أحداً ﴾ بصيغة النهي .

وقال في الإشراك به في عبادته : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ [الكهف : 110] ، فالأمران سواء كما ترى إيضاحه إن شاء الله .

وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحله الله ، والحرام هو ما حرمه الله ، والدين هو ما شرعه الله

، فكل تشريع من غيره باطل ، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه ، كفر بواح لا نزاع فيه .

(177/685)

وقد دل القرآن في آيات كثيرة ، على أنه لا حكم لغير الله ، وأن اتباع تشريع غيره كفر به ، فمن الآيات الدالة على أن الحكم لله وحده قوله تعالى ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : 40] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يوسف : 67] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ يَقُصُّ الحق وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ [الأنعام : 57] وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة : 44] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 26] ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 88] ، وقوله تعالى ﴿ لَهُ الحمد فِي الأولى والآخرة وَلَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 70] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد قدمنا إيضاحها في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 26] .

وأما الآيات الدالة على أن اتباع تشريع غير الله المذكور كفر فهي كثيرة جداً ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 100] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ﴾ [يس : 60] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً ، كما تقدم إيضاحه في الكهف .

مسألة

اعلم أن الله جل وعلا بين في آياته كثيرة ، صفات من يستحق أن يكون الحكم له ، فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة ، التي سنوضحها الآن إن شاء الله ، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية ، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع .

(178/685)

سبحان الله وتعالى عن ذلك .

فإن كانت تنطبق عليهم ولن تكون ، فليتبع تشريعهم .

وإن ظهر يقيناً أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك ، فليقف بهم عند حدهم ، ولا يجاوزه بهم إلى مقام الربوبية .

سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في عبادته ، أو حكمه أو ملكه .

فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع قوله هنا : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ ، ثم قال مبيناً صفات من له الحكم ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ذَلِكُمُ الله رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطِرُ السماوات والأرض جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأنعام أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير لَهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى : 10 - 12] .

فهل فى الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية ، من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور ، ويتوكل عليه ، وأنه فاطر السماوات والأرض أي خالقهما ومخترعهما ، على غير مثال سابق ، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجاً ، وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين ﴾ [الأنعام : 143] الآية ، وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ وأنه ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ ، وأنه هو الذي ﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يضيقه على من يشاء وهو ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع ويحلل ويحرم ، ولا تقبلوا تشريعاً من كافر خسيس حقير جاهل .

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرسول إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : 59] فقوله فيها : ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ ﴾ كقوله في هذه ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ﴾ .

وقد عجب نبيه صلى الله عليه وسلم بعد قوله : ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ ﴾ من الذين يدعون الإيمان مع أنهم يريدون المحاكمة ، إلى من لم يتصف بصفات من له الحكم ، المعبر عنه في الآيات بالطاغوت ، وكل تحاكم إلى غير شرع الله فهو تحاكم إلى الطاغوت ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يتحاكموا إِلَى الطاغوت وَقَدْ أمروا أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشيطان أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [النساء : 60] .

فالكفر بالطاغوت ، الذي صرح الله بأنه أمرهم به في هذه الآية ، شرط في الإيمان كما بينه تعالى في قوله : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطاغوت وَيُؤْمِن بالله فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ [البقرة : 256] .

فيفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت لم يتمسك بالعروة الوثقى ، ومن لم يستمسك بها فهو مترد

مع الهالكين .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 26] .

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأن له غيب السماوات والأرض ؟

وأن يبالغ في سمعه وبصره لإحاطة سمعه بكل المسموعات وبصره بكل المبصرات ؟

وأنه ليس لأحد دونه من ولي ؟

سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ؟

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى :

(180/685)

﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ لاَ إله إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 88] .

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأنه الإله الواحد ؟ وأن كل شيء هالك إلا وجهه ؟ وأن الخلائق يرجعون إليه ؟

تبارك ربنا وتعاظم وتقدس أن يوصف أخس خلقه بصفاته .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ فالحكم للَّهِ العلي الكبير ﴾ [غافر : 12]

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين النظم الشيطانية ، من يستحق أن يوصف في أعظم كتاب سماوي ، بأنه العلي الكبير ؟

سبحانك ربنا وتعاليت عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللهُ لا إله إِلاَّ هُوَ لَهُ الحمد فِي الأولى والآخرة وَلَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 70] ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : 70 - 73] .

فهل في مشرعي القوانين الوضعية ، من يستحق أن يوصف بأن له الحمد في الأولى والآخرة ، وأنه هو الذي يصرف الليل والنهار مبيناً بذلك كمال قدرته ، وعظمة إنعامه على خلقه .

سبحان خالق السماوات والأرض ، جل وعلا أن يكون له شريك في حكمه أو عبادته ، أو ملكه .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلك الدين القيم ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 40] .

فهل في أولئك من يستحق أن يوصف بأنه هو الإله المعبود وحده ، وأن عبادته وحده هي الدين القيم ؟

سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ [يوسف : 67] .

فهل فيهم من يستحق أن يتوكل عليه ، وتفوض الأمور إليه ؟

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ الله وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ واحذرهم أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ الله إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فاعلم أَنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : 49 - 50] .

فهل في أولئك المشرعين من يستحق أن يوصف بأن حكمه بما أنزل الله وأنه مخالف لاتباع الهوى ؟ وأن من تولى عنه أصابه الله ببعض ذنوبه ؟ لأن الذنوب لا يؤاخذ بجميعها إلا في الآخرة ؟ وأنه لا حكم أحسن من حكمه لقوم يوقنون ؟

سبحان ربنا وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ يَقُصُّ الحق وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ [الأنعام : 57] .

فهل فيهم من يستحق أن يوصف بأنه يقص الحق ، وأنه خير الفاصلين ؟

ومنها قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الذي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب مُفَصَّلاً والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : 114 - 115] الآية .

(182/685)

فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي أنزل هذا الكتاب مفصلاً ، الذي يشهد أهل الكتاب أنه منزل من ربك بالحق ، وبأنه تمت كلماته صدقاً وعدلاً أي صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام ، وأنه لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ؟

سبحان ربنا ما أعظمه وما أجل شأنه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] .

فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي ينزل الرزق للخلائق ، وأنه لا يمكن أن يكون تحليل ولا تحريم إلا بإذنه ؟ لأن من الضروري أن من خلق الرزق وأنزله هو الذي له التصرف فيه بالتحليل والتحريم ؟

سبحانه جل وعلا أن يكون له شريك في التحليل والتحريم .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ فأولئك هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة : 44] .

فهل فيهم من يستحق الوصف بذلك ؟

سبحان ربنا وتعالى عن ذلك .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ على الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : 116 - 117] .

فقد أوضحت الآية أن المشرعين غير ما شرعه الله إنما تصف ألسنتهم الكذب ، لأجل أن يفتروه على الله ، وأنهم لا يفلحون وأنهم يمتعون قليلاً ثم يعذبون العذاب الأليم ، وذلك واضح في بعد صفاتهم من صفات من له أن يحلل ويحرم .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الذين يَشْهَدُونَ أَنَّ الله حَرَّمَ هذا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنعام : 150] الآية .

فقوله : ﴿ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ﴾ صيغة تعجيز ، فهم عاجزون عن بيان مستند التحريم . وذلك واضح في أن غير الله لا يتصف بصفات التحليل ولا التحريم . ولما كان التشريع وجميع الأحكام ، شرعية كانت أو كونية قدرية ، من خصائص الربوبية . كما دلت عليه الآيات المذكورة كان كل من اتبع تشريعاً غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع ربا ، وأشركه مع الله .

والآيات الدالة على هذا كثيرة ، وقد قدمناها مراراً وسنعيد ما فيه كفاية ، فمن ذلك وهو من أوضحه وأصرحه ، أنه في زمن النبى صلى الله عليه وسلم وقعت مناظرة بين حزب الرحمن ، وحزب الشيطان ، في حكم من أحكام التحريم والتحليل وحزب الرحمن يتبعون تشريع الرحمن ، في وحيه في تحريمه ، وحزب الشيطان يتبعون وحي الشيطان في تحليله . وقد حكم الله بينهما وأفتى فيما تنازعوا فيه فتوى سماوية قرآنية تتلى في سورة الأنعام . وذلك أن الشيطان لما أوحى إلى أوليائه فقال لهم في وحيه : سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها ؟ فأجابوهم أن الله هو الذي قتلها .

فقالوا : الميتة إذاً ذبيحة الله ، وما ذبحه الله كيف تقولون إنه حرام ؟ مع أنكم تقولون إنما ذبحتموه بأيديكم حلال ، فأنتم إذا أحسن من الله وأحل ذبيحة .

(184/685)

فأنزل الله بإجماع من يعتد به من أهل العلم قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 121] يعني الميتة أي وإن زعم الكفار أن الله ذكاها بيده الكريمة بسكين من ذهب : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام : 121] والضمير عائد إلى الأكل المفهوم من قوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا ﴾ وقوله : ﴿ لَفِسْقٌ ﴾ أي خروج عن طاعة الله ، واتباع لتشريع الشيطان : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : 121] . أي بقولهم : ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام ، فأنتم إذاً أحسن من الله ، وأحل تذكية ، ثم بين الفتوى السماوية من رب العالمين ، في الحكم بين الفريقين في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] فهي فتوى سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله .

وهذه الآية الكريمة مثل بها بعض علماء العربية لحذف اللام الموطئة للقسم ، والدليل على اللام الموطئة المحذوفة عدم اقتران جملة إنكم لمشركون بالفاء ، لأنه لو كان شرطاً لم يسبقه

قسم لقيل : فإنكم لمشركون على حد قوله في الخلاصة :

واقرن بفا حتما جوابا لو جعل . . . شرطا لإن أو غيرها لم ينجعل

وهو مذهب سيبويه ، وهو الصحيح ، وحذف الفاء في مثل ذلك من ضرورة الشعر .

وما زعمه بعضهم من أنه يجوز مطلقاً ، وأن ذلك دلت عليه آيتان من كتاب الله .

إحداهما قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] .

والثانية قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] بحذف الفاء في قراءة نافع وابن عامر من السبعة خلاف التحقيق .

(185/685)

بل المسوغ لحذف الفاء في آية : ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ تقدير القسم المحذوف قبل الشرط المدلول عليه بحذف الفاء على حد قوله في الخلاصة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم . . . جواب ما أخرت فهو ملتزم

وعليه : فجملة إنكم لمشركون جواب القسم المقدر ، وجواب الشرط محذوف فلا دليل في الآية لحذف الفاء المذكور .

والمسوغ له في آية ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] أن ما في قراءة نافع وابن

عامر موصولة كما جزم به غير واحد من المحققين ، أي والذي أصابكم من مصيبة كائن وواقع بسبب ما كسبت أيديكم .

وأما على قراءة الجمهور : فما موصولة أيضاً ، ودخول الفاء في خبر الموصول جائز كما أن عدمه جائز فكلتا القراءتين جارية على أمر جائز .

ومثال دخول الفاء في خبر الموصول قوله تعالى : ﴿ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بالليل والنهار سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 274] وهو كثير في القرآن وقال بعضهم : إن ما في قراءة الجمهور شرطية ، وعليه فاقتران الجزاء بالفاء واجب أما على قراءة نافع وابن عامر ، فهي موصولة ليس إلا كما هو التحقيق إن شاء الله .

وكون ما شرطية على قراءة وموصولة على قراءة لا إشكال فيه . لما قدمنا من أن القراءتين في الآية الواحدة كالآيتين .

ومن الآيات الدالة على نحو ما دلت عليه آية الأنعام المذكورة قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 100] ، فصرح بتوليهم للشيطان أي باتباع ما يزين لهم من الكفر والمعاصي مخالفاً لما جاءت به الرسل ، ثم صرح بأن ذلك إشراك به في قوله تعالى : ﴿ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 100] وصرح أن الطاعة في ذلك الذي يشرعه الشيطان لهم ويزينه عبادة للشيطان .

ومعلوم أن من عبد الشيطان فقد أشرك بالرحمن قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعبدوني هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [يس : 60 – 62] ، ويدخل فيهم متبعوا نظام الشيطان دخولاً أولياً ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس : 62] .

ثم بين المصير الأخير لمن كان يعبد الشيطان في دار الدنيا ، في قوله تعالى : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ اصلوها اليوم بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : 63 – 65] وقال تعالى : عن نبيه إبراهيم ﴿ ياأبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ [مريم : 44] فقوله : لا تعبد الشيطان : أي باتباع ما يشرعه من الكفر والمعاصي ، مخالفاً لما شرعه الله .

وقال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً ﴾ [النساء : 117] فقوله : ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً ﴾ يعني ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : 40 –

41].

فقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي يتبعون الشياطين ويطيعونهم فيما يشرعون ويزينون لهم ، من الكفر والمعاصي على أصح التفسيرين .

(187/685)

والشيطان عالم بأن طاعتهم له المذكورة إشراك به كما صرح بذلك وتبرأ منهم في الآخرة ، كما نص الله عليه في سورة إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] إلى قوله ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم : 22] فقد اعترف بأنهم كانوا مشركين به من قبل أي في دار الدنيا ، ولم يكفر بشركهم ذلك إلا يوم القيامة .

وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى الذي بينا في الحديث لما سأله عدي بن حاتم رضي الله عنه عن قوله :

﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً ﴾ [التوبة : 31] كيف اتخذوهم أرباباً ؟ وأجابه صلى الله عليه وسلم " أنهم أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم ، وبذلك الاتباع اتخذوهم أرباباً " .

ومن أصرح الأدلة في هذا أن الكفار إذا أحلوا شيئاً ، يعلمون أن الله حرمه وحرموا شيئاً يعلمون أن الله أحله ، فإنهم يزدادون كفراً جديداً بذلك ، مع كفرهم الأول ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النسيء زِيَادَةٌ فِي الكفر ﴾ [التوبة : 37] إلى قوله : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 264] .

وعلى كل حال فلا شك أن كل من أطاع غير الله ، في تشريع مخالف لما شرعه الله ، فقد أشرك به مع الله كما يدل لذلك قوله : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام : 137] فسماهم شركاء لما أطاعوهم في قتل الأولاد .

(188/685)

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ [الشورى : 21] فقد سمى تعالى الذين يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء ، ومما يزيد ذلك إيضاحاً ، أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة ، من أنه يقول للذين كانوا يشركون به في دار الدنيا ، إني كفرت بما أشركتمون من قبل ، أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه شيء زائد على أنه دعاهم إلى طاعته فاستجابوا له كما صرح بذلك في قوله تعالى عنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [إبراهيم : 22] الآية ، وهو واضح

كما ترى.

قوله تعالى: ﴿ فَاطِرُ السماوات والأرض جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأنعام أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَاطِرُ السماوات والأرض ﴾ تقدم تفسيره في أول سورة فاطر.

وقوله: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾.

(189/685)

أي خلق لكم أزواجاً من أنفسكم كما قدمنا الكلام عليه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: 72] وبينا أن المراد بالأزواج الإناث كما يوضحه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: 21] الآية. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ [النجم: 45 - 46] وقوله: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة: 39] وقوله تعالى: ﴿ والليل إِذَا يغشى والنهار إِذَا تجلى وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ [الليل: 1 - 3] الآية. وقوله في آدم: ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ

وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : 1] الآية . وقوله تعالى فيه أيضاً : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : 189] الآية . وقوله تعالى فيه أيضاً : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر : 6] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأنعام أَزْوَاجا ﴾ هي الثمانية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين ﴾ [الأنعام : 143] الآية . وفي قوله : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : 6] وهي ذكور الضأن والمعز والإبل والبقر وإناثها ، كما قدمنا إيضاحه في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى : ﴿ والأنعام والحرث ﴾ [آل عمران : 14] .

(190/685)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ الظاهر أن ضمير الخطاب في قوله ﴿ يذرؤكم ﴾ شامل للآدميين والأنعام ، وتغليب الآدميين على الأنعام في ضمير المخاطبين في قوله : يذرؤكم واضح لا إشكال فيه .

والتحقيق إن شاء الله أن الضمير في قوله : " فيه " راجع إلى ما ذكر من الذكور والإناث ، من بني آدم والأنعام في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأنعام أَزْوَاجا ﴾ [

الشورى : 11] سواء قلنا إن المعنى : أنه جعل للآدميين إناثاً من أنفسهم أي من جنسهم ، وجعل للأنعام أيضاً إناثاً كذلك ، أو قلنا إن المراد بالأزواج الذكور والإناث منهما معاً .

وإذا كان ذلك كذلك ، فمعنى الآية الكريمة يذرؤكم أي يخلقكم ويبثكم وينشركم فيه ، أي فيما ذكر من الذكور والإناث ، أي في ضمنه ، عن طريق التناسل كما هو معروف .

ويوضح ذلك في قوله تعالى : ﴿ اتقوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ﴾ [النساء : 1] فقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ﴾ يوضح معنى قوله : ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيه ﴾ .

فإن قيل : ما وجه إفراد الضمير المجرور في قوله يذرؤكم فيه ، مع أنه على ما ذكرتم ، عائد إلى الذكور والإناث من الآدميين والأنعام ؟

فالجواب : أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن ، رجوع الضمير أو الإشارة بصيغة الإفراد إلى مثنى أو مجموع باعتبار ما ذكر مثلاً .

ومثاله في الضمير : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ مَّنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ [الأنعام : 46] الآية ، فالضمير في قوله : به مفرد مع أنه راجع إلى السمع والأبصار والقلوب .

فقوله : ﴿ يأتيكم به ﴾ أي بما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم ، ومن هذا المعنى قول رؤبة بن العجاج :

فيها خطوط من سواد وبلق . . . كأن في الجلد توليع البهق

فقوله : كأنه أي ما ذكر من خطوط من سواد وبلق .

ومثاله في الإشارة ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ ﴾ [البقرة : 68] أي بين ذلك المذكور ، من فارض وبكر ، وقول عبد الله بن الزبعري السهمي :

إن للخير وللشر مدى . . . وكلا ذلك وجه وقبل

أي كلا ذلك المذكور من الخير والشر .

وقول من قال ، إن الضمير في قوله فيه راجع إلى الرحم ، وقول من قال راجع إلى البطن ، ومن قال راجع إلى الجعل المفهوم من جعل وقول من قال : راجع إلى التدبير ، ونحو ذلك من الأقوال خلاف الصواب .

والتحقيق إن شاء الله هو ما ذكرنا والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ .

وقد قدمنا الكلام عليه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ [الأعراف : 54] .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِر ﴾ .

مقاليد السموات والأرض هي مفاتيحهما .

وهو جمع لا واحد له من لفظه ، فمفردها إقليد ، وجمعها مقاليد على غير قياس .

والإقليد المفتاح . وقيل : واحدها مقليد ، وهو قول غير معروف في اللغة .

وكونه جل وعلا ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ أي مفاتيحهما كناية عن كونه جل وعلا هو وحده المالك لخزائن السماوات والأرض لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها .

وقد ذكر جل وعلا مثل هذا في سورة الزمر في قوله تعالى : ﴿ 1649 ;للَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ [الزمر : 62 - 63] الآية .

(192/685)

وما دلت عليه آية الشورى هذه وآية الزمر المذكورتان من أنه جل وعلا هو مالك خزائن السماوات والأرض ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : 7] وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] .

وبين في مواضع أخر أن خزائن رحمته لا يمكن أن تكون لغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العزيز الوهاب ﴾ [ص : 9] وقوله تعالى ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المسيطرون ﴾ [الطور : 37] وقوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق وَكَانَ الإنسان قَتُورا ﴾ [الإسراء : 100] .

(193/685)

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِر ﴾ جاء معناه موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ [سبأ : 39] الآية . وقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : 36] وقوله تعالى ﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بالحياة الدنيا ﴾ [الرعد : 26] الآية . وقوله تعالى : ﴿ والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرزق ﴾ [النحل : 71] الآية . وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [الزخرف : 32] الآية . وقوله تعالى ﴿ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فالله أولى بِهِمَا ﴾ [النساء : 135] الآية . وقوله تعالى ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ الله ﴾ [الطلاق : 7] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُه

﴾ أي ضيق عليه رزقه لقلته . وكذلك قوله ﴿ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِر ﴾ في الآيات المذكورة .

أي يبسط الرزق لمن يشاء بسطه له ويقدر ، أي يضيق الرزق على من يشاء تضييقه عليه كما أوضحناه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْه ﴾ [الأنبياء : 87] .

وقد بين جل وعلا في بعض الآيات حكمة تضييقه للرزق على من ضيقه عليه .

وذكر أن من حكم ذلك أن بسط الرزق للإنسان ، قد يحمله على البغي والطغيان كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : 27] ، وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 – 7] .

(194/685)

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ

النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾

الضمير في قوله : راجع إلى الدين في قوله : أن أقيموا الدين .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن الافتراق في الدين ، جاء مبيناً في غير هذا الموضع ، وقد بين تعالى أنه وصى خلقه بذلك ، فمن الآيات الدالة على ذلك ، قوله تعالى ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران : 103] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلَا تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : 153] وقد بين تعالى في بعض المواضع أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهي ، وعددهم على ذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : 159] لأن قوله ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ إلى قوله ﴿ يَفْعَلُونَ ﴾ فيه تهديد عظيم لهم .

وقوله تعالى في سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] ﴿ وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاتقون فتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ ﴾ [المؤمنون : 52 - 54] .

فقوله ﴿ وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي إن هذه شريعتكم شريعة واحدة ودينكم دين واحد ، وربكم واحد فلا تتفرقوا في الدين .

وقوله جل وعلا : ﴿ فتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً ﴾ دليل على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ ﴾ فيه تهديد لهم ووعيد عظيم على ذلك . ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاعبدون وتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 92 – 93] فقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُون ﴾ فيه ايضاً تهديد لهم ووعيد على ذلك وقد أوضحنا تفسير هذه الآيات في آخر سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الإنبياء : 92] الآية .

وقد جاء في الحديث المشهور " افتراق اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافتراق النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة ، وافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، وأن الناجية منها واحدة ، وهي التي كانت على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه " .

قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ .

بين جل وعلا أنه كبر على المشركين أي شق عليهم وعظم ما يدعوهم إليه صلى الله عليه وسلم من عبادة الله تعالى وحده ، وطاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه ، ولعظم ذلك ومشقته عليهم ، كانوا يكرهون ما أنزل الله ويجتهدون في عدم سماعه لشدة كراهتهم له ، بل يكادون يبطشون بمن يتلو عليهم آيات ربهم لشدة بغضهم وكراهتهم لها .

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة في كتاب الله ، وفيها بيان أن ذلك هو عادة الكافرين مع جميع الرسل من عهد نوح إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم .

(196/685)

فقد بين تعالى مشقة ذلك على قوم نوح وكبره عليهم في مواضع من كتابه كقوله تعالى : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يا قوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : 71] الآية . وقوله تعالى عن نوح ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ واستكبروا استكبارا ﴾ [نوح : 7] .

فقوله تعالى ﴿ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهتهم لما يدعوهم إليه نوح ، فهو واضح في أنهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه

من توحيد الله والإيمان به .

وقد بين الله تعالى مثل ذلك في الكفار الذين كذبوا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم في آيات من كتابه كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [الحج : 72] فقوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر ﴾ الآية . يدل دلالة واضحة ، على شدة بغضهم وكراهيتهم لسماع تلك الآيات .

(197/685)

وكقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] الآية . وقوله تعالى في الزخرف . ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بالحق ولكن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف : 78] ، وقوله تعالى في قد أفلح المؤمنون ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُمْ بالحق وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنون : 70] وقوله تعالى في القتال ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَا أَنزَلَ الله فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 9] ، وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ الله تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية

: 6 – 8] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : 7] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : 5] الآية . والآيات بمثل ذلك كثيرة .

(198/685)

واعلم أن هؤلاء الذين يكرهون ما أنزل الله ، يجب على كل مسلم أن يحذر كل الحذر من أن يطيعهم في بعض أمرهم ، لأن ذلك يستلزم نتائج سيئة متناهية في السوء ، كما أوضح تعالى ذلك في قوله : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الذين ارتدوا على أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ وأملى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَآ أَسْخَطَ الله وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 24 – 28] فعلى كل مسلم أن يحذر ثم يحذر ثم يحذر كل الحذر ، من أن يقول للذين كفروا ، الذين يكرهون ما أنزل الله سنطيعكم في بعض الأمر ، لأن ذلك يسبب له ما ذكره الله في الآيات المذكورة ، ويكفيه زجراً وردعاً عن ذلك قول ربه

تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُم ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 27] إلى قوله ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 28].

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يجتبي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ويهدي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ .

الاجتباء في اللغة العربية معناه الاختيار والاصطفاء .

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبى من خلقه من يشاء اجتباءه .

(199/685)

وقد بين في مواضع أخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه ، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وافعلوا الخير ﴾ [الحج : 77] إلى قوله : ﴿ هُوَ اجتباكم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر : 32] الآية .

وبين في موضع آخر أن منهم آدم وهو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ﴾ [طه : 122] . وذكر أن منهم إبراهيم في قوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل :

120] إلى قوله ﴿ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجتباه ﴾ [النحل : 121] الآية . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين .

وقوله تعالى : ﴿ ويهدي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي من سبق في علمه أنه ينيب إلى الله أي يرجع إلى ما يرضيه ، من الإيمان والطاعة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الرعد ﴿ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ويهدي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : 27] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(200/685)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾

هو معطوف على قوله تعالى : « وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . . الذي هو من صفات الله سبحانه وتعالى ، الذي يحيى الموتى ، ويقدر على كل شيء ، وإليه مردّ الحكم فيما اختلفتم فيه . . فهو سبحانه الذي يقضى فى هذا الاختلاف الذي خرجتم به أيها الظالمون عن دعوة الحقّ ، وعن طريق الإيمان .

وقوله تعالى : « ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » . . أي قل لهم أيها النبي : ذلكم

المتصف بتلك الصفات ، هو ربى الذي آمنت به ، والذي أدعوكم إليه ، الذي عليه توكلت ، فجعلت ولائى له ، ومعتمدى عليه ، والذي إليه أرجع فى كلّ أمورى ، وأتوب إليه من كل ذنب .

قوله تعالى : « فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

هو من عطف البيان على قوله تعالى : « ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي » . . أي ربى الذي عليه توكلت وإليه أنيب ، هو « فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ » ، أي خالقهما ، وموجدهما ابتداء ، على غير مثال سبق . . ومنه الفطرة ، وهى أصل الخلقة .

ويمكن أن يكون هذا وما بعده من قول الرسول الكريم ، استكمالا لقوله : « ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » . . ويمكن أن يكون من كلام اللّه سبحانه وتعالى ، تعقيبا على إقرار الرسول بوحدانية ربّه ، وتوكّله عليه . . أي أن هذا الرّبّ الذي اتّخذه الرسول ربّا له ، وتوكّل عليه ، وأناب إليه ـ هو فاطر السماوات والأرض .

وقوله تعالى : « جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً » أي هذا الربّ الذي خلق السموات والأرض ، هو الذي خلقكم ، وهو الذي « جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً » أي جعل لكم من جنسكم ، ومن طبيعتكم أزواجا

لتسكنوا إليها ، وتألفوا الحياة معها ، كما أنه سبحانه قد جعل لكم من الأنعام أزواجا ، ذكرا وأنثى لتتوالد ، وتتكاثر ، وتنتشر بينكم ، وتتسع لحاجتكم منها ، ركوبا ، وحملا ، وطعاما .

وقوله تعالى : « يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ » .

الذّرء : إظهار عوالم المخلوقات ، التي كانت مكنونة فى علم اللّه سبحانه وتعالى . ومنه الدّرأة ، وهى بياض الشيب ، لأنه ظهر بعد خفاء .

ومعنى الآية الكريمة ، أن اللّه سبحانه بهذا التزاوج بين الرجل والمرأة ، كثّر نسل الإنسان ، وأظهر به ما قدّر من مخلوقات بشرية ، من أصلاب الآباء ، وأرحام الأمهات .

والضمير فى « فِيهِ » يعود إلى مصدر مفهوم من قوله تعالى : « أَزْواجاً » أي تزاوجا بين الذكر والأنثى ، فى عالم الأحياء ، من إنسان وحيوان . . فكأن هذا التزاوج هو الظرف ، أو الوعاء الذي تتشكل فيه عوالم الأحياء ، أي يكثّركم فى هذا التزاوج . .

وقوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

هو مبالغة فى نفى المثلية عن اللّه سبحانه وتعالى ، وذلك ينفى المثلية عن مثله . تعالى اللّه سبحانه أن يكون له مثل . . فإذا انتفت المثلية عن المثل ، وهذا المثل . أيا كان . لا يساوى من يماثله . فإن انتفاءها عن الأصل الذي يقاس عليه المثل . أولى . بمعنى أنه ليس كمثل مثل

اللّه شيء في هذا الوجود ، فما بالك بمن يطلب ليكون مثل اللّه ذاته ؟ ذلك مستحيل بعد مستحيل . .

قوله تعالى : « لَهُ مَقَالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

(202/685)

المقاليد : جمع مقلد ، وهو ما يحيط بالشيء ، ومنه القلادة ، لأنها تحيط بالعنق .

أي أن اللّه سبحانه وتعالى ، له السلطان القائم على السموات والأرض ، وبيده سبحانه تصريفهما ، لا يملك أحد معه من الأمر شيئا .

قوله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا

(203/685)

أي ومن نعم اللّه سبحانه وتعالى ، الذي خلقكم وجعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من الأنعام أزواجا . أنه شرع لكم دينا هو دينه الذي ارتضاه ، وهو الدين الذي وصّى به

نوحا ، وهو الذي جاءكم به نبيكم محمّد ، وحيا من ربه ، وهو ما وصى به اللّه سبحانه الأنبياء ، إبراهيم وموسى ، وعيسى ، عليهم السلام .

وقوله تعالى : « أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » هو بيان لما وصى اللّه سبحانه به أنبياءه عليهم السلام ، وهو أن يقيموا الدين ، وأن يبلّغوه أقوامهم ، وأن يكونوا جميعا على هذا الدين ، دين اللّه الذي ارتضاه لهم جميعا ، وألّا يتفرقوا فيه ، فيكون لكل نبى ، ولكل قوم دين . .

إن دين اللّه واحد ، هو الإسلام ، كما يقول سبحانه : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ » (19 : آل عمران) وكما يقول سبحانه : « وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » (153 : الأنعام) . . وكما يقول جل شأنه فيما أخذه من ميثاق على الأنبياء جميعا : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » . (81 : آل عمران) وكما يقول النبي الكريم : « الأنبياء أبناء علّات ، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد » .

وهذه الوصاة للأنبياء ، هى وصاة ملزمة لأقوامهم باتباع دين اللّه هذا ، وهو الإسلام الذي كمل به الدّين ، والذي أدركوه وبين أيديهم بعض منه . .

ومطلوب من أهل الكتاب - اليهود والنصارى - أن يؤمنوا بهذا الدين كلّه ، وألا يتفرقوا فيه ، فيذهب كل فريق ببعض منه ، فيكون لكل جماعة دين من دين اللّه الواحد .

وهنا سؤال ، وهو : لماذا اختلف النظم فى هذا المقطع من الآية الكريمة ، فلم يجر على نسق واحد ؟ فقال تعالى : « ما وَصَّى بِهِ نُوحاً » ثم قال سبحانه :

« وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى » ولم يجىء النظم هكذا : « وما وصّيناك به » بل جاء هكذا : « وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ » . .

فما سر هذا ؟

الجواب : ـ والله أعلم ـ من وجوه : فأولا أن ما أوحى الله به سبحانه وتعالى إلى النبي من آياته وكلماته ، لم يكن مجرّد وصاة . . بل إنه يحمل مع هذه الوصاة المعجزة التي تدلّ على أنه كلام الله ، على حين أن ما كان يوحى إلى الأنبياء من وصايا لم يكن كلاما يحمل فى طياته معجزة متحدية . . وهذا هو بعض السر فى كلمة « أَوْحَيْنا » المقابلة لكلمة « وَصَّيْنا » . . إذ أن الوحى فيه إشارات ، ولطائف ، لا تنكشف إلا لذوى البصائر والأفهام ، على خلاف الوصاة فإنها تجىء صريحة واضحة الدّلالة ، تعطى كلماتها كلّ ما فيها مرة واحدة .

وثانيا : أن هذا الوحى يحتاج إلى عقل بتدبّر هذه الكلمات الموحى بها ، وهذا يعنى أن المبلّغ إليهم هذا الوحى ، ينبغى أن يتدبروه ويعقلوه ، وأن يستخلصوا منه مواقع العبر

والعظات ، وأن يأخذوا منه الأدلة والبراهين على ما يدعوهم إليه من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والتصديق برسوله ، وملائكته وكتبه ورسله . .

وهذا يعنى - من جهة أخرى - أن المبلّغين برسالات الرسل السابقين لم يكونوا مطالبين باستخلاص الدليل والبرهان على صدق الرسول ، وعلى صدق ما جاءهم به من وصايا ، إذ كان مع الرسول آية صدقه التي بين يديه من المعجزة أو المعجزات المادية ، التي يمكّن الله سبحانه وتعالى له منها . .

(205/685)

وثالثا : فى الوحى بالشيء رفق ولطف بالموحى إليه ، ومخاطبته بالإشارة دون العبارة . .

وهذا يعنى أن الذين يخاطبون بهذا الوحى هم فى درجة من الفطنة والذكاء وكمال العقل ، بحيث لا يؤخذون بالزجر والقهر ، وإنما يقادون بالحكمة ، والمنطق ، وهذا ما يتفق والرسالة الإسلامية ، التي كمل بها دين الله ، والتي من شأنها أن تلتقى بأوفر الناس حظّا من الكمال الإنسانى . .

وسؤال آخر . .

وهو : لما ذا لم يجىء ذكر الأنبياء على نسق فى الترتيب الزمنى ، فجاء ذكر رسول الله

صلى اللّه عليه وسلم ، بعد نوح ، وقبل إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؟ . .

ثم لماذا وقد سبق ذكره ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ إبراهيم وموسى وعيسى ـ لما ذا لم يسبق نوحا أيضا ؟

والجواب ـ واللّه أعلم ـ من وجوه كذلك :

فأولا : قدّم النبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه ، على إبراهيم وموسى وعيسى ، لأن رسالته هى مجمع رسالات الأنبياء عليهم السلام ، وكتابه الذي أنزل عليه هو المهيمن على الكتب السماوية . . إذ قد جمعت الرسالة الإسلامية ما تفرق فى الرسالات السابقة ، فكان الإسلام هو الدين كلّه ، دين اللّه الذي كان لكل نبى نصيب منه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ » (19 : آل عمران) وقوله سبحانه : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » (33 : التوبة) وقوله سبحانه : « قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ

(206/685)

مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً »

(68 : المائدة) وقوله تبارك وتعالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي

الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ » (85 : آل عمران) .

وهذا يعنى أن من آمن بالرسالات السابقة ، وأقامها على وجهها ، لا بد أن يسلمه ذلك إلى الإيمان بالإسلام ، لأنها من الإسلام ، مادة وروحا . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ » (48 : المائدة) .

وثانيا : قدم نوح - عليه السّلام - لأنه أول الأنبياء أصحاب الرسالات ، وقد كانت له دعوة إلى اللّه ، وكان له قوم يدعوهم إلى اللّه ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما كما ذكر القرآن . . وبهذا تعتبر رسالته مفتتح الرسالات إلى دين اللّه ، وهو الإسلام . . فكان تقديمه لازما لهذا الاعتبار . .

وثالثا : أن تقديم نوح لم يكن إلا لمجرد الإشارة إلى أن دعوة الإسلام دعوة قديمة قدم الإنسانية ، يوم بلغت الإنسانية مبلغ الخطاب والتكليف ، ولم يكن لنوح حين جاء الإسلام ، قوم أو كتاب ، حتى يكون لتقديم الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - على دعوة نوح حجة على قومه ، وهيمنة على كتابه ، على خلاف من هم من أتباع إبراهيم وموسى وعيسى ، فقد كانوا بمشهد من عصر النبوة ، وبمسمع من دعوة النبي ، وهم لهذا مطالبون باتباع هذا النبي والإيمان به ، وبكتابه المهيمن على ما فى صحف إبراهيم ، وعلى التوراة والإنجيل . . فقد

كان اليهود أتباع موسى ، وكتابه التوراة ، وكان النصارى أتباع عيسى ، وكتابه الإنجيل ، وكان المشركون على دين

(207/685)

إبراهيم ، وإن كانوا جميعا قد تنكّبوا الطريق السّوىّ للدين الذي يدينون به . .

وقوله تعالى : « كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » . هو نحس للمشركين وتبكيت لهم ، وازدراء لغرورهم الذي أراهم فى أنفسهم هذا الذي باعد بينهم وبين كتاب اللّه ، ورسول اللّه ، فأنفوا أن يستجيبوا لبشر مثلهم ، وأن يتناولوا من يده الدواء الذي يشفى عللهم ، ويذهب بأسقامهم . .

لقد كبر عليهم هذا ، ورأوه مما ينزل بقدرهم وينال من مكانتهم . . وإنه لعجيب غاية العجب ، أن يكون هذا موقفهم من كتاب هو المهيمن على الكتب السماوية كلها ، ومن رسول هو خاتم الرسل ، ورسالته خاتم رسالات السماء ، ومن دين هو مجتمع دين اللّه ؟ « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » . . فهذا هو الدين الذي شرعه اللّه سبحانه وتعالى لهم . واصطفى لحمله إليهم صفوة أنبيائه ، وخاتم رسله . . فكيف يستقبلون هذه

المنّة العظيمة بهذا الكبر الأحمق ، وهذا الغرور السفيه ؟ .

وقوله تعالى : « اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » . .

هو تعقيب على موقف هؤلاء المشركين من دعوة اللّه سبحانه وتعالى ، التي يدعو بها رسوله الناس إلى اللّه . . إذ ليس كلّ مدعوّ مستجيبا لهذه الدعوة ، ولكن اللّه سبحانه وتعالى يختار من بين المدعوين من يدخلهم فى ضيافتهم ، ويأخذ بيدهم إلى رحاب كرمه وإحسانه ، فيستجيبون للداعى مسرعين ، فى غير تردّد أو إبطاء ، وهناك آخرون من بين المترددين والمبطئين سوف يلحقون بهؤلاء السابقين ، ويدخلون فى ضيافة اللّه سبحانه ، إذا هم نزعوا أقدامهم من هذا الموقف المتردد الذي هم فيه ، وأخذوا طريقهم

إلى اللّه . . إن اللّه سبحانه ـ سيهديهم إليه ، وييسر لهم سبل الوصول إلى رحاب فضله وإحسانه . . « وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » . . وهكذا تختلف منازل الناس عند اللّه . . فأناس يجتبيهم ويختارهم ، ويحملهم حملا على مطايا الفضل ومراكب الإحسان . . وأناس ينتظر بهم حتى يكون منهم سعى إليه ، واتجاه إلى مواقع رحمته . . وعندئذ تلقاهم عناية اللّه على أول الطريق ، فتقودهم إليه ، وتنزلهم منازل رضوانه . . وأناس قعدوا حيث هم

فأركسوا فى ضلالهم . . إنهم لم يكونوا من أهل الاجتباء ، فتخف بهم مراكب اللّجا إلى اللّه ، ولم يكونوا من ذوى القدرة على السباحة والعوم ، الذين تمسك أيديهم بحبل اللّه ، فيسلمهم ذلك الحبل إليه . . بل كانوا من غير هؤلاء وأولئك ، ممن لم يرد اللّه لهم النجاة ، فكانوا من المغرقين .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 13 صـ 32.24 ﴾

(209/685)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾

يجوز أن يكون هذا تكملة للاعتراض فيكون كلاماً موجهاً من الله تعالى إلى النّاس .

ويجوز أن يكون ابتداء كلام متصلاً بقوله : ﴿ ذلاكم الله ربّي عليه توكلت ﴾ ، ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ تعيَّن أن يكون مجمُوع هذا الكلام لمتكلمٍ واحد ، لأن ضمائر ﴿ ربي ﴾ ، و ﴿ توكلتُ ﴾ ، و ﴿ أنيب ﴾ ضمائره ، وتلك الضمائر لا تصلح أن تعود إلى الله تعالى .

ولا حظَّ في سياق الوحي إلى أحد سوى النبي صلى الله عليه وسلم فتعين تقدير فعل أمرٍ بقولٍ يَقوله النبي صلى الله عليه وسلم

والجملة معطوفة على الجمل التي قبلها لأن الكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين .

والواو عاطفة فِعل أمر بالقول ، وحَذْفُ القول شائع في القرآن بدلالة القرائن لأن مادة الاختلاف مشعرة بأنه بين فريقين وحالة الفريقين مشعرة بأنه اختلاف في أمور الاعتقاد التي أنكرها الكافرون من التوحيد والبعثِ والنفع والإضرار .

و﴿ من شيء ﴾ بيان لإبهام ﴿ ما ﴾ ، أيْ أيُّ شيء اختلفتم فيه ، والمراد : من أشياء الدّين وشؤون الله تعالى .

وضمير ﴿ فحكمه ﴾ عائد إلى ﴿ مَا اختلفتم ﴾ على معنى : الحكمُ بينكم في شأنه إلى الله .

والمعنى : أنه يتضح لهم يوم القيامة المحقّ من المبطل فيما اختلفوا فيه حين يرون الثواب للمؤمنين والعقاب للمشركين ، فيعلَم المشركون أنهم مبطلون فيما كانوا يزعمون .

و﴿ إلى الله ﴾ خبر عن (حُكْمُهُ) .

و﴿ إلى ﴾ للانتهاء وهو انتهاء مجازي تمثيلي ، مُثِّل تأخيرُ الحكم إلى حلول الوقت المعيَّن له عند الله تعالى بسير السائر إلى أحد يَنزل عنده .

ولا علاقة لهذه الآية باختلاف علماء الأمة في أصول الدّين وفروعه لأن ذلك الاختلافَ حكمه منوط بالنظر في الأدلة والأقيسة صحةً وفساداً فإصدار الحكم بين المصيب والمخطىء فيها يسيرٌ إن شاء النّاس التداول والإنصاف .

(210/685)

وبذلك توصل أهل الحق إلى التمييز بين المصيب والمخطىء ، ومراتبِ الخطأ في ذلك ، على أنّه لا يناسب سياق الآيات سابِقها وتاليها ولا أغراضَ السور المكية .

وقد احتج بهذه الآية نفاة القياس ، وهو احتجاج لا يرتضيه نطَّاس .

﴿ اللهُ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ ﴾ .

يجوز أن تكون الجملة مقول قول محذوف يدلّ عليه قوله : ﴿ لتنذر أمّ القرى ﴾ [الشورى : 7] الآية ، فتكون كلاماً مستأنفاً لأن الإنذار يقتضي كلاماً منذراً به ، ويجوز أن تكون متصلة بجملة ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء ﴾ تكملة للكلام الموجه من الله ويكون في قوله : ﴿ ربي ﴾ التفاتاً من الخطاب إلى التكلم ، والتقدير : ذلكم الله ربّكم ، وتكون جملتا ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ معترضتين .

والإشارةُ لتمييز المشار إليه وهو المفهوم مِن ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ .

وهذا التمييز لإبطال التباس ماهية الإلهياة والربوبية على المشركين إذ سموا الأصنام آلهة وأرباباً .

وأوثر اسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد لقصد التعظيم بالبعد الاعتباري اللازمِ للسموّ وشرف القدْر ، أي ذلكم الله العظيمُ .

ويُتوصل من ذلك إلى تعظيم حكمه ، فالمعنى : الله العظيم في حكمه هُو ربّي الذي توكلت عليه فهو كافيني منكم .

والتوكل : تفعل من الوَكْل ، وهو التفويض في العَمل ، وتقدم عند قوله تعالى ، ﴿ فإذا عزمتَ فتوكّل على الله ﴾ في سورة آل عمران (159) .

والإنابة : الرجوع ، والمراد بها هنا الكناية عن ترك الاعتماد على الغير لأن الرجوع إلى الشيء يستلزم عدم وجود المطلوب عند غيره ، وتقدمت الإنابة عند قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيبٌ ﴾ في سورة هود (75) .

(211/685)

وجيء في فعل ﴿ توكلت ﴾ بصيغة الماضي وفي فعل ﴿ أنيب ﴾ بصيغة المضارع للإشارة إلى أن توكله على الله كان سابقاً من قبل أن يظهر له تنكر قومه له ، فقد صادف

تنكرُهم منه عبداً متوكلاً على ربّه ، وإذا كان توكله قد سبق تنكُّرَ قومه فاستمراره بعد أن كشّروا له عن أنياب العدوان محقق .

وأما فعل ﴿ أنيب ﴾ فجيء فيه بصيغة المضارع للإشارة إلى تجدد الإنابة وطلب المغفرة .

ويعلم تحققها في الماضي بمقارنتها لجملة ﴿ عليه توكلت ﴾ لأن المتوكل منيب ، ويجوز أن يكون ذلك من الاحتباك .

والتقدير : عليه توكلت وأتوكل وإليه أُنْبت وأنيب .

وتقديم المتعلِّقين في ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ لإفادة الاختصاص ، أي لا أتوكّل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه .

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

خبر ثانٍ عن الضمير في قوله تعالى : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ [الشورى : 9] ، وما بينهما اعتراض كما علمت آنفاً أُعقب به أنه على كل شيء قدير ، فإن خلق السماوات والأرض من أبرز آثار صفة القدرة المنفرد بها .

والفاطر : الخالق ، وتقدم في أوّل سورة فاطر (1) .

﴿ والأرض جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا وَمِنَ الانعام أزواجا يَذْرَؤُكُمْ ﴾ .

جملة في موضع الحال من ضمير ﴿ فاطر ﴾ لأن مضمونها حال من أحوال فَطْر السماوات والأرض فإن خلق الإنسان والأنعام من أعجب أحوال خلق الأرض .

ويجوز كونها خبراً ثالثاً عن ضمير ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ [الشورى : 9] .

والمعنى : قَدَّر في تكوين نوع الإنسان أزواجاً لأفراده ، ولما كان ذلك التقدير مقارناً لأصلِ تكوين النوع جيء فيه بالفعل الماضي .

والخطاب في قوله : ﴿ لكم ﴾ للنّاس كلّهم .

والخطاب التفات من الغيبة .

واللام للتعليل .

(212/685)

وتقديم ﴿ لكم ﴾ على غيره من معمولات ﴿ جعل ﴾ ليُعرف أنه معمول لذلك الفعل فلا يتوهم أنه صفة ل ﴿ أزواجاً ﴾ ، وليكون التعليل به ملاحظاً في المعطوف بقوله ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ .

والأزواج : جمع زوج وهو الذي ينضمُّ إلى فرد فيصير كِلاهما زوجاً للآخر والمراد هنا : الذكور والإناث من النّاس ، أي جعَل لمجموعكم أزواجاً ، فللذكور أزواج من الإناث ،

وللنساء أزواج من الرّجال ، وذلك لأجْل الجميع لأن بذلك الجعل حصلت لذة التأنس ونعمة النسل .

ومعنى ﴿ من أنفسكم ﴾ من نوعكم ، ومن بعضكم ، كقوله : ﴿ فسلّموا على أنفسكم ﴾ [النور : 61] وقوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] .

وكون الأزواج من أنفسهم كمال في النعمة لأنه لو جعل أحد الزوجين من نوع آخر لفات نعيم الأنس ، وأما زعم العرب في الجاهلية أن الرجل قد يتزوج جنيَّة أو غُولاً فذلك من التكاذيب وتخيلات بعضهم ، وربّما عرض لبعض النّاس خبَال في العقل خاصّ بذلك فتخيل ذلك وتحدث به فراج عن كل أبْلَه .

وقوله : ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ عطف على ﴿ أزواجاً ﴾ الأول فهو كمفعول ل ﴿ جعل ﴾ والتقدير : وجعل من الأنعام أزواجاً ، أي جعل منها أزواجاً بعضها لبعض .

وفائدة ذكر أزواج الأنعام دون أزواج الوحش : أن في أنواع الأنعام فائدة لحياة الإنسان لأنها تعيش معه ولا تنفر منه وينتفع بألبانها وأصوافها ولحومها ونسلها وعملها من حمْل وحرث ، فبِجَعْلها أزواجاً حصل معظم نفعها للإنسان .

والذرءُ : بث الخلق وتكثيره ، ففيه معنى توالي الطبقات على مرّ الزمان إذ لا منفعة للنّاس من أزواج الأنعام باعتبارها أزواجاً سوى ما يحصل من نسلها .

وضمير الخطاب في قوله : ﴿ يذرؤكم ﴾ للمخاطبين بقوله : ﴿ جعل لكم ﴾ .

ومرادُ شموله لجعل أزواج من الأنعام المتقدم ذكره لأن ذكر أزواج الأنعام لم يكن هَمَلاً بل مراداً منه زيادة المنّة فإن ذَرْءَ نسل الإنسان نعمة للنّاس وذَرْء نسل الأنعام نعمة أخرى للنّاس ، ولذلك اكتفى بذكر الأزواج في جانب الأنعام عن ذكر الذرء إذ لا منفعة للناس في تزاوج الأنعام سوى ما يحصل من نسلها .

وإذ كان الضمير ضمير جماعة العقلاء وكان ضميرَ خطاب في حين أن الأنعام ليست عقلاء ولا مخاطبة ، فقد جاء في ذلك الضمير تغليب العقلاء إذ لم يذكر ضمير صالح للعقلاء وغيرهم كأن يقال : يذراكِكِ بكسر الكاف على تأويل إرَادة خطاب الجماعة .

وجاء فيه تغليب الخطاب على الغيبة ، فقد جاء فيه تغليبان وهو تغليب دقيق إذ اجتمع في لفظ واحد نوعان من التغليب كما أشار إليه الكشاف والسكاكي في مبحث التغليب من "المفتاح" .

وضمير ﴿ فيه ﴾ عائد إلى الجَعْل المفهوم مِن قوله ﴿ جعل لكم ﴾ ، أي في الجعل المذكور على حدّ قوله : ﴿ اعدِلُوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] .

وجيء بالمضارع في ﴿ يذرؤكم ﴾ لإفادة التجدد والتجدُّد أنسب بالامتنان .

وحرف (في) مستعار لمعنى السببية تشبيهاً للسبب بالظرف في احتوائه على مسبباته كاحتواء المنبع على مائه والمعدن على ترابه ومثله قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ [البقرة : 179] .

﴿ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع ﴾ .

خبر ثالث أو رابع عن الضمير في قوله : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ [الشورى : 9] .

ومَوقع هذه الجملة كالنتيجة للدليل فإنه لما قُدم ما هو نِعمٌ عظيمة تبيَّن أن الله لا يماثِله شيء من الأشياء في تدبيره وإنعامه .

(214/685)

ومعنى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ليس مثلَه شيء ، فأقحمت كاف التشبيه على (مِثل) وهي بمعناهُ لأن معنى المِثْل هو الشبيه ، فتعيّن أن الكاف مفيدة تأكيداً لمعنى المِثل ، وهو من التأكيد اللّفظي باللّفظ المرادف من غير جنسه ، وحسَّنه أن الموكِّد اسم فأشبه مدخول كاف التشبيه المخالف لمعنى الكاف فلم يكن فيه الثقل الذي في قول خِطام المجاشعي :

وصَالياتٍ كَكَما يُؤَثْفَيْنْ

وإذ قد كان المثل واقعاً في حيّز النفي فالكاف تأكيد لنفيه فكأنَّه نُفِي المثلُ عنه تعالى بجملتين تعليماً للمسلمين كيف يُبطلون مماثلة الأصنام لله تعالى .

وهذا الوجه هو رأي ثعْلب وابن جنّي والزجّاج والراغب وأبي البقاء وابن عطية .

وجعله في "الكشاف" وجهاً ثانياً ، وقدّم قبله أن تكون الكاف غير مزيدة ، وأن التقدير : ليس شبيه مثله شيء والمراد : ليس شبه ذاته شيء ، فأثبت لذاته مثلاً ثم نفَى عن ذلك المثل أن يكون له مماثل كناية عن نفي المماثل لذات الله تعالى ، أي بطريق لازم اللازم لأنه إذا نفي المِثْل عن مِثْله فقد انتفى المثل عنه إذ لو كان له مثل لما استقام قولك : ليس شيء مثلَ مثِله .

وجعله من باب قول العرب : فلان قد أيفعت لِدَاتُه ، أي أيفع هو فكُني بإيفاع لِدَاته عن إيفاعه .

وقول رُقَيْقَةَ بنتِ صَيفي في حديث سُقيا عبد المطلب " ألاَ وفيهم الطَّيِّبُ الطاهرُ لداتُه " أ هـ .

أي ويكون معهم الطيّبُ الطاهرُ يعني النبي صلى الله عليه وسلم

وتبعه على ذلك ابن المنير في "الانتصاف" ، وبعض العلماء يقول : هو كقولك ليس لأخي زيد أخ ، تريد نفي أن يكون لزيد أخ لأنه لو كان لزيد أخ لكان زيد أخا لأخيه فلما نَفَيتَ أن

يكون لأخيه أخ فقد نَفيتَ أن يكون لزيد أخ ، ولا ينبغي التعويل على هذا لما في ذلك من التكلّف والإبهام وكلاهما مما ينبو عنه المقام .

(215/685)

وقد شملَ نفيُ المماثلة إبطالَ ما نسبُوا لله البناتِ وهو مناسبة وقوعِه عقب قوله : ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ الآية .

وحديثُ سقيا عبد المطلب ، أي خبر استسقائه لقريش أن رقيقة بنت أبي صيفي قالت : تتابعتْ على قريش سنون أقحلت الضرعَ وأدَقَّتْ العَظم ، فبينا أنا نائمة إذا هاتف يهتف : "يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث منكم قد أظلّكم أيامه ألاَ فانظروا رجلاً منكم وَسيطاً عُظَاما جُسَاما أبيضَ أَوْطَف الأهداب سهل الخدّين أشمّ العرين فليخلص هو وولده ، ألا وفيهم الطيّبُ الطَاهرُ لداته وليهبط إليه من كل بطن رجل فليشنُوا من الماء وليمسوا من الطيب ثم ليرتقُوا أبا قبيس فليستسق الرجل وليؤمنوا فعشتم ما شئتم" الخ .

قالوا : وكان معهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذٍ غلام .

واعلم أن هذه الآية نفت أن يكون شيء من الموجودات مثلاً لله تعالى .

والمثل يُحمل عند إطلاقه على أكمل أفراده ، قال فخر الدّين "المثلان : هما اللذان يقوم كل

واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته" أ هـ .

فلا يسمّى مثلاً حقاً إلا المماثل في الحقيقة والماهية وأجزائها ولوازمها دون العوارض ، فالآية نفت أن يكون شيء من الموجودات مماثلاً لله تعالى في صفات ذاته لأن ذات الله تعالى لا يماثلها ذواتُ المخلوقات ، ويلزم من ذلك أن كل ما ثبت للمخلوقات في محسوس ذواتها فهو منتفٍ عن ذات الله تعالى .

وبذلك كانت هذه الآية أصلاً في تنزيه الله تعالى عن الجوارح والحواسّ والأعضاء عند أهل التأويل والذين أثبتوا لله تعالى ما ورد في القرآن مما نسميه بالمتشابه فإنما أثبتوه مع التنزيه عن ظاهره إذ لا خلاف في إعمال قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وأنه لا شبيه له ولا نظير له .

(216/685)

وإذ قد اتفقنا على هذا الأصل لم يبق خلاف في تأويل النصوص الموهمة التشبيه ، إلاّ أن تأويل سلفنا كان تأويلاً جُمْليًّا ، وتأويلَ خلفهم كان تأويلاً تفصيليًّا كتأويلهم اليدَ بالقدرة ، والعَينَ بالعلم ، وبَسْطَ اليدين بالجُود ، والوجْهَ بالذات ، والنزولَ بتمثيل حال الإجابة والقبول بحال نزول المرتفع من مكانه الممتنع إلى حيث يكون سائلوه لينيلهم ما سألوه .

ولهذا قالوا : طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم .

ولما أفاد قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ صفاتِ السُلوبِ أعقب بإثبات صفة العِلم لله تعالى وهي من الصفات المعنوية وذلك بوصفه بـ ﴿ السميع البصير ﴾ الدّالين على تعلّق علمه بالموجودات من المسموعات والمبصرات تنبيهاً على أن نفي مماثلة الأشياء لله تعالى لا يتوهّم منه أن الله منزّه عن الاتصاف بما اتصفت به المخلوقات من أوصاف الكمال المعنوية كالحياة والعلم ولكن صفات المخلوقات لا تشبه صفاته تعالى في كمالها لأنها في المخلوقات عارضة ، وهي واجبة لله تعالى في منتهى الكمال ، فكونه تعالى سميعاً وبصيراً من جملة الصفات الداخلة تحت ظلال التأويل بالحمل على عموم قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فلمْ يقتضيا جارحتين .

ولقد كان تعقيب قوله ذلك بهما شبيهاً بتعقيب المسألة بمثالها .

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

خبر رابع أو خامسٌ عن الضمير في قوله : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ [الشورى : 9] وموقع هذه الجملة كموقع التي قبلها تتنزّل منزلة النتيجةِ لما تقدمها ، لأنّه إذا ثبت أن الله هو الوليّ وما تضمنته الجُمل بعدها إلى قوله : ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ [الشورى : 11] من انفراده بالخلق ، ثبت أنه المنفرد بالرّزق .

والمقاليد : جمع إقليد على غير قياس ، أو جمع مِقْلاد ، وهو المفتاح ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ في سورة الزمر (63) .

وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص ، أي هي ملكه لا ملك غيره .

والمقاليد هنا استعارة بالكناية لخيرات السماوات والأرض ، شبهت الخيرات بالكنوز ، وأُثبت لها ما هو من مرادفات المشبَّه به وهو المفاتيح ، والمعنى : أنه وحده المتصرف بما ينفع النّاس من الخيرات .

وأما ما يتراءى من تصرف بعض الناس في الخيرات الأرضية بالإعطاء والحرمان والتقتير والتبذير فلا اعتداد به لقلة جدواه بالنسبة لتصرف الله تعالى .

وجملة يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ مبينة لمضمون جملة ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ .

وبسط الرزق : توْسِعَته ، وقدره : كناية عن قلّته ، وتقدم عند قوله : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر في سورة الرعد (26) .

وجملة إنه بكل شيء عليم ﴾ استئناف بياني هو كالعلة لقوله : ﴿ لمن يشاء ﴾ ، أي أنّ مشيئته جارية على حسب علمه بما يناسب أحوال المرزوقين من بَسط أو قَدْر .

وبيان هذا في قوله الآتي : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لَبَغَوْا في الأرض ﴾ [الشورى :

27] .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا ﴾ .

انتقال من الامتنان بالنعم الجثمانية إلى الامتنان بالنعمة الروحية بطريق الإقبال على خطاب الرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للتنويه بدين الإسلام وللتعريض بالكفار الذين أعرضوا عنه .

فالجملة ابتدائية .

ومعنى ﴿ شرع ﴾ أوضح وبيّن لكم مسالك ما كلفكم به .

وأصل ﴿ شَرَعَ ﴾ جعل طريقاً واسعة ، وكثُر إطلاقه على سنّ القوانين والأديان فسُمّي الدّين شريعة .

(218/685)

فشرع هنا مستعار للتبيين كما في قوله : ﴿ أم لَهم شركاء شرَعُوا لهم من الدّين ما لم يأذن به الله ﴾ [الشورى : 21] ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً ﴾ في سورة [العقود : 48] .

والتعريف في الدين ﴾ تعريف الجنس ، وهو يعمّ الأديان الإلهاية السابقة .

و﴿ من ﴾ للتبعيض .

والتوصية : الأمر بشيء مع تحريض على إيقاعه والعمل به .

ومعنى كونه شرع للمسلمين من الدّين ما وصَّى به نوحاً أن الإسلام دين مثل ما أمر بِه نوحاً وحضَّه عليه .

فقوله : ﴿ ما وصى به نوحاً ﴾ مقدر فيه مضاف ، أي مثلَ ما وصَّى به نوحاً ، أو هو بتقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ مبالغة في شدة المماثلة حتى صار المِثل كأنّه عين مثله .

وهذا تقدير شائع كقول ورقة بن نوفل : "هذا هو الناموس الذي أنزل على عيسى" .

والمراد : المماثلة في أصول الدّين مما يجب لله تعالى من الصفات ، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع ، وأعظمُها توحيدُ الله ، ثم ما بعده من الكليات الخمس الضروريات ، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها ، فإن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أُودع مثله في دين الإسلام .

فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد ، والإيمان بالبعث والحياةِ الآخرة ، وتقْوى الله بامتثال أمره واجتناب مَنْهِيّه على العموم ، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكّى وذكر اسمَ ربّه فَصلَّى بل تؤثرون الحياة الدّنيا والآخرة خير وأبقى إنّ هذا لفي الصحف الأولى صحفِ إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : 14 19] .

وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه .

ودين الإسلام لمَ يَخْلُ عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقاً وتوسيعاً ، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام وسدّ الذرائع والأمر بالنظر في الأدلة وبرفع الحرج وبالسماحة وبشدة الاتصال بالفطرة ، وقد بيّنتُ ذلك في كتابي "مقاصدِ الشريعة الإسلامية" .

(219/685)

أو المراد المماثلة فيما وقع عقبه بقوله : ﴿ أن أقيموا الدين ﴾ إلخ بناء على أن تكون ﴿ أنْ ﴾ تفسيرية ، أي شرع لكم وجوب إقامة الدّين المُوحَى به وعدم التفرّق فيه كما سيأتي .

وأيًّا مَّا كان فالمقصود أن الإسلام لا يخالف هذه الشرائع المسمّاة ، وأن اتّباعه يأتي بما أتت به من خير الدّنيا والآخرة .

والاقتصار على ذكر دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى النّاس ، فدينه هو أساس الدّيانات ، قال تعالى:

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعده ﴾ [النساء : 163] ولأن دين إبراهيم هو أصل الحنيفية وانتشر بين العرب بدعوة إسماعيل إليه فهو أشهر الأديان بين العرب ، وكانوا على أثارة منه في الحجّ والختان والقِرى والفتوة .

ودين موسى هو أوسع الأديان السابقة في تشريع الأحكام ، وأما دين عيسى فلأنه الدّين الذي سبق دين الإسلام ولم يكن بينهما دين آخر ، وليتضمنَ التهيئةَ إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام .

وتعقيب ذكر دين نوح بما أُوحي إلى محمّد عليهما السلام للإشارة إلى أن دين الإسلام هو الخاتم للأديان ، فعطف على أول الأديان جمعاً بين طَرفيْ الأديان ، ثم ذُكر بعدهما الأديانُ الثلاثة الأخَر لأنها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها .

وهذا نسج بديع من نظم الكلام ، ولولا هذا الاعتبار لكان ذكر الإسلام مبتدأ به كما في قوله : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعده ﴾ [النساء : 163] وقوله : ﴿ وإذ أخذنا من النبيئين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ الآية في سورة [الأحزاب : 7] .

(220/685)

وذكرَ في الكشاف ﴾ في آية الأحزاب أن تقديم ذِكر النبي صلى الله عليه وسلم في التفصيل لبيان أفضليته لأن المقام هنالك لسرد من أخذ عليهم الميثاق ، وأما آية سورة الشورى فإنّما أوردت في مقام وصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنّ الله قال : شرع لكم الدّينَ الأصيل الذي بعث به نوحاً في العهد القديم وبعث به محمداً صلى الله عليه وسلم في العهد

الحديث ، وبعث به من توسط بينهما .

فقوله : ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ هو ما سبق نزوله قبل هذه الآية من القرآن بما فيه من أحكام ، فعطْفُهُ على ما وصَّى به نوحاً لما بينه وبين ما وصَّى به نوحاً من المغايرة بزيادة التفصيل والتفريع .

وذكرُه عقب ما وصّى به نوحاً للنكتة التي تقدمت .

وفي قوله تعالى : ﴿ ما وصى به نوحاً ﴾ وقولِه : ﴿ وما وصينا به إبراهيم ﴾ ، جيء بالموصول ﴿ ما ﴾ ، وفي قوله : ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ جيء بالموصول ﴿ الذي ﴾ ، وقد يظهر في بادىء الرأي أنه مجرّد تفنّن بتجنب تكرير الكلمة ثلاثَ مرات متواليات ، وذلك كافٍ في هذا التخالف .

وليس يبعد عندي أن يكون هذا الاختلافُ لغرض معنويّ ، وأنه فَرق دقيق في استعمال الكلام البليغ وهو أن ﴿ الذي ﴾ وأخواته هي الأصل في الموصولات فهي موضوعة من أصل الوضع للدلالة على من يُعيَّن بحالة معروفة هي مضمون الصلة ، ف ﴿ الذي ﴾ يدلّ على معروف عند المخاطب بصلته .

وأمّا ﴿ مَا ﴾ الموصولةُ فأصلها اسم عام نكرة مبهمة محتاجة إلى صفة نحو قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكم به ﴾ [النساء : 58] عند الزمخشري وجماعة إذ قدّروه : نعم شيئاً يعظكم به .

ف ﴿ ما ﴾ نكرة تمييز ل (نعْم) وجملة ﴿ يعظكم به صفة لتلك النكرة .

وقال سيبويه في قوله تعالى : ﴿ هذا ما لديَّ عتيد ﴾ [ق : 23] المراد : هذا شيء لدي عتِيد ، وأنشدوا

:

لِمَا نافعٍ يسعَى اللبيبُ فلا تكُن

لشيء بَعيدٍ نفعُه الدّهرَ ساعيا . . .

(221/685)

أي لشيء نَافع ، فقد جاءت صفتها اسماً مفرداً بقرينة مقابلته بقوله : لشيء بعيد نفعه ، ثم يعْرِض ل ﴿ مَا ﴾ التعريفُ بكثرة استعمالها نكرة موصوفة بجملةٍ فتعرفت بصفتها وَأشْبهت اسم الموصول في ملازمة الجملة بعدها ، ولذلك كثر استعمال ﴿ ما ﴾ موصولة في غير العقلاء ، فيكون إيثار ﴿ ما وصَّى به نوحاً ﴾ و ﴿ ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ بحرف ﴿ ما ﴾ لمناسبة أنّها شرائع بَعُد العهدُ بها فلم تكن معهودة عند المخاطبين إلا إجمالاً فكانت نكرات لا تتميز إلا بصفاتها ، وأما إيثار الموحَى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم باسم ﴿ الذي ﴾ فلأنه شرع متداوَل فيهم معروفٌ عندهم .

فالتقدير : شرع لكم شيئاً وصّى به نوحاً وشيئاً وصّى به إبراهيم وموسى وعيسى ، والشيءَ الموحى به إليك .

ولعل هذا من نكت الإعجاز المغفول عنها .

وفي العدول من الغيبة إلى التكلم في قوله : ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ بعد قوله ﴿ شرع لكم ﴾ التفات .

وذُكر في جانب الشرائع الأربع السابقة فعل ﴿ وصى ﴾ وفي جانب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فعل الإيحَاء لأن الشرائع التي سبقت شريعةَ الإسلام كانت شرائع موقتة مقدّراً ورود شريعة بعدها فكان العمل بها كالعمل الذي يقوم به مؤتمن على شيء حتى يأتي صاحبه ، وليقع الاتصال بين فعل ﴿ أوحينا إليك ﴾ وبين قوله في صدر السورة ﴿ كذلك يُوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ [الشورى : 3] .

و ﴿ أنْ ﴾ في قوله : ﴿ أن أقيموا الدين ﴾ يجوز أن تكون مصدرية ، فإنّها قد تدخل على الجملة الفعلية التي فعلها متصرف ، والمصدرُ الحاصل منها في موضع بدل الاشتمال من ﴿ مَا ﴾ الموصولة الأولى أو الأخيرة .

وإذا كان بدلاً من إحداهما كان في معنى البدل من جميع أخواتهما لأنها سواء في المفعولية لفعل ﴿ شرع ﴾ بواسطة العطف فيكون الأمر بإقامة الدّين والنهي عن التفرق فيه مما اشتملت عليه وصاية الأديان .

ويجوز أن تكون تفسيريةً لمعنى ﴿ وصى ﴾ لأنه يتضمن معنى القول دون حروفه .

فالمعنى : أن إقامة الدّين واجتماع الكلمة عليه أوصى الله بها كلَّ رسول من الرّسل الذين سماهم .

وهذا الوجه يقتضي أن ما حُكي شرعه في الأديان السابقة هو هذا المعنى وهو إقامة الدّين المشروع كما هو ، والإقامة مُجملةٌ يفسرها ما في كل دين من الفروع .

وإقامة الشيء : جعله قائماً ، وهي استعارة للحرص على العمل به كقوله : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ وقد تقدم في سورة [البقرة : 3] .

وضمير ﴿ أقيموا ﴾ مراد به : أُمَم أولئك الرسل ولم يسبق لهم ذكر في اللّفظ لكن دل على تقديرهم ما في فعل ﴿ وصى ﴾ من معنى التبليغ .

وأعقب الأمرُ بإقامة الدّين بالنهي عن التفرق في الدين .

والتفرق : ضد التجمع ، وأصله : تباعد الذوات ، أي اتساع المسافة بينها ويستعار كثيراً لقُوّة الاختلاف في الأحوال والآراء كما هنا ، وهو يشمل التفرق بين الأمة بالإيمان بالرّسول ، والكفر به ، أي لا تختلفوا على أنبيائكم ، ويشمل التفرق بين الذين آمنوا بأن يكونوا نِحَلاً

وأحزاباً ، وذلك اختلاف الأمة في أمور دينها ، أي في أصوله وقواعده ومقاصده ، فإن الاختلاف في الأصول يفضي إلى تعطيل بعضها فينخرم بعض أساس الدّين .

والمراد : ولا تتفرقوا في إقامته بأن ينشط بعضهم لإقامته ويتخاذل البعض ، إذ بدون الاتفاق على إقامة الدّين يضطرب أمره .

ووجه ذلك أن تأثير النفوس إذا اتفقت يَتوارد على قصد واحد فيقوَى ذلك التأثير ويسرع في حصول الأثر إذ يصير كل فرد من الأمة مُعِيناً للآخر فيسهل مقصدهم من إقامة دينهم .

أما إذا حصل التفرق والاختلاف فذلك مُفضٍ إلى ضياع أمور الدّين في خلال ذلك الاختلاف ، ثم هو لا يلبث أن يُلقِيَ بالأمة إلى العداوة بينها وقد يجرّهم إلى أن يتربص بعضهم ببعض الدوائرَ ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ ولا تَنَازَعُوا فتفْشَلُوا وتَذهَبَ ريحُكم ﴾ [الأنفال : 46] .

(223/685)

وأما الاختلاف في فروعه بحسب استنباط أهل العلم بالدّين فذلك من التفقّه الوارد فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم " من يُرِدِ الله به خيراً يفقِهْه في الدّين " .

﴿ فِيهِ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ ﴾ .

اعتراض بين جملة ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ وجملةِ ﴿ وما تفرّقوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم ﴾ [الشورى : 14] .

ولك أن تجعله استئنافاً بيانياً جواباً عن سُؤال مَن يتعجب من إعراض المشركين عن الإسلام مع أنه دين مؤيّد بما سَبق من الشرائع الإلهاية ، فأجيب إجمالاً بأنه كَبُر على المشركين وتجهموه و ﴿ كبر ﴾ بمعنى صعُب ، وقريب منه إطلاق ثقل ، أيْ عجزوا عن قبول ما تدعوهم إليه ، فالكبر مجاز استعير للشيء الذي لا تطمئن النفس لقبوله ، والكِبرُ في الأصل الدّال على ضخامة الذات لأن شأن الشيء الضخم أن يعسر حمله ولما فيه من تضمين معنى ثقل عدّي بـ ﴿ على ﴾ .

وعبر عن دعوة الإسلام بـ ﴿ ما ﴾ الموصولة اعتباراً بنُكران المشركين لهذه الدعوة واستغرابِهم إيّاها ، وعدّهم إيّاها من المحال الغريب ، وقد كبر عليهم ذلك من ثلاث جهات:

جهة الداعي لأنه بشر مثلهم قالوا ﴿ أبعَث الله بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : 94] ، ولأنه لم يكن قبْل الدعوة من عظماء القريتين ﴿ لولا نُزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

وجهةِ ما به الدعوة فإنهم حسبوا أن الله لا يخاطب الرّسل إلا بكتاب ينزله إليه دفعة من السماء فقد قالوا ﴿ لن نؤمن لرُقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء : 93]

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا ﴾ [الفرقان : 21]

﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله ﴾ [البقرة : 118] والقائلون هم المشركون .

(224/685)

ومن جهة ما تضمنته الدعوة مما لم تساعد أهواؤهم عليه قالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً ﴾ [ص : 5] ﴿ هل ندُلُّكم على رجل ينبِّئكم إذا مُزِّقتم كلَّ مُمَزَّقٍ إنكم لفي خلقٍ جديدٍ ﴾ [سبأ : 7] .

وجيء بالفعل المضارع في ﴿ تدعوهم ﴾ للدلالة على تجدد الدعوة واستمرارها .

﴿ إِلَيْهِ الله يجتبى إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ويهدى إِلَيْهِ مَن ﴾ .

استئناف بياني جواب عن سؤال من يسأل : كيف كبرت على المشركين دعوة الإسلام ، بأن الله يجتبي من يشاء ، فالمشركون الذين لم يقتربوا من هدى الله غيرُ مجتبَيْنَ إلى الله إذ لم يشأ اجتباءهم ، أي لم يقدر لهم الاهتداء .

ويجوز أن يكون ردّاً على إحدى شبههم الباعثة على إنكارهم رسالته بأن الله يجتبي من يشاء ولا يلزمه مراعاة عوائدكم في الزعامة والاصطفاء .

والاجتباء : التقريب والاختيار قال تعالى : ﴿ قالوا لولا اجتَبَيْتَها ﴾ [الأعراف : 203

].

ومن يشاء الله اجتباءه مَن هداه إلى دينه ممن ينيب وهو أعلم بسرائر خلقه .

وتقديم المسند إليه وهو اسم الجلالة على الخبر الفِعلي لإفادة القصر ردّاً على المشركين الذين أحالوا رسالة بشر من عند الله .

وحين أكبروا أن يكون الضعفة من المؤمنين خيراً منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(225/685)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ يذرؤكم فيه ﴾

قلت وجه تعلقه بإشارة الآية هو أن الله سبحانه يعيشكم فيما خلق لكم من الأنعام المذكورة قال الكلبي يكثركم في هذا التزيج ولولا هذا التزويج لك لم يكثر النسل والمعنى يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر من جعله لكم أزواجا فإن سبب خلقنا وخلق الحيوان بالأزواج والضمير في قوله فيه يرجع إلى الجعل ومعنى الذرء الخلق وهو هنا الخلق الكثير فهو

خلق وتكثير فقيل في بمعنى الباء أي يكثركم بذلك وهذا قول الكوفيين والصحيح أنها على بابها والفعل تضمن معنى ينشئكم وهو يتعدى بفي كما قال تعالى وننشئكم فيما لا تعلمون فهذا تفسير الآية

ولما كانت الحياة حياتين حياة الأبدان وحياة الأرواح وهو سبحانه الذي يحيي قلوب أوليائه وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه كان ذلك تنمية لها وتكثيرا وذرءا والله أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 192.191 ﴾

(226/685)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الجعل)

ويرد فى القرآن وكلامهم على ثلاثة عشر وجها .

الأَوّل بمعنى : التَّوَجّه والشُّروع فى الشئِ .

يقال : جعل يفعل كذا وطفِق وأَنشأَ وأَخذ وأَقبل يفعل كذا أَى اشتغل به .

الثانى بمعنى : الخَلْق ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ﴿ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً ﴾ ﴿ إِنِّي

جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ .

الثالث بمعنى : القول والإرسال ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ أَى قلناه وأَنزلناه .

الرّابع بمعنى : التسوية ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ ﴿ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ أَى يهيّئ .

الخامس بمعنى : التَّقدير أَى قَدَّرَ .

السّادس بمعنى : التبديل ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ .

السّابع بمعنى إِدخال شئ فى شئٍ ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ .

الثامن بمعنى : الإِيقاع فى القلب والإِلهام ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ .

التَّاسع بمعنى : الاعتقاد ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ الهاً آخَرَ ﴾ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ .

العاشر بمعنى : التسمية ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ .

الحادى عشر بمعنى : إِيجاد شئ عن شئ وتكوينه منه ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ .

الثَّانى عشر : فى تصيير الشئ على حالةٍ دون حالة ، نحو : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً ﴾ .

الثَّالث عشر : الحكم على الشئ حقّاً كان أَو باطلاً ، أَمّا الحقُّ فنحو : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وأَمّا الباطل فنحو قوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ

وَالأَنْعَامِ نَصِيباً ﴾ .

وفى الجملة يكون بمعنى : فَعَل فى أَصل المعنى .

(227/685)

على أَىّ معنًى ذكرته فلا يخلو من معنى الفعل ، والجَعْل أُعَمّ من الفعل والصنع وسائر أَخواتهما والجُعْل والْجُعَالة والجَعِيلة : ما يُجعل للإِنسان على فعل شئ .

وهو أَعمّ من الأَجر والثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 383 . 384 ﴾

(228/685)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة الشورى

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

سلوة العاصين في سماع رحمة الله ، وحظوة العابدين في رجائهم نعمة الله ، وراحة الفقراء في رضاهم بقسمة الله ، لكل من حالة نصيب ، وكل من متنفسه مصيب وراحة الفقراء في رضاهم بقسمة الله ، لكل من حاله نصيب وكل في متنفسه مصيب

قوله جل ذكره (حم عسق)

الحاء مفتاح اسمه : حليم وحافظ وحكيم ، والميم مفتاح اسمه : مَلِك وماجد ومجيد ومنَّان ومؤمن ومهيمن ، والعين مفتاح اسمه : علام وعدل وعالٍ ، والعين مفتاح اسمه : سيِّد وسميع وسريع الحساب ، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقدوس .

كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ كذلك يوحِي إليك العزيز الحكيم ، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم .

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)

له ما في السموات وما في الأرض مُلْكاً .

﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ : عُلُوُّه وعظمتُه استحقاقُه لأصاف المجد ؛ أي وجوب أن يكون بصفات المجد والجلال .

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ

أي تكاد السموات تتشقق مِنْ عظمة مَنْ فوقهن وهو الله تعالى ، والفوقيه هنا فوقية رتبة ؛

وذلك من شدة هيبتهن من الله .

ويقال مِنْ ثقَلِ الملائكةِ الذين هم فوق السموات لكثرتهم . وفي الخبر : " أطت السماء أطاً وحق لها أن تئط ؛ ما مِنْ موضع قَدَمٍ في السموات إلا وعليه قائم أو راكع أو ساجد " .

(229/685)

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء قالوا كادت السموات تنشقُّ له . . وهنا تُقْبح قول المشركين وجرأتهم على الله تعالى ، ولِعظَم قولهم كادت السموات تنشقُّ . . . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴾ [مريم : 89-91] وعلى هذا التأويل : ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَ ﴾ أي إلى أسفلهن ، أي تتفطر جملتُها .

ومع أنَّ أولادَ آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون ، ويستغفرون لمن في الأرض . . ثم قال : ﴿ أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ : أي يغفر لهم مع كثرة عصيانهم . وفي الوقت الذي يرتكب فيه الكفارُ هذا الجُرْمَ العظيمَ بسبب شِرْكهم فإنه – سبحانه – لا يقطع رِزْقَه ونَفْعه عنهم – وإنْ كان يريد أَنْ يعذِّبَهم في الآخرة .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

المشركون اتخذوا الشياطين أولياءَ مِنْ دونه ، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم . وليس يخفى على الله أمرُهم ، وسيعذبهم بما يستوجبونه . ولستَ -يا محمد- بمُسَلَّطٍ عليهم .

وفي الإشارة : كلُّ مَنْ يعمل بمتابعة هواه ويترك لله حدّاً أو ينقض له عهداً فهو يتخذ الشياطينَ أولياءَ ، والله يعلمه ، ولا يخفى عليه أمره ، وعلى الله حسابه . . ثم إنْ شاء عذَّبه ، وإن شاء غَفَرَ له .

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا

أنزلنا عليكَ قرآناً يُتْلَى بلغة بالعرب لتخوِّفَ به أهلَ مكة والذين حولَها . وجميعُ العالَم مُحْدِقٌ بالكعبة ومكة لأنها سُرَّةُ الأرضِ .

(230/685)

﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ تنذرهم بيوم القيامة . والإنذارُ الإعلامُ بموضع المخافة . ويوم الجمع -وهو اليوم الذي يُجْمَعُ فيه الخَلْقُ كلُّهم ، ويُجْمَعُ بين المرءِ وعمله ، وبين الجسد وروحه وبين المرء وشكله في الخير والشرِّ- لا شكَّ في كَوْنه . وفي ذلك اليوم فريقٌ يُبْعَثُ إلى الجنة وفريقٌ يحصل في السعير . وكما أنهم اليومَ فريقان ؛ فريق في راحة الطاعات وحلاوة

العبادات ، وفريق في ظلمة الشِّرْكِ وعقوبة الجحد . . فكذلك غداً ؛ فريقٌ هم أهل اللقاء ، وفريقٌ هم أهل الشقاء والبلاء .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ

إنْ أراد أن يجمعَهم كلَّهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع . . وإذاً لا زَيْنَ لهم . ولو شاء أن يجمعَهم كلَّهم على الفساد والعناد لم يكن دافع – وإذاً لا شينَ منه . وحيث خَلَقَهم مختلفين – على ما أراد – فلا مبالاة بهم . . إنه إله واحدٌ جبَّارٌ غيرُ مأمور ، متولٍ جميع الأمور ؛ من الخير والشر ، والنفع والضر . هو الذي يحيي النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً ، ويميت النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً . . وهو على كل شيءٍ قدير .

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)

﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ : أي إلى كتاب الله ، وسُنَّةِ نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأئمة ، وشواهِد القياس . والعبرةُ بهذه الأشياء فهي قانون الشريعة ، وجملتها من كتاب الله ؛ فإنَّ الكتابَ هو الذي يدلُّ على صحة هذه الجملة .

ويقال : إذا لم تهتدوا إلى شيءٍ وتعارضت منكم الخواطر فدَعُوا تدبيركم ، والتجِئوا إلى ظلِّ شهود تقديره ، وانتظِروا ما ينبغي لكم أن تفعلوه بحُكْمِ تيسيره .

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم ؛ لا تدرون أبا لسعادة جَرَى حُكْمُكم أم بالشقاوة مضى اسمُكم ؟ فَكِلُوا الأمرَ فيه إلى الله ، واشتغلوا في الوقت بأمر الله دون التفكُّر فيما ليس لكم سبيل إلى عِلْمِه عن عواقبكم .

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا

خَلَقَ لكم من أنفسكم " أزواجاً " : أي أَشكالاً ؛ فَخَلَقَ حواءَ مِنْ آدم . وخَلَقَ – بسبب بقاء التناسل – جميعَ الحيواناتِ أجناساً .

﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ : يُكْثِر خَلْقكم . " فيه " الهاء تعود إلى البطن أي في البطن ، وقيل : في الرَّحِم ، وقيل : في التزويج .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ لأنه فاطر السموات والأرض ، ولأنه لا مِثْلَ يُضَارِعهُ ، ولا شكلَ يشاكله . والكاف في ليس " كمثله " صلة أي ليس مثله شيء . ويقال : لفظ كمثله شيء وهو هو ، فلمَّا قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ ﴾ فمعناه ليس له مثل ، والحقُّ لا شبيهَ له في دلاته ولا في صفاته ولا في أحكامه .

وقد وقع قومٌ في تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدّ والنهاية والكون في المكان ، وأقبحُ قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات ؛ فظنوا أن بَصَره في حدقة ، وسَمْعَه في عضوٍ ، وقدرته في يدٍ . . . إلى غير ذلك .

وقومٌ قاسوا حُكْمَه على حُكْمِ عباده ؛ فقالوا : ما يكون من الخَلْقِ قبيحاً فمنه قبيح ، وما يكون من الخَلْق حسناً فمنه حَسَنٌ ! ! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه – والحقُّ مستحِقٌّ للتنزيه دون التشبيه ، مستحق للتوحيد دون التحديد ، مستحق للتحصيل دون التعطيل والتمثيل .

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

(232/685)

" مقاليد " أي مفاتيح ، والمفاتيح للخزائن ، وخزائنه مقدوراته . وكما أن في الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال ؛ فبعض القلوب معادن المعرفة ، وبعضها معادن المحبة ، وبعضها للشوق ، وبعضها للأُنس . . وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبة والرضا . وفائدة التعريف بأن المقاليد له : أَنْ يقطع العبدُ أفكارَه عن الخَلْق ، ويتوجَّه في طلب ما يرد من الله الذي ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ، والذي هو ﴿ بِكُلِ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : يوسِّع ويضيِّق أرزاقَ النفوسِ وأرزاقَ القلوب حسبما شاء وحَكَمَ وعَلِمَ .

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

﴿ شَرَعَ ﴾ : أي بَيَّنَ وأظهر . ﴿ مِّنَ الدِّينِ ﴾ أراد به أصول الدين ؛ فإنها لا تختلف في جميع الشرائع ، وأمَّا الفروع فمختلفة ، فالآية تدلُّ على مسائل أحكامُها في جميعِ الشرائعِ واحدةٌ .

ثم بيَّن ذلك بقوله : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ . . . وفي القصة أن تحريم البنات والأخوات إنما شُرِعَ في زمان نوح عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 346.341 ﴾

(233/685)

قوله تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المراد بالمشركين مع عباد الأوثان أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله لقبولهم منهم التحليل والتحريم ، وكان ذلك مفهماً لأنهم فارقوا أهل الطاعة ، وكان ذلك موهماً لأنهم ما فارقوهم إلا عن جهل ، قال عاطفاً على ما تقديره : فأتى الرسل إلى الناس فأقاموا لهم الدين وبينوا لهم غاية التبيين فاجتبى الله بعضهم وأضل بعضهم فافترقوا : ﴿ وما تفرقوا ﴾ أي المشركين من قبلكم من أهل الكتاب وغيرهم في أديانهم ﴿ إلا ﴾ وأدخل الجار لعدم استغراق الزمان فقال : ﴿ من بعد ما جاءهم ﴾ أي على ألسنة أنبيائهم الذين لم يدعوا لبساً ﴿ العلم ﴾ أي بما لا يسوغ معه التفرق ومنه أن الفرقة ضلالة ، وأشار الجار أيضاً إلى أن التفرق كان مع العلم لم يكن طال الزمان فتطرق إلى علمهم نسيان كل ذلك بياناً لعظيم قدرة الله تعالى في تصرفه في القلوب ، فإياكم أن يكون حالكم كحالهم فليشتد خوفكم لربكم ورجاءكم له .

ولما كان ترك طريق العلم عجباً ومستبعداً ، قال مبيناً أن الذي حملهم على ذلك حظوظ الأنفس التي لا نجاة منها إلا بعصمة الله تعالى : ﴿ بغياً ﴾ أي حال كون تفرقهم عداوة ولا شبهة فيها هي بينة الظلم لأجل حظوظ الأنفس واتباع الأهواء التي يجب على العبد البعد عنها بأن لا تكون له إرادة أصلاً بل تكون إرادته تابعة لأمر مولاه .

ولما كان مطلق البغي منافياً لمكارم الأخلاق ، فكان ارتكابه عجباً ، زاد في التعجب منه

ببيان أن البغي لم يعد جماعتهم إلى غيرها ، بل كان خاصاً بها ، فقال : ﴿ بينهم ﴾ .
ولما كان ذلك يقتضي المعالجة ، قال عاطفاً على ما تقديره : فلولا قدرة الله ولطفه لما اجتمعوا بعد الفرقة أبداً : ﴿ ولولا كلمة ﴾ أي لا تبديل لها ﴿ سبقت ﴾ أي في الأزل بتأخيرهم إلى آجالهم .

(234/685)

ولما كان إمهالهم والرفق بهم رحمة لهم ، بين أن ذلك إنما هو لأجل خير الخلق ليكونوا أتباعاً له فيزدادوا لذلك شرفاً ، وأفرده بالذكر تنبيهاً على ذلك فقال مؤنساً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلفت الكلام إلى صفة الإحسان إرضاء له بما يرجوه في امته ، وزاد ذلك بالإضافة إلى ضميره فأفهم أن إحسانه إليهم إحسان يليق بمقامه ، ويلتئم بمراده الشريف ومرامه : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بجعلك خير الخلائق وإمامهم ، سبقت الكلمة بإمهالهم ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ ضربه لآجالهم ثم لجمعهم في الآخرة ﴿ لقضي ﴾ على أيسر وجه وأسهله ﴿ بينهم ﴾ حين الافتراق بإهلاك الظالم وإنجاء المحق .
ولما أخبر عن حال المتقدمين ، وكان من في زمانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل الكتاب يدعون غاية العلم بها والاجتماع عليها ، وهي كلها داعية إلى المبادرة إلى إرث هذا الكتاب

الخاتم الجامع ، وكان بعضهم يتلبس بالتنسك والإعراض عن الدنيا وغير ذلك مما يقتضي أنه على بصيرة من أمره ، وإنكار أن يكون عنده نوع شك ، قال على وجه يعم غيرهم ، مؤكداً تنبيهاً على ذلك : ﴿ وإن الذين ﴾ ولما كان المراد الوصول إلى الكتاب من غير منازع ، ولم تدع حاجة إلى العلم بالموصل ، بني للمفعول قوله : ﴿ أورثوا الكتاب ﴾ أي الكامل الخاتم ، وهم هذه الأمة بما نسخ كتابهم ما تقدمه كان غيرهم كأنه مات ، فورثوا كما قال تعالى

(235/685)

﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ [فاطر : 32] فكان حالهم في تمكنهم من التصرف في الكتاب بالحفظ والفهم وعدم المنازع في ادعائه حال الوارث والموروث منه فقال : ﴿ من بعدهم ﴾ أي المتفرقين ، وأثبت الجار لعدم استغراق الزمان ﴿ لفي شك منه ﴾ أي إيراث للكتاب المقتضي للاجتماع لا للتفرق لما فيه من الخير ، وذلك لعملهم عمل الشاك فيقولون : إنه سحر وشعر وكهانة ، ونحو ذلك ، وأن الآتي به غير صادق بعد اطلاعهم على ما اتى به من المعجزات وبعد معرفتهم به ، أما العرب ومن ساكنهم من أهل الكتاب فبإعجازه مع ما في أهل الكتاب من البشارة به ، وأما غير من ساكنهم فبدعوة كتابهم ﴿ مريب ﴾ أي موقع في التهمة الموقعة في الحاجة الموقعة في صروف الدهر وهي

شدائده وآفاته ونوائبه هذا على أن المراد كتابنا ، ويجوز أن يكون الضمير لأهل الكتاب خاصة والكتاب كتابهم ، وشكهم فيه عملهم بغير ما دعاهم إليه من اتباع كتابنا باتباع نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما ثبت بهذا زيغهم عن أوامر الكتاب الآتي من الله ، سبب عنه أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإبلاغ الناس ما ينفعهم عن رسالة ربه الذي أنزل تلك الكتب في آية واحد مفصلة بعشر كلمات في كل كلمة منها حكم برأسه ، قالوا : ولا نظير لها إلا آية الكرسي فإنها عشرة أصول كل أصل منها مستقل برأسه فقال مسبباً عن حالهم الاجتهاد في إزالتها والعمل بضدها : ﴿ فلذلك ﴾ أي لهذا الوحي العلي الرتبة الذي وصينا بمقاصده جميع الرسل أصحاب الشرائع الكبار من أولي العزم وغيرهم ، أو لذلك التصرف المباعد للصواب والشك في أمر الكتاب .

ولما كان سياق الدعوة للخلق إلى ما أوحى إليه فأنزل عليه ، قدم قوله : ﴿ فادع ﴾ إلى من أرسلك الله به من الاتفاق على ما أمر به الإله من الاجتماع على الملة الحنيفية .

(236/685)

ولما كان الداعي لغيره لا ينفع دعاءه لذلك الغير ما لم ينفع نفسه ، قال : ﴿ واستقم ﴾ أي اطلب القوم من ربك على مشاق الدعوة ليعينك عليه وأوجده على ما يدعو إليه كتابه مما تدعو إليه ويجب عليه ﴿ كما أمرت ﴾ ممن لا أمر لغيره في تفاصيل الدعاء من اللين والغلظة والتوسط وغير ذلك من تحديث الناس بما تحتمل عقولهم وتربيتهم على حسب ما ينفعهم .

ولما كان كل ما خالف كتابنا هوى ، وكل ما خالف كتابنا فهو على مجرد الهوى ، قال : ﴿ ولا تتبع ﴾ أي تعمداً ﴿ أهواءهم ﴾ في شيء ما ، فإن الهوى لا يدعو إلى خير ، والمقصود من كل أحد أن يفعل ما أمر به لأجل أنه أمر به لا لأجل أنه يهواه .

ولما كانوا قد تفرقوا في الكتاب وشكوا فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، أمره بما يخالف حالهم فقال : ﴿ وقل ﴾ أي لجميع أهل الفرق ، وكل من يمكن له القول فإنك أرسلت إلى جميع الخلق : ﴿ آمنت بما ﴾ أي بكل شيء .

(237/685)

ولما كان أكمل الناس إيماناً أكثرهم استحضاراً لأوصاف الكمال من الجلال والجمال ، صرف القول إلى الاسم الأعظم إشارة إلى سلوك أعلى المسالك في ذلك فقال : ﴿ أنزل الله ﴾ أي الذي له العظمة الكاملة ﴿ من كتاب ﴾ لا أفرق بين شيء من كتبه ولا أحد من

رسله ، بل كل كتاب ثبت أنه نزل على رسول ثبت رسالته بالمعجزة فأنا به مؤمن وإليه داعٍ كما اقتضاه كمال القوة النظرية ، قال أبو علي القالي في ذيل الأمالي : حدثنا أبو بكر – هو ابن الأنباري – حدثنا أبو جعفر محمد بن عثمان حدثنا صحاب بن الحارث أنا بشر بن عمارة عن محمد بن سوقة قال : أتى علياً ـ رضى الله عنه ـ رجل فقال : يا أمير المؤمنين ما الإيمان أو كيف الإيمان ؟ قال : الإيمان على أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهاد ، والصبر على أربع شعب : على الشوق والشفق والزهادة والترقب ، فمن اشتاق إلى الجنة سلى عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات ، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات ، واليقين على أربع شعاب : تبصرة الفطنة وتاويل الحكمة وموعظة العبرة وسنة الأولين ، فمن تبصر الفطنة تأول الحكمة ، ومن تأول الحكمة عرف بالعبرة ، ومن عرف العبرة عرف السنة ، ومن عرف السنة فكأنما كان في الأولين ، والعدل على أربع شعب : على غائص الفهم وزهرة الحلم وروضة العلم وشرائع الحكم ، فمن فهم جمع العلم ، ومن حلم لم يضل في الحكم ، ومن علم عرف شرائع الحكم ، ومن حلم لم يفرط أمره ، وعاش في الناس .

والجهاد على أربع شعب : على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين ، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمنين ، ومن نهى عن المنكر أرغم آناف

الفاسقين ، ومن صدق في المواطن فقد قضى الذي عليه ، ومن شنئ المنافقين غضب لله وغضب الله له فأزلفه وأعلى مقامه ، قال : فقام الرجل فقبل رأسه .

(238/685)

ولما أخبر بالعدل في القوة النظرية ، أتبعه ذلك في القوة العملية فقال : ﴿ وأمرت ﴾ أي ممن له الأمر كله بما أمرني به مما أنزل عليّ ﴿ لأعدل ﴾ أي لأجل أن أعدل ﴿ بينكم ﴾ أيها المفرّقون في الأديان من العرب والعجم من الجن والإنس كما دعى إليه كمال القوة العملية ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ الله ﴾ أي الذي له الملك كله ﴿ ربنا وربكم ﴾ أي موجدنا ومتولي جميع أمورنا ، فلهذا أمرنا بالعدل على سبيل العموم لأن الكل عباده .

ولما كان الرب واحداً ، انتج عنه قوله : ﴿ لنا أعمالنا ﴾ خاصة بنا لا تعدونا إلى غيرنا ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ خاصة بكم لا تعدوكم إلى غيركم ، لأنه لا داعي لأن نأخذ عمل بعضنا فنعطيه لغيره ، لأن ذلك لا يفعله إلا ذو غرض ، وهو سبحانه محيط بصفات الكمال ، فهو منزه عن الأغراض ، ولما وصل بتمام هذه الجملة في إزالة الريب وإثبات الحق إلى ما هو كالشمس لثبوت الرسالة بالمعجزات وإعجاز هذا الكتاب وتصادقه مع ما عند أهل الكتاب ، وبيان هاتين المقدمتين اللتين لا نزاع بين أحد من الخلق فيهما كانت نتيجة ذلك :

﴿ لا حجة ﴾ أي موجودة بمحاجة أحد منا لصاحبه ﴿ بيننا وبينكم ﴾ لأن الأمر وصل إلى الانكشاف التام فلا فائدة بعده للمحاجة فما بقي إلا المجادلة بالسيوف ، وإدارة كؤوس الحتوف ، لأنا نعلم بإعلام الله لنا في كتابه الذي دلنا إعجازه للخلائق على أنه كلامه ، فنحن نسمعه لذلك منه أنا على محض الحق وأنكم على محض الباطل ، وقد أعذرنا إليكم وأوصلنا ببراهينه إلى المشاهدة فلم يبق إلا السيف عملاً بفضيلة الشجاعة .

ولما كان هذا موضع أن يقال : أفما تخافون الله فيمن تقاتلونه وهو عباده ، أجاب بقوله مظهراً غير مضمر تعظيماً للأمر : ﴿ الله ﴾ أي الذي هو أحكم الحاكمين ﴿ يجمع بيننا ﴾ أي نحن وأنتم على دين واحد أراد فلا يكون قتال ، وفي الآخرة على كل حال ﴿ فهو يحكم بيننا ﴾ ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : 227] فما أقدمنا على القتال إلا عن بصيرة .

(239/685)

ولما كان الجامع بين ناس قد يكون مآلهم إلى غيره ، بين أن الأمر فيه على غير ذلك ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فمنه كان المبدأ : ﴿ وإليه ﴾ أي لا إلى غيره من حيث هذا الاسم الجامع لجميع الصفات ﴿ المصير ﴾ حساً ومعنى لتمام عزته وشمول عظمته وكمال رحمته

، وما كان فيما بين المبدأ والمعاد من الأمور التي كانت بحيث يظن أنها خارجة – لتصرف الغير فيها – إنما كانت ابتلاء منه يقيم بها الحجة على العباد على ما يتعارفونه بينهم ، وما كان المتصرف فيها غيره فتصرفهم إنما كان أمراً طارئاً يصحح عليهم الحجة ويلزمهم الحجة .

ولما كان التقدير : فالذين رجعوا إليه طوعاً في هذه الدار بعد هذا البيان والإظهار ، وتركوا الجدال حجتهم ثابتة ولهم الرضا والنعيم المقيم ، عطف عليه قوله مبتدئاً بالموصول ليصله بما يفهم التجدد والاستمرار : ﴿ والذين يحاجّون ﴾ أي يوردون تشكيكاً على دينه الحق من الشبه ما يسمونه حججاً ، ولعل الإدغام يشير إلى أن أهل هذا الضرب منافقون يلقون شبههم في خفاء فتشربها قلوب أمثالهم فتصير أهوية فيضعف أمرها ويؤيده تقييد الدحوض بما عند الرب ﴿ في الله ﴾ أي في دين الملك الأعظم ليعيدوا الناس بعدما دخلوا في نور الهدى إلى ظلام الضلال .

ولما كانت إقامة الحجة وإظهار المعجزة أمراً ملزماً لجميع من بلغه الاستجابة لوصول الأمر إلى حد من البيان سقط معه الجدال ، قال معلماً إن ما كان في قوة الوجود يصح أن يطلق عليه أنه موجود ، ومنبهاً بالجار على ذم هذا الجدال ولو قل زمنه : ﴿ من بعدما ﴾ ولما كان المقصود مطلق الاستجابة لا من مجيب معين قال : ﴿ استجيب له ﴾ أي استجاب له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وصار الناس كلهم بما يبين لهم مستجيبين بالقوة وإن لم

يستجيبوا بالفعل ، فإن الأمر قد ظهر غاية الظهور ، ولم يبق إلا العناد ، فهذه الجملة هي المراد والثمرة من قوله ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ .

(240/685)

ولما كان من خالف ظاهره باطنه ضعيف الحجة هلهل النسج ، قال معبراً بمبتدأ ثان مفرداً للحجة إشارة إلى ضعفها : ﴿ حجتهم ﴾ أي التي زعموها حجة ، وأخبر عن هذا المبتدأ الثاني ليكون هو وخبره خبراً عن الأول فقال : ﴿ داحضة ﴾ أي زالقة فهي ذاهبة غير ثابتة لأجل أنها في معارضة ما ظهوره كالشمس بل أجلى ، والعبارة لفتٌ إلى صفة الإحسان والعندية إشارة إلى شدة ظهور ما في حجتهم من الدحوض لأن ﴿ عند ﴾ للأمور الظاهرة المألوفة ، وصفة التربية للعطف والرفق ، والإضافة إلى ضميرهم تقتضي مزيد لطف وعطف ، فهو إشارة إلى أنها هباء منثور عند تدقيق النظر ولا سيما إذا كان بصفة عزة وقهر وغضب ، فالمعنى أن دحوضها ظاهراً جداً ولو عوملوا بصفة الإحسان ولو خصوا بمزيد عطف وبر ، فأين هذا مما لو قيل " لدى عليم قدير " فإنه يفهم أن دحوضها لا يدركه إلا بليغ العلم تام القدرة ، وهو مع ذلك غريب فيصير فيه نوع مدح لحجتهم في الجملة : ﴿ عند ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بإفاضة العقل الذي جعلهم به في أحسن تقويم ، فمهما

جردوه عن الهوى ، دلهم على أن جميع ما كانوا فيه باطل ، وفيه إشارة إلى أن أدنى ما يعذبهم به قطع إحسانه عنهم ، وأنه يظهر بطلان ما سموه حجة لكل عاقل فيورثهم الخزي في الدنيا والعذاب في الأخرى على أن قطع إحسانه هو عند التأمل أعلى العذاب

﴿ وعليهم ﴾ زيادة على قطع الإحسان ﴿ غضب ﴾ أي عقوبة تليق بحالهم المذموم ووصفهم المذؤوم ومنه الطرد ، فهم مطرودون عن بابه ، مبعودون عن جنابه ، مهانون بحجابه .

ولما أفهم التعبير ب " على " ذمهم باستعلاء النقم عليهم لم يشكل التعبير باللام ، بل كان مفهماً التهكم والملام فقال : ﴿ ولهم ﴾ أي مع ذلك ﴿ عذاب شديد ﴾ لا تصلون إلى إدراك حقيقة وصفه ، والآية مشيرة إلى الانتصار على أهل الردة وضربهم بكل شدة لسوء منزلتهم عنده كما كشف عنه الحال عند ندب الصديق إليهم بالقتال ـ رضى الله عنه ـ وأرضاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 611.616 ﴾

(241/685)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما بيّن أنه أمر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه ، كان لقائل أن يقول : فلماذا نجدهم متفرقين ؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة ، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية والأنفة الطبعية ، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقبح ما سواه طلباً للذكر والرياسة ، فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف ، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل ، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب ، لأن لكل عذاب عنده أجلاً مسمى ، أي وقتاً معلوماً ، إما لمحض المشيئة كما هو قولنا ، أو لأنه علم أن الصلاح تحقيقه به كما عند المعتزلة ، وهو معنى قوله ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ والأجل المسمى قد يكون في الدنيا وقد يكون في القيامة ، واختلفوا في الذين أريدوا بهذه الصفة من هم ؟ فقال الأكثرون هم اليهود والنصارى ، والدليل قوله تعالى في آل عمران ﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران : 19] وقال في سورة لم يكن ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ [البينة : 4] ولأن قوله ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ لائق بأهل الكتاب ، وقال آخرون : إنهم هم العرب ، وهذا باطل للوجوه المذكورة ، لأن قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ لا يليق بالعرب ، لأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ، هم

أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ من كتابهم ﴿ مُرِيبٍ ﴾ لا يؤمنون به حق الإيمان .

(242/685)

ثم قال تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فادع واستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ يعني فلأجل ذلك التفرق ولأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين ، فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفية واستقم عليها وعلى الدعوة إليها ، كما أمرك الله ، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كتاب ﴾ أي بأي كتاب صح أن الله أنزله ، يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، ونظيره قوله ﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ إلى قوله

﴿ أولئك هُمُ الكافرون ﴾ [النساء : 151] ثم قال : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلي ، قل القفال : معناه أن ربي أمرني أن لا أفرق بين نفسي وأنفسكم بأن آمركم بما لا أعمله ، أو أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه ، لكني أسوي بينكم وبين نفسي ، وكذلك أسوي بين أكابركم وأصاغركم فيما يتعلق بحكم الله .

ثم قال : ﴿ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

وَإِلَيْهِ المصير ﴾ والمعنى أن إله الكل واحد ، وكل واحد مخصوص بعمل نفسه ، فوجب أن يشتغل كل واحد في الدنيا بنفسه ، فإن الله يجمع بين الكل في يوم القيامة ويجازيه على عمله ، والمقصود منه المتاركة واشتغال كل أحد بمهم نفسه ، فإن قيل كيف يليق بهذه المتاركة ما فعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء ؟ قلنا هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الأنبياء ، ودخل فيه التوحيد ، وترك عبادة الأصنام ، والإقرار بنبوة الأنبياء ، وبصحة البعث والقيامة ، فلما لم يقبلوا هذا الدين ، فحينئذٍ فات الشرط ، فلا جرم فات المشروط .

(243/685)

واعلم أنه ليس المراد من قوله ﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ تحريم ما يجري مجرى محاجتهم ، ويدل عليه وجوه الأول : أن هذا الكلام مذكور في معرض المحاجة ، فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة ، لزم كونها محرمة لنفسها وهو متناقض والثاني : أنه لولا الأدلة لما توجه التكليف الثالث : أن الدليل يفيد العلم وذلك لا يمكن تحريمه ، بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما تركوا تصديقه بغياً وعناداً ، فبيّن تعالى أنه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم لأنهم عرفوا بالحجة صدقه فلا حاجة معهم إلى

المحاجة ألبتة ، ومما يقوي قولنا : أنه لا يجوز تحريم المحاجة ، قوله ﴿ وجادلهم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] وقوله تعالى : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل : 125] وقوله ﴿ ولا تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] وقوله ﴿ يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود : 32] وقوله ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيم على قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام : 83] .

(244/685)

ثم قال تعالى : ﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِي الله ﴾ أي يخاصمون في دينه ﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ أي باطلة وتلك المخاصمة هي أن اليهود قالوا ألستم تقولون إن الأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف ؟ فنبوّة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق ، ونبوة محمد ليست متفقاً عليها ، فإذا بنيتم كلامكم في هذه الآية على أن الأخذ بالمتفق أولى ، وجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى ، فبيّن تعالى أن هذه الحجة داحضة ، أي باطلة فاسدة ، وذلك لأن اليهود أطبقوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى عليه السلام لأجد ظهور المعجزات على وفق قوله ، وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام ، واليهود شاهدوا تلك

المعجزات ، فإن كان ظهور المعجزة يدل على الصدق ، فههنا يجب الإعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كان لا يدل على الصدق وجب في حق موسى أن لا يقروا بنبوته .

وأما الإقرار بنبوة موسى والإصرار على إنكار نبوة محمد مع استوائهما في ظهور المعجزة يكون متناقضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 136 . 137 ﴾

(245/685)

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا تفرقوا ﴾ قال ابن عباس : يعني قريشاً .

﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وكانوا يتمنّون أن يبعث إليهم نبيّ ؛ دليله قوله تعالى في سورة فاطر : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 42] يريد نبيًّا .

وقال في سورة البقرة : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ [البقرة : 89] على ما تقدّم بيانه هناك .

وقيل : أمم الأنبياء المتقدّمين ؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المدى ، فآمن قوم وكفر

قوم .

وقال ابن عباس أيضاً : يعني أهل الكتاب ؛ دليله في سورة الْمُنْفَكِّينَ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ [البينة : 4] .

فالمشركون قالوا : لِمَ خُصّ بالنبوة واليهود حسدوه لما بُعث ؛ وكذا النصارى .

﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ أي بغياً من بعضهم على بعض طلباً للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور في البيان والحجج ، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ في تأخير العقاب عن هؤلاء .

﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : القيامة ؛ لقوله تعالى : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر : 46] .

وقيل : إلى الأجل الذي قضى فيه بعذابهم .

﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين من آمن وبين مَن كفر بنزول العذاب .

﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب ﴾ يريد اليهود والنصارى .

﴿ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد المختلفين في الحق .

﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ من الذي أوصى به الأنبياء .

والكتاب هنا التوراة والإنجيل .

وقيل : "إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ" قريش .

"مِنْ بَعْدِهِمْ" من بعد اليهود النصارى .

"لَفِي شَكٍّ" من القرآن أو من محمد .

وقال مجاهد : معنى "مِنْ بَعْدِهِمْ" من قبلهم ؛ يعني من قبل مشركي مكة ، وهم اليهود والنصارى .

(246/685)

قوله تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فادع واستقم ﴾ لما جاز أن يكون الشك لليهود والنصارى ، أو لقريش قيل له : ﴿ فَلِذَلِكَ فادع ﴾ أي فتبينت شكّهم فادع إلى الله ؛ أي إلى ذلك الدين الذي شرعه الله للأنبياء ووصاهم به .

فاللام بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ أي إليها .

و"ذلك" بمعنى هذا .

وقد تقدّم أول "البقرة" .

والمعنى فلهذا القرآن فادع .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع .

وقيل : إن اللام على بابها ؛ والمعنى : فمن أجل ذلك الذي تقدم ذكره فادع واستقم .

قال ابن عباس : أي إلى القرآن فادع الخلق .

﴿ واستقم ﴾ خطاب له عليه السلام .

قال قتادة : أي استقم على أمر الله .

وقال سفيان : أي استقم على القرآن .

وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة .

﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي لا تنظر إلى خلاف من خالفك .

﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي أن أعدل ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ [غافر : 66] .

وقيل : هي لام كي ، أي لكي أعدل .

قال ابن عباس وأبو العالية : لأسوّي بينكم في الدّين فأومن بكل كتاب وبكل رسول .

وقال غيرهما : لأعدل في جميع الأحوال .

وقيل : هذا العدل هو العدل في الأحكام .

وقيل في التبليغ : ﴿ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود ؛ أي لنا ديننا ولكم دينكم .

قال : ثم نُسخت بقوله : ﴿ قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر ﴾ [التوبة : 92] الآية .

قال مجاهد : ومعنى "لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ" لا خصومة بيننا وبينكم .

وقيل : ليس بمنسوخ ، لأن البراهين قد ظهرت ، والحجج قد قامت ، فلم يبقَ إلا العناد ، وبعد العناد لا حجة ولا جدال .

(247/685)

قال النحاس : ويجوز أن يكون معنى "لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ" على ذلك القول : لم يؤمر أن يحتجّ عليكم ويقاتلكم ؛ ثم نسخ هذا .

كما أن قائلاً لو قال من قبل أن تحوّل القبلة : لا تصلّ إلى الكعبة ، ثم حوّل الناس بعد ؛ لجاز أن يقال نسخ ذلك .

﴿ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يريد يوم القيامة .

﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ أي فهو يحكم بيننا إذا صرنا إليه ، ويجازي كُلاًّ بما كان عليه .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش ، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوّجه شيبةُ بابنته .

قوله تعالى : ﴿ والذين يُحَآجُّونَ فِي الله ﴾ رجع إلى المشركين .

﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس .

قال : وهؤلاء قد توهّموا أن الجاهلية تعود .

وقال قتادة : الذين يحاجون في الله اليهود والنصارى ، ومحاجّتهم قولهم نبيّنا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء .

وكان المشركون يقولون : ﴿ أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] فقال الله تعالى : ﴿ والذين يُحَآجُّونَ فِي الله مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي لا ثبات لها كالشيء الذي يزلّ عن موضعه .

والهاء في "لَهُ" يجوز أن يكون لِلّه عز وجل ؛ أي من بعد ما وحّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية .

ويجوز أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي من بعد ما استجيب لمحمد صلى الله عليه وسلم في دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين .

يقال : دَحَضت حجته دُحوضاً بطلت .

وأدحضها الله .

والإدحاض : الإزلاق .

ومكان دَحْض ودَحَض أيضاً (بالتحريك) أي زَلِق .

ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضاً زَلَقت .

ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت .

﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ يريد في الدنيا .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يريد في الآخرة عذاب دائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(248/685)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ ﴾ أي أمم الأنبياء بعد وفاة أنبيائهم كما في الكشف منذ بعث نوح عليه السلام في الدين لا الذي دعوا إليه واختلفوا فيه في وقت من الأوقات ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ حتى جَاءهُمُ العلم ﴾ من أنبيائهم بأن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه ؛ وهذا يؤيد ما دل عليه سابقاً من أن الأمم القديمة والحديثة أمروا باتفاق الكلمة وإقامة الدين ، والمراد بالعلم سببه مجازاً مرسلاً ، ويجوز أن يكون التجوز في الاسناد ، وأن يكون الكلام بتقدير مضاف أي جاءهم سبب العلم ، وقد يقال جاء مجاز عن حصل ، والاستثناء على ما أشرنا إليه مفرغ من أعم الأوقات ، وجوز أن يكون من أعم الأحوال أي ما تفرقوا في حال من الأحوال إلا حال مجيء العلم ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ أي عداوة على أن البغي الظلم والتجاوز والعداوة

سبب له وهي الداعي للتفرق أو طلبا للدنيا والرياسة على أن البغي مصدر بغى بمعنى طلب ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ هي عدته تعالى بترك معاجلتهم بالعذاب ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ معلوم له سبحانه وهو يوم القيامة أو آخر أعمارهم المقدرة لهم ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ باستئصال المبطلين حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهده صلى الله عليه وسلم وقرأ زيد ابن علي ﴿ وَرِثُواْ ﴾ مبنياً للمفعول مشدداً لواو ﴿ لَفِى شَكّ مّنْهُ ﴾ أي من كتابهم فلم يؤمنوا به حق الإيمان ﴿ مُرِيبٍ ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة ، والجملة اعتراض يؤكد أن تفرقهم ذلك باق في أعقابهم منضماً إليه الشك في كتابهم مع انتسابهم إليه فهو تفرقوا بعد العلم الحاصل لهم من النبي المبعوث إليهم المصدق لكتابهم وتفرقوا قبله شكا في كتابهم فلم يمنوا به ولم يصدقوا حقه .

(249/685)

﴿ فَلِذَلِكَ ﴾ أي إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر في الأمم السالفة شعباً ﴿ فادع ﴾ إلى الائتلاف والاتفاق على الملة الحنيفية القديمة ﴿ واستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أي أثبت على الدعاء كما أوحى إليك ، وقيل : الإشارة إلى

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم ﴾ [الشورى : 13] وما يتصل به ونقل عن الواحدي أي ولأجل ذلك من التوصية التي شوركت فيها مع نوح ومن بعده ولأجل ذلك الأمر بالإقامة والنهي عن التفرق فادع ، وما ذكر أولى لأن قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ﴾ شمل النبي عليه الصلاة والسلام وأتباعه كما سمعت ، ويدل عليه ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم أليه ﴾ [الشورى : 13] فقوله تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فادع ﴾ الخ لا يتسبب عنه لما يظهر من التكرار وهو تفرع الأمر عن الأمر ، وأما تسببه عن تفرقهم فظاهر على معنى فلما أحدثوا من التفرق وأبدعوا فاثبت أنت على الدعاء الذي أمرت به واستقم وهذا ظاهر للمتأمل . ومن الناس من جعل المشار إليه الشرع السابق ولم يدخل فيه الأمر بالإقامة لئلا يلزم التكرار أي فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون فادع ، وقيل : هو الكتاب ، وقيل : هو العلم المذكور في قوله تعالى : ﴿ جَاءهُمُ العلم ﴾ [الشورى : 14] وقيل : هو الشك ورجح بالقرب وليس بذاك ، واللام على جميع الأقوال المذكورة للتعليل ، وقيل : على بعضها هي بمعنى إلى صلة الدعاء فما بعدها هو المدعو إليه ، وأنت تعلم أنه لا حاجة في إرادة ذلك إلى جعلها بمعنى إلى فإن الدعاء يتعدى بها أيضاً كما في قوله :

شع دعوت لما نابني مسوراً . . .

ونقل ذلك عن الفراء والزجاج ، وأياً ما كان فالفاء الأولى واقعة في جواب شرط مقدر كما أشرنا إليه والفاء الثانية مؤكدة للأولى ، وقيل : كان الناس بعد الطوفان أمة واحدة موحدين فاختلف أبناؤهم بعد موتهم حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين ، وجعل ضمير ﴿ تَفَرَّقُواْ ﴾ لأخلاف أولئك الموحدين والذين أورثوا الكتاب باق على ما تقدم والأول أظهر .

وقيل : ﴿ ضمير ﴾ تفرقوا لأهل الكتاب تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم فهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ [البينة : 4] وإنما تفرقوا حسداً له عليه الصلاة والسلام لا لشبهة ، والمراد بالذين أورثوا الكتاب من بعدهم مشركو مكة وأحزابهم لأنهم أورثوا القرآن فالكتاب القرآن وضمير منه له وقيل للرسول وهو خلاف الظاهر ، واختار كون المتفرقين أهل الكتاب اليهود والنصارى والمورثين الشاكين مشركي مكة وأحزابهم شيخ الإسلام واستظهر أن الخطاب في ﴿ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى : 13] لأمته صلى الله عليه وسلم .

وتعقب القول بكون المتفرق كل أمة بعد نبيها والقول بكونه اخلاف الموحدين الذين كانوا بعد الطوفان فقال : يرد ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : 14] فإن مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار إمهال على أن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيد الوجوب إقامته وتشديداً للرجز عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الاخلال بذلك المرام انتهى .

(251/685)

وأجيب عن الأول بأن ضمير ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لأولئك الذين تفرقوا وقد علمت أن المراد بهم المتفرقون بعد وفاة أنبيائهم وهو لم يصبهم عذاب الاستئصال وإنما أصاب الذين لم يؤمنوا في عهد أنبيائهم واطلاق المتفرقين ليس بذاك الظهورو ، وقيل : المراد لقضي بينهم ريثما افترقوا ولم يمهلوا أعواما ، وقيل : المراد لقضي بينهم باهلاك المبطين وإثابة المحقين إثابتهم في العقبى وهو كما ترى ، وعن الثاني بأنا لا نسلم إيهام التعرض لبيان تفرق الأمم الإخلال بالمرام بعد بيان أنه لم يكن إلا بعد أن جاءهم العلم بأنه ضلال وفساد وأمر متوعد عليه وأنه كان بغيا بينهم ولم يكن لشبهة في صحة الدين ، وقيل : ضمير ﴿ تَفَرَّقُواْ ﴾ للمشركين في قوله تعالى :

﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين ﴾ [الشورى : 13] .

حكى في البحر عن ابن عباس أنه قال : وما تفرقوا يعني قريشاً والعلم ممد صلى الله عليه وسلم وكانوا يتمنون أن يبعث إليهم نبي كما قال سبحانه : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 42] الآية ، وقد يقال عليه : المراد بالذين أورثوا الكتاب أهل الكتاب الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ﴿ من بعدهم ﴾ [الشورى : 14] على ما قال أبو حيان من بعد أسلافهم .

ونقل الطبرسي عن السدى ما يدل على أن المراد من بعد احبارهم وفسر الموصول بعوام أهل الكتاب ، وقيل : ضمير بعدهم للمشركين أيضاً والبعدية رتبية كما قيل في قوله تعالى : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ [النازعات : 30] ولا يخفى عليك أنه لا بأس بعود ضمير ﴿ تَفَرَّقُواْ ﴾ للمشركين لوجود للذين أورثوا الكتاب توجيه يقع في حيز القبول والله تعالى الموفق ، وجعل متعلق ﴿ استقم ﴾ الدعاء لا تخفى مناسبته .

(252/685)

وجوز جعله عاماً فيكون استقم أمراً بالاستقامة في جميع أموره عليه الصلاة والسلام ، والاستقامة أن يكون على خط مستقيم ، وفسرها الراغب بلزوم المنهج المستقيم فلا

حاجة إلى التأويل بالدوام على الاستقامة أي دم على الاستقامة ﴿ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي شيئاً من أهوائهم الباطلة على أن الإضافة للجنس ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ ﴾ أي بجميع الكتب المنزلة لأن ما من أدوات العموم ، وتنكير ﴿ كِتَابٍ ﴾ المبين مؤيد لذلك ، وفي هذا القول تحقيق لحق وبيان لاتفاق الكتب في الأصول وتأليف القلوب لأهل الكتابين وتعريض بهم حيث لم يؤمنوا بجميعها ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي أمرني الله تعالى بما أمرني به لأعدل بينكم في تبليغ الشرائع والأحكام فلا أخص بشيء منها شخصاً دون شخص وقيل : لأعدل بينكم في الحكم إذا تخاصمتم ، وقيل : بتبليغ الشرائع وفصل الخصومة واختاره غير واحد ، وقيل : لا سوى بيني وبينكم ولا آمركم بما لا أعلمه ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ولا أفرق بين أصاغركم وأكابركم في إجراء حكم الله عز وجل ، فاللام للتعليل والمأمور به محذوف ، وقيل : اللام مزيدة أي أمرت أن أعدل ويحتاج لتقدير الباء أي بأن أعدل ، ولا يخلو عن بعد ﴿ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي خالق الكل ومتولي أمره فليس المراد خصوص المتكلم والمخاطب ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا ﴾ لا يتخطانا جزاؤها ثواباً كان أو عقاباً ﴿ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ لا يجاوزكم آثارها لننتفع بحسناتكم ونتضرر بسيئاتكم ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي لا احتجاج ولا خصومة لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمالفة محمل سوى المكابرة والعناد ، وجاءت الحجة هنا على أصله فإنها في الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج كما ذكره الراغب وشاعت بمعنى الدليل

وليس بمراد ﴿ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ فيفصل سبحانه بيننا وبينكم ، وليس

(253/685)

في الآية ما يدل على متاركة الكفار رأساً حتى تكون منسوخة بآية السيف ، وادعى أبو حيان أن ما يظهر منها الموادعة المنسوخة بتلك الآية .

﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِى الله ﴾ أي يخاصمون في دينه ، قال ابن عباس .

ومجاهد نزلت في طائفة من بني إسرائيل همت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم فقالوا : كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم ، وفي رواية بدل فديننا الخ فنحن أولى بالله تعالى منكم ، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ الله والفتح ﴾ [النصر : 1] قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجاً فاخرجوا من بين أظهرنا أو اتركوا الإسلام ، والمحجة فيه غير ظاهرة ولعلهم مع هذا يذكرون ما فيه ذلك ﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس لله عز وجل أو لدينه ودخلوا فيه وأذعنوا له لظهور الحجة ووضح المحجة ، والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

زائلة باطلة لا تقبل عنده عز وجل بل لا حجة لهم أصلاً ، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة وهي الدليل ههنا مجاراة معهم على زعمهم الباطل .

(254/685)

وجوز كون ضمير ﴿ لَهُ ﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام لكونه في حكم المذكور والمستجيب أهل الكتب واستجابتهم له صلى الله عليه وسلم إقرارهم بنعوته واستفتاحهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام فإذا كانوا هم المحاجين كان الكلام في قوة والذين يحاجون في دين الله من بعد ما استجابوا لرسوله وأقروا بنعوته حجتهم في تكذيبه باطلة لما فيها من نفي ما أقروا به قبل وصدقه العيان ، وقيل : المستجيب هو الله عز وجل وضمير ﴿ لَهُ ﴾ لرسوله عليه الصلاة والسلام ، واستجابته تعالى له صلى الله عليه وسلم بإظهار المعجزات الدالة على صدقه ، وإلى نحوه ذهب الجبائي حيث قال : أي من بعد ما استجاب الله تعالى دعاءه في كفار بدر حتى قتلهم بأيدي المؤمنين ودعاءه على أهل مكة حتى قحطوا ودعاءه لمستضعفين حتى خلصهم الله تعالى من أيدي قريش وغير ذلك مما يطول تعداده ، وبطلان حجتهم لظهور خلاف ما تقتضيه بزعمهم بذلك ، وهذا ظاهر في أن هذه الآية مدنية لأن وقعة بدر بعد الهجرة وحمل ﴿ استجيب ﴾ على الوعد خلاف

الظاهر جداً ، وكذا ما روى عن عكرمة ، وقيل : إن حمل الاستجابة على استجابة أهل الكتاب يقتضي ذلك أيضاً إذ لم يكن بمكة أحد منهم ، وقيل : لا يقتضيه لأن خبر استجابتهم وإقرارهم بنعوته صلى الله عليه وسلم وهو عليه الصلاة والسلام بمكة بلغ أهل مكة والمجادلون محمول عليهم فلا مانع من كونها مكية ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لا يقادر قدره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(255/685)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾

عطف على جملة ﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ [الشورى : 13] وما بينهما اعتراض كما علمت ، وفي الكلام حذف يدل عليه قوله : ﴿ وما تفرقوا ﴾ تقديره : فتفرقوا .

وضمير ﴿ تفرقوا ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ أن أقيموا الدّين ولا تتفرقوا ﴾ [الشورى : 13] وهم أمم الرّسل المذكورين ، أي أوصيناهم بواسطة رسلهم بأن يقيموا الدّين .

دلّ على تقديره ما في فعل ﴿ وصَّى ﴾ [الشورى : 13] من معنى التبليغ كما تقدم .

والعلم : إدراك العقل جزماً أو ظنّاً .

ومجيء العِلم إليهم يؤذن بأن رسلهم بيّنوا لهم مضارّ التفرق من عهد نوح كما حكى الله عنه في قوله : ﴿ ثم إنّي دعوتُهم جِهاراً ثم إنِيَ أعلنتُ لهم وأسررت لهم إسراراً ﴾ إلى قوله : ﴿ سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ في سورة نوح (208) .

وإنما تلقَّى ذلك العِلمَ علماؤهم .

ويجوز أن يكون المراد بالعلم سببَ العلم ، أي إلاّ من بعد مجيء النبي بصفاته الموافقة لما في كِتابهم فتفرقوا في اختلاق المطاعن والمعاذير الباطلة لينفوا مطابقة الصفات ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ وما تَفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيِّنة ﴾ [البينة : 4] على أحد تفسيرين .

والمعنى : وما تفرقت أممهم في أديانهم إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم من النهي عن التفرق في الدّين مع بيانهم لهم مفاسد التفرق وأضراره ، أي أنهم تفرقوا عالمين بمفاسد التفرق غير معذورين بالجهل .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيّنة ﴾ [البينة : 4] على التفسير الآخر .

وذُكر سبب تفرقهم بقوله : ﴿ بغياً بينهم ﴾ أي تفرّقوا لأجل العداوة بينهم ، أي بين المتفرقين ، أي لم يحافظوا على وصَايَا الرّسل .

(256/685)

وهذا تعريض بالمشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام لعداوتهم للمؤمنين وقولُه : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ الخ تحذير للمؤمنين من مثل ذلك الاختلاف .

وتنكير ﴿ كلمة ﴾ للتنويع لأن لكل فريق من المتفرقين في الدّين كلمة من الله في تأجيلهم فهو على حدّ قوله تعالى : ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ [البقرة : 7] .

وتنكير ﴿ أجل ﴾ أيضاً للتنويع لأن لكل أمة من المتفرقين أجلاً مسمى ، فهي آجال متفاوتة في الطّول والقصر ومختلفة بالأزمنة والأمكنة .

والمراد بالكلمة ما أراده الله من إمهالهم وتأخير مؤاخذتهم إلى أجل لهم اقتضته حكمتُه في نظام هذا العالم ، فربّما أخرهم ثم عذّبهم في الدنيا ، وربّما أخرهم إلى عذاب الآخرة ، وكل ذلك يدخل في الأجل المسمّى ، ولكل ذلك كلمته .

فالكلمة هنا مستعارة للإرادة والتقدير .

وسبقها تقدمها من قَبل وقت تفرقهم وذلك سبْق علم الله بها وإرادته إيّاها على وقف

علمه وقدره ، وقد تقدم نظير هذه الكلمة في سورة هود وفي سورة طه .

﴿ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ إلى قوله : ﴿ لقضي بينهم ﴾ .

وهذه الجملة هي المقصود من جملة ﴿ شَرَعَ لكم من الدّين ما وصَّى به نوحاً ﴾ إلى قوله : ﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ [الشورى : 13] ، لأن المقصود أهل الكتاب الموجودون في زمن نزول الآية .

وإذ قد كانت من الأمم التي أوحى الله إلى رسلهم أمتَانِ موجودتان في حين نزول هذه الآية وهما اليهود والنصارى ، وكانتا قد تفرقتا فيما جاءهم به العلم ، وكان الله قد أخّر القضاء بين المختلفين منهم إلى أجل مسمّى ، وكانوا لمَّا بلغتهم رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم شَكُّوا في انطباق الأوصاف التي وردت في الكتاب بوصف النبي الموعود به .

(257/685)

فالمعنى : أنه كما تفرق أسلافهم في الدّين قبل بعثة النبي الموعود به تفرق خلَفُهم مثلهم وزادوا تفرقاً في تطبيق صفات النبي الموعود به تفرقاً ناشئاً عن التردد والشك ، أي دونَ

بذل الجهد في تحصيل اليقين ، فلم يزل الشك دأبهم .

فالمخبر عنهم بأنهم في شك : هم الذين أُورثوا الكتاب من بعدِ سلفهم .

وقد جاء نظم الآية على أسلوب إيجاز يتحمل هذه المعاني الكثيرةَ وما يتفرع عنها ، فجيء بضمير ﴿ منه ﴾ بعد تقدُّم ألفاظ صالحة لأن تكون معادَ ذلك الضمير ، وهي لفظ ﴿ الدِّين في قوله من الدّين ﴾ [الشورى : 13] ، ولفظ الذي ﴾ في قوله : ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ [الشورى : 13] ، و ﴿ ما الموصولةُ في قوله : ﴿ ما تدعوهم إليه ﴾ [الشورى : 13] ، وهذه الثلاثة مدلولها الإسلام .

وهنالك لفظ ﴿ ما وصيّنا ﴾ [الشورى : 13] المتعدّي إلى موسى وعيسى ، ولفظ ﴿ الكتاب ﴾ في قوله ﴿ وإن الذين أُورثوا الكتاب ﴾ .

وهذان مدلولهما كتابَا أهل الكتاب .

وهؤلاء الذين أوتوا الكتاب هم الموجودون في وقت نزول الآية .

والإخبار عنهم بأنهم في شك ناشيءٍ من تلك المعادات للضمير معناه : أن مبلغ كفرهم وعنادهم لا يتجاوز حالة الشك في صدق الرّسالة المحمدية ، أي ليسوا مع ذلك بموقنين بأن الإسلام باطل ، ولكنهم تردّدوا ثم أقدموا على التكذيب به حسداً وعناداً .

فمنهم من بقي حالهم في الشك .

ومنهم من أيقن بأن الإسلام حق ، كما قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما

يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ [البقرة : 146] .

ويحتمل أن المعنى لفي شك بصدق القرآن أو في شك مما في كتابهم من الأمور التي تفرقوا فيها ، أو ما في كتابهم من الدّلالة على مجيء النبي الموعود به وصفاته .

فهذه معان كثيرة تتحملها الآية وكلها منطبقة على أهل الكتابَيْن وبذلك يظهر أنه لا داعي إلى صرف كلمة ﴿ شك ﴾ عن حقيقتها .

(258/685)

ومعنى ﴿ أورثوا الكتاب ﴾ صار إليهم علم الكتاب الذي اختلف فيه سلفُهم فاستعير الإرث للخَلفِيّة في علم الكتاب .

والتعريف في ﴿ الكتاب ﴾ للجنس ليشمل كتاب اليهود وكتاب النصارى .

فضمير ﴿ من بعدهم ﴾ عائِد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ تفرقوا ﴾ وهم الذين خوطبوا بقوله ﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ [الشورى : 13] .

وظرفية قوله : ﴿ في شك ﴾ ظرفية مجازية وهي استعارة تبعية ، شُبه تمكن الشك من نفوسهم بإحاطة الظرف بالمظروف .

و(من) في قوله : ﴿ لفي شك منه ﴾ ابتدائية وهو ابتداء مجازي معناه المصاحبة

والملابسة ، أي شك متعلق به أو في شك بسببه .

ففي حرف (من) استعارة تبعية ، وقع حرف (مِن) موقع باء المصاحبة أو السببية .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنَّ ﴾ للاهتمام ومجرد تحقيقه للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وهذا الاهتمام كناية عن التحريض للحذر من مكرهم وعدم الركون إليهم لظهور عداوتهم لئلا يركنوا إليهم ، ولعل اليهود قد أخذوا يومئذٍ في تشكيك المسلمين واختلطوا بهم في مكّة ليتطلعوا حال الدعوة المحمدية .

هذا هو الوجه في تفسير هذه الآية وهو الذي يلتئم مع ما قبله ومع قوله بعده ﴿ ولا تتبع أهواءهم وقُل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرتُ لأعدل بينكم الله ربّنا وربّكم ﴾ [الشورى : 15] الآية .

والمريب : الموجب الريب وهو الاتهام .

فالمعنى : لفي شك يفضي إلى الظنة والتهمة ، أي شك مشوب بتكذيب ، ف ﴿ مريب ﴾ اسم فاعل من أراب الذي همزته للتعدية ، أي جاعل الريب ، وليست همزةَ أراب التي هي للجعل في قولهم : أرابني بمعنى أوهمني منه ريبة وهو ليس بذي ريب ، كما في قول بشار :

أخوك الذي إن رِبْتَه قال إنّما

أرَبْتَ وإن عاتبته لان جانبه . . .

على رواية فتح التاء من أربتَ ، وتقدم قوله ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ في سورة هود (62) .

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ

(259/685)

الفاء للتفريع على قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ [الشورى : 13] إلى آخره ، المفسر بقوله : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [الشورى : 13] المخلل بعضه بجمل معترضة من قوله : ﴿ كبر على المشركين إلى من ينيب ﴾ [الشورى : 13] .

واللام يجوز أن تكون للتعليل وتكونَ الإشارة بذلك إلى المذكور ، أي جميع ما تقدم من الأمر بإقامة الدّين والنهي عن التفرق فيه وتلقي المشركين للدعوة بالتجهم وتلقي المؤمنين لها بالقبول والإنابة ، وتلقي أهل الكتاب لها بالشك ، أي فلأجل جميع ما ذكر فادعُ واستقِم ، أي لأجل جميع ما تقدم من حصول الاهتداء لمن هداهم الله ومن تبرم المشركين ومن شك أهل الكتاب فادْع .

ولم يذكر مفعول (ادْع) لدلالة ما تقدم عليه ، أي ادع المشركين والذين أوتوا الكتاب والذين

اهتدوا وأنابوا .

وتقديم (لذلك) على متعلقه وهو فعل (ادع) للاهتمام بما احتوى عليه اسم الإشارة إذ هو مجموع أسباب للأمر بالدوام على الدعوة .

ويجوز أن تكون اللام في قوله : ﴿ فلذلك ﴾ لامَ التقوية وتكون مع مجرورها مفعول (ادعُ) .

والإشارة إلى ﴿ الدّين من قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ [الشورى : 13] أي فادع لذلك الدّين .

وتقديم المجرور على متعلَّقه للاهتمام بالدّين .

وفعل الأمر في قوله : فادع ﴾ مستعمل في الدّوام على الدّعوة كقوله : ﴿ يا أيها الذّين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136] ، بقرينة قوله : ﴿ كما أُمرت ﴾ ، وفي هذا إبطال لشبهتهم في الجهة الثالثة المتقدمة عند قوله تعالى : ﴿ كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ [الشورى : 13] .

والفاء في قوله : ﴿ فادع ﴾ يجوز أن تكون مؤكدة لفاء التفريع التي قبلها ، ويجوز أن تكون مضمنة معنى الجزاء لما في تقديم المجرور من مشابهة معنى الشرط كما في قوله تعالى : ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس : 58] .

والاستقامة : الاعتدال ، والسين والتاء فيها للمبالغة مثل : أجاب واستجاب .

والمراد هنا الاعتدال المجازي وهو اعتدال الأمور النفسانية من التقوى ومكارم الأخلاق ، وإنّما أُمر بالاستقامة ، أي الدوام عليها ، للإشارة إلى أن كمال الدعوة إلى الحق لا يحصل إلا إذا كان الداعي مستقيماً في نفسه .

والكاف في ﴿ كما أمرت ﴾ لتشبيه معنى المماثلة ، أي دعوة واستقامة مثل الذي أمرت به ، أي على وفاقه ، أي وافية بما أمرت به .

وهذه الكاف مما يسمى كاف التعليل كقوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [البقرة : 198] ، وليس التعليل من معاني الكاف في التحقيق ولكنه حاصلُ معنًى يعرض في استعمال الكاف إذا أريد تشبيه عاملها بمدخولها على معنى المطابقة والموافقة .

والاتِّباع يطلق مجازاً على المجاراة والموافقة ، وعلى المحاكاة والمماثلة في العمل ، والمراد هنا كِلا الإطلاقين ليرجع النهي إلى النهي عن مخالفة الأمرين المأمور بهما في قوله ﴿ فادع واستقم ﴾ .

وضمير ﴿ أهواءهم ﴾ للذين ذكروا من قبل من المشركين والذين أوتوا الكتاب ، والمقصود : نهي المسلمين عن ذلك من باب ﴿ لَئن أشركتَ ليحبَطَنَّ عَمَلُك ﴾ [الزمر :

65] ألا ترى إلى قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ في سورة هود (112) .

ويجوز أن يكون معنى ﴿ ولاَ تتبع أهواءَهم ﴾ لا تجارِهم في معاملتهم ، أي لا يحملك طعنهم في دعوتك على عدم ذكر فضائل رُسلهم وهدي كتبهم عدا ما بدّلوه منها فأعْلِن بأنك مؤمن بكتبهم ، ولذلك عطف على قوله : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ قولُه : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ الآية ، فموقع واو العطف فيه بمنزلة موقع فاء التفريع .

ويكون المعنى كقوله تعالى : ﴿ ولا يَجْرِمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ في سورة المائدة (8) .

(261/685)

والأهواء : جمع هوى وهو المحبة ، وغلب على محبة ما لاَ نفع فيه ، أي ادعهم إلى الحق وإن كرهوه ، واستقم أنت ومن معك وإن عاداكم أهل الكتاب فهم يحبون أن تتبعوا ملتهم ، وهذا من معنى قوله : ﴿ ولن ترضَى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قُل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴾ [البقرة : 120] .

وقوله : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ بعد قوله : ﴿ فادع ﴾ أمرٌ بمخالفة اليهود إذ قالوا : ﴿ نؤمن ببعضٍ ﴾ [النساء : 150] يعنون التوراة ، ﴿ ونكفر ببعضٍ ﴾ [النساء : 150] يعنون الإنجيل والقرآن ، فأمر الرّسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون بالإيمان بالكتب الثلاثة الموحى بها من الله كما قال تعالى : ﴿ ونؤمنون بالكتاب كلّه ﴾ [آل عمران : 119] .

فالمعنى : وقل لمن يهمه هذا القول وهم اليهود .

وإنما أمر بأن يقول ذلك إعلاناً به وإبلاغاً لأسماع اليهود ، فلا يقابِل إنكارَهم حقّيَّةَ كتابه بإنكاره حقّيّةَ كتابهم وفي هذا إظهارٍ لما تشتمل عليه دعوته من الإنصاف .

و﴿ من كتاب ﴾ بيان لما أنزل الله ، فالتنكير في ﴿ كتاب ﴾ للنوعية ، أي بأي كتاب أنزله الله وليس يومئذٍ كتاب معروف غير التوراة والإنجيل والقرآن .

وضمير ﴿ بينكم ﴾ خِطاب للذين أمر بأن يُوجه هذا القول إليهم وهم اليهود ، أي أمرت أن أقيم بينَكم العدل بأن أدعوكم إلى الحق ولا أظلمكم لأجل عداواتكم ولكني أنفذ أمر الله فيكم ولا أنتمي إلى اليهود ولا إلى النصارى .

ومعنى ﴿ بينكم ﴾ أنني أقيم العدل بينكم فلا ترون بينكم جوراً مني ، ف (بين) هنا ظرف متحد غير موزَّع فهو بمعنى وسَط الجَمع وخلالَه ، بخلاف (بين) في قول القائل :

قضَى بين الخصمين أو قسم المال بين العفاة .

فليس المعنى : لأعدل بين فرقكم إذ لا يقتضيه السياق .

(262/685)

وفي هذه الآية مع كونها نازلة في مكة في زمن ضعف المسلمين إعجاز بالغيب يدل على أن الرّسول صلى الله عليه وسلم سيكون له الحكم على يهود بلاد العرب مثل أهل خيبر وتيماءَ وقُريظة والنضِير وبني قَيْنُقَاع ، وقد عَدَل فيهم وأقرهم على أمرهم حتى ظاهروا عليه الأحزاب كما تقدم في سورة الأحزاب .

واللام في قوله : ﴿ لأعدل ﴾ لامٌ يكثر وقوعها بعد أفعال مادتَيْ الأمر والإرَادة ، نحو قوله تعالى : ﴿ يُريد الله ليبيّنَ لكم ﴾ [النساء : 26] ، وتقدم الكلام عليها وبعضهم يجعلها زائدة .

وجملة ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ من المأمور بأن يقوله .

فهي كلها جملة مستأنفة عن جُملة ﴿ آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ مقررةٌ لمضمونها لأن المقصود من جملة ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ بِحذافِرها هو قوله : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ فهي مقررة لمضمون ﴿ آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ ، وإنما ابتدئت بجملتي ﴿ الله

ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ تمهيداً للغرض المقصود وهو لا حجة بيننا وبينكم ، فلذلك كانت الجمل كلّها مفصولة عن جملة ﴿ آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لأعدل بينكم ﴾ .

والمقصود من قوله : ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أننا متفقون على توحيد الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ [آل عمران : 64] الآية ، أي فالله الشهيد علينا وعليكم إذ كذبتم كتاباً أنزل من عنده ، فالخبر مستعمل في التسجيل والإلزام .

وجملة ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ دعوةُ إنصاف ، أي أن الله يجازي كُلاً بعمله .

وهذا خبر مستعمل في التهديد والتنبيه على الخطأ .

وجملة ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ هي الغرض المقصود بعد قوله ﴿ وأُمرت لأعدل بينكم ﴾ أي أعدل بينكم ولا أخاصمكم على إنكاركم صدقي .

والحجة : الدليل الذي يدلّ المسوق إليه على صدق دعوى القائم به وإنما تكون الحجة بين مختلِفين في دعوى .

ونفيُ الحجة نفي جنس يجوز أن يكون كناية عن نفي المجادلة التي من شأنها وقوع الاحتجاج كناية عن عدم التصدّي لخصومتهم فيكون المعنى الامساكُ عن مجادلتهم لأن الحق ظهر وهم مكابرون فيه وهذا تعريض بأن الجدال معهم ليس بذي جدوَى .

ويجوز أن يكون المنفي جنسَ الحجة المفيدةِ ، بمعونة القرينة مثل : لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب .

والمعنى : أن الاستمرار على الاحتجاج عليهم بعد ما أظهر لهم من الأدلة يكون من العبث ، وهذا تعريض بأنهم مُكَابرون .

وأيّاً مّا كان فليس هذا النفي مستعملاً في النهي عن التصدّي للاحتجاج عليهم فقد حاجّهم القرآن في آيات كثيرة نزلت بعدَ هذه وحاجّهم النبي صلى الله عليه وسلم في قضية الرجم وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ [العنكبوت : 46] فالاستثناء صريح في مشروعية مجادلتهم .

و(بين) المكررة في قوله : ﴿ بيننا وبينكم ﴾ ظرف موزع على جماعاتِ أو أفرادِ ضمير المتكلم المشارَكِ .

وضمير المخاطبين ، كما يقال : قَسم بينهم ، وهذا مخالف ل (بين) المتقدم آنفاً .

والمراد بالجمع في قوله : ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ الحشر لفصل القضاء ، فيومئذٍ يتبين المحق من المبطل ، وهذا كلام منصف .

ولما كان مثل هذا الكلام لا يصدر إلا من الواثق بحقه كان خطابُهم به مستعملاً في المتاركة والمحاجزة ، أي سأترك جدالكم ومحاجّتكم لقلة جدواها فيكم وأفوض أمري إلى الله يقضي بيننا يوم يجمعنا ، فهذا تعريض بأن القضاء سيكون له عليهم .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ للتقوّي ، أي تحقيق وقوع هذا الجمع وإلا فإن المخاطبين وهم اليهود يثبتون البعث .

و(بَين) هنا ظرف موزَّع مثلُ الذي في قوله : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ .

وجملة ﴿ وإليه المصير ﴾ عطف على جملة ﴿ يجمع بيننا ﴾ .

(264/685)

والتعريف في ﴿ المصير ﴾ للاستغراق ، أي مصير النّاس كلّهم ، فبذلك كانت الجملة تذييلاً بما فيها من العموم ، أي مصيرنا ومصيركم ومصير الخلق كلهم .

وهذه الجمل الأربع تقتضي المحاجزة بين المؤمنين وبين اليهود وهي محاجزة في المقاولة ومتاركة في المقاتلة في ذلك الوقت حتى أذن الله في قتالهم لما ظاهروا الأحزاب .

وليس في صيغ هذه الجمل ما يقتضي دوام المتاركة إذ ليس فيها ما يقتضي عموم الأزمنة فليس الأمر بقتال بعضهم بعد يوم الأحزاب ناسخاً لهذه الآية .

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16)

عطف على جملة ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله ﴾ [الشورى : 15] الخ ، وهو يقتضي انتقال الكلام ، فلما استوفى حظ أهل الكتاب في شأن المحاجّة معهم ، رجع إلى المشركين في هذا الشأن بقوله : ﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ .

وتغيير الأسلوب بالإتيان بالاسم الظاهر الموصول وكونِ صلته مادة الاحتجاج مؤذن بتغيير الغرض في المتحدث عنهم مع مناسبة ما ألحق به من قوله : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ [الشورى : 18] وقوله : " أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدّين ما لم يأذن به الله " [الشورى : 21] ، فالمقصود بـ ﴿ الذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له ﴾ : المشركون لأنهم يحاجّون في شأن الله وهو الوحدانية دون اليهود من أهل الكتاب فإنهم لا يحاجّون في تفرد الله بالإلهاية .

وعن مجاهد أنه قال : ﴿ الذين يحاجون في الله ﴾ رجال طمعوا أن تعود الجاهلية بعد ما دَخل الناس في الإسلام .

ووقع في كلام ابن عباس عند الطبري : أنّهم اليهود والنصارى .

فمعنى محاجتهم في الله محاجتهم في دين الله ، أي إدخالهم على النّاس الشك في صحّة دين الإسلام أو في كونه أفضل من اليهودية والنصرانية .

ومحاجتهم هي ما يُلبسوه به على المسلمين لإدخال الشك عليهم في اتّباع الإسلام كقول المشركين ﴿ ما لهذا الرّسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملَك فيكون معه نذيراً ﴾ [الفرقان : 7] وقولهم في الأصنام ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] وقولِهم في إنكار البعث ﴿ أإذَا مِتْنا وكنا تراباً ذلك رَجعٌ بعيدٌ ﴾ [ق : 3] وقولهم : ﴿ إنْ نتبعِ الهُدى معَك نُتَخَطَّف من أرضنا ﴾ [القصص : 57] ، وكقول أهل الكتاب : نحن الذين على دين إبراهيم ، وقولهم : كتابنا أسبق من كتاب المسلمين .

وإطلاق اسم الحجة على شبُهاتهم مجاراة لهم بطريق التهكم ، والقرينةُ قوله ﴿ داحضة عند ربهم ﴾ .

ومفعول ﴿ يحاجون ﴾ محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ ، والتقدير : يحاجون المستجيبين لله من بعد ما استجابوا له ، أي استجابوا لدعوته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم

وحذف فاعل ﴿ استجيب ﴾ إيجازاً لأن المقصود من بعد حصول الاستجابة المعروفة .

والداحضة : التي دَحَضت بفتح الحاء ، يقال : دَحَضت رِجلُه تدحض (بفتح الحاء) دُحوضاً ، أي زلت .

استعير الدحض للبطلان بجامع عدم الثبوت كما لا تثبت القدَم في المكان الدَّحْضِ ، ولم يبيَّن وجه دحضها اكتفاء بما بُيِّن في تضاعيف ما نَزل من القرآن من الأدلة على فساد تعدد الآلهة ، وعلى صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم وعلى إمكان البعث ، وبما ظهر للعيان من تزايد المسلمين يوماً فيوماً ، وأمنهم من أن يُعتدى عليهم .

والغَضب : غضب الله ، وإنما نكّر للدلالة على شدته .

ولم يُحْتَجْ إلى إضافته إلى اسم الجلالة أو ضميره لظهور المقصود من قوله : ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ فالتقدير : وعليهم غضب منه .

وإنما قدم المسند على المسند إليه بقوله : ﴿ وعليهم غضب ﴾ للاهتمام بوقوع الغضب عليهم كما هو مقتضى حرف الاستعلاء المَجازي .

وكذلك القول في ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ .

ولعل المراد به عذاب السيف في الدّنيا بالقتل يوم بدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير جـ 25 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الحجة)

وهى اسم مضعَّف على زنة (فُعْلة ، لبرهان) أَهل الحقِّ والدّلالة البيّنة للمحجَّة أَى المقصد المستقيم الذى يقتضى صحّة أَحد النقيضين .

وقد وردت الحجّة فى القرآن بمعنى المنافرة والمخاصمة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ ﴾ .

وورد بمعنى البرهان تارة من المؤمنين مع الكفَّار ﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ وتارة من الكفَّار بحسب اعتقادهم الباطل ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائْتُواْ بِآبَآئِنَآ ﴾ وتارة من إبراهيم عليه السّلام فى تمهيد قواعد الإيمان ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ وتارة من الحقّ إلى الخلق بآيات القرآن وإظهار البرهان ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ و ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ جعل ما يحتجّ بها الَّذين ظلموا مستثنًى من الحجّة وإن لم يكن حجّة ، كذلك قول الشاعر :

*ولا عيبَ فيهم غيرَ أَنَّ سيوفَهُمْ * بهنّ فُلُولٌ من قِراعِ الكتائبِ*

*ويجوز أَنَّه سمّى ما يحتجّون به حجّة كقوله ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فسمّى الداحضة حجّة ، والمحاجّة : أَن يطلب كلٌّ واحد أَن يردّ الآخر عن حجّته ومحجّتِه .

وأَصل الحجّ القصد للزِّيارة .

وخُصّ فى تعارف الشَّرع بقصد بيت الله إِقامة للنُّسُك .

فقيل الحَجّ والحِجّ ، فالحَج مصدر والحِجّ اسم .

ويوم الحَجّ الأَكبر يومُ النحر أَو يوم عرفة .

وورى : "العُمْرة الحجّ الأَصغر" وقيل غير ذلك .

(267/685)

وفى الحديث "من مات ولم يحجّ حجّة الإِسلام لقى الله وفيه شُعبة من النِّفاق" وفيه "الحَجّ المبرور ليس له جَزَاءٌ إِلاَّ الجنَّة" قال :

*إِذا حَجَجْتَ بمال أَصلُه دنسٌ * فما حججتَ ولكنْ حجَّتِ العيرُ*

*لا يقبل الله إِلا كلَّ صافية * ما كلّ مَن حجّ بيتَ الله مبرور* . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 421.422 ﴾

(268/685)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما جزم سبحانه بما توعدهم بعد بعد أن حكم على حجتهم بالدحوض ، وكان لا يجزم بالشيء إلا من كان نافذ الأمر محيط الحكم ، نبه على أنه كذلك ، مبيناً ما به يعرف ثبات الحجج ودحوضها المستلزم للغضب من الله المستعقب للعذاب ، بقوله لافتاً القول إلى الاسم الأعظم تنبيهاً على عظمة المخبر عنه : ﴿ الله ﴾ أي الذي له جميع الملك ﴿ الذي ﴾ وأشار بالتعبير بالإنزال إلى أن المراد جملة الكتاب الذي لا مطعن في شيء منه فقال : ﴿ أنزل الكتاب ﴾ أي أوجد إنزاله هو لا غيره ﴿ بالحق ﴾ أي متلبساً على أكمل الوجوه بالأمر الثابت الذي لا يبدل وبسبب العمل الحق العام للأقوال والأفعال والعقائد لتعرف الحجج الثابتة من غيرها .

ولما كان الكتاب آمراً بالعدل قالاً وحالاً ، وكان من محسوسات أوامره التقدير بالمقادير الضابطة ، قال مخصصاً معبراً بأقومها إشارة إلى أن الكتاب أعدل عدالة عند العقل وأبين من الميزان للحس : ﴿ والميزان ﴾ أي الأمر به مريداً به عينه حقيقة وجميعها بل جميع العدل الذي تقدم في " لا عدل بينكم " مجازاً .

(269/685)

ولما ثبت أن من جادل فيه كانت حجته داحضة إذا حوسب في الساعة فكان معذباً ، وكان التقدير بما هدى إليه السياق تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يقاسي في إنفاذ ما أمر به من العدل في جميع أقواله وأفعاله وصبره على أذاهم : فمن فزع إلى الكتاب في المعاني وإلى الميزان في الأعيان فبنى أمره على تحقق العدل فيهما بهما فاز ، ومن أهمل ذلك خاب فدحضت حجته وسقطت عند ربع منزلته وما يدريك لعل من جار يعاجل في الدنيا بالأخذ لكون أجله الذي سبقت الكلمة بتأخيره إليه قد حضر ، عطف عليه قوله موجهاً الخطاب إلى أعلى الخلق تعظيماً للأمر : ﴿ وما يدريك ﴾ يا أكمل الخلق ﴿ لعل الساعة ﴾ التي أشير إليها في هذه الآية بقوله ﴿ عند ربهم ﴾ بعد أن صرح بها في غير آية .

ولما كان تأنيث الساعة غير حقيقي لأنها بمعنى الوقت ، ذكرها فقال : ﴿ قريب ﴾ فأفهم

ذلك أنها ذات الشدائد وأن شدائدها ذكور الشدائد وأن قربها أسرع من لمع البرق لما له من الثبات في الحق ، أو ذكرها على إرادة السبب أي ذات قرب ، أو على حذف مضافة أي مجيئها ، وعلى كل حال فهو دال على تفخيمها أي إنك بمظنة من قرب القيامة ، فيقع بهم ما توعدوا به مما ينبغي الإشفاق منه ، فيظهر فيها العدل بموازين القسط لجميع الأعمال ظهوراً لا يتمارى فيه أحد فيشرف من وفى ، ويخزي من جار وجفا .

(270/685)

ولما تصور بهذا قربها مشاراً بالتعبير بلعل إلى أن حال المستعجل بها حال المترجي لشيء محبوب وهو جهل منه عظيم ، شرع في تفصيل الناس في أمرها فقال مشيراً إلى أنه ينبغي للعاقل الاستعداد لها للخلاص في وقتها لظهور دلائلها من غير بحث عن قربها أو بعدها ، فإنه لا بد من كونها ﴿ يستعجل بها ﴾ أي يطلب أن تكون قبل الوقت المضروب لها ﴿ الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي لا يتجدد لهم ذلك أصلاً وهم غير مشفقين منها ويظنون أنها الباطل ، وكان الحال يقتضي أن يكونوا أنفر الناس منها لكن حملهم على ذلك تكذيبهم بها واستهزاؤهم وظنهم عدم كونها جهلاً ممن هم معترفون بقدرته وعلوه وعظمته .

ولما دل على جهل الكافرين ، دل على أضدادهم فقال : ﴿ والذين آمنوا ﴾ وإن كانوا في

أول درجات الإيمان ﴿ مشفقون ﴾ أي خائفون خوفاً عظيماً ﴿ منها ﴾ لأن الله هداهم بإيمانهم ، فصارت صدورهم معادن المعارف ، وقلوبهم منابع الأنوار ، فأيقنوا بما فيها من الأهوال الكبار ، فخافوا للطافتهم أن يكونوا مع صلاحهم من أهل النار .

ولما قدم الإشفاق تنبيهاً على أن العاقل ينبغي أن يخشى ما يمكن وقوعه ، قال : ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ إعلاماً بأنهم على بصيرة من أمرها ، فهم لا يستعجلون بها ، فالآية من الاحتباك : ذكر الاستعجال أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً ، والإشفاق ثانيا دليلاً عل حذف ضده أولاً .

(271/685)

قال ابن كثير : وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد " أن رجلاً سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره فناداه : يا محمد ، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنحو من صوته " هاؤم " فقال : متى الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه : " ويحك أنها كائنة فما أعددت لها ؟ " فقال : حب الله ورسوله ، فقال : " أنت مع من أحببت " قال ابن كثير : فقوله في الحديث " المرء مع من أحب " متواتر لا محالة ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة ، بل

أمره بالاستعداد لها – انتهى ، وهو مشروط بالبراءة من أعداء الله بدليل قصة أبي طالب فإنه لم ينفعه حب الولي نفعاً تاماً بدون البراءة من العدو .

ولما أعلم بتعريف الحق أنها ثابتة كاملاً لا انقضاء له أصلاً ولا زوال لآثارها ، أنتج قوله مؤكداً معظماً في مقابلة إنكارهم : ﴿ ألا إن الذين يمارون ﴾ أي يظهرون شكهم في معرض اللجاجة الشديدة طلباً لظهور شك غيرهم من : مريت الناقة – إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لتستخرج ما عساه يكون فيها من اللبن ﴿ في الساعة ﴾ أي القيامة وما تحتوي عليه ﴿ لفي ضلال ﴾ أي ذهاب جائر عن الحق ﴿ بعيد ﴾ جداً عن الصواب ، فإن لها من الأدلة الظاهرة في العقل المؤيد بجازم النقل ما ألحقها حال غيابها بالمحسوسات لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

(272/685)

ولما كان حاصل أمر الفريقين أنه أظهر خوف الكافرين في غاية الأمن وأبطن أمن المؤمنين في أزعج خوف ، وكان هذا عين اللطف ، فأنه الوصول إلى الشيء بضده ، ويطلق على إيصال البر إلى الخلق على وجه يدق إدراكه ، وكان أكثر ما يبطئ بالإنسان في أمر الدين اهتمامه بالرزق ، أنتج ذلك قوله : ﴿ الله ﴾ أي الذي له الأمر كله فهو يفعل ما يريد

﴿ لطيف ﴾ أي بالغ في العالم وإيقاع الإحسان بإيصال المنافع ، وصرف المضار على وجه يلطف إدراكه ، قال القشيري : اللطيف العالم بدقائق الأمور وغوامضها وهو الملطف المحسن وكلاهما في صفته سبحانه صحيح ، وأكثر ما يستعمل اللطف في وصفه بالإحسان في الأمور الدينية ، وقال الرازي في اللوامع : هو اسم مركب من علم ورحمة ورفق خفي ﴿ بعباده ﴾ - انتهى .

أما بالمؤمن فواضح ، وأما الكافر فأقل لطفه به أنه لا يعاجله في الدنيا ولا يعذبه فوق ما يستحق في الأخرى ، فالاسم الأول تخويف والثاني ترجية ظاهرة باطنها تخويف ، إشارة إلى ما ينبغي من الخوف والرجاء ، وأن يكون الخوف أغلب .

ولما كان أظهر ما يكون هذا الوصف في الرزق ، فإنه يوسع على من لا حيلة له ، ويحرم من هو في غاية القوة والقدرة ، ويرفع الضعيف الجبان ويخفض القوي الشجاع ، وكل ذلك على حسب ما يعلم من بواطنهم ويزيد من أعمالهم ، قال دالاً على ذلك استئنافاً لمن سأل عن كيفية اللطف : ﴿ يرزق من يشاء ﴾ مهما شاء على سبيل من السعة أو الضيق أو التوسط لا مانع له من شيء من ذلك ، ويمنع الرزق عمن يشاء إذا علم فراغ أجله فيتوفاه إليه فأجهدوا أنفسكم في طلب مرضاته ، ولا تلتفتوا إلى الخوف من الحاجة فإنه قد فرغ من تقدير الرزق ونهى عن المبالغة في طلبه .

ولما كان ذلك لا يستطيعه أحد سواه لما يحتاج إليه من القوة الكاملة والعزة الشاملة قال :

﴿ وهو القوي ﴾ أي فلا يضيق عطاؤه بشيء ﴿ العزيز ﴾ فلا يقدر أحد أن يمنعه عن شيء .

(273/685)

ولما بين بهذا أن الرزق ليس إلا في يده ، أتبعه ما يزهد في طلب رزق البدن ، ويرغب في رزق الروح فقال على سبيل الاستئناف جواباً لمن يسأل : هل يكون الرزق بشدة السعي أو لا ، وبدأ برزق الروح لشرفه : ﴿ من كان ﴾ أي من شريف أو دنيء ﴿ يريد ﴾ ولما كان مدار مقصد السورة على الدين ، وكان الدين معاملة بين العبد وربه يقصد به ما يقصد بالحرث من حصول الفائدة ، وكان الحرث من أجل أسباب المكاسب ، وكانت الجنة قيعاناً غراسها ذكر الله ، عبر عن مطلق الكسب بالحرث فقال : ﴿ حرث الآخرة ﴾ أي أعمالها التي تستنمي بها الفوائد .

ولما كانت أسباب الحروث وثمراتها لا يقدر على تعطيلها وإنجاحها إلا الله ، وكان الآدمي يظن لنفسه في ذلك قدرة ، نبه سبحانه بالالتفات إلى أسلوب العظمة أن أمره سبحانه في ذلك لا يستطاع دفاعه ولا ممانعته ونزاعه : ﴿ نزد له ﴾ أي بعظمتنا التي لا يقدر أحد على تحويلها ﴿ في حرثه ﴾ بأن يعينه على الأعمال الصالحة بإنارة القلب وتصفية الحال وتهدئة

السر ونفوذ البصر فيما يضر وينفع ويضاعف له ثوابها من العشر لكل حسنة إلى ما لا نهاية له ويغطيه ، من الدنيا التي أعرض عنها ما قدر له إعانة له على ما أقبل عليه من الآخرة ، وطوى ذكر الدنيا في هذا الشق تنبيهاً على أنها أحقر من أن تذكر مع أنه معلوم من آيات أخر ﴿ ومن كان ﴾ أي من قوي أو ضعيف ﴿ يريد حرث الدنيا ﴾ أي أرزاقها التي تطلب بالكد والسعي ويستنمي به مكتفياً به مؤثراً له على الآخرة ﴿ نؤته منها ﴾ ما قسمناه له ، ولو تهاون به ولم يطلبه لأتاه ، ولا ينال كل ما يتمناه ولو جهد كل الجهد ، وأما الآخرة فكل ما نواه طالبها من أعمالها حصل له وإن لم يعمله ﴿ وما ﴾ أي والحال أن طالب الدنيا ما ﴿ له في الآخرة من نصيب ﴾ أصلاً ، روى أبيّ بن كعب رضي الله أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

(274/685)

" بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصرة والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب " رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم – وقال : صحيح الإسناد – والبيهقي ، وذلك لأن الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، وهذا تهاون بها فلم ينوها وهي أشرف من أن تقبل على من أعرض عنها وتبعد عمن أقبل عليها

حتى تهلكه في مهاويها ، والآخرة تقبل على من أقبل عليها أضعاف إقباله ، وتنادي من أدبر عنها لينتهي عن غيه وضلاله ، قال الرازي في اللوامع : أهل الإرادة على أصناف : مريد للدنيا ومريد للآخرة ومريد للحق جل وعلا ، وعلامة إرادة الدنيا أن يرضى في زيادة دنياه بنقص دينه والإعراض عن فقراء المسلمين وأن تكون حاجاته في الدعاء مقصورة على الدنيا ، وعلامة إرادة الآخرة بعكس ذلك ، وأما علامة إرادة الله سبحانه وتعالى كما قال ﴿ ويريدون وجهه ﴾ طرح الكونين والحرية عن الخلق والخلاص من يد النفس – انتهى ، وحاصله أن يستغرق أوقاته في التوفية بحقوق الحق وحقوق الخلق وتزكية النفس لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار ، بل امتثالاً لأمر الملك الأعلى الذي لا إله غيره لأنه أهل لذلك مع اعترافه لأنه لن يقدر الله حق قدره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 616. 620 ﴾

(275/685)

فصل

قال الفخر :

ولما قرر الله هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة ، فقال : ﴿ الله الذي أَنزَلَ الكتاب

بالحق والميزان وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ والمعنى أنه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والبينات ، وأنزل الميزان وهو الفصل الذي هو القسطاس المستقيم ، وأنهم لا يعلمون أن القيامة متى تفاجئهم ومتى كان الأمر كذلك ، وجب على العاقل أن يجد ويجتهد في النظر والاستدلال ، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد ، ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة وأكثر في ذلك ، وأنهم ما رأوا منه أثراً قالوا على سبيل السخرية : فمتى تقوم القيامة ، وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عليه أو الذي عليه محمد وأصحابه ، فلدفع هذه الشبهة قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ والمعنى ظهر ، وإنما يشفقون ويخافون لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة ، وأما منكر البعث فلأن لا يحصل له هذا الخوف .

ثم قال : ﴿ أَلاَ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِي الساعة لَفِي ضلال بَعِيدٍ ﴾ والممارة الملاجة ، قال الزجاج : الذين تدخلهم المرية والشك في وقوع الساعة ، فيمارون فيها ويجحدون ﴿ لَفِي ضلال بَعِيدٍ ﴾ لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب في العدل ، فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى ، وهذا من أمحل المحالات ، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالاً بعيداً .

ثم قال : ﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ أي كثير الإحسان بهم ، وإنما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة ، فكان ذلك من لطف الله بعباده ، وأيضاً المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد ، ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضاً من لطف الله تعالى ، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم ودفع أعظم المضار عنهم ، لا جرم حسن ذكره ههنا ، ثم قال : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ يعني أن أصل الإحسان والبر عام في حق كل العباد ، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم ، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق ، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم ، فأما مراتب العطية والبهجة فمتفاوتة مختلفة .

ثم قال : ﴿ وهو القوي ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغالب ولا يدافع .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ

اعلم أنه تعالى لما بيّن كونه لطيفاً بعباده كثير الإحسان إليهم بيّن أنه لا بد لهم من أن يسعوا في طلب الخيرات وفي الاحتراز عن القبائح فقال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ قال صاحب "الكشاف" إنه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثاً

على سبيل المجاز وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(277/685)

أنه تعالى أظهر الفرق في هذه الآية بين من أراد الآخرة وبين من أراد الدنيا من وجوه الأول : أنه قدم مريد حرث الآخرة في الذكر على مريد حرث الدنيا ، وذلك يدل على التفضيل ، لأنه وصفه بكونه آخرة ثم قدمه في الذكر تنبيهاً على قوله " نحن لآخرون السابقون " الثاني : أنه قال في مريد حرث الآخرة ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ وقال في مريد حرث الدينا ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ وكلمة من للتبعيض ، فالمعنى أنه يعطيه بعض ما يطلبه ولا يؤتين كله ، وقال في سورة بني إسرائيل ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : 18] وأقول البرهان العقلي مساعد على البابين ، وذلك لأن كل من عمل للآخرة وواظب على ذلك العمل ، فكثرة الأعمال سبب لحصول الملكات ، فكل من كانت مواظبته على تلك الأعمال أكثر كان ميل قلبه إلى طلب الآخرة أكثر ، وكلما كان الأمر كذلك كان الابتهاج أعظم والسعادات أكثر ، وذلك هو المراد بقوله ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ وأما طالب الدنيا فكلما كانت مواظبته على أعمال ذلك الطلب أكثر كانت رغبته في الفوز بالدنيا أكثر وميله إليها

أشد ، وإذا كان الميل أبداً في التزايد ، وكان حصول المطلوب باقياً على حالة واحدة كان الحرمان لازماً لامحالة الثالث : أنه تعالى قال في طالب حرث الآخرة ﴿ نزد لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا ، بل بقي الكلام ساكتاً عنه نفياً وإثباتاً ، وأما طالب حرث الدنيا فإنه تعالى بيّن أنه لا يعطيه شيئاً من نصيب الآخرة على التنصيص ، وهذا يدل على التفاوت العظيم كأنه يقول الآخرة أصل والدنيا تبع ، فواجد الأصل يكون واجداً للتبع بقدر الحاجة ، إلا أنه لم يذكر ذلك تنبيهاً على أن الدنيا أخس من أن يقرن ذكرها بذكر الآخرة والرابع : أنه تعالى بيّن أن طالب الآخرة يزاد في مطلوبه ، وبيّن أن طالب الدنيا يعطي بعض مطلوبه من الدنيا ، وأما في الآخرة فإنه لا يحصل له نصيب ألبتة ، فبيّن

(278/685)

بالكلام الأول أن طالب الآخرة يكون حاله أبداً في الترقي والتزايد وبيّن بالكلام الثاني أن طالب الدنيا يكون حاله في المقام الأول في النقصان وفي المقام الثاني في البطلان التام الخامس : أن الآخرة نسيئة والدنيا نقد والنسيئة مرجوحة بالنسبة إلى النقد ، لأن الناس يقولون النقد خير من النسيئة فبيّن تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا ، فالآخرة وإن كانت نقداً إلا أنها متوجهة للزيادة والدوام فكانت أفضل وأكمل ،

والدنيا وإن كانت نقداً إلا أنها متوجهة إلى النقصان ثم إلى البطلان فكانت أخس وأرذل ، فهذا يدل على أن حال الآخرة لا يناسب حال الدنيا ألبتة ، وأنه ليس في الدنيا من أحوال الآخرة إلا مجرد الاسم كما هو مروي عن ابن عباس السادس : الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لا بد في البابين من الحرث ، والحرث لا يتأتى إلا بتحمل المشاق في البذر ثم التسقية والتنمية والحصد ثم التنقية ، فلما سمى الله كلا القسمين حرثاً علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق ، ثم بيّن تعالى أن مصير الآخرة إلى الزيادة والكمال وإن مصير الدنيا إلى النقصان ثم الفناء ، فكأنه قيل إذا كان لا بد في القسمين جميعاً من تحمل متاعب الحراثة والتسمية والتنمية والحصد والتنقية ، فلأن تصرف هذه المتاعب إلى ما يكون في التزايد والبقاء أولى من صرفها إلى ما يكون في النقصان والانقضاء والفناء .

المسألة الثانية :

(279/685)

في تفسير قوله ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ قولان الأول : المعنى أنا نزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات عليه ، وقال مقاتل ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ بتضعيف الثواب ، قال

تعالى : ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [فاطر : 30] وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أصبح وهمه الدنيا شتت الله تعالى عليه همه وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلى ما كتب له ، ومن أصبح همه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة عن أنفها " أو لفظاً يقرب من أن يكون هذا معناه .

المسألة الثالثة :

ظاهر اللفظ يدل على أن من صلّى لأجل طلب الثواب أو لأجل دفع العقاب فإنه تصح صلاته ، وأجمعوا على أنها لا تصح والجواب : أنه تعالى قال : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة﴾ والحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح في الأرض ، والبذر الصحيح لجميع الخيرات والسعادات ليس إلا عبودية الله تعالى .

المسألة الرابعة :

قال أصحابنا إذا توضأ بغير نية لم يصح ، قالوا لأن هذا الإنسان ما أراد حرث الآخرة ، لأن الكلام فيما إذا كان غافلاً عن ذكر الله وعن الآخرة ، فوجب أن لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة ، فوجب أن لا يحصل في الوضوء العاري عن النية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 137 .

140﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله : ﴿ وما تتفرقوا ﴾

عبارة يجمع خطابها كفار العرب واليهود والنصارى وكل مدعو إلى الإسلام ، فلذلك حسن أن يقال : ما تفرقوا ، يعني بذلك أوائل اليهود والنصارى . والعلم الذي جاءهم : هو ما كان حصل في نفوسهم من علم كتب الله تعالى فبغى بعضهم على بعض ، أداهم ذلك إلى اختلاف الرأي وافتراق الكلمة والكلمة السابقة : قال المفسرون : هي حتمه تعالى القضاء بأن مجازاتهم إنما تقع في الآخرة ، فلولا ذلك لفصل بينهم في الدنيا وغلب المحق على المبطل . وقوله تعالى : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب ﴾ إشارة إلى معاصري محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى ، وقيل هي إشارة إلى العرب . و ﴿ الكتاب ﴾ : هو القرآن . والضمير في قوله : ﴿ لفي شك ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿ الكتاب ﴾ ، أو على محمد ، أو على الأجل المسمى ، أي في شك من البعث على قول من رأى الإشارة إلى العرب ، ووصف الشك ب ﴿ مريب ﴾ مبالغة فيه .

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ

اللام في قوله : ﴿ فلذلك ﴾ قالت فرقة : هي بمنزلة إلى ، كما قال تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : 5] أي إليها ، كأنه قال : فإلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد ﴿ فادع ﴾ ، وقالت فرقة : بل هي بمعنى من أجل كأنه قال : فمن أجل أن الأمر كذا ولكونه كذا ﴿ فادع ﴾ أنت إلى ربك وبلغ ما أرسلت به . وخوطب عليه السلام بأمر الاستقامة ، وقد كان مستقيماً ، بمعنى : دم على استقامتك ، وهكذا الشأن في كل مأمور بشيء هو متلبس به إنما معناه الدوام ، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عين النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت شديدة الموقع من نفسه ، أعني قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112] لأنها جملة تحتها جميع الطاعات وتكاليف النبوءة ، وفي هذا المعنى قال عليه السلام : " شيبتني هود وأخواتها " ، فقيل له : لم ذلك ؟ فقال : لأن فيها ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112] وهذا الخطاب له عليه السلام بحسب قوته في أمر الله تعالى وقال هو لأمته بحسب ضعفهم استقيموا .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ يعني قريشاً فيما كانوا يهوونه من أن يعظم آلهتهم وغير ذلك ، ثم أمره تعالى أن يؤمن بالكتب المنزلة قبله من عند الله ، وهو أمر يعم سائر أمته .

وقوله تعالى : ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ قالت فرقة : اللام في ﴿ لأعدل ﴾ بمعنى : أن

، التقدير : بأن أعدل بينكم . وقالت فرقة المعنى : وأمرت بما أمرت به من التبليغ والشرع لكي أعدل بينكم ، فحذف من الكلام ما يدل الظاهر عليه .

وقوله : ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ إلى آخر الآية منسوخ ما فيه من موادعة بآية السيف .

وقوله : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة ، قد وضح الحق وأنتم تعاندون ، وفي قوله تعالى : ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ وعيد .

(282/685)

وقوله : ﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ قال ابن عباس ومجاهد إنها نزلت في طائفة من بني إسرائيل همت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومجادلتهم بأن قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فديننا أفضل ، فنزلت الآية في ذلك ، وقيل بل نزلت في قريش لأنها كانت أبداً تحاول هذا المعنى وتطمع في رد الجاهلية و : ﴿ يحاجون في الله ﴾ معناه في توحيد الله ، أي يحاجون فيه بالإبطال والإلحاد وما أشبه ، والضمير في : ﴿ له ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿ الله ﴾ تعالى ، أي بعد ما دخل في دينه ، ويحتمل أن يعود على الدين والشرع ، ويحتمل أن يعود على محمد عليه السلام . و : ﴿ داحضة ﴾ معناه : زاهقة . والدحض :

الزلق ، وباقي الآية بيّن .

اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17)

لما أنحى القول على الذين يحاجون في توحيد الله ويرومون إطفاء نوره ، صدع في هذه الآية بصفة من أنزل الكتاب الهادي للناس . و: ﴿ الكتاب ﴾ هنا اسم جنس يعم جميع الكتب المنزلة .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ يحتمل أن يكون المعنى بأن كان ذلك حقاً واجباً للمصلحة والهدى ، ويحتمل أن يكون المعنى مضمناً الحق ، أي بالحق في أحكامه وأوامره . و﴿ الميزان ﴾ هنا العدل ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والناس . وحكى الثعلبي عن مجاهد أنه قال : هو هنا الميزان الذي بأيدي الناس .

قال القاضي أبو محمد : ولا شك أنه داخل في العدل وجزء منه وكل شيء من الأمور ، فالعدل فيه إنما هو بوزن وتقدير مستقيم ، فيحتاج في الأجرام إلى آلة ، وهي العمود والكفتان التي بأيدي البشر ، ويحتاج في المعاني إلى هيئات في النفوس وفهوم توازن بين الأشياء .

وقوله : ﴿ وما يدريك ، لعل الساعة قريب ﴾ وعيد للمشركين ، أي فانظر في أي غورهم وجاء لفظ : ﴿ قريب ﴾ مذكراً من حيث تأنيث الساعة غير حقيقي ، وإذ هي بمعنى الوقت .

ثم وصف تعالى حال الجهلة الكاذبين بها ، فهم لذلك يستعجلون بها ، أي يطلبون تعجيلها ليبين العجز ممن يحققها ، فالمصدق بها مشفق خائف ، والمكذب مستعجل مقيم لحجته على تكذيبه بذلك المستعجل به . ثم استفتح الإخبار عن المارين في الساعة بأنهم في ضلال قد بعد بهم ، فرجوعهم عنه صعب متعذر ، وفي هذا الاستفتاح مبالغة وتأكيد وتهيئة لنفس السامع ، ثم رجى تبارك وتعالى عباده بقوله : ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ ، و: ﴿ لطيف ﴾ هنا بمعنى : رفيق متحف ، والعباد هنا : المؤمنون ومن سبق له الخلود في الجنة ، وذلك أن الأعمال بخواتمها ، ولا لطف إلا ما آل إلى الرحمة ، وأما الإنعام على الكافرين في الدنيا فليس بلطف بهم ، بل هو إملاء واستدراج . وقال الجنيد : لطف بأوليائه حتى عرفوه ولو لطف بالكفار لما جحدوه ، وقيل : ﴿ لطيف ﴾ معناه في أن نشر عنهم المناقب ، وستر عليهم المثالب . وقيل هو الذي لا يخاف إلا عدله ، ولا يرجى إلا فضله .

وقوله : ﴿ من كان يريد ﴾ معناه : إرادة مستعد عامل عارف ، لا إرادة متمن لم يدر نفسه . والحرث في هذه الآية : عبارة عن السعي والتكسب والإعداد .

ولما كان حرث الأرض أصلاً من أصول المكاسب استعير لكل متكسب ، ومنه قول ابن عمر : احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

وقوله تعالى : ﴿ نزد في حرثه ﴾ وعد منتجز .

وقوله في : ﴿ حرث الدنيا نؤته منها ﴾ معناه : ما شئنا ولمن شئنا ، فرب ممتحن مضيق عليه حريص على حرث الدنيا مريد له لا يحس بغيره ، نعوذ بالله من ذلك ، وهذا الذي لا يعقل غير الدنيا هو الذي نفى أن يكون له نصيب في الآخرة .

وقرأ سلام : " نؤتهُ " برفع الهاء وهي لغة لأهل الحجاز ، ومثله قراءتهم : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ [القصص : 81] برفع الهاء فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(284/685)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي أَنزَلَ الكتاب ﴾

يعني القرآن وسائر الكتب المنزلة .

﴿ بالحق ﴾ أي بالصدق .

﴿ والميزان ﴾ أي العدل ؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين .

والعدل يسمى ميزاناً ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل .

وقيل : الميزان ما بيّن في الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به .

وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه .

وهذه الأقوال متقاربة المعنى .

وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

وقيل : إنه الميزان نفسه الذي يوزن به ، أنزله من السماء وعلّم العباد الوزن به ؛ لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ؛ قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ [الحديد : 25] .

قال مجاهد : وهو الذي يوزن به .

ومعنى أنزل الميزان هو إلهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا (به) .

وقيل : الميزان محمد صلى الله عليه وسلم ، يقضي بينكم بكتاب الله .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ فلم يخبره بها .

يحضه على العمل بالكتاب والعدل والسوّية ، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجىء اليوم الذي يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال ، فيوفّى لمن أوفى ويطفّف لمن طفف .

ف "لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ" أي منك وأنت لا تدري .

وقال : "قَرِيبٌ" ولم يقل قريبة ؛ لأن تأنيثها غير حقيقي لأنها كالوقت ؛ قاله الزجاج .

والمعنى : لعل البعث أو لعل مجيء الساعة قريب .

وقال الكسائي : "قَرِيبٌ" نعت يُنعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] .

قال الشاعر :

وكنا قريباً والديار بعيدة . . .

فلما وصلنا نُصْب أعينهم غبنا

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ يعني على طريق الاستهزاء ، ظنًّا منهم أنها غير آتية ، أو إيهاماً للضَّعَفة أنها لا تكون .

(285/685)

﴿ والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أي خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد في الطاعة ؛ كما قال : ﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 60] .

﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ أي التي لا شك فيها .

﴿ أَلَا إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِي الساعة ﴾ أي يشكّون ويخاصمون في قيام الساعة .

﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي عن الحق وطريق الاعتبار ؛ إذ لو تذكّروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا ، قادر على أن يبعثهم .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : حَفِيّ بهم .

وقال عكرمة : بارٌّ بهم .

وقال السدّيّ : رفيق بهم .

وقال مقاتل : لطيف بالبَرّ والفاجر ؛ حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم .

وقال القُرَظيّ : لطيف بهم في العرض والمحاسبة .

قال :

غداً عند مَوْلَى الخلق للخلق موقفٌ . . .

يسائلهم فيه الجليل ويلطف

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين : يلطف بهم في الرزق من وجهين : أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات .

والثاني أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة فتبذره .

وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره .

وقال الجُنيد : لطيف بأوليائه حتى عرفوه ، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه .

وقال محمد بن عليّ الكتّانيّ : اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكّل عليه ورجع إليه ، فحينئذ يقبله ويقبل عليه .

وجاء في حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول جلّ وعز اِمّحت آثارهم واضمحلت صُوَرهم وبقي عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين خففوا عنهم العذاب فيخفف عنهم العذاب " قال أبو عليّ الثقفِيّ رضي الله عنه :

أمرّ بأفناء القبور كأنني . . .

أخو فطنة والثوب فيه نحيف

ومن شقّ فاه الله قدّر رزقه . . .

وربّي بمن يلجأ إليه لطيف

(286/685)

وقيل : اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب ؛ وعلى هذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يا من أظهر الجميل وستر القبيح " وقيل : هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل .

وقيل : هو الذي يجبر الكسير وييسّر العسير .

وقيل : هو الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله .

وقيل : هو الذي يبذُل لعبده النعمة فوق الهمة ويكلفه الطاعة فوق الطاقة ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل : 18] ، ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : 20] ، وقال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] ، ﴿ يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ [النساء : 28] .

وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المِدْحة .

وقيل : هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخَيّب من رجاه .

وقيل : هو الذي لا يرد سائله ولا يوئِس آمله .

وقيل : هو الذي يعفو عمن يهفو .

وقيل : هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه .

وقيل : هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجاً ، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجاً ، وأجزل لهم من سحائب برّه ماءً ثَجَّاجاً .

وقد مضى في "الأنعام" قول أبي العالية والجُنَيد أيضاً .

وقد ذكرنا جميع هذا في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) عند اسمه اللطيف ، والحمد لله .

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ ويَحْرِم من يشاء .

وفي تفضيل قوم بالمال حكمةٌ ؛ ليحتاج البعض إلى البعض ؛ كما قال : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : 32] ، فكان هذا لطفاً بالعباد .

وأيضاً ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغني ؛ كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [الفرقان : 20] على ما تقدّم بيانه .

﴿ وَهُوَ القوي العزيز ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ الحرث العمل والكسب .

(287/685)

ومنه قول عبد الله بن عمر : واحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

ومنه سمي الرجل حارثاً .

والمعنى : أي من طلب بما رزقناه حرثاً لآخرته ، فأدّى حقوق الله وأنفق في إعزاز الدّين ؛ فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشراً إلى سبعمائة فأكثر .

﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا ﴾ أي طلب بالمال الذي آتاه الله رياسة الدنيا والتوصل إلى

المحظورات ، فإنا لا نحرِمه الرزق أصلاً ، ولكن لا حظّ له في الآخرة من ماله ؛ قال الله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإسراء : 18 19] .

وقيل : "نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ" نوفقه للعبادة ونسهلها عليه .

وقيل : حرث الآخرة الطاعة ؛ أي من أطاع فله الثواب .

قيل : "نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ" أي نعطه الدنيا مع الآخرة .

وقيل : الآية في الغَزْو ؛ أي من أراد بِغَزْوِه الآخرةَ أوتي الثواب ، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوتي منها .

قال القُشيريّ : والظاهر أن الآية في الكافر ؛ يوسع له في الدنيا ؛ أي لا ينبغي له أن يَغْتَرَّ بذلك لأن الدنيا لا تبقى .

وقال قتادة : إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا .

وقال أيضاً : يقول الله تعالى : من عمل لآخرته زدناه في عمله وأعطيناه من الدنيا ما كتبنا له ومن آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيباً في الآخرة إلا النار ولم يصب من الدنيا إلا رزقاً قد قسمناه له لا بُدّ أن كان يؤتاه مع إيثار أو غير إيثار .

وروى جُوَيْبِرْ عن الضحاك عن ابن عباس قال : وقوله عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة ﴾ من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرة "نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ" أي في حسناته .

"وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا" أي من كان من الفُجّار يريد بعمله الحَسَن الدنيا "نُؤْتِهِ مِنْهَا" ثم نسخ ذلك في سبحان : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ .

والصواب أن هذا ليس بنسخ ؛ لأن هذا خبر والأشياء كلها بإرادة الله عز وجل .

ألا ترى أنه قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت " وقد قال قتادة ما تقدم ذكره ، وهو يبيّن لك أن لا نسخ .

وقد ذكرنا في "هود" أن هذا من باب المطلق والمقيّد ، وأن النسخ لا يدخل في الأخبار .

والله المستعان .

مسألة : هذه الآية تبطل مذهب أبي حنيفة في قوله : إنه من توضأ تَبَرُّدًا أنه يجزيه عن فريضة الوضوء الموظّف عليه ؛ فإن فريضة الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث

الدنيا ، فلا يدخل أحدهما على الآخر ، ولا تجزي نيته عنه بظاهر هذه الآية ؛ قاله ابن العربي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(289/685)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

لما عدد تعالى نعمه عليهم الخاصة ، أتبعه بذكر نعمه العامة ، وهو ما شرع لهم من العقائد المتفق عليها ، من توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وبكتبه وباليوم الآخر ، والجزاء فيه .

ولما كان أول الرسل نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد (صلى الله عليه وسلم) ، قال : ﴿ ما وصى به نوحاً والذين أوحينا إليك ﴾ ، ثم أتبع ذلك ما وصى به إبراهيم ، إذ كان أبا العرب ، ففي ذلك هزلهم وبعث على اتباع طريقته ، وموسى وعيسى صلوات الله عليهم ، لأنهما هما اللذان كان أتباعهما موجودين زمان بعثة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . والشرائع متفقة فيما ذكرنا من العقائد ، وفي كثير من الأحكام ، كتحريم الزنا والقتل بغير حق .

والشرائع مشتملة على عقائد وأحكام ؛ ويقال : إن نوحاً أول من أتى بتحريم البنات والأمهات وذوات المحارم .

وقال ابن عباس : اختار ، ويحتمل أن تكون أن مفسرة ، لأن قبلها ما هو بمعنى القول ، فلا موضع لها من الإعراب .

وأن تكون أن المصدرية ، فتكون في موضع نصب على البدل من ما ؛ وما عطف عليها ، أو في موضع رفع ، أي ذلك ، أو هو إقامة الدين ، وهو توحيد الله وما يتبعه مما لا بد من اعتقاده .

ثم نهى عن التفرقة فيه ، لأن التفرق سبب للهلاك ، والاجتماع والألفة سبب للنجاة .

﴿ كبر على المشركين ﴾ : أي عظم وشق ، ﴿ ما تدعوهم إليه ﴾ من توحيد الله وترك عباده الأصنام وإقامة الدين .

﴿ الله يجتبي ﴾ : يجتلب ويجمع ، ﴿ إليه من يشاء ﴾ هدايته ، وهذا تسلية للرسول .

وقيل : يجتبي ، فيجعله رسولاً إلى عباده ، ﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ : يرجع إلى طاعته عن كفره .

وقال الزمخشري : ﴿ من يشاء ﴾ : من ينفع فيهم توفيقه ويجري عليهم لطفه .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال .

وقال الحافظ أبو بكر بن العربي : لم يكن مع آدم عليه السلام إلا بنوه ، ولم تفرض ، له الفرائض ، ولا شرعت له المحارم ، وإنما كان منبهاً على بعض الأمور ، مقتصراً على ضرورات المعاش .

واستمر الهدى إلى نوح ، فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات ، ووظف عليه الواجبات ، وأوضح له الأدب في الديانات .

ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء واحداً بعد واحد وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمه الله بخير الملل على لسان أكرم الرسل ، فكان المعنى : أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً في الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع ، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والحج والتقريب بصالح الأعمال ، والصدق والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الكبر والزنا والإذاية للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروات ؛ فهذا كله مشروع ديناً واحداً ، أو ملة متحدة ، لم يختلف على ألسنة الأنبياء ، وإن اختلفت أعدادهم ، وذلك قوله : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ : أي اجعلوه قائماً ، يريد دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب .

انتهى .

وقال مجاهد : لم يبعث نبي إلا أمر بإقامة الصلاة وايتاء الزكاة والإقرار بالله وطاعته ، فهو إقامة الدين .

وقال أبو العالية : إقامة الدين : الأخلاص لله وعبادته ، ﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، قال أبو العالية : لا تتعادوا فيه .

وقال مقاتل : معناه لا تختلفوا ، فإن كل نبي مصدق .

وقيل : لا تتفرقوا فيه ، فتؤمنوا ببعض الرسل وتكفروا ببعض .

﴿ وما تفرقوا ﴾ ، قال ابن عباس : يعني قرشياً ، والعلم : محمد عليه الصلاة والسلام ، وكانوا يتمنون أن يبعث إليهم نبي ، كما قال : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ﴾ يريدون نبياً .

وقيل : الضمير يعود على أمم الأنبياء ، جاءهم العلم ، فطال عليهم الأمد ، فآمن قوم وكفر قوم .

(291/685)

وقال ابن عباس أيضاً : عائد على أهل الكتاب ، والمشركين دليله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ قال المشركون : لم خص بالنبوة ، واليهود

والنصارى حسدوه .

﴿ ولولا كلمة ﴾ : أي عدة التأخر إلى يوم القيامة ، فحينئذ يقع الجزاء ، ﴿ لقضي بينهم ﴾ : لجوزوا بأعمالهم في الدنيا ؛ لكنه قضى أن ذلك لا يكون إلا في الآخرة .

وقال الزجاج : الكلمة قوله : ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ : هم بقية أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ﴿ من بعدهم ﴾ : أي من بعد أسلافهم ، أو هم المشركون ، أورثوا الكتاب من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل .

وقرأ زيد بن علي : ورثوا مبنياً للمفعول مشدد الراء ، ﴿ لفي شك منه ﴾ : أي من كتابهم ، أو من القرآن ، أو مما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أو من الدين الذي وصى به نوحاً .

ولما تقدم شيئآن : الأمر بإقامة الدين ، وتفرق الذين جاءهم العلم واختلافهم وكونهم في شك ، احتمل قوله .

﴿ فلذلك ﴾ ، أن يكون إشارة إلى إقامة الدين ، أي فادع لدين الله وإقامته ، لا تحتاج إلى تقدير اللام بمعنى لأجل ، لأن دعا يتعدى باللام ، قال الشاعر :

دعوت لما نابني مسوراً . . .

فلبى فلبى يدي مسورا

واحتمل أن تكون اللام للعلة ، أي فلأجل ذلك التفرق .

ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ، ﴿ فادع ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية ، ﴿ واستقم ﴾ : أي دم على الاستقامة ، وتقدم الكلام على ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ وكيفية هذا التشبيه في أواخر هود .

﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ المختلفة الباطلة ، وأمره بأن يصرح أنه آمن بكل كتاب أنزله الله ، لأن الذين تفرقوا آمنوا ببعض .

﴿ وأمرت لأعدل بينهم ﴾ ، قيل : إن المعنى : وأمرت بما أمرت به لأعدل بينكم في ايصال ما أمرت به إليكم ، لا أخص شخصاً بشيء دون شخص ، فالشريعة واحدة ، والأحكام مشترك فيها .

(292/685)

وقيل : لاعدل بينكم في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم .

﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ : أي قد وضحت الحجج وقامت البراهين وأنتم محجوجون ، فلا حاجة إلى إظهار حجة بعد ذلك .

﴿ الله يجمع بيننا ﴾ وبينكم ، أي يوم القيامة ، فيفصل بيننا .

وما يظهر في هذه الآية من الموادعة منسوخ بآية السيف .

﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ : أي يخاصمون في دينه ، قال ابن عباس ومجاهد : نزلت في طائفة من بني إسرائيل همت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم ، بل قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ؛ فديننا أفضل ، فنزلت الآية في ذلك .

وقيل : نزلت في قريش ، كانوا يجادلون في هذا المعنى ، ويطمعون في رد المؤمنين إلى الجاهلية .

واستجيب مبني للمفعول ، فقيل : المعنى من بعد ما استجاب الناس لله ، أي لدينه ودخلوا فيه .

وقيل : من بعد ما استجاب الله له ، أي لرسوله ودينه ، بان نصره يوم بدر وظهر دينه .

﴿ حجتهم داحضة ﴾ أي باطلة لا ثبوت لها .

ولما ذكر من يحاج في دين الإسلام ، صرح بأنه تعالى هو الذي أنزل الكتاب ، والكتاب جنس يراد به الكتب الآلهية .

﴿ والميزان ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم : هو المعدل ؛ وعن ابن مجاهد : هو هنا الميزان الذي بإيدي الناس ، وهذا مندرج في العدل .

﴿ وما يدريك ﴾ أيها المخاطب ، ﴿ لعل الساعة قريب ﴾ ، ذكر على معنى البعث أو على حذف مضاف : أي لعل مجيء الساعة ؛ ولعل الساعة في موضع معمول ، وما يدريك

، وتقدم الكلام على مثل هذا في قوله في آخر الأنبياء : ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ﴾ وتوافقت هذه الجملة مع قوله : ﴿ الله الذين أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ .

الساعة : يوم الحساب ، ووضع الموازين : القسط ، فكأنه قيل : أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم .

﴿ يستعجل لها الذين لا يؤمنون ﴾ بها بطلب وقوعها عاجلة ، لأنهم ليسوا موقنين بوقوعها ، ليبين عجز من يؤمن بها عندهم ، أي هي مما لا يقع عندهم .

(293/685)

﴿ إلا إن الذين يمارون ﴾ ويلحون في أمر الساعة ، ﴿ لفي ظلال بعيد ﴾ عن الحق ، لأن البعث غير مستبعد من قدرة الله ، ودل عليه الكتاب المعجز ، فوجب الإيمان به .

﴿ الله لطيف بعباده ﴾ : أي بر بعباده المؤمنين ، ومن سبق له الخلود في الدنيا ، وما يرى من النعم على الكافر فليس بلطف ، إنما هو إملاء ، ولا لطف إلا ما آل إلى الرحمة والوفاة على الإسلام .

وقال مقاتل : لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً .

وقال الزمخشري : يوصل بره إلى جميعهم ، ﴿ يرزق من يشاء ﴾ : أي من يشاء يرزقه شيئاً

خاصاً ، ويحرم من يشاء من ذلك الشيء الخاص ، وكل منهم مرزوق ، وإن اختلف الرزق ، ﴿ وهو القوي ﴾ : أي البالغ القوة ، وهي القدرة ﴿ العزيز ﴾ : الغالب الذي لا يغلب .

ولما ذكر تعالى الرزق ، ذكر حديث الكسب .

ولما كان الحرث في الأرض أصلاً من أصول المكاسب ، استعير لكل مكسب أريد به النماء والفائدة ، أي من كان يريد عمل الآخرة ، وسعى لها سعيها ، ﴿ نزد له في حرثه ﴾ : أي جزاء حرثه أي من جزاء حرثه من تضعيف الحسنات ، ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ : أي العمل لها لا لآخرته ، ﴿ نؤته منها ﴾ : أي نعطه شيئاً منها ، ﴿ وما له في الآخرة من نصيب ﴾ ، لأنه لم يعمل شيئاً للآخرة .

والجملة الأولى وعد منجز ، والثانية مقيدة بمشيئته تعالى ، فلا يناله إلا رزقه الذي فرغ منه ، وكل ما يريده هو .

واقتصر في عامل الآخرة على ذكر حظه في الآخرة ، كأنه غير معتبر ، فلا يناسب ذكر مع ما أعد الله له في الآخرة لمن يشاء ما يشاء .

وجعل فعل الشرط ماضياً ، والجواب مجزوم لقوله تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ ولا نعلم خلافاً في جواز الجزم ، فإنه فصيح مختار ، إلا ما ذكره صاحب كتاب الإعراب ، وهو أبو الحكم بن عذرة ، عن بعض النحويين ، أنه لا

يجيء في الكلام الفصيح ، وإنما يجيء مع كأن لأنها أصل الأفعال ، ولا يجيء مع غيرها من الأفعال .

(294/685)

ونص كلام سيبويه والجماعة أنه لا يختص ذلك بكان ، بل سائر الأفعال في ذلك مثلها ،

وأنشد سيبويه للفرزدق :

دست رسولاً بأن القوم إن قدروا . . .

عليك يشفوا صدوراً ذات توغير

وقال آخر :

تعال فإن عاهدتني لا تخونني . . .

نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وقرأ الجمهور : نزد ونؤته بالنون فيهما : وابن مقسم ، والزعفراني ، ومحبوب ، والمنقري ، كلاهما عن أبي عمرو : بالياء فيهما .

وقرأ سلام : نؤته منها برفع الهاء ، وهي لغة الحجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

وقولُه تعالَى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ ﴾

شروعٌ في بيان أحوالِ أهلِ الكتابِ عقيبَ الإشارةِ الإجماليةِ إلى أحوالِ أهلِ الشركِ قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهُمَا هُم اليهودُ والنَّصارى ، لقولِه تعالَى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ أي وما تفرقُوا في الدينِ الذي دُعوا إليهِ ولم يُؤمنوا كما آمنَ بعضُهم ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ بحقّيتِه بما شاهُدوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآنِ من دلائلِ الحقّيةِ حسبما وجدُوه في كتابِهم ، أو العلمُ بمبعثِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وهو استثناءٌ مفرغٌ من أعمِّ الأحوالِ أو من أعمِّ الأوقاتِ أي وما تفرقُوا في حالٍ من الأحوالِ أو في وقتٍ من الأوقاتِ إلا حالَ مجيءِ العلمِ ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ وحميةً وطلباً للرياسة لا لأنَّ لهم في ذلكَ شبهةً ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهي العِدةُ بتأخيرِ العقوبةِ ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو يومُ القيامةِ ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأوقعَ القضاءَ بينَهم باستئصالِهم لاستيجابِ جناياتِهم لذلك قطعاً . وقولُه تعالَى ﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتابَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ الخ بيانٌ لكيفيةِ كفرِ المشركينَ بالقرآنِ إثرَ بيانِ كيفيةِ كفرِ أهلِ

الكتابِ . وقُرِئَ وَرِثُوا ووُرِّثُوا أيْ وإنَّ المشركينَ الذينَ أُورثوا القرآنَ من بعدِ ما أُورثَ أهلُ الكتابِ كتابَهم ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقعٌ في القلق أو في الريبةِ ولذلكَ لا يُؤمنونَ به لا لمحض البغِي والمكابرةِ بعد ما علمُوا بحقّيتِه كدأب أهلِ الكتابين .

(296/685)

هذا وأمَّا ما قيلَ : منْ أنَّ ضميرَ تفرقُوا لأمم الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وأنَّ المرادَ تفرقُ كلِّ أمةٍ بعدَ نبيِّها مع علمِهم بأنَّ الفرقةَ ضلالٌ وفسادٌ وأمرٌ متوعدٌ عليهِ على ألسنة الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فيردّه قولُه تعالَى : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وكذا ما قيلَ من أنَّ الناسَ أمةً واحدةً مؤمنينَ بعد ما أهلكَ اللهُ تعالَى الأرضَ بالطوفان فلما ماتَ الآباءُ اختلفَ الأبناءُ فيما بينَهم وذلك حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهُم العلمُ وإنما اختلفُوا للبغِي بينَهم فإنَّ مشاهيرَ الأممِ المذكورةِ قد أصابُهم عذابُ الاستئصالِ من غيرِ إنظارٍ وإمهالٍ ، على أنَّ مساقَ النظمِ الكريمِ لبيانِ أحوالِ هذه الأمةِ ، وإنما ذُكِرَ من ذُكِرَ من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لتحقيق أنَّ ما شرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيداً

لوجوب إقامتِه وتشديداً للزجرِ عن التفرق والاختلافِ فيه فالتعرضُ لبيان تفرقِ أممِهم عنه ربَّما يُوهم الإخلالَ بذلكَ المرامِ.

(297/685)

﴿ فَلِذَلِكَ ﴾ أي فلأجل ما ذُكِرَ من التفرق والشكِّ المريبِ أو فلأجلِ أنَّه شرعَ لهم الدينَ القويمَ القديمَ الحقيقَ بأنْ ينافسَ فيهِ المتنافسونَ ﴿ فادع ﴾ أي الناسَ كافةً إلى إقامةِ ذلكَ الدينِ بموجبه فإنَّ كلاً من تفرقهم وكونِهم في شكَ مريب ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم سببٌ للدعوةِ إليهِ والأمرِ بها ، وليسَ المشارُ إليهِ ما ذُكرَ من التوصية والأمرِ بالإقامة والنَّهي عن التفرقِ حتى يُتوهمُ شائبةُ التكرارِ ، وقيلَ : المشارُ إليهِ نفسُ الدينِ المشروعِ ، واللامُ بمَعْنى إلى كما في قولِه تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ أي فإلى ذلكَ الدينِ فادعُ ﴿ واستقم ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وأُوحيَ إليكَ ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ الباطلةَ ﴿ وَقُلْ ءامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كتاب ﴾ أيِّ كتابٍ كان من الكتبِ المنزلةِ لا كالذينَ آمنُوا ببعضٍ منها وكفرُوا ببعضٍ ، وفيه تحقيقٌ للحقِّ وبيانٌ لاتفاق الكتبِ في الأصول وتأليفٌ لقلوب أهلِ الكتابينِ وتعريضٌ بهم وقد مرَّ بيانُ كيفيةِ الإيمانِ بها في خاتمةِ سورةِ البقرةِ ﴿ وَأُمِرْتُ لِاعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في تبليغ الشرائعِ

والأحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام ، وقيل معناه لأسوي بيني وبينكُم ولا آمركم بما لا أعملُه ولا أخالفكم إلى ما أنهاكُم عنْهُ ولا أفرقَ بين أكابرِكم وأصاغرِكم ، واللام إمَّا على حقيقتها والمأمورُ به محذوفٌ أيْ أمِرتْ بذلكَ لأعدلَ ، أو زائدةٌ أيْ أمرتُ أنْ أعدلَ والباءُ محذوفةٌ . ﴿ اللهُ ربُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي خالقُنا جميعاً ومتولِّي أمورنا ﴿ لَنَا أعمالنا ﴾ لا يتخطانَا جزاؤُها ثواباً كانَ أو عقاباً ﴿ وَلَكُمْ أعمالكم ﴾ لا تجاوزكم آثارها لنستفيد بحسناتكم ونتضرر بسيئاتكم ﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أيْ لا مُحاجَّةَ ولا خصومةَ لأنَّ الحقَّ قد ظهرَ

(298/685)

ولم يبقَ للمحاجَّةِ حاجةٌ ولا للمخالفة محملٌ سوى المكابرة ﴿ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يومَ القيامةِ ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ فيظهرُ هناكَ حالُنا وحالُكم . وهذا كما تَرَى محاجزةٌ في مواقف المجاوبةِ لا متاركةٌ في مواطن المحاربةِ حتى يُصارَ إلى النسخ بآيةِ القتالِ .

﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِى الله ﴾ أي في دينه ﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ من بعدِ ما استجابَ له الناسُ ودخلُوا فيهِ ، والتعبيرُ عن ذلكَ بالاستجابةِ باعتبار دعوتهم إليهِ أو من بعد ما استجابَ اللهُ لرسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأيَّده بنصره أو من بعد ما استجابَ له

أهلُ الكتابِ بأنْ أقرُّوا بنبوته عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ واستفتحُوا به قبلَ مبعثِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وذلكَ أنَّ اليهودَ والنَّصارى كانوا يقولونَ للمؤمنين كتابُنَا قبلَ كتابكم ونبيُنا قبلَ نبيّكُم ونحنُ خيرٌ منكُم وأولى بالحقِّ . ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ زالَّةٌ زائلةٌ باطلةٌ بلْ لا حجةَ لهم أصلاً وإنما عبَّر عن أباطيلهم بالحجة مجاراةً معهم على زعمهم الباطلِ . ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ عظيمٌ لمكابرتهم الحقَّ بعدَ ظهورِه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لا يُقَادرُ قَدرُهُ .

(299/685)

﴿ اللهُ الذى أَنزَلَ الكتاب ﴾ أي جنسَ الكتابِ ﴿ بالحق ﴾ ملتبساً به في أحكامه وأخبارِه أو بما يحقُّ إنزالُه من العقائدِ والأحكامِ . ﴿ والميزان ﴾ والشرعِ الذي يُوزنُ به الحقوقُ ويسوى بينَ الناسِ ، أو نفسُ العدلِ بأنْ أنزلَ الأمرَ بهِ أو آلةُ الوزنِ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ يجعلكَ عالماً ﴿ لَعَلَّ الساعة ﴾ التي يخبرُ بمجيئها الكتابُ الناطقُ بالحقِّ ﴿ قَرِيبٌ ﴾ أيْ شيءٌ قريبٌ أو قريب مجيئُها ، وقيلَ : القريبُ بمعنى ذاتِ قربٍ ، أو الساعةُ بمعنى البعثِ والمَعْنى أنَّها على جناحِ الإتيانِ فاتبعِ الكتابَ واعملْ بهِ وواظبْ على العدل قبل أنْ يفاجئكَ اليومُ الذي يوزنُ فيه الأعمالُ ويوفي جزاؤها .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استعجالَ إنكارٍ واستهزاءٍ ، كانُوا يقولونَ متى هيَ ليتها قامتْ حَتَّى يظهرَ لنا الحقُّ أهُو الذي نحنُ عليهِ أم الذي عليهِ محمدٌ وأصحابُه ﴿ والذين ءامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ خائفونَ منها معَ اعتناءٍ بها لتوقعِ الثوابِ ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ أي الكائنُ لا محالةَ ﴿ أَلاَ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِى الساعة ﴾ يجادلونَ فيها ، منَ المرية أو من مَرَيتُ الناقةَ إذا مسحتُ ضَرعَها بشدةٍ للحلب لأنّ كلاً من المتجادلينِ يستخرجُ ما عند صاحبهِ بكلامٍ فيه شدّةٌ ﴿ لَفِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ عن الحقّ فإن البعثَ أشبه الغائباتِ بالمحسوسات فمن لم يهتدِ إلى تجويزِه فهُو عن الاهتداءِ إلى ما وراءَهُ أبعدُ وأبعدُ .

(300/685)

﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ أي برٌّ بليغُ البرِّ بهم يُفيض عليهم من فنون ألطافِه ما لا يكادُ يناله أيدي الأفكارِ والظنونِ ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاء ﴾ أنْ يرزقه كيفما يشاءُ فيخصّ كلاً من عباده بنوعٍ من البرِّ على ما تقتضيهِ مشيئتُه المبنيةُ على الحِكم البالغةِ . ﴿ وَهُوَ القوى ﴾ الباهرُ القدرةِ الغالبُ على كلِّ شيءٍ ﴿ العزيز ﴾ المنيعُ الذي لا يغلبُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(301/685)

وقال الآلوسى :

﴿ الله الذى أَنزَلَ الكتاب ﴾

جنس الكتاب أو الكتاب المعهود أو جميع الكتب ﴿ بالحق ﴾ ملتبساً بالحق بعيداً من الباطل في أحكامه وأخباره أو ملتبساً بما يحق ويجب من العقائد والأحكام ﴿ والميزان ﴾ أي العدل كما قال ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة .

وغيرهم أو الشرع الذي يوزن به الحقوق ويسوى بين الناس ، وعلى الوجهين فيه استعارة ونسبة الانزال إليه مجاز لأنه من صفات الأجسام والمنزل حقيقة من بلغه ، واعتبر بعضهم الأمر أي أنزل الأمر بالميزان ، وتعقب بأنه أيضاً محتاج إلى التأويل ، وقد يقال : نسبة الإنزال وكذا النزول إلى الأمر مشهورة جداً فالتحقت بالحقيقة ، ويجوز أن يتجوز في الإنزال ويقال نحو ذلك في ﴿ أَنزَلَ الكتاب ﴾ وعن مجاهد أن الميزان الآلة المعروفة فعلى هذا إنزاله على حقيقته ، وجوز أن يكون على سبيل الأمر به ، واستظهر الأول لما نقل الزمخشري في الحديد أنه نزل إلى نوح وأمران يوزن به ، وكون المراد به ميزان الأعمال بعيد هنا .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أي أي شيء يجعلك دارياً أي عالماً ﴿ لَعَلَّ الساعة ﴾ أي إتيان

الساعة الذي أخبر به الكتاب الناطق بالحق فالكلام بتقدير مضاف مذكر ، وقوله تعالى : ﴿ قَرِيبٌ ﴾ خبر عنه في الحقيقة لأن المحذوف بقرينة كالملفوظ وهو وجه في تذكيره ؛ وجوز أن يكون لتأويل الساعة بالبعث وأن يكون ﴿ قَرِيبٌ ﴾ من باب بامر ولابن أي ذات قرب إلى أوجه أخر تقدمت في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب ﴾ [الأعراف : 56] وأياً ما كان فالمعنى إن الساعة على جناح الإتيان فاتبع الكتاب وواظب على العدل واعمل بالشرع قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استعجال إنكار واستهزاء كانوا يقولون : متى هي ليتها قامت حتى يظهر لنا أهو الذي نحن عليه أم كالذي عليه محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه .

(302/685)

﴿ والذين ءامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أي خائفون منها مع اعتناء بها فإن الاشفاق عناية مختلطة بخوف فإذا عدى بمن كما هنا فمعنى الخوف فيه أظهر وإذا عدى بعلى فمعنى العناية أظهر ، وعنايتهم بها لتوقع الثواب ، وزعم الجلبي أن الآية من الاحتباك والأصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون

بها ﴿ وَيَعْمَلُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ الأمر المتحقق الكائن لا محالة ﴿ أَلَا إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِى الساعة ﴾ أي يجادلون فيها ، وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب ، وإطلاق المماراة على المجادلة لأن كلاً من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه ، ويجوز أن يكون من المرية التردد في الأمر وهو أخص من الشك ومعنى المفاعلة غير مقصود فالمعنى أن الذين يترددون في أمر الساعة ويشكون فيه ﴿ لَفِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ عن الحق فإن البعث أقرب الغائبات بالمحسوسات لأنه يعلم من تجويزه من إحياء الأرض بعد موتها وغير ذلك فمن لم يهتد إليه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعد وأبعد .

(303/685)

﴿ الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ برد بليغ البر بهم يفيض جل شأنه على جميعهم من صنوفه ما لا يبلغه الأفهام ويؤذن بذلك مادة اللطف وصيغة المبالغة فيها وتنكيرها الدال على المبالغة بحسب الكمية والكيفية ، قال حجة الإسلام عليه الرحمة : إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها ولطف ثم يسلك في إيطالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطيف ولا يتصور كمال ذلك إلا في الله تعالى شأنه ، فصنوف البر من المبالغة في الكم ، وكونها لا

تبلغها الأفهام من المادة والمبالغة في الكيفية لأنه إذا دق جداً كان أخفى وأخفى ، وإرادة الجميع من إضافة العباد وهو جمع إلى ضميره تعالى فيفيد الشمول والاستغراق ، وبالعموم قال مقاتل إلا أنه قال : لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً .

وقال أبو حيان : لطيف بعباده أي بر بعباده المؤمنين ومن سبق له الخلود في الجنة وما يرى من النعم على الكافر فليس بلطف إنما هو إملاء إلا ما آل إلى رحمة ووفاة على الإسلام ، وحكى الطيبي هذا التخصيص عن الواحدي ومال إلى ترجيحه وذلك أنه ادعى أن الإضافة في ﴿ عِبَادِهِ ﴾ إضافة تشريف إذ أكثر استعمال التنزيل الجليل في مقل ذلك فيختص العباد بأوليائه تعالى المؤمنين ، وحمل اللطف على منح الهداية وتوفيق الطاعة وعلى الكمالات الأخروية والكرامات السنية ، وحمل الرزق في قوله تعالى : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاء ﴾ عليه أيضاً وقال : إن استعماله فيما ذكر كاستعماله في قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور : 38] .

(304/685)

وجعل قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ القوى العزيز ﴾ مؤذناً بالتعليل كأنه قيل : إنما تلطف جل شأنه في حق عباده المؤمنين دون من غضب عليهم بمحض مشيئته سبحانه لأنه تعالى قوي قادر على أن يختص برحمته وكرامه من يشاء من عباده عزيز غالب لا يمنعه سبحانه عما يريده أحد ، وادعى أنه يكون وزان الآية على هذا مع قوله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ الآية وزان قوله عز وجل : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ [الشمس : 107] وينتظم الكلام أتم انتظام وتلتئم أطرافه أشد التآم ، ولا يقال حينئذ : إن قوله تعالى : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاء ﴾ [الشورى : 19] حكم مترتب على السابق فكان ينبغي أن يعم عمومه والعموم أظهر ، وحديث التخصيص في ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاء ﴾ فقد أجاب عنه "صاحب التقريب" فقال إنما خصص الرزق بمن يشاء مع أنهم كلهم بر سبحانه بهم لأنه تعالى قد يخص أحداً بنعمة وغيره بأخرى فالعموم لجنس البر والخصوص لنوعه .

وأشار جار الله إلى أنه لا تخصيص بالحقيقة فإن المعنى الله تعالى بليغ البر بجميع عباده يرزق من يشاء ما يشاء سبحانه منه فيرزق من يشاء بيان لتوزيعه على جميعهم فليس الرزق لا النصيب الخاص لكل واحد ، ولما شمل الدارين لاءم قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ الخ كل الملاءمة ، ولا يتوقف هذا على ما قاله الطيبي ، ولعل أمر التذييل بالاسمين الجليلين على القول بالعموم أظهر والتعليل أنسب فكأنه قيل : لطيف بعباده عام الإحسان بهم لأنه تعالى

القوي الباهر القدرة الذي غلب وغلبت قدرته سبحانه جميع القدر يرزق من يشاء لأنه العزيز الذي لا يغلب على ما يريد فكل من الاسمين الجليلين ناظر إلى حكم فافهم وقل رب زدني علماً :

فكم لله من لطف خفي . . .

يدق خفاه عن فهم الذكي

(305/685)

والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض يطلق على الزرع الحاصل منه ، ويستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة إلى سبعمائة فما فوقها ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ بأعماله ﴿ حَرْثَ الدنيا ﴾ وهو متاعها وطيباتها ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي شيئاً منها حسبما قدرناه له بطلبه وإرادته ﴿ وَمَا لَهُ فِى الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ إذ كانت همته مقصورة على الدنيا وقرأ ابن مقسم .

والزعفراني .

ومحبوب .

والمنقري كلاهما عن أبي عمرو ﴿ يزد .

ويؤته ﴾ بالياء فيهما ، وقرأ سلام ﴿ ثَوَابَ الدنيا نُؤْتِهِ ﴾ بضم الهاء وهي لغة أهل الحجاز وقد جاء في الآية فعل الشرط ماضياً والجواب مضارعاً مجزوماً قال أبو حيان : ولا نعلم خلافاً في جواز الجزم في مثل ذلك وأنه فصيح مختار مطلقاً إلا ما ذكره صاحب كتاب الإعراب أبو الحكم بن عذرة عن بعض النحويين أنه لا يجيء في الفصيح إلا إذا كان فعل الشرط كان ، وإنما يجيء معها لأنها أصل الأفعال ونص كلام سيبويه والجماعة أنه لا يختص بكان بل سائر الأفعال مثلها في ذلك وأنشد سيبويه للفرزدق :

دست رسولاً بأن القوم إن قدروا . . .

عليك يشفوا صدوراً ذات توغير

وقال أيضاً :

تعش فإن عاهدتني لا تخونني . . .

نكن مثل من يا ذئب يصطحبان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(306/685)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

الخطاب في قوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين ﴾ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أي : بين ، وأوضح لكم من الدين ﴿ مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ من التوحيد ، ودين الإسلام ، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل ، وتوافقت عليها الكتب ﴿ والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من القرآن ، وشرائع الإسلام ، والبراءة من الشرك ، والتعبير عنه بالموصول لتفخيم شأنه ، وخص ما شرعه لنبينا صلى الله عليه وسلم بالإيحاء مع كون ما بعده ، وما قبله مذكوراً بالتوصية للتصريح برسالته ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى ﴾ مما تطابقت عليه الشرائع .

ثم بيّن ما وصى به هؤلاء ، فقال : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ أي : توحيد الله ، والإيمان به ، وطاعة رسله ، وقبول شرائعه ، وأن هي : المصدرية ، وهي وما بعدها في محل رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف ، كأنه قيل : ما ذلك الذي شرعه الله ؟ فقيل : هو إقامة الدين ، أو هي : في محل نصب بدلاً من الموصول ، أو في محل جرّ بدلاً من الدين ، أو هي المفسرة ، لأنه قد تقدمها ما فيه معنى القول .

قال مقاتل : يعني : أنه شرع لكم ، ولمن قبلكم من الأنبياء ديناً واحداً .

قال مقاتل : يعني : التوحيد .

قال مجاهد : لم يبعث الله نبياً قط إلاّ وصاه بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإقرار لله بالطاعة ، فذلك دينه الذي شرع لهم .

وقال قتادة : يعني : تحليل الحلال ، وتحريم الحرام ، وخصّ إبراهيم ، وموسى ، وعيسى بالذكر مع نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم أرباب الشرائع .

(307/685)

ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين ، نهاهم عن الاختلاف فيه ، فقال : ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أي : لا تختلفوا في التوحيد ، والإيمان بالله ، وطاعة رسله ، وقبول شرائعه ، فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع ، وتوافقت فيها الأديان ، فلا ينبغي الخلاف في مثلها ، وليس من هذا فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة ، وتتعارض فيها الأمارات ، وتتباين فيها الأفهام ، فإنها من مطارح الاجتهاد ، ومواطن الخلاف .

ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شقّ على المشركين ، فقال : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي : عظم ، وشق عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد ، ورفض الأوثان .

قال قتادة : كبر على المشركين ، واشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده ، وضاق بها

إبليس ، وجنوده ، فأبى الله إلاّ أن ينصرها ، ويعليها ، ويظهرها ، ويظفرها على من ناوأها .

ثم خصّ أولياءه ، فقال : ﴿ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء ﴾ أي : يختار ، والاجتباء الاختيار ، والمعنى : يختار لتوحيده ، والدخول في دينه من يشاء من عباده .

﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي : يوفق لدينه ، ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته ، ويقبل إلى عبادته .

ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين ، وعدم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرّق ، والاختلاف ، فقال : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ أي : ما تفرّقوا إلاّ عن علم بأن الفرقة ضلالة ، ففعلوا ذلك التفرّق للبغي بينهم بطلب الرياسة ، وشدّة الحمية .

(308/685)

قيل : المراد قريش هم الذين تفرّقوا بعد ما جاءهم العلم ، وهو : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بَغِيّاً ﴾ ، منهم عليه ، وقد كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 42] الآية ، وبقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ [البقرة : 89] .

وقيل : المراد أمم الأنبياء المتقدمين ، وأنهم فيما ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ اختلفوا لما طال بهم المدى ، فآمن قوم ، وكفر قوم .

وقيل : اليهود ، والنصارى خاصة كما في قوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ [البينة : 4] ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ ، وهي : تأخير العقوبة ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، وهو : يوم القيامة كما في قوله : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر : 46] .

وقيل : إلى الأجل الذي قضاه الله لعذابهم في الدنيا بالقتل ، والأسر ، والذلّ ، والقهر ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة .

وقيل : لقضي بين من آمن منهم ، ومن كفر بنزول العذاب بالكافرين ، ونجاة المؤمنين ﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب ﴾ من اليهود ، والنصارى ﴿ مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد من قبلهم من اليهود ، والنصارى ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ أي : من القرآن ، أو من محمد ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريب ، ولذلك لم يؤمنوا .

وقال مجاهد : معنى ﴿ من بعدهم ﴾ : من قبلهم يعني : من قبل مشركي مكة ، وهم اليهود ، والنصارى .

وقيل : المراد كفار المشركين من العرب الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب

كتابهم ، وصفهم بأنه في شك من القرآن مريب .

قرأ الجمهور : ﴿ أورثوا ﴾ وقرأ زيد بن عليّ : (ورثوا) بالتشديد .

(309/685)

﴿ فَلِذَلِكَ فادع واستقم ﴾ أي : فلأجل ما ذكر من التفرّق ، والشكّ ، أو فلأجل أنه شرع من الدين ما شرع ، فادع ، واستقم ؛ أي : فادع إلى الله ، وإلى توحيده ، واستقم على ما دعوت إليه .

قال الفراء ، والزجاج : المعنى : فإلى ذلك ، فادع كما تقول : دعوت إلى فلان ، ولفلان ، وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد .

وقيل : في الكلام تقديم ، وتأخير .

والمعنى : كبر على المشركين ما ندعوهم إليه ، فلذلك فادع .

قال قتادة : استقم على أمر الله .

وقال سفيان : استقم على القرآن .

وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ بذلك من جهة الله ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ الباطلة ، وتعصباتهم الزائغة ، ولا تنظر إلى خلاف من خالفك في ذكر الله

﴿ وَقُلْ ءامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كتاب ﴾ أي : بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله ، لا كالذين آمنوا ببعض منها ، وكفروا ببعض ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في أحكام الله إذا ترافعتم إليّ ، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله ، أو بنقصان منه .

وأبلغ إليكم ما أمرني الله بتبليغه كما هو ، واللام لام كي ، أي : أمرت بذلك الذي أمرت به ، لكي أعدل بينكم .

وقيل : هي زائدة ، والمعنى : أمرت أن أعدل ؛ والأوّل أولى .

قال أبو العالية : أمرت ، لأسويّ بينكم في الدين ، فأومن بكل كتاب ، وبكل رسول .

والظاهر : أن الآية عامة في كل شيء ، والمعنى : أمرت ؛ لأعدل بينكم في كل شيء ﴿ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي : إلهنا ، وإلهكم ، وخالقنا ، وخالقكم ﴿ لَنَا أعمالنا ﴾ أي : ثوابها ، وعقابها خاصّ بنا ﴿ وَلَكُمْ أعمالكم ﴾ أي : ثوابها ، وعقابها خاصّ بكم ﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي : لا خصومة بيننا ، وبينكم .

لأن الحق قد ظهر ، ووضح ﴿ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ في المحشر ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ أي : المرجع يوم القيامة ، فيجازي كلا بعمله : وهذا منسوخ بآية السيف .

(310/685)

قيل : الخطاب لليهود ، وقيل : للكفار على العموم .

﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِى اللهِ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ أي : يخاصمون في دين الله من بعد ما استجاب الناس له ، ودخلوا فيه .

قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس .

قال : وهؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود .

وقال قتادة : هم اليهود ، والنصارى ، ومحاجتهم قولهم : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب ، وأنهم أولاد الأنبياء ، وكان المشركون يقولون : ﴿ أَىُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ [مريم : 73] ، فنزلت هذه الآية ، والموصول مبتدأ ، وخبره الجملة بعده ، وهي : ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي : لا ثبات لها كالشيء الذي يزول عن موضعه ، يقال : دحضت حجته دحوضاً : بطلت ، والإدحاض : الإزلاق ، ومكان دحض ، أي : زلق ، ودحضت رجله : زلقت .

وقيل : الضمير في له راجع إلى الله .

وقيل : راجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

والأوّل أولى ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ أي : غضب عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الآخرة ﴿ الله الذى أَنزَلَ الكتاب بالحق ﴾ المراد بالكتاب : الجنس ، فيشمل جميع الكتب المنزّلة على الرسل .

وقيل : المراد به القرآن خاصة ، وبالحق متعلق بمحذوف ، أي : ملتبساً بالحق ، وهو : الصدق والمراد ب ﴿ الميزان ﴾ : العدل ، كذا قال أكثر المفسرين ، قالوا : وسمي العدل ميزاناً ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف ، والتسوية بين الخلق .

وقيل : الميزان ما بين في الكتب المنزّلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به .

وقيل : هو : الجزاء على الطاعة بالثواب ، وعلى المعصية بالعقاب .

(311/685)

وقيل : إنه الميزان نفسه أنزله الله من السماء ، وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم ، وتباخس كما في قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ [الحديد : 25] وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ أي : أيّ شيء يجعلك دارياً بها ، عالماً بوقتها لعلها شيء قريب ، أو قريب مجيئها ، أو ذات قرب .

وقال : قريب ، ولم يقل : قريبة لأن تأنيثها غير حقيقي .

قال الزجاج : المعنى : لعلّ البعث ، أو لعلّ مجيء الساعة قريب .

وقال الكسائي : قريب نعت ينعت به المؤنث ، والمذكر كما في قوله : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ الله

قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] ومنه قول الشاعر :

وكنا قريباً والديار بعيدة . . . فلما وصلنا نصب أعينهم غبنا

قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الساعة ، وعنده قوم من المشركين ، فقالوا : متى تكون الساعة ؟ تكذيباً لها ، فأنزل الله الآية ، ويدلّ على هذا قوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استعجال : استهزاء منهم بها ، وتكذيباً بمجيئها ﴿ والذين ءامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أي : خائفون وجلون من مجيئها .

قال مقاتل : لأنهم لا يدرون على ما يهجمون عليه .

وقال الزجاج : لأنهم يعلمون أنهم محاسبون ، ومجزيون ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ أي : أنها آتية لا ريب فيها ، ومثل هذا قوله : ﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا ءاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ راجعون ﴾ [المؤمنون : 60] .

(312/685)

ثم بيّن ضلال المارين فيها ، فقال : ﴿ أَلاَ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِى الساعة ﴾ أي : يخاصمون فيها مخاصمة شك ، وريبة ، من المماراة ، وهي : المخاصمة ، والمجادلة ، أو من المرية ، وهي : الشك ، والريبة ﴿ لَفِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ عن الحق ؛ لأنهم لم يتفكروا في الموجبات

للإيمان بها من الدلائل التي هي : مشاهدة لهم منصوبة لأعينهم مفهومة لعقولهم ، ولو تفكروا لعلموا أن الذين خلقهم ابتداء قادر على الإعادة .

وقد أخرج ابن جرير عن السدّي ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ قال : اعملوا به .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ قال : ألا تعلموا أن الفرقة هلكة ، وأن الجماعة ثقة ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ ، قال : استكبر المشركون أن قيل لهم : لا إله إلاّ الله .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد : ﴿ الله يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاء ﴾ قال : يخلص لنفسه من يشاء .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِى الله مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ قال : هم أهل الكتاب كانوا يجادلون المسلمين ، ويصدّونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله .

وقال : هم : قوم من أهل الضلالة ، وكانوا يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِى الله ﴾ الآية ، قال : هم اليهود ، والنصارى .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ الله والفتح ﴾ [النصر :

1] قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجاً ، فاخرجوا من بين أظهرنا ، فنزلت : ﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِى الله ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(313/685)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾

قد علمتم أن من جملة محاجة المشركين في الله ومِن أشدّها تشغيباً في زعمهم محاجتهم بإنكار البعث كما في قولهم : ﴿ هل ندلكم على رجلٍ يُنبِّئكم إذا مُزِّقتم كلَّ مُمَزَّقٍ إنكم لفي خَلقٍ جديدٍ أفترى على الله كذباً أم به جنّة ﴾ [سبأ : 7 ، 8] ، وقال شداد بن الأسود :

يُخبِّرُنا الرّسولُ بأنْ سَنَحْيَا

وكيفَ حياةُ أصداءٍ وهامِ . . .

وقد دحض الله حجتهم في مواضع من كتابه بنفي استحالته ، وبدليل إمكانه ، وأوماً هنا إلى مقتضي إيجابه ، فبيّن أن البعث والجزاء حق وعدل فكيف لا يقدِّره مدبّر الكون ومنزّل

الكتاب والميزان .

وقد أشارت إلى هذا المعنى آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجَعون ﴾ [المؤمنون : 115] وقوله : ﴿ إن الساعة آتيةٌ أكادُ أُخفيها لتُجْزَى كلُّ نفس بما تَسعى ﴾ [طه : 15] وقال : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحقّ ولكن أكثرَهم لا يعلمون إنَّ يوم الفصل ميقاتُهم أجمعين ﴾ [الدخان : 38 40] .

وأكثرُها جاء نظمها على نحو الترتيب الذي في نظم هذه الآية من الابتداء بما يذكِّر بحكمة الإيجاد وأن تمام الحكمة بالجزاء على الأعمال .

فقوله : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ تمهيد لقوله : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ ، لأن قوله : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ يؤذن بمقدر يقتضيه المعنى ، تقديره : فجُعل الجزاء للسائرين على الحق والناكبين عنه في يوم السّاعة فلا محيص للعباد عن لقاء الجزاء وما يدريك لعل الساعة قريب ، فهو ناظر إلى قوله ﴿ إن الساعة آتية أكاد أُخْفِيها لتُجزَى كلَّ نفسسٍ بما تسعى ﴾ [طه : 15] .

وهذه الجملة موقعها من جملة ﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ [الشورى : 16] موقع الدّليل ، والدليلُ من ضروب البيان ، ولذلك فصلت الجملة عن التي قبلها لشدة اتصال معناها بمعنى الأخرى .

والإخبار عن اسم الجلالة باسم الموصول الذي مضمون صلته إنزالُه الكتابَ والميزانَ ، لأجل ما في الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي ، وأنه من جنس الحق والعدل ، مثل الموصول في قوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين ﴾ [غافر : 60] .

ولام التعريف في الكتاب ﴾ لتعريف الجنس ، أي إنزال الكُتب وهو ينظر إلى قوله آنفاً : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ [الشورى : 15] .

والباء في ﴿ بالحق ﴾ للملابسة ، أي أنزل الكتب مقترنة بالحق بعيدة عن الباطل .

والحق : كلّ ما يَحق ، أي يجب في باب الصلاح عملُه ويصح أن يفسر بالأغراض الصحيحة النافعة .

و﴿ الميزان ﴾ حقيقته : آلة الوزن ، والوزن : تَقديرُ ثِقَلِ جسم ، والميزان آلة ذات كفتين معتدلتين معلقتين في طرفي قضيب مستوٍ معتدل ، له عروة في وسطه ، بحيث لا تتدلى إحدى الكفتين على الأخرى إذا أُمسك القضيب من عُروته .

والميزان هنا مستعار للعدل والهدْي بقرينة قوله ﴿ أنزل ﴾ فإن الدّين هو المنزل والدّين

يدعو إلى العدل والإنصاف في المجادلة في الدّين وفي إعطاء الحقوق ، فشبه بالميزان في تساوي رجحان كفتيه قال تعالى:

﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقومَ النّاس بالقسط ﴾ [الحديد : 25] .

وجملة ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ معطوفة على جملة ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ ، والمناسبة هي ما ذكرناه من إيذان تلك الجملة بمقدَّر .

وكلمة ﴿ وما يدريك ﴾ جارية مجرى المثل ، والكاف منها خطاب لغير معيّن بمعنى : قد تدري ، أي قد يدري الداري ، ف ﴿ ما ﴾ استفهامية والاستفهام مستعمل في التنبيه والتهيئة .

و ﴿ يدريك ﴾ من الدراية بمعنى العلم .

(315/685)

وقد عُلّق فعل (يُدري) عن العمل بحرف الترجّي .

وعن ابن عباس كل ما جاء فعل (ما أدراك) فقد أعلمه الله به أي بينه له عقب كلمة (ما أدراك) نحو ﴿ وما أدراك ماهِيَهْ نارٌ حامية ﴾ [القارعة : 10 ، 11] وكل ما جاء فيه ﴿ وما يدريك ﴾ لم يُعلمه به أي لم يعقبه بما يبين إبْهامه نحو ﴿ وما يدريك لعل الساعة

قريب وما يدريك لعله يزّكى ﴾ [عبس : 3] .

ولعل معنى هذا الكلام أن الاستعمال خص كل صيغة من هاتين الصيغتين بهذا الاستعمال فتأمل .

والمعنى : أي شيء يعلمك أيها السامع الساعةَ قريباً ، أي مقتضي علمِك متوفر ، فالخطاب لغير معين ، وفي معناه قوله تعالى : ﴿ وما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ في سورة الأنعام (109) .

والإخبار عن الساعة ﴾ بـ ﴿ قريب ﴾ وهو غير مؤنث لأنه غلب لزوم كلمة قريب وبعيد للتذكير باعتبار شيء كقوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ [الأحزاب : 63] وقوله : ﴿ إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾ وقد تقدم في سورة الأعراف (56) .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ ﴾ .

يجوز أن تكون جملة ﴿ يستعجل بها ﴾ إلى آخرها حالاً من ﴿ الساعة ﴾ [الشورى : 17] .

ويجوز أن تكون بياناً لجملة ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ [الشورى : 17] لما تضمنته من التنبيه والتهيئة بالنسبة إلى فريقي المؤمنين بالسّاعة ، والذين لا يؤمنون بها ، فذكر فيها حال كلا الفرِيقين تجاه ذلك التنبيه .

فأما المشركون فيتلقونه بالاستهزاء والتصميم على الجحد بها ، وهو المراد بقوله : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ ، والذين آمنوا بها يعملون لما به الفوز عندها ، ولذلك جيء عقبها بجملة ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾ كما سيأتي .

(316/685)

والاستعجال : طلب التعجيل ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ في سورة يونس (11) ، أي يطلب الذين لا يؤمنون بالسّاعة من النبي أن يعجّل الله بحلول السّاعة ليبين صدقه ، تهكماً واستهزاء وكناية عن اتخاذهم تأخرها دليلاً على عدم وقوعها ، وهم آيسون منها كما دلّ عليه قوله في مقابله والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ .

وقد تكرر منهم هذا المعنى بأساليب ذكرت في تضاعيف آي القرآن كقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [سبأ : 29] ﴿ وقالوا ربَّنا عَجِّلْ لنا قِطَّنَا قبل يوم الحساب ﴾ [ص : 16] .

والإشفاق : رجاء وقوع ما يكره ، أي مشفقون من أهوالها ، وتقدم في قوله : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ [الأنبياء : 28] .

وإنما جعل الإشفاق من ذات الساعة لإفادة تعظيم أهوالها حتى كأن أحوالها هي ذاتها ،

على طريقة إسناد الحكم ونحوِه إلى الأعيان نحو ﴿ حُرِّمت عليكم الميتةُ ﴾ [المائدة : 3] ، فهم يتوخون النجاة منها بالطاعة والتقوى ، أي فهم لا يستعجلون بها وإنما يغتنمون بقاءهم في الدّنيا للعمل الصالح والتوبة .

والمراد بـ ﴿ الذين لا يؤمنون ﴾ : المشركون ، وعبر عنهم بالموصول لأن الصلة تدلّ على علة استعجالهم بها ، والمراد بالذين آمنوا : المسلمون فإن هذا لقب لهم ، ففي الكلام احتباك ، تقديره : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها .

وعُطفت على ﴿ مشفقون منها ﴾ جملةُ ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ لإفادة أن إشفاقهم منها إشفاق عن يقين وجزم لا إشفاقٌ عن تردد وخشيَةِ أن يكشف الواقع على صدق الإخبار بها وأنه احتمال مساوٍ عندهم .

وتعريف ﴿ الحق ﴾ في قوله : ﴿ أنّها الحق ﴾ تعريف الجنس وهو يفيد قصر المسند على المسند إليه قصر مبالغة لكمال الجنس في المسند إليه نحو : عنترةُ الشجاع ، أي يوقنون بأنها الحق كل الحق ، وذلك لظهور دلائل وقوعها حتى كأنه لا حق غيره .

(317/685)

﴿ الحق أَلاَ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فَى الساعة لَفِى ضلال ﴾ .

الجملة تذييل لما قبلها بصريحها وكنايتها لأن صريحها إثبات الضلال للذين يكذِّبون بالساعة وكنايتها إثباتُ الهدى للذين يؤمنون بالساعة .

وهذا التذييل فذلكة للجملة التي قبلها .

وافتتاح الجملة بحرف ﴿ أَلاَ ﴾ الذي هو للتنبيه لقصد العناية بالكلام .

والمُمَاراة : مفاعلة من المِرْية بكسر الميم وهي الشك .

والمماراة : المُلاحَّة لإدخال الشك على المجادل ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ فلا تمارِ فيهم ﴾ في سورة الكهف (22) .

وجُعل الضلال كالظرف لهم تشبيهاً لتلبسهم بالضلال بوقوع بالمظروف في ظرفه ، فحرف ﴿ في ﴾ للظرفية المجازية .

ووصف الضلال بالبعيد وصفٌ مجازي ، شُبه الكفر بضلال السائر في طريق وهو يكون أشد إذا كان الطريق بعيداً ، وذلك كناية عن عسر إرجاعه إلى المقصود .

والمعنى : لفي ضلال شديد ، وتقدم في قوله : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضلالاً بعيداً ﴾ في سورة النساء (116) .

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)

هذه الجملة توطئة لجملة ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ [الشورى : 20

] لأن ما سيذكر في الجملة الآتية هو أثر من آثار لطف الله بعباده ورفقه بهم وما يَسَّر من الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدّنيا ، ثم ما خصّ به المؤمنين من رزق الآخرة ، فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً مقدّمة لاستئناف الجملة الموطَّإ لها ، وهي جملة ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ الآية [الشورى : 20] .

وموقع جملة من كان يريد حرث الآخرة ﴾ الخ فسنبينه .

واللطيف : البَر القوي البرّ .

ويدخل في هذا كثير من النعم .

فسّر عدد من المفسّرين اللطيف بواهب بعضها وإنما هو تفسيرُ تمثيل لا يخُصُّ دلالةَ الوصف به .

(318/685)

وفعل (لَطَف) من باب نصر يتعدى بالباء كما هنا وباللام كما في قوله : ﴿ إن ربّي لطيفٌ لما يشاء ﴾ كما تقدم في سورة يوسف (100) .

وتقدم تحقيقُ معنى اسمه تعالى اللطيف .

وعباده عام لجميع العباد ، وهم نوع الإنسان لأنه جمع مضاف .

وجملة يرزق من يشاء ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة ، أو في موضع خبر عنه .

والرزق : إعطاء ما ينفع .

وهو عندنا لا يختص بالحلال وعند المعتزلة يختص به والخلاف اصطلاح .

والظاهر : أن المراد هنا رزق الدّنيا لأن الكلام توطئة لقوله : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ [الشورى : 20] .

والمشيئة : مشيئة تقدير الرّزق لكل أحد من العباد ليكون عموم اللطف للعباد باقياً ، فلا يكون قوله : من يشاء ﴾ في معنى التكرير ، إذ يصير هكذا يرزق من يشاء من عباده الملطوفِ بجميعهم ، وما الرزق إلا من اللطف ، فيصيرُ بعضَ المعنى المفاد ، فلا جرم تعيّن أن المشيئة هنا مصروفة لمشيئة تقدير الرزق بمقاديره .

والمعنى : أنه للطفه بجميع عباده لا يترك أحداً منهم بلا رزق وأنه فضل بعضهم على بعض في الرزق جرياً على مشيئته .

وهذا المعنى يثير مسألة الخلاف بين أئمة أصول الدّين في نعمة الكافر ، ومِن فروعها رزقُ الكافر .

وعن الشيخ أبي الحسن الأشعري أن الكافر غير منعم عليه نعمةً دنيوية لأن ملاذّ الكافر استدراج لمَّا كانت مفضية إلى العذاب في الآخرة فكانت غير نعمة ، ومرادهم بالدنيوية مقابل الدينية .

وكأنَّ مراد الشيخ بهذا تحقيق معنى غضب الله على الكافرين كما جاء في آيات كثيرة ، فمراده : أن الكافر غير مُنْعَم عليه نعمةَ رضى وكرامةٍ ولكنها نعمة رحمة لما له من انتساب المخلوقية لله تعالى .

وقال أبو بكر الباقلاني : الكافر منعَم عليه نعمة دُنيوية .

وقالت المعتزلة : هو منعم عليه نعمة دنيوية ودينية : فالدنيوية ظاهرة ، والدّينية كالقُدرة على النظر المؤدي إلى معرفة الله .

(319/685)

وهذه مسألة أرجع المحققون الخلافَ فيها إلى اللفظ والبناءِ على المصطلحات والاعتبارات الموافقة لدقائق المذاهب ، إذ لا ينازع أحد في نعمة المنعمين منهم وقد قال تعالى : ﴿ وذرْني والمُكذبين أولي النَّعْمَة ﴾

[المزمل : 11] .

وعُطف ﴿ وهو القوي العزيز ﴾ على صفة ﴿ لطيف ﴾ أو على جملة ﴿ يرزق من يشاء ﴾ وهو تمجيد لله تعالى بهاتين الصفتين ، ويفيد الاحتراس من توهم أن لطفه عن عجز أو مصانعة ، فإنه قوي عزيز لا يَعجز ولا يصانِع ، أو عن توهم أن رزقه لمن يشاء عن

شحّ أو قِلّةٍ فإنه القويّ ، والقوي تنتفي عنه أسباب الشحّ ، والعزيز ينتفي عنه سبب الفقر فرزقه لمن يشاء بما يشاء منوط لحكمة عَلِمها في أحوال خلقه عامة وخاصة ، قال تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكِنْ ينزّل بقَدَر ما يشاء ﴾ [الشورى : 27] الآية .

والإخبار عن اسم الجلالة بالمسند المعَرّفِ باللام يفيد معنى قصر القوة والعزة عليه تعالى ، وهو قصر الجنس للمبالغة لكماله فيه تعالى حتى كأنَّ قوة غيره وعزّة غيره عَدَم .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ

هذه الآية متصلة بقوله : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ [الشورى : 18] الآية ، لِمَا تضمنته من وجود فريقين : فريق المؤمنين أكبر همهم حياةُ الآخرة ، وفريق الذين لا يؤمنون همهم قاصرة على حياة الدّنيا ، فجاء في هذه الآية تفصيل معاملة الله الفريقين معاملة متفاوتة مع استوائهم في كونهم عبيده وكونهم بمحل لطف منه ، فكانت جملة ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ [الشورى : 19] تمهيداً لهذه الجملة ، وكانت هاته الجملة تفصيلاً لحظوظ الفريقين في شأن الإيمان بالآخرة وعدم الإيمان بها .

(320/685)

ولأجل هذا الاتصال بينها وبين جملة ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ [الشورى : 18] تُرك عطفها عليها ، وترك عطف توطئتها كذلك ، ولأجل الاتصال بينها وبين جملة ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ [الشورى : 19] اتصالَ المقصود بالتوطئة تُرك عطفها على جملة ﴿ الله لطيف بعباده .

والحَرث : أصله مصدر حَرَث ، إذ شقّ الأرض ليزرع فيها حَبّاً أو ليغرس فيها شجراً ، وأطلق على الأرض التي فيها زرع أو شجر وهو إطلاق كثير كما في قوله تعالى : ﴿ أنْ اغدُوا على حَرْثكم إن كُنتم صارمين ﴾ [القلم : 22] ، أي جنتكم لقوله قبله ﴿ كما بَلونا أصحابَ الجنّة ﴾ [القلم : 17] وقال : ﴿ زُين للناس حبّ الشهوات من النساء ﴾ إلى قوله : ﴿ والأنعامِ والحَرث ﴾ وقد تقدم في سورة آل عمران (14) .

والحرث في هذه الآية تمثيل للإقبال على كسب ما يُعده الكاسب نفعاً له يرجو منه فائدة وافرة بإقبال الفلاّح على شقّ الأرض وزرعها ليحصل له سنابل كثيرة وثمار من شجر الحرث ، ومنه قول امرىء القيس :

كِلانَا إذا ما نَال شيئاً أفاته

ومن يَحْتَرث حَرثي وحَرْثَك يَهزِل . . .

وإضافة حرث ﴿ إلى ﴿ الآخرة ﴾ وإلى ﴿ الدنيا ﴾ على معنى اللام كقوله : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعَى لها سعيها ﴾ [الإسراء : 19] ، وهي لام الاختصاص وهو في مثل

هذا اختصاص المعلَّل بعلته ، وما لام التعليل إلا من تصاريف لام الاختصاص .

ومعنى ﴿ يريد حرث الآخرة ﴾ يبْتغي عملاً لأجل الآخرة .

وذلك المريد : هو المؤمن بالآخرة لأن المؤمن بالآخرة لا يخلو عن أن يريد الآخرة ببعض أعماله كثيراً كان أو قليلاً ، والذي يريد حرث الدّنيا مراد به : من لا يسعى إلا لعمل الدّنيا بقرينة المقابلة بمن يريد حرث الآخرة ، فتعيّن أن مريد حرث الدّنيا في هذه الآية : هو الذي لا يؤمن بالآخرة .

(321/685)

ونظيرها في هذا قوله تعالى في سورة هود (15 ، 16) ﴿ من كان يريد الحياة الدّنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبْخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبِط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ألا ترى إلى قوله : ﴿ ليس لهم في الآخرة إلا النار ﴾ [هود : 16] وقوله في سورة الإسراء (18 ، 19) ﴿ مَن كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيُهم مشكوراً . ﴾

وفعل نزد له في حرثه ﴾ يتحمل معنيين : أن تكون الزيادة في ثواب العمل ، كقوله : ﴿ ويُرْبِي

الصدقات ﴾ [البقرة : 276] وقوله : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة : 261] ، وسيأتي قريباً قوله : ﴿ ومن يقترِفْ حسنة نزِدْ له فيها حُسناً ﴾ [الشورى : 23] .

وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث مجاز عقلي علقت الزيادة بالحَرثِ وحقُّها أن تعلق بسببه وهو الثواب ، فالمعنى على حذف مضاف .

وأن تكون الزيادة في العمل ، أي نقدر له العون على الازدياد من الأعمال الصالحة ونيسّر له ذلك فيزداد من الصالحات .

وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث حقيقة فيكون من استعمال المركب في حقيقته ومجازه العقليين .

ومعنى ﴿ نؤته منها ﴾ : نقدر له من متاع الدنيا مِن : مدة حياة وعافية ورزق لأن الله قدر لمخلوقاته أرزاقهم وأمدادهم في الدّنيا ، وجعل حظ الآخرة خاصاً بالمؤمنين كما قال : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ [الإسراء : 19] .

(322/685)

وقد شملت آية سورة الإسراء فريقاً آخر غير مذكور هنا ، وهو الذي يؤمن بالآخرة ويبْتغي النجاة فيها ولكنه لم يؤمن بالإسلام مثل أُهل الكتاب ، وهذا الفريق مذكور أيضاً في سورة البلد (11 17) بقوله تعالى : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ العقبةَ وما أدراك ما العقبةُ فكُّ رقبةٍ أو إطعام ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ ﴾ .

فلا يَتوهمَنَّ متوهم أن هذه الآية ونحوها تحجر تناول المسلم حظوظَ الدّنيا إذا أدى حق الإيمان والتكليف ، ولا أنها تصدّ عن خلط الحظوظ الدنيوية مع حظوظ الآخرة إذا وقع الإيفاء بكليهما ، ولا أن الخلط بين الحظين ينافي الإخلاص كطلب التبرد مع الوضوء وطلبِ الصحة مع التطوع بالصوم إذا كان المقصد الأصلي الإيفاء بالحق الديني .

وقد تعرض لهذه المسألة أبو إسحاق الشاطبي في فصل أول من المسألة السادسة من النوع الرابع من كتاب "المقاصد" من كتاب "الموافقات" .

وذكر فيها نظرين مختلفين للغزالي وأبي بكر بن العربي ورجح فيها رأي أبي بكر بن العربي فانظره .

والنصيب : ما يُعيَّن لأحد من الشيء المقسوم ، وهو فَعيل من نَصَبَ لأن الحظ يُنصب ، أي يجعل كالصُّبرة لصاحبه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ في سورة البقرة (202) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت ﴿ حمعاساقا ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن الزبير – رضي الله عنهما – قال : أنزلت بمكة ﴿ حمعاساقا ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، عن جعفر بن محمد رضي الله عنه . " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ذات ليلة ﴿ حمعاساقا ﴾ فرددها مراراً ﴿ حمعاساقا ﴾ في بيت ميمونة . فقال : يا ميمونة ، أمعك ﴿ حمعاساقا ﴾ ؟ قالت : نعم ، قال : فاقرئيها ؛ فلقد نسيت ما بين أولها وآخرها " .

وأخرج الطبراني بسند صحيح ، عن ميمونة قالت : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ﴿ حمعاساقا ﴾ فقال : يا ميمونة ، أتعرفين ﴿ حمعاساقا ﴾ لقد نسيت ما بين أولها وآخرها . قالت : فقرأتها ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، ونعيم بن حماد ، والخطيب ، عن ابن قال : جاء رجل

إلى ابن عباس – رضي الله عنهما – وعنده حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – فقال : أخبرني عن تفسير ﴿ حمعاساقا ﴾ فاعرض عنه ، ثم كرر مقالته ، فاعرض عنه ، ثم كررها الثالثة ، فلم يجبه ، فقال له حذيفة : رضي الله عنه – أنا أنبئك بها ، لم كررتها ، نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد إله ، أو عبد الله ، ينزل على نهر من أنهار المشرق ، يبني عليه مدينتين ، يشق النهر بينهما شقاً ، يجتمع فيها كل جبار عنيد ، فإذا أذن الله في زوال ملكهم ، وانقطاع دولتهم ، ومدتهم ، بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً ، فتصبح سوداء مظلمة ، قد احترقت كأنها لم تكن مكانها ، وتصبح صاحبتها متعجبة ، كيف أفلتت ! فما هو إلا بياض يومها ، وذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ، ثم يخسف الله بها ، وبهم جميعاً ، فذلك عدل منه سين – يعني سيكون . ق – يعني واقع بها تين المدينتين .

(324/685)

وأخرج أبو يعلى ، وابن عساكر بسند ضعيف ، عن أبي معاوية رضي الله عنه قال : صعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبر ، فقال : يا أيها الناس ، هل سمع أحد منكم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ حمعاساقا ﴾ فوثب ابن عباس رضي الله عنهما

، فقال : إن حم ، اسم من أسماء الله تعالى . قال : فعين ؟ قال : عاين المذكور عذاب يوم بدر . قال : فسين ؟ قال : ﴿ سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : 227] قال : فقاف ؟ فسكت ، فقام أبو ذر رضي الله عنه ، ففسر كما فسر ابن عباس ، رضي الله عنهما ، وقال : قاف قارعة من السماء تصيب الناس .

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5)

أخرج الطبراني ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كنا نقرأ هذه الآية ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، " تكاد السماوات ينفطرن من فوقهن " قال : ممن فوقهن ، وقرأها خصيف بالتاء المشددة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن قتادة رضي الله عنه ، ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ﴾ قال : من عظمة الله تعالى وجلاله !

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ﴾ قال : من الثقل .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ قال : الملائكة عليهم السلام ، يستغفرون للذين آمنوا .

(325/685)

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، عن إبراهيم ، قال : كان أصحاب عبد الله ، يقولون : الملائكة خير من ابن الكواء ، يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض ، وابن الكواء يشهد عليهم بالكفر .

وأخرج ابن جرير ، عن السدي رضي الله عنه ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ قال : يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ .

وأخرج أحمد ، والترمذي ، وصححه ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنه ، قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي يده كتابان ، " فقال : أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قلنا لا ، ألا أن تخبرنا يا رسول الله ، قال : للذي في يده اليمنى ، هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم ، ثم قال للذي في شماله ، هذا كتاب من رب العالمين ، بأسماء أهل النار ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ،

ثم أجمل على آخرهم ، فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم أبداً " فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله إن كان قد فرغ منه ؟ فقال : " سددوا ، وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أي عمل " ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بيديه فنبذهما ، ثم قال : " فرغ ربكم من العباد ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ " " .

وأخرج ابن مردويه ، عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في يده كتاب ينظر فيه قال : " انظروا إليه كيف ، وهو أمي لا يقرأ ، قال : فعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هذا كتاب من رب العالمين ، بأسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، لا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم ، وقال : ﴿ فريق في الجنة ، وفريق في السعير ﴾ فرغ ربكم من أعمال العباد " .

(326/685)

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)

أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن مجاهد ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ قال : فهو يحكم فيه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة ، ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن

الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ﴾ قال : عيش من الله ، يعيشكم الله فيه .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ قال : نسلاً من بعد نسل ، من الناس ، والأنعام .

وأخرج ابن جرير ، عن السدي ، في قوله ﴿ يذرؤكم ﴾ قال : يخلقكم .

وأخرج عبد بن حميد ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي وائل رضي الله عنه ، قال : بينما عبد الله رضي الله عنه يمدح ربه ، إذ قال : مصعد نعم الرب يذكر . فقال عبد الله : إني لأجله عن ذلك ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

(327/685)

أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه ، إن مقدار كل يوم من أيامكم عنده اثنتا عشرة ساعة ، فيعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار واليوم ، فينظر فيه ثلاث ساعات ، فيطلع منها على ما يكره ، فيغضبه ذلك ، وأول من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش ، وسرادقات

العرش ، والملائكة المقربون ، وسائر الملائكة ، وينفخ جبريل في القرن ، فلا يبقى شيء إلا سمعه إلا الثقلين : الجن والإنس ، فيسبحونه ثلاث ساعات ، حتى يمتلىء الرحمن رحمة ، فتلك ست ساعات ، ثم يؤتى بما في الأرحام ، فينظر فيها ثلاث ساعات ، ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : 6] ﴿ يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ [الشورى : 49] حتى بلغ (عليم) ، فتلك تسع ساعات ، ثم ينظر في أرزاق الخلق كله ثلاث ساعات ، ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴾ [الرعد : 26] فتلك اثنتا عشرة ساعة ، ثم قال : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ [الرحمن : 29] فهذا شأن ربكم كل يوم .

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

أخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه ، في قوله ، ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ : قال : وصاك يا محمد وأنبياءه كلهم ديناً واحداً .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ قال : الحلال والحرام .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة – رضي الله عنه – قال : بعث نوح عليه السلام ، حين بعث بالشريعة ، بتحليل الحلال وتحريم الحرام .

وأخرج ابن المنذر ، عن زيد بن رفيع ، بقية أهل الجزيرة ، قال : بعث الله نوحاً عليه السلام ، وشرع له الدين ، فكان الناس في شريعة نوح عليه السلام ، ما كانوا ، فما أطفأها إلا الزندقة ، ثم بعث الله موسى عليه السلام ، وشرع له الدين ، فكان الناس في شريعة من بعد موسى ، ما كانوا ، فما أطفأها إلا الزندقة ، ثم بعث الله عيسى عليه السلام ، وشرع له الدين ، فكان الناس في شريعة عيسى عليه السلام ، ما كانوا فما أطفأها إلا الزندقة ، قال : ولا يخاف على هلاك هذا الدين ، إلا الزندقة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن الحكم ، قال : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ ، قال : جاء نوح عليه السلام بالشريعة ، بتحريم الأمهات والأخوات والبنات .

وأخرج ابن جرير ، عن السدي - رضي الله عنه - ﴿ أن أقيموا الدين ﴾ ، قال : اعملوا به .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ . قال : تعلموا أن الفرقة هلكة ، وأن الجماعة ثقة ، ﴿ كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ . قال : استكبر المشركون أن قيل لهم : لا إله إلا الله ، ضانها إبليس

وجنوده ليردوها ، فأبى الله إلا أن يمضيها وينصرها ويظهرها على ما ناوأها ، وهي كلمة من خاصم بها فلج ، ومن انتصر بها نصر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد - رضي الله عنه - ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ﴾ قال : يخلص لنفسه من يشاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - ﴿ بغياً بينهم ﴾ قال : كثرت أموالهم فبغى بعضهم على بعض .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ قال : من يقبل إلى طاعة الله ، وفي قوله ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ ، قال : اليهود والنصارى .

وأخرج عبد بن حميد ، عن كعب - رضي الله عنه - ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ قال : في الدنيا .

(329/685)

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ

أخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة ، ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ قال : أمر نبي الله - صلى الله عليه وسلم - ان يَعْدلَ فعدل ، حتى مات . والعدل ، ميزان الله في الأرض

، به يأخذ للمظلوم من الظالم ، وللضعيف من الشديد ، وبالعدل ، يصدق الله الصادق ويكذب الكاذب ، وبالعدل ، يرد المعتدي ويوبخه .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ قال : لا خصومة بيننا وبينكم .

قوله تعالى : ﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله : ﴿ والذين يُحَاجُّون في الله من بعد ما استجيب له ﴾ قال : هم أهل الكتاب ، كانوا يجادلون المسلمين ويصدونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله . وقال : هم قوم من أهل الضلالة ، وكان استجيب على ضلالتهم ، وهم يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد – رضي الله عنه – ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له ﴾ قال : طمع رجال بأن تعود الجاهلية .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ الآية قال : هم اليهود والنصارى ، حاجوا المسلمين في ربهم ، فقالوا : أنزل كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن أولى بالله منكم ، فأنزل الله ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له

في الآخرة من نصيب ﴾ [آل عمران : 6] وأما قوله : ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ قال : من بعد ما استجاب المسلمون لله وصلوا لله .

(330/685)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن – رضي الله عنه – ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له ﴾ الآية قال : قال أهل الكتاب لأصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – نحن أولى بالله منكم ، فأنزل الله ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ يعني أهل الكتاب .

وأخرج ابن المنذر ، عن عكرمة – رضي الله عنه – قال : لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [النصر : 1] قال المشركون بمكة : لمن بين أظهرهم من المؤمنين ، قد دخل الناس في دين الله أفواجاً ، فاخرجوا من بين أظهرنا ، فعلام تقيمون بين أظهرنا ؟ فنزلت ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له ﴾ الآية .

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد – رضي الله عنه – ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ قال : العدل .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن عمر – رضي الله عنه – أنه كان واقفاً بعرفة ، فنظر إلى الشمس حين تدلت مثل الترس للغروب ، فبكى واشتد بكاؤه ، وتلا قول الله تعالى ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ إلى ﴿ العزيز ﴾ فقيل له فقال : ذكرت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو واقف بمكاني هذا ، فقال : " أيها الناس لم يبق من دنياكم هذه فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قد كان الرجل منا يدخل الخلاء ، فيحمل الاداوة من الماء ، فإذا خرج توضأ خشية من أن تقوم الساعة ، وأن يكون عنده الفضلة من الطعام ، فيقول لا آكلها حتى تقوم الساعة .

وأخرج أحمد وهناد بن السري والطبراني وابن مردويه والضياء ، عن جابر بن سمرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين " .

(331/685)

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18)

أخرج ابن المنذر ، عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : لا تقوم الساعة حتى يتمناها

المتمنون ، فقيل له ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ قال : إنما يتمنونها خشية على إيمانهم .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20)

أخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ قال : عيش الآخرة ، ﴿ نزد له في حرثه ﴾ ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ الآية قال : من يؤثر دنياه على آخرته ، لم يجعل له نصيباً في الآخرة إلا النار ، ولم يزدد بذلك من الدنيا شيئاً ، إلا رزقاً قد فرغ منه وقسم له .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ قال : من كان يريد عيش الآخرة نزد له في حرثه ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ قال : من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار ، ولم يزدد بذلك من الدنيا شيئاً ، إلا رزقاً قد فرغ منه وقُسِمَ له .

وأخرج ابن مردويه من طريق قتادة ، عن أنس – رضي الله عنه – ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ قال : نزلت في اليهود .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه وابن مردويه وابن حبان ، عن أبيّ بن كعب – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصر

والتمكين في الأرض ، ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب " .

(332/685)

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ الآية . ثم قال : يقول الله : " ابن آدم تفرغ لعبادتي ، أملأ صدرك غنى ، وأسُدُّ فقرك ، وإلا تفعل ، ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسدّ فقرك " .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – مرفوعاً " من جعل الهم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه . ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك " .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر ، عن علي – رضي الله عنه – قال : الحرث حرثان ، فحرث الدنيا المال والبنون ، وحرث الآخرة ، الباقيات الصالحات .

وأخرج ابن المبارك ، عن مرة – رضي الله عنه – قال : ذكر عند عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قوم قتلوا في سبيل الله ، فقال : إنه ليس على ما تذهبون وترون ، إنه إذا التقى الزحفان ، نزلت الملائكة ، فكتبت الناس على منازلهم ، فلان يقاتل للدنيا ، وفلان

يقاتل للملك ، وفلان يقاتل للذكر ، ونحو هذا ، وفلان يقاتل يريد وجه الله ، فمن قتل يريد وجه الله ، فذلك في الجنة .

وأخرج ابن النجار في تاريخه ، عن رزين بن حصين – رضي الله عنه – قال : قرأت القرآن من أوله إلى آخره على علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فلما بلغت الحواميم ، قال لي : قد بلغت عرائس القرآن ، فلما بلغت اثنتين وعشرين آية من ﴿ حمعاساقا ﴾ بكى ثم قال : اللهم إني أسألك اخبات المخبتين ، وخلاص الموقنين ، ومرافقة الأبرار ، واستحقاق حقائق الإيمان ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، ورجوت رحمتك والفوز بالجنة والنجاة من النار ، ثم قال : يا رزين ، إذا ختمت فادع بهذه ، فإن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمرني أن أدعو بهن عند ختم القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(333/685)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/686)

الجزء السادس والثمانون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة الشورى

وحتى الآية ﴿ 26 ﴾ من نفس السورة

(4/686)

قوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر ما شرع من الدين مما وصى به جميع النبيين فبانت أصوله ، واتضحت فروعه وفصوله ، وظهرت غرائبه وأشرقت فرائده وآياته ، وختم بالقانون الأعظم في أمر الدارين مما هو مشاهد ولا يقدر عليه غيره ، فكان التقدير من غير خفاء : هذا شرع الله الذي ارتضاه لعباده وحكم بأن الإقبال عليه غير ضار بطلب الرزق وقدر الأرزاق فلا قدرة لأحد أن يزيد في رزقه شيئاً ، ولا أن ينقص منه شيئاً ، أقبلوه ؟ عادل ذلك بقوله تعالى مقرراً موبخاً منبهاً على ما هو الأصل في الضلال عن قوانينه المحررة وشرائعه الثابتة المقررة : ﴿ أم لهم ﴾ أي لهؤلاء الذيب يروغون يميناً وشمالاً ﴿ شركاء ﴾ على زعمهم شاركوا

الشارع الذي مضى بيان عزته وظهور جلاله وعظمته في أمره حتى ﴿ شرعوا ﴾ أي الشركاء الذين طرقوا ونهجوا ﴿ لهم ﴾ أي للكفار ، ويجوز أن يكون المعنى : شرع الكفار لشركائهم ﴿ من الدين ﴾ في العبادات والعادات التي تقرر في الأذهان أنه لا بد من الجزاء عليها لما جرت به عوائدهم عن محاسبة من تحت أيديهم وقدروا لهم من الأرزاق ، وعدل عن أسلوب العظمة إلى الاسم الأعظم إشارة إلى ما فيه مع العظمة من الإكرام الذي من جملته الحلم المقتضي لعدم معاجلتهم بالأخذ فقال تعالى : ﴿ ما لم يأذن به الله ﴾ أي يمكن العباد منه بأمرهم به وتقريرهم عليه الملك الذي لا أمر لأحد معه ، وقد محقت صفاته كل صفة وتضاءل عندها كل عظمة ، فأقبلوا عليه دون غيره لكونه معتداً به ، فإن كان كذلك فليسعدوا من أقبل على الدنيا التي هي محط أمرهم فلا يعرفون غيرها بأن يعطوه جميع مراده ويشقوا من أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، ونسب الشرع إلى الأوثان لأنها سببه كما كانت سبب الضلال في قوله سبحانه وتعالى حكاية عن إبراهيم خليله عليه الصلاة والسلام ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ ويضاف الشركاء إليهم تارة لأنهم متخذوها وتارة إلى الله تعالى لأنهم أشركوهم به ، والعبارة تأتي بحسب المقام .

(5/686)

ولما علم قطعاً أن التقدير : فلولا أن هذه الأفعال التي يفعلونها من غير إذن منه لا تنقص من ملكه سبحانه شيئاً ، ولا تضر إلا فاعلها مع أنها بإرادته ، فكانت لمنعهم عنها لم يصلوا إلى شيء منها ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ التي سبق في الأزل أنها لا تكون ولما كان أمرهم هيناً ، بني الفعل للمفعول ، فقال : ﴿ لقُضي بينهم ﴾ أي بين الذين امتثلوا أمره فالتزموا شرعه وبين الذين اتبعوا ما شرعوه لمن سموهم شركاء في أقرب وقت ولكنه قد سبق القضاء في أزل الأزل بمقادير الأشياء وتحديدها على وجوه الحكمة ، فهي تجري على ما حد لها لا تقدم لشيء منها ولا تأخر ولا تبدل ولا تغير ، وستنكشف لكم الأمور وتظهر مخبآت المقدور فلا يقع الفصل إلا في الآخرة كما سبق به القضاء بأن يكون للمقسطين نعيم مقيم .

ولما كانوا ينكرون أن يقع بهم عذاب ، قال مؤكداً عطفاً على ما قدرته بما أرشد إليه السياق : ﴿ وإن الظالمين ﴾ بشرع ما لم يأذن به الله من الشرك وغيره ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ أي مؤلم بليغ إيلامه .

ولما علم من هذا السياق كما ترى أنه لا بد من الفصل ، وأن الفصل لا يكون إلا يوم القيامة ، قال شارحاً للفصل بين الفريقين في ذلك اليوم مقبلاً على خطاب أعلى الخلق إشارة إلى أن هذا لا يفهمه حق الفهم ويوقن به حق الإيقان غيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو يكون المراد كل من يصح أن يخاطب إشارة إلى أن الأمر في الوضوح بحيث لا يختص به أحد دون أحد

فقال : ﴿ ترى ﴾ أي في ذلك اليوم لا يشك فيه عاقل لما له من الأدلة الفطرية الأولية والعقلية والنقلية ﴿ الظالمين ﴾ أي الواضعين الأشياء في غير مواضعها ﴿ مشفقين ﴾ أي خائفين أشد الخوف كما هو حال من يحاسبه من هو أعلى منه وهو مقصر .

(6/686)

ولما كان الكلام في الذين ظلمهم صفة راسخة لهم ، كان من المعلوم أن كل عملهم عليهم ، فلذلك عبر بفعل الكسب مجرداً فقال : ﴿ مما كسبوا ﴾ أي عملوا معتقدين لأنه غاية ما ينفعهم ﴿ وهو ﴾ أي جزاءه ووباله الذي هو من جنسه حتى كأنه هو ﴿ واقع بهم ﴾ لا محالة من غير أن يزيدهم خوفهم إلا عذاباً في غمرات النيران ، ذلك هو الخسران المبين ، ذلك الذي ينذر به الذين ظلموا ﴿ والذين آمنوا ﴾ يصح أن يكون معطوفاً على مفعول ﴿ ترى ﴾ وأن يكون معطوفاً على جميع الجملة فيكون مبتدأ ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وهي التي أذن الله فيها غير خائفين مما كسبوا لأنهم مأذون لهم في فعله وهو مغفور لهم ما فرطوا فيه ﴿ في روضات الجنات ﴾ أي في الدنيا بما يلذذهم الله به من لذائذ الأقوال والأعمال والمعارف والأحوال ، وفي الآخرة حقيقة بلا زوال ﴿ لهم ما يشاؤون ﴾ أي دائماً أبداً كائن ذلك لكونه في غاية الحفظ والتربية والتنبيه على مثل هذا الحفظ لفت إلى

صفة الإحسان ، فقال : ﴿ عند ربهم ﴾ أي الذي لم يوصلهم إلى هذا الثواب العظيم إلا حسن تربيته لهم ، ولطف بره بهم على حسب ما رباهم .

ولما ذكر ما لهم من الجزاء عظمه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الجزاء العظيم الرتبة الجليل القدر ﴿ هو ﴾ لا غيره ﴿ الفضل ﴾ أي الذي هو أهل لأن يكون فاضلاً عن كفاية صاحبه ، ولو بالغ في الإنفاق ﴿ الكبير ﴾ الذي ملأ جميع جهات الحاجة وصغر عنده كل ما ناله غيرهم من هذا الحطام ، فالآية كما ترى من الاحتباك : أثبت الإشفاق أولاً دليلاً على حذف الأمن ثانياً ، والجنات ثانياً دليلاً على حذف النيران أولاً .

(7/686)

ولما ذكر محلهم ومآلهم فيه ، بين دوامه زيادة في تعظيمه فقال مبتدئاً : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من الجنة ونعيمها ، وأخبر عن المبتدأ بقوله : ﴿ الذي يبشر ﴾ أي مطلق بشارة عند من خفف وبشارة كثيرة عند من ثقل ، وزاد البشارة بالاسم الأعظم ، فقال لافتاً القول إليه : ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم والعائد وهو " به " محذوف تفخيماً للمبشر به لأن السياق لتعظيمه بالبشارة وبجعلها بأداة البعد وبالوصف بالذي ، وذكر الاسم الأعظم والتعبير بلفظ العباد مع الإضافة إلى ضميره سبحانه فأفهم حذفه أن الفعل واقع عليه

واصل بغير واسطة إليه ، فصار كأنه مذكور وظاهر ومنظور فقال : ﴿ عباده ﴾ ومن المعلوم أن كل أحد يعظم من اختصه لعبوديته .

ولما أشعر بالإضافة لصلاحهم ، نص عليه بقوله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بالغيب ﴿ وعملوا ﴾ تحقيقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ وذلك الذي مضى قلبه الذي ينذر به الذين كفروا .

ولما كانت العادة جارية بأن البشير لا بد له من حياء وإن لم يسأل لأن بشارته قائمة مقام السؤال ، قال كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ : لما أذن الله بتوبته علينا ركض نحوي راكض على فرس وسعى ساع على رجليه ، فأوفى على جبل سلع ونادى : يا كعب بن مالك أبشر ، فقد تاب الله عليك ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته خلعت له ثوبي ، فدفعتهما إليه ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما - إلى آخر حديثه ، كان كأنه قيل : ماذا تطلب على هذه البشارة ، فأمر بالجواب بقوله : ﴿ قل ﴾ أي لمن توهم فيك ما جرت به عادة المبشرين : ﴿ لا أسئلكم ﴾ أي الآن ولا في مستقبل الزمان ﴿ عليه ﴾ أي البلاغ بشارة ونذارة ﴿ أجراً ﴾ أي وإن قل ﴿ إلا ﴾ أي لكن أسألكم ﴿ المودة ﴾ أي المحبة العظيمة الواسعة .

ولما كانوا يثابرون على صلة الأرحام وإن بعدت والأنساب لذلك قال : ﴿ في القربى ﴾ أي مظروفة فيها بحيث يكون القربى موضعاً للمودة وظرفاً لها ، لا يخرج شيء من محبتكم عنها ، فإنها بها يتم أمر الدين ويكمل الاجتماع فيه ، فإنكم إذا وصلتم ما بيني وبينكم من الرحم لم تكذبوني بالباطل ، ولم تردوا ما جئتكم به من سعادة الدارين ، فأفلحتم كل الفلاح ودامت الألفة بيننا حتى نموت ثم ندخل الجنة فتستمر ألفتنا دائماً أبدا وقد شمل ذلك جميع القرابات ولم يكن بطن من قريش إلا وله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم قرابة ، رواه البخاري عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة ، وروى البخاري عن سعيد بن جبير : إلا أن تودوني في قرابتي أي تبروهم وتحسنوا إليهم ، قال ابن كثير : وقال السدي : لما جيء بعلي بن الحسين أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة ، فقال له علي : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم قال : ما قرأت ﴿ قلا لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ قال : وإنكم لأنتم هم ، قال : نعم .

(9/686)

وعن العباس ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يا رسول الله ! إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ، فغضب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غضباً شديداً وقال : " والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله " ، وعنه أنه دخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث ، فإذا رأونا سكتوا ، فغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودر عرق بين عينيه ، ثم قال : " والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي " وعبر في المنقطع بأداة الاستثناء إعراقاً في النفي بالإعلام بأنه لا يستثني أجر أصلاً إلا هذه المودة إن قدر أحد أنها تكون أجراً ، ويجوز أن تكون " إلا " بمعنى " غير " فيكون من باب :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

فمن كان بينه وبين أحد من المسلمين قرابة فهو مسؤول أن يراقب الله في قرابته تلك ، فيصل صاحبها بكل ما تصل قدرته إليه من جميع ما أمره الله به من ثواب أو عقاب ، فكيف بقرابة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه قد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ : " مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، من ركب فيها نجا ، ومن تخلف عنها هلك " وقال فيما رواه في الفردوس عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : " أصحابي بمنزلة النجوم في السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم " قال

الأصبهاني : ونحن الآن في بحر التكليف محتاجون إلى السفينة الصحيحة والنجوم الزارهة ، فالسفينة حب الآل ، والنجوم حب الصحب ، فنرجو من الله السلامة والسعادة بحبهم في الدنيا والآخرة - والله أعلم .

(10/686)

ولما كان التقدير حتماً : فمن يقترف سيئة فعليه وزرها ، ولكنه طوى لأن المقام للبشارة كما يدل عليه ختم الآية مع سابقه ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن يقترف ﴾ أي يكسب ويخالط ويعمل بجد واجتهاد وتعمد وعلاج ﴿ حسنة ﴾ أي ولو صغرت ، وصرف القول إلى مظهر العظمة إشارة إلى أنه لا يزيد في الإحسان إلا العظماء ، وإلى أن الإحسان قد يكون سبباً لعظمة المحسن فقال : ﴿ نزد ﴾ على عظمتنا ﴿ له فيها حسناً ﴾ بما لا يدخل تحت الوهم ، ومن الزيادة أن يكون له مثل أجر من اقتدي به فيها إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيئاً ، وهذا من أجر الرسل على إبلاغه إلى الأمم ، فهم أغنياء عن طلب غيره - هذا إن اهتدوا به ، وإن دعاهم فلم يهتدوا كان له مثل أجورهم لو اهتدوا ، فإن عدم اهتدائهم ليس من تقصيره ، بل قدر الله وما شاء فعل .

ولما كانوا يقولون : إنا قد ارتكبنا من المساوىء ما لم ينفع معه شيء ، قال نافياً لذلك على

سبيل التأكيد معللاً مبيناً بصرف القول إلى الاسم الأعظم أن مثل ذلك لا يقدر عليه ملك غيره على الإطلاق : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي لا يتعاظمه شيء ﴿ غفور ﴾ لكل ذنب تاب منه صاحبه أو كان يقبل الغفران وإن لم يتب منه إن شاء ، فلا يصدن أحداً سيئة عملها عن الإقبال على الحسنة .

ولما كان إثبات الحسنة فضلاً عن الزياة عليها لا يصح إلا مع الغفران ، ولا يمكن أن يكون مع المناقشة ، فذكر ذلك الوصف الذي هو أساس الزيادة ، أفادها – أي الزيادة – بقوله : ﴿ شكور ﴾ فهو يجزي بالحسنة أضعافها ويترك سائر حقوقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 621. 625 ﴾

(11/686)

فصل

قال الفخر :

واعلم أن الله تعالى لما بيّن القانون الأعظم والقسطاس الأقوم في أعمال الآخرة والدنيا أردفه بالتنبيه على ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة فقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ ومعنى الهمزة في أم التقرير والتقريع و ﴿ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ شياطينهم

الذين زينوا الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم يعلمون غيرها ، وقيل ﴿ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ أوثانهم ، وإنما أضيفت إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ، ولما كان سبباً لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

(12/686)

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم : 36] وقوله ﴿ شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ يعني أن تلك الشرائع بأسرها على ضدين لله ، ثم قال : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء ، أو يقال ولولا الوعد بأن الفصل أن يكون يوم القيمة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم ﴿ وَإِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقرأ بعضهم ، وأن بفتح الهمزة في أن عطفاً له على كلمة الفصل يعني ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ وأن تقريره تعذيب الظالمين في الآخرة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ في الدنيا ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب الأول : فهو قوله ﴿ تَرَى الظالمين مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين خوفاً شديداً ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ من السيئات ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ يريد أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقو ، أما الثاني : فهو أحوال أهل الثواب وهو قوله تعالى : ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِى روضات الجنات ﴾ لأن روضة

الجنة أطيب بقعة فيها ، وفي الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة ، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات ، وهي البقاع الشريفة من الجنة ، فالبقاع التي دون تلك الروضات لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم قال : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا يدل على أن كل الأشياء حاضرة عنده مهيأة ، ثم قال تعالى في تعظيم هذه الدرجة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ وأصحابنا استدلوا بهذه الآية على أن الثواب غير واجب على الله ، وإنما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لأنه تعالى قال : ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي روضات الجنات لَهُمْ مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فهذا يدل على أن روضات الجنات ووجدان كل ما يريدونه إنما كان جزاءً

(13/686)

على الإيمان والأعمال الصالحات .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ وهذا تصريح بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ الذي يُبَشّرُ الله عِبَادَهُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ قال صاحب

"الكشاف" قرىء يبشر من بشره ويبشر من أبشره ويبشر من بشره .

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه الأول : أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات ، والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء ، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وقوله ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ ﴾ يدخل في باب غير المتناهي لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان في غاية الكبر الرابع : أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال : ﴿ الذي يُبَشِّرُ الله عِبَادَهُ ﴾ وذلك يدل أيضاً على غاية العظمة ، نسأل الله الفوز بها والوصول إليها .

واعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب الشريف العالي وأودع فيه الثلاثة أقسام الدلائل وأصناف التكاليف ، ورتب على الطاعة الثواب ، وعلى المعصية العقاب ، بين أني لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعاً عاجلاً ومطلوباً حاضراً ، لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد صلى الله عليه وسلم من هذا التبليغ المال والجاه فقال : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر الناس في هذه الآية ثلاثة أقوال :

(14/686)

الأول : قال الشعبي أكثر الناس علينا في هذه الآية ، فكتبنا إلى بن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده فقال الله ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿ أَجْراً إِلاَّ ﴾ أن تودوني لقرابتي منكم ، والمعنى أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني ، فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا علي .

والقول الثاني : روى الكلبي عن بن عباس رضي الله عنهما قال إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس في يده سعة ، فقال الأنصار إن هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم ، فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه به فرده عليهم ، فنزل قوله تعلى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي على الإيمان إلا أن تودوا أقاربي فحثهم على مودة أقاربه . (1)

القول الثالث : ما ذكره الحسن فقال : إلا أن تودوا إلى الله فيما يقربكم إليه من التودد إليه

بالعمل الصالح ، فالقربى على القول الأول القرابة التي هي بمعنى الرحم وعلى الثاني القرابة التي هي بمعنى الأقارب ، وعلى الثالث هي فعلى من القرب والتقريب ، فإن قيل الآية مشكلة ، ذلك لأن طلب الأجر على تبليغ الوحي لايجوز ويدل عليه وجوه :

---

(1) للآية معنى بعيد عن كل هذه الإشكالات هو أن إنذار الرسول لهم ودعوته إلى أن يؤمنوا بالله ويتركوا عبادة الأوثان ليس إلا صلة قرابتهم منه ، ولأنهم عشيرته ، وإنما كان هذا في صدر الدعوة حين أمر بإنذار عشيرته الأقربين لأن القرابة تقتضي البر والعون فكأن الرسالة أجر القربى التي هي أهم من أن يكون قربى نسب أو جوار أو غيرهما وهو الأولى حض على مودة أولي القربى .

(15/686)

الأول : أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام أنهم صرّحوا بنفي طلب الأجرة ، فذكر في قصة نوح عليه السلام ﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبّ العالمين ﴾ [الشعراء : 109] وكذا في قصة هود وصالح ، وفي قصة لوط وشعيب عليهم السلام ، ورسولنا أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فكان بأن لا يطلب الأجر على النوبة والرسالة أولى الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم صرح بنفي طلب الأجر في سائر

الآيات فقال : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ [سبأ : 47] وقال : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ [ص : 86] الثالث : العقل يدل عليه وذلك لأن ذلك التبليغ كان واجباً عليه قال تعالى : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : 67] وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلاً عن أعلم العلماء الرابع : أن النبوة أفضل من الحكمة وقد قال تعالى في صفة الحكمة ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] وقال في صفة الدنيا ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : 77] فكيف يحسن في العقل مقابلة أشرف الأشياء بأخس الأشياء الخامس : أن طلب الأجر كان يوجب التهمة ، وذلك ينافي القطع بصحة النبوة ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلب أجراً ألبتة على التبليغ والرسالة ، وظاهر هذه الآية يقتضي أنه طلب أجراً على التبليغ والرسالة ، وهو المودة في القربى هذا تقرير السؤال ، والجواب عنه : أنه لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على التبليغ والرسالة ، بقي قوله ﴿ إِلَّا المودة فِي القربى ﴾ نقول الجواب عنه من وجهين الأول : أن هذا من باب قوله :

ولا عيب غير أن سيوفهم . . بها من قراع الدارعين فلول

(16/686)

المعنى أنا لا أطلب منكم إلا هذا وهذا في الحقيقة ليس أجراً لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 71] وقال صلى الله عليه وسلم : " المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً " والآيات والأخبار في هذا الباب كثيرة وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجباً فحصولها في حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى ، وقوله تعلى : ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ تقديره والمودة في القربى ليست أجراً ، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر ألبتة الوجه الثاني : في الجواب أن هذا استثناء منقطع ، وتم الكلام عند قوله ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ أي لكن أذكركم قرابتي منكم وكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر .

المسألة الثالثة :

نقل صاحب "الكشاف" : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من مات على حب آل محمد مات شهيداً ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنّة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات

على حب آل محمد يزف إلى الجنّة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنّة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة "

(17/686)

هذا هو الذي رواه صاحب "الكشاف" ، وأنا أقول : آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤول أمرهم إليه فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل ، وأيضاً اختلف الناس في الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم أمته ، فإن حملناه على القرابة فهم الآل ، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل ، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل ؟ فمختلف فيه .

وروى صاحب "الكشاف" أنه لما نزلت هذه الآية قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ فقال علي وفاطمة وابناهما ، فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه : الأول : قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ ووجه الاستدلال به ما سبق الثاني : لا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب فاطمة عليها السلام قال صلى الله عليه وسلم : " فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها " وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب علياً والحسن والحسين وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله ﴿ واتبعوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 158] ولقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [النور : 63] ولقوله ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعونى يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : 31] ولقوله سبحانه ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] الثالث : أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل ، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد

واجب ، وقال الشافعي رضي الله عنه :

يا راكباً قف بالمحصب من منى . . واهتف بساكن خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى . . فيضاً كما نظم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حب آل محمد . . فليشهد الثقلان أني رافضي

المسألة الثانية :

(19/686)

قوله ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ فيه منصب عظيم للصحابة لأنه تعالى قال : ﴿ والسابقون السابقون أُوْلَئِكَ المقربون ﴾ [الواقعة : 10] فكل من أطاع الله كان مقرباً عند الله تعالى فدخل تحت قوله ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب أصحابه ، وهذا المنصب لا يسلم إلا على قول أصحابنا أهل السنّة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة ، وسمعت بعض المذكرين قال إنه صلى الله عليه وسلم قال : " مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا " وقال صلى الله عليه وسلم : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " ونحن الآن في بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج إلى أمرين

أحدهما : السفينة الخالية عن العيوب والثقب والثاني : الكواكب الظاهرة الطالعة النيرة ، فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالباً ، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدينا والآخرة .

ولنرجع إلى التفسير : أورد صاحب "الكشاف" : على نفسه سؤالاً فقال : هلا قيل إلا مودة القربى ، أو إلا مودة للقربى ، وما معنى قوله ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ ؟ وأجاب عنه بأن قال جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقوله لي في آل فلان مودة ولي فيهم هوى وحب شديد ، تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ قيل نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه ، والظاهر العموم في أي حسنة كانت ، إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة في القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد في تلك المودة .

(20/686)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ والشكور في حق الله تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب إليهم وفي أن يزيد عليه أنواعاً كثيرة من التفضيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 140.144 ﴾

(21/686)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾

أي ألهم ! والميم صلة والهمزة للتقريع .

وهذا متصل بقوله : "شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً" ، وقوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى : 17] كانوا لا يؤمنون به ، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذي لم يأذن به الله ! وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدينون به .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ يوم القيامة حيث قال : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ .

﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ في الدنيا ، فعاجل الظالم بالعقوبة وأثاب الطائع .

﴿ وَإِنَّ الظالمين ﴾ أي المشركين .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الدنيا القتلُ والأسر والقهر ، وفي الآخرة عذاب النار .

وقرأ ابن هُرْمُز "وأنّ" بفتح الهمزة على العطف على "وَلَوْلاَ كَلِمَةُ" والفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب "لَوْلاَ" جائز .

ويجوز أن يكون موضع "أنّ" رفعاً على تقدير : وجب أنّ الظالمين لهم عذاب أليم ؛ فيكون منقطعاً مما قبله كقراءة الكسر ؛ فاعلمه .

قوله تعالى : ﴿ تَرَى الظالمين مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ أي من جزاء ما كسبوا .

والظالمون هاهنا الكافرون ؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر .

﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي نازل بهم .

﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي رَوْضَاتِ الجنات ﴾ الروضة : الموضع النَّزِه الكثير الخضرة .

وقد مضى في "الروم" .

﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي من النعيم والثواب الجزيل .

﴿ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ أي لا يوصف ولا تهتدي العقول إلى كُنْه صفته ؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره .

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الذي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الذين آمَنُواْ ﴾ قرىء "يُبَشِّر" من بَشّره، و "يُبْشِر" من أبشره، و "يَبْشُر" من بَشَره، وفيه حذف؛ أي يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور ويزدادوا منه وجداً في الطاعة.

قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ فيه مسألتان:

الأولى قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جعلاً.

﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ قال الزجاج: "إِلاَّ الْمَوَدَّةَ" استثناء ليس من الأول؛ أي إلا أن تَوَدُّوني لقرابتي فتحفظوني.

والخطاب لقريش خاصَّةً؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم.

قال الشعبيّ: أَكْثَرَ الناس علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها؛ فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسط الناس في قريش، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَدَه؛ فقال الله له: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم؛ أي تراعوا ما بيني وبينكم فتصدّقوني.

ف "الْقُرْبَى" هاهنا قرابة الرَّحِم؛ كأنه قال: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوّة.

قال عكرمة: وكانت قريش تَصِل أرحامها فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعته؛

فقال : " صِلُوني كما كنتم تفعلون " فالمعنى على هذا : قل لا أسألكم عليه أجراً لكن أذكّركم قرابتي ؛ على استثناء ليس من الأوّل ؛ ذكره النحاس .

وفي البخاريّ عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ فقال سعيد بن جُبير : قربى آل محمد ؛ فقال ابن عباس : عجِلت ! إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصِلوا ما بينكم من القرابة .

فهذا قول .

(23/686)

وقيل : القربى قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أي لا أسألكم أجراً إلا أن تَودّوا قرابتي وأهل بيتي ، كما أمر بإعظامهم ذوي القربى .

وهذا قول علي بن حسين وعمرو بن شعيب والسُّدّي .

وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : " لما أنزل الله عز وجل : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين نَوَدُّهم ؟ قال : "عليّ وفاطمة وأبناؤهما" " ويدل عليه أيضاً ما روي " عن عليّ رضي الله عنه قال : شكوت إلى

النبيّ صلى الله عليه وسلم حسد الناس لي .

فقال : "أما ترضى أن تكون رابعَ أربعة أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذرّيتنا خلف أزواجنا" " وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عِتْرَتي ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة "

وقال الحسن وقتادة : المعنى إلا أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقرّبوا إليه بطاعته .

ف "الْقُرْبَى" على هذا بمعنى القربة .

يقال : قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى ؛ كالزُّلْفة والزُّلْفى .

وروى قَزَعة بن سُويد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " قل لا أسألكم على ما آتيتكم به أجراً إلا أن توادّوا وتقرّبوا إليه بالطاعة " وروى منصور وعوف عن الحسن "قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى" قال : يتودّدون إلى الله عز وجل ويتقرّبون منه بطاعته .

(24/686)

وقال قوم : الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة ؛ وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وأمرهم الله بمودّة نبيه صلى الله عليه وسلم وصِلة رحِمه ، فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه ، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 109] ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّن أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [سبأ : 47] فنسخت بهذه الآية وبقوله : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ [ص : 86] ، وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ [المؤمنون : 72] ، وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : 40] ؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل .

ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس .

قال الثَّعْلبيّ : وليس بالقويّ ، وكفى قُبْحاً بقول من يقول : إن التقرّب إلى الله بطاعته ومودّة نبيه صلى الله عليه وسلم وأهل بيته منسوخ ؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من مات على حُب آل محمد مات شهيداً .

ومن مات على حُب آل محمد جعل الله زوّار قبره الملائكة والرحمة .

ومن مات على بُغْض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس اليوم من رحمة الله .

ومن مات على بغض آل محمد لم يَرَح رائحة الجنة .

ومن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي "

قلت : وذكر هذا الخبر الزَّمَخْشَرِيّ في تفسيره بأطول من هذا فقال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات على حُب آل محمد مات شهيداً ألاَ ومن مات على حُب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان .

ألاَ ومن مات على حُب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ثم مُنْكر ونكير .

(25/686)

(ألا ومن مات على حُب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها) ألا ومن مات على حب آل محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة .

ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة .

ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات على السنة والجماعة .

ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه أيس من رحمة الله .

ألاَ ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً .

ألاَ ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة "

قال النحاس : ومذهب عِكرمة ليست بمنسوخة ؛ قال : كانوا يصِلون أرحامهم فلما بعث

النبي صلى الله عليه وسلم قطعوه فقال : " قل لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني وتحفظوني لقرابتي ولا تكذبوني " .

قلت : وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخارِيّ والشعبِيّ عنه بعينه ؛ وعليه لا نسخ .

قال النحاس : وقول الحسن حسن ، ويدل على صحته الحديث المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدي قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادي قال أخبرنا أسد بن موسى قال حدثنا قَزَعة وهو ابن سويد البصري قال حدّثنا عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا أسألكم على ما أنبئكم به من البيّنات والهُدَى أجراً إلا أن توادُّوا الله عز وجل وأن تتقرّبوا إليه بطاعته " فهذا المبيّن عن الله عز وجل قد قال هذا ، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبله : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ .

الثانية واختلفوا في سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : لما قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه ؛ فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم ، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه فنجمع له ؛ ففعلوا ، ثم أتوه به فنزلت .

وقال الحسن : نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون ، فقالت الأنصار نحن فعلنا ، وفَخَرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى مِقْسم عن ابن عباس قال : " سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فخطب فقال للأنصار : "ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بي .

ألم تكونوا ضُلاّلاً فهداكم الله بي .

ألم تكونوا خائفين فأمّنكم الله بي ألا تردّون عليّ" ؟ فقالوا : بِمَ نجيبك ؟ قال : "تقولون ألم يطردك قومُك فآويناك .

ألم يكذبك قومك فصدّقناك . . .

" فعدّد عليهم .

قال فجثوا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك ؛ فنزلت : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ " وقال قتادة : قال المشركون لعلّ محمداً فيما يتعاطاه يطلب أجراً ؛ فنزلت هذه الآية ؛ ليحثّهم على مودّته ومودّة أقربائه .

قال الثعلبي : وهذا أشبه بالآية ، لأن السورة مكية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أي يكتسب .

وأصل القرف الكسب ، يقال : فلان يَقْرِف لعياله ، أي يكسب .

والاقتراف الاكتساب ، وهو مأخوذ من قولهم رجل قرفة ، إذا كان محتالاً .

وقد مضى في "الأنعام" القول فيه .

وقال ابن عباس : "وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً" قال المودّة لِآل محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ أي نضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعداً .

﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ قال قتادة : "غَفُورٌ" للذنوب ، "شَكُورٌ" للحسنات .

وقال السّدي : "غَفُورٌ" لذنوب آل محمد عليه السلام ، "شَكُورٌ" لحسناتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(27/686)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾

في الكفر وهم الشياطين ﴿ شَرَعُواْ لَهُمْ ﴾ أي لهؤلاء الكفرة المعاصرين لك بالتسويل والتزيين ﴿ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا .

و ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة فيها معنى بل الإضرابية والهمزة التي للتقرير والتقريع والإضراب عما سبق من قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين ﴾ [الشورى : 13] الخ فالعطف عليه وما

اعترض به بين الآيتين من تتمة الأولى ، وتأخير الأضراب ليدل على أنهم في شرع يخالف ما شرعه الله تعالى من كل وجه فالشرك في مقابلة إقامة الدين والاستقامة عليه وإنكار البعث في مقابلة قوله تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ [الشورى : 18] والعمل للدنيا لقوله سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة ﴾ [الشورى : 20] وهذا أظهر من جعل الأضراب عما تقدم من قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين ﴾ [الشورى : 13] كما لا يخفى ، وقيل : شركاؤهم أصنامهم ، وإضافتها إليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله سبحانه ، وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا ﴾ [إبراهيم : 36] وجوز أن يكون الاستفهام المقدر على هذا للانكار أي ليس لهم شرع ولا شارع كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا ﴾ [الأنبياء : 43] وأياً ما كان فضمير ﴿ شَرَعُواْ ﴾ للشركاء وضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ للكفار .

(28/686)

وجوز على تفسير الشركاء بالأصنام أن يكون الأول للكفار والثاني للشركاء أي شرع الكفار لأصنامهم ورسموا من المعتقدات والأحكام ما لم يأذن به الله تعالى كاعتقاد أنهم آلهة

وأن عبادتهم تقربهم إلى الله سبحانه ، وكجعل البحيرة والسائبة والوصيلة وغير ذلك ، وهو كما ترى ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ أي القضاء والحكم السابق منه تعالى بتأخير العذاب إلى يوم القيامة أو إلى آخر أعمالهم ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين في الدنيا أو حين افترقوا بالعقاب والثواب ، وجوز أن يكون المعنى لولا ما وعدهم الله تعالى به من الفصل في الآخرة لقضى بينهم فالفصل بمعنى البيان كما في قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل جمعناكم والاولين ﴾ [المرسلات : 38] وقيل : ضمير بينهم للكفار وشركائهم بأي معنى كان ﴿ وَإِنَّ الظالمين ﴾ وهم المحدث عنهم أو الأعم منهم ويدخلون دخولاً أولياً ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

وفي "البحر" أي في الدنيا بالقتل والأسر والنهب وفي الآخرة بالنار .

وقرأ الأعرج .

ومسلم بن جندب ﴿ وَأَنْ ﴾ بفتح الهمزة عطفاً على ﴿ كَلِمَةُ الفصل ﴾ أي لولا القضاء السابق بتأخير العذاب وتقدير أن الظالمين لهم عذاب أليم في الآخرة أو لولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة وتقدير أن الظالمين لهم الخ لقضي بينهم ، والعطف على التقديرين تتميم للإيضاح لا تفسيري محض ﴿ تَرَى الظالمين ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما قبل ، والخطاب لكل أحد يصلح له للقصد إلى المبالغة في سوء حالهم أي ترى يا من يصح منه الرؤيا الظالمين يوم القيامة .

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ

﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين الخوف الشديد ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ في الدنيا من السيآت ، والكلام قيل على تقدير مضاف .

(29/686)

و ﴿ مِنْ ﴾ صلة الإشفاق أي مشفقين من وبال ما كسبوا ﴿ وَهُوَ ﴾ أي الوبال ﴿ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي حاصل لهم لاحق بهم ، واختار بعضهم أن لا تقدير ومن تعليلية لأنه أدخل في الوعيد ، والجملة اعتراض للإشارة إلى أن إشفاقهم لا ينفعهم ، وإيثار ﴿ وَاقِعٍ ﴾ على يقع مع أن المعنى على الاستقبال لأن الخوف إنما يكون من المتوقع بخلاف الحزن للدلالة على تحققه وأنه لا بد منه ، وجوز أن تكون حالاً من ضمير ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ وظاهر ما سمعت أنه حال مقدرة .

﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِى روضات الجنات ﴾ أي مستقرون في أطيب بقاعها وأنزهها

وقال الراغب : هي محاسنها وملاذها ، وأصل الروضة مستنقع الماء والخضرة واللغة الكثيرة في واوها جمعاً التسكين كما في المنزل ولغة هذيل بن مدركة فتحها فيقولون

روضات إجراء للمعتل مجرى الصحيح نحو جفنات ولم يقرأ أحد فيما علمنا بلغتهم ﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم فالظرف متعلق بمتعلق الجار والمجرور الواقع خبراً لما أوبه واختاره جار الله ونفى أن يكون متعلقاً بيشاؤن مع أنه الظاهر نحواً ، وبين "صاحب الكشف" ذلك بأنه كلام في معرض المبالغة في وصف ما يكون أهل الجنة فيه من النعيم الدائم فأفيد أنهم في أنزه موضع من الجنة وأطيب مقعد منها بقوله تعالى : ﴿ فِى روضات الجنات ﴾ لأن روضة الجنة أنزه موضع منها لا سيما والإضافة في هذا المقام تنبىء عن تميزها بالشرف والطيب ، والتعقيب بقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مَّا ﴾ أيضاً ثم أفيد أن لهم ما يشتهون من ربهم ولا خفاء أنك إذا قلت : لي عند فلان ما شئت كان أبلغ في حصول كل مطالبك منه مما إذا قلت : لي ما شئت عند فلان بالنسبة إلى الطالب والمطلوب منه .

(30/686)

أما الأول : فلأنه يفيد أن جميع ما تشاؤه موجود مبذول لك منه ، والثاني يفيد إن ما شئت عنده مبذول لا جميع ما تشاؤه ، وأما الثاني : فلأنك وصفته بأنه يبذل جميع المرادات ، وفي الثاني وصفته بأن ما شئت عنده مبذول لك إما منه وإما من غيره ثم في الأول مبالغة في

تحقيق ذلك وثبوته كما تقول : لي عندك وقبلك كذا ، فالله تعالى شأنه أخبر بأن ذلك حق لهم ثابت مقضي في ذمة فضله سبحانه ولا كذلك في الثاني ، ثم قال : ولعل الأوجه أن يجعل ﴿ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ خبراً آخر أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم في روضات الجنات لهم فيها ما يشاؤن ، وإنما أخر توخياً لسلوك طريق المبالغة في الترقي من الأدنى إلى الأعلى ومراعاة لترتيب الوجود أيضاً فإن الوافد والضيف ينزل في أنزه موضع ثم يحضر بين يديه الذي يشتهيه ؛ وملاك ذلك كله أن يختصه رب المنزل بالقرب والكرامة ، وأن جعله حالاً من فاعل يشاؤن أو من المجرور في ﴿ لَهُمْ ﴾ أفاد هذا المعنى أيضاً لكنه يقصر عما آثرناه لأنه قد أتى به إتيان الفضلة وهو مقصود بذاته عمدة ، ولعمري أن ما آثره حسن معنى إلا أبعد لفظاً مما آثره جار الله ، ولا يخفى عليك ما هو الأنسب بالتنزيل .

وفي "الخبر" عن أبي ظبية قال : إن السرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول : ما أمطركم ؟ فما يدعو داع من القوم إلا أمطرته حتى أن القائل منهم ليقول : أمطرينا كواعب أتراباف ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من حال المؤمنين ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه ﴿ هُوَ الفضل الكبير ﴾ الذي لا يقدر قدره ولا تبلغ غايته ويصغر دونه ما لغيرهم في الدنيا .

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

﴿ ذلك ﴾ الفضل الكبير أو الثواب المفهوم من السياق هو ﴿ الذى يُبَشّرُ الله عِبَادَهُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي يبشر به فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما هو عادتهم في التدريج في الحذف ، ولا مانع كما قال الشهاب من حذفهما دفعة ، وجوز كون ذلك إشارة إلى التبشير المفهوم من ﴿ يُبَشّرُ ﴾ بعد والإشارة قد تكون لما يفهم بعد كما قرروه في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] ونحوه ، والعائد إلى الموصول ضمير منصوب بيبشر على أنه مفعول مطلق له لأنه ضمير المصدر أي ذلك التبشير يبشره الله عباده ؛ وزعم أبو حيان أنه لا يظهر جعل الإشارة إلى التبشير لعدم تقدم لفظ البشرى ولا ما يدل عليها وهو ناشيء عن الغفلة عما سمعت فلا حاجة في الجواب عنه أن كون ما تقدم تبشيراً للمؤمنين كاف في صحة ذلك ، ثم قال : ومن النحويين من جعل الذي مصدرية حكاه ابن مالك عن يونس وتأول عليه هذه الآية أي ذلك تبشير الله تعالى عباده ، وليس بشيء لأنه إثبات للاشتراك بين مختلفين الحد بغير دليل وقد ثبتت اسمية الذي فلا يعدل عن ذلك بشيء لا يقوم به دليل ولا شبهة .

وقرأ عبد الله بن يعمر ، وابن أبي إسحق .

والجحدري .

والأعمش .

وطلحة في رواية .

والكسائي .

وحمزة ﴿ يُبَشّرُ ﴾ ثلاثياً .

ومجاهد .

(32/686)

وحميد بن قيس بضم الياء وتخفيف الشين من أبشر وهو معدي بالهمزة من بشر اللازم المكسور الين وإما بشر بفتحها فمتعد وبشر بالتشديد للتكثير لا للتعدية لأن المعدي إلى واحد وهو مخفف لا يعدي بالتضعيف إليه فالتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على ما اتعاطاه لكم من التبليغ والبشارة وغيرهما ﴿ أَجْراً ﴾ أي نفعاً ما ، ويختص في العرف بالمال ﴿ إِلاَّ المودة ﴾ أي إلا مودتكم أياي ﴿ فِى القربى ﴾ أي لقرابتي منكم ففي للسببية مثلها في "إن امرأة دخلت النار في هرة" فهي بمعنى اللام لتقارب السبب والعلة ، وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد .

وقتادة .

وجماعة .

والخطاب إما لقريش على ما قيل : إنهم جمعوا له مالاً وأرادوا أن يرشوه على أن يمسك عن سب آلهتهم فلم يفعل ونزلت ، وله عليه الصلاة والسلام في جميعهم قرابة .

أخرج أحمد والشيخان .

والترمذي .

(33/686)

وغيرهم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : عجلت أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة أو للأنصار بنا على ما قيل : إنهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت فرده ، وله عليه الصلاة والسلام قرابة منهم لأنهم أخواله فإن أم عبد المطلب وهي سلمى بنت زيد النجارية منهم وكذا أخوال آمنة أمه عليه الصلاة والسلام كانوا على ما في بعض التواريخ من الأنصار أيضاً أو لجميع العرب لقرابته عليه الصلاة والسلام منهم جميعاً في الجملة كيف لا وهم إما عدنانيون وقريش منهم وإما قحطانيون والأنصار منهم ، وقرابته عليه الصلاة والسلام من كل قد علمت وذلك يستلزم قرابته من جميع العرب ، وقضاعة من قحطان لا قسم برأسه على ما عليه معظم النسابين ، والمعنى

أن لم تعرفوا حقي لنبوتي وكوني رحمة عامة ونعمة تامة فلا أقل من مودتي لأجل حق القرابة وصلة الرحم التي تعتنون بحفظها ورعايتها .

وحاصله لا أطلب منكم إلا مودتي ورعاية حقوقي لقرابتي منكم وذلك أمر لازم عليكم ، وروى نحو هذا في الصحيحين عن ابن عباس بل جاء ذلك عنه رضي الله تعالى عنه في روايات كثيرة وظاهرها أن الخطاب لقريش منها ما أخرجه سعيد بن منصور .

وابن سعد .

وعبد بن حميد .

والحاكم .

وصححه .

وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن الشعبي قال : أكثر الناس علينا في هذه الآية ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ ﴾ الخ فكتبنا إلى ابن عباس نسأله فكتب رضي الله تعالى عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وسط النسب في قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولدوه قال الله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ على ما أدعوكم عليه ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ تودوني لقرابتي منكم وتحفظوني بها .

ومنها ما أخرجه ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

(34/686)

والطبراني عنه قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يتابعوه قال : يا قوم إذا أبيتم أن تتابعوني فاحفظوا قرابتي فيكم ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم ، والظاهر من هذه الأخبار أن الآية مكية والقول بأنها في الأنصار يقتضي كونها مدنية ، والاستثناء متصل بناء على ما سمعت من تعميم الأجر .

وقيل : لا حاجة إلى التعميم .

وكون المودة المذكورة من أفراد الأجر إدعاء كاف لاتصال الاستثناء ، وقيل : هو منقطع اما بناء على أن المودة له عليه الصلاة والسلام ليست أجراً أصلاً بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم أو لأنها لازمة لهم ليمدحوا بصلة الرحم فنفعها عائد عليهم والانقطاع اقطع لتوهم المنافاة بين هذه الآية والآيات المتضمنة لنفي سؤال الأجر مطلقاً ؛ وذهب جماعة إلى أن المعنى لا أطلب منكم أجراً إلا محبتكم أهل بيتي وقرابتي .

وفي "البحر" أنه قول ابن جبير .

والسدي .

وعمرو بن شعيب ، و﴿ فِى ﴾ عليه للظرفية المجازية و﴿ القربى ﴾ بمعنى الأقرباء ، والجار والمجرور في موضع الحال أي إلا المودة ثابتة في أقربائي متمكنة فيهم ، ولمكانة هذا المعنى لم يقل : إلا مودة القربى ، وذكر أنه على الأول كذلك وأمر اتصال الاستثناء وانقطاعه على ما سبق ، والمراد بقرابته عليه الصلاة والسلام في هذا القول قيل : ولد عبد المطلب ، وقيل علي .

وفاطمة .

وولدها رضي الله تعالى عنه مرفوعاً ، أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه من طريق ابن جبير عن ابن عباس قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ ﴾ الخ قالوا : يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت مودتهم ؟ قال علي .

وفاطمة .

وولدها صلى الله عليه وسلم على النبي وعليهم "

وسند هذا الخبر على ما قال السيوطي في "الدر المنثور" ضعيف ، ونص على ضعفه في تخريج أحاديث الكشاف ابن حجر ، وأيضاً لو صح لم يقل ابن عباس ما حكى عنه في "الصحيحين" وغيرهما وقد تقدم إلا أنه روى عن جماعة من أهل البيت ما يؤيد ذلك ، أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي رضي الله تعالى عنه : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم قال : أقرأت آل حم ؟ قال : نعم قال : ما قرأت ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ قال : فإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم .

وروى ذاذان عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا مؤمن ثم قرأ هذه الآية ، وإلى هذا أشار الكميت في قوله :

وجدنا لكم في آل حم آية . . .

تأولها منا تقي ومعرب

ولله تعالى در السيد عمر الهيتي أحد الأقارب المعاصرين حيث يقول :

بأية آية يأتي يزيد . . .

غداة صحائف الأعمال تتلى

وقام رسول رب العرش يتلو . . .

وقد صمت جميع الخلق قل لا

والخطاب على هذا القول لجميع الأمة لا للأنصار فقد وإن ورد ما يوهم ذلك فإنهم كلهم مكلفون بمودة أهل البيت .

فقد أخرج مسلم .

والترمذي .

والنسائي عن زيد بن أرقم "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اذكركم الله تعالى في أهل بيتي " وأخرج الترمذي .

وحسنه .

والطبراني .

والحاكم .

والبيهقي في "الشعب" عن ابن عباس قال : قال عليه الصلاة والسلام : " أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني لحب الله تعالى وأحبوا أهل بيتي لحبي " وأخرج ابن حبان .

والحاكم .

عن أبي سعيد قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لا يبغضنا

أهل البيت رجل إلا أدخله الله تعالى النار " إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من الأخبار ، وفي بعضها ما يدل على عموم القربى وشمولها لبني عبد المطلب .

(36/686)

أخرج أحمد .

والترمذي وصححه .

والنسائي عن المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث فإذا رأونا سكتوا فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودر عرق بين عينيه ثم قال : والله لا يدخل قلب أمرىء مسلم إيمان حتى يحبكم لله تعالى ولقرابتي ، وهذا ظاهر إن خص القربى بالمؤمنين منهم وإلا فقيل : إن الحكم منسوخ ، وفيه نظر ، والحق وجوب محبة قرابته عليه الصلاة والسلام من حيث أنهم قرابته صلى الله عليه وسلم كيف كانوا ، وما أحسن ما قيل :

داريت أهلك في هواك وهم عدا . . .

ولأجل عين ألف عين تكرم

وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد ، فمودة العلويين الفاطميين الزم من محبة

العباسيين على القول بعموم ﴿ القربى ﴾ وهي على القول بالخصوص قد تتفاوت أيضاً باعتبار تفاوت الجهات والاعتبارات وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام ، وقد تهاون كثير من الناس بذلك حتى عدوا من الرفض السلوك في هاتيك المسالك .

وأنا أقول قول الشافعي الشافي العي :

يا راكباً قف بالمحصب من منى . . .

واهتف بساكن خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى . . .

فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حب آل محمد . . .

فليشهد الثقلان إني رافضي

ومع هذا لا أعد الخروج عما يعتقده أكابر أهل السنة في الصحابة رضي الله تعالى عنهم ديناً وأرى حبهم فرضاً على مبيناً فقد أوجبه أيضاً الشارع وقامت على ذلك البراهين السواطع .

ومن الظرائف ما حكاه الإمام عن بعض المذكورين قال : إنه عليه الصلاة والسلام قال : " مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها هلك " وقال صلى الله عليه

وسلم : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " ونحن الآن في بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج إلى أمرين .

(37/686)

أحدهما : السفينة الخالية عن العيوب ، والثاني : الكواكب الطالعة النيرة ، فإذا ركب تلك السفينة ووضع بصره على تلك الكواكب كان رجاء السلامة غالباً ، فلذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد صلى الله عليه وسلم ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة يرجون أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة انتهى ، والكثير من الناس في حق كل من الآل والأصحاب في طرفي التفريط والإفراط وما بينهما هو الصراط المستقيم ، ثبتنا الله تعالى على ذلك الصراط .

وقال عبد الله بن القاسم : المعنى لا أسألكم عليه أجراً إلا أن يود بعضكم بعضاً وتصلوا قراباتكم ، وأمر ﴿ فِى ﴾ والاستثناء لا يخفى .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن المعنى لا أسألكم عليه أجراً إلا التقرب إلى الله تعالى بالعمل الصالح فالقربى بمعنى القرابة وليس المراد قرابة النسب ؛ قيل : ويجري في الاستثناء الاتصال والانقطاع ، واستظهر الخفاجي أنه منقطع وأنه على نهج قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

البيت ، وأراه على القول قبله كذلك .

(38/686)

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ إِلا مَّوَدَّةَ فِى القربى ﴾ هذا ومن الشيعة من أورد الآية في مقام الاستدلال على إمامة علي كرم الله تعالى وجهه قال : علي كرم الله تعالى وجهه واجب المحبة وكل واجب المحبة واجب الطاعة وكل واجب الطاعة صاحب الإمامة ينتج على رضي الله تعالى عنه صاحب الإمامة وجعلوا الآية دليل الصغرى ، ولا يخفى ما في كلامهم هذا من البحث ، أما أولاً : فلأن الاستدلال بالآية على الصغرى لا يتم إلا على القول بأن معناها لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوا قرابتي وتحبوا أهل بيتي وقد ذهب الجمهور إلى المعنى الأول ، وقيل في هذا المعنى : إنه لا يناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فإن أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم ، وأيضاً فيه منافاة ما لقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [يوسف : 104] وأما ثانياً : فلأنا لا نسلم أن كل واجب المحبة واجب الطاعة فقد ذكر ابن بابويه في كتاب الاعتقادات أن الإمامية أجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنه لا يجب طاعة كل منهم ،

وأما ثالثاً : فلأنا لا نسلم أن كل واجب الطاعة صاحب الإمامة أي الزعامة الكبرى وإلا لكان كل نبي في زمنه صاحب ذلك ونص ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ [البقرة : 247] يأبى ذلك ، وأما رابعاً : فلأن الآية تقتضي أن تكون الصغرى أهل البيت وأجبو الطاعة ومتى كانت هذه صغرى قياسهم لا ينتج النتيجة التي ذكروها ولو سلمت جميع مقدماته بل ينتج أهل البيت صاحبو الإمامة وهم لا يقولون بعمومه إلى غير ذلك من الأبحاث فتأمل ولا تغفل .

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أي يكتسب أي حسنة كانت ، والكلام تذييل ، وقيل المراد بالحسنة المودة في قربى الرسول صلى الله عليه وسلم وروي ذلك عن ابن عباس .

(39/686)

والسدي ، وأن الآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه لشدة محبته لأهل البيت ، وقصة فدك .

والعوالي لا تأبى ذلك عند من له قلب سليم ، والكلام عليه تتميم ، ولعل الأول أولى ، وحب آل الرسول عليه الصلاة والسلام من أعظم الحسنات وتدخل في الحسنة هنا دخولاً أولياً

﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا ﴾ أي في الحسنة ﴿ حَسَنًا ﴾ بمضاعفة الثواب عليها فإنها يزاد بها

حسن الحسنة ، ففي للظرفية و ﴿ حَسَنًا ﴾ مفعول به أو تمييز ، وقرأ زيد بن علي .

وعبد الوارث عن أبي عمرو .

وأحمد بن جبير عن الكسائي ﴿ يزد ﴾ بالياء أي يزد الله تعالى .

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ حسنى ﴾ بغير تنوين وهو مصدر كبشرى أو صفة لموصوف مقدر أي صفة أو خصلة حسنى ﴿ واعلموا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ ساتر ذنوب عباده ﴿ شَكُورٍ ﴾ مجاز من أطاع منهم بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة ، وقال السدي : غفور لذنوب آل محمد صلى الله عليه وسلم شكور لحسناتهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(40/686)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ » .

هو إضراب على موقف المشركين من قوله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى » .

ففى هذا دعوة للمشركين إلى الإيمان بهذا الدين الذي شرعه اللّه لهم ، وإذ هم أبوا أن

يستجيبوا لهذه الدعوة ، فقد أضرب اللّه سبحانه عن دعوتهم إلى هذا الدين الذي شرعه لهم ، ثم كشف سبحانه عن العلة التي تمسك بهم عن الاستجابة

(41/686)

لهذه الدعوة ، وهى أنهم على شريعة شرعها لهم رؤساؤهم ، وسادتهم ، وهى شريعة باطلة من مبتدعات أهوائهم ، ونضيح ضلالاتهم ، لم يأذن بها اللّه ، ولم يرسل بها رسولا من عنده . .

وفى إطلاق الشركاء على زعماء الباطل ، ودعاة الضلال ، إشارة إلى أنهم يدينون بهذه الشريعة الباطلة ، ويسبحون فى ضلالها ، مع أتباعهم . . فهم جميعا - أتباعا ومتبوعين - على سواء فى هذا الضلال . .

وقوله تعالى : « وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » - كلمة الفصل ، هى الكلمة التي سبقت من اللّه سبحانه وتعالى بأن يؤجل عذابهم إلى يوم القيامة « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً » (17 : النبأ) ولولا هذه الكلمة لقضى بينهم فى الدنيا ، ولأخذهم العذاب كما أخذ الظالمين قبلهم . .

وقوله تعالى : « وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ » أي أن هؤلاء الظالمين إذا لم يقع بهم العذاب

الدنيوي ، فإنه ينتظرهم عذاب أليم فى الآخرة . .

قوله تعالى : « تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » هو انتقال بهؤلاء المشركين الظالمين من موقفهم فى هذه الدنيا ، إلى يوم القيامة ، حيث يرون العذاب ، فيقع فى نفوسهم أنهم صائرون إليه ، وأن ما أنذروا به فى الدنيا قد وقع . . فقد كانوا لا يؤمنون بالبعث ، ولا يؤمنون بالعذاب . .

وها هو ذا يوم البعث . . ومن ورائه العذاب المرصود لهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً » (53 : الكهف)

(42/686)

وقوله تعالى : « وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ » الضمير للعذاب الذي جاء ذكره فى الآية السابقة فى قوله تعالى : « وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ » . . . وفى عدم ذكره ، والإشارة إليه بضميره. إشارة إلى أنه شىء مهول ، وأن ما رأوا منه ليس إلا إشارة دالة عليه ، أما ما غاب عن أعينهم منه ، فهو الذي سيعرفونه حين يلقونه ويعيشون فيه ، وهو مما لا يحدّه وصف ، من هول وبلاء . .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ » . . هو بيان لما يلقى الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى هذا اليوم ، من نعيم فى روضات الجنّات ، التي عرضها السموات والأرض « لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ » من عطائه الممدود ، بلا حساب .

وقوله تعالى : « ذِلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » . الإشارة هنا ، إلى ما ينال المؤمنون من عطاء ربّهم ، وما يتلقون من فضله وإحسانه . . فذلك هو الفضل الكبير حقا ، الذي يعدل القليل منه كلّ ما فى الدنيا من مال ومتاع . . واللّه ذو الفضل العظيم .

قوله تعالى : «ذِلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ . . قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ »

الإشارة بذلك ، بدل من الإشارة فى قوله تعالى : « ذِلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » أي ذلك الفضل الكبير ، هو ذلك الذي يبشر اللّه به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . يبشرهم به على لسان رسوله فيما ينزّل عليه من آيات ربّه ، ويبشرهم به عند لقاء الموت حيث تلقاهم الملائكة بما أعدّ اللّه لهم من نعيم فى الآخرة ، وحيث يرون بأعينهم مقامهم فى الدار الآخرة ، ويبشرهم به يوم البعث ، حيث

يقومون ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، كما يقول اللّه تعالى : « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (12 : الحديد) قوله تعالى : « قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى » .

أي أن هذا الخير الكثير الذي يحمله النبيّ إلى المؤمنين ، ويسوق إليهم ما يبشرهم به ربهم ، من فضل وإحسان يلقونه فى الآخرة « فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ » . هذا كله لا يطلب النبي منهم عليه أجرا ، فإن يكن ثمة أجر فهو رعاية حرمة القربى بينه وبينهم ، وما ينبغى أن يكون بينه - صلوات اللّه وسلامه عليه - وبينهم من رحمة ومودة ، . وها هو ذا - صلوات اللّه وسلامه عليه - يصلهم بأعظم صلات الودّ بما يقدم إليهم من هذا الخير العظيم الذي يكفل لهم حياة طيبة كريمة فى الدنيا ، ونعيما ورضوانا فى الآخرة . .

ثم ها هم أولاء يلقونه - صلوات اللّه وسلامه عليه - بالقطيعة ، ويرمونه بالعداوة ، غير مراعين للقرابة حقّا ، أو حافظين لها عهدا ، أو مبقين على شىء من الإنصاف معه . . فلو أنهم أنصفوا القرابة ، لما كان لهم أن يذهبوا إلى هذا المدى الذي ذهبوا إليه ، من قطيعة النبي ، والكيد له ، والتربص به . . لأنه صلوات اللّه وسلامه عليه - لم يكن قاطعا لهم ، أو متوجها بكيد إليهم ، أو متربصا بسوء بهم ، بل إنه ليمد إليهم يدا كريمة بالخير والمعروف ، ويوجه

إليهم دعوة رفيقة حانية ، تدعوهم إلى هذا الخير والمعروف . .

وكان من شريعة الإنصاف إن لم يقبلوا هذه الدعوة ، أن يردّوها برفق وأن يدعوا صاحب الدعوة وشأنه مع من يستجيبون لدعوته ، ويطعمون

(44/686)

من مائدته ، لا أن يزعجوه ويزعجوا ضيف اللّه الذين دعاهم إليه ! .

هذا وجه من وجوه تأويل هذا المقطع من الآية الكريمة . .

ووجه آخر . . وهو أن النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ لا يسأل قومه أجرا على ما يحمله إليهم من رحمة اللّه ، وفضله وإحسانه ، وإنما ذلك منه صلوات اللّه وسلامه عليه ـ هو مودة فى سبيل القربى ، إذ آثرهم على غيرهم ، وجعلهم أول من يمد يده الكريمة إليهم بالنور الذي معه . . فهو منهم ، وهم أولى الناس ببرّه وإحسانه . .

وفى هذا يقول اللّه تعالى : « لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ » (128 : التوبة) . .

وقد بدأ النبىّ رسالته ، وما تحمل من هدى وخير ، بدعوة قومه إليها ، فكانوا أول من استفتح بهم النبي الكريم دعوته ، كما أمره اللّه سبحانه بذلك فى قوله : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ» (214 : الشعراء) .

هذا ، ومن بعض التأويلات لهذا المقطع من الآية الكريمة أن المراد بالمودة فى القربى ، هى مودة آل البيت رضى اللّه عنهم ، وهى الأجر الذي يطلبه النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - من المؤمنين . . أي لا أسألكم أيها المؤمنون من أجر لى ، ولكن أسألكم المودة لآل بيتي . فهو الأجر الذي أسألكم إياه ، على ما أقدم إليكم من خير ، وما أحمل لكم من هدى . .

وهذا التأويل بعيد . . وذلك من وجوه :

فأولا : أن مودة المؤمنين بعضهم لبعض ، هى من دين المؤمنين ، فالمؤمنون

كما يقول اللّه تعالى : «بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» . . وهم بهذا الولاء متوادّون ، أو ينبغى أن يكونوا متوادين . . وأولى المؤمنين بمودة المؤمنين وولائهم ، أقربهم إلى رسول اللّه . . فآل بيت رسول اللّه داخلون فى هذه المودة العامة التي بينهم وبين المؤمنين ، من باب أولى . . «النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ» ! فحبّ آل بيت رسول اللّه ومودتهم ، من إيمان كل مؤمن ، فلا يحتاج هذا إلى ذكر خاص . .

وثانيا : الأجر الذي يطلبه النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - ينبغى أن يكون لحساب الدعوة

الإسلامية ، لا لشخصه ، ولا لذى قربى منه . .

وهذا التأويل يجعل الأجر محصورا فى هذا المعنى المحدود ، الذي يذهب بكثير من جلال هذا الأجر الذي لا يوفّيه أجر مما فى هذه الدنيا من مال ومتاع .

فالأجر الذي يطلبه النبىّ إنما يطلبه من اللّه ، كما يقول سبحانه على لسان أنبيائه .

« وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ » .

(109 ، 127 ، 145 ، 164 180 : الشعراء) وثالثا : هذه الآية مكية ، وكان من آل بيت رسول اللّه كثيرون ممن لم يدخلوا فى الإسلام ، كعميه أبى طالب ، والعباس ، بل ومنهم من كان يؤذى النبي أذى ، بالغا ، ويكيد له كيدا عظيما ، كأبى لهب ، فلم يكن من المقبول - والأمر هكذا - أن تجىء دعوة السماء بمودة آل البيت الذين لم تتضح معالمهم فى الإسلام بعد . . وأولى من هذا أن تكون الدعوة بالمودة عامة ، بين النبي وقومه جميعا ، وخاصة المشركين منهم ، ويكون معناها الدعوة إلى التخفف من عداوتهم للنبىّ ، وكيدهم له ، وتركه وشأنه ، مراعاة لتلك القرابة التي بينه وبينهم . . إذ لم يكن منه مساءة لهم ، بل كان ودودا لهم ، رحيما بهم ، يريد لهم الخير ، ويؤثرهم به . .

ورابعا : أن الخطاب عام موجه إلى المشركين بصفة خاصة ، الذين

يحاجهم القرآن ، ويتهددهم بالنار ، ويعرض لهم فى مقابلها الجنة ، وما يلقى المؤمنون فيها . . « أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى » . .

أي لا أسالكم أجرا على هذا الخير الذي تنالونه من هذه الدعوة التي أدعوكم إليها ، والتي إن استجبتم لها بلغتم منازل الرضوان ، ونزلتم حيث ينزل عباد اللّه المكرمون فى جنات النعيم . . وذلك كله فى غير مقابل منّى ، إلا أن ترعوا ما بينى وبينكم من قرابة ، هى التي جعلتنى أبدأ بكم ، وأوثركم على غيركم ، وهذا من شأنه أن يحملكم على رعاية هذه القرابة ، فلا تكونوا أنتم أول كافر بي ، ثم لا تكونوا أنتم أول من يسعى بالضر والأذى إلىّ . .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً » . .

هو دعوة إلى المشركين الذين يقفون هذا الموقف العدائى من النبي ، أن يأخذوا جانب الخير الذي يدعوهم إليه ، وأن يتقبلوا منه هذه المودة التي يؤثرهم بها . . فمن استجاب منهم لهذه الدعوة ، وآثر الإحسان على السوء ، والإيمان على الكفر ، فإنه سيلقى جزاء

إحسانه إحسانا مضاعفا من اللّه . .

وفى قوله تعالى : «يَقْتَرِفْ» وفى استعمال هذا الفعل فى مقام الإحسان ، على أنه يستعمل غالبا فى مجال الشرّ والمساءة «إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ» (113 : الأنعام) فى هذا إشارة إلى أن اليد

(47/686)

التي تعمل السوء ، تستطيع أن تفعل الإحسان ، وأن الإنسان الذي يسلك طريق الشر ، هو نفسه يمكن أن يسلك طريق الخير . . وإذن فإنه لا حجاز بين المشركين وبين الإيمان ، وأنهم إذا كانوا يلبسون رداء الشرك الآن ، فإنهم قادرون على أن ينزعوا هذا الثوب ، وأن يتزّيوا بزىّ الإيمان . . فى لحظة واحدة .

وهذا ما يشير إليه التعقيب على هذا بقوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ» فهذه مغفرة اللّه الواسعة ، مبسوطة لمن يجيئون إليه ، تائبين من ضلالهم ، متبرئين من شركهم ، حيث تشملهم الرحمة والمغفرة . . وحيث يشكر اللّه لهم ما صنعوا بأنفسهم من إحسان . . «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ» وإنه ليس أخسر صفقة ، ولا أضلّ سبيلا ، ممن يرى - وهو المذنب الغارق فى الذنوب - يد المغفرة مبسوطة له ، ويد الإحسان ممدودة إليه ، ثم يحمد حيث هو

، متلطخا بآثامه ، غارقا فى ضلاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 13 صـ 48.41 ﴾

(48/686)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾

للإضراب الانتقالي وهو انتقال من الكلام على تفرق أهل الشرائع السالفة في شرائعهم مَن انقرض منهم ومن بقي كأهل الكتابين إلى الكلام على ما يشابه ذلك من الاختلاف على أصل الديانة ، وتلك مخالفة المشركين للشرائع كلّها وتلقّيهم دين الإشراك من أئمة الكفر وقادة الضلال .

ومعنى الاستفهام الذي تقضيه ﴿ أم ﴾ التي للإضراب هو هنا للتقريع والتهكّم ، فالتقريع راجع إلى أنهم شرعوا من الدّين ما لم يأذن به الله والتهكم راجع إلى من شرعوا لهم الشرك ، فسئلوا عمن شرع لهم دين الشرك : أهم شركاء آخرون اعتقدوهم شركاءَ لله في الإلهاية وفي شرع الأديان كما شرع الله للناس الأديان ؟ وهذا تهكّم بهم لأن هذا النوع من الشركاء لم يدّعِه أهل الشرك من العرب .

وهذا المعنى هو الذي يساعد تنكير ﴿ شركاء ﴾ ووصْفَه بجملة ﴿ شرعوا لهم من الدين ﴾ .

ويجوز أن يكون المسؤول عن الذي شرع لهم هو الأصنام التي يعبدونها ، وهو الذي درج عليه المفسرون ، فيكون ﴿ لهم ﴾ في موضع الحال من ﴿ شركاء ﴾ .

والمقصود : فضح فظاعة شركهم بعروه عن الانتساب إلى الله ، أي إن لم يكن مشروعاً من الإله الحقّ فهو مشروع من الآلهة الباطلة وهي الشركاء .

وظاهر أن تلك الآلهة لا تصلح لتشريع دين لأنها لا تعقل ولا تتكلم ، فتعين أن دين الشرك دين لا مستند له .

وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لكَثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ [الأنعام : 137] .

وقيل المراد بالشركاء : أئمة دين الشرك أطلق عليهم اسم الشركاء مجازاً بعلاقة السببية .

وضميرَا ﴿ لهم ﴾ عائدان إلى ﴿ الذين لا يؤمنون بها ﴾ [الشورى : 18] أو إلى ﴿ الذين يحاجون في الله ﴾ [الشورى : 16] .

والتعريف في ﴿ الدين ﴾ للجنس ، أي شرعوا لهم من جنس الدّين ما ، أي ديناً لم يأذن به الله ، أي لم يأذن بشرعه ، أي لم يرسل به رسولاً منه ولا أوحى به بواسطة ملائكته .

﴿ اللهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل لَقُضِيَ ﴾ ،

هو كقوله فيما تقدم ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربّك إلى أجل مسمى لقُضي بينهم ﴾ [الشورى : 14] .

وكلمة الفصل هي : ما قدّره الله وأرادهُ من إمهالهم .

والفصل : الفاصل ، أي الذي لا تردد فيه .

﴿ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ والمقصود تحقيق إمهالهم إلى أجل مسمى لا يفلتهم من المؤاخذة بما ظَلموا .

والمراد بالظالمين المشركون ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] .

والعذاب الأليم : عذاب الآخرة لجميعهم ، وعذاب الدّنيا بالسيف والذلّ للذين أُخّروا إلى إبَّان حلوله مثل قتلهم يوم بدر .

وَتَوْكيد الخبر بحرف التوكيد لأن هذا الخبر موجه إليهم لأنهم يسمعون هذا الكلام ويعلمون أنهم المقصودون به .

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ

جملة ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ بيانٍ لجملة ﴿ وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ [الشورى : 21] ، بُيِّن حال هذا العذاب ببيان حال أصحابه حينَ تَوقُّعِ حلوله ، وكفى بذلك منبئاً عن هوله .

والخطاب بـ ﴿ تَرى ﴾ لغير معيّن فيعم كل من تُمكن منه الرؤية يومئذٍ كقوله : ﴿ وترى الظالمين لمّا رأوا العذاب يقولون هل إلى مردَ من سبيل وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذلّ ﴾ [الشورى : 44 ، 45] .

والمقصود استحضار صورة حال الظالمين يوم القيامة في ذهن المخاطب .

والإشفاق : توقع الشيء المضرّ وهو ضد التمَنّي .

و(ما كسبوا) هو أعمالهم السيئة .

والمراد : جزاؤها بقرينة المقام .

(50/686)

وجملة ﴿ وهو واقع بهم ﴾ في موضع الحال ، أي مشفقين إشفاقاً يقارب اليأس وهو أشد الإشفاق حين يعلمون أن المشفَق منه لا يُنجي منه حَذَر ، لأن الإشفاق إذا حصل قبل اقتراب المشفَق منه قد يحاول المشفِق وسائلَ التخلص منه ، فأما إذا وقع العذاب فقد حال

دون التخلص حائله .

والمعنى : مشفقين من عقاب أعمالهم في حال نزول العقاب بهم .

وليس المعنى : أنهم مشفقون في الدّنيا من أعمالهم السيئة لأنهم لا يدينون بذلك ، فما بُني على ذلك الاحتمال من التفسير ليس بَيّناً .

والباء في قوله ﴿ واقع بهم ﴾ للاستعلاء ، كقول غاوي السُّلَمي :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ بِرأسه

وهذا الاستعمال قريب من معنى الإلصاق المجازي .

وضمير ﴿ وهو واقع ﴾ عائد على ﴿ ما كسبوا ﴾ باعتبار تقدير مضاف ، أي جزاء ما كسبوا ، أي في حال أن الجزاء واقع عليهم .

وجملة ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ﴾ حال من الظّالمين ، والواو واو الحال ، أي ترى الظالمين في إشفاق في حال أن الذين آمنوا يطمئنون في روضات الجنات ، وفي هذه الحال دلالة على أن الذين آمنوا قد استقرّوا في الروضات من قبل عرض الظالمين على الحساب وإشفاقهم من تبعاته .

وهذا من تضاد شأني الفريقين في الآخرة على عكسه بما كانوا عليه في الدّنيا المتقدم في قوله : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ [الشورى : 18] ، أي فاليوم انقلب إشفاق المؤمنين اطمئناناً واطمئنان المشركين إشفاقاً ، وشتّان بين

الاطمئنانين والإشفاقين ، وبهذه المضادة في الحالتين وأسبابهما صحّ اعتبار كينونة الذين آمنوا في الجنة حالاً من ﴿ الظالمين ﴾ .

والروضات : جمع روضة ، وهي اسم لمجموع ماء وشجرٍ حافَ به وخضرةٌ حوله .

وجملة ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ خبر ثان عن ﴿ الذين آمنوا ﴾ ، و ﴿ عند ﴾ ظرف متعلق بالكون الذي تعلق به الجَار والمجرور في ﴿ لهم ما يشاءون ﴾ .

(51/686)

والعندية تشريف لمعنى الاختصاص الذي أفادته اللام في قوله : ﴿ لهم ﴾ وعناية بما يُعطَوْنَه من رغبة .

والمعنى : ما يشاؤونه حق لهم محفوظ عند ربهم .

ولا ينبغي جعل ﴿ عند ﴾ متعلقاً بفعل ﴿ يشاءون ﴾ لأن ﴿ عند ﴾ حينئذٍ تكون ظرفاً لمشيئتهم ، أي مشيئةٍ منهم متوجهةٍ إلى ربّهم ، فتؤول المشيئة إلى معنى الطلب أن يعطيهم ما يطلبون فيفوت قصد التشريف والعناية .

ولك أن تجعل عند ربّهم خبراً ثالثاً عن الذين آمنوا ، أي هم عند ربّهم ، أي في ضيافته وقِراه ، كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ [

القمر : 54 ، 55] ، ويكون ترتيب الأخبار الثلاثة جارياً على نمط الارتقاء من الحَسن إلى الأحسن بأن : أخبر عنهم بأنهم نزلوا في أحسن منزل ، ثم أحضر لهم ما يشتهون ، ثم ارتقي إلى ما هو أعظم وهو كونهم عند ربهم على حد قوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] .

ومن لطائف هذا الوجه أنه جاء على الترتيب المعهود في الحصول في الخارج فإن الضيف أو الوافد ينزل أول قدومه في منزل إكرام ثم يحضر إليه القرى ثم يخالطه رب المنزل ويقترب منه .

وجملة ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ تذييل .

والإشارةُ إلى مضمون قوله : ﴿ في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ بتأويل : ذلك المذكورُ .

وجيء باسم إشارة البعيد استعارة لكون المشار إليه بعيد المكانة بُعد ارتفاع مجازي وهو الشرف .

و﴿ الفضل ﴾ يجوز أن يكون مصدراً بمعنى الشرف والتفوق على الغير فيكون في معنى : فَضْلُهم ، ويجوز أن يكون اسماً لما يُتفضل به من عطاء فيكون في معنى : ذلك فضْلُنا عليهم ، وفي هذا الأخير دلالة على أن ثواب الأعمال فضل من الله لأن طاعة العباد واجبة عليهم فإذا أدّوها فقد فعلوا ما لا يسعهم إلا فعله فلو لم يثابوا على ذلك لم يكن عدم إثابتهم ظُلماً .

وضمير الفَصْل يفيد قصراً ادعائياً للمبالغة في أعظمية الفضل ، و ﴿ الفضل ﴾ يصلح لأن يعتبر كالمضاف إلى المفعول ، أي فضل الله عليهم ، وأن يعتبر كالمضاف إلى الفاعل فضلهم ، أي شرفهم وبركتهم فيؤول معنى القصر إلى أن الفضل الذي حصل للذين آمنوا وعملوا الصالحات أكبر فضل .

﴿ ذَلِكَ الذى يُبَشِّرُ الله عِبَادَهُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ .

اسم الإشارة مؤكد لنظيره الذي قبله ، أي ذلك المذكور الذي هو فضل يحصل لهم في الجنّة هو أيضاً بشرى لهم من الحياة الدنيا .

والعائد من الصلة إلى الموصول محذوف تقديره : الذي يبشر الله به عباده .

وحذفه هنا لتنزيله منزلة الضمير المنصوب باعتبار حذف الجار على طريقة حذفه في نحو قوله : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف : 155] بتقدير : من قومه ، فلما عومل معاملة المنصوب حذف كما يحذف الضمير المنصوب .

وقرأ نافع وعاصم وابن عامر ويعقوب وخلف ﴿ يبشر ﴾ بضم التحتية وفتح الموحدة وتشديد الشين المكسورة ، وهو من بشّره ، إذا أخبره بحادثٍ يسره .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ يَبْشُر ﴾ بفتح التحتية وسكون الموحدة

وضم الشين مخففة ، يقال : بشرت الرجل بتخفيف الشين أبشرُهُ من باب نصر إذا غبطه بحادث يَسرّه .

وجَمعُ العباد المضافُ إلى اسم الجلالة أو ضميرِه غَلَب إطلاقه في القرآن في معرض التقريب وترفيع الشّأن ، ولذلك يكون موقع ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ هنا موقع عطف البيان على نحو قوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [يونس : 62 ، 63] إذ وقع ﴿ الذين آمنوا موقع عطف البيان من أولياء الله .

الصالحات قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى ﴾ .

(53/686)

استئناف ابتدائي بمناسبة ذكر ما أعد للمشركين من عذاب وما أعد للمؤمنين من خير ، وضمير جماعة المخاطبين مراد به المشركون لا محالة وليس في الكلام السابق ما يتوهم منه أن يكون ﴿ قل لا أسألكم ﴾ جواباً عنه ، فتعين أن جملة ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ كلام مستأنف استئنافاً ابتدائياً .

ويظهر مما رواه الواحدي في "أسباب النزول" عن قتادة : أن المشركين اجتمعوا في مجمع لهم

فقال بعضهم لبعض : أترون محمداً يَسأل على ما يتعاطاه أجراً .

فنزلت هذه الآية ، يعنون : إن كان ذلك جمعنا له مالاً كما قالوه له غير مرة ، أنها لا اتصال لها بما قبلها وأنها لما عرض سبب نزولها نزلت في أثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها فتكون جملة ابتدائية .

وكان موقعها هنا لمناسبة ما سبق من ذكر حجاج المشركين وعنادهم فإن مناسبتها لما معها من الآيات موجودة إذ هي من جملة ما واجه به القرآن محاجّة المشركين ، ونفَى به أوهامهم ، واستفتح بصائرهم إلى النظر في علامات صدق الرسول ؛ فهي جملة ابتدائية وقعت معترضة بين جملة ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وجملة ﴿ ومن يقترف حسنة ﴾ .

وابتدئت بـ ﴿ قل ﴾ إما لأنها جواب عن كلام صدر منهم ، وإمّا لأنها مما يهتم بإبلاغه إليهم كما أن نظائرها افتتحت بمثل ذلك مثل قوله تعالى:

﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ [سبأ : 47] وقوله : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ [ص : 86] وقوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ [الأنعام : 90] .

وضمير ﴿ عليه ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من المقام .

والأجر : الجزاء الذي يعطاه أحد على عمل يعمله ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الله

عنده أجر عظيم ﴾ في سورة براءة (22) .

والمودّة : المحبة والمعاملة الحسنة المشبهة معاملة المتحابين ، وتقدمت عند قوله ﴿ مودّة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ في سورة العنكبوت (25) .

(54/686)

والكلام على تقدير مضاف أي معاملة المودة ، أي المجاملة بقرينة أن المحبة لا تُسأل لأنها انبعاث وانفعال نفساني .

وفي ﴾ للظرفية المجازية لأنه مجرورها وهو ﴿ القربى ﴾ لا يصلح لأن يكون مظروفاً فيه .

ومعنى الظرفية المجازية هنا : التعليل ، وهو معنى كثير العروض لحرف ﴿ في ﴾ كقوله : ﴿ وجاهدوا في الله ﴾ [الحج : 78] .

و ﴿ القربى ﴾ : اسم مصدر كالرُجعى والبُشرى ، وهي قَرابة النسب ، قال تعالى : ﴿ وآتِ ذا القُربى حقّه ﴾ [الإسراء : 26] ، وقال زهير :

وظُلمُ ذوي القربى أشدّ مضاضَةً . . .

البيت

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولذي القربى ﴾ في سورة الأنفال (41) .

ومعنى الآية على ما يقتضيه نظمها : لا أسألكم على القرآن جزاء إلا أن تَوَدُّوني ، أي أن تعاملوني معاملة الودِّ ، أي غير معاملة العداوةِ ، لأجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي .

وفي "صحيح البخاري" و"جامع الترمذي" سئل ابن عباس عن هذه الآية بحضرة سعيد بن جبير فابتدر سعيد فقال : قُربى آل محمد ، فقال ابنُ عباس : عَجِلْتَ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلاّ أنْ تَصِلُوا ما بيني وبينكم من القرابة .

وذكر القرطبي عن الشعبي أنه قال : أكثرَ الناسُ علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسط الناس في قريش فليس بطن من بطونهم إلا وقد وَلَدَهُ فقال الله له : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ إلاَّ أن تَوَدوني في قرابتي منكم ، أي تَرَاعُوا ما بيني وبينكم فتصدّقوني ، فالقربى ههنا قرابة الرحم كأنه قال : اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنُبوءةِ .

انتهى كلام القرطبي .

وما فسر به بعض المفسرين أن المعنى : إلا أن تودّوا أقاربي تلفيق معنى عن فهم غير منظور فيه إلى الأسلوب العربي ، ولا تصح فيه رواية عمن يعتد بفهمه .

(55/686)

أمّا كون محبة آل النبي صلى الله عليه وسلم لأجل محبة ما له اتصال به خُلُقاً من أخلاق المسلمين فحاصل من أدلة أخرى ، وتحديد حدودها مُفصَّل في "الشفاء" لعياض .

والاستثناء منقطع لأن المودّة لأجل القرابة ليست من الجزاء على تبليغ الدعوة بالقرآن ولكنها مما تقتضيه المروءة فليس استثناؤها من عموم الأجر المنفي استثناء حقيقياً .

والمعنى : لا أسألكم على التبليغ أجراً وأسألُكم المودّة لأجل القربى .

وإنما سألهم المودّة لأن معاملتهم إياه معاملةَ المودّة معِينة على نشر دعوة الإسلام ، إذ تَلِين بتلك المعاملة شكيمتهم فيتركون مقاومته فيتمكن من تبليغ دعوة الإسلام على وجه أكمل .

فصارت هذه المودة غرضاً دينياً لا نفع فيه لنفس النبي صلى الله عليه وسلم

وفي بعض الأخبار الموضوعة في أسباب النزول أن سبب نزول هذه الآية : أن النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا قدم المدينة كانت تنوبه نوائب لا يسعها ما في يديه .

فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به فنجمع له مالاً ، ففعلوا ثم أتوه به ، فنزلت .

وفي رواية : أن الأنصار قالوا له يوماً : أنفسُنا وأموالنا لك ، فنزلت .

وقيل نزل ﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده ﴾ إلى قوله : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ [الشورى : 23 ، 24] .

ولأجل ذلك قال فريق : إن هذه الآيات مدنية كما تقدم في أول السورة وهي أخبار واهية .

وتضمنت الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم منزّه عن أن يتطلب من الناس جزاء على

تبليغ الهدى إليهم فإن النبوءة أعظم مرتبة في تعليم الحقّ وهي فوق مرتبة الحكمة ، والحكماء تنزّهوا عن أخذ الأجر على تعليم الحكمة ، فإن الحكمة خير كثير والخير الكثير لا تقابله أعراض الدنيا ، ولذلك أمر الله رُسُله بالتنزّه عن طلب جزاء على التبليغ ، فقال حكاية عن نوح ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على رب العالمين ﴾ [الشعراء : 109] .

وكذلك حكى عن هود وصالح ولوط وشعيب .

(56/686)

﴿ القربى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ .

تذييل لجملة ﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ والمعنى : وكلما عمل مؤمن حسنة زدناه حسناً من ذلك الفضل الكبير .

وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة : 261] والواو اعتراضية .

والاقتراف : افتعال من القَرْف ، وهو الاكتساب ، فالاقتراف مبالغة في الكسب نظيرَ الاكتساب ، وليس خاصاً باكتساب السوء وإن كان قد غلب فيه ، وأصله من قَرَفَ

الشجرةَ ، إذا قشر قِرْفَها ، بكسر القاف ، وهو لِحَاؤها ، أي قَشْرُ عودها ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وليَقترفوا ما هم مقترفون ﴾ في سورة الأنعام (113) ، وعند قوله : ﴿ وأموالٌ اقترفتموها ﴾ في سورة براءة (24) .

والحسنة : الفَعْلة ذات الحسن صفة مشبهة غلبت في استعمال القرآن والسنة على الطاعة والقربة فصارت بمنزلة الجوامد عَلَماً بالغلبة وهي مشتقة من الحسن وهو جمال الصورة .

والحُسن : ضد القبح وهو صفة في الذات تقتضي قبول منظرها في نفوس الرّائين وميلهم إلى مداومة مشاهدتها .

وتوصف المعنويات بالحسن فيراد به كون الفعل أو الصفة محمودة عند العقول مرغوباً في الاتصاف بها .

ولما كانت الحسنة مأخوذة من الحُسن جعلت الزيادة فيها من الزيادة في الحسن مراعاة لأصل الاشتقاق فكان ذكر الحُسْن من الجناس المعبر عنه بجناس الاشتقاق نحو قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدّين القيم ﴾ [الروم : 43] ، وصار المعنى نزِد له فيها مماثلاً لها .

ويتعين أن الزيادة فيها زيادة من غير عَمِله ولا تكون الزيادة بعمل يعمله غيره لأنها تصير عملاً يستحق الزيادة أيضاً فلا تنتهي الزيادة فتعيّن أن المراد الزيادة في جزاء أمثالها عند الله .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشْر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160]

وقوله ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة : 261] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم " من هَم بحسنة فعمِلها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف " .

وجملة ﴿ إن الله غفور شكور ﴾ تذييل وتعليل للزيادة لقصد تحقيقها بأن الله كثيرة مغفرته لمن يستحقها ، كثير شكره للمتقربين إليه .

والمقصود بالتعليل هو وصف الشكور ، وأما وصف الغفور فقد ذكر للإشارة إلى ترغيب المقترفين السيئات في الاستغفار والتوبة ليغفر لهم فلا يقنطوا من رحمة الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(58/686)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) عسق (2) ﴾

التفسير : الكلام في ﴿ حم ﴾ كما سبق وأما ﴿ عسق ﴾ فقد قيل : إنه مع ﴿ حم ﴾

اسم للسورة . وقيل : رموز إلى فتن كان عليّ يعرفها . وقيل : الحاء حكم الله ، والميم ملكه ، والعين علمه ، والسين سناؤه ، والقاف قدرته . وقيل : الحاء حرب علي ومعاوية ، والميم ولاية المروانية ، والعين ولاية العباسية ، والسين ولاية السفيانية ، والقاف قدرة المهدي . وهذه الأقاويل مما لا معول عليها . وقال أهل التصوف : حاء حبه ، وميم محبوبية محمد ، وعين عشقه ، وقاف قربه إلى سيده . أقسم أنه يوحي إليه وإلى سائر الأنبياء من قبله أنه محبوبه في الأزل وبتبعيته خلق الكائنات . والأولى تفويض علمها إلى الله كسائر الفواتح .

(59/686)

وإنما فصل ﴿ حم ﴾ من ﴿ عسق ﴾ حتى عدا آيتين خلاف ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] لتقدم ﴿ حم ﴾ قبله واستقلالها بنفسها ، ولأن جميعها ذكر الكتاب بعدها صريحاً إلا هذه فإنها دلت عليه دلالة التضمن بذكر الوحي الذي يرجع إلى الكتاب . روي عن ابن عباس أنه لا نبي صاحب كتاب إلا أوحى الله إليه ﴿ حم عسق ﴾ والله أعلم بصحة هذه الرواية . والأظهر أن يقال : مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله إليك وإلى الأنبياء قبلك . والمراد المماثلة في أصول الدين كالتوحيد والعدل والنبوة والمعاد وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب في الآخرة كقوله ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم

وموسى ﴾ [الأعلى : 18 ، 19] وفي ورود لفظ ﴿ يوحى ﴾ مستقبلاً لا ماضياً إشارة إلى أن إيحاء مثله عادته . ثم بين سعة ملكه وأخبر عن غاية جلاله بقوله ﴿ له ما في السموات ﴾ الخ . ثم أخبر عن فظاعة ما ارتكبه أهل الشرك فقال ﴿ تكاد السموات يتفطرن ﴾ وقد سبق في آخر سورة مريم . ومعنى ﴿ من فوقهن ﴾ أن الانفطار يبتدىء من أعلى السموات أو ما فوقها من العرش والكرسي إلى أن ينتهي إلى السفلي ، وفي الابتداء من جهة الفوق زيادة تفظيع وتهويل . قال جار الله : كأنه قيل يتفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهن . وقيل : معناه من الجهة التي حصلت هذه السموات فيها وفيه ضعف لأنه كقول القائل : السماء فوقنا . وقيل : الضمير للأرض وقد تقدم ذكرها أي من فوق الأرضين وروى عكرمة عن ابن عباس : يتفطرن من ثقل الرحمن . فإن صحت الرواية كان في الظاهر دليل المجسمة . ولأهل السنة أن يتأولوا الثقل بالهيبة والجلال أو يقدروا مضافاً محذوفاً أي من ثقل ملائكة الرحمن كقوله صلى الله عليه وسلم " أطت السماء أطاً وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد . " ثم انتقل من وصف الجسمانيات إلى ذكر الروحانيات ، وأنهم بالوجه الذي لهم إلى عالم الأرواح يسبحون بالوجه الذي لهم إلى عالم الأجسام يستغفرون

فقال ﴿ والملائكة ﴾ قيل : هو عام . وقيل : حملة العرش كما مر في أول سورة المؤمن إلا أنه عمم ههنا فقال ﴿ لمن في الأرض ﴾ أي يطلبون أن لا يعاجل الله أهل الأرض بالعذاب طمعاً في توبة الكفار والفساق منهم . وقيل : هو مخصوص بما مر أي يستغفرون للمؤمنين منهم . ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن المشركين إنما يحاسبهم الله وما عليك إلا البلاغ . قوله ﴿ وكذلك أوحينا ﴾ قال ابن بحر : هو الكلام الأول أعيد لما اعترض بين الكلامين ما اعترض . وقال جار الله : الكاف مفعول به لأوحينا ، ﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى المذكور قبله من أن الله هو عليهم الرقيب وما أنت عليهم برقيب . وقد كرر الله هذا المعنى في كتابه في مواضع .

(61/686)

﴿ وقرآناً عربياً ﴾ حال . والمعنى مثل ذلك المذكور أوحينا إليك وهو قرآن عربي بين لا لبس فيه ليفهم معناه ولا يتجاوز حد الإنذار . ويجوز أن يكون ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الإيحاء أي كما أوحينا إلى الرسل قبلك وأوحينا إليك ، فيجوز أن تكون المماثلة بالحروف المفردة وأن تكون بأصول الدين كما مر . قال أهل اللغة : يقال أنذرته كذا وبكذا . فمن

الاستعمال الثاني قوله ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ أي أهل مكة على حذف المضاف ، والمفعول الثاني وهو القرآن محذوف . ومن الاستعمال الأول قوله ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ والمفعول الأول محذوف وتنذر الناس يوماً تجمع فيه الخلائق أو يجمع فيه بين الأرواح والأجساد أو بين كل عامل وعمله . قلت : ومن الجائز أن يكون الكل من الاستعمال الأول ولا حذف إلا ان قوله ﴿ وتنذر ﴾ يكون مكرراً للمبالغة والتقدير الأصلي : لتنذر أم القرى يوم الجمع . وقد مر في القصص في قوله ﴿ حتى يبعث في أمها ﴾ [الآية : 59] أن مكة لم سميت أم القرى . وقوله ﴿ ومن حولها ﴾ يحتمل عموم أطراف الأرض لأن مكة في وسطها ، ويحتمل أن يكون المراد به سائر جزيرة العرب ويدخل باقي الأمم بالتبعية أو بنص آخر كقوله ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ [سبأ : 28] وقوله ﴿ لا ريب فيه ﴾ اعتراض لا محل له أو صفة للجمع بناء على أن التعريف الجنسي قريب من النكرة . وقوله ﴿ فريق ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أي منهم فريق كذا ومنهم فريق كذا ، أي هذا مآل حالهم بعد الحشر والاجتماع .

(62/686)

ثم بين بقوله ﴿ ولو شاء الله ﴾ الخ . أن السعادة والشقاوة والهداية والضلالة متعلق بمشيئته وإرادته . وهذا على مذهب أهل السنة ظاهر ، وتأوله المعتزلة بمشيئة القسر والإلجاء ، وقد مر نظائره مراراً . والظاهر أن المراد بكونهم أمة واحدة أن يكونوا مسلمين كلهم . وقيل : أن يكونوا أهل ضلالة قياساً على قوله ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ [الزخرف : 33] ثم أنكر على أهل الشرك بأم المنقطعة قائلاً ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ إن أرادوا أولياء بحق ﴿ فالله هو الولي ﴾ الذي يجب أن يعتقد أنه المولى والسيد لا ولي سواه ومن شأنه أنه ﴿ يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ وهو الحقيق بأن يتخذ ولياً . وحين منع الرسول صلى الله عليه وسلم من التحزن على من كفر أراد أن يمنع المؤمنين من الاختلاف والتنازع فقال ﴿ وما اختلفتم ﴾ والتقدير : قل يا محمد كذا بدليل قوله ﴿ ذلكم الله ربي ﴾ الآية . والمراد أن الذي اختلفتم أنتم والكفرة فيه من أمور الدين فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله وهو إثابة المحقين ومعاقبة المبطلين . وقيل : وما اختلفتم فيه فتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ [النساء : 59] وقيل : وما اختلفتم فيه من الآيات المتشابهات فارجعوا في بيانه إلى المحكمات أو إلى الظاهر من السنة .

وقيل : ما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بالتكاليف فقولوا : الله أعلم كمعرفة الروح وغيره . قال في الكشاف : ولا يندرج فيه اختلاف المجتهدين لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم . قلت : إن لم يجز بحضرته فإنه جائز بعده . وقوله ﴿ وما اختلفتم ﴾ شامل لجميع الأمة إلى يوم القيامة مثل ﴿ يا أيها الناس ﴾ ومثل ﴿ أقيموا الصلاة ﴾ والأظهر أن اختلافهم يدخل فيه ، وأن المراد بحكمه تعريفه من بيان الله سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس أو بالاجتهاد . فإن قيل : المقصود من التحاكم قطع الاختلاف ولا قطع مع القياس ولا مع الاجتهاد . قلنا : إذا كان القياس مأموراً به وكذا الاجتهاد بل يكون كل مجتهد مصيباً ، كانت المخالفة في حكم الموافقة ولهذا قال " اختلاف أمتي رحمة " ثم وصف نفسه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال تأكيداً لصحة أحكامه فقال ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ وهو أحد أخبار ذلكم أو خبر مبتدأ محذوف . ومعنى ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ أنه خلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ يكثركم في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى حصل بين الذكور والإناث التوالد والتناسل . والضمير في ﴿ يذرؤكم ﴾ راجع إلى المخاطبين وإلى الأنعام وهو من الأحكام ذوات العلتين ، وذلك أن فيه تغليبين تغليب المخاطبين على الغائبين وهم من سيوجد إلى يوم القيامة ، وتغليب العقلاء على غيرهم . وعلة الأول الخطاب ، وعلة الثاني

العقل . وإنما قال ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ ولم يقل به لأنه جعل التدبير منبعاً ومعدناً للتكثير كقوله ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ [البقرة : 179] ولأن حروف الجر يقام بعضها مقام البعض ومعنى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ نفي المثلية عنه بطريق الالتزام وذلك أنه لو كان له مثل والله تعالى شيء لكان مثل مثله شيء وهو خلاف نص المخبر الصادق وهذا المحال إنما لزم من فرض وجود المثل له فوجود المثل محال وهو المطلوب ، ولعل هذا

(64/686)

التقرير مختص بنا . قال في الكشاف : إنه من باب الكناية كقولهم : مثلك لا يبخل . يعنون أنت لا تبخل . وكذا ههنا يريد ليس كالله شيء . وجوز أن يكون تكرير حرف التشبيه للتأكيد . وقد يستدل بالآية على نفي الجسمية ولوازمها عنه تعالى لأن الأجسام متماثلة في حقيقة الجسمانية . قوله ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ أي له مفاتيح خزائنها وقد مر في الزمر والباقي واضح وقد سبق أيضاً . وحين عظم وحيه إلى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ كذلك يوحى إليك ﴾ إلى آخره ذكر تفصيل ذلك فقال ﴿ شرع لكم ﴾ أي أوجب وبين لأجلكم ﴿ من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ وهو أقدم الأديان بعد الطوفان ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ وهو ختمها ﴿ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾

وهي الملل المعتبرة المتوسطة .

ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأكابر من رسله فيه بقوله ﴿ أن أقيموا الدين ﴾ الحنيفي ومحله نصب بدلاً من مفعول ﴿ شرع ﴾ أو رفع على الاستئناف كأنه قيل : وما ذلك المشروع ؟ فقيل : هو إقامة الدين . يعني إقامة أصوله من التوحيد والنبوة والمعاد ونحو ذلك دون الفروع التي تختلف بحسب الأوقات لقوله ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ [المائدة : 48] وفي بناء الكلام على الغيبة ثم الالتفات إلى التكلم في ﴿ أوحينا ﴾ والخطاب في ﴿ إليك ﴾ تفخيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم .

(65/686)

ثم حكى حسد أهل الشرك بقوله ﴿ كبر على المشركين ﴾ أي شق وعظم عليهم ما تدعوهم إليه من الدين المبرأ من عبادة غير الله . ثم أجاب عن شبهتهم بأن الاجتباء والاصطفاء يتعلق بمشيئة الله لا بتمني كل واحد ولا بكثرة المال والجاه . يقال : اجتباه إليه أي اصطفاه لنفسه ، والتركيب يدل على الجمع والضم ، ويحتمل أن يراد يجتبي إلى الدين . ثم أخبر عن وقت تفرق كلمة أهل الكتاب وعن سبب ذلك فقال ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ ببعث محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته كقوله في آل عمران ﴾

وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ [الآية : 19]

وقيل : وما تفرق الأمم الذين تقدم ذكرهم إلا بعد العلم بصحة ما أمروا به . قال أهل البرهان : لما ذكر مبدأ كفرهم وهو قوله ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ حسن ذكر نهاية إمهالهم وهو قوله ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ ليكون محدوداً من الطرفين . وإنما ترك ذكر النهاية في السورة المتقدمة لعدم ذكر البداية ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب ﴾ هم العرب ورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتابين كتابهم أو هم أهل الكتاب المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل : جاءهم أسباب العلم فلم ينظروا فيها لأنه حكم عليهم في آخر الآية بأنهم في شك من كتابهم وهو مع العلم غير مجتمعين ﴿ فلذلك ﴾ أي فلأجل تشعب الملل وتفرق الكلم ﴿ فادع ﴾ إلى الملة الحنيفية . وقيل : اللام بمعنى " إلى " والإشارة إلى القرآن ﴿ وأستقم ﴾ عليها كما أمرت ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ المختلفة ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من ﴾ أي ﴿ كتاب ﴾ كان ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ أي في التبليغ أو إذا تحاكمتم إليّ حتى لا أفرق بين نفسي ونفس غيري . ثم أشار إلى ما هو أصل في الدين فقال ﴿ الله ربنا وربكم لنا ﴾ جزاء ﴿ أعمالنا ولكم ﴾ جزاء ﴿ أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ﴾ وليس المراد منه تحريم المحاجة فإنه لولا الأدلة لما توجه التكليف بل المراد أنهم بعد أن

وقفوا على الحجج الباهرة والدلائل الظاهرة على حقية دين الإسلام لم يبق معهم حجة لسانية وإنما بقي السيف . وقيل : إنه منسوخ بآية القتال وقوله ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ إشارة إلى المهاجرة التي اقتضاها إصرارهم على الباطل وتفويض للأمر إلى المجازي المنتقم .

(67/686)

ثم أخبر عن وعيد المخاصمين في أمر دين الله ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ أي من بعد ما استجاب له الناس وقبلوا دينه ، أو بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر ﴿ حجتهم داحضة ﴾ أي باطلة زائلة ﴿ عند ربهم ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون : كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فأنتم أولى باتباعنا . وأيضاً أنتم تقولون الأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه ، ونبوة موسى وحقية التوراة متفق عليها ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم مختلف فيها . والجواب أن نبوّة موسى إنما صحت بالمعجزة فإن كانت المعجزة في حقه مصححة للنبوة ففي حق محمد صلى الله عليه وسلم كذلك وإلا فأنتم القادحون في نبوة نبيكم أيضاً . ثم حث على سلوك طريقة العدل حذراً من عقاب يوم القيامة فقال ﴿ الله الذي أنزل الكتاب ﴾ أي جنسه متلبساً بالغرض الصحيح ﴾

والميزان ﴾ أي أنزل العدل والسوية في كتبه أو ألهم اتخاذ الميزان . وقيل : هو العقل . وقيل : الميزان نفسه وذلك في زمن نوح . وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم يقضي بينهم بالكتاب ﴿ وما يدريك ﴾ يا محمد أو أيها المكلف ﴿ لعل الساعة ﴾ أي مجيئها ﴿ قريب ﴾ أو ذكر بتأويل البعث أو الحشر ونحوه ، أو أراد شيء قريب . ومتى كان الأمر كذلك وجب على العاقل أن يجتهد في أداء ما عليه من التكاليف . ولا يتأنى في سلوك سبيل الإنصاف مع الخالق والخلق فإنه لا يعلم أن القيامة متى تفاجئه . ثم قبح طريقة منكري الساعة فقال ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ يقولون على سبيل السخرية : متى تقوم الساعة ؟ وليتها قامت حتى تظهر لنا جلية الحال . ثم مدح المقربين بأنهم يخافون القيامة هيبة من الله وإجلالاً له أو حذراً من تقصير وخلل وقع في العمل إلا أن خوفهم يجب أن يكون ممتزجاً بالرجاء ، وقد مر تحقيقه مراراً . ثم هدد الشاكين المجادلين في أمر البعث بقوله ﴿ ألا إن الذين يمارون ﴾ وأصله من المرية الشك ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ عن الصواب لأن استيفاء حق

المظلوم من الظالم واجب على فضله أو في حكمه ، ولأن في إنكاره نسبة الله سبحانه إلى ضد العلم والقدرة . ثم إنه لا ريب في أن إنزال الكتاب والميزان لطف من الله على خلقه فلذلك قال ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ عمم البر ثم خصص بقوله ﴿ يرزق من يشاء ﴾ يعني الزائد على مقدار الضرورة ، فلكم من إنسان فاق أقرانه في المال أو الجاه أو الأولاد أو في العلم أو في سائر أسباب المزية إلا أن أحداً منهم لا يخلو من بره الذي يتعيش به كقوله ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : 50] وقيل : معنى لطيف يرزقهم من حيث لا يعلمون ، أو يلطف بهم فلا يعاجلهم بالعقوبة ليتوبوا .

(69/686)

وقد مر معناه في الأنعام بوجه آخر في قوله ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ [الآية : 103] وأما قوله ﴿ القوي العزيز ﴾ ففيه إشارة إلى أن لطفه مقرون بقهره . وحين ذكر أنه يرزق من يشاء الزائد على مقدار كفايته وكان فيه كسر قلوب أرباب الضنك والضيق جبر كسرهم بقوله ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ سماه حرثاً تشبيهاً للعامل الطالب لثواب الآخرة أضعافاً مضاعفة بالزارع الذي يلقي البذر في الأرض طلباً للزيادة والنماء ، ومن فضائل حرث الآخرة أن طالبها قد يحصل له الدنيا بالتبعية ويرى ثواب عمله أضعافاً

مضاعفة ، وطالب الدنيا لا تحصل له المطالب بأسرها ولهذا قال ﴿ نؤته منها ﴾ أي بعض ذلك ﴿ وما له في الآخرة من نصيب ﴾ قط وفي زيادة لفظ الحرث فائدة أخرى وهي أن يعلم أن شيئاً من القسمين لا يحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق . عن النبي صلى الله عليه وسلم " من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه همه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة " هذا لفظه أو لفظ هذا معناه . وعن قتادة إن الله يعطي الدنيا على نية الآخرة ولا يعطي الآخرة على نية الدنيا . وفي ظاهر اللفظ دلالة على أن من صلى لطلب الثواب أو لدفع العقاب فإنه تصح صلاته لأنه صلى لأجل ما يتعلق بالآخرة . قال بعض أصحاب الشافعي : إذا توضأ بغير نية لم يصح لأن هذا الإنسان غفل عن الآخرة وعن ذكر الله ، والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة فلا يحصل بالوضوء العاري عن النية ، وحيث بين القانون الأعظم والقسطاس الأقوم في أعمال الدارين نبه على أحوال الضلال بقوله ﴿ أم لهم شركاء ﴾ وهي المنقطعة عند بعضهم . وقال آخرون : هي المعادلة لألف الاستفهام تقديره أفيقبلون ما شرع الله لهم من الدين أم لهم آلهة . ﴿ شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ أي لم يأمرهم به أو لم يعلمه كقوله ﴿ أتنبؤن الله بما لا

يعلم ﴾ [يونس : 18] والأذن بالفتح العلم بالمسموعات وتحقيقه شرعوا ما ليس بشريعة إذ لو كان شريعة لعلمها الله ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء ﴿ لقضي بينهم ﴾ والضمير للمؤمنين والكافرين أو المشركين والشركاء ﴿ ترى الظالمين ﴾ في القيامة ﴿ مشفقين ﴾ خائفين ﴿ مما كسبوا ﴾ من الجرائم ﴿ وهو ﴾ أي وبال ذلك ﴿ واقع بهم ﴾ واصل إليهم لا محالة ﴿ والذين آمنوا وعلموا الصالحات في روضات الجنات ﴾ أي منتزهاتها . قالت الأشاعرة : فيه دليل على أن غيرها من الأماكن في الجنة لغير المذكورين وغيرهم ليس إلا بالذي آمن ولم يعمل صالحاً وهو الفاسق . ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يكون إضافة الروضات إلى الجنات من إضافة العام إلى الخاص فيكون الجنات كلها روضات .

(71/686)

ولكن الروضات قد لا تكون في الجنة لثبوتها في الدنيا . والفضل الكبير قد تقدم في " فاطر " . ﴿ ذلك ﴾ المذكور أو الثواب أو التبشير هو ﴿ الذي يبشر الله ﴾ به ﴿ عباده ﴾ ثم حذف الجار ، ثم الراجع إلى الموصول ، ثم أمر رسوله بأن يقول ﴿ لا أسألكم عليه ﴾

على هذا التبليغ ﴿ أجراً إلا المودة ﴾ الكائنة ﴿ في القربى ﴾ جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها ولهذا لم يقل " مودة القربى " أو " المودة للقربى " وهي مصدر بمعنى القرابة أي في أهل القربى وفي حقهم . فإن قيل : استثناء المودة من الأجر دليل على أنه طلب الأجر على تبليغ الوحي وذلك غير جائز كما جاء في قصص سائر الأنبياء ولا سيما في " الشعراء " . وقد جاء في حق نبينا صلى الله عليه وسلم أيضاً ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ [سبأ : 47] ﴿ وقل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ [ص : 86] والمعقول منه أن التبليغ واجب عليه وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بالمروءة . وأيضاً أنه يوجب التهمة ونقصان الحشمة . قلنا : إن من جعل الآية منسوخة باللتين لا استثناء فيهما فلا إشكال عليه ، وأما الآخرون فمنهم من قال : الاستثناء متصل ولكنه من قبيل تأكيد المدح بما يشبه الذم كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . بهن فلول من قراع الكتائب

(72/686)

والمعنى لا أطلب منكم أجراً ، إلا هذا وهو في الحقيقة ليس أجراً لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب ولا سيما في حق الأقارب كما قال عز من قائل ﴿ والذين يصلون ما

أمر الله به أن يوصل ﴾ [الرعد : 21] ومنهم من قال : الاستثناء منقطع أي لا أسألكم عليه أجراً ألبتة ، ولكن أذكركم المودة في القربى ، وفي تفسير ﴿ المودة في القربى ﴾ أربعة أقوال : الأول قال الشعبي : أكثر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فأجاب بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسطة النسب في قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد كان بينهم وبينه قرابة فقال الله : قل لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلا أن تودوني لقرابتي منكم يعني أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليّ . القول الثاني : روى الكعبي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت تنوبه نوائب وحقوق وليس في يده سعة فقال الأنصار : إن هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم ، فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا . ثم أتوه فرده عليهم ونزلت الآية بحثهم على مودة أقاربهم وصلة أرحامهم .

(73/686)

القول الثالث : عن الحسن : إلا أن تودوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح .

الرابع : عن سعيد بن جبير : لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين وجبت

علينا مودتهم لقرابتك ؟ فقال : علي وفاطمة وابناهما . ولا ريب أن هذا فخر عظيم وشرف تام ، ويؤيده ما روي أن علياً رضي الله عنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حسد الناس فيه فقال : أما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذرياتنا خلف أزواجنا وعنه صلى الله عليه وسلم " حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة " وكان يقول " فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها " وثبت بالنقل المتواتر أنه كان يحب علياً والحسن والحسين ، وإذا كان ذلك وجب علينا محبتهم لقوله ﴿ فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 153] وكفى شرفاً لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفخراً ختم التشهد بذكرهم والصلاة عليهم في كل صلاة . قال بعض المذكرين : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها غرق " وعنه صلى الله عليه وسلم " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " فنحن نركب سفينة حب آل محمد صلى الله عليه وسلم ونضع أبصارنا على الكواكب النيرة أعني آثار الصحابة لنتخلص من بحر التكليف وظلمة الجهالة ومن أمواج الشبه والضلالة . ثم أكد إيصال الثواب على المودة بقوله ﴿ ومن يقترف حسنة ﴾ أي يكتسب طاعة ، قال بعض أهل اللغة : الاقتراف مستعمل في الشر فاستعاره ههنا للخير . عن السدي أنها المودة في آل رسول الله صلى الله

عليه وسلم نزلت في أبي بكر الصديق ومودته فيهم ، والظاهر العموم في كل حسنة ولا شك أن هذه مرادة قصداً أولياً لذكرها عقيبها . ومعنى زيادة حسنها تضعيف ثوابها ﴿ إن الله غفور ﴾ لمن أذنب ﴿ شكور ﴾ لمن أطاع الله والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 67.74 ﴾

(74/686)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يوحي ﴾ : القُراء على "يُوْحي " بالياء مِنْ أسفلَ مبنياً للفاعلِ ، وهو اللَّهُ تعالى . " والعزيزُ الحكيمُ " نعتان . والكافُ منصوبةُ المحلِّ : إمَّا نعتاً لمصدرٍ ، أو حالاً مِنْ ضميرِه أي : يوحي إيحاءً مثلَ ذلك الإيحاءِ . وقرأ ابنُ كثير - وتُروى عن أبي عمرو - " يُوْحَى " بفتحِ الحاءِ مبنياً للمفعول . وفي القائمِ مَقامَ الفاعلِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : ضميرٌ مستترٌ يعود على "كذلك " لأنه مبتدأٌ ، والتقدير : مثلُ ذلك الإيحاءِ يُوْحَى هو إليك . فمثلُ ذلك مبتدأٌ ، ويُوْحى هو إليك خبرُه . الثاني : أنَّ القائمَ مقامَ الفاعلِ " إليك " ، والكافُ

منصوبُ المحلِّ على الوجهَيْن المتقدِّمَيْن . الثالث : أنَّ القائمَ [مَقامَه] الجملةُ مِنْ قولِه : " اللَّهُ العزيزُ " أي : يُوْحَى إليك هذا اللفظُ . وأصولُ البَصْريين لا تساعِدُ عليه ؛ لأنَّ الجملةَ لا تكونُ فاعلةً ولا قائمةً مقامَه .

وقرأ أبو حيوةَ والأعمشُ وأبانٌ " نُوْحي " بالنون ، وهي موافقةٌ للعامَّةِ . ويُحتمل أَنْ تكونَ الجملةُ مِنْ قولِه : " اللَّهُ العزيزُ " منصوبةَ المحلِّ مفعولةً ب " نُوْحي " أي : نُوحي إليك هذا اللفظَ . إلاَّ أنَّ فيه حكايةَ الجملِ بغيرِ القولِ الصريحِ . و " نُوْحي " على اختلافِ قراءاتِه يجوزُ أَنْ يكونَ على بابه من الحالِ أو الاستقبالِ ، فيتعلَّقَ قولُه : ﴿ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ بمحذوفٍ لتعذُّرِ ذلك ، تقديرُه : وأوحَى إلى الذين ، وأَنْ يكونَ بمعنى الماضي . وجيْءَ به على صورةِ المضارعِ لغرَضٍ وهو تصويرُ الحالِ .

(75/686)

قوله : " اللَّهُ العزيزُ " يجوزُ أَنْ يرتَفِعَ بالفاعليةِ في قراءةِ العامَّةِ ، وأَنْ يرتفعَ بفعلٍ مضمرٍ في قراءةِ ابنِ كثير ، كأنه قيل : مَنْ يُوْحيه ؟ فقيل : اللَّه ، ك ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال ﴾ [النور : 36] ، وقوله :

3964 لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ . . . . . .

. . . . . .

وقد مرَّ ، وأَنْ يرتفعَ بالابتداءِ ، وما بعدَه خبرُه ، والجملةُ قائمةٌ مَقامَ الفاعلِ على ما مَرَّ ، وأَنْ يكون " العزيزُ الحكيمُ " خبَرَيْن أو نعتَيْن . والجملةُ مِنْ قولِه : ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات ﴾ خبرٌ أول أو ثانٍ على حَسَبِ ما تقدَّم في " العزيزُ الحكيمُ " .

وجوَّز أبو البقاءِ أَنْ يكونَ " العزيز " مبتدأً و " الحكيمُ " خبرَه ، أو نعتَه ، و ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات ﴾ خبرَه . وفيه نظرٌ ؛ إذ الظاهرُ تَبَعيَّتُهما للجلالة . وأنت إذا قلتَ : " جاء زيدٌ العاقلُ الفاضلُ " لا تجعلُ العاقل مرفوعاً على الابتداء .

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5)

(76/686)

قوله : ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ ﴾ : قد مَرَّ في مريم الخلافُ والكلامُ فيه مُشْبَعاً . إلاَّ أَنَّ الزمخشريَّ زاد هنا : " ورُوِيَ عن يونسَ عن أبي عمرٍو قراءةٌ غريبةٌ " تَتَفَطَّرْنَ " بتاءَيْن مع النونِ ، ونظيرُهما حرفٌ نادرٌ رُوي في نوادر ابنِ الأعرابي : " الإبلُ تَتَشَمَّمْن " . قال الشيخ : " والظاهرُ أَنَّ هذا وهمٌ منه ؛ لأَنَّ ابن خالويه قال في " شاذِّ القراءاتِ " ما نَصُّه : " تَنْفَطِرْنَ "

بالتاء والنون ، يونس عن أبي عمرو " قال ابنُ خالَوَيْه : " وهذا حرفٌ نادرٌ لأنَّ العربَ لا تجمعُ بين علامَتَيْ التأنيثِ . لا يقال : النساءُ تَقُمْنَ ، ولكن يَقُمْنَ ، ﴿ والوالداتُ يُرْضِعْنَ ﴾ [البقرة : 233] ولا يقال : تُرْضَعْنَ . وقد كان أبو عُمَرَ الزاهدُ رَوَى في نوادرِ ابن الأعرابي : " الإبلُ تَتشمَّمْن " فأنكرْنَاه ، فقد قوَّاه الآن هذا " . قال الشيخ : " فإنْ كانَتْ نُسَخُ الزمخشريِّ متفقةً على قولِه : " بتاءَيْن مع النون " فهو وهمٌ ، وإنْ كان في بعضها " بتاءٍ مع النون " كان موافقاً لقولِ ابن خالَوَيْهِ ، وكان " بتاءَيْن " تحريفاً من النَّساخ . وكذلك كَتْبُهُم " تَتَفَطَّرْن " و " تَتَشَمَّمْنَ " بتاءَيْن " انتهى .

(77/686)

قلت : كيف يَسْتقيم أَنْ يكونَ كَتْبُهم تَتَشَمَّمْن بتاءَيْن وهماً ؟ وذلك لأنَّ ابنَ خالَوَيْهِ أوردَه في مَعْرِضِ النُّدْرَةِ والإنكارِ ، حتى تَقَوَّى عنده بهذه القراءةِ ، وإنما يكون نادراً مُنْكَراً بتاءَيْن فإنه حينئذٍ يكونُ مضارِعاً مُسْنَداً لضمير الإبلِ ، فكان مِنْ حَقِّه أَنْ يكونَ حرفُ مضارَعَتِه ياءً منقوطةً مِنْ أسفلَ نحو : " النساءُ يَقُمْنَ " فكان يَنْبغي أَنْ يقال : الإبلُ يَتَشَمَّمْنَ بالياء مِنْ تحتُ ثم بالتاءِ مِنْ فوقُ ، فلمَّا جاء بتاءَيْن كلاهما مِنْ فوقُ ظهرَ ندورُه وإنكارُه . ولو كان على ما قال الشيخُ : إنَّ كَتْبَهم بتاءَيْن وهمٌ ، بل كان ينبغي كَتْبُه بتاءٍ واحدةٍ لما كان فيه

شذوذٌ/ ولا إنكارٌ ؛ لأنه نظيرُ " النسوةُ قد خَرَجْنَ " فإنَّه ماضٍ مسندٌ لضميرِ الإناثِ ، وكذا لو كُتِب بياءٍ مِنْ تحتُ وتاءٍ مِنْ فوقُ لم يكنْ فيه شذوذٌ ولا إنكارٌ ، وإنما يجيءُ الشذوذُ والإنكارُ إذا كان بتاءَيْنِ منقوطتَيْن مِنْ فوقُ ، ثم إنَّه سواءٌ قُرِئَ " تَتَفَطَّرْنَ " بتاءَيْن أو بتاءٍ ونونٍ فإنه نادرٌ كما ذَكَرَ ابنُ خالوَيْه ، وهذه القراءةُ لم يُقْرَأ بها في نظيرِتها في سورةِ مريم .

قوله : " مِنْ فَوْقِهِنَّ " في هذا الضميرِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه عائدٌ على السماوات أي : يَبْتَدِئُ انفطارُهُنَّ مِنْ هذه الجهةِ ف " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ متعلقةً بما قبلَها . الثاني : أنه [عائد] على الأرضين لتقدُّمِ ذِكْرِ الأرضِ قبلَ ذلك . الثالث : أنه يعودُ على فِرَقِ الكفَّارِ والجماعاتِ المُلْحِدين ، قاله الأخفش الصغير ، وأنكره مكي ، وقال : " لا يجوزُ ذلك في الذكور مِنْ بني آدم " . وهذا لا يُلْزِمُ الأخفشَ فإنَّه قال : على الفِرَقِ والجماعات ، فراعى ذلك المعنى .

(78/686)

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)

قوله : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ : فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه مفعولُ " أَوْحَيْنا " ، والكافُ

للمصدرِ نعتاً أو حالاً . والثاني : أنَّه حالٌ من الكافِ ، والكافُ هي المفعولُ لـ " أَوْحَيْنا " أي : أَوْحَيْنا مثلَ ذلك الإيحاءِ ، وهو قرآنٌ عربيٌّ . وإليه نحا الزمخشريُّ ، وكونُ الكافِ اسماً في النَّثْرِ مذهبُ الأخفش .

قوله : " ومَنْ حَوْلَها " عطفٌ على " أهل " المقدرِ قبل " أمَّ القرى " أي : لِتُنْذِرَ أهلَ أمِّ القرى ومَنْ حَوْلَها . والمفعولُ الثاني محذوفٌ أي : العذابَ . وقُرِئَ " لِيُنْذِرَ " بالياءِ مِنْ تحتُ أي : القرآن . وقولُه : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ هو المفعولُ الثاني . والأولُ محذوفٌ أي : وتُنْذِرَ الناسَ عذابَ يومِ الجمع ، فحذفَ المفعولَ الأولَ من الإنذار الثاني ، كما حَذَفَ المفعولَ الثاني مِنْ الإنذار الأولِ .

قوله : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ إخبارٌ فهو مستأنَفٌ . ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً مِنْ " يومَ الجمع " ، وجعلَه الزمخشريُّ اعتراضاً وهو غيرُ ظاهرٍ صناعةً ؛ إذ لم يَقَعْ بين متلازمَيْنِ .

قوله : " فَرِيقٌ " العامَّةُ على رَفْعِه بأحدِ وجهَيْنِ : إمَّا الابتداءِ ، وخبرُه الجارُّ بعدَه . وساغ هذا في النكرةِ لأنَّه مَقامُ تفصيلٍ كقولِه :

3965 . . . . . فثوبٌ لَبِسْتُ وثَوْبٌ أَجُرُّ

ويجوزُ أَنْ يكونَ الخبرُ مقدراً ، تقديرُه : منهم فريقٌ . وساغ الابتداءُ بالنكرةِ لشيْئَيْنِ : تقديمِ

خبرِها جارًّا ومجروراً ، ووَصْفِها بالجارّ بعدَها . والثاني : أنه خبرُ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هم ، أي : المجموعون دَلَّ على ذلك قولُه : " يومَ الجَمْعِ " .

(79/686)

وقرأ زيدُ بن علي " فريقاً ، وفريقاً " نصباً على الحال مِنْ جملةٍ محذوفةٍ أي : افترقوا أي : المجموعون . وقال مكي : " وأجاز الكسائيُّ والفراءُ النصبَ في الكلام في " فريقاً " على معنى : تُنْذِرُ فريقاً في الجنة وفريقاً في السَّعير يومَ الجمع " . قلت : قد تقدَّم أنَّ زيدَ بن علي قرأ بذلك ، فكأنَّه لم يَطَّلِعْ على أنها قراءةٌ ؛ بل ظاهرُ نَقْلِه عن هذَيْن الإمامَيْن أنهما لم يَطَّلعا عليها ، وجَعَل " فريقاً " مفعولاً أولَ لـ " تُنْذِرَ " و " يومَ الجَمْعِ " مفعولاً ثانياً . وفي ظاهرِه إشكالٌ : وهو أنَّ الإنذارَ لا يقعُ للفريقَيْنِ ، وهما في الجنة ، وفي السَّعير ، إنَّما يكونُ الإنذارُ قبل استقرارِهما فيهما . ويمكنُ أَنْ يُجابَ عنه : بأنَّ المرادَ مَنْ هو مِنْ أهلِ الجنة ومِنْ أهلِ السَّعير ، وإنْ لم يكنْ حاصلاً فيهما وقتَ الإنذارِ ، و " في الجنة " صفةٌ لـ " فَريقاً " أو متعلِّقٌ بذلك المحذوفِ .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)

قوله : ﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ : هذه " أم " المنقطعةُ تتقدَّر ب بل التي للانتقالِ وبهمزةِ الإنكارِ ، أو

بالهمزة فقط ، أو ب بل فقط .

قوله : ﴿ فالله هُوَ الولي ﴾ . الفاءُ عاطفةٌ ما بعدَها على ما قبلَها . وجعلها الزمخشريُّ جوابَ شرطٍ مقدر . كأنَّه قيل : إنْ أرادوا أولياءَ بحقٍ فاللَّهُ هو الوليُّ .

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

(80/686)

قوله : ﴿ فَاطِرُ ﴾ : العامَّةُ على رفعِه خبراً ل " ذلكم " أو نعتاً ل " ربِّي " على تَمَحُّضِ إضافتِه . و " عليه توكَّلْتُ " معترضٌ على هذا ، أو مبتدأ ، وخبرُه " جَعَلَ لكم " أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هو . وزيد بن علي : " فاطرِ " بالجرِّ نعتاً للجلالةِ في قوله : " إلى اللَّهِ " ، وما بينهما اعتراضٌ أو بدلاً مِن الهاء في " عليه " أو " إليه " .

وقال مكيٌّ : " وأجاز الكسائيُّ النصبَ على النداء " . وقال غيرُه : على المدح . ويجوزُ في الكلامِ الخفضُ على البدلِ من الهاءِ في " عليه " . قلت : قد قرأ بالخفضِ زيدُ بن علي . وأمَّا نصبُه فلم أحفَظْه قراءةً .

قوله : " يَذْرَؤُكُمْ فيه " يجوزُ أَنْ تكونَ " في " على بابِها . والمعنى : يُكَثِّرُكُمْ في هذا التدبير ،

وهو أنْ جَعَلَ للناسِ والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذُكورِهم وإناثِهم التوالُدُ . والضميرُ في " يَذرَؤُكم " للمخاطبين والأنعامِ . وغَلَّب العُقلاءَ على غيرِهم الغُيَّبِ . قال الزمخشري : " وهي / من الأحكامِ ذاتِ العلَّتَيْن " . قال الشيخ : " وهو اصطلاحٌ غريبٌ ، ويعني : أنَّ الخطابَ يُغَلَّبُ على الغَيْبة إذا اجتمعا " . ثم قال الزمخشريُّ : " فإنْ قلت : ما معنى يَذْرَؤُكم في هذا التدبيرِ ؟ وهلا قيل يَذْرَؤُكم به . قلت : جُعِل هذا التدبيرُ كالمَنْبَع والمَعدِنِ للبَثِّ والتكثيرِ . ألا تَراك تقول : للحَيَوان في خلق الأزواج تكثير ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : 179] . والثاني : أنها للسببية كالباء أي : يُكَثِّرُكم بسببِه . والضميرُ يعودُ للجَعْلِ أو للمخلوقِ " .

(81/686)

قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ في هذه الآيةِ أوجهٌ ، أحدُها – وهو المشهورُ عند المُعْرِبين – أنَّ الكافَ زائدةٌ في خبرِ ليس ، و " شيءٌ " اسمُها . والتقدير : ليس شيءٌ مثلَه . قالوا : ولولا ادِّعاءُ زيادتِها للَزِمَ أَنْ يكونَ له مِثْلٌ . وهو مُحالٌ ؛ إذ يَصيرُ التقديرُ على أصالةِ الكاف : ليس مثلَ مثلِه شيءٌ ، فنفى المماثلةَ عن مثلِه ، فثبَتَ أنَّ له مثْلاً ، لا مثلَ لذلك المَثَلِ ، وهذا مُحالٌ تعالى اللهُ عن ذلك .

وقال أبو البقاء : " ولو لم تكنْ زائدةً لأَفْضَى ذلك إلى المُحال ؛ إذ كان يكونُ المعنى : أنَّ له مِثْلاً وليس لمثلِه مِثْلٌ . وفي ذلك تناقضٌ ؛ لأنَّه إذا كان له مِثْلٌ فلِمِثْله مِثْلٌ وهو هو ، مع أنَّ إثباتَ المِثْلِ لله تعالى مُحالٌ " . قلت : وهذه طريقةٌ غريبةٌ في تقريرِ الزيادةِ ، وهي طريقةٌ حسنةٌ فيها حُسْنُ صناعةٍ .

والثاني : أنَّ مِثْلاً هي الزائدةُ كزيادتِها في قوله تعالى : ﴿ بِمِثْلِ مَآ آمَنتُم بِهِ ﴾ [البقرة : 137] . قال الطبري : "كما زِيْدَتِ الكافُ في قوله :

3966 وصَالياتٍ كَكَما يُؤَثْفَيْنْ . . .

وقولِ الآخر :

3967 – فصُيِّروا مثل كَعَصْفٍ مَأْكُوْلْ . . . وهذا ليس بجيدٍ ؛ لأنَّ زيادةَ الأسماءِ ليسَتْ بجائزةٍ . وأيضاً يصيرُ التقديرُ ليس كهو شيءٌ ، ودخولُ الكافِ على الضمائرِ لا يجوزُ إلاَّ في شعرٍ .

الثالث : أنَّ العربَ تقولُ " مثلُكَ لا يَفْعَلُ كذا " يعْنُون المخاطبَ نفسَه ؛ لأنَّهم يُريدون المبالغةَ في نَفْيِ الوصفِ عن المخاطب ، فينفونَها في اللفظِ عن مثلِه ، فَيَثْبُتُ انتفاؤُها عنه بدليلِها . ومنه قول الشاعر :

3968 على مِثْلِ ليلى يَقْتُلُ المرءُ نفسَه . . . وإنْ باتَ مِنْ ليلى على اليأس طاويا

وقال أوس بن حجر :

3969 ليس كمثلِ الفتى زُهَيْرٍ . . . خَلْقٌ يُوازِيه في الفضائلِ

وقال آخر :

(82/686)

3970 سَعْدُ بنُ زيدٍ إذا أبصرْتَ فضلَهُمُ . . . فما كمِثْلِهِمْ في الناسِ مِنْ أَحَدِ

قال ابن قتيبة : " العرب تُقيم المِثْلَ مُقامَ النفسِ فتقول : مثلي لا يُقال له هذا ، أي : أنا لا يُقال لي " . قيل : و [نظيرُ] نسبةُ المِثْلِ إلى مَنْ لا مِثْلَ له قولُك : فلانٌ يدُه مبسوطةٌ تريد أنه جَوادٌ ، ولا نَظَرَ في الحقيقة إلى اليد ، حتى تقولَ ذلك لمَنْ لا يَدَ له كقولِه تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : 64] .

الرابع : أَنْ يُرادَ بالمِثْلِ الصفةُ ، وذلك أنَّ المِثْلَ بمعنى المَثَلِ والمَثَلُ الصفةُ ، كقولِه تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ [الرعد : 35] فيكونُ المعنى : ليس مِثْلُ صفتِه تعالى شيءٌ من الصفات التي لغيرِه ، وهو مَحْمَلٌ سهلٌ .

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)

قوله : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ﴾ : يجوز فيها أوجهٌ ، أحدُها : أَنْ تكونَ مصدريةً في محلِّ رفعٍ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ تقديرُه : هو أَنْ أَقيموا أي : الدينُ المشروعُ توحيدُ الله تعالى . الثاني : أنها في محلِّ نصبٍ بدلاً من الموصولِ كأنَّه قيل : شَرَعَ لكم توحيدَ الله تعالى . الثالث : أنَّها في محلِّ جرٍّ بدلاً من الدين . الرابع : أنَّها في محلِّ جَرٍّ أيضاً بدلاً من الهاء . الخامس : أَنْ تكونَ مُفَسِّرةً ؛ لأنها قد تقدَّمها ما هو بمعنى القول .

(83/686)

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14)

قوله : ﴿ أُورِثُواْ ﴾ : قرأ زيد بن علي " وُرِّثوا " بالتشديد [مِنْ] وُرِّثَ مبنياً للمفعول .

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)

قوله : ﴿ فَلِذَلِكَ فادع ﴾ : في اللامِ وجهان ، أحدهما : أَنْ تكونَ بمعنى إلى . والثاني : أنها للعلةِ أي : لأجلِ التفرُّقِ والاختلافِ ادْعُ للدِّين القيِّمِ .

قوله : " وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ " يجوز أَنْ يكونَ التقديرُ : وأُمِرْت بذلك لأَعْدِلَ . وقيل : وأُمرت أَنْ أَعْدِلَ ، فاللامُ مزيدةٌ . وفيه نَظَرٌ ؛ لأَنَّك بعد زيادةِ اللام تحتاج إلى تقديرِ حرفِ جر أي : بأَنْ أَعْدِلَ .

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16)

قوله : ﴿ والذين يُحَآجُّونَ ﴾ : مبتدأٌ و " حُجَّتُهم " مبتدأٌ ثانٍ ، و " داحِضَةٌ " خبرُ الثاني ، والثاني وخبرُه خبرٌ عن الأول . وأعربَ مكيٌّ " حُجَّتُهم " بدلاً/ من الموصول بدلَ اشتمال . والهاءُ في " له " تعودُ على الله أو على الرسول عليه السلام أي : مِنْ بعدِ ما استجاب الناسُ لله تعالى ، أو مِنْ بعدِ ما استجاب اللَّهُ لرسولِه حين دعا على قومِه .

(84/686)

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17)

قوله : ﴿ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ : إنما ذَكَّر " قَريب " وإنْ كان صفةً لمؤنث لأَنَّ الساعةَ في معنى الوقتِ ، أو البعثِ ، أو على معنى النَّسب أي : ذاتُ قُرْب ، أو على حَذْفِ مضافٍ أي : مجيء الساعةِ . وقيل : للفرق : بينها وبين قرابةِ النسَبِ . وقيل : لأَنَّ تأنيثها مجازيٌّ ،

نقله مكي ، وليس بشيءٍ ؛ إذ لا يجوز : الشمسُ طالعٌ ولا القِدْرُ فائرٌ . وجملةُ الترجّي أو الإشفاقِ مُعلّقةٌ للدرايةِ . وتقدّم مثلُه آخرَ الأنبياء .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20)

قوله : ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ : قد تَقَدَّم أنّ كَوْنَ الشرطِ ماضياً والجزاءِ مضارعاً مجزوماً لا يختَصُّ مجيْئُه ب "كان" خلافاً لأبي الحكم مصنّفِ "كتاب الإعراب" فإنَّه قال : "لا يجوز ذلك إلاَّ مع "كان" إلاَّ في ضرورةِ شعرٍ" . وأطلق النَّحْويون جوازَ ذلك ، وأنشدوا بيتَ الفرزدق :

3971 دَسَّتْ رسولاً بأنَّ القومَ إنْ قَدِرُوا . . . عليك يَشْفُوا صدوراً ذاتَ تَوْغيرِ

وقولَه أيضاً :

3972 تَعَشَّ فإنْ عاهَدْتَني لا تَخُونني . . . نكنْ مِثْلَ مَنْ يا ذئبُ يصْطَحِبان

وقرأ ابن مقسم والزعفراني ومحبوب "يَزِدْ" و "يُؤْتِه" بالياء مِنْ تحتُ أي : الله تعالى . وقرأ سلام "نُؤْتِهُ" بضمِّ هاءِ الكناية وهو الأصلُ ، وهي لغةُ الحجاز . وتقدَّمَ خلافُ القُرَّاءِ في ذلك .

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21)

قوله : ﴿ شَرَعُوا لَهُمْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ الضميرُ المرفوع عائداً على الشركاء ، والمجرورُ على الكفار . ويجوز العكسُ ؛ لأَنَّهم جَعَلوا لهم أَنْصِباءَ .

قوله : " وإنَّ الظالمين " العامَّةُ بالكسر على الاستئناف . ومسلم ابن جندب والأعرج بفتحِها عطفاً على "كلمةُ" ، وفَصَلَ بين المتعاطفَيْن بجواب "لولا" تقديرُه : ولولا كلمةٌ واستقرارُ الظالمين في العذاب لقُضِيَ ، وهو نظيرُ : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه : 129] .

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22)

قوله : ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ : أي : والإشفاقُ أو والعذاب . و " روضاتُ الجنَّات " : قال الشيخ : " واللغةُ الكثيرةُ تسكينُ الواوِ ، ولغةُ هُذَيْلٍ فَتْحُ الواو ، إجراءً لها مُجْرى الصحيح نحو : جَفَنات ، ولم يقرأ أحد فيما عَلِمْناه بلغتِهم " . قلت : إن عَنى لم يَقْرأ أحدٌ بلغتهم في هذا البابِ من حيث هو هو فليس كذلك ؛ لأني قد قَدَّمْتُ لك في سورة النور أنَّ الأعمشَ قرأ ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ [النور : 58] بفتحِ الواو . وإنْ عنى أَنَّه لم يُقْرأ في " رَوْضات "

بخصوصِها – وليس بظاهرِ عبارته – فيُحْتمل ذلك .

قوله : " عندَ ربِّهم " يجوز أَنْ يكونَ ظرفاً ل "يَشاؤُون " قاله الحوفي ، أو للاستقرارِ العاملِ في " لهم " قاله الزمخشريُّ ، والعِنْدِيَّةُ مجازٌ .

(86/686)

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23)

قوله : ﴿ يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ ﴾ : كقوله : ﴿ كالذي خاضوا ﴾ [التوبة : 69] وقد تقدَّم تحقيقُه ، وتقدَّمَتِ القراءاتُ في "يُبَشِّر " . وقرأ مجاهد وحميد بن قيس "يُبْشِرُ " بضمِّ الياءِ وسكونِ الباءِ وكسرِ الشينِ مِنْ أَبْشَر منقولاً مِنْ بَشِر بالكسر ، لا مِنْ بَشَر بالفتح ، لأنه متعدٍّ . والتشديدُ في "بَشَّر " للتكثيرِ لا للتعديةِ ؛ لأنه متعدٍّ بدونها . ونقل الشيخ قراءةَ "يَبْشُرُ " بفتح الياء وضم الشين عن حمزةَ والكسائي من السبعة ، ولم يذكرْ غيرَهما من السبعةِ ، وقد وافقَهما على ذلك ابن كثير وأبو عمرو . و " ذلك " مبتدأٌ والموصولُ بعده خبرُه ، وعائدُه محذوفٌ على التدريجِ المذكورِ في قوله : ﴿ كالذي خاضوا ﴾ أي : يُبَشِّرُ به ، ثم يُبَشِّره على الاتِّساع . وأمَّا على رأي يونسَ فلا تحتاج إلى عائدٍ لأنها عنده مصدريَّةٌ ، وهو قول

الفراء أيضاً . أي : ذلك تبشيرُ اللَّهِ عبادَه . و " ذلك " إشارةٌ إلى ما أَعَدَّه الله لهم من الكرامة .

وقال الزمخشري : " أو ذلك التبشيرَ الذي يُبَشِّره اللَّهُ عبادَه " . قال الشيخ : " وليس بظاهرٍ ؛ إذ لم يتقدَّمْ في هذه السورةِ لفظُ البُشْرى ، ولا ما يَدُلُّ عليها مِنْ بَشَّر أو شبهِه " .

(87/686)

قوله " إلاَّ المودَّةَ " فيها قولان ، أحدهما : أنَّها استثناءٌ منقطعٌ ؛ إذ ليسَتْ من جنسِ الأَجْرِ . والثاني : أنه متصلٌ أي : لا أسألُكم عليه أجراً إلاَّ هذا . وهو أَنْ تَوَدُّوا أهلَ قرابتي ولم يكنْ هذا أجراً في الحقيقةِ ؛ لأنَّ قرابتَه قرابتُهم فكانت صلتُهم لازمةً لهم في المروءةِ ، قاله الزمخشري . وقال أيضاً : " فإنْ قلت : هلاَّ قيل : إلاَّ مودةَ القُرْبى ، أو إلاَّ المودةَ للقُرْبى . قلت : جُعِلوا مكاناً للمودَّةِ ومَقَرّاً لها كقولِك : لي في آلِ فلان مَوَدَّة ، وليست " في " صلةً للمودةِ كاللامِ إذا قلتَ : إلاَّ المودةَ للقربى ، إنما هي متعلقةٌ بمحذوفٍ تَعَلُّقَ الظَرفِ به في قولك : " المالُ في الكيس " ، وتقديرُه : إلاَّ المودةَ ثابتةً في القُرْبى ومتمكنةً فيها " . قلت : وأحسنُ ما سَمِعْتُ في معنى هذه الآيةِ حكايةُ الشعبيِّ قال : أَكْثَرَ الناسُ علينا في هذه الآيةِ فكَتَبْنا إلى ابن عباس نسألُه عنها . فكتب : أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان أوسطَ

الناسِ في قريش ، ليس بطنٌ مِنْ بطونهم إلاَّ قد وَلَدَه ، فقال الله تعالى : قل لا أسألُكم عليه أَجْراً إلاَّ أن تَوَدُّوني في قَرابتي منكم فارْعَوْا ما بيني وبينكم فصَدِّقوني .

وقال أبو البقاء : " وقيل : متصلٌ أي/ : لا أسألكم شيئاً إلاَّ المودةَ " . قلت : وفي تأويله متصلاً بما ذَكَر ، نظرٌ لمجيئه ب " شيء " الذي هو عامٌّ ، وما مِنْ استثناءٍ منقطع إلاَّ ويمكن تأويلُه بما ذَكَر ، ألا ترى إلى قولِك : " ما جاءني أحدٌ إلاَّ حمارٌ " أنه يَصِحُّ : ما جاءني شيءٌ إلاَّ حماراً .

وقرأ زيد بن علي " مَوَدَّة " دون ألفٍ ولام .

(88/686)

قوله : ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ العامَّةُ على " نَزِدْ " بالنون للعظمة . وزيد ابن علي وعبدُ الوارث عن أبي عمرو " يَزِدْ " بالياءِ مِنْ تحتُ أي : يَزِدِ اللَّهُ . والعامَّةُ على " حُسْناً " بالتنوين مصدراً على فُعْل نحو : شُكْر . وهو مفعولٌ به . وعبدُ الوارث عن أبي عمرو " حُسْنى " بألفِ التأنيث على وزنِ بُشْرَى ورُجْعَى وهو مفعولٌ به أيضاً . ويجوز أَنْ يكونَ صفةً كفُضْلَى ، فيكونَ وصفاً لمحذوف أي خَصْلَةً حسنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 637. 651 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أثبت أنه أنزل الكتاب بالحق ، ودل على ذلك إلى أن ختم بنفي الغرض في البلاغ فحصل القطع بمضمون الخبر ، كان كأنه قيل إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم : هل عملوا بما نبهناهم عليه مما يدعون أنهم عريقون فيه من صلة الرحم والإقبال على معالي الأخلاق باجتناب السيئات وارتكاب الحسنات ، والبعد عن الكذب والمكابرة والبهتان ، فاعتقدوا أنه حق وأنه وحي من عند الله بما قام على ذلك من البرهان : ﴿ أم يقولون ﴾ عناداً : ﴿ افترى ﴾ أي تعمد أن يقطع ، وقدم ذكر الملك الأعظم تنبيهاً على أنه لا أفظع من الكذب على ملك الملوك مع فهم المفعول به من لفظ الافتراء فقال : ﴿ على الله ﴾ الذي أحاط بصفات

الكمال ، فله العلم الشامل بمن يتقول عليه والقدرة التامة على عقابه ﴿كذباً﴾ حين زعم أن هذا القرآن من عنده وأنه أرسله لهذا الدين .

(90/686)

ولما كان التقدير قطعاً : إنهم ليقولون ذلك وكان قولهم له قولاً معلوم البطلان لأنه تحداهم بشيء من مثله في زعمهم أن له مثلاً ليعلم صحة قولهم فلم يأتوا بشيء وهم وإن كانوا قد يدعون أنه يمنعهم من ذلك أنهم لا يستجيزون الكذب مبطلون لا يمتري عاقل في بطلان ذلك منهم أيضاً لأنهم لم يكلب منهم أن ينسوا ما يأتون به إلى الله على أنه لو طلب منهم ذلك لما كان عذراً ، لأنه لا يتوقف أحد في أن الضرورات تبيح المحذورات ، وأنه يرتكب أخف الضررين لدفع أثقلهما ، فالإتيان بكلام يسر يسكن به فتن طوال وتنقطع به شرور كبار في غاية الحسن لأن الخطب فيه سهل ، والأمر يسير ، فكان ذلك وهم يرتكبون أكبر منه من قطع الأرحام وتفريق الكلمة لقتل النفوس وتخريب الديار وإتلاف الأموال دليلاً قاطعاً على أنهم إنما يتركونه عجزاً ، تسبب عن قولهم هذا وهو نسبتهم له إلى تعمد الكذب أن قال تعالى رداً عليهم ببيان كذبهم فيما قالوا ببيان ما له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نور القلب اللازم عن استقامة القول : ﴿فإن﴾ وأظهر الجلالة ولم يضمر تعظيماً للأمر بأن الختم لا

يقدر عليه إلا المتصف بجميع صفات الكمال على الإطلاق من غير تقيد بقيد أصلاً فقال : ﴿ يشأ الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بالكمال ﴿ يختم ﴾ وجرى على الأسلوب السابق في الخطاب لأعظم أولي الألباب فقال معبراً بأداة الاستعلاء : ﴿ على قلبك ﴾ فيمنعه من قبول روح هذا الوحي كما ختم على قلوب أعدائك من قبول ذلك ، فتستوي حينئذ معهم في عدم القدرة على الإتيان بشيء منه وتصير لو قلت وقد أعاذك الله عما يقولون مما يصح نسبته إلى الباطل لم تقله إلا ومعه الأدلة قائمة على بطلانه كما أنهم هم كذلك لا يزالون مفضوحين بما على أقوالهم من الأدلة قائمة على بطلانها ، وكان الأصل في الكلام : أم يقولون ذلك وأنهم لكاذبون فيه بسبب أن الله قد شرح صدرك وأنار قلبك فلا تقول قولاً إلا كانت الأدلة قائمة على صدقه ، ولكنه ساق الكلام هكذا

(91/686)

لأنه مع كونه أنصف دال على تعليق بالافتراء على ختم القلوب ، وذلك دال قطعاً على أنهم هم الكاذبون لما على قلوبهم من الختم الموجب لأنها تقول ما الأدلة قائمة على كذبه .

ولما كان التقدير كما دل عليه السياق : ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء جعله قابلاً لروح الوحي واعياً لفنون العلم فهو يقذف بأنواع المعارف ، ويهتف بتلقي أعاجيب اللطائف ، ويثبت

الله ذلك كله من غير مانع ولا صارف ، عطف عليه قوله : ﴿ ويمحُ الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ الباطل ﴾ وهو قولهم " افترى " وكل كذب فلا يدع له أثراً ، وهنالك يظهر خسران الجاحد وينقطع لسان الألد المعاند ، ولم يذكر أن آلة المحو الكلمات وغيرها استهانة به بالإشارة إلى أنه تارة يمحوه بنفسه بلا سبب وتارة بأضعف الأسباب وتارة بأعلى منه ، وحذفت واوه في الخط في جميع المصاحف مع أنه استئناف غير داخل في الجواب لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً إيماء إلى أنه سبحانه يمحق رفعه وعلوه وغلبته التي دلت عليها الواو مطابقة بين خطه ولفظه ، ومعناه تأكيداً للبشارة يمحوه محواً لا يدع له عيناً ولا أثراً لمن ثبت لصولته : وصبر كما أمر لحولته ، اعتماداً على صادق وعد الله إيماناً بالغيب وثقة بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، وفي الحذف أيضاً تشبيه له بفعل الأمر إيماء إلى أن إيقاع هذا المحو أمر لا بد من كونه على أتم الوجوه وأحكمها وأعلاها وأتقنها كما يكون المأمور به من الملك المطاع ، وأما الحق فإنه ثابت شديد مضاعف فلذا قال : ﴿ ويحق ﴾ أي يثبت على وجه لا يمكن زواله ﴿ الحق ﴾ أي كل من شأنه الثبات لأنه أذن فيه وأقره ، وعظم الحق وإحقاقه بذكر آلة الفعل فقال : ﴿ بكلماته ﴾ أي التي

﴿ لو كان البحر مداداً ﴾ [الكهف : 109] الآية التي يقولون إن ما أتاهم من العبارة عنها افتراء للكذب ، والحاصل أنه سبحانه أثبت صفاء لبه ونورانية قلبه وسداد قوله وصاب أمره ، وظلام قلوبهم وبطلان أقوالهم إثباتاً مقروناً بدليله أما لأهل البصائر فبعجزهم عن معارضته ، وأما للأغبياء فإبثات قوله ومحو قولهم .

ولما كانوا يعلمون أنه على حق وهم على باطل ، وكان من أحاط علمه بشيء قدر على ما يريده من ذلك الشيء ، بين ذلك بقوله معللاً على وجه التأكيد لأن عملهم عمل من يظن أن الله لا يعلم مكرهم : ﴿ إنه عليم ﴾ أي بالغ ﴿ بذات الصدور ﴾ أي ما هو فيها مما يعلمه صاحبه ومما لا يعلمه فيبطل باطله ويثبت حقه وإن كره الخلائق ذلك ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ [ص : 88] ولقد صدق الله فأثبت ببركة هذا القرآن كل ما كان يقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبطل بسيف هذا البرهان كل ما كانوا يخالفونه فيه ، ومن أصدق من الله قيلاً .

ولما أخبر بضلالهم وجزم بإبطال أعمالهم ، رغبهم رحمة منه لهم في التوبة التي هي من الحق الذي يحقه ولو على أقل وجوهها بأن يقولوها بألسنتهم ليبلغه ذلك عنهم ، فإن قول اللسان يوشك أن يدخل إلى لا غيره أزلاً وأبداً ﴿ الذي يقبل التوبة ﴾ كلما شاء بالغة له أو متجاوزاً ﴿ عن عباده ﴾ الذين خالصون لطاعته ، سئل أبو الحسن البوشنجي عن التوبة فقال : إذا ذكرت الذنب فلا تجد له حلاوة في قلبك .

ولما كان القبول قد يكون في المستقبل مع الأخذ بما مضى قال : ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أي التي كانت التوبة عنها صغيرة أو كبيرة وعن غيرها فلا يؤاخذ بها أن شاء لأن التوبة تجب ما قبلها كما أن الإسلام الذي هو توبة خاصة يجب ما كان قبله .

(93/686)

ولما كانت تعدية القبول ب " عن " مفهمة لبلوغه ذلك بواسطة ، فكان ربما اشعر بنقص في العلم ، أخبر بما يوجب التنزيه عن ذلك ترغيباً وترهيباً بقوله : ﴿ ويعلم ﴾ أي والحال أنه يعلم كل وقت ﴿ ما تفعلون ﴾ أي كل ما يتجدد لهم عمله سواء كان عن علم أو داعية شهوة وطبع سيئة كان أو حسنة وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب بالخطاب لافتاً للقول عن غيب العباد لأنه أبلغ في التخويف وقرأ الباقون بالعيب نسقاً على العباد وهو ، أعم وأوضح في المراد فعفوه مع العلم عن سعة الحلم .

ولما رغب بالعفو زاد الإكرام فقال : ﴿ ويستجيب ﴾ أي يوجد بغاية العناية والطلب إجابة ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي دعاء الذي أقروا بالإيمان في كل ما دعوه به أو شفعوا عنده فيه لأنه لولا إرادته لهم الإكرام بالإيمان ما آمنوا ، وعدى الفعل بنفسه تنبيهاً على زيادة بره لهم ووصلتهم به ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لدعواهم الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ فيثيبهم النعيم المقيم

﴿ ويزيدهم ﴾ أي مع ما دعوا له ما لم يدعوا به ولم يخطر على قلوبهم ولما كان هذا وإن كان الأول فضلاً منه أبين في الفضل قال تعالى : ﴿ من فضله ﴾ على أنه يجوز تعليقه بالفعلين . ولما رغب الذين طالت مقاطعتهم في المواصلة بذكر إكرامهم إذا أقبلوا عليه ، رهب الذين استمروا على المقاطعة فقال : ﴿ والكافرون ﴾ أي العريقون في هذا الوصف ، الذين منعتهم عراقتهم من التوبة والإيمان ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ ولا يجيب دعاءهم ، فغيرهم من العصاة لهم عذاب غير لازم التقيد بشديد ، والآية من الاحتباك : ذكر الاستجابة أولاً دليلاً على ضدها ثانياً والعذاب ثانياً دليلاً على ضده أولاً ، وسره أنه ذكر الحامل على الطاعة والصاد عن المعصية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 625 .

﴿ 628

(94/686)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ما تفعلون ﴾ على الخطاب : حمزة وعلي وحفص ﴿ ينزل الغيث ﴾ بالتشديد : أبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم ﴿ ينزل ﴾ بالتخفيف : ابن كثير وأبو

عمرو ويعقوب ﴿ بما كسبت ﴾ بدون فاء الجزاء : أبو جعفر ونافع وابن عامر . الباقون ﴿ فبما كسبت ﴾ بالفاء ﴿ الجواري ﴾ بالياء في الحالين : ابن كثير وسهل ويعقوب وافق أبو جعفر ونافع وأبو عمرو في الوصل . وقرأ قتيبة ونصير وأبو عمرو بالإمالة ﴿ الرياح ﴾ نافع . على الجمع : أبو جعفر ونافع . ﴿ ويعلم الذين ﴾ بالرفع : ابن عامر وأبو جعفر ونافع . الباقون : بالنصب ﴿ كبير الإثم ﴾ على التوحيد : حمزة وعلي وخلف . ﴿ أو يرسل ﴾ بالرفع ﴿ فيوحى ﴾ بالإسكان : نافع وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان . الآخرون : بالنصب فيهما .

(95/686)

الوقوف : ﴿ كذباً ﴾ ج للشرط مع فاء التعقيب ﴿ قلبك ﴾ ط لأن ما بعده مستأنف ﴿ بكلماته ﴾ ط ﴿ الصدور ﴾ ه ﴿ تفعلون ﴾ ه لا ﴿ فضله ﴾ ط ﴿ شديد ﴾ ه ﴿ يشاء ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ ه ﴿ رحمته ﴾ ط ﴿ الحميد ﴾ ه ﴿ دابة ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ ه ﴿ كثير ﴾ ه ﴿ في الأرض ﴾ ط ﴿ ولا نصير ﴾ ه ﴿ كالأعلام ﴾ ه ط ﴿ على ظهره ﴾ ط ﴿ شكور ﴾ ه لا ﴿ كثير ﴾ ه لا لمن رفع ﴿ ويعلم ﴾ ومن نصب فوقفه مجوز ﴿ آياتنا ﴾ ط ﴿ محيص ﴾ ه ﴿ الدنيا ﴾ ج لعطف جملتي الشرط ،

ويحتمل أن يكون الوقف مطلقاً بناء على أن الثانية أخبار مستأنف ﴿ يتوكلون ﴾ ه ط ﴿ يغفرون ﴾ ه ج ﴿ الصلاة ﴾ ص لانقطاع النظم واتصال المعنى واتحاد المقول ﴿ بينهم ﴾ ص لذلك ﴿ ينفقون ﴾ ه ج ﴿ ينتصرون ﴾ ه ﴿ مثلها ﴾ ج ﴿ على الله ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ سبيل ﴾ ه ط ﴿ الحق ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ الأمور ﴾ ه ﴿ بعده ﴾ ط ﴿ من سبيل ﴾ ه ج للآية مع العطف ﴿ خفي ﴾ ط ﴿ القيامة ﴾ ط ﴿ مقيم ﴾ ه ﴿ من دون الله ﴾ ط ﴿ سبيل ﴾ ط ﴿ من الله ﴾ ط ﴿ نكير ﴾ ه ﴿ حفيظاً ﴾ ط ﴿ البلاغ ﴾ ط ﴿ بها ﴾ ج ﴿ كفور ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ ما يشاء ﴾ ط ﴿ الذكور ﴾ ه لا ﴿ وإناثاً ﴾ ج لاحتمال ما بعده العطف والاستئناف أي وهو يجعل ﴿ عقيماً ﴾ ه ﴿ قدير ﴾ ه ﴿ ما يشاء ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه ﴿ أمرنا ﴾ ط ﴿ عبادنا ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ ه ﴿ وما في الأرض ﴾ ط ﴿ الأمور ﴾ ه.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 76 ﴾

(96/686)

فصل

قال الفخر:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾

واعلم أن الكلام في أول السورة إنما ابتدىء في تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوحي الله وهو قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم ﴾ [الشورى : 3] واتصل الكلام في تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل إلى ههنا ، ثم حكى ههنا شبهة القوم وهي قولهم : إن هذا ليس وحياً من الله تعالى فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ قال صاحب "الكشاف" : أم منقطعة ، ومعنى الهمزة نفس التوبيخ كأنه قيل : أيقع في قلوبهم ويجري في ألسنتهم أن ينسبوا مثله إلى الافتراء على الله الذي هو أقبح أنواع الفرية وأفحشها ، ثم أجاب عنه بأن قال : ﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ وفيه وجوه الأول : قال مجاهد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم إنه مفتر كذاب والثاني : يعني بهذا الكلام أنه إن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفتري عليه الكذب فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل هذه الحالة ، والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة في تقرير الاستبعاد ، ومثاله أن ينسب رجل بعض الأمناء إلى الخيانة فيقول الأمين ، لعلّ الله خذلني لعلّ الله أعمى قلبي ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه ، وإنما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه . ثم قال تعالى : ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الباطل وَيُحِقُّ الحق ﴾ أي ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق فلو كان محمد مبطلاً كذاباً لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أيده بالقوة والنصرة ،

ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس من الكاذبين المفترين على الله ، ويجوز أن يكون هذا وعداً من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والفرية والتكذيب ويثبت الحق الذي كان محمد صلى الله عليه وسلم عليه .

(97/686)

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم فيجري الأمر على حسب ذلك ، وعن قتادة يختم على قلبك ينسيك القرآن ويقطع عنك الوحي ، بمعنى لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك .

واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ ثم برأ رسوله مما أضافوه إليه من هذا وكان من المعلوم أنهم قد استحقوا بهذه الفرية عقاباً عظيماً ، لا جرم ندبهم الله إلى التوبة وعرفهم أنه يقبلها من كل مسيء وإن عظمت إساءته ، فقال : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ وفي هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : يقال قبلت منه الشيء وقبلته عنه ، فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبلو ومنشأه ، ومعنى قبلته عنه أخذته وأثبته عنه وقد سبق البحث

المستقصى عن حقيقة التوبة في سورة البقرة ، وأقل ما لا بد منه الندم على الماضي والترك في الحال والعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل ، وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللّهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر ، فلما فرغ من صلاته قال له علي عليه السلام يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك تحتاج إلى توبة ، فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ فقال اسم يقع على ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته .

المسألة الثانية :

(98/686)

قالت المعتزلة يجب على الله تعالى عقلاً قبول التوبة ، وقال أصحابنا لا يجب على الله شيء وكل ما يفعله فإنما يفعله بالكرم والفضل ، واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا إنه تعالى تمدح بقبول التوبة ، ولو كان ذلك القبول واجباً لما حصل التمدح العظيم ، ألا ترى أن من مدح نفسه بأن لا يضرب الناس ظلماً ولا يقتلهم غضباً ، كان ذلك مدحاً قليلاً ،

أما إذا قال إني أحسن إليهم مع أن ذلك لا يجب عليّ كان ذلك مدحاً وثناءً .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ إما أن يكون المراد منه أن يعفو عن الكبائر بعد الإتيان بالتوبة ، أو المراد منه أنه يعفو عن الصغائر ، أو المراد منه أنه يعفو عن الكبائر قبل التوبة ، والأول باطل وإلا لصار قوله ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ عين قوله ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة ﴾ والتكرار خلاف الأصل ، والثاني أيضاً باطل لأن ذلك واجب وأداء الواجب لا يتمدح به فبقي القسم الثالث فيكون المعنى أنه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة وتارة يعفو ابتداء من غير توبة .

ثم قال : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة والباقون بالياء على المغايبة ، والمعنى أنه تعالى يعلمه فيثيبه على حسناته ويعاقبه على سيئاته .

ثم قال : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ ﴾ وفيه قولان أحدهما : الذين آمنوا وعملوا الصالحات رفع على أنه فاعل تقديره ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم إليه .

والثاني : محله نصب والفاعل مضمر وهو الله وتقديره ، ويستجيب الله للمؤمنين إلا أنه حذف اللام كما حذف في قوله ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ [المطففين : 3] وهذا الثاني أولى لأن الخبر فيما قبل وبعد عن الله لأن ما قبل الآية قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ وما بعدها قوله ﴿ وَيَزِيدُهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ فيزيد عطف على ويستجيب ، وعلى الأول ويجيب العبد ويزيد الله من فضله .

أما من قال إن الفعل للذين آمنوا ففيه وجهان : أحدهما : ويجيب المؤمنون ربهم فيما دعاهم إليه والثاني : يطيعونه فيما أمرهم به ، والاستجابة الطاعة .

وأما من قال إن الفعل لله فقد اختلفوا ، فقيل يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ما طلبوه من فضله ، فإن قالوا تخصيص المؤمنين بإجابة الدعاء هل يدل على أنه تعالى لا يجيب دعاء الكفار ؟ قلنا قال بعضهم لا يجوز لأن إجابة الدعاء تعظيم ، وذلك لا يليق بالكفار ، وقيل يجوز على بعض الوجوه ، وفائدة التخصيص أن إجابة دعاء المؤمنين تكون على سلبيل التشريف ، وإجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج ، ثم قال : ﴿ وَيَزِيدُهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ أي يزيدهم على ما طلبوه بالدعاء ﴿ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ والمقصود التهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 144.146 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾

﴿ أم ﴾ هذه هي منقطعة لا معادلة ، وهي بتقدير بل وألف الاستفهام . والشركاء في هذه الآية : يحتمل أن يكون المراد بهم الشياطين والمغوين من أسلافهم ، ويكون الضمير في ﴿ لهم ﴾ للكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي شرع الشركاء لهم ما لم يأذن به الله ، فالاشتراك ها هنا هو في الكفر والغواية ، وليس بشركة الإشراك بالله ، ويحتمل أن يكون المراد ب " الشركاء " : الأصنام والأوثان على معنى : أم لهم أصنام جعلوها شركاء لله في ألوهيته ، ويكون الضمير : في : ﴿ شرعوا ﴾ لهؤلاء المعاصرين من الكفار ولآبائهم . والضمير في : ﴿ لهم ﴾ للأصنام الشركاء ، أي شرع هؤلاء الكفار لأصنامهم وأوثانهم ما لم يأذن به الله ، و: ﴿ شرعوا ﴾ معناه : أثبتوا ونهجوا ورسموا . و ﴿ الدين ﴾ هنا العوائد والأحكام والسيرة ، ويدخل في ذلك أيضاً المعتقدات ، لأنهم في جميع ذلك وضعوا أوضاعاً ، فأما في المعتقدات فقولهم إن الأصنام آلهة ، وقولهم إنهم يعبدون الأصنام زلفى وغير ذلك ، وأما في الأحكام فكالبحيرة والوصيلة والحامي وغير

ذلك من السوائب ونحوها ، والإذن في هذه الآية الأمر . و﴿ كلمة الفصل ﴾ : هي ما سبق من قضاء الله تعالى بأنه يؤخر عقابهم إلى الآخرة والقضاء بينهم : هو عذابهم في الدنيا ومجازاتهم .

وقرأ جمهور الناس : " وإن الظالمين " بكسر الهمزة على القطع والاستئناف . وقرأ مسلم بن جندب " وأن الظالمين " بفتح الهمزة ، وهي في موضع رفع عطف على : ﴿ كلمة ﴾ المعنى : وأن الظالمين لهم في الآخرة عذاب .

وقوله : ﴿ ترى الظالمين ﴾ هي رؤية بصر ، و﴿ الظالمين ﴾ مفعول ، و: ﴿ مشفقين ﴾ حال وليس لهم في هذا الإشفاق مدح ، لأنهم إنما أشفقوا حين نزل بهم ووقع ، وليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مشفقون من الساعة كما تقدم .

(101/686)

وقوله تعالى : ﴿ وهو واقع بهم ﴾ جملة في موضع الحال . والروضات : المواضع المؤنقة النظرة ، وهي مرتفعة في الأغلب من الاستعمال ، وهي الممدوحة عند العرب وغيرهم ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ [البقرة : 265] ومن ذلك تفضيلهم روضات الحزن لجودة هوائها . قال الطبري : ولا تقول العرب لموضع الأشجار رياض .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده ﴾ إشارة إلى قوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ [الأحزاب : 47] .

وقرأ جمهور الناس : "يُبشِّرهم " بضم الياء وفتح الباء وشد الشين المكسورة ، وذلك على التعدية بالتضعيف . وقرأ مجاهد وحميد : "يُبْشِر " بضم الياء وسكون الباء وكسر الشين على التعدية بالهمزة . قرأ ابن مسعود وابن يعمر وابن أبي إسحاق والجحدري والأعمش وطلحة : "يَبشُر " بفتح الياء وضم الشين ، ورويت عن ابن كثير . وقال الجحدري في تفسيرها ترى النضرة في الوجوه .

وقوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه إلا المودة في القربى ﴾ اختلف الناس في معناه ، فقال له ابن عباس وغيره : هي آية مكية نزلت في صدر الإسلام ومعناها استكفاف شر الكفار ودفع أذاهم أي ما أسألكم على القرآن والدين والدعاء إلى الله إلا أن تودوني لقرابة هي بيني وبينكم فتكفوا عني أذاكم .

(102/686)

قال ابن عباس وابن إسحاق وقتادة : ولم يكن في قريش بطن إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه نسب أو صهر ، فالآية على هذا هي استعطاف ما ، ودفع أذى وطلب سلامة

منهم ، وذلك كله منسوخ بآية السيف ، ويحتمل على هذا التأويل أن يكون معنى الكلام استدعاء نصرهم ، أي لا أسألكم غرامة ولا شيئاً إلا أن تودوني لقرابتي منكم وأن تكونوا أولى بي من غيركم . وقال مجاهد : المعنى إلا أن تصلوا رحمي باتباعي . وقال ابن عباس أيضاً ما يقتضي أنها مدنية ، وسببها أن قوماً من شباب الأنصار فاخروا المهاجرين ومالوا بالقول على قريش ، فنزلت الآية في ذلك على معنى إلا أن تودوني فتراعونني في قرابتي وتحفظونني فيهم ، وقال بهذا المعنى في الآية علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، واستشهد بالآية حين سيق إلى الشام أسيراً ، وهو تأويل ابن جبير وعمرو بن شعيب ، وعلى هذا التأويل قال ابن عباس ، قيل يا رسول الله ، من قرابتك الذين أُمرنا بمودتهم ؟ فقال : علي وفاطمة وابناهما ، وقيل هو ولد عبد المطلب .

(103/686)

قال القاضي أبو محمد : وقريش كلها عندي قربى وإن كانت تتفاضل ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ومن مات على بغضهم لم يشم رائحة الجنة " وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي : سبب هذه الآية أن الأنصار جمعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مالاً وساقته إليه فرده عليهم ونزلت الآية في ذلك .

وقال ابن عباس أيضاً ، معنى الآية : من قربى الطاعة والتزلف إلى الله تعالى : كأنه قال : إلا أن تودوني ، لأني أقربكم من الله ، وأريد هدايتكم وأدعوكم إليها . وقال الحسن بن أبي الحسن معناه : إلا أن يتوددوا إلى الله بالتقرب إليه . وقال عبد الله بن القاسم في كتاب الطبري معنى الآية : إلا أن تتوددوا بعضكم إلى بعض وتصلوا قراباتكم ، فالآية على هذا أمر بصلة الرحم . وذكر النقاش عن ابن عباس ومقاتل والكلبي والسدي أن الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة سبأ ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ [سبأ : 47] والصواب أنها محكمة ، وعلى كل قول فالاستثناء منقطع ، و: ﴿ إلا ﴾ بمعنى : لكن . و: ﴿ يقترف ﴾ معناه يكتسب ، ورجل قرفة : إذا كان محتالاً كسوباً .

وقرأت فرقة " يزد " على إسناد الفعل إلى الله تعالى ، وقرأ جمهور الناس : " نزد " على نون العظمة ، وزيادة الحسن هو التضعيف الذي وعد الله تعالى به مؤمني عباده ، قاله الحسن بن أبي الحسن . و: ﴿ غفور ﴾ معناه : ساتر عيوب عبيده . و: ﴿ شكور ﴾ معناه : مجاز على الدقيقة من الخير لا يضيع عنده لعامل عمل .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ

﴿ أم ﴾ هذه أيضاً منقطعة مضمنة إضراباً عن كلام متقدم وتقريراً على هذه المقالة منهم .

وقوله تعالى : ﴿ فإن يشأ الله يختم ﴾ معناه في قول قتادة وفرقة من المفسرين : ينسيك القرآن ، والمراد الرد على مقالة الكفار وبيان إبطالها ، وذلك كأنه يقول : وكيف يصح أن تكون مفترياً وأنت من الله بمرأى ومسمع ، وهو قادر لو شاء على أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك ، فمقصد اللفظ هذا المعنى وحذف ما يدل عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً . وقال مجاهد في كتاب الثعلبي وغيره ، المعنى : ﴿ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ بالصبر لأذى الكفار ويربط عليه بالجلد ، فهذا تأويل لا يتضمن الرد على مقالتهم .

وقوله تعالى : ﴿ ويمح ﴾ فعل مستقبل خبر من الله أنه يمحو الباطل ولا بد إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وهذا بحسب نازلة . وكتبت ﴿ يمح ﴾ في المصحف بجاء مرسلة كما كتبوا : ﴿ ويدع الإنسان ﴾ [الإسراء : 11] إلى غير ذلك مما ذهبوا فيه إلى الحذف والاختصار .

وقوله : ﴿ بكلماته ﴾ معناه : بما سبق في قديم علمه وإرادته من كون الأشياء بالكلمات المعاني القائمة التي لا تبديل لها .

وقوله تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ خبر مضمنه وعيد . ثم ذكر النعمة في تفضله بقبول التوبة عن عباده ، وقبول التوبة فيما يستأنف العبد من زمنه وأعماله مقطوع به بهذه

الآية ، وأما ما سلف من أعماله فينقسم : فأما التوبة من الكفر فماحية كل ما تقدمها من مظالم العباد الفانية ، وأما التوبة من المعاصي فلأهل السنة قولان ، هل تذهب المعاصي السالفة للعبد بينه وبين خالقه ؟ فقالت فرقة : هي مذهبة لها ، وقالت فرقة : هي في مشيئة الله تعالى ، وأجمعوا على أنها لا تذهب مظالم العباد .

(105/686)

وحقيقة التوبة : الإقلاع عن المعاصي والإقبال والرجوع إلى الطاعات ، ويلزمها الندم على ما فات ، والعزم على ملازمة الخيرات . وقال سري السقطي : والتوبة : العزم على ترك الذنوب ، والإقبال بالقلب إلى علام الغيوب . وقال يحيى بن معاذ : التائب من كسر شبابه على رأسه وكسر الدنيا على رأس الشيطان ولزم الفطام حتى أتاه الحمام .

وقوله تعالى : ﴿ عن عباده ﴾ بمعنى : من عباده ، وكأنه قال : التوبة الصادرة عن عباده .

وقرأ جمهور القراء والأعرج وأبو جعفر والجحدري وقتادة : " يفعلون " بالياء على الكناية عن غائب . وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وابن مسعود وعلقمة : " تفعلون " بالتاء على المخاطبة ، وفي الآية توعد .

وقوله تعالى : ﴿ ويستجيب ﴾ قال الزجاج وغيره معناه : يجيب ، والعرب تقول : أجاب

واستجاب بمعنى ومنه قول الشاعر [كعب بن سعد الغنوي] : [الطويل]

وداع دعا يا من يجيب الندا . . . فلم يستجبه عند ذاك مجيب

و: ﴿ الذين ﴾ على هذا القول مفعول ب ﴿ يستجيب ﴾ ، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جبل ونحوه عن ابن عباس ، وقالت فرقة المعنى : ويستدعي الذين آمنوا الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحة .

ودل قوله : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ على أن المعنى فيجيبهم ، وحملت هذه الفرقة استجاب على المعهود من باب استفعل ، أي طلب الشيء . و: ﴿ الذين ﴾ على هذا القول فاعل ب ﴿ يستجيب ﴾ . وقالت فرقة : المعنى ويجيب المؤمنون ربهم ، ف ﴿ الذين ﴾ : فاعل بمعنى يجيبون دعوة شرعه ورسالته . والزيادة من فضله : هي تضعيف الحسنات ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هي قبول الشفعات في المذنبين والرضوان " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(106/686)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾

الميم صلة ، والتقدير أيقولون افترى .

واتصل الكلام بما قبلُ ؛ لأن الله تعالى لما قال : ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ ﴾ [الشورى : 15] ، وقال : ﴿ اللهُ الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق ﴾ [الشورى : 17] قال إتماماً للبيان : "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً" يعني كفار قريش قالوا : إنّ محمداً اختلق الكذب على الله .

﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ ﴾ شرط وجوابه .

﴿ على قَلْبِكَ ﴾ قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن ؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية .

وقال مجاهد ومقاتل : "إِنْ يَشَإِ اللَّهُ" يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم .

وقيل : المعنى إن يشأ يزل تمييزك .

وقيل : المعنى لو حدّثت نفسك أن تفتري على الله كذباً لطبع على قلبك ؛ قاله ابن عيسى .

وقيل : فإن يشإِ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم وعاجلهم بالعقاب .

فالخطاب له والمراد الكفار ؛ ذكره القشيري .

ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الباطل ﴾ (قال ابن الأنباري : "يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ" تام .

وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ؛ مجازه : والله يمحو الباطل) ؛ فحذف منه الواو في المصحف ، وهو في موضع رفع .

كما حُذفت من قوله : ﴿ سَنَدْعُو الزبانية ﴾ [العلق : 18] ، ﴿ وَيَدْعُ الإنسان ﴾ [الإسراء : 11] ولأنه عطف على قوله : "يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ" .

وقال الزجاج : قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ [الشورى : 24] تمام ؛ وقوله : ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ احتجاج على من أنكر ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي لو كان ما أتى به باطلاً لمحاه كما جرت به عادته في المفترين .

﴿ وَيُحِقُّ الحق ﴾ أي الإسلام فيثبته ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي بما أنزله من القرآن .

(107/686)

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ عام ، أي بما في قلوب العباد .

وقيل خاص .

والمعنى أنك لو حدّثت نفسك أن تفتري على الله كذباً لعلِمه وطبع على قلبك .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ قال قوم في نفوسهم : ما يريد إلا أن يحثّنا

على أقاربه من بعده ؛ فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم قد اتهموه فأنزل : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ الآية ؛ فقال القوم : يا رسول الله ، فإنا نشهد أنك صادق وتتوب .

فنزلت : ﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ .

قال ابن عباس : أي عن أوليائه وأهل طاعته .

والآية عامة .

وقد مضى الكلام في معنى التّوبة وأحكامها ؛ ومضى هذا اللفظ في "براءة" .

﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ أي عن الشرك قبل الإسلام .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي من الخير والشر .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالتاء على الخطاب ، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه .

الباقون بالياء على الخبر ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنه بين خبرين : الأوّل "وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ" والثاني "وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" .

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26)

"الَّذِينَ" في موضع نصب ؛ أي ويستجيب الله الذين آمنوا ، أي يقبل عبادة من أخلص له

بقلبه وأطاع ببدنه .

وقيل : يعطيهم مسألتهم إذا دَعَوْه .

وقيل : ويجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض ؛ يقال : أجاب واستجاب بمعنًى ، وقد مضى في "البقرة" .

وقال ابن عباس : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يشفّعهم في إخوانهم .

(108/686)

﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ قال : يشفّعهم في إخوان إخوانهم .

وقال المُبَرّد : معنى "وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا" وليستدع الذين آمنوا الإجابة ؛ هكذا حقيقة معنى استفعل .

ف "الَّذِينَ" في موضع رفع .

﴿ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(109/686)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الأخرة ﴾

الحرثُ في الأصل إلقاءُ البَذْرِ في الأرض يُطلقُ على الزرع الحاصلِ منه المتضمن لتشبيهِ الأعمالِ بالبذورِ ويستعملُ في ثمرات الأعمالِ ونتائجِها بطرق الاستعارةِ المبنيةِ على تشبيهِها بالغلال الحاصلةِ من البذورِ أي من كانَ يريدُ بأعماله ثوابَ الآخرةِ ﴿ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ نضاعفْ له ثوابَهُ بالواحد عشرةً إلى سبعمائةٍ فما فوقَها ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ بأعماله ﴿ حَرْثَ الدنيا ﴾ وهو متاعُها وطيباتُها ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي شيئاً منها حسبما قسمنَا لهُ لا ما يريدُه ويبتغيه ﴿ وَمَا لَهُ فِى الأخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ إذْ كانتْ همتُه مقصورةً على الدُّنيا وقد مرَّ تفصيلُه في سورة الإسراء .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ أي بلْ ألهُم شركاءُ من الشياطينِ ، والهمزةُ للتقرير والتقريعِ ﴿ شَرَعُواْ لَهُمْ ﴾ بالتسويل ﴿ مّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ كالشرك وإنكارِ البعثِ والعملِ للدُّنيا ، وقيلَ : شركاؤُهم أوثانُهم وإضافتُها إليهم لأنَّهم الذينَ جعلُوها شركاءَ لله تعالَى وإسنادُ الشرعِ إليها لأنَّها سببُ ضلالِتهم وافتتانِهم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا ﴾ أو تماثيلُ مَنْ سنَّ الضلالَة لهُم ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ أي القضاءِ السابقِ بتأخيرِ الجزاءِ أو العدةُ بأنَّ الفصلَ يكونُ يومَ القيامةِ ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الكافرينَ والمؤمنينَ أو بينَ المشركينَ

وشركائِهم ﴿ وَإِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقُرِىءَ بالفتحِ عطفاً على كلمة الفصلِ أي ولولا كلمةُ الفصلِ وتقديرُ عذابِ الظالمينَ في الآخرةِ لقُضيَ بينهم في الدُّنيا فإنَّ العذابَ الأليمَ غالبٌ في عذابِ الآخرةِ.

(110/686)

﴿ تَرَى الظالمين ﴾ يومَ القيامةِ والخطابُ لكلِّ أحدٍ ممن يصلحُ له للقصدِ إلى أنَّ سوءَ حالِهم غيرُ مختصٍ برؤيةِ راءٍ دونَ راءٍ ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفينَ ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ من السيئاتِ ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أيْ ووبالُه لاحقٌ بهم لا محالةَ أشفقُوا أو لم يُشفقُوا ، والجملةُ حالٌ من ضمير مشفقينَ أو اعتراضٌ ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِى روضات الجنات ﴾ مستقرونَ في أطيب بقاعِها وأنزهِها ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يشتهونَهُ من فنون المستلذاتِ حاصلٌ لهم عندَ ربِّهم على أنَّ عندَ ربِّهم ظرفٌ للاستقرارِ العاملِ في لهم ، وقيلَ ظرفٌ ليشاءون ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من حال المؤمنين ، وما فيهِ منْ مَعْنى البُعد للإيذان ببُعد منزلةِ المشارِ إليه ﴿ هُوَ الفضل الكبير ﴾ الذي لا يُقادَرُ قَدرُه ولا يُبلغُ غايتُه.

﴿ ذلك ﴾ الفضلُ الكبيرُ هو ﴿ الذى يُبَشّرُ الله عِبَادَهُ ﴾ أي يبشرُهم به ، فحذفَ

الجارُّ ثمَّ العائدَ إلى الموصول كما في قوله تعالى : ﴿ أهذا الذى بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ أو ذلكَ التبشيرُ الذي يبشرُه الله تعالَى عبادَهُ ﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ . وقُرِىءَ يُبْشِرُ منْ أبشرَ .

(111/686)

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ رُويَ أنَّه اجتمعَ المشركونَ في مجمعٍ لهم فقالَ بعضُهم لبعضٍ : أترونَ أنَّ محمداً يسألُ على ما يتعاطاهُ أجراً فنزلتْ . أيْ لا أطلبُ منكُم على ما أنا عليهِ من التبليغ والبشارة ﴿ أَجْراً ﴾ نفعاً ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ أيْ إلا أن تودُّون لقرابتي منكم أو تودُّوا أهل قرابتي ، وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لا أسألُكم أجراً قَطُّ ولكنْ أسألُكم المودَّةَ . وفي القُربي حالٌ منَها أيْ إلا المودَّةَ ثابتةً في القُربى متمكنةً في أهلِها أو في حقِّ القرابةِ . والقُرْبى مصدرٌ كالزُّلْفى بمَعْنى القَرَابةِ . رُويَ أنَّها لما نزلتْ قيلَ : يا رسولَ الله مَنْ قرابتُكَ هؤلاءِ الذينَ وجبتْ علينا مودَّتُهم ؟ قالَ عليٌّ وفاطمةُ وابناهُمَا . وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " حُرِّمتْ الجنةُ على مَنْ ظلمَ أهلَ بيتي وآذانِي في عِتْرتي ، ومن اصطنعَ صنيعةً إلى أحدٍ من ولدِ عبدِ المطلب ولمْ يجازهْ فأنَا أجازيهِ عليها غداً إذا لَقِيَني يومَ القيامةِ " . وقيلَ : القُرْبَى التقربُ إلى الله أيْ إلاَّ أن تودُّوا الله ورسولَهُ في تقربكم إليهِ بالطاعةِ والعملِ

الصالحِ. وقُرِىءَ إلا مودةً في القُربَى. ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أي يكتسبْ أيَّ حسنةٍ كانتْ فتتناولُ مودّةَ ذِي القُرْبى تناولاً أولياً. وعن السُدّيّ: أنَّها المرادةُ، وقيلَ: نزلتْ في الصدّيقِ رضيَ اللهُ عنه ومودّتُه فيهم. ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا ﴾ أيْ في الحسنة ﴿ حَسَنًا ﴾ بمضاعفةِ الثوابِ. وقُرِىءَ يَزِدْ أيْ يزدِ اللهُ وقُرِىءَ حُسْنَى. ﴿ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ لمن أذنبَ. ﴿ شَكُورٍ ﴾ لمن أطاعَ بتوفيقِه للثوابِ والتفضلِ عليهِ بالزيادةِ.

(112/686)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ بلْ أيقولونَ ﴿ افترى ﴾ محمدٌ ﴿ عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ بدعوى النبوةِ وتلاوةِ القُرآنِ، على أنَّ الهمزةَ للإنكارِ التوبيخيِّ كأنَّه قيلَ: أيتمالكونَ أنْ ينسُبُوا مثلَه عليهِ السَّلامُ. وهُوَ هُوَ. إلى الافتراءِ لا سيَّما الافتراءُ على اللهِ الذي هُو أعظمُ الفِرَى وأفحشُها. وقولُه تعالَى ﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ استشهادٌ على بُطلانِ ما قالُوا ببيانِ أنَّه عليه السَّلامُ لو افترَى على اللهِ تعالَى لمنعَهُ من ذلك قطعاً، وتحقيقُه أنَّ دعوى كونِ القرآنِ افتراءً عليه تعالَى قولٌ منهم بأنَّه تعالَى لا يشاءُ صدورَهُ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم بلْ يشاءُ عدمَ صدورِه عنْهُ ومن ضرورتِه منعُه عنْهُ قطعاً، فكأنَّه قيلَ: لو كانَ افتراءً عليه تعالَى لشاءَ عدمَ صدورِه عنكَ وإنْ يشأْ ذلكَ يختُم على قلبكَ بحيثُ لم يخطُرْ ببالك معنىً

منْ معانيه ولم تنطقْ بحرفٍ من حروفِه وحيثُ لم يكُنِ الأمرُ كذلكَ بلْ تواترَ الوحي حيناً فحيناً تبين أنَّه من عندِ الله تعالَى .

هَذا وقيلَ : المَعْنى إنْ يشأْ يجعلْكَ من المختوم على قلوبهم فإنَّه لا يجترىءُ على الافتراءِ عليه تعالى إلا مَنْ كانَ كذلكَ ومؤدَّاهُ استبعاد الافتراءِ منْ مثله عليه السَّلامُ وأنَّه في البُعد مثلُ الشرك بالله والدخولِ في جملةِ المختومِ على قلوبِهم . وعن قَتَادةَ يختمْ على قلبكَ يُنْسكَ القُرآنَ ويقطعْ عنكَ الوَحيَ . يعني لوا افترَى على الله الكذبَ لفعل به ذلك ، وهذا مَعْنى ما قيلَ : لو كذب على الله لأنساهُ القرآنَ ، وقيلَ : يختمْ على قلبكَ يربطْ عليهِ بالصبرِ حتَّى لا يشقَّ عليك أذاهُم .

(113/686)

﴿ ويَمْحُ الله الباطل ويُحِقُّ الحق بكلماته ﴾ استئنافٌ مقررٌ لنفي الافتراء غيرُ معطوفٍ عَلَى يختمُ كما ينبىءُ عنه إظهارُ الاسمِ الجليلِ ، وسقوطُ الواوِ كما في بعض المصاحفِ لاتّباعِ اللفظِ كما في قولِه تعالى : ﴿ ويَدْعُ الإنسان بالشر ﴾ أيُ ومن عادته أنَّه تعالَى يمحُو الباطلَ ويثبتُ الحقَّ بوحيهِ أو بقضائِه كقول تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ ﴾ فلو كان افتراءً كما زعمُوا لمحقَهُ ودمغَهُ . أو عِدةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه

وسلم بأَنَّه تعالَى يمحُو الباطلَ الذي هم عليهِ من البَهتِ والتكذيبِ ويثبتُ الحق الذي هو عليهِ بالقرآنِ أو بقضائِه الذي لا مردَّ له بنصرته عليهم . ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ فيُجرِي عليها أحكامَها اللائقةَ من المحوِ والإثباتِ .

(114/686)

﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ التوبةُ هي الرجوعُ عنِ المعاصِي بالندمِ عليها والعزمُ على أنْ لا يعاودها أبداً . ورَوَى جابرٌ رضيَ اللهُ عنْهُ أنَّ أعرابياً دخلَ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقالَ : اللهمَّ إنِّي أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ وكبَّرَ فلما فرغَ من صلاتِه قالَ له عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يا هَذا إنَّ سرعةَ اللسانِ بالاستغفارِ توبةُ الكذَّابينَ وتوبتُكَ هذهِ تحتاجُ إلى التوبةِ فقالَ يا أميرَ المؤمنينَ ، وما التوبةُ قالَ اسمٌ يقع على ستةِ معانٍ : على الماضِي من الذنوبِ الندامةُ ، ولتضييع الفرائضِ الإعادةُ وردُّ المظالمِ وإذابةُ النفسِ في الطاعةِ كما ربَّيتها في المعصيةِ وإذقتُها مرارةَ الطاعةِ كما أذقتَها حلاوةَ المعصيةِ والبكاءُ بدلَ كلِّ ضحكٍ ضحكتَهُ . ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ صغيرها وكبيرِها لمنْ يشاءُ ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ كائناً ما كانَ من خيرٍ وشرَ فيجازِي ويتجاوزُ حسبما تقتضيه مشيئتُه المبنية على الحِكَمِ والمصالحِ . وقُرِئَ ما تفعلونَ بالتاءِ . ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ

الصالحات ﴾ أي يستجيبُ اللهُ لهم فحُذف اللامُ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ أي كالُوا لَهُم ، والمرادُ إجابةُ دعوتِهم والإثابةُ على طاعتهم فإنَّها كدعاءٍ وطلبٍ لما يترتبُ عليها ، ومنْهُ قولُه عليهِ السَّلامُ : " أفضلُ الدُّعاءِ الحمدُ للهِ " . أو يستجيبونَ بالطاعةِ إذا دَعَاهُم إليَها . وعنْ إبراهيمَ بنِ أدهم أنَّه قيلَ لَهُ ما بالُنَا ندعُو فلا نجابُ قالَ لأنَّه دعاكُم ولم تجيبُوه ثمَّ قرأَ : ﴿ واللهُ يَدْعُو إلى دَارِ السلام ﴾ ﴿ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد . ﴿ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ . بدلَ مَا للمؤمنينَ من الثوابِ والفضلِ المزيدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(115/686)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾

بل أيقولون ﴿ افترى ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ بدعوى النبوة أو القرآن ، والهمزة للإنكار التوبيخي وبل للإضراب من غير إبطال وهو إضراب أطم من الأول فأطم فإن إثبات ما هم عليه من الشرع وإن كان شراً وشركاً أقرب من جعل الحق الأبلج المعتضد بالبرهان النير من أوسطهم فضلاً ودعة وعقلاً افتراء ثم افتراء على الله عز وجل

فكأنه قيل : أيتما لكون التفوه بنسبة مثله عليه الصلاة والسلام إلى الافتراء ثم إلى الافتراء على الله عز وجل الذي هو أعظم الفرى وأفحشها ولا تحترق ألسنتهم .

(116/686)

وفي ذلك أتم دلالة على بعده صلى الله عليه وسلم من الافتراء كيف وقد أردف بقوله تعالى : ﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ فإن هذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه الصلاة والسلام وأنه في البعد مثل الشرك بالله سبحانه والدخول في جملة المختوم على قلوبهم فكأنه قيل : فإن يشأ الله سبحانه يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله تعالى إلا من كان في مثل حالهم وهو في معنى فإن يشأ يجعلك منهم لأنهم هم المفترون الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله تعالى ، وما أحسن هذا التعريض بأنهم المفترون وأنهم في نفس هذه المقالة عن افترائهم مفترون ، ونظير الآية فيما ذكر قول أمين نسب إلى الخيانة : لعل الله تعالى خذلني لعل الله تعالى أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم ، فالكلام تعليل لإنكار قولهم ، وأتى بإن مع أن عدم مشيئته تعالى مقطوع به قيل إرخاء للعنان ، وقيل : إشعار بعظمته تعالى وأنه سبحانه غني عن

العالمين ، ثم ذيل بقوله تعالى : ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الباطل وَيُحِقُّ الحق بكلماته ﴾ تأكيداً للمفهوم من السابق من أنه ليس من الافتراء في شيء أي كيف يكون افتراء ومن عادته تعالى محو الباطل ومحقه وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه وما أتى به عليه الصلاة والسلام يزداد كل يوم قوة ودحوا فلو كان مفترياً كما يزعمون لكشف الله تعالى افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه .

والفعل المضارع للاستمرار .

(117/686)

والكلام ابتدائي فيمح مرفوع لا مجزوم بالعطف على ﴿ يَخْتِمْ ﴾ وأسقطت الواو في الرسم في أغلب المصاحف تبعاً لإسقاطها في اللفظ لالتقاء الساكنين كما في ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر ﴾ [الإسراء : 11] وكان القياس إثباتها رسماً لكن رسم المصحف لا يلزم جريه على القياس ، ويؤيد الاستئناف دون العطف على ﴿ يَخْتِمْ ﴾ إعادة الاسم الجليل ورفع ﴿ يُحِقَّ ﴾ وهذا ما ذكره جار الله في الجملتين وبيان ارتباطهما بما قبلهما ، وقد دقق النظر في ذلك وأتى بما استحسنه النظار حتى قال العلامة الطيبي : لو لم يكن في كتابه إلا هذا لكفاه مزية وفضلاً ، وجوز هو أيضاً في قوله تعالى : ﴿

وَيَمْحُ ﴾ الخ أن يكون عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر أي يمحو الله تعالى باطلهم وما بهتوك به ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له ، وحينئذٍ يكون اعتراضاً يؤكد ما سبق له الكلام من كونهم مبطلين في هذه النسبة إلى من هو أصدق الناس لهجة بأصدق حديث من أصدق متكلم ، وقال في إرشاد العقل السليم في الجملة الأولى : إنها استشهاد على بطلان ما قالوه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام لو افترى على الله تعالى كذباً لمنعه من ذلك قطعاً ، وتحقيقه أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم إنه سبحانه لا يشاء صدوره عن النبي صلى الله عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره عنه ومن ضرورياته منعه عنه قطعاً فكأنه قيل : لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وإن يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحي حيناً فحيناً تبين أنه من عند الله عز وجل ، وذكر في الجملة الثانية ما ذكره جار الله من الوجهين ، ولا يخفى عليك ما يرد على كلامه من المنع مع أن فيه جعل مفعول المشيئة غير ما يدل عليه الجواب وهو ذلك المشار به إلى عدم الصدور ، والمتبادر

(118/686)

كون المفعول الختم على ما هو المعروف في نظائر هذا التركيب أي فإن يشأ الله تعالى الختم على قلبك يختم ، وإيهام كون القرآن ناشئاً منه صلى الله عليه وسلم لا منزلاً عليه عليه الصلاة والسلام ، وقال السمرقندي : المعنى إن يشأ يختم على قلبك كما فعل بهم فهو تسلية له عليه الصلاة والسلام وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه له صلى الله عليه وسلم ليشكر ربه سبحانه ويترحم على من ختم على قلبه فاستحق غضب ربه ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر ، فالتفريع بالنظر إلى المعنى المكنى عنه ، وحاصله أنهم اجترؤا على هذا لأنهم مطبوعون على الضلال انتهى ، وفيه شمة مما ذكره الزمخشري .

وعن قتادة .

(119/686)

وجماعة يختم على قلبك ينسك القرآن ، والمراد على ما قال ابن عطية الرد على مقالة الكفار وبيان بطلانها كأنه قيل : وكيف يصح أن تكون مفترياً وأنت من الله تعالى بمرأى ومسمع وهو سبحانه قادر ولو شاء لختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك ، وفيه أن اللفظ ضيق عن أداء هذا المعنى ، وذكر القشيري أن المعنى فإن يشأ الله تعالى يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم ويعاجلهم بالعذاب ، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب

ومن الجمع إلى الإفراد ، وحاصله يختم على قلبك أيها القائل إنه عليه الصلاة والسلام افترى على الله تعالى كذباً ، وفيه من البعد ما فيه مع أن الكفار مختوم على قلوبهم ، وقال مجاهد ، ومقاتل : المعنى فإن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم إنك مفتر ، ولا مانع عليه من عطف ﴿ يمح ﴾ على جواب الشرط بل هو الظاهر فيكون سقوط الواو للجازم ، و ﴿ أَنْ يُحِقَّ ﴾ حينئذٍ مستأنف أي وإن يشأ يمح باطلهم عاجلاً لكنه سبحانه لم يفعل لحكمة أو مطلقاً وقد فعل جل وعلا بالآخرة وأظهر دينه ، وقيل : لا مانع من العطف على بعض الأقوال السابقة أيضاً أي إن يشأ يمح افتراءك لو افتريت وهو كما ترى ، وكذا جوز كون الجملة حالية وإن أحوج ذلك إلى تقدير المبتدأ وفيه تكلف مستغنى عنه ؛ وربما يقال : إن جملة ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ ﴾ من تتمة قولهم مفرعاً على ﴿ افترى ﴾ كأنه قيل : افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبه بسبب افترائه فلا يعقل شيئاً أو كأنه قيل : افتريت على الله فإن يشأ يختم على قلبك جزاء ذلك إلا أن نكتة اختيار الغيبة في إحدى الجملتين والخطاب في الأخرى غير ظاهرة ، وكونها الإشارة إلى أن من افترى يحق أن يواجه بالجزاء ليس مما يهش له السامع فيما أرى ، ولعل الأولى أن يكون ﴿ فَإِن يَشَإِ ﴾ الخ مفرعاً على كلامهم خارجاً مخرج التهكم بهم ، ولا بأس حينئذٍ بعطف يمح على جواب الشرط ويراد بالباطل ما هو

باطل بزعمهم كأنه قيل : أم يقولون افترى على الله فإذن إن يشأ الله يختم على قلبك ويمح ما يزعمون أنه باطل ، وهذا كما تقول لمن أخبرك أن زيداً افترى عليك وأنت تعلم أنه لم يفتر وإنما أدى عنك ما أمرته به فإذن نؤدبه وننتقم منه ونمحو افتراءه تقصد بذلك التهكم بالقائل فتأمل ، فهذه الآية كما قال الخفاجي من أصعب ما مر في كلامه تعالى العظيم وفقنا الله تعالى وإياكم لفهم معانيه والوقوف على سره وخافيه ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ فيعلم سبحانه ما في صدرك وصدورهم فيجري جل وعلا الأمر على حسب ذلك .

﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه والقبول يعدى بعن لتضمنه معنى الإبانة وبمن لتضمنه معنى الأخذ كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نفقاتهم ﴾ [التوبة : 54] أي تؤخذ ، وقيل : القبول مضمن هنا معنى التجاوز والكلام على تقدير مضاف أي يقبل التوبة متجاوزاً عن ذنوب عباده وهو تكلف .

والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب في الحال ويندم على ما مضى ويعزم على تركه في المستقبل وزادوا التفصي منه بأي وجه أمكن إن كان الذنب لعبد فيه حق وذلك بالرد إليه أو إلى وكيله أو الاستحلال منه إن كان حياً وبالرد إلى ورثته إن كان ميتاً ووجدوا ثم القاضي لو كان أميناً وهو كالاكسير ومن رأى الإكسير ؟ فإن لم يقدر على شيء من ذلك يتصدق عنه وإلا يدع له ويستغفر .

وفي "الشكف" التفصي داخل في الرجوع إذ لا يصح الرجوع عنه وهو ملتبس به بعد ، واختير أن حقيقتها الرجوع وإنما الندم والعزم ليكون الرجوع إقلاعاً ويتحقق أنه التوبة التي ندبنا إليها وهو موافق لما في الإحياء من أنها اسم لتلك الحالة بالحقيقة والباقي شروط التحقق ؛ ويشترط أيضاً أن يكون الباعث على الرجوع مع الندم والعزم دينياً فلو رجع لمانع آخر من ضعف بدن أو غرم لذلك لم يكن من التوبة في شيء ، وأشار الزمخشري إلى ذلك بكون الرجوع لأن المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب وخرج عنه ما لو رجع طلباً للثناء أو رياء أو سمعه لأن قبح القبيح معناه كونه مقتضياً للعقاب آجلاً وللذم عاجلاً فلو رجع لما سبق لم يكن رجوعاً لذلك .

وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له علي كرم الله وجهه : إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين : ما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة ولتضيع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما

أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته ، وهذا يحتمل أن تكون التوبة مجموع هذه الأمور فالمراد أكمل أفرادها ، ويحتمل أنها اسم لكل واحد منها والأول أظهر .

واختلف في التوبة عن بعض المعاصي مع الإصرار على البعض هل هي صحيحة أم لا والذي عليه الأصحاب أنها صحيحة لظواهر الآيات والأحاديث وصدق التعريف عليها ، وأكثر المعتزلة على أنها غير صحيحة قال أبو هاشم منهم : لو تاب عن القبيح لكونه قبيحاً وجب أن يتوب عن كل القبائح وإن تاب عنه لا لمجرد قبحه بل لغرض آخر لم تصح توبته .

(122/686)

وتعقب بأنه يجوز أن يكون الباعث شدة القبح أو أمراً دينياً آخر وأيضاً يجري نظير هذا في فعل الحسن بل يقال : لو فعل الحسن لكونه حسناً وجب عليه أن يفعل كل حسن وإن فعله لغرض آخر لم يقبل وفيه بحث .

واستدل المعتزلة بالآية على أنه يجب عليه تعالى قبول التوبة واستدل أهل السنة بها على عدم الوجوب لمكان التمدح ولا تمدح بالواجب ، وفيه أيضاً بحث والأنفع في هذا المقام أدلة نفي الوجوب مطلقاً عليه عز وجل .

﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ صغائرها وكبائرها لمن يشاء من غير اشتراط شيء كالتوبة للكبائر واجتنابها للصغائر .

وقال الطيبي : المعنى من شأنه تعال شأنه قبول التوبة عن عباده إذا تابوا والعفو عن سيآتهم بمحض رحمته أو بشفاعة شافع ، وقال المعتزلة : أي يعفو عن الكبائر إذا تيب عنها وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر فالعفو عن السيئات عليه أعم من قبول التوبة لشموله الصغائر إذا اجتنبت الكبائر وهو تعميم بعد تخصيص ، والظاهر مع أهل السنة إذ لا دلالة في "النظم الجليل" على تخصيص السيئات نعم المراد بها غير الشرك بالإجماع .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ بتاء الخطاب عند حفص .

والأخوين .

وعلقمة .

وعبد الله وبياء الغيبة عند الجمهور وعلى الأول ففيه التفات وما موصولة والعائد محذوف أي يعلم الذي تفعلونه كائناً ما كان من خير وشر فيجازى بالثواب والعقاب أو يتجاوز سبحانه بالعفو حسبما تقتضيه مشيئته جل وعلا المبنية على الحكم والمصالح .

وقيل : يعلم ذلك فيجازى التائب ويتجاوز عن غيره إذا شاء سبحانه والأول أظهر .

وفي "الكشاف" يعلم سبحانه ذلك فيثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات .

وفي "الكشف" بعد نقله هو أي قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ الخ تذييل للكلام السابق يؤكد ما ذكره من القبول والعفو لأنه تعالى إذا علم العملين والعاملين جازى كلاً بما فعل فأولى أن يجازي هؤلاء المحسنين بأفعالهم ، ثم فيه لطف وحث على لزوم الحذر منه تعالى والإخلاص له سبحانه في إمحاض التوبة ، ونحن أيضاً لا ننكر أنه تذييل فيه تأكيد كما لا يخفى .

﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ عطف على ﴿ يَقْبَلُ التوبة ﴾ [الشورى : 25] فالفاعل ضميره تعالى و ﴿ الذين ﴾ مفعول بدون تقدير شيء بناءً على أن ﴿ يَسْتَجِيبُ ﴾ يتعدى بنفسه كما يتعدى باللام نحو شكرته وشكرت له أو بتقدير اللام على أنه من باب الحذف والإيصال والأصل يستجيب للذين آمنوا بناءً على أنه يتعدى للداعي باللام وللدعاء بنفسه ونحو هذا قوله :

وداع دعايا من يجيب إلى الندى . . .

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وأجاب واستجاب بمعنى أي ويجيب الله تعالى الذين آمنوا إذا دعوا وحاصله يجيب دعاءهم ، وجوز بعضهم أن يكون الكلام بتقدير هذا المضاف قيل : وهو أولى من القول بإيصال الفعل بحذف الصلة لأن حذف المضاف إذا لم يلبس منقاس وذاك مسموع ، ويجوز

أن يكون المراد يثيبهم على طاعتهم فإن الطاعة لكونها طلب ما يترتب عليها من الثواب شابهت الدعاء وشابهت الإثابة عليها الإجابة ، ومن هذا يسمى الثناء دعاء لأنه يترتب عليه ما يترتب عليه ، وسئل سفيان عن قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث : " أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير " فقال : هذا كقوله تعالى في الحديث القدسي : " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين " ألا ترى قول أمية بن الصلت لابن جدعان حين أتاه يبغي نائله :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني . . .

ثناؤك إن شيمتك الحياء إذا أثنى عليك المرء يوم

كفاه عن تعرضك الثناء . . .

(124/686)

وجعلوا من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الدعاء الحمد لله " على معنى أن الحمد يدل على الدعاء والسؤال بطريق الكناية والتعريض ، وقيل : هو على إطلاق الدعاء على الحمد لشبهه به في طلب ما يترتب عليه ، وجوز أن يراد بالإجابة معناها الحقيقي

والإثابة بناءً على القول بصحة الجمع بين الحقيقة والمجاز أي يجيب دعاءهم ويثيبهم على الطاعة ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ على ما سألوا واستحقوا ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ الواسع جل شأنه ، وقيل : إن فاعل ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ ﴾ واستظهره أبو حيان ، والجملة عطف على مجموع قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة ﴾ [الشورى : 25] الخ أي ينقادون لله تعالى ويجيبونه سبحانه إذا دعاهم ، وهو المروى عن ابن جبير ، وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له : ما لنا ندعوا فلا نجاب ؟ فقال : لأنه سبحانه دعاكم فلم تجيبوه ثم قرأ ﴿ والله يَدْعُو إلى دَارِ السلام ﴾ [يونس : 25] ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ ﴾ وهذا يؤكد هذا الوجه لأنه قدس سره ذكر أن الله تعالى دعاكم بقوله عز وجل : ﴿ والله يَدْعُو إلى دَارِ السلام ﴾ وذكر أن المؤمن من استجاب دعوة ربه تعالى بقوله : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ ﴾ فمن لا يجيب دعاءه تعالى لا يجيب تعالى أيضاً دعاءه ، وكون الفاعل ضميره تعالى قد روى ما يقتضيه عن ابن عباس .

ومعاذ بن جبل ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ عليه عطف على ما قبله وعلى الوجه الآخر عطف على مقدر أي فيوفيهم أجورهم ويزيدهم عليها على أسلوب ﴿ وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذى فَضَّلَنَا ﴾ [النمل : 15] وقوله سبحانه : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ [البقرة : 09] متعلق بيزيدهم مطلقاً ، وجوز تعليقه بالفعلين على التنازع فإن الإجابة والثواب فضل منه تعالى كالزيادة .

وأياً ما كان فالظاهر عموم الذين آمنوا وروي عن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة واستحكم الإسلام قالت الأنصار فيما بينها : نأتي رسول الله عليه الصلاة والسلام ونقول له : إن تعرك أمور فهذه أموالنا تحكم فيها فنزلت قل ﴿ قل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ [الشروى : 23] فقرأها عليهم ، وقال تودون قرابتي من بعدي فخرجوا مسلمين فقال المنافقون : إن هذا لشيء افتراه في مجلسه أراد بذلك عن قرابته من بعده فنزلت ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ [الشورى : 24] فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا وندموا فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى : 25] فأرسل صلى الله عليه وسلم إليهم فبشرهم وقال : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ ﴾ وهم الذين سلموا لقوله ذكر ذلك الطبرسي ، وذكر قريباً منه في "الدر المنثور" لكن قال : أخرجه الطبراني في الأوسط .

وابن مردويه عن ابن جبير بسند ضعيف ، والذي يغلب على الظن الوضع ﴿ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بدل ما للمؤمنين من الإجابة والتفضل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً » .

هو إضراب على موقف المشركين الذين دعوا إلى أن يخرجوا من موقفهم العدائى للرسول - إلى المحاسنة والمودة ، إن لم يكن لأنه رسول اللّه ، فلأنه منهم ، وهم قومه ، وأولى الناس به - ولكنهم أبوا أن يستجيبوا لهذه الدعوة التي تأتيهم من جهة القرابة والنسب ، بعد أن رفضوا الدعوة التي جاءتهم من قبل السماء ، هدى ونورا .

فها هم أولاء ماضون فى كيدهم للنبىّ ، وعدوانهم عليه ، واتهامهم له بالكذب : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً » . . فهذا هو كل ما استقبلوا به الدعوة الكريمة إلى المودة فى القربى .

(127/686)

إنه اتهام صريح للنبىّ بأنه كاذب افترى هذا القرآن الذي يدعوهم إليه ، بدعوة اللّه . .

وقوله تعالى : « فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ » . .

هو تهديد للمشركين بقبض هذه اليد الممدودة لهم بالهدى ، ورفع هذه المائدة المبسوطة

لهم بالخير . . وإذا هذا القرآن الذي نزل على النبي قد ختم عليه فى قلبه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ فاحتواه كله ، وغربت شمسه فيه ، فلم يخرج منه شىء لهؤلاء المشركين ، بل يتركون وما هم فيه من ظلام وضلال ، وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً » (86 ـ 87 : الإسراء) . . واللّه سبحانه وتعالى قادر على أن يمحو هذا الباطل المجسد فى هؤلاء المشركين ويقطع دابرهم ، فلا ترى منهم أحدا ، فبكلمة من كلمات اللّه ، يمحو سبحانه هذا الباطل ، ويقضى على أهله ، ويحقّ الحق ، ويثبت دعائمه .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ » أي أنه سبحانه إذ يقضى قضاءه فى هؤلاء المشركين ، فإنما يقضى بعلمه الذي يكشف ما تنطوى عليه الصدور ، فيهلك الضالين الظالمين ، وينجّى المؤمنين المتقين .

والمشيئة هنا فى قوله تعالى : « فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ » مشيئة غير واقعة ، لأنها معلقة بشرط غير واقع . . فاللّه سبحانه لم يشأ أن يختم هذا الختم على قلب النبي . .

وهذا مثل قوله تعالى : « وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ » وقوله سبحانه : « وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ » (112 : الأنعام) . وقوله جل شأنه : « وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً » (118 : هود) .

قوله تعالى : «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ» هو بيان شارح لقوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » فهذه الآية ـ كما قلنا ـ دعوة للمشركين الذين اقترفوا السيئات ، أن يعودوا إلى أنفسهم ، ويقيموها على طريق الهدى ، ويقترفوا الحسنات ، كما اقترفوا السيئات . . ثم كان أن تهدّدهم اللّه بما يقولون من منكر القول فى رسول اللّه ، وذلك ما حكاه القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً » ، ثم تهددهم بذهاب هذا النور الذي طلع فى ظلام ليلهم إليهم ، فقال تعالى : « فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ . . إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ » .

وفى قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ » عودة إلى المشركين بعرض هذا النور عليهم بعد أن آذنهم اللّه بزواله عنهم ، وفى هذا وصل لتلك الدعوة التي دعوا إليها باقتراف الحسنة ، وبيان شارح لها ، على اعتبار أن هذا التهديد اعتراض واقع فى ثنايا هذه الدعوة . .

ففى قوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً . . إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » دعوة

إلى التوبة ، وإلى اقتراف الحسنات بعد اقتراف السيئات . . وفى قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ » بيان للجهة التي يتوجه إليها التائبون بتوبتهم . . إنها إلى اللّه وحده . . فهم إنما يقدمون أعمالهم إلى اللّه ، ويتوجهون بتوبتهم إليه ، وعندئذ يجدون اللّه سبحانه هو الذي يتلقاها منهم .

وفى هذا إغراء باللّجأ إلى اللّه ، وإطلاق الإنسان من أىّ ولاء لغير اللّه . . وذلك

فى أول الطريق إلى اللّه . . فإذا آمن باللّه ، آمن برسول اللّه ، وجعل ولاءه للّه ولرسوله ، وللمؤمنين .

وفى تعدية الفعل (يقبل) بحرف الجر « عن » مع أنه يتعدى بمن ، فيقال قبل فلان من فلان كذا ، ولم يقبل منه كذا ـ فى هذا إشارة إلى تضمين الفعل معنى الحمل ، بمعنى أن اللّه سبحانه هو الذي يحمل التوبة عن عباده التائبين ، وإن جاءت توبتهم محملة بالذنوب ، مثقلة بالأوزار ، فإن التوبة ترفع عن كاهلهم ما أثقلهم من ذنوب قد حملها اللّه عنهم .

وقوله تعالى : « وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ » أي أنه سبحانه إذ يحمل التوبة عن عباده ، ويتلقاها بما تحمل من أوزار وسيئات ، فإنه سبحانه ، يعفو عن تلك السيئات ويتجاوز عنها ،

ويغفرها لأصحابها . . فهو سبحانه الذي يقبل التوبة ، وهو سبحانه الذي يملك العفو عن السيئات . . وهو سبحانه الذي يعلم ما يعمل الناس من خير أو شر . .

وفى الآية الكريمة دعوة إلى العصاة والمذنبين أن يلوذوا برحمة اللّه ، ومغفرته ، وأن يوجهوا وجوههم إليه تائبين من ذنوبهم ، نادمين على ما فرط منهم ، فاللّه سبحانه وتعالى يلقاهم بالرحمة والمغفرة . .

ففى الصحيح ، من رواية عبد اللّه بن مسعود ، رضى اللّه عنه ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « للّه تعالى أشدّ فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم ، كانت راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك » ! ! (أخطأ من شدة الفرح) .

(130/686)

هذا ، وليست التوبة ، كلمة يلفظ بها اللسان ، وإنما هى نية منعقدة على الندم على ما وقع من ذنوب ، وعلى العزم على تجنب المعصية .

روى عن جابر بن عبد اللّه ، أن أعرابيا دخل مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ،

وقال : « اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر (أي تكبيرة الإحرام للصلاة) . فلما فرغ من صلاته ، قال له علىّ كرم اللّه وجهه : يا هذا ، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى توبة ! فقال :

يا أمير المؤمنين . . وما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب بالندامة ، ولتضييع الفرائض ، الإعادة ، وردّ المظالم ، وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة ، كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته » .

قوله تعالى : « وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ » . أي وهو سبحانه ، يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات أي أنه سبحانه يقبل على عباده التائبين ، ويقبلهم . . فمعنى الاستجابة هنا القبول ، ولهذا عدّى الفعل « يستجيب » لتضمنه معنى القبول . . أما الكافرون فلا يقبل عليهم اللّه سبحانه ولا يقبلهم ولهم عذاب شديد . . ويجوز أن يكون الفعل مسندا إلى « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ » أي أنهم يستجيبون للّه ، ويقبلون عليه تائبين . . وفى هذا إشارة إلى أن تقديم توبته سبحانه وإقباله على التائبين قبل أن يتوبوا . هى دعودة من اللّه سبحانه وتعالى إلى العصاة ، وقد قبلت توبتهم قبل أن يتوبوا ، وما

عليهم إلا أن يستجيبوا لله ، ويقبلوا هذا العطاء العظيم ، من الرب الكريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 13 صـ 48.52 ﴾

(131/686)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

إضراب انتقالي عطفاً على قوله : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ [الشورى : 21] وهو الكلام المضرَب عنه والمنتقل منه ، والمراد الانتقال إلى توبيخ آخر ، فالهمزة المقدرة بعد ﴿ أم ﴾ للاستفهام التوبيخي ، فإنهم قالوا ذلك فاستحقوا التوبيخ عليه .

والمعنى : أم قالوا افترى ويقولونه .

وجيء بفعل ﴿ يقولون ﴾ بصيغة المضارع ليتوجه التوبيخ لاستمرارهم على هذا القول الشنيع مع ظهور دلائل بطلانه .

فإذا كان قولهم هذا شنعاً من القول فاستمرارهم عليه أشنع .

وفُرع على توبيخهم على ذلك قوله : ﴿ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ وهو تفريع فيه

خفاء ودقّة لأن المتبادر من التفريع أنّ ما بعد الفاء إبطال لما نسبوه إليه من الافتراء على الله وتوكيد للتوبيخ فكيف يستفاد هذا الإبطال من الشرط وجوابِه المفرعين على التوبيخ .

وللمفسرين في بيان هذا التفريع وترتبه على ما قبله أفهام عديدة لا يخلو معظمها عن تكلف وضعف اقتناع .

والوجه في بيانه : أن هذا الشرط وجوابَه المفرَّعين في ظاهر اللفظ على التوبيخ والإبطال هما دليل على المقصود بالتفريع المناسب لتوبيخهم وإبطالِ قولهم ، وتقديرُ المفرع هكذا : فكيف يَكون الافتراء منك على الله والله لا يُقِر أحداً أن يكذب عليه فلو شاء لختم على قلبك ، أي سلبك العقل الذي يفكر في الكذب فتفحم عن الكلام فلا تستطيع أن تتقول عليه ، أي وليس ثمة حائل يحول دون مشيئة الله ذلك لو افتريت عليه ، فيكون الشرط كناية عن انتفاء الافتراء لأن الله لا يقرّ من يكذب عليه كلاماً ، فحصل بهذا النظم إيجاز بديع ، وتكون الآية قريباً من قوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لَقَطَعْنَا منه الوتين ﴾ [الحاقة : 44 46] .

(132/686)

ولابن عطية كلمات قليلة يؤيد مغزاها هذا التقرير مستندة لقول قتادة محمولاً على ظاهر اللفظ من كون ما بعد الفاء هو المفرع ، ويكون الكلام كناية عن الإعراض عن قولهم : ﴿ افترى على الله كذباً ﴾ ، أي أن الله يخاطب رسوله بهذا تعريضاً بالمشركين .

والمعنى : أن افتراءه على الله لا يهمكم حتى تناصبوا محمداً صلى الله عليه وسلم العداء ، فالله أولى منكم بأن يغار على انتهاك حرمة رسالته وبأن يذب عن جلاله فلا تجعلوا هذه الدعوى همكم فإن الله لو شاء لختم على قلبك فسلبك القدرة على أن تنسب إليه كلاماً .

وهذان الوجهان هما المناسبان لموقع الآية ، ولفاء التفريع ، ولما في الشرط من الاستقبال ، ولوقوع فعل الشرط مضارعاً ، فالوقف على قوله : ﴿ على قلبك ﴾ وهو انتهاء كلام .

وجملة ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ معطوفة على التفريع ، وهي كلام مستأنف ، مراد منه أن الله يمحو باطل المشركين وبهتانهم ويحقق ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم

وعلى مراعاة هذا المعنى جرى جمع من أهل التفسير مثل الكسائي وابن الأنباري والزجاج والزمخشري ولم يجعلوا ﴿ ويمح ﴾ عطفاً على فعل الجزاء لأن المتبادر أن هذا وعد من الله بإظهار الإسلام ، ووعيد المشركين بأن دينهم زائل .

وهذا هو المتبادر من رفع ﴿ ويحقُّ ﴾ باتفاق القراء على رفعه ، والمراد بالمحو على هذا : الإزالةُ .

والمراد بالباطلِ : الباطل المعهود وهو دين الشرك .

وبالحق : الحق المعهود ، وهو الإسلام .

أو يكون المعنى أن من شأن الله تعالى أن يزيل الباطل ويفضحه بإيجاد أسباب زواله وأن يوضح الحقّ بإيجاد أسباب ظهوره ، حتى يكون ظهوره فاضحاً لبطلان الباطل فلو كان القرآن مفترى على الله لفضح الله بطلانه وأظهر الحق ، فالمراد بالباطل : جنس الباطل ، وبالحق جنس الحق ، وتكون الجملة كالتذييل للتفريع .

والمعنى الأول أنسب بالاستئناف ، ولإفادته الوعيد بإزالة ما هم عليه ونصر المسلمين عليهم .

(133/686)

وعلى كلا المعنيين فقوله : ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ كلامٌ مستأنف ليس معطوفاً على جزاء الشرط إذ ليس المعنى على : إنْ يشأ الله يمحُ الباطل ، بل هو تحقيق لمحوه للباطل كقوله تعالى : ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ [الإسراء : 81] ، كما دل عليه رفع ﴿ ويحقُّ الحق بكلماته ﴾ ، ففعل ﴿ يمحُ ﴾ مرفوع وحقه ظهور الواو في آخره ، ولكنها حذفت تخفيفاً في النطق ، وتبع حذفَها في النطق حذفُها في الرسم اعتباراً بحال النطق كما حذف واو ﴿ سندعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] وواو ﴿ ويدْعُ الإنسان بالشر دعاءه بالخير ﴾ [

الإسراء : 11] .

وذكر في "الكشاف" أن الواو ثبتت في بعض المصاحف ولم يعيّنه ولا ذكره غيره فيما رأيت .

وإظهار اسم الجلالة في قوله : ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ دون أن يقول : ويمحُ الباطل ، لتقوية تمكن المسند إليه من الذهن ولإظهار عناية الله بمحو الباطل .

وإنما عُدل على الجملة الاسمية في صوغ ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ فلم يقل : والله يمحو الباطل ، لأنه أريد أن ما في إفادة المضارع من التجدد والتكرير إيماء إلى أن هذا شأن الله وعادته لا تتخلف ولم يقصد تحقيق ذلك وتثبيته لأن إفادة التكرير تقتضي ذلك بطريق الكناية فحصل الغرضان .

والباء في ﴿ بكلماته ﴾ للسببية ، والكلمات هي : كلمات القرآن والوحي كقوله ﴿ يريدون أن يبدّلوا كلام الله ﴾ [الفتح : 15] ، أو المراد : كلمات التكوين المتعلقة بالإيجاد على وفق علمه كقوله : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ [الكهف : 27] .

وإنما جاء هذا الرد عليهم بأسلوب الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم لأن ذلك أقوى في الاعتناء بتلقينه جواب تكذيبهم لأن المقام مقام تفظيع لبهتانهم ، وهذا وجه التخالف بين أسلوب هذه الآية وأسلوب قوله تعالى : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوتهُ عليكم ولا أدْرَاكُم به ﴾ [يونس : 16] لأن ذلك لم يكن مسوقاً لإبطال كلام صدر منهم .

وجملة ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليل لمجموع جملتي ﴿ فإن يشإ الله ﴾ إلى قوله : ﴿ بكلماته ﴾ ، أي لأنه لا يخفى عليه افتراء مُفترٍ ولا صدقُ محقَ .

و(ذات الصدور) : النوايا والمقاصد التي يضمرها الناس في عقولهم .

والصدور : العقول ، أطلق عليها الصدور على الاستعمال العربي ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ في سورة الأنفال (43) .

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25)

لما جرى وعيد الذين يحاجُّون في الله لتأييد باطلهم من قوله تعالى : ﴿ والذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ [الشورى : 16] .

ثم أتبع بوصف سوء حالهم يوم الجزاء بقوله : ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ [الشورى : 22] ، وقوبل بوصف نعيم الذين آمنوا بقوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ﴾ [الشورى : 22] ، وكان ذلك مَظنة أن يكسر نفوس أهل العناد والضلالة ، أعقب بإعلامهم أن الله من شأنه قبول توبة من يتوب من عباده ، وعفوُه بذلك عما سلف من سيئاتهم .

وهذا الإخبار تعريض بالتحريض على مبادرة التوبة ولذلك جيء فيه بالفعل المضارع

الصالح للاستقبال .

وهو أيضا بشارة للمؤمنين بأنه قبل توبتهم مما كانوا فيه من الشرك والجاهلية فإن الذي من شأنه أن يقبل التوبة في المستقبل يكون قد قبل توبة التائبين من قبلُ ، بدلالة لحن الخطاب أو فَحواه ، وأن من شأنه الاستجابة للذين آمنوا وعملوا الصالحات من عباده .

وكل ذلك جرْي على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب وعكسه .

وهذا كله يتضمن وعداً للمؤمنين بقبول إيمانهم وللعصاة بقبول توبتهم .

(135/686)

فجملة : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ [الشورى : 21] وما اتصل بها مّما تقدم ذكره وخاصة جملة : ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ [الشورى : 24] .

وابتِناءُ الإخبار بهذه الجملة على أسلوب الجملة الاسمية لإفادتها ثباتَ حكمها ودوامه .

ومَجيءُ المسند اسم موصول لإفادة اتصاف الله تعالى بمضمون صلته وأنها شأن من شؤون الله تعالى عرف به ثابت له لا يتخلف لأنه المناسب لحكمته وعظَمة شأنه وغناه عن خلقه .

وإيثار جملة الصلة بصيغة المضارع لإفادة تجدد مضمونه وتكرره ليعلموا أن ذلك وعد لا يتخلف ولا يختلف .

وفعل (قَبِلَ) يتعدى بـ (من) الابتدائية تارة كما في قوله : ﴿ وما مَنَعَهم أن تقبل منهم نفقاتهم ﴾ [التوبة : 54] وقوله : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ﴾ [آل عمران : 91] ، فيفيد معنى الأخذ للشيء المقبول صادراً من المأخوذ منه ، ويعدَّى بـ ﴿ عن ﴾ فيفيد معنى مجاوزة الشيء المقبول أو انفصالِه عن معطيه وباذِله ، وهو أشد مبالغةً في معنى الفعل من تعديته بحرف (من) لأن فيه كناية عن احتباس الشيء المبذول عند المبذول إليه بحيث لا يُردّ على باذِله .

فحصلت في جملة ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ أربعُ مبالغات : بناء الجملة على الاسمية وعلى الموصولية وعلى المضارعية ، وعلى تعدية فعل الصلة بـ ﴿ عن ﴾ دون (من) .

و ﴿ التوبة ﴾ : الإقلاع عن فعل المعصية امتثالاً لطاعة الله ، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ في سورة البقرة (37) .

وقبول التوبة منّة من الله تعالى لأنه لو شاء لَمَا رضِي عن الذي اقترف الجريمة ولكنه جعلها مقبولة لحكمته وفضله .

وفي ذكر اسم العباد دون نحو : الناس أو التائبين أو غير ذلك إيماء إلى أن الله رفيق بعباده

لمقام العبودية فإن الخالق والصانع يحب صلاح مصنوعه .

والعفو : عدم مؤاخذة الجاني بجنايَته .

(136/686)

والسيئات : الجرائم لأنها سيئة عند الشرع .

والعفو عن السيئات يكون بسبب التوبة بأن يعفو عن السيئات التي اقترفها العاصي قبل توبته ، ويكون بدون ذلك مثل العفو عن السيئات عقب الحج المبرور ، ومثل العفو عن السيئات لأجل الشهادة في سبيل الله ، ومثل العفو عن السيئات لكثرة الحسنات بأن يُمحَى عن العاصي من سيئاته ما يقابل مقداراً من حسناته على وجه يعلمه الله تعالى ، ومثل العفو عن الصغائر باجتناب الكبائر .

والتعريف في السيئات ﴿ تعريف الجنس المراد به الاستغراق وهو عام مخصوص بغير الشرك قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به ﴾ [النساء : 48] ولك أن تجعله عوضاً عن المضاف إليه ، أي عن سيئات عباده فيعم جميع العباد عموماً مخصوصاً بالأدلة لهذا الحكم كما في الوجه الأول .

وجملة ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ معترضة بين المتعاطفات أو في موضع الحال ، والمقصود : أنه

لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده خيرها وشرها .

وقرأ الجمهور ﴿ ما يفعلون ﴾ بياء الغيبة ، أي ما يفعل عبادُه .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتاء الخطاب على طريقة الالتفات .

والاستجابة : مبالغة في الإجابة ، وخُصت الاستجابة في الاستعمال بامتثال الدعوةِ أو الأمر .

وظاهر النظم أن فاعل ﴿ يستجيب ﴾ ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ وهو الذي يقبل التوبة ﴾ وأن ﴿ الذين آمنوا ﴾ مفعول ﴿ يستجيب ﴾ وأن الجملة معطوفة على جملة ﴿ يقبل التوبة ﴾ .

والغالب في الاستعمال أن يقال : استجاب له ، كقوله : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر : 60] وقد يحذفون اللام فيعدُّونه بنفسه ، كقول كعب بن سعد :

ودَاعٍ دَعا يَا من يجيب إلى الندا

فلم يستجبه عند ذاك مجيب . . .

والمعنى : أن الله يستجيب لهم ما يرجونه منه من ثواب ، وما يدْعُونه .

(137/686)

ويجوز أن يكون ﴿ الذين آمنوا ﴾ فعل ﴿ يستجيب ﴾ أي يستجيبون لله فيطيعونه وتكون جملة ﴿ ويستجيب ﴾ عطفاً على مجموع جملة ﴿ وهو الذي يقبل التوبة ﴾ ، أي ذلك شأنه وهذا شأن عباده المؤمنين .

ومعنى ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ على الوجهين أنه يعطيهم ما أمَّلوا من دعائهم وعملهم وأعظم مما أملوا حين استجابوا له ولرسوله ، وأنه يعطيهم من الثواب أكثر مما عملوا من الصالحات إذ جعل لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف كما في الحديث ، وأنه يعطيهم من خير الدنيا ما لم يسألوه إياه كل ذلك لأنه لطيف بهم ومدبر لمصالحهم .

ولما كانت الاستجابة والزيادة كرامةً للمؤمنين ، أظهر اسم ﴿ الذين آمنوا ﴾ وجيء به مَوْصُولاً للدلالة على أن الإيمان هو وجه الاستجابة لهم والزيادة لهم .

وجملة ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ اعتراض عائد إلى ما سبق من قوله : ﴿ ترى الظالمين مُشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ﴾ [الشورى : 22] توكيداً للوعيد وتحذيراً من الدوام على الكفر بعد فتح باب التوبة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(138/686)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

يعني أنهم أَصرُّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عُذْرَ ولا شكَّ .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ . . . وهو انه حَكَمَ بتأخيرِ العقوبةِ إلى يومِ القيامة لعَجَّل لهم ما يتمنونه . .

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ

أي أُدْعُ إلى هذا القرآن ، وإلى الدين الحنيفي ، واستقَمْ في الدعا ، وفي الطاعة .

أَمَرَ الكُلَّ من الخَلْقِ بالاستقامة ، وأفرده بذكر التزام الاستقامة .

ويقال : الألف والسين والتاء في الاستقامة للسؤال والرغبة ؛ أي سَلْ مني أن أقيمك ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ : أمرت بالعدل في القضية ، وبأن أُعْلِمَ أنَّ اللهَ إلهُ الجميع ، وأنَّه يحاسِب غداً كلاً بعمله ، وبأن الحجةَ لله على خَلْقِه ، وبأن الحاجةَ لهم إلى مولاهم .

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16)

يجادلون في الله من بعد ما استُجِيبَ لدعاء محمدٍ صلى الله عليه وسلم يومَ بدرٍ على المشركين .

وحُجَّةُ هؤلاء الكفار داحضة عند ربهم لأنهم يحتجون بالباطل ، وهم من الله مستوجِبون للعنة والعقاب .

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17)

أَنزلَ الكتابَ ، وأنزل الحُكْمَ بالميزان أي بالحق .

(139/686)

ويقال ألهمهم وزنَ الأشياء بالميزان ، ومراعاةَ العدل في الأحوال .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ : يزجرهم عن طول الأمل ، وينبههم إلى انتظار هجوم الأجَل .

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا

المؤمنون يؤمِنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة ، ويَكِلُون أمورَهم إلى الله ؛ فلا يتمنون الموتَ حَذَرَ الابتلاء ، ولكن إذا وَرَدَ الموتُ لم يكرهوه ، وكانوا مستعدين له .

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)

﴿ لَطِيفٌ ﴾ أي عالم بدقائق الأمور وغوامضها . واللطيف هو المُلْطِف المحسن . .

وكلاهما في وصفه صحيح . واللطف في الحقيقة قدرة الطاعة ، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليومَ هو لُطْفٌ منه به .

وأكثرُ ما يستعمل اللطف – في وصفه – في الإحيان بالأمور الدينية .

ويقال : خَاطَبَ العابدين بقوله : ﴿ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ : أي يعلم غوامضَ أحوالهم . من دقيق الرياء والتصنُّع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخاطَبَ العُصاةَ بقوله : " لطيف " : لئلا ييأسوا من إحسانه .

ويقال : خاطَبَ الأغنياءَ بقوله : " لطيف " : ليعلموا أنه يعلم دقائقَ معاملاتهم في جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل ، وخاطَبَ الفقراءَ . بقوله : " لطيف " أي أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء .

ويقال : سماعُ قوله : " اللَّهُ " يوجبَ الهيبةَ والفزع ، وسماعُ " لطيفٌ " يوجِبُ السكونَ والطمأنينة . فسماعُ قوله : " اللَّهُ " أوجب لهم تهويلاً ، وسماع قوله : " لطيفٌ " أوجب لهم تأميلاً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعطي قَدْرَ الكفاية وفوق ما يحتاج العبدُ إليه .

ويقال : مَنْ لُطفِه بالعبد عِلْمُه بأنه لطيف ، ولولا لُطفُه لَمَا عَرَفَ أنه لطيف .

ويقال : مِنْ لُطْفِه أنه أعطاه فوق الكفاية ، وكَلَّفَه دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لُطفِه بالعبد إبهام عاقبته عليه ؛ لأنه لو علم سعادتَه لاتَّكَلَ عليه ، وأَقَلَّ عملَه ولو عَلِمَ شقاوتَه لأيِسَ ولَتَرَكَ عَمَلَه . . فأراده أن يستكثرَ في الوقت من الطاعة .

ويقال : من لطفه بالعبد إخفاءُ أَجلِه عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه . ويقال : من لطفه بالعبد انه يُنْسِيَه ما عمله في الدنيا من الزلّة ؛ لئلا يتنغَّص عليه العَيْشُ في الجنة .

ويقال : اللطيفُ مَنْ نوَّر الأسرارَ ، وحفظ على عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار .

﴿ مَن كَانَ يُرِدُ حَرْثَ الأَخِرَةِ ﴾ نَزِدْه –اليومَ– في الطاعات توفيقاً ، وفي المعارف وصفاء الحالات تحقيقاً . ونَزِدْه في الآخرة ثواباً واقترابا وفنونَ نجاةٍ وصنوفَ درجاتٍ .

﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ : مكتفياً به نؤتِه منها ما يريد ، وليس له في الآخرةِ نصب .

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21)

﴿ مَالَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ : أي ليس ذلك مما أمَرَ به ، وإنما هو افتراءٌ منهم .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ ﴾ : أي ما سبق به الحُكْمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة . . .

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ

إذا حصل الإجرام فإلى وقتٍ ما لا يُعَذِّبُهم الله في الغالب ، ولكنه لا محالةَ يعذبهم . وربما يَثْبُتُ ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسَّفون ، ويعلمون أَنَّ ذلك من الله لهم مُعَجَّلٌ قد أصابهم ، أَمَّا الكفار . . فغداً يُشْفِقُون مما يقع بهم عند ما يقرؤونه في كتابهم ، لأنَّ العذابَ – لا محالةَ – واقعٌ بهم .

(141/686)

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾ : في الدنيا جنان الوصلة ، ولذاذة الطاعة والعبادة ، وطيب الأُنسِ في أوقات الخلوة . وفي الآخرة في روضات الجنة :

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ : إنْ أرادوا دوامَ للطفِ دامَ لهم ، وإنْ أرادوا تمامَ الكشف كان لهم . . ذلك هو الفضلُ الكبير .

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

ذلك الذي يُبَشِّرُ اللَّهُ عبادَه قد مضى ذِكْرُه في القرآن متفرقاً ؛ من أوصاف الجنة وأطايبها ، وما وَعَدَ اللَّهُ من المثوبة . . . ونحو ذلك . . .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى ﴾ .

قُلْ –يا محمد – لا أسألكم عليه أجراً . مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً ، ولكنَّ اللَّهَ –وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيّه بما لهم من الكرامات الأبدية –لم يطلب عليه أجراً ؛ فاللَّهُ – سبحانه– لا يطلب عِوَضاً ، وكذلك نبيُّه – صلى الله عليه وسلم – لا يسأل أجراً ؛ فإن المؤمنَ قد أخذ من الله خُلُقاً حَسَناً . . . فمتى يطلب الرسولُ منهم أجراً ؟ ! . وهو – صلوات الله عليه – يشفع لكلِّ مَنْ آمن به ، والله – سبحانه – يعطي الثوابَ لكل مَنْ آمن به .

﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى ﴾ : أراد أن تثبت مودتك في القربى ؛ فتودّ منْ يتقرَّب إلى الله في طاعته . (1)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

تضعيف الثواب في الآخرة للواحدِ من عَشَرة إلى سبعمائة . . . هذه هي الزيادة .

ويقال : الزيادة هي زيادة التوفيق في الدنيا .

ويقال : إذا أتى زيادة في المجاهدة تفضَّلْنا بزيادة . . وهي تحقيق المشاهدة .

ويقال مَنْ يقترِفْ حسنةَ الوظائف (2) نَزِدْ له فيها حُسْنَ اللطائف .

---

(1) استغلت هذه الآية الكريمة استغلالا عقديا وسياسيا في عصور متأخرة خصوصا من جانب المتشيعين لعلى كرم الله وجهه وبيته . . وواضح أن القشيري أطلق القرابة على

كل من يتقرب إلى اللّه بالطاعة فهى عنده قرابة في اللّه ، وربما كان ذلك نتيجة سنيته وحرصه على سنيته . (أنظر مدخل اللطائف ح 1 ص 25) .

(2) المقصود بالوظائف أداء العبادات والتزام آداب الشريعة .

(142/686)

ويقال : تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه ؛ فهي مما لا يدخل تحت طَوْقِ البَشَر .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ

أي أَنَّك إنْ افتريْتَه خَتَمَ اللّهُ على قلبِكَ ، ولكنكَ لم تكذِبْ على ربّكَ .

ومعنى الآية أنَّ اللَّهَ يتصرَّف في عباده بما يشاء : مِنْ إبعادٍ وتقريب ، وإدناء وتبعيد .

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25)

﴿ وَيَعْفُواْ عِنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ الألف واللام للجنس مطلقاً ، وهي هنا للعهد ؛ أي تلك السيئات التي تكفي التوبةُ المذكورةُ في الشريعة لقبولها ؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ : من الأعمال على اختلافها .

وهو " الذي " . . . الذي من الأسماء الموصولة التي لا يتم معناها إلا بِصِلَةٍ ، فهو قد تعرَّف إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد ؛ فالزَّلَّةُ – وإن كانتْ توجِبُ للعبد

ذميمَ الصِّفَةِ – فإنَّ قبولَها يوجِبُ للحقِّ حميدَ الاسم .

ويقال : قوله : " عباده " اسم يقتضي الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه) حتى تمنَّى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حسابَ الأولين والآخرين لعلّه يقول له : عبدي . ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود في ﴿ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ؛ وإذاً فلا ينبغي لهم أن يتمنوا كذلك ، وعليهم أن أن يتوبوا لكي يَصِلوا إلى ذلك .

ويقال لمَّا كان حديثُ العفوِ عن السيئات ذكَرَها على الجمع والتصريح فقال : ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ . ثم لمَّا كان حديثُ التهديد قال : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فذكره على التلويح ؛ فلم يقل : ويعلم زلَّتك – بل قال ويعلم " ما " تفعلون ، وتدخل في ذلك الطاعةُ والزّلةُ جميعاً .

(143/686)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ .

(أي إذا دَعَوْه استجابَ لهم) بعظيم الثواب في الآخرة .

﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ يقول المفسرون من أهل السُّنَّة في هذه الزيادة إنها الرؤية .

ذَكَرَ التوبة وأهلها ، وذكر العاصين بوصفهم ، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا

الصالحات . . . فلمَّا وصل إلى الزيادة – التي هي الرؤية – قال : " ويزيدهم " على الجمع ؛ والكناية إذا تَلَتْ مذكوراتٍ رجعت إليهما جميعاً ؛ فيكون المعنى أن الطاعاتِ في مقابلها الدرجات ، وتكون بمقدارها في الزيادة والنقصان ، وأَمَّا الرؤية فسبيلها الزيادة والفضل . . . والفضل ليس فيه تمييز .

ويقال : لَمَّا ذكر أنَّ التائبين تُقْبَلُ توبتُهم ، ومَنْ لم يَتُبْ غفر زلَّته ، وأنَّ المطيعين لهم الجنة . . فلربما خَطَرَ ببالِ أَحَدٍ : وإذاً فهذه النارُ لِمَنْ هي ؟ ! فقال جل ذكره .

﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

فالعصاةُ من المؤمنين لهم عذابٌ . . امَّا الكافرون فلهم عذابٌ شديدٌ ؛ لأنَّ دليلَ الخطاب يقتضي هذا وذاك ؛ يقتضي أن المؤمنين لهم عذابٌ . . ولكنْ ليس بشديد ، وأمَّا عذابُ الكافرين فشديدٌ .

ويقال : إن لم يَتُبْ العبدُ خوفاً من النار ، ولا طمعاً في الجنة لَكَان من حقِّه أن يتوب ليَقْبَلَ الحقُّ – سبحانه .

ويقال إن العاصي يكون ابداً منكسرَ القلب ، فإذا عَلِمَ أن اللَّهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتمنى أَنْ ليت له طاعةً مُيَسَّرَةً ليقبلَها ، فيقول الحقُّ : عبدي ، إنْ لم تَكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلَكَ توبةٌ إنْ أتيْتَ بها تصلح لقبولها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 346 . 353 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ حم عسق ﴾

روي عن ابن عباس أنه قال : الحاء حكم الله ، والميم ملك الله ، والعين علو الله ، والسين سناء الله ، والقاف قدرة الله .

فكأنه يقول : فبحكمي ، وملكي ، وعلوي ، وسنائي ، وقدرتي ، لا أعذب عبداً قال : لا إله إلا الله ، مخلصاً ، فلقيني بها .

ومعنى قول ابن عباس : لا يعذب عبداً يعني : لا يعذبه عذاباً دائماً ، خالداً .

وروى المسيب عن رجل ، عن أبي عبيدة ، قال : العين عذاب الله ، والسين سنون ، والقاف فيها القحط العجب .

قال : وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " افْتَحُوا صِبْيَانُكُمْ قَوْلَ لا إله إلاَّ الله ، وَلَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لا إله إلاَّ الله " الحِكْمَةُ فِي ذلك ، لأن حال الصبيان حال حسن ، لا غل ، ولا غش في قلوبهم ، وحال الموتى حال الاضطرار .

فإذا قلتم ذلك في أول ما يجري عليكم القلم ، وآخر يجف القلم فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك .

قال المسيب : وحدثنا محدث قال : قاف قذف ؛ وقال الضحاك : في قوله : ﴿ حم عسق ﴾ قال : قضى عذاب سيكون واقعاً ، وأرجو أن يكون قد مضى يوم بدر ، والسنون .

وقال شهر بن حوشب : ﴿ حم عسق ﴾ حرب يذل فيه العزيز ، ويعز فيه الذليل من قريش ، ثم يفضي إلى العرب ، ثم إلى العجم ، ثم هي متصلة إلى خروج الدجال .

وقال عطاء : الحاء حرب ، وهو موت ذريع في الناس ، وفي الحيوان ، حتى يبيدهم ، ويفنيهم ، والميم تحويل ملك من قوم إلى قوم ، والعين عدو لقريش يركبهم ، ثم ترجع الدولة إليهم بحرمة البيت ، والسين هو استئصال بالسنين كسني يوسف ، والقاف قدر من الله نافذ في ملكوت الأرض ، لا يخرجون من قدره ، وهو نافذ فيهم .

وقال السدي : الحاء حلمه ، والميم ملكه ، والعين عظمته ، والسين سناؤه ، والقاف قدرته .

وقال قتادة : هو اسم من أسماء الله تعالى .

ويقال اسم من أسماء القرآن .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني : أوحى الله إليك ب ﴿ حم عسق ﴾ كما أوحى الله بها إلى الذين كانوا من قبلك .

وقال ابن عباس : ليس من نبي وإلا وقد أوحى الله تعالى إليه ب ﴿ حم عسق ﴾ كما أوحى الله بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قرأ ابن كثير : ﴿ يوحى إِلَيْكَ ﴾ بالألف ، على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

وقرأ الباقون : ﴿ يُوحِي ﴾ بالكسر .

يعني : هكذا يوحي الله إليك .

وقرىء في الشاذ (نوحي) بالنون .

ثم قال : ﴿ الله العزيز ﴾ بالنقمة على من لم يجب الرسل ، ﴿ الحكيم ﴾ حكم بإنزال الوحي عليك .

وقال مقاتل : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني : في أمر العذاب .

قوله عز وجل : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ يعني : من خلق ، ﴿ وَهُوَ العلى ﴾ يعني : لرفعي ﴿ العظيم ﴾ فلا شيء أعظم منه .

يعني : عظيم قدرته .

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ ﴾ يعني : يتشققن ، ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ يعني : تكاد

أن يتشققن من قدرة الله ، وهيبته .

يعني : من هيبة الرحمن ، وجلاله ، وعظمته .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، وعاصم ، في رواية حفص : ﴿ تَكَادُ السموات ﴾ بالتاء ، بلفظ التأنيث ، ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ بالتاء بلفظ التأنيث .

وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، في رواية أبي بكر : ﴿ تَكَادُ ﴾ بالتاء بلفظ التأنيث ، ﴿ يَتْفَطِرْنَ ﴾ بالنون .

وقرأ الباقون : بالياء بلفظ التذكير ﴿ السماوات يَتَفَطَّرْنَ ﴾ بالياء .

ثم قال : ﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : يسبحونه ، ويذكرونه ، ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض ﴾ يعني : للمؤمنين .

(146/686)

وروى داود بن قيس قال : دخلت على وهب بن منبه ، فَسُئِلَ عن قوله : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ [غافر : 7] قال : للمؤمنين منهم .

وفي رواية أنه قال : نسختها الآية التي في سورة المؤمن حيث قال : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ [غافر : 7] .

وروى معمر عن قتادة قال : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض ﴾ قال : للمؤمنين منهم .

قال أبو الليث رحمه الله : هذا الذي روي عن قتادة أصح ، لأن النسخ في الأخبار لا يجوز ، وإنما في الأمر ، والنهي .

ثم قال : ﴿ أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور ﴾ لذنوبهم ، ﴿ الرحيم ﴾ بهم في الرزق .

ويقال : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض ﴾ يعني : يسألون لهم الرزق .

قوله عز وجل : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ يعني : عبدوا من دون الله ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ يعني : أصناماً .

﴿ الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : يحفظ أعمالهم ، ويقال : شهيد عليهم ، ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ يعني : بمسلط ، لتجبرهم على الإيمان .

وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ يعني : هكذا أنزلنا عليك جبريل بالقرآن ، ليقرأ عليك القرآن بلغتهم ، ليفهموه .

﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ يعني : لتخوف بالقرآن أهل مكة ، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من البلدان ، ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ يعني : لتنذرهم بيوم القيامة .

(147/686)

والباء محذوفة منه كما قال : ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ يعني : ببأس شديد .

وإنما سمي يوم الجمع ، لأنه يجتمع فيه أهل السماء ، وأهل الأرض كلهم ، من الأولين والآخرين .

﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ يعني : يوم القيامة لا شك فيه أنه كائن .

﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة ﴾ وهم المؤمنون ، ﴿ وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ وهم الكافرون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء الله لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ يعني : على ملة واحدة ، وهو الإسلام .

﴿ ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِى رَحْمَتِهِ ﴾ يعني : يكرم بدينه من يشاء ، من كان أهلاً لذلك ، ويدخله في الآخرة في رحمته .

أي : في جنته ﴿ والظالمون مَا لَهُمْ مِّن وَلِىّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يعني : الكافرين ليس لهم مانع يمنعهم من العذاب ، ولا ناصر ينصرهم .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ يعني : عبدوا من دون الله أربابا ، ﴿ فالله هُوَ الولى ﴾ يعني : هو أولى أن يعبدوه .

ويقال : الله هو الولي .

يعني : هو الرب ، وهو إله السموات ، وإله الأرض .

ويقال : هو الولي لمصالحهم ، ينزل المطر بعد المطر ، ﴿ وَهُوَ يُحْيِ الموتى ﴾ يعني : يحيهم بعد الموت .

ويقال : يحيي قلوبهم بالمعرفة ، ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني : قادر على ما يشاء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَىْءٍ ﴾ يعني : إذا اختلفتم في أمر الدين ، ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ يعني : علمه عند الله ، ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبِّى ﴾ يعني : الذي ذكر هو الله ربي ، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يعني : فوضت أمري إليه سبحانه ، ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ يعني : أقبل إلى الله تعالى بالطاعة .

﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ يعني : هو خالق السموات والأرض ، ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعني : أصنافاً ذكراً ، وأنثى ، ﴿ وَمِنَ الأنعام أزواجا ﴾ يعني : أصنافاً ، ذكراً ، وأنثى .

وقال القتبي : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعني : من جنسكم إناثاً ، ﴿ وَمِنَ الأنعام أزواجا ﴾ يعني : إناثاً ، ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ يعني : يخلقكم فيه .

أي : من الرحم .

وقال الكلبي : ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ يعني : يكثرهم في التزويج .

وقال مقاتل : يعيشكم فيما جعل لكم من الذكور والإناث من الأنعام .

ثم قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ في القدرة .

وقال أهل اللغة : هذا الكاف مؤكدة .

أي : ليس مثله شيء .

ويقال : المثل صلة في الكلام .

يعني : ليس هو كشيء ، ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ يعني : هو السميع لمقالتهم ، البصير بهم وبأعمالهم .

ومعنى الآية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ لأنه الخالق ، العالم بكل شيء ، والقادر على ما يشاء ، ﴿ الله لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ الحى القيوم لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات والأرض وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العلى العظيم ﴾ [

البقرة : 255] وهذه المعاني بعيدة من غيره .

ثم قال عز وجل : ﴿ لَّهُ مَقَالِيد السموات والأرض ﴾ يعني : خزائن السموات والأرض وهو المطر ، وخزائن الأرض وهو النبات ، ﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء ﴾ يعني : يوسع الرزق على من كان صلاحه في ذلك ، ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يعني : يقتر على من كان صلاحه في ذلك ، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من البسط ، والتقتير .

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين ﴾ قال مقاتل : أي بيّن لكم الدين ، وهو الإسلام .

و ﴿ مِنْ ﴾ ها هنا صلةِ وقال الكلبي : اختار لكم من الدين .

ومعناه : اختار لكم ديناً من الأديان ، وأكرمكم به .

(149/686)

ثم قال : ﴿ مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ يعني : الدين الذي أمر به نوحاً أن يدعو الخلق إليه ، وأن يستقيم عليه ، ﴿ والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني : الذي أوحينا إليك بأن تدعو الناس إليه : ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ ﴾ يعني : والدين الذي أمرنا به ﴿ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى ﴾ ثم بيّن ما أمرهم به ، فقال : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ يعني : أقيموا التوحيد ، ﴿ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ يعني : لا تختلفوا في التوحيد ، ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين ﴾ يعني : على مشركي مكة ﴿ مَا

تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ وهو التوحيد .

وقال أبو العالية : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ قال : الإخلاص لله في عبادته ، لا شريك له ، ولا تتفرقوا فيه .

قال : لا تتعالوا فيه ، وكونوا عباد الله إخواناً ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ يعني : الإخلاص لله تعالى .

ويقال : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ يعني : ارفقوا في الدين .

اتفقوا ولا تتفرقوا فيه .

يعني : لا تختلفوا فيه ، كما اختلف أهل الكتاب .

ثم قال : ﴿ الله يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاء ﴾ أي : يختار لدينه من يشاء ، من كان أهلاً لذلك ، ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ يعني : يرشد إلى دينه ، من يقبل إليه .

ويقال : يهدي من كان في علمه السابق أنه يتوب ويرجع .

ويقال : ﴿ مَن يُنِيبُ ﴾ يعني : من يجتهد بقلبه .

كما قال : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ ﴾ يعني : مشركي مكة ما تفرقوا في الدين ، ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ في كتابهم .

يعني : جاءهم محمد بالبينات .

ويقال : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ ﴾ يعني : أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم في كتابهم .

يعني : من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : حسداً فيما بينهم ، لأنه كان من العرب .

(150/686)

وروى معمر عن قتادة أنه تلى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ قال : إياكم والفرقة فإنها مهلكة .

وروي في الخبر : " إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةً وآفَةُ الدِّينِ الهَوَى " .

ثم قال : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني : بتأخير العذاب إلى وقت معلوم .

﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : لفرغ منهم بالهلاك .

﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب ﴾ يعني : أعطوا التوراة ، والإنجيل ، ﴿ مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ يعني : من بعد نوح ، وإبراهيم .

وقال مقاتل : يعني : من بعد الأنبياء ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ يعني : من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي : ظاهر الشك .

وقوله تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فادع ﴾ يعني : فإلى ذلك ادعهم يعني : إلى القرآن ، ويقال : إلى

التوحيد ﴿ واستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ يعني : استقم عليه كما أمر ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ يعني : لا تعمل بهواهم ، وذلك حين دعوه إلى ملة آبائه ﴿ وَقُلْ ءامَنتُ ﴾ يعني : صدقت ﴿ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كتاب ﴾ يعني : بجميع ما أنزل الله من الكتب عليَّ وعلى من كان قبلي ﴿ وَأُمِرْتُ لِاعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ وهو الدعوة إلى التوحيد ، وإلى قول : لا إله إلا الله ﴿ الله رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ يعني : خالقنا وخالقكم ﴿ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم ﴾ يعني : لنا ديننا ، ولكم دينكم ﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ يعني : لا خصومة بيننا وبينكم ، يوم القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ يعني : إليه المرجع في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِى الله ﴾ يعني : يخاصمون في توحيد الله ودين الله ﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ يعني : من بعد ما أجابوا إياه ، أي : بعد ما أجاب المؤمنون بتوحيد الله لنبيه .

(151/686)

وقال مجاهد : طمع رجال بأن يعودوا إلى الجاهلية فنزل ﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِى الله ﴾ إلى قوله : ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ وروى معمر عن قتادة قال : والذين يحاجون في الله ، يعني : في دينه قال : هم اليهود ، والنصارى .

قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم .

فنزل ﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِى الله ﴾ أي : في دين الله ﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ يعني : من بعد ما دخل الناس في الإسلام ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ يعني : خصومتهم باطلة .

ويقال : احتجاجهم زائل ، ساقط .

يقال دحض أي : زال ، ومعناه : ليس لهم حجة .

وسمى قولهم حجة على وجه المجاز ، يعني : حجتهم كما قال : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءالِهَتُهُمُ ﴾ يعني : الآلهة بزعمهم ، ولم يكونوا آلِهَة في الحقيقة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ يعني : كما يكابرون عقولهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بما كانوا يفعلون .

قوله عز وجل : ﴿ الله الذى أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ أي : لبيان الحق ، وأنزل الميزان وهو العدل ويقال : وأنزل الميزان في زمان نوح .

ويقال : هي الحدود والأحكام والأمر والنهي .

قوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ يعني : قيام الساعة قريب .

وهذا كقوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل قريبة ، لأن تأنيثها ليس بحقيقي ، ولأنه انصرف إلى المعنى ، يعني : للبعث .

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ يعني : إنَّ المشركين كانوا يقولون : ﴿ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ ويقولون : ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ ﴿ والذين

ءامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ يعني : خائفين من قيام الساعة ، لأنهم يعلمون أنهم مبعوثون ، محاسبون ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ يعني : يعلمون أن الساعة كائنة .

(152/686)

﴿ أَلاَ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِى الساعة ﴾ يعني : يشكون ويخاصمون فيها .

﴿ لَفِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ أي : في خطأ طويل ، بعيد عن الحق .

قوله عز وجل : ﴿ الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ يعني : عالم بعباده .

ويقال : رحيم بعباده ، ويقال اللطيف الذي يرزقهم في الدنيا ، ولا يعاقبهم في الآخرة .

ويقال : اللطيف بعباده ، بالبر ، والفاجر لا يهلكهم جوعاً ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاء ﴾ بغير حساب .

ويقال يرزق من يشاء ، مقدار ما يشاء ، في الوقت الذي يشاء ﴿ وَهُوَ القوى ﴾ على هلاكهم .

﴿ العزيز ﴾ يعني : المنيع لا يغلبه أحد .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة ﴾ يعني : ثواب الآخرة بعمله .

﴿ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ يعني : ينال كليهما ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا ﴾ يعني : ثواب

الدنيا بعمله .

﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ يعني : نعطه منها .

﴿ وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ لأنه عمل لغير الله تعالى .

قال أبو الليث رحمه الله : حدّثنا الفقيه أبو جعفر ، قال : حدّثنا محمد بن عقيل قال : حدّثنا محمد بن إسماعيل الصايغ قال : حدّثنا الحجاج قال : حدّثنا شعبة ، عن عمر بن سليمان ، عن عبد الرحمن بن أبان ، عن أبيه ، عن زيد بن ثابت ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الآخِرَةَ جَمَعَ الله شَمْلَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا ، فَرَّقَ الله عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَهُ " .

وقال القتبي : الحرث في اللغة العمل .

يعني : من كان يريد بحرثه ، أي : بعمله ﴿ الآخرة ﴾ نضاعف له الحسنات .

ومن أراد بعمله الدنيا أعطيناه ولا نصيب له في الآخرة .

قوله عز وجل : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ يعني : ألهم آلهة دوني .

(153/686)

﴿ شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدين ﴾ أي : بينوا لهم من الدين ﴿ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ يعني : ما لم يأمر به .

ويقال : معناه ألهم آلهة ابتدعوا لهم من الدين .

أي : من الشريعة والطريقة .

ويقال : سنوا لهم ما لم يأذن به الله ، يعني : ما لم ينزل به الله من الكتاب والدين ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ يعني : القضاء الذي سبق ، ألا يعذب هذه الأمة ، ويؤخر عذابهم إلى الآخرة .

﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : أنزل بهم العذاب في الدنيا ﴿ وَإِنَّ الظالمين ﴾ يعني : المشركين .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ تَرَى الظالمين ﴾ يعني : ترى الكافرين يوم القيامة .

﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ يعني : خائفين مما عملوا في الدنيا ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ يعني : نازل بهم ما كانوا يحذرون .

﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : الذين صدقوا بالتوحيد ، وأدّوا الفرائض ، والسنن ﴿ فِى روضات الجنات ﴾ يعني : في بساتين الجنة .

﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ من الكرامة .

﴿ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ يعني : المن العظيم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الذى يُبَشّرُ الله ﴾ يعني : ذلك الثواب الذي يبشر الله ﴿ عِبَادِهِ ﴾

في الدنيا قرأ حمزة ، والكسائي ، وابن كثير ، وأبو عمرو ﴿ يُبَشّرُ ﴾ بنصب الياء ، وجزم الباء ، وضم الشين مع التخفيف .

والباقون بالتشديد وقد ذكرناه ﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : يبشرهم بتلك الجنة ، وبذلك الثواب ثم قال : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ يعني : قل يا محمد لأهل مكة ، لا أسألكم عليه أجراً ، أي على ما جئتكم به أجراً ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ قال مقاتل : يعني : إلا أن تصلوا قرابتي ، وتكفوا عني الأذى .

ثم نسخ بقوله : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مّن أَجْرٍ لَكُمْ ﴾ ويقال : ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ يعني : إلاَّ ، ألاَّ تؤذوني بقرابتي منكم .

(154/686)

قال ابن عباس : ليس حي من أحياء العرب إلا وللنبي عليه السلام فيه قرابة .

وقال الحسن : إلا المودة في القربى ، يعني : إلا أن تتوددوا إلى الله تعالى ، بما يقربكم منه ، وهكذا قال مجاهد ، وقال سعيد بن جبير : إلا المودة في القربى ، يعني : إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم .

ثم قال : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ يعني : يكتسب حسنة ، ﴿ نَزِدْ فِيهَا حُسْناً ﴾ يعني :

للواحد عشرة .

ويقال : نزد له التوفيق في الدنيا ، ونضاعف له الثواب في الآخرة .

﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ يعني : غفور لمن تاب ، شكور يقبل اليسير ، ويعطي الجزيل .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ يعني : تقوله من ذات نفسه ، ولم يأمره الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ يعني : يحفظ قلبك ، حتى لا تدخل في قلبك المشقة والأذى من قولهم : ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الباطل ﴾ يعني : يهلك الله تعالى الشرك ﴿ وَيُحِقُّ الحق ﴾ يعني : يظهر دينه الإسلام ﴿ بكلماته ﴾ يعني : بتحقيقه ، وبنصرته ، وبالقرآن ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يعني : يعلم ما في قلب محمد صلى الله عليه وسلم من الحزن ، ويعلم ما في قلوب الكافرين من التكذيب .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ حتى يتجاوز عما عملوا قبل التوبة .

وروى عبد العزيز بن إسماعيل ، عن محمد بن مطرف قال : " يقول الله تعالى : وَيْحَ ابْنَ آدَمَ ، يُذْنِب الذَّنْبَ ثُمَّ يَسْتَغْفِر ، فَأَغْفِرَ لَهُ ، ثُمَّ يُذْنِبُ ذَنْباً ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ ، فأَغْفِرَ لَهُ ، ثُمَّ يُذْنِبُ ذَنْباً ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ ، فَأَغْفِرَ لَهُ لاَ هُوَ يَتْرك ذُنُوبَهُ ، وَلاَ هُوَ يَيْأَس مِن رَّحْمَتِي .

أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ " ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من خير أو شر .

(155/686)

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص ﴿ تَفْعَلُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة ، والباقون بالياء على معنى الخبر عنهم ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : يجيب دعاءهم ، ويعطيهم أكثر ما سألوا من المغفرة ﴿ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ يعني : يزيدهم على أعمالهم من الثواب .

ويقال : يعطيهم الثواب في الجنة ، أكثر مما سألوا ﴿ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني : دائماً لا يفتر عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 223 . 231 ﴾

(156/686)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حم عسق ﴾

فيه سبعة تأويلات .

أحدها : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

الثاني : أنه اسم من أسماء الله أقسم به ، قاله ابن عباس .

الثالث : فواتح السور ، قاله مجاهد .

الرابع : أنه اسم الجبل المحيط بالدنيا ، قاله عبد الله بن بريدة .

الخامس : أنها حروف مقطعة من أسماء الله فالحاء والميم من الرحمن والعين من العليم ، والسين من القدوس ، والقاف من القاهر ، قاله محمد بن كعب . السادس : أنها حروف مقطعة من حوادث آتية ، فالحاء من حرب والميم من تحويل ملك ، والعين من عدو مقهور ، والسين من استئصال سنين كسني يوسف ، والقاف من قدرة الله في ملوك الأرض ، قاله عطاء .

السابع : ما حُكي عن حذيفة بن اليمان أنها نزلت في رجلٍ يقال له عبد الإله كان في مدينة على نهر بالمشرق خسف الله بها ، فذلك قوله حم يعني عزيمة من الله تعالى ، عين يعني عدلاً منه : سين يعني سكون ، قاف يعني واقعاً بهم .

وكان ابن عباس يقرؤها : ﴿ حم سق ﴾ بغير عين ، وهي في مصحف ابن مسعود كذلك حكاه الطبري .

قوله عز وجل : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يتشققن فَرَقاً من عظمة الله ، قاله الضحاك والسُّدي ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

ليت السماء تفطرت أكنافها . . . وتناثرت منها نجوم

الثاني : من علم الله ، قاله قتادة .

الثالث : ممن فوقهن ، قاله ابن عباس .

الرابع : لنزول العذاب منهن .

﴿ وَالْمَلآئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بأمر ربهم ، قاله السدي .

الثاني : بشكر ربهم .

وفي تسبيحهم قولان :

أحدهما : تعجباً مما يرون من تعرضهم لسخط الله ، قاله علي رضي الله عنه .

الثاني : خضوعاً لما يرون من عظمة الله ، قاله ابن عباس .

﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لمن في الأرض من المؤمنين ، قاله الضحاك والسدي .

(157/686)

الثاني : للحسين بن علي رضي الله عنهما ، رواه الأصبغ بن نباتة عن علي كرم الله وجهه .

وسبب استغفارهم لمن في الأرض ما حكاه الكلبي أن الملائكة لما رأت الملكين اللذين اختبرا وبعثا إلى الأرض ليحكما بينهم ، فافتتنا بالزهرة وهربا إلى إدريس وهو جد أبي نوح عليه السلام ، وسألاه أن يدعو لهما سبحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم .

وفي استغفارهم قولان :

أحدهما : من الذنوب والخطايا . وهو ظاهر قول مقاتل .

الثاني : أنه طلب الرزق لهم والسعة عليهم ، قاله الكلبي .

وفي هؤلاء الملائكة قولان :

أحدهما : أنهم جميع ملائكة السماء وهو الظاهر من قول الكلبي .

الثاني : أنهم حملة العرش . قال مقاتل وقد بين الله ذلك من حم المؤمن فقال ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَن حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ ﴾ وقال مطرف : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشياطين .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال الضحاك أهل دين واحد أهل ضلالة أو أهل هدى .

﴿ وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قال أنس بن مالك : في الإسلام .

﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ ﴾ يمنع ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع .

قوله عز وجل : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ يعني ذكوراً وإناثاً .

﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ﴾ يعني ذكوراً وإناثاً .

﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ وفيه ستة تأويلات :

أحدها : يخلقكم فيه ، قاله السدي .

الثاني : يكثر نسلكم فيه ، قاله الفراء .

الثالث : يعيشكم فيه ، قاله قتادة .

الرابع : يرزقكم فيه ، قاله ابن زيد .

الخامس : يبسطكم فيه ، قاله قطرب .

السادس : نسلاً من بعد نسل من الناس والأنعام ، قاله مجاهد .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ليس كمثل الرجل والمرأة شيء ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

الثاني : ليس كمثل الله شيء وفيه وجهان :

أحدهما : ليس مثله شيء والكاف زائدة للتوكيد ، قال الشاعر :

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم . . . ما إن كمثلهم في الناس من أحد

الثاني : ليس شيء ، والمثل زائد للتوكيد ، قاله ثعلب .

قوله عز وجل : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : خزائن السموات والأرض ، قاله السدي .

الثاني : مفاتيح السموات والأرض ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

ثم فيهما قولان :

أحدهما : أنه المفاتيح بالفارسية ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه عربي جمع واحده إقليد ، قاله ابن عيسى .

وفيما هو مفاتيح السموات والأرض خمسة أقاويل :

أحدها : أن مفاتيح السماء المطر ومفاتيح الأرض النبات .

الثاني : أنها مفاتيح الخير والشر .

الثالث : أن مقاليد السماء الغيوب ، ومقاليد الأرض الآفات .

الرابع : أن مقاليد السماء حدوث المشيئة ، ومقاليد الأرض ظهور القدرة .

الخامس : أنها قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل

شيء قدير ، رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قاله وعلمه لعثمان بن عفان وقد سأله عن مقاليد السماء والأرض .

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يوسع ويضيق .

الثاني : يسهل ويعسر .

﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من البسط والقدرة .

قوله عز وجل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ﴾ وفي ﴿ شَرَعَ لَكُم ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : سن لكم .

الثاني : بيَّن لكم .

الثالث : اختار لكم ، قاله الكلبي .

الرابع : أوجب عليكم .

﴿ مِنَ الدِّينِ ﴾ يعني الدين ومن زائدة في الكلام .

وفي ﴿ مَا وَصَّى بِهِ نوحاً ﴾ وجهان :

أحدهما : تحريم الأمهات والبنات والأخوات ، لأنه أول نبي أتى أمته بتحريم . ذلك ، قاله

الحكم.

الثاني: تحليل الحلال وتحريم الحرام، قاله قتادة.

(159/686)

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: اعملوا به، قاله السدي.

الثاني: ادعوا إليه. قال مجاهد: دين الله في طاعته وتوحيده واحد.

ويحتمل وجهاً ثالثاً: جاهدوا عليه من عانده.

﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: لا تتعادوا عليه، وكونوا عليه إخواناً، قاله أبو العالية.

الثانية: لا تختلفوا فيه فإن كل نبي مصدق لمن قبله، قاله مقاتل.

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ قاله قتادة: من شهادة أن لا إله إلا الله.

ويحتمل أن يكون من الاعتراف بنبوته، لأنه عليهم أشد وهم منه أنفر.

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ الآية. فيه وجهان:

أحدهما : يجتبي إليه من يشاء هو من يولد على الإسلام .

﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ هو من يسلم من الشرك ، قاله الكلبي .

الثاني : يستخلص إليه من يشاء . قاله مجاهد ويهدي إليه من يقبل على طاعته ، قاله السدي .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن محمد صلى الله عليه وسلم .

الثاني : في القرآن .

﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءهُمُ الْعِلْمُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إلا من بعد ما تبحروا في العلم ، قاله الأعمش .

الثاني : إلا من بعد ما علموا أن الفرقة ضلال ، قاله ابن زياد .

الثالث : إلا من بعد ما جاءهم القرآن ، وسماه علماً لأنه يتعلم منه .

﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لابتغاء الدنيا وطلب ملكها ، قاله أُبي بن كعب .

الثاني : لبغي بعضهم على بعض ، قاله سعيد بن جبير .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في رحمته للناس على ظلمهم .

الثاني : في تأخير عذابهم ، قال قتادة .

﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى قيام الساعة لأن الله تعالى يقول : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُم ﴾ الآية .

(160/686)

ويحتمل إلى الأجل الذي قُضِيَ فيه بعذابهم .

﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لعجل هلاكهم .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم اليهود والنصارى ، قاله السدي .

الثاني : أنهم نبئوا من بعد الأنبياء ، قاله الربيع .

﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لفي شك من القرآن ، قاله الربيع .

الثاني : لفي شك من الإخلاص ، قاله أبو العالية .

الثالث : لفي شك من صدق الرسول ، قاله السدي .

قوله عز وجل : ﴿ فَلِذَالِكَ فَادْعُ ﴾ معناه فإلى ذلك فادع ، وفي المراد بذلك وجهان :

أحدهما : القرآن ، قاله الكلبي .

الثاني : التوحيد ، قاله مقاتل .

وفي قوله : ﴿ فَادْعُ ﴾ وجهان :

أحدهما : فاعتمد .

الثاني : فاستدع .

﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ . . . ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : واستقم على أمر الله ، قاله قتادة .

الثاني : على القرآن ، قاله سفيان .

الثالث : فاستقم على تبليغ الرسالة ، قاله الضحاك .

وفي قوله : ﴿ . . . وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ وجهان :

أحدهما : في الأحكام .

الثاني : في التبليغ .

وفي قوله : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : لا خصومة بيننا وبينكم ، قاله مجاهد ، قال السدي : وهذه قبل السيف ، وقبل أن يؤمر بالجزية .

الثاني : معناه فإنكم بإظهار العداوة قد عدلتم عن طلب الحجة ، قاله ابن عيسى .

الثالث : معناه إنا قد أعذرنا بإقامة الحجة عليكم فلا حجة بيننا وبينكم نحتاج إلى إقامتها عليكم .

وقيل إن هذه الآية نزلت في الوليد ابن المغيرة وشيبة بن ربيعة وقد سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوجه شيبة بابنته .

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : في توحيد الله عز وجل .

(161/686)

الثاني : أنهم اليهود قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم ، قاله قتادة .

﴿ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من بعد ما أجابه الله إلى إظهاره من المعجزات .

الثاني : من بعد ما أجاب الله الرسول من المحاجة .

الثالث : من بعد ما استجاب المسلمون لربهم وآمنوا بكتابه ورسوله ، قاله ابن زيد .

﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : باطلة ، قاله ابن عيسى .

الثاني : خاسرة ، قاله ابن زيد .

قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : بالمعجز الدال على صحته .

الثاني : بالصدق فيما أخبر به من ماض ومستقبل .

﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

الثاني : أنه العدل فيما أمر به ونهى عنه ، قاله قتادة .

الثالث : أنه الميزان الذي يوزن به ، أنزله الله من السماء وعلم عباده الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ، قال قتادة : الميزان العدل . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فلم يخبره بها ، ولم يؤنث قريب لأن الساعة تأنيثها غير حقيقي لأنها كالوقت .

قوله عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ الآية . فيه وجهان :

أحدهما : أن الله تعالى يعطي على نية الآخرة من شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا ، قاله قتادة .

الثاني : معناه من عمل للآخرة أعطاه الله بالحسنة عشر أمثالها ، ومن عمل للدنيا لم يزد

على من عمل لها . ﴿ وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ في الجنة وهذا معنى قول ابن زيد وشبه العامل الطالب بالزارع لاجتماعهما في طلب النفع .

قوله عز وجل : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ فيه خمسة أوجه :

(162/686)

أحدها : معناه ألا تؤذوني في نفسي لقرابتي منكم ، وهذا لقريش خاصة لأنه لم يكن بطن من قريش إلا بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو مالك .

الثاني : معناه إلا أن تؤدوا قرابتي ، وهذا قول علي بن الحسين وعمرو بن شعيب والسدي .

وروى مقسم عن ابن عباس قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيئاً فخطب فقال للأنصار " أَلَمْ تَكُونُواْ أَذِلاَّءَ فَأَعِزَّكُمُ اللَّهُ بِي ؟ أَلَمْ تَكُونُوا ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي ؟ أَلَمْ تَكُونُوا خَائِفِينَ فَأَمَّنَكُمُ اللَّهُ بِي ؟ أَلاَ تَرُدُّواْ عَلَيَّ " فقالواْ : بم نجيبك ؟ فقال تَقُولُونَ : " أَلَمْ يَطْرُدْكَ قَوْمُكَ فَآوَيْنَاكَ ؟ أَلَمْ يُكَذِّبْكَ قَوْمَكَ فَصَدَّقْنَاكَ ؟ " فعد عليهم ، قال : فجثوا على ركبهم وقالواْ : أنفسنا وأموالنا لك " . فنزلت ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ .

الثالث : معناه إلا أن توادوني وتوازروني كما توادون وتوازرون قرابتكم ، قاله ابن زيد .

الرابع : معناه إلا أن تتوددوا وتتقربوا إلى الله بالطاعة والعمل الصالح ، قاله الحسن ، وقتادة .

الخامس : معناه إلا أن تودوا قرابتكم وتصلوا أرحامكم ، قاله عبد الله بن القاسم .

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أي يكتسب ، وأصل القرف الكسب .

﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ أي نضاعف له بالحسنة عشراً .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : غفور للذنوب ، شكور للحسنات ، قاله قتادة .

الثاني : غفور لذنوب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شكور لحسناتهم ، قاله السدي .

قوله عز وجل : ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أي ينسيك ما قد آتاك من القرآن ، قاله قتادة .

الثاني : معناه يربط على قلبك فلا يصل إليه الأذى بقولهم افترى على الله كذباً ، قاله مقاتل .

(163/686)

الثالث : معناه لو حدثت نفسك أن تفتري على الله كذباً لطبع الله على قلبك ، قاله ابن عيسى .

﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ينصر دينه بوعده .

الثاني : يصدق رسوله بوحيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(164/686)

وقال الثعلبى :

﴿ حم* عسق ﴾

سمعت أبا إسحاق يقول : سمعت أبا عثمان بن أبي بكر المقري الزعفراني ، يقول : سمعت شيخي يقول : سمعت أبا بكر المؤمن يقول : سألت الحسين بن الفضل لِمَ قطّع ﴿ حم* عسق ﴾ ولم تقطّع ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] ، و ﴿ المر ﴾ [الرعد : 1] و ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1] ؟ .

قال : لكونها من سور أوائلها ﴿ حم ﴾ ، فجرت مجرى نظائرها ، قبلها وبعدها ، وكان ﴿ حم ﴾ مبتدأ ، و ﴿ عسق ﴾ خبره ، ولأنّها آيتان ، وعدت أخواتها الّتي كتبت

موصولة آية واحدة .

وقيل : لأنّ أهل التأويل لم يختلفوا في ﴿ كهيعص ﴾ وأخواتها ، إنّها حروف التهجي لا غيره ، وإختلفوا في ﴿ حم ﴾ ، فأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلوها فعلاً ، وقالوا ، معناه ﴿ حم ﴾ ، أي قضي ما هو كائن إلى يوم القيامة .

(165/686)

فأمّا تفسيرها أخبرنا عقيل بن محمد بن أحمد الفقيه : إنّ أبا الفرج المعافى بن زكريا القاضي ، أخبرهم عن محمد بن جرير ، حدثني أحمد ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي ، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج ، عن أرطأة بن المنذر ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس ، فقال له وعنده حذيفة بن اليمان : أخبرني عن تفسير قول الله تعالى : ﴿ حم* عسق ﴾ قال : فأطرق ثمّ أعرض عنه ، ثمّ كرّر مقالته ، فلم يجيبه بشيء ، وكرّر مقالته ، ثمّ كرّر الثالثة ، فلم يجيبه شيئاً ، فقال له حذيفة : أنا أنبئك بها ، قد عرفت لِمَ كرهها ، نزلت في رجل من أهل بيته ، يقال له : عبد الاله أو عبد الله ، ينزل على نهر من أنهار المشرق ، يبني عليه مدينتان يشق النهر بينهما شقا ، فإذا أذن الله تعالى في زوال ملكهم انقطاع دولتهم ومدّتهم ، بعث الله تعالى على احداهما ناراً ليلاً ، فتصبح سوداء مظلمة قد

احترقت كلّها لم تكن مكانها ، وتصبح صاحبتها متعجبة كيف أفلتت ، فما هو إلاّ بياض يومها ذلك حتّى يجمع فيها كلّ جبّار عنيد منهم ، ثمّ يخسف الله تعالى بها وبهم جميعاً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ حم* عسق ﴾ . يعني عزيمة من الله وفتنة وقضاء ﴿ حم* عسق ﴾ عدلاً منه ، سين سيكون فتنة ، قاف واقع بهما بهاتين المدينتين .

ونظير هذا التفسير ما أخبرنا عبد الله بن أحمد بن محمد ، أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسن ، حدثنا عبد الله بن مخلد ، حدثنا إسحاق بن بشر الكاهلي ، حدثنا عمار بن سيف الضبي أبو عبد الرّحمن ، عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدي عن جرير بن عبد الله ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصّراة تجتمع فيها جبابرة أهل الأرض ، تجبى إليها الخزائن ، يخسف بها ، وقال مرة : يخسف بأهلها ، فلهي أسرع ذهاباً في الأرض من الوتد الحديد في الأرض الرخوة " .

(166/686)

وذكر عن ابن عباس إنّه كان يقرأ (حم سق) بغير عين ، ويقال : إنّ السين فيها كلّ فرقة كائنة ، وإنّ القاف كلّ جماعة كائنة ، ويقول : إنّ علياً إنّما كان يعلم الفتن بهما ، وكذلك هو في مصحف عبد الله (حم سق) .

وقال عكرمة : سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله : ﴿ حم* عسق ﴾ .

فقال : (ح) حلمه ، (م) مجده ، (عين) علمه ، (سين) سناه ، (ق) قدرته ، أقسم الله تعالى بها .

وفي رواية أبي الجوزاء إنّ ابن عباس ، قال لنافع : (عين) فيها عذاب ، (سين) فيها مسخ ، (ق) فيها قذف . يدلّ عليه ما روي في حديث مرفوع إنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية عرفت الكآبة في وجهه ، فقيل له : ما هذه الكآبة يا رسول الله ؟ قال : " أخبرت ببلاء ينزل في أمتي . من خسف ومسخ وقذف ، ونار تحشرهم وريح تقذفهم في اليم ، وآيات متتابعات متصلة بنزول عيسى (عليه السلام) ، وخروج الدجال " .

وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبي رباح : (ح) حرب يعز فيها الذليل ويذل فيها العزيز في قريش ، ثمّ تُقضى إلى العرب ، ثمّ تُقضى إلى العجم ، ثمّ تمتد إلى خروج الدجال .

وقال عطاء : (ح) حرب في أهل مكّة يجحف بهم حتّى يأكلون الجيف وعظام الموتى ، (م) ملك يتحول من قوم إلى قوم (ع) عدو لقريش قصدهم ، (س) سيء يكون فيهم ، (ق) قدرة الله النافذة في خلقه .

وقال بكر بن عبد الله المزني : (ح) حرب تكون بين قريش والموالي ، فتكون الغلبة لقريش على الموالي ، (م) ملك بني أُمية ، (ع) علو ولد العبّاس ، (سين) سناء المهدي (ق) قوة عيسى (عليه السلام) حين ينزل ، فيقتل النصارى ويخرب البيع .

وقال محمد بن كعب : أقسم الله بحلمه ومجده وعلوه وسناءه وقدرته ، أن لا يعذب من عاد إليه بلا إله إلاّ الله مخلصاً له من قلبه ، وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير : (ح) من رحمن ، (م) من مجيد ، (عين) من عالم ، (سين) من قدوس ، (ق) من قاهر .

(167/686)

السدي : هو من الهجاء المقطع ، (عين) من العزيز ، (سين) من السلام ، (ق) من القادر .

وقيل : هذا في شأن محمد صلى الله عليه وسلم (فالحاء) حوضه المورود ، و (الميم) ملكة الممدود ، و (العين) عزه الموجود ، و (السين) سناؤه المشهود ، و (القاف) قيامه في المقام المحمود ، وقربه في الكرامة إلى المعبود .

وقال ابن عباس : ليس من نبيّ صاحب كتاب إلاّ وقد أوحيت ﴿ حم* عسق ﴾ إليه ، فلذلك ، قال : ﴿ كَذَلِكَ يوحي إِلَيْكَ ﴾ قرأ ابن كثير بفتح الحاء ومثله روى عباس ، عن ابن عمرو ورفع الاسم بالبيان ، كأنّه قال : يوحي إليك .

قيل : من الّذي يوحي ؟ قال : الله ، وهي كقراءة من قرأ ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ [النور : 36] بفتح الباء ، الباقون بكسره .

﴿ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم ﴾ وقال مقاتل : نزل حكمها على الأنبياء (عليهما السلام) ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العلي العظيم * تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي من عظمة الله وجلاله فوقهنّ .

قال ابن عباس : تكاد السّماوات كلّ واحدة منها تتفطّر فوق الّتي تليها من قول المشركين ، ﴿ اتخذ الله وَلَداً ﴾ : نظيره قوله : ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 90-91] . ﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض ﴾ من المؤمنين بيانها ويستغفرون للَّذين آمنوا ﴿ أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم ﴾ .

قال الحكماء : وعظّم في الإبتداء ، ثمّ بشّر وألطف في الإنتهاء .

(168/686)

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يحفظ أعمالهم ويحصي عليهم أفعالهم ليجازيهم بها ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ إن عليك إلاّ البلاغ . ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ مكّة ، يعني أهلها . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ أي بيوم الجمع . ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ ﴾ أي منهم فريق ﴿ فِي الجنة ﴾ فضلاً

وهم المؤمنون . ﴿ وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ عدلاً وهم الكافرون .

أخبرنا الإمام أبو منصور الجمشاذي ، حدثنا أبو العباس الأصم ، حدثنا أبو عثمان سعيد ابن عثمان بن حبيب السوحي ، حدثنا بشر بن مطر ، حدثني سعيد بن عثمان ، عن أبي راهويه جدير بن كريب ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفضّل عبد الله على أبيه أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ، حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، حدثني أبي ، حدثنا هشام بن القاسم ، حدثنا ليث ، حدثني أبو قبيل حيّ بن هانئ المعافري عن شفي الأصبحي عن عبد الله بن عمرو ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، قابضاً على كفيه ومعه كتابان ، فقال : " أتدرون ما هذان الكتابان ؟ ، قلنا : لا يا رسول الله .

(169/686)

فقال للّذي في يده اليمنى : هذا كتاب من ربّ العالمين بأسماء أهل الجنّة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب ، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون ، فليس بزايد فيهم ، ولا ناقص منهم إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة " ، ثمّ قال للّذي في يساره : " هذا كتاب من ربّ العالمين ، بأسماء أهل النار وأسماء

آباءهم وعشائرهم وعدتهم ، قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب وقبل أن يستقروا في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون ، فليس بزايد فيهم ولا ناقص منهم ، إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة " . فقال عبد الله بن عمرو : ففيم العمل ؟ ، إذ قال : " إعملوا وسددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنّة يختم له بعمل أهل الجنّة وأن عَمِلَ أي عَمَل ، وإنّ صاحب النّار يختم له بعمل أهل النّار وإن عَمِلَ ، أي عَمَل " .

ثمّ قال : ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ عدل من الله تعالى " .

﴿ وَلَوْ شَآءَ الله لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على ملّة واحدة . ﴿ ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ والظالمون ﴾ الكافرون . ﴿ مَا لَهُمْ مِّن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فالله هُوَ الولي ﴾ لا سواه . ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الموتى ﴾ مجازه : لأنّه يحيي الموتى . ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في الدين . ﴿ قَدِيرٌ * وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ في الدين . ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ذَلِكُمُ الله رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السماوات والأرض جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ حلائل وإنّما قال ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ لأنّه خلق حواء من ضلع آدم ﴿ وَمِنَ الأنعام أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يخلقكم ويعيشكم ﴿ فِيهِ ﴾ أي في الرحم ، وقيل : في البطن ، وقيل : في الروح ، وقيل : في هذا الوجه من الخليقة .

قال مجاهد : نسلاً بعد نسل ، ومن الأنعام ، وقيل : ﴿ فِي ﴾ بمعنى الباء ، أي يذرؤكم فيه ، قال ابن كيسان : يكثركم .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ المثل صلة ومجازه : ليس كهو شيء ، فأدخل المثل توكيداً للكلام ، كقوله : ﴿ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ [البقرة : 137] وفي حرف ابن مسعود ، ﴿ فإن آمنوا بما أمنتم به ﴾ وقال أوس بن حجر :

وقتلى كمثل جذوع النخيل . . . يغشاهم مطر منهمر

أي كجذوع ، وقال [آخر] سعد بن زيد :

إذا أبصرت فضلهم . . . كمثلهم في النّاس من أحد

وقال آخر :

ليس كمثل الفتى زهير . . . خلق يوازيه في الفضائل

وقيل : (الكاف) صلة مجازه : ليس مثله ، كقول الراجز :

وصاليات ككما [يُؤَفَيْنْ] . . . فأدخل على الكاف كافاً تأكيداً للتشبيه ، وقال آخر :

[تنفي الغياديق على الطريق . . . قلص عن كبيضة في نيق]

فأدخل الكاف مع عن .

﴿ وَهُوَ السميع البصير * لَهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ وهو أول أنبياء الشريعة .

(171/686)

﴿ والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى ﴾ فاختلفوا في وجه الآية ، فقال قتادة : تحليل الحلال وتحريم الحرام ، وقال الحكم : تحريم الأخوات والأمهات والبنات ، وقال مجاهد : لم يبعث الله تعالى نبياً إلاّ أوصاه بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والاقرار لله بالطاعة . فذلك دينه الذي شرع لهم ، وهي رواية الوالي عن ابن عباس ، وقيل : الدين التوحيد ، وقيل : هو قوله : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ بعث الأنبياء كلّهم بإقامة الدّين والأُلفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة . ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان . ثمّ قال عزّ من قائل : ﴿ الله يجتبي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ويهدي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ فيستخلصه لدينه .

﴿ وَمَا تفرقوا ﴾ يعني أهل الأديان المختلفة ، وقال ابن عباس : يعني أهل الكتاب . دليله ونظيره في سورة المُنفكّين ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ [البينة : 4] .

﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم ﴾ من قبل بعث محمد وصفته . ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ تأخير العذاب .

(172/686)

﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو يوم القيامة . ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بالعذاب . ﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ يعني من بعد الأمم الخالية ، وقال مجاهد : معناه من قبلهم أي من قبل مشركي مكّة وهم اليهود والنصارى . ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِكَ ﴾ أي فإلى ذلك الّذين أوتوا الكتاب . ﴿ فادع ﴾ كقوله : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] أي إليها ﴿ واستقم كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ اثبت على الدين الذي به أمرت ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ الله مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي أن أعدل أو كي أعدل ، كقوله : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام : 71] .

قال ابن عباس : لأسوي بينكم في الدّين ، وأؤمن بكلّ كتاب وكلّ رسول ، وقال غيره : لأعدل بينكم في جميع الأحوال والأشياء . قال قتادة : أُمر نبي الله صلى الله عليه وسلم أن يعدل ، فعدل حتّى مات ، والعدل ميزان الله تعالى في الأرض ، وذكر لنا إنّ داود (عليه السلام) ، قال : ثلاث من كنّ فيه فهو الفائز : القصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا

والغضب ، والحسنة في السرّ والعلانية ، وثلاث من كنّ فيه أهانته : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وأربع من أعطيهنّ ، فقد أعطي خير الدّنيا والآخرة : لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وبدن صابر ، وزوجة مؤمنة .

(173/686)

﴿ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ ﴾ لا خصومة . ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ نسختها آية القتال . ﴿ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ لفصل القضاء . ﴿ وَإِلَيْهِ المصير * والذين يُحَآجُّونَ ﴾ يخاصمون . ﴿ فِي اللهِ ﴾ في دين الله نبيه . ﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ أي من بعد ما استجاب له النّاس ، فاسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزته ، وقيام حجته . ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ باطلة زائلة . ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ قال مجاهد : نزلت في اليهود والنصارى . قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم وأولى بالحقّ .

﴿ اللهُ الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ أي العدل عن ابن عباس وأكثر المفسرين . مجاهد : هو الّذي يوزن به ، ومعنى إنزال الميزان : إلهامه الخلق للعمل به ، وأمره بالعدل والإنصاف ، كقوله : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ﴾ [الأعراف : 26] .

وقال علقمة : الميزان محمد صلى الله عليه وسلم يقضي بينهم بالكتاب . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل قريبة لأن تأنيثها غير حقيقي ، ومجازها الوقت ، وقال الكسائي : إيتائها قريب .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ ظنًّا منهم إنها غير جائية . ﴿ والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ خائفون منها . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق أَلاَ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِي الساعة لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ * الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : حفي بهم . عكرمة : بارّ بهم . السدي : رقيق . مقاتل : لطيف بالبر والفاجر منهم ، حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم . القرظي : لطيف بهم في العرض والمحاسبة .

(174/686)

قال الخوافي : غداً عند مولى الخلق ، للخلق موقف يسألهم فيه الجليل ، فيلطف بهم الصادق في الرزق من وجهين : أحدهما : إنّه جعل رزقك من الطيبات ، والثاني : إنّه لم يدفعه إليك بمرة واحدة ، وقيل : الرضا بالتضعيف .

الحسين بن الفضل : في القرآن وتيسيره .

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن عاد البغدادي يقول :

سُئل جنيد عن اللطيف ، فقال : هو الّذي لطف بأوليائه حتّى عرفوه ، فعبدوه ، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه .

وقال محمد بن علي الكتاني : اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا أيس من الخلق ، توكل عليه ورجع إليه فحينئذ يقبله ويقبل عليه ، وفي هذا المعنى أنشدنا أبو إسحاق الثعلبي ، قال : أنشدني أبو القاسم الحبيبي . قال أنشدني أبي ، قال : أنشدني أبو علي محمد بن عبد الوهّاب الثقفي :

أمر بافناء القبور كأنّني . . . أخو فطنة والثوب فيه نحيف

ومن شق فاه الله قدّر رزقه . . . وربّي بمن يلجأ إليه لطيف

وقيل : اللطيف الّذي ينشر من عباده المناقب ، ويستر عليه المثالب ، وقيل : هو الّذي يقبل القليل ، ويبذل الجزيل ، وقيل : هو الّذي يجبر الكسير ، وييسر العسير ، وقيل : هو الّذي لا ييأس أحد في الدنيا من رزقه ، ولا ييأس مؤمن في العفو من رحمته .

وقيل : هو الّذي لا يخاف إلاّ عدله ، ولا يرجى إلاّ فضله ، وقيل : هو الّذي يبذل لعبده النعمة ، فوق الهمّة ويكلفه الطاعة دون الطاقة ، وقيل : هو الّذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه ، وقيل : هو الّذي لا يرد سائله ولا يؤيّس آمله ، وقيل : هو الّذي يعفو عمن يهفو ، وقيل : هو الّذي يرحم من لا يرحم نفسه ، وقيل : هو الّذي يعين على الخدمة ، ثم

يكثر المدحة ، وقيل : هو الّذي أوقد في أسرار عارفيه من المشاهدة سراجاً ، وجعل الصراط المستقيم لها منهاجاً ، وأنزل عليهم من سحائب بره ماءاً ثجاجاً .

(175/686)

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ كما يشاء من شاء موسعاً ، ومن شاء مقتراً ، ومن شاء قليلاً ومن شاء كثيراً ، ومن شاء حلالاً ، ومن شاء حراماً ، ومن شاء في خفض ودعه ، ومن شاء في كد وعناء ، ومن شاء في بلده ومن شاء في الغربة ، ومن شاء بحساب ومن شاء بغير حساب .

﴿ وَهُوَ القوي العزيز * مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة ﴾ يعني يريد بعمله الآخرة . ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ بالتضعيف بالواحدة عشرة إلى ما شاء الله من الزيادة . ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا ﴾ يعني يريد بعمله الدّنيا ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ .

قال قتادة : يقول : من عمل لآخرته نزد له في حرثه ، ومن آثر دنياه على آخرته ، لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلاّ النّار ، ولم يصب من الدّنيا إلاّ رزق قد فرغ منه وقسم له .

أنبأني عبد الله بن حامد ، أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان ، حدثنا الحسين بن إدريس ، حدثنا سويد بن نصير ، أخبرنا عبد بن المبارك عن أبي سنان الشيباني ، إنّ عمر بن

الخطاب رضي الله عنه ، قال : الأعمال على أربعة وجوه : عامل صالح في سبيل هدى يريد به دنيا ، فليس له في الآخرة شيء ، ذلك بأنّ تعالى ، قال :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ [هود : 15] الآية ، وعامل الرياء ليس له ثواب في الدّنيا والآخرة إلاّ الويل ، وعامل صالح في سبيل هدى يبتغي به وجه الله والدار الآخرة ، فله الجنّة في الآخرة ، معها [نعاته] في الدّنيا ، وعامل خطأ وذنوب ثوابه عقوبة الله ، إلاّ أن يعفوا فإنّه أهل التقوى وأهل المغفرة .

(176/686)

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ يوم القيامة ، حيث قال : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ . . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظالمين ﴾ المشركين يوم القيامة ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ وجلين . ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي نازل بهم لا محالة . ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي رَوْضَاتِ الجنات لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾

﴿ ذَلِكَ الذي ﴾ ذكرت من نعيم الجنّات . ﴿ يُبَشِّرُ الله ﴾ به . ﴿ عِبَادَهُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فإنّهم أهله .

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ قال ابن عباس : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق ، وليس في يديه سعة لذلك ، قالت الأنصار : إنّ هذا الرجل قد هداكم الله به ، وهو ابن اختكم ، منوبة به . فقالوا له : يا رسول الله إنّك ابن اختنا ، وقد هدانا الله على يديك ، وتنوبك نوائب وحقوق ، ولست لك عندها سعة ، فرأينا أن نجمع لك من أموالنا ، فنأتيك به ، فتستعين به على ما ينوبك وها هو ذا ، فنزلت هذه الآية .

وقال قتادة : اجتمع المشركون في مجمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أترون محمّداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، يحثهم على مودته ، ومودّة أقربائه ، وهذا التأويل أشبه بظاهر الآية والتنزيل ؛ لأنّ هذه السورة مكّية ، واختلف العلماء في معنى الآية .

(177/686)

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه بقراءتي عليه ، حدثنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي ، حدثنا أبو بكر الأزدي ، حدثنا عاصم بن علي ، حدثنا قزعة بن سويد ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لا أسألكم على ما

أتيتكم من البينات والهدى أجراً إلاّ أن تودّوا الله تعالى ، وتقرّبوا إليه بطاعته " .

وإلى هذا ذهب الحسن البصري ، فقال : هو القربى إلى الله تعالى ، يقول إلاّ التقرب إلى الله تعالى والتودّد إليه بالطاعة والعمل الصالح ، وروى طاووس والشعبي والوالبي والعوفي عن ابن عباس ، قال : لم يكن بطن من بطون قريش إلاّ وبين رسول الله وبينهم قرابة ، فلما كذّبوه وأبوا أن يبايعوه ، أنزل الله تعالى ، ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ يعني أن تحفظوني وتودّوني وتصلوا رحمي ، فقال رسول الله : " إذا أبيتم أن تبايعوني ، فاحفظوا قرابتي فيكم ولا تؤذوني ، فإنّكم قومي وأحق من أطاعني وأجابني " .

وإليه ذهب أبو مالك وعكرمة ومجاهد والسدي والضحاك وابن زيد وقتادة ، وقال بعضهم : معناه إلاّ أن تودوا قرابتي وعترتي وتحفظوني فيهم ، وهو قول سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب .

ثمّ اختلفوا في قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الّذين أمر الله تعالى بمودتهم . أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه الثقفي العدل ، حدثنا برهان بن علي الصوفي ، حدثنا محمّد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي ، حدثنا حرب بن الحسن الطحان ، حدثنا حسين الأشقر ، عن قيس ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الّذين

وجبت علينا مودّتهم ؟

قال :

(178/686)

" علي وفاطمة وأبناءهما " ، ودليل هذا التّأويل ما أخبرنا أبو منصور الجمشاذي ، قال : حدثني أبو عبد الله الحافظ ، حدثني أبو بكر بن مالك ، حدثنا محمد بن يونس ، حدثنا عبيد الله بن عائشة ، حدثنا إسماعيل بن عمرو ، عن عمر بن موسى ، عن زيد بن علي بن حسين ، عن أبيه ، عن جده علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : " شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حسد النّاس لي " . فقال : " أما ترضى أن تكون رابع أربعة ، أول من يدخل الجنّة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمالنا ، وذريتنا خلف أزواجنا وشيعتنا من ورائنا " .

حدثنا أبو منصور الجمشاذي ، حدثنا أبو نصر أحمد بن الحسين بن أحمد ، حدثنا أبو العباس محمد بن همام ، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن محمد بن رزين ، حدثنا حسان بن حسان ، حدثنا حماد بن سلمة ابن أخت حميد الطويل ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن شهر بن حوشب ، عن أُمّ سلمة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّه قال لفاطمة :

" " أئتيني بزوجك وابنيك ، فجاءت بهم ، فالقى عليهم كساءً فدكيا ، ثمّ رفع يديه عليهم ، فقال : اللَّهم هؤلاء آل محمد ، فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد ، فإنك حميد مجيد " . قالت : فرفعت الكساء لأدخل معهم ، فاجتذبه وقال : " إنّك على خير " " .

وروى أبو حازم عن أبي هريرة ، قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : " أنا حرب لمن حاربتم ، وسلم لمن سالمتم " .

أخبرنا عقيل بن محمّد ، أخبرنا المعافا بن زكريا بن المبتلي ، حدثنا محمّد بن جرير ، حدثني محمّد بن عمارة ، حدثنا إسماعيل بن أبان ، حدثنا الصباح بن يحيى المزني ، عن السدي ، عن أبي الديلم ، قال : لما جيء بعلي بن الحسين أسيراً فأقيم على درج دمشق ، وقام رجل من أهل الشام ، فقال : الحمد لله الّذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة ، فقال علي بن الحسين : أقرأت القرآن ؟

(179/686)

قال : نعم . قال : قرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ، ولم أقرأ آل حم . قال : ما قرأت ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ . قال : وإنّكم لأنتم هم ؟ قال : نعم .

أخبرنا الحسين بن العلوي الوصي ، حدثنا أحمد بن علي بن مهدي ، حدثني أبي ، حدثنا

علي بن موسى الرّضا ، حدثني أبي موسى بن جعفر ، حدثنا أبي جعفر بن محمد الصادق ، قال : كان نقش خاتم أبي محمد بن علي : ظنّي بالله حسن وبالنبي المؤتمن وبالوصي ذي المنن والحسين والحسن . أنشدنا محمد بن القاسم الماوردي ، أنشدني محمد بن عبد الرّحمن الزعفراني ، أنشدني أحمد بن إبراهيم الجرجاني ، قال : أنشدني منصور الفقيه لنفسه :

إن كان حبّي خمسة . . . زكت بهم فرائضي

وبغض من عاداهم . . . رفضاً فإنّي رافضي

وقيل : هم ولد عبد المطلب . يدلّ عليه ما حدثنا أبو العباس سهل بن محمد بن سعيد المروزي ، حدثنا أبو الحسن المحمودي ، حدثنا أبو جعفر محمد بن عمران الأرسابندي حدثنا هَدِيَّة بن عبد الوهّاب ، حدثنا سعيد بن عبد الحميد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن زياد اليمامي ، عن إسحاق بن أبي عبد الله بن أبي طلحة ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نحن ولد عبد المطلب سادة أهل الجنّة ، أنا وحمزة وجعفر وعلي والحسن والحسين والمهدي " .

علي بن موسى الرضا : حدثني أبي موسى بن جعفر ، حدثني أبي جعفر بن محمد ، حدثني أبي محمد بن علي ، حدثني أبي علي بن الحسين ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " حرمت الجنّة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي ، ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها ، فأنا أجازيه غداً إذا لقيني في يوم القيامة " .

(180/686)

وقيل : الّذين تحرم عليهم الصدقة ويقسم فيهم الخمس وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب الّذين لم يفترقوا في جاهلية ولا إسلام . يدل عليه قوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى ﴾ [الأنفال : 41] ، وقوله : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى ﴾ [الحشر : 7] .

وقوله : ﴿ وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ ﴾ [الإسراء : 26] .

أخبرنا عقيل بن محمّد أجازة ، أخبرنا أبو الفرج البغدادي ، حدثنا محمّد بن جدير ، حدثنا أبو كرير ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا عبد السلم حدثني يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس ، قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا فكأنهم مخزوك ، فقال ابن عباس أو العباس : شل عبد السلم لنا الفضل عليكم . [فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم في مجالسهم . فقال : " يامعشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي ؟ " . قالوا : بلى يارسول الله . قال : " ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ؟ " . قالوا : بلى يارسول الله .

قال : " أفلا تجيبوني ؟ " . قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ . فقال : " ألا تقولون ، ألم يخرجك قومك فآويناك ، أو لم يكذّبوك فصدقناك ، أو لم يخذلوك فنصرناك ؟ " .

قال : فما زال يقول حتّى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا وما في أيدينا لله تعالى ولرسوله . قال : فنزلت ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ .

(181/686)

أخبرنا الحسين بن محمّد بن فنجويه ، حدثنا محمد بن عبد الله بن حمزة ، حدثنا عبيد بن شريك البزاز ، حدثنا سلمان بن عبد الرّحمن بن بنت شرحبيل ، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، حدثنا يحيى بن بشير الأسدي ، عن صالح بن حيان الفزاري عبد الله بن شداد بن الهاد عن العباس ابن عبد المطلب إنّه ، قال : يا رسول الله ما بال قريش يلقى بعضهم بعضاً بوجوه تكاد أن تسايل من الود ، ويلقوننا بوجوه قاطبة ، تعني باسرة عابسة ، فقال رسول الله (عليه السلام) :

" أَوَ يفعلون ذلك ؟ " . قال : نعم ، والّذي بعثك بالحقّ . فقال : " أمّا والّذي بعثني بالحقّ ، لا يؤمنوا حتّى يحبّوكم لي " .

وقال قوم : هذه الآية منسوخة فإنّما نزلت بمكّة وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله

عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمرهم فيها بمودة رسول الله وصلة رحمه . فلما هاجر إلى المدينة وآواه الأنصار وعزروه ونصروه أحبّ الله تعالى أن يلحقه بأخوانه من الأنبياء (عليهم السلام) حيث قالوا : ﴿ وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 109] ، فأنزل الله تعالى عليه ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [سبأ : 47] ، فهي منسوخة بهذه الآية وبقوله : ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ المتكلفين ﴾ [ص : 86] ، وقوله : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [يوسف : 104] ، وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ [المؤمنون : 72] ، وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : 40] وإلى هذا ذهب الضحاك بن مزاحم والحسين بن الفضل .

(182/686)

وهذا قولٌ غير قوي ولا مرضي ، لأنّ ما حكينا من أقاويل أهل التأويل في هذه الآية لا يجوز أن يكون واحد منها منسوخاً ، وكفى فتحاً بقول من زعم إنّ التقرب الى الله تعالى بطاعته ومودة نبيه وأهل بيته منسوخ.

والدليل على صحة مذهبنا فيه ، ما أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد الأصبهاني ،

أخبرنا أبو عبد الله بن محمّد بن علي بن الحسين البلخي ، حدثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق ، حدثنا محمد بن أسلم الطوسي ، حدثنا يعلي بن عبيد ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن جرير بن عبد الله البجلي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات على حبِ آلِ محمّد مات شهيد ، ألاّ ومن مات على حبّ آل محمّد مات مغفورا له ، ألاّ ومن مات على حبّ آل محمّد مات تائباً ، ألاّ ومن مات على حبّ آل محمّد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألاّ ومن مات على حبّ آل محمّد بشره ملك الموت بالجنّة ثم منكراً ونكيراً ، ألاّ ومن مات على حبّ آل محمّد جعل الله تعالى زوار قبره ملائكة الرحمن ، ألاّ ومن مات على حبّ آل محمّد فتح له في قبره بابان من الجنّة . ألاّ ومن مات على بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألاّ ومن مات على بغض آل محمّد مات كافراً ، ألاّ ومن مات على بغض آل محمّد لم يشم رائحة الجنّة " .

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ يكتسب طاعة . ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ بالضعف . ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ . أخبرنا الحسين بن محمّد بن فنجويه ، حدثنا ابن حنش المقري ، حدثنا أبو القاسم بن الفضل ، حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا إسماعيل بن موسى ، حدثنا الحكم بن طهر ، عن السدّي عن أبي مالك عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ ، قال : المودة لآل محمّد صلى الله عليه وسلم

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ يعني كفّار مكّة . ﴿ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ . قال مجاهد : يعني يربط عليه بالصبر حتّى لا يشق عليك أذاهم ، وقال قتادة : يعني يطبع على قلبك فينسيك للقرآن ، فأخبرهم إنّهُ لو افترى على الله لفعل به ما أخبرهم في الآية .

ثمّ ابتدأ ، فقال عزّ من قائل : ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الباطل ﴾ . قال الكسائي : فيه تقديم وتأخير . مجازه : الله يمحو الباطل . فحذفت منه الواو في المصحف ، وهو في وضع رفع كما حذفت من قوله : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان ﴾ [الإسراء : 11] ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] على اللفظ .

﴿ وَيُحِقُّ الحق بِكَلِمَاتِهِ ﴾ . [. . . . .] . ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ قال ابن عباس : لما نزلت ﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً . . . ﴾ وقع في قلوب قوم منها شيء ، وقالوا : ما يريد إلاّ أن يحثنا على أقاربه من بعده . ثمّ خرجوا ، فنزل جبريل (عليه السلام) فأخبره إنّهم اتهموه وأنزل هذه الآية ، فقال القوم : يا رسول الله فإنّا نشهد إنّك صادق ، فنزل

﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ وأختلفت عبارات العلماء في حقيقة التوبة وشرائطها .

(184/686)

أخبرنا الإمام أبو القاسم الحسن بن محمّد بن حبيب بقراءته عليّ . في شهور سنة ثمان وثمانين وثلثمائة ، حدثنا محمّد بن سليمان بن منصور ، حدثنا محمّد مسكان بن جبلة بسّاوة . أخبرنا عبد الله بن عبد العزيز بن أبي داود عن إبراهيم بن طهمّان عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله ، قال : دخل إعرابي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللَّهمّ إنّي استغفرك وأتوب إليك ، سريعاً وكبّر ، فلما فرغ من صلاته قال له علي : يا هذا إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين ، وتوبتك تحتاج إلى توبة ، قال : يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معاني : على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، وردّ المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة كما أذبتها في المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كُلّ ضحك ضحكته .

وسمعت الحسن بن محمّد بن الحسن ، يقول : سمعت إبراهيم بن يزيد ، يقول : سمعت حسن بن محمّد الترمذي يقول : قيل لأبي بكر محمّد بن مر الوراق : متى يكون الرجل تائباً ؟ فقال :

إذا رجع إلى الله فراقبه واستحياهُ وخاف نقمته فيما عصاه ، وألتجاء إلى رحمته فرجاه ، وذكر حلمه في ستره فأبكاه ، وندم على مكروه أتاه ، وشكر ربّه على ما أتاه ، وفهم عن الله وعظه فوعاه ، وحفظ عهده فيما أوصاه .

وسمعت الحسن بن محمّد بن حبيب ، يقول : سمعت أبا منصور محمّد بن محمّد بن سمعان المذكر ، يقول : سمعت أبا بكر بن الشاه الصوفي الفارسي ، يقول : سئل الحرب بن أسد المحاسبي : من التائب ؟ فقال : من رأى نفسه من الذنوب معصوماً ، وللخيرات موفقاً ، ورأى الفرح من قلبه غائباً والحزن فيه باقياً ، وأحبّه أهل الخير ، وهابه أهل الشّر ، ورأى القليل من الدّنيا كثيراً ، ورأى الكثير من عمل الآخرة قليلاً ، ورأى قلبه فارغاً من كلّ ما ضمن له ، مشتغلاً بكلّ ما أمر به .

(185/686)

وقال السري بن المغلس السقطي : التوبة صدق العزيمة على ترك الذنوب ، والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب ، والندامة على ما فرط من العيوب ، والاستقصاء في المحاسبة مع النفس بالاستكانة والخضوع .

وقال عمرو بن عثمان : ملاك التوبة إصلاح القوت .

وسمعت أبا القاسم بن أبي بكر بن عبد الله البابي ، يقول : سمعت أبا يعلي حمزة بن وهب الطبري ، يقول : سمعت الحسن بن علوية الدامغاني ، يقول : سمعت يحيى بن معاذ ، وسئل : من التائب ؟ فقال : من كسر شبابه على رأسه وكسر الدّنيا على رأس الشيطان ، ولزم الفطام حتّى أتاه الحمام .

وقال سهل بن عبد الله : التوبة ، الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة ، وسئل ابن الحسن البوشيخي : عن التوبة ؟ فقال : إذا ذكرت الذنب فلا تجد حلاوته في قلبك .

وقال الراعي : التوبة ترك المعاصي نيةً وفعلاً ، والإقبال على الطاعة نيةً وفعلاً ، وسمعت أبا القاسم الحبيبي ، يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن عماد البغدادي ، يقول : سئل جنيد : من التائب ؟

فقال : من تاب ما دون الله .

وقال شاه الكرماني : إترك الدّنيا وقد تبت وخالف هواك وقد وصلت ، ويعفو عن السيئات إذا تابوا فيمحوها .

أخبرنا الحسن بن محمّد بن الحسن بن جعفر ، حدثنا أبي ، حدثنا جعفر بن سواد ، حدثنا عطيه بن لفته ، حدثنا أبي ، حدثنا الزبيري ، عن الزهري عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله تعالى أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الظمآن الوارد . فمن تاب إلى الله تعالى توبة

نصوحاً أنسى الله حافظيه وبقاع الأرض خطاياه وذنوبه "

أو قال : " ذنوبه وخطاياه " .

(186/686)

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ . قرأ الأعمش وحمزة والكسائي وخلف بالتاء ، وهي قراءة عبد الله وأصحابه ، ورواية حفص عن عاصم غيرهم بالياء ، وهي اختيار أبي عبيد ، قال : لأنّه لمن خبرني عن قوم . قال قبله : عن عباده ، وقال بعده : ويزيدهم من فضله .

﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي يطيع الّذين آمنوا ربّهم في قول بعضهم . جعل الفعل للّذين آمنوا ، وقال الآخرون : (وَيَسْتَجِيبُ الذين آمَنُواْ) جعلوا الإجابة فعل الله تعالى ، وهو الأصوب والأعجب إليّ لأنّه وقع بين فعلين لله تعالى : الأول قوله : ﴿ يَقْبَلُ ﴾ والثاني ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ ، ومعنى الآية : ويجيب الله المؤمنين إذا دعوه ، وقيل : معناه نجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان ، أخبرنا مكي بن عبدان ، حدثنا عبد الله بن هاشم ، حدثنا أبو معاوية بن الأعمش ، عن شقيق بن سلمة ، عن سلمة بن سبره ، قال : خطبنا معاذ بالشام ، فقال : أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنّة والله إنّي لأرجو أن يدخل الجنّة من

تسبون من فارس والرّوم وذلك بأن أحدهم إذا عمل لأحدكم العمل ، قال : أحسنت يرحمك الله أحسنت بارك الله فيك ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ .

﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

أخبرنا الحسين بن محمّد الثقفي ، حدثنا الفضل بن الفضل الكندي ، حدثني أبو أحمد عبد الله بن أحمد الزعفراني الهمذاني ، حدثنا محمد بن الحسين بن قتيبة بعسقلان ، حدثنا محمد بن أيوب بن سويد ، حدثني أبي ، عن أبي بكر الهذلي ، عن أبي صالح عن ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ، قال : تشفّعهم في إخوانهم . ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ . قال : في إخوان إخوانهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 301. 317 ﴾

(187/686)

وقال الزمخشرى :

سورة الشورى

مكية [إلا الآيات 23 و24 و25 و27 فمدنية] وآياتها 53 [نزلت بعد سورة فصلت]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشورى (42) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) عسق (2) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5)

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضى اللّه عنهما : حم سق كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ أى مثل ذلك الوحى . أو مثل ذلك الوحى . أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ يعنى أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى اللّه إليك مثله في غيرها من السور ، وأوحاه من قبلك إلى رسله ، على معنى : أن اللّه تعالى كرر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية ، لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأوّلين والآخرين ، ولم يقل : أوحى إليك ، ولكن على لفظ المضارع ، ليدل على أن إيحاء مثله عادته . وقرئ : يوحى إليك ، على البناء للمفعول .

فإن قلت : فما رافع اسم اللّه على هذه القراءة ؟ قلت : ما دلّ عليه يوحى ، كأن قائلا قال : من الموحى ؟ فقيل : اللّه ، كقراءة السلمى : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم

شركاؤهم على البناء للمفعول ورفع شركائهم ، على معنى : زينه لهم شركاؤهم . فإن قلت : فما رافعه فيمن قرأ نوحى بالنون ؟ قلت : يرتفع بالابتداء . والعزيز وما بعده : أخبار ، أو العزيز الحكيم : صفتان ، والظرف خبر . قرئ : تكاد ، بالتاء والياء . وينفطرن ، ويتفطرن . وروى يونس عن أبى عمرو قراءة غريبة : تتفطرن بتاءين مع النون ، ونظيرها حرف نادر ، روى في نوادر ابن الأعرابى : الإبل تشممن . ومعناه : يكدن ينفطرن من علو شأن اللّه وعظمته ، يدل عليه مجيئه بعد العلى العظيم . وقيل : من دعائهم له ولدا ، كقوله تعالى تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ .

(188/686)

فإن قلت : لم قال مِنْ فَوْقِهِنَّ ؟ قلت : لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة : فوق السماوات ، وهي : العرش ، والكرسي ، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا اللّه تعالى من آثار ملكوته العظمى ، فلذلك قال يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ أى يبتدئ الانفطار من جهتهنّ الفوقانية . أو : لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السماوات ، فكان القياس أن يقال : ينفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ في ذلك ، فجعلت مؤثرة في جهة الفوق ، كأنه قيل : يكدن ينفطرن من

الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهنّ ، ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلا يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ فجعل الحميم مؤثرا في أجزائهم الباطنة . وقيل : من فوقهنّ : من فوق الأرضين .

فإن قلت : كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء اللّه ؟ وقد قال اللّه تعالى أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم ؟ قلت : قوله لِمَنْ فِي الْأَرْضِ يدل على جنس أهل الأرض ، وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم ، فيجوز أن يراد به هذا وهذا . وقد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء اللّه وهم المؤمنون ، فما أراد اللّه إلا إياهم . ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا وحكايته عنهم فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدقين طمعا في استغفارهم ، فكيف للكفرة . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار : طلب الحلم والغفران في قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا إلى أن قال إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً وقوله تعالى إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ والمراد : الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عاما .

فإن قلت : قد فسرت قوله تعالى تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ بتفسيرين ، فما وجه طباق ما بعده لهما ؟ قلت : أما على أحدهما فكأنه قيل : تكاد السماوات ينفط في هيبة من جلاله واحتشاما من كبريائه ، والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش

صفوفا بعد صفوف يداومون - خضوعا لعظمته - على عبادته وتسبيحه وتحميده ، ويستغفرون لمن في الأرض خوفا عليهم من سطواته .

وأما على الثاني فكأنه قيل : يكدن ينفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء ، والملائكة يوحدون اللّه وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به ، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه التي علم أنهم عندها يستعصمون ، مختارين غير ملجئين ، ويستغفرون لمؤمنى أهل الأرض الذين تبرؤا من تلك الكلمة ومن أهلها . أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم ، لما عرفوا في ذلك من المصالح ، وحرصا على نجاة الخلق ، وطمعا في توبة الكفار والفساق منهم .

(189/686)

[سورة الشورى (42) : آية 6]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ جعلوا له شركاء وأندادا اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء ، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم ، لا رقيب عليهم إلا

هو وحده وَما أَنْتَ يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان ، إنما أنت منذر فحسب .

[سورة الشورى (42) : آية 7]

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)

ومثل ذلك أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها : من أنّ اللّه تعالى هو الرقيب عليهم ، وما أنت برقيب عليهم ، ولكن نذير لهم ، لأنّ هذا المعنى كرره اللّه في كتابه في مواضع جمة ، والكاف مفعول به لأوحينا . وقُرْآناً عَرَبِيًّا حال من المفعول به ، أى أوحيناه إليك وهو قرآن عربى بين ، لا لبس فيه عليك ، لتفهم ما يقال لك ، ولا تتجاوز حدّ الإنذار . ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا ، أى : ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآنا عربيا بلسانك لِتُنْذِرَ يقال أنذرته كذا وأنذرته بكذا . وقد عدى الأوّل ، أعنى : لتنذر أمّ القرى إلى المفعول الأوّل والثاني ، وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني أُمَّ الْقُرى أهل أمّ القرى ، كقوله تعالى وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ . وَمَنْ حَوْلَها من العرب .

وقرئ : لينذر بالياء والفعل للقرآن يَوْمَ الْجَمْعِ يوم القيامة ، لأنّ الخلائق تجمع فيه . قال اللّه تعالى يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ وقيل : يجمع بين الأرواح والأجساد . وقيل : يجمع بين كل عامل وعمله . ولا رَيْبَ فِيهِ اعتراض لا محل له «1» . قرئ : فريق وفريق ، بالرفع والنصب

، فالرفع على : منهم فريق ، ومنهم فريق . والضمير للمجموعين ، لأن المعنى : يوم جمع الخلائق .

والنصب على الحال منهم ، أى : متفرّقين ، كقوله تعالى وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ .

فإن قلت : كيف يكونون مجموعين متفرّقين في حالة واحدة ؟ قلت : هم مجموعون في ذلك اليوم ، مع افتراقهم في دارى البؤس والنعيم ، كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرّقين في مسجدين . وإن أريد بالجمع : جمعهم في الموقف ، فالتفرّق على معنى مشارفتهم للتفرّق .

[سورة الشورى (42) : آية 8]

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (8)

---

(1) . قوله «لا محل له» لعله . لا محل له من الإعراب . (ع)

لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً أى مؤمنين كلهم على القسر والإكراه ، كقوله تعالى وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وقوله تعالى وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً والدليل على أنّ المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان : قوله أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وقوله تعالى

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله. دليل على أنّ اللّه وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره. والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعا على الإيمان «1»، ولكنه شاء مشيئة حكمة، فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون، ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء. ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولى ولا نصير في عذابه.

[سورة الشورى (42): آية 9]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)

معنى الهمزة في أَمِ الإنكار فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ هو الذي يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد، فالفاء في قوله فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ جواب شرط مقدّر، كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه: إن أرادوا وليا بحق، فاللّه هو الولي بالحق، لا ولىّ سواه وَهُوَ يُحْيِ أى: ومن شأن هذا الولي أنه يحيى الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شيء.

[سورة الشورى (42): آية 10]

وَما اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)

وَما اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ حكاية قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم للمؤمنين. أى: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور

الدين ، فحكم ذلك المختلف فيه مفوّض إلى اللّه تعالى ، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ذِلكُمُ الحاكم بينكم هو اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ في ردّ كيد أعداء الدين وَإِلَيْهِ

---

(1) . قوله «لقسرهم جميعا على الإيمان» هذا عند المعتزلة : أما عند أهل السنة ، فالارادة تستلزم وجود المراد ، لكن لا تستلزم القسر والجبر للعباد ، لأنها لا تنافى الاختيار ، لما لهم في أعمالهم من الكسب . وإن كانت مخلوقة له تعالى . وأما التي لا تستلزم المراد وهي التي سماها مشيئة الحكمة ، فهي التي بمعنى الأمر عند المعتزلة ، ولا يثبتها أهل السنة ، كما تقرر في التوحيد ، فمعنى الآية : ولو شاء ربك إيمان الكل لآمن الكل ، ولكن شاء إيمان البعض ، فآمن من شاء إيمانه . (ع)

(191/686)

أرجع في كفاية شرهم . وقيل : وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولا تؤثروا على حكومته حكومته غيره ، كقوله تعالى فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ وقيل : وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم ، فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب اللّه والظاهر من سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

وقيل : وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه ، فقولوا : اللّه أعلم ، كمعرفة الروح . قال اللّه تعالى وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي : فإن قلت : هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة ؟ قلت : لا ، لأنّ الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

[سورة الشورى (42) : آية 11]

فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

فاطِرُ السَّماواتِ قرئ بالرفع والجر ، فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم . أو خبر مبتدإ محذوف ، والجرّ على : فحكمه إلى اللّه فاطر السماوات ، وذِلكُمُ إلى أُنِيبُ اعتراض بين الصفة والموصوف جَعَلَ لَكُمْ خلق لكم مِنْ أَنْفُسِكُمْ من جنسكم من الناس أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً أى : خلق من الأنعام أزواجا . ومعناه : وخلق للأنعام أيضا من أنفسها أزواجا يَذْرَؤُكُمْ يكثركم ، يقال : ذرأ اللّه الخلق : بثهم وكثرهم . والذر ، والذرو ، والذرء : أخوات فِيهِ في هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل . والضمير في يَذْرَؤُكُمْ يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل ، وهي من الأحكام ذات العلتين «1» . فإن قلت : ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذرؤكم به ؟ قلت : جعل هذا التدبير

كالمنبع والمعدن للبث والتكثير ، ألا تراك تقول . للحيوان في خلق الأزواج تكثير ، كما قال تعالى وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ قالوا : مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسدّ مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه . ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذمم : كان أبلغ «2» من قولك :

---

(1) . قال محمود : «إن الضمير المتصل بيذرؤ عائد على الأنفس وعلى الأنعام مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل ، وهي من الأحكام ذات العلتين» قال أحمد : الصحيح أنهما حكمان متباينان غير متداخلين ، أحدهما : مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطبا أو غائبا . والثاني : مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب ، فالأول لتغليب العقل . والثاني لتغليب الخطاب .

(2) . قوله «لا تخفر الذمم كان أبلغ» في الصحاح : أخفرته ، إذا نقضت عهده وغدرت به . وفيه : «أيقع الغلام» أى : ارتفع : وهو يافع ، ولا تقول : موقع . وقوله «كان أبلغ» لعل تقديره : فان قلت له ذلك كان أبلغ . (ع)

أنت لا تخفر . ومنه قولهم : قد أيفعت لداته وبلغت أترابه ، يريدون : إيفاعه وبلوغه . وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب : «ألا وفيهم الطيب الطاهر «1» لداته» والقصد إلى طهارته وطيبه ، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله : ليس كاللّه شيء ، وبين قوله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها ، وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد : وهو نفى المماثلة عن ذاته ، ونحوه قوله عز وجل بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ فإنّ معناه :

بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها : لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئًا آخر ، حتى أنهم استعملوا فيمن لا يد له ، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل «2» له ، ولك أن تزعم أنّ كلمة التشبيه كرّرت للتأكيد ، كما كرّرها من قال :

وصاليات ككما يؤثفين «3»

---

(1) . قال محمود : «تقول العرب : مثلك لا يبخل ، فينفون البخل عن مثله ، والمراد نفسه . ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذمم . ومنه قولهم : قد أيفعت لداته وبلغت أترابه . وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب : ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته ، تريد طهارته وطيبه ، فإذا علم أنه من باب الكناية : لم يكن فرق بين قولك ليس كاللّه شيء وبين قوله ليس كمثله شيء ، إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها . ونحوه قوله تعالى بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ فان معناه بل هو جواد من غير تصوير يد ولا بسط ، لأنها وقعت عبارة عن

الجود لا يقصدون بها شيئا آخر ، حتى أنهم يستعملونها فيمن لا يد له ، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ، وفيمن لا مثل له ، ثم قال :

ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررت في قوله من قال :

وصاليات ككما يؤثفين

ومن قال :

فأصبحت مثل كعصف مأكول

انتهى كلامه . قال أحمد : هذا الوجه الثاني مردود على ما فيه من الإخلال بالمعنى ، وذلك أن الذي يليق هنا تأكيد نفى المماثلة ، والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المماثلة وفرق بين تأكيد المماثلة المنفية ، وبين تأكيد نفى المماثلة ، فان نفى المماثلة المهملة عن التأكيد أبلغ وآكد في المعنى من نفى المماثلة المقترنة بالتأكيد ، إذ يلزم من نفى المماثلة الغير المؤكدة نفى كل مماثلة . ولا يلزم من نفى مماثلة محققة متأكدة بالغة نفى مماثلة دونها في التحقيق والتأكيد . وحيث وردت الكاف مؤكدة للمماثلة وردت في الإثبات فأكدته ، فليس النظر في الآية بهذين النظرين مستقيما والله أعلم . ومما يرشد إلى صحة ما ذكرته أن للقائل أن يقول : ليس زيد شبيها بعمرو ، لكن مشبها له ، ولو عكس هذا لم يكن صحيحا ، وما ذاك إلا أنه يلزم من نفى أدنى المشابهة نفى أعلاها ، ولا يلزم من نفى أعلاها نفى أدناها ، فمتى أكد التشبيه قصر عن المبالغة . والوجه الأول الذي ذكره هو الوجه في الآية عنده ، وأتى بمطية

الضعف في هذا الوجه الثاني بقوله : ولك أن تزعم ، فافهم .

(2) . رواه ابن عبد الرحمن بن موهب حليف بنى زهرة عن أبيه : حدثني مخرمة بن نوفل بحديث سقيا عبد المطلب لكن ليس فيه الطيب الطاهر لداته ورواه الطبراني وأبو نعيم في الدلائل من حديث عروة بن مصرف عن مخرمة ابن نوفل عن أمه رقيقة بنت أبى صيفي بن هاشم ، وكانت لدة عبد المطلب . قالت «تتابعت على قريش سنون – الحديث بطوله» وروينا ه في جزء أبى السكين . «تنبيه» وقع رقيقة بنت صيفي والصواب بنت أبى صيفي .

(3) لم يبق من آي بها يحلين غير رماد وعظام كثفين

وغير ود جازل أو ودين وصاليات ككما يؤثفين

لخطام المجاشعي . والآي : واحده آية ، أى : علامة . ويحلين : مضارع مبنى للمجهول ، من حليته تحلية : إذا وصفت حليته وصفته . يقول : لم يبق من آثار هذه الديار علامات فيها تذكر صفتها غير رماد وعظام متكاثفين متراكمين . والكشف – بالتحريك – : كسبب : المجتمع ، فلعله سكنه للوزن . وروى : غير رماد وخطام كثفين .

والخطام : الزمام . ويروى بالمهملة ، وهو ما تحطم وتكسر من الحطب اليابس . والكثف – كحمل – : وعاء الرعي فكثفين على حذف العاطف . وقيل بدل مما قبله . والأوجه روايته وخطام كثفين بالاضافة ، لأجل موافقة القوافي أى : ورباط وعاءين ، وكرر أداة

الاستثناء للتوكيد . والود : أصله وتد ، فقلبت التاء دالا وأدغمت في الأخرى عند تميم شذوذا . والجادل : المنتصب والغليظ ، أى : لم يق غير وتد منتصب بها أو وتدين لا غير ، حيث لم يشك إلا في ذلك . والصاليات صفة للاثافى . وقيل : صفة للنساء الموقدات للنار : وقيل : صفة للخيل الصاليات للحرب كالأثافى الصاليات للنار ، لكنهما لا يناسبان وصف الدار بالخلو . والأثفية : حجر الكانون ، وزنها : أفعولة في الأصل ، وجمعها أثافى . وأثفيت للقدر : وضعت الأثافى لها . وثفيتها تثفية : وضعتها على الأثافى . وقوله : يؤثفين مضارع مبنى للمجهول ، جاء على الأصل مهموزا ، كيؤكر من بالهمزة ، وهذا يدل على أن الصاليات صفة للأحجار الملازمات للنار المحترقات بها ، فلعله شبه النساء بالأثافى لدمامتهن وسوادهن ، بكثرة الدخان وملازمتهن النار .

وعليه فالمعنى : ونساء صاليات كالأحجار تثفى وتوضع للقدر ، فما موصولة واقعة على الأحجار لا مصدرية ولا كافة ، وكرر كاف التشبيه للتوكيد ، لكن الثانية اسم بمعنى مثل ، لأن حرف الجر لا يدخل على مثله . ويمكن أنه كرر الحرف من غير إعادة المجرور شذوذا .

ويروى بعد قوله وصاليات . . . الخ

لا يشتكين عملا ما أنقين ما دام مخ في سلامى أو عين

وهو يناسب القول بأنها صفة للنساء أو الخيل على التشبيه السابق . والانقاء : كثرة النقي بالكسر وهو المخ . يقال :

أنقت الإبل إذا سمنت وكثر مخها ، أى : لا يشتكين عملا مدة إنقائهن وسمنهن ، وفسر ذلك بقوله : ما دام مخ . . . الخ والسلاميات : عظام الأصابع وهي والعين آخر ما يبقى فيه المخ . ويروى أيضا هكذا :

أهل عرفت الدار بالغريين وصاليات ككما يؤثفين

والغريان : بناء ان طويلان ، يقال : هما قبرا مالك وعقيل : نديمى جذيمة الأبرش ، سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما بمن يريد قتله إذا خرج يوم بؤسه . والأشبه أن ذلك من تخليط الراوي ، وأن الصاليات : الأحجار . وقوله «لا يشتكين . . . الخ» ليس من هذا الرجز ، فلا ينبغي روايته معه ، وهو الذي من صفة الخيل ، أو أصل النساء لا الصاليات . ويجوز أن الرجز هكذا :

أهل عرفت الدار بالغريين لم يبق من آي بها يحلين

وأن قوله «لا يشتكين . . . الخ» من موضع آخر من ذلك الرجز في صفة الخيل ، كما رواه صاحب الكافي شاهدا على الأكفاء في القافية هكذا :

بنات وطاء على خد الليل لا يشتكين عملا ما أنقين

لاختلاف حرفى الروى . والوطاء – بالضم والتشديد – : من الوطء على الأرض . وخد الليل : طريقه الذي لا يسلك إلا فيه . وقال بعضهم : إن هذا في صفة الخيل ، وأنه من مشطور المنسرح الموقوف . وعلى أنه في صفة أجل ، أى : فلك المطايا بنات نوق أو فحول ،

وطاء : جمع واطئ أو واطئة ، على خد الليل : كناية عن قوتهن في السير ، حتى كأنهن يغلبن الليل ، فيصر عنه ويطأن على خده ، فهن لا يبالين به . [. . . . .]

(193/686)

ومن قال :

فأصبحت مثل كعصف مأكول «1»

---

(1) بالأمس كانت في رخاء مأمول فأصبحت مثل كعصف مأكول

يروى لرؤية بدله :

ولعبت طير بهم أبابيل فصيروا مثل كعصف مأكول

يقول : بالأمس ، أى : في الزمن الماضي القريب ، كانت تلك الديار مثلا في رخاء ، أى : خصب وسعة من الثروة والغنى ، مأمول ذلك ، أى : متمنى للناس ، وكرر كلمة التشبيه للتوكيد ، والعصف : ما على الحب وعلى ساق الزرع من التين والورق اليابس ، مأكول : أى أصابه الأكال ، وهو الدود . وأكلته الدواب ثم راثته . وأبابيل ، بمعنى جماعات متفرقة ، صفة طير ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه . وقيل : واحده أبول كعجول . وقيل :

إبال كمفتاح. وقيل إبيل كمسكين. وقول رؤية «صيروا» بالتشديد والبناء للمجهول، ولعل هذا رجز غيره ذاك.

(194/686)

[سورة الشورى (42) : آية 12]

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

وقرئ: ويقدّره. إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فإذا علم أنّ الغنى خير للعبد أغناه، وإلا أفقره.

[سورة الشورى (42) : آية 13]

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ والمراد: إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد اللّه وطاعته، والإيمان برسله وكتبه، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما، ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها

مختلفة متفاوتة. قال اللّه تعالى لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ومحل أَنْ أَقِيمُوا إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف، كأنه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين. ونحوه قوله تعالى إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً. كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ عظم عليهم وشق عليهم ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ من إقامة دين اللّه والتوحيد يَجْتَبِي إِلَيْهِ يجتلب إليه ويجمع. والضمير للدين بالتوفيق والتسديد مَنْ يَشاءُ من ينفع فيهم توفيقه ويجرى عليهم لطفا.

[سورة الشورى (42): آية 14]

وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14)

(195/686)

وَما تَفَرَّقُوا يعنى أهل الكتاب بعد أنبيائهم إِلَّا مِنْ بَعْدِ أن علموا أنّ الفرقة ضلال وفساد، وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ حين افترقوا لعظم ما اقترفوا وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لَفِي شَكٍّ من كتابهم لا

يؤمنون به حق الإيمان . وقيل : كان الناس أمّة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك اللّه أهل الأرض أجمعين بالطوفان ، فلما مات الاباء اختلف الأبناء فيما بينهم ، وذلك حين بعث اللّه إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم . وإنما اختلفوا للبغي بينهم . وقيل : وما تفرّق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كقوله تعالى وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ وإنّ الذين أورثوا الكتاب من من بعدهم هم المشركون : أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل .

وقرئ : ورّثوا ، وورثوا .

[سورة الشورى (42) : آية 15]

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)

فَلِذلِكَ فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعبا فَادْعُ إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة وَاسْتَقِمْ عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك اللّه وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ المختلفة الباطلة بما أنزل اللّه من كتاب ، أىّ كتاب صحّ أنّ اللّه أنزله ، يعنى الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، كقوله تعالى وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ إلى قوله أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ في الحكم إذا

تخاصمتم فتحاكمتم إلىّ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ أى لا خصومة لأنّ الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة. ومعناه: لا إيراد حجة بيننا، لأنّ المتحاجين: يورد هذا حجته وهذا حجته اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم، وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام. فإن قلت: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلت: المراد محاجزتهم في مواقف المقاولة لا المقاتلة.

(196/686)

[سورة الشورى (42): آية 16]

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (16)

يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ يخاصمون في دينه مِنْ بَعْدِ ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام، ليردّوهم إلى دين الجاهلية، كقوله تعالى وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم «1» وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجاب اللّه لرسوله ونصره يوم بدر

وأظهر دين الإسلام داحِضَةٌ باطلة زالة.

[سورة الشورى (42) : الآيات 17 إلى 18]

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18)

أَنْزَلَ الْكِتابَ أى جنس الكتاب وَالْمِيزانَ والعدل والتسوية. ومعنى إنزال العدل، أنه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: الذي يوزن به. بالحق: ملتبسا بالحق، مقترنا به، بعيدا من الباطل أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة. أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك السَّاعَةَ في تأويل البعث، فلذلك قيل قَرِيبٌ أو لعل مجيء الساعة قريب.

فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأنّ الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط، فكأنه قيل: أمركم اللّه بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم، ويوفى لمن أوفى ويطفف لمن طفف.

المماراة: الملاجة «2» لأنّ كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ من الحق:

لأنّ قيام الساعة غير مستبعد من قدرة اللّه، ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب

فيها ، ولشهادة العقول على أنه لا بدّ من دار الجزاء .

[سورة الشورى (42) : آية 19]

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)

لَطِيفٌ بِعِبادِهِ برّ بليغ البرّ بهم ، قد توصل برّه إلى جميعهم ، وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه ، وهم أحد من كلياته وجزئياته . فإن قلت : فما معنى قوله يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ

---

(1) . قوله «ونحن خير منكم» لعله : «فنحن» كعبارة النسفي . (ع)

(2) . قوله «الملاجة» بالجيم : التمادي في الخصومة ، ويمرى : أي يستخرج ، كذا في الصحاح . (ع)

بعد توصل برّه إلى جميعهم ؟ قلت : كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه ، إلا أنّ البرّ أصناف ، وله أوصاف . والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير ، فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر ، ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه ، فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه ، وهو الذي أراد بقوله تعالى يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ كما يرزق أحد الأخوين ولدا دون الآخر ، على أنه أصابه

بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد وَهُوَ الْقَوِيُّ الباهر القدرة ، الغالب على كل شيء الْعَزِيزُ المنيع الذي لا يغلب .

[سورة الشورى (42) : آية 20]

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20)

سمى ما يعمله العامل مما يبغى به الفائدة والزكاء حرثا على المجاز . وفرق بين عملى العاملين :

بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته ، ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئا منها لا ما يريده ويبتغيه . وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وماله نصيب قط في الآخرة ، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب ، على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة ، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب .

[سورة الشورى (42) : آية 21]

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (21)

معنى الهمزة في أَمْ التقرير والتقريع . وشركاؤهم : شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا ، لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين ،

وتعالى اللّه عن الإذن فيه والأمر به وقيل شركاؤهم : أوثانهم . وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخذوها شركاء للّه ، فتارة تضاف إليهم لهذه الملابسة . وتارة إلى اللّه ، ولما كانت سببا لضلالتهم وافتتانهم : جعلت شارعة لدين الكفر ، كما قال إبراهيم صلوات اللّه عليه إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ . وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ أى القضاء السابق بتأجيل الجزاء . أى : ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أى بين الكافرين والمؤمنين . أو بين المشركين وشركائهم . وقرأ مسلم بن جندب : وأنّ الظالمين ، بالفتح عطفا له على كلمة الفصل ، يعنى : ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة ، لقضى بينهم في الدنيا .

(198/686)

[سورة الشورى (42) : الآيات 22 إلى 23]

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23)

تَرَى الظَّالِمِينَ فِي الآخرة مُشْفِقِينَ خائفين خوفا شديدا أرق قلوبهم مِمَّا كَسَبُوا من السيئات

وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ يريد : ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بدّ لهم منه ، أشفقوا أو لم يشفقوا . كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها عِنْدَ رَبِّهِمْ منصوب بالظرف لا بيشاءون قرئ : يبشر ، من بشره . ويبشر من أبشره . ويبشر ، من بشره . والأصل : ذلك الثواب الذي يبشر اللّه به عباده ، فحذف الجار ، كقوله تعالى وَاخْتَارَ مُوسى قَوْمَهُ ثم حذف الراجع إلى الموصول ، كقوله تعالى أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا أو ذلك التبشير الذي يبشره اللّه عباده . روى أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض : أترون محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا ؟

فنزلت الآية إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى يجوز أن يكون استثناء متصلا ، أى : لا أسألكم أجرا إلا هذا ، وهو أن تودوا أهل قرابتي ، ولم يكن هذا أجرا في الحقيقة ، لأنّ قرابته قرابتهم ، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة . ويجوز أن يكون منقطعا ، أى : لا أسألكم أجرا قط ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم . فإن قلت : هلا قيل : إلا مودّة القربى : أو إلا المودة للقربى . وما معنى قوله إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ؟ قلت : جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها ، كقولك : لي في آل فلان مودّة . ولى فيهم هوى وحب شديد ، تريد : أحبهم وهم مكان حبى ومحله ، وليست فِي بصلة للمودّة ، كاللام إذا قلت : إلا المودّة للقربى ، إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك : المال في الكيس . وتقديره : إلا المودّة ثابتة في القربى ومتمكنة «1» فيها . والقربى : مصدر كالزلفى والبشرى ، بمعنى :

قرابة . والمراد في أهل القربى . وروى أنها لما نزلت قيل : يا رسول اللّه ، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا

---

(1) . قال محمود : «إن قلت هلا قيل : إلا مودة القربى . أو : إلا المودة للقربى . وأجاب بأنهم جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها ، كقولك : لي في آل فلان هوى وحب شديد ، وليس فِي صلة للمودة ، كاللام إذا قلت :

إلا المودة للقربى ، وإنما هي متعلقة بمحذوف تقديره : إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها» قال أحمد : وهذا المعنى هو الذي قصد بقوله في الآية التي تقدمت : إن قوله يذرؤكم فيه ، إنما جاء عوضا من قوله : يذرؤكم به ، فافهمه .

(199/686)

مودّتهم ؟ قال : «عليّ وفاطمة وابناهما «1»» ويدل عليه ما روى عن على رضى اللّه عنه : شكوت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حسد الناس لي . فقال «أما ترضى أن تكون رابع أربعة : أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين ، وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا ، وذريتنا خلف أزواجنا» «2» وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي . ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد

المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة» «3» وروى . أنّ الأنصار قالوا : فعلنا وفعلنا ، كأنهم افتخروا ، فقال عباس أو ابن عباس رضى اللّه عنهما : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأتاهم في مجالسهم فقال : «يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأعزكم اللّه بى» ؟ قالوا بلى يا رسول اللّه . قال : «ألم تكونوا ضلالا فهداكم اللّه بى» ؟ قالوا : بلى يا رسول اللّه . قال : «أفلا تجيبونني» «4» ؟ قالوا : ما نقول يا رسول اللّه ؟ قال : «ألا تقولون : ألم يخرجك قومك فآويناك ، أو لم يكذبوك فصدقناك ، أو لم يخذلوك فنصرناك» قال : فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا : أموالنا وما في أيدينا للّه ولرسوله . فنزلت الآية . وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من مات على حب آل محمد مات شهيدا «5» ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ، ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل اللّه

---

(1) . أخرجه الطبراني وابن أبى حاتم والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وحسين

ضعيف ساقط . وقد عارضه ما هو أولى منه . ففي البخاري من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية . فقال سعيد بن جبير قربى آل محمد صلى اللّه عليه وسلم ؟ فقال ابن عباس : عجلت . إن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة – الحديث» قلت وأخرج سعيد بن منصور من طريق الشعبي قال «أكثروا علينا في هذه الآية . فكتبنا إلى ابن عباس فكتب – فذكر نحوه ، وابن طاوس أتم منه .

(2) . أخرجه الكريمي عن ابن عائشة بسنده عن على رضى اللّه عنه ورواه الطبراني من حديث أبى رافع «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لعلى «إن أول أربعة يدخلون الجنة – فذكره» وسنده واه .

(3) . أخرجه الثعلبي من حديث على رضى اللّه عنه . وفيه عبد اللّه بن أحمد بن عامر الطائي عن أبيه . وهو كذاب

(4) . أخرجه الطبري وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبراني في الأوسط ، كلهم من حديث ابن عباس . وفيه يزيد بن زياد وهو ضعيف

(5) . أخرجه الثعلبي : أخبرنا عبد اللّه بن محمد بن على البلخي حدثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق حدثنا محمد بن أسلم حدثنا يعلى بن عبيد عن إسماعيل بن قيس عن جرير – بطوله . وآثار الوضع عليه لائحة . ومحمد ومن فوقه أثبات . والآفة فيه ما بين الثعلبي ومحمد .

قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب «1» بين عينيه : آيس من رحمة اللّه ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة» وقيل :

لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبينهم قربى ، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت . والمعنى : إلا أن تودوني في القربى ، أى : في حق القربى ومن أجلها ، كما تقول : الحب في اللّه والبغض في اللّه ، بمعنى : في حقه ومن أجله ، يعنى : أنكم قومي وأحق من أجابنى وأطاعنى ، فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا علىّ . وقيل :

أتت الأنصار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمال جمعوه وقالوا : يا رسول اللّه ، قد هدانا اللّه بك وأنت ابن أختنا وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة ، فاستعن بهذا على ما ينوبك «2» ، فنزلت وردّه . وقيل الْقُرْبى : التقرب إلى اللّه تعالى ، أى : إلا أن تحبوا اللّه ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح . وقرئ : إلا مودّة في القربى مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً عن

السدّى أنها المودّة في آل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : نزلت في أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه ومودّته فيهم . والظاهر : العموم في أى حسنة كانت ، إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودّة في القربى :

دل ذلك على أنها تناولت المودّة تناولا أوّليا ، كأنّ سائر الحسنات لها توابع . وقرئ : يزد ، أى : يزد اللّه . وزيادة حسنها من جهة اللّه مضاعفتها ، كقوله تعالى مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وقرئ : حسنى ، وهي مصدر كالبشرى ، الشكور في صفة اللّه : مجاز للاعتداد بالطاعة ، وتوفية ثوابها ، والتفضل على المثاب .

[سورة الشورى (42) : آية 24]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (24)

أَمْ منقطعة . ومعنى الهمزة فيه التوبيخ «3» ، كأنه قيل : أيتما لكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء ، ثم إلى الافتراء على اللّه الذي هو أعظم الفرى وأفحشها فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ فإن يشأ اللّه يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على اللّه إلا من كان في مثل حالهم ، وهذا الأسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله ،

---

(1) . قوله «مكتوب بين عينيه» لعله : مكتوبا . (ع)

(2) . ذكره الثعلبي والواحدي في الأسباب عن ابن عباس بغير سند . ويشبه أن يكون عن الكلبي عن أبى صالح عنه . وروى الطبراني من طريق عثمان بن القطان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وأخرجه ابن مردويه عنه .

(3) . قوله «و معنى الهمزة فيه التوبيخ» لعله : فيها . (ع)

(201/686)

وأنه في البعد مثل الشرك باللّه والدخول في جملة المختوم على قلوبهم . ومثال هذا : أن يخوّن بغض الأمناء فيقول لعل اللّه خذلنى ، لعل اللّه أعمى قلبي ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب .

وإنما يريد استبعاد أن يخوّن مثله ، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم ، ثم قال : ومن عادة اللّه أن يمحو الباطل ويثبت الحق بِكَلِماتِهِ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ يعنى : لو كان مفتريا كما تزعمون لكشف اللّه افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه . ويجوز أن يكون عدة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت «1» والتكذيب ، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مردّ له من نصرتك عليهم ، إنّ اللّه عليم بما في صدرك وصدورهم

، فيجري الأمر على حسب ذلك . وعن قتادة يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ : ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى ، يعنى : لو افترى على اللّه الكذب لفعل به ذلك ، وقيل يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ : يربط عليه بالصبر ، حتى لا يشق عليك أذاهم . فإن قلت : إن كان قوله وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ كلاما مبتدأ غير معطوف على يختم ، فما بال الواو ساقطة في الخط ؟ قلت : كما سقطت في قوله تعالى وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ وقوله تعالى سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ على أنها مثبتة في بعض المصاحف .

[سورة الشورى (42) : آية 25]

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (25)

يقال : قبلت منه الشيء ، وقبلته عنه . فمعنى قبلته منه : أخذته منه وجعلته مبدأ قبولى ومنشأه .

ومعنى : قبلته عنه : عزلته عنه وأبنته عنه . والتوبة : أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود ، لأنّ المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب . وإن كان فيه لعبد حق : لم يكن بد من التفصي على طريقه ، وروى جابر أن أعرابيا دخل مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر ، فلما فرغ من صلاته قال له على رضى اللّه عنه : يا هذا ، إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى التوبة . فقال : يا أمير المؤمنين ، وما التوبة ؟

قال : اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، وردّ المظالم ، وإذا به النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ عن الكبائر إذا تيب عنها ، وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ . قرئ بالتاء والياء : أى : يعلمه فيثيب على حسناته ، ويعاقب على سيئاته .

---

(1) . قوله «من البهت» أى : اتهام الإنسان بما ليس فيه ، (ع)

(202/686)

[سورة الشورى (42) : آية 26]

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (26)

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا أى يستجيب لهم ، فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى وَإِذا كالُوهُمْ أى يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلا ، أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم . وقيل : الاستجابة : فعلهم ، أى يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها وَيَزِيدُهُمْ هو مِنْ فَضْلِهِ على ثوابهم . وعن سعيد بن

جبير : هذا من فعلهم : يجيبونه إذا دعاهم . وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له : ما بالنا ندعو فلا نجاب ؟ قال : لأنه دعاكم فلم تجيبوه ، ثم قرأ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ ، وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 208. 223 ﴾

(203/686)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ حم ﴾ قد سبق تفسيره [المؤمن] .

قوله تعالى : ﴿ عسق ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه قَسَمٌ أقسم اللهُ به ، وهو من أسمائه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه حروف من أسماء ؛ ثم فيه خمسة أقوال :

أحدها : أن العين عِلْم الله ، والسين سناؤه ، والقاف قُدرته ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

والثاني : أن العين فيها عذاب ، والسين فيها مسخ ، والقاف فيها قذف ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس .

والثالث : أن الحاء من حرب ، والميم من تحويل مُلك ، والعين من عدوّ مقهور ، والسين

استئصال بسِنين كسِنيّ يوسف ، والقاف من قُدرة الله في ملوك الأرض ، قاله عطاء .

والرابع : أن العين من عالم ، والسين من قُدُّوس ، والقاف من قاهر ، قاله [سعيد] بن جبير .

والخامس : أن العين من العزيز ، والسين من السلام ، والقاف من القادر ، قاله السدي .

والثالث : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ كذلكَ يُوحِي إليكَ ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه كما أوحيتُ " حم عسق " إلى كلِّ نبيّ ، كذلك نوحيها إليك ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : كذلك نوحي إليك أخبار الغيب كما أوحينا إلى مَنْ قَبْلَكَ ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أن " حم عسق " نزلت في أمر العذاب ، فقيل : كذلك نُوحِي إليكَ أن العذاب نازلٌ بمن كذَّبك كما أوحينا ذلك إلى مَنْ كان قَبْلَكَ ، قاله مقاتل .

والرابع : أن المعنى : هكذا نوحي إليكَ ، قاله ابن جرير .

وقرأ ابن كثير : "يُوحَى " بضم الياء وفتح الحاء .

كأنه إذا قيل : مَن يوحي ؟ قيل : الله .

وروى أبان عن عاصم : " نوحي " بالنون وكسر الحاء .

﴿ تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة: ﴿ تكاد ﴾ بالتاء ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ بياء وتاء مفتوحة وفتح الطاء وتشديدها.

(204/686)

وقرأ نافع، والكسائي: ﴿ يكاد ﴾ بالياء ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ مثل قراءة ابن كثير.

وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ تكاد ﴾ بالتاء ﴿ يَنْفَطِرْنَ ﴾ بالنون وكسر الطاء وتخفيفها، أي: يَتَشَقَّقْنَ ﴿ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ أي: من فوق الأَرضِين من عَظَمة الرحمن؛ وقيل: من قول المشركين: "اتخذ الله ولداً".

ونظيرها [التي] في [مريم: 90].

﴿ والملائكةُ يسبِّحونَ بحمد ربِّهم ﴾ قال بعضهم: يصلُّون بأمر ربِّهم؛ وقال بعضهم: ينزِّهونه عمّا لا يجوز في صفته ﴿ ويَستغفرونِ لِمَنْ في الأرض ﴾ فيه قولان.

أحدهما: أنه أراد المؤمنين، قاله قتادة، والسدي.

والثاني: أنهم كانوا يستغفرون للمؤمنين، فلمّا ابتُلِيَ هاروت وماروت استغفروا لِمَن في الأرض.

ومعنى استغفارهم: سؤالهم الرِّزق لهم، قاله ابن السائب.

وقد زعم قوم منهم مقاتل أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ ويَستغفرون للذين آمنوا ﴾ [غافر : 7] وليس بشيءٍ ، لأنهم إنَّما يَستغفرون للمؤمنين دون الكفار ، فلفظ هذه الآية عامّ ، ومعناها خاصّ ، ويدل على التخصيص قوله : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [غافر : 7] لأن الكافر لا يستحق أن يُستغفَر له .

قوله تعالى : ﴿ والذين اتَّخَذوا مَنْ دونه أولياءَ ﴾ يعني كفار مكة اتَّخَذوا آلهة فعبدوها من دونه ﴿ اللهُ حفيظٌ عليهم ﴾ أي : حافِظٌ لأعمالهم ليجازيَهم بها ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي : لم نوكِّلْكَ بهم فتؤخَذَ بهم .

وهذه الآية عند جمهور المفسرين منسوخة بآية السيف ، ولا يصح .

(205/686)

قوله تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل ما ذكرنا ﴿ أوحينا إليك قرآنا عربيّاً ﴾ ليفهموا مافيه ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرى ﴾ يعني مكة ، والمراد : أهلها ، ﴿ وتُنْذِرَ يومَ الجَمْعِ ﴾ أي : وتُنذِرهم يوم الجمع ، وهو يوم القيامة ، يَجمع اللهُ فيه الأوَّلين والآخرين وأهل السموات والأرضِين ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي : لا شكَّ في هذا الجمع أنه كائن ، ثم بعد الجمع يتفرَّقون ، وهو قوله : ﴿ فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ﴾ .

ثم ذكر سبب افتراقهم فقال : ﴿ ولو شاءَ اللهُ لجعلهم أُمَّةً واحدةً ﴾ أي : على دين واحد ، كقوله : ﴿ لَجَمَعَهُمْ على الهُدى ﴾ [الأنعام : 35] ﴿ ولكن يُدْخِلُ مَنْ يشاء في رحمته ﴾ أي : في دينه ﴿ والظّالمون ﴾ وهم الكافرون ﴿ ما لهم من وليّ ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿ ولا نصيرٍ ﴾ يمنعهم منه .

﴿ أمِ اتَّخَذوا مِنْ دُونِه ﴾ أي : بل اتخذ الكافرون من دون الله ﴿ أولياءَ ﴾ يعني آلهة يتولَّونهم ﴿ فاللهُ هو الوليُّ ﴾ أي : وليُّ أوليائه ، فليتَّخذوه وليّاً دون الآلهة ؛ وقال ابن عباس : وليُّك يا محمد ووليُّ من اتَّبعك .

قوله تعالى : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيءٍ ﴾ أي : من أمر الدِّين ؛ وقيل : بل هو عامّ ﴿ فحُكمه إلى الله ﴾ فيه قولان .

أحدهما : علمه عند الله .

والثاني : هو يحكُم فيه .

قال مقاتل .

وذلك أن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن وآمن بعضهم ، فقال الله : أنا الذي أحكُم فيه ﴿ ذلكم اللهُ ﴾ الذي يحكُم بين المختلفين هو ﴿ ربِّي عليه توكلت ﴾ في مهمّاتي ﴿ وإليه أُنيب ﴾ أي : أرجِع في المَعاد .

﴿ فاطرُ السموات ﴾ قد سبق بيانه [الأنعام : 14] ، ﴿ جعل لكم من أنفُسكم ﴾ أي

: من مِثل خَلْقكم ﴿ أزواجاً ﴾ نساءً ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ أصنافاً ذكوراً وإناثاً ، والمعنى أنه خلق لكم الذَّكر والأنثى من الحيوان كلِّه ﴿ يذرؤكم ﴾ فيها ثلاثة أقوال :

أحدها : يخلُقكم ، قاله السدي .

والثاني : يُعيِّشكم ، قاله مقاتل .

(206/686)

والثالث : يكثِّركم ، قاله الفراء .

و[في قوله] (فيه) قولان .

أحدهما : أنها على أصلها ، قاله الأكثرون .

فعلى هذا في هاء الكناية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى بطون الإناث وقد تقدم ذكر الأزواج ، قاله زيد بن أسلم .

فعلى هذا يكون المعنى : يخلُقكم في بطون النساء ، وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة ، فقال : يخلُقكم في الرَّحِم أو في الزَّوج ، وقال ابن جرير : يخلُقكم فيما جعل لكم من أزواجكم ، ويعيِّشكم فيما جعل لكم من الأنعام .

والثاني : أنها ترجع إلى الأرض ، قاله ابن زيد ؛ فعلى هذا يكون المعنى : يذرؤكم فيما خلق

من السموات والأرض .

والثالث : أنها ترجع إلى الجَعْل المذكور ؛ ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : يعيّشكم فيما جعل من الأنعام ، قاله مقاتل .

والثاني : يخلُقكم في هذا الوجه الذي ذكر مِنْ جَعْلِ الأزواج قاله الواحدي .

والقول الثاني : أن " فيه " بمعنى " به " ؛ والمعنى يكثرّكم بما جعل لكم ، قاله الفراء والزجاج .

قوله تعالى : ﴿ ليس كمثّله شيءٌ ﴾ قال ابن قتيبة : أي ليس كَهُوَ شيء ، والعرب تُقيم المِثْلَ مُقام النَّفْس ، فتقول : مِثْلي لا يُقال له هذا ، أي : أنا لا يُقال لي هذا .

وقال الزجاج : الكاف مؤكّدة ، والمعنى : ليس مِثْلَه شيءٌ ، وما بعد هذا قد سبق بيانه [الزمر : 63] [الرعد : 26] إلى قوله ﴿ شَرَعَ لكم ﴾ أي : بيّن وأوضح ﴿ من الدّين ما وصّى به نُوحاً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه تحليل الحلال وتحريم الحرام ، قاله قتادة .

والثاني : تحريم الأخوات والأُمّهات ، قاله الحكم .

والثالث : التوحيد وترك الشّرك .

قوله تعالى : ﴿ والذي أَوحينا إِليكَ ﴾ أي : من القرآن وشرائع الإِسلام قال الزجاج : المعنى : وشرع الذي أوحينا إليك وشرع لكم ما وصَّى به إبراهيم وموسى وعيسى وقوله : ﴿ أَن أَقيموا الدِّين ﴾ تفسير قوله : ﴿ ما وصَّينا به إِبراهيمَ وموسى وعيسى ﴾ ، وجائز أن يكون تفسيراً ل " ما وصَّى به نوحاً " ولقوله : ﴿ والذي أَوحينا إِليك ﴾ ولقوله : ﴿ وما وصَّينا به إِبراهيم وموسى وعيسى ﴾ ، فيكون المعنى : شرع لكم ولِمَن قبلكم إقامة الدِّين وترك الفُرقة ، وشرع الاجتماع على اتِّباع الرُّسل وقال مقاتل : ﴿ أن أَقيموا الدِّين ﴾ يعني التوحيد ﴿ ولا تتفرَّقوا فيه ﴾ أي : لا تختلفوا ﴿ كَبُرَ على المشركين ﴾ أي : عَظُمَ على مشركي مكة ﴿ ما تَدْعوهم إِليه ﴾ يا محمد من التوحيد .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَجتبي إِليه ﴾ أي : يَصطفي من عباده لِدِينه ﴿ مَنْ يَشاءُ ويَهدي ﴾ إِلى دِينه ﴿ من يُنيبُ ﴾ أي : يَرجع إِلى طاعته .

ثم ذكر افتراقهم بعد أن أوصاهم بترك الفُرقة ، فقال : ﴿ وما تفرَّقوا ﴾ يعني أهل الكتاب ﴿ إِلاَّ مِنَ بَعْدِ ما جاءهم العِلْمُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من بعد كثرة عِلْمهم للبغي .

والثاني : من بعد أن علموا أن الفُرقة ضلال .

والثالث : من بعد ما جاءهم القرآن ، بغياً منهم على محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّك ﴾ في تأخير المكذّبين من هذه الأُمَّة إلى يوم القيامة ، ﴿ لَقُضِيَ بينَهم ﴾ بإنزال العذاب على المكذّبين ﴿ وإنَّ الذين أُورثوا الكتاب ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ مِنْ بعدِهم ﴾ أي : من بعد أنبيائهم ﴿ لفي شكٍّ منه ﴾ أي : من محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادْعُ ﴾ قال الفراء : المعنى : فالى ذلك ، تقول : دعوتُ إلى فلان ، ودعوت لفلان ، و " ذلك " بمعنى " هذا " ؛ وللمفسرين قولان :

أحدهما : أنه القرآن ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنه التوحيد ، قاله مقاتل .

(208/686)

قوله تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهم ﴾ يعني : أهل الكتاب ، لأنهم دعَوه إلى دينهم .

قوله تعالى : ﴿ وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بينَكم ﴾ قال بعض النحويّين المعنى : أُمِرْتُ كي أَعْدِلَ .

وقال غيره المعنى : أُمِرْتُ بالعَدْل .

وتقع " أُمِرْتُ " على " أن " ، وعلى " كي " وعلى " اللام " يقال أُمِرْتُ أن أعدل ، وكي أعدل ، ولأعدل .

ثم في ما أُمِرَ أن يَعْدِلَ فيه قولان .

أحدهما : في الأحكام إذا ترافعوا إليه .

والثاني : في تبليغ الرسالة .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ ربُّنا وربُّكم ﴾ أي : هو آلهنا وإن اختلفنا ، فهو يجازينا بأعمالنا ، فذلك قوله : ﴿ لنا أعمالُنا ﴾ أي : جزاؤها .

﴿ لا حُجَّةَ بينَنا وبينكم ﴾ قال مجاهد : لا خصومة بينَنا وبينَكم .

فصل

وفي هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها اقتضت الاقتصار على الإنذار ، وذلك قبل القتال ، ثم نزلت آية السيف فنسختْها ، قاله الأكثرون .

والثاني : أن معناها : إن الكلام بعد ظُهور الحُجج والبراهين قد سقط بيننا ، فعلى هذا هي مُحْكَمة ، حكاه شيخنا عليّ بن عبيد الله عن طائفة من المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ والذين يُحاجُّونَ في الله ﴾ أي : يُخاصِمون في دِينه .

قال قتادة : هم اليهود ، قالوا كتابُنا : قَبْلَ كتابكم ، ونبيُّنا قبل نبيِّكم ، فنحن خيرٌ منكم .

وعلى قول مجاهد : هم المشركون ، طمعوا أن تعود الجاهلية .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ ما استُجيب له ﴾ أي : من بعد إجابة الناس إلى الإسلام ﴾

حُجَّتُهم داحضة ﴾ أي : خصومتهم باطلة .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي أنزل الكتابَ ﴾ يعني القرآن ﴿ بالحق ﴾ أي : لم ينزله لغير شيء ﴿ والميزانَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه العدل ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : أنه الذي يوزَن به ، حكي عن مجاهد .

ومعنى إنزاله : إلهامُ الخَلْق أن يَعملوا به ، وأمرُ الله عز وجل إيّاهم بالإنصاف .

(209/686)

وسمّي العَدْلُ ميزاناً ، لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخَلْق .

وتمام الآية مشروح في [الأحزاب : 63] .

قوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ لأنهم لا يخافون ما فيها ، إذْ لم يؤمنوا بكونها ، فهم يطلبُون قيامها استبعاداً واستهزاءً ﴿ والذين آمنوا مشفِقون ﴾ أي : خائفون ﴿ منها ﴾ لأنهم يعلمون أنهم مُحاسَبون ومَجزيُّون ، ولا يدرون ما يكون منهم ﴿ ويَعلمون أنَّها الحَقُّ ﴾ أي : أنها كائنة لا مَحالة ﴿ ألا إنَّ الذين يُمارونَ في السّاعة ﴾ أي : يخاصِمون في كونها ﴿ لفي ضلال بعيدٍ ﴾ حين لم يتفكَّروا ، فيَعلموا قدرة الله على

إقامتها .

﴿ اللهُ لطيفٌ بعباده ﴾ قد شرحنا معنى [اسمه] " اللطيف " في [الأنعام : 103] وفي عباده هاهنا قولان :

أحدهما : أنهم المؤمنون .

والثاني : أنه عامّ في الكُلّ ولطفُه بالفاجر : أنه لا يُهلكه .

﴿ يرزُق من يشاء ﴾ أي : يوسّع له الرّزق .

قوله تعالى : ﴿ من كان يريد حَرْثَ الآخرة ﴾ قال ابن قتيبة : أي : عَمَلَ الآخرة ، يقال : فلانٌ يحرُث الدُّنيا ، أي : يعمل لها ويجمع المال ؛ فالمعنى : من أراد بعمله الآخرة ﴿ نَزِدْ له في حَرْثه ﴾ أي : نُضاعِف له الحسنات .

قال المفسرون : من أراد العمل لله بما يُرضيه ، أعانه الله على عبادته ، ومن أراد الدُّنيا مُؤْثِرا لها على الآخرة لأنه غير مؤمن بالآخرة ، يؤته منها ، وهو الذي قسم له ، ﴿ وما له في الآخرة مِنْ نصيبٍ ﴾ لأنه كافر بها لم يعمل لها .

فصل

اتفق العلماء على أن أول هذه الآية إلى " حرثه " مُحْكَم ، واختلفوا في باقيها على قولين .

أحدهما : [أنه] منسوخ بقوله ﴿ عجَّلْنا له فيها ما نشاء لِمَنْ نُريد ﴾ [الإسراء : 18] ، وهذا قول جماعة منهم مقاتل .

والثاني : أن الآيتين مُحكَمتان متَّفقتان في المعنى ، لأنه لم يقل في هذه الآية : نؤته مُراده ، فعُلِم أنه إنما يؤتيه الله ما أراد وهذا موافق لقوله : " لِمَنْ نُريد " ، ويحقِّق هذا أن لفظ الآيتين لفظ الخبر ومعناهما معنى الخبر ، وذلك لا يدخُله النسخ ، وهذا مذهب جماعة منهم قتادة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لهم شركاءُ ﴾ يعني كفار مكة ؛ والمعنى أَلَهُمْ آلهةٌ ﴿ شَرَعوا ﴾ أي : ابتدعوا ﴿ لهم ﴾ دِيناً لم يأذن به الله ؟ ! ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ وهي : القضاء السابق بأن الجزاء يكون في القيامة ﴿ لقُضِيَ بينهم ﴾ في الدنيا بنزول العذاب على المكذِّبين .

والظالمون في هذه الآية والتي تليها : يراد بهم المشركون .

والإشفاق : الخوف .

والذي كَسَبوا : هو الكفر والتكذيب ، ﴿ وهو واقعٌ بهم ﴾ يعني جزاؤه .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : ﴿ ذلك ﴾ يعني : ما تقدم ذِكْره من الجنّات ﴿ الذي يُبَشِّرِ اللهُ عبادَه ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي : " ذلك " بمعنى : هذا الذي أخبرتُكم به بشرى يبشِّر اللهُ بها عباده .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : " يَبْشَرُ " بفتح الياء وسكون الباء وضم

الشين .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لا أسألُكم عليه أجْراً ﴾ في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المشركين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه لما قَدِم المدينة كانت تَنُوبه نوائبُ وليس في يده سَعَةٌ ، فقال الأنصار : إن هذا الرجُل قد هداكم اللهُ به ، وليس في يده سَعَةٌ ، فاجْمَعوا له من أموالكم ما لا يضرُّكم ، ففعلوا ثم أتَوْه به ، فنزلت هذه الآية ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضا .

والثالث : أن المشركين اجتمعوا في مجمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أتُرَون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

والهاء في " عليه " كناية عمّا جاء به من الهُدى .

(211/686)

وفي الاستثناء ها هنا قولان :

أحدهما : أنه من الجنس ، فعلى هذا يكون سائلاً أجراً .

وقد أشار ابن عباس في رواية الضحاك إلى هذا المعنى ، ثم قال : نُسخت هذه بقوله ﴿

قُلْ ما سألتُكم مِنْ أجر فهوُ لكم . . .

﴿ الآية [سبأ : 47] ، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل .

والثاني : أنه استثناء من غير الأول ، لأن الأنبياء لا يَسألون على تبليغهم أجراً ؛ وإنما المعنى : لكنّي أُذكّركم المَوَدّةَ في القُرْبى ، وقد روى هذا المعنى جماعة عن ابن عباس ، منهم العوفي ، وهذا اختيار المحقّقين ، وهو الصحيح ، فلا يتوجّه النسخ أصلاً .

وفي المراد بالقُربى خمسة أقوال .

أحدها : أن معنى الكلام : إلاّ أن تَوَدُّوني لقرابتي منكم ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد في الأكثرين .

قال ابن عباس : ولم يكن بطنٌ من بطون قريش إلاّ ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة .

والثاني : إلاّ [أن] تَوَدُّوا قرابتي ، قاله عليّ بن الحسين ، وسعيد بن جبير ، والسدي .

ثم في المراد بقرابته قولان : أحدهما : عليّ وفاطمة وولدها ، وقد رووه مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنهم الذين تَحْرُم عليهم الصدقة ويُقْسَم فيهم الخُمُس ، وهم بنو هاشم وبنو المطَّلِب .

والثالث : أن المعنى إلاّ أن تَوَدّدوا إلى الله تعالى فيما يقرِّبكم إليه من العمل الصالح ، قاله

الحسن وقتادة.

والرابع: إلاّ أن تَوَدُّوني، كما تَوَدُّون قرابتَكم، قاله ابن زيد.

والخامس: إلاّ أن تَوَدُّوا قرابتَكم وتصِلوا أرحامَكم، حكاه الماوردي.

والأول: أصح.

قوله تعالى: ﴿ ومَنْ يَقْتَرِفْ ﴾ أي: مَنْ يَكْتَسِبْ ﴿ حَسَنَةً نَزِدْ له فيها حُسْناً ﴾ أي: نُضاعفْها بالواحدة عشراً فصاعداً.

وقرأ ابن السميفع، وابن يعمر، والجحدري: "يَزِدْ له" له بالياء ﴿ إِن الله غفورٌ ﴾ للذُّنوب ﴿ شَكورٌ ﴾ للقليل حتى يضاعفَه.

(212/686)

﴿ أم يقولون ﴾ أي: بل يقول كفار مكة ﴿ افترى على الله كَذِباً ﴾ حين زعم أن القرآن من عند الله! ﴿ فإن يشأ اللهُ يَخْتِمْ على قلبك ﴾ فيه قولان.

أحدهما: يَخْتِم على قلبك فيُنسيك القرآن، قاله قتادة.

والثاني: يَرْبِط على قلبك بالصبر على أذاهم فلا يَشُقّ عليك قولهم: إنك مفترٍ، قاله مقاتل والزجاج.

قوله تعالى : ﴿ ويَمْحُ اللهُ الباطلَ ﴾ قال الفراء : ليس بمردود على "يَخْتِمْ" فيكونَ جزماً ، وإنما هو مستأنَف ، ومثله ممّا حُذفتْ منه الواو ﴿ ويَدْعُ الإنسانُ بالشّرِّ ﴾ [الإسراء : 11] وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير .

تقديره : والله يمحو الباطل .

وقال الزجاج : الوقف عليها " ويمحوا " بواو وألف ؛ والمعنى : والله يُمحو الباطل على كل حال ، غير أنها كُتبتْ في المصاحف بغير واو ، لأن الواو تسقط في اللفظ لالتقاء الساكنين ، فكُتبتْ على الوصل ، ولفظ الواو ثابت ؛ والمعنى : ويمحو اللهُ الشِّرك ويُحِقُّ الحق بما أنزله من كتابه على لسان نبيّه صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يَقْبَل التَّوبة عن عباده ﴾ قد ذكرناه في [براءة : 104] .

قوله تعالى : ﴿ ويَعْلَمُ ما تَفعلون ﴾ أي : من خير وشرّ .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بالتاء ، وقرأ الباقون : بالياء ، على الإخبار عن المشركين والتهديد لهم .

و" يستجيب " بمعنى يُجيب .

وفيه قولان :

أحدهما : أن الفعل فيه لله ، والمعنى : يُجيبهم إذا سألوه ؛ وقد روى قتادة عن أبي إبراهيم اللخمي ﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ قال : يُشَفَّعون في إخوانهم .

﴿ ويَزيدُهم مِنْ فَضْله ﴾ قال : يُشَفَّعون في إخوان إخوانهم .

والثاني : أنه للمؤمنين ؛ فالمعنى : يجيبونه والأول أصح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 270.287 ﴾

(213/686)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ حم عسق ﴾

سئل الحسين بن الفضل لم قطع حروف حم عسق ولم يقطع حروف المص والمر وكهيعص ، فقال : لأنها بين سور أوائلها حم فجرت مجرى نظائرها فكان حم مبتدأ وعسق خبره لأن حم عسق عدت آيتين وعدت أخواتها التي لم تقطع آية واحدة .

وقيل لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كهيعص وأخواتها أنها حروف التهجي واختلفوا في حم فأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلاً فقال معناها حم الأمر أي قضى وبقي عسق على أصله .

وقال ابن عباس ح حلمه م مجده ع علمه س سناه ق قدرته أقسم الله بها .

وقيل إن العين من العزيز والسين من قدوس والقاف من قاهر وقيل ح حرب في قريش يعز فيها

الذليل ويذل فيها العزيز م ملك يتحول من قوم إلى قوم ع عدو لقريش يقصدهم س سنون كسني يوسف ق قدرة الله في خلقه ، وقيل هذا في شأن محمد (صلى الله عليه وسلم) فالحاء حوضه المورود و الميم ملكه الممدرد والعين عزه الموجود والسين سناؤه المشهود والقاف قيامه في المقام المحمود وقربه من الملك المعبود وقال ابن عباس ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحي إليه حم عسق فلذلك قال الله تعالى : ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ وقيل معناه كذلك نوحي إليك أخبار الغيب كما أوحينا إلى الذين من قبلك ﴿ الله العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في صنعه ، والمعنى كأنه قيل من يوحي فقال الله العزيز الحكيم ثم وصف نفسه وسعة ملكه

(214/686)

﴿ له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ أي من فوق الأرضين وقيل تنفطر كل واحدة فوق التي تليها من عظمة الله تعالى وقيل من قول المشركين اتخذ الله ولداً ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي ينزهونه عما لا يليق بجلاله وقيل يصلون بأمر ربهم ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ أي من المؤمنين دون الكفار ، لأن الكافر لا يستحق أن تستغفر له الملائكة ، وقيل يحتمل أن يكون لجميع من في الأرض

أما في حق الكافرين فبواسطة طلب الإيمان لهم ويحتمل أن يكون المراد من الاستغفار لا يعاجلهم بالعقاب وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم ، وقيل استغفارهم لمن في الأرض هو سؤال الرزق لهم فيدخل فيه المؤمن والكافر ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ يعني أنه تعالى يعطي المغفرة التي سألوها ويضم إليها بمنه وكرمه الرحمة العامة الشاملة .

(215/686)

قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ أي جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ يعني رقيب على أحوالهم وأعمالهم ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ يعني لم توكل بهم حتى تؤخذ بهم إنما أنت نذير ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما ذكرنا ﴿ أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ﴾ يعني مكة والمراد أهلها ﴿ ومن حولها ﴾ يعني قرى الأرض كلها ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ أي وتنذرهم بيوم الجمع وهو يوم القيامة يجمع الله سبحانه وتعالى فيه الأولين والآخرين وأهل السموات وأهل الأرضين ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك في الجمع أنه كائن ثم بعد ذلك يتفرقون وهو قوله تعالى : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال " خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم قابضاً على كفه ومعه كتابان فقال أتدرون ما هذان الكتابان قلنا لا يا رسول الله

فقال للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة ، ثم قال للذي في يساره هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة فقال عبد الله بن عمرو ففيم العمل إذاً ؟ قال اعملوا وسددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ثم قال فريق في الجنة وفريق في السعير عدل من الله تعالى " أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده .

(216/686)

قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ قال ابن عباس : على دين واحد وقيل على ملة الإسلام ﴿ ولكن يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أي في دين الإسلام ﴿ والظالمون ﴾ أي الكافرون ﴿ ما لهم من ولي ﴾ أي يدفع عنهم العذاب ﴿ ولا نصير ﴾ أي يمنعهم من العذاب ﴿ أم اتخذوا ﴾ يعني الكفار ﴿ من دونه أولياء فالله هو الولي ﴾ قال ابن

عباس هو وليك يا محمد ووليي من تبعك ﴿ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ يعني أن من يكون بهذه الصفة فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً ومن لا يكون بهذه الصفة فليس بولي ﴿ ما اختلفتم فيه من شيء ﴾ أي من أمر الدين ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ أي يقضي فيه ويحكم يوم القيامة بالفصل الذي يزيل الريب وقيل علمه إلى الله وقيل تحاكموا فيه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأن حكمه من حكم الله تعالى ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته ﴿ ذلكم الله ﴾ يعني الذي يحكم بين المختلفين هو الله ﴿ ربي عليه توكلت ﴾ يعني في جميع أموري ﴿ وإليه أنيب ﴾ يعني وإليه أرجع في كل المهمات ﴿ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم ﴾ يعني من جنسكم ﴿ أزواجاً ﴾ يعني حلائل ، وإنما قال من أنفسكم لأن الله تعالى خلق حواء من ضلع آدم ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ يعني أصنافاً ذكراناً وإناثاً ﴿ يذرؤكم ﴾ يعني يخلقكم وقيل يكثركم ﴿ فيه ﴾ يعني في الرحم وقيل في البطن لأنه قد تقدم ذكر الأزواج وقيل نسلاً بعد نسل حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل وقيل الضمير في يذرؤكم يرجع إلى المخاطب من الناس والأنعام إلا أنه غلب جانب الناس وهم العقلاء على غير العقلاء من الأنعام ، وقيل في بمعنى الباء أي يذرؤكم به أي يكثركم بالتزويج ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ المثل صلة أي ليس كهو شيء وقيل الكاف صلة مجازه ليس مثله شيء ، قال ابن عباس : ليس له نظير .

فإن قلت هذه الآية دالة على نفي المثل وقوله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾ يقتضي إثبات المثل فما الفرق .

(217/686)

قلت المثل الذي يكون مساوياً في بعض الصفات الخارجية على الماهية فقوله ليس كمثله شيء معناه ليس له نظير ، كما قاله ابن عباس أو يكون معناه ليس لذاته سبحانه وتعالى مثل وقوله ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ معناه وله الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله ولا يشاركه فيه أحد فقد ظهر بهذا التفسير معنى الآيتين وحصل الفرق بينهما ﴿ وهو السميع ﴾ يعني لسائر المسموعات ﴿ البصير ﴾ يعني المبصرات .

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ يعني مفاتيح الرزق في السموات يعني المطر وفي الأرض يعني النبات يدل عليه قوله تعالى : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي أنه يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء لأن مفاتيح الرزق بيده ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ أي من البسط والتضييق .

قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ أي ما بين وسن لكم طريقاً واضحاً من الدين ، أي ديناً تطابقت على صحته الأنبياء وهو قوله تعالى : ﴿ ما وصى به نوحاً ﴾ أي أنه أول الأنبياء

أصحاب الشرائع والمعنى قد وصيناه وإياك يا محمد ديناً واحداً ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ أي من القرآن وشرائع الإسلام ﴿ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ إنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع المعظمة والأتباع الكثيرة وأولو العزم .

(218/686)

ثم فسر المشروع الذي اشترك فيه هؤلاء الأعلام من رسله بقوله تعالى : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ والمراد بإقامة الدين هو توحيد الله والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر وطاعة الله في أوامره ونواهيه وسائر ما يكون الرجل به مسلماً ، ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة قال الله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ وقيل أراد تحليل الحلال وتحريم الحرام ، وقيل تحريم الأمهات والبنات والأخوات فإنه مجمع على تحريمهن ، وقيل لم يبعث الله نبياً إلا وصاه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله تعالى بالوحدانية والطاعة وقيل بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ أي من التوحيد ورفض الأوثان ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ﴾ أي يصطفي لدينه من يشاء من عباده ﴾

ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي يقبل على طاعته ﴿ وما تفرقوا ﴾ يعني أهل الأديان المختلفة ، وقال ابن عباس : يعني أهل الكتاب ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي بأن الفرقة ضلالة ﴿ بغياً بينهم ﴾ أي ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وقيل بغياً منهم على محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ أي في تأخير العذاب عنهم ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ يعني إلى يوم القيامة ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي بين من آمن وكفر يعني لأنزل العذاب بالمكذبين في الدنيا ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ من بعدهم ﴾ أي من بعد أنبيائهم وقيل الأمم الخالية ﴿ لفي شك منه ﴾ أي من أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) فلا يؤمنون به ﴿ مريب ﴾ يعني مرتابين شاكين فيه ﴿ فلذلك ﴾ أي إلى ذلك ﴿ فادع ﴾ أي إلى ما وصى الله تعالى به الأنبياء من التوحيد وقيل لأجل ما حدث به من الاختلاف في الدين الكثير فادع أنت إلى الاتفاق على الملة الحنيفية ﴿ واستقم كما أمرت ﴾ أي أثبت على الدين الذي أمرت به ﴿ ولا تتبع أهواءهم

(219/686)

﴾ أي المختلفة الباطلة ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أي آمنت بكتب الله المنزلة كلها وذلك لأن المتفرقين آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض ﴿ وأمرت لأعدل بينكم

﴿ قال ابن عباس أمرت أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم من الأحكام وقيل لأعدل بينكم في جميع الأحوال والأشياء وقيل لأعدل بينكم في الحكم إذا تخاصمتم وتحاكمتم إلى ﴿ الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ يعني أن إله الكل واحد وكل أحد مخصوص بعمل نفسه وإن اختلفت أعمالنا فكل يجازي بعمله ﴿ لا حجة ﴾ أي لا خصومة ﴿ بيننا وبينكم ﴾ وهذه الآية منسوخة بآية القتال إذا لم يؤمر بالقتال وأمر بالدعوة فلم يكن بينه وبين من لا يجيب خصومة ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ أي في المعاد لفصل القضاء ﴿ وإليه المصير ﴾ .

(220/686)

قوله : ﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ أي يخاصمون في دين الله قيل هم اليهود قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس لدين الله تعالى فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ﴿ حجتهم داحضة ﴾ أي خصومتهم باطلة ﴿ عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ أي في الآخرة ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق ﴾ أي الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والأحكام ﴿ والميزان ﴾ أي العدل سمي العدل

ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية ، قال ابن عباس : أمر الله تعالى بالوفاء ونهى عن البخس ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ أي وقت إتيانها قريب وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكر الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا تكذيباً له متى تكون الساعة فأنزل الله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي ظناً منهم أنها غير آتية ﴿ والذين آمنوا مشفقون ﴾ أي خائفون ﴿ منها ويعلمون أنها الحق ﴾ أي أنها آتية لا شك فيها ﴿ ألا إن الذين يمارون ﴾ أي يخاصمون ﴿ في الساعة ﴾ وقيل يشكون فيها ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾

(221/686)

﴿ الله لطيف بعباده ﴾ أي كثير الإحسان إليهم ، قال ابن عباس : حفي بهم وقيل رفيق وقيل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم يدل عليه قوله تعالى : ﴿ يرزق من يشاء ﴾ يعني أن الإحسان والبر إنعام في حق كل العباد وهو إعطاء ما لا بد منه فكل من رزقه الله تعالى من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه ، وقيل لطفه في الرزق من وجهين أحدهما أنه جعل رزقكم من الطيبات والثاني أنه لم يدفعه إليكم مرة واحدة ﴿ وهو القوي ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿ العزيز ﴾ أي الذي لا يغالب ولا

يدافع ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ أي كسب الآخرة والمعنى من كان يريد بعمله الآخرة ﴿ نزد له في حرثه ﴾ أي بالتضعيف الواحدة إلى عشرة إلى ما يشاء الله تعالى من الزيادة ، وقيل إنا نزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعة إليه ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا ﴾ يعني يريد بعمله الدنيا مؤثراً لها على الآخرة ﴿ نؤته منها ﴾ أي ما قدر وقسم له منها ﴿ وما له في الآخرة من نصيب ﴾ يعني لأنه لم يعمل لها ، عن أبي بن كعب قال قال : رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب " ذكره في جامع الأصول ولم يعزه إلى أحد من الكتب الستة وأخرجه البغوي بإسناده .

(222/686)

قوله تعالى : ﴿ أم لهم ﴾ يعني كفار مكة ﴿ شركاء ﴾ يعني الأصنام وقيل الشياطين ﴿ شرعوا لهم من الدين ﴾ قال ابن عباس شرعوا لهم غير دين الإسلام ﴿ ما لم يأذن به الله ﴾ يعني أن تلك الشرائع بأسرها على خلاف دين الله تعالى الذي أمر به وذلك أنهم زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ يعني أن الله حكم بين الخلق بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي لفرغ

من عذاب الذين يكذبونك في الدنيا ﴿ وإن الظالمين ﴾ يعني المشركين ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ أي في الآخرة ﴿ ترى الظالمين ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ مشفقين ﴾ أي وجلين خائفين ﴿ مما كسبوا ﴾ أي من الشرك والأعمال الخبيثة ﴿ وهو واقع بهم ﴾ أي جزاء كسبهم واقع بهم ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ﴾ لأن هذه الروضات أطيب بقاع الجنة فلذلك خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بها وفيه تنبيه على أن الجنة منازل غير الروضات هي لمن هو دون الذين عملوا الصالحات من أهل القبلة ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ أي من الكرامة ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ذلك ﴾ أي الذي ذكر من نعيم الجنة الذي يبشر الله به عباده ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه ﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿ أجراً ﴾ أي جزاء ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ (خ) عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ فقال سعيد بن جبير قربى آل محمد (صلى الله عليه وسلم) قال ابن عباس : عجبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم تكن بطن من قريش إلا وله فيهم قرابة فقال ألا تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة ، وعن ابن عباس أيضاً في قوله ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ : يعني أن تحفظوا قرابتي وتودوني وتصلوا رحمي ، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعكرمة ومقاتل والسدي والضحاك (خ) عن ابن عمر أن أبا بكر قال : ارقبوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) في أهل بيته واختلفوا في قرابته ،

فقيل علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم وقيل أهل بيته من تحرم عليه الصدقة من أقاربه وهم بنو هاشم وبنو المطلب الذين لم يفترقوا في جاهلية ولا في إسلام (م) .

عن زيد بن أرقم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به " فحثَّ على كتاب الله ورغب فيه ثم قال " وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي فقال له حصين من أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرمت عليهم الصدقة بعده قال ومن هم قال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس " .

فإن قلت طلب الأجر على تبليغ الرسالة والوحي لا يجوز لقوله في قصة نوح عليه السلام وغيره من الأنبياء ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ قلت لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على تبليغ الرسالة .

بقي الجواب عن قوله ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ .

فالجواب عنه من وجهين : الأول معناه لا أطلب منكم إلا هذه وهذا في الحقيقة ليس بأجر

ومنه قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

(224/686)

معناه إذا كان هذا عيبهم فليس فيهم عيب بل هو مدح فيهم ولأن المودة بين المسلمين أمر واجب وإذا كان كذلك في حق جميع المسلمين كان في أهل بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) أولى فقوله ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ المودة في القربى ليست أجراً في الحقيقة لأن قرابته قرابتهم فكانت مودتهم وصلتهم لازمة لهم فثبت أن لا أجر البتة ، والوجه الثاني أن هذا الاستثناء منقطع وتم الكلام عند قوله قل لا أسألكم عليه أجراً ثم ابتدأ فقال إلا المودة في القربى أي لكن أذكركم المودة في قرابتي الذين هم قرابتكم فلا تؤذوهم ؛ وقيل : إن هذه الآية منسوخة وذلك لأنها نزلت بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمرهم فيها بمودة رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) وصلة رحمه فلما هاجر إلى المدينة وآواه الأنصار ونصروه أحب الله تعالى أن يلحقه بإخوانه من النبيين فأنزل الله تعالى :

(225/686)

﴿ أم يقولون ﴾ أي بل يقول كفار مكة ﴿ افترى على الله كذباً ﴾ فيه توبيخ لهم معناه أيقع في قلوبهم ويجري على لسانهم أن ينسبوا مثله إلى الكذب وأنه افترى على الله كذباً وهو أقبح أنواع الكذب ﴿ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ أي يربط على قلبك بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم وقولهم إنه مفتر وقيل معناه يطبع على قلبك فينسيك القرآن وما أتاك فأخبرهم أنه لو افترى على الله بالفعل به ما أخبر به في هذه الآية ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ أخبره الله تعالى أن ما يقولونه الباطل والله يمحوه ﴿ ويحق الحق بكلماته ﴾ أي يحق الإسلام بما أنزل من كتابه وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم وأعلى كلمة الإسلام ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ قال ابن عباس : لما نزلت ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ وقع في قلوب قوم منها شيء وقالوا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده فنزل جبريل فأخبره أنهم اتهموه وأنزل الله هذه الآية فقال القوم يا رسول الله فإنا نشهد أنك صادق فنزل قوله : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ قال ابن عباس يريد أولياؤه

وأهل طاعته .

(فصل في ذكر التوبة وحكمها)

قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثاني : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً .

فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة وإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة والشرط الرابع أن يبرأ من حق صاحبها فهذه شروط التوبة وقيل التوبة الانتقال عن المعاصي نية وفعلاً والإقبال على الطاعات نية وفعلاً ، وقال سهل بن عبد الله التستري : التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة (خ) .

(226/686)

عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة " (م) عن الأغر بن بشار المزني قال " قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة " (ق) عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد الحر والعطش أو ما شاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده الدوية الفلاة والمفازة "

﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يعني يجيب المؤمنون الله تعالى فيما دعاهم لطاعته وقيل معناه ويجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات إذا دعوه ، وقال ابن عباس : ويثبت الذين آمنوا ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي سوى ثواب أعمالهم تفضلاً منه ، وقال ابن عباس : يشفعهم في إخوانهم ويزيدهم من فضله ، قال في إخوان إخوانهم ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 115 . 124 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ حم* عسق ﴾

الكلام فيه كسائر حروف الهجاء حسبما تقدم في سورة البقرة ، وقد حكى الطبري أن رجلاً سأل ابن عباس عن حم عسق فأعرض عنه ، فقال حذيفة : إنما كرهها ابن عباس ، لأنها نزلت في رجل من أهل بيته اسمه عبد الله يبني مدينة على نهر من أنهار المشرق ، ثم يخسف الله بها في آخر الزمان ، والرجل على هذا أبو جعفر المنصور ، والمدينة بغداد . وقد ورد في الحديث الصحيح أنها يخسف بها ﴿ كَذَلِكَ يوحي إِلَيْكَ ﴾ الكاف نعت لمصدر محذوف ، والإشارة بذلك إلى تضمنه القرآن أو السورة ، وقيل : الإشارة لقوله : ﴿ حم* عسق ﴾ فإن الله أنزل بهذه الأحرف بعينها في كتاب أنزله ، وفي صحة هذا نظر ﴿ الله العزيز الحكيم ﴾ اسم الله فاعل بيوحِي ، وأما على قراءة ﴿ ﴾ بالفتح فهو فاعل بفعل مضمر ، دل عليه يوحي كأن قائلاً قال : من الذي أوحى ؟ فقيل : الله .

(228/686)

﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ ﴾ أي يتشققن من خوف الله وعظيم جلاله ، وقيل : من قول الكفار : أتخذ الله ولداً ، فهي كالآية التي في مريم قال ابن عطية : وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه : مردود لأن الله تعالى لا يوصف به ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ الضمير للسموات والمعنى يتشققن من أعلاهن ، وذلك مبالغة في التهويل ، وقيل : الضمير للأرضين وهذا بعيد ، وقيل : الضمير للكفار كأنه قال : من فوق الجماعات الكافرة التي من أجل أقوالها تكاد السموات يتفطرن ، وهذا أيضاً بعيد ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض ﴾ عموم يراد به الخصوص ؛ لأن الملائكة إما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض ، فهي كقوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [غافر : 7] . وقيل : إنّ يستغفرون للذين آمنوا نسخ هذه الآية ، وهذا باطل ، لأن النسخ لا يدخل في الأخبار ، ويحتمل أن يريد بالاستغفار طلب الحلم عن أهل الأرض مؤمنهم وكافرهم ، ومعناه : الإمهال لهم ، وأن لا يعاجلوا بالعقوبة فيكون عاماً ، فإن قيل : ما وجه اتصال قوله : ﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ ﴾ الآية : بما قبلها ؟ فالجواب أنا إن فسرنا تفطر السموات بأنه من عظمة الله ؛ فإنه يكون تسبيح الملائكة أيضاً تعظيماً له ، فينتظم الكلام ، وإن فسرنا تفطرها بأنه من كفر بني آدم ؛ فيكون تسبيح الملائكة تنزيهاً لله تعالى عن كفر بني آدم ، وعن أقوالهم القبيحة .

﴿ أُمَّ القرى ﴾ هي مكة ، والمراد أهلها ، ولذلك عطف عليه ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني من

الناس ﴿ يَوْمَ الجمع ﴾ يعني يوم القيامة وسمي بذلك لأن الخلائق يجتمعون فيه .

﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ أم منقطعة ، والأولياء هنا المعبودون من دون الله .

(229/686)

﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ أي ما اختلفهم فيه أنتم والكفار من أمر الدين فحكمه إلى الله ؛ بأن يعاقب المبطل ويثيب المحق ؛ أو ما اختلفتم فيه من الخصومات فتحاكموا فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كقوله : ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول ﴾ [النساء : 59] .

﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ يعني الإناث ﴿ وَمِنَ الأنعام أَزْواجاً ﴾ يحتمل أن يريد الإناث أو الأصناف ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ معنى يذرؤكم يخلقكم نسلاً بعد نسل وقرناً بعد قرن ، يكثركم ، والضمير المجرور يعود على الجعل الذي يتضمنه قوله : ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴾ ، وهذا كما تقول كلمت زيداً كلاماً أكرمته فيه ، وقيل : الضمير للتزويج الذي دل عليه قوله ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ ، وقال الزمخشري : تقديره ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ في هذا التدبير . وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجاً ، والضمير في يذرؤكم خطاب للناس ؛ والأنعام غلَّب فيه العقلاء على غيرهم ، فإن قيل : لم قال يذرؤكم فيه وهلا قال يذرؤكم به ؟ فالجواب : أن هذا التدبير جعل كالمنبع والمعدن للبث والتكثير قاله الزمخشري ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ تنزيه

لله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، قال كثير من الناس : الكاف زائدة للتأكيد ، والمعنى ليس مثله شيء ، وقال الطبري وغيره ليست بزائدة ، ولكن وضع مثله موضع هو ، والمعنى ليس كهو شيء قال الزمخشري : وهذا كما تقول : مثلك لا يبخل ، والمراد : أنت لا تبخل ، فنفى البخل عن مثله والمراد نفيه عن ذاته .

﴿ مَقَالِيدُ ﴾ قد ذكر في [الزمر : 63] .

(230/686)

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ اتفق دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع جميع الأنبياء في أصول الاعتقادات ، وذلك هو المراد هنا ، ولذلك فسره بقوله : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ يعني إقامة الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وبالدار الآخرة ، وأما الأحكام الفروعية ، فاختلفت فيها الشرائع فليست تراد هنا ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ﴾ يحتمل أن تكون أن في موضع نصب بدلاً من قوله : ﴿ مَا وصى ﴾ أو في موضع خفض بدلاً من به ، أو في موضع رفع على خبر ابتداء مضمر ، أو تكون مفسرة لا موضع لها من الإعراب ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي صعب الإسلام على المشركين ﴿ الله يجتبي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ﴾ الضمير في إليه يعود على الله تعالى ، وقيل على الدين .

﴿ وَمَا تفرقوا ﴾ يعني أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ ﴾ يعني القضاء السابق بأن لا يفصل بينهم في الدنيا ﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب ﴾ يعني المعاصرين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : يعني العرب ، والكتاب على هذا القرآن ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ الضمير للكتاب ، أو للدين أو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(231/686)

﴿ فَلِذَلِكَ فادع ﴾ أي إلى ذلك الذي شرع الله ، فادع الناس فاللام بمعنى إلى ، والإشارة بذلك إلى قوله شرع لكم من الدين أو إلى قوله : ما تدعوهم إليه وقيل : عن اللام بمعنى أجل ، والإشارة إلى التفرق والاختلاف ، أي لأجل ما حدث من التفرق ادع إلى الله وعلى هذا يكون قوله : واستقم معطوفاً ، وعلى الأول يكون مستأنفاً فيوقف على ﴿ فادع واستقم ﴾ ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أي دُمْ على ما أمرت به من عبادة الله وطاعته وتبليغ رسالته ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ لضمير الكفار وأهواؤهم ما كانوا يحبون من الكفر والباطل كله ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ قيل : يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه ، ويحتمل أن يريد بالعدل في دعائهم إلى دين الإسلام ، أي أمرت أن أحملكم على الحق ﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي لا جدال ولا مناضرة ، فإن الحق قد ظهر وأنتم تعاندون .

﴿ والذين يُحَآجُّونَ فِي الله ﴾ أي يجادلون المؤمنين في دين الإسلام ، ويعني كفار قريش ، وقيل : اليهود ﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ الضمير يعود على الله أي من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه ، وقيل : يعود على الدين وقيل : على محمد صلى الله عليه وسلم والأول أظهر وأحسن ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ أي زاهقة باطلة .

﴿ أَنزَلَ الكتاب ﴾ يعني جنس الكتاب ﴿ بالحق ﴾ أي بالواجب أو متضمناً الحق ﴿ والميزان ﴾ قال ابن عباس وغيره يعني : العدل ، ومعنى إنزال العدل ، إنزال الأمر به في الكتب المنزلة ، وقيل يعني الميزان المعروف ، فإن قيل : وما وجه اتصال ذكر الكتاب والميزان بذكر الساعة ؟ فالجواب أن الساعة يوم الجزاء والحساب ، فكأنه قال : أعدلوا وافعلوا الصواب قبل يوم الذي تحاسبون فيه على أعمالكم ﴿ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ جاء قريب ، بالتذكير ، لأن تأنيث الساعة غير حقيقي ، ولأن المراد به وقت الساعة .

(232/686)

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ﴾ أي يطلبون تعجيلها استهزاء بها ، وتعجيزاً للمؤمنين ﴿ يُمَارُونَ ﴾ أي يجادلون ويخالفون .

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ يعني الرزق الزائد على المضمون لكل حيوان في قوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] أي ما تقوم به الحياة ، فإن هذا على العموم لكل حيوان طول عمره ، والزائد خاص بمن شاء الله .

﴿ حَرْثَ الآخرة ﴾ عبارة عن العمل لها ، وكذلك حرث الدنيا ، وهو مستعار من حرث الأرض ؛ لأن الحراث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ عبارة عن تضعيف الثواب ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي نؤته منها ما قدّر له ، لأن كل واحد لا بد أن يصل إلى ما قسم له ﴿ وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ هذا للكفار ، أو لمن كان يريد الدنيا خاصة ، ولا رغبة له في الآخرة .

﴿ أَمْ لَهُمْ ﴾ أم منقطعة للإنكار والتوبيخ ، والشركاء الأصنام وغيرها ، وقيل : الشياطين ﴿ شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ الضمير في شرعوا للشركاء ، وفي لهم : للكفار ، وقيل : بالعكس والأول أظهر ﴿ لَمْ يَأْذَن ﴾ بمعنى : لم يأمر ، والمراد بما شرعوا من البواطل في الاعتقادات ، وفي الأعمال ، كالبحيرة والوصيلة وغير ذلك .

﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ أي لولا القضاء السابق بأن لا يقضي بينهم في الدنيا لقضي بينهم فيها .

﴿ تَرَى الظالمين ﴾ يعني في الآخرة .

﴿ ذَلِكَ الذي يُبَشِّرُ الله عِبَادَهُ ﴾ تقديره يبشر به ، وحذف الجار والمجرور ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ فيه أربعة أقوال : الأول أن القرى بمعنى القرابة ، وفي بمعنى من أجل ، والمعنى لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني لأجل القرابة التي بيني وبينكم ؛ فالمقصد على هذا استعطاف قريش ، ولم يكن فيهم بطن إلا وبينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم قرابة : الثاني أن القربى بمعنى الأقارب ، أو ذوي القربى ، والمعنى إلا أن تودّوا أقاربي وتحفظوني فيهم ، والمقصد على هذا وصية بأهل البيت : الثالث أن القربى قرابة الناس بعضهم من بعض ، والمعنى أن تودوا أقاربكم ، والمقصود على هذا وصية بصلة الأرحام الرابع أن القربى التقرّب إلى الله ، والمعنى إلا أن تتقربوا إلى الله بطاعته ، والاستثناء على القول الثالث والرابع منقطع ، وأما على الأول والثاني فيحتمل الانقطاع ، لأن المودّة ليست بأجر ، ويحتمل الاتصال على المجاز كأنه قال : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فجعل المودة كالأجر ﴿ يَقْتَرِفْ ﴾ أي يكتسب ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ يعني مضاعفة الثواب .

(234/686)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أم منقطعة للإنكار والتوبيخ ﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ فالمقصد بهذا قولان : أحدهما أنه رد على الكفار في قولهم افترى على الله كذباً : أي لو افتريت على الله كذباً لختم على قلبك ، ولكنك لم تفتر على الله كذباً فقد هداك وسددك ، والآخر أن المراد : إن يشأ الله يختم على قلبك بالصبر على أقوال الكفار ، وتحمل أذاهم ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ هذا فعل مستأنف غير معطوف على ما قبله ، لأن الذي قبله مجزوم ، وهذا مرفوع فيوقف على ما قبله ويبدأ به ، وفي المراد به وجهان : أحدهما أنه من تمام ما قبله : أي لو افتريت على الله كذباً لختم على قلبك ومحا الباطل الذي كنت تفتريه لو افتريت ، والآخر أنه على وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يمحو الله الباطل وهو الكفر ، ويحق الحق وهو الإسلام .

(235/686)

﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ﴿ عَنْ ﴾ هنا بمعنى من ، وكأنه قال التوبة الصادرة من عباده وقبول التوبة على ثلاثة أوجه : أحدها التوبة من الكفر فهي مقبولة قطعاً والثاني التوبة من مظالم العباد فهي غير مقبولة حتى ترّد المظالم أو يستحل منها والثالث التوبة من المعاصي التي بين العبد وبين الله فالصحيح أنها مقبولة بدليل هذه الآية وقيل : إنها

في المشيئة ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ العفو مع التوبة على حسب ما ذكرنا ، وأما العفو دون التوبة فهو على أربعة أقسام الأول العفو عن الكفر وهو لا يكون أصلاً ، والثاني العفو عن مظالم العباد وهو كذلك والثالث العفو عن الذنوب الصغائر إذا اجتنبت الكبائر ، وهو حاصل باتفاق الرابع العفو عن الكبائر فمذهب أهل السنة أنها في المشيئة ، ومذهب المعتزلة أنها لا تغفر إلا بالتوبة ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين آمَنُواْ ﴾ فيه ثلاثة أقوال أحدها أن معنى يستجيب يجيب والذين آمنوا مفعول ، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى أي يجيبهم فيما يطلبون منه . وقال الزمخشري : أي أصله يستجيب للذين آمنوا فحذف اللام . والثاني أن معناه يجيب و ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ فاعل أي يستجيب المؤمنون لربهم باتباع دينه والثالث أن معناه يطلب المؤمنون الإجابة من ربهم واستفعل هذا على بابه من الطلب ، والأول أرجح لدلالة قوله : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ ؛ ولأنه قول ابن عباس ومعاذ بن جبل . ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي يزيدهم ما لا يطلبون ، زيادة على الاستجابة فيما طلبوا ، وهذه الزيادة روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها الشفاعة والرضوان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 17 . 21 ﴾

(236/686)

وقال النسفى :

فصل ﴿ حم ﴾ من ﴿ عسق ﴾ كتابة مخالفاً ل ﴿ كهيعص ﴾ تلفيقاً بأخواتها ولأنه آيتان و ﴿ كهيعص ﴾ آية واحدة ﴿ كَذَلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ ﴾ أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب يوحي إليك ﴿ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ وإلى الرسل من قبلك ﴿ الله ﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله وفي غيرها من السور ، وأوحاه إلى من قبلك يعني إلى رسله .

والمعنى أن الله كرر هذه المعاني في القرآن وفي جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ليس من نبي صاحب كتاب إلا أوحي إليه ب ﴿ حم عسق ﴾ .

﴿ يُوحَى ﴾ بفتح الحاء : مكي .

ورافع اسم الله على هذه القراءة ما دل عليه ﴿ يُوحَى ﴾ كأن قائلاً قال : من الموحي ؟ فقيل : الله ﴿ العزيز ﴾ الغالب بقهره ﴿ الحكيم ﴾ المصيب في فعله وقوله ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ ملكاً وملكاً ﴿ وَهُوَ العلى ﴾ شأنه ﴿ العظيم ﴾ برهانه .

﴿ تَكَادُ السماوات ﴾ وبالياء : نافع وعلي .

﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ يتشققن ، ﴿ ينفطرن ﴾ : بصري وأبو بكر ومعناه يكدن

ينفطرن من علو شأن الله وعظمته يدل عليه مجيئه بعد قوله ﴿ العلى العظيم ﴾ وقيل : من دعائهم له ولداً كقوله ﴿ تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ [مريم : 90] ومعنى ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية .

وكان القياس أن يقال ينفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر لأنها جاءت من الذين تحت السماوات ، ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كأنه قيل : يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهن مع الجهة التي تحتهن .

وقيل : من فوقهن من فوق الأرض فالكناية راجعة إلى الأرض لأنه بمعنى الأرضين .

(237/686)

وقيل : يتشققن لكثرة ما على السماوات من الملائكة ، قال عليه السلام " أطت السماء أطاً وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد " ﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ خضوعاً لما يرون من عظمته ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض ﴾ أي للمؤمنين منهم كقوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [غافر : 7] خوفاً عليهم من سطواته أو يوحدون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات حامدين له على ما أولاهم من ألطافه ، متعجبين مما رأوا من تعرضهم لسخط الله تعالى ، ويستغفرون لمؤمني

أهل الأرض الذين تبرءوا من تلك الكلمة ، أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب ﴿ أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم ﴾ لهم ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿ الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيب على أقوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء فيجازيهم عليها ﴿ وَمَآ أَنتَ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ بموكل عليهم ولا مفوض إليك أمرهم إنما أنت منذر فحسب .

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية التي قبلها من أن الله رقيب عليهم لا أنت بل أنت منذر لأن هذا المعنى كرره الله في كتابه أو هو مفعول به ل ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ ﴿ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بيّن ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ أي مكة لأن الأرض دحيت من تحتها ولأنها أشرف البقاع والمراد أهل أم القرى ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العرب ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ يوم القيامة لأن الخلائق تجتمع فيه ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراض لا محل له ، يقال : أنذرته كذا وأنذرته بكذا .

(238/686)

وقد عدي ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ إلى المفعول الأول ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ إلى المفعول الثاني ﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ أي منهم فريق في الجنة ومنهم فريق في السعير ، والضمير للمجموعين لأن المعنى يوم جمع الخلائق .

﴿ وَلَوْ شَآءَ الله لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ أي مؤمنين كلهم ﴿ ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ أي يكرم من يشاء بالإسلام ﴿ والظالمون ﴾ والكافرون ﴿ مَا لَهُمْ مِّن وَلِيٍّ ﴾ شافع ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ دافع ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فالله هُوَ الولى ﴾ الفاء لجواب شرط مقدر كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي بالحق ، وهو الذي يجب أن يتولى وحده لا ولي سواه .

﴿ وَهُوَ يُحْيِ الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَىْءٍ ﴾ حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أي ما خالفتكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين ﴿ فَحُكْمُهُ ﴾ أي حكم ذلك المختلف فيه مفوض ﴿ إِلَى الله ﴾ وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ﴿ ذلكم ﴾ الحاكم بينكم ﴿ الله رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فيه رد كيد أعداء الدين ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع في كفاية شرهم .

وقيل : وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا : الله أعلم كمعرفة الروح وغيره .

﴿ فَاطِرُ السماوات والأرض ﴾ ارتفاعه عل أنه أحد أخبار ﴿ ذلكم ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ خلق لكم من جنسكم من الناس ﴿ أزواجا وَمِنَ الأنعام أزواجا ﴾ أي وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يكثركم.

(239/686)

يقال: ذرأ الله الخلق بثهم وكثرهم ﴿ فِيهِ ﴾ في هذا التدبير وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل، واختير ﴿ فِيهِ ﴾ على "به" لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير.

والضمير في ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ قيل: إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التماثل وتقديره ليس مثله شيء.

وقيل: المثل زيادة وتقديره ليس كهو شيء كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءامَنُواْ بِمِثْلِ مَا ءامَنْتُمْ بِهِ ﴾ [البقرة: 137].

وهذا لأن المراد نفي المثلية، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل.

وقيل: المراد ليس كذاته شيء لأنهم يقولون "مثلك لا يبخل" يريدون به نفي البخل عن ذاته

ويقصدون المبالغة في ذلك بسلوك طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده فقد نفوه عنه فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله "ليس كالله شيء" وبين قوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكأنهم عبارتان متعقبتان على معنى واحد وهو نفي المماثلة عن ذاته ونحوه ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : 64] فمعناه بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط لها ، لأنها وقعت عبارة عن الجود حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لجميع المسموعات بلا أذن ﴿ البصير ﴾ لجميع المرئيات بلا حدقة ، وكأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له كما لا مثل له .

(240/686)

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ مر في "الزمر" ﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يضيق ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ شَرَعَ ﴾ بين وأظهر ﴿ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى ﴾ أي شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء عليهم السلام ، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ والمراد إقامة دين الإسلام الذي هو

توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وسائر ما يكون المرء بإقامته مسلماً ، ولم يرد به الشرائع فإنها مختلفة قال الله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومنهاجا ﴾ [المائدة : 48] .

ومحل ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ﴾ نصب بدل من مفعول ﴿ شَرَعَ ﴾ والمعطوفين عليه ، أو رفع على الاستئناف كأنه قيل وما ذلك المشروع ؟ فقيل : هو إقامة الدين ﴿ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ ولا تختلفوا في الدين قال علي رضي الله عنه : لا تتفرقوا فالجماعة رحمة والفرقة عذاب .

(241/686)

﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين ﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من إقامة دين الله والتوحيد ﴿ اللهُ يَجْتَبِى ﴾ يجتلب ويجمع ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى الدين بالتوفيق والتسديد ﴿ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ يقبل على طاعته ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ ﴾ أي أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم ﴾ إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلال وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم السلام ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ حسداً وطلباً للرياسة والاستطالة بغير حق ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهي ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأهلكوا حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿ وَإِنَّ

الذين أُورِثُواْ الكتاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان ﴿ مُرِيبٍ ﴾ مدخل في الريبة .

وقيل : وما تفرق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ ﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [الشورى : 14] .

هم المشركون أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل .

(242/686)

﴿ فَلِذَلِكَ ﴾ فلأجل ذلك التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ﴿ فادع ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القوية ﴿ واستقم ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ كما أمرك الله ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ المختلفة الباطلة ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ الله مِن كتاب ﴾ بأي كتاب صح أن الله تعالى أنزله يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض كقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ إلى قوله

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الكافرون حَقّاً ﴾ [النساء : 150-151] ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ ﴿ الله رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي كلنا عبيده ﴿ لَنَآ أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم ﴾ هو كقوله ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون : 6] ويجوز أن يكون معناه إنا لا نؤاخذ بأعمالكم وأنتم لا تؤاخذون بأعمالنا ﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي لا خصومة لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوبين به فلا حاجة إلى المحاجة ، ومعناه لا إيراد حجة بيننا لأن المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته ﴿ الله يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ المرجع لفصل القضاء فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم ﴿ والذين يُحَآجُّونَ فِى الله ﴾ يخاصمون في دينه ﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليردوهم إلى دين الجاهلية كقوله : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إيمانكم كُفَّاراً ﴾ [البقرة : 109] .

كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم وأولى بالحق .

وقيل : من بعد ما استجيب لمحمد عليه السلام دعاؤه على المشركين يوم بدر ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ باطلة وسماها حجة وإن كانت شبهة لزعمهم أنها حجة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ بكفرهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الآخرة .

﴿ اللهُ الذى أَنزَلَ الكتاب ﴾ أي جنس الكتاب ﴿ بالحق ﴾ بالصدق أو ملتبساً به ﴿ والميزان ﴾ والعدل والتسوية .

ومعنى إنزال العدل أنه أنزله في كتبه المنزلة .

وقيل : هو عين الميزان أنزله في زمن نوح عليه السلام ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ أي لعل الساعة قريب منك وأنت لا تدري والمراد مجيء الساعة ، أو الساعة في تأويل البعث .

ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان أن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين بالقسط فكأنه قيل : أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم ووزن أعمالكم .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استهزاء ﴿ والذين ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون ﴿ مِنْهَا ﴾ وجلون لهولها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ الكائن لا محالة ﴿ أَلآ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِى الساعة ﴾ المماراة الملاحّة لأن كل واحد منهما يمري ما عند صاحبه ﴿ لَفِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ عن الحق لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله تعالى ، وقد دل

الكتاب والسنة على وقوعها ، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء .

﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ في إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه وهو بر بليغ البر بهم قد توصل بره إلى جميعهم .

وقيل : هو من لطف بالغوامض علمه وعظم عن الجرائم حلمه ، أو من ينشر المناقب ويستر المثالب ، أو يعفو عمن يهفو ، أو يعطي العبد فوق الكفاية ويكلفه الطاعة دون الطاقة .

(244/686)

وعن الجنيد : لطف بأوليائه فعرفوه ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته فيه ، في الحديث " إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغني ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك " ﴿ وَهُوَ القوى ﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء ﴿ العزيز ﴾ المنيع الذي لا يغلب .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة ﴾ سمى ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثاً مجازاً ﴿ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ بالتوفيق في عمله أو التضعيف في إحسانه أو بأن ينال به الدنيا والآخرة ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا ﴾ أي من كان عمله للدنيا ولم يؤمن بالآخرة ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا

﴿ أي شيئاً منها لأن "من" للتبعيض وهو رزقه الذي قسم له لا ما يريده ويبتغيه ﴿ وَمَا لَهُ فِى الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ وماله نصيب قط في الآخرة وله في الدينا نصيب ، ولم يذكر في عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب ﴿ أَمْ لَهُمْ شركاؤا ﴾ قيل : هي "أم" المنقطعة وتقديره بل ألهم شركاء .

وقيل : هي المعادلة لألف الاستفهام .

(245/686)

وفي الكلام إضمار تقديره أيقبلون ما شرع الله من الدين أم لهم آلهة ﴿ شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ أي لم يأمر به ؟ ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء أي ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الكافرين والمؤمنين أو لعجلت لهم العقوبة ﴿ وَإِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وإن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة وإن أخر عنهم في دار الدنيا ﴿ تَرَى الظالمين ﴾ المشركين في الآخرة ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ من جزاء كفرهم ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ نازل بهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِى روضات الجنات ﴾

كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ عند نصب بالظرف لا ب "يشاؤون" ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ﴾ على العمل القليل .

﴿ ذلك ﴾ أي الفضل الكبير ﴿ الذى يُبَشِّرُ الله ﴾ ﴿ يَبْشُر ﴾ مكي وأبو عمرو وحمزة وعلي ﴿ عِبَادَهُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي به عباده الذين آمنوا فحذف الجار كقوله ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] ثم حذف الراجع إلى الموصول كقوله ﴿ أهذا الذى بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ [الفرقان : 41] .

ولما قال المشركون : أيبتغي محمد على تبليغ الرسالة أجراً نزل ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على التبليغ ﴿ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلاً أي لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا وهو أن تودوا أهل قرابتي ، ويجوز أن يكون منقطعاً أي لا أسألكم عليه أجراً قط ولكني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم .

ولم يقل إلا مودة القربى أو المودة للقربى لأنهم جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقولك "لي في آل فلان مودة ولي فيهم حب شديد " تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله .

وليست "في" بصلة ل ﴿ المودة ﴾ كاللام إذا قلت إلا المودة للقربى ، إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك "المال في الكيس" وتقديره إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها .

والقربى مصدر كالزلفى والبشرى بمعنى القرابة ، والمراد في أهل القربى .

ورُوي أنه لما نزلت قيل : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال : علي وفاطمة وابناهما .

وقيل : معناه إلا أن تودوني لقرابتي فيكم ولا تؤذوني ولا تهيجوا علي إذ لم يكن من بطون قريش إلا بين رسول الله وبينهم قرابة .

وقيل : القربى التقرب إلى الله تعالى أي إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ يكتسب طاعة .

عن السدي : أنها المودة في آل رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ومودته فيهم والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها تتناول المودة تناولاً أولياً لذكرها عقيب ذكر المودة في القربى .

﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ أي نضاعفها كقوله ﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : 245] وقرىء ﴿ حسنى ﴾ وهو مصدر كالبشرى والضمير يعود إلى الحسنة أو إلى الجنة ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ ﴾ لمن أذنب بطوله ﴿

شَكُورٌ ﴾ لمن أطاع بفضله .

وقيل : قابل للتوبة حامل عليها .

(247/686)

وقيل : الشكور في صفة الله تعالى عبارة عن الاعتداد بالطاعة وتوفية ثوابها والتفضل على المثاب ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ "أم" منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل : أيتما لكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها ؟ ﴿ فَإِن يَشَإِ الله يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ قال مجاهد : أي يربط على قلبك بالصبر على أذاهم وعلى قولهم ﴿ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ لئلا تدخله مشقة بتكذيبهم ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ أي الشرك وهو كلام مبتدأ غير معطوف على ﴿ يَخْتِمْ ﴾ لأن محو الباطل غير متعلق بالشرط بل هو وعد مطلق دليله تكرار اسم الله تعالى ورفع ﴿ وَيُحِقُّ ﴾ وإنما سقطت الواو في الخط كما سقطت في

﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَاءهُ بالخير ﴾ [الاسراء : 11] و ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] على أنها مثبتة في مصحف نافع ﴿ وَيُحِقُّ الحق ﴾ ويظهر الإسلام ويثبته ﴿ بكلماته ﴾ مما أنزل من كتابه على لسان نبيه عليه السلام وقد فعل الله ذلك فمحا

باطلهم وأظهر الإسلام .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي عليم بما في صدرك وصدورهم فيجزي الأمر على حسب ذلك .

﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ يقال : قبلت منه الشيء إذا أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي .

ويقال : قبلته عنه أي عزلته عنه وأبنته عنه .

والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعود ، وإن كان لعبد فيه حق لم يكن بد من التفصي على طريقه .

وقال علي رضي الله عنه : هو اسم يقع على ستة معانٍ : على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقناها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته .

وعن السدي : هو صدق العزيمة على ترك الذنوب والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب .

وعن غيره : هو أن لا يجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره .

وعن سهل : هو الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة .

وعن الجنيد : هو الإعراض عما دون الله ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ وهو ما دون الشرك ، يعفو لمن يشاء بلا توبة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ بالتاء : كوفي غير أبي بكر أي من التوبة والمعصية ولا وقف عليه للعطف عليه واتصال المعنى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ ﴾ أي إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوه وزادهم على مطلوبهم .

واستجاب وأجاب بمعنى ، والسين في مثله لتوكيد الفعل كقولك "تعظم" و"استعظم" والتقدير ويجيب الله الذين آمنوا .

وقيل : معناه ويستجيب للذين فحذف اللام .

مَنَّ عَليهم بأن يقبل توبتهم إذا تابوا ويعفو عن سيآتهم ويستجيب لهم إذا دعوه ويزيدهم على ما سألوه ، وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له : ما لنا ندعوه فلا نجاب ؟ قال : لأنه دعاكم فلم تجيبوه ﴿ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 99.107 ﴾

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمَ ﴾ . ﴿ عَسَقَ ﴾ لعله اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعدا آيتين ، وإن كانا اسماً واحداً فالفصل ليطابق سائر الحواميم ، وقرىء "حم سق" .

﴿ كَذَلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم ﴾ أي مثل ما في هذه السورة من المعاني ، أو إيحاء مثل إيحائها أوحى الله إليك وإلى الرسل من قبلك ، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي وأن إيحاء مثله عادته ، وقرأ ابن كثير "يُوحَى" بالفتح على أن كذلك مبتدأ و"يُوحَى" خبره المسند إلى ضميره ، أو مصدر و"يُوحَى" مسند إلى إليك ، و﴿ الله ﴾ مرتفع بما دل عليه "يُوحَى" ، و﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان له مقررتان لعلو شأن الموحى به كما مر في السورة السابقة ، أو بالابتداء كما في قراءة "نوحي" بالنون و﴿ العزيز ﴾ وما بعده أخبار أو ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان . وقوله :

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العلى العظيم ﴾ خبران له وعلى الوجوه الآخر استئناف مقرر لعزته وحكمته .

﴿ تَكَادُ السموات ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ يتشققن من عظمة الله ، وقيل من ادعاء الولد له . وقرأ البصريان وأبو بكر "ينفطرن" بالنون والأول أبلغ لأنه مطاوع فطر وهذا مطاوع فطر ، وقرىء "تتفطرن" بالتاء لتأكيد التأنيث وهو نادر . ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية ، وتخصيصها على الأول لأن أعظم الآيات وأدلها على علو شأنه من تلك الجهة ، وعلى الثاني ليدل على الانفطار من تحتهن بالطريق الأولى . وقيل الضمير للأرض فإن المراد بها الجنس . ﴿ والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وإعداد الأسباب المقربة إلى الطاعة ، وذلك في الجملة يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد ، وحيث خص بالمؤمنين فالمراد به الشفاعة . ﴿ أَلاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور الرحيم ﴾ إذ ما من مخلوق إلا وهو ذو حظ من رحمته ، والآية على الأول زيادة تقرير لعظمته وعلى الثاني دلالة على تقدسه عما نسب إليه ، وإن عدم معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء باستغفار الملائكة وفرط غفران الله ورحمته .

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ شركاء وأنداداً . ﴿ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها . ﴿ وَمَا أَنتَ ﴾ يا محمد . ﴿ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ بموكل بهم أو بموكول إليك أمرهم .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ الإشارة إلى مصدر ﴿ يُوحِى ﴾ أو إلى معنى الآية المتقدمة ، فإنه مكرر في القرآن في مواضع جمة فتكون الكاف مفعولاً به و ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ حال منه .

(251/686)

﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ أهل أم القرى وهي مكة شرفها الله تعالى . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العرب . ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ يوم القيامة يجمع فيه الخلائق أو الأرواح أو الأشباح ، أو العمال والأعمال وحذف ثاني مفعول الأول وأول مفعولي الثاني للتهويل وإيهام التعميم ، وقرىء "لينذر" بالياء والفعل "للقرآن" . ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراض لا محل له من الإعراب . ﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف يجمعون أولاً ثم يفرقون ، والتقدير منهم فريق والضمير للمجموعين لدلالة الجمع عليه ، وقرئا منصوبين على الحال منهم أي وتنذر يوم جمعهم متفرقين بمعنى مشارفين للتفرق ، أو متفرقين في داري

الثواب والعقاب .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحدة ﴾ مهتدين أو ضالين . ﴿ ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ بالهداية والحمل على الطاعة . ﴿ والظالمون مَا لَهُمْ مِّن وَلِىّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ أي يدعهم بغير ولي ولا نصير في عذابه ، ولعل تغيير المقابلة للمبالغة في الوعيد إذ الكلام في الإنذار .

﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ بل اتخذوا . ﴿ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ كالأصنام . ﴿ فالله هُوَ الولى ﴾ جواب لشرط محذوف مثل إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي بالحق . ﴿ وَهُوَ يُحْيِى الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية .

﴿ وَمَا اختلفتم ﴾ أنتم والكفار . ﴿ فِيهِ مِن شَىْءٍ ﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين . ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ﴾ مفوض إليه يميز المحق من المبطل بالنصر أو بالإثابة والمعاقبة . وقيل ﴿ وَمَا اختلفتم فِيهِ ﴾ من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكم من كتاب الله . ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في مجامع الأمور . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ إليه أرجع في المعضلات .

﴿ فَاطِرُ السموات والأرض ﴾ خبر آخر ل ﴿ ذلكم ﴾ أو مبتدأ خبره. ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ وقرىء بالجر على البدل من الضمير أو الوصف لإلى الله. ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ من جنسكم. ﴿ أزواجا ﴾ نساء. ﴿ وَمِنَ الأنعام أزواجا ﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً، أو خلق لكم منَ الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وأناثاً. ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يكثركم من الذرء وهو البث وفي معناه الذر والذرو والضمير على الأول للناس، و ﴿ الأنعام ﴾ على تغليب المخاطبين العقلاء. ﴿ فِيهِ ﴾ في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالد، فإنه كالمنبع للبث والتكثير. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ أي ليس مثله شيء يزاوجه ويناسبه، والمراد من مثله ذاته كما في قولهم: مثلك لا يفعل كذا، على قصد المبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفى عمن يناسبه ويسد مسده كان نفيه عنه أولى، ونظيره قول رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: أَلاَ وَفِيهِمْ الطَّيِّبُ الطَاهِرُ لِذَاتِهِ. ومن قال الكاف فيه زائدة لعله عنى أنه يعطى معنى ﴿ لَّيْسَ مِّثْلِهِ ﴾ غير أنه آكد لما ذكرناه. وقيل "مثله" صفته أي ليس كصفته صفة. ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ لكل ما يسمع ويبصر.

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ خزائنها. ﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يوسع ويضيق على وفق مشيئته. ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيفعله على ما ينبغي.

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى ﴾ أي شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومن بينهما من أرباب الشرائع ، وهو الأصل المشترك فيما بينهم المفسر بقوله : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدين ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقه والطاعة في أحكام الله ومحله النصب على البدل من مفعول ﴿ شَرَعَ ﴾ ، أو الرفع على الاستئناف كأنه جواب وما ذلك المشروع أو الجر على البدل من هاء به . ﴿ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل أما فروع الشرائع مختلفة كما قال : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومنهاجا ﴾ ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين ﴾ عظم عليهم . ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد . ﴿ الله يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يجتلب إليه والضمير لما تدعوهم أو للدين . ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ ﴾ بالإشارة والتوفيق . ﴿ مَن يُنِيبُ ﴾ يقبل إليه .

﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ ﴾ يعني الأمم السالفة . وقيل أهل الكتاب لقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ العلم ﴾ العلم بأن التفرق ضلال متوعد عليه ، أو العلم بمبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام ، أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما فلم يلتفتوا إليها . ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ عداوة أو طلباً للدنيا . ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ ﴾ بالإمهال .

﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو يوم القيامة أو آخر أعمارهم المقدرة . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ باستئصال المبطلين حين اقترفوا لعظم ما اقترفوا . ﴿ وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ الكتاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ يعني أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد أهل الكتاب . وقرىء "ورثوا" و"ورثوا" . ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ من كتابهم لا يعلمونه كما هو أو لا يؤمنون به حق الإيمان ، أو من القرآن . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة .

﴿ فَلِذَلِكَ ﴾ فلأجل ذلك التفرق أو الكتاب ، أو العلم الذي أوتيته . ﴿ فادع ﴾ إلى الاتفاق على الملة الحنيفية أو الاتباع لما أوتيت ، وعلى هذا يجوز أن تكون اللام في موضع إلى لإفادة الصلة والتعليل . ﴿ واستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ واستقم على الدعوة كما أمرك الله تعالى . ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الباطلة . ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ الله مِن كتاب ﴾ يعني جميع الكتب المنزلة لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومات ، والأول إشارة إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية . ﴿ الله رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ خالق الكل ومتولي أمره . ﴿ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ

أعمالكم ﴾ وكل مجازى بعمله . ﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ لا حجاج بمعنى لا خصومة إذ الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة مجال ولا للخلاف مبدأ سوى العناد . ﴿ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يوم القيامة . ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ مرجع الكل لفصل القضاء ، وليس في الآية ما يدل على متاركة الكفار رأساً حتى تكون منسوخة بآية القتال .

(255/686)

﴿ والذين يُحَآجُّونَ فِى الله ﴾ في دينه . ﴿ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه ، أو من بعد ما استجاب الله لرسوله فأظهر دينه بنصره يوم بدر ، أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقروا بنبوته واستفتحوا به . ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ زائلة باطلة . ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ لمعاندتهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ على كفرهم .

﴿ الله الذى أَنزَلَ الكتاب ﴾ جنس الكتاب . ﴿ بالحق ﴾ ملتبساً بعيداً من الباطل ، أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام . ﴿ والميزان ﴾ والشرع الذي توزن به الحقوق ويسوى بين الناس ، أو العدل بأن أنزل الأمر به أو آلة الوزن بأن أوحى بإعدادها . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ إتيانها فاتبع الكتاب واعمل بالشرع وواظب على العدل قبل

أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه أعمالك وتوفى جزاءك ، وقيل تذكير القريب لأنه بمعنى ذات قرب ، أو لأن الساعة بمعنى البعث

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استهزاء . ﴿ والذين ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ خائفون منها مع اغتيابها لتوقع الثواب . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ أي الكائن لا محالة .

﴿ أَلآ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِى الساعة ﴾ يجادلون فيها من المرية ، أو من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلاً من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة . ﴿ لَفِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات إلى المحسوسات ، فمن لم يهتد لتجويزه فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه .

﴿ الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ بر بهم بصنوف من البر لا تبلغها الأفهام . ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي يرزقه كما يشاء فيخص كلاً من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته . ﴿ وَهُوَ القوى ﴾ الباهر القدرة . ﴿ العزيز ﴾ المنيع الذي لا يغلب .

(256/686)

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة ﴾ ثوابها شبهه بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل ولذلك قيل : الدنيا مزرعة الآخرة ، والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض ويقال للزرع

الحاصل منه . ﴿ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ فنعطه بالواحد عشراً إلى سبعمائة فما فوقها . ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ شيئاً منها على ما قسمنا له . ﴿ وَمَا لَهُ فِى الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ إذ الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ بل ألهم شركاء ، والهمزة للتقرير والتقريع وشركاؤهم شياطينهم . ﴿ شَرَعُواْ لَهُمْ ﴾ بالتزيين . ﴿ مّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا . وقيل شركاؤهم أوثانهم وإضافتها إليهم لأنهم متخذوها شركاء ، وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم بما تدينوا به ، أو صور من سنة لهم . ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء ، أو العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الكافرين والمؤمنين ، أو المشركين وشركائهم . ﴿ وَإِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقرىء "أن" بالفتح عطفاً على كلمة ﴿ الفصل ﴾ أي ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾ وتقدير عذاب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا ، فإن العذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة .

﴿ تَرَى الظالمين ﴾ في القيامة . ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين . ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ من السيئات . ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي وباله لاحق بهم أشفقوا أو لم يشفقوا . ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِى روضات الجنات ﴾ في أطيب بقاعها وأنزهها . ﴿ لَهُم مَّا

يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يشتهونه ثابت لهم عند ربهم . ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى المؤمنين . ﴿ هُوَ الفضل الكبير ﴾ الذي يصغر دونه ما لغيرهم في الدنيا .

(257/686)

﴿ ذَلِكَ الذى يُبَشّرُ الله عِبَادَهُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ذلك الثواب الذي يبشرهم الله به فحذف الجار ثم العائد ، أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي "يُبَشّرُ" من بشره وقرىء "يُبَشّرُ" من أبشره . ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على ما أتعاطاه من التبليغ والبشارة . ﴿ أَجْراً ﴾ نفعاً منكم . ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ أي تودوني لقرابتي منكم ، أو تودوا قرابتي ، وقيل الاستثناء منقطع والمعنى : لا أسألكم أجراً قط ولكني أسألكم المودة ، و ﴿ فِى القربى ﴾ حال منها أي ﴿ إِلاَّ المودة ﴾ ثابتة في ذوي ﴿ القربى ﴾ متمكنة في أهلها ، أو في حق القرابة ومن أجلها كما جاء في الحديث " الحب في الله والبغض في الله " روي : أنها لما نزلت قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم علينا قال :

" علي وفاطمة وابناهما " وقيل ﴿ القربى ﴾ التقرب إلى الله أي إلا أن تودوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح ، وقرىء "إلا مودة في القربى" . ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ

حَسَنَةً ﴾ ومن يكتسب طاعة سيما حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومودته لهم . ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ في الحسنة بمضاعفة الثواب ، وقرىء "يزد" أي يزد الله وحسنى . ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ لمن أذنب . ﴿ شَكُورٌ ﴾ لمن أطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة .

(258/686)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ بل أيقولون . ﴿ افترى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ افترى محمد بدعوى النبوة أو القرآن . ﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ استبعاد للافتراء عن مثله بالإشعار على أنه إنما يجترىء عليه من كان مختوماً على قلبه جاهلاً بربه ، فأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا ، وكأنه قال : إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترىء بالافتراء عليه . وقيل يختم على قلبك يمسك القرآن أو الوحي عنه ، أو يربط عليه بالصبر فلا يشق عليك أذاهم . ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الباطل وَيُحِقُّ الحق بكلماته إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ استئناف لنفي الافتراء عما يقوله بأنه لو كان مفترى لمحقه إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه أو بوعده ، بمحو باطلهم وإثبات حقه بالقرآن ، أو بقضائه الذي لا مرد له ، وسقوط الواو من ﴿ يمح ﴾ في بعض المصاحف لاتباع اللفظ كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان

بالشر ﴾ ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه ، والقبول يعدى إلى مفعول ثان بمن وعن لتضمنه معنى الأخذ والإبانة ، وقد عرفت حقيقة التوبة . وعن علي رضي الله تعالى عنه : هي اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته . ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ فيجازي ويتجاوز عن إتقان وحكمة ، وقرأ الكوفيون غير أبي بكر "ما تفعلون" بالتاء .

(259/686)

﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي يستجيب الله لهم فحذف اللام كما حذف في ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ والمراد إجابة الدعاء أو الإثابة على الطاعة ، فإنها كدعاء وطلب لما يترتب عليها . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام " أفضل الدعاء الحمد لله " أو يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها . ﴿ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ على ما سألوا واستحقوا واستوجبوا له بالاستجابة . ﴿ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بدل ما

للمؤمنين من الثواب والتفضل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 120 .

130 ﴾

(260/686)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الشورى

مكية وهي ثلاث وخمسون آية وثمانمائة وست وستون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانية وثمانون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي أحاط بصفات الكمال ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمت رحمته سائر عباده ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بما ترضاه إلهيته من رحمته وقوله تعالى:

﴿ حم ﴾ ﴿ عسق ﴾ تقدم الكلام في أمثال هذه الفواتح وسئل الحسن بن الفضل : لم قطع حم عسق ولم يقطع كهيعص ؟ فقال : لأنها سورة أولها حم فجرت مجرى نظائرها فكان حم مبتدأ وعسق خبره ، ولأنهما عدا آيتين وأخواتها مثل كهيعص والمص والمر عدت آية واحدة . وقيل : لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كهيعص وأخواتها أنها حروف تهج لا غير . واختلفوا في حم فأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلاً ، وقيل : معناها حم أي

: قضى ما هو كائن ، روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : ح حلمه م مجده ع علمه س سناؤه ق قدرته أقسم الله تعالى بها . وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبي رباح : ح : حرب قريش يعز فيها الذليل ويذل فيها العزيز في قريش ، م : ملك يتحول من قوم إلى قوم ، ع : عداوة لقريش يقصدهم سن سنين كسني يوسف تكون فيهم ، ق : قدرة الله تعالى النافذة في خلقه . وروي عن ابن عباس أنه قال ليس من نبي صاحب كتاب إلا وأوحيت إليه حم عسق فلذلك قال تعالى:

﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الإيحاء العظيم الشأن ﴿ يوحى إليك ﴾ أي : ما دمت حياً لا يقطع ذلك عنك ﴿ وإلى ﴾ أي : وأوحى إلى ﴿ الذين من قبلك ﴾ أي : من الرسل الكرام والأنبياء الأعلام ومن جملة ما أوحى إليهم أن أمتك أكثر الأمم وأنك أشرف الأنبياء وأخذ على كل منهم العهد باتباعك وأن يكونوا من أنصارك وأتباعك وقوله تعالى : ﴿ الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال فاعل الإيحاء .

ولما كان نفوذ الأمر دائراً على العزة والحكمة قال تعالى : ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي يصنع ما يصنعه في أتقن محاله فلذلك لا يقدر أحد على نقض ما أبرمه ولا نقص ما أحكمه .

تنبيه : ما تقرر من أن الله تعالى فاعل الإيحاء هو على قراءة كسر الحاء من يوحي وهي قراءة غير ابن كثير ، وأما على قراءة ابن كثير بفتح الحاء فيجوز أن يرتفع بفعل مضمر كأنه قيل : من يوحيه فقيل الله ك﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ﴾ (النور : ٠)

ويجوز أن يرتفع بالابتداء وما بعده خبر والجملة قائمة مقام الفاعل وأن يكون العزيز الحكيم خبرين أو نعتين والجملة من قوله تعالى:

﴿ له ما في السموات ﴾ أي : من الذوات والمعاني ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك خبر أول أو ثان على حسب ما تقدم في العزيز الحكيم ، قال الزمخشري : لم يقل تعالى أوحى إليك ولكن قال : يوحي إليك على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادة وكونه عزيزاً يدل على كونه قادراً على ما لا نهاية له ، وكونه حكيماً يدل على كونه عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحاجات وقوله تعالى : ﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ يدل على كونه متصفاً بالقدرة الكاملة النافذة في جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتها وسعتها بالإيجاد والإعدام وأن ما في السموات وما في الأرض خلقه وملكه .

ولما كان العلو مستلزماً للقدرة قال تعالى : ﴿ وهو العلي ﴾ على كل شيء علو رتبة وعظمة ومكانة لا علو مكان وملابسة ﴿ العظيم ﴾ بالقدرة والقهر والاستعلاء وقوله تعالى:

﴿ تكاد السموات ﴾ قرأه نافع والكسائي بالياء التحتية ، والباقون بالفوقية وقوله تعالى ﴿ يتفطرن ﴾ أي : يشققن قرأه شعبة وأبو عمرو بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففة ، والباقون بعد الياء بتاء فوقية مفتوحة وفتح الطاء مشددة وقوله تعالى : ﴿ من فوقهن ﴾ في ضميره ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أنه عائد على السموات أي : كل واحدة منهن تنفطر فوق التي تليها من عظمة الله تعالى أو من قول المشركين : ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ (الكهف :)

(262/686)

كما في سورة مريم أي : يبتدئ انفطارهن من هذه الجهة فمن : لابتداء الغاية متعلقة بما قبلها ، الثاني : أنه يعود على الأرضين لتقدم ذكر الأرض ، الثالث : أنه يعود على فرق الكفار والجماعات الملحدين قاله الأخفش الصغير ، وقال الزمخشري : كلمة الكفر أي : على التفسير الثاني إنما جاءت من الذين تحت السموات فكان القياس أن يقال : ينفطرن من تحتهن أي : من الجهة التي جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق ، كأنه قيل : يكدن ينفطرن أي : من الجهة التي فوقهن دون الجهة التي تحتهن ، ونظيره في المبالغة قوله عز وجل ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم ﴾ (الحج : .

)

فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة ا . ه .

ولما بين تعالى أن سبب كيد ودة انفطارهن جلال العظمة التي منها كثرة الملائكة وشناعة الكفر ، بين لها سبباً آخر وهو عظم قول الملائكة فقال تعالى : ﴿ والملائكة يسبحون ﴾ أي : يوقعون التنزيه لله تعالى متلبسين ﴿ بحمد ربهم ﴾ أي : بإثبات الكمال للمحسن إليهم تسبيحاً يليق بحالهم فلهم بذلك زجل وأصوات لا تحملها العقول ولا تثبت لها الجبال .

تنبيه : عدل عن التأنيث ولم يقل يسبحن مراعاة للفظ التذكير وضمير الجمع ، إشارة إلى قوة التسبيح وكثرة المسبحين ، فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ عام فيدخل فيه الكفار ولقد لعنهم الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ (البقرة :)

فكيف يكونون لاعنين لهم ومستغفرين لهم ؟

(263/686)

أجيب : بوجوه ؛ الأول : أنه عام مخصوص بآية غافر ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ (غافر :) ، الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ لمن في الأرض ﴾ لا يفيد العموم لأنه يصح أن يقال استغفروا

لبعض من في الأرض دون البعض ولو كان صريحاً في العموم لما صح ذلك ، الثالث : يجوز أن يكون المراد بالاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب كما في قوله تعالى : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ إلى أن قال تعالى ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ (الإسراء :) الرابع : يجوز أن يقال إنهم يستغفرون لكل من في الأرض أما في حق الكفار فبطلب الإيمان لهم ، وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم ، فإنا نقول اللهم اهد الكفار وزين قلوبهم بنور الإيمان وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر ، وهذا استغفار في الحقيقة وقوله تعالى : ﴿ ألا إن الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بصفات الكمال ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الغفور الرحيم ﴾ تنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر إلا أن المغفرة المطلقة لله تعالى ، وهذا يدل على أنه تعالى يعطي المغفرة التي طلبوها ويضم إليها الرحمة . u

﴿ والذين اتخذوا من دونه ﴾ أي : غير الله تعالى ﴿ أولياء ﴾ أي : أنداداً وشركاء يعبدونهم كالأصنام ﴿ الله ﴾ أي : المحيط بصفات الكمال ﴿ حفيظ ﴾ أي : رقيب ومراع وشهيد ﴿ عليهم ﴾ أي : على أعمالهم ولا يغيب عنه شيء من أعمالهم فهو إن شاء أبقاهم على كفرهم وجازاهم عليه بما أعد للكافرين ، وإن شاء تاب عليهم ومحا ذلك عيناً وأثراً ولم يعاقبهم ، وإن شاء محاه عيناً وأبقى الأثر حتى يعاقبهم ﴿ وما أنت ﴾ يا أشرف الرسل ﴿ عليهم بوكيل ﴾ أي : حتى يلزمك أن تراعي جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم فتحفظها وتقسرهم على تركها ونحو ذلك مما يتولاه الوكيل بما يقوم فيه مقام الموكل

سواء قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن أم قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وغير ذلك إذ ما عليك إلا البلاغ.

(264/686)

﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل ذلك الإيحاء ﴿ أوحينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ إليك قرآناً ﴾ أي : جامعاً لكل حكمة مع الفرق لكل ملتبس ﴿ عربياً ﴾ فهو بين الخطاب واضح الصواب معجز الجناب ﴿ لتنذر ﴾ أي : به ﴿ أم القرى ﴾ أي : أهل مكة التي هي أم الأرض وأصلها منها دحيت ، أو لشرفها أوقع الفعل عليها عداً لها عداد العقلاء أو غير ذلك إذ ما عليك إلا البلاغ ، وقوله تعالى ﴿ ومن حولها ﴾ معطوف على أهل المقدر قبل أم القرى ، والمفعول الثاني محذوف أي : العذاب والمراد بمن حولها : قرى الأرض كلها من أهل البدو والحضر وأهل المدر والوبر ، والإنذار : التخويف ﴿ وتنذر ﴾ أي : الناس .

﴿ يوم الجمع ﴾ أي : يوم القيامة يجمع الله تعالى فيه الأولين والآخرين وأهل السموات والأرضين ويجمع الأرواح بالأجساد ويجمع بين العامل وعمله ويجمع بين الظالم والمظلوم ﴿ لا ريب ﴾ أي : لا شك ﴿ فيه ﴾ لأنه ركز في فطرة كل أحد وقوله تعالى : ﴿ فريق ﴾ يجوز فيه وجهان ؛ أحدهما : أنه مبتدأ وساغ هذا في النكرة لأنه مقام تفصيل وخبره ﴿ في

الجنة ﴾ أي : تفضلاً منه ورحمة ، وهم الذين قبلوا الإنذار وبالغوا في الحذار ، ويجوز أن يكون الخبر مقدراً تقديره منهم فريق ، وساغ الابتداء بالنكرة حينئذ لشيئين : تقديم خبرها جاراً ومجروراً ووصفها بالجار بعدها ، والثاني : أنه خبر مبتدأ مضمر أي : هم أي : المجموعون فريق ، دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ يوم الجمع ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وفريق في السعير ﴾ أي : عدلاً منه فيه ما مر ، وهم الذين خذلهم الله تعالى ووكلهم إلى أنفسهم ، فإن قيل : يوم الجمع يقتضي كون القوم مجتمعين والجمع بين الصنفين محال ؟

أجيب : بأنهم يجتمعون أولاً ثم يصيرون فريقين قال القشيري : كما أنهم في الدنيا فريقان فريق في راحات الطاعات وحلاوات العبادات ، وفريق في ظلمات الشرك وعقوبات الجحد والشك فكذلك غداهم فريقان ، فريق هم أهل اللقاء وفريق هم أهل البلاء والشقاء .

(265/686)

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم قابضاً على كفيه ومعه كتابان فقال : أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قلنا : لا يا رسول الله فقال : للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء

آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب ، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس يزاد فيهم ولا ينقص منهم إجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة ، ثم قال للذي في يده اليسرى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب ، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام ، إذ هم في الطينة منجدلون فليس يزاد فيهم ولا ينقص منهم ، إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة ، فقال عبد الله بن عمرو : ففيم العمل إذن ؟ فقال : اعملوا وسددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيَّ : عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيَّ : عمل ثم قال ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ عدل من الله تعالى" أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده .

(266/686)

﴿ ولو شاء الله ﴾ أي : المحيط بجميع أوصاف الكمال ﴿ لجعلهم ﴾ أي : المجموعين ﴿ أمة واحدة ﴾ للثواب أو للعذاب ، ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء أن يكونوا فريقين مقسطين وظالمين ليظهر فضله وعدله وأنه إله جبار واحد قهار لا يبالي بأحد ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ ولكن يدخل من يشاء ﴾ إدخاله ﴿ في رحمته ﴾ بخلق الهداية في قلبه فتكون أفعالهم

في مواضعها وهم المقسطون ، ويدخل من يشاء في نقمته بخلق الضلالة في قلوبهم فيكونوا ظالمين فلا تكون أفعالهم في مواضعها ، فالمقسطون ما لهم من عدو ولا نكير

﴿ والظالمون ﴾ أي : العريقون في الظلم الذين ساء ظلمهم وهم الكافرون فيدخلهم في لعنته ﴿ ما لهم من ولي ﴾ أي : يلي أمورهم فيجتهد في صلاحها فيدفع عنهم العذاب ﴿ ولا نصير ﴾ ينصرهم من الهوان فيمنعهم من النار ، وعلى هذا التقدير : فالآية من الاحتباك وهو ظاهر ذكر الرحمة أولاً دليلاً على اللعنة ثانياً ، والظلم وما معه ثانياً دليلاً على أضداده أولاً ، وهذا تقدير لقوله تعالى : ﴿ الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي : أنت لا تقدر أن تحملهم على الإيمان ولو شاء الله تعالى لفعله لأنه أقدر منك ، لكنه تعالى جعل البعض مؤمناً والبعض كافراً .

ولما حكى الله تعالى عنهم أولاً أنهم اتخذوا من دونه أولياء ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لست عليهم بوكيل ﴾ أي : لا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان ، فإن الله تعالى لو شاء لفعله أعاد ذلك الكلام على سبيل الإنكار بقوله تعالى:

﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ كالأصنام وهذه أم المنقطعة فتقدر ببل التي للانتقال ، وبهمزة الإنكار أو بالهمزة فقط أو ببل فقط أي : ليس المتخذون أولياء ﴿ فالله ﴾ أي : المختص بصفات الكمال ﴿ هو ﴾ وحده ﴿ الولي ﴾ قال ابن عباس : وليك يا محمد وولي من اتبعك ، والفاء : جواب الشرط المقدر كأنه قال : إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي لا ولي سواه ، وقيل : هي لمجرد العطف وجرى على هذا الجلال المحلي ، وعلى الأول الزمخشري ﴿ وهو ﴾ أي : ومن شأن هذا الولي ﴿ يحيي الموتى ﴾ أي : يجدد إحياءها في كل وقت يشاؤه ﴿ وهو ﴾ وحده ﴿ على كل شيء قدير ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء .

ولما منع تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يحمل الكفار على الإيمان ، منع المؤمنين أن يشرعوا معهم في المخاصمات والمنازعات بقوله تعالى:

﴿ وما اختلفتم ﴾ أي : أنتم والكفار ﴿ فيه من شيء ﴾ أي : من أمور الدنيا أو الدين ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ أي : مفوض إلى الذي هو الولي لا غيره ، يميز المحق من المبطل بالنصر والإثابة والمعاقبة ، وقيل : ما اختلفتم فيه من تأويل المتشابه فارجعوا فيه إلى المحكم من كتاب الله ﴿ ذلكم الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ ربي ﴾ أي : الذي لا مربي لي غيره في ماض ولا حال ولا استقبال ﴿ عليه ﴾ أي : وحده ﴿ توكلت ﴾ أسلمت جميع أمري ﴿ وإليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ أنيب ﴾ أي : أرجع بالتوبة إذا قصرت في

شيء من فروع شرعه وأرجع إلى كتابه إذا نابني أمر من الأمور فأعرف منه حكمة فافعلوا أنتم كذلك واجعلوه الحكم تفلحوا ولا تعدلوا عنه في شيء من الأشياء تهلكوا ، وقوله تعالى:

(268/686)

﴿ فاطر ﴾ أي : مبدع ﴿ السموات والأرض ﴾ خبر آخر لذلكم أو مبتدأ خبره ﴿ جعل لكم ﴾ أي : بعد أن خلقكم من الأرض ﴿ من أنفسكم أزواجاً ﴾ حيث خلق حواء من ضلع آدم فيكون بالسكون إليها بقاء نوعكم ﴿ ومن ﴾ أي : وجعل لكم أي : لأجلكم من ﴿ الأنعام ﴾ التي هي أموالكم وجمالكم وبها أعظم أقواتكم ﴿ أزواجاً ﴾ أي : ذكوراً وإناثاً يكون بها أيضاً بقاء نوعها ﴿ يذرؤكم ﴾ بالمعجمة أي : يخلقكم ويكثركم من الذرء وهو : البث ﴿ فيه ﴾ أي : في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً ليكون بينهم توالد فإنه كالمنبع للبث والتكثير فالضمير للأناسي والأنعام بالتغليب ، واختلف في الكاف في قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فجرى الجلال المحلي على أنها زائدة لأنه تعالى لا مثل له ، وجرى غيره على أنها ليست زائدة لأنه إذا نفى عمن يناسبه ويسد مسده كان نفيه عنه أولى ، وحاصله كما قال التفتازاني : إن قولنا ليس كذاته شيء وقولنا ليس كمثله

شيء عبارتان كلاهما من معنى واحد وهو نفي المماثلة عن ذاته ، الأولى صريحاً والثانية كناية مشتملة على مبالغة ، وهي أن المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه وهذا لا يستلزم وجود المثل ، ألا ترى أن قولهم مثل الأمير يفعل كذا ليس اعترافاً بوجود المثل له ، فالمعنى هنا : أن مثل مثله تعالى منفي فكيف بمثله ، وأيضاً مثل المثل مثل فيلزم من نفيه نفيهما ، وقال البغوي : المثل صلة أي : ليس كهو شيء فأدخل المثل للتوكيد ، كقوله تعالى ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ (البقرة :)

وهذا كالتأويل الأول وقيل : إن المراد بالمثل الصفة وذلك أن المثل بمعنى المثل ، والمثل الصفة كقوله تعالى : ﴿ مثل الجنة ﴾ (الرعد :)

فيكون المعنى : ليس كصفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره ، وأما قوله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ (الروم :)

(269/686)

فمعناه أن له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله ولا يشاركه فيه أحد ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه هو لا غيره ﴿ السميع البصير ﴾ أي : الكامل في السمع والبصر بكل ما يسمع ويبصر ، فإن قيل : هذا يفيد الحصر مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين

؟

أجيب : بأن السمع والبصر لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال كما مر ، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله تعالى فهذا هو المراد من هذا الحصر .

﴿ له ﴾ أي : وحده ﴿ مقاليد السموات والأرض ﴾ أي : خزائنهما ومفاتيح خزائنهما من الإمطار والإنبات وغيرهما ، وقد ثبت أنه ابتدعهما وأن له جميع ما فيهما مما اتخذ من دونه ولياً وغيره ، قال القشيري : والمفاتيح الخزائن وخزائنه هي مقدوراته ا .ه . ولما حصر الأمر فيه دل عليه بقوله تعالى : ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي : يوسعه ﴿ لمن يشاء ﴾ امتحاناً ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيقه لمن يشاء ابتلاء كما وسع على فارس والروم وضيق على العرب ، وفاوت في الأفراد بين أفراد من وسع عليهم ومن ضيق عليهم ، فدل ذلك قطعاً على أنه لا شريك له وأنه هو المتصرف وحده ، فقطع بذلك أفكار الموفقين من عباده عن غيره ليقبلوا عليه ويتفرغوا له فإن عبادته هي المقاليد بالحقيقة : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ (نوح :)

الآيات ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ (الطلاق :)

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ (الأعراف :)

﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ﴾ (المائدة :)

الآية ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ أي : فلا فعل له إلا وهو جار على أتقن ما يكون من قوانين الحكمة فيفعله على ما ينبغي .

ولما عظم وحيه إلى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ ذكر تفصيل ذلك بقوله تعالى:

(270/686)

﴿ شرع لكم ﴾ أي : طرّق وسنّ طريقاً ظاهراً بيناً واضحاً لكم أيتها الأمة الخاتمة من الطرق الظاهرة المستقيمة ﴿ من الدين ﴾ وهو ما يعمل فيجازى عليه ﴿ ما ﴾ الذي ﴿ وصى به ﴾ توصية عظيمة بعد إعلامه بأنه شرعه ﴿ نوحاً ﴾ في الزمان الأقدم وهو أول أنبياء الشريعة ، قال مجاهد : أوصيناك وإياه يا محمد ديناً واحداً ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ أي : من القرآن وشرائع الإسلام ﴿ وما وصينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة الباهرة التي ظهرت بها تلك المعجزات ﴿ به إبراهيم ﴾ الذي نجيناه من كيد نمروذ بالنار وغيرها ووهبنا له على الكبر إسماعيل وإسحاق ، وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها ، والباقون

بكسر الهاء وياء بعدها ﴿ وموسى ﴾ الذي أنزلنا عليه التوراة موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴿ وعيسى ﴾ الذي أنزلنا عليه الإنجيل هدى ونوراً وموعظة ، وادخرناه في سمائنا لتأييد شريعة الفاتح الخاتم صلى الله عليه وسلم

ثم بين المشروع الموصى به والموحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ أن أقيموا ﴾ أي : أيها المشروع لهم من هذه الأمة الخاتمة ومن الأمم الماضية ﴿ الدين ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقه والطاعة في أحكام الله تعالى ، ومحله النصب على البدل من مفعول شرع أو الرفع على الاستئناف كأنه جواب ، وما ذلك المشروع أو الجر على البدل من هاء به .

ولما عظمه بالأمر بالاجتماع أتبعه بالتعظيم بالنهي عن الافتراق بقوله تعالى : ﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي : ولا تختلفوا في هذا الأصل إما فروع الشرائع المختلفة فقال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ (المائدة :)

(271/686)

وقال قتادة : الموصى به تحليل الحلال وتحريم الحرام ، وقال الحكم : تحريم الأمهات والبنات والأخوات ، وقال مجاهد : لم يبعث الله تعالى نبياً إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

والإفراد لله تعالى بالطاعة فذلك دينه الذي شرعه ، وقيل : هو التوحيد والبراءة من الشرك ، وجرى على هذا الجلال المحلي والكل يرجع إليه ﴿ كبر ﴾ أي : عظم وشق ﴿ على المشركين ﴾ حتى ضاقت به صدورهم ﴿ ما تدعوهم إليه ﴾ أيها النبي الفاتح الخاتم من الاجتماع أبداً على ما اجتمعوا عليه وقت الاضطرار من وحدانية الواحد القهار ، فلأجل كبره عليهم هم يسعون في تفرقكم فإن تفرقتم كنتم تابعتم العدو الحسود وخالفتم الولي الودود .

ثم نبه تعالى على أن الأمور كلها بيده بقوله تعالى : ﴿ الله ﴾ الذي له مجامع العظمة ونفوذ الأمر ﴿ يجتبي ﴾ أي : يختار ﴿ إليه ﴾ أي : إلى هذا الدين الذي تدعوهم إليه ﴿ من يشاء ﴾ اجتباءه ﴿ ويهدي إليه ﴾ بالتوفيق للطاعة ﴿ من ينيب ﴾ أي : من يقبل إلى طاعته .

ولما بين تعالى أمر كل الأنبياء عليهم السلام والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه كأن لقائل أن يقول : فلماذا نجدهم متفرقين ؟ أجاب بقوله تعالى:

﴿ وما تفرقوا ﴾ أي : المشركون من قبلكم من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي : بالتوحيد أو بمبعث الرسول صلى الله عليه وسلم أو بأن التفرق ضلال متوعد عليه ﴿ بغياً بينهم ﴾ أي : فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية على أن ذهبت كل طائفة إلى مذهب ودعوا الناس إليه وقبحوا ما سواه طلباً للذكر والرياسة ، فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف ، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل إلا أنه تعالى أخر عنهم العذاب لأن لكل عذاب عنده أجلاً مسمى ، أي : وقتاً معلوماً وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة ﴾ أي : لا تبديل لها ﴿ سبقت ﴾ أي : في الأزل ﴿ من ربك ﴾ أي : المحسن إليك بجعلك خير الخلائق وإمامهم بتأخيرهم ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ ضربه لآجالهم ثم يجمعهم في الآخرة ﴿ لقضي ﴾ على أيسر وجه وأسهله ﴿ بينهم ﴾ حين الافتراق بإهلاك الظالم وإنجاء المحق ، قال ابن عباس : والذين أريدوا بهذه الصفة هم اليهود والنصارى لقوله تعالى في آل عمران : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ (آل عمران :)

وقوله تعالى في سورة لم يكن : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ (البينة :)

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ (الشورى :)

أي : المتفرقين هم اليهود والنصارى الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقيل : هم هذه الأمة الذين أورثوا القرآن . ولما نسخ كتابهم ما تقدمه كان غيرهم كأنه مات فورثوه كما قال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ (فاطر :)

(273/686)

فكان حالهم في تمكنهم من التصرف في الكتاب بالحفظ والفهم وعدم المنازعة في ادعائه حال الوارث والموروث منه ﴿ لفي شك منه ﴾ أي : من كتاب لا يعلمونه كما هو لا يؤمنون به حق الإيمان ، أو من القرآن فيقولون إنه سحر وشعر وكهانة ونحو ذلك ، وقيل : في شك من محمد صلى الله عليه وسلم وجرى على ذلك الجلال المحلي ﴿ مريب ﴾ أي : موقع في التهمة .

(274/686)

﴿ فلذلك ﴾ أي : التوحيد ﴿ فادع ﴾ يا أشرف الخلق والناس ﴿ واستقم ﴾ أي : على الدعوة ﴿ كما أمرت ﴾ أي : أمرك الله تعالى ﴿ ولا تتبع ﴾ أي : بعمل ﴿ أهواءهم ﴾ في شيء ما ، فإن الهوى لا يدعو إلى خير ، والمقصود من كل أحد أن يفعل ما أمر به ﴿ وقل ﴾

لجميع أهل الفرق وكل من يمكن له القول فإنك أرسلت إلى جميع الخلق ﴿ آمنت بما أنزل الله ﴾ أي : الذي له العظمة الكاملة ﴿ من كتاب ﴾ أي : جميع الكتب المنزلة لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، روي أن رجلاً أتى علياً فقال : يا أمير المؤمنين ما الإيمان أو كيف الإيمان قال : الإيمان على أربع دعائم على الصبر واليقين والعدل والجهاد والصبر على أربع شعب : على الشوق والشفق والزهادة والترقب فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصائب ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات ، واليقين على أربع شعب : تبصرة الفطنة وتأويل الحكمة وموعظة العبرة وسنة الأولين ، فمن تبصر الفطنة تأول الحكمة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة عرف السنة ومن عرف السنة فكأنما كان في الأولين ، والعدل على أربع شعب : على غامض الفهم وزهرة الحلم وروضة العلم وعلم الحكم فمن فهم جمع العلم ومن علم لم يضل في الحكم ومن علم عرف شرائع الحلم ومن حلم لم يفرط أمره وعاش في الناس ، والجهاد على أربع شعب : على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين فمن أمر بالمعروف شد ظهره ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين ، ومن صدق في المواطن قضى الذي عليه ومن

شنئ

الفاسقين غضب لله تعالى وغضب الله تعالى له ، فقام الرجل وقبل رأسه .

﴿ وأمرت ﴾ أي : ممن له الأمر كله ﴿ لاعدل ﴾ أي : لأجل أن أعدل ﴿ بينكم ﴾ أيها المفترقون في الأديان من العرب والعجم من الأنس والجن ، ثم علل ذلك بقوله ﴿ الله ﴾ أي : الذي له الملك كله ﴿ ربنا وربكم ﴾ أي : موجدنا ومتولي جميع أمورنا فلهذا أمرنا بالعدل على سبيل العموم لأن الكل عباده .

﴿ لنا أعمالنا ﴾ خاصة بنا لا تعدونا إلى غيرنا ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ خاصة بكم لا تعدوكم إلى غيركم فكل مجازى بعمله ﴿ لا حجة ﴾ أي : لا خصومة ﴿ بيننا وبينكم ﴾ وهذا قبل أن يؤمر بالجهاد كما قاله الجلال المحلي ، وقال ابن الخازن : هذه الآية منسوخة بآية القتال وكذا قال البغوي ، ولكن قال البيضاوي : وليس في الآية من يدل على متاركته رأساً حتى تكون منسوخة بآية القتال ﴿ الله ﴾ أي : الذي هو أحكم الحاكمين ﴿ يجمع بيننا ﴾ أي : في الميعاد لفصل القضاء ﴿ وإليه ﴾ أي : لا إلى غيره ﴿ المصير ﴾ أي : المرجع حساً ومعنىً ، لتمام عزته وشمول عظمته .

﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ أي : يوردون تشكيكاً في دين الملك الأعظم ليعيدوا الناس بعدما دخلوا في نور الهدى إلى ظلام الضلال ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ أي : استجاب

الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فأظهر دينه على الدين كله قال قتادة : هم اليهود قالوا : كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم وتشكيكهم ، أو من بعد ما استجاب للرسول صلى الله عليه وسلم الناس فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزته .

(276/686)

﴿ حجتهم ﴾ أي : التي زعموها حجة ﴿ داحضة ﴾ أي : زائلة باطلة ﴿ عند ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم بإضافة العقل الذي جعلهم به في أحسن تقويم وقال الرازي : تلك المخاصمة هي أن اليهود قالوا : ألستم تقولون أن الأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه ؟ فنبوة موسى عليه السلام وحقية التوراة معلومة بالاتفاق ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست متفقاً عليها فوجب الأخذ باليهودية ، فبين تعالى فساد هذه الحجة ، وذلك أن اليهود أجمعوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى عليه السلام لأجل ظهور المعجزات على قوله وها هنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد صلى الله عليه وسلم واليهود قد شاهدوا تلك المعجزات فإن كان ظهور المعجزة يدل على الصدق فهنا يجب الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان لا يدل على الصدق وجب في حق

موسى أن لا يقروا بنبوته بظهور المعجزات لأنه يكون تناقضاً . ٧

تنبيه : والذين يحاجون مبتدأ وحجتهم مبتدأ ثان وداحضة خبر المبتدأ الثاني والثاني وخبره خبر الأول ، وأعرب مكي حجتهم بدلاً من الموصول بدل اشتمال .

ولما قرر تعالى هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة فقال : ﴿ وعليهم ﴾ أي : زيادة على قطع الإحسان ﴿ غضب ﴾ أي : عقوبة تليق بحالهم المذموم ووصفهم المذموم ومنه الطرد فهم مطرودون عن بابه مبعدون عن جنابه مهانون بحجابه ﴿ ولهم ﴾ مع ذلك ﴿ عذاب شديد ﴾ في الآخرة لا تصلون إلى حقيقة وصفه .

﴿ الله ﴾ أي : الذي له جميع الملك ﴿ الذي أنزل الكتاب ﴾ أي : جنس الكتاب ﴿ بالحق ﴾ أي : متلبساً على أكمل الوجوه بالأمر الثابت الذي لا يبدل ﴿ والميزان ﴾ أي : الشرع الذي توزن به الحقوق ويسوي بين الناس أو العدل ، قال مجاهد : سمي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة للإنصاف والتسوية ، وقال ابن عباس : أمر الله تعالى بالوفاء ونهى عن البخس فيجب على العاقل أن يجتهد في النظر والاستدلال ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد .

ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم بيوم القيامة ولم يروا لذلك أثراً قالوا على سبيل السخرية : متى تقوم الساعة وليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمد وأصحابه ؟ قال تعالى : ﴿ وما يدريك ﴾ أي : يا أكمل الخلق ﴿ لعل الساعة ﴾ أي : التي يستعجلون بها ﴿ قريب ﴾ وذكر قريب وإن كان صفة لمؤنث لأن الساعة في معنى الوقت أو البعث ، أو على معنى النسب أي : ذات قرب ، أو على حذف مضاف أي : مجيء الساعة ، قال مكي : ولأن تأنيثها مجازي وهذا ممنوع إذ لا يجوز الشمس طالع ولا القدر فائر .

تنبيه : لعل معلق للفعل عن العمل أي : ما بعده سد مسد المفعولين ، ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الساعة وعنده قوم من المشركين ، وقالوا مستهزئين : متى الساعة تقوم ؟ نزل قوله تعالى:

﴿ يستعجل بها ﴾ أي : يطلب أن تكون قبل الوقت المضروب لها ﴿ الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي : لا يتجدد لهم ذلك أصلاً وهم غير مشفقين ويظنون كذب القائل بها ﴿ والذين آمنوا ﴾ وإن كانوا في أول درجات الإيمان ﴿ مشفقون ﴾ أي : خائفون خوفاً عظيماً ﴿ منها ﴾ لأن الله تعالى هداهم بإيمانهم فصارت صدورهم معادن المعارف وقلوبهم منابع الأنوار ، فأيقنوا بما فيها من الأهوال الكبار فخافوا للطافتهم أن يكونوا مع صلاحهم من أهل النار ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ إعلاماً بأنهم على بصيرة من أمرها لا يستعجلون بها ،

فالآية من الاحتباك ، ذكر الاستعجال أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً والإشفاق ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً .

(278/686)

فائدة : روي : "أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم بصوت جهوري في بعض أسفاره فناداه : يا محمد ، فقال له صلى الله عليه وسلم نحواً من صوته : هاؤم فقال : متى الساعة ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ، فقال : حب الله تعالى وحب رسوله ، فقال : أنت مع من أحببت" . والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها ومن أحب الله تعالى ورسوله فعل ما أَمرا به واجتنب ما نهيا عنه ، فهي المحبة الكاملة نسأل الله الكريم من فضله أن يوفقنا وأحبابنا لطاعته واجتناب معاصيه ﴿ إلا إن الذين يمارون ﴾ أي : يخاصمون ويجادلون ﴿ في الساعة ﴾ أي : القيامة وما تحتوي عليه ﴿ لفي ضلال ﴾ أي : ذهاب حائد عن الحق ﴿ بعيد ﴾ جداً عن الصواب فإن لها من الأدلة الظاهرة ما ألحقها بالمحسوسات ، كما قال القائل لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

ولما أنزل الله عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة ، كان ذلك من لطف الله تعالى بعباده كما قال عز من قائل:

(279/686)

﴿ الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ لطيف ﴾ أي : بالغ في اللطف والعلم وإيقاع الإحسان ﴿ بعباده ﴾ وقال ابن عباس : حق بهم ، وقال عكرمة : بارّ بهم وقال السدي : رفيق بهم ، وقال القشيري : اللطيف : العالم بدقائق الأمور وغوامضها ، وقال الرازي : هو اسم مركب من علم ورحمة ورفق خفي أما لطفه بالمؤمنين فواضح ، وأما الكافر فأقل لطفه به أنه لا يعاجله في الدنيا ولا يعذبه فوق ما يستحق في الأخرى ، وقال مقاتل : لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم بدليل قوله تعالى : ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أي : مهما شاء على سبيل من السعة والضيق أو التوسعة لا مانع له من شيء من ذلك ، فكل من رزقه الله تعالى من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله تعالى أن يرزقه ، قال جعفر الصادق : اللطف في الرزق من وجهين ؛ أحدهما : أنه جعل رزقك من الطيبات والثاني : أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة ﴿ وهو القوي ﴾ أي : القادر على ما يشاء ﴿ العزيز ﴾ فلا يقدر أحد أن يمنعه عن شيء يريده .

ولما بين بهذا أن الرزق ليس إلا في يده أتبعه ما يزهد في طلب رزق البدن ويرغب في رزق الروح فقال تعالى على سبيل الاستئناف:

(280/686)

﴿ من كان ﴾ أي : من شريف أو دني ﴿ يريد ﴾ أي : بعمله ﴿ حرث الآخرة ﴾ أي : أعمالها والحرث في اللغة الكسب ﴿ نزد له ﴾ أي : بعظمتنا التي لا يقدر أحد على تحويلها ﴿ في حرثه ﴾ قال مقاتل : بأن يعينه على الأعمال الصالحة ويضاعف بالواحدة عشرة إلى ما شاء الله تعالى من الزيادة ، وقال الزمخشري : إنه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثاً على سبيل المجاز ﴿ ومن كان ﴾ أي : من قوي أو ضعيف ﴿ يريد ﴾ أي : بعمله ﴿ حرث الدنيا ﴾ أي : أرزاقها التي تطلب بالكد والسعي وتستنمي به مكتفياً به مؤثراً له على الآخرة ﴿ نؤته منها ﴾ أي : ما قسمناه له ولو تهاون به ولم يطلبه لآتاه ، وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الهاء ، واختلس قالون كسرة الهاء ، وعن هشام اختلاس الكسرة في الهاء والإشباع ، والباقون بإشباع الكسرة ﴿ وما ﴾ أي : والحال أن طالب الدنيا بعمله ما ﴿ له في الآخرة من نصيب ﴾ لأن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، وروى أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة

والنصرة والتمكن في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب" . أي : لأن هذا تهاون بالآخرة فلم يبنوها وهي أشرف من أن تقبل على من أعرض عنها فإنها ضرة الدنيا وضدها ، فالدنيا بخساستها تقبل على من أعرض عنها وتبعد عمن أقبل عليها حتى تهلكه في مهاويها ، والآخرة تقبل على من أقبل عليها أضعاف إقباله وتنادي من أدبر عنها لينتهي عن غيه وضلاله ، فلما سمى الله تعالى كلا القسمين حرثاً علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب وصرف هذه المتاعب إلى ما يكون في الزائد الباقي أولى من صرفها لما يكون في التناقص والانقضاء .

(281/686)

قال الرازي في اللوامع : أهل الإرادة على أصناف مريد الدنيا ومريد الآخرة ومريد الحق جل وعلا ، وعلامة إرادة الدنيا أن يرضى في زيادة دنياه بنقص دينه والإعراض عن فقراء المسلمين وأن تكون حاجاته في الدنيا مقصورة على الدنيا ، وعلامة إرادة الآخرة بعكس ذلك ، وأما علامة إرادة الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ يريدون وجهه ﴾ (الكهف :) فطرح الكونين والعزلة عن الخلق والخلاص من يد النفس انتهى . وحاصله : أن يستغرق أوقاته في التوفية بحقوق الحق وحقوق الخلق وتزكية النفس لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار

بل امتثالاً لأجل الملك الأعلى لأنه أهل لذلك ، مع اعترافه بأنه لن يقدر الله تعالى حق قدره .

ولما بين تعالى أعمال الآخرة والدنيا أتبعه بيان ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة فقال تعالى:

﴿ أم ﴾ أي : بل ﴿ لهم ﴾ أي : كفار مكة ﴿ شركاء ﴾ أي : على زعمهم وهم شياطينهم ﴿ شرعوا ﴾ أي : سنوا بالتزيين ﴿ لهم ﴾ أي : الكفار ﴿ من الدين ﴾ أي : الفاسد في العبادات والعادات ﴿ ما لم يأذن به الله ﴾ أي : الملك الذي لا أمر لأحد معه كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا ، وقيل : شركاؤهم أوثانهم ، وإنما أضيفت إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ، ولما كانت سبباً لضلالهم جعلت شارعة لدين ضلالتهم ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ (إبراهيم :)

(282/686)

وقال ابن عباس : شرعوا لهم ديناً غير دين الإسلام ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ أي : القضاء السابق بتأخير الجزاء أو لولا الوعد بأن الفصل يكون بينهم يوم القيامة ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي

: بين الذين امتثلوا أمره والتزموا شرعه وبين الذين اتبعوا ما شرعوه لمن سموهم شركاء في أقرب وقت ، ولكنه قد سبق القضاء في الأزل بمقادير الأشياء وتحديدها على وجوه الحكمة فهي تجري على ما حد لها لا يتقدم شيء منها ولا يتاخر ولا يتبدل ولا يتغير وستنكشف لهم الأمور وتظهر مخبآت المقدور فلا يقع الفصل إلا في الآخرة كما سبق القضاء ﴿ وإن الظالمين ﴾ بشرع ما لم يأذن به الله من الشرك وغيره ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم بليغ إيلامه ، ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب مبتدئاً بالأول منهما بقوله تعالى:

﴿ ترى ﴾ أي : في ذلك اليوم ﴿ الظالمين ﴾ أي : الواضعين الأشياء في غير مواضعها ﴿ مشفقين ﴾ أي : خائفين أشد الخوف كما هو الحال من يحاسبه من هو أعلى منه وهو مقصر ﴿ مما كسبوا ﴾ أي : عملوا معتقدين أنه غاية ما ينفعهم ﴿ وهو ﴾ أي : جزاؤه ووباله الذي من جنسه حتى كأنه هو ﴿ واقع بهم ﴾ لا محالة سواء أشفقوا أم لم يشفقوا ، ثم ذكر الثاني بقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهي التي أذن الله تعالى فيها غير خائفين مما كسبوا لأنهم مأذون لهم في فعله وهو مغفور لهم ما فرطوا فيه ﴿ في روضات الجنات ﴾ أي : في الدنيا بما يلذذهم به الله تعالى من لذائذ الأقوال والأفعال والمعارف والأحوال ، وفي الآخرة حقيقة بلا زوال ، وروضة الجنة أطيب بقعة فيها ، وفيه تنبيه على أن عصاة المؤمنين من أهل الجنة لأنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم في روضات

الجنات وهي : البقاع الشريفة من الجنة فالبقاع التي دون تلك الروضات لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ يدل على أن تلك الأشياء حاضرة عنده مهيأة والعندية مجاز .

(283/686)

تنبيه : عند ربهم يجوز أن يكون ظرفاً ليشاؤون قاله الحوفي ، أو للاستقرار العامل في لهم قاله : الزمخشري : وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الخير العظيم الرتبة الجليل القدر ﴿ هو الفضل الكبير ﴾ أي : الذي يصغر ما لغيرهم في الدنيا يدل على أن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل من الله تعالى لا بطريق الوجوب والاستحقاق وقوله تعالى: ﴿ ذلك ﴾ أي : الجزاء العظيم من الجنة ونعيمها مبتدأ خبره ﴿ الذي يبشر الله ﴾ أي : الملك الأعظم والعائد وهو به محذوف تفخيماً للمبشر به لأن السياق لتعظيمه بالإشارة ويجعلها بأداة البعد وبالوصف بالذي وذكر الاسم الأعظم والتعبير بلفظ العباد في قوله تعالى ﴿ عباده ﴾ مع الإضافة إلى ضميره سبحانه .

ولما أشعر بصلاحهم بالإضافة نص عليه بقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : صدقوا بالغيب ﴿ وعملوا ﴾ تحقيقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم

الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة ، والباقون بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة من بشره .

ولما كان كأنه قيل : فما نطلب في هذه البشارة لأن الغالب أن المبشر وإن لم يسأل يعطى بشارته ، كما وقع لكعب لما أذن الله تعالى بتوبته ركض راكض على فرس وسعى ساع على رجليه فأوفى على جبل سلع ونادى : يا كعب بن مالك أبشر فقد تاب الله عليك فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءه الذي سمع صوته خلع عليه ثوبيه وهو لا يملك يومئذ غيرهما واستعار له ثوبين قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ﴾ أي : لمن توهم فيك ما جرت به عادة المبشرين ﴿ لا أسألكم ﴾ أي : الآن ولا في مستقبل الزمان ﴿ عليه ﴾ أي : البلاغ بشارة أو نذارة ﴿ أجراً ﴾ أي : وإن قل ﴿ إلا ﴾ أي : لكن أسألكم ﴿ المودة ﴾ أي : المحبة العظيمة الواسعة ﴿ في القربى ﴾ أي : مظروفة فيها بحيث تكون القربى موضعاً للمودة وظرفاً لها لا يخرج شيء من محبتكم عنها .

(284/686)

تنبيه : في الآية ثلاثة أقوال ؛ أولها : قال الشعبي : أكثر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

وسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده ، وكان له فيهم قرابة فقال الله عز وجل ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ على ما أدعوكم إليه إلا أن تودوا القربى ، أي : تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة والمعنى : أنكم قربى وأحق من أجابني وأطاعني فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى وصلوا رحمي ولا تؤذوني ، وإلى هذا ذهب مجاهد وقتادة وغيرهما .

ثانيها : روى الكلبي عن ابن عباس : "أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق وليس في يده سعة" فقالت الأنصار : "إن هذا الرجل هداكم وهو ابن أخيكم وجاركم في بلدكم فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه بها فردها عليهم" ونزل قوله تعالى ﴿ قل لا أسألكم عليه ﴾ أي : على الإيمان أجراً إلا المودة في القربى أي : لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم قاله سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب ، ثالثها : قال الحسن : معناه إلا أن توادوا الله تعالى وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح ، فالقربى على القول الأول : القرابة التي بمعنى الرحم وعلى الثاني : بمعنى الأقارب وعلى الثالث : فعلى بمعنى القرب والتقرب والزلفى ، فإن قيل : طلب الأجر على تبليغ الوحي لا يجوز لوجوه ؛ أحدها : أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء التصريح بنفي طلب الأجر فقال تعالى في قصة نوح : ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ (الفرقان :)

الآية ، وكذا في قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ، ورسولنا أفضل

الأنبياء فأن لا يطلب الأجر على النبوة والرسالة أولى ، ثانيها : أنه صلى الله عليه وسلم صرح بنفي طلب الأجر فقال : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ و﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ (سبأ :)

(285/686)

ثالثها : أن التبليغ كان واجباً عليه قال تعالى : ﴿ بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ (المائدة :) الآية وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلاً عن أعلم العلماء .

رابعها : أن النبوة أفضل من الحكمة وقال تعالى : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ (البقرة :)

ووصف الدنيا بأنها متاع قليل قال تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ (النساء :)

فكيف يحسن بالعقل مقابلة أشرف الأنبياء بأخس الأشياء ، خامسها : أن طلب الأجر يوجب التهمة وذلك ينافي القطع بصحة النبوة ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلب أجراً البتة على التبليغ والرسالة وههنا قد ذكر ما يجري مجرى طلب الأجر وهو المودة في القربى ؟

أجيب : بأنه لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على التبليغ وأما قوله تعالى : ﴿ إلا المودة في

القربى ﴾ فالجواب عنه من وجهين ؛ الأول : أن هذا من باب قوله:

*ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ** بهن فلول من قراع الكتائب*

يعني : أني لا أطلب منكم إلا هذا وهذا في الحقيقة ليس أجراً لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ (التوبة :)

(286/686)

وقال صلى الله عليه وسلم "المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضاً" . والآيات والأخبار في هذا كثيرة ، وإذا كان حصول المودة بين المسلمين واجباً فحصولها في حق أشرف المرسلين أولى فقوله : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ تقديره : والمودة في القربى ليست أجراً ، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر البتة . الثاني : أن هذا استثناء منقطع كما مر تقديره في الآية وتم الكلام عند قوله ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ ثم قال : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ أي : أذكركم قرابتي فيكم فكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر واختلفوا في قرابته صلى الله عليه وسلم فقيل : هم فاطمة وعلي وأبناؤهما ، وفيهم نزل ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ (الأحزاب :) ، وروى زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إني تارك فيكم كتاب الله وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي" .

قيل لزيد بن أرقم فمن أهل بيتي ؟ فقال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس .

وروى ابن عمر عن أبي بكر رضي الله عنه قال : ارقبوا محمداً في أهل بيته وقيل : هم الذين تحرم عليهم الصدقة من أقاربه ويقسم فيهم الخمس وهم بنو هاشم وبنو المطلب الذين لم يفترقوا جاهلية ولا إسلاماً ، وقيل : هذه الآية منسوخة وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم والحسين بن الفضل ، قال البغوي : وهذا قول غير مرضي لأن مودة النبي صلى الله عليه وسلم وكف الأذى عنه ومودة أقاربه والتقرب إلى الله تعالى بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين .

(287/686)

ولما كان التقدير فمن يقترف سيئة فعليه وزرها ولكنه طوى لأن المقام للبشارة كما يدل عليه ختم الآية عطف عليه قوله تعالى ﴿ ومن يقترف ﴾ أي : يكتسب ويخالط ويعمل بجد واجتهاد وتعمد وعلاج ﴿ حسنة ﴾ أي : ولو صغرت ﴿ نزد ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ له فيها ﴾ أي : في الحسنة ﴿ حسناً ﴾ أي : بمضاعفة الثواب من الزيادة أن يكون له مثل أجر من اقتدى به فيها إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيء ، قيل : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقيل : المراد بها العموم في أي : حسنة كانت إلا

أنها لما ذكرت عقب ذكر المودة في القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد في تلك المودة ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي لا يتعاظمه شيء ﴿ غفور ﴾ لكل ذنب تاب منه صاحبه وكان غير الشرك وإن لم يتب منه إن شاء فلا يصدن أحداً سيئة عملها عن الإقبال على الحبيب ﴿ شكور ﴾ أي : فهو يجزي بالحسنة أضعافها وإن قلت والشكور في حق الله تعالى مجاز والمعنى : أنه تعالى يحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب إليهم وفي أن يزيد عليه أنواعاً كثيراً من التفضيل .

ثم ذكر الله تعالى الجواب عن طعن الكفرة في النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

(288/686)

﴿ أم ﴾ أي : بل ﴿ يقولون افترى ﴾ أي : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ على الله ﴾ الذي أحاط بصفات الكمال فله العلم الشامل لمن يتقول عليه والقدرة التامة على عقابه ﴿ كذباً ﴾ حين زعم أن هذا القرآن من عنده وأنه أرسله بهذا الدين ﴿ فإن يشأ الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بالكمال ﴿ يختم ﴾ أي : يربط ﴿ على قلبك ﴾ بالصبر على أذاهم بهذا القول وغيره وقد فعل ، وقال قتادة : يعني يطبع على قلبك فينسيك القرآن وما آتاك فأخبرهم أنه لو افترى على الله كذباً لفعل به ما أخبر عنه في هذه الآية ، أي : أنه لا

يجترئ على افتراء الكذب إلا من كان في هذه الحالة ، والمقصود من هذا الكلام : المبالغة في تقرير الاستبعاد ومثاله : أن ينسب رجل بعض الأمناء إلى الخيانة فيقول الأمين : ذلك لعل الله خذلني أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه وإنما يريد استبعاد صدور الخيانة منه وقوله تعالى ﴿ ويمح الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ الباطل ﴾ وهو قولهم افترى مستأنف غير داخل في جزاء الشرط لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً وسقطت الواو منه لفظاً لالتقاء الساكنين في الدرج وخطا حملاً للخط على اللفظ كما كتبوا سندع الزبانية عليه وأما الحق فإنه ثابت شديد مضاعف فلذا قال : ﴿ ويحق ﴾ أي : يثبت على وجه لا يمكن زواله ﴿ الحق ﴾ أي : كل ما من شأنه الثبات لأنه أذن فيه وأقره ﴿ بكلماته ﴾ أي : التي لو كان البحر مداداً لها لنفذ وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم وأعلى كلمة الإسلام عليهم ﴿ إنه عليم ﴾ أي : بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي : ما هو فيها مما يعلمه صاحبها ومما لا يعلمه فيبطل باطله ويثبت حقه وإن كره الخلائق ذلك ولتعلمن نبأه بعد حين ، ولقد صدق الله تعالى فأثبت ببركة هذا القرآن كل ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم وأبطل بسيف هذا البرهان كل ما كانوا يخالفونه فيه ومن أصدق من الله قيلاً ، قال ابن عباس : لما نزل ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ وقع في قلوب قوم منها

شيء وقالوا : يريد

أن يخلطنا على أقاربه من بعده فنزل جبريل عليه السلام فأخبره أنهم اتهموه فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال القوم : يا رسول الله فإنا نشهد أنك صادق فنزل:

﴿ وهو ﴾ أي : لا غيره ﴿ الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه سئل أبو الحسن البوشنجي عن التوبة فقال : إذا ذكرت الذنب فلا تجد له حلاوة في قلبك . d

وروى جابر : أن أعرابياً دخل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر" فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله تعالى عنه : يا هذا إن سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين فقال يا أمير المؤمنين ما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية وإذابتها في الطاعة كما ربيتها في المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته . وقال سهل بن عبد الله : التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة . وقال بعضهم : هي الندم على الماضي والترك في الحال والعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل . وعن أبي هريرة قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة" . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في

اليوم مائة مرة" . وعن أبي موسى الأشعري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله جعل في الغرب باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها" . وروى : "أن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" .

(290/686)

ولما كان القبول قد يكون في المستقبل مع الأخذ بما مضى قال الله تعالى تفضلاً منه ورحمة : ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أي : التي كانت التوبة منها صغيرة كانت أو كبيرة وعن غيرها فلا يؤاخذ بها إن شاء لأن التوبة تجب ما قبلها كما أن الإسلام الذي هو توبة خاصة يجب ما يكون قبله وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان هو وراحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فآيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : "اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح" ﴿ ويعلم ﴾ أي : والحال أنه يعلم كل وقت ﴿ ما تفعلون ﴾ فيجازي

ويتجاوز عن إتقان وحكمة ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتاء الخطاب إقبالاً على الناس عامة وهذا خطاب للمشركين ، وقرأ الباقون بالغيبة نظراً إلى قوله تعالى عن عباده وقال تعالى بعد ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ .

ولما رغب بالعفو زاد بالإكرام فقال تعالى:

﴿ ويستجيب ﴾ أي : يوجد بغاية العناية والطلب إجابة ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : دعاء الذين أقروا بالإيمان في كل ما دعوا به أو شفعوا عنده فيه لأنه لولا إرادته لهم الإكرام بالإيمان ما آمنوا ، وعدي الفعل بنفسه ولم يقل : ﴿ ويستجيب للذين آمنوا ﴾ تنبيهاً على زيادة بره لهم ووصلهم به ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لدعواهم الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ فيثيبهم النعيم المقيم ﴿ ويزيدهم ﴾ أي : مع ما دعوا به لما لم يدعوا به ولم يخطر على قلوبهم ﴿ من فضله ﴾ أي : تفضلاً منه عليهم ويجوز أن يكون الموصول فاعلاً أي : يجيبون ربهم إذا دعاهم كقوله تعالى : ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ (الأنفال :)

واستجاب كأجاب ومنه:

*وداع دعا يا من يجيب إلى الندا ** فلم يستجبه عند ذلك مجيب*

(291/686)

وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : معناه ويثيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله سوى ثواب أعمالهم تفضلاً منه ، وروى أبو صالح عنه : "يشفعهم ويزيدهم من فضله" قال في إخوان : إخوانهم ثم أتبع المؤمنين بذكر ضدهم فقال تعالى ﴿ والكافرون ﴾ أي : العريقون في هذا الوصف القاطع الذين منعتهم عراقتهم من التوبة والإيمان ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ بدل ما للمؤمنين من الثواب والتفضيل ولا يجيب دعاءهم وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ، فالآية من الاحتباك ذكر الاستجابة أولاً دليلاً على ضدها ثانياً والعذاب ثانياً دليلاً على ضده أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 373.394 ﴾

(292/686)

وقال القاسمي :

سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم عسق ﴾

قد روي بعض المفسرين ها هنا ، في تفسير : ﴿ حم عسق ﴾ آثاراً واهية جداً لا يعول

عليها . بل هي ، كما قال ابن كثير : منكرة ، وقد قدمنا أن الصواب أن هذه الحروف ، أوائل السور الكريمة ، أسماء لها . و : ﴿ حم عسق ﴾ اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما ، وعُدَّا آيتين . وقيل اسم واحد ، والفصل ليناسب سائر الحواميم ، فيكون آية واحدة . وهو الوجه عندي لاشتهارها بهما معاً . وقوله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ كلام مستأنف ، وارد التحقيق أن مضمون السورة موافق لما في تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة في الدعوة إلى التوحيد ، والإرشاد إلى الحق . أو أن إيحاءها مثل إيحائها ، بعد تنويهها بذكر اسمها ، والتنبيه على فخامة شأنها . والكاف في حيز النصب على أنه مفعول لـ : ﴿ يُوْحِي ﴾ على الأول , وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له على الثاني , وذَلِكَ – على الأول – إشارة إلى ما فيها ، وعلى الثاني إلى إيحائها ، وما فيه من معنى البعد ، للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه ، وبعد منزلته في الفضل ؛ أي :

(293/686)

مثل ما في هذه السورة من المعاني ، أوحى إليك في سائر السور ، وإلى من قبلك من الرسل في كتبهم . على أن مناط المماثلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد ، والإرشاد إلى الحق

، وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد . أو مثل إيحائها ، أوحى إليك عند إيحاء سائر السور . وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم . لا إيحاءً مغايراً له . كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ [النساء : 163] الآية . على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك . وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية, للإيذان باستمرار الوحي ، وأن إيحاء مثله عادته . وفي جعل مضمون السورة أو إيحاءها مشبهاً به ، من تفخيمها ما لا يخفى . وكذا في وصفه تعالى بوصفي العزة والحكمة . وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل . مع ما فيه من التشويق . وقرئ : ﴿ يُوْحَى ﴾ على البناء للمفعول ، على أن : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مبتدأ : ﴿ وَيُوْحَى ﴾ خبره المسند إلى ضميره ، أو مصدره و : ﴿ يُوْحِي ﴾ مسند إلى : ﴿ إِلَيْكَ ﴾ . و : ﴿ اللّهُ ﴾ مرتفع بما دل عليه : ﴿ يُوْحِي ﴾ كأنه قيل : من يوحي ؟ فقيل : الله .

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ صفتان له ، أو مبتدأ ، كما في قراءة : ﴿ نُوْحِي ﴾ ، والعزيز وما بعده خبران له ، أو العزيز الحكيم صفتان له . وقوله تعالى :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ خبران له . وعلى الوجوه السابقة ، استئناف مقرر لعزته وحكمته . أفاده أبو السعود .

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ أي : يتشققن لتأثرهن من تجليات عظمته ، ويتلاشين من علو قهره وسلطته [في المطبوع : سلطنته] ، يدل عليه مجيئه بعد : ﴿ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ أو من دعائهم له ولداً ، كما في سورة مريم : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : يسألون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين به : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي : شركاء وأنداداً : ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : رقيب على أفعالهم يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي : بموكل لحفظ أعمالهم ، وإنما أنت منذر : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : 40] .

(295/686)

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ أي : أهلها ، وهي مكة : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي : من العرب وسائر الناس : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أي : يوم القيامة الذي تكون فيه الفضيحة أعظم ؛ لأنه يجمع فيه الخلائق : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ أي : منهم فريق في الجنة ، وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به

رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفريق في السعير ، أي : النار الموقدة المسعورة على أهلها ، وهم الذين كفروا بالله ، وخالفوا ما جاءهم به رسوله .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي : أهل دين واحد وملة واحدة : ﴿ وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي : ولكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة ، لمنافاة ذلك ما يقتضيه حكمة خلق الْإِنْسَانْ من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أميالهم ومشاربهم ؛ ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم . فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون . فأدخل من شاء في رحمته وهم المؤمنون ، وفي عذابه ، الكافرين .

(296/686)

قال أبو السعود : ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين ، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله : ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي : والكافرون بالله مالهم من وليّ يتولاهم يوم القيامة ، ولا نُصَيْر ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه ، لأنه يدخلهم في قهره . وتوصيفهم بالظالمين ، إشارة إلى عدل المؤمنين في باب الاعتقادات ، والأخلاق ، والأعمال ، والأفعال ، وأنه تعالى يواليهم ، وينصرهم .

(297/686)

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي : يتولونهم ، مع أنه لا ولاية لهم في الحقيقة ؛ إذ لا قدرة ولا قوة : ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ أي : هو الذي يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه المولى والسيد دون غيره ، لتوليه سبحانه كل شيء ، وسلطانه وحكمه . والفاء جواب شرط مقدر . كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه : إن أرادوا ولياً بحق ، فالله هو الولي بالحق ، لا ولي سواه : ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : هو المحي القادر ، فكيف تستقيم ولاية غيره ؟ , وقوله : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ تمهيد لما يأتي بعد ، من الأمر بإقامة الدين وعدم التفريق فيه ، الذي هو وصية الله تعالى لأنبيائه ، وشرعته لخلقه ، وتنبيه على أن خلاف من خالف من المشركين والكافرين ، إنما مردّه إلى الله تعالى ، وحكمه ، وقضائه ، أنه لا دين إلا دينه ، ولا عبادة إلا عبادته ، ولا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه, والقصد الرد على مشركي مكة وأمثالهم ، في تشريعهم ما لم يأذن به الله ، وتحكيمهم إتباع الآباء وأفانين الأهواء . فإن السورة مكية ، ومع ذلك ، فتدل الآية على أن ما اختلف فيه المختلفون وتنازعوا في شيء من الخصومات ، يجب أن يكون التحاكم فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن لا يوثر على حكومته حكومة غيره . كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : 59] ، وتدل أيضاً على الرجوع إلى المحكم

من كتاب الله ، والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا اختلفوا في تأويل آية واشتبه عليهم . وعلى تفويض ما لم تصل إلي دركه العقول ، إلى الله تعالى ، بأن يقال : الله أعلم . كما في قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ

(298/686)

أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ بتقدير قل ، أو هو حكاية لقوله صلى الله عليه وسلم . أي : الذي هذه الصفات صفاته ، ربي لا آلهتكم التي تدعون من دونه ، التي لا تقدر على شيء : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي : في أموري كلها : ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي : أرجع في المعاد ، أو من الذنوب ، أو في الأمور المعضلة .

﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي من جنسهم ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أي نساء ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ أي أصنافاً مختلفة,أو ذكوراً وإناثاً , ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يكثركم من (الذرء) وهو البث . يقال : ذرأ الله الخلق ,بثهم كثرهم,و فسر ب(يخلقكم) ,و ضمير (فيه) للبطن أو الرحم . و قال الزمخشري : أي في هذا التدبير ,وهو أن جعل للناس و الأنعام أزواجاً ,حتى كان بين ذكورهم و إناثهم التوالد و

التناسل, و الضمير في (يذرؤكم) يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل, فإن قلت: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير ؟ و هلا قيل: يذرؤكم به ؟ قلت: جعل هذا التدبير كالمنع و المعدن للبث والتكثير . انتهى .

وقيل (في) مستعارة للسببية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ , قال ابن جرير: فيه وجهان: أحدهما أن يكون معناه: ليس مثله شيء, و تكون الكاف هي المدخلة في الكلام . انتهى .

(299/686)

و بقي ثالث وهو أن المثل بمعنى الصفة, أي ليس كصفته صفة, و رابع – وهو ما عول عليه المحققون – أن المراد من (مثله) ذاته, كما في قولهم : مثلك لا يبخل, على قصد المبالغة في نفيه عنه, فإنه إذا نفي عمن يناسبه, كان نفيه عنه أولى, ثم سلكت هذه الطريقة في شأن من لا مثل له سبحانه . و وجه المبالغة أن الكناية من باب دعوى الشيء ببيّنة, وقد بينت الكناية في الآية بوجه آخر أشار إليه الشُّمنّيّ , وهو أنه نفي للشيء بنفي لازمه, لأن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم, كما يقال: ليس لأخي زيد أخ . فأخو زيد ملزوم, والأخ لازمه, لأنه لا بد لأخي زيد من أخ هو زيد , فنُفِي هذا اللازم, و المراد نفي ملزومه, أي ليس لزيد

أخ. إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ, هو زيد . فكذا نفي أن يكون لمثل الله مثل, و المراد نفي مثله تعالى – إذ لو كان له مثل, لكان هو تعالى مثل مثله, لتحقق المماثلة من الجانبين . فلا يصح نفي مثله (أي نفي مثل ذلك المثل) وبالجملة ، فأطلق نفي مثل المثل ، وأريد لازمه من نفي المثل . قال بعض الأفاضل: طالما كنت أجد في نفسي من هذا شيئًا . وذلك أن محصل هذا أن نفي المثل لازم لحقيقة الآية . وقد تقرر أولًا أنها تقتضي إثباته . ولذا أوّلوها بالأوجه المذكورة . فكيف يعقل أن إثبات الشيء ونفيه يلزمان معا لشيء واحد ؟ مع تصريحهم بأن تنافي اللوازم يقتضي تنافي الملزومات ، وبفرض صحة أن كلا منهما لازم لها ، فقصرها على هذا دون ذاك تحكم مع أن القصد إبطال دلالتها على المحال ، ولا يكفي فيه قولنا إنه غير مراد كما لا يخفى ، ثم ظهر أن إثبات المثل ليس لازمًا لحقيقة الآية قطعًا بل هو محتمل فقط ، كما تحتمل نفيه وإن كان الأول أقرب ، لكن عارضه في خصوص هذه المادة أنه لو كان له مثل الخ . فبطل ذلك الاحتمال من أصله فالتعويل في نفي المثل على هذه المقدمة القطعية بخلاف المثال فافهم ذلك .

(300/686)

وقال العصام: هذا – أي كون الآية من باب الكناية – وجه تلقاه الفحول بالقبول ، ورجحوه بأن الكناية أبلغ من التصريح ، وعدم الزيادة أحق بالترجيح ، وفيه بحث ، وهو أن نفي مثل المثل لا يستلزم نفي المثل ؛ لأن الشيء ليس مثل مثله ، بل المثل المشارك للشيء في صفة ، مع كون الشيء أقوى منه فيها وبمنزلة الأصل ، والمثل بمنزله الملحق به المتقارب منه .

انتهى .

ورده السيلكوتي فقال: ما قيل إن نفي مثل المثل لا يستلزم نفي المثل لأن مثل الشيء أضعف منه ، فتوهم محض ، لأن المماثلة هي ا لشركة في أخص الصفات والمساواة في جميع الوجوه مما به المماثلة ، صرح به في (شرح العقائد النسفية) انتهى . ومثل هذه اللطائف الأدبية مما تتحلى به أجياد الأفهام ، وتتشعب في أودية بدائعه عيون محاسن الكلام .

تنبيه:

قال السيوطي في الإكليل: في الآية رد على المشبهة ، وأنه تعالى ليس بجوهر ولا بجسم ، ولا عرض ولا لون ولا حال في مكان ولا زمان . انتهى .

(301/686)

وكان حقه أن يتم الاستنباط ، فكما أن صدر الآية فيه رد على المشبهة ، فكذا تتمتها وهو قوله تعالى (وهو السميع البصير) رد على المعطلة ، ولذا كان أعدل المذاهب مذهب السلف ، فإنهم أثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه ، وذلك أن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله تعالى وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات ، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل ، فمثلوا أولاً وعطلوا آخرًا ، فهذا تشبيه وتمثيل منهم ، للمفهوم من أسمائه وصفاته تعالى ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللائقة به عز وجل ، بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة ، فإنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به نبيه صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تشبيه ، قال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فرد على المشبهة بنفي المثلية ، ورد على المعطلة بقوله (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) قال الحافظ ابن عبد البر: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلا أنهم لم يكيفوا شيئًا من ذلك ، وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فكلهم ينكرها ولا يحمل منها شيئًا على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقر بها مشبه ، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود . انتهى .

(302/686)

قال الذهبي: صدق الله، فإن من تأول سائر الصفات، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام، أداه ذلك السلب إلى تعطيل الرب وأن يشابه المعدوم، كما نقل عن جماد بن زيد أنه قال: مثل الجهمية كقوم قالوا: في دارنا نخلة، قيل: لها سعف؟ قالوا: لا، قيل: لها كرب؟ قالوا: لا، قيل: لها رطب؟ قالوا: لا، قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا، قيل: فما في داركم نخلة.

قلت: كذلك هؤلاء النفاة، قالوا: إلهنا الله تعالى؛ وهو لا في زمان، ولا في مكان، ولا يرى ولا يسمع، ولا يبصر ولا يتكلم، ولا يرضى ولا يريد، ولا ولا، وقالوا: سبحان المنزه عن الصفات. بل نقول: سبحان الله العلي العظيم السميع البصير المريد، الذي كلم موسى تكليما، واتخذ إبراهيم خليلا، ويرى في الآخرة، المتصف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، المنزه عن سمات المخلوقين وعن جحد الجاحدين ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقال الذهبي رحمه الله أيضا: مقال متأخري المتكلمين، أن الله تعالى ليس في السماء، ولا على العرش ولا على السموات ولا في الأرض، ولا داخل العالم ولا خارج العالم، ولا هو بائن عن خلقه ولا متصل بهم، وقالوا: جميع هذه الأشياء صفات الأجسام والله تعالى منزه عن الجسم، قال لهم أهل السنة والأثر: نحن لا نخوض في ذلك ونقول ما ذكرناه اتباعًا للنصوص ولا نقول بقولكم، فإن هذه السلوب نعوت للمعدوم، تعالى الله جل جلاله عن العدم، بل هو

موجود متميز عن خلقه ، موصوف بما وصف به نفسه ، من أنه فوق العرش بلا كيف ، انتهى .

(303/686)

وقال الإمام ابن تيمية في (الرسالة التدمرية) في القاعدة الأولى: إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي ، فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ونحو ذلك ، والنفي كقوله (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال ، إلا إذا تضمن إثباتا ، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال ، لأن النفي المحض عدم محض ، والعدم المحض ليس شيء ، وما ليس بشيء فهو كما قيل ليس بشيء فضلا عن أن يكون مدحا أو كمالا ، ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع ، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال ، فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنا لإثبات مدح ، كقوله (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) إلى قوله (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) فنفي السنة النوم يتضمن كمال الحياة والقيام ، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم ، وكذلك قوله (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) أي لا يكرثه ولا يثقله ، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها ، بخلاف المخلوق القادر ، إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة ، فإن

هذا نقص في قدرته وعيب في قوته ، وكذلك قوله (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض ، وكذلك قوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) فإن نفي مس اللغوب ، الذي هو التعب والإعياء دل على كمال القدرة ونهاية القوة ، بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه ، وكذلك قوله (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) إنما نفي الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ، ولم ينف مجرد الرؤية ، لأن المعدوم لا يرى ، وليس في كونه لا يرى مدح ، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحا ، وإنما

(304/686)

المدح في كونه لا محاط به ، وإن رئي ، كما أنه لا يحاط به وإن علم ، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علما ، فكذلك إذا رئي لا يحاط به رؤية ، فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ، ما يكون مدحا وصفة كمال ، وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها ، لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة ، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتا ، هو مما لم يصف الله به نفسه ، الذين لا يصفونه إلا بالسلوب ، لم يثبتوا في الحقيقة إلها محمودا ، بل ولا موجودا ، وكذلك من شاركهم

في بعض ذلك ، كالذين قالوا لا يتكلم أو لا يرى أو ليس فوق العالم أو لم يستو على العرش ، ويقولون: ليس بداخل ا لعالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا مجانب له ، إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم ، وليست هي صفة مستلزمة صفة ثبوت ، ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك في الخالق: ميز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم ، وكذلك كونه لا يتكلم أو لا ينزل ، ليس في ذلك صفة مدح ولا كمال ، بل هذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات ، فهذه الصفات منها ما لا يتصف به إلا المعدوم ومنها ما لا يتصف به إلا الجمادات والناقص ، فمن قال لا هو مباين للعالم ولا مداخل للعالم ، فهو بمنزلة من قال لا هو قائم بنفسه ولا بغيره ولا قديم ولا محدث ولا متقدم على العالم ولا مقارن له ، ومن قال إنه ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا متكلم ، لزمه أن يكون ميتا أصم أعمى أبكم ، فإن قال العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر ، وما لم يقبل البصر كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير ، قيل له هذا اصطلاح اصطلحتموه ، وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والخرس والعجمة ، وأيضا فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها ، فإن الله قادر على جعل الجماد حيا كما جعل عصا موسى حية ابتلعت الحبال والعصي ، وأيضا فالذي لا

يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصا مما يقبل الاتصاف مع اتصافه بنقائضها ، فالجماد الذي لا يوصف بالبصر ولا العمى ولا الكلام ولا الخرس ، أعظم نقصا من الحي الأعمى الأخرس ، فإن قيل إن البارئ لا يمكن اتصافه بذلك ، كان في ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم ونحو ذلك ، مع أنه إذا جعل غير قابل لها كان تشبيها له بالجماد الذي لا يقبل الاتصاف بواحد منها ، وهذا تشبيه بالجمادات لا بالحيوانات ، فكيف من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه تشبيه بالحي ، وأيضا فنفس نفي هذه الصفات نقص ، كما أن إثباتها كمال ، فالحياة من حيث هي هي ، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف بها ، صفة كمال ، وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والعقل ونحو ذلك ، وما كان صفة كمال فهو سبحانه أحق أن يتصف به من المخلوقات ، فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به ، لكان المخلوق أكمل منه .

(306/686)

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : مفاتيح الأرزاق وخزائن الملك والملكوت : ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويغنيه

، ويقتّر على آخرين : ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم لقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الشورى : 3] ، ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك ، وهو ما شرعه له ولهم من الاتفاق على عبادته وحده لا شريك له كما قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : 25] ، وفي الحديث : < نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد > . يعني : عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم . كقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : 48] . وتخصيص هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم عليهم السلام ، بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة . ولاستمالة قلوب الكفرة ، لاتفاق الكل على نبوة بعضهم . وابتدأ بنوح عليه السلام لأنه أول الرسل . والمعنى : شرع لكم من الدين ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى زمن نبينا عليه الصلاة السلام . والتعبير بالتوصية فيهم والوحي له ، للإشارة إلى أن شريعته صلى الله عليه وسلم هي الشريعة الكاملة . ولذا عبر فيه بـ : الذي ، التي هي أصل الموصولات . وأضافه إليه بضمير العظمة ، تخصيصاً له ولشريعته بالتشريف وعظم الشأن وكمال

الاعتناء . وهو السر في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي : من إخلاص العبادة لله وإفراده بالألوهية والبراءة مما سواه من الأوثان : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء ﴾ وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أي : يوفق للعمل لطاعته وإتباع رسله ، من يُقبل إلى طاعته ، ويتوب من معاصيه . ثم أشار إلى أهل الكتاب ، إثر بيان حال المشركين ، بقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ أي : في دينهم وصاروا شيعاً : ﴿ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أي : الدلائل الصحيحة ، والبراهين اليقينية على حقية ما لديهم : ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ أي : ظلماً ، وتعدياً ، وطلباً للرئاسة : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو تأخير العذاب إلى يوم القيامة : ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : باستئصالهم ، لاستيجاب جناياتهم لذلك : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ وهم أهل مكة الذين مَنَّ الله عليهم بالكتاب العزيز : ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي : موقع لأتباعهم في الشك ، لكثرة ما يبثونه من الوساوس الصادة عن سبيل الله .

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ أي : فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب ، فادع الناس كافة إلى إقامة الدين لمقاومة الباطل ودحره ، وهتك وساوسه : ﴿ وَاسْتَقِمْ ﴾ أي : على الدعوة إليه ، والصدع به : ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أي : أوحي إليك : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾ أي : أي : كتاب كان ، لا كالذين آمنوا ببعض ، وكفروا بعض . وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب في الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ، وتعريض بهم . أفاده أبو السعود ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي : لأسوي بينكم في دعوة واحدة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ [آل عِمْرَان : 64] . ثم أشار إلى أن ما وراء الأمر المذكور ، والتبليغ به من الحساب ، فهو إليه تعالى . فقال : ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي : لا خصومة ولا محاجة بعد هذا ؛ لأن الحق قد ظهر ، ولم يبق للمحاجة حاجة ، ولا للمخالفة محل سوى المكابرة . والحجة في الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج . كما ذكره الراغب . وتكون بمعنى الدليل . والمراد هو الأول دون الثاني . وهو ظاهر : ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي : يوم القيامة ، فيقضي بالحق فيما اختلفنا : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : المعاد والرجع للجزاء .

تنبيهان :

الأول – تفسير العدل بما ذكرناه ، لأنه الذي يقتضيه سياق الكلام لاسيما والسورة مكية ، ولم يكن مظهره صلوات الله عليه بها فصل الخصومات والقضاء في الحكومات . نعم من ذهب إلى ذلك فإنما وقف مع عمومها . ومنه قول قتادة : أُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعدل حتى مات . والعدل ميزان الله في الأرض ، به يأخذ للمظلوم من الظالم ، وللضعيف من الشديد ، وبالعدل يصدق الله الصادق ، ويكذب الكذاب ، وبالعدل يرد المعتدي ويوبخه .

الثاني – قال ابن كثير : اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات . كل منها منفصلة عن التي قبلها . حكم برأسها . قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي . فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه . انتهى .

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ أي : يخاصمون في دينه الذي ابتعث به خاتم أنبيائه, وهم الذين أورثوا الكتاب ، المذكورون قبلُ ، ليصدوا عن الهدى طمعاً في عود الجاهلية : ﴿ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ أي : استجاب له الناس ؛ أي : بالاستسلام والانقياد لدينه

حسبما قادهم إليه العقل السليم ، والنظر الصحيح ، وسيرة الداعي ، وهديه ، وحسن دعوته ، وتصديق الكتب المنزلة له ، وسلامة الفطرة : ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ أي : زائلة لأنها في باطل . والباطل لا بقاء له مع قوة الحق : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي : في حكمه وقضائه وتقديره . قال أبو السعود : وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة ، مجاراة معهم على زعمهم الباطل : ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ أي : عظيم ، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ وهو عذاب النار .

(310/686)

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : متلبساً به في أحكامه وأخباره : ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي : وأنزل الميزان ، وهو العدل الذي يوزن به الحقوق ، ويسوى به الخلاف : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ قال أبو السعود : أي : شيء قريب ، أو قريب مجيئها ، أو الساعة بمعنى البعث . والمعنى أنها على جناح الإتيان . فاتبع الكتاب ، واعمل به ، وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه الأعمال ، ويوفى جزاؤها .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أي : خائفون منها . قال ابن جرير : لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أي : المتحقق

وجوده لا محالة : ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : لإنكارهم عدل الله ، وحكمته .

(311/686)

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ أي : يلطف بهم في تدبير إيصال ما يفتقرون من خير الدين والدنيا : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ .

قال الزمخشري : سمي ما يعلمه العامل مما يبتغي به الفائدة والزكاء ، حرثاً على المجاز – أي : بتشبيهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ، ولذلك قيل : الدنيا مزرعة الآخرة . وفرق بين عمل العاملين بأن من عمل للآخرة ، وفق في عمله وضوعفت حسناته . ومن كان عمله للدنيا أعطي شيئاً منها ، لا ما يريده ويبتغيه ، وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه ، وما له نصيب قط في الآخرة ، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له ، واصلٌ إليه لا محالة – للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله ، وفوزه في المآب . انتهى .

وهذه الآية كآية : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ [الإسراء : 18] ، الخ .

(312/686)

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ أم : منقطعة ، فيها معنى بل والهمزة ، ولا بد من سبق كلام ، خبراً أو إنشاء ، يضرب عنه ويقرر ما بعده . وما سبق قوله : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ﴾ [الشورى : 13] ، الخ فهو معطوف عليه ، وما بينهما من تتمة الأول . والمراد بشركائهم ، إما شياطينهم لأنهم شاركوهم في الكفر وحملوهم عليه ، وإما أوثانهم ، وإضافتها إليهم لأنهم متخذوها شركاء وإن لم تكن كذلك في الحقيقة . وعلى الثاني ، فإسناد الشرع إليها ، لأنها سبب ضلالهم وافتتانهم بما تدينوا به ، أو لأنها على صورة المشرّع الذي سن هذه الضلال لهم ، ويجوز كون الاستفهام المقدر حينئذ للإنكار . أي : ليس لهم شرع ولا شارع . كما في قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ [الأنبياء : 43] ، ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ ﴾ أي : القضاء السابق بأن الجزاء في القيامة لا في الدنيا . أو لولا ما وعدهم الله به من أنه يفصل بينهم ويبيّن في الآخرة . فالفصل بمعنى البيان : ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : لفرغ من الحكم بين الكافرين والمؤمنين ،

بتعجيل العذاب للكافرين : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ تَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ أي : يوم البعث : ﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي : من السيئات : ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي : نازل بهم لا محالة : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي : لا أسألكم على دعايتكم إلى ما أدعوكم إليه من الحق الذي جئتكم به ، والنصيحة التي أنصحكم ، ثواباً ، وجزاءً ، وعوضاً من

(313/686)

أموالكم تعطونيه : ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ أي : أن تودوني في القرابة التي بيني وبينكم ، وتصلوا الرحم التي بيننا ، ولا يكن غيركم ، يا معشر قريش ، أولى بحفظي ونصرتي ومودتي منكم .

قال الشهاب : المودة مصدر مقدر بـ : أن الفعل . والقربى مصدر كالقرابة . وفي للسببية . وهي بمعنى اللام لتقارب السبب والعلة . والخطاب ، إما لقريش أو لجميع العرب ، لأنهم أقرباء في الجملة . انتهى . والاستثناء منقطع . ومعناه نفي الأجر أصلاً ؛ لأن ثمرة مودتهم عائدة إليهم ؛ لكونها سبب نجاتهم . فلا تصلح أن تكون أجراً له . وقيل : المعنى أن تودوا

قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم . وقيل القربى التقرب إلى الله تعالى . أي : إلا أن تتوددوا إلى الله فيما يقربكم إليه . والمعنى الأول هو الذي عول عليه الأئمة . ولم يرتض ابن عباس رضي الله عنه ، غيره . ففي البخاري عنه أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ فقال سعيد بن جبير : القربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت . إن النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة .

(314/686)

قال ابن كثير : انفرد به البخاري – أي : عن مسلم – ورواه الإمام أحمد . وهكذا روى الشعبي ، والضحاك ، وعلي بن أبي طلحة ، والعوفي ، ويوسف بن مِهْرَان ، وغير واحد ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، مثله . وبه قال مجاهد ، وعكرمة وقتادة ، والسدي ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال : قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي ، لقرابتي منكم ، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم > . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < لا أسألكم على ما أتيتكم به

من البينات والهدى أجراً ، إلا أن تودوا الله تعالى ، وأن تقربوا إليه بطاعته > . وهكذا روي عن قتادة ، والحسن البصري مثله .

وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فاخر العباس من الأنصار ، فإسناده ضعيف . على أن السورة مكية . وليس يظهر بين الآية وتلك الرواية في هذا السياق مناسبة . وكذا ما رواه ابن أبي حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : < فاطمة وولدها - رضي الله عنهم - > فإن في إسناده مبهماً لا يعرف ، عن شيخ شيعي ، وهو حسين الأشقر ، فلا يقبل خبره في هذا المحل ، وذكر نزول الآية في المدينة بعيد . فإنها مكية . ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله عنها أولاد بالكلية . فإنها لم تتزوج بعلي رضي الله عنه إلا بعد بدر السنة الثانية من الهجرة .

(315/686)

والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ، كما رواه عنه البخاري . ولا ننكر الوصاة بأهل البيت , والأمر بالإحسان إليهم ، واحترامهم ، وإكرامهم . فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض ، فخراً ، وحسباً ، ونسباً . ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة

الواضحة الجلية . كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه ، وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ثبت في " الصحيح " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته : < إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتي . وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض > . وروى الإمام أحمد عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا ، لقونا بوجوه لا نعرفها . قال فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً وقال : < والذي نفسي بيده ! لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله > . هذا ملخص ما أورده ابن كثير رحمه الله تعالى ، وسبقه في الإيساع في ذلك تقي الدين ابن تيمية في " منهاج السنة " من أوجه عديدة .

قال في الوجه الثالث : إن هذه الآية في سورة الشورى . وهي مكية باتفاق أهل السنة . بل جميع آل حم مكيات . وكذلك آل طس . ومن المعلوم أن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر . والحسن ولد في السنة الثالثة من الهجرة . والحسين في السنة الرابعة فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة . فكيف يفسر النبي صلى الله عليه وسلم الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق .

(316/686)

ثم قال : الوجه الرابع – إن تفسير الآية الذي في الصحيحين عن ابن عباس يناقض ذلك .

فهذا ابن عباس ترجمان القرآن وأعلم أهل البيت ، بعد علي ، يقول : ليس معناها مودة ذوي القربى . ولكن معناها لا أسألكم يا معشر العرب , ويا معشر قريش عليه أجراً ، لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم . فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أولاً ، أن يصلوا رحمه فلا يعتدوا عليه حتى يبلّغ رسالة ربه .

الوجه الخامس – أنه قال : ﴿ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ لم يقل إلا المودة للقربى ولا المودة لذوي القربى . فلو أراد المودة لذوي القربى لقال المودة لذوي القربى كما قال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ [الأنفال : 41] ، وقال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ [الحشر : 7] ، وكذلك قوله : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [الإسراء : 26] ، وقوله : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ [البقرة : 177] ، وهكذا في غير موضع . فجميع ما في القرآن من التوصية بحقوق ذوي قربى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذوي قربى الْإِنْسَانْ ، إنما قيل فيها : ذوي القربى . لم يقل : في القربى . فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم ، دل على أنه لم يرد ذوي القربى .

الوجه السادس – أنه لو أريد المودة لهم لقال : المودة لذوي القربى ، ولم يقل في القربى ، فإنه لا

يقول من طلب المودة لغيره : أسألك المودة في فلان ، ولا في قربى فلان . ولكن أسألك المودة لفلان ، والمحبة لفلان . فلما قال المودة في القربى ، علم أنه ليس المراد لذوي القربى .

(317/686)

الوجه السابع – أن يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجراً البتة . بل أجره على الله كما قال : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : 86] ، وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ [الطور : 40] و [القلم : 46] وقوله : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ [سبأ : 47] ، ولكن الاستثناء هنا منقطع ، كما قال : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 57] ، ولا ريب أن محبة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم واجبة . لكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية ، ولا محبتهم أجر للنبي صلى الله عليه وسلم . بل هو مما أمرنا الله به كما أمرنا بسائر العبادات . وفي " الصحيح " عنه أنه خطب أصحابه بغدير يدعى خما بين مكة والمدينة فقال < أذكركم الله في أهل بيتي > وفي " السنن " عنه أنه قال < والذي نفسي بيده ! لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي > فمن جعل محبة أهل بيته أجراً له يوفيه إياه ، فقد أخطأ خطأً عظيماً . ولو كان أجراً له [

لم] نُثَب عليه نحن ؛ لأنا أعطيناه أجره الذي يستحقه بالرسالة . فهل يقول مسلم مثل هذا ؟ .

(318/686)

الوجه الثامن – إن القربى معرفة باللام . فلا بد أن يكون معروفاً عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم : ﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرٍ ﴾ وقد ذكر أنها لما نزلت ، لم يكن قد خلق الحسن والحسين ، ولا تزوج علي بفاطمة . فالقربى التي كان المخاطبون يعرفونها ، يمتنع أن تكون هذه . بخلاف القربى التي بينه وبينهم ، فإنها معروفة عندهم ، كما تقول : لا أسألك إلا المودة في الرحم التي بيننا . وكما تقول : لا أسألك إلا العدل بيننا وبينكم . ولا أسألك إلا أن تتقي الله في هذا الأمر . انتهى

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أي : يكتسب طاعة : ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أي : بمضاعفته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ أي : لمن تاب وأناب : ﴿ شَكُورٌ ﴾ لسعيهم بتضعيف جزاء حسناته .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ أي : بدعوى النبوة والوحي : ﴿ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ قال ابن كثير : أي : لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، يختم

على قلبك ، أي : يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن . كقوله جل جلاله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 44 - 47] ، أي : لانتقمنا منه أشد الانتقام ، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه . انتهى .

(319/686)

وهذا تفسير بالأشباه ، والنظائر من الآيات ، يؤثره كثير من الأئمة ، ما وجد إليه سبيلاً . فإن التنزيل يفسر بعضه بعضاً ، ومآل الآية على هذا المعنى ، كما أوضحه أبو السعود ، هو الاستشهاد على بطلان ما قالوا ، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى ، لمنعه من ذلك قطعاً ، فختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله معنى من معانيه ، ولم ينطق بحرف من حروفه . وحيث لم يكن الأمر كذلك . بل تواتر الوحي حيناً فحيناً ، تبين أنه من عند الله تعالى .

وقال الزمخشري : فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفتري عليه الكذب ؛ فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله ، إلا من كان في مثل حالهم . وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وإنه في البعد مثل الشرك بالله ، والدخول في الجملة

المختوم على قلوبهم . ومثل هذا أن يخوّن بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلني . لعل الله أعمى قلبي . وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب ، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه رُكب من تخوينه أمر عظيم . انتهى .

قال الشهاب : فمعناه إن يشأ الله يختم على قلبك كما فعل بهم . فهو تسلية له صلوات الله عليه ، وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه ، ليشكر به ويترحم على من ختم على قلبه ، فاستحق غضب ربه ، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر ؛ ولذا أتى بأن ، في موضع لو ، إرخاءً للعنان ، وتلميحاً للبرهان . على أنه لا يتصور وصفه بما ذكروه . فالتفريع بالنظر للمعنى المكني عنه ، وحاصله أنهم ، اجترؤوا على هذا المحال ؛ لأنه مطبوعون على الضلال . انتهى : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ استئناف مقرر لنفي الافتراء عما يقوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لو كان مفترى لمحقه ؛ إذ من سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه .

(320/686)

فليس : يمح ، مجزوماً بالعطف على الجزاء ، بل معطوف على مجموع الجملة ، والكلام السابق ، ولذا أعيد لفظ الجلالة ، ورفع يحق . قال الزمخشري : ويجوز أن يكون عدة

لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن ، وبقضائه الذي لا مرد له من نصرتك عليهم . إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم ، فيجري الأمر على حسب ذلك .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : يقبل رجوعه إذا راجع توحيد الله وطاعته ، من بعد كفره : ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي : معاصيه التي تاب منها : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي : من خير ، أو شر ، وهو مجازيكم عليه .

﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

أي : يستجيب لهم . فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ [المطففين : 3] ، أي : يثيبهم على طاعتهم : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي : على ثوابهم ، منةً منه وطولاً : ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 238.256 ﴾

(321/686)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ حم (1) عسق (2) ﴾

سبق الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور بما فيه الكفاية . وهي تذكر هنا في مطلع السورة ، ويليها قوله تعالى :

﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ . .

أي مثل ذلك ، وعلى هذا النسق ، وبهذه الطريقة يكون الوحي إليك وإلى الذين من قبلك . فهو كلمات وألفاظ وعبارات مصوغة من الأحرف التي يعرفها الناس ويفهمونها ويدركون معانيها ؛ ولكنهم لا يملكون أن يصوغوا مثلها مما بين أيديهم من أحرف يعرفونها .

ومن الناحية الأخرى تتقرر وحدة الوحي . وحدة مصدره فالموحي هو الله العزيز الحكيم . والموحى إليهم هم الرسل على مدار الزمان . والوحي واحد في جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمان : ﴿ إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ . .

إنها قصة بعيدة البداية ، ضاربة في أطواء الزمان . وسلسلة كثيرة الحلقات ، متشابكة الحلقات . ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع .

وهذه الحقيقة على هذا النحو حين تستقر في ضمائر المؤمنين تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثباته ، ووحدة مصدره وطريقه . وتشدهم إلى مصدر هذا الوحي : ﴿ الله العزيز الحكيم ﴾ . . كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبين المؤمنين أتباع الوحي في كل زمان ومكان ، فهذه أسرتهم تضرب في بطون التاريخ ، وتمتد جذورها في شعاب الزمن ؛ وتتصل كلها بالله في النهاية . فيلتقون فيه جميعا . وهو ﴿ العزيز ﴾ القوي القادر ﴿ الحكيم ﴾ الذي

يوحي لمن يشاء بما يشاء وفق حكمة وتدبير . فأنى يصرفون عن هذا المنهج الإلهي الواحد الثابت إلى السبل المتفرقة التي لا تؤدي إلى الله ؛ ولا يعرف لها مصدر ، ولا تستقيم على اتجاه قاصد قويم ؟

ويستطرد في صفة الله الذي يوحي وحده إلى الرسل جميعا ؛ فيقرر أنه المالك الوحيد لما في السماوات وما في الأرض ، وأنه وحده العلي العظيم :

﴿ له ما في السماوات وما في الأرض ، وهو العلي العظيم ﴾ .

.

(322/686)

وكثيراً ما يُخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئاً ، لمجرد أنهم يجدون أشياء في أيديهم ، مسخرة لهم ، ينتفعون بها ، ويستخدمونها فيما يشاءون . ولكن هذا ليس ملكاً حقيقياً . إنما الملك الحقيقي لله ؛ الذي يوجد ويعدم ، ويحيي ويميت ؛ ويملك أن يعطي البشر ما يشاء ، ويحرمهم ما يشاء ؛ وأن يذهب بما في أيديهم من شيء ، وأن يضع في أيديهم بدلاً مما أذهب . . الملك الحقيقي لله الذي يحكم طبائع الأشياء ، ويصرفها وفق الناموس المختار ، فتلبي وتطيع وتتصرف وفق ذلك الناموس . وكل ما في السماوات وما في الأرض من شيء "

لله " بهذا الاعتبار الذي لا يشاركه فيه أحد سواه . . ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ . . فليس هو الملك فحسب ، ولكنه ملك العلو والعظمة على وجه التفرد كذلك . العلو الذي كل شيء بالقياس إليه سفول ؛ والعظمة التي كل شيء بالقياس إليها ضآلة !

ومتى استقرت هذه الحقيقة استقراراً صادقاً في الضمائر ، عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من خير ومن رزق ومن كسب . فكل ما في السماوات وما في الأرض لله . والمالك هو الذي بيده العطاء . ثم إنه هو ﴿ العلي العظيم ﴾ الذي لا يصغر ولا يسفل من يمد يده إليه بالسؤال ؛ كما لو مدها للمخاليق ، وهم ليسوا بأعلياء ولا عظماء .

ثم يعرض مظهراً لخلوص الملكية لله في الكون ، وللعلو والعظمة كذلك . يتمثل في حركة السماوات تكاد تتفطر من روعة العظمة التي تستشعرها لربها ، ومن زيغ بعض من في الأرض عنها . كما يتمثل في حركة الملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لأهل الأرض من انحرافهم وتطاولهم :

﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ . .

(323/686)

والسماوات هي هذه الخلائق الضخمة الهائلة التي نراها تعلونا حيثما كنا على ظهر هذه الأرض ، والتي لا نعلم إلا أشياء قليلة عن جانب منها صغير . وقد عرفنا حتى اليوم أن بعض ما في السماوات نحو من مئة ألف مليون مجموعة من الشموس . في كل منها نحو مئة ألف مليون شمس كشمسنا هذه ، التي مبلغ حجمها أكثر من مليون ضعف من حجم أرضنا الصغيرة ! وهذه المجموعات من الشموس التي أمكن لنا نحن البشر أن نرصدها بمراصدنا الصغيرة ، متناثرة في فضاء السماء مبعثرة ، وبينها مسافات شاسعة تحسب بمئات الألوف والملايين من السنوات الضوئية . أي المحسوبة بسرعة الضوء ، التي تبلغ 168 . 000 ميل في الثانية !

هذه السماوات التي عرفنا منها هذا الجانب الصغير المحدود يكدن يتفطرن من فوقهن . . من خشية الله وعظمته وعلوه ، وإشفاقاً من انحراف بعض أهل الأرض ونسيانهم لهذه العظمة التي يحسها ضمير الكون ، فيرتعش ، وينتفض ، ويكاد ينشق من أعلى مكان فيه ! ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ .

.

والملائكة أهل طاعة مطلقة ، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة . ولكنهم دائبون في تسبيح ربهم ، لما يحسون من علوه وعظمته ، ولما يخشون من التقصير في حمده وطاعته . ذلك بينما أهل الأرض المقصرون الضعاف ينكرون وينحرفون ؛ فيشفق الملائكة من غضب الله

؛ ويروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير . ويجوز أن يكون المقصود هو استغفار الملائكة للذين آمنوا ، كالذي جاء في سورة غافر : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ وفي هذه الحالة يبدو : كم يشفق الملائكة من أية معصية تقع في الأرض ، حتى من الذين آمنوا ، وكم يرتاعون لها ، فيستغفرون ربهم وهم يسبحون بحمده استشعاراً لعلوه وعظمته ؛ واستهوالاً لأية معصية تقع في ملكه ؛ واستدرارا لمغفرته ورحمته ؛ وطمعاً فيهما : ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ . .

(324/686)

فيجمع إلى العزة والحكمة ، العلو والعظمة ، ثم المغفرة والرحمة . . ويعرف العباد ربهم بشتى صفاته .

وفي نهاية الفقرة بعد تقرير تلك الصفات وأثرها في الكون كله يعرض للذين يتخذون من دون الله أولياء . وقد بدا أن ليس في الكون غيره من ولي . ليعفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمرهم فما هو عليهم بوكيل ، والله هو الحفيظ عليهم ، وهو بهم كفيل : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ . .

وتبدو للضمير صورة هؤلاء المناكيد التعساء ؛ وهم يتخذون من دون الله أولياء ؛ وأيديهم مما أمسكت خاوية ، وليس هنالك إلا الهباء ! تبدو للضمير في ضآلتهم وضآلة أوليائهم من دون الله . والله حفيظ عليهم . وهم في قبضته ضعاف صغار . فأما النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه ، فهم معفون من التفكير في شأنهم ، والاحتفال بأمرهم ، فقد كفاهم الله هذا الاهتمام .

ولا بد أن تستقر هذه الحقيقة في ضمائر المؤمنين لتهدأ وتطمئن من هذا الجانب في جميع الأحوال . سواء كان أولئك الذين يتخذون من دون الله أولياء أصحاب سلطان ظاهر في الأرض ، أم كانوا من غير ذوي السلطان . تطمئن في الحالة الأولى لهوان شأن أصحاب السلطان الظاهر مهما تجبروا ما داموا لا يستمدون سلطانهم هذا من الله ؛ والله حفيظ عليهم ؛ وهو من ورائهم محيط ؛ والكون كله مؤمن بربه من حولهم ، وهم وحدهم المنحرفون كالنغمة النشاز في اللحن المتناسق ! وتطمئن في الحالة الثانية من ناحية أن ليس على المؤمنين من وزر في تولي هؤلاء غير الله ؛ فهم ليسوا بوكلاء على من ينحرفون من الخلق ؛ وليس عليهم إلا النصح والبلاغ . والله هو الحفيظ على قلوب العباد .

ومن ثم يسير المؤمنون في طريقهم . مطمئنين إلى أنه الطريق الموصول بوحي الله .

وأن ليس عليهم من ضير في انحراف المنحرفين عن الطريق . كائنا ما يكون هذا

الانحراف . .

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

(325/686)

﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير . ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير . أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولي . وهو يحيي الموتى . وهو على كل شيء قدير ﴾ . .

﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً . . . . ﴾ . .

يعطف هذا الطرف من حقيقة الوحي على ذاك الطرف الذي بدأ به السورة . والمناسبة هنا بين تلك الأحرف المقطعة ، وعربية القرآن ، مناسبة ظاهرة . فهذه أحرفهم العربية ، وهذا قرآنهم العربي . نزل الله به وحيه في هذه الصورة العربية ، ليؤدي به الغاية المرسومة :

﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ . .

وأم القرى مكة المكرمة . المكرمة ببيت الله العتيق فيها . وقد اختار الله أن تكون هي وما حولها من القرى موضع هذه الرسالة الأخيرة ؛ وأنزل القرآن بلغتها العربية لأمر يعلمه

ويريده . و ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وحين ننظر اليوم من وراء الحوادث واستقرائها ، ومن وراء الظروف ومقتضياتها ، وبعد ما سارت هذه الدعوة في الخط الذي سارت فيه ، وأنتجت فيه نتاجها . . حين ننظر اليوم هذه النظرة ندرك طرفاً من حكمة الله في اختيار هذه البقعة من الأرض ، في ذلك الوقت من الزمان ، لتكون مقر الرسالة الأخيرة ، التي جاءت للبشرية جميعاً . والتي تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى .

كانت الأرض المعمورة عند مولد هذه الرسالة الأخيرة تكاد تتقسمها امبراطوريات أربع : الامبراطورية الرومانية في أوربا وطرف من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الفارسية وتمد سلطانها على قسم كبير من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الهندية . ثم الامبراطورية الصينية . وتكادان تكونان مغلقتين على أنفسهما ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية وغيرها وهذه العزلة كانت تجعل الامبراطوريتين الأوليين هما ذواتا الأثر الحقيقي في الحياة البشرية وتطوراتها .

(326/686)

وكانت الديانتان السماويتان قبل الإسلام اليهودية والنصرانية قد انتهتا إلى أن تقعا في صورة من الصور تحت نفوذ هاتين الامبراطوريتين ، حيث تسيطر عليهما الدولة في الحقيقة ، ولا

تسيطران على الدولة ! فضلا على ما أصابهما من انحراف وفساد .

ولقد وقعت اليهودية فريسة لاضطهاد الرومان تارة ، ولاضطهاد الفرس تارة ، ولم تعد تسيطر في هذه الأرض على شيء يذكر على كل حال ؛ وانتهت بسبب عوامل شتى إلى أن تكون ديانة مغلقة على بني إسرائيل ، لا مطمع لها ولا رغبة في أن تضم تحت جناحها شعوبا أخرى .

وأما المسيحية فقد ولدت في ظل الدولة الرومانية . التي كانت تسيطر حين الميلاد على فلسطين وسورية ومصر وبقية المناطق التي انتشرت فيها المسيحية سرا ؛ وهي تتخفى من مطاردة الامبراطورية الرومانية التي اضطهدت العقيدة الجديدة اضطهاداً فظيعاً ، تخللته مذابح شملت عشرات الألوف في قسوة ظاهرة .

فلما انقضى عهد الاضطهاد الروماني ، ودخل الامبراطور الروماني في المسيحية ، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية ، ومباحث الفلسفة الإغريقية الوثنية كذلك ؛ وطبعت المسيحية بطابع غريب عليها ؛ فلم تعد هي المسيحية السماوية الأولى . كما أن الدولة ظلت في طبيعتها لا تتأثر كثيراً بالديانة ؛ وظلت هي المهيمنة ، ولم تهيمن العقيدة عليها أصلا . وذلك كله فضلاً على ما انتهت إليه المذاهب المسيحية المتعددة من تطاحن شامل فيما بينها مزق الكنيسة ، وكاد يمزق الدولة كلها تمزيقاً . وأوقع في الاضطهاد البشع

المخالفين للمذهب الرسمي للدولة . وهؤلاء وهؤلاء كانوا في الانحراف عن حقيقة المسيحية سواء !

(327/686)

وفي هذا الوقت جاء الإسلام . جاء لينقذ البشرية كلها مما انتهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد وجاهلية عمياء في كل مكان معمور . وجاء ليهيمن على حياة البشرية ويقودها في الطريق إلى الله على هدى وعلى نور . ولم يكن هنالك بد من أن يسيطر الإسلام لتحقيق هذه النقلة الضخمة في حياة البشر . فلم يكن هنالك بد من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لامبراطورية من تلك الامبراطوريات ؛ وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة على طبيعته ؛ بل يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله . وكانت الجزيرة العربية ، وأم القرى وما حولها بالذات ، هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى .

لم تكن هناك حكومة منظمة ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة وسلطان شامل في الجزيرة . تقف للعقيدة الجديدة . بسلطانها المنظم ، وتخضع لها الجماهير خضوعا دقيقاً ،

كما هو الحال في الامبراطوريات الأربع .

ولم تكن هنالك ديانة ثابتة كذلك ذات معالم واضحة ؛ فقد كانت الوثنية الجاهلية ممزقة ، ومعتقداتها وعباداتها شتى . وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام . ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان ديني عام في الجزيرة ، فإنه لم يكن ذلك السلطان المحكم الذي يقف وقفة حقيقية في وجه الدين الجديد . ولولا المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش ما وقفوا هذه الوقفة في وجه الإسلام . فقد كانوا يدركون ما في عقائدهم من خلخلة واضطراب .

وكانت خلخلة النظام السياسي للجزيرة إلى جانب خلخلة النظام الديني ، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، متحرراً من كل سلطان عليه في نشأته ، خارج عن طبيعته .

(328/686)

وفي وسط هذه الخلخلة كان للأوضاع الاجتماعية في الجزيرة قيمتها كذلك في حماية نشأة الدعوة الجديدة . كان النظام القبلي هو السائد . وكان للعشيرة وزنها في هذا النظام . فلما قام محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته وجد من سيوف بني هاشم حماية له ؛ ووجد من التوازن القبلي فرصة ، لأن العشائر كانت تشفق من إثارة حرب على بني هاشم بسبب

حمايتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم وهم على غير دينه .

بل إنها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من القلائل الذين أسلموا في أول الدعوة ، وتدع تأديبه أو تعذيبه لأهله أنفسهم . والموالي الذين عذبوا لإسلامهم عذبهم سادتهم . ومن ثم كان أبو بكر رضي الله عنه يشتري هؤلاء الموالي ويعتقهم ، فيمتنع تعذيبهم بهذا الإجراء ، وتمتنع فتنتهم عن دينهم . . ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد .

ثم كانت هنالك صفات الشعب العربي نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة . وهي استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها .

(329/686)

وقد كانت الجزيرة في ذلك الزمان تزخر بحضانة عميقة لبذور نهضة ؛ وكانت تجيش بكفايات واستعدادات وشخصيات تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لها في ضمير الغيب ؛ وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة من رحلاتها إلى أطراف امبراطوريتي كسرى وقيصر . وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال . المذكورتان في القرآن في قوله تعالى : ﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب

هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ وتضافرت أسباب كثيرة لحشد رصيد ضخم من التجارب مع التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التي اختيرت لها الجزيرة . فلما جاءها الإسلام استغل هذا الرصيد كله ، ووجه هذه الطاقة المختزنة ، التي كانت تتهيأ كنوزها للتفتح ؛ ففتحها الله بمفتاح الإسلام . وجعلها رصيداً له وذخراً . ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة في الجيل الأول في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من أمثال : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . وحمزة والعباس وأبي عبيدة . وسعد ابن أبي وقاص وخالد بن الوليد وسعد بن معاذ ، وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم وغيرهم من تلك العصبة التي تلقت الإسلام ؛ فتفتحت له ، وحملته ، وكبرت به من غير شك وصلحت ؛ ولكنها كانت تحمل البذرة الصالحة للنمو والتمام .

وليس هنا مكان التفصيل في وصف استعداد الجزيرة لحمل الرسالة الجديدة ، وصيانة نشأتها ، وتمكينها من الهيمنة على ذاتها وعلى من حولها ، مما يشير إلى بعض أسباب اختيارها لتكون مهد العقيدة الجديدة ، التي جاءت للبشرية جميعها . وإلى اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هذه الرسالة صلى الله عليه وسلم فذلك أمر يطول . ومكانه رسالة خاصة مستقلة . وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة ، التي يظهر التدبر والتفكر بعض أطرافها كلما اتسعت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة .

وهكذا جاء هذا القرآن عربياً لينذر أم القرى ومن حولها . فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، وخلصت كلها للإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ؛ وقدمت الرسالة الجديدة والنظام الإنساني الذي قام على أساسها ، للبشرية جميعها كما هي طبيعة هذه الرسالة وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ونقلها ؛ وقد خرجوا بها من أصلح مكان في الأرض لميلادها ونشأتها .

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام ؛ ويتمحض هذا المهد للعقيدة التي اختير لها على علم . كما اختير لها اللسان الذي يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعا . فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها في أقطار الأرض . ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعي ما صلحت لحمل هذه الدعوة أولاً ، وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانياً . . وقد كانت اللغة ، كأصحابها ، كبيئتها ، أصلح ما تكون لهذا الحدث الكوني العظيم .

وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه الرسالة ، حيثما وجه الباحث

نظره إلى تدبر حكمة الله واختياره ومصداق قوله : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ . .

وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً في القرآن هو الإنذار بيوم الجمع . يوم الحشر . يوم يجمع الله ما تفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من جديد : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ . بحسب عملهم في دار العمل ، في هذه الأرض ، في فترة الحياة الدنيا .

﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ﴾ . .

(331/686)

فلو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد سلوكهم ، فتوحد مصيرهم ، إما إلى جنة وإما إلى نار . ولكنه سبحانه خلق هذا الإنسان لوظيفة . خلقه للخلافة في هذه الأرض .

وجعل من مقتضيات هذه الخلافة ، على النحو الذي أرادها ، أن تكون للإنسان استعدادات خاصة بجنسه ، تفرقه عن الملائكة وعن الشياطين ، وعن غيرهما من خلق

الله ذوي الطبيعة المفردة الموحدة الاتجاه . استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى والنور والعمل الصالح ؛ ويجنح بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السيِّئ كل منهما يسلك وفق أحد الاحتمالات الممكنة في طبيعة تكوين هذا المخلوق البشري ؛ وينتهي إلى النهاية المقررة لهذا السلوك : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ . . وهكذا : ﴿ يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ﴾ . . وفق ما يعلمه الله من حال هذا الفريق وذاك ، واستحقاقه للرحمة بالهداية أو استحقاقه للعذاب بالضلال .

ولقد سبق أن بعضهم يتخذ من دون الله أولياء . فهو يقرر هنا أن الظالمين : ﴿ ما لهم من ولي ولا نصير ﴾ . . فأولياؤهم الذين يتخذونهم لا حقيقة لهم إذن ولا وجود .

ثم يعود فيسأل في استنكار :

﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ ﴾ . .

ليقرر بعد هذا الاستنكار أن الله وحده هو الولي ، وأنه هو القادر تتجلى قدرته في إحياء الموتى . العمل الذي تظهر فيه القدرة المفردة بأجلى مظاهرها :

﴿ فالله هو الولي ، وهو يحيي الموتى ﴾ . .

ثم يعمم مجال القدرة ويبرز حقيقتها الشاملة لكل شيء والتي لا تنحصر في حدود :

﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ . .

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، لبيان الجهة التي يرجع إليها عند كل اختلاف . وهي هذا الوحي

الذي جاء من عند الله يتضمن حكم الله كي لا يكون للهوى المتقلب أثر في الحياة بعد ذلك المنهج الإلهي القويم :

(332/686)

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب . فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجا ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم ﴾ . .

وطريقة إيراد هذه الحقائق وتسلسلها وتجمعها في هذه الفقرة طريقة عجيبة ، تستحق التدبر . فالترابط الخفي والظاهر بين أجزائها ترابط لطيف دقيق .

إنه يرد كل اختلاف يقع بين الناس إلى الله : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ . . والله أنزل حكمه القاطع في هذا القرآن ؛ وقال قوله الفصل في أمر الدنيا والآخرة ؛ وأقام للناس المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية ، وفي نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم ، وأخلاقهم وسلوكهم . وبيّن لهم هذا كله بياناً شافيا . وجعل هذا القرآن دستوراً شاملاً لحياة البشر ، أوسع من دساتير الحكم وأشمل . فإذا

اختلفوا في أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر في هذا الوحي الذي أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم لتقوم الحياة على أساسه .

وعقب تقرير هذه الحقيقة يحكي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما أمره كله لله ، منيباً إلى ربه بكليته :

﴿ ذلكم الله ربي عليه توكلت ، وإليه أنيب ﴾ . .

(333/686)

فتجيء هذه الإنابة ، وذاك التوكل ، وذلك الإقرار بلسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضعها النفسي المناسب للتعقيب على تلك الحقيقة . . فها هو ذا رسول الله ونبيه يشهد أن الله هو ربه ، وأنه يتوكل عليه وحده ، وأنه ينيب إليه دون سواه . فكيف يتحاكم الناس إذن إلى غيره عند اختلافهم في شيء من الأمر ، والنبي المهدي لا يتحاكم إلا إليه ، وهو أولى من يتحاكم الناس إلى قوله الفصل ، لا يتلفتون عنه لحظة هنا أو هناك ؟ وكيف يتجهون في أمر من أمورهم وجهة أخرى ، والنبي المهدي يتوكل على الله وحده ، وينيب إليه وحده ، بما أنه هو ربه ومتولي أمره وكافله وموجهه إلى حيث يختار ؟

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير المؤمن ينير له الطريق ويحدد معالمه ، فلا يتلفت هنا أو

هناك .

ويسكب فيه الطمأنينة إلى طريقه ، والثقة بمواقع خطواته ، فلا يتشكك ولا يتردد ولا يحتار . ويشعره أن الله راعيه وحاميه ومسدد خطاه في هذا الاتجاه . والنبي المهدي سالك هذا الطريق إلى الله .

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير المؤمن يرفع من شعوره بمنهجه وطريقه ، فلا يجد أن هناك منهجاً آخر أو طريقاً يصح أن يتلفت إليه ؛ ولا يجد أن هنالك حكما غير قول الله وحكمه يرجع عند الاختلاف إليه . والنبي المهدي ينيب إلى ربه الذي شرع هذا المنهج وحكم هذا الحكم .

ثم يعقب مرة أخرى بما يزيد هذه الحقيقة استقراراً وتمكيناً :

﴿ فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا . يذرؤكم فيه . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ . .

(334/686)

فالله منزل ذلك القرآن ليكون حكمه الفصل فيما يختلفون فيه من شيء . . هو ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ . . وهو مدبر السماوات والأرض . والناموس الذي يحكم السماء

والأرض هو حكمه الفصل في كل ما يختص بهما من أمر . وشؤون الحياة والعباد إن هي إلا طرف من أمر السماوات والأرض ؛ فحكمه فيها هو الحكم الذي ينسق بين حياة العباد وحياة هذا الكون العريض ، ليعيشوا في سلام مع الكون الذي يحيط بهم ، والذي يحكم الله في أمره بلا شريك .

والله الذي يجب أن يرجعوا إلى حكمه فيما يختلفون فيه من شيء هو خالقهم الذي سوى نفوسهم ، وركبها : ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ . . فنظم لكم حياتكم من أساسها ، وهو أعلم بما يصلح لها وما تصلح به وتستقيم . وهو الذي أجرى حياتكم وفق قاعدة الخلق التي اختارها للأحياء جميعا : ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ . . فهنالك وحدة في التكوين تشهد بوحدانية الأسلوب والمشيئة وتقديرها المقصود . . إنه هو الذي جعلكم أنتم والأنعام تتكاثرون وفق هذا المنهج وهذا الأسلوب . ثم تفرد هو دون خلقه جميعا ، فليس هنالك من شيء يماثله سبحانه وتعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ . . والفطرة تؤمن بهذا بداهة . فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه . . ومن ثم فإنها ترجع كلها إلى حكمه عندما تختلف فيما بينها على أمر ، ولا ترجع معه إلى أحد غيره ؛ لأنه ليس هناك أحد مثله ، حتى يكون هناك أكثر من مرجع واحد عند الاختلاف .

ومع أنه – سبحانه – ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ . . فإن الصلة بينه وبين ما خلق ليست منقطعة لهذا الاختلاف الكامل . فهو يسمع ويبصر : ﴿ وهو السميع البصير ﴾ . . ثم

يحكم حكم السميع البصير .

ثم إنه إذ يجعل حكمه فيما يختلفون فيه من شيء هو الحكم الواحد الفصل . يقيم هذا على حقيقة أن مقاليد السماوات والأرض كلها إليه بعد ما فطرها أول مرة ، وشرع لها ناموسها الذي يدبرها : ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ .

. وهم بعض ما في السماوات والأرض ، فمقاليدهم إليه .

(335/686)

ثم إنه هو الذي يتولى أمر رزقهم قبضاً وبسطاً فيما يتولى من مقاليد السماوات والأرض : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ . . فهو رازقهم وكافلهم ومطعمهم وساقيهم . فلمن غيره يتجهون إذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؟ وإنما يتجه الناس إلى الرازق الكافل المتصرف في الأرزاق . الذي يدبر هذا كله بعلم وتقدير : ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ . . والذي يعلم كل شيء هو الذي يحكم وحكمه العدل ، وحكمه الفصل . .

وهكذا تتساوق المعاني وتتناسق بهذه الدقة الخفية اللطيفة العجيبة ؛ لتوقع على القلب البشري دَقة بعد دَقة ، حتى يتكامل فيها لحن متناسق عميق .

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ؛ وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير . والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ . .

(336/686)

لقد جاء في مطلع السورة : ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ . . فكانت هذه إشارة إجمالية إلى وحدة المصدر ، ووحدة المنهج ، ووحدة الاتجاه . فالآن يفصل هذه الإشارة ؛ ويقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو في عمومه ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . وهو أن يقيموا دين الله الواحد ، ولا يتفرقوا فيه . ويرتب

عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهي القديم ، دون التفات إلى أهواء المختلفين . ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم ، ودحض حجة الذين يحاجون في الله ، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد .

ويبدو من التماسك والتناسق في هذه الفقرة كالذي بدا في سابقتها بشكل ملحوظ :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ . .

وبذلك يقرر الحقيقة التي فصلناها في مطلع السورة . حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة في أصول الزمان . ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع في حس المؤمن . وهو ينظر إلى سلفه في الطريق الممتدة من بعيد . فإذا هم على التتابع هؤلاء الكرام . . نوح . إبراهيم . موسى . عيسى ، محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام وأنه على دربهم يسير .

إنه سيستروح السير في الطريق ، مهما يجد فيه من شوك ونصب ، وحرمان من أعراض كثيرة . وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله . الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ . ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد ، السائرين على شرعه الثابت ؛ وانتفاء الخلاف والشقاق ؛ والشعور بالقربى الوثيقة ، التي تدعو إلى التعاون والتفاهم ، ووصل الحاضر بالماضي ، والماضي بالحاضر ، والسير جملة في الطريق .

وإذا كان الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . ففيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى ؟ وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى ؛ وفيما يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد ؟ وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين ؟ ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي يحملها رسولهم الأخير ؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ؟ فيقيموا الدين ، ويقوموا بتكاليفه ، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به ؛ ويقفوا تحت رايته صفا ، وهي راية واحدة ، رفعها على التوالي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم حتى انتهت إلى محمد صلى الله عليه وسلم في العهد الأخير .

ولكن المشركين في أم القرى ومن حولها وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم كانوا يقفون من الدعوة القديمة الجديدة موقفاً آخر :

﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ . .

كبر عليهم أن يتنزل الوحي على محمد من بينهم ؛ وكانوا يريدون أن يتنزل ﴿ على رجل من

القريتين عظيم ﴾ أي صاحب سلطان من كبرائهم . ولم تكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ، ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت في قريش . ما كان هذا كله يعدل في نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان !

وكبر عليهم أن ينتهي سلطانهم الديني بانتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التي يقوم عليها هذا السلطان ؛ وتعتمد عليها مصالحهم الاقتصادية والشخصية . فتشبثوا بالشرك

وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذي دعاهم إليه الرسول الكريم .

وكبر عليهم أن يقال : إن آباءهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية ؛ فتشبثوا بالحماقة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم ، على أن يوصم آباؤهم بأنهم ماتوا ضالين .

(338/686)

والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذي يصطفي ويختار من يشاء ؛ وأنه كذلك يهدي إليه من يرغب في كنفه ، ويتوب إلى ظله من الشاردين :

﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ . .

وقد اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم للرسالة . وهو يفتح الطريق لمن ينيب إليه ويثوب .

ثم يعود إلى موقف أتباع الرسل ، الذين جاءوا قومهم بدين واحد ، فتفرق أتباعهم شيعا وأحزابا :

﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾ .

.

فهم لم يتفرقوا عن جهل ؛ ولم يتفرقوا لأنهم يعرفون الأصل الواحد الذي يربطهم ، ويربط رسلهم ومعتقداتهم . إنما تفرقوا بعد ما جاءهم العلم . تفرقوا بغيا بينهم وحسدا وظلما للحقيقة ولأنفسهم سواء . تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة ، والشهوات الباغية . تفرقوا غير مستندين إلى سبب من العقيدة الصحيحة والمنهج القويم . ولو أخلصوا لعقيدتهم ، واتبعوا منهجهم ما تفرقوا .

ولقد كانوا يستحقون أن يأخذهم الله أخذا عاجلا ، جزاء بغيهم وظلمهم في هذا التفرق والتفريق . ولكن كلمة سبقت من الله لحكمة أرادها ، بإمهالهم إلى أجل مسمى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ﴾ . . فحق الحق وبطل الباطل ؛ وانتهى الأمر في هذه الحياة الدنيا . ولكنهم مؤجلون إلى يوم الوقت المعلوم .

فأما الأجيال التي ورثت الكتاب من بعد أولئك الذين تفرقوا وفرقوا من أتباع كل نبي ، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ؛ إذ كانت الخلافات السابقة مثارا لعدم الجزم بشيء

، وللشك والغموض والحيرة بين شتى المذاهب والاختلافات :

﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾ . .

(339/686)

وما هكذا تكون العقيدة . فالعقيدة هي الصخرة الصلبة التي يقف عليها المؤمن ، فتميد الأرض من حوله وهو ثابت راسخ القدمين فوق الصخرة الصلبة التي لا تميد . والعقيدة هي النجم الهادي الثابت على الأفق يتجه إليه المؤمن وسط الأنواء والزوابع ، فلا يضل ولا يحيد . فأما حين تصبح العقيدة ذاتها موضع شك ومثار ريبة ، فلا ثبات لشيء ولا لأمر في نفس صاحبها ، ولا قرار له على وجهة ، ولا اطمئنان إلى طريق .

ولقد جاءت العقيدة ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى الله ؛ ويقودوا من وراءهم من البشر في غير ما تلجلج ولا تردد ولا ضلال . فإذا هم استرابوا وشكوا فهم غير صالحين لقيادة أحد ، وهم أنفسهم حائرون .

وكذلك كان حال أتباع الرسل يوم جاء هذا الدين الجديد .

يقول الأستاذ الهندي أبو الحسن الندوي في كتابه : " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " :

" أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري " .

ويقول الكاتب الأوربي " ج. ه. دنيسون " في كتابه " العواطف كأساس للحضارة " :

" ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هارٍ من الفوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ؛ ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها .

(340/686)

وكان يبدو إذ ذاك أن المدينة الكبرى ، التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك والانحلال ؛ وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت

تعمل على الفرقة والانهيار : بدلاً من الاتحاد والنظام . وكانت المدينة كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله . واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه " . . يعني محمداً صلى الله عليه وسلم . .

ولأن أتباع الرسل تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم ولأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم كانوا في شك منه مريب . . لهذا وذلك ، ولخلو مركز القيادة البشرية من قائد ثبت مستيقن يعرف طريقه إلى الله . . أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم ووجه إليه الأمر أن يدعو وأن يستقيم على دعوته ، وألا يلتفت إلى الأهواء المصطرعة حوله وحول دعوته الواضحة المستقيمة ؛ وأن يعلن تجديد الإيمان بالدعوة الواحدة التي شرعها الله للنبيين أجمعين : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب . وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا ، وإليه المصير ﴾ . .

(341/686)

إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء . القيادة الحازمة المستقيمة على نهج واضح ويقين ثابت . تدعو إلى الله على بصيرة . وتستقيم على أمر الله دون انحراف . وتنأى عن الأهواء المضطربة المتناوحة من هنا وهناك . القيادة التي تعلن وحدة الرسالة ووحدة الكتاب ووحدة النهج والطريق . والتي ترد الإيمان إلى أصله الثابت الواحد ، وترد البشرية كلها إلى ذلك الأصل الواحد : ﴿ وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ . . ثم هو الاستعلاء والهيمنة بالحق والعدل . ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ . . فهي قيادة ذات سلطان ، تعلن العدل في الأرض بين الجميع . (هذا والدعوة بعد في مكة محصورة بين شعابها مضطهدة هي وأصحابها . ولكن طبيعتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة) . وتعلن الربوبية الواحدة : ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ . . وتعلن فردية التبعة : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ . . وتعلن إنهاء الجدل بالقول الفصل : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ . . وتكل الأمر كله إلى الله صاحب الأمر الأخير : ﴿ الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ . . وتكشف هذه الآية الواحدة عن طبيعة هذه الرسالة الأخيرة ، في مقاطعها القصيرة الفاصلة على هذا النحو الجامع الحازم الدقيق . فهي رسالة جاءت لتمضي في طريقها لا تتأثر بأهواء البشر . وجاءت لتهيمن فتحقق العدالة في الأرض . وجاءت لتوحد الطريق إلى الله كما هو في حقيقته موحد على مدى الرسالات .

.

وبعد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة العصبة المؤمنة لله هذه الاستجابة ، يبدو جدل المجادلين في الله مستنكراً لا يستحق الالتفات ، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب . فتنتهي هذه الفقرة بالفصل في أمرهم ، وتركهم لوعيد الله الشديد :

﴿ والذين يحاجون في الله . من بعد ما استجيب له . حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد ﴾ . .

(342/686)

ومن تكون حجته باطلة مغلوبة عند ربه فلا حجة له ولا سلطان . ووراء الهزيمة والبطلان في الأرض ، الغضب والعذاب الشديد في الآخرة . وهو الجزاء المناسب على اللجاج بالباطل بعد استجابة القلوب الخالصة ؛ والجدل المغرض بعد وضوح الحق الصريح .

ثم يبدأ جولة جديدة مع الحقيقة الأولى :

﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان . وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد . الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز . من كان يريد

حرث الآخرة نزد له من حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له في الآخرة من نصيب ﴾ . .

فالله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل ؛ وجعله حكما فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة ، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم ؛ وأقام شرائعه على العدل في الحكم . العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم ، وتوزن به الحقوق ، وتوزن به الأعمال والتصرفات .

وينتقل من هذه الحقيقة . حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل . إلى ذكر الساعة . والمناسبة بين هذا وهذه حاضرة ، فالساعة هي موعد الحكم العدل والقول الفصل . والساعة غيب . فمن ذا يدري إن كانت على وشك :

﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ؟ ﴾ . .

والناس عنها غافلون ، وهي منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل ، الذي لا يهمل فيه شيء ولا يضيع . .

ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين :

﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ . .

والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها ؛ فلا عجب يستعجلون بها مستهترين . لأنهم محجوبون لا يدركون . وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها

، ومن ثم هم يشفقون ويخافون ، وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هي حين تكون .

(343/686)

وإنها لحق . وإنهم ليعلمون أنها الحق . وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون .

﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾ . .

فقد أوغلوا في الضلال وأبعدوا ، فعسير أن يعودوا بعد الضلال البعيد . .

وينتقل من الحديث عن الآخرة والإشفاق منها أو الاستهتار بها ، إلى الحديث عن الرزق الذي يتفضل الله به على عباده :

﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴾ . .

وتبدو المناسبة بعيدة في ظاهر الأمر بين هذه الحقيقة وتلك .

ولكن الصلة تبدو وثيقة عند قراءة الآية التالية :

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ . .

فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء . يرزق الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر . فهؤلاء البشر

أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئاً ؛ وقد وهبهم الله الحياة ، وكفل لهم أسبابها الأولية ؛ ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ولماتوا جوعاً وعرياً وعطشاً ، وعجزاً عن أسباب الحياة الأولى ، ولما تحققت حكمة الله من إحيائهم وإعطائهم الفرصة ليعملوا في الحياة الدنيا ما يحسب لهم في الآخرة أو عليهم . ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح ، والإيمان والكفر ، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة العامة واستعدادات الأفراد الخاصة . وجعله فتنة وابتلاء . يجزي عليهما الناس يوم الجزاء .

(344/686)

ثم جعل الآخرة حرثا والدنيا حرثا يختار المرء منهما ما يشاء . فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه ، وزاد له الله في حرثه ، وأعانه عليه بنيته ، وبارك له فيه بعمله . وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له في هذه الأرض لا يحرم منه شيئا . بل إن هذا الرزق الذي يعطاه في الأرض قد يكون هو بذاته حرث الآخرة بالقياس إليه ، حين يرجو وجه الله في تثميره وتصريفه والاستمتاع به والإنفاق منه . . ومن كان يريد حرث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له لا يحرم منه شيئا . ولكن لم يكن له في الآخرة نصيب . فهو لم يعمل في

حرث الآخرة شيئاً ينتظر عليه ذلك النصيب !

ونظرة إلى طلاب حرث الدنيا وطلاب حرث الآخرة ، تكشف عن الحماقة في إرادة حرث الدنيا ! فرزق الدنيا يتلطف الله فيمنحه هؤلاء وهؤلاء . فلكل منهما نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدور له في علم الله . ثم يبقى حرث الآخرة خالصا لمن أراده وعمل فيه .

ومن طلاب حرث الدنيا نجد الأغنياء والفقراء ؛ بحسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والاستعدادات الخاصة . وكذلك نجد الحال عند طلاب حرث الآخرة سواء بسواء . ففي هذه الأرض لا اختلاف بين الفريقين في قضية الرزق . إنما يظهر الاختلاف والامتياز هناك ! فمن هو الأحمق الذي يترك حرث الآخرة . وتركه لا يغير من أمره شيئا في هذه الحياة ؟ !

والأمر في النهاية مرتبط بالحق والميزان الذي نزل به الكتاب من عند الله . فالحق والعدل ظاهران في تقدير الرزق لجميع الأحياء . وفي زيادة حرث الآخرة لمن يشاء . وفي حرمان الذين يريدون حرث الدنيا من حرث الآخرة يوم الجزاء . .

ومن ثم يبدأ جولة أخرى حول الحقيقة الأولى :

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم .

ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ؛ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ، إن الله غفور شكور ﴾ . .

في فقرة سابقة قرر أن ما شرعه الله للأمة المسلمة هو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهو ما أوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه الفقرة يتساءل في استنكار عما هم فيه وما هم عليه ، من ذا شرعه لهم ما دام الله لم يشرعه ؟ وهو مخالف لما شرعه منذ أن كان هناك رسالات وتشريعات ؟

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ ﴾ . .

وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائنا من كان ؛ فالله وحده هو الذي يشرع لعباده . بما أنه سبحانه هو مبدع هذا الكون كله ، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له . والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير ، فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس ؛ ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس . وكل من عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال . فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور .

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة ؛ فإن الكثيرين يجادلون فيها ، أو لا يقتنعون بها ، وهم يجرؤون على استمداد التشريع من غير ما شرع الله ، زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم ، ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذي ينشئونه من عند أنفسهم . كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله ! أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله ! وليس أخيب من ذلك ولا أجرأ على الله !

(346/686)

لقد شرع الله للبشرية ما يعلم سبحانه ، أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها وطبيعة الكون الذي تعيش فيه وفطرته . ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها ، والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى . شرع في هذا كله أصولاً ، وترك للبشر فقط استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجات الحياة المتجددة ، في حدود المنهج الكلي والتشريعات العامة . فإذا ما اختلف البشر في شيء من هذا ردوه إلى الله ؛ ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التي شرعها للناس ، لتبقى ميزاناً يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق .

بذلك يتوحد مصدر التشريع ، ويكون الحكم لله وحده . وهو خير الحاكمين . وما عدا

هذا النهج فهو خروج على شريعة الله ، وعلى دين الله ، وعلى ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام .

﴿ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ﴾ . .

فقد قال الله كلمة الفصل بإمهالهم إلى يوم القول الفصل . ولولاها لقضى الله بينهم ، فأخذ المخالفين لما شرعه الله ، المتبعين لشرع من عداه . لأخذهم بالجزاء العاجل . ولكنه أمهلهم ليوم الجزاء .

﴿ وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ . .

فهذا هو الذي ينتظرهم جزاء الظلم . وهل أظلم من المخالفة عن شرع الله إلى شرع من عداه ؟

ومن ثم يعرض هؤلاء الظالمين في مشهد من مشاهد القيامة . يعرضهم خائفين من العذاب وكانوا من قبل لا يشفقون ، بل يستعجلون ويستهترون :

﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ﴾ . .

والتعبير العجيب يجعل إشفاقهم ﴿ مما كسبوا ﴾ فكأنما هو غول مفزع ؛ وهو هو الذي كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ! ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون ﴿ وهو واقع بهم ﴾ . . وكأنه هو بذاته انقلب عذابا لا مخلص منه ، وهو واقع بهم !

وفي الصفحة الأخرى نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون . نجدهم في أمن وعافية ورخاء :

(347/686)

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربهم . ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . .

والتعبير كله رُخاء يرسم ظلال الرخاء : ﴿ في روضات الجنات ﴾ . . ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ بلا حدود ولا قيود . ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ . . ﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده ﴾ فهو بشرى حاضرة ، مصداقاً للبشرى السالفة . وظل البشرى هنا هو أنسب الظلال .

وعلى مشهد هذا النعيم الرخاء الجميل الظليل يلقن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : إنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى الذي ينتهي بهم إلى هذا النعيم ، وينأى بهم عن ذلك العذاب الأليم . إنما هي مودته لهم لقرابتهم منه ، وحسبه ذلك أجراً :

﴿ قل : لا أسألكم عليه أجرا . إلا المودة في القربى . ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا . إن الله غفور شكور ﴾ . .

والمعنى الذي أشرت إليه ، وهو أنه لا يطلب منهم أجرا ، إنما تدفعه المودة للقربى وقد كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة بكل بطن من بطون قريش ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التي يحملها لهم ، وهذا أجره وكفى !

هذا المعنى هو الذي انقدح في نفسي وأنا أقرأ هذا التعبير القرآني في مواضعه التي جاء فيها . وهناك تفسير مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أثبته هنا لوروده في صحيح البخاري :

قال البخاري حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة ، قال : سمعت طاووسا يحدث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأل عن قوله تعالى : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد .

(348/686)

فقال ابن عباس : عجلت . إن النبي – صلّى اللّه عليه وسلّم – لم يكن بطن من بطون قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة» .

ويكون المعنى على هذا : إلا أن تكفوا أذاكم مراعاة للقرابة . وتسمعوا وتلينوا لما أهديكم إليه . فيكون هذا هو الأجر الذي أطلبه منكم لا سواه .

وتأويل ابن عباس – رضي الله عنهما – أقرب من تأويل سعيد بن جبير – رضي الله عنه – ولكنني ما أزال أحس أن ذلك المعنى أقرب وأندى . . والله أعلم بمراده منا .

وعلى أية حال فهو يذكرهم – أمام مشهد الروضات والبشريات – أنه لا يسألهم على شيء من هذا أجرا .

ودون هذا بمراحل يطلب عليه الأدلاء أجرا ضخما ! ولكنه فضل الله الذي لا يحاسب العباد حساب التجارة ، ولا حساب العدل ، ولكن حساب السماحة وحساب الفضل :

«وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً» . .

فليس هو مجرد عدم تناول الأجر . بل إنها الزيادة والفضل . . ثم هي بعد هذا كله المغفرة والشكر :

«إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ» . .

الله يغفر . ثم . . الله يشكر . . ويشكر من ؟ يشكر لعباده . وهو وهبهم التوفيق على الإحسان . ثم هو يزيد لهم في الحسنات ، ويغفر لهم السيئات . ويشكر لهم بعد هذا وذاك . . فيا للفيض الذي يعجز الإنسان عن متابعته . فضلا على شكره وتوفيته ! ثم يعود إلى الحديث عن تلك الحقيقة الأولى :

«أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ؟ فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» .

هنا يأتي على الشبهة الأخيرة ، التي قد يعللون بها موقفهم من ذلك الوحي ، الذي تحدث عن مصدره وعن طبيعته وعن غايته في الجولات الماضية :

«أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟» . .

فهم من ثم لا يصدقونه ، لأنهم يزعمون أنه لم يوح إليه ، ولم يأته شيء من اللّه ؟

(349/686)

ولكن هذا قول مردود . فما كان اللّه ليدع أحدا يدعي أن اللّه أوحى إليه ، وهو لم يوح إليه شيئا ، وهو قادر على أن يختم على قلبه ، فلا ينطق بقرآن كهذا . وأن يكشف الباطل الذي جاء به ويمحوه . وأن يظهر الحق من ورائه ويثبته :

«فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» وما كان ليخفى عليه ما يدور في خلد محمد – صلّى اللّه عليه وسلّم – حتى قبل أن يقوله :

«إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» . .

فهي شبهة لا قوام لها . وزعم لا يقوم على أساس . ودعوى تخالف المعهود عن علم اللّه بالسرائر ، وعن قدرته

(350/686)

على ما يريد ، وعن سنته في إقرار الحق وإزهاق الباطل . . وإذن فهذا الوحي حق ، وقول محمد صدق وليس التقول عليه إلا الباطل والظلم والضلال . . وبذلك ينتهي القول – مؤقتا – في الوحي . ويأخذ بهم في جولة أخرى وراء هذا القرار .

«وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ .

(351/686)

هذا القسم الثاني من السورة يمضي في الحديث عن دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق مباشرة بحياتهم ومعاشهم ، وفي صفة المؤمنين التي تميز جماعتهم . . وذلك بعد الحديث في القسم الأول عن الوحي والرسالة من جوانبها المتعددة . . ثم يعود في نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحي وطريقته . وبين القسمين اتصال ظاهر ، فهما طريقان إلى القلب البشري ، يصلانه بالوحي والإيمان .

«وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ . وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ . وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ .

وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» . .

تجيء هذه اللمسة بعد ما سبق من مشهد الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، ومشهد الذين آمنوا في روضات الجنات . ونفي كل شبهة عن صدق رسول اللّه – صلّى اللّه عليه وسلّم – فيما بلغهم به عن اللّه . وتقرير علم اللّه بذوات الصدور .

تجيء لترغيب من يريد التوبة والرجوع عما هو فيه من ضلالة ، قبل أن يقضى في الأمر القضاء الأخير . ويفتح لهم الباب على مصراعيه : فاللّه يقبل عنهم التوبة ، ويعفو عن السيئات فلا داعي للقنوط واللجاج في المعصية ، والخوف مما أسلفوا من ذنوب . واللّه يعلم ما يفعلون . فهو يعلم التوبة الصادقة ويقبلها . كما يعلم ما أسلفوا من السيئات ويغفرها .

وفي ثنايا هذه اللمسة يعود إلى جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يستجيبون لدعوة ربهم ، وهو يزيدهم من فضله . «وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ» . . وباب التوبة مفتوح للنجاة من العذاب الشديد ، وتلقي فضل اللّه لمن يستجيب .

وفضل اللّه في الآخرة بلا حساب ، وبلا حدود ولا قيود . فأما رزقه لعباده في الأرض فهو

مقيد محدود لما يعلمه – سبحانه – من أن هؤلاء البشر لا يطيقون – في الأرض – أن يتفتح عليهم فيض اللّه غير المحدود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3139 .

3157 ﴾

(353/686)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/687)

الجزء السابع والثمانون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 27 ﴾ من سورة الشورى

وحتى الآية ﴿ 51 ﴾ من نفس السورة

(4/687)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان المتبادر من الاستجابة إيجاد كل ما سألوه في هذه الدنيا على ما أرادوه وكان الموجود غير ذلك بل كان أكثر أهل الله مضيقاً عليهم ، وكانت الإجابة إلى كل ما يسأل بأن يكون في هذه الدار يؤدي في الغالب إلى البطر المؤدي إلى الشقاء فيؤدي ذلك إلى عكس المراد ، قال على سبيل الاعتذار لعباده وهو الملك الأعظم مبيناً أن استجابته تارة تكون كما ورد به الحديث لما سألوه ، وتارة تكون بدفع مثله من البلاء وتارة تكون بتأخيره إلى الدار الآخرة ﴿ ولو ﴾ أي هو يقبل ويستجيب والحال أنه لو ﴿ بسط ﴾ ولما كان هذا المقام عظيماً لاحتياجه إلى الإحاطة بأخلاقهم وأوصافهم وما يصلحهم ويفسدهم والقدرة على كل بذل ومنع ، عبر بالاسم الأعظم فقال : ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم الجامع لجميع صفات الكمال تنبيهاً على عظمة هذا المقام : ﴿ الرزق ﴾ لهم - هكذا كان الأصل ، لكنه كره أن يظن خصوصيته ذلك بالتائبين فقيل : ﴿ لعباده ﴾ أي كلهم التائب منهم وغيره بأن أعطاهم فوق حاجتهم ﴿ لبغوا في الأرض ﴾ أي لصاروا يريدون كل ما يشتهونه ، فإن لم يفعل سعوا في إنفاذه كالملوك بما لهم من المكنة بكل طريق يوصلهم إليه فيكثر القتل والسلب والنهب والضرب ونحو ذلك من أنواع الفساد ، وقد تقدم في النحل من الكلام على البغي ما يتقن به علم هذا المكان .

ولما كان معنى الكلام أنه سبحانه لا يبسط لهم ذلك بحسب ما يريدونه ، بنى عليه قوله سبحانه : ﴿ ولكن ينزِّل ﴾ أي لعباده من الرزق ﴿ بقدر ﴾ أي بتقدير لهم جملة ولكل واحد منهم لا يزيد عن تقدير دره ولا ينقصها ﴿ ما يشاء ﴾ من الماء الذي هو أصل الرزق والبركات التي يدبر بها عباده كما اقتضته حكمته التي بنى عليها أحوال هذه الدرر .

(5/687)

ولما كان أكثر الناس يقول في نفسه : لو بسط إليّ الرزق لعملت الخير ، وتجنبت الشر ، وأصلحت غاية الإصلاح ، قال معللاً ما أخبر به في أسلوب التأكيد : ﴿ إنه ﴾ وكان الأصل : بهم ، ولكنه قال : ﴿ بعباده ﴾ لئلا يظن أن الأمر خاص بمن وسع عليهم أو ضيق عليهم : ﴿ خبير بصير ﴾ يعلم جميع ظواهر أمورهم وحركاتهم وانتقالاتهم وكلامهم وبواطنها فيقيم كل واحد فيما يصلح له من فساد وصلاح وبغي وعدل ، ويهيئ لكل شيء من ذلك أسبابه .

ولما ذكر إنزال الرزق على هذ المنوال ، وكان من الناس ممن خذله الإضلال من يقول : إن ما الناس فيه من المطر والنبات وإخراج الأقوات إنما هو عادة الدهر بين أنه سبحانه هو الفاعل لذلك بقدرته واختياره بما هو كالشمس من أنه قد يحبس المطر عن إبانه وإعادته في وقته

وأوانه ، حتى ييأس الناس منه ثم ينزله إن شاء ، فقال معبراً بالضمير الذي هو غيب لأجل أن إنزال الغيث من مفاتيح الغيب : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره قادر على ذلك فإنه هو ﴿ الذي ينزل الغيث ﴾ أي المطر الذي يغاث به الناس أي يجابون إلى ما سألوا ويغاثون ظاهراً كما ينزل الوحي الذي يغاثون به ظاهراً وباطناً .

(6/687)

ولما كان الإنزال لا يستغرق زمان القنوط ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾ أي يئسوا من إنزاله وعملوا انه لا يقدر على إنزاله غيره ، ولا يقصد فيه سواه ، ليكون ذلك أدعى لهم إلى الشكر وينشره – هكذا كان الأصل ولكنه لما بين أنه غيث قال بياناً لأنه رحمةً ، وتعميماً لأثره من النبات وغيره : ﴿ وينشر رحمته ﴾ أي على السهل والجبل فينزل من السحاب المحمول بالريح من الماء ما يملأ الأرض بحيث لو اجتمع عليه الخلائق ما أطاقوا حمله ، فتصبح الأرض ما بين غدران وأنهار ، ونبات ونجم وأشجار ، وحب وثمار ، وغير ذلك من المنافع الصغار والكبار ، فلله ما أعلى هذه القدرة الباهرة والآية الظاهرة ، فيخرج من الأرض التي هي من صلابتها تعجز عنها المعاول نجماً هو في لينه ألين من الحرير ، وفي لطافته ألطف من النسيم ، ومن سوق الأشجار التي تنثني فيها المناقير أغصاناً ألطف من

ألسنة العصافير ، فما أجلف من ينكر إخراجه الموتى من القبور ، أو يحيد من ذلك بنوع من الغرور .

ولما أنكر عليهم فيما مضى اتخاذ ولي من دونه بقوله تعالى ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ وأثبت أنه هو الولي ، وتعرف إليهم بآثاره التي حوت أفانين أنواره ، وكانت كلها في غاية الكمال موجبة للحمد المتواتر المنوال ، قال : ﴿ وهو ﴾ أي وحده لا غيره ﴿ الولي ﴾ أي الذي لا أحد أقرب منه إلى عباده في شيء من الأشياء ﴿ الحميد ﴾ أي الذي استحق مجامع الحمد مع أنه يحمد من يطيعه فيزيده من فضله ويصل حبله دائماً بحبله .

ولما كان ما مضى من بسط الرزق وقبضه ، وإنزال الغيث وحبسه .

(7/687)

من الآيات العظمية ، عمم بذكر ما ذلك بعض منه ، وهو دال على جميع ما ختم به الأية السالفة من الحمد الذي هو الاتصاف بجميع صفات الكمال فقال عاطفاً على ما تقديره : فذلك من آيات الله الدالة على قدرته واختياره وإنه هو الذي يحيي هذا الوجود بالمعاني من روح الوحي وغيره تارة والأعيان من الماء وغيره أخرى : ﴿ ومن آياته ﴾ العظيمة على ذلك وعلى استحقاقه لجميع صفات الكمال ﴿ خلق السماوات ﴾ التي تعلمون أنها

متعددة بما ترون من أمور الكواكب ﴿ والأرض ﴾ أي جنسها على ما هما عليه من الهيئات وما اشتملا عليه من المنافع والخيرات ﴿ وما بث ﴾ أي فرق بالأبدان والقلوب على هذا المنوال الغريب من الحس والحركة بالاختيار مع التفاوت في الأشكال ، والقدور والهيئات والأخلاق وغير ذلك من النقص والكمال .

ولما كانت الأرض بناء والسماء سقفه ، فمن كان في أحدهما صح نسبته إلى أنه في كل منهما : الأسفل بالإقلال والأعلى بالإظلال قال تعالى : ﴿ فيهما ﴾ أي السماوات والأرض ولا سيما وقد جعل لكل منهما تسبباً في ذلك بما أودعهما من الجواهر وأنشأ عنهما من العناصر .

ولما كانت الحياة التي هي سبب الانتشار والدب ربنا أورثت صاحبها كبراً وغلظاً في نفسه نظن أنه تام القدرة ، أنث تحقيراً لقدرته وتوهية لشأنه ورتبته فقلل ﴿ من دابة ﴾ أي شيء فيه أهلية الدبيب بالحياة من الإنس والجن والملائكة وسائر الحيوانات على اختلاف أصنافهم وألوانهم وأشكالهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم أقطارهم ونواحيهم وأصقاعهم ومن نظر إلى صنائعه سبحانه تيقن وجوده وقدرته واختياره ، ثم إذا أمعن في النظر وتابع التدبر في الفكر وصل إلى معرفة الصانع بأسمائه وصفاته وما ينبغي له ويستحيل عليه فيحمده بمحامده التي لا نهاية لها ويسبحه بسبحانه ثم إن أمعن سما إلى الوقوف على حكمة ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب .

ولما كنا عالمين بأن من أوجد أشياء على ضم أشتاتهم متى شاء مع نقص التصرف والعجز في التقلب كنا جديرين بالعلم القطعي بمضمون قوله تعالى : ﴿ وهو ﴾ أي بما له من صفات العظمة التي يعلم الظاهر معها ، وما غاب عنا أكبر ﴿ على جمعهم ﴾ أي هذه الدواب من ذوي العقول وغيرهم بعد تفرقهم بالقلوب والأبدان بالموت وغيره من الحظوظ والأهواء وغير ذلك .

ولما كان الجمع لا بد منه ، عبر بأداة التحقق فقال معلقا بجمع : ﴿ إذا ﴾ وحقق النظر إلى البعث فعبر بالمضارع فقال : ﴿ يشاء قدير ﴾ أي بالغ القدرة كما كان بالغ القدرة عند الإيجاد من العدم بجمعهم في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، ولما ذكرهم سبحانه بنعمه ، وكان السياق لتعداد ما ناسب مقصود هذه السورة منها ، كان الفكر جديراً بأن يخطر له ما في الدنيا من الأمراض والأنكاد والهموم والفهوم بالإشقاء فيها والإسعاد ، قال شافياً لعي سؤاله عن ذلك ببيان ما فيه من نعمته على وجه دال على تمام قدرته ، عاطفاً على ما هو مضمون ما مضى بما تقديره : فهو الذي خلقكم ورزقكم وهو المتصرف فيكم بعد بثكم بالعافية والبلاء تمام التصرف ، فلا نعمة عندكم ولا نقمة إلا منه ،

ولا يقدر أصحابها على ردها ولا رد شيء مها فهو وليكم وحده ﴿ وما أصابكم ﴾ واجههم بالخطاب زيادة في تقريب الطائع وتبكيت العاصي ، وعم بقوله : ﴿ من مصيبة ﴾ وأخبر عن المبتدأ بقوله : ﴿ فبما ﴾ أي كائن بسبب الذي – هذا على قراءة نافع وابن عامر ، وإثبات الفاء في الباقين زيادة في إيضاح السببية فقرأوا " فبما " لتضمن المبتدأ الشرط أي فهو بالذي .

ولما كانت النفوس مطبوعة على النقائض ، فهي لا تنفك عنها إلا بمعونة من الله شديدة ، وكان عملها كله أو جله عليها ، فعبر بالفعل المجرد إشارة إلى ذلك فقال : ﴿ كسبت ﴾ .

(9/687)

ولما كان العمل غالباً باليد قال : ﴿ أيديكم ﴾ أي من الذنوب ، فكل نكد لاحق إنما هو بسبب ذنب سابق أقله التقصير ، روى ابن ماجة في سننه وابن حبان في صحيحه – والحاكم واللفظ له – وقال : صحيح الإسناد – عن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله :

" لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه "

فالآية داعية لكل أحد إلى المبادرة عند وقوع المصيبة إلى محاسبة النفس ليعرف من أين

جاء تقصيره ، فيبادر إلى التوبة عنه والإقبال على الله لينقذ نفسه من الهلكة ، وفائدة ذلك وإن كان الكل بخلقه وإرادته إظهار الخضوع والتذلل واستشعار الحاجة والافتقار إلى الواحد القهار ، ولولا ورود الشريعة لم يوجد سبيل إلى الهدى ، ولا إلى هذه الكمالات البديعية ، ومثل هذه التنبيهات ليستخرج من العبد ما أودع في طبيعته وركز في غريزته كغرس وزرع سبق إليه ماء وشمس لاستخراج ما أودع في طبيعته من المعلومات الإلهية والحكم العلية .

ولما ذكر عدله ، أتبعه فضله فقال : ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ ولولا عفوه وتجاوزه لما ترك على ظهرها من دابة ويدخل في هذا ما يصيب الصالحين لإنالة درجات وفضائل وخصوصيات لا يصلون إليها إلا بها لأن اعمالهم لم تبلغها فهي خير واصل من الله لهم ، وقيل لأبي سليمان الداراني : ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ قال : لأنهم علموا أن الله ابتلاهم بذنوبهم – وقرأ هذه الآية .

ولما كان من يعاقب بما دون الموت ربما ظن أنه عاجز قال : ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ لوأريد محقكم بالكلية ولا في شيء أراد سبحانه منكم كائناً ما كان .

ولما كان من ثبت قدرته على محل العلو بخلقه وما أودعه من المصنوعات أجدر بالقدرة على ما دونه ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ في الأرض ﴾ ولما كان الكلام في العقوبة في الدنيا

قبل الموت ، ولم يكن أحد يدعي فيها التوصل إلى السماء ، لم يدع داع إلى ذكرها بخلاف ما مضى في العنكبوت .

(10/687)

ولما نفى امتناعهم بأنفسهم ، وكان له سبحانه من العلو ما تقصر عنه العقول ، فكان كل شيء دونه ، فكان قادراً على كل شيء قال : ﴿ وما لكم ﴾ أي عند الاجتماع فكيف عند الانفراد .

ولما كانت الرتب في غاية السفول عن رتبته والتضاؤل دون حضرته ، أثبت الجار منبهاً على ذلك فقال : ﴿ من دون الله ﴾ أي المحيط بكل شيء عظمة وكبراً وعزة ، وعم بقوله : ﴿ من ولي ﴾ أي يكون متولياً لشيء من أموركم بالاستقلال ﴿ ولا نصير ﴾ يدفع عنكم شيئاً يريده سبحانه بكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 628 . 633 ﴾

(11/687)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(12/687)

اعلم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى : إنه يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلية وفقر ثم يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ ﴾ ؟ فأجاب تعالى عنه بقوله ﴿ وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الأرض ﴾ أي ولأقدموا على المعاصي ، ولما كان ذلك محذوراً وجب أن يعطيهم ما طلبوه ، قال الجبائي : هذه الآية تدل على بطلان قول المجبرة من وجهين : الأول : أن حاصل الكلام أنه تعالى : ﴿ لَوْ بَسَطَ الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الأرض ﴾ والبغي في الأرض غير مراد فإرادة بسط الرزق غير حاصلة ، فهذا الكلام إنما يتم إذا قلنا إنه تعالى يريد البغي في الأرض ، وذلك يوجب فساد قول المجبرة الثاني : أنه تعالى بيّن أنه إنما لم يرد

بسط الرزق لأنه يفضي إلى المفسدة فلما بيّن تعالى أنه لا يريد ما يفضي إلى المفسدة فبأن لا يكون مريداً للمفسدة كان أولى ، أجاب أصحابنا بأن الميل الشديد إلى البغي والقسوة والقهر صفة حدثت بعد أن لم تكن فلا بد لها من فاعل ، وفاعل هذه الأحوال إما العبد أو الله والأول باطل لأنه إنما يفعل هذه الأشياء لو مال طبعه إليها فيعود السؤال في أنه من المحدث لذلك الميل الثاني ؟ ويلزم التسلسل ، وأيضاً فالميل الشديد إلى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات ، والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه ، ولما بطل هذا ثبت أن محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى ، ثم أورد الجبائي في "تفسيره" على نفسه سؤالاً قال : فإن قيل أليس قد بسط الله الرزق لبعض عباده مع أنه بغى ؟ وأجاب عنه بأن الذي عنده الرزق وبغى كان المعلوم من حاله أنه يبغي على كل حال سواء أعطى ذلك الرزق أو لم يعط ، وأقول هذا الجواب فاسد ويدل عليه القرآن والعقل ، أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] حكم مطلقاً بأن

(13/687)

حصول الغنى سبب لحصول الطغيان .

وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلة إلى الشر لكنها كانت فاقدة للآلات والأدوات كان

الشر أقل ، وإذا كانت واحدة لها كان الشر أكثر ، فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان .

المسألة الثانية :

في بيان الوجه الذي لأجله كان التوسع موجباً للطغيان ذكروا فيه وجوهاً الأول : أن الله تعالى لو سوى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادماً للبعض ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح الثاني : أن هذه الآية مختصة بالعرب فإنه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر ما يرويهم ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم أقدموا على النهب والغارة الثالث : أن الإنسان متكبر بالطبع فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر ، وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد إلى الطاعة والتواضع .

المسألة الثالثة :

قال خباب بن الأرث فينا نزلت هذه الآية وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها ، وقيل نزلت في أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى .

(14/687)

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يُنَزِّل ﴾ خفيفة والباقون بالتشديد ، ثم نقول ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير يقال قدره قدراً وقدراً ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ

بَصِيرٌ ﴾ يعني أنه عالم بأحوال الناس وبطباعهم وبعواقب أمورهم فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم ، ولما بيّن تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم بين أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنه لا يمنعهم منه فقال : ﴿ وَهُوَ الذى يُنَزّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿ يُنَزّل ﴾ مشددة والباقون مخففة ، قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ قَنَطُواْ ﴾ بفتح النون وكسرها ، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم ، فكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب ، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له "اشتد القحط وقنط الناس فقال : إذن مطروا" أراد هذه الآية ، ويجوز أن يريد رحمته الواسعة في كل شيء كأنه قيل ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة ﴿ وَهُوَ الولى الحميد ﴾ ﴿ الوالي ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه و ﴿ الحميد ﴾ المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة ، ثم ذكر آية أخرى تدل على إلهيته فقال : ﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ فنقول : أما دلالة خلق السموات والأرض على وجود الإله الحكيم فقد ذكرناها وكذلك دلالة وجود الحيوانات على وجود الإله الحكيم ، فإن قيل كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة ؟ قلنا فيه وجوه الأول : أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة

وإن كان فاعله واحداً منهم يقال بنو فلان فعلوا كذا ، وإنما فعله واحد منهم ومنه قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] الثاني : أن الدبيب هو الحركة ،

(15/687)

والملائكة لهم حركة الثالث : لا يبعد أن يقال إنه تعالى خلق في السموات أنواعاً من الحيوانات يمشون مشي الأناسي على الأرض .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : إذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي ، قال تعالى : ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ [الليل : 1] ومنه ﴿ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ والمقصود أنه تعالى خلقها متفرقة ، لا لعجز ولكن لمصلحة ، فلهذا قال : ﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ يعني الجمع للحشر والمحاسبة ، وإنما قال : ﴿ على جَمْعِهِمْ ﴾ ولم يقل على جمعها ، لأجل أن المقصود من هذا الجمع المحاسبة ، فكأنه تعالى قال : وهو على جمع العقلاء إذا يشاء قدير ، واحتج الجبائي بقوله ﴿ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ على أن مشيئته تعالى محدثة بأن قال : إن كلمة ﴿ إِذَا ﴾ تفيد ظرف الزمان ، وكلمة ﴿ يَشَاء ﴾ صيغة المستقبل ، فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة ، ولما دل قوله ﴿ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ على هذا

التخصيص علمنا أن مشيئته تعالى محدثة والجواب : أن هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة ، أي مشيئة الله ، فقد دخلتا أيضاً على لفظ القدير فلزم على هذا أن يكون كونه قادراً صفة محدثة ، ولما كان هذا باطلاً ، فكذا القول فيما ذكره ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن عامر ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ بغير فاء ، وكذلك هي في مصاحف الشام والمدينة ، والباقون بالفاء وكذلك هي في مصاحفهم ، وتقدير الأول أن ما مبتدأ بمعنى الذي ، وبما كسبت خبره ، والمعنى والذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم ، وتقدير الثاني تضمين كلمة : ما معنى الشرطية .

المسألة الثانية :

(16/687)

المراد بهذه الصمائب الأحوال المكروهة نحو الآلام والأسقام القحط والغرق والصواعق وأشباهها ، واختلفوا في نحو الآلام أنها هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أم لا ؟ منهم من أنكر ذلك لوجوه الأول : قوله تعالى : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [غافر : 17]

بيّن تعالى أن الجزاء إنما يحصل في يوم القيامة ، وقال تعالى في سورة الفاتحة ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] أي يوم الجزاء ، وأطبقوا على أن المراد منه يوم القيامة والثاني : أن مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق ، وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب ، بل الاستقراء يدل على أن حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " خص البلاء بالأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل " الثالث : أن الدنيا دار التكليف ، فلو جعل الجزاء فيها لكانت الدينا دار التكليف ودار الجزاء معاً ، وهو محال ، وأما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون أجزية على الذنوب المتقدمة ، فقد تمسكوا أيضاً بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن قال : " لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا غيره إلا بذنب أو لفظ " هذا معناه وتمسكوا أيضاً بهذه الآية ، وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ﴾ [النساء : 160] وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [الشورى : 34] وذلك تصريح بأن ذلك الإهلاك كان بسبب كسبهم ، وأجاب الأولون عن التمسك بهذه الآية ، فقالوا إن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان في التكليف ، لا من باب العقوبة كما في حق الأنبياء والأولياء ، ويحمل قوله ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ على أن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم ، وكذا الجواب

عن بقية الدلائل ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

(17/687)

احتج أهل التناسخ بهذه الآية ، وكذلك الذين يقولون إن الأطفال البهائم لا تتألم ، فقالوا دلّت الآية على أن حصول المصائب لا يكون إلا لسابقة الجرم ، ثم إن أهل التناسخ قالوا : لكن هذه المصائب حاصلة للأطفال والبهائم ، فوجب أن يكون قد حصل لها ذنوب في الزمان السابق ، وأما القائلون بأن الأطفال والبهائم ليس لها ألم قالوا قد ثبت أن هذه الأطفال والبهائم ما كانت موجودة في بدن آخر لفساد القول بالتناسخ فوجب القطع بأنها لا تتألم إذ الألم مصيبة والجواب : أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ خطاب مع من يفهم ويعقل ، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال ، ولم يقل تعالى : إن جميع ما يصيب الحيوان من المكاره فإنه بسبب ذنب سابق ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

قوله ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ يقتضي إضافة الكسب إلى اليد ، قال والكسب لا يكون باليد ، بل بالقدرة القائمة باليد ، وإذا كان المراد من لفظ اليد هاهنا القدرة ، وكان هذا

المجاز مشهوراً مستعملاً كان لفظ اليد الوارد في حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيهاً لله تعالى عن الأعضاء والأجزاء ، والله أعلم .

(18/687)

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ ومعناه أنه تعالى قد يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته ، وعن الحسن قال : دخلنا على عمران بن حصين في الوجع الشديد ، فقيل له : إنا لنغتم لك من بعض ما نرى ، فقال لا تفعلوا فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إلي ، وقرأ ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ فهذا بما كسبت يداي ، وسيأتيني عفو ربي ، وقد روى أبو سخلة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : " ما عفى الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة ، وما عاقب عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه في الآخرة " رواه الواحدي في "البسيط" ، وقال إذا كان كذلك فهذه أرجى آية في كتاب الله لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين : صنف كفره عنهم بالمصائب في الدنيا ، وصنف عفا عنه في الدنيا ، وهو كريم لا يرجع في عفوه ، وهذه سنّة الله مع المؤمنين ، وأما الكافر فلأنه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافي ربه يوم القيامة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ يقول ما أنتم معشر المشركين بمعجزين في الأرض ، أي لا تعجزونني حيثما كنتم ، فلا تسبقونني بسبب هربكم في الأرض ﴿ وَمَا لَكُم مّن دُونِ الله مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ والمراد بهم من يعبد الأصنام ، بين أنه لا فائدة فيها ألبتة ، والنصير هو الله تعالى ، فلا جرم هو الذي تحسن عبادته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 146. 149 ﴾

(19/687)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى في نزولها ؛ قيل : إنها نزلت في قوم من أهل الصُّفَّة تمنَّوْا سَعة الرزق .

وقال خَبَّاب بن الأرَتّ : فينا نزلت ؛ نظرنا إلى أموال بني النَّضير وقُريظة وبني قَيْنُقَاع فتمنيناها فنزلت .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ﴾ معناه وسّع .

وبسط الشيء نشره .

وبالصاد أيضاً .

﴿ لَبَغَوْاْ فِي الأرض ﴾ طغَوْا وعصَوْا .

وقال ابن عباس : بغيُهم طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس .

وقيل : أراد لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه ، لقوله : " لو كان لاْبن آدم واديان من ذهب لاْبتغى إليهما ثالثاً " وهذا هو الْبَغْيُ ، وهو معنى قول ابن عباس .

وقيل : لو جعلناهم سواء في المال لما انقاد بعضهم لبعض ، ولتعطلت الصنائع .

وقيل : أراد بالرزق المطر الذي هو سبب الرزق ؛ أي لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء ، فيقبِض تارة ليتضرّعوا ويبسُط أخرى ليشكروا .

وقيل : كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض ؛ فلا يبعد حمل البغي على هذا .

الزّمخشِريّ : "لَبَغَوْا" من البغي وهو الظلم ؛ أي لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا ؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مأشرة ، وكفى بقارون عبرة .

ومنه قوله عليه السلام : " أخوفَ ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها " ولبعض العرب :

وقد جعل الوسْمِيّ يُنبت بيننا . . .

وبين بني دُودَان نَبْعاً وشَوْحَطَا

يعني أنهم أحيُوا فحدّثوا أنفسهم بالبغي والتغابن .

أو من البَغْي وهو البَذَخ والكبر ؛ أي لتكبّروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلوّ فيها والفساد .

﴿ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ أي ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم .

وقال مقاتل : "يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ" يجعل من يشاء غنيًّا ومن يشاء فقيراً .

(20/687)

الثانية قال علماؤنا : أفعال الربّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح ؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزْوِي عنه الدنيا ؛ مصلحة له .

فليس ضيق الرزق هواناً ولا سعة الرزق فضيلة ؛ وقد أعطى أقواماً مع علمه أنهم يستعملونه في الفساد ، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح .

والأمر على الجملة مفوّض إلى مشيئته ، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى .

وروى أنس " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : "من

أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة وإني لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي وإني لأغضب لهم كما يغضب الليث الحَرِد .

وما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بدّ له منه .

وما تقرّب إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه .

وما يزال عبدي المؤمن يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيّداً فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته .

وإن من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العُجْب فأفسده .

وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر .

وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى .

وإني لأدبر عبادي لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير" "

ثم قال أنس : اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني برحمتك .

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

قرأ ابن كثير وابن مُحيْصِن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش

وغيرهما والكسائي "يُنزل" مخففاً .

الباقون بالتشديد .

(21/687)

وقرأ ابن وَثّاب أيضاً والأعمش وغيرهما "قِنطوا" بكسر النون ؛ وقد تقدّم جميع هذا .

والغيث المطر ؛ وسمي الغيث غيثاً لأنه يغيث الخلق .

وقد غاث الغيث الأرض أي أصابها .

وغاث الله البلاد يَغيثها غَيْثاً .

وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثاً فهي أرض مَغيثة ومَغْيُوثة .

وعن الأصمعيّ قال : مررت ببعض قبائل العرب وقد مطروا فسألت عجوزاً منهم : أتاكم المطر ؟ فقالت : غِثنا ما شئنا غَيْثاً ؛ أي مُطِرنا .

وقال ذو الرمّة : قاتل الله أَمةَ بني فلان ما أفصحها قلت لها كيف كان المطر عندكم ؟

فقالت : غِثْنا ما شئنا .

ذكر الأوّل الثعلبي والثاني الجوهري .

وربما سمى السحاب والنبات غَيثاً .

والقنوط الإياس ؛ قاله قتادة وغيره .

قال قتادة : ذُكِر أنّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، قَحَط المطرُ وقَلّ الغيث وقَنَط الناس ؟ فقال : مطرتم إن شاء الله ؛ ثم قرأ : ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ .

والغيث ما كان نافعاً في وقته ، والمطر قد يكون نافعاً وضارًّا في وقته وغير وقته ؛ قاله الماوردِيّ .

﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ قيل المطر ؛ وهو قول السّدي .

وقيل ظهور الشمس بعد المطر ؛ ذكره المهدَوِي .

وقال مقاتل : نزلت في حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا ، ثم أنزل الله المطر .

وقيل : نزلت في الأعرابي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المطر يوم الجمعة في خبر الاستسقاء ؛ ذكره القشيري ، والله أعلم .

﴿ وَهُوَ الولي الحميد ﴾ "الْوَلِيُّ" الذي ينصر أولياءه .

"الْحَمِيدُ" المحمود بكل لسان .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض ﴾ أي علاماته الدّالة على قدرته .

﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ قال مجاهد : يدخل في هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8] .

(22/687)

وقال الفرّاء أراد ما بث في الأرض دون السماء ؛ كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] وإنما يخرج من الملح دون العَذْب .

وقال أبو عليّ : تقديره وما بث في أحدهما ؛ فحذف المضاف .

وقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ أي من أحدهما .

﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر "بِمَا كَسَبَتْ" بغير فاء .

الباقون "فَبِمَا" بالفاء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر .

قال المهدَوِيّ : إن قدرت أن "ما" الموصولة جاز حذف الفاء وإثباتها ، والإثبات أحسن .

وإن قدرتها التي للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه ، وأجازه الأخفش واحتج بقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 121].

والمصيبة هنا الحدود على المعاصي؛ قاله الحسن.

وقال الضحاك: ما تعلّم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ثم قال: وأيّ مصيبة أعظم من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبي روّاد.

قال أبو عبيد: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو دائب في تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك في شيء.

ومما يحقق ذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: سمع قراءة رجل في المسجد فقال: " ما له رحمه الله! لقد أذكرني آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا " وقيل: "ما" بمعنى الذي، والمعنى الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم.

وقال عليّ رضي الله عنه: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله عز وجل.

(23/687)

وإذا كان يكفّر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه! وقد روى هذا المعنى مرفوعاً عنه رضي الله عنه، " قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدّثنا بها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ الآية: "يا عليّ ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبِما كسبت أيديكم.

والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه" " وقال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " ما من اختلاج عِرْق ولا خَدْش عُود ولا نكبة حجر إلاّ بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر " وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل: لا بد أن أسألك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل! فوالله إني لأحِبّ الوجع ومن أحبه كان أحبّ الناس إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ فهذا مما كسبت يدي، وعَفْوُ ربي عما بقي أكثر.

وقال مُرَّة الْهَمْداني: رأيت على ظهر كف شُرَيح قُرحة فقلت: يا أبا أمية، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير.

وقال ابن عَون: إن محمد بن سِيرين لما ركبه الدَّين اغتم لذلك فقال: إني لأعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

وقال أحمد بن أبي الحَوَارِي قيل لأبي سليمان الدّاراني : ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ فقال : لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ .

وقال عِكرمة : ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها أو لينال درجة لم يكن يوصّله إليها إلا بها .

(24/687)

وروي أن رجلاً قال لموسى : يا موسى سل الله لي في حاجة يقضيها لي هو أعلم بها ؛ ففعل موسى ؛ فلما نزل إذ هو بالرجل قد مزّق السّبْع لحمه وقتله ؛ فقال موسى : ما بال هذا يا رب ؟ فقال الله تبارك وتعالى له : يا موسى إنه سألني درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له في نيل تلك الدرجة .

فكان أبو سليمان الدّارَاني إذا ذكر هذا الحديث يقول : سبحان من كان قادراً على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى ! ولكنه يفعل ما يشاء .

قلت : ونظير هذه الآية في المعنى قوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : 123] وقد مضى القول فيه .

قال علماؤنا : وهذا في حق المؤمنين ، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة إلى الآخرة .

وقيل : هذا خطاب للكفار ، وكان إذا أصابهم شرّ قالوا : هذا بشؤم محمد ؛ فردّ عليهم وقال بل ذلك بشؤم كفركم .

والأوّل أكثر وأظهر وأشهر .

وقال ثابت البُنانِيّ : إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا .

ثم فيها قولان : أحدهما أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبة لهم ، وفي الأطفال أن تكون مثوبة لهم .

الثاني أنها عقوبة عامة للبالغين في أنفسهم والأطفال في غيرهم من والد ووالدة .

﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ أي عن كثير من المعاصي ألا يكون عليها حدود ؛ وهو مقتضى قول الحسن .

وقيل : أي يعفو عن كثير من العصاة ألاّ يعجل عليهم بالعقوبة .

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي بفائتين الله ؛ أي لن تعجزوه ولن تفوتوه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ تقدّم في غير موضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(25/687)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾

﴿ أم لهم شركاء ﴾ : استفهام تقرير وتوبيخ .

لما ذكر تعالى أنه شرع للناس ﴿ ما وصى به نوحاً ﴾ الآية ، أخذ ينكر ما شرع غيره تعالى .

والشركاء هنا يحتمل أن يراد به شركاؤهم في الكفر ، كالشياطين والمغوين من الناس .

والضمير في شرعوا عائد على الشركاء ، والضمير في لهم عائد على الكفار المعاصرين للرسول ؛ ويحتمل أن يراد به الأصنام والأوثان وكل من جعلوه شريكاً لله .

وأضيف الشركاء إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله ، فتارة تضاف إليهم بهذه الملابسة ، وتارة إلى الله .

والضمير في شرعوا يحتمل أن يعود على الشركاء ، ولهم عائد على الكفار ، لما كانت سبباً لضلالهم وافتتانهم جعلت شارعة لدين الكفر ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ واحتمل أن يعود على الكفار ، ولهم عائد على الشركاء ، أي شرع الكفار لأصنامهم ومعبوداتهم ، أي رسموا لهم غواية وأحكاماً في المعتقدات ، كقولهم : إنهم آلهة ، وإن عبادتهم تقربهم إلى الله ؛ ومن الأحكام البحيرة والوصيلة والحامي

وغير ذلك .

﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ : أي العدة بأن الفصل في الآخرة ، أو لولا القضاء بذلك لقضي بين المؤمن والكافر ، أو بين المشركين وشركائهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ إن الظالمين ﴾ ، بكسر الهمزة على الاستئناف والإخبار ، بما ينالهم في الدنيا من القتل والأسر والنهب ، وفي الآخرة النار .

(26/687)

وقرأ الأعرج ، ومسلم بن جندب : وأن بفتح الهمزة عطفاً على كلمة الفصل ، فهو في موضع رفع ، أي ولولا كلمة الفصل وكون الظالمين لهم عذاب في الآخرة ، لقضي بينهم في الدنيا وفصل بين المتعاطفين بجواب لولا ، كما فصل في قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ ﴿ ترى الظالمين ﴾ : أي تبصر الكافرين لمقابلته بالمؤمنين ، ﴿ مشفقين ﴾ : خائفين الخوف الشديد ، ﴿ مما كسبوا ﴾ من السيآت ، ﴿ وهو ﴾ : أي العذاب ، أو يعود على ما كسبوا على حذف مضاف : أي وبال كسبوا من السيآت ، أو جزاؤه حال بهم ، ﴿ وهو واقع ﴾ : فإشفاقهم هو في هذه الحال ، فليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مشفقون من الساعة .

ولما كانت الروضات أحسن ما في الجنات وأنزهها وفي أعلاها ، ذكر أن المؤمنين فيها .

واللغة الكثيرة تسكين الواو في روضات ، ولغة هذيل بن مدركة فتح الواو إجراء للمعتل مجرى الصحيح نحو جفنات ، ولم يقرأ أحد ممن علمناه بلغتهم .

وعند ظرف ، قال الحوفي : معمول ليشاءون .

وقال الزمخشري : منصوب بالظرف لا يشاءون .

انتهى ، وهو الصواب .

ويعني بالظرف : الجار والمجرور ، وهو لهم في الحقيقة غير معمول للعامل في لهم ، والمعنى : ما يشاءون من النعيم والثواب ، مستقر لهم .

﴿ عند ربهم ﴾ : والعندية عندية المكانة والتشريف ، لا عندية المكانة .

وقرأ الجمهور : ﴿ يبشر ﴾ بتشديد الشين ، من بشر ؛ وعبد الله بن يعمر ، وابن أبي إسحق ، والجحدري ، والأعمش ، وطلحة في رواية ، والكسائي ، وحمزة : يبشر ثلاثياً ؛ ومجاهد ، وحميد بن قيس : بضم الياء وتخفيف الشين من أبشر ، وهو معدى بالهمزة من بشر اللازم المكسور الشين .

وأما بشر بفتحها فمتعد ، وبشر بالتشديد للتكثير لا للتعدية ، لأن المتعدي إلى واحد ، وهو مخفف ، لا يعدى بالتضعيف إليه ؛ فالتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية .

﴿ ذلك ﴾ : إشارة إلى ما أعد لهم من الكرامة ، وهو مبتدأ خبره الموصول والعائد عليه محذوف ، أي يبشر الله به عباده .

وقال الزمخشري : أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده . انتهى .

ولا يظهر الوجه ، إذ لم يتقدم في هذه السورة لفظ البشرى ، ولا ما يدل عليها من تبشير أو شبهه .

ومن النحويين من جعل الذي مصدرية ، حكاه ابن مالك عن يونس ، وتأويل عليه هذه الآية ، أي ذلك تبشير الله عباده ، وليس بشيء ، لأنه إثبات للاشتراك بين مختلفي الحد بغير دليل .

وقد ثبتت اسمية الذي ، فلا يعدل عن ذلك بشيء لا يقوم به دليل ولا شبهة .

﴿ قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى ﴾ .

روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أترون محمداً يسأل أجراً على ما يتعاطاه ؟ فنزلت .

وروي أن الأنصار أتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمال جمعوه وقالوا : يا رسول الله ، هدانا الله بك ، وأنت ابن أختنا ، وتعروك حقوق وما لك سعة ، فاستعن بهذا على ما ينوبك ، فنزلت الآية ، فردّه .

وقيل : الخطاب متوجه إلى قريش حين جمعوا له مالاً وأرادوا أن يرشوه عليهم على أن يمسك عن سب آلهتهم ، فلم يفعل ، ونزلت .

فالمعنى : "لا أسألكم مالاً ولا رياسة ، ولكن أسألكم أن ترعوا حق قرابتي وتصدقوني فيما جئتكم به ، وتمسكوا عن أذيتي وأذية من تبعني" ، قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبي وغيرهم .

قال الشعبي : أكثر الناس علينا في هذه الآية ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها ، فكتب أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان أوسط الناس في قريش ، ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده ، فقال الله تعالى : قل لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودّوني في قرابتي منكم ، فارعوا ما بيني وبينكم وصدقوني .

وقال عكرمة : وكانت قريش تصل أرحامها .

وقال الحسن : المعنى إلا أن تتودّدوا إلى الله بالتقرّب إليه .

وقال عبد الله بن القاسم : إلا أن يتودّد بعضكم إلى بعض وتصلوا قراباتكم .

(28/687)

روي أن شباباً من الأنصار فاخروا المهاجرين وصالوا بالقول ، فنزلت على معنى : أن لا تؤذوني في قرابتي وتحفظوني فيهم .

وقال بهذا المعنى عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، واستشهد بالآية حين سيق إلى الشام أسيراً ، وهو قول ابن جبير والسدي وعمرو بن شعيب ، وعلى هذا التأويل قال ابن عباس : قيل يا رسول الله : من قرابتك الذين أمرنا بمودّتهم ؟ فقال : " عليّ وفاطمة وابناهما "

وقيل : هم ولد عبد المطلب .

والظاهر أن قوله : ﴿ إلا المودّة ﴾ استثناء منقطع ، لأن المودّة ليست أجراً .

وقال الزمخشري : يجوز أن يكون استثناء متصلاً ، أي لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا أن تودّوا أهل قرابتي ، ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة ، لأن قرابته قرابتهم ، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة .

وقال : فإن قلت : هلا قيل إلا مودّة القربى ، أو إلا المودّة للقربى ؟ قلت : جعلوا مكاناً للمودة ومقرّاً لها ، كقولك : لي في آل فلان مودّة ، ولي فيهم هوى وحب شديد ، تريد : أحبهم وهم مكان حبي ومحله .

وليست في صلة للمودّة كاللام ، إذا قلت إلا المودّة للقربى ، إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك : المال في الكيس ، وتقديره : إلا المودّة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها .

انتهى ، وهو حسن وفيه تكثير .

وقرأ زيد بن عليّ ؛ إلا مودّة ؛ والجمهور : إلا المودّة .

﴿ ومن يقترف حسنة ﴾ : أي يكتسب ، والظاهر عموم الحسنة عموم البدل ، فيندرج فيها المودّة في القربى وغيرها .

وعن ابن عباس والسدي ، أنها المودّة في آل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ الجمهور : ﴿ نزد ﴾ بالنون ؛ وزيد بن عليّ ، وعبد الوارث عن أبي عمرو ، وأحمد بن جبير عن الكسائي : يزد بالياء ، أي يزد الله .

والجمهور : ﴿ حسناً ﴾ بالتنوين ؛ وعبد الوارث عن أبي عمرو : حسنى بغير تنوين ، على وزن رجعى ، وزيادة حسنها : مضاعفة أجرها .

(29/687)

﴿ إن الله غفور ﴾ : ساتر عيوب عباده ، ﴿ شكور ﴾ : مجاز على الدقيقة ، لا يضيع عنده عمل العامل .

وقال السدي : غفور لذنوب آل محمد عليه السلام ، شكور لحسناتهم .

﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً ﴾ : أضرب عن الكلام المتقدم من غير إبطال ، واستفهم

استفهام إنكار وتوبيخ على هذه المقالة ، أي مثله لا ينسب إليه الكذب على الله ، مع اعترافكم له قبل بالصدق والأمانة .

﴿ فإن يشأ الله يختم على قبلك ﴾ ، قال مجاهد : يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، حتى لا يشق عليك قولهم : إنك مفتر .

وقال قتادة وجماعة : ﴿ يختم على قبلك ﴾ : ينسيك القرآن ، والمراد الرد على مقالة الكفار وبيان إبطالها ، وذلك كأنه يقول : وكيف يصح أن تكون مفتريات وأنت من الله بمرأى ومسمع وهو قادر : ولو شاء أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك ؟ فمقصد اللفظ هذا المعنى ، وحذف ما يدل عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً . انتهى .

هكذا أورد هذا التأويل عن قتادة ابن عطية ، وفي ألفاظه فظاظة لا تليق أن تنسب للأنبياء .

وقال الزمخشري : عن قتادة : ينسيك القرآن وينقطع عنك الوحي ، يعني لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك . انتهى .

وقال الزمخشري أيضاً : فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب ، فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم ، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة

المختوم على قلوبهم .

ومثال هذا أن يخون بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلني ، لعل الله أعمي قلبي ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمي القلب ، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم .

(30/687)

ثم قال : ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق بوحيه أو بقضائه لقوله : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴾ يعني : لو كان مفترياً ، كما يزعمون ، لكشف الله افتراءه ومحقه ، وقذف بالحق على الباطل فدمغه . انتهى .

وقيل : المعنى لو افتريت على الله ، لطبع على قلبك حتى لا تقدر على حفظ القرآن .

وقيل : لختم على قلبك بالصدق واليقين ، وقد فعل ذلك .

وذكر القشيري أن المعنى : يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم ويعاجلهم بالعذاب .

انتهى ، فيكون التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الجمع إلى الإفراد ، أي يختم على قلبك أيها القائل أنه افترى على الله كذباً .

﴿ ويمح الله الباطل ﴾ : استئناف إخبار ، أي يمحوه .

إما في الدنيا وإما في الآخرة حيث نازله .

وكتب ويمح بغير واو ، كما كتبوا سندع بغير واو ، اعتباراً بعدم ظهورها ، لأنه لا يوقف عليها وقف اختيار .

ولما سقطت من اللفظ سقطت من الخط .

وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون عدة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصرتك عليهم .

إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم ، فيجري الأمر على حسب ذلك . انتهى .

قيل : ويحق الإسلام بكلماته ، أي بما أنزل من القرآن .

وتقدم الكلام في شرائط التوبة ، يقال : قبلت منه الشيء بمعنى : أخذته منه ، لقوله : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم ﴾ أي تؤخذ ، أي جعلته مبدأ قبولي ومنشأه ، وقبلته عنه : عزلته عنه وأبنته ، فمعنى ﴿ عن عباده ﴾ : أي يزيل الرجوع عن المعاصي .

﴿ ويعفوا عن السيئات ﴾ ، قال الزمخشري : عن السيئآت إذا تيب عنها ، وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر .

انتهى ، وهو على طريقة الأعتزال .

إن الكبائر لا يعفى عنها إلا بالتوبة ، ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ ، فيثيت ويعاقب .

وقرأ الجمهور : ما يفعلون بياء الغيبة ؛ وعبد الله ، وعلقمة ، والإخوان ، وحفص : بتاء الخطاب .

(31/687)

والظاهر أن الذين فاعل ، ﴿ ويستجيب ﴾ : أي ويجيب ، ﴿ الذين آمنوا ﴾ لربهم ، كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ فيكون يستجيب بمعنى يجيب ، أو يبقى على بابه من الطلب ، أي يستدعي الذين آمنوا الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحة .

وقال سعيد بن جبير : هذا في فعلهم إذا دعاهم .

وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل : ما بالنا ندعو فلا نجاب ؟ قال : لأنه دعاكم فلم تجيبوه ، ثم قرأ : ﴿ والله يدعوا إلى دار السلام ﴾

﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ ، قال الزجاج : الذين مفعول ، واستجاب وأجاب بمعنى واحد ، فالمعنى : ويجيب الله الذين آمنوا ، أي للذين ، كما قال :

فلم يستجبه عند ذاك مجيب . . .

أي : لم يجبه .

وروي هذا المعنى عن معاذ ابن جبل وابن عباس .

﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ : أي على الثواب تفضلاً .

وفي الحديث : " قبول الشفاعات في المؤمنين والرضوان " وقال خباب بن الارت : نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها ، فنزلت : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ .

وقال عمرو بن حريث : طلب قوم من أهل الصفة من الرسول عليه السلام أن يغنيهم الله ويبسط لهم الأموال والأرزاق ، فنزلت .

أعلم أن الرزق لو جاء على اقتراح البشر ، لكان سبب بغيهم وإفسادهم ، ولكنه تعالى أعلم بالمصلحة .

فرب إنسان لا يصلح ولا يكتفي شره إلا بالفقر ، وآخر بالغنى .

وفي هذا المعنى والتقسيم حديث رواه أنس وقال : " اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى ، فلا تفقرني " ولبغوا ، إما من البذخ والكبر ، أي لتكبروا في الأرض ، ففعلوا ما يتبع الكبر مع الغنى .

ألا ترى إلى حال قارون ؟ وفي الحديث : " أخوف ما يخاف على أمتي زهرة الدنيا " ، وقال الشاعر :

وقد جعلوا الوسمي ينبت بيننا . . .

وبين بني رومان نبعاً وشوحطا

يعني : أنهم أحبوا ، فجذبوا أنفسهم بالبغي والفتن .

(32/687)

﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ ، يقال : قدر بالسكون وبالفتح ، أي : يقدر لهم ما هو أصلح لهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ قنطوا ﴾ ، بفتح النون ؛ والأعمش ، وابن وثاب : بكسرها ، ﴿ وينشر رحمته ﴾ : يظهرها من آثار الغيث من المنافع والخصب ، والظاهر أن رحمته نشرها أعم مما في الغيث .

وقال السدي : رحمته : الغيث ، وعدد النعمة بعينها بلفظين .

وقيل : الرحمة هنا ظهور الشمس ، لأن إذا دام المطر سئم ، فتجيء الشمس بعده عظمية الموقع ، ذكره المهدوي .

﴿ وهو الولي ﴾ : الذي يتولى عباده ، ﴿ الحميد ﴾ : المحمود على ما أسدى من نعمائه وما بث .

الظاهر أنه مجرور عطفاً على السموات والأرض .

ويجوز أن يكون مرفوعاً ، عطفاً على خلق ، على حذف مضاف ، أي وخلق ما بث .

وفيهما يجوز أن يكون مما نسب فيه دابة إلى المجموع المذكور ، وإن كان ملتبساً ببعضه .

كما يقال : بنو فلان صنعوا كذا ، وإنما صنعه واحد منهم ، ومنه يخرج منهما ، وإنما يخرج من الملح ، أو يكون من الملائكة .

بعض يشمي مع الطيران ، فيوصف بالدبيب كما يوصف به الأناسي ، أو يكون قد خلق السموات حيوانا يمشي مع مشي الإناس على الأرض ، أو يريد الحيوان الذي يكون في السحاب .

وقد يقع أحياناً ، كالضفادع والسحاب داخل في اسم السماء .

وقال مجاهد : ﴿ وما بث فيهما من دابة ﴾ : هم الناس والملائكة .

وقال أبو علي : هو على حذف مضاف ، أي وما بث في أحدهما .

وقرأ الجمهور : فيهما بالفاء ، وكذا هي في معظم المصاحف .

واحتمل ما أن تكون شرطية ، وهو الأظهر ، وأن تكون موصولة ، والفاء تدخل في خبر الموصول إذا أجري مجرى الشرط بشرائط ذكرت في النحو ، وهي موجودة .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر في رواية ، وشيبة : بما بغير فاء ، فما موصولة ، ولا يجوز أن تكون شرطية ؛ وحذفت الفاء لأن ذلك مما يخصه سيبويه بالشعر ، وأجازت ذلك الأخفش وبعض نحاة بغداد وذلك على إرادة الفاء .

وترتب ما أصاب من المصائب على كسب الأيدي موجود مع الفاء ودونها هنا ،

والمصيبة : الرزايا والمصائب في الدنيا ، وهي مجازاة على ذنوب المرء وتمحيص لخطاياه ، وأنه تعالى يعفو عن كثير ، ولا يجازي عليه بمصيبة .

وفي الحديث : " لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر " وسئل عمران بن حصين عن مرضه فقال ؛ إن أحبه إليّ أحبه إلى الله ، وهذا مما كسبت يداي .

ورؤي على كف شريح قرحة ، فقيل : بم هذا ؟ فقال : بما كسبت يداي .

وقال الزمخشري : الآية مخصوصة بالمجرمين ، ولا يمتنع أن يستوفي الله عقاب المجرم ويعفو عن بعض .

فأما من لا جرم له ، كالأنبياء والأطفال والمجانين ، فهو كما إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره ، فللعوض الموفي والمصلحة وعن علي : هذه أرجى آية للمؤمنين .

وقال الحسن : ﴿ من مصيبة ﴾ : أي حد من حدود الله ، وتلك مصائب تنزل بشخص الإنسان ونفسه ، فإنما هي بكسب أيديكم .

﴿ ويعفوا ﴾ الله ﴿ عن كثير ﴾ ، فيستره على العباد حتى لا يحد عليه .

﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ : أنتم في قبضة القدرة .

وقيل : ليست المصائب من الأسقام والقحط والغرق وغير ذلك بعقوبات على الذنوب لقوله : ﴿ اليوم تجزي كل نفس بما كسبت ﴾ ولاشتراك الصالح والطالح فيهما ، بل أكثر ما يبتلي به الصالحون المتقون .

وفي الحديث : " خص بالبلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل " ولأن الدنيا دار التكليف ، فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار الجزاء ، وليس الأمر كذلك .

وهذا القول يؤخره نصوص القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(34/687)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الأرض ﴾

أي لتكبروا فيها بطراً وتجاوزوا الحد الذي يليق بالعبيد أو لظلم بعضهم بعضاً فإن الغنى مبطرة مأشرة ، وكفى بحال قارون عبرة ، وفي الحديث " أخوف ما أخاف على أمتي زهرة

الدنيا وكثرتها " ولبعض العرب :

وقد جعل الوسمي ينبت بيننا . . .

وبين بني رومان نبعاً وشوحطا

وأصل البغي طلب أكثر مما يجب بأن يتجاوز في القدر والكمية أو في الوصف والكيفية ﴿ ولكن يُنَزّلُ ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو بالتخفيف من الإنزال ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير ﴿ مَا يَشَاء ﴾ وهو ما اقتضته حكمته جل شأنه ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ محيط بخفيات أمورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم ما يليق بشأنه فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا .

(35/687)

واستشكلت الآية بأن الغنى كما يكون سبب البغي فكذلك الفقر قد يكون فلا يظهر الشرطية ، وأجاب جار الله بأنه لا شبهة أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن وأراد والله تعالى أعلم أن نظام العالم على ما هو عليه

يستمر وإن كان قد يصدر من الغني في بعض الأحيان بغي ومن الفقير كذلك لكن في أحدهما ما يدفع والآخر أما لو أفقرهم كلهم لكان الضعف والهلك لازماً ولو بسط عليهم كلهم مع أن الحاجة طبيعية لكان من البغي ما لا يقادر قدره لأن نظام العالم بالفقر أكثر منه بالغنى ، وهذا أمر ظاهر مكشوف ؛ ثم إن الفقر الكلي لا يتصور معه البغي للضعف العام ولأنه لا يجد حاجته عند غيره ليظلمه ، وأما الغنى الكلي فعنده البغي التام ، وأما الذي عليه سنة الله عز وجل فهو الذي جمع الأمرين مشتملاً على خوف للغني من الفقراء يزعه عن الظلم وخوف للفقير من الأغنياء أكثر منه يدعوه إلى التعاون ليفوز بمبتغاه ويزعه عن البغي ، ثم قد يتفق بغي من هذا أو ذاك كذا قرره صاحب الكشف ثم قال : وهذا جواب حسن لا تكلف فيه وهو إشارة إلى رد العلامة الطيبي فإنه زعم أنه جواب متكلف وأن السؤال قوي ، وذهب هو إلى أن المراد ﴿ بِعِبَادِهِ ﴾ من خصهم الله تعالى بالكرامة وجعلهم من أوليائه ثم قال : وينصره التذييل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ ووضع المظهر موضع المضمر أي أنه تعالى خبير بأحوال عباده المكرمين بصير بما يصلحهم وما يرديهم ، وإليه ينظر ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم

(36/687)

" إذا أحب الله تعالى عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء " ، ويشد من عضده قول خباب بن الارت نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها فنزلت ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ﴾ الآية وقول عمرو بن حريث طلب قوم من أهل الصفة من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يغنيهم الله تعالى ويبسط لهم الأموال والأرزاق فنزلت وعليه تفسير محيي السنة انتهى .

ولا يخفى أن الأنسب بحال المكرمين المصطفين من عباده تعالى أن لا يبطرهم الغنى لصفاء بواطنهم وقوة توجههم إلى حظائر القدس ومزيد تعلق قلوبهم بمحبوبهم ووقوفهم على حقائق الأشياء وكمال علمهم بمنتهى زخارف الحياة الدنيا ، وأبناء الدنيا لو فكروا في ذلك حق التفكر لهان أمرهم وقل شغفهم كما قيل :

لو فكر العاشق في منتهى . . .

حسن الذي يسبيه لم يسبه

فلعل الأولى ما تقدم أو يقال : إن هذا في بعض العباد المؤمنين فتأمل .

﴿ وَهُوَ الذى يُنَزِّلُ الغيث ﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه فلا يقال غيث لكل مطر ، وقرأ الجمهور ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ مخففاً .

﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ يئسوا منه ، وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضاً لتذكير كمال النعمة ؛ وقرأ الأعمش .

وابن وثاب ﴿ قَنَطُواْ ﴾ بكسر النون ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أي منافع الغيث وآثاره في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاماً أولياً ، وقيل : الرحمة هنا ظهور الشمس لأنه إذا دام المطر سئم فتجيء الشمس بعده عظيمة الموقع ذكره المهدوي وليس بشيء ، ومن البعيد جداً ما قاله السدي من أن الرحمة هنا الغيث نفسه عدد النعمة نفسها بلفظين ، ﴿ وأياً ما كان فضمير ﴾ رحمته لله عز وجل ، وجوز على الأول كونه للغيث .

﴿ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الولى ﴾ الذي يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد على ذلك لا غيره سبحانه .

(37/687)

﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض ﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصنائع فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شؤونه تعالى العظيمة ، ومن له أدنى إنصاف وشعور يجزم باستحالة صدورها من الطبيعة العديمة الشعور .

﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ عطف على ﴿ السموات ﴾ أي ومن آياته خلق ما بث أو عطف على ﴿ خَلِقَ ﴾ أي ومن آياته ما بث .

و ﴿ مَا ﴾ تحتمل الموصولية والمصدرية والموصولية أظهر ولا حاجة عليه إلى تقدير مضاف أي خلق الذي بث خلافاً لأبي حيان ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي حيوان له دبيب وحركة ، وظاهر الآية وجود ذلك في السموات وفي الأرض وبه قال مجاهد وفسر الدابة بالناس والملائكة ، ويجوز أن يكون للملائكة مشي مع الطيران ، واعترض ذلك ابن المنير بأن إطلاق الدابة على الأناسي بعيد في عرف اللغة فكيف بالملائكة وادعى أن الأصح كون الدواب في الأرض لا غير ؛ وما في أحد الشيئين يصدق أنه فيهما في الجملة ، فالآية على أسلوب ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] وذلك لقوله تعالى في البقرة (164) : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ فإنه يدل على اختصاص الدواب بالأرض لأن مقام الإطناب يقتضي ذكره لو كان لا للعمل بمفهوم اللقب الذي لا يقول به الجمهور والجواب أن التي في البقرة لما كانت كلاماً مع الغبي والفهم والمسترشد والمعاند جيء فيه بما هو معروف عند الكل وهو بث الدواب في الأرض وأما ههنا فجيء به مدمجاً مختصراً لما تكرر في القرآن ولا سيما في هذه السورة من كمال قدرته على كل ممكن فقيل : ﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ مؤثراً على لفظ الخلق ليدل على التكثير الدال على كمال القدرة

وبين بقوله تعالى : ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ تعميماً وتغليباً لغير ذوي العلم في السماوي والأرضي تحقيقاً للمخلوقية فقد ثبت في صحاح الأحاديث ما يدل على وجود الدواب في السماء من مراكب أهل الجنة وغيرها ، وكذلك ما يدل على وجود ملائكة كالأوعال بل لا يبعد أن يكون في كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لا نعلمها ولم يذكر في الأخبار شيء منها فقد قال تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8] وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات في جرم القمر لكنهم لم يحققوا أمرها لنقص ما في الآلات

(39/687)

على ما يدعون ، ويحتمل أن يكون فيما عدا القمر ونفي ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضر القول به ، وقيل : المراد بالسموات جهات العلو المسامتة للأقاليم مثلاً وفي جو كل إقليم بل كل بلدة بل كل قطعة من الأرض حيوانات لا يحصي كثرتها إلا الله تعالى بعضها يحس بها بلا واسطة آلة وبعضها بواسطتها ، وقيل : المراد بها السحب وفيها من الحيوانات ما فيها وكل ذلك على ما فيه لا يحتاج إليه ، وكذا لا يحتاج إلى ما ذهب إليه كثير من أن المراد بالدابة الحي مجازاً إما من استعمال المقيد في المطلق أو إطلاق الشيء على

لازمه أو المسبب على سببه لأن الحياة سبب للدبيب وإن لم تكن الدابة سبباً للحي فيكون مجازاً مرسلاً تبعياً لأن الاحتياج إلى ذلك عدول عن الظاهر ولا يعدل عنه إلا إذا دل دليل على خلافه وأين ذلك الدليل ؟ بل هو قائم على وجود الدواب في السماء كما هي موجودة في الأرض .

﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ ﴾ أي حشرهم بعد البعث للمحاسبة ﴿ إِذَا يَشَاء ﴾ ذلك ﴿ قَدِيرٌ ﴾ تام القدرة كاملها ، و﴿ إِذَا ﴾ متعلقة بما قبلها لا بقدير لأن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته سبحانه وهي كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع ، ومنه قوله :

وإذا ما أشاء أبعث منها . . .

آخر الليل ناشطاً مذعوراً

وقول صاحب الكشف : لقائل أن يفرق بين إذا وإذا ما الظاهر أنه ليس في محله وقد نص الخفاجي على عدم الفرق وجعل القول به توهماً ، وكذا نص على أنها تدخل على الفعلين ظرفية كانت أو شرطية ، وقيد ذلك الطيبي بما إذا كانت بمعنى الوقت كما هنا ، وضمير ﴿ جَمْعِهِمْ ﴾ قيل للسموات والأرض وما فيهما على التغليب وهو كما ترى ، وقيل : للدواب المفهوم مما تقدم وضمير العقلاء للتغليب المناسب لكون الجمع للمحاسبة ، وقيل : للناس المعلوم من ذلك ولعله الأولى .

﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ ﴾ أي مصيبة كانت من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي فبسبب معاصيكم التي اكتسبتموها ، و﴿ مَا ﴾ اسم موصول مبتدأ والمبتدأ إذا كان موصولاً صلته جملة فعلية تدخل على خبره الفاء كثيراً لما فيه من معنى الشرط لإشعاره بابتناء الخبر عليه فلذا جيء بالفاء هنا .

وقرأ نافع .

وابن عامر .

وأبو جعفر في رواية .

وشيبة ﴿ بِمَا ﴾ بغير فاء لأنها ليست بلازمة وإيقاع المبتدأ موصولاً يكفي في الإشعار المذكور ، وحكي عن ابن مالك أنه قال : اختلاف القراءتين دل على أن ما موصولة فجيء تارة بالفاء في خبرها وأخرى لم يؤت بها حطاً للمشبه عن المشبه به ، وجوز كون ما شرطية واستظهره أبو حيان في القراءة بالفاء وجعلها موصولة في القراءة الأخرى بناءً على أن حذف الفاء من جواب الشرط مخصوص بالشعر عند سيبويه نحو :

من يفعل الحسنات الله يشكرها . . .

والأخفش .

وبعض نحاة بغداد أجازوا ذلك مطلقاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ

لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 121].

وقال أبو البقاء: حذف الفاء من الجواب حسن إذا كان الشرط بلفظ الماضي ويعلم منه مزيد حسن حذفها هنا على جعل ما موصولة ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ أي من الذنوب فلا يعاقب عليها بمصيبة عاجلاً قيل وآجلاً.

وجوز كون المراد بالكثير الكثير من الناس والظاهر الأول وهو الذي تشهد له الأخبار.

روى الترمذي عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله تعالى عنه أكثر وقرأ ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ ﴾"

وأخرج ابن المنذر.

(41/687)

وجماعة عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وَمَا أَصَابَكُم ﴾ الخ، قال عليه الصلاة والسلام "والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عز وجل عنه أكثر"، وأخرج ابن سعد عن أبي مليكة أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما كانت تصدع فتضع يدها على رأسها وتقول

بذنبي وما يغفره الله تعالى أكثر ، ورؤى على كف شريح قرحة فقيل : بم هذا ؟ فقال : بما كسبت يدي ، وسئل عمران بن حصين عن مرضه فقال : إن أحبه إلى أحبه إلى الله تعالى وهذا بما كسبت يدي ، والآية مخصوصة بأصحاب الذنوب من المسلمين وغيرهم فإن من لا ذنب له كالأنبياء عليهم السلام قد تصيبهم مصائب ، ففي الحديث " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل " ويكون ذلك لرفع درجاتهم أو لحكم أخرى خفيت علينا ، وأما الأطفال والمجانين فقيل غير داخلين في الخطاب لأنه للمكلفين وبفرض دخولهم أخرجهم التخصيص بأصحاب الذنوب فما يصيبهم من المصائب فهو لحكم خفية ، وقيل : في مصائب الطفل رفع درجته ودرجة أبويه أو من يشفق عليه بحسن الصبر ثم أن المصائب قد تكون عقوبة على الذنب وجزاء عليه بحيث لا يعاقب عليه يوم القيامة ، ويدل على ذلك ما رواه أحمد في مسنده .

والحيكم الترمذي .

(42/687)

وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم

ويعفو عن كثير ﴿ وسأفسرها لك يا علي ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله تعالى عنه في الدنيا فالله سبحانه أكرم من أن يعود بعد عفوه ، وزعم بعضهم أنها لا تكون جزاء لأن الدنيا دار تكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار جزاء وتكليف معا وهو محل فما هي إلا امتحانات ، وخبر علي كرم الله وجهه يرده وكذا ما صح من أن الحدود أي غير حد قاطع الطريق مكفرات وأي محالية في كون الدنيا دار تكليف ويقع فيها بعض الأشخاص ما يكون جزاء له على ذنبه أي مكفراً له .

وعن الحسن تفسير المصيبة بالحد قال : المعنى ما أصابكم من حد من حدود الله تعالى فإنما هو بكسب أيديكم وارتكابكم ما يوجبه ويعفو الله تعالى عن كثير فيستره على العبد حتى لا يحد عليه ، وهو مما تأباه الأخبار ومع هذا ليس بشيء ولعله لم يصح عن الحسن .

وفي الانتصاف أن هذه الآية تلبس عندها القدرية ولا يمكنهم ترويج حيلة في صرفها عن مقتضى نصها فإنها حملوا قوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] على التائب وهو غير ممكن لهم ههنا فإنه قد أثبت التبعيض في العفو ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقيداً بالتوبة فإنه يلزم تبعيضها أيضاً وهي عندهم لا تتبعض كما نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس الاعتزال والذي تولى كبره منهم فلا محل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه وهو رد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة .

وأجيب عنهم بأن لهم أن يقولوا : المراد ويعفو عن كثير فلا يعاقب عليه في الدنيا بل يؤخر عقوبته في الآخرة لمن لم يتب .

وأنت تعلم ما دل خبر علي كرم الله تعالى وجهه .

(43/687)

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ أي جاعلين الله سبحانه وتعالى عاجزاً عن أن يصيبكم بالمصائب بما كسبت أيديكم وإن هربتم في أقطار الأرض كل مهرب ، وقيل : المراد أنكم لا تعجزون من في الأرض من جنوده تعالى فكيف من في السماء ﴿ وَمَا لَكُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىّ ﴾ من متول بالرحمة يرحمكم إذا أصابتكم المصائب وقيل يحميكم عنها ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يدفعها عنكم ، والجملة كالتقرير لقوله تعالى : ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] أي أن الله تعالى يعفو عن كثير من المصائب إذ لا قدرة لكم أن تعجزوه سبحانه فتفوتوا ما قصى عليكم منها ولا لكم أيضاً من متول بالرحمة غيره عز وجل ليرحمكم إذا أصابتكم ولا ناصر سواه لينصركم منها ولهذا جاء عن علي كرم الله تعالى وجهه أن هذه أرجى آية في القرآن للمؤمنين ، ويقوى أمر الرجاء على ما قيل : أن معنى ﴿

مَا أَنتُمْ ﴾ الخ ما أنتم بمعجزين الله تعالى في دفع مصائبكم أي أنه سبحانه قادر على ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(44/687)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾

أي : كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم .

قال مقاتل : لطيف بالبارّ ، والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم .

قال عكرمة : بارّ بهم .

وقال السدي : رفيق بهم .

وقيل : حفيّ بهم .

وقال القرطبي : لطيف بهم في العرض ، والمحاسبة .

وقيل غير ذلك .

والمعنى : أنه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم ، ومن جملة ذلك الرزق الذي يعيشون به في الدنيا ، وهو : معنى قوله : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ منهم كيف يشاء ، فيوسع على هذا ،

ويضيق على هذا ﴿ وَهُوَ القوى ﴾ العظيم القوّة الباهرة القادرة ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ، ولا يغلبه شيء ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الأخرة نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ الحرث في اللغة : الكسب ، يقال : هو يحرث لعياله ، ويحترث ، أي : يكتسب .

ومنه سمي الرجل حارثاً ، وأصل معنى الحرث : إلقاء البذر في الأرض ، فأطلق على ثمرات الأعمال ، وفوائدها بطريق الاستعارة والمعنى : من كان يريد بأعماله ، وكسبه ثواب الآخرة يضاعف الله له ذلك الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

وقيل : معناه : يزيد في توفيقه ، وإعانته ، وتسهيل سبل الخير له ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي : من كان يريد بأعماله ، وكسبه ثواب الدنيا ، وهو : متاعها ، وما يرزق الله به عباده منها نعطه منها ما قضت به مشيئتنا ، وقسم له في قضائنا .

قال قتادة : معنى ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ : نقدّر له ما قسم له كما قال : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء ﴾ [الإسراء : 18] ، وقال قتادة أيضاً : إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطي على نية الدنيا إلاّ الدنيا .

قال القشيري : والظاهر أن الآية في الكافر ، وهو : تخصيص بغير مخصص .

(45/687)

ثم بيّن سبحانه أن هذا الذي يريد بعمله الدنيا لا نصيب له في الآخرة، فقال: ﴿ وَمَا لَهُ فِي الأخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾؛ لأنه لم يعمل للآخرة، فلا نصيب له فيها، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الإسراء.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ لما بين سبحانه القانون في أمر الدنيا، والآخرة أردفه ببيان ما هو الذنب العظيم الموجب للنار، والهمزة لاستفهام التقرير والتقريع، وضمير ﴿ شرعوا ﴾ عائد إلى الشركاء، وضمير ﴿ لهم ﴾ إلى الكفار.

وقيل: العكس، والأوّل أولى.

ومعنى ﴿ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾: ما لم يأذن به من الشرك، والمعاصي ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل ﴾، وهي: تأخير عذابهم حيث قال: ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ [القمر: 46] ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ في الدنيا، فعوجلوا بالعقوبة، والضمير في بينهم راجع إلى المؤمنين، والمشركين، أو إلى المشركين، وشركائهم ﴿ وَإِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: المشركين، والمكذبين لهم عذاب أليم في الدنيا، والآخرة.

قرأ الجمهور: ﴿ وإن الظالمين ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف.

وقرأ مسلم، والأعرج، وابن هرمز بفتحها عطفاً على ﴿ كلمة الفصل ﴾.

﴿ تَرَى الظالمين مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ أي: خائفين وجلين مما كسبوا من السيئات، وذلك الخوف، والوجل يوم القيامة ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ الضمير راجع إلى ما كسبوا بتقدير

مضاف قاله الزجاج ، أي : وجزاء ما كسبوا واقع منهم نازل عليهم لا محالة أشفقوا ، أو لم يشفقوا ، والجملة في محل نصب على الحال .

ولما ذكر حال الظالمين ذكر حال المؤمنين ، فقال : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِى روضات الجنات ﴾ روضات جمع روضة .

(46/687)

قال أبو حيان : اللغة الكثيرة تسكين الواو ، ولغة هذيل فتحها ، والروضة : الموضع النزه الكثير الخضرة ، وقد مضى بيان هذا في سورة الروم ، وروضة الجنة : أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا لأحسن أمكنتها ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ من صنوف النعم ، وأنواع المستلذّات ، والعامل في عند ربهم " يشاءون " ، أو العامل في " روضات الجنات " ، وهو : الاستقرار ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر للمؤمنين قبله ، وخبره الجملة المذكورة بعده ، وهي ﴿ هُوَ الفضل الكبير ﴾ أي : الذي لا يوصف ، ولا تهتدي العقول إلى معرفة حقيقته .

والإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ الذى يُبَشّرُ الله عِبَادَهُ ﴾ إلى الفضل الكبير ، أي : يبشرهم به .

ثم وصف العباد بقوله : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ، فهؤلاء الجامعون بين

الإيمان ، والعمل بما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه هم : المبشرون بتلك البشارة .

قرأ الجمهور : ﴿ يبشر ﴾ مشدّداً من بشر .

وقرأ مجاهد ، وحميد بن قيس بضم التحتية ، وسكون الموحدة ، وكسر الشين من أبشر .

وقرأ بفتح التحتية ، وضم الشين بعض السبعة ، وقد تقدّم بيان القراءات في هذه اللفظة .

ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه ، أمره بأنه يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثواباً منهم ، فقال : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي : قل يا محمد : لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا ، ولا نفعاً ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ هذا الاستثناء يجوز أن يكون متصلاً ، أي : إلاّ أن تودّوني لقرابتي بينكم ، أو تودّوا أهل قرابتي .

ويجوز أن يكون منقطعاً .

قال الزجاج : ﴿ إلاّ المودّة ﴾ استثناء ليس من الأوّل ، أي : إلاّ أن تودّوني لقرابتي ، فتحفظوني ، والخطاب لقريش .

(47/687)

وهذا قول عكرمة ، ومجاهد ، وأبي مالك ، والشعبي ، فيكون المعنى على الانقطاع : لا أسألكم أجراً قط ، ولكن أسألكم المودّة في القربى التي بيني وبينكم ، ارقبوني فيها ، ولا تعجلوا إليّ ، ودعوني والناس ، وبه قال قتادة ، ومقاتل ، والسدّي ، والضحاك ، وابن زيد ، وغيرهم ، وهو الثابت عن ابن عباس كما سيأتي .

وقال سعيد بن جبير ، وغيره : هم : آل محمد ، وسيأتي ما استدل به القائلون بهذا .

وقال الحسن ، وغيره : معنى الآية : إلاّ التودّد إلى الله عزّ وجلّ ، والتقرّب بطاعته .

وقال الحسن بن الفضل : ورواه ابن جرير عن الضحاك : إن هذه الآية منسوخة ، وإنما نزلت بمكة ، وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم الله بمودّته ، فلما هاجر أوته الأنصار ونصروه ، فأنزل الله عليه : ﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 109] ، وأنزل عليه ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّن أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [سبأ : 47] .

وسيأتي في آخر البحث ما يتضح به الثواب ، ويظهر به معنى الآية إن شاء الله ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ أصل القرف الكسب ، يقال : فلان يقرف لعياله ، أي : يكتسب .

والاقتراف : الاكتساب ، مأخوذ من قولهم رجل قرفة : إذا كان محتالاً .

والمعنى : من يكتسب حسنة نزد له هذه الحسنة حسناً بمضاعفة ثوابها .

قال مقاتل : المعنى : من يكتسب حسنة واحدة نزد له فيها حسناً نضاعفها بالواحدة عشراً فصاعداً .

وقيل : المراد بهذه الحسنة هي : المودّة في القربى ، والحمل على العموم أولى ، ويدخل تحته المودّة في القربى دخولاً أوّلياً ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أي : كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين .

قال قتادة : غفور للذّنوب شكور للحسنات .

وقال السدّي : غفور لذنوب آل محمد .

(48/687)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ أم هي المنقطعة ، أي : بل أيقولون : افترى محمد على الله كذباً بدعوى النبوّة ، والإنكار للتوبيخ .

ومعنى افتراء الكذب : اختلاقه .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا ، فقال : ﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ﴾ أي : لو افترى على الله الكذب لشاء عدم صدوره منه ، وختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله شيئاً مما كذب فيه كما تزعمون .

قال قتادة : يختم على قلبك ، فينسيك القرآن ، فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به في هذه الآية .

وقال مجاهد ، ومقاتل : إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم .

وقيل : الخطاب له ، والمراد الكفار ، أي : إن يشأ يختم على قلوب الكفار ، ويعاجلهم بالعقوبة ، ذكره القشيري .

وقيل : المعنى : لو حدّثتك نفسك أن تفتري على الله كذباً لطبع على قلبك ، فإنه لا يجترىء على الكذب إلاّ من كان مطبوعاً على قلبه ، والأوّل أولى ، وقوله : ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ استئناف مقرّر لما قبله من نفي الافتراء .

قال ابن الأنباري : ﴿ يختم على قلبك ﴾ تامّ ، يعني : وما بعده مستأنف .

وقال الكسائي : فيه تقديم ، وتأخير ، أي : والله يمحو الباطل .

وقال الزجاج : أم يقولون : افترى على الله كذباً تامّ .

وقوله : ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ احتجاج على من أنكر ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، أي : لو كان ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم باطلاً لمحاه كما جرت به عادته في المفترين ﴿ وَيُحِقُّ الحق ﴾ أي : الإسلام ، فيبينه ﴿ بكلماته ﴾ أي : بما أنزل من القرآن

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ عالم بما في قلوب العباد ، وقد سقطت الواو من " ويمحو " في بعض المصاحف كما حكاه الكسائي .

(49/687)

﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : يقبل من المذنبين من عباده توبتهم إليه مما عملوا من المعاصي ، واقترفوا من السيئات ، والتوبة : الندم على المعصية ، والعزم على عدم المعاودة لها .

وقيل : يقبل التوبة عن أوليائه ، وأهل طاعته .

والأوّل أولى ، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد مسلمهم ، وكافرهم إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية ، وعزيمة صحيحة ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ على العموم لمن تاب عن سيئته ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من خير ، وشرّ ، فيجازي كلا بما يستحقه .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص ، وخلف : ﴿ تفعلون ﴾ بالفوقية على الخطاب .

وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد ، وأبو حاتم ؛ لأن هذا الفعل وقع بين خبرين ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الموصول في موضع نصب ، أي : يستجيب الله الذين آمنوا ، ويعطيهم ما طلبوه منه ، يقال : أجاب ،

واستجاب بمعنى .

وقيل المعنى : يقبل عبادة المخلصين .

وقيل : التقدير ، ويستجيب لهم ، فحذف اللام كما حذف في قوله : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ [المطففين : 3] أي : كالوا لهم .

وقيل : إن الموصول في محل رفع ، أي : يجيبون ربهم إذا دعاهم كقوله : ﴿ استجيبوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] قال المبرد : معنى ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ ﴾ : ويستدعي الذين آمنوا الإجابة ، هكذا حقيقة معنى استفعل ، فالذين في موضع رفع ، والأوّل أولى .

﴿ وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ ﴾ أي : يزيدهم على ما طلبوه منه ، أو على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً منه .

وقيل : يشفعهم في إخوانهم ﴿ والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ هذا للكافرين مقابلاً ما ذكره للمؤمنين فيما قبله .

(50/687)

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأرض ﴾ أي : لو وسع الله لهم رزقهم لبغوا في الأرض لعصوا فيها ، وبطروا النعمة ، وتكبروا ، وطلبوا ما ليس لهم طلبه .

وقيل : المعنى : لو جعلهم سواء في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض ، ولتعطلت الصنائع ، والأوّل أولى .

والظاهر عموم أنواع الرزق .

وقيل : هو : المطر خاصة ﴿ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء ﴾ أي : ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته ، وما تقتضيه حكمته البالغة .

﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ ﴾ بأحوالهم ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بما يصلحهم من توسيع الرزق ، وتضييقه ، فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه ، ويكفه عن الفساد بالبغي في الأرض .

﴿ وَهُوَ الذى يُنَزِّلُ الغيث ﴾ أي : المطر الذي هو أنفع أنواع الرزق ، وأعمها فائدة ، وأكثرها مصلحة ﴿ مِّن بَعْدِ مَا ﴾ أي : من بعد ما أيسوا عن ذلك ، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم ، ويشكرون له ما يجب الشكر عليه ﴿ وَهُوَ الولى ﴾ للصالحين من عباده بالإحسان إليهم ، وجلب المنافع لهم ، ودفع الشرور عنهم ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصاً وعموماً .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الأخرة ﴾ قال : عيش الآخرة ﴿ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ الآية .

قال : من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلاّ النار ، ولم يزدد بذلك من الدنيا شيئاً إلاّ رزقاً فرغ منه ، وقسم له .

(51/687)

وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وابن حبان عن أبيّ بن كعب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بشر هذه الأمة بالسناء ، والرفعة ، والنصر ، والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب " وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الأخرة ﴾ الآية ، ثم قال : " يقول الله : ابن آدم تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسدّ فقرك ، وإن لا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسدّ فقرك " وأخرج ابن أبي الدنيا ، وابن عساكر عن عليّ قال : الحرث حرثان ، فحرث الدنيا المال ، والبنون ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس : أنه سئل عن قوله : ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ قال سعيد بن جبير : قربى آل محمد .

قال ابن عباس : عجلت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلاّ كان له فيهم قرابة ، فقال : إلاّ أن تصلوا ما بيني ، وبينكم من القرابة .

(52/687)

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عنه قال : قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أسألكم عليه أجراً إلاّ أن تودوني في نفسي لقرابتي ، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم " وأخرج سعيد بن منصور ، وابن سعد ، وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن الشعبي قال : أكثر الناس علينا في هذه الآية : ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسط النسب في قريش ليس بطن من بطونهم إلاّ ، وله فيه قرابة ، فقال الله : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿ إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ أن تودوني لقرابتي منكم ، وتحفظوني بها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه من طريق عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في الآية قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة من

جميع قريش ، فلما كذبوه ، وأبوا أن يبايعوه قال :

" يا قوم إذا أبيتم أن تبايعوني ، فاحفظوا قرابتي فيكم ، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ، ونصرتي منكم " وأخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه عنه نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه أيضاً نحوه .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً نحوه .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً من طريق أخرى نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق مقسم عن ابن عباس قال :

قالت الأنصار : فعلنا ، وفعلنا ، وكأنهم فخروا .

فقال العباس : لنا الفضل عليكم .

(53/687)

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم في مجالسهم ، فقال : " يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة ، فأعزكم الله ؟ " قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : " أفلا تجيبون ؟ " قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : " ألا تقولون : ألم يخرجك قومك ، فآويناك ؟ ألم يكذّبوك ، فصدّقناك ؟ ألم يخذلوك ، فنصرناك ؟ " فما زال يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا :

أموالنا ، وما في أيدينا لله ، ورسوله ، فنزلت : ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ " ، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد ، وهو : ضعيف ، والأولى أن الآية مكية لا مدنية ، وقد أشرنا في أوّل السورة إلى قول من قال : إن هذه الآية ، وما بعدها مدنية ، وهذا متمسكهم .

وأخرج أبو نعيم ، والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ أي : تحفظوني في أهل بيتي ، وتودونهم بي " وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه .

(54/687)

قال السيوطي : بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم ؟ قال : " عليّ ، وفاطمة ، وولداهما " وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية بمكة ، وكان المشركون يودّون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ يعني : على ما أدعوكم إليه ﴿ أَجْراً ﴾ عرضاً من الدنيا

﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ إلاّ الحفظ لي في قرابتي فيكم ، فلما هاجر إلى المدينة أحبّ أن يلحقه بإخوته من الأنبياء ، فقال : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ [سبأ : 47] يعني : ثوابه ، وكرامته في الآخرة كما قال نوح :

﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 109] ، وكما قال هود ، وصالح ، وشعيب لم يستثنوا أجراً كما استثنى النبي صلى الله عليه وسلم ، فردّه عليهم ، وهي : منسوخة .

وأخرج أحمد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طريق مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية : قل : لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات ، والهدى أجراً إلاّ أن تودوا الله ، وأن تتقرّبوا إليه بطاعته .

هذا حاصل ما روي عن حبر الأمة ابن عباس رضي اللهعنه في تفسير هذه الآية .

(55/687)

والمعنى الأوّل هو : الذي صح عنه ، ورواه عنه الجمع الجمّ من تلامذته ، فمن بعدهم ، ولا ينافيه ما روي عنه من النسخ ، فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن في مكة بأن يودّه كفار قريش لما بينه ، وبينهم من القربى ، ويحفظوه بها ، ثم ينسخ ذلك ، ويذهب هذا الاستثناء

من أصله كما يدلّ عليه ما ذكرنا مما يدلّ على أنه لم يسأل على التبليغ أجراً على الإطلاق ، ولا يقوي ما روي من حملها على آل محمد على معارضة ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة ، وقد أغنى الله آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة ، والمزايا الجميلة ، وقد بينا بعض ذلك عند تفسيرنا لقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت ﴾ [الأحزاب : 33] ، وكما لا يقوي هذا على المعارضة ، فكذلك لا يقوي ما روي عنه أن المراد بالمودّة في القربى : أن يودوا الله ، وأن يتقرّبوا إليه بطاعته ، ولكنه يشدّ من عضد هذا أنه تفسير مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناده عند أحمد في المسند هكذا : حدّثنا حسن بن موسى ، حدّثنا قزعة بن سويد ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد عن ابن عباس : أن النبي .

. .

فذكره .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن قزعة به .

وأخرج ابن المبارك ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب .

قال السيوطي : بسند صحيح عن أبي هانىء الخولاني قال : سمعت عمر بن حريث ، وغيره يقولون : إنما نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ

فِي الأرض ﴾ ، وذلك أنهم قالوا : لو أن لنا ، فتمنوا الدنيا .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن عليّ مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(56/687)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾

تقدمت الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ [البقرة : 136] .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي أنزل الكتاب في حال كونه متلبساً بالحق الذي هو ضد الباطل ، وقوله : ﴿ الكتاب ﴾ اسم جنس مراد به جميع الكتب السماوية .

وقد أوضحنا في سورة الحج أن المفرد الذي هو اسم الجنس يطلق مراداً به الجمع ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك مع الشواهد العربية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ والميزان ﴾ يعني أن الله جل وعلا هو الذي أنزل الميزان

، والمراد به العدل والإنصاف .

وقال بعض أهل العلم : الميزان في الآية : هو آلة الوزن المعروفة .

ومما يؤيد ذلك أن الميزان مفعال ، والمفعال قياسي في اسم الآلة .

وعلى التفسير الأول وهو أن الميزان العدل والإنصاف ، فالميزان الذي هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه ، لأن إقامة الوزن بالقسط من العدل والإنصاف .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب والميزان أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الحديد ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ [الحديد : 25] .

فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله الكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط ، وهو العدل والإنصاف . وكقوله تعالى في سورة الرحمن ﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي الميزان وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ [الرحمن : 7 - 9] .

(57/687)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أن الميزان في سورة الشورى وسورة الحديد هو العدل والإنصاف ، كما قاله غير واحد من المفسرين .

وأن الميزان في سورة الرحمن هو الميزان المعروف أعني آلة الوزن التي يوزن بها بعض المبيعات .

ومما يدل على ذلك أنه في سورة الشورى وسورة الحديد عبر بإنزال الميزان لا بوضعه ، وقال في سورة الشورى ﴿ الله الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى : 17] وقال في الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان ﴾ [الحديد : 25] .

وأما في سورة الرحمن فقد عبر بالوضع لا الإنزال ، قال ﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] ثم أتبع ذلك بما يدل على أن المراد به آلة الوزن المعروفة ، وذلك في قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ [الرحمن : 9] لأن الميزان الذي نهوا عن إخساره هو أخو المكيال ، كما قال تعالى ﴿ أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الشعراء : 181 – 183] . وقال تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : 1 – 3] . وقال تعالى عن نبيه شعيب : ﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ [هود : 84] الآية . وقال تعالى عنه أيضاً ﴿ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان ﴾ [الأعراف : 85] الآية . وقال تعالى في سورة الأنعام :

﴿ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام : 152] وقال

تعالى في سورة بني إسرائيل ﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء : 35] .

(58/687)

فإن قيل : قد اخترتم أن المراد بالميزان في سورة الشورى وسورة الحديد ، هو العدل والإنصاف ، وأن المراد بالميزان في سورة الرحمن هو آلة الوزن المعروفة ، وذكرتم نظائر ذلك من الآيات القرآنية ، وعلى هذا الذي اخترتم يشكل الفرق بين الكتاب والميزان ، لأن الكتب السماوية كلها عدل وإنصاف .

فالجواب من وجهين :

الأول منهما هو ما قدمنا مراراً من أن الشيء الواحد إذا عبر عنه بصفتين مختلفتين جاز عطفه على نفسه تنزيلاً للتغاير بين الصفات منزلة التغاير في الذوات ، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى الذي خَلَقَ فسوى والذي قَدَّرَ فهدى والذي أَخْرَجَ المرعى ﴾ [الأعلى : 1 – 4] فالموصوف واحد والصفات مختلفة ، وقد ساغ العطف لتغاير الصفات . ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهما . . . م وليث الكتيبة في المزدحم

وأما الوجه الثاني :

فهو ما أشار إليه العلامة ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين ، من المغايرة في الجملة بين الكتاب والميزان .

وإيضاح ذلك : أن المراد بالكتاب هو العدل والإنصاف المصرح به في الكتب السماوية .

وأما الميزان : فيصدق بالعدل والإنصاف الذي لم يصرح به في الكتب السماوية ، ولكنه معلوم مما صرح به فيها .

فالتأفيف في قوله تعالى ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء : 23] ، من الكتاب لأنه مصرح به في الكتاب ، ومنع ضرب الوالدين مثلاً المدلول عليه بالنهي على التأفيف من الميزان ، أي من العدل والإنصاف الذي أنزله الله مع رسله .

وقبول شهادة العدلين في الرجعة والطلاق المنصوص في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق : 2] من الكتاب الذي أنزله الله ، لأنه مصرح به فيه .

وقبول شهادة أربعة عدول في ذلك من الميزان الذي أنزله الله مع رسله .

(59/687)

وتحريم أكل مال اليتيم المذكور في قوله ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء : 10] الآية من الكتاب .

وتحريم إغراق مال اليتيم وإحراقه ، المعروف من ذلك من الميزان ، الذي أنزله الله مع رسله .

وجلد القاذف الذكر للمحصنة الأنثى ثمانين جلدة ورد شهادته ، والحكم بفسقه المنصوص في قوله تعالى ﴿ والذين يَرْمُونَ المحصنات ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فاجلدوهم ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور : 4] إلى قوله ﴿ إِلاَّ الذين تَابُوا ﴾ [النور : 5] الآية من الكتاب الذي أنزله الله .

وعقوبة القاذف الذكر لذكر مثله ، والأنثى القاذفة للذكر أو لأنثى بمثل تلك العقوبة المنصوصة في القرآن من الميزان المذكور .

وحلية المرأة التي كانت مبتوتة ، بسبب نكاح زوج ثان وطلاقه لها بعد الدخول المنصوص في قوله تعالى ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ [البقرة : 230] أي فإن طلقها الزوج الثاني ، بعد الدخول وذوق العسيلة فلا جناح عليهما أي لا جناح على المرأة التي كانت مبتوتة والزوج الذي كانت حراماً عليه ، أن يتراجعا بعد نكاح الثاني وطلاقه لها ، من الكتاب الذي أنزل الله .

وأما إن مات الزوج الثاني بعد أن دخل بها وكان موته قبل أن يطلقها ، فحليتها للأول الذي

كانت حراماً عليه ، من الميزان الذي أنزله الله مع رسله .

وقد اشرنا إلى كلام ابن القيم المذكور ، وأكثرنا من الأمثلة لذلك في سورة الأنبياء في كلامنا الطويل على قوله تعالى ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ [الأنبياء : 78] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ .

(60/687)

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] الآية . وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] وفي سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾ [غافر : 18] الآية .

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق ﴾ .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل :

الأولى : أن الكفار الذين لا يؤمنون بالساعة ، يستعجلون بها أي يطلبون تعجيلها عليهم ،

لشدة إنكارهم لها .

والثانية : أن المؤمنين مشفقون منها ، أي خائفون منها .

والثالثة : أنهم يعلمون أنها الحق ، أي أن قيامها ووقوعها حق لا شك فيه .

وكل هذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت موضحة في غير هذا الموضع .

أما استعجالهم لها فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ [الرعد : 6] وفي غير ذلك من المواضع .

وأما المسألة الثانية : التي هي إشفاق المؤمنين وخوفهم من الساعة ، فقد ذكره في مواضع أخر كقوله تعالى ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَهُمْ مِّنَ الساعة مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 49] وقوله تعالى ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ﴾ [النور : 37] وقوله تعالى ﴿ يُوفُونَ بالنذر وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ [الإنسان : 7] .

وأما المسألة الثالثة : وهي علمهم أن الساعة حق ، فقد دلت عليه الآيات المصرحة بأنها لا ريب فيها ، لأنها تتضمن نفي الريب فيها من المؤمنين .

والريب : الشك كقوله تعالى عن الراسخين في العلم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران : 9] الآية . وقوله تعالى ﴿ اللهُ لا إله إلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء : 87] الآية : وقوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران : 25] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى : 7] الآية . وقوله تعالى ﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ [الحج : 6 – 7] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِي الساعة لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ [الفرقان : 11] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ يُمَارُونَ ﴾ ، مضارع مارى ، يماري ، مراء ومماراة ، إذا خاصم وجادل .

ومنه قوله تعالى ﴿ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 22] .

وقوله ﴿ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾ أي بعيد عن الحق والصواب .

وقد قدمنا معاني الضلال في القرآن واللغة العربية ، مع الشواهد في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] وفي مواضع أخر من هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ .

(62/687)

قد بينا في سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ﴾ [هود : 29] الآية . أن جميع الرسل عليهم الصلوات والسلام ، لا يأخذون أجراً على التبليغ ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك .

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وجه الجمع بين تلك الآيات ، وآية شورى هذه فقلنا فيه :

اعلم أولاً أن في قوله تعالى ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ أربعة أقوال :

الأول : ورواه الشعبي وغيره عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة وأبو مالك والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم كما نقله عنهم ابن جرير وغيره ، أن معنى الآية ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] أي إلا أن تودوني في

قرابتي التي بيني وبينكم ، فتكفوا عني أذاكم وتمنعوني من أذى الناس ، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم ، وكان صلى الله عليه وسلم له في كل بطن من قريش رحم ، فهذا الذي سألهم ليس بأجر على التبليغ لأنه مبذول لكل أحد ، لأن كل أحد يوده أهل قرابته وينتصرون له من أذى الناس .

وقد فعل له ذلك أبو طالب ولم يكن أجراً على التبليغ لأن لم يؤمن .

وإذا كان لا يسأل أجراً إلا هذا الذي ليس بأجر تحقق أنه لا يسأل أجراً كقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . بهن فلول من قراع الكتائب

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم .

وهذا القول هو الصحيح في الآية ، واختاره ابن جرير ، وعليه فلا إشكال .

الثاني : أن معنى الآية ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] أي لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم ، ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وعلي بن الحسينن وعليه فلا إشكال أيضاً .

(63/687)

لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم ، وأحرى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 71] وفي الحديث " مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد إذا اصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " وقال صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " والأحاديث في مثل هذا كثيرة جداً .

وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين ، تبين أنه غير عوض عن التبليغ .

وقال بعض العلماء : الاستثناء منقطع على كلا القولين ، وعليه فلا إشكال .

فمعناه على القول الأول ﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرا ﴾ لكن أذكركم قرابتي فيكم .

وعلى الثاني : لكن أذكركم الله في قرابتي فاحفظوني فيهم .

القول الثالث : وبه قال الحسن إلا المودة في القربى أي إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح ، وعليه فلا إشكال .

لأن التقرب إلى الله ليس أجراً على التبليغ .

القول الرابع : إلا المودة في القربى ، أي إلا أن تتوددوا إلى قرابا تكم وتصلوا أرحامكم ، ذكر ابن جرير هذا القول عن عبد الله بن قاسم وعليه أيضاً فلا إشكال .

لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجراً على التبليغ ، فقد علمت الصحيح في تفسير الآية وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال .

وأما القول بأن قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] منسوخ بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ [سبأ : 47] فهو ضعيف ، والعلم عند الله تعالى . انتهى منه .

وقد علمت مما ذكرنا فيه أن القول الأول هو الصحيح في معنى الآية .

مع أن كثيراً من الناس يظنون أن القول الثاني هو معنى الآية ، فيحسبون أن معنى ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ إلا أن تودوني في أهل قرابتي .

(64/687)

وممن ظن ذلك محمد السَجَّاد حيث قال لقاتله يوم الجمل : أذكركم حم يعني سورة الشورى هذه ، ومراده أنه من أهل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيلزم حفظه فيهم ، لأن الله تعالى قال في حم هذه ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] فهو يريد المعنى المذكور ، يظنه هو المراد بالآية ، ولذا قال قاتله في ذلك :

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ . . . فَهَلا تَلاَ حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

وقد ذكرنا هذا البيت والأبيات التي قبله في أول سورة هود ، وذكرنا أن البخاري ذكر البيت المذكور في سورة المؤمن ، وذكرنا الخلاف في قائل الأبيات الذي قتل محمداً السجاد

بين طلحة بن عبيد الله يوم الجمل ، هل هو شريح بن أبي أوفَى العبسي كما قال البخاري ، أو الأشتر النخعي ، أو عصام بن مقشعر ، أو مدلج بن كعب السعدي ، أو كعب بن مدلج .

وممن ظن أن معنى الآية هو ما ظنه محمد السجاد المذكور الكميت في قوله في أهل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وجدنا لكم في آل حاميم آية . . . تأولها منا تقي ومعرب

والتحقيق إن شاء الله أن معنى الآية هو القول الأول ﴿ إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ أي إلا أن تودوني في قرابتي فيكم وتحفظوني فيها ، فتكفوا عني أذاكم وتمنعوني من أذى الناس ، كما هو شأن أهل القرابات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ .

الاقتراف معناه الاكتساب ، أي من يعمل حسنة من الحسنات ، ويكتسبها نزد له فيها حسناً ، أي نضاعفها له .

(65/687)

فمضاعفة الحسنات هي الزيادة في حسنها ، وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء : 40]

وقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] وقوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : 245] وقوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة وَأَقْرِضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ [المزمل : 20] فكونه خيراً وأعظم أجراً زيادة في حسنه ، كما لا يخفى إلى غير ذلك من الآيات :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو وحده الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات . وقد جاء ذلك موضحاً في مواضع أخر كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات وَأَنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ [التوبة : 104] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ توبوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [التحريم : 8] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله ﴾ [آل عمران : 135] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا معنى التوبة وأركانها وإزالة ما في أركانها من الإشكال ، في سورة النور في الكلام على قوله تعالى ﴿ وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا المؤمنون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : 31] .

قوله تعالى : ﴿ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه ينزل ما يشاء تنزيله من الأرزاق وغيرها بقدر ، أي بمقدار معلوم عنده جل وعلا ، وهو جل وعلا أعلم بالحكمة والمصلحة في مقدار كل ما ينزله . وقد أوضح هذا في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النور في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النار ﴾ [النور : 57] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(67/687)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾

عطف على جملة ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ [الشورى : 26] أو على المجموع من جملة

﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ [الشورى : 26] ومن جملة ويزيدهم من فضله .

وموقع معناها موقع الاستدراك والاحتراس فإنها تشير إلى جواب عن سؤال مقدر في نفس السامع إذا سمع أن الله يستجيب للذين آمنوا وأنه يزيدهم من فضله أن يتساءل في نفسه : أن مما يَسأل المؤمنون سعة الرّزق والبسطةَ فيه فقد كان المؤمنون أيام صدر الإسلام في حاجة وضيق رزق إذ منعهم المشركون أرزاقهم وقاطعوا معاملتهم ، فيجاب بأن الله لو بسط الرّزق للنّاس كلهم لكان بسطه مفسداً لهم لأن الذي يستغني يتطرقه نسيان الالتجاء إلى الله ، ويحمله على الاعتداء على الناس فكان من خير المؤمنينَ الآجلِ لهم أن لا يبسط لهم في الرّزق ، وكان ذلك منوطاً بحكمة أرادها الله من تدبير هذا العالم تَطّرد في الناس مؤمِنهم وكافرِهم قال تعالى : ﴿ إن الإنسان ليَطْغَى أنْ رءاه اسْتَغْنَى ﴾ [العلق : 6 ، 7] .

وقد كان في ذلك للمؤمن فائدة أخرى ، وهي أن لا يشغله غناه عن العمل الذي به يفوز في الآخرة فلا تشغله أموالُه عنه ، وهذا الاعتبار هو الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال للأنصار لما تعرّضوا له بعد صلاة الصبح وقد جاءه مال من البَحرين " فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم ولكنْ أخشى عليكم أن تُبْسَط عليكم الدنيا كما بُسطت على من قبلكم فتَنَافَسُوها كما تنافَسُوها وتُهْلِككم كما أهلكتهم " .

وقد وردت هذه الآية مورداً كلياً لأن قوله ﴿ لعباده ﴾ يعُم جميع العباد .

ومن هذه الكلية تحصل فائدة المسؤول عليه الجزئي الخاص بالمؤمنين مع إفادة الحكمة العامة من هذا النظام التكويني ، فكانت هذه الجملة بهذا الاعتبار بمنزلة التذييل لما فيها من العموم ، أي أن الله أسس نظام هذا العالم على قوانينَ عامةٍ وليس من حكمته أن يخص أولياءه وحزبه بنظام تكويني دنيوي ولكنه خصهم بمعاني القرب والرضى والفوز في الحياة الأبدية . وربما خصّهم بمَا أراد تخصيصهم به مما يرجع إلى إقامة الحق .

والبغي : العدوان والظلم ، أي لبغى بعضهم على بعض لأن الغنى مظنة البطَر والأشر إذا صادف نفساً خبيثة ، قال بعض بني جَرم من طيء من شعراء الحماسة :

إذا أخصبتمو كنتمْ عَدُوًّا

وإن أجْدَبتُمو كنتمْ عيالاً . . .

ولبعض العرب أنشده في "الكشاف" :

وقد جعل الوسْمِيُّ يُنبِتُ بينَنا

وبينَ بني رُومَان نَبعاً وشَوْحَطا . . .

فأما الفَقر فقلما كان سبباً للبغي إلا بغياً مشوباً بمخافة كبغي الجائع بالافتكاك بالعنف فذلك لندرته لا يلتفت إليه ، على أن السياق لبيان حكمة كون الرزق بقدَر لا لبيان حكمةٍ في الفقر .

فالتلازم بين الشرط وجوابه في قوله : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا ﴾ حاصل بهذه السببية بقطع النظر عن كون هذا السبب قد يخلفه ضده أيضاً ، على أن بَين بسط الرزق وبين الفقر مراتب أخرى من الكفاف وضيق الرزق والخصاصة ، والفقر ، وهي متفاوتة فلا إشكال في التعليل .

وعن خبّاب بن الأرتّ "فينا نزلت هذه الآية ، وذلك أنَّا نظرنا إلى أموال بني النَّضِير وبني قُريظة وبني قينُقاع فتمنَّيْناها فنزلت" ، وهذا مما حمل قوماً على ظن هذه الآية مدنية كما تقدم في أول السورة .

وهذا إن صح عن خبَّاب فهو تأويل منه لأن الآية مكية وخبّاب أنصاري فلعله سمع تمثيل بعضهم لبعض بهذه الآية ولم يكن سمعها من قبل .

وروي أنها نزلت في أهل الصُّفَّة تمنوا سعة الرزق فنزلت ، وهذا خبر ضعيف .

(69/687)

ومعنى الآية : لو جعل الله جميع الناس في بسطة من الرزق لاختلّ نظام حياتهم ببغي بعضهم على بعض لأن بعضهم الأغنياء تحدثه نفسه بالبغي لتوفر أسباب العُدوان كما علمت فيجد من المبغي عليه المقاومةَ وهكذا ، وذلك مفض إلى اختلال نظامهم .

وبهذا تعلم أن بسط الرزق لبعض العباد كما هو مشاهَد لا يفضي إلى مثل هذا الفساد لأن الغِنى قد يصادف نفساً صالحة ونفساً لها وازع من الدين فلا يكون سبباً للبغي ، فإن صادف نفساً خبيثة لا وازع لها فتلك حالة نادرة هي من جملة الأحوال السيئة في العالم ولها ما يقاومها في الشريعة وفصلِ القضاء وغَيرة الجماعة فلا يفضي إلى فساد عام ولا إلى اختلال نظام .

وإطلاق فعل التنزيل على إعطاء الرزق في قوله تعالى : ﴿ ولكن ينزل بقدر ﴾ استعارةٌ لأنه عطاء من رفيع الشأن ، فشبه بالنازل من علوّ وتكرر مثل هذا الإطلاق في القرآن .

والقَدَر بفتحتين : المِقدار والتعيين .

ومعنى ﴿ ما يشاء ﴾ أن مشيئته تعالى جارية على وفْق عِلمه وعلى ما ييسرّه له من ترتيب الأسباب على حسب مختلف صالح مخلوقاته وتعارض بعضها ببعض ، وكل ذلك تصرفات وتقديرات لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

وكلها تدخل تحت قوله ﴿ إنه بعباده خبير بصير ﴾ ، وهي جملة واقعة موقع التعليل للتي قبلها .

وافتتحت بـ (إنّ) التي لم يُرد منها تأكيد الخبر ولكنها لمجرد الاهتمام بالخبر والإيذان بالتعليل لأنّ (إنّ) في مثل هذا المقام تقوم مقام فاء التفريع وتفيد التعليل والربط ، فالجملة في تقدير المعطوفة بالفاء .

والجمع بين وصفي ﴿ خبير ﴾ و ﴿ بصير ﴾ لأن وصف ﴿ خبير ﴾ دال على العلم بمصالح العبادِ وأحوالهم قبل تقديرها وتقدير أسبابها ، أي العلم بما سيكون .

ووصف ﴿ بصير ﴾ دالّ على العلم المتعلق بأحوالهم التي حصلت ، وفرق بين التعلقين للعلم الإلهي .

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

(70/687)

عطف على جملة ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ [الشورى : 27] فإن الغيث سبب رزق عظيم وهو ما ينزله الله بقدر هوَ أعلم به ، وفيه تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس التي منها معظم رزقهم الحقيقي لهم ولأنعامهم .

وخصها بالذكر دون غيرها من النعم الدنيوية لأنها نعمة لا يختلف الناس فيها لأنها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب ، وبهذا يظهر وقع قوله : ﴿ ومن آياته خَلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ﴾ [الشورى : 29] عقب قوله هنا وهو الذي ينزل الغيث ﴾ .

واختيار المضارع في ﴿ ينزل ﴾ لإفادة تكرر التنزيل وتجديده .

والتعبير بالماضي في قوله : ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾ للإشارة إلى حصول القنوط وتقرره بمضي زمان عليه .

والغيث : المطر الآتي بعد الجفاف ، سمي غيْثاً بالمصدر لأن به غيث الناس المضطرين ، وتقدم عنه قوله ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ في سورة يوسف (49) .

والقنوط : اليأس ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ في سورة الحجر (55) .

والمراد : من بعد ما قنطوا من الغيث بانقطاع إمارات الغيث المعتادة وضيق الوقت عن الزرع .

وصيغة القصر في قوله : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث ﴾ تفيد قصر القلب لأن في السامعين مشركين يظنون نزول الغيث من تصرف الكواكب وفيهم المسلمون الغافلون ، نزلوا منزلة من يظن نزول الغيث مَنُوطاً بالأسباب المعتادة لنزول الغيث لأنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أن المطر من تصرف أنواء الكواكب .

وفي حديث زيد بن خالد الجُهني قال : "خطبنا رسول الله على إثْر سماء كانت من الليل فقال : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قال ، قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطرنا

بنَوْء كذا ونَوْء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب" .

فهذا القصر بالنسبة للمشركين قصر قلب أصْلي وهو بالنسبة للمسلمين قصر قلب تنزيلي .

(71/687)

والنشر : ضد الطَّيّ ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ يلقاه منشوراً ﴾ في سورة الإسراء (13) .

واستعير هنا للتوسيع والامتداد .

والرحمةُ هنا : رحمته بالماء ، وقيل : بالشمس بعد المطر .

وضمير ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾ عائد إلى ﴿ عباده من قوله : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ [الشورى : 25] .

وقد قيل : إن الآية نزلت بسبب رفع القحط عن قريش بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم بهم بذلك بعد أن دام عليهم القحط سبع سنين أكلوا فيها الجِيَف والعِظامَ وهو المشار إليه بقوله في سورة الدخان (15) ﴿ إنَّا كاشِفُوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ في "الصحيح" عن عبد الله بن مسعود " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا قريشاً كذّبوه واستعصوا عليه فقال : اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف .

فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد إن قومك قد هلكوا فادعُ الله أن يكشف عنهم فدعا .

ثم قال : تعودون بعد " .

وقد كان هذا في المدينة ويؤيده ما روي أن هذه الآية نزلت في استسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله الأعرابي وهو في خطبة الجمعة .

وفي رواية أن الذي كلمه هو كعب بن مرة وفي بعض الروايات في "الصحيح" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اللهم عليك بقريش اللهم اشدُدْ وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف .

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ﴿ ينزِّل ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي .

وقرأه الباقون بسكون النون وتخفيف الزاي .

وذكر صفتي ﴿ الولي الحميد ﴾ دون غيرهما لمناسبتهما للإغاثة لأن الوليَّ يحسن إلى مواليه والحميد يعطي ما يُحمد عليه .

ووصف حميد فعيل بمعنى مفعول .

وذكر المهدوي تفسير ﴿ ينشر رحمته ﴾ بطلوع الشمس بعد المطر .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29)

لما كان إنزال الغيث جامعاً بين كونه نعمة وكونه آية دالة على بديع صنع الله تعالى وعظيم قدرته المقتضية انفراده بالإلهية ، انتقل من ذكره إلى ذكر آيات دالة على انفراد الله تعالى بالإلهية وهي آية خلق العوالم العظيمة وما فيها مما هو مشاهد للناس دون قصد الامتنان .

وهذا الانتقال استطراد واعتراض بين الأغراض التي سياق الآيات فيها .

والآيات : جمع آية ، وهي العلامة والدليل على شيء .

والسياق دال على أن المراد آيات الإلهية .

والسموات : العوالم العليا غير المشاهدة لنا والكواكب وما تجاوزَ الأرضَ من الجو .

والأرضُ : الكرة التي عليها الحيوان والنبات .

والبث : وضع الأشياء في أمكنة كثيرة .

والدابة : ما يدُبّ على الأرض ، أي يمشي فيشمل الطير لأن الطير يمشي إذا نزل وهو مما أريد في قوله هنا : ﴿ فيهما ﴾ أي في الأرض وفي السماء ، أي بعض ما يسمى بالسماء وهو الجو وهو ما يلوح للناظر مثل قبة زرقاء على الأرض في النهار ، قال تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جوّ السماء ﴾ [النحل : 79] فإطلاق الدابّة على الطير باعتبار أن الطير يدبّ على الأرض كثيراً لالتقاط الحب وغيرِ ذلك .

وأمّا الموجودات التي في السموات العُلى من الملائكة والأرواح فلا يطلق عليها اسم دابّة .

ويجوز أن تكون في بعض السماوات موجودات تدبّ فيها فإن الكواكب من السماوات .

(73/687)

والعلماء يترددون في إثبات سكان في الكواكب ، وجوز بعض العلماء المتأخرين أن في كوكب المريخ سكاناً ، وقال تعالى : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [النحل : 8] ، على أنه قد يكون المراد من الظرفية في قوله : ﴿ فيهما ﴾ ظرفية المجموع لا الجميع ، أي ما بَثَّ في مجموع الأرض والسماء من دابّة ، فالدابّة إنما هي على الأرض ، ولما ذكرت الأرض والسماء مقترنتين وجاء ذكر الدواب جعلت الدواب مظروفة فيهما لأن الأرض محوطة بالسماوات ومتخيّلة منها كالمظروف في ظرفه ، والمظروفُ في ظرف مظروف في ظرف مظروفه كما قال تعالى : ﴿ مرَج البحرين يلتقيان ﴾ [الرحمن : 19] ثم قال : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمن : 22] واللؤلؤ والمرجان يخرجان من أحد البحرين وهو البحر الملح لا من البحر العذب .

وجملة ﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ ، معترضة في جُملة الاعتراض لإدماج إمكان البعث في عُرض الاستدلال على عظيم قدرة الله وعلى تفرده بالإلهية .

والمعنى : أن القادر على خلق السماوات والأرض وما فيهما عن عدمٍ قادر على إعادة خلق بعض ما فيهما للبعث والجزاء لأن ذلك كله سواء في جواز تعلق القدرة به فكيف تعدُّونه محالاً .

وضمير الجماعة في قوله : ﴿ جمعهم ﴾ عائد إلى ما بثّ فيهما من دابّة باعتبار أن الذي تتعلق الإرادة بجمعه في الحشر للجزاء هم العقلاء من الدوابّ أي الإنس .

والمراد بـ ﴿ جمعهم ﴾ حشرهم للجزاء ، قال تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ [التغابن : 9] .

وقد ورد في أحاديث في "الصحيح" أن بعض الدواب تحشر للانِتصاف مِمن ظلمها .

و﴿ إذا ﴾ ظرف للمستقبل وهو هنا مجرد عن تضمن الشرطية ، فالتقدير : حين يشاء في مستقبل الزمان ، وهو متعلق بـ ﴿ جمعهم ﴾ .

(74/687)

وهذا الظرف إدماج ثان لإبطال استدلالهم بتأخر يوم البعث على أنه لا يقع كما حُكي عنهم في قوله تعالى : ﴿ ويقولون متَى هُو قل عسى أن يكون قريباً ﴾ [الإسراء : 51] و ﴿ يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا

تستقدمون ﴾ [سبأ : 29 ، 30] .

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30)

لما تضمنت المنةُ بإنزال الغيث بعدَ القُنوط أن القوم أصابهم جهد من القحط بلغ بهم مبلغ القنوط من الغيث أعقبت ذلك بتنبيههم إلى أن ما أصابهم من ذلك البؤس هو جزاء على ما اقترفوه من الشرك تنبيهاً يبعثهم ويبعث الأمة على أن يلاحظوا أحوالهم نحو امتثال رضى خالقهم ومحاسبة أنفسهم حتى لا يحسبوا أن الجزاء الذي أُوعدوا به مقصور على الجزاء في الآخرة بل يعلموا أنه قد يصيبهم الله بما هو جزاء لهم في الدنيا ، ولما كان ما أصاب قريشاً من القحط والجوع استجابةً لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم عليهم كما تقدم ، وكانت تلك الدعوة ناشئة على ما لاقوْه به من الأذى ، لا جرم كان ما أصابهم مسبَّباً على ما كسبت أيديهم .

فالجملة عطف على جملة ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ [الشورى : 28] ، وأطلق كسب الأيدي على الأفعال والأقوالِ المنكرة على وجه المجاز بعلاقة الإطلاق ، أي بما صدر منكم من أقوال الشرك والأذَى للنبيء صلى الله عليه وسلم وفعللِ المُنكرات الناشئة عن دين الشرك .

والخطاب للمشركين ابتداء لأنهم المقصود من سياق الآيات كلها وهم أوْلى بهذه الموعظة لأنهم كانوا غير مؤمنين بوعيد الآخرة ويشمل المؤمنين بطريق القياس وبما دل على شمول

هذا الحكم لهم من الأخبار الصحيحة ومن آيات أخرى .

والباء للسببية ، أي سبب ما أصابكم من مصيبة هو أعمالكم .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ على أن (مَا) موصولة وهي مبتدأ .

(75/687)

و ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ ظَرف مستقر هو خبر المبتدأ .

وكذلك كتبت في مصحف المدينة ومصحف الشام وقرأ الباقون ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ بفاء قبل الباء وكذلك كتبت في مصحف البصرة ومصحف الكوفة ، على أن (مَا) متضمنة معنى الشرط فاقترن خبرها بالفاء لذلك ، أو هي شرطية والفاء رابطة لجواب الشرط ويكون وقوع فعل الشرط ماضياً للدلالة على التحقق .

و ﴿ مِن ﴾ بيانية على القراءتَيْن لما في الموصول واسم الشرط من الإبهام .

والمصيبة : اسم للحادثة التي تصيب بضُرّ ومكروه ، وقد لزمتها هاء التأنيث للدلالة على الحادثة فلذلك تنوسيت منها الوصفية وصارت اسماً للحادثة المكروهة .

فقراءة الجمهور تُعيِّنُ معنى عموم التسبب لأفعالهم فيما يصيبهم من المصائب لأن (ما) في

هذه القراءةِ إما شرطية والشرط دال على التسبب وإمّا موصولة مشبَّهة بالشرطية ، فالموصولية تفيد الإيماء إلى علة الخبر ، وتشبيهها بالشرطية يفيد التسبب .

وقراءةُ نافع وابن عامر لا تعيِّن التسبب بل تُجوزه لأن الموصول قد يراد به واحد معيَّن بالوصف بالصلة ، فتحمل على العموم بالقرينة وبتأييد القراءة الأخرى لأن الأصل في اختلاف القراءات الصحيحة اتحاد المعاني .

وكلتا القراءتين سواء في احتمال أن يكون المقصود بالخطاب فريقا معيناً وأن يكون المقصود به جميع الناس ، وكذلك في أن يكون المراد مصائب معيّنة حصلت في الماضي ، وأن يراد جميع المصائب التي حصلت والتي تحصل .

ومعنى الآية على كلا التقديرين يفيد : أن مما يصيب الناس من مصائب الدنيا ما هو جزاء لهم على أعمالهم التي لا يرضاها الله تعالى كمثل المصيبة أو المصائب التي أصابت المشركين لأجل تكذيبهم وأذاهم للرسول صلى الله عليه وسلم

(76/687)

ثم إن كانت (مَا) شرطية كانت دلالتها على عموم مفهومها المبين بحرف ﴿ مِن ﴾ البيانية أظهر لأن شرطها الماضي يصح أن يكون بمعنى المستقبل كما هو كثير في الشروط المصوغة

بفعل المضيّ والتعليقُ الشرطي يمحّضها للمستقبل ، وإن كانت (مَا) موصولة كانت دلالتها محتملة للعموم وللخصوص لأن الموصول يكون للعهد ويكون للجنس .

وأيّاً مَّا كان فهو دال على أن من المصائب التي تصيب الناس في الدنيا ما سلطه الله عليهم جزاء على سوء أعمالهم وإذا كان ذلك ثابتاً بالنسبة لأناس معيَّنين كان فيهِ نذارة وتحذير لغيرهم ممن يفعل من جنس أفعالهم أن تحل بهم مصائب في الدنيا جزاء على أعمالهم زيادة في التنكيل بهم إلا أن هذا الجزاء لا يطّرد فقد يجازي الله قوماً على أعمالهم جزاء في الدنيا مع جزاء الآخرة ، وقد يترك قوماً إلى جزاء الآخرة ، فجزاء الآخِرةِ في الخير الشر هو المطَّرد الموعود به ، والجزاء في الدنيا قد يحصل وقد لا يحصل كما قال تعالى : ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ كما سنبينه .

وهذا المعنى قد تكرر ذكره في آيات وأحاديث كثيرة بوجه الكلية وبوجه الجزئية ، فَمِمّا جاء بطريق الكلية قوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه فيقول ربي أكرمَني وأما إذا ما ابتلاه فقَدَرَ عليه رزقه فيقول ربي أهانني كَلاَّ بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضّون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لمّاً ﴾ [الفجر : 15 19] الآية ، فقوله : ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ مرتب على قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ المرتب على قوله : ﴿ فيقول ربّي أكرمنِ ﴾ وقولِه : ﴿ فيقول ربي أهانني ﴾ ، فدل على أن الكرامة والإهانة إنما تسببا على عدم إكرام اليتيم والحضّ على طعام المسكين ، وقال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في

البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ [الروم : 41] .

(77/687)

وفي "سُنن الترمذي" : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تصيب عبداً نَكبة فما فوقها أو دونَها إلا بذنْب وما يعفو الله عنه أكثر " .

وهو ينظر إلى تفسير هذه الآية ، وأما ما جاء على وجه الجزئية فمنه قوله تعالى حكاية عن نوح ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويُمْدِدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ [نوح : 10 12] وقوله حكاية عنه ﴿ أن اعبُدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ في سورة نوح (3 ، 4) .

وقولُه خطاباً لبني إسرائيل ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ الآية في سورة البقرة (85) ، وقوله ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾ [الأعراف : 152] وقال حكاية عن موسى ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا ﴾ [الأعراف : 155] ﴿ وإذ تأذّن ربك

ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب ﴾ في الأعراف (167) ، وقال في فرعون ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ [النازعات : 25] ، وقال في المنافقين ﴿ أو لا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذَّكرون ﴾ في براءة (126) .

وفي حديث الترمذي قال النبي نقل الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء في المكروهات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، من يحافظ عليهن عاش بخير ومات بخير .

وفي باب العقوبات من آخر سنن ابن ماجه عن النبي : وإن الرجل لَيُحْرم الرزق بالذنب يصيبه .

وفي البخاري ﴿ قال خبّاب بن الأرتِّ "إنّا آمنا بالله وجاهدنا في سبيله فوجب أجرنا على الله فمِنّا من ذهب لم يأخذ من أجره شيئاً منهم مصعب بن عُمير ، مات وما ترك إلا . . .

(78/687)

كنا إذا غطّينا بها رأسه بدَت رجلاه وإذا غطّينا رجليه بدا رأسه فأمرنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي بها رأسه ونضع على رجليه من الإذخر ، ومنهم من عُجّلت له ثمرته فهو يهدبُها" .

وإذا كانت المصيبة في الدنيا تكون جزاء على فعل الشر فكذلك خيرات الدنيا قد تكون جزاء على فعل الخير قال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [يونس : 62 ، 64] ، وقال حكاية عن إخوة يوسف ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كُنّا لخاطئين ﴾ [يوسف : 91] أي مُذنبين ، أي وأنت لم تكن خاطئاً ، وقال : ﴿ فآتاهم الله ثوابَ الدنيا وحسنَ ثواب الآخرة ﴾ في آل عمران (148) وقال : ﴿ وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يَبْلُغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾ في سورة الكهف (82) ، وقال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليسْتَخلِفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ إلى قوله : ﴿ وليبدلَنّهم من بعد خَوفهم أمناً ﴾ في سورة النور (55) .

وهذا كله لا ينقض الجزاء في الآخرة ، فمن أنكروا ذلك وقالوا : إن الجزاء إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ ملك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : 4] أي يوم الجزاء وإنما الدنيا دار تكليف والآخرة دار الجزاء ، فالجواب عن قولهم هو : أنه ليس كون ما يصيب من الشر والخير في الدنيا جزاء على عمل بمطّرد ، ولا متعيّن له فإن لذلك أسباباً كثيرة وتدفعه أو تدفع بعضاً منه جوابر كثيرة والله يقدّر ذلك استحقاقاً ودفعاً ولكنه مما يزيده الله به الجزاء إن شاء .

وقد تصيب الصالحين نكبات ومصائب وآلام فتكون بلوَى وزيادة في الأجر ولِما لا يعلمه إلا الله ، وقد تصيب المسرفين خيرات ونعم إمهالاً واستدراجاً ولأسباب غير ذلك مما لا يحصيه إلا الله وهو أعلم بخفايا خلقه ونواياهم ومقادير أعمالهم من حسنات وسيئات ، واستعدادِ نفوسهم وعقولهم لمختلف مصادر الخير والشر قال تعالى:

﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال : 23] .

ومما اختبط فيه ضعفاء المعرفة وقُصَّار الأنظار أنْ زَعَم أهلُ القول بالتناسخ أن هذه المصائب التي لا نرى لها أسباباً والخيرات التي تظهر في مواطن تحفّ بها مقتضِيات الشرور إنما هي بسبب جزاء الأرواح المودعة في الأجسام التي نشاهدها على ما كانت أصابته من مقتضيات الأحوال التي عرضت لها في مَرْآنا قبل أن توضع في هذه الأجساد التي نراها ، وقد عَمُوا عما يرد على هذا الزعم من سؤال عن سبب إيداع الأرواح الشريرة في الأجساد الميسرة للصالحات والعكس فبئس ما يَفترون .

فقوله : ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ عطف على جملة ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ ، وضمير ﴿ يعفو ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ ومِن آياته خَلْق

السماوات ﴾ [الشورى : 29] .

وهذا يشير إلى ما يتراءى لنا من تخلف إصابة المصيبة عن بعض الذين كسبت أيديهم جرائم ، ومن ضد ذلك مما تصيب المصائب بعض الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهو إجمال يبيّنُه على الجملة أن ما يعلمه الله من أحوال عباده وما تغلب من حسناتهم على سيئاتهم ، وما تقتضيه حكمة الله من إمهال بعض عباده أو من ابتلاء بعض المقربين ، وتلك مراتب كثيرة وأحوال مختلفة تتعارض وتتساقط والموفَّق يبحث عن الأسباب فإن أعجَزته فوّض العلم إلى الله .

والمعنى : أنه تعالى يعفو ، أي يصفح فلا يصيب كثيراً من عباده الذين استحقّوا جزاء السوء بعقوبات دنيوية لأنه يعلم أن ذلك أليق بهم .

(80/687)

فالمراد هنا : العفو عن المؤاخذة في الدنيا ولا علاقة لها بجزاء الآخرة فإن فيه أدلة أخرى من الكتاب والسنة .

و ﴿ كثير ﴾ صفة لمحذوف ، أي عن خلق أو ناس .

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (31)

عطف على جملة ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : 30] ، وهو احتراس ، أي يعفو عن قدرة فإنكم لا تعجزونه ولا تغلبونه ولكن يعفو تفضلاً .

والمعجز : الغالب غيره بانفلاته من قبضته .

والمعنى : ما أنتم بفالتين من قدرة الله .

والخطاب للمشركين .

والمعنى : أن الله أصابكم بمصيبة القحط ثم عفا عنكم برفع القحط عنكم وما أنتم بمفلتين من قدرة الله إن شاء أن يصيبكم ، فهو من معنى قوله : ﴿ إنَّا كَاشفُوا العذابِ قليلاً إنَّكُم عائدون ﴾ [الدخان : 15] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان حين دعا برفع القحط عنهم : تعودون بعد ، وقد عادوا فأصابهم الله ببطشة بدر قال : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ [الدخان : 16] .

وتقييد النفي بقوله : ﴿ في الأرض ﴾ لإرادة التعميم ، أي في أي مكان من الأرض لئلا يحسبوا أنهم في منعة بحلولهم في مكة التي أمّنها الله تعالى ، وذلك أن العرب كانوا إذا خافوا سطوة ملك أو عظيم سكنوا الجهات الصعبة ، كما قال النابغة ذاكراً تحذيره قومه من ترصد النعمان بن المنذر لهم وناصحاً لهم:

إمَّا عُصيت فإني غير منفلت . . .

مني اللِصاب فجنبا حَرة النار

أو أضع البيت في صَماء مُضلمةٍ . . .

من المظالم تُدْعَى أمّ صبار

تدافع الناسَ عنّا حين نركبها . . .

تقيد العَيْر لا يسري بها الساري

وجيء بالخبر جملة اسمية في قوله : ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ للدلالة على ثبات الخبر ودوامه ، أي نَفي إعجازهم ثابت لا يتخلف فهم في مكنة خالقهم .

(81/687)

ولما أفاد قوله : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أن يكون لهم منجى من سُلطة الله أُتبع بنفي أن يكون لهم ملْجَأٌ يلجأُون إليه لينصرهم ويقيهم من عذاب الله فقال : ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أي ليس لكم وليّ يتولاكم فيمنعكم من سلطان الله ولا نصير ينصركم على الله إن أراد إصابتكم فتغلبونه ، فجمَعت الآية نفي ما هو معتاد بينهم من وجوه الوقاية .

و﴿ من دون الله ﴾ ظرف مستقرّ هو خبر ثان عن ﴿ ولي ﴾ و ﴿ نصير ﴾ ، والخبر الأول هو ﴿ لكم ﴾ .

وتقديم الخبرين للاهتمام بالخبر ولتعجيل يأسهم من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(82/687)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ ، قال : يوم القيامة أخروا إليه ، وفي قوله ﴿ روضات الجنة ﴾ قال : المكان الموفق .

أما قوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاؤون ﴾ .

أخرج ابن جرير ، عن أبي ظبية – رضي الله عنه – قال : إن السرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة ، فتقول ما أمطركم ؟ قال : فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم ، حتى أن القائل منهم ليقول : أمطرينا كواعب أترابا .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طريق طاوس ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه سئل عن قوله ﴿ إلا المودة في

القربى ﴾ فقال سعيد بن جبير : - رضي الله عنه - قربى آل محمد ، فقال ابن عباس : - رضي الله عنهما - عجلت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش ، إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم ، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن الشعبي - رضي الله عنه - قال : أكثر الناس علينا في هذه الآية ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ فكتبنا إلى ابن عباس - رضي الله عنه - نسأله ، فكتب ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان واسط النسب لي قريش ، ليس بطن من بطونهم ، إلا وقد ولدوه ، فقال الله ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ تودوني لقرابتي منكم وتحفظوني بها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني من طريق علي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ قال : "كان لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرابة من جميع قريش ، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه ، قال : يا قوم ، "إذا أبيتم أن تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم" .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق الضحاك ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : نزلت هذه الآية بمكة . وكان المشركون يؤذون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأنزل الله تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ، ﴿ لا أسألكم عليه ﴾ يعني على ما أدعوكم إليه ﴿ أجراً ﴾ عوضاً من الدنيا ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ إلا الحفظ لي في قرابتي فيكم ، قال : المودة إنما هي لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – في قرابته ، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يلحقه بإخوته من الأنبياء – عليهم السلام – فقال : ﴿ لا أسألكم عليه أجراً ﴾ فهو لكم ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ يعني ثوابه وكرامته في الآخرة ، كما قال نوح عليه السلام

﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ [الشعراء : 109]

وكما قال هود وصالح وشعيب : لم يستثنوا أجراً ، كما استثنى النبي صلى الله عليه وسلم ، فرده عليهم . وهي منسوخة .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق مجاهد - رضي الله عنه - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية ﴿ قل لا أسألكم ﴾ على ما أتيتكم به من البينات والهدى ﴿ أجراً ﴾ إلا أن تودوا الله ، وأن تتقربوا إليه بطاعته .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ قال : أن تتبعوني وتصدقوني وتصلوا رحمي .

(84/687)

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه من طريق العوفي ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية قال : إن محمداً قال : لقريش : " لا أسألكم من أموالكم شيئاً ، ولكن أسألكم أن تودوني لقرابة ما بيني وبينكم فإنكم قومي وأحق من أطاعني وأجابني " .

وأخرج ابن مردويه من طريق ابن المبارك ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ قال : تحفظوني في قرابتي .

وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية - قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في قريش بطن إلا وله فيهم أم ، حتى كانت له من

هذيل أم ، فقال الله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ إلا أن تحفظوني في قرابتي ، إن كذبتموني فلا تؤذوني .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق مقسم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا وكأنهم فخروا ، فقال ابن عباس – رضي الله عنهما – لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم في مجالسهم ، فقال يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : أفلا تجيبوني ؟ قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك ؟ أو لم يكذبوك فصدقناك ؟ أو لم يخذلوك فنصرناك ؟ فما زال يقول : حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا وما في أيدينا لله ورسوله ، فنزلت ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ " .

(85/687)

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير ، قال : قالت الأنصار فيما بينهم : لولا جمعنا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – مالاً يبسط يده لا يحول بينه وبينه أحد ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا أردنا أن نجمع لك من أموالنا ، فأنزل الله :

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ فخرجوا مختلفين ، فقالوا : لمن ترون ما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؟ فقال بعضهم : إنما قال هذا ، لنقاتل عن أهل بيته ، وننصرهم . فأنزل الله : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً ﴾ إلى قوله ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ فعرض لهم بالتوبة إلى قوله : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾ هم الذين قالوا هذا : أن يتوبوا إلى الله ويستغفرونه .

وأخرج أبو نعيم والديلمي من طريق مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ﴿ لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ " أن تحفظوني في أهل بيتي وتودّوهم بي " " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ قالوا : يا رسول الله ، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم ؟ قال : علي وفاطمة وولداها " .

وأخرج سعيد بن منصور ، عن سعيد بن جبير ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ قال : قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن أبي الديلم ، قال : لما جيء بعلي بن الحسين – رضي الله عنه – أسيراً ، فأقيم على درج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم

واستأصلكم ، فقال له علي بن الحسين – رضي الله عنه – أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : لا . قال : أما قرأت ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ قال : فإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم .

(86/687)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ ومن يقترف حسنة ﴾ قال : المودة لآل محمد .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي والحاكم ، عن المطلب بن ربيعة – رضي الله عنه – قال : " دخل العباس على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث ، فإذا رأونا سكتوا ، فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ودر عرق بين عينيه ، ثم قال : " والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان ، حتى يحبكم لله ولقرابتي " " .

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي ، عن زيد بن أرقم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أذكركم الله في أهل بيتي " .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن الأنباري في المصاحف ، عن زيد بن أرقم – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا

بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما " .

وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي " .

وأخرج البخاري ، عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال : ارقبوا محمداً – صلى الله عليه وسلم – في أهل بيته .

وأخرج ابن عدي ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أبغضنا أهل البيت فهو منافق " .

وأخرج الطبراني ، عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يبغضنا أحد ولا يحسدنا أحد ، إلا ذيد يوم القيامة بسياط من نار " .

وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل ، إلا أدخله الله النار " .

(87/687)

وأخرج الطبراني والخطيب من طريق أبي الضحى ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " جاء العباس إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : إنك قد تركت فينا ضغائن منذ صنعت الذي صنعت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يبلغوا الخير أو الإِيمان حتى يحبوكم " " .

وأخرج الخطيب من طريق أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " أتى العباس بن عبد المطلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ، إنا لنعرف الضغائن في أناس من قومنا ؛ من وقائع أوقعناها ، فقال : " أما والله إنهم لن يبلغوا خيراً حتى يحبوكم ، لقرابتي ، ترجو سليم شفاعتي ، ولا يرجوها بنو عبد المطلب " " .

وأخرج ابن النجار في تاريخه ، عن الحسن بن علي – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل شيء أساس وأساس الإِسلام حب أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحب أهل بيته " .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ قال : ما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يسألهم على هذا القرآن أجراً ، ولكنه أمرهم أن يتقربوا إلى الله ؛ بطاعته وحب كتابه .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان ، عن الحسن – رضي الله عنه – في الآية ، قال : كل من

تقرب إلى الله بطاعته وجبت عليه محبته .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن في قوله : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ قال : إلا التقرب إلى الله بالعمل الصالح .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة في الآية ، قال : كن له عشر أمهات في المشركات ، وكان إذا مر بهم أذوه في تنقيصهن وشتمهن ، فهو قوله : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ يقول : لا تؤذوني في قرابتي .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ إن الله غفور شكور ﴾ قال : غفور للذنوب شكور للحسنات يضاعفها .

(88/687)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة في قوله : ﴿ فإن يشإ الله يختم على قلبك ﴾ قال : إن يشإ الله أنساك ما قد آتاك ، والله تعالى أعلم .

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن الزهري في قوله : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله فيه العطش " .

وأخرج مسلم والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لله أفرح بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها " .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتى إذا اشتد عليه العطش والحر قال : ارجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فرجع ، فنام نومة ، ثم رفع رأسه ، فإذا راحلته عنده عليه زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده " .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه سئل عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوّجها ، قال : لا بأس به ثم قرأ ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان ، عن عتبة بن الوليد ، حدثني بعض الرهاويين قال : سمع جبريل عليه السلام ، خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وهو يقول : يا كريم العفو ، فقال : له جبريل عليه السلام ، وتدري ما كريم العفو ؟ قال : لا يا جبريل .

قال : " ان يعفو عن السيئة ويكتبها حسنة " .

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني ، عن الأخنس قال : امترينا في قراءة هذا الحرف ، ويعلم ما يفعلون أو تفعلون ، فأتينا ابن مسعود فقال : تفعلون .

وأخرج عبد بن حميد ، عن علقمة رضي الله عنه ، أنه قرأ في ﴿ حمعاساقا ﴾ ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ بالتاء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن سلمة بن سبرة رضي الله عنه قال : خطبنا معاذ رضي الله عنه ، فقال : أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنة والله إني لأطمع أن يكون عامة من تنصبون بفارس والروم في الجنة ؛ فإن أحدهم يعمل الخير ، فيقول أحسنت بارك الله فيك ، أحسنت رحمك الله ، والله يقول : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾ .

وأخرج ابن جرير من طريق قتادة ، عن أبي إبراهيم اللخمي في قوله : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قال يشفعون في إخوان اخوانهم .

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27)

أخرج ابن المنذر وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح ، عن أبي هانىء

الخولاني ، قال : سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون : إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ وذلك أنهم قالوا : لو أن لنا فتمنوا الدنيا .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي ، عن علي رضي الله عنه قال : إنما أنزلت هذه الآية ، في أصحاب الصفة ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ وذلك أنهم قالوا : لو أن لنا فتمنوا الدنيا .

(90/687)

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة في الآية قال : يقال خير الرزق ما لا يطغيك ، ولا يلهيك . قال : " ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وزخرفها " فقال له قائل : يا نبي الله ، هل يأتي الخير بالشر ؟ فأنزل الله عليه عند ذلك ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ وكان إذا نزل عليه ، كُرْبُ لذلك وتَرَبَّدَ وجهه ، حتى إذا سري عنه . قال : " هل يأتي الخير بالشر " ؟ يقولها ثلاثاً إن الخير لا يأتي إلا بالخير ، ولكنه والله ما كان ربيع قط إلا أحبط أو ألم ، فاما عبد أعطاه الله مالاً ، فوضعه في سبيل الله ، التي افترض وارتضى ، فذلك عبد أريد به خير ، وعزم له على الخير ، وأما

عبد أعطاه الله مالاً ، فوضعه في شهواته ولذاته ، وعدل عن حق الله عليه ، فذلك عبد أريد به شر وعزم له على شر " .

وأخرج أحمد والطيالسي والبخاري ومسلم والنسائي وأبو يعلى وابن حبان ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال له رجل : يا رسول الله ، أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأينا أنه ينزل عليه ، فقيل له : ما شأنك تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكلمك ؟ فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يمسح عنه الرحضاء ، فقال : " أين السائل فرأينا أنه حمده فقال : إن الخير لا يأتي بالشر ، وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطاً ، أو يلم الا آكلة الخضر ، فإنها أكلت حتى امتلأت خاصرتاها ، فاستقبلت عين الشمس ، فثلطت وبالت ، ثم رتعت وان المال حلوة خضرة ونعم صاحبها المسلم هو ، ان وصل الرحم وأنفق في سبيل الله ، ومثل الذي يأخذه بغير حقه ، كمثل الذي يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة " .

(91/687)

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ قال : كان يقال خير العيش ما لا يطغيك ولا يلهيك .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخه ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل عن الله عز وجل قال : " يقول الله عز وجل : من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرود ، وما تقرب إلي عبدي المؤمن ، بمثل أداء ما افترضت عليه ، وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه ، وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة ، فأكفه عنه أن لا يدخله عجب فيفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ، ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا القسم ، ولو أصححته لأفسده ذلك ، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير " .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا ﴾ قال : المطر .

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا قال لعمر رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ، قحط المطر وقنط الناس ، فقال عمر : مطرتم إذا ، ثم قرأ ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾ قال : يئسوا .

(92/687)

وأخرج ابن المنذر ، عن ثابت رضي الله عنه قال : بلغنا أنه يستجاب الدعاء عند المطر ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ .

وأخرج الحاكم والبيهقي في سننه ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثنتان ما تردان : الدعاء عند النداء وتحت المطر " .

وأخرج الطبراني والبيهقي ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء في أربعة مواطن : عند التقاء الصفوف في سبيل الله ، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلاة ، وعند رؤية الكعبة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما

بث فيهما من دابة ﴾ قال : الناس والملائكة . والله أعلم .

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30)

أخرج أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : " ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله ، حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وسأفسرها لك يا علي ، ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا ، فيما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا ، فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه " .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن البصري رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ما من خَدْش عودٍ ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر " .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي ، عن أبي موسى رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر " وقرأ ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الكفارات وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإِيمان ، عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، أنه دخل عليه بعض أصحابه وكان قد ابتلي في جسده ، فقال انا لنبأس لك لما نرى فيك قال : فلا تبتئس لما ترى ؛ وهو بذنب وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ .

وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب ، عن الضحاك قال : ما تعلم أحد القرآن ، ثم نسيه ، إلا بذنب يحدثه ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ وقال : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن ؟ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن العلاء بن بدر رضي الله عنه ، أن رجلاً سأله عن هذه الآية ؟ وقال : قد ذهب بصري وأنا غلام صغير . قال : ذلك بذنوب والديك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإِيمان ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾ الآية . قال : ذكر لنا ، أن نبي الله صلى الله عليه

وسلم كان يقول :

" لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر " .

وأخرج ابن مردويه ، عن البراء رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما عثرة قدم ولا اختلاج عرق ولا خدش عود ، إلا بما قدمت أيديكم ، وما يعفو الله عنه أكثر " .

وأخرج ابن سعد ، عن ابن أبي مليكة – رضي الله عنه – أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما – كانت تصدع ، فتضع يدها على رأسها وتقول بذنبي ، وما يغفره الله أكثر .

(94/687)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ قال : الحدود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(95/687)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل سبحانه على تمام قدرته واختياره وختم بنفي الشريك اللازم للوحدانية التي اعتقادها أساس الأعمال الصالحة ، دل عليها بأعظم الآيات عندهم وأوضحها في أنفسهم وأقربها إلى إفهامهم لما لهم من الإخلاص عندها فقال تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ أي الدالة على تمام قدرته واختياره ووحدانيته وعظيم سلطانه تسخيره وتذليله لسير الفلك فيه حاملة ما لا يحمله غيرها ، وهو معنى قوله : ﴿ الجوار ﴾ أي من السفن ، وهي من الصفات التي جرت مجرى الأعلام ، ودل على الموصوف ما بعده فلذلك حذف لأن القاعدة أن الصفة إذا لم تخص الموصوف امتنع حذفه فنقول : مررت بمهندس ، ولا تقول : مررت بماشٍ - إلا بقرينة كما هنا .

ولما كانت ثقيلة في أنفسها ، وكان يوضع فيها من الأحمال ما يثقل الجبال ، وكان كل ثقيل ليس له من ذاته إلا الغوص في الماء ، كانت كأنها فيه لا عليه لأنها جديرة بالغرق فقال تعالى محذراً من سطواته متعرفاً بجليل نعمته معرفاً بحقيقة الجواري : ﴿ في البحر كالأعلام ﴾ أي الجبال الشاهقة بما لها من العلو في نفسها عن الماء ثم بما يوصلها وما فيه من الشراع عليها من الارتفاع ، وقال الخليل : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم .

ولما كان كأنه قيل : وما تلك الآيات ؟ ذكر ما يخوفهم منها ويعرفهم أن جميع ما أباحهم إياه من شؤونها إنما هو بقدرته واختياره فقال : ﴿ إن يشاء ﴾ أي الله الذي حملكم فيها على ظهر الماء آية بينة سقط اعتبارها عندكم لشدة الفكر لها ﴿ يسكن الريح ﴾ التي يسيرها وانتم مقرّون أن أمرها ليس إلا بيده ﴿ فيظللن ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنهن يظللن أن يقمن ليلاً كان أو نهاراً ، ولعله عبر به مع أن أصله الإقامة نهاراً لأن النهار موضع الاقتدار على الأشياء وهو المنتظر عند كل متعسر للسعي في إزالة عسره وتيسر أمره ﴿ رواكد ﴾ أي ثوابت مستقرات من غير سير ﴿ على ظهره ﴾ ثباتاً ظاهراً بما دل عليه إثبات اللامين وفتح لامه الأولى للكل .

ولما كان ذلك موضع إخلاصهم الدعوة لله والإعراض عن الشركاء فإنهم كانوا يقولون في مثل هذا الحال : اخلصوا فإن آلهتكم – أي من الأصنام وغيرها من دون الله – لا تغني في البحر شيئاً ، وكانوا ينسبون ذلك شركاء مع طلوعهم إلى البر كانوا بمنزلة من لا يعد ذلك آية أصلاً ، فلذلك أكد قوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي ما ذكر من حال السفن في سيرها وركودها مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه بدليل ما للناس كافة من الإجماع على التوجه في ذلك إليه خاصة والانخلاع مما سواه ﴿ لآيات ﴾ أي على أن إحاطته سبحانه بجميع صفات الكمال أمر مركوز في العقول ثابت في الفطر الأولى مما لا يصد عنه إلا الهوى ، وعلى أن بطلان أمر ما دونه لذلك هو من الظهور بمكان لا يجهل .

ولما كانوا يتمادحون بالصبر على نوازل الحدثان والشكر لكل إحسان ويتذامون بالجزع والكفران ، وكان ذلك يقتضي ثباتهم على حال واحد فإن كان الحق عليهم لمعبوداتهم فرجوعهم عنها عند الشدائد مما لا ينحو نحوه ولا يلتفت لفتة أحد من كمل الرجال الذين يجانبون العار والاتسام بمسيم الإغمار ، وإن كان الحق كما هو الحق لله فرجوعهم عنه عند الرخاء بعد إنعامه عليهم بإنجائهم من الشدة لا يفعله ذو عزيمة ، قال مشيراً إلى ذلك بصيغتي المبالغة : ﴿ لكل صبار ﴾ أي في الشدة ﴿ شكور ﴾ أي في الرخاء وإن كثر مخالفوه ،

وعظم نزاعهم له ، وهاتان صفتا المؤمن المخلص الذي وكل همته بالنظر في الآيات فهو يستملي منها العبر ويجلو بها من البصيرة عين البصر .

(98/687)

ولما نبه بهذا الاعتراض بين الجزاء ومعطوفه على ما فيه من دقائق المعاني في جلائل المباني ، قال مكملاً لما في ذلك من الترغيب في صورة الترهيب : ﴿ أو ﴾ أي أو أن يشاء في كل وقت أراده ، واسند الإيباق إلى الجواري تأكيداً لإرادة العموم في هلاك الركاب فقال : ﴿ يوبقهن ﴾ أي يهلكهن بالإغراق بإرسال الريح وغير ذلك من التباريح حتى كأنهن بعد ذلك العلو في وقبه أي حفره ، وطاق في الماء وقعره ، وقد تقدم تحقيق معنى " وبق " بجميع تقاليبه في سورة الكهف ، ومنه أن وبق كوعد ووجل وورث وبوقاً وموبقاً : هلك ، والموبق كمجلس : المهلك وكل شيء حال بين شيئين لأن الوقبة تحول بين ما فيها وبين غيره ، ومنه قيل للموعد : موبق ، وأوبقه : حبسه أو أهلكه .

ولما كان الإهلاك لهن إهلاكاً للركاب ، قال مبيناً أنهم المقصودون مجرداً الفعل إشارة إلى أن ابن آدم لما طبع عليه من النقائص ليس له من نفسه فعل خال عن شوب نقص حثاً له على اللجوء إلى الله في تهذيب نفسه وإخلاص فعله : ﴿ بما كسبوا ﴾ أي فعلوا من المعاصي

بجدهم فيه واجتهادهم .

ولما كان التقدير تفصيلاً للإيباق : فيغرق كل من فيهن إن شاء ويغرق كثيراً منهم إن شاء عطف عليه قوله : ﴿ ويعف ﴾ أي إن يشاء ﴿ عن كثير ﴾ أي من الناس الذين في هذه السفن الموبقه ، فينجيهم بعوم أو حمل عى خشبة أو غير ذلك ، وإن يشأ يرسل الريح طيبة فينجيها ويبلغها أقصى المراد إلى غير ذلك من التقادير الداخلة تحت المشيئة ، فالفعل كما ترى عطف على يوبق ، وعطف بالواو لأنه قسم من حالي الموبقة ، وهو بمعنى ما ورى عن أهل المدينة من نصب " يعفو " بتقدير " إن " ليكون المعنى : يوقع إيباقاً وعفواً .

(99/687)

ولما كان هذا كله على صورة الاختبار لن يستبصر فيدوم إخلاصه ، ومن يرجع إلى العمى فلا يكون خلاصه ، قال مبيناً بالنصب للصرف عن العطف على شيء من الأفعال الماضية لفساد المعنى لكونها في حيز الشرط ، فيصير العلم أيضاً مشروطاً : ﴿ ويعلم الذين يجادلون ﴾ أي عند النجاة بالعفو .

(100/687)

ولما كان مقام العظمة شديد المنافاة للمجادلة ، لفت القول إليه فقال : ﴿ في آياتنا ﴾ أي هذه التي لا تضاهي عظمتها ولا تقايس جلالتها وعزتها رجوعاً إلى ما كانوا عليه من الشرك والنزاع في تمام القدرة بإنكار البعث ، ومن واو الصرف يعرف أن مدخولها مفرد في تأويل المصدر لأن النصب فيها بتقدير أن فيكون مبتدأ خبره ما يدل عليه السياق فالتقدير هنا : وعلمه سبحانه بالمجادلين عند هذا حاصل ، والتعبير عنه بالمضارع لإفادة الاستمرار لتجدد تعلق العلم بكل مجادل كلما حصل جدال ، وقراءة نافع وابن عامر بالرفع دالة على هذا ، فإن التقدير : وهو يعلم – فالرفع هنا والنصب سواء ، قال الرضي في شرح قول ابن الحاجب في نواصب الفعل : والفاء – أي ناصبة – بشرطين : السببية ، والثاني أن يكون قبلها أحد الأشياء الثمانية ، والواو الواقعتين بعد الشرط قبل الجزاء نحو أن تأتني فتكرمني أو تكرمني أنت ، أو بعد الشرط والجزاء : إن تأتني إنك فأكرمك أو وأكرمك ، وذلك لمشابهة الشرط في الأول والجزاء في الثاني النفي ، إذ الجزاء مشروط ووجوده بوجود الشرط ، ووجود الشرط مفروض ، فكلاهما غير موصوفين بالوجود حقيقة ، وعليه حمل قوله تعالى ﴿ ويعلم الذين ﴾ في قراءة النصب ، ثم قال : وكذا يقول في الفعل المنصوب بعد واو الصرف أنهم لما قصدوا فيها معنى الجمعية نصبوا المضارع بعدها ليكون الصرف عن سنن الكلام المتقدم مرشداً من أول الأمر أنها ليست للعطف فهي إذن إما واو

الحال وأكثر دخولها على الاسمية فالمضارع بعدها في تقدير مبتدأ محذوف الخبر وجوباً ، فمعنى قم وأقوم : قم وقيامي ثابت : أي في حال ثبوت قيامي ، وأما بمعنى مع وهي لا تدخل إلا على الاسم قصدوا ها هنا مصاحبة الفعل للفعل منصوباً ما بعدها ، فمعنى قم وأقوم : قم مع قيامي كما قصدوا في المفعول معه مصاحبة الاسم للاسم فنصبوا ما بعد الواو ، ولو جعلنا الواو عاطفة للمصدر متصيد من الفعل قبله النجاة ، أي لم يكن منك قيام

(101/687)

وقيام مني ، لم يكن فيه نصوصية على معنى الجمع ، والأولى في قصد النصوصية في شيء على معنى أن يجعل على وجه يكون ظاهراً فيما قصدوا النصوصية عليه ، وإنما شرطوا في نصب ما بعد فاء السببية كون ما قبلها أحد الأشياء المذكورة أي الأمر والنهي والنفي والاستفهام والتمني والعرض والتحضيض والرجاء لأنها غير حاصلة المصادر فتكون كالشرط الذي ليس بمتحقق الوقوع ، ويكون ما بعد الفاء كجزائها ثم حملوا ما قبل واو الجمعية في وجوب كون أحد الأشياء المذكورة على ما قبل فاء السببية التي هي أكثر استعمالاً من الواو في مثل هذا الموضع أعني في انتصاب المضارع بعدها ، وذلك لمشابهة الواو للفاء في أصل العطف ، وفي صرف ما بعدهما عن سنن العطف لقصد السببية في

إحداهما والجمعية في الأخرى ، ولقرب الجمعية من التعقب الذي هو لازم السببية ثم قال : وكذا ربما لم يصرف بعد واو الحال قد تدخل على المضارع المثبت كما ذكرنا في باب الحال ، نحو قمت وأضرب زيداً أي وأنا أضرب .

ولما كان علم القادر بالمعصية موجباً لعذاب من عصاه ، كان كأنه قيل : قد خسر من فعل ذلك فيا ليت شعري ما يكون حالهم ؟ أجاب بقوله : ﴿ ما لهم من محيص ﴾ أي محيد ومفر أصلاً عن عذابه ، ولا بشيء يسير ، وإن تأخر في نظركم إيقاع العذاب بهم فإن عذابه سبحانه منه ما هو باطن وهو الاستدراج بالنعم وهذا لا يدركه إلا أرباب القلوب المقربون لدى علام الغيوب ، ومنه ما هو ظاهر ، ويجوز أن يكون " الذين " فاعل " يعلم " ، وحينئذ تكون هذه الجملة في محل نصب لسدها مسد مفعول العلم . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 633.636 ﴾

(102/687)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وأبو عمرو ﴿ الجواري ﴾ بياء في الوصل والوقف ، فإثبات الياء في الأصل وحذفها للتخفيف .

المسألة الثانية :

الجواري ، يعني السفن الجواري ، فحذف الموصوف لعدم الالتباس .

المسألة الثالثة :

اعام أنه تعالى ذكر من آياته أيضاً هذه السفن العظيمة التي تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح ، واعلم أن المقصود من ذكره أمران أحدهما : أن يستدل به على وجود القادر الحكيم والثاني : أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد أما الوجه الأول : فقد اتفقوا على أن المراد بالأعلام الجبال ، قالت الخنساء في مرثية أخيها :

وإن صخراً لتأتم لهداة به . . كأنه علم في رأسه نار

ونقل أن النبي صلى الله عليه وسلم استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوي إلى هذا البيت ، قال : " قاتلها الله ما رضيت بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً ! "

إذا عرفت هذا فنقول : هذه السفن العظيمة التي تكون كالجبال تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه ، وعند سكون هذه الرياح تقف ، وقد بينا بالدليل في

سورة النحل ، أن محرك الرياح ومسكنها هو الله تعالى ، إذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها ، وذلك يدل على وجود الإله القادر ، وأيضاً أن السفينة تكون في غاية الثقل ، ثم إنها مع ثقلها بقيت على وجه الماء ، وهو أيضاً دلالة أخرى وأما الوجه الثاني : وهو معرفة ما فيها من المنافع ، فهو أنه تعالى خص كل جانب من جوانب الأرض بنوع آخر من الأمتعة ، وإذا نقل متاع هذا الجانب إلى ذلك الجانب في السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة في التجارة ، فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة .

(103/687)

ثم قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ قرأ أبو عمرو والجمهور : بهمزة ﴿ إِن يَشَأْ ﴾ لأن سكون الهمزة علامة للجزم ، وعن ورش عن نافع بلا همزة ، وقرأ نافع وحده ﴿ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ ﴾ على الجمع ، والباقون ﴿ الرِّيحَ ﴾ على الواحد ، قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ يظللن ﴾ بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل ، وقوله تعالى : ﴿ رَوَاكِدَ ﴾ أي رواتب ، أي لا تجري على ظهره ، أي على ظهر البحر ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على بلاء الله ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعمائه ، والمقصود التنبيه ، على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلاً عن دلائل معرفة الله ألبتة ، لأنه لا بد وأن يكون إما في البلاء ،

وإما في الآلاء ، فإن كان في البلاء كان من الصابرين ، وإن كان من النعماء كان من الشاكرين ، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون ألبتة من الغافلين .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يعني أو يهلكهن ، يقال أوبقه ، أي أهلكه ، ويقال للمجرم أوبقته ذنوبه ، أي أهلكته ، والمعنى أنه تعالى إن شاء ابتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين : إما أن يسكن الريح فتركد الجواري على متن البحر وتقف ، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيها فيهلكن بسبب الإغراق ، وعلى هذا التقدير فقوله ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ معطوف على قوله ﴿ يُسْكِنِ ﴾ لأن التقدير إن يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها ، وقوله ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ معناه إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً عن طريق العفو عنهم ، فإن قيل فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جعل مجزوماً مثله ، قلنا معناه إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم ، وأما من قرأ ﴿ ويعفو ﴾ فقد استأنف الكلام .

(104/687)

ثم قال : ﴿ وَيَعْلَمَ الذين يجادلون فِى ءاياتنا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ قرأ نافع وابن عامر : يعلم بالرفع على الاستئناف ، وقرأ الباقون بالنصب ، فالقراءة بالرفع على الاستئناف ، وأما

بالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون في آياتنا والعطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم : 21] وقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ السموات والأرض بالحق ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية : 22] قال صاحب "الكشاف" : ومن قرأ على جزم ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ فكأنه قال أو إن يشأ ، يجمع بين ثلاثة أمور : هلاك قوم ، ونجاة قوم ، وتحذير آخرين .

إذا عرفت هذا فنقول معنى الآية ﴿ وَيَعْلَمَ الذين يجادلون ﴾ أي ينازعون على وجه التكذيب ، أن لا مخلص لهم إذا وقفت السفن ، وإذا عصفت الرياح فيصير ذلك سبباً لاعترافهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 150 . 151 ﴾

(105/687)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام ﴾

أي ومن علاماته الدالة على قدرته السفنُ الجارية في البحر كأنها من عظمها أعلام .

والأعلام : الجبال ، وواحد الجواري جارية ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة : 11] .

سُمّيت جارية لأنها تجري في الماء .

والجارية : هي المرأة الشابة ؛ سُميت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب .

وقال مجاهد : الأعلام القصور ، واحدها علم ؛ ذكره الثعلبي .

وذكر الماوَرْدي عنه أنها الجبال .

وقال الخليل : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم .

قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً :

وإنّ صخراً لتأتمّ الهُداة به . . .

كأنه علَمٌ في رأسه نار

"إِن يشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ" كذا قرأه أهل المدينة "الرِّيَاح" بالجمع .

﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ ﴾ أي فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجري .

رَكَد الماء ركوداً سكن .

وكذلك الريح والسفينة ، والشمس إذا قام قائم الظهيرة .

وكّل ثابت في مكان فهو راكد .

وركد الميزان استوى .

وركد القوم هَدءوا .

والمراكد : المواضع التي يَرْكُد فيها الإنسان وغيره .

وقرأ قتادة "فَيَظْلِلْنَ" بكسر اللام الأولى على أن يكون لغة ، مثل ضَلِلت أضِل .

وفتح اللام وهي اللغة المشهورة .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي صبار على البَلْوَى شكور على النعماء .

قال قُطْرُب : نعم العبد الصبار الشكور ، الذي إذا أعطِي شكر وإذا ابتلي صبر .

قال عَوْن بن عبد الله : فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلى غير صابر .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق السفن ؛ أي يغرقهن بذنوب أهلها .

وقيل : يوبق أهل السفن .

﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ من أهلها فلا يغرقهم معها ؛ حكاه الماوردي .

وقيل : "وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ" أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك .

قال القُشَيرِيّ : والقراءة الفاشية "وَيَعْفُ" بالجزم ، وفيها إشكال ؛ لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ويهلكها بذنوب أهلها ، فلا يحسن عطف "يَعْفُ" على هذا لأنه يصير المعنى : إن يشأ يعف ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة ، فهو إذاً عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى .

وقد قرأ قوم "ويعفو" بالرفع ، وهي جيدة في المعنى .

﴿ وَيَعْلَمَ الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ يعني الكفار ؛ أي إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى الله ، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة .

وقد مضى هذا المعنى في غير موضع ، ومضى القول في ركوب البحر في "البقرة" وغيرها بما يغني عن إعادته .

وقرأ نافع وابن عامر "وَيَعْلَمُ" بالرفع ، الباقون بالنصب .

فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء ؛ كقوله في سورة التوبة : ﴿ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 14] ثم قال : ﴿ وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة : 15] رفعاً .

ونظيره في الكلام : إن تأتني آتك وينطلقُ عبد الله .

أو على أنه خبر ابتداء محذوف .

والنصب على الصرف ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً كراهيةً لتوالي الجزم ؛ كقول النابغة :

فإن يَهْلِك أبو قابوسَ يَهلِكْ . . .

ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ

ويُمْسِكْ بعده بذِناب عَيْشٍ . . .

أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنام

وهذا معنى قول الفرّاء ، قال : ولو جزم "ويعلم" جاز .

وقال الزجاج : نصب على إضمار "أن" لأن قبلها جزماً ؛ تقول : ما تصنعْ أصنعْ مثله وأكرمَك .

(107/687)

وإن شئت قلت : وأكرمْك بالجزم .

وفي بعض المصاحف "وليعلم" .

وهذا يدل على أن النصب بمعنى : وليعلم أو لأن يعلم .

وقال أبو علي والمبرّد : النصب بإضمار "أن" على أن يجعل الأوّل في تقدير المصدر ؛ أي ويكون منه عَفْوٌ وأن يعلم فلما حمله على الاسم أضمر أن ، كما تقول : إن تأتني وتعطيني أمرك ، فتنصب تعطيني ؛ أي إن يكن منك إتيان وأن تعطيني .

ومعنى ﴿ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي من فرار ومهرب ؛ قاله قُطْرُب .

السدي : من ملجأ .

وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به .

ومنه قولهم : فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(108/687)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْ ءاياته الجوار ﴾

أي السفن الجواري أي الجارية فهي صفة لموصوف محذوف لقرينة قوله تعالى : ﴿ فِى البحر ﴾ وبذلك حسن الحذف وإلا فهي صفة غير مختصة والقياس فيها أن لا يحذف

الموصوف وتقوم مقامه ، وجوز أبو حيان أن يقال : إنها صفة غالبة كالابطح وهي يجوز فيها أن تلى العوامل بغير ذكر الموصوف ، و ﴿ فِى البحر ﴾ متعلق بالجواري وقوله تعالى : ﴿ كالاعلام ﴾ في موضع الحال .

وجوز أن يكون الأول أيضاً كذلك ، والاعلام جمع علم وهو الجبل وأصله الأثر الذي يعلم به الشيء كعلم الطريق وعلم الجيش وسمى الجبل علماً لذلك ولا اختصاص له بالجبل الذي عليه النار للاهتداء بل إذا أريد ذلك قيد كما في قول الخنساء :

وإن صخر التأتم الهداة به . . .

كأنه علم في رأسه نار

وفيه مبالغة لطيفة ، وحكى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما سمعه : قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً .

وقرأ نافع وأبو عمرو الجواري بياء في الوصل دون الوقف .

وقرأ ابن كثير بها فيهما والباقون بالحذف فيهما والإثبات على الأصل والحذف للتخفيف ، وعلى كل فالأعراب تقديري وسمع من بعض العرب الأعراب على الراء .

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِيح ﴾ التي تجري بها ويعدم سبب تموجها وهو تكاثف الهواء الذي كان في المحل الذي جرت إليه وتراكم بعضه على بعض وسبب ذلك التكاثف إما انخفاض درجة حرارة الهواء فيقل تمدده ويتكاثف ويترك أكثر المحل الذي كان مشغولاً به خلياً وإما

تجمع فجائي يحصل في الأبخرة المنتشرة في الهواء فيخلو محلها ، وهذا على ما قيل أقوى الأسباب فإذا وجد الهواء أمامه فراغاً بسبب ذلك جرى بقوة ليشغله فتحدث الريح وتستمر حتى تملأ المحل وما ذكر في سبب التموج هو الذي ذكره فلاسفة العصر .

(109/687)

وأما المتقدمون فذكروا أشياء أخر ، ولعل هناك أسباباً غير ذلك كله لا يعلمها إلا الله عز وجل ، والقول بالأسباب تحريكاً واسكاناً لا ينافي إسناد الحوادث إلى الفاعل المختار جل جلاله وعم نواله .

وقرأ نافع ﴿ الرياح ﴾ جمعا ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ ﴾ فيصرن ثوابت على ظهر البحر أي غير جاريات لا غير متحركات أصلاً ، وفسر بعضهم ﴿ يظللن ﴾ ببيقين فيكون ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ ﴾ حالا والأول أولى .

وقرأ قتادة ﴿ فَيَظْلَلْنَ ﴾ بكسر اللام والقياس الفتح لأن الماضي مكسور العين فالكسر في المضارع شاذ ، وقال الزمخشري : هو من ظلل يظل بالفتح والكسر نحو ضل بالضاد يضل ويضل ، وتعقبه أبو حيان بأنه ليس كما ذكر لأن يضل بالفتح من ضللت بالكسر ويضلل بالكسر من ضللت بالفتح وكلاهما مقيس ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر من السفن

المسخرة في البحر تحت أمره سبحانه وحسب مشيئته تعالى : ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمة كثيرة على عظمة شؤنه عز وجل ﴿ لّكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ لكل من حبس نفسه عن التوجه إلى ما لا ينبغي ووكل همته بالنظر في آيات الله تعالى والتفكر في آلائه سبحانه فالصبر هنا حبس مخصوص والتفكر في نعمه تعالى شكر .

ويجوز أن يكون قد كني بهذين الوصفين عن المؤمن الكامل لأن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر .

وذكر الإمام أن المؤمن لا يخلو من أن يكون في السراء والضراء فإن كان في الضراء كان من الصابرين وان كان في السراء كان من الشاكرين .

(110/687)

﴿ أَوْيُوبِقْهُنَّ ﴾ عطف على ﴿ يُسْكِنِ ﴾ [الشورى : 33] أي أو يهلكهن بارسال الريح العاصفة المغرقة ، والمراد على ما قال غير واحد اهلاك أهلها إما بتقدير مضاف أو بالتجوز باطلاق الملح على حاله أو بطريق الكناية لأنه يلزم من إهلاكها إهلاك من فيها والقرينة على إرادة ذلك قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ وأصله أو يرسلها أي الريح فيوبقهن لأنه قسيم يسكن فاقتصر فيه على المقصود من إرسالها عاصفة وهو إما إهلاكهم أو

انجاؤهم المراد من قوله تعالى : ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ إذا المعنى أو يرسلها فيوبق ناساً بذنوبهم وينج ناساً على طريق العفو عنهم وبهذا ظهر وجه جزم ﴿ يعف ﴾ لأنه بمعنى ينج معطوف على يوبق ، ويعلم وجه عطف بالواو لأنه مندرج في القسيم وهو ارسالها عاصفة ، وعلى هذا التفسير تكون الآية متضمنة لإسكانها ولإرسالها عاصفة مع الإهلاك والإنجاء وإرسالها باعتدال معلوم من قوله سبحانه الجواري فإنها المطلوب الأصلي منها .

وقال بعض الأجلة : التحقيق أن ﴿ يعف ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ يُسْكِنِ الريح ﴾ [الشورى : 33] إلى قوله سبحانه : ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ ولذا عطف بالواو لا بأو والمعنى إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الاعصاف وإن يشأ يعف عن كثير .

وجوز بعضهم حمل ﴿ يُوبِقْهُنَّ ﴾ على ظاهره لأن السفن من جملة أموالهم التي هلاكها والخسارة فيها بذنوبهم أيضاً وجعل الآية مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ ﴾ [الشورى : 30] الخ .

(111/687)

وقرأ الأعمش ﴿ يَعْفُوَ ﴾ بالواو الساكنة آخره على عطفه على مجموع الشرط والجواب دون الجواب وحده كما في قراءة الجزم ، وعن أهل المدينة أنهم قرؤوا ﴿ يَعْفُوَ ﴾ بالواو المفتوحة على أنه منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الواو والعطف على هذه القراءة على مصدر متصيد مت الكلام السابق كأنه قيل : يقع وهو من العطف على المعنى وهذا مذهب البصريين في مثل ذلك وتسمى هذا الواو واو الصرف لصرفها عن عطف الفعل المجزوم قبلها إلى عطف مصدر على مصدر ، ومذهب الكوفيين أن الواو بمعنى أن المصدرية ناصبة للمضارع بنفسها .

واختار الرضى أن الواو أما واو الحال والمصدر بعدها مبتدأ خبره مقدر والجمالة حالية أو واو المعية وينصب بعدها الفعل لقصد الدلالة على معية الأفعال كما أن الواو في المفعول معه دالة على مصاحبة الأسماء فعدل به عن الظاهر ليكون نصاً في معنى الجمعية ، والمشهور اليوم على ألسنة المعربين مذهب البصريين وعليه خرج أبو حيان النصب في هذه القراءة وكذا خرج غير واحد ومنهم ازلجاج النصب في قوله تعالى :

﴿ وَيَعْلَمَ الذين يجادلون فِى ءاياتنا مَا لَهُمْ مّن مَّحِيصٍ ﴾ أي من مهرب ومخلص من العذاب على ذلك ، وجعلوا الجزاء بمنزلة الإنشاء كالاستفهام فكأنه تقدم أحد الأمور الستة ولم يرتض ذلك الزمخشري وقال : فيه نظر لما أورده سيبويه في الكتاب قال : واعلم أن النصب

بالفاء والواو في قوله : إن تأتني آتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله :

وألحق بالحجاز فاستريحا . . .

(112/687)

فهذا تجوز ولا بحد الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزاء صار أقوى لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعف ، ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة انتهى ، وخرج هو النصب في ﴿ يَعْلَمْ ﴾ على العطف على علة مقدرة قال : أي لينتقم منهم ويعلم الذين الخ ، وكم من نظير له في القرآن العظيم إلا أن ذلك مع وجود حرف التعليل كقوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ءايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم : 21] وقوله سبحانه : ﴿ خَلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحق وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية : 22] .

وقال أبو حيان : يبعد هذا التقدير أنه ترتب على الشرط اهلاك قوم ونجاة قوم فلا يحسن لينتقم منهم .

وأجيب بأن الآية مخصوصة بالمجرمين فالمقصود الهلاك ويجوز أن يقدر ليظهر عظيم قدرته

تعالى ويعلم الذين يجادلون فلا يرد عليه ما ذكر ويحسن ذلك التقدير في توجيه النصب في ﴿ يَعْفُوَ ﴾ على ما روي عن أهل المدينة إذا خدش التوجيه السابق بما نقل عن سيبويه فيقال : إنه عطف على تعليل مقدر أي لينتقم منهم ويعفو عن كثير ، وقراءة النصب في ﴿ يَعْلَمْ ﴾ هي التي قرأ بها أكثر السبعة .

وقرأ نافع .

وابن عامر .

وأبو جعفر .

والأعرج .

وشيبة .

(113/687)

وزيد بن علي بالرفع ، وقرر في الكشف وجهه بأنه على عطف يعلم على مجموع الجملة الشرطية على معنى ومن آياته الدالة على كمال القدرة السفن في البحر ثم ذكر وجه الدلالة وأنها مسخرة تحت أمره سبحانه تارة بتضمن نفع من فيها وتارة بالعكس ثم قال جل وعلا ويعلم الذين يعاندون ولا يعترفون بآيات الله تعالى الباهرة بدل قوله سبحانه فيها بالضمير

الراجع إلى الآية المبحوث عنها شهادة بأنها من آيات الله تعالى وزيادة للتحذير وذم الجدال فيها وليكون على أسلوب الكناية على نحو العرب لاحفر الذمم فكأنه لما قيل : ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ [الشورى : 33] وذكر سبب الدلالة صار في معنى يعلمها ويعترف بها المتدبرون في آياتنا المسترشدون ويعلم المجادلون فيها المنكرون ما لهم من محيص ، وجاز أن يجعل عطفاً على قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءاياته الجوار ﴾ [الشورى : 32] وتجعل هذه وحدها آيات لتضمنها وجوهاً من الدلالة أقميت مقام المضمر ، والمعنى ومن آياته الجوار ويعلم المجادلون فيها ، واعترض بين المعطوف والمعطوف عليه ببيان وجه الدلالة ليدل على موجب وعيد المجادل وعلى كونه آية بل آيات ، ونقل عن أن الحاجب أنه يجوز أن يكون الرفع بالعطف على موضع الجزاء المتقدم باعتبار كونه جملة لا باعتبار عطف مجرد الفعل ليجب الجزم فتكون الجملتان مشتركتين في المسببية ، وفيه بحث يعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وقرىء ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ بالجزم .

وخرج على العطف على ﴿ يعف ﴾ وتسببه عن الشرط باعتبار تضمن الأخبار عن علم المجادلين بما يحل بهم في المستقبل الوعيد والتحذير كما قيل :

سوف ترى إذا انجلى الغبار . . .

أفرس تحتك أم حمار

ومرجع المعنى على ذلك أنه تعالى إن يشأ يعصف الريح فيغرق بعضاً وينج آخرين عفواً ويحذر جماعة أخرى .

(114/687)

واعترض بأن التخصيص بالمجادلين في هذا التحذير غير لائح ، وأيضاً علمهم بأن لا محيص من عذاب الله تعالى على تقدير عصف الريح بأهل السفن على سبيل العبرة ولا اختصاص لها بهم ولا بهذا المقدور خاصة .

وأجيب عن الأول بأن التخصيص بالمجادلين لأنهم أولى بالتحذير ، وعن الأخير بأنه أريد أن البر والبحر لا ينجيان من بأسه عز وجل فهو تعميم ، واختار في الكشف كون التخريج على أن الآية في الكافرين بمعنى إن يشيعصف الريح فيغرق بعضهم وينج آخرين منهم عفواً ويعلموا ما لهم من محيص فلا يغتروا بالنجاة والعفو في هذه المرة ، فالمجادلون هم الكثير الناجون أو بعضهم وهو على منوال قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخرى ﴾ [الإسراء : 69] الآية ، ومن مجموع ما سمعت يلوح لك ضعف هذه القراءة ولهذا لم يقرى بها في السبعة ، والظاهر على القراءات الثلاث أن فاعل ﴿ يَعْلَمُ الذين ﴾ وجملة ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ سادة مسد المفعولين .

وفي الدر المصون أن الجملة في قراءة الرفع تحتمل الفعلية وتحتمل الاسمية أي وهو يعلم الذين ، ولا يخفى أن الظاهر على الاهتمال الثاني كون "الذين" مفعولاً أولاً والجملة مفعولاً ثانياً والفاعل ضمير تعالى المستتر ، وأوجب بعضهم هذا على قراءة الجزم وعطف "يعلم" على "يعف" لئلا يخرج الكلام عن الانتظام ويظهر قصد التحذير لشيوع أن علم الله تعالى يكون كناية عن المجازاة وهو كما ترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(115/687)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) ﴾

لما جرى تذكيرهم بأنّ ما أصابهم من مصيبة هو مسبب عن اقتراف أعمالهم ، وتذكيرهم بحلول المصائب تارة وكشفها تارة أخرى بقوله : ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : 30] ، وأعقب بأنهم في الحالتين غير خارجين عن قبضة القدرة الإلهية سيق لهم ذكر هذه الآية جامعة مثالاً لإصابة المصائب وظهور مخائلها المخيفة المذكّرة بما يغفلون عنه من قدرة الله والتي قد تأتي بما أُنذروا به وقد تنكشف عن غير ضر ، ودليلاً على عظيم قدرة الله تعالى وأنه لا محيص عن إصابة ما أراده ، وإدماجاً للتذكير بنعمة السير في البحر وتسخير البحر

للناس فإن ذلك نعمة ، قال تعالى : ﴿ والفُلْكِ التي تجري في البحر بما يَنْفَعُ الناس ﴾ في سورة البقرة (164) ، فكانت هذه الجملة اعتراضاً مثل جملة ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض ﴾ [الشورى : 29] .

والآيات : الأدلة الدالة على الحق .

والجواري : جمع جارية صفة لمحذوف دل عليه ذكر البحر ، أي السفن الجواري في البحر كقوله تعالى في سورة الحاقة (11) ﴿ إنّا لَمَّا طَغَى الماء حملناكم في الجارية ﴾ وعُدل عن : الفلك إلى ﴿ الجواري ﴾ إيماء إلى محل العبرة لأن العبرة في تسخير البحر لجريها وتفكير الإنسان في صنعها .

والأعلام : جمع عَلَم وهو الجبل ، والمراد : بالجواري السفن العظيمة التي تسع ناساً كثيرين ، والعبرة بها أظهر والنعمة بها أكثر .

وكتبت كلمة ﴿ الجوار ﴾ في المصحف بدون ياء بعد الراء ولها نظائر كثيرة في القرآن في الرسم والقراءة ، وللقراء في أمثالها اختلاف هي التي تُدعى عند علماء القراءات بالياءات الزوائد .

وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿ الجواري ﴾ في هذه السورة بإثبات الياء في حالة الوصل وبحذفها في حالة الوقف .

وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء في الحالين .

وقرأ الباقون بحذفها في الحالين .

(116/687)

وإسكان الرياح : قطع هبوبها ، فإن الريح حركة وتموّج في الهواء فإذا سكن ذلك التموّج فلا ريح .

وقرأ نافع ﴿ الرِيَاح ﴾ بلفظ الجمع .

وقرأه الباقون ﴿ الريح ﴾ بلفظ المفرد .

وفي قراءة الجمهور ما يدل على أن الريح قد تطلق بصيغة الإفراد على الريح الخير ، وما قيل : إن الرياح للخير والريح للعذاب في القرآن هو غالب لا مطّرد .

وقد قرىء في آيات أخرى الرياح والريح في سياق الخير دون العذاب .

وقرأ الجمهور ﴿ يشأ ﴾ بهمزة ساكنة .

وقرأه ورش عن نافع بألف على أنه تخفيف للهمزة .

والرواكد : جمع راكدة ، والركود : الاستقرار والثبوت .

والظَهْر : الصلب للإنسان والحيوان ، ويطلق على أعلى الشيء إطلاقاً شائعاً .

يقال : ظَهْر البيت ، أي سطحه ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ [البقرة : 189] .

وأصله : استعارة فشاعت حتى قاربت الحقيقة ، فظَهْر البحر سطح مائه البادي للناظر ، كما أطلق ظهْر الأرض على ما يبدو منها ، قال تعالى : ﴿ ما تَرك على ظهرها من دابّة ﴾ [فاطر : 45] .

وجُعل ذلك آيةً لكل صبّار شكور لأن في الحالتين خوفاً ونجاة ، والخوف يدعو إلى الصبر ، والنجاةُ تدعو إلى الشكر .

والمراد : أن في ذلك آيات لكل مؤمن متخلق بخُلق الصبر على الضرّاء والشكرِ للسرّاء ، فهو يعتبر بأحوال الفُلْك في البحر اعتباراً يقارنه الصبر أو الشكر .

وإنما جعل ذلك آية للمؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بتلك الآية فيعلمون أن الله منفرد بالإلهية بخلاف المشركين فإنها تمر بأعينهم فلا يعتبرون بها .

وقوله : أو يوبقهن ﴾ عطف على جزاء الشرط .

و ﴿ يوبقهن ﴾ : يهلكهن .

والإيباق : الإهلاك ، وفعله وَبَق كوَعد .

والمراد به هنا الغرق ، فيجوز أن يكون ضمير جماعة الإناثِ عائداً إلى ﴿ الجواري ﴾ على أن يستعار الإيباق للإغراق لأنّ الإغراقَ إتلاف .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى الراكبين على تأويل معاد الضمير بالجماعات بقرينة قوله : ﴿ بما كسبوا ﴾ فهو كقوله : ﴿ وعلى كل ضامرٍ يأتين من كلّ فجّ عميق ليشهدُوا منافع لهم ﴾ [الحج : 27] .

والباء للسببية وهو في معنى قوله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : 30] .

ويعف عن كثير ﴾ عطف على ﴿ يوبقهن ﴾ فهو في معنى جزاء للشرط المقدّر ، أي وإن يشأ يعفُ عن كثير فلا يوبقهم مع استحقاقهم أن يُوبَقوا .

وهذا العطف اعتراض .

(35) ﴿ كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ الذين يجادلون فى ءاياتنا مَا لَهُمْ ﴾ .

قرأ نافع وابن عامر ويعقوب برفع ﴿ ويعلمُ ﴾ على أنه كلام مستأنف .

وقرأه الباقون بالنصب .

فأما الاستئناف على قراءة نافع وابن عامر ويعقوب فمعناه أنه كلام أُنُف لا ارتباط له بما قبله ، وذلك تهديد للمشركين بأنهم لا محيص لهم من عذاب الله لأنه لما قال : ﴿ ومن آياته

الجواري في البحر ﴾ [الشورى : 32] صار المعنى : ومن آيات انفراده بالإلهية الجواري في البحر .

والمشركون يجادلون في دلائل الوحدانية بالإعْراض والانصراف عن سماعها فهددهم الله بأن أعلمهم أنهم لا محيص لهم ، أي من عذابه ، فحُذف متعلق المحيص إيهاماً له تهويلاً للتهديد لتذهب النفس كل مذهب ممكن فيكون قوله : ويعلم الذين يجادلون ﴾ خبَراً مراداً به الإنشاء والطلب فهو في قوة : وليعلمْ الذين يجادلون ، أو اعلموا يا من يجادلون ، وليس خبراً عنهم لأنهم لا يؤمنون بذلك حتى يعلموه .

وأما قراءة النصب فهي عند سيبويه وجمهور النحاة على العطف على فعلٍ مدخول للام التعليل ، وتضمَّن (أنْ) بعده .

والتقدير : لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون الخ .

(118/687)

وسموا هذه الواو واو الصَّرفْ لأنها تصرف ما بعدها عن أن يكون معطوفاً على ما قبلها ، إلى أن يكون معطوفاً على فعل متصيَّد من الكلام ، وهذا قول سيبويه في باب ما يرتفع بين الجزمين وينجزم بينهما ، وتبعه في "الكشاف" ، وذهب الزجاج إلى أن الواو واو المعية التي

ينصب الفعل المضارع بعدها بـ (أن) مضمرة .

ويجوز أن يجعل الخبر مستعملاً في مقاربة المخبر به كقولهم : قد قامت الصلاة ، فلما كان علمهم بذلك يوشك أن يَحصل نُزّل منزلة الحاصل فأخبر عنهم به ، وعلى هذا الوجه يكون إنذاراً بعقاب يحصل لهم قريب وهو عذاب السيف والأسْر يوم بدر .

وذكر فعل ﴿ يعلَم ﴾ للتنويه والاعتناء بالخبر كقوله تعالى : ﴿ واعْلموا أنكم ملاقُوه ﴾ في سورة البقرة (223) ، وقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ في سورة الأنفال (41) ، وقول النبي حين رأى أبا مسعود الأنصاري يضرب غلاماً له فناداه : اعْلَم أبَا مسعود اعْلم أبَا مسعود ، قال أبو مسعود : فالتفتُّ فإذا هو رسول الله فإذا هو يقول : اعلَم أبا مسعود .

فألقيت السوط من يدي ، فقال لي : إن الله أقدر عليك منكَ على هذا الغلام رواه مسلم أواخر كتاب الإيمان .

وتقدم معنى الذين يجادلون في آياتنا ﴾ في هذه السورة .

و﴿ مَا ﴾ نافية ، وهي معلِّقة لفعل ﴿ يعلم ﴾ عن نصب المفعلوين .

والمَحِيص : مصدر ميمي من حاص ، إذا أخذ في الفرار ومَال في سَيره ، وفي حديث أبي سفيان في وصْف مجلس هرقل "فحاصُوا حَيْصة حُمر الوحش وأغلقت الأبواب" .

والمعنى : ما لهم من فرار ومهرب من لقاء الله .

والمراد : ما لهم من محيد ولا ملجأ .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ في سورة النساء (121) . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(119/687)

قوله تعالى ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم أن جميع النعم من الغيث وأثاره ، ومن نشر الدواب براً وبحراً بمعرض من الزوال وهو عظيم التقلبات هائل الأحوال سبب عنه قوله محقراً لدنياهم وما فيها من الزهرة بسرعة الذبول والزوال ، والأفوال والارتحال ، ولهم بأنها مع ما ذكر لا قدرة لهم على شيء منها إلا بموت يمن عليهم بها ، وأما هم فقوم ضعفاء لا قدرة لهم على شيء وليس لهم من

أنفسهم إلا العجز ، فلو عقلوا لعلموا ولو علموا لعملوا عمل العبيد ، وأطاعوا القوي الشديد : ﴿ فما أوتيتم ﴾ أي أيها الناس ﴿ من شيء ﴾ أي من النعم الظاهرة ، وأجاب " ما " الشرطية بقوله : ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي القريبة الدنيئة لا نفع فيه لأحد إلا مدة حياته ، وذلك جدير بالإعراض عنه وعما يسببه من الأعمال إلا ما يقرب إلى الله ﴿ وما ﴾ أي والذي ، ولفت الكلام عن مظهر العظمة إلى أعظم منها بذكر الاسم الجامع للترغيب في ذكر آثار الأوصاف الجمالية والترهيب من آثار النعوت الجلالية فقال : ﴿ عند الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط بكل شيء قدرة وعلماً من نعم الدارين ﴿ خير ﴾ أي في نفسه وأشد خيرية من النعم الدنيوية المحضة لانقطاع نفعها .

ولما كانت النعم الدنيوية قد تصحب الإنسان طول عمره فتسبب بذلك إلى البقاء قال : ﴿ وأبقى ﴾ أي من الدنيوية لأنه لا بد من نزعها منه بالموت ، ولذلك قيد بالحياة فلا تؤثر الفاني على خساسته على الباقي مع نفاسته .

(120/687)

ولما بين ما لها من النفاسة ترغيباً فيها ، بين من هي له فقال : ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذه الحقيقة ﴿ وعلى ﴾ أي والحال أنهم صدقوها بأنهم على ، ولفت القول إلى صفة

الإحسان لأنها نسب شيء للمتوكل ، وأحكم الأمر بالإضافة إشارة إلى " إنه إحسان " هو في غاية المناسبة لحالهم فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي الذي لم يروا إحساناً قط إلا منه وحده بما رباهم من الإخلاص له ﴿ يتوكلون ﴾ أي يحملون جميع أمورهم عليه كما يحمل غيرهم متاعه على من يتوسم فيه قوة على الحمل ولا يلتفتون في ذلك إلى شيء غيره أصلاً لينتفي عنهم بذلك الشرك الخفي كما انتفى بالإيمان الشرك الجلي ، والتعبير بأداة الاستعلاء تمثيل للإسناد والتفويض إليه بالحمل عليه لأن الحمل أبين في الراحة ، وأظهر في البعد من الهم والمشقة ، ولعل التعبير بالمضارع للتخفيف في أمر التوكل بالرضى بتجديده كلما تجدد مهم ، ومن كان كذلك كان الله كافيه كل ملم ، فيشاركون أهل الدنيا في نيل نعمها ويفارقونهم في أن ربهم سبحانه يجعلها على وجه لا حساب عليهم فيها ، بل ولهم فيها الأجور الموجبة للنعمة والحبور ، وفي أنه يجعلها كافية لمهماتهم وسادّة لخلاتهم ، ويزيدهم الباقيات الصالحات التي يتسبب عنها نعيم الآخرة بعد راحة الدنيا .

(121/687)

ولما كان كل من الإيمان والتوكل امراً باطناً فكان لا بد من دلائله من ظواهر الأعمال ، وكانت تخليات من الرذائل وتحليات بالفضائل وكانت التخليات لكونها درء للمفاسد

مقدمة على التحليات التي هي جلب للمصالح قال عاطفاً على ﴿ الذين ﴾ : ﴿ والذين يجتنبون ﴾ أي يكلفون أنفسهم أن يجابوا ﴿ كبائر الإثم ﴾ أي جنس الفعال الكبار التي لا توجد إلا ضمن أفرادها ويحصل بها دنس للنفس ، فيوجب عقاباً لها مع الجسم ، وعطف على ﴿ كبائر ﴾ قوله : ﴿ والفواحش ﴾ وهي ما أنكره الشرع والعقل والطبع التي هي آيات الله الثلاث التي نصبها حجة على عباده وله الحجة البالغة فاستعظم الناس أمرها ولو أنها صغائر لدلالتها على الإخلال بالمروءة كسرقة لقمة والإقرار على المعصية من شيخ جليل القدر لمن لا يخشاه ولا يرجوه ، وقرأ حمزة والكسائي : كبير ، وهو للجنس ، فهو بمعنى قراءة الجمع أو هي أبلغ لشمولها المفرد .

(122/687)

ولما ذكر ما قد تقود إليه المطامع دون حمل الغضب الصارع قال منبهاً على عظمته معبراً بأداة التحقق دلالة على أنه لا به منه توطيناً للنفس عليه معلقاً بفعل الغفر : ﴿ وإذا ﴾ وأكد بقوله : ﴿ ما ﴾ وقدم الغضب إشارة إلى الاهتمام بإطفاء جمره وتبريد حره فقال : ﴿ غضبوا ﴾ أي غضباً هو على حقيقته من أمر مغضب في العادة ، وبين بضمير الفصل أن بواطنهم في غفرهم كظواهرهم فقال : ﴿ هم يغفرون ﴾ أي الإحصاء والإخفاء بأنهم كلما

تجدد لهم غضب جددوا غفراً أي محواً للذنب عيناً وأثراً مع القدرة على الانتقام فسجاياهم تقتضي الصفح دون الانتقام ما لم يكن من الظالم بغي لأنه لا يؤاخذ على مجرد الغضب إلا متكبر ، والكبر لا يصلح لغير الإله وذلك لأنه لا يغيب أحلامهم عند اشتداد الأمر ما يغيب أحلام غيرهم من طيش الجهل وسفاهة الرأي ، فدل ذلك على أن الغفر دون غضب لا يعد بالنسبة إلى الغفر معه ، وفي الصحيح أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله ، وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم قال : كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا أذا قدروا عفوا .

ولما أتم ما منه التحلي ، أتبعه ما به التخلي ، وذكر أوصافاً أربعة هي قواعد النصفة ما انبنى عليها قط ربعها إلا كان الفاعلون لها كالجسد الواحد لا تأخذهم نازلة في الدنيا ولا في الآخرة فقال : ﴿ والذين استجابوا ﴾ أي أوجدوا الإجابة بما لهم من العلم الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿ لربهم ﴾ أي الداعي لهم إلى إجابته إحسانه إليهم إيجاداً من شدة حمل أنفسهم عليه يطلبونه من أنفسهم طلباً عظيماً صادقاً لم يبق معه لأحدهم نفس ولا بقية من وهم ولا رسم إلا على موافقة رضاه سبحانه لأنهم يعلمون أنه ما دعاهم إليه وهو مربيهم لصلاحهم وسعدهم وفلاحهم ، لأنه محيط العلم شديد الرحمة لا يتهم بوجه من الوجوه .

ولما كان هذا عاماً لكل خير دعا إليه سبحانه ، خص أعظم عبادات البدن ، وزاد في عظمتها بالتعبير بالإقامة فقال : ﴿ وأقاموا ﴾ أي بما لهم من القوة ﴿ الصلاة ﴾ فأفهم ذلك مع اللام أنهم أوجدوا صورتها محمولة بروحها على وجه يقتضي ثبوتها دائماً .

ولما كانت الاستجابة توجب للاتحاد القلوب بالإيمان الموجب للاتحاد في الأقوال والأفعال ، والصلاة توجب الاتحاد بالأبدان ، ذكر الاتحاد بالأقوال الناشىء عنه عند أولي الكمال الاتحاد في الأفعال ، فقال معبراً بالاسمية حثاً على أن جعلوا ذلك لهم خلقاً ثابتاً لا ينفك : ﴿ وأمرهم ﴾ أي كل ما ينوبهم مما يحوجهم إلى تدبير ﴿ شورى ﴾ أي يتشاورون فيه مشاورة عظيمة مبالغين مما لهم من قوة الباطن وصفائه في الإخلاص والنصح ، من الشور وهو العرض والإظهار ﴿ بينهم ﴾ أي بحيث إنهم لا فرق في حال المشاورة بين كبير منهم وصغير بل كل منها يصغي إلى كلام الآخر وينظر في صحته وسقمه بتنزيله على أصول الشرع وفروعه ، فلا يستبدل أحد منهم برأي لدوام اتهامه لرأيه لتحققه نقصه بما له من غزارة العلم وصفاء الفهم ولا يعجلون في شيء بل صار التأبي لهم خلقاً ، وسوق المشورة هذا السياق دال على عظيم جدواها وجلالة نفعها قال الحسن رحمه الله : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم – على أنه روى الطبراني في الصغير والأوسط لكن بسند ضعيف عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ما خاب من استخار ولا

ندم من استشار ولا عال من اقتصد " وروى في الأوسط عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " من أراد أمراً فشاور فيه أمرأ مسلماً وفقه الله لأرشد أمره " .

(124/687)

ولما كانت المواساة بالأموال بعد الاتحاد في الأقوال والافتاق في الأفعال أعظم جامع على محاسن الخلال ، واظهر دال على ما ادعى من الاتحاد في الحال والمآل قال مسهلاً عليهم أمرها بأنه لا مدخل لهم في الحقيقة في تحصيلها راضياً منهم باليسير منها : ﴿ ومما ﴾ ولفت القول إلى مظهر العظمة تذكيراً بما يتعارفونه بينهم من أنه لا مطمع في التقرب من العظماء إلا بالهدايا فقال : ﴿ رزقناهم ﴾ أي بعظمتنا من غير حول منهم ولا قوة ﴿ ينفقون ﴾ أي يديمون الإنفاق كرماً منهم وإن قل ما بأيديهم اعتماداً على فضل الله سبحانه وتعالى لا يقبضون أيديهم كالمنافقين ، وذلك الإنفاق على حسب ما حددناه لهم فواسوا بالمشورة في فضل عقولهم وبالإنفاق في فضل أموالهم تقوى منهم ومراقبة لله لا شهوة نفس .

(125/687)

ولما كان في العقوبة مصلحة ومفسدة فندب سبحانه إلى المغفرة تقديماً لدرء المفسدة لأن الإنسان لعدم علمه بالقلوب لا يصح له بوجه أن يعاقب بمجرد الغضب لأنه قد يخطئ فيعاقب من أغضبه ، وهو شريف الذات كريم الطبع على الهمة أبي النفس ، ما وقع منه الذنب الذي أغضب إلا خطأ معفواً عنه أو كذب عليه فيه فيربي في نفسه أخته تفسد ذات البين فيجر إلى خراب كبير ، وكانت إدامة الغفر جالبة للفساد مجرئة على العناد ، وكان البغي هو التمادي في السوء محققاً لقصد الذنب مجوزاً للإقدام على الانتقام ، وكان الانتصار من الفجار ربما أحوج مع قوة الجنان إلى إنفاق المال ، عقب الإنفاق بمدح الانتصار بقوله : ﴿ والذين ﴾ وذكر أداة التحقق إشارة إلى أن شرطها لا بد من وقوعه بالفعل أو بالقوة فقال ناصباً بفعل الانتصار مقدماً لما من شأن النفس الاهتمام بدفعه لعدم صبرها عليه : ﴿ إذا أصابهم ﴾ أي وقع بهم وأثر فيهم ﴿ البغي ﴾ وهو التمادي على الرمي بالشر ﴿ هم ﴾ أي بأنفسهم خاصة لما لهم من قوة الجنان والأركان المعلمة بأن ما تقدم من غفرانه ما كان إلا لعلو شأنهم لا لهوانهم ﴿ ينتصرون ﴾ أي يوقعون بالعلاج بما أعطاهم الله من سعة العقل وشدة البطش وقوة القلب النصر لأنفسهم في محله على ما ينبغي من زجر الباغي عن معاودتهم وعن الاجتراء على غيرهم مكررين لذلك كلما كرر لهم فيكون ذلك من إصلاح ذات البين ، ليسوا بعاجزين ولا في أمر دينهم متوانين ، والتعبير في هذه الأفعال

بالإسناد إلى الجمع إشارة إلى أنه لا يكون تمام التمكن الرادع إلا مع الاجتماع ، ومن كان فيها مفرداً كان همه طويلاً وبثه جليلاً ، قال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 636. 640 ﴾

(126/687)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتفسير عن الدنيا وتحقير شأنها ، لأن الذي يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة في الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه ، فإذا صغرت الدنيا في عين الرجل لم يلتفت إليها ، فحينئذ ينتفع بذكر الدلائل ، فقال : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ وسماه متاعاً تنبيهاً على قلته وحقارته ، ولأن الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فإنه يكون سريع الانقراض والانقضاء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى ﴾ والمعنى أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع ، ونبّه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا ، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى ، وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقي على الخسيس الفاني

، ثم بيّن أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات :

الصفة الأولى : أن يكون من المؤمنين بدليل قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُوا ﴾ .

الصفة الثانية : أن يكون من المتوكلين على فضل الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب ، فهو متكل على عمل نفسه لا على الله ، فلا يدخل تحت الآية .

الصفة الثالثة : أن يكونوا مجتنبين لكبائر الإثم والفواحش ، عن ابن عباس : كبير الإثم ، هو الشرك ، نقله صاحب "الكشاف" : وهو عندي بعيد ، لأن شرط الإيمان مذكور أولاً وهو يغني عن عدم الشرك ، وقيل المراد بكبائر الإثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات ، وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية ، وبقوله ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ما يتعلق بالقوة الغضبية ، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران ، لأن الغضب على طبع النار ، واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة ، فلهذا السبب خصّه بهذا اللفظ ، والله أعلم .

(127/687)

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ ﴾ والمراد منه تمام الانقياد ، فإن قالوا أليس أنه لما جعل الإيمان شرطاً فيه فقد دخل في الإيمان إجابة الله ؟ قلنا الأقرب

عندي أن يحمل هذا على الرضاء بقضاء الله من صميم القلب ، وأن لا يكون في قلبه منازعة في أمر من الأمور .

ولما ذكر هذا الشرط قال : ﴿ وأقاموا الصلاةَ ﴾ والمراد منه إقامة الصلوات الواجبة ، لأن هذا هو الشرط في حصول الثواب .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ فقيل كان إذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم ، أي لا ينفردون برأي بل ما لم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه ، وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم ، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ، ومعنى قوله ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ أي ذو شورى .

(128/687)

الصفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغي هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ والمعنى أن يقتصروا في الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه ، وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم السفهاء ، فإن قيل هذه الآية مشكلة لوجهين الأول : أنه لما ذكر قبله ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ فكيف يليق أن يذكر معه ما يجري مجرى الضد له وهو قوله ﴿ والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغي هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ؟ الثاني :

وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن قال تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [البقرة : 237] وقال : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] وقال : ﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] وقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ [النحل : 126] فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية والجواب : أن العفو على قسمين أحدهما : أن يكون العفو سبباً لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه عن جنايته والثاني : أن يصير العفو سبباً لمزيد جراءة الجاني ولقوة غيظه وغضبه ، والآيات في العفو محمولة على القسم الأول ، وهذه الآية محمولة على القسم الثاني ، وحينئذ يزول التناقض والله أعلم ، ألا ترى أن العفو عن المصر يكون كالإغراء له ولغيره ، فلو أن رجلاً وجد عبده فجر بجاريته وهو مصر فلو عفا عنه كان مذموماً ، وروي أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبي صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " دونك فانتصري " وأيضاً إنه تعالى لم يرغب في الانتصار بل بيّن أنه مشروع فقط ، ثم بيّن بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة ، ثم بيّن أن العفو أولى بقوله ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ فزال السؤال ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 151.152 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾

قال عمرو بن حريث وغيره إنها نزلت لأن قوماً من أهل الصفة طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغنيهم الله ويبسط لهم الأموال والأرزاق ، فأعلمهم الله تعالى أنه لو جاء الرزق على اختيار البشر واقتراحهم لكان سبب بغيهم وإفسادهم ، ولكنه تعالى أعلم بالمصلحة في كل أحد ، وله بعبيده خبرة وبصر بأخلاقهم ومصالحهم ، فهو ينزل لهم من الرزق القدر الذي به صلاحهم ، فرب إنسان لا يصلح وتكتف عاديته إلا بالفقر وآخر بالغنى . وروى أنس بن مالك في هذا المعنى التقسم حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال أنس : اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى ، فلا تفقرني . وقال خباب بن الأرتّ : فينا نزلت : ﴿ ولو بسط الله الرزق ﴾ الآية ، لأنا نظرنا إلى أموال بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع فتمنيناها فنزلت الآية .

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

هذه تعديد نعمة الله تعالى الدالة على وحدانيته ، وأنه الإله الذي يستحق أن يعبد دون سواه من الأنداد .

وقرأ "يُنَزِّل" مثقلة جمهور القراء ، وقرأها "يُنْزِل" مخففة ابن وثاب والأعمش ، ورويت عن أبي عمرو ، ورجحها أبو حاتم ، وقرأ جمهور الناس : "قنَطوا" بفتح النون ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش : بكسر النون ، وقد تقدم ذكرها وهما لغتان : قنَط ، وقنِط ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له : أجدبت الأرض وقنط الناس ، فقال : مطروا إذاً ، بمعنى أن الفرج عند الشدة ، واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ وينشر رحمته ﴾ فقالت فرقة : أراد بالرحمة المطر ، وعدد النعمة بعينها بلفظتين : الثاني منهما يؤكد الأول . وقالت فرقة : الرحمة في هذا الموضع الشمس ، فذلك تعديد نعمة غير الأولى ، وذلك أن المطر إذا ألم بعد القنط حسن موقعه ، فإذا دام سئم ، فتجيء الشمس بعده عظيمة الموضع .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الولي الحميد ﴾ أي من هذه أفعاله فهو الذي ينفع إذا والى وتحمد أفعاله ونعمه ، لا كالذي لا يضر ولا ينفع من أوثانكم . ثم ذكر تعالى الآية الكبرى ، الصنعة الدالة على الصانع ، وذلك ﴿ خلق السماوات والأرض ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما بث فيهما ﴾ يتخرج على وجوه ، منها أن يريد إحداهما فيذكر

الاثنين كما قال : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمن : 22] وذلك إنما يخرج من الملح وحده ، ومنها أن يكون تعالى قد خلق السماوات وبث دواب لا نعلمها نحن ، ومنها أن يريد الحيوانات التي توجد في السحاب ، وقد يقع أحياناً كالضفادع ونحوها ، فإن السحاب داخل في اسم السماء . وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال في تفسير : ﴿ وما بث فيهما من دابة ﴾ هم الناس والملائكة ، وبعيد غير جار على عرف اللغة أن تقع الدابة على الملائكة .

(131/687)

وقوله تعالى : ﴿ وهو على جمعهم ﴾ يريد القيامة عند الحشر من القبور وقوله تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾ قرأ جمهور القراء : " فبما " بفاء ، وكذلك هي في جل المصاحف . وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وشيبة : " بما " دون فاء . وحكى الزجاج أن أبا جعفر وحده من المدنيين أثبت الفاء . قال أبو علي الفارسي : " أصاب " ، من قوله : " وما أصاب " يحتمل أن يكون في موضع جزم ، وتكون ﴿ ما ﴾ شرطية ، وعلى هذا لا يجوز حذف الفاء عند سيبويه ، وجوز حذفها أبو الحسن الأخفش وبعض البغداديين على أنها مرادة في المعنى ، ويحتمل أن يكون " أصاب " صلة لما ، وتكون ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي

، وعلى هذا يتجه حذف الفاء وثبوتها ، لكن معنى الكلام مع ثبوتها التلازم ، أي لولا كسبكم ما أصابتكم مصيبة ، والمصيبة إنما هي بسبب كسب الأيدي ، ومعنى الكلام مع حذفها يجوز أن يكون التلازم ، ويجوز أن يعرى منه ، وأما في هذه الآية فالتلازم مطرد مع الثبوت والحذف .

(132/687)

وأما معنى الآية فاختلف الناس فيه ، فقالت فرقة : هي إخبار من الله تعالى بأن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء وخطاياه ، وأن الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر " وقال عمران بن حصين وقد سئل عن مرضه إن أحبه إلي أحبه إلى الله ، وهذا بما كسبت يداي ، وعفو ربي كثير . وقال مرة الهمداني : رأيت على ظهر كف شريح قرحة فقلت ما هذا ؟ قال هذا بما كسبت يدي ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ ، وقيل لأبي سليمان الداراني : ما بال الفضلاء لا يلومون من أساء إليهم ؟ فقال لأنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي ابتلاهم بذنوبهم . وروي عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله

أكرم من أن يثني على عبده العقوبة إذا أصابته في الدنيا بما كسبت يداه " . وقال الحسن بن أبي الحسن ، معنى الآية في الحدود : أي ما أصابكم من حد من حدود الله ، وتلك مصائب تنزل بشخص الإنسان ونفسه ، فإنما هي بكسب أيديكم ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ ، فستره على العبد حتى لا يحد عليه . ثم أخبر عن قصور ابن آدم وضعفه وأنه في قبضة القدرة ، لا يعجز طلب ربه ، ولا يمكنه الفرار منه و﴿ الجواري ﴾ جمع جارية ، وهي السفينة .

وقرأ : " الجواري " بالياء نافع وعاصم وأبو عمرو وأبو جعفر وشيبة ، ومنهم من أثبتها في الوصل ووقف على الراء . وقرأ أيضاً عاصم بحذف الياء في وصل ووقف . وقال أبو حاتم : نحن نثبتها في كل حال .

و: " الأعلام " الجبال ، ومنه قول الخنساء : [البسيط]

وإن صخراً لتأتم الهداة به . . . كأنه علم في رأسه نار

ومنه المثل : إذا قطعن علماً بدا علم فجري السفن في الماء آية عظيمة ، وتسخير الريح لذلك نعمة منه تعالى ، وهو تعالى لو شاء أن يديم سكون الريح عنها لركدت أي أقامت وقرت ولم يتم منها غرض .

وقرأ أبو عمرو وعاصم " الريح " واحدة. وقرأ : " الرياح " نافع وابن كثير والحسن .

وقرأ الجمهور : " فيظَلَلن " بفتح اللام. وقرأ قتادة : " فيظِلِلن " بكسر اللام.

وباقي الآية فيه الموعظة وتشريف الصبار الشكور بالتخصيص ، والصبر والشكر فيهما الخير كله ، ولا يكونان إلا في عالم.

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34)

أوبقت الرجل إذا أنشبته في أمر يهلك فيه ، فالإيباق في السفن هو تغريقها ، والضمير في : ﴿ كسبوا ﴾ هو لركابها من البشر ، أي بذنوب البشر . ثم ذكر تعالى ثانية : ﴿ ويعف عن كثير ﴾ مبالغة وإيضاحاً .

وقرأ نافع وابن عامر والأعرج وأبو جعفر وشيبة : " ويعلمُ " بالرفع على القطع والاستئناف ، وحسن ذلك إذا جاء بعد الجزاء . وقرأ الباقون والجمهور : " ويعلمَ " بالنصب على تقدير : أن ، وهذه الواو نحو التي يسميها الكوفيون واو الصرف ، لأن حقيقة واو الصرف هي التي يريد بها عطف فعل على اسم ، فيقدر أن لتكون مع الفعل بتأويل المصدر فيحسن عطفه على اسم ، وذلك نحو قول الشاعر : [الطويل]

تقضي لبانات ويسأم سائم . . . فكأنه أراد : وسآمة سائم ، فقدر : وأن يسأم لتكون ذلك بتأويل المصدر الذي هو سآمة قال أبو علي : حسن النصب إذ كان قبله شرط وجزاء ،

وكل واحد منهما غير واجب وقوله تعالى : ﴿ ما لهم من محيص ﴾ هو معلموهم الذي أراد أن يعلمه المجادلون في آياته عز وجل . والمحيص : المنجي وموضوع الروغان ، يقال حاص إذا راغ ، وفي حديث هرقل : فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، ثم وعظ تعالى عباده وحقر عندهم أمر الدنيا وشأنها ورغبهم فيما عنده من نعيمهم والمنزلة الرفيعة لديه ، وعظم قدر ذلك في قوله : ﴿ فما أوتيتم ﴾ الآية .

(134/687)

وقوله : ﴿ والذين يجتنبون ﴾ عطف على قوله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ . وقرأ جمهور الناس : "كبائر" على الجمع . قال الحسن : هي كل ما توعد فيه بالنار . وقال الضحاك : أو كان فيه حد من الحدود . وقال ابن مسعود : الكبائر من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية . وقال علي وابن عباس : هي كل ما ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وقرأ حمزة والكسائي وعاصم : "كبير" على الإفراد الذي هو اسم الجنس . وقال ابن عباس : كبير الإثم : هو الشرك . ﴿ والفواحش ﴾ قال السدي : الزنا . وقال مقاتل : موجبات الحدود ، ويحتمل أن يكون كبير اسم جنس بمعنى كبائر ، فتدخل موبقات السبع على ما قد تفسر من أمرها في غير هذه .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ حض على كسر الغضب والتدرب في إطفائه ، إذ هو جمهرة من جهنم وباب من أبوابها ، " وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أوصني ، قال : لا تغضب ، قال : زدني ، قال : لا تغضب . قال : زدني : قال : لا تغضب ومن جاهد هذا العارض من نفسه حتى غلبه فقد كفي هماً عظيماً في دنياه وآخرته " .

وقوله تعالى : ﴿ والذين استجابوا ﴾ مدح لكل من آمن بالله وقبل شرعه ، ومدح تعالى القوم الذين أمرهم شورى بينهم ، لأن في ذلك اجتماع الكلمة والتحاب واتصال الأيدي والتعاضد على الخير ، وفي الحديث : " ما تشاور قوم إلا هدوا لأحسن ما بحضرتهم " .

وقوله : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ معناه في سبيل الله وبرسم الشرع وعلى حدوده ، وفي القوام الذي مدحه تعالى في غير هذه الآية . وقال ابن زيد قوله تعالى : ﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ الآية نزلت في الأنصار ، والظاهر أن الله تعالى مدح كل من اتصف بهذه الصفة كائناً من كان ، وهل حصل الأنصار في هذه الصفة إلا بعد سبق المهاجرين لها رضي الله تعالى عن جميعهم بمنه .

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

مدح الله تعالى في هذه الآية قوماً بالانتصار من البغي ، ورجح ذلك قوم من العلماء وقالوا : الانتصار بالواجب تغيير منكر ، ومن لم ينتصر مع إمكان الانتصار فقد ترك تغيير المنكر واختلف الناس في المراد بالآية بعد اتفاقهم على أن من بغي عليه وظلم فجائز له أن ينتصر بيد الحق وحاكم المسلمين ، فقال مقاتل : الآية في المجروح ينتصف من الجارح بالقصاص . وقالت فرقة : إنها نزلت في بغي المشرك على المؤمن ، فأباح الله لهم الانتصار منهم دون تعدٍّ ، وجعل العفو والإصلاح مقروناً بأجر ، ثم نسخ ذلك بآية السيف ، وقالت هذه الفرقة وهي الجمهور ؛ إن المؤمن إذا بغى على مؤمن وظلمه ، فلا يجوز للآخر أن ينتصف منه بنفسه ويجازيه على ظلمه ، مثال ذلك : أن يخون الإنسان آخر ثم يتمكن الإنسان من خيانته ، فمذهب مالك رحمه الله أن لا يفعل ، وهو مذهب جماعة عظيمة معه ، ولم يروا هذه الآية من هذا المعنى ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك " . وهذا القول أنزه وأقرب إلى الله تعالى . وقالت طائفة من أهل العلم : هذه الآية عامة في المشركين والمؤمنين ، ومن بغي عليه وظلم فجائز له أن ينتصف لنفسه ويخون من خانه في المال حتى ينتصر منه ، وقالوا إن الحديث : " ولا تخن من خانك " ، إنما هو في رجل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يزني بجرمة من زنا بجرمته ؟ فقال له النبي عليه السلام : ذلك يريد به الزنا ، وكذلك ورد الحديث في معنى الزنا

، ذكر ذلك الرواة ، أما أن عمومه ينسحب في كل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(136/687)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾

يريد من الغنى والسعة في الدنيا .

﴿ فَمَتَاعُ ﴾ أي فإنما هو متاعٌ في أيام قليلة تنقضي وتذهب ؛ فلا ينبغي أن يتفاخر به .

والخطاب للمشركين .

﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ صدّقوا ووحّدوا ﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ نزلت في أبي بكر الصدّيق حين أنفق جميع ماله في طاعة الله فلامه الناس .

وجاء في الحديث أنه : أنفق ثمانين ألفاً .

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ الذين في موضع جرّ معطوف على قوله : ﴿ خَيْرٌ وأبقى لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [الشورى : 36] أي وهو للذين يجتنِبون ﴿ كَبَائِرَ الإثم ﴾ وقد مضى القول في الكبائر في "النساء" .

وقرأ حمزة والكسائي "كَبِيرَ الأِثْمِ" والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] ، وكما جاء في الحديث : " منعت العراق درهمها وقفيزها " الباقون بالجمع هنا وفي "النجم" .

﴿ والفواحش ﴾ قال السُّدّي : يعني الزنى .

وقاله ابن عباس ، وقال : كبير الإثم الشرك .

وقال قوم : كبائر الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها .

والفواحش داخلة في الكبائر ، ولكنها تكون أفحش وأشنع كالقتل بالنسبة إلى الجرح ، والزنى بالنسبة إلى المراودة .

وقيل : الفواحش والكبائر بمعنًى واحد ، فكرر لتعدد اللفظ ؛ أي يجتنبون المعاصي لأنها كبائر وفواحش .

وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي يتجاوزون ويحلُمون عمن ظلمهم .

قيل : نزلت في عمر حين شُتِم بمكة .

وقيل : في أبي بكر حين لامه الناس على إنفاق ماله كله وحين شُتم فَحلُم .

(137/687)

وعن علي رضي الله عنه قال : اجتمع لأبي بكر مال مرة ، فتصدّق به كلّه في سبيل الخير ؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وأبقى لِلَّذِينَ آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إلى قوله وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ .

وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردّ عليه شيئاً ؛ فنزلت الآية .

وهذه من محاسن الأخلاق ، يُشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهِل عليهم ؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ؛ لقوله تعالى في آل عمران : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس ﴾ [آل عمران : 134] .

وهو أن يتناولك الرجل فتكظِم غيظك عنه .

وأنشد بعضهم :

إني عفوت لظالمي ظلمي . . .

ووهبت ذاك له على علمي

ما زال يظلمني وأرحمه . . .

حتى بكيت له من الظلم

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : هم الأنصار بالمدينة ؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة .

﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ أي أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ أي يتشاورون في الأمور .

والشُّورَى مصدر شاورته ؛ مثل البشرى والذكرى ونحوه .

فكانت الأنصار قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه ؛ فمدحهم الله تعالى به ؛ قاله النقاش .

وقال الحسن : أي إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون ؛ فمدِحوا باتفاق كلمتهم .

قال الحسن : ما تشاور قوم قطُّ إلا هُدُوا لأرشد أمورهم .

وقال الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورود النقباء إليهم حتى اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنصرة له .

وقيل تشاورهم فيما يعرض لهم ؛ فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض .

وقال ابن العربي : الشُّورَى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هُدُوا .

وقد قال الحكيم :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن . . .

برأي لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة . . .

فإن الخَوَافي قوّة للقوادم

فمدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك .

وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب ؛ وذلك في الآراء كثير .

ولم يكن يشاورهم في الأحكام ؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام .

فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشَاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنّة .

وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه .

وقال عمر رضي الله عنه : نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا .

وتشاوروا في أهل الردة فاستقر رأي أبي بكر على القتال .

وتشاوروا في الجَدّ وميراثه ، وفي حدّ الخمر وعدده .

وتشاوروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحروب ؛ حتى شاور عمر الهُرْمُزان حين وَفَدَ عليه مسلماً في المغازي ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدوّ المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس وإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس وإن شُدِخ الرأس ذهب الرجلان والجناحان .

والرأسُ كسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس ؛ فَمُر المسلمين فلينفروا إلى كِسْرى .

. .

وذكر الحديث .

(139/687)

وقال بعض العقلاء : ما أخطأت قط إذا حَزَبَني أمر شاورت قومي ففعلت الذي يرون ؛ فإن أصبت فهم المصيبون ، وإن أخطأت فهم المخطئون .

الثالثة قد مضى في "آل عمران" ما تضمنته الشورى من الأحكام عند قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر ﴾ [آل عمران : 159] .

والمَشُورة بركة .

والمَشْوَرة : الشُّورَى ، وكذلك المشُورة (بضم الشين) ؛ تقول منه : شاورته في الأمر واستشرته بمعنًى .

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمْركم شُورَى بينكم فظَهْر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها " قال حديث غريب .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي ومما أعطيناهم يتصدقون .

وقد تقدّم في "البقرة" .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) ﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ والذين إِذَآ أَصَابَهُمُ البغي ﴾ أي أصابهم بغي المشركين .

قال ابن عباس : وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وآذوهم وأخرجوهم من مكة ، فأذن الله لهم بالخروج ومكن لهم في الأرض ونصرهم على من بغى عليهم ؛ وذلك قوله في سورة الحج : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الذين أُخْرِجُواْ ﴾ [الحج : 39 - 40] الآيات كلها .

وقيل : هو عام في بَغْي كل باغ من كافر وغيره ، أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه .

وهذه إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود .

قال ابن العربي : ذكر الله الانتصار في البغي في معرض المدح ، وذكر العفو عن الجرم في موضع آخر في معرض المدح ؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعاً للآخر ، واحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى حالتين ؛ إحداهما أن يكون الباغي معلناً بالفجور ، وقِحاً في الجمهور ، مؤذياً للصغير والكبير ؛ فيكون الانتقام منه أفضل .

وفي مثله قال إبراهيم النَّخَعِيّ : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترىء عليهم الفساق .

الثانية أن تكون الفلتة ، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ويسأل المغفرة ؛ فالعفو ها هنا أفضل ، وفي مثله نزلت : ﴿ وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [البقرة : 237] .

وقوله : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ [المائدة : 45] .

وقوله : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ ﴾ [النور : 22] .

قلت : هذا حسن ، وهكذا ذكر الكِيا الطبري في أحكامه قال : قوله تعالى : ﴿ والذين إِذَآ أَصَابَهُمُ البغي هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ يدل ظاهره على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل ؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة للّه سبحانه وتعالى وإقام الصلاة ؛ وهو محمول على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِيّ أنهم كانوا يكرهون للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم فتجترىء عليهم الفساق ؛ فهذا فيمن تعدّى وأصر على ذلك .

والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادماً مقلعاً .

وقد قال عقيب هذه الآية : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ .

ويقتضي ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به ؛ وقد عقبه بقوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ .

وهو محمول على الغفران عن غير المُصِرّ ، فأما المصرّ على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التي قبلها .

وقيل : أي إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم ويدفعوه ؛ قاله ابن بحر .

وهو راجع إلى العموم على ما ذكرنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(141/687)

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَىْءٍ ﴾

أي شيء كان من أسباب الدنيا ، والظاهر أن الخطاب للناس مطلقاً ، وقيل : للمشركين ، وما موصولة مبتدأ والعائد محذوف أي أوتيتموه والخبر ما بعد ، ودخلت الفاء لتضمنها معنى الشرط ، وقال أبو حيان : هي شرطية مفعول ثان لأوتيتم و ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ بيان لها وقوله تعالى : ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم فيها جواب الشرط ، والأول أوفق بقوله تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾

ذاتاً لخلوص نفعه ﴿ وأبقى ﴾ زماناً حيث لا يزول ولا يفنى لأن الظاهر أن ﴿ مَا ﴾ فيه موصولة وإنما لم يؤت بالفاء في خبرها مع أن الموصول المبتدأ إذا وصل بالظرف يتضمن معنى الشرط أيضاً لأن مسببية كون الشيء عند الله تعالى لخيريته أمر معلوم مقرر غني عن الدلالة عليه بحرف موضوع له بخلاف ما عند غيره سبحانه والتعبير عنه بأنه عند الله تعالى دون ما ادخر لذلك ، وقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ إما متعلق بابقى أو اللام لبيان من له هذه النعمة فهو خبر مبتدأ محذوف أي ذلك للذين آمنوا .

﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا على غيره تعالى أصلاً ، وعن على كرم الله تعالى وجهه اجتمع لأبي بكر رضي الله تعالى عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله تعالى فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت ؛ والموصول في قوله تعالى :

(142/687)

﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش وَإِذَا مَا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ مع ما بعد اما عطف على الموصول الأول أو هو مدح مرفوع على الخبرية لمبتدأ محذوف أو منصوب بمقدر كاعنى أو أمدح ، والواو اعتراضية كما كما ذكره الرضى ، وغفل أبو البقاء عن الواو فلم يذكر العطف وذكر بدله البدل ، وكبائر الاثم ما رتب عليه الوعيد أو ما يوجب الحد أو كل

ما نهى الله تعالى عنه والفواحش ما فحش وعظم قبحه منها ، وقيل : المراد بالكبائر ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية وبقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غضبوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ما يتعلق بالقوة الغضبية وهو كما ترى ، والمراد بالاثم الجنس والا لقيل الآثام ، و﴿ إِذَا ﴾ ظرف ليغفرون و"هم" مبتدأ لا تأكيد لضمير غضبوا ووزه في البحر وجملة يغفرون خبره وتقديمه لإفادة الاختصاص لأنه فاعل معنوي ، واختصاصهم باعتبار أنهم احقاء بذلك دون غيرهم فإن المغفرة حال الغضب عزيزة المثال ، وفي الآية إيماء إلى أنهم يغفرون قبل الاستغفار ، وقيل : ﴿ هُمْ ﴾ مرفوع بفعل يفسره ﴿ يَغْفِرُونَ ﴾ ولما حذف انفصل الضمير وليس بشيء ، وجعل أبو البقاء ﴿ إِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ جواباً لها ، وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم الفاء حينئذ ولا يجوز حذفها إلا في الشعر ، وتقدم لك آنفاً ما ينفعك تذكره فتذكر ، وقرأ حمزة .

(143/687)

والكسائي "كبير الاثم" بالافراد لإرادة الجنس أو الفرد الكامل منه وهو الشرك ، وروي تفسيره به عن ابن هباس رضي الله تعالى عنهما ، ولا يلزم التكرار لأن المراد الاستمرار والدوام ﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ قيل : نزلت في الانصار دعاهم الله

تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم للإيمان به وطاعته سبحانه فاستجابوا له فاثنى عليهم جل وعلا بما أثنى ، وعليه فهو من ذكر الخاص بعد العام لبيان شرفه لإيمانهم دون تردد وتلعثم ، والآية إن كانت مدنية فالأمر ظاهر وإذا كانت مكية فالمراد بالانصار من آمن بالمدينة قبل الهجرة أو المراد بهم أصحاب العقبة .

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38)

(144/687)

﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ أي ذو شورى ومراجهة في الآراء بينهم بناء على أن الشورى مصدر كالبشرى فلا يصح الأخبار لأن الأمر متشاور فيه لا مشاورة إلا إذا قصد المبالغة ، وأورد أنه يقال من غير تأويل شأني الكرم والأمر هنا بمعنى الشأن ، نعم إذا حمل على القضايا المتشاور فيها احتاج إلى التأويل أو قصد المبالغة ، وقيل : أن إضافة المصدر للمعوم فلا يصح الأخبار إلا بالتأويل ورد بأن المراد أمرهم فيما يتشاور فيه لا جميع أمروهم وفيه نظر ، وقال الراغب : المشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم : شرت العسل وأشرته استخرجته والشورى الأمر الذي يتشاور فيه انتهى ، والمشهور كونه مصدراً ، وجيء بالجملة اسمية مع أن المعطوف عليه جملة فعلية للدلالة على أن التشاور

كان حالهم المستمرة قبل الإسلام وبعده ، وفي الآية مدح للتشاور لا سيما على القول بأن فيها الأخبار بالمصدر ، وقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أراد أمراً فشاور فيه وقضى هدى لأرشد الأمور " ، وأخرج عبد بن حميد .

والبخاري في الأدب .

(145/687)

وابن المنذر عن الحسن قال : ما تشاور قوم قط إلا هدوا وأرشد أمرهم ثم تلا ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقد كانت الشورى بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب ، وكذا بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعده عليه الصلاة والسلام ، وكانت بينهم أيضاً في الأحكام كقتال أهل الردة وميراث الجد وعدد حد الخمر وغير ذلك ، والمراد بالأحكام ما لم يكن لهم فيه نص شرعي وإلا فالشورى لا معنى لها وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال والله سبحانه هو الحكيم الخبير ، ويؤيد ما قلنا ما أخرجه الخطيب عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء قال : اجمعوا له العابد من أمتي

واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد ، وينبغي أن يكون المستشار عاقلاً كما ينبغي أن يكون عابداً ، فقد أخرج الخطيب أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً " استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا " والشورى على الوجه الذي ذكرناه من جملة أسباب صلاح الأرض ففي الحديث " إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم أسخياءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها " وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان افسادها للدين والدنيا أكثر من اصلاحها ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ أي في سبيل الخير لأنه مسوق للمدح ولا مدح بمجرد الإنفاق ، ولعل فصله عن قرينة بذكر المشاورة لأن الاستجابة لله تعالى وأقام الصلاة كانا من آثارها ، وقيل : لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات .

(146/687)

﴿ والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغى هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم ولا يعتدون ، ومعنى الاختصاص انهم الاخصاء بالانتصار وغيرهم يعدو ويتجاوز ، ولا يراد أنهم ينتصرون ولا يغفرون ليتناقض هو والسابق ، فكأنه وصفهم

سبحانه بأنهم الأخصاء بالغفران لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول في غيرهم وأنهم الأخصاء بالانتصار على ما جوز لهم إن كافؤا ولا يعتدون كغيرهم فهم محمودون في الحالتين بين حسن وأحسن مخصوصون بذلك من بين الناس ، وقال غير واحد : إن كلاً من الوصفين في محل وهو فيه محمود فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود ولفظ المغفرة مشعر به والانتصار من المخاصم المصر محمود ، ولفظ الانتصار مشعر به ولو أوقعا على عكس ذلك كانا مذمومين وعلى هذا جاء قوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته . . .

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فوضع الندى في موضع السيف بالعلا . . .

مضر كوضع السيف في موضع الندى

زقد يحمد كل ويذم باعتبارات أخر فلا تناقض أيضاً سواء اتحد الموصوفان في الجملتين أولا ، وقال بعض المحققين : الأوجه أن لا يحمل الكلام على التخصيص بل على التقوى أي يفعلون المغفرة تارة والانتصار أخرى لا دائماً للتناقض وليس بذاك ، وعن النخفي أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق ، وفيه إيماء إلى أن الانتصار من المخاصم المصر وإلا فلا إذلال للنفس بالعفو عن العاجز المعترف ، ثم إن جملة

﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ من المبتدأ والخبر صلة الموصول وإذا ﴿ ظرف ﴿ يَنتَصِرُونَ ﴾ وجوز كونها شرطية والجملة جواب الشرط وجملة الجواب والشرط هي الصلة .

(147/687)

وتعقبه أبو حيان بما مر آنفاً ، وجوز أيضاً كون ﴿ هُمْ ﴾ فاعلا لمحذوف وهو كما سمعت في ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ ﴾ [الشورى : 37] الخ ، وقال الحوفي : يجوز جعل ﴿ هُمْ ﴾ توكيداً لضمير ﴿ أَصَابَهُمُ ﴾ وفيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بالفاعل ولعله لا يمتنع ، ومع هذا فالوجه في الاعراب ما أشرنا إليه أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(148/687)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

تفريع على جملة ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا ﴾ [الشورى : 27] إلى آخرها ،

فإنها اقتضت وجود منعَم عليه ومحْروم ، فذُكِّروا بأن ما أوتوه من رزق هو عَرَض زائل ، وأن الخير في الثواب الذي ادخره الله للمؤمنين ، مع المناسبة لما سبقه من قوله : ﴿ ويَعْفُ عن كثير ﴾ [الشورى : 34] من سلامة الناس من كثير من أهوال الأسفار البحرية فإن تلك السلامة نعمة من نعم الدنيا ، ففرعت عليه الذكرى بأن تلك النعمة الدنيوية نعمة قصيرة الزمان صائرة إلى الزوال فلا يَجعلها الموفَّقُ غاية سعيه وليسعَ لعمل الآخرة الذي يأتي بالنعيم العظيم الدائم وهو النعيم الذي ادّخره الله عنده لعباده المؤمنين الصالحين .

والخطاب في قوله : أوتيتم ﴾ للمشركين جرياً على نسق الخطاب السابق في قوله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : 30] وقوله : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ [الشورى : 31] ، وينسحب الحكم على المؤمنين بلحن الخطاب ، ويجوز أن يكون الخطابِ لجميع الأمة ، فالفاء الأولى للتفريع ، ومَا ﴾ موصولة ضمنت معنى الشرط والفاء الثانية في قوله : ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ داخلة على خبر ﴿ ما ﴾ الموصولة لتضمنها معنى الشرط وإنما لم نَجعل ﴿ ما ﴾ شرطية لأن المعنى على الإخبار لا على التعليق ، وإنما تضمن معنى الشرط وهو مجرد ملازمة الخبر لمدلول اسم الموصول كما تقدم نظيره آنفاً في قوله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : 30] في قراءة غير نافع وابنِ عامر .

ويتعلق قوله : خَيْرٌ وأبقى للذين آمنوا ﴾ على وجه التنازع ، واتبعت صلة (الذين آمنوا) بما يدل على عملهم بإيمانهم في اعتقادهم فعطف على الصلة أنهم يتوكلون على ربّهم دون غيره .

(149/687)

وهذا التوكل إفراد لله بالتوجُّه إليه في كل ما تعجز عنه قدرة العبد ، فإن التوجه إلى غيره في ذلك ينافي التوحيد لأن المشركين يتوكلون على آلهتهم أكثر من توكلهم على الله ، ولكون هذا متمّماً لمعنى (الذين آمنوا) عطف على الصلة ولم يُؤت معه باسم موصول بخلاف ما ورد بعده .

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37)

أُتبع الموصول السابق بموصولات معطوفٍ بعضُها على بعض كما تعطف الصفات للموصوف الواحد ، فكذلك عطف هذه الصلات وموصولاتها أصحابها متحدون وهم الذين آمنوا بالله وحده وقد تقدم نظيره عند قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : 3] ثم قوله : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ الآية في سورة البقرة (4) .

والمقصود من ذلك : هو الاهتمام بالصلات فيكرر الاسم الموصول لتكون صلتُه معتنى بها

حتى كأنَّ صاحبها المتّحد منزّلٌ منزلة ذوات .

فالمقصود : ما عند الله خير وأبقى للمؤمنين الذين هذه صفاتهم ، أي أُتْبَعوا إيمانهم بها .

وهذه صفات للمؤمنين باختلاف الأحوال العارضة لهم فهي صفات متداخلة قد تجتمع في المؤمن الواحد إذا وُجدت أسبابها وقد لا تجتمع إذا لم توجد بعض أسبابها مثل ﴿ وأمرُهم شورى بينهم ﴾ (38) .

وقرأ الجمهور كبائر ﴾ بصيغة الجمع .

وقرأه حمزة والكسائي وخلَف ﴿ كَبِير ﴾ بالإفراد ، فكبائر الإثم : الفعلات الكبيرة من جنس الإثم وهي الآثام العظيمة التي نهى الشرع عنها نهياً جازماً ، وتوعد فاعلَها بعقاب الآخرة مثل القذف والاعتداء والبغي .

وعلى قراءة ﴿ كبيرة الإثم ﴾ مراد به معنى كبائر الإثم لأن المفرد لما أضيف إلى معرَّف بلام الجنس من إضافة الصفةِ إلى الموصوف كان له حكم ما أضيف هو إليه .

(150/687)

و ﴿ الفواحش ﴾ : جمع فاحشة ، وهي : الفعلة الموصوفة بالشناعة والتي شدد الدِّين في النهي عنها وتوعّد عليها بالعذاب أو وضعَ لها عقوبات في الدنيا للذي يُظهر عليه من

فاعليها .

وهذه مثل قتل النفس ، والزنا ، والسرقة ، والحرابة .

وتقدّم عند قوله : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ﴾ في سورة الأعراف (28) .

وكبائر الإثم والفواحش قد تدعو إليها القوة الشاهية .

ولما كان كثير من كبائر الإثم والفواحش متسبباً على القوة الغضبية مثل القتل والجراح والشتم والضرب أعقب الثناء على الذين يجتنبونها ، فذكر أن من شيمتهم المغفرة عند الغضب ، أي إمساك أنفسهم عن الاندفاع مع داعية الغضب فلا يغول الغضب أحلامهم .

وجيء بكلمة ﴿ إذَا ﴾ المضمنة معنى الشرط والدالّة على تحقق الشرط ، لأن الغضب طبيعة نفسية لا تكاد تخلو عنه نفس أحد على تفاوت .

وجملة ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ عطف على جملة الصلة .

وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي في جملة ﴿ هم يغفرون ﴾ لإفادة التقوّي .

وتقييد المسند بـ ﴿ إذا ﴾ المفيدة معنى الشرط للدّلالة على تكرر الغفران كلما غضبوا .

والمقصود من هذا معاملة المسلمين بعضِهم مع بعض فلا يعارضه قوله الآتي ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ [الشورى : 39] لأن ذلك في معاملتهم مع أعداء دينهم .

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38)

هذا موصول آخر وصلة أخرى .

ومدلولهما من أعمال الذين آمنوا التي يدعوهم إليها إيمانهم ، والمقصود منها ابتداءً هُم الأنصار ، كما روي عن عبد الرحمن بن زيد .

ومعنى ذلك أنهم من المؤمنين الذين تأصل فيهم خُلق الشورى .

(151/687)

وأما الاستجابة لله فهي ثابتة لجميع من آمن بالله لأن الاستجابة لله هي الاستجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه دعاهم إلى الإسلام مبلِّغاً عن الله فكأنَّ الله دعاهم إليه فاستجابوا لدعوته .

والسين والتاء في ﴿ استجابوا ﴾ للمبالغة في الإجابة ، أي هي إجابة لا يخالطها كراهية ولا تردد .

ولام له للتقوية يقال : استجاب له كما يقال : استجابه ، فالظاهر أنه أريد منه استجابة خاصة ، وهي إجابة المبادرة مثل أبي بكر وخديجة وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص ونقباء الأنصار أصحاب ليلة العقبة .

وجُعلت ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ عطفاً على الصلة .

وقد عرف الأنصار بذلك إذ كان التشاور في الأمور عادتهم فإذا نزل بهم مهمٌّ اجتمعوا وتشاوروا وكان من تشاورهم الذي أثنى الله عليهم به هو تشاورهم حين ورد إليهم نقباؤُهم وأخبروهم بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن آمنوا هم به ليلة العقبة ، فلما أبلغوهم ذلك اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري فأجمع رأيهم على الإيمان به والنصر له .

وإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصَّة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان وأيُّ أمر أعظم من أمر الإيمان .

والأمر : اسم من أسماء الأجناس العامة مثل : شيءٍ وحادثٍ .

وإضافة اسم الجنس قد تفيد العموم بمعونة المقام ، أي جميع أمورهم متشاور فيها بينهم .

والإخبار عن الأمر بأنه شورى من قبيل الإخبار بالمصدر للمبالغة .

والإسناد مجاز عقلي لأن الشورى تسند للمتشاورين ، وأما الأمر فهو ظرف مجازي للشورى ، ألا ترى أنه يقال : تشاورا في كذا ، قال تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر فاجتمع في قوله : وأمرهم شورى ﴾ مجاز عقلي واستعارة تبعية ومبالغة .

(152/687)

والشُورى مصدر كالبُشرى والفُتيا هي أن قاصد عمل يطلب ممن يَظُنّ فيه صوابَ الرأي والتدبير أن يشير عليه بما يراه في حصول الفائدة المرجوّة من عمله ، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ في سورة آل عمران (159) .

وقوله : ﴿ بينهم ﴾ ظرف مستقر هو صفة ل ﴿ شورى ﴾ .

والتشاور لا يكون إلا بين المتشاورين فالوجه أن يكون هذا الظرف إيمَاء إلى أن الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من يهمهم الأمر من أهل الرأي فلا يُدخل فيها من لا يهمه الأمر ، وإلى أنها سرّ بين المتشاورين قال بشار :

ولا تُشْهد الشورى أمراً غيرَ كَاتم

وقد كان شيخ الإسلام محمود ابن الخوجة أشار في حديث جرى بيني وبينه إلى اعتبار هذا الإيماء إشارة بيده حين تلا هذه الآية ، ولا أدري أذلك استظهار منه أم شيء تلقاه من بعض الكتب أو بعض أساتذته وكلا الأمرين ليس ببعيد عن مثله .

وأثنى الله عليهم بإقامة الصلاة ، فيجوز أن يكون ذلك تنويهاً بمكانة الصلاة بأعمال الإيمان ، ويجوز أن يكون المراد إقامة خاصة ، فإذا كانت الآية نازلة في الأنصار أو كان الأنصار المقصود الأول منها فلعل المراد مبادرة الأنصار بعد إسلامهم بإقامة الجماعة إذ سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم من يُقرئهم القرآنَ ويَؤُمهم في الصلاة فأرسل إليهم مُصعب بن عُمَير وذلك قبل الهجرة .

وأثنى عليهم بأنهم ينفقون مِما رزقهم الله ، وللأنصار الحظ الأوفر من هذا الثناء ، وهو كقوله فيهم ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كانَ بهم خصاصة ﴾ [الحشر : 9] .

وذلك أن الأنصار كانوا أصحاب أموال وعمل فلما آمنوا كانوا أول جماعة من المؤمنين لهم أموال يعينون بها ضعفاء المؤمنين منهم ومن المهاجرين الأولين قبل هجرة النبي .

فأما المؤمنون من أهل مكة فقد صادر المشركون أموالهم لأجل إيمانهم ، قال النبي وهل ترك لَنا عَقِيل من دار .

(153/687)

وقوله : ومما رزقناهم ينفقون ﴾ إدماج للامتنان في خلال المدح وإلا فليس الإنفاق من غير ما يرزقه المنفق .

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

هذا موصول رابع وصلته خلق أراده الله للمسلمين ، والحظ الأول منه للمؤمنين الذين كانوا بمكة قبل أن يهاجرون فإنهم أصابهم بغي المشركين بأصناف الأذى من شتم وتحقير ومصادرة الأموال وتعذيب الذوات فصبروا عليه .

و﴿ البغي ﴾ : الاعتداء على الحق ، فمعنى إصابتِه إياهم أنه سُلّط عليهم ، أي بغي

غيرهم عليهم وهذه الآية مقدَّمة لقوله في سورة الحج (39 ، 40) ﴿ أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإنَّ الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ فإن سورة الحج نزلت بالمدينة .

وإنما أثنى الله عليهم بأنهم ينتصرون لأنفسهم تنبيهاً على أن ذلك الانتصار ناشىء على ما أصابهم من البغي فكان كل من السبب والمسبب موجِب الثناء لأن الانتصار محمدة دينية إذ هو لدفع البغي اللاحق بهم لأجل أنهم مؤمنون ، فالانتصار لأنفسهم رادع للباغين عن التوغل في البغي على أمثالهم ، وذلك الردع عون على انتشار الإسلام ، إذ يقطع ما شأنه أن يخالج نفوس الراغبين في الإسلام من هَوَاجِس خوفهم من أن يُبغى عليهم .

وبهذا تعلم أن ليس بين قوله هنا ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ وبين قوله آنفاً ﴿ وإذا ما غضِبوا هم يغفرون ﴾ [الشورى : 37] تعارضٌ لاختلاف المقامين كما علمت آنفاً .

وعن إبراهيم النَّخعي : كان المؤمنون يكرهون أن يُستذلّوا وكانوا إذا قدَروا عفَوا .

وأدخل ضمير الفصل بقوله : هم ينتصرون ﴾ الذي فصل بين الموصول وبين خبره لإفادة تقوّي الخبر ، أي لا ينبغي أن يترددوا في الانتصار لأنفسهم .

وأوثر الخبر الفعلي هنا دون أن يقال : منتصرون ، لإفادة معنى تجدد الانتصار كلما أصابهم البغي .

وأما مجيء الفعل مضارعاً فلأن المضارع هو الذي يجيء معه ضمير الفصل . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(154/687)

قوله تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الإذن في الانتصار في هذا السياق المادح مرغباً فيه مع ما للنفس من الداعية إليه ، زجر عنه لمن كان له قلب أولاً بكفها عن الاسترسال فيه وردها على حد المماثلة ، وثانياً بتسميته سيئة وإن كان على طريق المشاكلة ، وثالثاً بالندب إلى العفو ، فصار المحمود منه إنما هو ما كان لإعلاء كلمة الله لا شائبة فيه للنفس أصلاً فقال : ﴿ وجزاء سيئة ﴾ أي أي سيئة كانت ﴿ سيئة مثلها ﴾ أي لا تزيد عليها في عين ولا معنى أصلاً ، وقد كفلت

هذه الجمل بالدعاء إلى أمهات الفضائل الثلاث العلم والعفة والشجاعة على أحسن الوجوه ، فالمدح بالاستجابة والصلاة دعاء إلى العلم ، وبالنفقة إلى العفة ، وبالانتصار إلى الشجاعة ، حتى لا يظن ظان أن إذعانهم لما مضى مجرد ذل ، والقصر على المماثلة دعاء إلى فضيلة التقسيط بين الكل وهي العدل ، وهذه الأخيرة كافلة بالفضائل الثلاث ، فإن من علم المماثلة كان عالماً ، ومن قصد الوقوف عندها كان عفيفاً ، ومن قصر نفسه على ذلك كان شجاعاً ، وقد ظهر من المدح بالانتصار بعد المدح بالغفران أن الأول للعاجز والثاني للمتغلب المتكبر بدليل البغي .

(155/687)

ولما كان شرط المماثلة نادباً بعد شرع العدل الذي هو القصاص إلى العفو الذي هو الفصل لأن تحقق المثلية من العبد الملزوم للعجز لا يكاد يوجد ، سبب عنه قوله : ﴿ فمن عفا ﴾ أي بإسقاط حقه كله أو بالنقص عنه لتتحقق البراءة مما حرم من المجاوزة ﴿ وأصلح ﴾ أي أوقع الإصلاح بين الناس بالعفو والإصلاح لنفسه ليصلح الله ما بينه وبين الناس ، فيكون بذلك منتصراً من نفسه لنفسه ﴿ فأجره على الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال فهو يعطيه على حسب ما يقتضيه مفهوم هذا الاسم الأعظم ، وهذا سر لفت الكلام إليه عن

مظهر العظمة وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً " .

ولما كان هذا ندباً إلى العفو بعد المدح بالانتصار ، بين أن علته كراهة أن يوضع شيء في غير محله لأنه لا يعلم المماثلة في ذلك إلا الله ، فقال مضمراً إشارة إلى أن المثلية من الغيب الخفي مؤكداً لكف النفس لما لها من عظم الاسترسال في الانتصار : ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ أي لا يكرم الواضعين للشيء في غير محله دأب من يمشي في مأخذ الاشتقاق إذا كان عريقاً في ذلك سواء كان ابتداء أو مجاوزة في الانتقام بأخذ الثأر .

ولما كان هذا سادّاً لباب الانتصار لما يشعر به من أنه ظلم على كل ، قال مؤكداً نفياً لهذا الإشعار : ﴿ ولمن انتصر ﴾ أي سعى في نصر نفسه بجهده ﴿ بعد ظلمه ﴾ أي بعد ظلم الغير له وليس قاصد البعد عن حقه ولو استغرق انتصاره جميع زمان البعد .

ولما بين تعالى ما لذلك الناظر في مصالح العباد المنسلخ من خط نفسه إحساناً إلى عباد الله من الرتبة العليا ، بين ما لهذا الذاب عن نفسه القاصد لشفاء صدره وذهاب غيظه ، فقال رابطاً للجزاء بفاء السبب بياناً لقصور نظره على دفع الظلم عن نفسه ، ويجوز كون ﴿ من ﴾ موصولة والفاء لما للموصول من شبه الشرط .

ولما عبر أولاً بالإفراد فكان ربما قصر الإذن على الواحد لئلا تعظم الفتنة ، جمع إشارة إلى أن الفتنة إنما هي في إقرار الظلم لا في نصر المظلوم واحداً كان أو جماعة فقال :

﴿ فأولئك ﴾ أي المنتصرون لأجل دفع ظلم الظالم عنهم فقط ﴿ ما عليهم ﴾ وأكد بإثبات الجار فقال : ﴿ من سبيل ﴾ أي عقاب ولا عتاب ، وروى النسائي وابن ماجه عن عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا قالت : " ما علمت حتى دخلت عليَّ زينب ـ رضى الله عنه ـ ا بغير إذن وهي غضبى ثم أقبلت عليّ فأعرضت عنها حتى قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : دونك فانتصري ، فأقبلت عليها حتى رأيتها قد يبس ريقها في فيها ما ترد عليّ شيئاً ، فرأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتهلل وجهه " .

ولما نفى السبيل عنه بعد تشوف السامع إلى موضع ما أشعر به الكلام السابق من الظلم ، بين ذلك فقال : ﴿ إنما السبيل ﴾ أي الطريق السالك الي لا منع منه أصلاً بالحرج والعنت ﴿ على ﴾ وجمع إعلاماً بكثرة المفسدين تجرئة على الانتصار منهم وإن كانوا كثيراً فإن الله خاذلهم فقال : ﴿ الذين يظلمون الناس ﴾ أي يوقعون بهم ظلمهم تعمداً عدواناً ﴿ ويبغون ﴾ أي يتجاوزن الحدود ﴿ في الأرض ﴾ بما يفسدها بعد إصلاحها بتهيئتها للصلاح طبعاً وفعلاً وعلماً وعملاً .

ولما كان الفعل قد يكون بغياً وإن كان مصحوباً بحق كالانتصار المقترن بالتعدي فيه قال : ﴿ بغير الحق ﴾ أي الكامل ولما أثبت عليهم بهذا الكلام السبيل ، كان السامع جديراً بأن

يسأل عنه فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي البغضاء البعداء من الله ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ أي مؤلم بما آلموا من ظلموه من عباد الله بحيث يعم إيلامه أبدانهم وأرواحهم بما لها من المشاعر الظاهرة والباطنة .

(157/687)

ولما أفهم سياق هذا الكلام وترتيبه هكذا أن التقدير : فلمن صبر عن الانتصار أحسن حالاً ممن انتصر ، لأن الخطأ في العفو أولى من الخطأ في الانتقام ، عطف عليه مؤكداً لما أفهمه السياق أيضاً من مدح المنتصر : ﴿ ولمن صبر ﴾ عن الانتصار من غير انتقام ولا شكوى ﴿ وغفر ﴾ فصرح بإسقاط العقاب والعتاب فمحا عين الذنب وأثره : ﴿ إن ذلك ﴾ أي ذلك الفعل الواقع منه البالغ في العلو جداً لا يوصف ﴿ لمن عزم الأمور ﴾ أي الأمور التي هي لما لها من الأهلية لأن يعزم عليها قد صارت في أنفسها كأنها دوات العزم أو متأهلة لأن تعزم على ما تريد ، والعزم : الإقدام على الأمر بعد الروية والفكرة ، قال أبو علي بن الفراء ؛ آيات العفو محمولة على الجاني النادم ، وآيات مدح الانتصار على المصر ، وذلك إنما يحمد مع القدرة على تمام النصرة كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته

﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ [الآية : 92] وقال : فعل النبي ـ صلى الله عليه

وسلم ـ في مواطن كثيرة منها الموقف الأعظم الذي وقفه يوم الفتح عند باب الكعبة وقال لقريش وهم تحته كالغنم المطيرة : " ما تظنون أني فاعل بكم يا معشر قريش ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء " ، وروى أحمد وأبو داود عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً شتم أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ فلما رد عليه قام ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : " يا أبا بكر ! ثلاث كلهن حق ما من عبد مظلم مظلمة فعفى عنها لله إلا أعز الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 640 . 643 ﴾

(158/687)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغي هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى : 39] أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل فإن النقصان حيف

والزيادة ظلم والتساوي هو العدل وبه قامت السموات والأرض ، فلهذا السبب قال :

﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول جزاء السيئة مشروع مأذون فيه ، فكيف سمي بالسيئة ؟ أجاب صاحب "الكشاف" : عنه كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به ، قال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء : 78] يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا ، وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما في مقابلة الآخر على سبيل المجاز أطلق اسم أحدهما على الآخر ، والحق ما ذكره صاحب "الكشاف" .

المسألة الثانية :

هذه الآية أصل كبير في علم الفقه فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان ، لأن في طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان ، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه ، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزّه عنه فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل ، ثم تأكد هذا النص بنصوص أُخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ [النحل : 126] وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [غافر : 40] وقوله عزّ وجلّ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى ﴾ [البقرة : 178] والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة وقوله تعالى : ﴿ والجروح

قِصَاصٌ ﴾ [المائدة : 45] وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حياة ﴾ [البقرة : 179] فهذه النصوص بأسرها تقتضي مقابلة الشيء بمثله .

(159/687)

ثم هاهنا دقيقة : وهي أنه إذا لم يمكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة فههنا وقع التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجاني وبين منع المجني عليه من استيفاء حقه ، فأيهما أولى ؟ فههنا محل اجتهاد المجتهدين ، ويختلف ذلك باختلاف الصور ، وتفرع على هذا الأصل بعض المسائل تنبيهاً على الباقي .

المثال الأول : احتج الشافعي رضي الله عنه على أن المسلم لا يقتل بالذمي وأن الحر لا يقتل بالعبد ، بأن قال المماثلة شرط لجريان اللقصاص وهي مفقودة في هاتين المسألتين ، فوجب أن لا يجري القصاص بينهما ، أما بيان أن المماثلة شرط لجريان القصاص فهي النصوص المذكورة ، وكيفية الاستدلال بها أن نقول إما أن نحمل المماثلة المذكورة في هذه النصوص على المماثلة في كل الأمور إلا ما خصّه الدليل أو نحملها على المماثلة في أمر معين ، والثاني مرجوح لأن ذلك الأمر المعين غير مذكور الآية ، فلو حملنا الآية عليها لزم الإجمال ، ولو حملنا النص على القسم الأول لزم تحمل التخصيص ، ومعلوم أن دفع الإجمال أولى من دفع

التخصيص ، فثبت أن الآية تقتضي رعاية المماثلة في كل الأمور إلا ما خصّه دليل العقل ودليل نقلي منفصل ، وإذا ثبت هذا فنقول رعاية المماثلة في قتل المسلم بالذمي ، وفي قتل الحر بالعبد لا تمكن لأن الإسلام اعتبره الشرع في إيجاب القتل ، لتحصيله عند عدمه كما في حق الكافر الأصلي ، ولإبقائه عند وجوده كما في حق المرتد وأيضاً الحرية صفة اعتبرها الشرع في حق القضاء والإمامة والشهادة ، فثبت أن المماثلة شرط لجريان القصاص وهي مفقودة ههنا فوجب المنع من القصاص .

(160/687)

المثال الثاني : احتج الشافعي رضي الله عنه في أن الأيدي تقطع باليد الواحدة ، فقال لا شك أنه إذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم فوجب أن يشرع في حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص وكل من قال يشرع القطع إما كله أو بعضه في حق كلهم أو بعضهم قال بإيجابه على الكل ، بقي أن يقال فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجاني وهو ممنوع منه إلا أنا نقول لما وقع التعارض بين جانب الجاني وبين جانب المجني عليه كان جانب المجني عليه بالرعاية أولى .

المثال الثالث : شريك الأب شرع في حقه القصاص ، والدليل عليه أنه صدر عنه الجرح

فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى : ﴿ والجروحِ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة : 45] وإذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لأنه لا قائل بالفرق .

المثال الرابع : قال الشافعي رضي الله تعالى عنه من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شيء بمماثله .

المثال الخامس : شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا تعمدنا الكذب يلزمهم القصاص لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه ، فوجب أن يصير دمهم مهدراً لقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ .

المثال السادس : قال الشافعي رضي الله عنه المكره يجب عليه القود لأنه صدر عنه القتل ظلماً فوجب أن يجب عليه مثله ، أما أنه صدر عنه القتل فالحس يدل عليه وأما أنه قتل ظلماً فلأن المسلمين أجمعوا على أنه مكلف من قبل الله تعالى بأن لا يقتل وأجمعوا على أنه يستحق به الإثم العظيم والعقاب الشديد ، وإذا ثبت هذا فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ .

المثال السابع : قال الشافعي رضي الله عنه القتل بالمثقل يوجب القود ، والدليل عليه أن الجاني أبطل حياته فوجب أن يتمكن ولي المقتول من إبطال حياة القاتل لقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ .

المثال الثامن : الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً ونحن وإن ذكرنا هذه المسألة في المثال الأول إلا أنا نذكر ههنا وجهاً آخر من البيان ، فنقول إن القاتل أتلف على مالك العبد شيئاً يساوي عشرة دنانير مثلاً فوجب عليه أداء عشرة دنانير لقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ وإذا وجب الضمان وجب أن لا يجب القصاص لأنه لا قائل بالفرق .

المثال التاسع : منافع الغصب مضمونة عند الشافعي رضي الله عنه والدليل عليه أن الغاصب فوت على المالك منافع تقابل في العرف بدينار فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بأنه يجب أداؤه إلى المغصوب منه .

(162/687)

المثال العاشر : الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً لأنه لو قتل بالعبد هو مساوياً للعبد في المعاني الموجبة للقصاص لقوله ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [غافر : 40] ولسائر النصوص التي تلوناها ثم إن عبده يقتل قصاصاً بعبد نفسه فيجب أن يكون عبد غيره مساوياً لعبد نفسه في المعاني الموجبة للقصاص لعين هذه النصوص التي ذكرناها ، فعلى

هذا التقدير يكون عبد نفسه مساوياً لعبد غيره في المعاني الموجبة للقصاص ، فكان عبد نفسه مثلاً لمثل نفسه ، ومثل المثل مثل فوجب كون عبد نفسه مثلاً لنفسه في المعاني الموجبة للقصاص ، ولو قتل الحر بعبد غيره لقتل بعبد نفسه بالبيان الذي ذكرناه ولا يقتل بعبد نفسه فوجب أن لا يقتل بعبد غيره ، فقد ذكرنا هذه الأمثلة العشرة في التفريع على هذه الآية ، ومن أخذت الفطانة بيده سهل عليه تفريع كثير من مسائل الشريعة على هذا الأصل والله أعلم ، ثم ههنا بحث وهو أن أبا حنيفة رضي الله عنه قال في قطع الأيدي لا شك أنه صدر كل القطع أو بعضه عن كلهم أو عن بعضهم إلا أنه لا يمكن استيفاء ذلك الحق إلا باستيفاء الزيادة لأن تفويت عشرة من الأيدي أزيد من تفويت يد واحدة ، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة ، فقال الشافعي رضي الله عنه لو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة يد واحدة حراماً لكان تفويت عشرة من النفوس في مقابلة نفس واحدة حراماً ، لأن تفويت النفس يشتمل على تفويت اليد فتفويت عشرة من النفوس في مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة فلو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة حراماً لكان تفويت عشرة من النفوس لأجل النفس الواحدة مشتملاً على الحرام وكل ما اشتمل على الحرام فهو حرام فكان يجب أن يحرم قتل النفوس العشرة في مقابلة النفس الواحدة ، وحيث أجمعنا على أنه لا يحرم علمنا أن ما ذكرتم من استيفاء الزيادة غير ممنوع منه شرعاً ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قد بينا أن قوله ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ يتقضي وجوب رعاية المماثلة مطلقاً في كل الأحوال إلا فيما خصه الدليل ، والفقهاء أدخلوا التخصيص فيه في صور كثيرة فتارة بناء على نص آخر أخس منه وأخرى بناء على القياس ، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه أن يتمسك بهذا النص في جميع المطالب ، قال مجاهد والسدي إذا قال له أخزاه الله ، فليقل له أخزاه الله ، أما إذا قذفه قذفاً يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذي أمر الله به .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] (، ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ وهو وعد مبهم لا يقاس أمره في التعظيم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ وفيه قولان الأول : أن المقصود منه التنبيه على أن المجني عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم والانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز التسوية والتعدي خصوصاً في حال الحرب والتهاب الحمية ، فربما

صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالماً ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم ، قال فيقوم خلق فيقال لهم ما أجركم على الله ؟ فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله تعالى " الثاني : أنه تعالى لما حثّ على العفو عن الظالم أخبر أنه مع ذلك لا يحبه تنبيهاً على أنه إذ كان لا يحبه ومع ذلك فإنه يندب إلى عفوه ، فالمؤمن الذي هو حبيب الله بسبب إيمانه أولى أن يعفو عنه .

(164/687)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي ظالم الظالم إياه ، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ يعني المنتصرين ﴿ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ كعقوبة ومؤاخذة لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار واحتج الشافعي رضي الله تعالى عنه بهذه الآية في بيان أن سراية القود مهدرة ، فقال الشرع إما أن يقال إنه أذن له في القطع مطلقاً أو بشرط عدم السريان ، وهذا الثاني باطل لأن الأصل في القطع الحرمة ، فإذا كان تجويزه معلقاً بشرط أن لا يحصل منه السريان ، وكان هذا الشرط مجهولاً وجب أن يبقى ذلك القطع على أصل الحرمة ، لأن الأصل فيها هو الحرمة ، والحل إنما يحصل معلقاً على شرط

مجهول فوجب أن يبقى ذلك أصل الحرمة ، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الشرع أذن له في القطع كيف كان سواء سرى أو لم يسر ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون ذلك السريان مضموناً لأنه قد انتصر من بعد ظلمه فوجب أن لا يحصل لأحد عليه سبيل .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ أي يبدأون بالظلم ﴿ وَيَبْغُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ والمعنى ﴿ ولمن صبر ﴾ بأن لا يقتص ﴿ وغفر ﴾ وتجاوز ﴿ فإن ذلك ﴾ الصبر والتجاوز ﴿ لمن عزم الامور ﴾ يعني أن عزمه على ترك الانتصار لمن عزم الأمور الجيدة وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ثم قام وتلا هذه الآية ، فقال الحسن عقلها والله وفهمها لما ضيعها الجاهلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 153 . 156 ﴾

(165/687)

وقال القرطبى :

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾

قال العلماء : جعل الله المؤمنين صِنفين ؛ صنف يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قوله : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ .

وصنف ينتصرون من ظالمهم .

ثم بين حدّ الانتصار بقوله : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي .

قال مقاتل وهشام بن حُجَير : هذا في المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سب أو شتم .

وقاله الشافعي وأبو حنيفة وسفيان .

قال سفيان : وكان ابن شُبْرُمَة يقول : ليس بمكة مثل هشام .

وتأوّل الشافعي في هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه ؛ واستشهد في ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم لهند زوج أبي سفيان : " خذي من ماله ما يكفيك وولدك " فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه .

وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في "البقرة" .

وقال ابن أبي نجيح : إنه محمول على المقابلة في الجراح .

وإذا قال : أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثله .

ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب .

وقال السُّدِّي : إنما مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به ؛ يعني كما كانت العرب تفعله .

وسُمي الجزاء سيئةً لأنه في مقابلتها ؛ فالأوّل ساء هذا في مال أو بدن ، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضاً ؛ وقد مضى هذا كله في "البقرة" مستوفى .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ قال ابن عباس : من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي إن الله يأجره على ذلك .

قال مقاتل : فكان العفو من الأعمال الصالحة .

وقد مضى في "آل عمران" في هذا ما فيه كفاية ، والحمد لله .

(166/687)

وذكر أبو نعيم الحافظ عن علي بن الحسين رضي الله عنهم قال : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أيكم أهل الفضل ؟ فيقوم ناس من الناس ؛ فيقال : انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ؛ فيقولون إلى أين ؟ فيقولون إلى الجنة ؛ قالوا قبل الحساب ؟ قالوا نعم قالوا من أنتم ؟ قالوا أهل

الفضل ؛ قالوا وما كان فضلكم ؟ قالوا كنا إذا جُهل علينا حَلِمنا وإذا ظُلمنا صَبَرْنَا وإذا سِيء إلينا عفونا ؛ قالوا ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

وذكر الحديث .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ أي مَن بدأ بالظلم ؛ قاله سعيد بن جبير .

وقيل : لا يحبّ مَن يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحد ؛ قاله ابن عيسى .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لَوْمه ، بل يُحمد على ذلك مع الكافر .

ولا لوم إن انتصر الظالم من المسلم ؛ فالانتصار من الكافر حتم ، ومن المسلم مباح ، والعفو مندوب .

الخامسة في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفي ذلك بنفسه .

وهذا ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها أن يكون قصاصاً في بدن يستحقه آدمي ، فلا حرج عليه إن استوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام ، لكن يزجره الإمام في تفوته بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدم .

وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج ، وهو في الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب .

القسم الثاني أن يكون حدّ الله تعالى لا حق لآدمي فيه كحدّ الزنى وقطع السرقة ؛ فإن لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه ، وإن ثبت عند حاكم نُظر ، فإن كان قطعاً في سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه ، ولم يجب عليه في ذلك حق لأن التعزير أدب ، وإن كان جلداً لم يسقط به الحدّ لتعدّيه مع بقاء محله فكان مأخوذاً بحكمه .

(167/687)

القسم الثالث أن يكون حقاً في مال ؛ فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان ممن هو عالم به ، وإن كان غير عالم نُظر ، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له الاستسرار بأخذه .

وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بيّنة تشهد له ففي جواز استسراره بأخذه مذهبان : أحدهما جوازه ؛ وهو قول مالك والشافعي .

الثاني المنع ؛ وهو قول أبي حنيفة .

السادسة قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ أي بعدوانهم عليهم ؛ في قول أكثر العلماء .

وقال ابن جريج : أي يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم .

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أي في النفوس والأموال ؛ في قول الأكثرين .

وقال مقاتل : بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصي .

وقال أبو مالك : هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً .

وعلى هذا الحدّ قال ابن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وإن هذا للمشركين خاصة .

وقول قتادة : إنه عام ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام .

وقد بيناه والحمد لله .

السابعة قال ابن العربي : هذه الآية في مقابلة الآية المتقدّمة في "براءة" وهي قوله : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة : 19] ؛ فكما نفى الله السبيل عمن أحسن فكذلك نفاها على من ظلم ؛ واستوفى بيان القسمين .

الثامنة واختلف علماؤنا في السلطان يضع على أهل بلد مالاً معلوماً يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم ؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل ، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم .

فقيل لا ؛ وهو قول سحنون من علمائنا .

وقيل : نعم ، له ذلك إن قدر على الخلاص ؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي ثم المالكي .

قال : ويدل عليه قول مالك في الساعي يأخذ من غنم أحد الخلطاء شاة وليس في جميعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت له لا يرجع على أصحابه بشيء .

(168/687)

قال : ولست آخذ بما روِي عن سحنون ؛ لأن الظلم لا أسوة فيه ، ولا يلزم أحد أن يولج نفسه في ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره ، والله سبحانه يقول : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ .

التاسعة واختلف العلماء في التحليل ؛ فكان ابن المُسَيِّب لا يحلل أحداً من عِرض ولا مال .

وكان سليمان بن يَسار ومحمد بن سِيرين يحللان من العِرض والمال .

ورأى مالك التحليل من المال دون العرض .

روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب "لا أحلل أحداً" فقال : ذلك يختلف ؛ فقلت له يا أبا عبد الله ، الرجل يُسلف الرجل فيهلك ولا وفاء له ؟ قال : أرى أن يحلله وهو أفضل عندي ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 18] .

فقيل له : الرجل يظلم الرجل ؟ فقال : لا أرى ذلك ، هو عندي مخالف للأوّل ؛ يقول الله

تعالى : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ ويقول تعالى : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ فلا أرى أن يجعله من ظلمه في حِلّ .

قال ابن العربي : فصار في المسألة ثلاثة أقوال : أحدها لا يحلّله بحالٍ ؛ قاله سعيد بن المسيّب .

الثاني يحلّله ؛ قاله محمد بن سيرين .

الثالث إن كان مالاً حلّله وإن كان ظلماً لم يحلله ؛ وهو قول مالك .

وجه الأوّل ألاّ يحلل ما حرّم الله ؛ فيكون كالتبديل لحكم الله .

ووجه الثاني أنه حقه فله أن يسقط كما يسقط دمَه وعرْضه .

ووجه الثالث الذي اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن يتحلله ، وإن كان ظالماً فمن الحق ألا تتركه لئلا تغتر الظلمة ويسترسلوا في أفعالهم القبيحة .

(169/687)

وفي صحيح مسلم حديثُ أبي اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لغريمه : أُخرج إليّ ، فقد علمت أين أنت ؛ فخرج ؛ فقال : ما حملك على أن اختبأت مني ؟ قال : أنا والله أحدّثك ثم لا أكذبك ، خشيت والله أن أحدّثك فأكذبك ، وأن أعِدك فأخلِفك ، وكنتَ صاحب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنتُ والله مُعْسِراً .

قال قلت : آللّهِ ؟ قال اللّهِ ؛ قال : فأتى بصحيفة فمحاها فقال : إن وجدتَ قضاءً فاقض ، وإلا فأنت في حِلّ . . .

وذكر الحديث .

قال ابن العربي : وهذا في الحي الذي يرجى له الأداء لسلامة الذمة ورجاء التَّمَحُّل ، فكيف بالميت الذي لا محاللة له ولا ذِمّة معه .

العاشرة قال بعض العلماء : إن مَن ظُلم وأخِذ له مال فإنما له ثواب ما احتبس عنه إلى موته ، ثم يرجع الثواب إلى ورثته ، ثم كذلك إلى آخرهم ؛ لأن المال يصير بعده للوارث .

قال أبو جعفر الداودي المالكي : هذا صحيح في النظر ؛ وعلى هذا القول إن مات الظالم قبل مَن ظلمه ولم يترك شيئاً أو ترك ما لم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم إلى ورثة الظالم ؛ لأنه لم يبقَ للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم .

الحادية عشرة قوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أي صبر على الأذى و "غفر" أي ترك الانتصار لوجه الله تعالى ؛ وهذا فيمن ظلمه مسلم .

ويحكى أن رجلاً سبّ رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظِم ويعرق فيمسح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ؛ فقال الحسن : عقلها والله ! وفهمها إذ ضيّعها الجاهلون .

وبالجملة العفو مندوب إليه ، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه كما تقدّم ؛ وذلك إذا احتيج إلى كفّ زيادة البغي وقطع مادّة الأذى ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل عليه ، وهو " أن زينب أسمعت عائشة رضي الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي ، فقال لعائشة : "دونِك فانتصري" " خرجه مسلم في صحيحه بمعناه .

(170/687)

وقيل : "صَبَر" عن المعاصي وستر على المساوىء .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ أي من عزائم الله التي أمر بها .

وقيل من عزائم الصواب التي وفق لها .

وذكر الكلبي والفراء أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ثلاث آيات قبلها ، وقد شتمه بعض الأنصار فردّ عليه ثم أمسك .

وهي المدنيات من هذه السورة .

وقيل : هذه الآيات في المشركين ، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال ؛ وهو قول ابن زيد ، وقد تقدّم .

وفي تفسير ابن عباس "وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ" يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم .

﴿ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين .

﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود ، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر .

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الأرض ﴾ يريد بالظلم والكفر .

﴿ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يريد وجيع .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ حيث قبلوا الفِداء وصبروا على الأذى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(171/687)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ قَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ " مِنْ " إذَا دَخَلَتْ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ كَهَذِهِ الْآيَةِ وَقَوْلِنَا : مَا قَامَ مِنْ رَجُلٍ وَشَبَهِهِ هَلْ هِيَ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ الَّذِي هُوَ مَدْلُولُ قَوْلِنَا مَا قَامَ ، أَوْ لِتَأْكِيدِ إرَادَةِ الْعُمُومِ مِنْ قَوْلِنَا " رَجُلٌ " الْمَنْفِيُّ ؟ وَالْحَقُّ الثَّانِي وَلِذَلِكَ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : مَا مِنْ عَائِبٍ وَلَا عَاتِبٍ وَلَا مُعَاقَبٍ وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ يَنْبَغِي التَّنَبُّهُ لَهَا

.

وَمِمَّا يُشِيرُ إلَى ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى ﴿ هَلْ إلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ الِاسْتِفْهَامَ أَيُّ سَبِيلٍ أَوْ بَعْضُ سَبِيلٍ ؟ وَيَسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ وَكَوْنُهُ مَاضِيًا كَيْفَ جَاءَ بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ وَهُوَ مُسْتَقْبَلٌ ؟ وَقَوْلُهُ ﴿ عَلَيْهَا ﴾ الضَّمِيرُ لِلنَّارِ ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ ، لَكِنْ دَلَّ الْعَذَابُ عَلَيْهَا .

قَوْله تَعَالَى ﴿ إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ .

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ .

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ يَبْتَدِئُونَهُمْ بِالظُّلْمِ حَسَنٌ ؛ وَلَكِنَّ أَحْسَنَ مِنْهُ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ إشَارَةً إلَى أَنَّ الْمُبْتَدِئَ هُوَ الظَّالِمُ ، وَالْمُنْتَصِرَ لَيْسَ بِظَالِمٍ ، وَلَا يُوصَفُ فِعْلُهُ بِشَيْءٍ مِنْ الظُّلْمِ .

وَحِينَئِذٍ لَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ يَبْتَدِئُونَهُمْ بِالظُّلْمِ لِإِشْعَارِهِ بِأَنَّ الثَّانِيَ ظُلْمٌ غَيْرُ مُبْتَدَأٍ بِهِ ، فَيُرَخَّصُ

فِيهِ ، بَلْ هُوَ لَيْسَ بِظُلْمٍ أَصْلًا ، وَإِنَّمَا اسْتَفَدْنَا ذَلِكَ مِنْ إطْلَاقِ الْآيَةِ ﴿ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ مَفْهُومُهُ أَنَّ غَيْرَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ وَأَنَّهُمْ هُمْ ظَالِمُونَ ، فَهِيَ جَامِعَةٌ تُسْتَعْمَلُ فِي الْجَانِبَيْنِ لِبَيَانِ ظُلْمِ الْمُبْتَدِئِ بِالسَّيِّئَةِ وَنَفْيِ ظُلْمِ الْمُجَازِي بِهَا .

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّ " إنَّمَا " لِلْحَصْرِ لِأَنَّهُ قَصَدَ بِهَا تَأْكِيدَ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ ﴿ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ وَإِنَّمَا يُؤَكِّدُ النَّفْيَ إذَا دَلَّتْ عَلَى الْحَصْرِ بِخِلَافِ مَا إذَا جَعَلْنَاهَا لِمُجَرَّدِ الْإِثْبَاتِ .

(172/687)

(آيَةٌ أُخْرَى) قَوْله تَعَالَى ﴿ إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ : قَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَحَذَفَ الرَّاجِعَ لِأَنَّهُ مَفْهُومٌ كَمَا حُذِفَ مِنْ قَوْلِهِمْ : السَّمْنُ مَنَوَانِ بِدِرْهَمٍ أَحْسَنُ مِنْهُ أَنْ يُقَالَ : إنَّ ذَلِكَ إشَارَةٌ إلَى الصَّبْرِ وَالْمَغْفِرَةِ لِدَلَالَةِ " صَبَرَ وَغَفَرَ " عَلَيْهِمَا كَأَنَّهُ قَالَ إنَّ صَبْرَهُمْ وَمَغْفِرَتَهُمْ فَأَغْنَى عَنْ الرَّابِطِ كَقَوْلِهِ ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 115.116 ﴾

(173/687)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الأَرض ﴾

لتكبَّرُوا وأفسدُوا فيها بَطَراً أو لعَلاَ بعضُهم على بعضٍ بالاستيلاءِ والاستعلاء ، كمَا عليهِ الجِبلَّةُ البشريةُ . وأصلُ البَغِي طلب تجاوز الاقتصادِ فيما يُتحرَّى من حيثُ الكميَّةُ أو الكيفيَّةُ ﴿ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ﴾ أي بتقديرٍ ﴿ مَا يَشَاء ﴾ أنْ ينزلَهُ مما تقتضيه مشيئتُه ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ محيطٌ بخفايا أمورهم وجلاَيَاها فيقدرُ لكلِّ واحدٍ منهُم في كلِّ وقتٍ من أوقاتِهم ما يليقُ بشأنِهم فيفقرُ ويُغني ويمنعُ ويُعطِي ويَقْبِض ويبسُط حسبما تقتضيهِ الحكمةُ الربَّانيةُ . ولو أغناهُم جميعاً لبغَوا ولو أفقرهُم لهلكُوا . ورُوِيَ أنَّ أهلَ الصُّفَّةِ تمنَّوا الغِنَى فنزلتْ وقيل : نزلتْ في العرب كانُوا إذا أخصبوا تحاربُوا وإذا أجدبوا انتجعوا .

(174/687)

﴿ وَهُوَ الذى يُنَزِّلُ الغيث ﴾ أي المطرَ الذي يغيثُهم من الجدب ولذلك خُصَّ بالنافعِ منه . وقرىء يُنزل من الانزال ﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ يئسوا منه وتقييدُ تنزيله بذلكَ مع تحققه بدونه أيضاً لتذكر كمالِ النعمةِ . وقُرِىءَ بكسر النون ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أيْ بركاتِ

الغيثِ ومنافعَهُ في كلِّ شيءٍ من السهلِ والجبلِ والنباتِ والحيوانِ ، أو رحمتَهُ الواسعةَ المنتظمةَ لما ذُكِرَ انتظاماً أولياً ﴿ وَهُوَ الولى ﴾ الذي يتولَّى عبادَهُ بالإحسان ونشرِ الرحمة ﴿ الحميد ﴾ المستحقُ للحمدِ على ذلك لا غيرُهُ . ﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض ﴾ على ما هُما عليهِ من تعاجيب الصنائع فإنَّها بذاتها وصفاتِها تدلُّ على شؤونه العظيمةِ ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ عطفٌ على السموات أو الخلق ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ من حَيَ ، على إطلاقِ اسمِ المُسبَّبِ على السببِ أو ممَّا يدبُّ على الأرضِ فإنَّ ما يختصُّ بأحد الشيئين المتجاورين يصحُّ نسبتُه إليهما كما في قولِه تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ وإنما يخرجُ من المِلحِ . وقد جُوِّز أنْ يكونَ للملائكة عليهم السَّلامُ مشيٌ مع الطيرانِ فيوصفُوا بالدبيب وأن يخلقَ اللهُ في السماءِ حيواناً يمشُونَ فيها مشيَ الأناسيِّ على الأرض كما ينبىءُ عنْهُ قولُه تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقد رُويَ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : " فوقَ السماءِ السابعةِ بحرٌ من أسفله وأعلاهُ كما بينَ السماءِ والأرضِ ثمَّ فوقَ ذلكَ ثمانيةُ أوعالٍ بين رُكَبهن وأظلافهنَّ كما بينَ السماءِ والأرضِ ثم فوقَ ذلكَ العرشُ العظيمُ " .

(175/687)

﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ ﴾ أي حشرِهم بعدَ البعثِ للمحاسبةِ. وقولُه تعالى: ﴿ إذَا يَشَاء ﴾ متعلقٌ بما قبلَهُ لا بقوله تعالَى ﴿ قَدِيرٌ ﴾ فإنَّ المقيدَ بالمشيئةِ جمعُه تعالى لا قدرتُه، وإذَا عندَ كونِها بمَعْنى الوقتِ كَما تدخلُ الماضِي تدخلُ المضارعَ.

﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ ﴾ أيُّ مصيبةٍ كانتْ ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي فهيَ بسببِ معاصيكُم التي اكتسبتمُوها. والفاءُ لأنَّ ما شرطيةٌ أو متضمنةٌ لمَعْنى الشرطِ. وقُرِىءَ بدونِها اكتفاءً بما في الباء من مَعْنى السببيةِ. ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ من الذنوبِ فلا يعاقبُ عليها. والآيةُ مخصوصةٌ بالمجرمينَ فإنَّ ما أصابَ غيرَهُم لأسبابٍ أُخرى منها تعريضُه للثوابِ بالصبرِ عليهِ ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ فائتينَ ما قُضِيَ عليكُم من المصائبِ وإن هربتُم من أقطارِها كلَّ مهربٍ. ﴿ وَمَا لَكُم مّن دُونِ الله مِن وَلِيّ ﴾ يحميكُم منَها ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يدفعُها عنكُم.

(176/687)

﴿ وَمِنْ ءاياته الجوار ﴾ السفنُ الجاريةُ ﴿ فِى البحر ﴾ وقُرِىءَ الجَوَارِي ﴿ كالأعلام ﴾ أي كالجبالِ على الإطلاقِ لا التي عليها النارُ للاهتداءِ خاصَّة. ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح ﴾ التي تُجريَها. وقُرِىءَ الرياحَ. ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ ﴾ فيبقينَ ثوابتَ

على ظهرِ البحرِ أي غيرَ جارياتٍ لا غيرَ متحركاتٍ أصلاً . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكِرَ من السفنِ اللاتِي يجرينَ تارةً ويركُدنَ أُخْرى على حسب مشيئتِه تعالَى ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمةً في أنفسها كثيرةً في العددِ دالةً على ما ذُكِرَ منْ شؤونه تعالَى . ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ لكلِّ مَنْ حبسَ نفسَهُ عن التوجه إلى ما لا ينبغِي ووكَّلَ همَّتَهُ بالنظرِ في آياتِ الله تعالَى والتفكرِ في آلائِه أو لكلِّ مؤمنٍ كاملٍ ، فإنَّ الإيمانَ نصفُهُ صبرٌ ونصفُهُ شكرٌ . ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ عطفٌ على يُسكنْ والمعنى إن يشأ يسكن الريحَ فيركدنَ أو يرسلْهَا فيغرقنَ بعصفِها . وإيقاعُ الإيباقِ عليهنَّ مع أنَّه حالُ أهلهنَّ للمبالغةِ والتهويلِ . وإجراءُ حُكمِه على العفوِ في قولِه تعالَى ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ لِما أنَّ المَعْنى أو يُرسلْها فيوبقْ ناساً ويُنجِ آخرينَ بطريقِ العفوِ عنهُم . وقُرِىءَ ويعفُو على الاستئناف ﴿ وَيَعْلَمَ الذين يجادلون فِى ءايا تنا ﴾ عطفٌ على علة مقدرةٍ مثل لينتقمَ منهم وليعلم الخ كما في قولِه تعالَى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ءايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ﴾ ونظائِرِهما . وقُرِىءَ بالرفعِ على الاستئنافِ وبالجزمِ عطفاً على يعفُ فيكونُ المَعْنى وإنْ يشأْ يجمعْ بينَ إهلاكِ قومٍ وإنجاءِ قومٍ وتحذيرِ قومٍ . ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي منْ مهربٍ من العذابِ . والجملةُ معلّقٌ عنها الفعلُ .

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ مما ترغبونَ وتتنافسونَ فيهِ . ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي فهُو متاعُها تتمتعونَ به مدةَ حياتِكم ﴿ وَمَا عِندَ الله ﴾ من ثواب الآخرةِ ﴿ خَيْرٌ ﴾ ذاتاً لخلوصِ نفعِه ﴿ وأبقى ﴾ زماناً حيثُ لا يزولُ ولا يَفْنى ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا على غيرِه أصلاً . والموصولُ الأولُ لما كانَ مُتضمناً لمَعْنى الشرطِ منْ حيثُ أنَّ إيتاءَ مَا أُوتُوا سببٌ للتمتعِ بها في الحياة الدُّنيا دخلتْ جوابَها الفاءُ بخلافِ الثانِي . وعَنْ عليَ رضيَ الله عنه أنَّه تصدقَ أبو بكرٍ رضيَ الله عنْهُ بمالِه كلِّه فلامَهُ جمعٌ من المسلمينَ فنزلتْ . وقولُه تعالَى :

(178/687)

﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم ﴾ أي الكبائر من هذا الجنس ﴿ والفواحش وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ معَ ما بعدَهُ عطفٌ على الذينَ آمنُوا ، أو مدحٌ بالنصبِ أو الرفعِ وبناءُ يغفرونَ على الضميرِ خبراً لهُ للدلالةِ على أنَّهم الأَخِصَّاءُ بالمغفرةِ حالَ الغضبِ لعزةِ منالِها وقُرِىءَ كبيرَ الإثمِ وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهُمَا كبيرُ الإثمِ الشركُ . ﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ نزلَ في الأنصارِ دعاهُم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

إلى الإيمانِ فاستجابُوا له . ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ أي ذُو شُورى لا ينفردونَ برأيٍ حتى يتشاورُوا ويجتمعُوا عليهِ وكانُوا قبلَ الهجرةِ وبعدَهَا إذا حزبَهُم أمرٌ اجتمعُوا وتشاورُوا ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ أيْ فِي سبيلِ الخيرِ ، ولَعلَّ فصلَهُ عن قرينِه بذكرِ المشاورةِ لوقوعِها عند اجتماعِهم للصلواتِ . ﴿ والذين إذَا أَصَابَهُمُ البغى هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي ينتقمونَ ممَّنْ بَغَى عليهِم على ما جعلَهُ اللهُ تعالَى لهُم كراهةَ التذللِ ، وهو وصفٌ لهم بالشجاعةِ بعدَ وصفِهم بسائرِ مُهمَّاتِ الفضائلِ وهَذَا لا ينافِي وصفَهُم بالغُفرانِ فإنَّ كلاًّ منهما فضيلةٌ محمودةٌ في موقعِ نفسِهِ ، ورذيلةٌ مذمومةٌ في موقعِ صاحبِهِ ، فإنَّ الحِلْمَ عن العاجزِ وعوراءِ الكرامِ محمودٌ وعن المتغلبِ ولغواءِ اللئامِ مذمومٌ فإنَّه إغراءٌ على البَغِي ، وعليهِ قولُ مَنْ قالَ

إذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَه . . . وإنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تمرَّدَا

فَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيفِ بالعُلا . . . مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

(179/687)

وقولُه تعالَى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ بيانٌ لوجهِ كونِ الانتصارِ من الخصالِ الحميدةِ مع كونِه في نفسِه إساءةً إلى الغيرِ ، بالإشارةِ إلى أنَّ البادئَ هُو الذي فعلَهُ لنفسِهِ ،

فإنَّ الأفعالَ مستتبعةٌ لأجزيتها حتماً إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شراً فشرٌّ ، وفيه تنبيهٌ على حُرْمةِ التعدّي ، وإطلاقُ السيئةِ على الثانيةِ لأنَّها تسوءُ مَنْ نزلتْ بهِ ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ عن المسيءِ إليهِ ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ بينَهُ وبينَ مَنْ يعاديهِ بالعفوِ والإغضاءِ كما في قولِه تعالى : ﴿ فَإِذَا الذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ عِدةٌ مُبهمةٌ منبئةٌ عن عظمِ شأنِ الموعودِ وخُروجِه عن الحدِّ المعهودِ . ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ البادئينَ بالسيئةِ والمتعدّينَ في الانتقامِ .

(180/687)

﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي بعدَ ما ظُلِمَ ، وقَدْ قُرِىءَ بهِ . ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ باعتبارِ المَعْنى ، كما أنَّ الضميرينِ لَها باعتبارِ اللفظِ . ﴿ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ بالمُعَاتبةِ أو المُعَاقبةِ ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ يبتدئونَهُم بالإضرارِ أوْ يعتدونَ في الانتقامِ . ﴿ وَيَبْغُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أيْ يتكبرونَ فيها تجبُّراً وفساداً ﴿ أولئك ﴾ الموصوفونَ بما ذُكِرَ من الظُّلمِ والبغيِ بغيرِ الحقّ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بسببِ ظُلمهم وبغيهم ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ على الأذى ﴿ وَغَفَرَ ﴾ لِمَنْ ظلمَهُ ولَم ينتصرْ وفوّضَ أمرَهُ إلى اللهِ تعالى ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ الذي ذُكِرَ مِنَ الصبرِ والمغفرةِ ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الأمور

﴿ أيْ إنَّ ذلكَ مِنْهُ ، فحذفَ ثقةً بغايةِ ظهورِه كَما في قولِهم السمنُ مَنَوانِ بدرهمٍ ، وهَذا في الموادِّ التي لا يُؤدِّي العفوُ إلى الشرِّ كَما أُشيرَ إليهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(181/687)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾

بيان لما جعل للمنتصر وتسمية الفعلة الثانية وهي الجزاء سيئة قيل للمشاكلة ، وقال جار الله : تسمية كلتا الفعلتين سيئة لأنها تسوء من تنزل به ، وفيه رعاية لحقيقة اللفظ واشارة إلى أن الانتصار مع كونه محموداً إنما يحمد بشرط رعاية المماثلة وهي عسرة ففي مساقها حث على العفو من طريق الاحتياط ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ أي عن المسيء إليه ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ما بينه وبين من يعاديه بالعفو والأغضاء عما صدر منه ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ فيجزيه جل وعلا أعظم الجزاء ، تصريح بما لوح إليه ذلك من الحث وتنبيه على أنه وإن كان سلوكاً لطريق الاحتياط يتضمن مع ذلك اصلاح ذات البين المحمود حالاً ومالا ليكون زيادة تحريض عليه ، وابهام الأجر وجعله حقاً على العظيم الكريم جل شأنه الدال على

عظمه زيادة في الترغيب ، وجيء بالفاء ليفرعه عن السابق أي إذا كان سلوك الانتصار غير مأمون العثار فمن عفا وأصلح فهو سالك الطريق المأمون العثار المحمود في الدارين ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ المتجاوزين الحد في الانتقام ، تتميم لذلك المعنى وتصريح بما ضمن من عسر رعاية طريق المماثلة وأنه قلما تخلو عن الاعتداء والتجاوز لا سيما في حال الحرد والتهاب الحمية فيكون دخولاً في زمرة من لا يحبه الله تعالى ، ولا حاجة على هذا المعنى إلى جعل ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ الخ اعتراضاً ، ثم لو كان كذلك بأن يكون هذا متعلقاً بجزاء سيئة سيئة مثلها على أنه تعليل لما يفهم منه فالفاء غير مانعة عنه كما توهم ، وأدخل غير واحد المبتدئين بالسيئة في الظالمين .

(182/687)

﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ بعد ما ظلم بالبناء للمجهول ، وقرىء به فالمصدر مضاف لمفعوله أو هو مصدر المبني للمفعول واللام للقسم ، وجوز أن تكون لام الابتداء جيء بها للتوكيد و ﴿ مِنْ ﴾ شرطية أو موصولة وحمل انتصر على لفظها وحمل ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي للمعاقب ولا للعاتب والعائب على معناها ، والجملة عطف على ﴿ من عفا ﴾ [الشورى : 40] وجيء بها للتصريح بأن ما حض عليه إنما حض عليه

إرشاداً إلى الأصلح في الأغلب لا أن المنتصر عليه سبيل بوجه حالاً أو مآلا ، ولا يهام الحض خلاف ما تضمنته من نفي السبيل على العموم صدرت باللام .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ تعيين لمن عليه السبيل بعد نفي ذلك عن المنتصرين ، والمراد بالذين يظلمون الناس من يبدؤنهم بالظلم أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ما حد لهم ، وفسر ذلك بعضهم بالذين يفعلون بهم ما لا يستحقونه وهو أعم .

﴿ وَيَبْغُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أي يتكبرون فيها تجبراً وفساداً ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بالظلم والبغي بغير الحق ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم ، والمراد بهؤلاء الظالمين الباغين الكفرة .

وقيل : من يعمهم وغيرهم ، وقوله تعالى :

(183/687)

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الامور ﴾ تحذير عن الظلم والبغي وما يؤدي إلى العذاب الأليم بوجه ، وفيه حض على ما حض عليه أولا اهتماماً به وزيادة ترغيب فيه ، فالصبر هنا هو الاصلاح المؤخر فيما تقدم قدم هنا ، وعبر عنه بالصبر لأنه من شأن أولى العزم وإشارة إلى أن الاصلاح بالعفو والاغضاء إنما يحمد إذا كان عن قدرة لا عن عجز ،

و"ذلك" إشارة إلى المذكور من الصبر والمغفرة ، و ﴿ عَزْمِ الامور ﴾ الأمور المعزومة المقطوعة أو العازمة الصادقة ، وجوز في ﴿ مِنْ ﴾ أن تكون موصولة وأن تكون شرطية ، وفي اللام أن تكون ابتدائية وأن تكون فسمية واكتفى بجواب القسم عن جواب الشرط ، وإذا جعلت اللام للابتداء و ﴿ مِنْ السماء والأرض إِنَّ ذلك ﴾ جواب الشرط وحذفت الفاء منها ، ومن يخص الحذف بالشعر لا يجوز هذا الوجه ، وذكر جماعة أن في الكلام حذفاً أي إن ذلك منه لمن عزم الأمور ، وعلل ذلك بأن الجملة خبر فلا بد فيها من رابط و ﴿ ذلك ﴾ لا يصلح له لأنه إشارة إلى الصبر والمغفرة ، وكونه مغنيا عنه لأن المراد صبره أو ﴿ ذلك ﴾ رابط والإشارة لمن بتقدير من ذوي عزم الأمور تكلف .

(184/687)

هذا واختار العلامة الطيبي أن تسمية الفعلية الثانية التي هي الجزاء سيئة من باب التهجين ودن المشاكلة ، وزعم أن المجازي مسيء وبنى على ذلك ربط جملة ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ [الشورى : 40] بما قبل فقال : يكن أن يقال لما نسب المجازي إلى المساءة في قوله سبحانه : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الشورة 40) والمسيء في هذا المقام مفسداً لما في البيت بدليل ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ علل مفهوم ذلك بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ

لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ كأنه قيل : من أخرج نفسه بالعفو والاصلاح من الانتساب إلى السيئة والإفساد كان مقسطاً إن الله يحب المقسطين فوضع موضعه ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ ومن اشتغل بالمجازاة وانتسب إلى السيئة وأفسد ما في البين وحرم نفسه ذلك الأجر الجزيل كان ظالماً نفسه ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ فالآية واردة إرشاداً للمظلوم إلى مكارم الأخلاق وإيثار طريق المرسلين .

وقال : إن قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظالمة ﴾ [الشورى : 41] الخ خطاب للولاة والحكام وتعليم فعل ما ينبغي فعله بدليل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ [الشورى : 42] حيث أعاد السبيل المنكر بالتعريف وعلق به ﴿ يَظْلِمُونَ الناس ﴾ وفسره بقوله تعالى : ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وكذا قوله سبحانه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ الخ تعليم لهم أيضاً طريق الحكم يعني أن صاحب الحق إذا عدل من الأولى وانتصر من الظالم فلا سبيل لكم عليه لما قد رخص له ذلك وإذا اختار الأفضل فلا سبيل لكم على الظالم لأن عفو المظلوم من عزم الأمور فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان انتهى ، ولا يخفى ما فيه .

(185/687)

وفي "الكشف" أن جعل ما ذكر خطاباً للولاة والحكاه يوجب التعقيد في الكلام فالمعول عليه ما قدمناه ، وقد جاءت أخبار كثيرة في فضل العافين عمن ظلمهم ، أخرج البيهقي في "شعب الايمان" عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال موسى ابن عران عليه الصلاة والسلام يا رب من أعز عبادك عندك ؟ قال : من إذا قدر غفر "

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا وقف العباد للحساب نادى مناد ليقم من أجره على الله تعالى فليدخل الجنة ثم نادى الثانية ليقم من أجره على الله تعالى قالوا : ومن ذا الذي أجره على الله تعالى ؟ قال : العافون عن الناس فقام كذا وكذا ألفاً فدخلوا الجنة بغير حساب "

(186/687)

وأخرج أحمد وأبو داود عن أبي هريرة أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله تعالى عنه والنبي جالس فجعل عليه الصلاة والسلام يعجب ويتبسم فلما أكثر رد عليه بعض قوله : فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام فلحقه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله

كان يشتمني وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت قال : إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله : وقع الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان ثم قال عليه الصلاة والسلام : " ثلاث من الحق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله تعالى ألا أعز الله عز وجل بها نصره وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله تعالى بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله تعالى بها قلة " استشكل هذا الخبر بأنه يشعر بعتب أبي بكر رضي الله تعالى عنه وهو نوع من السبيل المنفي في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : 41] وأجيب بأنا لا نسلم ذلك وليس فيه أكثر من تنبيهه رضي الله تعالى عنه على ترك الأولى وهو شيء والعتب شيء آخر ، وكذا لا يعد لوما كما لا يخفى .

ومن الناس من خص السبيل في الآية بالإثم والعقاب فلا إشكال عليه أصلاً ، وقيل : هو باق على العموم إلا أن الآية في عوام المؤمنين ومن لم يبلغ مبلغ أبي بكر رضي الله تعالى عنه فإن مثله يلام بالشتم وإن كان بحق بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأذن له به قالاً أو حالاً بل لاح عليه صلى الله عليه وسلم ما يشعر باستحسان السكوت عنه وحسنات الأبرار سيآت المقربين .

وقد أمر صلى الله عليه وسلم بعض الأشخاص برد الشتم على الشاتم ، أخرج النسائي .

وابن ماجه .

وابن مردويه .

(187/687)

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : دخلت على زينب رضي الله تعالى عنها وعندي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلت علي تسبني فوزعها النبي عليه الصلاة والسلام فلم تنته فقال لي : سبيها فسببتها حتى جف ريقها في فمها ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل سروراً ، ولعله كان هذا منه عليه الصلاة والسلام تعزيزاً لزينب رضي الله تعالى عنها بلسان عائشة رضي الله تعالى عنها لما أن لها حقاً في الرد ورأي المصلحة في ذلك وقد ذكر فقهاؤنا أن للقاضي أن يعزر من استحق التعزير بشتم غير القذف وكذا للزوج أن يعزر زوجته على شتمها غير محرم إلى أمور أخر فتأمل .

وظاهر قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] يقتضي رعاية المماثلة مطلقاً ، وفي تفسير الإمام أن الآية تقتضي وجوب رعاية المماثلة في كل الأمور إلا فيما خصه الدليل لأنه لو حملت المماثلة فيها على المماثلة في أمر معين فهو غير مذكور فيها فيلزم الاجمال وعلى ما قلنا يلزم تحمل التخصيص ومعلوم أن دفع الإجمال أولى من دفع

التخصيص .

والفقهاء أدخلوا التخصيص فيها في صور كثيرة تارة بناء على نص آخر أخص وأخرى بناء على القياس ، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه أن يتمسك بها في جميع المطالب .

وعن مجاهد .

(188/687)

والسدي إذا قال له : أخزاه الله تعالى فليقل أخزاه الله تعالى وإذا قذفه قذفاً يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذي أمر الله تعالى به ، ونقل أبو حيان عن الجمهور أنهم قالوا إذا بغي مؤمن على مؤمن فلا يجوز له أن ينتصر منه بنفسه بل يرفع ذلك إلى الإمام أو نائبه ، وفي "مجمع الفتاوي" جاز المجازاة بمثله في غير موجب حد للإذن به ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ والعفو أفضل ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ [الشورى : 40] وقال ابن الهمام : الأولى أن الإنسان إذا قيل له ما يوجب التعزير أن لا يجيبه قالوا : لو قال له : يا خبيث الأحسن أن يكف عنه ويرفعه إلى القاضي ليؤدبه بحضوره ولو أجاب مع هذا فقال : بل أنت لا بأس .

وفي "التنوير" وشرحه ضرب غيره بغير حق وضربه المضروب أيضاً يعزران كما لو تشاتما بين يدي القاضي ولم يتكافآ ، وأنت تعلم ما يقتضيه ظاهر الآية ولا يعدل عنه إلا لنص ، وظاهر كلام العلامة الطيبي أن المظلوم إذا عفا لا يلزم الظالم التعزير بضرب أو حبس أو نحوه ، وذكر فقهاؤنا أن التعزير يغلب فيه حق العبد فيجوز فيه الإبراء والعفو واليمين والشهادة على الشهادة وشهادة رجل وامرأتين ويكون أيضاً حقاً لله تعالى فلا عفو فيه إلا إذا علم الإمام انزجار الفاعل إلى آخر ما قالوا ، ويترجح عندي أن الإمام متى رأى بعد التأمل والتجرد عن حظوظ النفس ترك التعزير للعفو سبباً للفساد والتجاسر على التعدي وتجاوز الحدود عزر بما تقتضيه المصلحة العامة وليبذل وسعه فيما فيه إصلاح الدين وانتظام أمور المسلمين وإياه أن يتبع الهوى فيضل عن الصراط المستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(189/687)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾

ذكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجبة لتوحيده ، وصدق ما وعد به من

البعث ، فقال : ﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض ﴾ أي : خلقهما على هذه الكيفية العجيبة ، والصنعة الغريبة ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ يجوز عطفه على خلق ، ويجوز عطفه على السموات ، والدابة اسم لكل ما دبّ .

قال الفراء : أراد ما بثّ في الأرض دون السماء كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] ، وإنما يخرج من الملح دون العذب .

وقال أبو عليّ الفارسي : تقديره : وما بثّ في أحدهما ، فحذف المضاف .

قال مجاهد : يدخل في هذا الملائكة ، والناس ، وقد قال تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : 8] ﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ ﴾ أي : حشرهم يوم القيامة ﴿ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ ، الظرف متعلق بجمعهم لا بقدير قال أبو البقاء : لأن ذلك يؤدي ، وهو على جمعهم قدير إذا يشاء ، فتتعلق القدرة بالمشيئة ، وهو محال ، قال شهاب الدين : ولاأدري ما وجه كونه محالاً على مذهب أهل السنّة .

فإن كان يقول بقول المعتزلة ، وهو : أن القدرة تتعلق بما لم يشأ الله مشى كلامه ، ولكنه مذهب رديء لا يجوز اعتقاده ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي : ما أصابكم من المصائب كائنة ما كانت ، فبسبب ما كسبت أيديكم من المعاصي .

قرأ نافع ، وابن عامر : (بما كسبت) بغير فاء ، وقرأ الباقون بالفاء .

"وما" في : ﴿ وَمَا أصابكم ﴾ هي : الشرطية ، ولهذا دخلت الفاء في جوابها على

قراءة الجمهور ، ولا يجوز حذفها عند سيبويه ، والجمهور ، وجوّز الأخفش الحذف كما في قوله : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] ، وقول الشاعر :

(190/687)

من يفعل الحسنات الله يشكرها . . . والشرّ بالشرّ عند الله مثلان

وقيل : هي الموصولة ، فيكون الحذف ، والإثبات جائزين ، والأوّل أولى .

قال الزجاج : إثبات الفاء أجود ؛ لأن الفاء مجازاة جواب الشرط ، ومن حذف الفاء فعلى أن ما في معنى : الذي ، والمعنى : الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم .

قال الحسن : المصيبة هنا الحدود على المعاصي ، والأولى الحمل على العموم كما يفيده وقوع النكرة في سياق النفي ، ودخول من الاستغراقية عليها ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ من المعاصي التي يفعلها العباد ، فلا يعاقب عليها ، فمعنى الآية : أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب ، ويعفو عن كثير من الذنوب .

وقد ثبتت الأدلة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا يؤجر عليه ، أو يكفر عنه من ذنوبه .

وقيل : هذه الآية مختصة بالكافرين على معنى : أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن

يكون ذلك مكفراً عنهم لذنب ، ولا محصلاً لثواب ، ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم ، فلا يعاجلهم في الدنيا بل يمهلهم إلى الدار الآخرة .

والأولى حمل الآية على العموم ، والعفو يصدق على تأخير العقوبة كما يصدق على محو الذنب ، ورفع الخطاب به .

قال الواحدي : وهذه أرجى آية في كتاب الله ؛ لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين : صنف كفره عنهم بالمصائب ، وصنف عفا عنه في الدنيا ، وهو كريم لا يرجع في عفوه ، فهذه سنّة الله مع المؤمنين .

وأما الكافر ، فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ أي : بفائتين عليه هرباً في الأرض ، ولا في السماء لو كانوا فيها بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيّ ﴾ يواليكم ، فيمنع عنكم ما قضاه الله ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ ينصركم من عذاب الله في الدنيا ، ولا في الآخرة .

(191/687)

ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده ، وصدق ما وعد به ، فقال : ﴿ وَمِنْ ءاياته الجوار ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو : (الجواري) بإثبات الياء في الوصل ،

وأما في الوقف ، فإثباتها على الأصل ، وحذفها للتخفيف ، وهي : السفن واحدتها جارية أي : سائرة ﴿ فِى البحر كالأعلام ﴾ أي : الجبال جمع علم ، وهو الجبل ، ومنه قول الخنساء :

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به . . . كأنه علم في رأسه نار

قال الخليل : كلّ شيء مرتفع عند العرب ، فهو علم .

وقال مجاهد : الأعلام القصور واحدها علم ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِيح ﴾ قرأ الجمهور بهمز : ﴿ يشأ ﴾ ، وقرأ ورش عن نافع بلا همز .

وقرأ الجمهور : ﴿ الريح ﴾ بالإفراد ، وقرأ نافع : (الرياح) على الجمع ، أي : يسكن الريح التي تجري بها السفن ﴿ فَيَظْلَلْنَ ﴾ أي : السفن ﴿ رَوَاكِدَ ﴾ أي : سواكن ثوابت ﴿ على ظَهْرِهِ ﴾ البحر ، يقال : ركد الماء ركوداً : سكن ، وكذلك ركدت الريح ، وركدت السفينة ، وكل ثابت في مكان ، فهو راكد .

قرأ الجمهور : (فيظللن) بفتح اللام الأولى ، وقرأ قتادة بكسرها ، وهي لغة قليلة .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر من أمر السفن ﴿ لأَيَاتٍ ﴾ دلالات عظيمة ﴿ لّكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : لكل من كان كثير الصبر على البلوى كثير الشكر على النعماء .

قال قطرب : الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر .

قال عون بن عبد الله :

فكم من منعم عليه غير شاكر . . . وكم من مبتلي وهو غير صابر

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ معطوف على يسكن ، أي : يهلكهنّ بالغرق ، والمراد : أهلكهن بما كسبوا من الذنوب ، وقيل : بما أشركوا .

والأوّل أولى ، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك ، يقال : أوبقه ، أي : أهلكه ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم ، فينجيهم من الغرق .

قرأ الجمهور : ﴿ يعف ﴾ بالجزم عطفاً على جواب الشرط .

(192/687)

قال القشيري : وفي هذه القراءة إشكال ؛ لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح ، فتبقي تلك السفن رواكد ، أو يهلكها بذنوب أهلها ، فلا يحسن عطف ﴿ يعف ﴾ على هذا ، لأنه يصير المعنى : إن يشأ يعف ، وليس المعنى ذلك ، بل المعنى : الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة ، فهو : إذن عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى ، وقد قرأ قوم : (ويعفو) بالرفع ، وهي جيدة في المعنى .

قال أبو حيان : وما قاله ليس بجيد إذ لم يفهم مدلول التركيب ، والمعنى : إلاّ أنه تعالى أهلك ناساً ، وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم ، وقرأ الأعمش : (ويعفو) بالرفع ، وقرأ بعض

أهل المدينة بالنصب بإضمار أن بعد الواو كما في قول النابغة :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك . . . ربيع الناس والشهر الحرام

ونأخذ بعده بذناب عيش . . . أجبّ الظهر ليس له سنام

بنصب ونأخذ ﴿ وَيَعْلَمَ الذين يجادلون فِى ءاياتنا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ قرأ الجمهور بنصب : ﴿ يعلم ﴾ قال الزجاج : على الصرف ، قال : ومعنى الصرف : صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى ، قال : وذلك أنه لما لم يحسن عطف ﴿ ويعلم ﴾ مجزوماً على ما قبله إذ يكون المعنى : إن يشأ يعلم عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذي قبله ، ولا يتأتى ذلك إلاّ بإضمار أن ، لتكون مع الفعل في تأويل اسم ، ومن هذا بيتا النابغة المذكوران قريباً ، وكما قال الزجاج .

قال المبرّد ، وأبو عليّ الفارسي : واعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته .

وقيل : النصب على العطف على تعليل محذوف ، والتقدير : لينتقم منهم ، ويعلم .

واعترضه أبو حيان بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم ، ونجاة قوم ، فلا يحسن تقدير لينتقم منهم .

وقرأ نافع ، وابن عامر برفع : (يعلم) على الاستئناف ، وهي قراءة ظاهرة المعنى واضحة اللفظ .

وقرىء بالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى : وإن يشأ يجمع بين الإهلاك ، والنجاة ، والتحذير ، ومعنى : ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ : ما لهم من فرار ، ولا مهرب ، قاله قطرب .

وقال السدي : ما لهم من ملجأ ، وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة : إذا رمى به ، ومنه قولهم : فلان يحيص عن الحق ، أي : يميل عنه .

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَىْءٍ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد ، ذكر التنفير عن الدنيا ، أي : ما أعطيتم من الغنى ، والسعة في الرزق ، فإنما هو متاع قليل في أيام قليلة ينقضي ، ويذهب .

ثم رغبهم في ثواب الآخرة ، وما عند الله من النعيم المقيم ، فقال : ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى ﴾ أي : ما عند الله من ثواب الطاعات ، والجزاء عليها بالجنات خير من متاع الدنيا ، وأبقى ؛ لأنه دائم لا ينقطع ، ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة .

ثم بيّن سبحانه لمن هذا ، فقال : ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ أي : صدقوا ، وعملوا على ما يوجبه الإيمان .

﴿ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : يفوّضون إليه أمورهم ، ويعتمدون عليه في كل شؤونهم لا على غيره ﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش ﴾ الموصول في محل جرّ معطوف

على الذين آمنوا ، أو بدلاً منه ، أو في محلّ نصب بإضمار : أعني والأوّل أولى ، والمعنى : أن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وللذين يجتنبون .

والمراد بكبائر الإثم : الكبائر من الذنوب ، وقد قدّمنا تحقيقها في سورة النساء .

قرأ الجمهور : ﴿ كبائر ﴾ بالجمع .

وقرأ حمزة ، والكسائي : (كبير) بالإفراد ، وهو يفيد مفاد الكبائر ، لأن الإضافة للجنس كاللام .

والفواحش هي من الكبائر ، ولكنها مع وصف كونها فاحشة كأنها فوقها ، وذلك كالقتل ، والزنا ، ونحو ذلك .

وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود .

(194/687)

وقال السدّي : هي : الزنا ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي : يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم ، ويكظمون الغيظ ، ويحلمون على من ظلمهم ، وخصّ الغضب بالغفران ؛ لأن استيلاءه على طبع الإنسان ، وغلبته عليه شديدة ، فلا يغفر عند سورة الغضب إلاّ من شرح الله صدره ، وخصه بمزية الحلم ، ولهذا أثنى الله سبحانه عليهم بقوله في آل

عمران ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : 134] قال ابن زيد : جعل الله المؤمنين صنفين : صنفاً يعفون عن ظالمهم ، فبدأ بذكرهم ، وصنفا ينتصرون من ظالمهم ، وهم الذين سيأتي ذكرهم .

﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ أي : أجابوه إلى ما دعاهم إليه ، وأقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة .

قال ابن زيد : هم : الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة ، وأقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها ، وهيئاتها ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ أي : يتشاورون فيما بينهم ، ولا يعجلون ، ولا ينفردون بالرأي .

والشورى مصدر شاورته مثل البشرى ، والذكرى .

قال الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورود النقباء إليهم حين اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به ، والنصرة له .

وقيل : المراد تشاورهم في كلّ أمر يعرض لهم ، فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي ، وما أحسن ما قاله بشار بن برد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن . . . برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة . . . فإن الخوافي قوّة للقوادم

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في أموره ، وأمره الله سبحانه

بذلك ، فقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأمر ﴾ [آل عمران : 159] ، وقد قدّمنا في آل عمران كلاماً في الشورى ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ أي : ينفقونه في سبيل الخير ، ويتصدّقون به على المحاويج .

(195/687)

ثم ذكر سبحانه الطائفة التي تنتصر ممن ظلمها ، فقال : ﴿ والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغى هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي : أصابهم بغي من بغى عليهم بغير الحق ، ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح ؛ لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة حيث قال : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] ، فالانتصار عند البغي فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .

قال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم ، فيجترىء عليهم السفهاء ، ولكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ ، فبيّن سبحانه أن العدل في الانتصار هو : الاقتصار على المساواة ، وظاهر هذا العموم .

وقال مقاتل ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، وسفيان : إن هذا خاص بالمجروح ينتقم من الجارح

بالقصاص دون غيره .

وقال مجاهد ، والسدّي : هو جواب القبيح إذا قال : أخزاك الله يقول : أخزاك الله من غير أن يعتدي ، وتسمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه ، أو على طريق المشاكلة لتشابههما في الصورة .

ثم لما بيّن سبحانه أن جزاء السيئة بمثلها حق جائز بين فضيلة العفو ، فقال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ أي : من عفا عمن ظلمه ، وأصلح بالعفو بينه ، وبين ظالمه أي : أن الله سبحانه يأجره على ذلك ، وأبهم الأجر تعظيماً لشأنه ، وتنبيهاً على جلالته .

قال مقاتل : فكان العفو من الأعمال الصالحة ، وقد بينا هذا في سورة آل عمران .

ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التي هي سبب الفوز ، والنجاة ، فقال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ أي : المبتدئين بالظلم قال مقاتل : يعني : من يبدأ بالظلم ، وبه قال سعيد بن جبير .

وقيل : لا يحبّ من يتعدّى في الاقتصاص ، ويجاوز الحدّ فيه ؛ لأن المجاوزة ظلم .

(196/687)

﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول ، أي : بعد أن ظلمه الظالم له ، واللام هي : لام الابتداء .

وقال ابن عطية : هي : لام القسم ، والأوّل أولى .

ومن هي الشرطية ، وجوابه ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ بمؤاخذة ، وعقوبة ، ويجوز أن تكون من هي الموصولة ، ودخلت الفاء في جوابها تشبيهاً للموصولة بالشرطية ، والأوّل أولى .

ولما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بيّن من عليه السبيل ، فقال ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ أي : يتعدّون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر .

وقال ابن جريج : أي : يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ﴿ وَيَبْغُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أي : يعملون في النفوس ، والأموال بغير الحقّ كذا قال الأكثر .

وقال مقاتل : بغيهم عملهم بالمعاصي .

وقيل : يتكبرون ، ويتجبرون .

وقال أبو مالك : هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الذين يظلمون الناس ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : لهم بهذا السبب عذاب شديد الألم .

ثم رغب سبحانه في الصبر ، والعفو ، فقال : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أي : صبر على

الأذى ، وغفر لمن ظلمه ، ولم ينتصر ، والكلام في هذه اللام ، ومن كالكلام في ، ولمن انتصر ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ الصبر ، والمغفرة ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ أي : أن ذلك منه ، فحذف لظهوره ، كما في قولهم : السمن منوان بدرهم .

قال مقاتل : من الأمور التي أمر الله بها .

وقال الزجاج : الصابر يؤتى بصبره ثواباً ، فالرغبة في الثواب أتم عزماً .

قال ابن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وأنه خاصّ بالمشركين .

وقال قتادة : إنه عام ، وهو ظاهر النظم القرآني ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن وَلِيّ مّن بَعْدِهِ ﴾ أي : فماله من أحد يلي هدايته ، وينصره ، وظاهر الآية العموم .

(197/687)

وقيل : هي خاصة بمن أعرض عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يعمل بما دعاه إليه من الإيمان بالله ، والعمل بما شرعه ، والأوّل أولى .

وقد أخرج أحمد ، وابن راهويه ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، والحكيم الترمذي ، وأبو يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم عن عليّ بن أبي طالب قال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدّثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا

أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ ، وسأفسرها لك يا عليّ : " ما أصابكم من مرض ، أو عقوبة ، أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا ، فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه " وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي عن أبي موسى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يصيب عبداً نكبة ، فما فوقها أو دونها إلاّ بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر " وقرأ : ﴿ وَمَا أصابكم ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في الكفارات ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن عمران بن حصين : أنه دخل عليه بعض أصحابه ، وكان قد ابتلي في جسده ، فقال : إنا لنبتئس لك لما نرى فيك ، قال : فلا تبتئس لما ترى ، فإن ما ترى بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ ﴾ إلى آخرها .

(198/687)

وأخرج أحمد عن معاوية بن أبي سفيان : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلاّ كفر الله عنه به من سيئاته " وأخرج ابن

مردويه عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلاّ بما قدمت أيديكم ، وما يعفو الله أكثر " وأخرج ابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ ﴾ قال : يتحرّكن ، ولا يجرين في البحر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : رواكد قال : وقوفاً ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ قال : يهلكهن .

وأخرج النسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه عن عائشة ، قالت : دخلت عليّ زينب ، وعندي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبلت عليّ ، فسبتني ، فردعها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم تنته ، فقال لي :

" سبيها ، فسببتها حتى جفّ ريقها في فمها ، ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل سروراً " وأخرج أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المستبان ما قالا من شيء ، فعلى البادىء حتى يعتدي المظلوم " ، ثم قرأ : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي : ألا ليقم من كان له على الله أجر ، فلا يقوم إلاّ من عفا في الدنيا " وذلك قوله : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ .

وأخرج البيهقي عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ينادي منادٍ : من كان له أجر على الله ، فليدخل الجنة مرتين ، فيقوم من عفا عن أخيه " قال الله : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(199/687)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾

هذه جمل ثلاث مُعترضة الواحدة تلو الأخرى بين جملة ﴿ والذين إذا أصابهم البغي ﴾ [الشورى : 39] الخ وجملة ﴿ ولَمَن انتصر بعد ظلمه ﴾ [الشورى : 41] .

وفائدة هذا الاعتراض تحديد الانتصار والترغيب في العفو ثم ذم الظلم والاعتداء ، وهذا انتقال من الإذن في الانتصار من أعداء الدين إلى تحديد إجرائه بين الأمة بقرينة تفريع فمن عفا وأصلح ﴾ على جملة ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ إذ سمى ترك الانتصار عفواً وإصلاحاً ولا عفو ولا إصلاح مع أهل الشرك .

وبقرينة الوعد بأجر من الله على ذلك العفو ولا يكون على الإصلاح مع أهل الشرك أجر .

و ﴿ سيئة ﴾ صفة لمحذوف ، أي فعلة تسوء من عومل بها .

ووزن ﴿ سيئة ﴾ فَيْعِلة مبالغة في الوصف مِثل : هيّنة ، فعينها ياء ولامها همزة ، لأنها من ساء ، فلما صيغ منها وزن فَيْعِلَة التقت يَاءَانِ فأدغمَتا ، أي أن المُجازيء يجازيء من فَعَل معه فَعلةً تسوءه بفعلة سيئة مثل فعلِته في السوء ، وليس المراد بالسيئة هنا المعصية التي لا يرضاها الله ، فلا إشكال في إطلاق السيئة على الأذَى الذي يُلحق بالظالم .

ومعنى ﴿ مثلها ﴾ أنها تكون بمقدارها في متعارف الناس ، فقد تكون المماثلة في الغرض والصورة وهي المماثلة التامة وتلك حقيقةُ المماثلة مثل القصاص من القاتل ظلماً بمثل ما قَتَل به ، ومن المعتدي بجراح عمد ، وقد تتعذر المماثلة التامة فيصار إلى المشابهة في الغرض ، أي مقدار الضرّ وتلك هي المقاربة مثل تعذر المشابهة التامة في جزاء الحروب مع عدوّ الدين إذ قد يلحق الضر بأشخاص لم يصيبوا أحداً بضرّ ويَسْلَمُ أشخاص أصابوا الناس بضرّ ، فالمماثلة في الحَرب هي انتقام جماعة من جماعة بمقدار ما يُشفي نفوس الغالبين حسبما اصطلح عليه الناس .

(200/687)

ومن ذلك أيضاً إتلاف بعض الحواس بسبب ضرب على الرأس أو على العين فيصار إلى الدية إذ لا تضبط إصابة حاسّة الباغي بمثل ما أصاب به حاسّة المعتدَى عليه .

وكذلك إعطاء قيم المتلفات من المقوَّمات إذ يتعسر أن يكلف الجاني بإعطاء مثل ما أتلفه .

ومن مشاكل المماثلة في العقوبة مسألة الجماعة يتمالؤون على قتل أحد عمداً ، أو على قطع بعض أعضائه ؛ فإن اقتص من واحد منهم كان ذلك إفلاتاً لبقية الجناة من عقوبة جرمهم ، وإن اقتص من كل واحد منهم كان ذلك زيادة في العقوبة لأنهم إنما جنَوا على واحد .

فمن العلماء من لم يعتدَّ بتلك الزيادة ونظَرَ إلى أن كل واحد منهم جنى على المجني عليه فاستحق الجزاء بمثل ما ألحقه بالمجنّي عليه ، وجَعَل التعدّد مُلغى وراعى في ذلك سدّ ذريعة أن يتحيّل المجرم على التنصل من جرمه بضم جماعة إليه ، وهذا قول مالك والشافعي أخذاً من قضاءِ عمر بن الخطاب ، وقوله : لو اجتمع على قتله أهلُ صنعاء لاقتصصتُ منهم .

ومنهم من عدل عن الزيادة مطلقاً وهو قول داود الظاهري ، ومنهم من عدل عن تلك الزيادة في القطع ولم يعدل عنها في القتل ، ولعل ذلك لأن عمر بن الخطاب قضى به في القتل ولم يؤثر عن أحد في القطع .

وربما ألغى بعضهم الزيادة إذا كان طريق ثبوت الجناية ضعيفاً مثل القسامة مع اللوث عند من يرى القصاص بها فإن مالكاً لم ير أن يُقتل بالقسامة أكثرُ من رجل واحد .

واعلم أن المماثلة في نحو هذا تحقق بقيمة الغرم كما اعتبرت في الديات وأروش الجِنايات .

وجملة ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ في موضع العلة لكلام محذوف دل عليه السياق فيقدر :

أنه يحب العافين كما قال ﴿ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134] .

(201/687)

ونصْرُه على ظالمه موكول إلى الله وهو لا يحب الظالمين ، أي فيؤجر الذين عفوا وينتصر لهم على الباغين لأنه لا يحب الظالمين فلا يهمل الظالم دون عقاب ﴿ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ [الإسراء : 33] .

وقد استفيد حبّ الله العافين من قوله : إنه لا يحب الظالمين ﴾ ، وعلى هذا فمَا صْدَقُ الظالمين : هم الذين أصابوا المؤمنين بالبغي .

ويجوز أيضاً أن يكون التعليل بقوله : ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ منصرفاً لمفهوم جملة ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ أي دون تجاوز المماثلة في الجزاء كقوله : ﴿ وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ [النمل : 126] فيكون مَا صْدَقُ ﴿ الظالمين ﴾ : الذين يتجاوزون الحد في العقوبة من المؤمنين على أن يكون تحذيراً من مجاوزة الحدّ ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم " من حامَ الحمى يوشك أن يقع فيه " .

وقد شملت هذه الآية بموقعها الاعتراضي أصول الإرشاد إلى ما في الانتصار من الظالم وما

في العفو عنه من صلاح الأمة ، ففي تخويل حق انتصار المظلوم من ظالمه ردع للظالمين عن الإقدام على الظلم خوفاً من أن يأخذ المظلوم بحقه ، فالمعتدي يحسب لذلك حسابه حين الهمّ بالعدوان .

وفي الترغيب في عفو المظلوم عن ظالمه حفظ آصرة الأخوة الإسلامية بين المظلوم وظالمه كيلا تنثَلِم في آحاد جزئياتها بل تزداد بالعفو متانة كما قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم ﴾ [فصلت : 34] .

على أن الله تعالى لَمْ يهمل جانب ردع الظالم فأنبأ بتحقيق أنه بمحل من غضب الله عليه إذ قال : إنه لا يحب الظالمين ﴾ ولا ينحصر ما في طي هذا من هول الوعيد .

وتنشأ على معنى هذه الآية مسألة غرّاء تجاذبتها أنظار السلف بالاعتبار ، وهي : تحليل المظلوم ظالمه من مظلمته .

(202/687)

قال أبو بكر بن العربي في "الأحكام" : روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيّب : لا أحلّل أحداً ، فقال : ذلك يختلف .

فقلت : الرجل يسلف الرجل فيهلِكُ ولا وفاء له قال : أرى أن يحلله ، وهو أفضل عندي

لقول الله تعالى:

﴿ الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ﴾ [الزمر : 18] ، وإن كان له فضل يُتبع فقيل له : الرجل يظلم الرجل ، فقال : لا أرى ذلك ، وهو عندي مخالف للأول لقول الله تعالى : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ [الشورى : 42] ، ويقول تعالى : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ [التوبة : 91] فلا أرى أن تجعله من ظلمه في حلّ .

قال ابن العربي فصار في المسألة ثلاثة أقوال : أحدها : لا يحلّله بحال قاله ابن المسيّب .

والثاني : يحلّله ، قاله ابن سيرين ، زاد القرطبي وسليمان بن يسار ، الثالث : إن كان مالاً حلّله وإن كان ظلماً لم يحلّله وهو قول مالك .

وجه الأول : ﴿ أن لا يُحلّ ما حرم الله فيكون كالتبديل لحكم الله .

ووجه الثاني : أنه حقه فله أن يسقطه .

ووجه الثالث : أن الرجل إذا غُلِب على حقكَ فمن الرفق به أن تحلله ، وإن كان ظالماً فمن الحق أن لا تتركه لئلا يغْتَرّ الظَّلَمة ويسترسلوا في أفعالهم القبيحة .

وذكَر حديث مسلم عن عُبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : خرجت أنا وأبي لطلب العلم في هذا الحيّ من الأنصار قبْل أن يهلكوا فكان أول من لقينا أبو اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبي : أرى في وجهك سنعة من غضب فقال : أجَل كان لي على فلان دين ، فأتيت أهله وقلت : أثَمّ هو ؟ قالوا : لا فخرج ابن له فقلت له : أين

أبوك ؟ فقال سمع صوتك فدخل أريكة أمي .

فقلتُ : اخرجْ إليَّ ، فخرج .

فقلت : ما حملك على أن اختبأت مني ؟ قال : خشيت والله أن أحدثك فأكذبك وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنتُ والله معسراً .

(203/687)

قال : فأتى بصحيفته فمحاها بيده ، قال : إن وجدت قضاء فاقض وإلاّ فأنت في حلّ .

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41)

يجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ فمن عفا وأصلح ﴾ [الشورى : 40] فيكون عذراً للذين لم يعفوا ، ويجوز أنها عطف على جملة ﴿ هم ينتصرون ﴾ [الشورى : 39] وما بين ذلك اعتراض كما علمت ، فالجملة : إمّا مرتبطة بغرض انتصار المسلم على ظالمه من المسلمين تكملة لجملة ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ [الشورى : 40] ، وإمّا مرتبطة بغرض انتصار المؤمنين من بغْي المشركين عليهم ، وهو الانتصار بالدفاع سواء كان دفاع جماعات وهو الحرب فيكون هذا تمهيداً للإذن بالقتال الذي شُرع من بعد ، أم دفاعَ الآحاد أن تمكنوا منه فقد صار المسلمون بمكة يومئذٍ ذوي قوة يستطيعون بها الدفع عن

أنفسهم آحاداً كما قيل في عزّ الإسلام بإسلام عمر بن الخطاب .

واللام في ولمن انتصر ﴾ موطئة للقسم ، و (مَن) شرطية ، أو اللام لام ابتداء و (من) موصولة .

وإضافة ﴿ ظلمه ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله ، أي بعد كَونه مظلوماً .

ومعنى ﴿ بعد ظلمه ﴾ التنبيه على أن هذا الانتصار بعد أن تحقق أنهم ظُلموا : فإمّا في غير الحروب فمن يتوقع أن أحداً سيعتدي عليه ليس له أن يبادر أحداً بأذى قبل أن يشرعَ في الاعتداء عليه ويقول : ظننت أنه يعتدي عليَّ فبادرتُه بالأذى اتقاء لاعتدائه المتوقع ، لأن مثل هذا يثير التهارج والفساد ، فنبه الله المسلمين على تجنبه مع عدوِّهم إن لم تكن بينهم حرب .

(204/687)

وأما حال المسلمين بعضهم مع بعض فليس من غرض الآية ، فلو أن أحداً ساوره أحد ببادىء عَمل من البغي فهو مرخّص له أن يدافعه عن إيصال بغيه إليه قبل أن يتمكن منه ولا يمهله حتى يوقع به ما عسى أن لا يتداركه فاعلُه من بعد ، وذلك مما يرجع إلى قاعدة أن ما قارب الشيء يُعطَى حكم حصوله ، أي مع غلبة ظنه بسبب ظهور بوادره ، وهو ما قال فيه

الفقهاء : "يجوز دفع صائل بما أمكن" .

ومحل هذه الرخصة هو الحالات التي يتوقع فيها حصول الضرّ حصولاً يتعذر أو يعسر رفعه وتداركه .

ومعلوم أن محلها هو الحالة التي لم يفت فيها فعل البغي ، فأما إن فات فإن حق الجزاء عليه يكون بالرفع للحاكم ولا يتولى المظلوم الانتصاف بنفسه ، وليس ذلك مما شملته هذه الآية ولكنه مستقرى من تصاريف الشريعة ومقاصدها ففرضناه هنا لمجرد بيان مقصد الآية لا لبيان معناها .

والمراد بالسبيل موجب المؤاخذة باللّائمة بين القبائل واللمزِ بالعُدوان والتبعة في الآخرة على الفساد في الأرض بقتل المسالمين ، سُمي بذلك سبيلاً على وجه الاستعارة لأنه أشبه الطريقَ في إيصاله إلى المطلوب ، وكثر إطلاق ذلك حتى ساوى الحقيقة .

والفاء في قوله : ﴿ فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ فاء جواب الشرط فإن جعلتَ لام ﴿ لمن انتصر ﴾ لام الابتداء فهو ظاهر ، وإن جعلت اللام موطئة للقسم كان اقتران ما بعدها بفاء الجواب ترجيحاً للشرط على القسَم عند اجتماعهما ، والأعرفُ أن يرجّح الأول منهما فيعطى جوابَه ويحذف جواب الثاني ، وقد يقال : إن ذلك في القسَم الصريح دون القسم المدلول باللام الموطئة .

وجيء باسم الإشارة في صدر جواب الشرط لتمييز الفريق المذكور أتمَّ تمييز ، وللتنبيه

على أن سبب عدم مؤاخذتهم هو أنهم انتصروا بعد أن ظُلموا ولم يبدأوا الناس بالبغي .

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42)

(205/687)

استئناف بياني فإنه لما جرى الكلام السابق كله على الإذن للذين بُغِي عليهم أن ينتصروا ممن بغَوا عليهم ثم عقب بأن أولئك ما عليهم من سبيل كان ذلك مثار سؤالِ سائِلٍ عن الجانب الذي يقع عليه السبيل المنفي عن هؤلاء .

والقصر المفاد بـ ﴿ إنما ﴾ تأكيد لمضمون جملة ﴿ فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ [الشورى : 41] لأنه كان يكفي لإفادة معنى القصر أن يقابل نفيُ السبيل عن الذين انتصروا بعد ظلمهم بإثبات أنّ السبيل على الظالمين ، لأن إثبات الشيء لأحد ونفيه عمن سواه يفيد معنى القصر وهو الأصل في إفادة القصر بطريق المساواة أو الإطناب كقول آلسّمَوْأل أو غيره :

تَسيل على حدّ الظُّبات نفوسنا

وليستْ على غير الظبات تسيلُ . . .

وأما طرق القصر المعروفة في علم المعاني فهي من الإيجاز ، فلما أوردت أداة القصر هُنَا حصل نفي السبيل عن غيرهم مرةً أخرى بمفاد القصر فتأكد حصوله الأولُ الذي حصل بالنفي ، ونظيرُه قوله تعالى : ما على المُحسنين من سبيل إلى قوله : ﴿ إنَّما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ﴾ في سورة براءة (93) .

والمراد بالسبيل ﴾ عين المراد به في قوله : ﴿ فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ [الشورى : 41] بقرينة أنه أعيد معرَّفا باللام بعد أن ذُكر منكَّراً فإن إعادة اللفظ النكرة معرّفاً بلام التعريف يفيد أن المراد به ما ذكر أولاً .

وهذا السبيل الجزاء والتبعة في الدنيا والآخرة .

وشمل عموم الذين يظلمون ﴾ ، وعمومُ ﴿ الناس ﴾ كلَّ ظالم ، وبمقدار ظلمه يكون جزاؤه .

ويدخل ابتداءً فيه الظالمون المتحدَّث عنهم وهم مشركو أهل مكة ، والناسُ المتحدث عنهم وهم المسلمون يومئذٍ .

(206/687)

والبغي في الأرض : الاعتداء على ما وضعه الله في الأرض من الحق الشامل لمنافع الأرض التي خلقت للناس ، مثل تحجير الزرع والأنعامِ المحكِي في قوله تعالى : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحَرْث حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إلا مَن نَشاء بزعمهم ﴾ [الأنعام : 138] ، ومثل تسييب السائبة وتبحير البَحيرة ، والشامل لمخالفة ما سنّه الله في فطرة البشر من الأحوال القويمة مثل العدلِ وحسن المعاشرة ، فالبغْيُ عليها بمثل الكبرياء والصلف وتحقير الناسِ المؤمنين وطردِهم عن مجامع القوْم بغيٌ في الأرض بغير الحق .

والأرض ﴾ : أرض مكة ، أو جميع الكرة الأرضية وهو الأليق بعموم الآية ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا تولى سعَى في الأرض ليفسد فيها ﴾ [البقرة : 205] وقال : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ [الأعراف : 85] ، فكل فساد وظلم يقع في جزء من الأرض فهو بغي مظروف في الأرض .

وبغير الحق ﴾ متعلق بـ ﴿ يبغون ﴾ وهو لكشف حالة البغي لإفادة مذمته إذ لا يكون البغي إلاّ بغيرِ الحق فإن مسمى البغي هو الاعتداء على الحق ، وأما الاعتداء على المبطل لأجل باطله فلا يسمى بغياً ويُسمّى اعتداء قال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة : 194] ، ويقال : استعدَى فلان الحاكمَ على خصمه ، أي طلب منه الحكم عليه .

وجملة أولئك لهم عذاب أليم ﴾ بيان جملة ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون ﴾ إن أريد

بـ ﴿ السبيل ﴾ في قوله : ﴿ ما عليهم من سبيل ﴾ [الشورى : 41] سبيل العقاب في الآخرة ، أو بدل اشتمال منها إن أريد بالسبيل ﴾ هنالك ما يشمل الملام في الدنيا ، أي السبيل الذي عليهم هو أن لهم عذاباً أليماً جزاء ظلمهم وبغيهم .

وحكم هذه الآية يشمل ظُلم المشركين للمسلمين ويشمل ظلم المسلمين بعضهم بعضاً ليتناسب مضمونها مع جميع ما سبق .

(207/687)

وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر قبله مع تمييزهم أكمل تمييز بهذا الوعيد .

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

عطف على جملة ﴿ ولَمَن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ [الشورى : 41] ، وموقع هذه الجملة موقع الاعتراض بين جملة ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ [الشورى : 42] وجملة ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده [الشورى : 44] .

وهذ الجملة تفيد بيان مزية المؤمنين الذي تحملوا الأذى من المشركين وصبَروا عليه ولم

يؤاخذوا به من آمن ممن آذوهم مثل أختِ عمر بن الخطاب قبل إسلامه ، ومثل صهره سعيد بن زيد فقد قال لقد رأيتُني وأن عُمر لمُوثِقي على الإسلام قبل أن يسلم عُمر ، فكان في صبْر سعيدٍ خير دخل به عمر في الإسلام ، ومزية المؤمنين الذين يصبرون على ظلم إخوانهم ويغفرون لهم فلا ينتصفون منهم ولا يستَعْدون عليهم على نحو ما تقدم في مسألة التحلل عند قوله تعالى : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ [الشورى : 40] .

واللام الداخلة على (مَن) لاَم ابتداء و (مَن) موصولة .

وجملة إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ خبر عن (مَن) الموصولة ، ولام ﴿ لمن عزم الأمور ﴾ لام الابتداء التي تدخل على خبر ﴿ إنَّ ﴾ وهي من لامات الابتداء .

وقد اشتمل هذا الخبر على أربعة مؤكدات هي : اللام ، وإنَّ ، ولام الابتداء ، والوصف بالمصدر في قوله : ﴿ عزم الأمور ﴾ تنويهاً بمضمونه ، وزيد تنويهاً باسم الإشارة في قوله ﴿ إن ذلك ﴾ فصار فيه خمسة اهتمامات .

والعزم : عقد النية على العمل والثباتُ على ذلك والوصف بالعزم مشعر بمدح الموصوف لأن شأن الفضائل أن يكون عملها عسيراً على النفوس لأنها تعاكس الشهوات ، ومن ثَمَّ وصف أفضل الرسل بأولي العزم .

و﴿ الأمور ﴾ : جمع أمر .

والمراد به هنا : الخِلال والصفات وإضافة ﴿ عزم ﴾ إلى ﴿ الأمور ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي من الأمور العَزم .

ووصف ﴿ الأمور ﴾ بـ (العزم) من الوصف بالمصدر للمبالغة في تحقق المعنى فيها ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ، أي الأمور العامة العازم أصحابها مجازاً عقلياً .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى الصبر والغفران المأخوذين من ﴿ صبر وغفر ﴾ والمتحملَيْن لضمير (مَن) الموصولة فيكون صوغ المصدر مناسباً لما معه من ضمير ، والتقدير : إنَّ صبْره وغَفْرَه لَمِن عزم الأمور .

وهذا ترغيب في العفو والصبر على الأذى وذلك بين الأمة الإسلامية ظاهر ، وأما مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران ، وملاكها أن تترجّح المصلحة في العفو أو في المؤاخذة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(209/687)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ

خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (45) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بان في هذا الكلام المقتصر على الصبر والجامع إليه الغفر والمقتضي بالنصر أدرجهم كلهم في دائرة الحق ، أتبعه من خرج عن تلك الدائرة ، فقال مخبراً أن ما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن عطفاً على نحو : فمن يهدي الله للوقوف عند هذه الحدود فما له من مضل ، مبيناً بلفظ الضلال أن ما شرعه من الطريق في غاية الوضوح لا يزيغ عنه أحد إلا بطرد عظيم : ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال إضلالاً واضحاً بما أفاده الفك بعدم البيان أو بعدم التوفيق لمطلق الصبر أعم من أن يكون الاقتصار على أخذ الحق وبتأخير الحق إلى وقت وبالعفو وبالغفر .

ولما كان الضال عن ذلك لا يكون إلا مجبولاً على الشر ، سبب عنه قوله : ﴿ فما له ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿ من ولي ﴾ أي يتولى أمره في الهداية بالبيان لما أخفاه الله عنه أو التوفيق لما بينه له ﴿ من بعده ﴾ أي من بعد معاملة الله له معاملة البعيد من وكله إلى نفسه وغيره من الخلق في شيء من زمان البعد ولو قل .

ولما كان مبنى أمر الضال على الندم ولو بعد حين ، قال عاطفاً على نحو : فترى الظالمين قبل رؤية العذاب في غاية الجبروت والبطر والتكذيب بالقدرة عليهم ، فهم لذلك لا يرجون حساباً ولا يخافون عقاباً : ﴿ وترى ﴾ وقال : ﴿ الظالمين ﴾ موضع " وتراهم " لبيان أن الضال لا يضع شيئاً في موضعه ، ولما كان عذابهم حتماً ، عبر عنه بالماضي فقال : ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي المعلوم مصير الظالم إليه رؤية محيطة بظاهره وباطنه يتمنون الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات من الطاعات الموجبة للنجاة ﴿ يقولون ﴾ أي مكررين مما اعتراهم من الدهش وغلب على قلوبهم من الوجل : ﴿ هل إلى مرد ﴾ أي رد إلى دار العمل وزمانه مخلص من هذا العذاب ﴿ من سبيل ﴾ .

ولما أثبت رؤيتهم العذاب ، أثبت دنوهم من محله وبين حالهم في ذلك الدنو فقال :

﴿ وتراهم ﴾ أي يا أكمل الخلق ويا أيها المتشوف إلى العلم بحالهم بعينك حال كونهم ﴿ يعرضون ﴾ أي يجدد عرضهم ويكرر ، وهو إلجاؤهم إلى أن يقارنوها بعرضهم الذي يلزم محاذاتهم لها أيضاً بطولهم ليعلموا أنها مصيرهم فلا مانع لها منهم ﴿ عليها ﴾ أي النار التي هي دار العذاب مكرراً عرضهم في طول الموقف مع ما هم فيه من تلك الأهوال بمقاساة

ما عليهم من الأحمال الثقال حال كونهم ﴿ خاشعين ﴾ أي في غاية الضعة والإلقاء باليد خشوعاً هو ثابت لهم .

ولما كان الخشوع قد يكون محموداً قال : ﴿ من الذل ﴾ لأنهم عرفوا إذ ذاك ذنوبهم وانكشفت لهم عظمة من عصوه .

ولما كان الذل ألواناً ، صوره بأقبح صورة فقال معبراً بلفظ النظر الذي هو مماسة البصر لظاهر المبصر : ﴿ ينظرون ﴾ أي يبتدئ نظرهم المتكرر ﴿ من طرف ﴾ أي تحريك للأجفان ﴿ خفي ﴾ يعرف فيه الذل لأنه لا يكاد من عدم التحديق يظن أنه يطرف لأنهم يسارقون النظر مسارقة كما ترى الإنسان ينظر إلى المكاره ، والصبور ينظر إلى السيف الذي جرد له فهو بحيث لا يحقق منظوراً إليه ، بل ربما تخيله بأعظم مما هو عليه .

(211/687)

ولما صور حالهم وكان من أفظع الأشياء وأقطعها للقلوب شماتة العدو ، قال مبشراً لجميع أصناف أهل الإيمان وراداعاً لأهل الكفران : ﴿ وقال ﴾ أي في ذلك الموقف الأعظم على سبيل التعبير لهم والتبكيت والتوبيخ والتقريع ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوقعوا هذه الحقيقة سواء كان إيقاعهم لها في أدنى الرتب أو أعلاها عند رؤيتهم إياهم على هذا الحال ،

مؤكدين لتحقيق مقالهم عند من قضى بضلالهم والإعلام بما لهم من السرور بصلاح حالهم ، والحمد لمن من عليهم بحس منقلبهم ومآلهم ، ويجوز أن يكون قولهم هذا في الدنيا لما غلب على قلوبهم من الهيبة عندما تحققوا هذه المواعظ : ﴿ إن الخاسرين ﴾ أي الذين كملت خسارتهم هم خاصة ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ بما استغرقها من العذاب ﴿ وأهليهم ﴾ بمفارقتهم لهم إما في إطباق العذاب إن كانوا مثلهم في الخسران أو في دار الثواب إن كانوا من أهل الإيمان .

ولما أخبر بخسارتهم بين ظرفها تهويلاً لها ، ويجوز أن يكون ظرفاً لهذا القول وهو أردع لمن له مسكة لأن من جوز أن يخسر وأن عدوه يطلع على خسارته ويظهر الشماتة به ، كان جديراً بأن يترك السبب الحامل على الخسارة فقال : ﴿ يوم القيامة ﴾ أي الذي هو يوم فوت التدراك لأنه للجزاء لا للعمل لفوات شرطه بفوات الإيمان بالغيب لانكشاف الغطاء .

ولما كان هذا نهاية الخسارة ، أنتج قوله منادياً ذاكراً سبب هذه الخسارة المعينة مؤكداً لأجل إنكار الظالمين لها وإن كان من تتمه قول المؤمنين هناك ، فالتأكيد مع ما يفيد الإخبار به في هذه الدار من ردع المنكر للإعلام بما لهم من اللذة فيما رأوا من سوء حالهم وتقطع أوصالهم ورجائهم من أن ينقطع عنهم ذلك كما ينقطع عن عصاة المؤمنين : ﴿ ألا إن الظالمين ﴾ أي الراسخين في هذا الوصف فهم بحيث لا ينفكون عن فعل الماشي في الظلام

بوضع الأشياء في غير مواضعها ﴿ في عذاب مقيم ﴾ لا يزايلهم أصلاً ، فلذلك لا يفرغون منه في وقت من الأوقات ، فلذلك كان خسرانهم لكل شيء .

(212/687)

ولما كانت العادة جارية بأن من وقع في ورطة وجد في الأغلب ولياً ينصره لأو سبيلاً ينجيه ، قال عاطفاً على ﴿ وتراهم ﴾ أو " ألا إن " : ﴿ وما كان ﴾ أي صح ووجد ﴿ لهم ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ من أولياء ﴾ فما لهم من ولي لأن النصرة إذا انتفت من الجمع انتفت من الواحد من باب الأولى .

ولما كان من يفعل فعل القريب لا يفيد إلا إن كان قادراً على النصرة قال : ﴿ ينصرونهم ﴾ أي يوجدون نصرهم في وقت من الأوقات لا في الدنيا بأن يقدروا على إنقاذهم من وصف الظلم ولا في الآخرة بإنقاذهم مما جرى عليهم من العذاب .

ولما كان الله تعالى يصح منه أن يفعل ما يشاء بواسطة أو غيرها قال : ﴿ من دون الله ﴾ أي ما صح ذلك وما استقام بوجه بغيره ، وأما هو فيصح ذلك منه ويستقيم له لإحاطته بأوصاف الكمال ولو أراد لفعل ولما بين ما لهم بين ما لمن اتصف بوصفهم كائناً من كان ، فقال بناء على نحو : لأنه هو الذي أضلهم : ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي يوجد ضلاله إيجاداً

بليغاً بما أفاده الفك على سبيل الاستمرار بعدم البيان له أو بعدم التوفيق بعد البيان :

﴿ فما له ﴾ بسبب إضلال له جميع صفات الجلال والإكرام ، وأعرق في النفي بقوله :

﴿ من سبيل ﴾ أي تنجية من الضلال ولا مما تسبب عنه من العذب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 643.646 ﴾

(213/687)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيّ مّن بَعْدِهِ ﴾

أي فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه أي من بعد إضلال الله أياه ، وهذا صريح في جواز الإضلال من الله تعالى ، وفي أن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى ، قال القاضي المراد من يضلل الله عن الجنة فما له من ولي من بعده ينصره والجواب : أن تقييد الإضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل ، وأيضاً فالله تعالى ما أضله عن الجنّة على قولكم بل هو أضل نفسه عن الجنة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ العذاب يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدّ مّن سَبِيلٍ ﴾ والمراد

أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب ، ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خاشعين مِنَ الذل ﴾ أي حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل ، ثم قال : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّ ﴾ أي يبتدىء نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة كما ترى الذي يتيقن أن يقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه كما يفعل في نظره إلى المحبوبات ، فإن قيل أليس أنه تعالى قال في صفة الكفار إنهم يحشرون عمياً فكيف قال ههنا إنهم ينظرون من طرف خفي ؟ قلنا لعلّهم يكونون في الابتداء هكذا ، ثم يجعلون عمياً أو لعلّ هذا في قوم ، وذلك في قوم آخرين ، ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال : ﴿ وَقَالَ الذين ءامَنُواْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ قال صاحب "الكشاف" : ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ إما أن يتعلق بخسروا أو يكون قول المؤمنين واقعاً في الدنيا ، وإما أن يتعلق بقال أي يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة .

(214/687)

ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ الظالمين فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي دائم قال القاضي ، وهذا يدل على أن الكافر والفاسق يدوم عذابهما والجواب : أن لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص بالكفر قال تعالى : ﴿ والكافرون هُمُ الظالمون ﴾ [البقرة : 254] والذي يؤكد هذا أنه تعالى قال بعده هذه الآية ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم مّن الله ﴾ والمعنى أن الأصنام التي كانوا يعبدونها لأجل أن تشفع لهم عند الله تعالى ما أتوا بتلك الشفاعة ومعلوم أن هذا لا يليق إلا بالكفار ثم قال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ وذلك يدل على أن المضل والهادي هو الله تعالى على ما هو قولنا ومذهبنا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 156 . 157 ﴾

(215/687)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾

أي يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مّن بَعْدِهِ ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة في القربى ، ولم يصدّقه في البعث وأن متاع الدنيا قليل . أي من أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هادٍ .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الظالمين ﴾ أي الكافرين .

﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ يعني جهنم .

وقيل رأوا العذاب عند الموت .

﴿ يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ يطلبون أن يُرَدّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون إلى ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار لأنها عذابهم ؛ فكنى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث ؛ لأن ذلك العذاب هو النار ، وإن شئت جهنم ، ولو راعى اللفظ لقال عليه .

ثم قيل : هم المشركون جميعاً يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها ؛ قاله الأكثرون .

وقيل : آل فرعون خصوصاً ، تُحبس أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح ؛ فهو عرضهم عليها ؛ قاله ابن مسعود .

وقيل : إنهم عامة المشركين ، تعرض عليهم ذنوبهم في قبورهم ، ويعرضون على العذاب في قبورهم ؛ وهذا معنى قول أبي الحجاج .

﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذل ﴾ ذهب بعض القراء إلى الوقف على "خَاشِعِينَ" .

وقوله : "مِنَ الذُّلِّ" متعلق ب "يَنْظُرُونَ" .

وقيل : متعلق ب "خَاشِعِينَ" والخشوع الانكسار والتواضع .

ومعنى ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أي لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعاً تاماً ؛ لأنهم ناكسو الرؤوس .

والعرب تصف الذليل بغَضِّ الطرف ، كما يستعملون في ضدّه حديد النظر إذا لم يُتَّهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة .

وقال مجاهد : "مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ" أي ذليل ، قال : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عمياً ، وعين القلب طرفٌ خفِيّ .

وقال قتادة والسدّي والقُرَظِيّ وسعيد بن جبير : يسارقون النظر من شدّة الخوف .

(216/687)

وقيل : المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر .

وقال يونس : "مِن" بمعنى الباء ؛ أي ينظرون بطرف خفي ، أي ضعيف من الذل والخوف ، ونحوه عن الأخفش .

وقال ابن عباس : بطرف ذابل ذليل .

وقيل : أي يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب .

﴿ وَقَالَ الذين آمنوا إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ أي يقول

المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلّ بالكفار إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء ، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المخلّد ، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم ، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم .

وقيل : خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهل في الجنة من الحور العِين .

وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك هُمُ الوارثون ﴾ [المؤمنون : 10] " وقد تقدّم .

وفي المسند الدّارِميّ عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوّجه اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار وما منهنّ واحدة إلا ولها قُبُلٌ شهِيّ وله ذكر لا ينثني " قال هشام بن خالد : "مِن ميراثه من أهل النار" يعني رجالاً أدخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون .

﴿ أَلَا إِنَّ الظالمين فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي دائم لا ينقطع .

ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين ، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي أعواناً ونصراء ﴿ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي من عذابه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي طريق يصل به إلى الحق في الدنيا والجنة في الآخرة ؛ لأنه قد سدّت عليه طريق النجاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(218/687)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) ﴾

لما ذكر تعالى من دلائل وحدانيته أنواعاً ، ذكر بعدها العالم الأكبر ، وهو السموات والأرض ؛ ثم العالم الأصغر ، وهو الحيوان .

ثم اتبعه بذكر المعاد ، أتبعه بذكر السفن الجارية في البحر ، لما فيها من عظيم دلائل القدرة ، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف يغوص فيه الثقيل ، والسفن تشخص بالأجسام الثقيلة الكثيفة ، ومع ذلك جعل تعالى للماء قوة يحملها بها ويمنع من الغوص .

ثم جعل الرياح سبباً لسيرها .

فإذا أراد أن ترسو ، أسكن الريح ، فلا تبرح عن مكانها .

والجواري : جمع جارية ، وأصله السفن الجواري ، حذف الموصوف وقامت صفته مقامه ، وحسن ذلك قوله : ﴿ في البحر ﴾ ، فدل ذلك على أنها صفة للسفن ، وإلا فهي صفة غير مختصة ، فكان القياس أن لا يحذف الموصوف ويقوم مقامه .

ويمكن أن يقال : إنها صفة غالبة ، كالأبطح ، فجاز أن تلي العوامل بغير ذكر الموصوف .

وقرىء : الجواري بالياء ودونها ، وسمع من العرب الأعراب في الراء ، وفي البحر متعلق بالجواري ، وكالأعلام في موضع الحال ، والأعلام : الجبال ، ومنه قول الخنساء أخت صخر ومعاوية :

وإن صخراً لتأتم الهداة به . . .

كأنه علم في رأسه نار

ومنه :

إذا قطعن علماً بدا علم . . .

وقرأ جمهور السبعة : ﴿ الريح ﴾ إفراداً ، ونافع : جمعاً ، وقرأ الجمهور : ﴿ فيظللن ﴾ بفتح اللام ، وقرأ قتادة : بكسرها ، والقياس الفتح ، لأن الماضي بكسر العين ، فالكسر في المضارع شاذ .

وقال الزمخشري : من ظل يظل ويظل ، نحو ضل يضل ويضل . انتهى .

وليس كما ذكر ، لأن يضل بفتح العين من ضللت بكسرها في الماضي ، ويضل بكسرها من ضللت بفتحها في الماضي ، وكلاهما مقيس .

﴿ لكل صبار ﴾ على بلائه ، ﴿ شكور ﴾ لنعمائه .

﴿ أو يوبقهن ﴾ : يهلكهن ، أي الجواري ، وهو عطف على يسكن ، والضمير في ﴿ كسبوا ﴾ عائد على ركاب السفن ، أي بذنوبهم .

(219/687)

وقرأ الأعمش : ويعفو بالواو ، وعن أهل المدينة : بنصب الواو ، والجمهور : ويعف مجزوماً عطفاً على يوبقهن .

فأما قراءة الأعمش ، فإنه أخبر تعالى أنه يعفو عن كثير ، أي لا يؤاخذ بجميع ما اكتسب الإنسان .

وأما النصب ، فبإضمار أن بعد الواو ، وكالنصب بعد الفاء في قراءة من قرأ : يحاسبكم به الله فيغفر ، وبعد الواو في قول الشاعر :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك . . .

ربيع الناس والشهر الحرام

ونأخذ بعده بذناب عيش . . .

أجب الظهر ليس له سنام

روي بنصب ونأخذ ورفعه وجزمه .

وفي هذه القراءة يكون العطف على مصدر متوهم ، أي يقع إيباق وعفو عن كثير .

وأما الجزم فإنه داخل في حكم جواب الشرط ، إذ هو معطوف عليه ، وهو راجع في المعنى إلى قراءة النصب ، لكن هذا عطف فعل على فعل ، وفي النصب عطف مصدر مقدر على مصدر متوهم .

وقال القشيري : وقرىء : ﴿ ويعف ﴾ بالجزم ، وفيها إشكال ، لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح ، فتبقى تلك السفن رواكد ، أو يهلكها بذنوب أهلها ، فلا يحسن عطف ويعف على هذه ، لأن المعنى : يصيران شيئاً يعف ، وليس المعنى ذلك ، بل المعنى : الإخبار عن الغيوب عن شرط المشيئة ، فهو إذن عطف على المجزوم من حيث اللفظ ، لا من حيث المعنى .

وقد قرأ قوم : ويعفو بالرفع ، وهي جيدة في المعنى .

انتهى ، وما قاله ليس بجيد ، إذ لم يفهم مدلول التركيب .

والمعنى : أنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم .

وقال الزمخشري : فإن قلت : على م عطف يوبقهن ؟ قلت : على يسكن ، لأن المعنى : إن

يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها . انتهى .

ولا يتعين أن يكون التقدير : أو يعصفها فيغرقن ، لأن إهلاك السفن لا يتعين أن يكون بعصف الريح ، بل قد يهلكها تعالى بسبب غير الريح ، كنزول سطحها بكثرة الثقل ، أو انكسار اللوح يكون سبباً لإهلاكها ، أو يعرض عدو يهلك أهلها .

(220/687)

وقرأ الأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، ونافع ، وابن عامر ، وزيد بن علي : ﴿ ويعلم ﴾ بالرفع على القطع .

وقرأ الجمهور : ويعلم بالنصب ؛ قال أبو علي وحسن : النصب إذا كان قبله شرط وجزاء ، وكل واحد منهما غير واجب .

وقال الزجاج : على إضمار أن ، لأن قبلها جزاء .

تقول : ما تصنع أصنع مثله ، وأكرمك ، وإن أشئت ، وأكرمك علي ، وأنا أكرمك ، وإن شئت ، وأكرمك جزماً .

قال الزمخشري : فيه نظر ، لما أورده سيبويه في كتابه قال : واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله : إن تأتني آتك وأعطيك ضعيف ، وهو نحو من قوله :

وألحق بالحجاز فاستريحا . . .

فهذا لا يجوز ، وليس بحد الكلام ولا وجهه ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً ، لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل .

فلما ضارع الذي لا يوجبه ، كالاستفهام ونحوه ، أجازوا فيه هذا على ضعفه .

قال الزمخشري : ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب ، لما أخلى سيبويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة . انتهى .

وخرج الزمخشري النصب على أنه معطوف على تعليل محذوف ، قال تقديره : لينتقم منهم ﴿ ويعلم الذين يجادلون ﴾ ، يكره في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ وقوله : ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ انتهى .

ويبعد تقديره لينتقم منها ، لأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم ، فلا يحسن لينتقم منهم .

وأما الآيتان فيمكن أن تكون اللام متعلقة بفعل محذوف ، أي ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ ، ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ .

فعلنا ذلك ، وكثيراً ما يقدر هذا الفعل محذوفاً قبل لام العلة ، إذا لم يكن فعل ظاهر يتعلق به .

وذكر الزمخشري أن قوله تعالى : ﴿ ويعلم ﴾ قرىء بالجزم ، فإن قلت : فكيف يصح المعنى على جزم ويعلم ؟ قلت : كأنه قال : أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور : هلاك قوم ، ونجاة قوم ، وتحذير آخرين ، لأن قوله : ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ يتضمن تحذيرهم من عقاب الله ، ﴿ وما لهم من محيص ﴾ في موضع نصب ، لأن يعلم معلقة ، كقولك : علمت ما زيد قائم .

وقال ابن عطية في قراءة النصب ، وهذه الواو ونحوها التي تسميها الكوفيون واو الصرف ، لأن حقيقة واو الصرف التي يريدونها عطف فعل على اسم مقدر ، فيقدر أن ليكون مع الفعل بتأويل المصدر ، فيحسن عطفه على الاسم . انتهى .

وليس قوله تعليلاً لقولهم واو الصرف ، إنما هو تقرير لمذهب البصريين .

وأما الكوفيون فإن واو الصرف ناصبة بنفسها ، لا بإضمار أن بعدها .

وقال أبو عبيد على الصرف كالذي في آل عمران : ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ومعنى الصرف أنه كان على جهة ، فصرف إلى غيرها ، فتغير الإعراب لأجل الصرف .

والعطف لا يعين الاقتران في الوجود ، كالعطف في الأسم ، نحو : جاء زيد وعمرو .

ولو نصب وعمرو اقتضى الاقتران ؛ وكذلك واو الصرف ، ليفيد معنى الاقتران ويعين معنى الاجتماع ، ولذلك أجمع على النصب في قوله : ﴿ ويعلم الصابرين ﴾ ، أي ويعلم المجاهدين والصابرين معاً .

عن عليّ ، رضي الله عنه ، اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال ، فتصدق به كله في سبيل الله والخير ، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون ، فنزلت : ﴿ فما أوتيتم من شيء ﴾ ، والظاهر أنه خطاب للناس .

وقيل : للمشركين ، وما شرطية مفعول ثان لأوتيتم ، ومن شيء بيان لما ، والمعنى : من شيء من رياش الدنيا ومالها والسعة فيها ، والفاء جواب الشرط ، أي فهو متاع ، أي يستمتع في الحياة .

﴿ وما عند الله ﴾ : أي من ثوابه وما أعد لأوليائه ، ﴿ خير وأبقى ﴾ مما أوتيتم ، لأنه لا انقطاع له .

(222/687)

وتقدم الكلام في الكبائر في قوله : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ في النساء .

وقرأ الجمهور : ﴿ كبائر ﴾ جمعاً هنا ، وفي النجم ، وحمزة ، والكسائي : بالإفراد .

﴿ والذين يجتنبون ﴾ : عطف على ﴿ الذين آمنوا ﴾ ، وكذلك ما بعده .

ووقع لأبي البقاء وهم في التلاوة ، اعتقد أنها الذين يجتنبون بغير واو ، فبنى عليه الإعراب فقال : الذين يجتنبون في موضع جر بدلاً من الذين آمنوا ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بإضمار ، أعني : وفي موضع رفع على تقديرهم . انتهى .

والعامل في إذا يغفرون ، وهي جملة من مبتدأ وخبر معطوف على يجتنبون ، ويجوز أن يكون هم توكيداً للفاعل في غضبوا .

وقال أبو البقاء : هم مبتدأ ، ويغفرون الخبر ، والجملة جواب إذا .

انتهى ، وهذا لا يجوز ، لأن الجملة لو كانت جواب إذا لكانت بالفاء ، تقول : إذا جاء زيد فعمرو منطلق ، ولا يجوز حذف الفاء إلا إن ورد في شعر .

وقيل : هم مرفوع بفعل محذوف يفسره يغفرون ، ولما حذف ، انفصل الضمير ، وهذا القول فيه نظر ، وهو أن جواب إذا يفسر كما يفسر فعل الشرط بعدها ، نحو :

﴿ إذا السماء انشقت ﴾ ولا يبعد جواز ذلك على مذهب سيبويه ، إذ جاء ذلك في أداة الشرط الجازمة ، نحو : إن ينطلق زيد ينطلق ، فزيد عنده فاعل بفعل محذوف يفسره الجواب ، أي ينطلق زيد ، منع ذلك الكسائي والفراء .

وقال الزمخشري : هم يغفرون ، أي هم الأخصاء بالغفران ، في حال الغضب لا يغول الغضب أحلامهم ، كما يغول حلوم الناس .

والمجيء لهم وإيقاعه مبتدأ ، وإسناد يغفرون إليه لهذه الفائدة .

انتهى ، وفيه حض على كسر الغضب .

وفي الحديث : " أوصني ، قال : لا تغضب ، قال : زدني ، قال : لا تغضب ، قال : زدني ، قال : لا تغضب "

﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ ، قيل : نزلت في الأنصار ، دعاهم الله للإيمان به وطاعته فاستجابوا له .

(223/687)

وكانوا قبل الإسلام ، وقبل أن يقدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة ، إذا نابهم أمر تشاوروا ، فأثنى الله عليهم ، لا ينفردون بأمر حتى يجتمعوا عليه .

وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم . انتهى .

وفي الشورى اجتماع الكلمة والتحاب والتعاضد على الخير .

وقد شاور الرسول عليه السلام فيما يتعلق بمصالح الحروب والصحابة بعده في ذلك ،

كمشاورة عمر للهرمز .

وفي الأحكام ، كقتال أهل الردّة ، وميراث الحربي ، وعدد مدمني الخمر ، وغير ذلك .

والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ، على حذف مضاف ، أي وأمرهم ذو شورى بينهم .

و﴿ هم ينتصرون ﴾ : صلة للذين ، وإذا معمولة لينتصرون ، ولا يجوز أن يكون ﴿ هم ينتصرون ﴾ جواباً لإذا ، والجملة الشرطية وجوابها صلة لما ذكرناه من لزوم الفاء ، ويجوز هنا أن يكون هم فاعلاً بفعل محذوف على ذلك القول الذي قيل في ﴿ هم يغفرون ﴾ .

وقال الحوفي : وإن شئت جعلت هم توكيداً للهاء والميم ، يعني في أصابهم ، وهو ضمير رفع ، وفي هذا نظر ، وفيه الفصل بين المؤكد والتوكيد بالفاعل ، وهو فعل الظاهر أنه لا يمتنع ، والانتصار : أن يقتصر على ما حده الله له ولا يتعدى .

وقال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم ، فتجترىء عليهم الفساق ، ومن انتصر غير متعد فهو مطيع محمود .

وقال مقاتل ، وهشام عن عروة : الآية في المجروح ينتصف من الجارح بالقصاص .

وقال ابن عباس : تعدى المشركون على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى أصحابه ، وأخرجوهم من مكة ، فأذن الله لهم بالخروج في الأرض ، ونصرهم على من بغى عليهم .

وقال الكيا الطبري : ظاهره أن الانتصار في هذا الموضع أفضل ، ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله ولرسوله وإقامة الصلاة ؟ فهذا على ما ذكره النخعي ، وهذا فيمن تعدى وأصر ، والمأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادماً مقلعاً .

وقد قال عقيب هذه الآية ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه ﴾ الآية ، فيقتضي إباحة الانتصار .

(224/687)

وقد عقبه بقوله : ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ ، وهذا محمول على القرآن عند غير المصر .

فأما المصر على البغي ، فالأفضل الانتصار منه بدليل الآية قبلها .

وقال ابن بحر : المعنى تناصروا عليه فأزالوه عنهم .

وقال أبو بكر بن العربي نحواً من قول الكيا .

قال الجمهور : إذا بغى مؤمن على مؤمن ، فلا يجوز له أن ينتصر منه بنفسه ، بل يرفع ذلك إلى الإمام أو نائبه .

وقالت فرقة : له ذلك .

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ : هذا بيان للانتصار ، أي لا يتعدى فيما يجازي به من بغى عليه .

قال ابن أبي نجيح ، والسدي : إذا شتم ، فله أن يرد مثل ما شتم به دون أن يتعدى ، وسمى القصاص سيئة على سبيل المقابلة ، أو لأنها تسوء من اقتص منه ، كما ساءت الحيض .

وظاهر قوله : مثلها المماثلة مطلقاً في كل الأحوال ، لا فيما خصه الدليل .

والفقهاء أدخلوا التخصيص في صور كثيرة بناء على القياس .

قال مجاهد ، والسدي : إذا قال له أخزاك الله فليقل أخزاك الله ، وإذا قذفه قذفاً يوجب الحد ، بل الحد الذي أمره الله به .

﴿ فمن عفا وأصلح ﴾ : أي بينه وبين خصمه بالعفو ، ﴿ فأجره على الله ﴾ : عدة مبهمة لا يقاس عظمها ، إذ هي على الله .

﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ : أي الخائنين ، وإذا كان لا يحبه وقد ندب إلى العفو عنه ، فالعفو الذي يحبه الله أولى أن يعفي عنه ، أو لا يحب الظالمين من تجاوز واعتدى من المجني عليهم ، إذا انتصروا خصوصاً في حالة الحرب والتهاب الحمية ، فربما يظلم وهو لا يشعر .

وفي الحديث : " إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له أجر على الله فليقم ، قال : فيقوم خلق ، فيقال لهم : ما أجركم على الله ؟ فيقولون : نحن عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن الله " واللام في ﴿ ولمن انتصر ﴾ لام توكيد .

قال الحوفي : وفيها معنى القسم .

وقال ابن عطية : لام التقاء القسم يعنيان أنها اللام التي يتلقى بها القسم ، فالقسم قبلها محذوف ، ومن شرطية ، وحمل ﴿ انتصر بعد ظلمه ﴾ على لفظ من ، وفأولئك على معنى من ، والفاء جواب الشرط ، وظلمه مصدر مضاف إلى المفعول .

قال الزمخشري : ويفسره قراءة من قرأ : بعد ما ظلم ما عليهم من سبيل ، قيل : أي من طريق إلى الحرج ؛ وقيل : من سبيل للمعاقب ، ولا المعاتب والعاتب ، وهذه مبالغة في إباحة الانتصار .

﴿ إنما السبيل ﴾ : أي سبيل الإثم والحرج ، ﴿ على الذين يظلمون ﴾ : أي يبتذلون بالظلم ، ﴿ ويبغون في الأرض ﴾ : أي يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون .

وقيل : ويظلمون الناس : أي يضعون الأشياء غير مواضعها من القتل وأخذ المال والأذى باليد واللسان .

والبغي بغير الحق ، فهو نوع من أنواع الظلم ، خصه بالذكر تنبيهاً على شدته وسوء حال صاحبه . انتهى .

﴿ ولمن صبر ﴾ : أي على الظلم والأذى ، ﴿ وغفر ﴾ ، ولم ينتصر .

واللام في ولمن يجوز أن تكون اللام الموطئة القسم المحذوف ، ومن شرطية ، وجواب القسم قوله : ﴿ إن ذلك ﴾ ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه .

ويجوز أن تكون اللام لام الابتداء ، ومن موصولة مبتدأ ، والجملة المؤكدة بأن في موضع الخبر .

وقال الحوفي : من رفع بالابتداء وأضمر الخبر ، وجواب الشرط إن وما تعلقت به على حذف الفاء ، كما قال الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها . . .

أي : فالله يشكرها .

انتهى ، وهذا ليس بجيد ، لأن حذف الفاء مخصوص بالشعر عند سيبويه .

والإشارة بذلك إلى ما يفهم من مصدر صبر وغفر والعائد على الموصول المبتدأ من الخبر محذوف ، أي إن ذلك منه لدلالة المعنى عليه : ﴿ لمن عزم الأمور ﴾ ، إن كان ذلك إشارة إلى المصدر المفهوم من قوله : ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ ، لم يكن في عزم الأمور حذف ، وإن كان ذلك إشارة إلى المبتدأ ، كان هو الرابط ، ولا يحتاج إلى تقدير منه ، وكان في ﴿ عزم الامور ﴾ ، أي أنه لمن ذوي عزم الأمور .

(226/687)

وسب رجل آخر في مجلس الحسن ، فكان المسبوب يكظم ويعرق ويمسح العرق ، ثم قام فتلا الآية ، فقال الحسن : عقلها والله وفهمها ، لم هذه ضيعها الجاهلون .

والجملة من قوله : ﴿ إنما السبيل ﴾ اعتراض بين قوله : ﴿ ولمن انتصر ﴾ ، وقوله : ﴿ ولمن صبر ﴾ .

﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ﴾ : أي من ناصر يتولاه من بعده ، أي من بعد إضلاله ، وهذا تحقير لأمر الكفرة .

﴿ وترى الظالمين ﴾ : الخطاب للرسول ، والمعنى : وترى حالهم وما هم فيه من الحيرة ، ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ ، يقولون : ﴿ هل إلى مردّ من سبيل ﴾ : هل سبيل إلى الردّ للدنيا ؟ وذلك من فظيع ما اطلعوا عليه ، وسوء ما يحل بهم .

﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ : أي على النار ، دل عليها ذكر العذاب ، ﴿ خاشعين ﴾ متضائلين صاغرين مما يحلقهم ، ﴿ من الذل ﴾ وقرأ طلحة : من الذل ، بكسر الذال ؛ والجمهور بالضم ، والخشوع : الاستكانة ، وهو محمود .

وإنما أخرجه إلى الذم اقترافه بالعذاب وقيل : ﴿ من الذل ﴾ متعلق ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ .

قال ابن عباس : ذليل . انتهى .

قيل : ووصف بالخفاء لأن نظرهم ضعيف ولحظهم نهاية ، قال الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير . . .

وقيل : يحشرون عمياً .

ولما كان نظرهم بعيون قلوبهم ، جعله طرفاً خفياً ، أي لا يبدو نظرهم ، وهذا التأويل فيه تكلف .

وقال السدي ، وقتادة : المعنى يسارقون النظر لما كانوا فيه من الهمّ وسوء الحال ، لا يستطيعون النظر بجميع العين ، وإنما ينظرون من بعضها ، فيجوز على هذا التأويل أن يكون الطرف مصدراً ، أي من نظر خفي .

(227/687)

وقال الزمخشري : ﴿ من طرف خفي ﴾ ، أي يبتدىء نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة ، كما ترى المصور ينظر إلى السيف ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره ، ولا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينه منها ، كما يفعل في نظره إلى المتحاب الظاهر أن ﴿ وقال ﴾ ماض لفظاً ومعنى ، أي ﴿ وقال الذين آمنوا ﴾ في الحياة الدنيا ، ويكون يوم القيامة معمولاً لخسروا ، ويحتمل أن يكون معنى ﴿ وقال ﴾ : ويقول ، ويوم القيامة معمول لو يقولوا ، أي ويقولوا في ذلك اليوم لما عاينوا ما حل بالكفار وأهليهم .

الظاهر أنهم الذين كانوا أهليهم في الدنيا ، فإن كانوا معهم في النار فقد خسروهم ، أي لا ينتفعون بهم ؛ وإن كانوا في الجنة لكونهم كانوا في الجنة لكونهم كانوا مؤمنين ، كآسية امرأة فرعون ، فهم لا ينتفعون بهم أيضاً .

وقيل : أهلوهم ما كان أعد لهم من الحور لو كانوا آمنوا ، والظاهر أن قوله : ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ من كلام المؤمنين ؛ وقيل : استئناف إخبار من الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(228/687)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيّ مّن بَعْدِهِ ﴾

أي ما له من ناصر يتولاه من بعد خذلان أن الله تعالى إياه فضمير ﴿ بَعْدِهِ ﴾ لله تعالى بتقدير مضاف فيه ، وقيل للخذلان المفهوم من ﴿ يُضْلِلِ ﴾ والجملة عطف على قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : 42] وكنى بمن عن الظالم الباغي تسجيلاً بأنه ضال مخذول أو أتى به مبهماً ليشمله شمولاً أولياً فقوله سبحانه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ [الشورى : 43] الخ اعتراض لما أشرنا إليه ﴿ وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ أي حين

يرونه ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدّ ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ مّن سَبِيلٍ ﴾ حتى نؤمن ونعمل صالحاً وجوز أن يكون المعنى هل إلى رد للعذاب ومنع منه من سبيل ، وتنكير ﴿ مَرَدّ ﴾ وكذا ﴿ سَبِيلٍ ﴾ للمبالغة والجملة حال وقيل مفعول ثان لترى .

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار المدلول عليها بالعذاب ، والجملة كالسابقة ﴿ خاشعين ﴾ متضائلين متقاصرين ﴿ مّنَ الذل ﴾ أي بسبب الذل لعظم ما لحقهم فمن سببية متعلقة بخاشعين وهو وكذا ما بعده حال .

وجوز أن يعلق الجار بقوله تعالى : ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ ويوقف على ﴿ خاشعين ﴾ ﴿ مِن طَرْفٍ خَفِيّ ﴾ والأول أظهر ، والطرف مصدر طرف إذا حرك عينه ومنه طرفة العين ، والمراد بالخفي الضعيف ، ومن ابتدائية أي يبتدىء نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل في نظهر إلى المحاب ، ويجوز أن تكون من بمعنى الباء .

وعن ابن عباس ﴿ خَفِيّ ﴾ ذليل فالطرف عليه جفن العين ، وقيل : يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم وذاك نظر من طرف خفي ، وهو تأويل متكلف ، والجملتان السابقتان أعني ﴿ تَرَى الظالمين وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ ﴾ معطوفان على ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴾ وأصل الكلام والظالمون لما رأوا العذاب يقولون وهم يعرضون عليها خاشعين ، ثم قيل : ﴿ وَتَرَى وَتَرَاهُمْ ﴾ خطاباً لكل من يتأتى مه الرؤية ويعتبر بحالهم زيادة للتهويل كأنه يعجبهم مما هم فيه ليعتبروا واو يبتهجوا ، ومنه يظهر أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه ﴿ وَقَالَ الذين ءامَنُواْ إِنَّ الخاسرين ﴾ أي أنهم ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد أو على ما مر في الزمر ، وعدل عن أنهم إلى المنزل تسجيلاً عليهم بأكمل الخسران إذ المراد أن الكاملين في صفة الخسران المتصفين بحقيقته ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ متعلق بخسروا والقول في الدنيا ، وجوز أن يكون متعلقاً بقال ، والماضي لتحقق الوقوع أي ويقولون إذا رأوهم على تلك الصفة .

(230/687)

وفي "الكشف الظاهر" أنه قول يوم القيامة كالخسران من باب التنازع بين الفعلين ، وآثر "صاحب الكشاف" على ما يؤذن به صنيعه أن يتعلق بالخسران وحده لأن الأصل في ﴿

قَالَ ﴾ الذين آمنوا إن الخاصرين ﴿ الخ ﴾ هم الخاسرون كما أن الأصل في ﴿ بَعْدِهِ وَتَرَى الظالمين ﴾ والظالمون لما رأوا ثم قيل : ﴿ وَقَالَ الذين ءامَنُواْ ﴾ على نحو ما قيل ﴿ وَتَرَى ﴾ الخ وكما أن الرؤية رؤية الدنيا استحضاراف لعذابهم الكائن في الآخرة تهويلاً كذلك القول كأنهم جعلهم حضوراً يعاين عذابهم ويسمع ما يقول المؤمنون فيهم ورد على الخطاب في الرؤية والغيبة في القول لأن معاينة العذاب لما كانت أدخل في التهويل جعل العذاب قريباً مشاهداً وخصوا بالخطاب على سبيل استحضار الحال لمزيد الابتهاج ولم يكن في الخسران ذلك المعنى لأنه أمر معقول والمحسوسات أقوى لا سيما إذا كن موجبات الخسران فجيء به على الأصل من الغيبة ، وعدله من المضارع إلى الماضي لأنه قول صادر عن مقتضى الحال قد حق ووقع تفوهوا به أولاً وأسند إلى المؤمنين دلالة على الابتهاج المذكور واغتباطهم بنجاتهم عما هم فيه وإلا فالقول والرؤية لكل من يتأتى منه القول والرؤية ، وجعله حالاً كما فعل الطيبي على معنى وتراهم وقد صدق فيهم قول المؤمنين في الدنيا أن الخاسرين الخ من أسلوب قوله :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة . . .

وفيه أنه إنما يرتكب عند تعذر الحقيقة وقد أمكن الحمل على التنازع فلا تعذر .

ثم أنه على التقدير لا يظهر أنه قول فيها إلا بدليل خارج ، وهذا بخلاف ا ذكره جار الله في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ [ق : 28] من تقدير وقد صح عندكم أني قدمت لأن في اللفظ إشعاراً به بينا انتهى ، ولعمري لقد أبعد قدس سره المغزى في هذه الآيات العظام وأتى بما تستحسنه النظار من ذي الأفهام فليفهم ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ الظالمين فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ إما من تمام كلام المؤمنين ويجري فيه ما سمعت من الأصل ونكتة العدول أو استئناف أخبار منه تعالى تصديقاً لذلك .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم ﴾ برفع العذاب عنهم ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ حسبما يزعمون ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ إلى الهدي أو النجاة ، وقيل : المراد ما له من حجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(232/687)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾)

بعد أن حكى أصنافاً من كفر المشركين وعنادهم وتكذيبهم ، ثم ذكَّرهم بالآيات الدالة

على انفراد الله تعالى بالإلهية وما في مطاويها من النعم وحذّرهم من الغرور بمتاع الدنيا الزائل أعقبه بقوله : ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده الامور * وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن ﴾ وهو معطوف على قوله : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ [الشورى : 42] .

والمعنى : أن فيما سمعتهم هدايةً لمن أراد الله له أن يهتدي ، وأما من قدَّر الله عليه بالضلال فما له من وليّ غير الله يهديه أو ينقذه ، فالمراد نفي الولي الذي يُصلحه ويُرشده ، كقوله : ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجدَ له وليّاً مُرشداً ﴾ [الكهف : 17] ، فالمراد هنا ابتداءً معنى خاص من الوَلاية .

وإضلال الله المرءَ : خَلْقُه غير سريع للاهتداء أوْ غير قابل له وحرمانه من تداركه إياه بالتوفيق كلما توغل في الضلالة ، فضَلالُه من خلق الله وتقدير الله له ، والله دعا الناس إلى الهداية بواسطة رُسله وشرائعه قال تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويَهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [يونس : 25] أي يدعو كل عاقل ويَهدي بعض مَن دعاهم .

ومَن ﴾ شرطية ، والفاء في ﴿ فما له من ولي ﴾ رابطة للجواب .

ونفي الولي كناية عن نفي أسباب النجاة عن الضلالة وعواقب العقوبة عليها لأن الولي من خصائصه نفع مولاه بالإرشاد والانتشال ، فنفي الولي يدلّ بالالتزام على احتياج إلى نفعه مولاه وذلك يستلزم أن مولاه في عناء وعذاب كما دل عليه قوله عقبه ﴿ وترى الظالمين لما

رأوا العذاب ﴾ الآية .

فهذه كناية تلويحية ، وقد جاء صريح هذا المعنى في قوله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ في سورة الزمر (23) وقوله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ الآتي في هذه السورة (46) .

(233/687)

وضمير ﴿ بعده ﴾ راجع إلى اسم الجلالة ، أي من بعد الله كقوله تعالى : ﴿ فمن يهديه من بعد الله أفلا تذّكرون ﴾ في سورة الجاثية (23) .

ومعنى ﴿ بعد ﴾ هنا بمعنى (دُون) أو (غير) ، استعير لفظ ﴿ بعد ﴾ لمعنى (دون) لأن ﴿ بعد ﴾ موضوع لمن يخلف غائباً في مكانه أو في عمله ، فشبه ترك الله الضالَّ في ضلاله بغيبة الولي الذي يترك مولاه دون وصي ولا وكيل لمولاه وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ في سورة الأعراف (185) وقوله : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ في سورة يونس (32) .

و ﴿ من ﴾ زائدة للتوكيد .

ومن مواضع زيادتها أن تزاد قبل الظروف غيرِ المتصرفة قال الحريري "وما منصوب على

الظرف لا يخفضه سوى حرف" .

﴿ بَعْدِهِ وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ العذاب يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِّن ﴾ .

عطف على جملة ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ﴾ ، وهذا تفصيل وبيان لما أجمل في الآيتين المعطوف عليهما وهما قوله : ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾

[الشورى : 35] ، وقوله : ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ﴾ .

والمعنى : أنهم لا يجدون محيصاً ولا ولياً ، فلا يجدون إلا الندامة على ما فات فيقولُوا ﴿ هل إلى مرد من سبيل ﴾ .

والاستفهام بحرف ﴿ هل ﴾ إنكاري في معنى النفي ، فلذلك أدخلت ﴿ مِن ﴾ الزائدة على ﴿ سبيل ﴾ لأنه نكرة في سياق النفي .

والمَرَد : مصدر ميمي للردّ ، والمراد بالرد : الرجوع ، يقال : رده ، إذا أرجعه .

ويجوز أن يكون ﴿ مَرَد ﴾ بمعنى الدفع ، أي هل إلى ردّ العذاب عنا الذي يبدو لنا سبيلٌ حتى لا نقع فيه ، فهو في معنى ﴿ إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع ﴾ في سورة الطور (8) .

والخطاب في ترى ﴾ لغير معيّن ، أي تناهت حالهم في الظهور فلا يختص به مخاطب ، أو الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم تسليةً له على ما لاقاه منهم من التكذيب .

والمقصودُ : الإخبار بحالهم أولاً ، والتعجيب منه ثانياً ، فلم يقل : والظالمون لما رأوا العذاب يقولون ، وإنما قيل : ﴿ وترى الظالمين ﴾ للاعتبار بحالهم .

ومجيء فعل ﴿ رأوا العذاب ﴾ بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه ، فالمضي مستعار للاستقبال تشبيهاً للمستقبل بالماضي في التحقق ، والقرينة فعل ﴿ ترى ﴾ الذي هو مستقبل إذ ليست الرؤية المذكورة بحاصلة في الحال فكأنه قيل : لما يَرون العذاب .

وجملة ﴿ يقولون ﴾ حال من ﴿ الظالمين ﴾ أي تراهم قائلين ، فالرؤية مقيدة بكونها في حال قولهم ذلك ، أي في حال سماع الرائي قولهم .

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾

أعيد فعل (ترى) للاهتمام بهذه الرؤية وتهويلها كما أعيد فعل (تلاقوا) في قول ودّاكٍ بن ثُمْيل المازني:

رويداً بني شيبان بعضَ وعيدكم . . .

تُلاَقوا غداً خيلي على سَفَوَانِ

تُلاقوا جياداً لا تَحِيدُ عن الوغَى . . .

إذا ظَهَرتْ في المَأْزِقِ المُتَدَانِي

والعَرْض : أصله إظهار الشيء وإراءته للغير ، ولذلكَ كان قول العرب : عَرَضْتُ البَعير على الحوض معدوداً عند علماء اللغة وعلماء المعاني من قبيل القَلْب في التركيب ، ثم تتفرع عليه إطلاقات عديدة متقاربة دقيقة تحتاج إلى تدقيق .

ومن إطلاقاته قولهم : عَرْض الجندِ على الأمير ، وعرض الأسرى على الأمير ، وهو إمرارهم ليرى رأيه في حالهم ومعاملتهم ، وهو إطلاقه هنا على طريق الاستعارة ، استعير لفظ ﴿ يعرضون ﴾ لمعنى : يُمَرُّ بهم مَرًّا عاقبته التمكن منهم والحكمُ فيهم فكأنَّ جهنم إذا عرضوا عليها تحكم بما أعدّ الله لهم من حريقها ، ويفسره قوله في سورة الأحقاف (20) ﴿ ويَوم يُعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ الآية .

وقد تقدم إطلاق له آخر عند قوله تعالى : ﴿ ثم عَرَضَهم على الملائكة ﴾ في سورة البقرة (31) .

وبني فعل ﴿ يعرضون ﴾ للمجهول لأن المقصود حصول الفعل لا تعيين فاعله .

والذين يَعرِضون الكافرين على النار هم الملائكة كما دلت عليه آيات أخرى .

وضمير ﴿ عليها ﴾ عائد إلى العذاب بتأويل أنه النار أو جهنم أو عائد إلى جهنم المعلومة من المقام .

وانتصب ﴿ خاشعين ﴾ على الحال من ضمير الغيبة في ﴿ تراهُم ﴾ لأنها رؤية بصرية .

والخشوع : التطامن وأثَر انكسار النفس من استسلام واستكانة فيكون للمخافة ، وللمهابة ، وللطاعة ، وللعجز عن المقاومة .

والخشوع مثل الخضوع إلاّ أن الخضوع لا يسند إلاّ إلى البدن فيقال : خضع فلان ، ولا يقال : خضع بَصَرُه إلا على وجه الاستعارة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فلا تَخْضَعْنَ بالقول ﴾ [الأحزاب : 32] ، وأما الخشوع فيسند إلى البدن كقوله تعالى : ﴿ خاشعين لله ﴾ في آخر سورة آل عمران (199) .

ويُسند إلى بعض أعضاء البدن كقوله تعالى : ﴿ خُشَّعاً أبصارُهم ﴾ في سورة القمر (7) ، وقوله : وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همساً في سورة طه (108) .

والمراد بالخشوع في هذه الآية ما يبدو عليهم من أثر المذلة والمخافة .

فقوله : من الذل ﴾ متعلق بـ ﴿ خاشعين ﴾ وتعلقه به يغني عن تعليقه بـ ﴿ ينظرون ﴾ ويفيد ما لا يفيده تعليقه به .

و﴿ مِنْ ﴾ للتعليل ، أي خاشعين خشوعاً ناشئاً عن الذل ، أي ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية لأن ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا .

وجملة ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ خاشعين ﴾ لأن النظر من طرف خفيّ حالة للخاشع الذليل ، والمقصود من ذكرها تصوير حالتهم الفظيعة .

وفي قريب من هذا المعنى قول النابغة يصف سبايا :

يَنْظُرْن شزْراً إلى مَن جاءَ عن عُرُض . . .

بأوْجُهٍ منكِراتتِ الرِقّ أحْرَارِ

وقول جرير :

فغضَّ الطرف إنك من نُمير . . .

فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

(236/687)

والطرْف : أصله مصدر ، وهو تحريك جفْن العين ، يقال : طَرَفَ من باب ضرب ، أي حرّك جفنه ، وقد يطلق على العين من تسمية الشيء بفعله ، ولذلك لا يثنّى ولا يجمع قال تعالى : ﴿ لا يرتَدُّ إليهم طَرْفُهم ﴾ [إبراهيم : 43] .

ووَصْفُه في هذه الآية بـ ﴿ خفي ﴾ يقتضي أنه أريد به حركة العين ، أي ينظرون نظراً خفيّاً ، أي لا حِدّة له فهو كَمُسَارَقَةِ النظر ، وذلك من هول ما يرونه من العذاب ، فهم يحجمون عن مشاهدته للروع الذي يصيبهم منها ، ويبعثهم ما في الإنسان من حب الاطلاع على أن يتطلعوا لما يساقون إليه كحال الهارب الخائف ممن يتبعه ، فتراه يُمعن في الجرْي ويلتفت وراءه الفَينة بعد الفَينة لينظر هل اقتربَ منه الذي يجري وراءه وهو في تلك الالتفاتة أفات خطوات من جريه لكن حب الاطلاع يغالبه .

و﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من طرف خفي ﴾ للابتداء المجازي .

والمعنى : ينظرون نظراً منبعثاً من حركة الجفن الخفيّة .

وحُذف مفعول ﴿ ينظرون ﴾ للتعميم أي ينظرون العذاب ، وينظرون أهوال الحشر وينظرون نعيم المؤمنين من طَرف خفيّ .

﴿ خَفِيٍّ وَقَالَ الذين ءامنوا إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة أَلَا إِنَّ الظالمين فِى عَذَابٍ ﴾ .

يترجح أن الواو للحال لا للعطف ، والجملة حال من ضمير الغيبة في ﴿ تراهم ﴾ ، أي تراهم في حال الفظاعة الملتبسين بها ، وتراهم في حال سماع الكلام الذامّ لهم الصادر من المؤمنين إليهم في ذلك المشهد .

وحُذفت (قد) مع الفعل الماضي لظهور قرينة الحال .

وهذا قول المؤمنين يوم القيامة إذ كانوا يومئذ مطمئنين من الأهوال شاكرين ما سبق من إيمانهم في الدنيا عارفين بِرِبْحِ تجارتهم ومقابلين بالضد حالة الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا إذ كانوا سبباً في خسارتهم يوم القيامة .

والظاهر : أن المؤمنين يقولون هذا بمسمع من الظالمين فيزيد الظالمين تلهيباً لندامتهم ومهانتهم وخزيهم .

(237/687)

فهذا الخبر مستعمل في إظهار المسرّة والبهجة بالسلامة مما لحق الظالمين ، أي قالوه تحدثاً بالنعمة واغتباطاً بالسلامة يقوله كل أحد منهم أو يقوله بعضهم لبعض .

وإنما جيء بحرف ﴿ إنَّ ﴾ مع أن القائل لا يشك في ذلك والسامع لا يشك فيه للاهتمام بهذا الكلام إذ قد تبيّنت سعادتهم في الآخرة وتوفيقهم في الدنيا بمشاهدة ضد ذلك في معانديهم .

والتعريف في ﴿ الخاسرين ﴾ تعريف الجنس ، أي لا غيرهم .

والمعنى : أنهم الأكملون في الخسران وتسمّى (أَلْ) هذه دالة على معنى الكمال وهو مستفاد من تعريف الجزءين المفيد للقصر الادعائي حيث نُزل خسران غيرهم منزلة عدم

الخسران .

فالمعنى : لا خسران يشبه خسرانهم ، فليس في قوله : ﴿ إن الخاسرين ﴾ إظهار في مقام الإضمار كما توهم ، وقد تقدم نظيره في قوله : ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ في سورة الزمر (15) .

والخسران : تلف مال التاجر ، واستعير هنا لانتفاء الانتفاع بما كان صاحبه يُعِده للنفع ، فإنهم كانوا يأمُلون نعيم أنفسهم والأنس بأهليهم حيثما اجتمعوا ، فكُشف لهم في هذا الجمع عن انتفاء الأمرين ، أو لأنهم كانوا يحسبون أن لا يحيوا بعد الموت فحسِبوا أنهم لا يَلْقَوْن بعده ألماً ولا توحشهم فرقة أهليهم فكُشف لهم ما خيَّب ظنهم فكانوا كالتاجر الذي أمّل الربح فأصابه الخسران .

وقوله : يوم القيامة ﴾ يتعلق بفعل ﴿ خسروا ﴾ لا بِفعل ﴿ قال ﴾ .

وجملة ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ تذييل للجمل التي قبلها من قوله : ﴿ وترى الظالمين لمَّا رأوا العذاب ﴾ [الشورى : 44] الآيات .

لأن حالة كونهم في عذاب مقيم أعم من حالة تلهفهم على أن يُردّوا إلى الدنيا ، وذِلهم وسماعِهم الذم .

وإعادة لفظ ﴿ الظالمين ﴾ إظهار في مقام الإضمار اقتضاه أن شأن التذييل أن يكون مستقل الدلالة على معناه لأنه كالمثل .

وليست هذه الجملة من قول المؤمنين إذ لا قِبَل للمؤمنين بأن يحكموا هذا الحكم ، على أن أسلوب افتتاحه يقتضي أنه كلام مَن بيده الحكم يوم القيامة وهو مَلِكُ يوم الدين ، فهو كلام من جانب الله ، أي وَهم معَ الندم وذلك الذل والخزي بسماع ما يكرهون في عذابٍ مستمر .

وافتتحت الجملة بحرف التنبيه لكثرة ذلك في التذييلات لأهميتها .

والمقيم : الذي لا يرتحل .

ووصف به العذاب على وجه الاستعارة ، شبه المستمر الدائم بالذي اتخذ دار إقامة لا يبرحها .

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

﴿ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ [الشورى : 45] أي هم في عذاب دائم لا يجدون منه نصيراً .

وهو رد لمزاعمهم أن آلهتهم تنفعهم عند الله .

وجملة ﴿ ينصرونهم ﴾ صفة ل ﴿ أولياء ﴾ للدلالة على أن المراد هنا ولاية خاصة ، وهي ولاية النصر ، كما كان قوله سابِقاً ﴿ ومن يضلل الله فما له من وليّ من بعده ﴾ [الشورى : 44] مراداً به ولاية الإرشاد .

و ﴿ مِن ﴾ زائدة في النفي لتأكيد نفي الولي لهم .

وقوله : ﴿ من دون الله ﴾ صفة ثانية ل ﴿ أولياء ﴾ وهي صفة كاشفة .

و ﴿ من ﴾ زائدة لتأكيد تعلق ظرف ﴿ دُون ﴾ بالفعل .

﴿ اللهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن ﴾ .

تذييل لجملة ﴿ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم ﴾ ، وتقدم آنفاً الكلام على نظيره وهو ﴿ من يضلل الله فما له من وليّ من بعده .

وسبيل ﴾ نكرةٌ في سياق النفي فيعم كل سبيل مخلص من الضلال ومن آثاره والمقصود هنا ابتداءً هو سبيل الفرار من العذاب المقيم كما يقتضيه السياق .

وبذلك لم يكن ما هنا تأكيداً لما تقدم من قوله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ الآية ، هذه الآية الكريمة تدل على أن الكفار يوم القيامة ينظرون بعيون خفية ضعيفة النظر وقد جاءت آية أخرى يتوهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

والجواب هو ما ذكره صاحب الإتقان من أن المراد بحدة البصر العلم وقوة المعرفة ، قال قطرب: فبصرك أي علمك ومعرفتك بها قوية من قولهم بصر بكذا أي علم وليس المراد رؤية العين ، قال الفارسي ويدل على ذلك قوله ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ .

وقال بعض العلماء: فبصرك اليوم حديد أي تدرك به ما عميت عنه في دار الدنيا ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾ الآية ، وقوله: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ الآية ، وقوله: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

ودلالة القرآن على هذا الوجه الأخير ظاهرة فلعله هو الأرجح وإن اقتصر صاحب الإتقان على الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 258 ﴾

قوله تعالى ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا ، أنتج قطعاً قوله : ﴿ استجيبوا ﴾ أي اطلبوا الإجابة وأوجدوها ، ولفت القول إلى الوصف الإحساني تذكيراً بما يحث على الوفاق ، ويخجل من الخلاف والشقاق ، فقال : ﴿ لربكم ﴾ الذي لم تروا إحساناً إلا وهو منه فيما دعاكم إليه برسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوفاء بعهده في أمره ونهيه ، ولا تكونوا ممن ترك ذلك فتكونوا ممن علم أنه أضله فانسد عليه السبيل .

ولما كان الخوف من الفوت موجباً للمبادرة ، قال مشيراً بالجار إلى أنه يعتد بأدنى خير يكون في أدنى زمن يتصل بالموت : ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ أي يكون فيه ما لا يمكن معه فلاح ؛ ثم وصفه بقوله لافتاً إلى الاسم الأعظم الجامع لأوصاف الإحسان والإنعام على المطيعين والقهر والانتقام من العاصين : ﴿ لا مرد ﴾ أي لا رد ولا موضع رد ولا زمان رد ﴿ له ﴾

كائن ﴿ من الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة وإذا لم يكن له مرد منه لم يكن له مرد من غيره ، ومتى عدم ذاك أنتج قوله : ﴿ ما لكم ﴾ وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من ملجأ يومئذ ﴾ أي مكان تلجؤون إليه في ذلك اليوم وحصن تتحصنون فيه من شيء تكرهونه ، وزاد في التأكيد بإعادة النافي وما في حيزه إبلاغاً في التحذير فقال : ﴿ وما لكم من نكير ﴾ أي من إنكار يمكنكم به من النجاة لأن الحفظة يشهدون عليكم فإن صدقتموهم وإلا شهدت عليكم أعضاؤكم وجلودكم ، ولا لكم من أحد ينكر شيئاً مما تتجاوزون به ليخلصكم منه .

(241/687)

ولما أنهى ما قدمه في قوله ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ نهايته ، ودل عليه وعلى كل ما قادته الحكمة في حيزه حتى لم يبق لأحد شبهة في شيء من الأشياء ، كان ذلك سبباً لتهديدهم على الإعراض عنه وتسلية رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال معرضاً عن خطابهم إيذاناً بشديد الغضب : ﴿ فإن أعرضوا ﴾ أي عن إجابة هذا الدعاء الذي وجبت إجابته والشرع الذي وضحت وصحت طريقته بما تأيد به من الحجج ، ولفت القول إلى مظهر العظمة دفعاً لما قد يوهم الإرسال من الحاجة فقال : ﴿ فما أرسلناك ﴾ مع ما لنا من

العظمة ﴿ عليهم حفيظاً ﴾ أي نقهرهم على امتثال ما أرسلناك به .

ولما كان التقدير .

فأعرض عن غير إبلاغهم لأنا إنما أرسلناك مبلغاً ، وضع موضعه : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ عليك إلا البلاغ ﴾ لما أرسلناك به ، وأما الهداية والإضلال فإلينا .

ولما ضمن لهذه الآية ما أرسله له ، أتبعه ما جبل عليه الإنسان بياناً لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا حكم له على الطباع وأن الذي عليه إنما هو الإسماع لا السماع ، فقال عاطفاً على ما قبل آية الشرع من قوله ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ حاكياً له في أسلوب العظمة تنبيهاً على أنه الذي حكم عليهم بالإعراض عما هو جدير بأن لا يعرض عنه عاقل ، وإيماء إلى أن الإنسان لغلبه جهله وقلة عقله يجترىء بأدنى تأنيس على من تجسد الجبال لعظمته وتندك الشوامخ من هيبته : ﴿ وإنا إذا أذقنا ﴾ بعظمتنا التي لا يمكن مخالفتها .

(242/687)

ولما كان من يفرح بالنعمة عند انفراده بها مذموماً ، عبر بالجنس الصالح للواحد فما فوقه تنبيهاً على أن طبع الإنسان عدم الاهتمام بشدائد الإخوان إلا من أقامه الله في مقام الإحسان فقال : ﴿ الإنسان ﴾ أي بما جبلناه عليه من النقص بالعجلة وعدم التمالك

﴿ منا رحمة ﴾ أي نوعاً من أنواع الإكرام من صحة أو غنى ونحو ذلك ، وأفرد الضمير إشارة إلى أنه مطبوع على أنه ليس عليه إلا من نفسه ولو كان أهل الأرض كلهم على غير ذلك ، وكذا عبر بالإنسان فقال : ﴿ فرح بها ﴾ أي ولو أن أهل الأرض كلهم في نقمة وبؤس وعمى فأخرجه الفرح عن تأمل ما ينفعه ليشكر ، فكان ذلك لذلك كافراً للنعمة لأنه أبدل الشكر بالفرح والكفر فتوصل بالعافية إلى المخالفة ، فأوقع نفسه في أعظم البلاء .

ولما دل باداة التحقق على أن النعمة هي الأصل لعموم رحمته ، وأنها سبقت غضبه ، دل على أن السيئة قليلة بالنسبة إليها بأداة الشك والمضارع فقال : ﴿ وإن ﴾ ولما كانت المشاركة في الشدائد تهون المصائب ، فكان من يزيد غمه بخصوص مصيبته عند العموم مذموماً ، نبه على نقص الإنسان بذلك بالجمع فقال : ﴿ تصبهم سيئة ﴾ أي نقمة وبلاء وشدة .

ولما كانت الرحمة فضلاً منه ، أعلمهم أن السيئة مسببة عنهم فقال : ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ وعبر باليد عن الجملة لأن أكثر العمل بها .

ولما كان الجواب على نهج الأول : حزنوا فكفروا ، وعدل عنه إلى ما يدل على أن جنس الإنسان موضع الكفران ، ولما كانوا يدعون الشكر وينكرون الكفر ، أكد قوله وسبب عن تلك الإصابة والإذاقة معاً إشارة إلى أنه لا أصل له غيرهما ، فقال مظهراً موضع الضمير لينص على الحكم على الجنس من حيث هو : ﴿ فإن الإنسان ﴾ أي الآنس بنفسه المعرض عن غيره بما هو طبع له بسبب مسه بضر ﴿ كفور ﴾ أي بليغ الستر للنعم نساء له ، ينسى بأول صدمة من النقمة جميع ما تقدم له من النعم ، ولا يعرف إلا الحالة الراهنة ، فإن كان في نعمه أشر وبطر ، وإن كان في نقمه أيس وقنط ، وهذا حال الجنس من حيث هو ، ومن وفقه الله جنبه ذلك كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له " وليس ذلك إلا للمؤمن ، والآية من الاحتباك : فكر الفرح أولاً دالاً على الحزن ثانياً ، وذكر الكفران ثانياً دال على حذفه أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 646 . 647 ﴾

(244/687)

فصل

قال الفخر :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود فقال : ﴿ استجيبوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ وقوله ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ يجوز أن يكون صلة لقوله ﴿ لَّا مَرَدَّ لَهُ ﴾ يعني لا يرده الله بعد ما حكم به ، ويجوز أن يكون صلة لقوله ﴿ يَأْتِيَ ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده ، واختلفوا في المراد بذلك اليوم فقيل يوم ورود الموت ، وقيل يوم القيامة لأنه وصف ذلك اليوم بأنه لا مرد له وهذا الوصف موجود في كلا اليومين ، ويحتمل أن يكون معنى قوله ﴿ لَّا مَرَدَّ لَهُ ﴾ أنه لا يقبل التقديم والتأخير أو أن يكون معناه أن لا مرد فيه إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافي .

(245/687)

ثم قال تعالى في وصف ذلك اليوم ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ ﴾ ينفع في التخلص من العذاب ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر ، ويجوز أن يكون المراد من النكير الإنكار أي لا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما افترقتموه من الأعمال ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أي هؤلاء الذين أمرتهم بالاستجابة أي لم يقبلوا هذا الأمر ﴿ فَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا البلاغ ﴾ وذلك

تسلية من الله تعالى ، ثم إنه تعالى بيّن السبب في إصرارهم على مذاهبهم الباطلة ، وذلك أنهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة الفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ ونعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سماها ذوقاً فبيّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير الذي حصل في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر ، ويظن أنه فاز بكل المنى ووصل إلى أقاصي السعادات ، وهذه طريقة من يضعف اعتقاده في سعادات الآخرة ، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذي لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة ، ثم بيّن أنه متى أصبتهم سيئة أي شيء يسوءهم في الحال كالمرض والفقر وغيرهما فإنه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله ﴿ فَإِنَّ الإِنسانَ كَفُورٌ ﴾ والكفور الذي يكون مبالغاً في الكفران ولم يقل فإنه كفور ، ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلا إذا أدبها الرجل بالآداب التي أرشد الله إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 157.158 ﴾

(246/687)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾

قال الزجاج : سمى العقوبة باسم الذنب .

قال القاضي أبو محمد : وهذا إذا أخذنا السيئة في حق الله تعالى بمعنى المعصية ، وذلك أن المجازاة من الله تعالى ليست سيئة إلا بأن سميت باسم موجبتها ، وأما إن أخذنا السيئة بمعنى المعصية في حق البشر ، أي يسوء هذا هذا ويسوء الآخر ، فلسنا نحتاج إلى أن نقول سمى العقوبة باسم الذنب ، بل الفعل الأول والآخر ﴿ سيئة ﴾ وقال ابن أبي نجيح والسدي معنى الآية : أن الرجل إذا شتم بشتمة فله أن يردها بعينها دون أن يتعدى . قال الحسن بن أبي الحسن : ما لم يكن حداً أو عوراء جداً واللام في قوله : ﴿ لمن انتصر ﴾ لام التقاء القسم .

وقوله : ﴿ من سبيل ﴾ يريد ﴿ من سبيل ﴾ حرج ولا سبيل حكم ، وهذا إبلاغ في إباحة الانتصار ، والخلاف فيه هل هو بين المؤمن والمشرك ، أو بين المؤمنين على ما تقدم .

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42)

المعنى إنما سبيل الحكم والإثم ﴿ على الذين يظلمون الناس ﴾ ، أي الذين يضعون الأشياء غير مواضعها من القتل وأخذ المال والأذى باليد وباللسان . والبغي بغير الحق وهو

نوع من أنواع الظلم ، خصه بالذكر تنبيهاً على شدته وسوء حال صاحبه ، ثم توعدهم تعالى بالعذاب الأليم في الآخرة .

(247/687)

وقوله تعالى : ﴿ إنما السبيل ﴾ وقوله : ﴿ أليم ﴾ اعتراض بين الكلامين ، ثم عاد في قوله : ﴿ ولمن صبر ﴾ إلى الكلام الأول ، كأنه قال : ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ولمن صبر وغفر . واللام في قوله : ﴿ ولمن صبر ﴾ يصح أن تكون لام القسم ، ويصح أن تكون لام الابتداء . و" من " ابتداء . وخبره في قوله : ﴿ إن ذلك ﴾ . و: ﴿ عزم الأمور ﴾ محكها ومتقنها والحميد العاقبة منها . ومن رأى أن هذه الآية هي فيما بين المؤمنين والمشركين وأن الضمير للمشركين كان أفضل ، قال إن الآية نسخت بآية السيف ، ومن رأى أن الآية إنما هي بين المؤمنين ، قال هي محكمة ، والصبر والغفران أفضل إجماعاً ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة نادى مناد ، من كان له على الله أجر فليقم ، فيقوم عنق من الناس كثير ، فيقال ما أجركم ؟ فيقولون : نحن الذين عفونا ظلمنا في الدنيا " .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ﴾ تحقير لأمر الكفرة فلا يبال بهم

أحد من المؤمنين ، فقد أضارهم كفرهم وإضلال الله إياهم إلى ما لا فلاح لهم معه . ثم وصف تعالى لنبيه عليه السلام حالهم في القيامة عند رؤيتهم العذاب فاجتزى من صفتهم وصفة حالتهم بأنهم يقولون ﴿ هل إلى مرد من سبيل ﴾ ، وهذه المقالة تدل على سوء ما أطلعوا عليه ، والمراد موضوع الرد إلى الدنيا ، والمعنى الذي قصدوه أن يكون رد فيكون منهم استدراك للعمل والإيمان . والرؤية في هذه الآية : رؤية عين . والضمير في قوله : ﴿ عليها ﴾ عائد على النار ، وعاد الضمير مع أنها لم يتقدم لها ذكر من حيث دل عليها قوله : ﴿ رأوا العذاب ﴾ وقوله : ﴿ من الذل ﴾ يحتمل أن يتعلق ب ﴿ خاشعين ﴾ ويحتمل أن يتعلق بما بعده من قوله : ﴿ ينظرون ﴾ .

وقرأ طلحة بن مصرف : " من الذِل " بكسر الذال .

(248/687)

والخشوع : الاستكانة ، وقد يكون محموداً ، وما يخرجه إلى حالة الذم قوله : ﴿ من الذل ﴾ فيقوى على هذا تعلق : ﴿ من ﴾ ب : ﴿ خاشعين ﴾ .

وقوله : ﴿ من طرف خفي ﴾ يحتمل ثلاثة معان . قال ابن عباس : خفي ذليل .

قال القاضي أبو محمد : لما كان نظرهم ضعيفاً ولحظهم بمهانة وصفه بالخفاء ، ومن هذا

المعنى قول الشاعر [جرير بن عطية] :

فغض الطرف إنك من نمير . . . وقال قوم فيما حكى الطبري : لما كانوا يحشرون عمياً وكان نظرهم بعيون قلوبهم جعله طرفاً خفياً ، أي لا يبدو نظرهم ، وفي هذا التأويل تكلف .

وقال قتادة والسدي : المعنى يسارقون النظر لما كانوا من الهم وسوء الحال لا يستطيعون النظر بجميع العين ، وإنما ينظرون من بعضها . قال : ﴿ من طرف خفي ﴾ أي قليل . ف " الطرف " هنا على هذا التأويل يحتمل أن يكون مصدراً ، أي يطرف طرفاً خفياً . وقول : ﴿ الذين آمنوا ﴾ هو في يوم القيامة عندما عاينوا حال الكفار وسوء منقلبهم . وخسران الأهلين : يحتمل أن يراد به أهلوهم الذين كانوا في الدنيا ، ويحتمل أن يراد به أهلوهم الذين كانوا يكونون لهم في الجنة أن لو دخلوها .

وقوله تعالى : ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين يومئذ حكاه الله عنهم ، ويحتمل أن يكون استئنافاً من قول الله تعالى وإخباره لمحمد عليه السلام .

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

قوله تعالى : ﴿ وما كان لهم من أولياء ﴾ إنحاء على الأصنام والأوثان التي أظهر الكفار ولايتها واعتقدت ذلك ديناً ، المعنى : فما بالهم يوالون هذه التي لا تضر ولا تنفع ، ولكن من يضلل الله ﴿ فما له من سبيل ﴾ هدى ونجاة ، ثم أمر تعالى نبيه أن يأمرهم بالاستجابة لدعوة الله وشريعته ، وحذرهم إتيان يوم القيامة الذي لا يرد أحد بعده إلى عمل ، والذي لا ملجأ ولا منجا لأحد فيه إلا إلى العلم بالله تعالى والعمل الصالح في الدنيا ، فأخبرهم أنه لا ملجأ لهم ولا نكير . والنكير مصدر بمعنى الإنكار وهو بمنزلة عديدة الحي ونحوه من المصادر ، ويحتمل أن يكون من أبنية اسم الفاعل من نكر ، وإن كان المعنى يبعد به ، لأن نكر إنما معناه لم يميز وظن الأمر غير ما عهده .

وقوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ تأنيس لمحمد عليه السلام وإزالة لهمه بهم ، وأعلمه أنه ليس عليه إلا البلاغ وتوصيل الحجة ، ثم جاءت عبارة في باقي الآية هي بمنزلة ما يقول ، والقوم قوم عتو وتناقض أخلاق واضطراب ، إذا أذيقوا رحمة فرحوا بها وبطروا ، وإن أصابت سيئة أي مصيبة تسوءهم في أجسامهم أي في نفوسهم ، وذلك بذنوبهم وقبيح فعلهم فإنهم كفر عند ذلك غير صبر . وعبر ب ﴿ الإنسان ﴾ الذي هو اسم عام ليدخل في الآية والمذمة جميع الكفرة من المجاورين يومئذ ومن غيرهم ، وجمع الضمير في قوله : ﴿ تصبهم ﴾ وهو عائد على لفظ ﴿ الإنسان ﴾ من حيث هو اسم جنس يعم كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ ﴾

أي أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة .

استجاب وأجاب بمعنًى ؛ وقد تقدّم .

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّهِ ﴾ يريد يوم القيامة ؛ أي لا يردّه أحد بعد ما حكم الله به وجعله أجلاً ووقتاً .

﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ ﴾ أي من ملجأ ينجيكم من العذاب .

﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي من ناصر ينصركم ؛ قاله مجاهد .

وقيل : النكير بمعنى المنكر ؛ كالأليم بمعنى المؤلم ؛ أي لا تجدون يومئذ منكراً لما ينزل بكم من العذاب ؛ حكاه ابن أبي حاتم ؛ وقاله الكلبي .

الزجاج : معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها .

وقيل : "مِنْ نَكِيرٍ" أي إنكار ما ينزل بكم من العذاب ، والنكير والإنكار تغيير المنكر .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ أي عن الإيمان ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ أي

حافظاً لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها .

وقيل : موكلاً بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا ؛ أي ليس لك إكراههم على الإيمان .

﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ وقيل : نسخ هذا بآية القتال .

﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإنسان ﴾ الكافر .

﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ رخاءً وصحة .

﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ بطِربها .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء وشدّة .

﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ ﴾ أي لما تقدّم من النعمة فيعدّد المصائب وينسى النعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(251/687)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن وَلِىّ مّن بَعْدِهِ ﴾

من ناصرٍ يتولاَّهُ من بعدِ خذلانِه تعالى إيَّاهُ . ﴿ وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ أيْ حينَ يَرَوْنَهُ . وصيغةُ الماضِي للدلالةِ على التحقُّقِ . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدّ ﴾ أيْ إلى رجعةٍ إلى

الدُّنيا ﴿ مّن سَبِيلٍ ﴾ حَتَّى نُؤمنَ ونعملَ صالحاً . ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أيْ عَلَى النَّار المدلولِ عليها بالعذابِ ، والخطابُ في الموضعينِ لكلِّ مَنْ يتأتَّى منْهُ الرؤيةُ . ﴿ خاشعين مِنَ الذل ﴾ متذللينَ مُتضائلينَ مِمَّا دهاهُم . ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىّ ﴾ أي يبتدىءُ نظرُهم إلى النَّارِ من تحريكٍ لأجفانِهم ضعيفٍ كالمصبورِ ينظرُ إلى السيفِ . ﴿ وَقَالَ الذين ءامَنُواْ إِنَّ الخاسرين ﴾ أي المتصفينَ بحقيقةِ الخُسرانِ ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالتعريضِ للعذابِ الخالدِ . ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ إمَّا ظرفٌ لخسِرُوا فالقولُ في الدُّنيا أوْ لقالَ ، فالقولُ يومَ القيامةِ أي يقولونَ حينَ يَرَونهم على تلك الحالِ . وصيغةُ الماضِي للدلالةِ على تحققهِ . وقولُه تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ الظالمين فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ إمَّا من تمامِ كلامِهم ، أو تصديقٌ منَ الله تعالى لَهُم .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم ﴾ برفعِ العذابِ عنهم ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ حسبما كانوا يرجُون ذلكَ في الدُّنيا ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ يُؤدّي سلوكُه إلى النجاةِ .

(252/687)

﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ ﴾ إذا دعاكُم إلى الإيمانِ على لسانِ نبيِّهِ ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله ﴾ أيْ لا يردُّه الله بعدَ ما حكَم بهِ على أنَّ مِنْ صلةُ مردَّ أو مِنْ قبل أن يأتيَ منَ الله

يومٌ لا يُمكنُ رَدُّه. ﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي مفرَ تلتجئونَ إليهِ. ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي إنكارٍ لما اقترفتمُوه لأنَّه مدونٌ في صحائفِ أعمالِكم وتشهدُ عليكم جوارحُكم. ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ تلوينٌ للكلامِ، وصرفٌ له عن خطابِ الناسِ بعدَ أمرِهم بالاستجابةِ، وتوجيهٌ له إلى الرسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أي فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيباً ومحاسباً عليهم. ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ وقد فعلتَ. ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ﴾ أي نعمةً منَ الصحةِ والغنَى والأمنِ ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ أُريد بالإنسانِ الجنس؛ لقولِه تعالَى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي بلاءٌ من مرضٍ وفقرٍ وخوفٍ. ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ ﴾ بليغُ الكفرِ ينسى النعمةَ رأساً ويذكرُ البليةَ ويستعظمُها ولا يتأملُ سببَها بلْ يزعُم أنها أصابتْهُ بغيرِ استحقاقٍ لها، وإسنادُ هذه الخصلةِ إلى الجنسِ مع كونِها من خواصِّ المجرمينَ لغلبتِهم فيما بينَ الأفرادِ، وتصديرُ الشرطيةِ الأولى بإذَا معَ إسنادِ الإذاقةِ إلى نونِ العظمةِ للتنبيهِ على أنَّ إيصالَ النعمةِ محققُ الوجودِ كثيرُ الوقوعِ وأنَّه مُقْتضى الذاتِ، كما أنَّ تصديرَ الثانيةِ بإنْ وإسنادَ الإصابةِ إلى السيئةِ وتعليلَها بأعمالِهم للإيذانِ بنُدرةِ وقوعِها وأنَّها بمعزلٍ عن الانتظامِ في سلكِ الإرادةِ بالذاتِ. ووضعُ الظاهرِ موضعَ الضميرِ للتسجيلِ على أن هذا الجنسَ موسومٌ بكفرانِ النعمِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ ﴾

إذا دعاكم لما به النجاة على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله ﴾ الجار والمجرور أما متعلق بمرد ويعامل اسم لا الشبيه بالمضاف معاملته فيترك تنوينه كما نص عليه ابن مالك في "التسهيل" ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا مانع لما أعطيت " وقوله تعالى : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم ﴾ [يوسف : 92] أي لا يرده الله تعالى بعد ما حكم به .

ومن لم يرض بذلك قال : هو خبر لمبتدأ محذوف أي ذلك من الله تعالى ، والجملة استئناف في جواب سؤال مقدر تقديره ممن ذلك ؟ أو حال من الضمير المستتر في الظرف الواقع خبر لا أو متعلق بالنفي أو بما دل عليه كما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 2] وقيل : هو متعلق بيأتي ، وتعقب بأنه خلاف المتبادر من اللفظ والمعنى ، وقيل : هو مع ذلك قليل الفائدة ، وجوز كونه صفة ليوم ، وتعقب بأنه ركيك معنى ، والظاهر أن المراد بذلك اليوم يوم القيامة لا يوم ورود الموت كما قيل : ﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي ملاذ تلتجئون إليه فتخلصون من العذاب على أن ﴿ مَلْجَأَ ﴾ اسم مكان ، ويجوز أن يكون مصدراً ميمياً ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ إنكار على أنه مصدر أنكر على غير القياس

ونفى ذلك مع قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] تنزيلاً لما يقع من إنكارهم منزلة العدم لعدم نفعه وقيام الحجة وشهادة الجوارح عليهم أو يقال أن الأمرين باعتبار تعدد الأحوال والمواقف ، وجوز أن يكون ﴿ نَكِيرِ ﴾ اسم فاعل للمبالغة أي ما لكم منكر لأحوالكم غير مميز لها ليرحمكم وهو كما ترى .

(254/687)

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة وتوجيه له إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أي فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه فلا تهتم بهم فما أرسلناك رقيباً ومحاسباً عليهم ﴿ إِنْ عَلَيْكَ ﴾ أي ما عليك ﴿ إِلاَّ البلاغ ﴾ لا الحفظ وقد فعلت .

﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ﴾ أي نعمة من الصحة والغنى والأمن ونحوها ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ أريد بالإنسان الجنس الشامل للجميع وهو حينئذ بمعنى الأناسي أو الناس ولذا جمع ضميره في قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ ﴾ وليست للاستغراق والجمعية لا تتوقف عليه فكأنه قيل : وإن تصب الناس أو الأناسي ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء من مرض وفقر وخوف وغيرها ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بسبب ما صدر منهم من السيئات ﴿ فَإِنَّ الإنسان

كَفُورٌ ﴾ بليغ الكفر ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويستعظمها ولا يتأمل سببها بل يزعم أنها أصابته من غير استحقاق لها .

(255/687)

وأل فيه أيضاً للجنس ، وقيل : هي فيهما للعهد على أن المراد المجرمون ، وقيل : هي في الأول للجنس وفي الثاني للعهد ، وقال الزمخشري : أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لمكان ضمير الجمع ولم يرد إلا المجرمين لأن إصابة السيئة بما قدمت أيديهم إنما يستقيم فهيم ، ثم قال : ولم يقل فإنه لكفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال سبحانه : ﴿ إن إنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] ﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات : 6] ففهم منه العلامة الطيبي أنها في الأول للعهد وأن المراد الكفار المخاطبون في قوله تعالى : ﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ ﴾ [الشورى : 47] فإن أعرضوا ﴿ وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ﴾ ، ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بتصميمهم على الكفران والإيذان بأنهم لا يرعوون مما هم فيه وأنها في الثاني للجنس ليكون المعنى لس ببدع من هذا الإنسان المعهود الإصرار لأن هذا الجنس موسوم بكفران النعم فيكون ذم المطلق دليلاً على ذم المقيد ، وفي "الكشف" أنه أراد أن الإنسان أي الأول للجنس الصالح للكل وللبعض وإذا قام دليل على إرادة البعض

تعين وقد قام لما سلف أن الإصابة في غير المجرمين للعوض الموفي ولم يذهب إلى أن اللام للعهد وجعل قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ ﴾ للجنس ليكون تعليلاً للمقيد بطريق الأولى ومطابقاً لما جاء في مواضع عديدة من الكتاب العزيز ؛ ولا بأس بأن يجعل إشارة إلى السالف فإنه للجنس أيضاً ، ويكون في وضع المظهر موضع المضمر الفائدة المذكورة مراراً بل هو أدل على القانون الممهد في الأصول ويكون كليهما للجنس أقول ؛ وإسناد الكفران مع أنه صفة الكفرة إلى الجنس لغلبتهم فهو مجاز عقلي حيث أسند إلى الجنس حال أغلب أفراده لملابسته الأغلبية ، ويجوز أن يعتبر أغلب الأفراد عين الجنس لغلبتهم على غيرهم فكيون المجاز لغوياً ، وكذا يقال في إسناد الفرح إذا كان بمعنى البطر فإنه أيضاً من صفات

الكفرة بل أن كان أيضاً بمعناه المعروف وهو انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية فإنه وإن لم يكن من خواص الكفار بل يكون في المؤمنين أيضاً اضطراراً أو شكراً إلا أنه لا يعم جميع أفراد الجنس وإن قلت بعمومه لم تحتج إلى ذلك كما إذا فسرته بالبطر على إرادة العهد في الإنسان ، وإصابة السيئة بالذنوب غير عامة للأفراد أيضاً فحال إسنادها يعلم مما ذكرنا ؛ وتصدير الشرطية الأولى بإذا مع إسناد الإذاقة بلفظ

الماضي إلى نون العظمة للتنبية على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع وأنه مراد بالذات من الجواب المطلق سبحانه وتعالى كما أن تصدير الثانية بإن وإسناد الإصابة بلفظ المضارع إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم للإيذان بندرة وقوعها وأنها بمنزل عن الانتظام في سلك الإرادة بالذات والقصد الأولى ، وإقامة علة الجزاء مقام الجزاء مبالغة في ذمهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(257/687)

وقال ابن عاشور :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾

بعد أن قُطع خطابهم عقب قوله : ﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ [الشورى : 36] بما تخلّص به إلى الثناء على فِرَق المؤمنين ، وما استتبع ذلك من التسجيل على المشركين بالضلالة والعذاب ، ووصفِ حالهم الفظيع ، عاد الكلام إلى خطابهم بالدعوة الجامعة لما تقدم طلباً لتدارك أمرهم قبل الفوات ، فاستؤنف الكلام استئنافاً فيه معنى النتيجة للمواعظ المتقدمة لأن ما تقدم من الزواجر يهيّىء بعض النفوس لقبول دعوة الإسلام .

والاستجابة : إجابة الداعي ، والسين والتاء للتوكيد .

وأطلقت الاستجابة على امتثال ما يطالبهم به النبي صلى الله عليه وسلم تبليغاً عن الله تعالى على طريقة المجاز لأن استجابة النداء تستلزم الامتثال للمنادي فقد كثر إطلاقها على إجابة المستنجد .

والمعنى : أطيعوا ربكم وامتثلوا أمره من قبل أن يأتي يوم العذاب وهو يوم القيامة لأن الحديث جارٍ عليه .

واللام في ﴿ لربكم ﴾ لِتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول مثل : حمِدتُ له وشكرتُ له .

وتسمى لام التبليغ ولام التبيين .

وأصله استجابهُ ، قال كعب الغَنَوي :

وداعٍ دعَا يَا مَن يجيب إلى النّدا

فلم يستجبْه عند ذاك مجيب . . .

ولعل أصله استجاب دعاءه له ، أي لأجله له كما في قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] فاختصر لكثرة الاستعمال فقالوا : استجاب له وشكر له ، وتقدم في قوله : ﴿ فليستجيبوا لي ﴾ في سورة البقرة (186) .

والمردّ : مصدر بمعنى الرد ، وتقدم آنفاً في قوله : ﴿ هل إلى مَردّ من سبيل ﴾ [الشورى : 44] .

﴿ وَلا مَرد له ﴾ صفة ﴿ يوم ﴾ .

والمعنى : لا مرد لإثباته بل هو واقع ، و ﴿ لَه ﴾ خبرُ ﴿ لا ﴾ النافية ، أي لا مرد كائناً له ، ولام ﴿ له ﴾ للاختصاص .

(258/687)

و ﴿ مِن ﴾ : في قوله : ﴿ من الله ﴾ ابتدائية وهو ابتداء مجازي ، ومعناه : حكمُ الله به فكأنَّ اليوم جاء من لدنه .

ويجوز تعليق المجرور بفعل ﴿ يأتي ﴾ .

ويجوز أن يتعلق بالكون الذي في خبر ﴿ لا ﴾ .

والتقدير على هذا : لا مرد كائناً من الله له وليس متعلقاً بـ ﴿ مرد ﴾ على أنه متمم معناه ، إذ لو كان كذلك كان اسم ﴿ لا ﴾ شبيهاً بالمضاف فكان منوّناً ولم يكن مبنياً على الفتح ، وما وقع في "الكشاف" مما يوهم هذا مؤوّل بما سمعتَ ، ولذلك سمّاه صلة ، ولم يسمه متعلقاً .

وجملة ﴿ ما لكم من ملجإٍ يومئذٍ ﴾ مستأنفة .

والملجأ : مكان اللجأ ، واللجأ : المصير والانحياز إلى الشيء ، فالملجأ : المكان الذي

يصير إليه المرء للتوقّي فيه ، ويطلق مجازاً على الناصر ، وهو المراد هنا ، أي ما لكم من شيء يقيكم من العذاب .

والنكير : اسم مصدر أنكر ، أي ما لكم إنكار لما جُوزيتم به ، أي لا يسعكم إلاّ الاعتراف دون تنصل .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ

الفاء للتفريع على قوله : ﴿ استجيبوا لربكم ﴾ [الشورى : 47] الآية ، وهو جامع لما تقدم كما علمت إذ أمر الله نبيئه بدعوتهم للإيمان من قوله في أول السورة ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتُنذر أم القُرى ومَن حولها ﴾ [الشورى : 7] ثم قوله : ﴿ فلذلك فادعُ واستقم ﴾ [الشورى : 15] .

وما تخلل ذلك واعترضه من تضاعيف الأمر الصريح والضمني إلى قوله : ﴿ استجيبوا لربكم ﴾ [الشورى : 47] الآية ، ثم فرّع على ذلك كله إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بمقامه وعَمله إنْ أعْرَض معرضون من الذين يدعوهم وبمعذرته فيما قام به وأنه غير مقصر ، وهو تعريض بتسليته على ما لاقاه منهم ، والمعنى : فإن أعرضوا بعد هذا كله فما أرسلناك حفيظاً عَلَيهم ومتكفلاً بهم إذ ما عليك إلا البلاغ .

وإذ قد كان ما سبق من الأمر بالتبليغ والدعوة مصدَّراً بِقَوْله أوائل السورة ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾ [الشورى : 6] ، لا جرم ناسب أن يفرع على تلك الأوامر بعد تمامها مثل ما قدم لها فقال : ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ ﴾ .

وهذا الارتباط هو نكتة الالتفات من الخطاب الذي في قوله : ﴿ استجيبوا لربكم ﴾ [الشورى : 47] الآية ، إلى الغيبة في قوله هنا ﴿ فإن أعرضوا ﴾ وإلا لقيل : فإن أعرضتم .

والحفيظ تقدم في صدر السورة وقوله : ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ ليس هو جواب الشرط في المعنى ولكنه دليل عليه ، وقائم مقامه ، إذ المعنى : فإن أعرضوا فلستَ مقصراً في دعوتهم ، ولا عليك تَبعة صدّهم إذ ما أرسلناك حفيظاً عليهم ، بقرينة قوله : ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ .

وجملة ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ بيان لجملة ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ باعتبار أنها دالّة على جواب الشرط المقّدر .

و ﴿ إنْ ﴾ الثانية نافية .

والجمع بينها وبين ﴿ إنْ ﴾ الشرطية في هذه الجملة جناس تام .

و﴿ البلاغ ﴾ : التبليغ ، وهو اسم مصدر ، وقد فهم من الكلام أنه قد أدى ما عليه من البلاغ لأن قوله ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ دلّ على نفي التبعة عن النبي صلى الله عليه وسلم من إعراضهم ، وأن الإعراض هو الإعراض عن دعوته ، فاستفيد أنه قد بلّغ الدعوة ولولا ذلك ما أثبت لهم الإعراض .

﴿ البلاغ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإنسان ﴾ .

تتصل هذه الجملة بقوله : ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ ﴾ .

(260/687)

لِما تضمنته هذه من التعريض بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما لاقاه من قومه كما علمت ، ويؤذن بهذا الاتصال أن هاتين الجلمتين جُعلتا آيةً واحدة هي ثامنة وأربعون في هذه السورة ، فالمعنى : لا يحزنك إعراضهم عن دعوتك فقد أعرضوا عن نِعمتي وعن إنذاري بزيادة الكفر ، فالجملة معطوفة على جملة ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ وابتداء الكلام بضمير الجلالة المنفصل مسنَداً إليه فعل دون أن يقال : وإذا

أذقنا الإنسان الخ ، مع أن المقصود وصف هذا الإنسان بالبطَر بالنعمة وبالكفر عند الشدة ، لأن المقصود من موقع هذه الجملة هنا تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن جفاء قومه وإعراضهم ، فالمعنى : أن معاملتهم ربهم هذه المعاملة تسلّيك عن معاملتهم إياك على نحو قوله تعالى:

﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ﴾ [النساء : 153] ، ولهذا لا تجد نظائر هذه الجملة في معناها مفتتحاً بمثل هذا الضمير لأن موقع تلك النظائر لا تماثل موقع هذه وإن كان معناهما متماثلاً ، فهذه الخصوصية خاصة بهذه الجملة .

ولكن نظم هذه الآية جاء صالحاً لإفادة هذا المعنى ولإفادة معنى آخر مقارب له وهو أن يكون هذا حكاية خُلق للناس كلهم مرتكزٍ في الجِبلة لكن مظاهره متفاوتة بتفاوت أفراده في التخلق بالآداب الدينية ، فيُحمل ﴿ الإنسان ﴾ في الموضعين على جنس بني آدم ويحمل الفرح على مُطلقه المقوللِ عليه بالتشكيك حتى يبلغ مبلغ البطر ، وتحمل السيئة التي قدمتْها أيديهم على مراتب السيئات إلى أن تبلغ مبلغ الإشراك ، ويُحمل وصف ﴿ كفور ﴾ على ما يشمل اشتقاقه من الكُفر بتوحيد الله ، والكُفر بنعمة الله .

ولهذا اختلفت محامل المفسرين للآية .

فمنهم من حملها على خصوص الإنسان الكافر بالله مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي ، ومنهم من حملها على ما يعم أصناف الناس مثل الطبري والبغوي والنَسفي وابنِ كثير .

(261/687)

ومنهم من حملها على إرادة المعنيين على أن أولهما هو المقصود والثاني مندرج بالتبع وهذه طريقة البيضاوي وصاحب الكشْف ومنهم من عكس وهي طريقة الكَواشي في تلخيصه .

وعلى الوجهين فالمراد بـ ﴿ الإنسان ﴾ في الموضع الأول والموضِع الثاني معنى واحد وهو تعريف الجنس المرادُ به الاستغراق ، أي إذا أذقنا الناس ، وأن الناس كفُورون ، ويكون استغراقاً عرفياً أريد به أكثر جنس الإنسان في ذلك الزمان والمكان لأن أكثر نوع الإنسان يومئذٍ مشركون ، وهذا هو المناسب لقوله : ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾ أي شديد الكفر قويه ، ولقوله : ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أي من الكفر .

وإنما عدل عن التعبير بالناس إلى التعبير بالإنسان للإيماء إلى أن هذا الخُلق المخبر به عنهم هو من أخلاق النوع لا يزيله إلا التخلق بأخلاق الإسلام فالذين لم يسلموا باقون عليه ، وذلك أدخل في التسلية لأن اسم الإنسان اسم جنس يتضمن أوصاف الجنس المسمى به على

تفاوت في ذلك وذلك لغلبة الهوى .

وقد تكرر ذلك في القرآن مراراً كقوله : ﴿ إن الإنسان خُلق هلوعاً ﴾ [المعارج : 19] وقوله : ﴿ إن الإنسان لربه لَكَنُود ﴾ [العاديات : 6] وقوله : ﴿ وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلاً ﴾ [الكهف : 54] .

وتأكيد الخبر بحرف التأكيد لمناسبة التسلية بأن نُزِّل السامع الذي لا يشك في وقوع هذا الخبر منزلة المتردد في ذلك لاستعظامه إعراضهم عن دعوة الخَيْر فشبّه بالمتردد على طريقة المكنية ، وحرف التأكيد من روادف المشبه به المحذوف .

والإذاقة : مجاز في الإصابة .

والمراد بالرحمة : أثر الرحمة ، وهو النعمة .

فالتقدير : وإنا إذا رَحِمْنا الإنسان فأصبناه بنعمة ، بقرينة مقابلة الرحمة بالسيئة كما قوبلت بالضراء في قوله : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضراء مسته ﴾ في سورة فصّلت (50) .

والمراد بالفرح: ما يشمل الفَرح المجاوز حَد المسرة إلى حد البَطر والتجبر، على نحو ما استعمل في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ إذ قال له قومه لا تَفرح إن الله لا يحب الفَرِحين ﴾ [القصص: 76] لا الفرح الذي في مثل قوله تعالى: ﴿ فَرِحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ [آل عمران: 170].

وتوحيد الضمير في ﴿ فرح ﴾ لمراعاة لفظ الإنسان وإن كان معناه جمعاً، كقوله: ﴿ فقاتلوا التي تبغي ﴾ [الحجرات: 9] أي الطائفة التي تبغي، فاعتدّ بلفظ طائفة دون معناه مع أنه قال قبله ﴿ اقتتلوا ﴾ [الحجرات: 9].

ولذلك جاء بعده ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ﴾ بضميري الجماعة ثم عاد فقال ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾.

واجتلاب ﴿ إذا ﴾ في هذا الشرط لأن شأن ﴿ إذا ﴾ أن تدل على تحقق كثرة وقوع شرطها، وشأن ﴿ إن ﴾ أن تدل على ندرة وقوعه، ولذلك اجتلب ﴿ إنْ ﴾ في قوله: ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ لأن إصابتهم بالسيئة نادرة بالنسبة لإصابتهم بالنعمة على حد قوله تعالى: ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطَّيَّروا بموسى ومن معه ﴾ [الأعراف: 131].

ومعنى قوله: ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ﴾ تقدم بسطه عند قوله آنفاً ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى: 30].

والحكم الذي تضمنته جملة ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾ هو المقصود من جملة الشرط كلها ، ولذلك أعيد حرف التأكيد فيها بعد أن صُدِّرت به الجملة المشتملة على الشرط ليحيط التأكيد بكلتا الجملتين ، وقد أفاد ذلك أن من عوارض صفة الإنسانية عروض الكفر بالله لها ، لأن في طبع الإنسان تطلب مسالك النفع وسَدّ منافذ الضر مما ينجرّ إليه من أحوال لا تدخل بعض أسبابها في مقدوره ، ومن طبعه النظر في الوسائل الواقية له بدلائل العقل الصحيح ، ولكن من طبعه تحريك خياله في تصوير قوى تخوله تلك الأسباب فإذا أملى عليه خياله وجود قوى متصرفة في النواميس الخارجة عن مقدوره خالها ضالَّته المنشودة ، فركن إليها وآمن بها وغاب عنه دليل الحق ، إمّا لقصور تفكيره عن دركه وانعدامِ المرشد إليه ، أو لغلبة هواه الذي يُملي عليه عصيانَ المرشدين من الأنبياء والرسل والحكماء الصالحين إذ لا يتبعهم إلا القليل من الناس ولا يهتدي بالعقل من تلقاء نفسه إلا الأقل مثلُ الحكماء ، فغلب على نوع الإنسان الكفر بالله على الإيمان به كما بيناه آنفاً في قوله : ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة فرح بها ﴾ .

ولذلك عقب هذا الحكم على النوع بقوله : ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء

﴾ [الشورى: 49].

ولم يخرج عن هذا العموم إلا الصَالِحُونَ من نوع الإنسان على تفاوت بينهم في كمال الخلق وقد استفيد خروجهم من آيات كثيرة كقوله: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [التين: 64].

وقد شمل وصف ﴿ كفور ﴾ ما يشمل كفران النعمة وهما متلازمان في الأكثر. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(264/687)

"فصل"

قال السيوطي:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ ومن آياته الجوار في البحر ﴾ قال: السفن ﴿ كالأعلام ﴾ قال: كالجبال.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، عن قتادة - رضي الله عنه - في الآية قال: سفن هذا البحر تجري بالريح، فإذا مسكت عنها الريح ركدت.

وأخرج ابن المنذر من طريق عطاء ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله : ﴿ فيظللن رواكد على ظهره ﴾ قال : لا يتحركن ولا يجرين في البحر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ رواكد ﴾ قال : وقوفاً ﴿ أو يوبقهن ﴾ قال : يهلكن .

وأخرج ابن المنذر ، عن الضحاك : ﴿ أو يوبقهن ﴾ قال : يغرقهن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ أو يوبقهن ﴾ قال : يهلكهن .

وأخرج ابن جرير ، عن السدي رضي الله عنه ﴿ ما لهم من محيص ﴾ من ملجأ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة : ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ قال : بذنوب أهلها .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن أبي ظبيان قال : كنا نعرض المصاحف عند علقمة – رضي الله عنه – فقرأ هذه الآية : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ فقال : قال عبد الله : الصبر نصف الإِيمان .

وأخرج سعيد بن منصور ، عن الشعبي – رضي الله عنه – قال : الشكر نصف الإِيمان ، والصبر نصف الإِيمان ، واليقين الإِيمان كله . وقرأ ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ ﴿ وآية للموقنين ﴾ .

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38)

أخرج عبد بن حميد والبخاري في الأدب وابن المنذر ، عن الحسن – رضي الله عنه – قال : ما تشاور قوم قط إلا هدوا وأرشد أمرهم ، ثم تلا ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .

(265/687)

وأخرج الخطيب في رواة مالك ، عن علي رضي الله عنه قال : " قلت : يا رسول الله : الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ، ولم يسمع منك فيه شيء ، قال : " اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد " " .

وأخرج الخطيب في رواة مالك ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً " اسْتَرْشِدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " من أراد أمراً ، فشاور فيه وقضى اهتدى لأرشد الأمور " .

وأخرج البيهقي ، عن يحيى بن أبي كثير – رضي الله عنه – قال : قال سليمان بن داود عليه السلام لابنه : يا بني ، عليك بخشية الله ، فإنها غاية كل شيء . يا بني ، لا تقطع أمراً حتى تؤامر مرشداً ، فإنك إذا فعلت ذلك ؛ رشدت عليه يا بني ، عليك بالحبيب الأول ،

فإن الاخير لا يعدله .

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن إبراهيم النخعي – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ قال : كانوا يكرهون للمؤمنين أن يستذلوا ، وكانوا إذا قدروا عَفَوْا .

وأخرج عبد بن حميد ، عن منصور قال : سألت إبراهيم عن قوله : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ قال : كانوا يكرهون للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم ، فيجترىء الفساق عليهم .

وأخرج النسائي وابن ماجة وابن مردويه ، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : دخلت عليّ زينب وعندي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبلت عليّ تسبني ، فردعها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم تنته ، فقال لي : سبيها ، فسببتها حتى جف ريقها في فمها ، ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم متهلل سروراً .

(266/687)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن علي بن زيد بن جدعان – رضي الله عنه – قال : لم أسمع في الأنصار مثل حديث حدثتني به أم ولد أبي محمد ، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : كنت في البيت ، وعندنا زينب بنت جحش ، فدخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقبلت عليه زينب ، فقالت : ما كل واحدة منا عندك إلا على خلابة ، ثم أقبلت عليّ تسبني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قولي لها كما تقول لك ، فأقبلت عليها – وكنت أطول وأجود لساناً منها – فقامت .

وأخرج ابن جرير ، عن السدي رضي الله عنه ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ قال : ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي ﴾ قال : هذا محمد – صلى الله عليه وسلم – ظُلم وبغي عليه وكذب ﴿ هم ينتصرون ﴾ قال : ينتصر محمد صلى الله عليه وسلم بالسيف .

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40)

أخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ قال : ما يكون من الناس في الدنيا مما يصيب بعضهم بعضاً والقصاص .

وأخرج أحمد وابن مردويه ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المستبّان ما قالا من شيء فعلى البادىء حتى يعتدي المظلوم ، ثم قرأ ﴿

وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ " .

وأخرج ابن جرير ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ قال : إذا شتمك ، فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدي .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن أبي نجيح ، في قوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ قال : يقول أخزاه الله ، فيقول أخزاه الله .

(267/687)

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ، ألا ليقم من كان له على الله أجر ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا ، وذلك قوله ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة ، نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم ، فيقوم عنق كثير ، فيقال لهم : ما أجركم على الله ؟ فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا " وذلك قول الله ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ فيقال لهم : " ادخلوا الجنة بإذن الله " .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أنس رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا وقف العباد للحساب ينادي منادٍ لِيَقُمْ من أجره على الله ؛ فليدخل الجنة ، ثم نادى الثانية ، ليقم من أجره على الله ، قالوا : ومن ذا الذي أجره على الله ؟ قال : العافون عن الناس ، فقام كذا وكذا ألفاً ، فدخلوا الجنة بغير حساب " .

وأخرج البيهقي ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ينادي مناد من كان أجره على الله فليدخل الجنة مرتين ، فيقوم من عفا عن أخيه . قال الله ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه ، عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أول مناد من عند الله يقول : أين الذين أجرهم على الله ؟ فيقوم من عفا في الدنيا ، فيقول الله أنتم الذين عفوتم لي ، ثوابكم الجنة " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن محمد بن المنكدر رضي الله عنه قال : إذا كان يوم القيامة صرخ صارخ الأرض ، ألا من كان له على الله حق ، فليقم فيقوم من عفا وأصلح .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ينادي مناد يوم القيامة ، لا يقوم اليوم أحد ، إلا من له عند الله يد ، فتقول الخلائق : سبحانك بل لك اليد ، فيقول بلى ، من عفا في الدنيا بعد قدرة " .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال موسى بن عمران عليه السلام : يا رب ، من أعز عبادك عندك ؟ قال : من إذا قدر عفا " .

وأخرج أحمد وأبو داود ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – " أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعجب ويبتسم ، فلما أكثر ، رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام ، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه ، فقال يا رسول الله ، كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ؟ قال : إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله ، وقع الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان ، ثم قال : يا أبا بكر ، " ثلث من حق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلا أعز الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة " .

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ قال : هذا في الخماشة تكون بين الناس ، فأما إن ظلمك رجل فلا تظلمه ، وإن فجر بك ، فلا تفجر به ، وإن خانك ، فلا تخنه ، فإن المؤمن هو الموفي المؤدي ، وإن الفاجر هو الخائن الغادر .

(269/687)

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي والبزار وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من دعا على مَنْ ظلمه فقد انتصر " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عائشة رضي الله عنها : " إن سارقاً سرق لها فدعت عليه ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم " لا تسبخي عليه " " .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج رضي الله عنه ، في قوله : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه ﴾ قال : لمحمد صلى الله عليه وسلم أيضاً انتصاره بالسيف ، وفي قوله : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ الآية . قال : من أهل الشرك .

وأخرج ابن جرير ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ هل إلى مرد من سبيل ﴾ يقول : إلى الدنيا .

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ

أخرج ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ قال : ذليل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه مثله .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن محمد بن كعب رضي الله عنه في قوله : ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ قال : يسارقون النظر إلى النار .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه مثله .

وأخرج عبد بن حميد ، عن خلف بن حوشب رضي الله عنه قال : قرأ زيد بن صوحان رضي الله عنه ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ﴾ فقال : لبيك من زيد لبيك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ من ملجأ يومئذ ﴾ قال : تحرز ﴿ وما لكم من نكير ﴾ ناصر ينصركم . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ﴾

هذا الخطاب في الظاهر يشبه الاعتذار في تخاطب الآدميين . والمعنى أنني لم أبسط عليكَ أيها الفقيرُ في الدنيا لِمَا كان لي من العلم أنني لو قَسَمْتُ عليك الدنيا لَطَغَيْتَ ، ولسَعَيْتَ في الأرض بالفساد .

ويقال : قوله : " ولكن . . . " : لكن كلمة استدارك ، فالمعنى : لم أُوَسِّعْ عليكَ الرزقَ بمقدار ما تريد ؛ ولم أمنع عنك (الكُلَّ) ؛ لأني أُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما أشاء .

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

الله – سبحانه مُحْيِي القلوب ؛ فكما أنه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ ، فبعدما أصاب الأرضَ جدوبةٌ ، وأبطأ نزولُ الغيثِ ، وقَنِطَ الناسُ من مجيء المطر ، وأشرفَ الوقتُ على حدّ الفَواتِ يُنَزِّلُ اللَّهُ بفضله الغيثَ ، ويحيي الأَرضَ بعد قنوطِ أهلها . . فكذلك العبد ؛ إذا ذَبُلَ غُصْنُ وقته ، وتكدَّرَ صَفْوُ ودّه ، وكسفت شمسُ أُنْسِه ، وبَعُدَ عن الحضرةِ وساحاتِ القرب عَهْدُه فلربما ينظر إليه الحقُّ برحمته ؛ فينزل على سِرِّه أمطارَ الرحمة ، ويعود عودُه طريًّا ، ويُنْبِتُ في مشاهدة أُنْسِه ورداً جَنِيًّا . . وأنشدوا :

إنْ راعني منك الصدود . . . فلعلَّ أيامي تعود

ولعلَّ عهدك باللَّوى . . . يحيا فقد تحيا العهود

والغصن يبس تارةً . . . وتراه مُخْضرًّا يميد

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29)

جعل اللَّهُ في كلِّ شيءٍ من المخلوقات دلالةً على توحُّدِه في جلاله ، وتفرُّدِه بنعت كبريائه وجماله .

(271/687)

﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ : والإشارة منها أَنَّ الحقَّ – سبحانه – يغار على أوليائه أن يَسْكُنَ بعضُهم بقلبه إلى بعضٍ ؛ فأبداً يُبَدِّدُ شَمْلَهم ، ولا تكاد الجماعةُ من أهل القلوب تتفق في موضعٍ واحد إلا نادراً ، وذلك لمدةٍ يسيرة . . كما قالوا :

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأَنَّهم . . . بأكنافِ أطرافِ السماءِ نجومُ

وفي بعض الأحايين قد يتفضَّل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار ، ويحصل بينهم – في الظاهر – اجتماعٌ والتقاءٌ ، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحقُّ – سبحانه – بفضله إلى أنَّ في اجتماعهم بركاتٍ لحياة العالَم .

وهذا – وإن كان نادراً – فإنه على جَمْعِهم – إذا يشاء – قدير .

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30)

إذا تحقَّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءُه ، وعلِمَ أن ذلك جزاءٌ له ، وعقابٌ على ما بَدَرَ منه من سوءِ الأدب لاستحيى بخجلته مِنْ فِعْلِه ، ولَشغَلَه ذلك عن رؤية الناس ، فلا يحاول أن ينتقمَ منهم أو يكافئَهم أو يدعوَ عليهم ، وإنما يشغله تلافي ما بَدَرَ منه من سوءِ الفعلِ عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلَّط عليه من الخَلْق . . تاركاً الأمرَ كلَّه لربِّه .

ويقال : إذا كَثُرَت الأسبابُ من البلايا على العبد ، وتوالى عليه ذلك . . فَلْيُفَكِرْ في أفعاله المذمومة . . كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله – مع العفو الكثير – هذا المبلغ ؟ !

فعند ذلك يزداد حُزْنُه وتأسُّفُه ؛ لِعِلْمِه بكثرة ذنوبه ومعاصيه .

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32)

يريد بها السفن التي تجري في البحار ؛ يرسل اللَّهُ الريحَ فتُسَيِّرها مرةً ، ويُسَكِّنها أخرى ، وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة . . . وهو بهذا يَحثُّهم على التفكُّر والتنبُّه دائماً .

(272/687)

والإشارة في هذا إلى إمساك الناس في خلال فَتْرَةِ الوقت عن الأنواء المختلفة ، وحفظهم في إيواء السلامة ، فالواجبُ الشكرُ في كل حالة ، وإذا خَلُصَ الشكرُ استوجب جزيلَ المزيد .

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36)

يعني أنَّ الراحاتِ في الدنيا لا تصفو ، ومن المشائب لا تخلو . وإنْ اتفق وجودُ البعض منها في أحايين فإنها سريعة (الزوال) ، وشيكة الارتحال .

﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ ﴾ من الثواب الموعود " خيرٌ " من هذا القليل الموجود .

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37)

﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ ﴾ : الشِرْك . و ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ : ما دون ذلك من الزلاَّت . فإذا تركوها لا يتجرَّعون كاساتِ الغضب بل تسكن لديهم سَوْرَةُ النَّفْسِ ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم في عموم الأحوال .

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38)

﴿ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ فيما دعاهم إليه وما أَمَرَهم به من فنون الطاعات ؛ فهؤلاء هم الذين لهم حُسْنُ الثوابِ وحميدُ المآب .

والمستجيبُ لربِّه هو الذي لا يبقى له نَفَسٌ إلا على موافقة رضاه ، ولا تَبْقَى منه لنَفْسِه بقية .

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ : لا يستبّد أحدُهم برأيه ؛ لأنه يَتَّهِمُ أمرَه ورأيه أبداً ثم إذا أراد القطعَ بشيءٍ يتوكل على الله .

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

" البغيُ " : الظلمُ ، فيعلم أحدهم أن الظلمَ الذي أصابه هو من قِبَلِ نفسِه ، فينتصر على الظالم وهو نفسه ؛ بأَنْ يكبحَ عنانها عن الركض في ميدان المخالفات .

(273/687)

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40)

(يعني لا تجاوزوا حدَّ ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام) .

﴿ فَمَنْ عفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ : مَنْ عفا عن الجاني ، واصلح ما بينه وبين الله – أَصْلَحَ اللَّهُ ما بينه وبين الناسِ . ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ : فالذي للعبد من الله وعلى لله وعند الله خيرٌ مما يعمله باختياره .

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41)

عَلِمَ الله أن الكُلَّ من عباده لا يجد التحررَ من أحكام النَّفْس ، ولا يتمكن من محاسن الخُلُق فرخَّص لهم في المكافأة على سبيل العدل والقسط – وإنْ كان الأَوْلى بهم الصفح والعفو .

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ . . ﴾ السبيلُ بالملامةِ لِمَنْ جاوز الحدَّ ، وعدا الطَّوْرَ ، وأتى غيرَ المأذونِ له من الفعل . . فهؤلاء لهم عذابٌ أليم .

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

صَبَرَ على البلاءِ من غير شكوى ، وغَفَرَ – بالتجاوز عن الخَصْم – ولم تبقَ لنَفْسه عليه دعوى ، بل يُبرئ خَصْمَه من كل دعوى ، في الدنيا والعُقبى . . فذلكَ من عزم الأمور .

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44)

إن الذين أضلَّهم اللّهُ ، وأعمى أبصارَهم وبصائرَهم ، وأوقعهم في كدِّ عقوبتهم ، وحَرَمَهم بَرْدَ الرضا لحكْم ربِّهم ليس لهم وليٌّ من دون الله ، ولا مانعَ لهم من عذابه . وتراهم إذا رأوا العذابَ يَطلبون منه النجاة فلا ينالونها .

(274/687)

وتراهم يُعْرَضُون على النار وهم خاشعون من الذُّلِّ ؛ لا تنفعهم ندامةٌ ، ولا تُسْمَعُ منهم دعوةٌ ، ويُعَيِّرهُم المؤمنون بما ذَكَّروهم به فلا يسمعون ، فاليومَ لا ناصرَ بنصرهم ، ولا راحمَ يرحمهم .

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47)

الاستجابة لله الوفاءُ بعهده ، والقيامُ بحقّه ، والرجوعُ عن مخالفته إلى مرافقته ، والاستسلام .

في كل وقتٍ لحُكْمِه . والطريقُ اليومَ إلى الاستجابة مفتوحٌ . وعن قريبٍ سيُغْلَقُ البابُ على القلب بغتةً ، ويُؤْخَذُ فلتةً .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ .

فإن أعرضوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغُ الرسالة ، ثم نحن أعلمُ بما نعاملهم به .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ .

إذا أذقنا الإنسان مِنَّا رفاهيةً ونعمةً فَرِحَ بتلك الحالة ، وقابلها بالبَطَرِ ، وتوصَّل بتمام عافيته إلى المخالفة ، وجعل السلامةَ ذريعةً للمخالفة . وإنْ أصابته فتنةٌ وبلية ، ومَسَّتْهُ مصيبةٌ ورزية فإنه كفورٌ بنعمائنا ، وجحودٌ لآياتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 354.359 ﴾

قوله تعالى ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم سبحانه في هذه السورة أن له التصرف التام في عالم الخلق بالأجسام المرئية وفي عالم الأمر بالأرواح الحسية والمعنوية القائمة بالأبدان والمدبرة للأديان ، وغير ذلك من بديع الشأن ، فقال في افتتاح السورة ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ وأتبعه أشكاله إلى أن قال ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ الآية ﴿ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفكسم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً ﴾ – الآية ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ﴾ ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ – الاية ، ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ ، ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ – الآية إلى أن ذكر أحوال الآخرة في قوله ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون ﴾ – الآيات ، وختم بتصرفه المطلق في الإنسان من إنعام وانتقام ،

وما له من الطبع المعوج مع ما وهبه له من العقل المقيم في أحسن تقويم ، فدل ذلك على أن له التصرف التام ملكاً وملكوتاً خلقاً وأمراً ، أتبعه الدليل على أن تصرفه ذلك على سبيل الملك والقهر إيجاداً وإعداماً إهانة وإكراماً ، فقال صارفاً القول عن أسلوب العظمة التي من حقها دوام الخضوع وإهلاك الجبابرة إلى أعظم منها بذكر الاسم الأعظم الجامع لمظهر العظمة ومقام اللطف والإحسان والرحمة نتيجة لكل ما مضى : ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعظم وحده لا شريك له ﴿ ملك السماوات ﴾ كلها على علوها وارتفاعها وتطابقها وكبرها وعظمها وتباعد أقطارها ﴿ والأرض ﴾ جميعها على تباينها وتكاثفها واختلاف أقطارها وسكانها واتساعها .

ولما أخبر بانفراده بالملك ، دل عليه بقوله تعالى : ﴿ يخلق ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ ما يشاء ﴾ أي وإن كان على غير اختيار العباد ، ثم دل على ذلك بما يشاهد من حال الناس فانه لما استوى البشر في الإنسانية والنكاح الذي هو سبب الولادة اختلفت أصناف أولادهم .

(276/687)

كان ذلك أدل دليل على أنه لا اختيار لأحد معه وأن الأسباب لا تؤثر أصلاً إلا به .

ولما كانت ولادة الإناث أدل على عدم اختيار الولد وكانوا يعدونه من البلاء الذي ختم به ما قبلها قدمهن في الذكر فقال : ﴿ يهب ﴾ خلقاً ومولداً ﴿ لمن يشاء ﴾ أولاداً ﴿ إناثاً ﴾ أي فقط ليس معهن ذكر كما في لوط عليه الصلاة والسلام ، وعبر سبحانه فيهن بلفظ الهبة لأن الأوهام العادية قد تكتنف العقل فتحجبه عن تأمل محاسن التدبيرات الإلهية ، وترمي به في مهاوي الأسباب الدنيوية ، فيقع المسلم مع إسلامه في مضاهاة الكفار في كراهة البنات وفي وادي الوأد بتضييعهن أو التقصير في حقوقهن وتنبيهاً على أن الأنثى نعمة ، وأن نعمتها لا تنقص عن نعمة الذكر وربما زادت ، وإيقاظاً من سنة الغفلة على أن التقديم وإن كان لما قدمته لا يقدم تأنيساً وتوصية لهن واهتماماً بأمرهن ، نقل ابن ميلق عن ابن عطية عن الثعلبي أن واثلة بن الأسقع ـ رضى الله عنه ـ قال : من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر لأن الله تعالى بدأ بالإناث ، ولذلك رغب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الإحسان إليهن في أحاديث كثيرة ورتب على ذلك أجراً كبيراً ولأجل تضمين الهبة مع الخلق عداها باللام مع أن فعلها متعد بنفسه إلى مفعولين لئلا يتوهم أن الولد كان لغير الوالد ووهبه الله له .

ولما كان الذكر حاضراً في الذهن لشرفه وميل النفس إليه لا سيما وقد ذكر به ذكر الإناث ، عرف لذلك وجبراً لما فوته من التقديم في الذكر تنبيهاً على أنه ما أخر إلا لما ذكر من المعنى

فقال : ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ أي فقط ليس بينهن أنثى كما صنع لإبراهيم عليه السلام وهو عم لوط عليه السلام .

(277/687)

ولما فرغ من القسمين الأولين عطف عليهما قسيماً لهما ودل على أنه قسم بأو فقال : ﴿ أو يزوجهم ﴾ أي الأولاء بجعلهم ازواجاً أي صنفين حال كونهم ﴿ ذكراناً وإناثاً ﴾ مجتمعين في بطن ومنفردين كما منح محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ورتبهما هنا على الأصل تنبيهاً على أنه ما فعل غير ذلك فيما مضى إلا لنكت جليلة فيجب تطلبها ، وعبر في الذكر بما هو أبلغ في الكثرة ترغيباً في سؤاله ، والخضوع لديه رجاء نواله .

ولما فرغ من أقسام الموهوبين الثلاثة ، عطف على الإنعام بالهبة سلب ذلك ، فقال موضع أن يقال مثلاً : ولا يهب شيئاً من ذلك لمن يشاء : ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ أي لا يولد له كيحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام – كذا قالوه ، والظاهر أنه لا يصح مثالاً فإنه لم يتزوج ، قال ابن ميلق ، وأصل العقيم اليبس المانع من قابلية التأثر لما من شأنه أن يؤثر ، والداء العقام هو الذي لا يقبل البرء – انتهى .

فهذا الذي ذكر أصرح في المراد لأجل ذكر العقم ، وأدل على القدرة لأن شامل لمن له قوة

الجماع والإنزال لئلا يظن أن عدم الولد لعدم تعاطي أسبابه ، وذكروا في هذا القسم عيسى عليه الصلاة والسلام .

ولا يصح لأنه ورد أنه يتزوج بعد نزوله ويولد له ، وهذه القسمة الرباعية في الأصول كالقسمة الرباعية في الفروع ، بعضهم لا من ذكر ولا أنثى كآدم عليه الصلاة والسلام ، وبعضهم من ذكر فقط كحواء عليها السلام ، وبعضهم من أنثى فقط كعيسى عليه السلام وبعضهم من ذكر وأنثى وهو أغلب الناس ، فتمت الدلالة على أنه ما شاء كان ولا راد له وما لم يشأ لم يكن ، ولا مكون له ولا مانع أعطى ولا معطي لما منع .

(278/687)

ولما دل هذا الدليل الشهودي على ما بنيت الآية عليه من إثبات الملك له وحده مع ما زادت به من جنس السياق وعذوبة الألفاظ وإحكام الشك وإعجاز الترتيب والنظم ، كانت النتيجة قطعاً لتضمن إشراكهم به الطعن في توحده بالملك مقدماً فيها الوصف الذي هو أعظم شروط الملك : ﴿إنه عليم﴾ أي بالغ العلم بمصالح العباد وغيرها ﴿قدير﴾ شامل القدرة على تكوين ما يشاء .

(279/687)

ولما تم القسم الأول مما بنى على العلم والقدرة ، والقدرة فيه أظهر وفاقاً لما ختمت به الآية ، وكان قد يكون خلقه إياه إبداعاً من غير توسط سبب ، وقد يكون بتوسيط سبب ، أتبعه القسم الآخر الأعلى الذي العلم فيه أظهر وهو الوحي الذي ختمت آيته أول السورة بالحكمة التي هي سر العلم وقسمه أيضاً إلى ما هو بواسطة وإلى ما هو بغير واسطة ولكن سر التقدير في القسم الأول الكلام وهو الذي شرف به وكان لا يمكن أحداً أن يتكلم إلا بتكليم الله له أي إيجاده الكلام في قلبه قال : ﴿ وما ﴾ أي وهو سبحانه تام العلم شامل القدرة غرز في البشر غريزة العلم وأقدره على النطق به بقدرته وحياً منه إليه كما أوحى إلى النحل ونحوها والحال أنه ما ﴿ كان لبشر ﴾ من الأقسام المذكورة ، وحل المصدر الذي هو اسم "كان" ليقع التصريح بالفاعل والمفعول على أتم وجوهه فقال : ﴿ أن يكلمه ﴾ وأظهر موضع الإضمار إعظاماً للوحي وتشريفاً لمقداره بجلالة إيثاره فقال : ﴿ الله ﴾ أي يوجد الملك الأعظم الجامع لصفات الكمال في قلبه كلاماً ﴿ إلا وحياً ﴾ أي كلاماً خفياً يوجده فيه بغير واسطة بوجه خفي لا يطلع عليه أحد إلا بخارق العادة إما بإلهام أو برؤيا منام أو بغير ذلك سواء خلق الله في المكلم به قوة السماع له وهو أشرف هذه الأقسام مطلقاً سواء كان ذلك مع الرؤية ليكون قسيماً لما بعده أولاً أو يخلق فيه ذلك ومن هذا القسم الأخير ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ [القصص : 7] ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ [النحل :

68] ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ [فصلت : 12] فإن إيداعها القوى التي يحصل بها المنافع مثل إيداع الإنسان قوة الكلام ثم قوة التعبير عنه – والله أعلم .

(280/687)

وهذا معنى قول القاضي عياض في الشفاء في آخر الفصل الثاني من الباب الرابع في الإعجاز : وقد قيل في قوله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ الآية أي ما يلقيه في قلبه دون واسطة ، ومعنى قول الإمام شهاب الدين السهروردي في الباب السادس والعشرين من عوارفه : والعلوم اللدنية في قلوب المنقطعين إلى الله ضرب من المكالمة .

ولما كان الحجاب الحسي يخفي ما وراءه عن العيان ، استعير لمطلق الخفاء فقال : ﴿ أو من ﴾ أي كلاماً كائناً بلا واسطة ، لكنه مع السماع لعين كلام الله كائن صاحبه من ﴿ وراء حجاب ﴾ أي من وجه لا يرى فيه المتكلم مع السماع للكلام على وجه الجهر ، قال القشيري : والمحجوب العبد لا الرب ، والحجاب أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية ، وتعالى الله أن يكون من وراء حجاب لأن ذلك صفة الأجسام – انتهى .

والآية يمكن تنزيلها على الاحتباك بأن يكون ذكر الحجاب ثانياً دليلاً على نفيه أولاً ، وذكر الوحي الدال على الخفاء أولاً دليلاً على الجهر ثانياً ، والحجاب ثانياً دليلاً على الرؤية أولاً ،

وسره أن ترك التصريح والدلالة عليها بالحجاب أولى بسياق العظمة .

ولما كان الذي بلا واسطة مع كونه أخفى الأقسام ليس فيه صوت ولا ترتب في كلمات ، عبر فيه بالمصدر وعبر بما يلقيه الملك بما يدل على التجدد فقال : ﴿ أو يرسل ﴾ وهو عطف على المصدر بعد تقدير حله ﴿ رسولاً ﴾ أي من الملائكة .

ولما كان الوحي مسبباً عن الإرسال ومرتباً عليه قال : ﴿ فيوحي ﴾ أي على سبيل التجديد والترتيب ، وقرأ نافع برفع يرسل ويوحي بتقدير : أو هو يرسل .

ولما كان ربما ظن أن للواسطة فعلاً يخرج عن فعله ، رد ذلك بقوله : ﴿ بإذنه ﴾ أي بإقداره وتمكينه ، فذلك المبلغ إنما هو آلة .

(281/687)

ولما كان رسوله لا يخرج عما حده له بوجه قال : ﴿ ما يشاء ﴾ أي لا يتعدى مراده وإقداره أصلاً فهو المكلم في الحقيقة وقد بان أنها ثلاثة أقسام : أولها فيه قسمان ، خص الأول بقسميه بالتصريح باسم الوحي لأنه كما مر أخفاها وهو أيضاً يقع دفعة ، والوحي يدور معناه على الخفاء والسرعة .

ولما كانت الأقسام دالة على العظمة الباهرة ، وكانت للروح البدني لأن روح الوحي يكسب

الروح البدني حياة العلم كما أفاد الروح البدن حياة الحركة بالإرادة والحس ، كانت النتيجة مؤكدة لتضمن طعنهم في الرسول والقرآن والتوحيد طعنهم في مضمون الجملة : ﴿ إنه ﴾ أي الذي له هذا التصرف العظيم في هذا الوحي الكريم ﴿ عليّ ﴾ أي بالغ العلو حداً مما لا يليق به من الأوصاف وبما يكون للخلق عن جنابه من السفول بما عليهم من الحجب فلا يلبس شيء مما يعبر به تقريباً للعقول فيحمل على ما يوهم نقصاً ، فإن المجازات في لسان العرب شهيرة ﴿ حكيم ﴾ يتقن ما يفعله إتقاناً لا تحيط العقول بإدراكه فيسكن روح العلم الذي هو من ألطف أسراره في روح البدن المدبر له فيكون سراً في سر كما كان براً بعد بر ، ويجعل ذلك تارة بواسطة وتارة بغير واسطة على حسب ما يقتضيه الحال ، ويعبر عن كل معنى بما يقتضيه حاله في ذلك السياق ، ومهما أوهم شيء من ذلك نقصاً فرد المستبصر إلى المحكم بضرب من التأويل على ما يقتضيه الشائع من استعمالات رجع رجوعاً بيناً متقناً بحيث يصير في غاية الجلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 648.652 ﴾

(282/687)

فصل

قال الفخر :

ولما ذكر الله إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع ذلك بقوله ﴿ للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ والمقصود منه أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه بل إذا علم أن الكل ملك الله وملكه ، وأنه إنما حصل ذلك القدر تحت يده لأن الله أنعم عليه به فحينئذٍ يصير ذلك حاملاً له على مزيد الطاعة والخدمة ، وأما إذا اعتقد أن تلك النعم ، إنما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده بقي مغروراً بنفسه معرضاً عن طاعة الله تعالى ، ثم ذكر من أقسام تصرف الله في العالم أنه يخص البعض بالأولاد والإناث والبعض بالذكور والبعض بهما والبعض بأن يجعله محروماً من الكل ، وهو المراد من قوله ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ .

واعلم أن أهل الطبائع يقولون السبب في حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم وسبب الذكورة استيلاء الحرارة ، وسبب الأنوثة استيلاء البرودة ، وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام في سورة النحل ، وأبطلناه بالدلائل اليقينية ، وظهر أن ذكل من الله تعالى لا أنه من الطبائع والأنجم والأفلاك وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : أنه قدم الإناث في الذكر على الذكور فقال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إناثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذكور ﴾ ثم في الآية الثانية قدم الذكور على الإناث فقال : ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإناثا ﴾ فما السبب في هذا التقديم والتأخير ؟

السؤال الثاني : أنه ذكر الإناث على سبيل التنكير فقال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إناثا ﴾ وذلك الذكور بلفظ التعريف فقال : ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذكور ﴾ فما السبب في هذا الفرق ؟

.

السؤال الثالث : لم قال في إعطاء الإناث وحدهن ، وفي إعطاء الذكور وحدهم بلفظ الهبة فقال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذكور ﴾ وقال في إعطاء الصنفين معاً ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإِنَاثا ﴾ .

(283/687)

والسؤال الرابع : لما كان حصول الولد هبة من الله فيكفي في عدم حصوله أن لا يهب فأي حاجة في عدم حصوله إلى أن يقول ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عقيماً ﴾ ؟ .

السؤال الخامس : هل المراد من هذا الحكم جمع معينون أو المراد الحكم على الإنسان المطلق ؟ .

(284/687)

والجواب : عن السؤال الأول من وجوه الأول : أن الكريم يسعى في أن يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة فإذا وهب الولد الأنثى أولاً ثم أعطاه الذكر بعده فكأنه نقله من

الغم إلى الفرح وهذا غاية الكرم ، أما إذا أعطى الولد أولاً ثم أعطى الأنثى ثانياً فكأنه نقله من الفرح إلى الغم فذكر تعالى هبة الولد الأنثى أولاً وثانياً هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم إلى الفرح فيكون ذلك أليق بالكرم الوجه الثاني : أنه إذا أعطى الولد الأنثى أولاً علم أنه لا اعتراض له على الله تعالى فيرضى بذلك فإذا أعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم أن هذه الزيادة فضل من الله تعالى وإحسان إليه فيزداد شكره وطاعته ، ويعلم أن ذلك إنما حصل بمحض الفضل والكرم والوجه الثالث : قال بعض المذكرين الأنثى ضعيفة ناقصة عاجزة فقدم ذكرها تنبيهاً على أنه كلما كان العجز والحاجة أتم كانت عناية الله به أكثر الوجه الرابع : كأنه يقال أيتها المرأة الضعيفة العاجزة إن أباك وأمك يكرهان وجودك فإن كانا قد كرها وجودك فأنا قدمتك في الذكر لتعلمي أن المحسن المكرم هو الله تعالى ، فإذا علمت المرأة ذلك زادت في الطاعة والخدمة والبعد عن موجبات الطعن والذم ، فهذه المعاني هي التي لأجلها وقع ذكر الإناث مقدماً على ذكر الذكور وإنما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الإناث لأن الذكر أكمل وأفضل من الأنثى والأفضل الأكمل مقدم على الأخس الأرذل ، والحاصل أن النظر إلى كونه ذكراً أو أنثى يقتضي تقديم ذكر الذكر على ذكر الأنثى ، أما العوارض الخارجية التي ذكرناها فقد أوجبت تقديم ذكر الأنثى على ذكر الذكر ، فلما حصل المقتضي للتقديم والتأخير في البابين لا جرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة أخرى ، والله أعلم .

وأما السؤال الثاني : وهو قوله لم عبر عن الإناث بلفظ التنكير ، وعن الذكور بلفظ التعريف ؟ فجوابه أن المقصود منه التنبيه على كون الذكر أفضل من الأنثى .

(285/687)

وأما السؤال الثالث : وهو قوله لم قال تعالى في إعطاء الصنفين ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإناثا ﴾ ؟ فجوابه أن كل شيئين يقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان ، وكل واحد منهما يقال له زوج والكناية في ﴿ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ عائدة على الإناث والذكور التي في الآية الأولى ، والمعنى يقرن الإناث والذكور فيجعلهم أزواجاً .

وأما السؤال الرابع : فجوابه أن العقيم هو الذي لا يولد له ، يقال رجل عقيم لا يلد ، وامرأة عقيم لا تلد وأصل العقم القطع ، ومنه قيل الملك عقيم لأنه يقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق .

وأما السؤال الخامس : فجوابه قال ابن عباس ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إناثا ﴾ يريد لوطاً وشعيباً عليهما السلام لم يكن لهما إلا النبات ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذكور ﴾ يريد إبراهيم عليه السلام لم يكن له إلا الذكور ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإناثا ﴾ يريد محمداً صلى الله عليه وسلم كان له من البنين أربعة القاسم والطاهر وعبد الله وإبراهيم ، ومن البنات أربعة زينب

ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً ﴾ يريد عيسى ويحيى ، وقال الأكثرون من المفسرين هذ الحكم عام في حق كل الناس ، لأن المقصود بيان قدرة الله في تكوين الأشياء كيف شاء وأراد فلم يكن للتخصيص معنى ، والله أعلم .

ثم ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ قال ابن عباس عليم بما خلق قدير على ما يشاء أن يخلقه ، والله أعلم .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كمال قدرته وعلمه وحكمته أتبعه ببيان أنه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ الله ﴾ إلا على أحد ثلاثة أوجه ، إما على الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام كما أوحى الله إلى أم موسى وإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده ، وعن مجاهد أوحى الله تعالى الزبور إلى داود عليه السلام في صدره ، وإما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ ، وهذا أيضاً وحي

بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحياً ، قوله تعالى :

﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ [طه : 13] وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحي إلى الرسول البشري فطريق الحصر أن يقال وصول الوحي من الله إلى البشر إما أن يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة مبلغ ، وإذا كان الأول هو أن يصل إليه وحي الله لا بواسطة شخص آخر فههنا إما أن يقال إنه لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه ، أما الأول : وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر وما سمع عين كلام الله فهو المراد بقوله ﴿ إِلاَّ وَحْياً ﴾ وأما الثاني : وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله فهو المراد من قوله ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ وأما الثالث : وهو أنه وصل إليه الوحي بواسطة شخص آخر فهو المراد بقوله ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء ﴾

واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحي ، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحي ، لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعة فكن تخصيص لفظ الوحي به أولى فهذا هو الكلام في تمييز هذه الأقسام بعضها عن بعض .

المسألة الثانية :

القائلون بأن الله في مكان احتجوا بقوله ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ وذلك لأن التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة أوجه أحدها : أن يكون الله من وراء حجاب ، وإنما يصح ذلك لو كان مختصاً بمكان معين وجهة معينة والجواب : أن ظاهر اللفظ وإن أوهم ما ذكرتم إلا أنه دلّت الدلائل العقلية والنقلية على أنه تعالى يمتنع حصوله في المكان والجهة ، فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل ، والمعنى أن الرجل سمع كلاماً مع أنه لا يرى ذلك المتكلم كان ذلك شبيهاً بما إذا تكلم من وراء حجاب ، والمشابهة سبب لجواز المجاز .

المسألة الثالثة :

قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يرى ، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال ما يراه العبد ، فحينئذٍ يكون ذلك قسماً رابعاً زائداً على هذه الأقسام الثلاثة ، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله ﴾ إلا على هذه الأوجه الثلاثة والجواب : نزيد في اللفظ قيداً فيكون التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله في الدنيا إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة وحينئذٍ لا يلزم ما ذكرتموه ، وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر لكنه يجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيامة ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

أجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم ، ومن سوى الأشعري وأتباعه أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة ، وأما الأشعري وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات .

(288/687)

أما الفريق الأول : وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان أحدهما : الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف وهؤلاء أخس من أن يذكروا في زمرة العقلاء ، واتفق أني قلت يوماً لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالي والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالي ، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى ، والثاني : باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة ، ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال لواجب علينا أن نقر ونمر ، يعني نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل ، وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف

والأصوات كائنة بعد أن لم تكن حاصلة بعد أن كانت معدومة ، ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة ، أو لا يقال ذلك ، بل يقال إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى ، واختلفوا أيضاً في أن هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها في جسم آخر ، فالأول : هو قول الكرامية والثاني : قول المعتزلة ، وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات فقد اتفقوا على أن قوله ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ هو أن الملك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزّه عن الحرف والصوت من وراء حجاب ، قالوا وكما لا يبعد أن ترى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا في حيز فأي بعد في أن يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفاً ولا صوتاً ؟ وزعم أبو منصور الماتريدي السمرقندي أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة ، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى في الشجرة وهذا القول قريب من قول المعتزلة ، والله أعلم .

المسألة الخامسة :

(289/687)

قال القاضي هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه الأول : أن قوله تعالى : ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ الله ﴾ يدل عليه لأن كلمة أن مع المضارع تفيد الاستقبال الثاني : أنه وصف

الكلام بأنه وحي لأن لفظ الوحي يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه الثالث : أن قوله ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء ﴾ يقتضي أن يكون الكلام الذي يبلغه الملك إلى الرسول البشر مثل الكلام الذي سمعه من الله والذي يبلغه إلى الرسول البشري حادث ، فلما كان الكلام الذي سمعه من الله مماثلاً لهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري ، وهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري حادث ومثل الحادث حادث ، وجب أن يقال إن الكلام الذي سمعه من الله حادث الرابع : أن قوله ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ ﴾ يقتضي كون الوحي حاصلاً بعد الإرسال ، وما كان حصوله متأخراً عن حصول غيره كان حادثاً والجواب : أنا نصرف جملة هذه الوجوه التي ذكرتموها إلى الحروف والأصوات ونعترف بأنها حادثة كائنة بعد أن لم تكن وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك ، فأي حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذي علمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن ؟ والله أعلم .

المسألة السادسة :

ثبت أن الوحي من الله تعالى ، إما أن لا يكون بواسطة شخص آخر ، ويمتنع أن يكون كل وحي حاصلاً بواسطة شخص آخر ، وإلا لزم إما التسلسل وإما الدور ، هما محالان ، فلا بد من الاعتراف بحصول وحي يحصل لا بواسطة شخص آخر ، ثم ههنا أبحاث :

البحث الأول : أن الشخص الأول الذي سمع وحي الله لا بواسطة شخص آخر كيف يعرف أن الكلام الذي سمعه كلام الله ، فإن قلنا إنه سمع تلك الصفة القديمة المنزّهة عن كونها حرفاً وصوتاً ، لم يبعد أنه إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى ، ولم يبعد أن يقال إنه يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد ، أما إن قلنا إن المسموع هو الحرف والصوت امتنع أن يقطع بكونه كلاماً لله تعالى ، إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى .

البحث الثاني : أن الرسول إذا سمعه من الملك كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان مضل ؟ والحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان خبيث ، وعلى هذا التقدير ، فالوحي من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات :

المرتبة الأولى : أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى ، فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى .

المرتبة الثانية : أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول ، لا بد له أيضاً من معجزة .

المرتبة الثالثة : أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة ، فلا بد له أيضاً من معجزة ، فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات .

البحث الثالث : أنه لا شك أن ملكاً من الملائكة قد سمع الوحي من الله تعالى ابتداء ،

فذلك الملك هو جبريل ، ويقال لعل جبريل سمعه من ملك آخر ، فالكل محتمل ولو بألف واسطة ، ولو يوجد ، ما يدل على القطع بواحد من هذه الوجوه .

البحث الرابع : هل في البشر من سمع وحي الله تعالى من غير واسطة ؟ المشهور أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ [طه : 13] وقيل إن محمداً صلى الله عليه وسلم سمعه أيضاً لقوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ [النجم : 10] .

(291/687)

البحث الخامس : أن الملائكة يقدرون على أن يظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة ، فبتقدير أن يراه الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مرة وجب أن يحتاج إلى المعجزة ، ليعرف أن هذا الذي رآه في هذه المرة عين ما رآه في المرة الأولى ، وإن كان لا يرى شخصه كانت الحاجة إلى المعجزة أقوى ، لاحتمال أنه حصل الاشتباه في الصوت ، إلا أن الإشكال في أن الحاجة إلى إظهار المعجزة في كل مرة لم يقل به أحد .

المسألة السابعة :

دلّت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى وبين إبليس على أنه تعالى كان يتكلم مع

إبليس من غير واسطة ، فذلك هل يسمى وحياً من الله تعالى إلى إبليس أم لا ، الأظهر منعه ، ولا بد في هذا الموضع من بحث غامض كامل .

المسألة الثامنة :

قرأ نافع ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ برفع اللام ، فيوحي بسكون الياء ومحله رفع على تقدير ، وهو يرسل فيوحي ، والباقون بالنصب على تأويل المصدر ، كأنه قيل ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو إسماعاً لكلامه من وراء حجاب أو يرسل ، لكن فيه إشكال لأن قوله وحياً أو إسماعاً اسم وقوله ﴿ أَوْ يُرْسِلَ ﴾ فعل ، وعطف الفعل على الاسم قبيح ، فأجيب عنه بأن التقدير : وما كان لبشر أن يكلمه إلا أن يوحي إليه وحياً أو يسمع إسماعاً من وراء حجاب أو يرسل رسولاً .

المسألة التاسعة :

الصحيح عند أهل الحق أن عندما يبلغ الملك الوحي إلى الرسول ، لا يقدر الشيطان على إلقاء الباطل في أثناء ذلك الوحي ، وقال بعضهم : يجوز ذلك لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ [الحج : 52] وقالوا الشيطان ألقى في أثناء سورة النجم ، تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى ، وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمه الله ، وكان أفضل من لقيته من أرباب السلطنة يقول هذا

الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة ، باطل من وجهين آخرين الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(292/687)

" من رآني في المنام فقد رآني ، فإن الشيطان لا يتمثل بصورتي " فإذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل في المنام بصورة الرسول ، فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحي الله تعالى ؟ والثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما سلك عمر فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً آخر " فإذا لم يقدر الشيطان أن يحضر مع عمر في فج واحد ، فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل في موقف تبليغ وحي الله تعالى ؟ .

المسألة العاشرة :

قوله تعالى : ﴿ فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ يعني فويحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله ، وهذا يقتضي أن الحسن لا يحسن لوجه عائد عليه ، وأن القبيح لا يقبح لوجه عائد إليه ، بل لله أن يأمر بما يشاء من غير تخصيص ، وأن ينهى عما يشاء من غير تخصيص ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله ﴿ مَا يَشَاء ﴾ والله أعلم .

ثم قال تعالى في آخر الآية ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ يعني أنه علي عن صفات المخلوقين حكيم

يجري أفعاله على موجب الحكمة ، فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام ، وأخرى بإسماع الكلام ، وثالثاً بتوسيط الملائكة الكرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 158.163 ﴾

(293/687)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ من الخلق .

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِناثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك : يهب لمن يشاء إناثاً لا ذكور معهنّ ، ويهب لمن يشاء ذكوراً لا إناث معهم ؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف .

وقال واثلة بن الأسقع : إن مِن يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر ، وذلك أن الله تعالى قال

: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ فبدأ بالإناث .

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاماً ثم تلد جارية ، ثم تلد غلاماً ثم تلد جارية .

وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد تَوْأماً ، غلاماً وجارية ، أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً .

قال القتبيّ : التزويج هاهنا هو الجمع بين البنين والبنات ؛ تقول العرب : زوّجت إبلي إذا جمعت بين الكبار والصغار .

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ أي لا يولد له ؛ يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم .

وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عَقْماً ؛ مثل حَمِد يَحْمَد .

وعَقُمت تَعْقُم ، مثل عُظم يعظم .

وأصله القطع ، ومنه المُلْك العقيم ، أي تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفاً على الملك .

وريح عقيم ؛ أي لا تلقح سحاباً ولا شجراً .

ويوم القيامة يوم عقيم ؛ لأنه لا يوم بعده .

ويقال : نساء عُقُم وعُقْم ؛ قال الشاعر :

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهه . . .

إن النساء بمثله عُقْمُ

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصاً وإن عمّ حكمها .

وَهَبَ لِلُوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكر ، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى ، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث ، وجعل عيسى ويحيى عقيمين ؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر .

قال إسحاق : نزلت في الأنبياء ، ثم عمت .

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً ﴾ يعني لوطاً عليه السلام ، لم يولد له ذكر وإنما ولد له ابنتان .

﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى بل ولد له ثمانية ذكور .

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد له أربعة بنين وأربع بنات .

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام ؛ لم يذكر عيسى .

ابن العربي : قال علماؤنا "يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً" يعني لوطاً كان له بنات ولم يكن له ابن .

"وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ" يعني إبراهيم ، كان له بنون ولم يكن له بنت .

وقوله : ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ يعني آدم ، كانت حوّاء تلد له في كل بطن توأمين ذكراً

وأنثى ، ويزوّج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر ، حتى أحكم الله التحريم في شرع نوح صلى الله عليه وسلم .

وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان له ذكور وإناث من الأولاد : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة ؛ وكلهم من خديجة رضي الله عنها ، وإبراهيم وهو من مارية القبطية .

وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا ، إلى أن تقوم الساعة ، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة ؛ ليبقى النسل ، ويتمادى الخلق ، وينفذ الوعد ، ويحق الأمر ، وتعمر الدنيا ، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحدة ما يملؤها ويبقى .

ففي الحديث : " إن النار لن تمتلىء حتى يضع الجبار فيها قدمه ، فتقول قَطِ قَطِ .

وأما الجنة فيبقى منها فينشىء الله لها خلقاً آخر " .

(295/687)

الثانية قال ابن العربي : إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوّته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء ، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئاً من شيء لا عن حاجة ؛ فإنه قدّوس عن الحاجات سلام عن الآفات ، كما قال القدوس السلام ؛ فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء

من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتباً على الوطء كائناً عن الحمل موجوداً في الجنين بالوضع ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذْكرا وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا " وكذلك في الصحيح أيضاً : " إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله " .

قلت : هذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها " أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء ؟ فقال : "نعم" فقالت لها عائشة : تَرِبَتْ يداك وأُلّت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعِيها وهل يكون الشبه إلا مِن قِبَل ذلك .

إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه" "

قال علماؤنا : فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه ؛ وقد جاء في حديث ثَوْبان خرجه مسلم أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهودي : " ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذْكرا بإذن الله وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا بإذن الله . . .

" الحديث .

فجعل في هذا الحديث أيضاً العلو يقتضي الذكورة والأنوثة ؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل ، وكذلك يلزم إن علا مَنِيّ المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة ؛ لأنهما معلولاَ علّةٍ واحدة ، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك ؛ لأنا نجد الشبه للأخوال والذكورة والشّبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديثين .

والذي يتعين تأويله الذي في حديث ثَوْبان فيقال : إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم ، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قولهم سابقني فلان فسبقته أي غلبته ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [المعارج : 41] أي بمغلوبين ، قيل عليه : علا .

ويؤيد هذا التأويل قوله في الحديث : " إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا " وقد بنى القاضي أبو بكر بن العربي على هذه الأحاديث بناء فقال : إن للماءين أربعة أحوال : الأوّل أن يخرج ماء الرجل أولاً ، الثاني أن يخرج ماء المرأة أوّلاً ، الثالث أن يخرج ماء الرجل أوّلاً ويكون أكثر ، الرابع أن يخرج ماء المرأة أوّلاً ويكون أكثر . ويتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أوّلاً ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس ؛ فإذا خرج ماء الرجل أوّلاً وكان أكثر جاء الولد ذكراً بحكم السبق وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة .

وإن خرج ماء المرأة أوّلاً وكان أكثر جاء الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم الغلبة .

وإن خرج ماء الرجل أوّلاً لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكراً بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم غلبة ماء المرأة ، وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل .

قال : وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث ، فسبحان الخالق العليم .

(297/687)

الثالثة قال علماؤنا : كانت الخلقة مستمرة ذكراً وأنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى فأُتِيَ به فرِيضَ العرب ومعمّرها عامرَ بن الظَّرِب فلم يدر ما يقول فيه وأرجأهم عنه ؛ فلما جنّ عليه الليل تنكّر موضعه ، وأَقَض عليه مضجعه ، وجعل يتقلّى ويتقلّب ، وتجيء به الأفكار وتذهب ، إلى أن أنكرت خادمُه حاله فقالت : ما بك ؟ قال لها : سهِرت لأمر قُصدت به فلم أدرِ ما أقول فيه ؟ فقالت ما هو ؟ قال لها : رجل له ذكر وفرج كيف يكون

حاله في الميراث ؟ قالت له الأمَة : ورّثه من حيث يبول ؛ فعَقَلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين .

وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا في عهد عليّ رضي الله عنه فقضى فيها .

وقد روى الفَرَضيُّونَ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " أنه سئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يورّث ؟ قال : من حيث يبول .

وروي أنه أتي بخنثى من الأنصار فقال : "ورّثوه من أول ما يبول" " وكذا روى محمد بن الحنفية عن عليّ ، ونحوه عن ابن عباس ، وبه قال ابن المسيّب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ، وحكاه المزني عن الشافعي .

وقال قوم : لا دلالة في البول ؛ فإن خرج البول منهما جميعاً قال أبو يوسف : يحكم بالأكثر .

وأنكره أبو حنيفة وقال : أتكيلها ولم يجعل أصحاب الشافعي للكثرة حكماً .

وحكي عن عليّ والحسن أنهما قالا : تعد أضلاعه ، فإن المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد .

وقد مضى ما للعلماء في هذا في آية المواريث في "النساء" مجوّداً والحمد لله .

الرابعة قال القاضي أبو بكر بن العربي : وقد أنكر قوم من رؤوس العوام وجود الخنثى ، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى .

قلنا : هذا جهل باللغة ، وغباوة عن مقطع الفصاحة ، وقصور عن معرفة سعة القدرة .

أما قدرة الله سبحانه فإنه واسع عليم ، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجود الخنثى ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ .

(298/687)

فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه ؛ لأن القدرة تقتضيه .

وأما قوله : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور أو يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ فهذا إخبار عن الغالب في الموجودات ، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل ، والوجود يشهد له والعِيان يكذب منكره ، وقد كان يقرأ معنا برِباط أبي سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ؛ فربُّك أعلم به ، ومع طول الصحبة عقلني الحياء عن سؤاله ، وبودّي اليوم لو كاشفته عن حاله .

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً ﴾ سبب ذلك " أن اليهود قالوا

للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلّمه موسى ونظر إليه ؛ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن موسى لم ينظر إليه" " فنزل قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً ﴾ ؛ ذكره النقاش والواحدي والثعلبي .

﴿ وَحْياً ﴾ قال مجاهد : نَفْثٌ يُنْفَث في قلبه فيكون إلهاماً ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن روح القُدُس نَفَث في رُوعِي إنّ نَفْساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب .

خذوا ما حلّ ودَعُوا ما حَرُم " ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ كإرساله جبريل عليه السلام .

وقيل : "إِلاَّ وَحْياً" رؤيا يراها في منامه ؛ قاله محمد بن زهير .

"أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ" كما كلم موسى .

"أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً" قال زهير : هو جبريل عليه السلام .

﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ ﴾ وهذا الوحي من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقاً ويرونه عياناً .

وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن عباس : نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكرياء عليهم السلام .

فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام .

وقيل : "إِلاَّ وَحْياً" بإرسال جبريل "أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ" كما كلم موسى .

"أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً" إلى الناس كافة .

وقرأ الزهري وشيبة ونافع "أَوْ يرسلُ رسولاً فيوحِي" برفع الفعلين .

الباقون بنصبهما .

فالرفع على الاستئناف ؛ أي وهو يرسل .

وقيل : "يرسل" بالرفع في موضع الحال ؛ والتقدير إلا موحياً أو مرسلاً .

ومن نصب عطفوه على محل الوحي ؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي أو يرسل .

ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة .

ويكون في موضع الحال ؛ التقدير أو بأن يرسل رسولاً .

ولا يجوز أن يعطف "أَوْ يُرْسِلَ" بالنصب على "أَنْ يُكَلِّمَهُ" لفساد المعنى ؛ لأنه يصير : ما كان لبشر أن يرسله أو أن يرسل إليه رسولاً ، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم .

الثانية احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلّم رجلاً فأرسل إليه رسولاً أنه حانث ؛ لأن المرسل قد سُمّي فيها مكلّماً للمرسَل إليه ، إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب .

قال ابن المنذر : واختلفوا في الرجل يحلف ألا يكلم فلاناً فكتب إليه كتاباً أو أرسل إليه رسولاً ؛ فقال الثَّوْري : الرسول ليس بكلام .

وقال الشافعي : لا يبين أن يحنَث .

وقال النَّخَعي : والحكم في الكتاب يحنث .

وقال مالك : يحنث في الكتاب والرسول .

وقال مَرَّة : الرسول أسهل من الكتاب .

وقال أبو عبيد : الكلام سوى الخط والإشارة .

وقال أبو ثور : لا يحنث في الكتاب .

قال ابن المنذر : لا يحنث في الكتاب والرسول .

قلت : وهو قول مالك .

قال أبو عمر : ومن حلف ألاّ يكلّم رجلاً فسلّم عليه عامداً أو ساهياً ، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث في ذلك كله عند مالك .

وإن أرسل إليه رسولاً أو سلم عليه في الصلاة لم يحنث .

قلت : يحنث في الرسول إلا أن ينوي المشافهة ؛ للآية ، وهو قول مالك وابن الماجشُون .

وقد مضى في أول "سورة مريم" هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى ، والحمد لله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(301/687)

وقال الآلوسى :

﴿ للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾

لا لغيره سبحانه اشتراكاً أو استقلالاً ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ من غير وجوب عليه سبحانه

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاء إناثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذكور ﴾ .

﴿ أَوْ يُزَوّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإناثا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيماً ﴾ استئناف بياني أو بيان ليخلق أو بدل منه بدل البعض على ما اختاره القاضي ، ولما ذكر سبحانه إذاقة الإنسان الرحمة

وإصابته بضدها أتبع جل وعلا ذلك أن له سبحانه الملك وأنه تعالى يقسم النعمة والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغة لا كما شاء الإنسان بهواه ، وفيه إشارة إلى أن إذاقة الرحمة ليست للفرح والبطر بل للشكر لموليها وإصابة المحنة ليست للكفران والجزع بل للرجوع إلى مبليها ؛ وتأكيد لإنكار كفرانهم من وجهين .

الأول : أن الملك ملكه سبحانه من غير منازع ومشارك يتصرف فيه كيف يشاء فليس على من هو أحقر جزء من ملكه تعالى أن يعترض ويريد أن يجري التدبير حسب هواه الفاسد .

(302/687)

الثاني : أن هذا الملك الواسع لذلك العزيز الحكيم جل جلاله الذي من شأنه أن يخلق ما يشاء فأنى يجوز أن يكون تصرفه إلا على وجه لا يتصور أكمل منه ولا أوفق لمقتضى الحكمة والصواب ، وعند ذلك لا يبقى إلا التسليم والشغل بتعظيم المنعم المبلي عن الكفران والإعجاب ، وناسب هذا المساق أن يدل في البيان من أول الأمر على أنه تعالى فعل لمحض مشيئته سبحانه لا مدخل لمشيئة العبد فيه فلذا قدمت الإناث وأخرت الذكور كأنه قيل يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء من الأناسي ما لا يهواه ويهب لمن يشاء منهم ما يهواه

فقد كانت العرب تعد الإناث بلاء ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالانثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : 58] ولو قدم المؤخر لاختل النظم ، وليس التقديم لمجرد رعاية مناسبة القرب من البلاء ليعارض بأن الآية السابقة ذكرت الرحمة فيها مقدمة عليه فناسب ذلك تقديم الذكور على الإناث ، وفي تعريف الذكور مع ما فيه من الاستدراك لقضية التأخير التنبيه على أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أول كل خاطر وأنه الذي عقدوا عليه مناهم ، ولما قضى الوطر من هذا الأسلوب قيل : ﴿ أَوْيُزَوِّجُهُمْ ﴾ أي الأولاد ﴿ ذُكْرَاناً وإناثا ﴾ أي يخلق ما يهبهم زوجاً لأن التزويج جعل الشيء زوجاً فذكراناً وأناثاً حال من الضمير ، والواو قيل للمعية لأن حقه التأخير عن القسمين سياقاً ووجوداً فلا تتأتى المقارنة إلا بذلك ، وقيل ذلك لأن المراد يهب لمن يشاء ما لا يهواه ويهب لمن يشاء ما يهواه أو يهب الأمرين معاً لأنه سبحانه يجعل من كل من الجنسين الذكور والإناث على حياله زوجاً ولولا ذلك لتوهم ما ذكر فتأمله ، ولتركبه منهما لم يكرر فيه حديث المشيئة ، وقدم المقدم على ما هو عليه في الأصل ولم يعرف إذ لا وجه له ، ثم قيل : ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيماً ﴾ أي لا يولد له فقيد بالمشيئة لأنه قسم آخر ، وكأنه جيء بأو في ﴿ أَوْيُزَوِّجُهُمْ ﴾ دون الواو كما في

سابقه من حيث أنه قسم الانفراد المشترك بين الأولين ولم يؤت في الأخير لاتضاحه بأنه قسيم الهبة المشتركة بين الأقسام المتقدمة فتأمل ، وقيل قدم الإناث توصية برعايتهن لضعفهن لا سيما وكانوا قريبي العهد بالوأد ، وفي الحديث

" من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له ستراً من النار " وقيل : قدمت لأنها أكثر لتكثير النسل فهي من هذا الوجه أنسب بالخلق المراد بيانه ، وقيل : لتطييب قلوب آبائهن لما في تقديمهن من التشريف لأنهن سبب لتكثير مخلوقاته تعالى ، وقال الثعالبي : إنه إشارة إلى ما في تقدم ولادتهن من اليمن حتى أن أول مولود ذكر يكون مشؤماً فيقولون له بكر بكرين ؛ وعن قتادة من يمن المرأة تبكيرها بأنثى ، وقيل : قدمت وأخر الذكور معرفاً للمحافظة على الفواصل ، والمناسب للسياق ما علمت سابقاً ، وقال مجاهد في ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ التزويج أن تلد المرأة غلاماً ثم تلد جارية ، وقال محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنهما : هو أن تلد توأماً غلاماً وجارية .

وزعم بعضهم أن الآية نزلت في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وهب سبحانه لشعيب ولوط عليهم السلام أناثاً ولإبراهيم عليه السلام ذكوراً ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ذكوراً وإناثاً وجعل عيسى ويحيى عليهما السلام عقيمين اه ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ جل شأنه في العلم والقدرة فيفعل ما يفعل بحكمة واختيار .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر .

﴿ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء ﴾

ظاهره حصر التكليم في ثلاثة أقسام .

(304/687)

الأول : الوحي وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ وَحْياً ﴾ وفسره بعضهم بالإلقاء في القلب سواء كان في اليقظة أو في المنام والإلقاء أعم من الإلهام فإن إيحاء أم موسى إلهام وإيحاء إبراهيم عليه السلام إلقاء في المنام وليس إلهاماً وإيحاء الزبور إلقاء في اليقظة كما روى عن مجاهد وليس بإلهام ؛ والفرق أن الإلهام لا يستدعي صورة كلام نفساني فقد وقد وأما اللفظي فلا ، وأما نحو إيحاء الزبور فيستدعيه ، وقد جاء إطلاق الوحي على الإلقاء في القلب في قول عبيد بن الأبرص :

وأوحى إلى الله أن قد تأمروا . . .

بابل أبي أوفى فقمت على رجلي

فإنه أراد قذف في قلبي .

والثاني : إسماع الكلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه كما كان لموسى وكذا الملائكة

الذين كلمهم الله تعالى في قضية خلق آدم عليه السلام ونحوهم وهو المراد بقوله سبحانه : ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ فإنه تمثيل له سبحانه بحال الملك المتحجب الذي يكلم بعض خواصه من وراء حجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه .

(305/687)

والثالث : إرسال الملك كالغالب من حال نبينا صلى الله عليه وسلم وهو حال كثير من الأنبياء عليهم السلام ، ، وزعم أنه من خصوصيات أولي العزم من المرسلين غير صحيح وهو المراد بقوله عز وجل : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ أي ملكاً ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بأمره تعالى وتيسيره سبحانه : ﴿ مَا يَشَاء ﴾ أن يوحيه ، وهذا يدل على أن المراد من الأول الوحي من الله تعالى بلا واسطة لأن إرسال الرسول جعل فيه إيحاء ذلك الرسول ، وبني المعتزل على هذا الحصر أن الرؤية غير جائزة لأنها لو صحت لصح التكليم مشافهة فلم يصح الحصر ، وقال بعض : المراد حصر التكليم في الوحي بالمعنى المشهور والتكليم من وراء حجاب وتكليم الرسل البشريين مع أممهم ، واستبعد بأن العرف لم يطرد في تسمية ذلك إيحاء ، وقال القاضي إن قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ وَحْياً ﴾ معناه إلا كلاماً خفياً يدرك بسرعة وليس في ذاته مركباً من

حروف مقطعة وهو ما يعم المشافهة كما روى في حديث المعراج وما وعد به في حديث الرؤية والمهتف به كما اتفق لموسى عليه السلام في الطور لكن عطف قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ عليه يخصه بالأول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها ، وإلى الأول ذهب الزمخشري وانتصر له صاحب الكشف عفا الله تعالى عنه فقال : وأما نحن فنقول والله تعالى أعلم : إن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ على التعميم يقتضي الحصر بوجه لا يخص التكلم بالأنبياء عليهم ويدخل فيه خطاب مريم وما كان لأم موسى وما يقع للمحدثين من هذه الأمة وغيرهم فحمل الوحي على ما ذهب إليه الزمخشري أولى .

ثم أنه يلزم القاضي أن لا يكون ما وقع من وراء حجاب وحياً لا أنه يخصصه لأنه نظير قولك : ما كان لك أن تنعم إلا على المساكين وزيد ، نعم يحتمل أن يكون زيد داخلاً فيهم على نحو ﴿ ملائكته . . .

(306/687)

وَجِبْرِيلُ ﴾ [البقرة : 98] وهذا يضر القاضي لاقتضائه أن يكون هذا القسم أعني ما وقع من وراء حجاب أعلا المراتب فلا يكون الثاني هو المشافهة ، وتقدير إلا وحياً من غير حجاب أو من وراء حجاب خلاف الظاهر وفيه فك للنظم لقوله سبحانه : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ

﴿ وهو عطف على قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ وَحْياً ﴾ مع كونه خلاف الظاهر .

وعلى هذا يفسد ما بني عليه من حديث التنزل من القسم الأعلى إلى ما دونه ، ومع ذلك لا يدل على عدم وقوع الرؤية فضلاً عن جوازه بل دل على أنها لو وقعت لم يكن معها المكالمة وذلك هو الصحيح لأن الرؤية تستدعي الفناء والبقاء به عز وجل وهو يقتضي رفع حجاب المخاطب المستدعي كوناً وجودياً ثم الكامل لتوفيته حق المقامات الكبرى يكون المحتظى منه بالشهود في مقام البقاء المذكور ومع ذلك لا يمنعه عن حظه من سماع الخطاب لأنه حظ القلب المحجوب عن مقام الشهود ، والمقصود أن الذي يصح ذوقاً ونقلاً وعقلاً كون الخطاب من وراء حجاب البتة وهو صحيح لكن لا ينفع منكر الرؤية ولا مثبتها ، وأما سؤال الترقي في الأقسام فالجواب عنه أن الترقي حاصل بين الأول والثاني الذي له سمي الكليم كليماً ، وأما الثالث : فلما كان تكليماً مجازياً أخر عن القسمين ولم ينظر إلى أنه أشرف من القسم الأول فإن ذلك الأمر غير راجع إلى التكليم بل لأنه مخصوص بالأنبياء عليهم السلام انتهى .

(307/687)

وتعقب ما اعترض به على القاضي بأنه لا يرد لأن الوحي بذلك المعنى بالتخصيص المذكور والتقييد المأخوذ من التقابل صار مغايراً لما بعده وليس من شيء من القبيلين حتى يذهب إلى الترقي أو التدلي لأنه لا يعطف بأو بل بالواو كما لا يخفى ، ولزوم أن لا يكون الواقع من وراء حجاب وحياً غير مسلم لأنه إن أراد أن لا يكون وحياً مطلقاً فغير صحيح لأن قوله تعالى بعده : فيوحى بأنه قرينة على أن المراد بالوحي السابق وحي مخصوص كالذي بعده وإن أراد أنه لا يكون من الوحي المخصوص السابق فلا يضره لأنه عين ما عناه ، نعم الحصر على ما ذهب إليه القاضي غير ظاهر إلا بعد ملاحظة أنه مخصوص بما كان بالكلام فتدبر ، والظاهر أن عائشة رضي الله تعالى عنها حملت الآية على نحو ما حملها المعتزلة ، أخرج البخاري . ومسلم . والترمذي عنها أنها قالت : "من زعم أن محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام : 103] ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ " وأنت تعلم أن أكثر العلماء على أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه سبحانه ليلة الإسراء لكثرة الروايات المصرحة بالرؤية نعم ليس فيها التصريح بأنها بالعين لكن الظاهر من الرؤية كونها بها ، والمروي عن الأشعري وجمع من المتكلمين أنه جل شأنه كلمه عليه الصلاة والسلام تلك الليلة بغير واسطة ويعزى ذلك إلى جعفر بن محمد الباقر .

وابن عباس .

وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم وهو الظاهر للأحاديث الصحاح في مرادة الصلاة واستقرار الخمسين على الخمس وغير ذلك ، وعائشة رضي الله تعالى عنها لم تنف الرؤية إلا اعتماداً على الاستنباط من الآيات ولو كان معها خبر لذكرته ، واحتجاجها بما ذكر من الآيات غير تام ، أما عدم تمامية احتجاجها بآية لا تدركه الأبصار فمشهور ، وأما عدم تمامية الاحتجاج بالآية الثانية فلما سمعت عن "صاحب الكشف" قدس سره ، وقال الخفاجي بعد تقرير الاحتجاج بأنه تعالى حصر تكليمه سبحانه للبشر في الثلاثة : فإذا لم يره جل وعلا من يكلمه سبحانه في وقت الكلام لم يره عز وجل في غيره بالطريق الأولى وإذا لم يره تعالى هو أصلاً لم يره سبحانه غيره إذ لا قائل بالفصل ، وقد أجيب عنه في الأصول بأنه يحتمل أن يكون المراد حصر التكليم في الدنيا في هذه الثلاثة أو نقول يجوز أن تقع الرؤية حال التكليم وحياً إذا لوحي كلام بسرعة وهو لا ينافي الرؤية انتهى ، ولا يخفى عليك أن الجواب الأول لا ينفع فيما نحن بصدده إلا بالتزام أن ما وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام تلك الليلة لا يعد تكليماً في الدنيا على ما ذكره الشرنبلالي في إكرام أولي الألباب لأنه كان في الملكوت الأعلى وأنه يستفاد من كلام "صاحب الكشف" منع ظاهر للشرطية في وجه الاستدلال

الذي قرره ، وبعضهم أجاب بأن العام مخصص بغير ما دليل وفي "البحر" قيل "قالت قريش : ألا تلكم الله تعالى وتنظر إليه إن كنت نبياً صادقاً كما كلم جل وعلا موسى ونظر إليه تعالى فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : " لم ينظر موسى عليه السلام إلى الله عز وجل فنزلت ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ الآية " وهذا ظاهر في أن الآية لم تتضمن التكليم الشفاهي مع الرؤية وكذا ما فيه أيضاً كان من الكفار خوض في تكليم الله تعالى موسى عليه السلام فذهبت قريش واليهود في ذلك إلى التجسيم فنزلت فإن عدم تضمنها ذلك أدفع لتوهم التجسيم ، وبالجملة الذي يترجح

(309/687)

عندي ما قاله "صاحب الكشف" قدس سره أن الآية لا تنفع منكر الرؤية ولا مثبتها وما ذكر من سبب النزول ليس بمتيقن الثبوت ، ويفهم من كلام بعضهم أن الوحي كما يكون بالإلقاء في الروع يكون بالخط فقد قال النخعي كان في الأنبياء عليهم السلام من يخط له في الأرض ، ومعناه اللغوي يشمل ذلك ، فقد قال الإمام أبو عبد الله التيمي الأصبهاني : الوحي أصله التفهيم وكل ما فهم به شيء من الإلهام والإشارة والكتب فهو وحي ، وقال الراغب : أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمر وحي وذلك يكون

بالكلام على الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة ، وقد حمل على ذلك قوله تعالى :

﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً ﴾ [مريم : 11] فقد قيل رمز وقيل اعتبار وقيل كتب وجعل التسخير من الوحي أيضاً وحمل عليه قوله تعالى : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للصوفية قدست أسرارهم من الكلام في هذه الآية ، و ﴿ وَحْياً ﴾ على ما قال الزمخشري مصدر واقع موقع الحال وكذا أن يرسل لأنه بتأويل إرسالاً ، و ﴿ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ ظرف واقع موقع الحال أيضاً كقوله تعالى : ﴿ وعلى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 191] والتقدير وما صح أن يكلم أحداً في حال من الأحوال إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلاً .

وتعقبه أبو حيان فقال : وقوع المصدر حالاً لا ينقاس فلا يجوز جاء زيد بكاءً تريد باكياً ، وقاس منه المبرد ما كان نوعاً للفعل نحو جاء زيد مشياً أو سرعة ومنع سيبويه من وقوع أن مع الفعل موقع الحال فلا يجوز جاء زيد أن يضحك في معنى ضحكاً الواقع موقع ضاحكاً .

(310/687)

وأجيب عن الأول بأن القرآن يقاس عليه ولا يلزم أن يقاس على غيره مع أنه قد يقال : يكتفي بقياس المبرد ، وعن الثاني بأنه علل المنع بكون الحاصل بالسبك معرفة وهي لا تقع حالاً ، وفي ذلك نظر لأنه غير مطرد ففي شرح التسهيل أنه قد يكون نكرة أيضاً ألا تراهم فسروا ﴿ إِن يَفْتَرِى ﴾ بمفترى ، وقد عرض ابن جني ذلك على أبي علي فاستحسنه ، وعلى تسليم الاطراد فالمعرفة قد تكون حالاً لكونها في معنى النكرة كوحدة ، والاقتصار على المنع أولى لمكان التعسف في هذا ، واختار غير واحد إن وحياً بما عطف عليه منتصب بالمصدر لأنه نوع من الكلام أو بتقدير إلا كلام وحي و ﴿ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ صفة كلام أو سماع محذوف وصفة المصدر تسد مسده والإرسال نوع من الكلام أيضاً بحسب المآل والاستثناء عليه مفرغ من أعم المصادر ، وقال الزجاج : قال سيبويه سألت الخليل عن قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ بالنصب فقال : هو محمول على أن سوى هذه التي في قوله تعالى : أن يكلمه الله لما يلزم منه أن يقال : ما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً وذلك غير جائز ، والمعنى ما كان لبشر ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ الله ﴾ إلا بأن يوحي أو أن يرسل ، وعليه أن يقدر في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ نحو أو أن يسمع من وراء حجاب وأي داع إلى ذلك مع ما سمعت ؟ واختلف في الاستثناء هل هو متصل أو منقطع وأبو البقاء على الانقطاع . وتعقبه بعضهم بأن المفرغ لا يتصف بذلك والبحث شهير .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ نحو أو أن يسمع من وراء حجاب وأي داع

إلى ذلك مع ما سمعت ؟ واختلف في الاستثناء هل هو متصل أو منقطع وأبو البقاء على الانقطاع .

وتعقبه بعضهم بأن المفرغ لا يتصف بذلك والبحث شهير .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ أَوْمِن وَرَاء ﴾ بالجمع .

وقرأ نافع .

(311/687)

وأهل المدينة ﴿ حِجَابٍ أَوْيُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ ﴾ برفع الفعلين ووجهوا ذلك بأنه على إضمار مبتدأ أي هو يرسل أو هو معطوف على ﴿ وَحْياً ﴾ أو على ما يتعلق به ﴿ مِن وَرَاء ﴾ بناءً على أن تقديره أو يسمع من وراء حجاب ، وقال العلامة الثاني : إن التوجيه الثاني وما بعده ظاهر وهو عطف الجملة الفعلية الحالية على الحال المفردة ، وأما إضمار المبتدأ فإن حمل على هذا فتقدير المبتدأ لغو ، وإن أريد أنها مستأنفة فلا يظهر ما يعطف عليه سوى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ الخ وليس بحسن الانتظام .

وتعقب بأنه يجوز أن يكون تقدير المبتدأ مع اعتبار الحالية بناءً على أن الجملة الاسمية التي الخبر فيها جملة فعلية تفيد ما لا تفيده الفعلية الصرفة مما يناسب حال إرسال الرسول ، أو

يقال : لا نسلم أن العطف على ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ ليس بحسن الانتظام ، وفيه دغدغة لا تخفى ، وفي الآية على ما قال ابن عطية دليل على أن من حلف أن لا يكلم فلاناً فراسله حنث لاستثنائه تعالى الإرسال من الكلام ، ونقله الجلال السيوطي في أحكام القرآن عن مالك وفيه بحث والله تعالى الهادي .

﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ ﴾ متعال عن صفات المخلوقين ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يجري سبحانه أفعاله على سنن الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بدونها إما إلهاماً وإما خطاباً أو إما عياناً وإما خطاباً من وراء حجاب على ما يقتضيه الاختلاف السابق في تفسير الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(312/687)

وقال ابن عاشور :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

استئناف بياني لأن ما سبقه من عجيب خلق الإنسان الذي لم يهذّبه الهَدي الإلهي يثير في نفس السامع سؤالاً عن فطر الإنسان على هاذين الخلقين اللذين يتلقى بهما نعمة ربه وبلاءه وكيف لم يُفطر على الخلق الأكمل ليتلقى النعمة بالشكر ، والضرَّ بالصبر والضراعةِ ،

وَسُؤالاً أيضاً عن سبب إذاقة الإنسان النعمة مرة والبؤس مرّةً فيبطر ويكفر وكيف لم يُجعل حاله كفافاً لا لذّاتَ له ولا بلايَا كحال العجماوات فكان جوابه : أن الله المتصرف في السماوات والأرض يخلق فيهما ما يشاء من الذوات وأحوالها .

وهو جواب إجمالي إقناعي يناسب حضرة الترفع عن الدخول في المجادلة عن الشؤون الإلهية .

وفي قوله : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ من الإجمال ما يبعث المتأمل المنصف على تطلب الحكمة في ذلك فإن تَطَلَّبَها انقادت له كما أوماً إلى ذلك تذييل هذه الجملة بقوله : ﴿ إنه عليم قدير ﴾ ، فكأنه يقول : عليكم بالنظر في الحكمة في مراتب الكائنات وتصرف مبدعها ، فكما خلق الملائكة على أكمل الأخلاق في جميع الأحوال ، وفطر الدواب على حد لا يقبل كمال الخلق ، كذلك خلق الإنسان على أساس الخير والشر وجعله قابلاً للزيادة منهما على اختلاف مراتب عقول أفراده وما يحيط بها من الاقتداء والتقليد ، وخلقَه كامل التمييز بين النعمة وضدها ليرتفع درجاتٍ وينحط دركات مما يختاره لنفسه ، ولا يلائم فَطْرُ الإنسان على فِطرة الملائكة حالة عالمه الماديّ إذ لا تأهل لهذا العالم لأنْ يكون سكانه كالملائكة لعدم الملاءمة بين عالم المادة وعالم الروح .

ولذلك لما تم خلق الفرد الأول من الإنسان وآن أوَانُ تصرفه مع قرينتِه بحسب ما بزغ فيهما

من القُوى ، لَمْ يلبث أن نُقل من عالم الملائكة إلى عالم المادة كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً ﴾ [طه : 123] .

(313/687)

ولكن الله لم يسُدَّ على النوع منافذ الكمال فخلقه خلقاً وسطاً بين المَلَكِيَّة والبهيمية إذ ركبه من المادة وأودع فيه الروح ولم يُخَلِّه عن الإرشاد بواسطة وسطاء وتعاقبهم في العصور وتنَاقُل إرشادهم بين الأجيال ، فإن اتبع إرشادهم التحق بأخلاق الملائكة حتى يبلغ المقامات التي أقامته في مقام الموازنة بين بعض أفراده وبين الملائكة في التفاضل .

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوّ فإمَّا يأتينّكم منّي هُدى فمن اتبع هداي فلا يَضل ولا يشقى ومَن أعرَض عن ذكري فإنّ له مَعيشةً ضَنْكاً ونَحْشُرُه يوم القيامة أعمى ﴾ [طه : 123 ، 124] ، وقوله : ﴿ وإذ قلْنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ [البقرة : 34] .

﴿ يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ﴿ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

بدل من جملة ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ بدل اشتمال لأن خلقه ما يشاء يشتمل على هبته لمن

يشاء ما يشاء .

وهذا الإبدال إدماجُ مَثَلٍ جامع لصور إصابة المحبوب وإصابة المكروه فإن قوله ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ هو من المكروه عند غالب البشر ويتضمن ضرباً من ضروب الكُفران وهو اعتقاد بعض النعمة سيئة في عادة المشركين من تطيرهم بولادة البَنات لهم ، وقد أشير إلى التعريض بهم في ذلك بتقديم الإناث على الذكور في ابتداء تعداد النعم الموهوبة على عكس العادة في تقديم الذكور على الإناث حيثما ذكرا في القرآن في نحو ﴿ إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ [الحجرات : 13] وقوله : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 39] فهذا من دقائق هذه الآية .

والمراد : يهب لمن يشاء إناثاً فقط ويهب لمن يشاء الذكور فقط بقرينة قوله : ﴿ أو يُزَوِّجهم ذُكْراناً وإناثاً ﴾ .

(314/687)

وتنكير ﴿ إناثاً ﴾ لأن التنكير هو الأصل في أسماء الأجناس وتعريف ﴿ الذكور ﴾ باللام لأنهم الصنف المعهود للمخاطبين ، فاللام لتعريف الجنس وإنما يصار إلى تعريف الجنس لمقصد ، أي يهب ذلك الصنف الذي تعهدونه وتتحدثون به وترْغبون فيه على حدّ

قول العرب : أرسَلَها العِراك ، وتَقدم في أول الفاتحة .

و ﴿ أو للتقسيم .

والتزويج قرن الشيء بشيء آخر فيصيران زوجاً .

ومن مجازه إطلاقه على إنكاح الرجل امرأة لأنهما يصيران كالزوج ، والمراد هنا : جعلهم زوجاً في الهبة ، أي يجمع لمن يشاء فيهب له ذكراناً مشفَّعين بإناث فالمراد التزويج بصنف آخر لا مقابلة كل فرد من الصنف بفَرد من الصنف الآخر .

والضمير في يزوجهم ﴾ عائد إلى كلاً من الإناث والذكور .

وانتصب ﴿ ذكراناً وإناثاً ﴾ على الحال من ضمير الجمع في ﴿ يزوجهم ﴾ .

والعقيم : الذي لا يولد له من رجل أو امرأة ، وفعله عَقِم من باب فرِح وعقُم من باب كرم .

وأصل فعله أن يتعدّى إلى المفعول يقال عقمها الله من باب ضرب ، ويقال عُقِمت المرأة بالبناء للمجهول ، أي عقَمها عاقم لأن سبب العقم مجهول عندهم .

فهو مما جاء متعدياً وقاصراً ، فالقاصر بضم القاف وكسرها والمتعدي بفتحها ، والعقيم : فعيل بمعنى مفعول ، فلذلك استوى فيه المذكر والمؤنث غالباً ، وربما ظهرت التاء نادراً قالوا : رحم عقيمة .

﴿ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ .

جملة في موضع العلة للمبدل منه وهو ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ فموقع (إنّ) هنا موقع فاء

التفريع .

والمعنى : أن خلقه ما يشاء ليس خلقاً مهملاً عرياً عن الحكمة لأنه واسع العلم لا يفوته شيء من المعلومات فخلقه الأشياء يجري على وفق علمه وحكمته .

وهو ﴿ قدير ﴾ نافذ القدرة ، فإذا علم الحكمة في خلق شيء أراده ، فجرى على قَدَره .

ولّما جمع بين وصفي العلم والقدرة تعين أن هنالك صفة مطوية وهي الإرادة لأنه إنما تتعلق قدرته بعد تعلق إرادته بالكائن .

(315/687)

وتفصيلُ المعنى : أنه عليم بالأسباب والقُوى والمؤثرات التي وضعها في العوالم ، وبتوافق آثار بعضها وتخالف بعض ، وكيف تتكون الكائنات على نحو ما قُدِّر لها من الأوضاع ، وكيف تتظاهر فتأتي الآثار على نسق واحد ، وتتمانع فينقص تأثير بعضها في آثاره بسبب ممانعة مؤثراتٍ أخرى ، وكل ذلك من مظاهر علمه تعالى في أصل التكوين العالمي ومظاهر قدرته في الجري على وفاق علمه .

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا

عطف على ما سبق من حكاية ترّهاتهم عطفَ القصة على القصة وهو عود إلى إبطال شُبَه المشركين التي أشار إليها قوله تعالى : ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ [الشورى : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ كَبُر على المشركين ما تدعُوهم إليه ﴾ [الشورى : 13] ، وقد أشرنا إلى تفصيل ذلك فيما تقدم ، ويزيده وضوحاً قوله عقبه ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] .

وهذه الآية تبطل الشبهة الثانية فيما عددناه من شبهاتهم في كون القرآن وحياً من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم إذ زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان مرسلاً من الله لكانت معه ملائكة تصدق قوله أو لأنزل عليه كتاب جاهز من السماء يشاهدون نزوله قال تعالى : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيراً ﴾ [الفرقان : 7] وقال ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ إلى أن قال : ﴿ ولن نؤمن لِرُقيّكَ حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء : 90 93] .

وإذ قد كان أهم غرض هذه السورة إثبات كون القرآن وحيا من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحي من قبله للرسل كان العود إلى ذلك من قبيل ردّ العجز على الصدر .

فبيَّن الله للمكذبين أن سنة الله في خطاب رسله لا تعدو ثلاثة أنحاء من الخطاب ، منها ما جاء به القرآن فلم يكن ذلك بدعاً مما جاءت به الرسل الأولون وما كان الله ليخاطب رسله على الأنحاء التي اقترحها المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم فجيء بصيغة حصر مفتتحة بصيغة الجحود المفيدة مبالغة النفي وهي ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله ﴾ أي لم يتهيّأ لأحد من الرسل أن يأتيه خطاب من الله بنوع من هذه الثلاثة .

ودل ذلك على انتفاء أن يكون إبلاغ مراد الله تعالى لأمم الرسل بغير أحد هذه الأنواع الثلاثة أعني خصوص نوع إرسال رسول ، بدلالة فحوى الخطاب فإنه إذا كان الرسل لا يخاطبهم الله إلاّ بأحد هذه الأنحاء الثلاثة فالأمم أولى بأن لا يخاطبوا بغير ذلك من نحو ما سأله المشركون من رؤية الله يخاطبهم ، أو مجيء الملائكة إليهم بل لا يتوجه إليهم خطاب الله إلاّ بواسطة رسول منهم يتلقى كلام الله بنحو من الأنحاء الثلاثة وهو مما يدخل في قوله : ﴿ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ فإن الرسول يكون مَلَكاً وهو الذي يبلّغ الوحي إلى الرسُل والأنبياء .

وخطاب الله الرسل والأنبياءَ قد يكون لقصد إبلاغهم أمراً يصلحهم نحو قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ﴾ [المزمل : 1 ، 2] ، وقد يكون لإبلاغهم شرائع للأمم مثل معظم القرآن والتوراة ، أو إبلاغهم مواعظ لهم مثل الزبور ومجلة لقمان .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا وحياً ﴾ استثناء من عموم أنواع المتكلم التي دلّ عليها الفعل الواقع في سياق النفي وهو ﴿ ما كان لبشر أن يكلمه الله ﴾ .

فانتصاب ﴿ وحياً ﴾ على الصفة لمصدر محذوف دل عليه الاستثناء ، والتقدير : إلا كلاماً وحياً أي موحًى به كما تقول : لا أكلمه إلاّ جهراً ، أو إلا إخفاتاً ، لأن الجهر والإخفات صفتان للكلام .

(317/687)

والمراد بالتكلم بلوغ مراد الله إلى النبي سواء كان ذلك البلوغ بكلام يسمعه ولا يَرى مصدره أو بكلام يبلغه إليه المَلَكُ عن الله تعالى ، أو بعلم يُلقى في نفس النبي يوقن بأنه مراد الله بعلم ضروري يجعله الله في نفسه .

وإطلاق الكلام على هذه الثلاثة الأنواع : بعضُه حقيقة مثل ما يسمعه النبي كما سمع موسى ، وبعضه مجاز قريب من الحقيقة وهو ما يبلغه إلى النبي فإنه رسالة بكلام ، وبعضه مجاز محض وهو ما يلقى في قلب النبي مع العلم ، فإطلاق فعل ﴿ يكلمه ﴾ على جميعها من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه على طريقة استعمال المشترك في معانيه .

وإسناد فعل ﴿ يكلمه ﴾ إلى الله إسناد مجازي عقلي .

وبهذا الاعتبار صار استثناء الكلام الموصوف بأنه وحي استثناء متصلاً .

وأصل الوحي : الإشارة الخفيّة ، ومنه ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرةً وعشياً ﴾ [مريم : 11] .

ويطلق على ما يجده المرء في نفسه دفعة كحصول معنى الكلام في نفس السامع قال عبيد بن الأبرص :

وأوحى إليَّ الله أنْ قد تآمَرُوا

بِإبْلِ أبي أوْفَى فقُمْتُ على رِجْلِ . . .

وهذا الإطلاق هو المراد هنا بقرينة المقابلة بالنوعين الآخرين .

ومِن هنا أطلق الوحي على ما فطر الله عليه الحيوان من الإلهام المتقن الدقيق كقوله : ﴿ وأوحى ربُّك إلى النحل ﴾ [النحل : 68] .

فالوحي بهذا المعنى نوع من أنواع إلقاء كلام الله إلى الأنبياء وهو النوع الأول في العدّ ، فأطلق الوحي على الكلام الذي يسمعه النبي بكيفية غير معتادة وهذا الإطلاق من مصطلح القرآن وهو الغالب في إطلاقات الكتاب والسنة ومنه قول زيد بن ثابت "فعَلِمْتُ أنه يُوحَى إليه ثم سُرِّي عنه" فقرأ ﴿ غير أولي الضرر ﴾ [النساء : 95] ، ولم يقل فنزل إليه جبريل .

والوحي بهذا المعنى غير الوحي الذي سيجيء في قوله : ﴿ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ .

(318/687)

والمراد بالوحي هنا : إيقاع مراد الله في نفس النبي يحصل له به العلم بأنه من عند الله فهو حجة للنبيء لمكان العلم الضروري ، وحجة للأمة لمكان العِصمة من وسوسة الشيطان ، وقد يحصل لغير الأنبياء ولكنه غير مطرد ولا منضبط مع أنه واقع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم مُحَدَّثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فعُمرُ بن الخطاب " قال ابن وهب : محدَّثون : مُلْهَمُون .

ومن هذا الوحي مرائي الأنبياء فإنها وحي ، وهي ليست بكلام يلقَى إليهم ، ففي الحديث " إني رأيت دار هجرتكم وهي في حرّة ذاتِ نخل فوقع في وَهْلِي أنها اليمامة أو هَجر فإذا هي طابة " .

وقد تشتمل الرؤيا على إلهام وكلام مثل حديث " رأيتُ بَقَراً تُذبح ورأيتُ والله خير " في رواية رفع اسم الجلالة ، أي رأيت هذه الكلمة ، وقد أول النبي صلى الله عليه وسلم رؤياه البقرَ التي تذبح بما أصاب المسلمين يومَ أحد ، وأمّا " والله خير " فهو ما أتى الله به بعد ذلك

من الخير .

ومن الإلهام مَرائي الصالحين فإنها جزء من ستة وأربعين جُزءاً من النبوءة .

وليس الإلهام بحجة في الدّين لأن غير المعصوم لا يوثق بصحة خواطره إذ ليس معصوماً من وسوسة الشيطان .

وبعض أهل التصوف وحكماء الإشراق يأخذون به في خاصّتهم ويدَّعون أن أمارات تميز لهم بين صادق الخواطر وكاذبها ومنه قول قطب الدين الشيرازي في ديباجة شرحه على "المفتاح" " إني قد ألقي إليَّ على سبيل الإنذار من حضرة الملك الجبار بلسان الإلهام لا كوَهَم من الأوهام " إلى أن قال " ما أورثني التجافي عن دار الغرور " .

ومنه ما ورد في قول النبي صلى الله عليه وسلم " إنَّ رُوح القُدُس نَفَثَ في رُوعي أنَّ نفساً لن تموت حتّى تستوفيَ أجلها ورزقَها " على أحد تفسيرين فيه ، ولا ريب في أنه المراد هنا لأن ألفاظ هذا الحديث جَرَتْ على غير الألفاظ التي يُحكى بها نزول الوحي بواسطة كلام جبريل عليه السلام .

(319/687)

والنوع الثاني : أن يكون الكلام من وراء حجاب يسمعه سامعه ولا يرى مصدره بأن يخلق الله كلاماً في شيء محجوب عن سامعه وهو ما وصف الله هنا بقوله : ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ .

والمعنى : أو محجوباً المخاطَب بالفتح عن رؤية مصدر الكلام ، فالكلام كأنه من وراء حجاب ، وهذا مثل تكليم الله تعالى موسى في البقعة المباركة من الشجرة ، ويحصل علم المخاطب بأن ذلك الكلام من عند الله أول مرة بآية يريه الله إياها يعلم أنها لا تكون إلا بتسخير الله كما علم موسى ذلك بانقلاب عصاهُ حيّة ثم عَوْدِها إلى حالتها الأولى ، وبخروج يده من جَيْبه بيضاء ، كما قال تعالى : ﴿ آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهَبْ إلى فرعون إنه طغى ﴾ [طه : 22 ، 24] .

ثم يصير بعد ذلك عادة يعرف بها كلام الله .

واختص بهذا النوع من الكلام في الرسل السابقين موسى عليه السلام وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي ﴾ [الأعراف : 144] وليس الوحي إلى موسى منحصراً في هذا النوع فإنه كان يوحى إليه الوحي الغالب لجميع الأنبياء والرسل وقد حصل هذا النوع من الكلام لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، فقد جاء في حديث الإسراء : أن الله فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة ثم خفّف الله منها حتى بلغت خمس صلوات وأنه سمع قوله تعالى:

" أتممتُ فريضتي وخففت عن عبادي " .

وأشارت إليه سورة النجم (6 ، 12) بقوله تعالى : ﴿ فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلَّى فكان قابَ قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفَتُمَارونه على ما يَرى ﴾ والقول بأنه سمع كلام الله ليلة أسري به إلى السماء مرويّ عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وجعفر بن محمد الصادق والأشعري والواسطي ، وهو الظاهر لأن فضل محمد على جميع المرسلين يستلزم أن يعطيه الله من أفضل ما أعطاه رسله عليهم السلام جميعاً .

(320/687)

النوع الثالث : أن يرسل الله الملَك إلى النبي فيبلغ إليه كلاماً يسمعه النبي ويعيه ، وهذا هو غالب ما يوجه إلى الأنبياء من كلام الله تعالى ، قال تعالى في ذكر زكرياء ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلِّي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى ﴾ [آل عمران : 39] ، وقال في إبراهيم ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقتَ الرؤيا ﴾ [الصافات : 104 ، 105] وهذا الكلام يأتي بكيفية وصفها النبي صلى الله عليه وسلم للحارث بن هشام وقد سأل رسول الله " كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجَرَس وهو أشدُّه عليّ

فيفْصِمُ عنّي وقد وَعَيت عنه أي عن جبريل ما قال ، وأحياناً يتمثّل لي الملَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول " .

فالرسول في قوله تعالى : ﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ : هو الملَك جبريل أو غيره ، وقوله : ﴿ فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ سمّى هذا الكلام وحياً على مراعاة الإطلاق القرآني الغالب كما تقدم نحو قوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحَى عَلَّمه شديدُ القُوَى ﴾ [النجم : 53] وهو غير المراد من قوله : ﴿ إلا وحياً ﴾ بقرينة التقسيم والمقابلة .

ومن لطائف نسج هذه الآية ترتيب ما دل على تكليم الله الرسل بدلالات فجيء بالمصدر أولاً في قوله : ﴿ إلا وحياً ﴾ وجيء بما يشبه الجملة ثانياً وهو قوله : ﴿ من وراء الحجاب ﴾ ، وجيء بالجملة الفعلية ثالثاً بقوله : ﴿ يرسل رسولاً ﴾ .

وقرأ نافع ﴿ أو يرسلُ ﴾ برفع ﴿ يرسلُ ﴾ على الخبرية ، والتقدير : أو هو مرسل رسولاً .

وقرأ ﴿ فيوحي ﴾ بسكون الياء بعد كسرة الحاء .

وقرأ الباقون ﴿ أو يرسل ﴾ بنصب الفعل على تقدير (أنْ) محذوفة دل عليها العطف على المصدر فصار الفعل المعطوف في معنى المصدر ، فاحتاج إلى تقدير حرف السبك .

وقرأوا ﴿ فيوحي ﴾ بفتحة على الياء عطفاً على ﴿ يرسل ﴾ .

ومَا صْدَقُ ﴿ ما يشاء ﴾ كلام ، أي فيوحي كلاماً يشاؤه الله فكانت هذه الجملة في معنى الصفة ل (كلاماً) المستثنى المحذوف ، والرابط هو ﴿ ما يشاء ﴾ لأنه في معنى : كلاماً ، فهو كربط الجملة بإعادة لفظ ما هي له أو بمرادفه نحو ﴿ الحاقة ما الحاقّة ﴾ [الحاقة : 1 ، 2] .

والتقدير : أوْ إلاَّ كلاماً موصوفاً بأن الله يرسل رسولاً فيوحي بإذنه كلاماً يشاؤه فإن الإرسال نوع من الكلام المراد في هذه الآية .

والآية صريحة في أن هذه الأنواع الثلاثة أنواع لكلام الله الذي يخاطب به عباده .

وذكرُ النوعين : الأول والثالث صريح في أن إضافة الكلام المنوع إليها إلى الله أو إسنادُه إليه حيثما وقع في ألفاظ الشريعة نحو قوله تعالى : ﴿ حتى يسمَعَ كَلام الله ﴾ [التوبة : 6] وقوله : ﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي ﴾ [الأعراف : 144] وقوله : ﴿ وكلّم الله موسى تكليماً ﴾ [النساء : 164] يدل على أنه كلام له خصوصية هي أنه أوجده الله إيجاداً بخرق العادة ليكون بذلك دليلاً على أن مدلول ألفاظِه مراد لله تعالى ومقصود له كما سمّي الروح الذي تكوّن به عيسى روحَ الله لأنه تكوّن على سبيل خرق العادة ، فالله خلقَ الكلام الذي يدلّ على مراده خلقاً غير جارٍ على سنة الله في تكوين الكلام ليعلم الناس أن الله أراد إعلامهم بأنه أراد مدلولات ذلك الكلام بآية أنه

خرق فيه عادة إيجاد الكلام فكان إيجاداً غيرَ متولّد من علل وأسباب عادية فهو كإيجاد السماوات والأرض وإيجاد آدم في أنه غير متولد من علل وأسباب فطرية .

(322/687)

واعلم أن حقيقة الإلهية لا تقتضي لذاتها أن يكون الله متكلماً كما تقتضي أنه واحد حيّ عالم قدير مُريد ، ومن حاول جَعل صفة الكلام من مقتضى الإلهية على تنظير الإله بالملك بناء على أن المُلك يقتضي مخاطبة الرعايا بما يريد المَلِك منهم ، فقد جاء بحجة خَطابية ، بل الحق أن الذي اقتضى إثبات كلام الله هو وضع الشرائع الإلهية ، أي تعلق إرادة الله بإرشاد الناس إلى اجتناب ما يخل باستقامة شؤونهم بأمرهم ونهيهم وموعظتهم ووعدهم ووعيدهم ، من يوم نَهي آدمَ عن الأكل من الشجرة وتوعده بالشقاء إن أكل منها ثم من إرسال الرسل إلى الناس وتبليغهم إياهم أمر الله ونهيه بوضع الشرائع وذلك من عهد نوح بلا شك أو من عهد آدم إن قلنا إن آدم بلَّغ أهله أمر الله ونهيه .

فتعين الإيمان بأن الله آمر ونَاهٍ وواعدٌ ومُوعِد ، ومخبر بواسطة رسله وأنبيائه ، وأن مراده ذلك أبلغه إلى الأنبياء بكلام يُلقى إليهم ويفهمونه وهو غير متعارف لهم قبل النبوءة وهو متفاوت الأنواع في مشابهة الكلام المتعارف .

ولمّا لم يَرد في الكتاب والسنة وصفُ الله بأنه متكلّم ولا إثبات صفةٍ له تسمَّى الكلام ، ولم تقتض ذلك حقيقة الإلهية ما كان ثمّة داع إلى إثبات ذلك عند أهل التأويل من الخَلَف من أشعرية وماتريدية إذ قالوا : إن الله متكلم وإن له صفةً تسمَّى الكلام وبخاصة المعتزلة إذ قالوا إنه متكلم ونفوا صفة الكلام وأمرُ المعتزلة أعجب إذ أثبتوا الصفات المعنوية لأجل القواطع من آيات القرآن وأنكروا صفات المعاني تورّعاً وتخلّصاً من مشابهة القول بتعدد القدماء بلا داع ، وقد كان لهم في عدم إثبات صفة المتكلم مندوحة لانتفاء الداعي إلى إثباتها ، خلافاً لما دعا إلى إثبات غيرها من الصفات المعنوية ، وقد حكى فخر الدين في تفسير هذه السورة إجماع الأمة على أن الله تعالى متكلم .

(323/687)

وقصارى ما ورد في القرآن إسناد فعل الكلام إلى الله أو إضافة مصدره إلى اسمه ، وذلك لا يوجب أن يشتق منه صفة لله تعالى ، فإنهم لم يقولوا لله صفة نافخ الأرواح لأجل قوله تعالى : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ [الحجر : 29] ، فالذي حدا مُثْبِتي صفة الكلام لله هو قوة تعلق هذا الوصف بصفة العلم فخصّوا هذا التعلق باسم خاص وجعلوه صفة مستقلة مثل ما فعلوا في صفة السمع والبصر .

هذا ، واعلم أن مثبتي صفة الكلام قد اختلفوا في حقيقتها ، فذهب السلف إلى أنها صفة قديمة كسائر صفات الله .

فإذا سُئلوا عن الألفاظ التي هي الكلام : أقديمة هي أم حادثة ؟ قالوا : قديمة ، وتعجب منهم فخر الدين الرازي ونبزهم ولا أحسبهم إلاّ أنهم تحاشَوْا عن التصريح بأنها حادثة لئلا يؤدّي ذلك دهماءَ الأمة إلى اعتقاد حدوث صفات الله ، أو يؤدّي إلى إبطال أن القرآن كلام الله ، لأن تبيان حقيقة معنى الإضافة في قولهم : كلام الله ، دقيق جداً يحتاج مُدرِكُه إلى شحْذ ذهنه بقواعد العلوم ، والعامة على بَوْن من ذلك .

واشتهر من أهل هذه الطريقة أحمد بن حنبل رحمه الله زمن فتنة خلق القرآن .

وكان فقهاء المالكية في زمن العُبيديين ملتزمين هذه الطريقة .

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد في "الرسالة" : "وإن القرآن كلامُ الله ليس بمخلوق فيبيدَ ولا صفةٍ لمخلوق فينفد" .

وقد نقشوا على إسطوانة من أساطين الجامع بمدينة سوسة هذه العبارة : "القُرآنُ كلامُ الله وليس بمخلوق" وهي ماثلة إلى الآن .

(324/687)

قال فخر الدين : واتفق أني قلت يوماً لبعض الحنابلة : لو تكلم الله بهذه الحروف ؛ إمّا أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب ، والأول باطل لأن التكلّم بها دفعة واحدة لا يفيد هذا النظمَ المركب على التعاقب والتوالي ، والثاني باطل لأنه لو تكلم الله بها على التوالي كانت محدثة ، فلما سمع مني هذا الكلام قال : "الواجبُ علينا أن نُقِرّ ونَمُرَّ" يعني نقرّ بأن القرآن قديم ونمُرّ على هذا الكلام على وفق ما سمعناه قال : فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل .

ومن الغريب جداً ما يُعزى إلى محمد بن كَرَّام وأصحابه الكَرَّامية من القول بأن كلام الله حروف وأصوات قائمة بذاته تعالى ، وقالوا : لا يلزم أن كل صفة لله قديمة ، ونُسب مثل هذا إلى الحشوية ، وأما المعتزلة فأثبتوا لله أنه متكلم ومنعوا أن تكون له صفة تسمى الكلام ، والذي دعاهم إلى ذلك هو الجمع بين ما شاع في القرآن والسنة وعند السلف من إسناد الكلام إلى الله وإضافتِه إليه وقالوا : إن اشتقاق الوصف لا يستلزم قيام المصدر بالموصوف ، وتلك طريقتهم في صفات المعاني كلها ، وزادوا فقالوا : معنى كونه متكلماً أنه خَالق الكلام .

وأما الأشعري وأصحابه فلم يختلفوا في أن الكلام الذي نقول : إنه كلام الله المركب من حروف وأصوات ، المتلوّ بألسنتنا ، المكتوب في مصاحفنا ، إنه حادث وليس هو صفة الله تعالى وإنما صفة الله مدلول ذلك الكلام المركب من الحروف والأصوات من المعاني من أمر

ونهي ووعد ووعيد .

وتقريب ذلك عندي أن الكلام الحادث الذي خلقه الله دَال على مراد الله تعالى وأن مراد الله صفة لله .

قال أبو بكر الباقلاني عن الشيخ : إن كلام الله الأزلي مقروء بألسنتنا ، محفوظ في قلوبنا ، مسموع بآذاننا ، مكتوب في مصاحفنا غيرُ حالَ في شيء من ذلك ، كما أن الله معلوم بقلوبنا مذكور بألسنتنا معبود في محاريبنا وهو غير حال في شيء من ذلك .

(325/687)

والقراءةُ والقارىء مخلوقان ، كما أن العلم والمعرفة مخلوقان ، والمعلوم والمعروف قديمان أ هـ .

يعني أن الألفاظ المَقْروءة والمكتوبة دوالّ وهي مخلوقة والمدلول وهو كون الله مريداً لمدلولات تلك التراكيب هو وصف الله تعالى ليصحّ أن الله أراد من النّاس العمل بالمدلولات التي دلّت عليها تلك التراكيب .

وقد اصطلح الأشعري على تسمية ذلك المدلولِ كلاماً نفسيّاً وهو إرادة المعاني التي دلّ عليها الكلام اللفظي ، وقد استأنس لذلك بقول الأخطل :

إن الكلامَ لَفي الفؤاد وإنّما

جُعل اللّسان على الفؤاد دليلاً . . .

وأما أبو منصور الماتريدي فنَقل الفخر عنه كلاماً مزيجاً من كلام الأشعري وكلام المعتزلة ، والبعضُ نَقَل عنه مثلَ قول السلف .

وسبب اختلاف النقل عنه هو أن الماتريدي تابع في أصول الدّين أبَا حنيفة .

وقد اضطرب أتباعه في فهم عبارته الواقعة في العقيدة المنسوبة إليه المسماة : الفقه الأكبر إن صحّ عزوُها إليه إذ كانت عبارةً يلوح عليها التضارب ولعله مقصود .

وتأويلها بما يوافق كلام الأشعري هو التحقيق .

وتحقيق هذا المقام بوجه واضح قريب أن نقول : إن ثبوت صفة الكلام لله هو مثل ثبوت صفة الإرادة وصفة القدرة له تعالى ، في الأزل وهو أشبه باتصافه بالإرادة فكما أن معنى ثبوت صفة الإرادة لله إنه تعالى متى تعلق علمه بإيجاد شيء لم يكن موجوداً ، أو بإعدام شيء كان موجوداً ، أنه لا يحول دون تنفيذ ما تعلق علمه بإيجاده أو إعدامه حائل ولا يمنعه منه مانع ، ومتى تعلق علمه بإبقاء المعدوم في حالة العدم أو الموجود في حالة الوجود ، لا يكرهه على ضد ذلك مُكره .

فكذلك ثبوت الكلام لله معناه أنه كلما تعلق علمه بأنه يأمر أو ينهَى أحداً لم يحُلْ حائل دون

إيجاد ما يبلغ مراده إلى المأمورين أو المنهيين ، وكلما تعلق علمه بأن يترك توجيه أمر أو نهي إلى النّاس لم يكرهه مُكره على أن يأمرهم أو ينهاهم .

(326/687)

وكما أن للإرادة تعلقاً صلاحياً أزليّاً وتعلّقاً تنجيزياً حادِثاً حين تتوجه الإرادة إلى إيجادٍ بواسطة القدرة .

كذلك نجد لكلام الله تعلّقاً صلاحياً أزلياً وتعلّقاً تنجيزيّاً حينَ اقتضاء علم الله تَوجِيهَ أمره أو نهيه أو نحوهما إلى بعض عباده .

فالكلام الذي ينطق به الرّسول وينسبه إلى الله تعالى هو حادث وهو أثَر التعلق التنجيزي الحادث ، والكلام الذي نعتقد أن الله أراده وأراد من النّاس العمل به هو الصفة الأزلية القديمة ولها التعلق الصلاحي القديم .

وفي "الرسالة الخاقانية" للعلامة عبد الحكيم السلكوتي نقل عن بعض العلماء بأن لكلام الله تعلقاً تنجيزياً حادثاً ، وهذا من التحقيق بمكان .

والتحقيق : أن ذلك الكلام الأزلي يتنوع إلى أنواع المدلولات من أمر ونهي وخبر ووعد ووعيد ونحو ذلك .

وخلاصة معنى الآية أن الله قد يخلق في نفس جبريل أو غيره من الملائكة علماً بمراد الله على كيفية لا نعلمها ، وعلماً بأن الله سخره إبلاغ مراده إلى النبي ، والمَلكُ يبلغ إلى النبي ما أُمر بتبليغه امتثالاً للأمر التسخيري ، بألفاظ معينة ألقاها الله في نفس الملك مثل ألفاظ القرآن ، أو بألفاظ من صنعة الملك كالتي حكى الله عن زكرياء بقوله : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلِّي في المحراب أنَّ الله يبشرك بيحيى ﴾ [آل عمران : 39] .

أو يخلقُ في سمع النبي كلاماً يعلم علم اليقين أنه غير صادر إليه من متكلم ، فيوقن أنه من عند الله بدلالة المعجزة أول مرة وبدلالة تعوّده بعد ذلك .

وهذا مثل الكلام الذي كلم الله به موسى ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أنْ يا موسى إنني أنا الله ربّ العالمين وأنْ ألْقِ عصاك ﴾ [القصص : 30 ، 31] الآية ، فقرن خطابه الخارق للعادة بالمعجزة الخارقة للعادة ليُوقن موسى أن ذلك كلام من عند الله .

أو يخلقُ في نفس النبي علماً قطعياً بأن الله أراد منه كذا كما يخلق في نفس المَلك في الحالة المذكورة أولاً .

(327/687)

فعلى هذه الكيفيات يأتي الوحي للأنبياء ويَختص القرآن بمزية أن الله تعالى يخلق كلاماً يَعِيه المَلك ويؤمر بإبلاغه بنصه دون تغير إلى محمد صلى الله عليه وسلم

والقول في موقع جملة ﴿ إنه علي حكيم ﴾ كالقول في جملة ﴿ إنه عليم قدير ﴾ [الشورى : 50] السابقة ، وإنما أوثر هنا صفة العلي الحكيم لمناسبتهما للغرض لأن العلوّ في صفة العليّ علوّ عظمة فائقة لا تناسبها النفوس البشرية التي لم تَحْظَ من جانب القُدس بالتصفية فما كان لها أن تتلقى من الله مراده مباشرة فاقتضى علوّه أن يكون توجيه خطابه إلى البشر بوسائط يفضي بعضها إلى بعض لأن ذلك كما يقول الحكماء : استفادة القابل من المبدإ تتوقف عن المناسبة بينهما .

وأمّا وصف الحكيم فلأن معناه المُتقِن للصنع العالم بدقائقه وما خطابه البشر إلاّ لحكمة إصلاحهم ونظام عالَمهم ، وما وقوعه على تلك الكيفيات الثلاث إلا من أثر الحكمة لتيسير تلقّي خطابه ، ووعيِه دون اختلال فيه ولا خروج عن طاقة المتلقِّين .

وانظر ما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه ﴾ في سورة الأعراف (143) ، وعند قوله : ﴿ فأجِرْه حتىّ يسمعَ كلام الله ﴾ في سورة براءة (6) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء ﴾

فقسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه وكفى بالعبد تعرضا لمقته أن يتسخط ما وهبه وبدأ سبحانه بذكر الإناث فقيل جبرا لهن لأجل استثقال الوالدين لمكانهن وقيل وهو أحسن إنما قدمهن لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان فان الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبا وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان

وعندي وجه آخر وهو أنه سبحانه قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن أي هذا النوع المؤخر عندكم مقدم عندي في الذكر وتأمل كيف نكر سبحانه الإناث وعرف الذكور فجبر نقص الأنوثة بالتقديم وجبر نقص التأخير بالتعريف فإن التعريف تنويه كأنه قال ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ثم لما ذكر الصنفين معا قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير والله أعلم بما أراد من ذلك

والمقصود أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله تعالى في قوله وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون النحل 58 59 وقال وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم الزخرف 17 ومن هاهنا عبر بعض المعبرين لرجل قال له رأيت كأن وجهي أسود فقال ألك امرأة حامل قال نعم قال تلد لك أنثى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تحفة المودود صـ 15.16 ﴾

(329/687)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى كلم)

الكلام : القول أَو ما كان مكتفِياً بنفسه .

والكَلِمة : اللفظة ، والجمع : كَلِم ، والكِلْمة بالكسر لغه فيها ، والجمع : كِلَم ككِسَر .

وكلَّمهُ تكليماً وكِلاَّماً .

وتكلّم تكلُّماً وتِكِلاَّما : تحدَّث .

وتكالماً : تحدّثا .

والكلمة : القصيدة .

وكلمة الله عيسى عليه السّلام ؛ لأَنه كان يُنتفع به وبكلامه ، أَو لأَنه كان بكلمة (كُنْ) من غير أَب ، أَو لاهتداءِ الناس به .

والكلمة الباقية : كلمة التوحيد .

ورجل تِكْلامة ، وتِكِلاَّمة بالتشديد ، وتِكْلام ، وكَلْمانىّ كسَلْمانىّ ، وكَلَمانىّ بالتحريك ، وكِلّمَانىّ بكسرتين والتشديد – ولاَ نظير له – : جيّد الكلام فصيحه .

وقيل : رجل كِلّمَانىّ ، أَى كثير الكلام ، والمرأَة كِلّمَانيَّة .

والكَلْم : الجَرْح ، والجمع : كُلُوم وكِلاَم .

وكَلَمه يكلِمه ، وكلَّمه : جرحه فهو مكلوم ، وكليم ، ومكلَّم ، وهى كَلْمَى .

وبهم كَلْم وكِلاَم وكُلُوم .

وأَصل الكَلْم : التأْثير المدرَك بإِحدى الحاسّتين السمع والبصر .

والكَلاَم يقع على الأَلفاظ المنظومة ، وعلى المعانى التى تحتها مجموعة ؛ وعند النحاة يقع على الجزءِ منه ، اسما كان أَو فعلا أَو أَداةً .

وعند كثير من المتكلّمين لا يقع إِلاَّ على الجملة المركَّبة المفيدة ، وهو أَخصّ من القول ؛ فإِن القول عندهم يقع على المفردات ، والكلمة تقع على كل واحد من الأَنواع الثلاثة ، وقد قيل

بخلاف ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ ، قيل هو قوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ .

وقال الحسن : هو وقوله : أَلم تخلقنى بيدك ! أَلم تُسكنِّى جنَّتك ؛ أَلم تُسجِد لى ملائكتك ! أَلم تسبق رحْمتُك غضبك ! أَرأَيت إِن تبتُ كنت مُعيدِى إِلى الجنَّة ؛ قال : نعم .

وقيل : هو الأَمانة المعروضة على السماواة والأَرض .

(330/687)

وقوله : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ قيل : هى الأَشياءُ التى امتحن الله بها إِبراهيم عليه السَّلام : من ذبح ابنه ، والخِتان وغيرهما .

وقوله

لزكرِيَّا : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ ، قيل : هى كلمة التوحيد ، وقيل : كتاب الله ، وقيل : يعنى به عيسى عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ ، فالكلمة هنا القضية ، وكل قضية تُسَمَّى كلمة ، سواء كان ذلك مقالا أَو فعالا ، ووصفها بالصدق لأَنه يقال : قول / صِدْق ، وفعل صدق .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ إشارة إلى نحو قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ، ونبّه بذلك على أنه لا نسخ للشريعة بعد اليوم .

وقيل : إشارة إلى ما قال النبيّ صلّى الله عليه وسلم : "أوّل ما خَلَق الله القَلَم ، فقال له : اِجْرِ بما هو كائن إلى يوم القيامة" .

وقيل : الكلمة هى القرآن .

وعبرّ بلفظ الماضى تنبيهاً أَن ذلك فى حكم الكائن .

وقيل : عنى بالكلمات الآيات والمعجزات ، فنبّه أَنَّ ما أرسل من الآيات تامّ وفيه بلاغ .

وقوله : ﴿ لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ ردّ لقولهم : ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ .

وقيل : أَرادَ بكلمات ربّك أَحكامه ، وبين أَنه شَرَعَ لعباده ما فيه بلاغ .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ هذه الكلمة قيل هو قوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً ﴾ إشارة إلى ما سبق من حكمه الذى اقتضته كلمته ، وأَنه لا تبديل لكلماته .

وقوله : ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أَى بحججه الَّتى جعلها لكم عليهم سلطاناً مبيناً ، أَى حُجَّة قويّة .

وقوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى ما قال : ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً ﴾ ، وذلك أَن الله تعالى كان قد قال : ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً ﴾ ، ثم قال هؤلاءِ المنافقون : ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ وقصدهم تبديل كلام الله ، فنبَّه على أَن هؤلاءِ لا يفعلون ، وكيف يفعلون وقد علم الله منهم أَنهم لا يفعلون ، وقد سبق بذلك حكمه .

ومكالمة الله تعالى العبد على ضربين : أَحدهما فى الدُّنيا ، والثانى فى الآخرة ؛ فما فى الدُّنيا فعلى ما نبَّه عليه بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ ﴾ الآية .

وما فى الآخرة ثواب للمؤمنين وكرامة لهم تخفى عليهم كيفيَّته .

ونبَّه أَن ذلك يحرم على الكافرين بقوله : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وأَمَّا قوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "ما من أَحد إلاَّ سيكلِّمه ربَّه ليس بينه وبينه ترجمان" فلعلَّ المراد به فى بعض المواقف دون بعض ، أَو المراد : ما من أَحد من المؤمنين .

وقوله : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ جمع كلمة ، قيل : إنهم كانوا يبدِّلون الأَلفاظ ويغيرونها ، وقيل : إنَّ التحريف كان من جهة المعنى ، وهو حمله على غير ما قُصد به واقتضاه ، وهذا أَمثل القولين .

وقوله : ﴿ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ ، أَى لولا يكلِّمنا مواجهة ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ

أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذلك فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ .

وأَعوذ بكلمات الله التامات ، قيل : هى القرآن .

وقوله : سبحان الله عددَ كلماته ، أَى كلامه ، وهو صفته وصفاته لا تنحصر بالعدد ، فذكر العدد هنا مجاز بمعنى المبالغة فى الكثرة .

(332/687)

وقيل : يحتمل عدد الأَذكار ، أَو عدد الأُجُور على ذلك ، ونصب (عددا) على المصدر .

وقوله : اسْتَحْلَلْتُم فروجهنَّ بكلمات الله ، قيل : هى قوله تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ ، وقيل : هو إِباحة الله الزواج وإِذنه فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 377.380 ﴾

(333/687)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والثمانون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 52 ﴾ من سورة الشورى

وحتى الآية ﴿ 53 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/688)

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الوحي روحاً مدبراً للروح كما أن الروح مدبر للبدن ، صرح به فقال :

﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما أخبرناك بالكيفيات التي نوحيها إلى عبادنا ﴿ أوحينا إليك ﴾ صارفاً القول إلى مظهر العظمة تعظيماً لما أوحى إليه وأفاض من نعمه عليه على جميع تلك الأقسام ، فالتفت في الروع مذكوراً غير منكور ، والسماع من دون الحجاب أصلاً منقول في الإخبار عن ليلة المعراج ومعقول في السماع من وراء الحجاب أيضاً ذكر فيها في قوله : "

أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي " والوحي بواسطة الملك كثيراً جداً ، وأعظم الوحي وشرفه بقوله منكراً له تعظيماً لما عنده من الروح الأمري بإفادة أن هذا الكتاب الذي أبكم الفصحاء وأعجز البلغاء وحير الألباب من الحكماء شعبة منه وذرة بارزة عنه ، ويمكن أن يكون تنكير تعظيم وإجلال وتكريم ﴿ روحاً ﴾ أي من خالطه صار قلبه حياً ومن عري عنه كان قلبه ميتاً .

(5/688)

وزاد عظمه بقوله : ﴿ من أمرنا ﴾ أي بجعله من قسم الأمر وإظهاره في مظهر العظمة فيا له من علو يتضاءل دونه كل شامخ ويتحاقر إكباراً له كل مادح ، والمراد بهذا رد ما تقدم من نسبتهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإفتراء لأنه تعالى لم يختم على قلبه بل فتحه بيد القدرة وأحياه بروح الوحي فأنطقه بالحكم التي خضعت لها الحكماء ، وأقرت بالعجز عن إدانتها ألباب العلماء ، ودل على ذلك بقوله ، نافياً مبيناً حاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل هذا الوحي : ﴿ ما كنت ﴾ أي فيما قبل الأربعين التي مضت لك وأنت بين ظهراني قومك مساوياً لهم في كونك لا تعلم شيئاً ولا تتفوه بشيء من ذلك وهو معنى ﴿ تدري ﴾ وعبر بأداة الاستفهام إشارة إلى أن ما بعدها مما يجب الاهتمام به والسؤال عنه ، وعلق بجملة

الاستفهام الدراية عن العمل وسدت مسد مفعولي الدراية ﴿ ما الكتاب ﴾ أي ما كان في جبلتك أن تعلم ذلك بأدنى أنواع العلم بمجادلة ولا غيرها ﴿ ولا الإيمان ﴾ أي بتفصيل الشرائع على ما حددناه لك بما أوحيناه إليك ، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان قبل النبوة مقراً بوحدانية الله تعالى وعظمته لكنه لم يكن يعلم الرسل على ما هم عليه ، ولا شك أن الشهادة له نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرسالة ركن الإيمان ولم يكن له علم بذلك ، وكذا الملائكة واليوم الآخر فيصح نفي المنفي لفواته بفوات جزئه .

(6/688)

ولما كان المعنى : ولكن نحن أدريناك بذلك كله ، عبر عنه إعلاماً بأن الخلق كانوا في ظلام لكونهم كانوا يفعلون بوضع الأشياء في غير مواضعها فعل من يمشي في الظلام بقوله : ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي الروح الذي هو الكتاب المنزل منا إليك المعلم بالإيمان وكل عرفان بما لنا من العظمة ﴿ نوراً نهدي ﴾ على عظمتنا ﴿ به من نشاء ﴾ خاصة لا يقدر أحد على هدايته بغير مشيئتنا ﴿ من عبادنا ﴾ بخلق الهداية في قلبه ، قال ابن برجان : فمن رزقه الفرقان الذي يفرق بين المتشابهات والنور الذي يمشي به في الظلمات ، فذلك الذي أبصر شعاع النور وشاهد الضياء المبثوث في العالم المفطور ، وعلى قدر إقباله عليه والتفرغ

عن كل شاغل عنه يكون قبوله له وهدايته به ، وقال الأصبهاني في سورة النور : هو الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار مثلاً على الأرض والجدار وغيرهما ، يقال : استنارت الأرض ، وقال حجة الإسلام الغزالي ـ رضى الله عنه ـ : ومن المعلوم أن هذه الكيفية إنما اختصت بالفضيلة والشرف لأن المرئيات تصير بسببها ظاهرة ثم من المعلوم أنه كما يتوقف إدراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة فكذلك يتوقف على وجود اليعن الباصرة وهي المدركة وبها الإدراك ، فكان وصف الإظهار بالنور الباصر أحق بالنور المبصر فلا جرم أطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفاش : إن نور عينيه ضعيف ، وفي الأعمى أنه فقد نور البصر ، إذا ثبت هذا فنقول : للإنسان بصر وبصيرة ، فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للأضواء والألوان والبصيرة هي القوة العاقلة وكل واحد من الإدراكين يقتضي نوراً ، ونور العقل أقوى وأشد من نور العين ، لأن القوة الباصرة لا تدرك نفسها ولا إدراكها ولا آلاتها ، والقوة العاقلة تدرك نفسها ، وإدراكها وآلتها فنور العقل اكمل من نور البصر ، والقوة العاقلة تدرك الكليات والقوة الباصرة لا تدركها ، وإدراك الكليات أشرف لانه لا يتغير بخلاف الجزئيات ، وإدراك العقل منتج

(7/688)

وإدراك الجزئي غير منتج ، والقوة الباصرة لا تدرك إلا السطح الظاهر من الجسم واللون القائم بذلك السطح بشرط الضوء فإذا أدركت الإنسان لم تدرك منه إلا السطح الظاهر من جسمه واللون القائم به والقوة العاقلة تدرك ظاهر الأشياء وباطنها فان الباطن والظاهر بالنسبة إليها على السواء فكانت القوة العاقلة نوراً بالنسبة إلى الظاهر والباطن ، والقوة الباصرة ظلمة بالنسبة إلى الباطن ، ومدرك القوة العاقلة هو الله وصفاته وأفعاله ، ومدرك القوة هو الألوان والأشكال فيكون نسبة شرف القوة العاقلة إلى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله إلى شرف الألوان والأشكال ، والقوة الباصرة كالخادم والقوة العاقلة كالأمير ، والأمير أشرف من الخادم ، والقوة الباصرة قد تغلط والقوة العاقلة لا تغلط ، فثبت أن الإدراك العقلي أكمل وأقوى وأشرف من الإدراك البصري ، وكل واحد من الإدراكين يقتضي الظهور الذي هو أشرف خواص النور ، فكان الإدراك العقلي أولى بكونه نوراً ، والإدراك العقلي قسمان : أحدهما واجب الحصول عند سلامة القوى والآلات وهي التعقلات الفطرية ، والثاني ما يكون مكتسباً ، وهي التعقلات النظرية ، ولا يكون من لوازم جوهر الإنسان لأنه حال الطفولية لم يكن عالماً ألبتة ، فهذه الأنوار إنما حصلت بعد أن لم تكن فلا بد لها من سبب ، والفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ فلا بد من هاد ومرشد ، ولا مرشد فوق كلام الله وأنبيائه ، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس

كما يسمى نور الشمس نوراً فنور القرآن يشبه نور الشمس ونور العقل يشبه نور العين ، وبهذا يظهر معنى قوله تعالى :

(8/688)

﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ [التغابن : 8] ﴿ قد جاءكم برهان من ربكم ﴾ ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ [النساء : 74] وإذا ثبت أن بيان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقوى من نور الشمس وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس كما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها فكذا نفس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفيد الأنوار العقلية لسائر النفوس البشرية ولا تستفيد النور العقلي من شيء من النفوس البشرية ، فلذلك وصف الله الشمس بأنها سراج ، ووصف محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه سراج ، ثم قال : ولمراتب الأنوار في عالم الأرواح مثال ، وهو أن ضوء الشمس إذا وصل إلى القمر ثم دخل في كوة بيت ووقع على مرآة منصوبة على حائط ثم انعكس منه إلى طشت مملوء ماء موضوع على الأرض ثم انعكس منه إلى سقف البيت فالنور الأعظم في الشمس التي هي المعدن ، وثانيها في القمر ، وثالثها في المرآة ، ورابعها في الماء ، وخامسها في السقف ، وكل ما كان أقرب إلى المعدن

كان أقوى فكذا الأنوار السماوية لما كانت مترتبة لا جرم كان النور المفيد أشد إشراقاً ، ثم تلك الأنوار لا تزال مترتبة حتى تنتهي إلى النور الأعظم والروح الذي هو أعظم الأرواح منزلة عند الله الذي هو المراد بقوله ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ [النبأ : 38] ثم نقول : إن هذه الأنوار الحسية سفلية كانت كأنوار النيران أو علوية كأنوار فإنها ممكنة لذواتها والممكن لذاته لا يستحق الوجود لذاته بل وجوده من غيره ، والعدم هو الظلمة والوجود هو النور ، فكل ما سوى الله مظلم لذاته مستنير بإنارة الله تعالى ، وكذا جميع معارفها وجودها حاصل من وجود الله تعالى فإن الحق سبحانه هو الذي أظهرها بالوجود بعد أن كانت في ظلمات العدم ، وأفاض عليها أنوار المعارف بعد أن كانت في ظلمات الجهالة ، فلا ظهور لشيء من الأشياء إلا بإظهاره ، وخاصة النور إعطاء

(9/688)

الإظهار والتجلي والانكشاف ، وعند هذا يظهر أن النور المطلق هو الله سبحانه وإن إطلاق النور على غيره مجاز ، وكل ما سوى الله من حيث هو هو ظلمة محضة لأنه من حيث أنه ممكن عدم محض بل الأنوار إذا نظر إليها من حيث هي هي فهي ظلمات لأنها من حيث هي هي ممكنات ، والممكن من حيث هو هو معدوم ، والمعدوم مظلم ، فالنور إذا

نظر من حيث هو ممكن مظلم ، فأما إذا التفت إليها من حيث أن الحق سبحانه أفاض عليها نور الوجود بهذا الاعتبار صارت أنواراً فثبت أنه سبحانه هو النور وأن كل ما سواه ليس بنور ، وأضاف النور إلى الخافقين في قوله ﴿ نور السماوات والأرض ﴾ لأنهما مشحونتان بالأنوار العقلية والأنوار الحسية ، أما الحسية فما نشاهده في السماوات من الكواكب وغيرها ، وفي الأرض من الأشعة المنبسطة على سطوح الأجسام حتى ظهرت بها الألوان المختلفة ، ولولاها لما كان للألوان ظهور بل وجود ، وأما الأنوار العقلية فالعالم الأعلى مشحون بها وهي جواهر الملائكة ، والعالم الأدنى مشحون بها وهي القوى النباتية والحيوانية والإنسانية ، وبالنور الإنساني السفلي ظهر نظام العالم الأسفل كما أنه بالنور الملكي ظهر نظام العالم العلوي وإذا عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار البصرية الظاهرة والعقلية الباطنة ، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج والسراج هو الروح النبوي ثم إن الأنوار القدسية مقتبسة من الأنوار العلوية اقتباس السراج من النور وإن العلويات مقتبسة بعضها من بعض وإن بينها ترتيباً في الغايات ، ثم ترتقي جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول ، وذلك هو الله وحده لا شريك له ، فإذا الكل نوره ، ثم قال : قال الإمام الغزالي : قد تبين أن القوى المدركة أنوار .

(10/688)

ومراتب القوة المدركة الإنسانية خمسة ، أحدهما القوة الحساسة وهي التي تتلقى ما تورده الحواس الخمس ، وكأنها أصل الروح الحيواني إذ بها يصير الحيوان حيواناً ، وهي موجودة للصبي والرضيع وثانيها القوة الخيالية وهي التي تسبب ما أوردته الحواس وتحفظه مخزوناً عندها لتعرضه عن القوة العقلية عند الحاجة إليه ، وثالثها القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية ، ورابعها القوة الفكرية وهي التي تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفاً تستنتج منه علماً بالمجهول ، وخامسها القوة القدسية التي يختص بها الأنبياء وبعض الأولياء ، وتنجلي فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت ، وإليه إشار قوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ الآية ، وإذا عرفت هذه القوى فهي بجملتها أنوار إذ بها تظهر أصناف الموجودات ، وهذه المراتب الخمس يمكن تشبيهها بالأمور الخمسة التي ذكرها الله في المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت ، أما الروح الحساس فإذا نظرت إلى خاصته وجدت أنواره خارجة من ثقب كالعينين والأذنين والمنخرين ، فأرفق مثال له من عالم الأجسام المشكاة ، وأما الثاني وهو الروح الخيالي فله خواص ثلاثة : الأول أنه من طينة العالم السفلي الكثيف لأن الشيء المتخيل ذو شكل وحيز ، ومن شأن العلائق الجسمانية أن تحجب عن الأنوار العقلية المحضة ، والثاني أن هذا الخيال الكثيف إذا صفا ورق صار موازناً للمعارف العقلية ومؤدياً لأنوارها ، ولذلك يستدل المعبر بالصور الخيالية على المعاني العقلية كما

يستدل بالشمس على الملك ، وبالقمر على الوزير ، وبختم فروج الناس وأفواههم على الأذان قبل الصبح ، والثالث أن الخيال في البداية محتاج إليه لتضبط به المعارف العقلية ولا تضطرب ، وأنت لا تجد شيئاً في الأجسام يشبه الخيال في هذه الصفات إلا الزجاجة فإنها في الأصل من جوهر كثيف ولكن صفا ورق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه من الانطفاء بالزجاج ، وأما

(11/688)

الثالث وهو القوة العقلية القوية على إدراك الماهيات الكلية والمعارف الإلهية فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح ، وأما الرابع وهو القوة الفكرية فمن خاصيتها أنها تأخذ ماهية واحدة ثم تقسمها إلى قسمين كقولنا : الموجود إما واجب وإما ممكن ، ثم تجعل كل قسم قسمين ، وهكذا إلى أن تنتهي إلى ما لا يقبل القسمة ، ثم تنتهي بالآخرة إلى نتائج هي ثمرتها ، فبالحري أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة وإذا كانت ثمارها مادة لتزايد أنوار المعارف وبيانها فبالحري أن لا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح بل بشجرة الزيتون خاصة لأن لب ثمرتها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح وله من بين سائر الأدهان خاصة زيادة الإشراق وقلة الدخان ، وإذا كانت الماشية التب يكثر درها ونسلها والشجرة التي تكثر ثمرتها

تسمى مباركة فالتي لا نهاية لمنفعتها وثمرتها أولى أن تسمى شجرة مباركة ، وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الأجسام ، فبالحري أن لا تكون شرقية ولا غربية ، وأما الخامس وهو القوة القدسية النبوية فهي في نهاية الشرف والصفاء ، فإن القوة الفكرية تنقسم إلى ما تحتاج إلى تعليم وإلى ما لا يحتاج إليه ، ولا بد من وجود هذا القسم دفعاً للتسلسل فبالحري أن يعبر عن هذا القسم لكماله وصفاته بأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسه نار ، فهذا المثال موافق لهذه الأقسام ، وهذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض ، فالحس هو الأول وهو كالمقدمة للخيال ، والخيال كالمقدمة للعقل - انتهى كلام الغزالي رحمه الله تعالى عن نقل الأصفهاني في تفسيره عنه - والله أعلم .

(12/688)

ولما كان المعنى بناء على ما تقدم من صفة الروح الإلهي : فهديناك به ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وإنك لتهدي ﴾ أي تبين وترشد ، وأكده لإنكارهم ذلك ﴿ إلى صراط ﴾ أي طريق واضح جداً ، وإن عانيت في البيان مشقة بنفسك وبالوسائط بما أفادته التعدية ب " إلى " فيفهم من ذلك أنه يهدي للصراط بدون ذلك من العناية لمن يسر الله أمره ويهدي الصراط لمن هو أعظم توفيقاً من ذلك ﴿ مستقيم ﴾ أي شديد التقوم لأنه كأنه يريد أن يقوم

نفسه فهو بعد وجود تقومه حافظ لها من أدنى خلل ، وهو كل ما دعا إليه من خصال هذا الدين الحنيف الذي هو ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم أبدل منه تعظيماً لشأنه قوله بدل كل من كل معرفة من نكرة لافتاً القول من مظهر العظمة إلى أعظم منه إشارة إلى جلالة هذا الصراط بما فيه من مجامع الرحمة والنقمة ترغيباً وترهيباً : ﴿ صراط الله ﴾ أي الملك الأعظم الجامع لصفات الكمال ، ثم وصفه بأنه مالك لما افتتح هذا الكلام بأن له ملكه فقال : ﴿ الذي له ﴾ ملك ﴿ ما في السماوات ﴾ أي هو جميع السماوات التي هي في عرشه والأرض لأنها في السماوات وما في ذلك من المعاني والأعيان ﴿ وما في الأرض ﴾ .

(13/688)

ولما أخبر سبحانه أنه المخترع لجميع الأشياء والمالك لعالمي الغيب والشهادة والخلق والأمر وأنه المتفرد بالعظمة كلها ، وكان مركوزاً في العقول مغروزاً في الفطر أن من ابتدأ شيئاً وليس له كفوء قادر على إعادته وأن يكون مرجع أمره كله إليه ، فلذلك كانت نتيجة جميع ما مضى على سبيل المناداة على المنكرين لذلك وعداً ووعيداً لأهل الطاعة والمعصية بناء على ما تقديره : كيف يكون له ما ذكر على سبيل الدوام ونحن نرى لغيره أشياء كثيرة تضاف إليه ويوقف تصريفها والتصرف فيها عليه : ﴿ ألا إلى الله ﴾ أي المحيط بجميع

صفات الكمال الذي تعالى عن مثل أو مدان وهو الكبير المتعالي ، لا إلى أحد غيره ﴿ تصير ﴾ أي على الدوام وإن كانت في الظاهر في ملك غيره بحيث يظن الجاهل أن ملكها مستقر له ، قال أبو حيان : أخبر بالمضارع والمراد به الديمومة كقوله : زيد يعطي ويمنع أي من شأنه ذلك ولا يراد به حقيقة المستقبل : ﴿ الأمور ﴾ أي كلها من الخلق والأمر معنىً وحساً خفياً في الدنيا بما نصب من الحكام وجعل بين الناس من الأسباب ، وجلياً فيما وراءها حيث قطع ذلك جميعه وحده العزيز الحكيم العلي العظيم ، فقد رجع آخر السورة على أولها ، وانعطف مفصلها على موصلها ، واتصل من حيث كونه في الوحي الهادي في أول الزخرف على أتم عادة لهذا الكتاب المنير من اتصال الخواتم فيه بالبوادي والروائح بالغوادي - والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 652 . 657 ﴾

(14/688)

فصل

قال الفخر :

ولما بيّن الله تعالى كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام ، قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ والمراد به القرآن وسماه روحاً ، لأنه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ واختلف العلماء في هذه الآية مع الإجماع على أنه لا يجوز أن يقال الرسل كانوا قبل الوحي على الكفر ، وذكروا في الجواب وجوهاً الأول : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب ﴾ أي القرآن ﴿ وَلاَ الإيمان ﴾ أي الصلاة ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [البقرة : 143] أي صلاتكم الثاني : أن يحمل هذا على حذف المضاف ، أي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الإيمان ، يعني من الذي يؤمن ، ومن الذي لا يؤمن الثالث : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان حين كنت طفلاً في المهد الرابع : الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به ، وإنه قبل النبوّة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى ، بل إنه كان عارفاً بالله تعالى ، وذلك لا ينافي ما ذكرناه الخامس : صفات الله تعالى على قسمين : منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل ، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية .

فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوّة .

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ واختلفوا في الضمير في قوله ﴿ ولكن جعلناه ﴾ منهم من قال إنه راجع إلى القرآن دون الإيمان لأنه هو الذي يعرف به الأحكام ، فلا جرم شبه بالنور الذي يهتدي به ، ومنهم من قال إنه راجع إليهما معاً ،

وحسن ذلك لأن معناهما واحد كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة : 11] .

(15/688)

ثم قال : ﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى بعد أن جعل القرآن نفسه في نفسه هدىً كما قال : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] فإنه قد يهدي به البعض دون البعض وهذه الهداية ليست إلا عبارة عن الدعوة وإيضاح الأدلة لأنه تعالى قال في صفة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو يفيد العموم بالنسبة إلى الكل وقوله ﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يفيد الخصوص فثبت أن الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية في قوله ﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ خاصة والهداية الخاصة غير الهداية العامة فوجب أن يكون المراد من قوله ﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أمراً مغايراً لإظهار الدلائل ولإزالة الأعذار ، ولا يجوز أيضاً أن يكون عبارة عن الهداية إلى طريق الجنّة لأنه تعالى قال : ﴿ ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أي جعلنا القرآن نوراً نهدي به من نشاء ، وهذا لا يليق إلا بالهداية التي تحصل في الدنيا ، وأيضاً فالهداية إلى الجنّة عندكم في حق البعض واجب ، وفي حق الآخرين محظور

، وعلى التقديرين فلا يبقى لقوله ﴿ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فائدة ، فثبت أن المراد أنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ولا اعتراض عليه فيه .

ثم قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فبيّن تعالى أنه كما أن القرآن يهدي فكذلك الرسول يهدي ، وبيّن أنه يهدي إلى صراط مستقيم وبيّن أن ذلك الصراط هو ﴿ صراط الله الذى لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ نبّه بذلك على أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض ، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله .

(16/688)

ثم قال : ﴿ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ وذلك كالوعيد والزجر ، فبيّن أن أمر من لا يقبل هذه التكاليف يرجع إلى الله تعالى ، أي إلى حيث لا حاكم سواه فيجازي كلاً منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

قال رضي الله عنه : تمّ تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة الثامن من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة ، يا مدبر الأمور ، ويا مدهر الدهور ويا معطي كل خير وسرور ، ويا دافع

البلايا والشرور ، أوصلنا إلى منازل النور ، في ظلمات القبور ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 163.164 ﴾

(17/688)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

الآية الأولى آية اعتبار دال على القدرة والملك المحيط بالجميع ، وأن مشيئته تبارك وتعالى نافذة في جميع خلقه وفي كل أمرهم ، وهذا لا مدخل لصنم فيه ، فإن الذي يخلق ما يشاء ويخترع ، فإنما هو الله تبارك وتعالى ، وهو الذي يقسم الخلق فيهب الإناث لمن يشاء ، أي يجعل بنيه نساء ، ويهب الذكور لمن يشاء على هذا الحد ، أو ينوعهم مرة يهب ذكراً ويهب أنثى ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ أو يزوجهم ﴾ . وقال محمد بن الحنفية : يريد بقوله تعالى : ﴿ أو يزوجهم ﴾ التوأم ، أي يجعل في بطنٍ زوجاً من الذرية ذكراً وأنثى . والعقيم : الذي لا يولد له ، وهذا كله مدبر بالعلم والقدرة ، وهذه الآية تقضي بفساد وجود الخنثى المشكل . وبدئ في هذه الآية بذكر الإناث تأنيساً بهن وتشريفاً لهن ليتهمم بصونهن والإحسان إليهن ، وقال النبي عليه السلام : " من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن

إليهن كن له حجاباً من النار " . وقال واثلة بن الأسقع : من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر ، لأن الله تعالى بدأ بالإناث ، حكاه الثعلبي . وقال إسحاق بن بشر : نزلت هذه الآية في الأنبياء ثم عمت ، فلوط أبو البنات لم يولد له ذكر ، وإبراهيم ضده ، ومحمد عليه السلام ولد له الصنفان ، ويحيى بن زكرياء عقيم .

(18/688)

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله ﴾ الآية نزلت بسبب خوض كان للكفار في معنى تكليم الله موسى ونحو ذلك ، ذهبت قريش واليهود في ذلك إلى تجسيم ونحوه ، فنزلت الآية مبينة صورة تكليم الله عباده كيف هو ، فبين الله أنه لا يكون لأحد من الأنبياء ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أن يكلمه الله إلا بأن يوحي إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام . قال مجاهد ، والنفث في القلب . وقال النقاش : أو وحي في منام ؟ قال إبراهيم النخعي : كان من الأنبياء من يخط له في الأرض ونحو هذا ، أو بأن يسمعه كلامه دون أن يعرف هو للمتكلم جهة ولا حيزاً كموسى عليه السلام ، وهذا معنى : ﴿ من وراء حجاب ﴾ أي من خفاء عن المتكلم لا يحده ولا يتصور بذهنه عليه ، وليس كالحجاب في الشاهد ، أو بأن يرسل إليه ملكاً يشافهه بوحي الله تعالى . وقرأ جمهور القراء والناس : " أو يرسلَ " بالنصب "

فيوحيَ " بالنصب أيضاً . وقرأ نافع وابن عامر وأهل المدينة : " أو يرسلُ " بالرفع " فيوحيَ " بالنصب أيضاً . وقرأ نافع وابن عامر وأهل المدينة : " أو يرسلُ " بالرفع " فيوحي " بسكون الياء ورفع الفعل . فأما القراءة الأولى فقال سيبويه : سألت الخليل عنها فقال : هي محمولة على ﴿ أن ﴾ غير التي في قوله : ﴿ أن يكلمه الله ﴾ لأن المعنى كان يفسد لو عطف على هذه ، وإنما التقدير في قوله : ﴿ وحياً ﴾ إلا أن يوحي وحياً .

وقوله : ﴿ من وراء حجاب ﴾ ، ﴿ من ﴾ متعلقة بفعل يدل ظاهر الكلام عليه ، تقديره : أو يكلمه من وراء حجاب ، ثم عطف : " أو يرسل " على هذا الفعل المقدر .

(19/688)

وأما القراءة الثانية فعلى أن " يرسل " في موضع الحال أو على القطع ، كأنه قال : أو هو يرسل ، وكذلك يكون قوله : ﴿ إلا وحياً ﴾ مصدر في موضع الحال ، كما تقول : أتيتك ركضاً وعدواً ، وكذلك قوله : ﴿ من وراء حجاب ﴾ في موضع الحال كما هو قوله : ﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴾ [آل عمران : 46] في موضع الحال ، فكذلك ﴿ من ﴾ [آل عمران : 46] وما عملت فيه هذه الآية أيضاً ، ثم عطف قوله : " أو يرسلَ " على هذه الحال المتقدمة . وفي هذه الآية دليل على أن الرسالة من أنواع التكليم ، وأن

الحالف المرسل حانث إذا حلف أن لا يكلم إنساناً فأرسل إليه وهو لم ينو المشافهة وقت يمينه .

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ المعنى وبهذه الطرق ومن هذا الجنس أوحينا إليك أو بالرسل . والروح في هذه الآية : القرآن وهدى الشريعة سماه ﴿ روحاً ﴾ من حيث يحيي به البشر والعالم ، كما يحيي الجسد بالروح ، فهذا على جهة التشبيه .

وقوله تعالى : ﴿ من أمرنا ﴾ أي واحد من أمورنا ، ويحتمل أن يكون الأمر بمعنى الكلام ، و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية .

وقوله تعالى : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ توقيف على مقدار النعمة .

والضمير في ﴿ جعلناه ﴾ عائد على الكتاب ، و . ﴿ يهدي ﴾ بمعنى يرشد .

وقرأ جمهور الناس : " وإنك لتَهدي " بفتح التاء وكسر الدال . وقرأ حوشب : " تُهدَى " بضم التاء وفتح الدال على بناء الفعل للمفعول ، وفي حرف أبي : " لتدعو " ، وهي تعضد قراءة الجمهور . وقرأ ابن السميفع وعاصم والجحدري : " لتُهدِي " بضم التاء وكسر الدال .

(20/688)

وقوله : ﴿ صراط الله ﴾ يعني صراط شرع الله ورحمته وجنته ، فبهذا الوجه ونحوه من التقدير أضيف الصراط إلى الله تعالى . واستفتح القول في الإخبار بصيرورة الأمور إلى الله تعالى مبالغة وتحقيقاً وتثبيتاً ، والأمور صائرة على الدوام إلى الله تعالى ، ولكن جاءت هذه العبارة مستقبلة تقريباً لمن في ذهنه أن شيئاً من الأمور إلى البشر . وقال سهيل من أبي الجعد : احترق مصحف فلم يبق منه إلا قوله : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(21/688)

وقال القرطبى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿ رُوحاً ﴾ أي نبوة ؛ قاله ابن عباس .

الحسن وقتادة : رحمة من عندنا .

السُّدّي : وحْياً .

الكلبي : كتاباً .

الربيع : هو جبريل .

الضحاك : هو القرآن .

وهو قول مالك بن دينار .

وسماه روحاً لأن فيه حياةً من موت الجهل .

وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب .

ويمكن أن يحمل قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾ [الإسراء : 85] على القرآن أيضاً ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] أي يسألونك من أين لك هذا القرآن ، قل إنه من أمر الله أنزله عليّ معجزاً ؛ ذكره القُشَيْري .

وكان مالك بن دينار يقول : يا أهل القرآن ، ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض .

الثانية قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ أي لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان .

وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفاً بالإيمان .

قال القُشَيري : وهو من مجوّزات العقول ، والذي صار إليه المعظم أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً به قبل البعثة .

وفيه تحكّم ، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به .

قال القاضي أبو الفضل عياض : وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوّة فللناس فيه خلاف ؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوّة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك .

وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام .

(22/688)

قال الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ [مريم : 12] قال المفسرون : أعطى يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه .

قال معمر : كان ابن سنتين أو ثلاث ؛ فقال له الصبيان : لِمَ لا تلعب ! فقال : أَلِلَّعب خُلقت !

وقيل في قوله : ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله ﴾ [آل عمران : 39] صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين ، فشهد له أنه كلمة الله وروحه .

وقيل : صدقه وهو في بطن أمه ؛ فكانت أمّ يحيى تقول لمريم إني أجد ما في بطني يسجد لما

في بطنك تحية له .

وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ [مريم : 24] على قراءة من قرأ "مَنْ تَحْتَهَا" ، وعلى قول من قال : إن المنادى عيسى ونصّ على كلامه في مهده فقال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ [مريم : 30] .

وقال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [الأنبياء : 79] وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبيّ ما اقتدى به أبوه داود .

وحكى الطبري أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عاماً .

وكذلك قصة موسى (عليه السلام) مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل .

وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء : 51] : أي هديناه صغيراً ؛ قاله مجاهد وغيره .

وقال ابن عطاء : اصطفاه قبل إبداء خلقه .

وقال بعضهم : لما ولد إبراهيم بعث الله إليه مَلَكاً يأمره عن الله تعالى أن يعرِفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال : قد فعلتُ ؛ ولم يقل أفعل ؛ فذلك رشده .

وقيل : إن إلقاء إبراهيم في النار ومِحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة .

وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين .

وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة .

وقيل : أوحِي إلى يوسف وهو صبي عندما همّ إخوته بإلقائه في الجُبّ بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ [يوسف : 15] الآية ؛ إلى غير ذلك من أخبارهم .

وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرت " أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ولد حين ولد باسطاً يديه إلى الأرض رافعاً رأسه إلى السماء ، وقال في حديثه صلى الله عليه وسلم : "لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغِّض إلي الشعر ولم أهُمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد " " ثم يتمكن الأمر لهم ، وتترادف نفحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوّة في تحصيل الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [القصص : 14] .

قال القاضي : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نُبِّيء واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك .

ومستند هذا الباب النقل .

وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله .

قال القاضي : وأنا أقول إن قريشاً قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما افترته ، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته ، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة ، ولم نجد في شيء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه .

(24/688)

ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين ، وبتلونه في معبوده محتجين ، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أُفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه ؛ إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ [البقرة : 142] كما حكاه الله عنهم .

الثالثة وتكلم العلماء في نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ هل كان مُتَعَبِّداً بدين قبل الوَحْي أم لا ؛ فمنهم من منع ذلك مطلقاً وأحاله عقلاً .

قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عُرف تابعاً ، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح .

وقالت فرقة أخرى : بالوقف في أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك ، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل ، وهذا مذهب أبي المعالي .

وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبداً بشرع من قبله وعاملاً به ؛ ثم اختلف هؤلاء في التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها ؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ .

وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء .

وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ؛ لأنه أقدم الأديان .

وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دينٍ ولكن عين الدين غير معلومة عندنا .

وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا ؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة ، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه .

(25/688)

والذي يُقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوباً إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحداً من أمته ومخاطَباً بكل شريعته ؛ بل شريعته مستقِلة بنفسها مفتتحة من عند الله

الحاكم جلّ وعز وأنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمناً بالله عز وجل ، ولا سجد لصنم ، ولا أشرك بالله ، ولا زنى ولا شرب الخمر ، ولا شهد السامر ولا حضر حِلف المطر ولا حلْفَ المطيبِين ؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك .

فإن قيل : فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثاً بسنده عن جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم ، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه : اذهب حتى تقوم خلفه ، فقال الآخر : كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد ؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدّاً وقال : هذا موضوع أو شبيه بالموضوع .

وقال الدّارَقُطْني : إن عثمان وَهِمَ في إسناده ، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه ، والمعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافه عند أهل العلم من قوله : "بُغِّضت إليّ الأصنام " وقوله " في قصة بحِيرا حين استحلف النبيّ صلى الله عليه وسلم باللاّت والعزّى إذ لَقِيَه بالشام في سَفْرته مع عمه أبي طالب وهو صبي ، ورأى فيه علامات النبوّة فاختبره بذلك ؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تسألني بهما فواللّهِ ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغْضَهُمَا " فقال له بَحيرا : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال : "سل عما بدا لك" " وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيقِ الله إياه له أنه كان

قبل نبوّته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج ، وكان يقف هو بعرفة ، لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام .

(26/688)

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [البقرة : 135] وقال : ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [النحل : 123] وقال : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين ﴾ [الشورى : 13] الآية .

وهذا يقتضي أن يكون متعبداً بشرع .

فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين ؛ على ما تقدّم بيانه في غير موضع وفي هذه السورة عند قوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين ﴾ والحمد لله .

الرابعة إذا تقرّر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ .

فقال جماعة : معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه ؛ ذكره الثعلبي .

وقيل : تفاصيل هذا الشرع ؛ أي كنت غافلاً عن هذه التفاصيل .

ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ؛ ذكره القشيري .

وقيل : ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؛ ونحوه عن أبي العالية .

وقال بكر القاضي : ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام .

قال : وكان قبل مؤمناً بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل ؛ فزاد بالتكليف إيماناً .

وهذه الأقوال الأربعة متقاربة .

وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : 143] أي صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص .

وقال الحسين بن الفضل : أي ما كنت تدري ما الكتاب ولا أهل الإيمان .

وهو من باب حذف المضاف ؛ أي مَن الذي يؤمن ؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما .

وقيل : ما كنت تدري شيئاً إذ كنت في المهد وقبل البلوغ .

وحكى الماوردي نحوه عن عليّ بن عيسى قال : ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة ، ولا الإيمان لولا البلوغ .

وقيل : ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك ، وهو محتمل .

وفي هذا الإيمان وجهان : أحدهما أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرِفه بعد بلوغه وقبل نبوته .

والثاني أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة .

قلت : إنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمناً بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه ؛ على ما تقدّم .

وقيل : "مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ" أي كنت من قوم أُمِّيين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان ، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم ؛ وهو كقوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ ولكن جَعَلْنَاهُ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : يعني الإيمان .

السدي : القرآن وقيل الوحي ؛ أي جعلنا هذا الوحي ﴿ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ ﴾ أي من نختاره للنبوّة ؛ كقوله تعالى :

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 74] .

ووحّد الكناية لأن الفعل في كثرة أسمائه بمنزلة الفعل في الاسم الواحد ؛ ألا ترى أنك تقول : إقبالك وإدبارك يعجبني ؛ فتوحّد ، وهما اثنان .

﴿ وَإِنَّكَ لتهدي ﴾ أي تدعو وترشد ﴿ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ دين قويم لا اعوجاج

فيه .

وقال عليّ : إلى كتاب مستقيم .

وقرأ عاصم الجحدري وحَوْشب "وَإِنَّكَ لَتُهْدى" غير مسمى الفاعل ؛ أي لتُدْعَى .

الباقون "لتهدي" مسمى الفاعل .

وفي قراءة أبي "وَإِنَّكَ لَتَدْعُو" .

قال النحاس : وهذا لا يقرأ به ؛ لأنه مخالف للسواد ، وإنما يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير ؛ كما قال : "وَإِنَّكَ لَتَهْدِي" أي لتدعو .

وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : 7] .

﴿ صِرَاطِ الله ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة .

قال عليّ : هو القرآن .

وقيل الإسلام .

(28/688)

ورواه النوّاس بن سمعان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ ملكاً وعبداً وخلقاً .

﴿ أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ وعيد بالبعث والجزاء .

قال سهل بن أبي الجعد : احترق مصحف فلم يبقَ إلا قوله : ﴿ أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾

وغرق مصحف فامحى كله إلا قوله : ﴿ أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ .

والحمد لله وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(29/688)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾

﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ ، قيل : هو يوم ورود الموت ، والظاهر أنه يوم القيامة .

و ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه ما مر ، أي لا يرد ذلك اليوم من ما حكم الله به فيه .

وقال الزمخشري : ﴿ من الله ﴾ : من صلة للأمرد .

انتهى ، وليس الجيد ، إذ لو كان من صلته لكان معمولاً له ، فكان يكون معرباً منوناً .

وقيل : ﴿ من الله ﴾ يتعلق بقوله : ﴿ يأتي ﴾ ، من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده .

﴿ ما لكم من ملجأ ﴾ تلجأون إليه ، فتتخلصون من العذاب ، ومالكم من إنكار شيء من أعمالكم التي توردكم النار ، والنكير مصدر أنكر على غير قياس .

قيل : ويحتمل أن يكون اسم فاعل للمبالغة ، وفيه بعد ، لأن نكر معناه لم يميز .

﴿ فإن أعرضوا ﴾ الآية : تسلية للرسول وتأنيس له ، وإزالة لهمه بهم .

والإنسان : يراد به الجنس ، ولذلك جاء : ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ .

وجاء جواب الشرط ﴿ فإن الإنسان ﴾ ولم يأت فإنه ، ولا فإنهم ، ليدل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ، كما قال : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ ولما ذكر أنه يكفر النعم ، أتبع ذلك بأن له ملك العالم العلوي والسفلي ، وأنه يفعل ما يريد ، ونبه على عظيم قدرته ، وأن الكائنات ناشئة عن إرادته ، فذكر أنه يهب لبعض إناثاً ، ولبعض ذكوراً ، ولبعض الصنفين ، ويعقم بعضاً فلا يولد له .

وقال إسحق بن بشر : نزلت هذه الآية في الأنبياء ، ثم عمت .

فلوط أبو بنات لم يولد له ذكور ، وإبراهيم ضده ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وعليهما ولد له الصنفان ، ويحيى عقيم . انتهى .

وذكر أيضاً مع لوط شعيب ، ومع يحي عيسى ، وقدم تعالى هبة البنات تأنيساً لهن وتشريفاً لهن ، ليهتم بصونهن والإحسان إليهن .

(30/688)

وفي الحديث : " من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له ستراً من النار " وقال واثلة بن الأسقع : من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر ، لأن الله تعالى بدأ بالإناث .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم قدم الإناث على الذكور مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم ؟ ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث ؟ قلت : لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى .

وكفران الإنسان : نسيانه الرحمة السابقة عنده .

ثم ذكره بذكر ملكه ومشيئته ، وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث ، لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه ، لا ما يشاء الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللائي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم أوجب التقديم .

والبلاء : الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ، ذكر البلاء وآخر الذكور .

فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيره ، وهم أحق بالتقديم بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفريقين ، الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم .

ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حظه من التقديم والتأخير ، وعرفان تقديمهن لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى آخر فقال : ﴿ ذكراناً وإناثاً ﴾ ، كما قال : ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ ﴿ فجعل منه الزوجين والذكر والأنثى ﴾ انتهى .

وقيل : بدأ بالأنثى ثم ثنى بالذكر ، لتنقله من الغم إلى الفرح .

وقيل : ليعلم أنه لا اعتراض على الله فيرضى .

فإذا وهب له الذكر ، علم أنه زيادة وفضل من الله وإحسان إليه .

وقيل : قدمها تنبيهاً على أنه إذا كان العجز والحاجة لهم ، كانت عناية الله أكثر .

وقال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاماً ، ثم تلد جارية .

وقال محمد بن الحنيفة : أن تلد توأماً ، غلاماً وجارية .

وقال أبو بكر بن العربي : أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً .

قال علماؤنا : يعني آدم ، كانت حواء تلد له في كل بطن توأمين ، ذكراً وأنثى ؛ تزوج ذكر هذا البطن أنثى البطن الآخر . انتهى .

(31/688)

ولما ذكر الهبة في الإناث ، والهبة في الذكور ، اكتفى عن ذكرها في قوله : ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ .

ولما كان العقم ليس بمحمود قال : ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ ، وهو قسيم لمن يولد له .

ولما كانت الخنثى مما يحزن بوجوده ، لم يذكره تعالى .

قالوا : وكانت الخلقة مستمرة ، ذكراً وأنثى ، إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخنثى ، فسئل فارض العرب ومعمرها عامر بن الظرب عن ميراثه ، فلم يدر ما يقوله وأرجأهم .

فلما جن عليه الليل ، جعل يتقلب وتذهب به الأفكار ، وأنكرت خادمه حاله فسألته ، فقال : بهرت لأمر لا أدري ما أقول فيه ، فقالت له : ما هو ؟ فقال : شخص له ذكر وفرج ، كيف يكون حاله في الميراث ؟ قالت له الأمة : ورثه من حيث يبول ، فعقلها وأصبح فعرضها عليهم ، فرضوا بها .

وجاء الإسلام على ذلك ، وقضى بذلك علي ، كرم الله وجهه ، إنه عليم بمصالح العباد ، قدير على تكوين ما يشاء .

كان من الكفار خوض في معنى تكليم الله موسى ، فذهبت قريش واليهود في ذلك إلى التجسيم ، فنزلت .

وقيل : كانت قريش تقول : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً صادقاً ، كما كلمه موسى ونظر إليه ؟ فقال لهم الرسول عليه السلام : " لم ينظر موسى إلى الله " ، فنزلت : ﴿ وما

كان لبشر أن يكلمه الله ﴾ ، بياناً لصورة تكليم الله عباده أي ما ينبغي ولا يمكن لبشر إلا يوحى إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام .

قال مجاهد : أو النفث في القلب .

وقال النقاش : أو وحي في المنام .

وقال النخعي : كان في الأنبياء من يخط له في الأرض ، أو بأن يسمعه كلامه دون أن يعرف هو للمتكلم جهة ولا حيزاً ، كموسى عليه السلام ، وهذا معنى ﴿ من وراء حجاب ﴾ : أي من خفاء عن المتكلم ، لا يحده ولا يتصور بذهنه عليه ، وليس كالحجاب في المشاهد ، أو بأن يرسل إليه ملكاً يشافهه بوحي الله تعالى ، قاله ابن عطية .

وقال الزمخشري : وما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على ثلاثة أوجه :

(32/688)

إما على طريق الوحي ، وهو الإلهام والقذف في القلب والمنام ، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده .

وعن مجاهد : أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره ، قال عبيد بن الأبرص :

وأوحى إلى الله أن قد تأمروا . . .

بابن أبي أوفى فقمت على رجل

أي : ألهمني وقذف في قلبي .

وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه ، لأنه في ذاته غير مرئي .

وقوله : ﴿ من وراء حجاب ﴾ مثل ، أي : كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه ، وهو من وراء حجاب ، فيسمع صوته ولا يرى شخصه ، وذلك كما كلم الله موسى ويكلم الملائكة .

وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيوحي الملك إليه ، كما كلم الأنبياء غير موسى .

انتهى ، وهو على طريق المعتزلة في استحالة رؤية الله تعالى ونفي الكلام الحقيقي عن الله .

وكل هذه الأقسام الثلاثة يصدق عليها أنها وحي ، وخص الأول باسم الوحي هنا ، لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام يقع دفعة واحدة ، فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى .

وقيل : ﴿ وحياً ﴾ كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ، أو ﴿ يرسل رسولاً ﴾ : أي نبياً ، كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم ، حكاه الزمخشري ، وترك تفسير ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ ، ومعناه في هذا القول : كما كلم محمداً وموسى (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ الجمهور : ﴿ حجاب ﴾ ، مفرداً ؛ وابن أبي عبلة : حجب جمعاً .

وقرأ الجمهور : بنصب الفعلين عطف ، أو يرسل على المضمر الذي يتعلق به من وراء حجاب تقديره : أو يكلمه من وراء حجاب ، وهذا المضمر معطوف على وحياً ، والمعنى : إلا بوحي أو سماع من وراء حجاب ، أو إرسال رسول فيوحي ذلك الرسول إلى النبي الذي أرسل عنه بإذن الله ما يشاء ، ولا يجوز أن يعطف ﴿ أو يرسل ﴾ على ﴿ أن يكلمه الله ﴾ لفساد المعنى .

(33/688)

وقال الزمخشري : ووحياً ، وأن يرسل ، مصدران واقعان موقع الحال ، لأن أن يرسل في معنى إرسالاً ، ومن وراء حجاب ظرف واقع موقع الحال أيضاً ، كقوله : ﴿ وعلى جنوبهم ﴾ والتقدير : وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب ، أو مرسلاً . انتهى .

أما وقوع المصدر موقع الحال ، فلا ينقاس ، وإنما قالته العرب .

وكذلك لا يجوز : جاء زيد بكاء ، تريد باكياً ، وقاس منه المبرد ما كان منه نوعاً للفعل ، نحو : جاء زيد مشياً أو سرعة ، ومنع سيبويه أن يقع أن والفعل المقدر بالمصدر موقع الحال ،

فلا يجوز ، نحو : جاء زيد أن يضحك في معنى ضحك الواقع موقع ضاحكاً ، فجعله وحياً مصدراً في موضع الحال مما لا ينقاس ، وأن يرسل في معنى إرسالاً الواقع موقع مرسلاً ممنوع بنص سيبويه .

وقرأ نافع وأهل المدينة : أو يرسل رسولاً فيوحي بالرفع فيهما ، فخرج على إضمار هو يرسل ، أو على ما يتعلق به من وراء ، إذ تقديره : أو يسمع من وراء حجاب ، ووحياً مصدر في موضع الحال ، عطف عليه ذلك المقدر المعطوف عليه ، أو يرسل والتقدير : إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب ، أو مرسلاً ، وإسناد التكلم إلى الله بكونه أرسل رسولاً مجاز ، كما تقول : نادى الملك في الناس بكذا ، وإنما نادى الريح ، الدائر في الأسواق ، نزل ما كان بواسطة منزلة ما كان بغير واسطة .

قال ابن عطية : وفي هذه الآية دليل على أن الرسالة من أنواع التكلم ، وأن الحالف الرسل ، كانت إذا حلف أن لا يكلم إنساناً فأرسل إليه ، وهو لم ينو المشافهة وقت يمينه . انتهى .

﴿ إنه عليٌّ ﴾ : أي عليٌّ عن صفات المخلوقين ، ﴿ حكيم ﴾ : تجري أفعاله على ما تقتضيه الحكمة ، يكلم بواسطة وبغير واسطة .

﴿ وكذلك أوحينا ﴾ : أي مثل ذلك الإيحاء الفصل أوحينا إليك ، إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعت له الطرق الثلاث : النفث في الروع ، والمنام ، وتكليم الله له حقيقة ليلة الإسراء ، وإرسال رسول إليه ، وهو جبريل .

وقيل : كما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ، ﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ .

قال ابن عباس : النبوة .

وقال السدي : الوحي ؛ وقال قتادة : رحمة ؛ وقال الكلبي : كتاباً ؛ وقال الربيع : جبريل ؛ وقيل : القرآن ؛ وسمى ما أوحى إليه روحاً ، لأن به الحياة من الجهل .

وقال مالك بن دينار : يا أهل القرآن ، ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب ، كما أن العشب ربيع الأرض .

﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ : توقيف على عظم المنة ، وهو (صلى الله عليه وسلم) أعلم الناس بها ، وعطف ولا الإيمان على ما الكتاب ، وإنما معناه : الإيمان الذي يدركه السمع ، لأن لنا أشياء من الإيمان لا تعلم إلا بالوحي .

أما توحيد الله وبراءته عن النقائص ، ومعرفة صفاته العلا ، فجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عالمون ذلك ، معصومون أن يقع منهم زلل في شيء من ذلك ، سابق لهم علم ذلك قبل أن يوحي إليهم .

وقد أطلق الإيمان على الصلاة في قوله : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ إذ هي بعض ما

يتناوله الإيمان .

ومن طالع سير الأنبياء من نشأتهم إلى مبعثهم ، تحقق عنده أنهم معصومون من كل نقيصة ، موحدون لله منذ نشأوا .

قال الله تعالى في حق يحي عليه السلام : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ قال معمر : كان ابن سنتين أو ثلاث .

وعن أبي العالية : ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان .

وقال القاضي : ﴿ ولا الإيمان ﴾ : الفرائض والأحكام .

قال : وكان قبل مؤمناً بتوحيد الله ، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل ، فزاد بالتكليف إيماناً .

وقال القشيري : يجوز إطلاق الإيمان على تفاصيل الشرع .

وقال الحسين بن الفضل : هو على حذف مضاف ، أي ولا أهل الإيمان من الذي يؤمن أبو طالب أو العباس أو غيرهما .

وقال علي بن عيسى : إذ كنت في المهد .

وقيل : ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك .

وقيل : أي كنت من قوم أميين لا يعرفون الإيمان ولا الكتاب ، فتكون أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم .

ما الكتاب : جملة استفهامية مبتدأ وخبر ، وهي في موضع نصب بتدري ، وهي معلقة .

﴿ ولكن جعلناه نوراً ﴾ : يحتمل أن يعود إلى قوله : ﴿ روحاً ﴾ ، وإلى ﴿ كتاب ﴾ ، وإلى ﴿ الإيمان ﴾ ، وهو أقرب مذكور .

وقال ابن عطية : عائد على الكتاب . انتهى .

وقيل : يعود إلى الكتاب والإيمان معاً لأن مقصدهما واحد ، فهو نظير : ﴿ والله ورسله أحق أن يرضوه ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ لتهدي ﴾ ، مضارع هدى مبنياً للفاعل ؛ وحوشب : مبنياً للمفعول ، إجابة سؤاله عليه الصلاة والسلام : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ وقرأ ابن السميفع : لتهدي بضم التاء وكسر الدال ؛ وعن الجحدري مثلها ومثل قراءة حوشب .

﴿ صراط مستقيم ﴾ ، قال علي : هو القرآن ؛ وقيل : الإسلام .

﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ : أخبر بالمضارع ، والمراد به الديمومة ، كقوله : زيد يعطي ويمنع ، أي من شأنه ذلك ، ولا يراد به حقيقة المستقبل ، أي ترد جميع أمور الخلق إليه تعالى

يوم القيامة فيقضي بينهم بالعدل ، وخص ذلك بيوم القيامة ، لأنه لا يمكن لأحد أن يدعي فيه لنفسه شيئاً ، قاله الفراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(36/688)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾

فمن قضيَّته أنْ يملكَ التصرفَ فيهما وفي كلِّ ما فيهما كيفما يشاءُ ومن جُمْلتِه أن يقسمَ النعمةَ والبليةَ حسبما يريدُه . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ مما تَعلمُه ومِمَّا لا تعلمُه ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاء إِنَاثا ﴾ من الأولادِ ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذكور ﴾ منهُم منْ غيرِ أنْ يكونَ في ذلكَ مدخلٌ لأحد .

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ أي يقرن بين الصنفينِ فيهبهما جميعاً ﴿ ذُكْرَاناً وإِنَاثا ﴾ قالُوا مَعْنى يُزوِّجَهُم أنْ تَلِدَ غُلاماً ثم جَارِيةً أو جارية ثمَّ غُلاماً أو تلدُ ذكراً وأُنْثى توأمين . ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيماً ﴾ والمَعْنى يجعلُ أحوالَ العبادِ في حقِّ الأولادِ مختلفةً على ما تقتضيه المشيئةُ فيهن فيهبُ لبعضٍ إمَّا صنفاً واحداً منْ ذكرٍ أو أُنْثى وإمَّا صنفينِ ويُعقمُ آخرَين . ولعلَّ تقديمَ الأناثِ لأنَّها أكثرُ لتكثيرِ النسلِ أولأنَّ مساقَ الآيةِ للدلالةِ على أنَّ الواقعَ ما تتعلقُ

به مشيئته تعالى لا ما تتعلقُ به مشيئة الإنسانِ والإناثُ كذلكَ أو لأنَّ الكلامَ في البلاءِ والعربُ تعدُّهنَّ أعظمَ البَلايا أو لتطييبِ قلوبِ آبائِهنَّ أو للمحافظةِ على الفواصلِ ولذلكَ عرَّفَ الذكورَ أو لجبرِ التأخيرِ . وتغييرُ العاطفِ في الثالثِ لأنه قسيمُ المشتركِ بينَ القسمينِ ولا حاجةَ إليهِ في الرابعِ لإفصاحهِ بأنَّ قسيمَ المشتركِ بين الأقسامِ المتقدمةِ وقيلَ : المرادُ بيانُ أحوالِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ حيثُ وهبَ لشعيبَ ولوطٍ إناثاً ولإبراهيمَ ذكوراً وللنبيِّ صلى الله عليه وسلم ذكوراً وإناثاً وجعلَ يحيى وعيسى عقيمينِ ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ مبالغٌ في العلمِ والقدرةِ فيفعلُ ما فيهِ حكمةٌ ومصلحةٌ .

(37/688)

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أيْ وما صحَّ لفردٍ من أفراد البشرِ ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ الله ﴾ بوجهٍ من الوجوهِ ﴿ إِلاَّ وَحْياً ﴾ أيْ إلاَّ بأنْ يُوحيَ إليهِ ويلهمَهُ ويقذفَ في قلبهِ كما أَوْحى إلى أمِّ مُوسى وإلى إبراهيمَ عليهما السَّلامُ في ذَبْحِ ولدهِ ، وقَدْ رُويَ عن مجاهدٍ : أَوْحَى الله الزبورَ إلى داودَ عليهِ السَّلامُ في صدرهِ . أو بأنْ يُسمعَهُ كلامَهُ الذي يخلُقه في بعضِ الأجرامِ من غيرِ أنْ يُبصرَ مَنْ يكلمُه وهُو المرادُ بقولِه تعالى ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ فإنه تمثيلٌ له بحالِ الملكِ المحتجبِ الذي يكلِّمُ بعضَ خواصِّهِ من وراءِ الحجابِ يُسمعُ صوتَهُ ولا يَرَى شخصَهُ

وذلكَ كما كلَّم مُوسى وكما يكلِّمُ الملائكةَ عليهم السَّلامُ أو بأنْ يكلمَهُ بواسطةِ المَلَكِ .

وذلكَ قولُه تعالى ﴿ أَوْيُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ أي مَلَكاً ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ ذلكَ الرسولُ إلى المرسلِ إليهِ الذي هو الرسولُ البشَريُّ ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بأمرِه تعالَى وتيسيرِه ﴿ مَا يَشَاء ﴾ أنْ يوحيَهُ إليهِ وهَذا هو الذي يَجْري بينَهُ تعالى وبينَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ في عامَّةِ الأوقاتِ من الكلامِ ، وقيلَ : قولُه تعالى وحياً وقولُه تعالى أو يرسلَ مصدرانِ واقعانِ موقعَ الحالِ وقولُه تعالَى أو منْ وراءِ حجابٍ ظرفٌ واقعٌ موقعَها ، والتقديرُ وما صَحَّ أن يكلمَ إلا مُوحياً أو مُسمعاً من وراءِ حجابٍ أو مُرسلاً . وقُرِيءَ أو يرسلُ بالرفعِ على إضمار مبتدأٍ ، ورُوِيَ أنَّ اليهودَ قالتْ للنبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ألا تكلمَ اللهَ وتنظرَ إليهِ إنْ كنتَ نبياً كما كلَّمه مُوسى ونظرَ إليهِ فإنَّا لن نؤمنَ حتَّى تفعلَ ذلكَ فقال عليه السَّلامُ لمْ ينظُرْ مُوسى عليه السَّلامُ إلى اللهِ تعالى فنزلتْ . وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : " من زَعَمَ أنَّ محمداً رأى ربَّه فقدْ أعظمَ على اللهِ الفريةَ ، ثم قالتْ رضيَ اللهُ

(38/688)

عنْها : أو لم تسمعُوا ربَّكُم يقولُ فتلتْ هَذِهِ الآيةَ " . ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ ﴾ متعالٍ عن صفاتِ المخلوقينَ لا يتأَّتى جَرَيانُ المفاوضةِ بينَهُ تعالى وبينَهم إلا بأحدِ الوجوهِ المذكورةِ ﴿ حَكِيمٌ

﴿ يُجْري أفعالَهُ على سُنَنِ الحكمةِ فيكلمُ تارةً بواسطةٍ وأُخرى بدونِها إمَّا إلهاماً وإما خطاباً .

(39/688)

﴿ وكذلك ﴾ أيْ ومثلَ ذلكَ الإيحاءِ البديعِ ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ هو القرآنُ الذي هو للقلوب بمنزلةِ الروحِ للأبدانِ حيثُ يُحيِيها حياةً أبديةً ، وقيلَ : هُو جبريلُ عليهِ السَّلامُ . ومَعْنى إيحائِه إليهِ عليهما السَّلامُ إرسالُه إليهِ بالوحي ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى ﴾ قبلَ الوَحي ﴿ مَا الكتاب ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ هُو ﴿ وَلاَ الإيمان ﴾ أيْ الإيمانُ بتفاصيلِ ما في تضاعيفِ الكتابِ من الأمورِ التي لا تهتدِي إليها العقولُ لا الإيمانُ بما يستقلُّ به العقلُ والنظرُ فإنَّ درايتَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ له مما لا ريبَ فيهِ قطعاً ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي الرُّوحَ الذي أوحيناهُ إليكَ ﴿ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاء ﴾ هدايتَهُ ﴿ مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ وهُو الذي يصرف اختيارَهُ نحو الاهتداءِ بهِ . وقولُه تعالَى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى ﴾ تقريرٌ لهدايتِهِ تعالى وبيانٌ لكيفيتِها . ومفعولُ لتهدِي محذوفٌ ثقةً بغايةِ الظهورِ أيْ إنكَ لتهدِي بذلكَ النورِ من نشاءُ هدايَتهُ ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو الإسلامُ وسائرُ الشرائعِ والأحكامِ . وقُرِىءَ لتُهدَى أي لَيَهديكَ اللهُ ، وقُرِىءَ لتدعُو ﴿ صراط الله ﴾ بدلٌ من الأولِ وإضافتُه إلى

الاسمِ الجليلِ ثمَّ وصفُه بقولِه تعالَى ﴿ الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ لتفخيمِ شأنِه وتقريرِ استقامتِه وتأكيدِ وجوبِ سلوكِه فإنَّ كونَ جميعِ ما فيهما من الموجوداتِ له تعالى خَلْقاً ومِلْكاً وتصرُّفاً مما يوجبُ ذلكَ أتمَّ إيجابٍ . ﴿ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ أي أمورُ ما فيهما قاطبةً لا إلى غيرِه ففيهِ من الوعدِ للمهتدينَ إلى الصراطِ المستقيمِ والوعيدِ للضالينَ عنه ما لا يَخْفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(40/688)

وقال الآلوسى :

﴿ وكذلك ﴾

أي ومثل هذا الإيحاء البديع على أن الإشارة لما بعد ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ وهو ما أوحى إليه عليه الصلاة والسلام أو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياة أبدية ، وقيل : أي ومثل الإيحاء المشهور لغيرك أوحينا إليك ، وقيل : أي ومثل ذلك الإيحاء المفصل أوحينا إليك إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعت له الطرق الثلاث سواء فسر الوحي بالإلقاء أم فسر بالكلام الشفاهي ، وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام اجتمعت له الطرق الثلاث سواء فسر الوحي بالإلقاء أم فسر بالكلام الشفاهي ،

وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد ألقى إليه في المنام كما ألقى إلى إبراهيم عليه السلام وألقى إليه عليه الصلاة والسلام في اليقظة على نحو إلقاء الزبور إلى داود عليه السلام .

ففي الكبريت الأحمر للشعراني نقلاً عن الباب الثاني من الفتوحات المكية أنه صلى الله عليه وسلم أعطى القرآن مجملاً قبل جبريل عليه السلام من غير تفصيل الآيات والسور .

وعن ابن عباس تفسير الروح بالنبوة .

وقال الربيع : هو جبريل عليه السلام ، وعليه فأوحينا مضمن معنى أرسلنا ، والمعنى أرسلناه بالوحي إليك لأنه لا يقال : أوحى الملك بل أرسله .

ونقل الطبرسي عن أبي جعفر .

وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما أن المراد بهذا الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصعد إلى السماء ، وهذا القول في غاية الغرابة ولعله لا يصح عن هذين الإمامين ، وتنوين ﴿ رُوحاً ﴾ للتعظيم أي روحاً عظيماً ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الايمان ﴾ الظاهر أن ما الأولى نافية والثانية استفهامية في محل رفع على الابتداء و ﴿ الكتاب ﴾ خبر ، والجملة في موضع نصب بتدري وجملة ﴿ مَا كُنتُ ﴾ الخ حالية من ضمير ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ أو هي مستأنفة والمضي بالنسبة إلى زمان الوحي .

واستشكلت الآية بأن ظاهرها يستدعي عدم الاتصاف بالإيمان قبل الوحي ولا يصح ذلك لأن الأنبياء عليهم السلام جميعاً قبل البعثة مؤمنون لعصمتهم عن الكفر بإجماع من يعتد به ، وأجيب بعدة أجوبة ، الأول : أن الإيمان هنا ليس المراد به التصديق المجرد بل مجموع التصديق والإقرار والإعمال فإنه كما يطلق على ذلك يطلق على هذا شرعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [البقرة : 143] والأعمال لا سبيل إلى درايتها من غير سمع فهو مركب والمركب ينتفي بانتفاء بعض أجزائه فلا يلزم من انتفاء الإيمان المركب بانتفاء الأعمال انتفاء الإيمان بالمعنى الآخر أعني التصديق وهو الذي أجمع العلماء على اتصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البعثة ، ولذا عبر بتدري دون أن يقال : لم تكن مؤمناً وهو جواب حسن ولا يلزمه نفي الإيمان عمن لا يعمل الطاعات ليكون القول به اعتزالاً كما لا يخفى .

الثاني : أن الإيمان إنما يعني به التصديق بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام دون التصديق بالله عز وجل ودون ما يدخل فيه الأعمال والنبي صلى الله عليه وسلم مخاطب بالإيمان برسالة نفسه كما أن أمته صلى الله عليه وسلم مخاطبون بذلك ، ولا شك أنه قبل الوحي لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أنه رسول الله وما علم ذلك إلا بالوحي فإذا كان الإيمان هو التصديق بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل

الوحي بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة المجمع على اتصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البعثة استقام نفي الإيمان قبل الوحي وإلى هذا ذهب ابن المنير .

(42/688)

الثالث : أن المراد شرائع الإيمان ومعالمه مما لا طريق إليه إلا السمع وإليه ذهب محي السنة البغوي وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل الوحي على دين إبراهيم عليه السلام ولم تتبين له عليه الصلاة والسلام شرائع دينه ، ولا يخفى أنه إذا لم يعتبر كون الكلام على حذف مضاف يلزمه إطلاق الإيمان على الأعمال وحدها وهو خلاف المعروف .

الرابع : أن الكلام على تقدير مضاف فقيل التقدير دعوة الإيمان أي ما كنت تدري كيف تدعو الخلق إلى الإيمان وإليه يشير كلام أبي العالية .

وقال الحسين بن الفضل : أي أهل الإيمان أي لا تدري من الذي يؤمن ، وأنت تدري أنه لا يرتضي هذا إلا من لا يدري .

الخامس : المراد نفي دراية المجموع أي ما كنت تدري قبل الوحي مجموع الكتاب والإيمان فلا ينافي كونه صلى الله عليه وسلم كان يدري الإيمان وحده ويأباه إعادة ﴿ لا ﴾ السادس : أن المراد ما كنت تدري ذلك إذ كنت في المهد وإليه ذهب علي بن عيسى وهو خلاف

الظاهر ، والظاهر أن المراد استمرار النفي إلى زمن الوحي ، وظاهر كلام الكشف يميل إلى اعتبار نحو ذلك القيد قال : لعل الأشبه أن الإيمان على ظاهره والآية واردة في معرض الامتنان والإيحاء يشمل الإلقاء في الروع وإرسال الرسول فالإيمان عرفه بالأول والكتاب بالثاني على أن الآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم عرفهما بعد أن لم يكن عارفاً وهو كذلك أما أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحي فلا فجاز أن يعرفهما به وجاز أن يعرف واحداً منهما معيناً به .

وقد دل الدليل على أن المعرف به هو الكتاب والإيمان بعد العقل وقبل الوحي ، والتمسك به على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبداً بشرع من قبله ضعيف لأن عدم الدراية لا يلزمه عدم التعبد بل يلزمه سقوط الإثم إن لم يكن تقصيراً انتهى .

(43/688)

وأنت تعلم أن المتبادر أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحي ، وأما قوله قدس سره في تضعيف التمسك بذلك على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبداً بشرع من قبله أن عدم الدراية لا يلزمه عدم التعبد فقد قيل عليه : إنه ساقط لأنه عليه الصلاة والسلام إذا لم يدر شرعاً فكيف يتعبد به ، وقد يجاب بأن مراد المدقق أن الدراية المنفية الدراية بمعنى العلم

الجازم الثابت المطابق للواقع وعدمها لا يلزمه عدم التعبد إذ يكفي في التعبد بشرع من قبله عليه الصلاة والسلام الظن الراجح ثبوته فلعله كان حاصلاً له صلى الله عليه وسلم .

ومثل هذا الظن يكفي للمتعبدين اليوم بشرع نبينا عليه الصلاة والسلام فإن أكثر الفروع ظنية ، ومن يتتبع الأخبار يعلم أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام من الحج والختان وإيقاع الطلاق والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر وغير ذلك وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أحرص الناس على اتباع دين إبراهيم عليه السلام .

وفي "الصحيح" أنه صلى الله عليه وسلم كان أي قبل البعثة يتحنث بغار حراء ، وفسر التحنث بالتحنف أي اتباع الحنيفية وهي دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم وفي رواية ابن هشام في السير يتحنف بالفاء بدل الثاء ، نعم فسر أيضاً بالتعبد كما في "صحيح البخاري" وباتقاء الحنث أي الإثم كالتحرج والتأثم وكل ذلك مما ذكره الحافظ القسطلاني في شرح الصحيح .

ثم إن الظاهر أن من قال : إنه صلى الله عليه وسلم كان متعبداً بشرع من قبله ليس مراده أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبداً بجميع شرع من قبله بل بما ترجح عنده صلى الله عليه وسلم ثبوته .

والذي ينبغي أن يرجح كون ذلك من شرع إبراهيم عليه السلام لأنه من ذريته عليهما الصلاة والسلام وقد كلفت العرب بدينه .

(44/688)

وقال بعضهم : إن عبادته صلى الله عليه وسلم التفكر والاعتبار ، ولعله أيضاً مما ترجح عنده عليه الصلاة والسلام كونه من شريعته عليه السلام وربما يقال : بما علمه صلى الله عليه وسلم لا على ذلك الوجه من شرع من قبله أنه صلى الله عليه وسلم لم يزل موحى إليه وأنه عليه الصلاة والسلام متعبد بما يوحي إليه إلا أن الوحي السابق على البعثة كان إلقاءً ونفثاً في الروع وما عمل بما كان من شرائع أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلا بواسطة ذلك الإلقاء وإذا كان بعض إخوانه من الأنبياء عليهم السلام قد أوتي الحكم صبياً ابن سنتين أو ثلاث فهو عليه الصلاة والسلام أولى بأن يوحى إليه ذلك النوع من الإيحاء صبياً أيضاً .

ومن علم مقامه صلى الله عليه وسلم وصدق بأنه الحبيب الذي كان نبياً وآدم بين الماء والطين لم يستبعد ذلك فتأمل .

﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي الروح الذي أوحيناه إليك ، وقال ابن عطية : الضمير للكتاب ،

وقيل : للإيمان ورجح بالقرب ، وقيل : للكتاب والإيمان ووحد لأن مقصدهما واحد فهو نظير ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] .

﴿ نُوراً ﴾ عظيماً ﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء ﴾ هدايته ﴿ مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به والجملة إما مستأنفة أو صفة ﴿ نُوراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ تقرير لهدايته ، وبيان لكيفيتها ، ومفعول ﴿ لَتَهْدِي ﴾ محذوف ثقة بغاية الظهور أي وإنك لتهدي بذلك النور من تشاء هدايته ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام ؛ وقرأ ابن السميقع ﴿ لَتُهْدِي ﴾ بضم التاء وكسر الدال من أهدى ، وقرأ حوشب ﴿ لَتَهْدِي ﴾ مبنياً للمفعول أي ليهديك الله وقرىء لتدعو .

(45/688)

﴿ صراط الله ﴾ بدل من الأول وإضافته إلى الاسم الجليل ثم وصفه بقوله تعالى : ﴿ الذي لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقاً وملكاً وتصرفاً مما يوجب ذلك أتم إيجاب .

﴿ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الامور ﴾ أي أمور من فيهما قاطبة لا إلى غيره تعالى وذلك بارتفاع الوسائط يوم القيامة ففيه من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه ما لا يخفى ، وصيغة المضارع على ما قررنا على ظاهرها من الاستقبال ، وقال في "البحر" : المراد بها الاستمرار كما في زيد يعطي أي من شأنه ذلك ، والأول أظهر والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(46/688)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَتَرَى الظالمين ﴾

أي : المشركين المكذبين بالبعث ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ أي : حين نظروا النار ، وقيل : نظروا ما أعده الله لهم عند الموت ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدّ مّن سَبِيلٍ ﴾ أي : هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق ؟ ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خاشعين مِنَ الذل ﴾ أي : ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النار لما لحقهم من الذلّ ، والهوان ، والضمير في عليها راجع إلى العذاب ، وأنثه ، لأن العذاب هو : النار ، وقوله : ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، لأن الرؤية بصرية ، وكذلك خاشعين ، ومن الذلّ يتعلق بخاشعين ، أي : من أجله

﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّ ﴾ "من" هي التي لابتداء الغاية، أي: يبتدىء نظرهم إلى النار، ويجوز أن تكون تبعيضية، والطرف الخفيّ الذي يخفى نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذلّ، والخوف، والوجل.

قال مجاهد: ﴿ مِن طَرْفٍ خَفِيّ ﴾ أي: ذليل قال: وإنما ينظرون بقلوبهم؛ لأنهم يحشرون عمياً، وعين القلب طرف خفيّ.

وقال قتادة، وسعيد بن جبير، والسدّي، والقرظي: يسارقون النظر من شدّة الخوف.

وقال يونس: إن "من" في ﴿ مِن طَرْفٍ ﴾ بمعنى الباء، أي: ينظرون بطرف ضعيف من الذلّ، والخوف، وبه قال الأخفش ﴿ وَقَالَ الذين ءامَنُواْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ أي: أن الكاملين في الخسران هم: هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس، والأهلين في يوم القيامة.

أما خسرانهم لأنفسهم، فلكونهم صاروا في النار معذّبين بها، وأما خسرانهم لأهليهم، فلأنهم إن كانوا معهم في النار، فلا ينتفعون بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حيل بينهم، وبينهم.

وقيل : خسران الأهل : أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين ﴿ أَلَا إِنَّ الظالمين فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ هذا يجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين .

ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه أي : هم في عذاب دائم لا ينقطع .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ الله ﴾ أي : لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب ، وأنصار ينصرونهم في ذلك الموطن من دون الله ، بل هو المتصرّف سبحانه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي : من طريق يسلكها إلى النجاة .

ثم أمر سبحانه عباده بالاستجابة له ، وحذرهم ، فقال : ﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله ﴾ أي : استجيبوا دعوته لكم إلى الإيمان به ، وبكتبه ، ورسله من قبل أن يأتي يوم لا يقدر أحد على ردّه ، ودفعه ، على معنى : من قبل أن يأتي من الله يوم لا يردّه أحد ، أو لا يردّه الله بعد أن حكم به على عباده ، ووعدهم به ، والمراد به : يوم القيامة ، أو يوم الموت ﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ تلجئون إليه ، ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي : إنكار ، والمعنى : ما لكم من إنكار يومئذٍ ، بل تعترفون بذنوبكم .

وقال مجاهد ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي : ناصر ينصركم .

وقيل : النكير بمعنى : المنكر ، كالأليم بمعنى : المؤلم ، أي : لا تجدون يومئذٍ منكراً لما ينزل بكم من العذاب قاله الكلبي ، وغيره ، والأوّل أولى .

قال الزجاج : معناه : أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ أي : حافظاً تحفظ أعمالهم حتى تحاسبهم عليها ، ولا موكلاً بهم رقيباً عليهم ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ أي : ما عليك إلاّ البلاغ لما أمرت بإبلاغه ، وليس عليك غير ذلك ، وهذا منسوخ بآية السيف .

(48/688)

﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ أي : إذا أعطيناه رخاء ، وصحة ، وغنى فرح بها بطراً ، والمراد بالإنسان : الجنس ، ولهذا قال ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي : بلاء ، وشدّة ، ومرض ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الذنوب ﴿ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ ﴾ أي : كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه ، غير شكور له عليها ، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان .

ثم ذكر سبحانه سعة ملكه ، ونفاذ تصرّفه ، فقال : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ أي : له التصرّف فيهما بما يريد ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ من الخلق ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاء إناثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذكور ﴾ .

قال مجاهد ، والحسن ، والضحاك ، وأبو مالك ، وأبو عبيدة : يهب لمن يشاء إناثاً لا ذكور

معهنّ ، ويهب لمن يشاء ذكوراً لا إناث معهم .

قيل : وتعريف الذكور بالألف ، واللام للدّلالة على شرفهم على الإناث ، ويمكن أن يقال : إن التقديم للإناث قد عارض ذلك ، فلا دلالة في الآية على المفاضلة بل هي مسوقة لمعنى آخر .

وقد دلّ على شرف الذكور قوله سبحانه : ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النساء بِمَا فَضَّلَ الله ﴾ [النساء : 34] ، وغير ذلك من الأدلة الدّالة على شرف الذكور على الإناث .

وقيل : تقديم الإناث لكثرتهنّ بالنسبة إلى الذكور .

وقيل : لتطييب قلوب آبائهنّ ، وقيل لغير ذلك مما لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإناثا ﴾ أي : يقرن بين الإناث ، والذكور ، ويجعلهم أزواجاً فيهبهما جميعاً لبعض خلقه .

قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاماً ، ثم تلد جارية ، ثم تلد غلاماً ، ثم تلد جارية .

وقال محمد ابن الحنفية : هو : أن تلد توأماً غلاماً ، وجارية .

وقال القتيبي : التزويج هنا هو الجمع بين البنين ، والبنات تقول العرب : زوّجت إبلي : إذا جمعت بين الصغار ، والكبار ، ومعنى الآية أوضح من أن يختلف في مثله ، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إناثاً ، ويهب لبعض ذكوراً ، ويجمع لبعض بين الذكور ، والإناث ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيماً ﴾ لا يولد له ذكر ، ولا أنثى ، والعقيم الذي لا يولد له ، يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم ، وعقمت المرأة تعقم عقماً ، وأصله القطع ، ويقال : نساء عقم ، ومنه قول الشاعر :

عقم النساء فما يلدن شبي . . . هه إن النساء بمثله عقم

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ أي : بليغ العلم عظيم القدرة ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً ﴾ أي : ما صح لفرد من أفراد البشر أن يكلمه الله بوجه من الوجوه إلاّ بأن يوحي إليه ، فيلهمه ، ويقذف ذلك في قلبه قال مجاهد : نفث ينفث في قلبه ، فيكون إلهاماً منه كما أوحى إلى أمّ موسى ، وإلى إبراهيم في ذبح ولده ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى ، يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى ، وهو : تمثيل بحال الملك المحتجب الذي يكلم خواصه من وراء حجاب ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء ﴾ أي : يرسل ملكاً ، فيوحي ذلك الملك إلى الرّسول من البشر بأمر الله ، وتيسيره ما يشاء أن يوحى إليه .

قال الزجاج : المعنى : أن كلام الله للبشر : إما أن يكون بإلهام يلهمهم ، أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى ، أو برسالة ملك إليهم .

وتقدير الكلام : ما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ أن يوحي وحياً ، أو يكلمه من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً .

ومن قرأ : (يرسل) رفعاً أراد : وهو يرسل ، فهو ابتداء ، واستئناف .

ا ه .

(50/688)

قرأ الجمهور بنصب : ﴿ أَوْيُرْسِلَ ﴾ ، وبنصب : ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ على تقدير أن ، وتكون أن ، وما دخلت عليه معطوفين على وحياً ، ووحياً في محلّ الحال ، والتقدير : إلاّ موحياً ، أو مرسلاً ، ولا يصح عطف ، أو يرسل على أن يكلمه لأنه يصير التقدير : وما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً ، وهو فاسد لفظاً ، ومعنى .

وقد قيل : في توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف .

وقرأ نافع : (أو يرسل) بالرفع ، وكذلك : (فيوحى) بإسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : أو هو يرسل كما قال الزجاج ، وغيره ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ تعليل لما قبلها ، أي : متعال عن صفات النقص ، حكيم في كل أحكامه .

قال المفسرون : سبب نزول هذه الآية : أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا تكلم

الله ، وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ، فنزلت ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ أي : وكالوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، المراد به : القرآن .

وقيل : النبوّة .

قال مقاتل : يعني : الوحي بأمرنا ، ومعناه : القرآن ، لأنه يهتدى به ، ففيه حياة من موت الكفر .

ثم ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحى إليه ، فقال : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب ﴾ أي : أيّ شيء هو ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ، ولا يكتب ، وذلك أدخل في الإعجاز ، وأدلّ على صحة نبوّته ، ومعنى : ﴿ وَلاَ الإيمان ﴾ : أنه كان لا يعرف تفاصيل الشرائع ، ولا يهتدي إلى معالمها ، وخص الإيمان ؛ لأنه رأسها ، وأساسها .

وقيل : أراد بالإيمان هنا : الصلاة .

قال بهذا : جماعة من أهل العلم منهم : إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة ، واحتجّ بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [البقرة : 143] يعني : الصلاة ، فسماها إيماناً .

وذهب جماعة إلى أن الله سبحانه لم يبعث نبياً إلاّ وقد كان مؤمناً به ، وقالوا : معنى الآية : ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان .

وقيل : كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً ، وفي المهد .

وقال الحسين بن الفضل : إنه على حذف مضاف ، أي : ولا أهل الإيمان .

وقيل : المراد بالإيمان دين الإسلام .

وقيل : الإيمان هنا عبارة عن الإقرار بكل ما كلف الله به العباد ﴿ ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء ﴾ أي : ولكن جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياءً ، ودليلاً على التوحيد ، والإيمان نهدي به من نشاء هدايته ﴿ مّنْ عِبَادِنَا ﴾ ونرشده إلى الدين الحقّ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال قتادة ، والسدّي ، ومقاتل : وإنك لتدعو إلى الإسلام ، فهو : الصراط المستقيم .

قرأ الجمهور : ﴿ لتهدي ﴾ على البناء للفاعل .

وقرأ ابن حوشب على البناء للمفعول .

وقرأ ابن السميفع بضمّ التاء ، وكسر الدّال من أهدي ، وفي قراءة أبيّ : (وإنك لتدعو) ، ثم بيّن الصراط المستقيم بقوله : ﴿ صراط الله الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ ، وفي هذه الإضافة للصراط إلى الاسم الشريف من التعظيم له ، والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ،

ومعنى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَفِى الأرض ﴾ : أنه المالك لذلك ، والمتصرّف فيه ﴿ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ أي : تصير إليه يوم القيامة لا إلى غيره جميع أمور الخلائق ، وفيه وعيد بالبعث المستلزم للمجازاة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىّ ﴾ قال : ذليل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن مجاهد مثله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن محمد بن كعب قال : يسارقون النظر إلى النار .

(52/688)

وأخرج ابن مردويه ، وابن عساكر عن واثلة بن الأسقع ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى ، لأن الله قال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاء إِناثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذكور ﴾ " وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيماً ﴾ قال : الذي لا يولد له .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً ﴾ قال : إلاّ أن يبعث ملكاً يوحي إليه من عنده ، أو يلهمه ، فيقذف في قلبه ، أو يكلمه من وراء حجاب .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ قال : القرآن .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، وابن عساكر عن عليّ قال : قيل لمحمد : هل عبدت وثناً قط ؟ قال : " لا " قالوا : فهل شربت خمراً قط ؟ قال : " لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب ، ولا الإيمان " " وبذلك نزل القرآن ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(53/688)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام ﴾ .

قوله : ومن آياته أي من علاماته الدالة على قدرته واستحقاقه للعبادة وحده ، الجواري وهي السفن واحدتها جارية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية ﴾ [الحاقة : 11] يعني سفينة نوح ، وسميت جارية لأنها تجري في البحر .

وقوله ﴿ كالأعلام ﴾ أي كالجبال ، شبه السفن بالجبال لعظمها .

وعن مجاهد أن الأعلام القصور ، وعن الخليل : أن كل مرتفع تسمية العرب علماً ، وجمع

العلم أعلام .

وهذا الذي ذكره الخليل معروف في اللغة ، ومنه قول الخنساء ترثي أخاها صخراً :

وإن صخراً لتأتم الهداة به . . . كأنه علم في رأسه نار

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جريان السفن في البحر ، من آياته تعالى الدالة على كمال قدرته ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلى حِينٍ ﴾ [يس : 41 - 44] وقوله تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ السفينة وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنبكوت : 15] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس ﴾ [البقرة : 164] إلى قوله ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 164] الآية .

وقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النحل : 14] الآية . وقوله في فاطر : ﴿ وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِه ﴾ [فاطر : 12] . والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

(54/688)

وقرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو " الجواري " بياء ساكنة بعد الراء في الوصل فقط ، دون الوقف وقرأه ابن كثير بالياء المذكور في الوصل والوقف معاً ، وقرأه الباقون الجوار بحذف الياء في الوصل والوقف معاً .

قوله تعالى : ﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش ﴾ الآية .

قرأ هذا الحرف حمزة والكسائي (كبير الإثم) ، بكسر الباء بعدها ياء ساكنة وراء على صيغة الإفراد .

وقرأه الباقون بفتح الباء بعدها ألف فهمزة مكسورة قبل الراء على صيغة الجمع .

وقوله ﴿ والذين ﴾ : في محل جر عطفاً على قوله : ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى لِلَّذِينَ آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى : 36] أي وخير وأبقى أيضاً للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش .

والفواحش جمع فاحشة . والتحقيق إن شاء الله أن الفواحش من جملة الكبائر .

والأظهر أنها من أشنعها ، لأن الفاحشة في اللغة : وهي الخصلة المتناهية في القبح ، وكل متشدد في شيء مبالغ فيه فهو فاحش فيه .

ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته .

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي . . . عقيلة مال الفاحش المتشدد

فقوله : الفاحش أي المبالغ في البخل المتناهي فيه .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من وعده تعالى الصادق للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش بما عنده لهم من الثواب الذي هو خير وأبقى ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، فبين تعالى في سورة النساء أن من ذلك تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم ، وإدخالهم المدخل الكريم وهو الجنة في قوله تعالى ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً ﴾ [النساء : 31] ، وبين في سورة النجم أنهم باجتنابهم كبائر الإثم والفواحش ، يصدق عليهم اسم المحسنين ووعدهم على ذلك بالحسنى .

(55/688)

والأظهر أنها الجنة ، ويدل له حديث " الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم " في تفسير قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] كما قدمناه .

وآية النجم المذكورة هي قوله تعالى ﴿ وَيَجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ [النجم : 31] ثم بين المراد بالذين أحسنوا في قوله ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة ﴾ [النجم : 32] .

وأظهر الأقوال في قوله : إلا اللمم ، أن المراد باللمم صغائر الذنوب ، ومن أوضح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْه ﴾ [النساء : 31] الآية .

فدلت على أن اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر ، وخير ما يفسر به القرآن ، القرآن .

ويدل لهذا حديث ابن عباس الثابت في الصحيح : قال ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمني وتشتهي والفرج يُصَدّقِ ذلك أو يكذبه " .

وعلى هذا القول فالاستثناء في قوله إلا اللمم منقطع ، لأن اللمم الذي هو الصغائر على هذا القول لا يدخل في الكبائر والفواحش ، وقد قدمنا تحقيق المقام في الاستثناء المنقطع . في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَمًا ﴾ [مريم : 62] .

وقالت جماعة من أهل العلم : الاستثناء متصل فالواو عليه ، فمعنى إلا اللمم : إلا أن يلم بفاحشة مرة ثم يجتنبها ولا يعود لها بعد ذلك .

واستدلوا لذلك بقول الراجز :

إن تغفر اللهم تغفر جما . . . وأي عبد لك ما ألما

وروى هذا البيت ابن جرير والترمذي وغيرهما مرفوعاً . وفي صحته مرفوعاً نظر .

وقال بعض العلماء . المراد باللمم ما سلف منهم من الكفر والمعاصي ، قبل الدخول في الإسلام ولا يخفى بعده .

وأظهر الأقوال هو ما قدمنا لدلالة آية النساء المذكورة عليه ، وحديث ابن عباس المتفق عليه .

واعلم أن كبائر الإثم ليست محدودة في عدد معين ، وقد جاء تعيين بعضها كالسبع الموبقات أي المهلكات لعظمها ، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة " أنها الإشراك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " وقد جاءت روايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في تعيين بعض الكبائر "كعقوق الوالدين واستحلال حرمة بيت الله الحرام والرجوع إلى البادية بعد الهجرة وشرب الخمر واليمين الغموس والسرقة ومنع فضل الماء ومنع فضل الكلأ وشهادة الزور " .

وفي بعض الروايات الثابتة في الصحيح عن ابن مسعود " أن أكبر الكبائر الإشراك بالله الذي خلق الخلق ثم قتل الرجل ولده خشية أن يطعم معه ، ثم زناه بحليلة جاره " وفي بعضها أيضاً " أن من الكبائر تسبب الرجل في سب والديه " ، وفي بعضها أيضاً " أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفرا " وذلك يدل على أنهما من الكبائر .

وفي بعض الروايات " أن من كبائر الوقوع في عرض المسلم ، والسبتين بالسبة " .

وفي بعض الرويات " أن منها جمع الصلاتين من غير عذر " .

وفي بعضها " أن منها اليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله " ويدل عليهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] . وقوله ﴿ أَفَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف : 99] .

وفي بعضها " أن منها سوء الظن بالله " ويدل له قوله تعالى ﴿ وَيُعَذِّبَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظآنين بالله ظَنَّ السوء عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾ [الفتح : 6] .

وفي بعضها " أن منها الإضرار في الوصية " .

(57/688)

وفي بعضها أن منها الغلول ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القيامة ﴾ [آل عمران : 161] . وقد منا معنى الغلول في سورة الأنفال ، وذكرنا حكم الغال .

وفي بعضها " أن من أهل الكبائر الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً " ويدل له قوله تعالى : ﴿ أولئك لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخرة وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة وَلاَ

يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[آل عمران : 77] ولم نذكر أسانيد هذه الروايات ونصوص متونها خوف الإطالة ، وأسانيد بعضها لا تخلو من نظر لكنها لا يكاد يخلو شيء منها عن بعض الشواهد الصحيحة ، من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن أهل العلم اختلفوا في حد الكبيرة .

فقال بعضهم : هي كل ذنب استوجب حداً من حدود الله .

وقال بعضهم : هي كل ذنب جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب .

واختار بعض المتأخرين حد الكبيرة بأنها هي كل ذنب دل على عدم اكتراث صاحبه بالدين .

وعن ابن عباس : أن الكبائر أقرب إلى السبعين منها إلى السبع . وعنه أيضاً أنها أقرب إلى سبعمائة منها إلى سبع .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق أنها لا تنحصر في سبع ، وأن ما دل عليه من الأحاديث على أنها سبع لا يقتضى انحصارها في ذلك العدد ، لأنه إنما دل على نفي غير السبع بالمفهوم ، وهو مفهوم لقب ، والحق عدم اعتباره .

ولو قلنا إنه مفهوم عدد لكان غير معتبر أيضاً ، لأن زيادة الكبائر على السبع مدلول عليها بالمنطوق .

وقد جاء منها في الصحيح عدد أكثر من سبع ، والمنطوق مقدم على المفهوم ، مع أن مفهوم العدد ليس من أقوى المفاهيم .

والأظهر عندي في ضابط الكبيرة أنها كل ذنب اقترن بما يدل على أنه أعظم من مطلق المعصية سواء كان ذلك الوعيد عليه بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب ، أو كان وجوب الحد فيه ، أو غير ذلك مما يدل على تغليظ التحريم وتوكيده .

(58/688)

مع أن بعض أهل العلم قال : إن كل ذنب كبيرة . وقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء : 31] الآية . وقوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ [النجم : 32] يدل على عدم المساواة ، وأن بعض المعاصي كبائر . وبعضها صغائر ، والمعروف عند أهل العلم : أنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : 126] الآية . وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 17

- 18] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في الكلام على آية النحل وآية الزمر المذكورتين آنفاً .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَل ﴾ [الأعراف : 53] .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [النحل : 2] الآية .

قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ .

(59/688)

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ . يبين الله جل وعلا فيه مِنَّتِهِ على هذا النبي الكريم ، بأنه علمه هذا القرآن العظيم ولم يكن يعلمه قبل ذلك

، وعلمه تفاصيل دين الإسلام ولم يكن يعلمها قبل ذلك .

فقوله : ما كنت تدري ما الكتاب : أي ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب الذي هو القرآن العظيم ، حتى علمتكه ، وما كنت تدري ما الإيمان الذي هو تفاصيل هذا الدين الإسلامي ، حتى علمتكه .

ومعلوم أن الحق الذي لا شك فيه الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد .

وذلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة ، منها : حديث وفد عبد القيس المشهور ، ومنها حديث : " من قام رمضان إيماناً واحتساباً " الحديث ، فسمى فيه قيام رمضان إيماناً ، وحديث " الإيمان بضع وسبعون شعبة " ، وفي بعض رواياته " بضع وستون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " .

والأحاديث بمثل ذلك كثيرة ويكفي في ذلك ما أورده البيهقي في شعب الإيمان فهو صلوات الله وسلامه عليه ما كان يعرف تفاصيل الصلوات المكتوبة وأوقاتها ولا صوم رمضان ، وما يجوز فيه وما لا يجوز ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة ولا ما تجب فيه ولا قدر النصاب وقدر الواجب فيه ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَلَا الإيمان ﴾ .

وما ذكره هنا من أنه لم يكن يعلم هذه الأمور حتى علمه إياها بأن أوحى إليه هذا النور

العظيم الذي هو كتاب الله ، جاء في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكتاب والحكمة وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء : 113] الآية . وقوله جل وعلا ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص بِمَا أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هذا القرآن وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] .

(60/688)

فقوله في آية يوسف هذه : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] كقوله هنا ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ [الشورى : 52] وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] على أصح التفسيرات كما قدمناه في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ ﴾ ، الضمير في قوله : جعلناه راجع إلى القرآن العظيم المذكور في قوله : ﴿ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] وقوله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب ﴾ أي ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نوراً نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا .

وسمي القرآن نوراً ، لأنه يضيء الحق ويزيل ظلمات الجهل والشك والشرك .

وما ذكره هنا من أن هذا القرآن نور ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء : 174] .

وقوله تعالى ﴿ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ [الأعراف : 157] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : 15 - 16] وقوله تعالى : ﴿ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن : 8] .

(61/688)

وما دلت عليه هذه الآيات الكريمة من كون هذا القرآن نوراً يدل على أنه هو الذي يكشف ظلمات الجهل ، ويظهر في ضوئه الحق ، ويتميز عن الباطل ويميز به بين الهدى والضلال والحسن والقبيح .

فيجب على كل مسلم أن يستضيء بنوره ، فيعتقد عقائده ، ويحل حلاله ، ويحرم حرامه ويمتثل أوامره ويجتنب ما نهى عنه ويعتبر بقصصه وأمثاله .

والسنة كلها داخلة في العمل به ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . الصراط المستقيم ، قد بينه تعالى في قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم وَلاَ الضآلين ﴾ [الفاتحة : 6 - 7] .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لتهدي ﴾ الآية ، قد بينا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُم ﴾ [فصلت : 17] الآية ، وبينا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم ﴾ [الشورى : 52] مع قوله ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : 56] .

والصراط في لغة العرب : الطريق الواضح ، والمستقيم . الذي لا اعوجاج فيه ، ومنه قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط . . . إذا اعوج الموارد مستقيم

قوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الأمور كلها تصير إلى الله ، أي ترجع إليه وحده لا إلى غيره . جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ [هود : 123] وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وإلى الله تُرْجَعُ الأمور كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس ﴾ [آل عمران : 109 - 110] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(63/688)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : « وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ » . .

[مفهوم جديد . . للحروف فى أوائل السور] بهذه الآية ، والآيتين التي بعدها ، تختم السورة الكريمة . . وبهذا الختام ، يتم التلاقي بين بدئها وختامها . . فقد بدئت السورة ب قوله تعالى : « حم عسق كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » وختمت ببيان الصور التي يتم بها الاتصال بين الله ورسله ، والتي يتلقّون بها كلماته وآياته . . وأن هذه الصور لا تخرج عن أحوال ثلاث . .

الصورة الأولى : أن يكون ذلك الاتصال بين اللّه ورسله « وَحْياً » أي رمزا وإشارة ، بحيث لا يعرف دلالة ما يوحى اللّه سبحانه به إلى الرسول - إلا الرسول وحده . .

والصورة الثانية : أن يكون الاتصال بأن يكلم اللّه الرسول بكلماته التي يريد سبحانه إلقاءها إليه ، وذلك من وراء حجاب ، أي من غير أن يرى الرسول ذات المتكلم ، سبحانه وتعالى ، حيث لا يمكن أن تقع هذه الرؤية لأبصارنا المحدودة الكاملة ، التي لا تتعامل إلا مع ما هو محدود ، واللّه سبحانه وتعالى منزّه عن التجسد ، والحدّ . . ولهذا كان قول اللّه لموسى حين قال :

« رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » . . « قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » (143 الأعراف) .

(64/688)

الصورة الثالثة : أن يكون ذلك بوساطة رسول من عالم الرّوح ، يرسله اللّه سبحانه وتعالى ، حاملا آياته وكلماته التي أذن بها له - إلى الرسول البشرى ، فيتلقاها النّبى من رسول السماء .

وقد أشرنا فى أول هذه السورة ، عند تفسير قوله تعالى : « حم عسق » . . إلى أن هذه الأحرف المقطعة ، هى صورة من صور الوحى ، وهى الصورة الأولى التي أشار إليها اللّه سبحانه وتعالى بقوله : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً » فهى - أي هذه الأحرف - من هذا الوحى الرمزى ، الذي هو سرّ بين اللّه سبحانه وتعالى وبين رسوله صلوات اللّه وسلامه عليه . . ! وهذا يعنى أن هذه الأحرف معروفة الدّلالة لرسول اللّه ، وإلا لما كان لوحيها إليه حكمة . . وهذا بدوره يدعونا إلى القول بأن الحروف المقطعة التي بدئت بها بعض السّور القرآنية - يجرى عليها هذا المفهوم الذي فهمنا عليه هذه الأحرف المقطعة هنا فى تلك السورة .

والسؤال هنا ، هو :

إذا كانت هذه الأحرف وحيا خاصا من اللّه سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم ، لا يعرف دلالتها إلا الرسول ، فلما ذا كانت قرآنا ، يتلى ، ويتعبد به ؟ وكيف يتعبد بما لا مفهوم له ؟

وقبل أن نجيب على هذا نسأل : أكان الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه ، يعرف دلالة هذه الحروف ؟

والجواب على هذا بالإيجاب ، وذلك من وجهين :

فأولا : فى قوله تعالى فى أول السورة : « حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . . وقد عاد اسم الإشارة

إلى هذه الأحرف ، وإلى أنها صورة من صور الوحى ، التي يتصل فيها النبىّ بربّه جلّ وعلا .

وثانيا : فى قوله تعالى : فى ختام السورة : « وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ . . . الآية » . . إشارة إلى أن هذا الوحى هو مما كلم اللّه به نبيه . . والكلام لا يكون كلاما حتى تكون له دلالة مفهومة عند من يلقى إليه هذا الكلام . . لأن الكلام نقد متداول بين معط وآخذ ، ولن تتم عملية المبادلة حتى يكون لهذا النقد قيمة معترف بها بين الطرفين ، أو الأطراف المتعاملة به . . وقيمة اللغة هى فى دلالتها ، وفى تحديد مفهومها بين المتخاطبين بها . .

فكلام اللّه سبحانه وتعالى لرسله ، سواء كان وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو عن طريق رسول سماوى ينقله إلى الرسول البشرى - هذا الكلام الإلهى لا بدّ أن يكون واضح الدلالة ، بيّن المفهوم عند الرسول المتلقى لهذا الكلام ، قبل كل شىء . . ثم لا يمنع ذلك من أن يكون للناس - وخاصة قوم الرسول - مشاركة فى هذا الفهم ، على اختلاف فى درجات هذا الفهم .

من الألف إلى الياء . . على حين تبقى للرسول درجة خاصة من الفهم لا يشاركه فيها غيره ! ونعود إلى الاجابة على سؤالنا آنفا ، وهو : إذا كانت هذه الأحرف المقطعة ، وحيا خاصا من اللّه سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم ـ فلما ذا كانت قرآنا يتلى ويتعبد به ؟ وكيف يتعبد بما لا مفهوم له ؟

والجواب على هذا . . واللّه أعلم . . هو :

أولا : أن اختصاص الرسول الكريم ، بفهم خاص ، لبعض كلمات وآيات

من كلمات اللّه وآياته ، التي يتلقاها وحيا من ربه ـ ليس هذا الفهم الخاص بالذي يعزل هذه الآيات أو الكلمات عن آيات القرآن وكلماته . . إذ أن هناك آيات وكلمات ، تختلف مفاهيم أهل اللغة فيها ، وفى تحديد دلالتها ، وهى من المتشابه الذي أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ . . وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ . . فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ »

(7 : آل عمران) ـ ومع ذلك فهى قرآن يقرأ ويتعبد به .

وثانيا : حكمة هذه الحروف المقطعة ـ وهى المتشابه ـ أنها دعوة إلى الايمان بالغيب ، والتسليم بالتعبد بهذه الأحرف ، دون أن يكون للعقل سلطان معها ، بعد أن استوفى العقل حقّه ، وأعمل كلّ سلطانه مع المحكم من الآيات ، واستبان له ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أنها من عند اللّه . . فكان حمله على الإيمان بما لا مفهوم له عنده من كلمات اللّه ، وإحالة ما لم يفهمه على ما فهم ـ كان ذلك دعوة مجددة له إلى الإيمان القائم على الولاء والتسليم المطلقين . .

فذلك هو الإيمان فى صميمه ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا » . . وهذا ما نجده فى بعض أعمال الحج التي يقف العقل أمامها دون أن يجد لها مفهوما يلتقى مع منطقه . .

كالطواف ، والسعى ، ورمى الجمرات ، ولمس الحجر الأسود أو تقبيله . . وهذه كلها ، وكثير غيرها من أعمال الحجّ ، هى من الإيمان القائم على التسليم المطلق لأمر اللّه ، وبمعزل عن سلطان العقل ، بعد أن امتلأ القلب إيمانا ويقينا بما تلقى من العقل من إشارات مضيئة من الحجج والبراهين ، أضاءت له معالم الطريق الى

اللّه ، وإقامته مقاما آمنا مطمئنا على الإيمان به « 1 » .

وثالثا : فى اختصاص الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه بهذا العلم الذي تحمله إليه هذه الأحرف المقطعة ، وغيرها من الآيات المتشابهة . . فى هذا - فوق أنه مزيد فضل وإحسان من اللّه سبحانه لنبيه الكريم - هو تثبيت للنبىّ ، فى مقام الدعوة إلى اللّه ، وفى الصبر على ما يكابد من آلام فى سبيل هذه الدعوة ، وما يلقى من ضرّ فيما يسوق إليه المشركون والمعاندون من كيد . .

ففى هذه الأحرف ، يرى الرسول - فيما أراه اللّه منها ، من أنباء الغيب - الطريق الذي تسير فيه دعوته ، وما يلقى على هذا الطريق من مواقع الهزيمة والنصر ، وما ينتهى إليه هذا الطريق من إعزاز لدين اللّه ، وانتصار لجند اللّه ، وإعلاء لكلمة اللّه . . وفى هذا ما يعين الرسول الكريم على احتمال الخطوب والأهوال ، حيث يجد النصر قريبا منه ، يلوح له برايات الأمان ، وينتظر سفينته التي تزأر من حولها الأمواج ، وقد أعد لها مرفأ الأمن والسلام . .

هذا ، ويلاحظ أن هذه الحروف المقطعة التي بدئت بها بعض سور القرآن الكريم - قد انتظمها جميعا أمران :

الأمر الأول : أنها جاءت على رأس هذه السور . . وهذا يعنى أنها مفاتح لها ، يفتح بها

هذا الخير الذي تحمله كل سورة فى آياتها وكلماتها من مواعظ ، وأحكام . .

ثم يعنى - من جهة أخرى - أنها ذات منزلة خاصة ، إذ كانت وحيا مباشرا من اللّه سبحانه ، على خلاف ما تلقى الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - من آيات ربه وكلماته ، بواسطة الرسول السماوي ، جبريل عليه السلام .

الأمر الثاني ، الذي انتظم هذه الأحرف ، أنه قد أعقبها ، واتصل بها ،

---

(1) وقد عرضنا لهذا فى مبحث خاص . (انظر تفسير سورة الحج)

ذكر القرآن ، تنويها به ، أو بيانا لما يحمل من هدى ونور ، أو إشارة إلى منّة من منن اللّه على عباده المتقين . أو قسما بجلاله وعظمته ، أو تشريفا للأدوات التي تخدم هذا الكتاب ، وتعمل فى كتابته .

وما ورد من الحروف المقطعة فى أوائل السور ، هو قوله تعالى : « الم ذِلكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ » . (البقرة) - « الم . اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ » . .

(آل عمران) - « المص كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى

لِلْمُؤْمِنِينَ» (الأعراف) . . «الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» (يونس) . . «الر . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (هود) .

«الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» (يوسف) «المر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ» (الرعد) «الر . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» (إبراهيم) «الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ» (الحجر) . . «كهيعص ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا» (مريم) . . «طه» ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (طه) . «طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» (الشعراء) . . «طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ» (النمل) «طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» (القصص) «الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ» (العنكبوت) «الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ» (الروم) .

«الم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» (لقمان) . . «يس . . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» (يس) . . «ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» (ص) . . «حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (غافر) . . «حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

(فصلت) . . « حم . عسق . كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (الشورى) . . « حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ » (الزخرف ، والدخان) « حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » (الجاثية ، والأحقاف) . .

« ق . وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » (ق) . . « ن . . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » (ن) .

هذا ويلاحظ عند النظر فى هذه المفاتح . . أمور . . منها :

أولا : اشتراك بعض السور فى صورة الحروف التي بدئت بها ، مثل « الم » فقد بدئت بها « البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان » . .

و« الر » التي بدئت بها سور : « يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر » ، و« طسم » وقد بدئت بها سورتا « الشعراء والقصص » و« حم » التي كانت بدءا لست سور ، هى : غافر ، وفصلت ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية .

والأحقاف .

والسؤال هنا هو : إذا كانت هذه المفاتح ، تحمل دلالات خاصة ، هى سرّ بين اللّه سبحانه وتعالى وبين الرسول الكريم ، على هذا التأويل الذي تأولناها عليه . فكيف يتفق أن تتكرر هذه المفاتح ؟ وما داعية تكرارها إذا كان السر الذي تحمله ، هو فى أىّ منها ؟

والجواب على هذا . واللّه أعلم . هو ، أن هذا التكرار فى صورة الحروف ، لا يعنى أن تكون محامل الأسرار فيها متماثلة من كل وجه . .

وقد قلنا إن هذه الحروف ، هى إشارات موحية ، وإيماءات دالة . . وعلى هذا ، فإنه ليس من الحتم اللازم أن تتحد الإشارتان أو الإشارات فى الصورة ، ثم لا يكون اختلاف فى المحتوى والمضمون . . فالكلمة مثلا تختلف دلالتها باختلاف الحال المتلبس بها ، والحركة بالعين أو اليد ، قد تقع على صورة واحدة ولكن مفهومها يختلف ، حسب تأويل المتلقى لها . . والأحلام مثلا ، تتفق فى

(70/688)

صورتها ويختلف تأويلها . . حسب الأشخاص ، وحسب الأحوال الشخص الواحد . .

هذه صورة تقربنا من فهم ما نقول به ، من أن الاتفاق فى صورة الحروف المكرّرة ، لا يعنى الاتفاق فى دلالتها . . بل إن لكل صورة منها دلالة خاصة . . مع العلم بأن اللّه سبحانه قد وصف هذه الكلمات بأنها وحي ، وأنها مما كلم اللّه به رسله ، وقد قلنا إن الكلام لا يكون كلاما إلا إذا كان ذا دلالة مفهومة بين المتكلم ، والمتلقى لهذا الكلام . . فكيف بكلام اللّه سبحانه وتعالى ، وما يبلغه من موقع الفهم عند من يكرمه اللّه ، وبكلمة بكلماته . . ؟

وسؤال آخر . . وهو إذا كان لكل صورة من صور هذه الحروف المكررة تأويلا خاصا ،

ودلالة خاصة . . أفما كان من الأولى - وفى اللغة متسع لهذا - أن يكون لكلّ دلالة صورة من اللفظ خاصة بها ؟

والجواب على هذا - واللّه أعلم - أن هذا الاشتراك فى اللفظ والاختلاف فى المعنى ، هو من مظاهر اللغة العربية التي نزل القرآن بلسانها ، بمعنى أن الكلمة الواحدة قد تحمل دلالتين أو أكثر ، مثل كلمة العين ، التي تدل على عين الماء ، والعين المبصرة .

وهذا الاشتراك ليس عن قصور فى مادة اللغة ، وإنما هو من بلاغة هذه اللغة وذكاء أهلها . . حيث يفرّقون فى اللفظ المشترك بين المعنى الذي تقتضيه داعية الحال ، وبين المعنى الذي لا مقتضى له فى تلك الحال ، كما أنهم إذ يأخذون بالمعنى المراد للفظ المشترك فى الحال الداعية له ، لا يقطعونه عن المعنى أو المعاني الأخرى التي يحملها فى كيانه . .

فإذا جاء القرآن الكريم مستعملا اللفظ المشترك فى تلك الحروف المقطعة - كان جاريا فى هذا على أسلوب اللغة التي نزل بها ، وأنه كما جاء باللفظ المشترك

(71/688)

فى الوحى الموحى به بوساطة الملك السماوي ، جاء كذلك فى الوحى الموحى به من عند اللّه سبحانه وتعالى ، بغير واسطة . . واللّه أعلم .

قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ »

.

الإشارة هنا إلى قوله تعالى : « أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ . . »

أي وكما أرسل اللّه رسولا علويّا يوحى بإذنه ما يشاء إلى أنبيائه ، كذلك أرسل هذا الرسول ، إلى النبىّ الكريم ، يحمل إليه من آيات ربه وكلماته ، ما أذن اللّه سبحانه وتعالى به من وحي . . وفى هذا إشارة إلى الصورة الثالثة من صور الوحى ، والتي كانت هى الصورة الغالبة على تلقّى رسول اللّه ما يتلّقى من وحي ربه . .

أما الصورة الأخرى التي كان يتلقى فيها النبي كلمات ربه ، فهى ما أشار إليه سبحانه وتعالى فى أول هذه السورة بقوله : « حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . . فالإشارة هنا ، إلى هذه الأحرف المقطعة التي تلقاها النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ وحيا من ربه ، دون وساطة رسول سماوى . . على ما ذهبنا إليه من تأويل لهذه الآية ، والذي نرجو أن يكون على منهج الحق والصواب .

والروح فى قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا » يحتمل دلالتين : أولاهما : الدلالة على رسول الوحى ، وهو جبريل عليه السلام ، فهو روح من عند اللّه . . كما يقول اللّه سبحانه وتعالى فيه : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » (193 ـ 194 الشعراء)

وثانيتهما : الدلالة على القرآن الكريم ، فهو كلام اللّه . . وكلامه سبحانه وتعالى روح منه . كما يقول سبحانه وتعالى عن مريم : « وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا » (12 : التحريم) . . ثم يقول سبحانه عن هذه النفخة : « إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ » (171 : النساء) فالنفخة التي تلقتها مريم من روح اللّه ، هى الكلمة التي ألقاها اللّه سبحانه وتعالى إليها . .

وهذا يعنى أن القرآن روح ، من روح اللّه ، وأن الذي حمله إلى الرسول روح من روح اللّه كذلك . . فهو روح ، يحمله روح . . وهذا يعنى من جهة أخرى ، أن القرآن الكريم حياة وروح تلبس النفوس المستعدة لاستقبالها ، كما تلبس الحياة والأرواح الأجساد ، بعد أن يتم تكوينها ، وتصبح مهيأة لاستقبالها . . وكما أن كل جسد يلبس من الأرواح بقدر ما هو مستعدّ له ، كذلك النفوس ، يفاض عليها من روح القرآن ، على قدر ما هى مستعدة له ، ومهيأة لقبوله . .

وقوله تعالى : « ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ » - هو بيان لحال النبي قبل أن يتلقى رسالة السماء ، وما تحمل إليه من كلمات ربه . . وأنه - صلوات اللّه وسلامه عليه - لم يكن

قبل هذا التلقي يدرى شيئا عن هذا الكتاب ، أي القرآن الذي تلقاه من ربه . . كما يقول الله سبحانه : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ » (3 : يوسف) وفى قوله تعالى : « وَلَا الْإِيمانُ » . ما يسأل عنه ، وهو : ما الإيمان الذي كان لا يعرفه النبي قبل النبوة ؟ وعلى أي دين كان يدين ؟

ولا شك أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - كان على دين الفطرة

(73/688)

وهو دين إبراهيم عليه السلام . . فقد كان - صلوات الله وسلامه عليه - مؤمنا بإله واحد ، قائم على هذا الوجود ، متفرد بالخلق والأمر . . أما ما لم يكن يعرفه النبي من الإيمان ، فهو ما يتصل بالشريعة التي تتصل بهذا الإيمان ، والتي جاء القرآن الكريم مبيّنا لها . . فالإيمان : قول ، وعمل . . عقيدة ، وشريعة . .

وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعرف الجانب العقيدى ، ويتعبد لله عليه ، قبل البعثة . . أما الجانب التشريعي ، فلم يكن يعلم منه شيئا إلى أن تلقاه وحيا من ربه ، فى أحكام الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وفيما أحل الله ، أو حرم . .

فنفى علم النبي بالإيمان قبل الوحى ، ليس على إطلاقه ، وإنما هو نفى لتمام العلم بالإيمان

كله ، عقيدة وشريعة . .

قوله تعالى : « وَلَكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا » . .

الضمير فى جعلناه ، يعود إلى الروح الموحى به من أمر اللّه ، أو إلى الكتاب . .

وفى قوله تعالى : « جَعَلْناهُ نُوراً » . إشارة إلى ما يحمل القرآن من هدى ونور ، يكشف معالم الطريق إلى اللّه . .

وفى قوله تعالى : « نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا » . إشارة أخرى إلى أن هذا النور ، لا يهتدى به إلا من شاء اللّه سبحانه وتعالى له الهداية من عباده ، فهو رزق من رزق اللّه ، « وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ » وفى قوله سبحانه : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » . إشارة ثالثة إلى أن الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - هو نور من هذا النور ، وأنه معلم من معالم الحق ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، وذلك فى سنته القولية والعملية . . وهذا يعنى أن السنة المطهرة - قولية وعملية - هى من هذا النور السماوي .

(74/688)

وقوله تعالى : « صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ » هو بدل من « صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » . أي أن هذا الصراط المستقيم الذي يهدى إليه الرسول من شاء اللّه

سبحانه وتعالى لهم الهداية من عباده. هذا الصراط، هو صراط اللّه، ودينه القويم، الذي رضيه لعباده، كما يقول سبحانه:

«وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (153 الأنعام) وقوله تعالى: «أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» تعقيب على ما تقرر فى قوله تعالى: «الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ» وهو أنه سبحانه. بما له من سلطان مطلق فى هذا الوجود كله، فى أرضه وسمائه. يردّ إليه كل أمر، ويرجع إليه كل شىء.. فلا يقع أمر إلا بإذنه، وعلمه وتقديره. «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ».. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 13 صـ 89. 100 ﴾

(75/688)

وقال ابن عاشور:

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾

عطف على جملة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: 51] الآية، وهذا دليل عليهم أن القرآن أُنزل من عند الله

أعقب به إبطال شبهتهم التي تقدم لإبطالها قوله : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً الآية ، أي كان وحينا إليك مثل كلامنا الذي كلّمنا به من قبلك على ما صُرح به في قوله تعالى : إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعده ﴾ [النساء : 163] .

والمقصود من هذا هو قوله : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ .

والإشارة إلى سابق في الكلام وهو المذكور آنفاً في قوله : ﴿ وما كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ [الشورى : 51] الآية ، أي ومثل الذي ذكر من تكليم الله وَحْيُنا إليك رُوحاً من أمرنا ، فيكون على حد قول الحارث بن حلزة :

مِثْلَها تَخْرُجُ النصيحةُ للقوم

فَلاَةً من دونها أفْلاَءُ . . .

أي مثل نصيحتنا التي نصحناها للملك عمرو بن هند تكون نصيحة الأقوام بعضهم لبعض لأنها نصيحة قرابة ذوي أرحام .

ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما يأتي من بعدُ وهو الإيحاء المأخوذُ من أوحينا إليك ﴾ ، أي مثل إيحائنا إليك أوحينا إليك ، أي لو أريد تشبيه إيحائنا إليك في رفعة القدر والهُدَى ما وجد له شَبيه إلا نفسُه على طريقة قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسَطاً ﴾ كما تقدم في سورة البقرة (143) .

والمعنى : إنّ ما أوحينا إليك هو أعزّ وأشرف وحي بحيث لا يماثله غيره .

وكلا المعنيين صالح هنا فينبغي أن يكون كلاهما مَحْمَلاً للآية على نحو ما ابتكرناه في المقدمة التاسعة من هذا التفسير .

(76/688)

ويؤخذ من هذه الآية أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد أعطي أنواع الوحي الثلاثة ، وهو أيضاً مقتضى الغرض من مساق هذه الآيات .

والروح : ما به حياة الإنسان ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الرّوح ﴾ في سورة الإسراء (85) .

وأطلق الروح هنا مجازاً على الشريعة التي بها اهتداء النفوس إلى ما يعود عليهم بالخير في حياتهم الأولى وحياتهم الثانية ، شبهت هداية عقولهم بعد الضلالة بحلول الروح في الجسد فيصير حَيّاً بعد أن كان جُثّة .

ومعنى ﴿ من أمرنا ﴾ مما استأثرنا بخلقه وحجبناه عن النّاس فالأمر المضاف إلى الله بمعنى الشأن العظيم ، كقولهم : أمِرَ أمْر فلان ، أي شأنه ، وقوله تعالى : ﴿ بإذن ربّهم من كل أمر ﴾ [القدر : 4] .

والمراد بالروح من أمر الله : ما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الإرشاد

والهداية سواء كان بتلقين كلام معين مأمور بإبلاغه إلى النّاس بلفظه دون تغيّر وهو الوحي القرآني المقصود منه أمران : الهداية والإعجاز ، أم كان غير مقيد بذلك بل الرّسول مأمور بتبليغ المعنى دون اللّفظ وهو ما يكون بكلام غير مقصود به الإعجاز ، أو بإلقاء المعنى إلى الرّسول بمشافهة المَلَكِ ، وللرّسول في هذا أن يتصرف من ألفاظ ما أُوحي إليه بما يريد التعبير به أو برؤيا المنام أو بالإلقاء في النّفس كما تقدم .

واختتام هذه السورة بهذه الآية مع افتتاحها بقوله : ﴿ كذلك أوحينا إليك ﴾ [الشورى : 7] الآية فيه محسن ردّ العجز على الصدر .

وجملة ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ أوحينا ﴾ أي أوحينا إليك في حال انتفاء علمك بالكتاب والإيمان ، أي أفضنا عليك موهبة الوحي في حال خلوّك عن علم الكتاب وعِلم الإيمان .

(77/688)

وهذا تحدَ للمعاندين ليتأملوا في حال الرّسول صلى الله عليه وسلم فيعلموا أن ما أوتيه من الشريعة والآداب الخُلقية هو من مواهب الله تعالى التي لم تسبق له مزاولتها ، ويَتضمن امتناناً عليه وعلى أمته المسلمين .

ومعنى عدم دراية الكتاب : عدم تعلق علمه بقراءة كتاب أو فهمه .

ومعنى انتفاء دراية الإيمان : عدم تعلق علمه بما تحتوي عليه حقيقة الإيمان الشرعي من صفات الله وأصول الدين وقد يطلق الإيمان على ما يرادف الإسلام كقوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] وهو الإيمان الذي يزيد وينقص كما في قوله تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ [المدثر : 31] .

فيزاد في معنى عدم دراية الإيمان انتفاء تعلق علم الرّسول صلى الله عليه وسلم بشرائع الإسلام .

فانتفاء درايته بالإيمان مثل انتفاء درايته بالكتاب ، أي انتفاء العلم بحقائقه ولذلك قال : ﴿ ما كنت تدري ﴾ ولم يقل : ما كنت مؤمناً .

وكلا الاحتمالين لا يقتضي أن الرّسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مؤمناً بوجود الله ووحدانية إلهيته قبل نزول الوحي عليه إذ الأنبياء والرّسل معصومون من الشرك قبل النبوءة فهم مُوحّدُون لله ونابذون لعبادة الأصنام ، ولكنهم لا يعلمون تفاصيل الإيمان ، وكان نبيئنا صلى الله عليه وسلم في عهد جاهلية قومه يعلم بطلان عبادة الأصنام ، وإذ قد كان قومه يشركون مع الله غيره في الإلهية فبطلان إلهية الأصنام عنده تمحّضه لإفراد الله بالإلهية لا محالة .

وقد أخبر بذلك عن نفسه فيما رواه أبو نعيم في "دلائل النبوءة" عن شداد بن أوس وذكره

عياض في "الشفاء" غير معزو : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمّا نَشَأت أي عقلت بُغِّضَتَ إليَّ الأوْثانُ وبُغض إليَّ الشعرُ ، ولم أهِمَّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أَعُدْ " .

وعلى شدة منازعة قريش إياه في أمر التوحيد فإنهم لم يحاجُّوه بأنه كان يعبد الأصنام معهم .

(78/688)

وفي هذه الآية حجة للقائلين بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبداً قبل نبوءته بشرع .

وإدْخال ﴿ لا ﴾ النافية في قوله : ﴿ ولا الإيمان ﴾ تأكيد لنفي درايته إيّاه ، أي ما كنت تدري الكتاب ولا الإيمان ، للتنصيص على أن المنفي دراية كل واحدٍ منهما .

وقوله : ﴿ ولكن جعلناه نوراً ﴾ عطف على جملة ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ .

وضمير ﴿ جعلناه ﴾ عائد إلى الكتاب في قوله : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ .

والتقدير : وجعلنا الكتاب نوراً .

وأقحم في الجملة المعطوفة حرف الاستدراك للتنبيه على أن مضمون هذه الجملة عكس مضمون جملة ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ .

والاستدراك ناشىء على ما تضمنته جملة ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ لأن ظاهر نفي دراية الكتاب أن انتفاءها مستمر فاستدرك بأن الله هداه بالكتاب وهدى به أمته ، فالاستدراك واقع في المحزّ .

والتقدير : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ثم هديناك بالكتاب ابتداء وعرفناك به الإيمان وهَدَيت به النّاس ثانياً فاهتدى به من شِئنا هدايته ، أي وبقي على الضلال من لم نشأ له الاهتداء ، كقوله تعالى : ﴿ يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ [البقرة : 26] .

وشبه الكتاب بالنّور لمناسبة الهَدي به لأن الإيمان والهُدى والعلم تشبَّه بالنور ، والضلال والجهل والكفر تشبه بالظلمة ، قال تعالى : ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النّور ﴾ [البقرة : 257] .

وإذا كان السائر في الطريق في ظلمة ضل عن الطريق فإذا استنار له اهتدى إلى الطريق ، فالنّور وسيلة الاهتداء ولكن إنما يَهتدي به من لا يكون له حائل دون الاهتداء وإلا لم تنفعه وسيلة الاهتداء ولذلك قال تعالى : ﴿ نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ ، أي نَخلُق بسببه الهداية في نفوس الذين أعددناهم للهُدى من عبادنا .

فالهداية هنا هداية خاصة وهي خلق الإيمان في القلب .

﴿ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لتهدى إلى صراط ﴾ ﴿ مُّسْتَقِيمٍ * صراط الله الذى لَهُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأَرض أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الامور ﴾ .

أي نهدي به من نشاء بدعوتك وواسطتك فلما أثبت الهديَ إلى الله وجعل الكتاب سبباً لتحصيل الهداية عطف عليه وساطةَ الرّسول في إيصال ذلك الهدي تنويهاً بشأن الرّسول صلى الله عليه وسلم

فجملة ﴿ وإنك لتهدي ﴾ عطف على جملة ﴿ نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ .

وفي الكلام تعريض بالمشركين إذ لم يهتدوا به وإذ كبر عليهم ما يدعوهم إليه مع أنه يهديهم إلى صراط مستقيم .

والهداية في قوله : ﴿ وإنك لتهدي ﴾ هداية عامة .

وهي : إرشاد النّاس إلى طريق الخير فهي تخالف الهداية في قوله : ﴿ نهدي به من نشاء ﴾ .

وحذف مفعول ﴿ لتهدي ﴾ للعموم ، أي لتهدي جميع النّاس ، أي ترشدهم إلى صراط مستقيم ، وهذا كقوله : ﴿ وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة ﴾ [البلد : 10 ، 11] .

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) للاهتمام به لأن الخبر مستعمل في تثبيت قلب النبي صلى الله عليه

وسلم بالشهادة له بهذا المقام العظيم فالخبر مستعمل في لازم معناه ، على أنه مستعمل أيضاً للتعريض بالمنكرين لِهَدْيِهِ فيكون في التأكيد ملاحظة تحقيقه وإبطال إنكارهم .

فكما أن الخبر مستعمل في لازمين من لوازم معناه فكذلك التأكيدُ بـ (إنَّ) مستعمل في غرضين من أغراضه ، وكلا الأمرين مما ألحق باستعمال المشترك في معنييه .

وتنكير ﴿ صراط ﴾ للتعظيم مثل تنكير (عظمٍ) في قول أبي خراش :

فلا وأبي الطير المُرِبَّة في الضحى

على خالد لقد وقعن على عَظْم . . .

ولأن التنكير أنسب بمقام التعريض بالذين لم يأبهوا بهدايته .

(80/688)

وعُدل عن إضافة ﴿ صراط ﴾ إلى اسم الجلالة ابتداء لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل بأن يُبْدل منه بعد ذلك ﴿ صراط الله ﴾ ليتمكن بهذا الأسلوب المعنى المقصود فَضْلَ تمكُّن على نحو قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراطَ الذين أنعمت عليهم ﴾ [الفاتحة : 6 ، 7] .

وإجراء وصف اسم الجلالة باسم الموصول وصلته للإيماء إلى أن سبب استقامة الصراط

الذي يهدي إليه النبي بأنه صراط الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض فلا يعْزب عنه شيء مما يليق بعباده ، فلما أرسَل إليهم رسولاً بكتاب لا يُرتاب في أن ما أرسل لهم فيه صلاحُهم .

﴿ الأرض أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ ﴾ .

تذييل وتنهية للسورة بختام ما احتوت عليه من المجادلة والاحتجاج بكلام قاطع جامع منذر بوعيد للمعرضين فاجع ومبشر بالوعد لكل خاشع .

وافتتحت الجملة بحرف التنبيه لاسترعاء أسماع النّاس .

وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص ، أي إلى الله لا إلى غيره .

و﴿ المصير ﴾ : الرّجوع والانتهاء ، واستعير هنا لظهور الحقائق كما هي يومَ القيامة فيَذهَب تلبيس الملبسين ، ويَهِن جبروت المتجبرين ، ويقرّ بالحق من كان فيه من المعاندين ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ [لقمان : 22] وقوله : ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾ [هود : 123] .

والأمور : الشؤون والأحوال والحقائق وكل موجود من الذوات والمعاني .

وقد أخذَ هذا المعنى الكميت في قوله :

فالآن صِرتُ إلى أمية والأمورُ إلى مَصائر

وفي تنهية السورة بهذه الآية محسن حُسن الختام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(81/688)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله عز وجل ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾

وقد قيل إن الضمير في (جعلناه) عائد إلى الأمر وقيل إلى الكتاب وقيل إلى الإيمان والصواب أنه عائد إلى الروح أي جعلنا ذلك الروح الذي أوحيناه إليك نورا فسماه روحا لما يحصل به من الحياة وجعله نورا لما يحصل به الاشراق والاضاءة وهما متلازمان فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الاضاءة والاستنارة وحيث وجدت الاستنارة والاضاءة وجدت الحياة فمن لم يقبل هذا الروح فهو ميت مظلم كما أن المائي والناري لما يحصل بالماء من الحياة وبالنار من الاشراق والنور كما ضرب ذلك في أول سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الوابل الصيب صـ 72 ﴾

(82/688)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أولادكم هبة الله ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ فهم وأموالهم لكم إذا احتجتم إليها " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى " لأن الله قال : ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ قال : لا إناث معهم ﴿ أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ قال : يولد له جارية وغلام ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ لا يولد له .

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي مالك رضي الله عنه : ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ﴾ قال : يكون الرجل لا يولد إلا الإناث . ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ قال : يكون الرجل لا يولد له إلا الذكور ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ قال : يكون الرجل يولد له الذكور والإناث ﴿

ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ قال : يكون الرجل لا يولد له .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن محمد بن الحنفية : ﴿ أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ قال : التوأم .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ قال : الذي لا يولد له ولد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ قال : لا يلقح .

(83/688)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، عن عبد الله بن الحرث بن عمير ، " أن أبا بكر رضي الله عنه أصاب وليدة له سوداء فعزلها ثم باعها ، فانطلق بها سيدها ، حتى إذا كان في بعض الطريق أرادها ، فامتنعت منه ، فإذا هو براعي غنم فدعاه ، فراطنها ، فاخبرها أنه سيدها ، قالت : إني قد حملت من سيدي الذي كان قبل هذا ، وأنا في ديني أن لا يصيبني رجل في حمل من آخر ، فكتب سيدها إلى أبي بكر أو عمر ، فأخبره الخبر ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد

، وكان مجلسهم الحجر ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " جاءني جبريل في مجلسي هذا ، عن الله : إن أحدكم ليس بالخيار على الله إذا شجع المشجع ، ولكنه ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ فاعترف بولدك ، فكتب بذلك فيها " " .

وأخرج عبد الرزاق عن غيلان عن أنس رضي الله عنه قال : " ابتاع أبو بكر رضي الله عنه جارية أعجمية من رجل ؛ قد كان أصابها ، فحملت له ، فأراد أبو بكر رضي الله عنه أن يطأها ، فأبت عليه وأخبرت أنها حامل ، فرفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنها حفظت فحفظ الله لها أن أحدكم إذا شجع ذلك المشجع ، فليس بالخيار على الله ، فردها إلى صاحبها الذي باعها " " .

(84/688)

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات ، عن يونس بن يزيد رضي الله عنه قال : سمعت الزهري رضي الله عنه ، سئل عن قول الله ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ الآية قال : نزلت هذه الآية تعم من أوحى الله إليه من النبيين ، فالكلام كلام الله الذي كلم به موسى من وراء حجاب ، والوحي ما يوحي الله به إلى نبي من أنبيائه ، فيثبت الله ما أراد من وحيه في قلب النبي ، فيتكلم به النبي ويعيه وهو كلام الله ووحيه ومنه ما يكون بين الله

ورسله لا يكلم به أحداً من الأنبياء ولكنه سر غيب بين الله ورسله ، ومنه ما يتكلم به الأنبياء عليهم السلام ولا يكتبونه لأحد ولا يأمرون بكتابته ، ولكنهم يحدثون به الناس حديثاً ، ويبينون لهم أن الله أمرهم أن يبينوه للناس ، ويبلغوهم ، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء من اصطفى من ملائكته ، فيكلمون أنبياءه ، ومن الوحي ما يرسل به إلى من يشاء ، فيوحون به وحياً في قلوب من يشاء من رسله .

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي ، عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ قال : " أحيانا يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وهو أشده علي وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول " قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

وأخرج أبو يعلى والعقيلي والطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه ، عن سهل بن سعد وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دون الله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة ما يسمع من نفس من حس تلك الحجب إلا زهقت نفسه " .

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ قال : القرآن .

(85/688)

وأخرج أبو نعيم في الدلائل وابن عساكر ، عن علي رضي الله عنه ، قال : " قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا قالوا : فهل شربت خمراً قط ؟ قال : لا وما زلت أعرف الذي هم عليه كفر ، (وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان) وبذلك نزل القرآن ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإنك لتهدي ﴾ قال : لتدعو .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ قال : قال الله ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ [يوسف : 7] . قال : داع يدعو إلى الله تعالى .

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ قال : تدعو . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

بحث ** حول معنى الهداية ** :

للشيخ محمود غريب

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وسلام على النبيّ المصطفى **أما بعد **قال تعالى : ---* *مخاطبا نبيه الكريم صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه * * ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ الشورى 50 – 53* وقال تعالى في آية أخرى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ القصص 56 نعيش هذا اللقاء مع الآيتين الكريمتين . . . . . وموضوع هداية الله تعالى وقد قدمت آية الشّورى على آية القصص تقديما للإثبات على النفي ونحن نرى الآية الأولى تثبت الهداية للنبيّ صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه فتقول (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

ونرى الآية الثانية تنفي قدرة هداية الناس عن النبيّ . وتثبت ذلك لله تعالى وحده قال تعالى : --- (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) وحتى لا تخطيء فهم القرآن أحب أن نتتبع معا كلمة الهداية في كل القرآن ليظهر لنا أنّ لهذه الكلمة معنيين . الأول :---- هداية بمعنى الإرشاد إلى الخير . وهذا ما أثبته القرآن للنبيّ ولإخوانه من الأنبياء والصّالحين . والثاني :----- هداية بمعنى التوفيق وانشراح الصدر للخير . . . وهذه لا

(87/688)

يقدر عليها إلا الله تعالى . ومعلوم أنّ دور الهداية الثانية وهي التوفيق من الله تعالى يأتي بعد قبول الهداية الأولى وتسليم الوجه لله تعالى قال تعالى :---- ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن 11 وقال تعالى :----- ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ مريم 76 وقال تعالى : ---- ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ محمد 17 فإذا رفض الناس قبول هداية الأنبياء حرموا أنفسهم من هداية الله تعالى وتوفيقه . قال تعالى : ---- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ

اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النحل 104 وقد قدم القرآن الكريم نموذجا لهذا النوع من الناس وبين مصيرهم فقال تعالى :-- ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ فصلت 17 - 18 ومثل ذلك كسائق سيّارة سألك عن الطريق فأرشدته فشكر لك وأراد أن يسير فقلت له أن أمامك الطريق وعر فركبت معه حتى أوصلته . . . . . أترى هذا السائق لو رفض نصحك واتهمك بالجهل أيستحق مساعدتك ؟ ؟ هذا ولله تعالى المثل الأعلى إن قبول الناس لهداية الأنبياء معناه صفاء فطرتهم وخضوعهم للخير فمثلهم جدير أن يوفق إلى الخير وأن ينشرح صدره له . . . . . ومن حق القارئ أن يسأل . . . . ما دام الأمر كذلك :------- الهداية الأولى توصل للهداية الثانية فما بال القرآن الكريم علق الهداية والإضلال على مشيئة الله تعالى فقال تعالى :---- ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ

(88/688)

يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فاطر 8 ونقول :--- أن الأمر سهل لان هناك آيات وضحت الذين شاء الله تعالى أن

يضّلهم كما أن هناك آيات وضحت الذين شاء الله تعالى أن يهديهم والآن مع الآيات

. . . . . فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ من هم يا ربّ ؟ ؟ فيقول تعالى :---- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ البقرة 26 ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ البقرة 27

﴿ . . . . . وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة 258 ﴿ . . . . . وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ التوبة 37 ﴿ . . . . . وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة 24 ﴿ . . . . . إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ غافر 28 ﴿ . . . . إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ الزمر 3 ﴿ . . . . . إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النحل 104 فهل عرفت الذين شاء الله تعالى أن يضّلهم ؟ ؟ إنهم الذين :------ آثروا الضلال على الهدى ورفضوا قبول هداية الله تعالى . ويهدي إليه من يشاء فسرتها آية أخرى وبينت الذين شاء الله هدايتهم فقال تعالى :----- ﴿ . . . . . وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ . الَّذِينَ آمَنُواْ

وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد 27 – 28 فهل عرفت الذين شاء الله تعالى هدايتهم :---- إنهم الذين أنابوا إلى ربهم . . . . . .إنهم الذين آمنوا بربهم قال تعالى : ---- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يونس 9 – 10 يهديهم ربهم بإيمانهم . . . . . .أي بسبب إيمانهم . . . . إنهم الذين جاهدوا من أجل دين ربهم قال تعالى :---- ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت 69 وبعد : ------ لعل الأمر قد ظهر جليا . . . . أنّ النبيّ صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم كما تحبه وترضاه يهدي الناس هداية تعليم وإرشاد وهذه الهداية هي سبب الهداية العليا . فالتوفيق كل التوفيق لمن صدّق بالنبيّ واتبع هديه . والذين كفروا حرموا أنفسهم هداية الله تعالى . أقول ذلك :---- حتى لا نخطيء فهم القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ سلسلة حتى لا نخطيء فهم القرآن للشيخ محمود غريب ﴾

(90/688)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى بُطْلَانِ الِاسْتِئْجَارِ عَلَى مَا سَبِيلُهُ أَنْ لَا يُفْعَلَ إلَّا عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ ؛ لِإِخْبَارِهِ - تَعَالَى - بِأَنَّ مَنْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا فَلَا حَظَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، فَيَخْرُجُ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ قُرْبَةً ، فَلَا يَقَعُ مَوْقِعَ الْجَوَازِ .

وَقَوْله تَعَالَى - : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ : " مَعْنَاهُ إلَّا أَنْ تَوَدُّونِي لِقَرَابَتِي مِنْكُمْ " قَالُوا : " كُلُّ قُرَيْشٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَابَةٌ " .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : " إلَّا أَنْ تَوَدُّوا قَرَابَتِي " .

وَقَالَ الْحَسَنُ : ﴿ إلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ أَيْ إلَّا التَّقَرُّبَ إلَى اللَّهِ وَالتَّوَدُّدَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

وَقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى جَلَالَةِ مَوْقِعِ الْمَشُورَةِ لِذِكْرِهِ لَهَا مَعَ الْإِيمَانِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّا مَأْمُورُونَ بِهَا .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَالَّذِينَ إذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ رُوِيَ عَنْ إبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ فِي مَعْنَى الْآيَةِ قَالَ : " كَانُوا يَكْرَهُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُذِلُّوا أَنْفُسَهُمْ فَيَجْتَرِئُ عَلَيْهِمْ الْفُسَّاقُ " .

وَقَالَ السُّدِّيّ ﴿ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ مَعْنَاهُ : مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ نَدَبَنَا اللَّهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ إِلَى الْعَفْوِ عَنْ حُقُوقِنَا قِبَلَ النَّاسِ ، فَمِنْهُ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ وَقَوْلُه تَعَالَى فِي شَأْنِ الْقِصَاصِ : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْآيِ ثَابِتَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ يَدُلُّ ظَاهِرُهُ عَلَى أَنَّ الِانْتِصَارَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَفْضَلُ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَرَنَهُ إِلَى ذِكْرِ الِاسْتِجَابَةِ لِلَّهِ – تَعَالَى – وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ؟

وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا ذَكَرَهُ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُذِلُّوا أَنْفُسَهُمْ فَيَجْتَرِئُ الْفُسَّاقُ عَلَيْهِمْ ، فَهَذَا فِيمَنْ تَعَدَّى وَبَغَى وَأَصَرَّ عَلَى ذَلِكَ ، وَالْمَوْضِعُ الْمَأْمُورُ فِيهِ بِالْعَفْوِ إِذَا كَانَ الْجَانِي نَادِمًا مُقْلِعًا .

وَقَدْ قَالَ عَقِيبَ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ وَمُقْتَضَى ذَلِكَ إِبَاحَةُ الِانْتِصَارِ لَا الْأَمْرُ بِهِ ، وَقَدْ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْغُفْرَانِ عَنْ غَيْرِ الْمُصِرِّ .

فَأَمَّا الْمُصِرُّ عَلَى الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ فَالْأَفْضَلُ الِانْتِصَارُ مِنْهُ ، بِدَلَالَةِ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا .

(92/688)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ قَالَ : هَذَا فِيمَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ الْقِصَاصِ ، فَأَمَّا لَوْ ظَلَمَك رِجْلٌ لَمْ يَحِلَّ لَك أَنْ تَظْلِمَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(93/688)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْك وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ .

ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الْمَشْهُورِ [الْكَبِيرِ] : ﴿ وَلَكِنْ ائْتُوا نُوحًا ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ . فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ﴾ .

(94/688)

وَهَذَا صَحِيحٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ ، كَمَا أَنَّ آدَمَ أَوَّلُ نَبِيٍّ بِغَيْرِ إِشْكَالٍ ؛ لِأَنَّ آدَمَ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا بَنُوهُ ، وَلَمْ تُفْرَضْ لَهُ الْفَرَائِضُ ، وَلَا شُرِعَتْ لَهُ الْمَحَارِمُ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ تَنْبِيهًا عَلَى بَعْضِ الْأُمُورِ ، وَاقْتِصَارًا عَلَى ضَرُورَاتِ الْمَعَاشِ ، وَأَخْذًا بِوَظَائِفِ الْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ ، وَاسْتَقَرَّ الْمَدَى إِلَى نُوحٍ ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ بِتَحْرِيمِ الْأُمَّهَاتِ وَالْبَنَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَوَظَّفَ عَلَيْهِ الْوَاجِبَاتِ ، وَأَوْضَحَ لَهُ الْآدَابَ فِي الدِّيَانَاتِ ، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَأَكَّدُ بِالرُّسُلِ ، وَيَتَنَاصَرُ بِالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، شَرِيعَةً بَعْدَ شَرِيعَةٍ ، حَتَّى خَتَمَهَا اللَّهُ بِخَيْرِ الْمِلَلِ مِلَّتِنَا ، عَلَى لِسَانِ أَكْرَمِ الرُّسُلِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَأَنَّ الْمَعْنَى : وَوَصَّيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَنُوحًا دِينًا وَاحِدًا يَعْنِي فِي الْأُصُولِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِيهَا الشَّرِيعَةُ ، وَهِيَ : التَّوْحِيدُ ، وَالصَّلَاةُ ، وَالزَّكَاةُ ، وَالصِّيَامُ ، وَالْحَجُّ ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَالتَّزَلُّفُ إِلَيْهِ بِمَا يَرُدُّ الْقَلْبَ وَالْجَارِحَةَ إِلَيْهِ ، وَالصِّدْقُ ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ،

وَصِلَةُ الرَّحِمِ ، وَتَحْرِيمُ الْكُفْرِ ، وَالْقَتْلِ ، وَالزِّنَا ، وَالْإِذَايَةِ لِلْخَلْقِ ، كَيْفَمَا تَصَرَّفَتْ ، وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى الْحَيَوَانِ كَيْفَمَا كَانَ ، وَاقْتِحَامِ الدَّنَاءَاتِ ، وَمَا يَعُودُ بِخَرْمِ الْمُرُوءَاتِ .

(95/688)

فَهَذَا كُلُّهُ شُرِعَ دِينًا وَاحِدًا وَمِلَّةً مُتَّحِدَةً لَمْ يَخْتَلِفْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَعْدَادُهُمْ ، وَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أَيْ اجْعَلُوهُ قَائِمًا ، يُرِيدُ دَائِمًا مُسْتَمِرًّا ، مَحْفُوظًا مُسْتَقِرًّا ، مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ فِيهِ ، وَلَا اضْطِرَابٍ عَلَيْهِ .

فَمِنْ الْخَلْقِ مَنْ وَفَى بِذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَكَثَ بِهِ ، وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ .

وَاخْتَلَفَتْ الشَّرَائِعُ وَرَاءَ هَذَا فِي مَعَانٍ حَسْبَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ ، مِمَّا اقْتَضَتْهُ الْمَصْلَحَةُ ، وَأَوْجَبَتْ الْحِكْمَةُ وَضْعَهُ فِي الْأَزْمِنَةِ عَلَى الْأُمَمِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ وَغَيْرِهَا بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ ، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا : ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ يُبْطِلُ مَذْهَبَ أَبِي حَنِيفَةَ فِي قَوْلِهِ :

إِنَّهُ مَنْ تَوَضَّأَ تَبَرُّدًا إِنَّهُ يُجْزِئُهُ عَنْ فَرِيضَةِ الْوُضُوءِ الْمُوَظَّفَةِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ فَرِيضَةَ الْوُضُوءِ الْمُوَظَّفَةَ عَلَيْهِ مِنْ حَرْثِ الْآخِرَةِ ، وَالتَّبَرُّدَ مِنْ حَرْثِ الدُّنْيَا ؛ فَلَا يَدْخُلُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ ، وَلَا تُجْزِئُ نِيَّتُهُ عَنْهُ بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

(96/688)

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ رُكُوبِ الْبَحْرِ بِمَا يُغْنِي عَنْ إعَادَتِهِ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ ﴿ وَأَمْرُهُمْ ﴾ يَعْنِي بِهِ الْأَنْصَارَ ، كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَقَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذَا كَانَ يَهُمُّهُمْ أَمْرٌ اجْتَمَعُوا فَتَشَاوَرُوا بَيْنَهُمْ وَأَخَذُوا بِهِ ، فَأَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَيْرًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الشُّورَى فَعَلَى ، مِنْ شَارَ يَشُورُ شَوْرًا إذَا عَرَضَ الْأَمْرَ عَلَى الْخِيرَةِ ، حَتَّى يَعْلَمَ الْمُرَادَ مِنْهُ .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ رَكِبَ فَرَسًا يَشُورُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : الشُّورَى أُلْفَةٌ لِلْجَمَاعَةِ ، وَمِسْبَارٌ لِلْعُقُولِ ، وَسَبَبٌ إلَى الصَّوَابِ ، وَمَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إلَّا هُدُوا .

(97/688)

وَقَدْ قَالَ حَكِيمٌ : إذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ بِرَأْيِ لَبِيبٍ أَوْ مَشُورَةِ حَازِمٍ وَلَا تَجْعَلْ الشُّورَى عَلَيْك غَضَاضَةً فَإِنَّ الْخَوَافِيَ نَافِعٌ لِلْقَوَادِمِ الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : مَدَحَ اللَّهُ الْمُشَاوِرَ فِي الْأُمُورِ ، وَمَدَحَ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَمْتَثِلُونَ ذَلِكَ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَصَالِحِ الْحُرُوبِ ، وَذَلِكَ فِي الْآثَارِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يُشَاوِرْهُمْ فِي الْأَحْكَامِ ؛ لِأَنَّهَا مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَقْسَامِ : مِنْ الْفَرْضِ ، وَالنَّدْبِ ، وَالْمَكْرُوهِ ، وَالْمُبَاحِ ، وَالْحَرَامِ .

فَأَمَّا الصَّحَابَةُ بَعْدَ اسْتِئْثَارِ اللَّهِ بِهِ عَلَيْنَا فَكَانُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي الْأَحْكَامِ ، وَيَسْتَنْبِطُونَهُا مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ وَإِنَّ أَوَّلَ مَا تَشَاوَرَ فِيهِ الصَّحَابَةُ الْخِلَافَةَ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَنُصَّ عَلَيْهَا حَتَّى كَانَ فِيهَا بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَالْأَنْصَارِ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ .

وَقَالَ عُمَرُ : نَرْضَى لِدُنْيَانَا مَنْ رَضِيَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا .

وَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِ الرِّدَّةِ ، فَاسْتَقَرَّ رَأْيُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى الْقِتَالِ .

وَتَشَاوَرُوا فِي الْجَدِّ وَمِيرَاثِهِ ، وَفِي حَدِّ الْخَمْرِ وَعَدَدِهِ عَلَى الْوُجُوهِ الْمَذْكُورَةِ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

وَتَشَاوَرُوا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحُرُوبِ ، حَتَّى شَاوَرَ عُمَرَ الْهُرْمُزَانَ حِينَ وَفَدَ عَلَيْهِ مُسْلِمًا فِي الْمَغَازِي ، فَقَالَ لَهُ .

(98/688)

الْهُرْمُزَانُ : إنَّ مَثَلَهَا وَمَثَلَ مَنْ فِيهَا مِنْ عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُ طَائِرٍ لَهُ رَأْسٌ وَلَهُ جَنَاحَانِ وَرِجْلَانِ ، فَإِنْ كُسِرَ أَحَدُ الْجَنَاحَيْنِ نَهَضَتْ الرِّجْلَانِ بِجَنَاحٍ وَالرَّأْسِ ، وَإِنْ كُسِرَ الْجَنَاحُ الْآخَرُ نَهَضَتْ الرِّجْلَانِ وَالرَّأْسُ ، وَإِنْ شُدِخَ الرَّأْسُ ذَهَبَتْ الرِّجْلَانِ وَالْجَنَاحَانِ ، وَالرَّأْسُ كِسْرَى وَالْجَنَاحُ الْوَاحِدُ قَيْصَرُ ، وَالْآخَرُ فَارِسُ .

فَمُرْ الْمُسْلِمِينَ فَلْيَنْفِرُوا إلَى كِسْرَى وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إلَى آخِرِهِ وَقَالَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ : مَا أَخْطَأْت قَطُّ ؛ إذَا حَزَبَنِي أَمْرٌ شَاوَرْت قَوْمِي ، فَفَعَلْت الَّذِي يَرَوْنَ ، فَإِنْ أَصَبْت فَهُمْ الْمُصِيبُونَ ، وَإِنْ أَخْطَأْت فَهُمْ الْمُخْطِئُونَ ، وَهَذَا أَبْيَنُ مِنْ إطْنَابٍ فِيهِ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ذَكَرَ اللَّهُ الِانْتِصَارَ فِي الْبَغْيِ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ ، وَذَكَرَ الْعَفْوَ عَنْ الْجُرْمِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ ؛ فَاحْتُمِلَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا رَافِعًا لِلْآخَرِ ، وَاحْتُمِلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ رَاجِعًا إلَى حَالَتَيْنِ : إحْدَاهُمَا أَنْ يَكُونَ الْبَاغِي مُعْلِنًا بِالْفُجُورِ ، وَقِحًا فِي الْجُمْهُورِ ، مُؤْذِيًا لِلصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ ، فَيَكُونَ الِانْتِقَامُ مِنْهُ أَفْضَلَ .

وَفِي مِثْلِهِ قَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : يُكْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُذِلُّوا أَنْفُسَهُمْ ، فَيَجْتَرِئَ عَلَيْهِمْ الْفُسَّاقُ .

(99/688)

الثَّانِي : أَنْ تَكُونَ الْفَلْتَةَ ، أَوْ يَقَعَ ذَلِكَ مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِالزَّلَّةِ ، وَيَسْأَلُ الْمَغْفِرَةَ ، فَالْعَفْوُ هَاهُنَا أَفْضَلُ ، وَفِي مِثْلِهِ نَزَلَتْ : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ السُّدِّيُّ : إنَّمَا مَدَحَ اللَّهُ مَنْ انْتَصَرَ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِدَاءٍ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مِقْدَارِ مَا فَعَلَ بِهِ يَعْنِي كَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُهُ ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ فَبَيَّنَ فِي آخِرِ الْآيَةِ الْمُرَادَ مِنْهَا ، وَهُوَ أَمْرٌ مُحْتَمَلٌ .

وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ وَهِيَ الْآيَةُ السَّادِسَةُ .

[الْآيَةُ السَّابِعَةُ] قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذِهِ الْآيَةُ فِي مُقَابَلَةِ الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي (بَرَاءَةٌ) ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ فَكَمَا نَفَى اللَّهُ السَّبِيلَ عَمَّنْ أَحْسَنَ فَكَذَلِكَ أَثْبَتَهَا عَلَى مَنْ ظَلَمَ ، وَاسْتَوْفَى بَيَانَ الْقِسْمَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ ، وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ : لَا أُحَلِّلُ أَحَدًا .

فَقَالَ : ذَلِكَ يَخْتَلِفُ .

(100/688)

فَقُلْت : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، الرَّجُلُ يُسَلِّفُ الرَّجُلَ فَيَهْلِكُ ، وَلَا فَاءَ لَهُ .

قَالَ : أَرَى أَنْ يُحَلِّلَهُ ، وَهُوَ أَفْضَلُ عِنْدِي لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ وَلَيْسَ كُلَّمَا قَالَ أَحَدٌ وَإِنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ يُتَّبَعُ .

فَقِيلَ لَهُ : الرَّجُلُ يَظْلِمُ الرَّجُلَ ، فَقَالَ : لَا أَرَى ذَلِكَ ، وَهُوَ مُخَالِفٌ عِنْدِي لِلْأَوَّلِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ

تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ ، وَيَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ فَلَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهُ مِنْ ظُلْمِهِ فِي حِلٍّ .

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : فَصَارَ فِي الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا لَا يُحَلِّلُهُ بِحَالٍ ؛ قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ .

وَالثَّانِي : يُحَلِّلُهُ ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ .

الثَّالِثُ إِنْ كَانَ مَالًا حَلَّلَهُ ، وَإِنْ كَانَ ظُلْمًا لَمْ يُحَلِّلْهُ ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ .

وَجْهُ الْأَوَّلِ أَلَّا يُحَلِّلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، فَيَكُونَ كَالتَّبْدِيلِ لِحُكْمِ اللَّهِ .

وَوَجْهُ الثَّانِي أَنَّهُ حَقُّهُ ؛ فَلَهُ أَنْ يُسْقِطَهُ [كَمَا يُسْقِطُ دَمَهُ وَعِرْضَهُ] .

وَوَجْهُ الثَّالِثِ الَّذِي اخْتَارَهُ مَالِكٌ هُوَ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا غُلِبَ عَلَى حَقِّكَ فَمِنْ الرِّفْقِ بِهِ أَنْ تُحَلِّلَهُ ، وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا فَمِنْ الْحَقِّ أَلَّا تَتْرُكَهُ لِئَلَّا يَغْتَرَّ الظَّلَمَةُ ، وَيَسْتَرْسِلُوا فِي أَفْعَالِهِمْ الْقَبِيحَةِ .

(101/688)

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ الصَّامِتِ قَالَ : خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي نَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِينَا أَبُو الْيُسْرِ صَاحِبُ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ غُلَامٌ لَهُ مَعَهُ ضِمَامَةٌ مِنْ صُحُفٍ وَعَلَى أَبِي الْيُسْرِ بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ ، وَعَلَى غُلَامِهِ بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ ، فَقَالَ لَهُ أَبِي : أَيْ عَمِّ ؛ أَرَى فِي وَجْهِك سُفْعَةً مِنْ غَضَبٍ .

فَقَالَ : أَجَلْ ، كَانَ لِي عَلَى فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ الْحَرَامِيِّ دَيْنٌ ، فَأَتَيْت أَهْلَهُ فَسَلَّمْت ، وَقُلْت : أَثَمَّ هُوَ ؟ قَالُوا : لَا ، فَخَرَجَ عَلَيَّ ابْنٌ لَهُ جَفْرٌ ، قُلْت لَهُ : أَيْنَ أَبُوك ، فَقَالَ : سَمِعَ صَوْتَك فَدَخَلَ أَرِيكَةَ أُمِّي ، فَقُلْت : اُخْرُجْ إلَيَّ ، فَقَدْ عَلِمْت أَيْنَ أَنْتَ ، فَخَرَجَ ، فَقُلْت لَهُ : مَا حَمَلَك عَلَى أَنْ اخْتَبَأْت مِنِّي ؟ قَالَ : أَنَا وَاَللَّهِ أُحَدِّثُك ، ثُمَّ لَا أَكْذِبُك ، خَشِيت وَاَللَّهِ أَنْ أُحَدِّثَك فَأَكْذِبَك ، وَأَعِدُك فَأُخْلِفُك ، وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُنْت وَاَللَّهِ مُعْسِرًا .

قَالَ : فَقُلْت : آللَّهُ ، قَالَ : آللَّهُ .

قُلْت : آللَّهُ ، قَالَ : آللَّهُ ، قَالَ : فَقُلْت : آللَّهُ ، قَالَ : آللَّهُ .

قَالَ : فَأَتَى بِصَحِيفَتِهِ فَمَحَاهَا بِيَدِهِ .

قَالَ : إنْ وَجَدْت قَضَاءً فَاقْضِ ، وَإِلَّا فَأَنْتَ فِي حِلٍّ .

.

وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

وَهَذَا فِي الْحَيِّ الَّذِي يُرْجَى لَهُ الْأَدَاءُ لِسَلَامَةِ الذِّمَّةِ ، وَرَجَاءِ التَّحَلُّلِ ، فَكَيْفَ بِالْمَيِّتِ الَّذِي لَا مَحَالَةَ مَعَهُ ، وَلَا ذِمَّةَ مَعَهُ ،

(102/688)

الْآيَةُ الثَّامِنَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي الْمُرَادِ بِالْآيَةِ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : قَوْلُهُ ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾ يَعْنِي لُوطًا كَانَ لَهُ بَنَاتٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ابْنٌ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ إِبْرَاهِيمُ كَانَ لَهُ بَنُونَ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ بِنْتٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ يَعْنِي آدَمَ ، كَانَتْ حَوَّاءُ تَلِدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ وَلَدَيْنِ تَوْأَمَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى ؛ فَيُزَوِّجُ الذَّكَرَ مِنْ هَذَا الْبَطْنِ مِنْ الْأُنْثَى مِنْ هَذَا الْبَطْنِ الْآخَرِ ، حَتَّى أَحْكَمَ اللَّهُ التَّحْرِيمَ فِي شَرْعِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَهُ ذُكُورٌ وَإِنَاثٌ ، مِنْ الْأَوْلَادِ : الْقَاسِمُ ، وَالطَّيِّبُ ،

وَالطَّاهِرِ ، وَعَبْدِ اللَّهِ ؛ وَزَيْنَبَ ، وَأُمِّ كُلْثُومٍ ، وَرُقَيَّةَ ، وَفَاطِمَةَ ؛ وَكُلُّهُمْ مِنْ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَإِبْرَاهِيمَ وَهُوَ مِنْ مَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةِ .

(103/688)

وَكَذَلِكَ قَسَّمَ اللَّهُ الْخَلْقَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلَى زَمَانِنَا إلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الْمَحْدُودِ بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ وَمَشِيئَتِهِ النَّافِذَةِ ، لِيَبْقَى النَّسْلُ ، وَيَتَمَادَى الْخَلْقُ ، وَيَنْفُذُ الْوَعْدُ ، وَيَحِقُّ الْأَمْرُ ، وَتَعْمُرُ الدُّنْيَا ، وَتَأْخُذُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَا يَمْلَأُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَيَبْقَى ؛ فَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ إنَّ النَّارَ لَنْ تَمْتَلِئَ حَتَّى يَضَعَ الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ ، فَتَقُولُ قَطْ قَطْ وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَتَبْقَى فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : إنَّ اللَّهَ لِعُمُومِ قُدْرَتِهِ وَشَدِيدِ قُوَّتِهِ يَخْلُقُ الْخَلْقَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ، وَبِعَظِيمِ لُطْفِهِ وَبَالِغِ حِكْمَتِهِ يَخْلُقُ

شَيْئًا مِنْ شَيْءٍ لَا عَنْ حَاجَةٍ ، فَإِنَّهُ قُدُّوسٌ عَنْ الْحَاجَاتِ ، سَلَامٌ عَنْ الْآفَاتِ ، كَمَا قَالَ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ، فَخَلَقَ آدَمَ مِنْ الْأَرْضِ ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ ، وَخَلَقَ النَّشْأَةَ مِنْ بَيْنِهِمَا مِنْهُمَا ، مُرَتَّبًا عَنْ الْوَطْءِ كَائِنًا عَنْ الْحَمْلِ ، مَوْجُودًا فِي الْجَنِينِ بِالْوَضْعِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ

الرَّجُلِ أُنْثَا ﴾ .

وَكَذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا ﴿ إِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَشْبَهَ الْوَلَدُ أَعْمَامَهُ ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ أَشْبَهَ الْوَلَدُ أَخْوَالَهُ ﴾ .

(104/688)

وَقَدْ بَيَّنَّا تَحْقِيقَ ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ بِمَا لُبَابُهُ أَنَّهَا أَرْبَعَةُ أَحْوَالٍ : ذَكَرٌ يُشْبِهُ أَعْمَامَهُ .

أُنْثَى تُشْبِهُ أَخْوَالَهَا .

ذَكَرٌ يُشْبِهُ أَخْوَالَهُ .

أُنْثَى تُشْبِهُ أَعْمَامَهَا .

وَذَلِكَ فِي الْجَمِيعِ بَيِّنٌ ظَاهِرُ التَّعَالُجِ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سَبَقَ : خَرَجَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَعْنَى عَلَا كَثُرَ ، فَإِذَا خَرَجَ مَاءُ الرَّجُلِ مِنْ قَبْلُ وَخَرَجَ مَاءُ الْمَرْأَةِ بَعْدَهُ وَكَانَ أَقَلَّ مِنْهُ كَانَ الْوَلَدُ ذَكَرًا بِحُكْمِ سَبْقِ مَاءِ الرَّجُلِ ، وَيُشْبِهُ أَعْمَامَهُ بِحُكْمِ كَثْرَةِ مَائِهِ أَيْضًا وَإِنْ خَرَجَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مِنْ قَبْلُ وَخَرَجَ مَاءُ الرَّجُلِ بَعْدَهُ وَكَانَ أَقَلَّ مِنْ مَائِهَا كَانَ الْوَلَدُ أُنْثَى بِحُكْمِ سَبْقِ مَاءِ الْمَرْأَةِ ، وَيُشْبِهُ أَخْوَالَهَا لِأَنَّ مَاءَهَا عَلَا مَاءَ الرَّجُلِ وَكَاثَرَهُ .

وَإِنْ خَرَجَ مَاءُ الرَّجُلِ مِنْ قَبْلُ لَكِنْ لَمَّا خَرَجَ مَاءُ الْمَرْأَةِ كَانَ أَكْثَرَ جَاءَ الْوَلَدُ ذَكَرًا بِحُكْمِ سَبْقِ

مَاءِ الرَّجُلِ وَأَشْبَهَ أُمَّهُ وَأَخْوَالَهُ بِحُكْمِ عُلُوِّ مَاءِ الْمَرْأَةِ وَكَثْرَتِهِ .

وَإِنْ خَرَجَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مِنْ قَبْلُ لَكِنْ لَمَّا خَرَجَ مَاءُ الرَّجُلِ مِنْ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ أَكْثَرَ وَأَعْلَى كَانَ الْوَلَدُ أُنْثَى بِحُكْمِ سَبْقِ مَاءِ الْمَرْأَةِ ،

وَيُشْبِهُ أَبَاهُ وَأَعْمَامَهُ بِحُكْمِ غَلَبَةِ مَاءِ الذَّكَرِ وَعُلُوِّهِ وَكَثْرَتِهِ عَلَى مَاءِ الْمَرْأَةِ .

فَسُبْحَانَ الْخَلَّاقِ الْعَظِيمِ .

(105/688)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَدْ كَانَتْ الْخِلْقَةُ مُسْتَمِرَّةً ذَكَرًا وَأُنْثَى إلَى أَنْ وَقَعَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى الْخُنْثَى ، فَأَتَى بِهِ فَرِيضُ الْعَرَبِ وَمُعَمِّرُهَا عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فِيهِ ، وَأَرْجَأَهُمْ عَنْهُ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ تَنَكَّرَ مَوْضِعَهُ ، وَأَقَضَّ عَلَيْهِ مَضْجَعَهُ ، وَجَعَلَ يَتَقَلَّى وَيَتَقَلَّبُ . وَتَجِيءُ بِهِ الْأَفْكَارُ وَتَذْهَبُ إلَى أَنْ أَنْكَرَتْ الْأَمَةُ حَالَتَهُ ، فَقَالَتْ : مَا بِك ؟ قَالَ لَهَا : سَهِرْتِ لِأَمْرٍ قُصِدْتِ فِيهِ فَلَمْ أَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهِ .

فَقَالَتْ لَهُ : مَا هُوَ ؟ قَالَ لَهَا : رَجُلٌ لَهُ ذَكَرٌ وَفَرْجٌ ، كَيْفَ تَكُونُ حَالَتُهُ فِي الْمِيرَاثِ ؟ قَالَتْ لَهُ الْأَمَةُ : وَرِّثْهُ مِنْ حَيْثُ يَبُولُ ، فَعَقَلَهَا ، وَأَصْبَحَ ، فَعَرَضَهَا لَهُمْ وَأَمْضَاهَا عَلَيْهِمْ ، فَانْقَلَبُوا بِهَا رَاضِينَ .

وَجَاءَ الْإِسْلَامُ عَلَى ذَلِكَ فَلَمْ تَنْزِلْ إِلَّا فِي عَهْدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَضَى فِيهَا بِمَا يَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَقَدْ رَوَى الْفَرْضِيُّونَ عَنْ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ مَوْلُودٍ لَهُ قُبُلٌ وَذَكَرٌ مِنْ أَيْنَ يُورَّثُ ؟ قَالَ : مِنْ حَيْثُ يَبُولُ ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّهُ أَتَى بِخُنْثَى مِنْ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : ﴿ وَرِّثُوهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يَبُولُ ﴾ .

(106/688)

قَالَ الْقَاضِي : قَالَ لَنَا شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّقَّاقُ فَرَضِيُّ الْإِسْلَامِ : إِنْ بَالَ مِنْهُمَا جَمِيعًا وَرِثَ بِالَّذِي يَسْبِقُ مِنْهُ الْبَوْلُ ، وَكَذَلِكَ رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ عَلِيٍّ ، وَنَحْوُهُ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبِهِ قَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ ، وَأَبُو حَنِيفَةَ ، وَأَبُو يُوسُفَ ، وَمُحَمَّدٌ ، وَحَكَاهُ الْمُزَنِيّ عَنْ الشَّافِعِيِّ .

وَقَالَ قَوْمٌ : لَا دَلَالَةَ فِي الْبَوْلِ ، فَإِنْ خَرَجَ الْبَوْلُ مِنْهُمَا جَمِيعًا قَالَ أَبُو يُوسُفَ : يُحْكَمُ بِالْأَكْثَرِ .

وَأَنْكَرَهُ أَبُو حَنِيفَةَ ، وَقَالَ : أَيَكِيلُهُ ، وَلَمْ يَجْعَلْ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ لِلْكَثْرَةِ حُكْمًا .

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَالْحَسَنِ : تُعَدُّ أَضْلَاعُهُ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ تَزِيدُ عَلَى الرَّجُلِ بِضِلْعٍ وَاحِدٍ ، وَلَوْ

صَحَّ هَذَا لَمَا أَشْكَلَ حَالُهُ .

انْتَهَى كَلَامُ شَيْخِنَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ .

وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الْقَاضِي : لَا أَحْفَظُ عَنْ مَالِكٍ فِي الْخُنْثَى شَيْئًا .

وَحَكَى عَنْهُ أَنَّهُ جَعَلَهُ ذَكَرًا ، وَحَكَى عَنْهُ أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ نِصْفَ مِيرَاثِ ذَكَرٍ وَنِصْفَ مِيرَاثِ أُنْثَى ، وَلَيْسَ بِثَابِتٍ عَنْهُ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّقَّاقُ : وَمِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى حَالِهِ : الْحَيْضُ ، وَالْحَبَلُ ، وَإِنْزَالُ الْمَنِيِّ مِنْ الذَّكَرِ ، وَاللِّحْيَةُ ، وَالثَّدْيَانِ ؛ وَلَا يُقْطَعُ بِذَلِكَ .

وَقَدْ قِيلَ : إذَا بَلَغَ زَالَ الْإِشْكَالُ .

قَالَ الْقَاضِي : وَرُوِيَ عَنْ عُلَمَائِنَا فِيهِ قَالَ مُطَرِّفٌ ، وَابْنُ الْمَاجِشُونِ ، وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ ، وَابْنُ وَهْبٍ ، وَابْنُ نَافِعٍ ، وَأَصْبَغُ : يُعْتَبَرُ مَبَالُهُ .

(107/688)

فَإِنْ بَالَ مِنْهُمَا فَالْأَسْبَقُ ، وَإِنْ خَرَجَ مِنْهُمَا فَالْأَكْثَرُ ، وَلَوْلَا مَا قَالَ الْعُلَمَاءُ هَذَا لَقُلْت : إنَّهُ إنْ بَالَ مِنْ ثُقْبٍ إنَّهُ يُعْتَبَرُ بِهِ هُوَ الْآخَرُ ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ لَا يُخْرِجُ مِنْ الْمَبَالِ بِحَالٍ ، وَإِنَّمَا ثُقْبُ الْبَوْلِ غَيْرُ مَخْرَجِ الْوَلَدِ .

وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ فِي الْأُنْثَى ، وَقَالُوا عَلَى مَخْرَجِ الْبَوْلِ يَنْبَنِي نِكَاحُهُ وَمِيرَاثُهُ وَشَهَادَتُهُ وَإِحْرَامُهُ فِي حَجِّهِ ، وَجَمِيعِ أَمْرِهِ .

وَإِنْ كَانَ لَهُ ثَدْيٌ وَلِحْيَةٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَرِثَ نِصْفَ مِيرَاثِ رَجُلٍ ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ حِينَئِذٍ نِكَاحٌ ، وَيَكُونُ أَمْرُهُ فِي شَهَادَتِهِ وَصَلَاتِهِ وَإِحْرَامِهِ عَلَى أَحْوَطِ الْأَمْرَيْنِ .

وَالَّذِي نَقُولُ : إنَّهُ يُسْتَدَلُّ فِيهِ بِالْحَبَلِ وَالْحَيْضِ .

حَالَةٌ ثَالِثَةٌ كَحَالَةٍ أُولَى لَا بُدَّ مِنْهَا ، وَهِيَ أَنَّهُ إذَا أَشْكَلَ أَمْرُهُ فَطَلَبَ النِّكَاحَ مِنْ ذَكَرٍ ، وَطَلَبَ النِّكَاحَ مِنْ فَرْجِهِ فَإِنَّهُ أَمْرٌ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهِ عُلَمَاؤُنَا ، وَهُوَ مِنْ النَّوْعِ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ دَعْهُ حَتَّى

يَقَعَ ، وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْإِشْكَالَاتِ فِي الْأَحْكَامِ وَالتَّعَارُضِ فِي الْإِلْزَامِ وَالِالْتِزَامِ أَنْكَرَهُ قَوْمٌ مِنْ رُءُوسِ الْعَوَامِّ ، فَقَالُوا : إنَّهُ لَا خُنْثَى ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَّمَ الْخَلْقَ إلَى ذَكَرٍ وَأُنْثَى .

قُلْنَا : هَذَا جَهْلٌ بِاللُّغَةِ وَغَبَاوَةٌ عَنْ مَقْطَعِ الْفَصَاحَةِ ، وَقُصُورٌ عَنْ مَعْرِفَةِ سَعَةِ الْقُدْرَةِ ؛ أَمَّا قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

(108/688)

وَأَمَّا ظَاهِرُ الْقُرْآنِ فَلَا يَنْفِي وُجُودَ الْخُنْثَى ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ، فَهَذَا عُمُومٌ فَلَا يَجُوزُ تَخْصِيصُهُ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ تَقْتَضِيهِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ فَهَذَا إخْبَارٌ عَنْ الْغَالِبِ فِي الْمَوْجُودَاتِ ، وَسَكَتَ عَنْ ذِكْرِ النَّادِرِ لِدُخُولِهِ تَحْتَ عُمُومِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ ؛ وَالْوُجُودُ يَشْهَدُ لَهُ ، وَالْعِيَانُ يُكَذِّبُ مُنْكِرَهُ .

وَقَدْ كَانَ يَقْرَأُ مَعَنَا بِرِبَاطِ أَبِي سَعِيدٍ عَلِيٍّ الْإِمَامِ الشَّهِيدِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ خُنْثَى [لَيْسَ] لَهُ لِحْيَةٌ ، وَلَهُ ثَدْيَانِ ، وَعِنْدَهُ جَارِيَةٌ ، فَرَبُّك أَعْلَمُ بِهِ ، وَمَعَ طُولِ الصُّحْبَةِ عَقَلَنِي الْحَيَاءُ عَنْ سُؤَالِهِ ، وَبِوُدِّيِّ الْيَوْمَ لَوْ كَاشَفْته عَنْ حَالِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي تَوْرِيثِهِ ، وَهُوَ مَذْكُورٌ عَلَى التَّمَامِ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ ، فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(109/688)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

يهب لمن يشاء الذكور ، ولمن يشاء الإناث ، ولمن يشاء الجنين ، ويجعل من يشاء عقيماً ، فلا اعترضَ عليه في تقديره ، ولا افتياتَ في اختياره ، فهو أَوْلَى بعباده من عباده .

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ

لله بحقّ مُلْكِه أن يفعل ما يشاء ، ويعطي مَنْ يشاء مِنْ عباده ما يشاء ، ولكن أجرى العادة وحَكَم بأنه لا يفعل إلا ما وَرَدَ في هذه الآية ؛ فلم يُكَلِّم أحداً إلا بالوحي ، أو من وراء حجاب ؛ يعني وهو لا يرى الحقَّ ، فالمحجوبُ هو العبد لا الرب ، والحجابُ أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية . . تعالى اللَّهُ عن أن يكونَ من وراء حجاب ؛ لأن ذلك صفةُ الأجسام المحدودة التي يُسْبَلُ عليها ستر . إنه " عَلِيٌّ " : في شأنه وقَدْره ، " حكيمٌ " : في أفعاله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

أي ذلك مثلما أوحينا إليك " روحاً " من أمرنا يعني القرآن ؛ سَمَّاه روحاً لأنه مَنْ آمن به صار به قلبُه حَيًّا .

ويقال : ﴿ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ : أي جبريل عليه السلام ، ويسمى جبريل روح القدس .

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ . . . ﴾ : ما كنت تدري قبل هذا ما القرآن ، " ولا الإيمان " : أي تفصيل هذه الشرائع .

﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ ﴾ : أي القرآن " نوراً " نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين . ﴿ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ : لأن منه ابتداء الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 359.360 ﴾

(110/688)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ ﴾

يعني : لو وسع الله تعالى عليهم المال ﴿ لَبَغَوْاْ ﴾ أي : لطغوا ﴿ فِى الأرض ﴾ وعصوا ﴿ ولكن يُنَزّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء ﴾ يعني : يوسع على كل إنسان ، بمقدار صلاحه في ذلك ، قال أبو الليث رحمه الله : حدّثنا أبو القاسم ، حمزة بن محمد قال : حدّثنا أبو القاسم ، أحمد بن حمزة ، قال : حدّثنا نصر بن يحيى ، قال : سمعت شقيق بن إبراهيم الزاهد يقول : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الأرض ﴾ قال : لو أن الله تعالى رزق العباد من غير كسب ، لتفرغوا وتفاسدوا في الأرض ، ولكن شغلهم بالكسب ، حتى لا يتفرغوا للفساد .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ يعني : بالبر ، والفاجر ، والمؤمن ، والكافر .

ويقال : يعني : عالم بصلاح كل واحد منهم .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يُنَزِّلُ الغيث ﴾ يعني : المطر ﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ أي : حبس عنهم ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ يعني : المطر ﴿ وَهُوَ الولى الحميد ﴾ يعني : الولي للمطر يرسله مرة بعد مرة ﴿ الحميد ﴾ يعني : أهل أن يحمد على صنعه .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ يعني : من علامات وحدانيته ﴿ خُلِقَ السموات والأرض ﴾ يعني : خلقين عظيمين ، لا يقدر عليهما بنو آدم ، ولا غيرهم ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ يعني : ما خلق في السموات والأرض من خلق أو بشر فيهما ﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ ﴾ يعني : على إحيائهم للبعث ﴿ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ يعني : قادر على ذلك .

(111/688)

ويقال : ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ يعني : في الأرض خاصة كما قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] يعني : من أحدهما ثم قال ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ ﴾ يعني : ما تصابون من مصيبة في أنفسكم ، وأموالكم ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني : يصيبكم بأعمالكم ، ومعاصيكم ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ يعني : ما عفى الله عنه

، فهو أكثر .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : " ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله ، أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا بلى .

فقرأ عليهم : ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ قال : فالمصائب في الدنيا بكسب الأيدي ، وما عفى الله تعالى عنه في الدنيا ، ولم يعاقب ، فهو أجود وأمجد ، وأكرم من أن يعذب فيه يوم القيامة .

وعن الضحاك قال : ما تعلم رجل القرآن ، ثم نسيه ، إلا بذنب .

ثم قرأ : ﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

قرأ نافع وابن عامر "بما كسبت أيديكم" بحذف الفاء .

ويكون ما بمعنى الذي ، ومعناه الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم .

وقرأ الباقون : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ ﴾ بالفاء ، وتكون الفاء جواب الشرط ، ومعناه : ما يصيبكم من مصيبة ، فبما كسبت أيديكم ، ثم قال :

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ يعني : بفائتين من عذاب الله ، حتى يجزيكم به ﴿ وَمَا لَكُم مّن دُونِ الله ﴾ يعني : من عذاب الله ﴿ مِن وَلِىّ ﴾ يعني : من حافظ ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يعني : مانع يمنعكم من عذاب الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته الجوار ﴾ قرأ ابن كثير (الجَوَارِي) بالياء في الوقف ، والوصل . وقرأ نافع ، وأبو عمر بالياء في الوصل ، وبغير الياء في الوقف ، والباقون بغير ياء في الوقف ، والوصل .

(112/688)

فمن قرأ بالياء فهو الأصل في اللغة ، وهي جماعة السفن تجرين في الماء ، واحدتها جارية . كقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء حملناكم فِى الجارية ﴾ [الحاقة : 11] يعني : السفينة .

ومن قرأ بغير ياء ، فلأن الكسر يدل عليه ﴿ فِى البحر كالاعلام ﴾ يعني : تسير في البحر كالجبال ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ ﴾ يعني : يبقين سواكن على ظهر الماء ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ يعني : لعلامات لوحدانيتي ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ يعني : الذي يصبر على طاعة الله (شَكُورٍ) لنعم الله .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يعني : إن يشأ يهلك السفن ، بما عملوا من الشرك وعبادة الأوثان ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ ولا يجازيهم ﴿ وَيَعْلَمَ الذين يجادلون فِى ءاياتنا ﴾ قرأ ابن عامر ونافع بضم الميم ، والباقون بالنصب .

فمن قرأ بالضم ، فلأنه عطف على قوله : (ويعف) وموضعه الرفع وأصله : (ويعفو)

فاكتفى بضم الفاء ، والذين كان معطوفاً عليه ، رفع أيضاً .

ومن قرأ بالنصب ، صار نصباً للصرف ، يعني : صرف الكلام عن الإعراب الأول ، ومعناه : ولكي ﴿ يَعْلَمُ الذين يجادلون فِى ءاياتنا ﴾ يعني : في القرآن بالتكذيب ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ يعني : من مفر من الله .

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَىْءٍ ﴾ يعني : ما أعطيتم من الدنيا ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي : منفعة الحياة الدنيا ﴿ وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وأبقى ﴾ أي : ما عند الله في الآخرة من الثواب والكرامة ، خير وأبقى .

يعني : أدوم .

ثم بين لمن يكون ذلك الثواب فقال : ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : يثقون به تعالى ، ويفوضون الأمر إليه .

قوله تعالى : ﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش ﴾ وهذا نعت المؤمنين أيضاً ، الذين يجتنبون كبائر الإثم ، والفواحش .

(113/688)

قرأ حمزة والكسائي (كَبِير الإِثْمِ) بغير ألف ، بلفظ الواحد ، لأن الواحد يدل على الجمع ، والباقون (كبائر) وهو جمع كبيرة ، والكبيرة : ما أوجب الله تعالى الحد عليها في الدنيا ، أو العذاب في الآخرة .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ يعني : إذا غضبوا على أحد يتجاوزون ، ويكظمون الغيظ .

ثم قال : ﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ ﴾ يعني : أجابوا وأطاعوا ربهم فيما يدعوهم إليه ، ويأمرهم به .

﴿ والذين يُمَسِّكُونَ ﴾ يعني : أتموا الصلوات الخمس ، في مواقيتها ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : إذا أرادوا حاجة ، تشاوروا فيما بينهم .

وروي عن الحسن أنه قال : هم الذين إذا حزبهم أمر ، استشاروا أولي الرأي منهم ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ يعني : يتصدقون في طاعة الله .

ثم قال : ﴿ والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغى ﴾ يعني : الظلم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي : ينتقمون ويقتصون .

روى سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم أنه قال : كانوا يكرهون أن يستذلوا ، ويحبون العفو إذا قدروا .

قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا ﴾ يعني : يعاقب مثل عقوبته لغيره ﴿ فَمَنْ عَفَا

وَأَصْلَحَ ﴾ يعني : عفا عن مظلمته ، وأصلح بالعفو ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ يعني : ثوابه على الله ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ يعني : لمن يبدأ بالظلم .

روي عن زيد بن أسلم ، أنه قال : كانوا ثلاث فرق ، فرقة بالمدينة ، وفرقتان بمكة ، إحداهم تصبر على الأذى ، والثانية تنتصر ، والثالثة تكظم ، فنزلت الآية : ﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ ﴾ نزلت في الذين بالمدينة ﴿ والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغى هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ نزلت في الذين ينتصرون وقوله : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ نزلت في الذين يصبرون .

فأثنى الله تعالى عليهم جميعاً .

(114/688)

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ثم نزل في الظالمين ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ وذكر أن أبا بكر رضي الله عنه ، كان عند النبي صلى الله عليه وسلم ورجل من المنافقين يسبه ، وأبو بكر رضي الله عنه لم يجبه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت يبتسم ، فأجابه أبو بكر ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وذهب ، فقام إليه أبو بكر فقال : يا رسول الله ما دام يسبني كنت جالساً ، فلما أجبته قمت فقال صلى الله عليه وسلم : إن الملك كان يجيبه عنك ، فلما أجبته ذهب

الملك ، وجاء الشيطان وأنا لا أجلس في مجلس يكون فيه الشيطان .

فنزل ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ .

وروى محمد بن المنكدر قال : ينادي المنادي يوم القيامة ، من كان له عند الله حق ، فليقم .

قال : فيقوم من عفا وأصلح .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ يعني : انتصف بعد ظلمه ، واقتص منه ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ يعني : من مأثم .

وقال قتادة : هذا ، فيما يكون بين الناس من القصاص ، فأما لو ظلمك ، لا يحل لك أن تظلمه ، يعني : فيما لا يحتمل القصاص .

وقال الحسن : يعني : إذا قال : لعنك الله ، أن تقول له : يلعنك الله ، وإذا سبك ، فلك أن تسبه ما لم يكن فيه حد ، أو كلمة لا تصلح .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا السبيل ﴾ يعني : الإثم والحرج ﴿ عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ يعني : يبدؤون بالظلم ﴿ وَيَبْغُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ يعني : ويظلمون في الأرض ، ويعملون المعاصي ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني : وجيع .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يعني : صبر عن مظلمته ، فلم يقتص من صاحبه وغفر يعني : تجاوز عنه ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الامور ﴾ يعني : الصبر والتجاوز من أفضل الأمور ، وأصوب الأمور .

قال بعضهم : هذه الآيات مدنيات .

وقال بعضهم : مكيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ يعني : يخذله الله عن الهدى ويقال من يخذله ويتركه على ما هو فيه من ظلم الناس ﴿ فَمَا لَهُ مِن وَلِيّ مّن بَعْدِهِ ﴾ يعني : ليس له قريب يهديه ، ويرشده إلى دينه من بعده ، يعني : من بعد خذلان الله تعالى إياه .

قوله : ﴿ وَتَرَى الظالمين ﴾ يعني : المشركين والعاصين ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ في الآخرة ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدّ مّن سَبِيلٍ ﴾ يعني : هل من رجعة إلى الدنيا من حيلة ، فنؤمن بك يتمنون الرجوع إلى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ يعني : يساقون إلى النار ﴿ خاشعين مِنَ الذل ﴾ أي : خاضعين من الحزن ، ويقال ساكتين ذليلين ، مقهورين من الحياء ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّ ﴾ قال الكلبي : يعني : ينظرون بقلوبهم ، ولا يرونها بأعينهم ، لأنهم يسحبون على وجوههم .

وقال مقاتل : يعني : يستخفون بالنظر إليها ، يعني : إلى النار قال القتبي : يعني : غضوا

أبصارهم من الذل ، وقال بعضهم : مرة ينظرون إلى العرش بأطراف أعينهم ماذا يأمر الله تعالى بهم ، ومرة ينظرون إلى النار .

﴿ وَقَالَ الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني : المؤمنين المظلومين ﴿ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني : يظلمون غيرهم ، حتى تصير حسناتهم للمظلومين ، فخسروا أنفسهم ﴿ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ قال بعضهم : هذه حكاية كلام المؤمنين في الآخرة ، بأنهم يقولون ذلك ، حين رأوا الظالمين ، الذين خسروا أنفسهم .

وقال بعضهم : هذه حكاية قولهم في الدنيا ، فحكى الله تعالى قولهم ، وصدقهم على مقالتهم فقال : ﴿ أَلاَ إِنَّ الظالمين فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ يعني : دائم وقال بعضهم هذا اللفظ ، لفظ الخبر عنهم ، والمراد به التعليم ، أنه ينبغي لهم يقولوا هكذا يعني : يصبروا على ظلمهم .

(116/688)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء ﴾ يعني : لا يكون للظالمين يوم القيامة مانع يمنعهم من عذاب الله ﴿ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ الله ﴾ يعني : يمنعونهم من عذاب الله ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ يعني : يضله الله عن الهدى ﴿ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ إلى الهدى من حجة .

ويقال : ما له من حيلة .

قوله عز وجل : ﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ ﴾ يعني : أجيبوا ربكم في الإيمان ، وفيما أمركم به ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ ﴾ يعني : لا رجعة له ، إذا جاء لا يقدر أحد على دفعه ﴿ مِنَ الله ﴾ ويقال : فيه تقديم .

يعني : من قبل أن يأتي من عذاب الله ، يوم لا مرد له .

يعني : لا مدفع له ﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني : ما لكم من مفر ، ولا حرز يحرزكم من عذابه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ يعني : من مغير ، يغير العذاب عنكم .

قوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ عن الإيمان ، وعن الإجابة ، بعد ما دعوتهم ﴿ فَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ تحفظهم على الإيمان ، وتجبرهم على ذلك ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ يعني : ليس عليك ، إلا تبليغ الرسالة ، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ، ثم قال : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ﴾ يعني : أصبنا الإنسان منا رحمة ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ أي بطر بالنعمة .

قال بعضهم : يعني : أبا جهل .

وقال بعضهم : جميع الناس ، والإنسان هو لفظ الجنس ، وأراد به جميع الكافرين ، بدليل أنه قال : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ ﴾ ذكر بلفظ الجماعة يعني : إن تصبهم ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ يعني : القحط والشدة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني : بما عملوا من المعاصي ﴿ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ ﴾

لنعم الله .

يعني : يشكو ربه عند المصيبة ، ولا يشكره عند النعمة .

(117/688)

قوله تعالى : ﴿ للَّهِ مُلْك السموات والأرض ﴾ يعني : القدرة على أهل السموات والأرض ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ على أي صورة شاء ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاء إناثا ﴾ يعني : من يشاء الأولاد الإناث ، فلا يجعل معهن ذكوراً ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذكور ﴾ يعني : يعطي من يشاء الأولاد الذكور ، ولا يكون معهم إناث ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإناثا ﴾ يعني : من يشاء الأولاد الذكور ، والإناث ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيماً ﴾ فلا يعطيه شيئاً من الولد ويقال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاء إناثا ﴾ كما وهب للوط النبي ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذكور ﴾ كما وهب لإبراهيم عليه السلام ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإناثا ﴾ كما جعل للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكما وهب ليعقوب عليه السلام ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيماً ﴾ كما جعل ليحيى ، وعيسى عليهما السلام ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ يعني : عالم بما يصلح لكل واحد منهم . قادر على ذلك .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ يعني : لأحد من خلق الله ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً

﴿ يعني : يرسل إليه جبريل ، ليقرأ عليه .

ويقال : ﴿ إِلاَّ وَحْياً ﴾ يعني : إلهاماً ويقال : يسمع الصوت فيفهمه وذلك ، أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألا يكلمك الله ، أو ينظر إليك ، إن كنت نبياً كما كلم موسى فنزل ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله ﴾ يعني : ما جاز لأحد من الآدميين ، أن يكلمه الله ، إلا وحياً يعني : يسمع الصوت ، أو يرى في المنام ، ولا يجوز أن يكلمه مواجهة عياناً في الدنيا .

﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ فيكلمه ، كما كلم موسى ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ كما أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء ﴾ يعني : فيرسل بأمره .

ويقال : ﴿ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء ﴾ من أمره .

(118/688)

قرأ نافع وابن عامر ﴿ أَوْ يُرْسِلَ ﴾ بضم اللام وقرأ الباقون بالنصب ، فمن قرأ بالضم ، فمعناه أو هو يرسل رسولاً ، ومن قرأ بالنصب ، فعلى الإضمار أيضاً ، ومعناه أو يرسل رسولاً ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ قرأ نافع وابن عامر فيوحي بسكون الياء ، ومعناه أو هو يرسل رسولاً فيوحي وقرأ الباقون بالنصب ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ لإضمار أن ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾

يعني : أعلى من أن يكلم أحداً في الدنيا مواجهة ، ولا يراه فيها أحد عياناً ﴿ حَكِيمٌ ﴾ حكم ألا يكلم أحداً في المواجهة ، ولا يراه أحد .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يعني : جبريل بأمرنا .

ويقال : أوحينا إليك روحاً ، يعني : القرآن .

وقال القتبي : الروح روح الأجسام ، ويسمى كلام الله تعالى ، روحاً لأن فيه حياة من الجهل ، وموت الكفر كما قال : ﴿ رَفِيعُ الدرجات ذُو العرش يُلْقِى الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ [غافر : 15] ثم قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ .

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ يعني : ما كنت تدري قبل الوحي ، أن تقرأ القرآن ، ولا تدري كيف تدعو الخلق إلى الإيمان .

﴿ ولكن جعلناه نُوراً ﴾ يعني : أنزلنا جبريل بالقرآن .

ضياءً من العمى ، وبياناً من الضلالة .

فإن قيل سبق ذكر الكتاب والإيمان ثم قال : ﴿ ولكن جعلناه نُوراً ﴾ ولم يقل جعلناهما ؟

قيل له : لأن المعنى هو الكتاب ، وهو دليل على الإيمان .

ويقال لأن شأنهما واحد كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وءاوينا هما آ إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ

قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : 50] ولم يقل آيتين ويقال : ﴿ ولكن جعلناه نُوراً ﴾ يعني : الإيمان كناية عنه ، ولأنه أقرب .

(119/688)

﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يعني : نوفق من نشاء للهدى ، من كان أهلاً لذلك ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني : لتدعو الخلق إلى دين الإسلام .

قوله عز وجل : ﴿ صراط الله ﴾ يعني : دين الله ﴿ الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ من خلق ﴿ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الامور ﴾ أي : ترجع إليه عواقب الأمور ، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 231.338 ﴾

(120/688)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعدِ مَا قَنَطُواْ ﴾

والقنوط الإياس ، قاله قتادة .

قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : جدبت الأرض وقنط الناس فقال : مطروا إذن .

والغيث ما كان نافعاً في وقته ، والمطر قد يكون ضاراً ونافعاً في وقته وغير وقته .

﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ بالغيث فيما يعم ويخص .

﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الولي المالك ، والحميد مستحق الحمد .

الثاني : الولي المنعم والحميد المستحمد .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه الحدود على المعاصي ، قاله الحسن .

الثاني : أنها البلوى في النفوس والأموال عقوبة على المعاصي والذنوب .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " مَا يُصِيبُ ابنَ آدَمَ خَدْشُ عُودٍ وَلاَ عَثْرَةُ قَدَمٍ وَلاَ اخْتِلاَجُ عِرْقٍ إِلاَّ بِذَنْبٍ وَمَا يَعْفُو عَنهُ أَكْثَرَ " وقال ثابت البناني . كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا .

ثم فيها قولان :

أحدهما : أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبة لهم ؛ وفي الأطفال أن تكون مثوبة لهم .

الثاني : عقوبة عامة للبالغين في أنفسهم وللأطفال في غيرهم من والدٍ أو والدة ، قاله العلاء

بن زيد .

﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن كثير من المعاصي أن لا يكون عليها حدود ، وهو مقتضى قول الحسن .

الثاني : عن كثير من العصاة وأن لا يعجل عليهم بالعقوبة .

قال علي رضي الله عنه : ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ﴾ قال مجاهد هي السفن في البحر ﴿ كَالأَعْلاَمِ ﴾ أي كالجبال ، ومنه قول الخنساء :

(121/688)

وإنَّ صَخْراً لتأتَمُّ الهُدَاةُ به . . . كأنَّه علمٌ في رأسِه نار

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أي وقوفاً على ظهر الماء ، قال قتادة : لأن سفن هذا البحر تجري بالريح . فإذا أمسكت عنها ركدت .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ صبار على البلوى ، شكور على النعماء .

قال قطرب : نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أُعْطِي شكر ، وإذا ابتُلِيَ صبر .

قال عون بن عبد الله : فكم من منعم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلٍ غير صابر .

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ معناه يغرقهن بذنوب أهلها .

﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ من أهلها فلا يغرقهم معها .

﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من فرار ومهرب ، قاله قطرب .

الثاني : ملجأ ، قاله السُدي مأخوذ من قولهم حاص به البعير حيصة إذا مال به ، ومنه قولهم فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه .

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم قبل الهجرة اثني عشر نقيباً منهم .

﴿ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أنه المحافظة على مواقيتها ، قاله قتادة .

الثاني : إتمامها بشروطها ، قاله سعيد بن جبير .

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ فيه أربع أوجه :

أحدها : أنهم كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملواْ عليه فمدحهم الله تعالى به ، قاله النقاش .

الثاني : يعني أنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون فمدحوا على اتفاق

كلمتهم . قال الحسن : ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم .

الثالث : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم وورود النقباء إليهم حتى اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنصرة له ، قاله الضحاك .

(122/688)

الرابع : أنهم يتشاورون فيما يعرض لهم فلا يستأثر بعضهم بخير دون بعض .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يريد به أداء الزكاة من أموالهم ، قاله السدي .

الثاني : إنفاق الحلال من أكسابهم ، وهو محتمل .

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أصابهم يعني المشركين على دينهم انتصروا بالسيف منهم . قاله ابن جريج .

الثاني : أصابهم يعني باغ عليهم كره لهم أن يستذلوا ، فإذا قدروا عفوا ، قاله إبراهيم .

الثالث : إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يزايلوه عنهم ويدفعوه عنهم ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه محمول على الجراح التي تتمثل في القصاص دون غيرها من سب أو شتم ، قاله

الشافعي ، وأبو حنيفة ، وسفيان .

الثاني : أنه محمول على مقابلة الجراح ، وإذا قال أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثله ، ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب ، قاله ابن أبي نجيح والسدي . وسمي الجزاء سيئة لأنه في مقابلتها وأنها عند المعاقب بها سواء .

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ فأذن في الجزاء وندب إلى العفو .

وفي قوله : ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ وجهان :

أحدهما : أصلح العمل ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : أصلح بينه وبين أخيه ، قاله ابن زياد ، وهذا مندوب إليه في العفو عن التائب دون المصرّ . روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ . مَن كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَلْيَدْخُلِ الجَنَّةَ ، فَيُقَالُ مَن ذَا الَّذي أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَيَقُولُونَ العَافُونَ عَنِ النَّاسِ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ " .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الظالمين في الابتداء ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : المعتدي في الجزاء ، قاله ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي استوفى حقه بنفسه .

﴿ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ وهذا ينقسم ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يكون قصاصاً في بدن يستحقه آدمي فلا حرج عليه فيه إذا استوفاه من غير عدوان ، وثبت حقه عند الحكام ، لكن يزجره الإمام في تفرده بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدماء ، وإن كان حقه غير ثابت عند الحكام فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج وهو في الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ .

والقسم الثاني : أن يكون حداً لله لا حق فيه لآدمي كحد الزني وقطع السرقة . فإن لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه ، وإن ثبت عند حاكم نظر فإن كان قطعاً في سرقة سقط به الحد لزوال العضو المستحق قطعه ، ولم يجب عليه في ذلك حق إلا التعزير أدباً ، وإن كان جلداً لم يسقط به الحد لتعديه به مع بقاء محله وكان مأخوذاً بحكمه .

القسم الثالث : أن يكون حقاً في مال فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان من هو عليه عالماً به ، وإن كان غير عالم نظر ، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له الاستسرار بأخذه ، وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه مع عدم بينة تشهد به ففي جواز الاستسرار بأخذه مذهبان :

أحدهما : جوازه ، وهو قول مالك ، والشافعي .

الثاني : المنع ، قاله أبو حنيفة .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يظلمون الناس بعدوانهم عليهم وهو قول كثير منهم .

الثاني : يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ، قاله ابن جريج .

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه بغيهم في النفوس والأموال ، وهو قول الأكثرين .

الثاني : عملهم بالمعاصي ، قاله مقاتل .

الثالث : هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً ، قاله أبو مالك .

(124/688)

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : صبر على الأذى وغفر للمؤذي .

الثاني : صبر عن المعاصي وستر المساوىء .

ويحتمل قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ وجهين :

أحدهما : لمن عزائم الله التي أمر بها .

الثاني : لمن عزائم الصواب التي وفق لها .

وذكر الكلبي والفراء أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ثلاث آيات قبلها وقد شتمه بعض الأنصار فرد عليه ثم أمسك ، وهي المدنيات من هذه السورة .

قوله عز وجل : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم المشركون جميعاً يعرضون على جهنم عند إطلاقهم إليها ، قاله الأكثرون .

الثاني : آل فرعون خصوصاً تحبس أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح ، فهم عرضهم ، قاله ابن مسعود .

الثالث : أنهم عامة المشركين ويعرضون على العذاب في قبورهم ، وهذا معنى قول أبي الحجاج .

﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ قال السدي : خاضعين من الذل .

﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : ينظرون بأبصار قلوبهم دون عيونهم لأنهم يحشرون عمياً ، قاله أبو سليمان .

الثاني : يسارقون النظر إلى النار حذراً ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : بطرفٍ ذليل ، قاله ابن عباس .

قوله عز وجل : ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من منج .

الثاني : من حرز ، قاله مجاهد .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من ناصر ينصركم ، قاله مجاهد .

الثاني : من منكر يغير ما حل بكم ، حكاه ابن أبي حاتم وقاله الكلبي .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أن الرحمة المطر ، قاله مقاتل .

الثاني : العافية ، قاله الكلبي .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أنه السنة القحط ، قاله مقاتل .

الثاني : المرض ، قاله الكلبي .

﴿ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بالنعمة .

الثاني : بالله .

قوله عز وجل : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ ﴾ قال عبيدة : يهب لمن يشاء إناثاً لا ذكور فيهن ، ويهب لمن يشاء ذكوراً لا إناث فيهم . وأدخل الألف على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف .

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هو أن تلد غلاماً ثم تلد جارية ثم تلد غلاماً ثم تلد جارية ، قاله مجاهد .

الثاني : هو أن تلد توأمين غلاماً وجارية ، قاله محمد بن الحنفية ، والتزويج هنا الجمع بين البنين والبنات . قال ابن قتيبة : تقول العرب زوجني إبلي إذا جمعت بين الصغار والكبار .

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ أي لا يولد له . يقال عقم فرجه عن الولادة أي منع .

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصاً وإن عم حكمها ، فوهب للوط البنات ليس فيهن ذكر ، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى ، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث ، وجعل عيسى ويحيى عقيمين .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً ﴾ الآية . سبب نزولها ما حكاه النقاش أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً صادقاً كما كلمه موسى ونظر إليه ؟ فنزلت هذه الآية .

وفي قوله : ﴿ وَحْياً ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه نفث ينفث في قلبه فيكون إلهاماً ، قاله مجاهد .

الثاني : رؤيا يراها في منامه ، قاله زهير بن محمد .

﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ قال زهير : كما كلم موسى .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ قال زهير : هو جبريل .

﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ ﴾ وهذا الوحي من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقاً ويرونه عياناً . وهكذا كانت حال جبريل إذا نزل بالوحي على النبي صلى الله عليه وسلم .

(126/688)

قال ابن عباس : نزل جبريل على كل نبي فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكريا صلوات الله عليهم أجمعين ، فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام .

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : رحمة من عندنا ، قاله قتادة .

الثاني : وحياً من أمرنا ، قاله السدي .

الثالث : قرآناً من أمرنا ، قاله الضحاك .

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة ، ولا الإيمان لولا البلوغ ، قاله ابن عيسى .

الثاني : ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك وهو محتمل .

وفي هذا الإيمان وجهان :

أحدهما : أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوته .

الثاني : أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوة .

﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً . . . ﴾ فيه قولان :

أحدهما : جعلنا القرآن نوراً ، قاله السدي .

الثاني : جعلنا الإيمان نوراً . حكاه النقاش وقاله الضحاك .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه : وإنك لتدعو إلى دين مستقيم ، قاله قتادة .

الثاني : إلى كتاب مستقيم ، قاله علي رضي الله عنه .

وقرأ عاصم الجحدري : وإنك لتُهدى ، بضم التاء أي لتُدْعَى .

قوله عز وجل : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن صراط الله هو القرآن ، قاله علي كرم الله وجهه .

الثاني : الإسلام ، رواه النواس بن سمعان الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه وعيد بالبعث .

الثاني : أنه وعيد بالجزاء ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(127/688)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ ﴾ .

الآية نزلت في قوم من أهل الصفّة تمنوا سعة الدّنيا والغنى . قال خباب بن لادن : فينا نزلت هذه الآية وذلك إنّا نظرنا إلى بني قريظة والنضير وبني القينقاع ، فتمنيناها فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ ﴾ أي وسع الرزق لعباده .

﴿ لَبَغَوْاْ فِي الأَرض ﴾ أي لطغوا وعصوا . قال ابن عباس : بغيهم ظلماً ، منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس .

أخبرنا الحسين بن محمد بن إبراهيم التبستاني الإصبهاني ، حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن العباس العصمي الهروي ، أخبرني محمد بن علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن صالح الكرابيسي ، يقول : سمعت قصير بن يحيى يقول : قال : شقيق بن إبراهيم في قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرض ﴾ ، قال : لو رزق الله العباد من

غير كسب وتفرغوا عن المعاش والكسب لطغوا في الأرض وبغوا وسعوا في الأرض فساداً ، ولكن شغلهم بالكسب والمعاش رحمة منه وامتناناً .

﴿ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ أرزاقهم ﴿ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ لكفايتهم . قال مقاتل : ﴿ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ فجعل واحداً فقيراً وآخراً غنياً .

﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ . قال قتادة : في هذه الآية كان يقال : خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك ، وذكر لنا إنّ نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " أخوف ما أخاف على أمتي ، زهرة الدّنيا وكثرتها " .

(128/688)

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ، حدثنا عبد الله بن محمد بن شنبه ، حدثنا أبو جعفر محمد بن الغفار الزرقاني ، حدثنا محمد بن يحيى الأزدي ، حدثنا أبو حفص عمر بن سعيد الدمشقي ، حدثنا صدقة بن عبد الله ، حدثنا عبد الكريم الجزري ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل (عليه السلام) ، عن ربّه عزّ وجلّ قال : " من أهان لي وليّاً ، فقد بارزني بالمحاربة ، وإنّي لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي ، وإنّي لأغضب لهم كما يغضب الليث الحرد ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ، ترددي عن قبض

روح عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره إساءته ، ولا بد له منه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولسانا ويداً ومؤيداً ، إن سألني أعطيته وإن دعاني استجبت له وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة ، ولو أعطيته إياه دخله العجب فأفسده ، وإنّ من عبادي المؤمنين ، لمن لا يصلحه إلاّ السقم ولو صححته لأفسدهُ ذلك ، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلاّ الصحّة ، ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلاّ الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلاّ الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك . إنّي أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم إنّي عليمٌ خبيرٌ " .

قال صدقة : وسمعت أبان بن أبي عياش يحدث بهذا الحديث ، عن أنس بن مالك ثمّ يقول : اللّهمّ إنّي من عبادك المؤمنين الّذين لا يصلحهم إلاّ الغنى فلا تفقرني .

﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث ﴾ يعني المطر ، سمي بذلك لأنّه يغيث النّاس أي يجيرهم ويصلح حالهم .

قال الأصمعي : مررت ببعض قبائل العرب وقد مطروا ، فسألت عجوز منهم ، كم أتاكم المطر ؟ فقالت : غثنا ما شئنا .

﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ ويبسط مطره نظيره قوله : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف : 57] .

أخبرنا شعيب بن محمد ، أخبرنا أبو الأزهر ، حدثنا روح ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : ذُكر لنا أنّ رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط النّاس . قال : مطرتم ، ثمّ قال : ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الولي الحميد ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ * وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ من الإجرام والآثام . ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ منها فلا يؤاخذكم بها .

وقرأ أهل المدينة والشام (بما) بغير (فاء) ، وكذلك هي في مصاحفهم ، وقرأ الباقون ﴿ فَبِمَا ﴾ ، بالفاء ، وكذلك في مصاحفهم وأختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

أخبرنا الحسين بن محمد المقري ، حدثنا عبيد الله بن أحمد بن يعقوب ، حدثنا رضوان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا أبو معاوية الضرير عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلاّ بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر " .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ، حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ، حدثنا بشر بن موسى الأسدي ، حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا مروان بن معاوية ، حدثني الأزهر بن راشد الكاهلي ، عن الخضر بن القواس العجلي ، عن أبي سخيلة ، قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ ، قال : " وسأفسرها لك يا عليّ : ما أصابكم في الدنيا من بلاء أو مرض أو عقوبة فاللّه أكرم من أن يثنّي عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه " .

قال : بإسناده عن خلف بن الوليد ، عن المبرك بن فضالة ، عن الحسن ، قال : دخلنا على عمران بن الحصين في مرضه الشديد الّذي أصابه ، فقال رجل منّا : إنّي لا بد أن أسألك عما أرى من الوجع بك ، فقال عمران : يا أخي لا تفعل فوالله أن أحبّه إليّ أحبّه إلى الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ . هذا بما كسبت يداي وعفو ربّي تعالى فيما بقي .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ، حدثنا موسى بن محمّد بن علي ، حدثنا جعفر بن

محمد الفرماني ، حدثنا أبو خثيمه مصعب بن سعيد ، حدثنا زهير بن معاوية ، عن أبي إسحاق ، عن مرة الهمذاني ، قال : رأيت على ظهر كف شريح قرحة ، قلت : يا أبا أمامة ما هذا ؟ قال : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ .

(131/688)

أخبرنا الحسين بن فنجويه الدينوري ، حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثني إبراهيم بن الحسن الباهلي المقري ، حدثنا حمّاد بن زيد أبو إسماعيل عن ابن عون ، عن محمد بن سيرين ، قال : لما ركبه الدَّين اغتمّ لذلك ، فقال : إنّي لأعرف هذا العلم ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا موسى بن محمد ، حدثنا أبو بشر أحمد بن بشر الطيالسي ، حدثني بعض أصحابنا ، عن أحمد بن الحواري ، قال : قيل لأبي سلمان الدارابي : ما بال العقلاء أزالوا اللّوم عمن أساء إليهم ؟ قال : لأنّهم علموا أنّ الله تعالى إنّما ابتلاهم بذنوبهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا محمد بن عبد الله بن [برزة] ، حدثنا اسماعيل بن اسحاق القاضي ، حدثنا عاصم بن علي ، حدثنا ليث بن سعد ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن

سعد بن سنان ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أراد الله تعالى بعبدِهِ الخير عجّل له العقوبة في الدّنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشّر أمسك عليه بذنبه حتّى يوافي به يوم القيامة " .

وقال عكرمة : ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلاّ بذنب لم يكن الله ليغفر له إلاّ بها ، أو درجة لم يكن الله ليبلّغه إلاّ بها .

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن محمد ، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن رجاء ، حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا وكيع ، عن ابن أبي داود ، عن الضحاك ، قال : ما تعلمَّ رجلٌ القرآن ثمّ نسيه إلاّ بذنب ، ثمّ قرأ ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ، ثمّ قال : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن . وقال الحسن في هذه الآية : هذا في الحدود .

(132/688)

﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ هرباً . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار ﴾ يعني السّفن ، واحدتها جارية وهي السائرة في البحر ، قال الله تعالى : ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية ﴾ [الحاقة : 11] .

﴿ فِي البحر كالأعلام ﴾ أي الجبال ، مجاهد : القصور ، واحدها علم .

وقال الخليل بن أحمد : كلّ شيء مرتفع عند العرب فهو علم .

قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً :

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به . . . كأنّه علم في رأسه نار

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ ﴾ ثوابت وقوفاً ﴿ على ظَهْرِهِ ﴾ أي على ظهر الماء . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ يهلكهنّ . ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي بما كسب أصحابها وركبانها من الذنوب . ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ فلا يعاقب عليها ويعلم .

قرأ أهل المدينة والشام بالرفع على الاستئناف كقوله في سورة براءة : ﴿ وَيَتُوبُ اللهُ على مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة : 15] ، وقرأها الآخرون نصباً على الصرف كقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] صرف من حال الجزم إلى النصب استحقاقاً وكراهة لعوال الجزم ، كقول النابغة :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك . . . ربيع النّاس والشهر الحرامُ

ونمسك بعده بذناب عيش . . . أجبّ الظهر له سنامُ

وقال آخر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله . . . عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

﴿ وَيَعْلَمَ الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ محيد عن عقاب الله تعالى . ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ من رياش الدّنيا وقماشها . ﴿ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا ﴾ وليس من زاد المعاد . ﴿ وَمَا عِندَ الله ﴾ من الثواب . ﴿ خَيْرٌ وأبقى لِلَّذِينَ آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * والذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم ﴾ .

(133/688)

قرأ يحيى بن رثاب وحمزة والكسائي وخلف ها هنا وفي سورة النجم (كبير) على التوحيد وفسروه الشرك عن ابن عباس ، وقرأ الباقون ﴿ كَبَائِرَ ﴾ بالجمع في السورتين ، وقد بينا اختلاف العلماء في معنى ﴿ الكبائر ﴾ والفواحش . قال السدّي : يعني الزنا ، وقال مقاتل : موجبات الخلود .

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ يتجاوزون ويتحملون .

﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، وقيل هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه . حين لامه النّاس على إنفاق ماله كلّه ، وحين شُتم فحلم .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا عبيد الله بن محمد بن شنبه ، حدثنا إسحاق بن صدقة ،

حدثنا عبد الله بن هاشم ، حدثنا سيف بن عمر ، عن عطية ، عن أيوب ، عن علي رضي الله عنه قال : اجتمع لأبي بكر رضي الله عنهما مال مرة فتصدق به كلّه في سبيل الخير ، فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ خص به أبا بكر وعم به من اتبعه . ﴿ والذين إِذَآ أَصَابَهُمُ البغي هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ينتقمون من ظالميهم من غير أن يعتدوا .

وقال مقاتل : هذا في المجروح ينتصر من الجارح فيقتص منه . قال إبراهيم : في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا له .

﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ سمي الجزاء بإسم الإبتداء وإن لم يكن سيئة لتشابههما في الصورة . قال ابن نجيح : هو أن يجاب قائل الكلمة القبيحة بمثلها ، فإذا قال : أخزاه الله . يقول له : أخزاه الله ، وقال السدّي : إذا شتمك بشتمة فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدي .

(134/688)

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا ابن حنش المقري ، حدثنا أبو القاسم بن الفضل ، حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن يحيى بن أبي عمر ، قال سفيان بن عيينة : قلت لسفيان

الثوري : ما قوله تعالى : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ أن يشتمك رجل فتشتمه ؟ ، أو أن يفعل بك فتفعل به ؟ فلم أجد عنده شيئاً فسألت هشام بن حجير عن هذه الآية ، فقال : الجارح إذا جرح تقتص منه وليس هو أن يسبك فتسبه .

وقال سفيان : وكان ابن شبرمة يقول : أليس بمكّة مثل هشام بن حجير فمن عفا فلم ينتقم . قال ابن عباس : فمن ترك القصاص وأصلح ، وقال مقاتل : وكان العفو من الأعمال الصالحة فأجره على الله .

قال ابن فنجويه العدل ، حدثنا محمد بن الحسن بن بشر ، أخبرنا أبو العباس محمد بن جعفر بن ملاس الدمشقي ، حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم بن بشر القريشي ، حدثنا زهير بن عباد المدائني ، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة ، نادى مناد من كان له على الله أجرٌ ، فليقم ، قال : فيقوم عنق كثير . قال : فقال : ما أجركم على الله ، فيقولون : نحن الّذين عفونا عمّن ظلمنا ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ فيقال لهم : ادخلوا الجنّة بإذن الله " .

﴿ إِنَّهُ ﴾ إنَّ الله ﴿ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ . قال ابن عباس : الّذين يبدأون بالظلم . لقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ .

مبتدئين به . ﴿ وَيَبْغُونَ فِي الأَرض بِغَيْرِ الحق أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ . فلم يكاف . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ وحزمها . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ﴾ يهديه أو يمنعه من عذاب الله .

(135/688)

﴿ وَتَرَى الظالمين ﴾ الكافرين . ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ ﴾ رجوع إلى الدّنيا . ﴿ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النّار ﴿ خَاشِعِينَ ﴾ خاضعين متواضعين ﴿ مِنَ الذل يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ ذليل قد خفي من الذّلِ . قاله ابن عباس ، وقال مجاهد وقتادة والسدّي والقرظي : سارقو النظر .

واختلف العلماء باللغة في وجه هذه الآية ، فقال يونس : من بمعنى الباء ، مجازه : بطرف خفيّ ، أي ضعيف من الذل والخوفِ ، وقال الأخفش : الطرف العين ، أي ينظرون من عين ضعيفة ، وقيل : إنّما قال : ﴿ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ لأنه لا يفتح عينه إنّما ينظر ببعضها ، وقيل معناه : ينظرون إلى النّار بقلوبهم لأنّهم يحشرون عمياً ، والنظر بالقلب خفيّ .

﴿ وَقَالَ الذين آمنوا إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة أَلاَ إِنَّ الظالمين فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ دائم . ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ الله وَمَن يُضْلِلِ الله

فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ طريق للوصول إلى الحقّ في الدّنيا والجنّةِ في العقبى ، قد إنسدت عليه طرق الخير . ﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ ﴾ بالإيمان والطاعة . ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ ﴾ معقل . ﴿ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ منكم يغير ما بكم . ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ * لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً ﴾ فلا يكون له ولد ذكر .

(136/688)

أخبرنا الحسين بن محمّد بن فنجويه ، حدثنا الفضل بن الفضل الكندي ، حدثنا محمد بن الحسين الفرج ، حدثنا أحمد بن الخليل القومي ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا حكيم بن حزام أبو سمير ، عن مكحول ، عن واثله بن الأسقع ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من يمن المرأة تبكيرها بالأُنثى قبل الذّكر ، وذلك إنّ الله تعالى يقول : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ . ألا ترى إنّه بدأ بالإناث قبل الذّكور " . ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ فلا يكون له أُنثى . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ يجمع بينهما فيولد له الذُّكور والإناث . تقول العرب : زوّجت وزوجت الصغار بالكبار . أي

قرنت بعضها ببعض .

أخبرنا بن فنجويه ، حدثنا طلحة وعبيد ، قالا : حدثنا ابن مجاهد ، حدثنا الحسين بن علي ابن العباس ، حدثنا سهل بن عثمان ، حدثنا عبيد الله ، عن إسماعيل بن سلمان ، عن أبي عمر ، عن ابن الحنفية في قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ .

قال : التوائم .

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ فلا يلد ولا يُولد له .

(137/688)

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا الحسن بن علوية ، حدثنا إسماعيل بن عيسى ، حدثنا إسحاق بن بشر ، في قول الله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ قال : نزلت في الأنبياء (عليهم السلام) ثمّ عمّت ، ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً ﴾ يعني لوطاً (عليه السلام) لم يولد له ذكر إنّما ولد له ابنتان . ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ ويعنى إبراهيم (عليه السلام) لم يولد له أنثى ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم ولد له بنون وبنات ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ يعني يحيى وعيسى (عليهم

السلام) .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

أخبرنا أبو محمد الحسين بن أحمد بن محمد المخلدي إملاء ، أخبرنا أبو نعيم عبد الملك ابن محمد بن عدي ، حدثنا عمار بن رجاء وعلي بن سهل بن المغيرة ، قالا : حدثنا علي بن الحسن بن شقيق ، أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا إبراهيم بن سعيد ، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق ، حدثنا أبو حمزة السّكري المروزي ، عن إبراهيم الصائغ عن حماد بن أبي سليمان ، عن إبراهيم النخعي ، عن الأسود ، عن عائشة " رضي الله عنها " . قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أولادكم هبة [الله] لكم ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ [فهم] وأموالهم لكم إذا إحتجتم إليها " .

قال علي بن الحسن : سألني يحيى بن معين عن هذا الحديث .

(138/688)

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله ﴾ الآية وذلك إنّ اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه ؟ فإنّا لا نؤمن لك حتّى تفعل

ذلك . فقال صلى الله عليه وسلم " لم ينظر موسى إلى الله " فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله ﴾ .

﴿ إِلاَّ وَحْياً ﴾ يوحي إليه كيف يشاء إما بالإلهام أو في المنام . ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ بحيث يسمع كلامه ولا يراه كما كلم موسى (عليه السلام) ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ . إليه من ملائكة ، إما جبريل وإما غيره . ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ ﴾ .

قرأ شيبة ونافع وهشام (أو يُرسل) برفع اللام على الابتداء (فيوحي) بإسكان الياء ، وقرأ الباقون بنصب اللام والياء عطفاً بهما على محلّ الوحي لأنّ معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ أن يوحي أو يرسل .

﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ ﴾ أي وما أوحينا إلى سائر رُسلنا كذلك . ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ . قال الحسن : رحمة . ابن عباس : نبوة . السدّي : وحياً . الكلبي : كتاباً . ربيع : جبريل . ملك بن دينار : يعني القرآن ، وكان يقول : يا أصحاب القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم فإنّ القرآن ربيع القلوب كما الغيث ربيع الأرض .

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي ﴾ قبل الوحي . ﴿ مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ يعني شرائع الإيمان ومعالمه .

وقال أبو العالية : يعني الدعوة إلى الإيمان ، وقال الحسين بن الفضل : يعني أهل الإيمان من

يؤمن ومن لا يؤمن ، وقال محمد بن إسحاق بن جرير : الإيمان في هذا الموضع الصلاة . دليله قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : 143] .

(139/688)

﴿ ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً ﴾ وحّد الكناية وهما اثنان : الإيمان والقرآن ؛ لأن الفعل في كثرة أسمائه بمنزلة الفعل ، ألا ترى إنّك تقول إقبالك وإدبارك يُعجبني فيوحّدوه وهما إثنان .

وقال ابن عباس : (ولكن جعلناه) يعني الإيمان ، وقال السُدّي : يعني القرآن .

﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهدي ﴾ لتُرشد وتدعوا . ﴿ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ الله الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان ، حدثنا أحمد بن محمد بن شاذان ، حدثنا الحسين بن محمد ، حدثنا صالح بن محمد ، قال : سمعت أبا معشر يحدّث ، عن سهل بن أبي الجعداء وغيره . قال : إحترق مصحف فلم يبق إلاّ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ وغرق مصحف فإمتحى كُلّ شيء فيه إلاَّ قوله : ﴿ أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 317.326 ﴾

(140/688)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ﴾

لَبَغَوْا من البغي وهو الظلم ، أى : لبغى هذا على ذاك ، وذاك على هذا ، لأنّ الغنى مبطرة مأشرة «1» ، وكفى بحال قارون عبرة . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام :

«أخوف ما أخاف على أمّتى زهرة الدنيا وكثرتها» «2» ولبعض العرب :

وقد جعل الوسمىّ ينبت بيننا وبين بنى رومان نبعا وشوحطا «3»

يعنى : أنهم أحيوا فحدّثوا أنفسهم بالبغي والتفانن . أو من البغي وهو البذخ والكبر ، أى : لتكبروا في الأرض ، وفعلوا ما يتبع الكبر من الغلو فيها والفساد . وقيل : نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى . قال خباب ابن الأرت : فينا نزلت ، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع فتمنيناها بِقَدَرٍ بتقدير . يقال قدره قدرا

---

(1) . قوله «مبطرة مأشرة» في الصحاح : الأشر : البطر . (ع) [. . . . .]

(2) . أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال . ذكر لنا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . . بهذا – وزاد «وكان يقال خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك» وفي الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدري . بلفظ «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح

عليكم من زهرة الدنيا»

(3) . يروى : وقد جعل الوسمي أول مطر السنة ، لأنه يسم الأرض بالنبات . والنبع : شجر تتخذ منه القسي .

والشوحط مثله ، أى : قد يشرع المطر في إنبات الأشجار بيننا وبينهم . والمعنى : أنهم يطلبون الاقامة حتى تعظم الأشجار بينهم لأنهم أغنياء لا يكثرون الارتحال كغيرهم . أو المعنى : أنهم كانوا إذا جاء الربيع وبلغت تلك الأشجار يتخذون منها الرماح والقسي ، ويتحاربون . فالكلام كناية عن انتشاب الحرب بين القبيلتين ، وهذا هو الذي يعطيه السياق ، وذكر البينية ، وتخصيص ذلك الشجر .

(141/688)

وقدرا . خَبِيرٌ بَصِيرٌ يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية . ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا . فإن قلت : قد نرى الناس يبغى بعضهم على بعض ، ومنهم مبسوط لهم ، ومنهم مقبوض عنهم ، فإن كان المبسوط لهم يبغون ، فلم بسط لهم : وإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط ، فلم شرطه ؟ قلت : لا

شبهة في أنّ البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب ، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه ، فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه «1» الآن .

[سورة الشورى (42) : آية 28]

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

قرئ : قنطوا بفتح النون وكسرها وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ أى : بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب . وعن عمر رضى اللّه عنه أنه قيل له : اشتدّ القحط وقنط الناس «2» فقال : مطروا إذا : أراد هذه الآية . ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء ، كأنه قال : ينزل الرحمة التي هي الغيث ، وينشر غيرها من رحمته الواسعة الْوَلِيُّ الذي يتولى عباده بإحسانه الْحَمِيدُ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته .

[سورة الشورى (42) : آية 29]

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (29)

وَما بَثَّ يجوز أن يكون مرفوعا ومجرورا يحمل على المضاف إليه أو المضاف . فإن قلت : لم جاز فِيهِما مِنْ دابَّةٍ والدواب في الأرض وحدها ؟ قلت : يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسا ببعضه ، كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل

، وإنما هو في فخذ «3» من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم ، وبنو فلان فعلوا كذا ، وإنما فعله نويس

---

(1) . قوله «عكس ما عليه الآن» لعله : ما هو عليه . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي من طريق قتادة قال «ذكر لنا» فذكره بتمامه . ورواه باختصار عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال «ذكر لنا أن رجلا أتى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين . قحط المطر وقنط الناس . فقال :

مطروا إذن» .

(3) . قوله «فخذ» العشائر أقلها الفخذ ، وفوقه البطن ، ثم العمارة ، ثم الفصيلة ، ثم القبيلة ، ثم الشعب . فهو أكثرها . أفاده الصحاح . (ع)

(142/688)

منهم . ومنه قوله تعالى يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ وإنما يخرج من الملح «1» . ويجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران . فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسى . ولا يبعد أن يخلق في السماوات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسى على الأرض ، سبحان الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق . إِذا يدخل على المضارع كما

يدخل على الماضي . قال اللّه تعالى وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى ومنه إِذا يَشاءُ وقال الشاعر :

وإذا ما أشاء أبعث منها آخر اللّيل ناشطا مذعورا»

[سورة الشورى (42) : الآيات 30 إلى 31]

وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (30) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (31)

في مصاحف أهل العراق فَبِما كَسَبَتْ بإثبات الفاء على تضمين «ما» معنى الشرط . وفي مصاحف أهل المدينة «بما كسبت» بغير فاء ، على أنّ «ما» مبتدأة ، وبما كسبت : خبرها من غير تضمين معنى الشرط . والآية مخصوصة بالمجرمين ، «3» ولا يمتنع أن يستوفى اللّه بعض عقاب المجرم ويعفو

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : لم جاز فيهما من دابة والدواب في الأرض وحدها ؟ وأجاب بأنه يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان لبعضه ، كقوله تعالى يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ وإنما يخرج من الملح . . .

الخ» قال أحمد : إطلاق الدواب على الأناسى بعيد من عرف اللغة ، فكيف في إطلاقه على الملائكة . والصواب - واللّه أعلم - : هو الوجه الأول ، وقد جاء مفسرا في غير ما آية ، كقوله إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ثم قال وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ فخص هذا الأمر بالأرض

، والله أعلم .

(2) . إذا : ظرف للمستقبل ، فإذا دخل عليه الماضي كان مستقبلا ، أو المضارع كان نصا في الاستقبال ، وجرد من الناقة أمرا آخر لشدة سيرها ، فلذلك قال : منها . وأصل المعنى : أبعثها في آخر الليل كالناشط ، وهو الثور الوحشي يخرج من أرض إلى أخرى ، والمذعور : الخائف وهو كناية عن سريع السير جدا .

(3) . قال محمود : «الآية مخصوصة بالمجرمين . . . الخ» قال أحمد : هذه الآية تنكسر عندها القدرية ولا يمكنهم ترويج حيلة في صرفها عن مقتضى نصها ، فإنهم حملوا قوله تعالى وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذِلِكَ لِمَنْ يَشاءُ على التائب ، وهو غير ممكن لهم ها هنا ، فانه قد أثبت التبعيض في العفو ، ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقرونا بالتوبة ، فانه يلزم تبعيض التوبة أيضا . وهي عندهم لا تتبعض . وكذلك نقل الامام عن أبي هاشم وهو رأس الاعتزال والذي تولى كبره منهم . فلا محمل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه ، وهو مرد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة .

وقول الزمخشري إن الآلام التي تصيب الأطفال والمجانين لها أعواض ، إنما يريد به وجوب العوض على الله تعالى على سياق معتقده ، وقد أخطأ على الأصل والفرع ، لأن المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض ، فلم تقل بإيجابه في الأطفال والمجانين . ألا ترى أن القاضي

أبا بكر ألزمهم قبح إيلام البهائم والأطفال والمجانين فقال : لا أعواض لها ، وليس مترتبا على استحقاق سابق فيحسن ، فإنما يتم إلزامه بموافقتهم له على أن لا أعواض لها .

(143/688)

عن بعض . فأمّا من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين ، فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب ، ولما يعفو اللّه عنه أكثر» «1» وعن بعضهم : من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه ، وأنّ ما عفا عنه مولاه أكثر : كان قليل النظر في إحسان ربه إليه . وعن آخر : العبد ملازم للجنايات في كل أوان ، وجناياته في طاعاته أكثر من جناياته في معاصيه ، لأنّ جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه ، واللّه يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أوّل خطوة : وعن علي رضي اللّه عنه وقد رفعه : من «عفى عنه في الدنيا عفى عنه في الآخرة «2» ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة» وعنه رضي اللّه عنه : هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن بِمُعْجِزِينَ بفائتين ما قضى عليكم من المصائب مِنْ وَلِيٍّ من متول بالرحمة .

[سورة الشورى (42) : الآيات 32 إلى 34]

وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34)

الْجَوارِ : السفن . وقرئ : الجوار كَالْأَعْلامِ كالجبال . قالت الخنساء :

كأنّه علم في رأسه نار «3»

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق وابن أبى حاتم من طريق إسماعيل بن سليم عن الحسن والطبري والبيهقي في أواخر الشعب . عن قتادة كلاهما مرسل . ووصله عبد الرزاق من رواية الصلت بن بهرام عن أبى وائل عن البراء رضى اللّه عنه

(2) . أخرجه ابن ماجة من رواية أبى جحيفة عن على رفعه . بلفظ : من أصاب ذنبا في الدنيا فعوقب به ، فاللّه أعدل من أن يثنى على عبد عقوبته . ومن أذنب ذنبا فستر اللّه عليه وعفا عنه فاللّه أكرم من أن يعود في شيء عفا عنه» ورواه أحمد والبزار والحاكم والدارقطني والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين . وقال إسحاق في مسنده : أخبرنا عيسى بن يونس عن إسماعيل بن عبد الملك بن أبى الصفراء عن يونس بن حبان عن على نحوه وفيه انقطاع

(3) وإن صخرا لمولانا وسيدنا وإن صخرا إذا يشتو لنحار

أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

للخنساء ترثى أخاها . ويشتو : أى يدخل في الشتاء ، وهو حكاية حال ماضية . ونحار : كثير نحر الإبل للضيفان كناية عن كثرة كرمه . والأغر : الأبيض . والأبلج : الطلق الوجه المعروف . والهداة : جمع هاد : من يتقدم غيره ليدله . والعلم : الجبل : وفي رأسه نار : صفة علم جاءت لترشيح التشبيه وتقريره ، والمبالغة في توضيح المشبه وتشهيره ، وعادة دليل الركب : الاهتداء إلى الطريق بالجبال الشامخة ، فإذا كان فوقها نار : علم أن أهلها كرام .

ويروى :

وإن صخرا لتأتم الهداة به

(144/688)

وقرئ : الرياح فيظللن بفتح اللام وكسرها ، من ظل يظل ويظل ، نحو : ضل يضل ويضل رَوَاكِدَ ثوابت لا تجرى عَلى ظَهْرِهِ على ظهر البحر «1» لِكُلِّ صَبَّارٍ على بلاء اللّه شَكُورٍ لنعمائه ، وهما صفتا المؤمن المخلص ، فجعلهما كناية عنه ، وهو الذي وكل همته بالنظر في آيات اللّه ، فهو يستملى منها العبر يُوبِقْهُنَّ يهلكهن . والمعنى : أنه إن يشأ يبتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين : إما أن يسكن الريح فيركد الجواري على متن البحر ويمنعهن من الجري

، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكهن إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ منها ، فإن قلت : علام عطف يوبقهن ؟ قلت : على يسكن ، لأنّ المعنى : إن يشأ يسكن الريح فيركدن . أو يعصفها فيغرقن بعصفها . فإن قلت : فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه ؟ قلت : معناه : أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم . فإن قلت : فمن قرأ وَيَعْفُ ؟ قلت : قد استأنف الكلام .

[سورة الشورى (42) : آية 35]

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35)

فإن قلت : فما وجوه القراءات الثلاث في وَيَعْلَمَ ؟ قلت : أما الجزم فعلى ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف . وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره : لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ، منه قوله تعالى وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وقوله تعالى وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وأما قول الزجاج : النصب على إضمار أن ، لأنّ قبلها جزاء ، تقول : ما تصنع أصنع مثله وأكرمك .

وإن شئت وأكرمك ، على : وأنا أكرمك . وإن شئت وأكرمك جزما ، ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه . قال : واعلم أنّ النصب بالفاء والواو في قوله : إن تأتني آتك وأعطيك : ضعيف ، وهو نحو من قوله :

وألحق بالحجاز فاستريحا «2»

فهذا يجوز ، وليس بجدّ الكلام ولا وجهه ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلا ، لأنه ليس بواجب

---

(1) . قال محمود : «معناه ثوابت لا تجرى على ظهر البحر» قال أحمد : وهم يقولون : إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذابا ، بخلاف الرياح . وهذه الآية تخرم الإطلاق ، فان الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة . إذ بواسطتها يسير اللّه السفن في البحر حتى لو سكنت لركدت السفن ، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه . وأما اطراده فلا . وما ورد في الحديث : اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا ، فلأجل الغالب في الإطلاق ، واللّه أعلم .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 557 فراجعه إن شئت اه مصححه .

أنه يفعل . إلا أن يكون من الأوّل فعل ، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه : أجازوا فيه هذا على ضعفه اه . ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بجدّ الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه ، وقد

ذكر نظائرها من الآيات المشكلة. فإن قلت: فكيف يصح المعنى على جزم وَيَعْلَمَ؟ قلت: كأنه قال: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين مِنْ مَحِيصٍ من محيد عن عقابه.

[سورة الشورى (42): آية 36]

فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36)

ما الأولى ضمنت معنى الشرط، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. عن على رضى اللّه عنه: اجتمع لأبى بكر رضى اللّه عنه مال فتصدق به كله في سبيل اللّه والخير، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون، فنزلت.

[سورة الشورى (42): آية 37]

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37)

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ عطف على الذين آمنوا، وكذلك ما بعده. ومعنى كَبائِرَ الْإِثْمِ الكبائر من هذا الجنس. وقرئ: كبير الإثم. وعن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنه: كبير الإثم هو الشرك هُمْ يَغْفِرُونَ أى هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس، والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ، وإسناد يَغْفِرُونَ إليه لهذه الفائدة، ومثله:

هُمْ يَنْتَصِرُونَ .

[سورة الشورى (42) : آية 38]

وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (38)

وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ نزلت في الأنصار : دعاهم اللّه عز وجل للإيمان به وطاعته ، فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه وَأَقامُوا الصَّلاةَ وأتموا الصلوات الخمس . وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة : إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا ، فأثنى اللّه عليهم ، أى : لا ينفردون برأى حتى يجتمعوا عليه . وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم» «1» والشورى : مصدر كالفتيا ، بمعنى التشاور . ومعنى

---

(1) . أخرجه ابن أبى شيبة والبخاري في الأدب وعبد اللّه بن أحمد في زيادات الزهد . وقد ذكره المصنف مرفوعا في آل عمران . [. . . . .]

قوله وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أى ذو شورى ، وكذلك قولهم : ترك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه الخلافة شورى .

[سورة الشورى (42) : آية 39]

وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله اللّه لهم ولا يعتدوا . وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق . فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار ؟ قلت : نعم ، لأنّ من أخذ حقه غير متعد حدّ اللّه وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولى دم أورد على سفيه ، محاماة على عرضه وردعا له ، فهو مطيع .

وكل مطيع محمود .

[سورة الشورى (42) : آية 40]

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40)

كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة ، لأنها تسوء من تنزل به . قال اللّه تعالى : وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ : يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا . والمعنى : أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ، فإذا قال أخزاك اللّه قال : أخزاك اللّه فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء ، كما قال تعالى فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم . وقوله إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة «1» والاعتداء

خصوصا في حال الحرد «2» والتهاب الحمية فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر .

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم :

«إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان له على اللّه أجر فليقم . قال : فيقوم خلق ، فيقال لهم :

ما أجركم على اللّه ؟ فيقولون : نحن الذين عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن اللّه «3» .

---

(1) . قال محمود : «فيه دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه . . . الخ» قال أحمد : معنى حسن يجاب به عن قول القائل : لم ذكر هذا عقب العفو مع أن الانتصار ليس بظلم ، فيشفى غليل السائل ويحصل منه على كل طائل .

ومن هذا النمط واللّه الموفق : قوله تعالى : وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ .

(2) . قوله «الحرد» في الصحاح : «الحرد» بالتحريك : الغضب . (ع)

(3) . أخرجه العقيلي والطبراني في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب في السابع والخمسين كلهم من طريق الفضل بن يسار عن غالب العطار عن الحسن بن أنس رفعه . قال «إذا وقف العبد للحساب ينادى مناد : من كان أجر» على اللّه فليدخل الجنة - الحديث» وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية زهير بن عباد عن ابن

عيينة عن عمرو عن ابن عباس . وأخرى عن البيهقي من رواية الثوري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أتم منه - قال البيهقي : المتن غريب - والاسناد ضعيف .

(147/688)

[سورة الشورى (42) : الآيات 41 إلى 42]

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (42)

بَعْدَ ظُلْمِهِ من إضافة المصدر إلى المفعول ، وتفسره قراءة من قرأ : بعد ما ظلم فَأُولَئِكَ إشارة إلى معنى مِنْ دون لفظه ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ للمعاقب ولا للعاتب والعائب إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ يبتدئونهم بالظلم وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون .

[سورة الشورى (42) : آية 43]

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

وَلَمَنْ صَبَرَ على الظلم والأذى وَغَفَرَ ولم ينتصر وفوّض أمره إلى اللّه إِنَّ ذلِكَ منه لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وحذف الراجع لأنه مفهوم ، كما حذف من قولهم : السمن منوان بدرهم . ويحكى

أن رجلا سب رجلا في مجلس الحسن رحمه اللّه ، فكان المسبوب يكظم ، ويعرق فيمسح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ، فقال الحسن : عقلها واللّه وفهمها إذ ضيعها الجاهلون .

وقالوا : العفو مندوب إليه ، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال ، فيرجع ترك العفو مندوبا إليه ، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي ، وقطع مادة الأذى . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم ما يدل عليه : وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته ، وكان ينهاها فلا تنتهي ، فقال لعائشة : «دونك فانتصرى» «1» .

[سورة الشورى (42) : آية 44]

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44)

---

(1) . أخرجه النسائي من رواية خالد بن مسلمة عن عروة عن عائشة قالت : ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهي بمعنى [بياض بالأصل .] فذكر نحوه . ولم يذكر فيه النهى . ولفظه ودخل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعندنا زينب بنت جحش - إلى أن قال : فأقبلت زينب هجم لعائشة فنهاها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأبت أن تنتهي . قال : لعائشة سبيها فسبتها فغلبتها» .

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ومن يخذل اللّه «1» فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

[سورة الشورى (42) : الآيات 45 إلى 46]

وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (45) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

خاشِعِينَ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم مِنَ الذُّلِّ وقد يعلق من الذل بينظرون، ويوقف على خاشعين يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ أى يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف «2». وهكذا نظر الناظر إلى المكاره:

لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها، كما يفعل في نظره إلى المحاب. وقيل: يحشرون عميا فلا ينظرون إلا بقلوبهم. وذلك نظر من طرف خفى. وفيه تعسف يَوْمَ الْقِيامَةِ إما أن يتعلق بخسروا، ويكون قوله المؤمنين واقعا في الدنيا، وإما أن يتعلق بقال، أى: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

[سورة الشورى (42) : آية 47]

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47)

مِنَ اللَّهِ من صلة لا مردّ ، أى : لا يرده اللّه بعد ما حكم به . أو من صلة يأتى ، أى : من قبل أن يأتى من اللّه يوم لا يقدر أحد على ردّه . والنكير : الإنكار ، أى : ما لكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيأ مما اقترفتموه ودوّن في صحائف أعمالكم .

[سورة الشورى (42) : آية 48]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (48)

---

(1) . قوله «و من يخذل اللّه . فما له من ولى» تأويل على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يخلق الشر . وعند أهل السنة : يخلقه كالخير ، فالاضلال خلق الضلال . ومن بعده : أى من بعد إضلاله . (ع)

(2) . قوله «كما ترى المصبور ينظر إلى السيف» أى : المحبوس للقتل . أفاده الصحاح . (ع)

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد ، لقوله وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ولم يرد إلا المجرمين ، لأن إصابة السيئة بما قدّمت أيديهم إنما تستقيم فيهم . والرحمة : النعمة من الصحة والغنى والأمن . والسيئة :

البلاء من المرض والفقر والمخاوف . والكفور : البليغ الكفران ، ولم يقل : فإنه كفور ، ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم «1» ، كما قال إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ، إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها «2» .

[سورة الشورى (42) : الآيات 49 إلى 50]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)

لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدّها : أتبع ذلك أنّ له الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ، ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته ، فيخص بعضا بالإناث وبعضا بالذكور ، وبعضا بالصنفين جميعا ، ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولدا قط . فإن قلت : لم قدّم الإناث أوّلا على الذكور مع تقدّمهم عليهنّ ، ثم رجع فقدّمهم ، ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث ؟

قلت . لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث لأنّ سياق الكلام أنه فاعل

ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلى الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء ، وأخر الذكور فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرّف أن تقديمهنّ لم يكن لتقدّمهنّ ، ولكن لمقتض آخر فقال ذُكْرانا وَإِناثاً كما قال إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى وقيل : نزلت في الأنبياء صلوات اللّه عليهم وسلامه ، حيث وهب لشعيب ولوط إناثا ، ولإبراهيم ذكورا ، ولمحمد ذكورا وإناثا ، وجعل يحيى وعيسى عقيمين إِنَّهُ عَلِيمٌ بمصالح العباد قَدِيرٌ على تكوين ما يصلحهم .

---

(1) . قال محمود : «لم يقل : فانه كفور ، ليسجل على هذا الجنس أنه موسوم بكفران النعم . . . الخ» قال أحمد :

وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه ، وهي قوله تعالى وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن ، فيقال : ألا إنهم في عذاب مقيم ، فأتى هذا الظاهر تسجيلا عليهم بلسان ظلمهم

(2) . قوله «وينسى النعم ويغمطها» يبطرها ويحقرها . أفاده الصحاح . (ع)

[سورة الشورى (42) : آية 51]

وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51)

وَما كانَ لِبَشَرٍ وما صح لأحد من البشر أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا على ثلاثة أوجه : إما على طريق الوحى وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام ، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده . وعن مجاهد : أوحى اللّه الزبور إلى داود عليه السلام في صدره .

قال عبيد بن الأبرص :

وأوحى إلىّ الله أن قد تأمّروا بإبل أبى أوفى فقمت على رجل «1»

أى : ألهمنى وقذف في قلبي . وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام ، من غير أن يبصر السامع من يكلمه ، لأنه في ذاته غير مرئى «2» . وقوله مِنْ وَراءِ حِجابٍ مثل أى ، كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب ، فيسمع صوته ولا يرى شخصه ، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة . وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيوحى الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى . وقيل : وحيا كما أوحى إلى

الرسل بواسطة الملائكة أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا أى نبيا كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم . ووحيا ، وأن يرسل : مصدران واقعان موقع الحال ، لأنّ : أن يرسل ، في معنى إرسالا . ومن وراء حجاب : ظرف واقع موقع الحال أيضا ، كقوله تعالى وَعَلى جُنُوبِهِمْ والتقدير : وما صح أن يكلم أحدا إلا موحيا ، أو مسمعا من وراء حجاب ، أو مرسلا . ويجوز أن يكون : وحيا ، موضوعا موضع : كلاما ، لأنّ الوحى كلام خفى في سرعة ، كما تقول : لا أكلمه إلا جهرا وإلا خفانا ، لأنّ الجهر والخفات ضربان من الكلام ، وكذلك إرسالا : جعل الكلام على لسان الرسول بمنزلة الكلام بغير واسطة . تقول : قلت لفلان كذا ، وإنما قاله وكيلك أو رسولك . وقوله أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ معناه : أو إسماعا من وراء حجاب ، ومن جعل وَحْياً في معنى : أن يوحى ، وعطف يرسل عليه ، على معنى وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أى : إلا بأن يوحى . أو بأن يرسل ،

---

(1) . أى ألهمنى اللّه وألقى في قلبي : أنهم تأمروا . وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها : ضمير القوم أو الحال والشأن . واختار أبو حيان أنها لا اسم لها إذا خففت ، لأنها مهملة . وإن ضمن «أوحى» معنى : قال ، فان تفسيرية ، أى ، قد تآمروا بوزن تفاعلوا ، أى : تشاوروا في الأمر ، أو أجمعوا أمرهم . ومنه يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ بابل أبى أو في ليغتصبوها ، فقمت في طلبهم لأردها على رجل ، أى : لم أصبر حتى أركب . أو على رجل واحدة ، أى : بسرعة ، فلا أضع رجلي معا في الأرض .

(2) . قوله «لأنه في ذاته غير مرئى» أى : لا تجوز رؤيته ، وهذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فتجوز كما تقرر في محله . (ع)

(151/688)

فعليه أن يقدر قوله أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ تقديرا يطابقهما عليه ، نحو : أو أن يسمع «1» من وراء حجاب . وقرئ : أو يرسل رسولا فيوحى بالرفع ، على : أو هو يرسل . أو بمعنى مرسلا عطفا على وحيا في معنى موحيا . وروى أنّ اليهود قالت للنبي صلى اللّه عليه وسلم : ألا تكلم اللّه وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه ، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك ، فقال :

لم ينظر موسى إلى اللّه «2» ، فنزلت . وعن عائشة رضى اللّه عنها : من زعم أنّ محمدا رأى ربه فقد أعظم على اللّه الفرية «3» ، ثم قالت : أو لم تسمعوا ربكم يقول : فتلت هذه الآية . إِنَّهُ عَلِيٌّ عن صفات المخلوقين حَكِيمٌ يجرى أفعاله على موجب الحكمة ، فيكلم تارة بواسطة ، وأخرى بغير واسطة : إما إلهاما ، وإما خطابا .

[سورة الشورى (42) : الآيات 52 إلى 53]

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ

نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)

رُوحاً مِنْ أَمْرِنا يريد : ما أوحى إليه ، لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيى الجسد بالروح. فإن قلت : قد علم أن رسول اللّه «4» صلى اللّه عليه وسلم : ما كان يدرى ما القرآن قبل

---

(1) . قوله «أو أن يسمع من وراء حجاب» لعله : أو بأن . (ع)

(2) . لم أجده .

(3) . متفق عليه ، وقد تقدم طرف منه في الأنعام .

(4) . قال محمود : «فان قلت : قد علم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يدرى الكتاب قبل الوحى . . . الخ» قال أحمد : لما كان معتقد الزمخشري أن الايمان اسم التصديق مضافا إليه كثير من الطاعات فعلا وتركا حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الايمان ولا ياله وعد المؤمنين ، وتفطن لإمكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية : عدها فرصة لينتهزها وغنيمة ، ليحرزها ، وأبعد الظن بايراده مذهب أهل السنة على صورة السؤال ليجيب عنه بمقتضى معتقده ، فكأنه يقول : لو كان الايمان وهو مجرد التوحيد والتصديق كما تقول أهل السنة ، للزم أن ينفى عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدقا ، ولما كان التصديق ثابتا للنبي عليه

الصلاة والسلام قبل البعث باتفاق الفريقين : لزم أن لا يكون الايمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته ، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء : من جملتها التصديق ، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي ، وحينئذ يستقيم نفيه قبل البعث ، وهذا الذي طمع فيه : يخرط القتاد ، ولا يبلغ منه ما أراد . وذلك أن أهل السنة وإن قالوا : إن الايمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد وإن كان فاسقا – يخصون التصديق بالله وبرسوله ، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الايمان بالتصديق برسالة نفسه ، كما أن أمته مخاطبون بتصديقه ، ولا شك أنه قبل الوحى لم يكن يعلم أنه رسول الله ، وما علم ذلك إلا بالوحي ، وإذا كان الايمان عند أهل السنة هو التصديق بالله ورسوله ، ولم يكن هذا المجموع ثابتا قبل الوحى ، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة : استقام نفى الايمان قبل الوحى على هذه الطريقة الواضحة ، والله أعلم . [. . . . .]

(152/688)

نزوله عليه ، فما معنى قوله وَلَا الْإِيمانُ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده ، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده ، فكيف لا يعصمون من الكفر ؟

قلت :

الإيمان اسم يتناول أشياء : بعضها الطريق إليه العقل ، وبعضها الطريق إليه السمع ، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل ، وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي . ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ بالصلاة ، لأنها بعض ما يتناوله الإيمان مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا من له لطف ومن لا لطف له ، فلا هداية تجدى عليه صِراطِ اللَّهِ بدل . وقرئ : لتهدي ، أى : يهديك اللّه . وقرئ : لتدعو .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 223. 235﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه باسنادهما إلى أبى بن كعب .

(153/688)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولو بَسَطَ اللهُ الرِّزق لعباده ﴾

قال خَبَّاب ابن الأرتّ : فينا نزلت هذه الآية ، وذلك أنّا نَظَرْنا إلى أموال بني قريظة والنَّضير

فتمنَّيناها ، فنزلت هذه الآية .

ومعنى الآية : لو أوسَع اللهُ الرِّزق لعباده لبَطِروا وعَصَوْا وبغى بعضُهم على بعض ، ﴿ ولكن ينزِّل بقَدَرٍ ما يشاءُ ﴾ أي : ينزل أمره بتقدير ما يشاء مما يُصلح أمورَهم ولا يُطغيهم ﴿ إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ ﴾ فمنهم من لا يُصلحه إلا الغنى ، ومنهم من لا يُصلحه إلا الفقر .

﴿ وهو الذي ينزِّل الغيث ﴾ يعني : المطر وقت الحاجة ﴿ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطوا ﴾ أي : يئسوا ، وذلك أدعى لهم إلى شكر مُنزله ﴿ ويَنْشُر رحمتَه ﴾ في الرحمة هاهنا قولان .

أحدهما : المطر ، قاله مقاتل .

والثاني : الشمس بعد المطر ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

وقد ذكرنا " الوليَ " في سورة [النساء : 45] و " الحميد " في [البقرة : 267] .

قوله تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾ وهو ما يلحق المؤمن من مكروهٍ ﴿ فبما كسَبَتْ أيديكم ﴾ من المعاصي .

وقرأ نافع ، وابن عامر : " بما كسَبَتْ أيديكم " بغير فاء وكذلك [هي] في مصاحف أهل المدينة والشام ﴿ ويعفوا عن كثير ﴾ من السَّيِّئات فلا يُعاقِبُ بها .

وقيل لأبي سليمان الداراني : ما بال العقلاء أزالوا اللَّوم عمَّن أساء إليهم ؟ قال : إنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم ، وقرأ هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمُعْجِزين في الأرض ﴾ إن أراد الله عقوبتكم ، وهذا يدخل فيه

الكفار والعصاة كلُّهم .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ آياته الجَواري في البحر ﴾ والمراد بالجوارِ : السفن .

(154/688)

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : " الجواري " بياء في الوصل ، إلاّ أن ابن كثير يقف أيضاً بياءٍ ، وأبو عمرو بغير ياء ، ويعقوب يوافق ابن كثير ، والباقون بغير ياءٍ في الوصل والوقف ؛ قال أبو علي : والقياس ما ذهب إليه ابن كثير ، ومن حذف ، فقد كَثُر حذف مثل هذا كلامهم .

﴿ كالأعلام ﴾ قال ابن قتيبة : كالجبال ، واحدها : عَلَم .

وروي عن الخليل بن أحمد أنه قال : كل شيء مرتفع عند العرب فهو عَلَم .

قوله تعالى : ﴿ إن يشأْ يُسْكِنِ الرِّيح ﴾ التي تُجريها ﴿ فيَظْلَلْنَ ﴾ يعني الجواري ﴿ رواكدَ على ظهره ﴾ أي : سواكن على ظهر البحر ﴿ لا يَجْرِينْ ﴾ .

﴿ أو يُوبِقْهُنَّ ﴾ أي : يُهْلِكْهُنَّ ويُغرِقْهُنَّ ، والمراد أهل السفن ، ولذلك قال : ﴿ بما كَسَبوا ﴾ أي : من الذُّنوب ﴿ ويَعْفُ عن كثير ﴾ من ذنوبهم ، فيُنجيهم من الهلاك .

﴿ ويَعْلَمَ الذين يُجادِلون ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر : " ويَعْلَمُ " بالرفع على الاستئناف

وقطعه من الأول ؛ وقرأ الباقون بالنصب .

قال الفراء : هو مردود على الجزم ، إلاّ أنه صُرف ، والجزم إذا صُرف عنه معطوفه نُصب .

وللمفسرين في معنى الآية قولان .

أحدهما : ويعلم الذين يخاصِمون في آيات الله حين يؤخَذون بالغرق أنه لا ملجأَ لهم .

والثاني : أنهم يعلمون بعد البعث أنه لا مهرب لهم من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ فما أُوتيتم من شيءٍ ﴾ أي : ما أُعطيتم من الدنيا فهو متاع تتمتَّعون به ، ثم يزول سريعاً ﴿ وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا ﴾ لا للكافرين ، لأنه إنما أعدَّ لهم في الآخرة العذاب .

قوله تعالى : ﴿ والذين يَجْتَنِبون كبائرَ الإِثم ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي : "كبيرَ الإِثم" على التوحيد من غير ألف ، والباقون بألف .

وقد شرحنا الكبائر في سورة [النساء : 31] .

وفي المراد بالفواحش ها هنا قولان :

أحدهما : الزنا .

والثاني : موجبات الحدود .

قوله تعالى : ﴿ وإذا ما غَضِبوا هم يَغْفِرون ﴾ أي : يَعْفُون عمَّن ظَلَمهم طلباً لثواب الله تعالى .

﴿ والذين استجابوا لربِّهم ﴾ أي : أجابوه فيما دعاهم إليه .

﴿ وأمرُهم شُورى بينَهم ﴾ قال ابن قتيبة : أي يتشاورون فيه [بينهم] .

وقال الزجاج : المعنى أنهم لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه .

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أصابهم البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرون ﴾ اختلفوا في [هذا] البَغْي على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بَغْيُ الكفار على المسلمين ، قال عطاء : هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبَغَوْا عليهم ، ثم مَكَّنَهم الله منهم فانتصروا .

وقال زيد بن أسلم : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين بمكة ، فرقة كانت تُؤْذَى فتَعفو عن المشركين ، وفرقة كانت تُؤْذَى فتنتصر ، فأثنى اللهُ عز وجل عليهم جميعاً ، فقال في الذين لم ينتصروا : ﴿ وإذا ما غَضِبوا هم يَغْفِرون ﴾ ، وقال في المنتصِرين : ﴿ والذين إذا أصابهم البَغْيُ هم ينتصرون ﴾ أي : من المشركين .

وقال ابن زيد : ذكر المهاجرين ، وكانوا صنفين ، صنفاً عفا ، وصنفاً انتصر ، فقال : ﴿ وإذا ما غَضِبوا هم يَغْفِرون ﴾ ، فبدأ بهم ، وقال في المنتصرين : ﴿ والذين إذا أصابهم

البَغْي هم ينتصِرون ﴾ أي : من المشركين ؛ وقال : ﴿ والذين استجابوا لربِّهم ﴾ إلى قوله ﴿ يُنْفِقون ﴾ وهم الأنصار ؛ ثم ذكر الصِّنف الثالث فقال : ﴿ والذين إذا أصابهم البَغْيُ هم ينتصِرون ﴾ من المشركين .

والثاني : أنه بَغْيُ المسلمين على المسلمين خاصة .

والثالث : أنه عامّ في جميع البُغاة ، سواء كانوا مسلمين أو كافرين .

فصل

واختلف في هذه الآية علماء الناسخ والمنسوخ ، فذهب بعض القائلين بأنها في المشركين إلى أنها منسوخة بآية السيف ، فكأنهم يشيرون إلى أنها أثبتت الانتصار بعد بَغْي المشركين ، فلمّا جاز لنا أن نبدأَهم بالقتال ، دَلَّ على أنها منسوخة .

وللقائلين بأنها في المسليمن قولان :

(156/688)

أحدهما : أنها منسوخة بقوله : ﴿ ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ ﴾ [الشورى : 43] فكأنها نبَّهتْ على مدح المنتصِر ، ثم أعلمنا أن الصبر والغفران أمدح ، فبان وجه النسخ .

والثاني : أنها محكَمة ، لأن الصبر والغفران فضيلة ، والانتصار مباح ، فعلى هذا تكون

محكمة ، [وهو الأصح] .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وظاهرُها مدح المنتصِر وبين آيات الحَثِّ على العفو ؟

فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه انتصار المسلمين من الكافرين ، وتلك رتبة الجهاد كما ذكرنا عن عطاء .

والثاني : أن المنتصِر لم يَخرج عن فعل أُبيح له ، وإن كان العفو أفضل ، ومَنْ لم يَخرج من الشرع بفعله ، حَسُنَ مدحُه .

قال ابن زيد : جعل الله المؤمنين صنفين ، صنفٌ يعفو ، فبدأ بذكره وصنفٌ ينتصر .

والثالث : أنه إذا بغي على المؤمن فاسقٌ ، فلأنَّ له اجتراءَ الفُسَّاق عليه ، وليس للمؤمن أن يُذِلَّ نفْسه ، فينبغي له أن يَكْسِر شوكة العُصاة لتكون العِزَّة لأهل الدِّين .

قال إبراهيم النخعي : كانوا يَكرهون للمؤمنين أن يُذِلُّوا أنفُسَهم فيجترئَ عليهم الفُسّاق ، فإذا قَدَروا عَفَوْا .

وقال القاضي أبو يعلى : هذه الآية محمولة على من تعدَّى وأصرَّ على ذلك ، وآيات العفو محمولة على أن يكون الجاني نادماً .

قوله تعالى : ﴿ وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مِثْلُها ﴾ قال مجاهد ، والسدي : هو جواب القبيح ، إذا قال له كلمة إجابة بمثْلها من غير أن يعتديَ .

وقال مقاتل : هذا في القصاص في الجراحات والدماء .

﴿ فمن عفا ﴾ فلم يقتصّ ﴿ وأصلَح ﴾ العمل ﴿ فأجْرُه على الله إنه لا يُحِبُّ الظّالمين ﴾ يعني من بدأَ بالظُّلم.

وإنما سمَّى المجازاةَ سيِّئةً، لما بيَّنَّا عند قوله: ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾ [البقرة: 194].

قال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ: لِيَقُم مَنْ كان أجْرُه على الله، فلا يقوم إلاّ من عفا.

(157/688)

﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي: بعد ظُلم الظّالم إيَّاه؛ والمصدر هاهنا مضاف إلى المفعول، ونظيره: ﴿ من دُعاءِ الخير ﴾ [فصلت: 49] و ﴿ وبسؤال نعجتك ﴾ [ص: 24]، ﴿ فأولئك ﴾ يعني المنتصرين ﴿ ما عليهم من سبيل ﴾ أي: من طريق إلى لَوْم ولا حَدّ ﴿ إنما السبيلُ على الذين يَظْلِمون الناس ﴾ أي: يبتدؤون بالظُّلم ﴿ ويَبْغُونَ في الأرض بغير الحق ﴾ أي: يعملون فيها بالمعاصي.

قوله تعالى: ﴿ ولَمَن صَبَر ﴾ فلم ينتصر ﴿ وغَفَرَ إنَّ ذلك ﴾ الصبر والتجاوز ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الأُمورِ ﴾ وقد شرحناه في [آل عمران: 186].

قوله تعالى : ﴿ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فما لَهُ من وليّ ﴾ أي : من أحدٍ يلي هدايته بعد إضلال الله إيّاه .

﴿ وتَرى الظالمين ﴾ يعني المشركين ﴿ لمّا رأوُا العذابَ ﴾ في الآخرة يسألون الرّجعة إلى الدنيا ﴿ يقولون هل إلى مَرَدٍ من سبيل ﴾ .

﴿ وتَراهم يُعْرَضون عليها ﴾ أي : على النار ﴿ خاشعين ﴾ أي : خاضعين متواضعين ﴿ من الذُّلِّ ينظُرون من طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ وفيه أربعة أقوال :

أحدها : من طَرْفٍ ذليل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

وقال الأخفش : ينظُرون من عين ضعيفة .

وقال غيره : " مِنْ " بمعنى " الباء " .

والثاني : يسارِقون النظر ، قاله قتادة ، والسدي .

والثالث : ينظُرون ببعض العَيْن ، قاله أبو عبيدة .

والرابع : أنهم ينظُرون إلى النار بقلوبهم ، لأنهم قد حُشروا عُمْياً فلم يَرَوها بأعيُنهم ، حكاه الفراء ، والزجاج .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأنعام : 12] [هود : 39] إلى قوله : ﴿ ينصُرونهم من دون الله ﴾ أي : يمنعونهم من عذاب الله .

قوله تعالى : ﴿ استجيبوا لربّكم ﴾ أي : أجيبوه ، فقد دعاكم برسوله ﴿ مِنْ قَبْلِ أن يأتيَ يومٌ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لا مَرَدَّ له من الله ﴾ أي : لا يَقدر أحد على رَدِّه ودَفْعه ﴿ مالكم مِنْ ملجأٍ ﴾ تلجؤون إليه ، ﴿ وما لكم من نَكيرٍ ﴾ قال مجاهد : من ناصر ينصُركم .

وقال غيره : من قُدرة على تغيير ما نزل بكم .

﴿ فإن أَعْرَضوا ﴾ عن الإجابة ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ لحفظ أعمالهم ﴿ إنْ عليك إلاّ البلاغُ ﴾ أي : ما عليك إلاّ أن تبلّغهم .

وهذا عند المفسرين منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ وإنّا إذا أذَقْنا الإنسانَ مِنّا رحمةً فَرِحَ بها ﴾ قال المفسرون : المراد به : الكافر ؛ والرحمة : الغنى والصحة والمطر ونحو ذلك .

والسَّيِّئة : المرض والفقر والقحط [ونحو ذلك] .

والإنسان هاهنا : اسم جنس ، فلذلك قال : ﴿ وإن تُصِبْهم سيِّئةٌ بما قدَّمتْ أيديهم ﴾ أي : بما سلف من مخالفتهم ﴿ فإنَّ الإنسان كفورٌ ﴾ بما سلف من النِّعم .

﴿ للهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ أي : له التصرُّف فيها بما يريد ، ﴿ يَهَبُ لمن يشاء إناثاً ﴾ يعني البنات ليس فيهنّ ذَكَر ، كما وهب للوط صلى الله عليه وسلم ، فلم يولَد له إلاَ

البنات .

﴿ ويَهَبُ لِمَن يشاء الذُّكور ﴾ يعني البنين ليس معهم أُنثى ، كما وهب لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، [فلم يولد له إلا الذُّكور] .

﴿ أو يزوِّجُهم ﴾ يعني الإناث والذُّكور .

قال الزجاج : ومعنى " يزوِّجُهم " : يَقْرُنُهم .

وكل شيئين يقترن أحدهما بالآخر ، فهما زوجان ، ويقال لكل واحد منهما : زوج ، تقول : عندي زوجان من الخِفاف ، يعني اثنين .

وفي معنى الكلام للمفسرين قولان :

أحدهما : أنه وضْعُ المرأة غلاماً ثم جارية ثم غلاماً ثم جارية ، قاله مجاهد ، والجمهور .

والثاني : [أنه] وضْعُ المرأة جاريةً وغلاماً توأمين ، قاله ابن الحنفية .

(159/688)

قالوا : وذلك كما جُمع لمحمد صلى الله عليه وسلم فإنه وهب له بنين وبنات ، ﴿ ويَجْعَلُ من يشاء عقيماً ﴾ لا يولد له ، كيحيى بن زكريا عليهما السلام .

وهذه الأقسام موجودة في سائر الناس ، وإنما ذكروا الأنبياء تمثيلاً .

قوله تعالى : ﴿ وما كانَ لِبَشَرٍ أن يُكلِّمَه اللهُ إلاّ وَحْياً ﴾ قال المفسرون : سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا تكلِّم الله وتنظرُ إليه إن كنتَ نبيّاً صادقاً كما كلَّمه موسى ونظر إليه ؟ فقال لهم : " لم ينظرُ موسى إلى الله " ، ونزلت هذه الآية .

والمراد بالوحي هاهنا : الوحي في المنام .

﴿ أَو مِنْ وراء حجاب ﴾ كما كلَّم موسى .

﴿ أو يُرْسِلْ ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ يُرْسِلُ ﴾ بالرفع ﴿ فيوحي ﴾ بسكون الياء .

وقرأ الباقون : ﴿ يُرْسِلْ ﴾ بنصب اللام ﴿ فيوحيَ ﴾ بتحريك الياء ، والمعنى : " أو يرسِل رسولاً " كجبرائيل " فيوحي " ذلك الرسول إلى المرسَل إليه ﴿ بإذنه ما يشاء ﴾ .

قال مكي بن أبي طالب : من قرأ " أو يرسِلَ " بالنصب ، عطفه على معنى قوله ﴿ إلاَّ وحياً ﴾ لأنه بمعنى : إلاّ أن يوحيَ .

ومن قرأ بالرفع ، فعلى الابتداء ، كأنه قال : أو هو يرسِل .

قال القاضي أبو يعلى : وهذه الآية محمولة على أنه لا يكلِّم بشراً إلاّ من وراء حجاب في دار الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ أي : وكما أوحينا إلى الرُّسل ﴿ أوحَينا إليك ﴾ ، وقيل الواو عطف على أول السورة ، فالمعنى : كذلك نوحي إليك وإلى الذين مِنْ قبلك .

﴿ وكذلك أوحَينا إليك رُوحاً من أمرنا ﴾ قال ابن عباس : هو القرآن .

وقال مقاتل : وَحْياً بأمرنا .

قوله تعالى : ﴿ ما كنتَ تَدري ما الكتابُ ﴾ وذلك أنه لم يكن يَعرف القرآن قبل الوحي ﴿ ولا الإِيمانُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بمعنى الدعوة إلى الإِيمان ، قاله أبو العالية .

(160/688)

والثاني : أن المراد به : شرائع الإيمان ومعالمه ، وهي كلُّها إيمان ؛ وقد سمَّى الصلاة إيماناً بقوله : ﴿ وما كان اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [البقرة : 143] ، هذا اختيار ابن قتيبة ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة .

والثالث : أنه ما كان يَعرف الإِيمان حين كان في المهد وإذْ كان طفلاً قبل البلوغ ، حكاه الواحدي .

والقول ما اختاره ابن قتيبة ، وابن خزيمة ، وقد اشتُهر في الحديث عنه عليه السلام أنه كان قبل النبوَّة يوحِّد الله ، ويُبْغِض اللاّتَ والعُزَّى ، ويَحُجُّ ويعتمر ، ويتَّبع شريعةَ إِبراهيم عليه السلام .

قال الإِمام أحمد بن حنبل رحمه الله : من زعم أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان على دين قومه ، فهو قول سوءٍ ، أليس كان لا يأكل ما ذُبح على النُّصُب ؟ وقال ابن قتيبة : قد جاء في الحديث أنه كان على دين قومه أربعينَ سنةً .

ومعناه : أن العرب لم يزالوا على بقايا مِنْ دين إسماعيل ، من ذلك حِجُّ البيت ، والختانُ وإيقاعُ الطلاق إذا كان ثلاثاً ، وأن للزوج الرَّجعة في الواحدة والاثنتين ودِيَة النَّفْس مائة من الإبل ، والغُسل من الجنابة ، وتحريمُ ذوات المحارم بالقرابة والصِّهر .

وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإِيمان بالله والعمل بشرائعهم في الختان والغُسل والحج ، وكان لا يقرب الأوثان ، ويَعيبُها .

وكان لا يَعرف شرائعَ الله التي شَرَعها لعباده على لسانه ، فذلك ، قوله : ﴿ ما كنتَ تَدري ما الكتابُ ﴾ [يعني القرآن] " ولا الإِيمانُ " يعني شرائع الإِيمان ؛ ولم يُرِدِ الإِيمانَ الذي هو الإقرار بالله ، لأن آباءه الذين ماتوا على الشِّرك كانوا يؤمِنون بالله ويحجُّون له [البيت] مع شِركهم .

قوله تعالى : ﴿ ولكنْ جَعَلْناه ﴾ في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى القرآن .

والثاني : إلى الإِيمان .

﴿ نُوراً ﴾ أي : ضياءً ودليلاً على التوحيد ﴿ نَهدي به مَنْ نشاء ﴾ [من عبادنا] إلى

دِين الحق .

﴿ وإِنّك لَتَهدي ﴾ أي : لَتَدعو ﴿ إِلَى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ وهو الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 287.300 ﴾

(161/688)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده ﴾

قال خباب بن الأرت : فينا نزلت هذه الآية وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها فأنزل الله تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده ﴾ أي وسع الله الرزق لعباده ﴿ لبغوا ﴾ أي لطغوا وعتوا ﴿ في الأرض ﴾ قال ابن عباس : بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس ، وقيل : إن الإنسان متكبر بالطبع فإذا وجد الغنى والقدرة رجع إلى مقتضى طبعه وهو التكبر وإذا وقع في شدة ومكروه وفقر انكسر فرجع إلى الطاعة والتواضع ، وقيل : إن البغي مع القبض والفقر أقل ومع البسط والغنى أكثر لأن النفس مائلة إلى الشر لكنها إذا كانت فاقدة لآلاته كان الشر أقل وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان ﴿ ولكن ينزل

بقدر ما يشاء ﴾ يعني الأرزاق نظراً لمصالح عباده وهو قوله تعالى : ﴿ إنه بعباده خبير بصير ﴾ والمعنى أنه تعالى عالم بأحوال عباده وبطبائعهم وبعواقب أمورهم فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم يدل على ذلك ما روى أنس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وسلم) عن جبريل عن الله قال " يقول الله من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد ، وما تقرب إلي عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه أن لا يدخله عجب فيفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى لو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين

(162/688)

لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير " أخرجه البغوي بإسناده .

قوله : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ أي يئس الناس منه وذلك أدعى لهم إلى الشكر قيل حبس الله المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا ثم أنزل الله المطر فذكرهم نعمته لأن الفرح بحصول النعمة بعد الشدة أتم ﴿ وينشر رحمته ﴾ أي يبسط بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب ﴿ وهو الولي ﴾ أي لأهل طاعته ﴿ الحميد ﴾ أي المحمود على ما يوصل إلى الخلق من أقسام رحمته .

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث ﴾ أي أوجد ﴿ فيهما ﴾ أي في السموات والأرض ﴿ من دابة ﴾ .

فإن قلت كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة .

قلت الدبيب في اللغة المشي الخفيف على الأرض ، فيحتمل أن يكون للملائكة مشي مع الطيران فيوصفون بالدبيب كما يوصف به الإنسان ، وقيل : يحتمل أن الله تعالى خلق في السموات أنواعاً من الحيوانات يدبون دبيب الإنسان ﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ يعني يوم القيامة .

قوله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة نحو الأوجاع والأسقام والقحط والغلاء والغرق والصواعق وغير ذلك من المصائب فبما كسبت أيديكم من الذنوب والمعاصي ﴿ ويعفوا عن كثير ﴾ قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر " وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سخيلة قال : قال علي بن أبي طالب " ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ وسأفسرها لكم يا علي ﴿ ما أصابكم من مصيبة ﴾ أي من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه " وقال عكرمة : ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها أو درجة لم يكن الله ليرفعه لها إلا بها (ق) .

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة " ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي بفائتين ﴿ في الأرض ﴾ هرباً يعني لا تعجزونني حيثما كنتم ﴿ وما لكم

من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ قوله : ﴿ ومن آياته الجوار ﴾ يعني السفن وهي السيارة ﴿ في البحر كالأعلام ﴾ أي كالقصور وكل شيء مرتفع عند العرب فهو علم ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ أي التي تجري بها السفن ﴿ فيظللن ﴾ يعني السفن الجواري ﴿ رواكد ﴾ أي ثوابت ﴿ على ظهره ﴾ أي ظهر البحر لا تجري ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ وهذه صفة المؤمن لأنه يصبر في الشدة ويشكر في الرخاء .

(164/688)

﴿ أو يوبقهن ﴾ أي يغرقهن ويهلكهن ﴿ بما كسبوا ﴾ أي بما كسبت ركابها من الذنوب ﴿ ويعف عن كثير ﴾ أي من ذنوبهم فلا يعاقب عليها ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ يعني يعلم الذين يكذبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله تعالى ما لهم من مهرب من عذابه ﴿ فما أوتيتم من شيء ﴾ أي من زينة الدنيا ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي ليس هو من زاد المعاد ﴿ وما عند الله ﴾ أي من الثواب ﴿ خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ والمعنى أن المؤمن والكافر يستويان في متاع الحياة الدنيا فإذا صارا إلى الله تعالى كان ما عند الله من الثواب خيراً وأبقى للمؤمن ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم ﴾ يعني كل ذنب تعظم عقوبته كالقتل والزنا والسرقة وشبه ذلك ﴿ والفواحش ﴾ يعني ما عظم

قبحه من الأقوال والأفعال ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ يعني يكظمون الغيظ ويجهلون ﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ يعني أجابوا إلى ما دعاهم إليه من طاعته ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ يعني المفروضة ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ يعني يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون ولا ينفردون برأي ما لم يجتمعوا عليه قيل .

ما تشاور قوم إلا هدوا إلى أرشد أمرهم ﴿ ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي ﴾ يعني الظلم والعدوان ﴿ هم ينتصرون ﴾ يعني ينتقمون من ظالمهم من غير تعد قال ابن زيد جعل الله تعالى المؤمنين صنفين صنف يعفون عمن ظلمهم فبدأ بذكرهم وهو قوله تعالى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ وصنف ينتصرون من ظالمهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية ، وقال إبراهيم النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فإذا قدروا عفوا .

وقيل : إن العفو إغراء للسفيه وقال عطاء : هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبغوا عليهم ثم مكنهم الله في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم ثم بين الله تعالى أن شرعة الانتصار مشروطة برعاية المماثلة

(165/688)

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ سمي الجزاء سيئة وإن لم يكن سيئة لتشابههما في الصورة وقيل لأن الجزاء يسوء من ينزل به ، وقيل هو جزاء القبيح إذا قال أخزاك الله فقل له أخزاك الله ولا تزد وإذا شتمك فاشتمه بمثلها ولا تعتدوا وقيل هو في القصاص في الجراحات والدماء يقتص بمثل ما جنى عليه وقيل إن الله تعالى لم يرغب في الانتصار بل بين أنه مشروع ثم بين أن العفو أولى بقوله تعالى : ﴿ فمن عفا ﴾ أي عمن ظلمه ﴿ وأصلح ﴾ أي بالعفو بينه وبين الظالم ﴿ فأجره على الله ﴾ قال الحسن : إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم إلا من عفا ثم قرأ هذه الآية ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ قال ابن عباس : الذين يبدؤون بالظلم ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه ﴾ أي بعد ظلم الظالم إياه ﴿ فأولئك ﴾ يعني المنتصرين ﴿ ما عليهم من سبيل ﴾ أي بعقوبة ومؤاخذة ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ أي يبدؤون بالظالم ﴿ ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي يعملون فيها بالمعاصي ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر ﴾ أي لم ينتصر ﴿ وغفر ﴾ تجاوز عن ظالمه ﴿ إن ذلك ﴾ أي الصبر والتجاوز ﴿ لمن عزم الأمور ﴾ يعني تركه الانتصار لمن عزم الأمور الجيدة التي أمر الله بها وقيل إن الصابر يؤتي بصبره الثواب فالرغبة في الثواب أتم عزماً ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ﴾ يعني ما له من أحد يلي هدايته بعد إضلال الله إياه أو يمنعه من عذابه ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾ يعني أنهم يسألون الرجعة إلى الدنيا .

﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ أي على النار ﴿ خاشعين من الذل ﴾ أي خاضعين متواضعين ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ يعني يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلة في أنفسهم ، وقيل ينظرون بطرف خفي أي ضعيف من الذل ، وقيل ينظرون إلى النار بقلوبهم لأنهم يحشرون عمياً والنظر بالقلب خفي ﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم ﴾ يعني بأن صاروا إلى النار .

﴿ وأهليهم يوم القيامة ﴾ يعني وخسروا أهليهم بأن صاروا لغيرهم في الجنة ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ أي وصول إلى الحق في الدنيا والجنة في العقبى فقد استدت عليهم طرق الخير ﴿ استجيبوا لربكم ﴾ أي أجيبوا داعي الله يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ من قبل من أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ أي لا يقدر أحد على دفعه وهو يوم القيامة وقيل هو يوم الموت ﴿ ما لكم من ملجأ يومئذ ﴾ أي ما لكم من مخلص من العذاب وقيل من الموت ﴿ وما لكم من نكير ﴾ أي ينكر حالكم وقيل النكير الإنكار يعني لا تقدرون أن تنكروا من أعمالكم شيئاً ﴿ فإن أعرضوا ﴾ أي عن الإجابة ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظاً

﴿ أي تحفظ أعمالهم ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ أي ليس عليك إلا البلاغ وفيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وإنا أذا أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ قال ابن عباس : يعني الغنى والصحة ﴿ فرح بها وإن تصبهم سيئة ﴾ أي قحط ﴿ ما قدمت أيديهم ﴾ أي من الأعمال الخبيثة ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾ أي لما تقدم من نعمة الله تعالى عليه .

قوله : ﴿ لله ملك السموات والأرض ﴾ يعني له التصرف فيهما بما يريد ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ أي لا يقدر أحد أن يعترض عليه في ملكه وإرادته ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ﴾ أي فلا يولد له ذكر ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ أي فلا يولد له أنثى .

(167/688)

﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ أي يجمع بينهما فيولد له الذكور والإناث ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ أي فلا يولد له ولد ، وقيل هذا في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فقوله يهب لمن يشاء إناثاً يعني لوطاً لم يولد له ذكر إنما ولد له ابنتان ويهب لمن يشاء الذكور يعني إبراهيم لم يولد له أنثى ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ولد له أربع بنين وأربع بنات ويجعل من يشاء عقيماً يعني يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام لم يولد لهما وهذا على وجه التمثيل وإلا فالآية عامة في جميع الناس ﴿ إنه

عليم ﴾ أي بما يخلق ﴿ قدير ﴾ أي على ما يريد أن يخلق .

قوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ قيل في سبب نزولها : إن اليهود قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى (صلى الله عليه وسلم) ونظر إليه فقال لم ينظر موسى إلى الله تعالى فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ أي يوحي إليه في المنام أو بالإلهام كما رأى إبراهيم في المنام أن يذبح ولده وهو وحي وكما ألهمت أم موسى أن تقذفه في البحر ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ أي يسمعه كلامه من وراء حجاب ولا يراه كما كلم موسى ﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ يعني من الملائكة إما جبريل أو غيره ﴿ فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ يعني يوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء وهذه الآية محمولة على أنه لا يكلم بشراً إلا من وراء حجاب في الدنيا ويأتي بيان هذه المسألة إن شاء الله تعالى في سورة النجم ﴿ إنه على ﴾ أي عن صفات المخلوقين ﴿ حكيم ﴾ أي في جميع أفعاله .

(168/688)

قوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي وكما أوحينا إلى سائر رسلنا ﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ قال ابن عباس : نبوة ، وقيل : قرآناً لأن به حياة الأرواح ، وقيل : رحمة وقيل جبريل ﴿

ما كنت تدري ﴾ أي قبل الوحي ﴿ ما الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ ولا الإيمان ﴾ اختلف العلماء في هذه الآية مع اتفاقهم على أن الأنبياء قبل النبوة كانوا مؤمنين فقيل معناه ما كنت تدري قبل الوحي شرائع الإيمان ومعالمه .

وقال محمد بن إسحاق عن ابن خزيمة الإيمان في هذا الموضع الصلاة دليله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ يعني صلاتكم ولم يرد به الإيمان الذي هو الإقرار بالله تعالى لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان قبل النبوة يوحد الله تعالى ويحج ويعتمر ويبغض اللات والعزى ولا يأكل ما ذبح على النصب وكان يتعبد على دين إبراهيم ولم تتبين له شرائع دينه إلا بعد الوحي إليه ﴿ ولكن جعلناه نوراً ﴾ قال ابن عباس يعني الإيمان وقيل القرآن لأنه يهتدي به من الضلالة وهو قوله تعالى : ﴿ نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي ﴾ أي لتدعو ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ يعني إلى دين الإسلام .

﴿ صراط الله ﴾ يعني دين الله الذي شرعه لعباده ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ يعني أمور الخلائق في الآخرة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 124 . 129 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرض ﴾

أي بغى بعضهم على بعض ، وطغوا ؛ لأن الغنى يوجب الطغيان ، وقال بعض الصحابة : فينا نزلت لأنا نظرنا إلى أموال الكفار فتمنيناها .

﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ قيل لعمر رضي الله عنه : اشتد القحط وقنط الناس . فقال : الآن يمطرون ، وأخذ ذلك من هذه الآية ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : اشتدي أزمة تنفرجي ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ قيل : يعني المطر فهو تكرار للمعنى الأول بلفظ آخر ، وقيل : يعني الشمس وقيل : بالعموم .

﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ لا إشكال ؛ لأن الدواب في الأرض وأما في السماء فقيل : يعني الملائكة وقيل : يمكن أن تكون في السماء دواب لا نعلمها نحن وقيل : المعنى أنه بث في أحدهما فذكر الاثنين كما تقول في بني فلان كذا وإنما هو في بعضهم ﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ يريد جمع الخلق في الحشر يوم القيامة .

﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ المعنى أن المصائب التي تصيب الناس في أنفسهم وأموالهم ؛ إنما هي سبب الذنوب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر .

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ بما كسبت ﴾ بغير فاء على أن يكون ﴿ مَآ أَصَابَكُمْ ﴾ بمعنى الذي وقرأ الباقون بالفاء على أن يكون ما أصابكم شرطاً .

﴿ بِمُعْجِزِينَ ﴾ قد ذكر الجواري جمع جارية وهي السفينة ﴿ كالأعلام ﴾ جمع علم وهو الجبل .

(170/688)

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ ﴾ الضمير في يظللن للجواري وفي ظهره للبحر ، أي لو أراد الله أن يسكن الرياح لبقيت السفن واقفة على ظهر البحر ، فالمقصود تعديد النعمة في إرسال الرياح أو تهديد بإسكانه ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ عطف على يسكن الريح ، ومعنى يوبقهن يهلكهن بالغرق ، من شدة الرياح العاصفة والضمير فيه للسفن ، وفي ﴿ كَسَبُوا ﴾ لركابها من الناس والمعنى : أنه لو شاء لأغرقها بذنوب الناس .

﴿ وَيَعْلَمَ الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي يعلمون أنه لا مهرب له من الله ، وقرأ نافع وابن عامر يعلم بالرفع على الاستئناف ، [وقرأ الباقون] بالنصب واختلف في إعرابه على قولين : أحدهما أنه نصب بإضمار أن بعد الواو لما وقعت بعد الشرط والجزاء ؛ لأنه غير واجب . وأنكر ذلك الزمخشري وقال : إنه شاذ فلا ينبغي أن يحمل القرآن عليه

، والثاني قول الزمخشري إنه معطوف على تعليل محذوف تقديره : لينتقم منهم ويعلم ، قال : ونحوه من المعطوف على التعليل المحذوف في القرآن كثير ، ومنه قوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم : 21] ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ ﴾ ذكرنا الكبائر في [النساء : 31] وقيل : كبائر الإثم : هو الشرك ، والفواحش : هي الزنا واللفظ أعم من ذلك .

(171/688)

﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ ﴾ قيل : يعني الأنصار ، لأنهم استجابوا لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، ويظهر لي أن هذه الآية إشارة إلى ذكر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، لأنه بدأ أولاً بصفات أبي بكر الصديق ، ثم صفات عمر بن الخطاب ، ثم صفات عثمان بن عفان ، ثم صفات علي بن أبي طالب ، فكونه جمع هذه الصفات ، ورتبها على هذا الترتيب يدل على أنه قصد بها من اتصف بذلك ، فأما صفات أبي بكر فقوله : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، وإنما جعلناها صفة أبي بكر وإن جميعهم متصفاً بها ، لأن أبا بكر كانت له فيها مزية لم تكن لغيره فقد روي : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجحهم وورد : أنا مدينة الإيمان وأبو بكر بابا . وقال أبو بكر : لو كشف الغطاء لما ازددت إلا يقيناً والتوكل إنما يقوى بقوة الإيمان . أما صفات عمر فقوله : ﴿ والذين

يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش ﴾ لأن ذلك هو التقوى ، وقوله : إذا ما غضبوا هم يغفرون ، وقوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ [الجاثية : 14] نزلت في عمر ، وأما صفات عثمان فقوله : ﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ ﴾ لأن عثمان لما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان تبعه ، وبادر إلى الإسلام وقوله ، ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ ، لأن عثمان كان كثير الصلاة بالليل ، وفيه نزلت ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ الليل سَاجِداً وَقَآئِماً ﴾ [الزمر : 9] الآية : وروي أنه كان يحي الليل بركعة يقرأ فيها القرآن كله ، وقوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ لأن عثمان ولي الخلافة بالشورى ، وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، لأن عثمان كان كثير النفقة في سبيل الله ، ويكفيك أنه جهّز جيش العسرة ، وأما صفة عليّ فقوله : ﴿ والذين إِذَآ أَصَابَهُمُ البغي هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ، لأنه لما

(172/688)

قاتلته الفئة الباغية قاتلها انتصاراً للحق ، وانظر كيف سمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم المقاتلين لعلي الفئة الباغية حسبما ورد في الحديث الصحيح أنه قال لعمار بن ياسر تقتلك الفئة الباغية فذلك هو البغي الذي أصابه وقوله : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى

الله ﴾ إشارة إلى فعل الحسن بن عليّ حين بايع معاوية ، وأسقط حق نفسه ليصلح أحوال المسلمين ، ويحقن دماءهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحسن :

(173/688)

" إن ابني هذا سيّد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " وقوله : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ ، فأولئك ما عليهم من سبيل إشارة إلى انتصار الحسين بعد موت الحسن ، وطلبه للخلافة وقوله : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ إشارة إلى بني أمية ، فإنهم استطالوا على الناس كما جاء في الحديث عنهم : أنهم جعلوا عباد الله خولاً وما الله دولاً ، ويكفيك من ظلمهم أنهم كانوا يلعنون علي بن أبي طالب على منابرهم وقوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ الآية إشارة إلى صبر أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم على ما نالهم من الضر والذل ، طول مدّة بني أمية ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ سمى العقوبة باسم الذنب ، وجعلها مثلها تحرزاً من الزيادة عليها ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ هذا يدل على أن العفو عن الظلمة أفضل من الانتصار ، لأنه ضمن الأجر في العفو ، وذكر الانتصار بلفظ الإباحة في قوله : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ وقيل : إن الانتصار أفضل ، والأول أصح فإن قيل : كيف ذكر الانتصار في

صفات المدح في قوله : ﴿ والذين إِذَآ أَصَابَهُمُ البغي هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ والمباح لا مدح فيه ولا ذم ، فالجواب : من ثلاثة أوجه أحدها أن المباح قد يمدح لأنه قيام بحق لا بباطل ، والثاني أن مدح الانتصار لكونه كان بعد الظلم ، تحرزاً ممن بدأ بالظلم فكأن المدح إنما هو بترك الابتداء بالظلم ، والثالث إن كانت الإشارة بذلك إلى علي بن أبي طالب حسبما ذكرنا فانتصاره محمود ، لأن قتال أهل البغي واجب لقوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي ﴾ [الحجرات : 9] ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذل ﴾ عبارة عن الذل والكآبة ، ومن الذل يتعلق بخاشعين ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ فيه قولان : أحدهما أنه عبارة عن

الذل ، لأن نظر الذليل بمهابة واستكانة ، والآخر أنهم يحشرون عمياً فلا ينظرون بأبصارهم ، وإنما ينظرون بقلوبهم واستبعد هذا ابن عطية والزمخشري : والظرف يحتمل أن يريد به العين أو يكون مصدراً ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾ يتعلق بقال أو بخسروا ﴿ أَلاَ إِنَّ الظالمين ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الذين آمنوا أو مستأنفاً من كلام الله تعالى .

﴿ لاَّ مَرَدَّ لَهُ ﴾ ذكر في [غافر : 11] ﴿ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي إنكار يعني لا تنكرون

أعمالكم .

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً ﴾ قدم الإناث اعتناء بهنّ وتأنيساً لمن وهبهن له . قال واثلة بن الأسقع : من يمن المرأة تبكيرها بأنثى قبل الذكر ، لأن الله بدأ بالإناث وقال بعضهم : نزلت هذه الآية في الأنبياء عليهم السلام فشعيب ولوط كان لهما إناث دون ذكور ، وإبراهيم كان له ذكور دون إناث ، ومحمد صلى الله عليه وسلم جمع الإناث والذكور ، ويحيى كان عقيماً ، والظاهر أنها على العموم في جميع الناس ، إذ كل واحد منهم لا يخلو عن قسم من هذه الأقسام الأربعة التي ذكر ، وفي الآية من أدوات البيان التقسيم .

(175/688)

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً ﴾ الآية : بين الله تعالى فيها كلامه لعباده ، وجعله على ثلاثة أوجه أحدها المذكور أولاً وهو الذي يكون بإلهام أو منام والآخر أن يسمعه كلامه من وراء حجاب الثالث الوحي بواسطة الملك وهو قوله : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ يعني ملكاً ، فيوحي بإذنه ما يشاء إلى النبي ، وهذا خاص بالأنبياء والثاني خاص بموسى وبمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ إذ كلمة الله ليلة الإسراء ، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء كثيراً ، وقد يكون لسائر الخلق ومنه ، ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل :

68] ومنه ؛ منامات الناس ﴿ أَوْيُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ قرأ نافع يرسل ويوحي بالرفع ، على تقدير أو هو يرسل والباقون بالنصب عطفاً على وحياً لأن تقديره : أن يوحي عطف على أن المقدرة .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الروح هنا القرآن ، والمعنى مثل هذا الوحي ، وهو بإرسال ملك أوحينا إليك القرآن ، والأمر هنا يحتمل أن يكون واحد الأمور ، أو يكون من الأمر بالشيء ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ المقصد بهذا شيئان : أحدهما تعداد النعمة عليه صلى الله عليه وسلم ، بأن علمه الله ما لم يكن يعلم . والآخر احتجاج على نبوته لكونه أتى بما لم يكن يعلمه ولا تعلمه من أحد ، فإن قيل : أما كونه لم يكن يدري الكتاب فلا إشكال فيه ، وأما الإيمان ففيه إشكال لأن الأنبياء مؤمنون بالله قبل مبعثهم ؟ فالجواب أن الإيمان يحتوي على معارف كثيرة ، وإنما كمل له معرفتها بعد بعثه ، وقد كان مؤمناً بالله قبل ذلك ، فالإيمان هنا يعني به كمال المعرفة وهي التي حصلت له بالنبوة ﴿ ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً ﴾ الضمير للقرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 24.21 ﴾

(176/688)

وقال النسفى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ ﴾

أي لو أغناهم جميعاً ﴿ لَبَغَوْاْ فِى الأرض ﴾ من البغي وهو الظلم أي لبغي هذا على ذاك وذاك على هذا لأن الغني مبطرة مأشرة ، وكفى بحال قارون وفرعون عبرة أو من البغي وهو الكبر أي لتكبّروا في الأرض ﴿ ولكن يُنَزِّلُ ﴾ بالتخفيف : مكي وأبو عمرو ﴿ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ بتقدير يقال قدره قدراً وقدراً ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرُ بَصِيرٌ ﴾ يعلم أحوالهم فيقدر لهم ما تقتضيه حكمته فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط ، ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا ، وما ترى من البسط على من يبغي ومن البغي بدون البسط فهو قليل ، ولا شك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب .

﴿ وَهُوَ الذى يُنَزِّلُ الغيث ﴾ بالتشديد : مدني وشامي وعاصم ﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ وقرىء ﴿ قِنطواْ ﴾ ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب .

وقيل لعمر رضي الله عنه : اشتد القحط وقنط الناس .

فقال : مطروا إذا أراد هذه الآية .

أو أراد رحمته في كل شيء ﴿ وَهُوَ الولى ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ﴿ الحميد ﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته ﴿ وَمِنْ ءاياته ﴾ أي علامات قدرته ﴿ خَلْقُ السماوات والأرض ﴾ مع عظمهما ﴿ وَمَا بَثَّ ﴾ فرق ﴿ وَمَا ﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً حملاً على المضاف أو المضاف إليه ﴿ فِيهِمَا ﴾ من السماوات والأرض ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ الدواب تكون في الأرض وحدها لكن يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبساً ببعضه كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد وإنما هو في فخذ من أفخاذهم ومنه قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] وإنما يخرج من الملح ، ولا يبعد أن يخلق في السماوات حيوانات يمشون فيها مشي الأناسي على الأرض ، أو يكون للملائكة مشي مع الطيران فوصفوا بالدبيب كما وصف به الأناسي ﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ "إذا" تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي ، قال الله تعالى : ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ [الليل : 1] .

﴿ وَمَآ أصابكم مِّن مُّصِيبَةٍ ﴾ غم وألم ومكروه ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي بجناية كسبتموها عقوبة عليكم .

﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ بغير الفاء : مدني وشامي على أن "ما" مبتدأ و ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ خبره من غير تضمين معنى الشرط ، ومن أثبت الفاء فعلى تضمين معنى الشرط .

وتعلق بهذه الآية من يقول بالتناسخ وقال لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألموا .

وقلنا : الآية مخصومة بالمكلفين بالسباق والسياق وهو ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ أي من الذنوب فلا يعاقب عليه أو عن كثير من الناس فلا يعاجلهم بالعقوبة ، وقال ابن عطاء : من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه وأن ما عفا عنه مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه .

(178/688)

وقال محمد بن حامد : العبد ملازم للجنايات في كل أوان وجناياته في طاعته أكثر من جناياته في معاصيه لأن جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه والله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أول خطوة ، وعن علي رضي الله تعالى عنه : هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب ثانياً وإذا عفا لا يعود ﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ أي بفائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِىٍّ ﴾ متول بالرحمة ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ ناصر يدفع عنكم العذاب إذا حل بكم .

﴿ وَمِنْ ءاياته الجوار ﴾ جمع جارية وهي السفينة ﴿ الجواري ﴾ في الحالين : مكي وسهل ويعقوب ، وافقهم مدني وأبو عمر في الوصل ﴿ فِى البحر كالاعلام ﴾ كالجبال .

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح ﴾ ﴿ الرياح ﴾ مدني ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ ﴾ ثوابت لا تجري ﴿ على ظَهْرِهِ ﴾ على ظهر البحر ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على بلائه ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعمائه أي لكل مؤمن مخلص فالإيمان نصفان : نصف شكر ونصف صبر .

أو صبار على طاعته شكور لنعمته ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ يهلكهن فهو عطف على ﴿ يُسْكِنِ ﴾ والمعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيغرقن بعصفها ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ من الذنوب ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ منها فلا يجازي عليها .

(179/688)

وإنما أدخل العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه لأن المعنى أو إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ بالنصب عطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم ﴿ الذين يجادلون فِى ءاياتنا ﴾ أي في إبطالهما ودفعها ، ﴿ وَيَعْلَمُ ﴾ مدني وشامي على الاستئناف ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ مهرب من عذابه ﴿ فَمَآ أُوتِيتُمْ مِّن شَىْءٍ فمتاع الحياة الدنيا وَمَا عِندَ الله ﴾ من الثواب ﴿ خَيْرٌ وأبقى لِلَّذِينَ ءامَنُواْ وعلى

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ "ما" الأولى ضمنت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية.

نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق بجميع ماله فلامه الناس ﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ عطف على ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ وكذا ما بعده ﴿ كبائر الإثم ﴾ أي الكبائر من هذا الجنس، ﴿ كَبِيرَ الإثم ﴾ علي وحمزة.

وعن ابن عباس: كبير الإثم هو الشرك.

﴿ والفواحش ﴾ قيل: ما عظم قبحه فهو فاحشة كالزنا ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ ﴾ من أمور دنياهم ﴿ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب والمجيء بهم.

وإيقاعه مبتدأ وإسناد ﴿ يَغْفِرُونَ ﴾ إليه لهذه الفائدة ومثله ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾.

﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿ وَأَقَامُوا الصلاوة ﴾ وأتموا الصلوات الخمس ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ أي ذو شورى لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه، وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ يتصدقون.

﴿ والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغى ﴾ الظلم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ينتقمون ممن ظلمهم أي

يقتصرون في الانتصار على ما جعله الله تعالى لهم ولا يعتدون ، وكانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجتريء عليهم الفساق .

(180/688)

وإنما حمدوا على الانتصار لأن من انتصر وأخذ حقه ولم يجاوز في ذلك حد الله فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم فهو مطيع لله وكل مطيع محمود .

ثم بين حد الانتصار فقال ﴿ وجزاؤا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فالأولى سيئة حقيقة والثانية لا .

وإنما سميت لأنها مجازاة السوء ، أو لأنها تسوء من تنزل به ، ولأنه لو لم تكن الأولى لكانت الثانية سيئة لأنها إضرار ، وإنما صارت حسنة لغيرها ، أو في تسمية الثانية سيئة إشارة إلى أن العفو مندوب إليه .

والمعنى أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ الذين يبدءون بالظلم أو الذين يجاوزون حد الانتصار .

في الحديث : " ينادي منادٍ يوم القيامة من كان له أجر على الله فليقم فلا يقوم إلا من عفا "

﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي أخذ حقه بعد ما ظلم على إضافة المصدر إلى المفعول ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى معنى من دون لفظه ﴿ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعايب ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿ وَيَبْغُونَ فِى الأرض ﴾ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون ﴿ بِغَيْرِ الحق أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وفسر السبيل بالتبعة والحجة ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ على الظلم والأذى ﴿ وَغَفَرَ ﴾ ولم ينتصر ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي الصبر والغفران منه ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ أي من الأمور التي ندب إليها أو مما ينبغي أن يوجبه العاقل على نفسه ولا يترخص في تركه .

(181/688)

وحذف الراجع أي "منه" لأنه مفهوم كما حذف من قولهم : السمن منوان بدرهم ، وقال أبو سعيد القرشي : الصبر على المكاره من علامات الانتباه ، فمن صبر على مكروه يصيبه ولم يجزع أورثه الله تعالى حال الرضا وهو أجل الأحوال ، ومن جزع من المصيبات وشكا وكله الله تعالى إلى نفسه ثم لم تنفعه شكواه .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ﴾ فما له من أحد يلي هدايته من بعد إضلال الله إياه ويمنعه من عذابه ﴿ وَتَرَى الظالمين ﴾ يوم القيامة ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ حين

يرون العذاب واختير لفظ الماضي للتحقيق ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا به .

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ على النار إذ العذاب يدل عليها ﴿ خاشعين ﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿ مِنَ الذل يَنظُرُونَ ﴾ إلى النار ﴿ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ ضعيف بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف .

(182/688)

﴿ وَقَالَ الذين ءَامَنُواْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ ﴿ يَوْمٍ ﴾ متعلق ب ﴿ خَسِرُواْ ﴾ وقول المؤمنين واقع في الدنيا أو يقال أي يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة ﴿ أَلآ إِنَّ الظالمين فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ دائم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ الله ﴾ من دون عذابه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ إلى النجاة ﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ ﴾ أي أجيبوه إلى ما دعاكم إليه ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله ﴾ "من" يتصل ب ﴿ لاَّ مَرَدَّ ﴾ أي لا يرده الله بعد ما حكم به ، أو ب ﴿ يَأْتِىَ ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده ﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي ليس لكم مخلص من العذاب ولا تقدرون أن

تنكروا شيئاً مما اقترفتموه ودوّن في صحائف أعمالكم ، والنكير الإنكار ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ عن الإيمان ﴿ فَمَآ أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ رقيباً ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ ما عليك إلا تبليغ الرسالة وقد فعلت ﴿ وَإِنَّآ إِذَا أَذَقْنَا الإنسان ﴾ المراد الجمع لا الواحد ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ نعمة وسعة وأمناً وصحة ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ بطر لأجلها ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء كالمرض والفقر ونحوهما .

وتوحيد فرح باعتبار اللفظ والجمع في ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ ﴾ باعتبار المعنى ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بسبب معاصيهم ﴿ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ ﴾ ولم يقل فإنه كفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال : ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] .

والكفور البليغ الكفران .

والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها .

قيل : أريد به كفران النعمة .

وقيل : أريد به الكفر بالله تعالى .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إناثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ أي يقرنهم ﴿ ذُكْرَاناً وإناثا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها ، أتبع ذلك أن له تعالى الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء ، فيخص بعضاً بالإناث ، وبعضاً بالذكور ، وبعضاً بالصنفين جميعاً ، ويجعل البعض عقيماً .

والعقيم التي لا تلد وكذلك رجل عقيم إذا كان لا يولد له .

وقدم الإناث أولاً على الذكور لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم واجب التقديم ، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء .

ولما أخر الذكور وهم أحقاء بالتقديم تدارك تأخيرهم بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرّف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر فقال ﴿ ذُكْرَاناً وإناثا ﴾ .

وقيل : نزلت في الأنبياء عليهم السلام حيث وهب للوط وشعيب إناثاً ، ولإبراهيم ذكوراً ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم ذكوراً وإناثاً ، وجعل يحيى وعيسى عليهما السلام عقيمين ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ قادر على كل شيء .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً ﴾ أي إلهاماً

كما روي "نفث في روعي" أو رؤيا في المنام كقوله عليه السلام " رؤيا الأنبياء وحي " وهو كأمر إبراهيم عليه السلام بذبح الولد ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ ﴾ حِجَابٍ أي يسمع كلاماً من الله كما سمع موسى عليه السلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه .

(184/688)

وليس المراد به حجاب الله تعالى لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب ولكن المراد به أن السامع محجوب عن الرؤية في الدنيا ﴿ أَوْيُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ أي يرسل ملكاً ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ أي الملك إليه .

وقيل : وحياً كما أوحي إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿ أَوْيُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ أي نبياً كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم .

و﴿ وَحْياً ﴾ و ﴿ أَنْ يُرْسِلَ ﴾ مصدران واقعان موقع الحال لأن ﴿ أَنْ يُرْسِلَ ﴾ في معنى إرسالاً و ﴿ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ ظرف واقع موقع الحال كقوله ﴿ وعلى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 191] .

والتقدير : وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلاً .

ويجوز أن يكون المعنى : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا بأن يوحي أو أن يسمع من وراء

حجاب أو أن يرسل رسولاً وهو اختيار الخليل ، ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ ﴾ بالرفع : نافع على تقدير أو هو يرسل ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ إذن الله ﴿ مَا يَشَآءُ ﴾ من الوحي ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ ﴾ قاهر فلا يمانع ﴿ حَكِيمٌ ﴾ مصيب في أقواله وأفعاله فلا يعارض .

﴿ وكذلك ﴾ أي كما أوحينا إلى الرسل قبلك أو كما وصفنا لك ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ إيحاء كذلك ﴿ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يريد ما أوحى إليه لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيا الجسد بالروح ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى ﴾ الجملة حال من الكاف في ﴿ إِلَيْكَ ﴾ .

﴿ مَا الكتاب ﴾ القرآن ﴿ وَلاَ الإيمان ﴾ أي شرائعه أو ولا الإيمان بالكتاب لأنه إذا كان لا يعلم بأن الكتاب ينزل عليه لم يكن عالماً بذلك الكتاب .

(185/688)

وقيل : الإيمان يتناول أشياء بعضها الطريق إليه العقل ، وبعضها الطريق إليه السمع ، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل وذاك بما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي الكتاب ﴿ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى ﴾ ﴿ لتدعو ﴾ وقرىء به ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الإسلام ﴿ صراط الله ﴾ بدل ﴿ الذى لَهُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض ﴾ ملكاً وملكاً ﴿ أَلآ إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ هو وعيد

بالجحيم ووعد بالنعيم والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 112.107 ﴾

(186/688)

وقال البيضاوى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الأرض ﴾

لتكبروا وأفسدوا فيها بطراً ، أو لبغى بعضهم على بعض استيلاء واستعلاء وهذا على الغالب ، وأصل البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى كمية أو كيفية .

﴿ ولكن يُنَزّلُ بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير . ﴿ مَا يَشَاء ﴾ كما اقتضته مشيئته . ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ يعلم خفايا أمرهم وجلايا حالهم فيقدر لهم ما يناسب شأنهم . روي أن أهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت . وقيل في العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعوا .

﴿ وَهُوَ الذى يُنَزّلُ الغيث ﴾ المطر الذي يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم "يُنَزّلُ" بالتشديد . ﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ أيسوا منه ، وقرىء بكسر النون . ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان . ﴿

وَهُوَالولى ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ونشر رحمته . ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد على ذلك .

﴿ وَمِنْ ءاياته خَلْقُ السموات والأرض ﴾ فإنها بذاتها وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم . ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ عطف على ﴿ السموات ﴾ أوال ﴿ خلقُ ﴾ . ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ من حي على إطلاق اسم المسبب على السبب ، أو مما يدب على الأرض وما يكون في أحد الشيئين يصدق أن فيها في الجملة . ﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ ﴾ أي في أي وقت يشاء . ﴿ قَدِيرٌ ﴾ متمكن منه و﴿ إِذَا ﴾ كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع .

﴿ وَمَا أصابكم مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ فبسبب معاصيكم ، والفاء لأن ﴿ مَا ﴾ شرطية أو متضمنة معناه ، ولم يذكرها نافع وابن عامر استغناء بما في الباء من معنى السببية . ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ من الذنوب فلا يعاقب عليها . والآية مخصوصة بالمجرمين ، فإن ما أصاب غيرهم فلأسباب أخر منها تعريضه للأجر العظيم بالصبر عليه .

(187/688)

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الأرض ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب. ﴿ وَمَا لَكُم مّن دُونِ الله مِن وَلِيّ ﴾ يحرصكم عنها. ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يدفعها عنكم.

﴿ وَمِنْ ءاياته الجوار ﴾ السفن الجارية. ﴿ فِى البحر كالأعلام ﴾ كالجبال. قالت الخنساء:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ به . . . كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح ﴾ وقرىء "الرياح". ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ ﴾ فيبقين ثوابت على ظهر البحر. ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ لكل من وكل همته وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكر في آلائه، أو لكل مؤمن كامل الإيمان فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ أو يهلكهن بإرسال الريح العاصفة المغرقة، والمراد إهلاك أهلها لقوله تعالى: ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ وأصله أو يرسلها فيوبقهن لأنه قسيم يسكن فاقتصر فيه على المقصود كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ إذ المعنى أو يرسلها فيوبق ناساً بذنوبهم وينج ناساً على العفو منهم، وقرىء "ويعفو" على الاستئناف.

﴿ وَيَعْلَمَ الذين يجادلون فِى ءاياتنا ﴾ عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾، أو على الجزاء ونصب نصب الواقع جواباً للأشياء الستة لأنه أيضاً غير واجب، وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئناف، وقرىء بالجزم عطفاً على ﴿ يعف ﴾ فيكون

المعنى ويجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير آخرين . ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ محيد من العذاب والجملة معلق عنها الفعل .

(188/688)

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَىْءٍ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ تمتعون به مدة حياتكم . ﴿ وَمَا عِندَ الله ﴾ من ثواب الآخرة . ﴿ خَيْرٌ وأبقى لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لخلوص نفعه ودوامه و﴿ مَا ﴾ الأولى موصولة تضمنت معنى الشرط من حيث أن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية . وعن علي رضي الله تعالى عنه : تصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه بماله كله فلامه جمع فنزلت .

﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ﴿ والذين ﴾ بما بعده عطف على ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أو مدح منصوب أو مرفوع ، وبناء ﴿ يَغْفِرُونَ ﴾ على ضميرهم خبراً للدلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة حال الغضب ، وقرأ حمزة والكسائي "كبير الإثم" .

﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فاستجابوا له . ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ ذو شورى بينهم لا

ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه ، وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم في الأمور ، وهي مصدر كالفتيا بمعنى التشاور . ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ في سبيل الله الخير . ﴿ والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغى هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ على ما جعله الله لهم كراهة التذلل ، وهو وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر أمهات الفضائل وهو لا يخالف وصفهم بالغفران ، فإنه ينبىء عن عجز المغفور والانتصار عن مقاومة الخصم ، والحلم عن العاجز محمود وعن المتغلب مذموم لأنه إجراء وإغراء على البغي ، ثم عقب وصفهم بالانتصار للمنع عن التعدي .

(189/688)

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ وسمى الثانية ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ للازدواج ، أو لأنها تسوء من تنزل به . ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ بينه وبين عدوه . ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ عدة مبهمة تدل على عظم الموعود . ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظالمين ﴾ المبتدئين بالسيئة والمتجاوزين في الانتقام .

﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ بعد ما ظلم ، وقد قرىء به . ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة .

﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس ﴾ يبتدؤنهم بالإضرار ويطلبون ما لا يستحقونه تجبراً عليهم . ﴿ وَيَبْغُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على ظلمهم وبغيهم .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ على الأذى . ﴿ وَغَفَرَ ﴾ ولم ينتصر . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ أي إن ذلك منه فحذف كما حذف في قولهم : السمن منوان بدرهم ، للعلم به .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِن وَلِىّ مّن بَعْدِهِ ﴾ من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله إياه . ﴿ وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ حين يرونه فذكر بلفظ الماضي تحقيقاً . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدّ مّن سَبِيلٍ ﴾ هل إلى رجعة إلى الدنيا .

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ على النار ، ويدل عليه ﴿ العذاب ﴾ . ﴿ خاشعين مِنَ الذل ﴾ متذللين متقاصرين مما يلحقهم من الذل . ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىّ ﴾ أيبتدىء نظرهم إلى النار مع تحريك لأجفانهم ضعيف كالمصبور ينظر إلى السيف . ﴿ وَقَالَ الذين ءَامَنُواْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالتعريض للعذاب المخلد . ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾ ظرف ل ﴿ خَسِرُواْ ﴾ والقول في الدنيا ، أو لقال أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحال . ﴿ أَلاَ إِنَّ الظالمين فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ تمام كلامهم أو تصديق من الله لهم .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ إلى الهدى أو النجاة.

﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ﴾ لا يرده الله بعد ما حكم به و ﴿ مِنْ ﴾ صلة ل ﴿ مَرَدَّ ﴾ . وقيل صلة ﴿ يَأْتِيَ ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم من الله لا يمكن رده. ﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ ﴾ مفر. ﴿ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون في صحائف أعمالكم تشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ رقيباً أو محاسباً. ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ وقد بلغت. ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ أراد بالإنسان الجنس لقوله: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ ﴾ بليغ الكفران ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويعظمها ولا يتأمل سببها، وهذا وإن اختص بالمجرمين جاز إسناده إلى الجنس لغلبتهم واندراجهم فيه. وتصدير الشرطية الأولى ب ﴿ إِذَا ﴾ والثانية ب ﴿ إِنَّ ﴾ لأن أذاقة النعمة محققة من حيث أنها عادة مقتضاة بالذات بخلاف إصابة البلية، وإقامة علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضع المضمر في الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة.

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ فله أن يقسم النعمة والبلية كيف يشاء. ﴿ يَخْلُقُ مَا

يَشَاءُ ﴾ من غير لزوم ومجال اعتراض . ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذكور ﴾ .

(191/688)

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ بدل من ﴿ يَخْلُقُ ﴾ بدل البعض ، والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى أو الصنفين جميعاً ويعقم آخرين ، ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل ، أو لأن مساق الآية للدلالة على أن الواقع ما يتعلق به مشيئة الله لا مشيئة الإنسان والإناث كذلك ، أو لأن الكلام في البلاء والعرب تعدهن بلاء ، أو لتطييب قلوب آبائهن أو للمحافظة على الفواصل ولذلك عرف الذكور ، أو لجبر التأخير وتغيير العاطف في الثلث لأنه قسيم المشترك بين القسمين ، ولم يحتج إليه الرابع لا فصاحة بأنه قسيم المشترك بين الأقسام المتقدمة . ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يفعل بحكمة واختيار .

(192/688)

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ وما صح له . ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً ﴾ كلاماً خفياً يدرك لأنه بسرعة تمثيل ليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة تتوقف على تموجات متعاقبة ، وهو ما يعم المشافه به كما روي في حديث المعراج ، وما وعد به في حديث الرؤية والمهتف به كما اتفق لموسى في طوى والطور ، ولكن عطف قوله : ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ عليه يخصه بالأول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها . وقيل المراد به الإلهام والإلقاء في الروع أو الوحي المنزل به الملك إلى الرسل فيكون المراد بقوله : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ أو يرسل إليه نبياً فيبلغ وحيه كما أمره ، وعلى الأول المراد بالرسول الملك الموحي إلى الرسل ، ووحياً بما عطف عليه منتصب بالمصدر لأن ﴿ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ صفة كلام محذوف والإرسال نوع من الكلام ، ويجوز أن يكون وحياً ويرسل مصدرين و ﴿ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ ظرفاً وقعت أحوالاً ، وقرأ نافع ﴿ أَوْ يُرْسِلَ ﴾ برفع اللام . ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ ﴾ عن صفات المخلوقين . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته فيكلم تارة بوسط ، وتارة بغير وسط إما عياناً وإما من وراء حجاب .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يعني ما أوحي إليه ، وسماه روحاً لأن القلوب تحيا به ، وقيل جبريل والمعنى أرسلناه إليك بالوحي . ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ﴾ أي قبل الوحي ، وهو دليل على أنه لم يكن متعبداً قبل النبوة بشرع . وقيل المراد هو الإيمان بما لا طريق إليه إلا السمع . ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي الروح أو الكتاب أو

الإيمان . ﴿ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ بالتوفيق للقبول والنظر فيه . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو الإسلام ، وقرىء " لَتَهْدِى " أي ليهديك الله .

(193/688)

﴿ صراط الله ﴾ بدل من الأول . ﴿ الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ خلقاً وملكاً . ﴿ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ بارتفاع الوسائط والتعلقات ، وفيه وعد ووعيد للمطيعين والمجرمين . عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 130.137 ﴾

(194/688)

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24)

التفسير : لما ذكر في أول السورة أن هذا القرآن إنما حصل بوحي الله وانجر الكلام إلى ههنا حكى شبهة القوم وهي زعمهم أنه مفترى وليس بوحي فقال ﴿ أم يقولون افترى ﴾ قال جار الله : " أم " منقطعة ، ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل : أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى أعظم أنواع الفرية وهو الافتراء على الله ، ثم أجابهم بقوله ﴿ فإن يشاء الله يختم على قلبك ﴾ أي يجعلك من المختوم على قلوبهم فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم . والغرض المبالغة في استبعاد الافتراء من مثله والتعريض بأن من ينسبه إلى الافتراء فهو مختوم على قلبه .

(195/688)

وقيل : لأنساك ما أتاك من القرآن ولكنه لم يشأ فأثبته فيه ، وقيل : لأماتك فإن قلب الميت كالمختوم عليه ومثله ﴿ لقطعنا منه الوتين ﴾ [الحاقة : 46] قاله قتادة . وقال مجاهد ومقاتل : يربط على قلبك بالصبر على أذاهم فلا يدخل قلبك حزن مما قالوه . ثم استأنف فقال ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ أي من عادته ذلك فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم مبطلاً لفضحه وكشف عن باطله ، وحذف الواو من الخط لا للجزم كما في قوله ﴿ ويدع الإنسان ﴾ [الإسراء : 11] ﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق : 18] وفي تفسير الجبائي أن الواو

حذف للجزم ، والمعنى إن افتريت ختم على قلبك ومحا الباطل المفترى ، فالاستئناف على هذا من قوله ﴿ ويحق الحق بكلماته ﴾ [يونس : 82] أي يثبت ما هو الحق في نفسه بوحيه أو بقضائه . ويجوز أن يكون وعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ويظهر الحق الذي أنت عليه وهو القرآن بحكمه السابق وبعلمه القديم ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ فيجازي المبطل والمحق على حسب حاليهما وحين وبخهم على البهت والتكذيب ندبهم إلى التوبة وعرفهم أنه يقبلها من كل مسيء والآية واضحة مما سلف تارات ولا سيما في أوائل البقرة في توبة آدم . أما الضمير في قوله ﴿ ويستجيب ﴾ فعائد إلى الله سبحانه وأصله ويستجيب لهم فحذف الجار ، والمراد أنه إذا دعوه استجاب لهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم تفضلاً . وقيل : لا ضمير فيه وإنما الظاهر بعده فاعله . قال سعيد بن جبير : أراد أن المؤمنين يجيبونه إذا دعاهم . وعن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قيل : ما بالنا ندعو فلا نجاب ؟ قال : لأنه دعاكم فلو تجيبوه وقرأ ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويستجيب الذين آمنوا ﴾ [يونس : 25] وحيث وعد الاستجابة للمؤمنين كان لسائل أن يقول : إنا نرى المؤمن في شدة وبلية وفقر ثم إنه يدعو الله فلا يشاهد أثر الإجابة فلا جرم قال ﴿ ولو بسط الله الرزق

لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي ظلم بعضهم بعضاً وعصوا الله . وهذه ليست بقضية كلية دائمة ولكنها أكثرية ، فإن المال معين قوي على تحصيل المطالب ودفع ما لا يلائم النفس ، وإذا كانت الآلة موجودة وداعية الشر في طبع الإنسان مجبولة فقلما لا يقع مقتضاه في الخارج وأيضاً إن أكثر الناس إنما يخدم مثله ويتسخره طمعاً في ماله أو جاهه التابع للمال غالباً ، فهو تساويا في المال استنكف كل منهما من الانقياد لصاحبه فارتفعت رابطة التعاون وانقطعت سلسلة التمدن ، وقيل : إن الآية نزلت في العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا وأغار بعضهم على بعض ولبعضهم شعر

قوم إذا نبت الربيع بأرضهم . . . نبتت عداوتهم مع البقل

وقال محمد بن جرير : نزلت في أصحاب الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى .

(197/688)

وقوله ﴿ بقدر ﴾ أي على قدر المصلحة ووفق حال الشخص كقوله ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ [الحجر : 21] وحي بين أن حكمته اقتضت عدم توسيع الرزق على كل الخلق أراد أن يبين أنه لا يترك ما يحتاجون إليه وإن بلغ أمرهم إلى حد اليأس والقنوط فقال

﴿ وهو الذي ينزل الغيث ﴾ الآية . ونشر الرحمة عموم المطر الأرض أو هي عامة في كل رحمة سوى المطر ﴿ وهو الولي ﴾ الذي يتولى أمور عباده ﴿ الحميد ﴾ على كل ما يفعله . ولا ريب أن هذه من جملة دلائل القدرة فلذلك عطف عليها قوله ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾ ومحل قوله ﴿ وما بث ﴾ إما مجرور عطفاً على السموات أو مرفوع عطفاً على خلق . وإنما قال ﴿ فيهما من دابة ﴾ مع أن الدواب في الأرض وحدها لأن الشيء قد ينسب إلى جميع المذكور وإن كان متلبساً ببعضه كما يقال : " بنو فلان فعلوا كذا " ولعله قد فعله واحد منهم فقط . ويجوز أن يكون للملائكة مع الطيران مشى فيتصفوا بالدبيب كالإنسان ، أو يكون في السموات أنواع أخر من الخلائق يدبون كما يدب الحيوان في الأرض . ﴿ وهو على جمعهم ﴾ أي إحيائهم بعد الموت ﴿ إذا يشاء قدير ﴾ وإذا يدخل على الماضي ومعنى الاستقبال في ﴿ يشاء ﴾ يعود إلى تعلق المشيئة لا إلى نفس المشيئة القديمة . ثم بين حال المكلفين وأن ما يصيبهم من ألم ومكروه وبلاء فهو عقوبة للمعاصي التي اكتسبوها ، وأن الله يعفو عن كثير من الذنوب أو الناس فلا يعاجلهم بالعقوبة رحمة أو استدراجاً . قال الحسن : أراد إقامة الحدود على المعاصي وأنه لم يجعل لبعض الذنوب حداً . وقيل : إن هذه في يوم القيامة فإن الدنيا دار تكليف لا دار جزاء . ولقائل أن يقول : كون الجزاء الأوفى على الإثم مخصوصاً بالقيامة لا ينافي وصول بعض الجزاء إلى المكلف في الدنيا ، ولهذا قال علي رضي الله عنه : هذه أرجى آية للمؤمنين في كتاب الله .

وذلك أنه تعالى قسم ذنوب المؤمنين صنفين : صنف يكفره عنهم بالمصائب ، وصنف يعفو وهو كريم لا يرجع في

(198/688)

عفوه ، نعم لو عكست القضية وقيل ما كسبت أيديكم فإنه يصيبكم به ألم وعذاب في الدنيا لكان هذا منافياً لكون الجزاء في الآخرة ولحصول العفو أيضاً . روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال : ما عفا الله عنه . فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة وما عاقب عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يعيد عليه العذاب في الآخرة . قال أهل التناسخ : لولا أن الأطفال والبهائم لهم حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة ما كانوا ليتألموا فإنهم لا ذنوب لهم الآن . وأجيب بالتزام أنهم لا يتألمون من المصائب والآلام وفيه بعد ، وبأن الخطاب في الآية لذوي العقول البالغين ، وبأنها في البالغين عقوبة أو زيادة درجة ، وفي الأطفال مثوبة لهم أو لوالديهم .

(199/688)

ثم خاطب المشركين بقوله ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ الآية ثم ذكر دليلاً آخر قائلاً ﴿ ومن آياته الجواري ﴾ أي السفن الجواري ﴿ في البحر كالأعلام ﴾ أي كالجبال في العظم . ولا شك أن جريانها بواسطة هبوب الرياح فلذلك قال ﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾ أي فيصرن واقفة على ظهر ماء البحر ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار ﴾ على البلاء ﴿ شكور ﴾ على الآلاء أو صبار في السفينة شكور إذا خرج منها ﴿ أو ﴾ أن يشأ ﴿ يوبقهن ﴾ أي يهلك السفينة بما فيها بالغرق أو الكسر لعصوف الريح وغيره ﴿ بما كسبوا ﴾ من كفران نعم الله وعصيانه ﴿ ويعف عن كثير ﴾ من الذنوب فلا يجازي عليها في الدنيا ولا في الآخرة . والحاصل أنه إن يشأ يسكن الريح فتبقى الجواري واقفة على متن البحر ، أو أن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم . من رفع ﴿ ويعلم ﴾ فعلى الاستئناف ، ومن نصب فللعطف على تعليل محذوف أي لينتقم منهم ويعلم قاله في الكشاف . وقال الكوفيون ومنهم الزجاج : النصب بإضمار " أن " لأن قبلها جزاء . تقول : ما تصنع أصنع وأكرمك . ووجهه أن هذا في تأويل المصدر المعطوف على مصدر أصنع مقدراً . ثم استأنف قوله ﴿ ما لهم من محيص ﴾ أي لا مهرب للمجادلين عن عقابه . ثم رغب المكلفين عن الدنيا وفي الدنيا وفي الآخرة وقد مر نظيره في القصص إلا أنه ذكر ههنا أن هذه الخيرية تحصل للموصوفين بصفات إحداها الإيمان ، والثانية التوكل على الرب ، والثالثة الاجتناب عن الكبائر والفواحش كقوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ [

النساء : 31] ﴿ إنما حرم ربي الفواحش ﴾ [الأعراف : 33] ومن قرأ ﴿ كبير ﴾ على التوحيد فللجنس ، وفسره ابن عباس بالشرك ، الرابعة الغفران عند الغضب " وهم " تأكيد للضمير أو مبتدأ ما بعده خبره . قال بعض العلماء : يحتمل أن يراد بالكبائر ما يتعلق بالبدع والعقائد الفاسدة وهي من فساد القوة العقلية ، وبالفواحش فساد القوة الشهوية ، وبالأخيرة ما يتعلق

(200/688)

بالقوة الغضبية . قال المفسرون : نزل قوله ﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ في الأنصار دعاهم الله ورسوله إلى التوحيد فأطاعوا ورضوا بقضائه وواظبوا على الصلوات الخمس ، وكانوا قبل الإسلام متشاورين في كل أمر دهمهم غير منفردين برأي ، والشورى مصدر كالفتيا ، والمضاف محذوف أي ذو التشاور . وليس بين قوله ﴿ هم ينتصرون ﴾ أي ينتقمون وبين قوله ﴿ يغفرون ﴾ منافاة ، فإن هذه أخص من الأولى إذ البغي هو الذي يؤدي إلى الفساد ولا يصير عفوه سبباً لتسكين ثائرة الفتنة ولرجوع الجاني عن جنايته ، ويجوز أن يتوجه المدح في الانتصار إلى كون المظلوم بحيث يراعي حد الشرع ولا يتجاوزه

حتى لو زاد عليه لم يكن منتصراً ولا يستحق المدح ، فهذه خمس صفات أخرى للراغبين في الدار الآخرة .

(201/688)

ثم بين أن شرعة الانتصار مشروطة برعاية المماثلة فقال ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ حتى لو قال أخزاه الله لا يزيد في الجواب عليه شيئاً . وسمى الثاني سيئة ازدواجاً للكلام أو لأن السيئة هي التي يكرهها الإنسان طبعاً كالقصاص والقطع وسائر الحدود . وقد لا يمكن رعاية المماثلة كما في قتل الأنفس بنفس واحدة أو كقطع الأيدي بواحدة إذا تعاونوا على قطعها ذلك في الفقه . وإنما عرف ذلك بنص آخر أو بقياس جلي . ثم حث مع ذلك على العفو والصبر قائلاً ﴿ فمن عفى وأصلح ﴾ ما بينه وبين خصمه بالاغضاء والعفو ﴿ فأجره على الله ﴾ فإن الانتصار حسن في نفسه ولا سيما إذا كان فيه مصلحة دينية كزجر وارتداع إلا أن العفو أحسن لأنه لا يكاد يؤمن في الانتصار والتجاوز عن حد الاعتدال ولهذا حذر منه بقوله ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له أجر على الله فليقم فيقوم خلق فيقال لهم : ما أجركم على الله ؟ فيقولون : نحن الذين عفونا عمن ظلمنا . فيقال لهم : ادخلوا الجنة

بإذن الله " ثم كرر أن الانتصار لا يؤاخذ به ولا سبيل للوم إليه لئلا يظن أن وعد الأجر على العفو يقتضي قبح الانتصار في نفسه فقال ﴿ ولمن انتصر ﴾ الآية . وقوله ﴿ بعد ظلمه ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول والباقي واضح إلى قوله ﴿ الأمور ﴾ وإنما أدخل اللام في الخبر خلاف ما في لقمان لأن الصبر على المكروه الذي هو ظلم أشد من الصبر على الذي ليس بظلم ، وتكرير الحث على الصبر لمزيد التأكيد أيضاً ، ثم ذكر أن الإضلال والهداية التي هي نقيضه إنما تتعلق بمشيئته . والمعتزلة يتأولون الإضلال بالخذلان أو بالإضلال عن طريق الجنة . ثم حكى أن الكفار عند معاينة عذاب النار يتمنون الرجعة إلى الدنيا ، ثم عقبه بذكر حالهم حين يعرضون على النار . الخشوع بمعنى الهوان ولهذا علق بقوله ﴿ من الذل ﴾ وقد يعلق ب ﴿ ينظرون ﴾ أي لهذا السبب يبتدىء نظرهم من تحريك

(202/688)

أجفانهم وهو ضعيف فإن الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ، وقد يفسر الطرف الخفي بمعنى البصيرة بناء على أن الكفار يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم والأكثرون أجابوا عنه فقالوا : لعلهم يكونون في الابتداء هكذا ثم يجعلون عمياً ، أو لعل هذا

في قوم وذاك في قوم . ثم حكى قول المؤمنين فيهم ﴿ ويوم القيامة ﴾ ظرف ﴿ لخسروا ﴾ كما في " الزمر " فيحتمل أن يكون قول المؤمنين فيه أو في الدنيا . وجوز في الكشاف أن يكون ظرفاً لقال . والنكير الإنكار أي ما لكم من مخلص ولا من قدرة أن تنكروا شيئاً مما دوّن في صحائف أعمالكم أو مالكم من ينكر علينا حتى يغير شيئاً من أحوالكم .

(203/688)

ثم سلى نبيه بقوله ﴿ فإن أعرضوا ﴾ ثم ذكر سبب إصرارهم على عقائدهم الفاسدة وهو الضعف الذي جبل عليه الإنسان من البطر عند الغنى ، والفراغ في زمن الصحة ، والأمن في زمن الكفران ، ونسيان نعم الله عند البلاء . وإنما جمع قوله ﴿ وإن تصبهم ﴾ لأن الإنسان جنس يشمل أهل الغفلة كلهم . وقوله ﴿ فإن الإنسان ﴾ من وضع الظاهر موضع الضمير وفائدته التسجيل على أن هذا الجنس من شأنه ذلك إلا إذا أدّب النفس وراضها . ثم بين كمال قدرته بقوله ﴿ لله ملك السموات والأرض ﴾ الآية . والمقصود أن الإنسان لا يغتر بما يملكه من الجاه والمال ولا يعتقد أنه حصل بجد أوجده فيعجب به ويعرض عن طاعة ربه . ثم ذكر من أقسام تصرفه في ملكه أنه يخص البعض من الحيوان بالأولاد الإناث ، والبعض بالذكور ، والبعض بالصنفين ، والبعض يجعله عديم الولد . وقدم

ذكر الإناث تطييباً لقلوب آبائهن أو لأنهن مكروهات عند العرب فناسب أن يقرن اللفظ الدال عليهن باللفظ الدال على البلاء . أو لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء الإنسان فكان ذكر الإناث التي هي من جملة ما لا يشاء الإنسان أهم . وفيه نقل الإنسان من الغم إلى الفرح . ولا ريب أن هذا أولى من العكس . وفيه أن الإنسان إذا رضي بالأنثى فإذا أعطاه الذكر علم أنه فضل من الله . وفيه أن العجز كلما كان أتم كانت عناية الله بحاله أوفر . ثم أراد أن يتدارك تأخيرهم وهم أحقاء بالتقديم فعرف الذكور لأنه مع رعاية الفاصلة تنويه وتشهير كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام . ثم قال ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ فأعطى كلا الجنسين حقه . ونصبهما على الحال ، والضمير للأولاد أو على المفعولية ، والضمير لمن يشاء أي يجمع لهم كلا الصنفين سواء كانا متساويين في العدد أم لا . وقيل : معناه أن تلد أولاً غلاماً ثم جارية ثم غلاماً ثم جارية وهكذا قاله مجاهد . وقيل أن تلد ذكراً وأنثى في بطن واحد قاله ابن الحنفية : وعن ابن عباس أن الآية نزلت في الأنبياء ،

(204/688)

وهب لشعيب ولوط أناثاً ، ولإبراهيم عليه السلام ذكوراً ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم ذكوراً وهم القاسم والطاهر وعبد الله وإبراهيم ، وإناثاً هن فاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم

، وجعل يحيى وعيسى عقيماً . والحق أن هذا التقسيم وإن كان مطابقاً لحال هؤلاء الأنبياء إلا أن في التخصيص ضيق عطن . وإن صحت الرواية عن ابن عباس فالعبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب ، وحمل بعض أهل التأويل الإناث على أمور الدنيا والذكور على أمور الآخرة ، وتزويج الصنفين على الجامع بين الأمرين ، والعقيم على من لا دين له ولا دنيا ثم أكد كمال القدرة بقوله ﴿ وما كان لبشر ﴾ أي وما صح لأحد ﴿ أن يكلمه الله إلا ﴾ على أحد ثلاثة أنحاء : الأول الوحي وهو الإلهام أو المنام كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده .

(205/688)

وعن مجاهد أن داود عليه السلام ألهمه الزبور فكتبه حفظاً . الثاني التكليم بلا واسطة ولكن من وراء حجاب . والمجسمة استدلوا به على أنه تعالى في جهة فإن الاحتجاب لا يصح إلا من ذي جهة ومكان ، وأجيب بأن هذا مثل لأنه إذا سمع الصوت ولا يرى الشخص كان بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب كما كلم موسى ويكلم الملائكة . وقيل : حجاب عن إدراك ذلك الكلام لا المتكلم . وقيل : حجاب لموضع الكلام . الثالث أن يرسل رسولاً كجبرائيل فيوحي الملك بإذن الله إلى النبي ما يشاؤه الله . والأقسام الثلاثة كلها من قبيل

الوحي ولكنه سبحانه جعل الوحي في الآية خاصاً بالأول ، وتقدير الكلام : وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلاً أو إلا وحياً أو إسماعاً أو إرسالاً ، أو إلا أن يوحى أو يسمع أو يرسل . ومن قرأ بالرفع فعلى الاستئناف بمعنى أو هو يرسل أو على الحال بمعنى مرسلاً عطفاً على ﴿ وحياً ﴾ بمعنى موحياً . وقيل : الوحي هو الوحي إلى الرسل بواسطة الملائكة ، وإرسال الرسل إرسال الأنبياء إلى الأمم ، فإن الصحيح عند أهل الحق أن الشيطان لا يقدر على إلقاء الباطل في أثناء الوحي . وقد يقال : إن توجيه التكليف إلى العبد لا يتم إلا بثلاث مراتب من المعجزات ، وذلك أن التسلسل محال فلا بد من سماع الملك كلام الله بلا واسطة . فالملك يحتاج إلى معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله ، وإذا بلغ الملك ذلك الكلام إلى النبي فلا بد للنبي من مشاهدة معجزة تدل على صدقه ، وإذا بلغ الرسول لأمته فالأمر كذلك . وهذا الثالث مشهور متفق عليه ، وأما الأولان فعلهما يعرفان بنور الباطن ولا يفتقر إلى المعجزة لا في أول الأمر ولا كل مرة . قال أهل التصديق : إن الأقسام الثلاثة اجتمعت لنبينا صلى الله عليه وسلم ، لأنه في بدء الإسلام كان يرى الرؤيا الصادقة كفلق الصبح ، وسمع الكلام من وراء الحجاب ليلة المعراج ، وكان يأتيه جبرائيل إلى آخر عمره فلهذا قال عز من

قائل ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ ويحتمل أن يراد كما أوحينا إلى سائر الأنبياء أوحينا إليك يعني بالطريق الأكثري وهو القسم الثالث . ومعنى ﴿ روحاً من أمرنا ﴾ قرآنا من عندنا أو من عالم أمرنا كقوله ﴿ يلقى الروح من أمره ﴾ ﴿ غافر : 15] و ﴿ ما كنت تدري ﴾ في المهد أو قبل البلوغ أو قبل الوحي ﴿ ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ يعني ما يتعلق بكمال الإيمان مما لا يكفي في معرفته مجرد العقل والنظر ويتوقف على النقل وإذن الشرع . وقيل : أراد أهل الإيمان يعني من الذي يؤمن ومن الذي لا يؤمن والضمير في ﴿ جعلناه ﴾ للقرآن أو الإيمان أو لهما جميعاً . ووحد كقوله ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ [الجمعة : 11] وهداية الله خاصة . وهداية النبي عامة وهي الدعوة ، وصراط الله دينه ، ومصير الكل إليه عبارة عن رجوعهم إلى حيث لا حكم لأحد سواه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 83.76 ﴾

(207/688)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما قال تعالى إنه يجيب دعاء المؤمنين ورد سؤال وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلية

وفقر ثم يدعو فلا يظهر أثر الإجابة فكيف الجمع بينه وبين قوله تعالى ﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ فأجاب تعالى عنه بقوله تعالى :

﴿ ولو ﴾ أي : وهو يقبل ويستجيب والحال أنه لو ﴿ بسط الرزق ﴾ لهم هكذا كان الأصل لكن قال : ﴿ لعباده ﴾ لئلا يظن خصوصية ذلك بالتائبين إذ لا فرق بين التائب وغيره ﴿ لبغوا ﴾ أي : طغوا ﴿ في الأرض ﴾ أي : لصاروا يريدون كل ما يشتهون فيكثر القتل والسلب والنهب ونحو ذلك من أنواع الفساد ، قال خباب بن الأرت : فينا نزلت هذه الآية وذلك إنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع وتمنيناها فنزلت ، وذكر في كون بسط الرزق موجباً للطغيان وجوه : الأول : أن الله تعالى لو سوى في الرزق بين الكل امتنع كون البعض محتاجاً إلى البعض وذلك موجب خراب العالم وتعطيل المصالح ، ثانيها : أن هذه الآية مختصة بالعرب فإنه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم ومن الكلأ ومن العشب ما يشبعهم قدموا على النهب والغارة ، ثالثها : أن الإنسان متكبر بالطبع فإن وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر وعاد إلى التواضع والطاعة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس" ﴿ ولكن ينزل ﴾ أي : لعباده من الرزق ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بسكون النون وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ﴿ بقدر ﴾ أي : بتقدير لهم ﴿ ما يشاء ﴾ أي : ما اقتضته مشيأته

﴿ أنه ﴾ وقال تعالى : ﴿ بعباده ﴾ ولم يقل بهم لئلا يظن أن الأمر خاص بمن وسع عليهم أو ضيق عليهم ﴿ خبير بصير ﴾ يعلم جميع ظواهر أمورهم وبواطنها فيقيم كل أحد فيما يصلح له من صلاح وفساد وعدل وبغي .

(208/688)

روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل في حديث طويل وفيه يقول الله عز وجل : "ما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه" ، و"أن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك ، وذلك أني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير" . وقرأ ما يشاء أنه نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء ولهم أيضاً إبدالها واو أو الباقون بتحقيقهما وإذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفاً مع المد والقصر والروم والإشمام .

﴿ وهو ﴾ أي : لا غيره ﴿ الذي ينزل الغيث ﴾ أي : المطر الذي يغاث به الناس وقرأ نافع

وابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وتشديد الزاي والباقون بسكون النون وتخفيف الزاي ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾ أي : يئسوا من نزوله وعلموا أنه لا يقدر على إنزاله غيره ولا يقصد فيه سواء ليكون ذلك أدعى لهم إلى الشكر وقال تعالى : ﴿ وينشر رحمته ﴾ أي : يبسط مطره كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ (الأعراف :)

(209/688)

وإن كان الأصل بنشره لأنه بين أنه غيث فقال رحمته بياناً وتعميماً ، فينزل من السحاب المحمول بالريح من الماء ما لو اجتمع عليه الخلائق ما أطاقوا عمله ، فتصبح الأرض ما بين غدران وأنهار ونبات نجم وأشجار وزهر وحب وثمار وغير ذلك من المنافع الصغار والكبار فلله ما أعلى هذه القدرة الباهرة والآية الظاهرة ، فيخرج من الأرض التي هي من صلابتها تعجز عنها المعاول نجماً هو في لينه ألين من الحرير وفي لطافته ألطف من النسيم ومن سوق الأشجار التي تنثني فيها المناقير أغصاناً ألطف من ألسنة العصافير ، فما أجلف من ينكر إخراجه الموتى من القبور أو يحيد عن ذلك بنوع من الغرور ﴿ وهو ﴾ أي : لا غيره ﴿ الولي ﴾ الذي لا أحد أقرب منه إلى عباده في شيء من الأشياء ﴿ الحميد ﴾

الذي يستحق مجامع الحمد مع أنه يحمد من يطيعه فيزيده من فضله ويصل حبله دائماً بحبله .

﴿ ومن آياته ﴾ أي : العظيمة على استحقاقه لجميع صفات الكمال ﴿ خلق السموات ﴾ التي تعلمون أنها متعددة لما ترون من أمور الكواكب ﴿ والأرض ﴾ أي : جنسها على ما هما عليه من الهيآت وما اشتملا عليه من المنافع والخيرات وقوله تعالى : ﴿ وما بث ﴾ أي : فرق ونشر يجوز أن يكون مجرور المحل عطفاً على السموات أو مرفوعه عطفاً على خلق على حذف مضاف ، أي : وخلق ما بث ، قال أبو حيان : وفيه نظر لأنه يؤول إلى جره بالإضافة لخلق المقدر فلا يعدل عنه ﴿ فيهما ﴾ أي : في السموات والأرض ﴿ من دابة ﴾ أي : شيء فيه أهلية الدبيب بالحياة والحركة من الأنس والجن والملائكة وسائر الحيوانات على اختلاف ألوانهم وأصنافهم وأشكالهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وأقطارهم ونواحيهم ، فإن قيل : كيف يجوز إطلاق الدابة على الملائكة ؟

(210/688)

أجيب : بوجوه أولها : ما مر من أن الدابة عبارة عما فيه الروح والحركة والملائكة لهم الروح والحركة ، ثانيها : أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة وإن كان فاعله واحداً منهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (الرحمن :)

ثالثها : قال ابن عادل : لا يبعد أن يقال : إنه تعالى خلق في السموات أنواعاً من الحيوانات يمشون مشي الأناسي على الأرض .

وروى العباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "بين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش" الحديث . ﴿ وهو ﴾ أي : لا غيره ﴿ على جمعهم ﴾ أي : هذه الدواب من ذوي العقول وغيرهم للمحشر بعد تفريقهم بالقلوب والأبدان بالموت وغيره ﴿ إذا ﴾ في وقت ﴿ يشاء قدير ﴾ أي : بالغ القدرة كما كان بالغ القدرة عند الإيجاد من العدم يجمعهم في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ثم خاطب المؤمنين بقوله تعالى:

﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾ أي : بلية وشدة ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ أي : من الذنوب ، وقرأ نافع وابن عامر بغير فاء والباقون بالفاء لأن ما شرطية أو مضمنة معناه وأما من أسقطها فقد استغنى بما في الباء من معنى السببية ، فإن قيل : الكسب لا يكون باليد بل بالقدرة القائمة بها ؟

أجيب : بأن المراد من لفظ اليد هنا القدرة وإذا كان هذا المجاز مشهوراً مستعملاً كان لفظ اليد في حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيهاً لله تبارك وتعالى عن الأعضاء ،

واختلفوا فيما يحصل في الدنيا من الآلام والأسقام والقحط والغرق والمصائب هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أولاً ، فمنهم من أنكر ذلك لوجوه أولها قوله تعالى : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ (غافر :)

بين تعالى أن ذلك إنما يحصل يوم القيامة وقال تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ (الفاتحة :)

(211/688)

أي : يوم الجزاء وأجمعوا أن المراد منه يوم القيامة ثانيها : مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق فيمتنع أن تكون عقوبة على الذنوب بل حصول المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ولهذا قال صلى الله عليه وسلم "خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل" . ثالثها : أن الدنيا دار تكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار تكليف ودار جزاء معاً وهو محال ، وقال آخرون : هذه المصائب قد تكون أجزية على ذنوب متقدمة لهذه الآية ، ولما روى الحسن قال : لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله أكثر" .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : "ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أصابكم من مصيبة الآية ، قال صلى الله عليه وسلم وسأفسرها لك يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله سبحانه وتعالى اكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فإنه أحلم من أن يعود بعد عفوه" وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى : بعد هذه الآية ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ وذلك تصريح بأن ذلك الإهلاك بسبب كسبهم .

(212/688)

قيل لأبي سليمان الداراني : ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ قال : إنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم وقرأ هذه الآية . وأجاب الأولون بأن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان في التكليف لا من باب العقوبة كما في حق الأنبياء والأولياء بل ذلك لزيادة درجات وفضائل وخصوصيات لا يصلون إليها إلا بها لأن أعمالهم لم تبلغها فهي خير من الله تعالى لهم ، ويحمل قوله تعالى : ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ على أن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ أي : من الذنوب بفضله ورحمته فلا يعاقب عليها ولولا عفوه وتجاوزه ما ترك على ظهرها من

دابة قال الواحدي بعد أن روى حديث علي : وهذه أرجى آية في كتاب الله تعالى لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين ؛ صنف : كفر عنهم بالمصائب ، وصنف : عفا عنهم في الدنيا وهو كريم لا يرجع في عفوه ، فهذه سنة الله تعالى مع المؤمنين وأما الكافر : فإنه لا تعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة .

﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي : فائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿ في الأرض وما لكم من دون الله ﴾ ولا في شيء أراده سبحانه منكم كائناً ما كان ﴿ من ولي ﴾ أي : يكون متولياً لشيء من أموركم بالاستقلال ﴿ ولا نصير ﴾ يدفع عنكم شيئاً يريده سبحانه بكم .

﴿ ومن آياته ﴾ أي : الدالة على تمام قدرته واختياره ووحدانيته ﴿ الجواري ﴾ أي : السفن الجارية ﴿ في البحر كالأعلام ﴾ أي : كالجبال قالت الخنساء في مرثية أخيها صخر :

*وإن صخراً لتأتم الهداة به** كأنه علم في رأسه نار*

أي : جبل في رأسه نار شبهت به أخاها . روي أن النبي صلى الله عليه وسلم "استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوي هذا البيت قال : قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت في رأسه ناراً" . وقال مجاهد : الأعلام القصور وأحدها علم ، وقال الخليل بن أحمد : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم .

فإن قيل : الصفة متى لم تكن خاصة بموصوفها امتنع حذف الموصوف فلا تقول : مررت بماش لأن المشي عام وتقول : مررت بمهندس وكاتب والجري ليس من الصفات الخاصة فما وجه ذلك ؟

أجيب : بأن قوله تعالى : ﴿ في البحر ﴾ قرينة دالة على الموصوف ، فذلك حذف ويجوز أن تكون هذه صفة غالبة كالأبطح والأبرق فوليت العوامل من دون موصوفها ، وقرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء وصلاً لا وقفاً ، وابن كثير وهشام بإثباتها وقفاً بخلاف عن هشام الباقون بحذفها وقفاً ووصلاً وأمال الجواري محضة الدوري عن الكسائي وفتح الباقون . ﴿ أن يشأ ﴾ أي : الله الذي حملكم فيها على ظهر الماء آية بينة سقط اعتبارها عندكم لشدة ألفكم لها ﴿ يسكن الريح ﴾ الذي يسيرها وأنتم مقرون بأن أمرها ليس إلا بيده ، وقرأ نافع بألف بعد الياء جمعاً والباقون بغير ألف إفراداً ﴿ فيظللن ﴾ أي : فيتسبب عن ذلك أنهن يظللن أي : يقمن ليلاً كان أو نهاراً ﴿ رواكد ﴾ أي : ثوابت لا تجري ﴿ على ظهره ﴾ أي : البحر ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : ما ذكر في حال السفن في سيرها وركوبها بما لا يقدر عليه إلا الله تعالى بدليل ما للناس كافة من الإجماع على التوجه في ذلك إليه خاصة والانخلاع مما سواه ﴿ لآيات ﴾ أي : على إحاطته سبحانه بجميع صفات الكمال ﴿ لكل صبارٍ ﴾ أي : على البلاء والشدة ﴿ شكور ﴾ أي : على نعمائه وهو المؤمن الكامل

يصبر في الشدة ويشكر في الرخاء فإن الإيمان نصفان ؛ نصف : صبر ، ونصف : شكر . ﴿ أو ﴾ أي : أو يشأ في كل وقت أراده ﴿ يوبقهن ﴾ أي : يهلكهن بعصف الريح بأهلهن ﴿ بما كسبوا ﴾ أي : أهلهن من الذنوب ﴿ ويعفو ﴾ أي : إن يشأ ﴿ عن كثير ﴾ من ذنوبهم فلا يعاقب فينجيهم بعوم أو حمل على خشبة أو غير ذلك ، وإن يشأ يرسل الريح طيبة فينجيها ويبلغها أقصى المراد إلى غير ذلك من التقادير الداخلة تحت المشيئة وقوله تعالى:

(214/688)

﴿ ويعلم ﴾ قرأه نافع وابن عامر برفع الميم مستأنفاً والباقون بالنصب معطوف على تعليل مقدر أي : ليغرقهم لينتقم منهم وليعلم ﴿ الذين يجادلون ﴾ أي : عند النجاة بالعفو ﴿ في آياتنا ﴾ أي : يكذبون القرآن ، أي : علم ظهور للناس ﴿ ما لهم من محيص ﴾ أي : مهرب من العذاب وجملة النفي سدت مسد مفعولي يعلم أو النفي معلق عن العمل ، وقوله تعالى: ﴿ فما أوتيتم ﴾ خطاب للمؤمنين وغيرهم ﴿ من شيء ﴾ أي : من أثاث الدنيا ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي : القريبة الدنية لا نفع فيه لأحد إلا مدة حياته وذلك جدير بالإعراض عنه وعما يسببه من الأعمال إلا ما يقرب إلى الله تعالى ﴿ وما ﴾ أي : والذي ﴿ عند

الله ﴾ أي : الملك الأعظم المحيط بكل شيء قدرة وعلماً من نعم الدارين ﴿ خير ﴾ أي : في نفسه وأشد خيرية من النعم الدنيوية المحضة لانقطاع نفعه فسماه متاعاً تنبيها على قلته وحقارته ، وجعله من متاع الدنيا تنبيهاً على انقراضه وأما الآخرة فهي خير ﴿ وأبقى ﴾ والباقي خير من الخسيس الفاني .

ثم بين تعالى أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات الصفة الأولى قوله سبحانه وتعالى ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : أوجدوا هذه الحقيقة ﴿ وعلى ﴾ أي : والحال إنهم على ﴿ ربهم ﴾ أي : الذي لم يروا إحساناً قط إلا منه وحده بما رباهم من الإخلاص ﴿ يتوكلون ﴾ أي : يحملون جميع أمورهم عليه كما يحمل غيرهم متاعه على من يتوسم منه قوة على الحمل ولا يلتفتون في ذلك إلى شيء غيره أصلاً لينتفي عنهم بذلك الشرك الخفي كما انتفى بالإيمان الشرك الجلي وهذا يرد على من زعم أن الطاعة توجب الثواب لأنه يتوكل على عمل نفسه لا على الله تعالى فلا يدخل تحت الآية الصفة الثانية قوله عز وجل:

(215/688)

﴿ والذين يجتنبون ﴾ أي : يكلفون أنفسهم أن يجانبوا ﴿ كبائر الإثم ﴾ أي : جنس الفعال الكبائر التي لا توجد إلا في ضمن أفرادها ويحصل بها دنس النفس فيوجب عقابها مع

الجسم وعطف على كبائر قوله تعالى : ﴿ والفواحش ﴾ وهي ما أنكره الشرع والعقل والطبع ، والكبائر كل ذنب تعظم عقوبته كالقتل والزنا والسرقة والفواحش ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال ، وقال مقاتل : ما يوجب الحد وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة النساء ، وقرأ حمزة والكسائي : بكسر الباء الموحدة قبل الياء الساكنة وهي للجنس فهي بمعنى قراءة الجمع ، كما قرأ الباقون بفتح الموحدة وألف بعدها وبعد الألف همزة مكسورة والأولى أبلغ لشمولها المفردة ، الصفة الثالثة : قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذا ما غضبوا ﴾ أي : غضباً هو على حقيقته من أمر مغضب في العادة وبين بضمير الفصل أن بواطنهم في غفرهم كظواهرهم فقال تعالى : ﴿ هم يغفرون ﴾ أي : هم الأخصاء والأحقاء بأنهم كلما تجدد لهم غضب جددوا غفراً أي : محواً للذنوب عيناً وأثراً مع القدرة على الانتقام فسجاياهم تقتضي الصفح دون الانتقام ما لم يكن من الظالم بغي لأنه لا يؤاخذ على مجرد الغضب إلا متكبر والتكبر لا يصلح لغير الإله ، وفي الصحيح : "أنه صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله تعالى" . وروى ابن حاتم عن إبراهيم النخعي قال : "كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا إذا قدروا غفروا" ، الصفة الرابعة : قوله تعالى: ﴿ والذين استجابوا ﴾ أي : أوجدوا الإجابة لما لهم من العلم الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿ لربهم ﴾ أي : الداعي لهم إلى إجابة إحسانه إليهم ، قال الرازي : المراد من هذا تمام

الانقياد ، فإن قيل : أليس أنه لما جعل الإيمان فيه شرطاً قد دخل في الإيمان إجابة الله تعالى ؟

(216/688)

أجيب : بأنه يحمل هذا على الرضا بقضاء الله تعالى من صميم القلب وأن لا يكون في قلبه منازعة ، الصفة الخامسة : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأقاموا ﴾ أي : أداموا ﴿ الصلاة ﴾ الواجبة ﴿ وأمرهم ﴾ أي : كل ما ينوبهم مما يحوجهم إلى تدبير ﴿ شورى بينهم ﴾ أي : يتشاورون فيه مشاورة عظيمة مبالغين بما لهم من قوة الباطن ولا يعجلون في أمورهم والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ، الصفة السادسة ، قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ﴾ أي : أعطيناهم بعظمتنا من غير حول منهم ولا قوة ﴿ ينفقون ﴾ أي : يديمون الإنفاق في سبيل الله تعالى كرماً منهم ، وإن قل ما بأيديهم اعتماداً على فضل الله تعالى لا يقبضون أيديهم كالمنافقين .

﴿ والذين إذا أصابهم البغي ﴾ أي : وقع بهم وأثر فيهم وهو التمادي على الرمي بالشر ﴿ هم ينتصرون ﴾ أي : ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه ، كما قال تعالى:

(217/688)

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ سميت الثانية سيئة لمشابهتها للأولى في الصورة قال مقاتل : يعني القصاص وهي الجراحات والدماء ، وقال مجاهد والسدي : هو جواب القبيح إذا قال : أخزاك الله يقول : أخزاك الله وإذا شتمك فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدي ، قال سفيان بن عيينة : سألت سفيان الثوري عن ذلك فقال : إن شتمك رجل فتشتمه أو يفعل كذا فتفعل به فلم أجد عنده شيئاً ، فسأل هشام بن حجر عن ذلك فقال : الجارح إذا جرح يقتص منه وليس هو أن يشتمك وتشتمه وقد تكفلت هذه الجمل بأمهات الفضائل الثلاث ، العلم والعفة والشجاعة على أحسن الوجوه ، فالمدح بالاستجابة والصلاة دعاء إلى العلم وبالنفقة إلى العفة وبالانتصار إلى الشجاعة حتى لا يظن أن إذعانهم لما مضى مجرد ذل ، والقصر على المماثلة دعاء إلى فضيلة التقسيط بين الكل وهي العدل ، وهذه الأخيرة كافلة بالفضائل الثلاث فإن من علم المماثلة كان عالماً ، ومن قصد الوقوف عندها كان عفيفاً ومن قسر نفسه على ذلك كان شجاعاً وقد ظهر من المدح بالانتصار بعد المدح بالغفران أن الأول : للعاجز ، والثاني : للمتغلب المتكبر بدليل البغي ، فإن قيل : هذه الآية مشكلة لوجهين ؛ الأول : أنه لما ذكر قبله ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ ، كيف يليق أن يذكر معه ما يجري مجرى الضد له وهو ﴿ الذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ ، الثاني : أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن ، قال تعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ (البقرة :

)

وقال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ (الفرقان :)

وقال تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ (الأعراف :)

(218/688)

أجيب : بأن العفو على قسمين ؛ أحدهما : أن يصير العفو سبباً لتسكين الفتنة ورجوع الجاني عن جنايته ، والثاني : أن يصير العفو سبباً لمزيد جراءة الجاني وقوة غيظه وغضبه ، فآيات العفو محمولة على القسم الأول وهذه الآية محمولة على القسم الثاني ، وحينئذ يزول التناقض روي : "أن زينب أقبلت على عائشة تشتمها فنهاها النبي صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم سبيها" . وأيضاً فإنه تعالى لم يرغِّب ففي الانتصار بل بين أنه مشروع فقط ، ثم بين أن مشروعيته مشروطة برعاية المماثلة بقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ ثم بين أن العفو أولى بقوله تعالى : ﴿ فمن عفا ﴾ أي : بإسقاط حقه كله أو بالنقص منه لتحقق البراءة مما حرم من المجاوزة ﴿ وأصلح ﴾ أي : أوقع الإصلاح بين الناس بالعفو والإصلاح لنفسه ليصلح الله ما بينه وبين الناس فيكون بذلك منتصراً من نفسه لنفسه ﴿ فأجره على الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال

فهو يعطيه على حسب ما يقتضيه مفهوم هذا الاسم الأعظم ، وهذا سر لفت الكلام إليه عن مظهر العظمة وقوله صلى الله عليه وسلم "ما زاد الله بعفو إلا عزاً" ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ أي : لا يكرم الواضعين للشيء في غير محله فيترتب عليهم عقابه .

(219/688)

﴿ ولمن انتصر ﴾ أي : سعى في نصر نفسه بجهده ﴿ بعد ظلمه ﴾ أي : بعد ظلم الغير له وليس قاصداً التعدي عن حقه ولو استغرق انتصاره جميع زمان التعدي ﴿ فأولئك ﴾ أي : المنتصرون لأجل دفع الظالم عنهم ﴿ ما عليهم ﴾ وأكد بإثبات الجار فقال تعالى : ﴿ من سبيل ﴾ أي : عتاب ولا عقاب لأنهم فعلوا ما أبيح لهم من الانتصار روى النسائي عن عائشة قالت : "ما علمت حتى دخلت على زينب وهي غضبى ، فأقبلت علي فأعرضت عنها حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم دونك فانتصري ، فأقبلت عليها حين رأيتها قد يبس ريقها في فمها ما ترد علي شيئاً ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه" . واحتجوا بهذه الآية على أن سراية القود مهدرة لأنه فعل مأذون فيه فيدخل تحت هذه الآية .

﴿ إنما السبيل ﴾ أي : الطريق السالك الذي لا منع منه أصلاً ﴿ على الذين يظلمون

الناس ﴾ أي : يوقعون بهم ظلمهم تعمداً عدواناً ﴿ ويبغون ﴾ أي : يتجاوزون الحدود ﴿ في الأرض ﴾ بما يفسدها بعد إصلاحها بتهيئتها للصلاح طبعاً وعلماً وعملاً ﴿ بغير الحق ﴾ أي : الكامل لأن الفعل قد يكون بغياً وإن كانت مصحوباً بحق كالانتصار المقرون بالتعدي فيه ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء من الله تعالى ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم يعم إيلامه أبدانهم وأرواحهم بما آلموا من ظلموه .

﴿ ولمن صبر ﴾ أي : عن الانتصار من غير انتقام ولا شكوى ﴿ وغفر ﴾ أي : صرح بإسقاط العقاب والعتاب بمحي عين الذنب وأثره ﴿ فإن ذلك ﴾ أي : الفعل الواقع منه البالغ في العلو حداً لا يوصف ﴿ لمن عزم الأمور ﴾ أي : معزوماتها بمعنى المطلوبات شرعاً . روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "ما من عبد ظلم مظلمة فعفا لله إلا أعزه الله تعالى بها نصراً" .

(220/688)

﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال بأن لم يوفقه ﴿ فما له من ولي ﴾ أي : يتولى أمره في الهداية بالبيان لما أخفاه الله تعالى عنه ﴿ من بعده ﴾ أي : بعد إضلال الله تعالى له ، وهذا صريح في جواز أن الإضلال من الله تعالى وأن الهداية ليست في مقدر أحد

سوى الله تعالى وقال تعالى : ﴿ وترى الظالمين ﴾ موضع وتراهم لبيان أن الضال لا يضع شيئاً في موضعه .

ولما كان عذابهم حتماً عبر عنه بالماضي فقال : ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي : يوم القيامة المعلوم مصير الظالم إليه ﴿ يقولون ﴾ أي : مكررين لما اعتراهم من الدهش وغلب على قلوبهم من الوجل ﴿ هل إلى مرد ﴾ أي : إلى دار العمل ﴿ من سبيل ﴾ أي : طريق فيتمنون حينئذ الرجوع إلى الدنيا لتدارك ما فات من الطاعات الموجبة للنجاة .

﴿ وتراهم ﴾ أي : في ذلك اليوم والضمير في قوله تعالى : ﴿ يعرضون عليها ﴾ يعود على النار لدلالة العذاب عليها . ثم ذكر حالهم عند عرضهم على النار بقوله تعالى :

﴿ خاشعين ﴾ أي : خاضعين حقيرين بسبب ما لحقهم ﴿ من الذل ﴾ لأنهم عرفوا إذ ذاك ذنوبهم وانكشفت لهم عظمة من عصوه ﴿ ينظرون ﴾ أي : يبتدئ نظرهم المكرر ﴿ من طرف ﴾ أي : تحريك الأجفان ﴿ خفي ﴾ أي : ضعيف النظر يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلة في أنفسهم كما ينظر المقتول إلى السيف فلا يقدر (أن) يملأ عينه منه ولا يفتح عينه إنما ينظر ببعضها ، ويصح أن تكون من بمعنى الباء أي : بطرف خفي ضعيف من الذل ، فإن قيل : قد قال الله تعالى في صفة الكفار أنهم يحشرون عمياً فكيف قال تعالى هنا : ﴿ إنهم ينظرون من طرف خفي ﴾ ؟

أجيب : بأنهم يكونون في الابتداء هكذا ثم يصيرون عمياً أو أن هذا في قوم وذاك في قوم آخرين ، وقيل : ينظرون إلى النار بقلوبهم والنظر بالقلب خفي .

(221/688)

ولما وصف تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال تعالى : ﴿ وقال ﴾ أي : في ذلك الموقف الأعظم على سبيل التعيير لهم والتبكيت والتوبيخ والتقريع ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : أوقعوا هذه الحقيقة سواء كان إيقاعهم لها في أدنى الرتب أو أعلاها ﴿ إن الخاسرين ﴾ أي : الذين كملت خسارتهم ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ بما استغرقها من العذاب ﴿ وأهليهم ﴾ بمفارقتهم لهم ، أما في إطباق العذاب إن كانوا مثلهم في الخسران أو في دار الثواب إن كانوا من أهل الإيمان ﴿ يوم القيامة ﴾ أي : هو يوم فوت التدارك لأنه للجزاء لا للعمل لفوات شرطه بفوات الإيمان بالغيب لانكشاف الغطاء ، وهذا القول يحتمل أن يكون واقعاً في الدنيا أو يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة وقوله تعالى : ﴿ ألا إن الظالمين ﴾ أي : الراسخين في هذا الوصف ﴿ في عذاب مقيم ﴾ أي : دائم يحتمل أن يكون من تمام كلام المؤمنين وأن يكون تصديقاً من الله تعالى لهم .

﴿ وما كان ﴾ أي : ما صح ووجد ﴿ لهم ﴾ وأغرق في النفي فقال تعالى : ﴿ من

أولياء ﴾ أي : فما لهم من ولي لأن النصرة إذا انتفت من الجمع انتفت من الواحد من باب أولى ﴿ ينصرونهم ﴾ أي : يوجدون نصرهم في وقت من الأوقات ﴿ من دون الله ﴾ أي : الملك الأعظم ، أي : لا في الدنيا بأن يقدروا على إنقاذهم من وصف الظلم ولا في الآخرة بإنقاذهم من العذاب ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي : يوجد إضلاله إيجاداً بليغاً بما أفاده الفك على سبيل الاستمرار بعدم البيان أو بعدم التوفيق بعد البيان ﴿ فما له ﴾ بسبب إضلال من له جميع صفات الكمال وأغرق تعالى في النفي بقوله سبحانه : ﴿ من سبيل ﴾ أي : طريق إلى الحق في الدنيا وإلى الجنة في الآخرة .

ولما ذكر تعالى الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود فقال تعالى:

(222/688)

﴿ استجيبوا لربكم ﴾ أي : أجيبوه بالتوحيد والعبادة فإنه الذي لم تروا إحساناً إلا وهو منه ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لا مرد له من الله ﴾ أي : الذي له جميع العظمة فإنه إذا أتى به لا يرده وإذا لم يكن له مرد منه لم يكن له مرد من غيره ومتى عدم ذلك أنتج قوله تعالى : ﴿ ما لكم ﴾ وأغرق في النفي بقوله تعالى : ﴿ من ملجأ ﴾ أي : تلجؤون إليه ﴿ يومئذ ﴾ أي : في ذلك اليوم وزاد في التأكيد بإعادة النافي وما في حيزه إبلاغاً في

التحذير فقال تعالى : ﴿ وما لكم من نكير ﴾ أي : إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون في صحائفكم تشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم .

(223/688)

﴿ فإن أعرضوا ﴾ أي : عن الإجابة فيما دعوتهم إليه ﴿ فما أرسلناك ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ عليهم حفيظاً ﴾ أي : تقهرهم على امتثال ما أرسلناك به ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ لما أرسلناك به ، وأما الهداية والإضلال فإلينا ، وهذا كما قال الجلال المحلي : قبل الأمر بالجهاد ﴿ وإنا إذا أذقنا ﴾ أي : بالعظمة التي لا يمكن مخالفتها ﴿ الإنسان ﴾ أي : بما جبلناه عليه من النقص وعدم التمالك ﴿ منا رحمة ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : نوعاً من أنواع الإكرام من صحة أو غنى أو نحو ذلك ﴿ فرح بها ﴾ أي : بتلك الرحمة وأفرد ضمير فرح نظراً للفظ الإنسان إشارة إلى أنه مطبوع على أنه ليس عليه إلا من نفسه ، ولو كان أهل الأرض كلهم على غير ذلك ونعمة الله تعالى عليهم ، وإن كانت في الدنيا عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادات الآخرة القطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سميت ذوقاً ، فبين تعالى أن الإنسان إذا حصل له هذا القدر الحقير في الدنيا فرح به وعظم غروره ووقع في العجب والكبر وظن أنه فاز بكل المنى ووصل إلى أقصى السعادات ، وهذه طريقة من ضعف

اعتقاده في سعادات الآخرة وجمع ضمير الإنسان في قوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم ﴾ باعتبار معناه ﴿ سيئة ﴾ أي : شيء يسوءهم في الحال كالمرض والفقر والقحط ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أي : قدموه وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال بها ﴿ فإن الإنسان ﴾ أي : الآنس بنفسه المعرض عن غيره بما هو طبع له بسبب سيئة تضره ﴿ كفور ﴾ أي : بليغ الكفران ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويعظمها ولم يتأمل سببها وتصدير الشرطية الأولى : بإذا ، والثانية : بإن لأن إذاقته النعمة محققة من حيث إنها عادة مقضيّة بالذات بخلاف إصابة البلية وإقامة علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضعه الضمير في الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة ، فإن كان في نعمة أشر وبطر ، وإن كان في نقمة أيس وقنط ، فهذا حال الجنس من حيث هو ومن وفقه الله تعالى جنبه ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم

(224/688)

"المؤمن إن أصابه سراء

شكر فكان خيراً ، وإن أصابه ضراء صبر فكان خيراً" .

ولما ذكر تعالى إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بعدها السيئة أتبع ذلك بقوله تعالى:

﴿ لله ﴾ أي : الملك الأعظم وحده ﴿ ملك السموات ﴾ كلها على علوها وتطابقها وكبرها وعظمها وتباعد أقطارها ﴿ والأرض ﴾ جميعها على تباينها وتكاثفها واختلاف أقطارها وسكانها واتساعها ﴿ يخلق ﴾ أي : على سبيل التجدد والاختيار والاستمرار ﴿ ما يشاء ﴾ وإن كان على غير اختيار العباد لئلا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه ، بل إذا علم أن الكل ملك لله وملكه وإنما حصل له ذلك القدر إنعاماً من الله تعالى عليه فيصير ذلك حاملاً له على مزيد الطاعة .

ثم ذكر من أقسام تصرفه تعالى في العالم أنه يخص بعض الناس بالأولاد الإناث والبعض بالذكور والبعض بهما والبعض محروم من الكل كما قال تعالى : ﴿ يهب ﴾ أي : يخلق ﴿ لمن يشاء ﴾ أولاداً ﴿ إناثاً ﴾ فقط ليس معهن ذكر ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ فقط ليس معهم أنثى ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : بتسهيل الهمزة الثانية كالياء وتبدل أيضاً واواً خالصة ، والباقون بتحقيقهما وفي الابتداء الجميع بالتحقيق ، وإذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفاً مع المد والتوسط والقصر ولهما أيضاً تسهيلها مع المد والقصر والروم والإشمام .

﴿ أو يزوجهم ﴾ أي : الأولاد فيجعلهم أزواجاً أي : صنفين حال كونهم ﴿ ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ أي : لا يولد له .

قال الرازي : وفي الآية سؤالات ؛ الأول : أنه قدم الإناث في الذكر على الذكور أولاً ثم قدم الذكور على الإناث ثانياً فما السبب أي : فما الحكمة في هذا التقديم والتأخير ؟ الثاني : أنه نكر الإناث وعرف الذكور ، وقال في الصنفين معاً : أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ؟ الثالث : أنه لما كان حصول الولد هبة من الله تعالى فيكفي في عدم حصوله أن لا يهب فأي : حاجة في عدم حصوله إلى قوله تعالى : ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ الرابع : هل المراد بهذا الحكم جمع معينون أو الحكم على الإنسان المطلق ثم قال : والجواب عن الأول : أن الكريم يسعى في أن يقع الختم على الخير والراحة فإذا وهب الأنثى أولاً ثم أعطى الذكر بعدها فكأنه نقله من الغم إلى الفرح وهذا غاية الكرم ، أما إذا أعطى الذكر أولاً ثم أعطى الأنثى ثانياً فكأنه نقله من الفرح إلى الغم ، فذكر الله تعالى هبة الأنثى أولاً ثم ثنى بهبة الذكر حتى يكون قد نقله من الغم إلى الفرح فيكون أليق بالكرم ، قيل : من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر لأن الله تعالى بدأ بالإناث ، وأما تقديم ذكر الذكور على ذكر الإناث ثانياً فلأن الذكر أكمل وأفضل من الأنثى والأفضل مقدم على المفضول ، وأما الجواب عن تنكير الإناث وتعريف الذكور فهو أن المقصود منه التنبيه على أن الذكر أفضل من الأنثى .

(226/688)

وأما قوله تعالى : ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ فهو أن كل شيئين يقترن أحدهما بالآخر فهما زوجان وكل واحد منهما يقال له : زوج والكناية في يزوجهم عائدة على الإناث والذكور ، والمعنى : يجعل الذكور والإناث أزواجاً أي : يجمع له بينهما فيولد له الذكور والإناث وأما الجواب عن قوله تعالى : ﴿ عقيماً ﴾ فالعقيم : هو الذي لا يلد ولا يولد له يقال : رجل عقيم وامرأة عقيم ، وأصل العقم : القطع ، ومنه قيل الملك عقيم لأنه تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق ، وأما الجواب عن الرابع : فقال ابن عباس رضي الله عنهما : يهب لمن يشاء إناثاً يريد لوطاً وشعيباً عليهما السلام لم يكن لهما إلا البنات ويهب لمن يشاء الذكور يريد إبراهيم عليه السلام لم يكن له إلا الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً يريد محمداً صلى الله عليه وسلم كان له من البنين ثلاثة على الصحيح القاسم وعبد الله وإبراهيم ومن البنات أربع زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، ويجعل من يشاء عقيماً يريد يحيى وعيسى عليهما السلام ، وقال أكثر المفسرين : هذا على وجه التمثيل وإنما الحكم عام في كل الناس لأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله تعالى في تكوين الأشياء كيف شاء فلا معنى للتخصيص ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ إنه عليم ﴾ أي : بالغ العلم بمصالح العباد وغيرها ﴿ قدير ﴾ أي : شامل القدرة على تكوين ما يشاء .

ولما بين تعالى حال قدرته وعلمه وحكمته أتبعه ببيان أنه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه فقال تعالى:

(227/688)

﴿ وما كان ﴾ أي : وما صح ﴿ لبشر ﴾ من الأقسام المذكورة وحل المصدر الذي هو اسم كان ليقع التصريح بالفاعل والمفعول على أتم الوجوه فقال تعالى : ﴿ أن يكلمه ﴾ وأظهر موضع الإضمار إعظاماً للوحي وتشريفاً لمقداره فقال تعالى : ﴿ الله ﴾ أي : يوجد الملك الأعظم الجامع بصفات الكمال في قلبه كلاماً ﴿ إلا ﴾ أن يوحي إليه ﴿ وحياً ﴾ أي : كلاماً خفياً يوجده فيه بغير واسطة بوجه خفي لا يطلع عليه أحد إما بمشافهة كما ورد في حديث المعراج ، وإما بإلهام أو رؤية منام كما رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أن يذبح ولده ، أو بغير ذلك سواء خلق الله تعالى في المتكلم قوة السماع له وهو أشرف هذه الأقسام أم لا ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ (القصص :)

﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ (النحل :)

﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ (فصلت :)

﴿ أو ﴾ إلا ﴿ من وراء حجاب ﴾ أي : من وجه لا يرى فيه المتكلم مع السماع للكلام

على وجه الجهر كما وقع لموسى عليه السلام ﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ من الملائكة إما جبريل عليه السلام أو غيره .

(228/688)

تنبيه : ذكر المفسرون : أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله تعالى وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه ؟ فقال : "لم ينظر موسى إلى الله عز وجل فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ﴾ ، ﴿ فيوحي ﴾ أي : الرسول إلى المرسل إليه أن يكلمه ﴿ بإذنه ﴾ أي : الله تعالى ﴿ ما يشاء ﴾ أي : الله عز وجل ، وقرأ نافع برفع اللام من يرسل وسكون الياء من يوحي والباقون بنصب اللام والياء أما القراءة الأولى ففيها ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أنه رفع على إضمار مبتدأ ، أي : هو يرسل ، ثانيها : أنه عطف على وحياً على أنه حال لأن وحياً في تقدير الحال أيضاً فكأنه قال : إلا موحياً إليه أو مرسلاً ، ثالثها : أن يعطف على ما يتعلق به من وراء إذ تقديره أو يسمع من وراء حجاب ووحياً في موضع الحال عطف عليه ذلك المقدر المعطوف عليه أو يرسل ، والتقدير : إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلاً .

وأما القراءة الثانية : ففيها ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أن يعطف على المضمر الذي يتعلق به من وراء حجاب إذ تقديره أو يكلمه من وراء حجاب وهذا الفعل المقدر معطوف على وحياً ، والمعنى : إلا بوحي أو سماع من وراء حجاب أو إرسال رسول ، ولا يجوز أن يعطف على أن يكلمه لفساد المعنى إذ يصير التقدير : وما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً بل يفسد لفظاً ومعنى ، وقال مكي : لأنه يلزم منه نفي الرسل ونفي المرسل إليهم ، ثانيها : أن ينصب بأن مضمرة وتكون هي وما نصبته معطوفين على وحياً ووحياً حال فيكون هذا أيضاً حالاً والتقدير : إلا موحياً أو مرسلاً ، ثالثها : أنه معطوف على معنى وحياً فإنه مصدر مقدر بأن والفعل والتقدير : إلا بأن يوحي إليه أو بأن يرسل ذكره مكي وأبو البقاء ﴿ إنه ﴾ أي : هذا الذي له هذا التصرف العظيم في هذا الوحي الكريم ﴿ علي ﴾ أي : بالغ العلو جداً عن صفات المخلوقين ﴿ حكيم ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته فيكلم تارة بواسطة وتارة بغير واسطة إما عياناً وإما من وراء حجاب .

﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل ﴿ أوحينا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ إليك ﴾ يا أفضل الرسل ﴿ روحاً ﴾ قال ابن عباس : نبوة وقال الحسن : رحمة وقال

السدي : وحياً وقال الكلبي : كتاباً وقال الربيع : جبريل وقال مالك بن دينار : القرآن ، وسمي الوحي روحاً ؛ لأنه مدبر الروح كما أن الروح مدبر للبدن وزاد عظمته بقوله تعالى : ﴿ من أمرنا ﴾ أي : الذي نوحيه إليك .

(230/688)

ثم بين تعالى حال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قبل الوحي بقوله سبحانه : ﴿ ما كنت ﴾ أي : فيما قبل الأربعين التي مضت لك وأنت بين ظهراني قومك ﴿ تدري ﴾ أي : تعرف قبل الوحي إليك ﴿ ما الكتاب ﴾ أي : القرآن ﴿ ولا الإيمان ﴾ أي : تفصيل الشرايع على ما جددناه لك بما أوحيناه إليك وهو صلى الله عليه وسلم وإن كان قبل النبوة قد كان مقراً بوحدانية الله تعالى وعظمته ، فإنه كان يصلي ويحج ويعتمر ويبغض اللات والعزى ولا يأكل ما ذبح على النصب لكنه لم يكن يعلم الرسل على ما هم عليه ، ولا شك أن الشهادة له صلى الله عليه وسلم نفسه بالرسالة ركن الإيمان ولم يكن له علم بذلك وكذلك الملائكة ، فصح نفي المنفي لفواته بفوات جزئه وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة : الإيمان هنا الصلاة لقوله تعالى ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ (البقرة :)

أي : صلاتكم ، وقيل : هذا على حذف ومعناه : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان

حين كنت طفلاً في المهد ، وقيل : الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به ، وقال بعضهم : صفات الله تعالى على قسمين : منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقول ومنها : ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة .

تنبيه : ما ؛ الأولى نافية والثانية استفهامية والجملة الاستفهامية معلقة للدراية فهي في محل نصب لسدها مسد مفعولين والجملة المنفية بأسرها في محل نصب على الحال من الكاف في إليك ، وفي الآية دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبداً قبل النبوة بشرع وفي المسألة خلاف للعلماء فقيل : كان يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام وقيل : غيره والضمير في قوله تعالى ﴿ ولكن جعلناه نوراً ﴾ يعود إما لروحاً وإما للكتاب وإما لهما وهو أولى لأنهما مقصود واحد فهو كقوله تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ (التوبة :)

(231/688)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني الإيمان وقال السدي : يعني القرآن ﴿ نهدي ﴾ على عظمتنا ﴿ به من نشاء ﴾ خاصة لا يقدر أحد على هدايته بغير مشيئتنا ﴿ من عبادنا ﴾ بخلق الهداية في قلبه بالتوفيق فهذه لا يقدر عليها أحد غير الله تعالى ، وأما

الهداية بالتبيين والإرشاد فهي قوله تعالى : ﴿ وإنك ﴾ يا أفضل الخلق ﴿ لتهدي ﴾ أي : تبين وترشد وأكده لإنكارهم ذلك ﴿ إلى صراط ﴾ أي : طريق واضح جداً ﴿ مستقيم ﴾ أي : شديد التقوم وهو دين الإسلام وقوله تعالى:

﴿ صراط الله ﴾ أي : الملك الأعظم الجامع لصفات الكمال وقرأ سراط في الموضعين قنبل بالسين وخلف : بالإشمام أي : بين الصاد والزاي والباقون بالصاد الخالصة . ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بأنه مالك لما في السموات والأرض بقوله تعالى : ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً ﴿ ألا إلى الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال الذي تعالى عن مثل وند وهو الكبير المتعال لا إلى غيره ﴿ تصير ﴾ أي : على الدوام وإن كانت في الظاهر في ملك غيره بحيث يظن الجاهل أن ملكها مستقر له .

قال أبو حيان : أخبر بالمضارع والمراد به الديمومة كقوله : زيد يعطي ويمنع أي : من شاء ذلك ولا يراد به حينئذ حقيقة المستقبل ﴿ الأمور ﴾ كلها من الخلق والأمر معنى وحساً كما كانت الأمور كلها مبتدأة منه وحده وفي ذلك وعد للمطيعين ووعيد للمجرمين فيجازي كلاً منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب ، وما قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون ويسترحمون له" حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 410.394 ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾

أي : تجاوزوا الحدّ الذي حدّه لهم إلى غيره ، بركوبهم ما حظره عليهم ؛ لأن الغنى مبطرةٌ مأشرة : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق : 6 – 7] ، ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ أي : ولكن ينزل من رزقه ما يشاؤه بقدرٍ ، لكفايتهم : ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ قال الزمخشري : أي : يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم ، وأقرب إلى جمع شملهم ، فيُفقر ويُغني ، ويمنع ويعطي ، ويقبض ويبسط ، كما توجبه الحكمة الربانية ، ولو أغناهم جميعاً لبلغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أي : بركات الغيث ، ومنافعه ، وآثاره من الخصب ، والرخاء : ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي : الذي يتولى الخلق بإحسانه ، والمحمود على أياديه عندهم .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ أي :

حشرهم يوم القيامة : ﴿ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ أي : متمكن منه ، لا يتعذر عليه وإن تفرقت أوصالهم .

(233/688)

تنبيه :

ذهب بعض الباحثين في آيات القرآن الفلكية ، والعوالم العلْوية إلى معنى آخر في هذه الآية .

وعبارته : يفهم من الآية أن الله تعالى خلق السماوات دواب ، ويستدل من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [النور : 45] ، أن هذه الدواب ليست ملائكة كما قال المفسرون ، بل حيوانات كحيوانات الأرض ، ولا يبعد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالْإِنْسَانْ ، ويلزم لحياة تلك الحيوانات أن يكون في السماوات نباتات ، وأشجار ، وبحار ، وأنهار كما تحقق في هذا العصر لدى علماء الرصد .

ثم قال : لعمري ، إن هذه الآية التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم قبل ألف وثلاثمائة وعشرين سنة ، لآية لأهل هذا العصر وأية آية ، آية لأهل العلم ، والفلسفة الذين يبذلون الأموال ، والأرواح بلا حد ، ولا حساب ، ليتوصلوا إلى معرفة سر من أسرار الكائنات ،

ومع هذا الجد العنيف والجهد المتواصل منذ ثلاثمائة سنة ، لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية . وجل ما توصلوا إليه بالبرهان العقلي ، إن الأرض أصغر من الشمس ، وأنها تدور حولها ، وإن الكواكب السيارات كرّيات ، وإن النجوم الثوابت شموس ، ولها سيارات تدور حولها ، ولما ثبت لديهم جميعاً وجود الماء والهواء ، وحصول الصيف والشتاء في هذه السيارات ، ظنوا أنه يوجد فيها عالم كعالم الأرض .

(234/688)

وبدأ البعض منهم يفكرون بإيجاد الوسائل للمخابرة بالكهربائية مع سكان المريخ الذي هو أقرب السيارات إلينا ، وليس ذلك بالمستحيل فنّاً . ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكراً ، إذا لم يجتمعا جسماً . فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة في القرآن . وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية ، الضاربون صفحاً عن العلوم الإسلامية ، ما في كتاب الله من الحكمة والبيان . وقال أيضاً : لا يخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين ، أولاً وبالذات . لكن ، تمهيداً لهذا السبيل ، أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية ، وصرف بصائر الناس إلى التفكير في خلق السماوات والأرض ، وما هن عليه

من الإبداع ، فوجه أبصارهم إلى التأمل في خلق الْإِنْسَانْ , وما عليه من التركيب العجيب ، إلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية في أكثر من ثلاثمائة آية .

فالمفسرون رحمهم الله ، لما فسروا هذه الآيات ، شرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلكية والطبيعية ، ولا يخفى ما كانت عليه هذه الآلات في زمنهم من النقصان ، لاسيما علم الفلك . فهم معذورون إذا لم يفهموا معاني هذه الآيات التي تحيّر عقول فلاسفة هذا العصر ، المتضلعين بالعلوم العقلية . لذلك لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها ، بل أوّلوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى المجاز أو الكناية . انتهى كلامه .

وقال عالم فلكي أيضاً : يقول العلماء إنه من المحقق أن هذه السيارات مسكونة بحيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا هذه ، ويكون كل كوكب منها أرضاً بالنسبة لحيواناته ، وباقي الكواكب سماوات بالنسبة لها .

(235/688)

قال : والظاهر أن القول بوجود الحيوانات في هذه الكواكب صحيح ؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ ويقول : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [

الرحمن : 29] ,

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي : فبسبب معاصيكم ، وما اجترمتم من الآثام : ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ أي : من الذنوب فلا يعاقب عليها .

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بمعجزين ربكم إن أراد عقوبتكم ؛ لأنكم في قبضة تصرّفه : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي : إذا أراد عذابكم . فاتقوه واخشوه .

(236/688)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ ﴾ أي : السفن الجارية : ﴿ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أي : الجبال : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أي : فيبقين ثوابت على ظهر البحر : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : في جري هذه الجواري في البحر ، بتسخير الله تعالى الريح لجريها : ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أي : لعبرة ، وعظة ، وحجة بينة على القدرة الأزلية : ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : لكل مؤمن . وإنما آثر وصفيه المذكورين ، تذكيراً بما ينبغي أن يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر وكثرة الشكر ؛ إذ لا يكمل الإيمان بدونهما . والإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر .

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ أي : أو يهلكهن بالغرق : ﴿ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم : ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ أي : يخاصمون الرسول في آياته على توحيده أنهم ما لهم من محيد عن عذابه .

(237/688)

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي : مما زين للناس حبه من الشهوات : ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي : فهو متاع لكم ، تتمتعون به في الدنيا ، وليس من الآخرة : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : من ثوابه الأخروي : ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وذلك لخلوصه عن الشوائب ودوامه : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : في أمورهم ، وقيامهم بأسبابهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي : يصفحون عمن أساء إليهم : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أي حينما دعاهم إلى توحيده ، والبراءة من عبادة غيره : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ أي : لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه ، وذلك من فرط تدبّرهم وتيقظهم ، وصدق تآخيهم في إيمانهم وتحابّهم في الله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي : فيؤدّون ما فرض عليهم من الحقوق لأهلها ، من زكاة

ونفقة . وما ندبوا إليه من مواساة وصدقة ومعونة .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أي : بالعدالة . احترازاً عن الذلة والانظلام ، لكونهم في مقام الاستقامة ، قائمين بالحق والعدل الذي ظلّه في نفوسهم . قال القاشاني .

وقال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في الباغي الذي حمد تعالى ذكره ، المنتصر منه بعد بغيه عليه . فقال بعضهم : هو المشرك إذا بغى على المسلم . وقال آخرون : بل هو كل باغٍ بغى فحمد المنتصر منه . وإليه ذهب السدي حيث قال : ينتصرون ممن بغى عليهم من غير أن يعتدوا .

(238/688)

قال ابن جرير : وهذا القول الثاني أولى من ذلك بالصواب ؛ لأن الله لم يخصص من ذلك معنى دون معنى . بل حمد كل منتصر بحقٍّ ممن بغى عليه . . فإن قال قائل : وما في الانتصار من المدح ؟ قيل : إن في إقامة الظالم على سبيل الحق ، وعقوبته بما هو له أهل ، تقويماً له . وفي ذلك أعظم المدح . انتهى . وكذا قال الزمخشري . فإن قلت : أهم محمودون في الانتصار ؟ قلت : نعم ؛ لأن من أخذ حقه غير متعد حد الله وما أمر به فلم يسرف في القتل ، إن كان وليّ دم ، أو ردّ على سفيه محاماة على عرضه وردعاً له ، فهو مطيع ، وكل مطيع محمود .

قال النَّخَعِي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق .

ثم أشار تعالى إلى أن الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل ، بقوله :

(239/688)

﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ أي : وجزاء سيئة المسيء ما ماثلها ؛ إذ النقصان حيف والزيادة ظلم . ثم بين تعالى أن العفو أولى ، فقال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ أي : بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء : ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : ثوابه عليه . وفي إبهامه ، ما يدل على عظمه ؛ حيث جعل حقاً على العظيم الكريم : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : البادئين بالسيئة ، والمعتدين في الانتقام : ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي : بعد ما ظُلِم . فالمصدر مضاف لمفعوله ، أو هو مصدر المبني للمفعول : ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي : للمعاقب ، ولا للعاتب والعائب ؛ لأنهم انتصروا منهم بحق . ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك عليه ، ولم يتعد ولم يظلم ، فكيف يكون عليه سبيل ؟ : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أي : يبدءوهم بالظلم والإضرار ، أو يعتدون في الانتقام : ﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي : يتكبرون فيها ويفسدون : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : بسبب ظلمهم ، وبغيهم .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ أي : على الأذى : ﴿ وَغَفَرَ ﴾ أي : لمن ظلمه ، ولم ينتصر : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أي : التي ندب الله عباده ، وعزم عليهم العمل بها .

تنبيه :

نقل السيوطي في " الإكليل " عن الكيا الهراسي أنه قال : قد ندب الله إلى العفو في مواضع من كتابه ، وظاهر هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أن الانتصار أفضل . قال : وهو محمول على من تعدى وأصرّ ؛ لئلا يتجرأ الفساق على أهل الدين ، وآيات العفو فيمن ندم وأقلع . انتهى .

(240/688)

وعجيب فهمه الأفضلية من الآية ، فإنها لا تدل عليه ، عبارة ولا إشارة ؛ فإنه تعالى لم يرغب في الانتصار . وإنما بين أنه مشروع لهم إذا شاءوا ، ثم بين بعده أن مشروعيته بشرط رعاية المماثلة ، ثم بين أن العفو أولى ، وهو الذي انتهى إليه الكلام ، وتم به السياق . وكذلك لا حاجة إلى حمل الانتصار على من تعدى ؛ وذلك لأن الانتصار بالمثل من فروع علم العقوبات ، والجزاء المشروعة لإقامة الحق والعدل ، ودفع الظلم عن النفس والصغار ، ورفع الأحقاد والأضغان ، وأما العفو والصفح ، فذاك من فروع علم الأخلاق ، وتهذيب

النفوس ؛ لأنه من باب المسامحة بالحق وإسقاط المستحق ، رغبة في تزكية النفس وهضماً لها وحرصاً على خير الأمرين ، وأوفر الأجرين ، وكلاهما من محاسن الشريعة الحنيفية ، وتوسطها بين الاقتصاص البتة ، والعفو كلياً ؛ لأن العقل السليم يرى فيهما إفراطاً وتفريطاً ، والدين دين الفطرة ، وهي تتقاضى القصاص بالمثل ، وتراه حقاً لها بجبلتها ، والقضاء الأدبي ، والوازع الرحماني يرشدها إلى ما هو أمثل إن شاءت ، ويبرهن لها أمثليته ، مما لا يبعد إذا راجعت نفسها وثابت إلى رشدها ، أن تؤثره ولا تؤثر عليه كيف ؟ وقد دل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ كما قال الزمخشري ، على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء ، خصوصاً في حال الحرد والتهاب الحمية . فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر .

(241/688)

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي : النار : ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أي : من طرف قد خفي من ذله وصغاره : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : بالتعريض للعذاب المخلد ، وتفويت النعيم المؤبد : ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم ﴾ أي : أجيبوا أيها الناس داعي الله ، وآمنوا به : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي : لا يرده الله بعد ما حكم به فـ : من ، صلة مرد ، أو هي صلة يأتي ؛ أي : من قبل أن يأتي يوم الله لا يمكن رده : ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي إنكار لما اقترفتموه ؛ لأنه محصي عليكم ، أو نكير ينكر على الله في مؤاخذتكم .

(242/688)

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ أي : رقيباً تفظ عليهم أعمالهم ، وتحصيها : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ أي : إبلاغهم ما أرسلت به ، فإذا فعلت فقد قضيت ما عليك : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أي : جحودٌ نعم ربه ، فلا يذكر إلا البؤس والبلاء ، ولا يتفكر إلا فيما أنزل به من الفساد والشقاء .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ أي : إنه تعالى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة ، وتقديم الإناث ، إما لأنها أكثر لتكثير

النسل ، أو لتطييب قلوب آبائهن ، تنبيهاً بأنهن سبب لتكثير مخلوقاته ، فلا يجوز الحزن من ولادتهن وكراهيتهن ، كما يشاهد من بعض الجهلة . وقال الثعالبي : إنه إشارة إلى ما في تقدم ولادتهن من اليمن ، ومن يمن المرأة تبكيرها بأنثى .

قال الشهاب : والضمير في : ﴿ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ للأولاد ، وما بعده حال منه ، أو مفعول ثان إن ضمن معنى التصيير ، يعني يجعل أولاد من يشاء ذكوراً وإناثاً مزدوجين ؛ كما يفرد بعضهم بالذكور وبعضهم بالإناث ، ويجعل بعضهم لا أولاد له أصلاً .

(243/688)

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً ﴾ أي : إلهاماً وقذفاً في القلب منه ، بلا واسطة : ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أي : يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه ، كما كلم موسى عليه السلام : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ أي : من الملائكة كجبريل : ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ، ما يشاء إيحاءه ، من أمر ونهي ، وغير ذلك ، على سبيل الإلقاء ، والنفث في الروع ، والإلهام ، أو الهتاف ، أو المنام : ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ ﴾ أي : من أن يواجه ، ويخاطب . بل يفنى ويتلاشى من يواجهه ، لعلوّه من أن يبقى معه غيره ، أو يحتمل شيء حضوره . قال القاشاني .

وقال المهايمي : أي : لا يبلغ البشر حد مكالمته شفاهاً ، ولا يحتمل سماع كلامه مع رؤيته . انتهى ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي : يدبر بالحكمة وجوه التكليم ، ليظهر علمه في تفصيل المظاهر ، ويكمل به عباده ، ويهتدوا إليه ليعرفوه . وقال المهايمي : أي : حكيم في تبليغ كلامه العلي إلى البشر الضعيف .

تنبيه :

في " الإكليل " : استدلت بالآية ، عائشة رضي الله عنها ، على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ربه . واستدل مالك بقوله : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ على أن من حلف لا يكلم زيداً ، فأرسل إليه رسولاً أو كتاباً ، أنه يحنث . لأنه تعالى استثناه من الكلام ، فدل على أنه منه . انتهى . وفيه بعد ؛ إذ لا يقال لمن ألهمه الله ، إنه كلمه إلا مجازاً ، فلا يكون الاستثناء متصلاً . وقوله تعالى :

(244/688)

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الإيحاء على الطرق الثلاثة : ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ أي : وحياً من أمرنا . وسماه روحاً لأنه تحيا به القلوب الميتة . قال الشهاب : فهو استعارة أو مجاز مرسل ، لما فيه من الهداية والعلم الذي هو كالحياة . وقيل : هو جبريل .

و: ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ مضمن معنى أرسلنا . والمعنى : أرسلناه إليك بالوحي : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ ﴾ أي : الروح ، أو الكتاب ، أو الإيمان : ﴿ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أي : بالتوفيق للقبول ، والنظر فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : خلقاً وملكاً : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أي : في الآخرة ، فيقضي بينهم بالعدل ؛ إذ لا حاكم سواه ، فيجازي كلّاً بما يستحقه من ثواب ، أو عقاب . نسأله تعالى أن يحسن لنا المآب . إنه الكريم الوهاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 257.266 ﴾

(245/688)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) ﴾

هذا القسم الثاني من السورة يمضي في الحديث عن دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق مباشرة بحياتهم ومعاشهم ، وفي صفة المؤمنين التي تميز جماعتهم . . وذلك بعد الحديث في القسم الأول عن الوحي والرسالة من جوانبها المتعددة . . ثم يعود في نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحي وطريقته . وبين القسمين

اتصال ظاهر ، فهما طريقان إلى القلب البشري ، يصلانه بالوحي والإيمان .

﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد . ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض . ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير ﴾ . .

تجيء هذه اللمسة بعد ما سبق من مشهد الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، ومشهد الذين آمنوا في روضات الجنات . ونفي كل شبهة عن صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغهم به عن الله . وتقرير علم الله بذوات الصدور .

تجيء لترغيب من يريد التوبة والرجوع عما هو فيه من ضلالة ، قبل أن يقضى في الأمر القضاء الأخير . ويفتح لهم الباب على مصراعيه : فالله يقبل عنهم التوبة ، ويعفو عن السيئات ؛ فلا داعي للقنوط واللجاج في المعصية ، والخوف مما أسلفوا من ذنوب . والله يعلم ما يفعلون . فهو يعلم التوبة الصادقة ويقبلها . كما يعلم ما أسلفوا من السيئات ويغفرها .

وفي ثنايا هذه اللمسة يعود إلى جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يستجيبون لدعوة ربهم ، وهو يزيدهم من فضله . ﴿ والكافرون لهم عذاب

شديد ﴾ . . وباب التوبة مفتوح للنجاة من العذاب الشديد ، وتلقي فضل الله لمن يستجيب .

(246/688)

وفضل الله في الآخرة بلا حساب ، وبلا حدود ولا قيود . فأما رزقه لعباده في الأرض فهو مقيد محدود ؛ لما يعلمه سبحانه من أن هؤلاء البشر لا يطيقون في الأرض - أن يتفتح عليهم فيض الله غير المحدود :

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء . إنه بعباده خبير بصير ﴾ . .

وهذا يصور نزارة ما في هذه الحياة الدنيا من أرزاق مهما كثرت بالقياس إلى ما في الآخرة من فيض غزير . فالله يعلم أن عباده ، هؤلاء البشر ، لا يطيقون الغنى إلا بقدر ، وأنه لو بسط لهم في الرزق من نوع ما يبسط في الآخرة لبغوا وطغوا . إنهم صغار لا يملكون التوازن . ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد . والله بعباده خبير بصير . ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدرا محدوداً ، بقدر ما يطيقون . واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون في بلاء الأرض ، ويجتازون امتحانها ، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام .

ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود .

﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولي الحميد ﴾ . .

وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده في الأرض . وقد غاب عنهم الغيث ، وانقطع عنهم المطر ، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول . . الماء . . وأدركهم اليأس والقنوط . ثم ينزل الله الغيث ، ويسعفهم بالمطر ، وينشر رحمته ، فتحيا الأرض ، ويخضر اليابس ، وينبت البذر ، ويترعرع النبات ، ويلطف الجو ، وتنطلق الحياة ، ويدب النشاط ، وتنفرج الأسارير ، وتتفتح القلوب ، وينبض الأمل ، ويفيض الرجاء . . وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات . تتفتح فيها أبواب الرحمة . فتتفتح أبواب السماء بالماء . . ﴿ وهو الولي الحميد ﴾ . . وهو النصير والكافل المحمود الذات والصفات . .

(247/688)

واللفظ القرآني المختار للمطر في هذه المناسبة . . ﴿ الغيث ﴾ . . يلقي ظل الغوث والنجدة ، وتلبية المضطر في الضيق والكربة . كما أن تعبيره عن آثار الغيث . . ﴿ وينشر رحمته ﴾ . . يلقي ظلال النداوة والخضرة والرجاء والفرح ، التي تنشأ فعلاً عن تفتح النبات في الأرض وارتقاب الثمار . وما من مشهد يريح الحس والأعصاب ، ويندّي القلب

والمشاعر ، كمشهد الغيث بعد الجفاف . وما من مشهد ينفض هموم القلب وتعب النفس كمشهد الأرض تتفتح بالنبت بعد الغيث ، وتنتشي بالخضرة بعد الموات .

﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وما بث فيهما من دابة . وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في الأرض ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ . .

وهذه الآية الكونية معروضة على الأنظار ، قائمة تشهد بذاتها على ما جاء الوحي ليشهد به ، فارتابوا فيه واختلفوا في تأويله . وآية السماوات والأرض لا تحتمل جدلا ولا ريبة . فهي قاطعة في دلالتها ، تخاطب الفطرة بلغتها ، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد . إنها تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ، ولا غيره من خلق الله . ولا مفر من الاعتراف بمنشئ مدبر . فإن ضخامتها الهائلة ، وتناسقها الدقيق ، ونظامها الدائب ، ووحدة نواميسها الثابتة . . كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلها أنشأها ويدبرها . أما الفطرة فهي تتلقى منطق الكون تلقياً مباشراً ، وتدركه وتطمئن إليه ، قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها !

وتنطوي آية السماوات والأرض على آية أخرى في ثناياها : ﴿ وما بث فيهما من دابة ﴾ . . والحياة في هذه الأرض وحدها ودع عنك ما في السماوات من حيوات أخرى لا ندركها آية أخرى . وهي سر لم ينفذ إلى طبيعته أحد ، فضلاً على التطلع إلى إنشائه . سر غامض لا يدري أحد من أين جاء ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يتلبس بالأحياء ! وكل المحاولات التي بذلت للبحث عن مصدره أو طبيعته أغلقت دونها الستر والأبواب ؛ وانحصرت البحوث كلها في تطور الأحياء بعد وجود الحياة وتنوعها ووظائفها ؛ وفي هذا الحيز الضيق المنظور اختلفت الآراء والنظريات .

فأما ما وراء الستر فبقي سراً خافياً لا تمتد إليه عين ، ولا يصل إليه إدراك . . إنه من أمر الله . الذي لا يدركه سواه .

هذه الأحياء المبثوثة في كل مكان . فوق سطح الأرض وفي ثناياها . وفي أعماق البحر وفي أجواز الفضاء ودع عنك تصور الأحياء الأخرى في السماء هذه الأحياء المبثوثة التي لا يعلم الإنسان منها إلا النزر اليسير ، ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور .

هذه الأحياء التي تدب في السماوات والأرض يجمعها الله حين يشاء ، لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب !

وبنو الإنسان يعجزهم أن يجمعوا سربا من الطير الأليف ينفلت من أقفاصهم ، أو سرباً من النحل يطير من خلية لهم !

وأسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله . وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها إلا الله . وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله . وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لا يطلع عليها إلا الله . وقطعان من الأنعام والوحش سائمة وشاردة في كل مكان ، وقطعان من البشر مبثوثة في الأرض في كل مكان . . ومعها خلائق أربى عدداً وأخفى مكاناً في السماوات من خلق الله . . كلها . . كلها . . يجمعها الله حين يشاء . .

(249/688)

وليس بين بثها في السماوات والأرض وجمعها إلا كلمة تصدر . والتعبير يقابل بين مشهد البث ومشهد الجمع في لمحة على طريقة القرآن ؛ فيشهد القلب هذين المشهدين الهائلين قبل أن ينتهي اللسان من آية واحدة قصيرة من القرآن !

وفي ظل هذين المشهدين يحدثهم عما يصيبهم في هذه الحياة بما كسبت أيديهم . لا كله . فإن الله لا يؤاخذهم بكل ما يكسبون . ولكن يعفو منه عن كثير . ويصور لهم عجزهم ويذكرهم به ، وهم قطاع صغير في عالم الأحياء الكبير :

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في

الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ .

وفي الآية الأولى يتجلى عدل الله ، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف . فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه ؛ ولكن الله لا يؤاخذه بكل ما يقترف ؛ وهو يعلم ضعفه وما ركب في فطرته من دوافع تغلبه في أكثر الأحيان ، فيعفو عن كثير ، رحمة منه وسماحة .

وفي الآية الثانية يتجلى ضعف هذا الإنسان ، فما هو بمعجز في الأرض ، وما له من دون الله من ولي ولا نصير . فأين يذهب إلا أن يلتجئ إلى الولي والنصير ؟

﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير .

ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ . .

(250/688)

والسفن الجواري في البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله . آية حاضرة مشهودة . آية تقوم على آيات كلها من صنع الله دون جدال . هذا البحر من أنشأه ؟ مَن مِن البشر أو غيرهم يدعي هذا الادعاء ؟ ومن أودعه خصائصه من كثافة وعمق وسعة حتى يحمل السفن الضخام ؟ وهذه السفن من أنشأ مادتها وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه

الماء ؟ وهذه الريح التي تدفع ذلك النوع من السفن التي كانت معلومة وقتها للمخاطبين (وغير الريح من القوى التي سخرت للإنسان في هذا الزمان من بخار أو ذرة أو ما يشاء الله بعد الآن) من جعلها قوة في هذا الكون تحرك الجواري في البحر كالأعلام ؟ . .

﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾ . .

وإنها لتركد أحياناً فتهمد هذه الجواري وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة !

﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ . .

في إجرائهن وفي ركودهن على السواء آيات لكل صبار شكور . والصبر والشكر كثيراً ما يقترنان في القرآن . الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء ؛ وهما قوام النفس المؤمنة في الضراء والسراء .

﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ . .

فيحطمهن أو يغرقهن بما كسب الناس من ذنب ومعصية ومخالفة عن الإيمان الذي تدين به الخلائق كلها ، فيما عدا بعض بني الإنسان !

﴿ ويعف عن كثير ﴾ . .

فلا يؤاخذ الناس بكل ما يصدر منهم من آثام ، بل يسمح ويعفو ويتجاوز منها عن كثير .

﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ . .

لو شاء الله أن يقفهم أمام بأسه ، ويوبق سفائنهم ، وهم لا يملكون منها نجاة !

وهكذا يشعرهم بأن ما يملكون من أعراض هذه الحياة الدنيا ، عرضة كله للذهاب ، فلا ثبات ولا استقرار لشيء إلا الصلة الوثيقة بالله .

(251/688)

ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، وهو يلفتهم إلى أن كل ما أتوه في هذه الأرض متاع موقوت في هذه الحياة الدنيا . وأن القيمة الباقية هي التي يدخرها الله في الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . ويستطرد فيحدد صفة المؤمنين هؤلاء ، بما يميزهم ، ويفردهم أمة وحدهم ذات خصائص وسمات !

﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ .

.

لقد سبق في السورة أن صور القرآن حالة البشرية ؛ وهو يشير إلى أن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ؛ وكان تفرقهم بغيا بينهم لا جهلاً بما نزل الله لهم من الكتاب ، وبما سن لهم من نهج ثابت مطرد من عهد نوح إلى عهد إبراهيم إلى عهد موسى إلى عهد عيسى عليهم صلوات الله وهو يشير كذلك إلى أن الذين أورثوا الكتاب بعد أولئك المختلفين ، ليسوا على ثقة منه ، بل هم في شك منه مريب .

وإذا كان هذا حال أهل الأديان المنزلة ، وأتباع الرسل صلوات الله عليهم فحال أولئك الذين لا يتبعون رسولا ولا يؤمنون بكتاب أضل وأعمى .

ومن ثم كانت البشرية في حاجة إلى قيادة راشدة ، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التي كانت تخوض فيها . وتأخذ بيدها إلى العروة الوثقى ؛ وتقود خطاها في الطريق الواصل إلى الله ربها ورب هذا الوجود جميعا .

(252/688)

ونزل الله الكتاب على عبده محمد صلى الله عليه وسلم قرآناً عربياً ، لينذر أم القرى ومن حولها ؛ وشرع فيه ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ، ليصل بين حلقات

الدعوة منذ فجر التاريخ ، ويوحد نهجها وطريقها وغايتها ؛ ويقيم بها الجماعة المسلمة التي تهيمن وتقود ؛ وتحقق في الأرض وجود هذه الدعوة كما أرادها الله ، وفي الصورة التي يرتضيها .

وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها وتميزها . ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ . . مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة ، فهو طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازاً طبيعيا للجماعة . كذلك نجد من صفة هذه الجماعة : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ . . مع أن الأمر الذي كان صادراً للمسلمين في مكة هو أن يصبروا وألا يردوا العدوان بالعدوان ، إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال . وقيل لهم : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحي بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة ؛ وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمراً استثنائياً لظروف معينة . وأنه لما كان المقام هنا مقام عرض الصفات الأساسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة ، ولو أن الآيات مكية ، ولم يكن قد أذن لهم بعد في الانتصار من العدوان .

وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام .

(253/688)

ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا ، جدير بالتأمل . فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولا ، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية . ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلا . . ما هي ؟ ما حقيقتها ؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعاً ؟

إنها الإيمان . والتوكل . واجتناب كبائر الإثم والفواحش . والمغفرة عند الغضب . والاستجابة لله . وإقامة الصلاة . والشورى الشاملة . والإنفاق مما رزق الله . والانتصار من البغي . والعفو . والإصلاح . والصبر .

فما حقيقة هذه الصفات وما قيمتها ؟ يحسن أن نبين هذا ونحن نستعرض الصفات في نسقها القرآني .

إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهي الثابت لحقيقة القيم . القيم الزائلة والقيم الباقية ؛ كي لا يختلط الأمر في نفوسهم ، فيختل كل شيء في تقديرهم . ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان

صفة الجماعة المسلمة :

﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى ﴾ . .

إن في هذه الأرض متاعاً جذاباً براقاً ، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان ؛ وهناك نعم آتاها الله لعباده في الأرض تلطفا منه وهبة خالصة ، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة في هذه الحياة الدنيا . وإن كان يبارك للطائع ولو في القليل ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير .

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية . إنما هو متاع . متاع محدود الأجل . لا يرفع ولا يخفض ، ولا يعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة ؛ ولا يعتبر بذاته علامة رضى من الله أو غضب . إنما هو متاع . ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ . . خير في ذاته . وأبقى في مدته . فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله ، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المنساب . ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام . أقصى أمده للفرد عمر الفرد ، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية ؛ وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أو تكاد .

(254/688)

وبعد تقرير هذه الحقيقة في بيان صفة المؤمنين الذين يذخر الله لهم ما هو خير وأبقى . .

ويبدأ بصفة الإيمان . ﴿ وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا ﴾ . . وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التي لا تقوم في النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء في هذا الوجود إلا عن طريقها . فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود ، وأنه من صنع الله ؛ وبعد إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه . ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير ، ولا ينحرف عن النواميس الكلية ، فيسعد بهذا التناسق ، ويمضي مع الوجود كله إلى بارئ الوجود في طاعة واستسلام وسلام . وهذه الصفة لازمة لكل إنسان ، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التي تقود البشرية إلى بارئ الوجود .

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية ، والثقة بالطريق ، وعدم الحيرة أو التردد ، أو الخوف أو اليأس . وهذه الصفات لازمة لكل إنسان في رحلته على هذا الكوكب ؛ ولكنها ألزم ما تكون للقائد الذي يرتاد الطريق ، ويقود البشرية في هذا الطريق .

وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والغرض والصالح الشخصي وتحقيق المغانم . إذ يصبح القلب متعلقاً بهدف أبعد من ذاته ؛ ويحس أن ليس له من الأمر شيء ، إنما هي دعوة الله ، وهو فيها أجير عند الله ! وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل إليه مهمة القيادة كي لا يقنط إذا أعرض عنه القطيع الشارد أو أوذي في الدعوة ؛ ولا يغتر إذا ما استجابت له الجماهير ،

أو دانت له الرقاب . فإنما هو أجير .

ولقد آمنت العصبة الأولى من المسلمين إيماناً كاملاً أثر في نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم تأثيراً عجيباً . وكانت صورة الإيمان في نفس البشرية قد بهتت وغمضت حتى فقدت تأثيرها في أخلاق الناس وسلوكهم ، فلما أن جاء الإسلام أنشأ صورة للإيمان حية مؤثرة فاعلة تصلح بها هذه العصبة للقيادة التي وضعت على عاتقها .

(255/688)

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه : " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " . عن هذا الإيمان :

" انحلت العقدة الكبرى عقدة الشرك والكفر فانحلت العقد كلها ؛ وجاهدهم الرسول جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي ؛ وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة ؛ وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . . . . "

" حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم وأنصفوا من

أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة ، وفي اليوم رجال الغد ، لا تجزعهم مصيبة ، ولا تبطرهم نعمة ، ولا يشغلهم فقر ، ولا يطغيهم غنى ، ولا تلهيهم تجارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله على أنفسهم أو الوالدين والأقربين . . وطأ لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا عصمة للبشرية ، ووقاية للعالم . وداعية إلى دين الله . . . "

ويقول عن تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول :

"كان الناس عرباً وعجماً يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ، ولا يعذب العاصي بعقوبة ، ولا يأمر ولا ينهى ؛ فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ؛ فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر ، وتولوا إدارة المملكة وتدبير شؤونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة .

(256/688)

فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله ، وإحالتهم خلق السماوات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ ، يقال له : من بني هذا القصر العتيق ؟ فيسمي ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة ، لا تبعث في نفوسهم هيبة ولا محبة " . .

(257/688)

" . . . انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها . آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى . آمنوا برب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، العزيز ، الحكيم ، الغفور ، الودود ، الرؤوف ، الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه . . إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه . يثيب بالجنة ويعذب بالنار ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء في السماوات والأرض ، يعلم خائنة

الأعين وما تخفي الصدور . إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه . فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلاباً عجيبا . فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن . تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها . وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلاً غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق " .

(258/688)

" وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ، ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ؛ حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ، ولا تتناوله يد القانون ، تحول هذا الإيمان نفساً لوامة عنيفة ، ووخزاً لاذعاً للضمير ، وخيالاً

مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً ، تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة " . .

" . . . وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه النّزع أمام المطامع والشهوات الجارفة ؛ وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحدا .

وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف عند المغنم ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والإخلاص لله ، ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره ، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ، ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان " .

(259/688)

" وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ، ولا يقرون بنظام ، ولا ينخرطون في سلك ، يسيرون على الأهواء ، ويركبون العمياء ، ويخبطون خبط عشواء . فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان ، والأمر والنهي ، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم المقادة ، واستسلموا

للحكم الإلهي استسلاماً كاملاً ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم ، وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالاً ولا نفساً ولا تصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ، ولا يرضون ولا يسخطون ، ولا يعطون ولا يمنعون ، ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره " .

وهذا هو الإيمان الذي تشير إليه الآية وهي تصف الجماعة التي اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة . ومن مقتضيات هذا الإيمان التوكل على الله . ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويميزها :

﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ . .

وهذا التقديم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضي التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد في أول صورة من صوره . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئاً إلا بمشيئته ، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلا بإذنه . ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه في فعل ولا ترك لمن عداه .

وهذا الشعور ضروري لكل أحد ، كي يقف رافع الرأس لا يحني رأسه إلا لله . مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحدا إلا الله . ثابت الجأش في الضراء ؛ قرير النفس في السراء ، لا تستطيره نعماء ولا بأساء . . ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد ، الذي يحتمل تبعة

ارتياد الطريق .

﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾ . .

(260/688)

وطهارة القلب ، ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش ، أثر من آثار الإيمان الصحيح . وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة . وما يبقى قلب على صفاء الإيمان ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها . وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره .

ولقد ارتفع الإيمان بالحساسية المرهفة في قلوب العصبة المؤمنة ، حتى بلغت تلك الدرجة التي أشارت إليها المقتطفات السابقة ((صلى الله عليه وسلم) 77) وأهلت الجماعة الأولى لقيادة البشرية قيادة غير مسبوقة ولا ملحوقة .

ولكنها كالسهم يشير إلى النجم ليهتدي به من يشاء في معترك الشهوات !

والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشري ، فيجعل الحد الذي يصلح به للقيادة ، والذي ينال معه ما عند الله ، هو اجتناب كبائر الإثم والفواحش . لا صغائر الإثم والذنب . وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر ، لأنه أعلم بطاقته . وهذا فضل من الله وسماحة ورحمة

بهذا الإنسان ؛ توجب الحياء من الله ، فالسماحة تخجل والعفو يثير في القلب الكريم معنى الحياء .

﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ . .

وتأتي هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان في ذنوبه وأخطائه ، فتحبب في السماحة والمغفرة بين العباد . وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون .

(261/688)

وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية ؛ فهو لا يكلف الإنسان فوق طاقته . والله يعلم أن الغضب انفعال بشري ينبع من فطرته . وهو ليس شراً كله . فالغضب لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير . ومن ثم لا يحرم الغضب في ذاته ولا يجعله خطيئة . بل يعترف بوجوده في الفطرة والطبيعة ، فيعفي الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه . ولكنه في الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه ، وأن يغفر ويعفو ، ويحسب له هذا صفة مثلى من صفات الإيمان المحببة . هذا مع أنه عرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يغضب لنفسه قط ، إنما كان يغضب لله ، فإذا غضب لله لم يقم

لغضبه شيء . ولكن هذه درجة تلك النفس المحمدية العظيمة ؛ لا يكلف الله نفوس المؤمنين إياها . وإن كان يحببهم فيها . إنما يكتفي منهم بالمغفرة عند الغضب ، والعفو عند القدرة ، والاستعلاء على شعور الانتقام ، ما دام الأمر في حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد .

﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ . .

فأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول . وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . . عوائق من شهواتها ونزواتها . عوائق من وجودها هي وتشبثها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً وموصولا . وحينئذ تستجيب بلا عائق . تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها . . وهذه هي الاستجابة في عمومها . . ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة :

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ . .

وللصلاة في هذا الدين مكانة عظمة ، فهي التالية للقاعدة الأولى فيه . قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهي صورة الاستجابة الأولى لله . وهي الصلة بين العبد وربه . وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد ركعاً سجداً ، لا يرتفع رأس على رأس ، ولا تتقدم رجل على رجل !

ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى قبل أن يذكر الزكاة :

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾

والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة .

وهو كما قلنا نص مكي . كان قبل قيام الدولة الإسلامية . فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين . إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد .

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية . والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية .

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكراً ، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها . إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية . وهي من ألزم صفات القيادة .

أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي ؛ فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان ، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة ، وليست نصوصاً حرفية ، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء . . وليس هذا كلاماً عائماً غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية . فهذه العقيدة في أصولها الاعتقادية البحتة ، وقبل أي التفات إلى الأنظمة فيها تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشري ، يهيئ لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ؛ ثم تجيء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها . ولكي يقوم أي شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لا بد قبلها من وجود مسلمين ، ومن وجود إيمان ذي فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفي بالحاجة ، ولا تحقق نظاماً يصح وصفه بأنه إسلامي . .

ومتى وجد المسلمون حقاً ، ووجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته ، نشأ النظام الإسلامي نشأة ذاتية ، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها ؛ وتحقق المبادئ

الإسلامية الكلية خير تحقيق .

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . .

وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التي حددت في السنة الثانية من الهجرة .

ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيها مبكراً في حياة الجماعة الإسلامية . بل إنه ولد مع مولدها .

(264/688)

ولا بد للدعوة من الإنفاق . لا بد منه تطهيراً للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الملك ، وثقة بما عند الله . وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان . ثم إنها ضرورية كذلك لحياة الجماعة . فالدعوة كفاح . ولا بد من التكافل في هذا الكفاح وجرائره وآثاره .

وأحياناً يكون هذا التكافل كاملاً بحيث لا يبقى لأحد مال متميز .

كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ، ونزولهم على إخوانهم في المدينة .

حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق في الزكاة .

وعلى أية حال فالإنفاق في عمومه سمة من سمات الجماعة المؤمنة المختارة للقيادة بهذه الصفات . .

﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ .

وذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة كما سلف . فهي تقرير لصفة أساسية في الجماعة المسلمة . صفة الانتصار من البغي ، وعدم الخضوع للظلم . وهذا طبيعي بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة . لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتهيمن على حياة البشرية بالحق والعدل ؛ وهي عزيزة بالله . ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغي وأن تدفع العدوان .

وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية في مكة ، ولمقتضيات تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ، أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة .

ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة والصبر في العهد المكي :

(265/688)

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مسيطرة على الجماعة . فالوضع السياسي والاجتماعي في الجزيرة كان وضعاً قبلياً مخلخلاً . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إن كان ذا نسب ، ولم يكن أحد غير

خاصة أهله يجرؤ على إيذائه ولم يقع إلا في الندرة أن وقع اعتداء جماعي على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة كما كان السادة يؤذون مواليهم إلى أن يشتريهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ على إيذائهم غالباً . ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يحب أن تقع معركة في كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسالمة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تثور لصاحب الحق الذي يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة في صف الإسلام والمسلمين . وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشعب وحصر بني هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذي حوته الصحيفة ، ونقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف ، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام . والتوازن في الشخصية الإسلامية كان يقتضي كبح جماح هذا التوفز الدائم ، وإخضاعها لهدف ، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغنم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التوازن في الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق .

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسالمة والصبر في مكة .

مع تقرير الطابع الأساسي الدائم للجماعة المسلمة : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ . .

ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة في الحياة :

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ . .

(266/688)

فهذا هو الأصل في الجزاء . مقابلة السيئة بالسيئة ، كي لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لا يجد رادعاً يكفه عن الإفساد في الأرض فيمضي وهو آمن مطمئن !

ذلك مع استحباب العفو ابتغاء أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد . وهو استثناء من تلك القاعدة . والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة . فهنا يكون العفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدي والمسامح سواء . فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ولم يجئ ضعفا يخجل ويستحيي ، ويحس بأن خصمه الذي عفا هو الأعلى . والقوي الذي يعفو تصفو نفسه وتعلو . فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا . ولا كذلك عند الضعف والعجز . وما يجوز أن يذكر العفو عند العجز . فليس له ثمة

وجود . وهو شر يطمع المعتدي ويذلك المعتدى عليه ، وينشر في الأرض الفساد !

﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ . .

وهذا توكيد للقاعدة الأولى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ من ناحية . وإيحاء بالوقوف عند رد المساءة أو العفو عنها . وعدم تجاوز الحد في الاعتداء ، من ناحية أخرى .

وتوكيد آخر أكثر تفصيلا :

﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم ﴾ . .

فالذي ينتصر بعد ظلمه ، ويجزي السيئة بالسيئة ، ولا يعتدي ، ليس عليه من جناح . وهو يزاول حقه المشروع . فما لأحد عليه من سلطان . ولا يجوز أن يقف في طريقه أحد . إنما الذين يجب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق . فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه ؛ وفيها باغ يجور ولا يجد من يقاومه ويقتص منه . والله يتوعد الظالم الباغي بالعذاب الأليم . ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق .

ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة في الحالات الفردية ، وعند المقدرة على الدفع كما هو مفهوم ؛ وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لا استخذاء ؛ وتجملاً لا ذلاً :

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ . .

ومجموعة النصوص في هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين ؛ وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ ، ومن الضعف والذل ، ومن الجور والبغي . وتعلقها بالله ورضاه في كل حال . وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل .

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعاً مميزاً للجماعة التي تقود البشرية وترجو ما عند الله وهو خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . .

وبعد تقرير صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم عنده ما هو خير وأبقى ، يعرض في الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران :

﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ؛ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي ، وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ؛ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ، ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ .

.

إن قضاء الله لا يرد ، ومشيئته لا معقب عليها ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ﴾ . . فإذا علم الله من حقيقة العبد أنه مستحق للضلال ، فحقت عليه كلمة الله أن يكون من أهل الضلال ، لم يكن له بعد ذلك من ولي يهديه من ضلاله ، أو ينصره من جزاء الضلال الذي قدره الله . . والذي يعرض منه مشهداً في بقية الآية :

﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي ﴾ . .

(268/688)

والظالمون كانوا طغاة بغاة ، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء . إنهم يرون العذاب ، فتتهاوى كبرياؤهم . ويتساءلون في انكسار : ﴿ هل إلى مرد من سبيل ؟ ﴾ في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والانهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص ! وهم يعرضون على النار ﴿ خاشعين ﴾ لا من التقوى ولا من الحياء ، لكن من الذل والهوان ! وهم يعرضون منكسي الأبصار ، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار : ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ . . وهي صورة شاخصة ذليلة .

وفي هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف ؛ فهم ينطقون ويقررون : ﴿ وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ . . وهم هؤلاء الذين خسروا كل شيء ، والذين يقفون خاشعين من الذل يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟

ويجيء التعليق العام على المشهد بياناً لمآل هؤلاء المعروضين على النار :

﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله . ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ . .

فقد عدم النصير ، وقد أغلق السبيل .

وفي ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المكابرين ، ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يجدوا لهم ملجأ يقيهم ، ولا نصيراً ينكر مصيرهم الأليم ، ويوجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التخلي عنهم إذا هم أعرضوا فلم يستجيبوا لهذا النذير ؛ فما عليه إلا البلاغ ، وما هو مكلف بهم ولا كفيل :

﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ ﴾ .

.

ثم يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذي يعارض ويعاند ، ويعرض نفسه للأذى والعذاب ،

وهو لا يحتمل في نفسه الأذى ؛ وهو رقيق الاحتمال ، يستطار بالنعمة ، ويجزع من الشدة ، ويتجاوز حده فيكفر من الضيق :

(269/688)

﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ . .

ويعقب على هذا بأن نصيب هذا الإنسان من السراء والضراء ومن العطاء والحرمان كله بيد الله . فما لهذا الإنسان المحب للخير الجزوع من الشر ، يبعد عن الله المالك لأمره في جميع الأحوال :

﴿ لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، إنه عليم قدير ﴾ . .

والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان ؛ وهي قريبة من نفس الإنسان ؛ والنفس شديدة الحساسية بها . فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق . وقد سبق في السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه . فهذه تكملة في الرزق بالذرية . وهي رزق من عند الله كالمال .

والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام. وكذلك ذكر: ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ .. فهي توكيد للإيحاء النفسي المطلوب في هذا الموضع. ورد الإنسان، المحب للخير، إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسرّ وما يسوء ومن عطاء أو حرمان.

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان: فهو يهب لمن يشا إناثا (وهم كانوا يكرهون الإناث) ويهب لمن يشاء الذكور. ويهب لمن يشاء أزواجاً من هؤلاء وهؤلاء. ويحرم من يشاء فيجعله عقيماً (والعقم يكرهه كل الناس) .. وكل هذه الأحوال خاضعة لمشية الله. لا يتدخل فيها أحد سواه. وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته: ﴿ إنه عليم قدير ﴾ ..

وفي ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة التي تدور عليها السورة. حقيقة الوحي والرسالة. يعود إلى هذه الحقيقة ليكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده، وفي أية صورة يكون. ويؤكد أنه قد وقع فعلاً إلى الرسول الأخير صلى الله عليه وسلم لغاية يريدها الله سبحانه. ليهدي من يشاء إلى صراط مستقيم:

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ . .

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة . وقد روي عن عائشة رضي الله عنها : " من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية " إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث : " وحيا " يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله ، ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ .

. كما كلم الله موسى عليه السلام وحين طلب الرؤية لم يجب إليها ، ولم يطق تجلي الله على الجبل ﴿ وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ ﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ وهو الملك ﴿ فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ بالطرق التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأولى : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال : صلى الله عليه وسلم " إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " . والثانية أنه كان صلى الله عليه وسلم يتمثل له الملك رجلاً ، فيخاطبه حتى

يعي عنه ما يقول . والثالثة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها . والرابعة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه . وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

(271/688)

هذه صور الوحي وطرق الاتصال . . ﴿ إنه علي حكيم ﴾ . . يوحي من علو ، ويوحي بحكمة إلى من يختار . . وبعد فإنه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحي أو حديث ، لأتأمل هذا الاتصال إلا أحسست له رجفة في أوصالي . . كيف ؟ كيف يكون هذا الاتصال بين الذات الأزلية الأبدية التي ليس لها حيز في المكان ولا حيز في الزمان ، المحيطة بكل شيء ، والتي ليس كمثلها شيء . كيف يكون هذا الاتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيزة في المكان والزمان ، محدودة بحدود المخلوقات ، من أبناء الفناء ؟ ! ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معاني وكلمات وعبارات ؟

وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلي الأبدي الذي لا حيز له ولا

حدود ؟ ولا شكل له معهود ؟

وكيف ؟ وكيف ؟ . .

ولكني أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف ؟ وأنت لا تملك أن تتصور إلا في حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية ؟ ! لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت في صورة . وصار لها وجود هو الذي تملك أن تدركه من وجود .

ولكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزول ! إن النبوة هذه أمر عظيم حقا . وإن لحظة التلقي هذه لعظيمة حقاً . تلقي الذات الإنسانية لوحي من الذات العلوية . . أخي الذي تقرأ هذه الكلمات ، أأنت معي في هذا التصور ؟ ! أأنت معي تحاول أن تتصور ؟ ! هذا الوحي الصادر من هناك .

(272/688)

أأقول : هناك ؟ ! كلا . إنه ليس هناك " هناك " ! الصادر من غير مكان ولا زمان ، ولا حيز ولا حد ولا جهة ولا ظرف . الصادر من المطلق النهائي ، الأزلي الأبدي ، الصادر من الله ذي الجلال إلى إنسان . . إنسان مهما يكن نبياً رسولاً ، فإنه هو هذا الإنسان ذو الحدود والقيود . . هذا الوحي . هذا الاتصال العجيب . المعجز . الذي لا يملك إلا الله

أن يجعله واقعة تتحقق ، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق . . أخي الذي تقرأ هذه الكلمات . هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارات المتقطعة التي أحاول أن أنقل بها ما يخالج كياني كله ؟ إنني لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كياني كله من الروعة والرجفة وأنا أحاول أن أتصور ذلك الحدث العظيم العجيب الخارق في طبيعته ، والخارق في صورته ، الذي حدث مرات ومرات . وأحس بحدوثه ناس رأوا مظاهره رأي العين ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه عائشة رضي الله عنها تشهد من هذه اللحظات العجيبة في تاريخ البشرية فتروي عن واحدة منها تقول : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة . هذا جبريل يقرئك السلام " قلت : وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى ما لا نرى " وهذا زيد بن ثابت رضي الله عنه يشهد مثل هذه اللحظة وفخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ، وقد جاءه الوحي فثقلت حتى كادت ترض فخذه . وهؤلاء هم الصحابة رضوان الله عليهم في مرات كثيرة يشهدون هذا الحادث ويعرفونه في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم فيدعونه للوحي حتى يسرى عنه ، فيعود إليهم ويعودون إليه . .

ثم . . أية طبيعة . طبيعة هذه النفس التي تتلقى ذلك الاتصال العلوي الكريم ؟ أي جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذي يتصل بهذا الوحي ، ويختلط بذلك العنصر ، ويتسق مع طبيعته وفحواه ؟

إنها هي الأخرى مسألة ! إنها حقيقة . ولكنها تتراءى هنالك بعيداً على أفق عال ومرتقى صاعد ، لا تكاد المدارك تتملاه .

(273/688)

روح هذا النبي صلى الله عليه وسلم روح هذا الإنسان . كيف يا ترى كانت تحس بهذه الصلة وهذا التلقي ؟ كيف كانت تتفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجد الوجود في هذه اللحظات العجيبة التي يتجلى فيها الله على الوجود ؛ والتي تتجاوب جنباته كلها بكلمات الله ؟

ثم . . أية رعاية ؟ وأية رحمة ؟ وأية مكرمة ؟ . . والله العلي الكبير يتلطف فيعنى بهذه الخليقة الضئيلة المسماة بالإنسان . فيوحي إليها لإصلاح أمرها ، وإنارة طريقها ، ورد شاردها . . وهي أهون عليه من البعوضة على الإنسان ، حين تقاس إلى ملكه الواسع العريض ؟

إنها حقيقة . ولكنها أعلى وأرفع من أن يتصورها الإنسان إلا تطلعاً إلى الأفق السامق الوضيء :

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان .

(وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور) .

(وكذلك) . بمثل هذه الطريقة , وبمثل هذا الاتصال . (أوحينا إليك) . . فالوحي تم بالطريقة المعهودة , ولم يكن أمرك بدعا . أوحينا إليك (روحاً من أمرنا) . . فيه حياة , يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها في القلوب وفي الواقع العملي المشهود . (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) . . هكذا يصور نفس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو أعلم بها , قبل أن تتلقى هذا الوحي . وقد سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الكتاب وسمع عن الإيمان , وكان معروفاً في الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم , وأن لهم عقيدة , فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو اشتمال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها في الضمير . وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذي لابس قلب محمد – عليه صلوات الله .

(ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء) . . وهذه طبيعته الخالصة . طبيعة هذا الوحي .

هذا الروح . هذا الكتاب . إنه نور . نور تخالط بشاشته القلوب التي يشاء لها الله أن تهتدي به , بما يعلمه من حقيقتها , ومن مخالطة هذا النور لها .

(وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) . . وهناك توكيد على تخصيص هذه المسألة , مسألة الهدى , بمشيئة الله سبحانه , وتجريدها من كل ملابسة , وتعليقها بالله وحده يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص , الذي لا يعرفه سواه ; والرسول (صلى الله عليه وسلم) واسطة لتحقيق مشيئة الله , فهو لا ينشىء الهدى في القلوب ; ولكن يبلغ الرسالة , فتقع مشيئة الله .

(275/688)

(وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض) .

. فهي الهداية إلى طريق الله , الذي تلتقي عنده المسالك . لأنه الطريق إلى المالك , الذي له ما في السماوات وما في الأرض ; فالذي يهتدي إلى طريقه يهتدي إلى ناموس السماوات والأرض , وقوى السماوات والأرض , ورزق السماوات والأرض , واتجاه السماوات والأرض إلى مالكها العظيم . الذي إليه تتجه , والذي إليه تصير:

(ألا إلى الله تصير الأمور) . .

فكلها تنتهي إليه , وتلتقي عنده , وهو يقضي فيها بأمره .

وهذا النور يهدي إلى طريقه الذي اختار للعباد أن يسيروا فيه , ليصيروا إليه في النهاية مهتدين طائعين .

وهكذا تنتهي السورة التي بدأت بالحديث عن الوحي . وكان الوحي محورها الرئيسي . وقد عالجت قصة الوحي منذ النبوات الأولى . لتقرر وحدة الدين , ووحدة المنهج , ووحدة الطريق . ولتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة في رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) وفي العصبة المؤمنة بهذه الرسالة . ولتكل إلى هذه العصبة أمانة القيادة إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز , الذي تصلح به للقيادة , وتحمل به هذه الأمانة . الأمانة التي تنزلت من السماء إلى الأرض عن ذلك الطريق العجيب العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3157.3172 ﴾

(276/688)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24) ﴾

قوله : ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ : هذا مستأنَفٌ غيرُ داخلٍ في جزاءِ الشرطِ ، لأنه تعالى يمحو الباطلَ مطلقاً ، وسَقَطت الواوُ منه لفظاً لالتقاءِ الساكنين في الدَّرْج ، وخَطَّاً حَمْلاً للخط على اللفظِ كما كتبوا ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] عليه ولكن ينبغي أَنْ لا يجوزَ الوقفُ على هذا ؛ لأنه إنْ وَقَفَ عليه بالأصلِ ، وهو الواوُ ، خالَفْنا خطَّ المصحفِ ، وإنْ وَقَفْنا بغيرها موافَقَةً للرسمِ خالَفْنا الأصلَ ، وقد مَرَّ لك بحثُ مثلِ هذا . وقد مَنَعَ مكي الوقفَ على نحوِ ﴿ وَمَن تَقِ السيئات ﴾ [غافر : 9] وبابه .

قوله : " ما تَفْعَلُون " قرأ الأخوَان وحفص " تَفْعلون " بالتاءِ مِنْ فوقُ نظراً إلى قولِه : " عن عبادِه " . والباقون بالخطاب إقبالاً على الناسِ عامَّة .

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26)

قوله : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين آمَنُواْ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ الموصولُ فاعلاً أي : يُجيبون ربَّهم إذا دعاهُمْ كقولِه : ﴿ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم ﴾ [الأنفال : 24] . واستجابَ كأَجاب . ومنه :

3973 وداعٍ دَاعٍ يا مَنْ يُجيب إلى النَّدى . . . فلم يَسْتَجِبْه عند ذاكَ مُجيبُ

ويجوز أَنْ تكونَ السينُ للطلب على بابِها بمعنى : ويُسْتَدْعَى المؤمنون للإجابة عن ربِّهم بالأعمالِ الصالحة . ويجوز أَنْ يكونَ الموصولُ مفعولاً به ، والفاعلُ مضمرٌ يعودُ على الله بمعنى : ويُجيب اللَّهُ الذين آمنوا أي : دعاهم . وقيل : ثَمَّ لامٌ مقدرةٌ أي : ويَسْتجيب الله للذين آمنوا فَحَذَفها للعِلْم بها .

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

قوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ : " ما " مصدريَّةٌ أي : مِنْ قُنوطهم . والعامَّةُ على فتح النون . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش بكسرِها وهي لغةٌ ، وعليها قُرِئ "يَقْنَطُ" ﴿ لاَ تَقْنَطُواْ ﴾ [الزمر : 53] بفتحِ النونِ في المتواتر . ولم يُقْرَأ بالكسر في الماضي إلاَّ شاذاً .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29)

قوله : ﴿ وَمَا بَثَّ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ مجرورةَ المحلِّ عطفاً على " السماواتِ " أو مرفوعتَه عطفاً على " خَلْقُ " على حَذفِ مضافٍ أي : وخَلْقُ ما بَثَّ ، قاله الشيخ . وفيه نظر ؛ لأَنَّه يَؤُول إلى جرِّه بالإضافةِ لخَلْق المقدَّرِ ، فلا يُعْدَلُ عنه .

قوله : " فيهما " أي : السماوات والأرض . والسماءُ لا ذَوات فيها فقيل : هو مثلُ قولِه : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ ، [الكهف : 61] ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] . وقيل : بل خَلَقَ في السماء مَنْ يَدِبُّ . وقيل : مِن الملائكةِ مَنْ يمشي مع طَيَرانه . وقال الفارسي : " هو على حَذْفِ مضافٍ أي : وما بَثَّ في أحدِهما " وهذا إلغازٌ في الكلام .

(278/688)

قوله : " إذا يَشاء " " إذا " منصوبةٌ ب " جَمْعِهم " لا ب " قديرٌ " . قال أبو البقاء : " لأنَّ ذلك يُؤَدِّي إلى أَنْ يَصيرَ المعنى : وهو على جَمْعِهم قديرٌ إذا يشاء ، فتتعلَّقُ القدرةُ بالمشيئةِ وهو مُحالٌ " . قلت : ولا أَدْري ما وجهُ كونِه مُحالاً على مذهبِ أهلِ السُّنة ؟ فإنْ كان يقولُ بقولِ المعتزلةِ : وهو أنَّ القدرةَ تتعلَّق بما لم يَشَأ الله يمشي كلامُه ، ولكنه مذهبٌ رديءٌ لا يجوزُ اعتقادُه ، ونقول : يجوزُ تعلُّقُ الظرفِ به أيضاً .

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30)

قوله : ﴿ فَبِمَا ﴾ : قرأ نافعٌ وابنُ عامر " بما " دونَ فاءٍ . والباقون " فبما " بإثباتِها . ف " ما " في القراءةِ الأولى الظاهرُ أنَّها موصولةٌ بمعنى الذي ، والخبر الجارُّ مِنْ قولِه : " بما كَسَبَتْ

" . وقال قومٌ منهم أبو البقاء : إنَّها شرطيةٌ حُذِفَتْ منها الفاءُ . قال أبو البقاء : "كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 121] . وقولِ الشاعر :

3974 مَنْ يَفْعَلِ الحسناتِ اللَّهُ يَشْكُرُها . . . . . .

. . . . . .

وهذا ليس مذهبَ الجمهورِ ، إنما قال به الأخفشُ وبعضُ البغداديين . وأما الآية ف " إنَّكم لَمُشْرِكون " ليس جواباً للشرط ، إنما هو جوابٌ لقَسمٍ مقدرٍ حُذِفَتْ لامُه الموطِّئَةُ قبل أداةِ الشرطِ .

وأمَّا القراءةُ الثانيةُ فالظاهرُ أنها فيها شرطيةٌ ، ولا يُلْتَفَتُ لقولِ أبي البقاء : " إنَّه ضعيفٌ " . ويجوزُ أَنْ تكونَ الموصولةَ ، والفاءُ داخلةٌ في الخبر تشبيهاً للموصولِ بالشرط ، بشروطٍ ذكَرْتُها مُسْتوفاةً في هذا الموضوعِ بحمدِ الله تعالى . وقد وافق نافعٌ وابنُ عامرٍ مصاحفَهما ؛ فإنَّ الفاءَ ساقطةٌ من مصاحفِ المدينةِ والشامِ ، وكذلك الباقون فإنها ثابتةٌ في مصاحفِ مكةَ والعراقِ .

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32)

قوله : ﴿ الجوار ﴾ : أي : السفنُ الجواري . فإن قلت : الصفةُ متى لم تكن خاصَّةً بموصوفِها امتنع حَذْفُ الموصوفِ . لا تقولُ : مررتُ بماشٍ ؛ لأنَّ المَشْيَ عامٌّ . وتقول : مررتُ بمهندسٍ وكاتبٍ ، والجَرْيُ ليس من الصفاتِ الخاصةِ فما وجهُ ذلك ؟ فالجوابُ : / أنَّ قولَه : " في البحر " قرينةٌ دالَّةٌ على الموصوفِ . ويجوزُ أَنْ تكونَ هذه صفةً غالبةً كالأَبطَحِ والأَبرَقِ ، فَوَلِيَتِ العواملَ دونَ موصوفِها .

و" في البحر " متعلقٌ ب " الجوَاري " إذا لم يَجْرِ مَجْرى الجوامدِ . فإنْ جَرَى مَجْراه كان حالاً منه ، وكذا قولُه : " كالأَعْلام " هو حالٌ أي : مُشْبِهةً بالأعلام - وهي الجبالُ - كقول الخنساء :

3975 وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ به . . . كأَنَّه عَلَمٌ في رأسِه نارُ

وسُمِع : هذه الجَوارُ ، وركبْتُ الجوارَ ، وفي الجوارِ ، بالإعراب على الراءِ تناسياً للمحذوفِ . وقد تقدَّم هذا في قولِه : ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] في الأعراف .

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) ﴾

قوله : ﴿ فَيَظْلَلْنَ ﴾ : العامَّةُ على فتحِ اللامِ التي هي عينٌ ، وهو القياسُ ؛ لأنَّ الماضيَ بكسرِها ، تقول : ظَلِلْتُ قائماً . وقرأ قتادةُ بكَسْرِها ، وهو شاذٌ نحو : حَسِبَ يَحْسِب وأخواتِه وقد تقدَّمَتْ . . . وقال الزمخشري : " مِنْ ظَلَّ يَظَلُّ ويَظِلُّ ، نحو : ضَلَّ يَضَلُّ ويَضِلُّ " . قال الشيخ : " وليس كما ذَكر ؛ لأنَّ يَضَلُّ بفتح العين مِنْ ضَلِلْتُ بكسرِها في الماضي ، ويَضِلُّ بالكسر مِنْ ضَلَلْتُ بالفتحِ وكلاهما مَقيسٌ " يعني أنَّ كلاً منهما له أصلٌ يَرْجِعُ إليه بخلافِ " ظَلَّ " فإنَّ ماضيَه مكسورُ العينِ فقط .

والنون اسمُها ، " ورَواكدَ " خبرُها . ويجوزُ أَنْ تكونَ " ظَلَّ " هنا بمعنى صار ؛ لأنَّ المعنى ليس على وقتِ الظُّلول وهو النهارُ فقط ، وهو نظيرُ : " أين باتَتْ يدُه " من هذه الحيثيَّةِ .

والرُّكودُ : الثبوتُ والاستقرارُ قال :

3976 وقد رَكَدَتْ وسطَ السماءِ نجومُها . . . رُكوداً بوادِي الرَّبْرَبِ المتفرِّقِ

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34)

قوله : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ : عطفٌ على " يُسْكِنْ " قال الزمخشري : " لأنَّ المعنى : إنْ يَشَأْ يُسْكِن فيركَدْن . أو يَعْصِفْها فيَغْرَقْنَ بعَصْفِها " .

قال الشيخ : " ولا يَتَعَيَّنُ أَنْ يكونَ التقديرَ : أو يَعْصِفْها فيَغْرَقْنَ ؛ لأنَّ إهْلاكَ السفنِ لا يَتَعَيَّنُ

أَنْ يكونَ بعَصْفِ الريح ، بل قد يُهْلِكُها بقَلْعِ لوحٍ أو خَسْفٍ " . قلت : والزمخشريُّ لم يذكُرْ أنَّ ذلك مُتَعَيِّنٌ ، وإنما ذَكَرَ شيئاً مناسباً ؛ لأنَّ قوله : "يُسْكِنِ الريحَ" يقابِلُه "يعْصِفْها" فهو في غايةِ الحُسْنِ والطِّباق .

(281/688)

قوله : "ويَعْفُ" العامَّةُ على الجزمِ عطفاً على جزاءِ الشرط . واستشكلَه القُشَيْرِيُّ قال : "لأنَّ المعنَى : إن يَشَأْ يُسْكِنِ الريحَ فتبقى تلك السفنُ رواكدَ ، أو يُهْلِكْها بذنوبِ أهلها فلا يَحْسنُ عَطْفُ "ويَعْفُ" على هذا ؛ لأنَّ المعنى يَصير : إنْ يَشَأْ يَعْفُ ، وليس المعنى [على] ذلك بل المعنى : الإخبارُ عن العفوِ مِنْ غيرِ شرطِ المشيئةِ ، فهو عطفٌ على المجزومِ من حيث اللفظُ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قومٌ "ويَعْفُو" بالرفع وهي جيدةٌ في المعنى " .

قال الشيخ : وما قاله ليس بجيدٍ إذ لم يَفْهَمْ مدلولَ التركيبِ والمعنى ، إلاَّ أنَّه تعالى إنْ يَشَأْ أهلك ناساً وأَنْجَى ناساً على طريقِ العَفْوِ عنهم " .

وقرأ الأعمش "ويَعْفُوْ" بالواو . وهي تحتمل أَنْ يكونَ كالمجزومِ ، وثَبَتَتِ الواوُ في الجزمِ كثبوتِ الياء في ﴿ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ [يوسف : 90] . ويُحتمل أَنْ يكونَ الفعلُ مرفوعاً ، أخبر تعالى أنَّه يَعْفو عن كثيرٍ من السيئات . وقرأ بعضُ أهلِ المدينة بالنصب ، بإضمارِ "

أَنْ " بعد الواوِ كنَصْبِه في قولِ النابغة :

3977 فإنْ يَهْلَكْ أبو قابوسَ يَهْلَكْ . . . ربيعُ الناسِ والبلدُ الحرَامُ

ونأخذْ بعدَه بذِنابِ عَيْشٍ . . . أجَبَّ الظهرِ ليس له سَنامُ

بنصبِ " ونَأْخُذ " ورفعِه وجزْمِه . وهذا كما قُرِئ بالأوجه الثلاثة بعد الفاءِ في قولِه تعالى : ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 284] وقد تقدَّم تقريرُه آخرَ البقرةِ ، ويكونُ قد عَطَفَ هذا المصدرَ المؤولَ مِنْ " أَنْ " المضمرةِ والفعلِ على مصدرٍ مُتَوَهَّمٍ من الفعلِ قبلَه . تقديرُه : أو يقع إيباقٌ وعَفْوٌ عن كثيرٍ . فقراءةُ النصبِ كقراءةِ الجزمِ في المعنى ، إلاَّ أنَّ في هذه عَطْفَ مصدرٍ مؤولٍ على مصدرٍ مُتَوَهَّمٍ ، وفي تَيْكَ عطفَ فعلٍ على مثلِه .

(282/688)

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35)

قوله : ﴿ وَيَعْلَمَ الذين يُجَادِلُونَ ﴾ : قرأ نافعٌ وابنُ عامر برفعِه . والباقون بنصبِه . وقُرِئ بجزمِه أيضاً . فأمَّا الرفعُ فهو واضحٌ جداً ، وهو يحتملُ وجهين : الاستئنافَ بجملةٍ فعليةٍ ، والاستئنافَ بجملةٍ اسميةٍ ، فتُقَدِّرُ قبل الفعل مبتدأً أي : وهو يعلمُ الذين ، فالذين على الأول فاعلٌ ، وعلى الثاني مفعولٌ . فأمَّا قراءةُ النصبِ ففيها أوجهٌ ، أحدُها : قال الزجَّاج

: " على الصَّرْف " . قال : " ومعنى الصرفِ صَرْفُ العطف عن اللفظ إلى العطفِ على المعنى " . قال : " وذلك أنَّه لَمَّا لم يَحْسُنْ عطفُ " ويعلَمْ " مجزوماً على ما قبلَه إذ يكونُ المعنى : إنْ يَشَأْ/يَعْلَمْ ، عُدِل إلى العطف على مصدرِ الفعلِ الذي قبلَه . ولا يتأتَّى ذلك إلاَّ بإضمار " أنْ " ليكونَ مع الفعلِ في تأويلِ اسم " .

الثاني : قولُ الكوفيين أنه منصوبٌ بواوِ الصرف . يَعْنُون أنَّ الواوَ نفسَها هي الناصبةُ لا بإضمارِ " أنْ " ، وتقدَّم معنى الصرف .

الثالث : قال الفارسيُّ – ونقله الزمخشري عن الزجاج – إن النصب على إضمار " أنْ " ؛ لأنَّ قبلها جزاءً تقول : " ما تصنعْ أصنعْ وأكرمَك " وإنْ شِئْتَ : وأكرمُك ، على وأنا أكرِمُك ، وإنْ شِئْتَ " وأكرمْك " جزْماً . قال الزمخشري : " وفيه نظرٌ ؛ لِما أَوْردَه سيبويه في كتابه " قال : " واعلَمْ أنَّ النصبَ بالواوِ والفاء في قوله : " إنْ تَأْتِني آتِك وأعطيكَ " ضعيفٌ ، وهو نحوٌ مِنْ قولِه :

3978 . . . . . وأُلْحَقُ بالحجازِ فَأَسْتريحا

(283/688)

فهذا لا يجوزُ ، لأنه ليس بجَدّ الكلامِ ولا وجهه ، إلاَّ أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً ؛ لأنه ليس بواجبٍ أنَّه يفعلُ ، إلاَّ أَنْ يكونَ من الأولِ فِعْلٌ ، فلمَّا ضارَعَ الذي لا يُوْجِبُهُ كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضَعْفِه " . قال الزمخشري : " ولا يجوز أَنْ تُحْمَلَ القراءةُ المستفيضةُ على وجهٍ ليس بجَدّ الكلامِ ولا وجهه ، ولو كانَتْ من هذا البابِ لَما أَخْلَى سيبويه منها كتابَه ، وقد ذَكَرَ نظائرَها مِن الآياتِ المُشْكِلة " .

الرابع : أَنْ ينتصِبَ عطفاً على تعليلٍ محذوفٍ تقديرُه : لينتقمَ منهم ويعلمَ الذين ، ونحوُه في العطفِ على التعليلِ المحذوفِ غيرُ عزيزٍ في القرآن . ومنه : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم : 21] وخَلَقَ اللَّهُ السماواتِ والأرضَ بالحقّ ، ولِتُجْزَى " قاله الزمخشري . قال الشيخ : " ويَبْعُدُ تقديرُه : لِيَنْتَقِمَ منهم ؛ لأنه تَرَتَّبَ على الشرطِ إهلاكُ قومٍ ونجاةُ قومٍ فلا يَحْسُنُ لينتَقِمَ منهم . وأمَّا الآيتان فيمكنُ أَنْ تكونَ اللامُ متعلقةً بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه : ولنجعلَه آيةً للناسِ فَعَلْنا ذلك ، ولْتُجزَى كلُّ نفسٍ فَعَلْنا ذلك ، وهو – كثيراً – يُقَدّرُ هذا الفعل مع هذه اللامِ إذا لم يكنْ فعلٌ يتعلَّقُ به " . قلت : بل يَحْسُنُ تقديرُ " لينتقمَ " لأَنَّه يعودُ في المعنى على إهلاكِ قومٍ المترتبِ على الشرط .

وأمَّا الجزمُ فقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف يَصِحُّ المعنى على جزم " ويعلَمْ " ؟ قلت : كأنه قيل : إنْ يَشَأْ يَجْمَعْ بين ثلاثةِ أمور : إهلاكِ قومٍ ، ونجاةِ قومٍ ، وتحذيرِ آخرين " . وإذا

قُرِئَ بالجزم فتُكْسَرُ الميمُ لالتقاءِ الساكنين .

قوله : ﴿ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ في محلِّ نصبٍ لسَدِّها مَسَدَّ مفعولَيْ العِلْم .

(284/688)

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36)

قوله : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ ﴾ : " ما " شرطيةٌ . وهي في محلِّ نصبٍ مفعولاً ثانياً ل " أُوْتِيتم " والأولُ هو ضميرُ المخاطبين قامَ مقامَ الفاعلِ ، وإنما قَدَّم الثاني لأنَّ له صَدْرَ الكلامِ .

قوله : " مِنْ شَيءٍ " بيانٌ ل " ما " الشرطيةِ لما فيها من الإبهام .

قوله : " فمتاعُ " الفاءُ جوابُ الشرطِ ، و " متاعُ " خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : فهو متاع . قوله : ﴿ وَمَا عِندَ الله ﴾ " ما " موصولةٌ مبتدأةٌ ، و " خيرٌ " خبرها ، و " الذين " متعلِّقٌ ب " أَبْقَى " .

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37)

قوله : ﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ : نَسَقٌ على " الذين " الأولى . وقال أبو البقاء : " الذين يَجْتَنبون في موضعِ جرّ بدلاً مِنْ " للذين آمنوا " . ويجوز أَنْ يكونَ في موضع نصبٍ بإضمار

أعني ، أو في موضع رفعٍ على تقدير : هم " . وهذا وهمٌ منه في التلاوةِ كأنه اعتقد أنَّ القرآن ﴿ وعلى ربِّهِمْ يَتوَكَّلُونَ ، والذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ فبنى عليه ثلاثةَ الأوجهِ بناءً فاسداً .

قوله : "كبائرَ" قرأ الأخوان هنا وفي النجم "كبيرَ الإِثم" بالإِفراد . والباقون "كبائرَ" بالجمع في السورتَيْن . والمفردُ هنا في معنى الجمع ، والرسمُ يحتمل القراءتَيْن .

(285/688)

قوله : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ ﴾ هذه "إذا" منصوبةٌ ب "يَغْفِرُون" ، و "يَغْفِرُون" خبرُ "هم" ، والجملةُ بأَسْرِها عطفٌ على الصلة ، وهي "يَجْتَنِبون" والتقدير : والذين يَجْتَنِبون وهم يَغْفِرون ، عَطَفَ اسميةً على فعليةٍ . ويجوز أَنْ يكون "هم" توكيداً للفاعل في قوله : "غَضِبوا" ، وعلى هذا فيَغْفِرون جوابُ الشرطِ . وقال أبو البقاء : "هم مبتدأٌ ويَغْفِرون الخبرُ ، والجملةُ جوابُ إذا" وهذا غيرُ صحيحٍ ؛ لأَنَّه لو كان جواباً لـ "إذا" لاقترن بالفاء . تقول : "إذا جاء زيدٌ فعمروٌ منطلق" ولا يجوز : "عمروٌ ينطلق" وقيل : "هم" مرفوع بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّره "يَغْفِرون" بعده ، ولَمَّا حُذِفَ الفعلُ انفصلَ الضميرُ ولم يَسْتَبْعِدْه الشيخُ . وقال : "ينبغي أَنْ يجوزَ ذلك في مذهبِ سيبويه ؛ لأنه أجازه في الأداةِ الجازمةِ ، تقول : "إنْ يَنْطَلِقْ ، زيدٌ يَنْطَلِق" تقديرُه : ينطلِقْ زيدٌ ينطلِقْ . فـ "ينطلقْ" واقعٌ جواباً ، ومع ذلك

فَسَّر الفعلَ فكذلك هذا ، وأيضاً فذلك/ جائزٌ في فعلِ الشرطِ بعدَها نحو : ﴿ إذَا السمآء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] فليَجُزْ في جوابِها أيضاً " .

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

قوله : ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ : كقولِه ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ سواءً ويجيْء فيه ما تقدَّم . إلاَّ أنَّه يزيدُ هنا أنه يجوز أَنْ يكونَ " هم " توكيداً للضميرِ المنصوبِ في " أصابَهم " أكَّد بالضميرِ المرفوعِ وليس فيه إلاَّ الفصلُ بين المؤكَّدِ والمؤكّد بالفاعلِ . والظاهر أنَّه غيرُ ممنوعٍ .

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (41)

(286/688)

قوله : ﴿ وَلَمَنِ انتصر ﴾ : هذه لامُ الابتداءِ . وجعلها الحوفي وابنُ عطيَّة للقسم . وليس بجيدٍ إذا جَعَلْنا " مَنْ " شرطيةً كما سيأتي ؛ لأنه كان ينبغي أَنْ يُجابَ السابقُ ، وهنا لم يُجَبْ إلاَّ الشرطُ . و " مَنْ " يجوز أَنْ تكونَ شرطيةً ، وهو الظاهرُ ، والفاءُ في " فأولئك " جواب الشرطِ ، وأَنْ تكونَ موصولةً ، ودَخَلَتِ الفاءُ لما عَرَفْتَ مِنْ شَبَهِ الموصولِ بالشرطِ . و " ظُلْمِه " مصدرٌ مضافٌ للمفعولِ . وأيَّدها الزمخشريُّ بقراءةِ مَنْ قرأ " بعدما ظُلِمَ " مبنياً للمفعول .

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

قوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ : الكلامُ في اللام بَيِّنٌ كما تقدَّم . فإنْ جَعَلْتَها شرطيةً فـ " إنَّ " جوابُ القسمِ المقدَّر ، وحُذِفَ جوابُ الشرطِ للدلالةِ عليه . وإنْ كانَتْ موصولةً كان " إنَّ ذلك " هو الخبرُ . وجَوَّز الحوفي وغيرُه أن تكونَ " مَنْ " شرطيةً ، وأنَّ ذلك جوابُها على حَذْفِ الفاء على حَدِّ حَذْفِها في البيت المشهور :

3979 مَنْ يَفْعَلِ الحَسَناتِ . . . . . .

. . . . . .

وفي الرابط قولان ، أحدُهما : هو اسمُ الإشارةِ إذا أُريد به المبتدأُ ، ويكون حينئذٍ على حَذْفِ مضافٍ ، تقديره : إنَّ ذلك لَمِنْ ذوي عَزْمِ الأمور والثاني : أنه ضميرٌ محذوفٌ تقديرُه : لِمَنْ عَزْمِ الأمورِ منه ، أوله . وقولُه : " ولَمَنْ صَبَرَ " عطفٌ على قولِه : " ولَمَنِ انتصَرَ " . والجملةُ مِنْ قولِه : " إنما السبيلُ " اعتراضٌ .

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (45)

قوله : ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ : حالٌ لأنَّ الرؤيةَ بصريةٌ . " خاشعين " حالٌ . والضميرُ مِنْ عليها يعودُ على النار لدلالةِ " العذاب " عليها . وقرأ طلحةُ " من الذِّل " بكسر الذال . وقد تقدَّم الفرقُ بين الذُّل والذِّل . و " من الذُّل " يتعلَّقُ ب " خاشعين " أي : من أَجْل . وقيل : هو متعلقٌ ب " يَنْظُرون " . وقوله : " مِنْ طَرْفٍ " يجوزُ في " مِنْ " أَنْ تكونَ لابتداءِ الغاية ، وأَنْ تكونَ تبعيضيَّةً ، وأن تكونَ بمعنى الباء ، وبكلٍ قد قيل . والطرفُ قيل : يُراد به العُضْوُ . وقيل : يُراد به المصدرُ . يقال : طَرِفَتْ عَيْنُه تَطْرَفُ طَرْفاً أي : يَنْظُرون نَظَراً خَفِيًّا .

قوله : ﴿ وَقَالَ الذين آمنوا ﴾ يجوزُ أَنْ يَبْقَى على حقيقتِه ، ويكون " يومَ القيامة " معمولاً ل " خَسِروا " . ويجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى : يقول ، فيكون " يوم القيامةِ " معمولاً له .

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

قوله : ﴿ يَنصُرُونَهُم ﴾ : صفةٌ ل " أَوْلِياء " فيجوزُ أَنْ يُحْكَمَ على موضعِها بالجرِّ اعتباراً بلفظِ مَوْصوفِها ، وبالرفعِ اعتباراً بمحلِّه فإنه اسمٌ ل " كان " .

قوله : " مِنْ سبيلٍ " إمَّا فاعلٌ ، وإمَّا مبتدأٌ .

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47)

قوله : ﴿ مِنَ الله ﴾ : يجوزُ تعلُّقُه ب " يأتي " أي : يأتي من الله يومٌ لا مَرَدَّ له ، وأَنْ يتعلَّق بمحذوفٍ يَدُلُّ عليه لا مَرَدَّ له أي : لا يَرُدُّ ذلك اليومَ مِمَّا حكم اللَّهُ به فيه . وجَوَّز الزمخشري

أَنْ يتعلَّقَ ب "لا مَرَدَّ" . وردَّه الشيخُ : بأنه يكونُ مُطوَّلاً فكان ينبغي أَنْ يُعْرَبَ فينصبَ منوَّناً .

(288/688)

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48)

قوله : ﴿ فَإِنَّ الإنسان ﴾ : مِنْ وقوعِ الظاهرِ مَوْقِعَ المضمرِ أي : فإنَّه كفورٌ . وقَدَّر أبو البقاء ضميراً محذوفاً فقال : " فإنَّ الإنسانَ منهم " .

أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)

(289/688)

قوله : ﴿ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ : حالٌ ، وهي حالٌ لازمةٌ ، وسَوَّغ مجيْئَها كذلك : أَنَّها بعدما يجوزُ أَنْ يكونَ الأمرُ على خلافه ؛ لأنَّ معنى "يُزَوِّجُهم" يَقْرِنُهم . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : لِمَ قَدَّم الإناثَ أولاً على الذكورِ مع تقديمِهم عليهنَّ ، ثم رَجَعَ فقدَّمَهم ؟ ولِمَ عَرَّف

الذكورَ بعدما نَكَّر الإناثَ؟ قلت: لأنَّه ذكر البلاءَ في آخر الآية الأولى، وكفرانَ الإنسان بنسيانِه الرحمةَ السابقةَ، ثم عَقَّبَ بذِكْر مُلْكِه ومشيئَتِه وذكرَ قسمةَ الأولادِ فقدَّم الإناثَ؛ لأنَّ سياق الكلامِ أنه فاعلُ ما يشاءُ لا ما يشاؤه الإنسانُ، فكان ذِكْرُ الإناثِ التي مِنْ جملة ما لا يَشاؤه الإنسانُ أهمَّ، والأهمُّ واجبُ التقديمِ، ولِيَلِيَ الجنسَ الذي كانت العربُ تَعُدُّه بلاءً، ذكر البلاء، وأخَّر الذكورَ، فلمَّا أخّرهم تدارَك تأخيرَهم وهم أَحِقَّاءُ بالتقديم بتعريفهم؛ لأنَّ تعريفَهم فيه تَنْويهٌ وتشهيرٌ، كأنه قال: ويَهَبُ لِمَنْ يشاءُ الفرسانَ الأعلامَ المذكورين الذين لا يَخْفَوْن عليكم، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسَيْن حقَّه من التقديمِ والتأخيرِ، وعَرَّفَ أنَّ تقديمَهن لم يكُنْ لتقدُّمِهنَّ ولكنْ لمقتضٍ آخر، فقال: ذُكْرانًا وإناثًا، كما قال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ [الحجرات: 13] ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة: 39].

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51)

(290/688)

قوله : / ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ ﴾ : " أَنْ " ومنصوبُها اسمُ كان وليس " خبرَ " " ما " . وقال أبو البقاء : " أَنْ والفعلُ في موضع رفعٍ على الابتداءِ وما قبلَه الخبرُ ، أو فاعلٌ بالجارّ لاعتمادِه على حرفِ النفي " وكأنه [وَهِمَ في التلاوةِ ، فزعَم أنَّ القرآنَ : وما لبشرٍ أَنْ يُكَلِّمه] مع أنَّه يمكنُ الجوابُ عنه بتكلُّفٍ . و " إلاَّ وَحْياً " يجوز أَنْ يكونَ مصدراً أي : إلاَّ كلامَ وَحْيٍ . وقال أبو البقاء : " استثناءٌ منقطعٌ ؛ لأنَّ الوَحْيَ ليس من جنس الكلام " وفيه نظرٌ لأنَّ ظاهرَه أنه مُفرَّغٌ ، والمفرَّغُ لا يُوْصَفُ بذلك . ويجوز أَنْ يكونَ مصدراً في موضعِ الحال .

قوله : " أو يُرْسِل " قرأ نافعٌ " يُرْسِلُ " برفع اللامِ ، وكذلك " فيوحِيْ " فسَكَنَتْ ياؤُه . والباقون بنصبهما . فأمَّا القراءةُ الأولى ففيها ثلاثة أوجهٍ ، أحدها : أنَّه رفعٌ على إضمارِ مبتدأ أي : أو هو يُرْسِلُ . الثاني : أنه عطفٌ على " وَحْياً " على أنَّه حالٌ ؛ لأنَّ وَحْياً في تقديرِ الحال أيضاً ، فكأنه قال : إلاَّ مُوْحِياً أو مرسِلاً . الثالث : أَنْ يُعْطَفَ على ما يتعلَّقُ به " من وراءه " ، إذ تقديرُه : أو يُسْمِعُ مِنْ وراءِ حجاب ، و " وَحْياً " في موضعِ الحال ، عُطِف عليه ذلك المقدَّرُ المعطوفُ عليه " أَوْ يُرْسِلُ " . والتقدير : إلاَّ مُوْحِياً أو مُسْمِعاً مِنْ وراءِ حجابٍ ، أو مُرْسِلاً .

وأمَّا الثانيةُ ففيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ يُعْطَفَ على المضمرِ الذي يتعلَّقُ به ﴿ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ إذ تقديرُه : أو يُكَلِّمه مِنْ وراءِ حجابٍ . وهذا الفعلُ المقدَّر معطوفٌ على " وَحْياً " والمعنى : إلاَّ بوَحْيٍ أو إسماعٍ مِنْ وراءِ حجابٍ أو إرسالِ رسولٍ . ولا يجوزُ أَنْ يُعطفَ على " يكلِّمَه " لفسادِ المعنى . قلت : إذ يَصيرُ التقديرُ : وما كان لبشرٍ أن يُرْسِلَ اللَّهُ رسولاً ، فَيَفْسُدُ لَفْظاً ومعنى . وقال مكي : " لأَنَّه يَلْزَم منه نَفْيُ الرسلِ ونفيُ المُرْسَلِ إليهم " .

الثاني : أَنْ يُنْصَبَ ب " أنْ " مضمرةً ، وتكونَ هي وما نَصَبَتْه معطوفَيْن على " وَحْياً " و " وَحْياً " حالٌ ، فيكونَ هنا أيضاً [حالاً : والتقدير : إلاَّ مُوْحِياً أو مُرْسِلاً] . وقال الزمخشري : " وَحْياً وأَنْ يُرْسِلَ مصدران واقعان موقعَ الحال ؛ لأنَّ أَنْ يُرْسِلَ في معنى إرسالاً . و ﴿ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ ظرفٌ واقعٌ موقعَ الحالِ أيضاً ، كقوله : ﴿ وعلى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 191] . والتقدير : وما صَحَّ أَنْ يُكَلَّم أحداً إلاَّ مُوْحياً أو مُسْمِعاً مِنْ وراءِ حجابٍ أو مُرسِلاً " . وقد رَدَّ عليه الشيخُ : بأنَّ وقوعَ المصدرِ موقعَ الحالِ غيرُ منقاسٍ ، وإنما قاسَ منه المبردُ ما كان نوعاً للفعلِ فيجوزُ : " أتيتُه رَكْضاً " ويمنعُ " أَتَيْتُه بكاءً " أي : باكياً .

وبأنَّ " أَنْ يُرْسِلَ " لا يقعُ حالاً لنصِّ سيبويه على أنَّ " أَنْ " والفعل لا يَقَعُ حالاً ، وإن كان المصدرُ الصريحُ يقع حالاً تقولُ : " جاء زيد ضَحِكاً " ، ولا يجوز " جاء أَنْ يضحكَ " .

الثالث : أنَّه عطفٌ على معنى " وَحْياً " فإنَّه مصدرٌ مقدَّرٌ ب " أنْ " والفعلِ . والتقديرُ : إلاَّ بأَنْ يوحيَ إليه أو بأَنْ يُرْسِلَ ، ذكره مكي وأبو البقاء .

(292/688)

وقوله : ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ العامَّةُ على الإفراد . وابنُ أبي عبلةَ " حُجُبٍ " جمعاً . وهذا الجارُّ يتعلَّقُ بمحذوفٍ تقديرُه : أو يُكَلِّمَه مِنْ وراء حجاب . وقد تقدَّم أن هذا الفعلَ معطوفٌ على معنى وَحْياً أي : إلاَّ أَنْ يوحيَ أو يكلِّمَه . قال أبو البقاء : " ولا يجوزُ أَنْ تتعلَّق " مِنْ " ب " يُكَلِّمَه " الموجودةِ في اللفظِ ؛ لأنَّ ما قبل الاستثناءِ لا يعملُ فيما بعد إلاَّ " ، ثم قال : " وقيل : " مِنْ " متعلِّقةٌ ب " يُكلِّمه " لأنه ظرفٌ ، والظرفُ يُتَّسَعُ فيه " .

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52)

قوله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب ﴾ : " ما " الأولى نافيةٌ ، والثانيةُ استفهاميةٌ . والجملةُ الاستفهامية معلِّقةٌ للدِّراية فهي في محلِّ نصبٍ لسَدِّها مَسَدَّ مفعولَيْن . والجملةُ المنفيةُ بأَسْرِها في محلِّ نصبٍ على الحالِ من الكافِ في " إليك " . قوله : " جَعَلْنَاه " الضميرُ يعودُ : إمَّا ل " رُوْحاً " وإمَّا ل " الكتاب " وإمَّا لهما ؛ لأَنَّهما مَقْصَدٌ واحدٌ فهو كقولِه : ﴿

واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] .

وقرأ ابن حوشب " لتُهْدَى " مبنياً للمفعول . وابن السَّمَيْفَع " لتُهْدي " بضم التاء وكسر الدال مِنْ أهْدَى .

قوله : " نَهْدِي " يجوز أَنْ يكونَ مُسْتأنفاً ، وأن يكونَ مفعولاً مكرَّراً للجَعْل ، وأَنْ يكونَ صفةً ل " نُوْراً " .

صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)

قوله : ﴿ صِرَاطِ الله ﴾ : بدلٌ مِنْ " صراطٍ " قبلَه بدلَ كُلٍ مِنْ كلٍ ، معرفةٍ مِنْ نكرة .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 651.669 ﴾

(293/688)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومما قاله أرباب الإشارات في بعض الآيات : قال سبحانه : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : 7] قيل يشير ذلك إلى إنذار نفسه الشريفة لأنها أم قرى نفوس آدم وأولاده لأنه صلى الله عليه وسلم أول العالمين خلقاً ومنه عليه الصلاة والسلام نشأت الأرواح

والنفوس ومن هذا كان آدم ومن دونه تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، وقد أشار إلى ذلك سلطان العاشقين عمر بن الفارض بقوله على لسان الحقيقة المحمدية :

وإني وإن كنت ابن آدم صورة . . .

فلي منه معنى شاهد بأبوتي

(294/688)

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يشير إلى نفوس أهل العالم وقد أنذر صلى الله عليه وسلم كلا حسب استعداده ، وقيل : في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] إنه يشير إلى التنزيه والتشبيه ، وقرر ذلك الشيخ الأكبر قدس سره بما يطول ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ [الشورى : 12] أي مفاتيح سموات القلوب وفيها خزائن لطفه تعالى ورحمته عز وجل وأرض النفوس وفيها خزائن قهره سبحانه وعزته جل جلاله فكل قلب مخزن لنوع من ألطافه كالمعرفة والمحبة والشوق والتوحيد والهيبة والانس والرضا إلى غير ذلك ، وقد يجتمع في القلب خزائن وكل نفس مخزن لنوع من آثار قهره كالنكرة والجحود والإنكار والشرك والنفاق والحرص والكبر والبخل والشره وغير ذلك ، وقد يجتمع في النفس خزائن ، وفائدة الأخبار بأن له سبحانه مقاليد ذلك قطع

أفكار العباد عمن سواه سبحانه في جلب ما يريدونه ودفع ما يكرهونه ﴿ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : 13] يشير إلى مقامي المجذوب والسالك فالمجذوب من الخواص اجتباه ربه سبحانه في الأزل وسلكه في مسلك من يحبهم واصطنعه سبحانه لنفسه جل شأنه وجذبه تعالى عن الدارين بجذبة توازي عمل الثقلين فهو في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، والسالك من العوام سلكه في سلك من يحبونه بالتوفيق للهداية والقيام على قدمي الجهد والإنابة إلى سبيل الرشاد من طريق العناد

(295/688)

﴿ والذين يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ﴾ [الشورى : 16] يشير إلى الذين يحاجون في معرفة الله تعالى بشبه العقل الذي استجاب له تعالى حين دعاه فوصل إلى الحضرة فهو في كشف وعيان وأولئك من وراء ما يزعمون أنه برهان ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدين مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله ﴾ [الشورى : 21] يشير إلى كفار النفوس فإنهم شرعوا عند استيلائهم للأرواح والقلوب ما لم يرض به الله تعالى من مخالفات الشريعة وموافقات الطبيعة ﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ [الشورى : 19] يشير إلى عموم لطفه تعالى وهو أنواع لا تحصى ومراتب لا تستقصى .

وروى السلمي عن سيد الطائفة قدس سره اللطيف من نور قلبك بالهدى وربى جسمك بالغذا ويخرج من الدنيا بالإيمان ويحرسك من نار لظى ويمكنك حتى تنظر وترى هذا لطف اللطيف بالعبد الضعيف ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ استعملوا تكاليف الشرع لقمع الطبع وكسر الهوى وتزكية النفس وتصفية القلب وجلاء الروح ﴿ فِى روضات الجنات ﴾ في الدنيا جنات الوصلة والمعارف وطيب الأنس في الخلوة والآخرة في روضات الجنة ﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى : 22] حسب مراتبهم في القربات والوصلات والمكاشفات ونيل الدرجات وعلى قدر هممهم ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ [الشورى : 23] وهم أقاربه صلى الله عليه وسلم الذين خلقوا من عنصره الشريف وتحلوا بحلاه المنيف كأئمة أهل البيت ومودتهم يعود نفعها إلى من يودهم لأنها سبب للفيض وهم رضي الله تعالى عنهم أبوابه وفي قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا مدنية العلم وعلي بابها " رمز إلى ذلك فافهم الإشارة ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى : 25] لمزيد كرمه جل شأنه فمتى وفق عبداً للتوبة قبلها جوداً وكرماً وعن بعضهم أنه قال لبعض المشايخ : إن تبت فهل يقبلني الله تعالى ؟ فقال : إن يقبلك

الله تعالى تتب إليه سبحانه فقبول الله تعالى سابق على التوبة ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [الشورى : 26] إشارة إلى الرؤية فإن الجنان ونعيمها مخلوقة تقع في مقابلة مخلوق وهو عمل العمال والرؤية مما تتعلق بالقديم فلا تقع إلا فضلاً ربانياً ، وفي بعض الأخبار أن هذه الزيادة أن يشفعهم في إخوان إخوانهم ﴿ استجيبوا لِرَبِّكُمْ ﴾ [الشورى : 47] الاستجابة للعوام بالوفاء بعهده تعالى والقيام بحقه سبحانه والرجوع عن مخالفته جل شأنه إلى موافقته عز وجل ، وللخواص بالاستسلام للأحكام الأزلية والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها ، ولأخص الخواص من أهل

(297/688)

المحبة بصدق الطلب بالإعراض عن الدارين والتوجه لحضرة الجلال ببذل الوجود في نيل الوصول والوصال ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاء إِنَاثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذكور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإِنَاثا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيماً ﴾ [الشورى : 49 ، 50] قيل فيه إشارة إلى أحوال المشايخ من حيث المريدين فمنهم من يهب الله تعالى له ومنهم من لا تصرف له في غيره بالتخريج والتسليك وهو أشبه شيء بالأنثى من حيث عدم التصرف ومنهم من يهب سبحانه له من

له قدرة التصرف بالتخريج والتسليك وهو أشبه شيء بالذكر ومنهم من يهب له تعالى هذا وهذا ومنهم من يجعله جل وعلا عقيماً لا مريد له أصلاً

(298/688)

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَن يَشَآء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : 51] قال سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني في تفسيره الآية المذكورة : اعلم أن المانع من سماع كلام الحق إنما هو البشرية فإذا ارتفع العبد عنها كلمه الله تعالى من حيث كلم سبحانه الأرواح المجردة عن المواد ، والبشر ما سمي بشراً إلا لمباشرته الأمور التي تعوقه عن اللحوق بدرجة الروح فلما لم يلحق كلمه الله تعالى في الأشياء وتجلى سبحانه له فيها بخلاف من لحق كالأنبياء عليهم السلام فلا يتجلى الحق سبحانه لغيرهم إلا في حجاب الصدور ولولا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنه سبحانه ربه ، واعلم أن الحقيقة تأبى أن يكلم الله تعالى غير نفسه أو يسمع غير نفسه فلا بد إذا خاطب عبداً على قصد إسماعه أن يكون جميع قواه لأنه محال أن يطيق الحادث سماع كلام القديم ولم يكن الحق سبحانه قواه عند النجوى ولذلك خر موسى عليه السلام صعقاً إذ لم يكن له استعداد يقبل به التجلي اللائق بمقامه وثبت نبينا صلى الله عليه وسلم ولما لم يكن للجبل

درجة المحبة التي يكون بها الحق سمع عبده وبصره وجميع قواه لم يقدر على سماع الخطاب فدك ، واعلم أن حديث الحق سبحانه للخلق لا يزال أبداً غير أن من الناس من يفهم أنه حديث كعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ومن ورثه من الأولياء ومنهم من لا يعرف ذلك ويقول : ظهر لي كذا وكذا ولا يعرف أن ذلك من حديث الحق سبحانه معه وكان شيخنا يقول : كان عمر من أهل السماع المطلق الذي يحدثهم الله تعالى في كل شيء ولكن له ألقاب وهو أنه إن أجابوه به تعالى فهو حديث وإن أجابوه بهم فهي محادثة وإن سمعوا حديثه سبحانه فليس بحديث في حقهم وإنما هو خطاب أو كلام ، وقد ورد في المتهجدين أنهم أهل المسامرة فقد علمت أن الوحي ما يلقيه الله تعالى في قلوب خواص عباده على

(299/688)

جهة الحديث فيحصل لهم من ذلك علم بأمر ما فإن لم يكن كذلك فليس بوحي ولا خطاب فإن بعض الناس يجدون في قلوبهم علماً بأمر ما مثل العلوم الضرورية عند الناس فهو علم صحيح لكن ليس صادراً عن خطاب وكلامنا إنما هو في الخطاب الإلهي المسمى وحياً فإن الله تعالى جعل هذا الصنف من الوحي كلاماً يستفيد به العلم من جاء له .

(300/688)

واعلم أنه لا ينزل على قلوب الأولياء من وحي الإلهام إلا دقائق ممتدة من الأرواح الملكية لا نفس الملائكة لأن الملك لا ينزل بوحي على غير نبي أصلاً ولا يأمر بأمر إلهي قطعاً لأن الشريعة قد استقرت فلم يبق إلا وحي المبشرات وهو الوحي الأعم ويكون من الحق إلى العبد من غير واسطة ويكون أيضاً بواسطة والنبوة من شأنها الواسطة فلا بد من واسطة الملك فيها لكن الملك لا يكون حال إلقائه ظاهراً بخلاف الأنبياء عليهم السلام فإنهم يرون الملك حال الكلام والولي لا يشهد الملك إلا في غير حال الإلقاء فإن سمع كلامه لم يره وإن رآه لا يكلمه فالعارفون لا ينالون ما فاتهم من النبوة مع بقاء المبشرات عليهم إلا أن الناس يتفاضلون فمنهم من لا يبرح في بشارة الواسطة ومنهم من يرتفع عنها كالأفراد فإن لهم المبشرات بارتفاع الوسائط وما لهم النبوات ولهذا ينكر عليهم الأحكام لأنهم ضاهوا الأنبياء من حيث كونهم يعملون بما يرونه من تعريفات الحق لهم كأنه شريعة مستقلة في الظاهر وليس ذلك بشريعة إنما هو بيان لها فالمنقطع إنما هو وحي التشريع لا غير أما التعريف لأمور مجملة في السنة فهو باق لهذه الأمة ليكونوا على بصيرة فيما يدعون الناس إليه لأنه خبر إلهي وأخبار من الله تعالى للعبد على يد ملك مغيب على هذا الملهم ، ولا يكون الإلهام إلا في الخير و﴿ ألهمها فجورها ﴾ [الشمس : 8] فجورها على معنى إلهامها إياه لتجتنبه كما أن إلهامها تقواها لتعمل بها ، وأكمل الإلهام أن يلهم اتباع الشرع

والنظر في الكتب الإلهية ويقف عند حدودها وأوامرها حتى يزول صدى طبيعته وتنتقش فيها صور العالم ، وأما قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ فهو خطاب إلهي يلقيه على السمع لا على القلب فيدركه من ألقي إليه فيفهم منه ما قصده من يسمعه ذلك وقد يحصل له ذلك في صورة التجلي فتخاطبه تلك الصورة وهي عين الحجاب فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدل عليه ويعلم أن ذلك حجاب وأن

(301/688)

المتكلم من وراء ذلك الحجاب وكل من أدرك صورة التجلي الإلهي يعلم أن ذلك هو الله تعالى فما يزيد صاحب هذا الحال على غيره إلا بمعرفته أن المخاطب له من وراء الحجاب .

وأما قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ فهو ما ينزل به الملك أو ما يجيء به الرسول البشرى إلينا إذا نقلا كلام الله تعالى خاصة كالتالين فإن نقلا علماً وجداه في أنفسهما وأفصحا عنه فذلك ليس بكلام إلهي ، ومن الأولياء من يعطي الترجمة عن الله سبحانه في حال الإلقاء والوحي الخاص بكل إنسان فيكون المترجم موجداً لصور الحروف اللفظية أو المرقومة ويكون روح تلك الصور كلام الله عز وجل لا غير ، وقد يقول الولي : حدثني قلبي

عن ربي يعني به من الوجه الخاص فاعلم ذلك وتأمل ما قررته لك فإنه نفيس والله تعالى يتولى هداك ، وله قدس سره كلام كثير في هذا المقام تركناه خوف الإطالة ، ولعل فيما ذكرناه كفاية لذوي الأفهام ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ وهو ما به الحياة الطيبة الأبدية ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ قبل الإيحاء .

قيل : أشير بهذا الإيحاء إلى الإيحاء في هذه النشأة وكان له صلى الله عليه وسلم في كل حال من أحواله فيها نوع من الوحي والدراية المنفية إذ كان عليه الصلاة والسلام في كينونته قبل إخراجه منها بتجلي كينونته عز وجل وإلا فهو صلى الله عليه وسلم نبي ولا آدم ولا ماء ولا طين ولا يعقل نبي بدون إيحاء ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] وهو التوحيد السليم من زوايا الأغيار ويشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الامور ﴾ [الشورى : 53] تمت السورة بتوفيق الله عز وجل والصلاة والسلام على أول نور أشرق من شمس الأزل وبها والحمد لله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(302/688)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الشُّورَى

وَقَالَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

قَدْ كَتَبْت بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ فَمَدَحَهُمْ عَلَى الِانْتِصَارِ تَارَةً وَعَلَى الصَّبْرِ أُخْرَى . و " الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ اللَّهَ لَمَّا حَمِدَهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ الْإِيمَانِ وَالتَّوَكُّلِ وَمُجَانَبَةِ الْكَبَائِرِ وَالِاسْتِجَابَةِ لِرَبِّهِمْ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَالِاشْتِوَارِ فِي أَمْرِهِمْ وَانْتِصَارِهِمْ إذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ وَالْعَفْوُ وَالصَّبْرُ وَنَحْوُ ذَلِكَ كَانَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ ضِدَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَيْسَ مَحْمُودًا بَلْ مَذْمُومًا فَإِنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مُسْتَلْزِمَةٌ لِعَدَمِ ضِدِّهَا ؛ فَلَوْ كَانَ ضِدُّهَا مَحْمُودًا لَكَانَ عَدَمُ الْمَحْمُودِ مَحْمُودًا وَعَدَمُ الْمَحْمُودِ لَا يَكُونُ مَحْمُودًا إلَّا أَنْ يَخْلُفَهُ مَا هُوَ مَحْمُودٌ ؛ وَلِأَنَّ حَمْدَهَا وَالثَّنَاءَ عَلَيْهَا طَلَبٌ لَهَا وَأَمْرٌ بِهَا وَلَوْ أَنَّهُ أَمْرُ اسْتِحْبَابٍ وَالْأَمْرُ بِالشَّيْءِ نَهْيٌ عَنْ ضِدِّهِ قَصْدًا أَوْ لُزُومًا وَضِدُّ الِانْتِصَارِ الْعَجْزُ وَضِدُّ الصَّبْرِ الْجَزَعُ ؛ فَلَا خَيْرَ فِي الْعَجْزِ وَلَا فِي الْجَزَعِ كَمَا نَجِدُهُ فِي حَالِ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ حَتَّى بَعْضُ الْمُتَدَيِّنِينَ إذَا ظُلِمُوا أَوْ

أَرَادُوا مُنْكَرًا فَلَا هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَلَا يَصْبِرُونَ ؛ بَلْ يَعْجِزُونَ وَيَجْزَعُونَ . وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد مِنْ رِوَايَةِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ﴿ أَنَّ رَجُلَيْنِ تَحَاكَمَا إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ : حَسْبِي اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْك بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَك أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِي اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُك وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ غَلَبَك أَمْرٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْت لَكَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ﴾ . لَا تَعْجِزْ عَنْ مَأْمُورٍ وَلَا تَجْزَعْ مِنْ مَقْدُورٍ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْمَعُ كِلَا الشَّرَّيْنِ ؛ فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحِرْصِ عَلَى النَّافِعِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ وَإِلَّا فَالِاسْتِحْبَابُ . وَنَهَى عَنْ الْعَجْزِ وَقَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ﴾ وَالْعَاجِزُ ضِدُّ الَّذِينَ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْجَزَعِ مَعْلُومٌ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ . وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : أَمْرٍ أُمِرَ بِفِعْلِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَهُ

وَيَحْرِصَ عَلَيْهِ وَيَسْتَعِينَ اللَّهَ وَلَا يَعْجِزُ وَأَمْرٍ أُصِيبَ بِهِ مِنْ غَيْرِ فِعْلِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَيْهِ وَلَا يَجْزَعَ مِنْهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ ابْنُ الْمُقَفَّعِ أَوْ غَيْرُهُ الْأَمْرُ أَمْرَانِ : أَمْرٌ فِيهِ حِيلَةٌ فَلَا تَعْجِزْ عَنْهُ وَأَمْرٌ لَا حِيلَةَ فِيهِ فَلَا تَجْزَعْ مِنْهُ . وَهَذَا فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ؛ لَكِنْ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي فِيهِ حِيلَةٌ هُوَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَأَحَبَّهُ لَهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْهُ إلَّا بِمَا فِيهِ حِيلَةٌ لَهُ إذْ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا وَقَدْ أَمَرَهُ بِكُلِّ خَيْرٍ فِيهِ لَهُ حِيلَةٌ وَمَا لَا حِيلَةَ فِيهِ هُوَ مَا أُصِيبَ بِهِ مِنْ غَيْرِ فِعْلِهِ .

وَاسْمُ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ يَتَنَاوَلُ الْقِسْمَيْنِ فَالْأَفْعَالُ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إلَّا مِثْلَهَا ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ وَالْمَصَائِبُ الْمُقَدَّرَةُ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . إلَى آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 37 .

39 ﴾

(305/688)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الشّورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)

الإعراب :

(كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يوحي (إليك) متعلّق بـ (يوحى) ومثله (إلى الذين) فهو معطوف على الأول (من قبلك) متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين (اللّه) لفظ الجلالة فاعل (يوحي) مرفوع . .

جملة : "يوحي . . . اللّه" لا محلّ لها ابتدائيّة

الفوائد

- حم . عسق :

سئل الحسين بن الفضل لم قطع حروف (حم عسق) ولم يقطع حروف (المص) و(المر) و(كهيعص) ، فقال لأنها بين سور أوائلها (حم) فجرت مجرى نظائرها ، فكان (حم) مبتدأ ، و(عسق) خبره ، ولأن (حم عسق) عدت آيتين وعدت أخواتها التي لم تقطع آية واحدة ، وقيل : لأن أهل التأويل لم يختلفوا في (كهيعص) وأخواتها أنها حروف التهجّي ، واختلفوا في (حم) فجعلها بعضهم فعلا فقال معناها (حمّ الأمر) أي قضي ، وبقي عسق

على أصله. وقال ابن عباس (ح) : حلمه ، (م) :

مجده ، (ع) : علمه ، (س) : سناه ، (ق) : قدرته ، أقسم اللّه عز وجل بها . وقال ابن

عباس : ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحي إليه (حم عسق) فلذلك قال اللّه تعالى

: كَذِلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

[سورة الشورى (42) : آية 4]

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)

الإعراب :

(له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ما) ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو)

عاطفة (ما في الأرض) مثل ما في السموات ومعطوف عليه (العظيم) خبر ثان مرفوع.

جملة : "له ما في السموات . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "هو العليّ . . . "لا محلّ

لها معطوفة على الاستئنافيّة

[سورة الشورى (42) : آية 5]

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5)

الإعراب :

(من فوقهنّ) متعلّق بـ (يتفطّرن) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (بحمد) متعلّق بحال من فاعل يسبّحون (لمن) متعلّق بـ (يستغفرون) ، (ألا) للتنبيه (هو) ضمير فصل " 1 " . .

---

(1) أو هو ضمير منفصل مبتدأ خبره (الغفور) ، والجملة الاسميّة خبر إنّ .

(307/688)

جملة : " تكاد السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يتفطّرن . . . " في محلّ نصب خبر تكاد وجملة : " الملائكة يسبّحون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " يسبّحون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الملائكة) وجملة : " يستغفرون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يسبّحون وجملة : " إنّ اللّه . . . الغفور " لا محلّ لها استئنافيّة

[سورة الشورى (42) : آية 6]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من دونه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (عليهم) متعلّق بـ (حفيظ) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (عليهم) متعلّق بـ (وكيل) ، (وكيل) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

جملة : " الذين اتّخذوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " اللّه حفيظ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وجملة : " ما أنت عليهم بوكيل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة اللّه حفيظ .

[سورة الشورى (42) : الآيات 7 إلى 9]

(308/688)

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله أوحينا (إليك) متعلّق بـ (أوحينا) (اللام) للتعليل (تنذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (الواو) عاطفة (من) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على أم (حولها) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الموصول (من) .

والمصدر المؤوّل (أن تنذر . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أوحينا) (الواو) عاطفة (تنذر) معطوف على الأول (يوم) مفعول به ثان منصوب بحذف مضاف أي عذاب يوم الجمع ، والمفعول الأول محذوف أي الناس (لا) نافية للجنس (فيه) خبر لا (فريق) مبتدأ مرفوع مؤخّر ، والخبر محذوف أي منهم " 1 " في الموضعين (في الجنّة) متعلّق بالخبر المحذوف " 2 " ، (الواو) عاطفة (فريق في السعير) مثل فريق في الجنّة . .

جملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تنذر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أنّ) المضمر وجملة : " تنذر (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة تنذر الأولى وجملة : " لا ريب فيه " في محلّ نصب حال من يوم الجمع " 3 "

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره بعضهم . . في الموضعين .

(2) أو متعلّق بنعت لفريق .

(3) يجوز أن تكون استئنافيّة لا محلّ لها .

وجملة : " (منهم) فريق . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " (منهم) فريق (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على البيانيّة الأخيرة 8 - (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب لو (أمّة) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك لا عمل له (في رحمته) متعلّق بـ (يدخل) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) نافية (لهم) متعلّق بخبر مقدّم (وليّ) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (لا) زائدة لتأكيد النفي . .

وجملة : " شاء اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوحينا " 1 " وجملة : " جعلهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " يدخل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة شاء اللّه وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " الظالمون ما لهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة شاء اللّه وجملة : " ما لهم من وليّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الظالمون) 9 - (أم) هي المنقطعة بمعنى بل التي للانتقال والهمزة التي للإنكار " 2 " ، (اتّخذوا من دونه أولياء) مرّ إعرابها " 3 " ، (الفاء) تعليليّة (هو) ضمير فصل " 4 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (على كلّ) متعلّق بـ (قدير) .

وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " اللّه . . . الوليّ " لا محلّ لها تعليل للنفي المقدّر وجملة : " هو يحيى الموتى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه . . . الوليّ

---

(1) في الكلام التفات من التكلّم إلى الغيبة .

(2) يجوز أن تكون بمعنى (بل) فقط .

(3) في الآية (6) من هذه السورة .

(4) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الوليّ ، والجملة الاسميّة خبر لفظ الجلالة (اللّه) .

[. . . . .]

(310/688)

وجملة : " يحيى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) وجملة : " هو على كلّ شيء قدير . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو يحيى . . .

[سورة الشورى (42) : الآيات 10 إلى 13]

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)
فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (اختلفتم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (فيه) متعلّق بـ (اختلفتم) ، (من شيء) تمييز للضمير في (فيه) " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إلى اللّه) متعلّق بخبر المبتدأ (حكمه) ، (ذلكم) مبتدأ ، والإشارة إلى الحاكم العظيم (اللّه) لفظ

---

(1) أو حال منه .

الجدول ج 25 ، ص : 23

الجلالة خبر " 1 " ، (ربّي) خبر ثان مرفوع " 2 " ، (عليه) متعلّق بـ (توكّلت) ، (إليه) متعلّق بـ (أنيب) .

جملة : " ما اختلفتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " اختلفتم فيه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) " 3 " وجملة : " حكمه إلى اللّه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : " ذلكم اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مستأنف مقدّر أي قل لهم

- والخطاب للرسول عليه السلام - ذلك اللّه ربّي . .

وجملة : " عليه توكّلت . . . " في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ ذلكم .

وجملة : " إليه أنيب . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة توكّلت .

11 - (فاطر) خبر رابع " 4 " ، (لكم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعل (من أنفسكم) متعلّق بحال من (أزواجا) ، وكذلك (من الأنعام) حال من (أزواجا) الثاني (فيه) متعلّق بـ (يذرؤكم) ، (مثله) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس " 5 " (شيء) اسم ليس مؤخّر مرفوع . .

وجملة : " جعل . . . " في محلّ رفع خبر خامس للمبتدأ ذلكم وجملة : " يذرؤكم . . . " في محلّ نصب حال من فاعل جعل ، أو من الضمير في (لكم) وجملة : " ليس كمثله شيء . . . " في محلّ رفع خبر سادس .

وجملة : " هو السميع . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة ليس كمثله . .

---

(1) أو عطف بيان ، أو بدل و(ربّي) خبر المبتدأ ذلكم .

(2) أو بدل من لفظ الجلالة . . أو نعت له .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(4) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة خبر رابع .

(5) قد يعني (المثل) الصفة فلا زيادة في الكاف ، إذ المعنى ليس كصفته شيء أي ليس مثل صفته شيء .

(311/688)

---

12 – (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مقاليد) ، (لمن) متعلّق بـ (يبسط) ، (بكلّ) متعلّق بـ (عليم) .

وجملة : " له مقاليد . . . " في محلّ رفع خبر سابع وجملة : " يبسط . . . " في محلّ رفع خبر ثامن وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " يقدر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبسط .

وجملة : " إنّه بكلّ شيء عليم . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق .

13 – (لكم) متعلّق بـ (شرع) ، (من الدين) متعلّق بحال من ما " 1 " (به) متعلّق بـ (وصّى) ، وفاعل (وصّى) ضمير يعود على لفظ الجلالة (الذي) في محلّ نصب معطوف على الموصول ما (إليك) متعلّق بـ (أوحينا) ، (ما وصّينا به إبراهيم) مثل ما وصّى به نوحا فهو معطوف عليه (أن) حرف مصدريّ " 2 " (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (فيه) متعلّق بـ (تتفرّقوا) . .

والمصدر المؤوّل (أن أقيموا . .) في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . . " 3 "

(على المشركين) متعلّق بـ (كبر) ، (ما) موصول في محلّ رفع فاعل كبر (إليه) متعلّق بـ

(تدعوهم) ، و(إليه) الثاني متعلّق بـ (يجتبي) ، و(إليه) الثالث متعلّق بـ (يهدي) . .

وجملة : " شرع . . . " في محلّ رفع خبر تاسع وجملة : " وصّى به . . . " لا محلّ لها صلة

الموصول (ما) الأول وجملة : " أوحينا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي)

---

(1) يجوز أن يتعلّق بـ (شرع) ومن لابتداء الغاية .

(2) أو تفسيريّة ، والجملة بعدها مفسّرة .

(3) أو في محلّ نصب بدل من الموصول (ما وصّى) وما عطف عليه . . أو في محلّ جرّ بدل من الدين .

وجملة : " وصّينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني وجملة : " أقيموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " لا تفرّقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقيموا . . .

وجملة : " كبر . . . ما تدعوهم " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تدعوهم . . . " لا محلّ

لها صلة الموصول (ما) الثالث وجملة : " اللّه يجتبي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يجتبي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول وجملة : " يهدي . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يجتبي وجملة : " ينيب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني

الفوائد

- " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " :

تضاربت أقوال النحاة والمفسرين حول قوله تعالى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في هذه الآية ، وسنورد بعض أقوال المفسرين بهذا الصدد ، ما يقوله الإمام النسفي :

(313/688)

قيل كلمة التشبيه كررت (أي الكاف بمعنى مثل وبعدها كلمة مثله فأصبح تكرار) لنفي التماثل ، وتقديره ليس مثل مثله شيء . وقيل : المثل زيادة ، وتقديره : وليس كهو شيء ، كقوله تعالى فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ وهذا لأن المراد نفى المثلية ، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل . وقيل : المراد ليس كذاته شيء ، لأنهم يقولون : مثلك لا يبخل ، يريدون نفي البخل عن ذاته ، ويقصدون المبالغة في ذلك ، بسلوك طريق الكناية ، لأنهم

إذا نفوه عمن يسد مسدّه فقد نفوه عنه فإذا علم أنّه من باب الكناية ، لم يقع فرق بين قوله (ليس كاللّه شيء) وبين قوله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها ، وكأنهما عبارتان معتقبتان

على معنى واحد ، وهو نفي المماثلة عن ذاته . ونحوه : (بل يداه مبسوطتان) فمعناه : بل هو جواد ، من غير تصوّر يد ولا بسط لها ، لأنها وقعت عبارة عن الجود ، حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له ، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له .

ما يقوله أبو البقاء العكبري :

الكاف في (كمثله) زائدة ، أي ليس مثله شيء ، فمثله خبر ليس ولو لم تكن زائدة لأفضى إلى المحال ، إذ كان يكون المعنى أن له مثلا ، وليس لمثله مثل ، وهو هو ، مع أن إثبات المثل للّه سبحانه محال .

وهذا أرجح الأقوال بما قيل في هذه الآية . وإليه ذهب الأكثرون ، ومنهم ابن هشام . وقيل : مثل زائدة ، والتقدير : ليس كهو شيء ، كما في قوله تعالى فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ وقد ذكر . وهذا قول بعيد .

[سورة الشورى (42) : آية 14]

وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (إلّا) للحصر (من بعد) متعلّق بـ (تفرّقوا) ، (ما) حرف مصدريّ . . والمصدر المؤوّل (ما جاءهم . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(بغيا) مفعول لأجله عامله تفرّقوا (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بنعت لـ (بغيا) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (لولا) حرف شرط غير جازم (كلمة) مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره موجودة (من ربّك) متعلّق بـ (سبقت) " 1 " ، (إلى

(1) أو متعلّق بنعت لكلمة .

أجل) متعلّق بمحذوف تقديره (بتأخير الجزاء) ، (اللام) في جواب لولا (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (قضي) ، ونائب الفاعل محذوف هو المصدر لفعل قضى أي القضاء ، والواو في (أورثوا) نائب الفاعل (الكتاب) مفعول به منصوب (من بعدهم) متعلّق بـ

(أورثوا) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (في شكّ) متعلّق بخبر إنّ (منه) متعلّق بنعت لـ (شكّ)

. .

جملة: "ما تفرّقوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "جاءهم العلم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة: "لولا كلمة . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة: "سبقت . . . "في محلّ رفع نعت لكلمة وجملة: "قضى بينهم . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة: "إنّ الذين أورثوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة: "أورثوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين)

[سورة الشورى (42) : آية 15]

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (لذلك) متعلّق بفعل محذوف مفهوم من سياق الكلام السابق أي : إن دعيت أنت وجميع المرسلين لذلك الذي أوحيناه إليك فادع الناس واستقم " 1 " ، (الفاء) الثانية رابطة لجواب الشرط المقدّر (ما)

---

(1) يجوز تعليقه بـ (ادع) والفاء فيه زائدة ، والجملة استئنافيّة .

(317/688)

حرف مصدريّ ، والتاء في (أمرت) نائب الفاعل . .

والمصدر المؤوّل (ما أمرت) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله ادع واستقم (الواو) عاطفة في الموضعين (لا) ناهية جازمة (بما) متعلّق بـ (آمنت) ، وعائد الموصول محذوف (من كتاب) تمييز للعائد - أو حال منه - (الواو) عاطفة (أمرت) مثل الأول (اللام) للتعليل (أعدل) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (بينكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (أعدل) . .

والمصدر المؤوّل (أن أعدل) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أمرت) (لنا) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (أعمالنا) ، ومثله (لكم) خبر للمبتدأ (أعمالكم) ، (لا) نافية للجنس (بيننا) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر لا (بينكم) ظرف منصوب متعلّق بما تعلّق به بيننا

لأنه معطوف عليه (بيننا) الثاني متعلّق بـ (يجمع) ، (إليه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (المصير) .

جملة : "الشرط المقدّرة . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "ادع . . . "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : "استقم . . . "في محلّ جزم معطوفة على جملة ادع وجملة : "لا تتّبع . . . "في محلّ جزم معطوفة على جملة ادع وجملة : "قل . . . "في محلّ جزم معطوفة على جملة ادع وجملة : "آمنت . . . "في محلّ نصب مقول القول وجملة : "أنزل اللّه . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : "أمرت . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة آمنت وجملة : "أعدل . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر

(318/688)

وجملة : "اللّه ربّنا . . . "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة : "لنا أعمالنا . . . "لا محلّ لها استئناف آخر في حيّز القول وجملة : "لكم أعمالكم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة لنا أعمالنا وجملة : "لا حجّة بيننا "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة : "اللّه يجمع . . . "لا محلّ لها استئناف آخر في حيّز القول وجملة : "يجمع . . . "في محلّ رفع

خبر المبتدأ (اللّه) وجملة : " إليه المصير " في محلّ رفع معطوفة على جملة يجمع

[سورة الشورى (42) : آية 16]

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (16)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (في اللّه) متعلّق بـ (يحاجّون) بحذف مضاف أي في دين اللّه (من بعد) متعلّق بـ (يحاجّون) ، (ما) حرف مصدريّ (له) نائب الفاعل للمبنى للمجهول (استجيب) . .

والمصدر المؤوّل (ما استجيب له) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(حجّتهم) مبتدأ خبره (داحضة) ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (داحضة) (الواو) عاطفة (عليهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (غضب) ومثله (لهم) خبر المبتدأ (عذاب) . . جملة : " الذين يحاجّون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يحاجّون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " استجيب له . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " حجّتهم داحضة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وجملة : " عليهم غضب . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة حجّتهم . . .

وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة حجّتهم . . .

الصرف :

(داحضة) مؤنّث داحض اسم فاعل من الثلاثيّ دحض بمعنى بطل باب فتح أو بمعنى زلق باب نصر ، وزنه فاعل .

[سورة الشورى (42) : الآيات 17 إلى 19]

(319/688)

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)

الإعراب :

(بالحقّ) متعلّق بحال من الكتاب " 1 " ، (الميزان) معطوف على الكتاب بـ (الواو) منصوب (الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام مبتدأ . . (قريب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره : إتيانها " 2 " .

جملة : " اللّه الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة : " ما يدريك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة :

"يدريك . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) وجملة : "لعلّ الساعة قريب . . . "في محلّ نصب مفعول يدريك المعلّق بالترجّي

---

(1) أو متعلّق بـ (أنزل) . .

(2) لا يجوز أن يقال إنّ (قريب) يستوي فيه التذكير والتأنيث لأنه بمعنى فاعل ، وفعيل الذي بمعنى فاعل لا يستوي فيه التذكير والتأنيث . . وهذا ويجوز تحميل (الساعة) معنى البعث ، فقريب هو الخبر من غير تقدير .

(320/688)

وجملة : " (إتيانها) قريب . . . "في محلّ رفع خبر لعلّ 18 - (بها) متعلّق بـ (يستعجل) ، (لا) نافية (بها) الثاني متعلّق بـ (يؤمنون) ، (الواو) عاطفة (منها) متعلّق بـ (مشفقون) ، (أنّها) حرف مشبّه بالفعل ومصدريّ . .

والمصدر المؤوّل (أنّها الحقّ) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلمون (ألا) للتنبيه (في الساعة) متعلّق بـ (يمارون) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (في ضلال) متعلّق بخبر إنّ وجملة : " يستعجل بها الذين . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " وجملة : "لا يؤمنون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : "الذين آمنوا مشفقون . . . "لا محلّ لها معطوفة

على جملة يستعجل . . .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني وجملة : " يعلمون . . . " في محلّ رفع معطوفة على الخبر (مشفقون) " 2 " وجملة : " إنّ الذين يمارون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يمارون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث 19 - (بعباده) متعلّق بـ (لطيف) ، (الواو) عاطفة - أو حالية - . .

وجملة : " اللّه لطيف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يرزق من يشاء . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (اللّه) وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " هو القوي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه لطيف " 3 "

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الضمير المستكنّ في (قريب) . [. . . . .]

(2) أو في محلّ نصب حال من الضمير في (مشفقون) . . ويجوز أن تكون استئنافيّة فيها معنى التعليل .

(3) أو في محلّ نصب حال من فاعل يرزق .

الجدول ج 25 ، ص : 32

الصرف :

(يمارون) ، فيه إعلال بالحذف أصله يماريون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى الراء قبلها - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الياء لام الكلمة لالتقاء

الساكنين فأصبح يمارون وزنه يفاعون .

الفوائد

- تعدد الخبر والحال والصفة . .

لقد تعدد الخبر في هذه الآية الكريمة في قوله تعالى :

(321/688)

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ ف (لطيف) خبر أول وجملة يرزق خبر ثان . وكذلك في قوله وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ فالقوي خبر أول والعزيز خبر ثان . لذا :

1 - يتعدد الخبر ، دون حصر بعدد معين ، سواء كان مفردا أم جملة أم شبه جملة .

1 - مفردا مثل : (اللّه قوى عزيز سميع بصير عليم . . .)

2 - جملة فعلية : (اللّه يرزق يخلق يمنح يحيي يميت) 3 - جملة اسمية : (الإيمان أفياؤه ندّية ، أنسامه عليلة) .

4 - شبه جملة أي (ظرف أو جار ومجرور) : القرية فوق تل ، عند المنعطف ، على شاطئ الوادي . وهنا تعلق الظرف الأول فوق بخبر أول محذوف تقديره كائنة ، وتعلق الظرف الثاني (عند) بخبر ثان محذوف ، وتعلق الجار والمجرور (على شاطئ الوادي) بخبر

ثالث .

2 – لا يشترط في تعدد الخبر أن يكون الخبر من نوع واحد ، فقد تتعدد الأخبار في جملة ، وتكون متنوعة ، مثل : اللّه سميع – بصير – قوى – يخلق – يرزق . . . إلخ . .

3 – كذلك يتعدد الحال بكافة أشكاله ، مثل : أقبل الفلاح نشيطا – مسرورا – يحمل فأسه – يقود حصانه . . فـ (نشيطا) حال أول ، و(مسرور) حال ثان ، و(يحمل فأسه) جملة فعلية حال ثالث ، و(يقود حصانه) جملة فعلية حال رابع . .

4 – كذلك تتعدد الصفة ، سواء كانت مفردة ، أم جملة ، أم شبه جملة ، مثل : (هذا بستان – جميل – رائع – بديع – أفياؤه ندية – ثماره يانعة – يجود بالخير . .)

ملاحظة هامة . .

1 – أحيانا يجوز أن نعرب الخبر الثاني وما تلاه صفات للخبر الأول ، مثل : محمد رسول كريم شجاع كامل ، فيجوز أن نعرب كريم خبر ثان ، وشجاع خبر ثالث ، وكامل خبر رابع . ويجوز أن نعرب كريم وشجاع وكامل صفات لرسول .

2 – وأحيانا لا يجوز أن نعرب إلا خبرا فقط ، مثل : الكتب :

دينية – سياسية – أخلاقية . .

ف (دينية وسياسية وأخلاقية) أخبار ، ولا يجوز اعتبار سياسية وأخلاقية صفات لدينية ، لفساد المعنى فمدار الأمر استقامة المعنى أو فساده .

3 – القاعدة المنطبقة على الخبر تنطبق على خبر كان وأخواتها وإن وأخواتها .

[سورة الشورى (42) : آية 20]

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (كان) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (له) متعلّق بـ (نزد) ، (في حرثه) متعلّق بـ (نزد) ، (الواو) عاطفة (من كان . . نؤته) مثل من كان . . . نزد (منها) متعلّق بـ (نؤته) (الواو) عاطفة (ما) نافية (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (نصيب) ، (في الآخرة) متعلّق بحال من (نصيب) ، وهو مجرور لفظا مرفوع محلّا . .

جملة : " من كان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " كان يريد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ " 1 " وجملة : " يريد . . . " في محلّ نصب خبر كان وجملة : " نزد . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء وجملة : " من كان (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " كان (الثانية) " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " وجملة : "

يريد . . . "في محلّ نصب خبر كان وجملة : "نؤته منها . . . "لا محلّ لها جواب الشرط (الثاني) غير مقترنة بالفاء وجملة : "ما له في الآخرة من نصيب "لا محلّ لها معطوفة على جملة نؤته منها

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى "مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ" .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(323/688)

الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض ، يطلق على الزرع الحاصل منه ، وقد استعمل هنا في ثمرات الأعمال ونتائجها ، بطريق الاستعارة التصريحية المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور ، وقد تضمن تشبيه الأعمال بالبذور ، أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة نضاعف له ثوابه ، بالواحد عشرة إلى سبعمائة فما فوقها .

[سورة الشورى (42) : آية 21]

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ

الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (21)

الإعراب :

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل التي للانتقال أو معها الهمزة التي للتقريع (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (شركاء) ، (لهم) متعلّق بـ (شرعوا) ، (من الدين) متعلّق بحال من ما " 1 " ، (به) متعلّق بـ (يأذن) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (لولا . . . لقضي بينهم) مرّ إعراب نظيرها " 2 " ، (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) .

وجملة : " لهم شركاء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " شرعوا . . . " في محلّ رفع نعت لشركاء وجملة : " لم يأذن به اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " لولا كلمة . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " قضي بينهم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم وجملة : " إنّ الظالمين . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع خبر إنّ

[سورة الشورى (42) : الآيات 22 إلى 23]

---

(1) أو متعلّق بـ (شرعوا) .

(2) في الآية (14) من هذه السورة .

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23)

الإعراب :

(مشفقين) حال منصوبة (ممّا) متعلّق بـ (مشفقين) ، والعائد محذوف (الواو) حاليّة (بهم) متعلّق بـ (واقع) (الواو) استئنافيّة (في روضات) متعلّق بخبر المبتدأ (الذين) ، (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ما) (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (يشاءون) " 1 " ، (ذلك) مبتدأ ، والإشارة إلى المهيّأ للذين آمنوا (هو) ضمير فصل " 2 " ، (الفضل) خبر ذلك .

جملة : " ترى الظالمين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "كسبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " هو واقع بهم . . . " في محلّ نصب حال من مفعول كسبوا وجملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا وجملة : " لهم ما يشاءون . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (الذين) وجملة : " ذلك . . . الفضل " لا محلّ لها استئنافيّة 23 – عائد الموصول (الذي) محذوف أي يبشر به . . (الذين) موصول في

محلّ نصب نعت لعباد (لا) نافية (عليه) متعلّق بحال من (أجرا) ، (إلّا) للاستثناء (المودّة) اسم منصوب على الاستثناء المنقطع "

، (في القربى) متعلّق بحال من المودّة (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (له) متعلّق بـ (نزد) ، (فيها) متعلّق بـ (نزد) ، (شكور) خبر ثان للحرف المشبّه بالفعل إنّ .

وجملة : " ذلك الذي . . . " لا محلّ لها استئناف بياني " 4 " وجملة : " يبشّر اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي)

---

(1) أو متعلّق بحال من العائد المقدّر أي ما يشاءون وجوده عند ربّهم .

(2) أو هو مبتدأ ثان خبره الفضل . . والجملة الاسميّة خبر المبتدأ ذلك .

(3) يجوز أن يكون بدلا من (أجرا) منصوب مثله .

(4) يجوز أن تكون بدلا من جملة ذلك . . . الفضل .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لا أسألكم

. . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " من يقترف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يقترف . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " وجملة : " نزد له . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء وجملة : " إنّ اللّه غفور . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى " .

فقد جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها كقولك : لي في آل فلان مودّة ، ولي فيهم هوى وحب شديد ، تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله ، فالعلاقة محلية .

والمعنى أنكم قومي ، وأحق من أجابني وأطاعني ، فإذا قد أبيتم ذلك ، فاحفظوا حق القربى ، وصلوا رحمي ولا تؤذوني .

الفوائد

- المستثنى (بإلّا) وحكمه :

آ - يجب نصب المستثنى (بإلّا) إذا كان الكلام مثبتا ، وذكر المستثنى منه :

نحو (فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ) .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

ب – يجوز نصب المستثنى (بإلّا) أو إتباعه للمستثنى منه في إعرابه على أنّه بدل منه ، إذا كان الكلام منفيا وذكر المستثنى منه ، مثال ذلك : قوله تعالى : (ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ) بالرفع على البدلية أو (ما فعلوه إلا قليلا منهم) منصوب على الاستثناء .

ج – يعرب المستثنى (بإلّا) حسب موقعه في الجملة إذا كان الكلام منفيا ، ولم يذكر المستثنى منه ، وتكون (إلا) لا عمل لها . فقد يقع :

1 – خبرا : مثل قوله تعالى (وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) الرسول : خبر مرفوع .

2 – مبتدأ : مثل قوله تعالى (ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) البلاغ : مبتدأ مرفوع .

3 – فاعل : مثل : (ما رفع مقام الوطن إلّا العلم والعمل) العلم : فاعل مرفوع بالضمة 4 – مفعول به : مثل : (ما قلت إلّا كلمة الصدق) كلمة : مفعول به منصوب .

5 – إذا تقدم المستثنى على المستثنى منه وجب نصبه مطلقا أي سواء كان الاستثناء منقطعا مثل : (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى) أو متصلا ، نحو (ما قام إلا زيدا القوم) .

[سورة الشورى (42) : آية 24]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24)

الإعراب :

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل (على اللّه) متعلّق بـ (افترى) ، (كذبا) مفعول به منصوب " 1 " ، (الفاء) استئنافيّة (على قلبك) متعلّق بـ (يختم) ، (الواو) استئنافيّة (يمح) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو المحذوفة مراعاة لحذفها لفظا (بكلماته) متعلّق بـ (يحقّ) ، (بذات) متعلّق بـ (عليم) . .

---

(1) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر ملاقيه في المعنى .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " افترى . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " يشأ اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يختم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء وجملة : " يمحو اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يحقّ الحقّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يمحو اللّه وجملة : " إنّه عليم . . . " لا محلّ لها تعليليّة

[سورة الشورى (42) : الآيات 25 إلى 26]

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (26)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عن عباده) متعلّق بـ (يقبل) " 1 " (عن السيّئات) متعلّق بـ (يعفو) ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يقبل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة : " يعفو . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " تفعلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) 26 - (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (من فضله) متعلّق بـ (يزيدهم) " 2 " ، (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) . .

وجملة : " يستجيب الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي . . . .

---

(1) قبل يقبل - باب فرح - يتعدّى إلى المفعول الثاني بالباء وعن . . جاء في لسان العرب :

" قبل الشيء قبولا – بفتح القاف – وقبولا – بضمّها – وتقبّله كلاهما أخذه . والله عزّ وجلّ يقبل الأعمال من عباده وعنهم ، ويتقبّلها . وفي التنزيل : (أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا) . اه .

(2) ورود الفعل (يزيدهم) بالعطف على (يستجيب) يدلّ على أن الأخير بمعنى يجيب ، فالفاعل ضمير يعود على الله والموصول مفعول به . . وقد يكون الفعل (يستجيب) على معناه فالموصول فاعل أي ينقاد الذين آمنوا أو يجيبون ربّهم إذا دعاهم . [. . . . .]

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " يزيدهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يستجيب وجملة : " الكافرون لهم عذاب " لا محلّ لها معطوفة على جملة يستجيب " 1 "

الفوائد

– ذكر التوبة وحكمها . . .

قال العلماء : التوبة واجبة من كلّ ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى ، لا تتعلق بحق آدمي ، فلها ثلاثة شروط :

1 – أن يقلع عن الذنب .

2 – أن يندم على فعله .

3 – أن يعزم ألا يعود إليه أبدا .

فإذا صحت هذه الشروط صحّت التوبة ، وإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

مع العلم أنّه يجب عليه قضاء ما فاته من صلاة وصيام . وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فلها نفس الشروط السابقة ، وشرط رابع ، أن يبرأ من حق صاحبها وقيل في تعريف التوبة : الابتعاد عن المعاصي نية وفعلا ، والإقبال على الطاعات نية وفعلا .

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) يقول : واللّه إني لأستغفر اللّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة أصلا من غير العطف .

عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) يقول : للّه أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية (صحراء) مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ ، وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتّى إذا اشتد الحر والعطش ، أو ما شاء اللّه ، قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتّى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ ، فإذا راحلته عنده

عليها طعامه وشرابه ، فاللّه أشد فرحا بتوبة العبد من هذا براحلته وزاده .

[سورة الشورى (42) : آية 27]

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (لعباده) متعلّق بـ (بسط) ، (اللام) رابطة لجواب لو (بغوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . . والواو فاعل (في الأرض) متعلّق بـ (بغوا) ، (الواو) عاطفة (لكن) للاستدراك لا عمل له (بقدر) متعلّق بحال من ما (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (بعباده) متعلّق بـ (خبير وبصير) .

جملة : " لو بسط اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " بغوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " ينزل . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " إنّه . . . خبير . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ -

الصرف :

(بغوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله بغاوا ، التقى ساكنان فحذفت الألف - لام الكلمة -

وزنه فعوا .

[سورة الشورى (42) : الآيات 28 إلى 29]

(330/688)

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28) وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (29)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من بعد) متعلّق بـ (ينزّل) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) حرف مصدريّ . . والمصدر المؤوّل (ما قنطوا) في محلّ جرّ مضاف إليه .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ينزّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة : " قنطوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " ينشر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينزّل وجملة : " هو الوليّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي . . .

29 - (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (من آياته) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (خلق) ،

(فيهما) متعلّق بـ (بثّ) ، (من دابّة) تمييز ما " 1 " ، (على جمعهم) متعلّق بـ (قدير) ، (إذا) ظرف في محلّ نصب مجرّد من الشرط متعلّق بـ (جمعهم) .

وجملة : " من آياته خلق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الولي وجملة : " بثّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " هو . . . قدير " لا محلّ لها معطوفة على جملة من آياته خلق . . .

وجملة : " يشاء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

البلاغة

1 - فن صحة التفسير : في قوله تعالى " وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا " .

---

(1) أو حال من العائد المحذوف أي ما بثّه فيهما من دابّة .

ومعنى هذا الفن : هو أن يأتي المتكلم في أول كلامه ، بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه ، وهو إما أن يكون مجملا يحتاج إلى تفصيل ، أو موجها يفتقر إلى توجيه ، وقد جاءت صحة التفسير في الآية مؤذنة بمجيء الرجاء بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة ، والمسرة بعد الحزن . وما من مشهد ينفض هموم القلب وتعب النفس كمشهد الأرض ، تتفتح بالنبت

بعد الغيث ، وتنتشي بالخضرة بعد الموات .

2 - نسبة الشيء إلى الكل والمراد البعض : في قوله تعالى " وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ " .

فإنه يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسا ببعضه ، كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل ، وإنما هو فخذ من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم ، وبنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله واحد منهم ، ومنه قوله تعالى "يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ " وإنما يخرج من المالح .

[سورة الشورى (42) : الآيات 30 إلى 31]

وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (30) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (31)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (أصابكم) ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (من مصيبة) تمييز ما " 2 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (بما) متعلّق بخبر محذوف لمبتدأ مقدّر أي :

إصابتكم بالذي كسبته أيديكم ، فالباء سببيّة والعائد محذوف (الواو) اعتراضيّة (عن كثير) متعلّق بـ (يعفو) جملة : " ما أصابكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " أصابكم . . . " في محلّ رفع خبر ما " 3 " وجملة : " (إصابتكم) بما كسبت . . . " في محلّ جزم

جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : " يعفو . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : "كسبت أيديكم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

---

(1) يجوز أن يكون اسم موصول مبتدأ زادت الفاء في خبره (بما كسبت أيديكم . .) لمشابهة الموصول للشرط .

(2) أو حال من فاعل أصابكم المستتر .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا . . . وهي صلة ما إذا كان موصولا .

(332/688)

---

31 - (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (معجزين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (في الأرض) متعلّق بـ (معجزين) (ما) الثانية نافية مهملة (لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (وليّ) ، (من دون) متعلّق بحال من وليّ (وليّ) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (لا) زائدة لتأكيد النفي (نصير) معطوف على وليّ بالواو تبعه في الجرّ لفظا وبالرفع محلّا .

وجملة : " ما أنتم بمعجزين . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " ما لكم . . . من وليّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أنتم بمعجزين

الفوائد

- ما تزرعه تحصده . . .

بينت هذه الآية أن المصائب التي تنزل بالإنسان إنما هي نتيجة لما يقترف من الذنوب والآثام ، مع أن اللّه عز وجل يعفو عن كثير ، ولا يحاسب على كلّ شيء . وإلا فما ترك على ظهرها من دابة ، كما مر في آية أخرى .

(333/688)

قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : والذي نفسي بيده ، ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق ، إلا بذنب ، وما يعفو اللّه عنه أكثر وروى عن علي بن أبي طالب ، رضي اللّه عنه : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب اللّه ؟ حدثنا بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم (وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) وسأفسرها لكم : ما أصابكم من مصيبة ، أي مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا ، فبما كسبت أيديكم ، واللّه أكرم من أن يثنّي عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا اللّه عنه في الدنيا ، فاللّه أحلم من أن يعود بعد عفوه . عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : لا يصيب المؤمن شوكة ، فما فوقها ، إلا رفعه اللّه بها

درجة، وحط عنه بها خطيئة. فما أعظم كرم اللّه عز وجل، وما أجل لطفه بعباده.

[سورة الشورى (42) : الآيات 32 إلى 35]

وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (من آياته الجوار) مرّ إعراب نظيرها " 1 "، وعلامة الرفع في (الجوار) الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة لمناسبة قراءة الوصل (في البحر) متعلّق بـ (الجواري) " 2 "، (كالأعلام) متعلّق بحال من الجواري.

جملة: " من آياته الجواري . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف المتقدّم في جملة ما أصابكم . . . " 3 "

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة.

(2) أو بحال من الجواري بكونه جامدا وليس صفة مشتقّة.

(3) في الآية (30) من هذه السورة.

33 - (يسكن) مضارع مجزوم جواب الشرط ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (الفاء) عاطفة (يظللن) مضارع مبنيّ على السكون في محلّ جزم معطوف على (يسكن) ، و(النون) ضمير اسمه يعود على الجواري (على ظهره) متعلّق بـ (رواكد) ، (في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم لـ (إنّ) ، (اللام) للتوكيد (آيات) اسم إنّ مؤخّر منصوب وعلامة النصب الكسرة (لكلّ) متعلّق بنعت لـ (آيات) . . (شكور) نعت لكلّ صبّار . .

وجملة : " يشأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يسكن . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء وجملة : " يظللن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يسكن وجملة : " إنّ في ذلك لآيات " لا محلّ لها استئناف بيانيّ 34 - (أو) حرف عطف (يوبقهنّ) مضارع مجزوم معطوف على (يظللن) في المحلّ . . و(هنّ) مفعول به ، والفاعل هو أي اللّه (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، و(الواو) في (كسبوا) يعود على أصحاب السفن المفهوم من السياق . .

والمصدر المؤوّل (ما كسبوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يوبقهنّ) (الواو) عاطفة (يعف) مضارع مجزوم معطوف على جواب الشرط " 2 " ، (عن كثير) متعلّق بـ (يعف) .

وجملة : " يوبقهنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يظللن وجملة : "كسبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " يعف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة

يوبقهنّ 35 - (الواو) عاطفة (يعلم) مضارع منصوب معطوف على محذوف منصوب للتعليل أي : يغرقهم لينتقم منهم ويعلم (الذين) موصول في محلّ رفع فاعل يعلم (في آياتنا) متعلّق بـ (يجادلون) ، (ما) نافية مهملة " 3 " (لهم) متعلّق بخبر مقدّم (محيص) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ .

وجملة : " يعلم الذين يجادلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ المقدّرة أي : لـ (أن) ينتقم اللّه منهم ويعلم الذين . . .

وجملة : " يجادلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " ما لهم من محيص " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي العلم المعلّق بالنفي ما .

الصرف :

(32) الجوار : جمع الجارية مؤنّث الجاري ، اسم فاعل من

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف . . والجملة صلة الموصول .

(2) أي : إن يشأ يهلك ، وإن يشأ ينج بالعفو .

(3) لم يذكر المؤلف رحمه اللّه أنها يمكن أن تكون عاملة عمل ليس (انظر الفوائد في الصفحة التالية)

الثلاثيّ جرى وزنه فاعل ، ووزن الجواري الفواعل وهي السفن الجارية ، وقد يقصد بها الاسم الجامد للسفن باستعمال الوصف كاسم . . أمّا الجوار فوزنه الفواع بإسقاط (الياء) لقراءة الوصل .

(الأعلام) ، جمع علم وهو الجبل ، اسم جامد وزنه فعل بفتحتين ، ووزن الأعلام أفعال .

(33) رواكد : جمع راكدة مؤنّث راكد ، اسم فاعل من الثلاثيّ ركد بمعنى وقف ، وزنه فاعل ، ووزن رواكد فواعل .

(34) يعف : فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، حذف حرف العلة من آخره وزنه يفع بضم العين .

البلاغة

قال تعالى " إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ " يقولون : إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذابا ، بخلاف الرياح .

وهذه الآية تخرم الإطلاق ، فإن الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة إذ بواسطتها يسيّر اللّه السفن في البحر ، حتى لو سكنت لركدت السفن ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه ، وأما اطراده فلا . وما ورد في الحديث : اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا ، فلأجل الغالب في الإطلاق ، واللّه أعلم .

الفوائد

- ما : النافية العاملة عمل ليس . . .

(336/688)

ورد في هذه الآية قوله تعالى ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ما : نافية تعمل عمل ليس ، لهم متعلقان بخبرها المقدم ، ومحيص مجرور لفظا مرفوع محلّا على أنّه اسم ما ، وسنوضح فيما يلي ما يتعلّق بـ (ما) العاملة عمل ليس .

إن (ما) تعمل هذا العمل بأربعة شروط :

1 - أن يكون اسمها مقدما وخبرها مؤخرا .

2 - ألا يقترن الاسم بـ (إن الزائدة) كقول الشاعر :

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

3 - ألا يقترن الخبر بإلا مثل : ما أنت إلا شاعر .

4 - ألا يليها معمول الخبر ، ما عدا الظرف والجار والمجرور .

مثل : ما كلّ مسيء معاقب . فمسيء معمول للخبر معاقب لأن معاقب اسم مفعول تحتاج إلى نائب فاعل .

فإذا استوفت هذه الشروط عملت ، سواء أكان اسمها وخبرها نكرتين ، كقوله تعالى : فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ فأحد اسمها وحاجزين خبرها ، و(منكم) متعلّق بمحذوف تقديره أعني وكذلك تعمل (ما) إذا كان اسمها وخبرها معرفتين ، كقوله تعالى : ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ ، وكذلك إذا كان الاسم معرفة والخبر نكرة ، كقوله تعالى : ما هذا بَشَراً

[سورة الشورى (42) : الآيات 36 إلى 39]

فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

الإعراب :

(337/688)

(الفاء) استئنافيّة (ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم (أوتيتم) ماض مبنيّ للمجهول في محلّ جزم فعل الشرط (من شيء) تمييز ما " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (متاع) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو

(1) أو متعلّق بحال من ما .

(338/688)

(الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبتدأ (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (للذين) متعلّق بـ (أبقى) ، (على ربّهم) متعلّق بـ (يتوكّلون) .

جملة : "أوتيتم . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " (هو) متاع . . . "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : " ما عند اللّه خير . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول وجملة : " يتوكّلون "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة 37 - (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (الذين) موصول في محلّ جرّ معطوف على الموصول السابق (إذا) ظرف للزمن المستقبل مجرّد من الشرط متعلّق بـ (يغفرون) " 1 " ، (ما) زائدة (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ .

وجملة : "يجتنبون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني وجملة : "غضبوا . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه . .

وجملة : " هم يغفرون . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة يجتنبون وجملة : "

يغفرون . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) 38 - (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (الذين) موصول معطوف على الموصول الأخير في محلّ جرّ (لربّهم) متعلّق بـ (استجابوا) ، (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (شورى) ، (ممّا) متعلّق بـ (ينفقون) .

وجملة : "استجابوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث وجملة : "أقاموا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة استجابوا وجملة : "أمرهم شورى . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة استجابوا

---

(1) يجوز أن يكون الظرف متضمنا معنى الشرط فجوابه جمله يغفرون الفعلية ، و(هم) ضمير توكيد لفاعل غضبوا . . أو هو فاعل لفعل محذوف يفسّره ما بعده ، فلمّا حذف الفعل انفصل الفاعل .

وجملة : "رزقناهم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : "ينفقون "لا محلّ لها معطوفة على جملة استجابوا 39 - (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ جرّ معطوف على الموصول الأخير (إذا) مثل الأول " 1 " (هم ينتصرون) مثل هم يغفرون " 2 " . . وجملة : "أصابهم البغي . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : "هم ينتصرون . . . "لا

محلّ لها صلة الموصول (الذين) الرابع وجملة : " ينتصرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم)

الصرف :

(37) كبائر : جمع كبيرة أو كبير . . انظر الآية (45) من سورة البقرة أو الآية (217) منها (38) شورى : اسم مصدر للخماسيّ تشاور أي بمعنى التشاور وزنه فعلى بضمّ فسكون كبشرى .

[سورة الشورى (42) : الآيات 40 إلى 43]

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (مثلها) نعت لسيّئة الثانية مرفوع (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبتدأ في محلّ رفع (عفا) ماض في محلّ جزم فعل الشرط وكذلك (أصلح) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (على اللّه) متعلّق بخبر

(1 ، 2) في الآية (37) من هذه السورة . [. . . . .]

المبتدأ ، (لا) نافية .

جملة : " جزاء سيّئة سيّئة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " من عفا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " عفا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) وجملة : " أصلح . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة عفا وجملة : " أجره على اللّه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : " إنّه لا يحب الظالمين " لا محلّ لها تعليليّة

41 - (الواو) عاطفة (اللام) للابتداء (من انتصر) مثل من عفا (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (انتصر) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) نافية مهملة (عليهم) متعلّق بخبر مقدّم (سبيل) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر .

وجملة : " من انتصر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من عفا وجملة : " انتصر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني وجملة : " أولئك ما عليهم من سبيل " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : " ما عليهم من سبيل " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) 42 - (إنّما) كافّة ومكفوفة (على الذين) متعلّق بخبر المبتدأ (السبيل) ، (في الأرض) متعلّق بـ (يبغون) ، (بغير) متعلّق بحال من فاعل يبغون (لهم) خبر مقدّم للمبتدأ

(عذاب) . .

وجملة : " السبيل على الذين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " يظلمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " يبغون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يظلمون وجملة : " أولئك لهم عذاب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ

الجدول ج 25 ، ص : 52

وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) 43 - (الواو) عاطفة (لمن صبر) مثل لمن انتصر (اللام) المزحلقة للتوكيد (من عزم) متعلّق بخبر إنّ .

وجملة : " من صبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من انتصر وجملة : " صبر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " الثالث .

---

(1) ويجوز أن يكون خبر (من) جملتي الشرط والجواب معا .

وجملة : " غفر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة صبر وجملة : " إنّ ذلك لمن عزم . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر أي من صبر كان ذا عزم ، إنّ ذلك لمن عزم الأمور .

البلاغة

1 – جناس المزاوجة : في قوله تعالى " وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا " .

كلتا الفعلتين : الأولى وجزاؤها ، سيئة لأنها تسوء من تنزل به ، وقد سميت باسمها لقصد المزاوجة ، ومثله قوله تعالى " فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ " ، والمعنى : أنّه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ، فإذا قال : أخزاك اللّه ، قال : أخزاك اللّه . وبعضهم يعبّر عنها بالمشاكلة .

2 – فن التهذيب : في قوله تعالى : " فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " .

وهذا الفن هو أنه ، عند ما يسند الفعل إلى اللّه تعالى ، ينبغي العدول عن إسناد الإساءة إليه ، كما في قوله تعالى ، على لسان إبراهيم عليه السلام : " وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ " ، حيث نسب المرض إلى نفسه ، ونسب الشفاء إلى ربه ، سبحانه وتعالى .

وهذا من باب التزام الأدب مع اللّه سبحانه .

وفي الآية التي نحن في صددها ، فن رفيع ، وهو التهذيب أيضا ، فإن الانتصار ، لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء ، خصوصا في حالة الفوران والغليان

والتهاب الحمية ، وفي هذا جواب لمن يتساءل : ما معنى ذكر الظلم عقب العفو ، مع أن الانتصار ليس بظلم . وهذا كقوله تعالى " وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ " .

فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إنّ فيقال : ألا إنّهم في عذاب مقيم ، فأتى هذا الظاهر تسجيلا عليهم بلسان ظلمهم . وهذا من البديع الذي يسمو على ذوي الفكر والمبدعين .

[سورة الشورى (42) : الآيات 44 إلى 46]

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44) وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (45) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم (يضلل) مجزوم وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) نافية مهملة (له) متعلّق

بمحذوف خبر مقدّم (وليّ) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (من بعده) متعلّق بنعت لـ (وليّ) (الواو) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين مجرّد من الشرط، متعلّق بـ (ترى)، (رأوا)

الجدول ج 25، ص: 54

ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (هل) حرف استفهام (إلى مردّ) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (سبيل) مجرور لفظا بمن الزائدة مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر.

جملة: "يضلل اللّه . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما له من وليّ . . . "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "ترى . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "رأوا . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "يقولون . . . "في محلّ نصب حال من الظالمين.

وجملة : " هل إلى مردّ من سبيل " في محلّ نصب مقول القول .

45 - (الواو) عاطفة (عليها) متعلّق بـ (يعرضون) ، (خاشعين) حال من نائب الفاعل (من الذلّ) متعلّق بـ (خاشعين) (من طرف) متعلّق بـ (ينظرون) ، (الواو) استئنافيّة (الذين) الثاني في محلّ رفع خبر إنّ (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (خسروا) - أو بـ (قال) - (ألا) للتنبيه (في عذاب) متعلّق بخبر إنّ الثاني .

وجملة : " تراهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ترى الظالمين .

وجملة : " يعرضون . . . " في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (تراهم) .

وجملة : " ينظرون . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في خاشعين .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " إنّ الخاسرين الذين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " خسروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " إنّ الظالمين في عذاب " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

---

(1) ويجوز أن تكون في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر هو قول اللّه .

46 - (الواو) عاطفة (ما) نافية (لهم) خبر كان مقدّم (أولياء) مجرور لفظا بـ (من) الزائدة مرفوع محلّا اسم كان ومنع من التنوين لأنّه ملحق بالمؤنّث المنتهي بـ (ألف) التأنيث الممدودة على وزن أفعلاء (من دون) متعلّق بحال من فاعل ينصرون (الواو) استئنافيّة (من يضلل اللّه فما له من سبيل) مثل من يضلل اللّه فما له من وليّ " 1 " . .

وجملة : " ما كان لهم من أولياء " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ الظالمين . . .

وجملة : " ينصرونهم . . . " في محلّ جرّ - أو رفع على المحلّ - نعت لأولياء .

وجملة : " يضلل اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما له من سبيل " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

البلاغة

التصوير الرائع : في قوله تعالى " يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ " .

تجسيد بارع ، وتصوير رائع ، لمن يقف أمام الموت الذي ينتظره ، فإنهم يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي ، بمسارقة ، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره : لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها ، كما يفعل في نظره إلى المحبوب .

[سورة الشورى (42) : الآيات 47 إلى 48]

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (48)

---

(1) في الآية (44) من هذه السورة.

الجدول ج 25، ص: 56

الإعراب:

(لربّكم) متعلّق بـ (استجيبوا)، (من قبل) متعلّق بـ (استجيبوا)، (أن) حرف مصدريّ ونصب (لا) نافية للجنس (له) متعلّق بمحذوف خبر لا (من اللّه) متعلّق بالمصدر الميميّ (مردّ) . .

والمصدر المؤوّل (أن يأتي . .) في محلّ جرّ مضاف إليه.

(ما لكم من ملجأ) مثل ما له من وليّ " 1 "، (يومئذ) ظرف زمان مضاف إلى الظرف إذ متعلّق بالمصدر (ملجأ)، (الواو) عاطفة (ما لكم من نكير) مثل الأول " 2 ".

جملة: " استجيبوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر هو مستأنف.

وجملة: " يأتي يوم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " لا مردّ له . . . " في محلّ جرّ نعت ليوم.

وجملة: " ما لكم من ملجأ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 3 ".

وجملة : " ما لكم من نكير " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف البيانيّ .

48 - (الفاء) عاطفة (أعرضوا) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) نافية (عليهم) متعلّق بالحال (حفيظا) ، (إن) حرف نفي (عليك) خبر مقدّم (إلّا) للحصر (البلاغ) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) استئنافيّة

(1 ، 2) في الآية (44) من هذه السورة .

(3) أو هي نعت ثان ليوم بتقدير الرابط أي ما لكم من ملجأ فيه ، وكذلك جملة ما لكم من نكير المعطوفة .

(منّا) متعلّق بحال من رحمة " 1 " ، (بها) متعلّق بـ (فرح) ، (الواو) عاطفة (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (الفاء) رابطة .

والمصدر المؤوّل (ما قدّمت . . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) السببيّة متعلّق بـ (تصبهم) .

وجملة : " أعرضوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة القول المستأنفة المقدّرة .

وجملة : " ما أرسلناك . . . " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر أي : إن أعرضوا . فلا تحزن فما أرسلناك . . . " 3 " .

وجملة : " إن عليك إلّا البلاغ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّا إذا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أذقنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " فرح . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تصبهم سيئة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا إذا . . .

وجملة : " قدّمت أيديهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " إنّ الإنسان كفور . . . " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر أي :

إن تصبهم سيّئة كفروا بالنعمة وذكروا البليّة ، إنّ الإنسان كفور .

الفوائد

- لا : النافية للجنس . .

وسميت كذلك ، لأنها تنفي عموم الجنس . فعند ما أقول : لا رجل في الدار ، فإنني أنفي جنس الرجال . فلا يجوز أن أقول : (لا رجل في الدار بل رجلين) . ولإعمالها شروط :

---

(1) أو متعلّق بـ (أذقنا) ، ومن لابتداء الغاية .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف .

(3) يجوز أن تكون الجملة هي جواب الشرط على الظاهر .

---

1 - ألا تقترن بحرف جر ، مثل (سافرت بلا زاد) .

2 - أن يكون اسمها وخبرها نكرتين .

3 - ألا يفصل بينها وبين اسمها فاصل ، مثل (لا في التقصير ولا في الإهمال نجاح) . وقد وردت (لا) النافية للجنس في الآية التي نحن بصددها عاملة ، توافر لها شروط الإعمال ، وهو قوله تعالى (لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ) . أما اسمها ، فيكون مبنيا ، إذا كان مفردا ، أي ليس مضافا ولا شبيها بالمضاف ، مثل : لا رجل في الدار ، لا رجلين في الدار ، لا مهملين بيننا ، لا مهملات بيننا . ففي هذه الأمثلة جاء اسم (لا) مبنيا على ما ينصب به ، فهو حسب ترتيب الجمل : مبني على الفتح ، والياء في المثنى ، والياء في جمع المذكر السالم ، والكسر في جمع المؤنث السالم . ويأتي منصوبا إذا كان :

آ - مضافا ، مثل : لا رجل سوء محبوب .

ب - شبيها بالمضاف : لا فاعلا سوءا محبوب .

[سورة الشورى (42) : الآيات 49 إلى 50]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ

(49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)

الإعراب :

(للّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ملك) ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (لمن) متعلّق بـ (يهب) في الموضعين . .

جملة : " للّه ملك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يخلق . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يهب . . . " لا محلّ لها بدلّ من جملة يخلق .

وجملة : " يشاء (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يهب (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة يهب (الأولى) .

(347/688)

وجملة : " يشاء (الثالثة) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

50 - (أو) حرف عطف (ذكرانا) مفعول به ثان بتضمين الفعل معنى يجعلهم " 1 " ، (عقيما) مفعول به ثان منصوب .

وجملة : " يزوّجهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يهب . .

وجملة : " يجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يزوّجهم .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إنّه عليم . . . " لا محلّ لها تعليليّة – أو استئناف بيانيّ –

البلاغة

فن صحة التقسيم : في قوله تعالى " يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ " . وهذا الفن هو : استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو شارع فيه ، بحيث لا يغادر منه شيئا . فإنه سبحانه ، إما أن يفرد العبد بهبة الإناث ، أو بهبة الذكور ، أو بهما جميعا ، أو لا يهبه شيئا فقد وقعت صحة التقسيم في هذه الآية على الترتيب الذي تستدعيه البلاغة ، وهو الانتقال في نظم الكلام ورصفه من الأدنى إلى الأعلى ، فقدّم هبة الإناث ، ثم انتقل إلى هبة الذكور ، ثم إلى هبة المجموع ، وجاء في كل قسم من أقسام العطية بلفظ الهبة وأفرد معنى الحرمان بالتأخير ، لأن إنعامه على عباده أهمّ عنده ، وتقديم الأهم واجب في كل كلام بليغ والآية إنما سيقت للاعتداد بالنعم ، وإنما أتى بذكر الحرمان ليتكمل التمدح بالقدرة على المنع ، كما يمدح بالعطاء ، فيعلم أنّه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع .

---

(1) يجوز أن يكون حالا على التصنيف من ضمير الغائب في (يزوّجهم) .

[سورة الشورى (42) : الآيات 51 إلى 53]

وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (لبشر) متعلّق بخبر كان (أن) حرف مصدريّ ونصب (إلّا) للاستثناء " 1 " (وحيا) مفعول مطلق لفعل محذوف نائب عن المصدر لأنه اسم مصدر أي إلّا أن يوحي إليه وحيا " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن يكلّمه . .) في محلّ رفع اسم كان.

والمصدر المؤوّل (أن يوحى . .) في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع - إن كان الوحي غير التكليم - أو المتّصل إن كان الوحي نوعا من التكليم أو التكليم نوعا من الوحي.

(أو) حرف عطف (من وراء) متعلّق بمحذوف معطوف على العامل في (وحيا) ، أي : أو إلّا أن يكلّمه من وراء حجاب . . أو إسماعا من وراء حجاب (يرسل) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد أو " 3 " . .

---

(1) أو للحصر .

(2) يجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال من لفظ الجلالة أو ضمير الغائب في يكلّمه .

(3) الإضمار هنا جائز لأنّه مسبوق بمصدر صريح .

الجدول ج 25 ، ص : 61

والمصدر المؤوّل (أن يرسل . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر الصريح (وحيا) .

(الفاء) عاطفة (يوحي) مضارع منصوب معطوف على (يرسل) ، (بإذنه) متعلّق بحال من فاعل يوحي " 1 " والضمير الغائب في (بإذنه) يعود على اللّه (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به " 2 " ، وفاعل يشاء ضمير يعود على اللّه . .

جملة : " ما كان لبشر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يكلّمه اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يرسل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يوحي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 3 " .

وجملة : " إنّه عليّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

52 - (الواو) عاطفة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله أوحينا (إليك) متعلّق بـ (أوحينا) ، (من أمرنا) متعلّق بنعت لـ (روحا) ، (ما) الأول حرف نفي (ما) الثاني اسم استفهام مبتدأ خبره (الكتاب) " 4 " ، (لا) زائدة لتأكيد النفي (الإيمان) معطوف على الكتاب مرفوع مثله (الواو) عاطفة (لكن) للاستدراك لا عمل له (نورا) مفعول به ثان منصوب (به) متعلّق بـ (نهدي) ، (من عبادنا) متعلّق بحال من العائد المقدّر أي نشاء هدايته من عبادنا (الواو) استئنافيّة (اللام) المزحلقة للتوكيد (إلى صراط) متعلّق بـ (تهدي) .

---

(1) وهو الرسول الملك إلى المرسل إليه البشر .

(2) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب . [. . . . .]

(3) أو في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

(4) وفي الكلام تقدير مضاف أي : ما كنت تدري جواب (ما الكتاب) أي جواب هذا الاستفهام .

وجملة : " أوحينا إليك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كان لبشر .

وجملة : " ما كنت تدري . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (إليك) .

وجملة : " تدري . . . " في محلّ نصب خبر كنت .

وجملة : " ما الكتاب . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي تدري المعلّق عن العمل بالاستفهام ما .

وجملة : " جعلناه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ما كنت تدري .

وجملة : " نهدي . . . " في محلّ نصب نعت لـ (نورا) .

وجملة : " نشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إنّك لتهدي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تهدي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(350/688)

---

53 - (صراط) بدل من صراط الأول بدل معرفة من نكرة مجرور مثله (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (ما) ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما (ما) الثاني في محلّ رفع معطوف على (ما) الأول (في الأرض)

صلة ما الثاني (ألا) للتنبيه (إلى اللّه) متعلّق بـ (تصير) .

وجملة : " له ما في السموات . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تصير الأمور " لا محلّ لها استئنافيّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 25 صـ 62.17﴾

(351/688)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(42) سورة الشورى

مكية وآياتها ثلاث وخمسون

[سورة الشورى (42) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) عسق (2) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ

وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

الإعراب :

(حم . عسق .) تقدم القول في فواتح السور معنى وإعرابا (كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الكاف نعت لمصدر محذوف ويوحي فعل مضارع مرفوع وإليك متعلقان بيوحي وإلى الذين عطف على إليك ومن قبلك صلة الذين واللّه فاعل والعزيز الحكيم نعتان للّه وقرىء يوحى بالبناء للمجهول فنائب الفاعل هو الجار

(352/688)

والمجرور واللّه فاعل بفعل محذوف دلّ عليه يوحى كأن قائلا قال من الموحي فقيل اللّه (لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) له خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وفي السموات صلة وما في الأرض عطف وهو مبتدأ والعليّ العظيم خبران لهو (تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ) تكاد فعل مضارع من أفعال المقاربة والسموات اسمها وجملة يتفطرن خبرها ومن فوقهنّ متعلقان بيتفطرن ومعنى من الابتداء أي يتبدئ الانفطار من جهتهنّ الفوقانية لأن أعظم الآيات وأدلّها على العظمة والجلال هو الانفطار من تلك الجهة ويعلم انفطار السفلى بطريق الأولى . واختلف في عودة الضمير في فوقهنّ فقيل هو عائد

على السموات أي يبتدىء انفطارهنّ من هذه الجهة ومن للابتداء متعلقة بيتفطرن كما ذكرنا وقيل أنه عائد على الأرضين لتقدم ذكر الأرض قبل ذلك وقيل أنه عائد على فرق الكفار والجماعات الملحدين (وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) كلام مستأنف والملائكة مبتدأ وجملة يسبّحون خبره وبحمد ربهم حال أو متعلقان بيسبحون (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) ويستغفرون عطف على يسبحون ولمن متعلقان بيستغفرون وفي الأرض صلة من وألا أداة تنبيه وإن واسمها وهو ضمير فصل والغفور الرحيم خبر ان لإن (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) والذين مبتدأ وجملة اتخذوا صلة ومن دونه في موضع المفعول الثاني وأولياء مفعول اتخذوا الأول واللّه مبتدأ وحفيظ خبر وعليهم متعلقان بحفيظ وما نافية حجازية وأنت اسمها وعليهم متعلقان بوكيل والباء حرف جر زائد ووكيل مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما وجملة اللّه حفيظ عليهم خبر الذين.

]

سورة الشورى (42) : الآيات 7 إلى 9]

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)

الإعراب :

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها) الكاف نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الإيحاء أوحينا وأوحينا فعل وفاعل وإليك متعلقان بأوحينا وقرآنا مفعول أوحينا وعربيا نعت . واختار الزمخشري أن تكون ذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها من أن اللّه هو الرقيب عليهم وما أنت برقيب عليهم ولكن نذير لهم لأن هذا المعنى كرره اللّه في كتابه في مواضع جمة والكاف مفعول به لأوحينا وقرآنا عربيا حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي لا لبس فيه عليك لتفهم ما يقال لك ولا تتجاوز حدّ الإنذار وهو إعراب وجيه جميل . واللام للتعليل وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وأم القرى مفعول به لتنذر ، وأم القرى مكة ، ومن عطف على أم القرى وحولها ظرف متعلق بمحذوف صلة من (وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) وتنذر عطف على لتنذر ويوم الجمع مفعول به ثان لتنذر والمفعول الأول محذوف أي وتنذر الناس يوم الجمع أي عذابه فحذف المفعول الأول من الإنذار الثاني كما حذف المفعول الثاني

من الإنذار الأول وتقديره العذاب ولا نافية للجنس وريب اسمها وفيه خبرها والجملة حال من يوم الجمع أو مستأنفة واختار

(354/688)

الزمخشري أن تكون معترضة والمراد بيوم الجمع يوم القيامة لأن الخلائق تجمع فيه وفريق مبتدأ وفي الجنة خبره وسوّغ الابتداء به التنويع والتفصيل وفريق في السعير عطف على ما تقدم ويجوز أن يكون فريق خبر لمبتدأ مضمر أي المجموعون (وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً) الواو استئنافية ولو شرطية وشاء اللّه فعل ماض وفاعل واللام واقعة في جواب لو وجملة جعلهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والهاء مفعول به أول وأمة مفعول به ثان وواحدة نعت لأمة أي على دين واحد (وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) الواو حالية ولكن حرف استدراك مهمل ويدخل مثل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو ومن مفعول به وجملة يشاء صلة والعائد محذوف وفي رحمته متعلقان بيدخل والظالمون مبتدأ وهو من باب وضع المظهر موضع المضمر ومقتضى الظاهر أن يقول ويدخل من يشاء في غضبه ولكنه عدل عن ذلك إلى ذكر الظالمين تسجيلا عليهم ومبالغة في الوعيد وما نافية ولهم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وولي مجرور لفظا

مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر ولا نصير عطف على من ولي وجملة النفي خبر الظالمون (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ) حرف عطف وهي منقطعة بمعنى بل واتخذوا فعل وفاعل ومن دونه في موضع المفعول الثاني وأولياء مفعول اتخذوا الأول (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) اختلف في هذه الفاء فقال الزمخشري هي جواب شرط مقدّر أي الفصيحة كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه إن أرادوا وليّا بحق فاللّه هو الوليّ بالحق لا وليّ سواه على شيء وقال أبو حيان في الردّ على الزمخشري : " لا حاجة إلى هذا التقدير لتمام الكلام بدونه " أي فهي لمجرد العطف أي عطف ما بعدها على ما قبلها وتبع أبا حيان أكثر المعربين وصرّح

(355/688)

الجلال بأنها لمجرد العطف ، وعندي أن

رأي الزمخشري أسدّ وأقرب لملاءمة الكلام بعضه لبعض واللّه مبتدأ وهو مبتدأ ثان أو ضمير فصل لا محل له والوليّ خبر هو والجملة خبر اللّه أو خبر اللّه وضمير الفصل لا محل له وهو مبتدأ ويحيي الموتى خبر وهو على كل شيء قدير عطف على ما تقدم أيضا .

[سورة الشورى (42) : الآيات 10 إلى 12]

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)
فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

اللغة :

(يَذْرَؤُكُمْ) قال في القاموس : " ذرأ كجعل خلق والشيء كثره ومنه الذرية مثلثة لنسل الثقلين " وقال شارحه في التاج : " وقد يطلق على الآباء والأصول أيضا قال اللّه تعالى : إنّا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون والجمع ذراري كسراري " وقد تقدم القول فيه وسيأتي معنى تعديته بفي في باب الإعراب .

(مَقَالِيدُ) تقدم بحثه في سورة الزمر فجدّد به عهدا .

الإعراب :

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق لحكاية قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم للمؤمنين أي خالفكم فيه

الكفار في أمر من أمور الدين أو الدنيا فحكم ذلك المختلف فيه مفوّض إلى اللّه تعالى . وما شرطية في محل رفع مبتدأ ويجوز أن تكون موصولة أيضا واختلفتم فعل الشرط وفيه متعلقان باختلفتم ومن شيء حال والفاء رابطة وحكمه مبتدأ وإلى اللّه متعلقان بمحذوف خبر أي مردود وراجع إلى اللّه (ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) ذلكم مبتدأ واللّه خبر ويجوز أن يكون بدلا من ذلكم وربي خبر ثان وعليه متعلقان بتوكلت والجملة خبر ثالث وإليه متعلقان بأنيب والجملة خبر رابع (فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) خبر خامس وقرىء بالجر قال أبو البقاء هو بدل من الهاء في عليه وقال الزمخشري نعت لقوله فحكمه إلى اللّه فتكون جملة ذلكم إلخ معترضة بين الموصوف وصفته (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) الجملة خبر سادس وجعل فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو ولكم في موضع المفعول الثاني إن كانت بمعنى التصيير ومتعلقان بجعل إن كانت بمعنى الخلق ومن أنفسكم حال لأنها كانت صفة لأزواجا وأزواجا مفعول جعل الأول ومن الأنعام أزواجا عطف على سابقتها وجملة يذرؤكم صفة لأزواجا وفيه متعلقان بيذرؤكم والضمير يعود على الجعل أو التدبير قال الزمخشري : " فإن قلت فما معنى يذرؤكم فيه وهلا قيل يذرؤكم به ؟ قلت جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير ، ألا تراك تقول للحيوان في خلق الأزواج تكثير كما قال تعالى " ولكم في القصاص حياة " (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) خبر سابع وليس فعل ماض ناقص والكاف زائدة ومثله مجرور

لفظا منصوب محلا لأنه خبر ليس وشيء اسمها وهذا الذي درجنا عليه قول أكثر المعربين وهو المشهور عند النحاة وهناك مباحث طريفة طويلة في صددها نرجئها إلى باب الفوائد وهو مبتدأ والسميع البصير خبران لهو (

(357/688)

لَهُ مَقَالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) له خبر مقدم ومقاليد السموات والأرض مبتدأ مؤخر والجملة خبر ثا من (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

جملة يبسط الرزق خبر تاسع ويبسط فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو والرزق مفعول به ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ويقدر عطف على يشاء وإن واسمها وعليم خبرها وبكل شيء متعلقان بعليم .

الفوائد :

في قوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) اختلاف كثير بين كبار النحاة وسنورد هنا مجملا لأقوالهم جميعا على أن أسهل الأوجه هو ما ذكرناه نقلا عن جمهرتهم ، وقال الشيخ بهاء الدين بن النحّاس في تعليقه على المقرب : قال أكثر الناس هي زائدة للتوكيد والمعنى والله أعلم ليس

مثله شيء وقال جماعة من المحققين ليست بزائدة وإنما هي على بابها ومعنى الكلام والله أعلم نفي مثل المثل ويلزم من ذلك نفي المثل ضرورة وجوده سبحانه فإن قيل : لم توصل إلى نفي المثل بنفي مثل المثل وهلا نفى المثل من أول وهلة ، فالجواب إن نفي المثل بنفي مثل المثل أبلغ وأفخم من قولنا أنت لا تفعل هذا لأنه نفي الشيء بذكر دليله فهو أبلغ من نفي الشيء بغير ذكر دليله .

قلت : وقد قال بعضهم أنها ليست بزائدة ولم يعوّل على هذا الدليل بل قال مثل ومثل ساكنا ومتحركا سواء في اللغة كشبه وشبه فمثل هاهنا بمعنى مثل ، قال الله تعالى : " ولله المثل الأعلى " ويكون المعنى ليس مثل مثله شيء وهو صحيح .

وقال الشهاب الحلبي المعروف بابن السمين : " قوله ليس كمثله شيء في هذه الآية أوجه : أحدها وهو المشهور عند المعربين أن الكاف زائدة في خبر ليس وشيء اسمها والتقدير ليس شيء مثله قالوا : ولولا ادّعاء زيادتها للزم أن يكون له مثل وهو محال إذ يصير التقدير على أصالة الكاف ليس مثل مثله شيء فنفى المماثلة عن مثله فثبت أن له

مثلا ولا مثل لذلك المثل وهذا محال تعالى اللّه عن ذلك ، وقال أبو البقاء : ولو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال إذ كان يكون المعنى أن له مثلا وليس لمثله مثل وفي ذلك تناقض لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل وهو هو مع أن إثبات المثل للّه تعالى محال . قلت : وهي طريقة غريبة في تقرير الزيادة وهي طريقة حسنة الصناعة والثاني : أن مثل هي الزائدة كزيادتها في قوله تعالى بمثل ما آمنتم قال الطبري : كما زيدت الكاف في بعض المواضع وهذا ليس بجيد لأن زيادة الأسماء ليست بجائزة وأيضا يصير التقدير ليس كهو شيء ، ودخول الكاف على الضمائر لا يجوز إلا في الشعر . الثالث : أن العرب تقول مثلك لا يفعل كذا يعنون المخاطب نفسه لأنهم يريدون المبالغة في نفي الوصف عن المخاطب فينفونها في اللفظ عن مثله فيثبت انتفاؤها عنه بدليلها ، قال ابن قتيبة :

العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول مثلي لا يقال له هذا أي أنا لا يقال لي هذا . الرابع : أن يراد بالمثل الصفة وذلك أن المثل بمعنى المثل والمثل الصفة كقوله مثل الجنة فيكون المعنى ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره وهو محمل سهل " .

وللراغب في مفرداته كلام لطيف يحسن إثباته هنا في المثل قال :

" المثل أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة وذلك أن الند يقال لما يشارك في الجوهر فقط والشبه يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط والمثل في جميع ذلك ولهذا لما أراد اللّه نفي الشبه من كل وجه خصّه بالذّكر قال تعالى : ليس كمثله شيء " .

وقال ابن هشام الأنصاري في كتابه الممتع " المغني " : " قال الأكثرون التقدير ليس شيء مثله إذ لو لم تقدّر زائدة صار المعنى ليس شيء مثل مثله فيلزم المحال وهو إثبات المثل وإنما زيدت لتوكيد نفي المثل لأن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة ثانيا قاله ابن جنّي ولأنهم

(359/688)

إذا بالغوا في نفي الفعل عن أحد قالوا مثلك لا يفعل كذا ومرادهم يات ككما يؤثفين ، ومن قال : فأصبحت مثل كعصف مأكول " .

وعقب ابن المنير القاضي على كلام الزمخشري فقال : " هذا الوجه الثاني مردود على ما فيه من الإخلال بالمعنى وذلك أن الذي يليق

هنا تأكيد نفي المماثلة والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المماثلة وفرّق بين تأكيد المماثلة المنفية وبين تأكيد نفي المماثلة فإن نفي المماثلة المهملة عن التأكيد أبلغ وآكد في المعنى من نفي المماثلة المقترنة بالتأكيد إذ يلزم من نفي المماثلة غير المؤكدة نفي كل مماثلة ولا يلزم من نفي مماثلة محققة متأكدة بالغة نفي مماثلة دونها في التحقيق والتأكيد وحيث وردت الكاف مؤكدة للماثلة وردت في الإثبات فأكدته " إلى أن يقول : " والوجه الذي ذكره هو الوجه في

الآية عنده وأتى بمطية الضعف في هذا الوجه الثاني بقوله : ولك أن تزعم فافهم " .

[سورة الشورى (42) : الآيات 13 إلى 15]

(360/688)

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)

اللغة :

(يَجْتَبِي إِلَيْهِ) يجتلب إليه ، والاجتباء افتعال من الجباية وهي الجمع . قال الراغب : يقال جبيت الماء في الحوض أي جمعته ومنه قوله تعالى : يجبى إليه ثمرات كل شيء .

والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء قال تعالى : قالوا لولا اجتبيتها ، واجتباء اللّه العبد

تخصيصه إياه بغيض إلهي لتحصل له أنواع النعم بلا سعي منه .

الإعراب :

)

(361/688)

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ) لك أن تجعله خبرا عاشرا ، ولك أن تجعله كلاما مستأنفا مسوقا للشروع في تفصيل ما أجمله أولا . وشرع فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو ولكم متعلقان بشرع ومن الدين حال وما مفعول به وجملة وصى صلة وبه متعلقان بوصي ونوحا مفعول به والذي عطف على ما وجملة أوحينا صلة وإليك متعلقان بأوحينا (وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى) عطف على ما تقدم أيضا وتخصيص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لإنافتهم وعلو شأنهم لأنهم أولو العزم من الرسل (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) أن تفسيرية بمعنى أي لأنها سبقت بما فيه معنى القول دون حروفه وهو وصى ، ويجوز أن تكون مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر في محل رفع خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو أن أقيموا ، أو في محل نصب بدلا من الموصول وهو ما ، أو في محل جر بدلا من الدين . وأقيموا الدين فعل أمر وفاعل ومفعول به والواو عاطفة ولا ناهية

وتتفرقوا فعل مضارع مجزوم بلا وفيه متعلقان بتتفرقوا (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) كلام مستأنف وكبر فعل ماض وعلى المشركين متعلقان بكبر وما فاعل وجملة تدعوهم صلة وإليه متعلقان بتدعوهم والله مبتدأ وجملة يجتبي خبر وإليه متعلقان بيهدي ومن مفعول به وجملة يشاء صلة ويهدي عطف على يجتبي وإليه متعلقان بيهدي ومن مفعول به وجملة ينيب صلة (وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان حال أهل الكتاب بعد الإشارة الإجمالية إلى أحوال أهل الشرك.

(362/688)

و ما نافية وتفرقوا فعل ماض وفاعل وإلا أداة حصر ومن بعد متعلقان بتفرقوا والاستثناء من أعمّ الأحوال فيتعلق بمحذوف حال أيضا وما مصدرية مؤولة مع ما في حيزها بمصدر مضاف إلى الظرف وجاءهم العلم فعل ماض ومفعول به وفاعل وبغيا مفعول لأجله أو مصدر مؤول بالمشتق فهو منصوب على الحال أي باغين وبينهم متعلق ببغيا أي لم يكن تفرقهم لقصور في البيان والحجج ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا (وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) الواو عاطفة ولو لا حرف امتناع لوجود وكلمة مبتدأ

محذوف الخبر وجملة سبقت نعت لكلمة ومن ربك متعلقان بسبقت وإلى أجل متعلقان بسبقت ومسمى نعت لأجل واللام واقعة في جواب لولا وقضي فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل المصدر المفهوم من قضي أي القضاء وبينهم متعلق بقضي والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) الواو حرف عطف ولك أن تجعلها حالية مبينة لكيفية كفر المشركين بالقرآن ، وإن واسمها وجملة أورثوا صلة وأورثوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والكتاب مفعول به ثان واللام المزحلقة وفي شك خبر إن ومنه نعت لشك ومريب نعت ثان (فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ) الفاء الفصيحة ولذلك متعلقان بادع والفاء الثانية تأكيد للفاء الأولى واللام بمعنى إلى أي إن عرفت هذا كله وأدركت نواجم التفرق فادع إلى الاتفاق على الملّة الحنيفية ، واستقم عطف على ادع والكاف نعت لمصدر محذوف

(363/688)

ويجوز في ما أن تكون مصدرية أو موصولة والاستقامة لزوم المنهج المستقيم وقد تقدم القول في الخط المستقيم وأن أقل انحراف يخرجه عن حدود استقامته (وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ) الواو عاطفة ولا ناهية وتتبع فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل

مستتر تقديره أنت وأهواءهم مفعول به وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وجملة آمنت مقول القول وبما متعلقان بآمنت وجملة أنزل اللّه صلة والعائد محذوف أي أنزله اللّه ومن كتاب حال (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) عطف على آمنت واللام لام الصيرورة وأعدل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الصيرورة وبينكم ظرف متعلق بأعدل وهذا أسلم من قول الجلال وشارحيه أن اللام بمعنى الباء وأن المصدرية مقدرة

، إذ لم نر اللام ترد بمعنى الباء ولم يذكر أحد من النحاة أن أن المصدرية تضمر بعد الباء وإنما المراد أن الأمر مفض إلى العدل بينكم (اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ) لفظ الجلالة مبتدأ وربنا خبره ولكم عطف على ربنا ولنا خبر مقدّم وأعمالنا مبتدأ مؤخر ولكم خبر مقدم وأعمالكم مبتدأ مؤخر (لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) لا نافية للجنس وحجة اسمها مبني على الفتح وبيننا ظرف متعلق بمحذوف خبر أي لا خصومة بيننا وبينكم لأن الباطل لجلج والحق أبلج وقد ظهر الحق وصرتم محجوجين فلا معنى لإيراد الحجج ، واللّه مبتدأ وجملة يجمع خبر وبيننا ظرف متعلق بيجمع أي يوم القيامة وإليه خبر مقدم والمصير مبتدأ مؤخر .

الفوائد :

1 – لام التعليل أو الصيرورة : ينصب المضارع بأن مضمرة جوازا بعد اللام الجارّة وهي

المسماة بلام التعليل أو لام العاقبة والصيرورة نحو وأمرنا لنسلم لرب العالمين ويجوز إظهار أن نحو وأمرت لأن أكون

(364/688)

أول المسلمين فإن سبقت اللام بالكون المنفي وجب إضمار أن وسمّيت اللام لام الجحود وقد تقدم بحثها .

2- أولو العزم من الرسل : معنى أولو العزم من الرسل أي الذين تحملوا المشاق وصبروا على ما نالهم من إيذاء قومهم بعد أن تصدّوا لهدايتهم ، وقد جمعهم بعضهم بقوله :

محمد إبراهيم موسى كليمه فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

[سورة الشورى (42) : الآيات 16 إلى 19]

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (16) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)

اللغة :

(داحِضَةٌ) باطلة وفي المختار : دحضت حجته بطلت وبابه خضع وأدحضها اللّه ودحضت رجله زلقت وبابه قطع والإدحاض الإزلاق والدحض بفتح الدال وسكون الحاء المهملتين وبفتح الحاء أيضا وآخره ضاد معجمة هو الزلق وفي حديث رواه أحمد عن أبي أسماء " أنه دخل على أبي ذر وهو بالرّبذة وعنده امرأة سوداء مشنعة ليس عليها أثر المحاسن ولا الخلوق فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرني به هذه السويداء ؟ تأمرني أن آتي العراق فإذا أتيت العراق مالوا عليّ بدنياهم وإن خليلي صلّى اللّه عليه وسلم عهد إليّ أن دون جسر جهنم طريقا ذا دحض ومزلّة وإنّا أن نأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار واضطمار أحرى أن ينجو من أن نأتي عليه ونحن مواقير " .

(مُشْفِقُونَ) خائفون .

الإعراب :

(365/688)

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ) والذين مبتدأ وجملة يحاجّون صلة وفي اللّه متعلقان بيحاجّون وهو على حذف مضاف أي في دين

اللّه ومن بعد حال وما مصدرية مؤولة مع ما في حيزها بمصدر مضاف إلى الظرف وله في موضع رفع نائب فاعل استجيب أو متعلق به ونائب الفاعل مستتر وحجتهم مبتدأ وداحضة خبر حجتهم والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول وهو اسم الموصول وعند ربهم ظرف متعلق بداحضة (وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ) الواو عاطفة وعليهم خبر مقدم وغضب مبتدأ مؤخر ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وشديد نعت لعذاب (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ) اللّه مبتدأ والذي خبره وجملة أنزل الكتاب صلة وبالحق متعلقان بأنزل فالباء للملابسة أو بمحذوف حال والميزان عطف على الحق (وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) الواو عاطفة وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة يدريك خبر ولعلّ واسمها وخبرها وجملة لعلّ الساعة قريب مفعول ثان لأدري لأنها علقت عن العمل بالترجّي ولا بدّ من تقدير مضاف أي لعلّ مجيء الساعة قريب ولا يقال

(366/688)

إن قريب يستوي فيه المذكّر والمؤنث لأن فعيلا هنا بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول وقال أبو البقاء "يجوز أن يكون ذكر على معنى الزمان أو على معنى البعث أو على النسب أي ذات قرب" قلت: وقد شبّهوا فعيلا التي بمعنى فاعل بالتي بمعنى مفعول فأسقطوا منها التاء فمن

ذلك قوله تعالى : " إن رحمة اللّه قريب من المحسنين " وهو بمعنى مقترب شبّهوه بقتيل ونحوه وقيل إنما أسقطت منه التاء لأن الرحمة والرحم واحد فحملوا الخبر على المعنى ويؤيده قوله تعالى " هذا رحمة من ربي " وسيأتي بحث ما يستوي فيه المذكّر والمؤنث في باب الفوائد (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِها) يستعجل فعل مضارع مرفوع وبها متعلقان بيستعجل والذين فاعل وجملة لا يؤمنون بها صلة (وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة ومشفقون خبر ومنها متعلقان بمشفقون والواو عاطفة ويعلمون فعل مضارع مرفوع وأن وما في حيزها سدّت مسدّ مفعولي يعلمون (أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) ألا أداة تنبيه وإن واسمها وجملة يمارون صلة وفي الساعة متعلقان بيمارون والمماراة الملاجة لأن كل واحد منها يمري ما عند صاحبه أي يستخرج واللام المزحلقة وفي ضلال خبر إن وبعيد نعت لضلال (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) اللّه مبتدأ ولطيف خبر وبعباده متعلقان بلطيف وجملة يرزق خبر ثان ومن مفعول به وجملة يشاء صلة والواو حرف عطف وهو مبتدأ والقوي خبر والعزيز خبر ثان .

الفوائد :

متى يستوي المذكر والمؤنث . يستوي المذكّر والمؤنث في خمسة أوزان :

1- فعول : بفتح الفاء بمعنى فاعل كرجل صبور بمعنى صابر وامرأة صبور بمعنى صابرة وأما قولهم امرأة ملولة من الملل بمعنى مالّة فالتاء فيه ليست للفصل وإنما هي للمبالغة بدليل دخولها في المذكّر نحو رجل ملولة وأما امرأة عدوة فشاذ لخروجه عن القاعدة ومع ذلك فإنه محمول على صديقة كما في عكسه وهو حمل صديق على عدو في قوله " وأنت صديق " والقياس صديقة وهم يحملون الضدّ على ضدّه كما يحملون النظير على نظيره ولو كان فعول بمعنى مفعول لحقته التاء الفاصلة جوازا نحو جمل ركوب وناقة ركوبة . قال عنترة :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الأعصم

2- فعيل : بمعنى مفعول نحو رجل جريح وامرأة جريح بمعنى مجروحة وشذ ملحفة جديدة بالتاء فإنها بمعنى مجدودة ولحقتها التاء فإن كان فعيل بمعنى فاعل لحقته التاء الفاصلة نحو امرأة رحيمة وظريفة فإن قلت مررت بقتيلة بني فلان ألحقت التاء خشية الإلباس بين المذكّر والمؤنث لأنك لم تذكّر الموصوف المأمون معه الإلباس .

3- مفعال : بكسر الميم منحار يقال رجل منحار وامرأة منحار أي كثير النحر وشذ ميقانة من اليقين وهو عدم التردد يقال رجل ميقان لا يسمع شيئا إلا أيقنه وامرأة ميقانة .

4- فعيل : بكسر الميم كمعطير من العطر وشذ امرأة مسكينة لخروجه عن القاعدة ومع ذلك فإنه محمول على فقيرة وسمع امرأة مسكين على القياس حكاه سيبويه .

5- مفعل بكسر الميم وفتح العين كمغشم وهو الذي لا ينتهي عمّا يريده ويهواه من شجاعته ومدعس من الدعس وهو الطعن .

[سورة الشورى (42) : الآيات 20 إلى 21]

(368/688)

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (21)

الإعراب :

(مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان الفرق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة وفّق في عمله وضوعفت حسناته ومن كان عمله للدنيا أعطي شيئا منها لا ما يريده ويطمح إليه ولم يكن له نصيب في الآخرة . ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وكان فعل ماض واسمها يعود على من وجملة يريد خبر كان وحرث الآخرة مفعول يريد ونزد جواب الشرط وله متعلقان بنزد وفي حرثه متعلقان بنزد أيضا (وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) جملة (وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا

نُؤْتِهِ مِنْها) عطف على الجملة السابقة والواو حالية أو عاطفة وما نافية ويجوز أن تكون حجازية عند من يجيز تقدم الخبر وله خبر مقدّم وفي الآخرة حال ومن حرف جر زائد ونصيب مبتدأ أو اسم ما (أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) أم قدّرها بعضهم ببل الانتقالية وقدّرها الزمخشري ببل والهمزة للتقريع والتوبيخ ولهم خبر مقدم وشركاء مبتدأ مؤخر وجملة شرعوا نعت لشركاء ولهم متعلقان بشرعوا ومن الدين حال لأنه كان نعتا للمفعول أي شرعا من الدين والمقصود به الشرك الذي لم يأذن به اللّه وما مفعول به وجملة لم يأذن صلة وبه متعلقان بيأذن واللّه فاعل (وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)

(369/688)

الواو عاطفة ولو لا حرف امتناع لوجود وكلمة الفصل مبتدأ والخبر محذوف واللام واقعة في جواب لولا وجملة قضي بينهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) الواو استئنافية وإن واسمها ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم نعت وجملة لهم عذاب أليم خبر إن.

البلاغة:

الاستعارة التصريحية في قوله " من كان يريد حرث الآخرة " الآية استعارة تصريحية، شبّه

ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة والنماء بالحرث ، والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض ويطلق على الزرع الحاصل منه ثم حذف المشبه وهو العمل وأبقى المشبه به وهو الحرث للدلالة على نتائج الأعمال وثمراتها وشبهه بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ولذلك قيل : الدنيا مزرعة الآخرة .

[سورة الشورى (42) : الآيات 22 إلى 23]

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23)

الإعراب :

)

(370/688)

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ) الخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ، والظالمين مفعول به ومشفقين حال لأن الرؤية بصرية ومما متعلقان بمشفقين وجملة كسبوا

صلة والواو حالية وهو مبتدأ وواقع خبر وبهم متعلقان بواقع والجملة حال ثانية والضمير يعود على الكسب أو الإشفاق (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ) والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا وفي روضات الجنات خبر (لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) لهم خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وجملة يشاءون صلة وعند ربهم ظرف للاستقرار العامل في لهم ويجوز أن يكون ظرفا ليشاءون ، ومنع الزمخشري الثاني وذلك متبدأ وهو مبتدأ ثان والفضل خبر الثاني والثاني وخبره خبر الأول والكبير نعت ولك أن تجعل هو ضمير فصل لا محل له (ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) اسم الإشارة مبتدأ والذين خبره وجملة يبشر اللّه عباده صلة والعائد محذوف أي يبشر به عباده والذين آمنوا نعت وعملوا الصالحات عطف على آمنوا (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى) قل فعل أمر وفاعله مستتر أي قل جوابا لأولئك الذين تحاوروا فيما بينهم : أترون محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا ؟ ولا نافية وأسألكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول وعليه حال وأجرا مفعول به ثان وإلا المودّة يجوز أن يكون استثناء متصلا أي لا أسألكم أجرا إلا هذا وهو أن تودّوا أهل قرابتي ، ويجوز أن يكون منقطعا أي لا أسألكم أجرا قطّ ولكنني أسألكم أن تودّوا قرابتي الّذين هم قرابتكم ، وفي القربى متعلقان بمحذوف حال أي ثابتة في القربى والقربى مصدر كالزلفى والبشرى وسيأتي مزيد من بحث هذه الآية (وَمَنْ

يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)

الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويقترف فعل مضارع فعل الشرط وحسنة مفعول به أي ومن يكتسب حسنة وأصل القرف الكسب يقال فلان يقرف لعياله كسبا من باب ضرب ونزد جواب الشرط وله متعلقان بنزد وفيها حال وحسنا مفعول به وإن واسمها وخبراها والجملة تعليلية .

البلاغة :

في قوله " إلا المودّة في القربى " مجاز مرسل علاقة المحلية ولذلك لم يقل إلا مودّة القربى أو إلا المودّة للقربى ، فقد جعلوا مكانا للمودّة ومقرا لها كقولك لي في آل فلان مودة ولي فيهم هوى شديد تريد : أحبهم وهم مكان حبي ومحله . وقد اختلف في هذه الآية اختلافا كثيرا يرجع إليه في المطولات وأحسن ما قرأناه في صددها ما ذكره مجاهد وقتادة وخلاصته : والمعنى أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى وصلوا رحمي ولا تؤذوني .

[سورة الشورى (42) : الآيات 24 إلى 26]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26)

الإعراب :

)

(372/688)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) أم حرف عطف وهي منقطعة بمعنى بل ويقولون فعل مضارع مرفوع وجملة افترى مقول القول وعلى اللّه متعلقان بافترى وكذبا مفعول به (فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ) الفاء استئنافية أو عاطفة وإن شرطية ويشأ فعل الشرط واللّه فاعل ويختم جواب الشرط وعلى قلبك متعلقان بيختم وقد اختلف في معنى الختم فقال الزمخشري : " فإن يشإ اللّه يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على اللّه إلا من كان في مثل ما لهم ، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك باللّه والدخول في جملة المختوم على

قلوبهم " وهذا كلام جميل فيه نفح من البلاغة مسكر وقال الجلال " فإن يشإ اللّه يختم : يربط على قلبك بالصبر على أذاهم بهذا القول وغيره وقد فعل فمشيئة الختم هنا مقطوع بوقوعها " وهذا كلام جميل أيضا وارد في هذا المقام (وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ) كلام مستأنف غير داخل في جزاء الشرط لأنه تعالى يمحو لباطل مطلقا وقد سقطت الواو لفظا لالتقاء الساكنين وسقطت في بعض المصاحف خطأ حملا له على اللفظ ، ويمحو اللّه الباطل فعل مضارع وفاعل ومفعول به ويحقّ الحق عطف على يمحو اللّه الباطل وبكلماته متعلقان بيحق وإن واسمها وعليم خبرها وبذات الصدور متعلقان بعليم (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان قبول التوبة إذا استوفت شروطها الثلاثة إذا كانت المعصية بين العبد وربه وهي : 1- الإقلاع عن المعصية 2- الندامة على فعلها 3- العزم على عدم العودة إليها أبدا ، فإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي أضيف إليها شرط رابع وهو 4- أن يبرأ من

حق صاحبها ، وهناك مباحث مطولة تتعلق بالتوبة يرجع إليها في المطولات . وهو مبتدأ والذي خبر وجملة يقبل التوبة صلة وعن عباده متعلقان بالتوبة و" عن " هنا إما بمعنى " من " أو أن القبول يتعدى إلى مفعول ثان بمن وعن لتضمنه معنى الأخذ والإبانة فتلضمنه معنى الأخذ يتعدى بمن ، يقال قبلته منه أي أخذته ، ولتضمنه معنى الإبانة والتفري

الفوائد :

التوبة وكلمة سيدنا علي : توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى التوبة ، فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ قال اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة وردّ المظالم ، وإذابة النفس في الطّاعة كما ربيتها في المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكة " .

وأخرج الأصبهاني عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : " قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : النادم ينتظر من اللّه الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد اللّه أن كلّ عامل سيقدم على عمله ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله ، وسوء عمله وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة واحذروا التسويف فإن الموت يأتي بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم اللّه عزّ وجلّ فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، ثم قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّا يره " .

و معنى الشراك : أحد سيور النعل التي تكون على وجهها ، وهذا على سبيل التقريب والتفهيم إلى أن النعيم والعذاب مدرك بسرعة وبعد خروج الروح يرى المؤمن الطائع ثوابه ، والعاصي عقابه ، فالعاقل من تاب إلى اللّه وأسرع في الطاعة وجد في العبادة ولا يعلم انتهاء العمر إلا اللّه ، فالنبي يرغّب المؤمن في التوبة رجاء إدراك رحمة اللّه وثوابه ويبغضه بالقنوط وينفره من الكبر والغرور كما قال تعالى : " اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من اللّه ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " .

هذا وقد صوّر المتنبي التوبة والجنوح إلى المثل الأعلى بقوله الممتع :

ومن يجد الطريق إلى المعالي فلا يذر المطي بلا سنام

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

[سورة الشورى (42) : الآيات 27 إلى 31]

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ

(27) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)
وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ
(29) وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (30) وَما أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (31)

الإعراب :

)

(375/688)

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لبيان أن بسط الرزق مفسدة للخلق ، ولو شرطية وبسط الله الرزق فعل وفاعل ومفعول به ولعباده متعلقان ببسط واللام واقعة في جواب لو وجملة بغوا في الأرض لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وسيأتي بحث في معنى لو هنا وانتفاء البغي مع وجوده في باب الفوائد (وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) الواو حالية ولكن حرف استدراك مهمل وينزل فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو وبقدر

(376/688)

متعلقان بمحذوف حال وما مفعول به وجملة يشاء صلة وإن واسمها وبعباده متعلقان بخبير وخبير بصير خبران لإن (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ) الواو عاطفة وهو مبتدأ والذي خبره وجملة ينزل الغيث صلة ومن بعد حال وما مصدرية وهي مع مدخولها في تأويل مصدر مجرور بالإضافة إلى الظرف أي من بعد قنوطهم وينشر رحمته عطف على ينزل الغيث وهو مبتدأ والولي الحميد خبراه (وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ) الواو عاطفة ومن آياته خبر مقدم وخلق السموات والأرض مبتدأ مؤخر وما في محل رفع أو جر فالأول معطوف على المضاف والثاني على المضاف إليه وهذا أرجح لسلامته من التقدير إذ لا بدّ من تقدير مضاف على الأول أي خلق ما بثّ وجملة بثّ صلة وفيهما متعلقان ببثّ ومن دابة في موضع نصب على الحال وسيأتي مزيد بحث عن هذه الآية في باب البلاغة (وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ) وهو مبتدأ وعلى جمعهم متعلقان بقدير وإذا ظرف مستقبل متعلق بجمعهم وجملة يشاء في محل جر بإضافة الظرف إليها وقدير خبر هو (وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) الواو عاطفة وما شرطية وأصابكم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط ومن مصيبة حال والفاء رابطة وبما متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي فذلك بما كسبت وما موصولة مجرورة بالباء وجملة كسبت صلة

وأيديكم فاعل ، هذا ويجوز أن تكون ما موصولة والفاء داخلة في الخبر تشبيها للموصول بالشرط والواو عاطفة ويعفو فعل مضارع وفاعله مستتر يعود على اللّه وعن كثير متعلقان بيعفو (وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

(377/688)

الواو عاطفة وما نافية حجازية وأنتم اسمها والباء حرف جر زائد ومعجزين مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما

وفي الأرض حال والواو عاطفة وما نافية أو حجازية ولكم خبر مقدم ومن دون اللّه حال ومن حرف جر زائد ووليّ مبتدأ مؤخر مرفوع محلا أو اسم ما ولا نصير عطف على من ولي .

البلاغة :

1- صحة التفسير في قوله " وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا " الآية فن صحة التفسير وهو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه إما أن يكون مجملا يحتاج إلى تفصيل أو موجها يفتقر إلى توجيه ، أو محتملا يحتاج المراد منه إلى ترجيح لا يحصل إلا بتفسيره وتبيينه ، ووقوع التفسير يأتي في الكلام على أنحاء تارة يأتي بعد الشرط

أو بعد ما فيه معنى الشرط وطورا بعد الجار والمجرور كما في هذه الآية وقد جاءت صحة التفسير فيها مؤذنة بمجيء الرجاء بعد اليأس والفرج بعد الشدّة والمسرّة بعد الحزن ليكون ذلك أحلى موقعا في القلوب .

2- نسبة الشيء إلى الكل والمراد البعض في قوله " وما بثّ فيهما من دابة " نسبة الشيء إلى جميع المذكور والمراد إلى بعضه كقوله تعالى " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " وإنما يخرج من الملح ، وقد ورد اختصاص الأرض بالدابة في موضع آخر قال تعالى : " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار " ثم قال " وما أنزل اللّه من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة " فخصّ هذا الأمر بالأرض .

الفوائد :

1- تقدّم في هذا الكتاب الكثير من مباحث " لو " وفي قوله " ولو

بسط اللّه الرزق لعباده لبغوا في الأرض " يرد سؤال وهو : أن البغي حاصل بالفعل فكيف يصحّ انتفاؤه بمقتضى لو الامتناعية والجواب أن المراد بالنفي جميع الناس كما جعل الملزوم المنتفي أيضا البسط للجميع بدليل الواو التي تقتضي مطلق الجمع ، وأورد الزمخشري سؤالا

آخر وأجاب عنه وفيما يلي نص السؤال والجواب :

" فإن قلت : قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض ومنهم مبسوط لهم ومنه مقبوض عنهم فإن كان المبسوط لهم يبغون فلم بسط لهم وإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط فلم شرطه ؟ قلت : لا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه فلو عمّ البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن " .

2- هل تدخل إذا على المضارع ؟ يجوز دخول إذا على المضارع كما تدخل على الماضي قال اللّه تعالى " والليل إذا يغشى " ومنه " إذا يشاء " وقول الشاعر :

وإذا ما أشاء أبعث منها آخر الليل ناشطا مذعورا

وذلك لأن إذا ظرف للمستقبل فإذا دخل على الماضي كان مستقبلا أو على المضارع كان نصّا في الاستقبال ، وواضح أن الشاعر جرّد من الناقة أمرا آخر لشدة سيرها فلذلك قال منها ، وأصل المعنى أبعثهما في آخر الليل كالناشط وهو الثور الوحشي يخرج من أرض إلى أخرى والمذعور الخائف وهو كناية عن سريع السير جدا .

[سورة الشورى (42) : الآيات 32 إلى 35]

وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34)

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35)

اللغة :

)

(379/688)

الْجَوارِ) السفن وهي بحذف الياء في الخط لأنها من ياءات الزوائد وبإثباتها وحذفها في اللفظ في كلّ من الوصل والوقف وقد قرىء بها جميعها ، قال أبو حيان : "جمع جارية وهي صفة جرت مجرى الأسماء فوليت العوامل " وقال الشهاب الحلبي : فإن قلت الصفة متى لم تكن خاصة بموصوفيها امتنع حذف الموصوف ، لا تقول : مررت بماش لأن المشي عامّ وتقول مررت بمهندس وكاتب ، والجري ليس من الصفات الخاصة بالموصوف وهو السفن فلا يجوز حذفه والجواب أن محل الامتناع إذا لم تجر الصفة مجرى الجوامد بأن تغلب عليها الاسمية كالأبطح والأبرق وإلا جاز حذف الموصوف .

(الأعلام) الجبال جمع علم قالت الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وهو أحد معانيه الكثيرة .

(رَواكِدَ) ثوابت لا تجري يقال ركد الماء ركودا من باب قعد سكن وكذلك الريح والسفينة والشمس إذا قام قائم الظهيرة وكل ثابت في مكان فهو راكد وركد الميزان : استوى وركد القوم : هدءوا .

(يُوبِقْهُنَّ) يهلكهنّ يقال وبق يبق مثل وعد يعد ووبق يبق من باب تعب يتعب وبقا بسكون الباء ووبق يوبق وبقا بفتح الباء ووبوقا وموبقا

واستوبق : هلك فهو وبق وأوبقه إيباقا أهلكه وذلّله وحبسه .

الإعراب :

)

(380/688)

وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ) من آياته خبر مقدم والجوار مبتدأ مؤخر وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة خطا ولفظا أو خطا فقط وفي البحر حال وكالأعلام حال أيضا وقد تقدم في باب اللغة أن الجوار غلبت عليها الاسمية وعبارة أبي البقاء " الجوار مبتدأ أو فاعل ارتفع بالجار وفي البحر حال منه والعامل فيه الاستقرار ويجوز أن يتعلق بالجوار وكالأعلام على الوجه الأول حال ثانية وعلى الوجه الثاني هي حال من

الضمير في الجوار " (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ) إن شرطية ويشأ فعل الشرط والفاعل مستتر جوازا تقديره هو يعود على اللّه تعالى ويسكن جواب الشرط والريح مفعول به والفاء عاطفة ويظللن فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة في محل جزم عطف على يسكن الريح وهو بفتح اللام لأن الماضي بكسرها تقول ظللت قائما ونون النسوة اسم يظللن لأنه فعل ناقص ورواكد خبرها وعلى ظهره متعلقان برواكد (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسم إن ولكل نعت لآيات وصبّار مضاف إليه وشكور نعت لصبّار (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ) أو حرف عطف ويوقهنّ عطف على يسكن أي يفرقهنّ بعصف الريح عليهن ، قال الزمخشري : " فإن قلت علام عطف يوبقهنّ ؟ قلت على يسكن لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيفرقنّ بعصفها " أو بطروء خلل على أجهزتها ، وبما متعلقان بيوبقهنّ ويجوز في ما أن تكون موصولة أو مصدرية والباء للسببية أي بسبب ما كسبوه من الذنوب ويعف عطف على يسكن أيضا

و المعنى أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم وعن كثير متعلقان بيعف (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ) الواو حرف عطف ويعلم معطوف على تعليل مقدّر أي يفرقهم لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون ، هكذا قدّره الزمخشري والجلال السيوطي ، وردّ أبو حيّان قائلا " ويبعد تقديره لينتقم منهم لأن الذي ترتب على الشرط إهلاك قوم ونجاة قوم فلا يحسن تقدير العلة أحد الأمرين " وتعقبه الكرخي فقال في الردّ عليه والدفاع عن إعراب السيوطي : " بل يحسن تقديره لينتقم منهم كما قال شيخنا لأن المقصود تعليل الإهلاك فقط الذي قدّره السيوطي بقوله يفرقهم إذ هو المناسب للعلة المعطوفة وهي ويعلم ، ودافع الزمخشري عن الإعراب الأول وهو العطف على التعليل المحذوف بقوله : ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ومنه قوله تعالى : " ولنجعله آية للناس " وقوله " وخلق اللّه السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت " أما الزجّاج فأعربه بالنصب على إضمار أن وتبعه أبو البقاء قال : لأن قبلها جزاء تقول : ما تصنع أصنع مثله وأكرمك بالنصب وإن شئت وأكرمك بالرفع على وأنا أكرمك وإن شئت وأكرمك بالجزم ، قال الزمخشري : " وفي هذا الإعراب نظر لأن سيبويه قال في كتابه : " واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله : إن تأتني آتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله " وألحق بالحجاز فاستريحا " فهذا يجوز وليس بجدّ الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلا لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل فلما ضارع

الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه " قال الزمخشري : " ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بجد الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات

(382/688)

المشكلة " هذا وقد قرىء ويعلم بالرفع على الاستئناف على أنه جملة اسمية أو فعلية فعلى كونها اسمية يكون الموصول مفعولا به والفاعل ضميرا مستترا يعود على مبتدأ مضمر أي وهو يعلم الذين استجابوا وعلى كونها فعلية يكون الموصول فاعلا ، وقرىء بالجزم بالعطف على الجواب السابق كأنه قال : وإن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور : هلاك قوم ونجاة آخرين وتحذير آخرين ، والذين فاعل أو مفعول به كما تقدم وجملة يجادلون صلة وفي آياتنا متعلقان بيجادلون وما نافية أو نافية حجازية ولهم خبر مقدم ومن حرف جر زائد ومحيص مجرور لفظا مرفوع محلا على الابتداء و

على أنه اسم ما وجملة النفي سدّت مسدّ مفعولي يعلم المعلقة بالنفي عن العمل .

البلاغة :

الريح بين الإفراد والجمع تقدم في موضع آخر من هذا الكتاب أن الريح لم ترد مفردة في القرآن

إلا عذابا ، وقد حاول بعضهم أن يخرم هذا الإطلاق فقال إن قوله تعالى : " إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره " يخرم هذا الإطلاق لأن الريح المذكورة نعمة . قلت : وهذا فهم خاطئ بل إنه على العكس يؤكد سريان هذه القاعدة على إطلاقها لأنه صدّرها بإن الشرطية فأفهم ذلك أن الأصل في الريح المفردة العذاب وأنه إذا أراد الخروج بها عن إطلاقها قيدها بإن الشرطية حتى إذا تمّ ذلك أعاد الضمير عليها مجموعا فقال فيظللن رواكد أي الرياح ، وقد أيد الحديث الشريف ما ذهبنا إليه من الإطلاق فقال : " اللّهمّ اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا " .

[سورة الشورى (42) : الآيات 36 إلى 39]

(383/688)

فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

الإعراب :

(فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا) الفاء استئنافية وما شرطية في محل نصب مفعول به ثان مقدّم لأوتيتم والأول هو ضمير المخاطبين وهو نائب الفاعل ومن شيء بيان ل " ما " في محل نصب حال فمتاع : الفاء رابطة للجواب ومتاع خبر لمبتدأ محذوف أي فهو متاع الحياة الدنيا (وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) الواو عاطفة وما موصولة في محل رفع مبتدأ وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف لا محل له من الإعراب لأنه صلة لما وخير خبر ما وأبقى وعطف على خير وللذين آمنوا متعلقان بأبقى وعلى ربهم متعلقان بيتوكلون وجملة يتوكلون عطف على آمنوا داخلة في حيز الصلة (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ) والذين عطف على قوله للذين وجملة يجتنبون صلة وكبائر الإثم مفعول به والفواحش عطف على كبائر (وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) الواو عاطفة وإذا ظرف متعلق بيغفرون وما زائدة وجملة غضبوا في محل جر بإضافة إذا إليها وهم مبتدأ وجملة يغفرون خبرهم والجملة بأسرها عطف على جملة يجتنبون داخلة في حيز الصلة

و العطف من عطف الاسمية على الفعلية ، ويشكل على هذا جواب إذا ، وقد جعله أبو البقاء هم يغفرون وهو غير صحيح لأنه لو كان جوابا لاقترن بالفاء والأولى أنه محذوف

تقديره يغفرون حذف لدلالة يغفرون الواقعة خبرا عليه (وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ) عطف على ما تقدم وجملة استجابوا صلة ولربهم متعلقان باستجابوا وأقاموا فعل وفاعل والصلاة مفعول به وأمرهم مبتدأ وشورى خبر وبينهم ظرف في موضع نصب على الحال وأفرد هذه الجملة بالذكر لمزيد الاهتمام بالشورى وتنويها بها . وقد اختلف في الشورى وأصح الأقوال أنها عامة ويجمعها نظام الحكم قالوا ترك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعمر رضي اللّه عنه الخلافة شورى . ومما متعلقان بينفقون وجملة رزقناهم صلة (وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) عطف على ما تقدم وهي في الإعراب كقوله " وإذا ما غضبوا هم ينتصرون " فيقال فيها ما قيل في تلك ويجوز هنا أن يكون هم تأكيدا للضمير المنصوب في أصابهم أكد بالضمير المرفوع وليس فيه إلا الفصل بين المؤكد والمؤكد بالفاعل والظاهر أنه جائز .

[سورة الشورى (42) : الآيات 40 إلى 43]

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

الإعراب :

)

(385/688)

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها) الواو عاطفة وجزاء سيئة مبتدأ وسيئة خبر ومثلها نعت لسيئة وسيأتي معنى هذا الكلام وأسراره في باب البلاغة (فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) الفاء تفريعية ومن اسم شرط جازم مبتدأ وعفا فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وأصلح عطف على عفا والفاء رابطة وأجره مبتدأ وعلى اللّه خبر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من وجملة إنه لا يحب الظالمين تعليل وإن واسمها وجملة لا يحب الظالمين خبرها (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) الواو عاطفة واللام للابتداء ومن اسم شرط جازم مبتدأ وانتصر مثل ماض في محل جزم فعل الشرط وبعد ظلمه الظرف متعلق بانتصر وظلمه مضاف إليه والهاء مضافة إلى المصدر والإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله وتؤيده قراءة من قرأ من بعد ما ظلم بالبناء للمجهول والفاء رابطة للجواب وأولئك مبتدأ وما نافية وعليهم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وسبيل مجرور لفظا مرفوع بالابتداء محلا والجملة خبر اسم الإشارة وجملة

الإشارة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ وهو من (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) إنما كافّة ومكفوفة والسبيل مبتدأ وعلى الذين خبره وجملة يظلمون الناس صلة (وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الواو عاطفة ويبغون عطف على يظلمون وفي الأرض متعلقان بيبغون وبغير الحق حال وأولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم.

وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم نعت والجملة خبر أولئك وجملة الإشارة نصب على الحال (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) تقدم إعراب نظيرها قريبا فجدد به عهدا ، نعم في الكلام حذف الفاء من قوله إن ذلك وهو جواب الشرط

(386/688)

فالأولى جعل من موصولة مبتدأ وقوله إن ذلك خبر ، وإن واسمها واللام المزحلقة ومن عزم الأمور خبر.

البلاغة :

1- جناس المزاوجة : في قوله " وجزاء سيئة سيئة مثلها " جناس المزاوجة اللفظي فإن السيئة الثانية ليست بسيئة وإنما هي مجازاة عن السيئة ، سميت باسمها لقصد المزاوجة ،

ومثله في البقرة قوله تعالى " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " فقد تقدم القول هناك أنه تعالى سمى جزاء الاعتداء اعتداء ليكون في نظم الكلام مزاوجة وبعضهم يعبّر عنها بالمشاكلة وبعض المحققين لا يجعله من ذلك الباب بل يقول : إن غرضه تعالى أن السيئة ينبغي أن تقابل بالعفو والصفح عنها فإن عدل عن ذلك إلى الجزاء كان ذلك سيئة مثل تلك السيئة وهذا الكلام لا يخلو من نفحة صوفية روحانية .

2- التهذيب : وفي هذه الآية فن التهذيب أيضا فإنها سلمت من المحذور الذي يقتضي تهذيبها ، وتفصيل ذلك أنه عند ما يسند الفعل إلى اللّه تعالى ينبغي العدول عن إسناد الإساءة إليه كما في قوله " يجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى " فإن صحة المقابلة في هذا النظم أن يقال ليجزي الذين أساءوا بالإساءة حتى تصحّ مقابلته بقوله " ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى " لكن منع من ذلك التزام الأدب مع اللّه سبحانه في إسناد فعل الإساءة إليه أو الآية التي نحن بصددها فقد أمن فيها ذلك المحذور فأتى النظم على مقتضى البلاغة من مجيء تجنيس الازدواج فيه على وجهه من غير تغير إذ لا ضرورة تدعو إلى تغييره .

وفي قوله " فمن عفا وأصلح فأجره على اللّه إنه لا يحب الظالمين "

فنّ رفيع وهو التهذيب أيضا فإن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء خصوصا في حالة الفوران والغليان والتهاب الحمية وفي هذا جواب لمن يتساءل ما معنى ذكر الظلم عقب العفو مع أن الانتصار ليس بظلم . ومن هذا الديباج الخسرواني قوله تعالى " وإذا أذقنا الإنسان منّا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم فإن الإنسان كفور " فلم يقل فإنه كفور ليسجل على هذا الجنس أنه موسوم بكفران النعم كما سيأتي قريبا ، ومنه أيضا " وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم " فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن فيقال ألا إنهم في عذاب مقيم فأتى هذا الظاهر تسجيلا عليهم بلسان ظلمهم وهذا من البديع الذي يسمو على طاقات المبدعين .

الفوائد :

حذف الفاء الرابطة : قد تحذف الفاء الرابطة في الندرة كقوله صلى اللّه عليه وسلم لأبيّ بن كعب لما سأله عن اللقطة : فإن جاء صاحبها وإلا استمتع بها ، أخرجه البخاري ، أو في الضرورة كقول حسان بن ثابت :

من يفعل الحسنات اللّه يشكرها والشر بالشرّ عند اللّه مثلان

أراد فاللّه يشكرها ، وعن المبرد أنه منع ذلك مطلقا ولكنه وارد كثيرا كقوله :

ومن لا يزل ينقاد للغي والصبا سيلفى على طول السلامة نادما

أراد فسيلفى .

[سورة الشورى (42) : الآيات 44 إلى 46]

(388/688)

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44) وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (45) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

الإعراب :

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ) الواو عاطفة ومن شرطية في محل نصب مفعول مقدم ويضلل فعل الشرط والله فاعله والفاء رابطة وما نافية وله خبر مقدم ومن حرف جر زائد وولي مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر ومن بعده صفة لولي (وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ) تقدم أن الخطاب عام شامل لكل من تتأتى له الرؤية .

وترى فعل مضارع مرفوع والرؤية بصرية والظالمين مفعول به ولما حينية أو رابطة ورأوا العذاب فعل ماض وفاعل ومفعول به وجملة يقولون حالية وهل حرف استفهام وإلى مرد أي مرجع متعلقان بمحذوف خبر مقدم ومن حرف جر زائد وسبيل مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر (وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ) وتراهم عطف على ترى وجملة يعرضون حالية لأن الرؤية بصرية كما تقدم والواو نائب فاعل وعليها متعلقان بيعرضون

(389/688)

والضمير في عليها يعود على النار التي دلّت عليها كلمة العذاب وخاشعين حال ثانية ومن الذل متعلقان بخاشعين أي من أجله وقد يعلق بينظرون ومن طرف متعلقان بينظرون وخفي نعت لطرف وهل المراد بالطرف العين أو المصدر ؟ كلاهما يناسب للمقام وفي المختار :

" وطرف بصره من باب ضرب إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر والمرة منه طرفة يقال أسرع من طرفة عين " وسيأتي مزيد من بحث هذا التصوير المجسّد البارع في باب البلاغة (وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ) الواو حرف

عطف وقال الذين آمنوا فعل وفاعل وصلة وإن واسمها والذين خبرها وخسروا أنفسهم فعل وفاعل ومفعول به والجملة صلة وأهليهم عطف على أنفسهم ويوم القيامة ظرف متعلق بخسروا وأجاز الزمخشري أن يتعلق بقال أي يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة (أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ) ألا أداة تنبيه وإن واسمها وفي عذاب خبرها ومقيم نعت والجملة من مقول قول اللّه تعالى ويحتمل أن يكون من كلامهم أيضا (وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الواو عاطفة وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولهم خبر كان المقدم ومن حرف جر زائد وأولياء مجرور بمن لفظا في محل رفع على أنه اسم كان المؤخر وجملة ينصرونهم صفة لأولياء ومن دون اللّه حال (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ) الواو عاطفة ومن شرطية في محل نصب مفعول مقدم ليضلل ويضلل فعل الشرط واللّه فاعل والفاء رابطة لجواب الشرط وما نافية وله خبر مقدم ومن حرف جر زائد وسبيل مجرور بمن لفظا في محل رفع مبتدأ مؤخر والمراد بالسبيل هنا الطريق الموصل إلى الحق في الدنيا أو إلى الجنة في الآخرة.

البلاغة:

في قوله " ينظرون من طرف خفي " تجسيد بارع وتصوير رائع لمن يقف أمام الموت الذي ينتظره والسيف مصلّت على رأسه يرأرىء بأجفانه ويحركها تحريكا ضعيفا خفيا يمكنه من مسارقة النظر فإن من ينظر إلى أمر مكروه يستهول أمره ويزوي ناظره عنه ، بيد أنه لا يتمالك دون أن يرمق ما يكرهه وما يتوقع حدوثه رمقا سريعا .

[سورة الشورى (42) : الآيات 47 إلى 48]

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (48)

الإعراب :

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ) استجيبوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ولربكم متعلقان به أي أجيبوه بالتوحيد والعبادة ومن قبل متعلقان باستجيبوا أيضا وأن وما في حيزها مضافة إلى الظرف ويوم فاعل ولا نافية للجنس ومردّ اسمها المبني على الفتح وله خبرها ومن اللّه متعلقان بمرد لأنه مصدر ميمي والجملة صفة ليوم وأجاز بعضهم تعليق من اللّه بيأتي أي من قبل أن يأتي من اللّه يوم لا يتاح لأحد ردّه (ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ) ما نافية ولكم خبر مقدم ، ومن ملجإ : من حرف جر زائد وملجإ

(391/688)

مجرورا لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ ويومئذ الظرف متعلق بمحذوف حال وما لكم من نكير عطف على ما لكم من ملجإ ، واختلف في معنى النكير فقيل هو بمعنى الإنكار كأنه مصدر أنكر على غير قياس ، واكتفى في الأساس بقوله : " وشتم فلان فما كان عنده نكير " وجاء في القاموس ما يلي : " ونكر فلان الأمر كفرح نكرا محركة ونكرا ونكورا بضمهما ونكيرا " فأورده مصدرا لنكر وفي التهذيب " النكير اسم الإنكار الذي معناه التغير " ولذلك لفّق الزمخشري المعنى من كل المعاني فقال :

"

(392/688)

و النكير : الإنكار أي ما لكم مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيئا مما اقترفتموه ودوّن في صحائف أعمالكم " وقال الزجاج : " معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها " (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً) الفاء استئنافية وإن

شرطية وأعرضوا فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والواو فاعل والفاء رابطة وما نافية وأرسلناك فعل وفاعل ومفعول به وعليهم متعلقان بحفيظا وحفيظا حال والمعنى وأرسلناك لتقسرهم على اتباع ما جئتهم ، والأولى أن يكون جواب الشرط محذوفا والفاء عاطفة على الجواب المحذوف المقدّر بما يناسب المقام أي فلا تبتئس ولا تحاول اقتسارهم (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ) إن نافية وعليك خبر مقدم وإلا أداة حصر والبلاغ مبتدأ مؤخر . قيل هذا منسوخ بآيات الأمر بالجهاد (وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها) الواو عاطفة وإن واسمها وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة أذقناه في محل جر بإضافة الظرف إليها والإنسان مفعول به ومنّا حال لأنه كان في الأصل صفة لرحمة وتقدمت ورحمة مفعول به أي نعمة وجملة فرح بها لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة الشرط خبر إن (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ) عطف على ما تقدم وإن شرطية وتصبهم فعل الشرط والضمير يعود على الإنسان

باعتبار الجنس فجمعه باعتبار المعنى وسيئة فاعل تصبهم وبما متعلقان بتصبهم وما موصولة وجملة قدمت أيديهم صلة والعائد محذوف أي قدمته ، وعبر بالأيدي لأن أكثر الأعمال تزاول بها ، والفاء رابطة أو علة للجواب المقدّر والتقدير وإن تصبهم سيئة نسوا النعمة فورا وإن واسمها وخبرها وقد ذكرنا في باب البلاغة الآنف الذكر سر وقوع الظاهر موقع المضمر أي فإنه كفور .

]

سورة الشورى (42) : الآيات 49 إلى 53]

(393/688)

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)

الإعراب :

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ) كلام مستأنف لبيان سعة ملكه سبحانه ، والملك بالضم الاستيلاء على الشيء والتصرّف به

(394/688)

حسب المشيئة . ولله خبر مقدّم وملك السموات والأرض مبتدأ مؤخر وجملة يخلق حال وما مفعول به ليخلق وجملة يشاء صلة (يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ) يهب فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو يعود على الله تعالى ولمن متعلقان بيهب وجملة يشاء صلة وإناثا مفعول به ويهب لمن يشاء الذكور عطف على الجملة الآنفة وجملة يهب لمن يشاء بدل من جملة يخلق ما يشاء بدل مفصل من مجمل (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) أو حرف عطف ويزوّجهم فعل مضارع وفاعل مستتر يعود عليه سبحانه ومفعول به وذكرانا وإناثا مفعول به ثان ليزوّجهم على تضمينه معنى التصيير أي يجعل أولاده ذكورا وإناثا بدليل ما بعده ، واختار أبو البقاء والخطيب إعراب ذكرانا وإناثا حالين ، ويجعل من يشاء عقيما عطف على ما تقدم وعقيما مفعول به ثان حتما وإن واسمها وعليّ خبرها الأول وقدير خبرها الثاني وسيأتي المزيد من بحث هذه الآية في باب البلاغة (وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً) الواو حرف عطف أو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لبيان كيفية تكليم الله لعباده ، وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولبشر خبر كان المقدم وأن ومنصوبها اسمها وإلا أداة حصر ووحيا مصدر واقع موقع الحال أو مفعول مطلق لفعل محذوف وأو حرف عطف ومن وراء حجاب متعلقان بمقدر معطوف على المقدّر العامل في وحيا أي وإلا أن يكلم الله من وراء

حجاب أو مسمعا من وراء حجاب ، وأو حرف عطف ويرسل معطوف على اسم خالص من التقدير بالفعل وهو قوله وحيا فكأنه قال إلا موحيا أو مرسلا وأن يوحي وحيا أو يرسل رسولا .

وقد شغلت هذه الآية المفسرين والنحاة وسنورد لك في باب الفوائد بحثا مسهبا في صددها (فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) فيوحي

عطف على يرسل وقد قرئا بالرفع على الاستئناف أي فهو يرسل ويوحي وبإذنه متعلقان بيوحي والوحي هو الإلهام والإشارة السريعة وما مفعول به وجملة يشاء صلة وإن واسمها وخبراها (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا) الكاف نعت لمصدر محذوف أي مثل إيحائنا إلى غيرك وإليك متعلقان بأوحينا وروحا مفعول به ومن أمرنا نعت لروحا وقيل حال ومن تبعيضية أي حال كون هذا الروح وهو القرآن بعض ما نوحيه إليك لأن الموحى إليه لا ينحصر في القرآن (ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ) الجملة حال من الكاف في إليك وما استفهامية معلقة لتدري عن العمل في محل رفع مبتدأ والكتاب خبر والجملة في محل نصب سدّت مسدّ مفعولي تدري ولا الإيمان عطف على الكتاب (وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً

نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا) الواو حالية أو عاطفة ولكن حرف استدراك مهمل وجعلناه فعل وفاعل ومفعول به ونورا مفعول به ثان وجملة نهدي به صفة لنورا ومن مفعول به وجملة نشاء صلة ومن عبادنا حال (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) الواو عاطفة وإن واسمها واللام المزحلقة وجملة تهدي خبر ومفعول تهدي محذوف أي كل إنسان مكلف وإلى صراط مستقيم متعلقان بتهدي (صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) صراط اللّه بدل من الأول بدل المعرفة من النكرة والذي نعت للّه وبه خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وفي السموات متعلقان بمحذوف صلة وما في الأرض عطف على ما في السموات (أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) ألا أداة تنبيه وإلى اللّه متعلقان بتصير والأمور فاعل والمراد بالصيرورة هنا

الديمومة .

البلاغة :

قد تستوعب هذه الآيات ما يعدل الصحائف التي استغرقتها السورة بكاملها ولكننا سنوجز قدر الطاقة مع تفادي الإخلال : ففي قوله " يهب

لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوّجهم " الآية فن صحة التقسيم وقد تقدم الإلماع إليه وأنه استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو شارع فيه بحيث لا يغادر منه شيئا فانه سبحانه إما أن يفرد العبد بهبة الإناث ، أو بهبة الذكور ، أو بهما جميعا ، أو لا يهبه شيئا فقد وقعت صحة التقسيم في هذه الآية على الترتيب الذي تستدعيه البلاغة وهو الانتقال في نظم الكلام ورصفه من الأدنى إلى الأعلى فقدّم هبة الإناث وانتقل إلى هبة الذكور ثم إلى هبة المجموع ، وجاء في كل قسم من أقسام العطية بلفظ الهبة وأفرد معنى الحرمان بالتأخير لأن إنعامه على عباده أهمّ عنده ، وتقديم الأهم واجب في كل كلام بليغ ، والآية إنما سيقت للاعتداد بالنعم وإنما أتى بذكر الحرمان ليتكمل التمدح بالقدرة على المنع كما يمدح بالعطاء فيعلم أنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وعدل من لفظ الحرمان والمنع إلى لفظ هو ردفه وتابعه وهو لفظ الجعل ، وسيأتي ما يشبهه في سورة الواقعة مع مزيد من التفصيل فانظره هناك .

هذا وهناك من الطباق ما لا يخفى مما تقدم بحثه كثيرا .

الفوائد :

1 – قبل أن نورد لك قاعدة نحوية هامة نورد ما قاله أعلام المفسرين والنحاة في إعراب قوله " وما كان لبشر أن يكلمه اللّه إلا وحيا " الآية .

وإليك خلاصة ما قاله الزمخشري :

وما صحّ لأحد من البشر أن يكلمه اللّه إلا على ثلاثة أوجه :

1- إما على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام .

2- وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه في ذاته غير مرئي .

3- وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة .

(397/688)

إلى أن يقول " ووحيا وأن يرسل مصدران واقعان موقع الحال لأن أن يرسل في معنى إرسالا ومن وراء حجاب ظرف واقع موقع الحال أيضا كقوله تعالى : وعلى جنوبهم والتقدير : وما صحّ أن يكلم أحدا إلا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا " إلى أن يقول : " ومن جعل وحيا في معنى أن يوحي وعطف يرسل عليه على معنى وما كان لبشر أن يكلمه اللّه إلا وحيا أي بأن يوحي أو بأن يرسل فعليه أن يقدر قوله أو من وراء حجاب تقديرا يطابقهما عليه نحو أو أن يسمع من وراء حجاب وقرىء أو يرسل رسولا فيوحي بالرفع على أو هو يرسل أو بمعنى مرسلا عطف على وحيا في معنى موحيا " .

أما عبارة السمين : " قرأ نافع يرسل برفع اللام وكذلك فيوحي فسكنت ياؤه والباقون

بنصبها فأما القراءة الأولى ففيها ثلاثة أوجه :

1- أحدها أنه رفع على إضمار مبتدأ أي أو هو يرسل .

2- والثاني أنه عطف على وحيا على أنه حال لأن وحيا في تقدير الحال أيضا فكأنه قال إلا موحيا أو مرسلا .

3- الثالث أن يعطف على ما يتعلق به من وراء إذ تقديره أو يسمع من وراء حجاب ووحيا في موضع الحال عطف عليه ذلك المقدّر المعطوف عليه أو يرسل والتقدير إلا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا .

وأما الثانية ففيها ثلاثة أوجه :

1- أحدها : أن يعطف على المضمر الذي يتعلق به من وراء حجاب إذ تقديره أو يكلمه من وراء حجاب وهذا الفعل المقدّر معطوف على وحيا والمعنى إلا بوحي أو إسماع من وراء حجاب أو إرسال رسول ولا يجوز أن يعطف على يكلمه لفساد المعنى ، قلت إذ يصير التقدير وما كان لبشر أن يرسله اللّه رسولا فيفسد لفظا ومعنى ، قال مكّي : لأنه يلزم منه نفي الرسل ونفي المرسل إليهم .

2- الثاني : أن ينصب بأن مضمرة وتكون هي وما نصبته معطوفين على وحيا ووحيا حال فتكون هنا أيضا حالا والتقدير إلا موحيا أو مرسلا .

3- الثالث : أنه عطف على معنى وحيا فإنه مصدر مقدر بأن والفعل والتقدير إلا بأن يوحى إليه أو بأن يرسل ، ذكره مكّي وأبو البقاء .

وقوله أو من وراء حجاب ، العامة على الإفراد وابن أبي عبلة حجب جمعا وهذا الجار يتعلق بمحذوف تقديره أو يكلمه من وراء حجاب ، وقد تقدم أن هذا الفعل معطوف على معنى وحيا أي إلا أن يوحي أو يكلمه ، قال أبو البقاء : ولا يجوز أن يتعلق من بيكلمه الموجودة في اللفظ لأن ما قبل الاستثناء لا يعمل فيما بعد إلا ثم قال :

من متعلقة بيكلمه لأنه ظرف والظرف يتسع فيه " .

وقال أبو البقاء : " ولا يجوز أن يكون معطوفا على أن يكلمه لأنه يصير معناه ما كان لبشر أن يكلمه اللّه ولا أن يرسل إليه رسولا وهذا فاسد " .

2- نصب الفعل المضارع جوازا : ينصب الفعل المضارع جوازا بأن مضمرة بعد أحرف خمسة وهي : اللام الجارّة إذا لم يسبقها كون ناقص ماض منفي ولم يقترن الفعل بلا فإن سبقت اللام بالكون

المذكور وجب إضمار أن وإن قرن الفعل بلا نافية أو زائدة مؤكدة وجب إظهارها لئلا يتوالى مثلان وهما لام كي ولام لا من غير إدغام وهو ركيك في الكلام نحو " لئلا يكون للناس عليكم حجة " بإدغام النون في لا النافية ونحو " لئلا يعلم أهل الكتاب " بإدغام النون في لا

الزائدة المؤكدة وتسمى هذه اللام لام كي ولام العاقبة ولام التوكيد ، والأحرف الأربعة الباقية من الأحرف الخمسة التي تضمر أن بعدها جوازا هي الواو وأو وثم والفاء إذا كان العطف بها على اسم ليس في تأويل الفعل وهو نوعان مصدر وغيره فغير المصدر كقول حصين بن حمام المري :

ولولا رجال من رزام أعزة وآل سبيع أو أسوءك علقما

(399/688)

فأسوءك معطوف على رجال وهو ليس في تأويل الفعل ، ورزام حيّ من نمير ، وعلقما منادى مرخم ، والمصدر نحو : " وما كان لبشر أن يكلمه اللّه إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا في قراءة غير نافع بالنصب بإضمار أن بعد أو والتقدير إلا وحيا أو إرسالا ووحيا مصدر ليس في تأويل الفعل ، وقول ميسون بنت بجدل الكلابية زوج معاوية بن أبي سفيان وأم ابنه يزيد :

ولبس عباءة وتقرّ عيني أحبّ إليّ من لبس الشفوف

فتقرّ منصوب بأن مضمرة جوازا وهي والفعل في تأويل مصدر مرفوع بالعطف على لبس بالواو العاطفة على قولها قبله :

لبيت تخفق الأرواح فيه أحبّ إليّ من قصر منيف

ويقال قرّت عينه تقرّ إذا كان دمعها نادرا ولا يكون ذلك إلا في الفرح وهو مشتق من القرّ

ويقال سخنت إذا كان دمعها حارّا ولا يكون

إلا في الترح، وقوله:

لولا توقع معتر فأرضيه ما كنت أوثر أترابا على أتراب

فأرضيه منصوب بأن مضمرة جوازا بعد الفاء وان وأرضى في تأويل مصدر معطوف على

توقع والتقدير لولا توقع معتر فإرضائي إياه وتوقع ليس في تأويل الفعل والمعتر المعترض

للمعروف والأتراب جمع ترب بكسر التاء وهو من يولد معك في الوقت الذي تولد فيه

فيساويك في سنك والمعنى لولا توقع من يصرف عن فعل المعروف وإرضاؤه ما آثر الشاعر

المساوي لغيره في السن على المساوي له في سنّه، وقول أنس بن مدركة الخثعمي:

إني وقتلي سليكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر

فأعقله مضارع عقل منصوب بأن مضمرة جوازا بعد ثم وأن وأعقله في تأويل مصدر

معطوف على قتلي والتقدير وقتلي سليكا ثم عقلي إياه وقتلي ليس في تأويل الفعل،

وسليكا بالتصغير اسم رجل مفعول قتلي وكالثور خبر إن والمراد بالثور ذكر البقر لأن البقر

تتبعه فإذا عاف الماء عافته فيضرب ليرد الماء فترد معه واعقله من عقلت القتيل:

أعطيت ديّته ، ولأبي العلاء رأي طريف في الثور قال هو ثور الطحلب وهو الذي يعلو على الماء فيصدر البقر عنه فيضرب به صاحب البقر ليفحص عن الماء فيشربه قال : وسمّاه بالثور وذكره مع البقر ليلغز به على السامع ، على أن هذا محض تكلّف والصواب الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 10 . 58 ﴾

(401/688)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/689)

الجزء التاسع والثمانون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الزخرف)

(4/689)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الزخرف)

(5/689)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

فيه حديث ضعيف : من قرأَ الزّخرف كان ممّن يقال لهم يوم القيامة : يا عبادى لا خوف عليكم ولا أَنتم تحزنون ، وادخلوا الجنَّة بغير حساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 423 ﴾

(6/689)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها البشارة بإعلاء هذه الأمة بالعقل والحكمة حتى يكونوا أعلى الأمم في العلم وما ينشأ عنه شأناً لأن هدايتهم بأمر لدني هو من أغرب الغريب الذي هو للخواص ، فهو في الرتبة الثانية من الغرابة وأن ذلك أمر لا بد لهم منه وإن اشتدت نفرتهم منه وإعراضهم عنهوأنه لذكر لك ولقومك حتى تكونوا أهلاً للجنة وفيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم

فيها خالدون ، ولم يقل : وهم ، وعلى ذلك دلت تسميتها بالزخرف لما في آيتها من أنه لو أراد أن يعم الكفر جميع الناس لعمهم بسبوغ النعم ، ولكنه لم يعمهم بذلك ، بل فاوت بينهم فأفقر بعضهم وأكثر بؤسهم وضرهم وفرق أمرهم ، ليسهل ردهم عن الكفر الذي أدتهم إليه طبائعهم وحظوظهم ونقائصهم بما يشهدون من قباحة الظلم والعدوان إلى ما يرونه من محاسن الدين والإيمان ، ولذة الخضوع للملك الديان ، فتخضع لهم الملوك والأعيان ، ويصير لهم الفرقان على جميع أهل العصيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 3 ﴾

(7/689)

فصل

قال الآلوسى :

سورة الزخرف

مكية كما روي عن ابن عباس وحكى ابن عطية إجماع أهل العلم على ذلك ولم ينقل استثناء وقال مقاتل : إلا قوله تعالى : واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا فإنها نزلت ببيت المقدس كذا في مجمع البيان وفي الأتقان نزلت بالسماء وقيل : بالمدينة وعدد آيها ثمان

وثمانون في الشامي وتسع وثمانون في غيره ووجه مناسبة مفتتحها لمخخم ماقبلها ظاهر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ 63 ﴾

(8/689)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . حم والكتاب المبين إنا جعلناه)

السّورة مكِّيّة إجماعاً .

عدد آياتها [ثمان وثمانون] عند الشّاميّين ، وتسع عند الباقين .

وكلماتها ثمانمائة وثلاث وثلاثون .

وحروفها ثلاثة آلاف وأَربعمائة .

الآيات المختلف فيها اثنتان : حم ، مهين .

مجموع فواصل آياتها (ملن) تسمّى سورة الزّخرف ؛ لقوله ﴿ عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان إِثبات القرآن فى اللَّوح المحفوظ ، وإِثبات الحُجّة والبرهان على

وجود الصانع ، والرد على عبّاد الأَصنام الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، والمنّة على الخليل – صلى الله عليه وسلم – بإِبقاءِ كلمة التوحيد فى عَقِبه ، وبيان قسمة الأَرزاق ، والإِخبار عن حسرة الكفار ، وندامتهم يوم القيامة ، ومناظرة فرعون ، وموسى ومجادلة المؤمنين مع ابن الزِّبَعْرَى بحديث عيسى ، وبيان شرف الموحّدين فى القيامة وعجز الكفَّار فى جهنَّم ، وإِثبات إِلهيّة الحقّ فى السماءِ والأَرض ، وأَمر الرّسول بالإِعراض عن مكافأَة الكفَّار فى قوله : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آيتان ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ ﴾ وقوله : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 421.422 ﴾

(9/689)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الزخرف

401.مسألة :

قوله تعالى : (وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14) وفى الشعراء : (إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) بحذف اللام ؟ .

جوابه :

أن هذا المحكى إرشاد من الله تعالى لعبيده أن يقولوه في كل زمان ، فناسب التوكيد باللام حثا عليه . وآية الشعراء : أخبر عن قوم مخصوصين مضوا فلم يكن للتأكيد معنى .

401 . مسألة :

قوله تعالى : مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) وقال فى الجاثية : (إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24)

جوابه :

أن آية الزخرف في جعلهم الملائكة بنات الله ، وذلك كذب محض قطعا فناسب (يَخْرُصُونَ) وآية الجاثية في إنكارهم البعث ، وليس عدمه عندهم قطعا ، فناسب : (يَظُنُّونَ) .

403 . مسألة :

قوله تعالى : (وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) ثم قال تعالى تعالى : (وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)

جوابه :

أن الأول : لقريش الذين بعث إليهم النبى – صلى الله عليه وسلم – فادعوا أنهم وآباءهم

على هدى ، ولهذا قال تعالى : (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ) ؟ .

والثاني : خبر عن أمم سالفة لم يضعوا بأنهم على هدى بل

متبعين آباءهم ، ولذلك قال تعالى في قصة إبراهيم عليه

السلام : (بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) ولم

يقولوا : إنا على هدى كما قالت قريش .

404 . مسألة :

قوله تعالى : (لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً) ؟ .

جوابه :

أي بدلكم فما الأرض .

405 – مسألة :

قوله تعالى : (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) وفي يونس عليه السلام : (فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ) ؟ .

جوابه :

إن كان له ولد بزعمكم فأنا أول الموحدين وقيل : هو

تعليق على فرض محال ، والمعلق على المحال محال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ

335.332 ﴾

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ ، وفى الجاثية : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ ، لأَنَّ [ما] فى هذه السّورة متّصل بقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ ﴾ والمعنى أَنَّهم قالوا : الملائكة بناتُ الله ، وإِنَّ الله قد شاءَ منا عبادتنا إِيَّاهم .

وهذا جهل منهم وكذب .

فقال – سبحانه – : ما لهم بذلك من علم إِن هم إِلاَّ يخرصون أَى يكذبون .

وفى الجاثية خلطوا الصّدق بالكذب ؛ فإِن قولهم : نموت ونحيا صِدق ؛ فإِن المعنى : يموت السّلف ويحيا الخلف ، وهو كذلك إِلى أَن تقوم السّاعة .

وكَذَبوا فى إِنكارهم البعث ، وقولِهم : ما يهلكنا إِلاَّ الدّهر .

ولهذا قال : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّوْنَ ﴾ أَى هم شاكُّون فيما يقولون .

قوله :

﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ ، وبعده : ﴿ مُقْتَدُوْنَ ﴾ خصّ الأَول بالاهتداءِ ؛ لأَنه

كلام العرب فى محاجّتهم رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وادّعائهم أَن آباءَهم كانوا مهتدين فنحن مهتدون.

ولهذا قال عَقِيبه: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى﴾.

والثانى حكاية عمّن كان قَبْلهم من الكفَّار، وادّعوا الاقتداءِ بالآباءِ دون الاهتداءِ، فاقتضت كلّ آية ما خُتِمت به.

قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ وفى الشعراءِ: ﴿إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، لأَنَّ ما فى هذه السّورة عامّ لمن ركب سفينة أَو دابّة.

وقيل: معناه ﴿إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ على مركب آخر، وهو الجنازة، فحسن إِدخال اللاَّم على الخبر للعموم.

وما فى الشعراءِ كلام السّحَرة حين آمنوا ولم يكن فيه عموم. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 422. 423﴾

(11/689)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله:

سورة الزخرف

468 - قوله ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون 20 وفي الجاثية إن هم إلا يظنون 24 لأن ما في هذه السورة متصل بقوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا 19 والمعنى أنهم قالوا الملائكة بنات الله وإن الله قد شاء منا عبادتنا إياهم وهذا جهل منهم وكذب فقال سبحانه ما لهم من علم إن هم إلا يخرصون 20 أي يكذبون

وفي الجاثية خلطوا الصدق بالكذب فإن قولهم نموت ونحيا صدق فإن المعنى يموت السلف ويحيى الخلف وهي كذلك إلى أن تقوم الساعة وكذبوا في إنكارهم البعث وقولهم ما يهلكنا إلا الدهر 24 ولهذا قال إن هم إلا يظنون 24 أي هم شاكون فيما يقولون

419 - قوله وإنا على آثارهم مهتدون 22 وبعده مقتدون 23 خص الأول بالاهتداء لأنه كلام العرب في محاجتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين فنحن مهتدون ولهذا قال عقبة قل أو لو جئتكم بأهدى 24 والثانية حكاية عمن كان قبلهم من الكفار وادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء فاقتضت كل آية ما ختمت به

470 - قوله وإنا إلى ربنا لمنقلبون 14 وفي الشعراء إلى ربنا منقلبون 20 لأن ما في هذه السورة عام لمن ركب سفينة أو دابة وقيل معناه إلى ربنا لمنقلبون على مركب آخر وهو الجنازة فحسن إدخال اللام على الخبر للعموم وما في الشعراء كلام السحرة حين آمنوا ولم يكن فيه عموم

471 - قوله إن الله هو ربي وربكم 64 سبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 192.191 ﴾

(12/689)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سميت في المصاحف العتيقة والحديثة سورة الزخرف وكذلك وجدتها في جوء عتيق من مصحف كوفي الخط مما كتب في أواخر القرن الخامس ، وبذلك ترجم لها الترمذي في كتاب التفسير من جامعة ، وسميت كذلك في كتب التفسير .

وسماها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه سورة حم الزخرف وإضافة كلمة حم إلى الزخرف على نحو ما بيناه في تسمية سورة حم المؤمن روى الطبرسي عن الباقر أنه سماها كذلك .

ووجه التسمية أن كلمة ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ [35] وقعت فيها ولم تقع في غيرها من سور القرآن

فعرفوها بهذه الكلمة .

وهي مكية : وحكى ابن عطية الاتفاق على أنها مكية ، وأما ما روى عن قتادة وعبد الرحمان بن زيد بن أسلم أن آية ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45]

نزلت بالمسجد الأقصى فإذا صح لم يكن منافيا لهذا لأن المراد بالمكي ما أنزل قبل الهجرة .

وهي معدودة السور الثانية والستين في ترتيب نزول السور ، نزلت بعد سورة فصلت وقبل سورة الدخان .

وعدت آيها عند العادين من معظم الأمصار تسعا وثمانين ، وعدها أهل الشام ثمانيا وثمانين .

أغراضها

أعظم ما اشتملت عليه هذه السورة من الأغراض :

التحدي بإعجاز القرآن لأنه آية صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به والتنويه به عدة مرات وأنه أوحى الله به لتذكيرهم وتكرير تذكيرهم وإن أعرضوا كما أعرض من قبلهم عن رسلهم .

وإذ قد كان باعثهم على الطعن في القرآن تعلقهم بعبادة الأصنام التي نهاهم القرآن عنها كان من أهم أغراض السورة ، التعجيب من حالهم إذ جمعوا بين الاعتراف بأن الله خالقهم والمنعم عليهم وخالق المخلوقات كلها .

وبين اتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله ، حتى إذا انتقض أساس عنادهم اتضح لهم ولغيرهم باطلهم .

وجعلوا بنات لله مع اعتقادهم أن البنات أحط قدرا من الذكور فجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص .

وإبطال عبادة كل ما دون الله على تفاوت درجات المعبودين في الشرف فإنهم سواء في عدم الإلهية للألوهية ولبنوة الله تعالى .

وعرج على إبطال حججهم ومعاذيرهم ، وسفه تخييلاتهم وترهاتهم .

وذكرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم ، وأنذرهم بمثل عواقبهم ، وحذرهم من الاغترار بإمهال الله وخص بالذكر رسالة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام .

وخص إبراهيم بأنه جعل كلمة التوحيد باقية في جمع من عقبه وتوعد المشركين وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث الذي كان إنكارهم وقوعه من مغذيات كفرهم وإعراضهم لاعتقادهم أنهم في مأمن بعد الموت .

وقد رتبت هذه الأغراض وتفاريعها على نسخ بديع وأسلوب رائع في التقديم والتأخير والأصالة والاستطراد على حسب دواعي المناسبات التي اقتضتها البلاغة ، وتجديد نشاط السامع لقبول ما يلقى إليه .

وتخلل في خلاله من الحجج والأمثال والمثل والقوارع والترغيب والترهيب ، شيء عجيب ، مع دحض شبه المعاندين بأفانين الإقناع بانحطاط ملة كفرهم وعسف معوج سلوكهم .

وأدمج في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير .

وقد جرت آيات هذه السورة على أسلوب نسبة الكلام إلى الله تعالى عدا ما قامت القرينة على الإسناد إلى غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 25 صـ 209 .

210﴾

(14/689)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة الزخرف

تعرض هذه السورة جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ; ومن جدال واعتراضات . وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس ; وكيف

يقرر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمه في مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة , التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك , ولا يزال جانب منها قائماً في النفوس في كل زمان ومكان .

كانت الوثنية الجاهلية تقول: إن في هذه الأنعام التي سخرها الله للعباد , نصيباً لله , ونصيباً لآلهتهم المدعاة . (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا: هذا لله – بزعمهم – وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله , وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) . . وكانت لهم في الأنعام أساطير شتى وخرافات أخرى كلها ناشىء من انحرافات العقيدة . فكانت هناك أنواع من الأنعام محرمة ظهورها على الركوب – وأنواع محرمة لحومها على الأكل: (وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه) . .

(15/689)

وفي هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ; ورد النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى . فالأنعام من خلق الله , وهي طرف من آية الحياة , مرتبط بخلق السماوات والأرض جميعاً . وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها ;

لا ليجعلوا له شركاء , ويشرعوا لأنفسهم في الأنعام ما لم يأمر به الله ; بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع ; ثم هم ينحرفون عن مقتضى هذه الحقيقة التي يقرون بها , ويعزلونها عن حياتهم الواقعة , ويتبعون خرافات وأساطير: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن: خلقهن العزيز العليم , الذي جعل لكم الأرض مهدا , وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون , والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا , كذلك تخرجون , والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون , لتستووا على ظهوره , ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه , وتقولوا: سبحان الذي سخر لنا هذا , وما كنا له مقرنين , وإنا إلى ربنا لمنقلبون) . .

وكانت الوثنية الجاهلية تقول: إن الملائكة بنات الله ; ومع أنهم هم يكرهون مولد البنات لهم , فإنهم كانوا يختارون لله البنات ! ويعبدونهم من دونه , ويقولون: إننا نعبدهم بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهم ! وكانت مجرد أسطورة ناشئة من انحراف العقيدة .

(16/689)

وفي هذه السورة يواجههم بمنطقهم هم ; ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح , حول هذه الأسطورة التي لا تستند إلى شيء على الإطلاق: (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان

لكفور مبين . . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين , وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ? وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً , أشهدوا خلقهم ? ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا :لو شاء الرحمن ما عبدناهم ! ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ? بل قالوا :إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون !) . .

ولما قيل لهم :إنكم تعبدون أصناماً وأشجاراً وإنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم , وقيل لهم :إن كل معبود من دون الله هو وعابدوه في النار . حرفوا الكلام الواضح البين , واتخذوا منه مادة للجدل . وقالوا :فما بال عيسى وقد عبده قومه ? أهو في النار ? ! ثم قالوا :إن الأصنام تماثيل الملائكة والملائكة بنات الله . فنحن في عبادتنا لهم خير من عبادة النصارى لعيسى وهو بشر له طبيعة الناس !

وفي هذه السورة يكشف عن التوائهم في هذا الجدل ; ويبرىء عيسى – عليه السلام – مما ارتكبه أتباعه من بعده وهو منه بريء :(ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا :أآلهتنا خير أم هو ? ما ضربوه لك إلا جدلاً . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل . . .) . .

وقد كانوا يزعمون أنهم على ملة أبيهم إبراهيم , وأنهم بذلك أهدى من أهل الكتاب وأفضل عقيدة . وهم في هذه الجاهلية الوثنية يخبطون .

(17/689)

فبين لهم في هذه السورة حقيقة ملة إبراهيم , وأنها ملة التوحيد الخالص , وأن كلمة التوحيد باقية في عقبه , وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد جاءهم بها , ولكنهم استقبلوها واستقبلوه بغير ما كان ينبغي من ذرية إبراهيم: (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون , إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون . بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا: هذا سحر , وإنا به كافرون . . .) . .

ولم يدركوا حكمة اختيار الله – سبحانه – لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ووقفت في وجوههم القيم الأرضية الزائفة الزهيدة التي اعتادوا أن يقيسوا بها الرجال .

وفي هذه السورة يحكي تصوراتهم وأقوالهم في هذا الصدد ; ويرد عليها ببيان القيم الحقيقية , وزهادة القيم التي يعتبرونها هم ويرفعونها : وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم: أهم يقسمون رحمة ربك ? نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ,

ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات , ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً , ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون , ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكؤون , وزخرفاً . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا , والآخرة عند ربك للمتقين . .

(18/689)

ثم جاء بحلقة من قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون , يبدو فيها اعتزاز فرعون بمثل تلك القيم الزائفة , وهوانها على الله , وهوان فرعون الذي اعتز بها , ونهايته التي تنتظر المعتزين بمثل ما اعتز به: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه , فقال: إني رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا: يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك , إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون . ونادى فرعون في قومه قال: يا قوم أليس لي ملك مصر , وهذه الأنهار تجري من تحتي , أفلا تبصرون ? أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ; فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ! فاستخف قومه فأطاعوه , إنهم كانوا قوماً فاسقين , فلما آسفونا انتقمنا منهم

فأغرقناهم أجمعين , فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين) . .

الدرس الأول: 1 – 8 إنزال القرآن ونقاش الكفار حوله

حول تلك الأساطير الوثنية والانحرافات الاعتقادية , وحول تلك القيم الصحيحة والزائفة , تدور السورة , وتعالجها على النحو الذي تقدم . في أشواط ثلاثة تقدم أولها – قبل هذا – وأشرنا إلى بعض مادة الأشواط الأخرى في بعض المقتطفات من آيات السورة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 3174.3176 ﴾

(19/689)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الزخرف

مكية وآياتها تسع وثمانون آية

بين يدي السورة

* سورة الزخرف مكية ، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان ، (الإيمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء) كشأن سائر السور المكية

* عرضت السورة لإثبات مصدر الوحي ، وصدق هذا القرآن ، الذي أنزله الله على

النبي الأمي ، بأفصح لسان ، وأنصع بيان ، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي [حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . .] الآيات .

* ثم عرضت لذكر دلائل قدرته تعالى ووحدانيته ، منبثة في هذا الكون الفسيح ، في السماء والأرض ، والجبال والوهاد ، والبحار والأنهار ، والماء آلهأطل من السماء ، والسفن التي تسير فوق سطح الماء ، والأنعام التي سخرها الله للبشر ، ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها [الذي جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . .] الآيات .

*ثم تناولت السورة ما كان عليه (المجتمع الجاهلي) من الخرافات والوثنيات ، فقد كانوا يكرهون البنات ، ومع ذلك اختاروا لله البنات سفها وجهلا ، فزعموا أن الملائكة بنات الله ، فجاءت الآيات لتصحيح تلك الإنحرافات ، وترد النفوس إلى الفطرة ، وإلى الحقائق الأولى القطعية [وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين . .] ؟ الآيات .

*وتحدثت السورة بايجاز عن دعوة (الخليل إبراهيم) عليه السلام ، الذي يزعم المشركون أنهم من سلالته وعلى ملته ، فكذبتهم قي تلك الدعوى ، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان [وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون . .] الآيات .

* ثم انتقلت إلى تفنيد تلك الشبهة السقيمة ، التي أثارها المشركون حول رسالة محمد عليه السلام ، فقد اقترحوا أن تتنزل الرسالة على رجل من أهل الجاه والثراء ، لا على يتيم فقير كمحمد (صلى الله عليه وسلم) فجاءت الآيات لتقرير أن الجاه والثراء ليسا ميزانا لكرامة الإنسان ، واستحقاقه المناصب الرفيعة ، وأن الدنيا من الحقارة والمهانة ، بحيث لو شاء الله لأغدقها على الكافرين ، ومنعها عباده المؤمنين [وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ أهم يقسمون رحمة ربك . .] الآيات .

* وذكرت السورة قصة (موسى وفرعون لتأكيد تلك الحقيقة السابقة ، فها هو فرعون الجبار ، يعتز ويفخر على موسى بملكه وسلطانه ، كما يعتز الجاهلون من رؤساء قريش على النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم تكون نتيجته الغرق والدمار

[ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان بعض أحوال الآخرة وشدائدها وأهوالها ، وبيان حال الأشقياء المجرمين ، وهم يتقلبون في غمرات الجحيم [إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة .

التسمية :

سميت سورة " الزخرف " لما فيها من التمثيل الرائع – لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع – بالزخرف اللامع ، الذي ينخدع به الكثيرون ، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار ، وينالها الأخيار والأشرار ، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين ، فالدنيا دار الفناء ، والآخرة دار البقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 149.150 ﴾

(21/689)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الزخرف

الكتاب : هو القرآن ، المبين : أي الموضح لطريق الهدى المبعد من الضلالات ، لعلكم تعقلون : أي لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه ، أمّ الكتاب : هو علم اللّه الأزلى ، حكيم : أي ذو حكمة بالغة ، يقال ضربت عنه وأضربت عنه : أي تركته ، والذكر : أي القرآن ، صفحا : أي إعراضا ، مسرفين : أي منهمكين فى كفركم وتوليكم عن الحق ، بطشا :

أي قوة وجلدا ، مضى : أي سلف ، والمثل : الصفة .

مهدا : أي فراشا ، وأصله موضع فراش الصبى ، سبلا : واحدها سبيل ، وهى الطريق ،

بقدر : أي بمقدار تقتضيه الحكمة والمصلحة ، فأنشرنا : أي أحيينا ، ميتا :

أي خالية من النبات ، الأزواج : أصناف المخلوقات ، لتستووا على ظهوره : أي لتستقروا

عليها ، سخر : ذلل ، مقرنين : أي مطيقين ، قال قطرب وأنشد قول عمرو بن معديكرب :

لقد علم القبائل ما عقيل لنا فى النائبات بمقرنينا

وقول الآخر :

ركبتم صعبتى أشر وحيف ولستم للصعاب بمقرنينا

لمنقلبون : أي راجعون .

جزءا : أي ولدا إذ قالوا الملائكة بنات اللّه ، وعبر عن الولد بالجزء ، لأنه بضعة ممن ولد له

كما قال شاعرهم :

إنما أولادنا أكبا دنا تمشى على الأرض

مبين : أي ظاهر الكفر ، من أبان بمعنى ظهر ، أصفاكم : أي اختار لكم ، ضرب :

أي جعل ، مثلا : أي شبها أي مشابها بنسبة البنات إليه ، لأن الولد يشبه الوالد ، كظيم :

أي ممتلىء غيظا وغما ، ينشّأ : أي يربّى ، فى الحلية : أي فى الزينة ، الخصام : أي الجدل ،

غير مبين : أي غير مظهر حجته لعجزه عن الجدل ، يخرصون : أي يكذبون ، مستمسكون

: أي متمسكون ومعوّلون ، على أمة : أي على طريقة خاصة ، مترفوها :

أي أهل الترف والنعمة فيها الذين أبطرتهم الشهوات ، فلا ينظرون إلى ما يوصلهم إلى الحق ،

مقتدون : أي سالكون طريقتهم .

(22/689)

لأبيه : أي آزر ، براء : كلمة لا تثنى ولا تجمع يقولون : أنا منك براء ، ونحن منك براء ، فإن

قلت برىء ثنيت وجمعت ، فطرنى : أي خلقنى ، والكلمة : هى كلمة التوحيد فى عقبه :

أي فى ذريته ، مبين : أي ظاهر الرسالة بما له من المعجزات الباهرة ، من القريتين : أي من

إحدى القريتين مكة والطائف ، والرجل الذي من مكة : هو الوليد ابن المغيرة المخزومي

وكان يسمى ريحانة قريش ، والذي من الطائف : هو عروة بن مسعود الثقفي ، ورحمة ربك

: هى النبوة ، والسخريّ : هو الذي يقهر على العمل ، والسقف بضمتين : واحدها سقف

كرهن ورهن ، والمعارج : واحدها معرج كمنبر ، وهو المسمى الآن (أسنسير) وهذا من

معجزات القرآن إذ لم يكن معروفا عصر التنزيل ، يظهرون أي يرتقون ، زخرفا : أي نقوشا

وتزاويق ، قال الراغب الزخرف : الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب زخرف ، ولمّا بمعنى إلا

، حكى سيبويه نشدتك اللّه لمّا فعلت كذا :

أي إلا فعلت كذا .

يقال عشى فلان كرضى إذا حصلت له آفة فى بصره ، وعشا : كغزا إذا نظر نظر العشىّ لعارض قال الحطيئة فى المحلّق الكلانى :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

أي تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من كثرة الوقود واتساع الضوء ، فالمراد هنا أنه يتعامى عن ذكر اللّه ، نقيض له : أي نهيىء له ونضم إليه ، والقرين :

الرفيق الذي لا يفارق ، والمشرقين : أي المشرق والمغرب ، وكثيرا ما تسمى العرب الشيئين المتقابلين باسم أحدهما ، قال الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

يريد الشمس والقمر ، بعد المشرقين : أي بعد أحدهما من الآخر ، فإما نذهبن بك : أي فإن قبضناك وأمتناك ، لذكر : أي لشرف عظيم ، تسألون : أي عن قيامكم بما أوجه القرآن عليكم من التكاليف من أمر ونهى .

(23/689)

الآيات : هى المعجزات ، وملئه : أي أشراف قومه ، أخذناهم : أي أخذ قهر بالعذاب فأرسلنا عليهم الجراد والقمّل والضفادع ، الساحر : أي العالم الماهر ، بما عهد عندك : أي بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب الذي نزل بنا ، ينكثون : أي ينقضون العهد ، من تحتى : أي من تحت قصرى وبين يدىّ فى جناتى ، مهين : أي ضعيف حقير ، يبين : أي يفصح عن كلامه . قال ابن عباس كانت بموسى لثغة فى لسانه (واللثغة بالضم : أن تصير الراء غينا أو لاما والسين ثاء وقد لثغ من باب طرب فهو ألثغ) ، والأسورة : واحدها سوار كأخمرة وخمار ، قال مجاهد : كانوا إذا سودوا رجلا سوّروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة سيادته ، مقترنين : أي مقرونين به يعينونه على من خالفه ، فاستخف قومه : أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلال فاستجابوا له ، آسفونا : أي أغضبونا وأسخطونا . قال الراغب : الأسف الحزن والغضب معا ، وقد يقال لكل منهما على الانفراد . وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام ، فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا وسلفا : أي قدرة لمن بعدهم من الكفار ، مثلا : أي حديثا عجيب الشأن يسير سير المثل فيقول الناس مثلكم مثل قوم فرعون .

مثلا : أي حجة وبرهانا ، يصدّون (بكسر الصاد) أي يصيحون ويرتفع لهم ضجيج وفرح ، جدلا : أي خصومة بالباطل ، خصمون : أي شديد والخصومة مجبولون على اللجاج

وسوء الخلق ، مثلا : أي أمرا عجيبا ، منكم : أي من بعضكم ، يخلفون :

أي يخلفونكم فى الأرض ، علم : أي علامة وشرط من أشراطها ، فلا تمترنّ :

أي فلا تشكنّ ، البينات : المعجزات ، الحكمة : الشرائع المحكمة التي لا يستطاع نقضها ولا إبطالها .

(24/689)

الأخلاء : واحدهم خليل ، وهو الصديق الحميم ، مسلمين : أي مخلصين منقادين لربهم ، تحبرون : أي تسرون سرورا يظهر حباره (بفتح الحاء) أي أثره من النضرة والحسن على وجوهكم ، والصحاف : واحدها صحفة وهى كالقصعة ، قال الكسائي :

أكبر أوانى الأكل الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم المئكلة ، والأكواب : واحدها كوب ، وهو كوز لا أذن له .

المراد بالمجرمين هنا الراسخون فى الإجرام وهم الكفار ، يفتّر : أي يخفف ، من قولهم :

فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلا ، مبلسون : من الإبلاس وهو الحزن المعترض من شدة اليأس ، والمبلس كثيرا ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه ، ومن ثم قيل أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته ، قاله الراغب ، مالك : خازن النار ، ليقض علينا ربك : أي

ليمتنا ، من قولهم : قضى عليه : أي أماته ، وأبرم الأمر : أحكم تدبيره ، أمرا : هو التحيل في تكذيب الحق ، والسر : هو ما يحدث به المرء نفسه أو غيره في مكان خال ، والنجوى : التناجي فيما بينهم .

سبحان رب السموات : أي تنزيها له عن كل نقص ، يصفون : أي يقولون كذبا بأن له ولدا ، فذرهم : أي فاتركهم ، يخوضوا : أي يسلكوا في باطلهم مسلك الخائضين في الماء ، ويلعبوا : أي يفعلوا في أمورهم الدنيوية فعل اللاعب الغافل عن عاقبة ما يعمل ، يومهم : هو يوم القيامة ، إله : أي معبود بحق لا شريك له ، يدعون : أي يعبدون ، من شهد بالحق : أي من نطق بكلمة التوحيد ، يؤفكون : أي يصرفون ، وقيله : أي قوله :

قال أبو عبيدة : يقال قلت قولا وقالا وقيلا ، وفي الخبر " نهى عن قيل وقال " ، فاصفح عنهم : أي اعف عنهم عفو المعرض ولا تقف عن التبليغ ، سلام : أي سلام متاركة لكم بسلامتكم مني وسلامتي منكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغي حـ 25 صـ 67. 113 ﴾ . باختصار .

(25/689)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف

وهي مكية

1 – من ذلك قوله جل وعز (حم .

والكتاب المبين) (آية 1 و 2) أي إبان الهدى من الضلالة والحق من الباطل ويكون (المبين)

البين 2 – ثم قال جل وعز (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (آية 3) أي بيناه

3 – وقوله جل وعز (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) (آية 4) روى معمر عن قتادة

قال (في أم الكتاب) قال في اصل الكتاب وجملته عندنا قال أبو جعفر ونظير هذا على قول

قتادة (إنه لقرآن مجيد في لوح محفوظ) وقيل (وإنه في أم الكتاب) يعني ما قدر من الخير والشر

(لعلي) لقاهر لا يقدر أحد أن يدفعه حكيم) محكم 4 – وقوله جل وعز (أفنضرب عنكم

الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين) (آية 5) روى إسماعيل عن أبى صالح (أفنضرب

عنكم الذكر) ؟

قال العذاب وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون ؟ قال أبو

جعفر المعنى على هذين القولين أفنضرب عنكم ذكر العذاب ومذهب قتادة أن المعنى

أفنهملكم وقال ولا نأمركم ولا ننهاكم ؟ قال أبو جعفر يقال ضربت عنه وأضربت أي تركته

ثم قال جل وعز (صفحا) أي إعراضا يجوز أن يكون المعنى أفنصفح عنكم صفحا كما يقال هو يدعه تركا

ويجوز أن يكون المعنى أفنضرب عنكم الذكر صافحين كما يقال جاء فلان مشيا ومعنى صفحت عنه أعرضت عنه أي وليته صفحة عنقي قال الشاعر: صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة * فمن مل منها ذلك الوصل ملت 5 - ثم قال جل وعز (أن كنتم قوما مسرفين) (آية 5) قال قتادة أي مشركين قال أبو جعفر المعنى لأن كنتم إذا فتحت (أن) وبذلك قرأ الحسن وأبو عمرو وابن كثير

وقرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بالكسر وهو عند قوم من

أهل اللغة لحن منهم أبو حاتم وإنما صار عندهم لحنا لأنهم إنما وبخوا على شئ قد ثبت وكان فهذا موضع أن مفتوحة كما قال سبحانه (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) قال أبو جعفر وهذا عند الخليل وسيبويه والكسائي والقراء جيد قال سيبويه سألت الخليل عن قوله يعني الفرزدق: أتغضب إن أذنا قتيبة حزنا * جهارا ولم تغضب لقتل ابن خازم فقال هي (إن) مكسورة لأنه قبيح أن يفصل بين (أن) والفعل قال أبو جعفر وهذا شئ قد مضى

قال أبو إسحاق وهذا يكون بمعنى الحال إذا كان في الكلام معنى التوبيخ والتقرير اي أهذه حالك ؟ قال أبو جعفر فعلى هذا قوله (إن كنتم قوما مسرفين) 6 – وقوله جل وعز (فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين) (آية 8) قال مجاهد أي سنة الأولين قال قتادة أي عقوبة الأولين وقوله جل وعز (وجعل لكم فيها سبلا) أي طرقا 7 – وقوله جل وعز (والذي خلق الأزواج كلها) (آية 12)

أي الأصناف كلها

8 – ثم قال جل وعز (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) (آية 12) قال مجاهد الأباعر والخيل والبغال والحمير 9 – وقوله جل وعز (لتستووا على ظهوره) (آية 14) أي على ظهور هذا الجنس (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) أي تقولوا الحمد لله كما روى أبو إسحاق عن علي بن ربيعة قال رأيت علي آبن أبي طالب صلوات الله عليه جعل رجله في الركاب فقال (بسم الله) فلما استوى راكبا قال (الحمد لله) ثم قال (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) اللهم لا إله إلا

أنت قد عملت سوء فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كفعلي وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد من ركب ولم يقل (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) قال له الشيطان تغنه فإن لم يحسن قال له تمنه قال قتادة

(مقرنين) أي في القوة

قال أبو جعفر حكى أهل اللغة أنه يقال أقرن له إذا

(27/689)

أطاقه وأنشدوا: ركبتم صعبتي أشرا وحينا * ولستم للصعاب بمقرنينا وحقيقة أقرنت له صرت له قرنا يقال هو قرنه في القتال وهو على قرنه أي مثله في السن 10 - ثم قال تعالى (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) (آية 14) أي إنل أنه مبعوثون 11 - ثم قال جل وعز (وجعلوا له من عباده جزء إن الإنسان لكفور مبين) (آية 15)

قال قتادة (جزء) أي عدلا قال أبو جعفر والمعنى على قولهم أنهم عبدوا الملائكة فجعلوا لله جل وعز شبها ومثلا وقال عطاء (جزء) أي نصيبا وشركا قال أبو جعفر وهذا أبين كما يقال هذا جزء فلان وقيل لهم هذا لأنهم جعلوا الملائكة بنات الله هذا قول مجاهد ومعنى (وجعلوا) قالوا هذا ووصفوه 12 - وقوله جل وعز (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) (آية 18)

قال ابن عباس يعني النساء جعل زيهن غير زي الرجال قال أبو جعفر يجوز ن يكون المعنى أو من ينشأ في الحلية

يجعلون لله جل وعز نصيبا ؟ ويجوز أن يكون في موضع رفع 13 - ثم قال جل وعز (وهو في الخصام غير مبين) (آية 18) قال قتادة قل ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها عليها 14 - ثم قال جل وعز (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) (آية 19) (جعلوا) هنا بمعنى وصفوا وهذا من وجوه جعل التي ذكرها الخليل وسيبويه كما تقول جعلت فلانا أعلم الناس أي وصفته بهذا 15 - وقوله جل وعز (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) (آية 20) هذه آية مشكلة وقد تكلم فيها العلماء: أ - فمن أحسن ما قالوا أن قوله عز وجل (ما لهم بذلك من علم) مردود إلى قوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) فالمعنى إن الله جل وعز لم يرد عليهم قولهم (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) وإنما المعنى ما لهم بقولهم الملائكة بنات الله من علم وما بعده يدل على أن المعنى على هذا لأن بعده (أم

آتيناهم كتابا من قبله) أي أم أنزلنا عليهم كتابا فيه هذا ؟

(28/689)

ب - وفي الآية قول آخر وهو أن معنى (ما لهم بذلك من علم) ما لهم عذر في هذا لأنهم رأوا أن ذلك عذر لهم فرد الله ذلك عليهم فالرد محمول على المعنى وقوله (أم آتيناهم كتابا) 16

- وقوله جل وعز (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة) (آية 22)

وقرأ مجاهد وعمر بن عبد العزيز (على إمة) قال الكسائي هما لغتان بمعنى واحد قال أبو جعفر المعروف في اللغة أن الإمة بالكسر الطريقة من الدين والمذهب كما قال: حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وهل يأثمن ذو امة وهو طائع والأمة السنة والملة وقد يكون لها غير هذا المعنى وقد تكون الإمة بمعنى الملك والتمام كما قال: ثم بعد الفلاح والملك والإمة وارتهموا وهو هناك القبور

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد (إنا وجدنا آباءنا على أمة) على ملة 17 - وقوله جل وعز (وإنا على آثارهم مهتدون) (آية 22) يجوز أن يكون خبرا بعد خبر ويجوز أن يكون المعنى مهتدون على آثارهم 18 - ثم أخبر جل وعز أن الأنبياء قبله قد قيل لهم مثل هذا فقال (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) (آية 23) ثم قال جل وعز (قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) (آية 24)

المعنى أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم أقمتم على ما كان عليه آباؤكم ؟ 19 - وقوله جل وعز (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون) (آية 26) وفي قراءة (إنني برئ) وحكى الفراء أن قوما يكتبون الهمزة في كل موضع ألفا فعلى هذا يقرأ برئ وإن كان في السواد بالألف ومن قرأ (براء) قال في الاثنين والجميع براء أيضا بمعنى ذوي براء

---

20 - ثم قال جل وعز (إلا الذي فطرني فإنه سيهدين) (آية 27) قال قتادة أي خلقني قال أبو جعفر يجوز أن يكون استثناء من الأول ويجوز أن يكون إلا بمعنى (لكن) 21 - ثم قال جل وعز (وجعلها كلمة باقية في عقبة لعلهم يرجعون) (آية 28) قال مجاهد (كلمة باقية) لا إله إلا الله وقال قتادة التوحيد والإخلاص في عقبه

وقال مجاهد في ولده قال قتادة لا يزال من ولد إبراهيم صلى الله عليه وسلم من يعبد الله جل وعز إلى يوم القيامة

وقوله جل وعز (لعلهم يرجعون) إلى دينك ودين إبراهيم صلى الله عليهما إذ كانوا من ولده

22 - وقوله جل وعز (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (آية 31) قال ابن عباس القريتان مكة والطائف

قال قتادة الرجلان (أبو مسعود الثقفي) واسمه عروة بن مسعود من أهل الطائف و (الوليد بن المغيرة بن عبد الله المخزومي) من أهل مكة قال مجاهد الرجلان (عتبة بن ربيعة) من أهل مكة وأبو مسعود الثقفي واسمه (عمير بن عمرو بن مسعود) قال أبو جعفر روي هذا عن جماعة ثقات منهم (ابن جريج) و (ابن أبي نجيح) وروى ذلك عن قتادة الثقات أيضا إلا

أن قول قتادة أشبه بالصواب لن معمرا روى عنه أنه قال قال الوليد بن المغيرة لو كان ما يقول محمد حقا أنزل علي أو على أبي مسعود الثقفي فخبر قتادة بسبب نزول الآية

قال أبو العباس التقدير في العربية على رجل من رجلين من القريتين قال أبو جعفر حقيقة التقدير في العربية على رجل من رجلي القريتين كما قال سبحانه (واسأل القرية)

23 - ثم قال جل وعز (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) (آية 32) أي كما قسمنا بينهم الأرزاق وفضلنا بعضهم على بعض كذلك فضلنا بعضهم على بعض بالاصطفاء بالرسالة 24 - ثم قال جل وعز (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) (آية 32) أي ليكون بعضهم لبعض خولا و (سخري) و (سخري) واحد

(30/689)

ثم أخبر جل وعز أن ما عنده من الرحمة خير فقال (ورحمة ربك خير مما يجمعون) (آية 32) وقرأ الحسن (تجمعون) بالتاء 25 - وقوله جل وعز (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون) (آية 33) في معنى الآية قولان: قال الحسن وقتادة لولا ان يكفر الناس جميعا لفعلنا هذا قال أبو جعفر ومعنى هذا القول لولا أن يميل الناس إلى الدنيا فيكفروا لأعطينا الكافر هذا لهوان الدنيا

على الله عز وجل والقول الآخر قاله الكسائي قال المعنى لولا إرادتنا

أن يكون في الكفار غني وفقير وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها

على الله جل وعز

قال الفراء يجوز أن يكون معنى (لبيوتهم) على بيوتهم قال أبو جعفر روى سفيان عن

إسماعيل عن الشعبي (سقفا من فضة) قال جزوعا (ومعارج) قال درجا (عليها يظهرون)

قال يصعدون

وقرأ جماعة (سقفا من فضة) وأنكر هذه القراءة بعض أهل اللغة وقال لو كان كذا لقال

(عليه) قال أبو جعفر وهذا لا يلزم لأنه يجوز أن يكون (عليها) للدرج 26 - ثم قال جل

وعز (ولبيوتهم أبوابا) (آية 34) أي من فضة (وسررا) أي من فضة (وزخرفا) روى

شعبة عن الحكم عن مجاهد قال كنت لا أدري ما معنى (وزخرفا) حتى وجدته في قراءة

عبد الله بن مسعود (وذهبا) ! ! قال أبو جعفر في معناه قولان: أحدهما أن المعنى وجعلنا

لهم زخرفا أي غنى

والآخر أن المعنى من فضة ومن زخرف ثم حذف (من) ونصب 27 - وقوله جل وعز

(ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) (آية 36) روى سعيد عن قتادة

قال (يعش) يعرض

وقال أبو عبيدة (يعش) تظلم عينه وروى عكرمة عن ابن عباس يعمى قال أبو جعفر يجب على قول ابن عباس ان تكون القراءة (ومن يعش) بفتح الشين

(31/689)

وأما قول قتادة (يعش) يعرض وهو قول الفراء فغير معروف في اللغة إنما يقال عشا يعشو إذا مشى ببصر ضعيف قال الحطيئة: متى تأته تعشو إلى ضوء ناره * تجد خير نار عندها خير موقد ونظير هذا عرج الرجل يعرج أي مشى مشية الأعرج وعرج يعرج صار أعرج وأصح ما في هذا قول أبي عبيدة قال الله جل وعز

(الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري) وفي الحديث ان سعيد بن المسيب ذهبت إحدى عينيه وكان يعشو بالأخرى أي يبصر بها بصرا ضعيفا 28 - وقوله جل وعز (نقيض له شيطانا فهو له قرين) (آية 36) قيل جزاء على ما فعل وقال سعيد الجريري في قوله تعالى (نقيض له شيطانا) قال بلغنا ان الكافر إذا خرج من قبره سفع شيطان بيده فلا يزال معه حتى يدخله الله عز وجل النار فذلك قوله جل وعز (قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) ويوكل

بالمؤمن ملك فلا يزال معه حتى يقضي الله بين الخلق أو يصير إلى

ما شاء الله 29 - وقوله جل وعز (وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) (آية 37) أي وإن الشياطين ليصدون الكافر عن السبيل (ويحسبون) أي ويحسب الكفار أنهم مهتدون 30 - وقوله جل وعز (حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) (آية 38) قال قتادة (حتى إذا جاءآنا) قال الكافر وقرينه جميعا قال أبو جعفر ويقرأ (حتى إذا جاءنا) يراد به الكافر في الظاهر والمعنى لهما جميعا لأنه قد عرف ذلك بما بعده كما قال:

وعين لها حدرة بدرة * شقت مآقيهما من أخر 31 - وقوله تعالى (قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين) (آية 38) في معناه قولان: أحدهما أنه يراد مشرق الشتاء ومشرق الصيف والآخر أنه يراد المشرق والمغرب فجاء على كلام العرب لأنهم إذا اجتمع الشيئان في معنى غلب أحدهما كما قال الشاعر:

(32/689)

أخذنا بآفاق السماء عليكم * لنا قمراها والنجوم الطوالع وأنشد أبو عبيدة بيت جرير:

ما كان يرضى رسول الله فعلهم * والطيبان أبو بكر ولا عمر وأنشد سيبويه: قدني من نصر الخبيبين قدي يريد عبد الله ومصعبا ابني الزبير وإنما أبو خبيب عبد الله

وفي الحديث أن أصحاب الجمل قالوا لعلي بن أبي طالب عليه السلام أعطنا سنة العمرين يعنون أبا بكر وعمر 32 – وقوله جل وعز (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون) (آية 39) المعنى إن الله عز وجل حرم أهل النار هذا المقدار من الفرح وهو التأسي وهو أن ذا البلاء إذا رأى من قد ساواه في المصيبة سكن ذلك من حزنه كما قالت الخنساء: فلولا كثرة الباكين حولي * على إخوانهم لقتلت نفسي وما يبكون مثل أخي ولكن * أعزي النفسي منه بالتأسي

33 – وقوله جل وعز (فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون) (آية 41) قال قتادة ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقيت النقمة وليس نبي

إلا قد رأى النقمة في أمته إلا محمدا صلى الله عليه وسلم ولكنه أري ما ينزل بأمته من بعده فما رؤي بعد ذلك ضاحكا منبسطا 34 – وقوله جل وعز (أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) (آية 42) قيل المعنى الذي وعدناهم ووعدناك عليهم من النصر وقيل الذي وعدناهم يرجع إلى قوله تعالى (والآخرة عند

ربك للمتقين) أي الذي وعدنا المتقين من النصر وقد نصروا 35 – وقوله جل وعز (فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم) (آية 43) قال قتادة أي بالقرآن (إنك على صراط مستقيم) قال على الإسلام (وإنه لذكر لك ولقومك) قال القرآن وروى محمد بن يوسف عن سفيان (وإنه لذكر لك ولقومك) قال شرف لك ولقومك 36

- ثم قال جل وعز (وسوف تسألون) (آية 44)

قال الفراء اي وسوف تسألون عن الشكر عليه 37 - وقوله جل وعز (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) (آية 45) قال أبو جعفر هذه آية مشكلة وفي معناها قولان:

(33/689)

روى أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال لقي الرسل صلى الله عليهم ليلة اسري به فهذا قول ومعناه أنه سيسرى إذا بك وتلقى الرسل فاسألهم والقول الآخر وهو قول محمد بن يزيد وجماعة من العلماء أن في هذا المعنى التوقيف والتقرير والتوبيخ والمعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا كما قال تعالى (واسأل القرية) أي سل من عبد الملائكة أو قال إن الله ثالث ثلاثة أو عبد غير الله جل وعز هل وجد هذا في شئ من كتب الأنبياء مما أنزل الله عليهم فإنه لا يجد في كتاب نبي أن الله أمر أن يعبد غيره ففي هذا معنى التقرير والتوبيخ والتوقيف على أنهم قد كفروا وفعلوا ما لم يأمر الله به ونظيره قوله تعالى (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) ويصحح هذا القول أن علي بن الحكم روى عن الضحاك قال وهي في قراءة عبد الله (واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك)

قال يعني أهل الكتاب روى سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال في قراءة عبد الله (واسأل من أرسلنا إليهم قبلك رسلنا) فهذه قراءة مفسرة وقال قتادة اي سل أهل الكتاب أأمر الله إلا بالتوحيد

والإخلاص ؟ وزعم ابن قتيبة أن التقدير واسأل من أرسلنا إليه من قبلك رسلا من رسلنا فحذف إليه لأن في الكلام دلالة عليه وحذف رسلا لأن من رسلنا يدل عليه وزعم أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد المشركون 38 - وقوله جل وعز (وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون) (آية 49) يقال كيف قالوا له أيها الساحر وقد قالوا (إننا

لمهتدون) فيما يستقبل ؟ قيل إنهم لما قالوا له هذا قبل أن يدعوه عرفوه فنادوه به وقيل كانوا يسمون العلماء سحرة فالمعنى يا أيها العالم قال مجاهد في وقوله تعالى (بما عهد عندك) من أنا إن آمنا كشف عنا العذاب قال أبو جعفر ويدل على صحة هذا الجواب قوله تعالى (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) أي ينقضون العهد وروى سعيد عن قتادة (إذا هم ينكثون) قال

(34/689)

يغدرون 39 – وقوله جل وعز (ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي

ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) ؟ (آية 51) قال الأخفش في الكلام

حذف والمعنى افلا تبصرون أم تبصرون كما قال: فيا ظبية الوعساء بين جلاجل * وبين

النقا هل أنت أم أم سالم أي أنت احسن أم أم سالم ؟ قال أبو زيد العرب تزيد والمعنى أنا خير

وقيل المعنى أبل ؟ قال أبو جعفر وأحسن ما قيل في هذه الآية قول الخليل وسيبويه ان المعنى

أفلا تبصرون أم أنتم بصراء ويكون (أم أنا خير) بمعنى أم أنتم خير لأنهم لو قالوا له أنت خير

كانوا عنده بصراء 40 – وقوله جل وعز (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين)

آية 52) والمهين القليل من المهانة

روى سعيد عن قتادة (ولا يكاد يبين) قال عيي وقيل إنما هذا للثغة التي كانت به 41 –

وقوله جل وعز (فلولا القي عليه أساورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) (آية 53)

أي فهلا القي عليه اساورة من عند الله تدل على أنه

رسول ؟ و (أساورة) جمع إسوار وفي قراءه أبى وعبد الله (لولا القي عليه أساوير) وهو

بمعنى الأول

(أو جاء معه الملائكة مقترنين) قال قتادة أي متتابعين وقال مجاهد أي يمشون معه معا قال

أبو جعفر فاقترحوا هذا بعد ما جاءهم ما يدل على نبوته 42 – ثم قال جل وعز

(فاستخف قومه فاطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين) (آية 54) أي استفزهم 43 – وقوله

جل وعز (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) (آية 55) قال مجاهد وقتادة اي أغضبونا

44 - وقوله جل وعز (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) (آية 56) قال لاحق بن حميد اي جعلناهم سلفا لمن عمل بعملهم ومثلا لمن لم يعمل بعملهم وقال مجاهد هم قوم فرعون سلف لكفار أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال (ومثلا) أي عبرة وقال قتادة (سلفا) إلى النار (ومثلا) أي عظة

(35/689)

قرئ على أبي قاسم قريب احمد بن منيع عن أبى كامل الجحدري عن عبد الواحد عن عاصم عن أبي مجلز (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) قال سلفا لمن عمل بمثل عملهم ومثلا لمن لم يعمل بمثل عملهم

قال أبو جعفر هذه الأقوال متقاربة وأصل السلف في اللغة ما تقدم ومنه تسلفت من فلان وابينها قول قتادة اي جعلناهم متقدمين في الهلاك وعظة لمن يأتي بعدهم ويقرأ (سلفا) جمع سليف وقرأ حميد الأعرج فيما روي عنه (سلفا) جمع سلفة اي فرقة متقدمة وأبينها وأكثرها فتح السين واللام كما يقال فلان يحب السلف 45 - وقوله جل وعز (ولما ضرب

ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) (آية 57) قال مجاهد قالوا ما ذكر محمد عيسى صلى الله عليهما إلا لننزله فقال منزلته من النصارى

وقال قتادة لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ذكر عيسى غاظ ذلك قريشا وقالوا لم ذكرت عيسى وقالوا ما ذكره إلا لنستعمل فيه ما استعملت النصارى في عيسى فأنزل الله جل وعز (ما ضربوه لك إلا جدلا) وقيل نزل هذا في ابن الزبعري لما انزل أي الله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) قال فالنصارى تعبد المسيح قال جل وعز (ما ضربوه لك إلا جدلا) أي قد علموا أنه لا يراد بهذا المسيح وإنما يراد بها الصنام التي كانوا يعبدونها

46 - وقوله جل وعز (إذ قومك منه يصدون) (آية 58) روى سفيان وشعبة عن عاصم عن أبى رزين عن ابن عباس (إذا قومك منه يصدون) قال يضجون ويقرأ (يصدون) بضم الصاد قال النخعي أي يعرضون وقال الكسائي هما لغتان بمعنى واحد

(36/689)

وأنكر بعض أهل اللغة الضم وقال لو كانت (يصدون) لكانت (عنه) ولم تكن (منه) وقال أبو جعفر وهذا لا يلزم لأن معنى يصدون منه أي من أجله 47 - وقوله جل وعز (وقالوا

آآلهتنا خير أم هو) (آية 58) قال قتادة (أم هو) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وفي قراءة أبي (وقالوا آآلهتنا خير أم هذا) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم 48 - ثم قال جل وعز (ما ضربوه لك إلا جدلا) (آية 58) المعنى على تفسير قتادة إنهم قد علموا أنك لا تريد منهم أن ينزلوك منزلة المسيح

وعلى القول الآخر غنهم قد علموا أنه لا يراد بقوله جل وعز

(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) المسيح عليه السلام وإنما يراد به الأصنام واللغة تدل على هذا لأن (ما) لما لا يعقل فقد علم أن معنى (وما تعبدون من دون الله) لا يكون للمسيح وهذا أصح ما قيل في قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) 49 - ثم قال جل وعز (بل هم قوم خصمون) (آية 58) قال سفيان حدثني رجل أنها نزلت في ابن الزبعرى 50 - ثم قال جل وعز (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل) (آية 59) يكون المعنى على قول من قال إن الآية نزلت في ابن الزبعرى إن المسيح إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني

إسرائيل اي جعلناه عظة لهم اي ذا عظة أي يعظهم ويجوز ان يكون معنى (مثلا) أنه بشر مثلهم فضل عليهم ويجوز أن يكون المعنى على قول قتادة وعلى الآخر ايضا إن محمد إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل والكلام في مثل كالكلام فيه 51 - ثم قال جل

وعز (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض

يخلفون) (آية 60) قال مجاهد اي يعمرونها كما تعمرونها بدلا منكم

(37/689)

وقال قتادة أي ملائكة يخلف بعضهم بعضا 52 - ثم قال جل وعز (وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) (آية 61) روى سفيان عن عاصم عن أبى رزين عن ابن عباس (وإنه لعلم للساعة) قال نزول عيسى وكذلك روى سماك عن عكرمة عن ابن عباس وكذلك قال مجاهد وأبو مالك وقد روي عن ابن عباس وابي هريرة أنهما قرءا (وإنه لعلم للساعة) قال الخليل العلم والعلامة واحد قال أبو جعفر ومعنى (لعلم للساعة) يعلم بنزول عيسى صلى الله عليه وسلم أن الساعة قد قربت وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لينزلن أبن مريم حكما عدلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير ويجوز أن يكون المعنى وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لعلم للساعة لأنه خاتم النبيين قال الله جل وعز (اقتربت الساعة وانشق القمر) ثم قال تعالى (فلا تمترن بها) أي فلا تشكوا

53 - وقوله جل وعز (ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه) (آية 63) روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ولأبين لكم بعض الذي

تختلفون فيه) قال تبديل التوراة 54 - وقوله جل وعز (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (آية 67) قال مجاهد أصحاب المعاصي متعادون يوم القيامة وقال الحارث سئل علي بن أبي طالب عن قوله جل وعز (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو) فقال خليلان مؤمنان وخليلان كافران مات أحد المؤمنين فبشر بالجنة فقال اللهم لا تضل خليلي حتى يبشر بما بشرت به وترضى عنه كما رضيت

(38/689)

عني فلما مات جمع بينهما فقال له جزاك الله من خليل ومن أخ وصاحب خيرا فنعم الخليل كنت والكافران يقول أحدهما لصاحبه بئس الخليل والصاحب كنت ثم قرأ (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقال مجاهد قال ابن عباس أحب لله وأبغض لله ووال لله وعاد لله فإنه إنما ينال ما عند الله بهذا ولن ينفع أحد كثرة صومه وصلاته وحجه حيى يكون هكذا وقد صار الناس اليوم يحبون ويبغضون للدنيا ولن ينفع ذلك أهله ثم قرأ (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)

52 - وقوله جل وعز (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) (آية 70)

قال يحيي بن أبي كثير سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (انتم وأزواجكم

تحبرون) قال اللذة والسماع بما شاء الله من ذكره قال قتادة (تحبرون) تنعمون 56 - ثم قال جل وعز (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) (آية 71) روى سعيد عن قتادة قال الأكواب دون الأباريق قال وبلغني أنها مدورة وكذلك هي عند أهل اللغة إلا أنها لا آذان لها ولا عرى 57 - وقوله جل وعز (لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون) (آية 75)

مأخوذ من الفترة والفتور والفتر والمبلس المتحير الذي قد يئس من الخير 58 - وقوله جل وعز (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) (آية 77) قال مجاهد ما كنا ندري ما معنى (ونادوا يا مالك) حتى وجدنا في قراءة عبد الله (ونادوا يا مال) قال عبد الله بن عمرو بن العاص ينادون مالكا أربعين سنة فيجيبهم بعدها (إنكم ماكثون) ثم ينادون رب العزة (ربنا

أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) فيسكت عنهم مثل عمر الدنيا ثم يقول (اخسئوا فيها ولا تكلمون) قال فليس بعدها

(39/689)

إلا صياح كصياح الحمير أوله زفير وآخره شهيق 59 - وقوله جل وعز (أم ابرموا أمرا فإنا مبرمون) (آية 79) قال مجاهد أي أم أجمعوا على كيد أو شر فإنا نكيدهم قال الفراء أي أم

أحكموا أمرا ينجيهم من عذابنا على قولهم فإنا نعذبهم قال أبو جعفر يقال أبرم الأمر إذا بالغ في إحكامه وأبرم الفاتل إذا أحكم الفتل وهو الفتل الثاني والأول سحيل كما قال: (من سحيل ومبرم)

ومنه رجل برم إذا كان لا يدخل في الميسر أو كان ضيق الخلق لا يجتمع مع الناس كما قال الشاعر: ولا برما تهدى النساء لعرسه * إذا القشع من برد الشتاء تقعقعا و (برمة) من هذا سميت به للإلحاح عليها بالإيقاد 60 – وقوله جل وعز (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) (آية 81) في معناه ثلاثة أقوال: أ – قال مجاهد أي قل إن كان للرحمن ولد في قولكم فأنا أول من عبده ووحده وكذبكم

ب – وقال الحسن يقول ما كان للرحمن ولد ج – وقيل هو من عبد أي أنف كما قال: وأعبد أن تهجى تميم بدارم قال أبو جعفر أحسنها قول مجاهد لأن (إن) يبعد أن تكون ههنا بمعنى ما لأن ذلك لا يكاد يستعمل إلا وبعد (إن) إلا وأيضا فإن بعدها ألفا وأكثر ما يقال إذا أنف الإنسان وغضب وأنكر الشئ عبد فهو عبد كما يقال حذر فهو حذر

وقول مجاهد بين أي إن كان للرحمن ولد على زعمكم وقولكم كما قال تعالى (أين شركائي) فانا أول من خالفكم ووحد الله جل وعز ومعنى (العابدين) كمعنى الموحدين لأنه لا يقال عابد إلا لموحد 61 – وقوله جل وعز (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو

الحكيم العليم) (آية 84) قال قتادة أي يعبد في السماء وفي الأرض ووري عن عمر وأبي وابن مسعود (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله)

(40/689)

---

62 - وقوله جل وعز (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق) (آية 86) قال قتادة المسيح وعزير قد عبدا من دون الله ولهما شفاعة وقال مجاهد لا يشفع المسيح وعزير والملائكة إلا لمن شهد بالحق قال لا إله إلا الله قال أبو جعفر قول قتادة أبين وقول مجاهد على أنه استثناء ليس من الأول 63 - وقوله جل وعز (وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يعلمون) (آية 88)

وسنبين معنى (وقيله يا رب) في الإعراب إن شاء الله 64 - وقوله جل وعز (فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) (آية 89) قال قتادة في قوله (فاصفح عنهم) قيل له هذا ثم نسخ بالأمر بالقتال انتهى تفسير سورة الزخرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 333. 391 ﴾

(41/689)

وقال الفراء :

سورة (الزخرف)

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ . . . ﴾ .

قرأ الأعمش: "إن كنتم" بالكسر ، وقرأ عاصم والحسن: "أنْ كنتم" بفتح (أنْ) ، كأنهم أرادوا شيئًا ماضيا ، وأنت تقول فى الكلام: أأسُبّك أن حرمتنى ؟ تريد إذ حرمتنى ، وتكسر إذا أردت أأسبك إن حرمتنى ، ومثله: ﴿ ولاَ يَجْرِمَنّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكم ﴾ تكسر (إن) وتفتح .

ومثله: ﴿ فلعلَّك باخعٌ نفسك على آثارِهم ﴾ "إن لم يؤمنوا" ، و"أن لم يؤمنوا" ، والعرب تنشد قول الفرزدق .

أتجزع إن أذنا قتيبة حزتا * جهاراً ، ولم تجزع لقتل ابن خازم ؟

وأنشدونى:

أتجزع أن بان الخليط المودّع * وجبل الصفا من عزة المتقطع ؟

وفى كل واحد من البيتين ما فى صاحبه من الكسر والفتح ، والعرب تقول: قد أضربت عنك ، وضربت عنك إذا أردت به: تركتك ، وأعرضت عنك .

﴿ لِتَسْتَوُواْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَاذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ لِتَسْتَوُواْ عَلَى ظُهُورِهِ . . . ﴾ .

يقول القائل: كيف قال: "على ظهوره" ، فأضاف الظهور إلى واحد ؟

يقال له: إن ذلك الواحد فى معنى جمع بمنزلة الجند والجيش والجميع ، فإن قال:

فهلا قلت: لتستووا على ظهره ، فجعلت الظهر واحداً إذا أضفته إلى واحد ؟

(42/689)

قلت: إن الواحد فيه معنى الجمع ، فرددت الظهور إلى المعنى ولم تقل: ظهره ، فيكون كالواحد الذى معناه ولفظه واحد ، فكذلك تقول: قد كثرت نساء الجند ، وقلت: ورفع الجند أعينه ولا تقل عينه . وكذلك كل ما أضفت إليه من الأسماء الموضوعة ، فأَخْرِجها على الجمع ، فإذا أضفت إليه اسما فى معنى فعل جاز جمعه وتوحيده مثل قولك: رفع الجند صوته وأصواته أجود ، وجاز هذا لأن الفعل لا صورة له فى الإثنين إلا كصورته فى الواحد .

وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . . . ﴾ .

مطيقين ، تقول للرجل: قد أقرنتَ لهذا أى أطقتَه ، وصرتَ له قرنا .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً . . . ﴾ .

الفعل للوجه ، فلذلك نصبت الفعل ، ولو جعلت "ظلّ" للرجل رفعت الوجه والمسود ، فقلت: ظل وجهه مسودٌّ وهو كظيم .

﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ . . . ﴾ .

يريد الإناث ، يقول: خصصتم الرحمن بالبنات ، وانتم هكذا إذا ولد لأحدكم بنت أصابه ما وَصَف ، فأما قوله: ﴿ أومَنْ ﴾ فكأنه قال: ومن لا ينشأ إلاّ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ، يقول: لا يبلغ من الحجة ما يبلغ الرجل ، وفى قراءة عبد الله: "أَوَمَنْ لا يُنَشَّأُ إلاّ فى الْحِلْيَةِ" ، فإن شئت [/ب] جعلت "مَن" فى موضع رفع على الاستئناف ، وإن شئت نصبتها على إضمار فعل يجعلون ونحوه ، وإن رددتها على أول الكلام على قوله: "وإذ بُشّرَ أَحَدُهُمْ بما ضَرَبَ" خفضتها [وإن شئت نصبتها] ، وقرأ يحيى بن وثاب وأصحاب عبد الله والحسن البصرى: "يُنَشَّأُ" ، وقرأ عاصم وأهل الحجاز: ينْشَأُ فى الحلية:

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ عِبَادُ الرَّحْمَانِ . . . ﴾ .

قرأها عبدالله بن مسعود وعلقمة ، وأصحاب عبدالله: "عباد الرحمن" ، وذكر [عن] عمر (رحمه الله) أنه قرأها : "عند الرحمن" ، وكذلك عاصم ، وأهل الحجاز ، وكأنهم أخذوا ذلك من قوله: ﴿ إِنَّ الذين عِنْد رَبِّك لا يَسْتَكْبِرُون عَنْ عِبادَتِهِ ﴾ وكل صواب .

وقوله: ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ . . . ﴾ .

نصب الألف من "أشهدوا" عاصم ، والأعمش ، ورفعها أهل الحجاز على تأويل: أُشْهدوا خلقهم ؛ لأنه لم يسم فاعله ، والمعنى واحد . قرءوا بغير همز يريدون الاستفهام قال أبو عبدالله: كذا قال الفراء .

﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ . . . ﴾ .

قرأها القراء بضم الألف من "أُمّة" ، وكسرها مجاهد ، وعمر بن عبدالعزيز ، وكأن الإمّة

مثل السنة والملة ، وكأن الإمّة الطريقة: والمصدر من أممت القوم ، فإن العرب تقول: ما أحسن إمته وعمّته وجِلْسته إذا كان مصدرا ، والإمة أيضا الملك والنعيم . قال عدى:

ثم بعْدَ الفلاحِ والمُلكِ والإمّة * وارثهمُ هناك القبورُ

فكأنه أراد إمامة الملك ونعيمه .

وقوله: ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ . . . ﴾ و ﴿ مُّقْتَدُونَ . . . ﴾ .

رُفعتا ولو كانتا نصبا لجاز ذلك ؛ لأنّ الوقوف يحسن دونهما ، فتقول للرجل: قدمت ونحن بالأثر متبعين ومتبعون .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . . . ﴾ .

(44/689)

العرب تقول: نحن منك البراء والخلا ، والواحد والاثنان والجميع من المؤنث والمذكر يقال فيه: براء ؛ لأنه مصدر ، ولو قال: (برىء) لقيل فى الاثنين: بريئان ، وفى القوم: بريئون وبرءاء ، وهى فى قراءة عبد الله: "إنَّنى بَرِئٌ مِّمَّا تَعْبُدُون" ولو قرأها قارىء كان صوابا موافقا لقراءتنا ؛ لأَن العرب تكتب: يستهزىء يستهزأ فيجعلون الهمزة مكتوبة بالألف فى

كل حالاتها . يكتبون شىء شيأ ومثله كثير فى مصاحف عبد الله ، وفى مصحفنا : ويهيىء لكم ، ويهيأ بالألف .

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ . . . ﴾ .

اسم الإسلام ، يقول لازمة لمن اتبعه ، وكان من وَلَدِه ، لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين إذا كانوا من ولد إبراهيم صلى الله عليه ، فذلك قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى دينك ودين إبراهيم صلى الله عليهما .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَاذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَاذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . . . ﴾ .

ومعناه: على أحد رجلين عنَى نفسه . وأبا مسعود الثقفى ، وقال هذا الوليدُ بن المغيرة المخزومى ، والقريتان: مكة والطائف .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . . ﴾ .

فرفعنا المولى فوق عبده ، وجعلنا بعضهم يسبى بعضا ، فيكون العبد والذى يُسْبَى مسخَّرين لمن فوقهما .

وقوله: ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً . . . ﴾ ، و"سِخْرِيّاً" وهما واحد هاهنا وفى: "قد أفلح" ، وفى ص – سواء الكسر فيهن والضم لغتان .

(45/689)

﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً . . . ﴾ .

أن فى موضع رفع .

وقوله: ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ . . . ﴾ .

إن شئت جعلت اللام مكررة فى لبيوتهم ، كما قال: ﴿ يسَأَلُونكَ عن الشَّهرِ الْحَرامِ قِتَالٍ فيه ﴾ ، وإن شئت جعلت اللامين مختلفتين كأنّ الثانية فى معنى على كأنه قال: لجعلنا لهم على بيوتهم سقفاً ، وتقول للرجل فى وجهه: جعلت لك لقومك الأعطية ، أى جعلته من أجلك لهم .

و(السُّقُف) قرأها عاصم والأعمش والحسن "سُقُفاً" وإن شئت جعلت واحدها سقيفة ، وإن شئت جعلت سقوفا ، فتكون جمع الجمع كما قال الشاعر:

حتى بلت حلاقيم الحُلُق * أهوى لأدْنى فقرة على شفق

ومثله قراءة من قرأ "كُلُوا مِن ثُمُرِه" ، وهو جمع ، وواحده ثمار ، وكقول من قرأ : "فَرُهُنٌ مَقْبوضَة" واحدها رهان ورهون . وقرأ مجاهد وبعض أهل الحجاز ﴿ سَقْفاً ﴾ كالواحد مخفف ؛ لأن السَّقف مذهب الجماع .

﴿ وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَزُخْرُفاً . . . ﴾ .

وهو الذهب ، وجاء في التفسير نجعلها لهم من فضة ومن زخرف ، فإذا ألقيت من الزخرف نصبته على الفعل توقعه عليه أي وزخرفا ، تجعل ذلك لهم منه ، وقال آخرون: ونجعل لهم مع ذلك ذهبا وغنى مقصور فهو أشبه الوجهين بالصواب .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَانِ . . . ﴾ .

يريد : ومن يعرض عنه ، ومن قرأها : "ومن يَعْشَ عن" يريد : يَعْمَ عنه .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ . . . ﴾ .

يريد الشيطان وهو فى [/ب] مذهب جمع ، وإن كان قد لفظ به واحدا يقول: وإن الشياطين ليصدونهم عن السبيل ويحسبون هم أنهم مهتدون .

﴿ حَتَّى إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾

وقوله: ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ . . . ﴾ .

فيقتل: (جاءنا) لأحدهما ، وجاءنا الإنسى وقرينه ، فقرأها جاءانا بالتثنية عاصم والسُّلَمى والحسن وقرأها أصحاب عبد الله يحيى بن وثاب وابراهيم بن يزيد النخعى (جاءنا) على التوحيد ، وهو ما يكفى واحده من اثنيه ، ومثله قراءة من قرأ ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَانِّ ﴾ ، يقول: ينبذ هو وماله ، (وليُنبّذنَّ) والمعنى واحد .

وقوله: ﴿ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ . . . ﴾ .

يريد : ما بين مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، ويقال: إنه أراد المشرق والمغرب: فقال المشرقين ، وهو أشبه الوجهين بالصواب ؛ لأن العرب قد تجمع الاسمين على تسمية أشهرهما ، فيقال: قد جاءك الزهدمان ، وإنما أحدهما زهدم ، قال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماء عليكمُ * لنا قمراها والنجوم الطوالع

يريد : الشمس والقمر .

وقال الآخر:

قسموا البلاد فما بها لمقيلهم * تضغيث مفتصل يباع فصيله

فقرى العراق مسير يوم واحد * فالبصرتان فواسط تكميله

يريد : البصرة والكوفة .

قال ، وأنشدنى رجل من طىء :

فبصرة الأزد منا ، والعراق لنا * والموصلان ومنا مصر فالحرم

يريد : الجزيرة ، والموصل .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ . . . ﴾ .

يقول: لن ينفعكم اشتراككم يعنى [الشيطان] وقرينه . وأنكم فى موضع رفع .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾

(47/689)

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ . . . ﴾ .

لَشَرف لك ولقومك ، يعنى: القرآن والدين ، وسوف تسألون عن الشكر عليه .

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ . . . ﴾ .

يقول القائل: وكيف أمر أن يسأل رسلا قد مضوا ؟ ففيه وجهان:

أحدهما : أن يسأل أهل التوراة والإنجيل ، فإنهم إنما يخبرونه عن كتب الرسل التى جاءوا بها فإذا [سأل] الكتب فكأنه سأل الأنبياء .

وقال بعضهم: إنه سيسرى بك يا محمد فتلقى الأنبياء فسلهم عن ذلك ، فلم يشككك صلى الله عليه ولم يسلهم .

وقوله: [/١] ﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ . . . ﴾ .

قال: ﴿ يُعبَدون ﴾ للآلهة ، ولم يقل: تعبد ولا يُعْبَدون ، وذلك أن الآلهة تُكلَّم ويدعّى لها وتعظَّم ، فأُجريت مُجرى الملوك والأمراء وما أشبههم .

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا . . . ﴾ .

يريد : من الآية التى مضت قبلها .

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَاذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾

وقوله: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَاذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ . . . ﴾ .

من الاستفهام الذى جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وإن شئت رددته على قوله: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ . . . ﴾ .

[حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: وقد أخبرنى بعض المشيخة أظنه الكسائى: أنه بلغه أن بعض القراء قرأ: "أَمَا أنا خير" ، وقال لى الشيخ: لو حفظت الأثر فيه لقرأت به ، وهو جيد فى المعنى.

﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ . . . ﴾ .

(48/689)

يريد: فهلا ألقى عليه أساورة من ذهب ، قرأها يحيى بن وثاب "أساورة من ذهب" ، وأهل المدينة ، وذكر عن الحسن: "أَسْوِرة" ، وكل صواب.

ومن قرأ: "أساورة" ، جعل واحدها إسوارا ، ومن قرأ: "اسورة" فواحدها سوار ، وقد تكون الأساورة جمع اسورة كما يقول فى جمع: الأسقية: أساقى ، وفى جمع الأَكُرُع: أكارع.

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ . . . ﴾ يريد: استفزهم.

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا . . . ﴾ . يريد: أغضبونا .

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى القاسم بن معن عن الأعمش عن يحيى بن وثاب أنه قرأها: "سُلُفا" مضمومة مثقلة، وزعم القاسم [ابن معن] أنه سمع واحدها سليف، والعوام بعد يقرءون: "سَلَفاً".

[حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد] حدثنا الفراء قال: حدثنا سفيان بن عيينة أن الأعرج قرأها: "فجعلناهم سُلُفا" كأن واحدته سُلفة من الناس أى قطعة من الناس مثل أمّة.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾

وقوله: ﴿ مِنْهُ يَصِدُّونَ . . . ﴾ .

[حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى أبو بكر بن عياش عن عاصم: أنه ترك يَصُدون من قراءة أبى عبد الحمن، وقرأ يصِدون. (قال الفراء)، وقال أبو بكر حدثنى عاصم عن أبى رزين عن أبى يحيى: أن ابن عباس [/ب] قرأ: (يَصِدون) أى: يضجون يعِجون.

وفى حديث آخر: أن ابن عباس لقى ابن أخى عبيد بن عمير فقال: ان ابن عمك لعربى؛

فما له يلحن فى قوله: ﴿ إذا قومك منه يصُدون ﴾ إنما هى يصِدون ، العرب تقول: يصِد ويصُد مثل: يشِد ويشُد ، وينمِ وينُم من النميم . يصدون منه وعنه سواء .

(49/689)

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَاذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ . . . ﴾ وفى قراءة أُبَى: "وإنه لذكر للساعة" ، وقد روى عن ابن عباس: "وإنه لَعَلَمٌ للساعة" و (عِلْمٌ) جميعا ، وكلٌّ صواب متقارب فى المعنى .

﴿ يَاعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يَاعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ . . . ﴾ .

وهى فى قراءة أهل المدينة: "ياعبادى" . بإثبات الياء ، والكلام وقراءة العوام على حذف الياء .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَكْوَابٍ . . . ﴾ .

والكوب: المستدير الرأس الذى لا أذن له ، قال عدى:

خيرٌ لها إن خشيت حجرة * من ربّها زيدٍ بن أيوبِ

متكئا تصفق أبوابه * يَسقِى عليه العبد بالكوب

وقوله: ﴿ تَشْتَهِى الأَنْفُس . . . ﴾ ، وفى مصاحف أهل المدينة: تشتهيهِ الأنفسُ وتلذُّ .

﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . . . ﴾ . فى العذاب .

وفى قراءة عبد الله: "وهُم فيها مُبلسون" ، ذهب إلى جهنم ، والمبلس: القانط اليائس من النجاة .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَاكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَاكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ . . . ﴾ .

جعلت (هم) ها هنا عمادا ، فنصب الظالمين ، ومن جعلها اسما رفع ، وهى فى قراءة عبد الله: (ولكن كانُوا هُم الظَّالمون) .

﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً . . . ﴾ .

يريد : أبرموا أمرا ينجيهم من عذابنا عند أنفسهم ، فإنا مبرمون معذبوهم .

﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ . . . ﴾ .

خفضها عاصم والسلمى وحمزة وبعض أصحاب عبد الله ، ونصبها أهل المدينة والحسن فيما أعلم فمن خفضها قال: "عنده علم الساعة" وعلم "قيله يارب" . ومن نصبها أضمر معها قولا ، كأنه قال: وقال قوله ، وشكا شكواه إلى ربه وهى فى إحدى القراءتين

[/١] قال الفراء: لا أعلمها إلا فى قراءة أبى ، لأنى رأيتها فى بعض مصاحف عبد الله [على] وقيله ، ونصبها أيضا يجوز من قوله: "نسمع سرهم ونجواهم" ، ونسمع قيله ، ولو قال قائل: وقيلُه رفعا كان جائزا ، كما تقول: ونداؤه هذه الكلمة: يا رب ، ثم قال: "فاصفَحْ عَنْهُمْ" ، فوصله بدعائة كأنه من قوله وهو من أمر الله أمره أن يصفح ، أمره بهذا قبل أن يؤمر بقتالهم .

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . . . ﴾ .

رفع سلام بضمير عليكم وما أشبهه ، ولو كان: وقل سلاماً كان صوبا ، كما قال: ﴿ قالوا سَلَاماً قال سَلَامٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 27 ـ 38 ﴾

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الزخرف

(أم الكتاب) [4] اللوح المحفوظ . (لعلي) في أعلى طبقات البلاغة . (حكيم) ناطق بالحكمة . (أفنضرب عنكم الذكر صفحاً) [5] أي: أفنعرض عنكم ، ولا نوجب الحجة عليكم . (أن كنتم قوماً مسرفين) وأن نصب إن كان التقدير: بأن كنتم ، أو لأن كنتم .

(لتستووا على ظهوره) [13]

على التذكير ، لأن الأنعام كالنعم ، اسم جنس . (مقرنين) مطيقين . (من عباده جزءاً) [15] نصيباً . وقيل: الجزء: البنات ، وهو قولهم: إن الملائكة بنات الله ، قال الشاعر:

1077- إن أجزأت وهي مذكار فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكار أحيانا/ . (براء) [26]

مصدر ، لا يثنى ولا يجمع . وبراء: على وزن فعلاء ، جمع بريء . (كلمة باقية في عقبه) [28] أي: التوحيد ، والبراءة من الشرك . (بل متعت) [29] أي: بلغ الإمتاع والإهمال مدته ، فلم يبق إلا الإيمان أو العذاب . (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) [32] أي: فرحمة ربك وهي النبوة أولى باختيار موضعها . (من القريتين) [31] مكة والطائف . والسقف: إما جمع سقيفة وهي كل خشب عريض ، مثل لوح السفينة ،

وإما جمع السقف ، مثل: رهن ورهن على قلته ، وإما جمع الجمع ، فجمع السقف على السقوف ، والسقوف على السقف ، مثل نجم ونجوم ونجم . والمعارج: جمع المعراج. والآية تضمنت أن في إغناء البعض وإحواج البعض ، مصلحة العالم ، وإلا لبسط على الكافر الرزق . وتضمنت أيضاً تهوين أمر الدنيا حين يبذله الله لمن كفر به وعصاه . (ومن يعش) [36] أصل العشو: السير في الظلمة ، والأعشى: ضعيف البصر منه . (نقيض له) نعوضه عن إغفاله الذكر بتمكين الشيطان منه خذلاناً له .

(52/689)

(المشرقين) [38] المشرق والمغرب ، كما قيل: القمران . (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون) [39] قال ابن جني: سألت أبا علي عنه ؟ فقال: لما كانت الدار الآخرة تلي الدار الدنيا ولا فاصل بينهما ، إنما هي هذه فهذه ، فصار ما يقع في الآخرة كأنه واقع في الدنيا ، فلذلك أجرى اليوم وهو للآخرة مجرى وقت الظلم ، وهو قوله: (إذ ظلمتم) ، ووقت الظلم كان في الدنيا ، ولو لم نفعل هكذا بقي (إذ ظلمتم) غير متعلق بشيء . ومعنى الآية: أنهم لا ينتفعون/بسلوة التأسي بمن شاركهم في العذاب ، لأجل ظلمهم فيما مضى ، وإن كان التأسي مما يخف من الشدائد ، ويقل من [عناء] المصائب ، كما قالت الأخيلية:

1078- ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي 1079- وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنهم بالتأسي . (أفلا تبصرون* [51] أم أنا خير) [52] كأنه قال: أفلا تبصرون ، أم أنتم بصراء ، فقوله: أنا خير ، بمنزلة قوله: أم أنتم بصراء ، [لأنهم لو قالوا: أنت خير ، كان كقولهم: نحن بصراء ، ليصح معنى المعادلة في أم ، والتقدير في المعادلة: على أي الحالين أنتم ، على حال البصر أم على خلافه] . وعلى هذه القاعدة يجري باب الخطاب النحوي ، يعني بناء السؤال والجواب أحدهما على صاحبه .

(أسورة) [53] جمع سوار مثل عماد وأعمدة ، وغراب وأغربة . وأساورة جمع أسوار ، وكانت أساوير فحذفت الياء كقولهم: [في] إستار ، وإسكاف: أساترة وأساكفة . وصرف الأساورة والملائكة ، لأن لهما مثالاً في الواحد ، مثل: العلانية والطواعية والكراهية . (أو جاء معه الملائكة)

قاله على قول موسى بملائكة الله ، لأن من لا يعرف الله لا يعرف ملائكته . (ءاسفونا) [55] أغضبونا . (ولما ضرب ابن مريم مثلاً) [57] أي: لبني إسرائيل آية في القدرة على كل شيء بخلق إنسان من غير أب . (يصدون) يضجون ، ومنه التصدية .

(53/689)

وقيل: إن يصدون ويصدون ، واحد ، من باب يعكفون ويعكفون ويعرشون ويعرشون .

ولما قال هذا في عيسى ، قال المشركون: آلهتنا خير منه . وأرادوا بذلك الجدل

والخصومة . وأصل الجدل: الجدل وهو الفتل ، فكل مجادل يفتل خصمه بالحق أو بالباطل .

(لجعلنا منكم ملائكة) [60] أي: خلقناهم على صوركم . (وإنه لعلم للساعة) [61]/

أي: نزول عيسى ، فإن نزوله من أشراطها .

وقال ابن بحر: هو القرآن ، فإن فيه أن الساعة كائنة وقريبة . (فاختلف الأحزاب) [65]

اليهود والنصارى . (من بينهم) من تلقاء أنفسهم . (بعضهم لبعض عدو) [67] أي:

[المتحابون] في الدنيا على معصية الله . (أم أبرموا أمراً) [79] في المعصية . (فإنا مبرمون)

في الجزاء . (أول العابدين) [81]

من عبد إذ[ا] أنف ، فسره بعض علماء البصرة ، فقال له ملحد : وما يشبه الآنف من

العابد ؟ ! فقال: إنما أنزل القرآن على العرب وهذا كلامها . قال خفاف بن ندبة:

1080 - وأعبد أن أسبهم بقومي وأترك دارماً وبني رياح 1081 - أولئك إن سببت

كفاء قومي وأجدر أن أعاقب بالنجاح . وقال ابن عرفة: إنما يقال: عبد يعبد فهو عبد ،

[قلما] يقال: عابد ، والقرآن لا يأتي بالقليل الشاذ من اللغة ، ولا سيما في موضع الاشتباه .

ولكن المعنى: فأنا أول العابدين على أنه واحد ليس له ولد .

ويجوز أن يكون معنى العابدين: الموحدين ، لأن كل من يعبده يوحده ، وكل من يوحده

يعبده . (وقيله يا رب) [88] من فتح قيله: عطفه على قوله: (أنا لا نسمع سرهم ونجواهم) ، أي: ولا نسمع قيله . وقيل: معناه: لا يملكون الشفاعة ولا يملكون قيله . وقيل: نصب على المصدر: إلا من شهد بالحق وقال قيله .

ومن جر "قيله" كان المعنى: عنده علم الساعة وعلم قيله ، أي: شهد بالحق وبقيله .

[تمت سورة الزخرف] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1290.1302 ﴾

(54/689)

وقال الأخفش :

سورة (الزخرف)

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾

قال ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ يقول: "لأَنْ كُنْتُمْ" .

﴿ لِتَسْتَوُواْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾

وقال ﴿ لِتَسْتَوُواْ عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ فتذكيره يجوز على ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [12] و ﴿ ما ﴾ هو مذكر كما تقول: "عندي من النساء ما يوافقك ويسرك" وقد تذكر "الانعام" وتؤنث وقد

قال في موضع ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ وقال في موضع آخر ﴿ بُطُونِها ﴾ .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾

وقال ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ تقول العرب "أَنَا بَراءٌ منك" .

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ ومثله قول العرب "مَفاتِح" و"مَفَاتِيح" و"مَعَاطٍ" في "المِعطاءِ"* و"أَثَافٍ" من "الأُثْفِيَّةِ" وواحد "المَعَارِج" "المِعْراج" ولو شئت قلت في جمعه "المعاريج" .

﴿ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

وقال ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ خفيفة منصوبة اللام وقال بعضهم ﴿ لَمَّا ﴾ فثقّل ونصب اللام وضعف الميم وزعم انها في التفسير الأول "إلاّ" وانها من كلام [169 ب] العرب .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

وقال ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَانِ ﴾ وهو ليس من "أَعْشى" و"عَشْو" انما هو في معنى قول الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد السابع والستون بعند المئتين]:

* إلَى مالِكٍ أَعْشو الى مِثْلِ مالِكِ *

كأن "أَعْشُو": أَضْعُفُ. لأنه حين قال "اعشو الى مثل مالك" كان "العَشْوُ": الضعف لأَنه حين قال: "اعشو" الى مثل مالك" أخبر انه يأتيه غير بصير ولا قوي. كما قال: [من الطويل وهو الشاهد الثامن والستون بعد المئتين]:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نارِهِ * تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا

أَي: متى ما تفتقر فتقصد الى ضوء ناره يغنك.

﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾

وقال ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ لأنه جمع "أساور" * و"أَسْوِرَة" وقال بعضهم ﴿ أَساورة ﴾ فجعله جمعا للاسورة فاراد: "أَسَاوِير" – والله أعلم – فجعل الهاء عوضا من الياء كما قال "زَنَادِقَة" فجعل الهاء عوضا من الياء التي في "زَنَادِيق".

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾

وقال ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ و ﴿ يَصِدُّون ﴾ كما قال ﴿ يَحْشُرُ ﴾

و ﴿ يَحْشِرُ ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 513.

515 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الزخرف

مكية كلها

4 - وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ أي في اصل الكتب عند اللّه .

5 - أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أي نمسك عنكم فلا نذكركم صفحا ، أي إعراضا .

يقال : صفحت عن فلان ، إذا أعرضت عنه .

والأصل في ذلك : انك توليه صفحة عنقك . قال كثير يصف امرأة :

صفوحا فما تلقاك إلا بحيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت

أي معرضة بوجهها .

ويقال : ضربت عن فلان كذا ، أي أمسكته وأضربت عنه .

أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ أي لأن كنتم قوما مسرفين .

13 - وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ أي مطيقين . يقال : انا مقرن لك ، أي مطيق لك .

ويقال : هو من قولهم : انا قرن لفلان ، إذا كنت مثله في الشدة .

وإن فتحت . فقلت : انا قرن لفلان . - أردت : انا مثله في السن .

15 - وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً أي نصيبا .

(57/689)

ويقال : شبها ومثلا ، إذ عبدوا الملائكة والجن .

وقال ابو إسحاق [الزجاج] : «إن معنى (جزأ) هاهنا : بنات . يقال :

له جزء من عيال ، أي بنات» .

قال : «وانشدني بعض أهل اللغة بيتا يدل على ان معنى «جزء» معنى «إناث» - قال :

ولا ادري : البيت قديم ؟ أم مصنوع ؟ - :

إن أجزأت حرة يوما ، فلا عجب قد تجزي الحرة المذكار أحيانا

فمعنى «إن أجزأت» أي آنثت ، أي أتت بأنثى» .

وقال المفضل بن سلمة : «حكي لي بعض أهل اللغة : أجزأ الرجل ، إذا كان يولد له بنات .

وأجزأت المرأة : إذا ولدت البنات» . وانشد المفضل :

زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن في أبياتها زجل

17 - [وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا يريد] : جعلتهم البنات لله : وأنتم إذا

ولد لأحدكم بنت ، ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ، وَهُوَ كَظِيمٌ أي حزين ؟ ! .

18 - أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ ؟ أي ربي في الحلي ، يعني : البنات .

والْخِصامِ : جمع «خصيم» . ويكون مصدرا ل «خاصمت» .

غَيْرُ مُبِينٍ للحجة .

19 - وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أي عبيده يقال : عبد وعبيد وعباد «1» .

22 و23 - إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ أي على دين واحد .

---

(1) أخرج ابن المنذر عن قتادة قال : قال ناس من المنافقين إن اللّه صاهر الجن فخرجت من بينهم الملائكة فنزل فيهم : وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً . [. . . . .]

---

28 - وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ يعني : «لا إله إلا اللّه» .

33 - وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً أي كفارا كلهم .

والْمَعارِجِ : الدرج . يقال : عرج ، أي صعد . ومنه «المعراج» ، كأنه سبب إلى السماء او طريق .

عَلَيْها يَظْهَرُونَ أي يعلون . يقال : ظهرت على البيت ، إذا علوت سطحه .

35 - (و الزخرف) : الذهب .

36 - وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ أي يظلم بصره . هذا قول ابي عبيدة «1» .

قال الفراء : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ أي يعرض عنه . ومن قرأ : وَمَنْ يَعْشُ بنصب الشين أراد : [من] يعم عنه . وقال في موضع آخر : الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي [سورة الكهف آية 101] .

ولا أرى القول إلا قول أبي عبيدة . ولم ار أحدا يجيز «عشوت عن الشيء» : أعرضت عنه ، إنما يقال : «تعاشيت عن كذا» ، أي تغافلت عنه ، كأني لم أره . ومثله : «تعاميت» .

والعرب تقول : «عشوت الى النار» : إذا استدللت إليها ببصر ضعيف «2» قال الخطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار ، عندها خير موقد

---

(1) قال الطبري : ومن يعرض عن ذكر اللّه ولا ينظر في حججه إلّا نظرا ضعيفا كنظر من عشي بصره فنجعل له شيطانا .

(2) كما قاله ابن عباس وعكرمة .

ومنه حديث ابن المسيب : «ان إحدى عينيه ذهبت ، وهو يعشو بالأخرى» ، أي يبصر بها بصرا ضعيفا .

44 - وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ أي شرف لكم ، يعني القرآن وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ عن الشكر عليه .

45 - وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أي سل من أرسلنا إليه رسولا - من رسلنا - قبلك ، يعني : أهل الكتاب .

52 - أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ قال ابو عبيدة : «أراد : بل انا خير» .

وقال الفراء : «أخبرني بعض المشيخة : أنه بلغه القراء قرأ : اما أنا خير . وقال لي هذا الشيخ : لو حفظت الأثر لقرأت به ، وهو جيد في المعنى» .

55 - فَلَمَّا آسَفُونا أي أغضبونا . و«الأسف» : الغضب .

يقال : اسفت آسف أسفا ، أي غضبت .

56 - فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً : قوما تقدموا ، وَمَثَلًا : عبرة .

وقرأها الأعرج: سلفا ، كأن واحدته : «سلفة» [اي عصبة وفرقة متقدمة] من الناس ، مثل القطعة . تقول : تقدمت سلفة من الناس .

وقرئت : سَلَفاً ، كما قيل : خشب وخشب ، وثمر وثمر . ويقال : هو جمع «سليف» . وكله من التقدم .

57 - إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ : يضجون . يقال : صددت أصدّ صدّا ، إذا ضججت . و«الصّدية» منه ، وهو : التصفيق . والياء فيه مبدلة من دال ، كأن الأصل فيه : «صددت» بثلاث دالات ، فقبلت الأخرى ياء ، فقالوا :

(60/689)

«صديت» كما قالوا : قصيت اظفاري ، والأصل : قصصت .

ومن قرأ : يصدون ، أراد : يعدلون ويعرضون .

61 - وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ للسَّاعَةِ أي نزول المسيح - عليه السلام - يعلم به قرب الساعة ومن قرأ : لَعِلْمٌ للسَّاعَةِ فإنه يعني العلامة والدليل .

70 - تُحْبَرُونَ أي تسرون . و«الحبرة» : السرور .

71 - (الأكواب) : الأباريق لا عرى لها ، ويقال : ولا خراطيم .

واحدها : «كوب» .

75 - وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ أي يائسون من رحمة اللّه .

79 - أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً أي أحكموه .

81 - قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ أي : أول من عبده بالتوحيد .

ويقال : أَوَّلُ الْعابِدِينَ : أول الآنفين الغضاب . يقال : عبدت من كذا أعبد عبدا ، فأنا عبد وعابد . قال الشاعر :

وأعبد ان تهجي تميم بدارم أي : آنف .

89 - فَاصْفَحْ عَنْهُمْ أي اعرض عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 345.341 ﴾

(61/689)

وقال الغزنوى :

سورة الزخرف

4 أُمِّ الْكِتابِ : اللّوح المحفوظ «1» .

لَعَلِيٌّ : في أعلى طبقات البلاغة ، حَكِيمٌ : ناطق بالحكمة .

5 أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً : نعرض ولا نوجب الحجة .

أَنْ كُنْتُمْ : لأن كنتم .

13 لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ : على التذكير لأنّ الأنعام كالنّعم اسم جنس «2» .

مُقْرِنِينَ : مطيقين «3» .

15 جُزْءاً : نصيبا «4» .

26 بَراءٌ : مصدر لا يثنّى ولا يجمع «5» ، و«براء»

جمع «بريء» .

---

(1) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 405 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 527 عن مجاهد .

وانظر تفسير البغوي : 4/ 133 ، وزاد المسير : 7/ 302 ، وتفسير القرطبي : 16/ 62 .

(2) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 28 .

وأورده النحاس في إعراب القرآن : 4/ 101 ، ثم قال : «وأولى من هذا أن يكون يعود على لفظ «ما» لأن لفظها مذكر موحد ، وكذا ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ جاء على التذكير» اه - .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 202 ، ومعاني القرآن للأخفش : 2/ 688 ،

وتفسير القرطبي : 16/ 65 .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 202 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 395 ، ومعاني الزجاج : 4/ 406 ، وتفسير الطبري : 25/ 54 .

(4) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 202 ، وتفسير غريب القرآن : 396 ، وتفسير الطبري :

25/ 55 ، والمفردات للراغب : 93 .

(5) مجاز القرآن : 2/ 203 ، وتفسير الطبري : 25/ 62 ، ومعاني الزجاج : 4/ 409 ، والبحر المحيط : 18/ 11 .

(6) بضم الباء ، قرأ بها جماعة منهم الزعفراني ، وأبو جعفر ، وابن المناذري عن نافع . (البحر المحيط : 8/ 11) ، وانظر هذه القراءة في الكشاف : 3/ 484 ، والمحرر الوجيز :

14/ 251 .

29 بَلْ مَتَّعْتُ : بلغ الإمتاع غايته فلم يبق إلّا الإيمان أو العذاب .

32 نَحْنُ قَسَمْنا : أي : «فرحمة ربّك» : [وهي] «1» النّبوّة أولى باختيار موضعها «2» .

31 عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ : من إحداهما : مكة والطائف ، وهما الوليد بن المغيرة من مكة ، وحبيب بن عمرو الثقفي من الطائف «3» .

والسّقف «4» : جمع «سقيفة» كل خشب عريض ، أو جمع «سقف» ك «رهن» و«رهن» «5» .

والمعنى : أنّ في إغناء البعض وإحواج البعض مصلحة العالم ، وإلّا لبسط على الكافر الرزق ، وفيه توهين أمر الدنيا أيضا .

---

(1) في الأصل و«ج» : وهو ، والمثبت في النص عن «ك» وعن وضح البرهان للمؤلف ، وذكر القرطبي في تفسيره : 16/ 84 هذا القول في المراد ب «الرحمة» دون عزو .

(2) في «ك» : مواضعها .

(3) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 25/ 65 عن ابن عباس من طريق محمد بن سعد عن أبيه عن جده . . . ، وهو إسناد مسلسل بالضعفاء .

تقدم بيان ذلك ص (135) .

وقد عقب الطبري – رحمه اللّه – على هذا القول وغيره من الأقوال في المراد ب «الرجل»

فقال : «و أولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال جل ثناؤه ، مخبرا عن هؤلاء المشركين : وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ إذ كان جائزا أن يكون بعض هؤلاء ، ولم يضع اللّه تبارك وتعالى لنا الدلالة على الذين عنوا منهم في كتابه ، ولا على لسان رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، والاختلاف فيه موجود على ما بينت» اه .

(4) من قوله تعالى : وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ [آية : 33] .

(5) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 32 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 203 ، وتفسير الطبري :

25/ 69 ، ومعاني الزجاج : 4/ 410 .

(63/689)

---

36 وَمَنْ يَعْشُ : العشو : السّير في الظّلمة «1» .

نُقَيِّضْ لَهُ : نعوّضه عن إغفاله الذكر بتخلية الشّيطان وإغوائه .

38 الْمَشْرِقَيْنِ : المشرق والمغرب ، كقولهم : العمران والقمران .

39 وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ : معناه : منع روح التّآسي «2» .

49 يا أَيُّهَا السَّاحِرُ : خاطبوه بما تقدّم له عندهم من التسمية «3» .

بِما عَهِدَ عِنْدَكَ : فيمن آمن «4» به من كشف العذاب عنه «5» .

51 ، 52 أَفَلا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ : أي : أم أنتم بصراء لأنهم لو قالوا : أنت خير ، كان كقولهم : نحن بصراء ليصحّ معنى المعادلة في أَمْ ، والتقدير في المعادلة : على أي الحالين أنتم ؟ أعلى حال البصر أم على خلافه «6» ؟ .

مَهِينٌ : يمتهن نفسه في عمله ، ليس له من يكفيه .

55 آسَفُونا :

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 3/ 534 ، وقال : «مأخوذ من «العشو» ، وهو البصر الضعيف ، ومنه قول الشاعر :

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره إذا الريح هبت والمكان جديب

وانظر اللسان : 15/ 57 (عشا) .

(2) ذكره الزجاج في معانيه : (4/ 412 ، 413) عن المبرد ، وقال : «لأن التأسي يسهل المصيبة ، فاعلموا أن لن ينفعهم الاشتراك في العذاب وأن اللّه - عز وجل - لا يجعل فيهم أسوة . . . » .

(3) هذا قول الزجاج في معانيه : 4/ 414 ، ونص كلامه : «إن قال قائل : كيف يقولون لموسى - عليه السلام - يا أيها الساحر وهم يزعمون أنهم مهتدون ؟ فالجواب أنهم خاطبوه

بما تقدم له عندهم من التسمية بالسحر» . [. . . . .]

(4) في «ج» : بربك .

(5) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 4/ 414 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 25/ 80 عن مجاهد ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 537 عن الضحاك .

(6) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 415 .

(64/689)

أغضبونا «1» .

57 وَلَمَّا/ ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا : آية في القدرة على كلّ شيء بخلق [87/ ب] إنسان من غير أب .

يَصِدُّونَ : يضجّون «2» ، ومنه مُكاءً وَتَصْدِيَةً «3» .

والجدل والخصومة «4» قولهم : رضينا أن تكون آلهتنا مع المسيح لما نزل إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ «5» .

61 وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ : نزول عيسى «6» عليه السلام ، أو القرآن «7» ، ففيه أنّ السّاعة كائنة قريبة .

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 35 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 399 ، وتفسير الطبري : 25/ 84 ، والمفردات للراغب : 17 .

(2) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 205 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 400 ، وتفسير الطبري : 25/ 86 .

(3) سورة الأنفال : آية : 35 .

(4) من قوله تعالى : ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [آية : 58] .

(5) سورة الأنبياء : آية : 98 .

وانظر أسباب النزول للواحدي : 435 ، وتفسير الماوردي : 3/ 539 .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (25/ 90 ، 91) عن ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي ، والضحاك ، وابن زيد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 386 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وسعيد بن منصور ، ومسدد ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ورجح الحافظ ابن كثير هذا القول في تفسيره : 7/ 222 ، فقال : «بل الصحيح أنه عائد على عيسى ، فإن السياق في ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة ، كما قال تبارك وتعالى : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ . . .» .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 25/ 91 عن الحسن ، ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 541 عن الحسن ، وسعيد بن جبير .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 387 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وعبد الرزاق عن قتادة .

(65/689)

---

65 فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ : اليهود والنّصارى «1» ، مِنْ بَيْنِهِمْ : من تلقاء أنفسهم .

67 بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ : أي : المتحابون في الدنيا على المعاصي .

81 أَوَّلُ الْعابِدِينَ : من عبد : أنف «2» ، ولكنه عبد يعبد فهو عبد ، فالمعنى : فأنا أول العابدين على أنه واحد ليس له ولد . أو معنى الْعابِدِينَ : الموحدين ، إذ كل من يعبده يوحّده «3» .

86 إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ : أي : لا تشفع الملائكة إلّا من شهد بالحق وهو يعلم الحق «4» .

88 وَقِيلِهِ : أي : إلّا من شهد بالحقّ ، وقال : «قيله» «5» ، نصبه على المصدر ، وجرّه «6» على معنى عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وعلم قِيلِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن /

للغزنوى حـ 2 صـ 736. 740 ﴾

---

(1) تفسير الطبري : 25/ 93 ، وتفسير الماوردي : 3/ 542 .

(2) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 401 ، وقال : «ويقال : عبدت من كذا أعبد عبدا ، فأنا عبد وعابد . قال الشاعر :

وأعبد أن تهجى تميم بدارم

أي : آنف . اه - .

وأورد الطبري هذا القول في تفسيره : 25/ 102 ، والزجاج في معانيه : 4/ 420 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 545 عن الكسائي ، وابن قتيبة .

(3) ينظر ما سبق في معاني القرآن للزجاج : 4/ 420 .

(4) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 546 عن الحسن ، وذكره القرطبي في تفسيره :

16/ 122 . [. . . . .]

(5) ورد هذا التوجيه لقراءة نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبي عمرو بنصب اللام في (قيله) .

ينظر إعراب القرآن للنحاس : 4/ 123 ، والكشف لمكي : 2/ 263 ، وتفسير الماوردي :

3/ 547 ، وزاد المسير : 7/ 434 ، والبحر المحيط : 8/ 30 .

(6) وهي قراءة عاصم ، وحمزة كما في السبعة لابن مجاهد : 589 ، والتبصرة لمكي : 325 ، والتيسير للداني : 197 .

وانظر هذا المعنى في تفسير الطبري : 25/ 106 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 421 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 123 ، وتفسير القرطبي : 16/ 123 .

(66/689)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الزخرف

عدد 13 - 63و43

نزلت بمكة بعد سورة الشورى عدا الآية 54 ، فإنها نزلت بالمدينة ، وهي تسع وثمانون آية ، وثمنمئة وثلاث وثلاثون كلمة ، وثلاثة آلاف وأربعمائة حرف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "حم" 1 تقدم ما فيه ، وقد أقسم اللّه تعالى فقال "وَالْكِتابِ الْمُبِينِ" 2 لكل شيء وجواب القسم قوله عز قوله "إِنَّا جَعَلْناهُ" أي الكتاب الملقى إليك يا محمد المشار إليه

آخر السورة المارة "قُرْآناً عَرَبِيًّا" بلغتك ولغة قومك "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" 3 معانيه فلا تحتجوا بعدم فهمه "وَإِنَّهُ" هذا القرآن ثابت عندنا مدوّن "فِي أُمِّ الْكِتَابِ" اللوح المحفوظ.

وسمي أما لأن كل الكتب السماوية المنزلة على الرسل وغيرها مسجلة فيه ومنه ينسخ ما ينزله اللّه على من يشاء من عباده، قال تعالى:

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) الآيتين من آخر سورة البروج في ج 1، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة والباقون بضمها وهو الصواب ولهذا يقول تعالى "لَدَيْنا لَعَلِيٌّ" شرفا ومنزلة وشأنا "حَكِيمٌ" 4 لا يتطرق إليه البطلان على مرور الدوران، راجع الآية 42 من سورة فصلت المارة وما ترشدك إليه من المواضع في حفظ هذا القرآن وتعهد اللّه به "أَفَنَضْرِبُ" نذود وننحى ونترك "عَنْكُمُ" يا أهل مكة "الذِّكْرَ" بالقرآن فلا نذكركم به ونهملكم "صَفْحاً" إعراضا عنكم، فلا نأمركم ولا ننهاكم، أو نمسك عن إنزاله بسبب "أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ" 5 بأنواع الكفر والمعاصي ونبقيكم سبهللا، كلا، لا نفعل ذلك من أجل انهماككم وإصراركم على المعاصي والكفر، بل ننزله عليكم ونكلفكم بالإيمان به وترك ما أنتم عليه، لئلا تقولوا في الآخرة ما جاءنا من كتاب ولا نذير.

قرأ نافع وحمزة بكسر الألف من أن ، أي إن كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر ، وقيل إن أن هنا بمعنى إذ ، مثلها في قوله تعالى (وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الآية 278 من البقرة في ج 3 ، أي والجزاء مقدم على الشرط ، وقرأ الباقون بفتحها على التعليل وهو الأحسن والأوفى بالمرام .

قال تعالى "وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ" 6 قبلكم "وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ" 7 مثلما يسخر بك قومك فلا تضجر لما ترى منهم ، فإن لك أسوة بإخوانك الأنبياء ، وهذه تقدير للآية قبلها مبينة أن إسراف الأمم السابقة الكثيرة في التكذيب لم يمنعنا من إرسال الرسل إليهم ولا إنزال الكتب عليهم ، فكذلك إسراف قومك يا محمد لم يحل دون إرسالنا إياك إليهم وإنزالنا كتابك عليهم ، وفيها تسلية لحضرة الرسول ليهون عليه ما يلاقيه من قومه ، قال تعالى يا محمد لا يغرّ قومك ما هم عليه من القوة والكثرة في المال والولد "فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً" وقوة ومن هم أكثر منهم أموالا وأولادا ، وهذا نوع آخر من التسلية لحضرة الرسول صرف فيه الخطاب من قومه إليه ضمن إخباره عن حكاية حال سابقة لقوله جل قوله "وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ" 8 أي القصة التي أهلكوا فيها وحالتهم مع أنبيائهم إذ سلف ذكرهم على التفصيل فيما قصه اللّه قبل ، وقد كرره مرارا حتى صار ما

أوقعه بالأولين كالمثل السائر ، فحذّر قومك من أن ينزل بهم مثله ويصيبهم ما أصابهم ، يريد قوم نوح وصالح وهود وشعيب ولوط وموسى وعيسى ، ومن بينهم .

(68/689)

قال تعالى "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ" بالغ القدرة منيع الجانب العظيم الذي لا يكيّف "الْعَلِيمُ" 9 بما فيهن وبالحكمة التي خلقهنّ من أجلها لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا خلقهن غيره تعالى ولا يتمكنون من إنكارهما أو نسبة شيء بما فيهن منهما لأولهم خشية الكذب المستقبح عندهم ، وذلك الإله الفعال "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً" لتستريحوا عليها ، ومنه مهد الصبي السرير الذي ينام فيه لأن فيه استراحته ومنامه ، وإنما جعلها مهدا ليمكن مخلوقاته من الانتفاع بها "وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا" في الصحارى وفجاجا في الجبال ومرتفعا في الأودية ليتيسر لكم المشي عليها لتمام النفع "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" 10 في أسفاركم لمقاصدكم من القرى والبلاد والمراعي والمقالع وغيرها .

مطلب نعمة المطر ونعمة الدواب والأنعام وما يقال عند السفر والرجوع منه :

"وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً" فيه حياتكم ، وهذا من جملة رأفته بكم أيها الناس ورحمته بدوابكم وأنعامكم وجعله "بِقَدَرٍ" لكل خلقه من نام وجامد يحسب الحاجة إليه وقدر ما

اقتضته المشيئة المبينة على الحكم والمصالح ، فلم يشح عن الحاجة ولم يزد لحد الغرق الذي لا يكون إلا للعذاب أو أمر آخر يريده ، وهذا القدر الذي ذكره لا يعلمه غيره والإبرة المحدثة (أودوميتر) لا تفيد على التحقيق نزوله بالبقعة التي هي فيها أو بساعة معلومة ، لأن المطر قد يكون فيها أو بأطرافها قريبا منها أو بعيدا ، وقد يكون قليلا بمكان كثيرا بآخر ، لهذا لا يعرف مقداره على الضبط ، لأنه قد يكون فوقها قليلا وبأطرافها كثيرا وبالعكس ، وبمقدار ما تتأثر منه الأرض ، لذلك فإن ما يزعمونه من تقدير الأمطار هو بحسب التخمين

(69/689)

والحسبان بالنسبة للبقعة المغروزة فيه الآلة ، وهذا إذا لم يطرأ على الجو ما يغير رطوبته ، فإذا طرأ قد لا تمطر تدبر .

"فَأَنْشَرْنَا" أحيينا "بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ" مثل هذا الإحياء للأرض الميتة بالمطر "تُخْرَجُونَ" 11 من قبوركم أحياء في الآخرة بعد موتكم في الدنيا "وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا" من ذوات الأرواح والنمو من بشر وحيوان وحوت وطير وحشرات ونبات هو ذلك الإله العظيم الذي خلق السموات والأرض "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ" 12 عليه برا وبحرا وتحت الأرض والبحر وفي الخلاء "لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ" ما ظهر منه لجهة العلو وبطن الفلك

بالنسبة للركوب فيه يسمى ظهرا لأن ظهرها طائف على الماء "ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ" على لطفه بكم وعطفه عليكم "إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ" أي الفلك أو ظهور الأنعام والدواب وغيرها من كل ما يركب ، فيدخل فيه الطائرات والغواصات والسيارات على اختلاف أنواعها ، وهذا الشكر واجب ، لأنه بمقابل نعمة الركوب والتسخير ، لأنها أقوى منكم سواء أكانت بنفسها أو بما يسيرها من ماء وهواء أو بخار أو قوة أخرى ، ومن نعمته تذليلها فلولا تذليل الحيوان للإنسان ما استفاد منه شيئا لا ركبا ولا أكلا ، راجع قوله تعالى (وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ) الآية 72 من سورة يس في ج 2 ، والآية 32 من سورة الشورى المارة لتعلم هذه النعمة العظيمة ، وأنها تستحق الذكر والشكر ، ولها صلة في الآية الأخيرة من سورة لقمان المارة أيضا ، "وَتَقُولُوا" عند استواءكم على ما تركبونه شكرا لمسخره لكم "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هذا" الفلك والأنعام والمراكب "وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ" 13 مطيقين وضابطين بسبب قوتها وصعوبتها والصعب القوي لا يكون قرينا للضعيف ، ولولا نعمة اللّه علينا بتذليلها لما كان لنا أن نقرن هذه الدواب والفلك و

المراكب والسيارات والطيارات وغيرها ، لأنها أقوى منا ، قال عمر بن معد يكرب :

لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنينا

وقال ابن هرم :

وأقرنت ما حملتني ولقلّما يطاق احتمال الصدّ يا دعد والهجر بما يدل على أن قرن بمعنى طاق ، ويقول الراكب أيضا "وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ" 14 في المعاد وآخر ما تركب عليه هو النعش ، اللهم أحسن سيرنا إليك وأكرم وفادتنا عليك ، روى مسلم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا للسفر حمد اللّه وسبح وكبر ثلاثا ثم قال سبحان الذي إلخ اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون سفرنا هذا وأطوعنا بغده ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من عناء السفر (تعبه وشدته) وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد .

وإذا رجع قالهن وزاد فيهن آئبون تائبون عابدون لربنا حامدون .

قال تعالى "وَجَعَلُوا لَهُ" كفار قريش لذلك الإله العظيم مع إنعامه عليهم "مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً" نسبوه إليه وهو قولهم الملائكة بنات اللّه لأن الولد جزء من الوالد "إِنَّ الْإِنْسانَ" جنسه "لَكَفُورٌ مُبِينٌ" 15 مظهر جحوده لنعم اللّه بلا حياء ولا خجل .

قال تعالى على طريق الاستفهام الإنكاري "أَمِ اتَّخَذَ" لنفسه "مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ" وأنتم أيها الكفرة تأنفون منهن "وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ" 16 منهم أي كيف يؤثركم على نفسه لأن من يقدر على الاتخاذ يتخذ لنفسه الأحسن فكيف يجدر بهم أن يقولوا هذا "وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا" من جنس البنات وآثر ذكر الرحمن إعلاما بأنه لو لا سبق رحمته وسعتها لأهلكهم بهذا القول الذي لا يجوز نسبته له تعالى "ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا" صار مكفهرا من سوء ما بشر به "وَهُوَ كَظِيمٌ" 17 مملوء كربا وشدة حزن وغيظ وغم بحيث لا يكاد يتحمل أكثر مما هو فيه ، قيل إن بعض العرب هجر زوجته لأنها جاءت ببنت فخاطبته بقولها :

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا حكمة رب ذي اقتدار فينا

فلم يرد عليها لشدة غضبه .

قال تعالى توبيخا لهؤلاء الكفرة "أَ وَمَنْ يُنَشَّؤُا" بالتشديد مبينا للمفعول وقرىء بالتخفيف وقرىء يناشأ بالمفعول أيضا بمعنى الإنشاء

كالمغالات بمعنى الاغلاء أي يتربى "فِي الْحِلْيَةِ" الزينة يريد البنات لأنهن يزخرفن بالحليّ

ليرغب فيهن أو باعتبار أنهن ناقصات ، ولهذا احتجن للتزيين "وَهُوَ" جنس البنات "فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ" 18 لضعف حالهن وقلة عقولهن ، أي ألا ينسبوا للّه الولد الذكر القادر علي الخصومة والإتيان بالبرهان والحجة إذا كانوا لا بدّ ناسبين له تعالى ولدا ، تعالى عن ذلك ، أفضلوا أنفسهم عليه فجعلوا له البنت ولهم الولد ، قاتلهم اللّه .

(72/689)

وما قيل إن هذه الآية بالأصنام لأنهم كانوا يزينونها بالذهب والفضة ، يبعده قوله (فِي الْخِصامِ) لأن الأصنام جامدة لا تخاصم ولا توصف بشيء من الأنانية ، والكلام وارد على تقبيح قولهم ، وانهم من عادتهم المناقضة في أقوالهم ورميهم القول بغير علم رجما بالغيب .

وتشير هذه الآية على النشء في الزينة والنعومة بالعيش من المعايب والمذام ، لأنه من صفات ربات الحجال فعلى الشهم أن يتباعد عن ذلك ويأنف عنه ويربأ بنفسه عن التشبه بهن ويعيش كما قال عمر رضي اللّه عنه : اخشوشنوا في اللباس واخشوشنوا في الطعام وتمعددوا ، فإن الحاضرة لا تدوم ، أي تزيّوا بزيّ خشن الطعام واللباس ، لأن كلمة تمعددوا تأتي لثلاث معان : التزيّي بزيّ الغير ، والبرء من المرض يقال تمعدد إذا برىء ، والضعيف

إذا أخذ بالسمن يقال له تمعدد أيضا كما في القاموس ، والأول هو المنطبق على المعنى المراد والله أعلم .

هذا ، وإذا أراد أن يزين نفسه فليحلها بلباس التقوى قال تعالى (وَلِباسُ التَّقْوى ذِلِكَ خَيْرٌ) الآية 26 من الأعراف في ج 1 ، وقال عليه السلام : ليس للمؤمن ان يذلّ نفسه ، وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة اللّه والتزين بزينة التقوى ، وإن كان لا بد فاعلا ومقلدا غيره فليتزين بما أحلّ اللّه له من اللباس لا غير على أن لا يتشبه بما هو من خصائص النساء ، لأن ذلك من التخنّث الذي تأباه مروءة المؤمن ، وقد جمع الكفرة في مقالتهم هذه ثلاث كفرات : نسبوا إلى اللّه الولد وهو كفر ، ونسبوا إليه أخس النوعين وهو كفر مزدوج لما فيه من الإهانة بنسبة شيء لجلاله لا يرضونه لأنفسهم ، وجعلوا هذه البنات المشؤمات من الملائكة وهو كفر لاستخفافهم بالملائكة وتسميتهم إناثا وهم ليسوا بإناث بل هم جنس خاص لا يوصف بأنوثة ولا بذكورة ، لذلك شنع اللّه عليهم بقوله عز قوله

(73/689)

"وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ" حتى يجزموا بذلك وهذا تهكم بهم لأنهم لم يشهدوا خلقهم وإنما قالوه جرأة على اللّه قاتلهم اللّه "سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ"

هذه على إفكهم هذا "وَيُسْئَلُونَ" 19 عنه يوم القيامة .

نزلت هذه الآية حينما قال لهم حضرة الرسول وما يدريكم أن الملائكة إناث ؟ قالوا سمعناه من آبائنا ونشهد أنهم لم يكذبوا ، فوبخهم اللّه على ذلك وعلى قولهم "وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ" أي الملائكة والأصنام ، والسياق يؤيد الأول إذ لم يسبق للأصنام ذكر ، وقد استدلوا بنفي مشيئة اللّه ترك عبادتها على امتناع النهي عنها أو على حسنها ، وقالوا إن اللّه لم يشأ ترك عبادتها ، ولو شاء لتحققت مشيئته ولعجل عقوبتنا على عبادتها ، بل إنه شاء عبادتها لأنها متحققة ، فتكون مأمورا بها أو حسنة ، ويمتنع أن تكون منهيا عنها أو قبيحة .

(74/689)

وهذا استدلال باطل لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن لأنها عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض حسنا كان أو قبيحا ، وقد استدلت المعتزلة فيها أيضا على أن اللّه تعالى لم يشأ الكفر من الكافر وإنما شاء الإيمان لأن الكفار ادعوا أن اللّه تعالى شاء منهم الكفر وما شاء منهم ترك عبادة الأوثان لقولهم (لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ) أي لو شاء منا ترك عبادتها لمنعنا من عبادتها ولكن شاء عبادتها فلم يمنعنا ، فوبخهم اللّه تعالى ورد

عليهم قولهم واعتقادهم بقوله "ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ" البتة بدلالة التنكير والتأكيد بحرف الجر "إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ" 20 يحزرون ظنا وتخمينا وهو كذب محض لأن اللّه تعالى لم يشأ عبادتها ولم يرض بها ولم يستحسنها ، وعدم تعجيل العقوبة هو عدم حلول الأجل المعين لها وسبق الكلمة منه تعالى بذلك ، راجع ما تقدم في الآية 163 من الصافات المارة ، لأن اللّه تعالى قدر لكل ما يقع في كونه وقتا لا يتعداه ولا يسبقه .

قال تعالى "أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ" أي القرآن ذكرنا لهم فيه ما يزعمونه "فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ" 21 كلا لم نأتهم بكتاب ولم نرسل لهم رسولا بعد إسماعيل غير محمد وحيث لم يكن لهم حجة يتمسكون بها من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث السمع ، وإنما حجتهم التقليد المحض المشار إليه بقوله عزّ وجل

"بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ" طريقة مأخوذة من الأم وهو القصد وتطلق على الدين لأنه يؤم أي يقصد ويقتدى به يقال فلان لا أمّة له أي لا دين له ولا نحلة ، قال قيس بن الحطيم :

كنا على أمة آبائنا ويقتدي بالأول الآخر

وقال غيره : وهل يستوي ذو أمة وكفور .

وقيل الأمة بمعنى الجماعة وهو كذلك ، إلا أنه لا يتجه هنا "وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ" 22 باتباعهم التقليدي فقط ، أخبر اللّه حبيبه محمد صلّى اللّه عليه وسلم بأن قومه مسبوقون بمقالتهم هذه وأنهم ما يقولونها إلا تقليدا لآبائهم كما أن اتّباعهم تقليدي عار عن البرهان على صحة بقوله جل قوله "وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها" رؤساؤها وأغنياؤها "إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ" 23 وقومك كذلك معترفون بهذا التقليد وهو داء قديم فيهم لا يعدل عنه إلا من وفقه اللّه ، وفيه تسلية لحضرة الرسول ، لأن ما يسمعه من قومه سجية فيهم تناقلوها دون سند أو حجة أو دليل ، فيا أكرم الرسل "قل" لهؤلاء المتنطعين "أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى" بدين أصوب وأعدل وأقوم "مِمَّا" من الدين الذي "وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ" وأحسن منه وأيسر ألا تقبلونه وتتركون دين آبائكم ، فأجابوه بما حكى اللّه عنهم رأسا دون ترو بالأمر "قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ" 24 لسوء حظهم وسبق شقائهم ، قالوا هذه المقالة القبيحة ولم يوفقوا أن يقولوا يتبعك إذ جئننا بدين خير من ديننا ودين آبائنا ، وهذا كقول قوم صالح (إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ) الآية 76 من الأعراف ، قاتلهم اللّه تشابهت قلوبهم ، ويشير عدم توفيقهم لقول الحق الذي به نفعهم ما جاء في الآية 32 من سورة الأنفال ج 2 ، قال تعالى "فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ" إذ آثروا الكفر على الإيمان باختيارهم ورضاهم "فَانْظُرْ" يا سيد الرسل "كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ

الْمُكَذِّبِينَ" 25 من الإهلاك والتدمير "وَ" اذكر لقومك يا محمد "إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ" 26 من الأوثان و

(76/689)

إني لا أعبد "إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ" 17 إلى دينه القويم الحق وطريقه المستقيم الصدق "وَجَعَلَهَا كَلِمَةً" أي جعل براءته تلك من الأوثان "بَاقِيَةً" تردد "فِي عَقِبِهِ" ذريته وبعض من بعده وهي كلمة لا إله إلا اللّه ، لأن قوله (إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) جاريا مجرى لا إله وقوله (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) جاريا مجرى إلا اللّه ، فلا يزالون يلهجون بها ويوحدون اللّه بالعبادة "لَعَلَّهُمْ" إذا تلقوها عنه عقبا بعد عقب ، وقد أشرك بعضهم فلم يقلها "يَرْجِعُونَ" 28 عن الشرك إلى التوحيد اقتداء بجدهم الكريم ، وان من أشرك منهم يرجع إلى اللّه بدعاء من وجد منهم ، لأن ذريته عليه السلام لم تخل قط ممن يوحد اللّه ويدعو إليه منذ نشأ إلى يومنا هذا ، وإلى يوم القيامة إن شاء اللّه القائل "بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ" قومك يا محمد "وَآبَاءَهُمْ" من قبلهم بالنعم المترادفة ولم أعاقبهم "حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ" من عندنا وهو القرآن "وَرَسُولٌ مُبِينٌ" 29 موضح لهم الحق من الباطل من الأحكام والحدود والأخبار "وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ" بدل أن يصدقوه "قَالُوا هذا سِحْرٌ" قد افتريته من

عندك يا محمد "وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ" 30 فزادوا بالطين بلة والنار شرارة إذ ضموا العناد إلى الكفر والاستخفاف إلى البهت ، فسموا القرآن سحرا وكفروا به ، وسموا الرسول ساحرا وكذبوه

(77/689)

"وَقالُوا" فوق ذلك كله مفترحين علينا رأيهم الفاسد "لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ" 31 صفة لرجل ، وفيه دليل على جواز الفصل بين الصفة والموصوف يريدون أعماهم اللّه الوليد بن المغيرة من قريش مكة وعروة ابن مسعود من الطائف من ثقيف ، فرد اللّه تعالى عليهم مؤنبا لهم جرأتهم هذه "أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ" كلا لا حقّ لهم بذلك ولم تكن النبوة خاصة بالأشراف والأغنياء الذين يزعمون ، وإنما هي فضل اللّه يختص به من يشاء من عباده الذين هم أهل لها ، قال تعالى (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ) الآية 125 من الأنعام المارة ، فهو أعلم بمن يصطفيه لها ، ثم ضرب مثلا بقوله عز قوله "نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا" فجعلنا هذا غنيا وهذا فقيرا وهذا شريفا وهذا حقيرا "وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ" متفاوتة في الأموال والأولاد والنسب والعشرة والجاه والمنصب "لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا"

في مصالحهم ويستخدموهم بأشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا .

وهذا لا لكمال في الموسع عليه ولا لنقص في المفتر عليه ، بل ليستقيم نظام العالم ، ولو لا ذلك لما سخر أحد لأحد ، ولأفضى الحال إلى خراب الكون ، إذ لا يستغني أحد عن معاونة الآخر ، وفي التساوي تنعدم الفائدة ، إذ لا ينقاد أحد لغيره ، فعلى العاقل أن يتدرج في هذه الدنيا ولا ينظر إلى ما يجمعه الأغنياء من الحطام ، بل ينظر إلى ما هو نافع له في عقباد "وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ" 32 لأنهم وما يجمعونه فان ورحمة اللّه باقية ، وهذا مما يزهد في الانكباب على الدنيا ويعين على التوكل والانقطاع إليه تعالى ، قال ابن الوردي :

فاعتبر نحن قسمنا بينهم تلقه حقا وبالحق نزل

ويرحم اللّه الشافعي إذ يقول :

(78/689)

فأعددت للمرت الإله وعفوه وأعددت للفقر التجلد والصبرا

فمن تمسك بهاتين العدّتين أمن من هول الدارين وفاز بالنجاة .

مطلب هوان الدنيا عند اللّه وأهل اللّه وتناكر القرينين يوم القيامة والإشارة بأن الخلافة القريش وما نزل في بيت المقدس :

قال تعالى "وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً" فيجتمعون على الكفر ويطبقون عليه رغبة فيه إذا رأوا السعة عند الكفرة "لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ" مصاعد من فضة أيضا "عَلَيْها يَظْهَرُونَ" 33 إلى العلو كالدرج والسلم الذي يصعد عليه للعلو "وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً" من فضة أيضا "وَسُرُراً" من فضة "عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ" 34 خصّ السرر لأنها مما يجلس عليها المنعّمون "وَزُخْرُفاً" وجعلنا ذلك كله مزينا بالذهب والجواهر مرصعا بالأحجار الكريمة "وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا" يتمتع بها الإنسان مدة حياته أو بعضها ثم تذهب بذهابه وهي سريعة الزوال خاصة عند فقدان الشكر "وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ" 35 الكفر والمعاصي الصارفين جوارحهم وأموالهم في رضاء اللّه فهذه هي النعم الدائمة التي يجب أن يمتع بها المؤمن قال :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

العرار وردة طيبة الرائحة ناعمة وكان القائل مر بها قبل العشية وهو سائر ، فإذا لم يشمها في ذلك الوقت فاته ريحها ، فكذلك الإنسان إذا لم يمتع نفسه في هذه الدنيا بالعمل الصالح وهو قادر عليه فاته ذلك بالسقم والهرم والموت على حين غرة فيندم ولات حين مندم ، لذلك يجب على العاقل أن لا يضيع الفرص بالتسويف والتأني .

وليعلم أن الدنيا بما فيها كله زهيد عند اللّه تعالى ولذلك يقول في صدر هذه الآية (لَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ) إلخ أي لأعطيت الكفار أكثر أسباب الحياة المفيدة للرزق ليتنعموا بها في هذه الدنيا الحقيرة ، ولكن لم نفعل ذلك لئلا تزداد الرغبة في الكفر ، وتشير هذه الآية إلى الإعراض عن الدنيا وزينتها والتحريض على التقوى والتمسك بالدين القويم .

أخرج الترمذي وصححه وابن ماجه عن سهل بن سعد قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : لو كانت الدنيا تعدل عند اللّه جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء .

وعن علي كرم اللّه وجهه قال : الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب في يد مجذوم .

هذا ، وأخذ من هذه الآية قاعدة شرعية وهي إذا كان بناء سفلي لرجل وعليه بناء علوي لآخر فيكون السقف لرب البيت الأسفل لا لصاحب العلو لأنه منسوب إلى البيت .

وقرىء سقفا بضمتين وبضم وسكون وفتح وسكون .

وأخرج الترمذي بحديث حسن عن المسور بن شداد جدّ بنى فهر قال : كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على السخلة الميتة ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ؟ قالوا من هوانها ألقوها يا رسول اللّه ، قال فإن الدنيا أهون على اللّه تعالى من هذه الشاة على أهلها .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر .

راجع الآية 104 من سورة يوسف المارة تعلم هذا .

وان اللّه تعالى لم يعط الكفرة جميع الأسباب المفضية للنعم كراهية أن يرغبوا فيها فتؤدي بهم إلى الكفر حين يرون أهله منعمين ، فيتوهمون أن ذلك لفضيلة فيهم .

(80/689)

قال تعالى "وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ" فلم يذكره عند شدّته ورخائة ويعش بضم الشين بمعنى يتعامى ويتجاهل ، وقرىء بفتح الشين أي يعمى ، والفرق بينهما أن الأول من عشا يعشو إذا نظر ولا آفة في بصره ، والثاني عشي يعشى إذا كان في بصره آفة

فلا يكاد يبصر جيدا ، إذ يصير على عينيه كالضباب ، ونظيره عرج بضم الراء لمن به عرج حقيقة ، وعرج بفتحها لمن مشى مشية الأعرج من غير آفة في رجله ، وفعل يعش هذا من الأول أي يتعامى "نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً" يحمله على الغفلة عن ذكره ويسوقه إلى الهفوات في أقواله وأفعاله "فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ" 36 لا يفارقه أبدا فيزين له العمى ويخيل له أنه على الهدى حتى يستولي عليه ، فيجب على الإنسان المسارعة لفعل الخير والتملّي في ذكر اللّه بعين

بصره وبصيرته ، ولا يترك للشيطان مجالا في قلبه ليستولي ، ولهذا فإن من يداوم على ذكر الرحمن يتباعد عنه الشيطان فلا يقربه ما دام ذاكرا له .

(81/689)

قال تعالى "وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ" يصدون العاشين "عَنِ السَّبِيلِ" السوي والهدى والرشد "وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ" 37 بسبب وساوسه ودسائسه يريهم الشر خيرا والإيمان كفرا ، وقد جمع الضمير في أنهم لأن من مبهمة في جنس العاشي ، ولفظ شيطان مبهم في جنسه أيضا ، فأرجع الضمير في أنهم الذي يعود على الشيطان مجموعا لذلك ، ولأن من باعتبار معناها تدل على الجمع "حَتَّى إِذا جاءَنا" وقرأ بعضهم جاءنا أي العاشي وقرينه "قالَ" العاشي لقرينه اذهب عني "يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ" غلب المشرق على المغرب كما غلب القمر على الشمس في القمرين ، أو أنه أراد مشرق الصيف ومشرق الشتاء ، لما بينهما من البعد ، والأول أبلغ لأنه المتعارف ولأنه أكبر بعدا ، أي انك أهلكتني بمقارنتك في الدنيا ، ليتني لم أتعرف عليك "فَبِئْسَ الْقَرِينُ" 38 أنت ، قال تعالى "وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ" العتاب والمجادلة والحذر من قرب بعضكم لبعض "إِذْ ظَلَمْتُمْ" أنفسكم بالأمس أي الدنيا ولم تذكروا يومكم هذا الذي منه حذركم أنبياؤكم "أَنَّكُمْ" اليوم "فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ" 39

كما كنتم في الدنيا مشتركين بالكفر ، قالوا إن عموم البلوى بطيب القلب ، وعلى هذا قول الخنساء في بعض رثائها لأخيها صخر :

ولولا كثرة الباكين عندي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزّي النفس عني بالتأسي

فهؤلاء يؤسيهم اشتراكهم في العذاب ولكن لا يروّحهم لعظم ما هم فيه ،

قال تعالى "أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ" في علم ربك الأزلي "فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" 40 كلا لا تقدر أن تهديه ولا تقدر على هداية من أضللناه

(82/689)

"فَإِمَّا" مركبة من إن الشرطية وما التأكيدية للشرط مثل لا التي في الاقسام "نَذْهَبَنَّ بِكَ" لنمينك وننقلك إلى الدار المهيأة لكرامتك قبل أن نوقع فيهم ما قدر لهم من العذاب "فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ" 41 لك منهم بعدك في الدنيا وفي الآخرة لا محالة ، لأنا لا نتركهم سدّى وهم قد فعلوا ما فعلوا ، واقتصر بعض المفسرين هنا على عذاب الآخرة وبعضهم على عذاب الدنيا لقوله تعالى (أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) إلخ الآية 43 من سورة يونس المارة والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وما جرينا عليه أتمّ فائدة وأوفق بإطلاق الانتقام ، وأما تلك الآية فليس فيها ذكر

الانتقام فلا تدل على تخصيص العذاب في الدنيا ، لأن من يهدده اللّه بعذابه في الآخرة لا يؤمنه من عذاب الدنيا ، كما أن من يعذبه في الدنيا لا يحتم عذابه في الآخرة "أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ" به من العذاب الدنيوي قتلا وأصرا وجلاء في حياتك "فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ" 42 في كل وقت ، وهذا من قبيل التسلية لحضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم وإعلاما له بإنجاز وعده إياه بالانتقام الشديد من المشركين في حياته أو بعد وفاته ، وقد كررت هذه الآية معنى في الآية 46 من يونس والآية 77 من المؤمن المارتين وفي الآية 40 من سورة الرعد في ج 3 وغيرها لأنها بمثابة العهد لحضرة الرسول من ربه عز وجل بنصرته والانتقام له من أعدائه ، قال تعالي يا محمد "فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ" من هذا القرآن وأدم العمل به كما أنت عليه "إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" 43 في طريقتك لا ميل فيها ولا عوج "وَإِنَّهُ" القرآن الموحى إليك "لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ" في حياتك وبعد موتك وشرف عظيم تذكرون فيه بالملأ الأعلى وفي الأرض "وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ" 44 عنه يوم القيامة هل قمتم بحقه فشكرتموه حق شكره وعظمتم منزله حق تعظيمه أم لا راجع الآية 30 من سورة

(83/689)

الفرقان في ج 1 ، ويؤذن إفراد الضمير بالخطاب كله وجمعه آخر الآية أن المراد بمن يسأل هو قومه ، لأنهم هم الذين يترقب منهم التقصير حاشا البشير النذير أن يقصر في شكر ربه وتعظيمه ،

كان صلّى اللّه عليه وسلم قبل نزول هذه الآية إذا سئل لمن يكون الأمر في أمتك من بعدك ؟ يسكت ، لأن اللّه لم يخبره بذلك وهو لن ينطق من نفسه فيما هو من هذا القبيل ، فلما نزلت هذه الآية صار يقول لمن يسأله : هو لقريش .

وقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان .

وروى البخاري عن معاوية قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه اللّه تعالى على وجهه ما أقاموا الدين .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عدي بن حاتم قال : كنت قاعدا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال ألا إن اللّه تعالى علم ما في قلبي من حبي لقومي فبشرني فيهم فقال سبحانه وتعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) فجعل الذكر والشرف لقومي في كتابه (الحديث) .

راجع بحث النزول في المقدمة ، وفيه : فالحمد للّه الذي جعل الصدّيق من قومي والشهيد من قومي ، إن اللّه تعالى قلب العباد ظهرا وبطنا فكان خير العرب قريش وهي الشجرة

المباركة ، إلى أن قال عدي ما رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذكر عنده قريش بخير قط إلا سرّه حتى يتبين ذلك السرور في وجهه للناس كلهم .

(84/689)

وكان عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يتلو هذه الآية التي تشير إلى أن الإنسان بالطبع يرغب في الثناء الحسن والذكر الجميل ولو لم يكن هذا مرغوبا فيه لما امتنّ به على رسوله بقوله (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) ولما طلبه إبراهيم عليه السلام من ربه بقوله (وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) الآية 84 من سورة الشعراء ج 1 ، وهو لا يسأل اللّه شيئا لنفسه من نجاته من النار ، راجع الآية 83 من الصافات المارة ، والآية 258 من البقرة في ج 3 وما يرشدانك إليه تقف على ما جرى لإبراهيم مع قومه وربه وأبيه والنمرود وغيرهم ، وذلك لأن الثناء خير من الغنى ، وقائم مقام الحياة الشريفة ، ولذا قيل ذكر الفتى هو عمره الثاني ، وقال ابن زيد :

إنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال الآخر :

إنما الدنيا محاسنها طيب ما يبقى من الخبر

فقد يكون الذكر أفضل من الحياة لأنه يحصل في كل مكان بخلافها ، حكي أن الطاغية هلاكو بعد أن بلغ ما بلغ من الظفر سأل أصحابه من الملك ؟ فقالوا أنت دوخت البلاد ، وأطاعتك الملوك ، وملكت الأرض ، وصار العباد في طوعك ، وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن ، فقال كلا ، الملك هذا الذي له أكثر من ستمئة سنة قد مات ، وهو يذكر الآن على المآذن كل يوم وليلة خمس مرات ذكرا مكررا من ملايين الناس ، يريد محمدا صلّى اللّه عليه وسلم . ولو لم يقل هذا الجبار هذه الجملة الدالة على حضرة الرسول لصرف قوله إلى الملك الأعظم حضرة المولى جلّ جلاله لأن ذكره على المآذن أكثر من ذكره رسوله صلّى اللّه عليه وسلم ولاثيب بكلامه هذا ثوابا عظيما يوشك أن يقربه إلى اللّه ، ولكن أبت نفسه بل أبى اللّه أن يلهمه ذلك ، وهو إنما قالها بحق الرسول حسدا ليس إلا .

(85/689)

وهذه الآية نزلت في بيت المقدس قبل الهجرة زمن الإسراء ، فتصير مكية أيضا ، وهي "وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ" 45 قال ابن عباس لما أسري بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم بعث له آدم وولده من المرسلين ، فأذن جبريل وأقام الصلاة ، وقال يا محمد تقدم فصلّ بهم ، فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل اسأل يا

محمد وتلا الآية ، ان قريشا زعمت أن للّه شريكا وأن الملائكة بناته ، وزعمت اليهود والنصارى أن له ولدا ، فاسأل هؤلاء الأنبياء جميعهم هل كان شيء من ذلك ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لا أسأل قد اكتفيت .

وقالت عائشة رضي اللّه عنها : قال عليه السلام ما أنا بالذي أشك ، وما أنا بالذي أسأل ، فكان صلّى اللّه عليه وسلم أثبت يقينا من ذلك .

هذا ، وقال أبو القاسم المفسر في كتابه التنزيل : نزلت هذه الآية في بيت المقدس ليلة المعراج ، فلما أنزلت وسمعها الأنبياء عليهم السلام أقرّوا للّه تعالى بالوحدانية وقالوا بعثنا في التوحيد ، وبهذا قال الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد ، وهذا القول أقوى وأوثق من القول بأنها نزلت في السماء ليلة المعراج ، لأن الرسول صلّى اللّه عليه وسلم لم يصلّ بالأنبياء في السماء ، وإنما صلى بالملائكة كما بيناه في قصة الإسراء والمعراج أول سورة الإسراء في ج 1 ، على أن ما وقع في المعراج لا يعد حجة لوجود الخلاف فيه بخلاف الإسراء المجمع عليه وعلى كفر من ينكره ، وكانت الصلاة بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس .

(86/689)

وهذا الأذان والصلاة الكائنة بالأنبياء في الأرض والتي بالسماء بالملائكة هي غير الأذان والصلاة المفروضة ، لأنها لم تفرض بعد إذ كان ذلك عند العروج ، وقد ذكرنا ما يؤيد هذا هناك ، وهذا التفسير أولى من تقدير كلمة (أمم) قبل لفظ (مَنْ) أي اسأل أمم من أرسلنا من قبلك من أقوامهم الموجودين في زمنك من أهل الكتابين وغيرهم ، إذ لا مانع من إجرائها على ظاهرها ، ولا حاجة إلى تقدير مضاف محذوف أو تأويل آخر ، وعلى كل إنه لم يأت نبي ولا رسول ولا كتاب بعبادة غير اللّه تعالى القائل "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقالَ" إلى فرعون "إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ" 46 إليكم وإلى بني إسرائيل ، وفيها تعريض لما يدعيه فرعون من الربوبية الكاذبة "فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا" المار ذكرها في الآية 132 من الأعراف في ج 1 "إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ" 47 سخرية بها واستهزاء ، وقد علمت ما فعل اللّه بهم ، قال تعالى "وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها" التي أريناها لهم قبلها ، أي أن كل آية منها موصوفة بالكبر والعظم على حد قولك إخواني كل منهم أكرم من الآخر أي كلهم كرماء ، وعليه قول الحماسي :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

أي كلهم أكابر عظماء "وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ" الأدنى أولا كالقحط والنقص والطوفان والدم والقمل والجراد "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" 48 عن كفرهم لترحمهم فلم يرجعوا ، ولم تؤثر بهم الآيات ونقضوا عهودهم التي أعطوها لموسى بالإيمان به عند كشف كل آية "وَقَالُوا" فرعون وملؤه "يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ" الماهر في السحر ، إذ كان السحرة عندهم مقدمين لما يرون من أعاجيبهم ، كما أن الطبيب كان مقدما زمن عيسى عليه السلام ، وذا الفصاحة في عهد محمد صلّى اللّه عليه وسلم وكان التفاخر بها ساريا بينهم فالطبيب والبليغ له القدم الأعلى عند قومه "ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ" بأننا إذا آمنا يكشف عنا العذاب فاسأله يكشفه "إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ" 49 وقد دعى فكشف عنهم وعادوا مصرين على كفرهم ومتهمين رسولهم بالسحر ، قال تعالى "فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ" الأخير كما هو الحال في كل مرة إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ" 50 بعهدهم أيضا ، ويقولون ما أصابنا إلا الخير لما يروا بعد كشف كل آية من آيات عذابهم خيرا وبسطة

(88/689)

"وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ" بقصد إغرائهم "قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي" وكان قصره يمر من تحته نهر النيل يتدفق يمينا وشمالا ، قالوا له نعم ، ثم

قال لهم "أَ فَلا تُبْصِرُونَ" 51 عظمتي وفقر موسى وضعفه ، قالوا نعم نبصر وقد جمعهم وخطب فيهم هذه الغاية ، قال لهم "أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذا" يشير إلى موسى عليه السلام وقد كذب بل شر من كل ذي شر ، ثم وصم موسى عليه السلام وحاشاه مما وصمه به ، فقال ما موسى بخير مني بل أنا خير من هذا "الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ" 52 يفصح عن كلامه عايه الخبيث باللثغة التي سببها هو كما بيناه في الآية 27 من سورة طه في ج 1 ، وأجاب نفسه بالتفضيل عليه ولم ينتظر جواب قومه الذين جمعهم وألقى عليهم هذه الجملة ، إذ انتقل بنفسه من ذلك إلى الإخبار بالأخيرية ، وعليه قول الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى وصورتها أم أنت بالعين أملح

(89/689)

ثم بين نوعا آخر من أسباب افتخاره فقال "فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ" مثلي ليعلم الناس أنه ألقي إليه مقاليد الملك فيطيعونه وينقادون لأمره ، وكان في ذلك الزمن إذا سور الرجل بسوارين من ذهب وطوق بطوق من ذهب يكون دلالة على سيادته في قومه ، ويريد الملعون بقوله هذا أن لو كان لما يدعيه موسى من صحة بأنه رسول اللّه رب العالمين أجمع لألبسه الذي أرسله أسورة ذهبية إعلاما برسالته وإيذانا بلزوم طاعته لينقاد له الناس "أَوْ

جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ" 53 بعضهم ببعض متتابعين يشهدون له بصدق ما جاء به ويعينونه على من خالفه على الأقل إذا لم يحلّ بما يدل على السيادة والحاكمية ، قالوا له لم يسور ولم تأت معه الملائكة قال لهم حينئذ لا صحة لدعواه قالوا نعم ، وقد ظن اللعين أن الرياسة والقوة من لوازم الرسالة في المرسل ولم يعلم أن اللّه الذي أرسله كافيه عن ذلك ، ويقرب من قوله قول كفار قريش (لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ) الآية 31 المارة .

مطلب الآية المدنية وإهلاك فرعون ونزول عيسى عليه السلام وما نزل في عبد اللّه بن الزبعرى :

(90/689)

هذه الآية المدنية من هذه السورة وذلك أنه حينما تليت عليهم الآيات المارّة التي ذكرها اللّه تعالى عن فرعون قالوا وكيف أطاعه قومه وهم عقلاء ، وكان بهم قوام الملك ، وكيف سمعوا قوله ، قال تعالى "فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ" بما موّه عليهم من كلامه ، ولمّا رآهم يسمعون له علم أنهم سخفاء ، لأنه يعلم أنه لا يصغي لقوله ذلك عاقل ، وأنه استفزهم بكلامه ، فأذعنوا له وطأطئوا رءوسهم لسلطانه ، وقد استزلهم بما ألقى عليهم من عظمة لجهلهم بحقيقة الأفضلية التي ذكرها لهم وعدم علمهم بأن الرسالة لا تستلزم الرياسة والمال والقوة ،

وكانت هذه الثلاثة من دواعي التسلط على البشر فموّه عليهم بها وهو يعرف من أين تؤكل الكتف ، فصدقوا أقواله الواهية "فَأَطَاعُوهُ" ووافقوه على تكذيب موسى بما استخف من عقولهم "إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ" 54 خارجين عن الطاعة منقادين لإغواء فرعون مغرورين في النظر إلى الأمور الظاهرة ، قال تعالى "فَلَمَّا آسَفُونَا" أسخطونا وأغضبونا بإفراطهم لطاعة فرعون وتفريطهم بالإعراض عن موسى وصاروا بحالة يؤسف عليها فقد استوجبوا إنزال العذاب عليهم وعدم الحلم الذي عاملناهم به لذلك "انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ" 55 مع فرعون وملائه الذين أركسوهم بذلك "فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً" إلى النار وقدوة إلى الكفار "وَمَثَلاً" عبرة وموعظة "لِلْآخِرِينَ" 56 من بعدهم بأن صار حديثهم تتداوله الألسن وصار يضرب المثل لسيدهم ، فيقال لكل باغ لم يقبل النصح مثلك مثل فرعون ، وتقدمت كيفية إغراقهم في الآية 53 من سورة الشعراء ج 1 ، قال تعالى "وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً" بالعبادة من حيث أن النصارى عبدته كما عبدت العرب الملائكة "إِذا قَوْمُكَ" يا سيد الرسل "مِنْهُ" من هذا المثل "يَصِدُّونَ" 57 بكسر الصاد أي يضجّون وقرىء بضمها بمعنى يعرضون عنك ولا يلتفتون لقولك ، والقراءة الأولى أولى

وأنسب بالمقام ، أي يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا أو ضحكا مع إعراض وتمايل "وَقَالُوا" قومه من قريش "أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ" يعني عيسى عليه السلام يخاطبون محمدا صلّى اللّه عليه وسلم قال له ربه "ما ضَرَبُوهُ لَكَ" أي المثل بعيسى "إِلَّا جَدَلًا" خصومة بالباطل لا حقا ولا لطلب التميز بين الحق والباطل ، بل لئلا يفهموا الحق فيذعنوا له "بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ" 58 ألدّاء شديد والخصومة واللجاج على طريق المغالبة والمكابرة والوقاحة ، أخرج الترمذي عن أبي أمامة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا هذه الآية .

وقد نزلت هاتان الآيتان في عبد اللّه بن الزبعرى القرشي قبل إسلامه ، إذ كان يقول لحضرة الرسول إذا كان الآلهة المعبودة كلها في النار وأن اليهود عبدت عزيرا والنصارى عيسى بن مريم وبنو مليح من العرب عبدت الملائكة ونحن عبدنا الأوثان فترضى أن تكون آلهتنا مع هؤلاء ، ونحن مع أولئك ، إذ ليس ما عبدناه بأحسن مما عبدوه ، ولسنا بأحسن منهم أيضا ، ففرحت قريش ، ارتفعت أصواتهم بالضحك على زعمهم أنه حج محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ، ولم يعلموا أن هؤلاء بمعزل عن أن يكونوا معبودين ، كيف وهم عبيد لمولاهم وهم أطوع الناس إليه ، ولم يرضوا بعبادتهم وأنهم سيتبرءون منهم بحضورهم في الموقف العظيم يوم يخيب ظنهم وظن أمثالهم بكل معبود من دون اللّه تعالى ، فرد اللّه عليهم بما تقدم من

أنهم ضربوا لك هذا المثل على طريق الجدال عنادا وعتوا ، وسيأتي تمام هذا البحث في الآية 99 من سورة الأنبياء الآتية إن شاء اللّه فراجعه .

(92/689)

قال تعالى "إِنْ هُوَ" ما عيسى ابن مريم الذي ضربتم به الأمثال وقلتم ما قلتم فيه بأنه إله وهو براء من ذلك ، إذ ليس بإله وما هو "إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ" بالنبوة والرسالة كسائر عبادنا الذين اصطفيناهم لإرشاد العباد "وَجَعَلْناهُ مَثَلًا" عبرة عجيبة وآية كبيرة "لِبَنِي إِسْرائِيلَ" 59 إذ خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم من للتراب ، راجع الآية 90 من آل عمران في ج 3 ، وصار يضرب فيه المثل ليتأكدوا من قدرة اللّه تعالى ويعلموا أن العبد المخلوق لا يكون إلها ، قال تعالى "وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا" ولدنا منكم يا أهل مكة وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة كما ولدنا حواء من آدم على خلاف ما جرت به العادة "مَلائِكَةً" كما ولدنا عيسى ، وهذا تذييل لوجه دلالته على القدرة البالغة وهو أعجب وأبدع من خلق عيسى من غير أب ، أقررناهم "فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ" 60 يخلفونكم فيها في

السكن والتصرف كما كنتم خلفا لمن قبلكم وكما يخلفكم أولادكم ، وإذا صيرناهم كذلك فإنهم لا يستحقون العبادة أيضا لأنهم مخلوقون مثلكم ، إلا أن خلقهم على طريق الإبداع

وشأنهم التقديس والتحميد والتسبيح ، وأنتم خلقكم بطريق التوالد وشأنكم العمل ، ومع هذا فنحن قادرون على أن نخلقهم منكم ونجعلهم يعملون كما تعملون من عمارة الأرض ويعبدونني ويطيعونني كالملائكة في السماء ونجعلهم متصرفين في الأرض ، كما أن الملائكة يتصرفون في السماء

"وَإِنَّهُ" عيسى ابن مريم "لَعِلْمٌ" علامة "لِلسَّاعَةِ" أي نزوله من محل رفعه علامة على قرب القيامة ، وهذه الآية صريحة بأن سيدنا عيسى سينزل من السماء إلى الأرض التي رفع منها ، ويؤيد هذا ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد .

(93/689)

وفي رواية أبي ذرّ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : ليس بيني وبين عيسى نبي وانه نازل فيكم فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصّرتين (المحصرة من الثياب التي فيها صفرة خفية) كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل (أي أن له لمعانا وبريقا خلقة) فيقاتل الناس على الإسلام ، يدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك

اللّه تعالى في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك الدجال ، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون .

وعنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم وفي رواية فامامكم منكم قال ابن ذؤيب فأمّكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلّى اللّه عليه وسلم .

ويروى أنه ينزل على تينة من الأرض المقدسة يقال لها أفيق (وهذه واقعة على بحيرة طبرية وهي مركز قضاء الزوية الآن من أعمال حوران ويحتمل أن رفعه كان منها) وبيده حربة وهي التي يقتل فيها الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر فيتأخر الإمام فيقوم عيسى ويصلي خلفه علي شريعة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ثم يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس (المراد بتخريبها إزالة ما فيها من الصور والتماثيل وقلبها إلى مساجد عادية أو أنه يهدمها جزاء لما

وقع فيها من المحرمات) ويقتل النصارى إلا من آمن أي آمن به ومشى على شريعته التي يقوم فيها في الأرض وهي شريعة محمد صلّى اللّه عليه وسلم) وقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أيضا قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : ينزلنّ ابن مريم حكما عدلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص

فلا يسقى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد .

(94/689)

وقرأ ابن عباس (لعلم) بفتح العين واللام أي علامة على الساعة ، وهذه القراءة كالتفسير لعلم بكسر الغين وسكون اللام بأنه بمعنى العلامة وهي قراءة جائزة ولو كانت على خلاف ما عليه المصاحف إذ لا زيادة فيها ولا نقص ، أما ما جاء بأن أبيا قرأ (وإنه لذكر للساعة) فلا يجوز لأنها تخالف رسم القرآن وحروفه أيضا ، وكل قراءة هذا شأنها لا عبرة بها ولا قيمة لنقلها كما أشرنا إلى ذلك غير مرة ، وإن القراءات السبع كلها لا تخالف القرآن رسما ولا حروفا ، وما جاء فيها من مد المقصور وقصر الممدود وإشباع بعض الحروف بالحركات واختلاس بعض الحركات ونقلها لما بعدها وحذفها مثل بامركم وفي الأرض وبامركمو وما أشبه ذلك فلا بأس به ، إذ لا تبديل لأصل الكلمة ولا زيادة ولا نقص ، تدبر .

هذا وإن السيد عيسى عليه السلام كما أنه ثبت رفعه إلى السماء بالآية القرآنية 158 من سورة النساء في ج 3 وبالأحاديث الصحيحة ، كذلك نزوله ثبت في هذه الآية وبالأحاديث الصحيحة المار ذكرها ، وأنه عليه السلام يعمل بالشريعة المحمدية ويأخذ أحكامه من

الكتاب والسنة ، وقال بعضهم إنه يأخذ الأحكام من نبينا عليه الصلاة والسلام شفاها بدليل حديث أبي يعلى الذي فيه : والذي نفسي بيده لينزلن عيسى بن مريم ، ثم لئن قام على قبري وقال يا محمد لأجيبنّه .

وقد تجتمع روحانيته بروحانيته ويأخذ عنه ، وقد وقع لكثير من الكاملين رؤيته صلّى اللّه عليه وسلم مناما والأخذ منه ، كما وقع لبعضهم رؤيته يقظة والأخذ عنه كالشيخ عبد القادر الجبلي والشيخ خليفة بن موسى النهر ملكي والشيخ أبي العباس المرسي وغيرهم ، وواقعة الرفاعي رحمه اللّه مشهورة متواترة حينما زار قبره الشريف وقال بحضور جماعة لا يحتمل تواطؤهم على الكذب :

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

(95/689)

فمدها صلّى اللّه عليه وسلم وقبلها بحضور جم غفير وتناقلتها الركبان وشاع خبرها في مشارق الأرض ومغاربها ، وألفت فيها الرسائل والمدائح ، وقد رد الجلال السيوطي على منكري ذلك مستدلا بالحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي

هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي .

وأخرج الطبراني مثله من حديث مالك بن عبد اللّه الخثعمي ومن حديث أبي بكرة ، وأخرج الدارمي مثله من حديث أبي قتادة وقال الإمام محمد بن أبي جمرة : هذا يدل على أن من يراه في النوم فسيراه في اليقظة ، وان رؤيته بصفته المعلومة إدراك الحقيقة ، ورؤيته على غير صفته إدراك للخيال .

هذا ، وقد جاء في الخبر : ما من مسلم يسلم عليّ إلا ردّ اللّه تعالى عليّ روحي حتى أرد عليه السلام .

وأخرج بن عدي عن أنس : بينا نحن مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذ رأينا بردا ويدا ، فقلنا يا رسول اللّه ما هذا البرد الذي رأينا واليد ؟ قال قد رأيتموه ؟ قالوا نعم ، قال ذلك عيسى بن مريم سلم علي .

وفي رواية ابن عسكر عنه كنت أطوف مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم حول الكعبة إذ رأيته صافح شيئًا لم أره ، قلنا يا رسول اللّه رأيناك صافحت شيئًا ولا نراه ، قال ذلك أخي عيسى بن مريم انتظرته حتى قضى طوافه فسلمت عليه .

فهذه الأحاديث وغيرها تدل دلالة واضحة على صحة الاجتماع بحضرة الرسول والأخذ عنه ، ولا بدع فقد جاء بالقرآن العظيم خطاب الملائكة لمريم في الآية 45 ولزكريا في الآية 39 من آل عمران في ج 3 ولإبراهيم ولوط في الآية 69 فما بعدها من سورة هود المارة وغيرها ، وثبتت رؤية الملائكة لكثير من أصحاب رسول اللّه بغير هورهم الحقيقية ، وإن قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) الآية 30 من سورة السجدة المارة تقيد جواز نزول الملائكة على غير الأنبياء .

أما صفة ذاته الشريفة التي يجتمع بها من يراه وكيفية حياته في البرزخ وردّ روحه إليه كما جاء في الحديث فلا يعلم حقيقتها إلا اللّه تعالى ، والصحيح أن عيسى عليه السلام قد يوحى إليه كما في حديث

مسلم وغيره عن النواس بن سمعان ، وجاء في رواية صحيحة : فبينما هو كذلك إذ أوحى اللّه تعالى يا عيسى إني أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم ، فحوّل عبادي إلى الطور (أي لا قدرة ولا طاقة يقال ما لي بهذا الأمر يد ولا يدان لأن المباشرة والدفاع إنما يكونان باليد واليدين فكأن يديه معدومتان لعجزه عن الدفع بهما) وذلك الوحي على لسان جبريل عليه السلام وما جاء في الخبر : (ألا لا وحي بعدي) باطل لا أصل له ، وكذلك ما اشتهر أن جبريل عليه السلام لا ينزل إلى الأرض بعد وفاه النبي صلّى اللّه عليه وسلم باطل لا أصل له

أيضا ، ويرده خبر الطبراني : ما أحب أن يرقد الجنب حتى يتوضأ فإني أخاف أن يتوفى وما يحضره جبريل عليه السلام .

(97/689)

فإنه يدل على أن جبريل ينزل إلى الأرض ويحضر موت كل مؤمن توفاه اللّه على الإيمان وهو على طهارته ، ومن نفى الوحي أراد نفى وحي التشريع وهو كذلك ، لأن ما ذكر من الوحي وحي لا تشريع فيه ، لأن شريعة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم باقية إلى الأبد ، وان عيسى عليه السلام يحكم فيها ويبقى في الأرض أربعين سنة وقيل سبع سنين تتمة الثلاث والثلاثين سنة التي مكثها قبل رفعه واللّه أعلم ، راجع الآية 55 من سورة المؤمن المارة لتقف على ما يتعلق في هذا البحث ، وان المهدي يقدمه للصلاة فيقول له إنما أقيمت لك ويصلي خلفه بما يدل على دفع توهم نزوله ناسخا بل متبعا لشريعة محمد ومؤيدا كونه مفتديا بشريعته ، وما عدا هذه الصلاة يكون هو الإمام دائما ، لأنه صاحب الوقت ولا يجوز أن يتقدم عليه أحد ، وان الدنيا ستبتهج بأهلها مدة مكثه ، ثم أنه عليه السلام يموت ويصلي عليه المؤمنون ويدفن بالحجرة الشريفة في الحرم النبوي .

وما بعده من خير لأهل الأرض وإذ ذاك يكون بطنها خيرا من ظهرها ، لأن موته عليه

السلام علامة على قرب الساعة وهو حق واقع لا محالة "فَلا تَمْتَرُنَّ بِها" لا تشكوا بها أيها الناس إذ لا محل للشك في نزول عيسى ولا موته بعد إقامته المدة المقدرة له في الدنيا ، قال تعالى "وَاتَّبِعُونِ" إيها الناس واهتدوا بهداي وتمسكوا برسلي وتعبدوا بشرعي "هذا" الذي أدعوكم إليه على لسان رسلي "صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ" 61 يوصل إلى النجاة فإياكم أن تنحرفوا عنه "وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ" عن سلوك هذا الطريق السوي ولا تسمعوا لوساوسه بعدم التصديق بما جاءكم في كتابي وعلى لسان رسولي وعدم الإيمان بي "إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" 62 عداوته من زمن آدم فاحذروه وتباعدوا عنه لا يوقعنكم بأشراكه فتندموا .

مطلب في عيسى عليه السلام أيضا وفي الصحبة وماهيتها ووصف الجنة وهل فيها توالد أم لا :

(98/689)

قال تعالى حاكيا عن سيدنا عيسى عليه السلام زمن إرساله الأول بمناسبة ذكر نزوله "وَلَمَّا جاءَ عِيسى" قومه "بِالْبَيِّناتِ" التي أظهرها اللّه على يديه من إبراء الأكمه والأبرص وشفاء المرضى وإحياء الموتى وغيرها "قالَ" إلى قومه المرسل إليهم "قَدْ جِئْتُكُمْ" يا بني

إسرائيل "بِالْحِكْمَةِ" العدل والحلم والعلم والإنجيل والنبوة "وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ" في الكتاب المنزل علي من ربي عز وجل "بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ" من التوراة في أمر الدين والدنيا ، وقال في الآية 50 من آل عمران في ج 3 (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) وكان عليه السلام غابة همه في الدعوة ما يتعلق بأمر الدين لأنه عن الدنيا بمعزل لذلك لم يبالغ في أمر الدنيا ولم يلتفت إليها ولم يلفت نظرهم إليها "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" 63 فيما آمركم وأنهاكم وإني أقول لكم "إِنَّ اللَّهَ" فاطر السموات والأرض "هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ" لأني بشر مثلكم قد فضلني بالنبوة والرسالة "فَاعْبُدُوهُ" كما أنا أعبده وحده "هذا" الذي أنا عليه من التوحيد الذي أدعوكم إليه هو "صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ" 64 يوصلكم إلى الجنة إن تمسكتم بعبادة ربكم الواحد "فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ" من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى وتحزبوا عليه وهموا بقتله وهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمعونية الذين كانوا في زمنه ، وقدمنا شيئا من هذا في الآية 165 من الأعراف في ج 1 ، "فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا" أنفسهم وغيرهم بالإنكار على عيسى والإصرار على قتله "مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ" 65 في الآخرة راجع الآيتين 33/ 34 من سورة مريم في ج 1 ، قال تعالى "هَلْ يَنْظُرُونَ" قوم عيسى بإصرارهم على الكفر به وقتله "إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً" على حين غرة من انهماكهم في هذه الدنيا "وَهُمْ

لا يَشْعُرُونَ"

66 بها وإذ ذاك يرون سوء صنيعهم فيه .

وإلى هنا انتهى ما جاء في حق عيسى عليه السلام .

قال تعالى "الْأَخِلَّاءُ" على المعاصي في الدنيا "يَوْمَئِذٍ" يوم تقوم الساعة ويقفون في الموقف يكون "بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" فيه ، لأن كلّا منهم يحمل على صاحبه وخليله بما حل به من العذاب ، فيقول له أنت الذي سببته لي "إِلَّا الْمُتَّقِينَ" 67 الذين تحابوا في الدنيا على تقوى اللّه وتخاللوا من أجله فهؤلاء ينتفعون بها بالآخرة فيشفعون لبعضهم كما انتفعوا بها في الدنيا بأمر بعضهم بعضا بالمعروف ونهيهم عن المنكر ويرون ثواب ما كانوا مجتمعين عليه ويتناصحون فيه ، راجع الآية 63 من سورة يونس المارة والآية 31 من سورة إبراهيم الآتية في بحث الصداقة ، ويقول اللّه تعالى لهؤلاء "يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ" مما يخاف الناس العصاة من أهوال يوم القيامة "وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ" 68 على ما فاتكم في الدنيا ، قال المعتمر بن سليمان إن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فزع ، فينادى يا عبادي ، فيرجوها كل أحد ، فيتبعها قوله عز قوله (الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا) التي أظهرناها على أيدي رسلنا "وَكانُوا مُسْلِمِينَ" 69 لنا منقادين لأوامرنا ، فييأس الكفار ويقفون حائرين مبهوتين ،

ويقال لهؤلاء المؤمنين "ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ" المؤمنات "تُحْبَرُونَ" 70 تسرون فيها وتنعمون بنعيمها فيظهر على وجوههم آثار الفرح والسرور والرضاء

(100/689)

ثم "يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ" جمع صحيفة أواني الطعام "مِنْ ذَهَبٍ" بيان لنوعها وجنسها "وَأَكْوابٍ" أواني الشرب من ذهب أيضا ، ولما كان الطعام عادة أكثر من الشراب جمع الصحاف جمع كثرة والأكواب جمع قله "وَفِيها" أي الجنة التي أدخلوها "ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ" من المأكول والمشروب والملبوس والمنام والنساء وغيرها ، وجاء هنا ذكر لذة العين التي هي جاسوس النفس بعد اشتهائها تخصيص بعد تعميم كما ذكر أولا الوصف الشامل لكل لذة ونعيم بعد ذكر الطواف بأواني الذهب الذي هو بعض من النعيم والترفه تعميم بعد تخصيص ، قال تعالى "وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ" 71 أبدا لا تتحولون عنها "وَتِلْكَ الْجَنَّةُ" العظيمة بهية المنظر منعشه الأرواح

"الَّتِي أُورِثْتُمُوها" شبه الله تعالى ما استحقوه بأعمالهم الصالحة من الجنة ونعيمها الباقي لهم ، بما يخلفه الرجل لوارثه من الأملاك والأموال ، ويلزم من هذا التشبيه تشبيه العمل نفسه بالمورث بكسر الراء فاستعير الميراث لما استحقوه ، ثم اشتق أورثتموها فيكون هناك

استعارة تبعية ، وقيل تمثيلية ، وجاز أن تكون مكنية ، فالتبعية هي التي لا تجري الاستعارة فيها ابتداء غير اسم الجنس بل تبعا ، وردها السكاكي إلى المكنية ، وهي لفظ المشبه به المتروك المستعمل في المشبه المرموز إليه بذكر لازمه كلفظ السبع المتروك في قولنا : أظفار المنية نشبت بفلان ، والتمثيلية هي الهيئة الحاصلة في الذهن المنتزعة من عدة أمور نحو إني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، لمن يتردد في الفتوى والأمر ، ولكل أقسام مذكورة في محلها ، وقد فسرها الخطيب بغير هذه التفاسير ، ومن أراد تمام الاطلاع على هذا فليراجع علم البيان .

(101/689)

هذا ، ويقول اللّه تعالى قوله وقد جعلت لكم الجنة ميراثا "بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 72 بسبب عملكم الطيب في الدنيا ونعم الميراث الجنة الدائمة من الدنيا الفانية يا عبادي الأبرار "لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ" لا يحصى نوعها ولا جنسها فهي ألوان وأشكال وطعمها متنوع لا يقدر أن يصفها واصف ولا يعدها عاد "مِنْها تَأْكُلُونَ" 73 متى اشتهيتم بلا تعب ولا ثمن ، أخرج الترمذي عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رجل يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم هل في الجنة خيل فإني أحب الخيل ؟ قال إن يدخلك اللّه الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من يا

قوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت .

وسأله آخر فقال : يا رسول اللّه هل في الجنة من إبل فإني أحب الإبل ؟ قال فلم يقل له ما قال لصاحبه فقال إن يدخلك الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك .

وجاء في حديث آخر أنه لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة إلا بنت مكانها مثلها .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : ما من أحد إلّا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزلته في النار والمؤمن يرث الكافر منزلته في الجنة وذلك قوله تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ) الآية ، وقدمنا ما يتعلق في هذا في الآية 43 من سورة الأعراف وله صلة في الآية 32 من سورة النحل الآتية .

وأخرج هناد وعيد بن حميد في الزهد عن ابن مسعود قال : تجوزون الصراط بعفو اللّه ، وتدخلون الجنة برحمة اللّه ، وتقتسمون المنازل بأعمالكم .

أي بفضل اللّه لأن الأعمال وحدها لا تكفي ، وهذا معنى قوله صلّى اللّه عليه وسلم : لن يدخل أحدكم الجنة .

بعمله أي على سبيل الاستقلال والسببية ، وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث .

(102/689)

واعلم أن الآية السابقة تفيد أن ما كان بين الناس في الدنيا من مودة ومحبة وخلة تنقطع كلها إلا ما كان منها على تقوى اللّه وطاعته ورضاه ، وهؤلاء هم المتحابون في اللّه ، المتصادقون على محبته .

روي عن علي كرم اللّه وجهه في تلك الآية قال : خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، مات أحد المؤمنين فقال يا رب إن فلانا كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ويخبرني أني ملاقيك ، يا رب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني ، فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما فيقول ليئن كل منكما على صاحبه ، فيقول نعم الأخ ونعم الخليل ونعم الصاحب ، قال ويموت أحد الكافرين فيقول يا رب إن فلانا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك ، يا رب أضلّه ولا تهده كما أضلني ، ولا تكرمه كما أهانني ، فإذا مات خليله الكافر جمع بينهما فيقول ليئن كل منكما على صاحبه ، فيقول بئس الأخ وبئس الخليل وبئس الصاحب .

وقيل في هذا :

وليس أخوك الدائم العهد بالذي يذمك ان ولى ويرضيك مقبلا

ولكنه النائي إذا كنت آمنا وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

وقال الآخر :

وتعجب في قطعي مودة صاحب وقد كنت قدما مولعا بوداده

فقلت لها يا عزّ لا تعجبي له من الحزم قطع العضو عند فساده

هذا وقد ذكر اللّه تعالى الملاذ كلها ولم يذكر اللذة الكبرى وهي النظر إلى وجهه الكريم ، على انها تدخل في قوله (وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) وعلى هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم فيما رواه النسائي عن أنس : حبب إليّ الطيب والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة .

وقال قيس بن ملوح :

ولقد هممت بقتلها من حبها كيما تكون خصيمتي في المحشر

حتى يطول على الصراط وقوفنا وتلذ عيني من لذيذ المنظر

(103/689)

و لهذا قال جعفر الصادق رضي اللّه عنه : شتان ما بين ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، لأن جميع ما في الجنة من النعيم والشهوات في جنب ما تلذّ الأعين كإصبع تغمس في البحر ، لأن شهوات الجنة لها عد ونهاية لأنها مخلوقة ، ولأتلذ عين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي جل جلاله ولا حد لذلك ولا صفة ولا نهاية .

ولسائل أن يسأل هل في الجنة توالد لأنه من جملة ما تشتهيه النفس ؟ فالجواب نعم أخرج

الإمام احمد وهناد والدارمي وعيد بن حميد وابن ماجه وابن حبّان والترمذي وحسّنه وابن المنذر والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال قلنا يا رسول اللّه إن الولد من قرة العين وتمام السرور ، فهل يولد لأهل الجنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي .

قال ابن منده لا ينكر هذا الحديث إلا جاهل أو جاحد أو مخالف للكتاب والسنة لأنه من جملة ما يشتهى وهو مذكور في الكتاب والسنة .

وقال في حاوي الأرواح إسناد حديث أبي سعيد على شرط الصحيح فرجاله يحتج بهم .

وقال السفاريني في البحور الزاخرة حديث أبي سعيد أجود أسانيده اسناد الترمذي .

وقال الأستاذ أبو سهيل فيما نقله الحاكم إنه لا ينكره إلا أهل الزيغ .

وأما من قال إنه لا يولد لهم فقد احتج بقوله تعالى (أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) والمطهرات لا يحضن ولا ينفسن كما أنهن لا يبلن ولا يتغوطن ، وان الولد يجعل من المني ولا مني هناك ، ويعقبه الطمث والوجع ولا وجع هناك ، ولم ينظر .

هذا القائل إلى أن اللّه تعالى قادر على أن يولدهن في الجنّة بلا نفاس ولا ألم ويحملهن بلا حيض وبلا مني ، لأن في اشتراط لزوم ذلك تعجيزا للقدرة .

وما قيل إن التوالد في الدنيا لبقاء النوع الانساني وهو باق في الجنة بلا توالد فيكون عبثا ،

يرد عليه أنه ما المانع من أن يكون هناك للذة ونحوها كالأكل والشرب والسماع والنظر فإنها للدنيا لشيء ، وفي الجنة لشيء آخر .

(104/689)

بقي هنا أن من أصحاب النفوس الخبيثة الذميمة من يقول انه ليشتهي اللواط في الجنة وهو بعيد عنها كما يشتهيها في الدنيا وهو من أهلها ، فيقال

له إنها لا تكون في الجنة لأن ما لا يلبق أن يكون فيها لا يشتهيه أهلها لأن أنفسهم طاهرة سليمة من الأرجاس ، والجنة مقدسة لا يدخلها إلا مقدس وهذه الفعلة القبيحة لا يشتهيها في الدنيا إلا ذو والأنفس الرذيلة مثل المعتزلي الذي أشرنا إليه في الآية 84 من الأعراف في ج 1 ومن تحدثه نفسه بذلك ويشتهي اللواطة في الجنة فالجنة عليه حرام ، لأن ذلك دليل على ولعه فيها والوالع فيها لا شك مستحلّ ومستحل الحرام كافر بالإجماع ولا يشم ريح الجنة لوطي ، وهو داخل في قوله تعالى "إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ" 74 لأنها خبيثة وأهلها خبثاء وأنفسهم خبيثة والخبيث أحق أن لا يخرج من النار ويدوم عليه العذاب وأجدر أن "لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ" العذاب أبدا "وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ" 75 آيسون من رحمة اللّه وأنى لأمثالهم الرحمة في الآخرة وكانوا لا يؤمنون بها وكيف يرجون لطف اللّه وهم قد

كفروا به ، قال تعالى "وَما ظَلَمْناهُمْ" بتخليدهم بالعذاب لأنا لا نعذب أحدا بلا جرم "وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ" 76 أنفسهم بجناياتهم وشهواتهم وسوء فعلاتهم الدنيئة .

(105/689)

قال تعالى "وَنادَوْا يا مالِكُ" خازن النار يستغيثون به ، قيل لابن عباس إن ابن مسعود قرأ يا مال فقال ما أشغل أهل النار عن الترخيم ، وهذا الثناء على طريق الاستفهام المعنوي "لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ" هذا العذاب فنموت ونستريح منه فرد عليهم بقوله "قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ" 77 فيه لا خلاص لكم منه خلود بلا موت ، راجع الآية 108 من سورة هود المارة "لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ" الذي وعدناكم به على لسان رسلنا يا أهل النار "وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ" 78 لأنكم في الدنيا كنتم تنفرون عنه ولا تقبلونه لما فيه من تعب النفس وعدم رغبتها له وقد اخترتم رغبة الدنيا عليه فتعبتم بالآخرة .

قال تعالى مخبرا حبيبه محمدا صلّى اللّه عليه وسلم بما يحوك في صدر قومه من تجمعاتهم ومذاكراتهم في شأنه "أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً" في المكر بك والكيد لك ، وذلك أنهم كانوا مجتمعين في دار النّدوة يتناجون فيما يفعلونه به ليتخلصوا منه وقد بعث رحمة لهم ، قال تعالى لا تخشهم

يا حبيبي "فَإِنَّا مُبْرِمُونَ" 79 أمورا كثيرة من أنواع الكيد والمكر بأعظم وأكبر مما يتصورونه ومهيئون لهم ما يدحض إبرامهم مما

(106/689)

يخلصك منهم "أَمْ يَحْسَبُونَ" هؤلاء الكفرة الذين يريدون اغتيالك بما تسول لهم أنفسهم الضالّة الغاشمة فيظنون "أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى " وحياتك يا حبيبي أنا أسمع له منهم وأعلم بما تحدثه به أنفسهم "وَرُسُلُنا " أيضا الموكلون بالخلق والمرسلون لهذه الغاية "لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ" 80 ما يقع منهم سرا وعلنا لا يتركون منه شيئا ، لأنا أرسلناك لتدبر لهم أسباب الرحمة الدائمة رحمة بهم ، وهم يحيكون لك أسباب العذاب ليجلوك أو يحبسوك أو يقتلوك ولجهلهم لا يعلمون أنا حافظوك منهم ومن غيرهم ومؤيدوك عليهم ، وهذا إيماء لحضرة الرسول بالهجرة عن قومه الذين أشغلوا أنفسهم بكيفية التخلص منه وهو متعب نفسه الكريمة بماهية خلاصهم من الكفر وإنجائهم من العذاب ، ولكن كل ينفق مما عنده ، وكل إناء بالذي فيه ينضح .

"قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء الذين يزعمون أن الملائكة بنات اللّه "إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ" كما تظنون "فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ" 81 له المعظمين شأنه ولسبقتكم بطاعته كما يعظم ابن الملك

احتراما للملك ، وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لغرض وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد لأنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال ، فالمعلق بها محال مثلها ، ونظيره قول سعيد بن جبير للحجاج حين قال له : واللّه لأبدلنك في الدنيا نارا تلظى ، فقال سعيد لو عرفت هذا إليك ما عبدت إلها غيرك .

(107/689)

وها تان الآيتان باعيتان على المشركين عداوتهم لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم وإسنادهم الولد إلى اللّه وهو منزه عنه "سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ" 82 من الافتراء عليه وهو براء من الولد وغيره "فَذَرْهُمْ" يا سيد الرسل ودعهم "يَخُوضُوا" في أباطيلهم "وَيَلْعَبُوا" في دنياهم ويستبروا في اللهو "حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ" 83 به بالدنيا قتلا وأسرا أو الجلاء والموت وفي الآخرة بأنواع العذاب الأليم "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ" الآية يعبد ويقدس ويطاع لا إله غيره له الخلق والأمر . ونظير هذه الآية 4 من سورة الأنعام المارة من حيث المعنى فكأنه جلّ ذكره ضمّن معنى المعبود فيهما وحذف الضمير الراجع إلى الموصول لطول الكلام ليصح تعليق الجار والمجرور

فيه وهو هو

ولا يقال هنا إن النكرة إذا أعيدت تكون غير الأولى لأن المعنى هنا أن نسبته إلى السماء بالألوهية كنسبته إلى الأرض ، وهي دلالة قاطعة على أنه تعالى غير مستقر في السماء وكما أنه غير مستقر في الأرض وهو إلههما فكذلك هو إله السماء مع أنه غير مستقر فيها تدبر . ومن الشك فاحذر فتسقط إلى الحضيض .

(108/689)

واعلم أن كل ما خطر ببالك فالله تعالى غير ذلك ، راجع الآيتين 18/ 103 من سورة الأنعام المارة "وَهُوَ الْحَكِيمُ" في تدبير خلقه "الْعَلِيمُ" 84 بما يصلحهم "وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ" وقت قيامها فلا يعلمه غيره "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" 85 في الآخرة "وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ" لأن أمرها منوط به وحده وما يزعمون من أن أوثنهم تشفع زور وبهت ، لأنها باطلة ولا يأذن الله بالشفاعة لأحد "إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ" كالأنبياء والرسل والملائكة ومن يشاء من عباده العارفين الكاملين ، ولمن يأذن لهم من غيرهم أن يشفعوا له "وَهُمْ يَعْلَمُونَ" 86 بحالة المشفوع له لأن الشهادة عن غير علم بالمشهود به لا يعوّل عليها .

وجمع الضمير هنا باعتبار معنى من ، كما أن الإفراد باعتبار لفظها والاستثناء متصل لأن المراد به أي بالذين يدعون هم المشركون وبمن دونه كل من يعبد من دون اللّه عز وجل لما في معنى من من معنى الشمول والعموم .

وسبب نزول هذه الآية أن النضر بن الحارث ونفرا معه قالوا إن كان ما يقول محمد حقا بأنه يشفع لمن يتبعه فنحن نتولى الملائكة وهم أحق بالشفاعة منه وكذلك قول اليهود والنصارى إن عزيرا والمسيح يشفعان لهم ، فردّ اللّه تعالى على هؤلاء كلّهم بأن ما يتوخونه من الشفاعة من أولئك باطل لأنهم لا يملكون شيئا من الشفاعة لهم ، وأن الذين يمكن أن يشفعوا هم الذين اعترفوا بالإله الواحد الحق إذا خولهم ذلك لمن يشاء من عباده ، فالشافعون مقيدون بمشيئة اللّه والمشفوع لهم مقيدون برضاء اللّه ، راجع الآية 79 من سورة الإسراء والآية 109 من سورة طه في ج 1 .

(109/689)

ولهذا البحث صلة في الآية 28 من سورة الأنبياء الآتية ، قال تعالى "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ" أوثانكم أم اللّه "لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" الذي خلقهن لعلمهم بعجز أوثانهم لأنها من صنع أيديهم فقل لهم عند ذلك "فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ" 83 تختلقون

القول بأن أصنامكم شركاء للّه ، والشريك لا بد وأن يعمل مثل شريكه أو أقل منه وشركاؤكم عاجزون عن عمل شي ما في السموات والأرض ، فكيف تسندون لهم أمر الشفاعة وهم لا يدفعون عن أنفسهم سوءا ، وكيف تعبدون غير اللّه مع اعترافكم بأنه خالقكم ورازقكم ؟ وفي هذه الجملة تعجيب مما هم عليه من المناقضات "وَقِيلِهِ" قول محمد صلّى اللّه عليه وسلم "يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ" قومي "قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ" 88 بك ولا يصدقوني وفيه معنى التحسر والتحزّن منه صلّى اللّه عليه وسلم وهنا قد شكا إلى ربه تخلف قومه عن الإيمان كما قال ابن عباس وقال قتادة هذا نبيّكم يشكو قومه إلى ربه وهو آسف من ذلك .

وفيه معنى القسم أي وحق قيله ، وإنما أقسم بقيله لبيان رفع جنابه وعلو شأنه والتعظيم لدعائه والتبجيل لالتجائه إليه ، قال تعالى "فَاصْفَحْ عَنْهُمْ" يا سيد الرسل لا تدع عليهم وأمهلهم كما أمهلتهم ليؤمن مؤمنهم ويصر كافرهم "وَقُلْ سَلامٌ" أي اتركهم الآن لأن السلام هنا سلام متاركة لا سلام تحية ، ومن قال إنه سلام تحية استدل بجواز السلام على الكفار وابتداؤهم بالتحية محتجا بما أخرجه ابن أبي شيبة عن شعيب بن الحجاب قال كنت مع علي بن عبد اللّه العارفي فمر علينا يهودي أو نصراني فسلم عليه ، فقال شعيب فقلت انه يهودي أو نصراني فقرأ علي هذه الآية .

وما أخرجه بن أبي شيبة أيضا عن عون بن عبد اللّه قال قلت لعمر بن عبد العزيز كيف

تقول في ابتداء أهل الذمة بالسلام فقال ما أرى بأسا أن تبدأهم ، قلت ولم ؟ قال لقوله تعالى وتلا هذه الآية .

(110/689)

وان هذين الحديثين لا حجة فيهما ، لأن اليهود والنصارى من أهل الكتاب الذين لا يقولون بنبوة عيسى وكونه ثالث ثلاثة ولا بإلهيته ، والذين لا يقولون بنبوة عزير وبالبداء على اللّه من اليهود وليسوا من الكفار والمشركين مع اللّه غيره المعهودين بقوله تعالى : (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) 89 عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم وقبيح اعتقادهم وفساد آمالهم وخيبة رجائهم لأنها بحقهم خاصة لا دخل لأهل الكتابين بها والأولى بالسياق أن يكون سلام متاركة مثل سلام ابراهيم عليه السلام لأبيه ، كما مر في الآية 47 من سورة مريم في ج 1 .

هذا ، وما قيل ان هذه الآية منسوخة بآية السيف قيل غير سديد ، قال الإمام : وعندي أن التزام النسخ في أمثال هذه المواضع مشكل ، لأن الأمر

لا يفيد الفعل الا مرة واحدة ، فإذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ فأي حاجة فيه إلى التزام النسخ ، ومثله يمين الفور فهي مشهورة عند الفقهاء ، وهي دالة على أن اللفظ المطلق قد يتقيد بحسب قرينة العرف ، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة فيه إلى التزام

النسخ والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب .

هذا واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا ، آمين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 60.92 ﴾

(111/689)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الزخرف

مكية وقيل الا واسأل من أرسلنا الآية فمدني

تقدم الكلام على حم الكتاب المبين حسن إن جعل جواب القيم حم بمعنى حم الأمر والمعنى والكتاب المبين لقد حم الأمر قضي وليس بوقف إن جعل جواب القسم انا جعلناه قرآنا عربيا سوء جعل القسم والكتاب وحده ام مع حم تعقلون تام وكذا حكيم ومسرفين في الأولين حسن يستهزؤن كاف مثل الأولين تام وكذا العليم ويبتدئ الذي جعل لكم بمعنى هو الذي جعل لكم تهتدون كاف وكذا تخرجون لمنقلبون تام جزأ حسن مبين صالح بالبنين

حسن كظيم وغير مبين اناثا كاف وكذا أشهد واخلقهم ويسألون ما عبدناهم تام من علم
وكذا يخرصون ومستمسكون مهتدون حسن مقتدون تام آباءكم كاف كافرون صالح
المكذبين تام مما تعبدون جائز إن جعل الا بمعنى لكن والاختيار أن لا يوقف عليه لان ذلك
بمعنى لا اله إلا الله سيهدين كاف وكذا يرجعون ورسول مبين حسن وكذا كافرون وعظيم
رحمت ربك تام وكذا سخريا مما يجمعون حسن وزخرفا تام وكذا الحياة الدنيا وللمتقين وله
قرين مهتدون كاف القرين تام مشتركون حسن وكذا مبين منتقمون مفهوم مقتدرون حسن
وكذا مستقيم ولقومك تام وكذا تسألون من رسلنا يعبدون تام رب العالمين كاف يضحكون
حسن أكبر من أختها تام العلهم يرجعون لمهتدون حسن ينكثون تام في قومه كاف من تحتي
صالح أفلا تبصرون تام عند بعضهم أي أم أنتم بصراء الوقف على تبصرون وبجعل أم زائدة
أو منقطة بمعنى بل ولا يكاد يبين كاف مقترنين وفأطاعوه وفاسقين للآخرين تام يصدون
حسن أم هو تام وقال أبو عمرو كاف إلا جدلا كاف خصمون حسن إسرائيل تام وكذا
يخلفون فلا تمترن بها كاف عند بعضهم وقيل الوقف على واتبعون مستقيم كاف الشيطان
صالح مبين تام وكذا وأطيعون فاعبدوه كاف مستقيم حسن من بينهم كاف اليم حسن لا
يشعرون تام المتقين حسن تحزنون تام إن جعل ما بعده مبتدأ خبره ادخلوا الجنة أي يقال لهم
ادخلوا الجنة وليس بوقف إن جعل نعتا لعبادي فيكون على مسلمين تحبرون مبلسون تام
وكذا الظالمين ليقض علينا ربك ماكثون تام كارهون

صالح وكذا مبرمون ونجواهم بلى كاف قاله أبو حاتم والاحسن الوقف على نجواهم يكتبون تام قل إن كان للرحمن ولد قال بعضهم تام بجعل إن بمعنى ما وقال بعضهم هذا وجه والاكثر على أن المعنى إن كنتم تزعمون أن للرحمن ولدا فأنا أول من عبد الله تعالى واعترف انه له الوقف التام إنما هو على قوله فأنا أول العابدين عما يصفون كاف يوعدون حسن وفي الأرض اله كاف العليم حسن وما بينهما كاف علم الساعة صالح واليه ترجعون حسن يعلمون تام وكذا يؤفكون إن نصب وقيله على المصدرية أو رفع مبتدأ فان نضب مفعولا على تقدير أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ونسمع قيل أو على تقدير وعنده علم الساعة ويعلم قيله أو جر على تقدير وعنده علم الساعة وعلم قيله فليس ذلك وقفا تام بل جائز لطول الكلام وكل ذلك آيات في نجواهم وما بعده بتقدير نصب قيله بنسمع وفي الساعة وما بعدها بالتقدير الأخيرين فالوقف على هذه المذكورات عند انتفاء التقييد بما ذكر جائز لطول الكلام أيضا لا يؤمنون وكذا وقل سلام آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ 696.

704 ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الزخرف

مكية الاقوله واسأل من أرسلنا الآية فمدني كلها ثماني وثلاث وثلاثون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة حرف وآيها ثمان أو تسع وثمانون آية .

والكتاب المبين (حسن) ان جعل جواب القسم محذوفا تقديره لقد أوضحت الدليل وبينت لكم السبيل أوحم الامر أي قضى وقدّر ومنه قول الاعشى

فاصبرى نفس انما حم حق . ليس للصدع في الزجاج اتفاق

وقيل ان حم اشارة الى اسمين من أسمائه تعالى كل حرف من اسم من باب الاكتفاء والاكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربية وليس بوقف ان جعل جوابه انا جعلناه سواء جعل القسم والكتاب وحده أو مع حم والاوّل يلزم منه محذور وهو الجمع بين قسمين على مقسم واحد وهم يكرهون ذلك وان جعل حم خبر مبتدأ محذوف ثم تبتدئ مقسما بقوله والكتاب المبين حسن الوقف على حم وسلمت من ذلك المحذور .

تعقلون (تام) ان كان ما بعده خارجا عن القسم فإن جعل ما بعده وما قبله جواب المقسم به لم يكن تاما بل جائزا لكونه رأس آية .

حكيم (كاف) صفحا ليس بوقف على القراءتين أعنى فتح همزة أن وكسرها فمن فتحها

فموضعها نصب بقوله أفنضرب كأنه قال أفنضرب لهذا ولا يوقف على الناصب دون

المنصوب ومن كسرها جعل ان شرطا وما قبلها جوابا لها 0

مسرفين (تام)

في الاولين (جائز)

يستهزؤن (كاف)

بطشا (جائز)

مثل الاولين (تام)

والأرض ليس بوقف لان جوابي الشرط القسم لم يأتيا 0

العليم (تام) لانه آخر حكاية الله عن كلام المشركين وما بعده تفسير ولا يوقف على المفسر

دون المفسر .

ميتا (جائز)

(114/689)

تخرجون (كاف) ولا وقف من قوله والذي خلق الازواج الى لمنقلبون لاتصال الكلام بعضه

ببعض فلا يوقف على تركبون لان بعده لام العلة وهي لا يبتدأ بها ولا على ظهوره لان قوله

ثم تذكروا منصوب معطوفا على لتستووا ولا على إذا استويتم عليه لعطف ما بعده على ما قبله ولا على مقرنين ان جعل ما بعده داخلا في القول الأول وان جعل مستأنفا كان حسنا لانه ليس من نعت المركوب 0

لمنقلبون (تام)

جزأ (كاف) أي بنات 0

مبين (كاف) لان أم بمعنى ألف الاستفهام الانكاري .

بالبنين (كاف) ومثله كظيم وكذا مبين 0

إناثا (حسن)

أشهدوا خلقهم (أحسن) مما قبله 0

ويسألون (كاف) على استئناف ما بعده والا لا يوقف على اناثا ولا على خلقهم ولا على يسئلون 0

ما عبدناهم (تام) فصلا بين كلام الكفار وكلامه تعالى ما لهم بذلك من علم .

ومن علم (حسن)

إن هم الايخرصون (كاف) ومثله من قبله وكذا مستمسكون ومهتدون ان جعل موضع الكاف فعلا مضمرا .

مترفوها ليس بوقف لان ما بعده مقول قال .

مقتدون (تام) على قراءة من قرأ قل على الامر وأما من قرأ قال على الخبر وجعله متصلا بما قبله مسندا الى النذير في قوله في قرية من نذير فلا يوقف على مقتدون والضمير في قال أو في قل للرسول عليه الصلاة والسلام أي قل لهم يا محمد أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين اهدى من الدين الذي عليه آباؤكم وقرأ أبو جعفر وشعبة جئناكم .

آباءكم (حسن)

كافرون (جائز) ومثله منهم .

المكذبين (كاف)

تعبدون (جائز)

سيهدين (كاف) ومثله يرجعون وكذا مبين .

ولما جاءهم الحق ليس بوقف لان جواب لما لم يأت بعد .

سحر (جائز)

كافرون (كاف) ومثله عظيم .

رحمت ربك (تام)

في الحياة الدنيا (حسن)

درجات ليس بوقف للام العلة .

سخريا (تام) عند أبي حاتم ومثله مما يجمعون .

أمة واحدة ليس بوقف لان جواب لولا لم يأت وهو لجعلنا ومثله في عدم الوقف من فضة ويظهرون وأبوابا ويتكون لان العطف صيرها كالشئ الواحد .

(115/689)

(والتام) وزخرفا ومثله الحياة الدنيا وكذا للمتقين .

فهو له قرين (كاف) ومثله مهتدون .

المشرقين (حسن) على القراءتين أعنى جاءنا بالافراد وجاآنا بالتثنية فالذي قرأ بالافراد أبو عمرو وحمزة الكسائي وحفص عن عاصم وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم جاآنا بالتثنية يعنى الكافر وشيطانه .

القرين (تام)

إذ ظلمتم (جائز) لمن كسر همزة انكم في العذاب وهو ابن ذكوان على الاستئناف وفاعل ينفعكم ضمير دل عليه قوله بالبيت بيني وبينك بعد المشرقين وهو التبرى والتقدير ولن ينفعكم اليوم تبرى بعضكم من بعض وليس بوقف لمن قرأ انكم بفتح الهمزة لانه فاعل ينفعكم فلا يفصل منه وقيل فاعل ينفعكم الاشراك أي ولن ينفعكم اشراككم في العذاب بالتأسى كما ينفع الاشتراك في مصائب الدنيا فيتأسى المصاب بمثله ومنه قول الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى . على موتاهم لقتلب نفسي

وما يبكون مثل أخى ولكن . أعزى النفس عنهم بالتأسي

أو فاعل بنفعكم التمنى أي لن ينفعكم تمنيكم أو لن ينفعكم اجتماعكم أو ظلمكم أو جحدكم .

مشتركون (كاف) ومثله مبين .

منتقمون (جائز) لكونه رأس آية لان قوله أو نرينك عطف على قوله فاما نذهبن بك .

مقتدرون (كاف) ومثله إليك للابتداء بان ومثله مستقيم وكذا ولقومك للابتداء بالتهديد مع ان المعنى وسوف تسئلون عن ذلك الذكر .

وسوف تسئلون (تام)

من رسلنا (حسن) وقيل لا يحسن لان ما بعده داخل في السؤال فكأنه قال قل لاتباع الرسل اجاءتهم الرسل بعبادة غير الله فانهم يخبرونك أن ذلك لم يقع ولم يمكن أن يأتوا به قبلك ثم ابتدأ على سبيل الانكار أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون أي ما جعلنا ذلك .

يعبدون (تام)

رب العالمين (كاف)

فلما جاءهم بآياتنا ليس بوقف لان ما بعده جواب لما .

يضحكون (حسن)

من أختها (كاف) ومثله يرجعون .

عندك (حسن) وخطئ من جعل الباء في بما عهد للقسم لانها اذا ذكرت أتي بالفعل معها بخلاف الواو فيحذف الفعل معها .

(116/689)

لمهتدون (كاف)

ينكثون (تام)

في قومه (كاف)

تحتي (حسن) قال الفراء في أم وجهان أحدهما انها استفهامية والثاني انها عاطفة على قوله أليس لي ملك مصر فعلى انها عاطفة لا يوقف على تبصرون ثم يبتدئ أم أنا خير فأم جواب الاستفهام رهوأ فلا والمعادل محذوف ومنه :

دعاني اليها القلب اني لامرها . سميع فما أدري أرشد طلابها

أي أم غي وسميت معادلة لانها تعادل الهمزة في افادة الاستفهام وقيل الوقف على تبصرون بجعل أم زائدة والتقدير أفلا تبصرون أنا خير من هذا الآية ووافقه على ذلك أبو بكر بن طاهر من المتأخرين والصحيح انها غير زائدة فلا ينبغي أن تحمل الآية عليها اذ قد يمكن

حملها على ما هو أحسن من ذلك بإن تجعل منقطعة وقد ذكر الجوهري زيادتها في صحاحه وأنشد :

ياليت شعري ولا منجي من الهرم . أم هل على العيش بعد الشيب من ندم

التقدير ليت شعري هل على العيش بعد الشيب من ندم وقيل لا يوقف عليهما لان أم سبيلها أن تسوى بين الاوّل والثاني فبعض الكلام متعلق ببعض ومن أراد اشباع الكلام على هذا فعليه بالسمين وهذا الوقف جدير بأن يخص بتأليف وما ذكر غاية في بيانه ولله الحمد . ولا يكاد يبين (كاف) ومثله مقترنين وكذا فأطاعوه وكذا فاسقين .

انتقمنا منهم (حسن)

أجمعين (جائز)

للآخرين (تام)

يصدّون (كاف)

أم هو (تام) للابتداء بالنفي .

إلا جدلا (كاف) ومثله خصمون .

عليه (حسن)

إسرائيل (تام) ورأس آية .

يحلفون (كاف) ومثله فلا تمترن بها عند أبي حاتم وقال غيره الوقف على واتبعون بغير ياء

عند أكثر القراء ووقف ابن كثير عليها بالياء وأبو عمرو وابن كثير بالياء .

مستقيم (كاف) ومثله الشيطان .

مبين (تام)

تختلفون فيه (جائز)

وأطيعون (كاف) ومثله فاعبدوه .

مستقيم (تام)

من بينهم (حسن)

أليم (كاف) وقيل (تام) على استئناف ما بعده .

لا يشعرون (تام)

إلا المتقين (كاف)

(117/689)

يا عباد قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بلا ياء وصلا ووقفا وقرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم يا عبادي بالياء في الوصل الا أبا بكر عن عاصم فإنه كان يفتحها ويقف بالياء .

اليوم (جائز)

تحزنون (تام) ان جعل الذين مبتدأ وخبره ادخلوا الجنة أي يقال لهم ادخلوا الجنة وان جعل أنتم توكيدا للضمير في ادخلوا فلا يوقف على الجنة وان جعل الذين في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف بتقديرهم الذين أو في موضع نصب بتقدير أعني أو جعل مستأنفا كان الوقف على تحزنون كافيا وان جعل الذين نعتا لعبادي أو بدلا متصلا بما قبله على تأويل يا عبادي الذين آمنوا لا خوف عليكم اليوم كان الوقف على مسلمين .

تحبرون (حسن) ومثله تلذ الأعين .

خالدون (كاف) والباء في بما كنتم باء العوض والمقابلة وليست للسببية خلافا للمعتزلة وفي حديث لن يدخل أحدكم الجنة بعمله للسببية والفرق بينهما ان المعطي بعوض قد يعطي مجانا وأما المسبب فلا يوجد بدون السبب فلا تعارض بين الآية والحديث .

بما كنتم تعملون (كاف)

كثيرة (حسن)

تأكلون (تام) لتناهي وصف أهل الجنة وانتقاله لوصف أهل النار .

خالدون (كاف)

عنهم (حسن)

مبلسون (كاف)

الظالمين (تام)

ربك (جائز)

ماكثون (تام)

أمرا (جائز)

مبرمون (كاف) ان جعلت أم الثانية كالاولى وان جعلت معطوفة الأولى لم يحسن الوقف على شيء قبلها .

ونجواهم بلى (كاف) عند أبي حاتم وقيل الوقف على نجواهم .

يكتبون (تام)

إن كان للرحمن ولد (تام) ان جعلت ان بمعنى ما وهو قول ابن عباس أي ما كان للرحمن ولد وان جعلت شرطيه كان الوقف على العابدين والمعنى ان كنتم تزعمون أن للرحمن ولد فانا أوّل من عبد الله واعترف انه اله .

العابدين (تام) على الوجهين .

سبحان رب السموات والأرض ليس بوقف لان ما بعده نعت لما قبله 0

عما يصفون (كاف) ومثله يوعدون وكذا وفي الأرض إله .

العليم (تام)

وما بينهما (كاف)

علم الساعة (حسن)

واليه ترجعون (كاف)

(118/689)

الشفاعة ليس بوقف ومثله في عدم الوقف بالحق لان العلم شرط في الشهادة .

يعلمون (تام)

ليقولن الله (كاف)

يؤفكون (تام) ان نصب وقيله على المصدر أي قال قيله أو نصب على محل الساعة كإنه قيل ان يعلم الساعة ويعلم قيله أو عطف على سرهم ونجواهم أي لا نعلم سرهم ولا قيله وعلى هذا القول لا يوقف على شيء قبله من قوله أن يحسبون الى هذا الموضع أو عطف على مفعول يكتبون المحذوف أي يكتبون ذلك ويكتبون قبله أو عطف على مفعول يعلمون المحذوف أي يعلمون ذلك ويعلمون قيله أو نصب على حذف حرف القسم وجوابه ان هؤلاء كقوله . فذاك أمانة الله الثريد . ففي هذه الست يحسن الوقف على يؤفكون والذي قرأ بنصبه ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وابن عامر وقرأ الاعرج وقتادة وقيله على الابتداء وعليها يحسن الوقف على يؤفكون وليس بوقف ان جر عطفا على الساعة أي

وعنده علم الساعة وعلم قبله وكذا إن عطف على محل بالحق أي شهد بالحق وبقيله فافهم

هذه الثمانية تنفعل .

لا يؤمنون (كاف)

فاصفح عنهم (جائز)

وقل سلام (كاف) للابتداء بالتهديد ومن قرأ يعلمون بالتحتية لا يكون التهديد داخلا في

القول وبها قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر ومن قرأه بالفوقية كان أرقى في

الوقف على سلام لئلا تدخل جملة التهديد في الأمر بقل .

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 704.696 ﴾

(119/689)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الزخرف :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة أبي جعفر يزيد : "بَلْدَةً مَيْتًا 1" ، بالتشديد .

قال أبو الفتح : التذكير مع التشديد ليس في حسن التذكير مع التخفيف ؛ وذلك أن "ميتا" بالتشديد يكاد يجري مجرى فاعل ، فكأنه مائت ؛ ولذلك اعتقبا على الموضع الواحد 2 ، فقالوا : رجل سائد وسيد ، وبائع وبيع ، وقائم بالأمر وقيم .

وقرئ : "إنك مَائِت3" و"مَيّت" .

وعليه أيضا حذفت عين فيعل مما اعتلت عينه ، كما حذفت عين فاعل منه فصار ميت ، وهين ، ولين – كشاك4 ، وهار5 ، ولاث6 . وإذا جريا مجرى المثال الواحد – لما

---

1 سورة الزخرف : 11 .

2 كذا في ك ، وفي الأصل للواحد ، وهو تحريف .

3 سورة الزمر : 30 ، و"مائت" قراءة ابن محيصن والحسن ، وقراءة الجماعة "ميت" كما في الاتحاف : 231

4 من قول مرحب اليهودي غزوة خيبر :

قد علمت خيبر أني مرحب شاك السلاح بطل مجرب

وشاك السلاح : حديده ، وأصله شائك .

5 هار : أصله هائر ، وصف من هار البناء : إذا هدمه ، فهار .

6 من قول العجاج يصف أيكا :

لاث به الأشاد والعبرى

ولاث : أصله لاثث ، وصف من لاث الشجر : إذا كثر والتف . والأشاء : صغار النخل جمع اشاءة . والعبرى : ما ينبت من شجر الضال على شطوط الأنهار ، منسوب إلى العبر ، وهو شاطئ النهر .

والقول بحذف العين في الأوصاف الثلاثة هو الأكثر ، ويرى الخليل أن فيها قلبا مكانيا ، بجعل العين مكان اللام والإعراب على المحذوف . وعليه قول طريف بن تميم :

فتعرفوني أنني أنا ذاكم شاك سلاحي في الحوادث معلم

وانظر الكتاب : 2 : 129 ، 378 ، والخصائص : 2 : 129 ، 477 ، 493 ، وشرح شواهد الشافية : 367 - 370 .

(120/689)

ذكرناه ، ولما استطلناه فتركناه - ضعف "بَلْدَةً مَيْتًا" بالتثقيل ، كما ضعفت امرأة مائت وبائع .

وليس الموت أيضا مما يختص بالتأنيث فيحمل على تذكير طالق وطامث 1 وبابه وهو 2 إذا خفف فقيل ميت أشبه لفظ المصدر ، نحو البيع ، والضرب ، والموت ، والقتل وتذكير المصدر إذا جرى وصفا على المؤنث ليس بمستنكر ، نحو امرأة عدل ، وصوم ، ورضا ،

وخصم. فهذا فرق – كما ترى – لطيف.

ومن ذلك قراءة الزهري: "أَشَهِدُوا[3]"، بغير استفهام.

قال أبو الفتح: أما حذف همزة الاستفهام تخفيفا، كأنه قال: أشهدوا خلقهم؟ كقراءة الجماعة – فضعيف؛ لأن الحذف في هذا الحرف أمر موضعه الشعر، ولكن طريقه غير هذا. وهو أن يكون قوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ صفة لـ"إناث" حتى كأنه قال: وجعلوا الملائكة الذين هم عباد لرحمن إناثا مشهدا خلقهم هم.

فإن قلت: فإن المشركين لم يدعوا أنهم أشهدوا خلق ذلك، ولا حضروه.

قيل: اجتراؤهم على ذلك، ومجاهرتهم به، واعتقادهم إياه، وانطواؤهم عليه – فعل من شاهده، وعاين معتقد ما يدعيه فيه، لا من هو شاك ومرجم ومتظن، وإن لم يكن معاندا ومتخرصا لما لا يعتقده أصلا. فلما بلغوا هذه الغاية صاروا كالمدعين أنهم قد شهدوا ما تشهروا[4] به وأعصموا[5] باعتقاده.

وهذا كقولك لمن يزكي نفسه، وينفي الخبائث عنها، أو شيئا من الرذائل أن تتم[6] عليها: وأنت إذا تقول: إنك معصوم، وهو لم يلفظ بادعائه العصمة، لكنه لما ذهب بنفسه ذلك المذهب صار بمنزلة من قال: أنا معصوم.

---

1 طامث: حائض.

2 في ك: فهو.

3 سورة الزخر : 19 .

4 لم نعثر على هذا الفعل فيما بين أيدينا من المعاجم .

5 أعصموا : تمسكوا .

6 تتم عليها : تمضي ، وتستمر .

(121/689)

ومثله أن يقول الإنسان : القرآن ليس بمعجز ، والنبي – صلى الله عليه وسلم – ليس بمرسل ، فتقول أنت : هذا الذي تقول الحق باطل ، وهو لم يلفظ بذلك ، لكن صورته صورة من لفظ به .

وعليه قول الله "سبحانه" : ﴿يَدْعُو [145و] لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ1 ﴾ ، إذا تأولت ذلك على أنه كأنه قال : يقول : لمن ضره أقرب من نفعه إله ، ثم حذفت خبر المبتدأ ، وإن كان هو لم يقل ذلك ، بل هو يعتقد أن نفعه أقرب من ضره ، لكنك أخبرت عنه أن صورته مع تحصيلها صورة من يقول : ذلك .

ومن ذلك قراءة أبي رجاء : "لَمَّا مَتَاع2" .

قال أبو الفتح : ما هنا بمنزلة الذي ، والعائد إليها من صلتها محذوف ، وتقديره : وإن كل

ذلك للذي هو متاح الحياة الدنيا ، فكأنه قال : وإن كل ذلك لما يتمتع به أحوال الدنيا ، فجاز حذف هذا الضمير على انفصاله جوازا قصدا لا مستحسنا ، ومثله على توسطه قراءة من قرأ : "مَثَلًا مَا بَعُوضَة3 ، أي : ما هو بعوضة ، وقوله :

لم أر مثل الفتيان في غبن الأيام ينسون ما عواقبها4

أي : ينسون الذي هو عواقبها . وقد ذكرناه بما فيه ، إلا أن ابن مجاهد لم يذكر كيف إعراب "كل" في هذه الآية ؟ هل هو مرفوع أو منصوب ؟ وينبغي أن يكون منصوبا ؛ وذلك أن "أن" هذه مخففة من الثقيلة ، ومتى خففت منها وأبطل نصبها لزمتها اللام في آخر الكلام للفرق بينها وبين إن النافية بمعنى ما ، وذلك قولك : إن زيد لقائم ، وقوله :

شلت يمينك إن قتلت لمسلما5

---

1 سورة الحج : 13 .

2 سورة الزخرف : 35 .

3 سورة البقرة : 26 ، ورفع "بعوضة" قراءة الضحاك ، وإبراهيم بن أبي عبلة ، ورؤية بن العجاج ، وقطرب ، كما في البحر : 1 : 123 .

4 انظر الصفحة 235 من الجزء الأول .

5 لعاتكة بنت زيد العدوية بنت عم عمر بن الخطاب من قصيدة ترثى بها الزبير ابن العوام ، والخطاب لعمرو بن جرموز قاتل الزبير . وعجزه :

حلت عليك عقوبة المتعمد

وانظر مختصر شرح الشواهد للعيني : 121 ، 122 ، والدرر اللوامع : 1 : 119 .

(122/689)

أي : إنك قتلت مسلما ، وهذا موضح في بابه .

فلو كانت "كل" هنا رفعا لم يكن بد معها من اللام الفاصلة بين المخففة والنافية ، ولا لام معك ؛ لأن هذه الموجودة في اللفظ إنما هي الجارة المكسورة ، ولو جاءت معها لوجب أن تقول : وإن كل ذلك للما متاع الحياة الدنيا ، كقولك : إن زيد لمن الكرام .

فإن قلت : إنه قد يجوز أن يكون أراد اللام الفاصلة ، لكنها جفت مع اللام الجارة ، فحذفت وصارت هذه الجارة في اللفظ كالعوض منها .

قيل : فقد قال :

فلا والله لا يلفي لما بي ولا للما بهم أبدا دواء 1

فجمع بين اللامين ، وكلتاهما جارة . فجاز الجمع بين الجارتين ، وهما بلفظ واحد ، وعمل واحد - فجمع المفتوحة مع المكسورة العاملة أحرى بالجوز .

وبعد ، فالحق أحق أن يتبع . هذا بيت لم يعرفه أصحابنا ولا رووه ، والقياس من بعد على

نهاية المج له والإعراض عنه ، لاسيما وقد جاور بحرف الجر حرفا مثله لفظا ومعنى, فلو وجد هذا البيت عنوانا على كل ورقة من مصحف أبي عمرو لما جاز استعمال مثله في الشعر إلا كلا ولا2 ، فضلا عن الأخذ به في كتاب الله .

فإذا كان كذلك بطل رفع "كل" لما ذكرناه ، وجب أن يكون نصبا على لغة من نصب مع التخفيف ، فقال : إن زيدا قائم ؛ لأنه إذا نصب زال لاشك في أنها ليست بالنافية ؛ لأن تلك غير ناصبة للمبتدأ . وترك ابن مجاهد ذكر الإعراب في "كل" يدعو إلى أن يكون رفعا ؛ إذ لو كان نصبا لذكره لما فيه من الشذوذ الذي عليه وضع الكتاب ، ففيه إذا ما تراه ، فتعجب منه .

---

1 لمسلم بن معبد الوالبي من شعراء الدولة الأموية ، والوالبي نسبة إلى والبة بن الحارث ابن ثعلبة بن داودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة . ويروى "وابيك" مكان "والله" ، وانظر الخزانة : 6 : 264 .

2 كلا ولا ، أي : إلا قليلا . والعرب إذا أرادت تقليل مدة فعل أو ظهور شيء خفي قالت : كان فعله كلا . وربما كررت فقالت : كلا ولا . وانظر اللسان "لا" .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب وابن مسعود "رضي الله عنهما" ويحيى والأعمش : "يَا مَالِ1" .

قال أبو الفتح : هذا المذهب المألوف في الترخيم [145ظ] ، إلا أن فيه في هذا الموضع سرا جديدا ، وذلك أنهم – لعظم ما هم عليه – ضعفت قواهم ، وذلت أنفسهم ، وصغر كلامهم ؛ فكان هذا مواضع الاختصار ضرورة عليه ، ووقوفا دون تجاوزه إلى ما يستعمله المالك لقوله ، القادر على التصرف في منطقه .

ومن ذلك قراءة أبي عبد الرحمن اليماني : "فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِدِين2" .

قال أبو الفتح : معناه – والله أعلم – أول الأنفين . يقال : عبدت من الأمر أعبد عبدا ، أي : أنفت منه . وهذا يشهد لقول من قال في القراءة الأخرى : "فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِين" ، أي : الأنفين . ولم يذهب إلى أنه أول العابدين ؛ لأني لا أذهب إلى ما يذهبون إليه من أن معناه : أن كان للرحمن عندكم أنتم ولد فأنا أول من يعبده ، لأن الأمر بخلاف ما قدرتموه أنتم . ,

ألا ترى أن العبدين من عبد يعبد ؟ فإن قلت : فقد قال :

أصبح قلبي صردا لا يشتهي أن يردا

إلا عرادا عردا وصليانا بردا

وعنكثا ملتبدا3

يريد عاردا وباردا ، كما قال العجلي :

كأن في الفرش القتاد العاردا3

قيل : إنما جاز في الضرورة ؛ لأن القافية غير مؤسسة ، فحذف الألف ضرورة كما حذفها الآخر من قوله :

مثل النقا لده ضرب الطلل4

يريد الطلال ، كما قال القحيف العقيلي :

ديار الحي يضربها الطلال بها أهل من الخافي ومال4

---

1 سورة الزخرف : . 77

2 سورة الزخرف : . 81

3 انظر الصفحة 172 من الجزء الأول .

4 انظر الصفحة 181 من الجزء الأول .

وكذلك مذهب ابن عباس في قوله : "فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِين" ، أي : الأنفين .

ووجه ثالث مقول أيضا ، وهو أن تكون "إن" بمعنى ما ، أي : ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول العابدين له ؛ لأنه لا ولد له . قال الفرزدق :

وأعبد أن تهجى كليب بدارم[1]

أي : آنف من ذلك .

وروينا عن قطرب أن العابد العالم ، والعابد الجاحد ، والعابد الأنف الغضبان ، قال :

ومعنى هذه الآية يحتمل كل هذه المعاني ، وفيه ما ذكرته أنا لك .

ومن ذلك قراءة الأعرج ورويت عن أبي قلابة وعن مجاهد أيضا : "وقيله[2]" ، رفعا .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون ارتفاعه عطفا[3] على "علم" من قوله : ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ، و"قيله" ، أي : وعلم قيله ، فجاء على حذف المضاف ، كما أن من جره "وقيله" فهو معطوف عنده على "الساعة" . فالمعنيان – كما تراه – واحد ، والإعرابان مختلفان .

فمن نصب فقال : "وقيله" كان معطوفا على "الساعة" في المعنى ، إذ كانت مفعولا بها في المعنى ، أي : عنده أن يعلم الساعة وقيله . وهذا كقولك : عجبت من أكل الخبز والتمر ، أي : من أن أكلب هذا وهذا . وروينا عن أبي حاتم ، قال : "وقيله" نصب معطوف على "نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ[4]" ، و"قيله" . قال : قال ذلك جماعة ، منهم يعقوب القارئ .

وبعد ، فليعم أن المصدر الذي هو "قيل" مضاف إلى الهاء ، وهي مفعولة في المعنى لا فاعله ؛ وذلك أن وعنده عطفا

---

1 رواية اللسان "عبد" :

أولئك قوم أن هجوني هجوتهم وأعبد أن أهجو كليبا بدارم

ورواية البحر "7 : 28"

أولئك آبائي فجئني بمثلهم وأعبد أن أهجو كليبا بدارم

وورد في الديوان : 700 هذا البيت :

أظنت كلام اللؤم أن ليست شاتما قبائل إلا بني دخان بدارم

وابنا دخان : غني ، وباهلة .

2 سورة الزخرف : 88 .

3 ساقطة في ك .

4 من قوله تعالى في الآية 80 : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .

(125/689)

علم أن يقال له : يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فالمصدر هنا مضاف إلى المفعول لا إلى الفاعل ، وإنما هو [146و] من باب قول الله "سبحانه" : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ 1 ﴾ ، أي : بسؤاله إياك نعجتك . ومثله قوله "تعالى" : ﴿ لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ

دُعَاءِ الْخَيْرِ2 ﴾ ، أي : من دعائه الخير ، لا بد من هذا التقدير .

ألا ترى أنه لا يجوز أن تقدره على أنه : وعنده علم أن يقول الله : يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ؟ لأن هذا إنما يقال لله "تعالى" دون أن يكون "سبحانه" يقول : يا رب إن هؤلاء كذا ، فتم الكلام على "يؤمنون" ، ثم قال الله : يا محمد ، فاصفح عنهم ، وليس يريد "تعالى" الصفح الذي هو المساهلة والعفو ؛ إنما المراد فأعرض عنهم بصفح وجهك ، كما قال "تعالى" ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ3 ﴾ .

وقوله : "قل سلام4" ، أي : أمرنا وأمركم متاركة وتسلم ، كما قال : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا5 ﴾ .

وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ6 ﴾ من كلام الله أيضا ، ألا ترى أن النبي "صلى الله عليه وسلم" لا يقول لله "سبحانه" : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ؟ لأن هذا إعلام ، والله أحق المعلمين بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 252. 258 ﴾

---

1 سورة ص : 24 .

2 سورة فصلت : 49 .

3 سورة الأعراف : 199 .

4 سورة الزخرف : 89 .

5 سورة الفرقان : 63 .

6 "تعلمون" بالخطاب قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر ووافقهم الحسن ، وقرأ الباقون "يعلمون" بالغيب . وانظر الاتحاف : 239 .

(126/689)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الزخرف

مكية وأيها ثمانون وثمان شامي وتسع في الباقي خلافها اثنان حم كوفي مهين حجازي وبصري مشبه الفاصلة واحد عن السبيل وعكسه اثنان مقرنين قرين القراآت قد مر ذكر إمالة حم كالسكت على حرفيها ونقل قرانا وقرأ في أم بكسر الهمزة حمزة والكسائي وصلا فإن ابتدا ضماها كالباقين في الحالين

واختلف في ﴿ إن كنتم ﴾ الآية 5 فنافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بكسر الهمزة على أنها شرطية وإن كان إسرافهم محققا على سبيل المجاز كقول الأجير إن كنت عملت فوفني حقي مع علمه وتحققه لعله وجوابه مقدر يفسره أفنضرب أي إن أسرفت نترككم وافقهم الحسن والأعمش والباقون بالفتح على العلة مفعولا لأجله أي لأن كنتم وقرأ نبيء بالهمز نافع وقرأ يستهزون بحذف الهمزة وضم الزاي أبو جعفر ومر أول البقرة حكم

وقف حمزة عليه

وأمال ومضى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وقرأ مهدا بفتح الميم وسكون الهاء مع القصر عاصم وحمزة والكسائي وخلف كما مر بطه وقرأ ميتا بتشديد الياء أبو جعفر ومر بالبقرة وقرأ (تخرجون) الآية 11 بالبناء للفاعل ابن ذكوان وحمزة والكسائي وخلف وسبق بالأعراف وما في الأصل هنا لعله سبق قلم وقرأ جزء بضم الزاي أبو بكر وقرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وتشديد الزاي ومر توجيهها بالبقرة ويوقف عليها لحمزة بالنقل فقط وأما الإبدال واوا قياسا على هزوا فشاذ وبين بين ضعيف

واختلف في (ينشأ) الآية 18 فحفص وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين مضارع نشأ معدى بالتضعيف مبنيا للمفعول أي يربي وافقهم الأعمش وعن الحسن يناشؤا بضم الياء والألف بعد النون تخفيف الشين مبنيا للمفعول والباقون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين من نشأ لازم مبني للفاعل

واختلف في ﴿ عند الرحمن ﴾ الآية 19 فأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي

وخلف بالألف بعد الموحدة المفتوحة ورفع الدال جمع عبد وافقهم ابن محيصن واليزيدي والشنبوذي وعن المطوعي كذلك لكن فتح الدال على إضمار خلقوا والباقون بالنون الساكنة وفتح الدال بلا ألف ظرفا

وقرأ أشهدوا بهمزتين مفتوحة فمضمومة مسهلة كالواو مع سكون الشين نافع وأبو جعفر فأدخلا همزة التوبيخ على أشهدوا فعلا رباعيا مبنيا للمفعول وفصل بين الهمزتين بالألف قالون بخلف عنه من طريقيه وأبو جعفر وقطع بالقصر لقالون أكثر المؤلفين كورش والباقون بهمزة الاستفهام داخله على شهدوا مفتوح الشين ماضيا مبنيا للفاعل أي أحضروا وعن الحسن شهادتهم بالجمع

واختلف في ﴿ قل أولو ﴾ الآية 24 فابن عامر وحفص (قال) ماضيا والباقون قل بغير ألف على الأمر

(128/689)

واختلف في (جئتكم) الآية 24 فأبو جعفر بالنون موضع التاء وألف بعدها على الجمع والباقون بتاء المتكلم وكل على أصله من الصلة وأبدل همزة أبو عمرو بخلفه وأبو جعفر كوقف حمزة وعن المطوعي إنني بنون واحدة مشددة دون نون الوقاية بريء بكسر الراء

بعدها ياء فهمزة لغة نجد ويثنى ويجمع ويؤنث والجمهور إنني بنونين براء بفتح الراء وبعدها ألف فهمزة مصدر يستوي فيه المفرد والمذكر ومقابلهما يقال نحن البراء منك ولا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث كالمصادر في الغالب وأثبت ياء سيهدين في الحالين يعقوب واتفقوا على بناء الفاعل في ( ) لعلهم يرجعون (معا لأنه ليس من رجوع الآخرة ونقل القران ابن كثير وعن ابن محيصن فقط سخريا بكسر السين ووقف على رحمت معا بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب وقرأ لبيوتهم معا بضم الياء على الأصل ورش وابو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب واختلف في سقفا فابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح السين وإسكان القاف بالإفراد على إرادة الجنس وافقهم الحسن وابن محيصن والباقون بضمها على الجمع كرهن في جمع رهن وقرأ يتكون بحذف الهمزة وضم الكاف أبو جعفر والوقف لحمزة عليها كيستهزون ومر واختلف في لما متاع فعاصم وحمزة وابن جماز بتشديد الميم بمعنى الأوان نافية واختلف عن هشام فروى عنه المشارقة وأكثر المغاربة كذلك بالتشديد وبه قرأ الداني على أبي الحسن وبالتخفيف قرأ على أبي الفتح من رواية الحلواني وابن عباد عن هشام وبه قرأ الباقون فإن هي المخففة واللام فارقة كما مر وما مزيدة للتأكيد

واختلف في نقيض فأبو بكر من طريق العليمي ويعقوب بالياء من تحت وكذا رواه خلف والصريفيني عن يحيى وافقهما المطوعي والباقون بنون العظمة وهي رواية

يحيى من سائر طرقه وقرأ ويحسبون معا بفتح السني ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر

واختلف في (جاءنا) الآية 38 فنافع وابن كثير وابن عامر وابو بكر وابو جعفر بألف بعد الهمزة على التثنية وهما العاشي وقرينه وافقهم ابن محيصن والباقون بغير ألف والضمير يعود على لفظ من وهو العاشي وقرأ أفأنت بتسهيل الهمزة الثانية للأصبهاني وقرأ نذهبن بك و نرينك بتخفيف النون فيهما رويس واتفقوا على الوقف له بالألف بعد الباء في نذهبن على الأصل في نون التوكيد الخفيفة كما مر آخر آل عمران وقرأ وسل بالنقل ابن كثير والكسائي وخلف عن نفسه وأسكن سين رسلنا أبو عمرو وضم هاء نريهم يعقوب وقرأ يا أيه بضم الهاء وصلا ابن عامر ووقف عليها بالهاء بلا ألف نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وخلف وفتح ياء الإضافة من تحتي أفلا نافع والبزي وأبو عمرو وأبو جعفر واختلف في أسورة فحفص ويعقوب بسكون السين بلا ألف جمع سوار كأخمرة وخمار وافقهما الحسن وهو جمع قلة وعن المطوعي بفتح السين وألف ورفع الراء من غير تاء والباقون كذلك لكن بفتح الراء وبتاء التأنيث على جعل جمع الجمع كأسقية وأساقي أو جمع أساور بمعنى سوار والأصل أساوير عوض عن الياء تاء التأنيث كزنادقة واختلف في سلفا فحمزة والكسائي بضم السين واللام جمع سليف كرغيف ورغف أو جمع سلف كأسد

وأسد وافقهم الأعمش والباقون بفتحهما جمعا لسالف كخادم وخدم وهو في الحقيقة اسم جمع لا جمع إذ ليس في أبنية التكسير صيغة فعل أو على أنه مصدر يطلق على الجماعة من سلف الرجل يسلف سلفا تقدم وسلف الرجل آباؤه المتقدمون جمعه أسلاف وسلاف واختلف في يصدون فنافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف عن نفسه بضم الصاد من صد يصد كمد يمد أعرض وافقهم الحسن والأعمش والباقون بكسرها كحد يحد ووقع في النويري جعل الكسر لنافع ومن معه والضم للباقين ولعله سبق قلم وقرأ أأألهتنا بتسهيل الثانية بين بين نافع وابن كثير وابو عمرو وأبن عامر وأبو جعفر ورويس ولم يبدلها أحد من الأزرق بل الكل على تسهيلها عنه لما

(130/689)

يلزم من التباس الاستفهام بالخبر باجتماع الألفين وحذف إحداهما والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائي وروح وخلف بتخفيفهما واتفقوا على عدم الفصل بينهما بألف قال في النشر لئلا يصير اللفظ في تقدير أربع ألفات همزة الاستفهام وألف الفصل وهمزة القطع والمبدلة من الهمزة الساكنة وهو إفراط ومر إيضاح ذلك في الهمزتين من كلمة وتسهيل همز اسرائل مع مده وقصره لأبي جعفر وعن الأعمش وإنه لعلم بفتح العين واللام الثانية أي

شرط وعلامة وأثبت الياء في اتبعون

هذا وصلا أبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين يعقوب وأدغم دال قد جئتكم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأثبت الياء في أطيعون في الحالين يعقوب وسكن ياء يا عبادي لا خوف وصلا ووقفا نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ورويس من غير طريق أبي الطيب وفتحها أبو بكر ورويس من طريق أبي الطيب وسكنا ها وقفا والباقون بحذفها في الحالين وقرأ لا خوف بالفتح بلا تنوين يعقوب على لا التبرئة والباقون بالرفع والتنوين على الابتداء

واختلف في ﴿ ما تشتهي الأنفس ﴾ الآية 71 فنافع وابن عامر وحفص ويعقوب بهاء بعد الياء يعود على ما الموصولة والباقون بحذفها لأنه مفعول وعائده جائز الحذف كقوله تعالى أهذا الذي بعث الله رسولا وأدغم ثاء (أورثتموها) أبو عمرو وهشام وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي و أدخل في الأصل خلفا في اختياره في المدغمين هنا وفيما مر وفيه نظر ولعله سبق قلم إذ لا خلاف عنه في الإظهار هنا كالأعراف تكلمة لا تنافي بين باء قوله تعالى بما كنتم تعملون وباء قوله لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله لأن باء الآية سببية وباء الحديث باء المعاوضة وأما لقد جئناكم فنظير قد جئتكم ومر فتح سين يحسبون وتسكين رسلنا آنفا كإمالة بلى وكذا ضم هاء لديهم لحمزة ويعقوب

واختلف في (ولد) الآية 81 فحمزة والكسائي بضم الواو وسكون اللام والباقون بفتحها وسبق أواخر مريم موجها

(131/689)

وقرأ بمد فأنا أول نافع وابو جعفر كما في البقرة واختلف في (يلاقوا) الآية 83 هنا والطور الآية 45 والمعارج الآية 42 فأبو جعفر بفتح الياء والقاف وسكون اللام بينهما بلا ألف في الثلاثة مضارع لقي وافقه ابن محيصن والباقون بضم الياء وفتح اللام ثم ألف وضم القاف فيهن من الملاقاة وافقهم ابن محيصن في الطور من المفردة وقرأ في السماء إله بتسهيل الأولى قالون والبزي وبتسهيل الثانية ورش وابو جعفر ورويس بخلفه وللأزرق وجه آخر إبدالها ياء ساكنة بلا مد والوجهان لقنبل وله ثالث وهو إسقاط الأولى وبه قرأ أبو عمرو ورويس في وجهه الثاني والباقي بتحقيقهما

واختلف في) وإليه ترجعون ( ) فنافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر وروح بالخطاب وافقهم اليزيدي والحسن والباقون بالغيب ويعقوب على أصله في فتح حرف المضارعة وكسر الجيم على البناء للفاعل

وأمال فأني حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق والدوري عن أبي عمرو

واختلف في (وقيله) الآية 88 فعاصم وحمزة بخفض اللام وكسر الهاء مع للصلة بياء عطفا على الساعة أي وعنده علم قيله أي قول محمد أو عيسى عليهما الصلاة والسلام والقول والقال والقيل مصادر بمعنى واحد وافقهما الأعمش والباقون بفتح اللام وضم الهاء وصلتها بواو عطفا على محل الساعة أي وعنده أن يعلم الساعة ويعلم قيله كذا أو عطفا على سرهم ونجويهم أو على مفعول يكتبون المحذوف أي ويكتبون ذلك ويكتبون قيله كذا أيضا أو على مفعول يعلمون المحذوف أي يعلمون ذلك وقيله أو على أنه مصدر أي قال قيله أو بإضمار فعل أي الله يعلم قيل رسوله محمد

واختلف في ( ) فسوف يعلمون ( ) الآية 89 فنافع وابن عامر وأبو جعفر بالخطاب على الالتفات وافقهم الحسن والباقون بالغيب

(132/689)

والمرسوم في العثمانية قرنا هنا ويوسف بغير ألف وقيل بثبوتها في العراقية وروى نافع مهدا بغير ألف بعد الهاء وكذا سورة وفي المدني والشامي ما تشتهيه بهاء بعد الياء والمكي والعراقي بحذفها وفي المدني والشامي أيضا يا عبادي لا خوف بياء وفي المكي والعراقي بحذفها وفي كل المصاحف حذف ألف عند الرحمن وكذا يلقوا يومهم في الثلاث وفي بعض

المصاحف أو من ينشؤا بواو وألف بعد الشين و اتفقوا على رسم رحمت ربك معا هنا بالتاء ياءات الإضافة ثنتان ( ) تحتي أفلا (الآية 51 ﴿ يا عبادي لا خوف ﴾ الآية 68 الزوائد ثلاث (سيهدين) الآية 27 (وأطيعون) الآية 63 ( ) واتبعون هذا (الآية 61 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 494 . 498 ﴾

(133/689)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الزخرف "

" حم " سكت أبو جعفر على حرفي الهجاء .

" جعلناه " قرآنا الذكر ، نبي ، يأتيهم ، يستهزءون ، من خلق ، بشر غير ، ظل وهو ، جلي .

" في أم " قرأ حمزة والكسائي وصلا بكسر الهمزة والباقون بضمها فإن ابتدئ بأم فلا خلاف بينهم في ضم الهمزة .

" أن كنتم " كسر الهمزة المدنيان والأخوان وخلف وفتحها غيرهم .

" مهدا " قرأ الكوفيون بفتح الميم وإسكان الهاء وغيرهم بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعدها .

" ميتا " شدد الياء مكسورة أبو جعفر وخففها ساكنة غيره .

" تخرجون " قرأ ابن ذكوان والأخوان وخلف بفتح التاء وضم الراء وغيرهم بضم التاء وفتح الراء .

" جزءا " قرأ شعبة بضم الزاي وأبو جعفر بحذف الهمزة وتشديد الزاي والباقون بإسكان الزاي . وفيه لحمزة عند الوقف نقل حركة الهمزة إلى الزاي وحذف الهمزة ولا يخفى إبدال التنوين ألف عند الوقف .

" ينشؤا " قرأ حفص والأخوان وخلف بضم الياء التحتية وفتح النون وتشديد الشين والباقون بفتح الياء وإسكان النون وتخفيف الشين ووقف عليه حمزة وهشام بخمسة أوجه: إبدال الهمزة ألفا وتسهيلها بالروم وإبدالها واوا مع السكون المحض والإشمام والروم لرسم الهمزة على واو على الراجح وعلى المرجوح يكون لهما وجهان فقط الإبدال ألفا والتسهيل مع الروم .

" عباد الرحمن " قرأ المدنيان والمكي والشامي ويعقوب بنون ساكنة بعد العين مع فتح الدال والباقون بباء موحدة مفتوحة وبعدها ألف مع ضم الدال .

" أشهدوا " قرأ المدنيان بهمزتين الأولى مفتوحة محققة والثانية مضمومة مسهلة بين بين مع إسكان الشين . وأدخل بينهما ألف أبو جعفر وقالون بخلف عنه وأما ورش فيسهل من غير إدخال والباقون بهمزة واحدة مفتوحة . محققة مع كسر الشين .

" مقتدون " آخر الربع .

الممال

" حم " بالإمالة لابن ذكوان وشعبة والأخوين وخلف وبالتقليل للبصري وورش ، ومضى وأصفاكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . شاء لابن ذكوان وحمزة وخلف .

(134/689)

آثارهم معا بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الكبير " أو يرسل رسولا ، جعل لكم الثلاثة ، والأنعام ما ، سخر لنا .

" قل أولو " قرأ ابن عامر وحفص بفتح القاف واللام وألف بينهما على أنه فعل ماض وغيرهما بضم القاف وإسكان اللام على أنه فعل أمر .

" جئتكم " قرأ أبو جعفر بنون مفتوحة في مكان التاء مضمومة وألف بعدها وغيره بتاء مضمومة وكل على أصله من الصلة والإبدال .

" عليه " آباءكم ، كافرون معا ، لأبيه سحر ، القرآن ، خير ، فهو ، فبئس ، ظلمتم ، عليهم

مقتدرون ، صراط لذكر ، واسأل ، رسلنا ، نريهم ، تبصرون ، خير ، كله جلي .

" سيهدين " أثبت يعقوب الياء مطلقا وحذفها غيره كذلك .

" يرجعون " أجمعوا على فتح يائه وكسر جيمه .

" رحمت ربك " معا رسم بالتاء المفتوحة ووقف بالهاء المكي والبصريان والكسائي وغيرهم بالتاء .

" سخريا " اتفقوا على ضم السين .

" لبيوتهم " ضم الباء ورش والبصريان وحفص وأبو جعفر وكسرها سواهم .

" سقفا " قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح السين وسكون القاف وغيرهم بضم السين والقاف .

" يتكئون " مثل يستهزءون لورش وحمزة وأبي جعفر .

" لما متاع " قرأ عاصم وحمزة وابن جماز وهشام بخلف عنه بتشديد الميم من لما والباقون بتخفيفها ، هو الوجه الثاني لهشام .

" نقيض " قرأ يعقوب بالياء التحتية وغيره بالنون .

" ويحسبون " فتح السين ابن عامر وأبو جعفر وحمزة وكسرها الباقون .

" جاءنا " قرأ المدنيان والمكي والشامي وشعبة بألف بعد الهمزة والباقون بغير ألف وورش على أصله في البدل .

" نذهبن ، أو نرينك " خفف رويس النون فيهما وإذا وقف على نذهبن وقف بالألف على الأصل في نون التوكيد الخفيفة وشددها الباقون .

" يأيه الساحر " قرأ ابن عامر وصلا بضم الهاء إتباعا لضم الياء والباقون بفتحها . ووقف عليه البصريان والكسائي بألف والباقون بحذفها وإسكان الهاء ، ولا يخفي ترقيق ورش راء الساحر وصلا ووقفا وغيره وقفا فقط .

(135/689)

" تحتي أفلا " فتح الياء المدنيان والبزي والبصري وأسكنها غيرهم .

" أسورة " قرأ حفص ويعقوب بسكون السين وغيرهما بفتح السين وألف بعدها ورقق ورش راءه .

" سلفا " قرأ الأخوان بضم السين واللام وغيرهما بفتحهما .

" للآخرين " آخر الربع .

الممال

" بأهدى ونادى " بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، جاءهم الثلاثة وجاءنا وجاء لابن ذكوان وحمزة وخلف الدنيا معا وموسى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش

والبصري بخلف عن ورش .

المدغم

" الصغير " " إذ ظلمتم للجميع "

" الكبير " " الرحمن نقيض ، رسول رب .

" يصدون " قرأ ابن كثير والبصريان وعاصم وحمزة بكسر الصاد وغيرهم بضمها .

" ءآلهتنا " اجتمع في هذه الكلمة ثلاث همزات الأولى: والثانية مفتوحتان والثالثة ساكنة وقد أجمعوا على إثبات الأولى محققة كما أجمعوا على إبدال الثالثة ألفا واختلفوا في الثانية فسهلها المدنيان والمكي والبصري والشامي ورويس وأبو جعفر وحققها الباقون . ولم يدخل أحد ألفا بين الأولى والثانية . كما أن ورشا لا يبدل الثانية ألفا ، فليس له إلا تسهيلها بين بين وهو على أصله في البدل .

" خير . كثيرة " ضربوه ، قوم خصمون ، عليه ، وجعلناه ، إسرائيل جئناكم ، ظلمناهم يحسبون ، سرهم ، ورسلنا ؛ لديهم ، عليهم ، وهو ، وإليه ، صراط ، ظلموا ، من خلفهم جلي .

" واتبعون " أثبت الياء وصلا أبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين يعقوب ، وحذفها الباقون مطلقا .

" وأطيعون " أثبت الياء مطلقا يعقوب ، وحذفها الباقون مطلقا .

" يا عباد " قرأ شعبة بفتح الياء وصلا وسكونها وقفا ، والمدنيان والبصري والشامي ورويس بإثباتها ساكنة في الحالين ، والباقون بحذفها في الحالين .

" لا خوف " قرأ يعقوب بفتح الفاء غير منونة ، وغيره برفعها منونة .

" تشتهيه " قرأ المدنيان والشامي وحفص بزيادة هاء الضمير مذكرا بعد الياء والباقون بحذفها .

" ولد " قرأ الأخوان بضم الواو وإسكان اللام وغيرهما بفتح الواو واللام .

(136/689)

" فأنا أول " أثبت ألف أنا وصلا المدنيان فيصير مدا منفصلا وكل فيه على أصله ، وحذفها الباقون وصلا ولا خلاف بينهم في إثباتها وقفا .

" يلاقوا " قرأ أبو جعفر بفتح الياء التحتية وإسكان اللام وفتح القاف وغيره بضم الياء وفتح اللام وألف بعدها وضم القاف .

" في السماء إله " سهل الأولى مع المد والقصر قالون والبزي وأسقطها مع القصر والمد البصري وسهل الثانية ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس ولورش وقنبل إبدالها ألفا مع القصر لتحرك ما بعدها ، وحققها الباقون .

" يرجعون " قرأ المكي والأخوان وخلف ورويس بتاء الخطاب ، والباقون بياء الغيبة ويعقوب على أصله من فتح حرف المضارعة وكسر الجيم .

" وقيله " قرأ عاصم وحمزة بخفض اللام وكسر الهاء ، والباقون بنصب اللام وضم الهاء

" فسوف يعلمون " قرأ المدنيان والشامي بتاء الخطاب ؛ والباقون بياء الغيبة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 294 . 298 ﴾

(137/689)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الزخرف

قوله تعالى ﴿ أن كنتم قوما مسرفين ﴾

يقرأ بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتح أنه قدر أن تقدير إذ ودليله قوله ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ يريد إذ جاءه الأعمى وقدر كنتم بعده تقدير الفعل الماضي لفظا ومعنى وموضع أن على هذا نصب وخفض وقد ذكر والحجة لمن كسر أنه جعل أن إن حرف شرط وجعل الفعل بمعنى المستقبل وحذف الجواب علما بالمراد

قوله تعالى ﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ يقرأ بفتح الياء وإسكان النون والتخفيف وبضم الياء وفتح النون والتشديد فالحجة لمن خفف أنه جعل الفعل من قولهم نشأ الغلام فهو ناشئ والحجة لمن شدد أنه جعل الفعل لمفعول به لم يسم فاعله ودليله قوله تعالى ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ فأنشأت ونشأت بمعنى واحد

قوله تعالى ﴿ الذين هم عباد الرحمن ﴾ يقرأ بالباء والألف جمع عبد وبالنون من غير ألف على أنه ظرف فالحجة لمن قرأه بالجمع أن الملائكة عباد الله ودليل ذلك قوله ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ﴾ والحجة لمن قرأه بالنون على معنى الظرف قوله تعالى ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ والجمع ها هنا أولى لأن الله عز وجل إنما أكذبهم في قولهم إن الملائكة بناته بأن عرفهم أنهم عباده لا بناته

قوله تعالى ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ يقرأ بفتح الهمزة والشين وبضمها وإسكان الشين فالحجة لمن فتح أنه جعل الالف للتوبيخ وأخذ الفعل من شهد يشهد فجعله فعلا لفاعل والحجة لم ضم أن جعله فعل ما لم يسم فاعله ودليله قوله تعالى ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات ﴾ التي ينظرون ولا خلق الأرض التي يمشون عليها ولا خلق انفسهم وهذا من أوكد الحجج عليهم لأن من لم يشهد خلق ما يعاينه ويقرب منه فكيف يعرف خلق ما بعد منه وغاب عنه

قوله تعالى ﴿ قال أولو جئتكم ﴾ يقرأ بألف بين القاف واللام على الإخبار وطرح الألف على طريق الأمر وقد تقدمت الحجة في نظائره بما فيه كفاية

(138/689)

قوله تعالى ﴿ لبيوتهم سقفا من فضة ﴾ يقرأ بفتح السين وإسكان القاف على التوحيد وبضمهما على الجمع فالحجة لمن وحد أنه أراد اعلاهم وأظلهم ودليله قوله تعالى ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ والحجة لمن جمع أنه وافق بذلك بين اللفظين في قوله ﴿ ومعارج عليها يظهرون ﴾

قوله تعالى ﴿ لما متاع الحياة الدنيا ﴾ يقرأ بتشديد الميم وتخفيفها وقد ذكرت علله فيما مضى

قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ يقرأ بالتوحيد وبالتثنية فالحجة لمن وحد أنه أفرد العاشي عن ذكر الرحمن بالفعل ودليله توحيد الفعل بعده في قوله ﴿ قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ والحجة لمن قرأه بالتثنية أنه أراد والشيطان المقيض له الذي قارنه لأنهما جميعا جاءا فكان الخطاب من أحدهما بعد المجيء وأراد بالمشرقين ها هنا بعد ما بين المشرق والمغرب فأتى بالأشهر من الاسمين

قوله تعالى ﴿ أساور من ذهب ﴾ إجماع القراء على إثبات الألف بين السين والواو إلا ما رواه حفص عن عاصم من حذفها وإسكان السين فالحجة لمن أثبت الألف أنه أراد جمع الجمع والحجة لمن حذفها أنه اراد الجمع فقط فأما الفرق بين السوار والأسوار فالسوار لليد والأسوار من أساورة الفرس

قوله تعالى ﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ يقرأ بفتح السين واللام وبضمهما فالحجة لمن فتح أنه اراد جمع سالف والحجة لمن ضم أنه أراد جمع سليف

قوله تعالى ﴿ يصدون ﴾ يقرأ بكسر الصاد وضمها فالحجة لمن ضم أنه أراد يعدلون ويعرضون ودليله قوله ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ﴾ والحجة لمن كسر أنه أراد يصيحون ودليله على ذلك مجيء منه قبلها ولو كانت بمعنى الإعراض لجاءت معها عن كقوله ﴿ أو أعرض عنهم ﴾ وقيل كسر الصاد وضمها وإدخال الألف في أول الفعل وإخراجها بمعنى واحد

قوله تعالى ﴿ يا أيها الساحر ﴾ يقرأ بطرح الألف والوقوف على الهاء ساكنة وبإثبات الألف والوقوف عليها وقد تقدم القول في علله آنفا

فإن قيل لم نحلوه اسم السحر وقد سألوه الدعاء لهم فقل في ذلك جوابان أحدهما أن السحر في اللغة دقة العلم بالشيء ولطافة النظر وحسن العبارة بأطرف الألفاظ ومنه قولهم فلان يسحر بكلامه ويسمون هذا الضرب السحر الحلال والثاني أنهم خاطبوه بما كان قد تقدم له عندهم من تشبيه بالساحر لأن الأغلب عليهم كان السحر في زمانه

قوله تعالى ﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾ يقرأ بكسر الهمزة وفتحها فالحجة لمن كسر أنه جعل الكلام تاما عند قوله ﴿ إذ ظلمتم ﴾ ثم استأنف إنكم فكسرها والحجة لمن فتح أنه جعل آخر الكلام متصلا بأوله فكأنه قال ولن ينفعكم اليوم

اشتراككم في العذاب إذ ظلمتم أنفسكم في الدنيا فيكون موضع أنكم ها هنا رفعا والكاف والميم في موضع نصب

قوله تعالى ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ﴾ يقرأ بإثبات الياء وحذفها وقد تقدم ذكره

قوله تعالى ﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو ﴾ يقرأ بالاستفهام على طريق التوبيخ وبالإخبار وقد ذكرت علل ذلك فيما سلف

قوله تعالى ﴿ ما تشتهيه الأنفس ﴾ يقرأ بإثبات هاء بعد الباء وبحذفها فالحجة لمن أثبتها أنه أظهر مفعول تشتهي لأنه عائد على ما والحجة لمن حذفها أنه لما أجتمع في كلمة واحدة فعل وفاعل ومفعول خففها بطرح المفعول لأنه فضلة في الكلام

قوله تعالى ﴿ وإليه يرجعون ﴾ يقرأ بالياء والتاء على ما قدمناه في أمثاله فأما ضم أوله

فإجماع

قوله تعالى ﴿ وقيله يا رب ﴾ يقرأ بالنصب والخفض فالحجة لمن نصب أنه عطفه على قوله ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ وقيله والحجة لمن خفض أنه رده على قوله ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ وعلم قيله

قوله تعالى ﴿ فسوف يعلمون ﴾ يقرأ بالياء والتاء على ما تقدم من القول في أمثاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 320 . 324 ﴾

(140/689)

وقال ابن زنجلة :

43 - سورة الزخرف

أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين 5

قرأ نافع وحمزة والكسائي إن كنتم قوما مسرفين بكسر الألف وقرأ الباقون بالفتح المعنى أفنضرب عنكم الذكر أن كنتم فكأنهم ذهبوا إلى أنه فعل قد مضى كقول القائل أحبك أن جئتني بمعنى أحبك إذ كنت قد جئتني فأما صفحا فانتصابه من باب صنع الله لأن قوله أفنضرب عنكم الذكر

يدل على أنا نصفح عنكم صفحا وكأن قولهم صفحت عنه أي أعرضت عنه والأصل في ذلك أنك توليه صفحة عنقك المعنى أفنضرب عنكم ذكر الانتقام منكم والعقوبة لكم لأن كنتم قوما مسرفين وهذا يقرب من قوله أيحسب الإنسان أن يترك سدى قال الزجاج أفنضرب عنكم ذكر العذاب والعقوبة لأن كنتم قوما مسرفين وقيل الذكر ها هنا العذاب ومن كسرها فعلى معنى الاستقبال على معنى إن تكونوا مسرفين نضرب عنكم الذكر المراد والله أعلم من الكلام استقبال فعلهم فأراد جل وعز تعريفهم أنهم غير متروكين من الإنذار والإعذار إليهم قال الفراء ومثله شنآن قوم أن صدوكم وإن صدوكم

الذي جعل لكم الأرض مهدا 10

قرأ عاصم وحمزة والكسائي مهدا بغير ألف وقرأ الباقون مهادا وحجتهم قوله ألم نجعل الأرض مهادا وقد ذكرت الحجة في سورة طه

فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون 11

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر كذلك تخرجون بفتح التاء وحجتهم إجماع الجميع على فتح التاء في قوله من الأرض إذا

أنتم تخرجون قالوا فكان رد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

وقرأ الباقون تخرجون على ما لم يسم فاعله يقول تبعثون من القبور وحجتهم قوله ثم إنكم يوم

القيامة تبعثون وقوله ومنها نخرجكم

أو من ينشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين 18

(141/689)

قرأ حمزة والكسائي وحفص أو من ينشأ في الحلية بالتشديد على ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون ينشأ بفتح الياء والتخفيف من قرأ بالتشديد جعله في موضع مفعول لأن الله تعالى قال إنا أنشأناهن إنشاء وأنشأت ونشأت بمعنى ربيت تقول نشأ فلان ونشأه غيره تقول العرب نشأ فلان ولده في النعيم أي نبته فيه فقوله أو من ينشأ أي يربي

والأكثر من الأفعال التي لا تتعدى إذا أريد تعديها أن ينقل بالهمزة وبتضعيف العين تقول فرح فلان وفرحته وأفرحته تقول نشأت السحابة و أنشاها الله

ومن قرأ بالتخفيف فإنه جعل الفعل لهم لأن الله أنشأهم فنشؤوا والقرأتان تداخلان كقوله يدخلون و يدخلون لأنه إذا أنشئ في الحلية نشأ فيها ومعلوم أنه لا ينشأ فيها حتى ينشأ

وجعلوا الملئكة الذين هم عبد الرحمن إنثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهدتهم ويسئلون 19

قرأ نافع وابن عامر وابن كثير وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن بالنون وحجتهم قوله إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته

وقرأ الباقون عباد الرحمن جمع عبد وحجتهم قوله بل عباد مكرمون فقد جاء التنزيل بالأمرين جميعا وفي قوله عند الرحمن دلالة على رفع المنزلة والتقريب كما قال ولا الملائكة المقربون وليس من قرب المسافة وفي قوله عباد الرحمن دلالة على تكذيبهم في أنهم إناث كما قال أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون

قرأ نافع ءأشهدوا بضم الألف المسهلة مع فتحة الهمزة أي أحضروا خلقهم كما تقول أشهدتك مكان كذا وكذا أي

أحضرتك وحجته قوله ما أشهدتهم خلق السموات والأرض والأصل أأشهدوا بهمزتين الأولى همزة الاستفهام بمعنى الإنكار والثانية همزة التعدية ثم خففت الهمزة الثانية من غير أن تدخل بينهما ألفا

وروى المسيبي عن نافع ءاأشهدوا بالمد أدخل بينهما ألفا

وروى الحلواني عن نافع أشهدوا على ما لم يسم فاعله قال الفراء أشهدوا بغير الهمز يريد الاستفهام والهمز

وقرأ الباقون أشهدوا بفتح الألف والشين جعلوا الفعل لهم أي أحضروا خلقهم حين خلقوا

وحجتهم قوله أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون

قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه ءاباءكم 24

قرأ ابن عامر وحفص قال أو لو جئتكم على الخبر وفاعل قال النذير المعنى وكذلك ما

أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة 23 فقال لهم

النذير أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم

وقرأ الباقون قل بالأمر أي قل يا محمد

لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ولبيوتهم أبوابا وسررا وإن كل ذلك لما متع

الحيوة الدنيا 33 35

قرأ ابن كثير وأبو عمرو لبيوتهم سقفا بفتح السي وسكون القاف على التوحيد

وقرأ الباقون سقفا بضم السين والقاف على الجمع تقول سقف وسقف مثل رهن ورهن

قال الفراء إن شئت جعلته جمعا لسقيف يقال سقيف وسقف مثل رغيف ورغف

وحجتهم قوله ولبيوتهم أبوابا وسررا ولم يقل بابا وسريرا فدل على أن آخر الكلام منظوم

على لفظ أوله

ومن قرأ سقفا فهو واحد يدل على أن المعنى جعلنا لبيت كل واحد منهم سقفا من فضة

ويجوز أن يوحد السقف لتوحيد لفظ من فيكون المعنى جعلنا لكل من يكفر بالرحمن سقفا

من فضة

قرأ عاصم وحمزة وإن كل ذلك لما بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف

فمن شدد كانت إن بمعنى ما النافية كالتي في قوله إن

الكافرون إلا في غرور و لما بمعنى إلا المعنى ما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا ومن خفف

جعل ما صلة المعنى وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا و إن الخفيفة هي الثقيلة ولم تعمل إن

عمل الفعل لما خففتها لزوال شبهها بالفعل من أجل التخفيف ولو نصبت بها لجاد في القياس

حتى إذا جاءنا قال يليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين 38

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر حتى إذا جاءانا على اثنين يعني الكافر وقرينه من

الشياطين وحجتهم قوله يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين يعني بعد مشرق الصيف ومشرق

الشتاء

(143/689)

وقرأ الباقون جاءنا واحدا وحده أفرد بالخطاب في الدنيا وأقيمت عليه الحجة بإنفاذ

الرسول إليه فاجتزئ بالواحد عن الاثنين كما قال لينبذن في الحطمة والمراد لينبذن هو وماله

وحجتهم قوله قبلها ومن يعش عن ذكر الرحمن 36

وقالوا يأيه الساحر 49

قرأ ابن عامر يا أيه الساحر بضم الهاء اتباعا للمصحف وقرأ الباقون يا أيها بفتح الهاء وقد ذكرت في سورة النور

فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب 53

قرأ حفص أسورة من ذهب بغير ألف جمع سوار وأسورة كما تقول سقاء وأسقية ورداء وأردية

وقرأ الباقون أساورة جمع إسوار كذا قال أبو زيد وقال الزجاج ويصلح أن يكون جمع الجمع تقول أسورة وأساورة كما تقول أقوال وأقاويل

فجعلنهم سلفا ومثلا للآخرين 56

قرأ حمزة الكسائي فجعلناهم سلفا بضم السين واللام جمع سلف مثل أسد وأسد و وثن و وثن ومما لحقته تاء التأنيث من هذا خشبة وخشب وبدنة وبدن وجاز أيضا أن تجعله جمعا لسليف والسليف المتقدم قال الكسائي سلفا جمع السليف مثل السبيل والسبل والتبيل والتبل والعرب تقول مضى منا سلف وسالف وسليف وهو المتقدم عن طلحة بن مصرف أنه قال

السلف بالفتح في الخير والسلف بالضم في الشر

وقرأ الباقون سلفا بفتح السين واللام بلفظ الواحد والمعنى جماعة كما يقال هم لنا سلف

وكذلك يقال في الأنثى والذكر والواحد والجمع والقراءتان متقاربتان في المعنى وذلك أن السلف جمع سالف و السلف جمع سليف بمنزلة عليم وعالم والعرب تقول هؤلاء سلفنا وهم السلف وحجتهم قول النبي صلى الله عليه للصبي الميت

اللهم ألحقه بالسلف الصالح ومنه قول الناس فلان يحب السلف ويشتم السلف ويجوز أن يكون جمعا مثل خادم وخدم و تابع وتبع و سالف وسلف والمعنى جعلناهم سلفا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون

إذا قومك منه يصدون وقالوا ءآلهتنا خير أم هو 57 و58

قرأ نافع وابن عامر والكسائي إذا قومك منه يصدون بضم الصاد

(144/689)

وقرأ الباقون يصدون بالكسر أي يضجون كذا قال ابن عباس واحتج بعض الناس بصحة الكسر وأنه بمعنى الضجيج بصحبة منه للفعل قال ولو كان بمعنى الصدود كان الأفصح أن يصحب الفعل عنه لا منه لأن المتسعمل من الكلام صد عنه لا صد منه فلما كان الكلام منه يصدون دل على أنه عن الصدود بمعزل وأنه بمعنى الضجيج ولو كان من الصدود لكانت إذا قومك عنه يصدون أو منه يصدون عنك

وحجة من يضم ذكرها الكسائي قال هما لغتان لا تختلفان في المعنى والعرب 2 تقول يصد عني ويصد عني مثل يشد ويشد

قال الزجاج معنى المضمومة يعرضون وقال أبو عبيدة مجازها يعدلون

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وقالوا آلهتنا بهمزة واحدة مطولة

ها هنا ثلاث ألفات الأولى ألف التوبيخ في لفظ الاستفهام والثانية ألف الجمع والثالث أصلية والأصل أله ثم يجمع فيقال آلهة مثل حمار وأحمرة والأصل أألهة فصارت الهمزة الثانية مدة ثم دخلت ألف الاستفهام فصار آلهتنا وقرأ أهل الكوفة أآلهتنا بهمزتين

يعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون 68

قرأ أهل المدينة والشام يا عبادي بالياء في الحالين وأبو عمرو معهما في رواية ابن اليزيدي عن أبيه عنه وفي رواية أبي عمر الدوري

معهما في حال الوصل دون لوقف وفتح الياء أبو بكر وحذفها أهل مكة والكوفة الأصل أن تقول يا عبادي بفتح الياء وإنما قلنا لأن الياء هو اسم والاسم إذا كان على حرف واحد فأصله الحركة فتقول ضربتك ويجوز أن تقول قويت الحرف الواحد بالحركة والذي يلي هذا يا عبادي بسكون الياء وإنما حذفت الحركة للتخفيف ثم يلي هذا يا عباد بغير ياء لأن الكسرة تنوب عن الياء لأنه نداء

وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين 71

قرأ نافع و ابن عامر وحفص وفيها ما تشتهيه بإثبات الهاء بعد الياء ما بمعنى الذي وهو رفع بالابتداء و تشتهي صلة ما والهاء عائدة إلى ما وهو مفعول تشتهي وحجتهم قوله تعالى كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ولم يقل يتخبط

(145/689)

وقرأ الباقون بحذف الهاء على الاختصار والأصل في هذا إثبات الهاء والحذف للتخفيف وهو حسن كما تقول الذي ضربت زيد وكان الأصل الذي ضربته زيد فإن شئت أثبت الهاء وهو الأصل لأن الهاء هو اسم المفعول وإن شئت حذفت ذلك وحجتهم قوله أهذا الذي بعث الله رسولا ولم يقل بعثه الله

قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العبدين 81

قرأ حمزة والكسائي قل إن كان للرحمن ولد بضم الواو وسكون اللام وقرأ الباقون بفتح الواو وهما لغتان مثل البخل والبخل والحزن والحزن كذا قال الفراء وقال الزجاج الولد واحد والولد بالضم جمع مثل أسد واسد

وعنده علم الساعة وإليه ترجعون 85

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وإليه يرجعون بالياء وحجتهم أنه عقيب الخبر عنهم في قوله

فذرهم يخوضوا ويلعبوا فأجروا الكلام على لفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه ليأتلف على نظام واحد

وقرأ الباقون وإليه ترجعون بالتاء على الخطاب وحجتهم قوله قبلها لقد جئناكم بالحق 78

وقيله يرب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون 88

قرأ عاصم وحمزة وقيله يا رب بكسر اللام على معنى وعنده علم الساعة وعلم قيله

وقرأ الباقون بالنصب قال الأخفش منصوب من وجهين أحدهما على العطف على قوله أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم 80 وقيله أي ونسمع قيله وعلى قوله وقال قيله

قال الزجاج الذي اختاره أنا أن يكون نصبا على معنى وعنده

علم الساعة ويعلم قيله فيكون المعنى أنه يعلم الغيب ويعلم قيله

فاصفح عنهم وقل سلم فسوف يعلمون 89

قرأ نافع وابن عامر فسوف تعلمون بالتاء على الخطاب وقرأ الباقون بالياء إخبارا عن غائبين وحجتهم قوله فاصفح عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 644. 656 ﴾

(146/689)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الزخرف

مكية وقد ذكر نظيرتها في الشامي ولا نظير لها في غيره

وكلمها ثماني مئة وثلاث وثلاثون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة حرف

وهي ثمانون وثمان في الشامي وتسع في عدد الباقين

اختلافها آيتان (﴿ حم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ هو مهين ﴾) لم يعدها الكوفي والشامي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضع واحد (﴿ ليصدونهم عن السبيل ﴾) ورؤوس الآي

المبين

2 تعقلون

3 حكيم

4 مسرفين

5 الأولين

6 يستهزئون

7 الأولين

8 العليم

9 تهتدون

10 تخرجون

11 تركبون

12 مقرنين

13 لمنقلبون

14 مبين

15 بالبنين

16 كظيم

17 غير مبين

18 ويسألون

19 يخرصون

20 مستمسكون

21 مهتدون

22 مقتدون

23 كافرون

24 المكذبين

25 تعبدون

26 سيهدين

27 يرجعون

28 مبين

29 كافرون

30 عظيم

31 يجمعون

32 يظهرون

33 يتكئون

34 للمتقين

35 قرين

36 مهتدون

37 القرين

38 مشتركون

39 مبين

40 منتقمون

41 مقتدرون

42 مستقيم

43 تسألون

44 يعبدون

45 العالمين

46 يضحكون

47 يرجعون

48 لمهتدون

49 ينكثون

50 تبصرون

51 مهين

* يبين

52 مقترنين

53 فاسقين

54 أجمعين

55 للآخرين

56 يصدون

57 خصمون

58 لبني إسرائيل

59 يخلفون

60 مستقيم

61 مبين

62 وأطيعون

63 مستقيم

64 أليم

65 لا يشعرون

66 المتقين

67 تحزنون

68 مسلمين

69 تحبرون

70

خالدون

71 تعملون

72 تأكلون

73 خالدون

74 مبلسون

75 الظالمين

76 ماكثون

77 كارهون

78 مبرمون

79 يكتبون

80 العابدين

81 يصفون

82 يوعدون

83 العليم

84 ترجعون

85 يعلمون

86 يؤفكون

87 لا يؤمنون

88 يعلمون

89 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 223 . 224﴾

(147/689)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (والكتاب) من جعل حم قسما كانت الواو للعطف ، ومن قال غير ذلك جعلها للقسم .

قوله تعالى (في أم الكتاب) يتعلق بعلى ، واللام لا تمنع ذلك .

ولدينا بدل من الجار والمجرور ، ويجوز أن يكون حالا من الكتاب أو من أم ، ولا يجوز أن

يكون واحد من الظرفين خبرا ، لأن الخبر قد لزم أن يكون على من أجل اللام ، ولكن يجوز أن كل واحد منهما صفة للخبر فصارت حالا بتقدمها ، و (صفحا) مصدر من معنى تضرب لأنه بمعنى نصفح ، ويجوز أن يكون حالا ، وقرئ بضم الصاد ،

والأشبه أن يكون لغة ، و (أن) بفتح الهمزة بمعنى ، لأن كنتم ، وبكسرها على الشرط ، وما تقدم بدل على الجواب (وكم) نصب ب (أرسلنا) و (بطشا) تمييز وقيل مصدر في موضع الحال من الفاعل: أي أهلكناهم باطشين .

قوله تعالى (وجهه مسودا) اسم كان وخبرها ، ويجوز أن يكون في ظل اسمها مضمرا يرجع على أحدهم ، ووجهه بدل منه ، ويقرآن بالرفع على أنه مبتدأ وخبر في موضع خبر ظل (وهو كظيم) في موضع نصب على الحال من اسم ظل ، أو من الضمير في مسودا .

قوله تعالى (أو من) " من " في موضع نصب تقديره: أتجعلون من ينشأ ، وفي موضع رفع ، أي أو من ينشأ جزءا وولد ، و (في الخصام) يتعلق ب (مبين) .

فإن قلت: المضاف إليه لا يعمل فيما قبله .

قيل: إلا في غير لأن فيها معنى النفى ، فكأنه قال: وهو لا يبين في الخصام ، ومثله مسألة الكتاب أنا زيدا غير ضارب ، وقيل ينتصب بفعل يفسره ضارب ، وكذا في الآية .

قوله تعالى (قل أو لو) على لفظ الامر وهو مستأنف ، ويقرأ " قال " يعنى النذير المذكور .

قوله تعالى (براء) بفتح الباء وهمزة واحدة ، وهو مصدر في موضع اسم الفاعل بمعنى برئ ، وقد قرئ به .

(148/689)

قوله تعالى (على رجل من القريتين) أي من إحدى القريتين مكة والطائف ، وقيل التقدير : على رجل من رجلين من القريتين ، وقيل : كان الرجل من يسكن مكة والطائف ويتردد إليهما ، فصار كأنه من أهلهما .

قوله تعالى (لبيوتهم) هو بدل بإعادة الجار : أي لبيوت من كفر .

والسقف واحد في معنى الجمع ، وسقفا بالضم جمع مثل رهن ورهن .

قوله تعالى (جاءنا) على الإفراد ردا على لفظ من ، وعلى التثنية ردا على القريتين الكافر وشيطانه ، و (المشرقين) قيل أراد المشرق والمغرب ، فغلب مثل القمرين .

قوله تعالى (ولن ينفعكم) في الفاعل وجهان : أحدهما (أنكم) وما عملت فيه : أي لا ينفعكم تأسيكم في العذاب .

والثاني أن يكون ضمير التمني المدلول عليه بقوله : " يا ليت بيني وبينك " : أي لن ينفعكم تمني التباعد ، فعلى هذا يكون أنكم بمعنى لأنكم .

فأما إذ فمشكلة الأمر ، لأنها ظرف زمان ماض ، ولن ينفعكم وفاعله

واليوم المذكور ليس بماض .

وقال ابن جنى في مساءلته أبا على : راجعته فيها مرارا فآخر ما حصل منه أن الدنيا

والأخرى متصلتان ، وهما سواء في حكم الله تعالى وعلمه ، فتكون إذ بدلا من اليوم حتى

كأنها مستقبلة أو كأن اليوم ماض .

وقال غيره : الكلام محمول على المعنى ، والمعنى أن ثبوت ظلمهم عندهم يكون يوم القيامة ،

فكأنه قال : ولن ينفعكم اليوم إذا صح ظلمكم عندكم ، فهو بدل أيضا ، وقال آخرون :

التقدير بعد إذ ظلمتم : فحذف المضاف للعلم به ، وقيل إذ بمعنى أن : أي لأن ظلمتم يقرأ "

إنكم في العذاب " بكسر الهمزة على الاستئناف ، هذا على أن الفاعل التمنى ، ويجوز

على هذا أن يكون الفاعل ظلمكم أو جحدكم ، وقد دل عليه ظلمتم ، ويكون الفاعل

المحذوف من اللفظ هو العامل في إذ لا ضمير الفاعل .

(149/689)

قوله تعالى (أم أنا خير) أم ها هنا منقطعة في اللفظ لوقوع الجملة بعدها ، وهى في المعنى

متصلة معادلة ، إذ المعنى : أنا خير منه أم لا ، أو أينا خير ، و (أسورة) جمع سوار ، وأما

أساورة فجمع أسوار أو جمع أسورة جمع الجمع ، وأصله أساوير فجعلت الياء عوضا من التاء ، وأما (سلفا) فواحد في معنى الجمع مثل الناس والرهط وأما سلفا بضمتين فجمع مثل أسد وأسد ، أو جمع سالف مثل صابر وصبر ، أو جمع سليف مثل رغيف ورغف ، وأما سلفا بضم السين وفتح اللام فقيل أبدل من الضمة

فتحة تخفيفا ، وقيل هو جمع سلفة مثل غرفة وغرف .

قوله تعالى (مثلا) هو مفعول ثان لضرب: أي جعل مثلا ، وقيل هو حال: أي ذكر ممثلا به ، و (يصدون) بضم الصاد يعرضون وبكسرها لغة فيه ، وقيل الكسر بمعنى يضجون .

قوله تعالى (لجعلنا منكم) أي بدلا منكم ، وقيل المعنى: لحولنا بعضكم ملائكة .

قوله تعالى (أن تأتيهم) هو بدل من الساعة بدل الاشتمال .

قوله تعالى (يطاف) تقدير الكلام: يدخلون فيطاف فحذف لفهم المعنى .

قوله تعالى (لايفتر عنهم) هي حال أو خبر ثان ، وكلاهما توكيد .

قوله تعالى (يا مالك) يقرأ " يا مال " بالكسر والضم على الترخيم .

قوله تعالى (إن كان للرحمن ولد) " إن " بمعنى " ما " وقيل شرطية: أي إن قلتم ذلك ، فأنا أول من وحده ، وقيل إن صح ذلك فأنا أول الآنفين من عبادته ، ولن يصح ذلك .

قوله تعالى (وهو الذى في السماء إله) صلة الذى لا تكون إلا جملة ، والتقدير هنا ، وهو الذى هو إله في السماء ، وفي متعلقة بإله: أي معبود في السماء ، ومعبود في الأرض ، ولا يصح أن يجعل إله مبتدأ وفي السماء خبره ، لأنه لا يبقى للذى عائد فهو كقولك: هو الذى في الدار زيد ، وكذلك إن رفعت إلها بالظرف ، فإن جعلت في الظرف ضميرا يرجع على الذى وأبدلت إلها منه جاز على ضعف ، لأن الغرض الكلى إثبات إلهيته لا كونه في السموات والأرض ، وكان يفسد أيضا من وجه آخر وهو قوله " وفي الأرض إله " لأنه معطوف على ما قبله ، وإذا لم تقدر ما ذكرنا صار منقطعا عنه وكان المعنى إن في الأرض إلها .

قوله تعالى (وقيله) بالنصب ، وفيه أوجه: أحدها أن يكون معطوفا على سرهم: أي يعلم سرهم وقيله .

والثانى أن يكون معطوفا على موضع الساعة: أي وعنده أن يعلم الساعة وقيله .

والثالث أن يكون منصوبا على المصدر: أي وقال قيله ويقرأ بالرفع على الابتداء و (يا رب) خبره ، وقيل التقدير: وقيله هو قيل يا رب ، وقيل الخبر محذوف: أي قيله يا رب مسموع أو مجاب ، وقرئ بالجر عطفا على لفظ الساعة ، وقيل هو قسم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 226 . 229 ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الزخرف

[سورة الزخرف (43) : الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (7) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)

"حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ" تقدم إعراب مثله "إِنَّا" إن واسمها "جَعَلْنَاهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "قُرْآنًا" مفعوله الثاني "عَرَبِيًّا" صفة قرآنا والجملة خبر إن والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها "قُرْآنًا" مفعوله الثاني "عَرَبِيًّا" صفة قرآنا والجملة خبر إن والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعل والجملة الاسمية تعليل لا محل لها "وَإِنَّهُ" الواو حرف عطف وإن واسمها "فِي أُمِّ" متعلقان بعلي "الْكِتَابِ" مضاف إليه "لَدَيْنَا" ظرف مكان بدل من في أم "لَعَلِيٌّ" اللام المزحلقة وعلي خبر إن الأول "حَكِيمٌ" خبر ثان لإن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها "أَفَنَضْرِبُ" الهمزة حرف استفهام إنكاري توبيخي والفاء حرف عطف على محذوف ومضارع فاعله مستتر "عَنْكُمُ" متعلقان بالفعل "الذِّكْرَ" مفعول به "صَفْحًا" مفعول مطلق "أَنْ" حرف مصدري "كُنْتُمْ" كان واسمها "قَوْمًا" خبرها "مُسْرِفِينَ" صفة قوما والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بحرف الجر وهما متعلقان بنضرب "وَكَمْ" الواو حرف استئناف وكم خبرية في محل نصب مفعول به مقدم لأرسلنا "أَرْسَلْنَا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْ" حرف جر زائد "نَبِيٍّ" تمييز كم "فِي الْأَوَّلِينَ" متعلقان بالفعل "وَمَا" الواو حرف عطف وما نافية "يَأْتِيهِمْ" مضارع ومفعوله "مِنْ" حرف جر زائد "نَبِيٍّ" مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلَّا" حرف

حصر "كانُوا" كان واسمها "بِهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا حال مستثنى من عموم الأحوال "فَأَهْلَكْنا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله "أَشَدَّ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنْهُمْ" متعلقان بأشد "بَطْشاً" تمييز "وَمَضى" الواو حرف عطف وماض والجملة معطوفة على أهلكنا "مَثَلُ" فاعل "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 9 الى 12]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (12)

"وَلَئِنْ" الواو حرف استئناف واللام موطئة لقسم محذوف وإن شرطية "سَأَلْتَهُمْ" ماض مبني على السكون لاتصاله بتاء الفاعل المتحركة والهاء مفعوله الأول "مَنْ"

اسم استفهام مبتدأ "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات وجملة من خلق في محل نصب مفعول به ثان لسألتهم والجملة الفعلية خبر من "لَيَقُولُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مرفوع وحذفت النون لكراهة توالي الأمثال والواو المحذوفة فاعله والنون للتوكيد والجملة جواب القسم لا محل لها "خَلَقَهُنَّ" ماض ومفعوله "الْعَزِيزُ" فاعل "الْعَلِيمُ" بدل من العزيز والجملة مقول القول "الَّذِي" بدل من العليم "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "الْأَرْضَ" مفعول به أول "مَهْداً" مفعول به ثان والجملة صلة وجعل لكم معطوف على ما قبله "فِيها" متعلقان بمحذوف حال "سُبُلًا" مفعول به "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تَهْتَدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعلكم والجملة الاسمية تعليل "وَالَّذِي" الواو حرف عطف واسم الموصول معطوف على الموصول الأول "نَزَّلَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "مِنَ

السَّماءِ" متعلقان بالفعل "ماءً" مفعول به "بِقَدَرٍ" متعلقان بالفعل أيضا "فَأَنْشَرْنا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "بِهِ" متعلقان بالفعل "بَلْدَةً" مفعول به "مَيْتاً" صفة "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف "تُخْرَجُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة الفعلية مستأنفة "وَالَّذِي" الواو حرف عطف والذي معطوف على ما قبله "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "الْأَزْواجَ" مفعول به "كُلَّها" توكيد "وَجَعَلَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "لَكُمْ"

متعلقان بالفعل "مِنَ الْفُلْكِ" متعلقان بتركبون "وَالْأَنْعامِ" معطوف على الفلك "ما" مفعول به "تَرْكَبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 13 الى 16]

(155/689)

لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (14) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (16)

"لِتَسْتَوُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعله والمصدر المؤول في محل جر بحرف الجر وهما متعلقان بجعل "عَلى ظُهُورِهِ" متعلقان بتستووا "ثُمَّ" حرف عطف "تَذْكُرُوا" مضارع معطوف على ما قبله "نِعْمَةَ" مفعول به "رَبِّكُمْ" مضاف إليه "إِذَا" ظرفية شرطية غير جازمة "اسْتَوَيْتُمْ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "وَتَقُولُوا" معطوف على ما قبله والواو فاعل "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "الَّذِي" مضاف إليه "سَخَّرَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "لَنا" متعلقان بالفعل "هذا" مفعول به "وَما" الواو حالية وما نافية "كُنَّا" كان

واسمها "لَهُ" متعلقان بمقرنين "مُقْرِنِينَ" خبر كنا وجملة ما كنا حالية "وَإِنَّا" الواو حالية وإن واسمها "إِلى رَبِّنا" متعلقان بمنقلبون "لَمُنْقَلِبُونَ" اللام المزحلقة ومنقلبون خبر إن والجملة الاسمية حالية "وَجَعَلُوا" الواو حالية وماض

(156/689)

وفاعله "لَهُ" متعلقان بالفعل وهما بمنزلة المفعول الثاني "مِنْ عِبادِهِ" متعلقان بمحذوف حال "جُزْءاً" مفعول به أول والجملة حالية "إِنَّ الْإِنْسانَ" إن واسمها "لَكَفُورٌ" اللام المزحلقة وكفور خبر إن "مُبِينٌ" صفة كفور والجملة الاسمية تعليل "أَمِ" حرف عطف بمعنى بل "اتَّخَذَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "مِمَّا" متعلقان بالفعل "يَخْلُقُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "بَناتٍ" مفعول به أول والجار والمجرور قبله بمنزلة المفعول الثاني "وَ أَصْفاكُمْ" معطوف على اتخذ "بِالْبَنِينَ" متعلقان بالفعل.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 17 الى 21]

وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَ وَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (19) وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما

عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21)

(157/689)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "بُشِّرَ" ماض مبني للمجهول "أَحَدُهُمْ" نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "بِما" متعلقان بالفعل "ضَرَبَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة ما "لِلرَّحْمنِ" متعلقان بالفعل "مَثَلاً" مفعول به ثان والأول محذوف "ظَلَّ" ماض ناقص "وَجْهُهُ" اسمه "مُسْوَدًّا" خبره والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "وَهُوَ كَظِيمٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبره والجملة حالية "أَوَ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف عطف "مَنْ" موصولية مفعول به لفعل محذوف "يُنَشَّؤُا" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "فِي الْحِلْيَةِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الموصول "وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "فِي الْخِصامِ" متعلقان بمبين "غَيْرُ" خبر المبتدأ "مُبِينٍ" مضاف إليه والجملة حالية "وَجَعَلُوا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله "الْمَلائِكَةَ" مفعوله الأول والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" صفة الملائكة "هُمْ عِبادُ" مبتدأ وخبره "الرَّحْمنِ" مضاف إليه والجملة صلة "إِناثاً" مفعول به ثان "أَشَهِدُوا" الهمزة حرف استفهام توبيخي

وماض وفاعله "خَلْقَهُمْ" مفعوله والجملة مستأنفة لا محل لها "سَتُكْتَبُ" السين للاستقبال ومضارع مبني للمجهول "شَهادَتُهُمْ" نائب فاعل والجملة مستأنفة "وَيُسْئَلُونَ" الواو حرف عطف ومضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَقالُوا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "شاءَ" ماض "الرَّحْمنُ" فاعله والجملة ابتدائية "ما" نافية "عَبَدْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب شرط غير جازم "ما" نافية "لَهُمْ" خبر مقدم "بِذلِكَ" متعلقان بعلم "مِنْ" حرف جر زائد "عِلْمٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "إِنْ" نافية "هُمْ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "يَخْرُصُونَ" مضارع

(158/689)

مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "أَمْ" حرف عطف "آتَيْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "كِتاباً" مفعوله الثاني "مِنْ قَبْلِهِ" متعلقان بمحذوف صفة كتابا والجملة مستأنفة "فَهُمْ" الفاء حرف تعليل ومبتدأ "بِهِ" متعلقان بمستمسكون "مُسْتَمْسِكُونَ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية تعليل.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 22 الى 26]

بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25) وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26)

(159/689)

"بَلْ" حرف عطف وإضراب "قالُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّا" إن واسمها "وَجَدْنا آباءَنا" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "عَلى أُمَّةٍ" متعلقان بمحذوف مفعول به ثان "وَإِنَّا" الواو حرف عطف وإن واسمها "عَلى آثارِهِمْ" متعلقان بما بعدهما "مُهْتَدُونَ" خبر إن والجملة معطوفة على ما قبلها "وَكَذلِكَ" الواو حرف استئناف وجار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "ما" نافية "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بالفعل "فِي قَرْيَةٍ" متعلقان بمحذوف حال "مِنْ" حرف جر زائد "نَذِيرٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "إِلَّا" حرف حصر "قالَ" ماض "مُتْرَفُوها" فاعل مرفوع بالواو وحذفت النون

للإضافة والجملة حالية مستثناة من عموم الأحوال "إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ" سبق إعرابه "قالَ" ماض فاعله مستتر "أَوَلَوْ" الهمزة حرف استفهام والواو حالية ولو شرطية "جِئْتُكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة حال "بِأَهْدى" متعلقان بالفعل "مِمَّا" متعلقان بأهدى "وَجَدْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "آباءَكُمْ" مفعول به وجملة أولو مقول القول "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِنَّا" إن واسمها "بِما" متعلقان بكافرون "أُرْسِلْتُمْ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بالفعل "كافِرُونَ" خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "فَانْتَقَمْنا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل "فَانْظُرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر مقدم "كانَ" ماض ناقص "عاقِبَةُ" اسمها "الْمُكَذِّبِينَ" مضاف إليه وجملة فانظر جواب شرط مقدر لا محل لها و

(160/689)

جملة كيف كان سدت مسد مفعول انظر "وَإِذْ" الواو حرف استئناف وظرف زمان "قالَ إِبْراهِيمُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "لِأَبِيهِ" متعلقان بالفعل "وَقَوْمِهِ"

معطوف على أبيه "إِنَّنِي بَراءٌ" إن واسمها وخبرها والنون للوقاية والجملة الاسمية مقول القول "مِمَّا" متعلقان ببراء "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 27 الى 31]

إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (30) وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

"إِلَّا" حرف استثناء "الَّذِي" مستثنى بإلا "فَطَرَنِي" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "فَإِنَّهُ"

(161/689)

الفاء حرف تعليل وإن واسمها "سَيَهْدِينِ" السين للاستقبال ومضارع مرفوع والنون للوقاية والياء المحذوفة لمراعاة الفاصلة مفعول به والفاعل مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليلية "وَجَعَلَها" الواو حرف عطف وماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "كَلِمَةً" مفعول به ثان "باقِيَةً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي عَقِبِهِ" متعلقان بباقية "لَعَلَّهُمْ" لعل

واسمها "يَرْجِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعل والجملة الاسمية تعليل "بَلْ" حرف إضراب "مَتَّعْتُ" ماض وفاعله "هؤُلاءِ" مفعول به والجملة مستأنفة "وَآباءَهُمْ" معطوف على ما قبله "حَتَّى" حرف غاية وجر "جاءَهُمُ" ماض ومفعوله "الْحَقُّ" فاعل مؤخر وأن المضمرة والفعل في تأويل مصدر في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بالفعل "وَرَسُولٌ" معطوف على ما قبله "مُبِينٌ" صفة رسول "وَلَمَّا" الواو حرف استئناف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَهُمُ" ماض ومفعوله "الْحَقُّ" فاعل مؤخر والجملة في محل جر بالإضافة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "هذا سِحْرٌ" مبتدأ وخبره والجملة مقول القول "وَإِنَّا" الواو حالية وإن واسمها "بِهِ" متعلقان بكافرون "كافِرُونَ" خبر إن مرفوع بالواو والجملة حال "وَقالُوا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "لَوْلا" حرف تحضيض "نُزِّلَ" ماض مبني للمجهول "هذا" نائب فاعل "الْقُرْآنُ" بدل "عَلى رَجُلٍ" متعلقان بالفعل "مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ" متعلقان بمحذوف صفة رجل "عَظِيمٍ" صفة ثانية وجملة لولا نزل مقول القول.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 32 الى 34]

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32) وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (34)

"أَهُمْ" الهمزة حرف استفهام وهم مبتدأ "يَقْسِمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "رَحْمَتَ" مفعول به "رَبِّكَ" مضاف إليه والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "نَحْنُ" مبتدأ "قَسَمْنا" ماض وفاعله والجملة خبر "بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ" ظرف مكان ومفعول به "فِي الْحَياةِ" متعلقان بالفعل "الدُّنْيا" صفة الحياة والجملة الاسمية مستأنفة "وَرَفَعْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "بَعْضَهُمْ" مفعول به "فَوْقَ" ظرف مكان "بَعْضٍ" مضاف إليه "دَرَجاتٍ" تمييز "لِيَتَّخِذَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل "بَعْضَهُمْ" فاعل "بَعْضاً" مفعول به أول "سُخْرِيًّا" مفعوله الثاني "وَرَحْمَتُ" الواو حالية ومبتدأ "رَبِّكَ" مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر والجملة الاسمية حال "مِمَّا" متعلقان بخير "يَجْمَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "وَلَوْلا" الواو حرف استئناف ولولا شرطية غير جازمة "أَنْ يَكُونَ النَّاسُ" مضارع ناقص منصوب بأن

و الناس اسمه "أُمَّةً" خبره "واحِدَةً" صفة والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل رفع مبتدأ خبره محذوف وجوبا وجملة لولا مستأنفة "لَجَعَلْنا" اللام واقعة في جواب شرط غير جازم وماض وفاعله والجملة جواب شرط لا محل لها "لِمَنْ" متعلقان بالفعل والجار والمجرور بمنزلة المفعول الثاني "يَكْفُرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "بِالرَّحْمنِ" متعلقان بالفعل "لِبُيُوتِهِمْ" بدل من لمن "سُقُفاً" مفعول به أول "مِنْ فِضَّةٍ" متعلقان بمحذوف صفة لسقفا "وَمَعارِجَ" معطوف على سقفا "عَلَيْها" متعلقان بيظهرون "يَظْهَرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة معارج "وَلِبُيُوتِهِمْ" جار ومجرور معطوفان على ما قبلهما "أَبْواباً" معطوف على سقفا "وَسُرُراً" معطوف على ما سبق "عَلَيْها" متعلقان بما بعدهما "يَتَّكِؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة سررا .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 35 الى 38]

وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)

"وَزُخْرُفاً" معطوف على سررا "وَإِنْ" الواو حرف استئناف وإن نافية "كُلُّ" مبتدأ "ذلِكَ" مضاف إليه "لَمَّا" حرف حصر بمعنى إلا "مَتاعُ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "الْحَياةِ" مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة "وَالْآخِرَةُ" الواو حالية ومبتدأ "عِنْدَ" ظرف مكان "رَبِّكَ" مضاف إليه "لِلْمُتَّقِينَ" متعلقان بمحذوف خبر والجملة حال "وَمَنْ" الواو حرف استئناف واسم شرط مبتدأ "يَعْشُ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وهو فعل الشرط "عَنْ ذِكْرِ" متعلقان بالفعل "الرَّحْمنِ" مضاف إليه "نُقَيِّضْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من "لَهُ" متعلقان بالفعل "شَيْطاناً" مفعول به "فَهُوَ" حرف عطف ومبتدأ "لَهُ" متعلقان بقرين "قَرِينٌ" خبر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَإِنَّهُمْ" الواو حالية وإن واسمها "لَيَصُدُّونَهُمْ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع والواو فاعله والهاء مفعول به والجملة خبر إن والجملة الاسمية حال "عَنِ السَّبِيلِ" متعلقان بالفعل "وَيَحْسَبُونَ" الواو للحال ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "إِنَّهُمْ" أن واسمها "مُهْتَدُونَ" خبرها وأن وما بعدها سد مسد مفعولي يحسبون "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَنا" ماض ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها "يا" حرف تنبيه "لَيْتَ" حرف مشبه بالفعل "بَيْنِي" ظرف متعلق بمحذوف خبر ليت المقدم "وَبَيْنَكَ" معطوف على بيني "بُعْدَ" اسم ليت المؤخر "الْمَشْرِقَيْنِ" مضاف إليه والجملة الاسمية يا ليت مقول القول "فَبِئْسَ" الفاء الفصيحة وفعل ماض لإنشاء الذم "الْقَرِينُ" فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 39 الى 43]

(165/689)

وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (40) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)

(166/689)

"وَلَنْ" الواو حرف استئناف ولن حرف ناصب "يَنْفَعَكُمُ" مضارع منصوب والكاف مفعوله "الْيَوْمَ" ظرف زمان "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان بدل من اليوم "ظَلَمْتُمْ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة وجملة لن ينفعكم مستأنفة "أَنَّكُمْ" أن واسمها "فِي الْعَذابِ" متعلقان بما بعدهما "مُشْتَرِكُونَ" خبر أن مرفوع بالواو والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل رفع فاعل ينفعكم "أَفَأَنْتَ" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف استئناف وأنت مبتدأ "تُسْمِعُ الصُّمَّ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر أنت والجملة الاسمية مستأنفة "أَوْ" حرف عطف "تَهْدِي الْعُمْيَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَمَنْ" حرف عطف ومن معطوف على العمي "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "فِي ضَلالٍ" خبره "مُبِينٍ" صفة ضلال "فَإِمَّا" الفاء حرف استئناف وإما حرف شرط جازم "نَذْهَبَنَّ" مضارع مبني على الفتح وهو في محل جزم فعل الشرط والجملة ابتدائية "بِكَ" متعلقان بالفعل "فَإِنَّا" الفاء واقعة في جواب الشرط وإن واسمها "مِنْهُمْ" متعلقان بما بعدهما "مُنْتَقِمُونَ" خبرها مرفوع بالواو والجملة في محل جزم جواب الشرط "أَوْ" حرف عطف "نُرِيَنَّكَ" مضارع معطوف على نذهبن "الَّذِي" مفعول به ثان "وَعَدْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ" كإعراب الآية السابقة "فَاسْتَمْسِكْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "بِالَّذِي" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط لا محل لها "أُوحِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة

"إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "إِنَّكَ" إن واسمها "عَلى صِراطٍ" جار ومجرور خبر "مُسْتَقِيمٍ" صفة والجملة الاسمية تعليل .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 44 الى 47]

(167/689)

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (44) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (46) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (47)

"وَإِنَّهُ" الواو حرف عطف وإن واسمها "لَذِكْرٌ" اللام المزحلقة وذكر خبر "لَكَ" متعلقان بذكر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلِقَوْمِكَ" معطوف على لك "وَسَوْفَ" حرف استئناف وحرف استقبال "تُسْئَلُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة "وَسْئَلْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة اسأل معطوفة على ما قبلها "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بالفعل "مِنْ رُسُلِنا" متعلقان بمحذوف حال "أَجَعَلْنا" الهمزة حرف استفهام إنكاري وماض وفاعله والجملة في محل نصب مفعول به ثان لاسأل "مِنْ دُونِ" متعلقان بيعبدون

"الرَّحْمنِ" مضاف إليه "آلِهَةً" مفعول به "يُعْبَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صفة آلهة "وَلَقَدْ" الواو حرف عطف واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا مُوسى" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب القسم لا محل لها "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان بالفعل أيضا "وَمَلَائِهِ" معطوف على فرعون "فَقالَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "إِنِّي رَسُولُ" إن واسمها وخبرها والجملة مقول القول وجملة قال معطوفة على ما قبلها "رَبِّ" مضاف إليه "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء "فَلَمَّا" حرف استئناف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "إِذا" فجائية "هُمْ" مبتدأ "مِنْها" متعلقان بما بعدهما "يَضْحَكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ وجملة جواب الشرط لا محل لها لأنها جواب لما .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 48 الى 51]

وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا

هُمْ يَنْكُثُونَ (50) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

(169/689)

"وَمَا" الواو حرف استئناف وما نافية "نُرِيهِمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "مِنْ" زائدة "آيَةٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به ثان "إِلَّا" حرف حصر "هِيَ أَكْبَرُ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية صفة "مِنْ أُخْتِهَا" متعلقان بأكبر "وَأَخَذْنَاهُمْ" الواو حالية وماض وفاعله ومفعوله والجملة حالية "بِالْعَذَابِ" متعلقان بالفعل "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَرْجِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعلهم والجملة الاسمية تعليلية "وَقَالُوا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "يَا أَيُّهَا" يا حرف نداء ومنادى "السَّاحِرُ" صفة أيها "ادْعُ" أمر فاعله مستتر "لَنَا" متعلقان بالفعل "رَبَّكَ" مفعول به "بِمَا" متعلقان بادع "عَهِدَ" ماض فاعله مستتر "عِنْدَكَ" ظرف مكان والجملة صلة "إِنَّنَا" إن واسمها "لَمُهْتَدُونَ" اللام المزحلقة ومهتدون خبرها المرفوع بالواو وما بعد القول في محل نصب مقول القول "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما ظرفية شرطية غير جازمة "كَشَفْنَا" ماض وفاعله "عَنْهُمُ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "الْعَذَابَ"

مفعول به "إِذا" فجائية "هُمْ" مبتدأ "يَنْكُثُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ "وَنادى" الواو حرف استئناف وماض "فِرْعَوْنُ" فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "فِي قَوْمِهِ" متعلقان بالفعل "قالَ" ماض فاعله مستتر وجملة قال تفسيرية "يا قَوْمِ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وجملة النداء مقول القول "أَلَيْسَ" الهمزة حرف استفهام وماض ناقص "لِي" جار ومجرور خبره المقدم "مُلْكُ" اسمه المؤخر "مِصْرَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَهذِهِ" الواو حالية ومبتدأ "الْأَنْهارُ" بدل "تَجْرِي" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حالية "مِنْ تَحْتِي"

(170/689)

متعلقان بالفعل "أَفَلا" الهمزة حرف استفهام والفاء استئنافية ولا نافية "تُبْصِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 52 الى 57]

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ

(56)

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57)

(171/689)

"أَمْ" حرف إضراب "أَنَا" مبتدأ "خَيْرٌ" خبره والجملة مستأنفة "مِنْ هذَا" متعلقان بخير "الَّذِي" بدل من اسم الإشارة "هُوَ" مبتدأ "مَهِينٌ" خبره والجملة الاسمية صلة "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "يَكادُ" مضارع ناقص اسمه مستتر "يُبِينُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر يكاد وجملة لا يكاد معطوفة على ما قبلها "فَلَوْلا" الفاء استئنافية ولولا حرف تحضيض "أُلْقِيَ" ماض مبني للمجهول "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "أَسْوِرَةٌ" نائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها "مِنْ ذَهَبٍ" متعلقان بمحذوف صفة أسورة "أَوْ" حرف عطف "جاءَ" ماض "مَعَهُ" ظرف مكان "الْمَلائِكَةُ" فاعل "مُقْتَرِنِينَ" حال منصوبة بالياء والجملة معطوفة على ما قبلها "فَاسْتَخَفَّ" الفاء حرف استئناف وماض فاعله مستتر "قَوْمَهُ" مفعول به والجملة مستأنفة "فَأَطاعُوهُ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّهُمْ" إن واسمها "كانُوا" كان واسمها "قَوْماً" خبرها وجملة كانوا خبر إنهم والجملة الاسمية تعليل "فاسِقِينَ" صفة لقوما "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية

شرطية غير جازمة "آسَفُونا" ماض وفاعله ومفعوله "انْتَقَمْنا" ماض وفاعله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل "فَأَغْرَقْناهُمْ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "أَجْمَعِينَ" توكيد منصوب بالياء "فَجَعَلْناهُمْ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله الأول "سَلَفاً" مفعوله الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها "وَمَثَلًا" معطوف على سلفا "لِلْآخِرِينَ" متعلقان بمحذوف صفة لمثلا "وَلَمَّا" الواو حرف استئناف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "ضُرِبَ" ماض مبني للمجهول "ابْنُ" نائب فاعل "مَرْيَمَ" مضاف إليه "مَثَلًا" مفعول به ثان والجملة في محل جر بالإضافة "إِذا" فجائية "قَوْمُكَ" مبتدأ "مِنْهُ" متعلقان

(172/689)

بما بعدهما "يَصِدُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل جر بالإضافة.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 58 الى 62]

وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ (59) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ

يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62)

"وَقالُوا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "آلِهَتُنا" الهمزة حرف استفهام ومبتدأ "خَيْرٌ" خبر والجملة مقول القول "أَمْ" حرف عطف "هُوَ" معطوف على آلهتنا "ما" نافية "ضَرَبُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله

والجملة مستأنفة "لَكَ" متعلقان بالفعل "إِلَّا" حرف حصر "جَدَلًا" مفعوله

(173/689)

الواو حرف عطف وإن واسمها "لَعِلْمٌ" اللام المزحلقة وعلم خبر إن "لِلسَّاعَةِ" متعلقان بمحذوف صفة علم والجملة معطوفة على ما قبلها "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "تَمْتَرُنَّ" مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "بِها" متعلقان بالفعل "وَاتَّبِعُونِ" الواو حرف عطف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة للتخفيف مفعول به "هذا" مبتدأ "صِراطٌ" خبر "مُسْتَقِيمٌ" صفة والجملة الاسمية تعليلية وجملة اتبعون مقول قول محذوف "وَلا" الواو حرف عطف ولا ناهية "يَصُدَّنَّكُمُ"

مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد وهو في محل جزم بلا الناهية والكاف مفعوله "الشَّيْطانُ" فاعل "إِنَّهُ" إن واسمها "لَكُمْ" متعلقان بعدو "عَدُوٌّ" خبر إن "مُبِينٌ" صفة عدو والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 63 الى 66]

وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (66)

(174/689)

"وَلَمَّا" الواو حرف استئناف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَ" ماض "عِيسى" فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها "قَدْ" حرف تحقيق "جِئْتُكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "بِالْحِكْمَةِ" متعلقان بالفعل "وَلِأُبَيِّنَ" الواو حرف عطف ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام

والجار والمجرور معطوفان على ما قبلهما "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "بَعْضَ" مفعول به "الَّذِي" مضاف إليه "تَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "فِيهِ" متعلقان بالفعل والجملة

(175/689)

صلة "فَاتَّقُوا" الفاء حرف عطف وأمر وفاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَأَطِيعُونِ" معطوف على فاتقوا "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "هُوَ" مبتدأ "رَبِّي" خبره والجملة خبر إن وجملة إن الله مستأنفة لا محل لها "وَرَبُّكُمْ" معطوف على ربي "فَاعْبُدُوهُ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "هذا صِراطٌ" مبتدأ وخبره "مُسْتَقِيمٌ" صفة والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "فَاخْتَلَفَ" الفاء حرف استئناف وماض "الْأَحْزابُ" فاعل والجملة مستأنفة "مِنْ بَيْنِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "فَوَيْلٌ" الفاء حرف استئناف ومبتدأ "لِلَّذِينَ" خبره والجملة مستأنفة لا محل لها "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ عَذابِ" متعلقان بمحذوف خبر ثان "يَوْمٍ" مضاف إليه "أَلِيمٍ" صفة عذاب "هَلْ" حرف استفهام "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "إِلَّا" حرف حصر "السَّاعَةَ" مفعول به "أَنْ تَأْتِيَهُمْ" مضارع منصوب بأن والهاء مفعوله والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل

بدل من الساعة "بَغْتَةً" حال "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "لا" نافية "يَشْعُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حالية.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 67 الى 72]

الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (67) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (71)

(176/689)

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72)

"الْأَخِلَّاءُ" مبتدأ "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان وإذ ظرف لما مضى من الزمان "بَعْضُهُمْ" مبتدأ "لِبَعْضٍ" متعلقان بعدو "عَدُوٌّ" خبر بعضهم والجملة الاسمية خبر المبتدأ الأول "إِلَّا" أداة استثناء "الْمُتَّقِينَ" مستثنى بإلا منصوب بالياء والجملة الاسمية الأخلاء مستأنفة لا محل لها "يا عِبادِ" يا أداة نداء ومنادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة وياء المتكلم في محل جر بالإضافة والجملة مقول القول "لا" نافية "خَوْفٌ" مبتدأ "عَلَيْكُمُ" خبر

المبتدأ "الْيَوْمَ" ظرف زمان "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "أَنْتُمْ" مبتدأ "تَحْزَنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "الَّذِينَ" بدل من عبادي "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "وَكانُوا" الواو حالية وكان واسمها "مُسْلِمِينَ" خبرها والجملة حالية "ادْخُلُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "الْجَنَّةَ" مفعول به والجملة مقول القول المحذوف "أَنْتُمْ" مبتدأ "وَأَزْواجُكُمْ" معطوف على المبتدأ "تُحْبَرُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ "يُطافُ" مضارع مبني للمجهول "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل وهما في موضع نائب فاعل "بِصِحافٍ" متعلقان

(177/689)

بالفعل "مِنْ ذَهَبٍ" صفة صحاف "وَأَكْوابٍ" معطوف على صحاف "وَفِيها" الواو حرف عطف وفيها جار ومجرور خبر مقدم "ما" مبتدأ مؤخر "تَشْتَهِيهِ" مضارع ومفعوله "الْأَنْفُسُ" فاعل مؤخر والجملة صلة "وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ" الواو حرف عطف ومضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَأَنْتُمْ" الواو حرف عطف ومبتدأ "فِيها" متعلقان بما بعدهما "خالِدُونَ" خبر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَتِلْكَ" الواو حرف

استئناف ومبتدأ "الْجَنَّةُ" خبر والجملة مستأنفة "الَّتِي" صفة الجنة "أُورِثْتُمُوها" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والواو حاصلة عن الإشباع وها مفعوله الثاني والجملة صلة "بِما" متعلقان بالفعل "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كان.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 73 الى 80]

لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (73) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (74) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (77)

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

(178/689)

"لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "فِيها" متعلقان بالخبر نفسه "فاكِهَةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة "كَثِيرَةٌ" صفة "مِنْها" متعلقان بما بعدهما "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة فاكهة "إِنَّ الْمُجْرِمِينَ" إن واسمها "فِي عَذابِ" متعلقان بالخبر

"جَهَنَّمَ" مضاف إليه "خالِدُونَ" خبر إن والجملة مستأنفة "لا" نافية "يُفَتَّرُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة حالية "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "فِيهِ" متعلقان بما بعدهما "مُبْلِسُونَ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية حالية "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "ظَلَمْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "وَلَكِنْ" الواو حرف عطف ولكن حرف استدراك "كانُوا" كان واسمها "هُمُ" ضمير فصل "الظَّالِمِينَ" خبر كانوا والجملة معطوفة على ما قبلها "وَنادَوْا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا مالِكُ" يا حرف نداء ومنادى مبني على الضم في محل نصب وجملة النداء في محل نصب مفعول به "لِيَقْضِ" مضارع مجزوم باللام وعلامة جزمه حذف حرف العلة "عَلَيْنا" متعلقان بالفعل "رَبُّكَ" فاعل مؤخر "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّكُمْ ماكِثُونَ" إن واسمها وخبرها والجملة مقول القول "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "جِئْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب القسم لا محل لها "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل "وَلَكِنَّ" الواو حالية ولكن حرف مشبه بالفعل "أَكْثَرَكُمْ" اسمها "لِلْحَقِّ" متعلقان بما بعدهما "كارِهُونَ" خبر لكن والجملة الاسمية حالية "أَمْ" حرف إضراب "أَبْرَمُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَمْراً" مفعول به "فَإِنَّا" الفاء حرف عطف وإن واسمها "مُبْرِمُونَ" خبرها المرفوع بالواو والجملة معطوفة على ما قبلها "أَمْ" حرف إضراب بمعنى بل "يَحْسَبُونَ"

مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "أَنَّا" أن واسمها "لا" نافية "نَسْمَعُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "سِرَّهُمْ" مفعول به والجملة خبر أن "وَنَجْواهُمْ" معطوف على سرهم وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي يحسبون "بَلى" حرف جواب "وَرُسُلُنا" الواو حالية ومبتدأ "لَدَيْهِمْ" ظرف مكان "يَكْتُبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 81 الى 85]

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (81) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنْ" شرطية "كانَ" ماض ناقص "لِلرَّحْمنِ" جار ومجرور خبر مقدم "وَلَدٌ" اسم كان المؤخر والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها "فَأَنَا" الفاء واقعة في جواب الشرط ومبتدأ "أَوَّلُ" خبره "الْعابِدِينَ" مضاف إليه والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "رَبِّ" مضاف إليه "السَّماواتِ" مضاف إليه أيضا "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "رَبِّ الْعَرْشِ" بدل من رب السموات "عَمَّا" متعلقان بالمفعول المطلق "يَصِفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "فَذَرْهُمْ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعل مستتر ومفعول به والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "يَخُوضُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل "وَيَلْعَبُوا" معطوف على ما قبله "حَتَّى" حرف غاية وجر "يُلاقُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعله والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بيخوضوا "يَوْمَهُمُ" مفعول به "الَّذِي" صفة يومهم "يُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة "وَهُوَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "الَّذِي" خبره والجملة مستأنفة "فِي السَّماءِ" متعلقان بخبر محذوف "إِلهٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صلة. "وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ" معطوف "وَهُوَ" الواو حرف استئناف وهو مبتدأ "الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ" خبران والجملة مستأنفة "وَتَبارَكَ" الواو حرف استئناف وماض "الَّذِي" فاعله والجملة مستأنفة "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم

"مُلْكُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة الاسمية صلة "وَما" معطوف على السموات "بَيْنَهُما" ظرف مكان "وَعِنْدَهُ" الواو حرف عطف وعنده ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "عِلْمُ" مبتدأ مؤخر "السَّاعَةِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على

(181/689)

ما قبلها "وَإِلَيْهِ" الواو حرف عطف وإليه متعلقان بما بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 86 الى 89]

وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

(182/689)

"وَلا" الواو حرف استئناف ولا نافية "يَمْلِكُ" مضارع "الَّذِينَ" فاعله والجملة مستأنفة "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بيدعون "الشَّفَاعَةَ" مفعول به "إِلَّا" حرف استثناء "مِنْ" مستثنى بإلا "شَهِدَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال "وَلَئِنْ" الواو حرف استئناف واللام موطئة للقسم المحذوف "إن" شرطية "سَأَلْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله وهو في محل جزم فعل الشرط والجملة ابتدائية "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "خَلَقَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية سدت مسد المفعول الثاني لسألتهم "لَيَقُولُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون الأخيرة نون التوكيد "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ خبره محذوف والجملة الاسمية مقول القول وجملة ليقولن جواب قسم مقدر لا محل لها "فَأَنَّى" الفاء الفصيحة واسم استفهام في محل نصب حال "يُؤْفَكُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَقِيلِهِ" الواو حرف جر وقسم والجار والمجرور متعلقان بفعل قسم محذوف "يا رَبِّ" يا حرف نداء ومنادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة "إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ" إن واسمها وخبرها وجملة النداء مقول القول "لا" نافية "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "وَقُلْ" الواو

حرف عطف وأمر فاعله مستتر "سَلامٌ" خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية مقول القول والجملة الفعلية معطوفة على اصفح "فَسَوْفَ" الفاء حرف عطف وسوف حرف تسويف واستقبال "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع و

الواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 194. 207﴾

(183/689)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الزخرف

ذكر فِيهَا ثَمَانِيَة أَحَادِيث

1159 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا وضع رجله فِي الركاب قَالَ (بِسم الله) فَإِذا اسْتَوَى عَلَى الدَّابَّة قَالَ (الْحَمد لله عَلَى كل حَال (سُبْحَانَ الَّذِي سخر لنا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقرنين وَإِنَّا إِلَى رَبنَا لمنقلبون) وكبر ثَلَاثًا وَهَلل ثَلَاثًا

وَكَانَ إِذا ركب السَّفِينَة قَالَ (بِسم الله مجْراهَا مرْسَاها)

قلت

أما الأول فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي الْجِهَاد وَالتِّرْمِذِيّ فِي الدَّعْوَات وَالنَّسَائِيّ فِي السّير من حَدِيث أبي إِسْحَاق عَن عَلّي بن ربيعَة قَالَ شهدت عَلّي بن أبي طَالب أُتِي بدَابَّة ليرْكبهَا فَلَمَّا وضع رجله فِي الركاب قَالَ بِسم الله فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظهرهَا قَالَ الْحَمد لله ثمَّ قَالَ (سُبْحَانَ الَّذِي سخر لنا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقرنين وَإِنَّا إِلَى رَبنَا لمنقلبون) ثمَّ قَالَ الله أكبر ثَلَاث مَرَّات ثمَّ قَالَ الْحَمد لله ثَلَاث مَرَّات ثمَّ قَالَ سُبْحَانَك إِنّي ظلمت نَفسِي فَاغْفِر لي فَإِنَّهُ لَا يغْفر الذنُوب إِلَّا أَنْت ثمَّ ضحك فَقيل يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ من أَي شَيْء ضحِكت قَالَ رَأَيْت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فعل كَمَا فعلت ثمَّ ضحك فَقلت يَا رَسُول الله من أَي شَيْء ضحِكت فَقَالَ (إِن رَبك تَعَالَى يعجب من عبيده إِذا قَالَ اغْفِر لي ذنُوبِي يعلم أَنه لَا يغْفر الذنُوب غَيْرِي) انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّانِي عشر من الْقسم الْخَامِس وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

(184/689)

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي كتاب الدُّعَاء لَهُ حَدثنَا مُحَمَّد بن عُثْمَان بن أبي شيبَة ثَنَا مُحَمَّد بن عمرَان بن أبي لَيْلَى ثني أبي عَن ابْن أبي لَيْلَى عَن الحكم عَن عَلّي بن ربيعَة عَن عَلّي بن أبي طَالب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا وضع رجله فِي الركاب إِلَى آخر لفظ المُصَنّف

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ بِسَنَد السّنَن وَلَفظ المُصَنّف بتَمَامِهِ

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَد السّنَن وَمَتْنهَا

وَحَدِيث السَّفِينَة غَرِيب لَكِن رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من قَوْله عَلَيْهِ السَّلَام لَا من فعله إِذْ لَا يعرف أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رَكب السَّفِينَة قَالَ الطَّبَرَانِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن مُوسَى الْأَيْلِي الْمُفَسّر ثَنَا مُحَمَّد بن يَحْيَى الْأَيْلِي ثَنَا عبد الحميد بن الْحسن الْهلَالِي عَن نهشل عَن الضَّحَّاك بن مُزَاحم عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أَمَان لأمتي من الْغَرق إِذا ركبُوا الْفلك أَن يَقُولُوا بِسم الله وَمَا قدرُوا الله حق قدره وَالْأَرْض جَمِيعًا قَبضته يَوْم الْقِيَامَة وَالسَّمَوَات مَطْوِيَّات بيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يشركُونَ بِسم الله مجْراهَا وَمرْسَاهَا إِن رَبِّي لغَفُور رَحِيم انْتَهَى

وَرَوَاهُ فِي كتاب الدُّعَاء لَهُ حَدثنَا عبد الله بن وهيب الْغَزّي ثَنَا مُحَمَّد بن أبي السّري الْعَسْقَلَانِي ثَنَا سيف بن الْحجَّاج الْكُوفِي عَن يَحْيَى بن الْعَلَاء البَجلِيّ عَن طَلْحَة بن عبيد الله بن كريز عَن الْحُسَيْن بن عَلّي عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَحوه سَوَاء

وَحَدِيث الدَّابَّة فِي مُسلم بعضه رَوَاهُ فِي كتاب الْحَج من حَدِيث عَلّي الْأَزْدِيّ عَن ابْن عمر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا اسْتَوَى عَلَى بعيره خَارِجا إِلَى سفر كبر ثَلَاثًا ثمَّ قَالَ سُبْحَانَ الَّذِي سخر لنا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقرنين وَإِنَّا إِلَى رَبنَا لمنقلبون مُخْتَصر

1160 - قَوْله

عَن الْحُسَيْن بن عَلّي أَنه رَأَى رجلا ركب دَابَّة فَقَالَ (سُبْحَانَ الَّذِي سخر لنا هَذَا) فَقَالَ الْحُسَيْن أَبِهَذَا أمرْتُم قَالَ وَبِمَ أمرنا قَالَ أَن تذكرُوا نعْمَة ربكُم كَأَنَّهُ ترك التَّحْمِيد فَنَبَّهَهُ عَلَيْهِ قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي كتاب الدُّعَاء لَهُ حَدثنَا عبد الله بن أَحْمد بن حَنْبَل ثَنَا تَمِيم بن الْمُنْتَصر ثَنَا إِسْحَاق الْأَزْرَق ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن أبي هَاشم الواسِطِيّ عَن أبي مخلد عَن الْحُسَيْن بن عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما أَنه رَأَى رجلا ركب دَابَّة فَقَالَ سُبْحَانَ الَّذِي سخر لنا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقرنين فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْن بن عَلّي وَبِهَذَا أمرت قَالَ فَكيف أَقُول قَالَ يَقُول الْحَمد لله الَّذِي هَدَانِي للإِسْلَام وَمن عَلّي بِمُحَمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَجَعَلَنِي فِي خير أمة أخرجت للنَّاس فَهَذِهِ النّعْمَة يَقُول يبْدأ بِهَذَا لقَوْله تَعَالَى ثمَّ تَذكرُوا نعْمَة ربكُم إِذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سخر لنا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقرنين انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن بشار ثَنَا عبد الرَّحْمَن ثَنَا سُفْيَان عَن أبي هَاشم بِهِ

1161 - قَوْله

قَالَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه اخْشَوْشِنُوا وَاخْشَوْشِبُوا وَتَمَعْدَدُوا

(186/689)

قلت رَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث ثَنَا أَبُو بكر ابْن عَيَّاش عَن عَاصِم بن أبي النجُود عَن أبي الْعَدَّبَس الْأَسدي عَن عمر أَنه قَالَ اخْشَوْشِنُوا وَاخْشَوْشِبُوا وَتَمَعْدَدُوا وَاجْعَلُوا الرَّأْس رَأْسَيْنِ وَلَا تِلثوا بدار معْجزَة وَأَصْلحُوا مَثَاوِيكُمْ وَأَخِيفُوا الْهَوَام قبل أَن تُخِيفَكُمْ انْتَهَى

وَرَوَى ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع التَّاسِع من الْقسم الرَّابِع عَن قَتَادَة قَالَ سَمِعت أَبَا عُثْمَان النَّهْدِيّ يَقُول أَتَانَا كتاب عمر بن الْخطاب وَنحن بِأَذربِيجَان مَعَ عتبَة بن فرقد أما بعد فَاتَّزِرُوا وَارْتَدوا وَانْتَعِلُوا إِلَى أَن قَالَ وَاخْشَوْشنُوا وَاخْشَوْشِبُوا وَاخْلَوْلقُوا وَارْمُوا الْأَغْرَاض وانزلوا نَزْوًا مُخْتَصرا

1162 - الحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَو وزنت الدُّنْيَا عِنْد الله جنَاح بعوضة لما سَقَى

الْكَافِر مِنْهَا شربة مَاء)

قلت رُوِيَ من حَدِيث سهل بن سعد وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس وَمن حَدِيث ابْن عمر

أما حَدِيث سهل بن سعد فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن ماجة فِي الزّهْد من حَدِيث أبي حَازِم عَن سهل بن سعد قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَو كَانَت الدُّنْيَا تعدل عِنْد الله جنَاح بعوضة مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شربة) انْتَهَى

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ من حَدِيث عبد الحميد بن سُلَيْمَان عَن أبي حَازِم بِهِ وَقَالَ صَحِيح غَرِيب من هَذَا الْوَجْه وَفِي الْبَاب عَن أبي هُرَيْرَة انْتَهَى

(187/689)

وَرَوَاهُ ابْن ماجة من حَدِيث زَكَرِيَّا بن مَنْظُور عَن أبي حَازِم بِهِ وَلَفظه قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِذِي الحليفة فَإِذا هُوَ بشَاة ميتَة شَائِلَة رجلهَا فَقَالَ (أَتَرَوْنَ هَذِه هنيَّة عَلَى صَاحبهَا وَلَو كَانَت الدُّنْيَا تزن عِنْد الله جنَاح بعوضة مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَة أبدا) انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الرقَاق بِسَنَد ابْن ماجة وَمَتنه إِلَّا أَنه قَالَ شربة عوض

قَطْرَة وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَتعقبه الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره فَقَالَ وزكَرِيا بن مَنْظُور ضَعَّفُوهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي كِتَابه بِسَنَد التِّرْمِذِيّ وَأعله بِعَبْد الحميد بن سُلَيْمَان وَقَالَ تَابعه زَكَرِيَّا بن مَنْظُور وَهُوَ دونه انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالسبْعين عَن أبي معشر عَن سعيد الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا بِلَفْظ التِّرْمِذِيّ

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث مُحَمَّد بن عمار بن جَعْفَر بن سعد عَن صَالح مولَى التَّوْأَمَة عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا نَحوه إِلَّا أَنه قَالَ مَا أعْطى كَافِرًا مِنْهَا شَيْئًا

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة مُجَاهِد من حَدِيث الْحسن بن عمَارَة عَن الحكم عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا بِلَفْظ الْمُصَنّف لم يذكر الْمَاء وَأَعَادَهُ فِي تَرْجَمَة الْمعَافى بن عمرَان وَقَالَ لم يكْتُبهُ إِلَّا من حَدِيث الْحسن بن عمَارَة انْتَهَى

(188/689)

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ الْقُضَاعِي فِي مُسْند الشهَاب من حَدِيث مُحَمَّد ابْن أَحْمد بن أبي عون عَن أبي مُصعب عَن مَالك عَن نَافِع عَن ابْن عمر مَرْفُوعا بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

قَالَ ابْن طَاهِر فِي كَلَامه عَلَى أَحَادِيث الشهَاب هَذَا لَا أصل لَهُ من حَدِيث مَالك وَالْحمل فِيهِ عَلّي ابْن أبي عون وَحَدِيث ابْن عَبَّاس فِيهِ الْحسن بن عمَارَة وَهُوَ ضَعِيف وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة طريقاه ضعيفان وَحَدِيث سهل أَيْضا طريقاه ضعيفان وَله طَرِيق ثَالِث رَوَاهُ صَالح بن مُوسَى عَن أبي حَازِم وَصَالح هَذَا من ولد طَلْحَة بن عبيد الله لَيْسَ بِشَيْء فِي الحَدِيث انْتَهَى

1163 - الحَدِيث الثَّالِث

فِي الحَدِيث إِن موت الْفجأَة رَحْمَة لِلْمُؤمنِ وَأَخْذَة أَسف للْكَافِر

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده من حَدِيث عَائِشَة مَرْفُوعا موت الْفجأَة رَاحَة لِلْمُؤمنِ وَأَخْذَة أَسف للْكَافِر انْتَهَى

وَقد تقدم فِي طه

1164 - الحَدِيث الرَّابِع

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما قَرَأَ عَلَى قُرَيْش إِنَّكُم وَمَا تَعْبدُونَ من دون الله حصب جَهَنَّم امتعضوا من ذَلِك امتعاضا شَدِيدا فَقَالَ عبد الله بن الزبعْرَى يَا مُحَمَّد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجَمِيع الْأُمَم فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (هُوَ لكم ولآلهتكم وَلِجَمِيعِ الْأُمَم) فَقَالَ خصمتك وَرب الْكَعْبَة أَلَسْت تزْعم أَن عِيسَى بن مَرْيَم نَبِي وَتثني عَلَيْهِ خيرا وَعَلَى أمه وَقد علمت أَن النَّصَارَى يَعْبُدُونَهُمَا وعزير يعبد وَالْمَلَائِكَة يعْبدُونَ فَإِن كَانَ هَؤُلَاء فِي

النَّار فقد رَضِينَا أَن نَكُون نَحن وَآلِهَتنَا مَعَهم فَفَرِحُوا وَضَحِكُوا وَسكت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَنْزل الله إِن الَّذين سبقت لَهُم منا الْحُسْنَى الْآيَة

(189/689)

قلت غَرِيب وَتقدم نَحوه فِي سُورَة الْأَنْبِيَاء

1165 - الْحَدِيث الْخَامِس

فِي الْحَدِيث إِن عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام ينزل عَلَى ثنية الْبَيْت الْمُقَدّس يُقَال لَهَا أَفِيق وَعَلِيهِ ممصرتان وَشعر رَأسه دَهِين وَبِيَدِهِ حَرْبَة وَبِهَا يقتل الدَّجَّال فَيَأْتِي بَيت الْمُقَدّس وَالنَّاس فِي صَلَاة الصُّبْح وَالْإِمَام يؤم بهم فَيتَأَخَّر الإِمَام فَيقدمهُ عِيسَى ويُصلي خَلفه عَلَى شَرِيعَة مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ يقتل الْخِنْزِير وَيكسر الصَّلِيب وَيخرب البيع وَالْكَنَائِس وَيقتل النَّصَارَى إِلَّا من آمن بِهِ

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَهُوَ فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ هَكَذَا من غير سَنَد وَهُوَ مفرق فِي غُضُون الْأَحَادِيث

فَقَوله ينزل عَلَى ثنية أَفِيق عِنْد الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْفِتَن من حَدِيث عُثْمَان بن أبي الْعَاص سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (يكون للْمُسلمين ثَلَاثَة أَمْصَار)

وَفِيه فَينْحَاز الْمُسلمُونَ إِلَى عقبَة أفِيق

وَقَوله وَعليَّة ممصرتان عِنْد ابْن حبَان وَالْحَاكِم وَأحمد عَن أبي هُرَيْرَة وَفِيه فَإِذا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رجل مَرْبُوع إِلَى الْحمرَة وَالْبَيَاض عَلَيْهِ ثَوْبَان مُمَصَّرَان الحَدِيث وَمَعْنَاهُ أَي مصبوغتان بِالْمِصْرِ وَهُوَ الْمغرَة

وَقَوله وَالنَّاس فِي صَلَاة الصُّبْح فَفِي ابْن ماجة فِي حَدِيث طَوِيل عَن أبي أُمَامَة فَبَيْنَمَا إِمَامهمْ يُصَلِّي بهم الصُّبْح إِذْ نزل عِيسَى بن مَرْيَم فَرجع الإِمَام يمشي الْقَهْقَرَى لِيَتَقَدَّم عِيسَى فَيَضَع يَده بَين كَتفيهِ ثمَّ يَقُول لَهُ تقدم فصل فَإِنَّهَا لَك أُقِيمَت فَيصَلي بهم إِمَامهمْ الحَدِيث

وَقَوله فَيقْتل الْخِنْزِير وَيكسر الصَّلِيب فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن أبي هُرَيْرَة

(190/689)

1166 - الحَدِيث السَّادِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا ينْزع رجل فِي الْجنَّة ثَمرهَا إِلَّا نبت مَكَانهَا مِثْلَاهَا)

قلت رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث ثَوْبَان وَقد تقدم فِي سُورَة الْبَقَرَة

1167 - قَوْله

قيل لِابْنِ عَبَّاس قرَأَ ابْن مَسْعُود وَنَادَوْا يَا مَال فَقَالَ مَا أشغل أهل النَّار عَن التَّرْخِيم

وَعنهُ إِنَّمَا يُجِيبهُمْ مَالك بعد ألف سنة

قلت

الأول غَرِيب وَرَوَى البُخَارِيّ فِي بَدْء الْخلق فِي بَاب إِذا قَالَ أَحدكُم آمين وَالْمَلَائِكَة فِي السَّمَاء فَوَافَقت إِحْدَاهمَا الْأُخْرَى وَمُسلم فِي من حَدِيث يعلي بن أُمَيَّة قَالَ سَمِعت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقْرَأ عَلَى الْمِنْبَر وَنَادَوْا يَا مَالك قَالَ سُفْيَان فِي قِرَاءَة عبد الله يَا مَال انْتَهَى

وَأما الثَّانِي فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه عَن سُفْيَان عَن عَطاء بن السَّائِب عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى وَنَادَوْا يَا مَالك قَالَ مكث عَنْهُم ألف سنة ثمَّ يَقُول إِنَّكُم مَاكِثُونَ وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَهُوَ عِنْد الطَّبَرِيّ من قَول النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَسَيَأْتِي بعده

1168 - الْحَدِيث السَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يلقى عَلَى أهل النَّار الْجُوع حَتَّى يعدل مَا هم فِيهِ من الْعَذَاب فَيَقُولُونَ ادعوا مَالِكًا فَيدعونَ مَالِكًا ليَقْضِ علينا رَبك)

(191/689)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي صفة جَهَنَّم من حَدِيث قُطْبَة بن عبد الْعَزِيز عَن الْأَعْمَش عَن شمر بن عَطِيَّة عَن شهر بن حَوْشَب عَن أم الدَّرْدَاء عَن أبي الدَّرْدَاء قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يلقى عَلَى أهل النَّار الْجُوع فيعدل مَا هم فِيهِ من الْعَذَاب فَيَسْتَغِيثُونَ فَيُغَاثُونَ بِطَعَام من ضَرِيع لَا يسمن وَلَا يُغني من جوع فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَام ذِي غُصَّة فَيذكرُونَ أَنهم كَانُوا يجيرون الْغصص فِي الدُّنْيَا بِالشرابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشرابِ فَيدْفَع إِلَيْهِم الْحَمِيم بِكَلَالِيب الْحَدِيد فَإِذا دنت من وُجُوههم شَوَتْ وُجُوههم فَإِذا دخلت بطونهم قطعت مَا فِي بطونهم فَيَقُولُونَ ادعوا خَزَنَة جَهَنَّم فَيَقُولُونَ أَلم تَكُ تَأْتِيكُمْ رسلكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بلَى قَالُوا فَادعوا وَمَا دُعَاء الْكَافرين إِلَّا فِي ضلال قَالَ فَيَقُولُونَ ادعوا مَالِكًا فَيَقُولُونَ ادعوا مَالِكًا فَيَقُولُونَ يَا مَالك ليَقْض علينا رَبك قَالَ فَيُجِيبهُمْ إِنَّكُم مَاكِثُونَ قَالَ الْأَعْمَش نبئت أَن بَين دُعَائِهِمْ وَإِجَابَة مَالك إِيَّاهُم أَلف عَام فَيَقُولُونَ ادعوا ربكُم فَلَا أحد خير من ربكُم فَيَقُولُونَ رَبنَا غلبت علينا شِقْوَتنَا وَكُنَّا قوما ضَالِّينَ رَبنَا أخرجنَا مِنْهَا فَإِن عدنا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ فَيُجِيبهُمْ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تكلمُون فَعِنْدَ ذَلِك يَيْأَسُوا من كل خير وَيَأْخُذُونَ فِي الزَّفِير وَالْحَسْرَة وَالْوَيْل) انْتَهَى وَسكت عَنهُ لَكِن ذكر عَن بَعضهم أَنهم لَا يَرْفَعُونَهُ قَالَ وَقُطْبَة بن عبد الْعَزِيز ثِقَة عِنْد أهل الْحَدِيث انْتَهَى

(192/689)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي الْبَعْث والنشور من حَدِيث قُطْبَة بن عبد الْعَزِيز بِهِ مَرْفُوعا بِلَفْظ التِّرْمِذِيّ

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث شريك عَن الْأَعْمَش بِهِ مَوْقُوفا وَفِيه إِن بَين دُعَائِهِمْ وَإِجَابَة مَالك إِيَّاهُم ألف عَام من كَلَام أبي الدَّرْدَاء

وَرَوَاهُ من حَدِيث قُطْبَة بن عبد الْعَزِيز بِهِ مَرْفُوعا وَسَاقه فِيهِ من قَول النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا من قَول الْأَعْمَش كَمَا هُوَ عِنْد التِّرْمِذِيّ

1169 - الحَدِيث الثَّامِن

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ (سُورَة الزخرف كَانَ مِمَّن يُقَال لَهُ يَوْم الْقِيَامَة يَا عباد لَا خوف عَلَيْكُم الْيَوْم وَلَا أَنْتُم تَحْزَنُونَ ادخُلُوا الْجنَّة بِغَيْر حِسَاب)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ سُورَة الزخرف) إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان

وَبِسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 249 . 258 ﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الزخرف

قوله تعالى : (أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ) ، الآية/ 18 ، فيه دليل على إباحة الحلي للنساء والإجماع منعقد عليه ، والأخبار في ذلك لا تحصى «1» .

قوله تعالى : (بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ - إلى قوله - أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ) ، الآية/ 22 و24 :

فيه دلالة على إبطال التقليد ، لذمه إياهم على تقليد آبائهم ، وتركهم النظر فيما دعاهم الرسول عليه الصلاة والسلام إليه .

قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) الآية/ 86 :

يدل على معنيين :

أحدهما : أن الشهادة بالحق غير نافعة إلا مع العلم ، فإن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة

المقالة .

والثاني : أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها ، أن يكون الشاهد عالما بها ، ونحوه ما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال :

«إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 369 ﴾

---

(1) انظر كتاب الهداية لأبي حنيفة ، والأم للشافعي ، لتوضيح هذه المسألة .

(2) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وابن حميد ، والطبراني في المعجم الأوسط .

(194/689)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الزّخرف» (43)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً» (11) أي أحيينا ونشرت الأرض أي حييت قال الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبا للميّت الناشر

(609) .

«وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ»

(12 - 13) التذكير ل «ما» . .

«وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» (13) ضابطين ، يقال : فلان مقرن لفلان أي ضابط له «1» مطيق ،

قال الكميت :

ركبتم صعبتى أشرا وحينا ولستم للصّعاب بمقرنينا

«2» [826] .

«مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً» (15) أي نصيبا»

.

---

(1) . - 8 «مقرنين . . . ضابط له» : أخذ البخاري هذا الكلام بذكره «و قال غيره» وأشار إليه ابن حجر فقال : هو قول أبى عبيدة استشهد بقول الكميت وأورد العجز دون الصدر (فتح الباري 8/ 437) .

(2) . - 826 : فى القرطبي 16/ 66 والعجز فى فتح الباري .

(3) . - 11 «جزءا . . نصيبا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (7/ 438) .

«أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ» (18) يعنى الحلي وهذه الجواري . .

«عَلى أُمَّةٍ» (23) على ملّة واستقامة . .

«وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ» (26) معناها وقال إبراهيم . .

«إِنَّنِي بَراءٌ «1»» (26) مجازها بلغة علوّية يجعلون الواحد والاثنين والثلاثة من الذكر والأنثى على لفظ واحد وأهل نجد يقولون : أنا برىء وهى بريئة ونحن براء للجميع . .

«وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ» (31) معناها هلا . .

«سُقُفاً «2» مِنْ فِضَّةٍ» (33) واحدها سقف مجازها مجاز رهن ورهن قال قعنب بن أم صاحب :

بانت سعاد وأمسى دونها عدن وغلقت عندها من قبلك الرّهن

(105) ومن قال سقفا فهو جمع السّقفة . .

«وَمَعارِجَ» (33) المعارج الدّرج قال جندل بن المثنّى «3» «4» :

---

(1) . - 4 - 5 «إننى براء . . . براء» : روى ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 436) .

(2) . - 10 «و من قال سقفا» : قرأ ابن كثير وأبو عمرو سقفا بفتح السين وإسكان

القاف على الواحد ومعناه الجمع . . . وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع (القرطبي 16/ 84) .

(3) . - 827 : لعله فى كلمة فى ديوان أمية بن أبى الصلت رقم 9 .

(4) . - 11 «جندل بن المثنى» : هو جندل بن المثنى الطهوي غلبت عليهم أمهم طهية ، وهو شاعر راجز إسلامى يهاجى الراعي وانظر ترجمته فى السمط ص 644 .

(196/689)

يا ربّ ربّ البيت ذى المعارج «1» [828] .

«وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً» (36) تظلم عينه عنه «2» كأن عليها غشاوة ، يقول : من يمل عنه عاشيا إلى غيره ، وهو أن يركبه على غير تبين قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

«3» [829] .

«فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ» (41) مجازها فإن نذهبن بك . .

«أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ» (51 - 52) مجازها بل أنا خير من هذا .

---

(1) . - 828 : لعله من أرجوزة بعضها فى العيني 3/ 457 وذكرها العيني قائلا : أقول قائله هو أبو جندل الطهوي (هكذا) كذا قال أبو حاتم فى كتاب الطير وهو من قصيدة جيمية من الرجز المسدس يصف بها الجراد إلخ والشطر فى الطبري 25/ 28 .

(2) . - 2 «تظلم عينه عنه» : قال ابن قتيبة (القرطين 2/ 123) أي تظلم بصره عنه هذا قول أبى عبيدة قال الفراء ومن يعش . . . أي يعرض عنه . . . ولا أرى القول إلا قول أبى عبيدة ولا أرى أحدا يجيز عشوت عن الشيء أعرضت عنه . . . قال الأزهرى : اغفل القتيبي موضع الصواب واعترض مع غفلته على الفراء يرّد عليه . . . وقال وهذا (بعد كلام طويل) كله صحيح وإنما أتى القتيبي فى وهمه الخطأ من جهة أنه لم يفرق بين عشا إلى المنار وعشا عنها ولم يعلم أن كل واحد منهما ضد الآخر من باب الميل إلى الشيء والميل عنه كقولك عدلت إلى بنى فلان إذا قصدتهم وعدلت عنهم إذا مضيت عنهم وكذلك مللت إليهم وملت عنهم ومضيت إليهم ومضيت عنهم وهكذا قال أبو إسحق الزجاج فى قوله . . . من يعش . . . كما قال الفراء . . . وقال الأزهرى : وأبو عبيدة صاحب بالغريب وأيام العرب وهو بليد النظر فى باب النحو ومقاييسه (اللسان - عشا) وانظر ما ورد من هذا الكلام فى فتح الباري (8/ 435) .

(3) . - 829 : والبيت فى ديوانه 86 والكتاب 1/ 396 والشنتمرى 1/ 445

والقرطين والسمط ص 346 ، والصحاح واللسان والتاج (عشا) والقرطبي 16/ 89 والعيني 4/ 439 والخزانة 3/ 660 وشواهد الكشاف 98 .

(197/689)

«فَلَمَّا آسَفُونا» (55) أغضبونا ويقال : قد أسفت غضبت . .

«إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ «1»» (57) من كسر الصاد فمجازها يضجّون ومن ضمها فمجازها يعدلون . .

«وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» (63) البعض ها هنا الكل «2» قال لبيد بن ربيعة :

ترّاك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها

الموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض «3» . .

«تُحْبَرُونَ»

(70) تسرّون محبور مسرور قال العجّاج :

فالحمد للّه الذي أعطى الحبر

---

(1) . - 2 «إذا . . . يصدون» : قال الطبري : (25/ 46 - 47 واختلفت القراء

فى قراءة قوله «يصدون» فقرأته عامة قراء المدينة وجماعة من قراء الكوفة يصدون بضم الصاد وقرأ ذلك بعض قراء الكوفة والبصرة يصدون بكسر الصاد واختلف أهل العلم بكلام العرب فى فرق ما بين ذلك إذا قرأ بضم الصاد وإذا قرأ بكسرها فقال بعض نحوى البصرة ووافقه عليه بعض الكوفيين هما لغتان بمعنى واحد . . . إلخ ووافق البخاري على تفسير هذا أو أخذه عنه كما أشار إليه ابن حجر (فتح الباري 8/ 436) وروى القرطبي (16/ 103) تفسير أبى عبيدة هذا .

(2) . – 4 «البعض . . . الكل» : قال القرطبي (16/ 108 : ومذهب أبى عبيدة أن البعض بمعنى الكل . [. . . . .]

(3) . – 4 – 7 «البعض . . . دون بعض» : قال الطبري (25/ 50 : وقد قيل معنى البعض فى هذا الموضع بمعنى الكل وجعلوا ذلك نظير قول لبيد . البيت . وقالوا الموت . . . .

وليس لما قال هذا القائل كبير معنى لأن عيسى إنما قال لهم ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه لأنه قد كان بينهم اختلاف كثير فى أسباب دينهم ودنياهم فقال لهم «أبين لكم بعض ذلك . . .»

وأما قول لبيد «أو تعتلق بعض النفوس» فإنه إنما قال ذلك أيضا كذلك لأنه أراد أو تعتلق

نفسه حمامها فنفسه من بين النفوس لا شك أنها بعض لا كل . والطبري يريد قول أبى عبيدة وقد مضى رده على أبى عبيدة قبل هذا . كما فى استشهاده بهذا البيت .

(198/689)

«وَأَكْوابٍ» (71) الأكواب الأبارق التي لا خراطيم لها «1» . .

«أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً» (79) أم أحكموا . .

«قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ «2»» (81) «إن» فى موضع «ما» فى قول بعضهم : ما كان للرحمن ولد والفاء مجازها مجاز الواو : ما كان للرحمن ولد وأنا أول العابدين قال الفرزدق :

أولئك قوم إن هجونى هجوتهم وأعبد إن أهجو عبيدا بدارم

«3» «4» [831]

---

(1) . - 1 «والأكواب . . . لها» : هذا الكلام فى البخاري وأشار إليه ابن حجر قائلا هو قول أبى عبيدة بلفظه (فتح الباري 437) .

(2) . - 3 - 5 «ان فى . . . العابدين» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 437) .

(3) . - 831 : اللسان (عبد) وفتح الباري 8/ 427 .

(4) . - 833 : اللسان (كوب) والقرطبي 16/ 114 .

(199/689)

وقال آخرون : مجازها : إن كان فى قولكم للرحمن ولد فأنا أول العابدين أي الكافرين بذلك والجاحدين لما قلتم وهى من «عبد يعبد «1» عبدا» . .

«وَقِيلِهِ يا رَبِّ» (88) نصبه فى قول أبى عمرو على «نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ» (80) وقيله ونسمع قيله وقال غيره : هى فى موضع الفعل : ويقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 202. 207 ﴾

---

(1) . - 1 - 2 «وقال . . . يعبد» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 427) .

(200/689)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن حم وهى السورة التي يذكر فيها «الزخرف»

[سورة الزخرف (43) : آية 5]

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5)

قوله سبحانه : أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ [5] وهذه استعارة .

ويقال : ضربت عنه وأضربت عنه بمعنى واحد .

وسواء قولك ذهبت عنه صفحا ، وأعرضت عنه صفحا ، وضربت وأضربت عنه صفحا ، ومعنى صفحا هاهنا أي أعرضت عنه بصفحة وجهى .

والمراد - والله أعلم - أفنعرض عنكم بالذّكر ، فيكون الذّكر مرورا بصفحه عنكم من أجل إسرافكم وبغيكم ؟ أي لسنا نفعل ذلك ، بل نوالى تذكيركم لتتذكروا ، ونتابع زجركم لتنزجروا . ولما كان سبحانه يستحيل أن يصف نفسه بإعراض الصفحة ، كان الكلام محمولا على وصف الذّكر بذلك على طريق الاستعارة .

[سورة الزخرف (43) : آية 11]

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11)

وقوله سبحانه : وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ

[11] وهذه استعارة. وقد مضى مثلها فيما تقدم، إلا أن ها هنا إبدال لفظة مكان لفظة. لأن ما مضى «1» من نظائر هذه الاستعارة إنما يكون يرد بلفظ إحياء الأرض بعد موتها. وورد ذلك ها هنا بلفظ الإنشار بعد الموت. وهو أبلغ. لأن الإنشار صفة تختص بها الإعادة بعد الموت، والإحياء قد يشترك فيه ما يعاد من الحيوان بعد موته، وما يعاد من النبات والأشجار بعد تسلبه «2» وجفوفه. يقال: قد أحيا اللّه الشجر.

---

(1) فى الأصل. (لأن أمضى) وهو تحريف من الناسخ.

(2) هكذا بالأصل. ولعلها (تلبده).

(201/689)

كما يقال: قد أحيا البشر. ولا يقال: أنشر اللّه النبات، كما يقال: أنشر الأموات.

[سورة الزخرف (43): الآيات 26 الى 28]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)

وقوله سبحانه: وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [28] وهذه استعارة. لأن الكلام الذي هو الأصوات المقطّعة، والحروف المنظومة، لا يجوز عليه البقاء. وإنما

المراد - والله أعلم - أن إبراهيم عليه السلام جعل الكلمة التي قالها لأبيه وقومه وهى قوله : إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ [26 ، 27] باقية فى عقبه ، بأن وصّى بها ولده ، وأمرهم أن يتواصوا بها ما تناقلتهم الأصلاب ، وتناسختهم الأدوار .

وهذه الكلمة هى «1» كلمة الإخلاص والتوحيد . والله أعلم .

[سورة الزخرف (43) : آية 45]

وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

وقوله سبحانه : وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ [45] وهذا الكلام أيضا داخل فى قبيل الاستعارة . لأن مسألة الرسل الذين درجت قرونهم وخلت أزمانهم غير ممكنة . وإنما المراد - والله أعلم - واسأل أصحاب من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أو استعلم ما فى كتبهم ، وتعرّف حقائق سننهم .

وذلك على مثال : وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ «2» .

وقال بعضهم : مسألة الرسل ها هنا بمعنى المسألة عنهم ، عليهم السلام ، وعمّا أتوا به من شريعة ، وأقاموه من عماد سنّة . وقد يأتى فى كلامهم : اسأل كذا . أي اطلبه ، واسأل عنه .

قال سبحانه : وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا «3» أي مسئولا عنه .

---

(1) فى الأصل «و هى» والواو زائدة من الناسخ . [. . . . .]

(2) سورة يوسف . الآية رقم 82 .

(3) سورة الإسراء . الآية رقم 34 .

وقال تعالى : وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ «1» أي سئل عن قتلها ، وطلب بدمها . فكأنه تعالى قال لنبيه عليه السلام : واسأل عن سنن الأنبياء قبلك ، [و] «2» شرائع الرسل الماضين أمامك ، فإنك لا تجد فيها إطلاقا لعبادة معبود إلا اللّه سبحانه . وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير . هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 300 . 302 ﴾

---

(1) سورة التكوير . الآيتان 8 ، 9 .

(2) ليست الواو بالأصل ، وقد وضعناها لأن السياق يقتضيها عطفا على ما قبلها .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الزخرف

بدأت سورة الزخرف بالآيات " حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " . تكرار عروبة القرآن توكيد للرسالة التى حملها العرب ، وهم فى هذا العصر فقراء إلى هذا التوكيد ، فقد نبتت بينهم نابتة تحسب أن العرب أغنياء عن الإسلام ! ويوم يستغنى العرب عن القرآن فسيكونون أذل شعوب الأرض ! ! إن هذا القرآن عالى المكانة ملىء بالحكمة ، وليس له فى العلم الإلهى نظير ، على أن الأمم التى كفرت بالوحى خسرت دنياها وأخراها معا ، ولن يكون العرب خيرا منها مآلا . ويكشف أول السورة عن التناقض العقلى الذى وقع فيه المشركون . فهم يعترفون بأن الله هو الخالق " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم " . " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون " . فإذا كان الله العزيز العليم هو الذى خلقهم وخلق السموات والأرض ، فما وظيفة الأوثان التى عبدوها ؟ وما شغلها ؟ وما قيمة أحجار منحوتة لا تعى ولا تضر ولا تنفع ؟ أولى بهم أن يعرفوا الله وحده ، وأن يتجهوا إليه وحده " الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون " . وقد ادعى المشركون أن لله أولادا هن أجزاء منه ! ! وهذا

كذب ، فليس لله جزء ، ولا يوصف بأنه ولد أو والد . إنه فرد صمد . وقد رد فى هذه السورة على ذلك الزعم قائلا: " قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين * سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون " ! .

(204/689)

والغريب أن العرب فى جاهليتهم كانوا يزدرون الإناث ، ومع ذلك فقد نسبوا الإناث إلى الله ، وترفعوا هم عنها " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون " . وفى سورة الإسراء يقول "أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما " . ومضى المشركون فى كذبهم فزعموا أن الله هو الذى أراد لهم ذلك الإشراك ! وساقهم إليه ، فكشف أن كفرهم بلادة وعناد " وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين " . إن جحد الحق ينشأ عن شهوات غالبة لا عن أدلة محترمة وكثيرا ما تكمن فى النفوس أهواء تصدها عن تصديق البديهيات . وقد كشف القرآن الكريم خبايا المشركين عندما قال ! "كذبت ثمود بالنذر

* فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر * أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر " . إن طبائع الحسد والحقد هى التى تتحرك وراء التكذيب والخصومة ، والمتتبع لسير الأنبياء جميعا يلحظ عمل هذه الغرائز الخسيسة فى النيل منهم واعتراض طريقهم . فبعد أن قالوا فى سورة ص " أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب " ، قالوا هنا " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " ! والقريتان مكة والطائف ، والسؤال لماذا لم ينزل القرآن على عمدة من هؤلاء العمد ؟ إن المنطق الطبقى هو المسيطر عليهم ، كأن عمد القرى هم الذين يختارون لأداء رسالات الإصلاح والارتقاء ونقل الأمم من الظلام إلى النور . وقديما اعترض بنو إسرائيل على تنصيب " طالوت " ملكا عليهم " قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال " . وجاء الرد عليهم " إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم

والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء " .

إن تنوير الأقطار وتحرير العبيد ونقل الأجيال من القاع إلى القمة يتطلب معادن خاصة ورجالا من طراز نفسى رفيع ، ولا يرشح لذلك شخص لديه مال كثير ينفقه فى مآربه

وملذاته . والبشر من الناحية المادية يرأس بعضهم بعضا ، فالمهندس يأمر العامل والقائد يأمر الجندى . ولكن ما علاقة ذلك بزكاة الروح وسناء الضمير وزراعة الخير فى أرجاء الحياة ؟ ولذلك يقول الله تعالى ردا على مطالب الجاهليين بتعيين أحد العمد نبيا : " أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون" . إن تفاوت مكانة الناس فى وظائف الدنيا لازم فى ميادين الصناعة والزراعة وغيرهما ولا دخل له فى رسالات المصطفين الأخيار الذين يصنعهم الله على عينه ليربوا البشر ويرفعوا مستواهم . وهناك أمر آخر : أن ما يظفر به البعض من متاع الدنيا لا دلالة فيه على خير ، فقد يبسط الله الرزق لقوم هم حطب جهنم ! ويبتلى بالعبودية أمثال عمار بن ياسر وبلال بن رباح ، وهم من ملوك الجنة ، وقد عانوا بلاء شديدا فى هذه الحياة . بل بين الله هنا : أنه لولا أن يخدع الناس جميعا بتنعيم الكفار لجعل الحظوظ تنهمر على أعداء الله ! ! " ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين " . قد يجد المبطلون أعوانا يتجاوبون معهم وينصرون باطلهم بالمقالات المزوقة حينا وبالأسنة المشرعة حينا آخر . وفى هذا جاءت الآية " وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا " . ويقول الله فى هذه السورة " ومن يعش عن ذكر

الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين " . وهؤلاء القرناء يؤلفون الجماعات التى تقاوم الحق وتزرع الأشواك فى طريقه ، وقد أمر النبى عليه

(206/689)

الصلاة والسلام أن يتصدى لهؤلاء ويتشبث هو وقومه بالوحى الذى شرفهم الله به " فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم * وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون " .

(207/689)

إن هذا الإسلام سياج الحياة للعرب الذين حملوه للناس ، وبلسانهم نزل كتابه – وهم إذا أخلصوا له – صاروا العالم الأول ! وأمسوا قادة الأرض . فهذا الكتاب صحح ما عرا الديانات الأولى من أخطاء ، ورسم للناس كافة المنهاج الذى يكسبون به الحياتين ، فليس فى رسالة موسى وعيسى وغيرهما أن لله شركاء وشفعاء . " واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون " ؟ وإطفاء لفتنة الغنى والملك

والجبروت ، ساق الله هنا قصة فرعون مع موسى . إن فرعون لم يكن عمدة لبلدة كالطائف ، بل كان ملكا لمصر مهد الحضارات ومجرى النيل العظيم ، وقد جاء موسى يطلب منه أن يؤمن بالله ويكف مظالمه عن المستضعفين . ولكن الرجل المغرور أبى " ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين " ؟ وكذب فرعون موسى وطارده وقومه حتى بلغوا البحر الأحمر . وعبر بنو إسرائيل البحر يقودهم موسى ، وأراد فرعون اللحاق بهم فغرق ومن معه جميعا ولما أحس فرعون الغرق: " قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين " . عن ابن عباس ، لما أغرق الله فرعون ونطق بكلمة التوحيد جعل جبريل يأخذ من طين البحر المستقر فى قعره ويدسه فى فمه ، ثم لفظت الأمواج جثة الملك السابق ، ورأى الناس على شاطى البحر رفاتا مكسوا بالوحل وفما مليئا بالطين ! أين أساور الذهب فى معصميه ؟ اختفت مع الألوهية المزورة . وهكذا يختفى المبطلون من مغانى الحياة الدنيا لتستقبلهم عرصات الحساب فى الدار الآخرة ! إن حقائق الرجولة شىء والأساور والقلادات شىء آخر ! أذكر أنى رأيت رجلا عملاقا

يرتدى الزى الفرنجى ، وسلسلة من الذهب تلتف حول عنقه الغليظ . فاستغربت لأن عهدى بالذهب أنه حلية النساء . سألت رجلا يعرف هذا العملاق ، ما خلقه ؟ فقال قليل الوفاء كثير الملق ! قلت: هذا هو الظن به ، وتذكرت قول الشاعر: لا بأس بالقوم من طول ومن عظم – جسم البغال وأحلام العصافير ! !

وطوت السورة قصة موسى وفرعون لتذكر بعدها شيئا من سيرة عيسى بن مريم الذى زعم البعض أنه إله . فقد شغب بعض هواة الجدل ، وأثاروا لغطا حول مصيره عندما قال تعالى للمشركين " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها " . وبديهة اللغة والعقل أن الآية فى الأصنام المعبودة ، فجبريل الذى عبد إلها ثالثا باسم الروح القدس ، وعيسى الذى عبد إلها ثانيا باسم الإله الابن لا صلة لهما بالآية ، وكلمة " ما " فى " إنكم وما تعبدون " لغير العقلاء . ولذلك قال تعالى "ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون " . وعيسى بلا ريب من سادات أهل الجنة ، ويظهر أن فتنة مولده من غير أب رشحت لاعتباره ابنا لله ! ! وأشاعت ذلك فى أقطار كثيرة ، فشاء الله أن يعيده إلى الأرض مرة أخرى ليكذب بنفسه أنه إله ويؤكد أنه عبد مرسل . وهذا معنى الآية " وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم" . وقد تواترت السنن

على نزول عيسى وانضمامه إلى العالم الإسلامى مؤكدا رسالة التوحيد . . إن الناس قسمان: عارف بالله معرفة صحيحة ، أو مفتر عليه ، والفصل بينهما ليس هنا . ولذلك جاء على لسان عيسى " إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم " . وعند قيام الساعة يقال للمؤمنين " ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون " . أما غيرهم فلهم مصير أسود " إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون " . لقد كانوا فى

الدنيا يكيدون للحق ويمكرون بأهله فماذا جنوا ؟ " أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون " . وذلك كقوله " إنهم يكيدون كيدا * وأكيد كيدا * فمهل الكافرين أمهلهم رويدا " . إن جماهير كثيرة توارثت الضلال وأصرت عليه ، وعلى الدعاة أن يثابروا فى إرشادهم دون يأس أو ملل ، ولذلك ختمت السورة بهاتين الآيتين " وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 379 . 383 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التسعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الزخرف

وحتى الآية ﴿ 25 ﴾ من نفس السورة

(4/690)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/690)

قوله تعالى ﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (7) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له مقاليد الأمور كلها فهو يعلي من شاء وإن طال سفوله (الرحمن) الذي نال بره جميع خلقه على حسب منازلهم عنده (الرحيم) الذي يقبل بمن شاء إلى ما يقربه لديه زلفى وإن وصل في البعد إلى الحد الأقصى) حم (حكمة محمد التي أوحاها الله إليه .

(6/690)

ولما قدم آخر تلك أنه جعل ما أوحي إليه (صلى الله عليه وسلم) نوراً يهدي به من يشاء ، وكان قد تقرر في السورة الماضية ما له من الجلالة بأناه تنزيله ، وختم بأنه لا أمر يخرج عنه سبحانه إشارة إلى أنه يردهم عن غيبهم وكانوا يمكرون أن يرجعوا ، فاقتضى الحال غاية التأكيد ، وكان إقسام الله تعالى بالأشياء إعلاماً بجلالة ما فيها من الحكم وتنبيهاً على النظر فيما أودعها من الأسرار التي أهلها للإقسام بها ، افتتح هذه بتعظيم هذا الوحي بالإقسام به حثاً على تدبر ما فيه من الوجوه التي أوجبت أن يكون قسماً ثم تعظيم أثره . فقال :

﴿ والكتاب ﴾ أي وإعجاز هذا الجامع لكل خير وغير ذلك من أنواع عظمته ﴿ المبين ﴾

أي البين في نفسه ، المبين لجميع ما فيه من العظمة والشرائع والسنن ، واللطائف والمعارف والمنن ، بياناً عظيماً شافياً .

(7/690)

ولما كانوا ينكرون أن يرجعوا به عما هم فيه ، وأن يكون من عند الله ، أكد ما يكذبهم من قوله فيما مضى آخر الشورى أنه نور وهدىً وروح معبراً بالجعل لذلك دون الإنزال لأنه قد دل عليه جميع السور الماضية تارة بلفظه وأخرى بلفظ الوحي ، فقال مقسماً بالكتاب على عظمة الكتاب ، قال السمين : ومن البلاغة عندهم كون القسم والمقسم عليه من واد واحد ، وهذا إن أريد بالكتاب القرآن فإن أريد به أعم منه كان بعض القسم به ، وصرف القول إلى مظهر العظمة تشريفاً للكتاب : ﴿ إنا جعلناه ﴾ أي صيرناه ووضعناه وسميناه مطابقة لحاله بالتعبير عن معانيه بما لنا من العظمة ﴿ قرآناً ﴾ أي مع كونه مجموع الحروف والمعاني جامعاً ، ومع كونه جامعاً فارقاً بين الملتبسات ﴿ عربياً ﴾ أي جارياً على قوانين لسانهم في الحقائق والمجازات والمجاز فيه أغلب لأنه أبلغ ولا سيما الكنايات والتمثيلات ، وصرف القول عن تخصيص نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخطاب إلى خطابهم تشريفاً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولهم فيما يريده بهم وتنبيهاً على سفول أمرهم في وقت نزولها فقال :

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لتكونوا أيها العرب على رجاء عند من يصح منه رجاء من أن تعقلوا أنه من عندنا لم تبغوا له أحداً علينا وتفهموا معانيه وجميع ما في طاقة البشر مما يراد به من حكمه وأحكامه ، وبديع وصفه ومعجز وصفه ونظامه ، فترجعوا عن كل ما أنتم فيه من المغالبة ، ولا بد أن يقع هذا الفعل ، فإن القادر إذا عبر بأداة الترجي حقق ما يقع ترجيه ، ليكون بين كلامه وكلام العاجز فرق ، وسيبلغ هذا الجامع أقصاكم كما عرض على أدناكم وكل منكم يعلم أنه عاجز عن مباراة آية منه في حسن معناها ، وجزالة ألفاظها وجلالة سبكها ، ونظم كل كلمة منها بالمحل الذي لا يمكن زحزحتها عنه بتقديم ولا تأخير ، ولا أن يبدل شيء منها بما يؤدي معناه أو يقوم مقامه ، كما أن ذلك في غاية الظهور في موازنة ﴿ في القصاص حياة ﴾ [البقرة : 179] مع " القتل

(8/690)

أنفى للقتل " وذلك بعض آية فكيف بآية فما فوقها فتخضع له جبابرة ألبابكم وتسجد له جباه عقولكم ، وتذل لعزته شوامخ أفكاركم ، فتبادرون إلى تقبله وتسارعون إلى حفظه وتحمله علماً منكم بأنه فخر لكم لا يقاربه فخر ، وعز لا يدانيه عز ، ثم يتأمل الإنسان منكم من خالفه فيه من بعيد أو قريب ولد أو والد إلى أن تدين له الخلائق ، وتتصاغر لعظمته

الجبال الشواهق ، والآية ناظرة إلى آية فصلت

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا ﴾ الآية [فصلت : 44] .

ولما كانوا ينكرون تعظيمه عناداً وإن كانوا يقرون بذلك في بعض الأوقات ، قال مؤكداً لذلك وتنبيهاً على أنه أهل لأن يقسم به ، ويزاد في تعظيمه لأنه لا كلام يشبه ، بل ولا يدانيه بوجه : ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ، وقدم الظرفين على الخبر المقترن باللام اهتماماً بهما ليفيد بادئ بدء أن علوه وحكمته ثابتة في الأم وأن الأم في غاية الغرابة عنده ﴿ في أم الكتاب ﴾ أي كائناً في أصل كل كتاب سماوي ، وهو اللوح المحفوظ ، وزاد في شرفه بالتعبير بلدى التي هي لخاص الخاص وأغرب المستغرب ونون العظمة فقال مرتباً للظرف على الجار ليفيد أن أم الكتاب من أغرب الغريب الذي عنده ﴿ لدينا ﴾ على ما هو عليه هناك ﴿ لعليّ ﴾ .

ولما كان العلي قد يتفق علوه ولا تصحبه في علوه حكمة ، فلا يثبت له علوه ، فيتهور بنيانه وينقص سفوله ودنوه ، قال : ﴿ حكيم ﴾ أي بليغ في كل من هاتين الصفتين راسخ فيهما رسوخاً لا يدانيه فيه كتاب فلا يعارض في عليّ لفظه ، ولا يبارى في حكيم معناه ، ويعلو ولا يعلى عليه بنسخ ولا غيره ، بل هناك مكتوب بأحرف وعبارات فائقة رائقة تعلو عن فهم أعقل العقلاء ، ولا يمكن بوجه أن يبلغها أنبل النبلاء ، إلا بتفهيم العلي الكبير ، الذي هو على كل شيء قدير .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أخر سبحانه بامتحان خلف بني إسرائيل في شكهم في كتابهم بقوله : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾ [الشورى : 14] ووصى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتبري من سيئ حالهم والتنزه عن سوء محالهم فقال ﴿ ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ الآية [الشورى : 15] وتكرر الثناء على الكتاب العربي كقوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ [الشورى : 7] وقوله ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى : 17] وقوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ – إلى آخر السورة ، أعقب ذلك بالقسم به وعضد الثناء عليه فقال ﴿ حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ ولما أوضح عظيم حال الكتاب وجليل نعمته به ، أردف ذلك بذكر سعة عفوه وجميل إحسانه إلى عباده ورحمتهم بكتابه مع إسرافهم وقبيح مرتكبهم فقال : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ ولما قدم في الشورى قوله ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ فأعلم أن ذلك إنما يكون بقدرته وإرادته ، والجاري على هذا أن يسلم الواقع من ذلك ويرضى بما قسم واختار ، عنف تعالى في هذه

السورة من اعتدى وزاغ فقال ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ فكمل الواقع هنا بما تعلق به ، وكذلك قوله تعالى ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ وقوله في الزخرف ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ﴾ إلى آخره – انتهى .

(10/690)

ولما أفهم تكرير هذا التأكيد أنهم يطعنون في علاه ، ويقدحون في بديع حلاه ، فعل من يكرهه ويأباه ، إرادة للإقامة على ما لا يحبه الله ولا يرضاه ، قال منكراً عليهم : ﴿ أفنضرب ﴾ أي نهملكم فنضرب أن ننحي ونسير مجاوزين ﴿ عنكم ﴾ خاصة من بين بني إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ الذكر ﴾ أي الوعظ المستلزم للشرف ﴿ صفحاً ﴾ أي بحيث يكون حالنا معكم حال المعرض المجانب بصفحة عنقه ، فلا نرسل إليكم رسولاً ، ولا ننزل معه كتاباً فهو مفعول له أي نضرب لأجل إعراضنا عنكم ، أو يكون ظرفاً بمعنى جانباً أي نضربه عنكم جانباً ، قال الجامع بين العباب والمحكم : أضربت عن الشيء : كففت وأعرضت ، وضرب عنه الذكر وأضرب عنه : صرفه ، وقال الإمام عبد الحق في الواعي : والأصل في ضرب عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابته فأراد أن يصرفه عن جهته ضربه بعصاه ليعدله

عن جهته إلى الجهة التي يريدها ، فوضع الضرب في موضع الصرف والعدل ، قال الهروي : قال الأزهري : يقال : ضربت عنه وأضربت بمعنىّ واحد ، ونقل النواوي عنه أنه قال : إن المجرد قليل ، فالحاصل أن الضرب إيقاع شيء على آخر بقوة ، فمجرده متعد إلى واحد ، فإن عدي إلى آخر ب " عن " ضمن معنى الصرف ، وإذا زيدت همزة النقل فقيل : أضربت عنه ، أفادت الهمزة قصر الفعل ، وأفهمت إزالة الضرب ، فمعنى الآية : أفنضرب صارفين عنكم الذكر صفحاً ، أي معرضين إعراضاً شديداً حتى كأنا ضربنا الذكر لينصرف عنكم معرضاً كإعراض من ولى إلى صفحة عنقه ، ثم علل إرادتهم هذا الإعراض بما يقتضي الإقبال بعذاب أو متاب فقال : ﴿ أنْ ﴾ أي أنفعل ذلك لأن ﴿ كنتم قوماً مسرفين ﴾ أي لأجل أن كان الإسراف جبلة لكم وخلقاً راسخاً ، وكنتم قادرين على القيام به في تكذيب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقدح فيما يأتي به والاستهزاء بأمره بترككم خشية من شدتكم أو رجاء من غير تذكير لتوبتكم وقد جعل حينئذ المقتضى مانعاً ، فإن المسرف أجدر بالتذكير وأحوج إلى الوعظ

(11/690)

، هذا إن كان مقرباً ، وأما البعيد فإنه لا يلتفت إليه من أول الأمر ، بل لو أراد القرب طرد ، وعلى قراءة نافع وحمزة والكسائي بكسر " إن " على كونها شرطية يكون الكلام مسبوقاً على غاية ما يكون من الإنصاف ، فيكون المعنى : أنترككم مهملين فننحي عنكم الذكر والحال أنكم قوم يمكن أن تكونوا متصفين بالإسراف ، يعني أن المسرف أهل لأن يوعظ ويكلم بما يرده عن الإسراف ، وأنتم وإن ادعيتم أنكم مصلحون لا تقدرون أن تدفعوا عنكم إمكان الإسراف فكيف يدفع عنكم إنزال الذكر الواعظ وأنتم بحيث يمكن أن تكونوا مسرفين فتحتاجوا إليه – هذا ما لا يفعله حكيم في عباده ، بل هو سبحانه للطفه وزيادة بره لا يترك دعاء عباده إلى رحمته وإن كانوا مسرفين قد أمعنوا في الشراد ، والجحد والعناد ، فيدعوهم بأبلغ الحجة ، وهو هذا القرآن الذي هو أشرف الكتاب على لسان هذا النبي الذي هو أعظم الرسل ليهتدي من قدرت هدايته وتقوم الحجة على غيره .

ولما كان المعنى أن لا نترككم هملاً ، كان كأنه قيل : هيهات منكم فلنرفعنكم كما رفعنا بني إسحاق من إسرائيل وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، فلقد أرسلنا إليكم مع أنكم أعلى الناس رسولاً هو أشرفكم نسباً وأزكاكم نفساً وأعلاكم همة وأرجحكم عقلاً وأوفاكم أمانة وأكرمكم خلقاً وأوجهكم عشيرة ، فعطف قوله تأنيساً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأسية وتعزية وتسلية : ﴿ وكم أرسلنا ﴾ أي على ما لنا من القدرة على ذلك والعظمة الباهرة المقتضية لذلك .

ولما كان الإرسال يقع على أنحاء من الأشكال ، ميزه بأن قال : ﴿ من نبي في الأولين ﴾ ثم حكى حالهم الماضية إشارة إلى استمرار حال الخلق على هذا فقال : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ يأتيهم ﴾ وأغرق في النفس بقوله : ﴿ من نبي ﴾ أي في أمة بعد أمة بعد أمة وزمان بعد زمان ﴿ إلا كانوا ﴾ أي خلقاً وطبعاً وجبلة ﴿ به يستهزءون ﴾ كما استهزأ قومك ، وتقديم الظرف للإشارة إلى أن استهزاءهم به لشدة مبالغتهم فيه كأنه مقصور عليه .

ولما كان الاستهزاء برسول الملك استهزاء به ، وكانت المماليك إنما تقام بالسياسة بالرغبة والرهبة وإيقاع الهيبة حتى يتم الجلال وتثبت العظمة ، فكان لذلك لا يجوز في عقل عاقل أن يقر ملك على الاستهزاء به ، سبب عن الاستهزاء بالرسل الهلاك فقال : ﴿ فأهلكنا ﴾ وكان الأصل الإضمار ، ولكنه أظهر الضمير بياناً لما كان في الأولين من الضخامة صارفاً أسلوب الخطاب إلى الغيبة إقبالاً على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسلية له وإبلاغاً في وعيدهم فقال : ﴿ أشد منهم ﴾ أي من قريش الذي يستهزئون بك ﴿ بطشاً ﴾ من جهة العد والعدد والقوة والجلد فما ظنهم بأنفسهم وهم أضعف منهم إن تمادوا في الاستهزاء

برسول الله الأعلى .

ولما ذكر إهلاك أولئك ذكر أن حالهم عن الإهلاك كان أضعف حال ليعتبر هؤلاء فقال : ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أي وقع إهلاكهم الذي كان مثلاً يتمثل به من بعدهم ، وذكر أيضاً في القرآن الخبر عنه بما حقه أن يشير مشير المثل بل ذكر أن من عبده الأولون واعتمدوا عليهي مثل بيت العنكبوت فكيف بالأولين أنفسهم فكيف بهؤلاء ، فإن الحال أدى إلى أنهم أضعف من الأضعف من بيت العنكبوت فلينتظروا أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك ، بأيدي جند الله من البشر أو الملائكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 3 ـ 8 ﴾

(13/690)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ في إم الكتاب ﴾ بكسر الهمزة : حمزة وعلي ﴿ إن كنتم ﴾ بالكسر : أبو جعفر ونافع وعلي وحمزة وخلف . الآخرون : بالفتح أي لأن كنتم ﴿ مهداً ﴾ : عاصم وحمزة وعلي وخلف وروح . الباقون ﴿ مهاد ﴾ ﴿ ميتاً ﴾ بالتشديد : يزيد . ﴿ يخرجون ﴾ من الخروج : حمزة وعلي وخلف وابن ذكوان . الآخرون : من الإخراج ﴿

ينشأ ﴾ من باب التفعيل : حمزة وعلي وخلف وحفص . الباقون : بالتخفيف والياء مفتوحة والنون ساكنة ﴿ عباد الرحمن ﴾ جمع عبد أو عابد : أبو عمرو وعاصم وحمزة وعلي وخلف ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ﴿ عند الرحمن ﴾ بالنون كقوله ﴿ فالذين عند ربك ﴾ [فصلت : 38] الآخرون : ﴿ عبيد الرحمن ﴾ ﴿ أو شهدوا ﴾ بقلب همزة الإشهاد واواً مضمومة : ورش وإسماعيل . وقرأ يزيد وقالون مثله ولكن بالمد . وقرأ المفضل بتحقيق الهمزتين . الباقون : بهمزة واحدة للاستفهام والشين مفتوحة ﴿ قال أولو ﴾ بالألف : ابن عامر وحفص والمفضل ﴿ جئناكم ﴾ يزيد .

(14/690)

الوقوف : ﴿ حم ﴾ ه كوفي ﴿ المبين ﴾ ه لا ومن لم يقف على ﴿ حم ﴾ وقف على ﴿ المبين ﴾ لأن القسم متعلق بما قبله وهو هذه ﴿ حم ﴾ ﴿ تعقلون ﴾ ه ج ﴿ حكيم ﴾ ه ط ﴿ مسرفين ﴾ ه ﴿ الأولين ﴾ ه ﴿ يستهزؤن ﴾ ه ﴿ الأولين ﴾ ه ﴿ العليم ﴾ ه لا بناء على أن ما بعده وصف ولو كان نصباً أو رفعاً على المدح فالوقف ﴿ تهتدون ﴾ ه ﴿ بقدر ﴾ ج للالتفات مع الفاء ﴿ ميتاً ﴾ ج لانقطاع النظم مع تعلق التشبيه ﴿ تخرجون ﴾ ه ﴿ تركبون ﴾ ه لا ﴿ مقرنين ﴾ ه لا لأن ما بعده من تمام المقول ﴿ لمنقلبون

﴿ ه ﴿ جزءاً ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ ه ط ﴿ بالبنين ﴾ ه ﴿ كظيم ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ إناثاً ﴾ ط ﴿ خلقهم ﴾ ط ﴿ ويسئلون ﴾ ه ﴿ ما عبدناهم ﴾ ط ﴿ يخرصون ﴾ ه ط ﴿ مستمسكون ﴾ ه ﴿ مهتدون ﴾ ه ﴿ مقتدون ﴾ ه ﴿ آباءكم ﴾ ط ﴿ كافرون ﴾ ه ﴿ المكذبين ﴾ ه ﴿ تعبدون ﴾ ه لا ﴿ سيهدين ﴾ ه ﴿ يرجعون ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ كافرون ﴾ ه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 85 ﴾

(15/690)

فصل

قال الفخر:

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) ﴾

اعلم أن قوله ﴿ حم * والكتاب المبين ﴾ يحتمل وجهين الأول: أن يكون التقدير هذه حام والكتاب المبين فيكون القسم واقعاً على أن هذه السورة هي سورة حام ويكون قوله ﴿ إِنَّا جعلناه قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ ابتداء لكلام آخر الثاني: أن يكون التقدير هذه حام.

ثم قال: ﴿ والكتاب المبين * إِنَّا جعلناه قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ فيكون المقسم عليه هو قوله ﴿ إِنَّا جعلناه قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ وفي المراد بالكتاب قولان أحدهما: أن المراد به القرآن،

وعلى هذا التقدير فقد أقسم بالقرآن أنه جعله عربياً الثاني : أن المراد بالكتاب الكتابة والخط أقسم بالكتابة لكثرة ما فيها من المنافع ، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط فإن المتقدم إذا استنبط علماً وأثبته في كتاب ، وجاء المتأخر ووقف عليه أمكنه أن يزيد في استنباط الفوائد ، فبهذا الطريق تكاثرت الفوائد وانتهت إلى الغايات العظيمة ، وفي وصف الكتاب بكونه مبيناً من وجوه الأول : أنه المبين للذين أنزل إليهم لأنه بلغتهم ولسانهم والثاني : المبين هو الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة .

واعلم أن وصفه بكونه مبيناً مجاز لأن المبين هو الله تعالى وسمي القرآن بذلك توسعاً من حيث إنه حصل البيان عنده .

أما قوله ﴿ إِنَّا جعلناه قُرْءاناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(16/690)

القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه الأول : أن الآية تدل على أن القرآن مجعول ، والمجعول هو المصنوع المخلوق ، فإن قالوا لم لا يجوز أن يكون المراد أنه سماه عربياً ؟

قلنا هذا مدفوع من وجهين الأول : أنه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب أن من سماه عجمياً أن يصير عجمياً وإن كان بلغة العرب ومعلوم أنه باطل الثاني : أنه لو صرف الجعل إلى التسمية لزم كون التسمية مجعولة ، والتسمية أيضاً كلام الله ، وذلك يوجب أنه فعل بعض كلامه ، وإذا صح ذلك في البعض صح في الكل الثاني : أنه وصفه بكونه قرآناً ، وهو إنما سمي قرآناً لأنه جعل بعضه مقروناً بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعاً معمولاً الثالث : أنه وصفه بكونه عربياً ، وهو إنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما اختصت بمسمياتهم بوضع العرب واصطلاحاتهم ، وذلك يدل على كونه معمولاً ومجعولاً والرابع : أن القسم بغير الله لا يجوز على ما هو معلوم فكان التقدير حام ورب الكتاب المبين ، وتأكد هذا أيضاً بما روي أنه عليه السلام كان يقول يا رب طه وياس ويا رب القرآن العظيم والجواب : أن هذا الذي ذكرتموه حق ، وذلك لأنكم إنما استدللتم بهذه الوجوه على كون هذه الحروف المتوالية والكلمات المتعاقبة محدثة مخلوقة ، وذلك معلوم بالضرورة ومن الذي ينازعكم فيه ، بل كان كلامكم يرجع حاصله إلى إقامة الدليل على ما عرف ثبوته بالضرورة .

المسألة الثانية :

كلمة لعلّ للتمني والترجي وهو لا يليق بمن كان عالماً بعواقب الأمور ، فكان المراد منها هاهنا : كي أي أنزلناه قرآناً عربياً لكي تعقلوا معناه ، وتحيطوا بفحواه ، قالت المعتزلة فصار حاصل الكلام إنا أنزلناه قرآناً عربياً لأجل أن تحيطوا بمعناه ، وهذا يفيد أمرين أحدهما : أن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض والدواعي والثاني : أنه تعالى إنما أنزل القرآن ليهتدي به الناس ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من الكل الهداية والمعرفة ، خلاف قول من يقول إنه تعالى أراد من البعض الكفر والإعراض ، واعلم أن هذا النوع من استدلالات المعتزلة مشهور ، وأجوبتنا عنه مشهورة ، فلا فائدة في الإعادة ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يدل على أن القرآن معلوم وليس فيه شيء مبهم مجهول خلافاً لمن يقول بعضه معلوم وبعضه مجهول .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي ﴿ أُمِّ الكتاب ﴾ بكسر الألف والباقون بالضم .

المسألة الثانية :

الضمير في قوله ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ عائد إلى الكتاب الذي تقدم ذكره في ﴿ أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا ﴾ واختلفوا في المراد بأم الكتاب على قولين : فالقول الأول : إنه اللوح المحفوظ لقوله ﴿ بَلْ هُوَ

قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 22] .

واعلم أن على هذا التقدير فالصفات المذكورة ههنا كلها صفات اللوح المحفوظ .

(18/690)

الصفة الأولى : أنه أم الكتاب والسبب فيه أن أصل كل شيء أمه والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ، ثم نقل إلى سماء الدنيا ، ثم أنزل حالاً بحسب المصلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنه : " إن أول ما خلق الله القلم ، فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق " (1) فالكتاب عنده فإن قيل وما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع أنه تعالى علاّم الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان ؟ قلنا إنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات ، ثم إن الملائكة يشاهدون أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقة ذلك المكتوب ، استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه .

الصفة الثانية : من صفات اللوح المحفوظ قوله ﴿ لَدَيْنَا ﴾ هكذا ذكره ابن عباس ، وإنما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتاباً جامعاً لأحوال جميع المحدثات ، فكأنه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته ، فلا جرم حصل له هذا التشريف ، قال الواحدي ، ويحتمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير إنه لدينا في أم الكتاب .

الصفة الثالثة : كونه علياً والمعنى كونه عالياً عن وجوه الفساد والبطلان وقيل المراد كونه عالياً على جميع الكتب بسبب كونه معجزاً باقياً على وجه الدهر .

الصفة الرابعة : كونه حكيماً أي محكماً في أبواب البلاغة والفصاحة ، وقيل حكيم أي ذو حكمة بالغة ، وقيل إن هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه والقول الثاني : في تفسير أم الكتاب أنه الآيات المحكمة لقوله تعالى :

﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيات محكمات هُنَّ أُمُّ الكتاب ﴾ [آل عمران : 7]

ومعناه أن سورة حام واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ وفيه مسائل :

---

(1) هكذا في الأصل والعبارة ويظهر أن به سقطا .

المسألة الأولى :

قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ بكسر الألف تقديره : إن كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحاً ، وقيل (إن) بمعنى إذ كقوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 278] وبالجملة فالجزاء مقدم على الشرط ، وقرأ الباقون بفتح

الألف على التعليل أي لأن كنتم مسرفين .

المسألة الثانية :

قال الفرّاء والزجاج يقول ضربت عنه وأضربت عنه أي تركته وأمسكت عنه وقوله ﴿ صَفْحاً ﴾ أي إعراضاً والأصل فيه أنك توليت بصفحة عنقك وعلى هذا فقوله ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ تقديره : أفنضرب عنكم إضرابنا أو تقديره أفنصفح عنكم صفحاً ، واختلفوا في معنى الذكر فقيل معناه أفنرد عنكم ذكر عذاب الله ، وقيل أفنرد عنكم النصائح والمواعظ ، وقيل أفنرد عنكم القرآن ، وهذا استفهام على سبيل الإنكار ، يعني إنا لا نترك هذا الإعذار والإنذار بسبب كونكم مسرفين ، قال قتادة : لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة إذا عرفت هذا فنقول هذا الكلام يحتمل وجهين : الأول : الرحمة يعني أن لا نترككم مع سوء اختياركم بل نذكركم ونعظكم إلى أن ترجعوا إلى الطريق الحق الثاني : المبالغة في التغليظ يعني أتظنون أن نتركوا مع ما تريدون ، كلا بل نلزمكم العمل وندعوكم إلى الدين ونؤاخذكم متى أخللتم بالواجب وأقدمتم على القبيح .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" : الفاء في قوله ﴿ أَفَنَضْرِبُ ﴾ للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء ، فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء لأن المصيبة إذا عمت خفت .

(20/690)

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ يعني أن أولئك المتقدمين الذين أرسل الله إليهم الرسل كانوا أشد بطشاً من قريش يعني أكثر عدداً وجلداً ، ثم قال : ﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ والمعنى أن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزل بهم من الخزي مثل ما نزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال : ﴿ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الفرقان : 39] وكقوله ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم : 45] ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 165 . 168 ﴾

(21/690)

وقال ابن عطية :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) ﴾

تقدم القول في الحروف في أوائل السور .

وقوله : ﴿ والكتاب ﴾ خفض بواو القسم . و: ﴿ المبين ﴾ يحتمل أن يكون من أبان الذي هو بمعنى بان ، أي ظهر ، فلا يحتاج إلى مفعول ، ويحتمل أن يكون معدى من بان ، فهذا لا بد من مفعول تقديره : المبين الهدى أو الشرع ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿ إنا جعلناه ﴾ معناه : سميناه وصيرناه ، وهو إخبار عليه وقع القسم ، والضمير في : ﴿ جعلناه ﴾ عائد على : ﴿ الكتاب ﴾ ، و: ﴿ عربياً ﴾ معناه : بلسانكم لئلا يبقى لكم عذر .

وقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ترج بحسب معتقد البشر ، أي إذا أبصر المبصر من البشر هذا الفعل منا ترجى منه أن يعقل الكلام ويفهم .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه ﴾ عطف على قوله : ﴿ إنا جعلناه ﴾ وهذا الإخبار الثاني واقع أيضاً تحت القسم . و: ﴿ أم الكتاب ﴾ اللوح المحفوظ ، وهذا فيه تشريف للقرآن وترفيع .

واختلف المتأولون كيف هو في ﴿ أم الكتاب ﴾ ، فقال عكرمة وقتادة والسدي وعطية

بن سعيد : القرآن بأجمعه فيه منسوخ ، ومنه كان جبريل عليه السلام ينزل ، وهنالك هو علي حكيم . وقال جمهور الناس : إنما في اللوح المحفوظ ذكره ودرجته ومكانته من العلو والحكمة .

وقرأ جمهور الناس : " في أُم " بضم الهمزة ، وقرأها بكسر الهمزة يوسف والي العراق وعيسى بن عمر .

وقوله : ﴿ أفنضرب ﴾ بمعنى : أفنترك ، تقول العرب أضربت عن كذا وضربت إذا أعرضت وتركته . و: ﴿ الذكر ﴾ هنا الدعاء إلى الله والتذكير بعذابه والتخويف من عقابه ، وقال أبو صالح : ﴿ الذكر ﴾ هنا هو العذاب نفسه ، وقال الضحاك ومجاهد : ﴿ الذكر ﴾ القرآن .

(22/690)

وقوله تعالى : ﴿ صفحاً ﴾ انتصابه كانتصاب ﴿ صنع الله ﴾ [النمل : 88] ، فيحتمل أن يكون بمعنى العفو والغفر للذنب ، فكأنه يقول : أفنترك تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم وغفراً لإجرامكم إذ كنتم أو من أجل أن كنتم قوماً مسرفين ، أي هذا لا يصلح ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد ، ويحتمل قوله : ﴿ صفحاً ﴾ أن يكون بمعنى مغفولاً عنه ،

أي نتركه يمر لا تؤخذون بقبوله ولا بتدبر ولا تنبهون عليه ، وهذا المعنى نظير قول الشاعر :

[الطويل]

تمر الصبا صفحاً بساكن ذي الغضا . . . ويصدع قلبي إن يهب هبوبها

أي تمر مغفولاً عنها ، فكأن هذا المعنى : أفنترككم سدى ، وهذا هو منحى قتادة وغيره ، ومن اللفظة قول كثير : [الطويل]

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة . . . فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت

وقرأ السميط بن عمرو السدوسي : " صُفحاً " بضم الصاد . وقرأ نافع وحمزة والكسائي : " إن كنتم " بكسر الألف ، وهو جزاء دل ما تقدم على جوابه . وقرأ الباقون والأعرج وقتادة : " أن كنتم " بفتح الألف . بمعنى من أجل أن ، وفي قراءة ابن مسعود : " إذ كنتم " . والإسراف في الآية : هو الكفر والضلال البعيد في عبادة غير الله عز وجل والتشريك به . وقوله تعالى : ﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ الآيات تسلية لمحمد عليه السلام ، وذكر إسوة له ووعيد لهم وتهديد بأن يصيبهم ما أصاب من هو أشد بطشاً . والأولون : هم الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، والضمير في قوله : ﴿ كانوا يستهزئون ﴾ ظاهره العموم والمراد به الخصوص فيمن استهزأ ، وإلا فقد كان في الأولين من لم يستهزئ ، والضمير في : ﴿ منهم ﴾ عائد على قريش .

وقوله تعالى : ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أي سلف أمرهم وسنتهم ، وصاروا عبرة عابر الدهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(23/690)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ حم* والكتاب المبين ﴾ تقدّم الكلام فيه .

وقيل : "حم" قسم .

"وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ" قسم ثانٍ ؛ ولله أن يقسم بما شاء .

والجواب "إِنَّا جَعَلْنَاهُ" .

وقال ابن الأنباري : من جعل جواب "وَالْكِتَابِ" "حام" كما تقول نزل والله وَجَب والله وقف على "الْكِتَابِ الْمُبِينِ" .

ومن جعل جواب القسم "إِنَّا جَعَلْنَاهُ" لم يقف على "الْكِتَابِ الْمُبِينِ" .

ومعنى : "جَعَلْنَاهُ" أي سمّيناه ووصفناه ؛ ولذلك تعدّى إلى مفعولين ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ ﴾ [المائدة : 103] .

وقال السُّدّي : أي أنزلناه قرآناً .

مجاهد : قلناه .

الزجاج وسفيان الثَّوْري : بيّناه .

﴿ عَرَبِيّاً ﴾ أي أنزلناه بلسان العرب ؛ لأن كل نبيّ أنزل كتابه بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثوري وغيره .

وقال مقاتل : لأن لسان أهل السماء عربيّ .

وقيل : المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبياء ؛ لأن الكتاب اسم جنس فكأنه أقسم بجميع ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربياً .

والكناية في قوله : ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ ترجع إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تفهمون أحكامه ومعانيه .

فعلى هذا القول يكون خاصاً للعرب دون العجم ؛ قاله ابن عيسى .

وقال ابن زيد : المعنى لعلكم تتفكرون ؛ فعلى هذا يكون خطاباً عاماً للعرب والعجم .

ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بيّن فيه أحكامه وفرائضه ؛ على ما تقدّم في غير موضع .

(24/690)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ يعني القرآن في اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : 77 78] وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 21 - 22] .

وقال ابن جريج : المراد بقوله تعالى : "وَإِنَّهُ" أي أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية .

"لَعَلِيٌّ" أي رفيع عن أن ينال فيبدّل "حَكِيمٌ" أي محفوظ من نقص أو تغيير .

وقال ابن عباس : أوّل ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق ؛ فالكتاب عنده ، ثم قرأ ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ .

وكسرَ الهمزةَ من "أم الكتاب" حمزة والكسائي .

وضم الباقون ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ﴾ يعني : القرآن ؛ عن الضحاك وغيره .

وقيل : المراد بالذكر العذاب ؛ أي أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم ؛ قاله مجاهد وأبو صالح والسدي ، ورواه العَوْفي عن ابن عباس .

وقال ابن عباس : المعنى أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به .

وعنه أيضاً أن المعنى أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون .

وقال السدي أيضاً ؛ المعنى أفنترككم سُدًى فلا نأمركم ولا ننهاكم .

وقال قتادة : المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم .

وعنه أيضاً : أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم .

وقاله ابن زيد .

قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّدته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته .

وقال الكسائي : أفنطوي عنكم الذكر طيًّا فلا توعظون ولا تؤمرون .

وقيل : الذكر التذكر ؛ فكأنه قال : أنترك تذكيركم لأن كنتم قوماً مسرفين ؛ في قراءة من فتح .

(25/690)

ومن كسر جعلها للشرط وما قبلها جواباً لها ؛ لأنها لم تعمل في اللفظ .

ونظيره : ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 278] وقيل : الجواب محذوف دلّ عليه ما تقدّم ؛ كما تقول : أنت ظالم إن فعلت .

ومعنى الكسر عند الزجاج الحال ؛ لأن في الكلام معنى التقرير والتوبيخ .

ومعنى ﴿ صَفْحاً ﴾ إعراضاً ؛ يقال : صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه .

وقد ضربت عنه صفحاً إذا أعرضت عنه وتركته .

والأصل فيه صفحة العنق ؛ يقال : أعرضت عنه أي وليته صفحة عنقي .

قال الشاعر :

صُفوحاً فما تلقاك إلا بخيلَةً . . .

فمن مَلّ منها ذلك الوصل مَلّت

وانتصب "صَفْحاً" على المصدر لأن معنى : "أَفَنَضْرِبُ" أفنصفح .

وقيل : التقدير أفنضرب عنكم الذكر صافحين ، كما يقال : جاء فلان مشياً .

ومعنى : ﴿ مُّسْرِفِينَ ﴾ مشركين .

واختار أبو عبيدة الفتح في "أن" وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم وابن عامر ، قال : لأن الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم ، وعلمه قبل ذلك من فعلهم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأولين ﴾ "كَمْ" هنا خبرية والمراد بها التكثير ؛ والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء .

كما قال : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان : 25] أي ما أكثر ما تركوا .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِيٍّ ﴾ أي لم يكن يأتيهم نبي ﴿ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك .

يعزي نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم ويسلّيه .

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ أي قوماً أشدّ منهم قوّة .

والكناية في "مِنْهُمْ" ترجع إلى المشركين المخاطبين بقوله : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ فكنّى عنهم بعد أن خاطبهم .

و"أشدّ" نصب على الحال .

وقيل هو مفعول ؛ أي فقد أهلكنا أقوى من هؤلاء المشركين في أبدانهم وأتباعهم .

(26/690)

﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ أي عقوبتهم ؛ عن قتادة وقيل : صفحة الأولين ؛ فخبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم ؛ حكاه النقاش والمهدويّ .

والْمَثَلُ : الوصف والخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(27/690)

وقال الآلوسى :

﴿ حم ﴾ الكلام فيه على نحو ما مر في مفتتح يس .

﴿ والكتاب ﴾ أي القرآن والمراد به جميعه ، وجوز إرادة جنسه الصادق ببعضه وكله ، وقيل : يجوز أن يراد به جنس الكتب المنزلة أو المكتوب في اللوح أو المعنى المصدري وهو الكتابة والخط ، وأقسم سبحانه بها لما فيها من عظيم المنافع ولا يخفى ما في ذلك ، والأولى على تقدير اسمية ﴿ حم ﴾ كونه اسماً للقرآن وأن يراد ذلك أيضاً بالكتاب وهو مقسم به إما ابتداءً أو عطفاً على ﴿ حم ﴾ على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم على أن مدار العطف المغايرة في العنوان لكن يلزم على هذا حذف حرف الجر وإبقاء عمله كما في : أشارت كليب بالأكف الأصابع . . .

ومنع أن يقسم بشيئين بحرف واحد لا يلتفت إليه ومناط تكرير القسم المبالغة في تأكيد الجملة القسمية ﴿ المبين ﴾ أي المبين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليب كلامهم على أنه من أبان اللازم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لأصول ما يحتاج إليه في أبواب الديانة على أنه من أبان المتعدي .

(28/690)

﴿ إِنَّا جعلناه قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ جواب للقسم ، والجعل بمعنى التصيير المعدى لمفعولين لا بمعنى الخلق المعدى لواحد لا لأنه ينافي تعظيم القرآن بل لأنه يأباه ذوق المقام المتكلم فيه لأن الكلام لم يسبق لتأكيد كونه مخلوقاً وما كان إنكارهم متوجهاً عليه بل هو مسوق لإثبات كونه قرآناً عربياً مفصلاً وارداً على أساليبهم لا يعسر عليهم فهم ما فيه ودرك كونه معجزاً كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظر الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة في ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية والقسم بالقرآن على ذلك من الإيمان الحسنة البديعة لما فيه من رعاية المناسبة والتنبيه على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به ولا أهم من وصفه فيقسم عليه كما قال أبو تمام :

وثناياك إنها اغريض . . .

ولآل قوم وبرق وميض

بناءً على أن جواب القسم قوله : إنها إغريض ، واستدل بالآية على أن القرآن مخلوق وأطالوا الكلام في ذلك ، وأجيب بأنه إن دل على المخلوقية فلا يدل على أكثر من مخلوقية الكلام اللفظي ولا نزاع فيها .

وأنت تعلم أن الحنابلة ينازعون في ذلك ولهم عن الاستدلال أجوبة مذكورة في كتبهم ، وأخرج ابن مردويه .

عن طاوس قال : جاء رجل إلى ابن عباس من حضرموت فقال له : يا ابن عباس أخبرني عن القرآن أكلام من كلام الله تعالى أم خلق من خلق الله سبحانه قال : بل كلام من كلام الله تعالى أو ما سمعت الله سبحانه يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ﴾ [التوبة : 6] فقال له الرجل : أفرأيت قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جعلناه قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ قال : كتبه الله تعالى فيا للوح المحفوظ بالعربية أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 21 ، 22] فتأمل فيه .

(29/690)

﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكتاب ﴾ أي في اللوح المحفوظ على ما ذهب إليه جمع فإنه أم الكتب السماوية أي أصلها لأنها كلها منقولة منه ، وقيل : ﴿ أُمُّ الكتاب ﴾ العلم الأزلي ، وقيل : الآيات المحكمات والضمير ل ﴿ حم ﴾ [الزخرف : 1] أو للكتاب بمعنى السورة أي أنها واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأم وهو كما ترى .

وقرأ الأخوان ﴿ أَمْ ﴾ بكسر الهمزة لاتباع الميم أو ﴿ الكتاب ﴾ فلا تكسر في عدم الوصل ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أي عندنا ﴿ لَعَلِّى ﴾ رفيع الشأن بين الكتب لإعجازه واشتماله على عظيم الأسرار ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينسخه غيره أو حاكم على

غيره من الكتب وهما خبران لإن ، وفي ﴿ أُمِّ الكتاب ﴾ قيل متعلق بعلى واللام لما فارقت محلها وتغيرت عن أصلها بطلت صدراتها فجاز تقديم ما في حيزها عليها أو حال منه لأنه صفة نكرة تقدمتها أو من ضميره المستتر و﴿ لَدَيْنَا ﴾ بدل من ﴿ أُمِّ الكتاب ﴾ وهما وإن كانا متغايرين بالنظر إلى المعنى متوافقان بالنظر إلى الحاصل أو حال منه أو من الكتاب فإن المضاف في حكم الجزء لصحة سقوطه ، ولعل المختار كون الظرفين في موضع الخبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة لبيان محل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا في أم الكتاب ولدينا ، ولم يجوزوا كونهما في موضع الخبر لإن لدخول اللام في غيرهما .

وأياً ما كان فالجملة المؤكدة إما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة في حكمها وإما مستأنفة مقررة لعلو شأن القرآن الذي أنبا الإقسام به على منهاج الاعتراض في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : 76] وبعد ما بين سبحانه علو شأن القرآن العظيم وحقق جل وعلا أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب سبحانه ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقال جل شأنه :

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ﴾ الذكر أي أفننحيه ونبعده عنكم على سبيل الاستعارة التمثيلية من قولهم : ضرب الغرائب عن الحوض شبه حال الذكر وتنحيته بحال غرائب الإبل وذودها عن الحوض إذا دخلت مع غيرها عند الورد ثم استعمل ما كان في تلك القصة ههنا ، وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر إليهم وملازمته لهم كأنه يتهافت عليهم ، ولو جعل استعارة في المفرد بجعل التنحية ضرباً جاز ومن ذلك قول طرفة :

أضرب عنك الهموم طارقها . . .

ضربك بالسيف قونس الفرس

وقول الحجاج في خطبته يهدد أهل العراق : لأضربنكم ضرب غرائب الإبل .

و﴿ الذكر ﴾ قيل المراد به القرآن ويروى ذلك عن الضحاك .

وأبي صالح والكلام على تقدير مضاف أي إنزال الذكر وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر تفخيماً ، وقيل : بل وذكر العباد بما فيه صلاحهم فهو بمعنى المصدر حقيقة ، وعن ابن عباس .

ومجاهد ما يقتضيه ، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف يقتضيه على أحد الرأيين في مثل هذا التركيب أي أنهملكم فننحى الذكر عنكم ، وقال ابن الحاجب : الفاء لبيان أن ما قبلها وهو جعل القرآن عربياً سبب لما بعدها وهو إنكار أن يضرب سبحانه الذكر عنهم ﴿ صَفْحاً ﴾ أي إعراضاً ، وهو مصدر لنضرب من غير لفظه فإن تنحية

الذكر إعراض فنصبه على أنه مفعول مطلق على نهج قعدت جلوساً كأنه قيل : أفنصفح عنكم صفحاً أو هو منصوب على أنه مفعول له أو حال مؤول بصافحين بمعنى معرضين ، وأصل الصفح أن تولي الشيء صفحة عنقك ، وقيل : إنه بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية أي أفننحيه عنكم جانباً ، ويؤيد قراءة حسان بن عبد الرحمن الضبعي .

والسميط ابن عمير .

وشبيل بن عذرة ﴿ صَفْحاً ﴾ بضم الصاد وحينئذٍ يحتمل أن يكون تخفيف صفح كرسل جمع صفوح بمعنى صافحين ، وأبو حيان اختار أن يكون مفرداً بمعنى المفتوح كالسد والسد .

(31/690)

وحكي عن ابن عطية أن انتصاب صفحاً على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة فيكون العامل فيه محذوفاً ، ولا يخفى أنه لا يظهر ذلك ، وأياً ما كان فالمراد إنكار أن يكون الأمر خلاف ما ذكر من إنزال كتاب على لغتهم ليفهموه ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ أي لأن كنتم منهمكين في الإسراف مصرين عليه على معنى أن الحكمة تقتضي ذكركم وإنزال القرآن عليكم فلا نترك ذلك لأجل أنكم مسرفون لا تلتفتون إليه بل نفعل التفتم أم لا .

وقيل : هو على معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا في العذاب الخالد لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب المبين .

وقرأ نافع .

والاخوان ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ بكسر الهمزة على أن الجملة شرطية ، وإن وإن كانت تستعمل للمشكوك وإسرافهم أمر محقق لكن جيء بها هنا بناءً على جعل المخاطب كأنه متردد في ثبوت الشرط شاك فيه قصداً إلى نسبته إلى الجهل بارتكابه الإسراف لتصويره بصورة ما يفرض لوجوب انتفائه وعدم صدوره ممن يعقل ، وقيل : لا حاجة إلى هذا لأن الشرط الإسراف في المستقبل وهو ليس بمتحقق ، ورد بأن إن الداخلة علي لا تقلبه للاستقبال عند الأكثر ، ولذا قيل : ﴿ إن ﴾ هنا بمعنى إذ ، وأيد بأن علي بن زيد قرأ به وأنه يدل على التعليل فتوافق قراءة الفتح معنى ، ولو سلم فالظاهر من حال المسرف المصر على إسرافه بقاؤه على ما هو عليه فيكون محققاً في المستقبل أيضاً على القول بأنها تقلب كان كغيرها من الأفعال وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبل عليه ، وجوز أن يكون الشرط في موقع الحال أي مفروضاً إسرافكم على أنه من الكلام المنصف فلا يحتاج إلى تقدير جواب .

وتعقب بأنه إنما يتأتى على القول بأن إن الوصلية ترد في كلامهم بدون الواو والمعروف في

العربية خلافه .

وقوله عز وجل :

(32/690)

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى الاولين وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِىٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ ﴾ تقرير لما قبله ببيان أن إسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه به عليه الصلاة والسلام ، فقد قيل : البلية إذا عمت طابت ، و﴿ كَمْ ﴾ مفعول ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ و﴿ فِى الاولين ﴾ متعلق به أو صفة ﴿ نَّبِىٍّ ﴾ وما يأتيهم الخ للاستمرار وضميره للأولين .

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ نوع آخر من التسلية له صلى الله عليه وسلم ، وضمير ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يرجع إلى المسرفين المخاطبين لا إلى ما يرجع إليه ضمير ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ ﴾ لقوله تعالى : ﴿ ومضى مَثَلُ الاولين ﴾ أي سلف في القرآن غير مرة ذكر قصتهم التي حقها أن تسير مسير المثل ، ونصب ﴿ بَطْشاً ﴾ على التمييز وجوز كونه على الحال من فاعل ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ أي باطشين ، والأول أحسن ، ووصف أولئك بالأشدية لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ حم (1) ﴾

تقدم القول في نظائره ومواقعها قبل ذِكر القرآن وتنزيله .

وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن على أن القرآن جَعله الله عَربياً واضحَ الدلالة فهو حقيق بأن يُصدّقوا به لو كانوا غير مكابرين ، ولكنّهم بمكابرتهم كانوا كمن لا يعقلون .

فالقَسَم بالقرآن تنويه بشأنه وهو توكيد لما تضمنه جواب القَسَم إذ ليس القَسَم هنا برافع لتكذيب المنكرين إذ لا يصدّقون بأن المقسِم هو الله تعالى فإن المخاطَب بالقسم هم المنكرون بدليل قوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ وتفريعِ ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ [الزخرف : 5] عليه .

وتوكيدُ الجواب بـ (إنَّ) زيادة توكيد للخَبَر أن القرآن من جعل الله .

وفي جَعل المقسَم به القرآن بوصف كونه مبيناً ، وجَعْلِ جواب القسم أن الله جعله مُبيناً ، تنويه خاص بالقرآن إذ جُعل المقسم به هو المقسم عليه ، وهذا ضرب عزيز بديع لأنه يُومىء

إلى أن المقسم على شأنه بلغ غاية الشرف فإذا أراد المقسِم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أوْلى بالقسم به للتناسب بين القَسَم والمقسم عليه .

وجعل صاحب "الكشاف" من قبيله قول أبي تمام :

وثَنَايَاكِ إنها اغْرِيضُ

وَلآلٍ تُؤْمٌ وبَرقٌ ومَيضُ . . .

إذْ قدر الزمخشري جملة (إنها اغريض) جواب القسم وهو الذي تبعه عليه الطيبي والقزويني في شرحيهما "للكشاف" ، وهو ما فسر به التبريزي في شرحه لديوان أبي تمام ، ولكن التفتازاني أبطل ذلك في شرح "الكشاف" وجعل جملة (إنها اغريض) استئنافاً أي اعتراضاً لبيان استحقاق ثناياها أن يُقسم بها ، وجعل جواب القسم قوله بعد أبيات ثلاثة :

لَتَكَادُنَي غِمارٌ من الأحْ

داث لمْ أدْرِ أيُّهُن أخوضُ . . .

والنكت والخصوصيات الأدبية يَكفي فيها الاحتمال المقبول فإن قوله قبله :

وارتكاضِ الكرى بعينيكِ في الن

وم فنوناً وما بعيني غموض . . .

يجوز أن يكون قَسَماً ثانِياً فيكون البيت جواباً له .

وإطلاق اسم الكتاب على القرآن باعتبار أن الله أنزله ليكتب وأنَّ الأمة مأمورون بكتابته وإن كان نزوله على الرّسول صلى الله عليه وسلم لفظاً غير مكتوب .

وفي هذا إشارة إلى أنه سيكتب في المصاحف ، والمراد بـ ﴿ الكتاب ﴾ ما نَزل من القرآن قبلَ هذه السورة وقد كتَبه كتَّاب الوحي .

وضمير ﴿ جعلناه ﴾ عائد إلى ﴿ الكتاب ﴾ ، أي إنا جعلنا الكتاب المبينَ قرآناً والجعل : الإيجاد والتكوين ، وهو يتعدّى إلى مفعول واحد .

والمعنى : أنه مقروء دون حضور كتاب فيقتضي أنه محفوظ في الصدور ولولا ذلك لما كانت فائدة للإخبار بأنه مقروء لأن كل كتاب صالح لأن يقرأ .

والإخبار عن الكتاب بأنه قرآن مبالغة في كون هذا الكتاب مقروءاً ، أي ميسّراً لأنْ يُقرأ لقوله : ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر ﴾ [القمر : 17] وقوله : ﴿ إنّ علينا جمعَه وقُرآنه ﴾ [القيامة : 17] .

وقوله : ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] .

فحصل بهذا الوصف أن الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم جامع لوصفين :

كونِه كتاباً ، وكونه مقروءاً على ألسنة الأمة .

وهذا مما اختص به كتاب الإسلام .

و﴿ عربياً ﴾ نسبة إلى العرب ، وإذ قد كان المنسوب كتاباً ومقروءاً فقد اقتضى أن نسبته إلى العرب نسبة الكلام واللّغةِ إلى أهلها ، أي هو مما ينطق العرب بمِثل ألفاظه ، وبأنواع تراكيبه .

وانتصب ﴿ قرآناً ﴾ على الحال من مفعول ﴿ جعلناه ﴾ .

ومعنى جعله ﴿ قرآناً عربياً ﴾ تكوينه على ما كُونت عليه لغة العرب ، وأن الله بباهر حكمتِه جعل هذا الكتاب قرآناً بلغة العرب لأنها أشرف اللّغات وأوْسعها دلالة على عديد المعاني ، وأنزله بين أهل تلك اللّغة لأنهم أفهم لدقائقها ، ولذلك اصطفى رسوله من أهل تلك اللّغة لتتظاهر وسائل الدلالة والفهم فيكونوا المبلغين مرادَ الله إلى الأمم .

(35/690)

وإذا كان هذا القرآن بهاته المثابة فلا يأبَى مِن قبوله إلا قوم مسرفون في الباطل بُعداءُ عن الإنصاف والرشد ، ولكن الله أراد هديهم فلا يقطع عنهم ذكره حتى يتمّ مراده ويكمُل انتشار دينه فعليهم أن يراجعوا عقولهم ويتدبروا إخلاصهم فإن الله غير مُؤاخِذِهم بما

سلف من إسرافهم إن هم ثَابُوا إلى رشدهم .

والمقصود بوصف الكتاب بأنه عربي غَرضان : أحدهما التنويه بالقرآن ، ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة ، وثانيهما التورّك على المعاندين من العرب حين لم يتأثروا بمعانيه بأنهم كمن يسمع كلاماً بلغة غير لغته ، وهذا تأكيد لما تضمنه الحرفان المقطعان المفتتحة بهما السورة من معنى التحدّي بأن هذا كتاب بلغتكم وقد عجزتم عن الإتيان بمثله .

وحَرْف (لعلّ) مستعار لمعنى الإرادة وتقدم نظيره في قوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ في أوائل سورة البقرة (73) .

والعقل الفهم .

والغرض : التعريضُ بأنهم أهملوا التدبر في هذا الكتاب وأن كماله في البيان والإفصاح نستأهل العناية بِه لا الإعراض عنه فقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ مشعر بأنهم لم يعقلوا .

والمعنى : أنّا يسرنا فهمه عليكم لعلكم تعقلون فأعرضتم ولم تعقلوا معانيه ، لأنه قد نزل مقدار عظيم لو تدبروه لعقلوا ، فهذا الخبر مستعمل في التعريض على طريقة الكناية .

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

عطف على جملة ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ [الزخرف : 3] ، فهو زيادة في الثناء على هذا الكتاب ثناء ثانياً للتنويه بشأنه رفعةً وإرشاداً .

و﴿ أمّ الكتاب ﴾ : أصل الكتاب .

: والمراد بـ ﴿ أم الكتاب ﴾ علمُ الله تعالى كما في قوله : ﴿ وعنده أمُّ الكتاب ﴾ في سورة الرعد (39) ، لأن الأمّ بمعنى الأصل والكتاب هنا بمعنى المكتوب ، أي المحقق الموثق وهذا كناية عن الحق الذي لا يقبل التغيير لأنهم كانوا إذا أرادوا أن يحققوا عهداً على طول مدة كتبوه في صحيفة ، قال الحارث بن حلزة :

(36/690)

حَذر الجَور والتطاخي وهل يَن

قُض ما في المَهارق الأهواء . . .

و﴿ عليٌّ أصله المرتفع ، وهو هنا مستعار لشرف الصفة وهي استعارة شائعة .

وحكيم : أصله الذي الحكمة من صفات رأيه ، فهو هنا مجاز لما يحوي الحكمة بما فيه من صلاح أحوال النفوس والقوانين المقيّمة لنظام الأمة .

ومعنى كون ذلك في علم الله : أن الله عَلمه كذلك وما عَلِمه الله لا يقبل الشك .

ومعناه : أن ما اشتمل عليه القرآن من المعاني هو من مراد الله وصدر عن علمه .

ويجوز أيضاً أن يفيد هذا شهادة بعلوّ القرآن وحكمته على حد قولهم في اليمين : الله يعلم ،

وعَلِم الله .

وتأكيد الكلام بـ (إنَّ) لردّ إنكار المخاطبين إذ كذّبوا أن يكون القرآن موحًى به من الله .

ولدينا ﴾ ظرف مستقر هو حال من ضمير ﴿ إِنهُ ﴾ أو من ﴿ أم الكتاب ﴾ والمقصود : زيادة تحقيق الخبر وتشريف المخبر عنه .

وقرأ الجمهور في ﴿ أم الكتاب ﴾ بضمّ همزة ﴿ أم ﴾ .

وقرأه حمزة والكسائي بكسر همزة ﴿ إِم الكتاب ﴾ في الوصل اتباعاً لكسرة ﴿ في ﴾ ، فلو وقف على ﴿ في ﴾ لم يكسر الهمزة .

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5)

الفاء لتفريع الاستفهام الإنكاري على جملة ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [الزخرف : 3] ، أي أتحسبون أن إعراضكم عما نزل من هذا الكتاب يبعثنا على أن نقطع عنكم تجدد التذكير بإنزال شيء آخر من القرآن .

فلما أريدت إعادة تذكيرهم وكانوا قد قدم إليهم من التذكير ما فيه هديهم لو تأملوا وتدبروا ، وكانت إعادة التذكير لهم موسومة في نظرهم بقلة الجدوى بيّن لهم أن استمرار إعراضهم لا يكون سبباً في قطع الإرشاد عنهم لأن الله رحيم بهم مريد لصلاحهم لا يصده إسرافهم في الإنكار عن زيادة التقدم إليهم بالمواعظ والهَدي .

والاستفهام إنكاري ، أي لا يجوز أن نضرب عنكم الذكر صفحاً من جراء إسرافكم .

والضرب حقيقته قرع جسم بآخر ، وله إطلاقات أشهرها : قرع البعير بعصا ، وهو هنا مستعار لمعنى القطع والصرف أخذاً من قولهم : ضَرَبَ الغرائبَ عن الحَوْضِ ، أي أطردَها وصرفها لأنها ليست لأهل الماء ، فاستعاروا الضرب للصرف والطرد ، وقال طرفة :

أَضْرِبَ عنك الهمومَ طارقَها

ضَرْبَك بالسَّيْفِ قَوْنَس الفَرَس . . .

والذكر : التذكير ، والمراد به القرآن .

والصَّفح : الإعراض بِصَفْح الوجه وهو جانبُه وهو أشد الإعراض عن الكلام لأنه يجْمع تركَ استماعه وتركَ النظر إلى المتكلم .

وانتصب ﴿ صفحاً ﴾ على النيابة عن الظرف ، أي في مكان صَفْح ، كما يقال : ضَعْهُ جانباً ، ويجوز أن يكون ﴿ صفحاً ﴾ مصدر صَفَح عن كذا ، إذا أعرض ، فينتصب على المفعول المطلق لبيان نوع الضرب بمعنى الصرف والإعراض .

والإسراف : الإفراط والإكثار ، وأغلب إطلاقه على الإكثار من الفعل الضائر .

ولذلك قيل "لا سرَف في الخير" والمقام دال على أنّهم أسرفوا في الإعراض عن القرآن .

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿ إن كنتم ﴾ بكسر همزة ﴿ إنْ ﴾ فتكون ﴿ إنْ ﴾ شرطية ، ولما كان الغالب في استعمال ﴿ إنْ ﴾ الشرطية أن تقع في الشرط الذي ليس متوَقعاً وقوعُه بخلاف (إذَا) التي هي للشرط المتيقن وقوعه ، فالإتْيَان بـ ﴿ إنْ ﴾ في قوله : ﴿ إنْ كنتم قوماً مسرفين ﴾ لقصد تنزيل المخاطبين المعلوم إسرافهم منزلة من يُشَك في إسرافه لأن توفر الأدلّة على صدق القرآن من شأنه أن يزيل إسرافهم وفي هذا ثقة بحقّيّة القرآن وضَرب من التوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه .

وقرأه ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بفتح الهمزة على جعل ﴿ أنْ ﴾ مصدرية وتقديرِ لام التعليل محذوفاً ، أي لأجل إسرافكُم ، أي لا نترك تذكيركم بسبب كونكم مسرفين بل لا نزال نعيد التذكير رحمة بكم .

(38/690)

وإقحام ﴿ قوماً ﴾ قبل ﴿ مسرفين ﴾ للدلالة على أن هذا الإسراف صار طبعاً لهم وبه قِوام قوميتهم ، كما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6)

لما ذكر إسرافهم في الإعراض عن الإصغاء لدعوة القرآن وأعقبه بكلام موجه إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم تسلية عما يلاقيه منهم في خلال الإعراض من الأذى والاستهزاء بتذكيره بأن حاله في ذلك حال الرّسل من قبله وسنةُ الله في الأمم ، ووعد للرّسول صلى الله عليه وسلم بالنصر على قومه بتذكيره بسنة الله في الأمم المكذّبة رسلَهم .

وجعل للتسلية المقام الأول من هذا الكلام بقرينة العدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة في قوله : ﴿ فأهلكنا أشد منهم ﴾ كما سيأتي ، ويتضمن ذلك تعريضاً بزجرهم عن إسرافهم في الإعراض عن النظر في القرآن .

فجملة ﴿ وكم أرسلنا من نبيء ﴾ معطوفة على جملة ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ [الزخرف : 3] وما بعدها إلى هنا عطفَ القصة على القصة .

و﴿ كَم ﴾ اسم دال على عدد كثير مُبهم ، وموقع ﴿ كم ﴾ نصب بالمفعولية ل ﴿ أرسلنا ﴾ ، وهو ملتزَم تقديمه لأن أصله اسم استفهام فنقل من الاستفهام إلى الإخبار على سبيل الكناية .

وشاع استعماله في ذلك حتى صار الإخبار بالكثرة معنى من معاني ﴿ كَم ﴾ .

والداعي إلى اجتلاب اسم العدد الكثير أن كثرة وقوع هذا الحكم أدخلُ في زجرهم عن مثله وأدخل في تسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم وتحصيل صبره ، لأن كثرة وقوعه تؤذن

بأنه سنة لا تتخلف ، وذلك أزجر وأسلى .

و﴿ الأولين ﴾ جمع الأوّل ، وهو هنا مستعمل في معنى الماضين السابقين كقوله تعالى : ﴿ ولقد ضَلّ قبلهم أكثر الأوّلين ﴾ [الصافات : 71] فإنّ الذين أهلكوا قد انقرضوا بقطع النظر عمن عسى أن يكون خَلَفَهم من الأمم .

(39/690)

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا كانوا به يستهزئون ﴾ استثناء من أحوال ، أي ما يأتيهم نبيء في حال من أحوالهم إلا يُقارن استهزاؤهم إتيان ذلك النبي إليهم .

وجملة ﴿ وما يأتيهم من نبيء إلا كانوا به يستهزئون ﴾ في موضع الحال من ﴿ الأولين ﴾ ، وهذا الحال هو المقصود من الإخبار .

وجملة ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ تفريع وتسبب عن جملة ﴿ وكم أرسلنا من نبيء في الأولين ﴾ .

وضمير ﴿ أشد منهم ﴾ عائد إلى قوم مسرفين الذين تقدم خطابهم فعدل عن استرسال خطابهم إلى توجيهه إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم لأن الغرض الأهم من هذا الكلام هو تسلية الرّسول ووعده بالنصر .

ويستتبع ذلك التعريضَ بالذين كذبوه فإنهم يبلغهم هذا الكلام كما تقدم .

ويظهر أن تغيير أسلوب الإضمار تبعاً لتغيير المواجهة بالكلام لا ينافي اعتبار الالتفات في الضمير لأن مناط الالتفات هو اتحاد مرجع الضميرين مع تأتِّي الاقتصار على طريقة الإضمار الأولى ، وهل تغيير توجيه الكلام إلا تقوية لمقتضى نقل الإضمار ، ولا تفوت النكتة التي تحصل من الالتفات وهي تجديد نشاط السامع بل تزداد قوة بازدياد مُقتضِياتها .

وكلام "الكشاف" ظاهر في أن نقل الضمير هنا التفات وعلى ذلك قرره شارحوه ، ولكن العلامة التفتازاني قال : ومِثل هذا ليس من الالتفات في شيء ا ه .

ولعله يرى أن اختلاف المواجهة بالكلام الواقع فيه الضّميران طريقة أخرى غير طريقة الالتفات ، وكلام "الكشاف" فيه احتمال ، وخصوصيات البلاغة واسعة الأطراف .

والذين هم أشد بطشاً مِن كفار مكّة : هم الذين عُبر عنهم بـ ﴿ الأوَّلين ﴾ ووصفوا بأنهم يستهزئون بمن يأتيهم من نَبيء .

وهذا ترتيب بديع في الإيجاز لأن قوله : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ يقتضي كلاماً مطوياً تقديره : فلا نعجز عن إهلاك هؤلاء المسرفين وهم أقل بطشاً .

وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ وكأيِّن من قريةٍ هي أشد قوةً من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ [محمد : 13] .

والبطش : الإضرار القويّ .

وانتصب ﴿ بطشاً ﴾ على التمييز لنسبة الأشدّية .

و ﴿ مثل الأولين ﴾ حالهم العجيبة .

ومعنى ﴿ مضى ﴾ : انقرض ، أي ذهبوا عن بكرة أبيهم ، فمُضِيُّ المثَل كناية عن استئصالهم لأن مُضي الأحوال يكون بمضي أصحابها ، فهو في معنى قوله تعالى : ﴿ فقُطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ [الأنعام : 45] .

وذكر ﴿ الأولين ﴾ إظهار في مقام الإضمار لتقدم قوله : ﴿ في الأولين ﴾ .

ووجه إظهاره أن يكون الإخبار عنهم صريحاً وجارياً مجرَى المثَل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(41/690)

قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فلئن سألتهم عمن سمعوا بخبره ممن ذكرناهم من الأولين ليعترفن بما سمعوا من خبرهم لأنا لم نجعل لهم على المباهتة فيه جرأة لما طبعناهم عليه في أغلب أحوالهم من الصدق ، عطف عليه قولهم مبيناً لجهلهم بوقوعهم في التناقض مؤكداً له لما في اعترافهم به من العجب المنافي لحالهم : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أيضاً عما هو أكبر من ذلك وأدل على القدرة ، وجميع صفات الكمال فقلت لهم : ﴿ من خلق السماوات ﴾ على علوها وسعتها ﴿ والأرض ﴾ على كثرة عجائبها وعظمتها ﴿ ليقولن ﴾ أي من غير توقف .

ولما كان السؤال عن المبتدأ ، كان الجواب المطابق ذكر الخبر ، فكان الجواب هنا : الله – كما في غيره من الآيات ، لكنه عدل عنه إلى المطابقة المعنوية لافتاً القول عن مظهر العظمة إلى ما يفيد من الأوصاف القدرة على كل شيء ، وأنه تعالى يغلب كل شيء ، ولا يغلبه شيء مكرراً للفعل تأكيداً لاعترافهم زيادة في توبيخهم وتنبيهاً على عظيم غلطهم ، فقال

معبراً بما هو لازم لاعترافهم له سبحانه بالتفرد بالإيجاد لأنه أنسب الأشياء لمقصود السورة وللإبانة التي هي مطلعها .

(42/690)

﴿ خلقهن ﴾ الذي هو موصوف بأنه ﴿ العزيز العليم ﴾ أي الذي يلزم المعترف بإسناد هذا الخلق إليه أن يعترف بأنه يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء وأن علمه محيط بكل شيء ، فيقدر على إيجاده على وجه من البداعة ثم على أكمل منه ثم أبهج منه وهلم جرا إلى ما لا نهاية له – هذا هو الأليق بكمال ذاته وجليل صفاته ، ونعوذ بالله من عمى المعتزلة والفلاسفة أصحاب الأذهان الجامدة والعقول الكاسدة والعرب لجهلهم يعبدون مع اعترافهم بهذا غيره ، وذلك الغير لا قدرة له على شيء أصلاً ، ولا علم له بشيء أصلاً ، فقد كسر هذا السؤال بجوابه حجتهم ، وبان به غلطهم وفضيحتهم ، حتى بان لأولي الألباب أنهم معاندون .

(43/690)

ولما كان جوابهم بغير هاتين الصفتين ودل بذكرهما على أنهما لا زمان لاعترافهم تنبيهاً لهم على موضع الحجة ، أتبعهما من كلامه دلالة على ذلك قوله التفاتاً إلى الخطاب لأنه أمكن في التقريع والتوبيخ والتشنيع وتذكيراً لهم بالإحسان الموجب للإذعان وتفصيلاً للقدرة : ﴿ الذي جعل لكم ﴾ فإنه لو كان ذلك قولهم لقالوا لنا ﴿ الأرض مهداً ﴾ أي فراشاً ، قارة ثابتة وطية ، ولو شاء لجعلها مزلزلة لا يثبت فيها شيء كما ترون من بعض الجبال ، أو جعلها مائدة لا تثبت لكونها على تيار الماء ، ولما جعل الأرض قراراً لأشباحكم جعل الأشباح قراراً لأرواحكم وطوقها حمل قرارها وقوة التصرف به في حضورها وأسفارها ليدلكم ذلك على تصرفه سبحانه في الكون وتصريفه له حيث أراد ، وأنه الظاهر الذي لا أظهر منه والباطن الذي لا أبطن منه ، قال القشيري : فإذا انتهى مدة كون النفوس على الأرض حكم الله بخرابها ، كذلك إذا فارقت الأرواح الأشباح بالكلية قضى الله بخرابها ، وأعاد الفعل تنبيهاً على تمكنه تعالى من إقامة الأسباب لتيسير الأمور الصعاب إعلاماً بأنه لا يعجزه شيء : ﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ أي طرقاً تسلكونها بين الجبال والأودية ، ولو شاء لجعلها بحيث لا يسلك في مكان منها كما جعل بعض الجبال كذلك ، ثم ذكر العلة الغائبة في ذلك فقال : ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي ليكون خلقنا لها كذلك جاعلاً حالكم حال من يرجى له الهداية إلى مقاصد الدنيا في الأسفار وغيرها ظاهراً فتتوصلون بها إلى الأقطار الشاسعة والأقاليم الواسعة للأمور الرافقة النافعة ، فإنها إذا تكرر سلوكها صار

لها من الآثار الناشئة من كثرة التكرار ما يهدي كل مار وإلى المقاصد الأخرى وحكمتها باطناً إذا تأمل الفطن حكمة مسخرها وواضعها وميسرها .

(44/690)

ولما كان إنزال الماء من العلو في غاية العجب لا سيما إذا كان في وقت دون وقت ، وكان إنبات النبات به أعجب ، وكان دالاً على البعث ولا بد ، وكان مقصود السورة أنه لا بد من ردهم عن عنادهم بأعظم الكفران إلى الإيمان ، والخضوع له بغاية الإذعان ، قال دالاً على كمال القدرة على ذلك وغيره بالتنبيه على كمال الوصف بالعطف وبإعادة الموصول الدال على الفاعل المذكر بعظمته للتنبيه على أن الإعادة التي هذا دليلها هي سر الوجود ، فهي أشرف مما أريد من الآية الماضية بمهد الأرض وسلك السبل : ﴿ والذي نزل ﴾ أي بحسب التدريج ، ولولا قدرته الباهرة لكان دفعة واحدة أو قريباً منها ﴿ من السماء ﴾ أي المحل العالي ﴿ ماء ﴾ عذباً لزروعكم وثماركم وشربكم بأنفسكم وأنعامكم ﴿ بقدر ﴾ وهو بحيث ينفع الناس ولا يضر بأن يكون على مقدار حاجاتهم ، ودل على عظمة الإنبات بلفت القول إلى مظهر العظمة تنبيهاً على أنه الدليل الظاهر على ما وصل به من نشر الأموات فقال مسبباً عن ذلك : ﴿ فأنشرنا ﴾ أي أحيينا ، والمادة تدور على الحركة

والامتداد والانبساط ﴿ به ﴾ أي الماء ﴿ بلدة ﴾ أي مكاناً يجتمع الناس فيه للإقامة معتنون بإحيائه متعاونون على دوام إبقائه ﴿ ميتاً ﴾ أي كان قد يبس نباته وعجز أهله عن إيصال الماء إليه ليحيى به ، ولعله أنث البلد وذكر الميت إشارة إلى أن بلوغها في الضعف والموت بلغ الغاية بضعف أرضه في نفسها وضعف أهله عن إحيائه وقحط الزمان واضمحلال ما كان به من النبات .

(45/690)

ولما كان لا فرق بين جمع الماء للنبات من أعماق الأرض بعد أن كان تراباً من جملة ترابها وإخراجه كما كان رابياً يهتز بالحياة على هيئته وألوانه وما كان من تفاريعه أغصانه بأمر الله وبين جميع الله تعالى لما تفتت من أجساد الآدميين وإخراجه كما كان بروحه وجميع جواهره وأعراضه إلا أن الله قادر بكل اعتبار وفي كل وقت بلا شرط أصلاً ، والماء لا قدرة له إلا بتقدير الله تعالى ، كان فخراً عظيماً لأن تنتهز الفرصة لتقدير ما هم له منكرون وبه يكفرون من أمر البعث ، فقال تعالى إيقاظاً لهم من رقدتهم بعثاً من موت سكرتهم : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الإخراج العظيم لما تشاهدونه من النبات ﴿ تخرجون ﴾ من الموت الحسي والمعنوي بأيسر أمر من أمره تعالى وأسهل شأن فتخرجون في زمرة الأموات

من الأرض ثانياً ﴿ فإذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ [الروم : 20] وتخرجون من ظلمة الجهل إلى نور الإيمان فإذا أنتم حكماء عالمون .

ولما انتهزت هذه الفرصة ، وسوغ ذكرها ما أثره سوء اعتقادهم من عظيم الغصة ، شرع في إكمال ما يقتضيه الحال من الأوصاف ، فقال عائداً إلى أسلوب العزة والعلم للإيماء إلى الحث على تأمل الدليل على بعث الأموات بانتشار الموات معيداً للعاطف تنبيهاً على كمال ذلك الوصف الموجب لتحقيق مقصود السورة من القدرة على ردهم بعد صدهم : ﴿ والذي خلق الأزواج ﴾ أي الأصناف المتشاكلة التي لا يكمل شيء منها غاية الكمال إلا بالآخر على ما دبره سبحانه في نظم هذا الوجود ﴿ كلها ﴾ من النبات والحيوان ، وغير ذلك من سائر الأكوان ، لم يشاركه في شيء منها أحد .

(46/690)

ولما ذكر الأزواج ، وكان المتبادر إلى الذهن إطلاقها على ما هو من نوع واحد ، دل على أن المراد ما هو أعم ، فقال ذاكراً ما تشاكل في الحمل وتباين في الجسم : ﴿ وجعل لكم ﴾ لا لغيركم فاشكروه ﴿ من الفلك ﴾ أي السفن العظام في البحر ﴿ والأنعام ﴾ في البر ﴿ ما تركبون ﴾ وحذف العائد لفهم المعنى تغليباً للمتعدي بنفسه في الأنعام على المتعدي

بواسطة في الفلك .

ولما ذكر النعمة الناشئة عن مطلق الإيجاد ، ذكر بنعمة الراحة فيه فقال معللاً :

﴿ لتستووا ﴾ أي تكونوا مع الاعتدال والاستقرار والتمكن والراحة ﴿ على ظهوره ﴾ أي ظهور كل من ذلك المجعول ، فالضمير عائد على ما جمع الظهر نظراً للمعنى تكثيراً للنعمة ، وأفرد الضمير رداً على اللفظ دلالة على كمال القدرة بعظيم التصريف براً وبحراً أو تنبيهاً بالتذكير على قوة المركوب لأن الذكر أقوى من الأنثى .

ولما أتم النعمة بخلق كل ما تدعو إليه الحاجة ، وجعله على وجه دال على ما له من الصفات ، ذكر ما ينبغي أن يكون من غايتها على ما هو المتعارف بينهم من شكر المنعم ، فقال دالاً على عظيم قدر النعمة وعلو غايتها وعلو أمر الذكر بحرف التراخي : ﴿ ثم تذكروا ﴾ أي بقلوبكم ، وصرف القول إلى وصف التربية حثاً على تذكر إحسانه للانتهاء عن كفرانه والإقبال على شكرانه فقال : ﴿ نعمة ربكم ﴾ الذي أحسن إليكم بنعمة تسخيرها لكم وما تعرفونها من غيرها .

ولما كان الاعتدال عليه أمراً خارقاً للعادة بدليل ما لا يركب من الحيوانات في البر والجوامد في البحر وإن كان قد أسقط العجب فيه كثرة إلفه ذكر به فقال : ﴿ إذا استويتم عليه ﴾

ولما كان تذكر النعمة يبعث الجنان واللسان والأركان على الشكر لمن أسداها قال :

﴿ وتقولوا ﴾ أي بألسنتكم جمعاً بين القلب واللسان .

ولما كان الاستواء على ذلك مقتضياً لتذكر النقص بالاحتياج إليها في بلوغ ما ركبت لأجله وفي الثبات عليها وخوف العطب منها وتذكر أن من لا يزال يحسن إلى أهل العجز الذين هم في قبضته ابتداء وانتهاء من غير شيء يرجوه منهم لا يكون إلا بعيداً من صفات الدناءة وأن استواءه على عرشه ليس كهذا الاستواء المقارن لهذه النقائص وأنه ليس كمثله شيء ، كان المقام للتنزيه فقال : ﴿ سبحان الذي سخر ﴾ أي بعلمه الكامل وقدرته التامة ﴿ لنا هذا ﴾ أي الذي ركبناه سفينة كان أو دابة ﴿ وما ﴾ أي والحال أنا ما ﴿ كنا ﴾ ولما كان كل من المركوبين في الواقع أقوى من الركاب ، جعل عدم إطاقتهم له وقدرتهم عليه كأنه خاص به ، فقال مقدماً للجار دلالة على ذلك : ﴿ له مقرنين ﴾ أي ما كان في جبلتنا إطاقة أن يكون قرناً له وحده لخروج قوته من بين ما نعالجه ونعانيه عن طاقتنا بكل اعتبار ولا مكافئين في القوة غالبين ضابطين ، مطيقين من أقرن الأمر : أطاقه وقوي عليه فصار بحيث يقرنه بما شاء .

ولما كان كل راكب شيئاً من هذين الصنفين مستحضراً كل حين أنه ينقلب بطن شقة أسفاره إلى محل قراره ، ذكرهم سبحانه بذلك أن ظهر هذه الأرض لهم مثل ظهور السفن والدواب يسبحون بها في لجج أمواج الزمان وتصاريف الحدثان ، هم على ظهرها مسافرون ، ولكنهم لطول الإلف عنه غافلون ، وقليلاً ما يذكرون ، وأنهم على خطر فيما صاروا إليه من ظهور هذه الأشياء يوشك أن يكون سبب موتهم ومثير هلكهم وقوتهم ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فمن ربنا كان ابتداؤنا لا نعلم شيئاً ولا نقدر على شيء ، والآن نحن متى شئنا ساكنون ، ومهما أردنا منتشرون ﴿ وإنا إلى ربنا ﴾ المحسن إلينا بالبداءة والإقرار على هذه التنقلات على هذه المراكيب لا إلى غيره ﴿ لمنقلبون ﴾ أي لصائرون ومتوجهون وسائرون بالموت وما بعده إلى الدار الآخرة انقلاباً لا إياب معه إلى هذه الدار ، فالآية منبهة بالسير الدنيوي على السير الأخروي ، وأكد لأجل إنكارهم للبعث حتى لا يزالوا مراقبين للمنعم عليهم ، ويجوز أن يكون المعنى أنه لما أمرهم بالمراقبة على نعمة الركوب ، عبر بالانقلاب تذكيراً بنعمته عليهم في حال الدعة والسكون قبل الانقلاب وبعده ، أي وإنا بعد رجوعنا إلى نعمة ربنا لمنقلبون أي وإنا في نعمة في كل حال ، روى أحمد وأبو داود والترمذي – وقال : حسن صحيح – والنسائي عن علي ـ رضى الله عنه ـ أنه وضع رجله في الركاب وقال : بسم الله ، فلما استوى على الدابة قال : الحمد لله الذي سخر لنا هذا – الآية ، ثم حمد الله ثلاثاً وكبر ثلاثاً ثم قال : سبحانك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي

فاغفر لي ، ثم ضحك ، وأخبر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعل مثله ، وقال : " يعجب الرب من عبده إذا قال : رب اغفر لي ويقول : علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري "

(49/690)

روى أحمد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ " أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أردفه على دابة ، فلما استوى عليها كبر ثلاثاً وحمد الله ثلاثاً وسبح ثلاثاً وهلل الله واحدة ثم استلقى عليه فضحك ثم أقبل علي فقال : ما من امرىء مسلم يركب دابته فيصنع كما صنعت إلا أقبل الله عليه يضحك إليه كما ضحكت إليك " وروى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا ركب راحلته ثلاثاً ثم قال : " سبحان الذي سخر لنا هذا الآية ، ثم يقول : اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا السفر واطو لنا البعيد ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم اصبحنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا ، وكان إذا رجع إلى أهله قال : آئبون تائبون إن شاء الله عابدون لربينا حامدون " وروى أحمد عن أبي لاس الخزاعي ـ رضى الله عنه ـ قال : " حملنا رسول الله صلى الله عليه وآله على إبل من إبل الصدقة إلى الحج ، فقلنا : يا رسول الله ! ما نرى أن تحملنا هذه ،

فقال : ما من بعير إلا في ذروته شيطان فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما أمركم ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله عز وجل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 13.8 ﴾

(50/690)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) ﴾

اعلم أنه قد تقدم ذكر المسرفين وهم المشركون وتقدم أيضاً ذكر الأنبياء فقوله ﴿ ولئن سألتهم ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الأنبياء ، ويحتمل أن يرجع إلى الكفار إلا أن الأقرب رجوعه إلى الكفار ، فبيّن تعالى أنهم مقرون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله العزيز الحكيم ، والمقصود أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث ، وقد تقدم الإخبار عنهم ، ثم إنه تعالى ابتدأ دالاً على نفسه بذكر مصنوعاته فقال : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ ولو كان هذا من جملة كلام الكفار ولوجب أن يقولوا : الذي جعل لنا الأرض مهداً ، ولأن قوله في أثناء الكلام ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ لا

يتعلق إلا بكلام الله ونظيره من كلام الناس أن يسمع الرجل رجلاً يقول الذي بنى هذا المسجد فلان العالم فيقول السامع لهذا الكلام الزاهد الكريم كأن ذلك السامع يقول أنا أعرفه بصفات حميدة فوق ما تعرفه فأزيد في وصفه فيكون النعتان جميعاً من رجلين لرجل واحد .

إذا عرفت كيفية النظم في الآية فنقول إنها تدل على أنواع من صفات الله تعالى .

الصفة الأولى : كونه خالقاً للسموات والأرض والمتكلمون بينوا أن أول العمل بالله العلم بكونه محدثاً للعالم فاعلاً له ، فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر كونه خالقاً ، وهذا إنما يتم إذا فسرنا الخلق بالإحداث والإبداع .

الصفة الثانية : العزيز وهو الغالب وما لأجله يحصل المكنة من الغلبة هو القدرة وكان العزيز إشارة إلى كمال القدرة .

الصفة الثالثة : العليم وهو إشارة إلى كمال العلم ، واعلم أن كمال العلم والقدرة إذا حصل كان الموصوف به قادراً على خلق جميع الممكنات ، فلهذا المعنى أثبت تعالى كونه موصوفاً بهاتين الصفتين ثم فرع عليه سائر التفاصيل .

(51/690)

الصفة الرابعة : قوله ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن كون الأرض مهداً إنما حصل لأجل كونها واقفة ساكنة ولأجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الأبنية في كونها ساترة لعيوب الأحياء والأموات ، ولما كان المهد موضع الراحة للصبي جعل الأرض مهداً لكثرة ما فيها من الراحات .

الصفة الخامسة : قوله ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ والمقصود أن انتفاع الناس إنما يكمل إذا قدر كل أحد أن يذهب من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم ، ولولا أن الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة وإلا لما حصل هذا الانتفاع .

ثم قال تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ يعني المقصود من وضع السبل أن يحصل لكم المكنة من الاهتداء ، والثاني المعنى لتهتدوا إلى الحق في الدين .

الصفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ والذي نَزَّلَ مِنَ السماء مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ وههنا مباحث أحدها : أن ظاهر هذه الآية يقتضي أن الماء ينزل من السماء ، فهل الأمر كذلك أو يقال إنه ينزل من السحاب وسمي نازلاً من السماء لأن كل ما سماك فهو سماء ؟ وهذا البحث قد مرّ ذكره بالاستقصاء وثانيها : قوله ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ أي إنما ينزل من السماء بقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة من غير زيادة ولا نقصان لا كما أنزل على قوم نوح بغير

قدر حتى أغرقهم بل يقدر حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم وثالثها : قوله ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ أي خالية من النبات فأحييناها وهو الإنشار .

(52/690)

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ يعني أن هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإماتة كهذه الأرض التي أنشرت بعد ما كانت ميتة ، وقال بعضهم بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الأرض بماء كالمني كما تنبت الأرض بماء المطر ، وهذا الوجه ضعيف لأنه ليس في ظاهر اللفظ إلا إثبات الإعادة فقط دون هذه الزيادة .

(53/690)

الصفة السابعة : قوله تعالى ﴿ والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ قال ابن عباس الأزواج الضروب والأنواع كالحلو الحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى ، وقال بعض المحققين كل ما سوى الله فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضي

والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف ، وكونها أزواجاً يدل على كونها ممكنة الوجود في ذواتها محدثة مسبوقة بعدم ، فأما الحق سبحانه فهو الفرد المنزّه عن الضد والند والمقابل والمعاضد فلهذا قال سبحانه : ﴿ والذى خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ أي كل ما هو زوج فهو مخلوق ، فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزّه عن الزوجية ، وأقول أيضاً العلماء بعلم الحساب بينوا أن الفرد أفضل من الزوج من وجوه الأول : أن أقل الأزواج هو الإثنان وهو لا يوجد إلا عند ، حصول وحدتين فالزوج يحتاج إلى الفرد والفرد وهو الوحدة غنية عن الزوج والغني أفضل من المحتاج الثاني : أن الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد هو الذي لا يقل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة ومقاومة فكان الفرد أفضل من الزوج الثالث : أن العدد الفرد لا بد وأن يكون أحد قسميه زوجاً والثاني فرداً فالعدد الفرد حصل فيه الزوج والفرد معاً ، وأما العدد الزوج فلا بد وأن يكون كل واحد من قسميه وزوجاً والمشتمل على القسمين أفضل من الذي لا يكون كذلك الرابع : أن الزوجية عبارة عن كون كل واحد من قسميه معادلاً للقسم الآخر في الذات والصفات والمقدار ، وإذا كان كل ما حصل له من الكمال فمثله حاصل لغيره لم يكن هو كاملاً على الإطلاق ، أما الفرد فالفردية كائنة له خاصة لا لغيره ولا لمثله فكماله حاصلاً له لا لغيره فكان أفضل الخامس : أن الزوج لا بد وأن يكون كل واحد من قسميه مشاركاً

للقسم الآخر في بعض الأمور ومغايراً له في أمور أخرى وما به المشاركة غير ما به المخالفة فكل زوجين فهما ممكنا الوجود لذاتيهما وكل

(54/690)

ممكن فهو محتاج فثبت أن الزوجية منشأ الفقر والحاجة ، وأما الفردانية فهي منشأ الاستغناء والاستقلال لأن العدد محتاج إلى كل واحد من تلك الوحدات ، وأما كل واحد من تلك الوحدات فإنه غني عن ذلك العدد ، فثبت أن الأزواج ممكنات ومحدثات ومخلوقات وأن الفرد هو القائم بذاته المستقبل بنفسه الغني عن كل ما سواه ، فلهذا قال سبحانه : ﴿ والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ .

الصفة الثامنة : قوله ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ وذلك لأن السفر إما سفر البحر أو البر ، أما سفر البحر فالحامل هو السفينة ، وأما سفر البر فالحامل هو الأنعام وههنا سؤالان :

السؤال الأول : لم لم يقل على ظهورها ؟ أجابوا عنه من وجوه الأول : قال أبو عبيدة التذكير لقوله ما والتقدير ما تركبون الثاني : قال الفرّاء أضاف الظهور إلى واحد فيه معنى الجمع بمنزل الجيش والجند ، ولذلك ذكر وجمع الظهور الثالث : أن هذا التأنيث ليس تأنيثاً

حقيقياً فجاز أن يختلف اللفظ فيه كما يقال عندي من النساء من يوافقك .

السؤال الثاني : يقال ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك وقد ذكر الجنسين فكيف قال تركبون ؟

والجواب : غلب المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة .

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ ومعنى ذكر نعمة الله ، أن يذكروها في قلوبهم ، وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خلق وجه البحر ، وخلق الرياح ، وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء وأراد ، فإذا تذكروا أن خلق البحر ، وخلق الرياح ، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته ليس من تدبير ذلك الإنسان ، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير ، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى ، فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى ، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التي لا نهاية لها .

(55/690)

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَقُولُواْ سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ .

واعلم أنه تعالى عين ذكراً معيناً لركوب السفينة ، وهو قوله ﴿ بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : 41] وذكراً آخر لركوب الأنعام ، وهو قوله ﴿ سبحان الذى سَخَّرَ

لَنَا هذا ﴾ وذكر عند دخول المنازل ذكراً آخر ، وهو قوله ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ المنزلين ﴾ [المؤمنون : 29] وتحقيق القول فيه أن الدابة التي يركبها الإنسان ، لا بد وأن تكون أكثر قوة من الإنسان بكثير ، وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان ، ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة في خلقها الظاهر ، وفي خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع ، أما خلقها الظاهر : فلأنها تمشي على أربع قوائم ، فكان ظاهرها كالموضع الذي يحسن استقرار الإنسان عليه ، وأما خلقها الباطن ، فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحث تصير منقادة للإنسان ومسخّرة له ، فإذا تأمل الإنسان في هذه العجائب وغاص بعقله في بحار هذه الأسرار ، عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة والحكمة غير المتناهية ، فلا بد وأن يقول ﴿ سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ قال أبو عبيدة : فلان مقرن لفلان ، أي ضابط له .

(56/690)

قال الواحدي : وكان اشتقاقه من قولك ضرب له قرناً ، ومعن أنا قرن لفلان ، أي مثاله في الشدة ، فكان المعنى أنه ليس عندنا من القوة والطاقة أن نقرن هذه الدابة والفلك وأن نضبطها ، فسبحان من سخرها لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته ، روى صاحب

"الكشاف" : عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان إذا وضع رجليه في الركاب قال : " بسم الله ، فإذا استوى على الدابة ، قال الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا ، إلى قوله لمنقلبون " وروى القاضي في "تفسيره" : عن أبي مخلد أن الحسن ابن علي عليهما السلام : رأى رجلاً ركب دابة ، فقال سبحان الذي سخر لنا هذا ، فقال له ما بهذا أمرت ، أمرت أن تقول : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، الحمد لله الذي من علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، ثم تقول : سبحان الذي سخر لنا هذا ، وروي أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنه كان إذا سافر وركب راحلته ، كبر ثلاثاً ، ثم يقول : سبحان الذي سخّر لنا هذا ، ثم قال : اللّهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى ، اللّهم هون علينا السفر واطوِ عنا بعد الأرض ، اللّهم أنت الصاحب في السفر والخليفة على الأهل ، اللّهم أصحبنا في سفرنا ، وأخلفنا في أهلنا " وكان إذا رجع إلى أهله يقول " آيبون تائبون ، لربنا حامدون " قال صاحب "الكشاف" : دلّت هذه الآية على خلاف قول المجبرة من وجوه الأول : أنه تعالى قال : ﴿لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ فذكره بلام كي ، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منا هذا الفعل ، وهذا يدل على بطلان قولهم أنه تعالى أراد الكفر منه ، وأراد الإصرار على الإنكار الثاني : أن قوله ﴿لِتَسْتَوُواْ﴾ يدل على أن فعله

معلل بالأغراض الثالث : أنه تعالى بيّن أن خلق هذه الحيوانات على هذه الطبائع إنما كان لغرض أن يصدر الشكر على العبد ، فلو كان

(57/690)

فعل العبد فعلاً لله تعالى ، لكان معنى الآية إني خلقت هذه الحيوانات لأجل أن أخلق سبحان الله في لسان العبد : وهذا باطل ، لأنه تعالى قادر على أن يخلق هذا اللفظ في لسانه بدون هذه الوسايط .

واعلم أن الكلام على هذه الوجوه معلوم ، فلا فائدة في الإعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ واعلم أن وجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن ركوب الفلك في خطر الهلاك ، فإنه كثيراً ما تنكسر السفينة ويهلك الإنسان وراكب الدابة أيضاً كذلك لأن الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب ، وإذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك ، فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت ، وأن يقطع أنه هالك لا محالة ، وأنه منقلب إلى الله تعالى وغير منقلب من قضائه وقدره ، حتى لو اتفق له ذلك المحذور كان قد وطن نفسه على الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 168.172 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾

يعني المشركين .

﴿ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ فأقرّوا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم .

وقد مضى في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة .

وهذا ابتداء إخبار منه عن نفسه ، ولو كان هذا إخباراً عن قول الكفار لقال الذي جعل لنا الأرض ﴿ مَهْداً ﴾ فراشاً وبساطاً .

وقد تقدّم .

وقرأ الكوفيون "مَهْداً" ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي معايش .

وقيل طرقاً ، لتسلكوا منها إلى حيث أردتم .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ فتستدلون بمقدوراته على قدرته .

وقيل : "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" في أسفاركم ؛ قاله ابن عيسى .

وقيل : لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم ؛ قاله سعيد بن جبير .

وقيل : تهتدون إلى معايشكم .

قوله تعالى : ﴿ والذي نَزَّلَ مِنَ السماء مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ قال ابن عباس : أي لا كما أنزِل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم ، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة ، حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم .

﴿ فَأَنشَرْنَا ﴾ أي أحيينا .

﴿ بِهِ ﴾ أي بالماء .

﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ أي مقفرة من النبات .

﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي من قبوركم ؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك .

وقد مضى في "الأعراف" مجوّداً .

وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وابن ذَكْوان عن ابن عامر "يَخْرُجُونَ" بفتح الياء وضم الراء .

الباقون على الفعل المجهول .

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12)

فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى :

﴿ والذي خَلَقَ الأزواج ﴾ أي واللّهُ الذي خلق الأزواج.

قال سعيد بن جبير : أي الأصناف كلها .

وقال الحسن : الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والنار .

(59/690)

وقيل : أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ؛ قاله ابن عيسى .

وقيل : أراد أزواج النبات ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ق : 7] و ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 7] .

وقيل ما يتقلّب فيه الإنسان من خير وشر ، وإيمان وكفر ، ونفع وضر ، وفقر وغنى ، وصحة وسقم .

قلت : وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك ﴾ السفن ﴿ والأنعام ﴾ الإبل ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ في البر والبحر .

﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ ذكر الكناية لأنه ردّه إلى ما في قوله : "ما تَرْكَبُونَ" ؛ قاله أبو عبيد .

وقال الفرّاء : أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس ، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند ؛ فلذلك ذكر ، وجمع الظهور ، أي على ظهور هذا الجنس .

الثانية قال سعيد بن جبير : الأنعام هنا الإبل والبقر .

وقال أبو معاذ : الإبل وحدها ؛ وهو الصحيح لقوله عليه السلام : " "بينما رجل راكب بقرة إذ قالت له لَمْ أخلق لهذا إنما خلقت للحرث فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر" " وما هما في القوم .

وقد مضى هذا في أوّل سورة "النحل" مستوفى والحمد لله .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ يعني به الإبل خاصة بدليل ما ذكرنا ، ولأن الفلك إنما تركب بطونها ، ولكنه ذكَرهما جميعاً في أوّل الآية وعطف آخرها على أحدهما .

ويحتمل أن يجعل ظاهرها باطنها ؛ لأن الماء غمره وستره وباطنها ظاهراً ؛ لأنه انكشف للظاهرين وظهر للمبصرين .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ أي ركبتم عليه وذِكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا في البر والبحر .

﴿ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ أي ذلّل لنا هذا المركب .

وفي قراءة عليّ بن أبي طالب "سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ لَنَا هَذَا" .

(60/690)

﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مطيقين ؛ في قول ابن عباس والكلبي .

وقال الأخفش وأبو عبيدة : "مُقْرِنِينَ" ضابطين .

وقيل : مماثلين في الأيد والقوّة ؛ من قولهم : هو قِرن فلان إذا كان مثله في القوّة .

ويقال : فلان مُقْرِن لفلان أي ضابط له .

وأقرنت كذا أي أطقته .

وأقرن له أي أطاقه وقوِي عليه ؛ كأنه صار له قِرْناً .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مطيقين .

وأنشد قُطْرُب قول عمرو بن مَعْدِيكرِب :

لقد علم القبائل ما عُقيلٌ . . .

لنا في النائبات بمقرنينا

وقال آخر :

ركبتم صَعْبَتي أشَراً وَحَيْفاً . . .

ولستم للصّعاب بمقرنينا

والمُقْرِن أيضاً : الذي غلبته ضَيعته ؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها ، أو يكون يسقِي إبله ولا ذائد له يذودها .

قال ابن السِّكّيت : وفي أصله قولان : أحدهما أنه مأخوذ من الإقران ؛ يقال : أقرن يقرن إقراناً إذا أطاق .

وأقرنت كذا إذا أطقته وحكمته ؛ كأنه جعله في قرن وهو الحبل فأوثقه به وشدّه .

والثاني أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض في السير ؛ يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

الخامسة علمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرّفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : 41] فكم من راكب دابة عثرت به أو شَمَسَت أو تَقَحّمت أو طاح من ظهرها فهلك .

وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرِقوا .

فلما كان الركوب مباشرةَ أمرٍ محظور واتصالا بأسباب من أسباب التلف أمر ألاّ ينسى عند

اتصاله به يومه ، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه .

ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه .

(61/690)

والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه .

حكى سليمان بن يسار أن قوماً كانوا في سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ" وكان فيهم رجل على ناقة له رازم وهي التي لا تتحرّك هزالاً ، (الرازم من الإبل : الثابت على الأرض لا يقوم من الهزال .

أو قد رَزَمت الناقة تَرْزُم وترزِم رزوماً ورزاماً : قامت من الإعياء والهزال فلم تتحرك ؛

فهي رازم .

قاله الجوهري في الصحاح) .

فقال : أمّا أنا فإني لهذه لمقرِن ، قال : فقمصت به فدقت عنقه .

وروي أن أعرابياً ركب قعوداً له وقال إني لمقرن له فركضت به القعود حتى صرعته فاندقّت عنقه .

ذكر الأوّل الماوردي والثاني ابن العربي .

قال : وما ينبغي لعبد أن يدع قول هذا وليس بواجب ذكره باللسان ؛ فيقول متى ركب وخاصة في السفر إذا تذكر : "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ" اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل والمال ، اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء السفر ، وكآبة المنقلَب ، والجَوْر بعد الكَوْر ، وسوء المنظر في الأهل والمال ؛ يعني ب "الجور بعد الكور" تشتت أمر الرجل بعد اجتماعه .

وقال عمرو بن دِينار : ركبت مع أبي جعفر إلى أرضٍ له نحو حائط يقال لها مدركة ، فركب على جمل صَعْب فقلت له : أبا جعفر ! أما تخاف أن يصرعك ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" على سنام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا اسم الله كما أمركم ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله " " وقال عليّ بن ربيعة : شهدت عليّ بن أبي طالب ركب دابة يوماً فلما وضع رجله في الركاب قال : باسم الله ، فلما استوى على الدابة قال الحمد لله ، ثم قال : "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ .

(62/690)

وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ" ثم قال : الحمد لله والله أكبر ثلاثاً اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ؛ ثم ضحك فقلت له : ما أضحكك ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت ، وقال كما قلت ؛ ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : "العبد أو قال عجباً لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيره" " خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، وأبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْدَاد في أحكامه .

وذكر الثعلبيّ نحوه مختصراً عن عليّ رضي الله عنه ، ولفظه عنه : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله في الركاب قال : "باسم الله فإذا استوى قال الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين" " وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : من ركب ولم يقل "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ" قال له الشيطان تَغَنَّه ؛ فإن لم يحسن قال له تمنّه ؛ ذكره النحاس .

ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالَوْا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق ؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تُمَلّ طِلاهم وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره .

الزَّمخشِريّ : ولقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب الخمر من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يَصْحُ إلا بعد ما اطمأنت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ؛ فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(63/690)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

(64/690)

﴿ حم ﴾ الكلامُ فيهِ كالذي مَرَّ في فاتحةِ سورةِ يس خَلاَ أنَّ الظاهرَ على تقديرِ اسميتِه كونُه اسماً للقُرآنِ لا للسورةِ كما قيلَ : فإنَّ ذلكَ مُخِلٌّ بجزالةِ النظمِ الكريمِ ﴿ والكتاب ﴾ بالجرِّ على أنه مُقسمٌ بهِ إمَّا ابتداءً أو عطفاً عَلى حم عَلى تقديرِ كونِه مجروراً بإضمارِ باءِ القسمِ ، على أنَّ مدارَ العطفِ المغايرةُ في العُنوانِ ، ومناطُ تكريرِ القسمِ المبالغةُ في تأكيدِ مضمونِ الجملةِ القَسَميةِ ﴿ المبين ﴾ أي البيِّنِ لمن أُنزلَ عليهم لكونِه بلغتِهم وعَلى أساليبِهم

، أو المبينِ لطريقِ الهُدى من طريقِ الضلالةِ المُوضحِ لكلِّ مَا يحتاجُ إليهِ في أبوابِ الديانةِ . ﴿ إِنَّا جعلناه قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ جوابٌ للقسمِ لكنْ لا على أنَّ مرجعَ التأكيدِ جعلُه كذلكَ كما قيلَ بلْ ما هُو غايتُه التي يُعربُ عنها قولُه تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فإنَّها المحتاجةُ إلى التحقيقِ والتأكيدِ لكونِها منبئةً عن الاعتناءِ بأمرِهم وإتمامِ النعمةِ عليهم وإزاحةِ أعذارِهم ، أي جعلنَا ذلكَ الكتابِ قُرآناً عربياً لكي تفهمُوه وتحيطُوا بما فيهِ من النظمِ الرائقِ والمَعْنى الفائقِ واتقفُوا على ما يتضمنُّه من الشواهدِ الناطقةِ بخروجه عن طوقِ البشرِ وتعرفُوا حقَّ النعمةِ في ذلك وتنقطعَ أعذارُكم بالكليةِ . ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكتاب ﴾ أي في اللوحِ المحفوظِ ، فإنَّه أصلُ الكتبِ السماويةِ . وقُرِىءَ إِمِّ الكتابِ بالكسرِ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أي عندنَا ﴿ لَعَلِّى ﴾ رفيعٌ القدرِ بينَ الكتبِ شريفٌ . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذُو حَكمةٍ بالغةٍ ، أو محكمٌ وهُما خبرانِ لإنَّ وما بينهُمَا بيانٌ لمحلِّ الحكمِ ، كأنَّه قيلَ بعدَ بيانِ اتصافِه بما ذُكِرَ منَ الوصفينِ الجليلينِ : هذا في أمِّ الكتابِ ولدينَا . والجملةُ إمَّا عطفٌ على الجملةِ المقسمِ عليها ، داخلةٌ في حُكمها ففي الإقسامِ بالقرآنِ على علوِّ قدرِه عندَهُ تعالَى براعةٌ

(65/690)

بديعةٌ وإيذانٌ بأنَّه من عُلّو الشأنِ بحيثُ لا يحتاجُ في بيانِه إلى الاستشهادِ عليهِ بالإقسامِ بغيرِه بل هُو بذاتِه كافٍ في الشهادةِ على ذلكَ من حيثُ الإقسامُ بهِ كما أنَّه كافٍ فيها من حيثُ إعجازُه ورمزٌ إلى أنَّه لا يخطرُ بالبالِ عند ذكرِه شيءٌ آخرُ منه بالإقسامِ به . وإمَّا مستأنفةٌ مقررةٌ لعلوّ شأنِه الذي أنبأَ عنه الإقسامُ به على منهاجِ الاعتراضِ في قولِه تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وبعد ما بيَّنَ علوَّ شأنِ القرآنِ العظيمِ وحققَ أنَّ إنزالَهُ على لغتِهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقَّبَ ذلكَ بإنكارِ أنْ يكونَ الأمرُ بخلافِه فقيلَ ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر ﴾ أي ننحّيهِ ونُبعدُه عنكم . مجازٌ من قولِهم : ضربُ الغرائبِ عن الحوضِ ، وفيه إشعارٌ باقتضاءِ الحكمةِ توجُّهَ الذكرِ إليهم وملازمتَه لهم كأنَّه يتهافتُ عليهم . والفاءُ للعطفه على محذوفٍ يقتضيه المقامُ أي أنهملكُم فننحّي الذكرَ عنكُم ﴿ صَفْحاً ﴾ أي إعراضاً عنكم على أنه مفعولٌ له للمذكورِ أو مصدرٌ مؤكدٌ لما دَلَّ هو عليهِ فإن التنحيةَ منبئةٌ عن الصفحِ والإعراضِ قطعاً كأنَّه قيلَ : أفنصفحُ عنكُم صفحاً أو بمَعْنى الجانبِ فينتصبُ على الظرفيةِ أي أفننحيهِ عنكُم جانباً ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ أي لأنْ كنتُم منهمكينَ في الإسرافِ مصرّينَ عليهِ عَلى مَعْنى إنَّ حالَكُم وإنِ اقتَضَى تخليتَكُم وشأنَكُم حتَّى تموتُوا على الكفرِ والضلالةِ وتبقوا في العذابِ الخالدِ لكنا لسعةِ رحمتِنا لا نفعلُ ذلكَ بلْ نهديكُم إلى الحقِّ بإرسالِ الرسولِ الأمينِ وإنزالِ الكتابِ المبينِ .

وقُرِئَ بالكسرِ على أنَّ الجملةَ شرطيةٌ مخرجةٌ للمحققِ مُخرجَ المشكوكِ لاستجهالِهم ، والجزاءُ محذوفٌ ثقةً بدلالةِ ما قبلَهُ عليه . وقولُه تعالَى : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ ﴾ تقريرٌ لما قبلَه ببيانِ أنَّ إسرافَ الأممِ السالفةِ لم يمنعْهُ تعالى من إرسالِ الأنبياءِ إليهم ، وتسليةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاءِ قومِه به . وقولُه تعالى ﴿ يَسْتَهْزِءُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ أي من هؤلاءِ المسرفينَ ، عِدةٌ له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ووعيدٌ لهم بمثلِ ما جَرَى على الأولينَ ، ووصفُهم بأشدِّيَّةِ البطشِ لإثباتِ حكمِهم لهؤلاءِ بطريقِ الأولويةِ . ﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ أي سلَفَ في القرآنِ غيرَ مرةٍ ذكرُ قِصَّتِهم التي حقُّها أن تسيرَ مسيرَ المثلِ .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ أي لَيُسنِدُنَّ خلقَها إلى مَنْ هذا شأنُه في الحقيقةِ وفي نفسِ الأمرِ ، لا أنَّهم يُعبِّرونَ عنه بهذا العُنوانِ . وسلوكُ هذه الطريقةِ للإشعارِ بأنَّ اتصافَهُ تعالى بما سُرِدَ من جلائلِ الصفاتِ والأفعالِ وبما يستلزمُه ذلكَ من البعثِ والجزاءِ أمرٌ بيِّنٌ لا ريبَ فيهِ وأنَّ الحجةَ قائمةٌ عليهم شاؤُا أو أبَوا . وقد جُوِّزَ أن يكونَ ذلك عينَ عبارتِهم . وقوله تعالى ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ استئنافٌ من جهتِه تعالى أي بسَطَها لكُم تستقرُّونَ فيها . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾

تسلكونَها في أسفارِكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكيْ تهتدُوا بسلوكِها إلى مقاصدِكم أو بالتفكُّرِ فيها إلى التوحيد الذي هُو المقصدُ الأصليُّ .

(67/690)

﴿ والذى نَزَّلَ مِنَ السماء مَاء بِقَدَرٍ ﴾ بمقدارٍ تقتضيه مشيئتُه المبنيةُ على الحِكَمِ والمصالحِ . ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ ﴾ أي أحيينَا بذلكَ الماءِ ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ خالياً عن النماءِ والنباتِ بالكُلِّيةِ . وقُرِىءَ مَيِّتَا بالتشديدِ . وتذكيرُه لأنَّ البلدةَ في مَعْنى البلدِ والمكانِ . والالتفاتُ إلى نونِ العظيمةِ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بأمرِ الإحياءِ ، والإشعارِ بعِظَمِ خطرِه ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك الإحياءِ الذي هو في الحقيقةِ إخراجُ النباتِ من الأرضِ ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ . أي تُبعثونَ من قبورِكم أحياءً . وفي التعبيرِ عن إخراجِ النباتِ بالإنشارِ الذي هُو إحياءُ المَوتى وعن إحيائِهم بالإخراجِ تفخيمٌ لشأنِ الإنباتِ وتهوينٌ لأمرِ العبثِ لتقويمِ سننِ الاستدلالِ وتوضيحِ منهاجِ القياسِ .

(68/690)

﴿ والذى خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ أي أصنافَ المخلوقاتِ . وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهُمَا الأزواجُ : الضروبُ والأنواعُ كالحُلو والحامضِ والأبيضِ والأسودِ والذكرِ والأُنثى . وقيلَ : كلُّ ما سِوَى الله تعالى فهو زوجٌ كالفوقِ والتحتِ واليمينِ واليسار إلى غيرِ ذلكَ . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي ما تركبونَهُ تغليباً للأنعامِ على الفلكِ فإن الركوبَ متعدٍ بنفسهِ ، واستعمالُه في الفُلكِ ونحوِها بكلمةِ في للرمزِ إلى مكانيَّتِها وكونِ حركتِها غيرَ إراديةٍ كما مرَّ في سورةِ هودٍ عندَ قولِه تعالى : ﴿ وقال اركبوا فِيهَا ﴾ ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ أي لتستعلُوا على ظهورِ ما تركبونَهُ من الفُلكِ والأنعامِ ، والجمعُ باعتبارِ المَعْنى ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ أي تذكرُوها بقلوبِكم معترفينَ بها مستعظمينَ لها ، ثم تحمَدوا عليها بألسنتِكم . ﴿ وَتَقُولُواْ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ مُتعجّبينَ من ذلكَ ، كمَا يُروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه كانَ إذا وضعَ رجلَهُ في الركابِ قال : " بسم الله فإذَا استوَى على الدابةِ قال الحمدُ لله على كلِّ حال سُبحانَ الذي سخَّرَ لنا هَذا إلى قولِه تعالى لمنقلبونَ وكبَّر ثلاثاً وهلَّل ثلاثاً " ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مُطيقينَ من أقرنَ الشيءَ إذا أطاقَهُ وأصلُه وجدُه قرينتَه لأن الصعْبَ لا يكونُ قرينةً للضعيفِ . وقُرِئَ بالتشديدِ ، والمَعْنى واحدٌ . وهذا من تمامِ ذكرِ نعمتِه تعالى إذ بدونِ اعترافِ المنعمِ عليه بالعجزِ عن تحصيلِ النعمةِ ، لا يعرفُ قدرَها ولا حق المنعمِ بها .

﴿ وَإِنَّا إلى ربّنا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي راجعونَ وفيهِ إيذانٌ بأنَّ حقَّ الراكبِ أنْ يتأملَ فيما يُلابسُه من المسيرِ ويتذكَر منه المسافرةَ العُظْمى التي هيَ الانقلابُ إلى الله تعالى فيبنِي

(69/690)

أمورَهُ في مسيرِه ذلكَ على تلكَ الملاحظةِ ولا يخطرُ ببالِه في شيءٍ مما يأتي ويذرُ أمراً ينافيها ومن ضرورتِه أن يكون ركوبُه لأمرٍ مشروعٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(70/690)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾

عطف على الخطاب السابق والآيتان أعني قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا ﴾ [الزخرف : 6 ، 7] اعتراض لإفادة التقرير والتسلية كما سمعت ، والمراد ولئن سألتهم من خلق العالم ليسندن خلقه إلى من هو متصف بهذه الصفات في نفس الأمر لا أنهم يقولون هذه الألفاظ

ويصفونه تعالى بما ذكر من الصفات ذكره الزمخشري فيما نسب إليه ، وهذا حسن وله نظير عرفاً وهو أن واحداً لو أخبرك أن الشيخ قال كذا وعنى بالشيخ شمس الأئمة ثم لقيت شمس الأئمة فقلت : إن فلاناً أخبرني أن شمس الأئمة قال : كذا مع أن فلاناً لم يجر على لسانه إلا الشيخ ولكنك تذكر ألقابه وأوصافه فكذا ههنا الكفار يقولون : خلقهن الله لا ينكرون ثم أن الله عز وجل ذكر صفاته أي أن الله تعالى الذي يحيلون عليه خلق السموات والأرض من صفته سبحانه كيت وكيت ، وقال ابن المنير : إن ﴿ العزيز العليم ﴾ من كلام المسؤولين وما بعد من كلامه سبحانه .

(71/690)

وفي "الكشف" لا فرق بين ذلك الوجه وهذا في الحاصل فإنه حكاية كلام عنهم متصل به كلامه تعالى على أنه من تتمته وإن لم يكن قد تفوهوا به ، وهذا كما يقول مخاطبك : أكرمني زيد فتقول : الذي أكرمك وحياك أو لجماعة آخرين حاضرين الذي أكرمكم وحياكم فإنك تصل كلامك بكلامه على أنه من تتمته ولكن لا تجعله من مقوله ، والأظهر من حيث اللفظ ما ذكره ابن المنير وحينئذٍ يقع الالتفات في ﴿ فَأَنشَرْنَا ﴾ [الزخرف : 11] بعد موقعه ، ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ إلى

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نبات شتى ﴾ [طه : 53] وفي إعادة الفعل في الجواب اعتناءً بشأنه ومطابقته للسؤال من حيث المعنى على ما زعم أبو حيان لا من حيث اللفظ قال : لأن من مبتدأ فلو طابق في اللفظ لكان بالاسم مبتدأ دون الفعل بأن يقال : العزيز العليم خلقهن .

﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ مكاناً ممهداً أي موطأ ومآله بسطها لكم تستقرون فيها ولا ينافي ذلك كريتها لمكان العظم ، وعن عاصم أنه قرأ ﴿ مهادا ﴾ بدون ألف ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ طرقاً تسكلونها في أسفاركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تهتدوا بسلوكنها إلى مقاصدكم أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي .

﴿ والذى نَزَّلَ مِنَ السماء مَاء بِقَدَرٍ ﴾ أي بمقدار تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم والمصالح ولا يعلم مقدار ما ينزل من ذلك في كل سنة على التحقيق إلا الله عز وجل ، والآلة التي صنعها الفلاسفة في هذه الأعصار المسماة بالاودوميتر يزعمون أنه يعرف بها مقدار المطر النازل في كل بلد من البلاد في جميع السنة لا تفيد تحقيقاً في البقعة الواحدة الصغيرة فضلاً عن غيرها كما لا يخفى على المنصف .

(72/690)

وفي "البحر" بقدر أي بقضاء وحتم في الأزل ، والأول أولى ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ ﴾ أي أحيينا بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ خالية عن النماء والنبات بالكلية .

وقرأ أبو جعفر .

وعيسى ﴿ مَيْتًا ﴾ بالتشديد ، وتذكيره لأن البلدة في معنى البلد والمكان ، قال الجلبي : لا يبعد والله تعالى أعلم أن يكون تأنيث البلد وتذكير ﴿ مَيْتًا ﴾ إشارة إلى بلوغ ضعف حاله الغاية ، وفي الكلام استعارة مكنية أو تصريحية .

والالتفات في ﴿ أنشرنا ﴾ إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره ﴿ قَالَ كَذلك ﴾ أي مثل ذلك الإنشار الذي هو في الحقيقة إخراج النبات من الأرض وهو صفة مصدر محذوف أي إنشاراً كذلك ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ أي تبعثون من قبوركم أحياء ، وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث ، وفي ذلك من الرد على منكريه ما فيه .

وقرأ ابن وثاب .

وعبد الله بن جبير .

وعيسى .

وابن عامر .

والأخوان ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ مبنياً للفاعل .

﴿ والذى خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ أي أصناف المخلوقات فالزوج هنا بمعنى الصنف لا بمعناه المشهور ، وعن ابن عباس الأزواج الضروب والأنواع كالحلو .

والحامض .

والأبيض .

والأسود .

والذكر .

والأنثى ، وقيل : كل ما سوى الله سبحانه زوج لأنه لا يخلو من المقابل كفوق وتحت ويمين وشمال وماض ومستقبل إلى غير ذلك والفرد المنزه عن المقابل هو الله عز وجل ، وتعقب بأن دعوى اطراده في الموجودات بأسرها لا تخلو عن النظر .

(73/690)

ولعل من قال : كل ما سوى الله سبحانه زوج لم يبن الأمر على ما ذكر وإنما بناه على أن الواجب جل شأنه واحد من جميع الجهات لا تركيب فيه سبحانه بوجه من الوجوه لا عقلاً ولا خارجاً ولا كذلك شيء من الممكنات مادية كانت أو مجردة ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك

والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي ما تركبونه ، فما موصولة والعائد محذوف ، والركوب بالنظر إلى الفلك يتعدى بواسطة الحرف وهو في كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك ﴾ [العنكبوت : 65] بخلافه لا بالنظر إليه فإنه يتعدى بنفسه كما قال سبحانه : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل : 8] إلا أنه غلب المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة فالتجوز الذي يقتضيه التغليب بالنسبة إلى المتعلق أو غلب المخلوق للركوب على المصنوع له لكونه مصنوع الخالق القدير أو الغالب على النادر فالتجوز في ﴿ مَا ﴾ وضميره الذي تعدى الركوب إليه بنفسه دون النسبة إلى المفعول ولتغليب ما ركب من الحيوان على الفلك .

﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ حيث عبر عن القرار على الجميع بالاستواء على الظهور المخصوص بالدواب والضمير ل ﴿ ما تركبون ﴾ [الزخرف : 12] وأفرد رعاية للفظ ، وجمع ظهور مع إضافته إليه رعاية لمعناه ، والظاهر أن لام ﴿ لِتَسْتَوُواْ ﴾ لام كي ، وقال الحوفي : من أثبت لام الصيرورة جاز له أن يقول به هنا ، وقال ابن عطية : هي لام الأمر ، وفيه بعد من حيث استعماله أمر المخاطب بتاء الخطاب ، وقد اختلف في أمره فقيل : إنه لغة رديئة قليلة لا تكاد تحفظ إلا في قراءة شاذة نحو ﴿ فَبِذَلِكَ فلتفرحوا ﴾ [يونس : 58] أو شعر نحو قوله :

لتقم أنت يا بن خير قريش . . .

وما ذكره المحدثون من قوله عليه الصلاة والسلام : لتأخذوا مصافكم يحتمل أنه من المروى

بالمعنى ، وقال الزجاج : إنها لغة جيدة ، وأبو حيان على الأول وحكاه عن جمهور النحويين .

(74/690)

﴿ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ أي تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بألسنتكم وهذا هو معنى ذكر نعمة الله تعالى عليهم على ما قال الزمخشري ، وحاصله أن الذكر يتضمن شعور القلب والمرور على اللسان فنزل على أكمل أحواله وهو أن يكون ذكراً باللسان مع شعور من القلب ، وأما الاعتراف والاستعظام فمن نعمة ربكم لاقتضائه الإحضار في القلب لذلك وهذا عين الحمد الذي هو شكر في هذا المقام لا أنه يوجبه وءن كان ذلك التقرير سديداً أيضاً ، ومنه يظهر إيثاره علي ثم تحمدوا إذا استويتم ، ومن جوز استعمال المشترك في معنييه جوز هنا أن يراد بالذكر الذكر القلبي والذكر اللساني وهو كما ترى .

ولما كانت تلك النعمة متضمنة لأمر عجيب قال سبحانه : ﴿ وَتَقُولُواْ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ أي وتقولوا سبحان الذي ذلله وجعله منقاداً لنا متعجبين من ذلك ، وليس الإشارة للتحقير بل لتصوير الحال وفيها مزيد تقرير لمعنى التعجب ، والكلام وإن كان

إخباراً على ما سمعت أولاً يشعر بالطلب .

أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر عن أبي مجلز قال : رأى الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وكرم وجههما رجلاً ركب دابة فقال : سبحان الذي سخر لنا هذا فقال : أو بذلك أمرت ؟ فقال : فكيف أقول ؟ قال : الحمد لله الذي هدانا للإسلام الحمد لله الذي من علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي جعلني في أخير أمة أخرجت للناس ثم تقول : ﴿ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ إلى ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ وهذا يومي إلى أن ليس المراد من النعمة نعمة التسخير ، وأخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب أنه فسرها بنعمة الإسلام .

وأخرج أحمد .

وأبو داود .

والترمذي وصححه .

والنسائي .

(75/690)

وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه أتى بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله ثلاثاً والله أكبر ثلاثاً سبحان الذي سخر لنا هذا إلى لمنقلبون سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثم شحك فقيل له : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كما فعلت ثم ضحك فقلت : يا رسول الله مم ضحكت ؟ فقال : يتعجب الرب من عبده إذا قال : رب اغفر لي ويقول : علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري ، وفي حديث أخرجه مسلم .

والترمذي .

وأبو داود .

والدارمي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر حمد الله تعالى وسبح وكبر ثلاثاً ثم قال : سبحان الذي سخر لنا هذا إلى لمنقلبون ، وفي حديث أخرجه أحمد .

وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من بعير إلا في ذروته شيطان فاذكروا اسم الله تعالى إذا ركبتموه كما أمركم ، وظاهر النظم الجليل أن تذكر النعمة والقول المذكور لا يخصان ركوب الأنعام بل يعمانها والفلك ، وذكر بعضهم أنه يقال : إذا ركبت السفينة ﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ إلى ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : 41] ويقال : عند النزول منها

"اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مطيقين ، وأنشد قطرب لعمرو بن معدي كرب :

لقد علم القبائل ما عقيل . . .

لنا في النائبات بمقرنينا

وهو من أقرن الشيء إذا أطاقه ، قال ابن هرمة :

وأقرنت ما حملتني ولقلما . . .

يطاق احتمال الصد يا دعد والهجر

وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف ألا ترى إلى قولهم في الضعيف لا تقرن به الصعبة ، والقرن الحبل الذي يقرن به ، قال الشاعر :

وابن اللبون إذا ما لز في قرن . . .

لم يستطع صولة البزل القنا عيس

(76/690)

وحاصل المعنى أنه ليس لنا من القوة ما يضبط به الدابة والفلك وإنما الله تعالى هو الذي سخر ذلك وضبطه لنا .

أخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر عن سليمان بن يسار أن قوماً كانوا في سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وكان فيهم رجل له ناقة رزام فقال : أما أنا فلهذه مقرن فقمصت به فصرعته فاندقت عنقه ، وقرىء ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ بتشديد الراء مع فتحها وكسرها وهما بمعنى المخفف .

﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي راجعون ، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من السير ويتذكر منه المسافرة العظمى التي هي الانقلاب إلى الله تعالى فيبني أموره في مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يأتي بما ينافيها ، ومن ضرورة ذلك أن يكون ركوبه لأمر مشروع ، وفيه إشارة إلى أن الركوب مخطرة فلا ينبغي أن يغفل فيه عن تذكر الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(77/690)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) ﴾

لما كان قوله : ﴿ وكم أرسلنا من نبيء في الأولين ﴾ [الزخرف : 6] موجهاً إلى الرّسول

صلى الله عليه وسلم للتسلية والوعد بالنصر ، عطف عليه خطاب الرّسول صلى الله عليه وسلم صريحاً بقوله : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ الآية ، لقصد التعجيب من حال الذين كذّبوه فإنهم إنما كذبوه لأنه دعاهم إلى عبادة إله واحد ونبْذِ عبادة الأصنام ، ورأوا ذلك عجباً مع أنهم يقرّون لله تعالى بأنّهُ خالق العوالم وما فيها .

وهل يستحق العبادةَ غيرُ خالق العابدين ، ولأنّ الأصنام من جملة ما خلق الله في الأرض من حجارة ، فلو سألهم الرّسول صلى الله عليه وسلم في محاجّته إياهم عن خالق الخلق لما استطاعوا غير الإقرار بأنه الله تعالى .

فجملة ﴿ ولئن سألتهم ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وكم أرسلنا من نبيء في الأولين ﴾ [الزخرف : 6] عطف الغرض ، وهو انتقال إلى الاحتجاج على بطلان الإشراك بإقرارهم الضِمْنيّ : أن أصنامهم خالية عَن صفة استحقاقِ أنْ تُعبد .

وتأكيد الكلام باللام الموطئة للقسم ولام الجواب ونون التوكيد لتحقيق أنهم يجيبون بذلك تنزيلاً لغير المتردد في الخبر منزلة المتردّد ، وهذا التنزيل كناية عن جدارة حالتهم بالتعجيب من اختلال تفكيرهم وتناقض عقائدهم وإنّما فُرض الكشف عن عقيدتهم في صورة سؤالهم عن خالقهم للإشارة إلى أنهم غافلون عن ذلك في مجرى أحوالهم وأعمالهم ودعائهم حتى إذا سألهم السائل عن خالقهم لم يتريّثوا أن يجيبوا بأنه الله ثم يرجعون إلى شركهم .

وتاء الخطاب في سألتهم ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر سياق التسلية ، أو

يكون الخطاب لغير معيّن ليعمّ كل مخاطب يتصور منه أن يسألهم .

و﴿ العزيز العليم ﴾ هو الله تعالى .

(78/690)

وليس ذكر الصفتين العليتين من مقول جوابهم وإنما حكي قولهم بالمعنى ، أي ليقولن خلقهنّ الذي الصفتان من صفاته ، وإنما هم يقولون : خلقهن الله ، كما حكي عنهم في سورة لقمان (25) و ﴿ لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولُنّ الله ﴾ وذلك هو المستقرَى من كلامهم نثراً وشعراً في الجاهلية .

وإنما عُدل عن اسم العليّ إلى الصفتين زيادة في إفحامهم بأن الذي انصرفوا عن توحيده بالعبادة عزيز عليم ، فهو الذي يجب أن يرجوه النّاس للشدائد لعزّته وأن يخلصوا له باطنهم لأنه لا يخفى عليه سرّهم ، بخلاف شركائهم فإنها أذلّة لا تعلم ، وإنهم لا ينازعون وصفه بـ ﴿ العزيز العليم ﴾ .

وتخصيص هاتين الصفتين بالذكر من بين بقية الصفات الإلهية لأنها مضادة لصفات الأصنام فإن الأصنام عاجزة عن دفع الأيدي .

والتقدير : ولئن سألتهم مَن خلق السماوات والأرض ليقولُنّ الله ، وإن سألتهم : أهو العزيز

العليم .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10)

هذا كلام موجه من الله تعالى ، هو تخلّص من الاستدلال على تفرده بالإلهية بأنه المنفرد بخلق السماوات والأرض إلى الاستدلال بأنه المنفرد بإسداء النعم التي بها قِوام أوَدِ حياة الناس .

فالجملة استئناف حُذف منها المبتدأ ، والتقدير : هو الذي جعل لكم الأرض مهاداً .

وهذا الاستئناف معترض بين جملة ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ﴾ [الزخرف : 9] الآية وجملةِ ﴿ وجعلوا له من عباده جُزءاً ﴾ [الزخرف : 15] الآية .

واسم الموصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هو الذي جعل لكم وهو من حذف المسند إليه الوارد على متابعة الاستعمال في تسمية السكاكي حيث تقدم الحديث عن الله تعالى فيما قبلَ هذه الجملة .

واجتلاب الموصول للاشتهار بمضمون الصلة فساوى الاسم العلم في الدلالة .

وذُكرت صلتان فيهما دلالة على الانفراد بالقدرة العظيمة وعلى النعمة عليهم ، ولذلك أقحم لفظ ﴿ لكم ﴾ في الموضعين ولم يقل : الذي جعل الأرض مهاداً وجعَل فيها سُبلاً كما في قوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ﴾ [النبأ : 6 ، 7] لأن ذلك مقام الاستدلال على منكري البعث ، فسيق لهم الاستدلال بإنشاء المخلوقات العظيمة التي لا تُعدّ إعادة خلق الإنسان بالنسبة إليها شيئاً عجيباً .

ولم يكرر اسم الموصول في قوله : ﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ لأن الصلتين تجتمعان في الجامع الخيالي إذ كلتاهما من أحوال الأرض فجعلهما كجَعْلِ واحد .

وضمائر الخطاب الأحد عشر الواقعة في الآيات الأربع من قوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهاداً ﴾ إلى قوله ﴿ مقرنين ﴾ [الزخرف : 10 13] ليست من قبيل الالتفات بل هي جارية على مقتضى الظاهر .

والمهاد : اسم لشيء يمهد ، أي يوطأ ويسهل لما يحلّ فيه ، وتقدم في قوله : ﴿ لهم من جهنّم مهاد ﴾ في سورة الأعراف (41) .

ووجه الامتنان أنه جعل ظاهر الأرض منبسطاً وذلك الانبساط لنفع البشر الساكنين عليها .

وهذا لا ينافي أن جسم الأرض كروي كما هو ظاهر لأن كرويتها ليست منفعة للنّاس .

وقرأ عاصم مهداً ﴾ بدون ألف بعد الهاء وهو مراد به المهاد .

والسُبل : جمع سبيل ، وهو الطريق ، ويطلق السبيل على وسيلة الشيء كقوله ﴿ يقولون هل إلى مردٍ من سبيلٍ ﴾ [الشورى : 44] .

ويصح إرادة المعنيين هنا لأن في الأرض طرقاً يمكن سلوكها ، وهي السهول وسفوح الجبال وشعابها ، أي لم يجعل الأرض كلها جبالاً فيعسر على الماشين سلوكها ، بل جعل فيها سبلاً سهلة وجعل جبالاً لحكمة أخرى ولأن الأرض صالحة لاتخاذ طرق مطروقة سابلة .

ومعنى جعْلِ الله تلك الطرق بهذا المعنى : أنه جعل للنّاس معرفة السير في الأرض واتباع بعضهم آثار بعض حتى تتعبد الطرق لهم وتتسهل ويعلم السائر ، أي تلك السبل يوصلُه إلى مقصده .

(80/690)

وفي تيسير وسائل السير في الأرض لطف عظيم لأن به تيسير التجمع والتعارف واجتلاب المنافع والاستعانة على دفع الغوائل والأضرار والسيرُ في الأرض قريباً أو بعيداً من أكبر مظاهر المدنِيَّة الإنسانية ، ولأن الله جعل في الأرض معايش النّاس من النبات والثمر وورق الشجر والكمأة والفقع وهي وسائل العيش فهي سبل مجازية .

وتقدم نظير هذه الآية في سورة طه .

والاهتداء : مطاوع هداه فاهتدى .

والهداية حقيقتها : الدلالة على المكان المقصود ، ومنه سمي الدال على الطرائق هادياً ، وتطلق على تعريف الحقائق المطلوبة ومنه ﴿ إنّا أنزلنا التوراة فيها هُدىً ونورٌ ﴾ [المائدة : 44] .

والمقصود هنا المعنى الثاني ، أي رجاء حصول علمكم بوحدانية الله وبما يجب له ، وتقدم في ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] .

ومعنى الرجاء المستفاد من (لعل) استعارة تمثيلية تبعية ، مُثِّل حال من كانت وسائل الشيء حاضرة لديه بحال من يُرجى لحصول المتوسل إليه .

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11)

انتقل من الاستدلال والامتنان بخلق الأرض إلى الاستدلال والامتنان بخلق وسائل العيش فيها ، وهو ماء المطر الذي به تُنبت الأرض ما يصلح لاقتيات الناس .

وأعيد اسم الموصول للاهتمام بهذه الصلة اهتماماً يجعلها مستقلة فلا يخطر حضورها بالبال عند حظور الصلتين اللتين قبلها فلا جامع بينها وبينهما في الجامع الخيالي .

وتقدم الكلام على نظيره في سورة الرعد وغيرها فأعيد اسم الموصول لأن مصداقه هو فاعل جميعها .

والإنشاء : الإحياء كما في قوله : ﴿ ثمّ إذا شاء أنشره ﴾ [عبس : 22] .

وعن ابن عباس أنه أنكر على من قرأ ﴿ كيف نَنْشُرها ﴾ [البقرة : 259] بفتح النون وضم الشين وتلا ﴿ ثم إذا شاء أَنْشَرَهُ ﴾ [عبس : 22] فأصل الهمزة فيه للتعدية وفعله المجرد نشر بمعنى حَيِيَ ، يقال : نَشر الميتُ ، برفع الميت قال الأعشى :

حتى يقول النّاس مما رأوا

يا عَجَبَاً للميّتتِ النَاشِرِ . . .

وأصل النشر بسْط ما كان مطوياً وتفرعت من ذلك معاني الإعادة والانتشار .

والنشر هنا مجاز لأن الإحياء للأرض مجاز ، وزاده حسناً هنا أن يكون مقدمة لقوله : ﴿ كذلك تخرجون ﴾ .

وضمير ﴿ فأنشرنا ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم .

والميّت ضدّ الحي .

ووصف البلدة به مجاز شائع قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميّتة أحييناها ﴾ [يس : 33] .

وإنما وصفت البلدة وهي مؤنث بالميت وهو مُذكّر لكونه على زنة الوصف الذي أصله

مَصدر نحو : عَدْل وزَوْر فحسن تجريده من علامة التأنيث على أن الموصوف مجازي التأنيث .

وجملة ﴿ كذلك تخرجون ﴾ معترضة بين المتعاطفين وهو استطراد بالاستدلالِ على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من إثبات البعث ، بمناسبة الاستدلال على تفرد الله بالإلهية بدلائل في بعضها دلالة على إمكان البعث وإبطال إحالتهم إياه .

والإشارة بذلك إلى الانتشار المأخوذ من ﴿ فأنشرنا ﴾ ، أي مثل ذلك الانتشار تُخرجون من الأرض بعد فنائكم ، ووجه الشبه هو إحداث الحي بعد موته .

والمقصود من التشبيه إظهار إمكان المشبه كقول أبي الطيب :

فإن تفق الأنامَ وأنتَ منهم

فإنَّ المِسك بعضُ دَمِ الغزال . . .

وقرأ الجمهور ﴿ تُخرجون ﴾ بالبناء للنائب .

وقرأه حمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر ﴿ تَخرُجون ﴾ بالبناء للفاعل والمعنى واحد .

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12)

هذا الانتقال من الاستدلال والامتنان بخلق وسائل الحياة إلى الاستدلال بخلق وسائل الاكتساب لصلاح المعاش ، وذكر منها وسائل الإنتاج وأتبعها بوسائل الاكتساب بالأسفار للتجارة .

وإعادة اسم الموصول لما تقدم في نظيره آنفاً .

والأزواج : جمع زوج ، وهو كل ما يصير به الواحد ثانياً ، فيطلق على كل منهما أنه زوج للآخر مثل الشفع .

وغلب الزوج على الذكر وأنثاه من الحيوان ، ومنه ﴿ ثمانية أزواج ﴾ في سورة الأنعام (143) ، وتوسع فيه فأطلق الزوج على الصنف ومنه قوله : ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ [الرعد : 3] .

وكلا الاطلاقين يصح أن يراد هنا ، وفي أزواج الأنعام منافع بألبانها وأصوافها وأشعارها ولحومها ونتاجها .

ولما كان المتبادرُ من الأزواج بادىء النظر أزواجَ الأنعام وكان من أهمها عندهم الرواحل عطف عليها ما هو منها وسائل للتنقل برّاً وأدمج معها وسائل السفر بحراً .

فقال : ﴿ وجعل لكم من الفُلك والأنعام ما تركبون ﴾ فالمراد بـ ﴿ ما تركبون ﴾ بالنسبة إلى الأنعام هو الإبل لأنها وسيلة الأسفار قال تعالى : ﴿ وآيةٌ لهم أنّا حملنا ذرياتهم في الفلك

المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ [يس : 41 ، 42] وقد قالوا : الإبلُ سفائن البر .

وجيء بفعل ﴿ جَعل ﴾ مراعاة لأن الفلك مصنوعة وليست مخلوقة ، والأنعام قد عُرف أنها مخلوقة لشمول قوله : ﴿ خلَق الأزواج ﴾ إياها .

ومعنى جَعل الله الفلكَ والأنعامَ مركوبة : أنه خلق في الإنسان قوة التفكير التي ينساق بها إلى استعمال الموجودات في نفعه فاحتال كيف يصنع الفلك ويركب فيها واحتال كيف يَروض الأنعام ويركبها .

وقُدم الفلك على الأنعام لأنها لم يشملها لفظ الأزواج فذكرها ذكرُ نعمة أخرى ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمنزلة الإعادة .

فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوباً عطف عليها الأنعام فصار ذكر الأنعام مترقباً للنفس لمناسبة جديدة ، وهذا كقول امرىء القيس:

كأنيَ لم أركَبْ جواداً للذةٍ . . .
ولم أتَبطن كاعباً ذات خَلْخَال

ولم أسبأ الراحَ الكُميت ولم أقُلْ . . .

لخيليَ كُرّي كَرَّةً بعدَ إجفال

إذ أعقب ذكر رُكوب الجواد بذكر تبطّن الكاعب للمناسبة ، ولم يعقبه بقوله : ولم أقل لخيلي كري كرة ، لاختلاف حال الركوبين : ركوب اللّذة وركوب الحَرب .

والركوب حقيقته : اعتلاء الدابّة للسير ، وأطلق على الحصول في الفُلك لتشبيههم الفُلك بالدابّة بجامع السير فركوب الدابة يتعدّى بنفسه وركوب الفلك يتعدّى بـ (في) للفرق بين الأصيل واللاحق ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾ في سورة هود (41) .

و﴿ من الفلك والأنعام ﴾ بيان لإبهام ﴿ ما ﴾ الموصولة في قوله : ﴿ ما تركبون ﴾ .

وحذف عائد الصلة لأنه متصل منصوب ، وحذفُ مثله كثير في الكلام .

وإذ قد كان مفعول ﴿ تركبون ﴾ هنا مبيَّناً بالفُلك والأنعام كان حق الفعل أن يعدى إلى أحدهما بنفسه وإلى الآخر بـ (في) فغلِّبت التعدية المباشرة على التعدية بواسطة الحرف لظهور المراد ، وحُذف العائد بناء على ذلك التغليب .

واستعمال فعل ﴿ تركبون ﴾ هنا من استعمال اللّفظ في حقيقته ومجازه .

والاستواء الاعتِلاء .

والظهورُ : جمع ظَهر ، والظهر من علائق الأنعام لا من علائق الفلك ، فهذا أيضاً من

التغليب .

والمعنى : على ظهوره وفي بطونه .

فضمير ﴿ ظهوره ﴾ عائد إلى ﴿ ما ﴾ الموصولة الصادق بالفلك والأنعام كما هو قضية البيان ، على أن السفائن العظيمة تكون لها ظهور ، وهي أعاليها المجعولة كالسطوح لتقي الراكبين المطر وشدة الحر والقرّ .

ولذلك فجمع الظهور من جمع المشترك والتعدية بحرفِ ﴿ على ﴾ بنيت على أن للسفينة ظهراً قال تعالى : ﴿ فإذا استويتَ أنت ومن معك على الفلك ﴾ [المؤمنون : 28] .

(84/690)

وقد جُعل قوله : ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ توطئة وتمهيداً للإشارةِ إلى ذكر نعمة الله في قوله : ﴿ ثم تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه ﴾ أي حينئذٍ ، فإن ذكر النعمة في حال التلبّس بمنافعها أوقع في النفس وأدعَى للشكر عليها .

وأجدر بعدم الذهول عنها ، أي جعل لكم ذلك نعمة لتشعروا بها فتشكروه عليها ، فالذكر هنا هو التذكر بالفكر لا الذكر باللسان .

وهذا تعريض بالمشركين إذ تقلبوا في نعم الله وشكروا غيره إذ اتخذوا له شركاء في الإلهية وهم لم يشاركوه في الأنعام .

وذكْرُ النعمة كناية عن شكرها لأن شكر المنعِم لازم للإنعام عرفاً فلا يَصرف عنه إلاّ نسيانُه فإذا ذكره شكر النعمة .

وعطف على ﴿ تذكروا نعمة ربّكم ﴾ قوله : ﴿ وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا ﴾ ، أي لتشكروا الله في نفوسكم وتُعلِنوا بالشكر بألسنتكم ، فلقنهم صيغةَ شكر عناية به كما لقّنهم صيغة الحمد في سورة الفاتحة وصيغةَ الدعاء في آخر سورة البقرة .

وافتتح هذا الشكر اللّساني بالتسبيح لأنه جامع للثناء إذ التسبيح تنزيه الله عما لا يليق ، فهو يدلّ على التنزيه عن النقائص بالصريح ويدلّ ضمناً على إثبات الكمالات لله في المقام الخطابي .

واستحضار الجلالة بطريق الموصولية لما يؤذن به الموصول من علة التسبيح حتى يصير الحمد الذي أفادهُ التسبيح شكراً لتعليله بأنه في مقابلة التسخير لنا .

واسم الإشارة موجه إلى المركوب حينما يقول الراكب هذه المقالة من دابّة أو سفينة .

والتسخير : التذييل والتطويع .

وتسخير الله الدواب هو خلقه إيّاها قابلة للترويض فاهمة لمراد الرّاكب ، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحاً لسبح السفن على مائه ، وخلق الرياح تهبّ فتدفع

السفن على الماء ، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك ، ورصد مهابّ الرياح ، ووضع القلوع والمجاذيف ، ولولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية .

(85/690)

ولهذا عقب بقوله : ﴿ وما كنّا له مُقْرِنين ﴾ أي مطيقين ، أي بمجرد القوة الجسدية ، أي لولا التسخير المذكور ، فجملة ﴿ وما كُنَّا له مقرنين ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ لنا ﴾ أي سخرها لنا في حال ضعفنا بأن كان تسخيره قائماً مقام القوة .

والمُقرن : المطيق ، يقال : أقرن ، إذا أطاق ، قال عمرو بن معديكرب:

لقد علم القبائل ما عُقَيل

لنا فِي النائبات بمُقْرِنينا

وخُتم هذا الشكر والثناء بالاعتراف بأن مرجعنا إلى الله ، أي بعد الموت بالبعث للحساب والجزاء ، وهذا إدماج لتلقينهم الإقرار بالبعث .

وفيه تعريض بسؤال إرجاع المسافر إلى أهله فإن الذي يقدر على إرجاع الأموات إلى الحياة بعد الموت يُرْجَى لإرجاع المسافر سالماً إلى أهله .

والانقلاب : الرجوع إلى المكان الذي يفارقه .

والجملة معطوفة على جملة التنزيه عطف الخبر على الإنشاء .

وفي هذا تعريض بتوبيخ المشركين على كفران نعمة الله بالإشراك وبنسبة العجز عن الإحياء بعد الموت لأن المعنى : وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتشكروا بالقلب واللّسان فلم تفعلوا ، ولملاحظة هذا المعنى أُكد الخبر .

وفيه تعريض بالمؤمنين بأن يقولوا هذه المقالة كما شكروا لله ما سخر لهم من الفلك والأنعام .

وفيه إشارة إلى أن حق المؤمن أن يكون في أحواله كلها ملاحظاً للحقائق العالية ناظراً لتقلبات الحياة نظر الحكماء الذين يستدلون ببسائط الأمور على عظيمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(86/690)

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم بهذا الاعتراف منه وما تبعه من التقريب أن العالم كله متزاوج بتسخير بعضه لبعض ، فثبت أن خالقه مباين له لا يصح أصلاً أن يكون محتاجاً بوجه لأنه لا مثل له أصلاً ، كان موضع التعجيب من نسبتهم الولد إليه سبحانه : فقال لافتاً القول عن خطابهم للإعراض المؤذن بالغضب : ﴿ وجعلوا ﴾ أي ولئن سألتهم ليقولن كذا اللازم منه قطعاً لأنه لا مثل ﴿ له ﴾ والحال أنهم نسبوا له وصيروا بقولهم قبل سؤالك إياهم نسبة هم حاكمون بها حكماً لا يتمارون فيه كأنهم متمكنون من ذلك تمكن الجاعل فيه يجعله ﴿ من عباده ﴾ الذين أبدعهم كما أبدع غيرهم ﴿ جزءاً ﴾ أي ولداً هو لحصرهم إياه في الأنثى أحد قسمي الأولاد ، وكل فهو جزء من والده ، ومن كان له جزء كان محتاجاً فلم يكن إلهاً وذلك لقولهم : الملائكة بنات الله ، فثبت بذلك طيش عقولهم وسخافة آرائهم .

ولما كان هذا في غاية الغلظة من الكفر ، قال مؤكداً لإنكارهم أن يكون عندهم كفر : ﴿ إن الإنسان ﴾ أي هذا النوع الذي هم بعضه ﴿ لكفور مبين ﴾ أي مبين الكفر في نفسه مناد عليها بالكفر بياناً لذلك لكل أحد هذا ما يقتضيه طبعه بما هو عليه من النقص بالشهوات والحظوظ ليبين فضل من حفظه الله بالعقل على من سواه من جميع المخلوقات بمجاهدته لعدو وهو بين جنبيه مع ظهور قدرة الله الباهرة بذلك .

ولما كان كأنه قيل إنكاراً عليهم وتهكماً بهم حيث لم يرضوا بأن جعلوا لمن إليه الجعل من عباده جزءاً حتى جعلوه شر الجزئين الإناث ، وهم أشد الناس نفرة منهن : أوهب له ذلك الجزء الذي جعلتموه إناثاً غيره قسراً بحيث لم يقدر أن ينفك عنه كما قدم في السورة التي قبله عن نفسه المقدس أنه يهب لمن يشاء إناثاً ولا يقدر على التقصير عنهن بوجه ، عادله بقوله عائداً إلى الخطاب لأنه أقعد في التبكيت على اختيار الغي عن الصواب : ﴿ أم اتخذ ﴾ أي عالج هو نفسه فأخذ بعد المعالجة وهو خالق الخلق كلهم ﴿ مما يخلق ﴾ أي يجدد إبداعه في كل وقت كما اعترفتم ﴿ بنات ﴾ فلم يقدر بعد التكليف والتعب على غير البنات التي هي أبغض الجزئين إليكم ، ونكر لتخصيصهم اتخاذه ببعض هذا الصنف الذي شاركه فيه غيره ، وعطف على قوله " اتخذ " ليكون منفياً على أبلغ وجه لكونه في حيز الإنكار : ﴿ وأصفاكم ﴾ وهو السيد وأنتم عبيده ﴿ بالبنين ﴾ أي الجزء الأكمل لديكم المستحق لأن يكون دائماً مستحضراً في الخاطر فلذلك عرفه ولأنهم ادعوا أن هذا النوع كله خاص بهم لم يشاركهم في شيء منه ، فكان هذا الكفر الثاني أعرق في المحال من الأول للزيادة على مطلق الحاجة بالسفه في أنه رضي بالدون الخسيس فلم يشاركهم في شيء من الأعلى ، بل جعل لهم ذلك خالصاً صافياً عن أدنى ما يشوبه من كدر .

ولما كانت نسبة الولد إليه سبحانه مما لا ينبغي أن يخطر بالبال على حال من الأحوال .

وكانت نسبته على سبيل الحقيقة أبعد منها على طريق المثال بأن يقال : الملائكة عنده في العزة بمنزلة البنات عند الأب ، قال مرشداً إلى أن ما قالوه لو كان على قصد التمثيل في غاية القباحة فضلاً عن أن يكون على التحقيق ، عائداً إلى الإعراض المؤذن بالمقت والإبعاد : ﴿ وإذا ﴾ أي جعلوا ذلك والحال أنه إذا ﴿ بشر ﴾ من أي مبشر كان ﴿ أحدهم ﴾ أطلق عليه ذلك تنبيهاً على أنه مما يسر كالذكر سواء في أن كلاً منهما ولد وتارة يسر وتارة يضر وهو نعمة من الخالق لأنه خير من العقم ﴿ بما ضرب ﴾ وعدل عن الوصف بالربوبية لأنه قد يدعى المشاركة في مطلق التربية إلى الوصف الدال على عموم الرحمة ، فتأمله بمجرده كاف في الزجر عن سوء قولهم فقال : ﴿ للرحمن ﴾ أي الذي لا نعمة على شيء من الخلق إلا وهي منه ﴿ مثلاً ﴾ أي جعل له شبهاً وهو الأنثى ، وعبر به دونه أن يقول : بما جعل ، موضع " بما ضرب " تعليماً للأدب في حقه سبحانه في هذه السورة التي مقصودها العلم الموجب للأدب وزيادة في تقبيح كفرهم لا سيما إن أرادوا الحقيقة بالإشارة إلى أن الولد لا يكون إلا مثل الوالد ، لا يتصور أصلاً أن يكون خارجاً عن شبهه في خاص أوصافه .

ولما كان تغير الوجه لا سيما بالسواد لا يدرك حق الإدراك إلا بالنهار ، عبر بما هو حقيقة في الدوام نهاراً وإن كان المراد هنا مطلق الدوام : ﴿ ظل ﴾ أي دام ﴿ وجه مسوداً ﴾ أي شديد السواد لما يجد من الكراهة الموصلة إلى الحنق بهذه البشارة التي أبانت التجربة عن أنها قد تكون سارة ﴿ وهو كظيم ﴾ أي حابس نفسه على ما ملئ من الكرب فكيف يأنف عاقل من شيء ويرضاه لعبده فضلاً عن مكافيه فضلاً عن سيده – هذا ما لا يرضى عاقل أن يمر بفكره فضلاً عن أن يتفوه به .

(89/690)

ولما كان الملك لا يأخذ في جنده إلا من يصلح للجندية بالمجالدة والمجادلة أو بإحداهما ، نبه على إنكار آخر بأن الإناث لا يصلحن لشيء من هذين الوصفين ، فقال معبداً لإنكار الثالث تنبيهاً على أنه بالغ جداً في إثارة الغضب : ﴿ أو من ﴾ أي اتخذ من لا يرضونه لأنفسهم .

.

.

لنفسه مع أنفتهم منه واتخذ من ﴿ ينشؤا ﴾ أي على ما جرت به عوائدكم على قراءة

الجماعة ، ومن تنشؤونه وتحلونه بجهدكم على قراءة ضم الباء وتشديد الشين ﴿ في الحلية ﴾ أي في الزينة فيكون كلا على أبيه لا يصلح لحرب ولا معالجة طعن ولا ضرب ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه ، وقدم لإفادة الاهتمام قوله : ﴿ في الخصام ﴾ إذا احتيج إليه ﴿ غير مبين ﴾ أي لا يحصل منه إبانة مطلقة كاملة لما يريده لنقصان العقل وضعف الرأي بتدافع الحظوظ والشهوات وتمكن السعة ، فلا دفاع عنده بيد ولا لسان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 13.15 ﴾

(90/690)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ [الزخرف : 9] بين أنهم مع إقرارهم بذلك ، جعلوا له من عباده جزءاً والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة عقولهم .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿ جُزْء ﴾ بضم الزاي والهمزة في كل القرآن وهما لغتان ، وأما حمزة فإذا وقف عليه قال جزا بفتح الزاي بلا همزة .

المسألة الثانية :

في المراد من قوله ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ قولان : الأول : وهو المشهور أن المراد أنهم أثبتوا له ولداً ، وتقرير الكلام أن ولد الرجل جزء منه ، قال عليه السلام : " فاطمة بضعة مني " ولأن المعقول من الوالد أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ، ثم يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الأصل ، وإذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه ، فقوله ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءا ﴾ معنى جعلوا حكموا وأثبتوا وقالوا به ، والمعنى أنهم أثبتوا له جزءاً ، وذلك الجزء هو عبد من عباده .

واعلم أنه لو قال وجعلوا لعباده منه جزءاً ، أفاد ذلك أنهم أثبتوا أنه حصل جزء من أجزائه في بعض عباده وذلك هو الولد ، فكذا قوله ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ معناه وأثبتوا له جزءاً ، وذلك الجزء هو عبد من عباده ، والحاصل أنهم أثبتوا لله ولداً ، وذكروا في تقرير هذا القول وجوهاً أُخر ، فقالوا الجزء هو الأنثى في لغة العرب ، واحتجوا في إثبات هذه اللغة ببيتين فالأول قوله :

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب . . قد تجزىء الحرة المذكاة أحياناً

وقوله :

زوجتها من بنات الأوس مجزئة . . للعوسج اللدن في أبياتها غزل

(91/690)

وزعم الزجاج والأزهري وصاحب "الكشاف" : أن هذه اللغة فاسدة ، وأن هذه الأبيات مصنوعة والقول الثاني : في تفسير الآية أن المراد من قوله ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ إثبات الشركاء لله ، وذلك لأنهم لما أثبتوا الشركاء لله تعالى فقد زعموا أن كل العباد ليس لله ، بل بعضها لله ، وبعضها لغير الله ، فهم ما جعلوا لله من عباده كلهم ، بل جعلوا له منهم بعضاً وجزءاً منهم ، قالوا والذي يدل على أن هذا القول أولى من الأول ، أنا إذا حملنا هذه الآية على إنكار الشريك لله ، وحملنا الآية التي بعدها إلى إنكار الولد لله ، كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وأصفاكم بالبنين ﴾ .

واعلم أنه تعالى رتب هذه المناظرة على أحسن الوجوه ، وذلك لأنه تعالى بيّن أن إثبات الولد لله محال ، وبتقدير أن يثبت الولد فجعله بنتاً أيضاً محال ، أما بيان أن إثبات الولد لله محال ، فلأن الولد لا بد وأن يكون جزءاً من الوالد ، وما كان له جزء كان مركباً ، وكل

مركب ممكن ، وأيضاً ما كان كذلك فإنه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق ، وما كان كذلك فهو عبد محدث ، فلا يكون إلهاً قديماً أزلياً .

(92/690)

وأما المقام الثاني : وهو أن بتقدير ثبوت الولد فإنه يمتنع كونه بنتاً ، وذلك لأن الابن أفضل من البنت ، فلو قلنا إنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده ، لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله ، وذلك مدفوع في بديهة العقل ، يقال أصفيت فلاناً بكذا ، أي آثرته به إيثاراً حصل له على سبيل الصفاء من غير أن يكون له فيه مشارك ، وهو كقوله ﴿ أفأصفاكم ربُّكُم بالبنين ﴾ [الإسراء : 40] ثم بيّن نقصان البنات من وجوه الأول : قوله ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ والمعنى أن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى ! وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى ، فهجر البيت الذي فيه المرأة ، فقالت :

ما لأبي حمزة لا يأتينا . . يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا . . ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا . . (1)

وقوله ﴿ ظِلّ ﴾ أي صار ، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة ، قال صاحب "الكشاف" : قرىء مسود مسواد ، والتقدير وهو مسود ، فتقع هذه الجملة موقع الخبر والثاني : قوله ﴿ أَو مَن يُنَشَّأُ فِي الحلية وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ينشؤ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين على ما لم يسم فاعله ، أي يربى ، والباقون ينشأ ، بضم الياء وسكون النون وفتح الشين ، قال صاحب "الكشاف" : وقرىء يناشأ ، قال ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء ، المغالاة بمعنى الإغلاء .

---

(1) لهذا الرجز تتمة أو هي رواية أخرى رواها الجاحظ في «البيان والتبيين» :

كأنما ذلك في أيدينا ونحن كالأرض لزارعينا

نخرج ما قد بذروه فينا

المسألة الثانية :

المراد من قوله ﴿ أَو مَن يُنَشَّأُ فِي الحلية ﴾ التنبيه على نقصانها ، وهو أن الذي يربى في

الحلية يكون ناقص الذات ، لأنه لولا نقصان في ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية ، ثم بيّن نقصان حالها بطريق آخر ، وهو قوله ﴿ وَهُوَ فِى الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ يعني أنها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين ، وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلادة طبعها ، ويقال قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بما كان حجة عليها ، فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها ، فكيف يجوز إضافتهن بالولدية إليه ! .

المسألة الثالثة :

دلت الآية على أن التحلي مباح للنساء ، وأنه حرام للرجال ، لأنه تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان ، وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه في الذل وذلك حرام ، لقوله عليه السلام : " ليس للمؤمن أن يذل نفسه " وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة الله ، والتزين بزينة التقوى ، قال الشافعي :

تدرعت يوماً للقنوع حصينة . .

أصون بها عرضي وأجعلها ذخرا

ولم أحذر الدهر الخئون وإنما . .

قصاراه أن يرمي بي الموت والفقرا

فأعددت للموت الإله وعفوه . .

وأعددت للفقر التجلد والصبرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 172 .

174 ﴾

(94/690)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾

أي عِدْلاً ؛ عن قتادة .

يعني ما عبد من دون الله عز وجل .

الزجاج والمبرد : الجزء هاهنا البنات ؛ عجّب المؤمنين من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله ثم جعلوا له شريكاً أو ولداً ، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به ؛ لأن هذا من صفات النقص .

قال الماوردي : والجزء عند أهل العربية البنات ؛ يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات ؛ قال الشاعر :

إن أجزأتْ حُرّةٌ يوماً فلا عجبٌ . . .

قد تجزىء الحُرَّةُ المِذكار أحيانا

الزمخشري : ومن بِدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث ، وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدَث متحوّل ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة ، ثم صنعوا بيتاً ، وبيتاً :

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب . . .

زُوِّجْتُهَا من بنات الأوس مُجزِئة . . .

وإنما قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ متصل بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ أي ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ؛ وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين .

ومعنى "مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً" أن قالوا الملائكة بنات الله ؛ فجعلوهم جزءاً له وبعضا ، كما يكون الولد بَضْعَة من والده وجزءاً له .

وقرىء "جزؤا" بضمتين .

﴿ إِنَّ الإنسان ﴾ يعني الكافر .

﴿ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ قال الحسن : يعدّ المصائب وينسى النعم .

"مُبِينٌ" مظهر الكفر .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ الميم صلة ؛ تقديره اتخذ مما يخلق بنات كما

زعمتم أن الملائكة بنات الله ؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ .

﴿ وَأَصْفَاكُم بالبنين ﴾ أي اختصكم وأخلصكم بالبنين ؛ يقال : أصفيته بكذا ؛ أي آثرته به .

وأصفيته الودّ أخلصته له .

(95/690)

وصافيته وتصافينا تخالصنا .

عجب من إضافتهم إلى الله اختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين ، وهو مقدّس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه اتخذ لنفسه ولداً فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين ! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس ؟ وهذا كما قال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 21 22] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ أي بأنه ولدت له بنت ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أي صار وجهه ﴿ مُسْوَدّاً ﴾ قيل ببطلان مَثَله الذي ضربه .

وقيل : بما بُشِّر به من الأنثى ؛ دليله في سورة النحل ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ﴾ [النحل : 85] .

ومِن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له أنثى اغتم واربد وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب .

وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت :

ما لِأبي حمزة لا يأتينا . . .

يَظَلّ في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا . . .

وإنما نأخذ ما أعطينا

وقرىء "مسودٌّ ، ومسوادٌّ" .

وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه اسم "ظَلَّ" و "مُسْوَدًّا" خبر "ظَلَّ" .

ويجوز أن يكون في "ظَلَّ" ضمير عائد على أحد وهو اسمها ، و "وَجْهُهُ" بدل من الضمير .

و "مُسْوَدًّا" خبر "ظَلَّ" .

ويجوز أن يكون رفع "وَجْهُهُ" بالابتداء ، ويرفع "مُسْوَدًّا" على أنه خبره ، وفي "ظَلَّ" اسمها والجملة خبرها .

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي حزين ؛ قاله قتادة .

وقيل مكروب ؛ قاله عكرمة .

وقيل ساكت ؛ قاله ابن أبي حاتم ؛ وذلك لفساد مَثَله وبطلان حجته .

ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شِبهاً لِلّه ؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه .

ومن اسودّ وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضى ، أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجلّ منه ؛ فكيف إلى الله عز وجل ! وقد مضى في "النحل" في معنى هذه الآية ما فيه كفاية .

(96/690)

قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحلية ﴾ فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ ﴾ أي يُرَبَّى ويَشِبّ .

والنُّشوء : التربية ؛ يقال : نشأت في بني فلان نَشْأً ونشوءاً إذا شَبَبْتَ فيهم .

ونُشِّىء وأنشىء بمعنًى .

وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وَثّاب وحفص وحمزة والكسائي وخلف "يُنَشَّأ" بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ؛ أي يربى ويَكْبَر في الحِلْية .

واختاره أبو عبيد ، لأن الإسناد فيها أعلى .

وقرأ الباقون "يَنْشأ" بفتح الياء وإسكان النون ، واختاره أبو حاتم ؛ أي يرسخ ويثبت ،

وأصله من نشأ أي ارتفع ، قاله الهروي .

ف "يُنَشّأ" متعد ، و "ينشأ" لازم .

الثانية قوله تعالى : ﴿ فِي الحلية ﴾ أي في الزينة .

قال ابن عباس وغيره : هنّ الجواري زِيُّهن غير زيّ الرجال .

قال مجاهد : رخص للنساء في الذهب والحرير ؛ وقرأ هذه الآية .

قال الكيا : فيه دلالة على إباحة الحُلِيّ للنساء ، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى .

قلت روي عن أبي هريرة أنه كان يقول لابنته : يا بنيّة ، إياك والتحلّي بالذهب ! فإني أخاف عليك اللهب .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي في المجادلة والإدلاء بالحجة .

قال قتادة ، ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها .

وفي مصحف عبد الله "وهو في الكلام غير مبين" .

ومعنى الآية : أيضاف إلى الله مَن هذا وصفه ! أي لا يجوز ذلك .

وقيل : المنّشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة وحلّوْها ؛ قاله ابن زيد والضحاك .

ويكون معنى "وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" على هذا القول : أي ساكت عن الجواب .

و"من" في محل نصب ، أي اتخذوا للّه من ينشأ في الحِلية .

ويجوز أن يكون رفعاً على الابتداء والخبر مضمر ؛ قاله الفرّاء .

وتقديره : أومن كان على هذه الحالة يستحق العبادة .

(97/690)

وإن شئت قلت خفض رداً إلى أوّل الكلام وهو قوله : ﴿ بِمَا ضَرَبَ ﴾ ، أو على "ما" في قوله : ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ .

وكون البدل في هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائلة بين البدل والمبدل منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(98/690)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

هذه السورة مكية ، وقال مقاتل : إلا قوله : ﴿ وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾

وقال ابن عطية : بإجماع أهل العلم .

﴿ إنا جعلناه ﴾ ، أي صيرناه ، أو سميناه ؛ وهو جواب القسم ، وهو من الأقسام الحسنة لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونهما من واد واحد ، ونظيره قول أبي تمام :

وثناياك أنها أغريض . . .

_@_وقيل : والكتاب أريد به الكتب المنزلة ، والضمير في جعلناه يعود على القرآن ، وإن لم يتقدم له صريح الذكر لدلالة المعنى عليه .

وقال الزمخشري : جعلناه ، بمعنى صيرناه ، معدى إلى مفعولين ، أو بمعنى خلقناه معدى إلى واحد ، كقوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ ﴿ وقرآناً عربياً ﴾ : حال .

ولعل : مستعارة لمعنى الإرداة ، لتلاحظ معناها ومعنى الترجي ، أي خلقناه عربياً غير عجمي .

أراد أن تعقله العرب ، ولئلا يقولوا : ﴿ لولا فصلت آياته ﴾ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال في كون القرآن مخلوقاً .

﴿ أم الكتاب ﴾ : اللوح المحفوظ ، لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب ، وهذا فيه تشريف للقرآن ، وترفيع بكونه .

لديه علياً : على جميع الكتب ، وعالياً عن وجوه الفساد .

حكيماً : أي حاكماً على سائر الكتب ، أو محكماً بكونه في غاية البلاغة والفصاحة

وصحة المعاني .

قال قتادة وعكرمة والسدي : اللوح المحفوظ : القرآن فيه بأجمعه منسوخ ، ومنه كان جبريل ينزل .

وقيل : أم الكتاب : الآيات المحكمات ، لقوله : ﴿ هو الذين أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾ ومعناه : أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأم .

وقرأ الجمهور : في أم ، بضم الهمزة ، والإخوان بكسرها ، وعزاها ابن عطية يوسف بن عمرو إلى العراق ، ولم يعزها للإخوان عقلة منه .

يقال : ضرب عن كذا ، وأضرب عنه ، إذا أعرض عنه .

والذكر ، قال الضحاك وأبو صالح : القرآن ، أي افترائي عنكم القرآن .

(99/690)

وقولهم : ضرب الغرائب عن الحوض ، إذا أدارها ونحاها ، وقال الشاعر :

اضرب عنك الهموم طارقها . . .

ضربك بالسيف قونس الفرس

وقيل : الذكر : الدعاء إلى الله والتخويف من عقابه .

قال الزمخشري : والفاء للعطف على محذوف تقديره : أنهملكم فنضرب عنكم الذكر إنكاراً ؟ لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من إنزاله الكتاب وخلقه قرآناً عربياً لتعقلوه وتعملوا بموجبه . انتهى .

وتقدم الكلام معه في تقديره فعلاً بين الهمزة والفاء في نحو : ﴿ أفلم يسيروا ﴾ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ وبينها وبين الواو في نحو : ﴿ أولم يسيروا ﴾ كما وأن المذهب الصحيح قول سيبويه والنحويين : أن الفاء والواو منوي بهما التقديم لعطف ما بعدهما على ما قبلهما ، وأن الهمزة تقدمت لكون الاستفهام له صدر الكلام ، ولا خلاف بين الهمزة والحرف ، وقد رددنا عليه قوله : وقال ابن عباس ومجاهد : المعنى : أفنترك تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم وعفواً عن إجرامكم ؟ أن كنتم أو من أجل أن كنتم قوماً مسرفين ؟ أي هذا لا يصلح .

ونحا قتادة إلى أن المعنى صفحاً ، أي معفوا عنه ، أي نتركه .

ثم لا تؤاخذون بقوله ولا بتدبره ، ولا تنبهون عليه .

وهذا المعنى نظير قول الشاعر :

ثم الصبا صفحاً بساكن ذي الفضا . . .

وبصدع قلبي أن يهب هبوبها

وقول كثير :

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة . . .

فمن مل منها ذلك الوصل ملت

وقال ابن عباس : المعنى : أفحسبتم أن نصفح عنكم ولما تفعلوا ما أمرتم به ؟ وقال الكلبي : أن نترككم هملاً بلا أمر ولا نهي ؟ وقال مجاهد أيضاً : أن لا نعاقبكم بالتكذيب ؟ وقيل : أن نترك الإنزال للقرآن من أجل تكذيبهم ؟ وقرأ حسان بن عبد الرحمن الضبغي ، والسميط بن عمير ، وشميل بن عذرة : بضم الصاد ، والجمهور : بفتحها ، وهما لغتان ، كالسد والسد .

وانتصاب صفحاً على أنه مصدر من معنى أفنضرب ، لأن معناه : أفنصفح ؟ أو مصدر في موضع الحال ، أي صافحين ، قالهما الحوفي ، وتبعه أبو البقاء .

(100/690)

وقال الزمخشري : وصفحاً على وجهين : إما مصدر من صفح عنه ، إذا أعرض منتصباً على أنه مفعول له على معنى : أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم ؟ وإما بمعنى الجانب من قولهم : نظر إليه بصفح وجهه .

وصفح وجهه على معنى : أفننحيه عنكم جانباً ؟ فينصب على الظرف ، كما تقول : ضعه جانباً ، وامش جانباً .

وتعضده قراءة من قرأ صفحاً بالضم .

وفي هذه القراءة وجه آخر ، وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح ، وينتصب على الحال ، أي صافحين معرضين .

وقال ابن عطية : صفحاً ، انتصابه كانتصاب صنع الله . انتهى .

يعني أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، فيكون العامل فيه محذوفاً ، ولا يظهر هذا الذي قاله ، فليس انتصابه انتصاب صنع الله .

وقرأ نافع والإخوان : بكسر الهمزة ، وإسرافهم كان متحققاً .

فكيف دخلت عليه إن الشرطية التي لا تدخل إلا على غير المتحقق ، أو على المتحقق الذي أنبهم زمانه ؟ قال الزمخشري : هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته ، كما يقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفني حقي ، وهو عالم بذلك ، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق ، مع وضوحه ، استجهالاً له .

وقرأ الجمهور : أن بفتح الهمزة ، أي من أجل أن كنتم .

قال الشاعر :

أتجزع أن بان الخليط المودع . . .

وقرأ زيد بن علي : إذ كنتم ، بذال مكان النون ، لما ذكر خطاباً لقريش ، ﴿ أفنضرب عنك الذكر ﴾ ؟ وكان هذا الإنكار دليلاً على تكذيبهم للرسول ، وإنكاراً لما جاء به .

آنسه تعالى بأن عادتهم عادة الأمم السابقة من استهزائهم بالرسل ، وأنه تعالى أهلك من كان أشد بطشاً من قريش ، أي أكثر عدَداً وعُدداً وجلداً .

﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ : أي فليحذر قريش أن يحل بهم مثل ما حل بالأولين مكذبي الرسل من العقوبة .

(101/690)

قال معناه قتادة : وهي العقوبة التي سارت سير المثل ، وقيل : مثل الأولين في الكفر والتكذيب ، وقريش سلكت مسلكها ، وكان مقبلاً عليهم بالخطاب في قوله : ﴿ أفنضرب عنكم ﴾ ؟ فأعرض عنهم إلى إخبار الغائب في قوله : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ .

﴿ ولئن سألتهم ﴾ : احتجاج على قريش بما يوجب التناقض ، وهو إقرارهم بأن موجد العالم العلوي والسفلي هو الله ، ثم هم يتخذون أصناماً آلهة من دون الله يعبدونهم

ويعظمونهم .

قال ابن عطية : ومقتضى الجواب أن يقولوا خلقهن الله ، فلما ذكر تعالى المعنى ، جاءت العبارة عن الله تعالى بالعزيز العليم ، ليكون ذلك توطئة لما عدد من أوصافه الذي ابتدأ الإخبار بها ، وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قريش . انتهى .

وقال الزمخشري : لينسبن خلقها إلى الذي هذه أوصافه ، وليسندنه إليه . انتهى .

والظاهر أن : ﴿ خلقهن العزيز العليم ﴾ نفس المحكى من كلامهم ، ولا يدل كونهم ذكروا في مكان خلقهن الله ، أن لا يقولوا في سؤال آخر : ﴿ خلقهن العزيز العليم ﴾ .

و ﴿ الذي جعل لكم ﴾ : من كلام الله ، خطاباً لهم بتذكير نعمه السابقة .

وكرر الفعل في الجواب في قوله : ﴿ خلقهن العزيز العليم ﴾ ، مبالغة في التوكيد .

وفي غير ما سؤال ، اقتصروا على ذكر اسم الله ، إذ هو العلم الجامع للصفات العلا ، وجاء الجواب مطابقاً للسؤال من حيث المعنى ، لا من حيث اللفظ ، لأن من مبتدأ .

فلو طابق في اللفظ ، كان بالاسم مبتدأ ، ولم يكن بالفعل .

﴿ لعلكم تهتدون ﴾ : أي إلى مقاصدكم في السفر ، أو تهتدون بالنظر والاعتبار .

بقدر : أي بقضاء وحتم في الأزل ، أو بكفاية ، لا كثيراً فيفسد ، ولا قليلاً فلا يجدي .

﴿ فأنشرنا ﴾ : أحيينا به .

﴿ بلدة ميتاً ﴾ : ذكر على معنى القطر ، وبلدة اسم جنس .

وقرأ أبو جعفر وعيسى : ميتاً بالتشديد .

وقرأ الجمهور : تخرجون : مبنياً للمفعول ؛ وابن وثاب ، وعبد الله بن جبير المصبح ، وعيسى ، وابن عامر ، والإخوان : مبنياً للفاعل .

(102/690)

و ﴿ الأزواج ﴾ : الأنواع من كل شيء .

قيل : وكل ما سوى الله فهو زوج ، كفوق ، وتحت ، ويمين ، وشمال ، وقدام ، وخلف ، وماض ، ومستقبل ، وذوات ، وصفات ، وصيف ، وشتاء ، وربيع ، وخريف ؛ وكونها أزواجاً تدل على أنها ممكنة الوجود ، ويدل على أن محدثها فرد ، وهو الله المنزه عن الضد والمقابل والمعارض . انتهى .

﴿ والأنعام ﴾ : المعهود أنه لا يركب من الأنعام إلا الإبل .

ما : موصولة والعائد محذوف ، أي ما يركبونه .

وركب بالنسبة للعلل ، ويتعدى بنفسه على المتعدي بوساطة في ، إذ التقدير ما يركبونه .

واللام في لتستووا : الظاهر أنها لام كي .

وقال الحوفي : ومن أثبت لام الصيرورة جاز له أن يقول به هنا .

وقال ابن عطية : لام الأمر ، وفيه بعد من حيث استعمال أمر المخاطب بتاء الخطاب ، وهو من القلة بحيث ينبغي أن لا يقاس عليه .

فالفصيح المستعمل : اضرب ، وقيل : لتضرب ، بل نص النحويون على أنها لغة رديئة قليلة ، إذ لا تكاد تحفظ إلا قراءة شاذة ؛ فبذلك فلتفرحوا بالتاء للخطاب .

وما آثر المحدثون من قوله عليه الصلاة والسلام : لتأخذوا مصافاكم ، مع احتمال أن الراوي روى بالمعنى ، وقول الشاعر :

لتقم أنت يا ابن خير قريش . . .

فتقضي حوائج المسلمينا

وزعم الزجاج أنها لغة جيدة ، وذلك خلاف ما زعم النحويون .

والضمير في ظهوره عائد على ما ، كأنه قال : على ظهور ما تركبون ، قاله أبو عبيدة ؛ فلذلك حسن الجمع ، لأن ما لها لفظ ومعنى .

فمن جمع ، فباعتبار المعنى ؛ ومن أفرد فباعتبار اللفظ ، ويعني : ﴿ من الفلك والأنعام ﴾ .

وقال الفراء نحواً منه ، قال : أضاف الظهور ، ﴿ ثم تذكروا ﴾ ، أي في قلوبكم ، ﴿ نعمة ربكم ﴾ ، معترفين بها مستعظمين لها .

لا يريد الذكر باللسان بل بالقلب ، ولذلك قابله بقوله : ﴿ وتقولوا سبحان الذين سخر لنا هذا ﴾ ، أي تنزهوا الله بصريح القول .

(103/690)

وجاء في الحديث : " أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فإذا استوى على الدابة قال : الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا ، إلى قوله المنقلبون ، وكبر ثلاثاً وهلل ثلاثاً ، وقالوا : إذا ركب في السفينة قال : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ إلى رحيم ، ويقال عند النزول منها : اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين " والقرن : الغالب الضابط المطيق للشيء ، يقال : أقرن الشيء ، إذا أطاقه .

قال ابن هرمة :

وأقرنت ما حملتني ولقلما . . .

يطاق احتمال الصدياد عدو الهجر

وحقيقة أقرنه : وجده ، قرينته وما يقرن به : لأن الصعب لا يكون قرينة للضعف .

قال الشاعر :

وابن اللبون إذا ما لذ في قرن . . .

لم يستطع صولة البذل القناعيس

والقرن : الحبل الذي يقرن به .

وقال أبو عبيد : فلان مقرن لفلان ، أي ضابط له ، والمعنى : أنه ليس لنا من القوة ما نضبط به الدابة والفلك ، وإنما الله الذي سخرها .

وأنشد قطرب لعمرو بن معد يكرب :

لقد علم القبائل ما عقيل . . .

لنا في النائبات بمقرنينا

وقرىء : لمقترنين ، اسم فاعل من اقترن .

﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ : أي راجعون ، وهو إقرار بالرجوع إلى الله ، وبالبعث ، لأن الراكب في مظنة الهلاك بالغرق إذا ركب الفلك ، وبعثور الدابة ، إذ ركوبها أمر فيه خطر ، ولا تؤمن السلامة فيه .

فقوله هذا تذكير بأنه مستشعر الصيرورة إلى الله ، ومستعد للقائه ، فهو لا يترك ذلك من قلبه ولا لسانه .

﴿ وجعلوا له ﴾ : أي وجعل كفار قريش والعرب له ، أي لله .

من عباده : أي ممن هم عبيد الله .

جزءاً ، قال مجاهد : نصيباً وحظاً ، وهو قول العرب : الملائكة بنات الله .

وقال قتادة جزءاً ، أي نداً ، وذلك هو الأصنام وفرعون ومن عبد من دون الله .

وقيل : الجزء : الإناث .

قال بعض اللغويين : يقال أجزأت المرأة ، إذا ولدت أنثى .

قال الشاعر :

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب . . .

(104/690)

قد تجزىء الحرة المذكار أحيانا

قيل : هذا البيت مصنوع ، وكذا قوله :

زوجها من بنات الأوس مجزئة . . .

ولما تقدم أنهم معترفون بأنه تعالى هو خالق العالم ، أنكر عليهم جعلهم لله جزءاً ، وقد اعترفوا بأنه هو الخالق ، فكيف وصفوه بصفة المخلوق ؟ ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ نعمة خالقه .

﴿ مبين ﴾ : مظهر لجحوده .

والمراد بالإنسان : من جعل لله جزءاً ، وغيرهم من الكفرة .

قال ابن عطية : ومبين في هذا الموضع غير متعد . انتهى .

وليس يتعين ما ذكر ، بل يجوز أن يكون معناه ظاهراً لكفران النعم ومظهراً لجحوده ، كما قلنا .

﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ لقلة عقولهم ؟ كيف زعموا أنه تعالى اتخذ لنفسه ما أنتم تكرهونه حين أنتم تسود وجوهكم عند التبشير بهن وتئدونهن ؟ ﴿ وأصفاكم ﴾ : جعل لكم صفوة ما هو محبوب ، وذلك البنون .

وقوله : ﴿ مما يخلق ﴾ ، تنبيه على استحالة الولد ، ذكراً كان أو أنثى ، وإن فرض اتخاذ الولد ، فكيف يختار له الأدنى ويخصكم بالأعلى ؟ وقدم البنات ، لأنه المنكر عليهم لنسبتهن إلى الله ، وعرف البنين دون البنات تشريفاً لهم على البنات .

﴿ وإذا بشر أحدهم ﴾ : تقدم تفسير نظيرها في سورة النحل .

﴿ أو من ينشؤا في الحلية ﴾ : أي ينتقل في عمره حالاً فحالاً في الحلية ، وهو الحلى الذي لا يليق إلا بالإناث دون الفحول ، لتزينهن بذلك لأزواجهن ، وهو إن خاصم ، لا يبين لضعف العقل ونقص التدبر والتأمل ، أظهر بهذا لحقوقهن وشفوف البنين عليهن .

وكان في ذلك إشارة إلى أن الرجل لا يناسب له التزين كالمرأة ، وأن يكون مخشوشناً .

والفحل من الرجال أبى أن يكون متصفاً بصفات النساء ، والظاهر أنه أراد بمن ينشؤا في الحلية : النساء .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : ويدل عليه قوله : ﴿ وهو في الخصام غير مبين ﴾ : أي لا يظهر حجة ، ولا يقيم دليلاً ، ولا يكشف عما في نفسه كشفاً واضحاً .

(105/690)

ويقال : قلما تجد امرأة لا تفسد الكلام ، وتخلط المعاني ، حتى ذكر عن بعض الناس أنه قال : إذا دخلنا على فلانة ، لا تخرج حتى نعلم أن عقلها عقل امرأة .

وقال ابن زيد : المراد بمن ينشؤا في الحلية : الأصنام ، وكانوا يتخذون كثيراً منها من الذهب والفضة ، ويجعلون الحلى على كثيرة منها ، ويبعد هذا القول قوله : ﴿ وهو في الخصام غير مبين ﴾ ، إلا إن أريد بنفي الإبانة نفي الخصام أي لا يكون منها خصام فإنه كقوله :

على لاحب لا يهتدى بمناره . . .

أي : لا منار له فيهتدى به .

ومن : في موضع نصب ، أي وجعلوا من ينشأ .

ويجوز أن يكون في موضع رفع على الابتداء ، أي من ينشأ جعلوه لله .

وقرأ الجمهور : ينشأ مبنياً للفاعل ، والجحدري في قول : مبنياً للمفعول مخففاً ، وابن عباس وزيد بن علي والحسن ومجاهد والجحدري : في رواية ، والإخوان وحفص والمفضل وإبان

وابن مقسم وهارون ، عن أبي عمرو : مبنياً للمفعول مشدداً ، والحسن : في رواية يناشؤ على وزن يفاعل مبنياً للمفعول ، والمناشأة بمعنى الإنشاء ، كالمعالاة بمعنى الإعلاء .

﴿ وفي الخصام ﴾ : متعلق بمحذوف تفسيره غير مبين ، أي وهو لا يبين في الخصام .

ومن أجاز أما زيداً ، غير ضارب بأعمال المضاف إليه في غير أجاز أن يتعلق بمبين ، أجرى غير مجرى لا .

وبتقديم معمول أما بعد لا مختلف فيه ، وقد ذكر ذلك في النحو . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(106/690)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾

متصل بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ [الزخرف : 9] إلى آخره فهو حال من فاعل ﴿ لَّيَقُولُنَّ ﴾ بتقدير قد أو بدونه ، والمراد بيان أنهم مناقضون مكابرون حيث اعترفوا بأنه عز وجل خالق السموات والأرض ثم وصفوه سبحانه بصفات المخلوقين وما يناقض كونه تعالى خالقاً لهما فجعلوا له سبحانه جزأً وقالوا : الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك

علواً كبيراً ، وعبر عن الولد بالجزء لأنهب ضعة ممن هو ولد له كما قيل : أولادنا أكبادنا ، وفيه دلالة على مزيد استحالته على الحق الواحد الذي لا يضاف إليه انقسام حقيقة ولا فرضاً ولا خارجاً ولا ذناً جل شأنه وعلا ، ولتأكيد أمر المناقضة لم يكتف بقوله تعالى : ﴿ جزأ ﴾ وقيل ﴿ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ لأنه يلزمهم على موجب اعترافهم أن يكون ما فيهما مخلوقه تعالى وعبده سبحانه إذ هو حادث بعدهما محتاج إليهما ضرورة .

وقيل : الجزء اسم للإناث يقال : أجزأت المرأة إذ ولدت أنثى ، وأنشد قول الشاعر :

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب . . .

قد تجزىء الحرة المذكار أحياناً

وقوله :

زوجتها من بنات الأوس مجزئة . . .

للعوسج اللدن في أنيابها زجل

وجعل ذلك الزمخشري من بدع التفاسير وذكر أن ادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث كذب عليهم ووضع مستحدث منخول وأن البيتين مصنوعان ، وقال الزجاج : في البيت الأول لا أدري قديم أم مصنوع .

ووجه بعضهم ذلك بأن حواء خلقت من جزء آدم عليه السلام فاستعير لكل الإناث .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ جزأ ﴾ بضمتين ، ثم للكلام وإن سيق للفرض المذكور يفهم

منه كفرهم لتجسيم الخالق تعالى والاستخفاف به جل وعلا حيث جعلوا له سبحانه أخس النوعين بل إثبات ذلك يستدعي الإمكان المؤذن بحدوثه تعالى فلا يكون إلهاً ولا بارئاً ولا خالقاً تعالى عما يقولون وسبحانه عما يصفون ، وليس الكلام مساقاً لتعديد الكفران كما قيل .

(107/690)

وقوله تعالى : ﴿ جُزْءًا إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ لا يقتضيه فإن المراد المبالغة في كفران النعمة وهي في إنكار الصانع أشد من المبالغة في كفرهم به كما أشير إليه ، و ﴿ مُّبِينٌ ﴾ من أبان اللازم أي ظاهر الكفران ، وجوز أن يكون من المتعدي أي مظهر كفرانه .

﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتِ ﴾ ﴿ أَمْ ﴾ مقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال والهمزة للإنكار والتعجيب من شأنهم ، وقوله تعالى : ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ إما عطف على ﴿ اتخذ ﴾ داخل في حكم الإنكار والتعجيب أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه ، والالتفات إلى خطابهم لتشديد الإنكار أي بل اتخذ سبحانه من خلقه أخس الصنفين واختار لكم أفضلهما على معنى هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه سبحانه جائزة فرضاً أما تفطنتم لما ارتكبتم من الشطط في القسمة وقبح ما ادعيتم من أنه سبحانه آثركم على نفسه

بخير الجزئين وأعلاهما وترك له جل شأنه شرهما وأدناهما فما أنتم إلا في غاية الجهل والحماقة ، وتنكير بنات وتعريف البنين لقرينة ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة ، وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ قيل : حال وارتضاه العلامة الثاني على معنى أنهم نسبوا إليه تعالى ما ذكروا من حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم ، وقيل : استئناف مقرر لما قبله ، وجوز عطفه على ما قبله وليس بذاك . والالتفات للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكي لغيرهم تعجيباً ، والجملة الاسمية في موضع الحال أي إذا أخبر أحدهم بجنس ما جعله مثلاً للرحمن جل شأنه وهو جنس الإناث لأن الولد لا بد أن يجانس الولد ويماثله صار وجهه أسود في الغاية لسوء ما بشر به عنده والحال هو مملوء من الكرب والكآبة ، وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت :

ما لأبي حمزة لا يأتينا . . .

يظل في البيت الذي يلينا

(108/690)

غضبان أن لا نلد البنينا . . .

وليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا . . .

وقرىء ﴿ مسود ﴾ بالرفع و﴿ مسواد ﴾ بصيغة المبالغة من اسواد كإحمار مع الرفع أيضاً على أن في ﴿ إلى ظِلّ ﴾ ضمير المبشر ووجهه مسود أي مسواد جملة واقعه موقع الخبر ، والمعنى صار المبشر مسود الوجه وقيل : الضمير المستتر في ﴿ ظِلّ ﴾ ضمير الشأن والجملة خبرها ، وقيل : الفعل تام والجملة حالية والوجه ما تقدم ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْمِن يُنَشَّأُ فِى الحلية ﴾ تكرير للإنكار و﴿ مِنْ ﴾ منصوبة المحل بمضمر معطوف على ﴿ جَعَلُواْ ﴾ [الزخرف : 15] وهناك مفعول محذوف أيضاً أي أو جعلوا له تعالى من شأنه أن يتربى في الزينة وهن البنات كما قال ابن عباس : ومجاهد وقتادة .

والسدي : ولداً فالهمزة لإنكار الواقع واستقباحه .

(109/690)

وجوز انتصاب ﴿ مِنْ ﴾ بمضمر معطوف على ﴿ اتخذ ﴾ [الزخرف : 16] فالهمزة حينئذٍ لإنكار الوقوع واستبعاده ، وإقحامها بين المعطوفين لتذكير ما في أم المنقطعة من

الإنكار ، والعطف للتغاير العنواني أي أو اتخذ سبحانه من هذه الصفة الذميمة ولداً ﴿ وَهُوَ ﴾ مع ما ذكر من القصور ﴿ فِى الخصام ﴾ أي الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه إنسان في العادة ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ غير قادر على تقرير دعواه وإقامته حجته لنقصان عقله وضعف رأيه ، والجار متعلق بمبين ، وإضافة ﴿ غَيْرِ ﴾ لا تمنع عمل ما بعدها فيه لأنه بمعنى النفي فلا حاجة لجعله متعلقاً بمقدر ، وجوز كون من مبتدأ محذوف الخبر أي أو من حاله كيت وكيت ولده عز وجل ، وجعل بعضهم خبره جعلوه ولداً لله سبحانه وتعالى أو اتخذه جل وعلا ولداً ، وعن ابن زيد أن المراد بمن ينشأ في الحلية الأصنام قال : وكانوا يتخذون كثيراً منها من الذهب والفضة ويجعلون الحلي على كثير منها ، وتعقب بأنه يبعد هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِى الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ إلا إن أريد بنفي الإبانة نفي الخصام أي لا يكون منها خصام فإبانة كقوله :

على لاحب لا يهتدى بمناره . . .

(110/690)

وعندي أن هذا القول بعيد في نفسه وأن الكلام أعني قوله سبحانه : ﴿ أَمِ اتخذ ﴾ إلى هنا وارد لمزيد الإنكار في أنهم قوم من عادتهم المناقضة ورمى القول من غير علم ، وفي المجيء

بأم المنقطعة وما في ضمنها من الإضراب دليل على أن معتمد الكلام إثبات جهلهم ومناقضتهم لا إثبات كفرهم لكنه يفهم منه كما سمعت وتسمع إن شاء الله تعالى ، وقرأ الجحدري في رواية ﴿ يُنَشَّأُ ﴾ مبنياً للمفعول مخففاً ، وقرأ الحسن في رواية أيضاً ﴿ يناشأ ﴾ على وزن يفاعل مبنياً للمفعول ، والمناشاة بمعنى الإنشاء كالمغالاة بمعنى الإغلاء ، وقرأ الجمهور ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ ﴾ مبنياً للفاعل ، والآية ظاهرة في أن النشوء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام وأنه من صفات ربات الحجال فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربا بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر رضي الله تعالى عنه اخشوشنوا في اللباس واخشوشبوا في الطعام وتمعددوا وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(111/690)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ حم والكتاب المبين إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشعراء في الكلام

على قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 194 - 195] وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر : 28] الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ .

الضمير في قوله منهم عائد إلى القوم المسرفين ، المخاطبين بقوله : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف : 5] ، وفيه ما يسميه علماء البلاغة بالالتفات من الخطاب إلى الغيبة .

وقوله ﴿ أَشَدَّ مِنْهُم ﴾ مفعول به لأهلكنا ، وأصله نعت لمحذوف ، والتقدير : فأهلكنا قوماً أشد منهم بطشاً ، على حد قوله في الخلاصة :

وما من المنعوت والنعت عُقِلْ . . . يجوز حذفه وفي النعت يَقِل

وقوله بطشاً : تمييز محول من الفاعل على حد قوله في الخلاصة :

والفاعل المعنى انصبن بأفعَلاَ . . . مفضِّلاً كأنت أعلا منزِلاَ

والبطش : أصله الأخذ بعنف وشدة .

والمعنى : فأهلكنا قوماً أشد بطشاً من كفار مكة الذين كذبوا نبينا بسبب تذكيبهم رسلهم فليحذر الكفار الذين كذبوك أن نهلكهم بسبب ذلك كما أهلكنا الذين كانوا أشد منهم بطشاً ، أي أكثر منهم عَدداً وعُدداً وجلداً .

فعلى الأضعف الأقل أن يتعظ بإهلاك الأقوى الأكثر .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ أي صفتهم التي هي إهلاكهم المستأصل ، بسبب تكذيبهم الرسل .

وقول من قال : ﴿ مَثَلُ الأولين ﴾ أي عقوبتهم وسنتهم راجع في المعنى إلى ذلك .

(112/690)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، بأن الله أهلك من هم أقوى منهم ، ليحذروا أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم : 9] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأرض ﴾ [غافر : 82] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً ﴾ [الأنعام : 6] إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [الأنعام : 6] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُواْ

رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ : 45] . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ وكانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأَرض إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾ [فاطر : 44] .

(113/690)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد كفار مكة الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، بصفته إهلاكهم وسنته فيهم التي هي العقوبة وعذاب الاستئصال ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً استكبارا فِي الأَرض وَمَكْرَ السيىء وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً ﴾

[فاطر : 42 – 43] وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّةَ الله التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ [غافر : 83 – 85] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن

يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأولين ﴾ [الكهف : 55] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلآخِرِين ﴾ [الزخرف : 55 - 56] .

وقد قدمنا بعض الآيات الدالة على هذا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذلك كَتَبْنَا على بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [المائدة : 32] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ .

(114/690)

وقد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] .

قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

قرأ هذا الحرف ، عاصم وحمزة والكسائي ﴿ مهدا ﴾ بفتح الميم وسكون الهاء وقرأه باقي السبعة ﴿ مِهَاداً ﴾ بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف ومعناهما واحد وهو الفراش .

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه جعل الأرض لبني آدم مهداً أي فراشاً وأنه

جعل لهم فيها سبلاً أي طرقاً ليمشوا فيها ويسلكوها ، فيصلوا بها من قطر إلى قطر .

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة ، من كونه تعالى جعل الأرض فراشاً لبني آدم وجعل لهم فيها الطرق ، لينفذوا من قطر إلى قطر ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح : 19 - 20] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 31] .

وذكر كون الأرض فراشاً لبني آدم في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ والأرض فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الماهدون ﴾ [الذاريات : 48] وقوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 22] .

وقوله تعالى : ﴿ الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً والسمآء بِنَآءً ﴾ [غافر : 64] الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 15] .

(115/690)

قوله تعالى : ﴿ والذي نَزَّلَ مِنَ السماء مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالة إحياء الأرض بعد موتها على خروج الناس من قبورهم أحياء بعد الموت ، في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ جاء موضحاً في آيات كثيرة قد قدمناها في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 22] مع بقية براهين البعث في القرآن .

وأوضحنا ذلك أيضاً في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل : 10] ، وفي غير ذلك من المواضع ، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك .

وقد قدمنا في سورة الفرقان معنى الإنشاء والنشور وما في ذلك من اللغات مع الشواهد العربية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ .

قال بعض العلماء : أي بقدر سابق وقضاء .

وقال بعض العلماء : أي بمقدار يكون به إصلاح البشر فلم يكثر الماء جداً فيكون طوفاناً فيهلكهم ، ولم يجعله قليلاً دون قدر الكفاية ، بل نزله بقدر الكفاية من غير مضرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 18] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ

بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] إلى قوله ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر : 22] .

قوله تعالى : ﴿ والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ .

الأزواج الأصناف ، والزوج تطلقه العرب على الصنف .

وقد بين تعالى أن الأزواج المذكورة هنا تشمل أصناف النبات وبني آدم وما لا يعلمه إلا الله .

(116/690)

قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُون ﴾ [يس : 36] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى ﴾ [طه : 53] وقال تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] أي من كل صنف حسن من أصناف النبات .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : 10] .

ومن إطلاق الأزواج على الأصناف في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص : 58] . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُم ﴾ [طه : 131] .

وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُم ﴾ [الصافات : 22] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة المؤمن ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الأنعام لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا ﴾ [غافر : 79] الآية . وضمير المفرد المذكر الغائب في قوله : ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ راجع إلى لفظ ما في قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ .

(117/690)

يعني جل وعلا أنه جعل لبني آدم ما يركبونه من الفلك التي هي السفن ، ومن الأنعام ليستوو أي يرتفعوا معتدلين على ظهوره ثم يذكروا في قلوبهم نعمة ربهم عليهم بتلك المركوبات ثم يقولوا بألسنتهم مع تفهم معنى ما يقولون ﴿ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف : 13] .

وقوله : " سبحان " قد قدمنا في أول سورة بني إسرائيل معناه ، بإيضاح وأنه يدل على تنزيه الله جل وعلا أكمل التنزيه وأتمه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله والإشارة في قوله ﴿ هذا ﴾ راجعة إلى لفظ ﴿ مَا ﴾ من قوله : ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ وجمع الظهور نظراً إلى معنى ﴿ مَا ﴾ ، لأن معناها عام شامل لكل ما تشمله صلتها ولفظها مفرد ، فالجمع في الآية باعتبار معناها ، والإفراد باعتبار لفظها .

وقوله : ﴿ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ أي الذي ذلل لنا هذا الذي هو ما نركبه من الأنعام والسفن لأن الأنعام لو لم يذللها الله لهم لما قدروا عليها ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل ، وكذلك البحر لو لم يذلله لهم ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مطيقين .

والعرب تقول : أقرن الرجل للأمر وأقرنه إذا كان مطيقاً له كفؤاً للقيام به من قولهم : أقرنت الدابة للدابة ، بمعنى أنك إذا قرنتهما في حبل قدرت على مقاومتها ، ولم تكن أضعف منها ، فتجرها لأن الضعيف إذا لز في القرن أي الحبل ، مع القوي جره ولم يقدر على مقاومته ، كما قال جرير :

وابن اللبون إذا ما لز في قرن . . . لم يستطع صولة البزل القناعيس

وهذا المعنى معروف في كلام العرب ، ومنه قول عمرو بن معد يكرب وقد أنشده قطرب لهذا المعنى :

لقد علم القبائل ما عقيل . . . لنا في النائبات بمقرنينا

وقوله ابن هرمة :

وأقرنت ما حملتني ولقلما . . . يطاق احتمال الصديا د عدو الهجر

وقول الآخر :

ركبتم صعبتي أشراً وحيفاً . . . ولستم للصعاب بمقرنينا

(118/690)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن ما ذكر من السفن والأنعام لو لم يذللها الله لهم لما أقرنوا له ولما أطاقوه جاء مبيناً في آيات أخر . قال تعالى في ركوب الفلك : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس : 41 - 42] . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّا ﴾ [النحل : 14] الآية . وقال تعالى : ﴿ الله الذي سَخَّرَ لَكُمُ البحر لِتَجْرِيَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [الجاثية : 12] الآية . وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِيَ فِي البحر بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ [إبراهيم : 32] الآية . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس ﴾ [البقرة : 164]

الآية. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرضِ والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: 65] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقال تعالى في تسخير الأنعام: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: 72] وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللهَ على مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ [الحج: 36 - 37] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾.

(119/690)

قال بعض العلماء ﴿ جُزْءًا ﴾ أي عدلاً ونظيراً، يعني الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله.

وقال بعض العلماء: ﴿ جُزْءًا ﴾ أي ولداً.

وقال بعض العلماء: ﴿ جُزْءًا ﴾ يعني البنات.

وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية : أن الجزء النصيب ، واستشهد على ذلك بآية الأنعام .

أعني قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [الأنعام : 136] الآية .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر أن قول ابن كثير هذا رحمه الله غير صواب في الآية .

لأن المجعول لله في آية الأنعام ، هو النصيب مما ذرأ من الحرث والأنعام ، والمجعول له في آية الزخرف هذه ، جزء من عباده لا مما ذرأ من الحرث والأنعام .

وبين الأمرين فرق واضح كما ترى .

وأن قول قتادة ومن وافقه : إن المراد بالجزء العدل والنظير الذي هو الشريك غير صواب أيضاً .

لأن إطلاق الجزء على النظير ليس بمعروف في كلام العرب .

أما كون المراد بالجزء في الآية الولد ، وكون المراد بالولد خصوص الإناث ، فهذا هو التحقيق في الآية .

وإطلاق الجزء على الولد يوجه بأمرين :

أحدهما : ما ذكره بعض علماء العربية من أن العرب تطلق الجزء مراداً به البنات ، ويقولون : أجزأت المرأة إذا ولدت البنات ، وامرأة مجزئة أي تلد البنات ، قالوا ومنه قول الشاعر :

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب . . . قد تجزئ الحرة المذكار أحياناً

وقول الآخر :

زوجتها من بنات الأوس مجزئة . . . للعوسج اللدن في أبياتها زجل

وأنكر الزمخشري هذه اللغة قائلاً إنها كذب وافتراء على العرب .

قال في الكشاف في الكلام على هذه الآية الكريمة : ومن بدع التفاسير ، تفسير الجزء بالإناث وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث منحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزأت المرأة ثم صنعوا بيتاً وبيتاً :

(120/690)

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب . . . زوجتها من بنات الأوس مجزئة ا ه . منه بلفظه .

وقال ابن منظور في اللسان : وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف : 15] . قال أبو إسحاق يعني به الذين جعلوا الملائكة بنات الله تعالى وتقدس عما افتروا ، قال : وقد أنشدت بيتاً يدل على أن معنى جزءاً معنى الإناث قال : ولا أدري البيت هو قديم أم مصنوع ؟

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب . . . والمعنى في قوله : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا

﴿ [الزخرف : 15] أي جعلوا نصيب الله من الولد الإناث ، قال ولم أجده في شعر قديم ولا رواه عن العرب الثقات ، وأجزأت المرأة ولدت الإناث ، وأنشد أبو حنيفة :

زوجتها من بنات الأوس مجزئة . . . انتهى الغرض من كلام صاحب اللسان .

وظاهر كلامه هذا الذي نقله عن الزجاج أن قولهم : أجزأت المرأة إذا ولدت الإناث معروف ، ولذا ذكره وذكر البيت الذي أنشده له أبو حنيفة كالمسلم له .

والوجه الثاني : وهو التحقيق إن شاء الله أن المراد بالجزء في الآية الولد ، وأنه أطلق عليه اسم الجزء ، لأن الفرع كأنه جزء من أصله والولد كأنه بضعة من الوالد كما لا يخفى .

وأما كون المراد بالولد المعبر عنه بالجزء في الآية خصوص الإناث فقرينة السياق دالة عليه دلالة واضحة ، لأن جعل الجزء المذكور لله من عباده هو بعينه الذي أنكره الله إنكاراً شديداً وقرع مرتكبه تقريعاً شديداً في قوله تعالى بعده ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بالبنين وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ [الزخرف : 16 - 17] إلى قوله : ﴿ وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : 18] .

وقرأ هذا الحرف شعبة عن عاصم ﴿ جُزْءًا ﴾ بضم الزاي وباقي السبعة بإسكانها وحمزة عند الوقف يسقط الهمزة ، بنقل حركتها إلى الزاي مع حذف التنوين للوقف .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بالبنين ﴾ .

أم هنا بمعنى استفهام الإنكار ، فالكفار لما قالوا : الملائكة بنات الله أنكر الله عليهم أشد الإنكار ، موبخاً لهم أشد التوبيخ ، حيث افتروا عليه الولد ، ثم جعلوا له أنقص الولدين وأحقرهما وهو الأنثى كما قال هنا : ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَات ﴾ وهي النصيب الأدنى من الأولاد ، وأصفاكم أنتم ، أي خصكم وآثركم بالبنين الذين هم النصيب الأعلى من الأولاد .

وإنكار هذا عليهم وتوبيخهم عليه جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله هنا ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ [الزخرف : 17] يعني الأنثى ، كما أوضحه بقوله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : 58] يعني فكيف تجعلون لله الإناث وأنتم لو بشر الواحد منكم بأن امرأته ولدت أنثى لظل وجهه مسوداً يعني من الكآبة وهو كظيم أي ممتلئ حزناً وغماً ، وكقوله تعالى هنا ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحلية وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : 18] ففيه إنكار شديد وتقريع عظيم لهم بأنهم مع افترائهم عليه جل وعلا الولد جعلوا له أنقص الولدين الذي لنقصه الخلقي ، ينشأ في الحلية من الحلي والحلل وأنواع الزينة ، من صغره إلى كبره ليجبر بتلك الزينة نقصه

الخلقي الطبيعي ، وهو في الخصام غير مبين ، لأن الأنثى غالباً لا تقدر على القيام بحجتها ولا الدفاع عن نفسها .

(122/690)

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهده العربية غاية الإيضاح في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم ﴾ [الإسراء : 9] وكقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : 57] . وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : 62] . وقوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴾ [الإسراء : 40] وقوله تعالى ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى ﴾ [النجم : 21 - 22] . وقوله تعالى : ﴿ فاستفتهم أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى البنات على البنين مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُواْ بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الصافات : 149 - 157] .

وقد قدمنا كثيراً من الآيات الموضحة لهذا المعنى في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى

: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : 57] ووجه التعبير عن الأنثى بما ضرب مثلاً لله في قوله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ [الزخرف : 17] الآية ظاهر ، لأن البنات المزعومة يلزم ادعاءها أن تكون من جنس من نسبت إليه ، لأن الوالد والولد من جنس واحد ، وكلاهما يشبه الآخر في صفاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(123/690)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) ﴾

هذا متصل بقوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ﴾ [الزخرف : 9] أي ولئن سألتهم عن خالق الأشياء ليعترفن به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف جُزْءاً .

فالواو للعطف على جملة ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض .

ويجوز كونها للحال على معنى : وقد جعلوا له من عباده جزءاً ، ومعنى الحال تفيد تعجيباً منهم في تناقض آرائهم وأقوالهم وقلبهم الحقائقَ ، وهي غبارة في الرأي تعرض للمقلدين في العقائد الضالّة لأنهم يلفقون عقائدهم من مختلف آراء الدُعاة فيجتمع للمقلد

من آراء المختلفين في النظر ما لو اطلع كل واحد من المقتَدَيْنَ بهم على رأي غيره منهم لأبطله أو رجع عن الرأي المضادّ له .

فالمشركون مقرّون بأن الله خالق الأشياء كلّها ومع ذلك جعلوا له شركاء في الإلَهية ، وكيف يستقيم أن يكون المخلوق إلها ، وجعلوا لله بنات ، والبنوة تقتضي المماثلة في الماهية ، وكيف يستقيم أن يكون لخالق الأشياء كلّها بنات فهنّ لا محالة مخلوقات له فإنْ لم يكنّ مخلوقات لزم أن يكنّ موجودات بوجوده فكيف تكنّ بناته .

وإلى هذا التناقض الإشارة بقوله : من عباده ﴾ أي من مخلوقاته ، أو ليست العبودية الحقة إلاّ عبودية المخلوق جزءاً ، أي قطعة .

والجزء : بعْض من كُلَ ، والقطعة منْه .

والوَلَد كجزء من الوالد لأنه منفصل مِنه ، ولذلك يقال للولد : بَضْعة .

فهم جمعوا بين اعتقاد حدوث الملائكة وهو مقتضى أنها عباد الله وبين اعتقاد إلهيتها وهو مقتضى أنها بنات الله لأن البُنوة تقتضي المشاركة في الماهية .

ولما كانت عقيدة المشركين معروفة لهم ومعروفة للمسلمين كان المراد من الجزء : البنات ، لقول المشركين : إن الملائكة بناتُ الله من سَرَوَاتِ الجِنّ ، أي أمهاتهم سَرَوَات الجنّ ، أي شريفات الجنّ فسَرَوَات جمع سرّية .

وحكى القرطبي أن المُبرد قال : الجزء ها هنا البنات ، يقال : أجزأت المرأة ، إذا وَلدت أنثى .

وفي "اللّسان" عن الزجاج أنه قال : أنشدت بيتاً في أن معنى جزء معنى الإناث ولا أدري البيْتَ أقديم أم مصنوع ، وهو :

إنْ أجزأتْ حرةٌ يوماً فلا عجب

قد تُجزىء الحرّة المِذْكَارُ أحياناً . . .

وفي "تاج العروس" : أن هذا البيت أنشده ثعلب ، وفي "اللّسان" أنشد أبو حنيفة :

زُوِّجْتُها من بناتِ الأوْس مُجْزِئَةً

لِلعَوْسَجِ الرطْبِ في أبياتِها زَجَل . . .

ونسبهُ الماوردي في تفسيره إلى أهل اللّغة .

وجزم صاحب "الكشاف" بأن هذا المعنى كَذب على العرب وأن البيتين مصنوعان .

والجعل هنا معناه : الحكم على الشيء بوصفه حكماً لا مستند له فكأنه صنع باليد والصنع باليد يطلق عليه الجعل .

وجملة ﴿ إن الإنسان لكفورٌ مبين ﴾ تذييل يدل على استنكار ما زعموه بأنه كفر شديد .

والمراد بـ ﴿ الإنسان ﴾ هؤلاء النّاس خاصة .

والمُبينُ : المُوضِّح كفرَه في أقواله الصريحة في كفر نعمة الله .

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16)

﴿ أم ﴾ للإضراب وهو هنا انتقالي لانتقال الكلام من إبطال معتقدهم بنوة الملائكة لله تعالى بما لزمه من انتقاص حقيقة الإلهية ، إلى إبطاله بما يقتضيه من انتقاص ينافي الكمال الذي تقتضيه الإلهية .

والكلام بعد ﴿ أم ﴾ استفهام ، وهو استفهام إنكاري كما اقتضاه قوله : ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ .

ومحل الاستدلال أن الإناث مكروهة عندهم فكيف يجعلون لله أبناءً إناثاً وهلاَّ جعلوها ذكوراً .

وليست لهم معذرة عن الفساد المنجرّ إلى معتقدهم بالطريقتين لأن الإبطال الأول نظري يقيني والإبطال الثاني جدليّ بديهي قال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 21 ، 22] .

فهذه حجة ناهضة عليهم لاشتهارها بينهم .

ولما ادَّعت سَجَاحِ بنتُ الحارث النبوءة في بني تميم أيام الردة وكان قد ادّعى النبوءةَ قبلها مُسَيْلمةُ الحنفي ، والأسود العَنْسي ، وطُليحة بن خويلد الأسدي ، قال عُطاردُ بن حاجب التميمي :

أضحت نبيئتُنا أنثى نُطيف بها

وأصبحتْ أنبياء النّاس ذكرانا . . .

وأوثر فعل ﴿ اتّخذ ﴾ هنا لأنه يشمل الاتخاذ بالولادة ، أي بتكوين الانفصال عن ذات الله تعالى بالمزاوجة مع سَرَوات الجنّ ، ويشمل ما هو دون ذلك وهو التبنّي فعَلَى كِلا الفَرضين يتوجه إنكارُ أن يكون ما هو لله أدْوَنَ مما هوَ لهم كما قال تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ [النحل : 62] .

وقد أشار إلى هذا قوله : ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ ، فهذا ارتقاء في إبطال معتقدهم بإبطال فرض أن يكون الله تبنَّى الملائكة ، سَدًّا على المشركين بابَ التأول والتنصللِ من فساد نسبتهم البناتِ إلى الله ، فلعلّهم يقولون : ما أردنا إلا التبني ، كما تنصلوا حين دمغتهم براهين بطلان إلهية الأصنام فقالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] ، وقالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] .

واعلم أن ما تُؤذن به ﴿ أم ﴾ حيثما وقعتْ من تقدير استفهام بعدها هو هنا استفهام في معنى الإنكار وتسلط الإنكار على اتخاذ البنات مع عدم تقدم ذكر البنات لكوْنِ المعلومِ

من جعل المشْركين لله جزءاً أن المجعول جزءاً له هو الملائكة وأنهم يجعلون الملائكة إناثاً ، فذلك معلوم من كلامهم .

وجملة ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ في موضع الحال .

والنفي الحاصل من الاستفهام الإنكاري منصبّ إلى قيد الحال ، فحصل إبطال اتخاذ الله البناتِ بدليلين ، لأن إعطاءَهم البنين واقع فنفي اقترانه باتخاذه لنفسه البنات يقتضي انتفاء اتخاذه البنات فالمقصود اقتران الإنكار بهذا القيد .

وبهذا يتضح أن الواو في جملة ﴿ وأصفاكم ﴾ ليست واو العطف لأن إنكار أن يكون أصفاهم بالبنين لا يقتضي نفي الأولاد الذكور عن الله تعالى .

(126/690)

والخطابُ في ﴿ وأصفاكم ﴾ موجه إلى الذين جعلوا له من عباده جزءاً ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون الإنكار والتوبيخ أوقع عليهم لمواجهتهم به .

وتنكير ﴿ بنات ﴾ لأن التنكير هو الأصل في أسماء الأجناس .

وأما تعريف ﴿ البنين ﴾ باللام فهو تعريف الجنس المتقدم في قوله:

﴿ الحمدُ لله ﴾ في سورة الفاتحة (2) .

والمقصود منه هنا الإشارة إلى المعروف عندهم المتنافَس في وجوده لديهم وتقدم عند قوله ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويَهَب لمن يشاء الذّكور ﴾ في سورة الشورى (49) .

وتقديم ﴿ البنات ﴾ في الذكر على ﴿ البنين ﴾ لأن ذكرهن أهم هنا إذ هو الغرض المسوق له الكلام بخلاف مقام قوله : ﴿ أفأصفاكم ربّكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ في سورة الإسراءِ (40) .

ولِمَا في التقديم من الردّ على المشركين في تحقيرهم البنات وتطيُّرِهم منهن مثل ما تقدم في سورة الشورى .

والإصفاء : إعطاء الصفوة ، وهي الخيار من شيء .

وجملة ﴿ وإذا بُشِّر أحدهم ﴾ يجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير النصب في ﴿ وأصفاكم ربّكم بالبنين ، ومقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير الخطاب في قوله : أحدهم ﴾ فعدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة على طريق الالتفات ليكونوا محكياً حالهم إلى غيرهم تعجيباً من فساد مقالتهم وتشنيعاً بها إذ نسبوا لله بنات دون الذّكور وهو نقص ، وكانوا ممن يكره البنات ويَحقِرهُنَّ فنسبَتها إلى الله مفض إلى الاستخفاف بجانب الإلهية .

والمعنى : أأتّخذ مما يخلق بنات الله وأصفاكم بالبنين في حال أنكم إذا بُشّر أحدكم بما ضربه للرحمان مثلاً ظَلَّ وجهه مسودّاً .

ويجوز أن تكون اعتراضاً بين جملة ﴿ أم اتخذ مما يَخْلُق بناتٍ ﴾ وجملة ﴿ أوَمَنْ ينشأ في

الحِلية ﴾ [الزخرف: 18].

واستعمال البشارة هنا تهكّم بهم كقوله: ﴿ فبشرهم بعذابٍ أليمٍ ﴾ [الإنشقاق: 2]

لأن البشارة إعلام بحصول أمر مسرّ.

(127/690)

و (ما) في قوله: ﴿ بما ضرب للرحمان مثلاً ﴾ موصولة، أي بُشر بالجنس الذي ضربه،

أي جعله مثَلاً وشبهاً لله في الإلهية، وإذ جعلوا جنس الأنثى جزْءاً لله، أي منفصلاً منه

فالمبشَّر به جنس الأنثى، والجنس لا يتعين.

فلا حاجة إلى تقدير بشر بمِثل ما ضربه للرحمان مثلاً.

والمَثَل: الشبيه.

والضرْب: الجعل والصنع، ومنه ضَرْب الدينار، وقولهم: ضَرْبةُ لازِبٍ، فَمَا صْدَقُ ﴿

بما ضرب للرحمان مثلاً ﴾ هو الإناث.

ومعنى ﴿ ظَلّ ﴾ هنا: صار، فإن الأفعال الناقصة الخمسة المفتتح بها باب الأفعال

الناقصة، تستعمل بمعنى صار.

واسوِداد الوجه من شدة الغضب والغيظ إذ يصعد الدم إلى الوجه فتصير حمرته إلى سواد،

والمعنى : تغيَّظ .

والكظيم : الممسك ، أي عن الكلام كرباً وحزناً .

أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)

عطف إنكارٍ على إنكار ، والواو عاطفة الجملة على الجملة وهي مؤخرة عن همزة الاستفهام لأن للاستفهام الصدْر وأصل الترتيب : وَأَمَنْ ينشأ .

وجملة الاستفهام معطوفة على الإنكار المقدّر بعدَ ﴿ أم في قوله : ﴿ أم اتخذ ممّا يخلق بناتٍ ﴾ [الزخرف : 16] ، ولذلك يكون ﴿ من ينشؤا في الحلية ﴾ في محل نصب بفعل محذوف دلّ عليه فعل ﴿ اتخذ في قوله : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ [الزخرف : 16] .

والتقدير : أأتّخذ مَن ينشأ في الحلية الخ .

ولك أن تجعل ﴿ من ينشؤا في الحلية ﴾ بدلاً من قوله ﴿ بنات بدلاً مطابقاً وأبرز العامل في البدل لتأكيد معنى الإنكار لا سيما وهو قد حذف من المبدل منه .

وإذ كان الإنكار إنما يتسلط على حكم الخبر كان موجب الإنكار الثاني مغايراً لموجب الإنكار الأول وإن كان الموصوف بما لوصفين اللذيْن تعلق بهما الإنكار موصوفاً واحداً وهو الأنثى .

ونَشْءُ الشيء في حالةٍ أن يكون ابتداءُ وجوده مقارناً لتلك الحالة فتكون للشيء بمنزلة الظرف .

(128/690)

ولذلك اجتلب حرف في ﴿ الدّالة على الظرفية وإنما هي مستعارةٍ لمعنى المصاحبة والملابسة فمعنى ﴿ من ينشؤا في الحلية ﴾ مَن تُجعل له الحلية من أول أوقات كونه ولا تفارقُه ، فإن البنت تُتَّخَذُ لها الحلية من أول عمرها وتستصحب في سائر أطوارها ، وحسبك أنها شُقّت طرفا أذنيها لتجعل لها فيهما الأقراط بخلاف الصبي فلا يُحلّى بمثل ذلك وما يستدام له .

والنَّشْءُ في الحلية كناية عن الضعف عن مزاولة الصعاب بحسب الملازمة العُرفية فيه .

والمعنى : أن لا فائدة في اتخاذ الله بنات لا غناء لهن فلا يحصل له باتخاذها زيادة عِزّة ، بناء على متعارفهم ، فهذا احتجاج إقناعي خطابي .

و﴿ الخصام ﴾ ظاهره : المجادلة والمنازعة بالكلام والمحاجّة ، فيكون المعنى : أن المرأة لا تبلغ المقدرة على إبانة حجتها .

وعن قتادة : ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتْها على نفسها ، وعنه : ﴿ من ينشأ في

الحلية ﴿ هنّ الجواري يسفِّههن بذلك ، وعلى هذا التفسير درج جميع المفسرين .

والمعنى عليه : أنّهن غير قوادر على الانتصار بالقول فبلأولى لا يقدرْنَ على ما هو أشد من ذلك في الحرب ، أي فلا جدوى لاتّخاذهن أولاداً .

ويجوز عندي : أن يحمل الخصامُ على التقاتل والدّفاع باليد فإن الخصم يطلق على المُحارب ، قال تعالى : ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربّهم ﴾ [الحج : 19] فُسِّر بأنهم نفر من المسلمين مع نفر من المشركين تقاتلوا يوم بدر .

فمعنى ﴿ غير مبين ﴾ غيرُ محقق النصر .

قال بعض العرب وقد بُشر بولادة بنت : "والله ما هي بِنِعْمَ الولدُ بزُّها بكاء ونصرها سرقة" .

والمقصود من هذا فضح معتقدهم الباطل وأنهم لا يحسنون إعمال الفكر في معتقداتهم وإلا لكانوا حين جعلوا لله بنوة أن لا يجعلوا له بنوة الإناث وهم يُعدّون الإناث مكروهات مستضعفات .

وتذكير ضمير ﴿ وهو في الخصام ﴾ مراعاة للفظ ﴿ مَن ﴾ الموصولة .

(129/690)

و ﴿ الحلية ﴾ : اسم لما يُتحلّى به ، أي يُتزين به ، قال تعالى : ﴿ وتستخرجون منه حلية تلبسونها ﴾ [النحل : 14] .

وقرأ الجمهور ﴿ يَنشأ ﴾ بفتح الياء وسكون النون .

وقرأه حفص وحمزة والكسائي ﴿ يُنَشَّأُ ﴾ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ومعناه : يعوده على النشأة في الحلية ويربّى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(130/690)

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ربما ظن أن المحذور إنما هو جعلهم عيهم السلام إناثاً بقيد النسبة إليه سبحانه ، نبه على أن ذلك قبيح في نفسه مطلقاً لدلالته على احتقارهم وانتقاصهم فهو كفر ثالث إلى الكفرين قبله : نسبة الولد إليه سبحانه ثم جعل أخص النوعين ، فقال : ﴿ وجعلوا ﴾ أي مجترئين على ما لا ينبغي لعاقل فعله ﴿ الملائكة الذين هم ﴾ متصفون بأشرف الأوصاف أنهم ﴿ عباد الرحمن ﴾ العامة النعمة الذي خلقهم فهم بعض من يتعبد له وهم عباده وحقيقة لأنهم ما عصوه طرفه عين ، فهم أهل لأن يكونوا على أكمل الأحوال ، وقراءة " عند " بالنون شديدة المناداة عليهم بالسفه ، وذلك أن أهل حضرة الملك الذين يصرفهم في المهمات لا يكونون إلا على أكمل الأحوال وعنديته أنهم لم يعصوه قط وهم محل مقدس عن المعاصي مشرف بالطاعات وأهل الاصطفاء ، وذكر المفعول الثاني للجعل الذي بمعنى التعبير الاعتقادي والقول فقال : ﴿ إناثاً ﴾ وذلك أدنى الأوصاف خلقاً وذاتاً وصفة ، ثم دل على كذبهم في هذا المطلق ليدل على كذبهم في المقيد من باب الأولى فقال تهكماً بهم وتوبيخاً لهم وإنكاراً عليهم إظهاراً لفساد عقولهم بأن دعاويهم مجردة عن الأدلة :

﴿ أشهدوا ﴾ أي حضروا حضوراً هم فيه على تمام الخبرة ظاهراً وباطناً – هذا هو معنى قراءة الجماعة ، وأدخل نافع همزة التوبيخ على أخرى مضمومة بناء الفعل للمفعول تنبيهاً على عجزهم عن شهود ذلك إلا بمن يشهدهم إياه ، وهو الخالق لا غيره ، ومدها في

إحدى الروايتين زيادة في المادة عليهم بالفضيحة ، وسهل الثانية بينها وبين الواو إشارة إلى انحطاط أمرهم وسفول آرائهم وأفعالهم ، وجميع تقلباتهم وأحوالهم كما سيكشف عنه الزمان ونوازل الحدثان ﴿ خلقهم ﴾ أي مطلب الخلق في أصله أو عند الولادة أو بعدها على حال من الأحوال حضوراً أوجب لهم تحقق ما قالوا بأن لم يغيبوا عن شيء من الأحوال الدالة على ذلك أعم من أن تكون تلك الشهادة حسية بنظر العين أو معنوية بعلم ضروري أو

(131/690)

استدلالي بعقل أو سمع .

ولما كان الجواب قطعاً : لا ، قال مهدداً لهم مؤكداً لتهديدهم بالسين لظنهم أن لا بعث ولا حساب ولا حشر ولا نشر فقال : ﴿ ستكتب ﴾ بكتابة من وكلناهم بهم من الحفظة الذين لا يعصوننا فنحن نقدرهم على جميع ما نأمرهم به – هذا على قراءة الجماعة بالتاء والبناء للمفعول ، وعظم الكتابة تفخيماً للوعيد وإكباراً لما اشتمل عليه من التهديد في قراءة النون المفيدة للعظمة والبناء للفاعل ونصب الشهادة ﴿ شهادتهم ﴾ أي قولهم فيهم أنهم إناث الذي لا ينبغي أن يكون إلا بعد تمام المشاهدة ، فهو قول ركيك سخيف ضعيف

- بما أشار إليه التأنيث في قراءة الجماعة ﴿ ويسألون ﴾ عنها عند الرجوع إلينا ، ويجوز أن يكون في السين استعطاف إلى التوبة قبل كتابة ولا علم لهم به ، فإنه قد روى أبو أمامة - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - :

" كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات ، لعله يسبح الله أو يستغفر " رواه الشعبي والبغوي من طريقه والطبراني والبيهقي من طريق جعفر عن القاسم عن أبي أمامة والبيهقي من رواية بشر بن نمير عن القاسم نحوه وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه من طريق إسماعيل بن عياش عن عاصم بن رجاء عن عروة بن رويم عن القاسم عن أبي أمامة - رضى الله عنه - ، وروى الحاكم وقال : صحيح الإسناد عن أم عصمة العوصية رضي الله تعالى عنها قال : " ما من مسلم يعمل ذنباً إلا وقف الملك ثلاث ساعات ، فإن استغفر من ذنبه لم يوقعه عليه ولم يعذب يوم القيامة " .

(132/690)

ولما ذكر أنهم يسألون بطريق الأولى عن العبادة ، نبه على أنهم عبد وهم مع ادعاء الأنوثة فيهم ، فقال معجباً منهم في ذلك وفي جعل قولهم حجة دالة على صحة مذهبهم وهو من أوهى الشبه : ﴿ وقالوا ﴾ أي بعد عبادتهم لهم ونهيهم عن عبادة غير الله : ﴿ لو شاء الرحمن ﴾ أي الذي له عموم الرحمة ﴿ ما عبدناهم ﴾ لأن عموم الرحمة يمنع الإقرار على ما لا ينبغي ولكنه لم يشأ عدم عبادتنا لهم فعبدناهم طوع مشيئته ، فعبادتنا لهم حق ، ولولا أنها حق يرضاه لنا لعجل لنا العقوبة .

ولما كان كأنه قيل : بماذا يجابون عن هذا ، قال منبهاً على جوابهم بقوله دالاً على أن أصول الدين لا يتكلم فيها إلا بقاطع : ﴿ ما لهم بذلك ﴾ أي بهذا المعنى البعيد عن الصواب الذي قصدوا جعله دليلاً على حقية عبادتهم لهم وهو أنه سبحانه لا يشاء إلا ما هو حق ويرضاه ويأمر به ، ومن أن الملائكة إناث ، وأكد الاستغراق بقوله : ﴿ من علم ﴾ أي لأنه لو لزم هذا لكان وضعه بعموم الرحمة حينئذ اضطرارياً لا اختيارياً فيؤدي إلى نقص لا إلى كمال ، ولكان أيضاً ذلك يؤدي إلى إيجاب أن يكون الناس كلهم مرضياً عنهم لكونهم على حق ، وذلك مؤد بلا ريب إلى كون النقيضين معاً حقاً ، وهو بديهي الاستحالة .

(133/690)

ولما كان العلم قد ينتفي والمعلوم ثابت في نفسه قال نافياً لذلك : ﴿ إن هم ﴾ أي ما هم ﴿ إلا يخرصون ﴾ أي يكذبون في هذه النتيجة التي زعموا أنها دلتهم على رضى الله سبحانه لكفرهم فإنها مبنية على أنه سبحانه لا يشاء إلا ما هو حق ، والذي جرأهم على ذلك أنهم يجددون على الدوام القول بغير تثبت ولا تحر ، فكان أكثر قولهم كذباً ، فصاروا لذلك يجترئون على تعمد القول للظن الذي لا يأمن صاحبه من الوقوع في صريح ، وسيأتي تمام إبطال هذه الشبهة بقوله تعالى ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ وأن ذلك هو المراد لا ما طال الخبط فيه لإهمال في السوابق واللواحق الموجبة لسوق المقال ، مطابقاً لمقتضى الحال ، وقد جهلوا في هذا الكلام عدة جهالات : ادعاء الولدية للغني المطلق ، وكون الولد أدنى الصنفين ، وعبادتهم لهم مع أنفسهم منهم بغير دليل ، واحتياجهم على صحة فعلهم بتقدير علم على ذلك وهو قد نهاهم عنه بلسان كل رسول ، وظنهم أنه لا يشاء إلا ما هو الحق المؤدي إلى الجميع بين النقيضين إذ لا ريب فيه ولا خفاء به .

(134/690)

ولما كان الإيمان بالملائكة الذين هم جند الملك من دعائم أصول الدين ، وكان الإيمان بالشيء إن لم يكن على ما هو عليه الشيء ولو بأدنى الوجوه كان مختلاً ، وأخبر سبحانه

أنهم وصفوهم بغير ما هم عليه ففرطوا بوصفهم بالبنات حتى أنزلوهم إلى الحضيض وأفرطوا بالعبادة حتى أعلوهم عن قدرهم فانسلخوا في كلا الأمرين من صريح العقل بما أشار إليه ما مضى ، أتبع ذلك أنهم عريئون أيضاً من صحيح النقل ، فقال معادلاً لقوله ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ إنكاراً عليهم بعد إنكار ، موجباً ذلك أعظم العار ، لافتاً القول عن الوصف بالرحمة تنبيهاً بمظهر العظمة على أن حكمه تعالى متى برز لم يسع سامعة إلا الوقوف عنده والامتثال على كل حال وإلا حل به أعظم النكال : ﴿ أم آتيناهم ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ كتاباً ﴾ أي جامعاً لما يريدون اعتقاده من أقوالهم هذه ﴿ من قبله ﴾ أي القرآن أخبرناهم فيه أنا جعلناهم إناثاً وأنا لا نشاء إلا ما هو حق نرضاه ونأمر به ﴿ فهم ﴾ أي فتسبب عن هذا الإيتاء أنهم ﴿ به ﴾ أي وحده ﴿ مستمسكون ﴾ أي موجدون الاستمساك به وطالبون للثبات عليه في عبادة غير الله ، وفي أن ذلك حق لكونه لم يعاجلهم بالعقوبة ، وفي وصفهم الملائكة بالأنوثة ، وفي غير ذلك من كل ما يرتكبونه باطلاً ، والإنكار يقتضي نفي ما دخل عليه من إيتاء الكتاب كما انتفى إشهاده لهم خلقهم ، وهذه المعادلة التي لا يشك فيها من له بصر بالكلام تدل على صحة كون الإشارة في ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ شاملة لدعواهم الأنوثة في الملائكة .

ولما كان الجواب قطعاً عن هذين الاستفهامين : ليس لهم ذلك على مطلق ما قالوا ولا مقيده من صريح عقل ولا صحيح نقل إلى من يصح النقل عنه من أهل العلم بالأخبار الإلهية ، نسق عليه قوله إرشاداً إليه : ﴿ بل قالوا ﴾ أي في جوابهم عن قول ذلك واعتقاده مؤكدين إظهاراً جهلاً أو تجاهلاً لأن ذلك لم يعب عليهم إلا لظن أنه لا سلف لهم أصلا فيه ، فإذا ثبت أنه عمن تقدمهم انفصل النزاع : ﴿ إنا وجدنا آباءنا ﴾ أي وهم أرجح منا عقولاً وأصبح أفهاماً ﴿ على أمة ﴾ أي طريقة عظيمة يحق لها أن تقصد وتؤم مثل رحلة بمعنى شيء هو أهل لأن يرحل إليه ، وكذا قدوة ونحوه .

وقراءة الكسر معناها حالة حسنة يحق لها أن تؤم ﴿ وإنا على آثارهم ﴾ أي خاصة لا على غيرها ونحن في غاية الاجتهاد والقص للآثار وإن لم نجد عيناً نتحققها .

ولما علم ذلك من حالهم ، ولم يكن صريحاً في الدلالة على الهداية ، بينوا الجار والمجرور ، وأخبروا بعد الإخبار واستنتجوا منه قولهم استئنافاً لجواب من سأل : ﴿ مهتدون ﴾ أي نحن ، فإذا ثبت بهذا الكلام المؤكد أنا ما أتينا بشيء من عند أنفسنا ولا غلطنا في الاتباع واقتفاء الآثار ، فلا اعتراض علينا بوجه ، هذا قوله في الدين بل في أصوله التي من ضل في شيء منها هلك ، ولو ظهر لأحد منهم خلل في سعي أبيه الدنيوي الذي به يحصل الدينار والدرهم ما اقتدى به أصلاً وخالفه أي مخالفة ، ما هذا إلا لمحض الهوى وقصور النظر ،

وجعل محطه الأمر الدنيوي الحاضر ، لا نفوذ لهم في المعاني بوجه .

ولما كان ترك المدعو للدليل واتباعه للهوى غائظاً موجعاً ومنكئاً مولماً ، قال يسليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاطفاً على قوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل هذا الفعل المتناهي في البشاعة فعلت الأمم الماضية مع إخوانك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ ما أرسلنا ﴾ مع ما لنا من العظمة .

(136/690)

ولما كانت مقالة قريش قد تقدمت والمراد التسلية بغيرهم ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين فلا أمة لغيره في زمانه ولا بعده يسليه بها ، سلاه بمن مضى ، وقدم ذكر القبلية اهتماماً بالتسلية وتخليصاً لها من أن يتوهم أنه يكون معه في زمانه أو بعده نذير ، وإفهاماً لأن المجدد لشريعته إنما يكون مغيثاً لأمته وبشيراً لا نذيراً لثباتهم على الدين بتصديقهم جميع النبيين فقال تعالى : ﴿ من قبلك ﴾ أي في الأزمنة السالفة حتى القريبة منك جداً ، فإن التسلية بالأقرب أعظم ، وأثبت الجار لأن الإرسال بالفعل لم يعم جميع الأزمنة وأسقط هذه القبلية في " سبأ " لأن المراد فيها التعميم لأنه لم يتقدم لقريش ذكر حتى يخص من قبلهم .

ولما كان أهل القرى أقرب إلى العقل وأولى بالحكمة والحكم ، قال : ﴿ في قرية ﴾ وأعرق في

النفي بقوله : ﴿ من نذير ﴾ وبين به أن موضع الكراهة والخلاف الإنذار على مخالفة الأهواء ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ أي أهل الترفه بالضم وهي النعمة والطعام الطيب والشيء الطريق يكون خاصة بالمترف ، وذلك موجب للقلة وهو موجب للراحة والبطالة الصارف عن جهد الاجتهاد إلى سفالة التقليد ، وهو موجب لركون الهواء ولو بان الدليل ، وهو موجب للبغي والإصرار عليه واللجاجة فيه والتجبر والطغيان ، ومعظم الناس في الأغلب أتباع لهؤلاء : ﴿ إنا وجدنا آباءنا ﴾ أي وهم أعرف منا بالأمور ﴿ على أمة ﴾ أي أمر جامع يستحق أن يقصد ويؤم وطريقة ودين ، وأكدوا قطعاً لرجاء المخالف من لفتهم عن ذلك ﴿ وإنا على آثارهم ﴾ لا غيرها ، ثم بينوا الجار والمجرور وأخبروا خبراً ثانياً واستأنفوا لإتمام مرادهم قولهم إيضاحاً لأن سبب القص القدوة : ﴿ مقتدون ﴾ أي مستنون أي راكبون سنن طريقهم لازمون له لأنهم مقتدون لأن تقدم عليهم ، وحالنا أطيب ما يكون في الاستقامة وأقرب وأسرع .

(137/690)

ولما كان كأنه قيل : فقال كل نذير : فما أصنع ؟ أجاب بقوله : ﴿ قل ﴾ أي يا أيها النذير – هذا على قراءة الجماعة ، وعلى قراءة ابن عامر وحفص وعاصم يكون التقدير أن السامع

قال : فما قال النذير في جوابهم ؟ فأجيب بقوله : قال إنكاراً عليهم : ﴿ أولو ﴾ أي أتقتدون بآبائكم على كل حال وتعدونهم مهتدين ولو ﴿ جئتكم ﴾ والضمير فيه للنذير ، وفي قراءة أبي جعفر : أو لو جئتكم للنذر كلهم ﴿ بأهدى ﴾ أي أمر أعظم في الهداية وأوضح في الدلالة ﴿ مما وجدتم ﴾ أي أيها المقتدون بالآباء ﴿ عليه آباءكم ﴾ كما تضمن قولكم أنكم تقتفون في اتباعهم بالآثار في أعظم الأشياء ، وهو الدين الذي الخسارة فيه خسارة للنفس وأنتم تخالفونهم في أمر الدنيا إذا وجدتم طريقاً أهدى من التصرف فيها من طريقهم ولو بأمر يسير ، ويفتخر أحدكم بأنه أدرك من ذلك ما لم يدرك أبوه فحصل من المال أكثر مما حصل ، فيا له من نظر ما أقصره ، ومتجر ما أخسره .

ولما كان من المعلوم أن النذر قالوا لهم ما أمروا به ؟ فتشوف السامع إلى جوابهم لهم ، أجيب بقوله : ﴿ قالوا ﴾ مؤكدين رداً لما قطع به كل عاقل سمع هذا الكلام من أنهم يبادرون النظر في الدليل والرجوع إلى سواء السبيل : ﴿ إنا بما أرسلتم به ﴾ أي أيها المدعون للإرسال من أي مرسل كان ، ولو ثبت ما زعمتموه من الرسالة ولو جئتمونا بما هو أهدى ﴿ كافرون ﴾ أي ساترون لما ظهر من ذلك جهدنا حتى لا يظهر لأحد ولا يتبعهم فيه مخلوق .

(138/690)

ولما علم بهذا أن أمرهم وصل إلى العناد المسقط للاحتجاج، سبب عنه قوله موعظة لهذه الأمة وبياناً لما خصها به من الرحمة: ﴿فانتقمنا﴾ أي بما لنا من العظمة التي استحقوا بها ﴿منهم﴾ فأهلكناهم بعذاب الاستئصال، وعظم أثر النقمة بالأمر بالنظر فيها في قوله: ﴿فانظر﴾ أي بسبب التعرف لذلك وبالاستفهام إشارة إلى أن ذلك أمر هو جدير لعظمه بخفاء سببه فقال: ﴿كيف كان عاقبة﴾ أي آخر أمر ﴿المكذبين﴾ أي إرسالنا فإنهم هلكوا أجمعون، ونجا المؤمنون أجمعون، فليحذر من رد رسالتك من مثل ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 15. 21﴾

(139/690)

فصل

قال الفخر:

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

المراد بقوله: ﴿جَعَلُواْ﴾، أي حكموا به، ثم قال: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ وهذا استفهام على سبيل الإنكار، يعني أنهم لم يشهدوا خلقهم، وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بالدلائل

العقلية ، وأما الدلائل النقلية فكلها مفرعة على إثبات النبوّة ، وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة ، فلا سبيل لهم إلى إثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية ، فثبت أنهم ذكروا هذه الدعوى من غير أن عرفوه لا بضرورة ولا بدليل ، ثم إنه تعالى هددهم فقال : ﴿ سَتُكْتَبُ شهادتهم وَيُسْئَلُونَ ﴾ وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر ، وأن التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد .

قال أهل التحقيق : هؤلاء الكفار كفروا في هذا القول من ثلاثة أوجه أولها : إثبات الولد لله تعالى وثانيها : أن ذلك الولد بنت وثالثها : الحكم على الملائكة بالأنوثة .

المسألة الثانية :

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر : (عند الرحمن) بالنون ، وهو اختيار أبي حاتم واحتج عليه بوجوه الأول : أنه يوافق قوله ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف : 206] وقوله ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ [الأنبياء : 19] والثاني : أن كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه والثالث : أن التقدير أن الملائكة يكونون عند الرحمن ، لا عند هؤلاء الكفار ، فكيف عرفوا كونهم إناثاً ؟ وأما الباقون فقرأوا عباد جمع عبد وقيل جمع عابد ، كقائم وقيام ، وصائم وصيام ، ونائم ونيام ، وهي قراءة ابن عباس ، واختيار أبي عبيد ، قال لأنه تعالى رد عليهم قولهم : إنهم بنات الله ، وأخبر أنهم عبيد ، ويؤيد هذه القراءة قوله ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [

الأنبياء : 26] .

المسألة الثالثة :

(140/690)

قرأ نافع وحده : ﴿ آأشهدوا ﴾ بهمزة ومدة بعدها خفيفة لينة وضمة ، أي (أ) أحضروا خلقهم ، وعن نافع غير ممدود على ما لم يسم فاعله ، والباقون : أشهدوا ، بفتح الألف ، من (أ) شهدوا ، أي أحضروا .

المسألة الرابعة :

احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية ، فقال أما قراءة (عند) بالنون ، فهذه العندية لا شك أنها عندية الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة ، ولفظة ﴿ هُمْ ﴾ توجب الحصر ، والمعنى أنهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم ، فوجب كونهم أفضل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر ، وأما من قرأ (عباد) جمع العبد ، فقد ذكرنا أن لفظ العباد مخصوص في القرآن بالمؤمنين فقوله ﴿ هُمْ عِبَادُ الرحمن ﴾ يفيد حصر العبودية فيهم ، فإذا كان اللفظ الدال على العبودية دالاً على الفضل والشرف ، كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالاً على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم وذلك يوجب كونهم

أفضل من غيرهم ، والله أعلم .

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)

اعلم أنه تعالى حكى نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم ، وهو أنهم قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(141/690)

قالت المعتزلة هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة في أن كفر الكافر يقع بإرادة الله من وجهين الأول : أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا ﴿ لَوْ شَاء الرحمن مَا عبدناهم ﴾ وهذا صريح قول المجبرة ، ثم إنه تعالى أبطله بقوله ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ فثبت أنه حكى مذهب المجبرة ، ثم أردفه بالإبطال والإفساد ، فثبت أن هذا المذهب باطل ، ونظيره قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا ﴾ إلى قوله ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : 148] والوجه الثاني : أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنواع كفرهم فأولها : قوله ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ [الزخرف : 15] ، وثانيها : قوله

﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف : 19] ، وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاء الرحمن مَا عبدناهم ﴾ فلما حكى هذه الأقاويل الثلاثة بعضها على إثر بعض ، وثبت أن القولين الأولين كفر محض فكذلك هذا القول الثالث يجب أن يكون كفراً ، واعلم أن الواحدي أجاب في "البسيط" عنه من وجهين الأول : ما ذكره الزجاج : وهو أن قوله تعالى : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ عائد إلى قولهم الملائكة إناث وإلى قولهم الملائكة بنات الله والثاني : أنهم أرادوا بقولهم ﴿ لَوْ شَاءَ الرحمن مَا عبدناهم ﴾ أنه أمرنا بذلك ، وأنه رضي بذلك ، وأقرنا عليه ، فأنكر ذلك عليهم ، فهذا ما ذكره الواحدي في الجواب ، وعندي هذان الوجهان ضعيفان أما الأول : فلأنه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين ، وبين وجه بطلانهما ، ثم حكى بعده مذهباً ثالثاً في مسألة أجنبية عن المسألتين الأوليين ، ثم حكم بالبطلان والوعيد فصرف هذا الإبطال عن هذا الذي ذكره عقيبه إلى كلام متقدم أجنبي

(142/690)

عنه في غاية البعد وأما الوجه الثاني : فهو أيضاً ضعيف ، لأن قوله ﴿ لَوْ شَاءَ الرحمن مَا عبدناهم ﴾ ليس فيه بيان متعلق بتلك المشيئة ، والإجمال خلاف الدليل ، فوجب أن

يكون التقدير لو شاء الله ألا نعبدهم ما عبدناهم ، وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، فهذا يدل على أنه لم توجد مشيئة الله لعدم عبادتهم ، وهذا عين مذهب المجبرة ، فالإبطال والإفساد يرجع إلى هذا المعنى ، ومن الناس من أجاب عن هذا الاستدلال بأن قال إنهم إنما ذكروا ذلك الكلام على سبيل الاستهزاء والسخرية ، فلهذا السبب استوجبوا الطعن والذم ، وأجاب صاحب "الكشاف" عنه من وجهين الأول : أنه ليس في اللفظ ما يدل على أنهم قالوا مستهزئين ، وادعاء ما لا دليل عليه باطل الثاني : أنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء وهي : أنهم جعلوا له من عباده جزءاً وأنهم جعلوا الملائكة إناثاً ، وأنهم قالوا ﴿ لَوْ شَاءَ الرحمن مَا عبدناهم ﴾ فلو قلنا بأنه إنما جاء الذم على القول الثالث لأنهم ذكروه على طريق الجد ، وجب أن يكون الحال في حكاية القولين الأولين كذلك ، فلزم أنهم لو نطقوا بتلك الأشياء على سبيل الجد أن يكونوا محقين ، ومعلوم أنه كفر ، وأما القول بأن الطعن في القولين الأولين إنما توجه على نفس ذلك القول ، وفي القول الثالث لا على نفسه بل على سبيل الاستهزاء ، فهذا يوجب تشويش النظم ، وأنه لا يجوز في كلام الله .

(143/690)

واعلم أن الجواب الحق عندي عن هذا الكلام ما ذكرناه في سورة الأنعام ، وهو أن القوم إنما ذكروا هذا الكلام لأنهم استدلوا بمشيئة الله تعالى للكفر على أنه لا يجوز ورود الأمر بالإيمان فاعتقدوا أن الأمر والإرادة يجب كونهما متطابقين ، وعندنا أن هذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم بمجرد قولهم إن الله يريد الكفر من الكافر بل لأجل أنهم قالوا لما أراد الكفر من الكافر وجب أن يقبح منه أمر الكافر بالإيمان ، وإذا صرفنا الذم والطعن إلى هذا المقام سقط استدلال المعتزلة بهذه الآية ، وتمام التقرير مذكور في سورة الأنعام ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل قال : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ وتقريره كأنه قيل إن القوم يقولون لما أراد الله الكفر من الكافر وخلق فيه ما أوجب ذلك الكفر وجب أن يقبح منه أن يأمره بالإيمان لأن مثل هذا التكليف قبيح في الشاهد فيكون قبيحاً في الغائب فقال تعالى : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي ما لهم بصحة هذا القياس من علم ، وذلك لأن أفعال الواحد منا وأحكامه مبنية على رعاية المصالح والمفاسد لأجل أن كل ما سوى الله فإنه ينتفع بحصول المصالح ويستضر بحصول المفاسد ، فلا جرم أن صريح طبعه وعقله يحمله على بناء أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح ، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لا ينفعه شيء ولا يضره شيء فكيف يمكن القطع بأنه تعالى يبني أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح مع ظهور هذا الفارق العظيم فقوله تعالى : ﴿ مَّا لَهُم

بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي ما لهم بصحة قياس الغائب على الشاهد في هذا الباب علم .

ثم قال : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي كما لم يثبت لهم صحة ذلك القياس فقد ثبت بالبرهان القاطع كونهم كذابين خراصين في ذلك القياس لأن قياس المنزّه عن النفع والضر من كل الوجوه على المحتاج المنتفع المتضرر قياس باطل في بديهة العقل .

(144/690)

ثم قال : ﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا مّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ يعني أن القول الباطل الذي حكاه الله تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل ، أما إثباته بالعقل فهو باطل لقوله ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ وأما إثباته بالنقل فهو أيضاً باطل لقوله ﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا مّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ والضمير في قوله ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ للقرآن أو للرسول ، والمعنى أنهم (هل) وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزّل قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه ، وأن يتمسكوا به ، والمقصود منه ذكره في معرض الإنكار ، ولما ثبت أنه لم يدل عليه لا دليل عقلي ولا دليل نقلي وجب أن يكون القول به باطلاً .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على ءاثارهم مُّهْتَدُونَ ﴾ والمقصود أنه تعالى لما بيّن أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلاً من قديم الدهر

فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثارهم مقتدون ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ على إِمَّةٍ ﴾ بالكسر وكلتاهما من الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التي تؤم أي تقصد كالرحلة للمرحول إليه ، والإمة الحالة التي يكون عليها الآم وهو القاصد .

المسألة الثانية :

لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد وذلك لأنه تعالى بيّن أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي ، ثم بيّن أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين ، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل ، ومما يدل عليه أيضاً من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق وذلك لأنه كم حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة فلو كان التقليد طريقاً إلى الحق لوجب

كون الشيء ونقيضه حقاً ومعلوم أن ذلك باطل .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى بيّن أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه ، إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله ﴿ إلاَّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة أي أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق ، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدينا واللذات الجسمانية ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة ، فلهذا قال عليه السلام : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " .

ثم قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾ أي بدين أهدى من دين آبائكم فعند هذا حكى الله عنهم أنهم قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ وإن كان أهدى مما كنا عليه ، فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة ، فلهذا قال تعالى : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ والمراد منه تهديد الكفار ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 174 . 178 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ الآية ابتداء احتجاج على قريش يوجب عليهم التناقض في أمرهم ، وذلك أنهم يقرون أن الخالق الموجد لهم وللسماوات والأرض هو الله تعالى ، وهم مع ذلك يعبدون أصناماً ويدعونها آلهتهم ، ومقتضى جواب قريش أن يقولوا " خلقهن الله " فلما ذكر تعالى المعنى جاءت العبارة عن الله ب ﴿ العزيز العليم ﴾ ليكون ذلك توطئة لما عدد بعد من أوصافه التي ابتدأ الإخبار بها وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قريش .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10)

هذه أوصاف فعل ، وهي نعم من الله تعالى على البشر ، تقوم بها الحجة على كل كافر مشرك بالله تعالى .

وقوله : ﴿ الذي جعل لكم ﴾ ليس من قول المسؤولين ، بل هو ابتداء إخبار من الله تعالى .

وقرأ جمهور الناس : " مهاداً " وقرأ ابن مسعود وطلحة والأعمش : " مهداً " ، والمعنى واحد ، أي يتمهد ويتصرف فيها .

والسبل : الطرق . و: ﴿ تهتدون ﴾ معناه في المقاصد من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر ، ويحتمل أن يريد : ﴿ تهتدون ﴾ بالنظر والاعتبار .

(147/690)

وقوله تعالى : ﴿ من السماء ﴾ هو المطر بإجماع ، واختلف المتأولون في معنى قوله : ﴿ بقدر ﴾ فقالت فرقة معناه : بقضاء وحتم في الأزل . وقال آخرون المعنى : بقدر في الكفاية للصلاح لا إكثار فيفسد ولا قلة فيقصر ، بل غيثاً مغيثاً سبيلاً نافعاً . وقالت فرقة معناه : بتقدير وتحرير ، أي قدراً معلوماً ، ثم اختلف قائلو هذه المقالة ، فقال بعضهم : ينزل كل عام ماء قدراً واحداً لا يفضل عام عاماً ، لكن يكثر مرة هنا ومرة ها هنا . وقالت فرقة : بل ينزل الله تقديراً ما في عام ، وينزل في آخر تقديراً آخر بحسب ما سبق به قضاؤه ، لا إله غيره . و: ﴿ أنشرنا ﴾ معناه : أحيينا ، يقال : نشر الميت ، وأنشره الله . و: ﴿ بلدة ﴾ اسم جنس ، ووصفها ب ﴿ ميتاً ﴾ دون ضمير من حيث هي واقعة موقع قطر ونحوه ، إذ التأنيث فيها غير حقيقي .

وقرأ الجمهور : " ميْتاً " بسكون الياء . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " ميّتاً " بياء مكسورة مشددة ، وهي قراءة عيسى بن عمر ، والأول أرجح لشبه لفظها : بزور ، وعدل ، فحسن

وصف المؤنث بها .

وقرأ أكثر السبعة والأعرج وأبو جعفر : "كذلك تُخرَجون" بضم التاء وفتح الراء . وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب وعبد الله بن جبير المصيح : "وكذلك تَخرُجون" بفتح التاء وضم الراء .

و: ﴿ الأزواج ﴾ الأنواع من كل شيء ، و﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من الفلك ﴾ للتبعيض ، وذلك أنه لا يركب من الأنعام غير الإبل ، وتدخل الخيل والبغال والحمير فيما يركب بالمعنى . واللام في قوله : ﴿ لتستووا ﴾ لام الأمر ، ويحتمل أن تكون لام كي ، و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما تركبون ﴾ واقعة على النوع المركوب ، والضمير في : ﴿ ظهوره ﴾ عائد على النوع الذي وقعت عليه ﴿ ما ﴾ .

(148/690)

وقد بينت آية ما يقال عند ركوب الفلك ، وهو : ﴿ باسم الله مجراها ومرساها ، إن ربي لغفور رحيم ﴾ [هود : 41] وإنما هذه خاصة فيما يركب من الحيوان ، ويقال (-) عند النزول منها : اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين . والسنة للراكب إذا ركب أن يقول : الحمد لله على نعمة الإسلام ، أو على النعمة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو على

النعمة في كل حال ، وقد روي هذا اللفظ عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ سبحان الذي ﴾ الآية ، وركب أبو مجلز لاحق بن حميد وقال : " سبحان الله " الآية ، ولم يذكر نعمة ، وسمعه الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال : ما هكذا أمرتم ، قال أبو مجلز ، فقلت له : كيف أقول ؟ قال : قل الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، أو نحو هذا ، ثم تقول بعد ذلك : ﴿ سبحان الذي ﴾ الآية ، وكان طاوس إذا ركب قال : اللهم هذا من منك وفضلك ، ثم يقول : ﴿ سبحان الذي ﴾ الآية ، وإن قدرنا أن ذكر النعمة هو بالقلب والتذكير بدأ الراكب : ب ﴿ سبحان الذي سخر ﴾ ، وهو يرى نعمة الله في ذلك وفي سواه .

والمقرن : الغالب الضابط المستولي على الأمر المطيق له . وروي أن بعض الأعراب ركب جملاً فقيل له قل : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ فقال : أما والله إني لمقرن تياه ، فضرب به الجمل فوقصه فقتله .

وقوله : ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أمر بالإقرار بالبعث وترداد القول به ، وذلك داعية إلى استشعار النظر فيه ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان إذا ركب ولم يقل هذه الآية جاءه الشيطان فقال : " تغنه ، فإن اكن يحسن غنى ، وإلا قال له تمنه ، فيتمنى الأباطيل ويقطع زمنه بذلك " .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15)

الضمير في : ﴿ جعلوا ﴾ لكفار قريش والعرب ، والضمير في : ﴿ له ﴾ لله تعالى :
والجزء : القطع من الشيء ، وهو بعض الكل ، فكأنهم جعلوا جزءاً من عباده نصيباً له
وحظاً ، وذلك في قول كثير من المتأولين قول العرب : الملائكة بنات الله ، وقال بعض أهل
اللغة الجزء : الإناث ، يقال أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى ، ومنه قول الشاعر : [البسيط]
إن أجزأتْ حرة يوماً فلا عجب . . . قد تجزئ المرأة المذكار أحيانا
وقد قيل في هذا البيت إنه بيت موضوع . وقال قتادة : المراد بالجزء : الأصنام وفرعون
وغيره ممن عبد من دون الله ، أي جزءاً نداً ، فعلى هذا التأويل فتعقيب الكفرة في فصلين
في أمر الأصنام وفي أمر الملائكة ، وعلى هذا التأويل الأول فالآية كلها في أمر الملائكة .
وقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ أي بلفظ الجنس العام ، والمراد بعض الإنسان ،
وهو هؤلاء الجاعلون ومن أشبههم . و: ﴿ مبين ﴾ في هذا الموضع غير متعد .
وقوله تعالى : ﴿ أم اتخذ ﴾ إضراب وتقرير ، وهذه حجة بالغة عليهم . إذ المحمود من
الأولاد والمحبوب قد خوله الله بني آدم ، فكيف يتخذ هو لنفسه النصيب الأدنى . ﴿
وأصفاكم ﴾ معناه : خصكم وجعل ذلك صفوة لكم ، ثم قامت الحجة عليهم في هذا

المعنى وبانت بقوله تعالى : ﴿ وإذا بشر ﴾ الآية . و ؛ ﴿ مسوداً ﴾ خبر : ﴿ ظل ﴾ . والكظيم : الممتلئ غيظاً الذي قد رد غيظه إلى جوفه ، فهو يتجرعه ويروم رده ، وهذا محسوس عند الغيظ ، ثم زاد توبيخهم وإفساد رأيهم بقوله : ﴿ أو من ينشأ ﴾ . و: ﴿ من ﴾ في موضع نصب بفعل يدل عليه : ﴿ جعلوا ﴾ كأنه قال : أو من ينشأ في الحلية وهو الذي خصصتم به الله ونحو هذا ، والمراد به : ﴿ من ﴾ النساء ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ، و: ﴿ ينشأ ﴾ معناه : ينبت ويكبر .

(150/690)

وقرأ جمهور القراء : "يَنشأ" بفتح الياء . وقرأ ابن عباس وقتادة : "يُنشىء" بضم الياء على تعدية الفعل بالهمزة . وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص : "يُنشأ" بضم الياء وفتح الشين على تعدية الفعل بالتضعيف ، وهي قراءة ابن عباس أيضاً والحسن ومجاهد ، وفي مصحف ابن مسعود : "أومن لا ينشأ إلا في الحلية" .

و: ﴿ الحلية ﴾ الحلي من الذهب والفضة والأحجار . و: ﴿ الخصام ﴾ المحاجة ومجاذبة المحاورة ، وقل ما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني ، وفي مصحف ابن مسعود : "وهو في الكلام غير مبين" . و: ﴿ مبين ﴾ في هذه الآية متعد ، والتقدير ﴾

غير مبين ﴾ غرضاً أو منزعاً ونحو هذا . وقال ابن زيد : المراد ب : ﴿ من ينشأ في الحلية ﴾ الآية : الأصنام والأوثان ، لأنهم كانوا يتخذون كثيراً منها من الذهب والفضة ، وكانوا يجعلون الحلي على كثير منها .

ولما فرغ تعنيفهم على ما أتوا في جهة الله تعالى بقولهم : الملائكة بنات الله ، بين تعالى فساداً في مقالتهم بعينها من جهة أخرى من الفساد ، وذلك شنيع قولهم في عباد الله مختصين مقربين أنهم إناث .

وقرأ أكثر السبعة وابن عباس وابن مسعود وابن جبير وعلقمة : " عباد الرحمن إناثاً " .

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة وعمر بن الخطاب رضي الله عنه : " عند الرحمن إناثاً " وهذه القراءة أدل على رفع المنزلة وقربها في التكرمة كما قيل : ملك مقرب ، وقد يتصرف المعنيان في كتاب الله تعالى في وصف الملائكة في غير هذه الآية فقال تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] ، وقال تعالى في أخرى : ﴿ فالذين عند ربك ﴾ [فصلت : 38] ، وفي مصحف ابن مسعود : " وجعلوا الملائكة عبد الرحمن إناثاً " .

(151/690)

وقرأ نافع وحده " أَأُشهدوا " بالهمزتين وبلا مد بينهما ، وبفتح الأولى وضم الثانية وتسهيلها بين الهمزة والواو ، ورواها المفضل عن عاصم بتحقيق الهمزتين . وقرأ المسيبي عن نافع بمد بين الهمزتين . وقرأ أبو عمرو ونافع أيضاً وعلي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد : " أ . شهدوا " بتسهيل الثانية بلا مد . وقرأ جماعة من القراء بالتسهيل في الثانية ومدة بينهما . وقرأ آخرون : " أشهدوا " بهمزة واحدة بغير استفهام ، وهي قراءة الزهري ، وهي صفة الإناث ، أي مشهداً خلقهم .

ومعنى الآية : التوبيخ وإظهار فساد عقولهم ، وادعائهم وأنها مجردة من الحجة ، وهذا نظير الآية الرادة على المنجمين وأهل البضائع ، وهي قوله تعالى : ﴿ ما أشهدتم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ [الكهف : 51] الآية .

وقرأ جمهور الناس : " ستُكتب شهادتُهم " برفع الشهادة وبناء الفعل للمفعول . وقرأ الأعرج وابن عباس وأبو جعفر وأبو حيوة . " سنكتب " بنون الجمع " شهادتَهم " بالنصب وقرأت فرقة : " سيكتب " بالياء على معنى : سيكتب الله " شهادتَهم " بالنصب . وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " ستُكتب شهاداتُهم " على بناء الفعل للمفعول وجمع الشهادات .

وفي قوله تعالى : ﴿ ويسألون ﴾ وعيد مفصح . و: ﴿ أشهدوا ﴾ في هذه الآية معناه : أحضروا وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي تطلب أن تؤدى .

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)

ذكر الله تعالى احتجاج الكفار لمذهبهم ليبين فساد منزعهم ، وذلك أنهم جعلوا إمهال الله لهم وإنعامه عليهم وهم يعبدون الأصنام ، دليلاً على أنه يرضى عبادة الأصنام ديناً ، وأن ذلك كالأمر به ، فنفى الله عن الكفرة أن يكون لهم علم بهذا وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك ، وإنما هم يظنون و﴿ يخرصون ﴾ ويخمنون ، وهذا هو الخرص والتخرص .

(152/690)

وقرأ جمهور الناس : " على أُمة " بضم الهمزة ، وهي بمعنى الملة والديانة ، والآية على هذا تعيب عليهم التقليد . وقرأ مجاهد والعبدري وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : " على إمة " بكسر الهمزة وهي بمعنى النعمة ، ومنه قول الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته . . . بإمته يعطي القطوط ويافق

ومنه قول عدي بن زيد : [الخفيف]

ثم بعد الفلاح والملك والإمّ . . . ة وارتهم هناك القبور

فالآية على هذا استمرار في احتجاجهم ، لأنهم يقولون : وجدنا آباءنا في نعمة من الله وهم يعبدون الأصنام ، فذلك دليل رضاه عنهم ، وكذلك اهتدينا نحن بذلك ﴿ على آثارهم ﴾ . وذكر الطبري عن قوم : أن الأمة الطريقة ، مصدر من قولك : أممت كذا أمة ثم ضرب

تعالى المثل لنبيه محمد عليه السلام وجعل له الإسوة فيمن مضى من النذر والرسل ، وذلك أن المترفين من قومهم وهم أهل التنعم والمال قد قابلوهم بمثل هذه المقالة .

وقرأ جمهور القراء : " قل أولو " والمعنى : فقلنا للنذير قل . وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم : " قال أولو " ، ففي " قال " ضمير يعود على النذير . وباقي الآية يدل على أن : " قل " في قراءة من قرأها ليست بأمر لمحمد عليه السلام ، وإنما هي حكاية لما أمر به النذير .

وقوله تعالى : ﴿ أولو ﴾ هي ألف الاستفهام دخلت على واو عطف جملة كلام على جملة متقدمة ، و﴿ لو ﴾ في هذا الموضع كأنها شرطية بمعنى أن ، كأن معنى الآية : وإن جئتكم بأبين وأوضح مما كان آباؤكم عليه فيصح لجاجكم وتقليدكم ، فأجاب الكفار حينئذ لرسلهم : ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ الآية وعيد لقريش وضرب مثل بمن سلف من الأمم المعذبة المكذبة بأنبيائها كما كذبت هي بمحمد عليه السلام .

وقرأ جمهور الناس : " أولو جئتكم " وقرأ أبو جعفر وأبو شيخ وخالد : " أولو جئناكم " . وقرأ الأعمش : " أولو أتيتم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(153/690)

وقال القرطبى :

﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾

قرأ الكوفيون "عِبَادُ" بالجمع .

واختاره أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله تعالى إنما كذبهم في قولهم إنهم بنات الله ، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا ببناته .

وعن ابن عباس أنه قرأ "عُبَّادُ الرَّحْمَنِ" ، فقال سعيد بن جبير : إن في مصحفي "عبد الرحمن" فقال : امحها واكتبها "عِبَادُ الرَّحْمَنِ" .

وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الذين كفروا أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دوني أَوْلِيَآءَ ﴾ [الكهف : 102] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف : 194] .

وقرأ الباقون "عند الرحمن" بنون ساكنة واختاره أبو حاتم .

وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف : 206] وقوله : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ [الأنبياء : 19] .

والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم في نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ، ثم في تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله .

وذِكر العباد مدح لهم ؛ أي كيف عبدوا من هو في نهاية العبادة ، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل .

والجعل هنا بمعنى القول والحُكْم ؛ تقول : جعلت زيداً أعلم الناس ؛ أي حكمت له بذلك .

﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ أي أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث .

وقيل : " إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "فما يدريكم أنهم إناث" ؟ فقالوا : سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا في أنهم إناث " ، فقال الله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أي يسألون عنها في الآخرة .

وقرأ نافع "أُوشْهِدوا" بهمزة استفهام داخلة على همزة مضمومة مسهّلة ، ولا يمدّ سوى ما روى المسيّبِي عنه أنه يمدّ .

(154/690)

وروى المفضل عن عاصم مثل ذلك وتحقّق الهمزتين .

والباقون "أَشَهِدُوا" بهمزة واحدة للاستفهام .

وروي عن الزهري "أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ" على الخبر ، "سَتُكْتَبُ" قراءة العامة بضم التاء على الفعل المجهول "شَهَادَتُهُمْ" رفعاً .

وقرأ السُّلمِي وابن السمَيْقَع وهُبيرة عن حفص "سَنَكْتُبُ" بنون ، "شَهَادَتَهُمْ" نصباً بتسمية الفاعل .

وعن أبي رجاء "سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهُمْ" بالجمع .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن ﴾ يعني قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية : لو شاء الرحمن على زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة .

وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل .

وكل شيء بإرادة الله ، وإرادتُه تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها ؛ وخلاف المعلوم والمراد مقدور وإن لم يقع .

ولو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ما حصل منهم .

وقد مضى هذا المعنى في الأنعام عند قوله : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام : 148] وفي "ياس" : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ الله أَطْعَمَهُ ﴾ [ياس : 47] .

وقوله : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مردود إلى قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ أي ما لهم بقولهم : الملائكة بنات الله من علم ؛ قاله قتادة ومقاتل والكلبي .

وقال مجاهد وابن جريج : يعني الأوثان ؛ أي ما لهم بعبادة الأوثان من علم .

"مِن" صلة .

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي يَحْدِسون ويكذبون ؛ فلا عذر لهم في عبادة غير الله عز وجل .

وكان في ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهذا أو رضي ذلك منا ، ولهذا لم ينهنا ولم يعاجلنا بالعقوبة .

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21)

هذا معادل لقوله : ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ .

(155/690)

والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتاباً من قبله ؛ أي من قبل القرآن بما ادعوه ؛ فهم به متمسكون يعملون بما فيه .

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ على أُمَّةٍ ﴾ أي على طريقة ومذهب ؛ قاله عمر بن عبد العزيز .

وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة "عَلى إمّةٍ" بكسر الألف .

والأمّة الطريقة .

وقال الجوهري : والإمة (بالكسر) : النعمة .

والإمّة أيضاً لغة في الأُمّة ، وهي الطريقة والدّين ؛ عن أبي عبيدة .

قال عَدِيّ بن زيد في النعمة :

ثم بعد الفَلاَح والمُلْكِ والأ . . .

مّة وارتْهُمُ هناك القبور

عن غير الجوهري .

وقال قتادة وعطية : "على أمةٍ" على دِين ؛ ومنه قول قيس بن الخطِيم :

كنا على أمّة أبائنا . . .

ويقتدي الآخر بالأوّل

قال الجوهري : والأمّة الطريقة والدِّين ، يقال : فلان لا أمة له ؛ أي لا دين له ولا نِحْلة .

قال الشاعر :

وهل يستوي ذو أمّة وكَفُورُ . . .

وقال مجاهد وقطرب : على دين على ملة .

وفي بعض المصاحف "قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِلَّة" وهذه الأقوال متقاربة .

وحكي عن الفرّاء على ملة على قِبْلة .

الأخفش : على استقامة ، وأنشد قول النابغة :

حَلَفْتُ فلم أترك لنفسك ريبةً . . .

وهل يأثَمْنَ ذو أُمَّة وهو طائع

الثانية ﴿ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي نهتدي بهم .

وفي الآية الأخرى "مُقْتَدُون" أي نقتدي بهم ، والمعنى واحد .

قال قتادة : مقتدون متبعون .

وفي هذا دليل على إبطال التقليد ؛ لذمّه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد مضى القول في هذا في "البقرة" مستوفى .

وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش ؛ أي وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلهم أيضاً .

(156/690)

يُعَزِّي نبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : 43] .

والمترف : المنعم ؛ والمراد هنا الملوك والجبابرة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى ﴾ أي قل يا محمد لقومك : أوليس قد جئتكم من عند الله بأهدى ؛ يريد بأرشد .

﴿ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ يعني بكل ما أرسل به الرسل .

فالخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولفظه لفظ الجمع ؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه .

وقرىء "قُلْ وَقَالَ وَجِئْتُكُمْ وجِئْنَاكُمْ" يعني أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟ قالوا : إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى .

وقد مضى في "البقرة" القول في التقليد وذمه فلا معنى لإعادته .

قوله تعالى : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ بالقحط والقتل والسبي ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ آخر أمر من كذب الرسل .

(وقراءة العامة "قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ" .

وقرأ ابن عامر وحفص "قَالَ أَوَلَوْ" على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة .

وقرأ أبو جعفر "قُلْ أَوَلَوْ جِئْنَاكُمْ" بنون وألف ؛ على أن المخاطبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾

متصلٌ بقولِه تعالى ولئن سألتَهُم . الخ أيْ وقد جعلُوا له سبحانَهُ بألسنتِهم واعتقادِهم بعد ذكلَ الاعترافِ من عبادِه ولداً وإنَّما عبَّر عنهُ بالجُزءِ لمزيدِ استحالتهِ في حقِّ الواحدِ الحقِّ من جميعِ الجهاتِ . وقُرِىءَ جُزُؤا بضمَّتينِ . ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرُ الكُفرانِ مبالغٌ فيهِ ولذلكَ يقولونَ ما يقولونَ ، سبحانَ الله عمَّا يصفونَ . ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ أَمْ منقطعةٌ وما فيها من مَعْنى بَلْ للانتقالِ من بيانِ بطلانِ جَعْلِهم لهُ تعالى ولداً على الإطلاقِ إلى بيانِ بُطلانِ جعلِهم ذلكَ الولدَ من أخسِّ صنفيهِ . والهمزةُ للانكارِ والتوبيخِ والتعجيبِ من شأنِهم . وقولُه تعالى ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ إما عطفٌ على اتخذَ داخلٌ في حُكْمِ الإنكارِ والتعجيبِ أو حالٌ من فاعلِه بإضمارِ قَدْ أو بدونِه على الخلافِ المشهورِ . والالتفاتُ إلى خطابِهم لتأكيدِ الإلزامِ وتشديدِ التوبيخِ أي بلْ أتخذَ من خلقِه أخسَّ الصنفينِ واختارَ لكم أفضلَهُما : على مَعْنى هَبُوا أنكم اجترأتُم على إضافةِ اتخاذِ جنسِ الولدِ إليه سُبحانَهُ مع ظهورِ استحالتِه وامتناعِه أما كانَ لكم شيءٌ من العقلِ ونُبذٌ من الحياءِ حتى اجترأتُم على التفوهِ بالعظيمةِ الخارقةِ للعقولِ من ادعاءِ أنَّه تعالى آثركُم على نفسِه بخيرِ

الصنفينِ وأعلاهُما وتركَ له شرَّهُما وأدناهُما . وتنكيرُ بناتِ وتعريفُ البنينَ لتربيةِ ما اعتُبرَ فيهما من الحقارةِ والفخامةِ .

(158/690)

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ الخ استئنافٌ مقررٌ لما قبلَهُ ، وقيلَ حالٌ على مَعنْى أنَّهم نسبُوا إليه ما ذُكِرَ ومن حالِهم أنَّ أحدَهُم إذا بُشِّرَ بِهِ اغتمَّ . والالتفاتُ للإيذانِ باقتضاءِ ذكرِ قبائِحهم أنْ يُعرضَ عنهم وتُحكَى لغيرِهم تعجيباً منها أيْ إذا أخبرَ أحدُهم بولادةِ ما جعلَه مثلاً له سُبحانَه إذِ الولدُ لا بُدَّ أنْ يجانسَ الوالدَ ويماثلَهُ ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ أي صارَ أسودَ في الغايةِ من سوءِ ما بُشِّرَ به ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوءٌ من الكربِ والكآبةِ . والجملةُ حالٌ وقُرِىءَ مُسودٌّ ومُسوادٌّ ، على أنَّ في ظَلَّ ضميرُ المبشّرِ ، ووجهُهُ مسودٌّ جملةٌ وقعتْ خبراً لهُ .

﴿ أَوْمَن يُنَشَّأُ فِى الحلية ﴾ تكريرٌ للإنكارِ ، وتثنيةٌ للتوبيخِ . ومَنْ منصوبةٌ بمضمرٍ معطوفٍ على جعلُوا أي أو جعلُوا مَنْ شأنُهُ أنْ يُربَّى في الزينةِ وهُو عاجزٌ عنْ أنْ يتولَّى أمره بنفسِهِ ، فالهمزةُ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه ، وقد جُوِّزَ انتصابُها بمضمرٍ معطوفٍ على اتخذَ فالهمزةُ حينئذٍ لإنكارِ الوقوعِ واستبعادِه ، وإقحامُها بين المعطوفينِ لتذكيرِ ما في أمِ المنقطعةِ

من الإنكارِ وتأكيدِه. والعطفُ للتغايرِ العُنوانِي أيْ أوَ اتخذَ من هذهِ الصفةِ الذميمةِ صفتَهُ ﴿ وَهُوَ ﴾ مع ما ذُكِرَ من القصورِ ﴿ فِى الخصام ﴾ أي الجدالِ الذي لا يكادُ يخلُو عنه الإنسانُ في العادةِ ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ غيرُ قادرٍ على تقريرِ دعواهُ وإقامةِ حُجَّتِه لنقصانِ عقلِه وضعفِ رأيه. وإضافةُ غيرُ لا تمنعُ عملَ ما بعدَهُ في الجارِّ المتقدمِ لأنَّه بمعْنى النَّفي. وقُرِىءَ يُنشأُ، ويُناشَأُ من الإفعالِ والمفاعلةِ والكلُّ بمَعْنى واحدٍ، ونظيرُه غَلاهُ وأغلاهُ وغالاهُ.

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾

(159/690)

بيانٌ لتضمن كفرِهم المذكورِ لكفرٍ آخرَ، وتقريعٌ لهم بذلكَ وهو جعلُهم أكملَ العبادِ وأكرمَهم على الله عزَّ وجلَّ أنقصَهُم رأياً وأخسَّهُم صِنفاً. وقُرِىءَ عبيدُ الرحمنِ، وقُرِىءَ عبد الرحمن على تمثيل زلفاهم، وقرىء أُنُثاً وهُو جمعُ الجمعِ. ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ أي أحضرُوا خلقَ الله تعالى إيَّاهم فشاهدُوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتِهم، فإنَّ ذلكَ مما يُعلم بالمشاهدةِ، وهو تجهيلٌ لهُم وتهكُّمٌ بهم. وقُرِىءَ أَأَشهِدُوا بهمزتينِ مفتوحةٍ ومضمومةٍ وأأُشهدوا بألفٍ بينهُما. ﴿ سَتُكْتَبُ شهادتهم ﴾ هذه في ديوانِ أعمالِم ﴿ وَيُسْئَلُونَ ﴾ عنها يومِ القيامةِ. وقُرِىءَ سيكتُبُ وسنكتبُ بالياءِ والنونِ. وقُرِىءَ شهاداتُهم. وهيَ

قولُهم إنَّ للهِ جزءاً وإن له بناتٍ وأنها الملائكةُ . وقُرِئَ يُساءلونَ من المساءلةِ للمبالغةِ . ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاء الرحمن مَا عبدناهم ﴾ بيانٌ لفنٍ آخرَ من كُفرِهم ، أيْ لو شاءَ عدمَ عبادتِنا للملائكةِ مشيئةَ ارتضاءٍ ما عبدناهُم أرادُوا بذلكَ بيانَ أنَّ ما فعلُوه حقٌّ مرضيٌّ عندَهُ تعالى وأنَّهم إنَّما يفعلُونه بمشيئتِهِ تعالى إياه منهُم مع اعترافِهم بقبحِهِ حتى ينتهضَ ذمُّهم به دليلاً للمعتزلةِ ، ومَبْنى كلامِهم الباطلِ على مقدمتينِ : إحداهُما أنَّ عبادتَهُم لهم بمشيئتِهِ تعالى ، والثانيةُ أنَّ ذلكَ مستلزمٌ لكونِها مرضيةً عندَهُ تعالَى ولقد أخطأُوا في الثانيةِ حيث جهلُوا أن المشيئةَ عبارةٌ عن ترجيحِ بعضِ الممكناتِ على بعضٍ كائناً ما كانَ من غيرِ اعتبارِ الرِّضا أو السَّخطِ في شيءٍ من الطرفينِ ولذلكَ جُهّلُوا بقولِه تعالى : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ ﴾ أي بما أرادُوا بقولِهم ذلكَ من كونِ ما فعلُوه بمشيئةِ الارتضاءِ لا بمطلقِ المشيئةِ فإنَّ ذلكَ محققٌ ينطقُ بهِ ما لا يُحصَى عن الآياتِ الكريمةِ ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يستندُ إلى سندٍ مَا ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾

(160/690)

يتمحَّلُونَ تمحُّلاً باطلاً وقد جُوِّزَ أنْ يشارَ بذلكَ إلى أصلِ الدعوى كأنَّه لما أظهرَ وجوه فسادِها وحكى شُبهَهم المزيفةَ نَفَى أن يكونَ لهم بها علمٌ مِن طريقِ العقلِ ثم أضربَ عنه إلى

إبطالِ أن يكونَ لهم سندٌ من جهةِ النقلِ فقيلَ :

﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا مّن قَبْلِهِ ﴾ من قبلِ القرآنِ أو من قبلِ ادعائِهم ينطقُ بصحةِ ما يدَّعُونَهُ ﴿ فَهُم بِهِ ﴾ بذلكَ الكتابِ ﴿ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ وعليهِ معوّلونَ ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على ءاثارهم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي لم يأتُوا بحجةٍ عقليةٍ أو نقليةٍ بل اعترفُوا بأن لا سندَ لهم سوى تقليدِ آبائِهم الجهلةِ مثلِهمْ والأمةُ الدينُ والطريقةُ التي تؤمّ أي تُقصدُ كالرُّحلةِ لما يُرحلُ إليهِ . وقُرِىءَ إِمةٍ بالكسرِ ، وهي الحالةُ التي يكونُ عليها الآمُّ أي القاصدُ . وقولُه تعالى على آثارِهم مهتدونَ خبرُ إنَّ والظرفُ صلةٌ لمهتدونَ .

(161/690)

﴿ وكذلك ﴾ أي والأمرُ كما ذُكِرَ منْ عجزِهم عن الحجةِ وتشبّثِهم بذيلِ التقليدِ . وقولُه تعالَى ﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على ءاثارهم مُّقْتَدُونَ ﴾ استئنافٌ مبينٌ لذلكَ دالٌّ على أنَّ التقليدَ دالٌّ على أنَّ التقليدَ فيما بينُهم ضلالٌ قديمٌ ليسَ لأسلافِهم أيضاً سندٌ غيرُه ، وتخصيصُ المُترفينَ بتلكَ المقالةِ للإيذانِ بأن التنعمَ وحبّ البطالةِ هو الذي صرَفَهُم عن النظرِ إلى التقليدِ ﴿ قَالَ ﴾ حكايةٌ لما جرَى بين المنذرينَ وبينَ أُممِهم عندَ تعللهم بتقليدِ آبائِهم ، أي قالَ كلُّ نذيرٍ من أولئكَ

المنذرينَ لأممِهم ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ ﴾ أي أتقتدونَ بآبائِكم ولو جئتُكم ﴿ بأهدى ﴾ بدينٍ أَهدْى ﴿ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءابَاءكُمْ ﴾ من الضلالةِ التي ليستْ من الهدايةِ في شيءٍ وإنما عبر عنها بذلكَ مجاراةً معهم على مسلكِ الإنصافِ وقُرِىءَ على أنَّه حكايةُ أمرٍ ماضٍ أُوحيَ حينئذٍ إلى كلِّ نذيرٍ لا على أنَّه خطابٌ للرسولِ صلى الله عليه وسلم وكما قيل، لقولِه تعالى: ﴿ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ فإنَّه حكايةٌ عن الأممِ قطعاً أيْ قالتْ كلُّ أمةٍ لنذيرِها إنَّا بما أرسلتَ بهِ إلخ وقد أجملَ عندَ الحكايةِ للإنجازِ كما مرَّ في قولِه تعالى: ﴿ وَمَعِينٍ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ وجعلُه حكايةً عن قومِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بحملِ صيغةِ الجمعِ على تغليبِه على سائرِ المنذرينَ عليهم السَّلامُ، وتوجيُه كفرِهم إلى مَا أرسلَ به الكُلُّ من التوحيدِ لإجماعِهم عليهِ كما في نظائرِ قولِه تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾ تمحُّلٌ بعيدٌ يردُّه بالكلّيةِ قولُه تعالى ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ أي بالاستئصالِ ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ من الأممِ المذكورينَ فلا تكترثْ بتكذيبِ قومِكَ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾

أي سموا وقالوا : إنهم أناث ، قال الزجاج : الجعل في مثله بمعنى القول والحكم على الشيء تقول : جعلت زيداً أعلم الناس أي وصفته بذلك وحكمت به ، واختار أبو حيان أن المعنى صيروهم في اعتقادهم إناثاً اعتراض وارد لإثبات مناقضتهم أيضاً وادعاء ما لا علم لهم به المؤيد لجعله معتمد الكلام على ما سبق آنفاً فإنهم أنثوهم في هذا المعتقد من غير استناد إلى علم فارشد إلى أن ما هم عليه من إثبات الولد مثل ما هم عليه من تأنيث الملائكة عليهم السلام في أنهما سخف وجهل كانا كفرين أولاً ، نعم هما في نفس الأمر كفران ، أما الأول : فظاهر ، وأما الثاني : فللاستخفاف برسله سبحانه أعني الملائكة وجعلهم أنقص العباد رأياً وأخسهم صنفاً وهم العباد المكرمون المبرأون من الذكورة والأنوثة فإنهما من عوارض الحيوان المتغذي المحتاج إلى بقاء نوعه لعدم جريان حكمة الله تعالى ببقاء شخصه وليس ذلك عطفاً على قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الزخرف : 15] لما علمت من أن الجملة في موضع الحال من فاعل ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ [الزخرف : 9] ولا يحسن بحسب الظاهر أن يقال : لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم وقد جعلوا الملائكة إناثاً ، وقرىء عبيد جمع عبد وكذا ﴿ عِبَادِ ﴾ وقيل : عباد جمع عابد كصائم وصيام وقائم وقيام ، وقرأ عمر بن الخطاب .

والحسن .

وأبو رجاء .

وقتادة .

وأبو جعفر .

وشيبة .

والأعرج .

والابنان .

ونافع ﴿ عِندَ الرحمن ﴾ ظرفاً وهو أدل على رفع المنزلة وقرب المكانة ، والكلام على الاستعارة في المشهور لاستحالة العندية المكانية في حقه سبحانه ، وقرأ أبي عبد الرحمن بالباء مفرد عباد ، والمعنى على الجمع بإرادة الجنس .

(163/690)

وقرأ الأعمش ﴿ عِبَادِ ﴾ بالجمع والنصب حكاها ابن خالويه وقال : هي في مصحف ابن مسعود كذلك ، وخرج أبو حيان النصب على إضمار فعل أي الذين هم خلقوا عباد الرحمن ، وقرأ زيد بن علي ﴿ إناثا ﴾ بضمتين ككتب جمع إناثاً فهو جمع الجمع ، وعلى

جميع القراءات الحصر إذا سلم إضافي فلا يتم الاستدلال به على أفضلية الملك على البشر .

﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ أي أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إناثا وَهُمْ شاهدون ﴾ [الصافات : 150] وفيه تجهيل لهم وتهكم بهم ، وإنما لم يتعرض لنفي الدلائل النقلية لأنها في مثل هذا المطلب مفرعة على القول بالنبوة وهم الكفرة الذين لا يقولون بها ولنفي الدلائل العقلية لظهور انتفائها والنفي المذكور أظهر في التهكم فافهم ، وقرأ نافع ﴿ أأشهدوا ﴾ بهمزة داخلة على أشهد الرباعي المبني للمفعول ، وفي رواية أنه سهل هذه الهمزة فجعلها بين الهمزة والواو وهي رواية عن أبي عمرو ، وروي ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

ومجاهد ، وفي أخرى أنه سهلها وأدخل بينها وبين الأولى ألفاً كراهة اجتماع همزتين ونسبت إلى جماعة ، والاكتفاء بالتسهيل أوجه ، وقرأ الزهري وناس : ﴿ فَقُولُواْ اشهدوا ﴾ بغير استفهام مبنياً للمفعول رباعياً فقيل المعنى على الاستفهام نحو قوله :

قالوا تحبها قلت بهرا . . .

وهو الظاهر ، وقيل : على الإخبار ، والجملة صفة ﴿ إناثا ﴾ وهم وإن لم يشهدوا خلقهم لكن نزلوا لجراءتهم على ذلك منزلة من أشهد أو المراد أنهم أطلقوا عليهم الإناث المعروفات لهم اللاتي اشهدوا خلقهن لا صنفاً آخر من الإناث ؛ ولا يخفى ما في كلا التأويلين من التكلف ﴿ سَتُكْتَبُ ﴾ في ديوان أعمالهم ﴿ شهادتهم ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة عليهم السلام ، وقيل : سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما يدريكم أنهم إناث فقالوا : سمعنا ذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فقال الله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شهادتهم ﴾ ﴿ وَيُسْئَلُونَ ﴾ عنها يوم القيامة ، والكلام وعيد لهم بالعقاب والمجازاة على ذلك والسين للتأكيد ، وقيل : يجوز أن تحمل على ظاهرها من الاستقبال ويكون ذلك إشارة إلى تأخير كتابة السيآت لرجاء التوبة والرجوع كما ورد في الحديث إن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فإذا أراد أن يكتبها قال له : توقف فيتوقف سبع ساعات فإن استغفر وتاب لم يكتب فلما كان ذلك من شأن الكتابة قرنت بالسين ، وكونهم كفاراً مصرين على الكفر لا يأباه .

وقرأ الزهري ﴿ سيكتب ﴾ بالياء التحتية مبنياً للمفعول ، وقرأ الحسن كالجمهور إلا أنه قرأ ﴿ شهاداتهم ﴾ بالجمع وهي قولهم : إن لله سبحانه جزأ وإن له بنات وإنها الملائكة ، وقيل : المراد ما أريد بالمفرد والجمع باعتبار التكرار ، وقرأ ابن عباس .

وزيد بن علي .

وأبو جعفر .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

والجحدري .

والأعرج ﴿ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ ﴾ بالنون مبنياً للفاعل ﴿ شهادتهم ﴾ بالنصب والإفراد .

وقرأت فرقة ﴿ سيكتب ﴾ بالياء التحتية مبنياً للفاعل وبإفراد ﴿ سَتُكْتَبُ شهادتهم ﴾ ونصبها أي سيكتب الله تعالى شهادتهم .

وقرىء ﴿ يساءلون ﴾ من المفاعلة للمبالغة .

(165/690)

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاء الرحمن مَا عبدناهم ﴾ عطف على قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة ﴾ [الزخرف : 19] الخ إشارة إلى أنه من جنس ادعائهم أنوثة الملائكة في أنهم قالوه من غير علم ، ومرادهم بهذا القول على ما قاله بعض الأجلة الاستدلال بنفي مشيئة الله تعالى

ترك عبادة الملائكة عليهم السلام على امتناع النهي عنها أو على حسنها فكأنهم قالوا : إن الله تعالى لم يشأ ترك عبادة الملائكة عليهم السلام على امتناع النهي عنها أو على حسنها فكأنهم قالوا : إن الله تعالى لم يشأ ترك عبادتنا الملائكة ولو شاء سبحانه ذلك لتحقق بل شاء جل شأنه العبادة لأنها المتحققة فتكون مأموراً بها أو حسنة ويمتنع كونها منهياً عنها أو قبيحة ، وهو استدلال باطل لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض حسناً كان أو قبيحاً فلذلك جهلوا بقوله سبحانه : ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ ﴾ القول على الوجه الذي قصدوه منه ، وحاصله يرجع إلى الإشارة إلى زعمهم أن المشيئة تقتضي طباق الأمر لها أو حسن ما تعلقت به ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يستند إلى سند ما .

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون كما فسره به غير واحد ، ويطلق الخرص على الحزر وهو شائع بل قيل : إنه الأصل وعلى كل هو قول عن ظن وتخمين ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ إضراب عن نفي أن يكون لهم بذلك علم من طريق العقل إلى إبطال أن يكون لهم سند من جهة النقل ؛ فأم منقطعة لا متصلة معادلة لقوله تعالى : ﴿ اشهدوا ﴾ [الزخرف : 19] كما قيل لبعده .

وضمير ﴿ قَبْلِهِ ﴾ للقرآن لعلمه من السياق أو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسين مستمسكون للتأكيد لا للطلب أي بل أآتيناهم كتاباً من قبل القرآن أو من قبل الرسول صلى

الله عليه وسلم ينطق بصحة ما يدعونه فهم بذلك الكتاب متمسكون وعليه معولون ، وقوله جل وعلا :

(166/690)

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على ءاثارهم مُّهْتَدُونَ ﴾ إبطال لأن يكون لهم حجة أصلاً أي لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم ، والأمة الدين والطريقة التي تؤم أي كالرحلة للرجل العظيم الذي يقصد في المهمات يقال : فلان لا أمة له أي لا دين ولا نحلة ، قال الشاعر :

وهل يستوى ذو أمة وكفور . . .

وقال قيس بن الحطيم :

كنا على أم آبائنا . . .

ويقتدي بالأول الآخر

وقال الجبائي : الأمة الجماعة والمراد وجدنا آباءنا متوافقين على ذلك ، والجمهور على الأول وعليه المعول ، ويقال فيها إمة بكسر الهمزة أيضاً وبها قرأ عمر بن عبد العزيز . ومجاهد .

وقتادة.

والجحدري.

(167/690)

وقرأ ابن عياش ﴿ أُمَّةٍ ﴾ بفتح الهمزة، قال في "البحر": أي على قصد وحال، و﴿ على أُمَّةٍ وَإِنَّا ﴾ قيل خبر إن لأن، وقيل: على آثارهم صلة ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ ومهتدون هو الخبر، هذا وجعل الزمخشري الآية دليلاً على أنه تعالى لم يشأ الكفر من الكافر وإنما شاء سبحانه الايمان، وكفر أهل السنة القائلين بأن المقدورات كلها بمشيئة الله تعالى، ووجه ذلك بأن الكفار لما ادعوا أنه تعالى شاء منهم الكفر حيث قالوا: ﴿ لَوْ شَاء الرحمن ﴾ [الزخرف: 20] الخ أي لو شاء جل جلاله منا أن نترك عبادة الأصنام تركناها رد ﴿ الله ﴾ تعالى ذلك عليهم وأبطل اعتقادهم بقوله سبحانه: ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف: 20] الخ فلزم حقيقة خلافه وهو عين ما ذهب إليه، والجملة عطف على قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الزخرف: 15] أو على ﴿ جَعَلُواْ الملائكة ﴾ [الزخرف: 19] الخ فيكون ما تضمنته كفراً آخر ويلزمه كفر القائلين بأن الكل بمشيئته عز وجل، ومما سمعت يعلم رده، وقيل: في رده أيضاً: يجوز أن يكون ذلك إشارة إلى أصل

الدعوى وهو جعل الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً دون ما قصدوه من قولهم : ﴿ لَوْ شَاء ﴾ الخ وما ذكر بعد أصل الدعوى من تتمتها فإنه حكاية شبهتهم المزيفة لأن العبادة للملائكة وإن كانت بمشيئته تعالى لكن ذلك لا ينافي كونها من أقبح القبائح المنهي عنها وهذا خلاف الظاهر .

(168/690)

وقال بعض الأجلة : إن كفرهم بذلك لأنهم قالواه على جهة الاستهزاء ، ورده الزمخشري بأن السياق لا يدل على أنهم قالوه مستهزئين ؛ على الله تعالى قد حكى عنهم على سبيل الذم والشهادة بالكفر أنهم جعلوا له سبحانه جزأ وأنه جل وعلا اتخذ بنات واصطفاهم بالبنين وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين أناثاً وأنهم عبدوهم وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكي الذي هو إيمان عنده لوجدوا بالنطق به مدحاً لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء فبقي أن يكونوا جادين ويشترك كلها في أنها كلمات كفر ، فإن جعلوا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء دون ما قبله فما بهم إلا تعويج كتاب الله تعالى ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزأ لم يكن لقوله سبحانه :

﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف : 20] الخ معنى لأن الواجب فيمن تكلم بالحق استهزاء أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب ، ولا يخفى أن رده بأنه لا يدل عليه السياق صحيح ، وأما ما ذكر من حكاية الله سبحانه والتعويج فلا لأنه تعالى ما حكى عنهم قولاً أولاً بل أثبت لهم اعتقاداً يتضمن قولاً أو فعلاً وقد بين أنهم مستخفون في ذلك العقد كما أنهم مستخفون في هذا القول فقوله : لو نطقوا الخ لا مدخل له في السابق وليس فيه تعويج البتة من هذا الوجه وكذلك قوله : لم يكن لقوله تعالى : ﴿ مَّا لَهُم ﴾ الخ معنى مردود لأن الاستهزاء باب من الجهل كما يدل عليه قول موسى عليه السلام ﴿ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ وقد تقدم في البقرة (67) ، وأما الكذب فراجع إلى مضمونه والمراد منه كما سمعت فمن قال لا إله إلا الله استهزاء مكذب فيما يلزم من أنه اخبار عن إثبات التعدد لأنه إخبار عن التوحيد فافهم كذا في "الكشف" .

وفيه أيضاً أن قولهم : ﴿ لَوْ شَاء الرحمن ﴾ [الزخرف : 20] الخ فهم منه كونه كفراً من أوجه .

(169/690)

أحدها : أنه اعتذار عن عبادتهم الملائكة عليهم السلام التي هي كفر وإلزام أنه إذا كان بمشيئته تعالى لم يكن منكراً .

والثاني : أن الكفر والايمان بتصديق ما هو مضطر إلى العلم بثبوته بديهة أو استدلالاً متعلقاً بالمبدأ والمعاد وتكذيبه لا بإيقاع الفعل على وفق المشيئة وعدمه .

والثالث : أنهم دفعوا قول الرسل بدعوتهم إلى عبادته تعالى ونهيهم عن عبادة غيره سبحانه بهذه المقالة ثم أنهم ملزمون على مساق هذا القول لأنه إذا استند الكل إلى مشيئته تعالى شأنه فقد شاء إرسال الرسل وشاء دعوتهم للعباد وشاء سبحانه جحودهم وشاء جل وعلا دخولهم النار فالإنكار والدفع بعد هذا القول دليل على أنهم قالوه لا عن اعتقاد بل مجازفة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى في مثله : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : 149] وفيه أنهم يعجزون الخالق بإثبات التمانع بين المشيئة وضد المأمور به فيلزم أن لا يريد إلا ما أمر سبحانه به ولا ينهى جل شأنه إلا وهو سبحانه لا يريده وهذا تعجيز من وجهين .

إخراج بعض المقدورات عن أن يصير محلها وتضييق محل أمره ونهيه ؛ وهذا بعينه مذهب إخوانهم من القدرية ؛ ولهذه النكتة جعل قولهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاء الرحمن مَا عبدناهم ﴾

[الزخرف : 20] معتمد الكلام ولم يقل : وعبدوا الملائكة وقالوا : لو شاء ونظير قولهم في أنه إنما أتى به لدفع ما علم ضرورة قوله تعالى : ﴿ لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائكة ﴾ [فصلت : 14] فالدفع كفر والتعجيز كفر في كفر ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف : 20] يحتمل أن يرجع إلى جميع ما سبق من قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الزخرف : 15] إلى هذا المقام ويحتمل أن يرجع إلى الأخير فقد ثبت أنهم قالوه من غير علم وهو الأظهر للقرب وتعقيب كل بإنكار مستقل وطباقه لما في الأنعام ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : 116] على هذا التكذيب المفهوم منه راجع إلى استنتاج المقصود من هذه اللزومية فقد سبق أنها عليهم لا لهم ولوح إلى طرف منه في سورة الأنعام أو إلى الحكم بامتناع الانفكاك مع تجويز الحاكم الانفكاك حال حكمه فإن ذلك يدل على كذبه وإن كان ذلك الحكم في نفسه حقاً صحيحاً يحق أن يعلم كما تقول زيد قائم قطعاً أو البتة وعندك احتمال نقيضه .

وليس هذا رجوعاً إلى مذهب من جعل الصدق بطباقه للمعتقد فافهم ، على أنه لما كان اعتذاراً على ما مر صح أن يرجع التكذيب إلى أنه لا يصلح اعتذاراً أي أنهم كاذبون في أن المشيئة تقتضي طباق الأمر لها ، وهذا ما آثره الإمام .

والعلامة .

والقاضي ، والظاهر ما قدمناه .

(171/690)

وتعقيب الخرص على وجه البيان أو الاستئناف عن قوله تعالى : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف : 20] وقوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ في سورة الأنعام (116) دليل على ما أشرنا فقد لاح للمسترشد أن الآية تصلح حجة لأهل السنة لا للمعتزلة ؛ وقال في آية سورة الأنعام : إن قولهم هذا إما لدعوى المشروعية رداً للرسل أو لتسليم أنهم على الباطل اعتذاراً بأنهم مجبورون ، والأول باطل لأن المشيئة تتعلق بفعلهم المشروع وغيره فما شاء الله تعالى أن يقع منهم مشروعاً وقع كذلك وما شاء الله تعالى أن يقع لا كذلك وقع لا كذلك .

ولا شك أن من توهم أن كون الفعل بمشيئته تعالى ينافي مجيء الرسل عليهم السلام بخلاف ما عليه المباشر من الكفر والضلال فقد كذب التكذيب كله وهو كاذب في استنتاج المقصود من هذه اللزومية وظاهر الآية مسوق لهذا المعنى ، والثاني على ما فيه من حصول المقصود وهو الاعتراف بالبطلان باطل أيضاً إذ لا جبر لأن المشيئة تعلقت بأن يشركوا اختياراً منهم

والعلم تعلق كذلك فهو يؤكد دفع القدر لا أنه يحققه وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة ﴾ [الأنعام : 149] ثم إنهم كاذبون في هذا القول لجزمهم حيث لا ظن مطلقاً فضلاً عن العلم وذلك لأن من المعلوم أن العلم بصفات الله سبحانه فرع العلم بذاته جل وعلا والايمان بها كذلك والمحتجون به كفرة مشركون مجسمون ، ونقل العلامة الطيبي نحواً من الكلام الأخير عن إمام الحرمين عليه الرحمة في الإرشاد اه .

وقد أطال الأعلام الكلام في هذا المقام وأرى الرجل سقى الله تعالى مرقده صهيب الرضوان قد محض كل ذلك وأتى بزبده بل لم يترك من التحقيق شيئاً لمن أتى من بعده فتأمل والله عز وجل هو الموفق .

﴿ وكذلك ﴾ أي والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة مطلقاً وتشبثهم بذيل التقليد ، وقوله سبحانه :

(172/690)

﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ استئناف مبين لذلك دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم لأسلافهم وأن متقدميهم أيضاً لم يكن لهم سند منظور إليه وتخصيص المترفين بتلك المقالة

للإيذان بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد .

﴿ قَالَ ﴾ حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم أي قال : كل نذير من أولئك المنذرين لأمته ﴿ أَوْلَوْ جِئْتُكُم ﴾ أي أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿ بأهدى ﴾ بدين أهدى ﴿ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءابَاءكُمْ ﴾ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء ، وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسل الانصاف .

وقرأ الأكثرون ﴿ قُلْ ﴾ على أنه حكاية أمر ماض أوحى إلى كل نذير أي فقيل أو قلنا للنذير قل الخ ، واستظهر في "البحر" كونه خطاباً لنبينا صلى الله عليه وسلم ، والظاهر هو ما تقدم لقوله تعالى :

﴿ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ فإنه ظاهر جداً في أنه حكاية عن الأمم السالفة أي قال كل أمة لنذيرها إنا بما أرسلتم به الخ وقد أجمل عند الحكاية للإيجاز كما قرر في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ [المؤمنون : 51] .

وجعله حكاية عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليبه صلى الله عليه وسلم على سائر المنذرين وتوجيه كفرهم إلى ما أرسل به الكل من التوحيد لإجمالعهم عليهم السلام عليه كما في نحو قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] تمحل بعيد ، وأيضاً يأباه ظاهر قوله سبحانه :

﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾

فإن ظاهره كون الانتقام بعذاب الاستئصال وصاحب البحر يحمله على الانتقام بالقحط والقتل والسبي والجلاء .

وقرأ أبي .

وأبو جعفر .

وشيبة .

(173/690)

وابن مقسم .

والزعفراني .

وغيرهم ﴿ أَوْلَوْجئناكم ﴾ بنون المتكلمين وهي تؤيد ما ذهبنا إليه والأمر بالنظر فيما انتهى إليه حال المكذبين تسلية له صلى الله عليه وسلم وإرشاد إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه إياه عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(174/690)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ حم * والكتاب المبين ﴾

الكلام ها هنا في الإعراب كالكلام الذي قدّمناه في ﴿ يس * والقرءان الحكيم ﴾ [يس : 1 ، 2] ، فإن جعلت ﴿ حم ﴾ قسماً كانت الواو عاطفة ، وإن لم تجعل قسماً ، فالواو للقسم ، وجواب القسم ﴿ إِنَّا جعلناه ﴾ ، وقال ابن الأنباري : من جعل جواب ، والكتاب : ﴿ حم ﴾ كما تقول : نزل والله ، وجب والله وقف على ﴿ الكتاب المبين ﴾ ، ومعنى ﴿ جعلناه ﴾ ، أي : سميناه ، ووصفناه ، ولذلك تعدّى إلى مفعولين .

وقال السدّي : المعنى : أنزلناه ﴿ قُرْءاناً ﴾ .

وقال مجاهد : قلناه .

وقال سفيان الثوري : بيناه ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ ، وكذا قال الزجاج ، أي : أنزل بلسان العرب ، لأن كلّ نبي أنزل كتابه بلسان قومه .

وقال مقاتل : لأن لسان أهل الجنة عربيّ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : جعلنا ذلك الكتاب قرآناً عربياً لكي تفهموه ، وتتعقلوا معانيه ، وتحيطوا بما فيه .

قال ابن زيد : لعلكم تتفكرون .

﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكتاب ﴾ أي : وإن القرآن في اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أي : عندنا ﴿ لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ رفيع القدر محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف ، ولا تناقض ، والجملة

عطف على الجملة المقسم بها داخلة تحت معنى القسم ، أو مستأنفة مقرّرة لما قبلها .

قال الزجاج : ﴿ أمّ الكتاب ﴾ : أصل الكتاب ، وأصل كلّ شيء : أمه ، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ كما قال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 21 ، 22] وقال ابن جريج : المراد بقوله : ﴿ وَأَنَّهُ ﴾ أعمال الخلق من إيمان ، وكفر ، وطاعة ، ومعصية .

قال قتادة : أخبر عن منزلته ، وشرفه ، وفضله ، أي : إن كذبتم به يا أهل مكة ، فإنه عندنا شريف رفيع محكم من الباطل .

(175/690)

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ يقال : ضربت عنه ، وأضربت عنه : إذا تركته ، وأمسكت عنه ، كذا قال الفراء ، والزجاج ، وغيرهما ، وانتصاب ﴿ صفحاً ﴾ على المصدرية ، وقيل : على الحال ، على معنى : أفنضرب عنكم الذكر صافحين ، والصفح مصدر قولهم : صفحت عنه إذا أعرضت عنه ، وذلك أنك توليه صفحة وجهك ، وعنقك ، والمراد بالذكر هنا : القرآن ، والاستفهام للإنكار ، والتوبيخ .

قال الكسائي : المعنى : أفنضرب عنكم الذكر طياً فلا توعظون ، ولا تؤمرون .

وقال مجاهد ، وأبو صالح ، والسدّي : أفنضرب عنكم العذاب ، ولا نعاقبكم على إسرافكم ، وكفركم .

وقال قتادة : المعنى : أفنهلككم ، ولا نأمركم ، ولا ننهاكم ؟ وروي عنه : أنه قال : المعنى : أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به ؟ وقيل : الذكر : التذكير ، كأنه قال : أنترك تذكيركم ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ ، قرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : " إن كنتم " بكسر " إن " على أنها الشرطية ، والجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه .

وقرأ الباقون بفتحها على التعليل ، أي : لأن كنتم قوماً منهمكين في الإسراف مصرّين عليه ، واختار أبو عبيد قراءة الفتح .

ثم سلى سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى الأولين ﴾ كم هي الخبرية التي معناها : التكثير ، والمعنى : ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِىٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ أي : أهلكنا قوماً أشدّ قوّة من هؤلاء القوم ، وانتصاب ﴿ بطشاً ﴾ على التمييز أو الحال ، أي : باطشين ﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ أي : سلف في القرآن ذكرهم غير مرة .

وقال قتادة : عقوبتهم ، وقيل : صفتهم ، والمثل : الوصف والخبر .

وفي هذا تهديد شديد ، لأنه يتضمن أن الأوّلين أهلكوا بتكذيب الرسل ، وهؤلاء إن استمروا على تكذيبك والكفر بما جئت به هلكوا مثلهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والارض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ أي : لئن سألت هؤلاء الكفار من قومك من خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية ؟ أقرّوا بأن الله خالقهنّ ولم ينكروا ، وذلك أسوأ لحالهم وأشدّ لعقوبتهم ، لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله وجعلوه شريكاً له ، بل عمدوا إلى ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضرّ من المخلوقات وهي : الأصنام فجعلوها شركاء لله .

ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على عظيم نعمته على عباده وكمال قدرته في مخلوقاته فقال : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مهادا ﴾ وهذا كلام مبتدأ غير متصل بما قبله ، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار لقالوا : الذي جعل لنا الأرض مهاداً ، والمهاد : الفراش والبساط ، وقد تقدّم بيانه ، قرأ الجمهور : ﴿ مهاداً ﴾ وقرأ الكوفيون (مهداً) ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي طرقاً تسلكونها إلى حيث تريدون ، وقيل : معايش تعيشون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم .

﴿ والذى نَزَّلَ مِنَ السماء مَاء بِقَدَرٍ ﴾ أي : بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زرائعكم ويهدم منازلكم ويهلككم بالغرق ، ولا

دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة ، وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة والتقتير أخرى ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ أي : أحيينا بذلك الماء بلدة مقفرة من النبات .

قرأ الجمهور : ﴿ ميتاً ﴾ بالتخفيف .

(177/690)

وقرأ عيسى وأبو جعفر بالتشديد ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم ، أي : مثل ذلك الإحياء للأرض بإخراج نباتها بعد أن كانت لا نبات بها تبعثون من قبوركم أحياء ، فإن من قدر على هذا قدر على ذلك ، وقد مضى بيان هذا في آل عمران والأعراف .

قرأ الجمهور : ﴿ تخرجون ﴾ مبنياً للمفعول ، وقرأ الأعمش ، ويحيى بن وثاب ، وحمزة ، والكسائي ، وابن ذكوان عن ابن عامر مبنياً للفاعل .

﴿ والذى خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ المراد بالأزواج هنا : الأصناف ، قال سعيد بن جبير : الأصناف كلها .

وقال الحسن : الشتاء والصيف ، والليل والنهار ، والسموات والأرض ، والجنة والنار .

وقيل : أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ، وقيل : أزواج النبات ، كقوله :

﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ق : 7] و : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 7] وقيل : ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشرّ ، وإيمان وكفر ، والأوّل أولى ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ في البحر والبرّ ، أي : ما تركبونه ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ الضمير راجع إلى ما قاله أبو عبيد .

وقال الفراء : أضاف الظهور إلى واحد ، لأن المراد به : الجنس ، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجنس فلذلك ذكر ، وجمع الظهر لأن المراد ظهور هذا الجنس ، والاستواء : الاستعلاء ، أي : لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ أي : هذه النعمة التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البحر والبرّ .

(178/690)

وقال مقاتل والكلبي : هو أن يقول : الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه ﴿ وَتَقُولُواْ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ أي : ذلل لنا هذا المركب ، وقرأ عليّ بن أبي طالب : (سبحان من سخر لنا هذا) قال قتادة : قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتم ، ومعنى ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ : ما كنا له مطيقين ، يقال : أقرن هذا البعير : إذا أطاقه .

وقال الأخفش وأبو عبيدة : مقرنين : ضابطين ، وقيل : مماثلين له في القوّة ، من قولهم : هو قرن فلان إذا كان مثله في القوّة ، وأنشد قطرب قول عمرو بن معديكرب :

لقد علم القبائل ما عقيل . . . لنا في النائبات بمقرنينا

وقال آخر :

ركبتم صعبتي أشراً وحيفا . . . ولستم للصعاب بمقرنينا

والمراد بالأنعام هنا : الإبل خاصة ، وقيل الإبل والبقر ، والأوّل أولى ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي : راجعون إليه ، وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة .

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكفار الذين تقدّم ذكرهم ، فقال : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ قال قتادة : أي : عدلاً ، يعني : ما عبد من دون الله .

وقال الزجاج والمبرد : الجزء هنا : البنات ، والجزء عند أهل العربية : البنات ، يقال : قد أجزأت المرأة : إذا ولدت البنات ، ومنه قول الشاعر :

إن أجزأت حرّة يوماً فلا عجب . . . قد تجزىء الحرّة المذكار أحياناً

وقد جعل صاحب الكشاف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير ، وصرح بأنه مكذوب على العرب .

ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد ، وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها ، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي من قوله : ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن ﴾ وقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثا ﴾ وقيل : المراد بالجزاء هنا : الملائكة ؛ فإنهم جعلوهم أولاداً لله سبحانه قاله مجاهد والحسن .

قال الأزهري : ومعنى الآية : أنهم جعلوا لله من عباده نصيباً ، على معنى : أنهم جعلوا نصيب الله من الولدان ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر الكفران مبالغ فيه ، قيل : المراد بالإنسان هنا : الكافر ، فإنه الذي يجحد نعم الله عليه جحوداً بيناً .

ثم أنكر عليهم هذا فقال : ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ وهذا استفهام تقريع وتوبيخ . وأم هي : المنقطعة ، والمعنى : أتخذ ربكم لنفسه البنات ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ فجعل لنفسه المفضول من الصنفين ولكم الفاضل منهما ، يقال : أصفيته بكذا ، أي : آثرته به ، وأصفيته الودّ : أخلصته له ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 21 ، 22] وقوله : ﴿ أفأصفاكم رَبُّكُم بالبنين ﴾ [الإسراء : 40] وجملة : ﴿ وأصفاكم ﴾ معطوفة على ﴿ اتخذ ﴾ داخلة معها تحت الإنكار .

ثم زاد في تقريعهم وتوبيخهم فقال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ أي بما جعله للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات ، والمعنى : أنه إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتمّ لذلك وظهر عليه أثره ، وهو معنى قوله : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّا ﴾ أي : صار وجهه مسودًّا بسبب حدوث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له ذكراً مكانها ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي : شديد الحزن كثير الكرب مملوء منه .

قال قتادة : حزين .

(180/690)

وقال عكرمة : مكروب ، وقيل : ساكت ، وجملة ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ في محل نصب على الحال .

ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم فقال : ﴿ أَوْ من يُنَشَّأُ فِى الحلية وَهُوَ فِى الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ معنى ينشأ : يربى ، والنشوء : التربية ، والحلية : الزينة ، و " من " في محل نصب بتقدير مقدّر معطوف على ﴿ جعلوا ﴾ ؛ والمعنى : أو جعلوا له سبحانه من شأنه أن يربى في الزينة وهو عاجز عن أن يقوم بأمور نفسه ، وإذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته ودفع ما يجادله به خصمه لنقصان عقله وضعف رأيه ؟ قال المبرد : تقدير الآية : أو يجعلون له من

ينشأ في الحلية ، أي : ينبت في الزينة ؟ قرأ الجمهور : " ينشأ " بفتح الياء وإسكان النون ، وقرأ ابن عباس والضحاك ، وابن وثاب ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين .

واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار الثانية أبو عبيد .

قال الهروي : الفعل على القراءة الأولى لازم ، وعلى الثانية متعدّ .

والمعنى : يربى ويكبر في الحلية .

قال قتادة : قلما تتكلم امرأة بحجتها إلاّ تكلمت بالحجة عليها .

وقال ابن زيد والضحاك : الذي ينشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة .

﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِندَ الرحمن إناثا ﴾ الجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشيء كما تقول : جعلت زيداً أفضل الناس ، أي : قلت بذلك ، وحكمت له به .

قرأ الكوفيون : ﴿ عباد ﴾ بالجمع ، وبها قرأ ابن عباس .

وقرأ الباقون : ﴿ عند الرحمن ﴾ بنون ساكنة ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله إنما كذبهم في قوله : إنهم بنات الله ، فأخبرهم أنهم عباده ، ويؤيد هذه القراءة قوله :

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية ، قال : وتصديق هذه القراءة قوله : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف : 206] ، ثم وبخهم ، وقرعهم ، فقال : ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ أي : أحضروا خلق الله إياهم ، فهو من الشهادة التي هي : الحضور ، وفي هذا تهكم بهم ، وتجهيل لهم .

قرأ الجمهور : ﴿ أشهدوا ﴾ على الاستفهام بدون واو .

وقرأ نافع : (أو اشهدوا) .

وقرأ الجمهور : ﴿ سَتُكْتَبُ شهادتهم ﴾ بضم التاء الفوقية ، وبناء الفعل للمفعول ، ورفع شهادتهم ، وقرأ السلمي ، وابن السميفع ، وهبيرة عن حفص بالنون ، وبناء الفعل للفاعل ، ونصب شهادتهم ، وقرأ أبو رجاء : (شهاداتهم) بالجمع ، والمعنى : سنكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في ديوان أعمالهم ، لنجازيهم على ذلك ﴿ وَيُسْئَلُونَ ﴾ عنها يوم القيامة .

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاء الرحمن مَا عبدناهم ﴾ هذا فنّ آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء ، والسخرية ، ومعناه : لو شاء الرحمن في زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة ، وهذا كلام حقّ يراد به باطل ، وقد مضى بيانه في الأنعام ، فبيّن سبحانه جهلهم بقوله : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي : ما لهم بما قالوه من أن الله لو شاء عدم عبادتهم للملائكة ما

عبدوهم من علم ، بل تكلموا بذلك جهلاً ، وأرادوا بما صورته صورة الحقّ باطلاً ، وزعموا أنه إذا شاء ، فقد رضي .

ثم بيّن انتفاء علمهم بقوله : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي : ما هم إلاّ يكذبون ، فيما قالوا ، ويتمحلون تمحلاً باطلاً .

وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ .

قاله قتادة ، ومقاتل ، والكلبي ، وقال مجاهد ، وابن جريج أي : ما لهم بعبادة الأوثان من علم .

(182/690)

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إن أوّل ما خلق الله من شيء القلم ، وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، والكتاب عنده ، ثم قرأ ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ قال :

أحببتم أن يصفح عنكم ، ولم تفعلوا ما أمرتم به .

وأخرج مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم ، وابن مردويه عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر ركب راحلته ، ثم كبر ثلاثاً ، ثم قال : ﴿ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ قال : مطيقين .

وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ أَوْمَن يُنَشَّأُ فِى الحلية ﴾ قال : هو النساء فرق بين زيهنّ ، وزيّ الرجال ، ونقصهنّ من الميراث ، وبالشهادة ، وأمرهنّ بالقعدة ، وسماهنّ الخوالف .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : كنت أقرأ هذا الحرف ﴿ الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ ، فسألت ابن عباس فقال : عباد الرحمن ؟ قلت : فإنها في مصحفي (عند الرحمن) قال : فامحها ، واكتبها ﴿ عِبَادُ الرحمن ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ .

قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر ﴿ عند الرحمن ﴾ بسكون النون وفتح الدال ظرف كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف : 206] ، وقرأه أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ الذين هم عباد الرحمن ﴾ بكسر العين وباء موحدة بعدها ألف وضم الدال جمع عبد كقوله : ﴿ وعباد الرحمن ﴾ الآية .

وقوله ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ . قرأه عامة السبعة غير نافع أشهدوا بهمزة واحدة مع فتح الشين ، وقرأه نافع أأشهد . بهمزتين الأولى مفتوحة محققة ، والثانية مضمومة مسهلة بين بين وقالوا يجعل بين الهمزتين ألف الإدخال على إحدى الروايتين .

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أربع مسائل :

الأولى : أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث زاعمين أنهم بنات الله .

الثانية : أنه وبخهم على ذلك توبيخاً شديداً وأنكر عليهم ذلك في قوله : ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ يعني هل حضروا خلق الله لهم فعاينوهم إناثاً .

الثالثة : أن شهادتهم الكاذبة بذلك ستكتب عليهم .

الرابعة : أنهم يسألون عنها يوم القيامة .

وهذه المسائل الأربع التي تضمنتها هذه الآية الكريمة ، جاءت موضحة في غير هذا الموضع .

(184/690)

أما الأولى منها . وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثاً ، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيما ﴾ [الإسراء : 40] . وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكة تَسْمِيَةَ الأنثى ﴾ [النجم : 27] الآية ، وقوله تعالى ﴿ فاستفتهم أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إِنَاثاً ﴾ [الصافات : 149 - 150] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وأما المسألة الثانية : وهي سؤاله تعالى لهم على وجه الإنكار والتوبيخ والتقريع هل شهدوا خلق الملائكة وحضروه ، حتى علموا أنهم خلقوا إناثاً فقد ذكرهما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ [الصافات : 150] وبين تعالى أنه لم يشهد الكفار خلق شيء في قوله : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : 51] الآية .

وأما المسألة الثالثة : التي هي كون شهادتهم بذلك الكفر ستكتب عليهم ، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الإنفطار : 10 - 12] وقوله تعالى : ﴿ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنَّ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : 80] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : 21] وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كِتَابَكَ ﴾ [الإسراء : 13 - 14] الآية . وقوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ [مريم : 79] .

وأما المسألة الرابعة : وهي كونهم يسألون عن ذلك الافتراء والكفر ، فقد ذكرها تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القيامة عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت : 13] وقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : 92 - 93] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ

تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: 44] وقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل: 56] إلى غير ذلك من الآيات.

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)

(186/690)

في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن قول الكفار الذي ذكره الله عنهم هنا، أعني قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف: 20]، هو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح، لأن الله لو شاء أن يعبدوهم ما عبدوهم، كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا ﴾ [الأنعام: 107]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ [الأنعام: 35]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة: 13] الآية. وقال تعالى: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: 149]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 99].

وهذا الإشكال المذكور في آية الزخرف هو بعينه واقع في آية الأنعام، وآية النحل.

أما آية الأنعام فهي قوله: ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ

حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 148].

وأما آية النحل، فهي قوله: ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا ﴾ [النحل: 35] الآية.

فإذا عرفت أن ظاهر آية الزخرف وآية الأنعام، وآية النحل: أن ما قاله الكفار حق، وأن الله لو شاء ما عبدوا من دونه من شيء ولا أشركوا به شيئاً، كما ذكرنا في الآيات الموضحة قريباً.

(187/690)

فاعلم أن وجه الإشكال، أن الله صرح بكذبهم في هذه الدعوى التي ظاهرها حق، قال في آية الزخرف: ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: 20] أي يكذبون، وقال في آية الأنعام ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِم حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: 148]، وقال في آية النحل ﴿ كذلك فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ [النحل: 35].

ومعلوم أن الذي فعله الذين من قبلهم، هو الكفر بالله والكذب على الله، في جعل الشركاء

له وأنه حرم ما لم يحرمه .

والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم ﴿ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف : 20] وقولهم ﴿ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام : 148] مرادهم به أن الله لما كان قادراً على منعهم من الشرك ، وهدايتهم إلى الإيمان ولم يمنعهم من الشرك . دل ذلك على أنه راض منهم بالشرك في زعمهم .

قالوا لأنه لو لم يكن راضياً به ، لصرفنا عنه ، فتكذيب الله لهم في الآيات المذكورة منصب على دعواهم أنه راض به ، والله جل وعلا يكذب هذه الدعوى في الآيات المذكورة وفي قوله ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ [الزمر : 7] .

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدرية ، تستلزم الرضى وهو زعم باطل ، وهو الذي كذبهم الله فيه من الآيات المذكورة .

وقد أشار تعالى إلى هذه الآيات المذكورة ، حيث قال في آية الزخرف :

(188/690)

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف : 21] أي آتيناهم كتاباً يدل على أنا رضوان منهم بذلك الكفر ، ثم أضرب عن هذا إضراب إبطال مبيناً أن

مستندهم في تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آبائهم التقليد الأعمى ، وذلك في قوله ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : 22] أي شريعة وملة وهي الكفر وعبادة الأوثان ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 22] .

فقوله عنهم مهتدون هو مصب التكذيب ، لأن الله إنما يرضى بالاهتداء لا بالضلال .

فالاهتداء المزعوم أساسه تقليد الآباء الأعمى ، وسيأتي إيضاح رده عليهم قريباً إن شاء الله .

وقال تعالى في آية النحل بعد ذكره دعواهم المذكورة : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ﴾ [النحل : 36] . فأوضح في هذه الآية الكريمة أنه لم يكن راضياً بكفرهم ، وأنه بعث في كل أمة رسولاً ، وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده ، ويجتنبوا الطاغوت أي يتباعدوا عن عبادة كل معبود سواه .

وأن الله هدى بعضهم إلى عبادته وحده ، وأن بعضهم حقت عليه الضلالة أي ثبت عليه الكفر والشقاء .

وقال تعالى في آية الأنعام ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : 149] . فملكه تعالى وحده للتوفيق والهداية ، هو الحجة البالغة على خلقه ، يعني فمن هديناه وتفضلنا عليه بالتوفيق ، فهو فضل منا ورحمة .

ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منا وحكمة ، لأنه لم يكن له ذلك ديناً علينا ولا واجباً مستحقاً يستحقه علينا ، بل إن أعطينا ذلك ففضل ، وإن لم نعطه فعدل . وحاصل هذا : أن الله تبارك وتعالى قدر مقادير الخلق ، قبل أن يخلق الخلق ، وعلم أن قوماً صائرون إلى الشقاء وقوماً صائرون إلى السعادة ، فريق في الجنة وفريق في السعير .

وأقام الحجة على الجميع ، ببعث الرسل وتأييدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحق لبساً فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك .

ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه ، ولم يوفق من سبق لهم في علمه الشقاء الأزلي ، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر ، وصرف قدرهم وإرادتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه ، من أعمال الخير المستوجبة للسعادة وأعمال الشر المستوجبة للشقاء .

فأتوا كل ما أتوا وفعلوا كل ما فعلوا ، طائعين مختارين ، غير مجبورين ، ولا مقهورين ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الإنسان : 30] . ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : 149] .

وادعاء أن العبد مجبور لا إرادة له ضروري السقوط عند عامة العقلاء .

ومن أعظم الضروريات الدالة عليه أن كل عاقل يعلم أن بين الحركة الاختيارية والحركة الاضطرارية ، كحركة المرتعش فرقاً ضرورياً ، لا ينكره عاقل .

وأنك لو ضربت من يدعى أن الخلق مجبورون ، وفقأت عينه مثلاً ، وقتلت ولده واعتذرت له بالجبر ، فقلت له : أنا مجبور ولا إرادة لي في هذا السوء الذي فعلته بك ، بل هو فعل الله ، وأنا لا دخل فيه فإنه لا يقبل منك هذه الدعوى بلا شك .

بل يبالغ في إرادة الانتقام منك قائلاً :

إن هذا بإرادتك ومشيئتك .

(190/690)

ومن أعظم الأدلة القطعية الدالة على بطلان مذهب القدرية ، وأن العبد لا يستقل بأفعاله دون قدرة الله ومشيئته ، أنه لا يمكن أحداً أن ينكر علم الله بكل شيء ، قبل وقوعه والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا ينكرها إلا مكابر .

وسبق علم الله بما يقع من العبد قبل وقوعه ، برهان قاطع على بطلان تلك الدعوى .

وإيضاح ذلك أنك لو قلت للقدري : إذا كان علم الله في سابق أزله تعلق بأنك تقع منك

السرقة أو الزنا في محل كذا في وقت كذا ، وأردت أنت بإرادتك المستقلة في زعمك دون إرادة الله أن لا تفعل تلك السرقة أو الزنا الذي سبق بعلم الله وقوعه ، فهل يمكنك أن تستقل بذلك ؟ وتُصيِّر علم الله جهلاً ، بحيث لا يقع ما سبق في علمه وقوعه في وقته المحدد له ؟

والجواب بلا شك : هو أن ذلك لا يمكن بحال كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الإنسان : 30] ، وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين ﴾ [الأنعام : 149] . ولا إشكال البتة في أن علم الله يخلق للعبد قدرة وإرادة يقدر بها على الفعل والترك ، ثم يصرف الله بقدرته وإرادته قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به علمه فيأتيه العبد طائعاً مختاراً غير مقهور ولا يجور ، وغير مستقل به دون قدرة الله وإرادته كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الإنسان : 30] .

والمناظرة التي ذكرها بعضهم ، بين أبي إسحاق الإسفراييني وعبد الجبار المعتزلي توضح هذا .

وهي أن عبد الجبال قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء يعني أن السرقة والزنا ليسا بمشيئة الله ، لأنه في زعمه أنزه من أن تكون هذه الرذائل بمشيئته .

فقال أبو إسحاق : كلمة حق أريد بها باطل .

ثم قال : سبحان من لم يقع في ملكه إلا ما يشاء .

فقال عبد الجبار : أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه .

فقال أبو إسحاق : أتراك تفعله جبراً عليه ، أأنت الرب وهو العبد ؟

(191/690)

فقال عبد الجبار : أرأيت إن دعاني إلى الهدى ، وقضى علي بالرديء ، دعاني وسد الباب دوني ؟ أتراه أحسن أم أساء ؟

فقال أبو إسحاق : أرى أن هذا الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل ، وإن منعك فعدل ، فبهت عبد الجبار ، وقال الحاضرون : والله ما لهذا جواب .

ومضمون جواب أبي إسحاق هذا الذي أفحم به عبد الجبار ، هو معنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين ﴾ [الأنعام : 149] .

وذكر بعضهم أن عمرو بن عبيد جاءه أعرابي فشكا إليه أن دابته سرقت وطلب منه أن يدعو الله ليردها إليه .

فقال عمرو ما معناه : اللهم إنها سرقت ولم ترد سرقتها ، لأنك أنزه وأجل من أن تدبر هذا الخنا .

فقال الأعرابي : ناشدتك الله يا هذا ، إلا ما كففت عني من دعائك هذا الخبيث ، إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد ، ولا ثقة لي برب ، يقع في ملكه ما لا يشاؤه فألقمه حجراً .

وقد ذكرنا هذه المسألة في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الكلام عن آية الأنعام المذكورة في هذا البحث ، وفي سورة الشمس في الكلام عن قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8] .

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21)

أم هنا تتضمن معنى استفهام الإنكار ، يعني جل وعلا أن هذا الذي يزعم الكفار من أنهم على حق في عبادتهم الأوثان ، وجعلهم الملائكة بنات الله ، لا دليل لهم عليه . ولذا أنكر أن يكون آتاهم كتاباً يحل فيه ذلك وأن يكونوا مستمسكين في ذلك بكتاب من الله ، فأنكر عليهم هذا هنا إنكاراً دالاً على النفي للتمسك بالكتاب المذكور ، مع التوبيخ والتقريع .

(192/690)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن كفرهم المذكور لم يكن عن هدى من الله ، ولا كتاب أنزله الله بذلك ، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة فاطر ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ

شُرَكَآءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ على بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴾ [فاطر : 40] الآية .

وقوله تعالى في الأحقاف ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ائتوني بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هاذآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف : 4] .

وقوله تعالى في الروم : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 35] .

وقوله تعالى في الصافات : ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُواْ بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الصافات : 156 - 157] .

وقوله تعالى في النمل : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض أإله مَّعَ الله قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : 64] .

وقوله تعالى في الحج ولقمان : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج : 8] .

وقوله تعالى في الأنعام : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : 148] .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ ﴾ .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة قد أفلح المؤمنون ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون : 44] الآية .

وفي سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ [الأنعام : 123] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ ﴾ [الزخرف : 24] .

قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم : قُلْ أو لو جئتكم بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر .

وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم ، قَالَ أو لو جئتكم بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الفعل الماضي .

فعلى قراءة الجمهور فالمعنى قل لهم يا نبي الله أتقتدون بآبائكم في الكفر والضلال ، ولو جئتكم بأهدى ، أي بدين أهدى مما وجدتم عليه آبائكم ، وصيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف لأن آباءهم لا شيء عندهم من الهداية أصلاً .

وعلى قراءة ابن عامر وحفص : فالمعنى قال هو : أي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهده العربية مراراً في هذا الكتاب المبارك .

(194/690)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسفيه رأي الكفار وبيان شدة ضلالهم في تقليدهم آباءهم هذا التقليد الأعمى ، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : 170] ، وكقوله تعالى في المائدة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ الله وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة : 104] .

وأوضح تعالى في آية لقمان أن ما وجدوا عليه آباءهم من الكفر والضلال طريق من طرق الشيطان يدعوهم بسلوكها إلى عذاب السعير ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السعير ﴾ [لقمان : 21] كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ آبَآءَهُمْ ضَآلِّينَ فَهُمْ على آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات : 69 – 70] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن

قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء : 51 - 54]

والآيات بمثل ذلك كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(195/690)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾

عَطف على ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ﴾ [الزخرف : 15] ، أعيد ذلك مع تقدم ما يغني عنه من قوله : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بناتٍ ﴾ [الزخرف : 16] ليبْنَى عليه الإنكار عليهم بقوله : ﴿ أَأُشهدوا خلقهم ﴾ استقراء لإبطال مقالهم إذ أُبطل ابتداءً بمخالفته لدليل العقل وبمخالفته لما يجب لله من الكمال ، فكمُل هنا إبطاله بأنه غير مستند لدليل الحس .

وجملة ﴿ الذين هم عند الرحمن ﴾ صفة الملائكة .

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿ عند ﴾ بعين فنون ودال مفتوحة والعندية عندية تشريف ، أي الذين هم معدودون في حضرة القدس المقدسة بتقديس الله

فهم يتلقون الأمر من الله بدون وساطة وهم دائبون على عبادته ، فكأنهم في حضرة الله ، وهذا كقوله : ﴿ وله ما في السماوات والأرض ومَن عنده ﴾ [الأنبياء : 19] وقوله : ﴿ إن الذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ [الأعراف : 206] ومِنْه قول النبي صلى الله عليه وسلم " تحاجَّ آدمُ وموسى عندَ الله عز وجل " الحديث ، فالعندية مجاز والقرينة هي شأن من أضيف إليه ﴿ عِنْد ﴾ .

وقرأ الباقون ﴿ عِبَادُ الرحمن ﴾ بعين وموحدة بعدها ألف ثم دال مضمومة على معنى : الذين هم عباد مُكرمون ، فالإضافة إلى اسم الرحمان تفيد تشريفهم قال تعالى : ﴿ بل عبادٌ مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] والعبودية عبودية خاصة وهي عبودية القرب كقوله تعالى : ﴿ فكذّبوا عَبْدنَا ﴾ [القمر : 9] .

وجملة ﴿ أَأُشهدوا خلقهم ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وجعلوا الملائكة ﴾ وجملةِ ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ [الزخرف : 20] .

وقرأ نافع وأبو جعفر بهمزتين أولاهما مفتوحة والأخرى مضمومة وسكون شين ﴿ أَأُشْهدوا ﴾ مبنياً للنائب وكيفية أداء الهمزتين يَجري على حكم الهمزتين في قراءة نافع ، وعلى هذه القراءة فالهمزة للاستفهام وهو للإنكار والتوبيخ .

وجيء بصيغة النائب عن الفاعل دون صيغة الفاعل لأن الفاعِل معلوم أنه الله تعالى لأن العالَم العلوي الذي كان فيه خلق الملائكة لا يحضره إلا مَن أمر الله بحضوره ، ألا ترى إلى ما ورد في حديث الإسراء من قول كُلّ ملَك موكَّلٍ باب من أبواب السماوات لِجبريل حين يستفتح (من أنت ؟ قال : جبريل ، قال : ومن معك ؟ قال : محمد قال : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قال : مرحباً ونعم المجيء جاء وفتح له) .

والمعنى : أأشهدهم الله خلق الملائكة وكقوله تعالى : ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ﴾ [الكهف : 51] .

وقرأه الباقون بهمزة مفتوحة فشين مفتوحة بصيغة الفعل ، فالهمزة لاستفهام الإنكار دخلت على فعل شَهِد ، أي ما حضروا خلق الملائكة على نحو قوله تعالى : ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ [الصافات : 150] .

وجملة ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ أأُشهدوا خلقهم ﴾ لأن ذلك الإنكار يشتمل على الوعيد .

وهذا خبر مستعمل في التوعد .

وكتابة الشهادة كناية عن تحقق العقاب على كذبهم كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ وإنه في أُم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم ﴾ [الزخرف : 4] ومنه قوله تعالى : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾

[آل عمران : 181] .

والسِّين في ﴿ ستكتب ﴾ لتأكيد الوعيد .

والمراد بشهادتهم : ادعاؤهم أن الملائكة إناثاً ، وأطلق عليها شهادة تهكماً بهم .

والسؤال سؤال تهديد وإنذار بالعقاب وليس مما يتطلب عنه جواب كقوله تعالى : ﴿ ثم لتُسألُنّ يومئذٍ عن النعيم ﴾ [التكاثر : 8] ، ومنه قول كعب بن زهير :

لَذاكَ أَهيبُ عندي إذْ أُكلمه

وقيل إنّك مَنْسُوبٌ ومَسْؤول . . .

أي مسؤول عما سبق منك من التكذيب الذي هو معلوم للسائِل .

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)

(197/690)

عطف على جملة ﴿ ولئن سألتهم مَن خلق السماوات والأرض ليقولُنّ خلقهن العزيز العليم ﴾ [الزخرف : 9] ، فإنها استدلال على وَحدانية الله تعالى وعلى أن معبوداتهم غيرُ أهل لأن تُعْبَد .

فحكي هنا ما استظهروه من معاذيرهم عند نهوض الحجة عليهم يرومون بها إفحام النبي

صلى الله عليه وسلم والمسلمين فيقولون : لو شاء الله ما عبَدْنا الأصنام ، أي لو أن الله لا يحب أن نعبدها لكان الله صرفنا عن أن نعبدها ، وتوهموا أن هذا قاطع لجدال النبي صلى الله عليه وسلم لهم لأنهم سمعوا من دينه أن الله هو المتصرف في الحوادث فتأولوه على غير المراد منه .

فضمير الغيبة في ﴿ ما عبدناهم ﴾ عائد إلى معلوم من المقام ومن ذكر فعل العبادة لأنهم كانوا يعبدون الأصنام وهم الغالب ، وأقوام منهم يعبدون الجنّ قال تعالى : ﴿ بل كانوا يعبدون الجنّ ﴾ [سبأ : 41] .

قال ابن مسعود : كان نفر من العرب يعبدون الجنّ ، وأقوام يعبدون الملائكة مثل بني مُلَيْح بضم الميم وفتح اللام وبجاء مهملة وهم حيّ من خزاعة .

فضمير جمع المذكر تغليب وليس عائداً إلى الملائكة لأنهم كانوا يزعمون الملائكة إناثاً فلو أرادوا الملائكة لقالوا ما عبدناها أو ما عبدناهنّ .

وهذا هو الوجه في معنى الآية .

ومثله مروي عن مجاهد وابن جريج واقتصر عليه الطبري وابن عطية ، ومن المفسرين من جعل معاد الضمير ﴿ الملائكة ﴾ [الزخرف : 19] ولعلهم حملهم على ذلك وقوع هذا الكلام عقب حكاية قولهم في الملائكة : إنهم إناث وليس اقتران كلام بكلام بموجب اتحاد محمَلَيْهما .

وعلى هذا التفسير درج صاحب "الكشاف" وهو بعيد من اللّفظ لتذكير الضمير كما علمت ، ومن الواقع لأن العرب لم يعبد منهم الملائكة إلا طوائف قليلة عبدوا الجن والملائكة مع الأصنام وليست هي الديانة العامة للعرب .

(198/690)

وهذه المقالة مثارها تخليط العامة والدهماء من عهد الجاهلية بينَ المشيئة والإرادة ، وبين الرضى والمحبة ، فالعرب كانوا يقولون : شاءَ الله وإن شاء الله ، وقال طرفة :

فلو شاء ربّي كنت قيس بن عاصم

ولو شاء ربّي كنت عَمرو بن مَرثد . . .

فبنوا على ذلك تخليطاً بين مشيئة الله بمعنى تعلق إرادته بوقوع شيء ، وبين مشيئته التي قدَّرها في نظام العالم من إناطة المسببات بأسبابها ، واتصال الآثار بمؤثراتها التي رتبها الله بقدَر حين كوَّن العالم ونظَّمه وأقام له سنناً ونواميس لا تخرج عن مدارها إلاّ إذا أراد الله قلب نظمها لحكمة أخرى .

فمشيئة الله بالمعنى الأول يدل عليها ما أقامه من نظام أحوال العالم وأهله .

ومشيئته بالمعنى الثاني تدل عليها شرائعه المبعوث بها رسُله .

وهذا التخليط بين المشيئتين هو مثار خبط أهل الضلالات من الأمم ، ومثار حيرة أهل الجهالة والقصور من المسلمين في معنى القضاء والقدر ومعنى التكليف والخطاب .

وقد بيّنا ذلك عند قوله تعالى:

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمْنا من شيء كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ﴾ في سورة الأنعام (148) .

وهذا القول الصادر منهم ينتظم منه قياس استثنائي أن يقال : لو شاء الله ما عبدنا الأصنام ، بدليل أن الله هو المتصرف في شؤوننا وشؤون الخلائق لكنا عبدنا الأصنام بدليل المشاهدة فَقد شاء الله أن نعبد الأصنام .

وقد أجيبوا عن قولهم بقوله تعالى : ما لهم بذلك من علم ﴾ أي ليس لهم مستند ولا حجة على قياسهم لأن مُقدَّم القياس الاستثنائي وهو ﴿ لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ مبنيّ على التباس المشيئة التكوينية بالمشيئة التكليفية فكان قياسهم خلياً عن العلم وهو اليقين ، فلذلك قال الله : ﴿ ما لهم بذلك ﴾ أي بقولهم ذلك ﴿ من علم ﴾ بل هو من جهالة السفسطة واللّبس .

والإشارة إلى الكلام المحكي بقوله : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ﴾ .

وجملة ﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ بيان لجملة ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ .

والخرص : التوهم والظنّ الذي لا حجة فيه قال تعالى : ﴿ قتل الخرّاصون ﴾ [الذاريات : 10] .

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21)

إضراب انتقالي ، عُطف على جملةِ ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ [الزخرف : 20] فبعد أن نفى أن يكون قولُهم ﴿ لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ [الزخرف : 20] مستنداً إلى حجة العقل ، انتقل إلى نفي أن يكون مستنداً إلى حجة النقل عن إخبار العالِم بحقائق الأشياء التي هي من شؤونه .

واجتلب للإضراب حرف ﴿ أم ﴾ دون (بَل) لما تؤذن به ﴿ أم ﴾ من استفهام بعدها ، وهو إنكاري .

والمعنى : وما آتيناهم كتاباً من قبله .

وضمير ﴿ من قبله ﴾ عائد إلى القرآن المذكور في أوّل السورة .

وفي قوله : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيمٌ ﴾ [الزخرف : 4] .

وفي هذا ثناء ثالث على القرآن ضمني لاقتضائه أن القرآن لا يأتي إلا بالحق الذي يُستمسك به .

وهذا تمهيد للتخلص إلى قوله تعالى : ﴿ بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمةٍ ﴾ [الزخرف : 22] .

و﴿ مِن ﴾ مزيدة لتوكيد معنى (قبْل) .

والضمير المضاف إليه (قَبْل) ضمير القرآن ولم يتقدم له معاد في اللّفظ ولكنه ظاهر من دلالة قوله : ﴿ كتاباً ﴾ .

و﴿ مستمسكون ﴾ مبالغة في (ممسكون) يقال : أمسك بالشيء ، إذا شدّ عليه يده ، وهو مستعمل مجازاً في معنى الثبات على الشيء كقوله تعالى : ﴿ فاستمسك بالذي أوحي إليك ﴾ [الزخرف : 43] .

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22)

هذا إضراب إبطال عن الكلام السابق من قوله تعالى : ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ [الزخرف : 21] فهو إبطال للمنفي لا للنفي ، أي ليس لهم علم فيما قالوه ولا نقل .

(200/690)

فكان هذا الكلام مسوقاً مساق الذمّ لهم إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرّسول وبين ما تلقوه من آبائهم فإن شأن العاقل أن يميّز ما يُلقَى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق .

والأمة هنا بمعنى الملة والدّين ، كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء (92) ﴿ إنَّ هذه أمتكم أمةً واحدةً ﴾ وقول النابغة :

وهل يأثمن ذو أُمة وهو طائع

أي ذو دِين .

وعلى ﴾ استعارة تبعية للملابسة والتمكن .

وقوله : ﴿ على آثارهم ﴾ خبرُ (إنَّ) .

و ﴿ مهتدون ﴾ خبر ثان .

ويجوز أن يكون ﴿ على آثارهم ﴾ متعلقاً بـ ﴿ مهتدون ﴾ بتضمين ﴿ مهتدون ﴾ معنى سائرون ، أي أنهم لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آبائهم ، وذلك ما يقولونه عند المحاجّة إذ لا حجة لهم غير ذلك .

وجعلوا اتّباعهم إياهم اهتداء لشدة غرورهم بأحوال آبائهم بحيث لا يتأملون في مصادفة أحوالهم للحق .

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)

جملة معترضة لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على تمسك المشركين بدين آبائهم

والإشارة إلى المذكور من قولهم : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ ﴾ [الزخرف : 22] ، أي

ومثل قولِهم ذلك ، قال المترفون من أهل القُرى المرسل إليهم الرسل من قبلك .

والواو للعطف أو للاعتراض وما الواو الاعتراضية في الحقيقة إلا تعطف الجملة المعترضة على الجملة التي قبلها عطفاً لفظياً .

والمقصود أن هذه شنشنة أهل الضلال من السابقين واللاحقين ، قد استووا فيه كما استووا في مَثاره وهو النظر القاصر المخطىء ، كما قال تعالى : ﴿ أتواصوا به بل هم قومٌ طَاغُون ﴾ [الذاريات : 53] ، أي بل هم اشتركوا في سببه الباعث عليه وهو الطغيان .

ويتضمن هذا تسليةً للرّسول صلى الله عليه وسلم على ما لقيه من قومه ، بأن الرّسل من قبله لَقُوا مثل ما لَقي .

(201/690)

وكاف التشبيه متعلق بقوله : ﴿ قال مترفوها ﴾ .

وقدم على متعلَّقه للاهتمام بهذه المشابهة والتشويق لما يرد بعْدَ اسم الإشارة .

وجملة ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ في موضع الحال لأن الاستثناء هنا من أحوال مقدّرة أي ما أرسلنا إلى أهل قرية في حالٍ من أحوالهم إلا في حال قولٍ قاله مترفوها : إنا وجدنا آباءنا الخ .

والمترَفون : جمع المُترف وهو الذي أُعطِي الترف ، أي النعمة ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وارجِعُوا إلى ما أُترفتم فيه ﴾ في سورة الأنبياء (13) .

والمعنى : أنهم مثل قريش في الازدهاء بالنَّعمة التي هم فيها ، أي في بطر نعمة الله عليهم . فالتشبيه يقتضي أنهم مثل الأمم السالفة في سبب الازدهاء وهو ما هم فيه من نَعمة حتى نسوا احتياجهم إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وذرْني والمكذبين أولي النَّعمة ومهّلهم قليلاً ﴾ [المزمل : 11] .

وقد جاء في حكاية قول المشركين الحاضرين وصفُهم أنفسَهم بأنهم مُهتدون بآثار آبائهم ، وجاء في حكاية أقوال السابقين وصفهم أنفسَهم بأنهم بآبائهم مُقتدون ، لأن أقوال السابقين كثيرة مختلفة يجمع مختلفها أنها اقتداء بآبائهم ، فحكاية أقوالهم من قبيل حكاية القول بالمعنى ، وحكاية القول بالمعنى طريقة في حكاية الأقوال كثر ورودها في القرآن وكلام العرب .

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24)

قرأ الجمهور ﴿ قُلْ ﴾ بصيغة فعل الأمر لمفرد فيكون أمراً للرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يَقوله جواباً عن قول المشركين ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف : 22] .

وقرأ ابن عامر وحفص ﴿ قال ﴾ بصيغة فعل المضي المسند إلى المفرد الغائب فيكون

الضمير عائداً إلى نذير الذين قالوا ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : 23] .

(202/690)

فحصل من القراءتين أن جميع الرّسل أجابوا أقوامهم بهذا الجواب ، وعلى كلتا القراءتين جاء فعل ﴿ قل ﴾ أو ﴿ قال ﴾ مفصولاً غير معطوف لأنه واقع في مجال المحاورة كما تقدم غير مرة ، منها قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) .

وقرأ الجمهور جئتكم ﴾ بضمير تاء المتكلم .

وقرأ أبو جعفر ﴿ جئنَاكم ﴾ بنون ضمير المتكلم المشارك وأبو جعفر من الذين قرأُوا ﴿ قل ﴾ بصيغة الأمر فيكون ضمير ﴿ جئنَاكم ﴾ عائداً للنبيء صلى الله عليه وسلم المخاطب بفعل ﴿ قُل ﴾ لتعظيمه صلى الله عليه وسلم من جانب ربّه تعالى الذي خاطبه بقوله : ﴿ قل ﴾ .

والواو في قوله : ﴿ أولو ﴾ عاطفة الكلام المأمور به على كلامهم ، وهذا العطف مما يسمى عطف التلقين ، ومنه قوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ [البقرة : 124] .

والهمزة للاستفهام التقريري المشوبِ بالإنكار .

وقدمت على الواو لأجل التصدير .

و﴿ لو ﴾ وصلية ، و ﴿ لو ﴾ الوصلية تقتضي المبالغة بنهاية مدلول شرطها كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولو افتدى به ﴾ في آل عمران (91) ، أي لو جئتكم بأهدى من دين آبائكم تبقون على دين آبائكم وتتركون ما هو أهدى .

والمقصود من الاستفهام تقريرهم على ذلك لاستدعائهم إلى النظر فيما اتبعوا فيه آباءهم لعل ما دعاهم إليه الرّسول أهدى منهم .

وصوغ اسم التفضيل من الهَدي إرخاء للعنان لهم ليتدبروا ، نُزّل ما كان عليهم آباؤهم منزلة ما فيه شيء من الهُدى استنزالاً لطائر المخاطبين ليتصدّوا للنظر كقوله : ﴿ وإنّا أو إيّاكم لعلى هُدىً أو في ضلال مبينٍ ﴾ [سبأ : 24] .

﴿ ءَابَآءَكُمْ قالوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ .

(203/690)

بدل من جملة ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : 23] ، لأن ذلك يشتمل على معنى : لا نتبعكم ونترك ما وجدنا عليه آباءنا ، وضمير ﴿ قالوا

﴿ راجع إلى ﴿ مترفوها ﴾ [الزخرف : 23] لأن موقع جملة ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ [الزخرف : 25] يعين أن هؤلاء القائلين وقع الانتقام منهم فلا يكون منهم المشركون الذين وقع تهديدهم بأولئك .

وقولهم : (ما أرسلتم به) يجوز أن يكون حكاية لقولهم ، فإطلاقهم اسم الإرسال على دعوة رُسلهم تهكم مثل قوله : ﴿ ما لهذا الرّسول يأكل الطعام ﴾ [الفرقان : 7] ويجوز أن يكون حكاية بالمعنى وإنما قالوا إنّا بما زعمتم أنكم مرسلون به ، وما أرسلوا به توحيد الإله .

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)

تفريع على جملة ﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ [الزخرف : 24] ، أي انتقمنا منهم عقب تصريحهم بتكذيب الرّسل .

وهذا تهديد بالانتقام من الذين شابهوهم في مقالهم ، وهم كفار قريش .

والانتقام افتعال من النَّقْم وهو المكافأة بالسوء ، وصيغة الافتعال لمجرد المبالغة ، يقال : نَقَمَ كعلم وضَرَب ، إذا كافأ على السوء بسوء ، وفي المثل : هو كالأرقم إن يُتْرَكْ يَلْقَم وإن يُقْتَل يَنقَم .

الأرقم : ضرب من الحيات يعتقد العرب أنه من الجن فإنْ تركه المرء يتسور عليه فيلسعه ويقتله وإن قتله المرء انتقم بتأثيره فأمَات قاتله وهذا من أوهام العرب .

والمراد بالانتقام استئصالهم وانقراضهم .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليمّ ﴾ في سورة الأعراف (136) .

ولذلك فالنظر في قوله : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ نظر التفكر والتأمل فيما قصّ الله على رسوله من أخبارهم كقوله تعالى : ﴿ قال سننظر أصدقتَ أم كنت من الكاذبين ﴾ في سورة النمل (27) ، وليس نَظَرَ البصر إذ لم ير النبي حالة الانتقام فيهم .

(204/690)

ويجوز أن يكون الخطاب لغير معيَّن ، أي لكل من يتأتى منه التأمل .

و ﴿ كيف ﴾ استفهام عن الحالة وهو قد علَّق فعل النظر عن مفعوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(205/690)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾

كلامهم هذا حق لأن كفرهم بمشيئة الله الكونية وقد صرح الله بأنهم كاذبون حيث قال:

﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ .

وقد قدمنا الجواب واضحا في سورة الأنعام في الكلام على قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 259 ﴾

(206/690)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) ﴾

أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت بمكة سورة ﴿ حم ﴾ الزخرف .

أما قوله تعالى : ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ .

أخرج ابن مردويه ، عن طاوس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى ابن عباس من حضرموت ، فقال له : يا ابن عباس ، اخبرني عن القرآن أكلام من كلام الله أم خلق من خلق الله ؟ قال : بل كلام من كلام الله . أو ما سمعت الله يقول : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ [التوبة : 6] فقال له الرجل : أفرأيت قوله ؟ : ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ قال : كتبه الله في اللوح المحفوظ بالعربية . أما سمعت الله يقول ؟ : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ [البروج : 22] : المجيد هو العزيز ، أي كتبه الله في اللوح المحفوظ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مقاتل بن حيان رضي الله عنه ، قال : كلام أهل السماء العربية . ثم قرأ ﴿ حموالكتاب المبين ﴾ ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ الآيتين .

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن أول ما خلق الله من شيء القلم ، فأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، والكتاب عنده ، ثم قرأ ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإنه في أم الكتاب ﴾ قال : في أصل الكتاب وجملته .

وأخرج ابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وإنه في أم الكتاب ﴾ قال : القرآن عند الله ﴿ في أم الكتاب ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا ﴾ قال : الذكر الحكيم ، فيه كل شيء كان ، وكل شيء يكون ، وما نزل من كتاب ، فمنه .

(207/690)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة ، عن ابن سابط رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإنه في أم الكتاب ﴾ ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وكل ثلاثة من الملائكة يحفظون ، فوكل جبريل عليه السلام بالوحي ، ينزل به إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وبالهلاك إذا أراد أن يهلك قوماً كان صاحب ذلك ، ووكل أيضاً بالنصر في الحروب إذا أراد الله أن ينصر ، ووكل ميكائيل عليه السلام بالقطر أن يحفظه ، ووكل ملك الموت عليه السلام بقبض الأنفس ، فإذا ذهبت الدنيا جمع بين حفظهم وحفظ أهل الكتاب فوجده سواء .

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر

صفحاً ﴾ قال : أحسبتم أن نصفح عنكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ؟

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ قال : تكذبون بالقرآن ثم لا تعاقبون عليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن أبي صالح رضي الله عنه ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ قال : والله لو أن هذا القرآن رفع حيث رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله تعالى عاد عليهم بعائدته ورحمته ، فكرره عليهم ودعاهم إليه .

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة ، عن الحسن رضي الله عنه قال : لم يبعث الله رسولاً إلا أن أنزل عليه كتاباً ، فإن قبله قومه ، وإلا رُفِعَ ، فذلك قوله : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إن كنتم قوماً مسرفين ﴾ لا تقبلونه ، فيلقنه قلب نبيه . قالوا : قبلناه ربنا قبلناه ربنا ولو لم يفعلوا ، لَرُفِعَ ولم يترك منه شيء على ظهر الأرض .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ومضى مثل الأوّلين ﴾ قال : عقوبة الأولين .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ صفحاً أن كنتم ﴾ بنصب الألف ﴿ جعل لكم الأرض مهداً ﴾ بنصب الميم بغير ألف .

وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ﴾ أن تقولوا : الحمد لله الذي منّ علينا بمحمد عبده ورسوله ، ثم تقولوا : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إذا سافر ركب راحلته ثم "كبر ثلاثاً ثم قال : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ ".

وأخرج الطيالسي وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وصححه وابن جرير والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن علي رضي الله عنه أنه أتى بدابة ، فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله ثلاثاً والله أكبر ثلاثاً ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم

ضحك فقلت : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كما فعلت ، ثم ضحك فقلت يا رسول الله : مم ضحكت ؟ فقال : " يعجب الرب من عبده إذا قال : رب اغفر لي ، ويقول : علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري " .

(209/690)

وأخرج أحمد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أردفه على دابته ، فلما استوى عليها "كبر ثلاثاً وهلل الله وحده ثم ضحك ثم قال : ما من امرىء مسلم يركب دابته ، فيصنع ما صنعت ، إلا أقبل الله يضحك إليه ، كما ضحكت إليك " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه ، عن محمد بن حمزة بن عمر الأسلمي ، عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فوق ظهر كل بعير شيطان ، فإذا ركبتموه فاذكروا اسم الله ، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم " .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " على ذروة كل بعير شيطان ، فامتهنوهن بالركوب ، فإنما يحمل الله " .

وأخرج ابن سعد وأحمد والبغوي والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه ، عن أبي لاس الخزاعي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من بعير إلا في ذروته شيطان ، فاذكروا اسم الله عليه إذا ركبتموه كما أمركم ، ثم امتهنوها لأنفسكم ، فإنما يحمل الله " .

وأخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب رضي الله عنه في قوله ﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ﴾ قال : نعمة الإِسلام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن أبي مجلز رضي الله عنه قال : رأى حسين بن علي رضي الله عنه رجلاً يركب دابة ، فقال ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ قال : أو بذلك أمرت ؟ قال : فكيف أقول ؟ قال : الحمد لله الذي هدانا للإِسلام ، الحمد لله الذي منَّ علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الحمد لله الذي جعلني في خير أمة أخرجت للناس ، ثم تقول : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن طاوس رضي الله عنه ، أنه كان إذ ركب دابة قال : بسم الله اللهم هذا من مَنّكَ وفضلك علينا ، فلك الحمد ربنا ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ قال : الإِبل والخيل والبغال والحمير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ قال : مطيقين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ قال : لا في الأيدي ولا في القوّة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سليمان بن يسار رضي الله عنه أن قوماً كانوا في سفر ، فكانوا إذا ركبوا قالوا : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ وكان فيهم رجل له ناقة رازم فقال : أما أنا فأنا لهذه مقرن ، فقمصت به ، فصرعته فاندقت عنقه . والله أعلم .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ﴾ قال : عدلاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿

وجعلوا له من عباده جزءاً ﴾ قال : ولداً وبنات من الملائكة . وفي قوله : ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ قال : ولداً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ قال : حزين .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ بنصب الضاد .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ قال : الجواري جعلتموهن للرحمن ولداً ﴿ فكيف تحكمون ﴾ [الصافات : 154] .

(211/690)

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ قال : هن النساء ، فرق بين زيهن وزي الرجال ، ونقصهن من الميراث ، وبالشهادة ، وأمرهن بالقعدة ، وسماهن الخوالف .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في

قوله ﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ قال : جعلوا لله البنات ﴿ وإذا بشر أحدهم ﴾ بهن ﴿ ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ حزين . وأما قوله : ﴿ وهو في الخصام غير مبين ﴾ قال : قلما تكلمت امرأة تريد أن تتكلم بحجتها ، الا تكلمت بالحجة عليها .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ ﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ مخففة الياء .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ ينشأ في الحلية ﴾ مخففة منصوبة الياء مهموزة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي العالية رضي الله عنه أنه سئل عن الذهب للنساء ، فقال لا بأس به . يقول الله ﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ .

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ قال : قد قال ذلك أناس من الناس ولا نعلمهم إلا اليهود : أن الله عز وجل صاهر الجن فخرجت من بنيه الملائكة ! ؟

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ، قال : كنت أقرأ هذا الحرف ﴿ الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ فسألت ابن عباس فقال : ﴿ عباد الرحمن ﴾ قلت : فإنها في مصحفي " عند الرحمن " قال : فامحها واكتبها ﴿ عباد الرحمن ﴾ بالألف والباء . وقال : أتاني رجل اليوم وددت أنه لم يأتني ، فقال : كيف تقرأ هذا الحرف ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ قال : إن أناساً يقرأون " الذين هم عند الرحمن " فسكت عنه ، فقلت : اذهب إلى أهلك ! .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأها " الذين هم عند الرحمن " بالنون .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر ، عن مروان " وجعلوا الملائكة عند الرحمن إناثاً " ليس فيه ﴿ الذين هم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ عباد الرحمن ﴾ بالألف والباء ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ بنصبهم الألف والشين ﴿ ستكتب ﴾ بالتاء ورفع التاء .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ قال : يعنون

الأوثان لأنهم عبدوا الأوثان يقول الله : ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ يعني الأوثان أنهم لا يعلمون ﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ قال : يعلمون قدرة الله على ذلك .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ قال : عبدوا الملائكة .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾ قال : قبل هذا الكتاب .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ قال : على دين .

(213/690)

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ قال : على ملة غير الملة التي تدعونا إليها . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت نابغة بني ذبيان وهو يعتذر إلى النعمان بن المنذر ؟ ويقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ قال : قد قال ذلك مشركو قريش : انا وجدنا آباءنا على دين وانا متبعوهم على ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ قال : بفعلهم .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم رضي الله عنه قال : الأمة في القرآن على وجوه ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ [يوسف : 45] قال : بعد حين . ﴿ ووجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ [يوسف : 23] قال : جماعة من الناس ﴿ وإنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ قال : على دين . ورفع الألف في كلها . وقرأ ﴿ قل أولو جئتكم ﴾ بغير ألف بالتاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ قال : شر والله كان عاقبتهم ، أخذهم بخسف وغرق فأهلكهم الله ثم أدخلهم النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(214/690)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة الزخرف

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز من وثق بجوده وكرمه لم يعلق بغيره صواعد هممه ولم يقف على سدة مخلوق بقدمه في ابتغاء كرمه .

اسم عزيز من عودعه خفايا لطفه لم يتذل فيي طلب شيء من غيره ، ولم يرجع إلى غيره في شره وخيره .

قوله جل ذكره : (حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) .

الحاءُ تدل على حياته والميمُ على مجده . . وهذا قَسَمٌ ؛ ومعناه : وحياتي ومجدي وهذا القرآنِ إنَّ الذي أخبرْتُ عن رحمتي بعبادي المؤمنين حقٌ وصِدْقٌ . وجعلناه قرآناً عربياً ليتيسَّرَ عليكم فَهْمُ معناه .

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا ﴾ : أي أنه مكتوب في اللَّوح المحفوظ .

﴿ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ لِعَلِيٌّ القَدْرِ ، حكيمُ الوصفِ ؛ لا تبديلَ له ولا تحويل .

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5)

أي أننا لا نفعل ذلك ؛ (فيكون معنى الاستفهام) أفنقطع عنكم خطابَنا وتعريفَنا إنْ أسرفتم في خلافكم ؟ لا . . إننا لا نرفع التكليفَ بِأَنْ خالَفْتُم ، ولا نهجركم - بِقَطْعِ الكلام عنكم - إنْ أسرفتم .

وفي هذا إشارةٌ لطيفةٌ وهو أنه لا يقطع الكلامَ - اليومَ - عَمَّنْ تمادَى في عصيانه ، وأسرف في أكثر شأنه . فأحرى أَنَّ مَنْ لم يُقَصِّرْ في إيمانه - وإنْ تَلَطَّخَ بعصيانه ، ولم يَدْخُلْ خَلَلٌ في عِرفانه - ألا يَمْنَعَ عنه لطائفَ غفرانه .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6)

ما أتاهم من رسولٍ فقابلوه بالتصديق ، بل كَذَّبَ به الأكثرون وجحدوا ، وعلى غَيِّهم أَصَرُّوا . . .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ .

أي لم يُعجِزْنا أحدٌ منهم ، ولم نغادِرْ منهم أحداً ، وانتقمنا مِنَ الذين أساؤوا .

(215/690)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9)

كانوا يُقِرُّون بأنَّ اللهَ خالقُهم ، وأنَّه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ، وإنما اجحدوا حديثَ الأنبياءِ

، وحديثَ البعثِ وجوازه .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10)

كما جَعَلَ الأرضَ قراراً لأشباحهم جَعَلَ الأشباحَ قراراً لأرواحهم ؛ فالخَلْقُ سُكَّانُ الأرضِ ، فإذا انتهت المدةُ – مدةُ كَوْنِ النفوسِ على الأرضِ – حَكَمَ اللَّهُ بخرابها . . . كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّة قضى اللَّهُ بخرابها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

يعني كما يُحْيي الأرضَ بالمطرِ يُحْيي القلوبَ بحُسن النَّظَر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ .

أي الاصنافَ من الخَلْق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ .

كذلك جَنَّسَ عليكم الأحوالَ كلها ؛ فمِنْ رغبةٍ في الخيرات إلى رهبةٍ مما توعدّكم به من العقوبات . ومن خوفٍ يحملكم على تَرْكِ الزلاَّت إلى رجاءٍ يبعثكم على فعل الطاعات طمعاً في المثوبات . . . وغير ذلك من فنون الصِّفات .

﴿ لِتَسْتَوُاْ عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ .

يعني الفُلْكَ والأنعام . .

﴿ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ .

(216/690)

مطيعين ، وكم سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر ، والدوابَّ للركوب ، وأعَظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة ، وسهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادة فَحَمَلهم عليه إلى عرَصَات الجود ، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعِقْوةِ العِزَّة . وعند ذلك مَحَطُّ الكافة ؛ إذ لم تخرق سرادفاتِ العزَّة هِمَّةُ مخلوقٍ : سواء كان مَلَكاً مُقَرَّباً أونبيّاً مُرْسَلاً أو وليًّا مُكَرَّماً ، فعند سطواتِ العِزَّة يتلاشى كلُّ مخلوقٍ ، ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16)

هم الذين قالوا : الملائكةُ بناتُ الله ؛ فجعلوا البناتِ لله جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته . . تَعَسَاً لهم في قولهم ذلك وخِزْياً ! ! فردَّ عليهم ذلك قائلاً :

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ .

قال لهم على جهة التوبيخ ، وعابهم بما قالوا ؛ إذ – على حدّ قولهم – كيف يُؤْثِرُهم بالبنين ويجعل لنفسه البنات ؟ ففي قولهم ضلالٌ ؛ إذا حكموا للقديم بالوَلَد . وفيه جهلٌ ؛ إذا حكموا له بالبنات ولهم بالبنين – وهم يستنكفون من البنات . . ثم . . أي عيب في البنات ؟ ثم . . كيف يحكمون بأن الملائكة إناثٌ – وهم لم يشاهدوا خِلْقَتَهم ؟ كلُّ ذلك كان منهم خطأً محظوراً .

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)

إنما قالوا ذلك استهزاءً واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً فقال تعالى : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولاً .

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21)

(217/690)

أي ليس كذلك ، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليد لا يُفْضي إلى العلم ، فقال :

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

فنحن نقتدي بهم ، ثم قال :

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى

أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

سلكوا طريقَ هؤلاء في التقليد لأسلافهم ، والاستنامةِ إلا ما اعتادوه من السّيرة والعادة .

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24)

فلم ينجعْ فيهم قولُه ، ولم ينفعهم وَعْظُه ، وأَصرُّوا عَلَى تكذيبِهم ، فانتقمَ الحقُّ – سبحانه – منهم كما فعل بالذين من قبلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 361 . 365 ﴾

(218/690)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى :

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) ﴾

التفسير : أقسم بجنس الكتاب أو بالقرآن الظاهر الإعجاز أو المفصح عن كل حكم يحتاج المكلف إليه أنه جعل القرآن بلغة العرب ليعقلوه . وفي نسبة الجعل إلى نفسه إشارة إلى أنه ليس بمفترى كما زعمه الكفرة . وقيل : أراد ورب الكتاب وقيل : الكتاب اللوح المحفوظ . وقال ابن بحر : هو الخط أقسم به تعظيماً لنعمته فيه ، وقال ابن عيسى : البيان ما يظهر به المعنى للنفس عند الإدراك بالبصر والسمع وذلك على خمسة أوجه : لفظ وخط وإشارة

وعقد وهيئة ، كالأعراض وتكليح الوجه . وأم الكتاب بكسر الهمزة وبضمها اللوح المحفوظ لأنه أصل كل كتاب والتقدير : وإنه لعلي حكيم في أم الكتاب لدينا . والعلو علو الشأن في البلاغة والإرشاد وغير ذلك والحكيم المشتمل على الحكمة . ثم أنكر على مشركي قريش بقوله ﴿ أفنضرب ﴾ قال جار الله : أراد أنهملكم فنضرب ﴿ عنكم الذكر ﴾ يقال : ضرب عنه الذكر إذا أمسك عنه وأعرض عن ذكره من ضرب في الأرض .

(219/690)

إذا أبعد و ﴿ صفحاً ﴾ مصدر من غير لفظ الفعل والأصل فيه أن تولي الشيء صفحة عنقك ، وجوز جار الله أن يكون بمعنى جانباً من قولهم : " نظر إليه بصفح وجهه " فينتصب على الظرف ويكون الذكر بمعنى الوعظ والقرآن والفحوى أفننحيه عنكم . وقيل : ضرب الذكر رفع القرآن عن الأرض أي أفنرفع القرآن عن الأرض أي أفنرفع القرآن من بين أظهركم إشراككم مع علمنا بأنه سيأتي من يقبله ويعمل به . قال السدي : أفنترككم سدى لا نأمركم ولا ننهاكم وهو قريب من الأول . وقيل : الذكر هو أن يذكروا بالعقاب ولا يخلوا من مناسبة لقوله ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ ومن قرأ ﴿ إن كنتم ﴾ بالكسر

فكقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفني حقي . يخيل في كلامه أن تفريطه في الخروج عن عهدة الأجر فعل من يشذ في الاستحقاق مع تحققه في الخارج . ثم سلى نبيه بقوله ﴿ وكم أرسلنا ﴾ الآيتين . قوله ﴿ أشد منهم ﴾ قيل : " من " زائدة والمراد أشدهم ﴿ بطشاً ﴾ كعاد وثمود وقيل : الضمير لقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصله أشد منكم إلا أنه ورد على طريقة الالتفات كقوله ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ [يونس : 22] قوله ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أي سلف ذكرهم وقصتهم العجيبة في القرآن غير مرة ويحتمل أن يكون معناه كقوله ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ [الحجر : 13] ثم بين بقوله ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أن كفرهم كفر عناد ولجاج لأنهم يعرفون الله ثم ينكرون رسوله وكتابه وقدرته على البعث . وهذه الأوصاف من كلام الله لا من قول الكفار بدليل قوله ﴿ لكم ﴾ ولم يقل " لنا " ولقوله ﴿ فأنشرنا ﴾ والمراد لينسبن خلقها إلى الذي هذه أوصافه وقد مر في " طه " مثله . وقوله ﴿ تهتدون ﴾ أي في الأسفار أو إلى الإيمان بالنظر والاعتبار . وقوله ﴿ بقدر ﴾ أي بمقدار الحاجة لا مخرباً مغرقاً كما في الطوفان . وقوله ﴿ ميتاً ﴾ تذكيره بتأويل المكان . والأزواج الأصناف وقد مر في قوله ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج ﴾ [يس : 36] والعائد إلى

ما في قوله ﴿ ما تركبون ﴾ محذوف فلك أن تقدره مؤنثاً أو مذكراً باعتبارين . قال في الكشاف : يقال : ركبت الأنعام وركبت في الفلك إلا أنه غلب المتعدي بغير واسطة على المتعدي بواسطة . قلت : يجوز أن يكون كقوله " ويوم شهدناه " والضمير في ظهوره عائد إلى ما . والاستواء في الآية بمعنى التمكن والاستقرار وذكر النعمة بالقلب ويحتمل كونه باللسان وهو تقديم الحمد لله . يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله في الركاب قال : الحمد لله على كل حال ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا ﴾ إلى قوله ﴿ لمنقلبون ﴾ وكبر ثلاثاً وهلل ثلاثاً . وإذا ركب في السفينة قال ﴿ بسم الله مجريها ومرساها أن ربي لغفور رحيم ﴾ [هود : 41] ومعنى ﴿ مقرنين ﴾ مطيقين أو ضابطين مع صعوبة خلقه وخلقه .

وقيل : لا يطيق أن يقرن بعضها ببعض حتى يسيرها إلى حيث يريد ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أي في آخر عمرنا كأنه يتذكر ركوب الجنازة أو عثور الدابة أو انكسار السفينة فليستعد للقاء الله عز وجل بخلاف من يركب الخيول والزوارق لأجل التنزه والاشتغال بالملاهي والمناهي فيكون غافلاً عن المبدأ والمعاد . عن بعضهم أنه أدخل في البحر ههنا خلاف ما في " الشعراء " لأن ركوب الدابة أو السفينة أو الجنازة عام لكل أحد . وما في " الشعراء " خاص بالسحرة .

ثم عاد إلى ما انجر الكلام منه وهو قوله ﴿ ولئن سألتهم ﴾ والمقصود التنبيه على سخافة عقولهم وقلة محصولهم فإنهم مع الإقرار بأن خالق السموات والأرض هو الله جعلوا له من عباده جزءاً أي أثبتوا له ولداً ، وذلك أن ولد الرجل جزء منه . قال صلى الله عليه وسل : " فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها " وفي قوله ﴿ من عباده ﴾ إشارة إلى أن ما عداه ممكن الوجود فإن الولد متأخر في الوجود عن الأب والمتأخر عن الواجب ممكن ، والممكن مفتقر إلى الواجب في الوجود والبقاء والذات والصفات . وقيل : هو إنكار على مثبتي الشركاء لأنهم جعلوا بعض العبادة لغير الله ، وفيه نوع تكلف . والكفور البليغ الكفران لأنه يجحد ربه وخالقه ولا يجتهد في تنزيهه وتقديسه . وحين وبخهم على إثبات الولد زاد في توبيخهم وتجهيلهم والتعجيب من حالهم حيث جعلوا ذلك الولد بنتاً مع أنها مكروهة عندهم فقال ﴿ أم اتخذ مما يخلق ﴾ وفائدة تنكير ﴿ بنات ﴾ وتعريف البنين كما مر في آخر السورة المتقدمة في تنكير ﴿ إناثاً ﴾ وتعريف ﴿ الذكور ﴾ [الشورى : 49] وقوله ﴿ بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ أي بالجنس الذي جعله شبهاً لله لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد ، والمراد أنه إذا بشر بالأنثى كما سبق في " النحل " اغتم ويسود وجهه وملىء غيظاً

وكرباً . ثم زاد في الإنكار بتعديد طرف من نقصان الإناث قائلاً ﴿ أو من ينشأ ﴾ والتقدير أهو كضده . قال جار الله : تقديره أو يجعل للرحمن من الولد من له هذه الصفة الدنيئة الذميمة وهي أنه يربى أو يتربى في الزينة والنعومة ، وهو إذا احتاج إلى المخاصمة لا يبين ولا يعرب عما في ضميره لعجزه عن البيان ولقلة عقله . قالت العقلاء : قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تعرب عن حجتها إلا نطقت بما هو حجة عليها . وفيه أن النشء في الزينة والإمعان في التنعم من خصائص ربات الحجال لا من خواص الرجال . وإنما ينبغي أن يكون تلبسهم بلباس التقوى وتزينهم باستعداد الزاد للدار الأخرى . ثم

(222/690)

خصص أن البنات التي نسبن إليه تعالى من أي جنس من بعد ما عمم في قوله ﴿ مما يخلق ﴾ فقال ﴿ وجعلوا ﴾ أي سموا ﴿ الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ وفي إثبات العبودية لهم نفي الجزئية عنهم كما مر آنفاً .

(223/690)

وقوله ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ كقوله ﴿ ما أشهدتم خلق السموات والأرض ﴾ [الكهف : 51] وفيه تهكم بهم لأنه لم يدل على ذلك عقل ولا نقل صحيح فلم يبق إلا الإخبار عن المشاهدة يعني مشاهدتهم خلق الله إياهم أو مشاهدة صور الملائكة . ثم أوعدهم بقوله ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ على أنوثية الملائكة ﴿ ويسئلون ﴾ ثم حكى نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم وهو أنهم ﴿ قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ أي الملائكة والأصنام نظير ما مر في آخر الأنعام ﴿ سيقول الذين أشركوا ﴾ [الآية : 148] واستدلال المعتزلة به ظاهر لأنه ذمهم بقوله ﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ أجاب الزجاج عنه بأن قوله ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ عائد إلى قولهم الملائكة بنات الله ، والمراد لو شاء الرحمن ما أمرنا بعبادتهم كقولهم ﴿ والله أمرنا بهم ﴾ [الأعراف : 28] فلهذا أنكر الله عليهم قاله الواحدي في بسيطه . وقيل : قالوها استهزاء ، وزيفه جار الله بأنه لا يتمشى في أقوالهم المتقدمة وإلا كانوا صادقين مؤمنين . وجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء دون ما قبله تعويج لكتاب الله . وتمام البحث بين الفريقين مذكور في " الأنعام " وإنما قال في الجاثية ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ لأن هذا كذب محض وهناك خلطوا الصدق بالكذب ، صدقوا في قولهم ﴿ نموت ونحيى ﴾ وكذبوا في قولهم ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] وكانوا شاكين في أمر البعث ، ثم زاد في الإنكار عليهم بقوله ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾ أي من قبل القرآن أو الرسول ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ ثم

أضرب عن ذلك وأخبر أنه لا مستند لهم في عقائدهم وأقوالهم الفاسدة الا التقليد . والأمة الدين والطريقة التي تؤم أي تقصد . ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن هذا دأب أسلافهم وداء قديم في جهال بني آدم . وإنما قال أولاً ﴿ مهتدون ﴾ وبعده ﴿ مقتدون ﴾ لأن العرب كانوا يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزعمون الاهتداء ، ولعل الأمم قبلهم لم

(224/690)

يزعموا إلا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء . ثم أخبر أن النذير ﴿ قال ﴾ أو أمر النذير أو محمداً أن يقول ﴿ أو لو جئتكم ﴾ أي أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم فاصروا على التكذيب ولم يقبلوا فانتقم الله منهم .

ثم بين بقصة إبراهيم عليه السلام أن القول بالتقليد يوجب المنع من التقليد ، وذلك أن إبراهيم عليه السلام كان أشرف آباء العرب وأنه ترك دين الآباء لأجل الدليل ، فلو كانوا مقلدين لآبائهم وجب أن يتبعوه في الاعتماد على الدليل لا على مجرد التقليد . والبراء بالفتح مصدر أي ذو براء . وقوله ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ قيل : متصل ، وكان فيهم من يعبد الله مع الأصنام . وقيل : منقطع بمعنى لكن ، ويحتمل أن يكون مجروراً بدلاً من ما أي إلا من

الذي وجوز في الكشاف أن تكون " إلا " صفة بمعنى غير و " ما " موصوفة تقديره إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني ﴿ فإنه سيهدين ﴾ أي يثبتني على الهداية أو يرشدني إلى طريق الجنة ، ولا ريب أن قوله ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ بمنزلة لا إله وقوله ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ بمثابة " إلا الله " وهي كلمة التوحيد فلذلك أنّث الضمير في قوله ﴿ وجعلها ﴾ أي وجعل إبراهيم أو الله ﴿ كلمة ﴾ التوحيد ﴿ باقية في عقبه ﴾ فلا يزال في ذريته من يوحد الله عز وجل ويدعو إلى توحيده نظيره

(225/690)

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ [البقرة : 132] ﴿ لعلهم ﴾ أي لعل من أشرك منهم يرجع إلى التوحيد أو عن الشرك بدعاء الموحدين منهم . ثم أضرب عن رجاء الرجوع منهم إلى أن تمتيعهم بالعمر وسعة الرزق صار سبباً لعظم كفرهم وشدة عنادهم . قال جار الله : أراد بل اشتغلوا عن التوحيد ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ وهو القرآن ﴿ ورسول مبين ﴾ الرسالة واضحها فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها من غفلتهم لاقتضائها التنبيه . ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق قائلاً ﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ جاؤا بما هو شر من غفلتهم

وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ومكابرة الرسول وإنكار القرآن والله أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 85.89 ﴾

(226/690)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الأمة)

الأُمَّة لغة : الرّجُل الجامع للخير ، والإِمام ، وجماعةٌ أُرسل إليهم رَسُول ، والجيل من كل حىّ ، والجنس ، ومَن هو على الحقّ ، ومُخالف لسائر الأَديان ، والحِين ، والقامة ، والأُمُّ ، والوجه والنشاط ، والطَّاعة ، والعالِم ، ومن الوجه : مُعظمُه ، ومن الرجل قومه .

وأَمَّه الله تعالى : خَلْقه .

وقد ورد فى نصّ القرآن على عشرة أَوجه .

الأَوّل : بمعنى الصَّف المصفوف ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أَى صفوف .

الثانى : بمعنى السّنين الخالية : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أَى بعد سنين .

الثالث : بمعنى الرّجل الجامع للخير : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ .

الرابع : بمعنى الدّين ، والمِلَّة : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ .

الخامس : بمعنى الأُمَم السّالفة ، والقرون الماضية : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ .

السّادس : بمعنى القوم بلا عدد ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ .

السابع : بمعنى القوم المعدود : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ﴾ أَى أَربعين رجلاً .

الثامن : بمعنى الزَّمان الطَّويل : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ .

التاسع : بمعنى الكُفَّار خاصّة : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ ﴾ .

(227/690)

العاشر : بمعنى أَهل الإِسلام : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أَى صِنفاً واحداً ، وعلى طريقة واحدة فى الضَّلال والكفر ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أَى فى الإِيمان ، ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

الْخَيْرِ ﴾ أَى جماعة يتَخَيَّرُون العلم ، والعمل الصَّالح ، أَى يكونون أُسْوة لغيرهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 79 . 80 ﴾

(228/690)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والتسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/691)

الجزء الحادى والتسعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 26 ﴾ من سورة الزخرف

وحتى الآية ﴿ 45 ﴾ من نفس السورة

(4/691)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر لهم الأدلة وحذرهم بالأخذ وتحرر أنهم مع التقليد لا ينفكون عنه ، ذكرهم بأعظهم آبائهم ومحط فخرهم وأحقهم بالاتباع للفوز بأتباع الأب في ترك التقليد أو في تقليده إن كان لا بد لهم من التقليد لكونه أعظم الآباء ولكونه مع الدليل ، فقال عاطفاً على ما تقديره للإرشارة إلى تأمله وإمعان النظر فيه : اذكر لهم ذلك : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكر لهم حين ﴿ قال ﴾ أعظم آبائهم ومحط فخرهم والمجمع على محبته وحقية دينه منهم ومن أهل الكتاب وغيرهم ﴿ إبراهيم لأبيه ﴾ من غير أن يقلده كما أنتم قلدتم آبائكم ، ولما كانت مخالفة الواحد للجمع شديدة ، ذكر لهم حاله فيها بياناً لأنهم أحق منهم بالانفكاك عن التقليد ﴿ وقومه ﴾ الذين كانوا هم القوم في الحقيقة لاحتوائهم على ملك جميع الأرض كما قلت : إنا لكم سواء ولما كانوا لا يتخيلون أصلاً أن أحداً يكون مخالفاً لهم ، أكد بالحرف وإظهار نون الوقاية فقال : ﴿ إنني ﴾ وزاد بالنعت بالمصدر الذي يستوي فيه الواحد وغيره والمذكر وغيره لكونه مصدراً وإن وقع موقع الصفة باللفظ الدال على أنه مجسد من البراءة جعله على صورة المزيد لزيادة التأكيد فقال : ﴿ براء ﴾ ومن ضمه جعله وصفاً محضاً مثل طوال في طويل ﴿ مما تعبدون ﴾ في الحال والاستقبال مهما كان غير من اشتبه ، فإنهم كانوا مشركين فلا بد من الاستثناء ومن كونه متصلاً ، قال الإمام أبو علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني في كتاب بيان نظم القرآن ما حاصله : سر قول السلف أن الكلمة

هنا أي الآية في قوله كلمة باقية ﴿ لا إله إلا الله ﴾ أن النفي والتبرئة واحد فإنني براء بمنزلة لا ، وقوله ﴿ مما تعبدون ﴾ بمنزلة إله إذا كل معبود يسمى إلهاً فآل ذلك إلى : لا إله ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ قال : فقد ضممت بهذا التأويل إلى فهمك الأول الذي استفدته من الخبر فهم المعرفة الحقيقية الذي أفاد له طباعك بالعبرة ، ونبه بالوصف بالفطر على دليل اعتقاده أي الذي شق العدم فأخرجني منه ثم شق هذه المشاعر

(5/691)

والمدرك ، ومن كان بهذه القدرة الباهرة كان منفرداً بالعظمة .

ولما كان الله سبحانه – وله المنّ – قد أنعم بعد الإيجاد بما أشار إليه من العقل والحواس المهيئ ، للهداية من غير طلب ، فكان جديراً بأن يمنح قاصده بأعظم هداية قال مسبباً عن قطعه العلائق من سواه ، مؤكداً لأجل من ينكر وصوله إلى حد عمي عنه أسلافه ﴿ فإنه سيهدين ﴾ أي هداية هي الهداية إلى ما لاح لي من الحقائق من كل ما يصلحني لتوجهي إليه وتوكلي عليه ، لا مرية عندي في هذا الاعتقاد ، وقد أفاد بهذه المقترنة بالسين هدايته في الاستقبال بعد أن أفاد بقوله المحكي في الشعراء ﴿ فهو يهدين ﴾ الهداية في الحال وكأنه خص هذا بالسين لأجل ما عقبها به من عقبه ، فجعل هدايتهم هدايته ﴿ وجعلها ﴾ أي

جعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذه الكلمة التي هي التوحيد بدليله ﴿كلمة باقية في عقبه﴾ أي ذريته دعا وهو مجاب الدعوة في قوله : ﴿وأجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ وفي قوله ﴿ومن ذريتي ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ : ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي ليكون حالهم حال من ينظر إليهم إن حصل منهم مخالفة واعوجاج حال من يرجى رجوعه ، فإنهم إذا ذكروا أن أباهم الأعظم الذي بنى لهم البيت وأورثهم الفخر قال ذلك تابعوه ، ويجوز أن يتعلق بما يتعلق به " إذ " أي اذكر لهم قول أبيهم ليكون حالهم عند من يجهل العواقب حال من يرجى رجوعه عن تقليد الجهلة من الآباء إلى اتباع هذا الأب الذي اتباعه لا يعد تقليداً لما على قوله من الأدلة التي تفوت الحصر فتضمن لمتبعها حتماً تمام النصر ، وفي سوقه المترجي إشارة إلى أنهم يكونون صنفين : صنفاً يرجع وآخر لا يرجع .

(6/691)

ولما كان من المعلوم أن السامع يقول لمن أحاط علمه بهم ويعلم سرهم وعلنهم : يا رب ! بل رجعوا ، أجيب بقوله : ﴿بل﴾ أي لم يرجعوا بل استمروا لأجل إظهاري لقدرتي على القلوب بإقحام أربابها برضاهم واختيارهم في أقبح الخطوب وأفحش الذنوب على ترك

الطريق المنيع والصراط الأقوم وزاغوا عنه زيغاً عظيماً ، واستمروا في ضلالهم وتيههم ولم أعاجلهم بالعقوبة لأني ﴿ متعت ﴾ بإفراده ضميرهم سبحانه لأن التمتيع يتضمن إطالة العمر التي لا يقدر عليها ظاهراً ولا باطناً سواه وأما الانتقام فقد يجعله بأيدي عباده من الملائكة وغيرهم فهو من وادي ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ [القلم : 45] ﴿ هؤلاء ﴾ أي الذين بحضرتك من المشركين وأعداء الدين ﴿ وآباءهم ﴾ فمددت من الأعمار مع سلامة الأبدان ومتانة الأركان ، وإسباغ النعم والإعفاء من البلايا والنقم ، فأبطرتهم نعمي وأزهدتهم أيادي جودي وكرمي ، وتمادى بهم ركوب ذلك الباطل ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ بهذا الدين المتين ﴿ ورسول مبين ﴾ أي أمره ظاهر في نفسه ، لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهية تنبئك بالخبر وهو مع ظهوره في نفسه مظهر لكل معنىً يحتاج إليه ، و ﴿ متعت ﴾ بالخطاب من لسان الرسول المنزل عليه هذا الكتاب لأنه يدعو انتهازاً للفرصة لعله يجاب بما يزيل الغصة يقول : يا رب ! قد أقمتهم لمن يجهل العواقب في مقام من يرجى رجوعه فما قضيت بذلك بل متعت إلى آخره .

(7/691)

ولما كان التقدير : فلم يردهم التمتيع بإدرار النعم عليهم وإسراعنا بها إليهم مع وضوح الأمر لهم ، بل كان الإنعام عليهم سبباً لبطرهم ، وكان البطر سبباً لتماديهم على الاستعانة بنعمتنا على عصيان أمرنا وهم يدعون أنهم أتبع الناس للحق وأكفهم عن الباطل ، عطف عليه قوله : ﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ أي الكامل في حقيته بمطابقة الواقع إياه من غير إلباس ولا اشتباه ، الظاهر في كماله لكل من له أدنى لب بما عليه القرآن من الإعجاز في نظمه ، وما عليه ما يدعو إليه من الحكمة من جميع حكمه ، والتصادق مع ما يعلمونه من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام قبل أن يبدلوه ومن أمر موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام من التوحيد ، زادوا على تلك الغفلة التي أدى إليها البطر بالنعمة ما هو شر من ذلك وهو التكذيب بأن ﴿ قالوا ﴾ مكابرة وعناداً وحسناً وبغياً من غير وقفة ولا تأمل :

﴿ هذا ﴾ مشيرين إلى الحق الذي يطابقه الواقع ، فلا شيء أثبت منه وهو القرآن وغيره مما أتى به من دلائل العرفان ﴿ سحر ﴾ أي خيال لا حقيقة له ، ولما كان الحال مقتضياً من غير شك ولا وقفة لمعرفتهم لما جاء به وإذعانهم له قالوا مؤكدين لمدافعه ما ثبت في النفوس من ذلك : ﴿ وإنا به كافرون ﴾ أي عريقون في ستره بخصوصه حتى لا يعرفه أحد ولا يكون له تابع .

ولما أخبر عن طعنهم في القرآن أتبعه الإخبار عن طعنهم فيمن جاء به تغطية لأمره عملاً بأخبارهم في ختام ما قبلها عن أنفسهم بالكفر زيادة وإمعاناً فيما كانت النعم أدتهم إليه من

البطر فقال : ﴿ وقالوا ﴾ لما قهرهم ما ذكروا به مما يعرفونه من أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام من النبوة والرسالة ، وكذا من بعده من أولاده فلم يتهيأ لهم الإصرار على العناد بإنكار أن يكون النبي من البشر قول من له أمر عظيم في التصرف في الكون والتحكم على الملك الذي لا يسأل عما يفعل ، فأنكروا التخصيص بما أتوا به من التخصيص في قولهم : ﴿ لولا ﴾ أي هل لا ولولا .

(8/691)

ولما كان إنزال القرآن نجوماً على حسب التدريج ، عبروا بما يوافق ذلك فقالوا : ﴿ نزل ﴾ أي من المنزل الذي ذكره محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعينوا مرادهم ونفوا اللبس فقالوا بقسر وغلظة كلمة على من يطلبهم لإصلاح حالهم ﴿ هذا القرآن ﴾ أي الذي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وادعى أنه جامع لكل خير ، ففيه إشارة إلى التحقير ﴿ على رجل من القريتين ﴾ أي مكة والطائف ، ولم يقل : إحدى – اغتناء عنها بوحدة رجل ﴿ عظيم ﴾ أي بما به عندهم من العظمة والجاه والمال والسن ونحو ذلك وهم عالمون أن شأن الملك إنما هو إرسال من يرتضونه لا من يقترحه الرعية ، ويعلمون أن للملك المرسل له ـ صلى الله عليه وسلم ـ الغني المطلق لكنهم جهلوا – مع أنه هو الذي أفاض المال والجاه – أنه

ندب إلى الزهد فيهما والتخلي عنهما ، وأنه لا يقرب إليه إلا إخلاص الإقبال عليه الناشئ عن طهارة الروح وذكاء الأخلاق وكمال الشمائل والتحلي بسائر الفضائل والتخلي عن جميع الرذائل ، فقد جعلوا لإفراطهم في الجهل الحالة البهيمية شرطاً للوصول إلى الحالة الملكية المضادة لها بكل اعتبار .

(9/691)

ولما تضمن قولهم إثبات عظمة لأنفسهم بالاعتراض على الملك ، قال منكراً عليهم موبخاً لهم بما معناه أنه ليس الأمر مردوداً إليهم ولا موقوفاً عليهم بل هو إلى الله وحده ﴿ والله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : 124] ﴿ أهم ﴾ أي أهؤلاء الجهلة العجزة ﴿ يقسمون ﴾ أي على التجدد والاستمرار : ولفت القول عن إفراد الضمير إلى صفة الرحمة المضافة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تشريفاً له وإظهاراً لعلي قدره : ﴿ رحمت ربك ﴾ أي إكرام المحسن إليك وإنعامه وتشريفه بأنواع اللطف والبر وإعظامه بما رباك له من تخصيصك بالإرسال إليهم بتأهيلهم للإنقاذ من الضلال ، وجعلك وأنت أفضل العالمين الرسول إليهم ففضلوا بفضيلتك مع أنك أشرفهم نسباً وأفضلهم حسباً وأعظمهم عقلاً

وأصفاهم لباً وأرحمهم قلباً ليتصرفوا في تلك الرحمة التي هي روح الوجود وسر الأمر بحسب شهواتهم وهم لا يقدرون على التصرف في المتاع الزائل بمثل ذلك .

(10/691)

ولما نفى أن يكون لهم شيء من القسم قال جواباً لمن كأنه قال : فمن القاسم ؟ دالاً على بعدهم عن أن يكون إليهم شيء من قسم ما أعد لأديانهم بما يشاهدونه من بعدهم عن قسم ما أعد لأبدانهم ، لافتاً القوم عن صفة الإحسان إلى مظهر العظمة إشارة إلى أنها تأبى المشاركة في شيء وتقتضي التفرد : ﴿ نحن قسمنا ﴾ أي بما من العظمة ﴿ بينهم ﴾ أي في الأمر الذي يعمهم ويوجب تخصيص كل منهم بما لديهم ﴿ معيشتهم ﴾ التي يعدونه رحمة ويقصرون عليها النعمة ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ التي هي أدنى الأشياء عندنا ، وإشار إلى أنها حياة ناقصة لا يرضاها عاقل ، وأما الآخرة فعبر عنها بالحيوان لأنا لو تركنا قسمها إليهم لتعاونوا على ذلك فلم يبق منهم أحد فكيف يدخل في الوهم أن يجعل إليهم شيئاً من الكلام في أمر النبوة التي هي روح الوجود ، وبها سعادة الدارين : ﴿ ورفعنا ﴾ بما لنا من نفوذ الأمر ﴿ بعضهم ﴾ وإن كان ضعيف البدن قليل العقل ﴿ فوق بعض ﴾ وإن كان قوياً عزيز العقل ﴿ درجات ﴾ في الجاه والمال ونفوذ الأمر وعظم القدر لينتظر حال الوجود ، فإنه لا

بد في انتظامه من تشارك الموجودين وتعاونهم ، تفاوتنا بينهم في الجثث والقوى والهمم ليقتسموا الصنائع ، والمعارف والبضائع ، ويكون كل ميسر لما خلق له ، وجانحاً إلى ما هي له لتعاطيه ، فلم يقدر أحد من دنيء أو غني أن يعدو قدره وترتقي فوق منزلته .

(11/691)

ولما ذكر ذلك ، علله بما ثمرته عمارة الأرض فقال : ﴿ ليتخذ ﴾ أي بغاية جهده ﴿ بعضهم بعضاً ﴾ ولما كان المراد هنا الاستخدام دون الهزء لأنه لا يليق التعليل به ، أجمع القراء على ضم هذا الحرف هنا فقال : ﴿ سخرياً ﴾ أي أن يستعمله فيما ينوبه أو يتعسر أو يتعذر عليه مباشرته ويأخذ للآخر منه من المال ما هو مفتقر إليه ، فهذا بماله ، وهذا بأعماله ، وقد يكون الفقير أكمل من الغني ليكمل بذلك نظام العالم لأنه لو تساوت المقادير لتعطلت المعايش ، فلم يقدر أحد أن ينفك عما جعلناه إليه من هذا الأمر الدنيء فكيف يطمعون في الاعتراض في أمر النبوة ، أيتصور عاقل أن يتولى قسم الناقص ونكل العالي إلى غيرنا ، قال ابن الجوزي : فإذا كانت الأرزاق بقدر الله لا بحول المحتال وهي دون النبوة فكيف تكون النبوة – انتهى .

وهذا هو المراد بقوله تعالى صارفاً القول عن مظهر العظمة والسلطان إلى الوصف

بالإحسان إظهاراً لشرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ ورحمة ربك ﴾ أي المربي لك والمدبر لأمرك بإرسالك وإنارة الوجود برسالتك التي هي لعظمتها جديرة بأن تضاف إليه ولا يسمى غيرك رحمة ﴿ خير مما يجمعون ﴾ من الحطام الفاني فإنه وإن تأتي فيه خير باستعماله في وجوه البر بشرطه ، فهذا بالنسبة إلى النبوة ، وما قارنا مما دعا إلى الإعراض عن الدنيا متلاش . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 21 ـ 25 ﴾

(12/691)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سقفاً ﴾ بالفتح فالسكون : ابن كثير وأبو عمرو ويزيد . الباقون : بضمتين على الجمع كرهن ورهن . قال أبو عبيدة : لا ثالث لهما (لما) بالتشديد : عاصم وحمزة بمعنى إلا ف ﴿ إن ﴾ نافية . الآخرون : بالتخفيف ف " إن " مخففة واللام فارقة كما مر في آخر هود ﴿ يقيض ﴾ على الغيبة والضمير للرحمن : يعقوب وحماد . الآخرون : بالنون ﴿ جاءنا ﴾ على الوحدة والضمير للعاشي : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد ويعقوب . الباقون : بألف التثنية والضمير للعاشي والقرين ﴿ أنكم في العذاب ﴾

بالكسر : ابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان ﴿ أيه الساحر ﴾ بضم الهاء مثل ﴿ أيه المؤمنون ﴾ وقد مر في "النور" ﴿ تحتي ﴾ بفتح الياء : أبو عمرو وابن كثير ونافع وأبو جعفر ﴿ أسورة ﴾ كأجربة : حفص وسهل ويعقوب . الآخرون ﴿ أساورة ﴾ كأشاعرة وهو جمع أسوار بمعنى السوار . وأصله أساوير . إلا أنه عوض من الياء هاء في آخره ﴿ سلفاً ﴾ بضمتين : حمزة وعلي وهو جمع سليف . الباقون : بفتحتين جمع سالف كخادم وخدم .

الوقوف : ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ رحمت ربك ﴾ ط ﴿ سخرياً ﴾ ط ﴿ يجمعون ﴾ ه ﴿ يظهرون ﴾ ه لا ﴿ يتكئون ﴾ ه لا ﴿ وزخرفاً ﴾ ط ﴿ الدنيا ﴾ للمتقين ه ﴿ قرين ﴾ ه ﴿ مهتدون ﴾ ه ﴿ القرين ﴾ ه ﴿ مشتركون ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ منتقمون ﴾ ه لا ﴿ مقتدرون ﴾ ه ﴿ إليك ﴾ ط لاحتمال التعليل ﴿ مستقيم ﴾ ه ﴿ ولقومك ﴾ ج للتعليق مع سين التهديد ﴿ تسئلون ﴾ ه ﴿ يعبدون ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ يضحكون ﴾ ه ﴿ من أختها ﴾ ز لنوع عدول ﴿ يرجعون ﴾ ه ﴿ لمهتدون ﴾ ه ﴿ ينكثون ﴾ ه ﴿ تحتي ﴾ ج للاستفهام مع اتحاد الكلام ﴿ تبصرون ﴾ ه لأن "أم" منقطعة ﴿ مقترنين ﴾ ه ﴿ فأطاعوه ﴾ ط ﴿ فاسقين ﴾ ه ﴿ أجمعين ﴾ ه ﴿ للآخرين ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 90 . 91 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف ، ثم بيّن أنه طريق باطل ومنهج فاسد ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد ، أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين : الأول : أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل فنقول : إما أن يكون تقليد الآباء في الأديان محرماً أو جائزاً ، فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد ، وإن كان جائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم عليه السلام ، وذلك لأنهم ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده ، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذي هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء ، وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول إنه ترك دين الآباء ، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء ، وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد ، وإذا ثبت هذا فنقول : فقد ظهر أن القول بوجوب

التقليد يوجب المنع من التقليد ، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلاً ، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلاً ، فهذا طريق رقيق في إبطال التقليد وهو المراد بهذه الآية .

(14/691)

الوجه الثاني : في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا وفي الدين ، أنه تعالى بيّن أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل لا جرم جعل الله دينه ومذهله باقياً في عقبه إلى يوم القيامة ، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت ، فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة ، وأن التقليد والإصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه في الدنيا خير ولا أثر ، فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أولى ، فهذا بيان المقصود الأصلي من هذه الآية ، ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية .

أما قوله ﴿ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ فقال الكسائي والفرّاء والمبرد والزجاج ﴿ بَرَاء ﴾ مصدر لا يثنى ولا يجمع مثل عدل ورضا وتقول العرب أنا البراء منك والخلاء منك ونحن البراء منك والخلاء ولا يقولون البرآن ولا البراؤن لأن المعنى ذوا البراء وذوو البراء فإن قلت برىء وخلى ثنيت وجمعت .

ثم استثنى خالقه من البراءة فقال : ﴿ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ والمعنى أنا أتبرأ مما تعبدون إلا من الله عزّ وجلّ ، ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن فيكون المعنى لكن الذي فطرني فإنه سيهدين أي سيرشدني لدينه ويوفقني لطاعته .

(15/691)

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام في آية أخرى أنه قال : ﴿ الذى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] وحكى عنه ههنا أنه قال : ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ فأجمع بينهما وقدر كأنه قال : فهو يهدين وسيهدين ، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ جارياً مجرى لا إله وقوله ﴿ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ جارياً مجرى قوله إلا الله فكان مجموع قوله ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ جارياً مجرى قوله لا إله إلا الله ثم بيّن تعالى أن إبراهيم جعل هذه الكلمة باقية في عقبه أي في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ، وقيل وجعلها الله ، وقرىء كلمة على التخفيف وفي عقيبه .

(16/691)

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هؤلاء وَءَابَاءَهُمْ ﴾ يعني أهل مكة وهم عقب إبراهيم بالمد في العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿ حتى جَاءَهُمُ الحق ﴾ وهو القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ بين الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والبينات فكذبوا به وسموه ساحراً وما جاء به سحراً وكفروا به ، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا في الحجة اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق ، قال صاحب "الكشاف" : إن قيل ما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء ؟ قلنا كأن الله سبحانه اعترض على ذاته في قوله ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقية فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فقال بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد ، وأراد بذلك المبالغة في تعييرهم لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً ، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك إليه ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعل نفسه .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

اعلم أن هذا هو النوع الرابع : من كفرياتهم التي حكاها الله تعالى عنهم في هذه السورة ، وهؤلاء المساكين قالوا منصب رسالة الله منصب شريف فلا يليق إلا برجل شريف ، وقد صدقوا في ذلك إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة وهي أن الرجل الشريف هو الذي يكون كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به ، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال في إحدى القريتين وهي مكة والطائف ، قال المفسرون والذي بمكة هو الوليد بن المغيرة والذي بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفي ، ثم أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهين الأول : قوله ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ وتقرير هذا الجواب من وجوه أحدها : أنا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره فالتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوّة بأن لا يقدروا على التصريف فيه كان أولى وثانيها : أن يكون المراد أن اختصاص ذلك الغنى بذلك المال الكثير إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا إليه ، فكيف يليق بالعقل أن نجلع إحساننا إليه بكثرة المال حجة علينا في أن نحسن إليه أيضاً بالنبوّة ؟ وثالثها : إنا لما أوقعنا التفاوت في الإحسان بمناصب الدنيا لا لسبب سابق فلم لا يجوز أيضاً أن نوقع التفاوت في الإحسان بمناصب الدين والنبوّة لا

لسبب سابق ؟ فهذا تقرير الجواب ، ونرجع إلى تفسير الألفاظ فنقول الهمزة في قوله ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ للإنكار الدال على التجهيل والتعجب من إعراضهم وتحكمهم أن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة ، ثم ضرب لهذا مثالاً فقال : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(18/691)

أنا أوقعنا هذا التفاوت بين العباد في القوة والضعف والعلم والجهل والحذاقة والبلاهة والشهرة والخمول ، وإنما فعلنا ذلك لأنا لو سوينا بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحداً ولم يصر أحد منهم مسخراً لغيره وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا ، ثم إن أحداً من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا ، فإن عجزوا عن الإعراض عن حكمنا في أحوال الدنيا مع قلتها ودناءتها ، فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا في تخصيص العباد بمنصب النبوة والرسالة ؟ .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ يقتضي أن تكون كل أقسام

معايشهم إنما تحصل بحكم الله وتقديره ، وهذا يقتضي أن يكون الرزق الحرام والحلال كله من الله تعالى والوجه الثاني : في الجواب ما هو المراد من قوله ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ؟ ، وتقريره أن الله تعالى إذا خص بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدين فهذه الرحمة خير من الأموال التي يجمعها لأن الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 178 . 180 ﴾

(19/691)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ أي ذكرهم إذ قال .

﴿ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ البراء يستعمل للواحد فما فوقه فلا يتثنّى ولا يجمع ولا يؤنث ؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت ؛ لا يقال : البراءان والبراءون ، لأن المعنى ذو البراء وذوو البراء .

قال الجوهري : وتبرّأت من كذا ، وأنا منه بَراء ، وخَلاء منه لا يثنّى ولا يجمع لأنه مصدر في الأصل ؛ مثل : سَمِع سَماعاً .

فإذا قلت : أنا بريء منه وخَلِيّ ثنّيتَ وجمعت وأنّثت ، وقلت في الجمع : نحن منه بُرَآء مثل فقيه وفقهاء ، وبِراء أيضاً مثل كريم وكِرام ، وأبراء مثل شريف وأشراف ، وأبرياء مثل نصيب وأنصباء ، وبريئون .

وامرأة بريئة وهما بريئتان وهن بريئات وبرايا .

ورجل بريء وبُراء مثل عجيب وعجاب .

والبَراء (بالفتح) أول ليلة من الشهر ، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس .

﴿ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ استثناء متصل ، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم .

قال قتادة : كانوا يقولون الله ربنا ؛ مع عبادة الأوثان .

ويجوز أن يكون منقطعاً ؛ أي لكن الذي فطرني فهو يهدين .

قال ذلك ثقةً بالله وتنبيهاً لقومه إن الهداية من ربه .

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾ الضمير في "جَعَلَهَا" عائد على قوله : ﴿ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ .

وضمير الفاعل في "جَعَلَهَا" للّه عز وجل ؛ أي وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقية في عقبه ، وهم ولده وولد ولده ؛ أي إنهم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله ، وأوصى بعضهم بعضاً

في ذلك .

والعقب من يأتي بعده .

وقال السدي : هم آل محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عباس : قوله : "فِي عَقِبِهِ" أي في خلفه .

وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ المعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها كلمة باقية في عقبه .

(20/691)

أي قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله .

قال مجاهد وقتادة : الكلمة لا إله إلا الله .

قال قتادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة .

وقال الضحاك : الكلمة أن لا تعبدوا إلا الله .

عكرمة : الإسلام ؛ لقوله تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ [الحج : 78] .

القرظي : وجعل وصية إبراهيم التي وصّى بها بنيه وهو قوله : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين ﴾ [البقرة : 123] الآية المذكورة في البقرة كلمَةً باقية في ذريته وبنيه .

وقال ابن زيد : الكلمة قوله : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ﴾ [البقرة : 131] وقرأ ﴿ هُوَ

سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ .

وقيل : الكلمة النبوّة .

قال ابن العربي : ولم تزل النبوّة باقية في ذرية إبراهيم .

والتوحيد هم أصله وغيرهم فيه تبع لهم .

الثانية قال ابن العربي : إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين ؛ إحداهما في قوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد .

ثانيهما قوله : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [إبراهيم : 35] .

وقيل : بل الأولى قوله : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] فكل أمة تعظمه ، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه في سام أو نوح .

الثالثة قال ابن العربي : جرى ذكر العقب ها هنا موصولاً في المعنى ، وذلك مما يدخل في الأحكام وترتب عليه عقود العُمْرَى والتحبيس .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أَيُّمَا رَجُلٍ أُعْمِر عُمْرَى له ولعقِبه فإنها للذي أعطِيها لا ترجع إلى الذي أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث " وهي تَرِد على أحد عشر لفظاً :

اللفظ الأوّل الولد ، وهو عند الإطلاق عبارة عمن وُجد من الرجل وامرأته في الإناث والذكور .

(21/691)

وعن ولد الذكور دون الإناث لغة وشرعاً ؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعيّن وأولاد الذكور من المعيّن دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين ، ولذلك لم يدخلوا في الحبس بهذا اللفظ ؛ قاله مالك في المجموعة وغيرها .

قلت : هذا مذهب مالك وجميع أصحابه المتقدّمين ، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء : 11] .

وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس ؛ يقول المحبس : حبست على ولدي أو على عَقِبي .

وهذا اختيار أبي عمر بن عبد البر وغيره ؛ واحتجوا بقول الله جل وعز : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [النساء : 23] .

قالوا : فلما حَرَّم الله البنات فحرمت بذلك بنت البنت بإجماع علم أنها بنت ووجب أن

تدخل في حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه .

وقد مضى هذا المعنى في "الأنعام" مستوفى .

اللفظ الثاني البنون ؛ فإن قال : هذا حبس على ابني ؛ فلا يتعدّى الولد المعين ولا يتعدّد .

ولو قال ولدي ، لتعدّى وتعدّد في كل من ولد .

وإن قال على بنيّ ، دخل فيه الذكور والإناث .

قال مالك : من تصدّق على بنيه وبني بنيه فإن بناته وبنات بناته يدخلن في ذلك .

روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن في ذلك مع بنات صلبه .

والذي عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون في البنين .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحسن ابن ابنته : " إن ابني هذا سيّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " قلنا : هذا مجاز ، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه ؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل في ولد بنته ليس بابني ؛ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه ؛ لأن الحقائق لا تنفى عن منتسباتها .

(22/691)

ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيه دون أمه ؛ ولذلك قيل في عبد الله بن عباس : إنه هاشمي وليس بهلالي وإن كانت أمه هلالية .

قلت : هذا الاستدلال غير صحيح ، بل هو ولد على الحقيقة في اللغة لوجود معنى الولادة فيه ، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إلى قوله مِّنَ الصالحين ﴾ [الأنعام : 84 – 85] فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدّم بيانه هناك .

فإن قيل فقد قال الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا ، وبناتنا . . .

بنوهن أبناء الرجال الأباعد

قيل لهم : هذا لا دليل فيه ؛ لأن معنى قوله : إنما هو ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب ، وإن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك ؛ إذ ينتسبون إلى غيره فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية ولم ينف عن ولد البنات اسم الولد لأنه ابن ؛ وقد يقول الرجل في ولده ليس هو بابني إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقاً ، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه ، وإنما يريد أن ينفي عنه حكمه .

ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولداً فقد أفسد معناه وأبطل فائدته ،

وتأول على قائله ما لا يصح ؛ إذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي ابنا ، ولا يسمى ولد الابْنة ابنا ؛ من أجل أن معنى الولادة التي اشتق منها اسم الولد فيه أبين وأقوى لأن ولد الابْنة هو ولدها بحقيقة الولادة ، وولد الإبن إنما هو ولده بماله مما كان سبباً للولادة .

ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده في اللسان ، وإنما أخرجهم منه قياساً على الموارثة .

وقد مضى هذا في "الأنعام" والحمد لله .

(23/691)

اللفظ الثالث الذرية ؛ وهي مأخوذة من ذرأ الله الخلق ؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إلى أن قال وَزَكَرِيَّا ويحيى وعيسى ﴾ .

وإنما كان من ذريته من قبل أمه .

وقد مضى في "البقرة" اشتقاق الذرية وفي "الأنعام" الكلام على "وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ" الآية ؛ فلا معنى للإعادة .

اللفظ الرابع العقب ؛ وهو في اللغة عبارة عن شيء بعد شيء كان من جنسه أو من غير جنسه ؛ يقال : أعقب الله بخير ؛ أي جاء بعد الشدّة بالرخاء .

وأعقب الشيبُ السواد .

وعَقَب يَعْقُب عقوباً وعَقْباً إذا جاء شيئاً بعد شيء ؛ ولهذا قيل لولد الرجل : عَقِبه .

والمِعْقَاب من النساء : التي تلد ذكراً بعد أنثى ، هكذا أبداً .

وعقب الرجل : ولده وولد ولده الباقون بعده .

والعاقبة الولد ؛ قال يعقوب : في القرآن ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ [الزخرف : 28] وقيل : بل الورثة كلهم عَقْب .

والعاقبة الولد ؛ ولذلك فسّره مجاهد هنا .

وقال ابن زيد : ها هنا هم الذرية .

وقال ابن شهاب : هم الولد وولد الولد .

وقيل غيره على ما تقدّم عن السُّدي .

وفي الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القدم وهي مؤنثة .

وعقب الرجل أيضاً ولده وولد ولده .

وفيه لغتان : عَقِب وعَقْب (بالتسكين) وهي أيضاً مؤنثة ، عن الأخفش .

وعَقَب فلان مكان أبيه عاقبة أي خلفه ؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة : 2] .

ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد في المعنى .

واختلف في الذرّية والنسل فقيل إنهما بمنزلة الولد والعقب ؛ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك .

وقيل : إنهم يدخلون فيهما .

وقد مضى الكلام في الذرية هنا وفي "الأنعام" .

اللفظ الخامس نسلي ؛ وهو عند علمائنا كقوله : ولدي وولد ولدي ؛ فإنه يدخل فيه ولد البنات .

(24/691)

ويجب أن يدخلوا ؛ لأن نَسَل بمعنى خرج ، وولد البنات قد خرجوا منه بوجهٍ ، ولم يقترن به ما يخصه كما اقترن بقوله عَقْبى ما تناسلوا .

وقال بعض علمائنا : إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيه ولد البنات ؛ إلا أن يقول المحبس نسلي ونسل نسلي ، كما إذا قال : عقبي وعقب عقبي ، وأما إذا قال ولدي أو عقبي مفرداً فلا يدخل فيه البنات .

اللفظ السادس الآل ؛ وهم الأهل ؛ وهو اللفظ السابع .

قال ابن القاسم : هما سواء ، وهم العَصَبة والإخوة والبنات والعمات ؛ ولا يدخل فيه

الخالات .

وأصل أهل الاجتماعُ ، يقال : مكانٌ آهل إذا كان فيه جماعة ، وذلك بالعصبة ومن دخل في القُعْدَد من النساء ، والعصبة مشتقة منه وهي أخص به .

وفي حديث الإفك : يا رسول الله ، أَهْلُك ولا نعلم إلا خيراً ؛ يعني عائشة .

ولكن لا تدخل فيه الزوجة بإجماع وإن كانت أصل التأهل ؛ لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قد يتبدل ربطها وينحل بالطلاق .

وقد قال مالك : آل محمد كلُّ تقي ؛ وليس من هذا الباب .

وإنما أراد أن الإيمان أخص من القرابة فاشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة .

وقد قال أبو إسحاق التونسي : يدخل في الأهل كل من كان من جهة الأبوين ، فوفّى الاشتقاق حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال .

وهذه المعاني إنما تبنى على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق ، فهذان لفظان .

اللفظ الثامن قرابة ، فيه أربعة أقوال : الأوّل قال مالك في كتاب محمد بن عبدوس : إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد ؛ ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الخالات .

الثاني يدخل فيه أقاربه من قبل أبيه وأمه ؛ قاله علي بن زياد .

الثالث قال أشهب : يدخل فيه كل رحم من الرجال والنساء .

الرابع قال ابن كنانة : دخل فيه الأعمام والعمات والأخوال والخالات وبنات الأخت .

(25/691)

وقد قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] قال : إلا أن تصِلوا قرابة ما بيني وبينكم .

وقال : لم يكن بطن من قريش إلا كان بينه وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ فهذا يضبطه والله أعلم .

اللفظ التاسع العشيرة ؛ ويضبطه الحديث الصحيح : إن الله تعالى لما أنزل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] دعا النبي صلى الله عليه وسلم بطون قريش وسماهم كما تقدّم ذكره وهم العشيرة الأقربون ؛ وسواهم عشيرة في الإطلاق .

واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد ، كما تقدم من قول علمائنا .

اللفظ العاشر القوم ؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء .

والقوم يشمل الرجال والنساء ؛ وإن كان الشاعر قد قال :

وما أدري وسوف إخال أدري . . .

أقوم آلِ حِصْنٍ أم نساء

ولكنه أراد أن الرجل إذا دعا قومه للنصرة عنى الرجال ، وإذا دعاهم للحُرْمة دخل فيهم الرجال والنساء ؛ فتعمّمه الصفة وتخصصه القرينة .

اللفظ الحادي عشر الموالي ؛ قال مالك : يدخل فيه موالي أبيه وابنه مع مواليه .

وقال ابن وهب : يدخل فيه أولاد مواليه .

قال ابن العربي : والذي يتحصل منه أنه يدخل فيه من يرثه بالولاء ؛ قال : وهذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والسنة المبينة له ؛ والتفريع والتتميم في كتاب المسائل ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ وقرىء "بَلْ مَتَّعْنَا" .

﴿ هؤلاء وَآبَآءَهُمْ ﴾ أي في الدنيا بالإمهال .

﴿ حتى جَآءَهُمُ الحق ﴾ أي محمد صلى الله عليه وسلم بالتوحيد والإسلام الذي هو أصل دين إبراهيم ؛ وهو الكلمة التي بقّاها الله في عقبه .

﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أي يبيّن لهم ما بهم إليه حاجة .

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق ﴾ يعني القرآن .

﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ جاحدون .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ ﴾ أي هلاَّ نزل ﴿ هذا القرآن على رَجُلٍ ﴾ وقرىء "على رَجْل" بسكون الجيم .

﴿ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ أي من إحدى القريتين ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] أي من أحدهما .

أو على أحد رجلين من القريتين .

القريتان : مكة والطائف .

والرجلان : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبي جهل .

والذي من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي ؛ قاله قتادة .

وقيل : عمير بن عبد يالِيل الثقفي من الطائف ، وعتبة بن ربيعة من مكة ؛ وهو قول مجاهد .

وعن ابن عباس : أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي .

وقال السدي : كنانة بن عبد بن عمرو .

وروي أن الوليد بن المغيرة وكان يسمى ريحانة قريش كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل عليّ أو على أبي مسعود ؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعني النبوّة فيضعونها حيث شاءوا .

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ أي أفقرنا قوماً وأغنينا قوماً ؛ فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوّض أمر النبوّة إليهم .

قال قتادة : تلقاه ضعيف القوّة قليل الحيلة عَيِيّ اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتَّرٌ عليه .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن في رواية عنه "مَعَايِشَهُمْ" .

وقيل : أي نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما عليّ وأنا قادر على نزع النّعمة عنهما ؛ فأي فضل وقدر لهما .

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أي فاضلنا بينهم فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس ؛ قاله مقاتل .

وقيل : بالحرية والرق ؛ فبعضهم مالك وبعضهم مملوك .

وقيل : بالغنى والفقر ؛ فبعضهم غني وبعضهم فقير .

وقيل : بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(27/691)

﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ قال السدي وابن زيد : خَوَلاً وخدّاماً ، يسخّر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض .

وقال قتادة والضحاك : يعني ليملك بعضهم بعضاً .

وقيل : هو من السخرِية التي بمعنى الاستهزاء ؛ أي ليستهزىء الغني بالفقير .

قال الأخفش : سَخِرت به وسَخِرت منه ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهزِئت منه وبه ؛ كلٌّ يقال ، والاسم السُّخرِية (بالضم) .

والسُّخْرِيّ والسِّخْرِيّ (بالضم والكسر) .

وكل الناس ضمُّوا "سُخْرِيًّا" إلا ابن مُحَيْصِن ومجاهد فإنهما قرأ "سِخْرِيًّا" ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي أفضل مما يجمعون من الدنيا .

ثم قيل : الرحمة النبوّة ، وقيل الجنة .

وقيل : تمام الفرائض خير من كثرة النوافل .

وقيل : ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(28/691)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾

لم يكفهم أن جعلوا لله ولداً ، وجعلوه إناثاً ، وجعلوهم من الملائكة ، وهذا من جهلهم بالله وصفاته ، واستخفافهم بالملائكة ، حيث نسبوا إليهم الأنوثة .

وقرأ عمر بن الخطاب ، والحسن ، وأبو رجاء ، وقتادة ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، والابنان ، ونافع : عند الرحمن ، ظرفاً ، وهو أدل على رفع المنزلة وقرب المكانة لقوله : ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ وقرأ عبد الله ، وابن عباس ، وابن جبير ، وعلقمة ، وباقي السبعة : عباد الرحمن ، جمع عبد لقوله : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ وقرأ الأعمش : عباد الرحمن ، جمعاً .

وبالنصب ، حكاها ابن خالويه ، قال : وهي في مصحف ابن مسعود كذلك ، والنصب على إضمار فعل ، أي الذين هم خلقوا عباد الرحمن ، وأنشأوا عباد الرحمن إناثاً .

وقرأ أبيّ عبد الرحمن : مفرداً ، ومعناه الجمع ، لأنه اسم جنس .

وقرأ الجمهور : وأشهدوا ، بهمزة الاستفهام داخلة على شهدوا ، ماضياً مبنياً للفاعل ، أي أحضروا خلقهم ، وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي تطلب أن تؤدي .

وقيل : سألهم الرسول عليه السلام : " ما يدريكم أنهم إناث " ؟ فقالوا : سمعنا ذلك من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا ، فقال الله تعالى : ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾

عنها ، أي في الآخرة .

وقرأ نافع : بهمزة داخلة على أشهدوا ، رباعياً مبنياً للمفعول بلا مد بين الهمزتين .

والمسبى عنه : بمدة بينهما ؛ وعليّ بن أبي طالب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وفي رواية أبي عمرو ، ونافع : بتسهيل الثانية بلا مد ؛ وجماعة : كذلك بمد بينهما .

وعن عليّ والمفضل ، عن عاصم : تحقيقهما بلا مد ؛ والزهري وناس : أشهدوا بغير استفهام ، مبنياً للمفعول رباعياً ، فقيل : المعنى على الاستفهام ، حذفت الهمزة لدلالة المعنى عليها .

(29/691)

وقيل : الجملة صفة للإناث ، أي إناثاً مشهداً منهم خلقهم ، وهم لم يدعوا أنهم شهدوا خلقهم ، لكن لما ادّعوا لجراءتهم أنهم إناث ، صاروا كأنهم ادعوا ذلك وإشهادهم خلقهم .

وقرأ الجمهور : إناثاً ، وزيد بن عليّ : أنثاً ، جمع جمع الجمع .

قيل : ومعنى وجعلوا : سموا ، وقالوا : والأحسن أن يكون المعنى : وصيروا اعتقادهم الملائكة إناثاً ، وهذا الاستفهام فيه تهكم بهم ، والمعنى : إظهار فساد عقولهم ، وأن دعاويهم مجردة من الحجة ، وهذا نظير الآية الطاعنة على أهل التنجيم والطبائع : ﴿ ما

أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ وقرأ الجمهور : ستكتب ، بالتاء من فوق مبنياً للمفعول .

شهادتهم : بالرفع مفرداً ؛ والزبيري كذلك ، إلا أنه بالياء ؛ والحسن كذلك ، إلا أنه بالتاء ، وجمع شهادتهم ؛ وابن عباس ، وزيد بن عليّ ، وأبو جعفر ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة ، والجحدري ، والأعرج : بالنون مبنياً للفاعل ، شهادتهم على الإفراد .

وقرأ فرقة : سيكتب بالياء مبنياً للفاعل ، أي الله ؛ شهادتهم : بفتح التاء .

والمعنى : أنه ستكتب شهادتهم على الملائكة بأنوثتهم .

ويسألون : وهذا وعيد .

﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ : الضمير للملائكة .

قال قتادة ومقاتل : في آخرين .

وقال مجاهد : الأوثان علقوا انتفاء العبادة على المشيئة ، لكن العبادة وجدت لما انتفت المشيئة ، فالمعنى : أنه شاء العبادة ، ووقع ما شاء ، وقد جعلوا إمهال الله لهم وإحسانه إليهم ، وهم يعبدون غيره ، دليلاً على أنه يرضى ذلك ديناً .

وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة في أواخر الأنعام ، وفي الكلام حذف ، أي فنحن لا نؤاخذ بذلك ، إذ هو وفق مشيئة الله ، ولهذا قال : ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ ، أي بما

ترتب على عبادتهم من العقاب ، ﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ : أي يكذبون .

وقيل : الإشارة بذلك إلى ادعائهم أن الملائكة إناث .

(30/691)

وقال الزمخشري : هما كفرتان مضمومتان إلى الكفرات الثلاث ، وهم : عبادتهم الملائكة من دون الله ، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئه ، كما يقول إخوانهم المجبرة . انتهى .

جعل أهل السنة أخوات للكفرة عباد الملائكة ، ثم أورد سؤالاً وجواباً جارياً على ما اختاره من مذهب الاعتزال ، يوقف على ذلك في كتابه ، ولما نفى عنهم ، علم ترك عقابهم على عبادة غير الله ، أي ليس يدل على ذلك عقل .

نفى أيضاً أن يدل على ذلك سمع ، فقال : ﴿ أم آتيناهم كتاباً ﴾ من قبل نزول القرآن ، أو من قبل إنذار الرسل ، يدل على تجويز عبادتهم غير الله ، وأنه لا يترتب على ذلك .

ثم أخبر تعالى أنهم في ذلك مقلدون لآبائهم ، ولا دليل لهم من عقل ولا نقل .

ومعنى : ﴿ على أمّة ﴾ : أي طريقة ودين وعادة ، فقد سلكنا مسلكهم ، ونحن مهتدون في اتباع آثارهم ؛ ومنه قول قيس بن الحطيم :

كنا على أمّة آبائنا . . .

ويقتدى بالأول الآخر

وقرأ الجمهور : أمّة ، بضم الهمزة .

وقال مجاهد ، وقطرب : على ملة .

وقال الجوهري : والأمّة : الطريقة ، والذي يقال : فلان لا أمّة له : أي لا دين ولا نحلة .

قال الشاعر :

وهل يستوي ذو أمّة وكفور . . .

وتقدّم الكلام في أمّة في قوله : ﴿ وادّكر بعد أمّة ﴾ وقرأ عمر بن عبد العزيز ، ومجاهد ، وقتادة ، والجحدري : بكسر الهمزة ، وهي الطريقة الحسنة لغة في الأمّة بالضم ، قاله الجوهري .

وقرأ ابن عباس : أمّة ، بفتح الهمزة ، أي على قصد وحال ، والخلاف في الحرف الثاني كهو في الأول .

وحكى مقاتل : إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، وأبي سفيان ، وأبي جهل ، وعتبة ، وشيبة بن أبي ربيعة من قريش ، أي كما قال من قبلهم أيضاً ، يسلي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذلك .

والمترف : المنعم ، أبطرتهم النعمة ، فآثروا الشهوات ، وكرهوا مشاق التكاليف .

وقرأ الجمهور : قل على الأمر ؛ وابن عامر وحفص : قال على الخبر .

وقرأ الجمهور : جئتكم ، بتاء المتكلم ؛ وأبي جعفر ، وشيبة ، وابن مقسم ، والزعفراني ، وأبو شيخ الهنائي ، وخالد : جئناكم ، بنون المتكلمين .

والظاهر أن الضمير في قال ، أو في قل ، للرسول ، أي : قل يا محمد لقومك : أتتبعون آباءكم ، ولو جئتكم بدين أهدى من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم ؟ وهذا تجهيل لهم ، حيث يقلدون ولا ينظرون في الدلائل .

﴿ قالوا إنا بما أرسلتم ﴾ ، أنت والرسل قبلك .

غلب الخطاب على الغيبة .

﴿ فانتقمنا منهم ﴾ بالقحط والقتل والسبي والجلاء .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة ﴾ من كذبك .

وقال ابن عطية في قال : ضمير يعود على النذير ، وباقي الآية يدل على أن قل في قراءة من قرأها ليست بأمر لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وإنما هي حكاية لما أمر به النذير .

ولو : في هذا الموضع ، كأنها شرطية بمعنى : إن ، كان معنى الآية : أو إن جئتكم بأبين وأوضح مما كان عليه آباؤكم ، يصحبكم لجاجكم وتقليدكم ، فأجاب الكفار حينئذ من

الأمم المكذبة بأنبيائها ، كما كذبت بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، ولا يتعين ما قاله ، بل الظاهر هو ما قدمناه .

﴿ وإذ قال ابراهيم لقومه ﴾ : وذكر العرب بحال جدّهم الأعلى ، ونهيه عن عبادة غير الله ، وإفراده بالتوحيد والعبادة هزؤاً لهم ، ليكون لهم رجوع إلى دين جدهم ، إذ كان أشرف آبائهم والمجمع على محبته ، وأنه (صلى الله عليه وسلم) لم يقلد أباه في عبادة الأصنام ، فينبغي أن تقتدوا به في ترك تقليد آبائكم الأقربين ، وترجعوا إلى النظر واتباع الحق .

وقرأ الجمهور : برآء ، مصدر يستوي فيه المفرد والمذكر ومقابلهما ، يقال : نحن البراء منك ، وهي لغة العالية .

وقرأ الزعفراني والقورصي ، عن أبي جعفر وابن المناذري ، عن نافع : بضم الباء ؛ والأعمش : برىء ، وهي لغة نجد وشيخيه ، ويجمع ويؤنث ، وهذا نحو : طويل وطوال ، وكريم وكرام .

وقرأ الاعمش : إني ، بنون مشددة دون نون الوقاية ؛ والجمهور : إنني ، بنونين ، الأولى مشددة .

والظاهر أن قوله : ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ استثناء منقطع ، إذ كانوا لا يعبدون الله مع أصنامهم .

وقيل : كانوا يشركون أصنامهم معه تعالى في العبادة ، فيكون استثناء متصلاً .

وعلى الوجهين ، فالذي في موضع نصب ، وإذا كان استثناء متصلاً ، كانت ما شاملة من يعلم ومن لا يعلم .

وأجاز الزمخشري أن يكون الذي مجروراً بدلاً من المجرور بمن ، كأنه قال : إنني براء مما تعبدون ، إلا من الذي .

وأن تكون إلا صفة بمعنى : غير ، على أن ما في ما تعبدون نكرة موصوفة تقديره : إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني ، فهو نظير قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ انتهى .

ووجه البدل لا يجوز ، لأنه إنما يكون في غير الموجب من النفي والنهي والاستفهام .

ألا ترى أنه يصلح ما بعد إلا لتفريغ العامل له ؟ وإنني بريء ، جملة موجبة ، فلا يصلح أن يفرغ العامل فيها للذي هو بريء لما بعد إلا .

وعن الزمخشري : كون بريء ، فيه معنى الانتفاء ، ومع ذلك فهو موجب لا يجوز أن يفرغ لما بعد إلا .

وأما تقديره ما نكرة موصوفة ، فلم يبقها موصولة ، لاعتقاده أن إلا لا تكون صفة إلا لنكرة .

وهذه المسألة فيها خلاف .

من النحويين من قال : توصف بها النكرة والمعرفة ، فعلى هذا تبقى ما موصولة ، ويكون إلا في موضع الصفة للمعرفة ، وجعله فطرني في صلة الذي .

تنبيه على أنه لا يعبد ولا يستحق العبادة إلا الخالق للعباد .

﴿ فإنه سيهدين ﴾ : أي يديم هدايتي ، وفي مكان آخر : ﴿ الذين خلقني فهو يهدين ﴾ فهو هاديه في المستقبل .

والحال والضمير في جعلها المرفوع عائد على إبراهيم ، وقيل على الله .

والضمير المنصوب عائد على كلمة التوحيد التي تكلم بها ، وهي قوله : ﴿ إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ .

وقال قتادة ومجاهد والسدي : لا إله إلا الله ، وإن لم يجر لها ذكر ، لأن اللفظ يتضمنها .

(33/691)

وقال ابن زيد : كلمة الإسلام لقوله : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت ﴾ ﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ وقرأ حميد بن قيس : كلمة ، بكسر

الكاف وسكون اللام .

وقرىء : في عقبه ، بسكون القاف ، أي في ذريته .

وقرىء : في عاقبه ، أي من عقبه ، أي خلقه .

فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده .

لعلهم : أي لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم .

وقرأ الجمهور : بل متعت ، بتاء المتكلم ، والإشارة بهؤلاء لقريش ومن كان من عقب إبراهيم عليه السلام من العرب .

لما قال : ﴿ في عقبه ﴾ ، قال تعالى : لكن متعت هؤلاء وأنعمت عليهم في كفرهم ، فليسوا ممن تعقب كلمة التوحيد فيهم .

وقرأ قتادة والأعمش : بل متعت ، بتاء الخطاب ، ورواها يعقوب عن نافع .

قال صاحب اللوامح : وهي من مناجاة إبراهيم عليه السلام ربه تعالى .

والظاهر أنه من مناجاة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أي : قال يا رب بل متعت .

وقرأ الأعمش : متعنا ، بنون العظمة ، وهي تعضد قراءة الجمهور .

﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ ، وهو القرآن ؛ ﴿ ورسول مبين ﴾ ، هو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الزمخشري : فإن قلت : فما وجه من قرأ : بل متعت ، بفتح التاء ؟ قلت : كأن الله

تعالى اعترض على ذاته في قوله : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ ، فقال : بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق ، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد .

وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم ، لأنه إذا متعهم بزيادة النعم ، وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان ، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً ، فمثاله : أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ، ثم يقبل على نفسه فيقول : أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله .

(34/691)

فإن قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية للتمتيع ، ثم أردفه قوله : ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر ﴾ ، فما طريقة هذا النظم ومؤداه ؟ قلت : المراد بالتمتيع : ما هو سبب له ، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته .

فقال عز وعلا : بل اشتغلوا عن التوحيد ﴿ حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ ، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه .

ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال : ﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ ، جاءوا بما هو شر من

غفلتهم التي كانوا عليها ، وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ، ومكابرة الرسول ومعاداته ، والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه ، والإصرار على أفعال الكفرة ، والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد (صلى الله عليه وسلم) من أهل زمانه بقولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ، وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم .

انتهى ، وهو حسن لكن فيه إسهاب .

والضمير في : وقالوا ، لقريش ، كانوا قد استبعدوا أن يرسل الله من البشر رسولاً ، فاستفاض عندهم أمر إبراهيم وموسى وعيسى ، وغيرهم من الرسل صلى الله عليهم .

فلما لم يكن لهم في ذلك مدفع ، ناقضوا فيما يخص محمداً (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : لم كان محمداً ، ولم يكن القرآن ينزل على رجل من القريتين عظيم ؟ أشاروا إلى من عظم قدره بالسن والقدم والجاه وكثرة المال .

وقرىء : على رجل ، بسكون الجيم .

من القريتين : أي من إحدى القريتين .

وقيل : من رجل القريتين ، وهما مكة والطائف .

قال ابن عباس : والذي من مكة : الوليد بن المغيرة المخزومي ، ومن الطائف : حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي .

وقال مجاهد : عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل .

وقال قتادة : الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي .

(35/691)

قال قتادة : بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلا ادعاه ، وكان الوليد بن المغيرة يسمى ريحانة قريش ، وكان يقول : لو كان ما يقول محمد حقاً لنزل عليّ أو على ابن مسعود ، يعني عروة بن مسعود ، وكان يكنى أبا مسعود .

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ؟ فيه توبيخ وتعجيب من جهلهم ، كأنه قيل : على اختيارهم وإرادتهم تقسم الفضائل من النبوة وغيرها .

ثم في إضافته في قوله : ﴿ رحمة ربك ﴾ ، تشريف له (صلى الله عليه وسلم) ، وأن هذه الرحمة التي حصلت لك ليست إلا من ربك المصلح لحالك والمربيك .

ثم أخبر تعالى أنه هو الذي قسم المعيشة بينهم ، فلم يحصل لأحد إلا ما قسمه تعالى .

وإذا كان هو الذي تولى ذلك ، وفاوت بينهم ، وذلك في الأمر الفاني ، فكيف لا يتولى الأمر الخطير ، وهو إرسال من يشاء ، فليس لكم أن تتخيروا من يصلح لذلك ، بل أنتم عاجزون عن تدبير أموركم .

وقرأ الجمهور : معيشتهم ، على الإفراد ؛ وعبد الله ، والأعمش ، وابن عباس ، وسفيان : معائشهم ، على الجمع .

والجمهور : سخرياً ، بضم السين ؛ وعمرو بن ميمون ، وابن محيصن ؛ وابن أبي ليلى ، وأبو رجاء ، والوليد بن مسلم ، وابن عامر : بكسرها ، وهو من التسخير ، بمعنى : الاستعباد والاستخدام ، ليرتفق بعضهم ببعض ويصلوا إلى منافعهم .

ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ، ما أطاق ذلك وضاع وهلك .

ويبعد أن يكون سخرياً هنا من الهزء ، وقد قال بعضهم : أي يهزأ الغني بالفقير .

وفي قوله : ﴿ نحن قسمنا ﴾ ، تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا ، وهون على التوكل على الله .

وقال مقاتل : فاضلنا بينهم ، فمن رئيس ومرؤوس .

وقال قتادة : تلقى ضعيف القوة ، قليل الحيلة ، غني اللسان ، وهو مبسوط له ؛ وتلقى شديد الحيلة ، بسيط اللسان ، وهو مقتر عليه .

وقال الشافعي ، رحمه الله :

ومن الدليل على القضاء وكونه . . .

بؤس الفقير وطيب عيش الأحمق

ورحمة ربك : قيل النبوة ، وقيل : الهداية والإيمان .

وقال قتادة والسدي : الجنة خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا ، وفي هذا اللفظ تحقير للدنيا وما جمع فيها من متاعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(36/691)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾

أي واذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لأَبِيهِ ﴾ آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله :

﴿ إِنَّنِى بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ وتمسك بالبرهان ، والكلام تمهيد لما أهل مكة فيه من العناد والجسد والإباء عن تدبر الآيات وأنهم لو قلدوا آباءهم لكان الأولى أن يقلدوا آباهم الأفضل الأعلم الذي هم يفتخرون بالانتماء إليه وهو إبراهيم عليه السلام فكأنه بعد تعييرهم على التقليد ويعيرهم على أنهم مسيئون في ترك اختياره أيضاً .

وبراء مصدر كالطلاق نعت به مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث .

وقرأ الزعفراني .

والقورصي عن أبي جعفر .

وابن المنذري .

عن نافع ﴿ بَرَاء ﴾ بضم الباء وهو اسم مفرد كطول وكرام بضم الكاف ، وقرأ الأعمش ﴿ بري ﴾ وهو وصف كطويل وكريم وقراءة العامة لغة العالية وهذه لغة نجد .

وقرأ الأعمش أيضاً ﴿ اللهِ إنّى ﴾ بنون مشددة دون نون الوقاية .

(37/691)

﴿ إِلاَّ الذى فَطَرَنى ﴾ استثناء متصل إن قلنا إن ما عامة لذوي العلم وغيرهم وأنهم كانوا يعبدون الله تعالى والأصنام وليس هذا من الجمع بين الله تعالى وغيره سبحانه الذي يجب اجتنابه لما فيه من إيهام التسوية بينه سبحانه وبين غيره جل وعلا لظهور ما يدل على خلاف ذلك في الكلام أو منقطع بناء على أن ما مختصة بغير ذوي العلم وأنه لا يناسب التغليب أصلاً وأنهم لم يكونوا يعبدونه تعالى أو أنهم كانوا يعبدونه عز وجل إلا أن عبادته سبحانه مع الشرك في حكم العدم ، وعلى الوجهين محل الموصول النصب ، وأجاز الزمخشري أن يكون في محل جر على أنه بدل من ما المجرور ، بمن ، وفيه بحث لأنه يصير استثناء من الموجب ولم يجوزوا فيه البدل ، ووجهه أنه في معنى النفي لأن معنى ﴿ إِنَّنى

بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف : 26] لا أعبد ما تعبدون فهو نظير قوله تعالى : ﴿ ويأبى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ [التوبة : 32] إلا أن ذلك في المفرغ وهذا فيما ذكر فيه المستثنى منه وهم لا يخصونه بالمفرغ ولا بألفاظ مخصوصة أيضاً كأبي وقلما ، نعم إن أبا حيان يأبى إلا أنه موجب ولا يعتبر النفي معنى ، وأجاز أيضاً أن تكون ﴿ إِلا ﴾ صفة بمعنى غير على أن ﴿ مَا ﴾ في ما ﴿ تبعدون ﴾ نكرة موصوفة والتقدير إنني براءة من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني نظير قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] واعتبار ما نكرة موصوفة بناء على أن إلا لا تكون صفة إلا لنكرة وكذا اعتبارها بمعنى الجمع بناء على اشتراط كون النكرة الموصوفة بها كذلك ، والمسألة خلافية ، فمن النحويين من قال إن إلا يوصف بها المعرفة والنكرة مطلقاً وعليه لا يحتاج إلى اعتبار كون ما نكرة بمعنى آلهة ، وفي جعل الصلة ﴿ فَطَرَنِى ﴾ تنبيه على أنه لا يستحق العبادة إلا الخالق للعابد ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ يثبتني على الهداية فالسين للتأكيد لا

(38/691)

للاستقبال لأنه جاء في الشعراء (78) ﴿ يهدين ﴾ بدونها والقصة واحدة ، والمضارع في الموضعين للاستمرار ، وقيل : المراد ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى وراء ما هداني إليه أولاً فالسين

على ظاهرها والتغاير في الحكاية والمحكي بناء على تكرر القصة .

﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ الضمير المرفوع المستتر لإبراهيم عليه السلام أو لله عز وجل والضمير المنصوب لكلمة التوحيد أعني لا إله إلا الله كما روى عن قتادة .

ومجاهد .

والسدي ويشعر بها قوله : ﴿ إِنَّنِى بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف : 26] الخ ، وجوز أن يعود على هذا القول نفسه وهو أيضاً كلمة لغة ﴿ كَلِمَةً باقية فِى عَقِبِهِ ﴾ في ذريته عليه السلام فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده عز وجل .

وقرأ حميد بن قيس ﴿ كَلِمَةَ ﴾ بكسر الكاف وسكون اللام وهي لغة فيها ، وقرىء ﴿ فِى عَقِبِهِ ﴾ بسكون القاف تخفيفاً و ﴿ فِى ﴾ أي من عقبه أي خلفه ومنه تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بالعاقب لأنه آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

﴿ ءاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ تعليل للجعل أي جعلها باقية في عقبه كي يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد أو بسبب بقائها فهيم ، والضميران للعقب وهو بمعنى الجمع ، والأكثرون على أن الكلام بتقدير مضاف أي لعل مشركيهم أو الإسناد من إسناد ما للبعض إلى الكل وأولوا لعل بناء على أن الترجي من الله سبحانه وهو لا يصح في حقه تعالى أو منه عليه السلام لكنه من الأنبياء في حكم المتحقق ويجوز ترك التأويل كما لا يخفى بل هو الأظهر إذا كان ذاك من إبراهيم عليه السلام .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ ﴾ أي أهل مكة المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ بالمد في العمر والنعمة ﴿ حتى جَاءَهُمُ الحق ﴾ دعوة التوحيد أو القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الرسالة بما له من المعجزات الباهرات أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج القاطعات ، والمراد بالتمتيع ما هو سبب له من استمتاعهم بما متعوا واشتغالهم بذلك عن شكر المنعم وطاعته والغاية لذلك فكأنه قيل اشتغلوا حتى جاء الحق وهي غاية له في نفس الأمر لأن مجيء الرسول مما ينبه عن سنة الغفلة ويزجر عن الاشتغال بالملاذ لكنهم عكسوا فجعلوا ما هو سبب للتنصل سبباً للتوغل فهو على أسلوب قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ [البينة : 1-4] ، و ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ إضراب عن قوله جل شأنه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : 28] كأنه قيل بل متعت مشركي مكة وأشغلتهم بالملاهي والملاذ فاشتغلوا فلمن يرجعوا أو فلم يحصل ما رجاه من رجوعهم عن الشرك ، وهو في الحقيقة إضراب عن التمهيد الذي يمعت وشروع في المقصود ما رجاه من رجوعهم عن الشرك ، وهو في الحقيقة إضراب عن التمهيد الذي سمعت وشروع في

المقصود لكن روعي فيه المناسبة بما قرب من جملة الإضراب أعني ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ وفي "الحواشي الشهابية" أنه إضراب عن قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ [الزخرف : 28] الخ أي لم يرجعوا فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أعطيتهم نعماً أخر غير الكلمة الباقية لأجل أن يشكروا منعمها ويوحدوه فلم يفعلوا بل زاد طغيانهم لاغترارهم أو التقدير ما اكتفيت في هدايتهم بجعل الكلمة باقية فيهم بل متعتهم وأرسلت رسولاً وقرأ قتادة .

(40/691)

والأعمش ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ بتاء الخطاب ورواها يعقوب عن نافع وهو من كلامه تعالى على سبيل التجريد لا الالتفات وإن قيل به في مثله أيضاً كأنه تعالى اعترض بذلك على نفسه جل شأنه في قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ الخ لا لتقبيح فعله سبحانه بل لقصد زيادة توبيخ المشركين كما إذا قال المحسن على من أساء مخاطباً لنفسه .

أنت الداعي لاساءته بالإحسان إليه ورعايته فيبرز كلامه في صورة من يعترض على نفسه ويوبخها حتى كأنه مستحق لذلك ، وفي ذلك من توبيخ المسيء ما فيه ، وقال "صاحب اللوامح" : هو من كلام إبراهيم عليه السلام ومناجاته عز وجل ، وقال في "البحر" : الظاهر أنه من مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم على معنى قل يا رب متعت ، والأول أولى وهو

الموافق للأصل المشهور ، وقرأ الأعمش ﴿ مَتَّعْنَا ﴾ بنون العظمة .

﴿ وَلَمَّا جَاءهُمُ الحق ﴾ لينبههم عما هم فيه من الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافرون ﴾ زادوا شرارة فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستحقاق به فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين ﴾ أي من إحدى القريتين مكة والطائف أو من رجالهما فمن ابتدائية أو تبعيضية ، وقرىء ﴿ رَجُلٌ ﴾ بسكون الجيم ﴿ عظِيمٌ ﴾ بالجاه والمال قال ابن عباس : الذي من مكة الوليد بن المغيرة المخزومي والذي من الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، وقال مجاهد : عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل ، وقال قتادة : الوليد بن المغيرة .

(41/691)

وعروة بن مسعود الثقفي ، وكان الوليد بن المغيرة يسمى ريحانة قريش وكان يقول : لو كان ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم حقاً لنزل على أو على أبي مسعود يعني عروة بن مسعود وكان يكنى بذلك ، وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوة وذلك أنهم أنكروا أولاً أن يكون النبي بشراً ثم لما بكتوا بتكرير الحجج ولم يبق عندهم تصور رواج لذلك جاؤا بالإنكار من

وجه آخر فتحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هذين وقولهم هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة لأنهم لم يقولوا هذه المقالة تسليماً بل إنكاراً كأنه قيل : هذا الكذب الذي يدعيه لو كان حقاً لكان الحقيق به رجل من القريتين عظيم وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيم النفس بالتخلي عن الرذائل الدنية والتحلي بالكمالات والفضائل القدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية .

وقوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم بنزول القرآن العظيم على من أرادوا ، والرحمة يجوز أن يكون المراد بها ظاهرها وهو ظاهر كلام البحر ونزل تعيينهم لمن ينزل عليه الوحي منزلة التقسيم لها وتدخل النبوة فيها ، ويجوز أن يكون المراد بها النبوة وهو الأنسب لما قبل وعليه أكثر المفسرين ، وفي إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من تشريفه عليه الصلاة والسلام ما فيه ، وفي إضافة الرحمة إلى الرب إشارة إلى أنها من فات الربوبية ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ أسباب معيشتهم .

وقرأ عبد الله .

وابن عباس .

والأعمش .

وسفيان ﴿ معايشهم ﴾ على الجمع ﴿ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح ولم نفوض أمرها إليهم علماً منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية وإطلاق المعيشة يقتضي أن يكون حلالها وحرامها من الله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ في الرزق وسائر مبادي المعاش ﴿ درجات ﴾ متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيف وقوي وغني وفقير وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم ويستخدموهم في مهنهم ويسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم لا لكمال في الموسع عليه ولا لنقص في المقتر عليه ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا فإذا كانوا في تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم من متاع الدنيا وهو على طرف التمام بهذه الحالة فما ظنهم بأنفسهم في تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بأمرها ، والسخري على ما سمعت نسبة إلى السخرة وهي التذليل والتكليف ، وقال الراغب : السخري هو الذي يقهر أن يتسخر بإرادته ، وزعم بعضهم أنه هنا من السخر بمعنى الهزء أي ليهزأ الغني بالفقير واستبعده أبو حيان ، وقال السمين : إنه غير مناسب للمقام .

وقرأ عمرو بن ميمون .

وابن محيصن : وابن أبي ليلى .

وأبو رجاء .

والوليد بن مسلم ﴿ سِخْرِيّاً ﴾ بكسر السين والمراد به ما ذكرنا أيضاً ، وفي قوله تعالى :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ﴾ الخ ما يزهد في الانكباب على طلب الدنيا ويعين على التوكل على الله

عز وجل والانقطاع إليه جل جلاله :

فاعتبر نحن قسمنا بينهم . . .

تلقه حقاً وبالحق نزل

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ، وقيل : الهداية والايمان ، وقال

قتادة .

(43/691)

والسدي : الجنة ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من حطام الدنيا الدنية فالعظيم من رزق تلك

الرحمة دون ذلك الحطام الدنىء الفاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(44/691)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال لأبيه وقومه : إنه براء أي بريء ، من جميع معبوداتهم التي يعبدونها ، من دون الله أي يعني أنه بريء من عبادة كل معبود ، إلا المعبود الذي خلقه وأوجده فهو وحده معبوده .

وقد أوضح تعالى في هذا المعنى الذي ذكره عن إبراهيم في مواضع أخر من كتابه كقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأقدمون فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 75 – 78] الآية . وكقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هاذا أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يا قوم إِنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام : 78 – 79] .

وزاد جل وعلا في سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين وعداوته لهم وبغضه لهم في الله ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : 4] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ذكر نحوه في قوله : ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : 99] وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ [الأنعام : 77] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ أي خلقني . يدل على أنه لا يستحق العبادة ، إلا الخالق وحده جل وعلا .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : 21] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ﴾ [الشعراء : 184] وقوله تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار ﴾ [الرعد : 16] وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 17] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف : 191] وقوله تعالى : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَلَمْ

يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان : 2 - 3] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)

(46/691)

الضمير المنصوب في جعلها على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا الله ، المذكورة في قوله ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف : 26 - 27] لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات ، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات .

وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف : 26] .

ومعنى الإثبات منها هو إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله .

وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله : ﴿ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : 27] .

وضمير الفاعل المستتر في قوله ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ [الزخرف : 28] .

قال بعضهم : هو راجع إلى إبراهيم وهو ظاهر السياق .

وقال بعضهم : هو راجع إلى الله تعالى .

فعلى القول الأول فالمعنى صيَّر إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه أي ولده وولد ولده .

وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين :

أحدهما : وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه ، فيوصي به السلف منهم الخلف ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصطفيناه فِي الدنيا وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ووصى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين ﴾ [البقرة : 130 - 132] الآية .

(47/691)

والأمر الثاني هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح ، كقوله تعالى ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة : 124] ، أي واجعل من ذريتي أيضاً أئمة ، وقوله تعالى عنه ﴿ رَبِّ اجعلني مُقِيمَ الصلاة وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم : 40] وقوله عنه ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [

إبراهيم : 35] وقوله عنه هو وإسماعيل ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : 128] إلى قوله ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة : 129] .

وقد أجاب الله دعاءه في بعث الرسول المذكور ببعثه محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولذا جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال " أنا دعوة إبراهيم " .

وقد جعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ، كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ﴾ [العنكبوت : 27] ، وقال عنه وعن نوح في سورة الحديد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب ﴾ [الحديد : 26] الآية .

وعلى القول الثاني ، أن الضمير عائد إلى الله تعالى ، فلا إشكال .

وقد بين تعالى في آية الزخرف هذه ، أن الله لم يجب دعوة إبراهيم في جميع ذريته ، ولم يجعل الكلمة باقية في جميع عقبه ، لأن كفار مكة الذين كذبوا بنبينا صلى الله عليه وسلم من عقبه بإجماع العلماء ، وقد كذبوه صلى الله عليه وسلم وقالوا إنه ساحر .

(48/691)

وكثير منهم مات على ذلك . وذلك في قوله تعالى ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هؤلاء ﴾ يعني كفار مكة وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف : 30] .

وما دلت عليه آية الزخرف هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعل الله الكلمة المذكورة باقية فيهم ، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله ، كقوله تعالى في البقرة : ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] أي الظالمين من ذرية إبراهيم .

وقوله تعالى في الصافات ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعلى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : 113] .

فالمحسن منهم هو الذي الكلمة باقية فيه ، والظالم لنفسه المبين منهم ليس كذلك .

وقوله تعالى في النساء ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكتاب والحكمة وَآتَيْنَاهُمْ مُّلْكاً عَظِيماً فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وكفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾ [النساء : 54 - 55] .

وقد بين تعالى في الحديد أن غير المهتدين منهم كثيرون وذلك في قوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : 26] .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي جعل الكلمة باقية فيهم لعل الزائغين الضالين منهم يرجعون إلى الحق بإرشاد المؤمنين لمهتدين منهم ، لأن الحق ما دام قائماً في

جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجو مأمول كما دل عليه قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : 28] .

والرجاء المذكور بالنسبة إلى بني آدم ، لأنهم لا يعرفون من يصير إلى الهدى ، ومن يصير إلى الضلال .

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة ، وفي الكلام تقديم وتأخير .

(49/691)

والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ، أي قال لهم ، يتوبون عن عبادة غير الله . ا ه منه .

وإيضاح كلامه ، أن المعنى أن إبراهيم ، قال لأبيه وقومه : إنني براء مما تعبدون لأجل أن يرجعوا عن الكفر إلى الحق .

والضمير في قوله لعلهم يرجعوا على هذا راجع إلى أبيه وقومه .

وعلى ما ذكرناه أولاً فالضمير راجع إلى من ضل من عقبه ، لأن الضالين منهم داخلون في لفظ العقب .

فرجوع ضميرهم إلى العقب لا إشكال فيه وهذا القول هو ظاهر السياق ، والعلم عند الله

تعالى .

مسألة

ظاهر هذه الآيات الكريمة التي ذكرنا يدل على اتحاد معنى العقب والذرية والبنين ، لأنه قال في بعضها عن إبراهيم ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [إبراهيم : 35] .

وقال عنه في بعضها ﴿ رَبِّ اجعلني مُقِيمَ الصلاة وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم : 40] وفي بعضها ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة ﴾ [إبراهيم : 37] الآية ، وفي بعضها ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة : 124] وفي بعضها ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ﴾ [العنكبوت : 27] وفي بعضها ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ [الزخرف : 28] .

فالظاهر المتبادر من الآيات أن المراد بالبنين والذرية والعقب شيء واحد ، لأن جميعها في شيء واحد . وبذلك تعلم أن ظاهر القرآن ، يدل على أن من وقف وقفاً أو تصدق صدقة على بنيه أو ذريته أو عقبه ، أن حكم ذلك واحد .

وقد دلت بعض الآيات القرآنية على أن أولاد البنات يدخلون في اسم الذرية واسم البنين .

(50/691)

وإذا دل القرآن على دخول ولد البنت ، في اسم الذرية والبنين والفرض أن العقب بمعناها ، دل ذلك على دخول أولاد البنات في العقب أيضاً ، فمن الآيات الدالة على دخول ولد البنت في اسم الذرية قوله تعالى ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [الأنعام : 84] إلى قوله ﴿ وعيسى وَإِلْيَاسَ ﴾ [الأنعام : 85] وهذا نص قرآني صريح في دخول ولد البنت في اسم الذرية ، لأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ولد بنت إذ لا أب له .

ومن الآيات الدالة على دخول ولد البنت في اسم البنين قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُم ﴾ [النساء : 23] وقوله تعالى ﴿ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخت ﴾ [النساء : 23] لأن لفظ البنات في الألفاظ الثلاثة ، شامل لبنات البنات وبنات بناتهن وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين ، وهو نص قرآني صحيح في استواء بنات بنيهن وبنات بناتهن .

فتحصل أن دخول أولاد البنات في الوقف على الذرية والبنين والعقب ، هو ظاهر القرآن ولا ينبغي العدول عنه .

وكلام فقهاء الأمصار من الأئمة الأربعة وغيرهم في الألفاظ المذكورة معروف ، ومن أراد الاطلاع عليه فلينظر كتب فروع المذاهب ولم نبسط على ذلك الكلام هنا لأننا نريد أن نذكر هنا ما يدل ظاهر القرآن على ترجيحه من ذلك فقط .

أما لفظ الولد فإن القرآن يدل على أن أولاد البنات لا يدخلون فيه .

وذلك في قوله تعالى ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء : 11] الآية ، فإن قوله في أولادكم لا يدخل فيه أولاد البنات ، وذلك لا نزاع فيه بين المسلمين ، وهو نص صريح قرآني على عدم دخول أولاد البنات في اسم الولد .

وإن كان جماهير العلماء على أن العقب والولد سواء .

ولا شك أن اتباع القرآن هو المتعين على كل مسلم .

(51/691)

أما لفظ النسل فظاهر القرآن شموله لأولاد البنات لأن قوله تعالى ﴿ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : 6 – 8] ظاهر في أن لفظة النسل في الآية شاملة لأولاد البنات كما لا يخفى .

والألفاظ التي يتكلم عليها العلماء في هذا المبحث هي أحد عشر لفظاً ذكرنا خمسة منها وهي : الذرية والبنون والعقب والولد والنسل . وذكرنا أن أربعة منها يدل ظاهر القرآن على أنها يدخل فيها أولاد البنات وواحد بخلاف ذلك وهو الولد .

وأما الستة الباقية منها فهي الآل والأهل ومعناهما واحد .

والقرابة والعشيرة والقوم والموالي ، وكلام العلماء فيها مضطرب .

ولم يحضرني الآن تحديد يتميز به ما يدخل في كل واحد منها وما يخرج عنه إلا على سبيل التقريب إلا لفظين منها وهما القرابة والعشيرة .

أما القرابة فقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم " أنه أعطى من خمس خيبر بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل " مبيناً أن ذلك هو معنى قوله تعالى ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى ﴾ [الأنفال : 41] كما تقدم إيضاحه في سورة الأنفال في الكلام على آية الخمس هذه .

وأما العشيرة فقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس أنه لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي " يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا " الحديث . وفيه تحديد العشيرة الأقربين بجميع بني فهر بن مالك وهو الجد العاشر له صلى الله عليه وسلم .

(52/691)

وفي رواية أبي هريرة في الصحيح . أنه لما نزلت الآية المذكورة قال " يا معشر قريش أو كلمة نحوها " الحديث ، وقريش هم أولاد فهر بن مالك . وقيل : أولاد النضر بن كنانة ، والأول هو الأظهر لحديث ابن عباس المذكور وعليه الأكثر .

تنبيه

[فإن قيل] ذكرتم أن ظاهر القرآن يدل على دخول أولاد البنات في لفظ البنين والشاعر يقول في خلاف ذلك :

بَنُونا بَنُوا أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا . . . بَنُوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأَبَاعِدِ

وكثير من أهل الفقه يذكرون البيت المذكور ، على سبيل التسليم له ، قالوا : ومما يوضح صدقه أنهم ينسبون إلى رجال آخرين ، ربما كانوا أعداء لأهل أمهاتهم وكثيراً ما يتبع الولد أباه وعصبته ، في عداوة أخواله وبغضهم كما هو معلوم .

[فالجواب] أن الواحد بالشخص له جهتان ، فمعنى لفظ الابن له جهة خاصة هي معنى كونه خلق من ماء هذا الرجل على وجه يلحق فيه نسبه به ، وهذا المعنى منفي عن والد أمه ، فلا يقال له ابن بهذا الاعتبار وثابت لأبيه الذي خلق من مائه ، وله جهة أخرى هي كونه خارجاً في الجملة من هذا الشخص ، سواء كان بالمباشرة ، أو بواسطة ابنه أو بنته وإن سفل ، فالبنوة بهذا المعنى ثابتة لولد البنت ، وهذا المعنى هو الذي عناه صلى الله عليه وسلم في قوله في الحسن بن علي رضي الله عنهما " إن ابني هذا سيد " الحديث وهو

المراد في الآيات القرآنية كقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [النساء : 23] وقوله تعالى ﴿ وَبَنَاتُ الأخ وَبَنَاتُ الأخت ﴾ [النساء : 23] وكقوله تعالى : ﴿ لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَآئِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآئِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآءِ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ [الأحزاب : 55] الآية .

(53/691)

فلفظ البنات والأبناء في جميع الآيات المذكورة شامل لجميع أولاد البنين والبنات وإن سفلوا ، وإنما شملهم من الجهة المذكورة بالاعتبار المذكور ، وهو إطلاق لفظ الابن على كل من خرج من الشخص في الجملة ، ولو بواسطة بناته .

وأما البيت المذكور فالمراد به الجهة الأولى والاعتبار الأول .

فإن بني البنات ، ليسوا أبناء لآباء أمهاتهم من تلك الجهة ، ولا بذلك الاعتبار لأنهم لم يخلقوا من مائهم ، وإنما خلقوا من ماء رجال آخرين ، ربما كانوا أباعد وربما كانوا أعداء .

فصح بهذا الاعتبار نفي البنوة عن ابن البنت .

وصح بالاعتبار الأول إثبات البنوة له ولا تناقض مع انفكاك الجهة .

وإذا عرفت معنى الجهتين المذكورتين وأنه بالنظر إلى إحداهما تثبت البنوة لابن البنت

وبالنظر إلى الأخرى تنتفي عنه .

فاعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم : " إن ابني هذا سيد " وقوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾ [النساء : 23] ونحوها من الآيات ينزل على إحدى الجهتين :

وقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب : 40] يتنزل على الجهة الأخرى . وتلك الجهة هي التي يعني الشاعر بقوله :

وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد . . . ويزيد ذلك إيضاحاً : أن قبائل العرب قد تكون بينهم حروب ومقاتلات ، فيكون ذلك القتال بين أعمام الرجل وأخواله ، فيكون مع عصبته دائماً على أخواله ، كما في البيت المذكور .

وقد يكون الرجل منهم في أخواله فيعاملونه معاملة دون معاملتهم لأبنائهم . كما أوضح ذلك غسان بن وعلة في شعره حيث يقول :

إذا كنت في سعد وأمك منهم . . . شطيراً فلا يغررك خالك من سعد

فإن ابن أخت القوم مصغي إناؤه . . . إذا لم يزاحم خاله بأب جلد

فقوله مصغي إناؤه من الإصغاء وهو الإمالة ، لأن الإناء إذا أميل ولم يترك معتدلاً لم يتسع إلا للقليل ، فهو كناية عن نقص نصيبه فيهم وقلته .

وعلى الجهتين المذكورتين يتنزل اختلاف الصحابة في ميراث الجد والإخوة .

فمن رأى منهم أنه أب يحجب الإخوة ، فقد راعى في الجد إحدى الجهتين .

ومن رأى منهم أنه ليس بأب وأنه لا يحجب الإخوة فقد لاحظ الجهة الأخرى .

ولم نطل الكلام هنا في جميع الألفاظ المذكورة التي هي أحد عشر لفظاً خوف الإطالة .

ولأننا لم نجد نصوصاً من الوحي تحدد شيئاً منها تحديداً دقيقاً .

ومعلوم أن لفظ القوم منها قد دل القرآن على أنه يختص بالذكور دون الإناث .

وإن الإناث قد يدخلن فيه بحكم التبع إذا اقترن بما يدل على ذلك .

لأن الله تعالى قال : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ [الحجرات : 11] الآية . فعطفه على النساء على القوم يدل على عدم دخولهن في لفظ القوم .

ونظيره من كلام العرب قول زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري . . . قوم آل حصن أم نساء

وأما دخول النساء في القوم بحكم التبع عند الاقتران بما يدل على ذلك ، فقد بينه قوله تعالى في ملكة سبأ : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل : 43] .

وأما الموالي فقد دل القرآن واللغة على أن المولى يطلق على كل من له سبب يوالي ويوالى به .

ولذا أطلق على الله أنه مولى المؤمنين لأنهم يوالونه بالطاعة ويواليهم بالجزاء .

ونفى ولاية الطاعة عن الكافرين في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمَنُواْ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 11] .

وأثبت له عليهم ولاية الملك والقهر في قوله تعالى : ﴿ وردوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحق وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 30] . كما أثبت لهم ولاية النار في قوله : ﴿ مَأْوَاكُمُ النار هِيَ مَوْلاَكُمْ ﴾ [الحديد : 15] الآية .

(55/691)

وأطلق تعالى اسم الموالي على العصبة في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الوالدان والأقربون ﴾ [النساء : 33] .

وأطلق اسم المولى على الأقارب ونحوهم في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ﴾ [الدخان : 41] .

ويكثر في كلام العرب إطلاق الموالي على العصبة وابن العم ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا . . . لا تظهرن لنا ما كان مدفونا

وقول طرفة بن العبد :

وأعلم علماً ليس بالظن أنه . . . إذ ذل مولى المرء فهو ذليل

والحاصل أن من قال هذا وقف ، أو صدقة على قومي ، أو موالي أنه إن كان هناك عرف خاص ، وجب اتباعه في ذلك ، وإن لم يكن هناك عرف فلا نعلم نصاً من كتاب ولا سنة يحدد ذلك تحديداً دقيقاً .

وكلام أهل العلم فيه معروف في محاله .

والعلم عند الله تعالى .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

وقالوا : أي قال كفار مكة ، لولا أي هلا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين ، أي من إحدى القريتين ، وهما مكة والطائف عظيم يعنون بعظمه ، كثرة ماله وعظم جاهه ، وعلو منزلته في قومه ، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب ، وفي مرة بن كعب يجتمع نسبه بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف .

وعظيم الطائف . هو عروة بن مسعود . وقيل حبيب بن عمرو بن عمير . وقيل هو كنانة بن عبد يا ليل وقيل غير ذلك .

وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولاً أن يبعث الله رسولاً من البشر كما أوضحناه مراراً .

ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله لم يبعث إلى البشر رسولاً إلا من البشر تنازلوا عن اقتراحهم إرسال رسل من الملائكة إلى اقتراح آخر ، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين المذكورين :

(56/691)

وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم ، وسخافة عقولهم ، حيث يجعلون كثرة المال ، والجاه في الدنيا ، موجباً لاستحقاق النبوة . وتنزيل الوحي .

ولذا زعموا ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، ليس أهلاً لإنزال هذا القرآن عليه ، لقلة ماله ، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه صلى الله عليه وسلم .

وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة ، شدة جهلهم ، وسخافة عقولهم ، بقوله ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك النبوة وإنزال الوحي .

وإطلاق الرحمة على ذلك متعدد في القرآن كقوله تعالى في الدخان ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الدخان : 5 – 6] الآية ، وقوله في آخر القصص ﴿ وَمَا كُنتَ ترجوا أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص : 86] الآية ، وقوله في آخر الأنبياء

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] .

وقد قدمنا الآيات الدالة ، على إطلاق الرحمة : والعلم على النبوة في سورة الكهف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الكهف : 65] الآية .

وقدمنا معاني إطلاق الرحمة ، في القرآن في سورة فاطر ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر : 2] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [32] يعني أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معايشهم وحظوظهم ، في الدنيا ، بل تولى هو جل وعلا قسمة ذلك بينهم ، فجعل هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا رفيعاً ، وهذا وضيعاً ، وهذا خادماً ، وهذا مخدوماً ، ونحو ذلك فإذا لم يفوض إليهم ، حظوظهم في الدنيا ، ولم يحكمهم فيها .

(57/691)

بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء كيف شاء ، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحي حتى يتحكموا في من ينزل إليه الوحي ؟

فهذا مما لا يعقل ولا يظنه إلا غبي جاهل كالكفار المذكورين .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّا ﴾ التحقيق إن شاء الله أنه من التسخير .

ومعنى تسخير بعضهم لبعض ، خدمة بعضهم البعض ، وعمل بعضهم لبعض ، لأن نظام العالم في الدنيا ، يتوقف قيامه على ذلك فمن حكمته جل وعلا ، أن يجعل هذا فقيراً مع كونه قوياً قادراً على العمل ، ويجعل هذا ضعيفاً لا يقدر على العمل بنفسه ، ولكنه تعالى يهيئ له دراهم ، يؤجر بها ذلك الفقير القوي فينتفع القوي بدراهم الضعيف ، والضعيف بعمل القوي فتنتظم المعيشة ، لكل منهما وهكذا .

وهذه المسائل التي ذكرها الله جل وعلا ، في هذه السورة الكريمة جاءت كلها موضحة في آيات أخر من كتاب الله .

أما زعمهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أنقص شرفاً ، وقدراً من أن ينزل عليه الوحي ، فقد ذكره الله عنهم في (ص) في قوله تعالى ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا بْل هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ [ص : 8] الآية .

فقول كفار مكة ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ [ص : 8] معناه إنكارهم ، أن يخصه الله بإنزال الوحي من بينهم ، لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه ، لكثرة ماله ، وجاهه وشرفه فيهم .

وقد قال قوم صالح ، مثل ذلك لصالح ، كما قال تعالى منهم ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر : 25] .

فقلوب الكفار متشابهة فكانت أعمالهم متشابهة .

كما قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة : 118] وقال تعالى ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : 53] .

(58/691)

وأما اقتراحهم إنزال الوحي على غيره منهم ، وأنهم لا يرضون خصوصيته بذلك دونهم ، فقد ذكره تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الله ﴾ [الأنعام : 124] وقوله تعالى في المدثر ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر : 52] .

أي تنزل عليه صحف بالوحي من السماء ، كما قال مجاهد وغير واحد ، وهو ظاهر القرآن .

وفي الآية قول آخر معروف .

وأما إنكاره تعالى عليهم ، اقتراح إنزال الوحي على غير محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي

دلت عليه همزة الإنكار المتضمنة مع الإنكار لتجهيلهم، وتسفيه عقولهم، في قوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: 32]. فقد أشار تعالى إليه مع الوعيد الشديد في الأنعام.

لأنه تعالى لما قال ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ ﴾ [الأنعام: 124] أتبع ذلك بقوله، رداً عليهم، وإنكاراً لمقالتهم ﴿ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: 124].

ثم أوعدهم على ذلك بقوله ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: 124].

وأما كونه تعالى هو الذي تولى قسمة معيشتهم بينهم، فقد جاء في مواضع أخر كقوله تعالى:

﴿ وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ [النحل: 71]. وقوله تعالى ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: 21] وقوله تعالى: ﴿ اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: 26] وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا

يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : 27] وقوله تعالى : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَولى بِهِمَا ﴾ [النساء : 135] الآية .

وقد أوضح تعالى حكمة هذا التفاضل ، والتفاوت في الأرزاق ، والحظوظ والقوة والضعف ، ونحو ذلك بقوله هنا ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [الزخرف : 32] ، كما تقدم .

وقوله تعالى هنا ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . يعني أن النبوة ، والاهتداء يهدي الأنبياء ، وما يناله المهتدون يوم القيامة ، خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها .

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى ، في غير هذا الموضع ، كقوله في سورة يونس ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : 58] وقوله تعالى في آل عمران ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران : 157] .

مسألة

دلت هذه الآيات الكريمة ، المذكورة هنا ، كقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ [الزخرف : 32] الآية . وقوله ﴿ واللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرزق ﴾ [النحل : 71] الآية ونحو ذلك من الآيات ، على أن تفاوت الناس في الأرزاق ، والحظوظ سنة ، من سنن الله السماوية الكونية ، القدرية ، لا يستطيع أحد من أهل الأرض ، البتة تبديلها ، ولا تحويلها ، بوجه من الوجوه ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : 43] .

وبذلك تحقق أن ما يتذرع به الآن الملاحدة المنكرون لوجود الله ، ولجميع النبوات ، والرسائل السماوية ، إلى ابتزاز ثروات الناس ، ونزع ملكهم الخاص ، عن أملاكهم بدعوى المساواة بين الناس ، في معايشهم أمر باطل . لا يمكن بحال من الأحوال .

مع أنهم لا يقصدون ذلك الذي يزعمون . وإنما يقصدون استئثارهم ، بأملاك جميع الناس ، ليتمتعوا بها ويتصرفوا فيها ، كيف شاءوا ، تحت ستار كثير من أنواع الكذب ، والغرور والخداع ، كما يتحققه كل عاقل مطلع على سيرتهم ، وأحوالهم مع المجتمع في بلادهم .

فالطغمة القليلة الحاكمة ، ومن ينضم إليها ، هم المتمتعون بجميع خيرات البلاد . وغيرهم من عامة الشعب . محرومون من كل خير . مظلومون في كل شيء . حتى ما كسبوه بأيديهم ، يعلفون ببطاقة ، كما تعلف البغال والحمير .

وقد علم الله جل وعلا في سابق علمه أنه يأتي ناس يغتصبون أموال الناس بدعوى أن هذا فقير وهذا غني وقد نهى جل وعلا عن اتباع الهوى بتلك الدعوى ، وأوعد من لم ينته عن ذلك ، بقوله تعالى : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَولى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الهوى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء : 135] . وقوله : ﴿ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء : 135] فيه وعيد شديد لمن فعل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(62/691)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) ﴾

لما ذكَّرهم الله بالأمم الماضية وشبه حالهم بحالهم ساق لهم أمثالاً في ذلك من مواقف الرسل مع أممهم منها قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه .

وابتدأ بذكر إبراهيم وقومه إبطالاً لقول المشركين : ﴿ إنا وجدْنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف : 22] ، بأن أوْلى آبائهم بأن يقتدوا به هو أبوهم الذي

يفتخرون بنسبته إبراهيم .

وجملة وإذ قال إبراهيم ﴾ عطف على عموم الكلام السابق من قوله : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ ﴾ [الزخرف : 23] إلى قوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ ، وهو عطف الغرض على الغرض .

و ﴿ إذْ ﴾ ظرف متعلق بمحذوف ، تقديره : واذْكُر إذ قال إبراهيم ، ونظائر هذا كثيرة في القرآن كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ في سورة البقرة (30) .

والمعنى : واذكر زمان قول إبراهيم لأبيه وقومه قولاً صريحاً في التبرّؤ من عبادة الأصنام .

وخُصَّ أبو إبراهيم بالذكر قبلَ ذكر قومه وما هو إلا واحد منهم اهتماماً بذكره لأن براءة إبراهيم مما يَعبُد أبُوه أدَلُّ على تجنب عبادة الأصنام بحيث لا يتسامح فيها ولو كان الذي يعبدها أقربَ النّاس إلى موحّد الله بالعبادة مثل الأبِ ، ولتكون حكاية كلام إبراهيم قدوة لإبطال قول المشركين ﴿ وإنّا على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف : 22] قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برءؤا منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ [الممتحنة : 4] أي فما كان لكم أن تقتدوا بآبائكم المشركين وهلا اقتديتم بأفضل آبائكم وهو إبراهيم .

والبَرَاء بفتح الباء مصدر بوزن الفَعال مثل الظَّماء والسّماع يخبر به ويوصف به في لغة أهل العالية وهي ما فوق نجد إلى أرض تهامة مما وراء مكّة وأما أهل نجد فيقولون بَريء .

(63/691)

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ استثناء من (ما تعبدون) ، و (ما) موصولة أي من الذين تعبدونهم فإن قوم إبراهيم كانوا مشركين مثل مشركي العرب .

وقد بسطنا ذلك فيما تقدم عند قوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتّخذ أصناما آلهة ﴾ [الأنعام : 74] .

وفرع على هذا قوله : ﴿ فإنه سيهدين ﴾ لأن قوله : ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ يتضمن معنى : إنني اهتديت إلى بطلان عبادتكم الأصنام بهدي من الله .

وسين الاستقبال مؤذنة بأنه أخبرهم بأن هداية الله إياه قد تمكنت وتستمر في المستقبل ، ويفهم أنها حاصلة الآن بفحوى الخطاب .

وتوكيد الخبر بـ (إنّ) منظور فيه إلى حال أبيه وقومه لأنهم ينكرون أنه الآن على هدى فهم ينكرون أنه سيكون على هدى في المستقبل .

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)

عطف على ﴿ إذ قال إبراهيم ﴾ [الزخرف : 26] أي أعلن تلك المقالة في قومه معاصريه وجعلها كلمة باقية في عقبه ينقلونها إلى معاصريهم من الأمم .

إذ أوصى بها بنيه وأن يوصوا بَنِيهم بها ، قال تعالى في سورة البقرة (131 132) ﴿ إذ قال لَه ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ فبتلك الوصية أبقى إبراهيم توحيد الله بالإلهية والعبادة في عقبه يبثونه في النّاس .

ولذلك قال يوسف لصاحبيه في السجن ﴿ يا صاحبيَ السجن آرْباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] وقال لهما ﴿ إنّي تركتُ ملة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعتُ ملة آبائِيَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكن أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ [يوسف : 37 40] .

(64/691)

فضمير الرفع في ﴿ جعلها ﴾ عائد إلى إبراهيم وهو الظاهر من السياق والمناسب لقوله : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ ولأنه لم يتقدم اسم الجلالة ليعود عليه ضمير ﴿ جعلها ﴾ .

وحكى في "الكشاف" إنه قيل : الضمير عائد إلى الله وجزم به القرطبي وهو ظاهر كلام أبي

بكر بن العربي .

والضمير المنصوب في قوله : ﴿ وجعلها ﴾ عائد إلى الكلام المتقدم .

وأنث الضمير لتأويل الكلام بالكلمة نظراً لوقوع مفعوله الثاني لفظ ﴿ كلمة ﴾ لأن الكلام يطلق عليه ﴿ كلمة ﴾ كقوله تعالى في سورة المؤمنين (100) ﴿ إنها كلمةٌ هو قائلها ﴾ أي قولَ الكافر ﴿ رَبِّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تَركْتُ ﴾ [المؤمنون : 99 ، 100] .

وقال تعالى : ﴿ كبرت كلمةٌ تخرج من أفواههم ﴾ [الكهف : 5] وهي قولهم : ﴿ اتّخذ الله ولداً ﴾ [البقرة : 116] وقد قال تعالى : ﴿ وأوصى بها إبراهيم بنيه ﴾ [البقرة : 132] ، أي بقَوله : ﴿ أسلمت لربّ العالمين ﴾ [البقرة : 131] فَأعاد عليها ضمير التأنيث على تأويل (الكلمة) .

واعلم أنه إنّما يقال للكلام كلمة إذا كان كلاماً سائراً على الألسنة متمثلاً به ، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم " أصدق كلمة قالها شاعر كلمةُ لبيد : ألاَ كلُ شيء ما خلا الله باطل " أو كان الكلام مجعولاً شعاراً كقولهم : لا إله إلا الله كلمة الإسلام ، وقال تعالى : ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ [التوبة : 74] " .

فالمعنى : جعَل إبراهيم قوله : ﴿ إنني براءٌ مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ [الزخرف :

26 ، 27] شعاراً لعقبه ، أي جعلها هي وما يرادفها قولاً باقياً في عقبه على مرّ الزمان فلا يخلو عقب إبراهيم من موحدين لله نابذين للأصنام .

(65/691)

وأشعر حرف الظرفية بأن هاته الكلمة لم تنقطع بين عقب إبراهيم دون أن تعمّ العقب ، فإن أريد بالعقب مجموعُ أعقابه فإن كلمة التوحيد لم تنقطع من اليهود وانقطعت من العرب بعد أن تقلدوا عبادة الأصنام إلاّ من تَهوّد منهم أو تنصَّر ، وإن أريد مِن كُل عقب فإن العرب لم يخلو من قائم بكلمة التوحيد مثل المتَنَصِّرين منهم كالقبائل المتنصرة وورقة بن نوفل ، ومثل المتحنفين كزيد بن عَمرو بن نُفيل ، وأُمية بن أبي الصلت .

وذلك أن ﴿ في ﴾ ترد للتبعيض كما ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ في سورة النساء (5) .

وقال سَبْرة بن عَمرو الفقعسي من الحماسة :

ونَشْرب في أثمانها ونُقامر

والعقب : الذرية الذين لا ينفصلون من أصلهم بأنثى ، أي جعل إبراهيم كلمة التوحيد باقية في عقبه بالوصاية عليها راجياً أنهم يرجعون ، أي يتذكرون بها التوحيد إذا رانَ رَيْن على

قلوبهم ، أو استحسنوا عبادةَ الأصنام كما قال قوم موسى : ﴿ اجْعَل لنا إلها كما لهم آلهةٌ ﴾ [الأعراف : 138] فيهتدون بتلك الكلمة حين يضيق الزّمن عن بسط الحجة .

وهذا شأن الكلام الذي يجعل شعاراً لشيء فإنه يكون أصلاً موضوعاً قد تبيّن صدقه وإصابته ، فاستحضاره يغني عن إعادة بسط الحجة له .

وجملة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ لأن جعله كلمة ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ [الزخرف : 26] باقية في عقبه ، أراد منه مصالح لعقبه منها أنه رَجا بذلك أن يرجعوا إلى نبذ عبادة الأصنام إن فُتنوا بعبادتها أو يتذكروا بها الإقلاع عن عبادة الأصنام إن عبدوها ، فمعنى الرجوع ، العود إلى ما تدل عليه تلك الكلمة .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾ [الزخرف : 48] ، أي لعلهم يرجعون عن كفرهم .

(66/691)

فحرف (لعل) لإنشاء الرجاء ، والرجاء هنا رَجاء إبراهيم لا محالة ، فتعيّن أن يقدر معنى قولٍ صادر من إبراهيم بإنشاء رجائه ، بأن يقدر : قال : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ ، أو قائلاً :

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ .

والرّجوع مستعار إلى تغيير اعتقاد طارىء باعتقاد سابق ، شبه ترك الاعتقاد الطارىء والأخذ بالاعتقاد السابق برجوع المسافر إلى وطنه أو رجوع الساعي إلى بيته .

والمعنى : يرجع كل من حاد عنها إليها ، وهذا رجاؤه قد تحقق في بعض عقبه ولم يتحقق في بعضٍ كما قال تعالى : ﴿ قال ومن ذريّتي قال لا ينال عهدي الظّالمين ﴾ [البقرة : 124] أي المشركين .

ولعل ممن تحقق فيه رجاء إبراهيم عمود نسب النبي صلى الله عليه وسلم وإنما كانوا يكتمون دينهم تقية من قومهم ، وقد بسطتُ القول في هذا المعنى وفي أحوال أهل الفترة في هذه الآية في رسالة "طهارة النسب النبوي من النقائص" .

وفي قوله : ﴿ وجعلها كلمة باقيةً في عقبه ﴾ إشعار بأن وحدانية الله كانت غير مجهولة للمشركين ، فيتجه أن الدعوة إلى العلم بوجود الله ووحدانيته كانت بالغة لأكثر الأمم بما تناقلوه من أقوال الرّسل السابقين ، ومن تلك الأمم العرب ، فيتجه مؤاخذةُ المشركين على الإشراك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم أهملوا النظر فيما هو شائع بينهم أو تغافلوا عنه أو أعرضوا .

فيكون أهل الفترة مؤاخذين على نبذ التوحيد في الدّنيا ومعاقَبين عليه في الآخرة وعليه يُحمل ما ورد في صحاح الآثار من تعذيب عَمرو بن لُحيَ الذي سنّ عبادة الأصنام وما

روي أن امرأ القيس حامل لواء الشعراء إلى النّار يوم القيامة وغير ذلك .

وهذا الذي يناسب أن يكون نظر إليه أهل السنة الذين يقولون : إن معرفة الله واجبة بالشرع لا بالعقل وهو المشهور عن الأشعري ، والذين يقولون منهم : إن المشركين من أهل الفترة مخلَّدون في النّار على الشرك .

(67/691)

وأما الذين قالوا بأن معرفة الله واجبة عقلاً وهو قول جميع المَاتريدية وبعض الشافعية فلا إشكال على قولهم .

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29)

إضراب عن قوله : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ [الزخرف : 28] ، وهو إضراب إبطال ، أي لم يحصل ما رجاه إبراهيم من رجوع بعض عقبه إلى الكلمة التي أوصاهم برعيها .

فإن أقدم أمة من عقبه لم يرجعوا إلى كلمته ، وهؤلاء هم العرب الذين أشركوا وعبدوا الأصنام .

وبعدَ ﴿ بل ﴾ كلام محذوف دلّ عليه الإبطال وما بعد الإبطالِ ، وتقديرُ المحذوف : بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم الأولون إلى التوحيد ولم يتبرأوا من عبَادة الأصنام ولا أخذوا بوصاية

إبراهيم .

وجملة ﴿ مَتَّعتُ هؤلاء وآباءهم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لسائل يسأل عما عاملهم الله به جزاء على تفريطهم في وصاية إبراهيم وهلا استأصلهم .

كما قال : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير ﴾ إلى قوله : ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ [الزخرف : 23 25] ، فأجيب بأن الله متعهم بالبقاء إلى أن يجيئهم رسول بالحق وذلك لحكمة علمها الله يرتبط بها وجود العرب زمناً طويلاً بدون رسول ، وتأخُّرُ مجيء الرّسول إلى الإبان الذي ظهر فيه .

وبهذا الاستئناف حصل التخلص إلى ما بدا من المشركين بعد مجيء الرّسول صلى الله عليه وسلم من فظيع توغلهم في الإعراض عن التوحيد الذي كان عليه أبوهم فكان موقع ﴿ بل ﴾ في هذه الآية أبلغ من موقعها في قول لبيد :

بل ما تذكر من نوارَ وقد نأت

وتَقَطعت أسبابُها ورمَامها . . .

إذ كان انتقاله اقتضاباً وكان هنا تخلصاً حَسناً .

و﴿ هؤلاء ﴾ إشارة إلى غير مذكور في الكلام ، وقد استقريْتُ أن مصطلح القرآن أن يريد بمثله مشركي العرب ، ولم أر من اهتدى للتنبيه عليه ، وقد قدّمتهُ عند قوله تعالى : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ في سورة النساء (41) وفي مواضع أخرى .

والمراد بآبائهم آباؤهم الذين سنّوا عبادة الأصنام مثل عَمْرو بن لُحَيٍّ والذين عبدوها من بعده .

وتمتيع آبائهم تمهيد لتمتِيع هؤلاء ، ولذلك كانت غاية التمتيع مجيءَ الرّسول فإن مجيئه لهؤلاء .

والتمتيع هنا التمتيع بالإمهال وعدم الاستئصال كما تدلّ عليه الغاية في قوله : ﴿ حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ .

والمراد بـ ﴿ الحق ﴾ القرآن كما يدل عليه قوله : ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر ﴾ [الزخرف : 30] وقوله : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وهذه الآية ثناء راجع على القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة .

فإنه لما جاء القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم انتهى التمتيع وأُخذوا بالعذاب تدريجاً إلى أن كان عذاب يوم بدر ويوم حنين ، وهدى الله للإسلام من بقي يومَ فتح مكة وأيامَ الوفود .

وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ وأممٌ سنمتعهم ثم يمسهم منا عذابٌ أليمٌ ﴾ في سورة هود (48) .

والحق الذي جاءهم هو : القرآن ، والرّسول المبين : محمد ووصفه بـ مبين ﴾ لأنه أوضَحَ الهُدى ونصبَ الأدلةَ وجاء بأفصح كلام .

فالإبانة راجعة إلى معاني دينه وألفاظ كتابه .

والحكمة في ذلك أن الله أراد أن يشرف هذا الفريق من عقب إبراهيم بالانتشال من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام واتباع أفضل الرّسل وأفضل الشرائع ، فيجبرَ لأمّةَ من عَقِب إبراهيم ما فرطوا فيه من الاقتداء بأبيهم حتى يكمل لدعوته شرف الاستجابة .

(69/691)

والمقصود من هذا زيادة الإمهال لهم لعلهم يتذكرون كما قال تعالى : ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنّا أهدى منهم فقد جاءكم بيّنةٌ من ربّكم وهدىً ورحمةٌ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون

عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ [الأنعام : 155 157] .

ويستروح من قوله تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ إلى قوله : ﴿ وآباءهم ﴾ [الزخرف : 28 ، 29] أنّ آباء النبي صلى الله عليه وسلم في عمود نسبه لم يكونوا مضمرين الشركَ وأنهم بعضُ من عقب إبراهيم الذين بقيت كلمته فيهم ولم يجهروا بمخالفة قومهم اتقاءَ الفتنة .

ولا عجب في ذلك فإن تغيير المنكر إنّما وجب بالشرع ولم يكن لديهم شرع .

وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30)

تعجيب من حال تغافلهم ، أي قد كان لهم بعض العذر قبل مجيء الرّسول صلى الله عليه وسلم والقرآن لأن للغفلات المتقادمة غشاوة تُصَيِّر الغفلة جهالة ، فكان الشأن أن يستيقظوا لمَّا جاءهم الحق ورسول مبين فيتذكروا كلمة أبيهم إبراهيم ، ولكنهم لما جاءهم الحق قالوا : هذا سِحر ، أي قالوا للرّسول : هذا ساحر ، فازدادوا رَيْناً على رَيْن .

فالخبر مستعمل في التعجيب لا في إفادة صدور هذا القول منهم لأن ذلك معلوم لهم وللمسلمين .

وفي تعقيب الغاية بهذا الكلام إيذان بأن تمتيعهم أصبح على وشك الانتهاء .

فجملة ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر ﴾ معطوفة على جملة ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ [الزخرف : 29] فإن ﴿ لما ﴾ توقيتية فهي في قوة ﴿ حتى الغائيَّة كأنه قيل : متعت هؤلاء وآباءهم ، فلما جاءهم الحق عقِبَ ذلك التمتيع لم يستفيقوا من غفلتهم وقالوا : هذا سحر ، أي كانوا قبل مجيء الحق مشركين عن غفلة وتساهل ، فلما جاءهم الحق صاروا مشركين عن عناد ومكابرة .

وجملة وإنا به كافرون ﴾ مقول ثانٍ ، أي قالوا : هذا سحر فلا نلتفت إليه وقالوا إنا به ، أي بالقرآن ، كافرون ، أي سواء كان سحراً أم غيره ، أي فرضوا أنه سحر ثم ارتقوا فقالوا إنّا به كافرون ، أي كافرون بأنه من عند الله سواء كان سحراً أم شعراً أم أساطيرَ الأولين .

ولهذا المعنى أكدوا الخبر بحرف التأكيد ليُؤْيسوا الرّسول صلى الله عليه وسلم من إيمانهم به .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

عطف على جملة ﴿ قالوا هذا سحر ﴾ [الزخرف : 30] فهو في حيّز جواب ﴿ لمّا ﴾ [الزخرف : 30] التوقيتية واقع موقع التعجيب أيضاً ، أي بعد أن أخذوا يتعللون بالعلل لإنكار الحق إذ قالوا للقرآن : هذا سحر ، وإذ كان قولهم ذلك يقتضي أن الذي جاء بالقرآن ساحِر انتُقل إلى ذِكر طعن آخر منهم في الرّسول بأنه لم يكن من عظماء أهل القريتين .

ولولا ﴾ أصله حرف تحْضيض ، استعمل هنا في معنى إبطال كونه رسولاً على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الملازمة لأن التحْضيض على تحصيل ما هو مقطوع بانتفاء حصوله يستلزم الجزم بانتفائه .

والقريتان هما : مكة والطائف لأنّهما أكبر قُرى تهامة بلد القائلين وأما يثرب وتيماء ونحوهما فهي من بلد الحجاز .

(71/691)

فالتعريف في ﴿ القريتين ﴾ للعهد ، جعلوا عماد التأهل لسيادة الأقوام أمرين : عظمة المسوّد ، وعظمة قريته ، فهم لا يدينون إلا من هو من أشهر القبائل في أشهر القرى لأن القرى هي مأوى شؤون القبائل وتموينهم وتجارتهم ، والعظيم : مستعار لصاحب السؤدد في قومه ، فكأنه عظيم الذات .

روي عن ابن عباس أنهم عَنَوْا بعظيم مكة الوليدَ بن المغيرة المخزومي ، وبعظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي .

وعن مُجاهد أنهم عنَوا بعظيم مكة عتبة بن رَبيعة وبعظيم الطائف كنانة بن عبد يَالِيل .

وعن قتادة عنوا الوليدَ بن المغيرة وَعُروة بن مسعود الثقفي .

ثم يحتمل أنهم قالوا هذا اللّفظ المحكي عنهم في القرآن ولم يسموا شخصين معيّنَيْن ، ويحتمل أنهم سمّوا شخصين ووصفوهما بهذين الوصفين ، فاقتصر القرآن على ذكر الوصفين إيجازاً مع التنبيه على ما كانوا يؤهلون به الاختيار للرسالة تحميقاً لرأيهم .

وكان الرجلان اللّذان عَنوهما ذَوَيْ مال لأنّ سَعة المال كانت من مقومات وصف السؤدد كما حكي عن بني إسرائيل قولهم : ﴿ ولم يؤت سعةً من المال ﴾ [البقرة : 247] .

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ

إنكار عليهم قولهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] ، فإنهم لما نصبوا أنفسهم منصب من يتخير أصناف النّاس للرسالة عن الله ، فقد جعلوا لأنفسهم ذلك لا لله ، فكان من مقتضَى قولهم أن الاصطفاء للرسالة بيدهم ، فلذلك قُدّم ضمير ﴿ هُمْ ﴾ المجعول مسنداً إليه ، على مسندٍ فعلي ليفيد معنى الاختصاص فسلط الإنكار على هذا الحصر إبطالاً لقولهم وتخطئة لهم في تحكمهم .

ولما كان الاصطفاء للرسالة رحمة لمن يُصطفَى لها ورحمة للنّاس المرسل إليهم ، جعل تحكمهم في ذلك قسمة منهم لرحمة الله باختيارهم من يُختار لها وتعيين المتأهل لإبلاغها إلى المرحومين .

ووُجِّه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأضيف لفظ (الرب) إلى ضميره إيماء إلى أن الله مؤيده تأنيساً له ، لأن قولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] قصدوا منه الاستخفاف به ، فرفع الله شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم بالإقبال عليه بالخطاب وبإظهار أن الله ربّه ، أي متولي أمره وتدبيره .

وجملة ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾ تعليل للإنكار والنفي المستفاد منه ، واستدلال عليه ، أي لما قسمنا بين النّاس معيشتهم فكانوا مسيَّرين في أمورهم على نحو ما هيّأنا لهم من نظام الحياة وكان تدبير ذلك لله تعالى ببالغ حكمته ، فجَعل منهم أقوياء وضعفاء ، وأغنياء ومحاويج ، فسخر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب دواعي حاجة الحياة ، ورفع بذلك بعضهم فوق بعض ، وجعل بعضهم محتاجاً إلى بعض ومُسخّراً به .

فإذا كانوا بهذه المثابة في تدبير المعيشة الدّنيا ، فكذلك الحال في إقامة بعضهم دون بعض للتبليغ فإن ذلك أعظم شؤون البشر .

فهذا وجه الاستدلال .

والسخريّ بضم السين وبكسرها وهما لغتان ولم يقرأ في القراءات المشهورة إلا بضم السين .

وقرأ ابن محيص في الشاذّ بكسر السين : اسم للشيء المسخر ، أي المجبور على عملٍ بدون اختياره ، واسمٌ لمن يُسْخَر به ، أي يستهزأ به كما في "مفردات" الراغب و"الأساس"

و"القاموس" .

وقد فُسر هنا بالمعنيين كما قال القرطبي .

وقال ابن عطية : هما لغتان في معنى التسخير ولا تدخُّلَ لمعنى الهُزء في هذه الآية .

ولم يَقل ذلك غيره وكلام الراغب محتمل .

واقتصر الطبري على معنى التسخير .

فالوجه في ذلك أن المعنيين معتبران في هذه الآية .

(73/691)

وإيثار لفظ ﴿ سخرياً ﴾ في الآية دون غيره لتحمُّله للمعنيين وهو اختيار من وجوه الإعجاز فيجوز أن يكون المعنى ليتعمل بعضهم بعضاً في شؤون حياتهم فإن الإنسان مدني ، أي محتاج إلى إعانة بعضه بعضاً ، وعليه فسّر الزمخشري وابن عطية وقاله السُّدي وقتادة والضحاك وابن زيد ، فلام ﴿ ليتخذ ﴾ لام التعليل تعليلاً لفعل ﴿ قسمنا ﴾ ، أي قسمنا بينهم معيشتهم ، أي أسبابَ معيشتهم ليستعين بعضهم ببعض فيتعارفوا ويتجمعوا لأجل حاجة بعضهم إلى بعض فتتكون من ذلك القبائل والمدن .

وعلى هذا يكون قوله : ﴿ بعضهم بعضاً ﴾ عاماً في كل بعض من النّاس إذ ما من أحد إلا

وهو مستعمِل لغيره وهو مستعمَل لغيرٍ آخر .

ويجوز أن تكون اسماً من السُّخرية وهي الاستهزاء .

وحكاه القرطبي ولم يعيّن قائله وبذلك تكون اللام للعاقبة مثل ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحَزَناً ﴾ [القصص : 8] وهو على هذا تعريض بالمشركين الذين استهزؤوا بالمؤمنين كقوله تعالى : ﴿ فاتّخذتموهم سُخْرِيّاً ﴾ في سورة قد أفلح المؤمنون (110) .

وقد جاء لفظ السخري بمعنى الاستهزاء في آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ فاتّخذتموهم سخريّاً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴾ [المؤمنون : 110] وقوله : ﴿ أَتَّخَذْناهم سُخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ [ص : 63] .

ولعل الذي عدل ببعض المفسرين عن تفسير آية سورة الزخرف بهذا المعنى استنكارُهم أن يكون اتخاذُ بعضهم لبعض مَسخرة علةً لفعل الله تعالى في رفعه بعضهم فوق بعض درجات ، ولكنّ تأويل اللّفظ واسع في نظائره وأشباهه .

وتأويل معنى اللام ظاهر .

(74/691)

وجملة ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ تذييل للرد عليهم ، وفي هذا التذييل ردّ ثانٍ عليهم بأن المال الذي جعلوه عماد الاصطفاء للرسالة هو أقل من رحمة الله فهي خير مما يجمعون من المال الذي جعلوه سبب التفضيل حين قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] فإن المال شيء جَمَعه صاحبه لنفسه فلا يكون مثل اصطفاء الله العبد ليرسله إلى النّاس .

ورحمة الله : هي اصطفاؤه عبدَه للرسالة عنه إلى الناس ، وهي التي في قوله : أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ، والمعنى : إذا كانوا غير قاسمين أقل أحوالهم فكيف يقسمون ما هو خير من أهم أمورهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(75/691)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ

(38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دلت صريح آية التمتيع وتلويح ما بعدها أن البسط في الرزق الموجب للعلو مع أنه خسيس المنزلة ناقص المقدار مقتض للخروج عن السواء ، وكان التقدير : فنحن نخص بهذا الخير للأفراد في الأدوار الآحاد من الأبرار لنستنقذ بهم من شئنا من الضلال ونعطي الحطام للعتاة الطغام الأرذال ابتلاء للعباد ليبين لهم أهل البغي من أهل الرشاد ، ولولا ما اقتضته حكمتنا بترتيب هذا الوجود على الأسباب من المفاوتة بين الناس لقيام الوجود لساوينا بينهم ، وعطف : عليه قوله مذكراً بلطفه بالمؤمنين وبره لهم برفعه ما يقضي لهم شديد المجاهدة وعظيم المصابرة والمكابدة لحال تزل فيه الأقدام عن سنن الهدى من الميل والإصغاء إلى مظان الغنى والملك وتمام المكنة والعظمة : ﴿ ولولا أن يكون الناس ﴾ أي أهل التمتع بالأموال بما فيهم من الاضطراب والأنس بأنفسهم ﴿ أمة واحدة ﴾ أي في الضلال بالكفر لاعتقادهم أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه لحبهم الدنيا وجعلها محط أنظارها وهممهم إلا من عصم الله ﴿ لجعلنا ﴾ أي في كل زمان وكل مكان بما لنا من العظمة التي لم يقدر أحد على معارضتها لحقارة الدنيا عندنا وبغضنا لها ﴿ لمن يكفر ﴾ وقوله : ﴿ بالرحمن ﴾ أي العام الرحمة دليل على حقارة الدنيا من جهة إعطائها

للمبعد الممقوت ، وعلى أن صفة الرحمة مقتضية لتناهي بسط النعم على الكافر لولا العلة التي ذكرها سبحانه من الرفق بالمؤمنين .

(76/691)

ولما كان تزيين الظرف دائماً بحسب زينة المظروف ، دل على ما لهم من ملابسهم ومراكبهم وغير ذلك من أمورهم بزينة المنازل ، فقال مبدلاً من ﴿ لمن ﴾ بدل الاشتمال لأن سوقه على طريق الإبدال أروع : ﴿ لبيوتهم ﴾ أي التي ينزلونها ﴿ سقفاً ﴾ أي هذا الجنس في قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالموحدة بدليل قراءة الباقين بضمتين جمعاً ﴿ من فضة ﴾ كأنه خصها لإفادتها النور ﴿ ومعارج ﴾ أي من فضة ، وهي المصاعد من الدرج لأن المشي عليها مثل مشي الأعرج ﴿ عليها يظهرون ﴾ أي يعلون ويرتقون على ظهورها إلى المعالي ﴿ ولبيوتهم أبواباً ﴾ أي من فضة أيضاً .

ولما كان إفراد السرير يوهم أنه واحد يدار به على الكل ، جمع ليفهم أن لكل واحد ما يخصه من الأسرة بخلاف السقف فإنه لا يهوم ذلك فلعله قرئ بإفراده وجمعه ، فقال :

﴿ وسرراً ﴾ بالجمع خاصة ، ودل على هدوء بالهم وصفاء أوقاتهم وأحوالهم بقوله :

﴿ عليها يتكئون ﴾ ودل على ما لا يتناهى من غير ذلك بقوله : ﴿ وزخرفاً ﴾ أي ذهباً وزينة عامة كاملة .

(77/691)

ولما كان لفظ الزخرف دالاً على كون ذلك أمراً ظاهرياً متلاشياً عند التحقيق ، دل عليه بقوله مؤكداً لما تقرر في النفوس من أن السادة في مثل ذلك ، وما كان مقرراً عندهم من أن السعيد في الأول سعيد في الآخرة على تقدير كونها : ﴿ وإن ﴾ أي وما ﴿ كل ذلك ﴾ أي الأمر البعيد عن الخير لكونه في الأغلب مبعداً مما يرضينا ، ولأن صاحبه لا يزال فقيراً وإن استوسقت له الدنيا ملكاً وملكاً ، لأنه لا بد أن يبقى في نفسه شيء لا تبلغه قدرته فهو لا يزال مغبوناً ﴿ لما ﴾ أي إلا – هذا على قراءة عاصم وحمزة بالتشديد : وهي في قراءة الباقين بالتخفيف فارقة بين النافية والمخففة ، وما مؤكدة والخبر هو ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ أي التي اسمها دال على دناءتها وأن لها ضرة هي الآخرة ، وهو منقطع بالموت ، فلذلك اقتضت رحمته أن لا يضيق على المؤمنين في الأغلب لأن السعة تنقصهم في الآخرة ويطول الحساب ﴿ والآخرة ﴾ التي لا دار تعدلها بل لا دار الحقيقة إلى هي .

ولما كانت الإضافة إلى الجليل دالة على جلالة المضاف إليه فقال : ﴿ عند ربك ﴾ وأشار

بالوصف بالرب إلى أن الجلالة بالحسن والراحة ، وبالإضافة إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أعلى الغايات ﴿ للمتقين ﴾ أي الذين هم دائماً واقفون عن أدنى تصرف إلا بدليل لا يشاركهم فيها غيرهم ، وهذا لما ذكر عمر ـ رضى الله عنه ـ كسرى وقيصر وما كانا فيه من النعم قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ألا ترضى أن يكون لهم الدنيا ولنا الأخرى " ولا يبعد أن يكون ما صار إليه الفسقة من الجبابرة من زخرفة الأبنية وتركيب السقوف وغيرها من مساوئ الفتنة بأن يكون الناس أمة واحدة بالكفر قرب الساعة حتى لا تقوم الساعة على من يقول : الله ، وفي زمن الدجال من يبقى إذ ذاك على الحق في غاية القلة بحيث إنهم لا عداد لهم في جانب الكفرة لأن كلام الملوك لا يخلو عن حقيقة ، وإن خرج مخرج الشرط فكيف بملك الملوك .

(78/691)

ولما كان التقدير : ولكنا لم نجعل ذلك علماً منا بأن الناس كادوا يكونون أمة واحدة وإن كنا نقيض من جبلناه على الخير على الإيمان لكن ينقصه ما أوتي في الدنيا من خطر في الآخرة لأن من وسع عليه في دنياه اشتغل في الأغلب عن ذكر الله فنفرت منه الملائكة ولزمته الشياطين ، فساقه ذلك إلى كل سوء ، ومن يتق الله فيديم ذكره يؤيده بملك فهو له معين ،

عطف عليه قوله معبراً عن غفلة البصيرة بالعشا الذي هو ضعف البصر تصوراً لمن ينسى ذكر الله بأقبح صورة تنفيراً عن ذلك ﴿ من يعش ﴾ أي يفعل فعل المعاشي ، وهو من شاء بصره بالليل والنهار أو عمي على قراءة شاذه وردت عن يعقوب بفتح الشين وركب الأمور متجاوزاً ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ الذي عمت رحمته ، فلا رحمة على أحد إلا وهي منه كما فعل هؤلاء حين متعناهم وآباءهم حيث أبطرهم ذلك ، وهو شيء يسير جداً ، فأعرضوا عن الآيات والدلائل فلم ينظروا فيها إلا نظراً ضعيفاً كنظر من عشي بصره ﴿ نقيض ﴾ أي نقرر ونسلط ونقدر عقاباً ﴿ له ﴾ على إعراضه عن ذكر الله ﴿ شيطاناً ﴾ أي شخصاً نارياً بعيداً من الرحمة يكون غالباً محيطاً به مضيقاً عليه مثل قيض البيضة وهو القشر الداخل ﴿ فهو له قرين ﴾ مشدود به كما يشد الأسير ، ملازم فلا يمكنه التخلص منه ما دام متعامياً عن ذكر الله ، فهو يزين له العمى ويخيل إليه أنه على عين الهدى ، كما أن من يستبصر بذكر الرحمن يسخر له ملك فهو له ولي يبشره بكل خير ، فذكر الله حصن حصين من الشيطان ، متى خرج العبد منه أسره العدو كما ورد في الحديث ، قال في القاموس : العشى مقصور : سوء البصر بالليل والنهار أو العمى ، عشى كرضى ودعا ، والعشوة بالضم والكسر : ركوب الأمر على غير بيان ، قال ابن جرير : وأصل العشو النظر بغير ثبت لعلة في العين ، وقال الرازي في اللوامع : وأصل اللغة أن العين والشين والحرف المعتل يدل على ظلام وقلة وضوح في الشيء .

ولما كانت ﴿ من ﴾ عامة ، وكان القرين للجنس ، وأفرده لأنه نص على كل فرد ، فكان التقدير : فإنهم ليحملونهم على أنواع الدنايا ويفتحون لهم أبواب الرذائل والبلايا ، ويحسنون لهم ارتكاب القبائح والرزايا ، عطف عليه قوله مؤكداً لما في أنفس الأغلب – كما أشار إليه آخر الآية – أن الموسع عليه هو المهتدي ، جامعاً دلالة على كثرة الضال : ﴿ وإنهم ﴾ أي القرناء ﴿ ليصدونهم ﴾ أي العاشين ﴿ عن السبيل ﴾ أي الطريق الذي من حاد عنه هلك ، لأنه لا طريق في الحقيقة سواه .

ولما كانت الحيدة عن السبيل إلى غير سبيل ، بل إلى معاطب لا يهتدي فيها دليل ، عجباً ، أتبعه عجباً آخر فقال : ﴿ ويحسبون ﴾ أي العاشون مع سيرهم في المهالك لتزيين القرناء بإحضار الحظوظ والشهوات وإبعاد المواعظ : ﴿ أنهم مهتدون ﴾ أي عريقون في هذا الوصف لما يستدرجون به من التوسعة عليهم والتضييق على الذاكرين .

ولما كان من ضل عن الطريق ، ومن ظن أنه على صواب لا يكاد يتمادى بل ينجلي له الحال عن قرب ضم إلى العجبين الماضيين عجباً ثالثاً بياناً له على ما تقديره : ونملي لهذا العاشي استدراجاً له وابتلاء لغيره ونمد ذلك طول حياته ﴿ حتى ﴾ وحقق الخبر بقوله : ﴿ إذا ﴾ ولما علم من الجمع فيما قيل أن المراد الجنس ، وكان التوحيد أدل دليل على تناول كل فرد ، فكان التعبير به أهول ، وكان السياق دالاً على من الضمير له قال : ﴿ جاءنا ﴾ أي العاشي ، ومن قرأ بالتثنية أراد العاشي والقرين ﴿ قال ﴾ أي العاشي تندماً وتحسراً لا انتفاع له به لفوات محله وهو دار العمل : ﴿ يا ليت بيني وبينك ﴾ أيها القرين ﴿ بعد المشرقين ﴾ أي ما بين المشرق والمغرب على التغليب – قاله ابن جرير وغيره ، أو مشرق الشتاء والصيف أي بعد أحدهما عن الآخر ؛ ثم سبب عن هذا التمني قوله جامعاً له أنواع المذام : ﴿ فبئس القرين ﴾ أي إني علمت أنك الذي أضلني وأوصلني إلى هذا العيش الضنك والمحل الدحض وأحسست في هذا الوقت بذلك الذي كنت تؤذيني به أنه أذى بالغ ، فكنت كالذي يحك جسمه لما به من قروح متأكلة حتى يخرج منه الدم فهو في أوله يجد له لذة بما هو مؤلم له في نفسه غاية الإيلام .

(81/691)

ولما كان الإيلام قد يؤذي الجسد ، وكان التقدير حتماً بما هدى إليه السياق فيقال لهم : فلن ينفعكم ذلك اليوم يوم جئتمونا إذ تمنيتهم هذا التمني حين عاينتم تلك الأهوال اشتراككم اليوم في يوم الدنيا في الظلم وتمالؤكم عليه ومنافرة بعضكم لبعض ، عطف عليه قوله : ﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾ أي في الدنيا شيئاً من نفع أصلاً ﴿ إذ ﴾ حين ﴿ ظلمتم ﴾ حال كونكم مشتركين في الظلم متعاونين عليه متناصرين فيه ، وكل واحد منكم يقول لصاحبه سروراً به وتقرباً إليه وتوددا : يا ليت أنا لا نفترق أبداً فنعم القرين أنت ، فيقال لهم توبيخاً :

﴿ أنكم في العذاب ﴾ أي العظيم ، وقدمه اهتماماً بالزجر به والتخويف منه

﴿ مشتركون ﴾ أي اشتراككم فيه دائماً ظلمكم أنفسكم ظلماً باطناً بأمور أخفاها الطبع على القلوب وهو موجب للارتباك في أشراك المعاصي الموصلة إلى العذاب الظاهر يوم التمني ويوم القيامة عذاباً ظاهراً محسوساً ، وذلك كمن يجرح جراحة بالغة وهو مغمي عليه فهو معذب بها قطعاً ، ولكنه لا يحس إلا إذا أفاق فهو كما تقول لأناس يريدون أن يتمالؤوا على قتل نفس محرمة : لن ينفعكم اليوم إذ تتعاونون على قتله اشتراككم غداً في الهلاك بالسجن الضيق والضرب المتلف وضرب الأعناق ، مرادك بذلك زجرهم عن ظلمهم بتذكيرهم بأنهم يصلون إلى هذا الحال ويزول ما هم فيه من المناصرة فلا ينفعهم شيء منها – والله الموفق ، فالآية من الاحتباك ، وبه زال عنها ما كان من إعراب المعربين لها موجباً

للارتباك " فيا ليت " - إلى آخره ، دال على تقدير ضده ثانياً " ولن ينفعكم " - إلى آخره ، دال على تقدير مثله أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 26 . 29 ﴾

(82/691)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى أجاب عن الشبهة التي ذكروها بناء على تفضيل الغني على الفقير بوجه ثالث وهو أنه تعالى بيّن أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله وبين حقارتها بقوله ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة ﴾ والمعنى لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتنعم أحدها : أن يكون سقفهم من فضة وثانيها : معارج أيضاً من فضة عليها يظهرون وثالثها : أن نجعل لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً أيضاً من فضة عليها يتكئون .

ثم قال : ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ وله تفسيران أحدها : أنه الذهب والثاني : أنه الزينة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت ﴾ [يونس : 24] فعلى التقدير الأول يكون المعنى ونجعل لهم مع ذلك ذهباً كثيراً ، وعلى الثاني أنا نعطيهم زينة عظيمة في كل باب ، ثم بيّن تعالى أن كل ذلك متاع الحياة الدنيا ، وإنما سماه متاعاً لأن الإنسان يستمتع به قليلاً ثم ينقضي في الحال ، وأما الآخرة فهي باقية دائمة ، وهي عند الله تعالى وفي حكمه للمتقين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى ، وحاصل الجواب أن أولئك الجهال ظنوا أن الرجل الغني أولى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره ، فبيّن تعالى أن المال والجاه حقيران عند الله ، وأنهما شرف الزوال فحصولهما لا يفيد حصول الشرف ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(83/691)

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ سَقْفاً ﴾ بفتح السين وسكون القاف على لفظ الواحد لإرادة الجنس ، كما في قوله ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : 26] والباقون سقفاً على الجمع واختلفوا فقيل هو جمع سقف ، كرهن ورهن ، قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما ، وقيل السقف جمع سقوف ، كرهن ورهون وزبر وزبور ، فهو جمع الجمع .

المسألة الثالثة :

قوله ﴿ لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ ﴾ فقوله ﴿ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿ لِمَن يَكْفُرُ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : قرىء معارج ومعاريج ، والمعارج جمع معرج ، أو اسم جمع لمعراج ، وهي المصاعد إلى المساكن العالية كالدرج والسلالم عليها يظهرون ، أي على تلك المعارج يطهرون ، وفي نصب قوله ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ قولان : قيل لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة ، ولجعلنا لهم زخرفاً وقيل من فضة وزخرف ، فلما حذف الخافض انتصب .

وأما قوله ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ قرأ عاصم وحمزة ﴿ لَّمّاً ﴾ بتشديد الميم ، والباقون بالتخفيف ، وأما قراءة حمزة بالتشديد فإنه جعل لما في معنى إلا ، وحكى سيبويه : نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، ويقوي هذه القراءة أن في حرف أبي ، وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا ، وهذا يدل على أن لما بمعنى إلا ، وأما القراءة بالتخفيف ، فقال الواحدي لفظة ما لغو ، والتقدير لمتاع الحياة الدنيا ، قال أبو الحسن : الوجه التخفيف ، لأن لما بمعنى إلا لا تعرف ، وحكي عن الكسائي أنه قال : لا أعرف وجه التثقيل .

المسألة الرابعة :

قالت المعتزلة : دلت الآية على أنه تعالى إنما لم يعط الناس نعم الدنيا ، لأجل أنه لو فعل بهم ذلك لدعاهم ذلك إلى الكفر ، فهو تعالى لم يفعل بهم ذلك لأجل أن يدعوهم إلى الكفر ، وهذا يدل على أحكام أحدها : أنه إذا لم يفعل بهم ما يدعوهم إلى الكفر فلأن لا يخلق فيهم الكفر أولى وثانيها : أنه ثبت أن فعل اللطف قائم مقام إزاحة العذر والعلة ، فلما بيّن تعالى أنه لم يفعل ذلك إزاحة للعذر والعلة عنهم ، دل ذلك على أنه يجب أن يفعل بهم كل ما كان لطفاً داعياً لهم إلى الإيمان ، فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أنه يجب على الله تعالى فعل اللطف وثالثها : أنه ثبت بهذه الآية ، أن الله تعالى إنما يفعل ما يفعله ويترك ما يتركه لأجل حكمة ومصلحة ، وذلك يدل على تعليل أحكام الله تعالى وأفعاله بالمصالح والعلل ، فإن قيل لما بيّن تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم ، لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر ، فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سبباً لاجتماع الناس على الإسلام ؟ قلنا لأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا ، وهذا الإيمان إيمان المنافقين ، فكان الأصوب أن يضيق الأمر على المسلمين ، حتى أن كل من دخل الإسلام ، فإنما يدخل فيه لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى ، فحينئذ يعظم ثوابه لهذا السبب .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا ، وذلك أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله ، ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضلين ، فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل عشي ، وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به ، قيل عشى ونظيره عرج لمن به الآفة ، وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج ، قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره . . أي تنظر إليه نظر العشي ، لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ، وقرىء يعشو على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وحق هذا القارىء أن يرفع ﴿ نُقَيِّضْ ﴾ ومعنى القراءة بالفتح ، ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن ، لقوله ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : 18] وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره ، أي يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتعامى ، كقوله تعالى :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] ، و ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ قال مقاتل : نضم إليه شيطاناً ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل ﴾ يعني وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى والحق وذكر الكناية عن الإنسان والشياطين بلفظ الجمع ، لأن قوله ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ يفيد الجمع ، وإن كان اللفظ على الواحد ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يعني الشياطين يصدون الكفار عن السبيل ، والكفار يحسبون أنهم مهتدون ، ثم عاد إلى لفظ الواحد ، فقال : ﴿ حتى إِذَا جَاءَنَا ﴾ يعني الكافر ، وقرىء (جاءانا) ، يعني الكافر وشيطانه ، روي أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده ، فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار ، فذلك حيث يقول ﴿ قَالَ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ والمراد يا ليت حصل بيني وبينك بعد على أعظم الوجوه ، واختلفوا في تفسير قوله ﴿ بُعْدَ المشرقين ﴾ وذكروا فيه وجوهاً الأول : قال الأكثرون : المراد بعد المشرق والمغرب ، ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما ، قال الفرزدق :

لنا قمراها والنجوم الطوالع . . يريد الشمس والقمر ، ويقولون للكوفة والبصرة : البصرتان ، وللغداة والعصر : العصران ، ولأبي بكر وعمر : العمران ، وللماء والتمر : الأسودان الثاني : أن أهل النجوم يقولون : الحركة التي تكون من المشرق إلى المغرب ، هي حركة الفلك الأعظم ، والحركة التي من المغرب إلى المشرق ، هي حركة الكواكب الثابتة ، وحركة الأفلاك الممثلة التي للسيارات سوى القمر ، وإذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرق بالنسبة إلى شيء آخر ، فثبت أن إطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهتين حقيقة الثالث : قالوا يحمل ذلك على مشرق الصيف ومشرق الشتاء وبينهما بعد عظيم ، وهذا بعيد عندي ، لأن المقصود من قوله ﴿ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ المبالغة في حصول البعد ، وهذه المبالغة إنما تحصل عن ذكر بعد لا يمكن وجود بعد آخر أزيد منه ، والبعد بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ليس كذلك ، فيبعد حمل اللفظ عليه الرابع : وهو أن الحس يدل على أن الحركة اليومية إنما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب ، وأما القمر فإنه يظهر في أول الشهر في جانب المغرب ، ثم لا يزال يتقدم إلى جانب المشرق ، وذلك يدل على أن مشرق حركة القمر هو المغرب ، وإذا ثبت هذا فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ، ولكنه مغرب القمر ، وأما الجانب المسمى بالمغرب ، فإنه مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس ، وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب

بالمشرقين ، ولعل هذا الوجه أقرب إلى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه ، والله أعلم .

(88/691)

ثم قال تعالى : ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ أي الكافر يقول لذلك الشيطان يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت ، فهذا ما يتعلق بتفسير الألفاظ ، والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة ، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشى عن مطالعة ذكر الله تعالى ومن صار كذلك صار جليساً للشيطان ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق وبقي جليس الشيطان في الدنيا وفي القيامة ، ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد في القيامة بحيث يقول الكافر يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت فثبت بما ذكرنا أن كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان في الدين والدنيا ، وإذا ظهر هذا فقد ظهر أن الذين قالوا ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] ، قالوا كلاماً فاسداً وشبهة باطلة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ فقوله

﴿ أَنَّكُمْ ﴾ في محل الرفع على الفاعلية يعني ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين في العذاب والسبب فيه أن الناس يقولون المصيبة إذا عمت طابت ، وقالت الخنساء في هذا المعنى :

ولولا كثرة الباكين حولي . . على إخوانهم لقتلت نفسي

ولا يبكون مثل أخي ولكن . . أعزي النفس عنه بالتأسي

فبيّن تعالى أن حصول الشركة في ذلك العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده في الدنيا والسبب فيه وجوه الأول : أن ذلك العذاب شديد فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر ، فلا جرم الشركة لا تفيد الخفة الثاني : أن قوماً إذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه فيحصل بسببه بعض التخفيف وهذا المعنى متعذر في القيامة الثالث : أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعاً كثيرة من السلوة .

(89/691)

فبيّن تعالى أن الشيطان وإن كان قريناً إلا أن مجالسته في القيامة لا توجب السلوة وخفة العقوبة وفي كتاب ابن مجاهد عن ابن عامر قرأ ﴿ إِذَا ظَّلَمْتُمْ إِنَّكُمْ ﴾ بكسر الألف وقرأ الباقون أنكم بفتح الألف ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 184.181 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) ﴾

المعنى : واذكر إذا قال إبراهيم ، ولما ضرب تعالى المثل لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنذر وجعلهم إسوة له ، خص إبراهيم بالذكر لعظم منزلته ، وذكر محمداً صلى الله عليه وسلم بمنابذة إبراهيم عليه السلام لقومه ، أي فافعل أنت فعله وتجلد جلده . و: ﴿ براء ﴾ صفة تجري على الواحد والاثنين والجميع كعدل وزور .

وقرأ جمهور الناس : « بَرَاء » بفتح الباء . وقرأت فرقة : « بُراء » بضم الباء . وفي مصحف عبد الله وقراءة الأعمش : « إني » بنون واحدة « برئ » قال الفراء : ومن الناس من يكتب شكل الهمزة المخففة ألفاً في كل موضع ، ولا يراعي حركة ما قبلها ، قال : فربما كان خط مصحف عبد الله بألف كما في مصحف الجماعة ، لكن كان يلفظ بها : « برئ » بكسر الراء .

وقوله : ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ قالت فرقة : الاستثناء متصل ، وكانوا يعرفون الله ويعظمونه ، إلا أنهم كانوا يشركون معه أصنامهم ، فكأن إبراهيم قال لهم : أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الفاطر . وقالت فرقة : الاستثناء منقطع ، والمعنى : لكن الذي فطرني معبودي ، وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله إلا قليلاً ولا كثيراً ، وعلل إبراهيم لقومه عبادته بأنه الهادي المنجي من العذاب ، وفي هذا استدعاء لهم وترغيب في الله وتطميع برحمته ، والضمير في قوله : ﴿ وجعلها كلمة ﴾ قالت فرقة : ذلك عائد على كلمته بالتوحيد في قوله : ﴿ إنني براء ﴾ وقال مجاهد وقتادة والسدي ، ذلك مراد به : لا إله إلا الله ، وعاد الضمير عليها وإن كانت لم يجر لها ذكر ، لأن اللفظ يتضمنها . وقال ابن زيد : المراد بذلك : الإسلام ولفظته ، وذلك قوله عليه السلام : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة : 128] وقوله : ﴿ إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين ﴾ [البقرة : 131] وقول الله تعالى ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ [الحج : 78] .

والعقب : الذرية وولد الولد ما امتد فرعهم .

قوله عز وجل : ﴿ بل متعت ﴾ الآية ، كلام متصل بما قبله ، لأنه لما قال في عقبه ، وكانت قريش من عقبه ، اقتضى الكلام أن يقدر فيه لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم بل متعتهم . والمعنى في الآية : بل أمهلت هؤلاء ومتعتهم بالنعمة مع كفرهم حتى جاءهم الحق والرسول ، وذلك هو شرع الإسلام والرسول : محمد عليه السلام .

و: « متعتُ » بضم التاء هي قراءة البجمهور . وقرأ قتادة : « متعتَ » بفتح التاء الأخيرة على معنى : قل يا رب متعت ، ورواها يعقوب عن نافع . وقرأ الأعمش : « بل متعنا » ، وهي تعضد قراءة الجمهور . و: ﴿ مبين ﴾ في هذه الآية يحتمل التعدي وترك التعدي .

(92/691)

ثم أخبر تعالى عنهم على جهة التقريع بأنهم ﴿ قالوا ﴾ للقرآن : ﴿ هذا سحر ﴾ وأنهم كفروا به ، وإنما جعلوه بزعمهم سحراً من حيث كان عندهم يفرق بين المرء وولده وزوجه ، فجعلوه لذلك كالسحر ، ولم ينظروا إلى الفرق في أن المفارق بالقرآن يفارق عن بصيرة في الدين ، والمفارق بالسحر يفارق عن خلل في ذهنه .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

الضمير في ﴿ قالوا ﴾ لقريش ، وذلك أنهم استبعدوا أولاً أن يرسل الله بشراً ، فلما تقرر أمر موسى وعيسى وإبراهيم ولم يكن لهم في ذلك مدفع ، رجعوا يناقضون فيما يخص محمداً عليه السلام بعينه ، فقالوا : لم كان محمد ولم يكن نزول الشرع ﴿ على رجل ﴾ من إحدى الفرقتين ﴿ عظيم ﴾ ، وقدر المبرد قولهم على رجل من رجلين من القريتين ، والقريتان : مكة والطائف ، ورجل مكة الذي أشاروا إليه : قال ابن عباس وقتادة هو :

الوليد بن المغيرة المخزومي . وقال مجاهد هو : عتبة بن ربيعة . وقال قتادة : بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلا ادعاه . ورجل الطائف قال قتادة هو : عروة بن مسعود . وقال ابن عباس : حبيب بن عبد بن عمير . وقال مجاهد : كنانة بن عبد ياليل .

قال القاضي أبو محمد : وإنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالسن والقدم ، وإلا فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان حينئذ أعظم من هؤلاء ، لكن لما عظم أولئك قبل مدة النبي وفي صباه استمر ذلك لهم .

ثم وقف على جهة التوبيخ لهم بقوله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ المعنى على اختيارهم وإرادتهم تنقسم الفضائل والمكانة عند الله . والرحمة : اسم يعم جميع هذا . ثم أخبر تعالى خبراً جازماً بأنه قاسم المعايش والدرجات في الدنيا ليسخر بعض الناس بعضاً ، المعنى فإذا كان اهتمامنا بهم أن نقسم هذا الحقير الفاني ، فأحرى أن نقسم الأهم الخطير .

(93/691)

وفي قوله تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾ تزهيد في السعايات ، وعون على التوكل على الله تعالى ، ولله در القائل : [الرجز]

لما أتى نحن قسمنا بينهم زال المرا . . . وقرأ الجمهور : « معيشتهم » . وقرأ ابن مسعود والأعمش : « معائشهم » .

وقرأ جمهور الناس « سُخرياً » بضم السين . وقرأ أبو رجاء وابن محيصن : « سِخرياً » بكسر السين ، وهما لغتان في معنى التسخير ، ولا مدخل لمعنى الهزء في هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ قال قتادة والسدي : يعني الجنة .

قال القاضي أبو محمد : لا شك أن الجنة هي الغاية ، ورحمة الله في الدنيا بالهداية ، والإيمان خير من كل مال ، وهذا اللفظ تحقير للدنيا ، ثم استمر القول في تحقيرها بقوله : ﴿ ولولا أن يكون للناس ﴾ الآية ، وذلك أن معنى الآية : أن الله تعالى أبقى على عبيده وأنعم بمراعاة بقاء الخير والإيمان وشاء حفظه على طائفة منهم بقية الدهر ، ولولا كراهية أن يكون الناس كفاراً كلهم وأهل حب في الدنيا وتجرد لها لوسع على الكفار غاية التوسعة ومكنهم من الدنيا ، إذ حقارتهم عنده تقتضي ذلك ، لأنها لا قدر لها ولا وزن لفنائها وذهاب رسومها ، فقوله : ﴿ أمة واحدة ﴾ معناه : في الكفر ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدي ، ومن هذا المعنى قول النبي عليه السلام :

« لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » ثم يتركب معنى الآية على معنى هذا الحديث . واللام في قوله : ﴿ لكن يكفر بالرحمن ﴾ لام الملك . واللام في قوله : ﴿ لبيوتهم ﴾ لام تخصيص ، كما تقول : هذا الكساء لزيد لدابته ، أي هو

لدابته حلس ولزيد ملك . قال المهدوي : ودلت هذه الآية على أن السقف لرب البيت الأسفل لا لصاحب العلو ، إذ هو منسوب إلى البيوت ، وهذا تفقه واهن .

وقرأ جمهور القراء : « سقُفا » بضم السين والقاف . وقرأ مجاهد : « سَقْفاً » بضم السين وسكون القاف على الإفراد .

(94/691)

والمعارج : الأدراج التي يطلع عليها ، قاله ابن عباس وقتادة والناس . وقرأ طلحة : « معاريج » بزيادة ياء . و: ﴿ يظهرون ﴾ معناه يعلون ، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها : والشمس في حجرتها لم تظهر . والسرر : جمع سرير .

واختلف الناس في الزخرف ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي : الزخرف : الذهب نفسه وروي عن النبي عليه السلام أنه قال : « إياكم والحمرة فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان » .

قال القاضي أبو محمد : الحسن أحمر ، والشهوات تتبعه .

وقال ابن زيد : الزخرف أثاث البيت وما يتخذ له من الستور والنمارق ونحوه . وقالت فرقة الزخرف : التزاويق والنقش ونحوه من التزيين وشاهد هذا القول : ﴿ حتى إذا أخذت

الأرض زخرفها وازينت ﴾ [يونس : 24] .

وقرأ جمهور القراء : « وإن كل ذلك لمَا » بتخفيف الميم من « لمَا » ف « إنْ » مخففة من الثقيلة ، واللام في : « لمَا » داخلة لتفصل بين النفي والإيجاب . وقرأ عاصم وحمزة وهشام بخلاف عنه ، والحسن وطلحة والأعمش وعيسى : « لمَّا متاع » بتشديد الميم من « لمّا » فإن « لمّا » نافية بمعنى ما . و﴿ لما ﴾ : بمعنى : إلا ، وقد حكى سيبويه نشدتك الله لما فعلت ، وحمله على إلا . وفي مصحف أبي بن كعب : « وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا » .

وقرأ أبو رجاء : « لِمَا » بكسر اللام وتخفيف ، الميم ، ف « ما » بمعنى الذي ، والعائد عليها محذوف ، والتقدير : وإن كل ذلك للذي هو متاع الحياة الدنيا .

وفي قوله تعالى : ﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ وعد كريم وتحريض على التقوى ، إذ في الآخرة هو التباين في المنازل .

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)

﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ ومن يعش ﴾ شرطية ، وعشى يعشو ، معناه : قل الإبصار منه كالذي يعتري في الليل ، وكذلك هو الأعشى من الرجال ، ويقال أيضاً : عشى الرجل يعشي عشاء إذا فسد بصره فلم ير ، أو لم ير إلا قليلاً .

وقرأ قتادة ويحيى بن سلام البصري : « ومن يعشَ » بفتح الشين ، وهي من قولهم : عشى يعشي ، والأكثر عشى يعشو ، ومنه قول الشاعر [الحطيئة] : [الطويل]

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره . . . تجد خير نار عندها خير موقد

وفي شعر آخر [عبد الله بن الحر] :

تجد حطباً جزلاً وجمراً تأججا . . . وقرأ الأعمش : « ومن يعش عن الرحمن » ، وسقط : ﴿ ذكر ﴾ .

فالمعنى في الآية : ومن يقل نظره في شرع الله ويغمض جفونه عن النظر في ذكر الرحمن ، أي فيما ذكر به عباده ، فالمصدر إلى الفاعل ، ﴿ نقيض له شيطاناً ﴾ أي نيسر له ونعد ، وهذا هو العقاب على الكفر بالحتم وعدم الفلاح ، وهذا كما يقال : إن الله يعاقب على المعصية بالتزيد في المعاصي ، ويجازي على الحسنة بالتزيد من الحسنات ، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً .

وقرأ الجمهور : « نقيض » بالنون . وقرأ الأعمش : « يقيض » ، بالياء « شيطاناً » ، أي يقيض الله . وقرأ ابن عباس : « يُقيَّض له شيطانٌ » ، بفتح الياء الثانية وشدها ورفع النون من « شيطانٌ » .

والضمير في قوله : ﴿ وإنهم ﴾ عائد على الشياطين . وفي : ﴿ يصدونهم ﴾ على

الكفار . و: ﴿ السبيل ﴾ هي سبيل الهدى والفوز . والضمير في : ﴿ يحسبون ﴾ للكفار .

وقرأ نافع وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر ، وابن عامر وأبو جعفر وشيبة وقتادة والزهري والجحدري : « حتى إذا جاءانا » على التثنية ، يريد العاشي والقرين ، قاله سعيد الجريري وقتادة . وقرأ أبو عمرو والحسن وابن محيصن والأعرج وعيسى والأعمش وعاصم وحمزة والكسائي : « جاءنا » يريد العاشي وحده . وفاعل : ﴿ قال ﴾ هو العاشي .

وقوله : ﴿ بعد المشرقين ﴾ يحتمل ثلاثة معان ، أحدهما : أن يريد بعد المشرق من المغرب ، فسماهما مشرقين ، كما يقال : القمران والعمران ، قال الفرزدق :

(96/691)

لما قمراها والنجوم الطوالع . . . والثاني : أن يريد مشرق الشمس في أطول يوم ، ومشرقها في أقصر يوم ، فكأنه أخذ نهايتي المشارق . والثالث : أن يريد ﴿ بعد المشرقين ﴾ من المغربين ، فاكتفى بذكر ﴿ المشرقين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾ الآية حكاية عن مقالة تقال لهم يوم القيامة ، وهي

مقالة موحشة حرمتهم روح التأسي ، لأنه يوقفهم بها على أنهم لا ينفعهم التأسي ، وذلك لعظم المصيبة وطول العذاب واستمرار مدته ، إذ التأسي راحة كل شيء في الدنيا في الأغلب ، ألا ترى إلى قول الخنساء : [الوافر]

ولولا كثرة الباكين حولي . . . على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن . . . أعزي النفس عنه بالتأسي

فهذا التأسي قد كفاها مؤونة قتل النفس ، فنفى الله تعالى عنهم الانتفاع بالتأسي ، وفي ذلك تعذيب لهم ويأس من كل خير ، وفاعل قوله : ﴿ ينفعكم ﴾ الاشتراك .

وقرأ جمهور القراء : « أنكم » بفتح الألف . وقرأ ابن عامر وحده : « إنكم » بكسر الألف ، وقد يجوز أن يكون الفاعل ﴿ ينفعكم ﴾ التبري الذي يدل عليه قوله : ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ وعلى هذا يكون « أنكم » في موضع نصب على المفعول من أجله ، وتخرج الآية على معنى نفي الأسوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(97/691)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ ﴾

قُرِئَ شَاذًّا (وَمَنْ يَعْشُو) بِالْوَاوِ وَجَعَلَهَا الزَّمَخْشَرِيُّ مَوْصُولَةً وَإِنْ كَانَتْ تُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ شَرْطِيَّةً وَثَبَتَتْ الْوَاوُ كَمَا ثَبَتَتْ فِي (مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرُ) .

ثُمَّ قَالَ وَحَقُّ هَذَا الْقَارِئِ أَنْ يَرْفَعَ (نُقَيِّضْ) وَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ أَبُو حَيَّانَ بِأَنْ يَكُونَ جَزْمُ الْجَوَابِ يُشَبِّهُ الْمَوْصُولَ بِاسْمِ الشَّرْطِ .

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مَسْمُوعًا فِي " الَّذِي " وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ اسْمُ شَرْطٍ فَأَوْلَى أَنْ يَكُونَ فِيمَا اُسْتُعْمِلَ مَوْصُولًا .

وَشَرْطًا قَالَ الشَّاعِرُ وَلَا تَحْفِرَنْ بِئْرًا تُرِيدُ أَخًا بِهَا فَإِنَّك فِيهَا أَنْتَ مِنْ دُونِهِ تَقَعْ كَذَاكَ الَّذِي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِمًا تُصِبْهُ عَلَى رَغْمٍ عَوَاقِبُ مَا صَنَعْ أَنْشَدَهُمَا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ وَهُوَ مَذْهَبُ الْكُوفِيِّينَ ، وَلَهُ وَجْهٌ مِنْ الْقِيَاسِ .

لِأَنَّهُ كَمَا يُشَبِّهُ الْمَوْصُولَ بِاسْمِ الشَّرْطِ فَدَخَلَتْ الْفَاءُ فِي خَبَرِهِ فَكَذَلِكَ يُشَبِّهُ بِهِ فَيَنْجَزِمُ الْخَبَرُ ، إلَّا أَنَّ دُخُولَ الْفَاءِ يَنْقَاسُ بِشُرُوطِهِ الْمَذْكُورَةِ فِي عِلْمِ النَّحْوِ وَهَذَا لَا يَنْفِيهِ الْبَصْرِيُّونَ .

انْتَهَى مَا قَالَهُ أَبُو حَيَّانَ .

فَأَمَّا مَا قَالَهُ مِنْ الْقِيَاسِ فِي جَزْمِ الْجَوَابِ عَلَى دُخُولِ الْفَاءِ فَصَحِيحٌ وَأَمَّا الْقِيَاسُ " مِنْ " عَلَى " الَّذِي " فَفِيهِ نَظَرٌ ، لِأَنَّ " الَّذِي " اُسْتُعْمِلَتْ فِي مَعْنَى الشَّرْطِ ، فَلَا بُعْدَ فِي دُخُولِ

الْفَاءِ فِي خَبَرِهَا ، وَفِي جَزْمِ جَوَابِهَا نَظَرٌ إلَى مَعْنَاهَا ، لِأَنَّهَا اُسْتُعْمِلَتْ فِي مَعْنَى الشَّرْطِ وَأَمَّا " مِنْ " إذَا خَرَجَتْ عَنْ الشَّرْطِيَّةِ وَاسْتُعْمِلَتْ مَوْصُولَةً لَمْ تَكُنْ فِي مَعْنَى الشَّرْطِ فَكَيْفَ يُجْزَمُ الْجَوَابُ .

فَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ لَا يُجْزَمُ بِهَا أَصْلًا ، لِأَنَّ الْجَزْمَ إمَّا بِالْمَعْنَى وَإِمَّا بِاللَّفْظِ لَا جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بِالْمَعْنَى ، لِأَنَّ الْمَعْنَى وَالْحَالَةَ هَذِهِ لَيْسَ هُوَ الشَّرْطُ ، وَلَا بِاللَّفْظِ لِأَنَّ اللَّفْظَ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الشَّرْطِ

(98/691)

وَالْمَوْصُولِ فَقَدْ يُرِيدُ الثَّانِي ، وَلِأَنَّ الْقِيَاسَ إنَّمَا يَصِحُّ لَوْ اتَّحَدَ الْمَعْنَى ، فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْقِيَاسَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَشْتَرِكَا فِي الْمَعْنَى فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ إنَّهُ أَوْلَى . انْتَهَى . انتهى . ا هـ

﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 116 ﴾

(99/691)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى قال العلماء : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها ، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة وَدَرَجها ذهباً وفضة لولا غلبة حبّ الدنيا على القلوب ؛ فيحمل ذلك على الكفر .

قال الحسن : المعنى لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه ؛ لهوان الدنيا عند الله عز وجل .

وعلى هذا أكثر المفسرين ابن عباس والسدي وغيرهم .

وقال ابن زيد : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ في طلب الدنيا واختيارها على الآخرة ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ .

وقال الكسائي : المعنى لولا أن يكون في الكفار غنيٌّ وفقير وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها .

الثانية قرأ ابن كثير وأبو عمرو "سَقْفاً" بفتح السين وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع ؛ اعتبارا بقوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : 26] .

وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع ؛ مثل رَهْن ورُهُن .

قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما .

وقيل : هو جمع سقيف ؛ مثل كَثِيب وكُثُب ، ورَغيف ورُغُف ؛ قاله الفراء .

وقيل : هو جمع سقوف ؛ فيصير جَمْعَ الجمع : سَقْف وسُقُوف ، نحو فَلْس وفُلُوس .

ثم جعلوا فعولاً كأنه اسم واحد فجمعوه على فُعُل .

وروي عن مجاهد "سَقْفاً" بإسكان القاف .

وقيل : اللام في "لِبُيوتِهِمْ" بمعنى على ؛ أي على بيوتهم .

وقيل : بدل ؛ كما تقول : فعلت هذا لزيد لكرامته ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السدس ﴾ [النساء : 11] كذلك قال هنا : ﴿ لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ ﴾ .

(100/691)

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ يعني الدَّرَج ؛ قاله ابن عباس وهو قول الجمهور .

واحدها مِعراج ، والمِعراج السُّلَّم ؛ ومنه ليلة المعراج .

والجمع معارج ومعاريج ؛ مثل مفاتح ومفاتيح ؛ لغتان .

"وَمَعَارِيجَ" قرأ أبو رجاء العُطَارِدِي وطلحة بن مُصَرِّف ؛ وهي المراقي والسلاليم .

قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج ؛ مثل مِرقاة ومَرقاة .

﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أي على المعارج يرتقون ويصعدون ؛ يقال : ظهرت على البيت أي

علوت سطحه .

وهذا لأن من علا شيئاً وارتفع عليه ظهر للناظرين .

ويقال : ظهرت على الشيء أي علمته .

وظهرت على العدوّ أي غلبته .

وأنشد نابغة بني جَعْدة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

عَلَوْنا السماء عِزّةً ومهابةً . . .

وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

أي مصعدا ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " "إلى أين" ؟ قال إلى الجنة ؛ قال : "أجل إن شاء الله" " قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك ! فكيف لو فعل ؟!

الرابعة استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن السقف لا حَقَّ فيه لرب العُلْو ؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها .

وهذا مذهب مالك رحمه الله .

قال ابن العربي : وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسقف وباب ، فمن له البيت فله أركانه .

ولا خلاف أن العلوّ له إلى السماء .

واختلفوا في السفل ؛ فمنهم من قال هو له ، ومنهم من قال ليس له في باطن الأرض شيء .

وفي مذهبنا القولان .

وقد بيّن حديث الإسرائيلي الصحيح فيما تقدّم : أن رجلاً باع من رجل داراً فبناها فوجد فيها جرّة من ذهب ، فجاء بها إلى البائع فقال : إنما اشتريت الدار دون الجرّة ، وقال البائع : إنما بعت الدار بما فيها ؛ وكلهم تدافعها فقضى بينهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يزوّج أحدهما ولده من بنت الآخر ويكون المال لهما .

(101/691)

والصحيح أن العُلْو والسُّفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع ؛ فإذا باع أحدهما أحدَ الموضعين فله منه ما ينتفع به وباقيه للمبتاع منه .

الخامسة من أحكام العُلْو والسُّفل .

إذا كان العلو والسفل بين رجلين فيعتلّ السفل أو يريد صاحبه هَدْمَه ؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال : إذا أراد صاحب السفل أن يهدم ، أو أراد صاحب العلو أن يبني علوه فليس لصاحب السفل أن يهدم إلا من ضرورة ، ويكون هدمه له أرفق لصاحب العلو ؛ لئلا ينهدم بانهدامه العلو ، وليس لربّ العلو أن يبني على علوه شيئاً لم يكن قبل ذلك إلا الشيء

الخفيف الذي لا يضر بصاحب السفل .

ولو انكسرت خشبة من سقف العلو لأدخل مكانها خشبة ما لم تكن أثقل منها ويخاف ضررها على صاحب السفل .

قال أشهب : وباب الدار على صاحب السفل .

قال : ولو انهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبني السفل ؛ فإن أبى صاحب السفل من البناء قيل له بِعْ ممن يبني .

وروى ابن القاسم عن مالك في السفل لرجل والعلو لآخر فاعتل السفل ، فإن صلاحه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفله ؛ لأن عليه إمّا أن يحمله على بنيان أو على تعليق ، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثاني على صاحب الأوسط .

وقد قيل : إن تعليق العلو الثاني على رب العلو حتى يبني الأسفل .

وحديث النعمان بن بشير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجوْا جميعاً " أصلٌ في هذا الباب .

وهو حجة لمالك وأشهب .

وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس له أن يحدث على صاحب العلو ما يضرّ به ، وأنه إن أحدث عليه ضرراً لزمه إصلاحه دون صاحب العلو ، وأن لصاحب العلو منعه من الضرر ؛ لقوله عليه السلام : " فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجوْا جميعاً " ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظالم أو من هو ممنوع من إحداث ما لا يجوز له في السنة .

وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وقد مضى في "الأنفال" .

وفيه دليل على جواز القرعة واستعمالها ، وقد مضى في "آل عمران" فتأمل كُلاًّ في موضعه تجده مبيَّناً ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً ﴾ أي ولجعلنا لبيوتهم .

وقيل : "لِبُيُوتِهِمْ" بدل اشتمال من قوله : ﴿ لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن ﴾ .

"أَبْوَاباً" أي من فضة .

﴿ وَسُرُراً ﴾ كذلك ؛ وهو جمع السرير .

وقيل : جمع الأَسِرَّة ، والأَسِرّة جمع السرير ؛ فيكون جمع الجمع .

﴿ عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴾ الاتكاء والتَّوكُّؤ : التحامل على الشيء ؛ ومنه : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ [طه : 18] .

ورجل تُكَأَة ؛ مثال هُمَزَة ؛ كثير الاتكاء .

والتُّكَأَة أيضاً : ما يُتَّكأ عليه .

واتكأ على الشيء فهو متَّكِىء ؛ والموضع متَّكأ .

وطعنه حتى أتكأه (على أَفْعَلَه) أي ألقاه على هيئة المُتَّكِىء .

وتوكأت على العصا .

وأصل التاء في جميع ذلك واو ، ففعل به ما فُعل با تزن واتعد .

﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ الزخرف هنا الذهب ؛ عن ابن عباس وغيره .

نظيره : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ [الإسراء : 93] وقد تقدّم .

وقال ابن زيد : هو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة والأثاث .

وقال الحسن : النقوش ؛ وأصله الزينة .

يقال : زخرفت الدار ؛ أي زينتها .

وتزخرف فلان ؛ أي تزين .

وانتصب "زُخْرُفاً" على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً .

وقيل : بنزع الخافض ؛ والمعنى فجعلنا لهم سُقُفاً وأبواباً وسرراً من فضة ومن ذهب ؛ فلما حذف "مِن" قال : "وزخرفاً" فنصب .

﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحياة الدنيا ﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر "وإنّ كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا" بالتشديد .

الباقون بالتخفيف ؛ وقد ذكر هذا .

وروي عن أبي رجاء كسر اللام من "لَمَّا" ؛ ف "ما" عنده بمنزلة الذي ، والعائد عليها محذوف ؛ والتقدير : وإن كل ذلك للذي هو متاع الحياة الدنيا ، وحذفُ الضمير ها هنا كحذفه في قراءة من قرأ ﴿ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : 26] و ﴿ تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ ﴾ [الأنعام : 154] .

أبو الفتح : ينبغي أن يكون "كُلُّ" على هذه القراءة منصوبة ؛ لأنّ "إنْ" مخففة من الثقيلة ، وهي إذا خففت وبطل عملها لزمتها اللام في آخر الكلام للفرق بينها وبين "إن" النافية التي بمعنى ما ؛ نحو إن زيد لقائم ، ولا لام هنا سوى الجارة .

﴿ والآخرة عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يريد الجنة لمن اتقى وخاف .

وقال كعب : إني لأجد في بعض كتب الله المنزلة : لولا أن يَحْزَن عبدي المؤمن لكلّلت رأس عبدي الكافر بالإكليل ، ولا يتصدّع ولا ينبِض منه عرق بوجع .

وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء " وفي الباب عن أبي هريرة ، وقال : حديث حسن غريب .

وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن . . .

إذاً لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً . . .

وقد شَبِعت فيها بطون البهائم

وقال آخر :

تمتّع من الأيام إن كنت حازما . . .

فإنك فيها بين ناهٍ وآمِر

إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه . . .

فما فاته منها فليس بضائر

فلا تزن الدنيا جناح بعوضة . . .

ولا وزن رَقّ من جناح لطائر

فلم يرض بالدنيا ثواباً لمحسن . . .

ولا رضي الدنيا عقاباً لكافر

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وقرأ ابن عباس وعكرمة "ومن يَعْشَ" بفتح الشين ، ومعناه يعمى ؛ يقال منه عَشِيَ يَعْشَى عَشاً إذا عَمِيَ . ورجل أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر ؛ ومنه قول الأعشى :

رأتْ رجلاً غائب الوافِدَيْ . . .

نِ مختلفَ الخلق أعْشَى ضريرا

وقوله :

أأن رأت رجلاً أعشى أضرَّ به . . .

رَيْبُ المنونِ ودَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ

الباقون بالضم ؛ من عشا يعشو إذا لحقه ما يلحق الأعشى .

وقال الخليل : العشو هو النظر ببصر ضعيف ؛ وأنشد :

متى تأتِه تَعْشُو إلى ضَوْء ناره . . .

تَجِد خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقدِ

وقال آخر :

لنعم الفتى يعشو إلى ضوء ناره . . .

إذا الريح هبّت والمكان جديب

الجوهرِيّ : والعَشَا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار .

والمرأة عشواء ، وامرأتان عشواوان .

وأعشاه الله فعشِي (بالكسر) يَعْشى عَشًى ، وهما يَعْشَيان ، ولم يقولوا يَعْشوان ؛ لأن الواو لما صارت في الواحد ياء لكسرة ما قبلها تُركت في التثنية على حالها .

وتعاشى إذا أَرى من نفسه أنه أعشى .

والنسبة إلى أَعْشَى أعْشَوِيّ .

وإلى العَشِيّة عَشَوِيّ .

والعشواء : الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تَخْبِط بيديها كلّ شيء .

وركب فلان العشواء إذا خَبَط أمره على غير بصيرة .

وفلان خابطٌ خبطَ عشواء .

(105/691)

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ [الزخرف : 5] أي نواصل لكم الذكر ؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ أي نسبب له شيطاناً جزاء له على كفره ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ قيل في الدنيا ، يمنعه من الحلال ، ويبعثه على الحرام ، وينهاه عن الطاعة ، ويأمره بالمعصية ؛ وهو معنى قول ابن عباس .

وقيل في الآخرة إذا قام من قبره ؛ قاله سعيد الجُرَيْرِي .

وفي الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يُشْفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار .

وأن المؤمن يُشْفع بمَلَكَ حتى يقضي الله بين خلقه ؛ ذكره المهدويّ .

وقال القشيري : والصحيح فهو له قرين في الدنيا والآخرة .

وقال أبو الهيثم والأزهري : عَشَوْت إلى كذا أي قصدته .

وعشوت عن كذا أي أعرضت عنه ، فتفرق بين "إلى" و "عن" ؛ مثل : مِلْتُ إليه ومِلْتُ عنه .

وكذا قال قتادة : يَعْشُ ، يُعْرِض ؛ وهو قول الفراء .

النحاس : وهو غير معروف في اللغة .

وقال القُرَظي : يولّي ظهره ؛ والمعنى واحد .

وقال أبو عبيدة والأخفش : تُظْلِم عينُه .

وأنكر العُتْبيّ عشوت بمعنى أعرضت ؛ قال : وإنما الصواب تعاشيت .

والقول قول أبي الهيثم والأزهري .

وكذلك قال جميع أهل المعرفة .

وقرأ السلمِيّ وابن أبي إسحاق ويعقوب وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش "يقيّض" (بالياء) لذكر "الرَّحْمَن" أوّلاً ؛ أي يقيّض له الرحمن شيطاناً .

الباقون بالنون .

وعن ابن عباس "يُقَيَّضْ لَهُ شَيْطَانٌ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ" أي ملازم ومصاحب .

قيل : "فَهُوَ" كناية عن الشيطان ؛ على ما تقدّم .

وقيل : عن الإعراض عن القرآن ؛ أي هو قرين للشيطان .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل ﴾ أي وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى ؛ وذكر بلفظ الجمع لأن "مَن" في قوله : "وَمَنْ يَعْشُ" في معنى الجمع .

(106/691)

﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أي ويحسب الكفار ﴿ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم .

﴿ حتى إِذَا جَآءَنَا ﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ؛ يعني الكافر يوم القيامة .

الباقون "جاءانا" على التثنية ، يعني الكافر وقرينه وقد جُعلا في سلسلة واحدة ؛ فيقول الكافر : ﴿ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [الرحمن : 17] ونحوه قول مقاتل . وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لهما جميعاً ؛ لأنه قد عرف ذلك بما بعده ؛ كما قال :

وعَيْن لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ . . .

شُقَّت ماقيهما من أخَرْ

قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بُعْدَ مشْرِق أطول يوم في السنة إلى مَشْرِق أقصر يوم في السنة ، ولذلك قال : "بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ" .

وقال الفراء : أراد المشرق والمغرب فغلَّب اسم أحدهما ، كما يقال : القمران للشمس والقمر ، والعُمَران لأبي بكر وعمر ، والبصرتان للكوفة والبصرة ، والعصران للغداة والعصر .

وقال الشاعر :

أخذنا بآفاق السماء عليكم . . .

لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأنشد أبو عبيدة لجرِير :

ما كان يرضى رسول الله فعلهم . . .

والعُمَران أبو بكر ولا عمر

وأنشد سيبويه :

قَدْنِيَ من نَصْر الْخُبَيْبَيْن قدِى . . .

يريد عبد الله ومصعباً ابني الزبير ، وإنما أبو خبيب عبد الله .

﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ أي فبئس الصاحب أنت ؛ لأنه يورده إلى النار .

قال أبو سعيد الخدرِيّ : إذا بُعث الكافِر زوّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ "إذْ" بدل من اليوم ؛ أي يقول الله للكافر : لن ينفعكم اليوم إذ أشركتم في الدنيا هذا الكلام ؛ وهو قول الكافر : ﴿ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ أي لا تنفع الندامة اليوم .

(107/691)

"إِنَّكُمْ" بالكسر ﴿ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ وهي قراءة ابن عامر باختلاف عنه .

الباقون بالفتح .

وهي في موضع رفع تقديره : ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب ؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه .

أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار التأسّي كما يتأسّى أهل المصائب في الدنيا ، وذلك أن التأسّي يستروِحه أهل الدنيا فيقول أحدهم : لي في البلاء والمصيبة أسوة ؛ فيسكن ذلك من حزنه ؛ كما قالت الخنساء :

فلولا كثرة الباكين حولي . . .

على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن . . .

أعزّي النفس عنه بالتأسّي

فإذا كان في الآخرة لم ينفعهم التأسّي شيئاً لشغلهم بالعذاب .

وقال مقاتل : لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ؛ لأن قُرَناءكم وأنتم في العذابِ مشترِكون كما اشتركتم في الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(108/691)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾

استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل ، والمعنى أن حقارة شأنه بحيث لولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر ويطبقوا عليه لأعطيناه على أتم وجه من هو شر الخلائق وأدناهم منزلة ، فكراهة الاجتماع على الكفر هي المانعة من تمتيع كل كافر والبسط عليه لا أن المانع كون متاع الدنيا له قدر عندنا ، والكراهة المذكورة هي وجه الحكمة في ترك تنعيم كل كافر وبسط الرزق عليه فلا محذور في تقديرها ؛ وليس ذلك مبنياً على وجوب رعاية المصلحة وإرادة الايمان من الخلق ليكون اعتزالاً كما ظن .

(109/691)

وكأن وجه كون البسط على الكفار سبباً للاجتماع على الكفر مزيد حب الناس للدنيا فإذا رأوا ذلك كفروا لينالوها ، وهذا على معنى أن الله تعالى شأنه علم أنه لو فعل ذلك لدعا الناس إذ ذاك حبهم للدنيا إلى الكفر ، فلا يقال : إن كثيراً من الناس اليوم يتحقق الغنى

التام لو كفر ولا يكفر ولو أكره عليه بالقتل ، وكون المراد بالأمر الواحد الذي يقتضيه كونهم أمة واحدة فإنه بمعنى اجتماعهم على أمر واحد الكفر بقرينة الجواب ، و ﴿ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ بدل اشتمال من قوله تعالى : ﴿ لِمَن يَكْفُرُ ﴾ واللام فيهما للاختصاص أو هما متعلقان بالفعل لا على البدلية ولام لمن صلة الفعل لتعديه باللام فهو بمنزلة المفعول به ولام ﴿ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ للتعليل فهو بمنزلة المفعول له ، ويجوز أن تكون الأولى للملك والثانية للاختصاص كما في قولك : وهبت الحبل لزيد لدابته وإليه ذهب ابن عطية ، ولا يجوز على تقدير اختلاف اللامين معنى البدلية إذ مقتضى إعادة العامل في البدل الاتحاد في المعنى وإلى هذا ذهب أبو حيان ، وقال الخفاجي : لا مانع من أن يبدل المجموع من المجموع بدون اعتبار إعادة ، والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن ، وعن الفراء أنه جمع سقيفة كسفن جمع سفينة ، والمعارج جمع معرج وو عطف على ﴿ سَقْفاً ﴾ أي ولجعلنا لهم مصاعد عليها يعلون السطوح والعلالي وكأن المراد معارج من فضة بناء على أن العطف ظاهر في التشريك في القيد وإن تقدم ، وقال أبو حيان : لا يتعين ذلك ، وقرأ أبو رجاء ﴿ سَقْفاً ﴾ بضم السين وسكون القاف تخفيفاً وفي "البحر" هي لغة تميم .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو بفتح السين والسكون على الأفراد لأنهم اسم جنس يطلق على الواحد وما فوقه وهو المراد بقرينة البيوت ؛ وقرىء بفتح السين والقاف وهي لغة في سقف وليس ذلك

تحريك ساكن لأنه لا وجه له .

وقرىء ﴿ سقوفاً ﴾ وهو جمع سقف كفلوس جمع فلس ، وقرأ طلحة ﴿ معاريج ﴾ .

(110/691)

﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ ﴾ أي ولجعلنا لبيوتهم ، وتكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير ولأنه ابتداء أية ﴿ أبوابا وَسُرُراً ﴾ أي من فضة على ما سمعت ، وقرىء ﴿ سرراً ﴾ بفتح السين والراء وهي لغة لبني تميم وبعض كلب وذلك في جمع فعيل المضعف إذا كان اسماً باتفاق وصفة نحو ثوب جديد وثياب جدد باختلاف بين النحاة ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي على السرر ﴿ يَتَّكِئُونَ ﴾ كما هو شأن الملوك لا يهمهم شيء .

﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ قال الحسن : أي نقوشاً وتزاويق ، وقال ابن زيد : الزخرف أثاث البيت وتجملاته وهو عليهما عطف على ﴿ سَقْفاً ﴾ [الزخرف : 33] ، وقال ابن عباس .

وقتادة .

والشعبي .

والسدي .

والحسن أيضاً في رواية الزخرف الذهب ، وأكثر اللغويين ذكروا له معنيين هذا والزينة فقيل

الظاهر أنه حقيقة فيهما ، وقيل : إنه حقيقة في الزينة ولكون كمالها بالذهب استعمل فيه أيضاً ، ويشير إليه كلام الراغب قال : الزخرف الزينة المزوقة ومه قيل للذهب زخرف ، وفي "البحر" جاء في الحديث "إياكم والحمرة فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان" ، وقال ابن عطية : الحسن أحمر والشهوات تتبعه ؛ ولبعض شعراء المغرب :

وصبغت درعك من دماء كماتم . . .

لما رأيت الحسن يلبس أحمرا

وهو على هذا عطف على محل ﴿ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف : 33] كأن الأصل سقفاً من فضة وزخرف يعني بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفاً على المحل ، وجوز عطفه على ﴿ سَقْفاً ﴾ [الزخرف : 33] أيضاً .

(111/691)

﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا متاع الحياة ﴾ أي وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة إلا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا وفي معناه ما قرىء ﴿ وَمَا كُلُّ ذلك الحياة الدنيا ﴾ وقرأ الجمهور ﴿ لَّمَّا ﴾ بفتح اللام والتخفيف على أن ﴿ إن ﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين المخففة وغيرها وما زائدة أو موصولة بتقدير لما هو متاع كما

في قوله تعالى : ﴿ تَمَامًا عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ [الأنعام : 154] في قراءة من رفع النون ، وقرأ رجاء وفي التحرير أبو حيوة ﴿ لَّمّاً ﴾ بكسر اللام والتخفيف على أن ﴿ إن ﴾ هي المخففة واللام حرف جر وما موصولة في محل جر بها والجار والمجرور في موضع الخبر لكل وصدر الصلة محذوف كما سمعت آنفاً .

وحق التركيب في مثله الإتيان باللام الفارقة فيقال : للما متاع لكنها حذفت لظهور إرادة الاثبات كما في قوله :

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك . . .

وإن مالك كانت كرام المعادن

بل لا يجوز في البيت إدخال اللام كما لا يخفى على النحوي ﴿ والاخرة ﴾ أي بما فيها من فنون النعيم التي لا يحيط بها نطاق البيان ﴿ عِندَ رَبّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خاصة لهم ، والمراد بهم من اتقى الشرك ، وقال غير واحد : من اتقى ذلك والمعاصي ، وفي الآية من الدلالة على التزهيد في الدنيا وزينتها والتحريض على التقوى ما فيها ، وقد أخرج الترمذي وصححه . وابن ماجه عن سهل بن سعد قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء " وعن علي كرم الله تعالى وجهه الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب في يد مجذوم ، هذا واستدل بعضهم

بقوله تعالى : ﴿ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً ﴾ [الزخرف : 33] على أن السقف لرب البيت الأسفل لا لصاحب العلو لأنه منسوب إلى البيت .

(112/691)

﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أي يتعام ويعرض ﴿ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ وهو القرآن ، وإضافته إلى الرحمن للإيذان بنزوله رحمة للعالمين ، وجوز أن يكون مصدراً أضيف إلى المفعول أي من يعش عن أن يذكر الرحمن ، وأن يكون مصدراً أضيف إلى الفاعل أي عن تذكير الرحمن عباده سبحانه ، وقرأ يحيى بن سلام البصري ﴿ يَعْشُ ﴾ بفتح الشين كيرض أي يعم يقال : عشى كرضى إذا حصلت الآفة في بصره وعشا كغزا إذا نظر نظر العشي لعارض قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره . . .

تجد خير نار عندها خير موقد

أي تنظر إليها نظر العشي لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ولو لم يكن كذلك لم يكن لكلمة الغاية موقع وأظهر منه في المقصود قول حاتم :

أعشو إذا ما جارتي برزت . . .

حتى يواري جارتي الخدر

لأنه قيد بالوقت وأتى بالغاية وما هو خلقي لا يزول ، وقال بعضهم : لم أر أحداً يجيز عشوت عنه إذا أعرضت وإنما يقال تعاشيت وتعاميت عن الشيء إذا تغافلت عنه كأنك لم تره ويقال : عشوت إلى النار إذا استدللت عليها ببصر ضعيف ، وهو مما لا يلتفت إليه ومثله عشى وعشا عرج بكسر الراء لمن به الآفة وعرج بفتحها لمن مشى مشية العرجان من غير عرج على ما في الكشاف ، وفيه خلاف لأهل اللغة ففي القاموس يقال : عرج أي بالفتح إذا أصابه شيء في رجله وليس بخلقه فإذا كان خلقة فعرج كفرح أو يثلث في غير الخلقة ، وقرأ زيد بن علي ﴿ يعشو ﴾ بإثبات الواو وخرج ذلك الزمخشري على أن من موصولة لا شرطية جازمة ، وجوز أن تكون شرطية والمدة إما للإشباع أو على لغة من يجزم المعتل الآخر بحذف الحركة على ما حكاه الأخفش ، ووز كون الفعل مجزوماً بحذف النون والواو ضمير الجمع ، وقد روعي فيه معنى من ، وتخريج الزمخشري مبني على الفصيح المطرد المتبادر .

﴿ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ أي نتح له شيطاناً ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض وهو القشر الأعلى .

﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ دائماً لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وهذا عقاب على الكفر بالختم وعدم الفلاح كما يقال : إن الله تعالى يعاقب على المعصية بمزيد اكتساب السيآت ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والسلمي .

والأعمش ويعقوب .

وأبو عمرو بخلاف عنه .

وحماد عن عاصم .

وعصمة عن الأعمش وعن عاصم .

والعليمي عن أبي بكر ﴿ يقيض ﴾ بالياء على إسناده إلى ضمير ﴿ مُّقْتَدِرِ الرحمن ﴾ ، وقرأ ابن عباس يقيض بالياء والبناء للمفعول ﴿ شيطان ﴾ بالرفع والفعل في جميع القراءات مجزوم ولم نسمع أنه قرىء بالرفع ، وفي الكشاف حق من قرأ ﴿ مِنْ ﴾ بالواو أن يرفعه أي بناء على تخريجه ذلك على أن من موصولة ، وجوز على ذلك أيضاً أن يكون ﴿ يقيض ﴾ مرفوعاً لكنه سكن تخفيفاً .

وفي البحر يجوز أن تكون ﴿ صَلَحَ مِنْ ﴾ موصولة وجزم ﴿ نُقَيِّضْ ﴾ تشبيهاً للموصول باسم الشرط وإذا كان ذلك مسموعاً في الذي وهو لم يكن اسم شرط قط فالأولى أن يكون

فيما استعمل موصولاً لا وشرطاً ، قال الشاعر :

لا تحفرن بئراً تريد اخاً بها . . .

فإنك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما . . .

تصبه على رغم عواقب ما صنع

انشدهما ابن الأعرابي وهو مذهب للكوفيين ، وله وجه من القياس وهو أنه كما شبه الموصول باسم الشرط فدخلت الفاء في خبره فكذلك يشبه به فينجزم الخبر إلا أن دخول الفاء منقاس إذا كان الخبر مسبباً عن الصلة بشروطه المذكورة في النحو وهذا لا يقيسه البصريون .

﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي الشياطين الذين قبض وقدر كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ أي ليصدون قرناءهم وهم الكفار المعبر عنهم بمن يعش ، وجمع ضمير الشيطان لأن المراد به الجنس ، وجمع ضمير من رعاية لمعنى كما أفرد أولا رعاية للفظ .

(114/691)

وفي الانتصاف أن في هذه الآية نكتتين بديعتين الأولى الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم وهي مسألة أضطرب فيها الأصوليون وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم حتى استدرك على الأئمة اطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص ، وقال إن الشرط يعم النكرة في سياقه تعم وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن على الأبياري شارح كتابه رداً عنيفاً ، وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية ، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكراً في سياق شرط ونحن نعلم أنه إنما أريد عموم الشياطين لا واحد لوجهين .

أحدهما أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطاناً فكيف بالعاشي عن ذكر الله تعالى والآخر من الآية وهو أنه أعيد عليه الضمير مجموعاً في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ فإنه عائد إلى الشيطان قولاً واحداً ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا اشكال ، فهذه نكتة تجد عند سماعها المخالفي هذا الرأي سكتة .

والنكتة الثانية أن فيها رداً على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك واحتج لذلك بأنه إجمال بعد تفسير ، وهو خلاف المعهود من الفصاحة وقد نقض ذلك الكندي وغيره بآيات ، واستخرج جدي من هذه الآية نقض ذلك أيضاً لأنه أعيد الضمير على اللفظ في ﴿ يَعْشُ وَلَهُ ﴾ وعلى المعنى في ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ ثم على اللفظ في ﴿ حتى إِذَا جَاءنَا ﴾ [الزخرف : 38] وقد قدمت أن الذي منع قد يكون اقتصر

بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك انتهى .

(115/691)

وفي كون ضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ عائداً على الشيطان قولاً واحداً نظر ، فقد قال أبو حيان : الظاهر أن ضمير النصب في ﴿ أَنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ عائد على من على المعنى وهو أولى من عود ضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ على الشيطان كما ذهب إليه ابن عطية لتناسق الضمائر في ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ ومن بعده فلا تغفل ﴿ عَنِ السبيل ﴾ المستبين الذي يدعو إليه ذكر الرحمن ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أي العاشون ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي الشياطين ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ أي إلى ذلك السبيل الحق وإلا لما اتبعوهم أو يحسب العاشون ان أنفسهم مهتدون فإن اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما .

والظاهر أن أبا حيان يختار هذا الوجه للتناسق أيضاً ، والجملة حال من مفعول ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ بتقدير المبتدأ أو من فاعله أو منهما لاشتمالها على ضميريهما أي وأنهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم يحسبون أنهم مهتدون إليه .

وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجددي لقوله تعالى :

﴿ حتى إِذَا جَاءنَا ﴾ فإن ﴿ حتى ﴾ وإن كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتما أن تكون غاية لأمر ممتد وأفرد الضمير في جاء وما بعده لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد من العاشين لقرينه لتهويل الأمر وتفظيع الحال والمعنى يستمر أمر العاشين على ما ذكر حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينة يوم القيامة ﴿ قَالَ ﴾ مخاطباً له : ﴿ قَالَ ذِلَكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾ أي في الدنيا ، وقيل : في الآخرة ﴿ بُعْدَ المشرقين ﴾ أي بعد كل منهما من الآخر ، والمراد بهما المشرق والمغرب كما اختاره الزجاج والفراء وغيرهما لكن غلب المشرق على المغرب وثنيا كالموصلين للموصول والجزيرة وأضيف البعد إليهما ، والأصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق وإنما اختصر هذا المبسوط لعدم الالباس إذ لا خفاء أنه لا يراد بعدهما من شيء واحد لأن البعد من احدهما قرب من الآخر ولأنهما متقابلان فبعد أحدهما من الآخر مثل في غاية البعد لا بعدهما عن شيء آخر ، واشعار السياق بالمبالغة لا ينكر فلا لبس من هذا الوجه أيضاً ، وقال ابن السائب : لا تغليب ، والمراد مشرق الشمس في أقصر يوم من السنة ومشرقها في أطول يوم منها ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ أي أنت ، وقيل : أي هو على أنه من كلامه تعالى وهو كما ترى .

وقرأ أبو جعفر .

وشيبة .

وأبو بكر .

والحرميان .

وقتادة والزهري .

والجحدري ﴿ جاءانا ﴾ على التثنية أي العاشي والقرين .

(117/691)

وقوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخاً وتقريعاً ، وفاعل ﴿ يَنفَعَكُمُ ﴾ ضمير مستتر يعود على ما يفهم مما قبل أي لن ينفعكم هو أي تمنيكم لمباعدتهم أو الندم أو القول المذكور ﴿ اليوم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِذِ ظَّلَمْتُمْ ﴾ بدل من ﴿ اليوم ﴾ أي إذ تبين أنكم ظلمتم في الدنيا قاله غير واحد ، وفسر ذلك بالتبين قيل لئلا يشكل جعله وهو ماض بدلاً من ﴿ اليوم ﴾ وهو مستقبل لأن تبين كونهم ظالمين عند أنفسهم إنما يكون يوم القيامة فاليوم وزمان التبين متحدان وهذا كقوله :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة . . .

وأورد عليه أن السؤوال عائد لأن ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لما مضى من الزمان ولا يخرج عن ذلك باعتبار التبين وتقصى بعضهم عن الاشكال لأن إذ قد تخرج من المضي إلى الاستقبال على ما ذهب إليه جماعة منهم ابن مالك محتجاً بقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الاغلال ﴾ [غافر : 70 ، 71] وإلى الحال كما ذهب إليه بعضهم محتجاً بقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : 61] فلتكن هنا للاستقبال ، وأهل العربية يضعفون دعوى خروجها من المضي .

وقال الجلبي : لعل الأظهر حملها على التعليل فيتعلق بالنفي ، فقد قال سيبويه : إنها بمعنى التعليل حرف بمنزلة لام العلة ، نعم أنكر الجمهور هذا القسم لكن إثبات سيبويه إياه يكفي حجة :

فإن القول ما قالت حذام . . .

(118/691)

وتعقب بأنه لا يكفي في تخريج كلام الله سبحانه إثبات سيبويه وحده مع إطباق جميع أئمة العربية على خلافه ، وأيضاً تعليل النفي بعد يبعده وقال أبو حيان : لا يجوز البدل على بقاء إذ على موضوعها من كونها ظرفاً لما مضى من الزمان فإن جعلت لمطلق الوقت جاز ، ولا

يخفى أن ذلك مجاز فهل تكفي البدلية قرينة له فإن كفت فذاك ، وقال ابن جنى : راجعت أبا علي في هذه المسألة يعني الإبدال المذكور مراراً وآخر ما تحصل منه أن الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء في حكم الله سبحانه وعلمه جل شأنه إذ لا يجري عليه عز وجل زمان فكأن ﴿ إِذْ ﴾ مستقبل أو ﴿ اليوم ﴾ ماض فصح ذلك ، ورد بأن المعتبر حال الحكاية والكلام فيها وارد على ما تعارفه العرب ولولاه لسد باب النكات ولغت الاعتبارات في العبارات ومثله غني عن البيان ، وقال أبو البقاء : التقدير بعد إذ ظلمتم فحذف المضاف لعلم به ، وقال الحوفي : ﴿ إِذْ ﴾ متعلقة بما دل عليه المعنى كأنه قيل ولن ينفعكم اليوم اجتماعكم إذ ظلمتم مثلاً .

ومن الناس من استشكل الآية من حيث أن فيها إعمال ﴿ يَنفَعَكُمُ ﴾ الدال على الاستقبال لاقترانه بلن في اليوم وهو الزمان الحاحضر وإذ وهو للزمان الماضي ، وأجيب بأنه يدفع الثاني بما قدروه من التبين لأن تبين الحال يكون في الاستقبال والأول بأن ﴿ اليوم ﴾ تعريفه للعهد وهو يوم القيامة لا للحضور كتعيرف الآن وان كان نوعاً منه .

وقيل : يدفع بأن الاستقبال بالنسبة إلى وقت الخطاب وهو بعض أوقات اليوم وهو كما ترى فتأمل ولا تغفل .

وقوله تعالى : ﴿ أَنَّكُمْ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ تعليل لنفي النفع أي لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا .

وجوز أن يكون الفعل مسنداً إليه أي لن ينفكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدته وعنائه وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته أو لن ينفعكم ذلك من حيث التأسي فإن المكروب يتأسى ويتروح بوجدان المشارك وهو الذي عنته الخنساء بقولها :

يذكرني طلوع الشمس صخرا . . .

وأذكره بكل مغيب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي . . .

على اخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن . . .

اعزى النفس عنه بالتأسي

فهؤلاء يؤسيهم اشتراكهم ولا يروحهم لعظم ما هم فيه أو لن ينفعكم ذلك من حيث التشفي أي لن يحصل لكم التشفي بكون قرنائكم معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم : ﴿ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 68] وقولكم : ﴿

فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ [الأعراف : 38] لتتشفوا بذلك ، واعترض على الوجه الأول من هذه الأوجه الثلاثة بأن الانتفاع التعاون في تحمل أعباء العذاب ليس ما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه ، وأجيب بأنه غير بعيد أن يخطر ذلك ببالهم لمكان المقارنة والصحبة والغريق يتشبث بالحشيش والظمآن يحسب السراب شراباً .

وقرأ ابن عامر ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بكسر الهمزة وهو تقوى ما ذكر أولاً من إضمار الفاعل وتقدير اللام في أنكم معنى ولفظاً لأنه لا يمكن أن يكون فاعلاً فيتعين الإضمار ، ولأن الجملة عليها تكون استئنافاً تعليلياً فيناسب تقدير اللام لتتوافق القراءتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(120/691)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا مّن قَبْلِهِ ﴾

أم هي المنقطعة ، أي : بل ءأعطيناهم كتاباً من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله ﴿ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ يأخذون بما فيه ، ويحتجون به ، ويجعلونه لهم دليلاً ، ويحتمل : أن تكون أم معادلة لقوله : ﴿ اشهدوا ﴾ ، فتكون متصلة ، والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم

كتاباً .

. .

إلخ .

وقيل : إن الضمير في : ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ يعود إلى ادّعائهم ، أي : أم آتيناهم كتاباً من قبل ادّعائهم ينطق بصحة ما يدّعونه ، والأوّل أولى .

ثم بيّن سبحانه : أنه لا حجة بأيديهم ، ولا شبهة ، ولكنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة ، فقال : ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على ءاثارهم مُّهْتَدُونَ ﴾ ، فاعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم ، ومعنى ﴿ على أمة ﴾ : على طريقة ، ومذهب ، قال أبو عبيد : هي : الطريقة ، والدين ، وبه قال قتادة ، وغيره .

قال الجوهري : والأمة : الطريقة ، والدين ، يقال : فلان لا أمة له ، أي : لا دين له ، ولا نحلة ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

كنا على أمة آبائنا . . . ونقتدي الآخر بالأوّل

وقول الآخر :

وهل يستوي ذو أمة وكفور . . . وقال الفراء ، وقطرب : على قبلة .

وقال الأخفش : على استقامة ، وأنشد قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

قرأ الجمهور : ﴿ أمة ﴾ بضم الهمزة ، وقرأ مجاهد ، وقتادة ، وعمر بن عبد العزيز بكسرها .

قال الجوهري : والإمة بالكسر : النعمة ، والإمة : أيضاً لغة في الأمة .

ومنه قول عديّ بن زيد :

ثم بعد الفلاح والملك والإم . . . ة وارتهم هناك قبور

(121/691)

ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم إلى هذه المقالة ، وقال بها ، فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُون ﴾ ﴿ مترفوها ﴾ : أغنياؤها ، ورؤساؤها ، قال قتادة : ﴿ مقتدون ﴾ : متبعون ، ومعنى الاهتداء ، والاقتداء متقارب ، وخصص المترفين تنبيهاً على أن التنعم هو سبب إهمال النظر .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يردّ عليهم ، فقال : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بأهدى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءابَاءكُمْ ﴾ أي : أتتبعون آباءكم ، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ، قال الزجاج : المعنى : قل لهم أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ، وإن جئتكم

بأهدى منه .

قرأ الجمهور : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم ﴾ ، وقرأ ابن عامر ، وحفص : (قال أو لو جئتكم) ، وهو حكاية لما جرى بين المنذرين ، وقومهم ، أي : قال كلّ منذر من أولئك المنذرين لأمته ، وقيل : إن كلا القراءتين حكاية لما جرى بين الأنبياء ، وقومهم ، كأنه قال : لكل نبيّ قل ، بدليل قوله : ﴿ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ .

وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد ، وقبحه ، فإن هؤلاء المقلدة في الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم ، ويتبعون آثارهم ، ويقتدون بهم ، فإذا رام الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة ، أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها ، وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير ، ولا حجة واضحة ، بل بمجرّد قال .

(122/691)

وقيل : لشبهة داحضة ، وحجة زائفة ، ومقالة باطلة ، قالوا : بما قاله المترفون من هذه الملل : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ، أو بما يلاقي معناه معنى ذلك ، فإن قال لهم الداعي إلى الحقّ : قد جمعتنا الملة الإسلامية ، وشملنا هذا الدين المحمدي ، ولم يتعبدنا الله ، ولا تعبدكم ، وتعبد آباءكم من قبلكم إلاّ بكتابه الذي أنزله على رسوله ، وبما

صحّ عن رسوله ، فإنه المبين لكتاب الله الموضح لمعانيه ، الفارق بين محكمه ، ومتشابهه ، فتعالوا نردّ ما تنازعنا فيه إلى كتاب الله ، وسنّة رسوله كما أمرنا الله بذلك في كتابه بقوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرسول ﴾ [النساء : 59] ، فإن الردّ إليهما أهدى لنا ولكم من الردّ إلى ما قاله أسلافكم ، ودرج عليه آباؤكم ، نفروا نفور الوحوش ، ورموا الداعي لهم إلى ذلك بكل حجر ومدر ، كأنهم لم يسمعوا قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤمنين إِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور : 51] ، ولا قوله : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [النساء : 65] ، فإن قال لهم القائل : هذا العالم الذي تقتدون به ، وتتبعون أقواله هو مثلكم في كونه متعبداً بكتاب الله ، وسنّة رسوله ، مطلوباً منه ما هو مطلوب منكم ، وإذا عمل برأيه عند عدم وجدانه للدليل ، فذلك رخصة له لا يحلّ أن يتبعه غيره عليها ، ولا يجوز له العمل بها ، وقد وجدوا الدليل الذي لم يجده ، وها أنا أوجدكموه في كتاب الله ، أو فيما صحّ من سنّة رسوله ، وذلك أهدى لكم مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا : لا نعمل بهذا ، ولا سمع لك ، ولا طاعة ، ووجدوا في صدورهم أعظم الحرج من حكم الكتاب ،

والسنّة ، ولم يسلموا ذلك ، ولا أذعنوا له ، وقد وهب لهم الشيطان عصي يتوكئون عليها عند أن يسمعوا من يدعوهم إلى الكتاب ، والسنّة ، وهي أنهم يقولون : إن إمامنا الذي قلدناه ، واقتدينا به أعلم منك بكتاب الله ، وسنّة رسوله ، وذلك لأن أذهانهم قد تصوّرت من يقتدون به تصوراً عظيماً بسبب تقدّم العصر ، وكثرة الأتباع ، وما علموا أن هذا منقوض عليهم ، مدفوع به في وجوههم ، فإنه لو قيل لهم : إن في التابعين من هو أعظم قدراً ، وأقدم عصراً من صاحبكم ، فإن كان لتقدم العصر وجلالة القدر مزية حتى توجب الاقتداء ، فتعالوا حتى أريكم من هو أقدم عصراً ، وأجلّ قدراً ، فإن أبيتم ذلك ، ففي الصحابة رضي الله عنهم من هو أعظم قدراً من صاحبكم علماً ، وفضلاً ، وجلالة قدر ، فإن أبيتم ذلك ، فها أنا أدلكم على من هو أعظم قدراً ، وأجلّ خطراً ، وأكثر أتباعاً ، وأقدم عصراً ، وهو : محمد بن عبد الله نبينا ، ونبيكم ، ورسول الله إلينا ، وإليكم ، فتعالوا ، فهذه سنّته موجودة في دفاتر الإسلام ، ودواوينه التي تلقتها جميع هذه الأمة قرناً بعد قرن ، وعصراً بعد عصر ، وهذا كتاب ربنا خالق الكل ، ورازق الكل ، وموجد الكل بين أظهرنا موجود في كل بيت ، وبيد كل مسلم لم يلحقه تغيير ، ولا تبديل ، ولا زيادة ، ولا نقص ، ولا تحريف ، ولا تصحيف ، ونحن ، وأنتم ممن يفهم ألفاظه ، ويتعقل معانيه ، فتعالوا لنأخذ الحقّ من معدنه ، ونشرب صفو الماء من منبعه ، فهو أهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا : لا

سمع ، ولا طاعة ، إما بلسان المقال ، أو بلسان الحال ، فتدبر هذا ، وتأمله إن بقي فيك بقية من إنصاف ، وشعبة من خير ، ومزعة من حياء ، وحصة من دين ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم .

وقد أوضحت هذا غاية الإيضاح في كتابي الذي سميته "أدب الطلب ومنتهى الأرب" ، فارجع إليه إن رمت أن تنجلي عنك ظلمات التعصب ، وتتقشع لك سحائب التقليد ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ .

(124/691)

وذلك الانتقام ما أوقعه الله بقوم نوح ، وعاد ، وثمود ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ من تلك الأمم ، فإن آثارهم موجودة .

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ أي : واذكر لهم وقت قوله لأبيه ، وقومه الذين قلدوا آباءهم ، وعبدوا الأصنام ﴿ إِنَّنِى بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ البراء مصدر نعت به للمبالغة ، وهو يستعمل للواحد ، والمثنى ، والمجموع ، والمذكر ، والمؤنث .

قال الجوهري : وتبرأت من كذا ، وأنا منه براء وخلاء ، لا يثنى ، ولا يجمع ، لأنه مصدر في الأصل ، ثم استثنى خالقه من البراءة ، فقال : ﴿ إِلاَّ الذى فَطَرَنِى ﴾ أي : خلقني ﴿ فَإِنَّهُ

سَيَهْدِينِ ﴾ سيرشدني لدينه ، ويثبتني على الحق ، والاستثناء إما منقطع ، أي : لكن الذي فطرني ، أو متصل من عموم ما ، لأنهم كانوا يعبدون الله ، والأصنام ، وإخباره بأنه سيهديه جزماً لثقته بالله سبحانه ، وقوّة يقينه ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقية فِى عَقِبِهِ ﴾ الضمير في : ﴿ جعلها ﴾ عائد إلى قوله : ﴿ إِلاَّ الذى فَطَرَنِى ﴾ ، وهي بمعنى التوحيد ، كأنه قال : وجعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم ، وهم : ذرّيته ، فلا يزال فيهم من يوحد الله سبحانه ، وفاعل جعلها : إبراهيم ، وذلك حيث وصاهم بالتوحيد ، وأمرهم بأن يدينوا به كما في قوله : ﴿ ووصى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة : 132] الآية ، وقيل : الفاعل هو الله عزّ وجلّ ، أي : وجعل الله عزّ وجلّ كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم ، والعقب : من بعد .

قال مجاهد ، وقتادة : الكلمة لا إله إلاّ الله لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة .

وقال عكرمة : هي : الإسلام .

قال ابن زيد : الكلمة هي قوله : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبّ العالمين ﴾ [البقرة : 131] ، وجملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ تعليل للجعل ، أي : جعلها باقية رجاء أن يرجع إليها من يشرك منهم بدعاء من يوحد .

وقيل : الضمير في : ﴿ لعلهم ﴾ راجع إلى أهل مكة ، أي : لعلّ أهل مكة يرجعون إلى دينك الذي هو دين إبراهيم .

وقيل : في الكلام تقديم ، وتأخير ، والتقدير : فإنه سيهدين لعلهم يرجعون ، وجعلها .

. .

إلخ .

قال السدّي : لعلهم يتوبون ، فيرجعون عما هم عليه إلى عبادة الله .

ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش ، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم ، فقال : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاَء وَءابَاءهُمْ ﴾ أضرب عن الكلام الأوّل إلى ذكر ما متعهم به من الأنفس ، والأهل ، والأموال ، وأنواع النعم ، وما متع به آباءهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة ، فاغترّوا بالمهلة ، وأكبوا على الشهوات ﴿ حتى جَاءهُمُ الحق ﴾ يعني : القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ﴿ مبين ﴾ : ظاهر الرسالة واضحها ، أو مبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين ، فلم يجيبوه ، ولم يعملوا بما أنزل عليه .

ثم بيّن سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحقّ ، فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمُ الحق قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافرون ﴾ أي : جاحدون ، فسموا القرآن سحراً ، وجحدوه .

واستحقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ

القريتين عَظِيمٍ ﴾ المراد بالقريتين : مكة ، والطائف ، وبالرجلين : الوليد بن المغيرة من مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف كذا قال قتادة ، وغيره .

وقال مجاهد ، وغيره : عتبة بن ربيعة من مكة ، وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف ، وقيل غير ذلك .

وظاهر النظم أن المراد : رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه واسع المال مسوّد في قومه ، والمعنى : أنه لو كان قرآناً لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين ، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعني : النبوّة ، أو ما هو أعمّ منها ، والاستفهام للإنكار .

(126/691)

ثم بيّن أنه سبحانه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا ، فقال : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ ، ولم نفوّض ذلك إليهم ، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده ، وإذا كان الله سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم ، ورفع درجات بعضهم على بعض ، فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر النبوّة ، وتفويضها إلى من يشاء من خلقه .

قال مقاتل : يقول : أبأيديهم مفاتيح الرسالة ، فيضعونها حيث شاءوا ؟ قرأ الجمهور : ﴿ معيشتهم ﴾ بالإفراد ، وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وابن محيصن : (معايشهم) بالجمع ومعنى ﴿ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات ﴾ : أنه فاضل بينهم ، فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق ، والرياسة ، والقوّة ، والحرية ، والعقل ، والعلم ، ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض ، فقال : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ أي : ليستخدم بعضهم بعضاً ، فيستخدم الغنيّ الفقير ، والرئيس المرءوس ، والقويّ الضعيف ، والحرّ العبد ، والعاقل من هو دونه في العقل ، والعالم الجاهل ، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا ، وبه تتمّ مصالحهم ، وينتظم معاشهم ، ويصل كلّ واحد منهم إلى مطلوبه ، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين ، فجعل البعض محتاجاً إلى البعض ، لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا ، ويحتاج هذا إلى هذا ، ويصنع هذا لهذا ، ويعطي هذا هذا .

قال السدّي ، وابن زيد : ﴿ سخرنا ﴾ : خولا وخدما ، يسخر الأغنياء الفقراء ، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض .

(127/691)

وقال قتادة ، والضحاك : ليملك بعضهم بعضاً ، وقيل : هو من السخرية التي بمعنى : الاستهزاء ، وهذا وإن كان مطابقاً للمعنى اللغوي ، ولكنه بعيد من معنى القرآن ، ومنافٍ لما هو مقصود السياق ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يعني بالرحمة : ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة ، وقيل : هي النبوّة لأنها المراد بالرحمة المتقدّمة في قوله : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ ولا مانع من أن يراد كلّ ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولاً أو بدلاً ، ومعنى ﴿ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ : ما يجمعونه من الأموال ، وسائر متاع الدنيا . ثم بيّن سبحانه حقارة الدنيا عنده ، فقال : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة ﴾ أي : لولا أن يجتمعوا على الكفر ميلاً إلى الدنيا ، وزخرفها ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ جمع الضمير في بيوتهم ، وأفرده في يكفر باعتبار معنى من ولفظها ، ولبيوتهم بدل اشتمال من الموصول ، والسقف جمع سقف .

قرأ الجمهور بضمّ السين ، والقاف كَرَهْن ، ورُهُن .

قال أبو عبيدة : ولا ثالث لهما .

وقال الفراء : هو جمع سقيف نحو كثيب ، وكثب ، ورغيف ، ورغف ، وقيل : هو جمع سقوف ، فيكون جمعاً للجمع .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بفتح السين ، وإسكان القاف على الإفراد ، ومعناه الجمع لكونه للجنس .

قال الحسن : معنى الآية : لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا ، وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه ، لهوان الدنيا عند الله ، وقال بهذا أكثر المفسرين .

وقال ابن زيد : لولا أن يكون الناس أمة واحدة في طلب الدنيا ، واختيارهم لها على الآخرة .

وقال الكسائي : المعنى : لولا أن يكون في الكفار غنيّ ، وفقير ، وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ المعارج : الدرج جمع معراج ، والمعراج : السلم .

(128/691)

قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحدة مَعْرَج ، ومِعْرَج مثل : مَرْقاة ، ومِرْقاة ، والمعنى : فجعلنا لهم معارج من فضة عليها يظهرون ، أي : على المعارج يرتقون ، ويصعدون ، يقال ظهرت على البيت أي : علوت سطحه ، ومنه قول النابغة :

بلغنا السماء مجداً وفخراً وسؤددا . . . وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

أي : مصعداً ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أبوابا وَسُرُراً ﴾ أي : وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة ، وسرراً من فضة ﴿ عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴾ أي : على السرر ، وهو جمع سرير ، وقيل : جمع أسرة ،

فيكون جمعاً للجمع ، والاتكاء ، والتوكو : التحامل على الشيء ، ومنه ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ [طه : 18] واتكأ على الشيء ، فهو متكأ ، والموضع متكىء ، والزخرف : الذهب .

وقيل : الزينة أعمّ من أن تكون ذهباً ، أو غيره .

قال ابن زيد : هو : ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة ، والأثاث .

وقال الحسن : النقوش ، وأصله الزينة ، يقال : زخرفت الدار أي : زينتها ، وانتصاب ﴿ زخرفاً ﴾ بفعل مقدّر ، أي : وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً ، أو بنزع الخافض ، أي : أبواباً ، وسرراً من فضة ، ومن ذهب ، فلما حذف الخافض انتصب .

ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا ، فقال : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا متاع الحياة الدنيا ﴾ قرأ الجمهور : (لما) بالتخفيف ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، وهاشم عن ابن عامر بالتشديد .

فعلى القراءة الأولى تكون إن هي المخففة من الثقيلة ، وعلى القراءة الثانية هي النافية ، و " لما " بمعنى إلاّ ، أي : ما كل ذلك إلاّ شيء يتمتع به في الدنيا .

وقرأ أبو رجاء بكسر اللام من (لما) على أن اللام للعلة ، وما موصولة ، والعائد محذوف ، أي : للذي هو متاع ﴿ والآخرة عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : لمن اتقى الشرك ، والمعاصي ،

وآمن بالله وحده ، وعمل بطاعته ، فإنها الباقية التي لا تفنى ، ونعيمها الدائم الذي لا يزول .

(129/691)

وقد أخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا ﴾ قال : على دين .

وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقية ﴾ قال : لا إله إلاّ الله ﴿ فِى عَقِبِهِ ﴾ قال : عقب إبراهيم ولده .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عنه أيضاً : أنه سئل عن قول الله : ﴿ لَوْلاَ نُزّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ ما القريتان ؟ قال : الطائف ، ومكة ، قيل : فمن الرجلان ؟ قال : عمير بن مسعود ، وخيار قريش .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : يعني بالقريتين : مكة والطائف ، والعظيم : الوليد بن المغيرة القرشي ، وحبيب بن عمير الثقفي .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : يعنون أشرف من محمد : الوليد بن المغيرة من أهل مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفي من أهل الطائف .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ لَّوْلاَ أَن يَكُونَ الناس

أُمَّةً واحدة ﴾ الآية يقول : لولا أن أجعل الناس كلهم كفاراً لجعلت لبيوت الكفار سقفاً من فضة ، ومعارج من فضة ، وهي : درج عليها يصعدون إلى الغرف ، وسرر فضة ، وزخرفاً : وهو الذهب .

وأخرج الترمذي وصححه ، وابن ماجه ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(130/691)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾

﴿ ولولا ﴾ حرف امتناع لوجود ، أي حرف شرط دلّ امتناع وقوع جوابها لأجل وقوع شرطها ، فيقتضي أن الله أراد امتناع وقوع أن يكون الناس أمة واحدة ، أي أراد الاحتراز من مضمون شرطها .

لما تقرر أن مِن خُلُقهم تعظيمَ المال وأهل الثراء وحُسْبانَهم ذلك أصل الفضائل ولم يَهتموا بزكاء النّفوس ، وكان الله قد أبطل جعلهم المال سبب الفضل بإبطالين ، بقوله : ﴿ أهم

يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرف : 32] وقوله : ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف : 32] ، أعقب ذلك بتعريفهم أن المال والغنى لاَ حَظّ لهما عند الله تعالى فإن الله أعطى كل شيء خلقه وجعل للأشياء حقائقها ومقاديرها فكثيراً ما يكون المال للكافرين ومن لا خلاق لهم من الخير ، فتعين أن المال قسمة من الله على النّاس جعل له أسباباً نظمها في سلك النظُم الاجتماعية وجعل لها آثاراً مناسبة لها ، وشتان بينها وبين مواهب النفوس الزكية والسرائر الطيبة ، فالمال في الغالب مصدر لإرضاء الشهوات ومرصد للتفاخر والتطاول .

وأما مواهب النفوس الطيّبة فمَصَادرُ لنفع أصحابها ونفع الأمة ، ففي أهل الشر أغنياء وفقراء وفي أهل الخير أمثال ذلك ، فظهر التباين بين آثار كسب المال وآثار الفضائل النفسانية .

ويحصل من هذا التحقير للمال إبطال ثالث لما أسسوا عليه قولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] ، فهذه الجملة عطف على جملة ﴿ ورحمت ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف : 32] .

والنّاس يحتمل أن يراد به جميع النّاس ، فيكون التعريف للاستغراق ، أي جميع البشر .

والأمة : الجماعة من البشر المتميزة عن غيرها باتحاد في نسب أو دين أو حالة معرّف بها فمعنى أن يكون النّاس أمة واحدة يحتمل أن لولا أن يصير البشر على دين واحد وهو الغالب عليهم يومئذٍ ، أي الكفر ونبذ الفكرة في الآخرة وعلى هذا تفسير ابن عباس والحسن وقتادة والسدي .

فالمعنى عليه : لَوْلاَ أن يَصير النّاس كلّهم كفاراً لخصصنا الكافرين بالمال والرفاهية وتركنا المسلمين لِمَا ادّخرنا لهم من خيرات الآخرة ، فيحسب ضعفاء العقول أن للكفر أثراً في حصول المال جعله الله جزاء لمن سماهم بالكافرين فيتبعوا دين الكفر لتخيّلهم الملازمة بين سعادة العيش وبين الكفرِ ، وقد كان النّاس في الأجيال الأولى أصحاب أوهام وأغلاط يجعلون للمقارنة حكم التسبب فيؤول المعنى إلى : لولا تجنب ما يفضي إلى عموم الكفر وانقراضِ الإيمان ، لجعلنا المال لأهل الكفر خاصة ، أي والله لا يحب انقراض الإيمان من النّاس ولم يقدّر اتحاد النّاس على ملة واحدة بقوله : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم ﴾ [هود : 118 ، 119] أي أن الله لطف بالعباد فعطّل ما يفضي بهم إلى اضمحلال الهدى من بينهم ، أي أبقى بينهم بصيصاً من نور الهدى .

ويحتمل وهو الأولى عندي : أن يكون التعريف في ﴿ الناس ﴾ للعهد مراداً به بعض طوائف البشر وهم أهل مكة وجمهورهم على طريقة الاستغراق العرفي وعلى وزان قوله

تعالى:

﴿ إن النّاس قد جمعوا لكم ﴾ [آل عمران : 173] ويكون المراد بكونهم أمّة واحدة اتحادهم في الثراء .

والمعنى : لولا أن تصير أمة من الأمم أهل ثروة كلهم أي وذلك مخالف لما قدره الله من اشتمال كل بلد وكل قبيلة وكل أمة على أغنياء ومحاويج لإقامة نظام العمران واحتياج بعضهم لبعض ، هذا لمالِه ، وهذا لصناعته ، وآخر لمقدرة بدنه لجعلنا من يكفر بالرحمان وهم أهل مكة سواء في الثراء والرفاهية .

(132/691)

وعلى كلا الاحتمالين يتلخص من المعنى أن الثراء والرفاهية لا يقيم المدبر الحكيم لهما وزناً فلا يمسكهما عن الناكبين عن طريق الحق والكمال ، فصار الكلام يقتضي مقدَّراً محذوفاً تقديره لكن لا يكون النّاس سَواء في الغِنى لأنّا لم نجعل ذلك لأنا قدرنا في نظام الكون البشري أن لا تكون أمة من الأمم أو قبيلة أو أهل بلدة أغنياء ليس فيهم محاويج لأنّه يفضي إلى انحرام نظام الاجتماع وارتفاع احتياج بعضهم لبعض فيهلك مجتمعهم ، والله أراد بقاءهم إلى أجل هم بالغوه .

ويرجح هذا جعل متعلق فعل ﴿ يكفر ﴾ خصوص وصف الرحمان فإن مشركي مكة أنكروا وصف الرحمان ﴿ قالوا وما الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] وقد تكرر التورّك عليهم بذلك في آي كثيرة .

ومعنى ﴿ لجعلنا لمن يكفر ﴾ لَقدَّرنا في نظام المجتمع البشري أسبابَ الثراء متصلةً بالكفر بالله بحيث يكون الكفر سبباً ومجلبة للغنى ، ولو أراد الله ذلك لهيّأ له أسبابه في عقول النّاس وأساليب معاملاتهم المالية فدل هذا على أن الله منع أسباب تعميم الكفر في الأرض لطفاً منه بالإيمان وأهله وإن كان لم يمنع وقوع كفر جزئي قليل أو كثير حفظاً منه تعالى لناموس ترتيب المسببات على أسبابها .

وهذا من تفاريع التفرقة بين الرضى والإرادة فلا يرضى لعباده الكفر ولو شاء ربّك ما فعلوه .

واللام في قوله : ﴿ لبيوتهم ﴾ مثل اللام في قوله : ﴿ لمن يكفر بالرحمن ﴾ ، أي لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمان فيكون قوله ﴿ لبيوتهم ﴾ بدلَ اشتمال ممّن يكفر بالرحمان .

وإنما صرح بتكرير العامل للتوكيد كما فعلوا في البدل من المستفهم عنه في نحو : مَن ذا أسعيد أم علي ؟ فقرنوا البدل بأداة استفهام ولم يقولوا : من ذا سعيد أم علي ؟ وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومن النخل مِن طَلْعِها قِنوانٌ دانيةٌ ﴾ في سورة الأنعام (99) .

ونكتة هذا الإبدال تعليق المجرور ابتداء بفعل الجعل ثم الاهتمام بذكر من يكفر بالرحمان في هذا المقام المقصود منه قرنه مع مظاهر الغنى في قَرَن التحقيرِ ، ثم يذكر ما يعزّ وجود أمثاله من الفضة والذهب ، وإذ قد كان الخبر كله مستغرباً كان حقيقاً بأن يُنْظَم في أسلوب الإجمال ثم التفصيل .

وقرأ الجمهور سُقُفاً ﴾ بضم السين وضم القاف جمع سَقف بفتح السين وسكون القاف وهو : البناء الممتد على جدران البيت المغطِّي فضاء البيت ، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ فخرّ عليهم السقفُ من فوقهم ﴾ في سورة النحل (26) .

وهذا الجمع لا نظير له إلا رَهْن ورُهن ولا ثالث لهما .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر سَقْفاً ﴾ بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد .

والمراد من المفرد الجنس بقرينة قوله ﴿ لبيوتهم ﴾ كأنه قيل : لكل بيت سقف .

والزخرف : الزينة قال تعالى : ﴿ زخرف القول غروراً ﴾ في سورة الأنعام (112) ، فيكون هنا عطفاً على ﴿ سقفاً ﴾ جمعاً لعديد المحاسن ، ويُطلق على الذهب لأن الذهب يتزين به ، كقوله : ﴿ أو يكونَ لك بيتٌ من زخرفٍ ﴾ [الإسراء : 93] ، فيكون ﴿ وزخرفاً ﴾ عطفاً على ﴿ سقفاً ﴾ بتأويل : لجعلنا لهم ذهباً ، أي لكانت سُقفهم ومعارجهم وأبوابهم من فضة وذَهب منوعة لأن ذلك أبهج في تلْوينها .

وابتدىء بالفضة لأنها أكثر في التحليات وأجمل في اللّون ، وأُخّر الذهب لأنه أندر في الحلي ، ولأن لفظه أسعد بالوقف لكون آخره تنويناً ينقلب في الوقف ألفاً فيناسب امتداد الصوت وهو أفصح في الوقف .

ويجوز أن يكون لفظ ﴿ زخرفاً ﴾ مستعملاً في معنييه استعمال المشترك ، فلا يرد سؤال عن تخصيص السقُف والمعارج بالفضة .

و ﴿ معارج ﴾ اسمُ جمع مِعْراج ، وهو الدرج الذي يعرج به إلى العلالي .

ومعنى ﴿ يظهرون ﴾ : يعلُون كما في قوله تعالى : ﴿ فما استطاعوا أن يَظْهروه ﴾ [الكهف : 97] ، أي أن يتسوروه .

(134/691)

وسُرُر بضمتين : جمع سرير ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ في سورة الصافات (44) ، وفائدة وصفها بجملة ﴿ عليها يتكئون ﴾ الإشارة إلى أنهم يُعطون هذه البهرجة مع استعمالها في دعة العيش والخلو عن التعب .

والمراد أن المعارج والأبواب والسُّرُر من فضة ، فحذف الوصف من المعطوفات لدلالة ما وُصف المعطوف عليه .

وذيّل بقوله : ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ أي كل ما ذكر من السّقُف والمعارج والأبواب والسُرر من الفضة والذهب متاع الدنيا لا يعود على من أُعطِيه بالسعادة الأبدية وأما السعادة الأبدية فقد ادخرها الله للمتقين وليست كمثل البهارج والزينة الزائدة التي تصادف مختلِف النفوس وتكثر لأهل النفوس الضئيلة الخسيسة وهذا كقوله تعالى : ﴿ زُين للنّاس حبّ الشهوات من النّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوَّمة والأنعامِ والحرث ذلك متاع الحياة الدّنيا والله عنده حسن المئاب ﴾ [آل عمران : 14] .

وقرأ الجمهور ﴿ لما ﴾ بتخفيف الميم فتكون ﴿ إنْ ﴾ التي قبلها مخففة من (إنّ) المشددة للتوكيد وتكون اللام الداخلة على ﴿ لَمَا ﴾ اللامَ الفارقة بين (إنْ) النافية و (إنْ) المخففة و (ما) زائدة للتوكيد بين المضاف والمضاف إليه .

وقرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر ﴿ لَمَّا ﴾ بتشديد الميم فهي ﴿ لَمَّا ﴾ أخت (ألاَّ) المختصة بالوقوع في سياق النفي فتكون ﴿ إِنْ ﴾ نافية ، والتقدير : وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا .

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)

ابتدئت السورة بالتنويه بالقرآن ووصفِه بأنه ذكر وبيان للنّاس ، ووصف عناد المشركين في

الصدّ عنه والإعراض ، وأُعلموا بأن الله لا يترك تذكيرهم ومحاجّتهم لأنّ الله يدعو بالحق ويعد به .

(135/691)

وأطنب في وصف تناقض عقائدهم لعلهم يستيقظون من غشاوتهم ، وفي تنبيههم إلى دلائل حقّيّة ما يدعوهم إليه الرّسول صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن ، وفُضحت شبهاتهم بأنهم لا تعويل لهم إلا على ما كان عليه آباؤهم الأولون الضالّون ، وأنذروا باقتراب انتهاء تمتيعهم وإمهالهم ، وتقضى ذلك بمزيد البيان ، وأفضى الكلام إلى ما قالوه في القرآن ومن جاء به بقوله : ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر إلى قوله عظيم ﴾ [الزخرف : 30 ، 31] ، وما ألحق به من التكملات ، عاد الكلام هنا إلى عواقب صرفهم عقولهم عن التدبر في الدعوة القرآنية فكان انصرافهم سبباً لأن يسخر الله شياطين لهم تلازمهم فلا تزال تصرفهم عن النظر في الحق وأدلة الرشد .

وهو تسخير اقتضاه نظام تولد الفروع من أصولها ، فلا يتعجب من عمى بصائرهم عن إدراك الحق البيّن ، وهذا من سنة الوجود في تولد الأشياء من عناصرها فالضلال ينمى ويتولد في النفوس ويتمكن منها مرة بعد مرة حتى يصير طبْعاً على القلب وأكِنَّة فيه وختماً

عليه ولا يضعُف عمل الشيطان إلا بتكرر الدعوة إلى الحق وبالزجر والإنذار ، فمن زناد التذكير تنقدح شرارات نور فربّما أضاءت فصادفت قوةُ نور الحق حالةَ وهَن الشيطان فتتغلب القوة المَلكية على القوة الشيطانية فيفيق صاحبها من نومة ضلاله .

وقد أشار إلى ذلك قوله : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إن كنتم قوماً مسرفين ﴾ [الزخرف : 5] كما تقدم هنالك ، ولولا ذلك لَمَا ارعوى ضالّ عن ضلاله ولَمَا نفع إرشاد المرشدين في نفوس المخاطبين .

فجملة ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ عطف على جملة ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحرٌ ﴾ [الزخرف : 30] الآية .

فجملة ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ تمثيل لحالهم في إظهارهم عدم فهم القرآن كقولهم : ﴿ قلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ﴾ [فصلت : 5] بحال من يَعشو عن الشيء الظاهر للبصر .

(136/691)

و ﴿ يَعش ﴾ : مضارع عشا كغَزَا عَشْواً بالواو ، إذا نظر إلى الشيء نظراً غير ثابت يُشبه نظر الأعشى ، وأما العَشَا بفتح العين والشين فهو اسم ضُعف العين عن رؤية الأشياء ، يقال

: عَشِي بالياء مثل عرِج إذا كانت في بصره آفة العَشَا ومصدره عَشًى بفتح العين والقصر مثل العرج.

والفعل واوي عشا يعشو، ويقال عشِيَ يعشَى إذا صار العَشا له آفة لأن أفعال الأدواء تأتي كثيراً على فَعِل بكسر العين مثل مرِض.

وعشِي ياؤه منقلبة عن واو لأجل كسرة صيغة الأدواء.

فمعنى ﴿ ومن يعش ﴾ من ينظر نظراً غير متمكن في القرآن، أي من لا حظّ له إلا سماع كلمات القرآن دون تدبر وقصد للانتفاع بمعانيه، فشبه سماع القرآن مع عدم الانتفاع به بنظر الناظر دون تأمل.

وعُدي ﴿ يعش ﴾ بـ ﴿ عن ﴾ المفيدة للمجاوزة لأنه ضمن معنى الإعراض عن ذكر الرحمان وإلا فإن حقّ عشا أن يعدّى بـ (إلى) كما قال الحُطَيئَة:

متى تأته تعشه إلى ضوء ناره

تجد خير نار عندها خيرُ موقد

ولا يقال: عشوت عن النّار إلا بمثل التضمين الذي في هاته الآية.

فتفسير من فسّر ﴿ يعش عن ذكر الرحمن ﴾ بمعنى يُعرض: أراد تحصيل المعنى باعتبار التعدية بـ ﴿ عن ﴾، وإنكارُ من أنكر وجود (عشا) بمعنى أعرض أراد إنكار أن يكون معنى أصلياً لفعل (عشَا) وظن أن تفسيره بالإعراض تفسير لمعنى الفعل وليس تفسيراً

للتعدية بـ ﴿ عن ﴾ فالخلاف بين الفريقين لفظي .

و﴿ ذكر الرحمن ﴾ هو القرآن المعبر عنه بالذكر في قوله : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ [الزخرف : 5] .

وإضافته إلى ﴿ الرحمن ﴾ إضافة تشريف وهذا ثناء خامس على القرآن .

والتقييض : الإتاحة وتهيئة شيء لملازمة شيء لعمل حتى يتمه ، وهو مشتق من اسم جامد وهو قَيْض البَيضَة ، أي القِشر المحيط بما في داخل البيضة من المُحِّ لأن القيْض يلازم البيضة فلا يفارقها حتى يخرج منها الفرخ فيتم ما أتيح له القيض .

(137/691)

فصيغة التفعيل للجعل مثل طيَّن الجدَار : ومثل أزره ، أي ألبسه الإزار ، ودرَّعوا الجارية ، أي ألبسوها الدرع .

وأصله هنا تشبيه أي نجعله كالقَيض له ، ثم شاع حتى صار معنى مستقلاً ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وقيَّضنا لهم قرناء ﴾ في سورة فصّلت (25) فضُمَّ إليه ما هنا .

وأتَى الضمير في ﴿ له ﴾ مفرداً لأن لكل واحد ممن تحقق فيهم الشرط شيطاناً وليس لجميعهم شيطان واحد ولذلك سيجيء في قوله : ﴿ قال يا ليت بيني وبينك ﴾ [

الزخرف : 38] بالإفراد ، أي قال كل من له قرين لقرينه .

ولم يذكر متعلق فعل ﴿ نقيّض ﴾ اكتفاءً بدلالة مفعوله وهو ﴿ شيطاناً ﴾ فعُلم منه أنه مقيض لإضلاله ، أي هُمْ أعرضوا عن القرآن لوسوسة الشيطان لهم .

وفُرع عن ﴿ نقيض ﴾ قوله : ﴿ فهو له قرين ﴾ لأن التقيض كان لأجل مقارنته .

ومن الفوائد التي جرت في تفسير هذه الآية ما ذكره صاحب "نَيل الابتهاج بتطريز الديباج" في ترجمة الحفيد محمد بن أحمد بن محمد الشهير بابن مرزوق قال : قال صاحب الترجمة : حضرت مجلس شيخنا ابن عرفة أولَ مجلس حضرتُه فقرأ ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ فقال : قُرِىء ﴿ يعشُو ﴾ بالرفع و ﴿ نُقيض ﴾ بالجزم .

ووجهها أبو حيان بكلام ما فهمتُه .

وذكر أن في النسخة خللاً وذكر بعض ذلك الكلام .

فاهتديتُ إلى تمامه وقلت : يا سيدي معنى ما ذكرَ أن جَزم ﴿ نُقَيضْ ﴾ بـ ﴿ مَن ﴾ الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمَّنها من معنى الشرط وإذا كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لفظ الشرط بذلك فما يشبه لفظُه لفظَ الشرط أولى بتلك المعاملة .

فوافق وفَرِح لما أن الإنصاف كان طبعه .

وعند ذلك أنكر عليّ جماعة من أهل المجلس وطالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط فقلت : نصهم على دخول الفاء في خبر الموصول في نحو : الذي يأتيني فله درهم ، فنازعوني في ذلك وكنت حديث عهد بحفظ التسهيل فقلت : قال ابن مالك فيما يشبه المسألة "وقد يَجزمه مسبب عن صلة الذي تشبيهاً بجواب الشرط وأنشدت من شواهد المسألة قولَ الشاعر :

كذاك الذي يبغي على النّاس ظالماً

تُصبه على رغمٍ عواقب ما صنع . . .

فجاء الشاهد موافقاً للحال .

قال : وكنت في طرف الحَلقة ، فصاح ابن عرفة وقال : يا أخي ما بغينا ، لعلك ابنُ مرزوق ؟ فقلت : عبدكم" انتهى من "اغتنام الفرصة" . اه .

وجيء بالجملة المفرعة جملة اسمية للدلالة على الدوام ، أي فكان قريناً مقارنة ثابتة دائمة ، ولذلك لم يقل : نقيّض له شيطاناً قريناً له .

وقدم الجار والمجرور على متعلَّقه في قوله : ﴿ له قرين ﴾ للاهتمام بضمير ﴿ من يَعش عن ذكر الرحمن ﴾ أي قرين له مقارنةً تامة .

وقرأ الجمهور ﴿ نُقيّض ﴾ بنون العظمة .

وقرأ يعقوب بياء الغائب عائداً ضميره على ﴿ الرحمن ﴾ .

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37)

في موضع الحال من الضمير في قوله ﴿ فهو له قرين ﴾ [الزخرف : 36] أي مقارنةَ صد عن السبيل .

وضميرَا ﴿ إنهم ﴾ و (يصدون) عائدان إلى ﴿ شيطاناً ﴾ [الزخرف : 36] لأنه لما وقع من متعلقات الفعل الواقع جواب شرط اكتسب العموم تبعاً لعموم مَن في سياق الشرط فإنها من صيغ العموم مثلُ النكرة الواقعة في سياق الشرط على خلاف بين أئمة أصول الفقه في عموم النكرة الواقعة في سياق الشرط ولكنه لا يجري هنا لأن عموم شيطاناً ﴾ تابع لعموم ﴿ مَن ﴾ إذ أجزاء جواب الشرط تجري على حكم أجزاء جملة الشرط ، فقرينة عموم النكرة هنا لا تترك مجالاً للتردد فيه لأجل القرينةِ لا لمطلق وقوع النكرة في سياق الشرط .

(139/691)

وضمير النصب في (يصدونهم) عائد إلى ﴿ مَن ﴾ لأنّ ﴿ مَنْ ﴾ الشرطية عامة فكأنه قيل : كلّ من يعشو عن ذكر الرحمان نقيّض لهم شياطين لكل واحد شيطان .

وضميرا ﴿ يحسبون أنهم مهتدون ﴾ عائدان إلى ما عاد إليه ضمير النصب من (يصدونهم) ، أي ويحسب المصدودون عن السبيل أنفسهم مهتدين .

وقد تتشابه الضمائر فتردّ القرينة كل ضمير إلى معاده كما في قول عباس بن مرداس :

عُدْنا ولولا نحن أحدَقَ جمعُهم

بالمسلمين وأحرزوا ما جمّعوا . . .

فضمير : أحرزوا ، لجمع المشركين ، وضمير : جمعوا ، للمسلمين .

وضمير الجمع في قوله تعالى : ﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ في سورة الروم (9) .

والتعريف في ﴿ السبيل ﴾ تعريف الجنس .

والسبيل : الطريق السابلة الممتدة الموصلة إلى المطلوب .

وقد مُثلت حالة الذين يَعشُون عن ذكر الرحمان وحال مقارنة الشياطين لهم بحال من استهدى قوماً ليدلّوه على طريق موصل لبغيته فضللوه وصرفوه عن السبيل وأسلكوه في فيافي التيه غِشّاً وخديعة ، وهو يحسب أنه سائر إلى حيث يبلغ طلبته .

فجملة ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وإنهم ﴾ ، فهي في معنى الحال من الضمير في قوله ﴿ فَهْو ﴾ [الزخرف : 36] والرابط واو الحال ، والتقدير : ويحسب المصدودون أنهم مهتدون بهم إلى السبيل .

والاهتداء : العلم بالطريق الموصل إلى المقصود .

حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)

﴿ حتّى ﴾ ابتدائية ، وهي تفيد التسبب الذي هو غاية مجازية .

فاستعمال ﴿ حتّى ﴾ فيه استعارة تبعية .

وليست في الآية دلالة على دوام الصد عن السبيل وحسبان الآخرين الاهتداء إلى فناء القرينين ، إذ قد يؤمن الكافر فينقطع الصدّ والحُسبان فلا تغْتَّر بتوهم من يزعمون أن الغاية الحقيقية لا تفارق ﴿ حتّى ﴾ في جميع استعمالاتها .

(140/691)

وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ﴿ جاءانا ﴾ بألف ضمير المثنى عائداً على من يعش عن ذكر الرحمان وقرينِه ، أي شيطانه ، وأفرد ضمير ﴿ قال ﴾ لرجوعه إلى من يعش عن ذكر الرحمان خاصة ، أي قال الكافر متندماً على ما فرط من اتّباعه إياه وائتِمارِه بأمره .

وقرأ الجمهور ﴿ جاءنا ﴾ بصيغة المفرد والضمير المستتر في ﴿ قال ﴾ عائد إلى ﴿ من يعش عن ذكر الرحمن ﴾ [الزخرف : 36] ، أي قال أحدهما وهو الذي يعشو .

والمعنى على القراءتين واحد لأن قراءة التثنية صريحة في مجيء الشيطان مع قرينه الكافر

وأن المتندم هو الكافر ، والقراءة بالإفراد متضمنة مجيء الشيطان من قوله : ﴿ يا ليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين ﴾ إذ عُلم أن شيطانه القرينَ حاضر من خطاب الآخر إياه بقوله : ﴿ وبَيْنَك ﴾ .

وحرف ﴿ يا ﴾ أصله للنداء ، ويستعمل للتلهف كثيراً كما في قوله ﴿ يا حسرة ﴾ [يس : 30] وهو هنا للتلهف والتندم .

والمشرقان : المشرق والمغرب ، غلب اسم المشرق لأنه أكثر خطوراً بالأذهان لتشوف النفوس إلى إشراق الشمس بعد الإظلام .

والمراد بالمشرق والمغرب : إما مكان شروق الشمس وغروبها في الأفق ، وإما الجهة من الأرض التي تبدو الشمسُ منها عند شروقها وتغيب منها عند غروبها فيما يلوح لطائفة من سكان الأرض .

وعلى الاحتمالين فهو مَثَل لشدة البعد .

وأضيف ﴿ بعد ﴾ إلى ﴿ المشرقين ﴾ بالتثنية بتقدير : بعد لهما ، أي مختص بهما بتأويل البعد بالتباعد وهو إيجاز بديع حَصل من صيغة التغليب ومن الإضافة .

ومُسَاواته أن يقال بُعْد المَشْرق من المغرب والمغربِ من المشرق فنابت كلمة ﴿ المشرقين ﴾ عن ست كلمات .

وقوله ﴿ فبئس القرين ﴾ ، بَعْدَ أن تمنى مفارقته فرّع عليه ذمّاً فالكافر يذم شيطانه الذي كان قريناً ، ويُعرِّض بذلك للتفصّي من المؤَاخذة ، وإلقاءِ التبعة على الشيطان الذي أضَلّه .

(141/691)

والمقصود من حكاية هذا تفظيع عواقب هذه المقارنة التي كانت شغفَ المتقارنَيْن ، وكذلك شأن كل مقارنة على عمل سّيىء العاقبة .

وهذا من قبل قوله تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضُهم لبعض عدوٌ إلا المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

والمقصود تحذير النّاس من قرين السوء وذم الشياطين ليعافهم النّاس كقوله : ﴿ إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوّاً ﴾ [فاطر : 6] .

وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39)

الظاهر أن هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ قال يا ليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين ﴾ [الزخرف : 38] وأن قولا محذوفاً دلّ عليه فعل ﴿ جاءانا ﴾ [الزخرف : 38] الدال على أن الفريقين حضرا للحساب وتلك الحضرة تؤذن بالمقاولة فإن الفريقين لما حضرا وتبرأ أحدهما من الآخر قصداً للتفصي من المؤاخذة كما تقدمت الإشارة إليه آنفاً فيقول الله ولن

ينفعكم اليوم أنكم في العذاب مشتركون .

والخطاب موجه للذين عَشَوْا عن ذكر الرحمان ولشياطينهم .

وفي هذا الكلام إشارة إلى كلام مطوي ، والتقديرُ : لا تُلقوا التبعة على القرناء فأنتم مؤاخذون بطاعتهم وهم مؤاخذون بإضلالكم وأنتم مشتركون في العذاب ولن ينفعكم أنكم في العذاب مشتركون لأن عذاب فريق لا يخفف عن فريق كما قال تعالى : ﴿ ربّنا هؤلاء أضلُّونا فئاتهم عذاباً ضعفاً من النّار قال لكلٍ ضعفٌ ولكن لا تعلمون ﴾ [الأعراف : 38] .

ووقوع فعل ﴿ ينفعكُم ﴾ في سياق النفي يدل على نفي أن يكون الاشتراك في العذاب نافعاً بحال لأنه لا يخفِف عن الشريك من عذابه .

وأما ما يتعارفه النّاس من تسلّي أحد برؤية مثله مِمَّن مُنِي بمصيبة فذلك من أوهام البشر في الحياة الدّنيا ، ولعلّ الله جعل لهم ذلك رحمة بهم في الدّنيا ، وأما الآخرة فعالَم الحقائق دون الأوهام .

وفي هذا التوهم جاء قول الخنساء :

ولَولا كثرة الباكين حولي

على إخوانهم لقتلتُ نفسي

وقرأ الجمهور ﴿ أنكم ﴾ بفتح همزة (أنَّ) على جعل المصدر فاعلاً.

وقرأ ابن عامر ﴿ إنكم ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف ويكون الوقف عند قوله: ﴿ إذ ظلمتم ﴾ وفاعل ﴿ ينفعكم ﴾ ضمير عائد على التمني بقولهم: ﴿ يا ليت بيني وبينك بُعْد المشرقين ﴾ [الزخرف: 38]، أي لن ينفعكم تمنّيكم ولا تفصّيكم.

و﴿ إذْ ﴾ أصله ظرف مُبهَم للزمن الماضي تفسره الجملة التي يضاف هو إليها ويخرج عن الظرفية إلى ما يقاربها بتوسع أو إلى ما يشابهها بالمجاز.

وهو التعليل، وهي هنا مجاز في معنى التعليل، شبهت علة الشيء وسببه بالظرف في اللزوم له.

وقد ذكَر في "مغني اللبيب" معنى التعليل من معاني ﴿ إذْ ﴾ ولم ينسبه لأحد من أئمة النحو واللّغة.

وجوز الزمخشري أن تكون ﴿ إذْ ﴾ بدلاً من ﴿ اليوم ﴾، وتأويل الكلام على جعل فعل ﴿ ظلمتم ﴾ بمعنى: تبيَّن أنكم ظلمتم، أي واستعمل الإخبار بمعنى التبيّن، كقول زائد بن صعصعة الفقعسي:

إذا ما انتسبْنَا لم تَلدني لئيمة

ولم تَجِدِي من أن تُقرّي به بدّا . . .

أي تبين أن لم تلدني لئيمة ، وتبعه ابن الحاجب في أماليه وقال ابن جني : راجعتُ أبا علي مراراً في قوله تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ﴾ الآية مستشكلاً إبدالَ ﴿ إذْ من اليومَ ﴾ فآخِرُ ما تحصل منه أن الدنيا والآخرة سواء في حكم الله وعِلمه فكأنّ ﴿ اليوم ﴾ ماض أو كأن ﴿ إذ ﴾ مستقبلة أ هـ .

وهو جواب وَهِن مدخول .

(143/691)

وأقول : اجتمع في هذه الآية دوال على ثلاثة أزمنة وهي ﴿ لن ﴾ لنفي المستقبل ، و ﴿ اليومَ ﴾ اسم لزمن الحالِ ، و ﴿ إذ ﴾ اسم لزمن المضيّ ، وثلاثتها منوطة بفعل ﴿ ينفعكم ﴾ ومقتضياتها يُنافي بعضها بعضاً ، فالنفي في المستقبل ينافي التقييد بـ ﴿ اليوم ﴾ الذي هو للحال ، و ﴿ إذ ﴾ ينافي نفي النفع في المستقبل وينافي التقييد بـ ﴿ اليومَ ﴾ فتصدى الزمخشري وغيره لدفع التنافي بين مقتضى ﴿ إذْ ﴾ ومقتضى ﴿ اليومَ ﴾ بتأويل معنى ﴿ إذْ ﴾ كما علمت ، ولم يتصد هو ولا غيره لدفع التنافي بين مقتضى ﴿ اليومَ ﴾ الدال على زمن الحال وبين مقتضى ﴿ لن ﴾ وهو حصول النفي في الاستقبال .

وأنا أرى لدفْعه أن يكون ﴿ اليومَ ﴾ ظرفاً للحكم والإخبار ، أي تقرر اليومَ انتفاءُ

انتفاعكم بالاشتراك في العذاب انتفاء مؤبّداً من الآن ، كقول مِقدام الدُبيْري :

لن يخلص العامَ خليل عشْرا

ذاق الضِمَادَ أوْ يزورَ القبرا . . .

وقد حصل من اجتماع هذه الدوالّ الثلاث في الآية طباق عزيز بين ثلاثة معان متضادة في الجملة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(144/691)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى السبيل)

وهو الطَّريق السّهل ، جمعه سُبُل وسُبْل .

يذكَّر ويؤنَّث .

قال تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ ، وقال جلّ ذكره : ﴿ قُلْ هذه سَبِيلِي ﴾ أَى مَحَجّتى وسنَّتى وطريقى .

وقوله تعالى : ﴿ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ ، أَى سببًا ووُصْلة .

قال جرير :

*أَفبعد مقلتكم خليلَ محمّدٍ * ترجو القُيونُ مع الرّسول سبيَلا*

أَى سببًا ووُصْلةً ، أَى يا ليتنى سلكت قصده ومذهبه .

وقوله تعالى : ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ ، قال ابن عرفة : هو الضَّيف المنقطع به ، يُعطَى قدرَ ما يتبلّغ به إِلى وطنه .

وقيل : ابن السّبيل : المسافرُ البعيد عن منزلة ، ونسب إِلى السّبيل لممارسته إِيّاه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أَى طريق واضحٍ بيّن ، يعنى مدائن قومِ لوط .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ ، كان أَهل الكتاب إِذا بايعهم المسلمون قال بعضهم لبعض : ليس للأُميين – يعنى العرب – حرمة أَهل ديننا ، وأَمالُهم تحِلّ لنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ ، يعنى سبيل الولد .

وقيل : تعرضون للنّاس فى الطريق لطلب / الفاحشة .

قال ابن عباد : السَّبيلة : السبيلُ ، والسابلة : أَبناء السّبيل المختلفون فى الطُّرقات ، جمع سابل ، وهو سالك السّبيل .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ يعنى به طريق الحقّ ، لأَنَّ اسم الجنس إِذا أُطْلِقَ يختصّ بما هو الحقّ ، وعلى ذلك : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .

ويستعمل السّبيل لكلّ ما يتوصّل به إِلى شىء خيرا كان أَو شرًّا .

وقوله تعالى : ﴿ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ يعنى طريق الجنّة قال الشاعر :

*إذا لم يُعِنْك الله فيما تريده * فليس لمخلوقٍ إليه سبيل*

وقال :

*سبيل الموت منهج كلّ حىّ * وداعِيهِ لأَهل الأَرض داعى*

(145/691)

وقال :

*الموت لا والدا يُبقى ولا ولدًا * هذا السّبيل إلى ألاَّ ترى أَحدَا*

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أَى فى طاعته ، ومثله ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ أَى زادًا وراحلة .

وقوله : ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ أَى مخرجاً إلى فضاءِ الأُنْس من حبس الوحشة .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴾ ، ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾ أَى مَمرّه .

وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ أَى عُذْرًا وعِلَّة .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَى دينهم وملّتهم ، ومثله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ

رَبِّكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ أَى طريق هداية .

وقوله : ﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ أَى حجّة .

وقوله : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴾ أَى عن طريق الحقّ .

وقوله : ﴿ فَأُوْلَائِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ أَى ملامة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ أَى المخرج من رحم الأُمّ حال الولادة .

وقوله : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ ، ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ أَى إثم ومعصية .

وأَسْبَلَ السِتْرَ : أَرخاه ، والمطرُ : نزل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 187.185 ﴾

(146/691)

قوله تعالى ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً

يُعْبَدُونَ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ شديد الإرادة لإقبالهم يكاد يقتل نفسه أسفاً إدبارهم ، وكان هذا الزجر الذي لا يسمعه من له أدنى عقل إلا خلع قلبه فرجع عن غيه وراجع رشده قد تلا عليهم فلم ينتفعوا به ، فكان كأنه قيل : إن هؤلاء لصم عمي محيط بهم الضلال إحاطة لا يكادون ينفكون عنه من كل جانب ، فلا وصول لأحد إلى إسماعهم ولا تبصيرهم ولا هدايتهم ، قال بانياً عليه مسبباً عنه تخفيفاً على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يقاسي من الكرب في المبالغة في إبلاغهم حرصاً على إقبالهم والغم من إعراضهم بهمزة الإنكار الدالة على نفي ما سيقت له : ﴿ أفأنت ﴾ أي وحدك من غير إرادة الله تعالى ﴿ تسمع الصم ﴾ وقد أصممناهم بما صببنا في مسامع أفهامهم من رصاص الشقاء ﴿ أو تهدي العمي ﴾ الذين أعميناهم بما غشينا به أبصار بصائرهم من أغشية البلادة والخسارة ، فصار ما اختارون لأنفهسم من العشى عمياً مقروناً بصممهم ﴿ ومن كان ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي بين في نفسه أن ضال وأنه محيط بالضلال مظهر لكل أحد ذلك ، فهو بحيث لا يخفى على أحد ، فالمعنى : ليس شيء من ذلك إليك ، بل هو إلى الله القادر على كل شيء ، وأما أنت فليس عليك إلا البلاغ .

ولما كان هذا كالمؤيس منهم ، وكان اليأس من صلاح الخصم موجباً لتمني الراحة منه بموت أحدهما ، سبب عن التقديرين قوله مبيناً أن الإملاء لهم ليس لعجز عنهم ولا لإخلاف في الوعد ، مؤكداً بالنون و " ما " ثم " أنا " والاسمية لمن يظن خلاف ذلك ، ولأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشرف عنده سبحانه وتعالى معظم لديه فذهابه به مما يستبعد ، ومن حقه أن ينكر ، وكذا إراءته ما توعدهم به لأن المظنون إكرامهم لأجله : ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ أي من بين أظهرهم بموت أو غيره ﴿ فإنا منهم ﴾ أي الذين تقدم التعريض بأنهم صم عمي ضلال لأنهم لن تنفعهم مشاعرهم ﴿ منتقمون ﴾ أي بعد فراقك لأن وجودك بين أظهرهم هو سبب تأخير العذاب عنهم ﴿ أو نرينك ﴾ وأنت بينهم ﴿ الذي وعدناهم ﴾ أي من العذاب وعبر فيه بالوعد ليدل على الخير بلفظه وعلى الشر بأسلوبه فيعم ﴿ فإنا ﴾ بما تعلم من عظمتنا التي أنت أعلم الخلق بهم ﴿ عليهم مقتدرون ﴾ على كلا التقديرين ، وأكد ب " أن " لأن أفعالهم أفعال من ينكر قدرته ، وكذا بالإتيان بنون العظمة وصيغة الافتعال ، وأحد هذين التقديرين سبق العلم الأزلي بأنه لا يكون ، فالآية من أدلة القدرة على المحال لغيره وهي كثيرة جداً ، وقد أكرم الله نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أن يريه شيئاً

يكرهه في أمته حتى قبض .

ولما أوقف سبحانه السامع بهاتين الشرطيتين بين الخوف والرجاء لبيان الاستبداد بعلم الغيب تغليباً للخوف ، وأفهم السياق وإن كان شرطاً أن الانتقام منهم أمر لا بد منه ، وأنه لا قدرة لأحد على ضرهم ولا نفعهم إلا الله ، سبب عنه قوله : ﴿ فاستمسك ﴾ أي أطلب وأوجد بجد عظيم على كل حال الإمساك ﴿ بالذي أوحي إليك ﴾ من حين نبوتك وإلى الآن في الانتقام منهم وفي غيره .

(148/691)

ولما كان المقام لكثرة المخالف محتاجاً إلى تأكيد يطيب خواطر الأتباع ويحملهم على حسن الاتباع ، علل ذلك بقوله : ﴿ إنك على صراط ﴾ أي طريق واسع واضح جداً : ﴿ مستقيم ﴾ موصل إلى المقصود لا يصح أصلاً أن يلحقه شيء من عوج ، فإذا فعلت ذلك لم يضرك شيء من نقمتهم .

ولما أثبت حسنه في نفسه المتقضي للزومه ، عطف عليه نفعه لهم .

وأكد لإنكارهم فقال : ﴿ وإنه ﴾ أي الذي أوحى إليك في الدنيا ﴿ لذكر ﴾ أي شرف عظيم جداً وموعظة وبيان ، عبر عن الشرف بالذكر للتنبيه على أن سببه الإقبال على

الذكر وعلى ما بينه وشرعه والاستمساك به والاعتناء بشأنه : ﴿ لك ولقومك ﴾ قريش خصوصاً والعرب عموماً وسائر من اتبعك ولو كان من غيرهم من جهة نزوله على واحد منهم وبلسانهم ، فكان سائر الناس تبعاً لهم ومن جهة إيراثه الطريقة الحسنى والعلوم الزاكية الواسعة وتأثيره الظهور على جميع الطوائف والإمامة لقريش بالخصوص كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان ما أقاموا الدين " فمن أقام هذا الدين كان شريفاً مذكوراً في ملكوت السماوات والأرض ، قال ابن الجوزي : وقد روى الضحاك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا سئل : لمن هذا الأمر ، من بعدك ، لم يخبر بشيء حتى نزلت هذه الآية ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : لقريش – وهذا يدل على أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم من هذا أنه يلي على المسلمين بحكم النبوة وشرف القرآن ، وأن قومه يخلفونه من بعده في الولاية بشرف القرآن الذي أنزل على رجل منهم – انتهى .

(149/691)

ولما كان التقدير : فسوف تشرفون على سائر الملوك وتعلمون ، عطف عليه قوله :

﴿ وسوف تسألون ﴾ أي تصيرون في سائر أنواع العلم محط رحال السائلين دنياً ودنيا

بحيث يسألكم جميع أهل الأرض من أهل الكتاب ومن غيرهم عما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم لما يعتقدون من أنه لا يوازيكم أحد في العلم بعد أن كنتم عندهم أحقر الأمم ضعفاً وجهلاً كما وقع لبني إسرائيل حيث رفعهم الله ، وكان ذلك أبعد الأشياء عند فرعون وآله ، ولذلك كانوا يتضاحكون استهزاء بتلك الآيات وينسبون الآتي بها إلى ما لا يليق بمنصبه العالي من المحالات ، وتسألون عن حقه وأداء شكره وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له ، وهذا بوعد صادق لا خلف فيه أصلاً .

ولما أبطل سبحانه إلهية غيره التي أدى إليها الجهل ، واستمر إلى أن ختم بالعلم الموجب لمعرفة الحق ، فكان التقدير إبطالاً لشبهتهم الوهمية القائلة ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ : فاستحضر جميع ما أوحى إليك وتأمله غاية التأمل ، هل ترى فيه خفاء في الإلهية لشيء دون الله ، عطف عليه قوله نفياً لدليل سمعي كما أشير إليه بقوله ﴿ أم آتيناهم كتاباً ﴾ ﴿ واسأل من أرسلنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة .

ولما كان الممكن تعرفه من آثار الرسل إنما هو لموسى وعيسى ومن بينهما من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام الحافظ لسنتهم من التوراة والإنجيل والزبور وسفر الأنبياء ، قال مثبتاً للجار المفهم لبعض الزمان : ﴿ من قبلك ﴾ .

ولما كان أتباعهم قد غيروا وبدلوا فلم تكن بهم ثقة ، عبر بالرسل فقال : ﴿ من رسلنا ﴾ أي بقراءة أتباعهم لكتبهم التي حرفوا بعضها ، وجعلت كتابك مهيمنا عليها فإنهم إذا قرؤوها بين يديك وعرضوها عليك علمت معانيها وفضحت تحريفهم وبينت اتفاق الكتب كلها برد ما ألبس عليهم من متشابهها إلى محكمها ، فالمراد من هذا نحو المراد من آية يونس ﴿ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ﴾ [رقم : 94] ومن آية الأنبياء ﴿ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ [رقم : 24] مع زيادة الإشارة إلى تحريفهم ، فالمسؤول في الحقيقة القرآن المعجز على لسان الرسول الذي شهدت له جميع الرسل الذين أخذ عليهم العهد بالإيمان به والمتابعة له ، وبهذا التقرير ظهر ضعف قول من قال : إن المراد سؤال الرسل حقيقة لما جمعوا له ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيت المقدس ليلة الإسراء ، فإنه ليس المراد من هذا إلا تبكيت الكفار من العرب وممن عزهم من أهل الكتاب بقولهم : دينكم خير من دينه وأنتم أهدى سبيلاً منه ، فإنهم إذا أحضروا كتبهم علمت دلالتها القطعية على اختصاصه سبحانه بالعبادة كما بينته في كتابي هذا برد المتشابه منها إلى المحكم ، وجعلها ابن جرير مثل قوله تعالى ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [النساء : 59] وقال : ومعلوم أن معنى ذلك : فردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال : فاستغنى بذكر الرسل عن ذكر

الكتب .

وهو عين ما قلته ، ولو كان المراد حقيقة السؤال وسؤال جميع الرسل لقال " قبلك " بإسقاط " من " ليستغرق الكل - والله أعلم .

(151/691)

ولما ذكر المسؤول مفخماً له بما اقتضته العبارة من الإرسال والإضافة إليه ، ذكر المسؤول عنه بقوله تعالى : ﴿ أجعلنا ﴾ أي أبحنا وأمرنا ورضينا على ما لنا من العظمة والقدرة التامة ، مما ينافي ذلك ، وقرر حقارة ما سواه بقوله : ﴿ من دون ﴾ وزاد بقوله : ﴿ الرحمن ﴾ أي الذي رحمته عمت جميع الموجودات ﴿ آلهة ﴾ ولما كان قد جعل لكل قوم وجهة يتوجهون في عبادتهم إلهاً ، وشيئاً محسوساً بغلبة الأوهام على الأفهام يشهدونه وكان ربما تعنت به متعنت ، قال محترزاً : ﴿ يعبدون ﴾ أي من عابد ما بوجه ما .

ولما كان المترفون مولعين بأن يزدروا من جاءهم بالرد عن أغراضهم الفاسدة بنوع من الازدراء كما قال كفار قريش ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ولا يزالون يردون هذا وأمثاله من الضلال حتى يقهرهم ذو الجلال بما أتتهم به رسله إما بإهلاكهم أو غيره وإن كانوا في غاية القوة ، أورد سبحانه قصة موسى عليه الصلاة والسلام شاهدة

على ذلك بما قال فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام من نحو ذلك ومن إهلاكه على قوته وإنجاء بني إسرائيل على ضعفهم ، وتسلية للنبي صلى عليه وسلم وترجية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 30 . 33 ﴾

(152/691)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40) ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشي وصفهم في هذه الآية بالصمم والعمى وما أحسن هذا الترتيب ، وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف ، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل ، لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى فإذا واظب على تلك الحالة أياماً أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى ، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية ، روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد في دعاء قومه وهم لا

يزيدون إلا تصميماً على الكفر وتمادياً في الغي ، فقال تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِي العمي ﴾ يعني أنهم بلغوا في النفرة عنك وعن دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم ، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمى ، ثم بيّن تعالى أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم في ضلال مبين .

ولما بيّن تعالى أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم قال : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ بعدك أو نرينك في حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فإنا مقتدرون على ذلك ، واعلم أن هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه السلام لأنه تعالى بيّن أنهم لا تؤثر فيهم دعوته واليأس إحدى الراحتين ، ثم بيّن أنه لا بد وأن ينتقم لأجله منهم إما حال حياته أو بعد وفاته ، وذلك أيضاً يوجب التسلية ، فبعد هذا أمره أن يستمسك بما أمره تعالى ، فقال : ﴿ فاستمسك بالذى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ بأن تعتقد أنه حق وبأن تعمل بموجبه فإنه الصراط المستقيم الذي لا يميل عنه إلا ضال في الدين .

(153/691)

ولما بيّن تأثير التمسك بهذا الدين في منافع الدين بيّن أيضاً تأثيره في منافع الدنيا فقال : ﴿ وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي إنه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك حيث يقال إن هذا الكتاب العظيم أنزله الله على رجل من قوم هؤلاء ، واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الثناء الحسن والذكر الجميل ، ولو لم يكن الذكر الجميل أمراً مرغوباً فيه لما منَّ الله به على محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ ولما طلبه إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ واجعل لّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الأخرين ﴾ [الشعراء : 84] ولأن الذكر الجميل قائم مقام الحياة الشريفة ، بل الذكر أفضل من الحياة لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في مسكن ذلك الحي ، أما أثر الذكر الجميل فإنه يحصل في كل مكان وفي كل زمان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ وفيه وجوه الأول : قال الكلبي تسألون هل أديتم شكر إنعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل الثاني : قال مقاتل المراد أن من كذب به يسأل لم كذبه ، فيسأل سؤال توبيخ الثالث : تسألون هل عملتم بما دل عليه من التكاليف ، واعلم أن السبب الأقوى في إنكار الكفار لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولبغضهم له أنه كان ينكر عبادة الأصنام ، فبيّن تعالى أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كل الأنبياء والرسل كانوا مطبقين على إنكاره فقال : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وفيه أقوال الأول :

معناه واسأل مؤمني أهل الكتاب أي أهل التوراة والإنجيل فإنهم سيخبرونك أنه لم يرد في دين أحد من الأنبياء عبادة الأصنام ، وإذا كان هذا الأمر متفقاً عليه بين كل الأنبياء والرسل وجب أن لا يجعلوه سبباً لبغض محمد صلى الله عليه وسلم .

(154/691)

والقول الثاني : قال عطاء عن ابن عباس " لما أسرى به صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده ، فأذن جبريل ثم أقام فقال : يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة قال له جبريل عليه السلام واسأل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لا أسأل لأني لست شاكاً فيه " .

والقول الثالث : أن ذكر السؤال في موضع لا يمكن السؤال فيه يكون المراد منه النظر والاستدلال ، كقول من قال : سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك جواباً أجابتك اعتباراً ، فههنا سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع ، فكان المراد منه انظر في هذه المسألة بعقلك وتدبر فيها بفهمك ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 184 . 185 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40) ﴾

لما ذكر تعالى حال الكفرة في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب ، اقتضى ذلك أن تشفق النفوس ، وأن ينظر كل سامع لنفسه ويسعى في خلاصها ، فلما كانت قريش مع هذا الذي سمعت لم تزل عن عتوها وإعراضها عن أمر الله ، رجعت المخاطبة إلى محمد عليه السلام على جهة التسلية له عنهم وشبههم ب ﴿ الصم ﴾ و ﴿ العمي ﴾ ، إذ كانت حواسهم لا تفيد شيئاً .

وقوله : ﴿ ومن كان في ضلال مبين ﴾ يريد بذلك قريشاً بأنفسهم ، ولذلك لم يقل : " من كان " بل جاء بالواو العاطفة ، كأنه يقول : وهؤلاء ، ويؤيد ذلك أيضاً عود الضمير عليهم في قوله : ﴿ فإنا منهم ﴾ ولم يجر لهم ذكر إلا في قوله : ﴿ ومن كان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ الآية تتضمن وعيداً واقعاً ، وذهب جمهور العلماء إلى أن المتوعدين هم الكفار ، وأن الله تعالى أرى نبيه الذي توعدهم في بدر والفتح وغير ذلك ، وذهب الحسن وقتادة إلى أن المتوعدين هم في هذه الأمة ، وأن الله تعالى أكرم نبيه على أن

ينتقم منهم بحضرته وفي حياته ، فوقعت النقمة منهم بعد أن ذهب به ، وذلك في الفتن الحادثة في صدر الإسلام مع الخوارج وغيرهم ، قال الحسن وقتادة : أكرم الله نبيه على أن يرى في أمته ما يكره كما رأى الأنبياء ، فكانت بعد ذهابه صلى الله عليه وسلم ، وقد روي حديث عن جابر بن عبد الله أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ فقال : بعلي بن أبي طالب والقول الأول من توعد الكفار أكثر ، ثم أمر تعالى نبيه بالتمسك بما جاء من عند الله من الوحي المتلو وغيره . والصراط : الطريق . وقرأ الجمهور : " أوحيَ " على بناء الفعل للمفعول . وقرأ الضحاك : " أوحى " على الفعل المبني للفاعل ، أي أوحى الله .

(156/691)

وقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ﴾ يحتمل أن يريد وإنه لشرف وحمد في الدنيا . والقوم : على هذا قريش ثم العرب ، وهذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وابن زيد . قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل ، فإذا قالوا له : فلمن يكون الأمر بعدك ؟ سكت حتى نزلت هذه الآية ، فكان إذا سئل بعد ذلك ، قال لقريش ، فكانت العرب لا تقبل على ذلك حتى قبلته الأنصار وروي عن ابن عمر أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يزال الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان " وروى أبو موسى الأشعري عنه صلى الله عليه وسلم : " لا يزال الأمر في قريش ما زالوا ، إذ حكموا عدلوا ، وإذا استرحموا رحموا ، وإذا عاهدوا وفوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " .

وروى معاوية أنه عليه السلام قال : " لا يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين " . ويحتمل أن يريد وإنه لتذكرة وموعظة ، ف " القوم " على هذا أمة بأجمعها ، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن ، وقوله : ﴿ وسوف تسئلون ﴾ قال ابن عباس وغيره معناه : عن أوامر القرآن ونواهيه : وقال الحسن بن أبي الحسن معناه : عن شكر النعمة فيه ، واللفظ يحتمل هذا كله ويعمه .

(157/691)

واختلف المفسرون في المراد بالسؤال في قوله : ﴿ وسئل من أرسلنا ﴾ فقالت فرقة ، أراد : أن اسأل جبريل ، ذكر ذلك النقاش ، وفيه بعد . وقال ابن زيد وابن جبير والزهري ، أراد : واسأل الرسل إذا لقيتهم ليلة الإسراء ، أما أن النبي عليه السلام لم يسأل الرسل ليلة الإسراء عن هذا ، لأنه كان أثبت يقيناً من ذلك ولم يكن في شك . وقالت فرقة ، أراد :

واسألني ، أو واسألنا عمن أرسلنا ، والأولى على هذا التأويل أن يكون : ﴿ من أرسلنا ﴾ استفهاماً أمره أن يسأل له ، كأن سؤاله : يا رب من أرسلت قبلي من رسلك ؟ أجعلت في رسالته الأمر بآلهة يعبدون ؟ ثم ساق السؤال محكي المعنى ، فرد المخاطبة إلى محمد عليه السلام في قوله : ﴿ من قبلك ﴾ . وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي وعطاء ، أراد : وسل تباع من أرسلنا وحملة شرائعهم ، لأن المفهوم أنه لا سبيل إلى سؤاله الرسل إلا بالنظر في آثارهم وكتبهم وسؤال من حفظها .

وفي قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب : " وسئل الذين أرسلنا إليهم رسلنا " ، فهذه القراءة تؤيد هذا المعنى ، وكذلك قوله : ﴿ وسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] مفهوم إنه لا يسأل إلا أهلها ، ومما ينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ [النساء : 59] فمفهوم أن الرد إنما هو إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وأن المحاور في ذلك إنما هم تباعهم وحفظة الشرع .

وقوله : ﴿ يعبدون ﴾ أخرج ضميرهم على حد من يعقل مراعاة للفظ الآلهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِي العمي ﴾

يا محمد ﴿ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا ؛

ففيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وفيه ردّ على القدرية وغيرهم ، وأن الهدى والرشد والخذلان في القلب خَلْقُ الله تعالى ،

يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ يريد نخرجنك من مكة من أذى قريش .

﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْنَاهُمْ ﴾ وهو الانتقام منهم في حياتك .

﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ؛ وهو قول أكثر

المفسرين .

وقال الحسن وقتادة : هي في أهل الإسلام ؛ يريد ما كان بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم من

الفتن .

و"نَذْهَبَنَّ بِكَ" على هذا نتوفينّك .

وقد كان بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم نقمة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم

وذهب به فلم يُرِه في أمته إلا التي تقرّ به عينه وأبقى النقمة بعده ، وليس من نبيّ إلا وقد أُرِي

النقمة في أمته .

وروي : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أرِي ما لقيت أمته من بعده ، فما زال منقبضاً ، ما انبسط ضاحكاً حتى لقي الله عز وجل .

وعن ابن مسعود : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أراد الله بأمة خيراً قبض نبيّها قبلها فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً .

وإذا أراد الله بأمة عذاباً عذّبها ونبيُّها حيٌّ لتَقَرَّ عينه لما كذَّبوه وعصَوْا أمره " .

قوله تعالى : ﴿ فاستمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ يريد القرآن ، وإن كذب به من كذب ؛ فَ ﴿ إِنَّكَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يوصّلك إلى الله ورضاه وثوابِه .

(159/691)

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعني القرآن شرفٌ لك ولقومك من قريش ، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم ؛ نظيره : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] أي شرفكم .

فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب ؛ فاحتاج أهل اللغات كلّها إلى لسانهم كلّ من آمن بذلك فصاروا عيالاً عليهم ؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عنى به من الأمر والنهي وجميع ما فيه من الأنباء ، فشَرُفُوا بذلك على

سائر أهل اللغات ولذلك سُمِّي عربياً .

وقيل : بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة .

وقيل : تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به .

وقيل : "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ" يعني الخلافة فإنها في قريش لا تكون في غيرهم ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الناس تَبَعٌ لقريش في هذا الشأن مُسْلمُهم تَبَعٌ لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم " وقال مالك : هو قول الرجل حدّثني أبي عن أبيه ، حكاه ابن أبي سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس فيما ذكر الماورديّ والثعلبيّ وغيرهما .

قال ابن العربي : ولم أجد في الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببَغْداد فإن بني التميمي بها يقولون : حدّثني أبي قال حدّثني أبي ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبذلك شَرُفت أقدارهم ، وعظّم الناس شأنهم ، وتهمّمت الخلافة بهم .

ورأيت بمدينة السلام ابني أبي محمد رزق الله بن عبد الوهاب أبي الفرج بن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد بن أُكَيْنة بن عبد الله التميمي وكانا يقولان : سمعنا أبانا رزق الله يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت عليّ بن أبي طالب يقول وقد سئل عن الحنّان المَنّان فقال : الحنان الذي يُقبل على من أعرض عنه ، والمنّان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال .

والقائل سمعت عليًّا : أكَيْنة بن عبد الله جدّهم الأعلى .

والأقوى أن يكون المراد بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعني القرآن ؛ فعليه انبنى الكلام وإليه يرجع المصير ، والله أعلم .

قال الماورديّ : "وَلِقَوْمِكَ" فيهم قولان : أحدهما من اتبعك من أمتك ؛ قاله قتادة وذكره الثعلبي عن الحسن .

الثاني لقومك من قريش ؛ فيقال ممن هذا ؟ فيقال من العرب ، فيقال من أيّ العرب ؟ فيقال من قريش ؛ قاله مجاهد .

قلت والصحيح أنه شرف لمن عمِل به ، كان من قريش أو من غيرهم .

روى ابن عباس قال : " أقبل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم من سَرِيّة أو غَزَاة فدعا فاطمة فقال : "يا فاطمة اشتري نفسك من الله فإني لا أُغْنِي عنك من الله شيئاً" "

وقال مثل ذلك لِنسْوَته ، وقال مثل ذلك لعِترته ، ثم قال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : " ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون ، ولا قريش بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون ، ولا الأنصار بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون ، ولا

الموالي بأولى الناس بأمتي إن أولى الناس بأمتي المتقون .

إنما أنتم من رجل وامرأة وأنتم كجِمَام الصاع ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى " وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لينتهينّ أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونون شرًّا عند الله من الجِعلان التي تدفع النتنْ بأنفها ، كلّكم بنو آدم وآدم من تراب ، إن الله أذهب عنكم عَيْبة الجاهلية وفخرها بالآباء (الناس) مؤمن تقيٌّ وفاجر شقي " خرجهما الطبري .

وسيأتي لهذا مزيد بيان في الحجرات إن شاء الله تعالى .

﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ أي عن الشكر عليه ؛ قاله مقاتل والفرّاء .

وقال ابن جريج : أي تسألون أنت ومن معك على ما أتاك .

وقيل : تسألون عما عملتم فيه ؛ والمعنى متقارب .

(161/691)

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

قال ابن عباس وابن زيد : " لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو مسجد بيت المقدس بعث الله له آدم ومَن وُلد من المرسلين ،

وجبريل مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأذّن جبريل صلى الله عليه وسلم ثم أقام الصلاة ، ثم قال : يا محمد تقدّم فصلّ بهم ؛ فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل صلى الله عليه وسلم : "سل يا محمد من أرسلنا مِن قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون" .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا أسأل قد اكتفيت" .

قال ابن عباس : وكانوا سبعين نبيًّا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم .

في غير رواية ابن عباس : فصلّوْا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة صفوف ، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة ؛ وكان يلي ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمّهم ركعتين ؛ فلما انفتل قام فقال : "إن ربي أوحى إليّ أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله" ؟ فقالوا : يا محمد ، إنا نشهد إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل ، وإنك خاتم النبيين وسيد المرسلين ، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا ، وأن لا نبيّ بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى ابن مريم فإنه مأمور أن يتبع أثرك" " وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ قال : لقِيَ الرّسل ليلة أسري به .

وقال الوليد بن مسلم في قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ قال : سألت عن ذلك خليد بن دَعْلَج فحدّثني عن قتادة قال : سألهم ليلة أسري به ، لقي الأنبياء ولقي آدم ومالك خازن النار .

قلت : هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية .

و "مِنْ" التي قبل "رُسُلِنَا" على هذا القول غير زائدة .

وقال المبرد وجماعة من العلماء : إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا .

وروي أن في قراءة ابن مسعود "وَاسْأَلْ الَّذِي أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم قَبْلَك رُسُلنا" .

وهذه قراءة مفسّرة ؛ ف "مِن" على هذا زائدة ، وهو قول مجاهد والسُّدّي والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وابن عباس أيضاً .

أي واسأل مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل .

وقيل : المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك ؛ فحذفت "عن" ، والوقف على "رُسُلِنَا" على هذا تام ، ثم ابتدأ بالاستفهام على طريق الإنكار .

وقيل : المعنى واسأل تُبَّاع مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا ، فحذف المضاف .

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته .

﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أخبر عن الآلهة كما أخبر عمن يعقل فقال : "يُعْبَدُونَ" ولم يقل تعبد ولا يعبدن ، لأن الآلهة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجري الخبر عنهم مجرى الخبر عمن يعقل .

وسبب هذا الأمر بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنّ ما جئت به مخالف لمن كان قبلك ؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير ؛ لا لأنه كان في شك منه .

واختلف أهل التأويل في سؤال النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم على قولين : أحدهما أنه سألهم فقالت الرسل بُعثنا بالتوحيد ؛ قاله الواقدي .

الثاني أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل ؛ حتى حكى ابن زيد أن ميكائيل قال لجبريل : "هل سألك محمد عن ذلك ؟ فقال جبريل : هو أشدّ إيماناً وأعظم يقيناً من أن يسأل عن ذلك" .

وقد تقدّم هذا المعنى في الروايتين حسبما ذكرناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(163/691)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾

بين تعالى أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله ، أي ولولا أن يرغب الناس في الكفر ، إذا رأوا الكافر في سعة ، ويصيروا أمة واحدة في الكفر .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي : لأعطيناهم من زينة الدنيا كذا وكذا ، ولكن تعالى اقتضت حكمته أن يغني ويفقر الكافر والمؤمن .

قال ابن عطية : واللام في : لمن يكفر ، لام الملك ، وفي : لبيوتهم ، لام تخصيص .

كما تقول : هذا الكساء لزيد لدابته ، أي هو لدابته حلس ولزيد ملك ، انتهى .

ولا يصح ما قاله ، لأن لبيوتهم بدل اشتمال أعيد معه العامل ، فلا يمكن من حيث هو بدل أن تكون اللام الثانية إلا بمعنى اللام الأولى .

أما أن يختلف المدلول ، فلا واللام في كليهما للتخصيص .

وقال الزمخشري : لبيوتهم بدل اشتمال من قوله : ﴿ لمن يكفر ﴾ ، ويجوز أن تكونا بمنزلة اللامين في قولك : وهبت له ثوباً لقميصه .

انتهى ، ولا أدري ما أراد بقوله : ويجوز إلى آخره .

وقرأ الجمهور : سقفاً ، بضمتين ؛ وأبو رجاء : بضم وسكون ، وهما جمع سقف ، لغة تميم ، كرهن ورهن ؛ وابن كثير وأبو عمرو : بفتح السين والسكون على الإفراد .

وقال الفراء : جمع سقيفة ، وقرىء بفتحتين ، كأنه لغة في سقف ؛ وقرىء : سقوفاً ، جمعاً على فعول نحو : كعب وكعوب .

وقرأ الجمهور : ومعارج جمع معرج ، وطلحة : ومعاريج جمع معراج ، وهي المصاعد إلى العلالي عليها ، أي يعلون السطوح ، كما قال : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ وقرأ الجمهور : وسرراً ، بضم السين ؛ وقرىء بفتحها ، وهي لغة لبعض تميم وبعض كلب ، وذلك في جمع فعيل المضعف إذا كان اسماً باتفاق وصفة نحو : ثوب جديد ، وثياب جدد ، باختلاف بين النحاة .

(164/691)

وهذه الأسماء معاطيف على قوله : ﴿ سقفاً من فضة ﴾ ، فلا يتعين أن توصف المعاطيف بكونها من فضة .

وقال الزمخشري : سقوفاً ومصاعد وأبواباً وسرراً ، كلها من فضة .

انتهى ، كأنه يرى اشتراك المعاطيف في وصف ما عطفت عليه وزخرفاً .

قال الزمخشري : وجعلنا لهم زخرفاً ، ويجوز أن يكون الأصل : سقفاً من فضة وزخرف ، يعني : بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، فنصب عطفاً على محل من فضة . انتهى .

والزخرف : الذهب هنا ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدي .

وفي الحديث : " إياكم والحمرة فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان " قال ابن عطية : الحسن أحمر ، والشهوات تتبعه . انتهى .

قال بعض شعرائنا :

وصبغت درعك من دماء كماتهم . . .

لما رأيت الحسن يلبس أحمرا

وقال ابن زيد : الزخرف : أثاث البيت ، وما يتخذ له من السرور والنمارق .

وقال الحسن : النقوش ، وقيل : التزاويق ، كالنقش .

وقرأ الجمهور : لما ، بفتح اللام وتخفيف الميم : هي مخففة من الثقيلة ، واللام الفارقة بين الإيجاب والنفي ، وما : زائدة ، ومتاع : خبر كل .

وقرأ الحسن ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى ، وعاصم ، وحمزة : لما ، بتشديد الميم ، وإن : نافية ، ولما : بمعنى إلا .

وقرأ أبو رجاء ، وأبو حيوة : لما ، بكسر اللام ، وخرّجوه على أن ما موصولة ، والعائد محذوف تقديره : للذي هو متاع كقوله : ﴿ تماماً على الذين أحسن ﴾ وإن في هذا التخريج هي المخففة من الثقيلة ، وكل : مبتدأ وخبره في المجرور ، أي : وإن كل ذلك لكائن ، أو لمستقر الذي هو متاع ، ومن حيث هي المخففة من الثقيلة ، كان الإتيان باللام هو

الوجه ، فكان يكون التركيب لكما متاع ، لكنه قد تحذف هذه اللام إذا دل المعنى على أن إن هي المخففة من الثقيلة ، فلا يجر إلى ذكر اللام الفارقة ، ومن ذلك قول الشاعر :

ونحن أباة الضيم من آل مالك . . .

وإن مالك كانت كرام المعادن

(165/691)

يريد : لكانت ، ولكنه حذف لأنه لا يتوهم في إن أن تكون نافية ، لأن صدر البيت يدل على المدح ، وتعين إن لكونها المخففة من الثقيلة .

﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ : أي ونعيم الآخرة ، وفيه تحريض على التقوى .

وقرأ : ومن يعش ، بضم الشين ، أي يتعام ويتجاهل عن ذكره ، وهو يعرف الحق .

وقيل : يقل نظره في شرع الله ، ويغمض جفونه عن النظر في : ﴿ ذكر الرحمن ﴾ .

والذكر هنا ، يجوز أن يراد به القرآن ، واحتمل أن يكون مصدراً أضيف إلى المفعول ، أي يعش عن أن يذكر الرحمن .

وقال ابن عطية : أي فيما ذكر عباده ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل .

انتهى ، كأنه يريد بالذكر : التذكير .

وقرأ يحيى بن سلام البصري : ومن يعش ، بفتح الشين ، أي يعم عن ذكر الرحمن ، وهو القرآن ، كقوله : ﴿ صم بكم عمي ﴾ وقرأ زيد بن علي : يعشو بالواو .

وقال الزمخشري : على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وحق هذا القارىء أن يرفع نقيض . انتهى .

ولا يتعين ما قاله ، إذ تتخرج هذه القراءة على وجهين : أحدهما : أن تكون من شرطية ، ويعشو مجزوم بحذف الحركة تقديراً .

وقد ذكر الأخفش أن ذلك لغة بعض العرب ، ويحذفون حروف العلة للجازم .

والمشهور عند النحاة أن ذلك يكون في الشعر ، لا في الكلام .

والوجه الثاني : أن تكون من موصولة والجزم بسببها للموصول باسم الشرط ، وإذا كان ذلك مسموعاً في الذي ، وهو لم يكن اسم شرط قط ، فالأولى أن يكون فيما استعمل موصولاً وشرطاً .

قال الشاعر :

ولا تحفرن بئراً تريد أخاً بها . . .

فإنك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً . . .

تصبه على رغم عواقب ما صنع

أنشدهما ابن الأعرابي ، وهو مذهب الكوفيين ، وله وجه من القياس ، وهو : أنه كما شبه الموصول باسم الشرط فدخلت الفاء في خبره ، فكذلك يشبه به فينجزم الخبر ، إلا أن دخول الفاء منقاس إذا كان الخبر مسبباً عن الصلة بشروطه المذكورة في علم النحو ، وهذا لا ينفيه البصريون .

(166/691)

وقرأ الجمهور : نقيض ، بالنون ؛ وعلي ، والسلمي ، والأعمش ، ويعقوب ، وأبو عمرو : بخلاف عنه ؛ وحماد عن عاصم ، وعصمة عن الأعمش ، وعن عاصم ، والعليمي عن أبي بكر : بالياء ، أي يقبض الرحمن ؛ وابن عباس : يقبض مبنياً للمفعول .

﴿ له شيطاناً ﴾ : بالرفع ، أي ييسر له شيطان ويعدله ، وهذا عقاب على الكفر بالحتم وعدم الفلاح .

كما يقال : إن الله يعاقب على المعصية بالتزايد من السيئات .

وقال الزمخشري : يخذله ، ويحل بينه وبين الشياطين ، كقوله : ﴿ وقضينا له قرناء ﴾ ﴿ ألم تر إنا أرسلنا الشياطين ﴾ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

والظاهر أن ضمير النصب في ﴿ وإنهم ليصدونهم ﴾ عائد على من ، على المعنى أعاد

أولاً على اللفظ في إفراد الضمير ، ثم أعاد على المعنى .

والضمير في يصدونهم عائد على شيطان وإن كان مفرداً ، لأنه مبهم في جنسه ، ولكل عاش شيطان قرين ، فجاز أن يعود الضمير مجموعاً .

وقال ابن عطية : والضمير في قوله : وإنهم ، عائد على الشيطان ، وفي : ليصدونهم ، عائد على الكفار . انتهى .

والأولى ما ذكرناه لتناسق الضمائر في وإنهم ، وفي ليصدونهم ، وفي ويحسبون ، لمدلول واحد ، كأن الكلام : وأن العشاة ليصدونهم الشياطين عن السبيل ، أي سبيل الهدى والفوز ، ويحسبون : أي الكفار .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، وقتادة ، والزهري ، والجحدري ، وأبو بكر ، والحرميان : حتى إذا جاآنا ، على التثنية ، أي العاشي والقرين إعادة على لفظ من والشيطان ، وإن كان من حيث المعنى صالحاً للجمع .

وقرأ الأعمش ، والأعرج ، وعيسى ، وابن محيصن ، والإخوان : جاءنا على الإفراد ، والضمير عائد على لفظ من أعاد أولاً على اللفظ ، ثم جمع على المعنى ، ثم أفرد على اللفظ ؛ ونظير ذلك : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ أفرد أولاً ثم جمع في قوله : ﴿ خالدين ﴾ ، ثم أفرد في قوله : ﴿ له رزقاً ﴾ .

روى أنهما يجعلان يوم البعث في سلسلة ، فلا يفترقان حتى يصيرهما الله إلى النار قال ، أي الكافر للشيطان : ﴿ ياليت بين وبينك بعد المشرقين ﴾ .

تمنى لو كان ذلك في الدنيا حتى لا يصدّه عن سبيل الله ، أو تمنى ذلك في الآخرة ، وهو الظاهر ، لأنه جواب إذا التي للاستقبال ، أي مشرقي الشمس : مشرقها في أقصر يوم من السنة ، ومشرقها في أطول يوم من السنة ، قاله ابن السائب ، أو بعد المشرق ، أو المغرب غلب المشرق فثناهما ، كما قالوا : العمران في أبي بكر وعمر ، والقمران في الشمس والقمر ، والموصلان في الجزيرة والموصل ، والزهدمان في زهدم وكردم ، والعجاجان في رؤبة والعجاج ، والأبوان في الأب والأم ، وهذا اختيار الفراء والزجاج ، ولم يذكره الزمخشري .

قال : فإن قلت : فما بعد المشرقين ؟ قلت : تباعدهما ، والأصل بعد المشرق من المغرب ، والمغرب من المشرق ، فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية ؛ أضاف البعد إليهما . انتهى .

وقيل : بعد المشرقين من المغربين ، واكتفى بذكر المشرقين .

وكأنه في هذا القول يريد مشرقي الشمس والقمر ومغربيهما .

﴿ فبئس القرين ﴾ : مبالغة منه في ذم قرينه ، إذا كان سبب إيراده النار .

والمخصوص بالذم محذوف ، أي فبئس القرين أنت .

﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾ : حكاية حال يقال لهم يوم القيامة ، وهي مقالة موحشة حرمتهم روح التأسي ، لأنه وقفهم بها على أنه لا ينفعهم التأسي لعظم المصيبة وطول العذاب واستمراره مدته ، إذ التأسي راحة كل مصاب في الدنيا في الأغلب .

ألا ترى إلى قول الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي . . .

على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن . . .

أعزي النفس عنه بالتأسي

فهذا التأسي قد كفاها مؤنة قتل النفس ، فنفى الله عنهم الانتفاع بالتأسي ؛ وفي ذلك تعذيب لهم ويأس من كل خير ؛ وهذا لا يكون إلا على تقدير أن يكون الفاعل ينفعكم أنكم ومعمولاها ، أي ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب إن لن يخفف عنكم اشتراككم في العذاب .

(168/691)

وإذا كان الفاعل غير أن ، وهو ضمير ، يعود على ما يفهم من الكلام قبله ، أي يتمنى مباعدة القرين والتبرؤ منه ، ويكون أنكم تعليلاً ، أي لاشتراككم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه ، وهو الكفر .

وقال مقاتل المعنى : ولن ينفعكم اليوم الاعتذار والندم ، لأنكم وقرناءكم مشتركون في العذاب ، كما اشتركتم في الكفران في الدنيا .

وعلى كون الفاعل غير أن ، وهي قراءة الجمهور ، لا يتضمن الكلام نفي التأسي .

وقرىء : إنكم بالكسر ، فدل على إضمار الفاعل ، ويقويه حمل أنكم بالفتح على التعليل .

واليوم وإذ ظرفان ، فاليوم ظرف حال ، وإذ ظرف ماض .

أما ظرف الحال فقد يعمل فيه المستقبل لقربه منه ، أو لتجوز في المستقبل ، كقوله : ﴿ فمن يستمع الآن ﴾ وقول الشاعر :

سأشقى الآن إذ بلغت مناها . . .

_@_وأما إذ فماض لا يعمل فيه المستقبل ، فقال الزمخشري : وإذ بدل من اليوم . انتهى .

وحمل إذ ظلمتم على معنى إذ تبين ووضح ظلمكم ، ولم يبق لأحد ولا لكم شبهة في أنكم كنتم ظالمين ، ونظيره_@_ :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة . . .

أي تبين أني ولد كريمة . انتهى .

ولا يجوز فيه البدل على بقاء إذ على موضوعها من كونها ظرفاً لما مضى من الزمان .

فإن جعلت لمطلق الوقت جاز ، وتخريجها على البدل ، أخذه الزمخشري من ابن جني .

قال في مساءلته أبا علي : راجعته فيها مراراً ، وآخر ما حصل منه أن الدنيا والآخرة متصلتان ، وهما سواء في حكم الله وعلمه ، فيكون إذ بدلاً من اليوم ، حتى كأنها مستقبلة ، أو كأن اليوم ماض .

وقيل : التقدير بعد إذ ظلمتم ، فحذف المضاف للعلم به .

وقيل : إذ للتعليل حرفاً بمعنى إن .

وقال الحوفي : اليوم ظرف متعلق بينفعكم ، ولا يجوز تعلق إذ به ، لأنهما ظرفا زمان ، يعني متغايرين في المعنى تغايراً لا يمكن أن يجتمعا ، قال : فلا يصح أن يكون بدلاً من الأخير ، يعني لذلك التغاير من كون هذا ظرف حال وهذا ظرف مضى .

(169/691)

قال : ولكن تكون إذ متعلقة بما دل عليه المعنى ، كأنه قال : ولن ينفعكم اجتماعكم ، ثم قال : وفاعل ينفعكم الاشتراك .

وقيل : الفاعل محذوف تقديره ظلمكم ، أو جحدكم ، وهو العامل في إذ ، لا ضمير الفاعل

لما ذكر تعالى حال الكفار وما يقال لهم .

وكانت قريش تسمع ذلك ، فلا تزداد إلا عتواً واعتراضاً ، وكان هو (صلى الله عليه وسلم) ، يجتهد في تحصيل الإيمان لهم .

خاطبة تعالى تسلية له باستفهام تعجيب ، أي أن هؤلاء صم ، فلا يمكنك إسماعهم ، عميٌ حيارى ، فلا يمكنك أن تهديهم ، وإنما ذلك راجع إليه تعالى .

ولما كانت حواسهم لن ينتفعوا بها الانتفاع الذي يجري خلاصهم من عذاب الله ، جعلوا صماً عمياً حيارى ، ويزيد بهم قريشاً ، فهم جامعو الأوصاف الثلاثة ، ولذلك عاد الضمير عليهم في قوله : ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ ، ولم يجر لهم ذكر إلا في قوله : ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾ الآية .

والمعنى : أن قبضناك قبل نصرك عليهم ، فإنا منهم منتقمون في الآخرة كقوله : ﴿ أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ ﴿ أَو نرينك الذي وعدناهم ﴾ من العذاب النازل بهم كيوم بدر ، ﴿ فإنا عليهم مقتدرون ﴾ : أي هم في قبضتنا ، لا يفوتوننا ، وهذا قول الجمهور .

وقال الحسن وقتادة : المتوعد هم الأمة ، أكرم الله تعالى نبيه عن أن ينتقم منهم في حياته ، كما انتقم من أمم الأنبياء في حياتهم ، فوقعت النقمة منهم بعد موته عليه السلام في العين الحادثة في صدر الإسلام ، مع الخوارج وغيرهم .

وقرىء : نرينك بالنون الخفيفة .

ولما ردد تعالى بين حياته وموته (صلى الله عليه وسلم) ، أمره بأن يستمسك بما أوحاه إليه .

وقرأ الجمهور : أوحى مبنياً للمفعول ، وبعض قراء الشام : بإسكان الياء ، والضحاك : مبنياً للفاعل ، وأنه ، أي وإن ما أوحينا إليك ، ﴿ لذكر لك ولقومك ﴾ : أي شرف ، حيث نزل عليهم وبلسانهم ، جعل تبعاً لهم .

(170/691)

والقوم على هذا قريش ثم العرب ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد .

كان عليه السلام يعرض نفسه على القبائل ، فإذا قالوا له : لمن يكون الأمر بعدك ؟ سكت ، حتى نزلت هذه الآية .

فكان إذا سئل عن ذلك قال : "لقريش" ، فكانت العرب لا تقبل حتى قبلته الأنصار .

وقال الحسن : القوم هنا أمّته ، والمعنى : وإنه لتذكرة وموعظة .

قيل : وهذه الآية تدل على أن الإنسان يرغب في الثناء الحسن الجميل ، ولو لم يكن ذلك مرغوباً فيه ، ما امتن به تعالى على رسوله فقال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ .

وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ والذكر الجميل قائم

مقام الحياة ، بل هو أفضل من الحياة ، لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في الحي ، وأثر الذكر الجميل يحصل في كل مكان ، وفي كل زمان . انتهى .

وقال ابن دريد :

وإنما المراد حديث بعده . . .

فكن حديثاً حسناً لمن وعا

وقال الآخر :

إنما الدنيا محاسنها . . .

طيب ما يبقى من الخبر

وذكر أن هلاون ، ملك التتر ، سأل أصحابه : من الملك ؟ فقالوا : أنت الذي دوخت البلاد وملكت الأرض وطاعت لك الملوك .

فقال : لا الملك هذا ، وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن ، هذا الذي له أزيد من ستمائة سنة ، قد مات وهو يذكر على المآذن في كل يوم خمس مرات ؟ يريد محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ وسوف تسألون ﴾ ، قال الحسن عن شكر هذه النعمة .

وقال مقاتل : المراد من كذب به يسأل سؤال توبيخ .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ ، قيل : هو على ظاهره ، وأن جبريل عليه

السلام قال له ليلة الإسراء ، حين أم بالأنبياء : ﴿ وأسأل من أرسلنا ﴾ ، فلم يسألهم ، إذ كان أثبت يقيناً ، ولم يكن في شك .

وروي ذلك عن ابن عباس ، وابن جبير ، والزهري ، وابن زيد ، وفي الأثر أن ميكال قال لجبريل : هل سأل محمد عن ذلك ؟ فقال : هو أعظم يقيناً وأوثق إيماناً من أن يسأله ذلك .

(171/691)

وقال ابن عباس أيضاً ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وعطاء : أراد واسأل أتباع من أرسلنا وحملة شرائعهم ، إذ يستحيل سؤال الرسل أنفسهم ، وليسوا مجتمعين في الدنيا .

قال الفراء : هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل ، فإذا سألهم ، فكأنه سأل الرسل ، والسؤال الواقع مجاز عن النظر ، حيث لا يصلح لحقيقته ، كثير منه مساءلة الشعراء الديار والأطلال ، ومنه : سيد الأرض من شق نهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً .

فالسؤال هنا مجاز عن النظر في أديانهم : هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ؟ والذي يظهر أنه خطاب للسامع الذي يريد أن يفحص عن الديانات ، فقيل له :

اسأل أيها الناظر أتباع الرسل ، أجاءت رسلهم بعبادة غير الله ؟ فإنهم يخبرونك أن ذلك لم يقع ، ولا يمكن أن يأتوا به .

وأبعد من ذهب إلى أن المعنى : واسألني ، واسألنا عن من أرسلنا ، وعلق واسأل ، فارتفع من ، وهو اسم استفهام على الابتداء ، وأرسلنا خبره في موضع نصب باسأل بعد إسقاط الخافض ، كان سؤاله : من أرسلت يا رب قبلي من رسلك ؟ أجعلت في رسالته آلهة تعبد ؟ ثم ساق السؤال فحكى المعنى ، فرد الخطاب إلى محمد في قوله : ﴿ من قبلك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(172/691)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ ﴾

أي واذكُرْ لهم وقتَ قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ المُكبِّينَ على التقليدِ كيفَ تبرأَ مِمَّا هم فيهِ بقولِه ﴿ إِنَّنِى بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ وتمسكَ بالبرهانِ ليسلكُوا مسلكَهُ في الاستدلالِ أو ليقلدوه إن لم يكُن لهم بدٌّ من التقليدِ فإنه أشرفُ آبائِهم وبَراءٌ مصدرٌ نُعتَ به مبالغةً ولذلكَ يستوِي فيه الواحدُ والمتعددُ والمذكرُ والمؤنثُ . وقُرِىءَ بَرِيءٌ وبُرَاءٌ بضمِّ

الباءِ ككريمٍ وكرامٍ ومَا إمَّا مصدريةٌ أو موصولةٌ حذفَ عائدُها أيْ إنني بريءٌ من عبادِتكم أو معبودِكم.

﴿ إلاَّ الذى فَطَرَنى ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أو متصلٌ على أنَّ مَا تعمُّ أولي العلم وغيرهم وأنَّهم كانُوا يعبدونَ اللهَ والأصنامَ أو صفةٌ على أن مَا موصوفةٌ أي إنني براءٌ من آلهةٍ تعبدونَها غيرَ الذي فَطَرني ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ أي سيثبتِني على الهدايةِ أو سيهدينِ إلى ما وراءَ الذي هَدَاني إليهِ إلى الآنَ والأوجهُ أنَّ السينَ للتأكيدِ دونَ التسويفِ، وصيغةُ المضارعِ للدلالةِ على الاستمرارِ.

(173/691)

﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي جعلَ إبراهيمُ كلمةَ التوحيدِ التي ما تكلمَ به عبارةٌ عنْهَا ﴿ كَلِمَةً باقية فِى عَقِبِهِ ﴾ أي في ذريتِه حيثُ وصَّاهُم بها كما نطقَ به قولُه تعالى: ﴿ ووصى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ الآيةَ فلا يزالُ فيهم مَن يوحدُ اللهَ تعالى ويدعُو إلى توحيدِه. وقُرِئَ كِلْمةً وفي عقْبِهِ على التخفيفِ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ علةٌ للجعلِ أي جعلَها باقةً في عقبِهِ رجاءَ أنْ يرجعَ إليها من أشركَ منهم بدعاءِ الموحدِ ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاَء ﴾ إضرابٌ عن محذوفٍ ينساقُ إليهِ الكلامُ كأنَّه قيلَ: جعلَها كلمةً باقيةً في عقبِهِ بأنْ وصَّى بها بنيهِ رجاءَ

أنْ يرجعَ إليها مَنْ أشركَ منهم بدعاءِ الموحدِ فلم يحصلُ ما رجاهُ بل متعتُ منهم هؤلاءِ المعاصرينَ للرسولِ صلى الله عليه وسلم من أهلِ مكةَ ﴿ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ بالمدّ في العمرِ والنعمةِ فاغترُّوا بالمهلةِ وانهمكُوا في الشهواتِ وشُغلوا بها عنْ كلمةِ التوحيدِ . ﴿ حتى جَاءَهُمُ ﴾ أي هؤلاءِ ﴿ الحق ﴾ أي القرآنُ ﴿ وَرَسُولٌ ﴾ أيُّ رسولٍ ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرُ الرسالةِ واضحُها بالمعجزاتِ الباهرةِ ، أو مبينٌ للتوحيدِ بالآياتِ البيناتِ والحججِ . وقُرِئَ مَتَّعنَا ومتَّعتَ بالخطابِ على إنَّه تعالى اعترضَ به على ذاتِه في قولِه تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقية ﴾ الخ مبالغةً في تعييرِهم ، فإنَّ التمتعَ بزيادةِ النعمِ يوجبُ عليهم أنْ يجعلُوه سبباً لزيادةِ الشكرِ والثباتِ على التوحيدِ والإيمانِ فجعلَه سبباً لزيادةِ الكُفرانِ أقصى مراتبِ الكفرِ والضلالِ .

(174/691)

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحق ﴾ لينبههَمُ عمَّا هم فيهِ من الغفلةِ ويرشدَهُم إلى التوحيدِ ازدادُوا كفراً وعَتَوا وضمُّوا إلى كفرِهم السابقِ معاندةَ الحقّ والاستهانةَ بهِ حيثُ ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافرون ﴾ فسمَّوا القرآنَ سِحْراً ، وكفَرُوا بهِ واستحقرُوا الرسولَ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين ﴾ أي من إحْدَى

القريتينِ مكةَ والطائفِ على نهجِ قولِه تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ ﴿ عظِيمٌ ﴾ أي بالجاهِ والمالِ كالوليدِ بنِ المغيرةَ المخزوميّ وعروةَ بنِ مسعودٍ الثقفيّ وقيلَ : حبيبُ بنُ عُمرَ بنِ عميرٍ الثقفيَّ . وعن مجاهدٍ عتبةُ بنُ ربيعةَ وكنانةُ بنُ عبدِ ياليلَ ولم يتفوهُوا بهذهِ العظيمةِ حَسَداً على نزولِه إلى الرسولِ صلى الله عليه وسلم دونَ مَنْ ذُكر من عظمائِهم مع اعترافِهم بقرآنيتِه بل استدلالاً على عدمِها بمَعْنى أنَّه لو كانَ قرآناً لنزلَ إلى أحدِ هؤلاءِ بناءً على ما زعمُوا من أنَّ الرسالةَ منصبٌ جليلٌ لا يليقُ بهِ إلا مَنْ له جلالةٌ من حيثُ المالُ والجاهُ ولم يدرُوا أنَّها رتبةٌ روحانيةٌ لا يترقَّى إليَها إلا همُ الخواصّ المختصينَ بالنفوسِ الزكيةِ المؤيدينَ بالقوةِ القدسيةِ المتجلينَ بالفضائلِ الأنسيةِ ، وأما المتزخرفونَ بالزخارفِ الدنيويةِ المتمتعونَ بالحظوظِ فهُم من استحقاقِ تلكَ الرتبةِ بألفِ منزلٍ .

(175/691)

وقولُه تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ إنكارٌ فيهِ تجهيلٌ لهم وتعجيبٌ من تحكمِهم والمرادُ بالرحمةِ النبوةُ ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ أي أسبابَ معيشتِهم ﴿ فِى الحياةِ الدنيا ﴾ قسمةً تقتضيَها مشيئتُنا المبنيةُ على الحِكَمِ والمصالحِ ولم نفوضْ أمرَها إليهم علماً منا بعجزِهم عن تدبيرِها بالكُلِّيةِ ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ في الرزقِ وسائرِ

مبادِي المعاشِ ﴿ درجات ﴾ متفاوتة بحسبِ القُربِ والبُعدِ حسبَما تقتضيه الحكمةُ فمنْ ضعيفٍ وقويَ وفقيرٍ وغنيَ وخادمٍ ومخدومٍ وحاكمٍ ومحكومٍ ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ ليُصرِّفَ بعضُهم بعضاً في مصالِحِهم ويستخدمُوهم في مهمِتهم ويتسخرُوهم في أشغالِهم حتَّى يتعايشُوا ويترافدُوا ويصلُوا إلى مرافِقِهم لا لكمالٍ في المُوسعِ ولا لنقصٍ في المُقترِ ، ولو فوَّضنا ذلكَ إلى تدبيرِ خُوَيِّصةِ أمرِهم وما يُصلِحُهم من متاعِ الدُّنيا الدنيئةِ وهو طرفِ التّمام على هذه الحالةِ فما ظنُّهم بأنفسِهم في تدبيرِ أمرِ الدِّينِ وهو أبعدُ من مناطِ العَيُّوقِ ومنْ أينَ لهُم البحثُ عن أمرِ النبوةِ والتخيرُ لها مَنْ يصلُح لَها ويقومُ بأمرِها ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي النبوةُ وما يتبعُها من سعادةِ الدارينِ ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من حُطامِ الدُّنيا الدنيئةِ الفانيةِ . وقولِه تعالَى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة ﴾ استئنافٌ مبينٌ لحقارةِ متاعِ الدُّنيا ودناءةِ قدرِه عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والمَعْنى أنَّ حقارةَ شأنِه بحيثُ لولا أنْ يرغبَ النَّاسُ لحبِّهم الدُّنيا في الكفرِ إذا رأَوا أهلَهُ في سَعةٍ وتنعمٍ فيجتمعُوا عليه لأعطيناهُ بحذافيرِه من هو شرُّ الخلائقِ وأدناهُم منزلةً وذلكَ قولُه تعالى : ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ أي متخذةً منها ،

(176/691)

ولبيوتِهم بدلُ اشتمالٍ منْ لِمَنْ . وجمعُ الضميرِ باعتبارِ مَعْنى مَنْ كما أنَّ إفرادَ المستكنِّ في يكفرُ باعتبارِ لفظِها . والسُّقُفُ جمعُ سَقْفٍ كرُهُنٍ جمعُ رَهْنٍ ، وعن الفرّاءِ أنَّه جمعُ سقيفةٍ كسفنٍ وسَفينةٍ . وقُرِىءَ سُقْفاً بسكونِ القافِ تخفيفاً ، وسَقْفاً اكتفاءً بجمعِ البيوتِ ، وسَقَفاً كأنَّه لغةٌ في سقفٍ وسقوفاً ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ أي جعلنا لهم معارجَ من فضةٍ أي مصاعدَ جمعُ معرَجٍ وقُرِىءَ معاريجَ جمع معراجٍ ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أي يعلُون السطوحَ والعلاليَ ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ ﴾ أي وجعلنا لبيوتِهم ﴿ أبوابا وَسُرُراً ﴾ من فضةٍ ﴿ عَلَيْهَا ﴾ أي على السررِ ﴿ يَتَّكِئُونَ ﴾ ولعل تكريرَ ذكرِ بيوتِهم لزيادةِ التقريرِ .

﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ أي زينةً عطفٌ على سُقُفاً أو ذهباً عطفٌ على محلِّ من فضةٍ . ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا متاعُ الحياةِ الدنيا ﴾ أيْ وما كُلُّ ما ذُكِرَ من البيوتِ الموصوفةِ بالصفاتِ المفصَّلةِ إلا شيءٌ يتمتعُ بِهِ في الحياةِ الدُّنيا . وفي معناهُ ما قُرِىءَ : ﴿ وَمَا كُلُّ ذلكَ إلا متاعُ الحياةِ الدُّنيا ﴾ وقُرِىءَ بتخفيفِ مَا عَلى أنَّ أنْ هيَ المخففةُ ، واللامُ هيَ الفارقةُ . وقُرِىءَ بكسرِ اللامِ ، على أنَّها لامُ العلةِ ومَا موصولةٌ قد حُذفَ عائدُها أي للذي هُو متاعُ الخ كما في قولِه تعالى : ﴿ تَمَامًا عَلَى الذى أَحْسَنَ ﴾ ﴿ والأخرة ﴾ بما فيَها من فنونِ النعمِ التي يقصُر عنها البيانُ . ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي عنِ الكفرِ والمعاصِي ، وبهذا تبينَ أنَّ العظيمَ هو العظيمُ في الآخرةِ لا في الدُّنيا .

﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أيْ يتعامَ ﴿ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ وهو القرآنُ . وإضافتُه إلى اسمِ الرَّحمنِ للإيذانِ بنزولِه رحمةً للعالمينَ . وقُرِئَ يعشَ بالفتحِ ، أي يعمَ يقالُ عَشَى يعْشَى إذا كانَ في بصرِه آفةٌ وعشَا يعشُو إذا تَعشَّى بلا آفةٍ كعَرَجَ وعَرُجَ . وقُرِئَ يعشُو على أنَّ منْ موصولةٌ مضمنةٍ مَعْنى الشرطِ ، والمَعْنى ومَنْ يُعرضْ عنه لفرطِ اشتغالِه بزهرةِ الحياةِ الدُّنيا وانهماكِه في حظوظِها الفانيةِ والشهواتِ . ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ لا يفارقُه ولا يزالُ يوسوسُه ويُغويهِ . وقُرِئَ يُقيضْ بالياءِ ، على إسنادِه إلى ضميرِ الرحمنِ ، ومَنْ رفعَ يعشُو فحقُّه أنْ يرفعَ يقيضْ . ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي الشياطينَ الذين قُيضَ كلُّ واحدٍ منهم لكلِّ واحدٍ مِمَّن يعشُو ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ أي قرناءَهُم فمدارُ جمعِ الضميرينِ باعتبارِ مَعْنى مَنْ كما أنَّ مدارَ إفرادِ الضمائرِ السابقةِ اعتبارُ لفظِها . ﴿ عَنِ السبيل ﴾ المستبينِ الذي يدعُو إليه القرآنُ ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أي العاشُونَ ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي الشياطينَ ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ أي إلى السبيلِ المستقيمِ وإلا لما اتبعوهُم أو يحسبونَ أنَّ أنفسَهُم مهتدونَ لأنَّ اعتقادَ كونِ الشياطينِ مهتدينَ مستلزمٌ لاعتقادِ كونِهم كذلكَ لاتحادِ مسلكِهما . والجملةُ حالٌ من مفعولِ يصدونَ بتقديرِ المبتدأِ أو من فاعلِه أو منهُمَا لاشتمالِها على ضميريهما أيْ وأنَّهم ليصدونَهم عن الطريقِ الحقِّ وهم يحسبونَ أنَّهم مهتدونَ إليهِ . وصيغةُ المضارعِ في الأفعالِ الأربعةِ للدلالةِ على الاستمرارِ التجدديِّ لقوله تعالى :

﴿ حتى إذَا جَاءنَا ﴾ فإنَّ حتَّى وإنْ كانتْ ابتدائيةً داخلةً على الجملةِ الشرطيةِ لكنَّها تقتضِي حتْمَاً أن تكونَ غايةً لأمرٍ ممتدَ كما مرَّ مِراراً . وإفرادُ الضميرِ في جاءَ وما بعَدُه لما أنَّ المرادَ حكايةُ مقالة كلِّ واحدٍ واحدٍ من العاشقينَ لقرينه لتهويلِ الأمرِ وتفظيعِ الحالِ والمَعْنى يستمرُّ العاشقونَ على ما ذُكِرَ منْ مقارنةِ الشياطينِ والصدِّ والحُسبانِ الباطلِ حتَّى إذا جاءَنا كلُّ واحدٍ منهُم مع قرينهِ يومَ القيامةِ ﴿ قَالَ ﴾ مُخاطباً له ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ في الدُّنيا ﴿ بُعْدَ المشرقين ﴾ أي بعدَ المشرقِ والمغربِ أي تباعُدَ كلَ منهما عن الآخرِ فغلَّبَ المشرقَ وثنَّى ، وأُضيفَ البُعد إليهما ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ أيْ أنتَ وقولُه تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ﴾ الخ حكايةٌ لما سيقالُ لهم حينئذٍ من جهةِ اللهِ عزَّ وجلَّ توبيجاً وتقريعاً أي لنْ ينفعَكُم . ﴿ اليوم ﴾ أي يومَ القيامةِ تمنّيكُم لمباعدتِهم . ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ أي لأجلِ ظلمِكم أنفسَكم في الدُّنيا باتّباعِكم إيَّاهُم في الكُفرِ والمَعاصِي ، وقيلَ : إذْ ظلمتُم بدلٌ منَ اليومَ أي إذْ تبينَ عندكُم وعندَ النَّاسِ جميعاً أنَّكُم ظلمتُم أنفسَكُم في الدُّنيا وعليهِ قولُ منْ قالَ

إذَا مَا انتسبنَا لم تلدنِي لئيمةٌ . . . أي تبينَ أنِّي لم تلدنِي لئيمةٌ بلْ كريمةٌ وقولُه تعالَى : ﴿ أَنَّكُمْ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ تعليلٌ لنفِي النفعِ أي لأنَّ حقكُم أنْ تشتركُوا أنتُم وقرناؤُكم في العذابِ كما كنتُم مشتركينَ في سببه في الدُّنيا ، ويجوزُ أنْ يُسندَ الفعلُ إليهِ لكن لا بمعنى لنْ ينفعَكم اشتراكُكم في العذابِ كما ينفعُ الواقعين في شدائدِ الدُّنيا اشتراكُهم فيها لتعاونِهم في تحملِ أعبائِها وتقسّمِهم لعنائِها لأنَّ لكلَ منُهم ما لا تبلغُه طاقتُه كما قيلَ لأنَّ الانتفاعَ بذلكَ الوجهِ ليسَ مما يخطرُ ببالِهم حتى يردَّ عليهم بنفيهِ بل بمَعْنى لن يحصل لكم التشفِّي بكونِ قرنائِكم معذبينَ مثلَكم حيثُ كنتُم تدعونَ عليهم بقولِكم :

﴿ رَبَّنَا ءاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً ﴾ وقولِكم : ﴿ قَالَ ادخلوا فِى أُمَمٍ قَدْ ﴾ ونظائرِهما لتتشفَوا بذلكَ . كانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يبالغُ في المجاهدةِ في دعاءِ قومِهِ وهُم لا يزيدونَ إلا غياً وتعامياً عمَّا يشاهدونَهُ من شواهدِ النبوةِ وتصامَّاً عما يسمعونَهُ من بيناتِ القُرآنِ فنزلَ .

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِى العمى ﴾ وهو إنكارُ تعجيبٍ مِنْ أنْ يكونَ هُو الذي يقدرُ على هدايتِهم وهم قد تمرَّنُوا في الكفرِ واستعرقُوا في الضَّلالِ بحيثُ صارَ ما بهم من العَشَى عمىً مقروناً بالصممِ . ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ عطفٌ على العُمي باعتبارِ تغايرِ الوصفينِ ، ومدارُ الإنكارِ هو التمكنُ والاستقرارُ في الضلالِ المفرطِ بحيثُ لا ارعواءَ له منه

لا توهُم القصورِ من قِبل الهادِي ففيهِ رمزٌ إلى أنَّه لا يقدرُ على ذلكَ إلا الله تعالَى وحدَهُ بالقسرِ والإلجاءِ .

(180/691)

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ أي فإنْ قبضناكَ قبل أنْ نُبصّرك عذابَهم ونشفيَ بذلكَ صدركَ وصدورَ المؤمنينَ ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ لا محالةَ في الدُّنيا والآخرةِ . فَما مزيدةٌ للتأكيدِ بمنزلةِ لام القسمِ في أنَّها لا تفارقُ النونَ المؤكدةَ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم ﴾ أيْ أو أردنا أنْ نُريكَ العذابَ الذي وعدناهُم ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ بحيثُ لا مناصَ لهُم من تحتِ ملَكتِنا وقهرِنا ، ولقد أراهُ عليه السَّلامُ ذلكَ يومَ بدرٍ ﴿ فاستمسك بالذى أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ من الآياتِ والشرائعِ سواءٌ عجّلنا لكَ الموعودَ أو أخرناهُ إلى يومِ الآخرةِ . وقُرِىءَ أَوْحَى علي البناءِ للفاعلِ ، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ . ﴿ إِنَّكَ على صراطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تعليلٌ للاستمساكِ أو للأمرِ بهِ ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ ﴾ لشرفٌ عظيمٌ ﴿ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ يومَ القيامةِ عنْهُ وعنْ قيامِكم بحقوقِه . ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أي واسألْ أُمَمَهم وعلماءَ دينِهم كقولِه تعالى : ﴿ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءونَ الكتابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ وفائدةُ هَذا المجازِ التنبيهُ على أنَّ المسؤولَ عنه عينُ ما نطقتْ به ألسنةُ الرسلِ لا ما يقولُه أُمَمُهم

وعلماؤُهم من تلقاءِ أنفسِهم . قالَ الفرَّاءُ : هُم إنما يخبرونَهُ عن كتبِ الرسلِ فإذا سألَهم فكأنَّه سأَل الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن ءَالِهَةً يُعْبَدونَ ﴾ أي هلَ حكمنَا بعبادةِ الأوثانِ وهل جاءتْ في ملةٍ من مللِهم ، والمرادُ به الاستشهادُ بإجماعِ الأنبياءِ على التوحيدِ ، والتنبيهُ على أنَّه ليسَ ببدْعٍ ابتدعَهُ حتى يكذّبَ ويُعادَى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 8 صـ ﴾

(181/691)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِى العمى ﴾

إنكار تعجيب من أن يكون صلى الله عليه وسلم هو الذي يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا في الكفر واعتادوه واستغرقوا في الضلال بحيث صار ما بهم العشي عمي مقروناً بالصمم ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ عطف على العمي باعتبار تغاير الوصفين أعني العمي والضلال بحسب المفهوم وإن اتحدا مآلا ، ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط الذي لا يخفى لا توهم القصور منه عليه الصلاة والسلام ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده بالقسر والالجاء وقد كان صلى الله عليه وسلم يبالغ في

المجاهدة في دعاء قومه وهم لا يريدون إلا غيا وتعاميا عما يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاماً عما يسمعونه من بينات القرآن فنزلت ﴿ أَفَأَنتَ ﴾ الخ ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفي بذلك صدرك وصدور المؤمنين .

﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة واقتصر بعضهم على عذاب الآخرة لقوله تعالى في آية أخرى : ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77] والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وما ذكرنا أتم فائدة وأوفق باطلاق الانتقام ، وأما تلك الآية فليس فيها ذكره ، وما مزيدة للتأكيد وهي بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة .

﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم ﴾ أي أو أردنا أن نريك العذاب الذي وعدناهم ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ بحيث لا مناص لهم من تحت ملكنا وقهرنا واعتبار الإرادة لأنها أنسب بذكر الاقتدار بعد ، وفي التعبير بالوعد وهو سبحانه لا يخالف الميعاد إشارة إلى أنه هو الواقع ، وهكذا كان إذا لم يفلت أحد من صناديدهم في بدر وغيرها إلا من تحصن بالإيمان ، وقرىء ﴿ نُرِيَنَّكَ ﴾ بالنون الخفيفة .

(182/691)

﴿ فاستمسك بالذى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تسلية له صلى الله عليه وسلم وأمر له عليه الصلاة والسلام أو لأمته بالدوام على التمسك بالآية والعمل بها ، والفاء في جواب شرط مقدر أي إذا كان أحد هذين الأمرين واقعاً لا محالة فاستمسك بالذي أوحيناه إليك ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ ﴾ الخ تعليل للاستمساك أو للأمر به .

وقرأ بعض قراء الشام ﴿ أوحى ﴾ بإسكان اللام ، وقرأ الضحاك ﴿ أوحى ﴾ مبنياً للفاعل .

﴿ وإِنَّهُ ﴾ أي ما أوحى إليك والمراد به القرآن ﴿ لِذِكْرِ ﴾ لشرف عظيم ﴿ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ هم قريش على ما روي عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة .

والسدى .

وابن زيد .

وأخرج ابن عدي .

وابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس رضي الله تعالى عنهما قالا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ويعدهم الظهور فإذا قالوا : لمن الملك بعدك أمسك فلم يجبهم بشيء لأنه

عليه الصلاة والسلام لم يؤمر في ذلك بشيء حتى نزلت : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ فكان صلى الله عليه وسلم بعد إذا سئل قال لقريش : فلا يجيبونه حتى قبلته الأنصار على ذلك .

وأخرج الطبراني .

وابن مردويه .

(183/691)

عن عدي بن حاتم قال : "كنت قاعداً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا إن الله تعالى علم ما في قلبي من حبي لقومي فبشرني فيهم فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ الآية فجعل الذكر والشرف لقومي في كتابه " الحديث ، وفيه "فالحمد لله الذي جعل الصديق من قومي والشهيد من قومي إن الله تعالى قلب العباد ظهراً وبطناً فكان خير العرب قريش وهي الشجرة المباركة إلى أن قال عدى : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده قريش بخير قط إلا سره حتى يتبين ذلك السرور في وجهه للناس كلهم وكان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يتلو هذه الآية ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ الخ ، وقيل هم العرب مطلقاً لما أن القرآن نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص منهم حتى

يكون الشرف لقريش أكثر من غيرهم ثم لبني هاشم أكثر مما يكون لسائر قريش ، وفي رواية عن قتادة هم من اتبعه صلى الله عليه وسلم من أمته .

وقال الحسن : هم الأمة والمعنى وإنه لتذكرة وموعظة لك ولأمتك ، والأرجح عندي القول الأول .

﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه ، وقال الحسن .

والكلبي .

والزجاج : تسألون عن شكر ما جعله الله تعالى لكم من الشرف ، قيل إن هذه الآية تدل على أن الإنسان يرغب في الثناء الحسن والذكر الجميل إذ لو لم يكن ذلك مرغوباً فيه ما أمتن الله تعالى به على رسوله صلى الله عليه وسلم والذكر الجميل قائم مقام الحياة ولذا قيل ذكر الفتى عمره الثاني ، وقال ابن دريد :

وإنما المرء حديث بعده . . .

فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وقال آخر :

إنما الدنيا محاسنها . . .

طيب ما يبقى من الخبر

ويحكى أن الطاغية هلاكو سأل أصحابه من الملك ؟ فقالوا : له أنت الذي دوخت البلاد وملكت الأرض وطاعتك الملوك وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن فقال لا الملك هذا الذي له أزيد من ستمائة سنة قد مات وهو يذكر على المآذن في كل يوم وليلة خمس مرات يريد محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أي هل حكمنا بعبادة غير الله سبحانه وهل جاءت في ملة من ملل المرسلين عليهم السلام والمراد الاستشهاد بإجماع المرسلين على التوحيد والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه صلى الله عليه وسلم ويكذب ويعادي له ، والكلام بتقدير مضاف أي واسأل أمم من أرسلنا أو على جعل سؤال الأمم بمنزلة سؤال المرسلين إليهم .

قال الفراء : هم إنما يخبرون عن كتب الرسل فإذا سألهم عليه الصلاة والسلام فكأنه سأل المرسلين عليهم السلام ، وعلى الوجهين المسؤول الأمم ، وروي ذلك عن الحسن .

ومجاهد .

وقتادة .

والسدى .

وعطاء وهو رواية عن ابن عباس أيضاً .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال في بعض القراءات وأسأل من أرسلنا إليهم رسلنا قبلك .

وأخرج هو وسعيد بن منصور عن مجاهد قال : كان عبد الله يقرأ واسأل الذين ارسلنا إليهم قبلك من رسلنا ، وعن ابن مسعود أنه قرأ وأسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبل مؤمني أهل الكتاب ، وجعل بعضهم السؤال مجازاً عن النظر والفحص عن ما للهم في سؤال الديار والاطلال ونحوها من قولهم : سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجني ثمارك .

وروي عن ابن عباس أيضاً .

وابن جبير .

والزهري .

وابن زيد أن الكلام على ظاهره وأنه عليه الصلاة والسلام قيل له ذلك ليلة الإسراء حين جمع له الأنبياء في البيت المقدس فامهم ولم يسألهم عليه الصلاة والسلام إذ لم يكن في شك .

(185/691)

وفي بعض الآثار أن ميكال قال لجبريل عليهما السلام : هل سأل محمد صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؟ فقال : هو أعظم يقيناً وأوثق إيماناً من أن يسأل .

وتعقب هذا القول بأن المراد بهذا السؤال الزام المشركين وهم منكرون الاسراء ، وللبحث فيه مجال ، والخطاب على جميع ما سمعت لنبينا عليه الصلاة والسلام .

وفي البحر الذي يظهر أنه خطاب للسامع الذي يريد أن يفحص عن الديانات قيل له اسأل أيها الناظر أتباع الرسل أجاءت رسلهم بعبادة غير الله عز وجل فانهم يخبرونك أن ذلك لم يقع ولا يمكن أن يأتوا به ولعمري أنه خلاف الظاهر جداً ، ومما يقضي منه العجب ما قيل : إن المعنى واسألني أو واسألنا عمن أرسلنا وعلق اسال فارتفع من وهو اسم استفهما على الابتداء وأرسلنا خبره والجملة في موضع نصب باسال بعد اسقاط الخافض كأن سؤاله من أرسلت يا رب قبلي من رسلك أجعلت في رسالته آلهة تعبد ثم ساق السؤال فحكى المعنى فرد الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾ انتهى ، واسأل من قرأ أبا جاد أيرضى بهذا الكلام ويستحسن تفسير كلام الله تعالى المجيد بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(186/691)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾

يقال : عشوت إلى النار : قصدتها ، وعشوت عنها : أعرضت عنها ، كما تقول : عدلت إلى فلان ، وعدلت عنه ، وملت إليه ، وملت عنه ، كذا قال الفراء ، والزجاج ، وأبو الهيثم ، والأزهري .

فالمعنى : ومن يعرض عن ذكر الرحمن .

قال الزجاج : معنى الآية : أن من أعرض عن القرآن ، وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين يعاقبه الله بشيطان يقيضه له حتى يضله ، ويلازمه قريناً له ، فلا يهتدى مجازاة له حين آثر الباطل على الحق البين .

وقال الخليل : العشو : النظر الضعيف ، ومنه :

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره . . . إذا الريح هبت والمكان جديب

والظاهر أن معنى البيت : القصد إلى النار لا النظر إليها ببصر ضعيف كما قال الخليل ، فيكون دليلاً على ما قدّمنا من أنه يأتي بمعنى : القصد ، وبمعنى : الإعراض ، وهكذا ما أنشده الخليل مستشهداً به على ما قاله من قول الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره . . . تجد خير نار عندها خير موقد

فإن الظاهر أن معناه : تقصد إلى ضوء ناره ، لا تنظر إليها ببصر ضعيف .

ويمكن أن يقال : إن المعنى في البيتين : المبالغة في ضوء النار ، وسطوعها ، بحيث لا ينظرها الناظر إلاّ كما ينظر من هو معشي البصر لما يلحق بصره من الضعف عند ما يشاهده من

عظم وقودها .

وقال أبو عبيدة ، والأخفش : إن معنى ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ : ومن تظلم عينه ، وهو نحو قول الخليل ، وهذا على قراءة الجمهور : ﴿ ومن يعش ﴾ بضم الشين من عشا يعشو .

وقرأ ابن عباس ، وعكرمة : (ومن يعش) بفتح الشين ، يقال : عشي الرجل يعشى عشياً : إذا عمى ، ومنه قول الأعشى :

رأت رجلاً غايب الوافدي . . . ن مختلف الخلق أعشى ضريرا

وقال الجوهري : والعشا مقصور ، مصدر الأعشى : وهو الذي لا يبصر بالليل ، ويبصر بالنهار ، والمرأة عشواء .

وقرىء : (يعشو) بالواو على أن "من" موصولة غير متضمنة معنى الشرط .

(187/691)

قرأ الجمهور : ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ بالنون وقرأ السلمي ، وابن أبي إسحاق ، ويعقوب ، وعصمة عن عاصم ، والأعمش بالتحتية مبنياً للفاعل ، وقرأ ابن عباس بالتحتية مبنياً للمفعول ورفع شيطان على النيابة ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ أي : ملازم له لا يفارقه ، أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه ، بل يتبعه في جميع أموره ، ويطيعه في كلّ ما يوسوس به إليه ﴿ وَإِنَّهُمْ

لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل ﴾ أي : وإن الشياطين الذين يقيضهم الله لكلّ أحد ممن يعشو عن ذكر الرحمن كما هو معنيّ من ﴿ ليصدّونهم ﴾ ، أي : يحولون بينهم ، وبين سبيل الحق ، ويمنعونهم منه ، ويوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنون صدق ما يوسوسون به ، وهو معنى قوله : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي : يحسب الكفار أن الشياطين مهتدون ، فيطيعونهم ، أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم في أنفهسم مهتدون ﴿ حتى إِذَا جَاءنَا ﴾ قرأ الجمهور بالتثنية ، أي : الكافر والشيطان المقارن له ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص بالإفراد أي : الكافر ، أو جاء كلّ واحد منهما ﴿ قَالَ ﴾ الكافر مخاطباً للشيطان : ﴿ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ أي : بعد ما بين المشرق والمغرب ، فغلب المشرق على المغرب .

قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة من مشرق أقصر يوم في السنة ، والأوّل أولى ، وبه قال الفراء ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ المخصوص بالذم محذوف ، أي : أنت أيها الشيطان .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم ﴾ هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ أي : لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا ، وقيل : إن "إذ" بدل من اليوم ؛ لأنه تبين في ذلك اليوم أنهم ظلموا أنفسهم في الدنيا .

قرأ الجمهور : ﴿ أَنَّكُمْ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ بفتح أن على أنها وما بعدها في محلّ رفع على الفاعلية ، أي : لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب .

(188/691)

قال المفسرون : لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب ؛ لأن لكلّ أحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر منه .

وقيل : إنها للتعليل لنفي النفع ، أي : لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا ، ويقوّي هذا المعنى قراءة ابن عامر على اختلاف عليه فيها بكسر إن .

ثم ذكر سبحانه أنها لا تنفع الدعوة والوعظ من سبقت له الشقاوة ، فقال : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِى العمى ﴾ الهمزة لإنكار التعجب ، أي : ليس لك ذلك ، فلا يضيق صدرك إن كفروا ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإخبار له أنه لا يقدر على ذلك إلاّ الله عزّ وجلّ ، وقوله : ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ عطف على العمي ، أي : إنك لا تهدي من كان كذلك ، ومعنى الآية : أن هؤلاء الكفار بمنزلة الصمّ الذين لا يعقلون ما جئت به ، وبمنزلة العمي الذين لا يبصرونه لإفراطهم في الضلالة ، وتمكنهم من

الجهالة ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ بالموت قبل أن ينزل العذاب بهم ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ إما في الدنيا ، أو في الآخرة ، وقيل : المعنى : نخرجنك من مكة ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم ﴾ من العذاب قبل موتك ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ متى شئنا عذبناهم .

قال كثير من المفسرين : قد أراه الله ذلك يوم بدر .

وقال الحسن ، وقتادة : هي في أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن ، وقد كان بعد النبي فتنة شديدة ، فأكرم الله نبيه ، وذهب به ، فلم يره في أمته شيئاً من ذلك ، والأوّل أولى .

﴿ فاستمسك بالذى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ أي : من القرآن ، وإن كذّب به من كذّب ﴿ إِنَّكَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : طريق واضح ، والجملة تعليل لقوله ﴿ فاستمسك ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي : وإن القرآن لشرف لك ، ولقومك من قريش إذ نزل عليك ، وأنت منهم بلغتك ، ولغتهم ، ومثله قوله :

(189/691)

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كتابا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] ، وقيل : بيان لك ، ولأمتك فيما لكم إليه حاجة .

وقيل : تذكرة تذكرون بها أمر الدين ، وتعملون به ﴿ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ عما جعله الله لكم من الشرف ، كذا قال الزجاج ، والكلبي ، وغيرهما .

وقيل : يسئلون عما يلزمهم من القيام بما فيه ، والعمل به ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ قال الزهري ، وسعيد بن جبير ، وابن زيد : إن جبريل قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لما أسري به .

فالمراد : سؤال الأنبياء في ذلك الوقت عند ملاقاته لهم ، وبه قال جماعة من السلف .

وقال المبرد ، والزجاج ، وجماعة من العلماء : إن المعنى : واسأل أمم من قد أرسلنا .

وبه قال مجاهد ، والسدّي ، والضحاك ، وقتادة ، وعطاء ، والحسن .

ومعنى الآية على القولين : سؤالهم هل أذن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل ، وهل سوّغ ذلك لأحد منهم ؟ والمقصود : تقريع مشركي قريش بأن ما هم عليه لم يأت في شريعة من الشرائع .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشاً قالت : قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه ، فقيضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد الله ، فأتاه ، وهو في القوم ، فقال أبو بكر : إلاّم تدعوني ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللات ، والعزّى .

قال أبو بكر : وما اللات ؟ قال : أولاد الله .

قال : وما العزّى .

قال : بنات الله .

قال أبو بكر : فمن أمهم ؟ فسكت طلحة ، فلم يجبه ، فقال لأصحابه : أجيبوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة : قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، فأنزل الله : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ الآية .

وثبت في صحيح مسلم ، وغيره أن مع كل إنسان قريناً من الجنّ .

(190/691)

وأخرج ابن مردويه عن عليّ في قوله : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ قال : ذهب نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبقيت نقمته في عدوّه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب من طرق عنه في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قال : شرف لك ، ولقومك .

وأخرج ابن عدّي ، وابن مردويه عن عليّ ، وابن عباس قالا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ، ويعدهم الظهور ، فإذا قالوا : لمن الملك بعدك ؟

أمسك ، فلم يجبهم بشيء ؛ لأنه لم يؤمر في ذلك بشيء حتى نزلت : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ ، فكان بعد إذا سئل قال : قريش ، فلا يجيبونه حتى قبلته الأنصار على ذلك .

وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبي عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ قال : اسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(191/691)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾

قوله لبيوتهم ، في الموضعين ، قرأه ورش وأبو عمرو وحفص ، عن عاصم بضم الباء على الأصل .

وقرأه قالون ، عن نافع وابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة والكسائي ، وشعبة عن عاصم ﴿ لبيوتهم ﴾ بكسر الباء لمجانسة الكسرة للياء .

وقوله سقفاً : قرأه نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم ، سقفاً بضمتين ، على

الجمع .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ﴿ سقفاً ﴾ بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد المراد به الجمع .

وقوله : ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ قرأه نافع وابن كثير ، وابن عامر ، في رواية ابن ذكوان ، وإحدى الروايتين عن هشام وأبي عمرو والكسائي ﴿ لما متاع الحياة الدنيا ﴾ بتخفيف الميم من لما .

وقرأه عاصم ، وحمزة وهشام ، عن ابن عامر ، وفي إحدى الروايتين ﴿ لما متاع الحياة الدنيا ﴾ بتشديد الميم من لما .

ومعنى الآية الكريمة ، أن الله لما بين حقارة الدنيا ، وعظم شأن الآخرة في قوله : ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : 32] .

أتبع ذلك ببيان شدة حقارتها ، وأنه جعلها مشتركة ، بين المؤمنين ، والكافرين وجعل ما في الآخرة من النعيم خاصاً بالمؤمنين ، دون الكافرين وبين حكمته في اشتراك المؤمن مع الكافر ، في نعيم الدنيا بقوله : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي لولا كراهتنا لكون جميع الناس أمة واحدة ، متفقة على الكفر ، لأعطينا زخارف الدنيا كلها للكفار .

ولكننا لعلمنا ، بشدة ميل القلوب إلى زهرة الحياة الدنيا ، وحبها لها لو أعطينا ذلك كله

للكفار ، لحملت الرغبة في الدنيا جميع الناس على أن يكونوا كفاراً ، فجعلنا في كل من الكافرين والمؤمنين غنياً وفقيراً ، وأشركنا بينهم في الحياة الدنيا .

(192/691)

ثم بين جل وعلا اختصاص نعيم الآخرة بالمؤمنين في قوله : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحياة الدنيا والآخرة عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : 35] .

أي خالصة لهم دون غيرهم .

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في الأعراف : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ﴾ [الأعراف : 32] .

فقوله : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [الأعراف : 32] أي مشتركة بينهم في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة .

أي خاصة بهم ، دون الكفار ، يوم القيامة .

إذ لا نصيب للكفار البتة في طيبات الآخرة .

فقوله في آية الأعراف هذه ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [الأعراف : 32]

صريح في اشتراك المؤمنين مع الكفار في متاع الحياة الدنيا .

وذلك الاشتراك المذكور ، دل عليه حرف الامتناع ، للوجود الذي هو لولا ، في قوله هنا ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الزخرف : 33] .

وخصوص طيبات الآخرة ، بالمؤمنين المنصوص عليه في آية الأعراف بقوله ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ﴾ [الأعراف : 32] هو الذي أوضحه تعالى في آية الزخرف هذه بقوله ﴿ والآخرة عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : 35] .

وجميع المؤمنين يدخلون في الجملة في لفظ المتقين لأن كل مؤمن اتقى الشرك بالله .

(193/691)

وما دلت عليه هذه الآيات . من أنه تعالى يعطي الكفار من متاع الحياة الدنيا ، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله . كقوله تعالى ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار ﴾ [البقرة : 126] وقوله ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : 24] وقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الحياة الدنيا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 23] وقوله ﴿ قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ

عَلَى اللهِ الكذب لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : 69 - 70] والآيات بمثل هذا كثيرة .

(194/691)

وقد بين تعالى في آيات من كتابه ، أن إنعامه على الكافرين ليس لكرامتهم عليه ، ولكنه للاستدراج ، كقوله تعالى ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : 44 - 45] وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام : 44 - 45] وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْاْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف : 95] وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ [مريم : 75] على أظهر التفسيرين . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : 178] وقوله تعالى : ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : 44] .

ودعوى الكفار ، أن الله ما أعطاهم المال ونعيم الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك ، وأنه إن كان البعث حقاً أعطاهم خيراً منه في الآخرة قد ردها الله عليهم في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 55 – 56] ، وقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [سبأ : 37] ، وقوله تعالى ﴿ قَالُواْ مَآ أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف : 48] ، وقوله تعالى : ﴿ مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : 2] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ [الليل : 11] وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] .

ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية الكريمة . فقوله ﴿ جعلنا ﴾ أي صيرنا ، وقوله ﴿ لبيوتهم ﴾ بدل اشتمال مع إعادة العامل ، من قوله لمن يكفر ، وعلى قراءة سقفاً بضمتين ، فهو جمع

سقف ، وسقف البيت معروف .

وعلى قراءة سقفاً بفتح السين ، وسكون القاف : فهو مفرد أريد به الجمع .

وقد قدمنا في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [الحج : 5] أن المفرد إذا كان اسم جنس . يجوز إطلاقه مراداً به الجمع وأكثرنا من أمثلة ذلك في القرآن ، ومن الشواهد العربية . على ذلك .

وقوله ﴿ ومعارج ﴾ الظاهر أنه جمع معرج بلا ألف بعد الراء .

(196/691)

والمعرج والمعراج بمعنى واحد وهو الآلة التي يعرج بها أي يصعد بها ، إلى العلو .

وقوله : يظهرون أي يصعدون ويرتفعون ، حتى يصيروا على ظهور البيوت . ومن ذلك المعنى قوله تعالى ﴿ فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً ﴾ [الكهف : 97] .

والسرر جمع سرير ، والاتكاء معروف .

والأبواب جمع باب وهو معروف ، والزخرف الذهب .

قال الزمخشري : إن المعارج التي هي المصاعد ، والأبواب والسرر كل ذلك من فضة ، كأنه

يرى اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في ذلك ، وعلى هذا المعنى فقوله زخرفاً مفعول ، عامله محذوف والتقدير وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً .

وقال بعض العلماء : إن جميع ذلك بعضه من فضة ، وبعضه من زخرف ، أي ذهب .

وقد ذكر القرطبي أن إعراب قوله وزخرفاً على هذا القول أنه منصور بنزع الخافض ، وأن المعنى من فضة ، ومن زخرف ، فحذف حرف الجر فانتصب زخرفاً .

وأكثر علماء النحو على أن النصب بنزع الخافض ليس مطرداً ولا قياسياً ، وما سمع منه يحفظ ولا يقاس عليه .

وعليه درج ابن مالك في الخلاصة في قوله : وإن حذف فالنصب للمنجر نقلاً ، إلخ .

وعلي بن سليمان وهو الأخفش الصغير يرى اطراده في كل شيء أمن فيه اللبس ، كما أشار في الكافية بقوله :

وابن سليمان اطراده رأى . . . إن لم يخف لبس كمن زيد نأى

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحياة الدنيا ﴾ على قراءة الجمهور بتخفيف الميم من لما ، فإن هي المخففة ، من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بين إن المخففة من الثقيلة ، وإن النافية المشار إليها بقوله في الخلاصة :

وخففت إن فعل العمل . . . وتلزم اللام إذا ما تهمل

وما مزيدة للتوكيد ، وأما على قراءة عاصم وحمزة وابن عامر في إحدى الروايتين عن هشام

لما بتشديد الميم فإن نافية ، ولما حرف إثبات بمعنى إلا .

والمعنى : وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا .

(197/691)

وذكره بعضهم أن تشديد ميم لما على بعض القراءات في هذه الآية وآية الطارق ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق : 4] لغة بني هذيل بن مدركة والعلم عند الله تعالى .

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ [فصلت : 25] الآية .

وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39)

قد قدمنا الكلام عليه في الصافات في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الصافات : 33] .

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40)

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل : 80] .

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)

أمر الله جل وعلا ، نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يتمسك بهدي هذا القرآن العظيم ، وبين له أنه على صراط مستقيم أي طريق واضح . لا اعوجاج فيه ، وهو دين الإسلام الذي تضمنه هذا القرآن العظيم ، الذي أوحي إليه .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، قد جاء موضحاً في آيات أخر ، من كتاب الله .

أما أمره بالتمسك بالقرآن العظيم ، فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ واتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الكهف : 27] .

(198/691)

وأما إخباره له صلى الله عليه وسلم على صراط مستقيم فمن الآيات التي أوضح ذلك فيها قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ على شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمر فاتبعها وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : 18] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ الله الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [الشورى : 52 – 53] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة عَنِ الصراط لَنَاكِبُونَ ﴾ [

المؤمنون : 73 – 74] وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمر وادع إلى رَبِّكَ إِنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : 67] وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ [النمل : 79] إلى غير ذلك من الآيات .

وآية الزخرف هذه تدل على أن التمسك بهذا القرآن على هدى من الله ، وهذا معلوم بالضرورة .

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة . من أن جميع الرسل جاءوا بإخلاص التوحيد لله ، الذي تضمنته كلمة لا إله إلا الله ، جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل : 36] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 25] ، وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبي أمته .

(199/691)

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 59] ، وقال تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ

مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 65] ، وقال تعالى : ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 73] ، وقال تعالى : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله ﴾ [الأعراف : 85] الآية . إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(200/691)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40) ﴾

تفريع على جملة ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمان نقيّض له شيطاناً ﴾ [الزخرف : 36] لأن ذلك أفاد توغّلهم في الضلالة وعُسْرَ انفكاكهم عنها ، لأن مقارنة الشياطين لهم تقتضي ذلك ، فانتقل منه إلى التهوين على النبي صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من الكدّ والتحرق عليهم في تصميمهم على الكفر والغيّ وفيه إيماء إلى تأييس من اهتداء أكثرهم .

والاستفهام لإنكار أن يكون حرص الرّسول صلى الله عليه وسلم على هداهم ناجعاً فيهم إذا كان الله قدّر ضلالهم فأوجد أسبابه ، قال تعالى : ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يُهْدَى مَن يُضِل ﴾ [النحل : 37] ، ولما كان حال الرّسول صلى الله عليه وسلم في

معاودة دعوتهم كحال من يظنّ أنه قادر على إيصال التذكير إلى قلوبهم نزّل منزلة من يظن ذلك فخوطب باستفهام الإنكار وسلط الاستفهام على كلام فيه طريق قصر بتقديم المسند إليه على الخبَر الفِعْلي مع إيلاء الضمير حرفَ الإنكار وهو قصر مؤكد وقصر قلب ، أي أنت لا تسمعهم ولا تهديهم بل الله يُسمعهم ويهديهم إن شاء ، وهو نظير ﴿ أفأنت تُكره النّاس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يونس : 99] .

ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعشا ، وهو النظر الذي لا يتبين شبح الشيء المنظور إليه ثم وصفهم هنا بالصُمّ العُمي إشارة إن التمحل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال لا أن التخلُق يأتي دونه الخلق والأحوال تنقلب ملكات .

(201/691)

وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا يزال العبد يكذب حتى يُكتَب عند الله كذّاباً " أي حتى يحِق عليه أن الكذب ملكة له ، وإذ قد كان إعراضهم انصرافاً عن استماع القرآن وعن النظر في الآيات كان حالهم يشبه حال الصمّ العمي كما مُهدَ لذلك بقوله : ﴿ ومن يعْشُ عن ذكر الرحمن ﴾ [الزخرف : 36] كما ذكرناه هنالك ، فظهرت

المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا الانتقال لوصفهم بالصمّ العمْي .

وعطف ومن كان في ضلال مبين ﴾ فيه معنى التذييل لأنه أعم من كل من الصمّ والعُمْي باعتبار انفرادهما ، وباعتبار أن الصّمَمَ والعَمَى لما كانا مجازين قد يكون تعلقهما بالمسموع والمبصَر جزئياً في حالة خاصة فكان الوصف بالكون في الضلال المبين تنبيهاً على عموم الأحوال وهو مع ذلك ترشيح للاستعارة لأن اجتماع الصمم والعمَى أبين ضلالاً .

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41)

تفريع على جملة ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾ [الزخرف : 40] إلى آخرها المتضمنة إيماء إلى التأييس من اهتدائهم ، والصريحة في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم من شدة الحرص في دعوتهم ، فجاء هنا تحقيق وَعد بالانتقام منهم ، ومعناه : الوعد بإظهار الدِين إن كان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته ، ووعيدهم بالعقاب في الدّنيا قبل عقاب الآخرة ، فلأجل الوفاء بهذين الغرضين ذُكر في هذه الجملة أمران : الانتقام منهم لا محالة ، وكونُ ذلك واقعاً في حياة الرّسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته .

والمفرّع هو ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ وما ذكر معه ، فمراد منه تحقق ذلك على كل تقدير .

و (إما) كلمتان متصلتان أصلهما (إنْ) الشرطية و (مَا) زائدة بعد (إنْ) ، وأدغمت نون (إنْ) في الميم من حرف (مَا) ، وزيادةُ (ما) للتأكيد ، ويكثر اتصال فعل الشرط بعد (إن) المزيدة بعدها (ما) بنون التوكيد زيادة في التأكيد ، ويكتبونها بهمزة وميم وألف تبعاً لحالة النطق بها .

والذهاب به هنا مستعمل للتوفي بقرينة قوله : ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ لأن الموت مُفارقة للأحياء فالإماتَةُ كالانتقال به ، أي تغييبه ولذلك يعبر عن الموت بالانتقال .

والمعنى : فإما نتوفينك فإنا منهم منتقمون بعد وفاتك .

وقد استعمل ﴿ منتقمون ﴾ للزمان المستقبل استعمالَ اسم الفاعل في الاستقبال ، وهو مجاز شائع مساو للحقيقة والقرينةُ قوله : ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ .

والمراد بـ ﴿ الذي وعدناهم ﴾ الانتقامُ المأخوذ من قوله : ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ .

وقد أراه الله تعالى الانتقام منهم بقتل صناديدهم يوم بدر ، قال تعالى : ﴿ يوم نبطش البطشةَ الكبرى إنّا منتقمون ﴾ [الدخان : 16] والبطشة هي بطشة بدر .

وجملة ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ جواب الشرط ، واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية ، وإنما صيغ كذلك للدلالة على ثبات الانتقام ودوامه ، وأما جملة ﴿ فإنا عليهم مقتدرون ﴾ فهي دليل جواب جُملة ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ المعطوفة على جملة الشرط لأن اقتدار الله عليهم لا يناسب أن يكون معلّقاً على إراءته الرّسول صلى الله عليه وسلم

الانتقام منهم ، فالجواب محذوف لا محالة لقصد التهويل .

وتقديره : أوْ إمّا نريَنّك الذي وعدناهم ، وهو الانتقام تَرَ انتقاماً لا يفلُتون منه فإنا عليهم مقتدرون ، أي مقتدرون الآن فاسم الفاعل مستَعملٌ في زمان الحال وهو حقيقتهُ .

ولا يستقيم أن تكون جملة ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ دليلاً على الجواب المحذوف لأنه يصيّر : أوْ إما نرينّك الانتقام منهم فإنا منهم منتقمون .

(203/691)

وتقديم المجرورين ﴿ منهم ﴾ و ﴿ عليهم ﴾ على متعلقيهما للاهتمام بهم في التمكن بالانتقام والاقتدار عليهم .

والوعد هنا بمعنى الوعيد بقرينة قوله قبله ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ فإنّ الوعد إذا ذكر مفعوله صحّ إطلاقه على الخير والشر ، وإذا لم يذكر مفعوله انصرف للخير وأما الوعيد فهو للشر دائماً .

والاقتدار : شدة القدرة ، واقتدر أبلغ من قدر .

وقد غفل صاحب "القاموس" عن التنبيه عليه .

وقد اشتمل هذان الشرطان وجوابا هما على خمسة مؤكدات وهي (ما) الزائدة ، ونون

التوكيد ، وحرف (إنَّ) للتوكيد ، والجملة الاسمية ، وتقديم المعمول على ﴿ منتقمون ﴾ .

وفائدة الترديد في هذا الشرط تعميم الحالين حال حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحال وفاته .

والمقصود : وقت ذيْنك الحالين لأن المقصود توقيت الانتقام منهم .

والمعنى : أننا منتقمون منهم في الدّنيا سواء كنت حيّاً أو بعد موتك ، أي فالانتقام منهم من شأننا وليس من شأنك لأنه من أجْل إعراضهم عن أمرنا وديننا ، ولعله لدفع استبطاء النبي صلى الله عليه وسلم أو المسلمين تأخير الانتقام من المشركين ولأن المشركين كانوا يتربصون بالنبي الموت فيستريحوا من دعوته فأعلمه الله أنه لا يفلتهم من الانتقام على تقدير موته وقد حكى الله عنهم قولهم : ﴿ نتربَّص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] ففي هذا الوعيد إلقاء الرعب في قلوبهم لما يسمعونه .

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)

لما هوّن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من شدة الحرص على إيمانهم ووعده النصر عليهم فرّع على ذلك أن أمره بالثبات على دينه وكتابِه وأن لا يخورَ عزمه في الدعوة ضجراً من تصلبهم في كفرهم ونفورهم من الحق .

والاستمساك : شدة المسك ، فالسين والتاء فيه للتأكيد .

والأمر به مستعمل في طلب الدوام ، لأنّ الأمر بفعل لمن هو مُتلبس به لا يكون لطلب الفعل بل لمعنى آخر وهو هنا طلب الثبات على التمسك بما أوحي إليه كما دلّ عليه قوله : ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ وهذا كما يُدعى للعزيز المُكرَم ، فيقال : أعزك الله وأكرمك ، أي أدام ذلك وقوله : أحياك الله ، أي أطال حياتك ، ومنه قوله تعالى في تعليم الدعاء ﴿ اهدْنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] .

والذي أوحي إليه هو القرآن .

وجملة ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ تأييد لطلب الاستمساك بالذي أوحي إليه وتعليل له .

والصراط المستقيم : هو العمل بالذي أوحي إليه ، فكأنه قيل : إنَّه صراط مستقيم ، ولكن عدل عن ذلك إلى ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ ليفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم راسخ في الاهتداء إلى مراد الله تعالى كما يتمكن السائر من طريق مستقيم لا يشوبه في سيره تردّد في سلوكه ولا خشية الضلال في بُنياته .

ومِثله قوله تعالى : ﴿ إنّك على الحق المبين ﴾ في سورة النمل (79) .

وحرف ﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي المراد به التمكن كقوله : ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ [البقرة : 5] .

وهذا تثبيت للرّسول صلى الله عليه وسلم وثناء عليه بأنه ما زاغ قِيد أنملة عمّا بعثه الله به ، كقوله : ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ ويتبعه تثبيت المؤمنين على إيمانهم .

وهذا أيضاً ثناء سادس على القرآن .

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44)

ذكر حظ الرّسول صلى الله عليه وسلم من الثناء والتأييد في قوله : ﴿ على صراط مستقيم ﴾ [الزخرف : 43] المجعول علة للأمر بالثبات عليه ، ثم عُطف عليه تعليل آخر اشتمل على ذكر حظ القرآن من المدح ، والنفع بقوله : ﴿ وإنه لذكر ﴾ ، وتشريفه به بقوله : ﴿ لك ﴾ وأتبع بحظ التابعين له ولكتابه من الاهتداء والانتفاع بقوله ﴿ ولقومك ﴾ .

(205/691)

ثم عَرَّض بالمعرضين عنه والمجافين له بقوله : ﴿ وسوف تسألون ﴾ ، مع التوجيه في معنى كلمة ذِكر من إرادة أن هذا الدّين يكسبه ويكسب قومه حُسن السمعة في الأمم فمن اتبعه

نال حظه من ذلك ومن أعرض عنه عدّ في عداد الحمقى كما سيأتي ، مع الإشارة إلى انتفاع المتبعين به في الآخرة ، واستضرار المعرضين عنه فيها ، وتحقيق ذلك بحرف الاستقبال .

فهذه الآية اشتملت على عشرة معان ، وبذلك كانت أوفر معانيَ من قول امرىء القيس :

قِفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومَنزل

المعدود أبلغ كلام من كلامهم في الإيجاز إذ وقَف ، واستوقف ، وبكى واستبكى .

وذكر الحبيب ، والمنزل في مِصراع .

وهذه الآية لا تتجاوز مقدار ذلك المِصراع وعِدة معانيها عشرة في حين كانت معاني مصراع امرىء القيس ستة مع ما تزيد به هذه الآية من الخصوصيات ، وهي التأكيد بـ (إنَّ) واللام والكناية ومحسّن التوجيه .

والذكر يحتمل أن يكون ذِكرَ العقل ، أي اهتداءهِ لما كان غير عالم به ، فشبه بتذكر الشيء المنسيّ وهو ما فَسر به كثير الذكرَ بالتذكير ، أي الموعظة .

ويحتمل ذِكر اللّسان ، أي أنه يكسبك وقومك ذكراً ، والذكر بهذا المعنى غالب في الذِكر بخبره .

والمعنى : أن القرآن سبب الذكر لأنه يكسب قومه شرفاً يُذكرون بسببه .

وقد روي هذا التفسير عن عليّ وابن عباس في رواية ابن عدي وابن مردويه قال القرطبي :

"ونظيره قوله تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ يعني القرآن شرف لك ولقومك من

قريش ، فالقرآن نزل بلسان قريش فاحتاج أهل اللّغات كلها إلى لسانهم كلٌّ من آمن بذلك فشرفوا بذلك على سائر أهل اللّغات" .

وقال ابن عطية " قال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل فإذا قالوا له : فَلِمنْ يكون الأمر بعدك ؟ سكتَ حتى إذا نزلت هذه الآية فكان إذا سُئل عن ذلك قال : لقريش " .

ودرج عليه كلام "الكشاف" .

(206/691)

ففي لفظ ﴿ ذِكْر ﴾ محسن التوجيه فإذا ضم إليه أن ذكره وقومه بالثناء يستلزم ذم من خالفهم كان فيه تعريض بالمعرضين عنه .

وقومه هم قريش لأنهم المقصود بالكلام أو جميع العرب لأنهم شُرفوا بكون الرّسول الأعظم صلى الله عليه وسلم منهم ونزول القرآن بلغتهم ، وقد ظهر ذلك الشرف لهم في سائر الأعصر إلى اليوم ، ولولاه ما كان للعرب من يشعر بهم من الأمم العظيمة الغالبة على الأرض .

وهذا ثناء سابع على القرآن .

والسؤال في قوله : ﴿ وسوف تسألون ﴾ سؤال تقرير .

فسؤال المؤمنين عن مقدار العمل بما كلفوا به ، وسؤال المشركين سؤال توبيخ وتهديد قال تعالى : ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ [الزخرف : 19] وقال تعالى : ﴿ ألم يأتكم نذيرٌ إلى قوله : فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ [الملك : 8 ، 11] .

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

الأمر بالسؤال هنا تمثيل لشهرة الخبر وتحققه كما في قول السمؤال أو الحارثي :

سَلي إن جَهِلتِ الناسَ عنا وعنهم

وقولِ زيد الخيل :

سائِلْ فوارِسَ يَرْبوعٍ بِشدَّتِنا

وقوله : ﴿ فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ [يونس : 94] إذ لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم في شكّ حتى يَسأل ، وإلا فإن سؤاله الرّسل الذين من قبله متعذر على الحقيقة .

والمعنى استقْرِ شرائع الرّسل وكتبهم وأخبارهم هل تجد فيها عبادة آلهة .

وفي الحديث " واستفتِ قلبك " أي تثبت في معرفة الحلال والحرام .

وجملة ﴿ أجعلنا ﴾ بدل من جملة ﴿ واسأل ﴾ ، والهمزة للاستفهام وهو إنكاري وهو المقصود من الخبر ، وهو ردّ على المشركين في قولهم : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا

على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف : 22] أي ليس آباؤكم بأهدى من الرّسل الأولين إن كنتم تزعمون تكذيب رسولنا لأنه أمركم بإفراد الله بالعبادة .

ويجوز أن يجعل السؤال عن شهرة الخبر .

(207/691)

ومعنى الكلام : وإنا ما أمرنا بعبادة آلهة دوننا على لسان أحد من رسلنا .

وهذا ردّ لقول المشركين ﴿ لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ [الزخرف : 20] .

و﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ من قبلك ﴾ لتأكيد اتصال الظرف بعامله .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من رسلنا ﴾ بيان ل ﴿ قبلك ﴾ .

فمعنى ﴿ أجعلنا ﴾ ما جعلنا ذلك ، أي جعل التشريع والأمر ، أي ما أمرنا بأن تعبد آلهة دوننا .

فوصف آلهة بـ ﴿ يعبدون ﴾ لنفي أن يكون الله يرضى بعبادة غيره فضلاً عن أن يكون غيره إلها مثله وذلك أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام وكانوا في عقائدهم أشتاتاً فمنهم من يجعل الأصنام آلهة شركاء لله ، ومنهم من يزعم أنه يعبدهم ليقربوه من الله زُلفى ، ومنهم من يزعمهم شفعاء لهم عند الله .

فلما نفي بهذه الآية أن يكون جَعل آلهة يُعبدون أبطل جميع هذه التمَحُّلات .

وأجري ﴿ آلهة ﴾ مجرى العقلاء فوصفوا بصيغة جمع العقلاء بقوله : ﴿ يعبدون ﴾ .

ومثله كثير في القرآن جرياً على ما غلب في لسان العرب إذ اعتقدوهم عقلاء عالمين .

وقرأ ابن كثير والكسائي ﴿ وسَلْ ﴾ بتخفيف الهمزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(208/691)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) ﴾

وأخرج الفضل بن شاذان في كتاب القراءات بسنده ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ : " إنني بريء مما تعبدون " بالياء .

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه : " إنني بريء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين " قال : إنهم يقولون إن الله ربنا ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ [الزخرف : 87] فلم يبرأ من ربه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ قال : في الإِسلام أوصى بها ولده .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ قال : الإِخلاص والتوحيد لا يزال في ذريته من يقولها من بعده ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ قال : يتوبون ، أو يذكرون .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ قال : لا إله إلا الله في عقبه ، قال : عقب إبراهيم ولده .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الزهري قال : عقب الرجل ولده الذكور والاناث وأولاد الذكور .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عبيدة قال : قلت لإِبراهيم : ما العقب ؟ قال : ولده الذكر .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عطاء في رجل أسكنه رجل له ولعقبه من بعده أتكون امرأته من عقبه ؟ قال : لا ولكن ولده عقبه .

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29)

أخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ بل متعت هؤلاء ﴾ برفع التاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ قال : هذا قول أهل الكتاب لهذه الأمة ، وكان قتادة

رضي الله عنه يقرؤها ﴿ بل متعت هؤلاء ﴾ بنصب التاء .

وأخرج ابن جرير عن السدي : ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر ﴾ قال : هؤلاء قريش قالوا : للقرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : هذا سحر .

(209/691)

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قول الله : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ما القريتان ؟ قال : الطائف ومكة ، قيل : فمن الرجلان ؟ قال : عروة بن مسعود ، وخيار قريش .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قول الله ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال : يعني بالقريتين مكة والطائفة ، والعظيم الوليد بن المغيرة القرشي وحبيب بن عمير الثقفي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال : يعني من القريتين مكة والطائف ، والعظيم الوليد بن المغيرة القرشي وحبيب بن عمير الثقفي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال : يعنون أشرف من محمد ، الوليد بن المغيرة من أهل مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفي من أهل الطائف .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة قال : قال الوليد بن المغيرة : لو كان ما يقول محمد حقاً ، أنزل علي هذا القرآن ، أو على عروة بن مسعود الثقفي ، فنزلت ﴿ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال : القريتان مكة والطائف . قال ذلك مشركو قريش . قال : بلغنا أنه ليس فخذ من قريش إلا قد ادعته ، فقالوا : هو منا وكنا نحدث أنه الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي . قال : يقولون فهلا كان أنزل على أحد هذين الرجلين ، ليس على محمد صلى الله عليه وسلم .

(210/691)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال : عتبة بن ربيعة من مكة ، وابن عبد ياليل بن كنانة الثقفي من

الطائف ، وعمير بن مسعود الثقفي ، وفي لفظ وأبو مسعود الثقفي .

وأخرج ابن عساكر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال : هو عتبة بن ربيعة – وكان ريحانة قريش يومئذ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن الشعبي رضي الله عنه في قوله : ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال : هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، أو كنانة بن عمر بن عمير ، عظيم أهل الطائف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ قال : قسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا كما قسم بينهم صورهم وأخلاقهم ، فتعالى ربنا وتبارك ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ قال : فتلقاه ضعيف الحيلة ، عييّ اللسان ، وهو مبسوط له في الرزق ، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه ﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ قال : ملكة يسخر بعضهم بعضاً يبتلي الله به عباده ، فالله الله فيما ملكت يمينك ! ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ قال : الجنة .

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33)

أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " يقول الله لولا أن يجزع عبدي المؤمن لعصبت الكافر عصابة من حديد ، فلا يشتكي شيئاً ، ولصببت عليه الدنيا صباً " قال ابن عباس رضي الله عنهما : قد أنزل الله شبه ذلك في كتابه في قوله ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ﴾ الآية .

(211/691)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ الآية يقول : لولا أن أجعل الناس كلهم كفاراً ، لجعلْتُ لبيوت الكفار سقفاً من فضة ﴿ ومعارج ﴾ من فضة ، وهي درج ﴿ عليها يظهرون ﴾ يصعدون إلى الغرف ، وسرر فضة ﴿ وزخرفاً ﴾ وهو الذهب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ قال : لولا أن يكون الناس كفاراً ، ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ﴾ قال : السقف أعالي البيوت ﴿ ومعارج عليها يظهرون ﴾ قال : درج عليها يصعدون ﴿ وزخرفاً ﴾ قال : الذهب ﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ قال : خصوصاً .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ قال : لولا أن يكفروا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن الشعبي رضي الله عنه في قوله ﴿ سقفاً ﴾ قال : الجزوع ﴿ ومعارج ﴾ قال : الدرج ﴿ وزخرفاً ﴾ قال : الذهب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ قال : لولا أن يكون الناس أجمعون كفاراً ، فيميلوا إلى الدنيا ، لجعل الله لهم الذي قال . قال : وقد مالت الدنيا بأكبر همها ، وما فعل ذلك ، فكيف لو فعله ! .

وأخرج أحمد والحاكم ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من يحب ، فمن أعطاه الدين فقد أحبه " .

وأخرج الترمذي وصححه وابن ماجة ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء " .

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)

أخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن عثمان المخرمي ، أن قريشاً قالت : قيضوا لكل رجل رجلاً من أصحاب محمد يأخذه ، فقيضوا لأبي بكر رضي الله عنه طلحة بن عبيد الله ، فأتاه وهو في القوم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : إلام تدعوني ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزى ! قال أبو بكر رضي الله عنه : وما اللات ؟ قال : ربنا . قال : وما العزى ؟ قال : بنات الله . قال أبو بكر رضي الله عنه : فمن أمهم ؟ فسكت طلحة ، فلم يجبه ، فقال طلحة لأصحابه : أجيبوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة : قم يا أبا بكر ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأنزل الله ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ قال : يعمى قال ابن جرير هذا على قراءة فتح الشين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة ﴿ ومن يعش ﴾ قال : يعرض ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ﴾ قال : عن الدين ﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ جميعاً هو وقرينه .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ " حتى إذا جاءنا " على معنى اثنين هو وقرينه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ومن يعش ﴾ الآية . قال : من جانب الحق ، وأنكره وهو يعلم أن الحلال حلال وأن الحرام حرام ، فترك العلم بالحلال والحق لهوى نفسه ، وقضى حاجته ، ثم أراد من الحرام ، قيض له شيطان .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن سعيد الجزري في قوله ﴿ نقيض له شيطاناً ﴾ قال : بلغنا أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره شفع بيده شيطان ، ولم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار ، فذلك حين يقول : ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ قال : وأما المؤمن ، فيوكل به ملك حتى يقضى بين الناس ، أو يصير إلى الجنة .

(213/691)

وأخرج ابن حبان والبغوي وابن قانع والطبراني وابن مردويه ، عن شريك بن طارق رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس منكم أحد إلا ومعه شيطان قالوا : ومعك يا رسول الله ؟ قال : ومعي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم " .

وأخرج مسلم وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلاً قالت : فغرت عليه فجاء ، فرأى ما أصنع ، " فقال ما لك يا عائشة أَغِرْت ؟ فقلت : وما لي لا يغار مثلي على مثلك ، فقال : أقد جاء شيطانك ؟

قلت : يا رسول الله ، أمعي شيطان ؟ قال : نعم ، ومع كل إنسان . قلت : ومعك ؟ قال : نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم " " .

وأخرج مسلم وابن مردويه ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل الله به قرينه من الجن . قالوا : وإياك يا رسول الله ، قال : وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني الا بخير " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل الله به قرينه من الجن . قالوا : وإياك يا رسول الله ، قال : وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم " .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : ليس من الآدميين أحد إلا ومعه شيطان موكل به ، أما الكافر ، فيأكل معه من طعامه ويشرب معه من شرابه وينام معه على فراشه ، وأما المؤمن ، فهو يجانب له ، ينتظره حتى يصيب منه غفلة ، أو غرة ، فيثب عليه ، وأحب الآدميين إلى الشيطان ، الأكول النؤوم .

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ قال : قال أنس رضي الله عنه : ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقيت النقمة ، فلم يُرِ الله نبيه في أمته شيئاً يكرهه حتى قُبِضَ ، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته ، الا نبيكم صلى الله عليه وسلم رأى ما يصيب أمته بعده ، فما رؤي ضاحكاً منبسطاً حتى قبض .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان من طريق حميد ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله : ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ الآية . قال : أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يريه في أمته ما يكره ، فرفعه إليه وبقيت النقمة .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن مسعود العبدي قال : قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ قال : ذهب نبيه صلى الله عليه وسلم وبقيت نقمته في عدوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ قال : لقد كانت نقمة شديدة ، أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يريه في أمته ما كان من النقمة بعده .

وأخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن جابر بن عبد الله : " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون

﴿ نزلت في علي بن أبي طالب ، أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي " .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ الآية قال : يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ قال : على الإِسلام .

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44)

(215/691)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قال : القرآن شرف لك ولقومك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وإنه لذكر لك ﴾ يعني القرآن ، ولقومك ، يعني من اتبعك من أمتك .

وأخرج الشافعي وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قال : يقال ممن

هذا الرجل ؟ فيقال : من العرب ، فيقال : من أي العرب ؟ فيقال : من قريش ، فيقال : من أي قريش ؟ فيقال : من بني هاشم .

وأخرج ابن عدي وابن مردويه ، عن علي وابن عباس قالا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ، ويعدهم الظهور ، فإذا قالوا لمن الملك بعدك ؟ أمسك ، فلم يجبهم بشيء ، لأنه لم يؤمر في ذلك بشيء حتى نزلت ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ فكان بعد إذا سئل قال : لقريش ، فلا يجيبونه حتى قبلته الأنصار على ذلك .

(216/691)

وأخرج الطبراني وابن مردويه ، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : كنت قاعداً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " الا إن الله علم ما في قلبي من حبي لقومي ، فشرفني فيهم فقال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ فجعل الذكر والشرف لقومي في كتابه ، ثم قال ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء : 215] يعني قومي ، فالحمد لله الذي جعل الصديق من قومي ، والشهيد من قومي ، ان الله قلب العباد ظهراً وبطناً ، فكان خير العرب قريش ، وهي الشجرة المباركة التي قال الله في كتابه ﴿ ومثل كلمة طيبة كشجرة

طيبة ﴾ [إبراهيم : 24] يعني بها قريشاً (أصلها ثابت) يقول : أصلها كَرَمٌ ، ﴿ وفرعها في السماء ﴾ ، يقول : الشرف الذي شرفهم الله بالإِسلام الذي هداهم له وجعلهم أهله . ثم أنزل فيهم سورة من كتاب الله بمكة ﴿ لإِيلاف قريش ﴾ [قريش ، الآية : 1-4] إلى آخرها " قال عدي بن حاتم : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده قريش بخير قط ، إلا سره حتى يتبين ذلك السرور للناس كلهم في وجهه ، وكان كثيراً ما يتلوا هذه الآية ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ .

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ قال : ليلة اسري به لقي الرسل .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ قال : بلغنا أنه ليلة أسري به أري الأنبياء ، فأري آدم ، فسلم عليه وأري مالكاً خازن النار ، وأري الكذاب الدجال .

(217/691)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ قال : سل أهل التوراة والإِنجيل هل جاءت الرسل إلا بالتوحيد ؟ وقال : في بعض القراءة " واسأل من أرسلنا إليهم رسلنا قبلك " .

وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ﴿ واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا ﴾ قال : سل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن مجاهد قال : كان عبد الله يقرأ ﴿ واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا ﴾ قال : في قراءة ابن مسعود " واسأل الذين يقرأون الكتاب من قبل " مؤمني أهل الكتاب .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ قال : جمعوا له ليلة أسري به ببيت المقدس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(218/691)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ والكتاب ﴾ : إنْ جَعَلْتَ " حم " قَسَماً كانت الواوُ عاطفةً وإنْ لم ، كانت الواو للقسم ، وقد تقدَّم تحريرُ هذا .

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3)

قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ : جوابُ القَسَم ، وهذا عندهم من البلاغةِ : وهو كونُ القَسَمِ والمُقْسَمِ عليه مِنْ وادٍ واحد . كقول أبي تمام :

3980 وثناياك إنها إغريضُ . . . . . .

.

إنْ أُرِيد بالكتابِ القرآنُ ، وإنْ أُريد به جنسُ الكتبِ المنزَّلةِ غيرِ القرآنِ لم يكنْ مِنْ ذلك . والضميرُ في " جَعَلْناه " على الأولِ يعودُ على الكتاب . وعلى الثاني للقرآنِ ، وإنْ لم يُصَرَّحْ بذِكْرِه . والجَعْلُ هنا تصييرٌ . ولا يُلْتَفَتُ لخطأ الزمخشريِّ في تجويزه أَنْ يكونَ بمعنى : خَلَقْناه

.

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

قوله : ﴿ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا ﴾ : يتعلَّقان بما بعدهما . ولا تَمْنَعُ اللامُ من ذلك . ويجوز أَنْ يكونا حالَيْنِ مِمَّا بعدهما لأَنَّهما كانا وصفَيْن له في الأصل فيتعلَّقان بمحذوفٍ . ويجوز أَنْ [يكون] " لدينا " متعلِّقاً بما تعلَّق به الجارُّ قبله إذا جَعَلْناه حالاً مِنْ " لَعَلِيٌّ " ، وأَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ المستترِ فيه ، وكذا يجوز في الجارِّ أَنْ يتعلَّقَ بما تَعَلَّق / به الظرفُ ، وأَنْ يكونَ حالاً مِنْ ضميرِه عند مَنْ يُجَوِّزُ تقديمَها على العاملِ المعنويِّ . ويجوز أَنْ يكونَ الظرفُ بدلاً من الجارِّ قبلَه ، وأَنْ يكونا حالَيْنِ من " الكتاب " أو من " أُمِّ " ، ذَكَرَ هذه الأوجهَ الثلاثةَ أبو البقاء . وقال : " ولا يجوز أَنْ يكونَ واحدٌ من الظرفين خبراً ؛ لأَنَّ الخبرَ لَزِمَ أَنْ يكونَ " عَلِيٌّ " من أجلِ اللامِ " . قلت : وهذا يَمْنَعُ أَنْ تقولَ : إن زيداً كاتبٌ لَشاعرٌ ؛ لأنه مَنَع أَنْ يكونَ غيرُ المقترنِ بها خبراً .

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5)

قوله : ﴿ صَفْحاً ﴾ : فيه خمسةُ أوجهٍ ، أحدها : أَنَّه مصدرٌ في معنى يَضْرِب ؛ لأنه يُقال : ضَرَبَ عن كذا وأَضْرَبَ عنه ، بمعنى أعرض عنه ، وصَرَف وجهَه عنه . قال :

3981 اضْرِبَ عنكَ الهمومَ طارِقَها . . . ضَرْبَك بالسيفِ قَوْنَسَ الفرسِ

والتقديرُ : أَفَنَصْفَحُ عنكم الذِّكْرَ أي : أفَنُزِيْلُ القرآنَ عنكم إزالةً ، يُنْكِرُ عليهم ذلك . الثاني : أَنَّه منصوبٌ على الحالِ من الفاعل أي : صافِحين . الثالث : أَنْ ينتصِبَ على المصدرِ المؤكِّدِ لمضمونِ الجملةِ ، فيكونَ عاملُه محذوفاً ، نحو : ﴿ صُنْعَ اللهِ ﴾ [النمل : 88] قاله ابنُ عطية . الرابع : أن يكونَ مفعولاً من أجله . الخامس : أَنْ يكونَ منصوباً على الظرف . قال الزمخشري : " وصَفْحاً على وجهَيْن : إمَّا مصدرٌ مِنْ صَفَح عنه إذا أَعْرَضَ عنه ، منتصبٍ على أَنَّه مفعولٌ له على معنى : أَفَنَعْزِلُ عنكم إنْزالَ القرآنِ وإلزامَ الحجةِ به إعراضاً عنكم . وإمَّا بمعنى الجانبِ مِنْ قولِهم : نَظَرَ إليه بصَفْحِ وَجْهِه . وصَفْحُ وَجْهِه بمعنى : أَفَنُنَحِّيه عنكم جانباً ، فينتصبُ على الظرف نحو : ضَعْه جانباً وامْشِ جانباً . وتَعْضُدُه قراءةُ " صُفْحاً " بالضم " . قلت : يشيرُ إلى قراءةِ حسان ابن عبد الرحمن الضبعي وسميط بن عمير وشبيل بن عزرة قَرؤوا " صُفْحاً " بضم الصاد . وفيها احتمالان ، أحدهما : ما ذكره مِنْ كونِه لغةً في المفتوحِ ويكونُ ظرفاً . وظاهرُ عبارةِ أبي البقاء أَنَّه يجوزُ فيه جميعُ ما جاز في المفتوح ؛ لأنه جَعَله لغةً فيه كالسُّد والسَّد . والثاني : أنه جمعُ صَفُوح نحو : صَبور وصُبُر . فينتصبُ حالاً مِنْ فاعل نَضْرِب . وقَدَّر الزمخشري على عادته فِعْلاً بين الهمزةِ والفاءِ أي : أُنهمِلُكم فَنَضْرِب . وقد عَرَفْتَ ما فيه غيرَ مرةٍ .

قوله : " أنْ كُنتم " قرأ نافعٌ والأخَوان بالكسر على أنها شرطيةٌ ، وإسرافُهم كان متحققاً ، و " إنْ " إنما تدخلُ على غير المتحقّق ، أو المتحقِّقِ المبهم الزمانِ . وأجاب الزمخشريُّ : " أنَّه من الشرط الذي يَصْدُر عن المُدِلِّ بصحةِ الأمرِ والتحقيق لثبوتِه ، كقول الأجير : " إنْ كنتُ عَمِلْتُ لك عملاً فوَفِّني حقي " وهو عالمٌ بذلك ، ولكنه يُخَيِّلُ في كلامِه أنَّ تفريطَك في إيصالِ حقي فِعْلُ مَنْ له شكٌّ في استحقاقِه إياه تجهيلاً له " . وقيل : المعنى على المجازاةِ والمعنى : أفنضرِبُ عنكم الذِّكر صَفْحاً متى أَسْرَفتم أي : إنكم غيرُ متروكين من الإنذار متى كنتم قوماً مُسْرفين . وهذا أراد أبو البقاء بقولِه : " وقرئ إنْ بكسرِها على الشرط ، وما تقدَّم يدلُّ على الجواب " . والباقون بالفتحِ على العلَّة أي : لأَنْ كنتم ، كقول الشاعر :

3982 أَتَجْزَعُ أنْ بانَ الخليطُ المُوَدِّعُ . . . . . .

. . . . .

ومثله :

3983 أَتَجْزَعُ أنْ أُذْنا قتيبةَ حُزَّتا . . . . . .

. . . . . .

يُرْوَى بالكسر والفتح ، وقد تقدَّم نحوٌ من هذا أول المائدة ، وقرأ زيد بن علي " إذ " بذالٍ عوضَ النونِ ، وفيها معنى العلَّة .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6)

قوله : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا ﴾ : "كم" خبريةٌ مفعولٌ مقدم . و "من نبيّ" تمييزٌ . و "في الأوّلين" يتعلَّقُ بالإرسالِ أو بمحذوفٍ على أنه صفةٌ لنبي .

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)

قوله : ﴿ بَطْشاً ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه تمييزٌ لـ "أشدَّ" . والثاني : أنه حالٌ مِن الفاعل أي : أهلكناهم باطِشين .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9)

(222/691)

قوله : ﴿ خَلَقَهُنَّ العزيز ﴾ : كرَّرَ الفعلَ للتوكيد ؛ إذ لو جاء "العزيزُ" بغير "خَلَقَهُنَّ" لكان كافياً ، كقولِك مَنْ قام ؟ فيقال : زيد . وفيها دليلٌ على أنَّ الجلالةَ الكريمةَ مِنْ قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] مرفوعةٌ بالفاعلية لا بالابتداء للتصريح بالفعل في نظيرِتها . وهذا الجوابُ مطابقٌ للسؤالِ من حيث المعنى ، إذ لو جاء على اللفظِ لجيْءَ/ فيه بجملةٍ ابتدائيةٍ كالسؤال .

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11)

قوله : ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ : قرأه العامَّةُ مخفَّفاً . وعيسى وأبو جعفر مثقلاً . وقد تقدَّم الكلامُ فيه في آل عمران . وتقدَّم في الأعراف الخلافُ في تُخْرَجُون وتَخْرُجُون .

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12)

قوله : ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ : " ما " موصولةٌ . وعائدُها محذوفٌ أي : ما تَرْكَبونه . و " ركب " بالنسبة إلى الفُلْك يتعدَّى بحرف الجر ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك ﴾ [العنكبوت : 65] وفي غيرِه بنفسه قال : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل : 8] فغلَّبَ هنا المتعديَ بنفسه على المتعدي بواسِطة فلذلك حَذَفَ العائدَ .

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13)

قوله : ﴿ لِتَسْتَوُواْ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ هذه لامَ العلة وهو الظاهرُ ، وأن تكونَ للصيرورة ، فتُعَلَّقَ في كليهما ب " جَعَل " . وجَوَّز ابنُ عطيةَ أَنْ تكونَ للأمر ، وفيه بُعْدٌ لقلَّة دخولها على أمر المخاطب . قُرِئ شاذاً " فَلْتَفْرحوا " وفي الحديث : " لِتَأْخُذوا مصافَّكم " وقال :

3984 لِتَقُمْ أنت يا بنَ خيرِ قُرَيْشٍ . . . فَتُقَضَّى حوائجُ المُسْلمينا

نصَّ النحويون على قِلَّتها ، ما عدا أبا القاسِم الزجاجيَّ فإنه جَعَلها لغةً جيدة .

قوله : " على ظُهورِه " الضميرُ يعودُ على لفظِ " ما تَرْكَبون " ، فَجَمَعَ الظهورَ باعتبارِ معناها ، وأفرد الضميرَ باعتبار لفظِها .

قوله : " له مُقْرِنين " " له " متعلق ب " مُقْرِنين " قُدِّمَ للفواصل . والمُقْرِنُ : المُطيق للشيء الضابطُ له ، مِنْ أَقْرنه أي : أطاقه . والقَرَن الحَبْلُ . قال ابن هَرْمة :

3985 وأَقْرَنْتُ ما حَمَّلْتِني ولَقَلَّما . . . يُطاق احتمالُ الصَّدِّ يا دعدُ والهَجْرِ

وقال عمرو بن معد يكرب :

3986 لقد عَلِمَ القبائلُ ما عُقَيْلٌ . . . لنا في النائباتِ بمُقْرِنينا

وحقيقة أَقْرَنَه : وجده قَرِينَه ، لأنَّ الصعب لا يكون قرينَةَ الضعيفِ . قال :

3987 وابنُ اللَّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ . . . لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَناعيسِ

وقُرِئ " مُقْتَرِنين " بالتاء قبل الراء .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15)

قوله : ﴿ جُزْءًا ﴾ : مفعولٌ أول للجَعْل ، والجَعْلُ تصييرٌ قوليٌّ . ويجوز أَنْ يكونَ بمعنى : سَمَّوا واعتقدوا . وأغربُ ما قيل هنا أنَّ الجُزْء الأنثى . وأنشَدوا :

3988 إنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عَجَبٌ . . . قد تُجْزِئُ الحُرَّةُ المِذْكارُ أحياناً

وقال آخر :

3989 زُوِّجْتُها مِنْ بنات الأَوْسِ مُجْزِئَةً . . . . . .

. .

قال الزمخشري : " وأثرُ الصنعةِ فيهما ظاهرٌ " .

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16)

قوله : ﴿ وَأَصْفَاكُم ﴾ : يجوز أَنْ يكون داخلاً في حَيِّزِ الإِنكار معطوفاً على اتَّخذ .

ويجوز أَنْ يكونَ حالاً أي : أم اتَّخذ في هذه الحالةِ و " قد " مقدرةٌ عند الجمهور . وقد تقدَّم نظيرُ :

(224/691)

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)

قَوْله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ﴾ . وقرئ هنا " وجهُه مُسْوَدٌّ " برفع " مُسْوَدٌّ " على أنها جملةٌ في موضعِ خبرِ " ظَلَّ " . واسمُ " ظَلَّ " ضميرُ الشأن .

أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)

قوله : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ ﴾ : يجوز في " مَنْ " وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونَ في محلِّ نصبٍ

مفعولاً بفعلٍ مقدر أي : أو يجعلون مَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْية . والثاني : أنه مبتدأ وخبرُه محذوفٌ ، تقديره : أو من يُنَشَّأ جزءٌ أو ولدٌ ؛ إذ جعلوه لله جزءاً . وقرأ العامَّةُ "يَنْشَأ" بفتح الياء وسكون النون مِنْ نَشَأَ في كذا يَنْشأ فيه . والأخوان وحفص بضم الياء وفتح النون وتشديدِ الشينِ مبنياً للمفعولِ أي : يُرَبَّى . وقرأ الجحدريُّ كذلك ، إلاَّ أنَّه خَفَّف الشينَ ، أَخَذَه مِنْ أنشأه . والحسن "يُناشَأُ" كـ يُقاتَل مبنياً للمفعول . والمفاعَلَةُ تأتي بمعنى الإفعال كالمُعالاة بمعنى الإعلاء .

قوله : ﴿ وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ الجملةُ حال . و "في الخصام" يجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ يَدُلُّ عليه ما بعده . تقديره : وهو لا يَبين في الخصام . ويجوز أَنْ يتعلَّق ب "مُبين" وجاز للمضافِ إليه أن يعملَ فيما قبل المضافِ ؛ لأن "غيرَ" بمعنى "لا" . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في آخر الفاتحة وما أنشدْتُه عليه وما في المسألةِ من الخلاف .

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19)

(225/691)

قوله : ﴿ عِبَادُ الرحمن ﴾ : قرأ نافع وابن كثير وابن عامر " عند الرحمن " ظرفاً .

والباقون " عبادَ " جمع عَبْد ، والرسمُ يحتملهما . وقرأ الأعمش كذلك إلاَّ أنه نصبَ " عبادَ " على إضمارِ فعلٍ : الذين هم خُلِقوا عباداً ونحوِه . وقرأ عبدُ الله وكذلك هي في مصحفه " الملائكةَ عبادَ الرحمن " . وأُبَيٌّ وعبد الرحمن / بالإفراد . و " إناثاً " هو المفعولُ الثاني للجَعْلِ بمعنى الاعتقادِ أو التصيير القولي . وقرأ زيدُ بنُ علي " أُنْثا " جمعَ الجمع .

قوله : " أشَهِدُوا " قرأ نافعٌ بهمزةٍ مفتوحة ، ثم بأخرى مضمومةٍ مُسَهلةٍ بينها وبين الواو وسكونِ الشينِ . وقرأ قالون بالمدّ يعني بإدخال ألفٍ بين الهمزتين والقصرِ ، يعني بعدمِ الألف . والباقون بفتح الشين بعد همزة واحدة . فنافع أدخل همزةَ التوبيخ على أُشْهِدوا [فعلاً] رباعياً مبنيّاً للمفعول ، فسَهَّلَ همزتَه الثانيةَ ، وأدخل ألفاً بينهما كراهةً لاجتماعهما ، وتارة لم يُدْخِلْها ، اكتفاءً بتسهيل الثانية ، وهي أوجهُ . والباقون أدخلوا همزةَ الإنكار على " شهدوا " ثلاثياً ، والشهادةُ هنا الحضورُ . ولم يَنْقُلِ الشيخُ عن نافع تسهيلَ الثانيةِ بل نَقَلَه عن علي بن أبي طالب .

وقرأ الزهريُّ " أُشْهِدُوا " رباعياً مبنياً للمفعول . وفيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ يكونَ حَذَفَ الهمزةَ لدلالةِ القراءةِ الأخرى ، كما تقدَّم في قراءةِ " أعجميٌّ " . والثاني : أَنْ تكونَ الجملةُ خبريةً وقعَتْ صفةً لـ " إناثاً " أي : أجعلوهم إناثاً مَشْهوداً خَلْقُهم كذلك ؟

قوله : " سَتُكْتَبُ شهادتُهم " قرأ العامَّةُ " سَتُكْتَبُ " بالتاءِ مِنْ فوقُ مبنياً للمفعول ، " شهادتُهم " بالرفع لقيامه مَقامَ الفاعل . وقرأ الحسن " شهاداتُهم " بالجمع ، والزهري : " سَيَكتب " بالياء مِنْ تحت وهو في الباقي كالعامَّة . وابن عباس وزيد بن علي وأبو جعفر وأبو حيوةَ " سنكتبُ " بالنون للعظمة ، " شهادتَهم " بالنصب مفعولاً به .

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22)

قوله : ﴿ على أُمَّةٍ ﴾ : العامَّةُ على ضم الهمزة ، بمعنى الطريقة والدين . قال قيس بن الخطيم :

3990 كُنَّا على أمةِ آبائِنا . . . ويَقْتدي بالأولِ الآخِرُ

أي : على طريقتهم . وقال آخر :

3991 وهل يَسْتوي ذو أُمَّةٍ وكَفورُ . . . . . .

أي : ذو دين . وقرأ مجاهد وقتادة وعمر بن عبد العزيز بالكسر قال الجوهري : " هي الطريقةُ الحسنةُ لغةً في أُمَّة بالضم " . وابن عباس بالفتح ، وهي المَرَّةُ من الأَمّ ، والمرادُ بها القصدُ والحال .

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24)

قوله : ﴿ قال ﴾ : قرأ ابن عامر وحفصٌ " قال " ماضياً مكان " قل " أمراً أي : قال النذير ، أو الرسول وهو النبي صلَّى الله عليه وسلَّم . والأمر في " قل " يجوز أَنْ يكونَ للنذير أو للرسول وهو الظاهر . وقرأ أبو جعفر وشيبة " جِئْناكم " بنون المتكلمين .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26)

(227/691)

قوله : ﴿ بَرَآءٌ ﴾ : العامَّةُ على فتحِ الباءِ وألفٍ وهمزةٍ بعد الراء . وهو مصدرٌ في الأصل وقع موقعَ الصفةِ وهي بَرِيْء ، وبها قرأ الأعمش ولا يُثَنَّى " براء " ولا يُجْمع ولا يُؤَنث كالمصادر في الغالب . والزعفراني وابن المنادي عن نافع بضم الباء بزنة طُوال وكُرام . يقال : طَويل وطُوال وبَريء وبُراء . وقرأ الأعمش " إنِّي " بنونٍ واحدة .

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27)

قوله : ﴿ إلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ : فيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه استثناءٌ منقطع ؛ لأنَّهم كانوا عبدةَ أصنامٍ فقط . والثاني : أنه متصلٌ ؛ لأنه رُوِي أنهم كانوا يُشْرِكون مع الباري غيرَه . الثالث : أَنْ يكونَ مجروراً بدلاً مِنْ " ما " الموصولة في قولِه : "مِمَّا تعبدُون " قاله الزمخشريُّ . ورَدَّه الشيخ : بأنه لا يجوزُ إلاَّ في نفيٍ أو شبهه قال : " وغَرَّه كونُ براء في معنى النفي ، ولا

ينفعه ذلك لأنه موجَبٌ " . قلت : قد تأوّل النحاةُ ذلك في مواضعَ من القرآن كقولِه تعالى : ﴿ ويأبى اللهُ إلاَّ أَن يُتمَّ ﴾ [التوبة : 32] ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] والاستثناء المفرغُ لا يكونُ في إيجاب ، ولكن لَمَّا كان " يأبى " بمعنى : لا يفعلُ ، وإنها لكبيرة بمعنى : لا تَسْهُلُ ولا تَخِفُّ ساغ ذلك ، فهذا مثلُه .

الرابع : أَنْ تكونَ " إلاَّ " صفةً بمعنى " غير " على أن تكونَ " ما " نكرةً موصوفةً ، قاله الزمخشريُّ قال الشيخ : " وإنما أخرجها في هذا الوجهِ عن كونِها موصولةً ؛ لأنَّه يرى أنَّ " إلاَّ " بمعنى " غير " لا يُوْصَفُ بها إلاَّ النكرة " وفيها خلافٌ . فعلى هذا يجوز أَنْ تكونَ " ما " موصولةً و " إلاَّ " بمعنى " غير " صفةً لها .

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)

(228/691)

قوله : ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ : الضميرُ المرفوعُ لإبراهيمَ عليه السلام - وهو الظاهرُ - أو لله . والمنصوبُ لكلمة التوحيد المفهومةِ مِنْ قولِه : " إنني بَراءٌ " إلى آخره ، أو لأنَّها بمنزلةِ الكلمة ، فعاد الضمير على ذلك اللفظِ لأجل المَعْنِيِّ به .

وقرئ " في عَقْبِه " بسكون القافِ . وقُرِئ " في عاقِبه " أي : وارِثه . وحميد بن قيس "

كلمة " بكسر الكاف وسكون اللام .

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29)

والجمهورُ على " مَتَّعْتُ " بتاء المتكلم . وقتادةُ/ والأعمشُ بفتحِها للمخاطبِ ، خاطبَ إبراهيمُ أو محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ربَّه تعالى بذلك . وبها قرأ نافعٌ في روايةِ يعقوبَ . والأعمشُ أيضاً " بل مَتَّعْنا " بنون العظمة .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

قوله : ﴿ مِّنَ القريتين ﴾ : فيه حَذْفُ مضافٍ فقدَّره بعضُهم : من رَجُلَيْ القريَتَيْن . وقيل : من إحدى القريَتَيْن . والرجلان : الوليد ابن المغيرة وكان بمكة ، وعروة بن مسعود الثقفي ، وكان بالطائف . وقيل : كان يتردَّدُ بين القريتين فنُسب إلى كلتيهما . وقُرئ " رَجْل " بسكون العين وهي تميمةٌ .

وقد مضى الكلامُ في " سُخْرِيًّا " في المؤمنين . وقرأ بالكسر هنا عمرو بن ميمون وابن محيصن وأبو رجاء وابن أبي ليلى والوليد بن مسلم وخلائق ، بمعنى المشهورة ، وهو الاستخدام . ويَبْعُدُ قولُ بعضِهم : إنه استهزاء الغني بالفقير .

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33)

قوله : ﴿ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ : بدلُ اشتمالٍ بإعادةِ العاملِ . واللامان للاختصاص . وقال ابنُ عطية : الأُوْلى للمِلْك ، والثانية للتخصيص . ورَدَّه الشيخ : بأنَّ الثاني بدلٌ فيُشترط أَنْ يكونَ الحرفُ متحدَ المعنى لا مختلفَه . وقال الزمخشري : " ويجوز أَنْ يكونا بمنزلة اللامَيْن في قولك : " وَهَبْتُ له ثوباً لقميصِه " . قال الشيخ " ولا أدري ما أراد بقولِه هذا " ؟ قلت : أراد بذلك أن اللامَيْن للعلة أي : كانت الهِبَةُ لأجلك لأجلِ قميصِك ، ف " لقميصك " بدلُ اشتمالٍ بإعادة العاملِ بعينه ، وقد نُقِل أَنَّ قولَه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ [الأنعام : 84] أنها للعلة .

قوله : " سُقُفا " قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح السين وسكون القاف بالإفراد على إرادةِ الجنسِ . والباقون بضمتين على الجمعِ كرُهُن في جمع رَهْن . وفي " رُهُن " تأويلٌ لا يمكنُ هنا : وهو أَنْ يكونَ جَمْعَ " رِهان " جَمْعَ رَهْن ؛ لأنه لم يُسْمَعْ سِقاف جمع سَقْف . وعن الفراء أنه جمع سقيفة فيكون كصحيفة وصُحُف . وقُرِئ " سَقَفاً " بفتحتين لغةً في سَقْف ، وسُقوفاً بزنة فَلْس وفُلوس . وأبو رجاء بضمة وسكون .

و " مِنْ فِضَّة " يجوز أن يتعلَّق بالجعل ، وأن يتعلق بمحذوف صفة لسُقُف . وقرأ العامَّة " معارِجَ " جمع مَعْرَج وهو السُّلَّم . وطلحة " معاريج " جمع مِعْراج ، وهذا كمفاتِح لمَفْتَح ،

ومفاتيح لمفتاح .

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34)

(230/691)

قوله : ﴿ وَسُرُراً ﴾ : جمع سَرير . والعامَّةُ على ضم الراء . وقُرِئ بفتحها وهي لغةُ بعض تميم وكلب . وقد تقدَّم أنَّ فعيلاً المضعَّفَ تفتحُ عينُه إذا كان اسماً أو صفةً نحو : ثوب جَديد وثياب جُدَد ، وفيه كلامٌ للنحاة . وهل قوله : " مِنْ فضة " شاملٌ للمعارج والأبواب والسُّرُر ؟ فقال الزمخشري : نعم ، كأنه يرى تشريكَ المعطوف مع المعطوف عليه في قيودِه . و " عليها يَتَّكئون " و " عليها يَظْهَرون " صفتان لِما قَبْلَهما .

وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)

قوله : ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منصوباً ب جَعَل أي : وجَعَلْنا لهم زخرفا . وجوَّز الزمخشري أن ينتصبَ عطفاً على محلِّ " مِنْ فضة " كأنه قيل : سُقُفاً من فضةٍ وذَهَبٍ أي : بعضُها كذا ، وبعضها كذا .

وقد تقدَّم الخلافُ في " لَمَّا " تخفيفاً وتشديداً في سورة هود ، وقرأ أبو رجاء وأبو حيوةَ " لِما " بكسر اللام على أنها لامُ العلةِ دَخَلَتْ على " ما " الموصولة وحُذِفَ عائدُها ، وإنْ لم تَطُل

الصلةُ . والأصل : الذي هو متاعٌ كقوله : ﴿ تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ ﴾ [الأنعام : 154] برفع النون . و " إنْ " هي المخففةُ من الثقيلة ، و " كل " مبتدأ ، والجارُّ بعده خبرُه أي : وإن كل ما تقدَّم ذِكْرُه كائن للذي هو متاعُ الحياة ، وكان الوجهُ أن تدخُلَ اللامُ الفارقة لعدم إعمالِها ، إلاَّ أنَّها لما دَلَّ الدليلُ على الإثباتِ جاز حَذْفُها كما حَذَفها الشاعرُ في قوله :

3992 أنا ابنُ أباةِ الضَّيْم مِنْ آلِ مالكٍ . . . وإنْ مالكٌ كانَتْ كرامَ المعادنِ

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)

(231/691)

قوله : ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ : العامَّة على ضم الشين مِن عشا يعشو أي : يتعامى ويتجاهل . وقتادة ويحيى بن سلام " يَعْشَ " بفتحها بمعنى يَعْمَ . وزيد بن علي " يَعْشو " بإثبات الواو . قال الزمخشري : " على أنّ " مَنْ " موصولة وحَقُّ هذا أن يقرأ نقيضُ بالرفع " . قال الشيخ : " ولا تتعيَّنُ موصوليتُها بل تُخَرَّج على وجهين : إمَّا تقديرِ حذفِ حركةِ حرفِ العِلة ، وقد حكاها الأخفش لغةً ، وتقدَّم منه في سورةِ يوسفَ شواهدُ ، وإمَّا على أنه جزمٌ ب " مَنْ " الموصولة تشبيهاً لها ب " مَنْ " الشرطيةِ " . قال : " وإذا كانوا قد جزَموا ب " الذي " ، وليس بشرطٍ قط فأَوْلَى بما اسْتُعْمِلَ شرطاً وغيرَ شرطٍ . وأنشد :

3993 ولا تَحْفِرَنْ بِئْراً تُريد أخاً بها . . . فإنّك فيها أنت مِنْ دونِه تقَعْ

كذاكَ الذي يَبْغي على الناسِ ظالماً . . . يُصِبْه على رَغْمٍ عواقبُ ما صَنَعْ

/قال : " وهو مذهبُ الكوفيين ، وله وَجْهٌ من القياسِ : وهو أنَّ " الذي " أَشْبَهَتْ اسمَ الشرطِ في دخولِ الفاءِ في خبرِها ، فتُشْبِهُ اسمَ الشرطِ في الجزم أيضاً . إلاَّ أنَّ دخولَ الفاءِ منقاسٌ بشرطِه ، وهذا لا ينقاسُ " .

ويقال : عَشا يَعْشُو ، وعَشِي يَعْشَى . فبعضُهم جعلهما بمعنىً ، وبعضُهم فَرَّقَ : بأنَّ عَشِيَ يَعْشَى إذا حَصَلَتْ الآفَةُ من بَصَرَه ، وأصلُه الواوُ وإنما قُلِبَتْ ياءً لانكسارِ ما قبلها كرضِيَ يَرْضى وعَشَا يَعْشُو أي : تفاعَل ذلك . ونَظَرَ نَظَرَ العَشِي ولا آفَةَ ببصرِه ، كما قالوا : عَرَجَ لَمَنْ به آفَةُ العَرَجِ ، وعَرُجَ لَمَنْ تعارَجَ ، ومَشَى مِشْيَةَ العُرْجان . قال الشاعر :

3994 أَعْشُو إذا ما جارتي بَرَزَتْ . . . حتى يُواريْ جارتي الخِدْرُ

أي : أنظرُ نَظَرَ العَشِي . وقال آخر :

3995 متى تَأْتِه تَعْشُوا إلى ضَوْءِ نارِه . . . تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوْقِدِ

أي : تَنْظُرُ نَظَرَ العشِي لضَعْفِ بصرِه مِنْ كثرةِ الوَقودِ . وفَرَّق بعضُهم : بأنَّ عَشَوْتُ إلى النارِ إذا اسْتَدْلَلْتَ عليها بنظرٍ ضعيفٍ وقيل : وقال الفراء : " عَشا يَعْشى يُعْرِض ، وعَشِي يَعْشَى عَمِيَ " . إلاَّ أنَّ ابن قتيبة قال : " لم نَرَ أحداً حكى عَشَوْتُ عن الشيء : أَعْرَضْتُ عنه ، وإنما يقال : تعاشَيْتُ عن كذا إذا تغافَلْتَ عنه وتعامَيْتَ " .

وقرأ العامَّةُ " نُقَيِّضْ " بنونِ العظمةِ . وعلي بن أبي طالب والأعمش ويعقوبُ والسلميُّ وأبو عمرٍو وعاصمٌ في روايةٍ عنهما "يُقَيِّضْ " بالياء من تحت أي : يُقَيِّض الرحمنُ . و " شيطاناً " نصبٌ في القراءتين . وابن عباس "يُقَيَّضْ " مبنياً للمفعول ، " شيطانٌ " بالرفع ، قائمٌ مقامَ الفاعلِ .

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37)

قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ : الظاهرُ أنَّ ضميرَيْ النصبِ عائدان على " مَنْ " مِنْ حيث معناها ، راعى لفظَها أولاً فأفردَ في " له " و " له " ، ثم راعى معناها ، فجَمع في قولِه : " وإنَّهم ليَصُدُّوْنَهم " . والضميرُ المرفوعُ على الشيطان ؛ لأنَّ المرادَ به الجنسُ ، ولأنَّ كلَّ كافرٍ معه قَرِيْنٌ . وقال ابن عطية : " إنَّ الضميرَ الأولَ للشياطين ، والثاني للكفار . التقدير : وإنَّ الشياطين ليَصُدُّوْنَ الكفارَ العابثين " .

حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)

قوله : ﴿ إِذَا جَآءَنَا ﴾ : قرأ أبو عمرٍو والأخوان وحفصٌ " جاءنا " بإسنادِ الفعلِ إلى ضميرٍ مفردٍ يعودُ على لفظ " مَنْ " وهو العاشي ، وحينئذٍ يكونُ هذا ممَّا حُمِل فيه على اللفظ ثم على المعنى ، ثم على اللفظ ، فإنَّه حُمِلَ أولاً على لفظِها في قوله : " نُقَيِّضْ له " " فهو له " ، ثم جُمِع على معناها في قوله : " وإنَّهم ليَصُدُّونهم " و " يَحْسَبون أنهم " ، ثم رَجَعَ إلى لفظِها في قوله : " جاءنا " ، والباقون " جاءانا " مُسْنداً إلى ضميرِ تثنيةٍ ، وهما العاشي وقَرينُه .

قوله : " بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ " قيل : أراد المشرقَ والمغربَ ، فغلَّبَ كالعُمَرَيْن والقَمَرَيْن . وقيل : أراد بمَشْرِقَيْ الشمسِ مَشْرِقَها في أقصرِ يومٍ ومَشْرِقَها في أطولِ يومٍ . وقيل : بُعْدَ المَشْرِقَيْن من المَغْرِبَيْن .

قوله : " فبِئْسَ القَرينُ " مخصوصُه محذوفٌ أي : أنت .

وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39)

قوله : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ﴾ : في فاعِله قولان ، أحدهما : أنه ملفوظٌ به ، وهو " أنَّكم " وما في حَيِّزِها . التقدير : ولن يَنْفَعَكم اشتراكُكم في العذاب بالتأسِّي ، كما يَنْفَعُ الاشتراكُ في مصائب الدنيا فيتأسَّى المُصاب بمثِله . ومنه قولُ الخنساء :

3996 ولولا كَثْرَةُ الباكِيْنَ حَوْلِي . . . على إخوانِهم لقَتَلْتُ نَفْسي

وما يَبْكُون مثلَ أخي ولكنْ . . . أُعَزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي

(234/691)

والثاني : أنّه مضمرٌ . فقدَّره بعضُهم ضميرَ التمنّي المدلولَ عليه بقوله : ﴿ ياليت بَيْنِي ﴾ أي : لن يَنْفَعكم تَمَنِّيْكم البُعْدَ . وبعضُهم : لن ينفَعَكم اجتماعُكم . وبعضُهم : ظُلْمُكم وجَحْدُكم . وعبارةُ مَنْ عَبَّر بأنَّ الفاعلَ محذوفٌ مقصودُه الإضمارُ المذكورُ لا الحذفُ ؛ إذ الفاعلُ لا يُحْذَفُ إلاَّ في مواضعَ ليس هذا منها ، وعلى هذا الوجهِ يكونُ قوله : " أنَّكم " تعليلاً أي : لأنَّكم ، فحذفَ الخافضَ فجرى في مَحَلِّها الخلافُ : أهو نصبٌ أم جرٌّ ؟ ويؤيِّد إضمارَ الفاعلِ ، لا أنَّه هو " أنَّكم " ، قراءةُ " إنكم " بالكسرِ فإنَّه/ استئنافٌ مفيدٌ للتعليلِ . قوله : " إذْ ظَلَمْتُمْ " قد استشكل المُعْرِبون هذه الآيةَ . ووجهُه : أنَّ قولَه " اليومَ " ظرفٌ حالِيٌّ ، و " إذ " ظرفٌ ماضٍ ، و " يَنْفَعَكم " مستقبلٌ ؛ لاقترانِه ب " لن " التي لنفي المستقبلِ . والظاهرُ أنه عاملٌ في الظرفَيْن ، وكيف يعملُ الحدثُ المستقبلُ الذي لم يقَعْ بعدُ في ظرفٍ حاضرٍ أو ماضٍ ؟ هذا ما لا يجوزُ . فأُجيب عن إعماله في الظرفِ الحاليّ على سبيلِ قُرْبِه منه ؛ لأنَّ الحالَ قريبٌ من الاستقبالِ فيجوز في ذلك . قال تعالى : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن ﴾ [

الجن : 9] وقال الشاعر :

3997 . . . . . سَأَسْعَى

الآنَ إذ بَلَغَتْ أَنَاها

(235/691)

وهو إقناعيٌّ ، وإلاَّ فالمستقبلُ يَسْتحيلُ وقوعُه في الحالِ عقلاً . وأمَّا قولُه : " إذ " ففيها للناسِ أوجهٌ كثيرةٌ . قال ابن جني : " راجَعْتُ أبا عليّ فيها مِراراً فآخرُ ما حَصَّلْت منه : أنَّ الدنيا والآخرةَ متصلتان ، وهما سواءٌ في حُكْمِ اللَّهِ تعالى وعِلْمِه ، ف " إذ " بدلٌ من " اليوم " حتى كأنَّه مستقبلٌ أو كأنَّ اليومَ ماضٍ . وإلى هذا نحا الزمخشريُّ قال : " وإذْ بدلٌ من اليوم " وحَمَلَه الزمخشريُّ على معنى : إذْ تبيَّن وصَحَّ ظُلْمُكم ، ولم يَبْقَ لأحدٍ ولا لكم شبهةٌ في أنَّكم كنتم ظالمين . ونظيرُه :

3998 إذا ما انْتَسَبْنا لم تَلِدْني لئيمةٌ . . . . . .

أي : تَبَيَّن أني وَلَدُ كريمةٍ " . وقال الشيخ : " ولا يجوزُ البدلُ ما دامت " إذ " على موضوعِها من المُضِيِّ ، فإنْ جُعِلَتْ لمطلقِ الزمانِ جاز " . قلت : لم يُعْهَدْ في " إذ " أنها تكونُ لمطلقِ

الزمان ، بل هي موضوعةٌ لزمانٍ خاصٍ بالماضي كأَمْسِ . الثاني : أنَّ في الكلام حَذْفَ مضافٍ تقديرُه : بعد إذ ظَلَمْتُمْ .

(236/691)

الثالث : أنها للتعليلِ . وحينئذٍ تكونُ حرفاً للتعليلِ كاللام . الرابعُ : أنَّ العاملَ في " إذ " هو ذلك الفاعلُ المقدَّرُ لا ضميرُه . والتقدير : ولن ينفعَكم ظلمُكم أو جَحْدُكم إذ ظَلَمْتم . الخامس : أنَّ العاملَ في " إذ " ما دَلَّ عليه المعنى . كأنه قال : ولكن لن ينفعَكم اجتماعُكم إذ ظَلَمْتُمْ . قاله الحوفي ، ثم قال : " وفاعلُ "يَنْفَعَكم" الاشتراكُ " انتهى . فظاهرُ هذا متناقضٌ ؛ لأنَّه جَعَلَ الفاعلَ أولاً اجتماعَكم ، ثم جعلَه آخِراً الاشتراكَ . ومنع أَنْ تكونَ " إذ " بدلاً مِن اليوم لتغايُرِهما في الدلالة . وفي كتاب أبي البقاء " وقيل : إذْ بمعنى " أَنْ " أي : أَنْ ظَلَمْتُم " . ولم يُقَيِّدْها بكونِها أن بالفتح أو الكسر ، ولكن قال الشيخ : " وقيل : إذ للتعليلِ حرفاً بمعنى " أَنْ " يعني بالفتح ؛ وكأَنَّه أراد ما ذكره أبو البقاءِ ، إلاَّ أَنَّ تَسْمِيَتَه " أَنْ " للتعليل مجازٌ ، فإنها على حَذْفِ حرفِ العلةِ أي : لأَنْ ، فلمصاحبتِها لها ، والاستغناءِ بها عنها سَمَّاها باسمِها . ولا ينبغي أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّها في كتابِ أبي البقاء بالكسرِ على الشرطية ؛ لأَنَّ معناه بعيدٌ .

وقُرِئ " إنكم " بالكسرِ على الاستئناف المفيدِ للعلةِ . وحينئذٍ يكونُ الفاعلُ مضمراً على أحدِ التقادير المذكورة .

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41)

قوله : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ ﴾ : قد تقدَّم الكلامُ عليه قريباً .

أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42)

وقُرِئ " نُرِيَنْكَ " : بالنونِ الخفيفة . والعامَّةُ على ﴿ أُوحِيَ ﴾ [الزخرف : 43] مبنيًّا للمفعولِ مفتوحَ الياء ، وبعضُ قرَّاء الشام سَكَّنها تخفيفاً . والضحاك " أَوْحَى " مبنياً للفاعل وهو اللَّهُ تعالى .

(237/691)

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

قوله : ﴿ مَنْ أَرْسَلْنَا ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أظهرُها : أنَّ " مَنْ " موصولة ، وهي مفعولٌ للسؤالِ . كأنه قيل : واسأل الذي أرْسَلْناه مِنْ قَبْلِك عَمَّا أُرْسِلوا به ، فإنَّهم لم يُرْسَلوا إلاَّ بالتوحيد . الثاني : أنَّه على حَذْفِ حَرْفِ الجرِّ على أنه المسؤولُ عنه . والمسؤولُ الذي هو المفعولُ الأولُ محذوفٌ ، تقديرُه : واسْأَلْنا عن مَنْ أَرْسَلْناه . الثالث : أنَّ " مَنْ "

استفهاميةٌ مرفوعةٌ بالابتداء ، و " أَرْسَلَ " خبرُه . والجملةُ مُعَلّقَةٌ للسؤالِ ، فتكونُ في محلِّ نصبٍ على إسقاطِ الخافضِ ، وهذا ليس بظاهرٍ ، بل الظاهرُ أنَّ المُعَلّقَ للسؤال إنما هو الجملةُ الاستفهاميةُ مِنْ قولِه " أَجَعَلْنا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 693.671 ﴾

(238/691)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والتسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/692)

الجزء الثانى والتسعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 46 ﴾ من سورة الزخرف

وحتى الآية ﴿ 56 ﴾ من نفس السورة

(4/692)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : فلقد أرسلنا جميع رسلنا وهم أشرف الخلق بالتوحيد الذي جئت به ، وما كنا في إرسالنا إياهم مراعين لما يريده الأمم من جاه أو مال أو غير ذلك ، فلا وجه للاتكال عليك فيما أرسلناك به من التوحيد وغيره ، ولا لمعاداتك فيه ، عطف عليه أول من أرشد إلى سؤال أتباعهم فقال مؤكداً أجل ما يعاندون به من إنكار الرسالة ، وأتى بحرف التوقع لما اقتضاه من الأمر بسؤال الرسل عليهم الصلاة والسلام : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي بما ظهر من عظمتنا .

(5/692)

ولما كان الإرسال منه سبحانه ليس على حسب العظمة في الدنيا بما يراه أهلها كما قال هؤلاء ﴿ لولا نزل هذا القرآن ﴾ - الآية ، قال مناقضاً لهم : ﴿ موسى ﴾ أي الذي كان فرعون يرى أنه أحق الناس بتعظيمه لأنه رباه وكفله ﴿ بآياتنا ﴾ أي التي قهر بها عظماء الخلق وجبابرتهم ، فدل ذلك على صحة دعواه وعلى جميع الآيات لتساويها في القدرة وخرق العادة .

ولما كان السياق لسؤال النبي - صلى الله عليه وسلم - الرسل عن أمر التوحيد ، كانت الآيات كافية ، فلم يذكر السلطان لأنه للقهر والغلبة : ﴿ إلى فرعون ﴾ أي لأنه طغى وبغى وادعى أنه هو الرب الأعلى ووافقه الضالون : ﴿ وملأه ﴾ الذين جعلهم آلهة دونه وعبدهم قومهم فلم يقرهم على ذلك لأنا ما رضيناه ﴿ فقال ﴾ بسبب إرسالنا ﴿ إني رسول ﴾ وأكد لأجل إنكارهم ما أنكره قومك من الرسالة .

ولما كان الإحسان سبباً للإذعان قال : ﴿ رب العالمين ﴾ أي مالكهم ومربيهم ومدبرهم .

ولما كانوا قد فعلوا من الرد لرسالته - صلى الله عليه وسلم - والاستهزاء بها ما فعلته قريش ، قال مسلياً للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومهدداً لهم تسبيباً عما تقديره : فقالوا له ائت بآية ، فأتى بها على ما تقدم غير مرة بما هو كالشمس بياناً وحسناً : ﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ بالإتيان بآيتي اليد والعصا اللتين شهدوا فيهما عظمتنا ودلتاهم على قدرتنا على جميع الآيات ﴿ إذا هم ﴾ أي بأجمعهم استهزاء برسولنا ، وطال ما يضحك عليهم هو ومن آمن

برسالته وبما جاء به عنا يوم الحسرة والندامة ﴿ منها يضحكون ﴾ أي فاجؤوا المجيء بها من غير توقف ولا كسل بالضحك سخرية واستهزاء .

(6/692)

ولما كان ربما ظن ظان أن في الآيات ما يقبل شيئاً من ذلك ، بين حالها سبحانه بقوله : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنا ما ﴿ نريهم ﴾ على ما لنا من الجلال والعلو والكمال ، وأعرق في النفي بإثبات الجار وأداة الحصر لأجل من قد يتوهم أنهم معذورون في ضحكهم فقال : ﴿ من آية إلا هي أكبر ﴾ أي في الرتبة ﴿ من أختها ﴾ أي التي تقدمت عليها بالنسبة إلى علم الناظرين لها لأن الآدمي لما له من النسيان إذا أتاه الثاني من المتساويين رأى جميع من أتاه ناسياً ولا بعض من أتى الأول فيقطع بأنه أكبر منه ، أو أن هذا كناية عن أنها كلها في نهاية العظمة كما قال شاعرهم :

" من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم " . . .

أو أن بينها في الكبر عموماً وخصوصاً من وجه ، وأحسن من ذلك ما أشار إليه ابن جرير من أن كل آية أوضح في الحجة عليهم وأوكد مما قبلها ، لأنها دلت على ما دلت عليه وزادت ما أفادته المعاضدة من الضخامة فصارت هي مع ما قبلها أكبر مما قبلها عند ورودها

وإقامة الحجة بها .

ولما كان التقدير : فاستمروا على كفرهم ولم يرجعوا لشيء من الآيات لأنا أصممناهم وأعميناهم وأحطنا بهم الضلال لعلمنا بحالهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وأخذناهم ﴾ أي أخذ قهر وغلبة ﴿ بالعذاب ﴾ أي كله لأنا واترنا عليهم ضرباته على وجه معلم بأنا قادرون على ما نريد منه فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ﴿ آيات مفصلات ﴾ والقطع : البرد الكبار الذي لم يعهد مثله ملتهباً بالنار ، وموت الأبكار ، فكانت آيات على صدق موسى عليه الصلاة والسلام بما لها من الإعجاز ، وعذاباً لهم في الدنيا موصولاً بعذاب الآخرة ، فيا لها من قدرة باهرة وحكمة ظاهرة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي ليكون حالهم عند ناظرهم الجاهل بالعواقب حال من يرجى رجوعه .

(7/692)

ولما كان فرعون في كثير من الضربات التي كان يضربه بها سبحانه - كما مضى في الأعراف عن التوراة - يقول لموسى عليه الصلاة والسلام : قد أخطأت والرب بار وأنا وشعبي فجار ، فصلينا بين يدي الرب فإنه ذو إمهال وأناة ، فيصرف عني كذا ، فإذا صرف الله ذلك عنهم عاد على ما كان عليه من الفجور ، كان فعله ذلك فعل من لا يعتقد أنه موسى عليه

الصلاة والسلام نبي حقيقة ، بل يعتقد أنه ساحر ، وأن أفعاله إنما هي خيال ، فكذلك عبر عن هذا المعنى بقوله عطفاً على ما تقديره ، فلم يرجعوا : ﴿ وقالوا ﴾ أي فرعون بالمباشرة وأتباعه بالموافقة له : ﴿ يا أيها الساحر ﴾ فنادوه بأداة البعد مع الإفهام بقالوا دون " نادوا " أنه حاضر إشارة إلى بعده من قلوبهم ، والتعبير بهذا توبيخ لقريش بالإشارة إلى أنهم وغيرهم ممن مضى يرمون الرسول بالسحر ويقرون برسالته عند الحاجة إلى دعائه في كشف ما عذبهم ربهم به ، وذلك قادح فيما يدعون من الثبات والشجاعة والعقل والإنصاف والشهامة ، وذلك كما وقع لقريش لما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف " فقحطوا ، فلما اشتد عليهم البلاء أتى أبو سفيان بن حرب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة الشريفة فقال : يا محمد ! إنك قد جئت بصلة الأرحام وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، فدعا لهم فأغيثوا ، فلا شك أن ترجمة حالهم هذا الذي ذكره الله من التناقض الذي لا يرضاه لنفسه عاقل ، وهو وصفه بالسحر وطلب الدعاء منه يمنع اعتقاد أنه ساحر ، واعتقاد أنه ساحر يمنع طلب الدعاء منه عند العاقل ﴿ ادع لنا ربك ﴾ أي المحسن إليك بما يفعل معك من هذه الأفعال التي نهيتنا بها إكراماً لك ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ عهد عندك ﴾ من أنه يفعل من وضعها ورفعها على ما تريد على ما أخبرتنا أنه إن آمنا أكرمنا ، وإن تمادينا أهاننا ، ثم عللوا ذلك بقولهم مؤكداً تقريباً لحالهم البعيدة من الاعتداء بما يخبر به شاهد الوجود : ﴿ إننا

لمهتدون ﴾ أي اهتداء ثابتاً يصير لنا وصفاً لازماً عند كشف ذلك عنا .

ولما كان العاقل لا يخبر عن نفسه إلا بما هو صحيح ، فكيف إذا كان عظيماً بين قومه فكيف إذا أكد ذلك بأنواع من التأكيد ، فكان السامع لهذا الكلام يقطع بصدقه ، بين تعالى ما يصحح أن حالهم حال من يعتقد أنه ساحر بأنهم أسرعوا الخيانة بالكذب فيه من غير استحياء ولا خوف ، فقال معبراً بالفاء دلالة على ذلك : ﴿ فلما كشفنا ﴾ على ما لنا من العظمة التي ترهب الجبال ﴿ عنهم العذاب ﴾ أي الذي أنزلناه بهم ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ أي فاجؤوا الكشف بتجديد النكث بإخلاف بعد إخلاف ﴿ ونادى فرعون ﴾ أي زيادة على نكثه ﴿ في قومه ﴾ أي الذين لهم غاية القيام معه ، وأمر كلاً منهم أن يشيع قوله إشاعة تعم البعيد كما تشمل القريب فتكون كأنها مناداة إعلاماً بأنه مستمر على الكفر لئلا يظن بعضهم أنه رجع .

ولما كان كأنه قيل : لم نادى ؟ أجاب بقوله : ﴿ قال ﴾ أي خوفاً من إيمان القبط لما رأى من أن ما شاهدوا من باهر الآيات مثله يزلزل ويأخذ بالقلوب : ﴿ يا قوم ﴾ مستعطفاً لهم بإعلامهم بأنهم لحمة واحدة ، ومستنهضاً بوصفهم بأنهم ذوو قوة على ما يحاولونه ، مقرراً

لهم على عذره في نكثه بقوله : ﴿ أليس لي ﴾ أي وحدي ﴿ ملك مصر ﴾ أي كله ، فلا اعتراض على بني إسرائيل ولا غيرهم ، لينتج له ذلك على زعمه أن غلبته على بني إسرائيل ومقاهرته على إخراجهم من تحت يده بغى على من له الملك فتكون فساداً فلا بأس عليه إذا خدع من فعل به ذلك بما عاهده عليه عند مس الضر ، ولم يقرأ بالصرف ليكون نصاً على مراده من العلمية ، ولأن المصر يطلق على المدينة الواحدة ، والتنوين يأتي للتحقير وهو ضد مراده .

(9/692)

ولما كان قد حصل له مما رأى من الآيات وورد عليه من تلك الضربات بأنواع المثلات ما أدهشه بحيث صار في عداد من يشك أتباعه في ملكه ، دل عليه بما بناه من الحال : ﴿ وهذه ﴾ أي والحال أن هذه ﴿ الأنهار ﴾ وكأنه كان قد أكثر من تشقيق الخلجان إلى بساتينه وقصوره ، ونحو ذلك من أموره فقال : ﴿ تجري من تحتي ﴾ أي من أي موضع أردته بما لا يقدر عليه غيري ، وزاد في التقرير بقوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أي الذي ذكرته لكم فتعلموا ببصائر قلوبكم أنه لا ينبغي لأحد أن ينازعني ، وهذا لعمري قول من ضعفت قواه وانحلت عراه .

ولما أرشد السياق إلى أن التقدير : أفهذا الذي جاء يسلبنا عبيدنا بني إسرائيل خير عندكم مني ؟ نسق عليه قوله : ﴿ أم أنا خير ﴾ مع ما وصفت لكم من ضخامتي وما لي من القدرة على إجراء المياه التي بها حياة كل شيء ، ونقل ابن الجوزي وغيره من المفسرين عن سيبويه وأستاذه الخليل أنها معادلة لتقريرهم بالإبصار ، فكأنه قال : أفلا تبصرون ما ذكرتكم به فترون لعدم إبصاركم أنه خير مني أم أنا خير منه لأنكم لا تبصرون ، وكان هو أحق بهذه النصيحة منهم فإنه أراهم الطريق الواضحة إلى الضلال والموصلة إليه من غير مشقة ولا تعب بقوله : أفلا تبصرون أم أنتم بصراء ، فيكون ذلك احتباكاً تقديره : أفلا تبصرون ما نبهتكم عليه ، فذكر الإبصار أولاً دليلاً على حذف مثلها ثانياً والخيرية ثانياً دليلاً على حذف مثلها أولاً ، وحقر من عظمة الآتي له بتلك الآيات ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئلا يسرع الناس إلى اتباعه لأن آياته – لكونها من عند الله – كالشمس بهجة وعلواً وشهرة فقال : ﴿ من هذا ﴾ فكنى بإشارة القريب عن تحقيره ، ثم وصفه بما يبين مراده فقال : ﴿ الذي هو مهين ﴾ أي ضعيف حقير قليل ذليل ، لأنه يتعاطى أموره بنفسه ، وليس له ملك ولا قوة يجري بها نهراً ولا ينفذ بها أمراً ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ أي لا يقرب من أن

يعرب عن معنىً من المعاني لما في لسانه من الحبسة فلا هو قادر في نفسه ولا له قوة بلسانه على تصريف المعاني وتنويع البيان يستجلب القلوب ويدهش الألباب فيكثر أتباعه ويضخم أمره ، وقد كذب في جميع قوله ، فقد كان موسى عليه الصلاة والسالم أبلغ أهل زمانه قولاً وفعلاً بتقدير الله الذي أرسله له وأمره إياه ولكن الخبيث أسند هذا إلى ما بقي في لسانه من الحبسة تخييلاً لأتباعه لأن موسى عليه الصلاة والسلام ما دعا بإزالة حبسته بل بعقدة منها .

(11/692)

ولما كان عند فرعون وعند من كان مثله مطموس البصيرة فاقد الفهم وقوفاً مع الوهم أن القرب من الملوك والغلبة على الأمور لا تكون إلا بكثرة الأعراض الدنيوية ، والتحلي بحلي الملوك ، سبب عن ادعائه لرسالته عن ملك الملوك اللازمة للقرب منه قوله : ﴿ فلولا ﴾ ولما كانت الكرامات والحبى والخلع تلقى على المكرم بها إلقاء ، عبر به فقال : ﴿ ألقي ﴾ أي من أيّ ملق كان ﴿ عليه ﴾ من عند مرسله الذي يدعي أنه الملك بالحقيقة ﴿ أسورة ﴾ جمع أسورة – قاله الزجاج ، وصرف لصيرورته على وزن المفرد نحو علانية وكراهية ، والسوار : ما يوضع في العصم من الحلية ﴿ من ذهب ﴾ ليكون ذلك أمارة على صدق

صحة دعواه كما نفعل نحن عند إنعامنا على أحد من عبيدنا بالإرسال إلى ناحية من النواحي لمهم من المهمات ﴿ أو جاء معه ﴾ أي صحبته عند ما أتى إلينا بهذا النبأ الجسيم والملم العظيم ﴿ الملائكة ﴾ أي هذا النوع ، وأشار إلى كثرتهم بما بين من الحال بقوله : ﴿ مقترنين ﴾ أي يقارن بعضهم بعضاً بحيث يملؤون الفضاء ويكونون في غاية القرب منه بحيث يكون مقارناً لهم ليجاب إلى هذا الأمر الذي جاء يطلبه كما نفعل نحن إذا أرسلنا رسولاً إلى أمر يحتاج إلى دفاع وخصام ونزاع ، فكان حاصل أمره كما ترى أنه تعزز بإجراء المياه ، فأهلكه الله بها إيماء إلى أن من تعزز بشيء دون الله أهلكه الله به ، واستصغر موسى عليه الصلاة والسلام وعابه بالفقر والغي فسلطه إشارة إلى أنه ما استصغر أحد شيئاً إلا غلبه - أفاده القشيري .

(12/692)

ولما كان كلامه هذا واضعاً له عند من تأمل لا رافعاً ، وكان قد مشى على أتباعه لأنهم مع المظنة دون المنة ، فهم أذل شيء لمن ثبتت له رئاسته دنيوية وإن صار تراباً ، وأعصى شيء على من لم تفقه له الناس وإن فعل الأفاعيل العظام ، تشوف السامع إلى ما يتأثر عنه فقال : ﴿ فاستخف ﴾ أي بسبب هذه الخدع التي سحرهم بها في هذا الكلام الذي هو

في الحقيقة محقر له موهن لأمره قاصم لملكه عند من له لب ﴿ قومه ﴾ الذين لهم قوة عظيمة ، فحملهم بغروره على ما كانوا مهيئين له في خفة الحلم ﴿ فأطاعوه ﴾ بأن أقروا بملكه وأذعنوا لضخامته واعترفوا بربوبيته وردوا أمر موسى عليه الصلاة والسلام .

(13/692)

ولما كان كلامه كما مضى أعظم موهن لأمره وهو منقوض على تقدير متانته بأن موسى - صلى الله عليه وسلم - على نبينا وعليه وسلم أتى بما يغني عما قاله من الأساورة وظهور الملائكة بأنه مهما هددهم فعله ومهما طلبوه منه أجابهم إليه ، فلم يكن للقبط داع إلى طاعة فرعون بعدما رأوا من الآيات إلا المشاكلة في خباثة الأرواح ، علل ذلك سبحانه بقوله مؤكداً لما يناسب أحوالهم فيرتضي أفعالهم وهم الأكثر : ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي بما في جبلاتهم من الشر والنفاق لأنهم كانوا ﴿ قوماً ﴾ أي عندهم قوة شكائم توجب لهم الشماخة إلا عند من يقهرهم بما يألفون من أسباب الدنيا ﴿ فاسقين ﴾ أي عريقين في الخروج عن طاعة الله إلى معصية ، قد صار لهم ذلك خلقاً ثانياً ، وكأن مدة محاولة الكليم عليه الصلاة والسلام لهم كانت قريبة ، فلذلك عبر بالفاء في قوله : ﴿ فلما آسفونا ﴾ أي فعلوا معناه ما يغضب إغضاباً شديداً بإغضاب أوليائنا كما في الحديث القدسي "

مرضت فلم تعدني " لنكثهم مرة بعد مرة وكرة في إثر كرة ﴿ انتقمنا منهم ﴾ أي أوقعنا بهم على وجه المكافأة لما فعلوا برسولنا عليه السلام عقوبة عظيمة منكرة مكروهة كأنها بعلاج ﴿ فأغرقناهم ﴾ في اليم ﴿ أجمعين ﴾ إهلاك نفس واحدة لم يفلت منهم أحد على كثرتهم وقوتهم وشدتهم ، وهذا لا يكون في العادة إلا بعد علاج كثير أو اعتناء كبير .

(14/692)

ولما كان إهلاكهم بسبب إغضابهم لله وبالكبر على رسله ، كانوا سبباً لأن يتعظ بحالهم من يأتي بعدهم فلذلك قال تعالى : ﴿ فجعلناهم ﴾ أي بأخذنا لهم على هذه الصورة من الإغراق وغيره مما تقدمه ﴿ سلفاً ﴾ متقدماً لكل من يهلك بعدهم إهلاك غضب في الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة وقدوة لمن يريد العلو في الأرض فتكون عاقبته في الهلاك في الدارين أو إحداهما عاقبتهم كما قال سبحانه عز من قائل وتبارك وتعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ [القصص : 41] : ﴿ ومثلاً ﴾ أي حديثاً عجيباً سائراً مسير المثل ﴿ للآخرين ﴾ الذين خلفوا بعدهم من زمنهم إلى آخر الدهر فيكون حالهم عظة لناس وإضلالاً لآخرين ، فمن قضى أن يكون على مثل حالهم عمل مثل أعمالهم ، ومن أراد النجاة مما نالهم تجنب أفعالهم ، فمن أريد به الخير وفق لمثل خير يرده عن غيه ، ومن أريد به

الشر ، وجعل له منهم مثلاً يجترئ به على شره ، ويقوى على خبثه ومكره ، فيجعل الشرير ما أوتوه من الدنيا من النعمة والحبرة الرفاهية والنصرة مثلاً له في التوصل إليه مما كانوا عليه من الظلم ، ويجعل الخير إهلاكهم مثلاً له فيبعد عن أفعالهم لينجو من مثل نكالهم ، يقول أحدهم : أخذ الفلانيون أخذ آل فرعون ، أي لم يفلت منهم إنسان ونحو ذلك من أمثالهم في جميع أحوالهم ، ونقول نحن : إنا نهلك من ظلم وتمادى في ظلمه بعد تحذيرنا له وغشم وإن عظم آله وأتباعه ، وظن عزه وامتناعه ، كدأب آل فرعون ، ويقول من أريد به الشر : ليس على ظهرها أحد يبقى إن خاف العواقب فأحجم عن شهواته وانهمك في رياض أهويته وإرادته وشهي طيباته وكذا ذاته كما وقع لفرعون فإنه لم يرجع لشيء عن رئاسته ، وبلوغ النهاية من صلفه ونفاسته إلى أن ذهب به كما ذهب بغيره سواء سار بسيره أو بغير سيره ، ولقد ضل به قوم وأضلوا ، وحلوا لمن داناهم عرى الدين فزلوا ، وما كفاهم ذلك حتى ادعوا أنه من أعز المقربين لأن الذي كان آخر كلامه الإيمان ، فجب ما كانا

(15/692)

قبله ولم يتدنس بعده فمات طاهراً مطهراً ليس فيه شيء من الدنس مع أن ذلك ما كان إلا عند اليأس حيث لا نفع فيه ، وغروا الضعفاء بأن قالوا : إنه لا صريح في القرآن بعذابه بعد

الموت تعمية عن الدليل القطعي المنتظم من قوله تعالى ﴿ وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ [يونس : 83] ﴿ وإن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ [غافر : 43] المنتج من غير شك أن فرعون من أصحاب النار ، وقوله تعالى ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كانت عاقبة الظالمين ﴾ [القصص : 40] ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴾

وقوله تعالى ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ﴾ إلى أن قال ﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ [ص : 14] غير ذلك من محكم الآيات وصريح الدلالات البينات ، وكذا غير فرعون وقومه من الصالحين والطالحين جعلهم سبحانه سلفاً ومثلاً للآخرين ، فمن أراد به خيراً يسر له مثل خير احتذى به ، ومن أراد به شراً أضله بمثل سوء اقتدى به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 33 . 40 ﴾

(16/692)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن المقصود من إعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون في هذا المقام تقرير الكلام الذي تقدم ، وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كونه فقيراً عديم المال والجاه ، فبيّن الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التي لا يشك في صحتها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش فقال : إني غني كثير المال والجاه ، ألا ترون أنه حصل لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ، وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان ، والرجل الفقير كيف يكون رسولاً من عند الله إلى الملك الكبير الغني ، فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة وهي قولهم ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وقد أوردها بعينها فرعون على موسى ، ثم إنا انتقمنا منهم فأغرقناهم ، والمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين أحدهما : أن الكفار والجهال أبداً يحتجون على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالي بها ولا يلتفت إليها والثاني : أن فرعون على غاية كمال حاله في الدنيا صار مقهوراً باطلاً ، فيكون الأمر في حق أعدائك هكذا ، فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة ، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة ، وعلى هذا فلا يكون هذا تقريراً للقصة ألبتة وهذا من نفائس الأبحاث ، والله

أعلم .

المسألة الثانية :

(17/692)

في تفسير الألفاظ ذكر تعالى أنه أرسل موسى بآياته وهي المعجزات التي كانت مع موسى عليه السلام إلى فرعون وملائه أي قومه ، فقال موسى إني رسول ربّ العالمين ، فلما جاءهم بتلك الآيات إذا هم منها يضحكون ، قيل إنه لما ألقى عصاه صار ثعباناً ، ثم أخذ فعاد عصاً كما كان ضحكوا ، ولم عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا ، فإن قيل كيف جاز أن يجاب عن لما بإذا الذي يفيد المفاجأة ؟ قلنا لأن فعل المفاجأة معها مقدر كأنه قيل فلما جاءهم بآياتنا فاجأوا وقت ضحكهم .

ثم قال : ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلاَّ هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ فإن قيل ظاهر اللفظ يقتضي كون كل واحد منها أفضل من التالي وذلك محال ، قلنا إذا أُريد المبالغة في كون كل واحد من تلك الأشياء بالغاً إلى أقصى الدرجات في الفضيلة ، فقد يذكر هذا الكلام بمعنى أنه لا يبعد في أناس ينظرون إليها أن يقول هذا إن هذا أفضل من الثاني ، وأن يقول الثاني لا بل الثاني أفضل ، وأن يقول الثالث بل الثالث أفضل ، وحينئذ يصير كل واحد من تلك الأشياء مقولاً فيه إنه

أفضل من غيره .

ثم قال تعالى : ﴿ وأخذناهم بالعذاب لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي عن الكفر إلى الإيمان ، قالت المعتزلة هذا يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل وأنه إنما أظهر تلك المعجزات القاهرة لإرادة أن يرجعوا من الكفر إلى الإيمان ، قال المفسرون ومعنى قوله ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ أي بالأشياء التي سلطها عليها كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس .

(18/692)

ثم قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ يا أيه الساحر ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ فإن قيل كيف سموه بالساحر مع قولهم ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ ؟ قلنا فيه وجوه الأول : أنهم كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر ، لأنهم كانوا يستعظمون السحر ، وكما يقال في زماننا في العامل العجيب الكامل إنه أتى بالسحر الثاني : ﴿ وَقَالُواْ يا أيه الساحر ﴾ في زعم الناس ومتعارف قوم فرعون كقوله ﴿ يا أَيُّهَا الذى نُزّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] أي نزل عليه الذكر في اعتقاده وزعمه الثالث : أن قولهم ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ وقد كانوا عازمين على خلافه ألا ترى إلى قوله ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

فتسميتهم إياه بالسحر لا ينافي قولهم ﴿ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ ثم بيّن تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد .

ولما حكى الله تعالى معاملة فرعون مع موسى ، حكى أيضاً معاملة فرعون معه فقال : ﴿ ونادى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ ﴾ والمعنى أنه أظهر هذا القول فقال : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴾ يعني الأنهار التي فصلوها من النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس ، قيل كانت تجري تحت قصره ، وحاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه .

(19/692)

ثم قال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هذا الذى هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ وعنى بكونه مهيناً كونه فقيراً ضعيف الحال ، وبقوله ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ حبسة كانت في لسانه ، واختلفوا في معنى أم ههنا فقال أبو عبيدة مجازها بل أنا خير ، وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ بمعنى بل أنا خير ، وقال الباقون أم هذه متصلة لأن المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع قوله ﴿ أَنَا خَيْرٌ ﴾ موضع تبصرون ، لأنهم إذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء ، وقال آخرون إن تمام الكلام عند قوله ﴿ أَمْ ﴾ وقوله

﴿ أَنَا خَيْرٌ ﴾ ابتداء الكلام والتقدير أفلا تبصرون أم تبصرون لكنه اكتفى فيه بذكر أم كما تقول لغيرك : أتأكل أم أي أتأكل أم لا تأكل ، تقتصر على ذكر كلمة أم إيثاراً للاختصار فكذا ههنا ، فإن قيل أليس أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يزيل الرتة عن لسانه بقوله ﴿ واحلل عُقْدَةً مّن لّسَانِى يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴾ [طه : 27] فأعطاه الله تعالى ذلك بقوله ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ [طه : 36] فكيف عابه فرعون بتلك الرتة ؟ والجواب : عنه من وجهين : الأول : أن فرعون أراد بقوله ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي ولم يرد أنه لا قدرة له على الكلام والثاني : أنه عابه بما كان عليه أولاً ، وذلك أن موسى كان عند فرعون زماناً طويلاً وفي لسانه حبسة ، فنسبه فرعون إلى ما عهده عليه من الرتة لأنه لم يعلم أن الله تعالى أزال ذلك العيب عنه .

(20/692)

ثم قال : ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مّن ذَهَبٍ ﴾ والمراد أن عادة القوم جرت بأنهم إذا جعلوا واحداً منهم رئيساً لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب ، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة ، واختلف القراء في أسورة فبعضهم قرأ أسورَة وآخرون أساورة فأسورة جمع سوار لأدنى العدد ، كقولك حمار وأحمرة وغراب وأغربة ، ومن قرأ

أساورة فذاك لأن أساوير جمع أسوار وهو السوار فأساورة تكون الهاء عوضاً عن الياء ، نحو بطريق وبطارقة وزنديق وزنادقة وفرزين وفرازنة فتكون أساورة جمع أسوار ، وحاصل الكلام يرجع إلى حرف واحد وهو أن فرعون كان يقول أنا أكثر مالاً وجاهاً ، فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع كونه رسولاً من الله ، لأن منصب النبوة يقتضي المخدومية ، والأخس لا يكون مخدوماً للأشرف ، ثم المقدمة الفاسدة هي قوله من كان أكثر مالاً وجاهاً فهو أفضل وهي عين المقدمة التي تمسك بها كفار قريش في قولهم ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] ثم قال : ﴿ أَوْ جَاء مَعَهُ الملئكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ يجوز أن يكون المراد مقرنين به ، من قولك قرنته به فاقترن وأن يكون من قولهم اقترنوا بمعنى تقارنوا ، قال الزجاج معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته . ثم قال تعالى : ﴿ فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي طلب منهم الخفة في الإتيان بما كان يأمرهم به فأطاعوه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ حيث أطاعوا ذلك الجاهل الفاسق ﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا ﴾ أغضبونا ، حكي أن ابن جريج غضب في شيء فقيل له أتغضب يا أبا خالد ؟ فقال قد غضب الذي خلق الأحلام إن الله يقول ﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا .

ثم قال تعالى : ﴿ انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ واعلم أن ذكر لفظ الأسف في حق الله تعالى محال وذكر لفظ الانتقام وكل واحد منهما من المتشابهات التي يجب أن يصار فيها إلى التأويل ، ومعنى الغضب في حق الله إرادة العقاب ، ومعنى الانتقام إرادة العقاب لجرم سابق .

ثم قال تعالى : ﴿ فجعلناهم سَلَفاً وَمَثَلاً ﴾ السلف كل شيء قدمته من عمل صالح أو قرض فهو سلف والسلف أيضاً من تقدم من آبائك وأقاربك واحدهم سالف ، ومنه قول طفيل يرثي قومه :

مضواً سلفاً قصد السبيل عليهم . . وصرف المنايا بالرجال تقلب

فعلى هذا قال الفراء والزجاج يقول : جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون ، أي جعلناهم سلفاً لكفار أمة محمد عليه السلام .

وأكثر القراء قرأوا بالفتح وهو جمع سالف كما ذكرناه ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ سَلَفاً ﴾ بالضم وهو جمع سلف ، قال الليث : يقال سلف بضم اللام يسلف سلوفاً فهو سلف أي متقدم ، وقوله ﴿ وَمَثَلاً للأَخِرِينَ ﴾ يريد عظة لمن بقي بعدهم وآية وعبرة ، قال أبو علي الفارسي المثل واحد يراد به الجمع ، ومن ثم عطف على سلف ، والدليل على وقوعه على أكثر من واحد قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ على شَىْءٍ وَمَن

رَّزَقْنَاهُ ﴾ [النحل : 75] فأدخل تحت المثل شيئين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 186.189 ﴾

(22/692)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) ﴾

هذه آية ضرب مثل وإسوة لمحمد عليه السلام بموسى عليه السلام ولكفار قريش بفرعون ﴿ وملائه ﴾ . والآيات التي أرسل بها موسى وهي التسع المذكورة وغير ذلك مما جاءت به الروايات ، وخص الملأ بالذكر لأنهم يسدون مسد جميع الناس ، ثم وصفهم تعالى بالضحك من آيات موسى ، كما كانت قريش تضحك وتسخر من أخبار محمد عليه السلام ، ثم وصف تعالى صورة عرض الآيات عليهم وإنما كانت شيئاً بعد شيء .

وقوله : ﴿ إلا هي أكبر من أختها ﴾ عبارة عن شدة موقعها في نفوسهم بحدة أمرها وحدوثه ، وذلك أن أول آية عرض موسى هي : العصا واليد ، وكانت أكبر آياته ، ثم كل آية بعد ذلك كانت تقع فيعظم عندهم لحينها وتكبر ، لأنهم قد كانوا أنسوا التي قبلها ، فهذا كما قال الشاعر : [الطويل]

على أنها تعفو الكلومُ وإنما . . . توكل بالأدنى وان جل ما يقضى

وذهب الطبري إلى أن الآيات هي الحجج والبينات . ثم ذكر تعالى أخذهم بالعذاب في العمل والضفادع والدم وغير ذلك ، وهذا كما أخذ قريش بالسنين والدخان .

وقوله : ﴿ لعلهم ﴾ ترج بحسب معتقد البشر وظنهم . و: ﴿ يرجعون ﴾ معناه : يتوبون ويقلعون .

(23/692)

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيه الساحر ﴾ جائز أن يكون قائل ذلك من أعملهم بكفر السحر فيقول : قوله استهزاء وهو يعلم قدر السحر وانحطاط منزلته ، ويكون قوله : ﴿ عندك ﴾ بمعنى : في زعمك وعلى قولك ، ويحتمل أن يكون القائل ليس من المتمردين الحذاق ويطلق لفظة الساحر لأحد وجهين ، إما لأن السحر كان عند عامتهم علم الوقت ، فكأنه قال : يا أيه العالم ، وإما لأن هذه الاسمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى لأول ظهورها ، فاستصحبها هذا القائل في مخاطبة قلة تحرير وغباوة ، ويكون القول على هذا التأويل جداً من القائل ، ويكون قوله : ﴿ إنا لمهتدون ﴾ بمعنى إن نفعتنا دعوتك ، وهذا التأويل أرجح ، أعني أن كلام هذا القائل مقترن بالجد .

وقرأ ابن عامر وحده : " يا أيُ " بياء مضمومة فقط .

ثم أخبر عنهم أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ، ولو كان الكلام هزلاً من أوله لما وقع نكث .

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

نداء فرعون يحتمل أن يكون بلسانه في ناديه ، ويحتمل أن يكون بأن أمر من ينادي في الناس ، ومعنى هذه الحجة التي نادى بها أنه أراد أن يبين فضله على موسى ، إذ هو ملك مصر ، وصاحب الأنهار والنعم ، وموسى خامل متقل لا دنيا له ، قال : فلو أن إله موسى يكون حقاً كما يزعم ، لما ترك الأمر هكذا و: ﴿ مصر ﴾ من بحر الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل . و: ﴿ الأنهار ﴾ التي أشار إليها هي الخلجان الكبار الخارجة من النيل وعظمها نهر الإسكندرية وتنيس ودمياط ونهر طولون .

(24/692)

وقوله : ﴿ أم أنا خير ﴾ قال سيبويه : ﴿ أم ﴾ هذه المعادلة ، والمعنى : أم أنتم لا تبصرون ، فوضع موضع قوله : أم تبصرون الأمر الذي هو حقيق أن يبصر عنده ، وهو أنه

خير من موسى . و" لا " على هذا النظر نافية . وقالت فرقة : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أم لا تبصرون ، ثم اقتصر على ﴿ أم ﴾ لدلالة ظاهر الكلام على المحذوف منه ، وابتدأ قوله : ﴿ أنا خير ﴾ إخباراً منه ، فقوله : ﴿ أفلا ﴾ على هذا النظر بمنزلة : هلا ولولا على معنى التخصيص . وقالت فرقة : ﴿ أ ﴾ بمعنى بل .

وقرأ بعض الناس : " أما أنا خير " ، حكاه الفراء ، وكان مجاهد يقف على ﴿ أم ﴾ ثم يبتدئ : ﴿ أنا خير ﴾ . قال قتادة : وفي مصحف أبي بن كعب : " أم أنا خير أم هذا " .

و ﴿ مهين ﴾ معناه ضعيف وقوله : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى من أثر الجمرة ، وذلك أنها كانت أحدثت في لسانه عقدة ، فلما دعا في أن تحل ليفقه قوله ، أجيبت دعوته ، لكنه بقي أثر كان البيان يقع منه ، لكن فرعون عير به . وقوله : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ يقتضي أنه كان يبين .

وقرأ أبو جعفر بن علي : "يَبين " بفتح الياء الأولى .

وقوله : ﴿ فلولا ألقي عليه ﴾ يريد من السماء على معنى التكرمة .

وقراءة الجمهور : " أُلقي " على بناء الفعل للمفعول . وقرأ الضحاك : " أَلقَى " بفتح الهمزة والقاف على بنائه للفاعل " أساورة " نصباً .

وقرأ جمهور القراء : " أساورة " وقرأ حفص عن عاصم : " أسورة " ، وهي قراءة الحسن والأعرج وقتادة وأبي رجاء ومجاهد . وقرأ أبي بن كعب : " أساور " . وفي مصحف ابن مسعود : " أساوير " ، ويقال سوار وأسوار لما يجعل في الذراع من الحلي ، حكى أبو زيد اللغتين وأبو عمرو بن العلاء ، وهو كالقلب ، قاله ابن عباس ، وكانت عادة الرجال يومئذ حبس ذلك والتزيي به . و: ﴿ أساورة ﴾ جمع أسوار ، ويجوز أن يكون جمع أسورة ، كأسقية وأساقي ، وكذلك : أساور ، جمع أسوار . والهاء في : ﴿ أساورة ﴾ عوض من الياء المحذوفة ، لأن الجمع إنما هو أساوير كما في مصحف ابن مسعود ، فحذفوا الياء وجعلوا الهاء عوضاً منها ، كما فعلوا ذلك في زنادقة وبطارقة وغير ذلك ، وأساورة : جمع سوار .

وقوله : ﴿ مقترنين ﴾ أي يحمونه ويشهدون له ويقيمون حجته . ثم أخبر تعالى عن فرعون أنه استخف قومه بهذه المقالة ، أي طلب خفتهم وإجابتهم إلى غرضه ، فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه في الكفر لفسقهم ولما كانوا بسبيله من الفساد . و: ﴿ آسفونا ﴾ معناه : أغضبونا بلا خلاف ، وإغضاب الله تعالى هو أن تعمل الأعمال الخبيثة التي تظهر من أجلها أفعاله الدالة على إرادة السوء بمن شاء . والغضب على هذا صفة فعل ، وهو مما يتردد ،

فإذا كان بمعنى ما يظهر من الأفعال ، فهو صفة فعل ، وإذا رد إلى الإرادة فهو صفة ذات ، وفي هذا نظر .

(26/692)

وقرأ جمهور القراء : " سَلَفاً " بفتح السين واللام جمع سالف ، كحارس وحرس . والسلف : هو الفارط من الأمم المتقدم ، أي جعلناهم متقدمين للأمم الكافرة عظة ومثلاً لهم يعتبرون بهم ، أو يقعون فيما وقعوا فيه ، ومن هذه اللفظة قول النبي عليه السلام : " يذهب الصالحون أسلافاً " ، وقوله في ولده إبراهيم : " ندفنه عند سلفنا الصالح عثمان بن مظعون " . وقرأ حميد الأعرج وحمزة والكسائي : " سُلُفاً " بضم السين واللام ، وهي قراءة عبد الله وأصحابه وسعد بن عياض وابن كثير ، وهو جمع : سليف . وذكر الطبري عن القاسم بن معن أنه سمع العرب تقول : مضى سلف من الناس ، بمعنى السلف . وقرأ علي بن أبي طالب وحميد الأعرج أيضاً : " سُلَفاً " بضم السين وفتح اللام ، كأنه جمع سلفة ، بمعنى الأمة والقطعة . والآخرون : هو من يأتي من البشر إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(27/692)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَآ ﴾

لّما أعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه منتقم له من عدوّه وأقام الحجة باستشهاد الأنبياء واتفاق الكل على التوحيد أكّد ذلك بقصة موسى وفرعون ، وما كان من فرعون من التكذيب ، وما نزل به وبقومه من الإغراق والتكذيب ؛ أي أرسلنا موسى بالمعجزات وهي التسع الآيات فَكُذِّب ؛ فجعلت العاقبة الجميلة له ، فكذلك أنت .

ومعنى : ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ استهزاءً وسخرية ؛ يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل ، وأنهم قادرون عليها .

وقوله : ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أي كانت آيات موسى من كبار الآيات ، وكانت كل واحدة أعظم مما قبلها .

وقيل : "إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا" لأن الأولى تقتضي علماً والثانية تقتضي علماً ، فتُضَمّ الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح ، ومعنى الأُخوّة المشاكلة والمناسبة ؛ كما يقال : هذه صاحبة هذه ؛ أي هما قريبتان في المعنى .

﴿ وَأَخَذْنَاهُم بالعذاب ﴾ أي على تكذيبهم بتلك الآيات ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّنَ الثمرات ﴾ [الأعراف : 130] .

والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع .

وكانت هذه الآيات الأخيرة عذاباً لهم وآياتٍ لموسى .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ من كفرهم .

﴿ وَقَالُواْ يا أيها الساحر ﴾ لما عاينوا العذاب قالوا يا أيها الساحر ؛ نَادَوْهُ بما كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم .

وقيل : كانوا يسمّون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم .

قال ابن عباس : "يَأَيُّهَا السَّاحِرُ" يا أيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيماً يُوقّرونه ؛ ولم يكن السحر صفةَ ذم .

وقيل : يا أيها الذي غَلَبَنَا بسحره ؛ يقال : ساحرته فسحرته ؛ أي غلبته بالسحر ؛ كقول العرب : خاصمته فخصمته أي غلبته بالخصومة ، وفاضلته ففضلته ، ونحوها .

(28/692)

ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معنى الاستفهام ، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا .

وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بن وَثّاب "أَيُّهُ الساحر" بغير ألف والهاء مضمومة ؛ وعلّتها

أن الهاء خُلطت بما قبلها وألزمت ضم الياء الذي أوجبه النداء المفرد .

وأنشد الفرّاء :

يأُيُّهُ القلبُ اللَّجُوجِ النفس . . .

أفق عن البيض الحسانِ اللُّعْسِ

فضم الهاء حملاً على ضم الياء ؛ وقد مضى في "النور" معنى هذا .

ووقف أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويحيى والكسائي "أيها" بالألف على الأصل .

الباقون بغير ألف ؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف .

﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي بما أخبرنا عن عهده إليك إنا إن آمنا كشف عنا ؛ فسله يكشف عنا ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أي فيما يستقبل .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب ﴾ أي فدعا فكشفنا .

﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ أي ينقضون العهد الذي جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا .

وقيل : قولهم "إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ" إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان ؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدّوا .

قوله تعالى : ﴿ ونادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال ؛ فنادى بمعنى قال ؛ قاله أبو مالك .

فيجوز أن يكون عنده عظماء القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه في جموع

القبط ؛ وكأنه نودي به بينهم .

وقيل : إنه أمر من ينادي في قومه ؛ قاله ابن جريج .

﴿ قَالَ يا قوم أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ أي لا ينازعني فيه أحد .

قيل : إنه ملك منها أربعين فرسخاً في مثلها ؛ حكاه النقاش .

وقيل : أراد بالملك هنا الإسكندرية .

﴿ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي ﴾ يعني أنهار النيل ، ومعظمها أربعة : نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تِنّيس .

قال قتادة : كانت جناناً وأنهاراً تجري من تحت قصوره .

وقيل : من تحت سريره .

وقيل : "مِنْ تَحْتِي" أي تصرفي نافذ فيها من غير صانع .

(29/692)

وقيل : كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن الجَرْي .

قال القشيريّ : ويجوز ظهور خوارق العادة على مدّعي الرُّبوبية ؛ إذ لا حاجة في تمييز الإله من غير الإله إلى فعلٍ خارق للعادة .

وقيل : معنى "وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي" أي القوّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائي ؛ قاله الضحاك .

وقيل : أراد بالأنهار الأموال ، وعبّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها .

وقوله : ﴿ تَجْرِي مِن تحتي ﴾ أي أفرّقها على مَن يتبعني ؛ لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون الأنهار .

﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ عظمتي وقوّتي وضَعْف موسى .

وقيل قدرتي على نفقتكم وعجز موسى .

والواو في "وَهَذِهِ" يجوز أن تكون عاطفة للأنهار على "مُلْكُ مِصْرَ" و "تَجْرِي" نصب على الحال منها .

ويجوز أن تكون واو الحال ، واسم الإشارة مبتدأ ، و "الْأَنْهَارُ" صفة لاسْم الإشارة ، و "تَجْرِي" خبر للمبتدأ .

وفتح الياء من "تَحْتِيَ" أهل المدينة والبَزّي وأبو عمرو ، وأسكن الباقون .

وعن الرشيد أنه لما قرأها قال : لأُوَلِّيَنَّهَا أحسن عبيدي ، فولاَّها الخَصيبَ ، وكان على وضوئه .

وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : أهذه القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال : "أَلَيْسَ لِي مُلْك مصر" ؟! والله لهي عندي أقلّ من

أن أدخلها فثنى عِنانه .

ثم صرح بحاله فقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ قال أبو عبيدة والسُّدِّي "أَمْ" بمعنى "بل" وليست بحرف عطف ؛ على قول أكثر المفسرين .

والمعنى : قال فرعون لقومه بل أنا خير ﴿ مِّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ ﴾ أي لا عِزّ له فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني ما كان في لسانه من العقدة ؛ على ما تقدّم في "طه" .

(30/692)

وقال الفراء : في "أَمْ" وجهان : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وإن شئت جعلتها نَسَقاً على قوله : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ .

وقيل : هي زائدة .

وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون "أَمْ" زائدة ؛ والمعنى أنا خير من هذا الذي هو مهين .

وقال الأخفش : في الكلام حذف ، والمعنى : أفلا تبصرون أم تبصرون ؛ كما قال :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساء بين جُلاجِلٍ . . .

وبين النَّقا آأنتِ أمْ أمُّ سالمِ

أي أنت أحسن أم أمّ سالم .

ثم ابتدأ فقال : "أَنَا خَيْرٌ" .

وقال الخليل وسيبويه : المعنى "أَفَلاَ تُبْصِرُونَ" ، أم أنتم بصراء ، فعطف ب "أم" على "أَفَلاَ تُبْصِرُونَ" لأن معنى "أَمْ أَنَا خَيْرٌ" أم أي تبصرون ؛ وذلك أنهم إذا قالوا له أنت خير منه كانوا عنده بصراء .

وروي عن عيسى الثَّقفِيّ ويعقوب الحضرميّ أنهما وقفا على "أم" على أن يكون التقدير أفلا تبصرون أم تبصرون ؛ فحذف تبصرون الثاني .

وقيل من وقف على "أم" جعلها زائدة ، وكأنه وقف على "تُبْصِرُونَ" من قوله : ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ .

ولا يتم الكلام على "تُبْصِرُونَ" عند الخليل وسيبويه ؛ لأن "أم" تقتضي الاتصال بما قبلها .

وقال قوم : الوقف على قوله : ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ثم ابتدأ "أَمْ أَنَا خَيْرٌ" بمعنى بل أنا ؛

وأنشد الفرّاء :

بدت مثل قَرْن الشمس في رَوْنَقِ الضحى . . .

وصورتِها أم أنتِ في العين أمْلَحُ

فمعناه : بل أنتِ أملح .

وذكر الفرّاء أن بعض القراء قرأ "أَمَا أَنَا خَيْرٌ" ؛ ومعنى هذا ألست خيراً .

وروي عن مجاهد أنه وقف على "أم" ثم يبتدىء "أَنَا خَيْرٌ" وقد ذُكر .

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أي هلا ﴿ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزِيّ أهل الشرف .

(31/692)

وقرأ حفص "أَسْوِرَةٌ" جمع سِوار ، كخمار وأخمرة .

وقرأ أُبَيّ "أَسَاوِرَ" جمع إسوار .

وابن مسعود "أَسَاوِير" .

الباقون "أَسَاوِرَة" جمع الأسورة فهو جمع الجمع .

ويجوز أن يكون "أَسَاوِرة" جمع "إسْوَار" وألحقت الهاء في الجمع عوضاً من الياء ؛ فهو مثل زناديق وزنادقة ، وبطاريق وبطارقة ، وشبهه .

وقال أبو عمرو بن العَلاَء : واحد الأساورة والأساور والأساوير إسوار ، وهي لغة في سُوار .

قال مجاهد : كانوا إذا سوّروا رجلاً سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق ذهب علامة لسيادته

، فقال فرعون : هلا ألقى ربّ موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقا ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعني متتابعين ؛ في قول قتادة .

مجاهد : يمشون معاً .

ابن عباس : يعاونونه على من خالفه ؛ والمعنى : هلاّ ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه حتى يتكثّر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه ؛ فيكون ذلك أهْيَبَ في القلوب .

فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيِّدوا بالجنود السماوية ؛ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرّده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه ، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعواناً في قول مقاتل أو دليلاً على صدقه في قول الكلبي وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف ، وقد كان في الجائز أن يُكَذَّب مع مجيء الملائكة كما كُذِّب مع ظهور الآيات .

وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى ؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم .

قوله تعالى : ﴿ فاستخف قَوْمَهُ ﴾ قال ابن الأعرابي : المعنى فاستجهل قومه ﴿ فَأَطَاعُوهُ ﴾ لخفة أحلامهم وقلّة عقولهم ؛ يقال : استخفه الفرح أي أزعجه ، واستخفه أي حمله على الجهل ؛ ومنه : ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : 60] .

وقيل : استفزّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب .

وقيل : استخف قومه أي وجدهم خفاف العقول .

وهذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه ، فلا بدّ من إضمارٍ بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه .

وقيل : استخف قومه وقهرهم حتى اتبعوه ؛ يقال : استخفه خلاف استثقله ، واستخف به أهانه .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس : أي غاظونا وأغضبونا .

وروى عنه عليّ بن أبي طلحة : أي أسخطونا .

قال الماوردِيّ : ومعناهما مختلف ، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهة ، والغضب إرادة الانتقام .

القشيريّ : والأسف هاهنا بمعنى الغضب ؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات ، وإما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل ؛ وهو معنى قول الماوردي .

وقال عمر بن ذَرّ : يأهل معاصي الله ، لا تغترّوا بطول حلم الله عنكم ، واحذروا أسفه ؛ فإنه قال : "فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ" .

وقيل : "آسَفُونَا" أي أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين ؛ نحو السحرة وبني إسرائيل .

وهو كقوله تعالى : ﴿ يُؤْذُونَ الله ﴾ [الأحزاب : 57] و ﴿ يُحَارِبُونَ الله ﴾ [المائدة : 33] أي أولياءه ورسله .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ﴾ أي جعلنا قوم فرعون سَلَفاً .

قال أبو مِجْلَز : "سَلَفاً" لمن عمل عملهم ، "وَمَثَلاً" لمن يعمل عملهم .

وقال مجاهد : "سَلَفاً" إخباراً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، "وَمَثَلاً" أي عبرة لهم .

وعنه أيضاً "سَلَفاً" لكفار قومك يتقدّمونهم إلى النار .

قتادة : "سَلَفاً" إلى النار ، "وَمَثَلاً" عِظةً لمن يأتي بعدهم .

والسلف المتقدّم ؛ يقال : سَلَفَ يَسْلُفُ سَلَفاً ؛ مثل طلب طلباً ؛ أي تقدّم ومضى .

وسلف له عمل صالح أي تقدّم .

والقوم السُّلاّف المتقدّمون .

وسَلَفُ الرجُلِ : آباؤه المتقدّمون ؛ والجمع أسلاف وسُلاّف .

وقراءة العامة "سَلَفاً" (بفتح السين واللام) جمع سالف ؛ كخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد ، وحارس وحَرَس .

وقرأ حمزة والكسائي "سُلُفاً" (بضم السين واللام) .

قال الفراء : هو جمع سليف ، نحو سرير وسُرُر .

وقال أبو حاتم : هو جمع سَلَف ؛ نحو خَشَب وخُشُب ، وثَمَر وثُمُر ؛ ومعناهما واحد .

وقرأ عليّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنَّخَعي وحُميد بن قيس "سُلَفاً" (بضم السين وفتح اللام) جمع سُلْفة ، أي فِرقة متقدّمة .

قال الْمُؤَرِّج والنَّضْر بن شُمَيل : "سُلَفاً" جمع سُلْفة ، نحو غُرْفَة وغُرَف ، وطُرْفة وطرَف ، وظُلْمة وظُلَم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(34/692)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها من وجهين : أحدهما : أنه لما تقدم طعن قريش على الرسول ،

واختيارهم أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أي في الجاه والمال ؛ وذكر أن مثل ذلك سبقهم إليه فرعون في قوله : ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ ؟ إلى آخر الآية ، أتبعه بالملك والمال ، ففرعون قدوتهم في ذلك ، ومع ذلك ، فصار فرعون مقهوراً مع موسى منتقماً منه ، فكذلك قريش .

والوجه الثاني : أنه لما قال : ﴿ واسأل من أرسلنا ﴾ الآية ، ذكر وقته موسى وعيسى ، وهما أكبر إتباعاً ممن سبقهم من الأنبياء ، وكل جاء بالدعاء إلى الله وإفراده بالعبادة ، فلم يكن فيما جاء أبداً إباحة اتخاذ آلهة من دون الله ، كما اتخذت قريش ، فناسب ذكر قصتهما للآية التي قبلها .

وآيات موسى هي المعجزات التي أتى بها .

وخص الملائكة بالذكر ، وهم الأشراف لأن غيرهم من الناس تبع لهم .

﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ ، قبله كلام محذوف تقديره : فطالبوه بما يدل على صحة دعواه الرسالة من الله .

﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ ، وهي انقلاب العصا ثعباناً وعودها عصاً ، وإخراج اليد البيضاء نيرة ، وعودها إلى لونها الأول ، ﴿ إذا هم منها يضحكون ﴾ ، أي فاجأهم الضحك بحيث لم يفكروا ولم يتأملوا ، بل بنفس ما رأوا ذلك ضحكوا سخرية واستهزاء ، كما كانت قريش تضحك .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة ؟ قلت : لأن فعل المفاجأة معها مقدر ، وهو عامل النصب في محلها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم . انتهى .

(35/692)

ولا نعلم نحوياً ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجل ، من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره فاجأ ، بل المذاهب فيها ثلاثة : مذهب أنها حرف ، فلا تحتاج إلى عامل ، ومذهب أنها ظرف مكان ، فإن صرح بعد الاسم بعدها بخبر له كان ذلك الخبر عاملاً فيها نحو : خرجت فإذا زيد قائم ، فقائم ناصب لإذا ، كأن التقدير : خرجت ففي المكان الذي خرجت فيه زيد قائم ؛ ومذهب أنها ظرف زمان ، والعامل فيه الخبر أيضاً ، كأنه قال : ففي الزمان الذي خرجت فيه زيد قائم ، وإن لم يذكر بعد الاسم خبر ، أو ذكر اسم منصوب على الحال ، كانت إذا خبراً للمبتدأ .

فإن كان المبتدأ جثة ، وقلنا إذا ظرف مكان ، كان الأمر واضحاً ؛ وإن قلنا ظرف زمان ، كان الكلام على حذف ، أي ففي الزمان حضور زيد .

وما ادعاه الزمخشري من إضمار فعل المفاجأة ، لم ينطق به ولا في موضع واحد .

ثم المفاجأة التي ادعاها لا يدل المعنى على أنها تكون من الكلام السابق ، بل المعنى يدل على أن المفاجأة تكون من الكلام الذي فيه إذا .

تقول : خرجت فإذا الأسد ، والمعنى : ففاجأني الأسد ، وليس المعنى : ففاجأت الأسد .

﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكر من أختها ﴾ ، قال الزمخشري : فإن قلت : إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع ، فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات ؟ قلت : أختها التي هي آية مثلها ، وهذه صفة كل واحدة منهما ، فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات .

قلت : أختها التي هي آية مثلها على سبيل التفضيل والاستقراء ، واحدة بعد واحدة ، كما تقول : هو أفضل رجل رأيته ، تريد تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قدرتهم رجلاً .

(36/692)

فإن قلت : فهو كلام متناقض ، لأن معناه : ما من آية من التسع إلا وهي أكبر من كل واحدة منها ، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة ، قلت : الغرض بهذا

الكلام أنهن موصوفات بالكبر ، لا يكدن يتفاوتن فيه ، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتقارب منازلهم فيه التقارب اليسير ، إن تختلف آراء الناس في تفضيلها فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك ، فعلى هذا بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجال الواحد فيها ، فتارة يفضل هذا ، وتارة يفضل ذاك ، ومنه بيت الحماسة :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم . . .

مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها ثم قالت : لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ، ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة ، لا يدري أين طرفاها . انتهى ، وهو كلام طويل ، ملخصه : أن الوصف بالأكبرية مجاز ، وأن ذلك بالنسبة إلى الناظرين فيها .

وقال ابن عطية : عبارة عن شدة موقعها في نفوسهم بحدة أمرها وحدوثه ، وذلك أن آية عرضها موسى ، هي العصا واليد ، وكانت أكبر آياته ، ثم كل آية بعد ذلك كانت تقع فيعظم عندها مجيئها وتكبر ، لأنهم كانوا نسوا التي قبلها ، فهذا كما قال الشاعر :

على أنها تعفو الكلوم وإنما . . .

يوكل بالأدنى وإن جل ما يمضي

وذهب الطبري إلى أن الآيات هنا الحجج والبينات . انتهى .

وقيل : كانت من كبار الآيات ، وكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها ؛ فعلى هذا يكون ثم صفة محذوفة ، أي من أختها السابقة عليها ، ولا يبقى في الكلام تعارض ، ولا يكون ذلك الحكم في الآية الأولى ، لأنه لم يسبقها شيء ، فتكون أكبر منه .

وقيل : الأولى تقتضي علماً ، والثانية تقتضي علماً منضماً إلى علم الأولى ، فيزداد الرجوح .

وكنى بأختها : مناسبتها ، تقول : هذه الذرة أخت هذه ، أي مناسبتها .

(37/692)

﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ : ﴿ بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ و ﴿ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ﴾ وذلك عقاب لهم ، وآيات لموسى ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عن كفرهم .

قال الزمخشري : لعلهم يرجعون ، أراد أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان .

فإن قلت : لو أراد رجوعهم لكان .

قلت : إرادته فعل غيره ، ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاده ، فإن كان ذلك على سبيل

القسر وجد ، والإداريين أن يوجد وبين أن لا يوجد على اختيار المكلف ، وإنما لم يكن الرجوع ، لأن الإرادة لم تكن قسراً ولم يختاروه .

انتهى ، وهو على طريق الاعتزال .

وقال ابن عطية : لعلهم ، ترجّ بحسب معتقد البشر وظنهم .

﴿ وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك ﴾ : أي في كشف العذاب .

قال الجمهور : هو خطاب تعظيم ، لأن السحر كان علم زمانهم ، أو لأنهم استصحبوا له ما كانوا يدعون به أولاً ، ويكون قولهم : ﴿ بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ : إخبار مطابق مقصود ، وقيل : بل خطاب استهزاء وانتقاص ، ويكون قولهم : ﴿ بما عهد عندك ﴾ ، أي على زعمك ، وقوله : و ﴿ إننا لمهتدون ﴾ : إخبار مطابق على شرط دعائه ، وكشف العذاب وعهد معزوم على نكثه .

ألا ترى : ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثرون ﴾ ؟ وعلى القول الأول يكون قوله : ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثرون ﴾ جارياً على أكثر عادة الناس ، إذا مسه الضر تضرع ودعا ، وإذا كشف عنه رجع إلى عادته الأولى ، كقوله : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ ثم إذا كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه .

وقوله : ﴿ بما عهد عندك ﴾ ، محتمل أن يكون من أن دعوتك مستجابة ، وفي الكلام حذف ، أي فدعا موسى ، فكشف ﴿ فلما كشفنا ﴾ .

وقرأ أبو حيوة : ينكثون ، بكسر الكاف .

﴿ ونادى فرعون في قومه ﴾ : جعل القوم محلاً للنداء ، والظاهر أنه نادى عظماء القبط في محله الذي هو وهم يجتمعون فيه ، فرفع صوته فيما بينهم لتنتشر مقالته في جميع القبط .

(38/692)

ويجوز أن يكون أمر بالنداء ، فأسند إليه .

وسبب ندائه ذلك ، أنه لما رأى إجابة الله دعوة موسى ورفع العذاب ، خاف ميل القوم إليه ، فنادى : ﴿ قال يا قوم أليس لي ملك مصر ﴾ ، أراد أن يبين فضله على موسى بملك مصر ، وهي من إسكندرية إلى أسوان .

﴿ وهذه الأنهار ﴾ : أي الخلجان التي تجري من النيل ، وأعظمها : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس .

والواو في ﴿ وهذه الأنهار ﴾ واو الحال ، وتجري خبر .

وهذه والأنهار صفة ، أو عطف بيان .

وجوز أن تكون الواو عاطفة على ملك مصر ، وتجري حال .

من تحتي : أي من تحت قهري وملكي .

وقال قتادة : كانت جنانها وأنهارها تجري من تحت قصره .

وقيل : كان له سرير عظيم ، وقطع من نيل مصر قطعة قسمها أنهاراً تجري من تحت ذلك السرير .

وأبعد الضحاك في تفسيره الأنهار بالقواد والرؤساء الجبابرة ، يسيرون تحت لوائه .

ومن فسرها بالأموال ، يعرفها من تحت يده .

ومن فسرها بالخيل فقيل : كما سمى الفرس بحراً يسمي نهراً .

وهذه الأقوال الثلاثة تقرب من تفاسير الباطنية .

﴿ أفلا تبصرون ﴾ عظمتي وقدرتي وعجز موسى ؟ وقرأ مهدي بن الصفير : يبصرون ، بياء الغيبة ؛ ذكره في الكامل للهذلي ، والسباعي ، عن يعقوب ، ذكره ابن خالويه .

قال الزمخشري : وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوى الربوبية همة من تعاظم بملك مصر ؟ وعجب الناس من مدى عظمته ، وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها ، لئلا تخفى تلك الأبهة والجلالة على صغير ولا كبير حتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته .

وكسر نون ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ، عيسى .

وعن الرشيد ، أنه لما قرأها قال : لأولينها أحسن عبيدي ، فولاها الخصيب ، وكان على وضوئه .

وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها ، فلما شارفها ووقع عليها قال : أهي القرية

التي افتخر بها فرعون حتى قال : ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ ؟ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها ، فثنى عنانه .

(39/692)

﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ : الظاهر أنها أم المنقطعة المقدرة ببل والهمزة ، أي بل أنا خير .

وهو إذا استفهم أهو خير ممن هو ضعيف ؟ لا يكاد يفصح عن مقصوده إذا تكلم ، وهو الملك المتحكم فيهم ، قالوا له : بلا شك أنت خير .

وقال السدي وأبو عبيدة : أم بمعنى بل ، فيكون انتقل من ذلك الكلام إلى إخباره بأنه خير ممن ذكر ، كقول الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى . . .

وصورتها أم أنت في العين أملح

وقال سيبويه : أم هذه المعادلة : أي أم يبصرون الأمر الذي هو حقيقي أن يبصر عنده ، وهو أنه خير من موسى .

وهذا القول بدأ به الزمخشري فقال : أم هذه متصلة ، لأن المعنى : أفلا تبصرون ؟ أم

تبصرون ؟ إلا أنه وضع قوله : ﴿ أنا خير ﴾ موضع ﴿ تبصرون ﴾ ، لأنهم إذا قالوا : أنت خير ، فهم عنده بصراء ، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب . انتهى .

وهذا القول متكلف جداً ، إذ المعادل إنما يكون مقابلاً للسابق ، وإن كان السابق جملة فعلية ، كان المعادل جملة فعلية ، أو جملة اسمية ، يتقدر منها فعلية كقوله ﴿ أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ لأن معناه : أم صمتم ؟ وهنا لا يتقدر منها جملة فعلية ، لأن قوله : ﴿ أم أنا خير ﴾ ؟ ليس مقابلاً لقوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ؟ وإن كان السابق اسماً ، كان المعادل اسماً ، أو جملة فعلية يتقدر منها اسم ، نحو قوله :

أمخدج اليدين أم أتمت . . .

فأتمت معادل للاسم ، فالتقدير : أم متماً ؟ وقيل : حذف المعادل بعد أم لدلالة المعنى عليه ، إذ التقدير : تبصرون ، فحذف تبصرون ، وهذا لا يجوز إلا إذا كان بعد أم لا ، نحو : أيقوم زيد أم لا ؟ تقديره : أم لا يقوم ؟ وأزيد عندك أم لا ، أي أم لا هو عندك .

فأما حذفه دون لا ، فليس من كلامهم .

وقد جاء حذف أم والمعادل ، وهو قليل .

قال الشاعر :

دعاني إليها القلب إني لأمرها . . .

سميع فما أدري أرشد طلابها

يريد أم غيّ .

(40/692)

وحكى الفراء أنه قرأ : أما أنا خير ، دخلت الهمزة على ما النافية فأفادت التقدير .

﴿ ولا يكاد يبين ﴾ : الجمهور ، أنه كان بلسانه بعض شيء من أثر الجمرة .

ومن ذهب إلى أن الله كان أجابه في سؤاله :

﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ فلم يبق لها أثر جعل انتفاء الإبانة بأنه لا يبين حجته الدالة على صدقه فيما يدعي ، لأنه لا قدرة له على إيضاح المعنى لأجل كلامه .

وقيل : عابه بما كان عليه موسى من الخسة أيام كان عند فرعون ، فنسب إلى ما عهده مبالغة في التعيير .

وقول فرعون : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ ، كذب بحت .

ألا ترى إلى مناظرته له وردّه عليه وإفحامه بالحجة ؟ والأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، كلهم بلغاء .

وقرأ الباقر : يبين ، بفتح الياء ، من بان إذا ظهر .

﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ﴾ ، قال مجاهد : كانوا إذا سودوا رجلاً ، سوروه سوارين وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة لسودده .

قال فرعون : هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقاً ؟ وكان ذلك دليلاً على إلقاء مقاليد الملك إليه ، لما وصف نفسه بالعزة والملك ، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام ، فوصفه بالضعف وقلة الأعضاد .

فاعترض فقال : إن كان صادقاً ، فهلا ملكه ربه وسوره وجعل الملائكة أنصاره ؟ وقرأ الضحاك : ﴿ فلولا ألقي ﴾ مبنياً للفاعل ، أي الله ؛ أساورة نصباً ؛ والجمهور : أساورة رفعاً ، وأبي وعبد الله : أساوير ، والمفرد إسوار بمعنى سوار ، والهاء عوض من الياء ، كهي في زنادقة ، هي عوض من ياء زناديق المقابلة لياء زنديق ، وهذه مقابلة لألف أسوار .

وقرأ الحسن ، وقتادة ، وأبو رجاء ، والأعرج ، ومجاهد ، وأبو حيوة ، وحفص : أسورة ، جمع سوار ، نحو : خمار وأخمرة .

وقرأ الأعمش : أساور .

ورويت عن أبي ، وعن أبي عمرو ، ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ : أي يحمونه ويقيمون حجته .

قال ابن عباس : يعينونه على من خالفه .

وقال السدي : يقارن بعضهم بعضاً .

وقال مجاهد : يمشون معه .

(41/692)

وقال قتادة : متتابعين .

﴿ فاستخف قومه ﴾ : أي استجهلهم لخفة أحلامهم ، قاله ابن الاعرابي .

وقال غيره : حملهم على أن يخفوا لما يريد منهم ، فأجابوه لفسقهم .

﴿ فلما آسفونا ﴾ : منقول بالهمزة من أسف ، إذا غضب ؛ والمعنى : فلما عملوا الأعمال الخبيثة الموجبة لأن لا يحلم عنهم .

وعن ابن عباس : أحزنوا أولياءنا المؤمنين نحو السحرة وبني إسرائيل .

وعنه أيضاً : أغضبونا .

وعن علي : أسخطونا .

وقيل : خالفوا .

وقال القشيري وغيره : الغضب من الله ، إما إرادة العقوبة ، فهو من صفات الذات ؛ أو العقوبة ، فيكون من صفات الفعل .

وقرأ الجمهور : سلفاً .

قال ابن عباس ، وزيد بن أسلم ، وقتادة : أي متقدمين إلى النار ، وهو مصدر سلف يسلف سلفاً ، وسلف الرجل آباؤه المتقدمون ، والجمع أسلاف وسلاف .

وقيل هو جمع سالف ، كحارس وحرس ، وحقيقته أنه اسم جمع ، لأن فعلا ليس من أبنية الجموع المكسرة .

وقال طفيل يرثي قومه :

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم . . .

صروف المنايا والرجال تقلب

قال الفراء والزجاج : سلفاً ليتعظ بهم الكفار المعاصرون للرسول .

وقرأ أبو عبد الله وأصحابه ، وسعيد بن عياض ، والأعمش ، وطلحة ، والأعرج ، وحمزة ، والكسائي : وسلفاً بضم السين واللام ، جمع سليف ، وهو الفريق .

سمع القاسم بن معن العرب تقول : مضى سليف من الناس .

وقرأ علي ، ومجاهد ، والأعرج أيضاً : وسلفاً ، بضم السين واللام ، جمع سلفة ، وهي الأمة والقطيعة .

والسلف في غير هذا : ولد القبح ، والجمع سلفان .

﴿ ومثلا للآخرين ﴾ : أي حديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل ، يحدث به الآخرون

من الكفار ، يقال لهم : مثلكم مثل قوم فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(42/692)

وقال أبو السعود :

(43/692)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ ملتبساً بها ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلأيْهِ فَقَالَ إِنى رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ أريدَ باقتصاصِه تسليةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والاستشهادُ بدعوةِ مُوسى عليهِ السَّلامُ إلى التوحيدِ إثرَ ما أُشيرَ إلى إجماعِ جميعِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ عليهِ . ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم بآياتنا إِذَا هُم مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أي فاجَؤا وقتَ ضحكِهم منها أي استهزأوا بها أولَ ما رأَوها ولم يتأملُوا فيها . ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءايَةٍ ﴾ من الآياتِ ﴿ إِلاَّ هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ إلا وهيَ بالغةٌ أقصَى مراتبِ الإعجازِ بحيثُ يحسبُ كلُّ منْ ينظرُ إليها أنها أكبرُ من كلِّ ما يقاسُ بها من الآياتِ ، والمرادُ وصفُ الكلِّ بغايةِ الكِبَرِ من غيرِ ملاحظةِ

قصورٍ في شيءٍ منها أو إلاَّ وهي مختصَّةٌ بضربٍ من الإعجازِ مفضلةٌ بذلكَ الاعتبارِ على غيرِها ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ كالسنينَ والطوفانِ والجرادِ وغيرِها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لكيْ يرجعُوا عمَّا هُم عليهِ من الكفرِ . ﴿ وَقَالُواْ يا أيها الساحر ﴾ نادَوُه بذلكَ في مثلِ تلكَ الحالةِ لغايةِ عُتوّهم ونهايةِ حماقتِهم ، وقيل كانُوا يقولونَ للعالمِ الماهرِ ساحرٌ لاستعظامِهم علمَ السحرِ . وقُرِىءَ أيهُ الساحرُ بضمِّ الهاءِ . ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ليكشفَ عنَّا العذابَ ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ بعهدِه عندكَ من النبوةِ أو استجابةِ دعوتِكَ أو من كشفِ العذابِ عمَّن اهتدَى أو بما عَهِدَ عندكَ فوفيتَ به منَ الإيمانِ والطاعةِ ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أي لمؤمنونَ على تقديرِ كشفِ العذابِ عنَّا بدعوتِك كقولِهم : ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب ﴾ بدعوتِه ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ فاجؤوا وقتَ نكثِ عهدِهم بالاهتداءِ وقد مرَّ تفصيلُه في الأعرافِ . ﴿ ونادى فِرْعَوْنُ ﴾

(44/692)

بنفسِه أو بمناديه ﴿ فِى قَوْمِهِ ﴾ في مجمعِهم وفيما بينَهم بعد أنْ كشفَ العذابَ عنْهم مخافةَ أنْ يُؤمنوا ﴿ قَالَ يا قوم أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار ﴾ أنهارُ النيلِ ومعظمُها أربعةُ

أنهرٍ : الملكُ ونهرُ طولونَ ونهرُ دمياطٍ ونهرُ تنيسَ ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴾ أي منْ تحتِ قَصرِي أو أمرِي وقيلَ : من تحتِ سريرِي لارتفاعِه ، وقيلَ : بين يديَّ في جنانِي وبساتِيني . والواوُ إمَّا عاطفةٌ لهذهِ الأنهارِ على مُلكِ مصرَ فتجري حالٌ منها أو للحالِ فهذهِ مبتدأٌ والأنهارُ صفتُها وتجري خبرٌ للمبتدأِ ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ذلكَ يريدُ به استعظامَ مُلكِه .

(45/692)

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ معَ هذه المملكةِ والبسطةِ ﴿ مّنْ هذا الذى هُوَ مَهِينٌ ﴾ ضعيفٌ حقيرٌ من المهانةِ ، وهي القلةُ . ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي الكلامَ قالَه افتراءً عليهِ عليه السَّلامُ تنقيصاً له عليهِ السَّلامُ في أعينِ النَّاسِ باعتبارِ ما كانَ في لسانِه عليهِ السَّلامُ من نوعِ رتةٍ وقد كانتْ ذهبتْ عنْهُ لقولِه تعالى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ وأمْ إمَّا منقطعةٌ والهمزةُ للتقريرِ كأنَّه قالَ إثرَ ما عدَّدَ أسبابَ فضلِه ومبادِي خيريتِه أثبتَ عندكُم واستقرَّ لديكُم أنِّي أنَا خيرٌ وهذه حالِي منْ هَذا الخ وإمَّا متصلةٌ فالمَعْنى أفلاَ تبصرونَ أمْ تبصرونَ خلا أنه وضعَ قولُه : ﴿ أَنَا خَيْرٌ ﴾ موضعَ تبصرونَ لأنَّهم إذا قالُوا له أنتَ خيرٌ فهُو عندَهُ بُصَراءُ ، وهذا من بابِ تنزيلِ السببِ منزلةَ المسببِ ، ويجوزُ أن يجعلَ من تنزيلِ المسبَّبِ منزلةَ السببِ فإن إبصارِهم لما ذُكرَ من أسبابِ فضلِه سببٌ على زعمِه لحُكمِهم بخيريتِه . ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ

أَسْوِرَةٌ مّن ذَهَبٍ ﴾ أي فهلاّ أُلقي إليهِ مقاليدُ الملكِ إنْ كانَ صادقاً ، لما أنَّهم كانُوا إذا سوَّدُوا رجلاً سوَّرُوه وطوَّقُوه بطوقٍ من ذهبٍ . وأَسُورةٌ جمعُ سوارٍ . وقُرِىءَ أَساورُ جمعُ أسورةٍ ، وقُرِىءَ أساورةٌ جمعُ أسوارٍ بمعنى السِّوارِ على تعويضِ التّاءِ من ياءِ أساويرَ ، وقد قُرِىءَ كذلكَ ، وقُرِىءَ عليه أسورةٌ وأساورَ ، على البناءِ للفاعلِ وهُو اللهُ تعالَى : ﴿ أَوْ جَاء مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ مقرونينَ يعينونَهُ أو يصدقونَهُ من قرنتُه به فاقترنَ أو متقارنينَ من اقترنَ بمعنى تقارنَ . ﴿ فاستخف قَوْمَهُ ﴾ فاستفزَّهُم وطلبَ منهُم الخفةَ في مطاوعتِه ، أو فاستخفَّ أحلامَهُم . ﴿ فَأَطَاعُوهُ ﴾ فيما أمرَهُم به ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ فلذلكَ سارعُوا إلى طاعةِ ذلكَ الفاسقِ الغويِّ .

(46/692)

﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا أشدَّ الغضبِ ، منقولٌ منْ أَسِفَ إذا اشتدَّ غضبُه . ﴿ انتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ في اليمِّ . ﴿ فجعلناهم سَلَفاً ﴾ قدوةً لمن بعدَهُم من الكُفَّارِ يسلكونَ مسلكَهُم في استيجابِ مثلِ ما حلَّ بهم من العذابِ ، وهُو إما مصدرٌ نُعتَ بهِ أو جمعُ سالفٍ كخَدَمٍ جمعُ خادمٍ . وقُرِىءَ بضمِّ السينِ واللامِ ، على أنَّه جمعُ سليفٍ أي فريقٍ قد سلفَ كرُغُفٍ أو سَالِفٍ كصُبُرٍ أو سَلَفٍ كأسدٍ . وقُرِىءَ سُلَفاً بإبدالِ ضمةِ اللامِ

فتحةً أو على أنَّه جمعُ سُلْفةٍ أي ثُلَّةٍ قد سلفتْ . ﴿ وَمَثَلاً لِّلأَخِرِينَ ﴾ أي عظةً لهم أو قصةً عجيبةً تسيرُ مسيرَ الأمثالِ لَهُم فيقالُ : مثلُكم مثلُ قومِ فرعونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(47/692)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾

متلبساً بها ﴿ إلى فِرْعَوْنَ ﴾ أشراف قومه وخصوا بالذكر لأن غيرهم تبع ﴿ بَعِيدٍ فَقَالَ ﴾ لهم ﴿ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ اليكم .

وأريد باقتصاص ذلك تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبطال قولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] لأن موسى عليه السلام مع عدم زخارف الدنيا لديه كان له مع فرعون وهو ملك جبار ما كان وقد أيده الله سبحانه بوحسه وما أنزل عليه ، والاستشهاد بدعوته عليه السلام إلى التوحيد أثر ما أشير إليه من إجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه ويعلم من ذلك وجه مناسبة الآيات لما قبلها ، وقال أبو حيان : مناسبتها من وجهين : الأول أنه ذكر فيما قبل قول المشركين : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ ﴾ [

الزخرف : 31] الخ وفيه زعم أن العظم باجلاه والمال وأشير في هذه الآيات إلى أن مثل ذلك سبق إليه فرعون في قوله : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف : 51] الخ فهو قدوتهم في ذلك وقد انتقم منه فكذلك ينتقم منهم ، الثاني أنه سبحانه لما قال : ﴿ واسئل ﴾ [الزخرف : 45] الخ ذكر جل وعلا قصة موسى وعيسى عليهما السلام وهما أكثر اتباعاً ممن سبق من الأنبياء وكل جاء بالتوحيد فلم يكن فيما جاءا به إباحة اتخاذ آلهة من دون الله تعالى كما اتخذت قريش فناسب ذكر قصتهما الآية التي قبلها .

(48/692)

﴿ فَلَمَّا جَاءهُم بآياتنا إِذَا هُم مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أي فاجأهم الضحك منها أي استهزؤا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها ، وفي الكشاف جاز أن تجاب لما باذا المفاجاة لأن فعل المفاجأة مقدر معها وهو عامل النصب في محلها كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجؤوا وقت ضحكهم ، فالجواب عنده ذلك الفعل وهو العامل في لما ، وقدر ماضيا لأن المعروف في جوابها ، وإذا مفعول به لا ظرف ، وقال أبو حيان : لا نعلم نحويا ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجل من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره فاجأ بل المذاهب فيها ثلاثة .

الأول أنها حرف فلا تحتاج إلى عامل .

الثاني أنها ظرف مكان فان صرح بعد الاسم بعدها بخبر له كان ذلك الخبر عاملاً فيها نحو خرجت فإذا زيد قائم فقائم هو الناصب لها والتقدير خرجت ففي المكان الذي خرجت فيه زيد قائم .

الثالث أنها ظرف زمان والعامل فيها الخبر أيضاً كأنه قيل : ففي الزمان الذي خرجت فيه زيد قائم : وإذا لم يذكر بعد الاسم خبر أو ذكر اسم منصوب على الحال كانت إذا خبراً للمبتدأ : فإن كان جئة وقلنا : إذا ظرف مكان كان الأمر واضحاً وإن قلنا ظرف زمان كان الكلام على حذف مضاف أي ففي الزمان حضور زيد ثم أن المفاجأة التي ادعاها لا يدل المعنى على أنها تكون من الكلام السابق بل يدل على أنها تكون من الكلام التي هي فيه تقول خرجت فإذا الأسد فالمعنى ففاجأتي الأسد دون ففاجأت الأسد انتهى ، وقال الخفاجي ما قيل إن نصبها بفعل المفاجأة المقدر هكذا لم يقله أحد من النحاة لا يلتفت إليه وتفصيله في شورح المغني .

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ من الآيات :

﴿ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أي من أية مثلها في كونها آية دالة على النبوة واستشكل بأنه يلزم كون كل واحدة من الآيات فاضلة ومفضولة معا وهو يؤدي إلى التناقض وتفضيل الشيء على نفسه لعموم آية في النفي ، وأجيب بأن الغرض من هذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه على معنى أن كل واحدة لكمالها في نفسها إذا نظر إليها قيل هي أكبر من البواقي لاستقلالها لإفادة المقصود على التمام كما قال الحماسي :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم . . .

مثل النجوم التي يسري بها الساري

وإذا لوحظ الكل توقف عن التفضيل بينهن ، ولقد فاضلت فاطمة بنت خرشب الأنمارية بين أولادها الكملة ربيعة الحفاظ .

وعمارة الوهاب .

وأنس الفوارس ثم قال : أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلتهم أن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ، وقال بعض الأجلة : المراد بأفعل الزيادة من وجه أي ما نريهم من آية الاهي مختصة بنوع من الاعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار ، ولا ضير في كون الشيء الواحد فاضلاً ومفضولاً باعتبارين ، وقد أطال الكلام في ذلك جلال الدين الدواني في حواشيه على الشرح الجديد للتجريد فليراجع ذلك من أراده ، وفي البحر قيل : كانت آياته عليه السلام من كبار الآيات وكانت كل واحدة أكبر من

التي قبلها فعلى هذا يكون ثم صفة محذوفة أي من أختها السابقة عليها ولا يبقى في الكلام تعارض ، ولا كيون ذلك الحكم في الآية الأولى لأنه لم يسبقها شيء فتكون أكبر منه ، وذكر بعضهم في الأكبرية أن الأولى تقتضي علما والثانية تقتضي علماً منضماً إلى علم الأولى فيزداد الرجوع انتهى ، والأولى ما تقدم لشيوع ارادة ذلك المعنى من مثل هذا التركيب ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ كالسنين والجراد والقمل وغيرها :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لكي يرجعوا ويتوبوا عما هم عليه من الكفر .

(50/692)

﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَ أَيُّهَ الساحر ﴾ قال الجمهور : وهو خطاب تعظيم فقد كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم على السحر ، وحكاه في مجمع البيان عن الكلبي .

والجبائي ، وقيل : المعنى يا غالب السحرة من ساحره فسحره كخاصمه فخصمه فهو خطاب تعظيم أيضاً ، وقيل : الساحر على المعنى المعروف فيه وقد تعودوا دعاءه عليه السلام بذلك قبل ، ومقتضى مقام طلب الدعاء منه عليه السلام أن لا يدعوه به إلا أنهم فرط حسرتهم سبق لسانهم إلى ما تعودوا به ، وقيل : هو خطاب استهزاء وانتقاص دعاهم إليه شدة شكيمتهم ومزيد حماقتهم وروي ذلك عن الحسن .

ودفع الزمخشري المنافاة بين هذا الخطاب وقولهم الآتي : "أننا لمهتدون" بأن ذلك القول وعد منوى إخلافه وعهد معزوم على نكثه معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب وفيه أن الوعد وإن كان منوى الاخلاف لكن إظهار الاخلاف حال التضرع إليه عليه السلام ينافيه لأنهم في استلانة قلبه عليه السلام .

وقيل الأظهر أنهم قالوا يا موسى كما في الأعراف لكن حكى الله تعالى كلامهم هنا على حسب حالهم ووفق ما في قلوبهم تقبيحاً لذلك وتسلية لحبيه صلى الله عليه وسلم ويكون ذلك على عكس قوله سبحانه : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ [النساء : 157] وجعل على هذا قولهم الآتي مجمل ما فصل هنالك من الإيمان وآرسال بني إسرائيل فلا يحتاج إلى التزام كون القولين فيم جلسين للجمع بين ما هنا وما هناك ، ولا يخلو عن بعد والالتزام المذكور لا أرى ضرراً فيه .

(51/692)

وقرىء يا أيه بضم الهاء ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي بعده عندك ، والمراد به النبوة وسميت عهداً إما لأن الله تعالى عاهد نبيه عليه السلام أن يكرمه بها وعاهد النبي ربه سبحانه على أن يستقل بأعبائها أو لما فيها من الكلفة بالقيام

بأعبائها ومن الاختصاص كما بين المتواثقين أو لأن لها حقوقاً تحفظ كما يحفظ العهد أو من العهد الذي يكتب للولاة كأن النبوة منشور من الله تعالى بتولية من أكرمه بها والباء إما صلة لادع أو متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير فيه أي متوسلاً إليه تعالى بما عهد أو بمحذوف دل عليه التماسهم مثل اسعفنا إلى ما نطلب ، وإما أن تكون للقسم والجواب ما يأتي ، وهي على هذا للقسم حقيقة وعلى ما قبله للقسم الاستعطافي وعلى الوجه الأول للسببية ، وإدخال ذلك في الاستعطاف خروج عن الاصطلاح ، وجوز أن يراد بالعهد عهد استجابة الدعوة كأنه قيل : بما عاهدك الله تعالى مكرماً لك من استجابة دعوتك أو عهد كشف العذاب عمن اهتدى ، وأكر الباب في الوجهين على ما مر ؛ وأن يراد بالعهد الإيمان والطاعة أي بما عهد عندك فوفيت به على أنه من عهد إليه أن يفعل كذا أي أخذ منه العهد على فعله ومنه العهد الذي يكتب للولاة ، و﴿ عِندَكَ ﴾ يغني عن ذكر الصلة مع إفادة أنه محفوظ مخزون عند المخاطب ، والأولى على هذا أن تكون ما موصولة ، وهذا الوجه فيه كما في الكشف نبو لفظاً ومعنى وسيالقاً على ما لا يخفى على الفطن .

﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ لمؤمنون ثابتون على الإيمان وهو إما معلق بشرط كشف العذاب كما في قولهم المكحي في سورة الأعراف (134) ﴿ لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ﴾ أو غير معلق وجيب حينئذ أن يكون هذا منهم في مجلس آخر ، وإن قلنا : لم يصدر منهم

طلب الدعاء إلا مرة أو أكثر منها لكن على طرز واحد قيل هنا : أرادوا من الاهتداء الإيمان وإرسال بني إسرائيل كما سمعت آنفاً .

(52/692)

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب ﴾ أي بدعوته ففي الكلام حذف أي فدعانا بكشف العذاب فكشفناه فلما كشفناه عنهم ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ فاجأهم نكث عهدهم بالاهتداء أو فاجؤوا وقت نكث عهدهم .

وقرأ أبو حيوة ﴿ يَنكُثُونَ ﴾ بكسر الكاف .

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

أي رفع صوته بنفسه فيما بين قومه بذلك القول ، ولعله جمع عظماء القبط في محله الذي هو فيه بعد أن كشف العذاب فنادى فيما بينهم بذلك لتنتشر مقالته في جميع القبط ويعظم في نفوسهم مخافة أن يؤمنوا بموسى عليه السلام ويتركوه .

ويجوز أن يكون إسناد النداء إليه مجازاً والمراد أمر بالنداء بذلك في الأسواق والأزقة ومجامع الناس وهذا كما يقال بنى الأمير المدينة ، ﴿ ونادى ﴾ قيل معطوف على فاجأ

المقدر ونزل منزلة اللازم وعدى بفي كقوله :

يجرح في عراقيبها نصلي . . .

للدلالة على تمكين النداء فيهم ، وعنى بملك مصر ضبطها والتصرف فيها بالحكم ولم يرد مصر نفسها بل هي وما يتبعها وذلك من اسكندرية إلى أسوان كما في "البحر" ، والأنهار الخلجان التي تخرج من النيل المبارك كنهر الملك .

ونهر دمياط .

ونهر تنيس ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك لكنه اندرس فجدده أحمد بن طولون ملك مصر في الإسلام وأراد بقوله : ﴿ مِن تَحْتِى ﴾ من تحت أمري .

(53/692)

وقال غير واحد كانت أنها تخرج من النيل وتجري من تحت قصره وهو مشرف عليها ، وقيل : كان له سرير عظيم مرتفع تجري من تحته أنهار أخرجها من النيل ، وقال قتادة : كانت له جنان وبساتين بين يديه تجري فيها الأنهار ، وفسر الضحاك الأنهار بالقواد والرؤساء الجبابرة ، ومعنى كونهم يجرون من تحته أنهم يسيرون تحت لوائه ويأتمرون بأمره ، وقد أبعد جداً وكذا من فسرها بالأموال ومن فسرها بالخليل وقال : كما يسمى الفرس

بحراً يسمى نهراً بل التفاسير الثلاثة تقرب من تفاسير الباطنية فلا ينبغي أن يلتفت إليها ، والواو في ﴿ وهذه ﴾ الخ إما عاطفة لهذه الأنهار على الملك فجملة تجري حال منها أو للحال فهذه مبتدأ و ﴿ الأنهار ﴾ صفة أو عطف بيان وجملة ﴿ تَجْرِى ﴾ خبر للمبتدأ وجملة هذه الخ حال من ضمير المتكلم ، وجوز أن تكون للعطف ﴿ وهذه تَجْرِى ﴾ مبتدأ وخبر والجملة عطف على اسم ليس وخبرها ، وقوله : ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ على تقدير المفعول أي أفلا تبصرون ذلك أي ما ذكر ، ويجوز أن ينزل منزلة اللازم والمعنى أليس لكم بصر أو بصيرة ، وقرأ عيسى ﴿ تُبْصِرُونَ ﴾ بكسر النون فتكون الياء الواقعة مفعولاً محذوفة ، وقرأ فهد بن الصقر ﴿ يُبْصِرُونَ ﴾ بياء الغيبة ذكره في الكامل للهزلي والساجي عن يعقوب ذكره ابن خالويه ، ولا يخفى ما بين افتخار اللعين بملك مصر ودعواه الربوبية من البعد البعيد ، وعن الرشيد أنه لما قرأ هذه الآية قال : لأولينها يعني مصر أخس عبيدي فولاها الخصيب وكان على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : هي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه .

(54/692)

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ مع هذه البسطة والسعة في الملك والمال ﴿ مِّنْ هذا الذى هُوَ مَهِينٌ ﴾ أي ضعيف حقير أو مبتذل ذليل فهو من المهانة وهي القلة أو الذلة ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي الكلام ، والجمهور أنه عليه السلام كان بلسانه بعض شيء من أثر الجمرة لكن اللعين بالغ .

ومن ذهب إلى أن الله تعالى كان أجاب سؤاله حل عقدة من لسانه فلم يبق فيه منها أثر قال : المعنى ولا يكاد يبين حجته الدالة على صدقه فيما يدعي لا أنه لا قدرة له على الإفصاح باللفظ وهو افتراء عليه عليه السلام ألا ترى إلى مناظرته له ورده عليه وإقحامه إياه ، وقيل : عابه بما كان به عليه السلام من الحبسة أيام كان عنده وأراد اللعين أنه عليه السلام ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن وإبانة الكلام ، و ﴿ أَمْ ﴾ على ما نقل عن سيبويه والخليل متصلة ، وقد نزل السبب بعدها منزلة المسبب على ما ذهب إليه الزمخشري ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ موضع أم تبصرون .

(55/692)

وإيضاح ذلك أن فرعون عليه اللعنة لما قدم أسباب البسطة والرياسة بقوله : ﴿ أَلَيْسَ لِى ﴾ الخ وعقبه بقوله ﴿ أفلا تبصرون ﴾ [الزخرف : 51] استقصاراً لهم وتنبيهاً على

أنه من الوضوح بمكان لا يخفى على ذي عينين قال في مقابله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ بمعنى أم تبصرون أني أنا المقدم المتبوع ، وفي العدول تنبيه على أن هذا الشق هو المسلم لا محالة عندكم فكأنه يحكيه عن لسانهم بعد ما أبصروا وهو أسلوب عجيب وفن غريب ، وجعله الزمخشري من إنزال السبب مكان المسبب لأن كونه خيراً في نفسه أي محصلاً له أسباب التقدم والملك سبب لأن يقال فيه أنت خير منه وقولهم : أنت خير سبب لكونهم بصراء وسبب السبب قد يقال له سبب فلا يرد ما يقال إن السبب قولهم : أنت خير لا قوله : أنا خير ، وقال القاضي البيضاوي : إنه من إنزال المسبب منزلة السبب لأن علمهم بأنه خير مستفاد من الإبصار ، وفيه أن المذكور أنا خير لا أم تعلمون أني خير ، وله أن يقول : ذلك يغني غناه لأنه جعله مسلماً معلوماً ما عندهم فقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ لا أم تعلمون كما سلف ، ولا يخفى أن ما ذكره الزمخشري أظهر كذا في "الكشف" ، وقال العلامة الثاني في تقرير ذلك : إن قوله : أنا خير سبب لقولهم من جهة بعثه على النظر في أحواله واستعداده لما ادعاه وقولهم : أنت خير سبب لكونهم بصراء عنده فأنا خير سبب له بالواسطة لكن لا يخفى أنه سبب للعلم بذلك والحكم به ، وأما بحسب الوجود فالأمر بالعكس لأن إبصارهم سبب لقولهم أنت خير فتأمل ، وبالجملة إن ما بعد ﴿ أَمْ ﴾ مؤول بجملة فعلية معلولة لفظاً ومعنى هي ما سمعت ونحو ذلك من حيث التأويل

﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صامتون ﴾ [الأعراف : 193] أي أم صمتم ، وقوله :

أمخدج اليدين أم أتمت . . .

(56/692)

أي أم متما ، وقيل : حذف المعادل لدلالة المعنى عليه ، والتقدير أفلا تبصرون أم تبصرون أنا خير الخ ، وتعقب بأن هذا لا يجوز إلا إذا كان بعد أم لا نحو أيقول زيد أم لا أي أم لا يقوم فأما حذفه دون لا فليس من كلامهم ، وجوز أن يكون في الكلام طي على نهج الاحتباك والمعنى أهو خير مني فلا تبصرون ما ذكرتكم به أم أنا خير منه لأنكم تبصرونه ، ولا ينبغي الالتفات إليه ، وجوز غير واحد كون ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة مقدرة ببل والهمزة التي للتقرير كأن اللعين قال أثر ما عدد أسباب فضله ومبادىء خيريته : أثبت عندكم واستقر لديكم أني خير وهذه حالي من هذا الخ ، ورجحه بعضهم لما فيه من عدم التكلف في أمر المعادل اللازم أولاً لحسن في المتصلة ، وقال السدي .

وأبو عبيدة : أم بمعنى بل فيكون قد انتقل من ذلك الكلام إلى إخباره بأنه خير كقول الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى . . .

وصورتها أم أنت في العين أملح

وقال أبو البقاء : إنها منقطعة لفظاً متصلة معنى وأراد ما تقدم من التأويل ، وليس فيه مخالفة لما أجمع عليه النحاة كما توهم ، وجملة ﴿ لاَ يَكَادُونَ يُبِينُ ﴾ معطوفة على الصلة أو مستأنفة أو حالية .

وقرىء ﴿ أَمَّا أَنَا خَيْرٌ ﴾ بإدخال الهمزة على ما النافية ، وقرأ الباقر رضي الله تعالى عنه ﴿ يُبِينُ ﴾ بفتح التاء من بان إذا ظهر .

(57/692)

﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ كناية عن تمليكه ، قال مجاهد : كانوا إذا سودوا رجلاً سوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسودده ، فقال فرعون هلا ألقى رب موسى عليه أساور من ذهب إن كان صادقاً ، وهذا من اللعين لزعمه أن الرياسة من لوازم الرسالة كما قال كفار قريش في عظيم القريتين ، والأسورة جمع سوار نحو خمار وأخمرة ، وقرأ الأعمش ﴿ أَسَاوِرَ ﴾ ورويت عن أبي ، وعن أبي عمرو جمع أسورة فهو جمع الجمع ، وقرأ الجمهور ﴿ أساورة ﴾ جمع أسوار بمعنى السوار والهاء عوض عن ياء أساوير فإنها تكون في الجمع المحذوف مدته للعوض عنها كما في زنادقة جمع زنديق .

وقد قرأ ﴿ أساوير ﴾ عبد الله .

وأبى في الرواية المشهورة ، وقرأ الضحاك ألقى مبنياً للفاعل أي الله تعالى أساورة بالنصب ﴿ ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ من قرنته به فاقترن ، وفسر بمقرونين أي به لأنه لازم معناه بناءً على هذا ، وفسر أيضاً بمتقارنين من اقترن بمعنى تقارن والاقتران مجاز أو كناية عن الإعانة .

ولذا قال ابن عباس : يعينونه على من خالفه ، وقيل : عن التصديق ولولا ذلك لم يكن لذكره بعد قوله معه فائدة ، وهو على الأول حسي وعلى الثاني معنوي ، وقيل : متقارنين بمعنى مجتمعين كثيرين ، وعن قتادة متتابعين .

﴿ فاستخف قَوْمَهُ ﴾ فطلب منهم الخفة في مطاوعته على أن السين للطلب على حقيقتها ، ومعنى الخفة السرعة لإجابته ومتابعته كما يقال هم خفوف إذا دعوا وهو مجاز مشهور وقال ابن الأعرابي استخف أحلامهم أي وجدهم خفيفة أحلامهم أي قليلة عقولهم فصيغة الاستفعال للوجدان كالأفعال كما يقال أحمدته وجدته محموداً وفي نسبته ذلك للقوم تجوز ﴿ فَأَطَاعُوهُ ﴾ فيما أمرهم به ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوي .

﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا ﴾ أي أسخطونا كما قال علي كرم تعالى وجهه .

وفي معناه ما قيل أي أغضبونا أشد الغضب أي بأعمالهم .

والغضب عند الخلف مجاز عن إرادة العقوبة فيكون صفة ذات أو عن العقوبة فيكون صفة فعل .

وقال أبو عبد الله الرضا رضي الله تعالى عنه : إن الله سبحانه لا يأسف كأسفنا ولكن له جل شأنه أولياء يأسفون ويرضون فجعل سبحانه رضاهم رضاه وغضبهم غضبة تعالى ، وعلى ذلك قال عز وجل : " من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة " وقال سبحانه : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] وعليه قيل : المعنى فلما أسفوا موسى عليه السلام ومن معه ، والسلف لا يؤولون ويقولون : الغضب فينا انفعال نفساني وصفاته سبحانه ليست كصفاتنا بوجه من الوجوه ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير الأسف بالحزن وأنه قال هنا أي أحزنوا أولياءنا المؤمنين نحو السحرة وبني إسرائيل .

وذكر الراغب أن الأسف الحزن والغضب معاً وقد يقال لكل منهما على الانفراد ، وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضباً ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً ، ولذلك سئل ابن عباس عنهما فقال : مخرجهما واحد واللفظ مختلف من نازع من يقوى عليه أظهره غيظاً وغضباً ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزناً وجزعاً ، وبهذا النظر قال الشاعر :

فحزن كل أخي حزن أخو الغضب . . .

انتهى ، وعلى جميع الأقوال آسف منقول بالهمزة من أسف .

﴿ انتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ في اليم .

﴿ فجعلناهم سَلَفاً ﴾ قال ابن عباس .

وزيد بن أسلم .

وقتادة أي متقدمين إلى النار .

(59/692)

وقال غير واحد : قدوة للكفار الذين بعدهم يقتدون بهم في استيجاب مثل عقابهم ونزوله بهم ، والكلام على الاستعارة لأن الخلف يقتدي بالسلف فلما اقتدوا بهم في الكفر جعلوا كأنهم اقتدوا بهم في معلول الغضب وهو مصدر نعت به ولذا يصح إطلاقه على القليل والكثير ، وقيل : جمع سالف كحارس وحرس وخادم وخدم وهذا يحتمل أن يراد بالجمع فيه ظاهره ويحتمل أن يراد به اسم الجمع فإن فعلاً ليس من أبنية الجموع لغلبته في المفردات ، والمشهور في جمعه أسلاف وجاء سلاف أيضاً .

وقرأ أبو عبد الله .

وأصحابه .

وسعيد بن عياش .

والأعمش .

والأعرج.

وطلحة .

وحمزة والكسائي ﴿ سَلَفاً ﴾ بضمتين جمع سليف كفريق لفظاً ومعنى ، سمع القاسم بن معن العرب تقول : مضى سليف من الناس يعنون فريقاً ، منهم وقيل : جمع سلف كصبر جمع صابر أو جمع سلف كجنب .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

ومجاهد .

والأعرج.

أيضاً سلفاً بضم ففتح إما على أنه أبدلت فيه ضمة اللام فتحة تخفيفاً كما يقال في جدد بضم الدال جدد بفتحها أو على أنه جمع سلفة بمعنى الأمة والجماعة من الناس أي فجعلناهم أمة سلفت ، والسلف بالضم فالفتح في غير هذا ولد القبح والجمع سلفان كصردان ويضم .

﴿ وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ ﴾ أي عظة لهم ، والمراد بهم الكفار بعدهم ، والجار متعلق على

التنازع بسلفاً ومثلاً ، ويجوز أن يراد بالمثل القصة العجيبة التي تسير مسير الأمثال ؛ ومعنى كونهم مثلاً للكفار أن يقال لهم : مثلكم مثل قوم فرعون ، ويجوز تعلق الجار بالثاني وتعميم الآخرين بحيث يشمل المؤمنين ، وكونهم قصة عجيبة للجميع ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(60/692)

وقال الشوكانى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) ﴾

لما أعلم الله سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوّه ، وذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد ، أتبعه بذكر قصة موسى ، وفرعون ، وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النقمة ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بئاياتنا ﴾ ، وهي : التسع التي تقدّم بيانها ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ الملأ : الأشراف ﴿ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ أرسلني إليكم ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم بئاياتنا إِذَا هُم مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء وسخرية ، وجواب لما هو إذا الفجائية ، لأن التقدير : فاجئوا وقت ضحكهم ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءايَةٍ إِلاَّ هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أي : كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها ، وأعظم قدراً مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها ، وقيل : المعنى

: إن الأولى تقتضي علماً ، والثانية تقتضي علماً ، فإذا ضمت الثانية إلى الأولى ازداد الوضوح ، ومعنى الأخوّة بين الآيات : أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها على صحة نبوّة موسى كما يقال : هذه صاحبة هذه ، أي : هما قرينتان في المعنى .

وجملة ﴿ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ في محل جرّ صفة لآية ، وقيل : المعنى : أن كل واحدة من الآيات إذا انفردت ظنّ الظانّ أنها أكبر من سائر الآيات ، ومثل هذا قول القائل :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم . . . مثل النجوم التي يسري بها الساري

﴿ وأخذناهم بالعذاب لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : بسبب تكذيبهم بتلك الآيات ، والعذاب هو المذكور في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ الآية [الأعراف : 130] ، وبين سبحانه أن العلة في أخذه لهم بالعذاب هو : رجاء رجوعهم ، ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر .

(61/692)

﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَ الساحر ﴾ ، وكانوا يسمون العلماء سحرة ، ويوقرون السحرة ، ويعظمونهم ، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم .

قال الزجاج : خاطبوه بما تقدّم له عندهم من التسمية بالساحر ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي : بما أخبرتنا من عهده إليك إنا إذا آمنا كشف عنا العذاب ، وقيل : المراد بالعهد : النبوّة ، وقيل : استجابة الدعوة على العموم ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أي : إذا كشف عنا العذاب الذي نزل بنا ، فنحن مهتدون فيما يستقبل من الزمان ، ومؤمنون بما جئت به .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم العذاب ، فلما كشف عنهم العذاب ، فاجئوا وقت نكثهم للعهد الذي جعلوه على أنفسهم من الاهتداء ، والنكث : النقض .

﴿ ونادى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إلى موسى ، فجمعهم ، ونادى بصوته فيما بينهم ، أو أمر منادياً ينادي بقوله : ﴿ يا قوم أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ لا ينازعني فيه أحد ، ولا يخالفني مخالف ﴿ وهذه الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴾ أي : من تحت قصري ، والمراد : أنهار النيل ، وقال قتادة : المعنى تجري بين يديّ .

وقال الحسن : تجري بأمري ، أي : تجري تحت أمري .

وقال الضحاك : أراد بالأنهار : القوّاد ، والرؤساء ، والجبابرة ، وأنهم يسيرون تحت لوائه .

وقيل : أراد بالأنهار : الأموال ، والأوّل أولى .

والواو في : ﴿ وهذه ﴾ عاطفة على ملك مصر ، و ﴿ تجري ﴾ في محلّ نصب على الحال ، أو هي واو الحال ، واسم الإشارة مبتدأ ، والأنهار صفة له ، وتجري خبره ، والجملة

في محل نصب ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ذلك ، وتستدلون به على قوّة ملكي ، وعظيم قدري ، وضعف موسى عن مقاومتي ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هذا الذى هُوَ مَهِينٌ ﴾ أم : هي المنقطعة المقدّرة ببل التي للإضراب دون الهمزة التي للإنكار ، أي : بل أنا خير .

(62/692)

قال أبو عبيدة : أم بمعنى بل ، والمعنى : قال فرعون لقومه : بل أنا خير .

وقال الفراء : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وقيل : هي زائدة ، وحكى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون أم زائدة ، والمعنى : أنا خير من هذا .

وقال الأخفش : في الكلام حذف ، والمعنى : أفلا تبصرون أم تبصرون ؟ ثم ابتدأ ، فقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ ﴾ ، وروي عن الخليل ، وسيبويه نحو قول الأخفش ، ويؤيد هذا : أن عيسى الثقفي ، ويعقوب الحضرمي وقفا على "أم" على تقدير أم تبصرون ، فحذف لدلالة الأوّل عليه ، وعلى هذا ، فتكون أم متصلة لا منقطعة ، والأوّل أولى ، ومثله قول الشاعر الذي أنشده الفراء :

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى . . . وصورتها أم أنت في العين أملح ؟

أي : بل أنت .

وحكى الفراء أن بعض القراء قرأ : (أما أنا خير) ؟ أي : ألست خيراً من هذا الذي هو مهين ، أي : ضعيف حقير ممتهن في نفسه لا عزّ له ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ الكلام لما في لسانه من العقدة ، وقد تقدم بيانه في سورة طه ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ أي : فهلا حلي بأساورة الذهب إن كان عظيماً ، وكان الرجل فيهم إذا سوّدوه سوّروه بسوار من ذهب ، وطوّقوه بطوق من ذهب .

قرأ الجمهور : ﴿ أساورة ﴾ جمع أسورة جمع سوار .

وقال أبو عمرو بن العلاء : واحد الأساورة ، والأساور ، والأساوير أسوار ، وهي لغة في سوار .

وقرأ حفص : ﴿ أسورة ﴾ جمع سوار ، وقرأ أبيّ : " أساور " ، وابن مسعود : " أساوير " .

قال مجاهد : كانوا إذا سوّدوا رجلاً سوّروه بسوارين ، وطوّقوه بطوق ذهب علامة لسيادته .

﴿ أَوْ جَاء مَعَهُ الملئكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ معطوف على ألقى ، والمعنى : هلا جاء معه الملائكة متتابعين متقارنين إن كان صادقاً يعينونه على أمره ، ويشهدون له بالنبوّة ، فأوهم اللعين قومه أن الرسل لا بدّ أن يكونوا على هيئة الجبابرة ، ومحفوفين بالملائكة .

﴿ فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي : حملهم على خفة الجهل ، والسفه بقوله ، وكيده ، وغروره ، فأطاعوه فيما أمرهم به ، وقبلوا قوله ، وكذبوا موسى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ أي : خارجين عن طاعة الله .

قال ابن الأعرابي : المعنى : فاستجهل قومه ، فأطاعوه بخفة أحلامهم ، وقلة عقولهم ، يقال : استخفه الفرح ، أي : أزعجه ، واستخفه ، أي : حمله ، ومنه : ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : 60] ، وقيل : استخفّ قومه ، أي : وجدهم خفاف العقول ، وقد استخف بقومه ، وقهرهم حتى اتبعوه ﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ قال المفسرون : أغضبونا ، والأسف : الغضب ، وقيل : أشد الغضب ، وقيل : السخط ، وقيل : المعنى : أغضبوا رسلنا .

ثم بيّن العذاب الذي وقع به الانتقام ، فقال : ﴿ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ في البحر ﴿ فجعلناهم سَلَفاً ﴾ أي : قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار في استحقاق العذاب .

قرأ الجمهور : ﴿ سلفاً ﴾ بفتح السين ، واللام جمع سالف كخدم وخادم ، ورصد وراصد ، وحرس وحارس ، يقال : سلف يسلف : إذا تقدّم ، ومضى .

قال الفراء ، والزجاج : جعلناهم متقدّمين ؛ ليتعظ بهم الآخرون ، وقرأ حمزة ، والكسائي : " سلفاً " بضم السين ، واللام .

قال الفراء : هو : جمع سليف ، نحو سرر ، وسرير .

وقال أبو حاتم : هو : جمع سلف نحو خشب ، وخشب .

وقرأ علي ، وابن مسعود ، وعلقمة ، وأبو وائل ، والنخعي ، وحميد بن قيس بضم السين ، وفتح اللام جمع سلفة ، وهي : الفرقة المتقدّمة نحو غرف ، وغرفة ، كذا قال النضر بن شميل ﴿ وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ أي : عبرة ، وموعظة لمن يأتي بعدهم ، أو قصة عجيبة تجري مجرى الأمثال .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ قال : كانت بموسى لثغة في لسانه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا ﴾ قال : أسخطونا .

(64/692)

وأخرجا عنه أيضاً ﴿ آسفونا ﴾ قال : أغضبونا ، وفي قوله : ﴿ سَلَفاً ﴾ قال : أهواء مختلفة .

وأخرج أحمد ، والطبراني ، والبيهقي في الشعب ، وابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء ، وهو مقيم على

معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له " ، وقرأ : ﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن طارق بن شهاب قال : كنت عند عبد الله ، فذكر عنده موت الفجأة ، فقال : تخفيف على المؤمن ، وحسرة على الكافر ، ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(65/692)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) ﴾)

قد ذكر الله في أول السورة قوله : ﴿ وكم أرسلنا من نبيء في الأولين وما يأتيهم من نبيء إلا كانوا به يستهزئون فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومَضى مثل الأولين ﴾ [الزخرف : 86] .

وساق بعد ذلك تذكرة بإبراهيم عليه السلام مع قومه ، وما تفرع على ذلك من أحوال أهل الشرك فلما تقضّى أُتبع بتنظير حال الرّسول صلى الله عليه وسلم مع طغاة قومه واستهزائهم بحال موسى مع فرعون ومَلَئِهِ ، فإنّ للمُثل والنظائر شأناً في إبراز الحقائق وتصوير الحالين تصويراً يفضي إلى ترقب ما كان لإحدى الحالتين من عواقبَ أن تلحق أهلَ

الحالة الأخرى ، فإن فرعون وملِئه تلقّوا موسى بالإسراف في الكُفر وبالاستهزاء به وباستضعافه إذ لم يكن ذا بذخة ولا محلّى بحلية الثراء وكانت مناسبة قوله ﴿ وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ [الزخرف : 45] الآية هيَّأتْ المقام لضرب المثَل بحال بعض الرّسل الذين جاءوا بشريعة عظمى قبل الإسلام .

والمقصود من هذه القصة هو قوله فيها ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلَفاً ومثَلاً للآخرين ﴾ [الزخرف : 55 ، 56] ، فإن المراد بالآخرِين المكذبون صناديدُ قريش .

(66/692)

ومن المقصود منها بالخصوص هنا : قولُه ﴿ وملئه ﴾ أي عظماء قومه فإن ذلك شبيه بحال أبي جهل وأضرابه ، وقوله : ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ لأن حالهم في ذلك مشابه لحال قريش الذي أشار إليه قوله : ﴿ وكم أرسلنا من نبيء في الأولين وما يأتيهم من نبيء إلا كانوا به يستهزئون ﴾ [الزخرف : 6 ، 7] ، وقولُه بعد ذلك ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مَهِين ﴾ [الزخرف : 52] لأنهم أشبهوا بذلك حال أبي جهل ونحوه في قولهم : ﴿ لولا نُزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيمٍ ﴾ [الزخرف : 31

] إلاّ أن كلمة سادة قريش كانت أقرب إلى الأدب من كلمة فرعون لأن هؤلاء كان رسولهم من قومهم فلم يتركوا جانب الحياء بالمرة وفرعون كان رسوله غريباً عنهم .

وقولُه ﴿ فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب ﴾ [الزخرف : 53] لأنه مشابه لما تضمنه قول صناديد قريش ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] فإن عظمة ذيْنِك الرجلين كانت بوفرة المال ، ولذلك لم يُذكر مثله في غير هذه القصة من قصص بعثة موسى عليه السلام ، وقولُهم : ﴿ يا أيها الساحر ادْعُ لَنَا ربّك ﴾ [الزخرف : 49] وهو مُضاهٍ لقوله في قريش ﴿ هذا سحرٌ وإنا به كافرون ﴾ [الزخرف : 30] ، وقولُه : ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ [الزخرف : 55] الدالُّ على أن الله أهلكهم كلَّهم ، وذلك إنذار بما حصل من استئصال صناديد قريش يوم بدر .

فحصل من العبرة في هذه القصة أمران:

أحدهما : أن الكفار والجهلة يتمسكون بمثل هذه الشبهة في رد فضل الفضلاء فيتمسكون بخيوط العنكبوت من الأمور العرضية التي لا أثر لها في قيمة النفوس الزكية .

وثانيهما : أن فرعون صاحبَ العظمة الدنيوية المحضة صار مقهوراً مغلوباً انتصر عليه الذي استضعفه ، وتقدم نظير هذه الآية غير مرة .

و﴿ إذا ﴾ حرف مفاجأة ، أي يدل على أن ما بعده حصل عن غير ترقب فتفتتح به الجملة التي يُفاد منها حصول حادث على وجه المفاجأة .

ووقعت الجملة التي فيها ﴿ إذا ﴾ جواباً لحرف (لَمَّا) ، وهي جملة اسمية و (لمّا) تقتضي أن يكون جوابها جملة فعلية ، لأن ما في ﴿ إذا ﴾ من معنى المفاجأة يقوم مقام الجملة الفعلية .

والضحك : كناية عن الاستخفاف بالآيات والتكذيب فلا يتعيّن أن يكون كل الحاضرين صدر منهم ضحك ، ولا أن ذلك وقع عندَ رؤية آية إذ لعل بعضها لا يقتضي الضحك .

وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)

الأظهر أن جملة ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ في موضع الحال ، وأن الواو واو الحال وأن الاستثناء من أحوال ، وما بعد ﴿ إلاّ ﴾ في موضع الحال ، واستغنت عن الواو لأن ﴿ إلاّ ﴾ كافية في الربط .

والمعنى : أنهم يستخفُّون بالآيات التي جاء بها موسى في حال أنّها آيات كبيرة عظيمة فإنما يستخفّون بها لمكابرتهم وعنادهم .

وصوغ ﴿ نريهم ﴾ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة .

ومعنى ﴿ هي أكبر من أختها ﴾ يحتمل أن يراد به أن كل آية تأتي تكون أعظم من التي قبلها

، فيكون هنالك صفة محذوفة لدلالة المقام ، أي من أختها السابقة ، كقوله تعالى : ﴿ يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ [الكهف : 79] ، أي كل سفينة صحيحة ، وهذا يستلزم أن تكون الآيات مترتبة في العظم بحسب تأخر أوقات ظهورها لأن الإتيان بآية بعد أخرى ناشىء عن عدم الارتداع من الآية السابقة .

ويحتمل ما قال صاحب "الكشاف" أن الآيات موصوفات بالكبر لا بكونها متفاوتة فيه وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير ، أي تختلف آراء النّاس في تفضيلها ، فعلى ذلك بنى النّاس كلامهم فقالوا : رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض ، وربّما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ، ومنه بيت الحماسة :

مَن تلق منهم تقُل لاقيت سيدهم

مثل النجوم التي يسري بها الساري . . .

(68/692)

وقد فاضلت الأنماريّة بين الكمَلة من بنيها ثم قالت لمَّا أبصرت مراتبهم متقاربة قليلة التفاوت : ثَكِلْتُهم إن كنتُ أعلم أيُّهم أفضل ، هم كالحَلْقة المفرغَة لا يُدرَى أينَ طرفاها .

فالمعنى : وما نريهم من آية إلاّ وهي آية جليلة الدلالة على صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم تكاد تنسيهم الآية الأخرى .

والأخت مستعارة للمماثلة في كونها آية .

وعطف ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ على جملة ﴿ وما نريهم من آية ﴾ لأن العذاب كان من الآيات .

والعذاب : عذاب الدنيا ، وهو ما يؤلم ويشق ، وذلك القحط والقُمَّل والطوفان والضفادع والدم في الماء .

والأخذ بمعنى : الإصابة .

والباء في ﴿ بالعذاب ﴾ للاستعانة كما تقول : خذ الكتاب بقوة ، أي ابتدأناهم بالعذاب قبل الاستئصال لعل ذلك يفيقهم من غفلتهم ، وفي هذا تعريض بأهل مكة إذ أصيبوا بسني القحط .

والرجوع : مستعار للإذعان والاعتراف ، وليس هو كالرجوع في قوله آنفاً ﴿ وجعلها كلمةً باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ [الزخرف : 28] .

وضمائر الغيبة في ﴿ نريهم ﴾ و ﴿ أخذناهم ﴾ ، و ﴿ لعلهم ﴾ عائدة إلى فرعون وملَئِه .

وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49)

عطف على ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ [الزخرف : 48] .

والمعنى : ولما أخذناهم بالعذاب على يد موسى سألوه أن يدعو الله بكشف العذاب عنهم .

ومخاطبتهم موسى بوصف الساحر مخاطبة تعظيم تزلفاً إليه لأن الساحر عندهم كان هو العالم وكانت علوم علمائهم سِحرية ، أي ذات أسباب خفية لا يعرفها غيرهم وغيرُ أتباعهم ، ألاَ تَرى إلى قول ملأ فرعون له ﴿ وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سَحَّار عليم ﴾ [الشعراء : 36 ، 37] .

وكان السحر بأيدي الكهنة ومن مَظاهره تحنيط الموتى الذي بقيت به جثث الأموات سالمة من البِلى ولم يطلع أحد بعدهم على كيفية صنعه .

(69/692)

وفي آية الأعراف (134) ﴿ قالوا يا موسى ادعُ لنا ربّك ﴾ ولا تُنافي ما هنا لأن الخطاب خطاب إلحاحٍ فهو يتكرر ويعاد بطرق مختلفة .

وقرأ الجمهور ﴿ بأيه الساحر ﴾ بدون ألف بعد الهاء في الوصل وهو ظاهر ، وفي الوقف أي بفتحة دون ألف وهو غير قياسي لكن القراءة رواية .

وعلله أبو شامة بأنهم اتبعوا الرّسم وفيه نظر .

وقرأه أبو عمرو والكسائي ويعقوب بإثبات الألف في الوقف .

وقرأه ابن عامر بضم الهاء في الوصل خاصة وهو لغة بني أسد ، وكتبت في المصحف كلمة ﴿ أيُّهَ ﴾ بدون ألف بعد الهاء ، والأصل أن تكون بألف بعد الهاء لأنها (ها) حرف تنبيه يفصل بين (أيّ) وبين نعتها في النداء فحذفت الألف في رسم المصحف رعياً لقراءة الجمهور والأصل أن يراعى في الرسم حالة الوقف .

وعنَوا بـ ﴿ ربّك ﴾ الرب الذي دعاهم موسى إلى عبادته .

والقبط كانوا يحسبون أن لكل أمةٍ ربّاً ولا يحيلون تعدد الآلهة ، وكانت لهم أرباب كثيرون مختلفة أعمالهم وقُدَرهم ومثل ذلك كانت عقائد اليونان .

وأرادوا ﴿ بما عهد عندك ﴾ ما خصك بعلمه دون غيرك مما استطعت به أن تأتي بخوارق العادة .

وكانوا يحسبون أن تلك الآيات معلولة لعلل خفية قياساً على معارفهم بخصائص بعض الأشياء التي لا تعرفها العامة ، وكان الكهنة يعهدون بها إلى تلامذتهم ويوصونهم بالكتمان .

والعهد : هو الائتمان على أمر مهمّ ، وليس مرادهم به النبوءة لأنهم لم يؤمنوا به وإذ لم يعرفوا كنه العهد عبروا عنه بالموصول وصلته .

والباء في قوله : ﴿ بما عهد عندك ﴾ متعلقة بـ ﴿ ادع ﴾ وهي للاستعانة .

ولما رأوا الآيات علموا أن رب موسى قادر ، وأن بينه وبين موسى عهداً يقتضي استجابة سؤله .

وجملة ﴿ إننا لمهتدون ﴾ جواب لكلام مقدر دل عليه ﴿ ادع لنا ربك ﴾ أي فإن دعوت لنا وكشفت عنا العذاب لنُؤمَنّ لك كما في آية الأعراف (134) ﴿ لئن كشفت عنا الرِّجْزَ لنؤمنَنّ لك ﴾ الآية .

(70/692)

ف (مهتدون) اسم فاعل مستعمل في معنى الوعد وهو منصرف للمستقبل بالقرينة كما دلّ عليه قوله : ﴿ ينكثون ﴾ [الزخرف : 50] ونظيره قوله في سورة الدخان (12 ، 13) حكاية عن المشركين ﴿ ربنا اكشف عنّا العذاب إنا مؤمنون أنّى لهم الذكرى ﴾ الآية .

وسَمَّوا تصديقهم إياه اهتداء لأن موسى سمى ما دَعاهم إليه هَدْياً كما في آية النازعات (19) ﴿ وأهْدِيَكَ إلى ربّك فتخشى ﴾

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50)

أي تفرع على تضرعهم ووَعْدِهم بالاهتداء إذا كُشف عنهم العذاب أنهم نكثوا الوعد .

والنكْث : نقض الحبل المبرم ، وتقدم في قوله : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجْزَ إلى أجل هم بَالِغُوه إذا هم ينكثون ﴾ في سورة الأعراف (135) ، وهو مجاز في الخيس بالعهد .

والكلام على تركيب هذه الجملة مثل الكلام على قوله آنفاً ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ [الزخرف : 47] .

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

لما كُشف عنهم العذاب بدعوة موسى ، وأضمر فرعون وملؤه نكث الوعد الذي وعدوه موسى بأنهم يهتدون ، خشِي فرعون أن يتبع قومُه دعوةَ موسى ويؤمنوا برسالته فأعلن في قومه تذكيرهم بعظمة نفسه ليثبّتهم على طاعته ، ولئلا يُنقل إليهم ما سأله من موسى وما حصل من دَعوته بكشف العذاب وليحسبوا أن ارتفاع العذاب أمر اتفاقي إذ قومه لم يطلعوا على ما دار بينه وبين موسى من سؤال كشف العذاب .

والنداء : رفع الصوت ، وإسناده إلى فرعون مجاز عقلي ، لأنه الذي أمر بالنداء في قومه .

وكان يتولى النداءَ بالأمور المهمة الصادرة عن الملوك والأمراءِ مُنادون يعيَّنون لذلك وربما نادوا في الأمور التي يراد عِلم الناس بها .

ومن ذلك ما حكي في قوله تعالى في سورة يُوسف (70) ﴿ ثم أذَّنَ مؤذِّنٌ أيّتها العِير إنَّكم لسارقون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إنّ هؤلاء لشرذمةٌ قليلون وإنهم لنا لغائظون ﴾ [الشعراء : 53 55] .

ووقع في المقامة الثلاثين للحريري : "فلما جلس كأنه ابنُ ماء السماء ، نَادى مُنادٍ من قِبَل الأحْماء ، وحُرْمَةِ ساسان أستاذِ الأُستَاذِين ، وقِدوة الشحّاذين ، لا عَقَد هذا العقدَ المبجّل ، في هذا اليوم الأغرِّ المحجّل ، إلا الذي جالَ وجاب ، وشَبّ في الكُدية وشاب" .

فذلك نداء لإعلان العقد .

وجملة ﴿ قال ﴾ الخ مبيّنة لجملة ﴿ نادى ﴾ ، والمجاز العقلي في ﴿ قال ﴾ مثل الذي في ﴿ ونادى فرعون ﴾ .

وفرعون المحكي عنه في هذه القصة هو منفطاح الثاني .

فالأنهار : فروع النيل وتُرَعُه ، لأنها لعظمها جعل كل واحد منها مثل نهر فجمعت على أنهار وإنما هي لنهر واحد هو النيل .

فإن كان مقر ملك فرعون هذا في مدينة منفيس فاسم الإشارة في قوله : ﴿ وهذه الأنهار ﴾ إشارة إلى تفاريع النيل التي تبتدىء قرب القاهرة فيتفرع النيل بها إلى فرعين عظيمين فرع دِمياط وفرع رَشيد ، وتعرف بالدّلتا .

وأحسب أنه الذي كان يدعَى فرع تنيس لأن تنيس كانت في تلك الجهة وغَمرها البحر ، وله تفاريع أخرى صغيرة يسمى كل واحد منها تُرعة ، مثل ترعة الإسماعيلية ، وهنالك تفاريع أخرى تُدْعى الرياح .

وإن كان مقر ملكه طيبة التي هي بقرب مدينة آبو اليومَ فالإشارة إلى جَداول النيل وفروعه المشهورة بين أهل المدينة كأنها مشاهدة لعيونهم .

ومعنى قوله : ﴿ تجري من تحتي ﴾ يحتمل أن يكون ادَّعى أنّ النيل يجري بأمره ، فيكون ﴿ من تحتي ﴾ كناية عن التسخير كقوله تعالى : ﴿ كانتا تَحتَ عبدين من عبادنا صالحين ﴾ [التحريم : 10] أي كانتا في عصمتهما .

(72/692)

ويقول النّاس : دخلت البلدةُ الفلانية تحت الملك فلان ، ويحتمل أنه أراد أن النيل يجري في مملكته من بلاد أصوان إلى البحر فيكون في ﴿ تحتي ﴾ استعارة للتمكن من تصاريف النيل كالاستعارة في قوله تعالى : ﴿ قد جعل ربّك تَحْتَكِ سريًّا ﴾ [مريم : 24] على تفسير (سرياً) بنهر ، وكان مثل هذا الكلام يروج على الدهماء لسذاجة عقولهم .

ويجوز أن يكون المراد بالأنهار مصبّ المياه التي كانت تسقي المدينة والبساتين التي حولها

وأن توزيع المياه كان بأمره في سِدادٍ وخَزَّانات ، فهو يهوّل عليهم بأنه إذا شاء قَطَعَ عنهم الماء على نحو قول يوسف ﴿ ألا ترون أني أُوفي الكيل وأنا خير المُنْزِلين ﴾ [يوسف : 59] فيكون معنى ﴿ من تحتي ﴾ من تحت أمري أي لا تجري إلا بأمري ، وقد قيل : كانت الأنهار تجري تحت قصره .

والاستفهام في ﴿ أفلا تبصرون ﴾ تقريري جاء التقرير على النفي تحقيقاً لإقرارهم حتى أن المقرر يفرض لهم الإنكار فلا ينكرون .

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)

﴿ أم ﴾ منقطعة بمعنى (بل) للإضراب الانتقالي .

والتقدير : بل أأنا خير ، والاستفهام اللازم تقديره بعدها تقريريٌ .

ومقصوده : تصغير شأن موسى في نفوسهم بأشياء هي عوارض ليست مؤثرة انتقل من تعظيم شأن نفسه إلى إظهار البون بينه وبين موسى الذي جاء يحقر دينه وعبادة قومه إياه ، فقال : أنا خير من هذا .

والإشارة هنا للتحقير .

وجاء بالموصول لادعاء أن مضمون الصلة شيء عرف به موسى .

والمَهين بفتح الميم : الذليل الضعيف ، أراد أنه غريب ليس من أهل بُيوت الشرف في مصر

وليس له أهل يعتزّ بهم ، وهذا سفسطة وتشغيب إذ ليس المقام مقام انتصار حتى يحقَّر القائم فيه بقلة النصير ، ولا مقامَ مباهاة حتى ينتقص صاحبه بضعف الحال .

(73/692)

وأشار بقوله : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ إلى ما كان في منطق موسى من الحُبسة والفهاهة كما حَكى الله في الآية عن موسى ﴿ وأخي هارونُ هو أفصح منّي لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني ﴾ [القصص : 34] وفي الأخرى ﴿ واحلُلْ عقدةً من لساني يفقهوا قولي ﴾ [طه : 27 ، 28] ، وليس مقام موسى يومئذٍ مقام خطابة ولا تعليم وتذكير حتى تكون قلة الفصاحة نَقْصاً في عمله ، ولكنه مقام استدلال وحجة فيكفي أن يكون قادراً على إبلاغ مراده ولو بصعوبة وقد أزال الله عنه ذلك حين تفرغ لدعوة بني إسرائيل كما قال : ﴿ قد أوتيت سُؤْلك يا موسى ﴾ [طه : 36] .

ولعلّ فرعون قال ذلكِ لما يعلم من حال موسى قبل أن يرسله الله حين كان في بيت فرعون فذكر ذلك من حالهِ ليذكّر الناس بأمر قديم فإن فرعون الذي بُعث موسى في زمنه هو منفطاح الثاني وهو ابن رعمسيس الثاني الذي وُلد موسى في أيامه وربّي عنده ، وهذا يقتضي أن (منفطاح) كان يعرف موسى ولذلك قال له ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فينا

من عُمُرِكَ سنين ﴾ [الشعراء : 18] .

وأما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فلما أُرسل إلى أُمَّةٍ ذات فصاحة وبلاغة وكانت معجزته القرآن المعجز في بلاغته وفصاحته وكانت صفة الرّسول الفصاحةَ لتكون له المكانةُ الجليلة في نفوس قومه .

ومعنى ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ ويكاد أن لا يبين ، وقد تقدم القول في مثله عند قوله تعالى : ﴿ فذبحوها وما كَادوا يفعلون ﴾ في سورة البقرة (71) .

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

لمّا تضمن وصفُه موسى بمَهين ولا يكاد يبين أنه مكذّب له دعواه الرسالة عن الله فرع عليه قوله : ﴿ فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب ﴾ ترقياً في إحالة كونه رسولاً من الله ، وفرعون لجهله أو تجاهله يخيّل لقومه أن للرسالة شعاراً كشعار الملوك .

(74/692)

و (لَولا) حرف تحْضيض مستعمل في التعجيز مثل ما في قوله ﴿ وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

والإلقاء : الرمي وهو مستعمل هنا في الإنزال ، أي هلاّ ألقي عليه من السماء أساورة من

ذهب ، أي سَوَّره الرّب بها ليجعله ملكاً على الأمة .

وقرأ الجمهور ﴿ أساورة ﴾ ، وقرأ حفص عن عاصم ويعقوب ﴿ أسورة ﴾ .

والأساورة : جمع أُسْوار لغة في سِوَار .

وأصل الجمع أساوير مخفف بحذف إشباع الكسرة ثم عوّض الهاء عن المحذوف كما عوضت في زنادقة جمع زِنديق إذ حقه زَناديق .

وأما سوار فيجمع على أسورة .

والسوار : حلقة عريضة من ذهب أو فضة تحيط بالرسغ ، هو عند معظم الأمم من حلية النساء الحرائر ولذلك جاء في المثل : لَو ذاتُ سوار لَطمَتْني أي لو حُرّة لطمَتْني ، قاله أحد الأسرى لطمته أمة لقوم هو أسيرهم .

وكان السوار من شعار الملوك بفارس ومصر يلبَس المَلِك سوارين .

وقد كان من شعار الفراعنة لبس سوارين أو أسورة من ذهب وربما جعلوا سوارين على الرسغين وآخرين على العضدين .

فلما تخيّل فرعون أن رتبة الرسالة مثل المُلك حَسب افتقادها هو من شعار الملوك عندهم أمارة على انتفاء الرسالة .

و﴿ أو ﴾ للترديد ، أي إن لم تُلْق عليه أسَاورة من ذهب فلتجيءْ معه طوائف من الملائكة شاهدين له بالرسالة .

ولم أقف على أنهم كانوا يثبتون وجود الملائكة بالمعنى المعروف عند أهل الدين الإلهي فلعل فرعون ذكر الملائكة مجاراة لموسى إذ لعله سمع منه أن لله ملائكة أو نحو ذلك في مقام الدعوة فأراد إفحامه بأن يأتي معه بالملائكة الذين يظهرون له .

و﴿ مقترنين ﴾ حال من ﴿ الملائكة ﴾ ، أي مقترنين معه فهذه الحال مؤكدةٍ لمعنى ﴿ معه ﴾ لئلا يحمل معنى المَعية على إرادة أن الملائكة تُؤيّده بالقول من قولهم : قرنتُه به فاقترن ، أي مقترنين بموسى وهو اقتران النصير لنصيره .

(75/692)

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)

أي فتفرع عن نداء فرعون قومَه أن أثَّر بتمويهه في نفوس ملئِه فعجّلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيئين لاتباع موسى لما رأوا الآيات .

فالخفة مستعارة للانتقال من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلى التعجيل بالامتثال له كما يخِف الشيء بعد التثاقل .

والمعنى يرجع إلى أنه استخف عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدّقوا موسى في نفوسهم لمّا رأوا آياته نزولاً ورفعاً .

والمراد بـ ﴿ قومه ﴾ هنا بعض القوم ، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى هؤلاء هم الملأ الذين كانوا في صحبة فرعون .

والسين والتاء في ﴿ استخف ﴾ للمبالغة في أخَفّ مثل قوله تعالى : ﴿ إنّما استَزَلَّهُمْ الشيطان ﴾ [آل عمران : 155] وقولهم : هذا فِعلُ يستفزّ غضَب الحليم .

وجملة ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ في موضع العلةِ لجملة ﴿ فأطاعوه ﴾ كما هو شأن (إنَّ) إذا جاءت في غير مقام التأكيد فإن كونهم قد كانوا فاسقين أمر بيِّنٌ ضرورةَ أن موسى جاءهم فدعاهم إلى ترك ما كانوا عليه من عبادة الأصنام فلا يقتضي في المقام تأكيد كونهم فاسقين ، أي كافرين .

والمعنى : أنهم إنما خَفُّوا لطاعة رأس الكفر لقرب عهدهم بالكفر لأنهم كانوا يؤلِّهون فرعون فلما حصل لهم تردّد في شأنه ببعثة موسى عليه السلام لم يلبثوا أن رجعوا إلى طاعة فرعون بأدنى سبب .

والمراد بالفسق هنا : الكُفر ، كما قال في شأنهم في آية الأعراف (145) ﴿ سَأُوْرِيكم دار الفاسقين ﴾

فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55)

عُقب ما مضى من القصة بالمقصود وهو هذه الأمور الثلاثة المترتبة المتفرع بعضها على بعض وهي : الانتقام ، فالإغراق ، فالاعتبار بهم في الأمم بعدَهم .

والأسف : الغَضَب المشوبُ بحُزن وكدَر ، وأطلق على صنيع فرعون وقومه فعل ﴿ ءاسفونا ﴾ لأنه فعل يترتب عليه انتقام الله منهم انتقاماً كانتقام الآسف لأنهم عصَوا رسوله وصمّموا على شركهم بعد ظهور آيات الصدق لموسى عليه السلام .

فاستعير ﴿ ءاسفونا ﴾ لمعنى عَصَوْنا للمشابهة ، والمعنى : فلما عصونا عصيان العبدِ ربّه المنعِم عليه بكفران النعمة ، والله يستحيل عليه أن يتصف بالآسف كما يستحيل عليه أن يتصف بالغضب على الحقيقة ، فيؤول المعنى إلى أن الله عاملهم كما يعامل السيدُ المأسوفُ عبداً آسفه فلم يترك لرحمةِ سيده مسلكاً .

وفعل أسِف قاصر فعدّي إلى المفعول بالهمزة .

وفي قوله : ﴿ فلما ءاسفونا ﴾ إيجاز لأن كونهم مؤسِفين لم يتقدم له ذكر حتى يبنى أنه كان سبباً للانتقام منهم فدلّ إناطة أداة التوقيت به على أنه قد حصل ، والتقدير : فآسفونا فلما آسفونا انتقمنا منهم .

والانتقام تقدم معناه قريباً عند قوله تعالى : ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ [الزخرف : 41] .

وإنما عطف ﴿ فأغرقناهم ﴾ بالفاء على ﴿ انتقمنا منهم ﴾ مع أن إغراقهم هو عين

الانتقام منهم ، إمّا لأن فعل ﴿ انتقمنا ﴾ مؤوّل بقدّرنا الانتقامَ منهم فيكون عطفُ ﴿ فأغرقناهم ﴾ بالفاء كالعطف في قوله : ﴿ أنْ يقول له كُن فيكونُ ﴾ [يس : 82] ، وإما أن تُجعل الفاء زائدة لتأكيد تسبب ﴿ ءاسفونا ﴾ في الإغراق ، وأصل التركيب : انتقمنا منهم فأغرقناهم ، على أن جملة ﴿ فأغرقناهم ﴾ مبينة لجملة ﴿ انتقمنا منهم ﴾ فزيدت الفاء لتأكيد معنى التبيين ، وإما أن تجعل الفاء عاطفة جملة ﴿ انتقمنا ﴾ على جملة ﴿ فاستخف قومه ﴾ [الزخرف : 54] فأغرقناهم أجمعين ﴾ وتكون جملة ﴿ انتقمنا ﴾ معترضة بين الجملة المفرعة والمفرعة عنها ، وتقدم نظير هذا عند قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليّم ﴾ [الأعراف : 136] .

وفرع على إغراقهم أن الله جعلهم سلفاً لقوم آخرين ، أي يأتون بعدهم .

(77/692)

والسلف بفتح السين وفتح اللام في قراءة الجمهور : جمع سالف مثل : خدم لخادم ، وحَرس لحارس .

والسالف الذي يسبق غيره في الوجود أو في عمل أو مكان ، ولما ذكر الانتقام كان المراد بالسلف هنا السالف في الانتقام ، أي أنَّ مَن بعدَهم سيلقَون مثل ما لَقُوا .

وقرأ حمزة وحده والكسائي ﴿ سُلُفا ﴾ بضم السين وضم اللام وهو جمع سَليف اسم للفريق الذي سلف ومضى .

والمَثَل : النظير والمشابه ، يقال : مَثَل بفتحتين كما يقال شَبَه ، أي مماثل .

قال أبو علي الفارسي : المثل واحد يراد به الجمع .

وأطلق المثل على لازمه على سبيل الكَناية ، أي جعلناهم عبرة للآخرين يعلمون أنهم إن عملوا مثل عملهم أصابهم مثلُ ما أصابهم .

ويجوز أن يكون المثل هنا بمعنى الحديث العجيب الشأن الذي يسير بين النّاس مسيرَ الأمثالِ ، أي جعلناهم للآخرين حديثاً يتحدثون به ويَعِظُهُمْ به محدّثهم .

ومعنى الآخرين ، النّاس الذين هم آخر مماثل لهم في حين هذا الكلام فتعين أنهم المشركون المكذبون للرّسول صلى الله عليه وسلم فإن هؤلاء هم آخر الأمم المشابهة لقوم فرعون في عبادة الأصنام وتكذيب الرّسول .

ومعنى الكلام : فجعلناهم سلَفاً لكم ومثلاً لكم فاتّعظوا بذلك .

ويتعلق ﴿ للآخرين ﴾ بـ ﴿ سلفاً ومثلاً ﴾ على وجه التنازع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الذهب)

وهذه الكلمة فى القرآن – على سبيل الإجمال – على نوعين .

إمَّا بمعنى الذَّهب الذى هو قرين الفضَّة ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ .

﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ .

وإمَّا بمعنى المُضِى ، ويرد فى القرآن على عشرين وجهًا .

فى حقِّ المنافقين : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ .

وقال ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ، وقال ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ .

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾ ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ ﴿ اذْهَبَآ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ﴾ ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ ﴾ ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هذا ﴾

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ ﴿ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ أَى لتفوزوا بشىءٍ من المهر أَو غير ذلك ممَّا أَعطيتموهنَّ .

والذهاب يستعمل فى الأَعيان وفى المعانى كما تراه فى الآيات المذكورة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 21.22 ﴾

(79/692)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) ﴾

أخبر أَنَّ إبراهيمَ لَمَّا دعا أباه وقومَه إلى الله وتوحيده أَبَوْا إلاَّ تكذيبَه ، فتبرَّأَ منهم بأجمعِهم ، وجعلَ اللَّهُ كلمةَ التوحيدِ باقيةً في عَقِبه وقومه .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّى جَآءَهُمُ الحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أَرْخَيْنَا عنانَ إمهالهم مدةً ، ثم كان أمرُهم أَنْ انتصرْنا منهم ، ودَمّرْناهم أجْمعين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ .

إمّا أبي مسعود الثقفي أو أبي جهل ، وهذا أيضاً من فرْط جهلهم .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

أَهم يَقْسمون – يا محمد – رحمةَ ربك في التخصيص بالنبوة ؟ أيكون اختيارُ اللَّهِ – سبحانه – عَلَى مقتضى هواهم ؟ بئس ما يحكمون !

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم . . . ﴾ فلم نجعل القسمة في الحياة الدنيا لهم . . فكيف نجعل قسمة النبوة إلى هؤلاء ؟ ! .

والإشارة من هذا : أن الحقَّ – سبحانه – لم يجعل قسمةَ السعادةِ والشقاوةِ إلى أحد ، وإنما المردودُ مَنْ ردّه بحكمه وقضائه وقَدَرِه ، والمقبولُ – من جملة عباده – مَنْ أراده وقَبِلَه – لا لِعلَّةٍ أَو سبب ، وليس الردُّ أو القبولُ لأمرٍ مُكتَسب . . .

(80/692)

ثمَّ إنه قَسَمَ لبعْضِ عِباده النعمةَ والغنى ، وللبعض القلّةَ والفقر ، وجعل لكلِّ واحدٍ منهم سكناً يسكنون إليه يستقلون به ؛ فللأغنياء وجودُ الإنعام وجزيل الأقسام . . فشكروا واستبشروا ، وللفقراء شهودُ المُنْعم القَسَّام . . فَحَمدوا وافتخروا . الأغنياءُ وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا ، والفقراء سمعوا قوله : " نحن " فاشتغلوا .

وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : " اما ترضون أن يرجع الناس بالغنى ؛ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أَهليكم "

﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً . . . ﴾ : لو كانت المقاديرُ متساويةً لَتَعَطَّلت المعايشُ ، ولَبَقِيَ كلٌّ عندَ حاله ؛ فجعل بعضَهُم مخصوصين بالرّفَه والمال ، وآخرين مخصوصين من جهته بأجرته فيَصْلُحُ بذلك أمرُ الغنيّ والفقير جميعاً .

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33)

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر ؛ فالذي يبقى عنَّا لو صَبَبْنَا عليه الدنيا بحذافيرها لم يكن ذلك جبراناً لمصيبته . ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارجَ من فضة ، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا .

ولو فعلنا . . لم يكن لِمَا أعطيناه خَطَرٌ ؛ لأنَّ الدنيا بأَسْرِها ليس لها عندنا خطر .

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)

مَنْ لم يعرف قَدْرَ الخلوة مع اللَّهِ فحاد عن ذكره ، وأَخلدَ إلى الخواطر الردِّيَة فيَّضَ اللَّهُ له مَنْ يَشْغَلُه عن الله –وهذا جَزاءُ مَنْ تَرَكَ الأدبَ في الخلوة . وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربِّه . . فلو تعرَّض له مَنْ يشغله عن ربه صَرَفه الحق عنه بأَي وجْهٍ كان ، وصَرَفَ دواعيه عن مفتاحته بمَا يشغله عن الله .

ويقال : أصعبُ الشياطين نَفْسُكَ ؛ والعبدُ إذا لم يَعْرِفْ خَطَرَ فراغ قلبه ، واتَّبَعَ شهوته ، وفتح ذلك البابَ على نَفْسه بقي في يد هواه أسيراً لا يكاد يتخلّصُ عنه إلا بعد مُدَّة .

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37)

الذي سوّلت له نَفْسُه أمراً يَتَوَهَّمُ أنه على صواب ، ثم يحمل صاحبَه على موافقته في باطله ، ويدّعي أَنه على حقّ . وهو بهذا يَضُرُ بنَفْسِه ويضر بغيره . ثم إذا ما انكشف –غداً– الغطاء تبيَّن صاحبُه خيانَته ، ونَدِمَ على صُحْبَته ، ويقال : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ﴾ [الفرقان : 28] و ﴿ يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ . ولكنَّ هذه الندامةَ لا تنفعُ حينئذٍ ؛ لأنّ الوقتَ يكونُ قد فات ، لهذا قال تعالى :

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

هذا الاستفهام فيه معنى النفي ؛ أي أنه ليس يمكنُكَ هدايةَ مَنْ سَدَدْنا بصيرته ، ولبَّسْنا عليه رُشْدَه ، ومَنْ صَبَبْنا في مسامع فَهمه رصاصَ الشقاء والحرمان . . . فكيف يمكنك إسْمَاعه ؟ !

قوله جلّ ذكره ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ .

يعني : إنْ انفضى أَجَلُكَ ولم يتفق لكَ شهودُ ما نتوّعَدُهم به فلا تتوَهَّمْ أَنَّ صِدْقَ كلامنا يشوبه مَيْنٌ ، فإنّ ما أَخبرناك عنه – لا محالة – سيكون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ .

أَثبتَهُ عَلَى حدّ الخوفِ والرجاء ، ووقَفَهُ عَلَى وصفِ التجويز لاستبداده –سبحانه بعلم الغيب . والمقصود كذلك أن يكونَ كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير – فاللَّهُ يفعل ما يريد .

(82/692)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

اجتهِدْ من غير تقصير وتوكَّلْ على اللَّهِ من غير فُتور ، وقِفْ حيثما أُمِرْتَ ، وثِقْ بأنك على صِراطٍ مستقيم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ .

أي إنَّ هذا القرآن لَذِكْرٌ لك ؛ أي شرفٌ لك ، وحُسْنُ صيتٍ ، واستحقاقُ منزلةٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً

يُعْبَدُونَ ﴾ .

حَشَرَ أرواحَ الأنبياءِ – عليهم السلام – ليلةَ الإسراء ، وقيل له – صلى الله عليه وسلم : " سَلْهم : هل أَمَرْنا أحداً بعبادة غيرنا ؟ فلم يَشُكّ النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يسأل " .

ويقال : الخطابُ له ، ولمرادُ به غيره . . فَمَنْ يرتاب في ذلك ؟ ويقال : المراد منه سَلْ أقوامهم ، لكي إذا قالوا إن الله لم يمر بذلك كان هذا أبلغ في إبرام الحجة عليهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا . . . . . إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ .

كرَّر قصةَ موسَى غيرَ مرةٍ في القرآن ، وأعادَها هنا مجملةً ؛ أرسلناه بدلائلنا ، أرسلناه بحجةٍ ظاهرةٍ قاهرةٍ ، أرسلناه بالمعجزات إلى فرعون وقومه من القبط ، فقوبل بالهزء والضحك والتكذيب . ومع أنَّ اللَّهَ سبحانه لم يُجْرِ عليه من البيّنات شيئاً إلا كان أوضحَ مما قبله إلا أنهم لم يقابلوه إلا بجفاءٍ أَوْحَشَ مما قبله . فلمَّا عضَّهم الأمرُ قالوا : يا أيها الساحرُ ، أدْعُ لنا ربَّك ليكشف عنَّا البليَّةَ لنؤمِنَ بك ، فدعا موسى . . . فكشف اللَّهُ عنهم ، فعادوا إلى كفرهم ، ونقضوا عَهْدَهُم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ .

تعزَّزَ بمُلْكِ مصر ، وجَرى النيل بأمره ! وكان في ذلك هلاكه ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تعزَّزَ بشيء من دون الله فحتفُه وهلاكُه في ذلك الشيء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ .

استصغر موسى وحديثَه ، وعابَه بالفقر . . فَسَلَّطه اللَّهُ عليه ، وكان هلاكه بيديه ، فما استصغر أحدُ أحداً إلا سَلَّطه اللَّهُ عليه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ .

أطاعوه طاعةَ الرهبة ، وطاعةُ الرهبةِ لا تكون مخلصةً ، وإنما تكون الطاعةُ صادقةً إذا صَدَرت عن الرغبة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

﴿ آسَفُونَا ﴾ أغضبونا ، وإنما أراد أغضبوا أولياءَنا ، فانتقمنا منهم . وهذا له اصل في باب الجَمْع ؛ حيث أضاف إيسافَهم لأوليائه إلى نَفْسِه . . . وفي الخبر : أنه يقول : " مَرِضْتُ فلم تَعُدْني " .

وقال في قصة إبراهيم عليه : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً . . . ﴾ [الحج : 27] .

وقال في قصة نبيّنا – صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : 80] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 365 . 371 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ حم والكتاب المبين ﴾

يعني : أقسم بحم ، وبالكتاب الذي أبان طريق الهدى ، من طريق الضلالة ، وأبان كل ما تحتاج إليه الأمة ، ويقال : مُبين أي : بين بلغة تعرفونها .

يعني : بين فيه الحلال والحرام ﴿ إِنَّا جعلناه ﴾ فهذا جواب القسم .

يعني : إنا جعلناه ، ووصفناه أقسم بالكتاب المبين ﴿ إِنَّا جعلناه ﴾ يعني : إنا قلناه ووصفناه وبيناه .

ويقال : أنزلنا به جبريل ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ يعني : بلغة العرب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يعني : لكي تعقلوا وتفهموا .

ما فيه ، ولو نزل بغير لغة العرب ، لم تفهموا ما فيه .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا ﴾ يعني : إن كذبتم بالقرآن ، فإن نسخته في أصل الكتاب .

يعني : اللوح المحفوظ لدينا .

يعني : عندنا ﴿ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ يعني : شريف مرتفع ، محكم من الباطل .

ويقال : حكيم أحكم ، حلاله وحرامه .

ويقال : حَكِيمٌ أي حاكم على الكتب كلها .

ويقال : حكيم أي ذو حكمة كما قال تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ قرأ حمزة والكسائي "في أم الكتاب" بكسر الألف في جميع القرآن ، لأن الياء أخت الكسرة ، فاتبع الكسرة الكسرة والباقون "أم" بضم الألف ، وهو الأصل في اللغة .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ يعني : أفندع ونترك ، أن نرسل إليكم الوحي مبهماً ، لا آمركم ولا أنهاكم .

وقال القتبي : معناه أن أمسك عنكم ، فلا أذكركم إعراضاً .

يقال : صفحت عن فلان ، إذا أعرضت عنه .

وقال مجاهد : معناه تكذبون بالقرآن ، ولا تعاقبون فيه .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ بنصب الألف .

وقرأ الباقون بالكسر .

فمن قرأ بالنصب ، فمعناه : أفنضرب عنكم ذكر العذاب بأن أسرفتم ، يعني : أشركتم

وعصيتم .

ويقال أفنضرب عنكم ذكر العذاب ، لأن أسرفتم وكفرتم ومن قرأ بالكسر ، فمعناه إن كنتم قوماً مسرفين .

(85/692)

ويقال : هو على معنى الاستقبال ، ومعناه إن تكونوا مسرفين ، نضرب عنكم الذكر .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيّ فِى الاولين ﴾ يعني : كم بعثنا من نبي في أمر الأمم الأولين ، كما أرسلنا إلى قومك ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مّنْ نَّبِىّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ يعني : يسخرون منه قوله تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ يعني : من كان أشد منهم قوة ﴿ ومضى مَثَلُ الاولين ﴾ يعني : سنة الأولين بالهلاك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ يعني : المشركين ﴿ مِنْ خلاق السموات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ يعني : يقولون خلقهن الله تعالى ، الذي هو العزيز في ملكه ، العليم بخلقه ، فزادهم الله تعالى في جوابهم .

فقال : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي وعاصم مَهْداً ، والباقون مَهاداً بالألف ، يعني : قراراً للخلق ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ يعني : طرقاً ﴿

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ يعني : لكي تعرفوا طرقها من بلد إلى بلد ، ويقال : لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ يعني : لكي تعرفوا هذه النعم ، وتأخذوا طريق الهدى ، ثم ذكرهم النعم فقال عز وجل : ﴿ والذى نَزَّلَ مِنَ السماء مَاء بِقَدَرٍ ﴾ يعني : بمقدار ووزن ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ ﴾ يعني : أحيينا بالمطر ﴿ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ يعني : أرضاً ميتة ، لا نبات فيها ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أنتم من قبوركم .

(86/692)

قوله تعالى : ﴿ والذى خَلَقَ الازواج كُلَّهَا ﴾ يعني : الأصناف كلها من النبات ، والحيوان وغير ذلك ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والانعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ يعني : جعل لبني آدم من السفن ، والإبل ، والدواب ، ما يركبون عليها ثم قال : ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ يعني : لتركبوا ظهور الأنعام ، ولم يقل ظهورها ؟ لأنه انصرف إلى المعنى ، وهو جنس الأنعام ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ يعني : إذا ركبتم فتحمدوا الله تعالى ﴿ وَتَقُولُواْ ﴾ عند ذلك ﴿ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ يعني : ذلل لنا هذا ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ يعني : مطيعين .

وقال أهل اللغة : أنا مقر لك أي : مطيق لك .

ويقال : مقرنين أي : مالكين .

ويقال : ضابطين .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ يعني : راجعين إليه ، في الآخرة .

وقد روى عثمان بن الأسود ، عن مجاهد أنه قال : إذا ركب الرجل دابته ، ولم يذكر اسم الله تعالى ، ركب الشيطان من ورائه ، ثم صك في قفاه ، فإن كان يحسن الغناء ، قال له : تغن ، وإن كان لا يحسن الغناء ، قال له تمن يعني : تكلم بالباطل .

وعن علي بن ربيعة أنه قال : كنت رديفاً لعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فلما وضع رجله في الركاب ، قال : بسم الله ، فلمَّا استوى قال : الحمد لله ، ثم قال : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ يعني : وصفوا لله من خلقه ، شريكاً وولداً ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : كَفُورٌ لنعمه ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي : بين الكفر .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ وهو رد على بني مليح ، حيث قالوا : الملائكة بنات الله .

معناه : اختار لكم البنين ، ولنفسه البنات ، ثم وصف كراهيتهم البنات فقال : ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ يعني : بما وصفوا لله تعالى من البنات ، وكرهوا لأنفسهم ذلك ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ يعني : تغير لونه ، وهو حزين مكروب .

يعني : أترضون لله ، ما لا ترضون لأنفسكم .

قوله عز وجل : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ يعني : يغذى في الذهب والفضة .

ويقال : أفمن زين في الحلي والحلل ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ يعني : في الكلام غير فصيح .

ويقال : هن في الخصومة ، غير مبينات في الحجة ويقال : أفمن زين في الحلي ، وهو في الخصومة غير مبين ، لأن المرأة لا تبلغ بخصومتها ، وكلامها ما يبلغ الرجل .

قرأ حمزة والكسائي ، وعاصم في رواية حفص ، أو من يُنَشَّأُ بضم الياء ، ونصب النون وتشديد الشين ومعناه : أومن يربى في الحلية ، لفظه لفظ الاستفهام ، والمراد به التوبيخ .

وقرأ الباقون ، أَوَمَن يَنْشَأُ ، بنصب الياء وجزم النون مع التخفيف ، يعني : يشب وينبت في الحلي .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ يعني : وصفوا الملائكة

بالأنوثة .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ونافع الَّذِينَ هُمْ عَنْدُ الرَّحْمَنِ ﴿ إناثا ﴾ يعني : وصفوا الملائكة بالأنوثة .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ونافع عبيد يعني : الملائكة الذين هم في السماء ، والباقون عِبَادُ يعني : جمع عبد .

ثم قال : ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ يعني : أحضروا خلق الملائكة حين خلقهم الله تعالى ، فعلموا أنهم ذكوراً أو إناثاً ؟ هذا استفهام فيه نفي ، يعني : لم يشهدوا خلقهم على وجه التوبيخ ، والتقريع .

ثم قال : ﴿ سَتُكْتَبُ شهادتهم ﴾ يعني : ستكتب مقالتهم ﴿ وَيُسْئَلُونَ ﴾ عنه يوم القيامة .

وروي عن الحسن : أنه قرأ سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهُم بالألف يعني : أقوالهم .

(88/692)

وقرأ عبد الرحمن الأعرج سَنَكْتُبُ بالنون .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاء الرحمن مَا عبدناهم ﴾ يعني : ما عبدنا الملائكة ويقال :

الأصنام ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي : ما لهم بذلك القول من حجة ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ يعني : يكذبون بغير حجة .

وقال مقاتل : في الآية تقديم يعني : عباد الرحمن إناثاً ، ما لهم بذلك من علم .

قوله عز وجل : ﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا مّن قَبْلِهِ ﴾ يعني : أنزلنا عليهم كتاباً ، من قبل هذا القرآن ﴿ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ يعني : آخذون به عاملون ، اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به النفي .

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا على أُمَّةٍ ﴾ يعني : لكنهم قالوا : إنا وجدنا آباءنا على دين وملة .

وقال القتبي : أصل الأمة الجماعة ، والصنف .

كقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : 38] ثم يستعار في أشياء منها : الدين .

كقوله : ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا ﴾ أي : على دين ، لأن القوم كانوا يجتمعون على دين واحد ، فتقام الأمة مكان الدين ، ولهذا قيل للمسلمين : أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم على ملة واحدة ، وهي الإسلام .

وروى مجاهد ، وعمر بن عبد العزيز ، أنهما قرآ ﴿ أُمَّةٍ ﴾ بكسر الألف ، أي : على

نعمة .

ويقال : على هيئة ، وقراءة العامة بالضمة ، يعني : على دين وروى أبو عبيدة ، عن بعض أهل اللغة ، أن الأُمة والأمة لغتان .

ثم قال : ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ﴾ يعني : مستيقنين ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ يعني : جبابرتها ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ يعني : بسنتهم مقتدون .

(89/692)

أي : بأعمالهم .

قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى ﴾ يعني : أليس هذا الذي جئتكم به ، هو أهدى ﴿ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾ يعني : بأصوب وأبين من ذلك .

قرأ ابن عامر ، وعاصم في رواية حفص ﴿ قَالَ أَوَلَوْ ﴾ على معنى الخبر والباقون (قُلْ) بلفظ الأمر .

وقرأ أبو جعفر المدني (جِئْنَاكُم) بلفظ الجماعة .

﴿ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ يعني : إن الجبابرة قالوا لرسلهم : إنا بما أرسلتم به جاحدون .

قوله عز وجل : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ يعني : آخر أمرهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : بريء من معبودكم .

ذكر عن الفراء أنه قال : براء مصدر صرف أسماء ، وكل مصدر صرف إلى اسم ، فالواحد ، والجماعة ، والذكر ، والأنثى فيه سواء .

قوله عز وجل : ﴿ إِلاَّ الذى فَطَرَنِى ﴾ يعني : إلا الذي خلقني ، فإني لا أتبرأ منه .

﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ويقال : إلا بمعنى لكن .

يعني : لكن الذي خلقني ، فهو سيهدين ، يعني : يثبتني على دين الإسلام ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقية فِى عَقِبِهِ ﴾ يعني : جعل تلك الكلمة ثابتة في نسله ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ وهي كلمة التوحيد لا إله إلا الله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن كفرهم إلى الإيمان .

وقال قتادة : هو التوحيد والإخلاص ، لا يزال في ذريته .

من يوحدوا الله تعالى ، ويعبدوه وقال مجاهد : يعني : كلمة لا إله إلا الله في عقبه وولده .

ويقال : ﴿ إِنَّنِى بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : ذو البراءة كما يقال : رجل عدل ورجال عدل

، أي : ذو عدل .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاَء ﴾ يعني : أجلت هؤلاء ، وأمهلتهم .

يعني : قومك ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاَء وَءابَاءهُمْ ﴾ يعني : القرآن .

(90/692)

ويقال : الدعوة إلى التوحيد ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : بين أمره بالدلائل .

والحجج .

ويقال : مبين ، يعني : بين لهم الحق من الباطل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمُ الحق ﴾ يعني : القرآن ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافرون ﴾

يعني : جاحدون .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾

يعني : على رجل عظيم من رجلي القريتين ، وهو الوليد بن المغيرة ، من أهل مكة ، وأبو

مسعود الثقفي بالطائف يعني : لو كان حقاً ، لأنزل على أحد هذين الرجلين .

وروى وكيع ، عن محمد بن عبد الله بن أفلح الطائفي ، قال : عن خالد بن عبد الله بن يزيد

، قال : كنت جالساً عند عبد الله بن عباس بالطائف ، فسأله رجل عن هذه الآية وهي

قوله : ﴿ مّنَ القريتين ﴾ فقال : القرية التي أنت فيها .

يعني : الطائف والقرية التي جئت منها ، يعني : مكة .

وسئل عن الرجلين فقال : جبار من جبابرة قريش ، وهو الوليد بن المغيرة بمكة ، وعروة بن مسعود ، جد المختار .

يعني : أبا مسعود يقال اسمه عمرو بن عمير .

قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبّكَ ﴾ يعني : أبأيديهم مفاتيح الرسالة والنبوة ، فيضعوها حيث شاؤوا ، ولكننا نختار للرسالة ، من نشاء من عبادنا ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ يعني : نحن قسمنا أرزاقهم فيما بينهم ، وهو أدنى من الرسالة ، فلم نترك اختيارها إليهم ، فكيف نفوض اختيار ما هو أفضل منه ، وأعظم ، وهي الرسالة إليهم .

ثم قال : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات ﴾ يعني : فضلنا بعضهم على بعض ، بالمال في الدنيا .

﴿ لّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ يعني : الاستهزاء ويقال : فضل بعضهم على بعض في العز ، والرياسة ، ليستخدم بعضهم بعضاً ، ويستعبد الأحرار العبيد ، ثم أخبر : أن الآخرة أفضل مما أعطوا في الدنيا .

فقال : ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يعني : خير مما يجمع الكفار من المال في الدنيا .

﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة ﴾ يقول لولا أن يرغب الناس في الكفر ، إذا رأوا الكفار في سعة المال .

وقال الحسن : لولا أن يتتابعوا في الكفر .

﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ وهي : سماء البيت ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ يعني : الدرج عليها يرتقون ويرتفعون .

وقال الزجاج : يصلح أن يكون لبيوتهم بدلاً من قوله : ﴿ لِمَن يَكْفُرُ ﴾ ويكون المعنى لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن ، ويصلح أن يكون معناه : لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو "لِبُيُوتِهِم سَقْفاً" بنصب السين ، وجزم القاف ، ويكون عبارة عن الواحد ، فدل على الجمع .

والمعنى : لجعلنا لبيت كل واحد منهم ، سقفاً من فضة .

وقرأ الباقون سُقُفاً ، بالضم على معنى الجمع .

ويقال : سقف ومسقف مثل رهن ورهن .

قوله تعالى : ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أبوابا وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴾ يعني : يجلسون وينامون ﴿

وَزُخْرُفاً ﴾ وهو الذهب يعني : لجعلنا هذا كله من ذهب وفضة .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لَوْلاَ أَنْ يَجْزَعَ عَبْدِي المُؤْمن ، لَعَصَّبْتُ الكَافِرَ بِعِصَابَةٍ مِن حَدِيدٍ ، وَلَصَبَبْتُ عَلَيه الدُّنْيَا صَبّاً " وإنما أراد بعصابة الحديد ، كناية عن صحة البدن ، يعني : لا يصدع رأسه ، ثم أخبر أن ذلك كله مما يفنى .

فقال : ﴿ وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عِندَ رَبِّكَ ﴾ وما ها هنا زيادة ومعناه : وإن كل ذلك لمتاع .

ويقال : وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا ، يفنى ولا يبقى ﴿ والآخرة ﴾ يعني : الجنة للذين يتقون الشرك ، والمعاصي والفواحش .

(92/692)

قرأ عاصم ، وابن عامر في رواية هشام : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا ﴾ بتشديد الميم ، وقرأ الباقون بالتخفيف .

فمن قرأ بالتخفيف ، فما للصلة والتأكيد .

ومن قرأ بالتشديد فمعناه : وما كل ذلك إلا متاع .

وقال مجاهد كنت لا أعلم ما الزخرف ، حتى سمعت في قراءة عبد الله بيتاً من ذهب .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ قال الكلبي : يعني : يعرض عن الإيمان والقرآن ، يعني : لا يؤمن .

ويقال : من يعمى بصره عن ذكر الرحمن .

وقال أبو عبيدة : من يظلم بصره عن ذكر الرحمن .

﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ يعني : نسيب له شيطاناً ، مجازاة لإعراضه عن ذكر الله .

ويقال : نسلط عليه ويقال نقدر له ، ويقال : نجعل له شيطاناً ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ يعني : يكون له صاحباً في الدنيا ، فيزين له الضلالة .

ويقال : فهو له قرين .

يعني : قرينه في سلسلة واحدة ، لا يفارقه .

يعني : في النار .

وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال : ليس مثل من أمثال العرب ، إلا وأصله في كتاب الله تعالى .

قيل له : من أين قول الناس ، أعطى أخاك تمرة ، فإن أبى فجمرة .

فقال قوله : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ الآية ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل ﴾ يعني : الشياطين يصرفونهم عن الدين ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يعني : الكفار يظنون أنهم على الحق .

﴿ حتى إِذَا جَاءنَا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، روعاصم في رواية أبي بكر (جَانَا) بالمد ، بلفظ التثنية ، يعني : الكافر وشيطانه الذي هو قرينه .

وقرأ الباقون ﴿ جَاءنَا ﴾ بغير مد ، يعني : الكافر يقول لقرينه : ﴿ قَالَ يَاءادَمُ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ يعني : ما بين المشرق والمغرب .

ويقال : بين مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ يعني : بئس الصاحب معه في النار .

(93/692)

ويقال : هذا قول الله تعالى : ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ يعني : بئس الصاحب معه في النار .

ويقال هذا قول الكافر يعني : بئس الصاحب كنت أنت في الدنيا ، وبئس الصاحب اليوم .

فيقول الله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم ﴾ الاعتذار ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ يعني : كفرتم ، وأشركتم في الدنيا ﴿ أَنَّكُمْ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ يعني : أنكم جميعاً في النار ، التابع والمتبوع في العذاب ، سواء قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِى العمى ﴾ إلى الهدى ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ يعني : من كان في علم الله في الضلالة .

ومعنى الآية : إنك لا تقدر أن تُفهم من كان أصم القلب ، ويعمى عن الحق ، ومن كان في ضلال مبين ، يعني : ظاهر الضلالة ، قوله : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ يعني : نميتك قبل أن نرينك الذي وعدناهم ، يعني : قبل أن نريك النقمة ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ يعني : ننتقم منهم .

بعد موتك .

قال قتادة : ذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، وبقيت النقمة .

قال : وذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ، " أُرِىَ مَا يُصِيبُ أُمَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فما رُئِيَ ضَاحِكاً مُسْتَبْشِراً ، حَتَّى قُبِضَ " .

ثم قال : ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم ﴾ يعني : في حياتك ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ يعني : إنا لقادرون على ذلك قوله تعالى : ﴿ فاستمسك بالذى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ يعني : اعمل بالذي أوحي إليك من القرآن ﴿ إِنَّكَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني : على دين الإسلام ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعني : القرآن شرف لك ولمن آمن به ويقال : ﴿ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعني : العرب ، لأن القرآن نزل بلغتهم ﴿ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ عن هذه النعم ، وعن شكر هذا الشرف .

يعني : القرآن إذا أديتم شكره ، أو لم تؤدوه .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ قال مقاتل ، والكلبي : يعني : سل مؤمني أهل الكتاب ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن ﴾ يعني : هل جاءهم رسول ، يدعوهم إلى عبادة غير الله .

ويقال : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ يعني : سل المرسلين ، فلقي النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء ليلة المعراج ، وصلى بهم ببيت المقدس .

فقيل له : فسلهم فلم يشك ، ولم يسألهم .

ويقال : إنما خاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأراد أمته يعني : سلوا أهل الكتاب كقوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [يونس : 94] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا إلى فِرْعَوْنَ وَمَلأْيِهِ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ وقد ذكرناه ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم بآياتنا ﴾ يعني : باليد والعصا ﴿ إِذَا هُم مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ يعني : يعجبون ويسخرون .

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءايَةٍ إِلاَّ هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ يعني : أعظم من التي كانت قبلها ، وهي السنين والنقص ، من الثمرات والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم فلم يؤمنوا بشيء .

﴿ وأخذناهم بالعذاب لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يعني : عاقبناهم بهذه العقوبات لكي يرجعوا ، ويعرفوا ضعف معبودهم ﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَا الساحر ﴾ وكان الساحر فيهم ، عظيم الشأن يعني : قالوا لموسى : يا أيها العالم ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أي : سل لنا ربك ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ يعني : بحق ما أمرك به ربك ، أن تدعو إليه ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ يعني : نؤمن بك ، ونوحد الله تعالى .

(95/692)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ يعني : ينقضون عهودهم ﴿ ونادى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ ﴾ يعني : خطب فرعون لقومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ وهي أربعون فرسخاً ، في أربعين فرسخاً ﴿ وهذه الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴾ يعني : من تحت يدي .

ويقال : من حولي ، وحول قصوري وجناني ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ فضلي على موسى ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هذا الذى هُوَ مَهِينٌ ﴾ يعني : خير ، وأم للصلة من هذا الذي هو مهين ، يعني : ضعيف ذليل .

﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني : لا يكاد يعبر حجة .

ويقال : معناه : ألا تنظرون إلى فصاحتي ، وإلى عيّ كلام موسى ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مّن ذَهَبٍ ﴾ يعني : هلا أعطي أسورة من ذهب .

يعني : لو كان حقاً وكان رسولاً كما يقول ، لأعطي له المال ، فيكون حاله خيراً من هذا ، وكان آل فرعون يلبسون الأساور .

قرأ عاصم في رواية حفص (أَسْوَرَةٌ) بغير ألف والباقون (أَسَاوِرَةٌ) فمن قرأ أسورة فهو جمع السوار ، ومن قرأ أساورة ، فهو جمع الجمع .

ويقال : أساور جمع سوار .

ثم قال : ﴿ أَوْجَاء مَعَهُ الملئكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعني : لو كان حقاً ، لأتته الملائكة متتابعين ، فيصدقون على مقالته ويقال ﴿ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أي : متعاونين ﴿ فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ يعني : فاستذل قومه فأطاعوه .

يعني : حملهم على الخفة ، فانقادوا له ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ يعني : كافرين عاصين ، وذلك أن فرعون قال لهم : مَا أُرِيكُم إِلاَّ مَا أَرَى ، فأطاعوه على تكذيب موسى عليه السلام ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ يعني : ناقضي العهد .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا ﴾ يعني : أغضبونا قال أهل اللغة : الأسف : الغضب .

وروى معمر عن سماك بن الفضل .

قال : كنا عند عروة بن محمد ، وعنده وهب بن منبه ، فجاء قوم فشكوا عاملهم ، وأثبتوا على ذلك ، فتناول وهب عصا كانت في يد عروة ، فضرب بها رأس العامل حتى أدماه ، فاستعابها عروة ، وكان حليماً وقال : يعيب علينا أبو عبد الله الغضب وهو يغضب ، فقال وهب : وما لي لا أغضب ، وقد غضب الذي خلق الأحلام ، إن الله تعالى يقول ﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ يعني : أغضبونا .

ويقال : فلما آسفونا ، يعني : وجب عليهم عذابنا ﴿ انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ يعني : أهلكناهم ﴿ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ يعني : لم نبق منهم أحداً .

قوله تعالى : ﴿ فجعلناهم سَلَفاً ﴾ قال مجاهد : يعني : كفار قوم فرعون ، سلفاً لكفار مكة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال قتادة : جعلناهم سلفاً إلى النار .

قرأ حمزة والكسائي (سُلْفاً) بالضم ، وقرأ الباقون (سَلَفاً) بنصب السين واللام ، فمن قرأ بالنصب فمعناه : جعلناهم سلفاً متقدمين ، ليتعظ بهم الآخرون .

ومن قرأ بالضم ، فهو جمع سليف ، أي : جمع قد مضى .

ويقال : سلفاً واحدها سلفة من الناس ، أي : قطعة .

قوله : ﴿ وَمَثَلاً لّلآخِرِينَ ﴾ يعني : عبرة لمن بعدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 239.248 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

الكتاب هو القرآن : وفي تسميته مبيناً ثلاثة أوجه :

أحدها : لأنه بيّن الحروف ، قاله أبو معاذ .

الثاني : لأنه بين الهدى والرشد والبركة ، قاله قتادة .

الثالث : لأن الله تعالى قد بين فيه أحكامه وحلاله وحرامه ، قاله مقاتل .

وفي هذا موضع القسم ، وفيه وجهان :

أحدهما : معناه ورب الكتاب .

الثاني : أنه القسم بالكتاب ، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء ، وإن لم يكن ذلك لغيره من خلقه .

وجواب القسم ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرءاناً عَرَبِيّاً ﴾ وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إنا أنزلناه عربياً ، قاله السدي .

الثاني : إنا قلناه قرآناً عربياً ، قاله مجاهد .

الثالث : إنا بيناه قرآناً عربياً ، قاله سفيان الثوري . ومعنى العربي أنه بلسان عربي ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه جعل عربياً لأن لسان أهل السماء عربي ، قاله مقاتل .

الثاني : لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه ، قاله سفيان الثوري .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تفهمون ، فعلى هذا يكون هذا القول خاصاً بالعرب دون العجم ، قاله ابن عيسى .

الثاني : يتفكرون قاله ابن زيد ، فعلى هذا يكون خطاباً عاماً للعرب والعجم .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : جملة الكتاب .

الثاني : أصل الكتاب ، قاله ابن سيرين .

الثالث : أنها الحكمة التي نبه الله عليها جميع خلقه ، قاله ابن بحر .

وفي ﴿ الْكِتَابِ ﴾ قولان :

أحدهما أنه اللوح المحفوظ ؛ قاله مجاهد .

الثاني : أنه ذكر عند الله فيه ما سيكون من أفعال العباد مقابل يوم القيامة بما ترفعه الحفظة من أعمالهم ، قاله ابن جريج .

وفي المكنى عنه أنه في أمِّ الكتاب قولان :

أحدهما : أنه القرآن ، قاله الكلبي .

الثاني : أنه ما يكون من الخلق من طاعة ومعصية وإيمان أو كفر ، قاله ابن جريج .

﴿ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ فيه وجهان :

(98/692)

أحدهما : رفيع عن أن ينال فيبدل . حكيم أي محفوظ من نقص أو تغيير ، وهذا تأويل من قال أنه ما يكون من الطاعات والمعاصي .

الثاني : أنه علي في نسخه ما تقدم من الكتب ، وحكيم أي محكم الحكم فلا ينسخ ، وهذا تأويل من قال أنه القرآن .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أفحسبتم أن نصفح ولما تفعلون ما أمرتم به ؟ قاله ابن عباس .

الثاني : معناه أنكم تكذبون بالقرآن ولا نعاقبكم فيه ، قاله مجاهد .

الثالث : أي نهملكم فلا نعرفكم بما يجب عليكم ، حكاه النقاش .

الرابع : أن نقطع تذكيركم بالقرآن : وإن كذبتم به : قاله قتادة .

ويحتمل خامساً : أن نوعد ولا نؤاخذ ، ونقول فلا نفعل .

﴿ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مشركين ، قاله قتادة .

الثاني : مسرفين في الرد .

ومعن صفحاً أي إعراضاً ، يقال صفحت عن فلان أي أعرضت عنه . قال ابن قتيبة :

والأصل فيه إنك توليه صفحة عنقك . قال كثير في صفة امرأة :

صفحٌ فما تلقاك إلا بخيلة . . . فمن قَلّ منها ذلك الوصل قلّت

أي تعرض عنه بوجهها .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : سنة الأولين ، قاله مجاهد .

الثاني : عقوبة الأولين ، قاله قتادة .

الثالث : عِبرة الأولين ، قاله السدي .

الرابع : خبر الأولين أنهم أهلكوا بالتكذيب ، حكاه النقاش .

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً ﴾ أي فراشاً .

﴿ وجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي طرقاً .

ويحتمل ثانياً : أي معايش .

﴿ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تهتدون في أسفاركم ، قاله ابن عيسى .

الثاني : تعرفون نعمة الله عليكم ، قاله سعيد بن جبير .

ويحتمل ثالثاً : تهتدون إلى معايشكم .

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : الأصناف كلها ، قاله سعيد بن جبير .

(99/692)

الثاني : أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أن الأزواج الشتاء والصيف ، والليل والنهار ، والسموات والأرض ، والشمس والقمر ، والجنة والنار ، قاله الحسن .

ويحتمل رابعاً : أن الأزواج ما يتقلب فيه الناس من خيرٍ وشر ، وإيمان وكفر ، وغنى وفقر ، وصحة وسقم .

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ يعني السفن .

﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ في الأنعام هنا قولان :

أحدهما : الإبل والبقر ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : الإبل وحدها : قاله معاذ . فذكرهم نعمه عليهم في تسييرهم في البر والبحر .

ثم قال ﴿ لِتَسْتَوُواْ عَلَى ظُهُورِهَا ﴾ وأضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس فصار الواحد في معنى الجمع .

﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي ركبتم .

﴿ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ أي ذلل لنا هذا المركب .

﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ضابطين ، قاله الأخفش .

الثاني : مماثلين في الأيد والقوة ، قاله قتادة من قولهم هو قرن فلان إذا كان مثله في القوة .

الثالث : مطيقين ، قاله ابن عباس والكلبي ، وأنشد قطرب لعمرو بن معدي كرب .

لقد علم القبائل ما عقيل . . . لنا في النائبات بمقرنينا

وفي أصله قولان :

أحدهما : أن أصله مأخوذ من الإقران ، يقال أقرن فلان إذا أطاق . الثاني : أن أصله مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض في السير .

وحكى سليمان بن يسار أن قوماً كانوا في سفر ، فكانوا إذا ركبوا قالوا : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ وكان فيهم رجل على ناقة له رازم وهي لا تتحرك هزالاً

فقال أما أنا فإني لهذه مقرن ، قال فقصمت به فدقت عنقه .

قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : عدلاً أي مثلاً ، قاله قتادة .

الثاني : من الملائكة ولداً ، قاله مجاهد .

(100/692)

الثالث : نصيباً ، قاله قطرب .

الرابع : أنه البنات ، والجزء عند أهل العربية البنات . يقال قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات . قال الشاعر :

إن أجزأت مرة قوماً فلا عجب . . . قد تجزىء الحرة المذكارُ أحيانا

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ قال الحسن : يعد المصائب وينسى النعم .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ﴾ أي بما جعل للرحمن البنات ولنفسه البنين .

﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ببطلان مثله الذي ضربه .

الثاني : بما بشر به من الأنثى .

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : حزين ، قاله قتادة .

الثاني : مكروب ، قاله عكرمة .

الثالث : ساكت ، حكاه ابن أبي حاتم . وذلك لفساد مثله وبطلان حجته .

قوله عز وجل : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ النشوء التربية ، والحلية الزينة . وفي المراد بها ثلاثة أوجه :

أحدها : الجواري ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : البنات . قاله ابن قتيبة .

الثالث : الأَصنام ، قاله ابن زيد .

وفي ﴿ الْخِصَامِ ﴾ وجهان :

أحدهما : في الحجة .

الثاني : في الجدل .

﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه عني قلة البلاغة ، قاله السدي .

الثاني : ضعف الحجة ، قال قتادة : ما حاجت امرأة إلا أوشكت أن تتكلم بغير حجتها .

الثالث : السكوت عن الجواب ، قاله الضحاك وابن زيد ومن زعم أنها الأصنام .

قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلُواْ الْمَلآئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثاً ﴾ في قوله ﴿ عِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه سماهم عباده على وجه التكريم كما قال ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾ .

الثاني : أنه جمع عابد .

وفي قوله : ﴿ إِنَاثاً ﴾ وجهان :

أحدهما : أي بنات الرحمن .

الثاني : ناقصون نقص البنات .

﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مشاهدتم وقت خلقهم .

(101/692)

الثاني : مشاهدتهم بعد خلقهم حتى علموا أنهم إناث .

﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أي ستكتب شهادتهم إن شهدوا ويسألون عنها إذا

بعثوا .

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : على دين ، قاله قتادة وعطية ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

كنا على أمة آبائنا . . . قد يقتدي الآخر بالأول

الثاني : على ملة وهو قريب من معنى الأول ، قاله مجاهد وقطرب وفي بعض المصاحف .

﴿ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى مِلَّةٍ ﴾ .

الثالث : على قبلة ، حُكي ذلك عن الفراء .

الرابع : على استقامة ، قاله الأخفش ، وأنشد النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . وهل يأثَمَن ذو أمة وهو طائع

الخامس : على طريقة ، قاله عمر بن عبد العزيز ، وكان يقرأ ﴿ عَلَى أُمَّةٍ ﴾ بكسر الألف والأمة الطريقة من قولهم أممت القوم . حكاه الفراء .

﴿ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ قال قتادة متبعون . وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، وأبي سفيان ، وأبي جهل ، وعتبة ، وشيبة ابني ربيعة من قريش .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ ﴾ البراء مصدر موضع الوصف ، لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، فكأنه قال إنني بريء .

﴿ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ وهذا استثناء منقطع وتقديره ، لكن الذي فطرني أي

خلقني :

﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ وقيل فيه محذوف تقديره إلا الذي فطرني لا أبرأ منه ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ قال ذلك ثقة بالله وتنبيهاً لقومه أن الهداية من ربه .

قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : لا إله إلا الله ، لم يزل في ذريته من يقولها ، قاله مجاهد ، وقتادة .

الثاني : ألا تعبدوا إلا الله ، قاله الضحاك .

(102/692)

الثالث : الإسلام ، لقوله تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ قاله عكرمة . وفي ﴿ عَقِبِهِ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : ولده ، قاله عكرمة .

الثاني : في آل محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله السدي .

الثالث : من خلفه ، قاله ابن عباس .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يرجعون إلى الحق ، قاله إبراهيم .

الثاني : يتوبون ، قاله ابن عباس .

الثالث : يذكرون ، قاله قتادة .

الرابع : يرجعون إلى دينك الذي هو دين إبراهيم ، قاله الفراء .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أما القريتان فإحداهما مكة والأخرى الطائف .

وأما عظيم مكة ففيه قولان : أحدهما : أنه الوليد بن المغيرة ، قاله ابن عباس .

الثاني : عتبة بن ربيعة ، قاله مجاهد .

وأما عظيم الطائف ففيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه حبيب بن عمر الثقفي ، قاله ابن عباس .

الثاني : [عمير] بن عبد ياليل ، [الثقفي] قاله مجاهد .

الثالث : عروة بن مسعود ، قاله قتادة .

الرابع : أنه كنانة [عبد] بن عمرو ، قاله السدي .

قوله عز وجل : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعني النبوة فيضعوها حيث شاءوا .

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني أرزاقهم ، قال قتادة : فتلقاه ضعيف القوة قليل الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتر عليه .

﴿ وَرَفَعَنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : بالفضائل ، فمنهم فاضل ومنهم مفضول ، قاله مقاتل .

الثاني : بالحرية والرق ، فبعضهم مالك وبعضهم مملوك .

الثالث : بالغنى والفقر ، فبعضهم غني ، وبعضهم فقير .

الرابع : بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الخامس : قاله السدي ، التفضيل في الرزق إن الله تعالى قسم رحمته بالنبوة كما قسم الرزق بالمعيشة .

(103/692)

﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني خدماً ، قاله السدي .

الثاني : ملكاً ، قاله قتادة .

﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن النبوة خير من الغنى .

الثاني : أن الجنة خير من الدنيا .

الثالث : أن إتمام الفرائض خير من كثرة النوافل .

الرابع : أن ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم ، قاله بعض أصحاب الخواطر .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على دين واحد كفاراً ، قاله ابن عباس والسدي .

الثاني : على اختيار الدنيا على الدين ، قاله ابن زيد .

﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها أعالي البيوت ، قاله قتادة ، ومجاهد .

الثاني : الأبواب ، قاله النقاش .

﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ قال ابن عباس : المعارج الدرج ، وهو قول الجمهور وأحدها معراج .

﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أي درج من فضة عليها يصعدون ، والظهور الصعود . وأنشد :

نابغة بني جعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

علونا السماء عفة وتكرما . . . وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " إِلَى أَينَ " قال : إلى الجنة .

قال : " أَجَل إِن شَاءَ اللَّهُ " قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك

فكيف لو فعل ؟

﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الذهب : قاله ابن عباس . وأنشد قطرب قول ذي الأصبع :

زخآرف أشباهاً تخال بلوغها . . . سواطع جمر من لظى يتلهب

الثاني : الفرش ومتاع البيت ، قاله ابن زيد .

الثالث : أنه النقوش ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعرض ، قاله قتادة .

الثاني : يعمى ، قاله ابن عباس .

(104/692)

الثالث : أنه السير في الظلمة ، مأخوذ من العشو وهو البصر الضعيف ، ومنه قول الشاعر :

لنعم الفتى تعشو إلى ضوءِ ناره . . . إذا الريحُ هبّت والمكان جديب

وفي قوله : ﴿ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : عن ذكر الله ، قاله قتادة .

الثاني : عما بيّنه الله من حلال وحرام وأمر ونهي ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثالث : عن القرآن لأنه كلام الرحمن ، قاله الكلبي .

﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نلقيه شيطاناً .

الثاني : نعوضه شيطاناً ، مأخوذ من المقايضة وهي المعاوضة .

﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه شيطان يقيض له في الدنيا يمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام ، وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثاني : هو أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره شفع بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصير بهما الله إلى النار ، قاله سعيد بن جبير .

قوله عز وجل : ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءَنَا ﴾ قرأ على التوحيد أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ، يعني ابن آدم ، وقرأ الباقون ﴿ جَاءَانَا ﴾ على التثنية يعني ابن آدم وقرينه .

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعُدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ هذا قول ابن آدم لقرينه وفي المشرقين قولان :

أحدهما : أنه المشرق والمغرب فغلب أحدهما على الآخر كما قيل : سنة العمرين ، كقول الشاعر :

أخذنا بآفاق السماء عليكم . . . لنا قمراها والنجوم الطوالع

الثاني : أنه مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، كقوله تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه قولان :

أحدهما : إما نخرجنك من مكة من أذى قريش فإنا منهم منتقمون بالسيف يوم بدر .

(105/692)

الثاني : فإما نقبض روحك إلينا فإنا منتقمون من أمتك فيما أحدثوا بعدك . وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم أُرِي ما لقيت أمته بعده فما زال منقبضاً ما انبسط ضاحكاً حتى لقي الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ يعني القرآن ذكر لك [ولقومك] .

وفي ﴿ لَذِكْرٌ ﴾ قولان :

أحدهما : الشرف ، أي شرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه لذكر لك ولقومك تذكرون به أمر الدين وتعملون به ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وَلِقَوْمِكَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : من اتبعك من أمتك ، قاله قتادة .

الثاني : لقومك من قريش فيقال : ممن هذا الرجل ؟ فيقال : من العرب ، فيقال : من أي العرب ؟ فيقال : من قريش ، قاله مجاهد .

﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن الشكر ، قاله مقاتل .

الثاني : أنت ومن معك عما أتاك ، قاله ابن جريج .

وحكى ابن أبي سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس في قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أنه قول الرجل حدثني أبي عن جدي .

قوله عز وجل : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني الأنبياء الذين جمعوا له ليلة الإسراء ، قاله ابن عباس ، وابن زيد ، وكانوا سبعين نبياً منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أهل الكتابين التوراة والإنجيل ، قاله قتادة ، والضحاك ، ويكون تقديره سل أمم من أرسلنا من قبلك من رسلنا .

الثالث : جبريل ، ويكون تقديره . واسأل عما أرسلنا من قبلك من رسلنا ، حكاه النقاش .

﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وسبب هذا الأمر بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك ، فأمره الله بسؤالهم لا لأنه كان في شك منه . واختلف في سؤال النبي صلى الله عليه وسلم لهم على قولين :

(106/692)

أحدهما : أنه سألهم ، فقالت الرسل بعثنا بالتوحيد ، قاله الواقدي .

الثاني : أنه لم يسأل ليقينه بالله تعالى ، حتى حكى ابن زيد أن ميكائيل قال لجبريل : هل سألك محمد ذلك ؟ فقال جبريل : هو أشد إيماناً وأعظم يقيناً من أن يسألني عن ذلك .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُواْ يَأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنهم قالوا على وجه الاستهزاء ، قاله الحسن .

الثاني : أنه يجري على ألسنتهم ما ألفوه من اسمه ، قاله الزجاج .

الثالث : أنهم أرادوا بالساحر غالب السحرة ، وهو معنى قول ابن بحر .

الرابع : أن الساحر عندهم هو العالم ، فعظموه بذلك ولم تكن صفة ذم ، حكاه ابن عيسى وقاله الكلبي .

﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ قال مجاهد : لئن أمنا لتكشف العذاب عنا ، قال الضحاك ، وذلك أن الطوفان أخذهم ثمانية أيام لا يسكن ليلاً ولا نهاراً .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ أي يغدرون وكان موسى دعا لقومه فأجيب فيهم فلم يفوا .

قوله عز وجل : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن معنى نادى أي قال ، قاله أبو مالك .

الثاني : أمر من نادى في قومه ، قاله ابن جريج .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنها الإسكندرية ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه ملك منها أربعين فرسخاً في مثلها ، حكاه النقاش .

﴿ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : كانت جنات وأنهاراً تجري من تحت قصره ، قاله قتادة . وقيل من تحت سريره .

الثاني : أنه أراد النيل يجري من تحتي أي أسفل مني .

الثالث : أن معنى قوله : ﴿ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ أي القواد والجبابرة يسيرون تحت لوائي ، قاله الضحاك .

ويحتمل رابعاً : أنه أراد بالأنهار الأموال ، وعبر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها وقوله ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ أي أفرقها على من يتبعني لأن الترغيب والقدرة في الأموال في الأنهار .

﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أفلا تبصرون إلى قوتي وضعف موسى ؟ .

الثاني : قدرتي على نفعكم وعجز موسى .

ثم صرح بحاله فقال ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ قال السدي : بل أنا خير .

﴿ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أي ضعيف ، قاله قتادة .

الثاني : حقير ، قاله سفيان .

الثالث : لأنه كان يمتهن نفسه في حوائجه ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي يفهم ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني أنه عيي اللسان ، قاله قتادة .

الثاني : أَلثغ قاله ، الزجاج .

الثالث : ثقيل اللسان لجمرة كان وضعها في فيه وهو صغير ، قاله سفيان .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزي أهل الشرف .

الثاني : ليكون ذلك دليلاً على صدقه ، والأساورة جمع أسورة ، والأسورة جمع سوار .

﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : متتابعين ، قاله قتادة .

الثاني : يقارن بعضهم بعضاً في المعونة ، قاله السدي .

الثالث : مقترنين أي يمشون معاً ، قاله مجاهد .

وفي مجيئهم معه قولان :

أحدهما : ليكونوا معه أعواناً ، قاله مقاتل .

الثاني : ليكونوا دليلاً على صدقه ، قاله الكلبي . وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف ، وقد كان في الجائز أن يكذب مع مجيء الملائكة كما يكذب مع ظهور الآيات .

وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم .

قوله عز وجل : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : استفزهم بالقول فأطاعوه على التكذيب ، قاله ابن زياد .

الثاني : حركهم بالرغبة فخفوا معه في الإجابة ، وهو معنى قول الفراء .

الثالث : استجهلهم فأظهروا طاعة جهلهم ، وهو معنى قول الكلبي . الرابع : دعاهم إلى باطله فخفوا في إجابته ، قاله ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أغضبونا ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

الثاني : أسخطونا ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . ومعناهما مختلف ، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهة ، والغضب إرادة الانتقام .

والأسف هو الأسى على فائت . وفيه وجهان :

أحدهما : أنه لما جعل هنا في موضع الغضب صح أن يضاف إلى الله لأنه قد يغضب على من عصاه .

الثاني : أن الأسف راجع إلى الأنبياء لأن الله تعالى لا يفوته شيء ، ويكون تقديره : فلما آسفوا رسلنا انتقمنا منهم .

قوله عز وجل : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام ، وفيه تأويلان :

أحدهما : أهواء مختلفة ، قاله ابن عباس .

الثاني : جمع سلف أي جميع من قد مضى من الناس ، قاله ابن عيسى .

وقرأ الباقون بفتح السين واللام ، أي متقدمين ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها ، سلفاً في النار ، قاله قتادة .

الثاني : سلفاً لكفار أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله مجاهد .

الثالث : سلفاً لمثل من عمل مثل عملهم ، قاله أبو مجلز .

﴿ وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عظة لغيرهم ، قاله قتادة .

الثاني : عبرة لمن بعدهم ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(109/692)

وقال الثعلبى :

﴿ حم* والكتاب المبين * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ . أي أنزلناه وسميناه وبيّناه ووصفناه . كقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ [الزخرف : 19] ، وقوله : ﴿ الذين جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ﴾ [الحجر : 91] ، وقوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج ﴾ [التوبة : 19] . كلّها بمعنى الوصف والتسمية ويستحيل أن يكون بمعنى الخلق . ﴿ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ ﴾ يعني هذا الكتاب . ﴿ فِي أُمِّ الكتاب ﴾ يعني اللوح المحفوظ الّذي عند الله تعالى منه ينسخ ، وقال قتادة : أصل الكتاب وجملته .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان ، أخبرنا مكي بن عيدان ، حدثنا عبد الله بن هاشم بن حيان ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا هشام الدستوائي ، حدثني القاسم بن أبي يزه ، حدثني عروة بن عامر القريشي ، قال : سمعت ابن عباس يقول : إنّ أول ما خلق الله تعالى القلم وأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق والكتاب عنده ثمّ قرأ ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكتاب ﴾ .

﴿ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ . اختلفوا في معناه . فقال قوم : أفنضرب عنكم العذاب ونمسك ونعرض عنكم ونترككم فلا نعاقبكم على كفركم ، وهذا قول مجاهد والسدي ، ورواية الوالبي عن ابن عباس . قال : أفحسبتم إنّه يصفح عنكم ولما تعقلوا ما أَمرتم به ، وقال آخرون : معناه أفنمسك عن إنزال القرآن ونتركه من أجل أنّكم لا تؤمنون به فلا ننزله ولا نكرره عليكم ، وهذا قول قتادة وابن زيد .

وقال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رُفع حين ردّه أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة . أو ما شاءَ الله من ذلك .

وقال الكلبي : أفنترككم سدى لا نأمركم ولا ننهاكم . الكسائي : أفنطوي عنكم الذكر طيًّا ، فلا تدعون ولا توعظون .

وهذا من فصيحات القرآن ، والعرب تقول لمن أَمسك عن الشيء وأعَرض عنه : ضرب عنه صفحاً ، والأصل في ذلك إنّك إذا أعرضت عنه ولّيته صفحة عنقك ، قال كثير :

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلَةً . . . فمن ملّ منها ذلك الوصل مَلّتِ

أي معرضة بوجهها ، وضربت عن كذا وأَضربت ، إذا تركته وأمسكت عنه .

﴿ أَن كُنتُمْ ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة إلاّ عاصماً أَن تُكتب الألف على معنى إذ . كقوله : ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 278] ، وقوله : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ [النور : 33] .

وقرأ الآخرون بالفتح على معنى لأنّ كنتم أرادوا على معنى المضي كما يقول في الكلام : أَسبّك إن حرمتني ، يريد إذا حرمتني . قال أبو عبيدة : والنّصبُ أَحبُّ إليَّ ؛ لأنّ الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم وعلمه قبل ذلك من فعلهم .

﴿ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ مُشركين متجاوزين أمر الله . ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأولين * وَمَا يَأْتِيهِم ﴾ .

أي وما كان يأتيهم . ﴿ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك . يعزّي نبيه

صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ قوة . ﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ صفتهم وسنتهم وعقوبتهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم * الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * والذي نَزَّلَ مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ ﴾ أي بمقدار حاجتكم إليه . ﴿ فَأَنشَرْنَا ﴾ فأحيّينا . ﴿ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ ﴾ أي كما أحيّينا هذه البلدة الميتة بالمطر كذلك . ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم أَحياء .

(111/692)

﴿ والذي خَلَقَ الأزواج ﴾ الأصناف . ﴿ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ ذكر الكناية لأنّه ردها إلى ما ، وقال الفراء : أضاف الظهور إلى الواحد لأنّه ذلك الواحد في معنى الجمع كالجند والجيش والرهط والخيل ونحوها من أسماء الجيش .

﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مطبقين ضابطين قاهرين وهو من القرآن ، كأنّه أراد وما كنا مقاومين له في القوة . ﴿ وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ لمنصرفون في المعاد .

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري ، حدثنا سعيد بن محمد بن اسحاق الصيرفي ، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شنبه ، حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى ، حدثنا أبي عن ابن أبي ليلى ، عن الحكم ، عن علي بن ربيعة ، عن علي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم إنّه كان إذا وضع رجله في الركاب ، قال : " بسم الله " فإذا إستوى على الدابة . قال : " الحمد لله على كلّ حال ﴿ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ " ، وكبّر ثلاثاً وهلل ثلاثاً .

وقال قتادة : في هذه الآية يُعلمكم كيف تقولون إذا ركبتم في الفلك والأنعام تقولون : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ المنزلين ﴾ [المؤمنون : 29] .

﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ أي نصيباً وبعضاً .

وقال مقاتل وقتادة : عدلاً وذلك قولهم للملائكة هم بنات الله تعالى .

﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم ﴾ أخلصكم وخصصكم . ﴿ بالبنين ﴾ نظيره قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً ﴾ [الإسراء : 40] .

(112/692)

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ يعني البنات . دليلها في النّحل ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ من الحزن والغيظ .

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا ﴾ قرأها أهل الكوفة بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين على غير تسمية الفاعل . أي يُربي غيرهم ﴿ يَنْشَؤا ﴾ بفتح الياء وجزم النون وتخفيف الشين ، أي ينبت ويكبر . ﴿ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ في الزينة ، يعني النساء . قال مجاهد : رخّص للنساء في الحرير والذهب ، وقرأ هذه الآية .

أخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا محمد بن الحسين الزعفراني ، حدثنا يحيى بن جعفر بن أبي طالب ، حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن سعيد بن أبي هند ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الذهب والحرير حرام على ذكور أمتي ، حلّ لأُناثهم " .

﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ للحجة من ضَعفهنَّ وسَفَههُنَّ . قال قتادة في هذه الآية : قلما تتكلم امرأة بحجّتها إلاّ تكلمت الحجة عليها ، وفي مصحف عبد الله (وهو في الكلام غير مبين) .

وقال بعض المفسرين : عني بهذه الآية أوثانهم الّتي كانوا يعبدونها ويحلّونها ويزينونها وهي لا تتكلم ولا تنبس . قال ابن زيد : هذه تماثيلهم الّتي يضربونها من فضة وذهب ، وينشؤنها في الحلية يتعبدونها . في محلّ من ثلاثة وجوه : الرفع على الإبتداء ، والنصب على الإضمار ،

مجازه : أو من ينشاء يجعلونه ربّاً أو بنات الله ، والخفض ردّاً على قوله : ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ وقوله : ﴿ بِمَا ضَرَبَ ﴾ . .

﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة ﴿ عِبَادُ الرحمن ﴾ بالألف والياء ، وأختاره أبو عبيد قال : لأن الإسناد فيها أعلى ولأنّ الله تعالى إنّما كذبهم في قوله : ﴿ بَنَاتٍ الله ﴾ فأخبر إنّهم عبيده وليسوا بناته ، وهي قراءة ابن عباس .

(113/692)

أخبرنا محمد بن نعيم ، أخبرنا الحسين بن أيوب ، أخبرنا علي بن عبد العزيز ، أخبرنا القاسم بن سلام ، حدثنا هيثم عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، إنَّهُ قرأها ﴿ عِبَادُ الرحمن ﴾ .

قال سعيد : فقلت لابن عباس : إنَّ في مصحفي عبد الرّحمن . فقال : إمسحها وإكتبها ﴿ عِبَادُ الرحمن ﴾ ، وتصديق هذه القراءة ، قوله ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] ، وقرأ الآخرون عند الرّحمن بالنون وإختاره أبو حاتم ، قال : لأن هذا مدح ، وإذا قلت : ﴿ عِبَادُ الرحمن ﴾ وتصديقها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ .

﴿ أَشَهِدُواْ ﴾ أَحَضِرُوا ﴿ خَلْقَهُمْ ﴾ حتّى يعرفوا إنّهم أناث ، وقرأ أهل المدينة ﴿ أَشَهِدُواْ ﴾ على غير تسمية الفاعل أي أَحضروا . ﴿ خَلْقَهُمْ ﴾ حين خلقوا .

﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ على الملائكة إنّهم بنات الله ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾ عنها .

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ يعني الملائكة في قول قتادة ومقاتل والكلبي ، وقال مجاهد : يعني الأوثان ، وإنَّما لم يعجل عقوبتنا على عبادتنا إياها لرضا منا بعبادتها .

قال الله تعالى : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فيما يقولون ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ يكذبون .

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل هذا القرآن . ﴿ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قالوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَآءَنَا على أُمَّةٍ ﴾ دين . ﴿ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ وقراءة العامة (أُمة) بضم الألف ، وهي الدين والملة ، وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد اَمة بكسر الألف وإختلفوا في معناها ، فقيل : هي الطريقة والمقصد من قولهم أممت ، وقيل : هي النعمة .

قال عدي بن زيد : ثمّ بعد الفلاح والملك والأمة وأريهم هناك القبور ، وقيل : هما لغتان بمعنى واحد .

(114/692)

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ مستنون متبعون .

﴿ قال ﴾ قراءة العامة على الأمر ، وقرأ ابن عامر على الخبر ومثله روى حفص بن عاصم . ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ ﴾ بالألف أبو جعفر . الباقون جئتكم على الواحد . ﴿ بأهدى ﴾ بدين أصوب . ﴿ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قالوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فانتقمنا مِنْهُمْ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ ﴾ أي بريء ، ولا يثنى البراء ولا يجمع ولا يؤنث لأنّه مصدر وضع موضع النعت ، وفي قراءة عبد الله (بريء) بالياء . ﴿ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ خلقني ، ومجاز الآية : إنّني براء من كلّ معبود إلاّ الّذي فطرني .

﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى دينه . ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ يعني هذه الكلمة والمقالة ﴿ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ قال مجاهد وقتادة : يعني لا إله إلاّ الله ، وقال القرظي : يعني وجعل وصية إبراهيم الّتي أوصى بها بنيه باقية في نسله وذريته وهي الّتي ذكرها الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ ووصى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾ [البقرة : 132] ، وقال ابن زيد : يعني قوله : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ﴾ [البقرة : 131] وقرأ ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين ﴾ [الحج : 78] .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ من كفرهم إلى الطاعة ويتوبون ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هؤلاء وَآبَاءَهُمْ ﴾ في

الدّنيا فلم أهلكهم ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم . ﴿ حتى جَآءَهُمُ الحق ﴾ القرآن ، وقال الضحاك : الإسلام . ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ يبين لهم الأعلام والأحكام وهو محمد صلى الله عليه وسلم

(115/692)

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق ﴾ القرآن ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ . يعني من إحدى القريتين ولم يختلفوا في القريتين إنَّهما مكّة والطائف ، وإختلفوا في الرجلين من هما . قال ابن عباس : الوليد بن المغيرة من مكّة وكان يسمى ريحانة قريش ، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من الطائف .

وقال مجاهد : عتبة بن الربيع من مكّة وابن عبد ياليل الثقفي من الطائف . قتادة : هما الوليد بن المغيرة المخزومي ، وأبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي ، وقال السدي : الوليد بن المغيرة وكنانة بن عبد عمرو بن عمير .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ نبوته وكرامته فيجعلونها لمن شاءوا . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً وهذا ملكاً وهذا مملوكاً ، وقرأ ابن عباس وابن يحيى (معايشهم) ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ أي ليُسخّر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل ويستخدمونهم ليكون بعضهم لبعض سبب المعاش في الدّنيا ، هذا بماله وهذا باعماله ؛ هذا قول السدي وابن زيد ، وقال قتادة والضحاك : يعني ليملك بعضهم بعضاً فهذا عبد هذا ، وقيل : يسخر بعضهم من بعض ، وقيل : يتسخر بعضهم بعضاً . ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾ يعني الجنّة ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ في الدنيا من الأموال ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مجتمعين على الكفر فيصيروا كلّهم كفّاراً . هذا قول أكثر المفسرين ، وقال ابن زيد : يعني : ولولا أن يكون النّاس أُمة واحدة في طلب الدّنيا وإختيارها على العقبى .

(116/692)

﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحميد ويحيى بن وثاب (سَقُفاً) بفتح السين على الواحد ومعناه الجمع إعتباراً بقوله : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : 26] ، وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمع . يقال سقف وسُقّف مثل رهن ورُهّن . قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما ، وقيل : هو جمع سقيف ، وقيل : هو جمع سقوف وجمع الجمع .

﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ أي مصاعد ومراقي ودرجاً وسلاليم ، وقرأ أبو رجاء العطاردي (ومعاريج) وهما لغتان واحدهما معراج مثل مفاتح ومفاتيح .

﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ يعلون ويرتقون ويصعدون بها ، ظهرت على السطح إذا علوته . قال النابغة الجعدي :

بلّغنا السماء مجدنا وسناؤنا . . . وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

أي مصعداً .

﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً ﴾ من فضة ﴿ وَسُرُراً ﴾ من فضة ﴿ عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً ﴾ أي ولجعلنا لهم مع ذلك ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ وهو الذهب نظير بيت مزخرف ، ويجوز أن يكون معناه من فضة وزخرف فلما نزع الخافض نصب .

﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحياة الدنيا ﴾ شدده عاصم وحمزة على معنى ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحياة الدنيا ﴾ [الزخرف : 35] ، وخففه الآخرون على معنى . ﴿ ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا ﴾ [آل عمران : 14] فتكون [لغة] الواصلة ﴿ والآخرة عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ للمؤمنين .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان ، أخبرنا أحمد بن شاذان ، أخبرنا جيغويه بن محمد ، حدثنا صالح بن محمد ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن أبان ، عن سليمان بن القيس العامري ،

عن كعب . قال : إنّي لأجد في بعض الكتب : لولا أن يحزن عبدي المؤمن لكللت رأس الكافر بأكاليل فلا يصدع ولا ينبض منه عرق يوجع .

(117/692)

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه ، حدثنا عبد الله بن محمد بن شنبه ، حدثنا الفربابي ، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن ثعلبة بن مسلم ، عن مسلم بن أبي المجرد ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنّه كان يقول : لو أنّ رجلاً هرب من رزقه لإتبعه حتّى يدركه ، كما إنّ الموت يدرك من هرب منه له أجل هو بالغه ، أو أثر هو واطئة ورزق هو آكله وحرف هو قائله فاتقوا الله وإجملوا في الطلب ، فلا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بمعصية الله تعالى ، فإنّ الله لا ينال ما عنده إلاّ بطاعته ، ولن يُدرك ما عنده بمعصيته . فأتقوا الله وإجملوا في الطلب .

﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ يعرض ﴿ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ فلم يخف عقابه ولم يرج ثوابه .

وقال الضحاك : يمض قدماً . القرظي : يولّ ظهره على ذكر الرّحمن وهو القرآن . أبو عبيدة والأخفش : أي تظلم عينه ، الخليل بن أحمد : أصل العشو النظر ببصر ضعيف ، وأنشد في معناه :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره . . . تجد خير نار عندها خير موقد

وروى نوفل بن أبي عقرب عن ابن عباس إنَّه قرأ ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ بفتح الشين ومعناه : "من يعم" . يقال منه : عشي يعشي عشياً إذا عمي ، ورجل أعشى وامرأة عشواء ، ومنه قول الأعشى :

رأت رجلا غائب الوافدين . . . مختلف الخلق أعشى ضريرا

﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ أي نظمه إليه ونسلّطه عليه ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ فلا يفارقه . ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ يعني الشياطين ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ يعني الكافرين . ﴿ عَنِ السبيل وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حتى إِذَا جَآءَنَا ﴾ قرأ أهل العراق وابن محيص على الواحد يعنون الكافر ، واختاره أبو عبيد وقرأ الآخرون ﴿ جَآءَنَا ﴾ على التشبيه يعنون الكافر وقرينه .

﴿ قَالَ ﴾ الكافر للشيطان . ﴿ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ أي المشرق والمغرب ، فقلب اسم أحدهما على الآخر ، كما قال الشاعر :

(118/692)

أخذنا بآفاق السّماء عليكم . . . لنا قمراها والنجوم الطوالع

يعني الشمس والقمر ، ويقال للغداة والعشي : العصرات ، قال حميد بن ثور :

ولن يلبث العصران يوم وليلة . . . إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

وقال آخر :

وبصرة الأزد منا والعراق لنا . . . والموصلان ومنا المصر والحرم

أراد الموصل والجزيرة ، ويقال للكوفة والبصرة : البصرتان ، ولأبي بكر وعمر " رضي الله عنهما " : العمران ، وللسبطين : الحسنان ، وقال بعضهم : أراد بالمشرقين ، مشرق الصيف ومشرق الشتاء . كقوله تعالى : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [الرحمن : 17] . ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ قال أبو سعيد الخدري : إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشيطان فلا يفارقه حتّى يصير إلى النّار .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم ﴾ في الآخرة ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ أشركتم في الدّنيا ﴿ أَنَّكُمْ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ يعني لن ينفعكم إشراككم في العذاب لأنّ لكلّ واحد نصيبه الأوفر منه فلا يخفف عنكم العذاب لأجل قرنائكم .

وقال مقاتل : لن ينفعكم الإعتذار والندم اليوم لأنّكم أنتم وقرناؤكم مشتركون اليوم في العذاب كما كنتم مشتركين في الكفر .

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِي العمي وَمَن كَانَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني الكافرين الّذين حقّت عليهم كلمة العذاب فلا يؤمنون .

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ فنميتك قبل أن نعذبهم . ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْنَاهُمْ ﴾ فنعذبهم في حياتك .

(119/692)

﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ قال أكثر المفسرين : أراد به المشركين من أهل مكّة فإنتقم منهم يوم بدر ، وقال الحسن وقتادة : عني به أهل الإسلام من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد كان بعد نبي الرحمة نقمة شديدة فأكرم الله نبيه وذهب به ، ولم يُره في أمته إلاّ الّذي تقر عينه ، وأبقى النقمة بعده ، وليس من نبي إلاَّ أُرى في أُمته العقوبة ، وذكر لنا إنّ النبي صلى الله عليه وسلم أُري ما يصيب أمته بعده فما رُئيَ ضاحكاً منبسطاً حتّى قبضه الله تعالى .

﴿ فاستمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن . ﴿ لَذِكْرٌ لَّكَ ﴾ لَشرفٌ لك ﴿ وَلِقَوْمِكَ ﴾ من قريش ، نظيره قوله : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] أي شرفكم . ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ عن حقّه وأداء شكره .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه الدينوري ، حدثنا أبو علي بن حبش المقري ، حدثنا أبو بكر ابن محمد بن أحمد بن إبراهيم الجوهري ، حدثنا عمي ، حدثنا سيف بن عمر الكوفي ، عن

وائل أبي بكر ، عن الزهيري ، عن عبد الله وعطيه بن الحسن ، عن أبي أيوب ، عن علي ، عن الضحاك ، عن ابن عباس . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكّة ، ويعدهم الظهور ، فإذا قالوا لمن الملك بعدك ، أمسك ، فلم يخبرهم بشيء ، لأنّه لم يؤمر في ذلك بشيء حتّى نزل ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ . فكان بعد ذلك إذا سُئل ، فقال : لقريش ، فلا يجيبونه ، وقبلته الأنصار على ذلك .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه الدينوري ، حدثنا نصر بن منصور بن جعفر النهاوندي ، حدثنا أحمد بن يحيى بن الجاورد ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد ، عن العمري ، عن نافع ، عن ابن عمر ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يزال هذا الامر في قريش ما بقي من النّاس إثنان " .

(120/692)

أخبرنا عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد الناهد ، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج ، حدثنا الحسن بن ناصح ومحمد بن يحيى ، قالا : حدثنا نعيم بن عماد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن محمد بن حسن بن مطعم ، عن معاوية ، قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يزال هذا الأمر في قريش لا

يعاديهم أحد إلاَّ كُبّ على وجهه ما أقاموا الدّين " .

أخبرنا عبيد الله بن محمد الزاهد ، أخبرنا أبو العباس السراج ، حدثنا إبراهيم بن عبد الرحيم ، حدثنا هوذه بن خليفة ، حدثنا عوف ، عن زياد بن محراق ، عن أبي كنانة ، عن أبي موسى ، قال : قام النبي صلى الله عليه وسلم على باب البيت وفيه نفرٌ من قريش ، فأخذ بعضادي الباب ، ثمّ قال : " هل في البيت إلاَّ قريشي ؟ " قالوا : لا يا رسول الله . إلاّ ابن إخت لنا ، قال : " ابن إخت القوم منهم " ثم قال : " لا يزال هذا الأمر في قريش ما داموا إذا حكموا فعدلوا ، واسترحموا فرحموا ، وعاهدوا فوفوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً " .

أخبرنا عبيد الله الزاهد ، حدثنا أبي العباس السراج ، حدثنا إبراهيم بن عبد الرحيم ، حدثني موسى بن داود وخالد بن خداش ، قالا : حدثنا بُكير بن عبد العزيز ، عن يسار بن سلامة ، عن أبي بردة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" الأُمراء من قريش ، لي عليهم حقّ ولهم عليكم حقّ ما فعلوا ثلاثاً : ما حكموا فعدلوا ، وإسترحموا فرحموا ، وعاهدوا فوفوا " .

زاد خالد : "فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين" .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا عبيد الله بن محمد بن شنبه ، قال : سمعت أبي يقول : سمعت

مالك بن أنس يقول : في قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قال : قول الرجل : حدثني أبي ، عن جدي .

(121/692)

﴿ وَسْئَلْ ﴾ يا محمد . ﴿ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ .

اختلف العلماء في هؤلاء المسؤولين . فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي وعطاء بن أبي رباح والحسن والمقاتلان : هم المؤمنون أهل الكتابين ، وقالوا : هي في قراءة عبد الله وأبي (وأسئل الّذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا) ، وقال ابن جبير وابن زيد : هم الأنبياء الّذين جمعوا له ليلة أُسري به ببيت المقدس .

أخبرنا ابن فنجويه حدثنا موسى بن محمد ، حدثنا الحسن بن علوية ، حدثنا إسماعيل بن عيسى ، حدثنا المسيب ، قال : قال : أبو جعفر الدمشقي : سمعت الزهري يقول : لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم صلى خلفه تلك الليلة كلّ نبي كان أُرسل فقيل للنبي (عليه السلام) : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ .

أخبرنا الحسين بن محمد الدينوري ، حدثنا أبو الفتح محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين

الأزدي الموصلي ، حدثنا عبد الله بن محمد بن غزوان البغدادي . حدثنا علي بن جابر ، حدثنا محمد بن خالد بن عبد الله ومحمد بن إسماعيل ، قالا : حدثنا محمد بن فضل ، عن محمد ابن سوقة ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم : " أتاني ملك فقال : يا محمد ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ على ما بعثوا ، قال : قلت : على ما بعثوا ، قال : على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب " .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَآ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العالمين * فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ وبها يستهزؤن ويكذبون .

(122/692)

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ قرينتها وصاحبتها الّتي كانت قبلها . ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بالعذاب ﴾ بالسنين والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا ﴾ لما عاينوا العذاب . ﴿ ياأيه الساحر ﴾ يا أيها العالم الكامل الحاذق ، وإنَّما قالوا هذا توقيراً وتعظيماً منهم ، لأنّ السحر كان عندهم علماً عظيماً وصفة ممدوحه ، وقيل : معناه يا أيها الّذي غلبنا بسحره ، كقول العرب : خاصمته فخصمته ،

ونحوها .

ويحتمل إنّهم أرادوا به الساحر على الحقيقة عيّباً منهم إياه ، فلم يناقشهم موسى (عليه السلام) في مخاطبتهم إياه بذلك رجاء أن يؤمنوا .

﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي بما أخبرتنا عن عهده إليكَ إنَّا إن آمنا كُشف عنا ، فاسأله يكشف عنا . ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ مؤمنون .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ ينقضون عهدهم ويصرّون على كفرهم ويتمارون في غيهم .

﴿ ونادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يا قوم أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار ﴾ يعني أنهار النيل ومعظمها أربعة : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس . ﴿ تَجْرِي مِن تحتي ﴾ بين يدي وجناتي وبساتيني ، وقال ابن عباس : حولي . عطاء : في قبضتي وملكي . الحسن : بأمري .

﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَآ خَيْرٌ ﴾ بل أنا بخير . (أم) بمعنى بل ، وليس بحرف على قول أكثر المفسرين ، وقال الفراء : وقوم من أهل المعاني الوقوف على قوله (أَم) ، وعنده تمام الكلام .

وفي الآية إضمار ومجازها : أفلا تبصرون أم لا تبصرون أم إبتداء ، فقال : أنا خير ﴿ مِّنْ

هذا الذي هُوَ مَهِينٌ ﴾ ضعيف حقير يعني موسى (عليه السلام) . ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يفصح بكلامه وحجته ، لعيّه ولعقدته والرنة الّتي في لسانه .

(123/692)

﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ ﴾ إن كان صادقاً ﴿ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ قرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم وحفص ﴿ أَسْوِرَةٌ ﴾ على جمع السوار ، وقرأ أبي : أساور ، وقرأ ابن مسعود : أساوير ، وقرأ العامة : أساورة بالألف على جمع الأسورة وهو جمع الجمع .

وقال أبو عمرو بن العلاء : واحد الأساورة والأساور والأساوير أساور ، وهي لغة في السوار . قال مجاهد : كانوا إذا استودوا رجلاً سوّروه بسوار ، وطوّقوه بطوق من ذهب يكون ذلك دلالة لسيادته وعلامة لرّياسته . فقال فرعون : هلا ألقى ربّ موسى أسورة من ذهب .

﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ متابعين يقارن بعضهم بعضاً يمشون معه شاهدين له . قال الله تعالى : ﴿ فاستخف قَوْمَهُ ﴾ القبط وجدهم جهالاً . ﴿ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه ، حدثنا ابن مالك ، حدثنا ابن حنبل ، حدثنا أبي ، حدثنا

الوليد بن مسلم ، قال : قال الضحاك بن عبد الرحيم بن أبى حوشب : سمعت بلال بن سعد يقول : قال أبو الدرداء : لو كانت الدّنيا تزن عند الله جناح ذباب ما سقي فرِعون منها شراباً .

﴿ فَلَمَّآ آسَفُونَا ﴾ أغضبونا ، وقال الحسين بن الفضل : خالفونا ﴿ انتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ﴾ قرأ علي وابن مسعود بضم السين وفتح اللام ، وقال المؤرخ والنضر بن شميل : هي جمع سلفة ، مثل طرقة وطرق ، وغرفة وغرف ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي بضم السين واللام ، قال الفراء : هو جمع سليف ، وحكي عن القاسم بن معين إنّه سمع العرب تقول : مضى سليف من الناس ، وقال أبو حاتم : سَلف وسُلف واحد ، مثل خَشَب وخُشُب ، وثَمَر وثُمُر وقرأ الباقون فتح السين واللام على جمع السالف مثل حارس وحرس ، وراصد ورّصد ، وهم جميعاً : الماضون المتقدمون من الأمم .

﴿ وَمَثَلاً ﴾ عبرة . ﴿ لِّلآخِرِينَ ﴾ لمن يجيء بعدهم ، قال المفسرون : سلفاً لكفّار هذه الأمة إلى النّار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 327 . 340 ﴾

(124/692)

وقال الزمخشرى :

سورة الزخرف

مكية . وقال مقاتل : إلا قوله وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا وهي تسع وثمانون آية

[نزلت بعد الشورى] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزخرف (43) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا جوابا للقسم «1»

---

(1) . قال محمود : «أقسم بالكتاب المبين وجعل قوله إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا جوابا للقسم . . . الخ» قال أحمد : تنبيه حسن جدا . ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن ، وإنما يقسم بعظيم ، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن عربى مرجو به أن يعقل به العالمون ، أى : يتعقلوا آيات اللّه تعالى فكان جواب القسم مصححا للقسم ، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا ، وإنما يقسم الشعراء بمثل هذا الاشعار بأنه في غاية الحسن ، ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن ، لا أنها هي أغريض ، وهو من أحسن تشبيهات الثايا ، فجعل المقسم عليه مصححا للقسم واللّه أعلم .

وهو من الأيمان الحسنة البديعة ، لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونهما من واد واحد .

ونظيره قول أبى تمام :

وثناياك إنّها إغريض «1»

الْمُبِينِ البين للذين أنزل عليهم ، لأنه بلغتهم وأساليبهم . وقيل : الواضح للمتدبرين .

وقيل الْمُبِينِ الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة ، وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة جَعَلْناهُ بمعنى صيرناه معدّى إلى مفعولين . أو بمعنى خلقناه معدّى إلى واحد ، كقوله تعالى وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ . وقُرْآناً عَرَبِيًّا حال . ولعلّ : مستعار لمعنى الإرادة «2» ، لتلاحظ «3» معناها ومعنى الترجي «4» ، أى : خلقناه عربيا غير عجمى : إرادة أن تعقله العرب ، ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته ، وقرئ : أمّ الكتاب بالكسر وهو اللوح ، كقوله تعالى بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ سمى بأم الكتاب ، لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ . على رفيع الشأن في الكتب ، لكونه معجزا من بينها حَكِيمٌ ذو حكمة بالغة ، أى : منزلته عندنا منزلة كتاب هما صفتاه ، وهو مثبت في أم الكتاب هكذا .

[سورة الزخرف (43) : آية 5]

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5)

---

(1) وثناياك إنها إغريض ولآل نوار أرض وميض

وأقاح منور في بطاح هزه في الصباح روض أريض

لأبى تمام. والاغريض: البرد. والطلع والنوار: كرمان نور الشجر، واحده نوارة. والوميض: شديد البريق واللمعان. والأقاح: نور أبيض طيب الرائحة. والأريض: طيب الأرض، فيكون نضرا بهيجا: أقسم بثناياها أى: مقدم أسنانها، إنها: أى ثناياها إغريض. فالقسم وجوابه متعلقان بشيء واحد، وشبههما بالبرد وبنوار الأرض الشبيه باللآلئ، فاضافتها إليه للتشبيه. ووميض: نعت مقطوع للنوار. أو تابع للاغريض، لكن الأول أجزل، وشبهه بالأقاح الذي نور في البطاح، لأنه أنضر وأزهى. وهزه في الصباح من صفة الأقاح «وخص الصباح ليكون على الزهر بقية من الندى، فيكون في غاية النضرة والزهو. وفيه إيماء لتشبيه قوام محبوبته بأغصان الروض في التمايل وظهور الزهور في أعلى كل منهما، ولك أن تجعل «وميض» صفة للآلئ، وإن كانت جمعا، لأن فعيل بمعنى فاعل قد يعامل معاملته فعيل بمعنى مفعول، فيطلق على الواحد والمتعدد مذكرا ومؤنثا. ويروى بدل الشطر الثاني: ولآل توم ورق وميض. والتوم: واحده تومة «وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة، ولا إشكال في إعرابه.

(2) . قال محمود : «و لعل مستعار لمعنى الارادة» «فسره بالارادة» قال أحمد : قد بينا فساد ذلك غير ما مرة .

(3) . قوله «لتلاحظ معناها» لعله : ليلاحظ . (ع)

(4) . قوله «و معنى الترجي» لعله : أو معنى . (ع)

(126/692)

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً بمعنى : أفننحى عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز ، من قولهم : ضرب الغرائب عن الحوض . ومنه قول الحجاج : ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل . وقال طرفة :

أضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسّيف قونس الفرس «1»

والفاء للعطف على محذوف ، تقديره : أنهملكم فنضرب عنكم الذكر ، إنكارا لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب . وخلقه قرآنا عربيا ، ليعقلوه ويعملوا بمواجبه . وصفحا على وجهين . إما مصدر من صفح عنه : إذا أعرض ، منتصب على أنه مفعول له ، على معنى :

أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضا عنكم . وإمّا بمعنى الجانب من قولهم :

نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه ، على معنى : أفننحيه عنكم جانبا ، فينتصب على الظرف كما تقول : ضعه جانبا ، وامش جانبا . وتعضده قراءة من قرأ : صفحا بالضم . وفي هذه القراءة وجه آخر : وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح ، وينتصب على الحال ، أى : صافحين معرضين أَنْ كُنْتُمْ أى : لأن كنتم . وقرئ : إن كنتم ، وإذ كنتم . فإن قلت : كيف استقام معنى إن الشرطية ، وقد كانوا مسرفين على البتّ ؟ قلت : هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل «2» بصحة الأمر ، المتحقق لثبوته ، كما يقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفني حقي ، وهو عالم بذلك ، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق : فعل من له شك في الاستحقاق ، مع وضوحه استجهالا له .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 6 إلى 8]

وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (7) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)

وَما يَأْتِيهِمْ حكاية حال ماضية مستمرة ، أى : كانوا على ذلك . وهذه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن استهزاء قومه . الضمير في أَشَدَّ مِنْهُمْ للقوم المسرفين ، لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يخبره عنهم وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ أى سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل ، وهذا وعد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ووعيد لهم .

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 87 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . قوله «عن المدل» أى : المواثق . أفاده الصحاح . (ع)

.

(127/692)

[سورة الزخرف (43) : الآيات 9 إلى 11]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11)

فإن قلت : قوله لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ وما سرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم «1» ، فما تصنع بقوله فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ وإن كان من قول اللّه ، فما وجهه ؟ قلت : هو من قول اللّه لا من قولهم . ومعنى قوله لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الذي من صفته كيت وكيت ، لينسبنّ خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه . بِقَدَرٍ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ، ولم يكن طوفانا .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 12 إلى 14]

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (14)

والْأَزْواجَ الأصناف ما تَرْكَبُونَ أى تركبونه. فإن قلت: يقال: ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك «2». وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه؟ قلت: غلب المتعدّى بغير

---

(1). قال محمود: «فان قلت: قوله لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ وما سرد من الأوصاف عقبه إن كان من قولهم... الخ» قال أحمد: الذي يظهر أن الكلام مجزأ، فبعضه من قولهم، وبعضه من قول اللّه تعالى، فالذي هو من قولهم خَلَقَهُنَّ، وما بعده من قول اللّه عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن اللّه ويدل عليه قوله في الآية الأخرى وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ثم لما قالوا: خلقهن اللّه وصف اللّه تعالى ذاته بهذه الصفات، ولما سبق الكلام كله سياقه وأخذه، حذف الموصوف من كلامهم، وأقيمت الصفات المذكورة في كلام اللّه تعالى مقامه كأنه كلام واحد. ونظير هذا أن تقول للرجل: من أكرمك من القوم؟ فيقول أكرمنى زيد، فتقول أنت واصفا للمذكور: الكريم الجواد الذي من صفته كذا وكذا، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام اللّه عز وجل، جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الافتنان في البلاغة، فجاء أوله على لفظ الغيبة وآخره على الانتقال منها، إلى التكلم في قوله فَأَنْشَرْنا كل ذلك افتنان في أفنان البلاغة. ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية

عن موسى قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى

فجاء أول الكلام حكاية عن موسى ، إلى قوله وَلا يَنْسى ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام اللّه تعالى ، فوصف ذاته أوصافا متصلة بكلام موسى ، حتى كأنه كلام واحد .

وابتدأ في ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى فانظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين تر العجب ، واللّه الموفق .

(2) . قال محمود : «يقال ركبت الدابة وركبت في الفلك . . . الخ» قال أحمد : لم يحرر العبارة في هذا الموضع فان قوله «غلب المتعدي بغير واسطة على المتعدي بنفسه» يوهم أن بين الفعلين تباينا وليس كذلك ، فان المتعدي إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدي إلى السفن غاية ما ، ثم إن العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة ، وباعتبار بعضها بالتعدي بنفسه ، والاختلاف بالتعدي والقصور . أو باختلاف آلات التعدي .

وباختلاف أعداد المفاعيل لا يوجب الاختلاف في المعنى ، فمن ثم يعدون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة ، مثل : سكرت وأخواته ، ويعدون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة ، مثل دعوت وصليت ، فإنك تقول : صلى النبي على آل أبى أوفى ، ولو قلت : دعا على آل أبى أوفى : لأفهم عكس المقصود ، ولكن دعا لآل أبى أوفى ، ويعدون بعضها إلى مفعولين ، ومرادفه إلى مفعول واحد ، كعلم وعرف ، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدي .

والقصور : الاختلاف في المعنى ، فالذي يحرر من هذا : أن ركب باعتبار القبيلين معناه واحد ، وإن خص أحدهما باقتران الواسطة والآخر بسقوطها ، فالصواب أحد الأمرين : إما تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا ، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه ، والأقرب تعليله باعتبار التعدي بنفسه ، ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر ، وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ على أحد التأويلين فيه : فان التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى ، أعني : أجمع على الأمر وجمع الشركاء ، ولكن لما تقاربا : غلب أحدهما على الآخر ، ثم جعل المغلب هو المتعدي بنفسه ، والله أعلم .

(128/692)

واسطة ، لقوّته على المتعدّى بواسطة ، فقيل : تركبونه عَلى ظُهُورِهِ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام . ومعنى ذكر نعمة الله عليهم : أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ، ثم يحمدوا عليها بألسنتهم ، وهو ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : «بسم الله» فإذا استوى على الدابة قال : «الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا . . . إلى قوله . . . لمنقلبون»

وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا «1» . وقالوا : إذا ركب «2» في السفينة قال : بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وعن الحسن بن على رضى اللّه عنهما أنه رأى رجلا يركب دابة فقال : سبحان الذي سخر لنا هذا . فقال : أبهذا أمرتم ؟ فقال : وبم أمرنا ؟ قال : أن تذكروا نعمة «3» ربكم : كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه . وهذا من حسن مراعاتهم لآداب اللّه ومحافظتهم على دقيقها وجليلها . جعلنا اللّه من المقتدين بهم ، والسائرين بسيرتهم ، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات ، فكيف بالنظر في لطائف الديانات ؟ مُقْرِنِينَ مطيقين . يقال : أقرن الشيء ، إذا أطاقه . قال ابن هرمة :

---

(1) . أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث على . وأسنده الثعلبي باللفظ المذكور هنا . ولمسلم من طريق على الأرزى عن ابن عمر «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ثم قال : سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا الآية .

(2) . لم أجده من فعله صلى اللّه عليه وسلم . وفي الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس رفعه «أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا في الفلك أن يقولوا : بسم اللّه ، وما قدروا اللّه حق قدره - الآية بسم اللّه مجريها ومرساها» ورواه في الدعاء من حديث الحسن بن على رضى اللّه عنهما .

(3) . أخرجه الطبري والطبراني في الدعاء من طريق مجلس عن حسين بن على فذكره .

وأقرنت ما حمّلتنى ولقلّما يطاق احتمال الصّد يا دعد والهجر «1»

وحقيقة «أقرنه» : وجده قرينته وما يقرن به ، لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف . ألا ترى إلى قولهم في الضعيف : لا يقرن به الصعبة . وقرئ : مقرنين ، والمعنى واحد . فإن قلت : كيف اتصل بذلك قوله وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ ؟ قلت : كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت «2» أو طاح من ظهرها فهلك ، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا ، فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر ، واتصالا بسبب من أسباب التلف : كان من حق الراكب وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه ، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى اللّه غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعد اللقاء اللّه بإصلاحه من نفسه ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم اللّه وهو غافل عنه ، ويستعيذ باللّه من مقام من يقول لقرنائه : تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق ، فيركبون حاملين مع أنفسهم أوانى الخمر والمعازف ، فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم «3» وهم على ظهور الدواب ، أو في بطون السفن وهي تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره . وقد بلغني أنّ بعض

السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يصح إلا بعد ما اطمأنت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ، فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمره اللّه به في هذه الآية . وقيل : يذكرون عند الركوب ركوب الجنازة .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 15 إلى 18]

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)

---

(1) . لابن هرمة «وأقرنت الشيء : إذا وجدته قرينا لك لا يزيد عنك ، ثم استعمل في الاطاقة توسعا . ولقلما اللام للقسم . وقل : فعل . وما : كافة ، ركبت معه فصار المراد منه النفي ولا فاعل له ، وشبه المعقول من الصد والهجر بالمحسوس على طريق الكناية والحمل تخييل . يقول : أطقت ما حملتني إياه من صدك عنى وهجرك لي ، والحال أنه لا يطاق احتمالهما . وفي الاعتراض بندائها : نوع استعطاف . [. . . . .]

(2) . قوله «أو شمست أو تقحمت» في الصحاح : شمس الفرس شموسا وشماسا : منع ظهره . وفيه «القحمة» بالضم : المهلكة . وقحم الطريق : مصاعبه اه ، فتقحم الدابة براكبها : خوضها به في قحمته . (ع)

(3) . قوله «حتى تميل طلاهم» في الصحاح «الطلى» الأعناق . قال الأصمعي : واحدتها طلية . وقال أبو عمرو والفراء : واحدتها طلاة . (ع)

(130/692)

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً متصل بقوله وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أى : ولئن سألتهم عن خالق السماوات والأرض ليعترفن به ، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزاء فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً أن قالوا الملائكة بنات اللّه ، فجعلوهم جزءا له وبعضا منه ، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءا له . ومن بدع التفاسير : تفسير الجزء بالإناث ، وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب : اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ، ووضع مستحدث منحول ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة ، ثم صنعوا بيتا وبيتا :

إن أجزأت حرّة يوما فلا عجب «1»

زوجتها من بنات الأوس مجزئة «2»

وقرئ : جزؤا ، بضمتين لَكَفُورٌ مُبِينٌ لجحود للنعمة ظاهر جحوده ، لأنّ نسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصلا لكفران كله أَمِ اتَّخَذَ بل اتخذ ، والهمزة للإنكار ، تجهيلا لهم وتعجيبا من

شأنهم ، حيث لم يرضوا بأن جعلوا للّه من عباده جزءا ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين : وهو الإناث دون الذكور ، على أنهم أنفر خلق اللّه عن الإناث وأمقتهم لهنّ ، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهنّ ، كأنه قيل : هبوا أنّ إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط في القسمة ؟ ومن ادعائكم «3» أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين

---

(1) إن أجزأت حرة يوما فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكار أحيانا

قيل : «الجزؤ» اسم للأنثى ، واشتقوا منه : أجزأت المرأة ، إذا ولدت جزءا : أى أنثى . وأنكره الزمخشري وقال إنه اصطناع لا لغة . والمعنى : إن ولدت امرأة حرة أنثى في بعض الأحيان فلا عجب ، فان الحرة التي تلد الذكور كثيرا قد تلد أنثى في بعض الأوقات . وقيل : حرة الأولى اسم امرأة ، والثانية صفة .

(2) زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن في أبيانها زجل

قيل : «المجزئة» التي تلد البنات . والجزؤ : البنت . وأنكره الزمخشري وقال : إنه مصنوع لا لغة . والعوسج :

ضرب من الشوك . والمراد به : عود المغزل المتخذ منه . واللدن : اللين . والزجل : صوت دوران المغزل .

ونحوه : وزوجتها ، مبنى للمجهول . وروى : «نكحتها من بنات الأوس» هو أبو قبيلة

سميت باسمه ، تلد تلك المرأة البنات . وجعل العوسج لدنا ، لأنه أكثر دويا ورنينا في دورانه .

(3) . قال محمود : «كأنه قيل : هبوا أن إضافة الولد إليه جائزة فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط في القسمة ؟ ومن ادعاء أنه آثركم على نفسه . . . الخ» قال أحمد : نحن معاشر أهل السنة نقول : إن كل شيء بمشيئة اللّه تعالى ، حتى الضلالة والهدى : اتباعا لدليل العقل ، وتصديقا لنص النقل في أمثال قوله تعالى يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدا ، ولا تفيده إلا تصويبا وتسديدا ، فنقول : إذا قال الكافر : لو شاء اللّه ما كفرت ، فهذه كلمة حق أراد بها باطلا . أما كونها كلمة حق فلما مهدناه .

وأما كونه أراد بها باطلا ، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على اللّه ، توهما أنه يلزم من مشيئة اللّه تعالى لضلالة من ضل : أن لا يعاقبه على ذلك ، لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدرية إخوان الوثنية ذلك ، فأشركوا بربهم ، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق ، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة ، لأن هؤلاء أشركوا أنفسهم الدنية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جل وعلا ، فإذا وضح ما قلناه فإنما رد اللّه عليهم مقالتهم هذه ، لأنهم توهموا أنها حجة على اللّه ، فدحض اللّه حجتهم ، وأكذب أمنيتهم ، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض ، فقال : ما لَهُمْ

بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير ، وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل والاشراك بالله :

اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا فشبه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أوائلهم ، ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب ، فقال إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالتهم حجة على الله : أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك ، لا لأن المقالة في نفسها كذب فقال فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ وهو معنى قولهم لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا من حيث أن لو مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة ، فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم ، بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا ، فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم ، والنور اللائح والمنهج الواضح . والذي يدحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم : هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيا وتيسرا للهداية وغيرها من الأفعال الكسبية . حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف ، لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينهما

وبين العوارض القسرية ، فهذه الآية أقامت الحجة ، ووضحت لمن اصطفاه اللّه للمعتقدات الصحيحة الحجة ، ولما كانت تفرقة دقيقة . لم تنتظم في ملك الأفهام الكثيفة ، فلا جرم أن أفهامهم تبددت ، وأفكارهم تبدلت ، فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه ، وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار ، وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار .

أما أهل الحق فمنحهم اللّه من هدايته قسطا ، وأرشدهم إلى الطريق الوسطى ، فانتهجوا سبل السلام ، وساروا ورائد التوفيق لهم إمام ، مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أن جميع الكائنات بقدرة اللّه تعالى ومشيئته ، ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة ، لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة ، لكنها قدرة تقارن بلا تأثير ، وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير ، فهذا هو التحقيق ، واللّه ولى التوفيق .

(131/692)

وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما ؟ وتنكير بَناتٍ وتعريف بِالْبَنِينَ وتقديمهنّ في الذكر عليهم لما ذكرت في قوله تعالى يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ . بِما ضَرَبَ

لِلرَّحْمنِ مَثَلًا بالجنس الذي جعله له مثلا ، أى : شبها لأنه إذا جعل الملائكة جزءا للّه وبعضا منه ، فقد جعله من جنسه ومماثلا له ، لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد ، يعنى : أنهم نسبوا إليه هذا الجنس . ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له : قد ولدت لك بنت اغتم واربدّ وجهه «1» غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب : أن امرأته وضعت أنثى ، فهجر البيت الذي فيه المرأة ، فقالت :

(1) . قوله «وأريد وجهه غيظا» تغير إلى الغبرة من الغضب . أفاده الصحاح . (ع)

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل في البيت الّذى يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنّما نأخذ ما أعطينا «1»

والظلول بمعنى الصيرورة ، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها . وقرئ : مسودّ ومسوادّ ، على أن في ظَلَّ ضمير المبشر ، ووَجْهُهُ مُسْوَدًّا جملة واقعة موقع الخبر ، ثم قال : أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته . وهو أنه يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ أى يتربى في الزينة والنعمة ، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم «2» ومجاراة الرجال : كان غير

مبين ، ليس عنده بيان ، ولا يأتى ببرهان يحتج به من يخاصمه ، «3» وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال ، يقال : قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها .

وفيه . أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام ، وأنه من صفة ربات الحجال ، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ، ويربأ بنفسه عنه ، ويعيش كما قال عمر رضى للّه عنه :

اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا «4» . وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى ، وقرئ : ينشأ ، وينشأ ، ويناشأ . ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء : المغالاة بمعنى الإغلاء .

[سورة الزخرف (43) : آية 19]

وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (19)

قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات . وذلك أنهم نسبوا إلى اللّه الولد ، ونسبوا إليه أخس

---

(1) ما لأبى حمزة لا يأتينا يظن في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا تلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا حكمة ربى ذى الجلال فينا

لامرأة ولدت أنثى ، فهجر زوجها بيتها والاستفهام إنكاري . ويظل : استئناف ، أي يصير دائما في البيت الذي يقرب منا ، ولا يأوي إلى بيتنا . وغضبان : أي هو غضبان ، فهو على تقدير الاستفهام . ويحتمل أنه إخبار ، أي : هو غضبان من عدم ولادتنا البنين ، ثم ترضته واستعطفته بقولها : ليس لنا من أمرنا ما نشاء ، فخفف همزة شئنا القافية ، ولا نأخذ إلا ما أعطانا اللّه إياه ، لأن الأمر كله للّه ، تلك حكمته فينا معاشر الخلق .

(2) . قوله «إلى مجاثاة الخصوم» مفاعلة من «جثا يجثو» إذا برك على ركبتيه . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «يحتج به من يخاصمه» لعله : على من يخاصمه . أو لعله : يحج به من يخاصمه ، أي : يغلبه في الحجاج (ع)

(4) . أخرجه أبو عبيد في الغريب : حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي العدس الأسدي عن عمر رضي اللّه عنه أنه قال . ذكر هذا وزاد : واجعلوا الرأس رأسين – الحديث» موقوفا . ورواه ابن حبان من طريق أبي عثمان .

قال : أتانا كتاب عمر فذكر قصة فيها هذا .

النوعين وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد اللّه على اللّه ، «1» فاستخفوا بهم واحتقروهم .

وقرئ : عباد الرحمن ، وعبيد الرحمن ، وعبد الرحمن ، وهو مثل لزلفاهم واختصاصهم . وإناثا ، وأنثا : جمع الجمع . ومعنى جعلوا : سموا وقالوا إنهم إناث . وقرئ : أشهدوا وأشهدوا ، بهمزتين مفتوحة ومضمومة . وآشهدوا بألف بينهما ، وهذا تهكم بهم ، بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم ، فإن اللّه لم يضطرهم إلى علم ذلك ، ولا تطرّقوا إليه باستدلال ، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم ، فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم ، فأخبروا عن هذه المشاهدة سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم وَيُسْئَلُونَ وهذا وعيد .

وقرئ : سيكتب ، وسنكتب : بالياء والنون . وشهادتهم ، وشهاداتهم . ويساءلون ، على : يفاعلون .

[سورة الزخرف (43) : آية 20]

وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20)

وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ هما كفرتان أيضا مضمومتان إلى الكفرات الثلاث ، وهما : عبادتهم الملائكة من دون اللّه ، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة اللّه ، كما يقول إخوانهم المجبرة «2» . فإن قلت : ما أنكرت على من يقول : قالوا ذلك على وجه الاستهزاء ، ولو

قالوه جادين لكانوا مؤمنين ؟ قلت : لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين ، وادعاء ما لا دليل عليه باطل ، على أن اللّه تعالى قد حكى عنه ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر : أنهم جعلوا له من عباده جزءا ، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين ، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثا ، وأنهم عبدوهم وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء : لكان النطق بالمحكيات «3» - قبل هذا المحكي الذي هو إيمان عنده لوجدّوا في النطق به - مدحا لهم ، من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء ، فبقى أن يكونوا جادين ، وتشترك كلها في أنها كلمات كفر ، فإن قالوا : نجعل هذا الأخير وحده مقولا على وجه الهزء دون ما قبله ، فما بهم إلا تعويج

---

(1) . قوله «هم أكرم عباد اللّه على اللّه» هذا عند المعتزلة . أما أهل السنة فبعض البشر أكرم عندهم من الملك . (ع)

(2) . قوله «المجبرة» يريد أهل السنة ، حيث قالوا : إنه تعالى يريد الشر كالخير ، لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد ، لكن هذا لا يستلزم الجبر ولا ينافي اختيار العبد ، لما له في أفعاله من الكسب وإن كانت مخلوقة له تعالى في الحقيقة ، بل الجبر إنما يكون لو كان العبد لا دخل له في أفعاله أصلا ، كالريشة في الهواء ، كما قالت المجبرة الحقيقية .

وإنما ذم اللّه تلك المقالة من الكفار لأنهم قالوها استهزاء وعنادا ، لا إقرارا واعتقادا .

والدليل على ذلك إجماع سلف الأمة على أنه ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن . (ع)

(3) . قوله : «لكان النطق بالمحكيات . . . الخ» ممنوع ، وكذا ما بعده ، والمعتزلة قالوا : لا يريد الشر بناء على أن الارادة هي الأمر ، وهو ممنوع ، وعفا اللّه عن صاحب الكتاب في بذأة لسانه على أهل السنة ، وجعلهم إخوان الكفار . (ع)

(134/692)

كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لتسوية مذهبهم الباطل . ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءا لم يكن لقوله تعالى ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ معنى ، لأنّ من قال لا إله إلا اللّه على طريق الهزء : كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب ، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جادّا كان أو هازئا . فإن قلت : ما قولك فيمن يفسر ما لهم - بقولهم : «1» إن الملائكة بنات اللّه - من علم إن هم إلا يخرصون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة اللّه ؟ قلت : تمحل مبطل وتحريف مكابر . ونحوه قوله تعالى سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 21 إلى 22]

أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا

عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22)

الضمير في مِنْ قَبْلِهِ للقرآن أو الرسول. والمعنى: أنهم ألصقوا عبادة غير اللّه بمشيئة اللّه: قولا قالوه غير مستند إلى علم، ثم قال: أم آتيناهم كتابا قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا، فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحى، فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به.

بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ على دين. وقرئ: على إمة، بالكسر، وكلتاهما من الأمّ وهو القصد، فالأمة: الطريقة التي تؤم، أى: تقصد، كالرحلة للمرحول إليه. والأمة: الحالة التي يكون عليها الآم وهو القاصد. وقيل: على نعمة وحالة حسنة عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ خبر إن. أو الظرف صلة لمهتدون.

[سورة الزخرف (43): آية 23]

وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)

مُتْرَفُوها الذين أترفتهم النعمة، أى أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه.

[سورة الزخرف (43): الآيات 24 إلى 25]

قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (24)

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)

قرئ: قل، وقال، وجئتكم، وجئناكم، يعني، أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من

---

(1). قوله «ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم» لعله: «يفسر ما لهم بذلك بقوله ما لهم بقولهم... الخ» (ع) [.....]

دين آبائكم؟ قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه، وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

[سورة الزخرف (43): الآيات 26 إلى 28]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)

قرئ: براء، بفتح الباء وضمها. وبريء، فبرىء وبراء، نحو كريم وكرام، «1» وبراء: مصدر كظماء، ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة، والمذكر والمؤنث. يقال: نحن البراء منك، والخلاء منك الَّذِي فَطَرَنِي فيه غير وجه: أن يكون منصوبا على أنه استثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين، وأن يكون مجرورا بدلا من

المجرور بمن ، كأنه قال :

إننى براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني . فإن قلت : كيف تجعله بدلا وليس من جنس ما يعبدون من وجهين ، أحدهما : أن ذات اللّه مخالفة لجميع الذوات ، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون .

والثاني ، أن اللّه تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبودة ؟ قلت : قالوا : كانوا يعبدون اللّه مع أوثانهم ، وأن تكون إِلَّا صفة بمعنى غير ، على أن «ما» في ما تعبدون موصوفة ، تقديره :

إننى براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني ، فهو نظير قوله تعالى لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا . فإن قلت : ما معنى قوله سَيَهْدِينِ على التسويف ؟ قلت : قال مرة فَهُوَ يَهْدِينِ ومرّة فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ فاجمع بينهما وقدّر ، كأنه قال . فهو يهدين وسيهدين ، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال وَجَعَلَها وجعل إبراهيم صلوات اللّه عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ في ذريته ، فلا يزال فيهم من يوحد اللّه ويدعو إلى توحيده ، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم . ونحوه وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وقيل : وجعلها اللّه . وقرئ : كلمة على التخفيف وفي عقبه كذلك ، وفي عاقبه ، أى : فيمن عقبه ، أى : خلفه .

[سورة الزخرف (43) : آية 29]

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29)

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ يعنى : أهل مكة ، وهم من عقب إبراهيم بالمدّ في العمر والنعمة ، فاغتروا بالمهلة ، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وهو القرآن وَرَسُولٌ مُبِينٌ الرسالة واضحها بما معه من الآيات البينة ، فكذبوا به وسموه ساحرا وما جاء به سحرا ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم . وقرئ : بل متعنا . فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ مَتَّعْتُ بفتح التاء ؟ قلت : كأن اللّه تعالى اعترض على ذاته في قوله وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

---

(1) . قوله «نحو كريم وكرام» في الصحاح . الكرام - بالضم - : مثل الكريم . (ع)

فقال : بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق ، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد . وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم ، لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان ، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادا ، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ، ثم يقبل على نفسه فيقول . أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 30 إلى 31]

وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (30) وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

فإن قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع ، ثم أردفه «1» قوله وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ فما طريقة هذا النظم ومؤداه ؟ قلت : المراد بالتمتيع ما هو سبب له ، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته ، فقال : بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه ، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال : ولما جاءهم الحق جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها : وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ، ومكابرة الرسول ، ومعاداته ، والاستخفاف بكتاب اللّه وشرائعه ، والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة اللّه في تخير محمد من أهل زمانه بقولهم لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم . قرئ على رجل ، بسكون الجيم من القريتين : من إحدى القريتين ، كقوله تعالى يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ أى من أحدهما . والقريتان : مكة والطائف . وقيل : من رجلي القريتين ، وهما : الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، عن ابن عباس .

وعن مجاهد : عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل . وعن قتادة : الوليد بن المغيرة وعروة بن

مسعود

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع ، ثم أردفه . . . الخ» قال أحمد :

كلام نفيس لا مزيد عليه ، إلا أن قوله : «خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها» إطلاق ينبغي اجتنابه ، والله أعلم وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الاضراب في بعض التارات ، فكما جاءت الغاية هنا – وليس المراد بها أن الفعل المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها ، بل المراد استمراره وزيادته ، فكأن تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها – كذلك الاضراب في مثل قوله تعالى بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ وهذه الاضرابات ليست على معنى أن الثاني منها رد للأول ، بل ثانيها آكد من أولها ، وجاء الاضراب مع التوافق والزيادة للاشعار بأن الثاني لما زاد على الأول صار باعتبار زيادته ونقصان الأول كأنهما شيئان متنافيان يضرب عن أولهما ويثبت آخرهما ، ومثله كثير وبالله التوفيق .

(137/692)

الثقفي ، وكان الوليد يقول : لو كان حقا ما يقول محمد لنزل هذا القرآن عليّ أو على أبى مسعود الثقفي ، وأبو مسعود : كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث اللّه بشرا رسولا ، فلما علموا بتكرير اللّه الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالا من أهل القرى ، جاءوا بالإنكار من وجه آخر ، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين ، وقولهم : هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به ، وأرادوا بعظم الرجل : رياسته وتقدّمه في الدنيا ، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند اللّه عظيما .

[سورة الزخرف (43) : آية 32]

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم ، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوّة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها ، والمتولين لقسمة رحمة اللّه التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته ، ثم ضرب لهم مثلا فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم ، وأنّ اللّه عزّ وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها ، فلم يسوّ بينهم ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش ، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدما ، ليصرف بعضهم بعضا في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم

ويتسخروهم في أشغالهم ، حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم ، ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم ، لضاعوا وهلكوا . وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة ، فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة اللّه الكبرى ورأفته العظمى ؟ وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة والسلم إلى حلول دار السلام ؟ ثم قال وَرَحْمَتُ رَبِّكَ يريد : وهذه الرحمة وهي دين اللّه وما يتبعه من الفوز في المآب : خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا . فان قلت : معيشتهم ما يعيشون به من المنافع «1» ، ومنهم من يعيش بالحلال ، ومنهم من يعيش بالحرام ، فإذن قد قسم اللّه تعالى الحرام كما قسم الحلال . قلت : اللّه تعالى قسم لكل عبد معيشته وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع وأذن له في تناولها ، ولكن شرط عليه

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : معيشتهم ما يعيشون به من المنافع . . . الخ» قال أحمد : قد تقدم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم اللّه به حال العبد حلالا كان أو حراما ، وهذه الآية معضدة ، والزمخشري بنى على أصله وقد تقدم .

وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها ، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالا ، وسماها رزق اللّه ، وإذا لم يسلكها تناولها حراما ، وليس له أن يسميها رزق اللّه «1» ، فاللّه تعالى قاسم المعايش والمنافع ، ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم ، وهو عدولهم فيه عما شرعه اللّه إلى ما لم يشرعه .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 33 إلى 35]

وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (34) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)

لِبُيُوتِهِمْ بدل اشتمال من قوله لِمَنْ يَكْفُرُ ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك : وهبت له ثوبا لقميصه . وقرئ : سقفا ، بفتح السين وسكون القاف . وبضمها وسكون القاف وبضمها : جمع سقف ، كرهن ورهن ورهن . وعن الفراء : جمع سقيفة وسقفا بفتحتين ، كأنه لغة في سقف وسقوفا ، ومعارج ومعاريج . والمعارج : جمع معرج ، أو اسم جمع لمعراج : وهي المصاعد إلى العلالي عَلَيْها يَظْهَرُونَ أى على المعارج ، يظهرون السطوح يعلونها ، فما اسطاعوا أن يظهروه . وسررا ، بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفى التضعيف لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية . وقرئ بكسر اللام ، أى : الذي هو متاع الحياة ، كقوله تعالى مَثَلًا ما بَعُوضَةً ولما بالتشديد بمعنى إلا ، وإن نافية .

وقرئ: إلا. وقرئ: وما كل ذلك إلا. لما قال خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ فقلل أمر الدنيا وصغرها: أردفه ما يقرّر قلة الدنيا عنده من قوله وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً أى: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه، لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا «2» عندنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسررا كلها

---

(1). قوله «وليس له أن يسميها رزق اللّه» هذا على مذهب المعتزلة. وأما عند أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراما. والمصنف يريد أن اللّه لا ييسر الحرام، لأنه لا يفعل القبيح عند المعتزلة. ومذهب أهل السنة أن فاعل الكائنات كلها هو اللّه تعالى. (ع)

(2). قال محمود: «معناه لولا كراهية أن يجتمعوا على الكفر لجعلنا للكفرة سقوفا من فضة أى لوسعنا عليهم الدنيا لحقارتها عندنا» قال أحمد: «لولا» هنا أخت «لولا» في قوله وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ... الآية تلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفا كما قدمته، فيكون وجه الكلام ها هنا أن إجماعهم على الكفر مانع من بسط الدنيا. وهذا هو معنى لولا المطرد أن ما بعدها أبدا مانع من جوابها، ولكن قد يكون المانع موجودا تحقيقا فيمتنع الجواب بلا إشكال، كقوله تعالى فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ وهو الأكثر. وقد يكون وجوده تقديرا معه وعلى ذلك الآية، أى: لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدرا، لوجد مانعه عندنا وهو الاجتماع على الكفر مقدرا معه، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد.

من فضة وزخرف ، وجعلنا لهم زخرفا ، أى : زينة من كل شيء . والزخرف : الزينة والذهب .

ويجوز أن يكون الأصل : سقفا من فضة وزخرف ، يعنى : بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، فنصب عطفا على محل مِنْ فِضَّةٍ وفي معناه قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لو وزنت الدنيا عند اللّه جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» «1» فإن قلت : فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدّى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما تؤدى إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين «2» ، فكانت الحكمة فيما دبر : حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 36 إلى 39]

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ

الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39)

قرئ : ومن يعش ، بضم الشين وفتحها . والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل : عشى . وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا . ونظيره : عرج ، لمن به الآفة «3» .

---

(1) . فيه عبد الحميد بن سليمان وتابعه زكريا بن منظور . وقال الترمذي : وفي الباب عن أبى هريرة ، وحديثه عند البزار من حديث صالح مولى التوأمة عنه . ولفظه «ما أعطي كافرا منها شيئا» ورواه البيهقي في الشعب في الحادي والسبعين من رواية أبى معشر عن المقبري عنه وفي الباب عن ابن عباس . أخرجه أبو نعيم في الحلية . وفيه الحسن ابن عمارة وهو ضعيف جدا . وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر ، بلفظ المصنف قال ابن طاهر : فيه على بن محمد بن أحمد بن أبى عوف عن أبى مصعب عنه ، لا أصل له من حديث ملك

(2) . قال محمود : «فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدى إليها التوسعة من الاطباق على الكفر» فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الايمان ؟ وأجاب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما يؤدى إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، وذلك من دين المنافقين» قال أحمد : سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين . إحداهما : تعليل أفعال اللّه تعالى ، والأخرى : أن اللّه تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين . أما الأولى

فقد أخرس اللّه السائل عنه بقوله لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ وأما الثانية فقد كفى اللّه المؤمنين الجواب عنه فيه بقوله وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً .

(3) . قال محمود : «يقال عشى بصره بكسر الشين إذا أصابته الآفة . . .» قال أحمد : في هذه الآية نكتتان بديعتان ، إحداهما : الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم ، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون وإمام الحرمين من القائلين بافادتها العموم ، حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص ، وقال : إن الشرط يعم ، والنكرة في سياقه تعم . وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن على الأنبارى شارح كتابه ردا عنيفا . وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية ، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكرا في سياق شرط ، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدا لوجهين ، أحدهما : أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانا ، فكيف بالعاشى عن ذكر اللّه ، والآخر : يؤخذ من الآية : وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعا في قوله وَإِنَّهُمْ فانه عائد إلى الشيطان قولا واحدا «و لولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال ، فهذه نكتة تجد عند إسماعها لمخالفي هذا الرأى سكتة . والنكتة الثانية : أن في هذه الآية ردا على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك . واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير ، وهو خلاف المعهود من الفصاحة .

وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ونقض غيره بقوله وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ . . . الآية وكان جدي رحمه اللّه قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك ، لأنه أعاد على اللفظ في قوله : يَعْشُ ولَهُ مرتين ، ثم على المعنى في قوله لَيَصُدُّونَهُمْ ثم على اللفظ بقوله حَتَّى إِذا جاءَنا وقد قدمت أن الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً فان الجملة واحدة ، فانظره في موضعه .

(140/692)

وعرج ، لمن مشى مشية العرجان من غير عرج . قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره «1»

أى : تنظر إليها نظر العشىّ لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء . وهو بين في قوله حاتم :

أعشو إذا ما جارتى برزت حتّى يوارى جارتى الخدر «2»

---

(1) كسوب ومتلاف إذا ما سألته تهلل واهتز اهتزاز المهند

وذاك امرؤ إن يعطك اليوم نائلا بكفيه لم يمنعك من نائل الغد

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

للحطيئة ، يقول : هو كثير الكسب وكثير الإتلاف ، وبينهما طباق التضاد : إذا سألته أجابك بسرعة وطلاقة وجه وهو المراد بقوله : تهلل واهتز كاهتزاز السيف المطلق من حديد الهند ، إذا أعطاك اليوم عطاء بكفيه معا كناية عن كثرة العطاء ، وسألته في غد أعطاك أيضا . وعشى يعشى كرضى يرضى : إذا كان ببصره آفة . وعشى يعشو : إذا تعاشى بغير آفة . والمعنى : منى تأته على هيئة الأعشى – مجاز عن إظهار الفاقة – تجده أكرم الناس ، عبر عنه بذلك على طريق الكناية .

(2) ناري ونار الجار واحدة وإليه قبلي تنزل القدر

ما ضرني جار أجاوره ألا يكون لبابه ستر

أعشو إذا ما جارتى برزت حتى يوارى جارتى الخدر

لحاتم الطائي : وعشى يعشى كرضى يرضى : صار لا يبصر ليلا ، وعشا يعشو كدعا يدعو : إذا نظر كنظر الأعشى .

يقول : إن ناري هي نار جارى ، وتنزل قدرى إليه ليأكل منها قبلي أو ناري ونار جارى واحدة في الزمن والقوة ومع ذلك تنزل قدره إليه قبلي ليأكلها سريعا خوف اطلاع أحد

عليه . لكن يبعد هذا أن المقام ليس لذم الجار بل للمدح . ثم هذا كناية عن شدة كرمه على غيره ، ثم وصف نفسه بالعفة بقوله : ما ضرني جار من جيراني بمسبة ولا غيرها من أن لا يكون لبابه حجاب يستر أهله ، فانى أتغافل وأغض بصرى إذا خرجت جارتى ، حتى يسترها بينها . وأتى بالظاهر موضع المضمر ليفيد أنه ينبغي مراعاة حق الجوار .

والاحتمال الأول أقعد ، لأن معناه أنه يبره ويعف عن محارمه . وأما الثاني ففيه ذم جاره ، وهو لا يلائم بعده .

(141/692)

وقرئ : يعشو ، على أنّ من موصولة غير مضمنة معنى الشرط . وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض . ومعنى القراءة بالفتح : ومن يعم عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ وهو القرآن ، كقوله تعالى صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ وأما القراءة بالضم فمعناها : ومن يتعام عن ذكره ، أى : يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى ، كقوله تعالى وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ . نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً نخذله «1» ونخل بينه وبين الشياطين ، كقوله تعالى وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ وقرئ : يقيض ، أى : يقيض له الرحمن ويقيض له الشيطان . فإن قلت : لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ ؟ قلت : لأنّ مَنْ مبهم في جنس

العاشى ، وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه ، فلما جاز أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين : جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا حَتَّى إِذا جاءَنا العاشى . وقرئ : جاءانا ، على أنّ الفعل له ولشيطانه . قالَ لشيطانه يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ يريد المشرق والمغرب ، فغلب . كما قيل : العمران والقمران . فإن قلت : فما بعد المشرقين ؟ قلت : تباعدهما ، والأصل : بعد المشرق من المغرب ، والمغرب من المشرق . فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية : أضاف البعد إليهما أَنَّكُمْ في محل الرفع على الفاعلية ، يعنى : ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه ، لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدّته وعنائه ، وذلك أنّ كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته ، ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ على معنى : ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمنى مباعدة القرين .

وقوله أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ تعليل ، أى : لن ينفعكم تمنيكم ، لأنّ حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر . وتقوّيه قراءة من قرأ : إنكم بالكسر . وقيل : إذا رأى الممنوّ بشدّة «2» من منى بمثلها : روّحه ذلك ونفس بعض كربه ، وهو التأسى الذي ذكرته الخنساء :

---

(1) . قوله «نقيض له شيطانا : نخذله» تأويله بذلك مبنى على أنه تعالى لا يفعل القبيح ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة أنه فاعل الكائنات كلها ، فالآيات على ظاهرها

(ع)

(2) . قوله «إذا رأى الممنو بشدة» أي المبتلى . ومنى : أي ابتلى . أفاده الصحاح (ع)

(142/692)

أعزى النّفس عنه بالتّأسى «1»

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم ، لعظم ما هم فيه . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى إِذْ ظَلَمْتُمْ ؟ قلت : معناه : إذ صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين ، وذلك يوم القيامة . وإذ : بدل من اليوم . ونظيره :

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة «2»

أي : تبين أني ولد كريمة .

[سورة الزخرف (43) : آية 40]

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (40)

كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يجد ويجتهد ويكدّ روحه في دعاء قومه ، وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميما على الكفر وتماديا في الغيّ ، فأنكر عليه بقوله أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم ، وأراد أنه لا يقدر على ذلك

منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر ، كقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ

[سورة الزخرف (43) : الآيات 41 إلى 43]

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)

---

(1) يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره بكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

للخنساء ترثي أخاها . وإسناد التذكير الطلوع : مجاز عقلي ، لأنه سبب في تذكيرها إياه ، وكذلك الغروب حيث كان ذهابه عند الأول وإيابه عند الثاني عادة . أو لأنه يذهب في الأول للغارات ، ويجلس في الثاني مع الضيفان . أو لأن طلوعها يشبه طلعته ، وغروبها : يشبه موته . وفيه نوع من البديع يسمى التنكيت : وهو الإتيان بلفظ يسد غيره مسده ، لولا نكتة فيه ترجح اختصاصه بالذكر : لكان اختصاصه خطأ ، كما في اختصاص الوقتين هنا . أفاده السيوطي في شرح عقود الجمان . وفيه أيضا نوع آخر يسمى الادماج : وهو أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر ، كما ضمن الكلام المسوق هنا لمعنى الرثاء معنى المدح بالشجاعة والكرم . أو بحسن الطلعة . والباء في «بكل» سببيه .

ويحتمل أن الاسناد للأول من باب الاسناد للزمان ، فتكون الباء في الثاني بمعنى «في» أو «مع» وذكر الشمس ثانيا في آخر المصراع الثاني من باب رد العجز على الصدر . وأعزى النفس : أسليها وأصبرها عنه بالتأسى ، أى :

الاقتداء بغيري من أهل المصائب وفي اقتدائها بالباكين من الرجال : إشعار بتجلدها وعظم شأنها مثلهم . وروى «على أمواتهم» بدل : «على إخوانهم» ، و«أسلى» بدل «أعزى» .

(2) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 40 فراجعه إن شئت اه مصححه .

[. . . . .]

(143/692)

«ما» في قوله فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ بمنزلة لام القسم : في أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة ، والمعنى : فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم ونشفى صدور المؤمنين منهم فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أشد الانتقام في الآخرة ، كقوله تعالى : أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر ، فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتوننا : وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدة الوعيد

بعذاب الدنيا والآخرة.

وقرئ: نرينك، بالنون الخفيفة. وقرئ: بالذي أوحى إليك، على البناء للفاعل، وهو اللّه عز وجل والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر. فكن مستمسكا بما أوحينا إليك وبالعمل به فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضال شقى، وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين اللّه، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت «1» الذي لا ينشطه تعجيل ظفر، ولا يثبطه تأخيره.

[سورة الزخرف (43): الآيات 44 إلى 45]

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (44) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

وَإِنَّهُ وإنّ الذي أوحى إليك لَذِكْرٌ لشرف لَكَ وَلِقَوْمِكَ، ولسوف تُسْئَلُونَ عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقه، وعن تعظيمكم له، وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين، ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظرا وفحصا «2»: نظره في كتاب اللّه المعجز المصدّق لما بين يديه، وإخبار اللّه فيه بأنهم يعبدون من دون اللّه ما لم ينزل به سلطانا. وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها،

والسؤال الواقع مجازا عن النظر ، حيث لا يصح السؤال على الحقيقة : كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال . وقول من قال : سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك ؟ فإنها إن لم تجبك حوارا «3» أجابتك اعتبارا . وقيل له : إن النبي صلى اللّه عليه وسلم جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمّهم . وقيل له : سلهم ، فلم يشكك ولم يسأل . وقيل : معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين : التوراة والإنجيل . وعن

---

(1) . قوله «ولكن كما يفعل الثابت» لعله : وكن . أو لعله : ولكن كن . (ع)

(2) . قال محمود : «سؤال الرسل مجاز عن الفحص في شرائعهم والنظر في مللهم . . . الخ» قال أحمد : ويشهد لارادة سؤال الأمم فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ واللّه أعلم .

(3) . قوله «تجبك حوارا» أى مخاطبة بالنطق . في الصحاح : استحاره ، أى : استنطقه . (ع)

الفراء : هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل ، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 46 إلى 47]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (46) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (47)

ما أجابوه به عند قوله : إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ محذوف ، دل عليه قوله : فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ أى يسخرون منها ويهزءون بها ويسمونها سحرا ، وإذا للمفاجأة . فإن قلت : كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة ؟ قلت : لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر . وهو عامل النصب «1» في محلها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجئوا وقت ضحكهم .

[سورة الزخرف (43) : آية 48]

وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)

فإن قلت : إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات ؟ قلت : أختها التي هي آية مثلها . وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء واحدة بعد واحدة ، كما تقول : هو أفضل رجل رأيته ، تريد : تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قروتهم رجلا رجلا «2» ، فإن قلت :

هو كلام متناقض ، لأنّ معناه : ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها ، فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة . قلت : الغرض بهذا الكلام أنهنّ موصوفات بالكبر ، لا يكدن يتفاوتن فيه ، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك ، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل

---

(1) . قال محمود : «جازت فيه إجابة لما بإذا التي المفاجأة لأن فعل المفاجأة مقدر معها وهو العامل فيها النصب . . . الخ» قال أحمد : الظاهر في تسويغ هذا الإطلاق - والله أعلم : أن كل واحدة من هذه الآي إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته ، حتى يجزم أنها النهاية ، وأن كل آية دونها . فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضا فكره بعظمها ، وذهل عن الأولى فجزم بأن هذه النهاية ، وأن كل آية دونها . والحاصل أنه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما ، ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة ، بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية . وعلى هذا التقدير يجرى جميع ما يرد من أمثاله ، والله أعلم .

(2) . قوله «إذا قروتهم رجلا رجلا» أى تتبعتهم . (ع)

الواحد فيها ، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك . ومنه بيت الحماسة :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم الّتى يسرى بها السّارى «1»

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها ، ثم قالت : لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت .

ثكلتهم «2» إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرّغة لا يدرى أين طرفاها لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان «3» . فإن قلت لو أراد رجوعهم لكان . قلت : إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به «4» ويطلب منه إيجاده ، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد ،

---

(1) هينون لينون أيسار ذوو كرم سواس مكرمة أبناء أيسار

إن يسئلوا الخير يعطوه وإن جهدوا فالجهد يخرج منهم طيب أخبار

وإن توددتهم لانوا وإن شهموا كشفت أذمار شرّ غير أشرار

لا ينطقون عن الفحشا وإن نطقوا ولا يمارون من مارى بإكثار

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها الساري

لعبيد بن الأبرص . وقيل للعرندس . وهينون لينون : جمع هين ولين : تخفيف هين ولين

بالتشديد ، على فيعل .

وأيسار : جمع يسر ، كقطب وأقطاب ، وهو في الأصل ضد العسر ، سمى به الرجل مبالغة ، أو جمع يسرة كقصبة ، وهي في الأصل : الخط في باطن الكف ، أطلقت على الرجل إشعارا بالكرم . وسواس : جمع سائس ، بمعنى مالك متصرف بالمصلحة ، وبمعنى الولي المصلح ، وجهده الطعام : إذا اشتاق إليه واشتهاه . وجهد الرجل فهو مجهود : أصابه القحوط والمشقة . وقوله «فالجهد يخرج منهم» جواب الشرط . ويحتمل أنه استئناف مفرغ على ما قبله .

وإن جهدوا : جوابه دل عليه ما قبله . والشهامة : الخشونة ، وشهمت الفرس حركته ليسرع . وأذمار شر : أى شجعان حرب : جمع ذمر ككبد ، من ذمر الرجل : عبس وغضب . وذمر الأسد زأر بصوته ، أى : إن حملتهم على الحرب أظهرت منهم شجعان حرب غير أشرار . وضمن النطق معنى الاخبار ، فعداه بعن . ويجوز أنها بمعنى الباء . والمماراة : الجدال . وبإكثار : متعلق بمارى ، أو بيمارون . من تلقه منهم تقل فيه : لاقيت أشرفهم لتساويهم في الشرف ، فهم مثل النجوم في التساوي في الشرف والاهتداء والاستضاءة بكل ، فكما أن النجم يهتدى به المسافر ، كذلك هم يهتدى بهم المختبط الطالب للمعروف أو المتحير في أمر معضل . ويروى بدل «وإن جهدوا . . . الخ» :

. . . وإن خبروا في الجهد أدرك منهم طيب أخبار

أى : إن اختبروا علم كرمهم وحسن سيرتهم .

(2) . قوله «ثكلتهم» الثكل : فقدان المرأة ولدها . (ع)

(3) . قال محمود : «معناه إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الايمان . . . الخ» قال أحمد : تقدم في غير موضع أن «لعل» حيثما وردت في سياق كلام اللّه تعالى فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين ، أى : ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك ، هذا هو الحق . وعليه تأول سيبويه ما ورد . وأما الزمخشري فيحمل «لعل» على الارادة ، لأنه .

لا يتحاشى مع اعتقاد أن اللّه يريد شيئًا ويريد العبد خلافه ، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الرب – تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا – فما أشنعها زلة وأبشعها خلة . ولقد أساء الأدب في هذا الموضع ، حتى إنه لولا تعين الرد عليه لما جرى القلم ينقل ما هذى به وما اهتدى . وقد جرى على سنن أوائله في جعل حقيقة الأمر هو الارادة وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلقه ، وأن مراد العبد يقع ، ومراد الرب لا يقع ، فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض ، نعوذ باللّه من هذه الغواية : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا .

(4) . قوله «ليس إلا أن يأمره به» هذا مذهب المعتزلة . أما مذهب أهل السنة : فإرادته غير الأمر ، سواء كانت لفعل نفسه أو لفعل غيره ، ولا يلزم تأويل الآية بالارادة ، لجواز أن يكون معناها : ليكون حالهم عند الأخذ بالعذاب حال من يرجي رجوعهم . (ع)

وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف ، وإنما لم يكن الرجوع لأنّ الإرادة لم تكن قسرا ولم يختاروه . والمراد بالعذاب : السنون ، والطوفان ، والجراد ، وغير ذلك .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 49 إلى 50]

وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (50)

وقرئ : يا أيه الساحر ، بضم الهاء ، وقد سبق وجهه . فإن قلت : كيف سموه بالساحر مع قولهم إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ ؟ قلت : قولهم إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ : وعد منوي إخلافه ، وعهد معزوم على نكثه ، معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب . ألا ترى إلى قوله تعالى فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم : إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ وقيل : كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم على السحر : بِما عَهِدَ عِنْدَكَ بعهده عندك : من أن دعوتك مستجابة . أو بعهده عندك وهو النبوّة . أو بما عهد عندك فوفيت به وهو الإيمان والطاعة . أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمن

اهتدى.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 51 إلى 53]

وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ جعلهم محلا لندائه وموقعا له. والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك، فأسند النداء إليه، كقولك: قطع الأمير اللص، إذا أمر بقطعه. ويجوز أن يكون عنده عظماء القبط، فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط، فكأنه نودي به بينهم فقال أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ يعنى أنهار النيل ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس: قيل: كانت تجرى تحت قصره. وقيل: تحت سريره لارتفاعه. وقيل: بين يدي في جناني وبساتيني. ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر. وتجرى: نصب على الحال منها، وأن تكون الواو

للحال ، واسم الإشارة مبتدأ ، والأنهار صفة لاسم الإشارة ، وتجرى خبر للمبتدإ وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر ، وعجب الناس من مدى عظمته ، وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها ، لئلا تخفى تلك الأبهة «1» والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته . وعن الرشيد : أنه لما قرأها قال : لأولينها أخس عبيدي ، فولاها الخصيب ، وكان على وضوئه . وعن عبد اللّه بن طاهر أنه وليها ، فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : أهى القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال : أليس لي ملك مصر ، واللّه لهى أقل عندي من أن أدخلها ، فثنى عنانه أَمْ أَنَا خَيْرٌ أم هذه متصلة ، لأنّ المعنى : أفلا تبصرون أم تبصرون ، إلا أنه وضع قوله أَنَا خَيْرٌ موضع : تبصرون ، لأنهم إذا قالوا له : أنت خير ، فهم عنده بصراء ، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب . ويجوز أن تكون منقطعة على : بل أأنا خير ، والهمزة للتقرير ، وذلك أنه قسم تعديد أسباب الفضل والتقدّم عليهم من ملك مصر وجرى الأنهار تحته ، ونادى بذلك وملأ به مسامعهم ، ثم قال : أنا خير كأنه يقول : أثبت عندكم واستقر أنى أنا خير وهذه حالى مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ أى ضعيف حقير . وقرئ : أما أنا خير وَلَا يَكادُ يُبِينُ الكلام لما به من الرتة «2» ، يريد : أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به ، وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة ، وكانت الأنبياء كلهم أبيناء «3» بلغاء . وأراد بإلقاء الأسورة عليه :

إلقاء مقاليد الملك إليه ، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوّروه بسوار وطوّقوه بطوق من ذهب مُقْتَرِنِينَ إما مقترنين به من قولك : قرنته فاقترن «4» به ، وإما من : اقترنوا ، بمعنى تقارنوا ، لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات اللّه عليه ، فوصفه بالضعف وقلة الأعضاد اعترض فقال : هلا إن كان صادقا ملكه ربه وسوّده وسوّره ، وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره . وقرئ : أساور جمع أسورة ، وأساوير جمع أسوار وهو السوار ، وأساورة على تعويض التاء من ياء أساوير . وقرئ : ألقى عليه أسورة وأساور ، على البناء للفاعل ، وهو اللّه عز وجل .

[سورة الزخرف (43) : آية 54]

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (54)

---

(1) . قوله «تلك الأبهة» كسكرة ، كذا بهامش الصحاح . وفي الصحاح : «دهماء الناس» : جماعتهم . (ع)

(2) . قوله «لما به من الرتة» بالضم : العجمة في الكلام ، كذا في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «وكانت الأنبياء كلهم أبيناء» في الصحاح : بان الشيء بيانا : اتضح ، فهو بين ، والجمع أبيناء ، مثل هين وأهيناء . (ع)

(4) . قوله «قرنته فاقترن به» لعله قرنته به فاقترن (ع)

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فاستفزهم. وحقيقته: حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم، وكذلك: استفز، من قولهم للخفيف: فز.

[سورة الزخرف (43): الآيات 55 إلى 56]

فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (56)

آسَفُونا منقول من أسف أسفا إذا اشتد غضبه. ومنه الحديث في موت الفجأة: رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر «1». ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي وعدوا طورهم، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا، وأن لا نحلم عنهم. وقرئ: سلفا جمع سالف، كخادم وخدم.

وسلفا - بضمتين - جمع سليف، أى: فريق قد سلف. وسلفا: جمع سلفة، أى: ثلة قد سلفت.

ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم، لإتيانهم بمثل أفعالهم، وحديثا عجيب الشأن سائرا مسير المثل، يحدثون به

ويقال لهم : مثلكم مثل قوم فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 235 .

259 ﴾

---

(1) . تقدم في طه . [. . . . .]

(149/692)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ حم ﴾ قد تقدم بيانه [المؤمن] .

﴿ والكتاب المُبينِ ﴾ قسمٌ بالقرآن .

﴿ إِنّا جعَلْناه ﴾ قال سعيد بن جبير : أنزَلْناه .

وما بعد هذا تقدم بيانه [النساء : 82] [يوسف : 2] إلى قوله : ﴿ وإِنَّه ﴾ يعني القرآن

﴿ في أُمِّ الكتاب ﴾ قال الزجاج : أي : في أصل الكتاب ، وأصل كلِّ شيء : أُمُّه ، والقرآن مُثْبَتٌ عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : ﴿ لَدَيْنا ﴾ أي : عندنا ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ أي : رفيع .

وفي معنى الحكيم قولان :

أحدهما : مُحْكَم ، أي : ممنوعٌ من الباطل ، قاله مقاتل .

والثاني : حاكمٌ لأهل الإيمان بالجنة ولأهل الكفر بالنار ، ذكره أبو سليمان الدمشقي ،

والمعنى : إن كذَّبتم به يا أهل مكة فإنه عندنا شريفٌ عظيمُ المَحَلِّ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عنكم الذِّكر صَفْحاً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : نُمْسِكُ عنكم فلا نذكُركم صفحاً ، أي : إعراضاً .

يقال : صَفَحْتُ عن فلان : إذا أعرضت عنه ، والأصل في ذلك أن تُوِلّيه صَفْحةَ عنقك ،

قال كُثَيِّر يصف امرأة :

صَفُوحاً فما تَلْقاكَ إلاّ بَخِيلَةً . . .

فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوَصْلَ مَلَّتِ

أي : مُعْرِضَة بوجهها ، يقال ؛ ضَرَبْتُ عن فلان كذا : إذا أمسكتَه وأضربتَ عنه .

﴿ أن كنتم ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ أن كنتم ﴾

بالنصب ، أي : لأن كنتم قوماً مسرفين .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ إن كنتم ﴾ بكسر الهمزة .

قال الزجاج : وهذا على معنى الاستقبال أي إن تكونوا مسرفين نَضْرِبْ عنكم الذِّكْر .

وفي المراد بالذِّكْر قولان :

أحدهما : أنه ذِكْر العذاب ، فالمعنى : أفنُمْسِكُ عن عذابكم ونترُكُكم على كفركم ؟ !

وهذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي .

والثاني : أنه القرآن فالمعنى : أفنُمْسِكُ عن إنزال القرآن من أجل أنكم لا تؤمِنون به ؟ ! وهو معنى قول قتادة ، وابن زيد .

(150/692)

وقال قتادة : " مُسْرِفِينَ " بمعنى مشركين .

ثم أعلم نبيَّه أنِّي قد بعَثتُ رُسُلاً فكُذِّبوا فأهلكتُ المكذِّبين بالآيات التي تلي هذه .

قوله تعالى : ﴿ أَشَدَّ منهم ﴾ أي : من قريش ﴿ بَطْشاً ﴾ أي : قُوَّةً ﴿ ومضى مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي : سبق وصفُ عِقابهم فيما أُنزل عليك .

وقيل : سبق تشبيه حال أولئك بهؤلاء في التكذيب ، فستقع المشابهة بينهم في الإهلاك .

ثم أخبر عن جهلهم حين أقَرُّوا بأنه خالق السموات والأرض ثم عبدوا غيره بالآية التي تلي هذه ؛ ثم التي تليها مفسَّرة في [طه : 53] إلى قوله : ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي : لكي تهتدوا في أسفاركم إلى مقاصدكم .

قوله تعالى : ﴿ والذي نزَّل من السماء ماءً بقَدَرٍ ﴾ قال ابن عباس : يريد أنه ليس كما أنزل على قوم نوح بغير قَدَرٍ فأغرقهم ، بل هو بقَدَرٍ ليكون نافعاً .

ومعنى : " أنشَرْنا " : أحيَيْنا .

قوله تعالى : ﴿ كذلك تُخْرَجُونَ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر : ﴿ تَخْرُجُونَ ﴾ بفتح التاء وضم الراء ؛ والباقون بضم التاء وفتح الراء .

وما بعد هذا قد سبق [يس : 36 42] إلى قوله تعالى : ﴿ لتستووا على ظُهوره ﴾ قال أبو عبيدة : هاء التذكير ل " ما " .

﴿ ثم تذكُروا نعمة ربِّكم ﴾ إذ سخَّر لكم ذلك المَركب في البَرِّ والبحر ، ﴿ وما كنا له مُقْرِنِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي : مُطيقين .

قال ابن قتيبة : يقال أنا مُقْرن لك ، أي : مُطيق لك ، ويقال : هو من قولهم : أنا قِرْنٌ لفلان : إذا كنتَ مثله في الشِّدة .

فإن قلتَ : أنا قَرْنٌ لفلان بفتح القاف فمعناه : أن تكون مثله بالسِّنّ .

وقال أبو عبيدة : " مُقْرِنِينَ " أي ضابِطِين ، يقال : فلان مُقْرِنٌ لفلان ، أي : ضابط له .

قوله تعالى : ﴿ وإنّا إلى ربِّنا لَمُنْقَلِبونَ ﴾ أي : راجعون في الآخرة .

(151/692)

قوله تعالى : ﴿ وجَعَلوا له مِنْ عِباده جُزْءاً ﴾ أمّا الجَعْل هاهنا ، فمعناه : الحُكم بالشيء ، وهم الذين زعموا أن الملائكةَ بناتُ الله ؛ والمعنى : جَعلوا له نصيباً من الولد ، قال الزجاج :

وأنشدني بعض أهل اللغة بيتاً يدل على أن معنى ﴿ جزءٍ ﴾ معنى الإِناث – ولا أدري البيت قديم أو مصنوع – :

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ ، يَوْماً ، فلا عَجَبٌ . . .

قد تُجْزِىءُ الحُرَّةُ المِذْكارُ أَحْيانا

أي : آنثت ، ولدت أُنثى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسان ﴾ يعني الكافر ﴿ لَكَفورٌ ﴾ أي : جَحودٌ لِنعَم الله عز وجل ﴿ مُبِينٌ ﴾ أي : ظاهرُ الكُفر .

ثم أنكر عليهم فقال : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمّا يَخْلُقُ بناتٍ ﴾ وهذا استفهام توبيخ وإِنكار ﴿ وأصْفاكم ﴾ أي : أخلَصَكم بالبنينَ .

﴿ وإِذا بُشِّر أحدُهم بما ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ أي : بما جعل لله شبها ، وذلك أن ولد كلِّ شيء شبهه وجنسه .

والآية مفسرة في [النحل : 58] .

قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ يُنْشَّأُ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص : ﴿ يُنَشَّأُ ﴾ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ، وقرأ الباقون : بفتح الياء وسكون النون .

قال المبرِّد : تقديره : أو يَجعلون من ينشأ (في الحِلْية) قال أبو عبيدة : الحِلْية : الحِلَى .

قال المفسرون : والمراد بذلك : البنات ، فإنهنُ رِيّين في الحُلِيِّ والخصام بمعنى المُخاصَمة ،

﴿ غيرُ مُبينٍ ﴾ حُجَّةً .

قال قتادة : قلَّما تتكلَّم امرأة بحُجَّتها إلاّ تكلَّمتْ بالحُجَّة عليها .

وقال بعضهم : هي الأصنام .

قوله تعالى : ﴿ وجَعلوا الملائكةَ ﴾ قال الزجاج : الجَعْل ها هنا بمعنى القول والحكم على الشيء ، تقول : قد جعلتُ زيداً أعلَم الناسِ ، أي : قد وصفته بذلك وحكمت به .

قال المفسرون : وجَعْلُهم الملائكة إناثاً قولُهم : هُنَّ بناتُ الله .

(152/692)

قوله تعالى : ﴿ الذين هُمْ عِبادُ الرحمن ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، ويعقوب ، وأبان عن عاصم ، والشيزري عن الكسائي : ﴿ عِنْدَ الرحمن ﴾ بنون من غير ألف .

وقرأ الباقون : ﴿ عِبادُ الرحمن ﴾ ، ومعنى هذه القراءة جعلوا له من عباده بنات والقراءة الأُولى موافقة لقوله ﴿ إنَّ الذين عِنْد ربّكَ ﴾ [الأعراف : 206] وإذا كانوا في السماء كان أَبْعَدَ للعِلْم بحالهم ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهم ﴾ ؟ قرأ نافع ، والمفضل عن عاصم : ﴿ أَأُشْهِدوا ﴾ بهمزتين ، الأولى مفتوحة والثانية مضمومة .

وروى المسيّبي عن نافع " أَوُشْهِدوا " ممدودة من أشْهدْتُ ، والباقون لا يُمدُّون .

"أشَهِدوا" من شَهِدْتُ، أي: أحَضَروه فعرَفوا أنهم إناث؟! وهذا توبيخ لهم إذ قالوا فيما يُعْلَم بالمشاهَدة من غير مشاهَدة ﴿ ستُكْتَبُ شهادتُهم ﴾ على الملائكة أنها بناتُ الله.

وقال مقاتل: لمّا قال الله عز وجل ﴿ أَشَهِدوا خَلْقَهم ﴾؟، سُئلوا عن ذلك فقالوا: [لا].

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "فما يُدريكم أنها إناث"؟ فقالوا: سمعنا من آبائنا ونحن نَشهد أنهم لم يَكذبوا، فقال الله: ﴿ ستُكْتَبُ شهادتُهم ويُسأَلُونَ ﴾ عنها في الآخرة.

وقرأ أبو رزين، ومجاهد: ﴿ سنَكْتُبُ ﴾ بنون مفتوحة ﴿ شهادتَهم ﴾ بنصب التاء.

ووافقهم ابن أبي عبلة في "سنَكْتُبُ" وقرأ "شهاداتِهم" بألف.

قوله تعالى: ﴿ وقالوا لو شاءَ الرحمنُ ما عَبَدْناهم ﴾ في المكنيِّ عنهم قولان:

أحدهما: أنهم الملائكة، قاله قتادة، ومقاتل في آخرين.

والثاني: الأوثان، قاله مجاهد.

(153/692)

وإنما عَنَوْا بهذا أنه لو لم يَرْضَ عبادتَنا لها لعجَّل عقوبتنا، فردَّ عليهم قولهم بقوله: ﴿ ما لهم بذلك مِنْ عِلْمٍ ﴾ وبعض المفسرين يقول: إنما أشار بقوله: ﴿ ما لهم بذلك مِنْ عِلْمٍ ﴾ إلى

ادّعائهم أنَّ الملائكة إناث ؛ قال : ولم يتعرَّض لقولهم ﴿ لو شاء الرحمن ما عَبَدْناهم ﴾ لأنه قول صحيح ؛ والذي اعتمدنا عليه أصح ، لأن هذه الآية كقوله : ﴿ لو شاء اللهُ ما أَشْرَكْنا ﴾ [الانعام : 148] وقوله : ﴿ أَنُطْعِمُ مَنْ لو يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [يس : 47] وقد كشفنا عن هذا المعنى هنالك و ﴿ يَخْرُصُونَ ﴾ بمعنى : يكذبون .

وإنما كذَّبهم لأنهم اعتقدوا أنه رضي منهم الكفر ديناً .

﴿ أَمْ آتيناهم كتاباً مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي : مِنْ قَبْلِ هذا القرآن ، أي بأن يعبدوا غير الله ﴿ فهُم به مستمسِكون ﴾ يأخذون بما فيه .

﴿ بل قالوا إنّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّة ﴾ أي : على سُنَّة ومِلَّة ودِين ﴿ وإنّا على آثارهم مُهْتَدون ﴾ فجعلوا أنفُسهم مهتدين بمجرد تقليد الآباء من غير حُجَّة ؛ ثم أخبر أن غيرهم قد قال هذا القول ، فقال : ﴿ وكذلك ﴾ أي : وكما قالوا قال مُتْرَفو القُرى مِنْ قَبْلهم ، ﴿ وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾ بهم .

﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكم ﴾ وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿ قال أَوَلَوْ جِئْتُكم ﴾ [بألف] .

قال أبو علي : فاعل : " قال " النذير ، المعنى : فقال لهم النذير .

وقرأ أبو جعفر : ﴿ أَوَلَوْ جئناكم ﴾ بألف ونون (بأهدى) أي : بأصوب وأرشد .

قال الزجاج : ومعنى الكلام : قُلْ : أَتَّتبعونَ ما وجدتم عليه آباءكم وإن جئتكم بأهدى

منه ؟ ! وفي هذه الآية إبطال القول بالتقليد .

قال مقاتل : فرَدُّوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ﴿ إنا بما أُرسِلتم به كافرون ﴾ ؛ ثم رجع إلى الأُمم الخالية ، فقال ﴿ فانتَقَمْنا منهم . . . ﴾ الآية .

(154/692)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّني بَراءٌ ﴾ قال الزجاج : البَراء بمعنى البَريء ، والعرب تقول للواحد : أنا البَراء منك ، وكذلك للإثنين والجماعة ، وللذكر والأنثى ، يقولون : نحن البَراء منك والخلاء منك ، لا يقولون : نحن البَراءان منك ، ولا البَراءون منك ، وإنما المعنى : أنا ذو البَراء منك ، ونحن ذو البَراء منك ، كما يقال : رجل عَدْل ، وامرأة عَدْل .

وقد بيّنّا استثناء إبراهيم ربَّه عز وجل مما يعبدون عند قوله : ﴿ إلاّ ربّ العالَمين ﴾ [الشعراء : 77] .

قوله تعالى : ﴿ وجَعَلَها ﴾ يعني كلمة التوحيد ، وهي " لا إله إلا الله " ﴿ كَلِمةً باقيةً في عَقِبه ﴾ أي : فيمن يأتي بعده من ولده ، فلا يزال فيهم موحّد ﴿ لعلَّهم يَرْجِعونَ ﴾ إلى التوحيد كلُّهم إذا سمعوا أن أباهم تبرّأ من الأصنام ووحّد الله عز وجل .

ثم ذكر نعمته على قريش فقال : ﴿ بل متَّعتُ هؤلاء وآباءهم ﴾ والمعنى : إنّي أجزلتُ لهم النِّعَم ولم أُعاجلهم بالعقوبة ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ وهو القرآن ﴿ ورسولٌ مُبِينٌ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ينبغي لهم أن يقابِلوا النِّعَم بالطاعة للرسول ، فخالفوا .

﴿ ولمّا جاءهم ﴾ يعني قريشاً في قول الأكثرين .

وقال قتادة : هم اليهود و ﴿ الحقُّ ﴾ القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا ﴾ أي : هلاّ ﴿ نُزِلَ هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيمٍ ﴾ أمّا القريتان ، فمكَّة والطائف ، قاله ابن عباس ، والجماعة ؛ وأمّا عظيم مكَّة ، ففيه قولان :

أحدهما : الوليد بن المغيرة القرشي ، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس ، [وبه قال قتادة ، والسدي] .

والثاني : عُتبة بن ربيعة ، قاله مجاهد .

وفي عظيم الطائف خمسة أقوال .

أحدها : حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : مسعود بن عمرو بن عبيد الله ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي ، رواه ليث عن مجاهد وبه قال قتادة .

والرابع : [أنه] ابن عَبْد ياليل ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والخامس : كنانة بن عبد [بن] عمرو بن عمير الطائفي ، قاله السدي .

فقال الله عز وجل ردّاً عليهم وإنكاراً ﴿ أَهُمْ يَقْسِمون رحمةَ رَبّكَ ﴾ يعني النُّبوَّة ، فيضعونها حيث شاؤوا ، لأنهم اعترضوا على الله بما قالوا .

﴿ نحن قَسَمْنا بينهم معيشتهم ﴾ المعنى أنه إذا كانت الأرزاق بقَدَر الله ، لا بحول المحتال وهو دون النُّبوَّة فكيف تكون النَّبوَّة ؟ ! قال قتادة : إنك لَتَلْقَى ضعيفَ الحِيلة عَيِيَّ اللِّسان قد بُسِطَ له الرِّزْقُ ، وتَلْقَى شديدَ الحِيلة بسيط اللسان وهو مقتور عليه .

قوله تعالى : ﴿ ورَفَعْنا بَعْضَهم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : بالغنى والفقر .

والثاني : بالحرية والرق ﴿ لِيَتَّخِذَ بعضُهم بعضاً سُخْرِيّاً ﴾ وقرأ ابن السميفع ، وابن محيصن : " سِخْرِيّاً " بكسر السين .

ثم فيه قولان :

أحدهما : يستخدم الأغنياء الفقراء بأموالهم ، فَيَلْتَئِمُ قِوامَ العالَم ، وهذا على القول الأول .

والثاني : ليملك بعضُهم بعضاً بالأموال فيتَّخذونهم عبيداً ، وهذا على الثاني .

قوله تعالى : ﴿ ورَحْمَةُ رَبِّكَ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : النُّبوَّة خير من أموالهم التي يجمعونها ، قاله ابن عباس .

والثاني : الجنة خير ممّا يجمعون في الدنيا ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ ولولا أن يكون الناسُ أُمَّةً واحدةً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لولا أن يجتمعوا على الكفر ، قاله ابن عباس .

والثاني : على إيثار الدنيا على الدِّين ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ لَجَعَلْنا لِمَن يكفرُ بالرَّحمن لِبُيوتهم سُقُفاً من فِضَّة ﴾ لهوان الدنيا عندنا .

(156/692)

قال الفراء : إن شئتَ جعلتَ اللاّم في "لِبُيوتهم" مكرَّرة كقوله : ﴿ يسألونك عن الشَّهْر الحرامِ قِتالٍ فيه ﴾ [البقرة : 217] ، وإن شئتَ جعلتَها بمعنى "على" ، كأنه قال : جَعَلْنا لهم على بُيوتهم ، تقول للرجل : جعلتُ لك لقومك الأُعطية ، أي : جعلتُها من أجلك لهم .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿ سَقْفاً ﴾ على التوحيد .

وقرأ الباقون ﴿ سُقُفاً ﴾ بضم السين والقاف جميعاً .

قال الزجاج : والسَّقف واحد يدلُّ على الجمع ؛ فالمعنى : جعلْنا لبيتِ كلِّ واحد منهم سقفاً من فِضَّة ﴿ ومعارجَ ﴾ وهي الدَّرَج ؛ والمعنى : وجعلْنا معارج من فِضَّة ، وكذلك " ولِبُيوتهم أبواباً " أي : من فِضَّة " وسُرُراً " أي : من فِضَّة .

قوله تعالى : ﴿ عليها يَظْهَرونَ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : يَعْلُون ، يقال : ظَهَرْتُ على البيت إذا علَوْت سطحه .

قوله تعالى : ﴿ وزُخْرُفاً ﴾ وهو الذهب ؛ والمعنى : ويجعل لهم مع ذلك ذهباً وغنىً ﴿ وإنْ كُلُّ ذلك لَما متاعُ الحياة الدُّنيا ﴾ المعنى : لَمَتاع الحياة الدنيا ، و " ما " زائدة .

وقرأ عاصم ، وحمزة : " لَمّا " بالتشديد ، فجعلاه بمعنى " إلاّ " ؛ والمعنى : إنّ ذلك يُتمتَّع به قليلاً ثم يزول ﴿ والآخرة عند ربِّك للمتَّقين ﴾ خاصةً لهم .

قوله تعالى : ﴿ ومن يَعْشُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : يُعْرَضْ ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : يَعْمَ ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال عطاء ، وابن زيد .

والثالث : أنه البَصَر الضعيف ، حكاه الماوردي .

وقال أبو عبيدة : تُظْلِمْ عينه عنه .

وقال الفراء : من قرأ : " يَعْشُ " ، فمعناه : يُعْرِضْ ، ومن نصب الشين ، أراد : يَعْمَ عنه ؛ قال

ابن قتيبة : لا أرى القول إلاّ قولَ أبي عبيدة ، ولم نر أحداً يجيز " عَشَوْتُ عن الشيء " : أعرضتُ عنه ، إنما يقال : " تَعاشَيْتُ عن كذا " ، أي : تغافلتُ عنه ، كأنّي لم أره .

(157/692)

ومثلُه : تعامَيْتُ والعرب تقول : " عَشَوْتُ إلى النار " : إذا استدللتَ إليها ببصر ضعيف ، قال الحطيئة :

متَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ . . .

تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

ومنه حديث ابن المسّيب : " أن إحدى عينَيْه ذهبتْ ، وهو يَعْشُو بالأُخرى " ، أي : يُبْصِر بها بصراً ضعيفاً .

قال المفسرون : " ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْر الرحمن " فلم يَخَف عِقابه ولم يلتفت إلى كلامه " نقيّضْ له " أي : نسبب له " شيطاناً " فنجعل ذلك جزاءَه " فهو له قرين " لا يفارقه .

﴿ وإنهم ﴾ يعني الشياطين ﴿ لَيَصُدُّونهم ﴾ يعني الكافرين ، أي : يمنعونهم عن سبيل الهدى ؛ وإنما جمع ، لأن ﴿ مَنْ ﴾ في موضع جمع ، ﴿ ويَحْسَبون ﴾ يعني كفار بني آدم (أنهم) على هدىً .

﴿ حتَّى إذا جاءنا ﴾ وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿ جاءنا ﴾ واحد، يعني الكافر.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ جاءانا ﴾ بألفين على التثنية يعنون الكافر وشيطانه.

وجاء في التفسير: أنهما يُجعلان يومَ البعث في سلسلة، فلا يفترقان حتى يُصَيِّرَهما الله إلى النار، ﴿ قال ﴾ الكافر للشيطان: ﴿ يا ليت بيني وبينَك بُعدَ المَشْرِقَيْنِ ﴾ أي: بُعْدَ ما بين المَشْرِقَيْن؛ وفيهما قولان:

أحدهما: أنهما مَشْرِقُ الشمس في أقصر يوم في السنة، ومَشْرِقُها في أطول يوم، قاله ابن السائب، ومقاتل.

والثاني: أنه أراد المَشْرِق والمَغْرِب، فغلَّب ذِكْر المَشْرِق، كما قالوا سُنَّة العُمَرَيْن، يريدون: أبا بكر وعمر، وأنشدوا من ذلك:

أَخَذْنا بِآفاقِ السَّماءِ عَلَيْكُمُ . . .

لَنا قَمراها والنُّجُومُ الطَّوالِعُ

يريد: الشمس والقمر؛ وأنشدوا:

فَبَصْرَةُ الأَزْدِ مِنَّا والعِراقُ لَنا . . .

والمَوْصِلانِ ومِنَّا مِصْرُ والحَرَمُ

يريد : الجزيرة والموصل ، [وهذا اختيار الفراء ، والزجاج] .

(158/692)

قوله تعالى : ﴿ فبِئْسَ القَرِينُ ﴾ أي : أنتَ أيُّها الشَّيطان .

ويقول الله عز وجل يومئذ للكفار : ﴿ ولن ينفَعَكم اليومَ إذ ظَلَمْتُم ﴾ أي : أشركتم في الدنيا ﴿ أنَّكم في العذاب مشترِكون ﴾ أي : لن ينفعكم الشِّركة في العذاب ، لأن لكل واحد منه الحظَّ الأوفر .

قال المبرِّد : مُنِعوا روح التَّأسِّي ، لأن التَّأسِّيَ يُسهِّل المُصيبة ، وأنشد للخنساء أخت صخر بن مالك في هذا المعنى :

ولَوْلا كَثْرَةُ الباكِينَ حَوْلِي . . .

على إخْوانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وما يَبْكُونَ مِثْلَ أخي ولكِنْ . . .

أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتَّأسِّي

وقرأ ابن عامر : ﴿ إنَّكم ﴾ بكسر الألف .

ثم أخبر عنهم بما سبق لهم من الشّقاوة بقوله : ﴿ أفأنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ . . . ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ فإمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ قال أبو عبيدة : معناها : فإن نَذْهَبَنَّ ؛ وقال الزجاج : دخلت " ما " توكيداً للشرط ، ودخلت النون الثقيلة في ﴿ نَذْهَبَنَّ ﴾ توكيداً أيضاً ؛ والمعنى : إنّا ننتقِم منهم إن تُوفيّتَ أَوْ نُرِيَنَّكَ ما وَعَدْناهم ووعَدْناك فيهم من النَّصر .

قال ابن عباس : ذلك يومَ بدر وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله ﴿ فإمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ منسوخ بآية السيف ، ولا وجه [له] .

قوله تعالى : ﴿ وإنه ﴾ يعني القرآن ﴿ لَذِكْرٌ لَكَ ﴾ أي : شَرَفٌ لَكَ بما أعطاكَ اللهُ ﴿ ولِقَوْمِكَ ﴾ في قومه ثلاثة أقوال :

أحدها : العرب قاطبة .

والثاني : قريش .

والثالث : جميع من آمن به .

وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سئل : لِمَنْ هذا الأمرُ من بعدك ؟ لم يُخْبِر بشيء ، حتى نزلت هذه الآية ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : " لقريش " وهذا يَدُلُّ على أن النبي صلى الله عليه وسلم فَهِم من هذا أنه يَلِي على المسلمين بحُكْم النُّبوَّة وشَرَفِ القرآن ، وأن قومه يَخْلُفونه من بعده في الوِلاية لشرف القرآن الذي أُنزل على رجُلٍ منهم .

ومذهب مجاهد أن القوم ها هنا : العرب ، والقرآن شَرَفٌ لهم إذْ أُنْزِلَ بلُغتهم .

قال ابن قتيبة : إنما وُضع الذِّكر موضعَ الشَّرَف ، لأن الشَّريف يُذْكَر وفي قوله : ﴿ وسوف تُسألونَ ﴾ قولان .

أحدهما : عن شُكر ما أُعطيتم من ذلك .

والثاني : عمّا لزمكم فيه من الحقوق .

قوله تعالى : ﴿ واسألْ مَنْ أرسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ﴾ إن قيل : كيف يسأل الرُّسل وقد ماتوا قبله ؟ فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه لمّا أُسري به جُمع له الأنبياءُ فصلَّى بهم ، ثم قال [له] جبريل : سَلْ من أرسَلْنا قَبْلَك . . .

الآية .

فقال : لا أَسألُ ، قد اكتَفَيْتُ .

رواه عطاء عن ابن عباس .

وهذا قول سعيد بن جبير ، والزهري ، وابن زيد ؛ قالوا : جُمع له الرُّسل ليلةَ أُسري به ، فلقَيهم ، وأُمر أن يسألَهم ، فما شَكّ ولا سأل .

والثاني : أن المراد : [اسأل] مؤمني أهل الكتاب [من] الذين أرسلت إليهم الأنبياء ، روي عن ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي في آخرين .

قال ابن الأنباري : والمعنى سَلْ أتباع مَنْ أرسَلْنا قَبْلَكَ ، كما تقول : السخاء حاتِم ، أي : سخاء حاتِم ، والشّعر زهير ، أي : شِعر زهير .

وعند المفسرين أنه لم يسأل على القولين .

وقال الزجاج : هذا سؤال تقرير ، فإذا سأل جميع الأمم ، لم يأتوا بأن في كتبهم : أن اعبدوا غيري .

والثالث : [أن] المُراد بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم : خطابُ أُمَّته ، فيكون المعنى : سَلُوا ، قاله الزجاج .

(160/692)

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : ﴿ إذ هُمْ منها يَضحكون ﴾ استهزاءً بها وتكذيباً .

﴿ وما نُريهم مِنْ آيةٍ إلاّ هي أكبرُ مِنْ أُختها ﴾ يعني ما ترادف عليهم من الطُّوفان والجراد والقُمَّل والضَّفادع والدَّم والطَّمْس ، فكانت كُلُّ آيةٍ أكبرَ من التي قَبْلَها ، وهي العذاب المذكور في قوله : ﴿ وأَخَذْناهم بالعذاب ﴾ ، فكانت عذاباً لهم ، ومعجزات لموسى عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيُّها السّاحر ﴾ في خطابهم له بهذا ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم أرادوا : يا أيها العالِم ، وكان الساحر فيهم عظيماً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم قالوه على جهة الاستهزاء ، قاله الحسن .

والثالث : أنهم خاطبوه بما تقدَّم له عندهم من التَّسمية بالسّاحر ، قاله الزجّاج .

قوله تعالى : ﴿ إنَّنا لَمُهتدون ﴾ أي : مؤمنون بك .

فدعا موسى فكُشف عنهم ، فلم يؤمِنوا .

وقد ذكرنا ما تركناه هاهنا في [الأعراف : 135] .

قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحتي ﴾ أي : من تحت قصوري ﴿ أفلا تُبْصِرونَ ﴾ عظَمتي وشِدَّةَ مُلكي .

؟ ! ﴿ أَمْ أنا خَيْرٌ ﴾ قال أبو عبيدة : أراد : بل أنا خَيْرٌ .

وحكى الزجاج عن سيبويه والخليل أنهما قالا : عطف ﴿ أنا ﴾ ب ﴿ أمْ ﴾ على ﴿ أفلا تُبْصِرون ﴾ [فكأنه قال : أفلا تُبْصِرون] أم أنتم بُصَراء ؟ ! .

لأنهم إذا قالوا : أنتَ خيرٌ منه ، فقد صاروا عنده بُصَراءَ .

قال الزجاج : والمَهِين القليل ؛ يقال : شيء مَهِين ، أي : قليل .

وقال مقاتل : " مَهِين " بمعنى ذليل ضعيف .

قوله تعالى : ﴿ ولا يكاد يُبين ﴾ أشار إلى عُقدة لسانه التي كانت به ثم أذهبها الله عنه ، فكأنه عيَّره بشيءٍ قد كان وزال ، ويدل على زواله قوله تعالى : ﴿ قد أُوتيتَ سؤلكَ يا موسى ﴾ [طه : 36] ، وكان في سؤاله :

﴿ واحْلُلْ عُقْدَةً من لساني ﴾ [طه : 27] .

وقال بعض العلماء : ولا يكاد يُبين الحُجَّة ولا يأتي ببيان يُفْهم .

(161/692)

﴿ فلولا ﴾ أي : فهلاّ ﴿ أُلْقِيَ عليه أسَاوِرَةٌ مِنْ ذهبٍ ﴾ وقرأ حفص عن عاصم : ﴿ أسْوِرةٌ ﴾ بغير ألف .

قال الفراء : واحد الأساوِرة : إسْوار ، وقد تكون الأساوِرة جمع أسْوِرة .

كما يقال في جمع الأسْقِية : الأساقي ، وفي جمع الأكْرُع : الأكارِع .

وقال الزجاج : يصلُح أن تكون الأساوِرة جمع الجمع ، تقول : أسْوِرَة وأساوِرة ، كما تقول : أقوال وأقاويل ، ويجوز أن تكون جمع إسْوار .

وإنما صرفتَ أساوِرة ، لأنك ضممتَ الهاء إلى أساوِر فصار اسماً واحداً ، وصار له مثال في الواحد نحو " علانية " .

قال المفسرون : إنما قال فرعون هذا لأنهم كانوا إذا سوَّدوا الرجل منهم سوَّروه بسِوار .

﴿ أو جاء معه الملائكةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ فيه قولان : أحدهما : متتابعين ، قاله قتادة .

والثاني : يمشون معه ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فاستَخَفَّ قومَه ﴾ قال الفراء : استفزَّهم ؛ وقال غيره : استخَفَّ أحلامَهم وحملهم على خِفَّة الحِلْم بكيده وغُروره ﴿ فأطاعوه ﴾ في تكذيب موسى .

﴿ فلمّا آسَفُونا ﴾ قال ابن عباس : أغضبونا .

قال ابن قتيبة : الأسَف : الغَضَب ، يقال أسِفْتُ آسَفُ أسَفاً أي : غَضِبْتُ .

﴿ فجَعَلْناهم سَلَفاً ﴾ أي : قوماً تقدَّموا .

وقرأها أبو هريرة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وحميد الأعرج : " سُلَفاً " بضم السين وفتح اللام كأن واحدته سُلْفَةٌ من الناس ، مثل القِطعة ، يقال : تقدمتْ سُلْفَةٌ من الناس ، أي : قِطعة منهم .

وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿ سُلُفاً ﴾ بضم السين واللام، وهو جمع "سَلَف"، كما قالوا: خَشَب وخُشُب، وثَمَر وثُمُر، ويقال: هو جمع "سَلِيفٍ" وكلُّه من التقدُّم وقال الزجاج: "السَّلِيف" جمعٌ قد مضى، والمعنى: جعلْناهم سَلَفاً متقدّمين ليتعظ بهم الآخرون.

قوله تعالى: ﴿ ومثلاً ﴾ أي: عبرة وعظة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 323.301 ﴾

(162/692)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ حم والكتاب المبين ﴾

أقسم بالكتاب وهو القرآن الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة من الشريعة وقيل المبين يعني الواضح للمتدبرين وجواب القسم ﴿ إنا جعلناه ﴾ أي صيرنا هذا الكتاب عربياً وقيل بيناه وقيل سميناه وقيل وصفناه وقيل أنزلناه ﴿ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ يعني معانيه وأحكامه ﴿ وإنه ﴾ يعني القرآن ﴿ في أم الكتاب ﴾ أي في اللوح المحفوظ، قال ابن عباس: أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق في الكتاب عنده ثم قرأ ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا ﴾ أي عندنا فالقرآن مثبت عند الله تعالى

في اللوح المحفوظ ﴿ لعلي حكيم ﴾ أخبر عن شرفه وعلو منزلته ، والمعنى إن كذبتم يا أهل مكة بالقرآن فإنه عندنا لعليّ أي رفيع شريف ، وقيل على علي جميع الكتب حكيم أي محكم لا يتطرق إليه الفساد والبطلان .

قوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ معناه أفنترك عنكم الوحي ونمسك عن إنزال القرآن فلا نأمر ولا ننهاكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم وتركتم الإيمان وهو قوله تعالى : ﴿ أن كنتم ﴾ أي لأن كنتم ﴿ قوماً مسرفين ﴾ والمعنى لا نفعل ذلك قال قتادة والله لو كان هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله عاد بعائدته وكرامته فكرره عليهم عشرين سنة أو ما شاء الله ، وقيل : معناه أفنضرب عنكم بذكرنا إياكم صافحين أي معرضين عنكم ، وقيل : معناه أفنطوي الذكر عنكم طياً فلا تدعون ولا توعظون وقيل أفتترككم فلا نعاقبكم على كفركم .

﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ﴾ يعني كاستهزاء قومك بك وفيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ أي أقوى من قومك قوة ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أي صفتهم والمعنى أن كفار قريش سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأولين من الخزي والعقوبة .

قوله : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أي ولئن سألت يا محمد قومك ﴿ من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ يعني أنهم أقروا بأن الله تعالى خلقهما وأقروا بعزته وعلمه ومع إقرارهم بذلك عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث لفرط جهلهم ثم ابتدأ تعالى دالاً على نفسه بذكر مصنوعاته فقال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ معناه واقفة ساكنة يمكن الانتفاع بها ولما كان المهد موضع راحة الصبي فلذلك سمى الأرض مهاداً لكثرة ما فيها من الراحة للخلق ﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ أي طرقاً ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ يعني إلى مقاصدكم في أسفاركم ﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾ أي بقدر حاجاتكم إليه لا كما أنزل على قوم نوح حتى أهلكهم ﴿ فأنشرنا به ﴾ أي بالمطر ﴿ بلدة ميتاً ﴾ أي كما أحيينا هذه البلدة الميتة بالمطر ﴿ كذلك تخرجون ﴾ أي من قبوركم أحياء ﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي الأصناف والأنواع كلها قيل إن كل ما سوى الله تعالى فهو زوج وهو الفرد المنزه عن الأضداد والأنداد والزوجية ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ يعني في البر والبحر .

(164/692)

﴿ لتستوا على ظهوره ﴾ أي على ظهور الفلك والأنعام ﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ﴾ يعني بتسخير المركب في البر والبحر ﴿ وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا ﴾ أي ذلل لنا هذا ﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ أي مطيقين وقيل ضابطين ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أي لمنصرفون في المعاد (م) عن ابن عمر " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر حمد الله تعالى وسبح وكبر ثلاثاً ثم قال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون سفرنا هذا واطو عنا بعده اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد وإذا رجع قالهن وزاد فيهم آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون " قوله وعثاء السفر : يعني تعبه وشدته ومشقته وكآبة المنظر وسوء المنقلب الكآبة الحزن والمنقلب المرجع وذلك أن يعود من سفره حزيناً كئيباً أو يصادف ما يحزنه في أهل أو مال .

عن علي بن أبي ربيعة قال " شهدت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقد أتي بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال بسم الله فلما استوى على ظهرها قال الحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ثم قال الحمد لله ثلاث مرات ثم قال الله أكبر ثلاث مرات ثم قال سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا

يغفر الذنوب إلا أنت ثم ضحك فقلت يا أمير المؤمنين مم ضحكك قال رأيت رسول الله فعل كما فعلت فقلت يا رسول الله من أي شيء ضحكت قال إن ربك يعجب من عبده إذا قال رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك " أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن غريب .

(165/692)

قوله تعالى : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ﴾ يعني ولداً وهو قولهم الملائكة بنات الله لأن الولد جزء من الأب ومعنى جعلوا هنا حكموا وأثبتوا ﴿ إن الإنسان لكفور مبين ﴾ أي لجحود نعم الله تعالى عليه ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ هذا استفهام إنكار وتوبيخ يقول اتخذ ربكم لنفسه البنات ﴿ وأصفاكم ﴾ أي أخلصكم ﴿ بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ أي بالجنس الذي جعله للرحمن شبهاً لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد والمعنى أنهم نسبوا إليه البنات ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له وقد ولد لك بنت اغتم وتربد وجهه غيظاً وأسفاً وهو قوله تعالى : ﴿ ظل وجهه ﴾ أي صار وجهه ﴿ مسوداً وهو كظيم ﴾ أي من الحزن والغيظ قيل إن بعض العرب ولد له أنثى فهجر بيت امرأته التي ولدت فيه الأنثى فقالت المرأة :

﴿ وجعلوا ﴾ أي وحكموا وأثبتوا ﴿ الملائكة الذين هم عباد ﴾ وقرىء عند ﴿ الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ﴾ أي حضروا خلقهم حين خلقوا وهذا استفهام إنكار أي لم يشهدوا ذلك ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ أي على الملائكة أنهم بنات الله ﴿ ويسألون ﴾ أي عنها ، قيل لما قالوا هذا القول سألهم النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : وما يدريكم أنهم بنات الله ، قالوا : سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا ، فقال الله تعالى : ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ ويسألون عنها في الآخرة ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ يعني الملائكة وقيل الأصنام وإنما لم يعجل عقوبتنا على عبادتنا إياها لرضاه منا بذلك قال الله تعالى رداً عليهم .

(166/692)

﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ أي فيما يقولون ﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ يعني ما هم إلا كاذبون في قولهم إن الله رضي منا بعبادتها ، وقيل يكذبون في قولهم إن الملائكة إناث وإنهم بنات الله ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾ أي من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ أي يأخذون بما فيه ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ أي على دين وملة ﴿ وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ يعني أنهم جعلوا أنفسهم مهتدين باتباع آبائهم

وتقليدهم من غير حجة ثم أخبر أن غيرهم قد قال هذه المقالة بقوله تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها ﴾ أغنياؤها ورؤساؤها ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ أي بهم .

(167/692)

﴿ قال أولو جئتكم بأهدى ﴾ أي بدين هو أصوب ﴿ مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ فأبوا أن يقبلوا ﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء ﴾ أي بريء ﴿ مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ معناه أنا أتبرأ مما تعبدون إلا من الله الذي خلقني ﴿ فإنه سيهدين ﴾ أي يرشدني إلى دينه ﴿ وجعلها ﴾ أي وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي لا إله إلا الله ﴿ كلمة باقية في عقبه ﴾ أي في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم وقيل لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين ويرجعون عما هم عليه من الشرك إلى دين إبراهيم ﴿ بل متعت هؤلاء ﴾ يعني كفار مكة ﴿ وآباءهم ﴾ في الدنيا بالمد في العمر والنعمة ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن وقيل الإسلام ﴿

ورسول ﴾ هو محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ مبين ﴾ أي يبين لهم الأحكام وقيل بين الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والمعجزات وكان من حق هذا الإنعام أن يطيعوه فلم يفعلوا بل كذبوا وعصوا وسموه ساحراً وهو قوله تعالى : ﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن ﴿ قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ قوله : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ معناه أنهم قالوا منصب النبوة منصب عظيم شريف لا يليق إلا برجل شريف عظيم كثير المال والجاه من إحدى القريتين وهما مكة والطائف واختلفوا في هذا الرجل العظيم قيل الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف وقيل عتبة بن ربيعة من مكة وكنانة بن عبد ياليل الثقفي من الطائف ، وقال ابن عباس : الوليد بن المغيرة من مكة ومن الطائف حبيب بن عمير الثقفي قال الله تعالى رداً عليهم .

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾

(168/692)

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ معناه أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعوها حيث شاؤوا وفيه الإنكار الدال على تجهيلهم والتعجب من اعتراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة ثم ضرب لهذا مثلاً فقال تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا

﴿ أي نحن أوقعنا هذا التفاوت بين العباد فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً وهذا مالكاً وهذا مملوكاً وهذا قوياً وهذا ضعيفاً ثم إن أحداً من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا فإذا عجزوا عن الاعتراض في حكمنا في أحوال الدنيا مع قلتها وذلتها فكيف يقدرون على الاعتراض على حكمنا في تخصيص بعض عبادنا بمنصب النبوة والرسالة والمعنى كما فضلنا بعضهم على بعض كما شئنا كذلك اصطفينا بالرسالة من شئنا ثم قال تعالى : ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ يعني لو أننا سوينا بينهم في كل الأحوال لم يخدم أحد أحداً ولم يصر أحد منهم مسخراً لغيره ، وحينئذ يقضي ذلك إلى خراب العالم وفساد حال الدنيا ولكنا فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضاً فتسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش فهذا بماله وهذا بعمله فيلتئم قوام العالم وقيل يملك بعضهم بما له بعضاً بالملك ﴿ ورحمة ربك ﴾ يعني الجنة ﴿ خير ﴾ يعني للمؤمنين ﴿ مما يجمعون ﴾ أي يجمع الكفار من الأموال لأن الدنيا على شرف الزوال والانقراض وفضل الله ورحمته يبقى أبد الآبدين .

(169/692)

قوله : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي لولا أن يصيروا كلهم كفاراً فيجتمعون على الكفر ويرغبون فيه إذا رأوا الكفار في سعة من الخير والرزق لأعطيت الكفار أكثر الأسباب المفيدة للتنعم وهو قوله تعالى : ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج ﴾ يعني مصاعد ودرجات من فضة ﴿ عليها يظهرون ﴾ يصعدون ويرتقون عليها ﴿ ولبيوتهم أبواباً ﴾ أي من فضة ﴿ وسرراً ﴾ أي ولجعلنا لهم سرراً من فضة ﴿ عليها يتكئون وزخرفاً ﴾ أي ولجعلنا من ذلك زخرفاً وهو الذهب وقيل الزخرف الزينة من كل شيء ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ يعني أن الإنسان يستمتع بذلك قليلاً ثم ينقضي لأن الدنيا سريعة الزوال والذهاب ﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ يعني الجنة خاصة للمتقين الذين تركوا الدنيا .

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لو كانت الدنيا عند الله تزن جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

وعن المستورد بن شداد جد بني فهر قال " كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على السخلة الميتة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها قالوا من هوانها ألقوها يا رسول الله قال فإن الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن .

وعن قتادة بن النعمان أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إذا أحبَّ الله عبداً حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " .

(170/692)

قوله تعالى : ﴿ ومن يعش ﴾ أي يعرض ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ أي فلم يخف عقابه ولم يرد ثوابه وقيل يول ظهره عن القرآن ﴿ نقيض له شيطاناً ﴾ أي نسبب له شيطاناً ونضمه إليه ونسلطه عليه ﴿ فهو له قرين ﴾ يعني لا يفارقه يزين له العمى ويخيل إليه أنه على الهدى ﴿ وإنهم ﴾ يعني الشياطين ﴿ ليصدونهم عن السبيل ﴾ يعني يمنعونهم عن الهدى ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ يعني ويحسب كفار بني آدم أنهم على الهدى ﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ يعني الكافر وحدة وقرئ جاءنا على التثنية يعني الكافر وقرينه وقد جعلا في سلسلة واحدة ﴿ قال ﴾ الكافر لقرينه الشيطان ﴿ يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب ، فغلب اسم أحدهما على الآخر كما يقال للشمس والقمر القمران ولأبي بكر وعمر العمران ، وقيل : أراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق

الشتاء ، والقول الأول أصح ﴿ فبئس القرين ﴾ يعني الشيطان قال أبو سعيد الخدري : إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير إلى النار ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ﴾ يعني أشركتم ﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾ يعني لا ينفعكم الاشتراك في العذاب ولا يخفف عنكم شيئاً ، لأن كل واحد من الكفار والشياطين له الحظ الأوفر من العذاب وقيل لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم فأنتم وقرناؤكم اليوم مشتركون في العذاب كما كنتم مشتركين في الكفر .

﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ﴾ يعني الكافرين الذين حقت عليهم كلمة العذاب أنهم لا يؤمنون .

(171/692)

قوله : ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ أي بأن نميتك قبل أن نعذبهم ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ أي بالقتل بعدك ﴿ أو نرينك ﴾ أي في حياتك ﴿ الذي وعدناهم ﴾ أي من العذاب ﴿ فإنا عليهم مقتدرون ﴾ أي قادرون على ذلك متى شئنا عذبناهم ، وأراد به مشركي مكة وقد انتقم منهم يوم بدر وهذا يفيد التسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه وعده الانتقام له منهم إما حال حياته أو بعد وفاته ، وهذا قول أكثر المفسرين وقيل عني به ما يكون في

أمته وقد كان بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) نقمة شديدة في أمته ولكن أكرم الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) وذهب به ولم يره في أمته إلا الذي تقر به عينه وأبقى النقمة بعده وروي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أري ما يصيب أمته بعده فما رئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله تعالى : ﴿ فاستمسك بالذي أوحي إليك ﴾ يعني القرآن ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ أي على دين مستقيم لا يميل عنه إلا الضال ﴿ وإنه ﴾ يعني القرآن ﴿ لذكر ﴾ أي لشرف عظيم ﴿ لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ يعني عن حقه وأداء شكره وروى ابن عباس " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك لم يخبر بشيء حتى نزلت هذه الآية فكان بعد ذلك إذا سئل قال لقريش " (ق) .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان " (خ) عن معاوية قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين " وقيل القوم هم العرب والقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص من العرب حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم ، وقيل ذكر لك أي ذلك شرف لك بما أعطاك الله من النبوة والحكمة ولقومك يعني المؤمنين بما هداهم الله تعالى به وسوف تسألون عن القرآن وعما يلزمكم من القيام بحقه .

قوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ اختلف العلماء من هؤلاء والمسؤولون فروي عن ابن عباس في رواية عنه " لما أسري بالنبي (صلى الله عليه وسلم) بعث الله له آدم وولده من المرسلين فأذن جبريل ثم أقام وقال يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من أرسلنا الآية فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لا أسأل قد اكتفيت .

وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد قالوا جمع له الرسل ليلة أسري به وأمر أن يسال فلم يشك ولم يسأل فعلى هذا القول قال بعضهم هذه الآية نزلت ببيت المقدس ليلة أسري بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وقال أكثر المفسرين معناه سل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلت إليهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد وهو قول ابن عباس في أكثر الروايات عنه ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي والحسن ومقاتل ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ أي يسخرون ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ أي قرينتها التي قبلها ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ أي بالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس ، فكانت هذه آيات ودلالات لموسى وعذاباً لهم وكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي عن كفرهم ﴿ وقالوا ﴾ يعني لموسى لما عاينوا العذاب ﴿ يا أيها الساحر ﴾ أي العالم الكامل الحاذق وإنما قالوا ذلك له تعظيماً وتوقيراً لأن السحر كان عندهم علماً عظيماً وصنعة ممدوحة وقيل معناه يا أيها الذي غلبنا بسحره ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أي بما أخبرتنا عن عهده إليك أنا إن آمنا كشف عنا العذاب فاسأله أن يكشفه عنا ﴿ إننا لمهتدون ﴾ أي لمؤمنون فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ أي ينقضون عهدهم ويصرون على كفرهم .

(174/692)

﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ يعني أنهار النيل الكبار وكانت تجري تحت قصره وقيل معناه تجري بين يدي جناني

وبساتيني ، وقيل تجري بأمري ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أي عظمتي وشدة ملكي ﴿ أما أنا ﴾ أي بل أنا ﴿ خير ﴾ وليس بحرف عطف على قول أكثر المفسرين وقيل فيه إضمار مجازه أفلا تبصرون أم تبصرون ثم ابتدأ فقال أنا خير ﴿ من هذا الذي هو مهين ﴾ أي ضعيف حقير يعني موسى ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ أي يفصح بكلامه للثغته التي كانت في لسانه وإنما عابه بذلك لما كان عليه أولاً وقيل معناه ولا يكاد يبين حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي ولم يرد به أنه لا قدرة له على الكلام ﴿ فلولا ألقي عليه ﴾ أي إن كان صادقاً ﴿ أسورة من ذهب ﴾ قيل إنهم كانوا إذا سودوا رجلاً سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب يكون ذلك دلالة لسيادته ، فقال فرعون هلا ألقى رب موسى عليه أسورة من ذهب إن كان سيداً تجب طاعته ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي متتابعين يقارن بعضهم بعضاً يشهدون له بصدقه ويعينوه على أمره .

قال الله تعالى : ﴿ فاستخف ﴾ يعني فرعون ﴿ قومه ﴾ يعني القبط أي وجدهم جهالاً وقيل حملهم على الخفة والجهل ﴿ فأطاعوه ﴾ أي على تكذيب موسى ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ يعني حيث أطاعوا فرعون فيما استخفهم به ﴿ فلما آسفونا ﴾ أي أغضبونا وهو في حق الله وإرادته العقاب وهو قوله تعالى : ﴿ انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ يعني جعلنا المتقدمين الماضين عبرة وموعظة لمن يجيء من بعدهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 129 . 138 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ والكتاب المبين ﴾ يعني القرآن ، و ﴿ المبين ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى البيّن ، أو المبيِّن لغيره .

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أم الكتاب ، اللوح المحفوظ ، والمعنى : أن القرآن وصف في اللوح بأنه عليّ حكيم ، وقيل : المعنى أن القرآن نُسِخَ بجملته في اللوح المحفوظ ، ومنه كان جبريل ينقله ، فوصفه الله بأنه علي حكيم ؛ لكونه مكتوب في اللوح المحفوظ . والأول أظهر وأشهر .

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ الهمزة للإنكار والمعنى : أنمسك عنكم الذكر ، ونضرب من قولك : أضربت عن كذا : إذا تركته ، والذكر يراد به : القرآن ، أو التذكير ، والوعظ . وصفحاً فيه وجهان : أحدهما أنه بمعنى الإعراض ، تقول صفحت عنه إذا أعرضت عنه ؛ فكأنه قال : أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم ؟ وإعراب صفحاً على هذا مصدر من المعنى ، أو مفعول من أجله ، أو مصدر في موضع الحال ، والآخر أن يكون بمعنى العفو والغفران ، فكأنه يقول : أنمسك عنكم الذكر عفواً عنكم وغفراناً لذنبوكم ؟ وإعراب

صفحاً على هذا مفعول من أجله ، أو مصدر في موضع الحال ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر الهمزة على الشرط ، والجواب في الكلام الذي قبله ، وقرأ الباقون بالفتح على أنه مفعول من أجله .

﴿ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ الضمير لقريش وهم المخاطبون بقوله : ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف : 5] ، فإن قيل : كيف قال : إن كنتم على الشرط بحرف إن التي معناها الشك ، ومعلوم أنهم كانوا مسرفين ؟ فالجواب أن في ذلك إشارة إلى توبيخهم على الإسراف ، وتجهيلهم في ارتكابه ، فكأنه شيء لا يقع من عاقل ، فلذلك وضع حرف التوقع في موضع الواقع ﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ أي تقدّم في القرآن ذكر حال الأولين وكيفية إهلاكهم لما كفروا .

(176/692)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ الآية احتجاج على قريش ؛ لأنهم كانوا يعترفون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض ؛ وكانوا مع اعترافهم بذلك يعبدون غيره ، ومقتضى جوابهم أن يقولوا : خلقهن الله ، فلما ذكر هذا المعنى جاءت العبارة عن الله ب ﴿ العزيز العليم ﴾ ؛ لأن اعترافهم بأنه خلق السموات والأرض يقتضي أن يعترفوا بأنه عزيز عليم ، وأما قوله : ﴿

الذي جَعَلَ لَكُمُ ﴾ فهو من كلام الله لا من كلامهم ﴿ مَهْداً ﴾ أي فراشاً على وجه التشبيه ﴿ سُبُلاً ﴾ أي طرقاً تمشون فيها .

﴿ مَآءً بِقَدَرٍ ﴾ أي بمقدار ووزن معلوم وقيل : معناه بقضاء ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ تمثيل للخروج من القبور ؛ بخروج النبات من الأرض .

﴿ الأزواج كُلَّهَا ﴾ يعني أصناف الحيوان والنبات وغير ذلك .

﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ الضمير يعود على ما تركبون ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون هذا الذكر بالقلب أو باللسان ، ويحتمل أن يريد النعمة في تسخير هذا المركوب أو النعمة على الاطلاق ، وكان بعض السلف إذا ركب دابة يقول : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، ثم يقول : ﴿ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مطيقين وغالبين ﴿ وَإِنَّآ إِلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ اعتراف بالحشر فإن قيل : ما مناسبة هذا للركوب ؟ فالجواب : أن راكب السفينة أو الدابة متعرض للهلاك بما يخاف من غرق السفينة ، أو سقوطه عن الدابة ، فأمر بذكر الحشر ليكون مستعداً للموت الذي قد يعرض له ، وقيل يذكر عند الركوب ركوب الجنازة .

(177/692)

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ الضمير في جعلوا لكفار العرب ، وفي ﴿ لَهُ ﴾ لله تعالى ، وهذا الكلام متصل بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ [الزخرف : 9] الآية والمعنى أنهم جعلوا الملائكة بنات الله ، فكأنهم جعلوا جزءاً من عباده نصيباً له وحظاً دون سائر عباده . وقال الزمخشري : معناه أنهم جعلوا الملائكة جزءاً منه وقال بعض اللغويين : الجزء في اللغة الإناث واستشهد على ذلك ببيت شعر قال الزمخشري وذلك كذب على اللغة والبيت موضوع .

﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ أم للإنكار والرد على الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله ومعنى أصفاكم : خصكم . أي كيف يتخذ لنفسه البنات وهي أدنى ، وأصفاكم بالبنين وهم أعلى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ أي إذا بشر بالأنثى ، وقد ذكر المعنى في النحل والمراد أنهم يكرهون البنات فيكف ينسبونها إلى الله ؟ تعالى الله عن قولهم .

﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحلية ﴾ المراد بمن ينشأ في الحلية النساء ، والحلية هي الحلي من الذهب والفضة ، وشبه ذلك . ومعنى ينشأ فيها يكبر وينبت في استعمالها . وقرئ ينشأ بضم الياء وتشديد الشين بمعنى يُربّي فيها ، والمقصد الرد على الذين قالوا : الملائكة بنات الله . كأنه قال : أجعلتم لله من ينشأ في الحلية وذلك صفة النقص ، ثم أتبعها بصفة نقص أخرى وهي قوله : ﴿ وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ ، يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو

تكلمت لم تقدر أن تبين حجَّتها لنقص عقلها ، وقلَّ ما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني ، فكيف ينسب لله من يتصف بهذه النقائص ؟ وإعراب ينشأ مفعول بفعل مضمر تقديره : أجعلتم لله من ينشأ أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره أو من ينشأ في الحلية خصصتم به الله .

(178/692)

﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ الضمير في جعلوا لكفار العرب ، فحكى عنهم ثلاثة أقوال شنيعة أحدها أنهم نسبوا إلى الله الولد ، والآخر أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين ، والثالث أنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثاً ، وقرئ ﴿ عِبَادُ الرحمن ﴾ بالنون ، والمراد به قرب الملائكة وتشريفهم كقوله والذين عند ربك ، وقرئ عباد بالباء جمع عبد والمراد به أيضاً الاختصاص والتشريف ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ هذا ردّ على العرب في قولهم : إن الملائكة إناث ، والمعنى لم يشهدوا خلق الملائكة ، فكيف يقولون ما ليس لهم به علم ؟ ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أي تكتب شهادتهم التي شهدوا بها على الملائكة ، ويسألون عنها يوم القيامة .

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ الضمير في ﴿ قَالُواْ ﴾ للكفار ، وفي ﴿

عَبَدْنَاهُمْ ﴾ للملائكة ، وقال ابن عطية للأصنام : والأول أظهر وأشهر ، والمعنى : احتجاج احتجّ به الذين عبدوا الملائكة ، وذلك أنهم قالوا : لو أراد الله أن لا نعبدهم ما عبدناهم ، فكونه يمهلنا وينعم علينا : دليل على أنه يرضى عبادتنا لهم ، ثم رد الله عليهم بقوله : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يعني أن قولهم بلا دليل وحجة ، وإنا هو تخرُّص منهم .

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل القرآن ، وهذا أيضاً رد عليهم ؛ لكونهم ليس لهم كتاب يحتجون به ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أي على دين وطريقة ، والمعنى أنهم ليس لهم حجة ، وإنما هم مقلدو آبائهم .

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ الآية المعنى كما اتبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة اتبع كل من كان قبلهم من الكفار آباءهم بغير حجة ، بل بطريق التقليد المذموم .

(179/692)

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ هذا رد على الذين اتبعوا آباءهم ، والمعنى قل لهم أتتبعونهم ولو جئتكم بدين أهدى من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم ، وقرىء ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ ﴾ والفاعل ضمير يعود على النذير المتقدم ، وأما قراءة ﴿ قَالَ ﴾ بالأمر فهو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أمره الله أن يقول ذلك لقريش وقيل

: هو للنذير المتقدم ، أمره الله أن يقول ذلك لقومه ، والأول أظهر ، وعلى هذا تكون هذه الجملة اعتراضاً بين قصة المتقدمين ، فإنه قوله : ﴿ قالوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ : حكاية عن الكفار المتقدمين ، وكذلك قوله : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ : يعني من المتقدمين .

(180/692)

﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ ﴾ أي بريء وبراء في الأصل مصدر ثم استعمل صفة ، ولذلك استوى فيها الواحد والجماعة كَعَدْل وشبهه ﴿ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي ﴾ يحتمل أن يكون استثناء منقطعاً ، وذلك إن كانوا لا يعبدون الله ، أو يكون متصلاً إن كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره ، وإعرابه على هذا بدل ﴿ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ فهو في موضع خفض ، أو منصوب على الاستثناء فهو في موضع نصب ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ قال هنا : سيهدين ، وقال مرة أخرى : فهو يهدين ، ليدل على أن الهداية في الحال والاستقبال [من الله] ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ ضمير الفاعل في جعلها يعود على إبراهيم عليه السلام ، وقيل على الله تعالى ، والأول أظهر ، والضمير يعود على الكلمة التي قالها وهي : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ، ومعناه : التوحيد ولذلك قيل : يعود على الإسلام لقوله : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ [الحج : 78] ، وقيل : يعود على ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ﴾ [الصافات : 35] ، والمعنى

متقارب : أي جعل إبراهيم تلك الكلمة ثابتة في ذريته ؛ لعل من أشرك منهم يرجع إلى التوحيد ، والعقب هو الولد وولد الولد ما تناسلا أبداً ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هؤلاء وَآبَآءَهُمْ ﴾ الإشارة بهؤلاء إلى قريش ، وهذا الكلام متصل بما قبله ، لأن قريشاً من عقب إبراهيم عليه السلام ، فالمعنى لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم ، بل متعتهم بالنعم والعافية ، فلم يشكروا عليها واشتغلوا بها عن عبادة الله ﴿ حتى جَآءَهُمُ الحق وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

(181/692)

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ الضمير في قالوا لقريش ، والقريتان مكة والطائف ، ومن القريتين : معناها من إحدى القريتين ، كقولك : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان : أي من أحدهما ، وقيل : معناه ﴿ على رَجُلٍ ﴾ من رجلين من القريتين ، فالرجل الذي من مكة الوليد بن المغيرة ، وقيل : عتبة بن ربيعة ، والرجل الذي من الطائف عروة بن مسعود ، وقيل حبيب بن عمير ، ومعنى الآية أن قريشاً استبعدوا نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، واقترحوا أن ينزل على أحد هؤلاء ، وصفوه بالعظمة يريدون الرئاسة في قومه وكثرة ماله ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ

﴿ يعني أن الله يخص بالنبوّة من يشاء من عباده ؛ على ما تقتضيه حكمته وإرادته ، وليس ذلك بتدبير المخلوقين ، ولا بإرادتهم ، ثم أوضح ذلك بقوله ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ أي كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية ، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الفانية الحقيرة ، فأولى وأحرى أن لا نهمل الحظوظ الشريفة الباقية ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ وهو من التسخير في الخدمة : أي رفعنا بعضهم فوق بعض ليخدم بعضهم بعضاً ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ هذا تحقير للدنيا ، والمراد برحمة ربك هنا النبوة وقيل : الجنة .

(182/692)

﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ الآية : تحقير أيضاً للدنيا ، ومعناها لولا أن يكفر الناس كلهم ، لجعلنا للكفار سُقُفاً من فضة ، وذلك لهوان الدنيا على الله ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرعة ماء ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ المعارج : الأدراج والسلالم ، ومعنى يظهرون يرتفعون ، ومنه " فما استطاعوا أن يظهروه " والسرور جمع سرير ، والزخرف الذهب ، وقيل أثاث البيت من الستور والنمارق ، وشبه ذلك وقيل : هو التزويق والنقش وشبه ذلك

من التزيين ؛ كقوله : ﴿ حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت ﴾ [يونس : 24] .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ يعشُ من قولك : عَشِيَ الرجل إذا أظلم بصره ، والمراد به هنا ظلمة القلب والبصيرة ، وقال الزمخشري : يَعْشَى بفتح الشين إذا حصلت الآفة في عينيه ، ويعشو بضم الشين إذا نظر نظرة الأعشى ، وليس به آفة ، فالفرق بينهما كالفرق بين قولك : عمي وتعامى ، فمعنى القراءة بالضم : يتجاهل ويجحد معرفته بالحق ، والظاهر أن ذلك عبارة عن الغفلة وإهمال النظر ، و ﴿ ذِكْرِ الرحمن ﴾ ، قال الزمخشري يريد به القرآن ، وقال ابن عطية : يريد به ما ذكر الله به عباده من المواعظ ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل ، ويحتمل عندي أن يريد ذكر العبد لله ، ومعنى الآية : أن من غفل عن ذكر الله يَسَّرَ الله له شيطاناً يكون له قريناً ، فتلك عقوبة على الغفلة عن الذكر بتسليط الشيطان ، كما أن من داوم على الذكر تباعد عنه الشيطان .

(183/692)

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل ﴾

الضمير في إنهم للشياطين ، وضمير المفعول في يصدونهم لمن يَعْشُ عن ذكر الرحمن ، وجمع الضميرين لأن المراد جمع ﴿ حتى إِذَا جَآءَنَا ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر

جاءانا بضمير الاثنين وهما من يعش وشيطانه ، وقرأ الباقون بغير ألف على أنه ضمير واحد وهو من يعش ، والضمير في قال : ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ [الزخرف : 36] ، وقيل : للشيطان ﴿ بُعْدَ المشرقين ﴾ فيه قولان : أحدهما أنه يعني المشرق والمغرب ، وغُلِّبَ أحدهما في التشبيه ، كما قيل : القمران ، والآخر : أنه يعني المشرقين والمغربين ، وحذف المغربين لدلالة المشرقين عليه .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ هذا كلام يقال للكفار في الآخرة ، ومعناه أنهم لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب ، ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المركوب في الدنيا ، إذا رأى غيره قد أصابه مثل الذي أصابه ، والفاعل في ينفعكم قوله : ﴿ أَنَّكُمْ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ ، وإذ ظلمتم : تعليل معناه : بسبب ظلمكم ، وقيل : الفاعل مضمر ، وهو التبري الذي يقتضيه قوله : " يا ليت بني وبينك بعد المشرقين " وأنكم على هذا تعدليل ، والأول أرجح .

(184/692)

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ الآية : خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالصُم والعُمي الكفار ؛ إذ كانوا لا يعقلون براهين الإسلام ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ

﴿ إما مركبة من إن الشرطية وما الزائدة ، ومقصد الآية وعيد للكفار ، والمعنى إن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم فإنا سننتقم منهم بعد وفاتك ، وإن أخرنا وفاتك إلى حين الانتقام منهم فإنا عليهم مقتدرون ، وهذا الانتقام يحتمل أن يريد به قتلهم يوم بدر ، وفتح مكة وشبه ذلك من الانتقام في الدنيا ، أو يريد به عذاب الآخرة ، وقيل : إن الضمير في ﴿ مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ للمسلمين ، وأن معنى ذلك أن الله قضى أن ينتقم منهم بالفتن والشدائد ، وإنه أكرم نبيه عليه السلام بأن توفاه قبل أن يرى الانتقام من أمته ، والأول أشهر وأظهر .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ الضمير في ﴿ إِنَّهُ ﴾ للقرآن أو للإسلام ، والذكر هنا بمعنى الشرف ، وقوم النبي صلى الله عليه وسلم هم قريش وسائر العرب ، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة ، ويكفيك أن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها ، وصارت فيهم الخلافة والملك ، وورد عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمر بعده لقريش ، ويحتمل أن يريد بالذكر التذكير والموعظة ، فقومه على هذا أمته كلهم وكل من بعث إليهم ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ أي تسألون عن العمل بالقرآن وعن شكر الله عليه .

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ إن قيل : كيف أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الرسل المتقدّمين وهو لم يدركهم ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول أنه رآهم ليلة الإسراء . الثاني أن المعنى اسأل أمة من أرسلنا قبلك . والثالث أنه لم يرد سؤالهم حقيقة ، وإنما المعنى أن شرائعهم متفقة على توحيد الله ، بحيث لو سألوا : هَلْ مع الله آلهة يعبدون ؛ لأنكروا ذلك ودانوا بالتوحيد .

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ الآيات هنا المعجزات ؛ كقلب العصا حية ، وأخراج اليد بيضاء وقيل : البراهين والحجج العقلية ، والأول أظهر ومعنى أكبر من أختها أنها في غاية الكبر والظهور ، ولم يرد تفضيلها على غيرها من الآيات ، إنما المعنى أنها إذا نظرت وجدت كبيرة ، وإذا نظرت غيرها وجدت كبيرة فهو كقول الشاعر :

من تَلْقَ منهم تقلْ لا قيتُ سَيِّدَهم . . . مثل النجوم التي يسري بها الساري

هكذا قال الزمخشري ، ويحتمل عندي أن يريد ما نريهم من آية إلا هي أكبر مما تقدمها ، فالمراد أكبر من أختها المتقدّمة عليها .

﴿ وَقَالُواْ يا أيه الساحر ادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ظاهر كلامهم هذا التناقض ، فإن قولهم : ﴿ يا أيه الساحر ﴾ يقتضي تكذيبهم له ، وقولهم : ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ يقتضي تصديقه ، والجواب من وجهين : أحدهما أن القائلين لذلك كانوا مكذبين ، وقولهم ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ يريدون على قولك وزعمك ، وقولهم : ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ وعد نَوَوْا خلافه ، والآخر : أنهم كانوا

مصدّقين ، وقولهم : يا أيها الساحر ؛ إما أن يكون عندهم غير مذموم ، لأن السحر كان علم أهل زمانهم ، وكأنهم قالوا : يا أيها العالم ، وإما أن يكون ذلك اسماً قد ألفوا تسمية موسى به من أول ما جاءهم ، فنطقوا به بعد ذلك من غير اعتقاد معناه .

(186/692)

﴿ ونادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ يحتمل أن ناداهم بنفسه أو أمر منادياً ينادي فيهم ﴿ قَالَ يا قوم أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ قصد بذلك الافتخار على موسى ، ومصر هي البلد المعروف وما يرجع إليه ، ومنتهى ذلك من نهر اسكندرية إلى أسوان بطول النيل ﴿ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي ﴾ يعني : الخلجان الكبار الخارجة من النيل كانت تجري تحت قصره ، وأعظمها أربعة أنهار : نهر الاسنكدرية وتنيس ودمياط ، ونهر طولون ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ مذهب سيبويه أن أم هنا متصلة معادلة ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون ، ثم وضع قوله : ﴿ أَنَآ خَيْرٌ ﴾ موضع تبصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير فإنهم عنده بصراء ، وهذا من وضع السبب موضع المسبب ، وكان الأصل أن يقول فلا تبصرون أم تبصرون ، ثم اقتصر على أم وحذف الفعل الذي بعدها واستأنف قوله : ﴿ أَنَآ خَيْرٌ ﴾ على وجه الإخبار . ويوقف على هذا القول على أم وهذا ضعيف وقيل أم بمعنى بل فهي منقطعة

﴿ مَهِينٌ ﴾ ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى من أثر الجمرة ، وذلك أنها كانت قد أحدثت في لسانه عقدة ، فلما دعا أن تحل أجيبت دعوته وبقي منها أثر كان معه لكنة ، وقيل : يعني العيّ في الكلام ، وقوله : ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ : يقتضي أنه كان يبين ، لأن كاد إذا نفيت تقتضي الإثبات .

﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ يريد لولا ألقاها الله إليه كرامة له ودلالة على نبوّته ، والأسورة جمع سوار وأسوار ، وهو ما يجعل في الذراع من الحلي ، وكان الرجال حينئذ يجعلونه ﴿ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أي مقترنين به لا يفارقونه ، أو متقارنين بعضهم مع بعض ليشهدوا له ويقيموا الحجة .

(187/692)

﴿ فاستخف قَوْمَهُ ﴾ أي طلب خفتهم بهذه المقالة واستهوى عقولهم ﴿ آسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ السلف بفتح السين واللام جمع سالف ، وقرأ حمزة والكسائي : سُلُفاً بضمها جمع سليف ومعناه متقدم : أي تقدم قبل الكفار ليكون موعظة لهم ، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 25 . 31 ﴾

وقال النسفى :

﴿ حم والكتاب المبين ﴾

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن ، وجعل قوله ﴿ إِنَّا جعلناه ﴾ صيرناه ﴿ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ جواباً للقسم وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه ، والمبين البين للذين أنزل عليهم لأنه بلغتهم وأساليبهم أو الواضح للمتدبرين أو الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان كل ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي تفهموا معانيه ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا ﴾ وإن القرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ، دليله قوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 21-22] .

وسمي أم الكتاب لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ .

﴿ أُمِّ الكتاب ﴾ بكسر الألف : علي وحمزة ﴿ لَّعَلِىٌّ ﴾ خبر "إن" أي في أعلى طبقات البلاغة أو رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو حكمة بالغة ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر ﴾ أفننحي عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز من قولهم "ضرب الغرائب عن الحوض" .

والفاء للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من إنزاله الكتاب ؟ وجعله قرآناً عربياً ليعقلوه وليعلموا بمواجبه ﴿ صَفْحاً ﴾ مصدر من صفح عنه إذا أعرض ، منتصب على أنه مفعول له على معنى أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم .

ويجوز أن يكون مصدراً على خلاف الصدر لأنه يقال "ضربت عنه" أي أعرضت عنه كذا قاله الفراء ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ لأن كنتم ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ مدني وحمزة .

وهو من الشرط الذي يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفني حقي وهو عالم بذلك ﴿ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ مفرطين في الجهالة مجاوزين الحد في الضلالة .

(189/692)

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ ﴾ أي كثيراً من الرسل أرسلنا من تقدمك ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هي حكاية حال ماضية مستمرة أي كانوا على ذلك وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه .

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ تمييز ، والضمير للمسرفين لأنه صرف الخطاب عنهم إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره عنهم ﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ أي سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل ، وهذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ كوفي وغيره مهاداً أي موضع قرار ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ طرقاً ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكي تهتدوا في أسفاركم .

﴿ والذى نَزَّلَ مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ ﴾ بمقدار يسلم معه العباد ويحتاج إليه البلاد ﴿ فَأَنشَرْنَا ﴾ فأحيينا عدول من المغايبة إلى الإخبار لعلم المخاطب بالمراد ﴿ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ يريد ميّتاً ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم أحياء ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ حمزة وعلي ولا وقف على ﴿ العليم ﴾ لأن ﴿ الذى ﴾ صفته ، وقد وقف عليه أبو حاتم على تقدير "هو الذي" ، لأن هذه الأوصاف ليست من مقول الكفار لأنهم ينكرون الإخراج من القبور فكيف يقولون ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ بل الآية حجة عليهم في إنكار البعث ﴿ والذى خَلَقَ الأزواج ﴾ الأصناف ﴿ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي تركبونه .

يقال : ركبوا في الفلك وركبوا الأنعام فغلب المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة فقيل تركبونه ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ على ظهور ما تركبونه وهو الفلك والأنعام ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ ﴾ بقلوبكم ﴿ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ ﴾ بألسنتكم ﴿ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ ذلل لنا هذا المركوب ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ مطيقين .

يقال : أقرن الشيء إذا أطاقه وحقيقة أقرنه وجده قرينته لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف ﴿ وَإِنَّا إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ لراجعون في المعاد .

قيل : يذكرون عند ركوبهم مراكب الدنيا آخر مركبهم منها وهو الجنازة .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : بسم الله .

فإذا استوى على الدابة قال : الحمد لله على كل حال ، ﴿ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ إلى قوله ﴿ لَمُنقَلِبُونَ ﴾ وكبر ثلاثاً وهلل ثلاثاً .

وقالوا : إذا ركب في السفينة قال : ﴿ بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود : 41] وحكي أن قوماً ركبوا وقالوا ﴿ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ الآية .

وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هزالاً فقال : إني مقرن لهذه فسقط منها لوثبتها واندقت عنقه .

وينبغي أن لا يكون ركوب العاقل للتنزه والتلذذ بل للاعتبار ، ويتأمل عنده أنه هالك لا محالة ومنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه .

(191/692)

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ متصل بقوله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي ولئن سألتهم عن خالق السماوات والأرض ليعترفن به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزأ أي قالوا الملائكة بنات الله فجعلوهم جزأ له وبعضاً منه كما يكون الولد جزأ لوالده ﴿ جُزُؤاً ﴾ أبو بكر وحماد ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ لجحود للنعمة ظاهر جحوده لأن نسبة الولد إليه كفر والكفر أصل الكفران كله ﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وأصفاكم بالبنين ﴾ أي بل أتخذ والهمزة للإنكار تجهيلاً لهم وتعجيباً من شأنهم حيث ادعوا أنه اختار لنفسه المنزلة الأدنى ولهم الأعلى ﴿ وَإِذَا بُشّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً أي شبهاً لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً لله وبعضاً منه فقد جعله من جنسه ومماثلاً له لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ يعني أنهم نسبوا إليه هذا الجنس ، ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت لك بنت اغتم واربد وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب والظلول بمعنى الصيرورة ﴿ أَوْ مَن يُنَشَّؤُا

فِى الحلية وَهُوَ فِى الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته وهو أنه ينشأ في الحلية أي يتربى في الزينة والنعمة ، وهو إذا احتاج إلى مجاناة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين ، ليس عنده بيان ولا يأتي ببرهان وذلك لضعف عقولهن .

قال مقاتل : لا تتكلم المرأة إلا وتأتي بالحجة عليها .

(192/692)

وفيه أنه جعل النشأة في الزينة من المعايب ، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويتزين بلباس التقوى ، و ﴿ من ﴾ منصوب المحل والمعنى أو جعلوا من ينشأ في الحلية يعني البنات لله عز وجل ﴿ يُنَشَّأُ ﴾ حمزة وعلي وحفص أي يربي قد جمعوا في كفرهم ثلاث كفرات ، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ، ونسبوا إليه أخس النوعين ، وجعلوه من الملائكة المكرمين فاستخفوا بهم .

﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ أي سموا وقالوا إنهم إناث ﴿ عِندَ الرحمن ﴾ مكي ومدني وشامي ، أي عندية منزلة ومكانة لا منزل ومكان .

والعباد جمع عبد وهو ألزم في الحجاج مع أهل العناد لتضاد بين العبودية والولاد ﴿ أَشَهِدُواْ

خَلْقَهُمْ ﴾ وهذا تهكم بهم يعني أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم ، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك ولا تطرقوا إليه باستدلال ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم ولم يشاهدوا خلقهم حتى يخبروا عن المشاهدة ﴿ سَتُكْتَبُ شهادتهم ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم ﴿ وَيُسْئَلُونَ ﴾ عنها وهذا وعيد .

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عبدناهم ﴾ أي الملائكة .

تعلقت المعتزلة بظاهر هذه الآية في أن الله تعالى لم يشأ الكفر من الكافر وإنما شاء الإيمان ، فإن الكفار ادعوا أن الله شاء منهم الكفر وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام حيث قالوا ﴿ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عبدناهم ﴾ أي لو شاء منا أن نترك عبادة الأصنام لمنعنا عن عبادتها ، ولكن شاء منا عبادة الأصنام ، والله تعالى رد عليهم قولهم واعتقادهم بقوله ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ ﴾ المقول ﴿ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون ، ومعنى الآية عندنا أنهم أرادوا بالمشيئة الرضا وقالوا : لو لم يرض بذلك لعجل عقوبتنا ، أو لمنعنا عن عبادتها منع قهر واضطرار ، وإذ لم يفعل ذلك فقد رضي بذلك ، فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ الآية .

(193/692)

أو قالوا ذلك استهزاءً لا جداً واعتقاداً ، فأكذبهم الله تعالى فيه وجهلهم حيث لم يقولوا عن اعتقاد كما قال مخبراً عنهم .

﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [يس : 47] .

وهذا حق في الأصل ، ولكن لما قالوا ذلك استهزاءً كذبهم الله بقوله ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : 47] وكذلك قال الله تعالى : ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ ثم قال ﴿ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لكاذبون ﴾ [المنافقون : 1] لأنهم لم يقولوه عن اعتقاد وجعلوا المشيئة حجة لهم فيما فعلوا باختيارهم ، وظنوا أن الله لا يعاقبهم على شيء فعلوه بمشيئته ، وجعلوا أنفسهم معذورين في ذلك ، فرد الله تعالى عليهم ﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا مِّن قَبْلِهِ ﴾ من قبل القرآن أو من قبل قولهم هذا ﴿ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ آخذون عاملون .

وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره أشهدوا خلقهم أم آتيناهم كتاباً من قبله فيه أن الملائكة إناث ﴿ بَلْ قَالُوآ ﴾ بل لا حجة لهم يتمسكون بها لا من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث السمع إلا قولهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءابَآءَنَا ﴾ على دين فقلدناهم وهي من الأم وهو القصد فالأمة الطريقة التي تؤم أي تقصد ﴿ وإِنَّا على آثَارِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ الظرف صلة المهتدون أو هما خبران .

﴿ وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ نبي ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ أي متنعموها وهم الذين أترفتهم النعمة أي أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويعافون مشاق الدين وتكاليفه ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان أن تقليد الآباء داء قديم ﴿ قَالَ ﴾ شامي وحفص أي النذير ، ﴿ قُلْ ﴾ : غيرهما أي قيل للنذير قل ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ أي أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَٰفِرُونَ ﴾ إنا ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾ أي واذكر إذ قال ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ ﴾ أي بريء وهو مصدر يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث كما تقول : رجل عدل وامرأة عدل وقوم عدل والمعنى ذو عدل وذات عدل ﴿ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ استثناء منقطع كأنه قال : لكن الذي فطرني ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ يثبتني على الهداية ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ في ذريته فلا يزال فيهم من

يوحد الله ويدعو إلى توحيده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم والترجي لإبراهيم .

(195/692)

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلآءِ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ يعني أهل مكة وهم من عقب إبراهيم بالمد في العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿ حتى جَآءَهُمُ الحق ﴾ أي القرآن ﴿ وَرَسُولٌ ﴾ أي محمد عليه السلام ﴿ مُّبِينٌ ﴾ واضح الرسالة بما معه من الآيات البينة .

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق ﴾ القرآن ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافرون وَقَالُواْ ﴾ فيه متحكمين بالباطل ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان ﴾ فيه استهانة به ﴿ على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ أي رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] أي من أحدهما ، والقريتان : مكة والطائف .

وعنوا بعظيم مكة الوليد بن المغيرة ، وبعظيم الطائف عروة بن مسعود الثقفي ، وأرادوا بالعظيم من كان ذا مال وذا جاه ولم يعرفوا أن العظيم من كان عند الله عظيماً .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أي النبوة ، والهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل

والتعجيب من تحكمهم في اختيار من يصلح للنبوة ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ ما يعيشون به وهو أرزاقهم ﴿ فِى الحياة الدنيا ﴾ أي لم نجعل قسمة الأدون إليهم وهو الرزق فكيف النبوة؟ أو كما فضلت البعض على البعض في الرزق فكذا أخص بالنبوة من أشاء ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات ﴾ أي جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالي والبعض ضعفاء وفقراء وخدماء ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم ويتسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويصلوا إلى منافعهم هذا بماله وهذا بأعماله ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي النبوة أو دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا .

(196/692)

ولما قلل أمر الدنيا وصغرها أردفه بما يقرر قلة الدنيا عنده فقال .

﴿ وَلَوْلآ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة ﴾ ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه ﴿ لَّجَعَلْنَا ﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿ لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أبوابا وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفاً ﴾ أي لجعلنا للكفار سقوفاً ومصاعد وأبواباً وسرراً كلها من فضة ، وجعلنا لهم زخرفاً أي زينة من كل شيء .

والزخرف الذهب والزينة ، ويجوز أن يكون الأصل سقفاً من فضة وزخرف أي بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفاً على محل ﴿ مِن فِضَّةٍ ﴾ لبيوتهم بدل اشتمال من ﴿ لِمَن يَكْفُرُ ﴾ .

﴿ سَقْفاً ﴾ على الجنس : مكي وأبو عمرو ويزيد .

والمعارج جمع معرج وهي المصاعد إلى العلالي عليها يظهرون على المعارج يظهرون السطوح أي يعلونها ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا متاع الحياة الدنيا ﴾ "إن" نافية و"لما" بمعنى إلا أي وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا ، وقد قرىء به .

وقرأ ﴿ لَمَا ﴾ غير عاصم وحمزة على أن اللام هي الفارقة بين "إن" المخففة والنافية و"ما" صلة أي وإن كل ذلك متاع الحياة الدينا ﴿ والآخرة ﴾ أي ثواب الآخرة ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لمن يتقي الشرك .

﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ وقرىء ﴿ وَمَن يعش ﴾ والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل عشى يعشى ، وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل عشا يعشو .

ومعنى القراءة بالفتح ومن يعم ﴿ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ وهو القرآن كقوله ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ ومعنى القراءة بالضم : ومن يتعام عن ذكره أي يعرف أنه الحق وهو يتجاهل كقوله : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نسلطه عليه فهو معه في الدنيا والآخرة يحمله على المعاصي .

(197/692)

وفيه إشارة إلى أن من داوم عليه لم يقرنه الشيطان ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي الشياطين ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ ليمنعون العاشين ﴿ عَنِ السبيل ﴾ عن سبيل الهدى ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أي العاشون ﴿ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ وإنما جمع ضمير ﴿ من ﴾ وضمير الشيطان لأن ﴿ من ﴾ مبهم في جنس العاشي وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه فجاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعاً ﴿ حتى إِذَا جَآءَنَا ﴾ على الواحد : عراقي غير أبي بكر أي العاشي ﴿ جاآنا ﴾ غيرهم أي العاشي وقرينه ﴿ قَالَ ﴾ لشيطانه ﴿ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ يريد المشرق والمغرب فغلب كما قيل : العمران والقمران ، والمراد بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ أنت .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ إذ صح ظلمكم أي كفركم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين و"إذ" بدل من ﴿ اليوم ﴾ ﴿ أَنَّكُمْ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ ﴿ أَنَّكُمْ ﴾ في محل الرفع على الفاعلية أي ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب ، أو كونكم

مشتركين في العذاب كما كان عموم البلوى يطيب القلب في الدنيا كقول الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي . . .

على إخوانهم لقتلت نفسي

ولا يبكون مثل أخي ولكن . . .

أعزي النفس عنه بالتأسي

أما هؤلاء فلا يؤسّيهم اشتراكهم ولا يروحهم لعظم ما هم فيه .

وقيل : الفاعل مضمر أي ولن ينفعكم هذا التمني أو الاعتذار لأنكم في العذاب مشتركون لاشتراككم في سببه وهو الكفر ، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بالكسر .

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ أي من فقد سمع القبول ﴿ أَوْ تَهْدِى العمى ﴾ أي من فقد البصر ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ ومن كان في علم الله أنه يموت على الضلال .

(198/692)

﴿ فَإِمَّا ﴾ دخلت "ما" على "إن" توكيداً للشرط ، وكذا النون الثقيلة في ﴿ نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ أي نتوفينك قبل أن ننصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ أشد الانتقام في الآخرة ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم ﴾ قبل أن نتوفاك يعني يوم بدر ﴿

فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ قادرون وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال بقوله ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم ﴾ الآية .

ثم أوعدهم بعذاب الدنيا والآخرة بقوله ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ الآيتين .

﴿ فاستمسك ﴾ فتمسك ﴿ بالذى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ وهو القرآن واعمل به ﴿ إِنَّكَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي على الدين الذي لا عوج له ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ وإن الذي أوحي إليك ﴿ لَذِكْرٌ لَّكَ ﴾ لشرف لك ﴿ وَلِقَوْمِكَ ﴾ ولأمتك ﴿ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ عنه يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وعن تعظيمكم له وعن شكركم هذه النعمة ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ، وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها .

وقيل : إنه عليه السلام جمع له الأنبياء ليلة الإسراء فأمهم ، وقيل له : سلهم فلم يشكك ولم يسأل .

وقيل : معناه سل أمم من أرسل وهم أهل الكتابين أي التوراة والإنجيل ، وإنما يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء ، ومعنى هذا السؤال التقرير لعبدة الأوثان أنهم

على الباطل .

و﴿ سَلْ ﴾ بلا همزة : مكي وعلي ﴿ رُسُلُنَا ﴾ أبو عمرو .

(199/692)

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ فقَالَ إِنّى رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ ما أجابوه به عند قوله ﴿ إِنّى رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ محذوف دل عليه قوله ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بآياتنا ﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ يسخرون منها ويهزءون بها ويسمونها سحراً .

و"إذا" للمفاجأة وهو جواب "فلما" لأن فعل المفاجأة معها مقدر وهو عامل النصب في محل "إذا" كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجئوا وقت ضحكهم .

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلاَّ هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ قرينتها وصاحبتها التي كانت قبلها في نقض العادة ، وظاهر النظم يدل على أن اللاحقة أعظم من السابقة وليس كذلك بل المراد بهذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر ولا يكدن يتفاوتن فيه وعليه كلام الناس .

يقال : هما أخوان كل واحد منهما أكرم من الآخر ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ وهو ما قال

تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسنين وَنَقْصٍ مّن الثمرات ﴾ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان ﴾ [الأعراف : 133] الآية .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن الكفر إلى الإيمان ﴿ وَقَالُواْ يا أيه الساحر ﴾ كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لتعظيمهم علم السحر .

﴿ وَقَالُواْ يا أيه الساحر ﴾ بضم الهاء بلا ألف : شامي .

ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف فلما سقطت لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة ، أو بعهده عندك وهو النبوة ، أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمن اهتدى ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ مؤمنون به .

(200/692)

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ ينقضون العهد بالإيمان ولا يفون به ﴿ ونادى فِرْعَوْنُ ﴾ نادى بنفسه عظماء القبط أو أمر منادياً فنادى كقولك "قطع الأمير اللص" إذا أمر بقطعه ﴿ فِى قَوْمِهِ ﴾ جعلهم محلاً لندائه وموقعاً له ﴿ قَالَ يا قوم أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار ﴾ أي أنهار النيل ومعظمها أربعة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴾ من

تحت قصري .

وقيل : بين يدي في جناني .

والواو عاطفة للأنهار على ﴿ مُلْكُ مِصْرَ ﴾ و ﴿ تَجْرِى ﴾ نصب على الحال منها ، أو الواو للحال واسم الإشارة مبتدأ ، والأنهار صفة لاسم الإشارة ، و ﴿ تَجْرِى ﴾ خبر للمبدأ ، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال : لأولينها أخس عبيدي فولاها الخصيب وكان خادمه على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها قال : أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثني عنانه ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ قوتي وضعف موسى وغناي وفقره .

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ "أم" منقطعة بمعنى "بل" والهمزة كأنه قال : أثبت عندكم وأستقر أني أنا خير وهذه حالي ؟ ﴿ أمّن هذا الذى هُوَ مَهِينٌ ﴾ ضعيف حقير ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ الكلام لما كان به من الرتة ﴿ فَلَوْلآ ﴾ فهلا ﴿ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ ﴾ حفص ويعقوب وسهل جمع سوار ، غيرهم ﴿ أساورة ﴾ جمع أسورة وأساوير جمع أسوار وهو السوار ، حذف الياء من أساوير وعوض منها التاء ﴿ مِّن ذَهَبٍ ﴾ أراد بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الملئكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ يمشون معه يقترن بعضهم ببعض ليكونوا أعضاده

وأنصاره وأعوانه .

﴿ فاستخف قَوْمَهُ ﴾ استفزهم بالقول واستنزلهم وعمل فيهم كلامه .

(201/692)

وقيل : طلب منهم الخفة في الطاعة وهي الإسراع ﴿ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ خارجين عن دين الله ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ "آسف" منقول من أسف أسفاً إذا اشتد غضبه ومعناه أنهم أفرطوا في المعاصي فاستوجبوا أن يعجل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لا نحلم عنهم ﴿ فجعلناهم سَلَفاً ﴾ جمع سالف كخادم وخدم ﴿ سُلُفاً ﴾ حمزة وعلي ، جمع سليف أي فريق قد سلف ﴿ وَمَثَلاً ﴾ وحديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل يضرب بهم الأمثال ويقال مثلكم مثل قوم فرعون ﴿ لّلآخِرِينَ ﴾ لمن يجيء بعدهم ، ومعناه فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم لإتيانهم بمثل أفعالهم ومثلاً يحدثون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 113 . 121 ﴾

(202/692)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم ﴾ ﴿ والكتاب المبين ﴾ ﴿ إِنَّا جعلناه قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً ، وهو من البدائع لتناسب القسم والمقسم عليه كقول أبي تمام :

وَثَنَايَاكَ أَنَّهَا إِغْرِيضُ . . . ولعل إقسام الله بالأشياء استشهاد بما فيها من الدلالة على المقسم عليه ، وبالقرآن من حيث أنه معجز مبين لطرق الهدى وما يحتاج إليه في الديانة ، أو بين للعرب ما يدل على أنه تعالى صيره كذلك ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي تفهموا معانيه .

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ عطف على انا ، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر على الاستئناف . ﴿ فِى أُمِّ الكتاب ﴾ في اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية ، وقرىء أم الكتاب بالكسر . ﴿ لَدَيْنَا ﴾ محفوظاً عندنا عن التغيير . ﴿ لَّعَلِيٌّ ﴾ رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو حكمة بالغة ، أو محكم لا ينسخه غيره . وهما خبران لأن ﴿ وَفِى أُمِّ الكتاب ﴾ متعلق ب ﴿ لَّعَلِيٌّ ﴾ واللام لا تمنعه ، أو حال منه و ﴿ لَدَيْنَا ﴾ بدل منه أو حال من ﴿ أُمِّ الكتاب ﴾ .

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً ﴾ أفنذوده ونبعده عنكم مجاز من قولهم : ضرب

الغرائب عن الحوض ، قال طرفة :

اضْرِبْ عَنْكَ الهُمُومَ طَارِقَهَا . . . ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَس الفَرَسِ

(203/692)

والفاء للعطف على محذوف أي انهملكم فنضرب ﴿ عَنكُمُ الذكر ﴾ ، و﴿ صَفْحاً ﴾ مصدر من غير لفظه فإن تنحية الذكر عنهم إعراض أو مفعول له أو حال بمعنى صافحين ، وأصله أن تولي الشيء صفحة عنقك . وقيل إنه بمعنى الجانب فيكون ظرفاً ويؤيده أنه قرىء "صَفُْحاً" بالضم ، وحينئذ يحتمل أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح بمعنى صافحين ، والمراد إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه . ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ أي لأن كنتم ، وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض عنهم ، وقرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ إن ﴾ بالكسر على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك استجهالاً لهم ، وما قبلها دليل الجزاء .

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى الأولين ﴾ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه .

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ أي من القوم المسرفين لأنه صرف الخطاب عنهم إلى

الرسول مخبراً عنهم . ﴿ ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ وسلف في القرآن قصتهم العجيبة ، وفيه وعد للرسول ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأولين .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ لعله لازم مقولهم أو ما دل عليه إجمالاً أقيم مقامه تقريراً لإلزام الحجة عليهم ، فكأنهم قالوا "الله" كما حكي عنهم في مواضع أخر وهو الذي من صفته ما سرد من الصفات ، ويجوز أن يكون مقولهم وما بعده استئناف ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ فتستقرون فيها وقرىء غير الكوفيين "مهاداً" بالإلف .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ تسلكونها . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم ، أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك .

(204/692)

﴿ والذى نَزَّلَ مِنَ السماء مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ بمقدار ينفع ولا يضر . ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ مال عنه الماء . وتذكيره لأن البلدة بمعنى البلد والمكان . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الإنشار . ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ تنشرون من قبوركم ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ تَخْرُجُونَ ﴾ بفتح التاء وضم الراء .

﴿ والذى خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ أصناف المخلوقات . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ ما تركبونه على تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره إذ يقال : ركبت الدابة وركبت في السفينة ، أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذلك قال :

﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ أي ظهور ما تركبون وجمعه للمعنى . ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ﴾ تذكروها بقلوبكم معترفين بها حامدين عليها . ﴿ وَتَقُولُواْ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ مطيقين من أقرن الشيء إذا أطاقه ، وأصله وجد قرينته إذ الصعب لا يكون قرينة الضعيف . وقرىء بالتشديد والمعنى واحد . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : " بسم الله " فإذا استوى على الدابة قال : " الحمد لله على كل حال " ﴿ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّا إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي راجعون ، واتصاله بذلك لأن الركوب للتنقل والنقلة العظمى هو الانقلاب إلى الله تعالى ، أو لأنه مخطر فينبغي للراكب أن لا يغفل عنه ويستعد للقاء الله تعالى .

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ متصل بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي وقد جعلوا له بعد ذلك الاعتراف من عباده ولداً فقالوا الملائكة بنات الله ، ولعله سماه جزءاً كما سمي بعضاً لأنه بضعة من الوالد دلالة على استحالته على الواحد الحق في ذاته ، وقرأ أبو بكر "جزأ" بضمتين . ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الكفران ومن ذلك نسبة الولد إلى الله لأنها من فرط الجهل به والتحقير لشأنه .

﴿ أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وأصفاكم بالبنين ﴾ معنى الهمزة في ﴿ أَمْ ﴾ للإنكار والتعجب من شأنهم حيث لم يقنعوا بأن جعلوا له جزءاً حتى جعلوا له من مخلوقاته أجزاء أخس مما اختير لهم وأبغض الأشياء إليهم ، بحيث إذا بشر أحدهم بها اشتد غمه به كما قال .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً إذ الولد لا بد وأن يماثل الوالد . ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ صار وجهه أسود في الغاية لما يعتريه من الكآبة . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوء قلبه من الكرب ، وفي ذلك دلالات على فساد ما قالوه ، وتعريف البنين بما مر في الذكور ، وقرىء "مسود" و"مسواد" على أن في ﴿ ظِلّ ﴾ ضمير المبشر و"وَجْهُهُ مُسْوَدّ" جملة وقعت خبراً .

﴿ أَوْ مِن يُنَشَّأُ فِى الحلية ﴾ أي أو جعلوا له ، أو اتخذ من يتربى في الزينة يعني البنات . ﴿ وَهُوَ فِى الخصام ﴾ في المجادلة . ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ مقرر لما يدعيه من نقصان العقل

وضعف الرأي ، ويجوز أن يكون من مبتدأ محذوف الخبر أي أو من هذا حالة ولده و ﴿ فِى الخصام ﴾ متعلق ب ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ، وإضافة ﴿ غَيْرِ ﴾ إليه لا يمنعه لما عرفت . وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ يُنَشَّأُ ﴾ أي يربي . وقرىء ﴿ يُنَشَّأُ ﴾ و"يناشأ" بمعناه ونظير ذلك أعلاه وعلاه وعالاه بمعنى .

(206/692)

﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ كفر آخر تضمنه مقالهم شنع به عليهم ، وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله تعالى أنقصهم رأياً وأخسهم صنفاً . وقرىء عبيد وقرأ الحجازيان وابن عامر ويعقوب "عند" على تمثيل زلفاهم . وقرىء "أنثاً" وهو جمع الجمع . ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثاً ، فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل وتهكم به . وقرأ نافع "أَشْهَدُواْ" بهمزة الاستفهام وهمزة مضمومة بين بين ، و"آشهدوا" بمدة بينهما . ﴿ سَتُكْتَبُ شهادتهم ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة . ﴿ وَيُسْئَلُونَ ﴾ أي عنها يوم القيامة ، وهو وعيد شديد . وقرىء "سيكتب" و"سنكتب" بالياء والنون . و"شهاداتهم" وهي أن الله جزء أو أن له بنات وهن الملائكة ويساءلون من المساءلة .

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاءَ الرحمن مَا عبدناهم ﴾ أي لو شاء عدم عبادة الملائكة ما عبدناهم فاستدلوا بنفي مشيئته عدم العبادة على امتناع النهي عنها أو على حسنها ، وذلك باطل لأن المشيئة ترجح بعض الممكنات على بعض مأموراً كان أو منهياً حسناً كان أو غيره ، ولذلك جهلهم فقال : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ يتمحلون تمحلاً باطلاً ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى أصل الدعوى كأنه لما أبدى وجوه فسادها وحكى شبهتهم المزيفة نفى أن يكون لهم بها علم من طريق العقل ، ثم أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سند من جهة النقل فقال :

﴿ أَمْ ءاتيناهم كتابا مّن قَبْلِهِ ﴾ من قبل القرآن أو ادعائهم ينطق على صحة ما قالوه .

﴿ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ بذلك الكتاب متمسكون .

(207/692)

﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على ءاثارهم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي لا حجة لهم على عقلية ولا نقلية ، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة ، وال ﴿ أُمَّةٍ ﴾ الطريقة التي تؤم كالراحلة للمرحول إليه ، وقرئت بالكسر وهي الحالة التي يكون عليها الأم أي القاصد ومنها الدين .

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على ءاثارهم مُّقْتَدُونَ ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ، وأن مقدميهم أيضاً لم يكن لهم سند منظور إليه ، وتخصيص المترفين إشعار بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد .

﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بأهدى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾ أي أتتبعون آبائكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ، وهي حكاية أمر ماض أوحي إلى النذير ، أو خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد الأول أنه قرأ ابن عامر وحفص ﴿ قَالَ ﴾ وقوله : ﴿ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ أي وإن كان أهدى إقناطاً للنذير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه .

﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ بالاستئصال . ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ ولا تكترث بتكذيبهم .

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾ واذكر وقت قوله هذا ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل ، أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنه أشرف آبائهم . ﴿ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ بريء من عبادتكم أو معبودكم ، مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث ، وقرىء "بريء" و"براء" ككريم وكرام .

﴿ إِلاَّ الذى فَطَرَنى ﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن "ما" يعم أولي العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام والأوثان ، أو صفة على أن "ما" موصوفة أي إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني . ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ سيثبتني على الهداية ، أو سيهديني إلى ما وراء ما هداني إليه .

﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ وجعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو الله كلمة التوحيد . ﴿ كَلِمَةً باقية فِى عَقِبِهِ ﴾ في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ، وقرىء ﴿ كَلِمَةَ ﴾ و ﴿ فِى عَقِبِهِ ﴾ على التخفيف و"في عاقبه" أي فيمن عقبه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يرجع من أشرك بدعاء من وحد .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاَءِ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ هؤلاء المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم من قريش وآباءهم بالمد في العمر والنعمة ، فاغتروا لذلك وانهمكوا في الشهوات .

وقرىء "مَتَّعْتُ" بالفتح على أنه تعالى اعترض به على ذاته في قوله : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقية ﴾ مبالغة في تعييرهم . ﴿ حتى جَاءهُمُ الحق ﴾ دعوة التوحيد أو القرآن . ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الرسالة بما له من المعجزات ، أو ﴿ مُّبِينٌ ﴾ للتوحيد بالحجج والآيات .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحق ﴾ لينبههم عن غفلتهم ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافرون ﴾ زادوا شرارة فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به ، فسموا القرآن سحراً

وكفروا به واستحقروا الرسول .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين ﴾ من إحدى القريتين مكة والطائف . ﴿ عظِيمٌ ﴾ بالجاه والمال كالوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي ، فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم ، ولم يعلموا أنها رتبة روحانية تستدعي عظم النفس بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسية ، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية .

(209/692)

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم ، والمراد بالرحمة النبوة . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِى الحياة الدنيا ﴾ وهم عاجزون عن تدبيرها وهي خويصة أمرهم في دنياهم ، فمن أين لهم أن يدبروا أمر النبوة التي هي أعلى المراتب الإنسية ، وإطلاق المعيشة يقتضي أن يكون حلالها وحرامها من الله . ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات ﴾ وأوقعنا بينهم التفاوت في الرزق وغيره . ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ ليستعمل بعضهم بعضاً في حوائجهم فيحصل بينهم تآلف وتضام ينتظم بذلك نظام العالم ، لا لكمال في الموسع ولا لنقص في المقتر ، ثم إنه لا اعتراض لهم علينا في ذلك ولا تصرف فكيف يكون فيما هو أعلى منه . ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾ يعني هذه النبوة

وما يتبعها . ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من حطام الدنيا والعظيم من رزق منها لا منه .

﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة ﴾ لولا أن يرغبوا في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبهم الدنيا فيجتمعوا عليه . ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾ ومصاعد جمع معراج ، وقرىء و"معاريج" جمع معراج . ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ يعلون السطوح لحقارة الدنيا ، و﴿ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ بدل من ﴿ لِمَنْ ﴾ بدل الاشتمال أو على كقولك : وهبت له ثوباً لقميصه ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "وسقفاً" اكتفاء بجميع البيوت ، وقرىء "سقفاً" بالتخفيف و"سقوفاً" و"سقفاً" وهي لغة في سقف . ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أبوابا وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴾ أي أبواباً وسرراً من فضة .

(210/692)

﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ وزينة عطف على ﴿ سَقْفاً ﴾ أو ذهباً عطف على محل من فضة ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا متاع الحياة الدنيا ﴾ إن هي المخففة واللام هي الفارقة . وقرأ عاصم وحمزة وهشام بخلاف عنه لما بالتشديد بمعنى إلا وأن نافية ، وقرىء به مع أن وما ﴿ والأخرة عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الكفر والمعاصي ، وفيه دلالة على أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا ، وإشعار بما لأجله لم يجعل ذلك للمؤمنين حتى يجتمع الناس على

الإِيمان ، وهو أنه تمتع قليل بالإِضافة إلى ما لهم في الآخرة مخل به في الأغلب لما فيه من الآفات قل من يتخلص عنها كما أشار إليه بقوله :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن ﴾ يتعام ويعرض عنه لفرط اشتغاله بالمسحوسات وإنهماكه في الشهوات ، وقرىء "يَعْشَ" بالفتح أي يعم يقال عشي إذا كان في بصره آفة وعشى إذا تعشى بلا آفة كعرج وعرج ، وقرىء "يعشو" على أن ﴿ مِنْ ﴾ موصولة .

﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ يوسوسه ويغويه دائماً ، وقرأ يعقوب بالياء على إسناده إلى ضمير ﴿ الرحمن ﴾ ، ومن رفع "يعشو" ينبغي أن يرفع ﴿ نُقَيِّضْ ﴾ .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل ﴾ عن الطريق الذي من حقه أن يسبل ، وجمع الضميرين للمعنى إذ المراد جنس العاشي والشيطان المقيض له . ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الضمائر الثلاثة الأول له والباقيان للشيطان .

﴿ حتى إِذَا جَاءَنَا ﴾ أي العاشي ، وقرأ الحجازيان وابن عامر وأبو بكر "جاءانا" أي العاشي والشيطان . ﴿ قَالَ ﴾ أي العاشي للشيطان . ﴿ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ﴾ بعد المشرق من المغرب ، فغلب المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما . ﴿ فَبِئْسَ القرين ﴾ أنت .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم ﴾ أي ما أنتم عليه من التمني . ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ إذ صح إنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا بدل من ﴿ اليوم ﴾ . ﴿ أَنَّكُمْ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وشياطينكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه ، ويجوز أن يسند الفعل إليه بمعنى . ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في أمر صعب معاونتهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لمكابدة عنائه ، إذ لكل منكم ما لا تسعه طاقته . وقرىء ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بالكسر وهو يقوي الأول .

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِى العمى ﴾ إنكار وتعجب من أن تحمل هو الذي يقدر على هدايتهم بعد تمرنهم على الكفر واستغراقهم في الضلال بحيث صار عشاهم عمى مقروناً بالصمم . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعب نفسه في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غياً فنزلت . ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ عطف على ﴿ العمى ﴾ باعتبار تغاير الوصفين ، وفيه إشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم في ضلال لا يخفى .

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ أي فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ، و"ما" مزيدة مؤكدة بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ بعذاب في الدنيا والآخرة .

﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم ﴾ أو إن أردنا أن نريك ما وعدناهم من العذاب ، وقرأ يعقوب برواية رويس أو ﴿ نُرِيَنَّكَ ﴾ بإسكان النون وكذا ﴿ نَذْهَبَنَّ ﴾ . ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ

مُّقْتَدِرُونَ ﴾ لا يَفوتوننا .

﴿ فاستمسك بالذى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ من الآيات والشرائع ، وقرىء "أُوحِىَ" على البناء للفاعل وهو الله تعالى . ﴿ إِنَّكَ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا عوج له .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ ﴾ لشرف لك . ﴿ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ أي عَنْهُ يوم القيامة وعن قيامكم بحقه .

(212/692)

﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أي واسأل أممهم وعلماء دينهم ، وقرأ ابن كثير والكسائي بتخفيف الهمزة . ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ هل حكمنا بعبادة الأوثان وهل جاءت في ملة من مللهم ، والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس بدع ابتدعه فيكذب ويعادي له ، فإنه كان أقوى ما حملهم على التكذيب والمخالفة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ فَقَالَ إِنّى رَسُولُ رَبّ العالمين ﴾ يريد باقتصاصه تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناقضة قولهم ﴿ لَوْلاَ نُزّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى

التوحيد ليتأملوا فيها .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ فَاجَئُوا وقت ضحكهم منها ، أو استهزؤوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها .

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ إلا هي بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر مما يقاس إليها من الآيات ، والمراد وصف الكل بالكبر كقولك : رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض ، وكقوله :

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاَقَيْتُ سَيِّدَهُم . . . مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

أو ﴿ إِلا ﴾ وهي مختصة بنوع من الاعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار . ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ كالسنين والطوفان والجراد . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ على وجه يرجى رجوعهم .

(213/692)

﴿ وَقَالُواْ يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ﴾ نادوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيمتهم وفرط حماقتهم ، أو لأنهم كانوا يسمون العالم الماهر ساحراً . وقرأ ابن عامر بضم الهاء ﴿ ادعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ فيكشف عنا العذاب . ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ بعهده عندك من النبوة ، أو من أن

يستجيب دعوتك ، أو أن يكشف العذاب عمن اهتدى ، أو ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ فوفيت به وهو الإيمان والطاعة . ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ فاجئوا نكث عهدهم بالاهتداء .

﴿ ونادى فِرْعَوْنُ ﴾ بنفسه أو بمناديه . ﴿ فِى قَوْمِهِ ﴾ في مجمعهم أو فيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمن بعضهم . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس . ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴾ تحت قصري أو أمري ، أو بين يدي في جناني والواو إما عاطفة لهذه ﴿ الأنهار ﴾ على الملك و ﴿ تَجْرِى ﴾ حال منها . أو واو حال وهذه مبتدأ و ﴿ الأنهار ﴾ صفتها و ﴿ تَجْرِى ﴾ خبرها . ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ذلك .

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ مَع هذه المملكة والبسطة . ﴿ مِّنْ هذا الذى هُوَ مَهِينٌ ﴾ ضعيف حقير لا يستعد للرئاسة ، من المهانة وهي القلة . ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ الكلام لما به من الرتة فكيف يصلح للرسالة ، و ﴿ أَمْ ﴾ إما منقطعة والهمزة فيها للتقرير إذ قدم من أسباب فضله ، أو متصلة على إقامة المسبب مقام السبب . والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون فتعلمون أني خير منه .

﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ أي فهلا ألقي عليه مقاليد الملك إن كان صادقاً ، إذ كانوا إذا سودوا رجلاً سوروه وطوقوه بسوار وطوق من ذهب ، وأساورة جمع أسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساوير . وقد قرىء به وقرأ يعقوب وحفص "أَسْوِرَةٌ" وهي جمع سوار . وقرىء "أساور" جمع "أَسْوِرَةٌ" و"أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ" و"أساور" على البناء للفاعل وهو الله تعالى . ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ مقرونين يعينونه أو يصدقونه من قرنته به فاقترن ، أو متقارنين من اقترن بمعنى تقارن .

﴿ فاستخف قَوْمَهُ ﴾ فطلب منهم الخفة في مطاوعته أو فاستخف أحلامهم . ﴿ فَأَطَاعُوهُ ﴾ فيما أمرهم به ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق .

﴿ فَلَمَّا ءاسَفُونَا ﴾ أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان منقول من أسف إذا اشتد غضبه . ﴿ انتقمنا مِنْهُمْ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ في اليم .

﴿ فجعلناهم سَلَفاً ﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار يقتدون به في استحقاق مثل عقابهم ، مصدر نعت به أو جمع سالف كخدم وخادم ، وقرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام جمع سليف كرغف ورغيف ، أو سالف كصبر جمع صابر أو سلف كخشب . وقرىء "سَلَفاً" بإبدال ضمة اللام فتحة أو على أنه جمع سلفة أي ثلة قد سلفت . ﴿ وَمَثَلاً

لّلأَخِرِينَ ﴾ وعظة لهم أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال لهم فيقال : مثلكم مثل قوم فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 138.149 ﴾

(215/692)

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) ﴾

التفسير : هذه حكاية شبهة لكفار قريش ، وذلك أنهم ظنوا أن الفضيلة في المال والجاه الدنيوي فقالوا ﴿ لولا نزل هذا القرآن ﴾ وفي الإشارة ههنا نوع استخفاف منهم لكتاب الله ﴿ على رجل من القريتين ﴾ أي من إحداهما يعنون مكة أو الطائف . قال المفسرون : الذي بمكة هو الوليد بن المغيرة ، والذي بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفي . ومنهم من قال غير ذلك . وأرادوا بعظم الرجل رياسته وتقدمه في الدنيا فألزمهم الله تعالى بأجوبة أوّلها قوله على سبيل الإنكار ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ أي النبوّة فيضعوها حيث شاؤا ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ أي خدماً وتابعاً ومملوكاً . واللام لام العاقبة فإن الإنسان خلق مدنياً بالطبع . وقالت المعتزلة : للغرض وإذا كانت المعايش الدنيوية مع حقارتها

وخساستها مفوّضة إلى تدبير الله وتسخيره وتقديره دون أحد من خلقه ، فالأمور الدينية والمناصب الحقيقية الأخروية أولى بذلك . وقيل : الرحمة الرزق . ومعنى الآية إنكار أن الرزق منهم فيكف تكون النبوّة منهم ؟ واستدلال السني بالآية ظاهر في أن كل الأرزاق من الله حلالاً كانت أو حراماً .

(216/692)

وقالت المعتزلة : الله تعالى قاسم ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تنا ولهم . والجواب أنه كما قسم الرزق عن الجهة التي بها يصل الرزق إليه فكل بقدره . وثانيها قوله ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ لأن الدنيا منقضية فانية ودين الله وما يتبعه من السعادات باقٍ لا يزول ، فكيف يجعل العاقل ما هو الأخس أفضل مما هو الأشرف ؟ وثالثها قوله ﴿ ولولا ﴾ كراهة ﴿ أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ مجتمعين على الكفر ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم ﴾ هو بدل اشتمال وقيل : هما كقولك : وهبت له ثوباً لقميصه في أن اللام للغرض . والمعارج المصاعد أو المراقي جمع معرج كمخلب ﴿ عليها ﴾ أي على المعارج ﴿ يظهرون ﴾ يعلون السطوح . والزخرف الزينة أي جعلنا لهم زينة عظيمة في كل باب . وقيل : الذهب أي جعلنا لهم مع ذلك ذهباً كثيراً . أو وجه آخر على هذا

التفسير وهو أن يكون معطوفاً على قوله ﴿ من فضة ﴾ إلا أنه نصب بنزع الخافض أي بعضها من فضة وبعضها من ذهب . والحاصل أنه سبحانه إن وسع على الكافرين كل التوسعة أطبق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها مع حقارة الدنيا عند الله تعالى ، وفي معناه قول نبينا صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء " وإنما لم يوسع على المسلمين كلهم لتكون رغبة الناس في الإسلام لمحض الإخلاص لا لأجل الدنيا . ثم بشر المؤمنين بقوله ﴿ وإن كل ذلك ﴾ إلى آخره . قالت المعتزلة : في الآية دلالة على أن اللطف من الله تعالى واجب ، وفيه أنه تعالى لما لم يفعل بالناس التوسعة لئلا يجتمعوا على الكفر ، فلأن لا يخلق فيهم الكفر أولى . والجواب أن وقوع كل الناس في طريق القهر محذور ، وأما وقوع البعض فضروري كما مر في أول البقرة ، فشتان بين الممتنع الوجود والضروري الوجود فكيف يقاس أحدهما على الآخر ؟ ثم بين أن مادة كل الآفات وأصل جميع البليات هو السكون إلى الدنيا والركون

إلى أهلها فإن ذلك بمنزلة الرمد للبصر ويصير بالتدريج كالعشى ثم كالعمى فقال ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ أي عن القرآن أي يعرف أنه الحق ولكنه يتجاهل . قال جار الله :

قرىء بفتح الشين أيضاً . والفرق أنه إذا حصلت آفة في بصره يقال عشي بالكسر أي عمى يعشى بالفتح ، وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل عشا أي تعامى . وفيه معنى الإعراض فلهذا عدي ب " عن " ومعنى ﴿ نقيض ﴾ نقدر كما مر في " حم السجدة " ﴿ وإنهم ﴾ أي الشياطين ﴿ ليصدونهم ﴾ أي العشي عن دين الله ﴿ ويحسبون ﴾ أي الكفار أن الشياطين والكافرين ﴿ مهتدون ﴾ وإنما جمع الضميرين لأن ﴿ من ﴾ عام و ﴿ شيطاناً ﴾ تابع له .

ولا شك أن هذا القرين ملازم له في الآخرة لقوله ﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ الآية وأما في الدنيا فمحتمل بل لازم لقوله صلى الله عليه وسلم : "كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون " ويروى أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطان بيده ولم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار فذلك حيث يقول ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب فغلب كالقمرين . وقيل : المغرب أيضاً مشرق بالنسبة إلى الحركة الثانية وهذا قول أهل السنة . وقيل : مشرق الصيف ومشرق الشتاء وفيه ضعف لأنه لا يفيد مبالغة ، فبين الله تعالى أن ذلك التمني لا ينفعهم وعلله بقوله ﴿ أنكم ﴾ من قرأ بالكسر فظاهر ، ومن قرأ بالفتح فعلى حذف اللام أي لن ينفعكم تمنيكم لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر ، ويحتمل أن يكون أن في قراءة الفتح فاعل ينفع أي لن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب . وإن قيل : المصيبة إذا

عمت طابت وذلك أن كل أحد مشغول في ذلك اليوم عن حال غيره بحال نفسه . ﴿ وإذ ﴾ بدل من اليوم ومعناه إذ ظلمكم تبين ووضح لكل أحد .

(218/692)

ثم إنه صلى الله عليه وسلم كان يتحزن على فقد الإيمان منهم فسلاه بقوله ﴿ أفأنت ﴾ إلى آخره . وقوله ﴿ فأما نذهبن بك ﴾ أراد به قبض روحه كقوله في " يونس " وفي " المؤمن " ﴿ فأما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ﴾ [الآية : 77] الانتقام إما في الآخرة وهو قول الجمهور أو في الدنيا . عن جابر أنه قال : لما نزلت ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أورده في تفسير اللباب . وقيل : فأما نذهبن بك من مكة فإنا منهم منتقمون يوم بدر . والحاصل أنه تعالى توعد الكفار بعذاب الدنيا والآخرة جميعاً . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم سواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرناه إلى الآخرة فكن متمسكاً بما أوحينا إليك فإنه الدين الذي لا عوج له ، وإنه لشرف لك ولقومك أي لجميع أمتك أو لقريش وسوف تسألون هل أديتم شكر هذه النعمة أم لا . قال أهل التحقيق : في الآية دلالة على أن الذكر الجميل أمر مرغوب فيه لعموم أثره وشموله كل مكان وكل زمان خلاف الحياة المستعارة فإن أثرها لا يجاوز مسكن الحي .

قلت : الذكر الجميل جميل ولكن الذكر الحاصل من القرآن أجمل رزقنا الله طرفاً من ذلك بعميم فضله . ثم إن السبب الأقوى في بغض الكفار وعداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم إنكاره لأصنامهم ، فبين تعالى أنه غير مخصوص بهذه الدعوة وهذا الإنكار ولكنه دين أطبق كل الأنبياء على الدعاء إليه ، وفي الآية أقوال : أحدها أن المضاف محذوف تقديره واسأل يا محمد أمم من أرسلنا .

(219/692)

وقال القفال : المحذوف صلة التقدير واسأل من أرسلنا إليهم من قبلك رسولاً من رسلنا . والمراد أهل الكتابين لأنهم كانوا يرجعون إليهم في كثير من أمورهم نظيره ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ﴾ [يونس : 94] ثانيها أن حقيقة السؤال ههنا ممتنعة ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم . وثالثها أن التقدير : واسأل جبرائيل عمن أرسلنا . ورابعها أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع له الأنبياء ليلة المعراج في السماء أو في بيت المقدس فأمهم . وقيل له صلى الله عليه وسلم : سلهم . فلم يسأل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إني لا أشك في ذلك " قاله ابن عباس . وعن ابن مسعود " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أتاني ملك فقال : يا محمد

سل من أرسلنا من قبلك من رسلنا علام بعثوا ؟ قال : قلت علام بعثوا ؟ قال : على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه " رواه الثعلبي . ولكنه لا يطابق قوله سبحانه ﴿ أجعلنا ﴾ الآية . وجوز بعضهم أن يكون ﴿ من ﴾ مبتدأ والاستفهامية خبره والعائد محذوف أي على ألسنتهم ، ومعنى الجعل التسمية والحكم . واعلم أن كفار قريش إنما طعنوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من جهة كونه فقيراً خاملاً وكان فرعون اللعين قد طعن في موسى بمثل ذلك حيث قال ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ إلى قوله ﴿ مهين ﴾ [الزخرف : 52] فلا جرم أورد قصة موسى ههنا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم قوله ﴿ فلما جاءهم ﴾ معطوف على محذوف تقديره فقال إني رسول رب العالمين . فطالبوه إقامة البينة على دعواه فلما جاءهم إلى آخره . قال جار الله : فعل المفاجأة مع إذا مقدر وهو عامل النصب في محلها كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجأ وقت ضحكهم استهزاء أو سخرية . قوله : ﴿ وما نريهم ﴾ حكاية حال ماضية . وفي قوله ﴿ هي أكبر من أختها ﴾ وجهان : أحدهما أن كلاً منها مثل شبيهتها التي تقدمت ، وكل من رأى واحدة منها حكم بأنها حكم كبراها

لتكافؤ كل منها في الكبر . وإذا كان هذا الحكم صادقاً على كل منها فكلها كبار كما قال الحماسي : من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم . مثل النجوم التي يسري بها الساري وثانيها أن يقال : إن الآية الأولى كبيرة والتي تليها أكبر من الأولى ، والثالثة أكبر من الثانية ، وكذلك ما بعدها . هذا القدر مستفاد من الآية ، وأما تفصيل هذا التفضيل فلعله لا يطلع عليه إلا خالقها ومظهرها . ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ السنين ونقص من الثمرات إلى سائر ما ابتلوا به . قالت المعتزلة : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي إرادة أن يرجعوا فورد عليهم أنه لو أراد رجوعهم لكان .

(221/692)

وأجابوا بأنه لو أراد قسراً لكان ولكنه أراد مختاراً ، وزيف بأنه لو أراد أن يقع طريق الاختيار لزم أن يقع أيضاً مختاراً . أما الفرق فالصواب أن يقال : " لعل " للترجي ولكن بالنسبة إلى المكلف كما مر مراراً ﴿ وقالوا يا أيه الساحر ﴾ أي العالم الماهر ولم يكن السحر عندهم ذماً بل كانوا يستعظمونه ولهذا قالوا ﴿ إننا لمهتدون ﴾ وقيل : كانوا بعد على كفرهم فلهذا سموه ساحراً . وقولهم ﴿ إننا لمهتدون ﴾ وعد منوي إخلافه . وقولهم ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أي بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة وقد مر في "

الأعراف " ﴿ ونادى فرعون ﴾ أي أمر بالنداء ﴿ في ﴾ مجامع ﴿ قومه ﴾ أو رفع صوته بذلك فيما بين خواصه فانتشر في غيرهم . والأنهار أنهار النيل . قال المفسرون : كانت ثلثمائة وستين نهراً ومعظمها أربعة : نهر الملك ونهر طالوت ونهر دمياط ونهر منفيس . كانت تجري تحت قصره وقيل : تحت سريره لارتفاعه . وقيل : بين يدي في جناتي وبساتيني . وعن عبد الله ابن المبارك الدينوري في تفسيره : أنه أراد بالأنهار الجياد من الخيل وهو موافق لما جاء في الحديث في فرس أبي طلحة " وإن وجدناه لبحراً " وقال الضحاك : معناه وهذه القواد والجبابرة تحت لوائي . قال النحويون : إما أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر و ﴿ تجري ﴾ نصب على الحال ، أو الواو للحال وما بعده جملة محلها نصب . وفي " أم " أقوال منها قول سيبويه إنها متصلة تقديره أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع قوله ﴿ أنا خير ﴾ موضع ﴿ تبصرون ﴾ لأنهم إذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء ، فهذا من إنزال السبب منزلة المسبب لأن الإبصار سبب لهذا القول بزعمه . ومنها أنها منقطعة لأنه عدد عليهم أسباب الفضل ثم أضرب عن ذلك ثانياً . أثبت عندكم أني خير . ومنها أن التقدير أفلا تبصرون أني خير أم أبصرتم ثم استأنف فقال أنا خير ، والمهين من المهانة أي الحقارة والضعف أراد أنه فقير ولا عدد معه ولا عدد ﴿ ولا يكاد يبين ﴾

الكلام لأن عقدته لم تزل بالكلية كما شرحنا في " طه " . وإلقاء الأسورة عليه عبارة عن تفويض مقاليد الملك إليه ، كانوا إذا أرادوا تشريف الرجل سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب وغيره أي ليس معه آلات الملك والسياسة ، أو ليس معه حلية وزي حسن كما أن الملوك يشهرون رسلهم بالخلع والمكرمات وبأشخاص يتبعونهم فلذلك قالوا ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ به أو يقترن بعضهم ببعض ﴿ فاستخف قومه ﴾ أي حملهم على أن يخفوا له في الطاعة أو استخف عقولهم واستجهلهم ﴿ فأطاعوه ﴾ وهذه من عادة اللئام كما قيل : العبد لا يردعه إلا العصا :

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا . . . ومعنى ﴿ آسفونا ﴾ أغضبونا وأغضبوا رسلنا ﴿ فجعلناهم سلفاً ﴾ أي متقدمين وعبرة للمتأخرين ليعتبروا من حالهم فلا يقدموا على مثل أفعالهم وإليه المآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 91.95 ﴾

(223/692)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الزخرف

مكية وهي تسع وتسعون آية وثمانمائة وثلاثة وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة حرف

﴿ بسم الله ﴾ أي : الذي له مقاليد الأمور كلها فهو يعطي من يشاء وإن طال سؤله

﴿ الرحمن ﴾ الذي نال بره جميع خلقه على حسب منازلهم عنده ﴿ الرحيم ﴾ الذي يقرب إليه من يشاء زلفى وإن وصل في البعد إلى الحد الأقصى وقد تقدم الكلام على قوله تعالى:

﴿ حم ﴾ والواو في قوله تعالى:

﴿ والكتاب ﴾ أي : القرآن ﴿ المبين ﴾ أي : مظهر طريق الهدى وما يحتاج إليه من الشريعة عاطفة إن جعلت حم قسماً وإلا كانت للقسم وقوله تعالى:

﴿ إنا جعلناه ﴾ أي : أوجدنا هذا الكتاب ﴿ قرآناً عربيا ﴾ أي : بلغة العرب جواب القسم وهذا عندهم من البلاغة وهو كون القسم والمقسم عليه من وادٍ واحد كقول أبي تمام:

وثناياك إنها إغريض أي : طلع وبرد ، وقيل : كل أبيض طري ولآل توم وبرق وميض والتوم جمع تومة وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة ، والوميض مصدر ومض أي : لمع لمعاً خفيفاً .

(224/692)

تنبيه : احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه ؛ الأول : أنها تدل على أن القرآن مجعول والمجعول هو المصنوع المخلوق ، الثاني : أنه وصفه بكونه قرآناً وهو إنما سمي قرآناً لأنه جعل بعضه مقروناً بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعاً ، الثالث : وصفه بكونه عربياً وإنما يكون عربياً لأن العرب اختصت بوضع ألفاظه في اصطلاحهم وذلك يدل على أنه مجعول والتقدير حم ورب الكتاب المبين ، ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم يا رب طه ويس ويا رب القرآن العظيم . وأجاب الرازي عن ذلك : بأن هذا الذي ذكرتموه حق لأنكم استدللتم بهذه الوجوه على كون الحروف المتواليات والكلمات المتعاقبة محدثة وذلك معلوم بالضرورة ومن الذي ينازعكم فيه ﴿ لعلكم ﴾ أي : يا أهل مكة ﴿ تعقلون ﴾ أي : لتكونوا على رجاء عند من يصح منه الرجاء من أن تفهموا معانيه وأحكامه وبديع وصفه ومعجز وضعه ونظامه فترجعوا عن كل ما أنتم عليه من المغالبة ولا بد أن يقع هذا التعقل فإن القادر إذا عبر بأداة الترجي حقق ما يقع ترجيه ليكون بين كلامه وكلام العاجز فرق وقوله تعالى:

﴿ وإنه ﴾ أي : القرآن عطف على إنا أي : مثبت ﴿ في أم الكتاب ﴾ أي : أصل الكتب وهو اللوح المحفوظ ، وقال قتادة : أم الكتاب أصل الكتاب وأم كل شيء أصله ، وقال ابن عباس : أول ما خلق الله تعالى القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق فالكتاب مثبت عنده في اللوح المحفوظ كما قال تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ (البروج :) ، فإن

قيل : ما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع أنه تعالى علام الغيوب يستحيل عليه السهو والنسيان ؟ .

أجيب : بأنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات ثم إن الملائكة إذا شاهدوا أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقة ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمته وعلمه ، وقيل : المراد بأم الكتاب الآيات المحكمة لقوله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾ (آل عمران :)

(225/692)

والمعنى : أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم ، وقرأ حمزة والكسائي في الوصل بكسر الهمزة والباقون بضمها واتفقوا في الابتداء بالهمزة على الضم وقوله تعالى : ﴿ لدينا ﴾ أي : عندنا بدل من الجار قبله ﴿ لعلي ﴾ أي : رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها ﴿ حكيم ﴾ أي : ذو حكمة بالغة أو محكم في أبواب البلاغة والفصاحة .

﴿ أفنضرب ﴾ أي : أنهملكم فنضرب أي : ننجي مجاوزين ﴿ عنكم الذكر ﴾ أي : القرآن وفي نصب قوله تعالى : ﴿ صفحاً ﴾ أوجه ؛ أحدها : أنه مصدر من معنى نضرب

لأنه يقال ضرب عن كذا وأضرب عنه بمعنى أعرض عنه وصرف وجهه عنه قال طرفة:

*اضرب عنك الهموم طارقها ** ضربك بالسيف قونس الفرس*

واضرب بفتح الباء أصله اضربن بنون التوكيد الخفيفة فحذفت النون وحركت الباء بالفتح ، والطارق ما يطرق بالليل والقونس : منبت شعر الناصية وهو عظمٌ نابت بين أذني الفرس ، ثانيها : أنه منصوب على الحال أي : صافحين ثالثها أن يكون مفعولاً من أجله وقيل غير ذلك ﴿ أن ﴾ أي : أنفعل ذلك لأن ﴿ كنتم قوماً مسرفين ﴾ أي : مشركين لا نفعل ذلك وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض ، وقرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر الهمزة على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق ومخرج المشكوك استجهالاً لهم وما قبلها دليل الجزاء ، وقرأ الباقون بفتحها وذكر تعالى تأنيساً للنبي صلى الله عليه وسلم وتأسية وتعزية وتسلية قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وكم أرسلنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ من نبي في الأولين ﴾ أي : في الأمم الماضية ثم حكى حالهم الماضية بقوله تعالى:

﴿ وما ﴾ أي : والحال أنه ما ﴿ يأتيهم ﴾ وأغرق في النفي بقوله تعالى : ﴿ من نبي ﴾ أي : في أمة بعد أمة أو زمان بعد زمان ﴿ إلا كانوا ﴾ أي : خلقاً وطبعاً ﴿ به يستهزؤون ﴾ كما استهزأ قومك بك فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب تكذيبهم واستهزائهم لأن المصيبة إذا عمت خفت .

تنبيه : كم خبرية مفعول مقدم ومن نبي تمييز وفي الأولين متعلق بالإرسال أو بمحذوف على أنه صفة لنبي .

﴿ فأهلكنا ﴾ أي : فتسبب عن الاستهزاء بالرسل أنا أهلكنا ﴿ أشد منهم ﴾ أي : من قريش الذين يستهزؤون بك ﴿ بطشاً ﴾ أي : قوة وكان الأصل الإضمار ولكنه أظهر الضمير صارفاً أسلوب الخطاب إلى الغيبة إقبالاً على نبيه صلى الله عليه وسلم تسلية له وإبلاغاً في وعيدهم ﴿ ومضى ﴾ أي : سبق في آيات الله ﴿ مثل ﴾ أي : صفة ﴿ الأولين ﴾ في الإهلاك وفي لك وعد للرسول صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم مثل ما جرى على الأولين واللام في قوله تعالى:

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ سألتهم ﴾ أي : سألت قومك ﴿ من خلق السموات ﴾ على علوها وسعتها ﴿ والأرض ﴾ على كثرة عجائبها وعظمها وقوله تعالى : ﴿ ليقولن ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات وواو الضمير لالتقاء الساكنين ﴿ خلقهن ﴾ الذي هو موصوف بأنه ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي لا يغالب ﴿ العليم ﴾ بما كان وما يكون .

تنبيه : هذا الجواب مطابق للسؤال من حيث المعنى إذ لو جاء على اللفظ لجيء فيه بجملة

ابتدائية كالسؤال فكان الجواب هنا الله كما غيره من الآيات ، لكنه عدل عنه إلى المطابقة المعنوية مكرراً للفعل تأكيداً لإغراقهم زيادة في توبيخهم وتنبيهاً على عظم غلطهم .

ولما تم الإخبار عنهم ابتدأ الأدلة على نفسه بذكر مصنوعاته فقال تعالى:

(227/692)

﴿ الذي جعل لكم ﴾ ولو كان ذلك قولهم لقالوا لنا : ﴿ الأرض مهاداً ﴾ أي : فراشاً قارة ثابتة كالمهد للصبي ولو شاء لجعلها مزلة لا ينبت فيها شيء كما ترون من بعض الجبال ، فالانتفاع بها إنما حصل لكونها واقفة ساكنة فإنها لو كانت متحركة ما أمكن الانتفاع بها في الزراعة والأبنية وستر عيوب الأحياء والأموات ، ولأن المهد موضع راحة الصبي فكانت الأرض مهاداً لكثرة ما فيها من الراحات ، وقرأ الكوفيون بفتح الميم وسكون الهاء والباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعد الهاء ﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ أي : طرقاً تسلكونها وذلك أن انتفاع الناس إنما يكمل إذا سعوا في أقطار الأرض فهيأ تعالى تلك السبل ووضع عليها علامات ليحصل الانتفاع ولو شاء لجعلها بحيث لا يسكن في مكان منها كما جعل بعض الجبال كذلك ثم ذكر الغاية في ذلك فقال تعالى : ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي : لكي تهتدوا إلى مقاصدكم في الأسفار وغيرها فتتوصلون بها إلى الأقطار الشاسعة والأقاليم

الواسعة أو لتهتدوا إلى الحق في الدين .

﴿ والذي نزل ﴾ أي : بحسب التدريج ولولا قدرته تعالى الباهرة لكان دفعة واحدة أو قريباً منها ﴿ من السماء ﴾ أي : المحل العالي ﴿ ماء ﴾ أي : لزرعكم وثماركم وشرابكم بأنفسكم وأنعامكم ﴿ بقدر ﴾ أي : بقدر حاجتكم إليه من غير زيادة ولا نقصان لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم ﴿ فأنشرنا ﴾ أي : أحيينا ﴿ به ﴾ أي : الماء ﴿ بلدة ﴾ أي : مكاناً يجتمع فيه للإقامة يعتنون بإحيائه يتعاونون على دوام إبقائه ﴿ ميتاً ﴾ أي : كان قد يبس نباته وعجز أهله عن إيصال الماء إليه ليحيا به ، قال البقاعي : ولعله أنث البلد وذكر الميت إشارة إلى أن بلوغها في الضعف والموت بلغ الغاية بضعف أرضه في نفسها وضعف أهله عن إحيائه .

(228/692)

﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الإخراج العظيم الذي شاهدتموه في النبات ﴿ تخرجون ﴾ من قبوركم أحياء ، والمعنى : أن هذا الدليل كما دل على قدرة الله تعالى وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ، ووجه التشبيه : أنه جعلهم أحياء بعد الإماتة كهذه الأرض التي انتشرت بعد ما كانت ميتة ، وقيل : بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من

الأرض بماء كالمني كما تنبت الأرض بماء المطر قال ابن عادل : وهذا ضعيف لأن ظاهر لفظ الإشارة الإعادة فقط دون هذه الزيادة . ثم شرع تعالى في إكمال ما تقتضيه الحال من الأوصاف فقال عز من قائل:

(229/692)

﴿ والذي خلق الأزواج ﴾ أي : الأصناف المتشاكلة التي لا يكمل شيء منها غاية الكمال إلا بالآخر على ما دبره سبحانه في نظم هذا الوجود ﴿ كلها ﴾ من النبات والحيوان وغير ذلك من سائر الأكوان لم يشاركه في شيء منها أحد وقال ابن عباس رضي الله عنه : الأزواج الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى ، وقال بعض المحققين : كل ما سوى الله تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضي والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف ، وكونها أزواجاً يدل على أنها ممكنة الوجود في ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم ، فأما الحق تعالى : فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد ، فلهذا قال تعالى : ﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ فهو مخلوق فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية ، قال الرازي : وأيضاً علماء الحساب يثبتون أن الفرد أفضل من الزوج من وجود الأول أن الاثنين لا توجد

إلا عند حصول وحدتين ، فالزوج محتاج إلى الفرد والفرد هو الوحدة وهي غنية عن الزوج والغني أفضل من المحتاج ، الثاني : أن الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد لا يقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة فكان الفرد أفضل من الزوج ، ثم ذكر وجوهاً أخر تدل على أن الفرد أفضل من الزوج وإذا كان كذلك ثبت أن الأزواج ممكنات ومخلوقات وأن الفرد هو القائم بذاته المستقل بنفسه الغني عما سواه ﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ أي : السفن العظام في البحر ﴿ والأنعام ﴾ كالإبل في البر ﴿ ما تركبون ﴾ وحذف العائد لفهم المعنى تغليباً للمتعدي بنفسه في الأنعام على المتعدي بواسطة في الفلك ، والعائد مجرور في الأول أي : فيه منصوب في الثاني وذكر الضمير وجمع الظهور في قوله تعالى:

(230/692)

﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ نظراً للفظ ما ومعناها : ولما أتم النعمة بخلق ما تدعو إليه الحاجة وجعله على وجه دال على ما له من الصفات ، ذكر ما ينبغي أن تكون من غايتها على ما هو المتعارف بينهم من شكر المنعم ، فقال دالاً على عظم قدر النعمة وبعد غايتها وعلو أمر الذكر بحرف التراخي ﴿ ثم تذوكرا ﴾ أي : بقلوبكم وصرف القول إلى وجه

التربية حثاً على تذكر إحسانه للانتهاء عن كفرانه والإقبال على شكرانه فقال تعالى :

﴿ نعمة ربكم ﴾ أي : الذي أحسن إليكم بنعمة تسخيرها لكم وما تعرفونه من غيرها

﴿ إذا استويتم عليه ﴾ أي : على ما تركبونه وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خلق البحر وخلق الرياح وخلق جرم السفينة على وجه يمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي : جانب شاء ، فإذا تذكر أن خلق البحر وخلق الرياح وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصرف الإنسان ولتحريكاته إنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير عرف أن ذلك نعمة من الله تعالى ، فيحمله ذلك على الإنقياد لطاعة الله تعالى وعلى الإشتغال بالشكر لنعم الله تعالى التي لا نهاية لها .

ولما كان تذكر النعمة يبعث الجنان واللسان والأركان على الشكر لمن أسداها قال عز من قائل : ﴿ وتقولوا ﴾ أي : بألسنتكم جمعاً بين القلب واللسان ﴿ سبحان الذي سخر ﴾ أي : بعلمه الكامل وقدرته التامة ﴿ لنا هذا ﴾ أي : الذي ركبناه سفينة كانت أو دابة ﴿ وما ﴾ أي : والحال أنا ما ﴿ كنا له مقرنين ﴾ أي : مطيقين والمقرن المطيق للشيء الضابط له من أقرنه أي : أطاقه قال الواحدي : كان اشتقاقه من قولك صرت له قرناً ومعنى قرن فلان أي : مثله في الشدة ، وقيل : ضابطين وقال أبو عبيدة : قرن لفلان أي : ضابط له والقرن الحبل ، ومعنى الآية : ليس عندنا من القوة والطاقة أن نقرن هذه الدابة والفلك وأن نطيقهما فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته وحكمته .

روى الزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : "بسم الله ، فإذا استوى على الدابة قال : الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون" . وروى أحمد وأبو داود والترمذي وقال حسن صحيح عن علي رضي الله عنه : أنه وضع رجله في الركاب وقال : "فقال بسم الله فلما استوى على الدابة ، قال : الحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذه الآية ، ثم حمد ثلاثاً وكبر ثلاثاً ثم قال : لا إله إلا الله ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثم ضحك فقيل : مم تضحك يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ما فعلت فقلنا : ما يضحكك يا رسول الله قال : إن ربك يعجب من عبده إذا قال العبد لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ويقول : علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري" .

وروى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أردفه على دابة فلما استقر عليها كبر ثلاثاً وحمد الله تعالى ثلاثاً وسبح الله ثلاثاً وهلل الله تعالى واحدة وضحك ، ثم أقبل عليه فقال : ما من امرئ مسلم ركب دابة فيصنع كما صنعت

إلا أقبل الله عليه يضحك إليه كما ضحكت إليك" .

ولما كان راكب الفلك في خطر الهلاك وراكب الدابة كذلك أيضاً لأن الدابة قد يحصل لها ما يوجب هلاك الراكب وكذا السفينة قد تنكسر فوجب على الراكب أن يذكر أمر الموت ويقول:

﴿ وإنا إلى ربنا ﴾ المحسن إلينا بالأقدار على هذه التنقلات على هذه المراكب لا إلى غيره ﴿ لمنقلبون ﴾ أي : لصائرون بالموت وما بعده إلى الدار الآخرة انقلاباً لا إياب معه إلى هذه الدار ، فالآية منبهة بالسير الدنيوي على السير الأخروي وأكد لأجل إنكارهم البعث .

ولما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ بين أنهم مع إقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزءا كما قال تعالى:

(232/692)

﴿ وجعلوا له من عباده ﴾ الذين أبدعهم كما أبدع غيرهم ﴿ جزأ ﴾ أي : ولداً هو لحصرهم في الأنثى أحد قسمي الأولاد ، وكل ولد فهو جزء من والده قال صلى الله عليه وسلم "فاطمة بضعة مني" ، ومن كان له جزء كان محتاجاً فلم يكن إلهاً وذلك لقولهم : الملائكة بنات الله فثبت بذلك طيش عقولهم وسخافة آرائهم ، وقرأ شعبة : بضم الزاي

والباقون بسكونها وهما لغتان وإذا وقف حمزة نقل حركة الهمزة إلى الزاي .

ولما كان هذا في غاية الغلط من الكفر قال مؤكداً لإنكارهم أن يكون كفراً ﴿ إن الإنسان ﴾ أي : هذا النوع الذي هو بعضه ﴿ لكفور مبين ﴾ أي : بين الكفر في نفسه مناد عليها بالكفر وقوله تعالى:

﴿ أم اتخذ ﴾ أي : أعالج هو نفسه فأخذ هو بعد المعالجة وهو خالق الخلق كلهم ﴿ مما يخلق ﴾ أي : يجدد إبداعه في كل وقت ﴿ بنات ﴾ استفهام توبيخ وإنكار أي : فلم يقدر بعد التكلف والتعب على غير البنات التي هي أبغض الجزأين إليكم ثم عطف على قوله تعالى اتخذ ليكون منفياً على أبلغ وجه لكونه في حيز الإنكار ﴿ وأصفاكم ﴾ وهو السيد الكامل وأنتم عبيده أي : خصكم ﴿ بالبنين ﴾ اللازم من قولكم السابق ثم بين كون البنات أبغض إليهم بقوله تعالى:

﴿ وإذا ﴾ أي : جعلوا ذلك والحال أنه إذا ﴿ بشر ﴾ أي : من أي : مبشر كان ﴿ أحدهم ﴾ أي : أحد هؤلاء البعداء البغضاء ﴿ بما ضرب ﴾ أي : جعل ﴿ للرحمن ﴾ الذي لا نعمة على شيء من الخالق ألا وهي منه ﴿ مثلاً ﴾ أي : شبهاً بنسبة البنات إليه لأن الولد يشبه الوالد ، والمعنى إذا أخبر أحدهم بالبنت تولد له ﴿ ظل ﴾ أي : صار ﴿ وجهه مسوداً ﴾ أي : شديد السواد لما يعتريه من الكآبة ﴿ وهو

كظيم ﴾ أي : ممتلئ غماً فكيف تنسب البنات إليه تعالى ، هذا ما لا يرضى عاقل أن يمر بفكره فضلاً عن أن يتفوه به وقوله تعالى:

(233/692)

﴿ أومن ينشأ ﴾ أي : على ما جرت به عوائدكم ﴿ في الحلية ﴾ يجوز في مَنْ وجهان ؛ أحدهما : أن تكون في محل نصب مفعولاً بفعل مقدر أي : أو تجعلون من ينشأ في الحلية ، والثاني : أنه مبتدأ وخبره محذوف تقديره أو من ينشأ جزء أولد أو جعلوه له جزأ ، والمعنى : أن التي تتزين في الحلية تكون ناقصة الذات لأنه لولا نقصانها في ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين أي : يربي ، والباقون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين ، وإذا وقف همزة وهشام أبدلا الهمزة ألفاً ولهما أيضاً تسهيلها والروم والإشمام ، ثم بين نقصان حالها بطريق آخر بقوله تعالى : ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه وقدم في إفادة الاهتمام قوله تعالى : ﴿ في الخصام ﴾ أي : المجادلة إذا احتج إليها فيها ﴿ غير مبين ﴾ أي : مظهر حجته لضعفه عنها بالأنوثة ، قال قتادة : في هذه الآية قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها ، ثم بين تعالى جرأتهم على ما لا ينبغي لعاقل أن يتفوه بقوله تعالى:

﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم ﴾ متصفون بأشرف الأوصاف وهو أنهم ﴿ عباد الرحمن ﴾ أي : العام النعمة الذين ما عصوه طرفة عين ﴿ إناثاً ﴾ وذلك أدنى الأوصاف خلقاً وخلقاً ذاتاً وصفة فهذا كفر ثالث كالكافرين قبله ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر : بكسر العين وبعدها نون ساكنة ونصب الدال ، والباقون بعد العين بباء موحدة مفتوحة وبعدها ألف ورفع الدال ثم قال تعالى تهكماً بهؤلاء القائلين ذلك وتوبيخاً لهم وإنكاراً عليهم ﴿ أشهدوا ﴾ أي : أحضروا ﴿ خلقهم ﴾ أي : خلقي إياهم فشاهدوهم إناثاً فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة ، وقرأ نافع بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مضمومة مسهلة كالواو وسكون الشين ، وأدخل قالون بينهما ألفاً ولم يدخل ورش والباقون بهمزة واحدة مفتوحة وفتح الشين .

(234/692)

﴿ ستكتب ﴾ بكتابة من وكلناهم بهم من الحفظة الذين لا يعصوننا فنحن نقدرهم على جميع ما نأمرهم به ﴿ شهادتهم ﴾ أي : قولهم فيهم أنهم إناث الذي لا ينبغي أن يكون إلا بعد تمام المشاهدة فهو قول ركيك سخيف ضعيف كما أشار إليه التأنيث ﴿ ويسألون ﴾ عنها عند الرجوع إلينا ، قال الكلبي ومقاتل : "لما قالوا هذا القول سألهم النبي صلى الله

عليه وسلم فقال : "ما يدريكم أنهم إناث ؟ قالوا : سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فقال تعالى ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ عنها في الآخرة هذا يدل على أن القول بغير دليل منكر وأن التقليد حرام يوجب الذم العظيم قال المحققون : هؤلاء الكفار كفروا في هذا القول من ثلاثة أوجه ؛ أولها : إثبات الولد ثانيها : أن ذلك الولد بنت ثالثها : الحكم على الملائكة بالأنوثة .

تنبيه : قال البقاعي : يجوز أن يكون في السين استعطاف التوبة قبل كتابة ما قالوا ولا علم لهم به فإنه قد روى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح الله أو يستغفر" . ثم نبه سبحانه على أنهم عبدوهم مع ادعاء الأنوثة فيهم فقال تعالى معجباً منهم في ذلك وفي جعل قولهم حجة دالة على صحة مذهبهم وهو من أوهى الشبه:

﴿ وقالوا ﴾ أي : بعد عبادتهم لهم ونهيهم عن عبادة غير الله تعالى ﴿ لو شاء الرحمن ﴾ أي : الذي له عموم الرحمة ﴿ ما عبدناهم ﴾ أي : الملائكة فعبادتنا إياهم بمشيئته فهو راض بها ولولا أنه راض بها لعجل لنا العقوبة ، فاستدلوا بنفي مشيئة عدم العبادة على الرضا بها وذلك باطل لأن المشيئة ترجيح بعض الممكنات على بعض ، مأموراً كان أو منهياً حسناً كان أو غيره ولذلك جهلهم فقال تعالى : ﴿ ما لهم بذلك ﴾ أي : المقول من الرضا بعبادتها ﴿ من علم إن ﴾ أي : ﴿ هم إلا يخرصون ﴾ أي : يكذبون في هذه النتيجة التي زعموا أنها دلتهم على رضا الله تعالى بكفرهم فيترتب عليهم العقاب .

ولما بين تعالى بطلان قولهم بالعقل أتبعه بطلان قولهم بالنقل فقال تعالى:

﴿ أم آتيناهم ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ كتاباً ﴾ أي : جامعاً لما يريدون اعتقاده من أقوالهم هذه ﴿ من قبله ﴾ أي : القرآن أخبرناهم فيه أنا جعلنا الملائكة إناثاً وأنا لا نشاء إلا ما هو حق نرضاه ونأمر به ﴿ فهم به ﴾ أي : فتسبب عن هذا الإتيان أنهم به وحده ﴿ مستمسكون ﴾ أي : موجدون الاستمساك به فيأخذون بما فيه ، لم يقع ذلك .

ولما بين تعالى أنه لا دليل على صحة قولهم البتة لا من العقل ولا من النقل ، بين أنه لا حامل لهم يحملهم عليه إلا التقليد بقوله تعالى:

﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا ﴾ أي : وهم أرجح منا عقولاً وأصح منا إفهاماً ﴿ على أمة ﴾ أي : طريقة عظيمة يحق لها أن تقصد وتؤم ثم أكدوا قطعاً الرجاء المخالف عن لفتهم عن ذلك فقالوا ﴿ وإنا على آثارهم ﴾ أي : خاصة لا غيرها ﴿ مهتدون ﴾ أي : متبعون فلم نأت بشيء من عند أنفسنا ولا غلطنا في الاتباع واقتفاء الآثار فلا اعتراض علينا بوجه هذا قولهم في الدين بل في أصوله التي من ضل في شيء منها هلك ولو ظهر لأحد منهم خلل في سعي أبيه الدنيوي الذي به يحصل الدينار والدرهم ما اقتدى به أصلاً وخالفه أيَّ مخالفة ما هذا إلا قصور نظر ومحض عناد ثم أخبر تعالى أن غيرهم قال هذه المقالة بقوله سبحانه:

﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل هذه المقالة المتناهية في البشاعة فعلت الأمم الماضية مع إخوانك الأنبياء عليهم السلام ثم فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ ما أرسلنا ﴾ أي : مع ما لنا من العظمة ﴿ من قبلك ﴾ أي : في الأزمنة السالفة ﴿ في قرية ﴾ وأغرق في النفي بقوله تعالى : ﴿ من نذير ﴾ وبين به أن موضع الكراهة والخلاف الإنذار على مخالفة الأهواء ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ أي : أهل الترفه بالضم وهي النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف يكون خاصاً بالمترف وذلك موجب لقلة الهم وللراحة والبطالة ﴿ إنا وجدنا آباءنا ﴾ أي : وهم أعرف منا بالأمور ﴿ على أمة ﴾ أي : أمر جامع يستحق أن يقصد ويؤم ثم أكدوا كما أكد

هؤلاء فقالوا : ﴿ وإنا على آثارهم ﴾ أي : لا على غيرها ﴿ مقتدون ﴾ أي : راكبون سنن طريقتهم لازمون لها ففي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم

(237/692)

﴿ قل ﴾ أي : يا أفضل الخلق لهؤلاء البعداء البغضاء ﴿ أولو ﴾ أي : أتبغون ذلك ولو ﴿ جئتم بأهدى ﴾ أي : بأمر أعظم في الهداية وأوضح في الدلالة ﴿ مما وجدتم ﴾ أي : أيها المقتدون بالآباء ﴿ عليه آباءكم ﴾ أي : كما تضمن قولكم أنكم تقتفون في اتباعكم بالآثار في أعظم الأشياء وهو الدين الذي الخسارة فيه خسارة للنفس وأنتم تخالفونهم في أمر نفس الدنيا إذا وجدتم طريقاً أهدى في التصرف فيها من طريقتهم ولو أمراً يسيراً ، ويفتخر أحدكم بأنه أدرك من ذلك ما لم يدرك أبوه فحصل من المال أكثر مما حصل فيا له من نظر ما أقصره ومتجر ما أخسره ، وقرأ ابن عامر وحفص : قال بصيغة الماضي أي : قال المنذر أو الرسول وهو النبي صلى الله عليه وسلم والباقون : قل بصيغة الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ثم أجابوه بأن ﴿ قالوا ﴾ مؤكدين رداً لما قطع به كل عاقل سمع هذا الكلام من أنهم يبادرون النظر في الدليل والرجوع إلى سواء السبيل ﴿ إنا بما أرسلتم به ﴾ أي : أنت ومن قبلك ﴿ كافرون ﴾ أي : ساترون لما ظهر من ذلك جهدنا حتى لا يظهر لأحد ولا

يتبعكم فيه مخلوق وإن كان أهدى مما كان عليه آباؤنا فعند هذا لم يبق لهم عذر فلهذا قال تعالى:

﴿ فانتقمنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة التي استحقوا بها ﴿ منهم ﴾ فأهلكناهم بعذاب الاستئصال ثم عظم أمر النقمة بالأمر بالنظر فيها في قوله : ﴿ فانظر ﴾ يا أفضل الرسل ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي : آخر أمر ﴿ المكذبين ﴾ لرسلنا فإنهم أهلكوا أجمعون ونجا المؤمنون أجمعون فليحذر من رد رسالتك من مثل ذلك ، وهذا تهديد عظيم لكفار قريش . ثم بين تعالى وجهاً آخر يدل على فساد التقليد بقوله تعالى:

(238/692)

﴿ وإذ ﴾ أي : واذكر يا أفضل الخلق إذ ﴿ قال إبراهيم ﴾ أي : الذي هو أعظم آبائهم ومحط فخرهم والمجمع على محبته وحقية دينه منهم ومن أهل الكتاب وغيرهم ﴿ لأبيه ﴾ من غير أن يقلده كما قلدتم أنتم آباءكم ﴿ وقومه ﴾ الذين كانوا هم القوم في الحقيقة لاحتوائهم على ملك جميع الأرض ﴿ إنني براء ﴾ أي : بريء ﴿ مما تعبدون ﴾ أي : في الحال والاستقبال .

﴿ إلا الذي فطرني ﴾ أي : خلقني ﴿ فإنه سيهدين ﴾ أي : يرشدني لدينه ويوفقني

لطاعته .

تنبيه : في هذا الاستثناء أوجه ؛ أحدها : أنه استثناء منقطع لأنهم كانوا عبدة أصنام فقط ، ثانيها : أنه متصل لأنه روي أنهم كانوا يشركون مع الباري غيره ، ثالثها : أن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن تكون ما نكرة موصوفة قاله الزمخشري . قال أبو حيان : وإنما أخرجها في هذا الوجه عن كونها موصولة لأنه يرى أن إلا بمعنى غير لا يوصف بها إلا النكرة وفيها خلاف ، وعلى هذا يجوز أن تكون ما موصولة وإلا بمعنى غير صفة لها .

﴿ وجعلها ﴾ أي : إبراهيم ﴿ كلمة ﴾ أي : التوحيد المفهومة من قوله إنني إلى سيهدين ﴿ باقية في عقبه ﴾ أي : ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى لأنه عليه السلام مجاب الدعوة وقال : ﴿ ومن ذريتي ﴾ (إبراهيم :)

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ (البقرة :)

﴿ لعلهم ﴾ أي : أهل مكة ﴿ يرجعون ﴾ عما هم عليه إلى دين أبيهم فإنهم إذا ذكروا أن أباهم الأعظم الذي بنى لهم البيت وأورثهم الفخر قال ذلك تابعوه قال الله تعالى:

﴿ بل متعت هؤلاء ﴾ أي : الذين بحضرتك من المشركين وأعداء الدين ﴿ وآباءهم ﴾ أي : مددت لهم في الأعمار مع إسباغ النعم وسلامة الأبدان من البلايا والنقم ولم أعاجلهم بالعقوبة فأبطرتهم نعمتي ، وتمادى بهم ركوب ذلك الباطل ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ أي :

القرآن ﴿ ورسول مبين ﴾ أي : مظهر لهم الأحكام الشرعية وهو محمد صلى الله عليه وسلم

(239/692)

﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ أي : الكامل في حقيقته بمطابقة الواقع إياها من غير إلباس ولا اشتباه وهو القرآن العظيم ﴿ قالوا ﴾ مكابرة وعناداً وحسداً من غير وقفة ولا تأمل ﴿ هذا ﴾ مشيرين إلى الحق الذي يطابقه الواقع فلا شيء أثبت منه وهو القرآن الكريم ﴿ سحر ﴾ أي : خيال لا حقيقة له ﴿ وإنا به كافرون ﴾ أي : عريقون في ستره بخصوصه حتى لا يعرفه أحد ولا يكون له تابع . ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من كفرهم بقوله تعالى:

﴿ وقالوا لولا ﴾ أي : هلا ﴿ نزل ﴾ يعني من المنزل الذي ذكره محمد صلى الله عليه وسلم وعينوا مرادهم ونفوا اللبس فقالوا : ﴿ هذا القرآن ﴾ أي : الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وادعى أنه جامع لكل خير ﴿ على رجل من القريتين ﴾ أي : مكة والطائف ﴿ عظيم ﴾ لأنهم قالوا : منصب الرسالة منصب شريف لا يليق إلا برجل شريف وصدقوا في ذلك إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة ، وهي : أن الرجل الشريف عندهم هو الذي يكون كثير المال والجاه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلك فلا تليق رسالة الله

تعالى به ، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال يعنون الوليد بن المغيرة بمكة ، وعروة بن مسعود بالطائف ، قال قتادة ، وقال مجاهد : عتبة بن ربيعة من مكة وعبد يا ليل الثقفي من الطائف ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هو الوليد بن المغيرة من مكة ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ من القريتين ﴾ فيه حذف مضاف قدره بعضهم من رجلي القريتين ، وقيل : من إحدى القريتين ، وقيل : المراد عروة بن مسعود الثقفي كان بالطائف وكان يتردد بين القريتين فنسب إلى كليهما ، ثم رد الله تعالى عليهم إعراضهم منكراً عليهم موبخاً لهم بما معناه أنه ليس الأمر مردوداً ولا موقوفاً عليهم بل إلى الله تعالى وحده والله أعلم حيث يجعل رسالاته بقوله تعالى:

(240/692)

﴿ أهم ﴾ أي : أهؤلاء الجهلة العجزة ﴿ يقسمون ﴾ أي : على التجدد والاستمرار ﴿ رحمت ربك ﴾ أي : إكرام المحسن إليك وإنعامه وتشريفه أنواع اللطف والبر وإعظامه بما رباك له من تخصيصك بالإرسال إليهم لإنقاذهم من الضلال وجعلك وأنت أفضل العالمين الرسول إليهم ، ففضلوا بفضيلتك مع أنك أشرفهم نسباً وأفضلهم حسباً وأعظمهم عقلاً

وأصفاهم لباً وأرحمهم قلباً ، ليتصرفوا في تلك الرحمة التي هي روح الوجود وسر الأمر لا يحب شهواتهم ولا يقدرون على التصرف في المتاع الزائل بمثل ذلك كما قال تعالى : ﴿ نحن قسمنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ بينهم ﴾ أي : في الأمر الزائل الذي يعمهم ويجب تخصيص كل منهم لما لديه ﴿ معيشتهم ﴾ أي : التي يعدونها رحمة ويقصرون عليهم النعمة ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ التي هي أدنى الأشياء عندنا وأشار بتأنيثها إلى أنها حياة ناقصة لا يرضاها عاقل ، وأما الآخرة فعبر بالحيوان لأنا لو تركنا قسمها إليهم لتفانوا على ذلك فلم يبق منهم أحد ، فكيف يدخل في الوهم أن نجعل إليهم شيئاً من الكلام في أمر النبوة التي هي روح الوجود وبها سعادة الدارين ﴿ ورفعنا ﴾ أي : بما لنا من نفوذ الأمر ﴿ بعضهم ﴾ وإن كان ضعيف البدن قليل العقل ﴿ فوق بعض ﴾ وإن كان قوياً غزير العقل

﴿ درجات ﴾ في الجاه والمال ونفوذ الأمر وعظم القدر لينتظم حال الوجود ، فإنه لابد في انتظامه من تشارك الموجودين وتعاونهم ففاوتنا بينهم في الجثث والقوى والهمم ، ليقتسموا الصنائع والمعارف ويكون كل ميسراً لما خلق له وجانحاً لما هُيىء لتعاطيه فلم يقدر أحد من دني أو غني أن يعدو قدره ويرتقي فوق منزلته .

ثم علل ذلك بما ثمرته عمارة الأرض بقوله تعالى : ﴿ ليتخذ ﴾ أي : بغاية جهده ﴿ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ أي : ليستخدم بعضهم بعضاً فيسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل ، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض هذا بماله وهذا بأعماله فيلتئم قوام العالم ؛ لأن المقادير لو تساوت لتعطلت المعايش فلم يقدر أحد منهم أن ينفك عما جعلناه إليه من هذا الأمر الدنيء ، فكيف يطمعون في الاعتراض في أمر النبوة أيتصور عاقل أن تتولى قسم الناقص ونكل العالي إلى غيرنا ، قال ابن الجوزي : فإذا كانت الأرزاق بقدر الله تعالى لا بحول المحتال وهي دون النبوة فكيف تكون النبوة وهذا هو المراد بقوله تعالى : صارفاً القول عن مظهر العظمة إلى الوصف بالإحسان إظهار الشرف النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ورحمت ربك ﴾ أي : المربي لك والمدبر لأمرك بإرسالك وإنارة الوجود برسالتك التي هي لعظمتها جديرة بأن تضاف إليه ولا يسمي غيرها رحمة ﴿ خير مما يجمعون ﴾ من حطام الدنيا الفاني فإنه وإن تأتَّى فيه خير في استعماله في وجوه البر بشرطه فهو بالنسبة إلى النبوة وما قاربها مما دعا إلى الإعراض عن الدنيا متلاش ، وقيل : المراد بالرحمة : الجنة ، وجرى عليه البغوي وتبعه الجلال المحلي وابن عادل ، وجرى على الأول البيضاوي وتبعه البقاعي وهو الظاهر من الآية الكريمة .

فائدة : اتفق القراء هنا على قراءة سخريا بضم السين ثم بين تعالى حقارة الدنيا وخستها التي يفتخرون بها بقوله تعالى:

﴿ ولولا أن يكون الناس ﴾ أي : أهل التمتع بالأموال بما فيهم من الاضطراب والأنس بأنفسهم ﴿ أمة واحدة ﴾ أي : في الضلال بالكفر لاعتقادهم أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه لحبهم الدنيا وجعلها محط أنظارهم وهممهم إلا من عصمه الله تعالى ﴿ لجعلنا ﴾ أي : في كل زمان وكل مكان بما لنا من العظمة التي لا يقدر أحد على معارضتها لحقارة الدنيا عندنا وبغضاً لها ﴿ لمن يكفر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بالرحمن ﴾ أي : العام الرحمة دليل على حقارة الدنيا من جهة إعطائها إلا بعد الممقوت ، وعلى أن صفة الرحمة مقتضية لتناهي بسط النعم على الكافر لولا العلة التي ذكرها الله تعالى من الرفق بالمؤمنين وقوله تعالى : ﴿ لبيوتهم ﴾ بدل من لمن بدل اشتمال بإعادة العامل واللامان للاختصاص ﴿ سقفاً من فضة ﴾ قال البقاعي : كأنه خصها أي : الفضة لإفادتها النور ، وقرأ أبو عمرو وورش وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسقفاً بفتح السين وسكون القاف على إرادة الجنس ، والباقون بضمها جمعاً وقوله تعالى : ﴿ ومعارج ﴾ جمع معرج وهو السلم أي : من فضة أيضاً وسميت المصاعد من الدرج معارج لأن المشي عليها مثل مشي الأعرج ﴿ عليها ﴾ خاصة لتيسر أمرها لهم

﴿ يظهرون ﴾ أي : يعلون ويرتقون على ظهرها إلى المعالي .

﴿ ولبيوتهم أبواباً ﴾ أي : من فضة أيضاً وقوله تعالى ﴿ وسرراً ﴾ أي : من فضة جمع سرير ودل على هدوء بالهم وصفاء أوقاتهم وأحوالهم بقوله تعالى : ﴿ عليها يتكئون ﴾ ودل على ما هو أعظم من الفضة بقوله تعالى:

﴿ وزخرفاً ﴾ أي : ذهباً وزينة كاملة عامة .

تنبيه : زخرفاً يجوز أن يكون منصوباً بجعل أي : وجعلنا لهم زخرفاً ، وجوز الزمخشري : أن ينتصب عطفاً على محل من فضة ، كأنه قيل : سقفاً من فضة وذهب ، فلما حذف الخافض انتصب أي : بعضها كذا وبعضها كذا ، وقيل : الزخرف هو الذهب لقوله تعالى : ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ (الإسراء :)

(243/692)

فيكون المعنى ويجعل لهم مع ذلك ذهباً كثيراً ، وقيل : الزخرف الزينة لقوله تعالى : ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت ﴾ (يونس :)

فيكون المعنى نعطيهم زينة عظيمة في كل باب ﴿ وإن كل ذلك ﴾ أي : البعيد من الخير لكونه في الأغلب مبعداً مما يرضينا ﴿ لما متاع الحياة الدنيا ﴾ أي : التي اسمها دال على

دناءتها يتمتع به فيها ثم يزول ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة : بتشديد الميم بعد اللام بمعنى إلا حكى سيبويه : (أنشدتك الله لما فعلت) بمعنى إلا ، وتكون أن نافية أي : وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا ، وقرأ الباقون : بالتخفيف فتكون إن هي المخففة من الثقيلة أي : وإنه كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا .

﴿ والآخرة ﴾ أي : الجنة التي لا دار تعدلها بل لا دار في الحقيقة إلا هي ﴿ عند ربك ﴾ أي : المحسن إليك بأن جعلك أفضل الخلق ﴿ للمتقين ﴾ أي : الذين هم دائماً واقفون عن أدنى تصرف إلا بدليل لا يشاركهم فيها غيرهم من الكفار ، ولهذا لما ذكر عمر رضي الله عنه كسرى وقيصر وما كانا فيه من النعم قال النبي صلى الله عليه وسلم "ألا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة" وقال صلى الله عليه وسلم "لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر قطرة ماء" .

وروى المستورد بن شداد قال : "كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة الميتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترى هذه هانت على أهلها حتى ألقوها قالوا : من هوانها ألقوها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها" أخرجه الترمذي وقال حديث حسن . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الدنيا سجن المؤمن وجنة

الكافر" . وعن قتادة بن النعمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أحب الله عبده حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء" .

(244/692)

قال البقاعي : ولا يبعد أن يكون ما صار إليه الفسقة والجبابرة من زخرفة الأبنية وتذهيب السقوف وغيرها من مبادي الفتنة بأن يكون الناس أمة واحدة في الكفر قرب الساعة حتى لا تقوم الساعة على من يقول : الله ، أو في زمن الدجال لأن من يبقى إذ ذاك على الحق في غاية القلة بحيث أنه لا عداد لهم في جانب الكفرة لأن كلام الملوك لا يخلو عن حقيقة وإن خرج مخرج الشرط فكيف بملك الملوك سبحانه .

فإن قيل : لم بين تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر فلِمَ لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير سبباً لاجتماع الناس على الإسلام ؟

أجيب : بأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا وهذا الإيمان إيمان المنافقين فاقتضت الحكمة أن لا يجعل ذلك للمسلمين حتى أن كل من دخل في الإسلام يدخل لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى .

﴿ ومن يعش ﴾ أي : يعرض ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ أي : الذي عمت رحمته فلا رحمة

على أحد إلا وهي منه تعالى كما فعل هؤلاء حين متعناهم وأباءهم حتى أبطرهم ذلك وهو شيء يسير جداً ، فأعرضوا عن الآيات والدلائل فلم ينظروا فيها إلا نظراً ضعيفاً كنظر من عشا بصره وهو من ساء بصره بالليل والنهار ﴿ نقيض ﴾ أي : نسبب ﴿ له ﴾ عقاباً على إعراضه عن ذكر الله تعالى ﴿ شيطاناً ﴾ أي : شخصاً نارياً بعيداً من الرحمة يكون غالباً عليه محيطاً به مثل قيض البيضة وهو القشر الداخل ﴿ فهو له قرين ﴾ أي : مشدود به لا يفارقه فلا يمكنه التخلص منه ما دام متعامياً عن ذكر الله تعالى ، فهو يزين له العمى ويخيل إليه أنه على عين الهدى كما أن من يستبصر بذكر الرحمن يسخر له ملك فهو له ولي يثيره إلى كل خير ، فذكر الله تعالى حصن حصين من الشيطان الرجيم متى خرج العبد منه أسره العدو كما ورد في الحديث" .

(245/692)

﴿ وإنهم ﴾ أي : القرناء ﴿ ليصدونهم ﴾ أي : العاشين ﴿ عن السبيل ﴾ أي : الطريق الذي من حاد عنه هلك لأنه لا طريق له في الحقيقة سواه ﴿ ويحسبون ﴾ أي : العاشون مع سيرهم في المهالك لتزيين القرناء بإحضار الحظوظ والشهوات وإبعاد المواعظ ﴿ أنهم مهتدون ﴾ أي : غريقون في هذا الوصف لما يستدرجون به من التوسعة عليهم والتضييق

على الذاكرين .

تنبيه : ذكر الإنسان والشيطان بلفظ الجمع لأن قوله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً ﴾ فهو له قرين يفيد : الجمع وإن كان اللفظ على الواحد ، قال أبو حيان : الظاهر أن ضميري النصب في وأنهم ليصدونهم : عائدان على مَنْ من حيث معناها وأما لفظها أولاً فأفراد في له وله ثم راعى معناها فجمع في قوله تعالى : ﴿ وإنهم ليصدونهم ﴾ والضمير المرفوع على الشيطان لأن المراد به : الجنس ولأن كل كافر معه قرينه ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة : بفتح السين والباقون بكسرها وقرأ :

﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ نافع وابن عامر وأبو بكر : بمد الهمزة بعد الجيم على التثنية أي : جاء العاشي والشيطان ، والباقون بغير مد إفراد أي : جاء العاشي ﴿ قال ﴾ أي : العاشي تندماً وتحسراً لا انتفاع له به لفوات محله وهو دار العمل ﴿ يا ليت بيني وبينك ﴾ أي : أيها القرين ﴿ بعد المشرقين ﴾ أي : ما بين المشرق والمغرب على التغليب قاله ابن جرير وغيره ، أو مشرق الشتاء والصيف أي بعد أحدهما عن الآخر ثم سبب عن هذا التمني قوله جامعاً له أنواع المذام ﴿ فبئس القرين ﴾ والمخصوص بالذم محذوف أي : أنت لأنك الذي قد أضللتني وأوصلتني إلى هذا العيش الضنك والمحل الدحض قال أبو سعيد الخدري : "إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصيرا إلى النار" وفي

فاعل قوله تعالى:

d

(246/692)

﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾ قولان أحدهما : أنه ملفوظ به وهو أنكم وما في حيزها والتقدير : ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب بالتأسي كما ينفعكم الاشتراك في مصائب الدنيا فيتأسى المصاب بمثله ومنه قول الخنساء :

*ولولا كثرة الباكين حولي **على موتاهم لقتلت نفسي*

*وما يبكون مثل أخي ولكن **أعزي النفس عنه بالتأسي*

والثاني : أنه مضمر فقدره بعضهم ضمير التمني المدلول عليه بقوله : ﴿ يا ليت بيني ﴾ أي : لن ينفعكم تمنيكم البعد وبعضهم اجتماعكم وبعضهم ظلمكم وجحدكم ، وعبارة من عبر بأن الفاعل محذوف مقصوده الإضمار المذكور لا الحذف إذ الفاعل لا يحذف إلا في مواضع ليس هذا منها والمعنى : ولن ينفعكم اليوم في الآخرة ﴿ إذ ظلمتم ﴾ أي : أشركتم في الدنيا ﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾ أي : لا ينفعكم الاشتراك في العذاب ولا يخفف الاشتراك عنكم لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر من العذاب كما كنتم تشتركون في

الدنيا .

تنبيه : استشكل المعربون هذه الآية ووجهه أن قوله تعالى : ﴿ اليوم ﴾ ظرف حالي وإذ ظرف ماضي وينفعكم مستقبل لاقترانه بلن التي لنفي المستقبل ، والظاهر أنه عامل في الظرفين وكيف يعمل الحدث المستقبل الذي لم يقع إلا بعد في ظرف حالي وماض هذا مما لا يجوز ؟

أجيب : عن أعماله في الظرف الحالي على سبيل قربه منه لأن الحال قريب من الاستقبال فيجوز في ذلك قال تعالى : ﴿ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ (الجن :)

وقال الشاعر:

*سأسعى الآن إذ بلغت أباها ** وهو إقناعي وإلا فالمستقبل*

(247/692)

يستحيل وقوعه في الحال عقلاً وأما قوله تعالى : ﴿ إذ ﴾ ففيها للناس أوجه كثيرة قال ابن جني : راجعت أبا علي فيها مراراً كثيرة فآخر ما حصلت منه أن الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء في حكم الله تعالى وعلمه ، فإذ بدل من اليوم حتى كأنها مستقبلة أو كان اليوم ماض وإلى هذا نحا الزمخشري قال : وإذ بدل من اليوم ، وحمل الزمخشري على معنى إذ تبين

وصح ظلمكم ولم يبق لأحد ولا لكم شبهة في أنكم كنتم ظالمين ونظيره:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة

أي: تبين أني ولد كريمة.

ولما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشي وصفهم بالصمم والعمى بقوله تعالى:

﴿ أفأنت ﴾ أي: وحدك من غير إرادة الله تعالى ﴿ تسمع الصم ﴾ وقد أصممناهم بما صببنا في مسامع أفهامهم من رصاص الشقاء ﴿ أوتهدي العمي ﴾ الذين أعميناهم بما غشينا به أبصار بصائرهم من أغشية الخسارة روي أنه صلى الله عليه وسلم "كان يجتهد في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا تصميماً على الكفر وعناداً في الغي فنزلت". أي: هم في النفرة عنك وعن دينك بحيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصم وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالعمي وقوله تعالى ﴿ ومن كان ﴾ أي: جبلة وطبعاً ﴿ في ضلال مبين ﴾ عطف على العمي باعتبار تغاير الوصفين، وفيه إشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم في ضلال لا يخفى بين في نفسه أنه ضلال وأنه محيط بالضال، يظهر لكل أحد ذلك فهو بحيث لا يخفى على أحد فالمعنى: ليس شيء من ذلك إليك بل هو إلى الله تعالى القادر على كل شيء وأما أنت فليس عليك إلا البلاغ فلا تتعب نفسك.

﴿ فإما نذهبن بك ﴾ أي: من بين أظهرهم بموت أو غيره وما مزيدة مؤكدة بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة ﴿ فإنا منهم ﴾ أي: من الذين تقدم التعريض بأنهم صم عمي

ضلال لم تنفعهم مشاعرهم ﴿ منتقمون ﴾ أي : بعد فراقك لأن وجودك بين أظهرهم هو سبب تأخير العذاب عنهم .

(248/692)

﴿ أو نرينك ﴾ وأنت بينهم ﴿ الذي وعدناهم ﴾ أي : من العذاب وعبر فيه بالوعد ليدل على الخير بلفظه وعلى الشر بأسلوبه ﴿ فإنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة التي أنت أعلم الخلق بها ﴿ عليهم ﴾ أي : على عقابهم ﴿ مقتدرون ﴾ على كلا التقديرين ، وأكد بأن لأن أفعالهم أفعال من ينكر قدرته وكذا بالإتيان بنون العظمة وصيغة الافتعال .

﴿ فاستمسك ﴾ أي : اطلب وأوجد بجد عظيم على كل حال من أحوال الإمساك ﴿ بالذي أوحي إليك ﴾ من حين نبوتك إلى الآن في الانتقام منهم وفي غيره ﴿ إنك على صراط ﴾ أي : طريق واسع واضح جداً ﴿ مستقيم ﴾ أي : موصل إلى المقصود لا يصح أصلاً أن يلحقه شيء من عوج .

(249/692)

﴿ وإنه ﴾ أي : الذي أوحى إليك في الدين والدنيا ﴿ لذكر ﴾ أي : لشرف عظيم جداً وموعظة وبيان ﴿ لك ولقومك ﴾ قريش خصوصاً لنزوله بلغتهم والعرب عموماً وسائر من اتبعك ولو كان من غيرهم روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك لم يخبر بشيء حتى نزلت هذه الآية فكان بعد ذلك إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك قال : لقريش" . وروى ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان" . وروى معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين" . وقال مجاهد : القوم هم العرب فالقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص من العرب حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم ، وقيل : ذكر لك بما أعطاك من الحكمة ولقومك من المؤمنين بما هداهم الله تعالى به ﴿ وسوف تسألون ﴾ أي : عن القرآن يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له ، وقال الكلبي : تسألون هل أديتم شكر إنعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل ، وقال مقاتل : يقال لمن كذب به لم كذبت ؟ فيسأل سؤال توبيخ وقيل : يسألون هل عملتم بما دل عليه القرآن من التكاليف . وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى إلى

السموات العلى بعث له آدم وولده من المرسلين عليهم السلام فأذن جبريل عليه السلام ثم أقام وقال : يا محمد تقدم فصل بهم ، فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل عليه السلام :

(250/692)

﴿ واسأل من أرسلنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن ﴾ أي : غيره ﴿ آلهة يعبدون ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أسأل قد اكتفيت ولست شاكاً فيه . وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وأبي زيد : قالوا جمع له الرسل ليلة أسري به وأمر أن يسألهم فلم يسأل ولم يشك . وقال أكثر المفسرين : سل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلت إليهم الأنبياء عليهم السلام هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد وهو قول مجاهد وقتادة والسدي ، ولم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم على واحد من القولين لأن المراد من الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول من الله تعالى ولا كتاب بعبادة غير الله تعالى .

ولما طعن كفار قريش في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبكونه فقيراً معدماً عديم الجاه والمال بين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة التي لا يشك في صحتها عاقل أورد عليه فرعون هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش فقال تعالى:

﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي : بما ظهر من عظمتنا ﴿ موسى ﴾ أي : الذي كان يرى فرعون أنه أحق الناس بعظمته لأنه رباه وكفله ﴿ بآياتنا ﴾ التي قهر بها عظماء الخلق وبجابرتهم فدل ذلك على صحة دعواه ﴿ إلى فرعون ﴾ الذي ادعى أنه الرب الأعلى ﴿ وملائه ﴾ أي : القبط ﴿ فقال ﴾ أي : بسبب إرسالنا ﴿ إني رسول رب العالمين ﴾ أي : مالكهم ومدبرهم ومربيهم فقالوا له : ائت بآية فأتى بها .

﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ أي : بآيتي اليد والعصا اللتين شاهدوا فيهما عظمتنا ودلهم ذلك على قدرتنا على جميع الآيات ﴿ إذا هم ﴾ أي : بأجمعهم ﴿ منها يضحكون ﴾ أي : فاجؤا المجيء بها من غير توقف ولا تأمل بالضحك سخرية واستهزاء ، قيل : إنه لما ألقى عصاه صارت ثعباناً فلما أخذه وصار عصا كما كانت ضحكوا .

ولما أعرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا :

(251/692)

﴿ وما ﴾ أي : والحال إنا ما ﴿ نريهم ﴾ على ما لنا من الجلال والعلو وأغرق في النفي بإثبات الجار فقال تعالى : ﴿ من آية ﴾ أي : من آيات العذاب كالطوفان وهو ماء دخل بيوتهم ووصل إلى حلوق الجالسين سبعة أيام والجراد وغير ذلك ﴿ الا هي أكبر ﴾ أي : في

الرتبة ﴿ من أختها ﴾ أي : التي تقدمت عليها بالنسبة إلى علم الناظرين لها

﴿ وأخذناهم ﴾ أي : أخذ قهر وغلبة ﴿ بالعذاب ﴾ أي : أنواع العذاب كالدم والقمل والضفادع والبرد الكبار الذي لم يعهد مثله ملتهباً بالنار وموت الإبكار فكانت آيات على صدق موسى عليه السلام بما لها من الإعجاز ، وعذاباً لهم في الدنيا موصولاً بعذاب الآخرة فيا لها من قدرة باهرة وحكمة ظاهرة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي : ليكون حالهم عندنا إذا نظرهم الجاهل بالعواقب حال من يرجى رجوعه .

﴿ و ﴾ لما عاينوا العذاب ﴿ قالوا ﴾ لموسى أي : قال فرعون بالمباشرة وأتباعه بالموافقة له : ﴿ يا أيها الساحر ﴾ فنادوه بذلك في تلك الحالة لشدة شكيمتهم وفرط حماقتهم ، أو لأنهم كانوا يسمون العالم الماهر ساحراً ﴿ ادع لنا ربك ﴾ أي : المحسن إليك بما يفعل معك من هذه الأفعال التي نهيتنا بها إكراماً لك ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ عهد عندك ﴾ أي : من كشف العذاب عنا إن آمنا ﴿ إننا لمهتدون ﴾ أي : مؤمنون .

﴿ فلما كشفنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة التي ترهب الجبال ﴿ عنهم العذاب ﴾ أي : الذي أنزلناه بهم ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ أي : فاجؤا الكشف بتجدد النكث بإخلاف بعد إخلاف .

﴿ ونادى فرعون ﴾ أي : زيادة على نكثه ﴿ في قومه ﴾ أي : الذين هم في غاية القيام معه

وأمر كلاً منهم أن يشيع قوله إشاعة تعم البعيد والقريب فتكون كأنها مناداة إعلاماً بأنه مستمر على الكفر لئلا يظن بعضهم أنه رجع فيرجعون .

(252/692)

ولما كان كأنه قيل : بم نادى أجاب بقوله : ﴿ قال ﴾ أي : خوفاً من إيمان القبط لما رأى من أن ما شاهدوه من باهر الآيات مثله يزلزل ويأخذ القلوب ﴿ يا قوم ﴾ مستعطفاً بإعلامهم أنهم لحمة واحدة ومستنهضاً بوصفهم بأنهم ذو قوة على ما يحاولنه مقرراً لهم على عذره في نكثه بقوله : ﴿ أليس لي ﴾ أي : وحدي ﴿ ملك مصر ﴾ أي : كله فلا اعتراض علي من بني إسرائيل ولا غيرهم ﴿ وهذه ﴾ أي : والحال أن هذه ﴿ الأنهار ﴾ أي : أنهار النيل قال البيضاوي : ومعظمها أربعة : نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس ، وقال البقاعي : كأنه كان قد أكثر من تشقيق الخلجان إلى بساتينه وقصوره ونحو ذلك من أموره فقال : ﴿ تجري من تحتي ﴾ أي : تحت قصري أو أمري أو بين يدي في جناني وزاد في التقرير بقوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أي : هذا الذي ذكرته لكم فتعلموا ببصائر قلوبكم أنه لا ينبغي لأحد أن ينازعني ، وهذا لعمري قول من ضعفت قواه وانحلت عراه .

﴿ أم أنا خير ﴾ أي : مع ما وصفت لكم من ضخامتي وما لي من القدرة على إجراء المياه

التي بها حياة كل شيء ﴿ من هذا ﴾ وكنى بإشارة القريب عن تحقيره ثم وصفه بما يبين مراده بقوله : ﴿ الذي هو معين ﴾ أي : ضعيف حقير ذليل لأنه يتعاطى أموره بنفسه وليس له ملك ولا قوى يجري بها نهراً ولا ينفذ بها أمراً ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ أي : لا يقرب من أن يعرب عن معنى من المعاني لما في لسانه من الحبسة ، فلا هو قادر في نفسه ولا له قوة بلسانه على تصريف المعاني وتنويع البيان ليستجلب القلوب وينعش الألباب فتكثر أتباعه ويضخم أمره ، وقد كذب في جميع قوله فقد كان موسى عليه السلام أبلغ أهل زمانه قولاً وفعلاً بتقدير الله تعالى الذي أرسله له وأمره إياه ولكن اللعين أسند هذا إلى ما بقي في لسانه من الحبسة تخييلاً لاتباعه لأن موسى عليه السلام ما دعا بإزالة جميع حبسته بل بعقدة منها فإنه قال ﴿ واحلل عقدة من لسان يفقهوا قولي ﴾ (طه : ـ)

(253/692)

تنبيه : في أم من قوله أم أنا خير أقوال ؛ أحدها : أنها منقطعة فتقدر ببل التي لإضراب الانتقال وبالهمزة التي للإنكار ، والثاني : أنها بمعنى بل فقط كقوله:

*بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى ** وصورتها أم أنت في العين أملح*

أي : بل أنت ، الثالث : أنها منقطعة لفظاً متصلة معنى قال أبو البقاء : أم هنا منقطعة في

اللفظ لوقوع الجملة بعدها في اللفظ وهي في المعنى متصلة معادلة إذ المعنى : أنا خير منه أم لا وأينا خير ، قال ابن عادل : وهذه عبارة غريبة أن تكون منقطعة لفظاً متصلة معنى وذلك أنهما معنيان مختلفان فإن الانقطاع يقتضي إضراباً إما إبطالاً وإما انتقالاً ثم إن فرعون اللعين ظن أن القرب من الملوك والغلبة على الأمور لا تكون إلا بكثرة الإعراض الدنيوية والتحلي بحلي الملوك ولذا قال:

(254/692)

﴿ فلولا ﴾ أي : فهلا ﴿ ألقي عليه ﴾ عند مرسله الذي يدعي أنه الملك بالحقيقة ﴿ أساورة ﴾ وقرأ حفص بسكون السين ولا ألف بعدها كالأحمرة ، والباقون بفتح السين وألف بعدها فأسورة جمع سوار كحمار وأحمرة وهو جمع قلة وأساور جمع أسوار بمعنى سوار يقال : سوار المرأة وإسوارها والأصل : أساوير بالياء فعوض من حرف المد تاء التأنيث كزنديق وزنادقة وبطريق وبطارقة ، وقيل : بل هي جمع أسورة فهي جمع الجمع قاله الزجاج ، والسوار ما يوضع في المعصم من الحلية ﴿ من ذهب ﴾ ليكون ذلك إمارة له على صحة دعواه كما نفعل نحن عند إنعامنا على أحد من عبيدنا بالإرسال إلى ناحية من النواحي لمهم من المهمات ، إذ كان من عادتهم أنهم إذا جعلوا واحداً منهم رئيساً لهم

سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فطلب فرعون من موسى عليه السلام مثل عادتهم ﴿ أو جاء معه ﴾ أي : صحبته عندما جاء إلينا بهذا النبأ الجسيم والملم العظيم ﴿ الملائكة ﴾ أي : هذا النوع وأشار إلى كثرتهم بما بين من الحال بقوله :

﴿ مقترنين ﴾ أي : يقارن بعضهم بعضاً بحيث يملؤون الفضاء ويكونون في غاية القرب منه بحيث يكون مقارناً لهم ليجاب إلى هذا الأمر الذي جاء يطلبه كما نفعل نحن إذا أرسلنا رسولاً إلى أمر يحتاج إلى دفاع وخصام ونزاع ، فكان حاصل أمره كما ترى أنه تعزز بإجراء المياه فأهلكه الله تعالى بها ، إيماء إلى أن من تعزز بشيء دون الله تعالى أهلكه الله به واستصغر موسى عليه السلام وعابه بالفقر والعي فسلطه الله تعالى عليه إشارة إلى أنه ما استصغر أحد شيئاً إلا غلبه ، أفاده القشيري .

(255/692)

﴿ فاستخف ﴾ أي : بسبب هذه الخدع التي سحرهم بها في هذا الكلام الذي هو في الحقيقة محقر له موهن لأمره قاصم لملكه عند من له لب ﴿ قومه ﴾ الذين لهم قوة عظيمة فحملهم بغروره على ما كانوا مهينين له من خفة الحلم ﴿ فأطاعوه ﴾ أي : بأن أقروا بملكه واعترفوا بربوبيته وردوا أمر موسى عليه السلام ﴿ أنهم كانوا ﴾ أي : بما في جبلاتهم من

الشر ﴿ قوماً فاسقين ﴾ أي : غريقين في الخروج عن طاعة الله تعالى إلى معصيته فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق .

﴿ فلما آسفونا ﴾ أي : أغضبونا في الإفراط في العناد والعصيان منقول من أسف إذا اشتد غضبه ، حكي أن ابن جريج غضب في شيء فقيل له : أتغضب يا أبا خالد فقال : قد غضب الذي خلق الأحلام إن الله تعالى يقول : ﴿ فلما آسفونا ﴾ أي : أغضبونا ﴿ انتقمنا منهم ﴾ أي : أوقعنا بهم على وجه المكافأة بما فعلوا برسولنا عليه السلام عقوبة عظيمة منكرة مكروهة كأنها بعلاج ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ أي : إهلاك نفس واحدة لم يلفت منهم أحد على كثرتهم وقوتهم وشدتهم .

تنبيه : ذكر لفظ الأسف في حق الله تعالى وذكر لفظ الانتقام كل واحد منهما من المتشابهات التي يجب تأويلها فمعنى الغضب في حق الله تعالى : إرادة العذاب ومعنى الانتقام : إرادة العقاب بجرم سابق وقال بعض المفسرين : معنى آسفونا : احزنوا أولياءنا .

﴿ فجعلناهم ﴾ أي : بأخذنا لهم على هذه الصورة من الإغراق وغيره مما تقدمه ﴿ سلفاً ﴾ أي : متقدماً لكل من يهلك بعدهم إهلاك غضب في الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة أو قدوة لمن يريد العلو في الأرض فتكون عاقبته في الهلاك في الدارين أو إحداهما عاقبتهم كما قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ (القصص :)

﴿ ومثلاً ﴾ أي : حديثاً عجيب الشأن سائراً سير المثل ﴿ للآخرين ﴾ أي : الذين خلفوا بعدهم من زمنهم إلى آخر الدهر فيكون حالهم عظة لناس وإضلالاً لآخرين فمن أريد به الخير وفق لمثل خير يرده عن غيه ، ومن أريد به الشر اقتدى به في الشر ، وقرأ حمزة والكسائي : بضم السين واللام والباقون بفتحهما ، فأما الأولى : فتحتمل ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أنه جمع سليف كرغيف ورغف وسمع القاسم بن معن من العرب : سليف من الناس كالفريق منهم ، والثاني : أنه جمع سالف كصابر وصبير ، والثالث : أنها جمع سلف كاسد وأسد ، وأما الثانية : فتحتمل وجهين ؛ أحدهما : أن يكون جمعاً لسالف كحارس وحرس وخادم وخدم وهذا في الحقيقة اسم جمع لا جمع تكسير إذ ليس في أبنية التكسير صيغة فعل ، والثاني : أنه مصدر يطلق على الجماعة تقول سلف الرجل يسلف سلفاً أي : تقدم والسلف كل شيء قدمته من عمل صالح أو قرض وسلف الرجل آباؤه المتقدمون والجمع أسلاف وسلاف ، وقال طفيل : سلفوا سلفاً فصد السبيل عليهم صروف المنايا والرجال تغلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 411.435 ﴾

(257/692)

وقال القاسمي :

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [1 - 3]

أي معانيه و مواعظه .

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ ﴾ أي : رفيع القدر ، بحيث لا رفعة وراءها : ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي : ذو الحكمة الجامعة .

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ أي : أنهملكم ونصرف عنكم الذكر لإسرافكم . وإنما كانت الحاجة إلى الذكر للإسراف ، إذ لو كانوا على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما احتيج إلى التذكير ، بل التذكير يجب عند الإفراط والتفريط . ولهذا بعث الأنبياء في زمان الفترة . قاله القاشاني .

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي : قوة : ﴿ وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : سلف في القرآن في غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحالهم في تكذيبهم وتعذيبهم وما مثلناه لهم ؛ أي : فليتوقع هؤلاء المستهزئون من العقوبة مثل ما حل بسلفهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

الْأَرْضَ مَهْداً ﴾ أي : مهاداً تستقرون عليها : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي : طرقاً تتطرقونها من بلدة إلى بلدة ، لمعايشكم ومتاجركم : ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي : بتلك السبل إلى حيث أردتم من القرى والأمصار .

(258/692)

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ ﴾ أي : بمقدار الحاجة إليه . فلم يجعله طوفاناً يهلك ، ولا رذاذاً لا ينبت ، بل غيثاً مغيثاً : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ أي : أحيينا به بلدة ميتاً من النبات ، قد درست من الجدب ، وعفت من القحط : ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي : من بعد فنائكم ، ومصيركم بالأرض .

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي : خلق كل شيء فزوّجه ، فجعل منه الذكر والأنثى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي : من السفن والبهائم ما تركبونه : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي : مطيقين : ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي : لصائرون إليه ، وراجعون بعد مماتنا .

تنبيه :

في " الإكليل " : في الآية استحباب هذا الذكر عند ركوب الدابة والسفينة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقوله كلما استوى على راحلته ، أو دابته .

(259/692)

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾ أي : جعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيباً ، وذلك قولهم للملائكة : هم بنات الله . قال القاشاني : أي : اعترفوا بأنه خالق السماوات والأرض ومبدعهما وفاطرهما . وقد جسموه وجزأوه بإثبات الولد له ، الذي هو بعض من الوالد ، مماثل له في النوع ، لكونهم ظاهريين جسمانيين ، لا يتجاوزون عن رتبة الحس والخيال ، ولا يتجردون عن ملابس الجسمانيات ، فيدركون الحقائق المجردة ، والذوات المقدسة ، فضلاً عن ذات الله تعالى . فكل ما تصوروا وتخيلوا ، كان شيئاً جسمانياً . ولهذا كذبوا الأنبياء في إثبات الآخرة ، والبعث ، والنشور ، وكل ما يتعلق بالمعاد ؛ إذ لا يتعدى إدراكهم الحياة الدنيا ، وعقولهم المحجوبة عن نور الهداية ، أمور المعاش . فلا مناسبة أصلاً بين ذواتهم وذوات الأنبياء ، إلا في ظاهر البشرية . فلا حاجة إلى ما وراءها . انتهى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : لجحودٌ نعم ربه ، التي أنعمها عليه ، يبين كفرانه لمن تدبر حاله .

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ أي : بل اتخذ . والهمزة للإنكار تجهيلاً لهم ، وتعجيباً من شأنهم ، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءاً ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين وهو الإناث دون الذكور . على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث ، وأمقتهم لهن ، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن ، كأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة ، فرضاً وتمثيلاً ، أما تستحيون من الشطط في القسمة ، ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما ، ترك له شرهما وأدناهما ؟ قاله الزمخشري .

(260/692)

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ﴾ أي : من البنات : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ أي : من الكآبة ، والغم ، والحزن : ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي : مملوء قلبه من الكرب .

﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ أي : تربى في الزينة ، يعني النبات : ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ ﴾ أي : في المجادلة : ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي : لمن خاصمه ببرهان ، وحجة ، لعجزه وضعفه .

والمعنى : أو من كان كذلك جعلتموه جزءاً لله من خلقه ، وزعمتم أنه نصيب منهم ؟ .

تنبيه :

قال الكيا الهراسي : في دليل على إباحة الحلي للنساء . وسئل أبو العالية من الذهب

للنساء ، فلم ير به بأساً ، وتلا هذه الآية .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً ﴾ أي : جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده ، يسبحونه ، ويقدسونه ، إناثاً . فقالوا : هم بنات الله . جهلاً منهم بحق الله سبحانه ، وجراءةً منهم على قيل الكذب .

قال القاشاني : لما سمعوا من أسلافهم قول الأوائل من الحكماء في إثبات النفوس الملكية وتأنيثهم إياها ، إما باعتبار اللفظ وإما باعتبار تأثرها وانفعالها عن الأرواح المقدسة العقلية ، مع وصفهم إياها بالقرب من الحضرة الإلهية – توهموا أنوثتها في الحقيقة ، التي هي بإزاء الذكورة في الحيوان مع اختصامها بالله . فجعلوها بنات . وقلما يعتقدها العامي إلا صوراً إنسية لطيفة في غاية الحسن . انتهى .

(261/692)

﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أي : أحضروا خلق الله إياهم فوصفوهم بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم ؟ وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ أي : على الملائكة بما هم مبرءون عنه : ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أي : عنها يوم القيامة ، بأن يأتوا ببرهان على

حقيقتها ، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وفيه من الوعيد ما فيه ؛ لأن كتابتها ، والسؤال عنها ، يقتضي العقاب والمجازاة عليها ، وهو المراد .

(262/692)

هذا بيان لضلال لهم آخر ، في جدلهم وخصامهم وتعنتهم . وقد استدل المعتزلة بظاهر الآية في أنه تعالى لا يشاء الشرور والمعاصي . وأهل السنة تأوّلوا الآية بما يلاقي العقد الصحيح . وهو عموم مشيئته تعالى لكل شيء ، الناطق به غير ما آية . ولما كانت هذه الآية وأخواتها من معارك الأنظار قديماً وحديثاً ، آثرت أن أنقل هنا ما لمحققي المفسرين ، جرياً على قاعدتنا في التقاط نفائس ما للمتقدم ، وتحلية مصنفاتنا بها ، فنقول : قال القاشاني : لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء بمشيئة الله تعالى ، افترضوه وجعلوه ذريعة في الإنكار . وقالوا ذلك لا عن علم وإيقان ، بل على سبيل العناد والإفحام . ولهذا ردهم الله تعالى بقوله (ما لهم بذلك من علم) إذ لو علموا ذلك لكانوا موحدين ، لا ينسبون التأثير إلا إلى الله . فلا يسعهم إلا عبادته دون غيره . إذ لا يرون حينئذٍ لغيره نفعاً ولا ضراً (إن هم إلا يخرصون) لتكذيبهم أنفسهم في هذا القول بالفعل ، حين عظموهم وخافوهم و خافوهم وخوّفوا أنبياءهم من بطشهم ، كما قال قوم هود (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا

بِسُوءٍ) ولما خوفوا إبراهيم عليه السلام كيدهم ، أجاب بقوله (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا) إلى قوله (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ) انتهى .

(263/692)

وفي البيضاوي وحواشيه : إن هذا القول استدلال منهم على امتناع النهي عن عبادة غيره تعالى أو على حسنها . يعنون أن عبادتهم الملائكة بمشيئته تعالى . فيكون مأموراً بها أو حسنة . ويمتنع كونها منهياً عنها أو قبيحة . وهذا الاستدلال باطل . لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن ، لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض / حسناً كان أو قبيحاً . ولذلك جهلهم في استدلالهم هذا . والحاصل أن الإنكار متوجه إلى جعلهم ذلك دليلاً على امتناع النهي عن عبادتهم ، أو على حسنها : لا إلى هذا القول ، فإنه كلمة حق أريد به باطل . انتهى .

وقال الناصر في (الانتصاف) : نحن معاشر أهل السنة نقول : إن كل شيء بمشيئته تعالى ، حتى الضلالة والهدى ، اتباعاً لدليل العقل ، وتصديقاً لنص النقل . في أمثال قوله تعالى (يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ) وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيداً ، ولا تفيده إلا تصويباً وتسديداً . فنقول : إذا قال الكافر (لو شاء الله ما كفرتُ)

فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً ، أما كونها كلمة حق ، فلما مهّدناه . وأما كونها أراد بها باطلاً ، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله ، توهماً أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضلّ ، أن لا يعاقبه على ذلك . لأنه فعل مقتضى مشيئته .

(264/692)

ثمّ قال : فإذا وضح ما قلناه ، فإنما رد الله عليهم مقالتهم هذه . لأنهم توهموا أنها حجة على الله . فدحض الله حجتهم ، وأكذب أمنيتهم ، و بين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب و تخرص محض ، فقال (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) و (إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) و قد أفصحت أخت هذه الآية عن هذا التقدير . و ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل ، و الإشراك بالله ، اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) فشبه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال ، بحال أوائلهم . ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلّب و خيال مكذب ، فقال (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ثم لما أبطل أن يكون لهم في

مقالتهم حجة على الله, أثبت تعالى الحجة له عليهم بقولهم (فلله الحجة البالغة) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلاّ في احتجاجهم على الله بذلك . لا لأن المقالة في نفسها كذب . فقال (فلو شاء لهداكم أجمعين) وهو معنى قولهم (لو شاء الله ما أشركنا) من حيث أن (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة . فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم ، بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا, فهذا هو الدين القويم ، والصراط المستقيم ، و النور اللائح و المنهج الواضح . والذي يدحض به حجة هؤلاء, مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم, هو أنه تعالى جعل للعبد تأتياً و تيسراً للهداية و

غيرها ، من الأفعال الكسبية, حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية فهذه الآية أقامت الحجة ووضحت لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة المحجة ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الكثيفة فلا جرم أن أفهامهم تبددت وأفكارهم تبدلت فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطراب أما أهل

الحق فمنحهم الله من هدايته قسطا وأرشدهم إلى الطريق الوسطى فانتهجوا سبل السلام وساروا ورائد التوفيق لهم إمام مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة لكنها قدرة تقارن بلا تأثير وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير فهذا هو التحقيق والله ولي التوفيق . انتهى .

وقد سبق في آية الأنعام نقول عن الأئمة في الآية مسهبة: فراجعها إن شئت . وقوله تعالى (أم ءاتيناهم كتابا من قبله) أي من قبل هذا القرآن (فهم به مستمسكون) أي يعملون به ويدينون بما فيه ويحتجون به عليك نظير قوله تعالى في الآية الأخرى (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) يعني بالعلم كتابا موحى في ذلك .

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي : لا حجة لهم إلا تقليد آبائهم ، الجهلة مثلهم .

(266/692)

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ أي : كما فعل هؤلاء المشركون من دفاع الحجة بالتقليد ، فعل

من قبلهم من أهل الكفر بالله .

قال القاضي : وفيه تسلية له صلى الله عليه وسلم ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ، وأن مقلديهم أيضاً لم يكن لهم سند منظور فيه . وتخصيص المترفين ، إشعار بأن النعم ، وحب البطالة ، صرفهم عن النظر إلى التقليد .

﴿ قَالَ ﴾ وقرئ قل : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أي : جاحدون منكرون ، وإن كان أهدى ، إقناطاً للنذير من أن ينظروا ، أو يتفكروا فيه .

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي : بعذاب الاستئصال : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : آخر أمرهم ، مما أصبح مثلاً وعبرة .

(267/692)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ قال القاضي : أي : اذكر وقت قوله هذا ، ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل ، أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد ، فإنه أشرف آبائهم : ﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ أي : بريء من عبادتكم أو معبودكم . و : ﴿ بَرَاء ﴾ بفتح الباء الموحدة كما هو قراءة العامة ، مصدر كالطلاق والعتاق ، أريد به معنى

الوصف مبالغة . فلذا أطلق على الواحد وغيره . وقرئ بضم الباء وهو اسم مفرد صفة مبالغة ، كطوال وكرام ، بضم الطاء والكاف . وقوله :

﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ استثناء منقطع أو متصل ، على أن ما يعم أولي الأمر وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام ، أو إلا بمعنى غير صفة لـ : ما ؛ أي : إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني ؛ أي : خلقني : ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ أي : للدين الحق ، واتباع سبيل الرشد . والسين إما للتأكيد ، ويؤيده آية الشعراء : ﴿ يَهْدِينِ ﴾ بدونها . والقصة واحدة ، والمضارع في الموضوعين للاستمرار ، وإما للتسويف والاستقبال ، والمراد هداية زائدة على ما كان له أولاً ، فيتغاير ما في الآيتين من الحكاية أو المحكي ، بناء على تكرر قصته .

﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي : شهادة التوحيد : ﴿ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ أي : موصي بها ، موروثة متداولة محفوظة . كقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة : 132] ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : لكي يرجعوا إلى عبادته ، ويلجأوا إلى توحيده في سائر شؤونهم ، أو لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحّد منهم .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء ﴾ يعني أهل مكة : ﴿ وَآبَاءهُمْ ﴾ أي : من قبلهم بالحياة ، فلم أعاجلهم على كفرهم : ﴿ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ ﴾ أي : دعوة التوحيد ، أو القرآن : ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر الرسالة بالآيات ، والحجج التي يحتج بها عليهم في دعوى رسالته .

﴿ وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أي : جاحدون ، فازدادوا في ضلالهم ، لضمهم إلى شركهم ، معاندة الحق .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ ﴾ أي : من إحداهما ، مكة والطائف ، فالتعريف للعهد : ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أي : بالجاه والمال ؛ فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم عندهم ، قال القاضي : ولم يعلموا أنها رتبة روحانية ، تستدعي عظيم النفس ، بالتحلّي بالفضائل ، والكمالات القدسية ، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية ، وقوله تعالى :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ إنكار ، فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم فيما لا يتولّاه إلا هو تعالى . والمراد بالرحمة النبوة : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي

: فجعلنا بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ أي : بالغنى : ﴿ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم ﴾ يعني الغني : ﴿ بَعْضاً ﴾ يعني الفقير : ﴿ سُخْرِيّاً ﴾ أي : مسخراً في العمل ، وما به قوام المعايش ، والوصول إلى النافع ، لا لكمالٍ في الموسّع عليه ، ولا لنقص في المقتّر عليه بل لحاجة التضامّ والتآلف ، التي بها ينتظم شملهم . وأما النفحات الربانية ، والعلوم اللدنية ، فليست مما يستدعي سعة ويساراً ؛ لأنها اختصاص إلهي ، وفيض رحماني ، يمنّ به على أنفس مستعدّيه ، وأرواح قابليه .

والسّخريّ : بالضم منسوب إلى السخرة بوزن غرفة ، وهي الاستخدام والقهر على العمل ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يعني أن النبوّة خير مما يجمعون من الحطام الفاني ؛ أي : والعظيم من أعاطيها وحازها ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لا من حاز الكثير من الشهوات المحبوبة .

ثم أشار تعالى إلى حقارة الدنيا عنده ، بقوله :

(270/692)

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي : متفقة على الكفر بالله تعالى ؛ أي : لولا كراهة ذلك : ﴿ لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ ﴾ أي : لتكثير النعم عليه ، مع كفره بالمنعم فيزداد

عذاباً : ﴿ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ بدل من : ﴿ لِمَن ﴾ ﴿ سُقُفاً ﴾ بفتح السين وسكون القاف ، وبضمهما [في المطبوع : بعضمهما] ، جمعاً : ﴿ مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾ أي : مصاعد من فضة : ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أي : يرتقون : ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً ﴾ أي : من فضة : ﴿ وَسُرُراً ﴾ أي : من فضة : ﴿ عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ وَزُخْرُفاً ﴾ أي : ولجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً ، أي : زينة من ذهب وجواهر فوق الفضة ، ثم أشار إلى أن لا دلالة في ذلك على فضيلتهم بقوله : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي : وما كل هذه الأشياء التي ذكرت ، من السقف من الفضة ، والمعارج ، والأبواب ، والسرر من الفضة ، الزخرف ، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا : ﴿ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : وزين الدار الآخرة ، وبهاؤها عند ربك للمتقين ، أي : الذين اتقوا الله فخافوا عقابه ، فجدّوا في طاعته وحذروا معاصيه خاصة دون غيرهم . قال المهايمي : يعني لا خصوصية في ذلك المتاع ، بحيث يدل عدمه على عدم منصب النبوة ، وإنما الذي يدل عدمه على عدم النبوة ، التقوى . فالنبوة إنما تكون لمن كمل تقواه ، سواء كانت عنده أم لا ، وإنما كانت الزينة الدنيوية أحق بالكفار ؛ لأنها تثير ظلمة الأهوية المانعة من رؤية الحق ، بحيث يصير صاحبها أعشى . انتهى .

تنبيه :

ما قدمناه من أن معنى : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على تقدير : لولا كراهة ذلك . وإن معنى كونهم أمة واحدة اجتماعهم على أمر واحد وهو الكفر ، أي : أن كراهة الاجتماع على الكفر هي المانعة من تمتيع الكافر بها على الوجه المذكور – هو ما ذكره المفسرون . فورد عليه أنه حين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ فأجيب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضاً ، لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا . والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى ، هذا ما قاله الزمخشري .

وعندي أن لا حاجة لتقدير الكراهة ، وأن معنى الآية غير ما ذكروه ، وذلك أن المعنى : لولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة ، للترافد ، والتعاون ، والتضام ، وما به قوام حياتهم كالجسم الواحد ، لجعلنا للناس ما ذكر من الزين والحلي لدخوله تحت القدرة الكاملة ، إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود ، وإنما عبّر عن الناس بمن يكفر بالرحمن ، رعاية للأكثر وهم الكفار ؛ فإنهم الذين طبقوا ظهر الأرض ، وملأوا وجهها ، وحطّاً لقدر الدنيا وتصغيراً لشأنها ، بأن تؤتى لمن هو الأدنى منزلة ، والأخس قدراً .

وخلاصة المعنى : أن خلقهم أمة واحدة مدنيين بالطبع ، مانع من بسط الدنيا عليهم جميعهم . وهذا هو معنى لولا المطرد ، أن ما بعدها أبداً مانع من جوابها ؛ ولذلك يقولون : حرف امتناع لوجود .

(272/692)

فليس المعنى على ما ذكروه أبدا كما يظهر واضحاً لمن أمعن النظر . وبالجملة ، فالآية هذه تتمة لما قبلها ، في جواب أولئك الظانين ، أن العظمة الدنيوية تستتبع النبوة . فبين تعالى حكمته في تفاوت الخلق في الآية الأولى ، وهي التسخير . وفي الثانية حقارة الدنيا عنده ، وأنه لولا التسخير لآتاها أحط الخلق وأبعدهم منه ، مبالغة في الإعلام بضعتها ، وهذا مصداق ما ورد من أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأن ما عنده خير وأبقى .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ أي : يعرض عنه ، فلم يخف سطوته ، ولم يخش عقابه : ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ أي : نجعل له شيطاناً يغويه ، ويضله عن السبيل القويم دائماً ، لمقارنته له . قال القاشاني : قرىء : يعشُ ، بضم الشين ، وفتحها ، والفرق أن عشا يستعمل إذا نظر نظر العَشى لعارض أو متعمداً ، من غير آفة في بصره . وعَشِي إذا إيف بصره . فعلى الأول معناه : ومن كان له استعداد صافٍ وفطرةٍ سليمة لإدراك ذكر الرحمن

، أي : القرآن النازل من عنده وفهم معناه . وعلم كونه حقاً ، فتعامى عنه لغرض دنيوي وبغي وحسد ، أولم يفهمه ولم يعلم حقيقته ، لاحتجابه بالغواشي الطبيعية ، واشتغاله باللذات ، الحسية عنه ، أو لاغترازه بدينه وما هو عليه من اعتقاده ، ومذهبه الباطل .

(273/692)

﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ جنياً فيغويه بالتسويل والتزيين لما انهمك فيه من اللذات ، وحرص عليه من الزخارف ، أو بالشبه والأباطيل المغوية لما اعتكف عليه بهواه من دينه ، أو إنسياً يغويه ، ويشاركه في أمره ، ويجانسه في طريقه ، ويبعده عن الحق . وعلى الثاني معناه . ومن إيف استعداده في الأصل ، وشقي في الأزل بمعنى القلب عن إدراك حقائق الذكر ، وقصّر عن فهم معناه : ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ﴾ من نفسه أو جنسه ، يقارنه في ضلالته وغوايته . انتهى .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ قال ابن جرير : أي : وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله ، عن سبيل الحق ، فيزينون لهم الضلالة ، ويكرهون لهم الإيمان بالله ، والعمل بطاعته ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي : يظن هؤلاء المشركون بالله ، بتزيين الشياطين لهم ما هم عليه ، أنهم على الصواب والهدى .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءنَا ﴾ أي : العاشي : ﴿ قَالَ ﴾ أي : لشيطانه : ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أي بعد المشرق من المغرب . فغلب المشرق على المغرب ، ثم ثنى . وقيل المراد مشرقا [في المطبوع : مشرقاً] الصيف والشتاء . والتقدير من المغربين ، فاختصر ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ قال القاشاني : أي : حتى إذا حضر عقابنا اللازم لاعتقاده وأعماله ، والعذاب المستحق لمذهبه ودينه ، تمنى غاية البعد بينه ، وبين شيطانه الذي أضله عن الحق ، وزين له ما وقع بسببه في العذاب ، واستوحش من قرينه واستذامه ، لعدم الوصلة الطبيعية ، أو انقطاع الأسباب بينهما بفساد الآلات البدنية .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ قال القاشاني : أي : لن ينفعكم التمني وقت حلول العذاب واستحقاق العقاب ، إذا ثبت وصح ظلمكم في الدنيا ، وتبين عاقبته ، وكشف عن حاله ؛ لأنكم مشتركون في العذاب لاشتراككم في سببه ، أو ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب من شدته وإيلامه ؛ أي : كما ينفع الواقعين في أمر صعب ، معاونتهم في تحمل أعبائه .

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم . وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده تعالى . وقد تكرر في التنزيل التعبير عنهم بالصم العمي الضلال ؛ لأنه لا أجمع من ذلك لشرح حالهم ، ولا أبلغ منه ؛ إذ سلبوا استماع حجج الله وهداه ، كالأصم ، وإبصار آيات الله والاعتبار بها ، كالأعمى . وقصدَ السبيل الأمم ، كالضال الحائر .

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ أي : نقبضك قبل أن نظهرك عليهم : ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ أي : بالعذاب الأخروي .

﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77] ، وفي تعبيره بالوعد ، وهو لا يخلف الميعاد ، إشارة إلى أنه هو الواقع . وهكذا كان ؛ إذ لم يفلت أحد من صناديدهم ، إلا من تحصّن بالإيمان .

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني دين الله الذي أمر به وهو الإسلام ؛ فإنه كامل الاستقامة من كل وجه . قال الشهاب : هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم وأمر لأمته أو له ، بالدوام على التمسك . والفاء في جواب شرط مقدّر . أي : إذا كان أحد هذين واقعاً لا محالة ، فاستمسك به .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي : وإن الذي أوحي إليك لشرف لك ولقزمك من قريش ؛ لما خصهم به من نزوله بلسانهم . أو المراد بقومه ، أتباعه ؛ أي : تنويه بقدرك وبقدر أمتك ، لما أعطاه لهم بسببه من العلوم ، والمزايا ، والخصائص ، والشرائع الملائمة لسائر الأحوال ، والأزمان ، وجوز أن يراد بالذكر الموعظة : ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ أي : عما عملتم فيه ، من ائتماركم بأوامره ، وانتهائكم عن نواهيه .

﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أي : هل حكمنا بعبادة الأوثان ؟ وهل جاءت في ملة من مللهم ؟ قال القاضي : والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد ، والدلالة على أنه ليس ببدع ابتدعه ، فيكذب ويعادى له . انتهى .

والذين أمر بمسألتهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، هم مؤمنو أهل الكتابين : التوراة ، والإنجيل . فالكلام بتقدير مضاف ؛ أي : أممهم المؤمنين ، أو يجعل سؤالهم بمنزلة سؤال أنبيائهم ؛ لأنهم إنما يخبرونه عن كتب الرسل ، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ أي : المصدقة له : ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ لينهاه عن الاستعباد : ﴿ وَمَلَئِهِ ﴾ أي : لينهاهم عن التعبّد له : ﴿ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : فأبان أنه لا يستحق العبادة غيره تعالى ، وأن ليس لأحد سواه استعباد ، لأنها حق الربوبية المطلقة .

﴿ فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ فلما أتاهم بالحجج على التوحيد والبراءة من الشرك ؛ إذا فرعون وقومه يضحكون ؛ أي : كما أن قومك ، مما جئتهم به من الآيات والعبر ، يسخرون . وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم ، عما كان يلقى من مشركي قومه ، وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك ، لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيب رسله ، وندب منه نبيّه صلى الله عليه وسلم إلى الاستنان بهم بالصبر عليهم ، بسنن أولي العزم من الرسل . وإخبار منه له أن عقبى مردتهم إلى البوار والهلاك . كسنته في المتمردين عليهم قبله ، وإظفاره بهم ، وإعلائه أمره . كالذي فعل بموسى عليه السلام ، وقومه الذين آمنوا به . من إظهارهم على فرعون وملئه . أفاده ابن جرير .

ثم أشار إلى أن موجب الهزء لم يكن إلا لعناد ، لا لقصورها ، بقوله :

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أي : السابقة عليها : ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ أي : الدنيوي كالسنين ، مما يلجئ إلى الرجوع ، ولا أقل من رجائه : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي : من أنه لا يعذّب من آمن بك ليكشف عنا العذاب : ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أي : بما تزعم أنه الهداية : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ أي : العهد الذي عاهدوا عليه ، ويتمادون في غيهم .

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ يعني أنهار النيل : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي : ما أنا فيه من النعيم والخير ، وما فيه موسى من الفقر : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ أي : ضعيف لا شيء له من الملك ، والأموال : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي : الكلام ، لمخالفة اللغة العبرانية اللغة القبطية : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أي : يعينونه ويصدقونه .

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ﴾ أي : فاستفزهم بهذه المغالطات ، وحملهم على أن يخفّوا له ويصدقوه : ﴿ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ أي : أغضبونا بطاعة عدونا وقبول مغالطاته بلا دليل ، وتكذيب موسى وآياته ، وندائه بالساحر ، ونكث العهود : ﴿ انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وذلك لاستغراقهم في بحر الضلال ، الأجيال الطوال ، وعدم نفع العظة معهم بحال من الأحوال .

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ﴾ أي : حجة للهالكين بعدهم : ﴿ وَمَثَلاً ﴾ أي : عبرة : ﴿ لِلْآخِرِينَ ﴾ أي : الناجين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 268 . 284 ﴾

(280/692)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) ﴾

تعرض هذه السورة جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ؛ ومن جدال واعتراضات . وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس ؛ وكيف يقرر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمه في مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ،

التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائماً في النفوس في كل زمان ومكان .

(281/692)

كانت الوثنية الجاهلية تقول : إن في هذه الأنعام التي سخرها الله للعباد ، نصيباً لله ، ونصيباً لآلهتهم المدعاة : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ وكانت لهم في الأنعام أساطير شتى وخرافات أخرى كلها ناشئ من انحرافات العقيدة . فكانت هناك أنواع من الأنعام محرمة ظهورها على الركوب وأنواع محرمة لحومها على الأكل : ﴿ وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ﴾ وفي هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ؛ ورد النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى . فالأنعام من خلق الله ، وهي طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السماوات والأرض جميعاً . وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها ؛ لا ليجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم في الأنعام ما لم يأمر به الله ؛ بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع ؛ ثم

هم ينحرفون عن مقتضى هذه الحقيقة التي يقرون بها ، ويعزلونها عن حياتهم الواقعة ، ويتبعون خرافات وأساطير : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم ، الذي جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون ، والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون ، والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ . .

(282/692)

وكانت الوثنية الجاهلية تقول : إن الملائكة بنات الله ؛ ومع أنهم هم يكرهون مولد البنات لهم ، فإنهم كانوا يختارون لله البنات ! ويعبدونهم من دونه ، ويقولون : إننا نعبدهم بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهم ! وكانت مجرد أسطورة ناشئة من انحراف العقيدة .

وفي هذه السورة يواجههم بمنطقهم هم ؛ ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح ، حول هذه الأسطورة التي لا تستند إلى شيء على الإطلاق : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين . . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما

ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم .

أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ! ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ! ﴾ . . ولما قيل لهم : إنكم تعبدون أصناماً وأشجاراً وإنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، وقيل لهم : إن كل معبود من دون الله هو وعابدوه في النار . حرفوا الكلام الواضح البين ، واتخذوا منه مادة للجدل . وقالوا : فما بال عيسى وقد عبده قومه ؟ أهو في النار ؟ ! ثم قالوا : إن الأصنام تماثيل الملائكة والملائكة بنات الله . فنحن في عبادتنا لهم خير من عبادة النصارى لعيسى وهو بشر له طبيعة الناس !

وفي هذه السورة يكشف عن التوائهم في هذا الجدل ؛ ويبرئ عيسى عليه السلام مما ارتكبه أتباعه من بعده وهو منه برىء : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا : آآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جدلاً . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل . . ﴾ وقد كانوا يزعمون أنهم على ملة أبيهم إبراهيم ، وأنهم بذلك أهدى من أهل الكتاب وأفضل عقيدة . وهم في هذه الجاهلية الوثنية يخبطون .

فبين لهم في هذه السورة حقيقة ملة إبراهيم ، وأنها ملة التوحيد الخالص ، وأن كلمة التوحيد باقية في عقبه ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاءهم بها ، ولكنهم استقبلوها واستقبلوه بغير ما كان ينبغي من ذرية إبراهيم : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون . بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به كافرون . . . ﴾ . .

ولم يدركوا حكمة اختيار الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ووقفت في وجوههم القيم الأرضية الزائفة الزهيدة التي اعتادوا أن يقيسوا بها الرجال .

وفي هذه السورة يحكي تصوراتهم وأقوالهم في هذا الصدد ؛ ويرد عليها ببيان القيم الحقيقية ، وزهادة القيم التي يعتبرونها هم ويرفعونها : ﴿ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم : أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة

ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ ثم جاء بحلقة من قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، يبدو فيها اعتزاز فرعون بمثل تلك القيم الزائفة ، وهوانها على الله ، وهوان فرعون الذي اعتز بها ، ونهايته التي تنتظر المعتزين بمثل ما اعتز به :

(284/692)

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال : إني رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا : يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ، إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون . ونادى فرعون في قومه قال : يا قوم أليس لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ؛ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ! فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين ﴾ حول تلك الأساطير الوثنية والانحرافات الاعتقادية ، وحول تلك القيم الصحيحة والزائفة ، تدور السورة ، وتعالجها

على النحو الذي تقدم . في أشواط ثلاثة تقدم أولها قبل هذا وأشرنا إلى بعض مادة الأشواط الأخرى في بعض المقتطفات من آيات السورة . فلنأخذ في التفصيل :

﴿ حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم . أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ؟ وكم أرسلنا من نبي في الأولين . وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشاً ، ومضى مثل الأولين ﴾ . .

تبدأ السورة بالحرفين : " حا . ميم " ثم يعطف عليهما قوله : ﴿ والكتاب المبين ﴾ . . ويقسم الله سبحانه بحاميم كما يقسم بالكتاب المبين . وحاميم من جنس الكتاب المبين ، أو الكتاب المبين من جنس حا ميم . فهذا الكتاب المبين في صورته اللفظية من جنس هذين الحرفين . وهذان الحرفان كبقية الأحرف في لسان البشر آية من آيات الخالق ، الذي صنع البشر هذا الصنع ، وجعل لهم هذه الأصوات . فهناك أكثر من معنى وأكثر من دلالة في ذكر هذه الأحرف عند الحديث عن القرآن .

يقسم الله سبحانه بحا ميم والكتاب المبين ، على الغاية من جعل هذا القرآن في صورته هذه التي جاء بها للعرب :

﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ . .

فالغاية هي أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم وبلسانهم الذي يعرفون . والقرآن وحي الله سبحانه وتعالى جعله في صورته هذه اللفظية عربياً ، حين اختار العرب لحمل هذه الرسالة ، للحكمة التي أشرنا إلى طرف منها في سورة الشورى ؛ ولما يعلمه من صلاحية هذه الأمة وهذا اللسان لحمل هذه الرسالة ونقلها . والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثم يبين منزلة هذا القرآن عنده وقيمته في تقديره الأزلي الباقي :

﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ .

.

ولا ندخل في البحث عن المدلول الحرفي لأم الكتاب ما هي : أهي اللوح المحفوظ ، أم هي علم الله الأزلي . فهذا كهذا ليس له مدلول حرفي محدد في إدراكنا . ولكننا ندرك منه مفهوماً يساعد على تصورنا لحقيقة كلية . وحين نقرأ هذه الآية : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ . . فإننا نستشعر القيمة الأصيلة الثابتة لهذا القرآن في علم الله وتقديره . وهذا حسبنا . فهذا القرآن " عليّ " . . " حكيم " . . وهما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة . وإنه لكذلك ! وكأنما فيه روح . روح ذات سمات وخصائص ،

تتجاوب مع الأرواح التي تلامسها . وهو في علوه وفي حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق طبيعته وخصائصه . وينشئ في مداركها وفي حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التي تنطبق عليها هاتان الصفتان : علي . حكيم .

وتقرير هذه الحقيقة كفيل بأن يشعر القوم الذين جعل القرآن بلسانهم بقيمة الهبة الضخمة التي وهبها الله إياهم ، وقيمة النعمة التي أنعم الله عليهم ؛ ويكشف لهم عن مدى الإسراف القبيح في إعراضهم عنها واستخفافهم بها ؛ ومدى استحقاقهم هم للإهمال والإعراض ؛ ومن ثم يعرّض بهم وبإسرافهم ، ويهددهم بالترك والإهمال جزاء هذا الإسراف :

﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ؟ ﴾ . .

(286/692)

ولقد كان عجيباً وما يزال أن يعنى الله سبحانه في عظمته وفي علوه وفي غناه بهذا الفريق من البشر ، فينزل لهم كتاباً بلسانهم ، يحدثهم بما في نفوسهم ، ويكشف لهم عن دخائل حياتهم ، ويبين لهم طريق الهدى ، ويقص عليهم قصص الأولين ، ويذكرهم بسنة الله في الغابرين . . ثم هم بعد ذلك يهملون ويعرضون !

وإنه لتهديد مخيف أن يلوح لهم بعد ذلك بالإهمال من حسابه ورعايته ، جزاء إسرافهم

القبيح !

وإلى جانب هذا التهديد يذكرهم بسنة الله في المكذبين ، بعد إرسال النبيين :

﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشاً ، ومضى مثل الأولين ﴾ . .

فماذا ينتظرون هم وقد أهلك الله من هم أشد منهم بطشاً ، حينما وقفوا يستهزئون بالرسل كما يستهزئون ؟

والعجيب كان في أمر القوم أنهم كانوا يعترفون بوجود الله ، وخلقه للسماوات والأرض . ثم لا يرتبون على هذا الاعتراف نتائجه الطبيعية من توحيد الله ، وإخلاص التوجه إليه فكانوا يجعلون له شركاء ، يخصونهم ببعض ما خلق من الأنعام ؛ كما كانوا يزعمون أن الملائكة بناته ، ويعبدونهم من دونه في صورة أصنام !

والقرآن يعرض اعترافهم ، ويرتب عليه نتائجه ، ويوجههم إلى منطق الفطرة الذي يجانبونه ، وإلى السلوك الواجب تجاه نعمته عليهم فيما خلق لهم من الفلك والأنعام . ثم يناقشهم بمنطقهم في دعواهم عن الملائكة :

﴿ ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز العليم . الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتاً ، كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها ،

وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ؛ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ . .

(287/692)

لقد كانت للعرب عقيدة نظن أنها بقايا من الحنيفية الأولى ملة إبراهيم عليه السلام ، ولكنها بهتت وانحرفت ودخلت فيها الأساطير وقد بقي منها ما لا تملك الفطرة إنكاره من وجود خالق لهذا الكون ، وأنه هو الله ، فما يمكن في منطق الفطرة وبداهتها أن يكون هذا الكون قد نشأ هكذا من غير خالق ؛ وما يمكن أن يخلق هذا الكون إلا الله . ولكنهم كانوا يقفون بهذه الحقيقة التي تنطق بها بداهة الفطرة عند شكلها الظاهر ، ولا يعترفون بما وراءها من مقتضيات طبيعية لها :

﴿ ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز العليم . . . ﴾ . .

وواضح أن هاتين الصفتين : ﴿ العزيز العليم ﴾ ليستا من قولهم . فهم كانوا يعترفون بأن الذي خلقهن هو " الله " . . ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التي جاء بها الإسلام .

هذه الصفات الإيجابية التي تجعل لذات الله في نفوسهم أثراً فعالاً في حياتهم وحياة هذا الكون. كانوا يعرفون الله خالقا لهذا الكون، وخالقاً لهم كذلك. ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء. لأنهم لم يعرفوه بصفاته التي تنفي فكرة الشرك، وتجعلها تبدو متهافتة سخيفة.

والقرآن هنا يعلمهم أن الله، الذي يعترفون بأنه خالق السماوات والأرض، هو ﴿ العزيز العليم ﴾ .. فهو القوي القادر، وهو العليم العارف. فيبدأ بهم من اعترافهم، ويخطو بهم الخطوات التالية لهذا الاعتراف.

ثم يمضي بهم خطوة أخرى في تعريف الله سبحانه بصفاته؛ وفي بيان فضله عليهم بعد الخلق والإنشاء:

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا، وجعل لكم فيها سبلاً، لعلكم تهتدون ﴾ ..

(288/692)

وحقيقة جعل هذه الأرض مهداً للإنسان يدركها كل عقل في كل جيل بصورة من الصور. والذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ربما أدركوها في رؤية هذه الأرض تحت أقدامهم ممهدة للسير، وأمامهم ممهدة للزرع، وفي عمومها ممهدة للحياة فيها والنماء. ونحن اليوم ندرك هذه

الحقيقة في مساحة أعرض وفي صورة أعمق ، بقدر ما وصل إليه علمنا عن طبيعة هذه الأرض وتاريخها البعيد والقريب لو صحت نظرياتنا في هذا وتقديراتنا والذين يأتون بعدنا سيدركون من تلك الحقيقة ما لم ندرك نحن ؛ وسيظل مدلول هذا النص يتسع ويعمق ، ويتكشف عن آفاق وآماد كلما اتسعت المعرفة وتقدم العلم ، وانكشفت المجاهيل لهذا الإنسان .

ونحن اليوم ندرك من حقيقة جعل الأرض مهداً لهذا الجنس يجد فيها سبله للحياة أن هذا الكوكب مر في أطوار بعد أطوار ، حتى صار مهداً لبني الإنسان .

وفي خلال هذه الأطوار تغير سطحه من صخر يابس صلد إلى تربة صالحة للزرع ؛ وتكوّن على سطحه الماء من اتحاد الأيدروجين والأكسوجين ؛ واتأد في دورانه حول نفسه فصار يومه بحيث يسمح باعتدال حرارته وصلاحيتها للحياة ؛ وصارت سرعته بحيث يسمح باستقرار الأشياء والأحياء على سطحه ، وعدم تناثرها وتطايرها في الفضاء ؟

(289/692)

ونعرف من هذه الحقيقة كذلك أن الله أودع هذا الكوكب من الخصائص خاصية الجاذبية ، فاحتفظ عن طريقها بطبقة من الهواء تسمح بالحياة ؛ ولو أفلت الهواء المحيط بهذا الكوكب

من جاذبيته ما أمكن أن تقوم الحياة على سطحه ، كما لم تقم على سطح الكواكب الأخرى التي تضاءلت جاذبيتها ، فأفلت هواؤها كالقمر مثلاً ! وهذه الجاذبية ذاتها قد جعلها الخالق متعادلة مع عوامل الدفع الناشئ من حركة الأرض ؛ فأمكن أن تحفظ الأشياء والأحياء من التطاير والتناثر ؛ وفي الوقت ذاته تسمح بحركة الإنسان والأحياء على سطح الأرض ؛ ولو زادت الجاذبية عن القدر المناسب للصقت الأشياء والأحياء بالأرض وتعذرت حركتها أو تعسرت من ناحية ، ولزاد ضغط الهواء عليها من ناحية أخرى فألصقها بالأرض إلصاقاً ، أو سحقها كما نسحق نحن الذباب والبعوض أحياناً بضربة تركز الضغط عليها دون أن تمسها أيدينا ! ولو خف هذا الضغط عما هو عليه لانفجر الصدر والشرايين انفجاراً !

ونعرف كذلك من حقيقة جعل الأرض مهداً وتذليل السبل فيها للحياة ، أن الخالق العزيز العليم قدر فيها موافقات شتى تسمح مجتمعة بوجود هذا الإنسان وتيسير الحياة له ؛ ولو اختلت إحدى هذه الموافقات لتعذرت هذه الحياة أو تعسرت . فمنها هذه الموافقات التي ذكرنا ، ومنها أنه جعل كتلة الماء الضخمة التي تكونت على سطح الأرض من المحيطات والبحار كافية لامتصاص الغازات السامة التي تنشأ من التفاعلات الكثيرة التي تتم على سطحها ، والاحتفاظ بجوها دائماً في حالة تسمح للأحياء بالحياة . ومنها أنه جعل من النبات أداة للموازنة بين الأكسيجين الذي يستنشقه الأحياء ليعيشوا به ، والأكسجين الذي

يزفره النبات في أثناء عمليات التمثيل التي يقوم بها ؛ ولولا هذه الموازنة لاختنق الأحياء بعد فترة من الزمان .

(290/692)

وهكذا . وهكذا . من المدلولات الكثيرة لحقيقة : ﴿ جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ تكشف لنا في كل يوم ؛ وتضاف إلى المدلولات التي كان يدركها المخاطبون بهذا القرآن أول مرة . وكلها تشهد بالقدرة كما تشهد بالعلم لخالق السماوات والأرض العزيز العليم . وكلها تشعر القلب البشري باليد القادرة المدبرة ، في حيثما امتد بصره ، وتلفت خاطره ؛ وأنه غير مخلوق سدى ، وغير متروك لقى ؛ وأن هذه اليد تمسك به ، وتنقل خطاه ، وتتولى أمره في كل خطوة من خطواته في الحياة ، وقبل الحياة ، وبعد الحياة ! ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ . . فإن تدبر هذا الكون ، وما فيه من نواميس متناسقة كفيل بهداية القلب إلى خالق هذا الكون ، ومودعه ذلك التنظيم الدقيق العجيب .

.

ثم يخطو بهم خطوة أخرى في طريق نشأة الحياة والأحياء ، بعد تمهيد الأرض للإنسان

وتذليل السبل فيها للحياة :

﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتاً ، كذلك تخرجون ﴾ . .

(291/692)

والماء الذي ينزل من السماء يعرفه كل إنسان ويراه كل إنسان ؛ ولكن أكثر الناس يمرون على هذا الحدث العجيب دون يقظة ودون اهتزاز ، لطول الألفة والتكرار . فأما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتلقى قطراته في حب وفي ترحيب وفي حفاوة وفي استبشار ؛ لأنها قادمة إليه من عند الله . ذلك أن قلبه الحي كان يدرك صنع الله الحي في هذه القطرات ، ويرى يد الصناع ! وهكذا ينبغي أن يتلقاها القلب الموصول بالله ونواميسه في هذا الوجود . فهي وليدة هذه النواميس التي تعمل في هذا الكون وعين الله عليها ويد الله فيها في كل مرة وفي كل قطرة . ولا يبرد من حرارة هذه الحقيقة ، ولا ينقص من وقعها أن هذا الماء أصله البخار المتصاعد من الأرض المتكاثف في أجواز الفضاء . فمن أنشأ هذه الأرض ؟ ومن جعل فيها الماء ؟ ومن سلط عليها الحرارة ؟ ومن جعل من طبيعة الماء أن يتبخر بالحرارة ؟ ومن أودع البخار خاصية الارتفاع ؛ وخاصية التكثف في أجواز الفضاء ؟ ومن أودع الكون خصائصه الأخرى التي تجعل ذلك البخار المتكثف مشحوناً

بالكهرباء التي تتلاقى وتتفرغ فيسقط الماء ؟ وما الكهرباء ؟ وما هذا وما ذاك من الخصائص والأسرار التي تنتهي كلها إلى نزول الماء ؟ إننا نلقي من العلم على حسنا أثقالاً تحجب عنا إيقاع هذا الكون العجيب ، بدلاً من أن نتخذ من العلم معرفة ترهف المشاعر وترقق القلوب !

﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾ . .

فهو مقدر موزون لا يزيد فيغرق ؛ ولا يقل فتجف الأرض وتذبل الحياة ؛ ونحن نرى هذه الموافقة العجيبة ، ونعرف اليوم ضرورتها لإنشاء الحياة وإبقائها كما أرادها الله .

﴿ فأنشرنا به بلدة ميتاً ﴾ . .

والإنشاء الإحياء . والحياة تتبع الماء . ومن الماء كل شيء حي .

﴿ كذلك تخرجون ﴾ . .

فالذي أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ؛ والذي أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة ، كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة . فالإعادة من البدء ؛ وليس فيها عزيز على الله .

(292/692)

ثم هذه الأنعام التي يجعلون منها جزءاً لله وجزءاً لغير الله ، وما لهذا خلقها الله ؛ إنما خلقها لتكون من نعم الله على الناس ، يركبونها كما يركبون الفلك ، ويشكرون الله على تسخيرهما ، ويقابلون نعمته بما تستحقها :

﴿ والذي خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا منقلبون ﴾ .

.

والزوجية هي قاعدة الحياة كما تشير إليها هذه الآية . فكل الأحياء أزواج ، وحتى الخلية الواحدة الأولى تحمل خصائص التذكير والتأنيث معها . بل ربما كانت الزوجية هي قاعدة الكون كله لا قاعدة الحياة وحدها إذا اعتبرنا أن قاعدة الكون هي الذرة المؤلفة من الكترون سالب وبروتون موجب ، كما تشير البحوث الطبيعية حتى الآن .

وعلى أية حال فالزوجية في الحياة ظاهرة ؛ والله هو الذي خلق الأزواج كلها من الإنسان وغير الإنسان : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ . .

يذكر الناس بهذه الإشارة بنعمة الله عليهم في اصطفائهم بخلافة هذه الأرض ، وبما سخر لهم فيها من قوى وطاقات . ثم يوجههم إلى الأدب الواجب في شكر هذه النعمة وشكر هذا الاصطفاء ؛ وتذكر المنعم كلما عرضت النعمة ؛ لتبقى القلوب موصولة بالله عند كل

حركة في الحياة :

﴿ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ . . فما نحن بقادرين على مقابلة نعمته بنعمة مثلها ، وما نملك إلا الشكر نقابل به هذا الإنعام .

ثم ليتذكروا أنهم عائدون بعد الخلافة في الأرض إلى ربهم ليجزيهم عما فعلوا في هذه الخلافة التي زودهم فيها بأنعمه . وسخر لهم فيها ما سخر من القوى والطاقات :

﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ . .

(293/692)

هذا هو الأدب الواجب في حق المنعم ، يوجهنا الله إليه ، لنذكره كما استمتعنا بنعمة من نعمه التي تغمرنا ، والتي تتقلب بين أعطافها . ثم ننساه . . !

والأدب الإسلامي في هذا وثيق الصلة بتربية القلب وإحياء الضمير . فليس هو مجرد طقوس تزاول عند الاستواء على ظهور الفلك والأنعام ، ولا مجرد عبارات يتلوها اللسان ! إنما هو استحياء للمشاعر لتحس بحقيقة الله ، وحقيقة الصلة بينه وبين عباده ؛ وتشعر بيده في كل ما يحيط بالناس ، وكل ما يستمتعون به مما سخره الله لهم ، وهو محض الفضل

والإنعام ، بلا مقابل منهم ، فما هم بقادرين على شيء يقابلون به فضل الله . ثم لتبقى قلوبهم على وجل من لقائه في النهاية لتقديم الحساب . . وكل هذه المشاعر كفيلة باستبقاء القلب البشري في حالة يقظة شاعرة حساسة لا تغفل عن مراقبة الله . ولا تجمد ولا تتبلد بالركود والغفلة والنسيان .

بعد ذلك يعالج أسطورة الملائكة واتخاذهم آلهة بزعم أنهم بنات الله ، وهم عباد الله :

﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً . إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون .

وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال : أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ . .

إن هذا القرآن يحاصر هذه الأسطورة ويواجهها في نفوسهم من كل جانب ، ولا يبقي ثغرة مفتوحة حتى يأخذها عليهم ، ويواجههم في هذا كله بمنطقهم ومسلماتهم وواقع حياتهم ، كما يواجههم بمصير الذين وقفوا مثل وقفتهم ، وقالوا مثل قولتهم من الغابرين .

ويبدأ بتصوير سخف هذه الأسطورة وتهافتها ، ومقدار ما في القول بها من كفر صريح :

﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ، إن الإنسان لكفور مبين ﴾ . .

فالملائكة عباد الله ، ونسبة بنوتهم له معناها عزلهم من صفة العبودية ، وتخصيصهم بقرابة خاصة بالله ؛ وهم عباد كسائر العباد ، لا مقتضى لتخصيصهم بصفة غير صفة العبودية في علاقتهم بربهم وخالقهم . وكل خلق الله عباد له خالصو العبودية . وادعاء الإنسان هذا الادعاء يدمغه بالكفر الذي لا شبهة فيه : ﴿ إن الإنسان لكفور مبين ﴾ .

ثم يحاجهم بمنطقهم وعرفهم ، ويسخر من سخف دعواهم أن الملائكة إناث ثم نسبتهم إلى الله :

﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ ﴾ . .

فإذا كان الله سبحانه متخذاً أبناء ، فماله يتخذ البنات ويصفيهم هم بالبنين ؛ وهل يليق أن يزعموا هذا الزعم بينما هم يستنكفون من ولادة البنات لهم ويستاءون :

﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ . .

أفما كان من اللياقة والأدب ألا ينسبوا إلى الله من يستاءون هم إذا بشروا به ، حتى ليسود وجه أحدهم من السوء الذي يبلغ حداً يجل عن الصريح به ، فيكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من السوء ؟ ! أفما كان من اللياقة والأدب ألا يخصوا الله بمن ينشأ في الحلية والدعة والنعومة ، فلا يقدر على جدال ولا قتال ؛ بينما هم في بيئتهم يحتفلون بالفرسان والمقاويل من الرجال ؟ !

إنه يأخذهم في هذا بمنطقهم ، ويخجلهم من انتقاء ما يكرهون ونسبته إلى الله . فهلا اختاروا ما يستحسنونه وما يسرون له فنسبوه إلى ربهم ، إن كانوا لا بد فاعلين ؟ !

(295/692)

ثم يحاصرهم هم وأسطورتهم من ناحية أخرى . فهم يدعون أن الملائكة إناث . فعلام يقيمون هذا الادعاء ؟

﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا . أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ . .

أشهدوا خلقهم ؟ فعلموا أنهم إناث ؟ فالرؤية حجة ودليل يليق بصاحب الدعوى أن يرتكن إليه . وما يملكون أن يزعموا أنهم شهدوا خلقهم . ولكنهم يشهدون بهذا ويدعونه ،

فليحتملوا تبعة هذه الشهادة بغير ما كانوا حاضريه : ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ . .

ثم يتابع الفرية وما يصوغونه حولها من جدل واعتذار :

﴿ وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26)

لقد كانت قريش تقول : إنها من ذرية إبراهيم وهذا حق وإنها على ملة إبراهيم وهذا ما ليس بحق فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ؛ ومن أجلها هجر أباه وقومه بعد ما تعرض للقتل والتحريق ؛ وعليها قامت شريعته ، وبها أوصى ذريته . فلم يكن للشرك فيها ظل ولا خيط رفيع !

(296/692)

وفي هذا الشوط من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعواهم التي يدعون . . ثم يحكي اعتراضهم على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وقولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ . . ويناقش قولتهم هذه ، وما تنطوي عليه من خطأ في تقدير القيم الأصيلة التي أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفة التي تخايل لهم

وتصدهم عن الحق والهدى . . وعقب تقرير الحقيقة في هذه القضية يطلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله بعد أن يطلعهم على علة هذا العمى وهو من وسوسة الشيطان . .

ويلتفت في نهاية هذا الدرس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يسليه ويؤسيه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادي العمي أو مسمع الصم ؛ وسيلقون جزاءهم سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم . ويوجهه إلى الاستمساك بما أوحى إليه فإنه الحق ، الذي جاء به الرسل أجمعون . فكلهم جاءوا بكلمة التوحيد : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾ . .

ثم يعرض من قصة موسى عليه السلام حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم . وكأنما هي نسخة مكررة تحوي ذات الاعتراضات التي يعترضونها ، وتحكي اعتزاز فرعون وملئه بذات القيم التي يعتز بها المشركون . .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ . .

إن دعوة التوحيد التي يتنكرون لها هي دعوة أبيهم إبراهيم . الدعوة التي واجه بها أباه وقومه مخالفاً بها عقيدتهم الباطلة ، غير منساق وراء عبادتهم الموروثة ، ولا مستمسك بها لمجرد أنه وجد أباه وقومه عليها ؛ بل لم يجاملهم في إعلان تبرئه المطلق منه في لفظ واضح

صريح ، يحكيه القرآن الكريم بقوله :

﴿ إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ . .

(297/692)

ويبدو من حديث إبراهيم عليه السلام وتبرئه مما يعبدون إلا الذي فطره أنهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلاً ؛ إنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه ، فتبرأ من كل ما يعبدون ، واستثنى الله ؛ ووصفه بصفته التي تستحق العبادة ابتداء ، وهو أنه فطره وأنشأه ، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنه الموجد . وقرر يقينه بهداية ربه له ، بحكم أنه هو الذي فطره ؛ فقد فطره ليهديه ؛ وهو أعلم كيف يهديه .

قال إبراهيم هذه الكلمة التي تقوم بها الحياة . كلمة التوحيد التي يشهد بها الوجود . قالها :

﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ . .

ولقد كان لإبراهيم عليه السلام أكبر قسط في إقرار هذه الكلمة في الأرض ، وإبلاغها إلى الأجيال من بعده ، عن طريق ذريته وعقبه . ولقد قام بها من بنيه رسل ، كان منهم ثلاثة من أولي العزم : موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل عليهم صلوات الله وسلامه واليوم بعد عشرات القرون يقوم في الأرض أكثر من ألف مليون ، من أتباع الديانات الكبرى يدينون

بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم ، الذي جعل هذه الكلمة باقية في عقبه ، يضل منهم عنها من يضل ، ولكنها هي باقية لا تضيع ، ثابتة لا تتزعزع ، واضحة لا يتلبس بها الباطل ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ . . يرجعون إلى الذي فطرهم فيعرفوه ويعبدوه . ويرجعون إلى الحق الواحد فيدركوه ويلزموه .

(298/692)

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم . ولكن هذه الكلمة لم تستقر في الأرض إلا من بعد إبراهيم . عرفتها على لسان نوح وهود وصالح وربما إدريس ، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ، ولها . فلما عرفتها على لسان إبراهيم ظلت متصلة في أعقابه ؛ وقام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون ، حتى كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل ، وأشبه أبنائه به : محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وقائل كلمة التوحيد في صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة ، التي تجعل الحياة كلها تدور حول هذه الكلمة ، وتجعل لها أثراً في كل نشاط للإنسان وكل تصور .

فهذه هي قصة التوحيد منذ أبيهم إبراهيم الذي ينتسبون إليه ؛ وهذه هي كلمة التوحيد التي جعلها إبراهيم باقية في عقبه . هذه هي تأتي إلى هذا الجيل على لسان واحد من

عقب إبراهيم فكيف يستقبلها من ينتسبون إلى إبراهيم ، وملة إبراهيم ؟

لقد بعد بهم العهد ؛ ومتعهم الله جيلاً بعد جيل ، حتى طال عليهم العمر ، ونسوا ملة إبراهيم ، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة منكرة ، واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال وقاسوا الرسالة السماوية بالمقاييس الأرضية ، فاختل في أيديهم كل ميزان :

﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ؛ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ .

.

يُضْرب السياق عن حديث إبراهيم ، ويلتفت إلى القوم الحاضرين :

﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ . .

وكأنه بهذا الإضراب يقول : لندع حديث إبراهيم ، فما لهم به صلة ولا مناسبة ؛ ولننظر في شأن هؤلاء وهو لا يتصل بشأن إبراهيم . . إن هؤلاء وآباءهم من قبلهم ، قد هيأت لهم المتاع ومددت لهم في الأجل ، حتى جاءهم الحق في هذا القرآن ، وجاءهم رسول مبين ، يعرض عليهم هذا الحق في وضوح وتبيين :

﴿ ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به كافرون ﴾ . .

ولا يختلط الحق بالسحر . فهو واضح بين ، وإنما هي دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها . فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ؛ ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم ، فيقولون : إنه سحر ، ويعلنون كفرهم به على سبيل التوكيد ، يقولون : ﴿ وإنا به كافرون ﴾ ليلقوا في روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ؛ فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد . شأن الملأ من كل قوم ، في التغرير بالجماهير ، خيفة أن يفلتوا من نفوذهم ، ويهتدوا إلى كلمة التوحيد التي يسقط معها كل كبير ، ولا يعبد ويتقى إلا الله العلي الكبير !

ثم يحكي القرآن تخليطهم في القيم والموازين ؛ وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ليحمل إليهم الحق والنور :

﴿ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ! . .

يقصدون بالقريتين مكة والطائف . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذؤابة

قريش ، ثم من ذؤابة بني هاشم . وهم في العلية من العرب . كما كان شخصه صلى الله عليه وسلم معروفاً بسمو الخلق في بيئته قبل بعثته . ولكنه لم يكن زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، في بيئته تعتز بمثل هذه القيم القبلية . وهذا ما قصد إليه المعترضون بقولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ !

(300/692)

والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل . ولعله سبحانه لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها ، ولا قوة من خارج حقيقتها ؛ فاختار رجلاً ميزته الكبرى . . الخلق . . وهو من طبيعة هذه الدعوة . . وسمته البارزة . . التجرد . . وهو من حقيقة هذه الدعوة . . ولم يختره زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، ولا صاحب جاه ، ولا صاحب ثراء . كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء . ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها في شيء . ولكي لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة . ولكي لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف .

ولكن القوم الذين غلب عليهم المتاع ، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء ، راحوا

يعترضون ذلك الاعتراض .

﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ !

فرد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله ، التي يختار لها من عباده من يشاء ؛ وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء ؛ مبيناً لهم عن حقيقة القيم التي يعتزون بها ، ووزنها الصحيح في ميزان الله :

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ . .

أهم يقسمون رحمة ربك ؟ يا عجباً ! وما لهم هم ورحمة ربك ؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ، ولا يحققون لأنفسهم رزقاً حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه ؛ وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة .

﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ . .

(301/692)

ورزق المعاش في الحياة الدنيا يتبع مواهب الأفراد ، وظروف الحياة ، وعلاقات المجتمع .

وتختلف نسب التوزيع بين الأفراد والجماعات وفق تلك العوامل كلها . تختلف من بيئة لبيئة ، ومن عصر لعصر ، ومن مجتمع لمجتمع ، وفق نظمه وارتباطاته وظروفه العامة كلها . ولكن السمة الباقية فيه ، والتي لم تتخلف أبداً حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة للإنتاج وللتوزيع أنه متفاوت بين الأفراد .

وتختلف أسباب التفاوت ما تختلف بين أنواع المجتمعات وألوان النظم . ولكن سمة التفاوت في مقادير الرزق لا تتخلف أبداً . ولم يقع يوماً حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة أن تساوى جميع الأفراد في هذا الرزق أبداً : ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعضه درجات ﴾ . .

والحكمة في هذا التفاوت الملحوظ في جميع العصور ، وجميع البيئات ، وجميع المجتمعات هي :

﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ . .

ليسخر بعضهم بعضاً . . ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتما .

وليس التسخير هو الاستعلاء . . استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد . . كلا ! إن هذا معنى قريب ساذج ، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهي الخالد . كلا ! إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور في أوضاع الجماعة البشرية ؛ وأبعد مدى من

ظرف يذهب وظرف يجيء . . إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض . ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخر بعضهم لبعض في كل وضع وفي كل ظرف . المقدر عليه في الرزق مسخر للمبسوط له في الرزق . والعكس كذلك صحيح . فهذا مسخر ليجمع المال ، فيأكل منه ويرتزق ذاك . وكلاهما مسخر للآخر سواء بسواء . والتفاوت في الرزق هو الذي يسخر هذا لذاك ، ويسخر ذاك لهذا في دورة الحياة . . العامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل . والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل . وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء . . وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات ، والتفاوت في الأعمال والأرزاق . .

(302/692)

وأحسب أن كثيرين من دعاة المذاهب الموجهة يتخذون من هذه الآية موضع هجوم على الإسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية .

وأحسب أن بعض المسلمين يقفون يجمجمون أمام هذا النص ، كأنما يدفعون عن الإسلام تهمة تقرير الفوارق في الرزق بين الناس ، وتهمة تقرير أن الناس يتفاوتون في الرزق ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا !

وأحسب أنه قد آن لأهل الإسلام أن يقفوا بإسلامهم مواجهة وصراحة موقف الاستعلاء المطلق ، لا موقف الدفاع أمام اتهام تافه ! إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة المركوزة في فطرة هذا الوجود ؛ الثابتة ثبات السماوات والأرض ونواميسها التي لا تختل ولا تتزعزع .

وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ؛ والتفاوت في مدى اتقان هذا العمل . وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض . ولو كان جميع الناس نسخاً مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة . ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد لها مقابلاً من الكفايات ، ولا تجد من يقوم بها والذي خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو ، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها . وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت الرزق . . هذه هي القاعدة . . أما نسبة التفاوت في الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، ومن نظام إلى نظام . ولكنها لا تنفي القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية لنمو الحياة . ومن ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعة المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس ، ولا بين أجر الجندي وأجر القائد . على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم . وهزموا أمام الناموس الإلهي الذي تقرره هذه الآية من كلام الله . وهي تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة .

ذلك شأن الرزق والمعاش في هذه الحياة الدنيا . ووراء ذلك رحمة الله :

﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ . .

(303/692)

والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أنهم لها أهل . ولا علاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا ؛ ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا . فهذه القيم عند الله زهيدة زهيدة . ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار ، وينالها الصالحون والطالحون . بينما يختص برحمته المختارين .

وإن قيم هذه الأرض لمن الزهادة والرخص بحيث لو شاء الله لأغدقها إغداقاً على الكافرين به . ذلك إلا أن تكون فتنة للناس ، تصدهم عن الإيمان بالله :

﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفاً . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا . والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ . .

فهكذا لولا أن يفتتن الناس . والله أعلم بضعفهم وتأثير عرض الدنيا في قلوبهم لجعل لمن يكفر بالرحمن صاحب الرحمة الكبيرة العميقة بيوتاً سقفها من فضة ، وسلالمها من ذهب .

بيوتاً ذات أبواب كثيرة . قصورا . فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة . . رمزاً لهوان

هذه الفضة والذهب والزخرف والمتاع ؛ بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن !

﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ . .

متاع زائل ، لا يتجاوز حدود هذه الدنيا . ومتاع زهيد يليق بالحياة الدنيا .

﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ . .

وهؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم ؛ فهو يدخر لهم ما هو أكرم وأبقى ؛ ويؤثرهم بما هو أقوم وأغلى . ويميزهم على من يكفر بالرحمن ، ممن يبذل لهم من ذلك المتاع الرخيص ما يبذله للحيوان !

(304/692)

وإن عرض الحياة الدنيا الذي ضرب الله له بعض الأمثال من المال والزينة والمتاع ليفتن الكثيرين . وأشد الفتنة حين يرونه في أيدي الفجار ، ويرون أيادي الأبرار منه خالية ؛ أو يرون هؤلاء في عسر أو مشقة أو ابتلاء ، وأولئك في قوة وثروة وسطوة واستعلاء . والله يعلم وقع هذه الفتنة في نفوس الناس . ولكنه يكشف لهم عن زهادة هذه القيم وهوانها عليه ؛ ويكشف لهم كذلك عن نفاسة ما يدخره للأبرار الأتقياء عنده . والقلب المؤمن يطمئن لاختيار الله للأبرار وللفجار .

وأولئك الذين كانوا يعترضون على اختيار الله لرجل لم يؤت شيئاً من عرض هذه الحياة الدنيا ؛ ويقيسون الرجال بما يملكون من رياسة ، أو بما يملكون من مال . يرون هذه الآيات هوان هذه الأعراض وزهادتها عند الله . وأنها مبذولة لشر خلق الله وأبغضهم عند الله . فهي لا تدل على قربى منه ولا تنبئ عن رضى ، ولا تشي باختيار !

وهكذا يضع القرآن الأمور في نصابها ؛ ويكشف عن سنن الله في توزيع الأرزاق في الدنيا والآخرة ؛ ويقرر حقيقة القيم كما هي عند الله ثابتة . وذلك في صدد الرد على المعترضين على رسالة محمد ؛ واختياره . واطراح العظماء المتسلطين !

(305/692)

وهكذا يرسي القواعد الأساسية والحقائق الكلية التي لا تضطرب ولا تتغير ؛ ولا تؤثر فيها تطورات الحياة ، واختلاف النظم ، وتعدد المذاهب ، وتنوع البيئات . فهناك سنن للحياة ثابتة ، تتحرك الحياة في مجالها ؛ ولكنها لا تخرج عن إطارها . والذين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبر الحقائق الثابتة ، لا يفطنون لهذا القانون الإلهي ، الذي يجمع بين الثبات والتغير ، في صلب الحياة وفي أطوار الحياة ؛ ويحسبون أن التطور والتغير ، يتناول حقائق الأشياء كما يتناول أشكالها . ويزعمون أن التطور المستمر يمتنع معه أن تكون هناك قواعد

ثابتة لأمر من الأمور ؛ وينكرون أن يكون هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر .

فهذا هو القانون الوحيد الذي يؤمنون بثباته ! فأما نحن أصحاب العقيدة الإسلامية فنرى في واقع الحياة مصداق ما يقرره الله من وجود الثبات والتغير متلازمين في كل زاوية من زوايا الكون ، وفي كل جانب من جوانب الحياة . وأقرب ما بين أيدينا من هذا التلازم ثبات التفاوت في الرزق بين الناس ، وتغير نسب التفاوت وأسبابه في النظم والمجتمعات .

. وهذا التلازم مطرد في غير هذا المثال .

ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله ؛ وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله ، ولا يشير إلى فلاح ؛ وأن الآخرة عند ربك للمتقين ، استطرد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض ، وهم عمي عن ذكر الله ، منصرفون عن الطاعات التي تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين :

﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ . .

والعشى كلال البصر عن الرؤية ، وغالباً ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذي لا تملك العين أن تحدق فيه ؛ أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله . وقد يكون ذلك لمرض خاص . والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته في الضمير .

﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ . .

وقد قضت مشيئة الله في خلقة الإنسان ذلك . واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء .

وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة ، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ، كما قضاه الله في علمه .

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون :

﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ . .

وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين . أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ؛ ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ؛ إنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم ! حتى يصطدم بالمصير الأليم .

والتعبير بالفعل المضارع : ﴿ ليصدونهم ﴾ . . ﴿ ويحسبون ﴾ . . يصور العملية قائمة

مستمرة معروضة للأنظار ؛ يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون :

﴿ حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين ﴾ !

(307/692)

وهكذا ننتقل في ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة . ويطوى شريط الحياة السادرة ، ويصل العمي (الذين يعشون عن ذكر الرحمن) إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار . هنا يفيقون كما يفيق المخمور ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ؛ وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذي زين له الضلال ، وأوهمه أنه الهدى ! وقاده في طريق الهلاك ، وهو يلوح له بالسلامة ! ينظر إليه في حنق يقول : ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ ! يا ليته لم يكن بيننا لقاء . على هذا البعد السحيق !

ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله : ﴿ فبئس القرين ﴾ !

ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع :

﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ !

فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون !

عندئذ ينصرف عن هؤلاء ، في مشهدهم البائس الكئيب ؛ ويدعهم يتلاومون ويتشاتمون . ويتجه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسليه عن هذا المصير البائس الذي انتهى إليه فريق من البشر ؛ ويعزيه عن إعراضهم عنه وكفرهم بما جاء به ؛ ويثبته على الحق الذي اوحى إليه ؛ وهو الحق الثابت المطرد من قديم ، في رسالة كل رسول :

﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ؟ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون . فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون . واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾ . .

(308/692)

وهذا المعنى يتكرر في القرآن تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبياناً لطبيعة الهدى والضلال ، ورجعهما إلى مشيئة الله وتقديره وحده ؛ وإخراجهما من نطاق وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ووضع حدود فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة في أعلى درجاتها عند مرتقى النبوة ، ومجال القدرة الإلهية الطليقة ؛ وتثبيت معنى التوحيد في

صورة من أدق صوره ، وفي موضع من ألطف مواضعه :

﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ﴾ . .

وهم ليسوا صماً ولا عمياً ، ولكنهم كالصم والعمي في الضلال ، وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى ، والإشارة إلى دلائله . ووظيفة الرسول أن يُسمع من يَسمع ، وأن يهدي من يبصر . فإذا هم عطلوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم . فما للرسول إلى هداهم من سبيل ؛ ولا عليه من ضلالهم ، فقد قام بواجبه الذي يطيق .

والله يتولى الأمر بعد أداء الرسول لواجبه المحدود :

﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ . .

والأمر لا يخرج عن هذين الحالين . فإذا ذهب الله بنبيه فسيتولى هو الانتقام من مكذبيه . وإذا قدر له الحياة حتى يتحقق ما أنذرهم به ، فالله قادر على تحقيق النذير ، وهم ليسوا له بمعجزين . ومرد الأمر إلى مشيئة الله وقدرته في الحالين ، وهو صاحب الدعوة . وما الرسول إلا رسول .

﴿ فاستمسك بالذي أوحي إليك . إنك على صراط مستقيم ﴾ . .

واثبت على ما أنت فيه ، وسر في طريقك لا تحفل ما كان منهم وما يكون . سر في طريقك مطمئن القلب . ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ . . لا يلتوي بك ولا ينحرف ولا يحيد .

وهذه العقيدة متصلة بحقيقة الكون الكبرى ، متناسقة مع الناموس الكلي الذي يقوم عليه هذا الوجود . فهي مستقيمة معه لا تنفرج عنه ولا تنفصل .

وهي مؤدية بصاحبها إلى خالق هذا الوجود ، على استقامة تؤمن معها الرحلة في ذلك الطريق !

(309/692)

والله سبحانه يثبت رسوله صلى الله عليه وسلم بتوكيد هذه الحقيقة . وفيها تثبيت كذلك للدعاة من بعده ، مهما لاقوا من عنت الشاردين عن الطريق !

﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ . .

ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين :

أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير .

أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك . وهذا ما حدث فعلاً . .

فأما الرسول صلى الله عليه وسلم فإن مئات الملايين من الشفاه تصلي وتسلم عليه ، وتذكره ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ قرابة ألف وأربع مئة عام .

ومئات الملايين من القلوب تخفق بذكره وحبه منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث الله الأرض

ومن عليها .

وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم ، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة . وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية . وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به . فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض ، واستصغرتهم الدنيا ؛ وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك ، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين !

وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه ، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة ، إذا هي تخلت عن الأمانة : ﴿ وسوف تسألون ﴾ . .

وهذا المدلول الأخير أوسع وأشمل . وأنا إليه أميل .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾ . .

والتوحيد هو أساس دين الله الواحد منذ أقدم رسول . فعلام يرتكن هؤلاء الذين يجعلون من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟

والقرآن يقرر هذه الحقيقة هنا في هذه الصورة الفريدة . . صورة الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل الرسل قبله عن هذه القضية : ﴿ أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾ وحول هذا السؤال ظلال الجواب القاطع من كل رسول . وهي صورة طريفة حقاً . وهو أسلوب موح شديد التأثير في القلوب .

وهناك أبعاد الزمان والمكان بين الرسول صلى الله عليه وسلم والرسل قبله . وهناك أبعاد الموت والحياة وهي أكبر من أبعاد الزمان والمكان . . ولكن هذه الأبعاد كلها تتلاشى هنا أمام الحقيقة الثابتة المطردة . حقيقة وحدة الرسالة المرتكزة كلها على التوحيد . وهي كفيلة أن تبرز وتثبت حيث يتلاشى الزمان والمكان والموت والحياة وسائر الظواهر المتغيرة ؛ ويتلاقى عليها الأحياء والأموات على مدار الزمان متفاهمين متعارفين . . وهذه هي ظلال التعبير القرآني اللطيف العجيب . .

على أنه بالقياس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإخوانه من الرسل مع ربهم لا يبقى شيء بعيد وآخر قريب . فهناك دائماً تلك اللحظة اللدنية التي تزال فيها الحواجز وترتفع فيها السدود ، وتتجلى الحقيقة الكلية عارية من كل ستار .

حقيقة النفس وحقيقة الوجود كله وأهل هذا الوجود . تتجلى وحدة متصلة ، وقد سقط عنها حاجز الزمان وحاجز المكان وحاجز الشكل والصورة . وهنا يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ويجاب ، بلا حاجز ولا حجاب . كما وقع في ليلة الإسراء والمعراج .

وإنه ليحسن في مثل هذه المواطن ألا نعتد كثيراً بالمألوف في حياتنا . فهذا المألوف ليس هو

القانون الكلي . ونحن لا ندرك من هذا الوجود إلا بعض ظواهره وبعض آثاره ، حين نهتدي إلى طرف من قانونه . وهناك حجب من تكويننا ذاته ومن حواسنا وما نرتبه عليها من مألوفات . فأما اللحظة التي تتجرد فيها النفس من هذه العوائق والحجب فيكون لقاء الحقيقة المجردة للإنسان بالحقيقة المجردة لأي شيء آخر أمراً أيسر من لمس الأجسام للأجسام !

(311/692)

وفي سياق تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يعترض به المعترضون من كبراء قومه على اختياره ؛ واعتزازهم بالقيم الباطلة لعرض هذه الحياة الدنيا . تجيء حلقة من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه ، يذكر فيها اعتزاز فرعون بمثل ما يعتز به من يقولون : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ! وتباهيه بما له من ملك ومن سلطان ، وتساؤله في فخر وخيلاء : ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون ؟ ﴾ . . وانتفاخه على موسى عبد الله ورسوله وهو مجرد من الجاه الأرضي والعرض الدنيوي : ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ؟ ﴾ . . واقتراحه الذي يشبه ما يقترحون : ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه

الملائكة مقترنين ﴾ . .

وكأنما هي نسخة تكرر ، أو اسطوانة تعاد !

ثم يبين كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة ؛ على الرغم من الخوارق التي عرضها عليهم موسى عليه السلام وعلى الرغم مما أصابهم من ابتلاءات ، واستغاثتهم بموسى ليدعو ربه فيكشف عنهم البلاء .

ثم كيف كانت العاقبة بعد ما ألزمهم الله الحجة بالتبليغ : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ . .

وها هم أولاء الآخرون لا يعتبرون ولا يتذكرون !

ومن خلال هذه الحلقة تتجلى وحدة الرسالة ، ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق . كما تتبدى طبيعة الكبراء والطغاة في استقبال دعوة الحق ، واعتزازهم بالتافه الزهيد من عرض هذه الأرض ؛ وطبيعة الجماهير التي يستخفها الكبراء والطغاة على مدار القرون !

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال : إني رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ . .

هنا يعرض حلقة اللقاء الأول بين موسى وفرعون ، في إشارة مقتضبة تمهيداً لاستعراض النقطة الرئيسية المقصودة من القصة في هذا الموضع وهي تشابه اعتراضات فرعون وقيمه مع اعتراضات مشركي العرب وقيمهم ويلخص حقيقة رسالة موسى : ﴿ فقال : إني رسول رب العالمين ﴾ .

. وهي ذات الحقيقة التي جاء بها كل رسول : أنه ﴿ رسول ﴾ وأن الذي أرسله هو ﴿ رب العالمين ﴾ . .

ويشير كذلك إشارة سريعة إلى الآيات التي عرضها موسى ، وينهي هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها : ﴿ إذا هم منها يضحكون ﴾ . . شأن الجهال المتعالين !

يلي ذلك إشارة إلى ما أخذ الله به فرعون وملأه من الابتلاءات المفصلة في سور أخرى : ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا : يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ . .

وهكذا لم تكن الآيات التي ظهرت على يدي موسى عليه السلام مدعاة إيمان ، وهي تأخذهم متتابعة . كل آية أكبر من أختها . مما يصدق قول الله تعالى في مواضع كثيرة ، وفحواه أن الخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهل للهدى ؛ وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدي العمي !

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم : ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ . . فهم أمام البلاء ، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء . ومع ذلك يقولون له : ﴿ يا أيها الساحر ﴾ ويقولون كذلك : ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ وهو يقول لهم : إنه رسول ﴿ رب العالمين ﴾ لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص ! ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم ، ولا خالطتها بشاشة الإيمان ، على الرغم من قولهم : ﴿ إننا لمهتدون ﴾ :

﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ . .

(313/692)

ولكن الجماهير قد تؤخذ بالخوارق المعجزة ، وقد يجد الحق سبيلاً إلى قلوبها المخدوعة . وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه ، وفي زخرفه وزينته ، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي ، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان ، المخدوعة بالأبهة والبريق :

﴿ ونادى فرعون في قومه : قال : يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ، ولا يكاد يبين ؟ فلولا ألقي عليه أسورة

من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟ ﴾ .

إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون ، أمر قريب مشهود للجماهير ، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه . فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما ومصر لا تساوي هباءة فيه فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه ، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد !

والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ؛ ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد !

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب !

(314/692)

«أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ؟» .

وهو يعني بالمهانة أن موسى ليس ملكا ولا أميرا ولا صاحب سطوة ومال مشهود . أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستعبد المهين . شعب إسرائيل . أما قوله : «وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ» فهو استغلال لما كان معروفا عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان . وإلا فقد استجاب اللّه سؤاله حين دعاه : «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ

عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي» . . وحلت عقدة لسانه فعلا ، وعاد يبين .

وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون الذي له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته ، خيرا من موسى – عليه السّلام – ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم ! «فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ؟» . .

هكذا . من ذلك العرض التافه الرخيص ! أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول ! أسورة من ذهب تساوي

(315/692)

أكثر من الآيات المعجزة التي أيد اللّه بها رسوله الكريم ! أم لعله كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تتويجه بالملك ، إذ كانت هذه عادتهم ، فيكون الرسول ذا ملك وذا سلطان ؟ «أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ» . .

وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر ، تؤخذ به الجماهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ! وهو اعتراض مكرور ، ووجه به أكثر من رسول ! «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ» . .

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل

المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعودوا يبحثون عنها ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة . ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ويلين قيادهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين ! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسكون بحبل اللّه ، ولا يزنون بميزان الإيمان . فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح . ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول :

«فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ . إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ» . .

ثم انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير وعلم اللّه أن القوم لا يؤمنون وعمت الفتنة فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهي في خيلاء ، وعشت عن الآيات البينات والنور فحقت كلمة اللّه وتحقق النذير :

«فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ ، فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ» . .

(6263/1)

يتحدث اللّه سبحانه عن نفسه في مقام الانتقام والتدمير إظهارا لغضبه ولجبروته في هذا المقام . فيقول :

«فَلَمَّا آسَفُونَا» . . أي أغضبونا أشد الغضب . . «انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ» . . يعني فرعون وملأه وجنده .

وهم الذين غرقوا على إثر موسى وقومه وجعلهم اللّه سلفا يتبعه كل خلف ظالم «وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ» الذين يجيئون بعدهم ، ويعرفون قصتهم ، فيعتبرون .

وهكذا تلتقي هذه الحلقة من قصة موسى – عليه السّلام – بالحلقة المشابهة لها من قصة العرب في مواجهة رسولهم الكريم . فتثبت الرسول – صلّى اللّه عليه وسلّم – والمؤمنين معه وتحذر المشركين المعترضين ، وتنذرهم مصيرا كمصير الأولين . .

وتلتقي الحقيقة في عرض القصة ، بالتناسق بين الحلقة المعروضة والحال القائمة والغاية من إيرادها في هذه الحال القائمة . وتصبح القصة بهذا أداة للتربية في المنهج الإلهي الحكيم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3176 . 3194 ﴾

(317/692)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والتسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والتسعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 57 ﴾ من سورة الزخرف

وحتى الآية ﴿ 83 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

قد جعل الله عيسى عليه الصلاة والسلام مثلاً لتمام قدرته على اختراع الأشياء بأسباب وبغير أسباب ، وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأزهدهم وأقربهم إلى الخير وأبعدهم عن الشر ، فاقتدى به من أراد الله به الخير في مثل ذلك فاهتدى به ، وضل به آخرون وضربوا به لأنفسهم أمثال الآلهة ، وصاروا يفرحون بما لا يرضاه عاقل ولا يراه ، وضربه قومك مثلاً لآلهتهم لما أخبرنا أنهم معهم حصب جهنم وسروا بذلك وطربوا وظنوا أنهم فازوا وغلبوا : ﴿ ولما ضرب ابن مريم ﴾ أي ضربه ضارب منهم ﴿ مثلاً ﴾ لآلهتهم ﴿ إذا قومك ﴾ أي الذين أعطيناهم قدرة على القيام بما يحاولونه ﴿ منه ﴾ أي ذلك المثل ﴿ يصدون ﴾ أي يضجون ويعلون أصواتهم سروراً بأنهم ظفروا على زعمهم بتناقض ، فيعرضون به عن

إجابة دعائك ، يقال : صد عنه صدوداً : أعرض ، وصد يصد ويصل : ضج - قاله في القاموس ، فلذلك قال ابن الجوزي : معناهما جميعاً - أي قراءة ضم الصاد وقراءة كسرها - يضجون ، ويجوز أن يكون معنى المضمومة : يعرضون ، قال ابن برجان : والكسر أعلى القراءتين - انتهى .

وذلك أن قريشاً قالوا كما مضى في الأنبياء ﴿ إنا وما نعبد في جهنم ﴾ مقتض أن يكون عيسى كذلك ، وأن نستوي نحن وآلهتنا به ، فإنه مما عبد ونحن راضون بمساواته لنا - إلى آخر ما قالوا وما رد عليهم سبحانه به من الآية من العام الذي أريد به الخصوص كما هو مقتضى كلامهم ولسانهم في أن الأصل في " ما " لما لا يعقل ، وذلك هو المراد من قوله تعالى حاكياً عنهم : ﴿ وقالوا أآلهتنا ﴾ التي نعبدها من الأصنام والملائكة ﴿ خير أم هو ﴾ أي عيسى فنحن راضون بأن نكون معه .

(5/693)

ولما اشتد التشوف إلى جوابهم ، وكان قد تقدم الجواب عنه في الأنبياء ، قدم عليه هنا أن مرادهم بذلك إنما هو المماحكة والمماحلة والمراوغة والمقاتلة فقال تعالى : ﴿ ما ضربوه ﴾ أي ما ضرب الكفار : ابن الزبعري حقيقة وغيره من قومك مجازاً ، المثل لآلهتهم

بعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ لك إلا جدلاً ﴾ أي لإرادة أن يقتلوك عن دعوتك مغالطة وهم عالمون بأن ما ألزموك به غير لازم ولم يعتقدوا لزومه قط لأن الكلام ما كان إلا في أصنامهم ، ولأن الخصوص في كلامهم شائع ، ولأنه قد عقب بما يبين الخصوص ويزيل اللبس على تقدير تسليمه ، فلم يقتدوا قط بما ألزموا به أنه لازم ﴿ بل هم قوم ﴾ أي أصحاب قوة على القيامة بما يحاولونه ﴿ خصمون ﴾ أي شديدو الخصام قادرون على اللدد ، روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي إمامة ـ رضى الله عنه ـ م ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم قرأ الآية " .

(6/693)

ولما تضمن هذا أنه غير مهان ، صرح به على وجه الحصر قصر قلب لمن يدعي أنه مقصور على الإلهية فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هو ﴾ أي عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ إلا عبد ﴾ وليس هو بإله ﴿ أنعمنا ﴾ أي بما لنا من العظمة والإحسان ﴿ عليه ﴾ أي بالنبوة والإقدار على الخوارق ﴿ وجعلناه ﴾ بما خرقنا به العادة في ميلاده وغير ذلك من آياته ﴿ مثلاً ﴾ أي أمراً عجيباً مع وضوحه وجلائه فيه خفاء وموضع شبهة بأن جعلناه من أنثى فقط بلا واسطة ذكر ليضل بذلك من يقف مع المحسوسات ، ودللنا على الحق فيه بما

منحنا به من الخوارق وزكاء الأخلاق وطيب الشيم والإعراق إسعاداً لمن أعليناه بنور قلبه وصفاء لبه إلى إحسان النظر في المعاني ﴿ لبني إسرائيل ﴾ الذين هم أعلم الناس به ، بعضهم بالمشاهدة وبعضهم بالنقل القريب ، فلما جاءهم على تلك الحالة الجلية في كونها حقاً بما كان على يديه ويدي أمه من الكرامات ، آمن به من بصره الله منه بالحق من أمره بما كان فيه من الكرامات ، وكان كلما رأى رجلاً منهم على منهاجه في أعماله وكرامته اهتدى إلى الحق من أمره ، وقال : هذا مثله عيسى عليه الصلاة والسلام فانتفع بالنبي ومن تبعه بإحسان ، فنال من الله الرضوان ، وقال أيضاً هذا الموفق مستبصراً في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام : مثله في ذلك مثل أبيه آدم عليه الصلاة والسلام في إخراجه من أنثى بلا ذكر ، بل آدم عليه الصلاة والسلام أعجب ، ومثل ابن خالته يحيى وجده إسحاق عليهما الصلاة والسلام في إخراج كل منهما بسبب هو في غاية الضعف ، هذه أمثاله الحسنة وقال من أراد الله به الضلال منهم غير ذلك من المحال ، فلما جعلوا له أمثال السوء ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وقال ابن برجان : خصهم – أي بني إسرائيل – بالذكر لأنهم المفتونون بالدجال المسارعون إليه ، ثم قال : وإنما المثل في ذلك متى جاء الدجال بتلك الآيات يدعو إلى نفسه فيعارض ما يأتي به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى وتأييده

بروح القدس ، أي فيضل عن الأمر الواضح من أراد الله فتنته – انتهى ، والأحسن أن يكون معنى كونه مثلاً أنه جعل أمره واضحاً جداً بحيث أنه يمثل به فيكون موضحاً لغيره ، ولا يحتاج هو إلى مثل يوضحه عند من له أدنى بصيرة .

ولما كان التقدير : فلو شئنا لجعلنا الناس كلهم من أنثى بلا ذكر ، ولو شئنا لساوينا كم بهم في ذلك الذي ضربناه عليهم من الذل عند ما جعلوا له مثل السوء فزدنا ما أنتم فيه من الذل والحقارة عن سائر الأمم بأن سلطانهم عليكم حتى استباحوكم ، ولو شئنا لمحونا كم أجمعين عن وجه الأرض فتركناها بيتاً ؟ لا أنيس بها ، عطف عليه قوله : ﴿ ولو ﴾ معبراً بصيغة المضارع إشارة إلى دوام قدرته على تجديد الإبداع فقال : ﴿ نشاء لجعلنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ما هو أغرب مما صنعناه في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ منكم ﴾ أي جعلاً مبتدئاً منكم ، إما بالتوليد كما جعلنا عيسى عليه الصلاة والسلام من أنثى من غير ذكر وجعلنا آدم عليه الصلاة والسلام من تراب من غير أنثى ولا ذكر وإما بالبدلية

﴿ ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ أي يكونون خلفاً لكم شيئاً بعد شيء بعد إعدامكم فجعلناهم مثلاً لكم كما جعلنا عيسى عليه الصلاة والسلام مثلاً لبني إسرائيل ، ويجوز أن يكون المعنى : لجعلنا بعضكم ملائكة بأن نحول خلقتهم فنجعلهم خلفاً لمن تحولوا عنهم ونخلف بعضهم بعضاً ، فإنهم من جملة عبادنا أجسام تقبل التوليد كما تقبل الإبداع ، وعلى

كلا التقديرين فذلك إشارة إلى أن الملائكة ذوات ممكنة من جملة عبيده سبحانه ، يصرفهم في مراده إن شاء في السماء ، وإن شاء في الأرض ، لا شيء منكم إلا وهو بعيد جداً عن رتبة الإلهية إرشاداً لهم إلى الاعتقاد الحق في أمره سبحانه بشمول قدرته وكمال علمه اللازم منه أنه لا إله إلا هو .

(8/693)

ولما ذكر سبحانه الإعدام والخلافة بسببه فرضاً ، ذكر أن إنزاله إلى الأرض آخر الزمان أمارة على إعدام الناس تحقيقاً ، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ وإنه ﴾ أي عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ لعلم للساعة ﴾ أي نزوله سبب للعلم بقرب الساعة التي هي إعدامه الخلائق كلهم بالموت ، وكذا ما نقل عنه من أنه كان يحيي وكذا إبراؤه الأسقام سبب عظيم للقطع بالساعة التي هي القيامة ، فهو سبب للعلم بالأمرين : عموم الإعدام وعموم القيام . ولما كان قريش يستنصحون اليهود يسألونهم – لكونهم أهل الكتاب – عن أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان النصارى مثلهم في ذلك ، وكان كون عيسى عليه الصلاة والسلام من أعلام الساعة أمراً مقطوعاً به عند الفريقين ، أما النصارى فيقولون : إنه الذي أتى إليهم ورفع إلى السماء كما هو عندنا ، وأما اليهود فيقولون : إنه إلى الآن لم يأت ، ويأتي بعد ،

فثبت بهذا أمر عيسى عليه الصلاة والسلام فيما أخبر الله تعالى عنه من إنعامه عليه ، ومن أنه من أعلام الساعة بشهادة الفرق الثلاثة اليهود والنصارى والمسلمين ثباتاً عظيماً جداً ، فصارت كأنها مشاهدة ، فلذلك سبب عما سبق قوله على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام ، لافتاً القول إلى مواجهتهم مؤكداً في مقابلة إنكارهم لها بما ثبت من شهادة الفرق الثلاثة : ﴿ فلا تمترن ﴾ أي تشكوا أدنى شك وتضطربوا أدنى اضطراب وتجحدوا أدنى جحد وتجادلوا أدنى جدل ﴿ بها ﴾ أي بسببها ، يقال : مرى الشيء وامتراه : استخرجه ، ومراه مائة سوط : ضربه ، ومراه حقه ، أي جحده ، والمرية بالضم والكسر : الجدل والشك ﴿ واتبعون ﴾ أي أوجدوا تبعكم بغاية جهدكم ﴿ هذا ﴾ أي كل ما أمرتكم به من هذا وغيره ﴿ صراط ﴾ أي طريق واسع واضح ﴿ مستقيم ﴾ أي لا عوج فيه .

(9/693)

ولما حثهم على السلوك لصراط الولي الحميد بدلالة الشفوق النصوح الرؤوف الرحيم ، حذرهم من العدو البعيد المحترق الطريد ، فقال دالاً على عظيم فتنته بما له من التزيين للمشتهى والأخذ من المأمن والتلبيس للمشكل والتغطية للخوف بالتأكيد ، لما هم تابعون من ضده على وجه التقليد : ﴿ ولا يصدنكم ﴾ أي عن هذا الطريق الواضح الواسع

المستقيم الموصل إلى المقصود بأيسر سعي ﴿ الشيطان ﴾ ولما كان كأنه قيل ما له يصدنا عن سبيل ربنا ؟ ذكر العلة تحذيراً في قوله : ﴿ إنه لكم ﴾ أي عامة ، وأكد الخبر لأن أفعال التابعين لكم أفعال من ينكر عداوته : ﴿ عدو مبين ﴾ أي واضح العداوة في نفسه مناد بها ، وذلك بإبلاغه في عداوة أبيكم حتى أنزلكم بإنزاله عن محل الراحة إلى موضع النصب ، عداوة ناشئة عن الحسد ، فهي لا تنفك أبداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 43.40 ﴾

(10/693)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ يا عبادي ﴾ بالياء في الحالين : أبو جعفر ونافع وابن عامر وأبو عمرو . وقرأ حماد وأبو بكر بفتح الياء . الباقون بغير ياء في الحالين ﴿ تشتهيه ﴾ بهاء الضمير : ونافع وأبو جعفر وابن عامر وحفص . الآخرون : بحذفها ﴿ وإليه يرجعون ﴾ بياء الغيبة : ابن كثير وحمزة وعلي وخلف . الباقون : بتاء الخطاب . ﴿ وقيله ﴾ بالكسرة : حمزة

وعاصم غير المفضل . الآخرون : بالنصب . ﴿ تعلمون ﴾ على الخطاب : أبو جعفر ونافع وابن عامر .

(11/693)

الوقوف : ﴿ يصدون ﴾ ه ﴿ أم هو ﴾ ط ﴿ جدلاً ﴾ ط ﴿ خصمون ﴾ ه ﴿ إسرائيل ﴾ ه ط ﴿ يخلفون ﴾ ه ﴿ واتبعون ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ ه ﴿ الشيطان ﴾ ج للابتداء بان مع اتصال المعنى ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ فيه ﴾ ج لعطف الجملتين مع الفاء ﴿ وأطيعون ﴾ ه ﴿ فاعبدوه ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ ه ﴿ من بينهم ﴾ ج للابتداء مع الفاء ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ لا يشعرون ﴾ ه ﴿ المتقين ﴾ ه ﴿ تحزنون ﴾ ه ج لاحتمال كون ما بعده وصفاً ﴿ مسلمين ﴾ ه ج لاحتمال أن يكون ﴿ الذين ﴾ إلى آخر الآية مبتدأ وقوله ﴿ ادخلوا ﴾ إلى آخره خبراً ، والقول محذوف لا محالة ﴿ تحبرون ﴾ ه ﴿ وأكواب ﴾ ج ﴿ الأعين ﴾ ج للعدول مع العطف ﴿ خالدون ﴾ ه ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ تأكلون ﴾ ه ﴿ خالدون ﴾ ه ج لإحتمال ما بعده صفة أو حالاً له لا مستأنفاً ﴿ مبلسون ﴾ ه ج لاحتمال أن يكون ما بعده مستأنفاً أو حالاً ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ ربك ﴾ ط ﴿ ماكثون ﴾ ه ج ﴿ كارهون ﴾ ه ﴿ مبرمون ﴾ ه ج لأن " أم " يصلح جواب الأولى ويصلح

استفهاما آخر ﴿ ونجواهم ﴾ ط ﴿ يكتبون ﴾ ه ﴿ العابدين ﴾ ه ﴿ يصفون ﴾ ه ﴿ يوعدون ﴾ ه ﴿ وفي الأرض إله ﴾ ط ﴿ العليم ﴾ ه ﴿ بينهما ﴾ ج ﴿ الساعة ﴾ ج ﴿ ترجعون ﴾ ه ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ يؤفكون ﴾ ه ج فالوقف بناء على قراءة النصب ، والوصل بناء على قراءة الجر وسيأتي تمام البحث عن إعرابها ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه لئلا يوهم أن ما بعده من قيل الرسول ﴿ سلام ﴾ ط للابتداء بالتهديد . قال السجاوندي : من قرأ ﴿ تعلمون ﴾ على الخطاب فوقفه لازم لئلا يصير التهديد داخلاً في الأمر بقوله ﴿ قل ﴾ قلت : لا محذور فيه لأن السلام سلام توديع لا تعظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 96 ﴾

(12/693)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى ذكر أنواعاً كثيرة من كفرياتهم في هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة فأولها : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءا ﴾ [الزخرف : 15] وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف : 19] وثالثها : قوله ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاء الرحمن مَا عبدناهم ﴾ [الزخرف : 20] ورابعها : قوله ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وخامسها : هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها ، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلاً أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم ، فأما أن ذلك المثل كيف كان ، وفي أي شيء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً كلها محتملة فالأول : أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة الثاني : روي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] قال عبد الله بن الزبعري هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " بل لجميع الأمم " فقال خصمتك ورب الكعبة ، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيراً وعلى أمه ، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيراً والملائكة يعبدون ، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم (1) فسكت النبي صلى الله عليه وسلم وفرح القوم وضحكوا وضجوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مّنَّا الحسنى

أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] ونزلت هذه الآية أيضاً والمعنى ، ولما ضرب عبد الله بن الزبعري عيسى ابن مريم مثلاً وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه إذا قومك قريش منه أي من هذا المثل يصدون أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة

---

(1) الرواية المشهورة : أن الرسول صلى اللّه عليه وسلّم رد عليه عند ذلك بقوله لابن الزبعرى «ما أجهلك بلغة قومك ما لما لا يعقل» ،

وحينئذ فلا تقع على الذين اتخذهم الكفار آلهة من الأنبياء والملائكة والصالحين وإنما عنى من الأصنام التي عبدوها .

(13/693)

فرحاً وجدلاً وضحكاً بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج ، وقالوا آلهتنا خير أم هو يعنون أن آلهتنا عندك ليس خيراً من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون الوجه الثالث : في التأويل وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلهاً لأنفسهم ، قال كفار مكة إن محمداً يريد أن يجعل لنا إلهاً كما جعل النصارى المسيح إلهاً لأنفسهم ، ثم عند هذا قالوا ﴿ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾

يعني آلهتنا خير أم محمد ، وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا : إن محمداً يدعونا إلى عبادة نفسه ، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام ، وإذا كان لا بد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى ، لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه ، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أولى ، ثم إنه تعالى بيّن أنا لم نقل إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل ، فإن عيسى ليس إلا عبداً أنعمنا عليه ، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم : إن محمداً يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه ، فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية .

المسألة الثانية :

قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم يصدون بضم الصاد وهو قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام والباقون بكسر الصاد وهي قراءة ابن عباس ، واختلفوا فقال الكسائي هما بمعنى نحو يعرشون ويعرشون ويعكفون ، ومنهم من فرق ، أما القراءة بالضم فمن الصدود ، أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه ، وأما بالكسر فمعناه يضجون .

المسألة الثالثة :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي آلهتنا استفهاماً بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاماً بهمزة ومدة .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مبالغون في الخصومة ، وذلك لأن قوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ لا يتناول الملائكة وعيسى ، وبيانه من وجوه الأول : أن كلمة ما لا تتناول العقلاء ألبتة والثاني : أن كلمة ما ليست صريحة في الاستغراق بدليل أنه يصح إدخال لفظتي الكل والبعض عليه ، فيقال إنكم وكل ما تعبدون من دون الله ، أو إنكم وبعض ما تبعدون من دون الله الثالث : أن قوله إنكم وكل ما تعبدون من دون الله أو وبعض ما تعبدون خطاب مشافهة فلعله ما كان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة الرابع : أن قوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ هب أنه عام إلا أن النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه ، والخاص مقدم على العام .

المسألة الرابعة :

القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا أنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [غافر : 4] أن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب

للمدح والثناء ، وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق ، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل .

(15/693)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ لولدنا منك يا رجال ﴿ ملائكة فِي الأرض يخلفون ﴾ كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ولتعرفوا أن دخول التوليد والتولد في الملائكة أمر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك ﴿ وإِنَّهُ ﴾ أي عيسى ﴿ لَعِلْمٌ للسَّاعَةِ ﴾ شرط من أشراطها تعلم به فسمي الشرط الدال على الشيء علماً لحصول العلم به ، وقرأ ابن عباس : ﴿ لَعِلْمٌ ﴾ وهو العلامة وقرىء للعلم وقرأ أبي : لذكر ، وفي الحديث :

" أن عيسى ينزل على ثنية في الأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتي ببيت المقدس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب

البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به " ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ من المرية وهو الشك ﴿ واتبعون ﴾ واتبعوا هداي وشرعي ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه صراط مستقيم ﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ قد بانت عداواته لكم لأجل أنه هو الذي أخرج أباكم من الجنّة ونزع عنه لباس النور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 189. 191 ﴾

(16/693)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

روي عن ابن عباس وغيره في تفسير هذه الآية ، أنه لما نزلت : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن ، فيكون ﴾ [آل عمران : 59] ونزل مع ذلك ذكر عيسى وحاله وكيف خلق من غير فحل ، قالت فرقة : ما يريد محمد من ذكر عيسى إلا أن نعبده نحن كما عبدت النصارى عيسى ، فهذا كان صدورهم من ضربه مثلاً .

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب : " يصُدون " بضم الصاد ، بمعنى : يعرضون . وقرأ الباقون وابن عباس وابن جبير والحسن

وعكرمة : " يصِدون " بكسر الصاد ، بمعنى يضحكون ، وأنكر ابن عباس ضم الصاد ، ورويت عن علي بن أبي طالب ، وقال الكسائي : هما لغتان بمعنى واحد ، مثل " يعرُشون ويعرِشون " .

وقوله تعالى : ﴿ آلهتنا ﴾ ابتداء معنى ثان ، وذلك أنه لما نزلت ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [الأنبياء : 98] جاء عبد الله بن الزعبري ونظراؤه فقالوا : نحن نخصم محمداً : آلهتنا خير أم عيسى ؟ وعلموا أن الجواب أن يقال عيسى ، قالوا ، وهذه آية الحصب لنا أو لكل الأمم من الكفار فقال النبي عليه السلام : " بل لكل من تقدم أو تأخر من الكفار ، " فقالوا نحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى ، إذ هو خير منها ، وإذ قد عبد فهو من الحصب إذاً ، فقال : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ أي ما مثلوا هذا التمثيل إلا جدلاً منهم ومغالطة ، ونسوا أن عيسى لم يعبد برضى منه ولا عن إرادة ، ولا له في ذلك ذنب .

(17/693)

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : " آءالهتنا " بهمزة استفهام وهمزة بعدها بين بين وألف بعدها .

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي : بهمزتين مخففتين بعد الثانية ألف . وقرأ ورش

عن نافع : بغير استفهام : " آلهتنا " على مثال الخبر . وقرأ قالون عن نافع : " ءالهتنا " على الاستفهام بهمزة واحدة بعدها مدة . وفي مصحف أبي بن كعب : " خير أم هذا " ، فالإشارة إلى محمد ، وخرجت هذه القراءة على التأويل الأول الذي فسرناه ، وكذلك قالت فرقة ممن قرأ : ﴿ أم هو ﴾ إن الإرادة محمد عليه السلام ، وهو قول قتادة . وقال ابن زيد والسدي المراد ب ﴿ هو ﴾ عيسى ، هذا هو المترجح .

والجدال عند العرب : المحاورة بمغالطة أو تحقيق أو ما اتفق من القول إنما المقصد به أن يغلب صاحبه في الظاهر إلا أن يتطلب الحق في نفسه ، وروى أبو أمامة عن النبي عليه السلام أنه قال : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل " ثم قرأ : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ قال أبو أمامة : ورأى عليه السلام قوماً يتنازعون ، فغضب حتى كأنما صب في وجهه الخل ، وقال :

" لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، فما ضل قوم إلا أوتوا الجدل " ثم أخبر تعالى عنهم أنهم أهل خصام ولدد ، وأخبر عن عيسى أنه عبد أنعم الله عليه بالنبوءة والمنزلة العالية ، وجعله مثلاً لبني إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ ولو نشاء ﴾ الآية ، أي لا تستغربوا أن يخلق عيسى من غير فحل ، فإن القدرة تقضي ذلك وأكثر منه .

وقوله : ﴿ لجعلنا منكم ﴾ معناه : لجعلنا بدلاً منكم ، أي لو شاء الله لجعل بدلاً من بني آدم

ملائكة يسكنون الأرض ويخلفون بني آدم فيها . وقال مجاهد وابن عباس : يخلف بعضهم بعضاً . والضمير في قوله : ﴿ وإنه لعلم ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك وابن زيد : الإشارة به إلى عيسى . وقالت فرقة : إلى محمد عليه السلام . وقال الحسن أيضاً وقتادة : إلى القرآن .

(18/693)

وقرأ جمهور الناس : " لِعِلْم " بكسر العين وسكون اللام . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة وأبو هند الغفاري ومجاهد وأبو نضرة ومالك بن دينار والضحاك : " لعَلَم " بفتح العين واللام ، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس : " للَعلم " بلامين ، الأولى مفتوحة . وقرأ أبي بن كعب : " لذَكر للساعة " .

فمن قال إن الإشارة إلى عيسى حسن مع تأويله علم وعلم أي هو إشعار بالساعة وشرط من أشراطها ، يعني خروجه في آخر الزمان ، وكذلك من قال : الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، أي هو آخر الأنبياء ، فقد تميزت الساعة به نوعاً وقدراً من التمييز ، وبقي التحديد التام الذي انفرد الله بعلمه ، ومن قال : الإشارة إلى القرآن ، حسن قوله في قراءة من قرأ : " لِعِلْم " بكسر العين وسكون اللام ، أي يعلمكم بها وبأهوالها وصفاتها ، وفي قراءة من

قرأ : " لذكر " .

وقوله : ﴿ فلا تمترن ﴾ أي قل لهم يا محمد لا تشكون فيها . وقوله : ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ إشارة إلى الشرع ، ثم أمره بتحذير العباد من الشيطان وإغوائه ونبههم على عداوته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(19/693)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

لما قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ تعلّق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلها كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم إلها ؛ قاله قتادة .

ونحوه عن مجاهد قال : إن قريشاً قالت إن محمداً يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى ؛ فأنزل الله هذه الآية .

وقال ابن عباس : أراد به مناظرة عبد الله بن الزِّبَعْرَى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى ، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ حالة كفره لما قالت

له قريش إن محمداً يتلو : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليه ؛ قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عُزَيْراً ، أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم ؛ وذلك معنى قوله : "يَصِدُّونَ" فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] .

ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ؛ لأنه قال : "وَمَا تَعْبُدُونَ" ولم يقل ومن تعبدون وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقِل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين .

وقد مضى هذا في آخر سورة "الأنبياء" .

وروى ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : "يا معشر قريش لا خير في أحد يُعبد من دون الله" .

قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبداً نبيًّا وعبداً صالحاً ، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون اللها .

(20/693)

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ "أي يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال .

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي "يَصُدون" (بضم الصاد) ومعناه يُعرِضون ؛ قاله النَّخَعيّ ، وكسر الباقون .

قال الكسائي : هما لغتان ؛ مثل يَعْرِشون ويَعْرُشون ويَنِمُّون ويَنُمُّون ، ومعناه يَضِجُّون .

قال الجوهري : وصَدّ يَصُدّ صديداً ؛ أي ضَجّ .

وقيل : إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض ، وبالكسر من الضجيج ؛ قاله قُطْرُب .

قال أبو عبيد : لو كانت من الصدود عن الحق لكانت : إذا قومك عنه يصدون .

الفرّاء : هما سواء ؛ منه وعنه .

ابن المسيّب : يصدون يضجون .

الضحاك يعجون .

ابن عباس : يضحكون .

أبو عبيدة : مَن ضَمَّ فمعناه يعدلون ؛ فيكون المعنى : من أجل المَيْل يُعَدلون .

ولا يُعَدّى "يَصِدُّون" بمن ، ومن كسر فمعناه يضِجون ؛ ف "من" متصلة ب "يَصِدُّون" والمعنى يضجون منه .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي آلهتنا خير أم عيسى ؟ قاله السدي .

وقال : خاصموه وقالوا إن كل مَن عُبد من دون الله في النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] الآية .

وقال قتادة : "أَمْ هُوَ" يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم .

وفي قراءة ابن مسعود "آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا" .

وهو يقوّي قول قتادة ، فهو استفهام تقرير في أن آلهتهم خير .

وقرأ الكوفيون ويعقوب "أَأَلِهَتُنَا" بتحقيق الهمزتين ، وليّن الباقون .

وقد تقدّم .

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ "جَدَلاً" حال ؛ أي جدلين .

يعني ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل ؛ لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مجادلون بالباطل .

(21/693)

وفي صحيح الترمذِيّ عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ " .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي ما عيسى إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوّة ، وجعله مَثَلاً لبني إسرائيل ؛ أي آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى ؛ فإن عيسى كان من غير أب ، ثم جعل إليه من إحياء الموتى وإبراء الأَكْمَه والأبرص والأسقام كلها ما لم يُجعل لغيره في زمانه ، مع أن بني إسرائيل كانوا يومئذ خير الخلق وأحبَّه إلى الله عز وجل ، والناس دونهم ، ليس أحد عند الله عز وجل مثلَهم .

وقيل : المراد بالعبد المنعم عليه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ والأوّل أظهر .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ أي بَدَلاً منكم ﴿ مَّلاَئِكَةً ﴾ يكونون خَلَفاً عنكم ؛ قاله السُّدِّي .

ونحوه عن مجاهد قال : ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم .

وقال الأزهري : إن "مِن" قد تكون للبدل ؛ بدليل هذه الآية .

قلت : قد تقدم هذا المعنى في "براءة" وغيرها .

وقيل : لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة وإن لم تجر العادة بذلك ، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف ؛ والمعنى : لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة ، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا ، أو يقال لهم بنات الله .

ومعنى ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ يخلف بعضهم بعضاً ؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : يريد القرآن ؛ لأنه يدل على قرب مجيء الساعة ، أو به تعلم الساعة وأهوالها وأحوالها .

(22/693)

وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة أيضاً : إنه خروج عيسى عليه السلام ، وذلك من أعلام الساعة ، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة .

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك "وإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ" (بفتح العين واللام) أي أمارة .

وقد روي عن عِكرمة "وإنه للعلم" (بلامين) وذلك خلاف للمصاحف .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أسرِي برسول الله صلى الله عليه وسلم لقي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم ؛ فرد الحديث إلى عيسى ابن مريم قال : قد عُهد إليّ فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل ؛ فذكر خروج الدجال قال : فأنزل فأقتله .

وذكر الحديث ، خرّجه ابن ماجه في سننه .

وفي صحيح مسلم : " فبينما هو يعني المسيح الدجال إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دِمَشْق بين مَهْرُودَتَين واضعاً كَفّيه على أجنحة مَلَكين إذا طأطأ رأسَه قَطَر وإذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ فلا يَحِلّ لكافر يجد ريحَ نَفَسه إلا مات ونَفَسُه (ينتهي) حيث ينتهي طَرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ فيقتله . . .

" الحديث . . .

(23/693)

وذكر الثعلبيّ والزَّمَخْشِري وغيرهما من حديث أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء على ثَنِيّة من الأرض المقدسة يقال لها أَفِيق بين مُمَصَّرَتَيْن وشعر رأسه دَهين وبيده حربة يقتل بها الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر والإمام يؤمّ بهم فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلّي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البِيَع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به " وروى خالد عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأنبياء إخوةٌ لعَلاّت أمهاتُهم شَتّى ودينهم واحد وأنا أَوْلَى الناس

بعيسى ابن مريم إنه ليس بيني وبينه نبيّ وإنه أوّل نازل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام " قال الماوَرْدِيّ : وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رُفع التكليف لئلا يكون رسولاً إلى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى وينهاهم .

وهذا قول مردود لثلاثة أمور ؛ منها الحديث ، ولأن بقاء الدنيا يقتضي التكليف فيها ، ولأنه ينزل آمراً بمعروف وناهياً عن منكر .

وليس يُستنكر أن يكون أمر الله تعالى له مقصوراً على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه .

(24/693)

قلت : ثبت في صحيح مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَيَنْزِلَنّ عيسى ابن مريم حَكَماً عادلاً فَلَيَكْسِرَنّ الصليبَ وَلَيَقْتُلَنّ الخنزير وَلَيَضَعَنّ الْجِزْيَة ولَتُتْرَكَنّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها وَلَتَذْهَبَنّ الشحناء والتَّبَاغُضُ والتحاسد وَلَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يقبله أحد " وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامُكم منكم " وفي رواية "فأمّكم منكم" قال ابن أبي ذئب : تدري "ما أمّكم منكم" ؟ قلت : تخبرني ، قال : فأمّكم بكتاب ربِّكم وسُنّةِ

نبيّكم صلى الله عليه وسلم " .

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فهذا نصّ على أنه ينزل مجدّداً لدين النبيّ صلى الله عليه وسلم للذي دَرَس منه ، لا بشرع مبتدأ والتكليف باقٍ ؛ على ما بيناه هنا وفي كتاب التذكرة .

وقيل : "وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ للسَّاعَةِ" أي وإن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى ؛ قاله ابن إسحاق .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى "وَإِنَّهُ" وإن محمداً صلى الله عليه وسلم لعلم للساعة ؛ بدليل قوله عليه السلام : " بعثت أنا والساعة كُهاتين " وضم السبابة والوسطى ؛ خرّجه البخاري ومسلم .

وقال الحسن : أوّل أشراطها محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكُّون فيها ؛ يعني في الساعة ؛ قاله يحيى بن سلام .

وقال السّدّي : فلا تكذبون بها ، ولا تجادلون فيها فإنها كائنة لا محالة .

﴿ واتبعون ﴾ أي في التوحيد وفيما أبلغكم عن الله .

﴿ هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي طريق قويم إلى الله ، أي إلى جنته .

وأثبت الياء يعقوب في قوله : "وَاتَّبِعُونِ" في الحالين ، وكذلك "وَأَطِيعُونِ" .

وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع في الوصل دون الوقف ، وحذف الباقون في الحالين .

(25/693)

﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشيطان ﴾ أي لا تغتروا بوساوسه وشُبه الكفار المجادلين ؛ فإن شرائع الأنبياء لم تختلف في التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة أو نار .

﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ تقدم في "البقرة" وغيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(26/693)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ الخ

بيان لعناد قريش بالباطل والرد عليهم ، فقد روي أن عبد الله بن الزبعري قبل إسلامه ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم وقد سمعه يقول : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] أليست النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول كان نبياً وعبداً

من عباد الله تعالى صالحاً فإن كان في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ففرح قريش وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ فالمعنى ولما ضرب ابن الزبعري عيسى بن مريم مثلاً وحاجك بعبادة النصارى إياه إذا قومك من ذلك ولأجله يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وجدلاً ، والحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة قيل لها مثل أو المثل بمعنى المثال أي جعله مقياساً وشاهداً على إبطال قوله عليه الصلاة والسلام : إن آلهتهم من حصب جهنم ، وجعل عيسى عليه السلام نفسه مثلاً من باب "الحج عرفة" .

وقرأ أبو جعفر .

والأعرج .

والنخعي .

وأبو رجاء .

وابن وثاب .

وابن عامر .

ونافع .

والكسائي ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ بضم الصاد من الصدود ، وروي ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه ، وأنكر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هذه القراءة وهو قبل بلوغه تواترها ،

والمعنى عليها إذا قومك من أجل ذلك يعرضون عن الحق بالجدل بحجة داحضة واهية ،

وقيل : المراد يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض .

وقال الكسائي .

والفراء : يصدون بالكسر ويصدون بالضم لغتان بمعنى واحد مثل ﴿ يعرشون ﴾ و ﴿ يعرشون ﴾ [الأعراف : 137] ومعناهما يضجون ، وجوز أن يكون يعرضون .

(27/693)

﴿ وَقَالُواْ ﴾ تمهيداً لما بنوا عليه من الباطل المموه مما يغتر به السفهاء ﴿ ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي ظاهر عندك أن عيسى عليه السلام خير من آلهتنا فحيث كان هو في النار فلا بأس بكونها وأيانا فيها ، وحقق الكوفيون الهمزتين همزة الاستفهام والهمزة الأصلية ؛ وسهل باقي السبعة الثانية بين بين ، وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر بهمزة واحدة على مثال الخبر ، والظاهر أنه على حذف همزة الاستفهام ، وقوله تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ إبطال لباطلهم إجمالاً اكتفاءً بما فصل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ ﴾ [الأنبياء : 101] وتنبيهاً على أنه مما لا يذهب على ذي مسكة بطلانه فكيف على غيره ولكن العناد يعمى ويصم أي ما ضربوا لك ذلك إلا لأجل الجدال والخصام لا لطلب

الحق فإنه في غاية البطلان بل هم قوم لد شداد الخصومة مجبولون على المحك أي سؤال الخلق واللجاج ، فجدلاً منتصب على أنه مفعول لأجله ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال أي مجادلين ، وقرأ ابن مقسم ﴿ جدالاً ﴾ بكسر الجيم وألف بعد الدال ، وقوله تعالى :

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59)

(28/693)

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما عيسى ابن مريم ﴿ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بالنبوة وروادفها فهو مرفوع المنزلة على القدر لكن ليس له من استحقاق المعبودية من نصيب ، كلام حكيم مشتمل على ما اشتمل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ ﴾ [الأنبياء : 101] ولكن على سبيل الرمز وعلى فساد رأي النصارى في إيثارهم عبادته عليه السلام تعريضاً بمكان عبادة قريش غيره سبحانه وتعالى ، وقوله تعالى : ﴿ وجعلناه مَثَلاً ﴾ أي أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة ﴿ لّبَنِى إسرائيل ﴾ حيث خلقناه من غير أب وجعلنا له من أحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك ما لم نجعل لغيره في زمانه ، كلام أجمل فيه وجه الافتتان به وعليه ، ووجه دلالته على قدرة خالقه تعالى شأنه وبعد استحقاقه عليه السلام عما قرف به إفراطاً وتفريطاً ، وقوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا ﴾ الخ تذييل لوجه دلالته على القدرة وأن الافتتان من عدم التأمل وتضمين للإنكار على من اتخذ الملائكة آلهة كما اتخذ عيسى عليهم السلام أي ولو نشاء لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر لجعلنا بطريق التوليد ومآله لولدنا ﴿ مّنكُمْ ﴾ يا رجال ﴿ مَلَئِكَةٌ ﴾ كما ولدنا عيسى من غير أب ﴿ فِى الأرض يَخْلُفُونَ ﴾ أي يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم أو يكونون خلفاً ونسلاً لكم ليعرف تميزنا بالقدرة الباهرة وليعلم أن الملائكة ذوات ممكنة تخلق توليداً كما تخلق إبداعاً فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إليه سبحانه وتعالى بالبنوة ، وجوز أن يكون معنى لجعلنا الخ لحولنا بعضكم ملائكة فمن ابتدائية أو تبعيضية و ﴿ مَلَئِكَةٌ ﴾ مفعول ثان أو حال ، وقيل : من للبدل كما في قوله تعالى : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة : 38] وقوله : ولم تذق من البقول الفستقا . . .

(29/693)

أي ولو نشاء لجعلنا بدلكم ملائكة يكونون مكانكم بعد إذهابكم ، وإليه يشير كلام قتادة ومجاهد ، والمراد بيان كمال قدرته تعالى لا التوعد بالاستئصال وإن تضمنه فإنه غير ملائم للمقام ، وقيل : لا مانع من قصدهما معاً نعم كثير من النحويين لا يثبتون لمن معنى البدلية

ويتأولون ما ورد مما يوهم ذلك والأظهر ما قرر أولاً .

وذكر العلامة الطيبي عليه الرحمة أن قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ ﴾ [الزخرف : 59] الخ جواب عن جدل الكفرة في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] الخ وإن تقريره إن جدلكم هذا باطل لأنه عليه السلام ما دخل في ذلك النص الصريح لأن الكلام معكم أيها المشركون وأنتم المخاطبون به وإنما المراد بما تعبدون الأصنام التي تنحتونها بأيديكم وأما عيسى عليه السلام فما هو إلا عبد مكرم منعم عليه بالنبوة مرفوع المنزلة والذكر مشهور في بني إسرائيل كالمثل السائر فمن أين تدخل في قولنا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] ثم لا اعتراض علينا أن نجعل قوماً أهلاً للنار وآخرين أهلاً للجنة إذ لو نشاء لجعلنا منكم ومن أنفسكم أيها الكفرة ملائكة أي عبيداً مكرمون مهتدون وإلى الجنة صائرون كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 13] اه .

وعلى ما ذكرنا أن الكلام في ابطال قد تم عند قوله تعالى : ﴿ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف : 58] وما بعد لما سمعت قبل وهو أدق وأولى مما ذكره بل ما أشار إليه من أن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاء ﴾ الخ لنفي الاعتراض ليس بشيء .

(30/693)

وروي أن ابن الزبعرى قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين سمع قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لِحَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال : خصمتك ورب الكعبة أليست النصارى يعبدون المسيح ، واليهود عزيرا ، وبنو مليح الملائكة ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ ﴾ [الأنبياء : 101] الآية أو نزلت هذه الآية ، وأنكر بعضهم السكوت ، وذكر أن ابن الزبعرى حين قال للنبي عليه الصلاة والسلام : خصمتك رد عليه صلى الله عليه وسلم بقوله ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل ، وروى محيي السنة في المعالم أن ابن الزبعرى قال له عليه الصلاة والسلام : أنت قلت : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ؟ قال : نعم قال : أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل هم يعبدون الشيطان فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] وهذا أثبت من الخبر الذي قبله .

وتعقب ما تقدم في الخبر السابق من سؤال ابن الزبعرى أهذا لنا الخ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : هو لكم الخ بأنه ليس بثبت .

(31/693)

وذكر من أثبته أنه صلى الله عليه وسلم إنما لم يجب حين سئل عن الخصوص والعموم بالخصوص عملاً بما تقتضيه كلمة ﴿ مَا ﴾ لأن إخراج المعهودين عن الحكم عند المحاجة موهم للرخصة في عبادتهم في الجملة فعممه عليه الصلاة والسلام للكل لكن لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك في المعبودية من دون الله تعالى ثم بين أنهم بمعزل من أن يكونوا معبوديهم بما جاء في خبر محي السنة من قوله عليه الصلاة والسلام : بل هم يعبدون الشيطان كما نطق به قوله تعالى : ﴿ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ [سبأ : 41] الآية ، وقد تقدم ما ينفعك تذكره فتذكر .

وفي "الدر المنثور" أخرج الإمام أحمد .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : إنه ليس أحد

يعبد من دون الله تعالى فيه خير فقالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله تعالى صالحاً فإن كنت صادقاً فإنه كآلهتنا فأنزل الله سبحانه : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ [الزخرف : 57] الخ ، والكلام في الآيات على هذه الرواية يعلم مما تقدم بأدنى التفات ، وقيل : إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة فنزلت ، فالمثل ما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى ﴾ الآية والضارب هو تعالى شأنه أي ولما بين الله سبحانه حاله العجيبة اتخذه قومك ذريعة إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقاً بشراً قد عبد فنحن أهدى حيث عبدنا ملائكة مطهرين مكرمين عليه وهو الذي عنوه بقولهم :

(32/693)

﴿ ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ [الزخرف : 58] فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مقايسة باطل بباطل وأنهم في اتخاذهم العبد المنعم عليه إلهاً مبطلون مثلكم في اتخاذ الملائكة وهم عباد مكرمون ، ثم قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله وأنه سبحانه قادر على أعجب من خلق عيسى عليه السلام وأنه لا

فرق في ذلك بين المخلوق توالداً وإبداعاً فلا يصلح القسمان للإلهية .

وفي رواية عن ابن عباس .

وقتادة أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى ﴾ الآية قالت قريش : ما أراد محمد صلى الله عليه وسلم من ذكر عيسى عليه السلام إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى .

(33/693)

ومعنى ﴿ يصدون ﴾ [الزخرف : 57] يضجون ويضجرون ، والضمير في ﴿ أَمْ ﴾ [الزخرف : 58] هو لنبينا عليه الصلاة والسلام ، وغرضهم بالموازنة بينه صلى الله عليه وسلم وبين آلهتهم الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاء ﴾ الخ رد وتكذيب لهم في افترائهم عليه صلى الله عليه وسلم ببيان أن عيسى عليه السلام في الحقيقة وفيما أوحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليس إلا أنه عبد منعم عليه كما ذكر فكيف يرضى صلى الله عليه وسلم بمعبوديته أو كيف يتوهم الرضا بمعبودية نفسه ثم بين جل شأنه أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله تعالى وأنه قادر على أبدع منه وأبدع مع التنبيه على سقوط الملائكة عليهم السلام أيضاً عن درجة المعبودية بقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاء ﴾ الخ وفيه أن الدلالة على ذلك المعنى غير واضحة ، وكذلك رجوع الضمير إلى

نبينا عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ أَمْ هُوَ ﴾ مع رجوعه إلى عيسى في قوله سبحانه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ ﴾ [الزخرف : 59] وفيه من فك النظم ما يجب أن يصان الكتاب المعجز عنه ، ولا يكاد يقبل القول برجوع الضمير الثاني إليه صلى الله عليه وسلم ، ولعل الرواية عن الحبر غير ثابتة ، وجوز أن يكون مرادهم التنصل عما أنكر عليهم من قولهم : الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه ومن عبادتهم إياهم كأنهم قالوا : ما قلنا بدعاً من القول ولا فعلنا منكراً من الفعل فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله عز وجل فنحن أشف منهم قولاً وفعلاً حيث نسبنا إليه تعالى الملائكة عليهم السلام وهم نسبوا إليه الأناسي ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاء ﴾ الخ عليه كما في الوجه الثاني .

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

(34/693)

﴿ وَأَنَّهُ ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أي أنه بنزوله شرط من أشراطها وبحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذي هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة ، وأياً ما كان فعلم الساعة مجاز عما تعلم به والتعبير به للمبالغة .

وقرأ أبي ﴿ لِذِكْرِ ﴾ وهو مجاز كذلك .

وقرأ ابن عباس .

وأبو هريرة .

وأبو مالك الغفاري .

وزيد بن علي .

وقتادة .

ومجاهد .

والضحاك .

ومالك بن دينار .

والأعمش .

والكلبي قال ابن عطية .

وأبو نصرة ﴿ لَعِلْمٌ ﴾ بفتح العين واللام أي لعلامة .

وقرأ عكرمة .

قال ابن خالويه .

وأبو نصرة ﴿ لا لَعِلْمٌ ﴾ معرفاً بفتحتين والحصر إضافي ، وقيل : باعتبار أنه أعظم العلامات ، وقد نطقت الأخبار بنزوله عليه السلام فقد أخرج البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وأبو داود .

وابن ماجه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسقى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد " ، وفي رواية "وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فليقاتل الناس على الإسلام" وفيه "ويهلك المسيح الدجال" وفي أخرى قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم " وفي رواية "فأمكم منكم قال ابن أبي ذئب : تدري ما أمكم منكم ؟ قال : تخبرني قال : فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، والمشهور نزوله عليه السلام بدمشق والناس في صلاة الصبح فيتأخر الإمام وهو المهدي فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلي خلفه ويقول : إنما أقيمت لك .

(35/693)

وقيل بل يتقدم هو ويؤم الناس والأكثرون على اقتدائه بالمهدي في تلك الصلاة دفعاً لتوهم نزوله ناسخاً وأما في غيرها فيؤم هو الناس لأنه الأفضل والشيعة تأبى ذلك .

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام ينزل على ثنية يقال لها أفيق بفاء وقاف بوزن أمير وهي هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ويمكث في الأرض على ما جاء في رواية عن ابن عباس أربعين سنة وفي رواية سبع سنين قيل والأربعون إنما هي مدة مكثه قبل الرفع وبعده ثم يموت ويدفن في الحجرة الشريفة النبوية ، وتمام الكلام في البحور الزاخرة للسفاريني ، وعن الحسن .

وقتادة .

وابن جبير أن ضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ للقرآن لما أن فيه الإعلام بالساعة فجعله عين العلم مبالغة أيضاً ، وضعف بأنه لم يجر للقرآن ذكر هنا مع عدم مناسبة ذلك للسياق ، وقالت فرقة : يعود على النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال عليه الصلاة والسلام :

" بعثت أنا والساعة كهاتين " وفيه من البعد ما فيه .

وكأن هؤلاء يجعلون ضمير ﴿ أم هو ﴾ [الزخرف : 58] وضمير ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ [الزخرف : 59] له صلى الله عليه وسلم أيضاً وهو كما ترى ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكن في وقوعها ﴿ واتبعون ﴾ أي واتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي ، وقيل : هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم مأموراً من جهته عز وجل فهو بتقدير القول أي وقل اتبعوني

﴿ هذا ﴾ أي الذي أدعوكم إليه أو القرآن على أن الضمير في ﴿ أَنَّهُ ﴾ له ﴿ صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إلى الحق .

﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشيطان ﴾ عن اتباعي ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي بين العداوة أو مظهرها حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(36/693)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

عطف قصة من أقاصيص كفرهم وعنادهم على ما مضى من حكاية أقاويلهم ، جرت في مجادلة منهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وهذا تصدير وتمهيد بين يدي قوله : ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات ﴾ [الزخرف : 63] الآيات الذي هو المقصود من عطف هذا الكلام على ذكر رسالة موسى عليه السلام .

واقتران الكلام بـ ﴿ لما ﴾ المفيدةِ وجودَ جوابها عند وجودِ شرطها ، أو توقيتَه ، يَقْتَضِي أن مضمون شرط ﴿ لمّا ﴾ معلوم الحصول ومعلوم الزمان فهو إشارة إلى حديث جرى

بسبب مثَل ضربه ضارب لحال من أحوال عيسى ، على أن قولهم ﴿ أآلهتنا خير أم هو ﴾ يحتمل أن يكون جرى في أثناء المجادلة في شأن عيسى ، ويحتمل أن يكون مجردَ حكاية شبهة أخرى من شُبه عقائدهم ، ففي هذه الآية إجمال يبينه ما يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من جدَل جرى مع المشركين ، ويزيده بياناً قوله : ﴿ إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ [الزخرف : 59] وهذه الآية من أخفى آي القرآن معنى مراداً .

وقد اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية وما يبين إجمالها على ثلاثة أقوال ذكرها في "الكشاف" وزاد من عنده احتمالاً رابعاً .

وأظهر الأقوال ما ذكره ابن عطية عن ابن عباس وما ذكره في "الكشاف" وجهاً ثانياً ووجهاً ثالثاً أن المشركين لما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان ﴿ إنَّ مثل عيسى .

.

(37/693)

كمثل آدم ﴾ [آل عمران : 59] وليس خلقه من دون أب بأعجب من خلق آدم من دون أب ولا أم أو ذلك قبل أن تنزل سورة آل عمران لأن تلك السورة مدنية وسورة الزخرف

مكية قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ونحن عبدنا الملائكة أي يدفعون ما سفههم به النبي صلى الله عليه وسلم بأن حقه أن يسفه النصارى فنزل قوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾ الآية ولعلهم قالوا ذلك عَن تجاهل بما جاء في القرآن من ردّ على النصارى .

والذي جرى عليه أكثر المفسرين أن سبب نزولها الإشارة إلى ما تقدم في سورة الأنبياء (98) عند قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم ﴾ إذ قال عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه للنبيء صلى الله عليه وسلم أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم " هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم " قال : " خَصَمْتُك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى ابنَ مريم نبيء وقد عبدته النصارى فإن كان عيسى في النّار فقد رَضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه " ففرح بكلامه من حَضر من المشركين وضجّ أهل مكة بذلك فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم مِنّا الحُسنى أولئك عنها مُبعَدون ﴾ في سورة الأنبياء (101) ونزلت هذه الآية تشير إلى لجاجهم .

وبعض المفسرين يزيد في رواية كلام ابن الزِبَعرى : وقد عَبَدَتْ بنو مُلَيح الملائكة فإن كان عيسى والملائكة في النّار فقد رضينا .

وهذا يتلاءم مع بناء فعل ﴿ ضرب ﴾ للمجهول لأن الذي جَعل عيسى مثلاً لمجادلته هو

عبد الله بن الزِبعرَى ، وليس من عادة القرآن تسمية أمثاله ، ولو كان المثل مضروباً في القرآن لقال : ولما ضَرَبنا ابن مريم مثلاً ، كما قال بعده ﴿ وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ [الزخرف : 59] .

(38/693)

ويتلاءم مع تعدية فعل ﴿ يصدون ﴾ بحرف (مِن) الابتدائية دون حرف (عَن) ومع قوله : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ لأن الظاهر أن ضمير النصب في ﴿ ضربوه ﴾ عائد إلى ابن مريم .

والمراد بالمثَل على هذا الممثَّل به والمشبَّه به ، لأن ابن الزِبعرى نظَّر آلهتهم بعيسى في أنها عُبدت من دون الله مثله فإذا كانوا في النار كان عيسى كذلك .

ولا يُنَاكِد هذا الوجهَ إلا ما جرى عليه عد السور في ترتيب النزول من عدّ سورة الأنبياء التي كانت آيتها سَبَبَ المجادلة متأخرةً في النزول عن سورة الزخرف ولعل تصحيح هذا الوجه عندهم بَكُر بالإبطال على من جعل سورة الأنبياء متأخرة في النزول عن سورة الزخرف بل يجب أن تكون سابقة حَتَى تكون هذه الآية مذكِّرة بالقصة التي كانت سبب نزول سورة الأنبياء ، وليس ترتيب النزول بمتفق عليه ولا بمحقق السند فهو يُقبل منه ما لا

معارض له .

على أنه قد تَنزِل الآية ثم تُلْحَق بسورة نزلت قبلها .

(39/693)

فإذا رجح أن تكون سورة الأنبياء نزلت قبل سورة الزخرف كان الجواب القاطع لابن الزبعرَى في قوله تعالى فيها : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [الأنبياء : 101] لأنه يعني أن عدم شمول قوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصَبُ جهنم ﴾ [الأنبياء : 98] لعيسى معلوم لكل من له نظر وإنصاف لأن الحكم فيها إنما أسند إلى معبودات المشركين لا إلى معبود النصارى وقليل من قبائل العرب التي لم تُقصد بالخطاب القرآني أيامئذٍ ، ولما أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن الآية لجميع الأمم إنما عنى المعبودات التي هي من جنس أصنامهم لا تفقه ولا تتصف بزكاء ، بخلاف الصالحين الذين شهد لهم القرآن برفعة الدرجة قبل تلك الآية وبعدها ، إذ لا لبس في ذلك ، ويكون الجواب المذكور هنا في سورة الزخرف بقوله : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ جواباً إجمالياً ، أي ما أرادوا به إلا التمويه لأنهم لا يخفى عليهم أن آية سورة الأنبياء تفيد أن عيسى ليس حصبَ جهنم ، والمقام هنا مقام إجمال لأن هذه الآية إشارة وتذكير إلى ما سبق من الحادثة

حين نزول آية سورة الأنبياء .

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف ﴿ يصدون ﴾ بضم الصاد من الصدود إما بمعنى الإعراض والمُعرَض عنه محذوف لظهوره من المقام ، أي يعرضون عن القرآن لأنهم أوهموا بجَدَلِهِمْ أن في القرآن تناقضاً ، وإما على أن الضم لغة في مضارع صدَّ بمعنى ضجّ مثل لغة كسر الصاد وهو قول الفراء والكسائي .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بكسر الصاد وهو الصد بمعنى الضجيج والصخَب .

والمعنى : إذا قريش قومك يصخَبون ويضجّون من احتجاج ابن الزبعرَى بالمثَل بعيسى في قوله ، معجَبين بفلجه وظهور حجته لضعف إدراكهم لمراتب الاحتجاج .

والتعبير عن قريش بعنوان ﴿ قومك ﴾ .

(40/693)

للتعجيب منهم كيف فرحوا من تغلب ابن الزبعرَى على النبي صلى الله عليه وسلم بزعمهم في أمر عيسى عليه السلام ، أي مع أنهم قومك وليسوا قوم عيسى ولا أتباع دينه فكان فرحهم ظلماً من ذوي القربى ، قال زهير :

وظُلم ذوِي القربى أشدُّ مضاضةً

على المرء من وَقْع الحُسام المهنّد . . .

و(مِن) في قوله ﴿ منه ﴾ على الاحتمالين ليست لتعدية ﴿ يصدون ﴾ إلى ما في معنى المفعول ، لأن الفعل إنما يتعدّى إليه بحرف (عن) ، ولا أن الضمير المجرور بها عائد إلى القرآن ولكنها متعلقة بـ ﴿ يصدون ﴾ تعلقاً على معنى الابتداء ، أي يصدون صدّاً ناشئاً منه ، أي من المثل ، أي ضُرب لهم مثل فجعلوا ذلك المثل سبباً للصدّ .

وقالوا جميعاً : آلهتنا خير أم هو ، تلقفوها من فم ابن الزبعَرى حين قالها للنبيء صلى الله عليه وسلم فأعادوها .

فهذا حكاية لقول ابن الزبعرى : إنك تزعم أن عيسى نبيء وقد عبدَتْه النصارى فإن كان عيسى في النار قد رضينا أن نكون وآلهتُنا في النار .

والاستفهام في قوله : ﴿ آلهتنا خير أم هو ﴾ تقريري للعلم بأن النبي يفضل عيسى على آلهتهم ، أي فقد لزمك أنك جعلت أهلاً للنار مَن كنتَ تفضله فأمرُ آلهتنا هيّن .

وضمير الرفع في ﴿ ما ضربوه ﴾ عائد إلى ابن الزبعرى وقومه الذين أعجبوا بكلامه وقالوا بموجبه .

وضمير النصب الغائب يجوز أن يكون عائداً إلى المثَل في قوله : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾ ، أي ما ضربوا لك ذلك المثل إلا جدلاً منهم ، أي محاجة وإفحاماً لك وليسوا بمعتقدين

هَوْن أمر آلِهَتِهِمْ عندهم ، ولا بِطالبين الميزَ بين الحق والباطل ، فإنهم لا يعتقدون أن عيسى خير من آلهتهم ولكنهم أرادوا مجاراة النبي في قوله ليُفْضوا إلى إلزامه بما أرادوه من المناقضة .

ويجوز أن يكون ضمير النصب في ﴿ ضربوه ﴾ عائداً إلى مصدر مأخوذ من فعل ﴿ وقالوا ﴾ ، أي ما ضربوا ذلك القول ، أي ما قالوه إلا جَدلا .

(41/693)

فالضرب بمعنى الإيجاد كما يقال : ضرب بيتاً ، وقول الفرزدق:

ضَربتْ عليك العنكبوتُ بنسجها

والاستثناء في ﴿ إلا جدلاً ﴾ مفرّغ للمفعول لأجله أو للحال ، فيجوز أن ينتصب ﴿ جدلاً ﴾ على المفعول لأجله ، أي ما ضربوه لشيء إلاّ للجدل ، ويجوز أن يُنصب على الحال بتأويله بمجادلين أي ما ضربوه في حال من أحوالهم إلا في حال أنهم مجادلون لا مؤمنون بذلك .

وقوله : ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ إضراب انتقالي إلى وصفهم بحب الخصام وإظهارهم من الحجج ما لا يعتقدونه تمويهاً على عامتهم .

والخَصِم بكسر الصاد : شديد التمسك بالخصومة واللجاج مع ظهور الحق عنده ، فهو

يُظهر أن ذلك ليس بحق .

وقرأ الجمهور ﴿ آلهتنا ﴾ بتسهيل الهمزة الثانية .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي بتخفيفها .

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59)

لما ذُكر ما يشير إلى قصة جدال ابن الزبعرى في قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصَب جهنم ﴾ [الأنبياء : 98] ، وكان سبب جداله هو أن عيسى قد عُبِد من دون الله لم يترك الكلام ينقضي دون أن يردف بتقرير عبودية عيسى لهذه المناسبة ، إظهاراً لخطل رأي الذين ادعوا إلهايته وعبدوه وهم النصارى حرصاً على الاستدلال للحق .

وقد قُصِر عيسى على العبودية على طريقة قصر القلب للرد على الذين زعموه إلها ، أي ما هو إلا عبد لا إله لأن الإلهية تنافي العبودية .

ثم كان قوله : ﴿ أنعمنا عليه ﴾ إشارة إلى أنه قد فُضل بنعمة الرسالة ، أي فليست له خصوصيةُ مزيةٍ على بقية الرسل ، وليس تكوينه بدون أب إلاّ إرهاصاً .

(42/693)

وأما قوله : ﴿ وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ فهو إبطال لشبهة الذين أَلَّهوه بتوهمهم أن كونه خُلِق بكلمة من الله يفيد أنه جزء من الله فهو حقيق بالإلهية ، أي كان خلقه في بطن أمه دون أن يَقرَبَها ذكر ليكون عبرة عجيبة في بني إسرائيل لأنهم كانوا قد ضعف إيمانهم بالغيب وبعُد عهدهم بإرسال الرّسل فبعث الله عيسى مجدّداً للإيمان بينهم ، ومبرهِناً بمعجزاته على عظم قدرة الله ، ومعيداً لتشريف الله بني إسرائيل إذ جعل فيهم أنبياء ليكون ذلك سبباً لقوة الإيمان فيهم ، ومُظهراً لفضيلة أهل الفضل الذين آمنوا به ولعناد الذين منعهم الدفع عن حرمتهم من الاعتراف بمعجزاته فناصبوه العداء وسَعَوْا للتنكيل به وقتلِه فعصمه الله منهم ورفعَه من بينهم فاهتدى به أقوام وافتتن به آخرون .

فالمثَل هنا بمعنى العِبرة كالذي في قوله آنفاً ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ [الزخرف : 56] .

وفي قوله : ﴿ لبني إسرائيل ﴾ إشارة إلى أن عيسى لم يُبعث إلا إلى بني إسرائيل وأنه لم يَدْعُ غير بني إسرائيل إلى اتّباع دينه ، ومن اتبعوه من غير بني إسرائيل في عصور الكفر والشرك فإنما تقلدوا دعوته لأنها تنقذهم من ظلمات الشرك والوثنية والتعطيل .

وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60)

لما أشارت الآية السابقة إلى إبطال ضلالة الذين زعموا عيسى عليه السلام ابناً لله تعالى ، من قَصره على كونه عبداً لله أنعم الله عليه بالرسالة وأنه عبرة لبني إسرائيل عُقب ذلك بإبطال ما يماثل تلك الضلالة ، وهي ضلالة بعض المشركين في ادعاء بنوة الملائكة لله تعالى المتقدم حكايتها في قوله : ﴿ وجَعَلوا له من عباده جُزءاً ﴾ [الزخرف : 15] الآيات فأشير إلى أن الملائكة عباد لله تعالى جعَل مكانهم العوالم العليا ، وأنه لو شاء لجعلهم من سكان الأرض بدلاً عن الناس ، أي أن كونهم من أهل العوالم العليا لم يكن واجباً لهم بالذات وما هو إلا وضعٌ بجعل من الله تعالى كما جعل للأرض سكاناً ، ولو شاء الله لعكس فجعل الملائكة في الأرض بدلاً عن الناس ، فليس تشريف الله إياهم بسكنى العوالم العليا بموجب بُنوتهم لله ولا بمقتضٍ لهم إلهية ، كما لم يكن تشريف عيسى بنعمة الرسالة ولا تمييزُه بالتكوّن من دون أب مقتضياً له إلهاية وإنما هو بجعل الله وخلقه .

وجُعِل شرط ﴿ لو ﴾ فعلاً مستقبلاً للدلالة على أن هذه المشيئة لم تزل ممكنة بأن يعوِّض للملائكة سكنى الأرض .

ومعنى (مِن) في قوله : ﴿ منكم ﴾ البدلية والعِوَض كالتي في قوله تعالى : ﴿ أرَضِيتُم بالحياة الدنيا مِنَ الآخرة ﴾ [التوبة : 38] .

والمجرور متعلق بـ (جعلنا) ، وقُدّم على مفعول الفعل للاهتمام بمعنى هذه البَدَلية لتتعمق

أفهام السامعين في تدبرها .

وجملة ﴿ في الأرض يخلفون ﴾ بيان لمضمون شبه الجملة إلى قوله : ﴿ منكم ﴾ وحذف مفعول ﴿ يخلفون ﴾ لدلالة ﴿ منكم ﴾ عليه ، وتقديم هذا المجرور للاهتمام بما هو أدل على كون الجملة بياناً لمضمون ﴿ منكم ﴾ .

وهذا هو الوجه في معنى الآية وعليه درج المحققون .

ومحاولة صاحب "الكشاف" حمل ﴿ منكم ﴾ على معنى الابتدائية والاتصال لا يلاقي سياق الآيات .

(44/693)

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

الأظهر أن هذا عطف على جملة ﴿ وإنه لذكرٌ لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] ويكون ما بينهما مستطردات واعتراضاً اقتضته المناسبة .

لمّا أشبع مقام إبطال إلهية غير الله بدلائل الوحدانية ثُني العِنان إلى إثبات أن القرآن حق ، عوداً على بدْءٍ .

وهذا كلام موجه من جانب الله تعالى إلى المنكرين يوم البعث ، ويجوز أن يكون من كلام النبي

صلى الله عليه وسلم

وضمير المذكر الغائب في قوله : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ مراد به القرآن وبذلك فسَّرَهُ الحسن وقتادة وسعيد بن جبير فيكون هذا ثناء ثامناً على القرآن ، فالثناء على القرآن استمرّ متصلاً من أول السورة آخذاً بعضه بحُجز بعض متخلَّلاً بالمعترضات والمستطردات ومتخلصاً إلى هذا الثناء الأخير بأن القرآن أعلم الناس بوقوع الساعة .

ويفسره ما تقدم من قوله : ﴿ بالذي أُوحي إليك ﴾ [الزخرف : 43] ويبينه قوله بعده ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ ، على أن ورود مثل هذا الضمير في القرآن مراداً به القرآن كثير معلوم من غير معاد فضلاً على وجود معاده .

ومعنى تحقيق أن القرآن عِلْم للساعة أنه جاء بالدين الخاتم للشرائع فلم يبق بعد مجيء القرآن إلا انتظار انتهاء العالم .

وهذا معنَى ما روي من قول الرسول صلى الله عليه وسلم "بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين ، وقرن بين السبابة والوسطى مشيراً إليهما " والمشابهة في عدم الفصل بينهما .

وإسناد ﴿ عِلمٌ للساعة ﴾ إلى ضمير القرآن إسناد مجازيّ لأن القرآن سبب العلم بوقوع الساعة إذ فيه الدلائل المتنوعة على إمكان البعث ووقوعه .

ويجوز أن يكون إطلاق العلم بمعنى المُعْلِم ، من استعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل مبالغة في كونه محصلاً للعلم بالساعة إذ لم يقاربه في ذلك كتاب من كتب الأنبياء .

وقد ناسب هذا المجازَ أو المبالغة التفريع في قوله : ﴿ فلا تمترن بها ﴾ لأن القرآن لم يُبقِ لأحدٍ مِرية في أن البعث واقع .

وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن الضمير لعيسى ، وتأولوه بأن نزول عيسى علامة الساعة ، أي سبب علم بالساعة ، أي بقربها ، وهو تأويل بعيد فإن تقدير مضاف وهو نزول لا دليل عليه ويناكده إظهار اسم عيسى في قوله : ﴿ ولما جاء عيسى ﴾ [الزخرف : 63] الخ .

ويجوز عندي أن يكون ضمير ﴿ إنه ﴾ ضميرَ شأن ، أي أن الأمر المهمّ لِعلم الناسِ بوقوع الساعة .

وعُدّي فعل ﴿ فلا تمترن بها ﴾ بالباء لتضمينه معنى : لا تُكذبُن بها ، أو الباء بمعنى (في) الظرفية .

﴿ بِهَا واتبعون هذا صراط ﴾ .

يجوز أن يكون ضمير المتكلم عائداً إلى الله تعالى ، أي اتبعوا ما أرسلتُ إليكم من كلامي ورَسُولِي ، جرياً على غالب الضمائر من أول السورة كما تقدم ، فالمراد باتّباع الله : اتباع

أمره ونهيه وإرشادِه الوارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتّباع الله تمثيل لامتثالهم ما دعاهم إليه بأن شبه حال الممتثلين أمر الله بحال السالكين صراطاً دلّهم عليه دليل .

ويكون هذا كقوله في سورة الشورى (52 ، 53) ﴿ وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم صراطِ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ ويجوز أن يكون عائداً إلى النبي بتقدير : وقُل اتبعون ، ومثله في القرآن كثير .

والإشارة في هذا صراط مستقيم ﴾ للقرآن المتقدم ذكره في قوله : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ أو الإشارة إلى ما هو حاضر في الأذهان مما نزل من القرآن أو الإشارة إلى دين الإسلام المعلوم من المقام كقوله تعالى : ﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 153] .

وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً مع بقاء نون الوقاية دليلاً عليها .

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62)

لما أُبلغت أسماعُهم أفانينَ المواعظ والأوامر والنواهي ، وجرى في خلال ذلك تحذيرهم من الإصرار على الإعراض عن القرآن ، وإعلامُهم بأن ذلك يفضي بهم إلى مقارنة الشيطان ، وأخذَ ذلك حظه من البيان انتقل الكلام إلى نهيهم عن أن يحصل صدّ الشيطان إياهم عن هذا الدّين والقرآن الذي دُعوا إلى اتّباعه بقوله : ﴿ واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾ [الزخرف : 61] تنبيهاً على أن الصدود عن هذا الدّين من وسوسة الشيطان ، وتذكيراً بعداوة الشيطان للإنسان عداوة قوية لا يفارقها الدفع بالناس إلى مساوىء الأعمال ليوقعهم في العذاب تشفّياً لعداوته .

وقد صيغ النهي عن اتباع الشيطان في صدّه إياهم بصيغة نهي الشيطان عن أن يصدهم ، للإشارة إلى أن في مكنتهم الاحتفاظ من الارتباق في شباك الشيطان ، فكني بنهي الشيطان عن صدّهم عن نَهْيِهِمْ عن الطاعة له بأبلغَ من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، على طريقة قول العرب : لا أعْرِفنَّك تفعل كذا ، ولا أُلْفِينَّكَ في موضع كذا .

وجملة ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تعليل للنهي عن أن يصدهم الشيطان فإن شأن العاقل أن يحذر من مكائد عدوه .

وعداوة الشيطان للبشر ناشئة من خبث كينونته مع ما انضمّ إلى ذلك الخبث من تنافي العنصرين فإذا التقى التنافي مع خبث الطبع نشأ من مجموعهما القصد بالأذى ، وقد أذكى تلك العداوةَ حدث قارن نشأة نوع الإنسان عند تكوينه ، في قصته مع آدم كما قصه القرآن

غير مرة.

وحرف (إنَّ) هنا موقعه موقع فاء التسبب في إفادة التعليل. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(47/693)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما قدم سبحانه أنه أنعم على عيسى عليه الصلاة والسلام وجعله مثلاً لبني إسرائيل، ولوح إلى اختلافهم وأن بعضهم نزل مثله على غير ما هو به، وحذر من اقتدى بهم في نحو ذلك الضلال، وأمر باتباع الهادي، ونهى عن اتباع المضل، صرح بما كان من حالهم حين

أبرزه الله لهم على تلك الحالة الغريبة ، فقال عاطفاً على ما تقدم تقديره بعد قوله تعالى ﴿ وجعلناه مثلاً ﴾ : ﴿ ولما جاء عيسى ﴾ أي إلى بني إسرائيل بعد موسى عليهما الصلاة والسلام : ﴿ بالبينات ﴾ أي من الآيات المسموعة والمرئية ، ﴿ قال ﴾ منبهاً لهم : ﴿ قد جئتكم ﴾ ما يدلكم قطعاً على أنه آية من عند الله وكلمة منه أيضاً ﴿ بالحكمة ﴾ أي الأمر المحكم الذي لا يستطاع نقضه ولا يدفع إلا بالمعاندة لأخلصكم بذلك مما وقعتم فيه من الضلال .

(48/693)

ولما كان المراد بالحكمة ما نسخ من التوراة وغيره من كل ما أتاهم به ، فكان التقدير : لتتبعوه وتتركوا ما كنتم عليه أمراً خاصاً هو من أحكم الحكمة فقال : ﴿ ولأبين لكم ﴾ أي بياناً واضحاً جداً ﴿ بعض الذي تختلفون ﴾ أي الآن ﴿ فيه ﴾ ولا تزالون تجددون الخلافة بسببه ، وهذا البعض الظاهر بما يرشد إليه ختام الآية أنه المتشابه الذي كفروا بسببه بينه بياناً يرده إلى المحكم ، ويحتمل أن يكون بعض المتشابه ، وهو ما يكون بيانه كافياً في رد بقية المتشابه إلى المحكم بالقياس عليه ، فإن الشأن في كل كتاب أن يجمع المحكم والمتشابه ، فالمحكم ما لا لبس فيه ، والمتشابه ما يكون ملبساً ، وفيه ما يرده إلى المحكم لكن على طريق

الرمز والإشارة التي لا يذوقها إلا أهل البصائر ليتبين بذلك الصادق من الكاذب فالصادق الذي رسخ علماً وإيماناً يرد المتشابه منه إلى المحكم ، أو يعجز فيقول : الله أعلم ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، ولا يتزلزل ، والكاذب يتبع المتشابه فيجريه على ظاهره فيشبه كأهل الاتحاد الجوامد المفتونين بالمشاهدة ويؤول بحسب هواه بما لا يتمشى على قواعد العلم ولا يوافق المحكم فيفتتن .

ولما صح بهذا أن الذي أرسله الملك الأعلى الذي له الأمر كله ، فهو فعال لما يشاء ، وكان الحامل على الانتفاع بالرسل عليهم الصلاة والسلام التقوى ، سبب عنه قوله تعالى :

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي خافوه لما له من الجلال بحيث لا تقدموا على شيء إلا ببيان منه لأن له كل شيء منكم ومن غيركم ، ومن المعلوم لكل ذي عقل أنه لا يتصرف في ملك الغير بوجه من الوجوه إلا بإذنه ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أنقلكم إليه وأبينه لكم مما أبقيكم عليه ، فإني لا آخذ شيئاً إلا عنه ، ولا أتلقى إلا منه ، فطاعتي لأمره بما يرضيه هي ثمرة التقوى ، وكلما زاد المتقي في أعمال الطاعة زادت تقواه .

(49/693)

ولما أمرهم بطاعته ، علل ذلك بما أزال تهمته ما يطاع فيه ، فقال مؤكداً لما في أعمالهم من المجاملة المؤذنة بالتكذيب : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي اختص بالجلال والجمال ، فكان أهلاً لأن يتقى ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ ربي وربكم ﴾ نحن في العبودية بإحسانه إلينا وسيادته لنا على حد سواء ، فلولا أنه أرسلني لما خصني عنكم بهذه الآيات البينات

﴿ فاعبدوه ﴾ بما آمركم به لأنه صدقني في أمركم باتباع ما ظهر على يدي فصار هو الآمر لا أنا .

ولما كان دعاؤه إلى الله بما لا حظ له عليه الصلاة والسلام فيه دل قطعياً على صدقه ولا سيما وقد اقترن بالمعجزات مع كونه في نفسه في غاية الخفية لا يستطاع بعضه بوجه ، أشار إلى ذلك كله بقوله على وجه الاستنتاج مما مضى مرغباً فيه دالاً على اقتضائه الطاعة

﴿ هذا ﴾ أي الأمر العظيم الذي دعوتكم إليه ﴿ صراط ﴾ أي طريق واسع جداً واضح ﴿ مستقيم ﴾ لا عوج له .

ذكر ما يدل على أنه أتى بالحكمة من الإنجيل :

قال متى أحد مترجميه الأربعة وقد خلطت تراجمهم وأغلب السياق لمتى : فلما خرج يسوع وجاء إلى نواحي صور وصيدا إذا بامرأة كنعانية – وقال مرقس : يونانية – خرجت من تلك التخوم تصيح وتقول : ارحمني يا رب يا ابن داود ! ابنتي بها شيطان رديء ، فلم يجبها بكلمة ، فجاء تلاميذه وسألوه قائلين : اصرف هذه المرأة لأنها تصيح خلفنا ، أجاب وقال لهم : لم أرسل إلا إلى الخراف من بيت إسرائيل ، فأتت وسجدت له قائلة : يا رب أعني فأجاب : ليس هو جيداً أن يؤخذ خبز البنين فيعطى للكلاب ، فقالت : نعم ! يا رب ، والكلاب تأكل من الفتات الذي يسقط من موائد أربابها ، حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيمة أمانتك يكون لك كما أردت ، فبرئت ابنتها منه تلك الساعة ، وقال مرقس : فقال لها من أجل هذه الكلمة اذهبي ، قد خرج الشيطان من ابنتك ، فهذبت إلى ابنتها فوجدت الصبية على السرير والشيطان قد خرج منها ، فجاؤوا إليه بأخرس أصم فطلبوا إليه أن يضع يده عليه ، فأخرجوه وحده من الشعب ، وترك أصابعه في أذنيه ، وتفل ثم مس لسانه ونظر إلى السماء وشهد وقال : الفاثاً الذي هو التفتح ، وللوقت انفتح سمعه وسمع ، وانحل رباط لسانه وتكلم مستوياً ، ووصاهم أن لا يقولوا لأحد شيئاً فأتاهم فكانوا ينكرون كثيراً ويبهتون جداً ، قائلين : ما أحسن كل شيء ! يصنع الخرس يتكلمون والصم يسمعون ، وقال مرقس : ثم جاء إلى بيت صيدا فقدموا إليه أعمى ، وطلبوا منه أن يلمسه ، فأخذ بيد الأعمى ثم أخرجه خارجاً من القرية ، وتفل في عينيه ووضع يده عليه وسأله

: ما ينظر ؟ قال : أنظر الناس مثل الشجر يمشون ، فوضع يده أيضاً على عينيه ، فأبصر حيناً ونظر إلى كل شيء ظاهراً ، قال : ثم جاء إلى ناحية قيسارية فيلقس فسأل تلاميذه : ماذا يقول الناس في ابن الإنسان ؟ فقال قوم : يوحنا المعمدان ، وآخرون : إليا ، وآخرون : إرميا ، وواحد من الأنبياء ، فقال لهم : فأنتم ماذا تقولون ؟ أجاب سمعان بطرس –

(51/693)

وقال : أنت هو المسيح ، أجاب يسوع وقال له : طوبى لك يا سمعان ابن يونا لأنه ليس جسد يسعى وأبواب الجحيم لا تقوى عليه ولك أعطي ملكوت السماوات ، وما ربطته الأرض يكون مربوطاً في السماوات ، وما حللته على الأرض يكون محلولاً في السماوات ، وبدأ يسوع من ذلك الوقت يخبر تلاميذه أنه ينبغي أن يمضي إلى يروشليم ويقبل الآماً كثيرة من المشايخ ورؤساء الكهنة والكتبة ، وقال : من أراد أن يخلص نفسه فليهلكها ، وهن أهلك نفسه من أجلي وجدها ، وما ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ وماذا يعطي الإنسان فداء لنفسه ، وقال لوقا : وكان جمع كثير ينطلق فالتفت لهم وقال لهم : من يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وبنيه وإخوته وأخواته نعم حتى نفسه ، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً ، من منكم يريد أن يبني برجاً ولا يجلس أولاً ويحسب نفقته ؟ وهل له ما يكمله

لكيما يستهزىء به كل من ينظره إذا وضع الأساس ولم يقدر على إكماله ، وأي ملك يخرج إلى محاربة ملك آخر فلا يجلس أولاً ويفكر هل يستطيع أن يلقي بعشرة آلاف الموافي إيه في عشرين ألفاً إلا فما دام بعيداً منه يرسل رسلاً رسل سلامة ، وهكذا كل منكم إن لم يرفض كل شيء له لا يقدر أن يكون لي تلميذاً ، وذكر لوقا أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام كان في وليمة فقال مثلاً لأنهم كانوا يتخيرون المتكآت فقال لهم : متى دعاك أحد إلى عرس فلا تجلس في أول الجماعة ، فلعله قد دعا هناك أكرم منك عليه فيأتي الذي دعاه فيقول له : يا حبيب ! ارتفع إلى فوق ، حينئذ يكون لك مجداً قدام المتكئين معك لأن كل من يرتفع يتضع ، وكل من يتضع يرتفع ، وقال للذي دعاه : وإذا صنعت وليمة فلا تدع أحباءك ولا إخوتك ولا أقاربك ولا أغنياء جيرانك لعلهم أن يدعوك أيضاً فيكون لك مكافأة ، لكن إذا صنعت طعاماً فادع المساكين والعور والضعفاء والعميان ، وطوباك لأنه ليس لك ما يكافئونك ، ومجازاتك تكون في قيامة الصديقين ، فسمع واحد من

(52/693)

المتكئين ذلك ، فقال له : طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله ، وقال متى : وجاء تلاميذ يسوع إليه وقالوا له : من هو العظيم في ملكوت السماوات ، فدعا طفلاً وأقامه بينهم وقال :

الحق أقول : إن لم ترجعوا وتكونوا مثل الصبيان لا تدخلوا ملكوت السماوات ، ومن اتضع مثل هذا الصبي فهو العظيم في ملكوت السماوات ، ومن قبل صبياً مثل هذا باسمي فقد قبلني ، قال مرقس : ومن قبلني فليس يقبلني فقط بل والذي أرسلني ، وقال لوقا : ومن قبلني فقد قبل الذي أرسلني ، والذي هو الصغير فيكم هو الأكبر ، قال متى : ومن شك أحد هؤلاء الصغار المؤمنين فخير أن يعلق حجر الرحى في رقبته ، ويغرق في البحر ، الويل للعالم من الشكوك لكمن الويل للإنسان الذي يأتي منه الشكوك ، إن شكتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك ، فخير لك أن تدخل الحياة وأنت أعرج أو أعشم من أن يكون لك يدان أو رجلان وتلقى في نار الأبد ، وقال مرقس : وتذهب إلى جهنم حتى لا تطفأ نارها ولا يموت دورها – انتهى .

(53/693)

وإن شكتك عينك فاقلعها وألقها عنك فخير لك أن تدخل الحياة بعين واحدة من أن يكون لك عينان وتلقى في جهنم ، وقال مرقس : وكل شيء بالنار يملح وكل ذبيحة تملح بالملح جيد هو الملح ، فإن فسد الملح فبما ذا يملح فليكن فيكم الملح ، ويكون سلام بعضكم بعضاً ، وقال لوقا : ثم قال : من أجل أقوام يقولون : إنهم صديقون ويحقرون البقية ، هذا

المثل رجلان صعدا إلى الهيكل ليصليا ، أحدهما فريسي والآخر عشار ، فأما الفريسي فإنه كان يصلي بهذا في نفسه : اللهم إني أشكرك لأني لست مثل سائر الناس العاصين الظلمة الفجار ، ولا مثل هذا العشار ، فكان قائماً من بعيد ولا يرى أن يرفع عينيه إلى السماء ، وكان يضرب على صدره ويقول : اللهم اغفر لي فإني خاطئ ، أقول لكم : إن هذا نزل إلى بيته أمر من ذلك لأن كل من يرفع نفسه يتضع ، ولك من يضع نفسه يرتفع ، ثم قدم إليه صبيان ليضع يده عليهم ، فلما نظرهم التلاميذ نهروهم فقال : دعوا الصبيان يأتوا إليّ ولا تمنعوهم لأن ملكوت الله لمثل هؤلاء ، الحق أقول لكم ، إن من لا يقبل ملكوت الله مثل صبي لا يدخلها ، وقال متى : انظروا لا تحقروا أحد هؤلاء الصغار ، لم يأت ابن الإنسان إلا ليطلب ويخلص من كان ضالاً ، ماذا تظنون إذا كان الإنسان مائة خروف فضل منها واحد ليس يترك التسعة والتسعين في الجبل ، ويمضي يطلب الضال ؟ وقال لوقا : حتى يجده ، الحق أقول لكم ، إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تضل ، هكذا ليس مشيئة ربي الذي في السماوات أن يهلك أحد من هؤلاء الصغار ، وقال لوقا : ودنا منه العشارون والخطأة ليسمعوا منه فتذمر الفريسيون والكتبة قائلين : هذا يقبل الخطأة ويأكل معهم ، فقال لهم : أي رجل منكم له مائة خروف فيتلف واحد منها ليس يترك التسعة والتسعين في البرية ويمضي إلى الضال حتى يجده ، فإذا وجده حمله على منكبيه فرحاً ، ويأتي به إلى بيته ويدعو أصدقاءه وجيرانه ويقول لهم : افرحوا معي لوجودي خروفي

الضال ، أقول لكم : إنه يكون فرح في السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من التسعة والتسعين الصديق الذين لا يحتاجون إلى توبة ، وأي امرأة لها عشرة دراهم يتلف واحد منها أليس توقد سراجاً وتكنس بيتها وتطلبه مجتهدة حتى تجده ، فإذا وجدته دعت أحبابها وجاراتها قائلة : افرحوا لي لوجودي درهمي الضال ، هكذا أقول لكم : يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب ، وقال : إنسان له ابنان فقال الأصغر يا أبتاه ! أعطني نصيبي من مالك فقسم بينهما ماله ، وبعد أيام قليلة جمع الأصغر كل شيء له وسافر إلى كورة بعيدة ، وبذر ماله هناك بعيش بذخ ، فلما نفد كل شيء له حدث جوع شديد في تلك الكورة فافتقر وانقطع إلى رجل منها فأرسله إلى حقله يرعى خنازير ، وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله ، فلا يعطى ذلك ، ففكر في نفسه وقال : كم من أجراء أبي يفضل عنهم الخبز وأنا ههنا أهلك جوعاً ، أقوم أمضي إلى أبي وأقول : يا أبتاه ! أخطأت في السماء وبين يديك ، ولست بمستحق أن أدعى لك ابناً لكن اجعلني كأحد أجرائك فجاء إليه فنظره أبوه فتحنن وأسرع واعتنقه وقبله فقال : يا أبتاه ! أخطأت في السماء وقدامك ، ولست بمستحق أن ادعى لك ابناً ، فقال أبوه لعبيده : قدموا الحلة

الأولى وألبسوه وأعطوه خاتماً في يده ، وحذاء في رجليه ، وائتوا بالعجل المعلوف واذبحوه ونأكل ونفرح لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش ، وضالاً فوجد ، فبدؤوا يفرحون ، وكان ابنه الأكبر في الحقل ، فلما جاء وقرب من البيت سمع المزاهر واتفاق الأصوات والرقص ، فدعا واحداً من الغلمة وسأله فقال له : إن أخاك قدم ، وذبح أبوك العجل المعلوف ، فغضب ولم يرد أن يدخل ، فخرج أبوه وطلب إليه فقال : كم لي من سنة أخدمك ولم أخالف لك وصية قط ولم تعطني جدياً واحداً أتنعم به مع أصدقائي ، فلما جاء ابنك هذا الذي أكل مالك مع الزناة ذبحت له العجل المعلوف ، فقال له : يا بني ! أنت معي في كل حين وفي كل

(55/693)

شيء هو لي ، وينبغي لك أن تسر وتفرح لأن أخاك هذا كان ميتاً فعاش ، وضالاً فوجد .

وقال : رجل كان غنياً يلبس الأرجوان وكان يتنعم كل يوم ويلذ ، ومسكين كان اسمه العازر مطروحاً عند بابه مضروباً بقروح ، وكان يشتهي أن يشبع من الفتات الذي يسقط من مائدة ذلك الغني ، وكانت الكلاب تأتي وتلطع قروحه ، فلما مات ذلك المسكين أخذته الملائكة إلى حصن إبراهيم ، ومات ذلك الغني وقبر فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ، فنظر إبراهيم من بعيد والعازر في حصنه ، فنادى : يا أبتاه إبراهيم ! ارحمني وأرسل العازر ليبل

طرف إصبعه بما يبرد لساني لأني معذب في اللهب ، فقال له إبراهيم : يا ابني اذكر أنك قد قتلت جيرانك في حياتك والعازر في بلائه والآن فهو يستريح ههنا وأنت تعذب ، ومع ذلك فبيننا وبينكم أهوية عظيمة نائية لا يقدر أحد على العبور من ههنا إليكم ، ولا من هنا إلينا ، قال له : أسألك يا أبتاه أن ترسله إلى بيت أبي ، فإن خمسة أخوة لكي يناشدهم لئلا يأتوا إلى موضع هذا العذاب ، قال له إبراهيم : عندهم موسى والأنبياء فليسمعوا منهم ، فقال له : يا أبتاه إبراهيم ! إن لم يمض إليهم واحد من الأموات ما يتوبون ؟ فقال له : إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء فليس إن قام واحد من الأموات يصدقونه ، وقال لتلاميذه : سوف تأتي الشكوك والويل ، الذي تأتي الشكوك من قبله خير له لو علق حجر رحى الحمار في عنقه ويطرح في البحر من أن يشك أحداً من هؤلاء الضعفاء – والله أعلم .

ولما كان الطريق الواضح القديم موجباً للاجتماع عليه ، والوفاق عند سلوكه ، بين أنهم سببوا عنه بهذا الوعظ غير ما يليق بهما بقوله : ﴿ فاختلف ﴾ وبين أنهم أكثروا الاختلاف بقوله : ﴿ الأحزاب ﴾ أي إنهم لم يكونوا فرقتين فقط ، بل فرقاً كثيرة .

(56/693)

ولما كانت العادة أن يكون الخلاف بين أمتين وقبيلتين ونحو ذلك ، وكان اختلاف الفرقة الواحدة عجباً ، بين أنهم من أهل القسم فقال : ﴿ من بينهم ﴾ أي اختلافاً ناشئاً ابتدأ من بين بني إسرائيل الذين جعلناهم مثلاً لهم : وقال لهم : قد جئتكم بالحكمة ، فسبب عن اختلافهم قوله : ﴿ فويل ﴾ وكان أن يقال : لهم ، ولكنه ذكر الوصف الموجب للويل تعميماً وتعليقاً للحكم به .

ولما كان في سياق الحكمة ، وهو وضع الشيء في أتقن مواضعه ، جعل الوصف الظلم الذي أدى إليه الاختلاف فقال : ﴿ للذين ظلموا ﴾ أي وضعوا الشيء في غير موضعه مضادة لما أتاهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ به من الحكمة ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ أي مؤلم ، وإذا كان اليوم مؤلماً لما الظن بعذابه .

ولما عم الظالمين بالوعيد بذلك اليوم فدخل فيه قريش وغيرهم ، أتبعه ما هو كالتعليل مبرزاً له في سياق الاستفهام لأنه أهول فقال : ﴿ هل ﴾ وجرد الفعل إشارة إلى شدة القرب حتى كأنه بمرأى فقال : ﴿ ينظرون ﴾ أي ينتظرون ﴿ إلا الساعة ﴾ أي ساعة الموت العام والبعث والقيام ، فإن ذلك لتحقق أمره كأنه موجود منظور إليه .

ولما قدم الساعة تهويلاً تنبيهاً على أنها لشدة ظهور دلائلها كأنها مرئية بالعين هزاً لهم إلى تقليب أبصارهم لتطلب رؤيتها ، أبدل منها زيادة في التهويل قوله تعالى : ﴿ أن تأتيهم ﴾ وحقق احتمال رؤيتها بقوله : ﴿ بغتة ﴾ ولما كان البعث قد يطلق على ما يجهل من بعض

الوجوه ، أزال هذا الاحتمال بقوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي لا يحصل لهم بعين الوقت الذي يجيء نوع من أنواع العلم ، ولا بما كالشعرة منه .

(57/693)

ولما كانت الساعة تطلق على الحبس بالموت وعلى النشر بالحياة ، بين ما يكون في الثاني الذي هم له منكرون من أحوال المبعوثين على طريق الاستئناف في جواب من يقول : هل يقومون على ما هم عليه الآن ؟ فقال : ﴿ الأخلاء ﴾ أي في الدار ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ تكون الساعة وهي ساعة البعث التي هي بعض مدلول الساعة ﴿ بعضهم لبعض عدو ﴾ ولما ينكشف لهم من أن تأخيرهم في الحياة هو السبب في عذابهم ، فيقول التابع للمتبوع : أنت غررتني فضررتني ، ويقول المتبوع : بل أنت كبرتني فصغرتني ، ورفعتني فوضعتني ، ونحو هذا من الكلام المؤلم أشد الإيلام ﴿ إلا المتقين ﴾ الذين تقم أمرهم بالتقوى وحثهم عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 43 . 50 ﴾

(58/693)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾

اعلم أنه تعالى ذكر أنه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ وهي معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ يعني أن قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على أشياء فجاء عيسى ليبين لهم الحق في تلك المسائل الخلافية ، وبالجملة فالحكمة معناها أصول الدين و ﴿ بعض الذي تختلفون فيه ﴾ معناه فروع الدين ، فإن قيل لم لم يبين لهم كل الذي يختلفون فيه ؟ قلنا لأن الناس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها ، فلا يجب على الرسول بيانها ، ولما بين الأصول والفروع قال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ في الكفر به والإعراض عن دينه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أبلغه إليكم من التكاليف ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ والمعنى ظاهر ﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ أي الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وقيل اليهود والنصارى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ وهو وعيد بيوم الأحزاب ، فإن قيل قوله ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ الضمير فيه إلى من يرجع ؟ قلنا إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ وهم قومه .

ثم قال : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ فقوله أن تأتيهم بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة .

فإن قالوا قوله ﴿ بَغْتَةً ﴾ يفيد عين ما يفيده قوله ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ فما الفائدة فيه ؟

قلنا يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه .

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67)

(59/693)

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ [الزخرف : 66] ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة فأولها قوله تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ والمعنى ﴿ الأخلاء ﴾ في الدنيا ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني في الآخرة ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ يعني أن الخلة إذا كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة ﴿ إِلاَّ المتقين ﴾ يعني الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى ، فإن خلتهم لا تصير عداوة ، وللحكماء في تفسير هذه الآية طريق حسن ، قالوا إن المحبة أمر لا يحصل إلا عند اعتقاد حصول خير أو دفع ضرر ، فمتى حصل هذا الاعتقاد حصلت المحبة لا محالة ، ومتى حصل اعتقاد أنه يوجب ضرراً حصل البغض والنفرة ، إذا عرفت هذا

فنقول : تلك الخيرات التي كان اعتقاد حصولها يوجب حصول المحبة ، إما أن تكون قابلة للتغير والتبدل ، أو لا تكون كذلك ، فإن كان الواقع هو القسم الأول ، وجب أن تبدل تلك المحبة بالنفرة ، لأن تلك المحبة إنما حصلت لاعتقاد حصول الخير والراحة ، فإذا زال ذلك الاعتقاد ، وحصل عقيبه اعتقاد أن الحاصل هو الضرر والألم ، وجب أن تتبدل تلك المحبة بالبغضة ، لأن تبدل العلة يوجب تبدل المعلول ، أما إذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة ، خيرات باقية أبدية ، غير قابلة للتبدل والتغير ، كانت تلك المحبة أيضاً محبة باقية آمنة من التغير ، إذا عرفت هذا الأصل فنقول الذين حصلت بينهم محبة ومودة في الدنيا ، إن كانت تلك المحبة لأجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها ، فهذه المطالب لا تبقى في القيامة ، بل يصير طلب الدنيا سبباً لحصول الآلام والآفات في يوم القيامة ، فلا جرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة في القيامة ، أما إن كان الموجب لحصول المحبة في الدنيا الاشتراك في محبة الله وفي خدمته وطاعته ، فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير ، فلا جرم كانت هذه

المحبة باقية في القيامة ، بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت في الدنيا ، فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 191.192 ﴾

(61/693)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عيسى بالبينات ﴾

قال ابن عباس : يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، وخَلْقَ الطير ، والمائدة وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب .

وقال قتادة : البينات هنا الإنجيل .

﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ أي النبوّة ؛ قاله السُّدّي .

ابن عباس : علم ما يؤدي إلى الجميل ويكف عن القبيح .

وقيل الإنجيل ؛ ذكره القشيري والماوردي .

﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ (قال مجاهد : من تبديل التوراة .

الزجاج : المعنى لأبين لكم في الإنجيل بعض الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة .

قال مجاهد : وبيّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه .

وقيل : بيّن لهم بعض الذي اختلفوا فيه من أحكام) التوراة على قدر ما سألوه .

ويجوز أن يختلفوا في أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها .

وقيل : إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبيّن لهم أمر دينهم .

ومذهب أبي عبيدة أن البعض بمعنى الكل ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر : 28] .

وأنشد الأخفش قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها . . .

أو تعتلق بعض النفوس حِمامها

والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض .

ويقال للمنية : عَلُوق وعَلاّقة .

قال المفضل البكري :

وسائلة بثَعْلَبَة بن سَيْر . . .

وقد عَلِقت بثعلبة العَلُوقُ

وقال مقاتل : هو كقوله : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : 50] .

يعني ما أحل في الإنجيل مما كان محرّماً في التوراة ؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت .

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده ؛ وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلها أو ابن إله .

﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره .

(62/693)

﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي عبادة الله صراط مستقيم ، وما سواه معوّج لا يؤدّي سالكه إلى الحق .

قوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ قال قتادة : يعني ما بينهم ، وفيهم قولان :

أحدهما أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضاً ؛ قاله مجاهد والسُّدّي .

الثاني فرق النصارى من النُّسْطُورِية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا في عيسى ؛ فقالت النسطورية : هو ابن الله .

وقالت اليعاقبة : هو الله .

وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله ؛ قاله الكلبي ومقاتل ، وقد مضى هذا في سورة "مريم" .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي كفروا وأشركوا ؛ كما في سورة "مريم" .

﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي أليم عذابه ؛ ومثله : ليل نائم ؛ أي ينام فيه .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ يريد الأحزاب لا ينتظرون .

﴿ إِلاَّ السَّاعَةَ ﴾ يريد القيامة .

﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة .

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يفطنون .

وقد مضى في غير موضع .

وقيل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا الساعة .

ويكون "الْأَحْزَابُ" على هذا ، الذين تحزّبوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذّبوه من المشركين .

ويتصل هذا بقوله تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يريد يوم القيامة .

﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي أعداء ، يعادي بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً .

﴿ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في أميّة بن خلف الْجُمَحِيّ وعُقْبة بن أبي مُعَيْط ، كانا خليلين ؛ وكان عقبة يجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبي مُعَيط ؛ فقال له أميّة : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تَتْفُل في وجهه ؛ ففعل عقبة ذلك ؛ فنذر النبي صلى الله عليه وسلم قتله فقتله يوم بدرٍ صَبْراً ، وقُتل أميّة في المعركة ؛ وفيهم نزلت هذه الآية .

(وذكر الثعلبي رضي الله عنه في هذه الآية) قال : كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فمات أحد المؤمنين فقال : يا رب ، إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ، وكان يأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، ويخبرني أني ملاقيك ، يا رب فلا تُضِلّه بعدي ، واهده كما هديتني ، وأكرمه كما أكرمتني .

فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما ، فيقول الله تعالى : لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول : يا ربّ ، إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، ويخبرني أني ملاقيك ، فيقول الله تعالى : نِعم الخليل ونعم الأخ ونعم الصاحب كان .

قال : ويموت أحد الكافرين فيقول : يا رب ، إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويخبرني أني غير ملاقيك ، فأسألك يا رب ألاّ تَهْدِه بعدي ، وأن تضله كما أضللتني ، وأن تهينه كما أهنتني ؛ فإذا مات خليله الكافر قال الله تعالى لهما : لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول : يا ربّ ، إنه كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك ، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب ؛ فيقول الله تعالى : بئس الصاحب والأخ والخليل كنت .

فيلعن كل واحد منهما صاحبه .

قلت : والآية عامة في كل مؤمن ومتقٍ وكافر ومُضِل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(64/693)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾

(65/693)

أي ضربَهُ ابنُ الزِّبَعْرَى حينَ جادلَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ حيثُ قالَ أهذا لنَا ولآلهتِنا أو لجميعِ الأممِ . فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : هو لكمُ ولآلهتِكم ولجميعِ الأممِ . فقالَ اللعينُ : خصمتُكَ وربِّ لكعبةِ ، أليسَ النَّصارى يعبُدونَ المسيحَ واليهودَ عزيراً وبنو مُليحٍ الملائكةَ فإنْ كانَ هؤلاءِ في النَّارِ فقد رضينا أن نكونَ نحنُ وآلهتُنا معهُم . ففرِحَ به قومُه وضحِكُوا وارتفعتْ أصواتُهم . وذلكَ قولُه تعالى ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ ﴾ أي منْ ذلكَ المثلِ ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ أي يرتفعُ لهم جلبةٌ وضجيجٌ فرحاً وجذلاً . وقُرِىءَ يَصُدُّونَ أيْ من أجلِ ذلكَ المثلِ يُعرضُونَ عنِ الحقِّ أي يثبُتونَ على ما كانُوا عليهِ من الإعراضِ أو يزدادونَ فيهِ ، وقيلَ : هو أيضاً من الصديدِ ، وهما لغتانِ فيه نحو يَعْكُفُ ويَعْكِفُ وهو الأنسبُ بمَعْنى المفاجأةِ . ﴿ وَقَالُواْ ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ حكايةٌ لطرفٍ من المثلِ المضروبِ ، قالُوه تمهيداً لما بَنَوا عليهِ من الباطلِ المُموَّهِ بما يغترُّ به السُّفهاءُ ، أي ظاهرٌ أنَّ عيسَى خيرٌ من آلهتِنا فحيثُ كانَ هُو في النَّارِ فلا بأسَ بكونِنا مع آلهتِنا فيها . واعلمْ أنَّ ما نُقلَ عنهم من الفرحِ ورفعِ الأصواتِ لم يكُن لما قيلَ : من أنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سكتَ عندَ ذلكَ إلى أنْ نزلَ قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ الآيةَ . فإنَّ ذلكَ معَ إيهامِه لما يجبُ تنزيه ساحتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عنْهُ من شائبةِ الإفحامِ من أولِ الأمرِ خلافُ الواقعِ كيفَ لاَ وقد رُويَ أن قولَ ابنِ

الزَّبعرَى : خصمتُكَ وربُّ الكعبةِ صدرَ عنْهُ من أولِ الأمرِ عند سماعِ الآيةِ الكريمةِ بلغةِ قومِك أما فهمتَ أنَّ مَا لَما لا يعقلُ .

(66/693)

وإنَّما لم يخصَّ عليهِ السَّلامُ هذا الحكمَ بآلهتِهم حينَ سألَ الفاجرُ عن الخصوصِ والعمومِ عملاً بما ذُكرَ من اختصاصِ كلمةِ مَا بغيرِ العُقلاءِ لأنَّ إخراجَ بعضِ المعبودينَ عنْهُ عند المحاجَّةِ موهمٌ للرخصةِ في عبادتِه في الجملةِ فعمَّمَهُ عليه السَّلامُ للكلِّ لكنْ لا بطريقِ عبارةِ النصِّ بل بطريقِ الدلالةِ بجامعِ الاشتراكِ في المعبوديةِ من دونِ الله تعالى ، ثمَّ بينَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقولِه بل هُم عبدُوا الشياطينَ التي أمرتْهُم بذلكَ أن الملائكةَ والمسيحَ بمعزلٍ من أنْ يكونُوا معبوديهم كما نطقَ به قولُه تعالى : ﴿ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجن ﴾ الآيةَ وقد مرَّ تحقيقُ المقامِ عند قولِه تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ الآيةَ . بلْ إنَّما كانَ ما أظهرُوه من الأحوالِ المنكرةِ لمحضِ وقاحتِهم وتهالُكِهم على المكابرةِ والعنادِ كما ينطقُ به قولُه تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ أي ما ضَرَبُوا لكَ ذلكَ المثلَ إلا لأجلِ الجدالِ والخصامِ لا لطلبِ الحقِّ حتَّى يذعنُوا له عندَ ظهورِه ببيانكَ .

(67/693)

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي لُدٌّ شدادُ الخصومةِ مجبولونَ على الحْكِ واللَّجاجِ. وقيلَ: لَمَّا سمعُوا قولَه تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ قالُوا نحنُ أهدَى من النَّصارى لأَنَّهم عبدُوا آدمياً ونحنُ نعبدُ الملائكةَ فنزلتْ، فقولُهم: ﴿ أَءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ حينئذٍ تفصيلٌ لآلهتِهم عَلَى عيسَى عليهِ السَّلامُ؛ لأنَّ المرادَ بهم الملائكةُ، ومَعْنى ما ضربُوه الخ ما قالُوا هذا القولَ إلا للجدلِ، وقيلَ: لَمَّا نزلتْ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى ﴾ الآيةَ قالُوا ما يريدُ محمدٌ بهذا إلا أنْ نعبدَهُ وأنه يستأهلُ أنْ يعبدَ وإنْ كانَ بشراً كما عبدتِ النَّصارى المسيحَ وهو بشرٌ. ومَعْنى يَصِدُّونَ يَضجُّونَ ويضجرونَ. والضميرُ في أَمْ هُو لمحمدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وغرضُهم بالموازنةِ بينَهُ عليهِ السَّلامُ وبين آلهتِهم الاستهزاءُ به، وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ مرادُهم التنصلَ عمَّا أُنكرَ عليهم من قولِهم: الملائكةُ بناتُ اللهِ تعالَى. ومن عبادتِهم لهم كأَنَّهم قالُوا ما قلنا بدعاً من القولِ ولا فعلنَا مُنكراً من الفعلِ فإنَّ النَّصارَى جعلُوا المسيحَ ابنَ اللهِ وعبدُوه فنحنُ أشفُّ منهم قولاً وفعلاً حيثُ نسبنَا إليهِ الملائكةَ وهُم نسبُوا إليهِ الأَنَاسِيّ.

فقولُه تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي بالنبوةِ ﴿ وجعلناه مَثَلاً لِّبَنِى ﴾ أي أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسيرَ ذكرُه كالأمثالِ السائرةِ . على الوجهِ الأولِ استئنافٌ مسوقٌ لتنزيهِهِ عليهِ السَّلامُ عن أنْ يُنسبَ إليه ما نُسبَ إلى الأصنامِ بطريقِ الرمزِ كما نطقَ به صريحاً قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ الآيةَ وفيه تنبيهٌ على بُطلانِ رأيِ من رفعَهُ عن رُتبةِ العبوديةِ وتعريضٌ بفسادِ رأيِ مَنْ يَرَى رأيَهم في شأنِ الملائكةِ وعلى الثانِي والرابعِ لبيانِ أنَّه قياسُ باطلٍ بباطلٍ أو بأبطلَ على زعمِهم وما عيسَى إلا عبدٌ كسائرِ العبيدِ قُصَارى أمرِه أنَّه ممن أنعمَنا عليهم بالنبوةِ وخصصنَاهُ ببعضِ الخواصِّ البديعةِ بأنْ خلقناهُ بوجهٍ بديعٍ وقد خلقَنا آدمَ بوجهٍ أبدعَ منْهُ فأينَ هُو من رُتبةِ الربوبيةِ ، ومن أينَ يتوهمُ صحةُ مذهبِ عبدِته حتَّى يفتخرَ عبدةُ الملائكةِ بكونِهم أهْدَى منهُم أو يعتذرُوا بأنَّ حالَهم أشفُّ أو أخفُّ من حالِهم ، وأمَّا على الوجهِ الثَّالثِ فهو لردِّهم وتكذيبِهم في افترائِهم عَلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ببيانِ أنَّ عيسَى في الحقيقةِ وفيما أُوحيَ إلى الرسولِ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ ليسَ إلاَّ أنَّه عبدٌ منعمٌ عليهِ كما ذُكِرَ فكيفَ يرضى عليهِ السَّلامُ بمعبوديتِه أو كيفَ يُتوهَم الرضَا بمعبوديةِ نفسِه . وقولُه تعالَى : ﴿ وَلَوْ نَشَاء ﴾ الخ لتحقيقِ أنَّ مثلَ عيسَى عليهِ السلامُ ليسَ ببدعٍ من قدرةِ الله وأنَّه تعالَى قادرٌ على أبدعَ منْ ذلكَ وأبرعَ ، مع التنبيهِ على سقوطِ الملائكةِ أيضاً من درجةِ المعبوديةِ أي قدرتُنا بحيثُ لو نشاءُ ﴿ لَّجَعَلْنَا ﴾ أي لخلقَنا بطريقِ التوالدِ ﴿ مِّنكُمْ ﴾ وأنتمُ رجالٌ ليسَ من شأنِكم الولادةُ

﴿ مَلَائِكَةً ﴾ كما خلقناهُم بطريقِ الإبداعِ ﴿ فِى الأرض ﴾ مستقرينَ فيها كما جعلناهُم مستقرينَ في السماءِ ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ أي يخلُفونكُم مثلَ أولادِكم فيمَا تأتونَ وما تذرونَ ويُباشرونَ الأفاعيلَ المنوطةَ بمباشرتكم مع أنَّ شأنَهُم التسبيحُ والتقديسُ في السماءِ فمَنْ شأنُهم بهذه المثابةِ بالنسبةِ إلى القدرةِ الربانيةِ كيفَ يُتوهمُ استحقاقُهم للمعبوديةِ أو انتسابُهم إليهِ تعالَى عن ذلكَ عُلواً كبيراً .

﴿ وَأَنَّهُ ﴾ وإنَّ عيسَى ﴿ لَعِلْمٌ للسَّاعَةِ ﴾ أي إنَّه بنزولِه شرطٌ من أشراطِها ، وتسميتُه عِلماً لحصولِه به أو بحدوثِه بغيرِ أبٍ ، أو بإحيائِه المَوْتى دليلٌ على صحةِ البعثِ الذي هو معظمُ ما ينكرُهُ الكفرةُ من الأمورِ الواقعةِ في الساعةِ وقُرِىءَ لَعَلَمٌ أي علامةٌ وقُرِىءَ للعِلْم وقُرِىءَ لذِكرٌ على تسميةِ ما يُذكرُ بهِ ذكراً كتسميةَ ما يُعلمُ بهِ علماً . وفي الحديثِ : " إنَّ عيسَى عليهِ السَّلامُ ينزلُ على ثنيةٍ بالأرضِ المقدسةِ يقالُ لها أفيقُ وعليهِ مُمصَّرتانِ وبيدِه حَرْبةٌ وبها يقتلُ الدجَّالَ فيأتي بيتَ المقدسِ ، والنَّاسُ في صلاةِ الصُّبحِ فيتأخرُ الإمامُ فيُقدِّمُهُ عيسَى عليهِ السَّلامُ ويُصلِّي خلفَهُ على شريعةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ثم يقتلُ الخنازيرَ ويكسرُ الصليبَ ويُخرِّبُ البِيعَ والكنائسَ ويقتلُ النَّصارَى إلا منْ آمنَ به " . وقيلَ :

الضميرُ للقُرآنِ لما أنَّ فيهِ الإعلامَ بالسَّاعةِ ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكُنَّ في وقوعِها ﴿ واتبعون ﴾ أيْ واتبعُوا هُدايَ أو شَرْعي أو رَسُولى ، وقيلَ : هُو قولُ الرسولِ مأموراً من جهتِه تعالَى ﴿ هذا ﴾ أي الذي أدعُوكم إليهِ أو القُرآنُ على أنَّ الضميرَ في إنَّه لهُ ﴿ صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصلٌ إلى الحقِّ .

(70/693)

﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشيطان ﴾ عن اتِّباعِي ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ بيِّنُ العداوةِ حيثُ أخرجَ أباكُم من الجنةِ وعرَّضكُم للبليةِ .

﴿ وَلَمَّا جَاء عيسى بالبينات ﴾ أي بالمعجزاتِ أو بآياتِ الإنجيلِ أو بالشرائعِ الواضحاتِ ﴿ قَالَ ﴾ لبني إسرائيلَ ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ أى الإنجيل أو الشريعة ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم ﴾ عطف على مقدر ينبىء عنه المجيء بالحكمة كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة لأعلِّمَكُم إيَّاها ولأبين لكم ﴿ بَعْضَ الذى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهُو ما يتعلقُ بأمورِ الدِّينِ ، وأما ما يتعلقُ بأمورِ الدُّنيا فليسَ بيانُه من وظائفِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ كما قالَ عليهِ السَّلامُ : " أنتمُ أعلمُ بأمورِ دُنياكُم " . ﴿ فاتقوا الله ﴾ في مُخالفتِي ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أُبلِّغه عنْهُ

تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ بيانٌ لما أمرَهُم بالطاعةِ فيهِ ، وهُو اعتقادُ التَّوحيدِ والتَّعبدُ بالشرائعِ ﴿ هذا ﴾ أي التوحيدُ والتَّعبدُ بالشرائعِ ﴿ صراطٌ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضِلّ سالِكُه وهُو إمَّا من تتمة كلامِه عليه السَّلامُ أو استئنافٌ من جهتِه تعالى مقررٌ لمقالةِ عيسَى عليه السَّلامُ . ﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ الفِرقُ المتحزبةُ ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ أي مِن بينِ مَنْ بُعثَ إليهم من اليهُودِ والنصَّارَى . ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ من المختلفينَ ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ هو يومُ القيامةِ . ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أيْ ما ينتظرُ النَّاسُ ﴿ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ ﴾ أي إلا إتيانَ الساعةِ . ﴿ بَغْتَةً ﴾ أيْ فجأةً لكنْ لا عندَ كونِهم مترقبينَ لها بل غافلينَ عنها مشتغلينَ بأمورِ الدُّنيا منكرينَ لها وذلكَ قولُه تعالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ .

(71/693)

﴿ الأخلاء ﴾ المتحابُّون في الدُّنيا على الإطلاقِ أو في الأمورِ الدُّنيوية ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يومَ إذْ تأتيهُم الساعةُ ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ لانقطاعِ ما بينَهم منْ علائقِ الخُلَّةِ والتَّحابّ لظهورِ كونِها أسباباً للعذابِ . ﴿ إِلاَّ المتقين ﴾ فإنَّ خُلَّتَهم في الدُّنيا لمَّا كانتْ في اللهِ تبقَى على حالِها بل تزدادُ بمشاهدةِ كلٍ منهُم آثارَ خُلَّتِهم من الثوابِ ورفعِ الدَّرجاتِ ، والاستثناءُ

على الأولِ متصلٌ وعلى الثَّانِي منقطِعٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(72/693)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا جَاء عيسى بالبينات ﴾

بالأمور الواضحات وهي المعجزات أو آيات الإنجيل أو الشرائع ولا مانع من إرادة الجميع ﴿ قَالَ ﴾ لبني إسرائيل ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ أي الإنجيل كما قال القشيري :

والماوردي ، وقال السدي : بالنبوة ، وفي رواية أخرى عنه هي قضايا يحكم بها العقل ،

وقال أبو حيان : أي بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ، وقال الضحاك : أي بالموعظة ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم ﴾ متعلق بمقدر أي وجئتكم لأبين لكم ، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله ليؤذن بالاهتمام بالعلة حيث جعلت كأنها كلام برأسه .

وفي "الإرشاد" هو عطف على مقدر ينبىء عنه المجىء بالحكمة كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولأبين لكم ﴿ بَعْضَ الذى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو أمر الديانات وما يتعلق بالتكليف دون الأمور التي لم يتعبدوا بمعرفتها ككيفية نضد الأفلاك وأسباب

اختلاف تشكلات القمر مثلاً فإن الأنبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيان ما يختلف فيه من ذلك ومثلها ما يتعلق بأمر الدنيا ككيفية الزراعة وما يصلح الزرع وما يفسده مثلاً فإن الأنبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيانه أيضاً كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم في قصة تأبير النخل " أنتم أعلم بأمور دنياكم "

وجوز أن يراد بهذا البعض بعض أمور الدين المكلف بها وأريد بالبيان البيان على سبيل التفصيل وهي لا يمكن بيان جميعها تفصيلاً وبعضها مفوض للاجتهاد ، وقال أبو عبيدة : المراد بعض الذي حرم عليهم وقد أحل عليه السلام لهم لحوم الإبل والشحك من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت ، وقال مجاهد : بعض الذي يختلفون فيه من تبديل التوراة ، وقال قتادة : لأبين لكم اختلاف الذين تحزبوا في أمره عليه السلام ﴿ فاتقوا الله ﴾ من مخالفتي ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أبلغه عنه تعالى .

(73/693)

﴿ إِنَّ الله هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿ هذا ﴾ أي هذا التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿ صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضل سالكه ، وهو إما من تتمة كلام عيسى عليه السلام أو استئناف من الله تعالى مقرر

لمقالة عيسى عليه السلام .

﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ الفرق المتحزبة ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ من بين من بعث إليهم وخاطبهم بما بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته عليه السلام ، وقيل : المراد النصارى وهم أمة إجابته عليه السلام ، وقد اختلفوا فرقاً ملكانية ونسطورية ويعقوبية ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ من المختلفين وهم الذين لم يقولوا : إنه عبد الله ورسوله ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة وأليم صفة عذاب أو يوم على الإسناد المجازي .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ الضمير لقريش ، وأن تأتيهم بدل من الساعة ، والاستثناء مفرغ ، وجوز جعل إلا بمعنى غير والاستفهام للإنكار وينظرون بمعنى ينتظرون أي ما ينتظرون شيئاً إلا إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها ، وفي ذلك تهكم بهم حيث جعل إتيان الساعة كالمنتظر الذي لا بد من وقوعه .

(74/693)

ولما جاز اجتماع الفجأة والشعور وجب أن يقيد ذلك بقوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ لعدم إغناء الأول عنه فلا استدراك ، وقيل : يجوز أن يراد بلا يشعرون الإثبات لأن الكلام وارد على الإنكار كأنه قيل : هل يزعمون أنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون أي لا

يكون ذلك بل تأتيهم وهم فطنون ، وفيه ما فيه ، وقيل : ضمير ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ للذين ظلموا ، وقيل : للناس مطلقاً وأيد بما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تقوم الساعة والرجلات يحلبان النعجة والرجلان يطويان الثوب ثم قرأ عليه الصلاة والسلام هل ينظرون إلا الساعة أن تؤتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ " .

﴿ الاخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ الظرف متعلق بعدو والفصل لا يضر ، والمراد أن المحبات تنقطع يوم إذ تأتيهم الساعة ولا يبقى إلا محبة المتقين وهم المتصادقون في الله عز وجل لما أنهم يرون ثواب التحاب في الله تعالى ، واعتبار الانقطاع لأن الخل حال كونه خلا محال أن يصير عدواً .

وقيل : المعنى الإخلاء تنقطع خلتهم ذلك اليوم إلا المجتنبين إخلاء السوء ، والفرق بين الوجهين أن المتقي في الأول : هو المحب لصاحبه في الله تعالى فاتقى الحب أن يشوبه غرض غير إلهي ، وفي الثاني : من اتقى صحبة الأشرار .

والاستثناء فيهما متصل ، وجوز أن يكون يومئذ متعلقاً بالإخلاء والمراد به في الدنيا ومتعلق عدو مقدر أي في الآخرة والآية قيل نزلت في أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام على قصة موسى وفرعون في سورة الأعراف وطه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بالعذاب لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

لم يبين هنا نوع العذاب الذي أخذهم به ، ولكنه أوضحه في الأعراف في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ ﴾ [الأعراف : 132 - 133] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات ﴾ [الأعراف : 130] الآية .

وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49)

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أوضحه في الأعراف بقوله : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز قَالُواْ يا موسى ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بني إِسْرَآئِيل فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف : 134 - 135] .

والرجز المذكور في الأعراف هو بعينه العذاب المذكور في آية الزخرف هذه .

قوله تعالى عن فرعون : ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ .

قد تقدم الكلام عليه في طه في الكلام على قوله تعالى عن موسى ﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ [طه : 27] .

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 7] الآية .

(76/693)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ ﴾ .

آسفونا معناه أغضبونا ، وأسخطونا وكون المراد بالأسف الغضب ، يدل عليه إطلاق الأسف على أشد الغضب في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ [الأعراف : 150] على أصح التفسيرين .

فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56)

قد قدمنا الكلام عليه في هذه السورة الكريمة ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ومضى مَثَلُ الأولين ﴾ [الزخرف : 8] .

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57)

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر والكسائي (يصدون) بضم الصاد .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة (يصدون) بكسر الصاد .

فعلى قراءة الكسر فمعنى يصدون يضجون ويصيحون ، وقيل يضحكون ، وقيل معنى القراءتين واحد . كيعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون .

وعلى قراءة الضم فهو من الصدود والفاعل المحذوف في قوله (ضرب) .

قال جمهور المفسرين هو عبد الله بن الزبعري السهمي قبل إسلامه .

أي ولما ضرب ابن الزبعري المذكور عيسى ابن مريم مثلاً فاجأك قومك بالضجيج والصياح والضحك ، فرحاً منهم وزعماً منهم أن ابن الزبعري خصمك ، أو فاجأك صدودهم عن الإيمان بسبب ذلك المثل .

والظاهر أن لفظة من هنا سببية ، ومعلوم أن أهل العربية ، يذكرون أن من معاني من السببية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ [نوح : 25] .

أي بسبب خطيئاتهم أغرقوا .

ومن ذلك قول الحالفين في أيمان القسامة : أقسم بالله لمن ضربه مات .

(77/693)

وإيضاح معنى ضرب ابن الزبعري عيسى مثلاً أن الله لما أنزل قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] ، قال ابن الزبعري : إن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول إن كل معبود من دون الله في النار وأننا وأصنامنا جميعاً في النار ، وهذا عيسى ابن مريم قد عبده النصارى من دون الله فإن كان ابن مريم مع النصارى الذين عبدوه في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه .

وقالوا مثل ذلك في عزير والملائكة لأن عزيراً عبده اليهود ، والملائكة عبدهم بعض العرب .

فاتضح أن ضربه عيسى مثلاً ، يعني أنه على ما يزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قاله ، من أن كل معبود وعابده في النار ، يقتضي أن يكون عيسى مثلاً لأصنامهم ، في كون الجميع في النار ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يثني على عيسى الثناء الجميل ، ويبين للناس أنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

فزعم ابن الزبعري أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لما اقتضى مساواة الأصنام مع عيسى في دخول النار مع أنه صلى الله عليه وسلم يعترف بأن عيسى رسول الله وأنه ليس في النار ، دل ذلك على بطلان كلامه عنده .

وعند ذلك أنزل الله ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 101 - 103] الآية ، وأنزل الله أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ [

الزخرف : 57] الآية .

وعلى هذا القول فمعنى قوله تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ ، أي ما ضربوا عيسى مثلاً إلا من أجل الجدل والخصومة بالباطل .

وقيل إن جدلاً حال وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير ، وقد أوضحنا توجيهه مراراً .

والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل لقصد الغلبة بغير حق .

(78/693)

قال جماعة من العلماء ، والدليل على أنهم قصدوا الجدل بشيء يعلمون في أنفسهم أنه باطل ، أن الآية التي تذرعوا بها إلى الجدل ، لا تدل البتة ، على ما زعموه ، وهم أهل اللسان ، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات .

والآية المذكورة إنما عبر الله فيها بلفظة " ما " التي هي في الموضع العربي لغير العقلاء لأنه قال ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] لم يقل (ومن) تعبدون وذلك صريح في أن المراد الأصنام ، وأنه لا يتناول عيسى ولا عزيراً ولا الملائكة ، كما أوضح تعالى أنه لم يرد ذلك بقوله تعالى بعده : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] الآية .

وإذا كانوا يعلمون من لغتهم أن الآية الكريمة ، لم تتناول عيسى بمقتضى لسانهم العربي ، الذي

نزل به القرآن ، تحققنا أنهم ما ضربوا عيسى مثلاً ، إلا لأجل الجدل ، والخصومة بالباطل .

ووجه التعبير في صيغة الجمع في قوله ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ مع أن ضارب المثل واحد وهو ابن الزبعري يرجع إلى أمرين :

أحدهما : أن من أساليب اللغة العربية إسناد فعل الرجل الواحد من القبيلة إلى جميع القبيلة ، ومن أصرح الشواهد العربية في ذلك قوله :

فسيف بني عبس وقد ضربوا به . . . نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فإنه نسب الضرب إلى جميع بني عبس مع تصريحه بأن السيف في يد رجل واحد منهم ، وهو ورقاء بن زهير ، والشاعر يشير بذلك إلى قتل خالد بن جعفر الكلابي لزهير بن جذيمة العبسي ، وأن ورقاء بن زهير ، ضرب بسيف بني عبس ، رأس خالد بن جعفر الكلابي ، الذي قتل أباه ونبا عنه ، أي لم يؤثر في رأسه ، فإن معنى : نبا السيف ارتفع عن الضريبة ولم يقطع .

والشاعر يهجو بني عبس بذلك .

والحروب التي نشأت عن هذه القصة ، وقتل الحارث بن ظالم المري لخالد المذكور ، كل ذلك معروف في محله .

(79/693)

والأمر الثاني : أن جميع كفار قريش ، صوبوا ضرب ابن الزبعري عيسى مثلاً ، وفرحوا بذلك ، ووافقوه عليه ، فصاروا كالمتمالئين عليه .

وبهذين الأمرين المذكورين جمع المفسرون بين صيغة الجمع في قوله ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة ﴾ [الأعراف : 77] وقوله ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس : 14] وبين صيغة الإفراد في قوله : ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : 29] .

وقال بعض العلماء : الفاعل المحذوف في قوله ولما ضرب ابن مريم مثلاً هو عامة قريش .

والذين قالوا إن كفار قريش لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر عيسى ، وسمعوا قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] .

قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ما تريد بذكر عيسى إلا أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى .

وعلى هذا فالمعنى أنهم ضربوا عيسى مثلاً للنبي صلى الله عليه وسلم ، في عبادة الناس لكل منهما ، زاعمين أنه يريد أن يعبد كما عبد عيسى .

وعلى هذا القول فمعنى قوله ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الخصومة بالباطل ، مع أنهم يعلمون أنك لا ترضى أن تعبد بوجه من الوجوه .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ ﴾ [آل عمران : 64] الآية .

وإن كان من القرآن المدني النازل بعد الهجرة فمعناه يكرره عليهم النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً قبل الهجرة كما هو معلوم .

وكذلك قوله ﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الملائكة والنبيين أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بالكفر بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 80] .

(80/693)

ولا شك أن كفار قريش متيقنون ، في جميع المدة التي أقامها صلى الله عليه وسلم ، في مكة قبل الهجرة بعد الرسالة ، وهي ثلاث عشرة سنة ، أنه لا يدعو إلا إلى عبادة الله ، وحده لا شريك له .

فادعاؤهم أنه يريد أن يعبدوه ، افتراء منهم ، وهم يعلمون أنهم مفترون ، في ذلك .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ ؟

التحقيق أن الضمير في قوله ﴿ هو ﴾ راجع إلى عيسى ، لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام .

قال بعض العلماء : ومرادهم بالاستفهام تفضيل معبوداتهم على عيسى .

قيل : لأنهم يتخذون الملائكة آلهة ، والملائكة أفضل عندهم من عيسى .

وعلى هذا فمرادهم أن عيسى عبد من دون الله ، ولم يكن ذلك سبباً لكونه في النار ، ومعبوداتنا خير من عيسى ، فكيف تزعم أنهم في النار .

وقال بعض العلماء : أرادوا تفضيل عيسى على آلهتهم .

والمعنى على هذا أنهم يقولون : عيسى خير من آلهتنا ، أي في زعمك وأنت تزعم أنه في النار ، بمقتضى عموم ما تتلوه من قوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] .

وعيسى عبده النصارى من دون الله ، فدلالة قولك على أن عيسى في النار ، مع اعترافك بخلاف ذلك ، يدل على أن ما تقوله ، من أنا وآلهتنا ، في النار ليس بحق أيضاً .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي لد ، مبالغون في الخصومة ، بالباطل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾ [مريم : 97] أي شديدي الخصومة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الخصام ﴾ [البقرة : 204] ، لأن الفعل بفتح فكسر كخصم ، من صيغ المبالغة ، كما هو معلوم في محله .

وقد علمت مما ذكرنا أن قوله تعالى هنا ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ [الزخرف : 57] الآية إنما بينته الآيات التي ذكرنا ببيان سببه .

ومعلوم أن الآية قد يتضح معناها ببيان سببها .

فعلى القول الأول ، أنهم ضربوا عيسى مثلاً لأصنامهم ، في دخول النار ، فإن ذلك المثل يفهم من أن سبب نزول الآية نزول قوله تعالى قبلها ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

[الأنبياء : 98] لأنها لما نزلت قالوا إن عيسى عبد من دون الله كآلهتهم فهم بالنسبة لما دلت عليه سواء .

وقد علمت بطلان هذا مما ذكرناه آنفاً .

وعلى القول الثاني أنهم ضربوا عيسى مثلاً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، في أن عيسى قد عبد ، وأنه صلى الله عليه وسلم ، يريد أن يعبد كما عبد عيسى ، فكون سبب ذلك سماعهم لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] وسماعهم للآيات المكية النازلة في شأن عيسى يوضح المراد بالمثل .

وأما الآيات التي بينت قوله ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ [الزخرف : 58] فبيانها له واضح على كلا القولين . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ .

والتحقيق أن الضمير في قوله : هو عائد إلى عيسى أيضاً لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام .

(82/693)

وقوله هنا : ﴿ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْه ﴾ لم يبين هنا شيئاً من الإنعام الذي أنعم به على عبده عيسى ، ولكنه بين ذلك في المائدة ، في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ اذكر نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس تُكَلِّمُ الناس فِي المهد وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأكمه والأبرص بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الموتى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بني إِسْرَائِيل عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بالبينات ﴾ [المائدة : 110] وفي آل عمران ، في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدنيا والآخرة وَمِنَ المقربين ﴾ [آل عمران : 45] إلى قوله ﴿ وَمِنَ الصالحين ﴾ [آل عمران : 46] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ .

التحقيق أن الضمير في قوله : وإنه راجع إلى عيسى لا إلى القرآن ، ولا إلى النبي صلى الله

عليه وسلم .

ومعنى قوله : ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ على القول الحق الصحيح الذي يشهد له القرآن العظيم ، والسنة المتواترة ، هو أن نزول عيسى في آخر الزمان ، حيا علم للساعة أي علامة لقرب مجيئها لأنه من أشراطها الدالة على قربها .

وإطلاق علم الساعة على نفس عيسى ، جار على أمرين ، كلاهما أسلوب عربي معروف .

أحدهما : أن نزول عيسى المذكور ، لما كان علامة لقربها ، كانت تلك العلامة ، سبباً لعلم قربها ، فأطلق في الآية المسبب وأريد السبب .

وإطلاق المسبب وإرادة السبين أسلوب عربي معروف في القرآن ، وفي كلام العرب .

ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً ﴾ [غافر : 13] .

(83/693)

فالرزق مسبب عن المطر والمطر سببه ، فأطلق المسبب الذي هو الرزق وأريد سببه الذي هو المطر للملابسة القوية التي بين السبب والمسبب .

ومعلوم أن البلاغيين ، ومن وافقهم ، يزعمون أن مثل ذلك ، من نوع ما يسمونه المجاز المرسل ،

وأن الملابسة بين السبب والمسبب من علاقات المجاز المرسل عندهم .

والثاني من الأمرين أن غاية ما في ذلك ، أن الكلام على حذف مضاف ، والتقدير ، وإنه لذو علم للساعة ، أي وإنه لصاحب إعلام الناس ، بقرب مجيئها ، لكونه علامة لذلك ، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، كثير في القرآن ، وفي كلام العرب ، وإليه أشار في الخلاصة بقوله :

وما يلي المضاف يأت خلفا . . . عنه في الإعراب إذا ما حذفا

وهذا الأخير أحد الوجهين اللذين وجه بهما علماء العربية النعت بالمصدر كقولك : زيد كرم وعمرو عدل أي ذو كرم وذو عدل كما قال تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق : 2] ، وقد أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله :

ونعتوا بمصدر كثيرا . . . فالتزموا الإفراد والتذكيرا

أما دلالة القرآن الكريم على هذا القول الصحيح ، ففي قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء : 159] أي ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك صريح في أن عيسى حي وقت نزول آية النساء هذه ، وأنه لا يموت حتى يؤمن به أهل الكتاب .

ومعلوم أنهم لا يؤمنون به إلا بعد نزوله إلى الأرض .

فإن قيل قد ذهبت جماعة من المفسرين ، من الصحابة فمن بعدهم إلى أن الضمير في قوله :

قبل موته راجع إلى الكتابي ، أي إلا ليؤمنن به الكتابي قبل موت الكتابي .

فالجواب أن يكون الضمير راجعاً إلى عيسى ، يجب المصير إليه ، دون القول الآخر ، لأنه أرجح منه من أربعة أوجه :

الأول : أنه هو ظاهر القرآن المتبادر منه ، وعليه تنسجم الضمائر بعضها مع بعض .

والقول الآخر بخلاف ذلك .

(84/693)

وإيضاح هذا أن الله تعالى قال : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ أي عيسى ، ﴿ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ أي عيسى ﴿ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي عيسى ﴿ وَإِنَّ الذين اختلفوا فِيهِ ﴾ أي عيسى ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ أي عيسى ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [النساء : 157] أي عيسى ، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ﴾ [النساء : 157] أي عيسى ﴿ بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ ﴾ [النساء : 158] أي عيسى ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكتاب إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ أي عيسى ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أي عيسى ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ [النساء : 159] أي يكون هو ، أي عيسى عليهم شهيداً .

فهذا السياق القرآني الذي ترى ، ظاهر ظهوراً لا ينبغي العدول عنه ، في أن الضمير في قوله قبل موته ، راجع إلى عيسى .

الوجه الثاني : من مرجحات هذا القول ، أنه على هذا القول الصحيح ، فمفسر الضمير ، ملفوظ مصرح به ، في قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ [النساء : 157] .

وأما على القول الآخر فمفسر الضمير ليس مذكوراً في الآية أصلاً ، بل هو مقدر تقديره : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته ، أي موت أحد أهل الكتاب المقدر .

ومما لا شك فيه ، أن ما لا يحتاج إلى تقدير ، أرجح وأولى ، مما يحتاج إلى تقدير .

الوجه الثالث : من مرجحات هذا القول الصحيح ، أنه تشهد له السنة النبوية المتواترة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تواترت عنه الأحاديث بأن عيسى حي الآن ، وأنه سينزل في آخر الزمان حكماً مقسطاً .

ولا ينكر تواتر السنة بذلك إلا مكابر .

قال ابن كثير في تفسيره ، بعد أن ذكر هذا القول الصحيح ونسبه إلى جماعة من المفسرين ما نصه :

وهذا القول هو الحق كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله تعالى ا ه .

وقوله بالدليل القاطع يعني السنة المتواترة ، لأنها قطعية وهو صادق في ذلك .

وقال ابن كثير ، في تفسير آية الزخرف هذه ما نصه :

وقد تواترت الأحاديث ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمَاماً عَادِلاً وَحَكماً مُقْسِطاً " ا ه منه .

وهو صادق في تواتر الأحاديث بذلك .

وأما القول بأن الضمير في قوله قبل موته راجع إلى الكتاب فهو خلاف ظاهر القرآن ، ولم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة .

الوجه الرابع : هو أن القول الأول الصحيح واضح لا إشكال فيه ، ولا يحتاج إلى تأويل ولا تخصيص بخلاف القول الآخر ، فهو مشكل لا يكاد يصدق ، إلا مع تخصيص ، والتأويلات التي يروونها فيه عن ابن عباس ، وغيره ، ظاهرة البعد والسقوط لأنه على القول بأن الضمير في قوله قبل موته راجع إلى عيسى فلا إشكال ولا خفاء ، ولا حاجة إلى تأويل ، ولا إلى تخصيص .

وأما على القول بأنه راجع إلى الكتابي فإنه مشكل جداً بالنسبة لكل من فاجأه الموت من أهل الكتاب ، كالذي يسقط من عال إلى أسفل ، والذي يقطع رأسه بالسيف وهو غافل والذي يموت في نومه ونحو ذلك ، فلا يصدق هذا العموم المذكور في الآية على هذا النوع ، من

أهل الكتاب ، إلا إذا ادعى إخراجهم منه بمخصص .

ولا سبيل إلى تخصيص عمومات القرآن ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه من المخصصات المتصلة أو المنفصلة .

وما يذكر عن ابن عباس من أنه سئل عن الذي يقطع رأسه من أهل الكتاب فقال إن رأسه يتكلم ، بالإيمان بعيسى ، وأن الذي يهوي من عال إلى أسفل يؤمن به وهو يهوي ، لا يخفى بعده وسقوطه ، وأنه لا دليل ألبتة عليه كما ترى .

وبهذا كله تعلم ، أن الضمير في قوله ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء : 159] ، راجع إلى عيسى ، وأن تلك الآية من سورة النساء تبين قوله تعالى هنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف : 61] كما ذكرنا .

(86/693)

فإن قيل : إن كثيراً ممن لا تحقيق عندهم يزعمون أن عيسى قد توفي ، ويعتقدون مثل ما يعتقده ، ضلال اليهود والنصارى ، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : 55] وقوله ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : 117] .

فالجواب أنه لا دلالة في إحدى الآيتين ألبتة على أن عيسى قد توفي فعلاً .

أما قوله تعالى : ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] فإن دلالته المزعومة على ذلك منفية من أربعة أوجه :

الأول : أن قوله : ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ حقيقة لغوية في أخذ الشيء كاملاً غير ناقص ، والعرب تقول : توفي فلان دينه يتوفاه فهو متوف له إذا قبضه وحازه إليه كاملاً من غير نقص .

فمعنى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] في الوضع اللغوي أي حائزك إلي ، كاملاً بروحك وجسمك .

ولكن الحقيقة العرفية خصصت التوفي المذكور بقبض الروح دون الجسم ونحو هذا مما دار بين الحقيقة اللغوية والحقيقة العرفية فيه لعلماء الأصول ثلاثة مذاهب .

الأول : هو تقديم الحقيقة العرفية ، وتخصيص عموم الحقيقة اللغوية بها .

وهذا هو المقرر في أصول الشافعي وأحمد ، وهو المقرر في أصول مالك إلا أنهم في الفروع ربما لم يعتمدوه في بعض المسائل .

وإلى تقديم الحقيقة العرفية ، على الحقيقة اللغوية أشار في مراقي السعودي بقوله :

واللفظ محمول على الشرعي . . . إن لم يكن فمطلق العرفي

فاللغوي على الجلي ولم يجب . . . بحث عن المجاز في الذي انتخب

المذهب الثاني : هو تقديم الحقيقة اللغوية على العرفية بناء على أن العرفية وإن ترجحت

بعرف الاستعمال ، فإن اللغوية مترجحة بأصل الوضع .

وهذا القول مذهب أبي حنيفة رحمه الله .

(87/693)

المذهب الثالث : أنه لا تقدم العرفية على اللغوية ، ولا اللغوية على العرفية ، بل يحكم باستوائهما ومعادلة الاحتمالين فيهما ، فيحكم على اللفظ بأنه مجمل ، لاحتمال هذه واحتمال تلك .

وهذا اختيار ابن السبكي ، ومن وافقه ، وإلى هذين المذهبين الأخيرين أشار في مراقي السعودي بقوله :

ومذهب النعمان عكس ما مضى . . . والقول بالإجمال فيه مرتضى

وإذا علمت هذا ، فاعلم أنه على المذهب الأول ، الذي هو تقديم الحقيقة اللغوية ، على العرفية ، فإن قوله تعالى :

(88/693)

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] لا يدل إلا على أنه قبضه إليه بروحه وجسمه ، ولا يدل على الموت أصلاً ، كما أن توفي الغريم لدينه لا يدل على موت دينه .

وأما على المذهب الثاني : وهو تقديم الحقيقة العرفية على اللغوية ، فإن لفظ التوفي حينئذ ، يدل في الجملة على الموت .

ولكن سترى إن شاء الله ، أنه وإن دل على ذلك في الجملة ، لا يدل على أن عيسى قد توفي فعلاً .

وقد ذكرنا في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتاب ، في سورة آل عمران ، وجه عدم دلالة الآية ، على موت عيسى فعلاً ، أعني قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] فقلنا ما نصه :

والجواب عن هذا ، من ثلاثة أوجه :

الأول أن قوله تعالى : ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ لا يدل على تعيين الوقت ، ولا يدل على كونه قد مضى وهو متوفيه قطعاً يوماً ما ولكن لا دليل على أن ذلك اليوم قد مضى .

وأما عطفه ورافعك إلى ، على قوله : متوفيك ، فلا دليل فيه لإطباق جمهور أهل اللسان العربي ، على أن الواو لا تقتضي الترتيب ولا الجمع ، وإنما تقتضي مطلق التشريك .

وقد ادعى السيرافي والسهيلي ، إجماع النحاة على ذلك ، وعزاه الأكثر للمحققين وهو الحق خلافاً لما قاله قطرب والفراء وثعلب وأبو عمرو الزاهد وهشام والشافعي من أنها تفيد

الترتيب لكثرة استعمالها فيه .

وقد أنكر السيرافي ثبوت هذا القول عن الفراء وقال لم أجده في كتابه .

وقال ولي الدين : أنكر أصحابنا نسبة هذا القول إلى الشافعي .

حكاه عنه صاحب الضياء اللامع .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " أبدأ بما بدأ الله به " يعني الصفا لا دليل فيه على اقتضائها الترتيب .

وبيان ذلك هو ما قاله الفهري كما ذكره عنه صاحب الضياء اللامع .

وهو أنها كما أنها لا تقتضي الترتيب ولا المعية ، فكذلك لا تقتضي المنع منهما .

(89/693)

فقد يكون العطف بها مع قصد الاهتمام بالأول كقوله : ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ [البقرة : 158] الآية بدليل الحديث المتقدم .

وقد يكون المعطوف بها مرتباً كقول حسان :

هجوت محمداً وأجبت عنه . . . على رواية الواو .

وقد يراد بها المعية كقوله : ﴿ فأَنْجَيْناهُ وأَصْحَابَ السفينة ﴾ [العنكبوت : 15] وقوله

﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 9] ولكن لا تحمل على الترتيب ولا على المعية إلا بدليل منفصل .

الوجه الثاني : أن معنى ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] أي منيمك ورافعك إلي ، أي في تلك النومة .

وقد جاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ [الأنعام : 60] ، وقوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : 42] ، وعزى ابن كثير هذا القول للأكثرين ، واستدل بالآيتين المذكورتين .

الوجه الثالث : أن متوفيك ، اسم فاعل توفاه ، إذا قبضه وحازه إليه ، ومنه قولهم : توفي فلان دينه إذا قبضه إليه ، فيكون معنى متوفيك على هذا ، قابضك منهم إلي حياً ، وهذا القول هو اختيار ابن جرير .

وأما الجمع بأنه توفاه ساعات أو أياماً ، ثم أحياه فلا معول عليهن إذ لا دليل عليه . ا ه . من دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .

وقد قدمنا في هذا البحث أن دلالة قوله تعالى : ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] على موت عيسى فعلاً ، منفية من أربعة أوجه ، وقد ذكرنا منها ثلاثة ، من غير تنظيم ، أولها أن ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ حقيقة لغوية في أخذه بروحه وجسمه .

الثاني : أن ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ وصف محتمل للحال والاستقبال والماضي ، ولا دليل في الآية على أن ذلك التوفي قد وقع ومضى ، بل السنة المتواترة والقرآن دالان على خلاف ذلك ، كما أوضحنا في هذا المبحث .

(90/693)

الثالث : أنه توفي نوم ، وقد ذكرنا الآيات الدالة على أن النوم يطلق عليه الوفاة ، فكل من النوم والموت ، يصدق عليه اسم التوفي ، وهما مشتركان في الاستعمال العرفي .

فهذه الأوجه الثلاثة ذكرناها كلها في الكلام الذي نقلنا من كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .

وذكرنا الأول منها بانفراده لنبين مذاهب الأصوليين فيه .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ [المائدة : 117] الآية ، فدلالته على أن عيسى مات ، منفية من وجهين :

الأول منهما : أن عيسى يقول ذلك يوم القيامة ، ولا شك أن يموت قبل يوم القيامة ، فإخباره يوم القيامة بموته ، لا يدل على أنه الآن قد مات كما لا يخفى .

والثاني منهما : أن ظاهر الآية أنه توفي رَفْعٌ وقَبْضٌ للروح والجسد ، لا توفي موت .

وإيضاح ذلك أن مقابلته لذلك التوفي بالديمومة فيهم في قوله : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ [المائدة : 117] الآية ، تدل على ذلك لأنه لو كان توفي موت ، لقال ما دمت حياً ، فلما توفيتني لأن الذي يقابل بالموت هو الحياة كما في قوله : ﴿ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ [مريم : 31] .

أما التوفي المقابل بالديمومة فيهم فالظاهر أنه توفي انتقال عنهم ، إلى موضع آخر .

وغاية ما في ذلك هو حمل اللفظ على حقيقته اللغوية مع قرينة صارفة عن قصد العرفية ، وهذا لا إشكال فيه .

(91/693)

وأما الوجه الرابع ، من الأوجه المذكورة سابقاً ، أن الذين زعموا أن عيسى قد مات ، قالوا إنه لا سبب لذلك الموت ، إلا أن اليهود قتلوه وصلبوه ، فإذا تحقق نفي هذا السبب وقطعهم أنه لم يمت بسبب غيره ، تحققنا أنه لم يمت أصلاً ، وذلك السبب الذي زعموه ، منفي يقيناً بلا شك ، لأن الله جل وعلا قال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ [النساء : 157] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : 157 - 158] .

وضمير رفعه ظاهر في رفع الجسم والروح معاً كما لا يخفى .

وقد بين الله جل وعلا مستند اليهود في اعتقادهم أنهم قتلوه ، بأن الله ألقى شبهه على إنسان آخر فصار من يراه يعتقد اعتقاداً جازماً أنه عيسى .

فرآه اليهود لما أجمعوا على قتل عيسى فاعتقدوا لأجل ذلك الشبه الذي ألقي عليه اعتقاداً جازماً أنه عيسى فقتلوه .

فهم يعتقدون صدقهم ، في أنهم قتلوه وصلبوه ، ولكن العليم اللطيف الخبير ، أوحى إلى نبيه ، في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه .

فمحمد صلى الله عليه وسلم والذين اتبعوه عندهم علم من الله بأمر عيسى لم يكن عند اليهود ولا النصارى كما أوضحه تعالى بقوله ﴿ وَإِنَّ الذين اختلفوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ ﴾ [النساء : 157 - 158] .

والحاصل أن القرآن العظيم على التفسير الصحيح والسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم كلاهما دال على أن عيسى حي ، وأنه سينزل في آخر الزمان ، وأن نزوله من علامات الساعة ، وأن معتمد الذين زعموا أنهم قتلوه ومن تبعهم هو إلقاء شبهه على غيره ، واعتقادهم الكاذب أن ذلك المقتول الذي شبه بعيسى هو عيسى .

وقد عرفت دلالة الوحي على بطلان ذلك ، وأن قوله ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] لا يدل على موته فعلاً .

وقد رأيت توجيه ذلك من أربعة أوجه ، وأنه على المقرر في الأصول ، في المذاهب الثلاثة التي ذكرنا عنهم ، ولا إشكال في أنه لم يمت فعلاً .

أما على القول بتقديم الحقيقة اللغوية فالأمر واضح ، لأن الآية على ذلك لا تدل على الموت .

وأما على القول بالإجمال ، فالمقرر في الأصول أن المحمل ، لا يحمل على واحد من معنييه ، ولا معانيه بل يطلب بيان المراد منه ، بدليل منفصل .

وقد دل الكتاب هنا والسنة المتواترة على أنه لم يمت وأنه حي .

وأما على القول بتقديم الحقيقة العرفية على الحقيقة اللغوية ، فإنه يجاب عنه من أوجه :

الأول : أن التوفي محمول على النوم ، وحمله عليه يدخل في اسم الحقيقة العرفية .

والثاني : أنا وإن سلمنا أنه توفي موت ، فالصيغة لا تدل على أنه قد وقع فعلاً .

الثالث : أن القول المذكور بتقديم العرفية ، محله فيما إذا لم يوجد دليل صارف ، عن إرادة العرفية اللغوية ، فإن دل على ذلك دليل وجب تقديم اللغوية قولاً واحداً .

وقد قدمنا مراراً دلالة الكتاب والسنة المتواترة على إرادة اللغوية هنا دون العرفية .

واعلم بأن القول بتقديم اللغوية على العرفية ، محله فيما إذا لم تتناس اللغوية بالكلية ، فإن أميتت الحقيقة اللغوية بالكلية ، وجب المصير إلى العرفية إجماعاً ، وإليه أشار في مراقي السعود بقوله :

أجمع إن حقيقة تمات . . . على التقدم له الإثبات

فمن حلف ليأكلن من هذه النخلة ، فمقتضى الحقيقة اللغوية ، أنه لا يبر يمينه حتى يأكل من نفس النخلة لا من ثمرتها .

ومقتضى الحقيقة العرفية أنه يأكل من ثمرتها لا من نفس جذعها .

والمصير إلى العرفية هنا واجب إجماعاً ، لأن اللغوية في مثل هذا أميتت بالكلية .

فلا يقصد عاقل ألبتة الأكل من جذع النخلة .

أما الحقيقة اللغوية في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] فإنها ليست من الحقيقة المماتة كما لا يخفى .

(93/693)

ومن المعلوم في الأصول أن العرفية تسمى حقيقة عرفية ومجازاً لغوياً ، وأن اللغوية تسمى عندهم حقيقة لغوية ، ومجازاً عرفياً .

وقد قدمنا مراراً أنا أوضحنا أن القرآن الكريم لا مجاز فيه على التحقيق في رسالتنا المسماة " منع جواز المجاز ، في المنزل للتعبد والإعجاز " .

فاتضح مما ذكرنا كله أن آية الزخرف هذه تبينها آية النساء المذكورة ، وأن عيسى لم يمت

وأنه ينزل في آخر الزمان وإنما قلنا إن قوله تعالى هنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أي علامة ودليل على قرب مجيئها ، لأن وقت مجيئها بالفعل لا يعلمه إلا الله .

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك مراراً .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أي لا تشكن في قيام الساعة فإنه لا شك فيه .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له مراراً كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الحج : 7] . وقوله : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [الشورى : 7] . وقوله ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الأنعام : 12] وقوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران : 25] إلى غير ذلك من الآيات .

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62)

وقد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة مراراً كقوله : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ [فاطر : 6] الآية . وقوله ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [الكهف : 50] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قوله هنا ﴿ ظَلَمُواْ ﴾ أي كفروا ، بدليل قوله في مريم ، في القصة بعينها ، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : 37] .

وقوله ﴿ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيم ﴾ يوضحه قوله هنا : ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وقد قدمنا مراراً الآيات الدالة على إطلاق الظلم على الكفر كقوله ، ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] وقوله : ﴿ والكافرون هُمُ الظالمون ﴾ [البقرة : 254] وقوله : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ [يونس : 106] وقوله تعالى ﴿ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : 82] أي بشرك ، كما فسره به النبي صلى الله عليه وسلم ، في الحديث الثابت في صحيح البخاري .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66)

الاستفهام بهل هنا بمعنى النفي ، وينظرون بمعنى ينتظرون ، أي ما ينتظر الكفار إلا الساعة ، أي القيامة أن تأتيهم بغتة ، أي في حال كونها مباغتة لهم ، أي مفاجئة لهم ، وهم لا يستغفرون أي بمفاجأتها في حال غفلتهم وعدم شعورهم بمجيئها .

والظاهر أن المصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله : ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ في محل نصب ، على أنه بدل اشتمال من الساعة ، وكون ينظرون ، بمعنى ينتظرون ، معروف في كلام

العرب ، ومنه قول امرئ القيس :

فإنكما إن تنظراني ساعة . . . من الدهر تنفعني لدى أم جندب

(95/693)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن الساعة تأتيهم بغتة ، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله . كقوله تعالى في الأعراف : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ [الأعراف : 187] . وقوله تعالى في القتال ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 18] وقوله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ [يس : 49 - 50] الآية .

فالمراد بالصيحة : القيامة .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ الآية ، يدل على أنها تأتيهم وهم في غفلة ، وعدم شعور بإتيانها ، إلى غير ذلك من الآيات . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(96/693)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾

قد علمت آنفاً أن هذا هو المقصود من ذكر عيسى عليه السلام فهو عطف على قصة إرسال موسى .

ولم يذكر جواب ﴿ لمّا ﴾ فهو محذوف لدلالة بقية الكلام عليه .

وموقع حرف ﴿ لمّا ﴾ هنا أن مجيء عيسى بالبينات صار معلوماً للسامع مما تقدم في قوله : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ [الزخرف : 59] الآية ، أي لما جاءهم عيسى اختلف الأحزاب فيما جاء به ، فحذف جواب ﴿ لما ﴾ لأن المقصود هو قوله : ﴿ فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يومٍ أليمٍ ﴾ [الزخرف : 65] لأنه يفيد أن سَنن الأمم المبعوث إليهم الرسل لم يختلف فإنه لم يخل رسول عن قوم آمنوا به وقومٍ كذبوه ثم كانوا سواءً في نسبة الشركاء في الإلهية بمزاعم النصارى أن عيسى ابن لله تعالى كما أشار إليه قوله : ﴿ فويل للذين ظلموا ﴾ [الزخرف : 65] أي أشركوا كما هو اصطلاح القرآن غالباً .

فتم التشابه بين الرسل السابقين وبين محمد صلى الله عليهم أجمعين ، فحصل في الكلام إيجاز تدل عليه فاء التفريع .

وفي قصة عيسى مع قومه تنبيه على أن الإشراك من عوارض أهل الضلالة لا يلبث أن يخامر نفوسهم وإن لم يكن عالقاً بها من قبل ، فإن عيس بُعث إلى قوم لم يكونوا يدينون بالشرك إذ هو قد بعث لبني إسرائيل وكلهم موحّدونَ فلما اختلف أتباعه بينهم وكذبت به فِرق وصدقه فريق ثم لم يتبعوا ما أمرهم به لم يلبثوا أن حدثت فيهم نحلة الإشراك .

وجملة قال قد جئتكم بالحكمة ﴿ مُبَيِّنَةٌ لجملة ﴿ جاء عيسى بالبينات ﴾ وليست جواباً لشرط ﴿ لما ﴾ الذي جعل التفريع في قوله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ [مريم : 37] دَليلاً عليه .

(97/693)

وفي إيقاع جملة ﴿ قد جئتكم بالحكمة ﴾ بياناً لجملة ﴿ جاء عيسى بالبينات ﴾ إيماء إلى أنه بادَأهم بهذا القول ، لأن شأن أهل الضلالة أن يسرعوا إلى غاياتها ولو كانت مبادئُ الدعوة تنافي عقائدهم ، أي لم يَدْعُهم عيسى إلى أكثر من اتباع الحكمة وبيان المختلَف فيه ولم يدْعهم إلى ما ينافي أصول شريعة التوراة ومع ذلك لم يخل حاله من صدود مريع عنه وتكذيب .

وابتداؤه بإعلامهم أنه جاءهم بالحكمة والبيان وهو إجمال حال رسالته ترغيبٌ لهم في

وعْي ما سيلقيه إليهم من تفاصيل الدعوة المفرع بعضها على هذه المقدمة بقوله : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربّي وربّكم فاعبدوه ﴾ .

والحكمة هي معرفة ما يؤدي إلى الحسن ويكفّ عن القبيح وهي هنا النبوءة ، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ في سورة البقرة (269) .

وقد جاء عيسى بتعليمهم حقائق من الأخلاق الفاضلة والمواعظ .

وقوله : ﴿ ولِأبيّنَ لكم ﴾ ، عطف على ﴿ بالحكمة ﴾ لأن كليهما متعلّق بفعل ﴿ جئتكم ﴾ .

واللام للتعليل .

والتبيين : تجلية المعاني الخفيّةِ لغموض أو سوء تأويل ، والمراد ما بيّنه عيسى في الإنجيل وغيره مما اختلفت فيه أفهام اليهود من الأحكام المتعلقة بفهم التوراة أو بتعيين الأحكام للحوادث الطارئة .

ولم يذكر في هذه الآية قوله المحكي في آية سورة آل عمران (50) ﴿ ولأحِلّ لكم بعضَ الذي حرّم عليكم ﴾ لأن ذلك قد قاله في مقام آخر .

والمقصود حكاية ما قاله لهم مما ليس شأنه أن يثير عليه قومه بالتكذيب فهم كذبوه في وقت لم يذكر لهم فيه أنه جاء بنسخ بعض الأحكام من التوراة ، أي كذبوه في حال ظهور آيات صدقه بالمعجزات وفي حال انتفاء ما من شأنه أن يثير عليه شكاً .

وإنما قال : ﴿ بعض الذي تختلفون فيه ﴾ ، إمّا لأن الله أعلمه بأن المصلحة لم تتعلق ببيان كل ما اختلفوا فيه بل يقتصر على البعض ثم يُكَمِّل بيان الباقي على لسان رسول يأتي من بعده يبيّن جميع ما يَحتاج إلى البيان .

وإما لأنّ ما أُوحي إليه من البيان غيرُ شامل لجميع ما هم مختلفون في حكمه وهو ينتظر بيانه من بعدُ تدريجاً في التشريع كما وقع في تدريج تحريم الخمر في الإسلام .

وقيل : المراد بـ ﴿ بعض الذي تختلفون فيه ﴾ ما كان الاختلاف فيه راجعاً إلى أحكام الدّين دون ما كان من الاختلاف في أمور الدنيا .

وفي قوله : ﴿ بعضُ الذي تختلفون فيه ﴾ تهيئة لهم لقبول ما سيبيّن لهم حينئذٍ أو من بعدُ .

وهذه الآية تدل على جواز تأخير البيان فيما له ظاهر وفي ما يرجع إلى البيان بالنسخ ، والمسألة من أصول الفقه .

وفرع على إجمال فاتحة كلامه قوله : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ .

وهذا كلام جامع لتفاصيل الحكمة وبيان ما يختلفون فيه ، فإن التقوى مخافة الله .

وقد جاء في الأثر " رأس الحكمة مخافةُ الله " وطاعة الرّسول تَشمل معنى ﴿ ولأبين لكم بعضَ الذي تختلفون فيه ﴾ فإذا أطاعوه عملوا بما يبين لهم فيحصل المقصود من البيان وهو العمل .

وأجمعُ منه قول النبي صلى الله عليه وسلم لسفيان الثَقفي وقد سأله أن يقول له في الإسلام قولاً لا يسْأل عنه أحداً غيره " قُلْ آمنتُ بالله ثم استَقِم " لأنه أليق بكلمة جامعة في شريعةٍ لا يُترقب بعدها مجيء شريعة أخرى ، بخلاف قول عيسى عليه السلام ﴿ وأطيعون ﴾ فإنه محدود بمدة وجوده بينهم .

وجملة ﴿ إن الله هو ربّي وربّكم ﴾ تعليل لجملة ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ لأنه إذا ثبت تفرده بالربوبية توجه الأمر بعبادته إذ لا يَخاف الله إلا مَن اعترف بربوبيته وانفرادِه بها .

وضمير الفصل أفاد القصر ، أي الله ربّي لا غيره .

(99/693)

وهذا إعلان بالوحدانية وإن كان القوم الذين أرسل إليهم عيسى موحِّدين ، لكن قد ظهرت بدعةٌ في بعض فرقهم الذين قالوا : عزيرُ ابنُ الله .

وتأكيد الجملة بِ ﴿ إنَّ ﴾ لمزيد الاهتمام بالخبر فإن المخاطبين غير منكرين ذلك .

وتقديم نفسه على قومه في قوله : ﴿ ربّي وربّكم ﴾ لقصد سدّ ذرائع الغلوّ في تقديس عيسى ، وذلك من معجزاته لأن الله علم أنه ستغلو فيه فِرق من أتباعه فيزعمون بنوّتَه من الله على الحقيقة ، ويضلّون بكلمات الإنجيل التي يَقول فيها عيسى : أبي ، مريداً به الله تعالى .

وفرع على إثبات التوحيد لله الأمر بعبادته بقوله : ﴿ فاعبدوه ﴾ فإن المنفرد بالإلهية حقيق بأن يعبد .

والإشارة بـ ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ إلى مضمون قوله : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ ، أي هذا طريق الوصول إلى الفوز عن بصيرة ودون تردد ، كما أن الصراط المستقيم لا ينبهم السير فيه على السائر .

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)

هذا التفريع هو المقصود من سوْق القصة مساق التنظير بين أحوال الرسل ، أي عَقِب دعوتَه اختلافُ الأحزاب من بين الأمة الذين بعث إليهم والذين تقلدوا ملته طلباً للاهتداء .

وهذا التفريع دليل على جواب (لمّا) المحذوف .

وضمير ﴿ بينهم ﴾ مراد به الذين جاءهم عيسى لأنهم معلومون من سياق القصة من قوله : ﴿ جاء عيسى ﴾ [الزخرف : 63] فإن المجيء يقتضي مجيئاً إليه وهم اليهود .

و ﴿ من ﴾ يجوز أن تكون مزيدة لتأكيد مدلول ﴿ بينهم ﴾ أي اختلفوا اختلاف أمة

واحدة ، أي فمنهم من صدق عيسى وهم : يحيى بن زكرياء ومريمُ أم عيسى والحواريون الاثنا عشر وبعض نساء مثل مريم المجدلية ونفر قليل ، وكفر به جمهور اليهود وأحبارهم ، وكان ما كان من تألب اليهود عليه حتى رفعه الله .

(100/693)

ثم انتشر الحواريون يدعون إلى شريعة عيسى فاتبعهم أقوام في بلاد رُومية وبلاد اليونان ولم يلبثوا أن اختلفوا من بينهم في أصول الديانة فتفرقوا ثلاث فرق : نسطورية ، ويعاقبة ، ومَلْكَانِيَّة .

فقالت النسطورية : عيسى ابْن الله ، وقالت اليعاقبة : عيسى هو الله ، أي بطريق الحلول ، وقالت المَلْكَانية وهم الكاثوليك : عيسى ثالثُ ثلاثة مجموعها هو الإله ، وتلك هي : الأب الله ، والابنُ عيسى ، وروحُ القدس جبريل فالإله عندهم أقانيم ثلاثة .

وقد شملت الآية كلا الاختلافين فتكون الفاء مستعملة في حقيقة التعقيب ومجازِه بأن يكون شمولها للاختلاف الأخير مجازاً علاقته المشابهة لتشبيه مفاجأة طروّ الاختلاف بين أتباعه مع وجود الشريعة المانعةِ من مثله كأنه حدث عقب بعثة عيسى وإن كان بينه وبينها زمان طويل دبَّت فيه بدعتهم ، واستعمال اللّفظ في حقيقته ومجازه شائع لأن المدار على أن تكون

قرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي وحده على التحقيق .

وهذا الاختلاف أُجمِل هنا ووقع تفصيله في آيات كثيرة تتعلق بما تلقّى به اليهود دعوة عيسى ، وآيات تتعلق بما أحدثه النصارى في دين عيسى من زعم بنوّته من الله وإلهيته .

ويجوز أن تكون ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من بينهم ﴾ ابتدائية متعلقة بـ (اختلف) أي نشأ الاختلاف من بينهم دون أن يُدخله عليهم غيرُهم ، أي كان دينهم سالماً فنشأ فيهم الاختلاف .

وعلى هذا الوجه يختص الخلاف بأتباع عيسى عليه السلام من النصارى إذ اختلفوا فرقاً وابتدعوا قضية بنوّة عيسى من الله فتكون الفاء خالصة للتعقيب المجازي .

(101/693)

وفرع على ذِكر الاختلاف تهديدُ بوعيد للذين ظلموا بالعذاب يوم القيامة تفريعَ التذييل على المذيَّل ، فالذين ظلموا يشمل جميع الذين أشركوا مع الله غيره في الإلهية ﴿ إن الشرك لظلمٌ عظيمٌ ﴾ [لقمان : 13] ، وهذا إطلاق الظلم غالباً في القرآن ، فعلم أن الاختلاف بين الأحزاب أفضى بهم أن صار أكثرهم مشركين بقرينة ما هو معروف في الاستعمال من لزوم مناسبة التذييل للمذيَّل ، بأن يكون التذييل يعمّ المذيَّل وغيرَه فيشمل عمومُ هذا التذييل

مشركي العرب المقصودين من هذه الأمثال والعِبر ، ألاَ ترى أنه وقع في سورة مريم (37) قولُه ﴿ فاختَلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيمٍ ﴾ فجُعلت الصلة فعل كَفروا لأن المقصود من آية سورة مريم الذين كفروا من النصارى ولذلك أردف بقوله : ﴿ لكن الظالمون اليوم في ضلالٍ مبينٍ ﴾ [مريم : 38] لمَّا أريد التخلص إلى إنذار المشركين بعد إنذار النصارى .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66)

استئناف بياني بتنزيل سامع قوله : ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ [الزخرف : 65] مَنزلةَ من يطلب البيان فيسأل : متى يحلّ هذا اليوم الأليم ؟ وما هو هذا الويل ؟ فوردت جملة ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ﴾ جواباً عن الشقّ الأول من السؤال ، وسيجيء الجواب عن الشق الثاني في قوله : ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوّ ﴾ [الزخرف : 67] وفي قوله : ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم ﴾ [الزخرف : 74] الآيات .

وقد جرى الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم ، والمعنى : أن هذا العذاب واقع لا محالة سواء قرب زمان وقوعه أم بعُد ، فلا يريبكم عدم تعجيله قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابُه بَيَاتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ [يونس : 50] ، وقد أشعر بهذا المعنى تقييد إتيان الساعة بقيد ﴿ بغتة ﴾ فإن الشيء الذي لا تسبقه أمارة لا يُدرَى وقتُ حلوله .

و﴿ ينظرون ﴾ بمعنى ينتظرون ، والاستفهام إنكاري ، أي لا ينتظرون بعد أن أشركوا لحصول العذاب إلا حلولَ الساعة .

وعبر عن اليوم بالساعة تلميحاً لسرعة ما يحصل فيه .

والتعريف في ﴿ الساعة ﴾ تعريف العهد .

والبغتة : الفجأة ، وهي : حصول الشيء عن غير ترقّب .

و﴿ أن تأتيهم ﴾ بدل من ﴿ الساعة ﴾ بدلاً مطابقاً فإن إتيان الساعة هو عين الساعة لأن مسمى الساعة حلول الوقت المعيّن ، والحلول هو المجيء المجازي المراد هنا .

وجملة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ في موضع الحال من ضمير النصب في ﴿ تأتيهم ﴾ .

والشعور : العلم بحصول الشيء الحاصل .

ولما كان مدلول ﴿ بغتة ﴾ يقتضي عدم الشعور بوقوع الساعة حين تقع عليهم كانت جملة الحال مؤكدةِ للجملة التي قبلها .

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67)

استئناف يفيد أمرين:

أحدهما : بيان بعض الأهوال التي أشار إليها إجمال التهديد في قوله : ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ [الزخرف : 65] .

وثانيهما : موعظة المشركين بما يحصل يوم القيامة من الأهوال لأمثالهم والحَبرة للمؤمنين .

(103/693)

وقد أوثر بالذكر هنا من الأهوال ما له مزيد تناسب لحال المشركين في تألبهم على مناواة الرّسول صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام ، فإنهم ما أَلَّبهم إلا تناصرهم وتوادّهم في الكفر والتباهي بذلك بينهم في نواديهم وأسمارهم ، قال تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿ وقال إنّما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودةَ بينكم في الحياة الدنيا ثم يومَ القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ [العنكبوت : 25] وتلك شنشنة أهل الشرك من قبل .

وفي معنى هذه الآية قوله المتقدم آنفاً ﴿ حتى إذا جَاآنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ [الزخرف : 38] .

و ﴿ الأخلاء ﴾ : جمع خليل ، وهو الصاحب الملازم ، قيل : إنه مشتق من التخلل لأنه

كالمتخلّل لصاحبه والممتزج به ، وتقدم في قوله : ﴿ واتّخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ في سورة النساء (125) .

والمضاف إليه (إذْ) من قوله : ﴿ يومئذٍ ﴾ هو المعوَّضُ عنه التنوين دلّ عليه المذكور قبله في قوله : ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ [الزخرف : 65] .

والعدوّ : المبغض ، ووزنه فَعول بمعنى فاعل ، أي عَادٍ ، ولذلك استوى جريانه على الواحد وغيره ، وَالمُذكر وغيره ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فإن كان من قومٍ عدوّ لكم ﴾ في سورة النساء (92) .

وتعريف ﴿ الأخلاء ﴾ تعريف الجنس وهو مفيد استغراقاً عرفياً ، أي الأخلاّء من فريقي المشركين والمؤمنين أو الأخلاء من قريش المتحدّث عنهم ، وإلاّ فإن من الأخلاء غير المؤمنين من لا عداوة بينهم يومَ القيامة وهم الذين لم يستخدموا خلتهم في إغراء بعضهم بعضاً على الشرك والكفر والمعاصي وإن افترقوا في المنازل والدرجات يوم القيامة .

و﴿ يومئذ ﴾ ظرف متعلق بعدوّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(104/693)

قوله تعالى ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أفهم هذا أنهم لا عداوة بينه ، بل يكونون في التواد على أضعاف ما كانوا عليه في الدنيا لما ظهر لهم من توادهم فيها وتناصرهم هو أفضى بهم إلى الفوز الدائم برضوان الله ، وصل به حالاً بين فيها ما يتلقاهم به من تواد فيه سبحانه تشريفاً لهم وتسكيناً لما يقتضيه ذلك المقام من الأهوال : ﴿ يا عباد ﴾ أي مقولاً لهم هذا ، فخص بالإضافة إليه كما خصوه بالعبادة ﴿ لا خوف ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ عليكم اليوم ﴾ أي في الآخرة مما يحويه ذلك اليوم العظيم من الأهوال والأمور الشداد والزلازل ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ أي لا يتجدد لكم حزن على شيء فات في وقت من الأوقات الآتية لأنكم لا يفوتكم شيء تسرون به .

ولما ناداهم بما يطمع فيه سائر أهل الموقف لأن كل حزب يقولون : نحن عباده ، خص المرادين بما يوئس غيرهم ولئلا يكون الوصف بالتقوى موقفاً لمن سمعه اليوم من الكفار عن الدخول وكانوا لا يستطيعون ذلك ، فوصف سبحانه المتقين بما يهون الوصول إلى درجتهم

على غيرهم فقال : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذه الحقيقة ﴿ بآياتنا ﴾ الظاهر عظمتها في نفسها أولاً وبنسبتها إلينا ثانياً ﴿ وكانوا ﴾ أي دائماً بما هو لهم كالجبلة والخلق ﴿ مسلمين ﴾ أي منقادين للأوامر والنواهي أتم انقياد ، فبذلك يصلون إلى حقيقة التقوى التامة .

ولما ذكر ما لهم بشارة لهم وترغيباً لغيرهم في اللحاق بهم على وجه فيه إجمال ، شرح ذلك بقوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ ولما كانت الدار لا تكمل إلا بالرفيق السار ، قال تعالى : ﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ أي نساؤكم اللاتي كن مشاكلات لكم في الصفات ، وأما قرناؤهم من الرجال فدخلوا في قوله ﴿ كانوا مسلمين ﴾ ﴿ تحبرون ﴾ أي تكرمون وتزينون فتسرون سروراً يظهر أثره عليكم مستمراً يتجدد أبداً .

(105/693)

ولما كان هذا أمراً سائقاً إلى حالهم سابقاً لمن كان واقفاً عنهم إلى وصالهم ، أقبل على ما لعله يوقفه الاشتغال بلهو أو مال محركاً لما جهل منه ، ومنبهاً على ما غفل عنه ، فقال عائداً إلى الغيبة ترغيباً في التقوى : ﴿ يطاف عليهم ﴾ أي المتقين الذين جعلناهم بهذا النداء ملوكاً ﴿ بصحاف ﴾ جمع صحفة وهي القصعة ﴿ من ذهب ﴾ فيها من ألوان الأطعمة

والفواكه والحلوى ما لا يدخل تحت الوهم .

ولما كانت آنية الشرب في الدنيا أقل من آنية الأكل ، جرى على ذلك المعهود ، فعبر بجمع القلة في قوله : ﴿ وأكواب ﴾ جمع كوب وهو كوز مستدير مدور الرأس لا عروة له ، قد تفوق عن شيء منه اليد أو الشفقة أو يلزم منها بشاعة في شيء من دائر الكوز ، وإيذاناً بأنه لا حاجة أصلاً إلى تعليق شيء لتزيد أوصافه عن أذى أو نحو ذلك .

ولما رغب فيها بهذه المغيبات ، أجمل بما لا يتمالك معه عاقل عن المبادرة إلى الدخول فيما يخصها فقال : ﴿ وفيها ﴾ أي الجنة .

ولما كانت اللذة محصورة في المشتهى قال تعالى : ﴿ ما تشتهيه الأنفس ﴾ من الأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة وغيرها جزاء لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا ، ولما كان ما يخص المبصرات من ذلك أعظم ، خصها فقال : ﴿ وتلذ الأعين ﴾ من الأشياء المبصرة التي أعلاها النظر إلى وجهه الكريم تعالى ، جزاء ما تحملوه من مشاق الاشتياق .

ولما كان ذلك لا يكمل طيبه إلا بالدوام ، قال عائداً إلى الخطاب لأنه أشرف وألذ مبشر لجميع المقبلين على الكتاب ، والملتفت إليهم بالترغيب في هذا الثواب ، بشارة لهذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام بما قدمه في أول السورة وأثنائها من بلوغ قومه نهاية العقل

والعلم والموصلين إلى أحسن العمل الموجب للسعادة : ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ لبقائها وبقاء كل ما فيها ، فلا كلفة عليكم أصلاً من خوف من زوال ولا حزن من فوات .

(106/693)

ولما كان التقدير : الجنة التي لمثلها يعمل العاملون ، عطف عليه قوله مشيراً إلى فخامتها بأداة البعد : ﴿ وتلك الجنة ﴾ أي العالية المقام ﴿ التي ﴾ ولما كان الإرث أمكن للملك ، وكان مطمح النفوس إلى المكنة في الشيء مطلقاً لا يبعد ، بني للمفعول قوله تعالى :

﴿ أورثتموها ﴾ ولما كان ما حصله الإنسان بسعيه ألذ في نفسه لسرورة بالتمتع به وبالعمل الذي كان من سببه ، قال تعالى : ﴿ بما ﴾ وبين أن العمل كان لهم كالجبلة التي جبلوا عليها ، فالمنّة لربهم في الحقيقة بما زكى لهم أنفسهم بقوله : ﴿ كنتم تعملون ﴾ أي مواظبين على ذلك لا تفترون .

ولما كان الأكل أعم الحاجات وأعم الطلبات ، قال تعالى مبيناً أن جميع أكلهم تفكه ليس فيه شيء تقوتاً لأنه لا فناء فيها لقوة ولا غيرها لتحفظ بالأكل ولا ضعف ﴿ لكم فيها فاكهة ﴾ أي ما يؤكل تفكهاً وإن كان لحماً وخبزاً .

ولما كان ما يتفكه في الدنيا قليلاً قال تعالى : ﴿ كثيرة ﴾ ودل مع الكثرة على دوام النعمة

بقصد التفكه بكل شيء فيها بقوله : ﴿ منها ﴾ أي لا من غيرها مما يلحظ فيه التقوت ﴿ تأكلون ﴾ فلا تنفد أبداً ولا تتأثر بأكل الآكلين لأنها على صفة الماء النابع ، لا يؤخذ منه شيء إلا خلف مكانه مثله أو أكثر منه في الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 52.50 ﴾

(107/693)

فصل

قال الفخر :

وقوله تعالى : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾

وقد ذكرنا مراراً أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد ، بالمؤمنين المطيعين المتقين ، فقوله ﴿ يا عِبَادِ ﴾ كلام الله تعالى ، فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم ﴿ يا عباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح أولها : أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة وثانيها : أنه تعالى وصفهم بالعبودية ، وهذا تشريف عظيم ، بدليل أنه لما أراد أن يشرف محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، قال :

﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] وثالثها : قوله ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم ﴾ فأزال عنهم الخوف في يوم القيامة بالكلية ، وهذا من أعظم النعم ورابعها : قوله ﴿ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية .

ثم قال تعالى : ﴿ الذين ءَامَنُواْ بآياتنا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قيل ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ مبتدأ ، وخبره مضمر ، والتقدير يقال لهم : أدخلوا الجنة ، ويحتمل أن يكون المعنى أعني الذين آمنوا ، قال مقاتل : إذا وقع الخوف يوم القيامة ، نادى منادٍ ﴿ ياعباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم ﴾ فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم ، فيقال ﴿ الذين ءَامَنُواْ بآياتنا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ فتنكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم الحكم الثالث : من وقائع القيامة ، أنه تعالى إذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن ، وجب أن يمر حسابهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها ، ثم يقال لهم ﴿ ادخلوا الجنة أَنتُمْ وأزواجكم تُحْبَرُونَ ﴾ والحبرة المبالغة في الإكرام فيما وصف بالجميل ، يعني يكرمون إكراماً على سبيل المبالغة ، وهذا مما سبق تفسيره في سورة الروم .

(108/693)

ثم قال : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بصحاف مِّن ذَهَبٍ وأكواب ﴾ قال الفراء : الكوب المستدير الرأس الذي لا أذن له ، فقوله ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بصحاف مِّن ذَهَبٍ ﴾ إشارة إلى المطعوم ، وقوله ﴿ وَأَكْوابٍ ﴾ إشارة إلى المشروب ، ثم إنه تعالى ترك التفصيل وذكر بياناً كلياً ، فقال : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين وَأَنتُمْ فِيهَا خالدون ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقد ذكرنا في وراثة الجنة وجهين في قوله ﴿ أولئك هُمُ الوارثون * الذين يَرِثُونَ الفردوس ﴾ [المؤمنون : 10 ، 11] ولما ذكر الطعام والشراب فيما تقدم ، ذكر ههنا حال الفاكهة ، فقال : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فاكهة مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

واعلم أنه تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب أولاً ، ثم إلى العالمين ثانياً ، والعرب كانوا في ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة ، فلهذا السبب تفضل الله تعالى عليهم بهذه المعاني مرة بعد أخرى ، تكميلاً لرغبتهم وتقوية لدواعيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 193 ﴾

(109/693)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾

" البينات " التي جاء بها عيسى عليه السلام هي : إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، إلى غير ذلك . وقال قتادة : الإنجيل . والحكمة : النبوءة قاله السدي وغيره .

وقوله : ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ قال أبو عبيدة : ﴿ بعض ﴾ بمعنى كل ، وهذا ضعيف ترده اللغة ، ولا حجة له من قول لبيد :

أو يعتلق بعض النفوس حمامها . . . لأنه أراد نفسه ونفس من معه ، وذلك بعض النفوس ، وإنما المعنى الذي ذهب إليه الجمهور ، أن الاختلاف بين الناس هو في أمور كثيرة لا تحصى عدداً ، منها أمور أخروية ودينية ، ومنها ما لا مدخل له في الدين ، فكل نبي فإنما يبعث ليبين أمر الأديان والآخرة ، فذلك بعض ما يختلف فيه .

وقوله تعالى : ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ حكاية عن عيسى عليه السلام إذ أشار إلى شرعه . و: ﴿ الأحزاب ﴾ المذكورون : قال جمهور المفسرين أراد : اختلف بنو إسرائيل وتحزبوا ، فمنهم من آمن به ، وهو قليل ، وكفر الغير ، وهذا إذا كان معهم حاضراً . وقال قتادة : ﴿ الأحزاب ﴾ هم الأربعة الذين كان الرأي والمناظرة صرفت إليهم في أمر عيسى عليه السلام . وقال ابن حبيب وغيره : ﴿ الأحزاب ﴾ النصارى افترقت مذاهبهم فيه بعد رفعه عليه السلام ، فقالت فرقة : هو الله ، وهم اليعقوبية قال الله عز وجل : ﴿ لقد

كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ [المائدة : 17] . وقالت فرقة : هو ابن الله ، وهم النسطورية قال الله تعالى فيهم : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : 30] ، وقالت فرقة : هو ثالث ثلاثة ، وهم الملكانية قال الله تعالى فيهم : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ [المائدة : 73] .

(110/693)

وقوله تعالى : ﴿ من بينهم ﴾ بمعنى من تلقائهم ومن أنفسهم ثار شرهم ، ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم . والضمير في : ﴿ ينظرون ﴾ لقريش ، والمعنى : ينتظرون . و: ﴿ بغتة ﴾ معناه : فجأة دون مقدمة ولا إنذار بها .

ثم صرف تعالى بعض حال القيامة ، وإنها لهول مطلعها والخوف المطبق بالناس فيها يتعادى ويتباغض كل خليل كان في الدنيا على غير تقى ، لأنه يرى أن الضرر دخل عليه من قبل خليله ، وأما المتقون فيرون أن النفع دخل بهم من بعضهم على بعض ، هذا معنى كلام علي رضي الله عنه .

وقوله : ﴿ يا عبادي ﴾ المعنى يقال لهم ، أي للمتقين .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : " يا عباديَ " بفتح الياء ، وهذا هو الأصل . وقرأ نافع وأبو

عمرو وابن عامر : " يا عبادي " بسكون الياء . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم " يا عباد " بحذف الياء . قال أبو علي : وحذفها أحسن ، لأنه في موضع تنوين وهي قد عاقبته ، فكما يحذف التنوين في الاسم المنادى المفرد ، كذلك تحذف الياء هنا لكونها على حرف ، كما أن التنوين كذلك ، ولأنها لا تنفصل من المضاف كما لا ينفصل التنوين من المنون .

وذكر الطبري عن المعتمر عن أبيه أنه قال : سمعت أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فزع ، فينادي مناد : ﴿ لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ فيرجوها الناس كلهم ، قال فيتبعها . ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ [الزخرف : 69] قال : فييأس منها جميع الكفار .

وقرأ الحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر ويعقوب : " لا خوفَ " بنصب الفاء من غير تنوين . وقرأ ابن محيصن برفع الفاء من غير تنوين .

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69)

(111/693)

﴿ الذين ﴾ نعت للعباد في قوله تعالى : ﴿ يا عباد ﴾ [الزخرف : 68] . ثم ذكر أمره إياهم بدخول الجنة هم وأزواجهم . و : ﴿ تحبرون ﴾ معناه : تنعمون وتسرون . والحبرة : السرور . والأكواب : ضرب من الأواني كالأباريق ، إلا أنها لا آذان لها ولا مقابض .

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر وشيبة : " ما تشتهيه " بإثبات الهاء الأخيرة وكذلك في مصحف المدينة ومصاحف الشام ، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم والجمهور : " ما تشتهي " بحذف الهاء ، وكذلك وقع في أكثر المصاحف وحذفها من الصلة لطول القول حسن ، وكذلك كثر في التنزيل كقوله تعالى : ﴿ أهذا الذي بعث الله ﴾ [الفرقان : 41] وفي قوله : ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ [النمل : 58] وغير ذلك ، وفي مصحف ابن مسعود : " ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين " .

وقوله تعالى : ﴿ أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ ليس المعنى أن الأعمال أوجبت على الله إدخالهم الجنة ، وإنما المعنى : أن حظوظهم منها على قدر أعمالهم ، وأما نفس دخول الجنة وأن يكون من أهلها فبفضل الله وهداه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(112/693)

وقال القرطبى :

﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) ﴾

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادي منادٍ في العَرَصات يا عِبادِي لا خوف عليكم اليوم ، فيرفع أهل العَرْصة رؤوسهم ، فيقول المنادي : ﴿ الذين آمَنُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف : 69] فينكّس أهل الأديان رؤوسهم غير المسلمين .

وذكر المحاسبي في الرعاية : وقد روي في هذا الحديث أن المنادي ينادي يوم القيامة : " يا عبادي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ " فيرفع الخلائق رؤوسهم ، يقولون : نحن عباد الله .

ثم ينادي الثانية : ﴿ الذين آمَنُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ فينكّس الكفار رؤوسهم ويبقى الموحدون رافعي رؤوسهم .

ثم ينادي الثالثة : ﴿ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فينكس أهل الكبائر رؤوسهم ، ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لا يخذل وليّه ولا يُسلمه عند الهلكة .

وقرىء "يَا عِبَادِ" .

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69)

قال الزجاج : "الَّذِينَ" نصب على النعت ل "عبادي" لأن "عِبَادِي" منادى مضاف .

وقيل : "الَّذِينَ آمَنُوا" (خبر لمبتدأ محذوف أو) ابتداء وخبره محذوف ؛ تقديره هم الذين آمنوا ، أو الذين آمنوا يقال لهم : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ .

وقرأ أبو بكر وزِرّ بن حُبيش "يَا عِبَادِيَ" بفتح الياء وإثباتها في الحالين ؛ ولذلك أثبتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس ساكنة في الحالين .

وحذفها الباقون في الحالين ؛ لأنها وقعت مثبتة في مصاحف أهل الشام والمدينة لا غير .

﴿ ادخلوا الجنة ﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة ، أو يا عبادي الذين آمنوا ادخلوا الجنة .

﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ المسلمات في الدنيا .

وقيل : قرناؤكم من المؤمنين .

وقيل : زوجاتكم من الحور العين .

(113/693)

﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تكرمون ؛ قاله ابن عباس ؛ والكرامة في المنزلة .

الحسن : تفرحون ، والفرح في القلب .

قتادة : ينعمون ؛ والنعيم في البدن .

مجاهد : تسرّون ؛ والسرور في العين .

ابن أبي نجيح : تعجبون ؛ والعجب هاهنا درك ما يستطرف .

يحيى بن أبي كثير : هو التلذذ بالسماع .

وقد مضى هذا في "الروم" .

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71)

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي لهم في الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم في صِحاف من ذهب وأكواب .

ولم يذكر الأطعمة والأشربة ؛ لأنه يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شيء .

وذكر الذهب في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب ؛ كقوله تعالى : ﴿ والذاكرين الله كَثِيراً والذاكرات ﴾ [الأحزاب : 35] .

وفي الصحيحين عن حُذيفة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة " وقد مضى في سورة "الحج" أن من أكل فيهما في الدنيا أو لبس الحرير في الدنيا ولم يتب حُرِم ذلك في الآخرة تحريماً مؤبداً .

والله أعلم .

وقال المفسرون : يطوف على أدناهم في الجنة منزلة سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب ، يُغْدَى عليه بها ، في كل واحدة منها لون ليس في صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضاً ، ويراح عليه بمثلها .

ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام ، مع كل غلام صحفة من ذهب ، فيها لون من الطعام ليس في صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضاً .

(114/693)

﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي ويطاف عليهم بأكواب ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الإنسان : 15] وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبي قِلابة قال : يؤتون بالطعام والشراب ، فإذا كان في آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتَضْمُر لذلك بطونهم ، ويفيض عرقاً من جلودهم أطيب من ريح المسك ؛ ثم قرأ ﴿ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يَتْفُلُون ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يمتخِطون قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جُشاء ورَشْح كرشح المسك يُلْهَمُون التّسبيح والتحميد والتكبير في رواية كما يلهمون النَّفَس " .

الثانية روى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يُجَرْجِر في بطنه نار جهنم " وقال : " لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها " وهذا يقتضي التحريم ، ولا خلاف في ذلك .

واختلف الناس في استعمالها في غير ذلك .

قال ابن العربي : والصحيح أنه لا يجوز للرجل استعمالها في شيء

" لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في الذهب والحرير : "هذان حرام لذكور أمتي حلّ لإناثه"ا

" والنهي عن الأكل والشرب فيها يدل على تحريم استعمالها ؛ لأنه نوع من المتاع فلم يجز .

أصله الأكل والشرب ، ولأن العلة في ذلك استعجال أمر الآخرة ، وذلك يستوي فيه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : " هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة " فلم يجعل لنا فيها حظاً في الدنيا .

الثالثة إذا كان الإناء مُضَبَّباً بهما أو فيه حَلْقة منهما ؛ فقال مالك : لا يعجبني أن يُشرب فيه ، وكذلك المرآة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبني أن ينظر فيها وجهه .

وقد كان عند أنس إناء مضبّب بفضة وقال : لقد سقيت فيه النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن سيرين : كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة ؛ فقال أبو طلحة : لا أغيّر شيئاً مما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتركه .

الرابعة إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناؤها ؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطُّنبور .

وفي كتب علمائنا أنه يلزم الغُرْم في قيمتها لمن كسرها ، وهو معنى فاسد ، فإنّ كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها .

ولا يجوز تقويمها في الزكاة بحال .

وغير هذا لا يلتفت إليه .

قوله تعالى : ﴿ بِصِحَافٍ ﴾ قال الجوهري : الصحفة كالقَصْعة والجمع صِحاف .

قال الكسائي : أعظم القصاع الجَفْنة ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة ، ثم الصحفة تشبع الخمسة ، ثم المِئْكلة تُشبع الرجلين والثلاثة ، ثم الصُّحَيفة تشبع الرجل .

والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف .

قول تعالى : ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ قال الجوهري : الكوب كوز لا عروة له ، والجمع أكواب .

قال الأعشى يصف الخمر :

صرِيفِيّة طَيِّبٌ طَعْمُها . . .

لها زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ

وقال آخر :

مُتَّكِئاً تَصْفِق أبوابُه . . .

يسعى عليه العبْدُ بالكوب

وقال قتادة : الكوب المدوّر القصير العنق القصير العروة .

والإبريق : المستطيل العنق الطويل العروة .

وقال الأخفش : الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها .

وقال قُطْرُب : هي الأباريق التي ليست لها عُرًى .

وقال مجاهد : إنها الآنية المدورة الأفواه .

السُّدّي : هي التي لا آذان لها .

ابنَ عزيز : "أكواب" أباريق لا عُرَى لها ولا خراطيم ؛ واحدها كوب .

قلت : وهو معنى قول مجاهد والسُّدّي ، وهو مذهب أهل اللغة أنها التي لا آذان لها ولا عُرًى .

قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفس وَتَلَذُّ الأعين ﴾ روى الترمذيّ " عن سليمان بن بُريدة عن أبيه أن رجلاً سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هل في الجنة من خيل ؟ قال : "إنِ اللّهُ أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت" .

قال : وسأله رجل فقال يا رسول الله ، هل في الجنة من إبل ؟ قال : فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه قال : "إنْ يُدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك" "

وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام "وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ" ، الباقون "تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ" أي تشتهيه الأنفس ؛ تقول الذي ضربت زيد ، أي الذي ضربته زيد .

﴿ وَتَلَذُّ الأعين ﴾ تقول : لذّ الشيءُ يَلَذُّ لذاذاً ، ولذاذة .

ولَذِذت بالشيء أَلَذّ (بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل) لذاذاً ولذاذة ؛ أي وجدته لذيذاً .

والتذذت به وتلذّذت به بمعنًى .

أي في الجنة ما تستلذه العين فكان حَسَن المَنْظَر .

وقال سعيد بن جبير : "وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ" النظر إلى الله عز وجل ؛ كما في الخبر : "أسألك لذة النظر إلى وجهك" .

﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ باقون دائمون ؛ لأنها لو انقطعت لتبغضت .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الجنة ﴾ أي يقال لهم هذه تلك الجنة التي كانت توصف لكم في الدنيا .

وقال ابن خالَوَيه : أشار تعالى إلى الجنة بتلك وإلى جهنم بهذه ؛ ليخوّف بجهنم ويؤكد التحذير منها .

وجعلها بالإشارة القريبة كالحاضرة التي ينظر إليها .

﴿ التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارا ؛ فالكافر يرث نار المسلم ، والمسلم يرث جنة الكافر ؛ وقد تقدّم هذا مرفوعاً في ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] من حديث أبي هريرة ، وفي "الأعراف" أيضاً .

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)

(117/693)

الفاكهة معروفة ، وأجناسها الفواكه ، والفاكِهانيّ الذي يبيعها .

وقال ابن عباس : هي الثمار كلها ، رطبها ويابسها ؛ أي لهم في الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة يأكلون منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(118/693)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

لما ذكر تعالى طرفاً من قصة موسى عليه السلام ، ذكر طرفاً من قصة عيسى عليه السلام .

وعن ابن عباس وغيره : لما نزل ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ ونزل كيف خلق من غير فحل ، قالت قريش : ما أراد محمد من ذكر عيسى إلا أن نعبده ، كما عبدت النصارى عيسى ، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً .

وقيل : ضرب المثل بعيسى ، هو ما جرى بين الزبعري وبين الرسول عليه الصلاة والسلام في القصة المحكية في قوله : ﴿ إنكم وما تعبدون ﴾ وقد ذكرت في سورة الأنبياء في آخرها أن ابن الزبعري قال : فإذا كان هؤلاء أي عيسى وأمه وعزير في النار ، فقد وصفنا أن نكون نحن وآلهتنا معهم .

وقيل : المثل هو أن الكفار لما سمعوا أن النصارى تعبد عيسى قالوا : آلهتنا خير من عيسى ، قال ذلك منهم من كان يعبد الملائكة .

وضرب مبني للمفعول ، فاحتمل أن يكون الفاعل ابن الزبعري ، إن صحت قصته ، وأن يكون الكفار .

وقرأ أبو جعفر ، والأعرج ، والنخعي ، وأبو رجاء ، وابن وثاب ، وعامر ، ونافع ، والكسائي : يصدون ، بضم الصاد ، أي يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل .

وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، والحسن ، وعكرمة ، وباقي السبعة : بكسرها ، أي يصيحون ويرتفع لهم حمية بضرب المثل .

وروي : ضم الصاد ، عن علي ، وأنكرها ابن عباس ، ولا يكون إنكاره إلا قبل بلوغه تواترها .

وقرأ الكسائي ، والفراء : هما لغتان بمعنى : مثل يعرشون ويعرشون .

﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو ﴾ : خفف الكوفيون الهمزتين ، وسهل باقي السبعة الثانية بين بين .

وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر : بهمزة واحدة على مثال الخبر ، فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام محذوفة لدلالة أم عليها ، واحتمل أن يكون خبراً محضاً .

حكوا أن آلهتهم خير ، ثم عنّ لهم أن يستفهموا ، على سبيل التنزل من الخبر إلى الاستفهام المقصود به الإفحام ، وهذا الاستفهام يتضمن أن آلهتهم خير من عيسى .

﴿ ما ضربوه لك إلاّ جدلاً ﴾ : أي ما مثلوا هذا التمثيل إلا لأجل الجدل والغلبة والمغالطة ، لا لتمييز الحق واتباعه .

وانتصب جدلاً على أنه مفعول من أجله ، وقيل : مصدر في موضع الحال .

وقرأ ابن مقسم : إلا جدالاً ؛ بكسر الجيم .

وألف خصمون : شديدو الخصومة واللجاج ؛ وفعل من أبنية المبالغة نحو : هدى .

والظاهر أن الضمير في أم هو لعيسى ، لتتناسق الضمائر في قوله : ﴿ إن هو إلاّ عبد ﴾ .

وقال قتادة : يعود على النبي (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ أنعمنا عليه ﴾ بالنبوة وشرفناه بالرسالة .

﴿ وجعلناه مثلاً ﴾ أي خبرة عجيبة ، كالمثل ﴿ لبني إسرائيل ﴾ ، إذ خلق من غير أب ، وجعل له من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص والأسقام كلها ، ما لم يجعل لغيره في زمانه .

وقيل : المنعم عليه هو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة من الأرض ﴾ ، قال بعض النحويين : من تكون للبدل ،

أي لجعلنا بدلكم ملائكة ، وجعل من ذلكم قوله تعالى : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ أي بدل الآخرة ، وقول الشاعر :

أخذوا المخاض من الفصيل غلية . . .

ظلماً ويكتب للأمير أفالا

أي بدل الفصيل ، وأصحابنا لا يثبتون لمن معنى البدلية ، ويتأولون ما ورد ما يوهم ذلك .

قال ابن عطية : لجعلنا بدلاً منكم .

وقال الزمخشري : ولو نشاء ، لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر ، لجعلنا منكم : لولدنا منكم يا رجال ملائكة يخلفونكم في الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ؛ كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام ، وذات القديم متعالية عن ذلك .

انتهى ، وهو تخريج حسن .

(120/693)

ونحو من هذا التخريج قول من قال : لجعلنا من الأنس ملائكة ، وإن لم تجر العادة بذلك .

والجواهر جنس واحد ، والاختلاف بالأوصاف .

﴿ يخلفون ﴾ ، قال السدي : يكونون خلفاءكم .

وقال قتادة : يخلف بعضهم بعضاً .

وقال مجاهد : في عمارة الأرض .

وقيل : في الرسالة بدلاً من رسلكم .

والظاهر أن الضمير في : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ يعود على عيسى ، إذ الظاهر في الضمائر السابقة أنها عائدة عليه .

وقال ابن عباس : ومجاهد ، وقتادة ، والحسن ، والسدي ، والضحاك ، وابن زيد : أي وإن خروجه لعلم للساعة يدل على قرب قيامها ، إذ خروجه شرط من أشراطها ، وهو نزوله من السماء في آخر الزمان .

وقال الحسن ، وقتادة أيضاً ، وابن جبير : يعود على القرآن على معنى أن يدل إنزاله على قرب الساعة ، أو أنه به تعلم الساعة وأهوالها .

وقالت فرقة : يعود على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، إذ هو آخر الأنبياء ، تميزت الساعة به نوعاً وقدراً من التمييز ، ونفى التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه .

وقرأ الجمهور : لعلم ، مصدر علم .

قال الزمخشري : أي شرط من أشراطها تعلم به ، فسمى العلم شرطاً لحصول العلم به .

وقرأ ابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو مالك الغفاري ، وزيد بن علي ، وقتادة ، ومجاهد ،

والضحاك ، ومالك بن دينار ، والأعمش ، والكلبي .

قال ابن عطية ، وأبو نصرة : لعلم ، بفتح العين واللام ، أي لعلامة .

وقرأ عكرمة به .

قال ابن خالويه ، وأبو نصرة : للعلم ، معرفاً بفتحتين .

﴿ فلا تمترن بها ﴾ : أي لا تشكون فيها ، ﴿ واتبعون هذا ﴾ : أي هداي أو شرعي .

وقيل : أي قل لهم يا محمد : واتبعوني هذا ، أي الذي أدعوكم له ، أو هذا القرآن ؛ كان الضمير في قال القرآن ، ثم حذرهم من إغواء الشيطان ، ونبه على عداوته ﴿ بالبينات ﴾ : أي المعجزات ، أو بآيات الإنجيل الواضحات .

﴿ بالحكمة ﴾ : أي بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع .

قال السدي : بالحكمة : النبوة .

(121/693)

وقال أيضاً : قضايا يحكم بها العقل .

وذكر القشيري والماوردي : الإنجيل .

وقال الضحاك : الموعظة .

﴿ ولأبين لكم بعض الذين فيه تختلفون فيه ﴾ : وهو أمر الديانات ، لأن اختلافهم يكون فيها ، وفي غيرها من الأمور التي لا تتعلق بالديانات .

فأمور الديانات بعض ما يختلفون فيه ، وبين لهم في غيره ما احتاجوا إليه .

وقيل : بعض ما يختلفون فيه من أحكام التوراة .

وقال أبو عبيدة : بعض بمعنى كل ، ورده الناس عليه .

وقال مقاتل : هو كقوله : ﴿ ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم ﴾ أي في الإنجيل : لحم الإبل ، والشحم من كل حيوان ، وصيد السمك يوم السبت .

وقال مجاهد : بعض الذي يختلفون فيه من تبديل التوراة .

وقيل : مما سألتم من أحكام التوراة .

وقال قتادة : ولأبين لكم اختلاف القرون الذين تحزبوا في أمر عيسى في قوله : ﴿ قد جئتكم بالحكمة ﴾ ، وهم قومه المبعوث إليهم ، أي من تلقائهم ومن أنفسهم ، بان شرهم ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم .

وتقدم الخلاف في اختلافهم في سورة مريم في قوله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ ﴿ هل ينظرون ﴾ : الضمير لقريش ، و ﴿ وأن تأتيهم ﴾ : بدل من الساعة ، أي إتيانها إياهم .

﴿ الأخلاء يومئذ ﴾ : قيل نزلت في أبيّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط .

والتنوين في يومئذ عوض عن الجملة المحذوفة ، أي يوم إذ تأتيهم الساعة ، ويومئذ منصوب بعد ، والمعنى : أنه ينقطع كل خلة وتنقلب الأخلة المتقين ، فإنها لا تزداد إلا قوّة .

وقيل : ﴿ إلا المتقين ﴾ : إلا المجتنبين أخلاء السوء ، وذلك أن أخلاء السوء كل منهم يرى أن الضرر دخل عليه من خليله ، كما أن المتقين يرى كل منهم النفع دخل عليه من خليله .

وقرىء : يا عبادي ، بالياء ، وهو الأصل ، ويا عباد بحذفها ، وهو الأكثر ، وكلاهما في السبعة .

(122/693)

وعن المعتمر بن سليمان : سمع أن الناس حين يبعثون ، ليس منهم أحد إلا يفزع فينادي منادٍ ﴿ يا عبادي لا خوف عليكم ﴾ ، فيرجوها الناس كلهم ، فيتبعها ﴿ الذين آمنوا ﴾ الآية ، قال : فييأس منها الكفار .

وقرأ الجمهور : لا خوف ، مرفوع منون ؛ وابن محيصن : بالرفع من غير تنوين ؛ والحسن ، والزهري ، وابن أبي إسحاق ، وعيسى ، وابن يعمر : بفتحها من غير تنوين ، و ﴿ الذين آمنوا ﴾ صفة ليا عبادي .

﴿ تحبرون ﴾ : تسرون سروراً يظهر حباره ، أي أثره على وجوهكم ، لقوله تعالى : ﴿

تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ وقال الزجاج : يكرمون إكراماً يبالغ فيه ، والحبرة : المبالغة فيما وصف بجميل وأمال أبو الحرث عن الكسائي .

﴿ بصحاف ﴾ : ذكره ابن خالويه .

والضمير في : ﴿ فيها ﴾ ، عائد على الجنة .

﴿ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ : هذا حصر لأنواع النعم ، لأنها إما مشتهاة في القلوب ، أو مستلذة في العيون .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع ، وابن عباس ، وحفص : ما تشتهيه بالضمير العائد على ما ، والجمهور وباقي السبعة : بحذف الهاء .

وفي مصحف عبد الله : ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين ، بالهاء فيهما .

و ﴿ تلك الجنة ﴾ : مبتدأ وخبر .

و ﴿ التي أورثتموها ﴾ : صفة ، أو ﴿ الجنة ﴾ صفة ، و ﴿ التي أورثتموها ﴾ ، و ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ الخبر ، وما قبله صفتان .

فإذا كان بما الخبر تعلق بمحذوف ، وعلى القولين الأولين يتعلق بأورثتموها ، وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة .

ولما ذكر ما يتضمن الأكل والشرب ، ذكر الفاكهة .

﴿ منها تأكلون ﴾ : من للتبعيض ، أي لا تأكلون إلا بعضها ، وما يخلف المأكول باق في الشجر ، كما جاء في الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(123/693)

وقال الآلوسى :

﴿ يا عباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

حكاية لما ينادي به المتقون المتحابون في الله تعالى يومئذ فهو بتقدير قول أي فيقال لهم يا عبادي الخ أو فأقول : لهم بناء على أن المنادي هو الله عز وجل تشريفاً لهم ، وعن المعتمر بن سليمان أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحداً لا يفزع فينادي منادياً عباد الخ فيرجوها الناس كلهم فيتبعها قوله تعالى :

﴿ الذين ءامَنُواْ الذين ءامَنُواْ بآياتنا ﴾ فييأس منها الكفار ، فيا عباد عام مخصوص إما بالآية السابقة وإما باللاحقة ، والأول أوفق من أوجه عديدة .

والموصول إما صفة للمنادي أو بدل أو مفعول لمقدر أي أمدح ونحوه ، وجملة ﴿ وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ حال من ضمير ﴿ ءامَنُواْ ﴾ بتقدير قد أو بدونه ، وجوز عطفها على الصلة ، ورجحت الحالية بأن الكلام عليها أبلغ المراد بالإسلام هنا الانقياد والإخلاص ليفيد ذكره

بعد الايمان فإذا جعل حالاً أفاد بعد تلبسهم به في الماضي اتصاله بزمان الايمان ، وكان تدل على الاستمرار أيضاً ومن هنا جاء التأكيد والأبلغية بخلاف العطف ، وكذا الحال المفردة بأن يقال : الذين آمنوا بآياتنا مخلصين ، وقرأ غير واحد من السبعة ﴿ فِى عِبَادِى ﴾ بالياء على الأصل ، والحذف كثير شائع وبه قرأ حفص .

وحمزة .

والكسائي ، وقرأ ابن محيصن ﴿ لاَ خَوْفٌ ﴾ بالرفع من غير تنوين ، والحسن .

والزهري .

وابن أبي إسحق .

وعيسى .

وابن يعمر .

ويعقوب .

بفتحها من غير تنوين .

(124/693)

﴿ ادخلوا الجنة أَنتُمْ وأزواجكم ﴾ نساؤكم المؤمنات فالإضافة للاختصاص التام فيخرج من لم يؤمن منهم ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تسرون سروراً يظهر حباره أي أثره من النضرة والحسن على وجوهكم كقوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ [المطففين : 24] أو تزينون من الحبر بفتح الحاء وكسرها وهو الزينة وحسن الهيئة ؛ وهذا متحد بما قبله معنى والفرق في المشتق منه ، وقال الزجاج : أي تكرمون إكراماً يبالغ فيه ، والحبرة بالفتح المبالغة في الفعل الموصوف بأنه جميل ومنه الإكرام فهو في الأصل عام أريد به بعض أفراده هنا .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ بعد دخولهم الجنة حيثما أمروا به ﴿ بصحاف مّن ذَهَبٍ وأكواب ﴾ كذلك ، والصحاف جمع صحفة قيل هي كالقصعة ، وقيل : أعظم أواني الأكل الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم الكيلة .

والأكواب جمع كوكب وهو كوز لا عروة له ، وهذا معنى قول مجاهد لا إذن له ، وهو على ما روى عن قتادة دون الإبريق ، وقال : بلغنا أنه مدور الرأس ولما كانت أواني المأكول أكثر بالنسبة لأواني المشروب عادة جمع الأول جمع كثرة والثاني جمع قلة ، وقد تظافرت الأخبار بكثرة الصحاف ، أخرج ابن المبارك .

وابن أبي الدنيا في صفة الجنة .

والطبراني في "الأوسط" بسند رجاله ثقات عن أنس قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم بيد كل واحد صحفتان واحدة من ذهب والأخرى من فضة في كل واحدة لون ليس في الأخرى مثله يأكل من آخرها مثل ما يؤكل من أولها يجد لآخرها من الطيب واللذة مثل الذي يجد لأولها ثم يكون ذلك كرشح المسك الأذفر لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون إخواناً على سرر متقابلين " وفي حديث رواه عكرمة " إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل بعده أحد يفسح له في بصره مسيرة عام في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدي عليه كل يوم ويراح بسبعين ألف صحفة في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله شهوته في آخرها كشهوته في أولها لو نزل عليه جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً " وروى ابن أبي شيبة هذا العدد عن كعب أيضاً ، وإذا كان ذلك لودنى فما ظنك بالأعلى ، رزقنا الله تعالى ما يليق بجوده وكرمه .

(126/693)

وأمال أبو الحرث عن الكسائي كما ذكر ابن خالويه بصحاف ﴿ وَفِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ ﴾ من فنو الملاذ ﴿ وَتَلَذُّ الاعين ﴾ أي تستلذ وتقر بمشاهدته ، وذكر ذلك الشامل لكل لذة ونعيم بعد ذكر الطواف عليهم بأواني الذهب الذي هو بعض من التنعم والترفه تعميم بعد تخصيص كما أن ذكر لذة العين التي هي جاسوس النفس بعد اشتهاء النفس تخصيص بعد تعميم ، وقال بعض الأجلة : إن قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ بصحاف دل على الأطعمة ﴿ وَأَكْوابٍ ﴾ على الأشربة ، ولا يبعد أن يحمل قوله سبحانه : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس ﴾ على المنكح والملبس وما يتصل بهما ليتكامل جميع المشتهيات النفسانية فبقيت اللذة الكبرى وهي النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فكنى عنه بقوله عز وجل : ﴿ وَتَلَذُّ الاعين ﴾ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه النسائي عن أنس :

" حبب إلى الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة " وقال قيس بن ملوح :

ولقد هممت بقتلها من حبها . . .

كيما تكون خصيمتي في المحشر

حتى يطول على الصراط وقوفنا . . .

وتلذ عيني من لذيذ المنظر

ويوافق هذا قول الإمام جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه : شتان بين ما تشتهي الأنفس وبين ما تلذ الأعين لأن جميع ما في الجنة من النعيم والشهوات في جنب ما تلذ الأعين كأصبع تغمس في البحر لأن شهوات الجنة لها حد ونهاية لأنها مخلوقة ولا تلذ عين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي جل وعز ولا حد لذلك ولا صفة ولا نهاية انتهى ، ويعلم مما ذكر أن المعنى على اعتبار وفيها ما تلذ الأعين وعلى ذلك بني الزمخشري قوله : هذا حصر لأنواع النعم لأنها أما مشتهاة في القلوب أو مستلذة في الأعين ، وتعقبه في "الكشف" فقال : فيه نظر لانتقاضه بمستلذات سائر المشاعر الخمس ، فإن قيل : إنها من القسم الأول قلنا : مستلذ العين كذلك فالوجه أنه ذكر تعظيماً لنعيمها بأنه مما يتوافق فيه القلب والعين وهو الغاية عندهم في المحبوب لأن العين مقدمة القلب ؛ وهذا قول بأنه ليس في الجملة الثانية اعتبار موصول آخر بل هي والجملة قبلها صلتان لموصول واحد وهو المذكور ، وما تقدم هو الذي يقتضيه كلام الأكثرين ، وحذف الموصول في مثل ذلك شائع ، ولا مانع من إدخال النظر إلى وجهه تعالى الكريم فيما تلذ الأعين على ما ذكرناه أولاً ، و ﴿ ءالَ ﴾ في الأنفس والأعين للاستغراق على ما قيل ، ولا فرق بين جمع القلة والكثرة .

ولعل من يقول : بأن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ويفرق بين الجمعين في المبدإ والمنتهى يقول : بأن استغراق جمع القلة أشمل من استغراق جمع الكثرة ، وقيل : هي للعهد ،

وقيل : عوض عن المضاف إليه أي ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم ، وجمع النفس والعين الباصرة على أفعل في كلامهم أكثر من جمعهما على غيره بل ليس في القرآن الكريم جمع الباصرة إلا على ذلك ، وما أنسب هذا الجمع هنا لمكان ﴿ الاخلاء ﴾ [الزخرف : 67] وحمل ما تشتهيه النفس على المنكح والملبس وما يتصل بهما خلاف الظاهر .

وفي الأخبار أيضاً ما هو ظاهر في العموم ، أخرج ابن أبي شيبة .

والترمذي .

(128/693)

وابن مردويه عن بريدة قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل في الجنة خيل فإنها تعجبني ؟ قال : إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت ، فقال له رجل : إن الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل ؟ فقال : يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما تشتهي نفسك ولذت عينك "

وأخرج أيضاً نحوه عن عبد الرحمن بن سابط وقال : هو أصح من الأول ، وجاء نحوه أيضاً في روايات أخر فلا يضره ما قيل من ضعف إسناده ، ولا يشكل على العموم أن اللواطة مثلاً لا تكون في الجنة لأن ما لا يليق أن يكون فيها لا يشتهي بل قيل في خصوص اللواطة أنه لا

يشتهيها في الدنيا الأنفس السليمة .

واختلف الناس هل يكون في الجنة حمل أم لا فذهب بعض إلى الأول ، فقد أخرج الإمام أحمد .

وهناد .

والدارمي .

وعبد بن حميد .

وابن ماجه .

وابن حبان .

والترمذي وحسنه .

وابن المنذر .

والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال : " قلنا يا رسول الله إن الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي "

وذهب طاوس .

وإبراهيم النخعي .

ومجاهد .

وعطاء .

وإسحق بن إبراهيم إلى الثاني .

فقد روى عن أبي رزين العقيلي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أهل الجنة لا يكون لهم ولد " وفي حديث لقيط الطويل الذي رواه عبد الله بن الإمام أحمد .

وأبو بكر بن عمرو .

وأبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم .

والطبراني .

وابن حبان .

ومحمد بن إسحاق بن منده .

وابن مردويه .

وأبو نعيم .

وجماعة من الحفاظ وتلقاه الأئمة بالقبول وقال فيه ابن منده : لا ينكر هذا الحديث إلا جاحد أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة قلت : " يا رسول الله أو لنا فيها يعني الجنة أزواج أو منهن مصلحات ؟ قال : المصلحات للمصلحين تلذذونهن ويلذذنكم مثل لذاتكم في الدنيا غير أن لا توالد "

وقال مجاهد .

وعطاء قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة : 25] أي مطهرة من الولد والحيض والغائط والبول ونحوها ، وقال إسحاق بن إبراهيم في حديث أبي سعيد السابق : إنه على معنى إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي ولكن لا يشتهي ، وتعقب بأن ﴿ إِذَا ﴾ لمتحقق الوقوع ولو أريد ما ذكر لقيل . لو اشتهى ، وفي حادي الأرواح إسناد حديث أبي سعيد على شرط الصحيح فرجاله يحتج بهم فيه ولكنه غريب جداً .

وقال السفاريني في "البحور الزاخرة" حديث أبي سعيد أجود أسانيده إسناد الترمذي وقد حكم عليه بالغرابة وأنه لا يعرف إلا من حديث أبي الصديق التاجي وقد اضطرب لفظه فتارة يروى عنه إذا اشتهى الولد وتارة أنه يشتهي الولد وتارة أن الرجل ليولد له ، وإذا قد تستعمل لمجرد التعليق الأعم من المحقق وغيره ، ورجح القول بعدم الولادة بعشرة وجوه مذكورة فيها ، وأنا أختار القول بالولادة كما نطق بها حديث أبي سعيد وقد قال فيه الأستاذ أبو سهل فيما نقله الحاكم : إنه لا ينكره إلا أهل الزيغ ، وفيه غير إسناد ، وليس تكون الولد على الوجه المعهود في الدنيا بل يكون كما نطق به الحديث ومتى كان كذلك فلا

يستبعد تكونه من نسيم يخرج وقت الجماع ، وزعم أن الولد إنما يخلق من المني فحيث لا مني في الجنة كما جاء في الاخبار لا خلق فيه تعجيز للقدرة ، ولا ينافي ذلك ما في خديث لقيط لأن المراد هناك نفي التوالد المعهود في الدنيا كما يشير إليه وقوع غير أن لا توالد بعد قوله عليه الصلاة والسلام :

(130/693)

" مثل لذاتكم في الدنيا " ، ويقال نحو ذلك في حديث أبي رزين جمعاً بين الأخبار ، ثم إن التوالد ليس على سبيل الاستمرار بل هو تابع للاشتهاء ولا يلزم استمراره فالقول بأنه إن استمر لزم وجود أشخاص لا نهاية لها وإن انقطع لزم انقطاع نوع من لذة أهل الجنة ليس بشيء ، وما قيل : إنه قد ثبت في "الصحيح" أنه صلى الله عليه وسلم قال : " يبقى في الجنة فضل فينشى الله تعالى لها خلقاً يسكنهم إياها " ولو كان في الجنة إيلاد لكان الفضل لأولادهم الملازمة فيه ممنوعة لجواز أن يقال من يشتهي الولد يشتهي أن يكون معه في منزله ، والقول بأن التوالد في الدنيا لحكمة بقاء النوع وهو باق في الجنة بدون توالد فيكون عبثاً يرد عليه أنه ما المانع من أن يكون هناك للذة ونحوها كالأكل والشرب فإنهما في الدنيا لشيء وفي الجنة لشيء آخر ، وبالجملة ما ذكر لترجيح عدم الولادة من الوجوه مما لا يخفى حاله على

من له ذهن وجيه .

وقرأ غير واحد من السبعة وغيرهم ﴿ مَا تَشْتَهِى الأنفس وَتَلَذُّ الاعين ﴾ بحذف الضمير العائد على ﴿ مَا ﴾ من الجملتين المتعاطفتين ، وفي مصحف عبد الله ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الاعين ﴾ بالضمير فيهما ، والقراءة به في الأول دون الثانية لأبي جعفر .

وشيبة .

ونافع .

وابن عامر .

وحفص ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ، وقيل : في الملاذ المفهومة مما تقدم وهو كما ترى ﴿ خالدون ﴾ دائمون أبد الآبدين ، والجملة داخلة في حيز النداء وهي كالتأكيد لقوله تعالى : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ﴾ [الزخرف : 68] ونودوا بذلك إتماماً للنعمة وإكمالاً للسرور فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال ومستعقب للتحسر في ثاني الأحوال ، ولله تعالى در القائل :

وإذا نظرت فإن بؤساً زائلا . . .

للمرء خير من نعيم زائل

وعن النصر أباذي أنه إن كان خلودهم لشهوة الأنفس ولذة الأعين فالفناء خير من ذلك وإن كان لفناء الأوصاف والاتصاف بصفات الحق والمقام فيها على سرر الرضا والمشاهدة فأنتم إذاً أنتم ، وأنت تعلم أن ما ذكره يدخل في عموم ما تقدم دخولاً أولياً ، وذكر بعضهم هنا أن الخطاب هنا من باب الالتفات وأنه للتشريف .

وقال الطيبي : ذق مع طبعك المستقيم معنى الخطاب والالتفات وتقديم الظرف في ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لتقف على ما لا يكتنهه الوصف .

﴿ وَتِلْكَ الجنة ﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى : ﴿ التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ صفة الجنة وقوله سبحانه : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ متعلق بأورثتموها ، وقيل : ﴿ تِلْكَ الجنة ﴾ مبتدأ وصفة و﴿ التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ الخبر والجار بعده متعلق به ، وقيل : تلك مبتدأ والجنة صفتها والتي أورثتموها صفة الجنة وبما كنتم متعلق بمحذوف هو الخبر .

والإشارة على الوجه الأول إلى الجنة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ [الزخرف : 70] وعلى الأخيرين إلى الجنة الواقعة صفة على ما قيل ، والباء للسببية أو للمقابلة ، وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة من الجنة ونعيمها الباقي لهم بما يخلفه المرء لوارثه من الأملاك والأرزاق ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورث اسم فاعل فاستعير

الميراث لما استحقوه ثم اشتق أورثتموها فيكون هناك استعارة تبعية ، وقال بعض : الاستعارة تمثيلية .

(132/693)

وجوز أن تكون مكنية ، وقيل : الإرث مجاز مرسل للنيل والأخذ ، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الجنة التى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ " ولا يخلو الكلام عن مجاز عليه أيضاً ، وأياً ما كان فسببية العمل لإيراث الجنة ونيلها ليس إلا بفضل الله تعالى ورحمته عز وجل ، والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم : " لن يدخل أحدكم الجنة عمله " ففي إدخال العمل الجنة على سبيل الاستقلال والسببية التامة فلا تعارض .

وأخرج هناد .

وعبد بن حميد في الزهر عن ابن مسعود قال : تجوزون الصراط بعفو الله تعالى وتدخلون الجنة برحمة الله تعالى وتقتسمون المنازل بأعمالكم فتأمل .

وقرىء ﴿ ورثتموها ﴾ .

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)

﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي لا تأكلون إلا بعضها وأعقابها باقية في أشجارها فهي مزينة بالثمار أبداً موقرة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا ، وفي الحديث " لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها ءلا نبت مكانها مثلاها " فمن تبعيضية وجوز كونها ابتدائية ، والتقديم للحصر الإضافي وقيل لرعاية الفاصلة .

ولعل تكرير ذكر المطاعم في القرآن العظيم مع أنها كلا شيء بالنسبة إلى سائر أنواع نعيم الجنة لما كان بأكثرهم في الدنيا من الشدة والفاقة فهو تسلية لهم ، وقيل : إن ذلك لكون أكثر المخاطبين عواماً نظرهم مقصور على الأكل والشرب .

وتعقب بأنه غير تام وللصوفية ، كلام سيأتي في مواضع إن شاء الله تعالى عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(133/693)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

لما قال سبحانه : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن ءالِهَةً

يُعْبَدُونَ ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى ، وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلها كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ، فأنزل الله : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ كذا قال قتادة ، ومجاهد .

وقال الواحدي : أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة ابن الزبعري مع النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] ، فقال ابن الزبعري : خصمتك ، وربّ الكعبة ، أليست النصارى يعبدون المسيح ، واليهود عزيراً ، وبنو مليح الملائكة ؟ ففرح بذلك من قوله ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] ، ونزلت هذه الآية المذكورة هنا ، وقد مضى هذا في سورة الأنبياء .

ولا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعري مندفع من أصله ، وباطل برمته ، فإن الله سبحانه قال : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] ، ولم يقل : " ومن تعبدون " حتى يدخل في ذلك العقلاء كالمسيح ، وعزير ، والملائكة ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ أي : إذا قومك يا محمد من ذلك المثل المضروب يصدّون ، أي : يضجون ، ويصيحون فرحاً بذلك المثل المضروب ، والمراد بقومه هنا : كفار قريش .

قرأ الجمهور : ﴿ يصدّون ﴾ بكسر الصاد ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي بضمها . قال الكسائي ، والفراء ، والزجاج ، والأخفش : هما لغتان ، ومعناهما : يضجون قال

الجوهري : صدّ يصدّ صديداً : أي ضجّ .

وقيل : إنه بالضم : الإعراض ، وبالكسر من الضجيج ، قاله قطرب .

(134/693)

قال أبو عبيد : لو كانت من الصدود عن الحق لقال : إذا قومك عنه يصدّون .

وقال الفراء : هما سواء منه ، وعنه .

وقال أبو عبيدة : من ضمّ ، فمعناه : يعدلون ، ومن كسر ، فمعناه : يضجون .

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي : ءآلهتنا خير أم المسيح ؟ قال السدّي ، وابن زيد : خاصموه ، وقالوا : إن كان كل من عبد غير الله في النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى ، وعزير ، والملائكة .

وقال قتادة : يعنون محمداً ، أي : ءآلهتنا خير أم محمد ؟ ويقوّي هذا قراءة ابن مسعود : ءآلهتنا خير أم هذا .

قرأ الجمهور بتسهيل الهمزة الثانية بين بين ، وقرأ الكوفيون ، ويعقوب بتحقيقها .

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ أي : ما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجادلوك ، على أن جدلاً منتصب على العلة ، أو مجادلين على أنه مصدر في موضع الحال ، وقرأ ابن مقسم

: (جدالاً) ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي : شديدو الخصومة كثيرو اللدد عظيمو الجدل .

ثم بيّن سبحانه أن عيسى ليس بربّ ، وإنما هو عبد من عباده اختصه بنبوّته ، فقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بما أكرمناه به ﴿ وجعلناه مَثَلاً لّبَنِى إسراءيل ﴾ أي : آية ، وعبرة لهم يعرفون به قدرة الله سبحانه ، فإنه كان من غير أب ، وكان يحيي الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، وكل مريض ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلَئِكَةً فِى الأرض يَخْلُفُونَ ﴾ أي : لو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يخلفون ، أي : يخلفونكم فيها .

قال الأزهري : ومن قد تكون للبدل كقوله : ﴿ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ يريد بدلاً منكم .

وقيل : المعنى : لو نشاء لجعلنا من بني آدم ملائكة ، والأوّل أولى .

ومقصود الآية : أنا لو نشاء لأسكنا الملائكة الأرض وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا .

وقيل : معنى ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ : يخلف بعضهم بعضاً .

(135/693)

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ قال مجاهد ، والضحاك ، والسدّي ، وقتادة : إن المراد المسيح ، وإن خروجه مما يعلم به قيام الساعة لكونه شرطاً من أشراطها ، لأن الله سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدّجال من أعلام الساعة .

وقال الحسن وسعيد بن جبير : المراد القرآن ، لأنه يدلّ على قرب مجيء الساعة ، وبه يعلم وقتها وأهوالها وأحوالها ، وقيل المعنى : أن حدوث المسيح من غير أب وإحياءه للموتى دليل على صحة البعث .

وقيل : الضمير لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور : ﴿ لعلم ﴾ بصيغة المصدر جعل المسيح علماً مبالغة لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله ، وقرأ ابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو مالك الغفاري ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، والضحاك ، وزيد بن علي بفتح العين واللام ، أي : خروجه علم من أعلامها ، وشرط من شروطها ، وقرأ أبو نضرة وعكرمة : (وإنه للعلم) بلامين مع فتح العين واللام ، أي : للعلامة التي يعرف بها قيام الساعة ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أي : فلا تشكنّ في وقوعها ولا تكذّبن بها ، فإنها كائنة لا محالة ﴿ واتبعون هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي : اتبعوني فيما آمركم به من التوحيد وبطلان الشرك ، وفرائض الله التي فرضها عليكم ، هذا الذي آمركم به وأدعوكم إليه طريق قيم موصل إلى الحقّ .

قرأ الجمهور بحذف الياء من ﴿ اتبعون ﴾ وصلا ووقفا ، وكذلك قرءوا بحذفها في الحالين

في ﴿ أطيعون ﴾ ، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلا ووقفا فيهما ، وقرأ أبو عمرو وهي : رواية عن نافع بحذفها في الوصل دون الوقف ﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشيطان ﴾ أي : لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعي ، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه .

(136/693)

ثم علل نهيهم عن أن يصدّهم الشيطان ببيان عداوته لهم فقال : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : مظهر لعداوته لكم غير متحاش عن ذلك ولا متكتم به كما يدلّ على ذلك ما وقع بينه وبين آدم وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين .

﴿ وَلَمَّا جَاء عيسى بالبينات ﴾ أي : جاء إلى بني إسرائيل بالمعجزات الواضحة والشرائع .

قال قتادة : البينات هنا : الإنجيل ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ أي النبوّة ، وقيل : الإنجيل ، وقيل : ما يرغب في الجميل ويكفّ عن القبيح ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من أحكام التوراة .

وقال قتادة : يعني : اختلاف الفرق الذين تحزّبوا في أمر عيسى .

قال الزجاج : الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه ، فبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه .

وقيل : إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم .

وقال أبو عبيدة : إن البعض هنا بمعنى الكلّ كما في قوله : ﴿ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر : 28] وقال مقاتل : هو كقوله : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : 50] يعني : ما أحلّ في الإنجيل مما كان محرّماً في التوراة كلحم الإبل والشحم من كل حيوان ، وصيد السمك يوم السبت واللام في ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم ﴾ معطوفة على مقدّر كأنه قال : قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولأبين لكم .

ثم أمرهم بالتقوى والطاعة فقال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي : اتقوا معاصيه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والشرائع ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي : عبادة الله وحده والعمل بشرائعه ﴿ فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ .

قال مجاهد ، والسدّي : الأحزاب هم : أهل الكتاب من اليهود ، والنصارى .

(137/693)

وقال الكلبي ، ومقاتل : هم فرق النصارى اختلفوا في أمر عيسى .

قال قتادة : ومعنى ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ : أنهم اختلفوا فيما بينهم ، وقيل : اختلفوا من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى ، والأحزاب هي : الفرق المتحزبة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ من هؤلاء المختلفين ، وهم الذين أشركوا بالله ولم يعملوا بشرائعه ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي : أليم عذابه وهو يوم القيامة ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ ﴾ أي : هل يرتقب هؤلاء الأحزاب وينتظرون إلا الساعة ﴿ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي : لا يفطنون بذلك ، وقيل : المراد بالأحزاب : الذين تحزّبوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه ، وهم المرادون بقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ ﴾ والأوّل أولى .

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي : الأخلاء في الدنيا المتحابون فيها يوم تأتيهم الساعة بعضهم لبعض عدوّ ، أي : يعادي بعضهم بعضاً ، لأنها قد انقطعت بينهم العلائق واشتغل كل واحد منهم بنفسه ، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسباباً للعذاب فصاروا أعداء .

ثم استثنى المتقين فقال : ﴿ إِلاَّ المتقين ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ، لأنهم وجدوا تلك الخلة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب فبقيت خلتهم على حالها ﴿ يا عباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ أي : يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة فيذهب عند ذلك خوفهم ويرتفع حزنهم ﴿ الذين ءامَنُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾

الموصول يجوز أن يكون نعتاً لعبادي ، أو بدلاً منه ، أو عطف بيان له ، أو مقطوعاً عنه في محل نصب على المدح ، أو في محل رفع بالابتداء وخبره ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ على تقدير : يقال لهم ادخلوا الجنة .

والأوّل أولى ، وبه قال الزجاج .

(138/693)

قال مقاتل : إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى منادٍ : يا عبادي لا خوف عليكم ، فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم ، فيقال : الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، فينكس أهل الأوثان رؤوسهم غير المسلمين .

قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : " يا عبادي " بإثبات الياء ساكنة وصلا ووقفا ، وقرأ أبو بكر وزرّ بن حبيش بإثباتها وفتحها في الحالين ، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين ﴿ ادخلوا الجنة أَنتُمْ وأزواجكم ﴾ المراد بالأزواج : نساؤهم المؤمنات ، وقيل : قرناؤهم من المؤمنين ، وقيل : زوجاتهم من الحور العين ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تكرمون ، وقيل : تنعمون ، وقيل : تفرحون ، وقيل : تسرّون ، وقيل : تعجبون ، وقيل : تلذذون بالسماع ، والأولى تفسير ذلك بالفرح والسرور الناشئين عن الكرامة والنعمة ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بصحاف مّن

ذَهَبٍ ﴾ الصحاف جمع صحفة وهي : القصعة الواسعة العريضة .

قال الكسائي : أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة ، وهي تشبع عشرة ، ثم الصحفة ، وهي تشبع خمسة ، ثم المكيلة وهي تشبع الرجلين والثلاثة ، والمعنى : أن لهم في الجنة أطعمة يطاف عليهم بها في صحاف الذهب لهم فيها أشربة يطاف عليهم بها في الأكواب وهي جمع كوب .

قال الجوهري : الكوب : كوز لا عروة له ، والجمع : أكواب .

قال الأعشى :

صريفية طيب طعمها . . . لها زبد بين كوب ودنّ

وقال آخر :

متكئاً تصفق أبوابه . . . يسعى عليه العبد بالكوب

قال قتادة : الكوب : المدوّر القصير العنق القصير العروة ، والإبريق : المستطيل العنق الطويل العروة .

وقال الأخفش : الأكواب : الأباريق التي لا خراطيم لها .

وقال قطرب : هي الأباريق التي ليست لها عرى .

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين ﴾ قرأ الجمهور : (تشتهي) وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص : ﴿ تشتهيه ﴾ بإثبات الضمير العائد على الموصول ، والمعنى : ما تشتهيه أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ونحوهما مما تطلبه النفس وتهواه كائناً ما كان ، وتلذ الأعين من كل المستلذات التي تستلذّ بها وتطلب مشاهدتها ، تقول لذّ الشيء يلذ لذاذاً ، ولذاذة : إذا وجده لذيذاً والتذّ به ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : (تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين) ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لا تموتون ، ولا تخرجون منها ﴿ وَتِلْكَ الجنة التى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة ، أي : صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث بما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة ، واسم الإشارة مبتدأ ، والجنة صفته ، والتي أورثتموها صفة للجنة ، والخبر بما كنتم تعملون ، وقيل : الخبر الموصول مع صلته ، والأوّل أولى ﴿ لَكُمْ فِيهَا فاكهة كَثِيرَةٌ ﴾ الفاكهة معروفة ، وهي : الثمار كلها رطبها ، ويابسها ، أي : لهم في الجنة سوى الطعام والشراب ، فاكهة كثيرة الأنواع ، والأصناف ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ " من " تبعيضية ، أو ابتدائية ، وقدّم الجار لأجل الفاصلة .

وقد أخرج أحمد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس : أن رسول الله قال لقريش : " إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير " ، قالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبياً ، وعبداً من عباد الله صالحاً ، وقد عبدته النصارى ؟ فإن كنت صادقاً ، فإنه كآلهتهم ، فأنزل الله ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ قلت : وما يصدّون ؟ قال : " يضجون " ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ قال : " خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة " وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال " ، ثم تلا هذه الآية ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ .

وقد ورد في ذمّ الجدال بالباطل أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس : أن المشركين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أرأيت ما نعبد من دون الله أين هم ؟ قال : " في النار " ، قالوا : والشمس ، والقمر ؟ قال : " والشمس ، والقمر " قالوا : فعيسى ابن مريم قال : " قال الله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وجعلناه مَثَلاً لِّبَنِى إسراءيل ﴾ " وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور

، ومسدّد ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني من طرق عنه في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ قال : خروج عيسى قبل يوم القيامة .

وأخرجه الحاكم ، وابن مردويه عنه مرفوعاً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة نحوه .

(141/693)

وأخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام ، وقلت الأنساب ، وذهبت الأخوة إلا الأخوة في الله ، وذلك قوله : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ " وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وحميد بن زنجويه في ترغيبه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ قال : خليلان مؤمنان ، وخليلان كافران توفى أحد المؤمنين ، فبشر بالجنة ، فذكر خليله ، وقال : اللَّهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بطاعتك ، وطاعة رسولك ، ويأمرني بالخير ، وينهاني عن الشرّ ، وينبئني أني ملاقيك ، اللهم لا تضله بعدي حتى تريه مثل ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له : اذهب ؛ فلو تعلم ما له عندي

لضحكت كثيراً ، ولبكيت قليلاً ، ثم يموت الآخر ، فيجمع بين أرواحهما ، فيقال : ليثن كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ، ونعم الصاحب ، ونعمل الخليل ؛ وإذا مات أحد الكافرين بشر بالنار ، فيذكر خليله ، فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ، ومعصية رسولك ، ويأمرني بالشرّ ، وينهاني عن الخير ، وينبئني أني غير ملاقيك ، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني ، وتسخط عليه كما سخطت عليّ ، فيموت الآخر ، فيجمع بين أرواحهما ، فيقال : ليثن كلّ واحد منكما على صاحبه ، فيقول كل منهما لصاحبه : بئس الأخ ، وبئس الصاحب ، وبئس الخليل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الأكواب الجرار من الفضة .

(142/693)

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أحد إلاّ وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله : ﴿ وَتِلْكَ الجنة التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(143/693)

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ يا عبادي ﴾ مقولة لقول محذوف دلت عليه صيغة الخطاب ، أي نقول لهم أو يقول الله لهم .

وقرأ الجمهور ﴿ يا عبادي ﴾ بإثبات الياء على الأصل .

وقرأه حفص والكسائي بحذف (ياء) المتكلم تخفيفاً .

قال ابن عطية قال أبو علي : وحذفها حسن لأنها في مَوْضِعِ تنوين وهي قد عاقبته فكما يحذف التنوين في الاسم المفرد المنادَى كذلك تحذف اليَاء هنا .

ومفاتحة خطابهم بنفي الخوف عنهم تأنيس لهم ومنة بإنجائهم من مثله وتذكيرٌ لهم بسبب مخالفة حالهم لحال أهل الضلالة فإنهم يشاهدون ما يعامل به أهل الضلالة والفساد .

و ﴿ لا خوف ﴾ مرفوع منون في جميع القراءات المشهورة ، وإنما لم يفتح لأن الفتح على تضمين (مِن) الزائدة المؤكدة للعموم وإذ قد كان التأكيد مفيداً التنصيص على عدم إرادة نفي الواحد ، وكان المقام غير مقام التردد في نفي جنس الخوف عنهم لأنه لم يكن واقعاً بهم حينئذٍ مع وقوعه على غيرهم ، فأمارة نجاتهم منه واضحة ، لم يحتج إلى نصب اسم ﴿ لا ﴾ ، ونظيره قول الرابعة من نساء حديث أمّ زرع : زوجِي كَلَيْلِ تِهامهْ ، لا حَرٌّ ولا قُرٌّ ولا مخافةٌ ولا سآمهْ .

روايته برفع الأسماء الأربعة لأن انتفاء تلك الأحوال عن ليل تهامة مشهور ، وإنما أرادت بيان وجوه الشبه من قولها كليلِ تهامة .

وجيء في قوله : ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ بالمسند إليه مخبراً عنه بالمسند الفِعلي لإفادة التقويّ في نفي الحزن عنهم ، فالتقوي أفاد تقوّي النفي لا نفي قوة الحزن الصادق بحزن غير قوي .

هذا هو طريق الاستعمال في نفس صيغ المبالغة كما في قوله تعالى : ﴿ وما ربّك بظلامٍ للعبيد ﴾ [فصلت : 46] ، تطميناً لأنفسهم بانتفاء الحزن عنهم في أزمنة المستقبل ، إذ قد يهجس بخواطرهم هل يدوم لهم الأمْن الذي هم فيه .

(144/693)

وجملة ﴿ الذين آمنوا بآياتنا ﴾ نعت للمنادَى من قوله : ﴿ يا عبادي ﴾ جيء فيها بالموصول لدلالة الصلة على علة انتفاء الخوف والحزن عنهم ، وعطف على الصلة قوله : ﴿ وكانوا مسلمين ﴾ .

والمخالفة بين الصلتين إذ كانت أولاهما فعلاً ماضياً والثانية فعل كون مخبراً عنه باسم فاعل لأن الإيمان : عقد القلب يحصل دفعة واحدة وأما الإسلام فهو الإتيان بقواعد الإسلام

الخمس كما جاء تفسيره في حديث سؤال جبريل ، فهو معروض للتمكن من النفس فلذلك أوثر بفعل (كان) الدّال على اتحاد خبره باسمه حتى كأنه من قِوام كيانه .

وعطف أزواجهم عليهم في الإذن بدخول الجنّة من تمام نعمة التمتع بالخلة التي كانت بينهم وبين أزواجهم في الدنيا .

و ﴿ تحبرون ﴾ مبني للمجهول مضارع حُبر بالبناء للمجهول ، وفعله حَبَره ، إذا سره ، ومصدره الحَبْر بفتح فسكون ، والاسم الحُبور والحَبْرة ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فهم في روضةٍ يُحبرون ﴾ في سورة الروم (15) .

وجملة ﴿ يطاف عليهم بصحاف ﴾ الخ معترضة بين أجزاء القول فليس في ضمير ﴿ عليهم ﴾ التفات بل المقام لضمير الغيبة .

والصحاف : جمع صحفة ، وهي : إناء مستدير واسع الفم ينتهي أسفله بما يقارب التكوير .

والصحفة : إناء لوضع الطعام أو الفاكهة مثل صحاف الفغفوري الصيني تسَع شِبْع خمسة ، وهي دون القصعة التي تسع شِبْع عشرة .

وقد ورد أن عمر بن الخطاب اتخذ صِحافاً على عدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فلا يؤتى إليه بفاكهة أو طُرْفَة إلا أرسل إليهن منها في تلك الصحاف .

والأكواب : جمع كُوب بضم الكاف وهو إناء للشراب من ماء أو خمر مستطيل الشكل له

عنق قصير في أعلى ذلك العنق فمه وهو مصبّ ما فيه ، وفمه أضيق من جوفه ، والأكثر أن لا تكون له عروة يُمسَك منها فيمسك بوضع اليد على عنقه ، وقد تكون له عروة قصيرة ، وهو أصغر من الإبريق إلا أنه لا خرطوم له ولا عروة في الغالب .

وأما الإبريق فله عروة وخرطوم .

(145/693)

وحذف وصف الأكواب لدلالة وصف صحاف عليه ، أي وأكواب من ذهب .

وهذه الأكواب تكون للماء وتكون للخمر .

وجملة ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس ﴾ الخ حال من ﴿ الجنة ﴾ ، هي من بقية القول .

وضمير ﴿ فيها ﴾ عائد إلى ﴿ الجنة ﴾ ، وقد عمّ قوله : ﴿ ما تشتهيه الأنفس ﴾ كلّ ما تتعلق الشهوات النفسية بنواله وتحصيله ، والله يخلق في أهل الجنة الشهوات اللائقة بعالم الخلود والسمو .

و ﴿ تَلَذُّ ﴾ مضارع لَذّ بوزن عَلِم : إذا أحسّ لذة ، وحق فعله أن يكون قاصراً فيعدّى إلى الشيء الذي به اللّذة بالباء فيقال : لذ به ، وكثر حذف الباء وإيصال الفعل إلى المجرور بنفسه فينتصب على نزع الخافض ، وكثر ذلك في الكلام حتى صار الفعل بِمَنزلة المتعدي

فقالوا : لذّهُ .

ومنه قوله هنا : ﴿ وتلذّ الأعين ﴾ التقدير ، وتلذُّهُ الأعين .

والضمير المحذوف هو رابط الصلة بالموصول .

ولذة الأعين في رؤية الأشكال الحسنة والألوان التي تنشرح لها النفس ، فلذّة الأعين وسيلة للذة النفوس فعطف ﴿ وتلَذّ الأعين ﴾ على ﴿ ما تشتهيه الأنفس ﴾ عطف ما بينه وبين المعطوف عليه عمومٌ وخصوص ، فقد تشتهي الأنفس ما لا تراه الأعين كالمحادثة مع الأصحاب وسماعِ الأصوات الحسنة والموسيقى .

وقد تبصر الأعين ما لم تسبق للنفس شهوة رؤيتِه أو ما اشتهت النفس طعمه أو سمعه فيؤتى به في صور جميلة إكمالاً للنعمة .

و﴿ الأنفس ﴾ فاعل ﴿ تلَذّ ﴾ وحْذف المفعول لظهوره من المقام .

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ﴿ ما تشتهيه ﴾ بهاء ضمير عائد إلى ﴿ ما ﴾ الموصولة وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشام ، وقرأه البَاقون ﴿ ما تشتهي ﴾ بحذف هاء الضمير ، وكذلك رُسم في مصحف مكة ومصحف البصرة ومصحف الكوفة .

والمروي عن عاصم قارىء الكوفة روايتان : إحداهما أخذ بها حفص والأخرى أخذ بها

أبو بكر .

وحذف العائد المتصل المنصوب بفعل أو وصف من صلة الموصول كثير في الكلام .

(146/693)

وقوله : ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ بشارة لهم بعدم انقطاع الحَبْرة وسعة الرزق ونيل الشهوات ، وجيء فيه بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات تأكيداً لحقيقة الخلود لدفع توهم أن يراد به طول المدة فحسب .

وتقديم المجرور للاهتمام ، وعطف على بعض ما يقال لهم مقول آخر قُصد منه التنويه بالجنة وبالمؤمنين إذ أُعطوها بسبب أعمالهم الصالحة ، فأشير إلى الجنة باسم إشارة البعيد تعظيماً لشأنها وإلا فإنها حاضرة نصب أعينهم .

وجملة ﴿ وتلك الجنة التي أورثموها ﴾ الآية تذييل للقول .

واسم الإشارة مبتدأ و ﴿ الجنة ﴾ خبره ، أي تلك التي تَرونها هي الجنة التي سمعتم بها ووُعدتم بدخولها .

وجملة ﴿ التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ صفة للجنة .

واستعير ﴿ أورثتموها ﴾ لمعنى : أُعطيتموها دون غيركم ، بتشبيه إعطاء الله المؤمنين

دون غيرهم نعيم الجنة بإعطاء الحاكم مال الميت لوارثه دون غيره من القرابة لأنه أولى به وآثرُ بنيله .

والباء في ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ للسببية وهي سببية بجعل الله ووعده ، ودل قوله ﴿ كنتم تعملون ﴾ على أن عملهم الذي استحقّوا به الجنة أمر كائن متقرر ، وأن عملهم ذلك متكرر متجدد ، أي غير منقطع إلى وفاتهم .

وجملة ﴿ لكم فيها فاكهة ﴾ صفة ثانية للجنة .

والفاكهة : الثمار رطبها ويابسها ، وهي من أحسن ما يستلذّ من المآكل ، وطعومُها معروفة لكل سامع .

ووجه تكرير الامتنان بنعيم المأكل والمشرب في الجنة : أن ذلك من النعيم الذي لا تختلف الطباع البشرية في استلذاذه ، ولذلك قال : ﴿ منها تأكلون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كُلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ [الأنعام : 141] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(147/693)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفس وَتَلَذُّ الأَعين ﴾ [71] قال : أي ما تشتهي الأنفس من ثواب الأعمال ، وتلذ الأعين بما فضل الله به من التمكين في وقت اللقاء جزاء لتوحيدهم .

قال : الجنة جزاء أعمال الجوارح ، واللقاء جزاء التوحيد ، ألا ترى أن الله تعالى قال : ﴿ وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [72] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 140 ﴾

(148/693)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما للقسم الثاني من الأخلاء وهم المتقون ترغيباً لهم في التقوى ، أتبعه ما لأضدادهم اهل القسم الأول تحذيراً من مثل أعمالهم ، فقال استئنافاً مؤكداً في مقابلة إنكارهم : ﴿ إن المجرمين ﴾ أي الراسخين في قطع ما أمر الله به أن يوصل ﴿ في عذاب جهنم ﴾ أي النار التي من شأنها لقاء داخلها بالتجهم والكراهة والعبوسة كما كان يعمل عند قطعه لأولياء الله تعالى ﴿ خالدون ﴾ لأن إجرامهم كان طبعاً لهم لا ينفكون عنه أصلاً ما بقوا .

ولما بين إحاطته بهم إحاطة الظرف بمظروفه ، وكان من المعلوم أن النار لا تفتر عمن لابسته إلا بمفتر بمنعها بماء يصبه عليها أو تقليل من وقودها أو غير ذلك خرقاً للعادة ، بين أن لا يعتريها نقصان أصلاً كما يعهد في عذاب الدنيا لأنهم هم وقودها فقال تعالى : ﴿ لا يفتر عنهم ﴾ أي يقصد إضعافه بنوع من الضعف ، فنفي التفتير نفي للفتور من غير عكس ، قال البيضاوي : وهو من فترت عنه الحمى - إذا سكنت ، والتركيب للضعف .

(149/693)

ولما كان انتظار الفرج مما يخفف عن المتضايق ، نفاه بقوله : ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ أي ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج .

ولما كان ربما ظن من لا بصيرة له أن هذا العذاب أكبر وأكثر مما يستحقونه ، أجاب سبحانه بقوله ليزيد عذابهم برجوعهم باللائمة على نفسوهم ووقوعهم في منادمات الندامات : ﴿ وما ظلمناهم ﴾ نوعاً من الظلم لأنه تعالى مستحيل في حقه الظلم ﴿ ولكن كانوا ﴾ جبلة وطبعاً وعملاً وصنعاً دائماً ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الظالمين ﴾ لأنهم بارزوا المنعم عليهم بالعظائم ونووا أنهم لا ينفكون عن ذلك بقوا ، والأعمال بالنيات ، ولو كانوا يقدرون على أن لا يموتوا لما ماتوا .

ولما كان من مفهوم الإبلاس السكوت ، أعلم بأن سكوتهم ليس دائماً لأن الإنسان إذا وطن نفسه على حالة واحدة ربما خف عنه بعد الألم ، فقال مبيناً أنهم من البعد بمحل كبير لا يطمعون معه في خطاب الملك ، وأنهم مع علمهم باليأس يعلقون آمالهم بالخلاص كما يقع للمتمنين للمحالات في الدنيا ليكون ذلك زيادة في المهم : ﴿ ونادوا ﴾ ثم بين أن المنادي خازن النار فقال مؤكداً لبيان البعد بأداته : ﴿ يا مالك ﴾ وقراءة " يا مال " للإشارة إلى أن العذاب أوهنهم عن إتمام الكلام ، ولذا قالوا : ﴿ ليقض علينا ﴾ أي سله سؤالاً حتماً أن القضاء الي لا قضاء مثله ، وهو الموت على كل وحد منا ، وجروا على عادتهم في الغباوة والجلافة فقالوا : ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك فلم يروا لله عليهم إحساناً وهم في تلك الحالة ، فلا شك أن إحسانه ما انقطع عن موجود أصلاً ، وأقل ذلك أنه لا يعذب أحداً منهم فوق استحقاقه ، ولذلك جعل النار دركات كما كانت الجنة درجات ، ويجوز أن تكون عبارتهم

بذلك تغييظاً له بما رأوا من ملابسة النار من تأثير فيه ، ونداؤهم لا ينافي إبلاسهم لأنه السكوت عن يأس ، فسكوتهم المقيد باليأس دائم ، فلذلك سألوا الموت ، والحاصل أنهم لا يتكلمون ما يدل على رجاء الفرج بل هم ساكتون أبداً عن ذلك . . .

(150/693)

اليأس لا على رجاء الفرج باللحاق برتبة المتقين .

ولما ذكر نداءهم ، استأنف ذكر جوابهم بقوله : ﴿ قال ﴾ أي مالك عليه الصلاة والسلام مؤكداً لأطماعهم لأن كلامهم هذا بحيث يفهم الرجاء ويفهم بأن رحمة الله تعالى التي هي موضع الرجاء خاصة بغيرهم ﴿ إنكم ماكثون ﴾ .

ولما ذكر سبحانه الساعة عند عيسى عليه الصلاة والسلام فقال ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ وأكد أمرها وشرح بعض أحوالها إلى أن ختم بما دل على انحلال عزائمهم ولين شكائمهم ، وكانوا غير مقرين بذلك ، قال مؤكداً جواباً لمن يبصر بعض البصر فيقول : أحق هذا ؟ ويتوقع الجواب : ﴿ لقد جئناكم ﴾ أي في هذه السورة خصوصاً وجميع القرآن عموماً ، سمى مجيء الرسل مجيئاً لهم لما لمجيئهم من العظمة التي أشارت إليها النون ﴿ بالحق ﴾ الكامل في الحقية ، ولما كان ظهور حقيته بحيث لا يخفى على أحد ولكن شدة البغض

وشدة الحب تريان الأشياء على غير ما هي عليه ، قال إشارة إلى ذلك : ﴿ ولكن أكثركم ﴾ أي أيها المخاطبون ﴿ للحق كارهون ﴾ لما فيه من المنع عن الشهوات فلذلك أنتم تقولون : إنه ليس بحق لأجل كراهتكم فقط ، لا لأجل أن في حقيته نوعاً من الخفاء .

ولما كان هذا خبراً لا جواب فيه لظهور الدلائل وتعالي العظمة إلا الرجوع ، وكان من لا يرجع إنما يريد بمحاربة الإله الأعظم ، قال عادلاً عن الخطاب إنزالاً لهم بالغيبة منزلة البعيد الذي لا يلتفت إليه معادلاً لما تقديره : أرجعوا لما ظهر لهم من الحق الظاهر ﴿ أم أبرموا ﴾ أي أحكموا ﴿ أمراً ﴾ في رد أمرنا ومعاداة أوليائنا مع علمهم بأنا مطلعون عليهم .

(151/693)

ولما كان سبحانه مطلعاً بطية أمرهم وغائب سرهم ، سبب عما سأل عنه من إبرامهم ما دل على أنه عالم به وقد أبرم له قبل كونه ما يزيله ويعدمه ويحيله ، على سبيل التأكيد لإنكارهم أن يغلبوا فقال : ﴿ فإنا مبرمون ﴾ أي دائماً للأمور لعلمنا بها قبل كونها وقدرتنا واختيارنا ، تلك صفتنا التي لا تحول بوجه : العلم والقدرة والإرادة ، لم يتجدد لنا شيء لم يكن .

ولما كان إصرارهم بين العزم على مجاهرة القدير بالمعاداة وبين معاملته وهو عليم بالمساترة

والمماكرة في المعاداة والمباكرة والمسالمة والمناكرة قال تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا ﴾ على ما لنا من العظمة المقتضية بجميع صفات الكمال ﴿ لا نسمع ﴾ ولما كان المراد إثبات أن علمه تعالى محيط بالخفي والجلي ، نسبة كل منهما إليه على السواء ، ذكرهما وقدم من شأنه أن يخفي وهو المكر المشار إليه بالإبرام ، لأن السياق له فقال تعالى : ﴿ سرهم ﴾ أي كلامهم الخفي ولو كان في الضمائر فيما يعصينا ، ولما كان ربما وقع في الأوهام أن المراد بالسمع إنما هو العلم لأن السر ما يخفى وهو يعم ما في الضمائر وهي مما يعلم ، حقق أن المراد به حقيقته بقوله : ﴿ ونجواهم ﴾ أي كلامهم المرتفع حتى كأنه على نجوة أي مكان عال ، فعلم أن المراد حقيقة السمع ، وأنه تعالى يسمع كل ما يمكن أن يسمع ولو لم يكن في قدرتنا نحن سماعه ، فنكون فيه كالأصم بالنسبة إلى ما نسمعه نحن من الجهر ولا يسمعه هو لفقد قوة السمع فيه ، لا لأنه مما من حقه ألا يسمع .

ولما كان إنكار عدم السماع معناه السماع ، صرح به فقال : ﴿ بلى ﴾ أي نسمع الصنفين كليهما على حد سواء ﴿ ورسلنا ﴾ وهم الحفظة من الملائكة على ما لهم من العظمة بنسبتهم إلينا .

ولما كان حضور الملائكة معنا وكتابتهم لجميع أعمالنا على وجه لا نحس به نوع أحساس أمراً هو في غاية الغرابة ، قال معبراً بلدى التي يعبر بها عبر اشتداد الغرابة : ﴿ لديهم يكتبون ﴾ أي يجددون الكتابة كلما تجدد ما يقتضيها لأن الكتابة أوقع في التهديد ، لأن من علم أن أعماله محصاة مكتوبة تجنب ما يخاف عاقبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 52.55 ﴾

(153/693)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعد ، أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر في القرآن ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج القاضي على القطع بوعيد الفسق بقوله ﴿ إِنَّ المجرمين فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خالدون * لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ ولفظ المجرم يتناول الكافر والفاسق ، فوجب كون الكل

في عذاب جهنم ، وقوله ﴿ خالدون ﴾ يدل على الخلود ، وقوله أيضاً ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ يدل على الخلود والدوام أيضاً والجواب : أن ما قبل هذه الآية وما بعدها ، يدل على أن المراد من لفظ المجرمين ههنا الكفار ، أما ما قبل هذه الآية فلأنه قال : ﴿ يا عباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ، الذين ءامَنُواْ بآياتنا وَكَانوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف : 68 ، 69] فهذا يدل على أن كل من آمن بآيات الله وكانوا مسلمين ، فإنهم يدخلون تحت قوله ﴿ يا عباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ الذين ءامَنُواْ بآياتنا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله تعالى وبآياته وأسلم ، فوجب أن يكون داخلاً تحت ذلك الوعد ، ووجب أن يكون خارجاً عن هذا الوعيد ، وأما ما بعد هذه الآية فهو قوله ﴿ جئناكم بالحق ولكن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقّ كارهون ﴾ والمراد بالحق ههنا إما الإسلام وإما القرآن ، والرجل المسلم لا يكره الإسلام ولا القرآن ، فثبت أن ما قبل هذه الآية وما بعدها ، يدل على أن المراد من المجرمين الكفار ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

أنه تعالى وصف عذاب جهنم في حق المجرمين بصفات ثلاثة أحدهما : الخلود ، وقد ذكرنا في مواضع كثيرة أنه عبارة عن طول المكث ولا يفيد الدوام وثانيها : قوله : ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف ولا ينقص من قولهم فترت عنه الحمى إذا سكنت ونقص حرها وثالثها : قوله ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ والمبلس اليائس الساكت سكوت يائس من فرج ، عن الضحاك يجعل المجرم في تابوت من نار ، ثم يقفل عليه فيبقى فيه خالداً لا يرى ، قال صاحب "الكشاف" : وقرىء ﴿ وَهُمْ فِيهَا ﴾ أي وهم في النار .

المسألة الثالثة :

احتج القاضي بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ فقال إن كان خلق فيهم الكفر ليدخلهم النار فما الذي نفه بقوله ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ وما الذي نسبه إليهم مما نفاه عن نفسه ؟ أو ليس لو أثبتناه ظلماً لهم كان لا يزيد على ما يقوله القوم ، فإن قالوا ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عزّ وجل فقط ، بل إنما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معاً ، فلم يكن ذلك ظلماً من الله .

قلنا : عندكم أن القدرة على الظلم موجبة للظلم ، وخالق تلك القدرة هو الله تعالى ، فكأنه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج عن أن يكون ظالماً لهم ، وذلك محال لأن من يكون ظالماً في فعل ، فإذا فعل معه ما يوجب ذلك الفعل يكون بذلك أحق ، فيقال للقاضي قدرة العبد هل هي صالحة للطرفين أو هي متعينة لأحد الطرفين ؟ فإن كانت

صالحة لكلا الطرفين فالترجيح إن وقع لا لمرجع لزم نفي الصانع ، وإن افتقر إلى مرجح عاد التقسيم الأول فيه ، ولا بد وأن ينتهي إلى داعية مرجحة يخلقها الله في العبد ، وإن كانت متعينة لأحد الطرفين فحينئذٍ يلزمك ما أوردته علينا .

واعلم أنه ليس الرجل من يرى وجه الاستدلال فيذكره ، إنما الرجل الذي ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده ، فإن رآه وارداً على مذهبه بعينه لم يذكره ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

(155/693)

قرأ ابن مسعود ﴿ يا مال ﴾ بحذف الكاف للترخيم فقيل لابن عباس إن ابن مسعود قرأ (ونادوا يا مال) فقال : ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم ! واجيب عنه بأنه إنما حسن هذا الترخيم لأنه يدل على أنهم بلغوا في الضعف والنحافة إلى حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها .

المسألة الخامسة :

اختلفوا في أن قولهم ﴿ يا مالكِ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ على أي وجه طلبوا فقال بعضهم على التمني ، وقال آخرون على وجه الاستغاثة ، وإلا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك

العقاب ، وقيل لا يبعد أن يقال إنهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسألة فذكروه على وجه الطلب .

ثم إنه تعالى بيّن أن مالكاً يقول لهم ﴿ إِنَّكُمْ ماكثون ﴾ وليس في القرآن متى أجابهم ، هل أجابهم في الحال أو بمدة طويلة ، وإن كان بعد ذلك فهل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة أو بمدة طويلة ، فلا يمتنع أن تؤخر الإجابة استخفافاً بهم وزيادة في غمهم ، فعن عبد الله بن عمر بعد أربعين سنة ، وعن غيره بعد مائة سنة ، وعن ابن عباس بعد ألف سنة ، والله أعلم بذلك المقدار .

(156/693)

ثم بيّن تعالى أن مالكاً لما أجابهم بقوله ﴿ إِنَّكُمْ ماكثون ﴾ ذكر بعده ما هو كالعلة لذلك الجواب فقال : ﴿ لَقَدْ جئناكم بالحق ولكن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقّ كارهون ﴾ والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن وشدة بغضهم لقبول الدين الحق ، فإن قيل كيف قال : ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك ﴾ بعد ما وصفهم بالإبلاس ؟ قلنا تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتاً لشدة ما بهم ، روي أنه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيقولون ادعوا مالكاً فيدعون

﴿ يامالكِ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم في الدنيا فقال : ﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ والمعنى أم أبرموا أي مشركو مكة أمراً من كيدهم ومكرهم برسول الله ، فإنا مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى :

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ [الطور : 42] قال مقاتل : نزلت في تدبيرهم في المكر به في دار الندوة ، وهو ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال : 30] وقد ذكرنا القصة .

ثم قال : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونجواهم ﴾ السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال ، والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم ﴿ بلى ﴾ نسمعها ونطلع عليها ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ يريد الحفظة ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ عليهم تلك الأحوال ، وعن يحيى بن معاذ من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 195.194 ﴾

(157/693)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المجرمين فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾

لما ذكر أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضاً ليبيّن فضل المطيع على العاصي .

﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف عنهم ذلك العذاب .

﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي آيسون من الرحمة .

وقيل : ساكتون سكوت يأس ؛ وقد مضى في "الأنعام" .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ أنفسهم بالشرك .

ويجوز "وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ" بالرفع على الابتداء والخبر ، والجملة خبر كان .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ يا مالك ﴾ وهو خازن جهنم ، خلقه لغضبه ؛ إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضاً .

وقرأ عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما "وَنَادَوْا يَا مَالِ" وذلك خلاف المصحف .

وقال أبو الدرداء وابن مسعود : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وَنَادَوْا يَا مَالِ" باللام خاصة ؛ يعني رخم الاسم وحذف الكاف .

والترخيم الحذف ، ومنه ترخيم الاسم في النداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر ، فتقول في مالك : يا مال ، وفي حارث : يا حار ، وفي فاطمة : يا فاطم ، وفي عائشة يا عائش ، وفي مروان : يا مرو ، وهكذا .

قال :

يا حار لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية . . .

لم يَلْقَها سُوقَةٌ قَبْلِي ولا مَلِكُ

وقال امرؤ القيس :

أحار ترى بَرْقاً أُرِيك وَمِيضه . . .

كلمع اليدين في حَبِيٍّ مُكَلّلِ

وقال أيضاً :

أفاطِم مَهْلا بعضَ هذا التدلُّلِ . . .

وإن كنت قد أزمعتِ صُرْمِي فأجْمِل

وقال آخر :

يا مَرْوإن مَطِيّتي محبوسةٌ . . .

ترجو الحِباء وربُّها لم ييأس

وفي صحيح الحديث "أي فل ، هَلُمَّ" ولك في آخر الاسم المرخّم وجهان : أحدهما أن تبقيه على ما كان عليه قبل الحذف .

والآخر أن تبنيه على الضم ؛ مثل : يا زيد ؛ كأنك أنزلته منزلته ولم تراع المحذوف .

وذكر أبو بكر الأنباري قال: حدّثنا محمد بن يحيى المرْوزيّ قال حدّثنا محمد وهو ابن سعدان قال حدّثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن عيينة عن مجاهد قال: كنا لا ندري ما الزخرف حتى وجدناه في قراءة عبد الله "بيت من ذهب"، وكنا لا ندري "وَنَادَوْا يَا مَالِكُ" أو يا ملك (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه في قراءة عبد الله "وَنَادَوْا يَا مَالِ" على الترخيم.

قال أبو بكر: لا يعمل على هذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله في الرواية عن الرسول عليه السلام؛ وكتاب الله أحق بأن يحتاط له وينفي عنه الباطل.

قلت: وفي صحيح البخاري عن صفوان بن يَعْلَى عن أبيه قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر: ﴿ وَنَادَوْا يا مالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ بإثبات الكاف.

وقال محمد بن كعب القُرَظي: بلغني أو ذكر لي أن أهل النار استغاثوا بالخزنة فقال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الذين فِي النار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العذاب ﴾ [غافر: 49] فسألوا يوماً واحداً يخفف عنهم فيه العذاب؛ فردّت عليهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبينات قَالُواْ بلى قَالُواْ فادعوا وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ [غافر: 50] قال: فلما يَئسوا مما عند الخزنة نَادَوْا مالكاً؛ وهو عليهم وله مجلس في وسطها، وجسور تمر عليها ملائكة العذاب؛ فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا: "يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

رَبُّكَ" قال : سألوا الموت ، قال : فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة ، قال : والسنة ستون وثلثمائة يوم ، والشهر ثلاثون يوماً ، واليوم كألف سنة مما تعدون ، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال : "إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ" وذكر الحديث ؛ ذكره ابن المبارك .

(159/693)

وفي حديث أبي الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيقولون ادعوا مالكاً فيقولون يا مالكِ ليقضِ علينا ربك قال إنكم ماكثون " قال الأعمش : نُبِّئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام ؛ خرَّجه الترمذي .

وقال ابن عباس : يقولون ذلك فلا يجيبهم ألف سنة ، ثم يقول إنكم ماكثون .

وقال مجاهد ونَوْف البِكَالِيّ : بين ندائهم وإجابته إياهم مائة سنة .

وقال عبد الله بن عمرو : أربعون سنة ؛ ذكره ابن المبارك .

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78)

يحتمل أن يكون هذا من قول مالك لهم ؛ أي إنكم ماكثون في النار لأنا جئناكم في الدنيا بالحق فلم تقبلوا .

ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم ؛ أي بيَّنا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم الرسل .

﴿ ولكن أَكْثَرَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : "وَلَكِنّ أَكْثَرَكُمْ" أي ولكن كلكم .

وقيل : أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم ، وأما الأتباع فما كان لهم أثر ﴿ لِلْحَقّ ﴾ أي للإسلام ودين الله ﴿ كَارِهُونَ ﴾ .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79)

قال مقاتل : نزلت في تدبيرهم المكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله فتضعف المطالبة بدمه ؛ فنزلت هذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر .

"أَبْرَمُوا" أحكموا .

والإبرام الإحكام .

أبرمت الشيء أحكمته .

وأبرم الفتال إذا أحكم الفتل ، وهو الفتل الثاني ، والأول سَحِيل ؛ كما قال :

. . .

. . .

مِن سَحِيلٍ ومُبْرَمِ . . .

فالمعنى : أم أحكموا كيداً فإنا محكمون لهم كَيْداً ؛ قاله ابن زيد ومجاهد .

قتادة : أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث .

الكلبي : أم قضَوْا أمراً فإنا قاضون عليهم بالعذاب .

وأم بمعنى بل .

(160/693)

وقيل : "أَمْ أَبْرَمُوا" عطف على قوله : ﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] .

وقيل : أي ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا ، أم سمعوا فأعرضوا لأنهم في أنفسهم أبرموا أمراً آمنوا به العقاب .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ أي ما يسرونه في أنفسهم ويتناجون به بينهم .

﴿ بلى ﴾ نسمع ونعلم .

﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي الحفظة عندهم يكتبون عليهم .

وروي أن هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها ؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ وقال الثاني : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع .

وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظي :

وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود في سورة "فصلت" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(161/693)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ المجرمين ﴾

أي الراسخين في الإجرام الكاملين فيه وهم الكفار فكأنه قيل : إن الكفار ﴿ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خالدون ﴾ وأيد إرادة ذلك بجعلهم قسيم المؤمنين بالآيات في قوله تعالى : ﴿ الذين ءامَنُواْ بآياتنا ﴾ [الزخرف : 69] فلا تدل الآية على خلود عصاة المؤمنين كما ذهب إليه المعتزلية والخوارج ، ولا يضر عدم التعرض لبيان حكمهم بناء على أن المراد بالذين آمنوا المتقون لقوله تعالى : ﴿ ياعباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف : 68] والقول بأن الذين آمنوا شامل لهم لأن العلة إيمانهم وإسلامهم لا يخفى ما فيه .

والظرف متعلق بخالدون وخالدون خبر إن ، وجوز أن يكون الظرف هو الخبر وخالدون فاعله لاعتماده .

﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً ، والمادة بأي

صيغة كانت تدل على الضعف مطلقاً ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ أي في العذاب ، وقرأ عبد الله ﴿ فِيهَا ﴾ أي في جهنم ﴿ مُّبْلِسُونَ ﴾ حزينون من شدة البأس ، قال الراغب : الإبلاس الحزن المعترض من شدة البأس ومنه اشتق إبليس فيما قيل .

ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه قيل أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته انتهى ، وقد فسر الإبلاس هنا بالسكوت وانقطاع الحجة .

﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ لسوء اختيارهم ، و﴿ هُمْ ﴾ ضمير فصل فيفيد التخصيص ، وقرأ عبد الله .

وأبو زيد ﴿ الظالمون ﴾ بالرفع على أن هم مبتدأ وهو خبره ، وذكر أبو عمر الجرمي أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ ويرفعون ما بعده على الخبر ، وقال أبو زيد : سمعتهم يقرؤن ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ الله هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ ﴾ [المزمل : 20] برفع خير وأعظم ، وقال قيس بن ذريح :

تحن إلى ليلى وأنت تركتها . . .

وكنت عليها بالملا أنت أقدر

وقال سيبويه : بلغنا أن رؤبة كان يقول أظن زيداً هو خير منك يعني بالرفع .

﴿ وَنَادَوْاْ ﴾ أي من شدة العذاب وفي بعض الآثار يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون : ادعوا مالكاً فيدعون ﴿ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي ليمتنا من قضى عليه إذا أماته ، ومرادهم سل ربك أن يقضي علينا حتى نستريح ، وإضافتهم الرب إلى ضميره لحثه لا للإنكار ، وهذا لا ينافي الإبلاس على التفسير الأول لأنه صراخ وتمنى للموت من فرط الشدة ، وأما على التفسير الثاني أنه وإن نفاه لكن زمان كل غير زمان الآخر فإن أزمنة العذاب متطاولة وأحقابه ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لا خاص لهم ولو بالموت ويغوثون أوقاتاً لشدة ما بهم .

وتعقب بأنه لا يناسب دوام الجملة الاسمية أعني وهم مبلسون وقيل إن نادوا معطوف بالواو وهي لا تقتضي ترتيباً ، ولا يخفى أن تلك الجملة حالية لا تنفك عن الخلود .

وقرأ عليه كرم الله تعالى وجهه .

وابن مسعود .

وابن وثاب .

والأعمش ﴿ يامال ﴾ بالترخيم على لغة من ينتظر وقرأ أبو السوار ﴿ يامال ﴾ بالترخيم أيضاً لكن على لغة من لم ينتظر .

قال ابن جني : وللترخيم في هذا الموضع سر وذلك أنهم لعظم ما هم فيه ضعفت قواهم وذلت أنفسهم فكان هذا من موضع الاختصار ضرورة وبهذا يجاب عن قول ابن عباس وقد حكيت له القراءة به على اللغة الأولى : ما أشغل أهل النار عن الترخيم مشيراً بذلك إلى إنكارها فإن ما للتعجب وفيها معنى الصد يعني أنهم في حالة تشغلهم عن الالتفات إلى الترخيم وترك النداء على الوجه الأكثر في الاستعمال وحاصل الجواب أن هذا الترخيم لم يصدر عنهم لقصد التصرف في الكلام والتفنن فيه كما في قوله :

يحيى رفات العظام بالية . . .

والحق يا مال غير ما تصف

(163/693)

بل للعجز وضيق المجال عن الاتمام كما يشاهد في بعض المكروبين ﴿ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ﴾ أي مالك ﴿ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ مقيمون في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه بموت ولا غيره ، وهذا تقنيط ونكاية لهم فوق ما هم فيه ولا يضر في ذلك علمه بيأسهم إن قلنا به .

وذكر بعض الأجلة أن فيه استهزاء لأنه أقام المكث مقام الخلود والمكث يشعر بالانقطاع لأنه كما قال الراغب ثبات مع انتظار ، ويمكن أن يكون وجه الاستهزاء التعبير بماكثون من

حيث أنه يشعر بالاختيار وإجابتهم بذلك بعد مدة .

قال ابن عباس يجيبهم بعد مضي ألف سنة ، وقال نوف : بعد مائة ، وقيل ثمانين ، وقيل أربعين .

﴿ لَقَدْ جئناكم بالحق ولكن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقّ كارهون ﴾ خطاب توبيخ وتقريع من جهته تعالى مقرر لجواب مالك ومبين لسبب مكثهم ، ولا مانع من خطابه سبحانه الكفرة تقريعاً لهم ، وقيل : هو من كلام بعض الملائكة عليهم السلام وهو كما يقول أحد خدم الملك للرعية أعلمناكم وفعلنا بكم قيل لا يجوز أن يكون من قول مالك لا لأن ضمير الجمع ينافيه بل لأن مالكاً لا يصح منه أن يقوله لأنه لا خدمة له غير خزنه للنار .

وفيه بحث ، وقيل : في ﴿ قَالَ ﴾ ضميره تعالى فالكل مقوله عز وجل ، وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ماكثون ﴾ [الزخرف : 77] خاتمة حال الفريقين ، وقوله سبحانه لقد الخ كلام آخر مع قريش والمراد عليه جئناكم في هذه السورة أو القرآن بالحق ، وعلى ما تقدم لقد جئناكم في الدنيا بالحق وهو التوحيد وسائر ما يجب الايمان به وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب ولكن أكثركم للحق أي حق كان كارهون لا يقبلونه وينفرون منه وفسر الحق بذلك دون الحق المعهود سواء كان الخطاب لأهل النار أو لقريش لمكان ﴿ أَكْثَرَكُمْ ﴾ فإن الحق المعهود كلهم كارهون له مشمئزون منه ، وقد يقال : الظاهر العهد وعبر بالأكثر لأن من

الأتباع من يكفر تقليداً .

وقرىء ﴿ لَقَدِ جِئْتُكُم ﴾ وقوله تعالى :

(164/693)

﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً ﴾ كلام مبتدأ ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، و﴿ أَمْ ﴾ منقطعة وما فيها معنى بل للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء والهمزة للإنكار فإن أريد بالإبرام الأحكام حقيقة فهي لإنكار الوقوع واستبعاده ، وإن أريد الأحكام صورة فهي لإنكار الواقع واستقباحه أي بل أبرم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ كيدنا حقيقة لا هم أو فإنا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما أبرموا كيدهم صورة كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ [الطور : 42] والآية إشارة إلى ما كان منهم من تدبير قتله عليه الصلاة والسلام في دار الندوة وإلى ما كان منه عز وجل من تدميرهم ، وقيل : هو من تتمية الكلام السابق ، والمعنى أم أبرموا في تكذيب الحق ورده ولم يقتصروا على كراهته فإنا مبرمون أمراً في مجازاتهم ، فإن كان ذاك خطاباً لأهل النار فإبرام الأمر في مجازاتهم هو تخليدهم في النار معذبين ؛ وإن كان خطاباً لقريش فهو خذلانهم ونصر النبي

صلى الله عليه وسلم عليهم فكأنه قيل : فإنا مبرمون أمراً في مجازاتهم وإظهار أمرك ، وفيه إشارة إلى أن إبرامهم لا يفيدهم ، ولا يغني عنهم شيئاً والعدول عن الخطاب في أكثركم إلى الغيبة في أبرموا على هذا القيل للاشعار بأن ذلك أسوأ من كراهتهم ويؤيده ما ذكر أولاً على ما قيل قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ لأنه يدل على أن ما أبرموه كان أمراً قد أخفوه فيناسب الكيد دون تكذيب الحق لأن الكفرة مجاهرون فيه والمراد بالسر هنا حديث النفس أي بل أيحسبون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك الكيد ﴿ ونجواهم ﴾ أي تناجيهم وتحادثهم سراً .

(165/693)

وقال غير واحد : السر ما حدثوا به أنفسهم أو غيرهم في مكان خال والنجوي ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي ﴿ بلى ﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ ملازمون لهم ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ أي يكتبونهما أو يكتبون كل ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال التي من جملتها ما ذكر .

والمضارع للاستمرار التجددي ، وهو مع فاعله خبر و ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ حال قدم للفاصلة أو

خبر أيضاً وجملة المبتدأ والخبر إما عطف على ما يترجم عنه بلى أو حال أي نسمع ذلك والحال أن رسلنا يكتبونه ، وإذا كان المراد بالسر حديث النفس فالآية ظاهرة في أن السر والكلام المخيل مسموع له تعالى ، وكذا هي ظاهرة في أن الحفظة تكتبه كغيره من أقوالهم وأفعالهم الظاهرة ، ولا يبعد ذلك بأن يطلعهم الله تعالى عليه بطريق من طرق الاطلاع فيكتبوه .

ومن خص كتابهم بالأمور الغير القلبية خص السر بما حدث به الغير في مكان خال ؛ والظاهر أن حسبانهم ذلك حقيقة ولا يستبعد من الكفرة الجهلة ، فقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : بينا ثلاثة عند الكعبة وأستارها قرشيان وقفي أو ثقفيان وقرشي فقال واحد منهم ترون الله تعالى يسمع كلامنا فقال واحد : إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ الآية ﴾ .

وقيل : إنهم نزلوا في إقدامهم على الباطل وعدم خوفهم من الله عز وجل منزلة من يحسب أن الله سبحانه لا يسمع سره ونجواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(166/693)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة بعض صفات الذين ينتفي عنهم الخوف والحزن يوم القيامة .

فذكر منها هنا الإيمان بآيات الله والإسلام ، وذكر بعضاً منها في غير هذا الموضع .

فمن ذلك الإيمان والتقوى ، وذلك في قوله تعالى في سورة يونس ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 62 - 63] .

ومن ذلك الاستقامة ، وقولهم : ربنا الله ، وذلك في قوله في فصلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [فصلت : 30] الآية :

وقوله تعالى في الأحقاف ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف : 13] إلى غير ذلك من الآيات .

والخوف في لغة العرب : الغم من أمر مستقبل .

والحزن : الغم من أمر ماض .

وربما استعمل كل منها في موضع الآخر .

وإطلاق الخوف على العلم أسلوب عربي معروف .

قال بعض العلماء : ومنه قوله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ [البقرة :

229] .

قال معناه : إلا أن يعلما .

ومنه قول أبي محجن الثقفي :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة . . . تروي عظامي في الممات عروقها

ولا تدفني في الفلاة فإنني . . . أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فقوله أخاف : أي أعلم لأنه لا يشك في أنه لا يشربها بعد موته .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ الذين آمَنُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ ظاهره المغايرة بين الإيمان والإسلام .

(167/693)

وقد دل بعض الآيات على اتحادهما كقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [الذاريات : 35 – 36] .

ولا منافاة في ذلك ، فإن الإيمان يطلق تارة على جميع ما يطلق عليه الإسلام من الاعتقاد والعمل . كما ثبت في الصحيح ، في حديث وفد عبد القيس ، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جداً .

ومن أصرحها في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " الإيمان بضع وسبعون " .

وفي بعض الروايات الثابتة في الصحيح " وستون شعبة أعلاها شهادة ألا لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " .

فقد سمى صلى الله عليه وسلم " إماطة الأذى عن الطريق " إيماناً .

وقد أطال البيهقي رحمه الله في شعب الإيمان ، في ذكر الأعمال التي جاء الكتاب والسنة تسميتها إيماناً .

فالإيمان الشرعي التام والإسلام الشرعي التام معناهما واحد .

وقد يطلق الإيمان إطلاقاً آخر على خصوص ركنه الأكبر الذي هو الإيمان بالقلب ، كما في حديث جبريل الثابت في الصحيح .

والقلب مضغة في الجسد إذا صلحت صلح الجسد كله . فغيره تابع له . وعلى هذا تحصل المغايرة في الجملة بين الإيمان والإسلام .

فالإيمان ، على هذا الإطلاق ، اعتقاد والإسلام شامل للعمل .

واعلم أن مغايرته تعالى بين الإيمان والإسلام في قوله تعالى :

﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 14] .

قال بعض العلماء : المراد بالإيمان هنا ، معناه الشرعي ، والمراد بالإسلام معناه اللغوي .

لأن إذعان الجوارح وانقيادها دون إيمان القلب إسلام لغة لا شرعاً .

(168/693)

وقال بعض العلماء : المراد بكل منهما معناه الشرعي ، ولكن نفي الإيمان في قوله : ولما يدخل الإيمان ، يراد به عند من قال هذا ، نفي كمال الإيمان لا نفي أصله ، ولكن ظاهر الآية لا يساعد على هذا ، لأن قوله ﴿ وَلَمَّا يَدْخُل ﴾ فعل في سياق النفي وهو صيغة عموم ، وإن لم يؤكد بمصدر ، ووجهه واضح جداً ، كما قدمناه مراراً .

وهو أن الفعل الصناعي ينحل ، عن مصدر وزمن عند النحويين ، وعن مصدر وزمن ، ونسبة عند البلاغيين ، كما حرروه في مبحث الاستعارة التبعية ، وهو أصوب .

فالمصدر كامن في مفهوم الفعل الصناعي إجماعاً ، وهو نكرة لم تتعرف بشيء فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي .

وقد أشار صاحب مراقي السعود إلى أن الفعل في سياق النفي أو الشرط من صيغ العموم بقوله :

ونحو لا شربت أو وإن شربا . . . واتفقوا إن مصدر قد جلبا

ووجه إهمال لا في هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ لاَ خَوْفٌ ﴾ [يونس : 62] أن لا الثانية التي هي ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] بعدها معرفة وهي الضمير ، وهي لا تعمل في المعارف ، بل في النكرات ، فلما وجب إهمال الثانية ، أهملت الأولى لينسجم الحرفان بعضهما مع بعض في إهمالهما معاً .

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70)

قوله تعالى في هذه الآية ﴿ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ فيه لعلماء التفسير وجهان :

أحدهما ، أن المراد بأزواجهم ، نظراؤهم وأشباههم في الطاعة وتقوى الله واقتصر على هذا القول ابن كثير .

والثاني : أن المراد بأزواجهم ، نساؤهم في الجنة .

لأن هذا الأخير أبلغ في التنعم والتلذذ من الأول .

ولذا يكثر في القرآن ، ذكر إكرام أهل الجنة ، بكونهم مع نسائهم دون الامتنان عليهم ، بكونهم مع نظرائهم وأشباههم في الطاعة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرآئك مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس : 55 – 56] .

وقال كثير من أهل العلم : إن المراد بالشغل المذكور في الآية ، هو افتضاض الأبكار . وقال تعالى : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الدخان : 54] . وقال تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون ﴾ [الواقعة : 22 – 23] . وقال تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70] إلى قوله : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾ [الرحمن : 72] ، وقال : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف عِينٌ ﴾ [الصافات : 48] وقال تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف أَتْرَابٌ ﴾ [ص : 52] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا : أن مفرد الأزواج زوج بلا هاء ، وأن الزوجة بالتاء لغة لا لحن خلافاً لمن زعم أن الزوجة لحن من لحن الفقهاء ، وأن ذلك لا أصل له في اللغة .

والحق أن ذلك لغة عربية ، ومنه قول الفرزدق :

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي . . . كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقول الحماسي :

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي . . . والظاعنون إلى ثم تصدع

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في صفية " إنها زوجتي " وقوله ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أقوال العلماء فيه راجعة إلى شيء واحد ، وهو أنهم يكرمون بأعظم أنواع الإكرام وأتمها .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وجميع الآيات التي فيها الأنعام على أهل الجنة بأواني الذهب والفضة ، والتحلي بهما ، ولبس الحرير ، ومنه السندس والإستبرق ، وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل : 14] .

قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

(170/693)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن كل ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، أي تلتذ به الأعين أي برؤيته لحسنه ، كما قال تعالى : ﴿ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ [البقرة : 69] . وأسند اللذة إلى العين ، وهي في الحقيقة مسندة لصاحب العين ، كإسناد الكذب والخطيئة إلى الناصية ، وهي مقدم شعر الرأس ، في قوله تعالى : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق : 16] وكإسناد الخشوع ، والعمل والنصب ، إلى الوجوه ، في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية : 2 – 3] الآية .

ومعلوم أن الكذب والخطيئة مسندان في الحقيقة لصاحب الناصية ، كما أن الخشوع

والعمل ، والنصب مسندات إلى أصحاب الوجوه .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الجنة ، فيها كل مشتهى ، وكل مستلذ ، جاء مبسوطاً موضحة أنواعه في آيات كثيرة ، من كتاب الله ، وجاء محمد أيضاً إجمالاً شاملاً لكل شيء من النعيم .

أما إجمال ذلك ففي قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 17] .

وأما بسط ذلك وتفصيله ، فقد بين القرآن ، أن من ذلك النعيم المذكور في الآية ، المشارب ، والمآكل والمناكح ، والفرش والسرر ، والأواني ، وأنواع الحلي والملابس والخدم إلى غير ذلك ، وسنذكر بعض الآيات الدالة على كل شيء من ذلك .

(171/693)

أما المآكل فقد قال تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف : 73] ، وقال : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : 21] وقال تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 32 – 33] وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ [البقرة : 25] الآية . إلى غير

ذلك من الآيات .

أما المشارب ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ [الإنسان : 5 – 6] . وقال تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تسمى سَلْسَبِيلاً ﴾ [الإنسان : 17 – 18] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : 17 – 19] . وقال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : 45 – 47] : وقال تعالى : ﴿ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 15] وقال تعالى

﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأيام الخالية ﴾ [الحاقة : 24] إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الملابس والأواني والحلي ، فقد قدمنا الكلم عليها مستوفى في سورة النحل .

(172/693)

وأما المناكح فقد قدمنا بعض الآيات الدالة عليها قريباً .

وهي كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة : 25] الآية . ويكفي ما قدمنا من ذلك قريباً .

وأما ما يتكئون عليه من الفرش والسرر ونحو ذلك ، ففي آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن : 54] . وقوله تعالى : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرآئِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس : 56] وقوله تعالى : ﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الواقعة : 15 - 16] .

والسرر الموضونة هي المنسوجة بقضبان الذهب .

وقوله تعالى ﴿ إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : 47] . وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ [الغاشية : 13] . وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن : 76] إلى غير ذلك من الآيات .

وأما خدمهم فقد قال تعالى في ذلك : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ [الواقعة : 17] الآية . وقال تعالى في سورة الإنسان في صفة هؤلاء الغلمان : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ [الإنسان : 19] ، وذكر نعيم أهل الجنة بأبلغ صيغة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ [الإنسان : 20] .

والآيات الدالة على أنواع نعيم الجنة وحسنها وكمالها كالظلال والعيون والأنهار وغير ذلك كثيرة جداً ولنكتف بما ذكرنا .

(173/693)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ، قد قدمنا الآيات الموضحة ، لأن خلودهم المذكور لا انقطاع له ألبتة كقوله تعالى : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] أي غير مقطوع ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص : 54] وقوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] .

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72)

قد قدمنا الكلام على هذه الآية الكريمة ، ونحوها من الآيات الدالة على أن العمل سبب لدخول الجنة كقوله تعالى : ﴿ ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 63] وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 17] .

وبينا أقرب أوجه الجمع بين هذه الآيات الكريمة وما بمعناها ، مع قوله صلى الله عليه وسلم

" لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل " .

وذكرنا في ذلك أن العمل الذي بينت الآيات كونه سبب دخول الجنة هو العمل الذي تقبله الله برحمة منه وفضل .

وأن العمل الذي لا يدخل الجنة هو الذي لم يتقبله الله .

والله يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتقين ﴾ [المائدة : 27] .

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77)

اللام في قوله ﴿ لِيَقْضِ ﴾ لام الدعاء .

والظاهر أن المعنى ، أن مرادهم بذلك سؤال مالك خازن النار ، أن يدعو الله لهم بالموت .

والدليل على ذلك أمران :

(174/693)

الأول : أنهم لو أرادوا دعاء الله بأنفسهم أن يميتهم لما نادوا يا مالك ، ولما خاطبوه في قولهم : ﴿ رَبُّكَ ﴾ .

والثاني : أن الله بين في سورة المؤمن أن أهل النار ، يطلبون خزنة النار ، أن يدعو الله لهم

ليخفف عنهم العذاب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين فِي النار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العذاب ﴾ [غافر : 49] . وقوله ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي ليمتنا فنستريح بالموت من العذاب .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَوَكَزَهُ موسى فقضى ﴾ [القصص : 15] أي أماته .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ دليل على أنهم لا يجابون إلى الموت بل يمكثون في النار معذبين إلى غير نهاية .

وقد دل القرآن العظيم على أنهم لا يموتون فيها فيستريحوا بالموت ، ولا تغني هي عنهم ، ولا يخفف عنهم عذابها ، ولا يخرجون منها .

أما كونهم لا يموتون فيها الذي دل عليه قوله هنا ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [طه : 74] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى الذى يَصْلَى النار الكبرى ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾ [الأعلى : 11 - 13] . وقوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ [فاطر : 36] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم : 17] الآية .

وأما كون النار لا تغني عنهم ، فقد بينه تعالى بقوله : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء : 97] ، فمن يدعي أن للنار خبوة نهائية وفناء رد عليه بهذه الآية الكريمة .

وأما كون العذاب لا يخفف عنه فقد دلت عليه آيات كثيرة جداً كقوله : ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : 36] . وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [النحل : 85] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ [النبأ : 30] ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ [الزخرف : 75] الآية . وقوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ [الفرقان : 77] على الأصح في الأخيرين .

وأما كونهم لا يخرجون منها فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى في البقرة : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النار ﴾ [البقرة : 167] وقوله تعالى في المائدة : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة : 37] ، وقوله تعالى في الحج : ﴿ كُلَّمَآ أَرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج : 22] الآية . وقوله تعالى في السجدة : ﴿ كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة : 20] ، وقوله تعالى في الجاثية : ﴿ فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الجاثية : 35] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أوضحنا هذا المبحث إيضاحاً شافياً في كتابنا " دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب " في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى ﴿ قَالَ النار مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ [الأنعام : 128] وفي سورة النبأ في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لاَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ﴾ [النبأ : 23] وسنوضحه أيضاً إن شاء الله ، في هذا الكتاب المبارك في الكلام على آية النبأ المذكورة ، ونوضح هناك إن شاء الله إزالة إشكال يورده الملحدون على الآيات التي فيها إيضاح هذا المبحث .

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى : 13] .

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

قوله تعالى : ﴿ بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : 19] ، وأكثرنا من الآيات الموضحة لذلك

في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ [مريم : 79] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(177/693)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) ﴾

لهذه الجملة موقعان:

أحدهما : إتمام التفصيل لما أجمله الوعيد الذي في قوله تعالى : ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ [الزخرف : 65] عقب تفصيل بعضه بقوله : ﴿ هل ينظرون إلا الساعة ﴾ [الزخرف : 66] الخ .

وبقوله : ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌ ﴾ [الزخرف : 67] حيث قطع إتمام تفصيله بالاعتناء بذكر وعد المؤمنين المتقين فهي في هذا الموقع بيان لجملة الوعيد وتفصيل لإجمالها .

الموقع الثاني : أنها كالاستئناف البياني يثيره ما يُسمع من وصف أحوال المؤمنين المتقين من التساؤل : كيف يكون حال أضدادهم المشركين الظالمين .

والموقعان سواء في كون الجملة لا محلّ لها من الإعراب .

وافتتاح الخبر بـ ﴿ إنّ ﴾ للاهتمام به ، أو لتنزيل السائل المتلهفِ للخبر منزلة المتردّد في مضمونه لشدة شوقه إليه ، أو نظراً إلى ما في الخبر من التعريض بإسماعه المشركين وهم ينكرون مَضْمُونَهُ فكأنه قيل : إنكم أيها المجرمون في عذاب جهنم خالدون .

والمجرمون : الذين يفعلون الإجرام ، وهو الذنب العظيم .

والمراد بهم هنا : المشركون المكذبون للنبيء صلى الله عليه وسلم لأن السياق لهم ، ولأن الجملة بيان لإجمال وعيدهم في قوله : ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ [الزخرف : 65] ، ولأن جواب الملائكة نداءهم بقولهم : ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ [الزخرف : 78] لا ينطبق على غير المكذبين ، أي كارهون للإسلام والقرآن ، فذكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للتنبيه على أن شركهم إجرام .

وجملة ﴿ لا يفتر عنهم ﴾ في موضع الحال من ﴿ عذاب جهنم ﴾ و ﴿ يفتر ﴾ مضاعف فَتَر ، إذا سكن ، وهو بالتضعيف يتعدّى إلى مفعول .

والمعنى : لا يفتِّره أحد .

وجملة ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ عطف على جملة ﴿ إنّ المجرمين في عذاب جهنم خالدون ﴾ .

والإبلاس : اليأس والذل ، وتقدم في سورة الأنعام : وزاد الزمخشري في معنى الإبلاس قيد السكوت ولم يذكره غيره ، والحق أن السكوت من لوازم معنى الإبلاس وليس قيداً في المعنى .

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76)

جملة معترضة في حكاية أحوال المجرمين قُصد منها نفي استعظام ما جُوزُوا به من الخلود في العذاب ونفي الرقة لحالهم المحكية بقوله : ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ [الزخرف : 75] .

والظلم هنا : الاعتداء ، وهو الإصابة بضرّ بغير موجب مشروع أو معقول ، فنفيه عن الله في مُعَامَلَتِهِ إياهم بتلك المعاملة لأنها كانت جزاءً على ظلمهم فلذلك عقب بقوله : ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ أي المعتدين إذ اعتدوا على ما أمر الله من الاعتراف له بالإلهية ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كذبوه ولَمَزوه ، كما تقدم في قوله : ﴿ إن الشرك لظلمٌ عظيمٌ ﴾ في سورة لقمان (13) .

و﴿ هم ﴾ ضمير فصل لا يطلب معاداً لأنه لم يجْتلبْ للدلالة على معاد لوجود ضمير ﴿ كانوا ﴾ دالاً على المعاد فضمير الفصل مجْتلبٌ لإفادة قصر صفة الظلم على اسم (كان) ، وإذ قد كان حرف الاستدراك بعد النفي كافياً في إفادة القصر كان اجتلاب ضمير الفصل تأكيداً للقصر بإعادة صيغة أخرى من صيغ القصر .

وجمهور العرب يجعلون ضمير الفصل في الكلام غير واقع في موقع إعراب فهو بمنزلة الحرف ، وهو عند جمهور النحاة حرف لا محل له من الإعراب ويسميه نحاة البصرة فَصلاً ، ويسميه نحاة الكوفة عِمَاداً .

واتفق القراء على نصب ﴿ الظالمين ﴾ على أنه خبر ﴿ كانوا ﴾ وبنو تميم يجعلونه ضميراً طالباً معاداً وصَدراً لِجملته مبتدأ ويجعلون جملته في محل الإعراب الذي يقتضيه ما قبله ، وعلى ذلك قرأ عبد الله بن مسعود وأبو زيد النحوي ﴿ ولكن كانوا هم الظالمون ﴾ على أن هم مبتدأ والجملة منه ومنْ خبرِه خبرُ ﴿ كانوا ﴾ .

(179/693)

وحكى سيبويه أن رؤبة بن العجاج كان يقول : أظن زيداً هو خيرٌ منك ، برفع خير .

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77)

جملة ﴿ ونادوا ﴾ حال من ضمير ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ [الزخرف : 75] ، أو عطف على جملة ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ .

وحكي نداؤهم بصيغة الماضي مع أنه مما سيقع يوم القيامة ، إما لأن إبلاسهم في عذاب جهنم وهو اليأس يكون بعد أن نادوا يا مالك وأجابهم بما أجاب به ، وذلك إذا جعلت جملة

﴿ ونادوا ﴾ حالية ، وإمّا لتنزيل الفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقيق وقوعه تخريجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر نحو قوله تعالى : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ [النمل : 87] ﴿ فصَعِق مَن في السماوات ومَن في الأرض ﴾ [الزمر : 68] وهذا إن كانت جملة ﴿ ونادوا ﴾ الخ معطوفة .

و(مالك) المنادى اسم الملَك الموكّل بجهنم خاطبوه ليرفع دعوتهم إلى الله تعالى شفاعة .

واللام في ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ لام الأمر بمعنى الدعاء .

وتوجيه الأمر إلى الغائب لا يكون إلا على معنى التبليغ كما هنا ، أو تنزيل الحاضر منزلة الغائب لاعتبار مَّا مثل التعظيمِ في نحو قول الوزير للخليفة : لِيَرَ الخليفة رأيه .

والقضاء بمعنى : الإماتة كقوله : ﴿ فوكزه موسى فقضَى عليه ﴾ [القصص : 15] ، سألوا الله أن يزيل عنهم الحياة ليستريحوا من إحساس العذاب .

وهم إنما سألوا الله أن يميتهم فأجيبوا بأنهم ماكثون جواباً جامعاً لنفي الإماتة ونفي الخروج فهو جواب قاطع لما قد يسألونه من بعدُ .

ومن النوادر المتعلقة بهذه الآية ما روي أن ابن مسعود قرأ (ونادَوا يا مَالِ) بحذف الكاف على الترخيم ، فذكرت قراءته لابن عباس فقال : مَا كان أشغلَ أهلَ النار عَن الترخيم ، قال في "الكشاف" : وعن بعضهم : حسَّن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه أ هـ .

وأراد ببعضهم ابنَ جني فيما ذكره الطِّيبي أن ابن جنّي قال : وللترخيم في هذا الموضع سرّ وذلك أنهم لعظم ما هم عليه ضعفتْ وذلّتْ أنفُسهم وصغر كلامهم فكان هذا من مواضع الاختصار .

وفي "صحيح البخاري" عن يَعْلَى بن أمية سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ بإثبات الكاف .

قال ابن عطية : وَقِرَاءَةُ (ونادوا يا مال) رواها أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيكون النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بالوجهين وتواترت قراءة إثبات الكاف وبقيت الأخرى مروية بالآحاد فلم تكن قرآناً .

وجملة ﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ إلى آخرها في موضع العلةِ لجملة ﴿ إنكم ماكثون ﴾ باعتبار تَمام الجملة وهو الاستدراك بقوله : ﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ .

وضمير ﴿ جئناكم ﴾ للملائكة ، والحقُ : الوحي الذي نزل به جبريل فنسب مالك المجيء بالحق إلى جَمْعِ الملائكة على طريقة اعتزاز الفريق والقبيلة بمزايا بعضها ، وهي طريقة معروفة في كلام العرب كقول الحارث بن حلزة :

وفككْنا غُلّ امرىء القيس عنه

بعد مَا طال حبسه والعَناء . . .

وإنما نسبت كراهة الحق إلى أكثرهم دون جميعهم لأن المشركين فريقان أحدهما سادة كبراء لملة الكفر وهم الذين يصدون الناس عن الإيمان بالإرهاب والترغيب مثل أبي جهل حين صَدَّ أبا طالب عند احتضاره عن قول لا إله إلا الله وقال : أترغب عن ملة عبد المطلب ، وثانيهما دهماء وعامة وهم تبع لأيمة الكفر .

وقد أشارت إلى ذلك آيات كثيرة منها قوله في سورة البقرة (166) ﴿ إذ تبرَّأَ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ﴾ الآيات فالفريق الأول هم المراد من قوله : ﴿ ولكن أَكْثَرُكُمْ للحق كارهون ﴾ وأولئك إنما كرهوا الحق لأنه يرمي إلى زوال سلطانهم وتعطيل منافعهم .

وتقديم ﴿ للحق ﴾ على ﴿ كارهون ﴾ للاهتمام بالحق تنويهاً به ، وفيه إقامة الفاصلة أيضاً .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79)

﴿ أم ﴾ منقطة للإضراب الانتقالي من حديث إلى حديث مع اتحاد الغرض .

انتقل من حديث ما أُعد لهم من العذاب يوم القيامة ما أُعد لهم من الخزي في الدنيا .

فالجملة عطف على جملة ﴿ هل ينظرون إلا الساعة ﴾ [الزخرف : 66] الخ .

والكلام بعد ﴿ أم ﴾ استفهام حذفت منه أداة الاستفهام وهو استفهام تقريري وتهديد ، أي أأبرموا أمراً .

وضمير ﴿ أبرموا ﴾ مراد به المشركون الذين ناوأوا النبي صلى الله عليه وسلم وضمير (إنَّا) ضمير الجلالة .

والفاء في قوله : ﴿ فإنا مبرمون ﴾ للتفريع على ما اقتضاه الاستفهام من تقدير حصول المستفهم عنه فيؤول الكلام إلى معنى الشرط ، أي إن أبرموا أمراً من الكيد فإن الله مبرم لهم أمراً من نقض الكيد وإلحاق الأذى بهم ، ونظيره وفي معناه قوله : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ [الطور : 42] .

وعن مقاتل نزلت هذه الآية في تدبير قريش بالمكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة حين استقرّ أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتل النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يستطيع بنو هاشم المطالبة بدمه ، وقَتَل الله جميعهم في بدر .

والإبرام حقيقته : القتل المحكم ، وهو هنا مستعار لإحكام التدبير والعزم على ما دبروه .

والمخالفة بين ﴿ أبرموا ﴾ و ﴿ مُبرمون ﴾ لأن إبرامهم واقع ، وأما إبرام الله جزاءً لهم فهو توعد بأن الله قدَّر نقض ما أبرموه فإن اسم الفاعل حقيقة في زمن الحال ، أي نحن نقدّر لهم الآن أمراً عظيماً ، وذلك إيجاد أسباب وقعة بدر التي استؤصلوا فيها .

والأمر : العمل العظيم الخطير ، وحذف مفعول ﴿ مبرمون ﴾ لدلالة ما قبله عليه .

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

﴿ أم ﴾ والاستفهام المقدر بعدها في قوله : ﴿ أم يحسبون ﴾ هما مثل ما تقدم في قوله : ﴿ أم أبرموا أمراً ﴾ [الزخرف : 79] .

(182/693)

وحرف ﴿ بلى ﴾ جواب للنفي من قوله : ﴿ أنا لا نسمع ﴾ ، أي بَلى نحن نسمع سرهم ونجواهم .

والسمع هو : العلم بالأصوات .

والمراد بالسر : ما يُسرونه في أنفسهم من وسائل المَكر للنبيء صلى الله عليه وسلم

وبالنجوى ما يتناجون به بينهم في ذلك بحديث خفيّ .

وعطف ﴿ ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ ليعلموا أن علم الله بما يُسِرُّون علم يترتب عليه أثرٌ

فيهم وهو مؤاخذتهم بما يسرّون لأن كتابة الأعمال تؤذن بأنها ستحسب لهم يوم الجزاء .

والكتابة يجوز أن تكون حقيقة ، وأن تكون مجازاً ، أو كناية عن الإحصاء والاحتفاظ .

والرسل : هم الحفظة من الملائكة لأنهم مرسلون لتقصّي أعمال النّاس ولذلك قال : ﴿ لديهم يكتبون ﴾ كقوله : ﴿ ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ ﴾ [ق : 18] ، أي رقيب يرقب قوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(183/693)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم أول السورة تبكيتهم والتعجيب منهم في ادعاءهم لله ولداً من الملائكة وهددهم بقوله ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ وذكر شبههم في قولهم ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ وجهلهم فيها بقوله ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ ونفى أن يكون لهم على ذلك

دليل سمعي بقوله منكراً موبخاً ﴿ أم آتيناهم كتاباً ﴾ ومر في توهية أمرهم في ذلك وغيره بما لاحم بعضه بعضاً على ما تقدم إلى ما تم نفي الدليل السمعي على طريق النشر المشوش بقوله تعالى ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ ، ونظم به ما أتى به رسوله أهل الكتاب مما يصدق ما أتى به كتابنا من التوحيد وما هدد به من أعراض عنه إلى أن أخبر أنه الحق الذي لا زوال أصلاً لشيء منه ، وأن رسله سبحانه تكتب جميع أعمالهم من شهادتهم في الملائكة وغيرها ، أعاد الكلام في إبطال شبهتهم في أن عبادتهم لهم لو كانت ممنوعة لم يشأها الذي له عموم الرحمة لأن عموم رحمته يمنع على زعمهم مشيئة ما هو محرم ، فقال بعد أن نفى قوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ أن يكون لهم دليل سمعي على أحد من رسله عليهم الصلاة والسلام : ﴿ قل إن كان للرحمن ﴾ أي العام الرحمة ﴿ ولد ﴾ على ما زعمتم ، والمراد به الجنس لادعائهم في الملائكة ، وغيرهم في غيرهم ، وقراءة حمزة والكسائي بضم ثم سكون على أنه جمع على إرادة الكثرة .

(184/693)

ولما كان المعنى : فأنا ما عبدت ذلك الولد ولا أعبده ، ولو شاء الرحمن ما تركت عبادته ، ولكنه شاء تركي لها وشاء فعلكم لها ، فإحداهما قطعاً مشيئة للباطل ، وإلا لاجتمع

النقيضان بأن يكون الشيء حقاً باطلاً في حال واحد من وجه واحد ، وهو بديهي الاستحالة ، فبطلت شبهتكم بدليل قطعي – هكذا كان الأصل ، ولكنه عدل عنه إلى ما يفيد معناه وزيادة أنه يعبد الله مخلصاً ولا يعبد غيره ، أنه لا يستحق اسم العبادة إلا ما كان له خالصاً ، فقال : ﴿ فأنا ﴾ أي في الرتبة ﴿ أول العابدين ﴾ للرحمن ، العبادةَ التي هي العبادة ولا يستحق غيرها أن يسمى عبادة وهي الخالصة ، أي فأنا لا أعبد غيره لا ولداً ولا غيره ، ولم يشأ الرحمن لي أن أعبد الولد ، أو يكون المعنى : أنا أول العابدين للرحمن على وجه الإخلاص ، لم أشرك به شيئاً أصلاً في وقت من الأوقات مما سميتموه ولداً أو شريكاً أو غيره ، ولو شاء ما عبدته على وجه الإخلاص ، ولا شك عندكم وعند غيركم أن من أخلص لأحد كان أولى من غيره برحمة ، فلو أن الإخلاص له ممنوع ما شاء لي ، ولولا أن عبادة غيره ممنوعة لشاءها لي ، ولو أن له ولداً لشاء لي عبادته ، فإن عموم رحمته لكافة خلقه لكونهم خلقه وخصوصها بي لكوني عبده خالصاً له يمنع على زعمكم من أن يشقيني وأنا أخلص له ، فبطلت شبهتكم بمثلها بل أقوى منها ، وهذا مما علق بشيء هو بنقيضه أولى ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن " أن " نافية بمعنى : ما ينبغي أي ما كان له ولد ، فإني أول من عبده رتبة وما علمت له ولداً ، ولو كان له ولد لعلمته فعبدته تقرباً إليه بعبادة ولده .

ولما بطلت الشبهة على تقدير ببرهان ، وعلى آخر بشبهة أقوى منها ، وظهر الأمر واتضح الحق في أنه سبحانه يشاء لشخص فعل شيء ولآخر عدم فعل ذلك الشيء وفعل ضده أو نقيضه ، ومن المعلوم قطعاً أنه لا يكون فعل النقيضين ولا الضدين في آن واحد حقاً من وجه واحد ، فعرف بذلك أن العبرة في الحلال والحرام بأمره ونهيه لا بإرادته ، وأنه لولا ذلك لما علم أنه فاعل بالاختيار يخص من يشاء من عباده بما يشاء بعد أن عمهم بما شاء ، كان موضع التنزيه عما نسبوه إليه من الباطل ، فقال منزهاً على وجه مظهر أنه لا يصح أن ينسب إليه ولد أصلاً : ﴿ سبحان رب ﴾ أي مبدع ومالك ﴿ السماوات ﴾ ولما كان المقام للتنزيه وجهة العلوية أجدر ، لأنه أبعد عن النقص والنقيض ، ولم يقتض الحال إعادة لفظ الرب بخلاف ما يأتي آخر الجاثية ، فإنه لإثبات الكمال ونظره إلى جميع الأشياء على حد سواء فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي اللتين كل ما فيهما ومن فيهما مقهور مربوب محتاج لا يصح أن يكون له منه سبحانه نسبة بغير العبودية بالإيجاد والتربية .

ولما كانت خاصة الملك أن يكون له ما لا يصل إليه غيره بوجه أصلاً ، قال محققاً لملكه لجميع ما سواه ومن سواه وملكه له ، ولم يعد العاطف لأن العرش من السماوات : ﴿ رب العرش ﴾ أي المختص به لكونه خاصة الملك الذي وسع كرسيه السماوات والأرض ﴿ عما يصفون ﴾ من أنه له ولد أو شريك .

(186/693)

ولما حصحص الحق لمعت في الموجود كله أعلام الصدق بعد بطلان شبهتهم وبيان أغلوطتهم ، عرف أنهم فاعلون بوضع الأشيء في غير مواضعها فعل الخائض اللاعب ، فقال مسبباً عن ذلك : ﴿ فذرهم ﴾ أي اتركهم على أسوأ أحوالهم ﴿ يخوضوا ﴾ أي يفعلوا فعل الخائض في الماء في وضع رجله التي هي عماده فيما لا يعرفه ، وقد لا يرضاه لكونه لا علم له به ﴿ ويلعبوا ﴾ أي يفعلوا فعل اللاعب في انهماكه في فعل ما ينقصه ولا يزيده ﴿ حتى يلاقوا ﴾ أي يفعلوا بتصريم أعمارهم في فعل ما لا ينفعهم فعل المجتهدين في أن يلقوا ﴿ يومهم الذي يوعدون ﴾ بوعد لا خلف فيه فيظهر فيه وعيدهم ويحق تهديدهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 55.56 ﴾

(187/693)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي ﴿ وَلَدَ ﴾ بضم الواو وإسكان اللام والباقون بفتحهما ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ قرأ نافع ﴿ فَأَنَا ﴾ بفتحة طويلة على النون والباقون بلا تطويل .

المسألة الثانية :

اعلم أن الناس ظنوا أن قوله ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ لو أجريناه على ظاهره فإنه يقتضي وقوع الشك في إثبات ولد لله تعالى ، وذلك محال فلا جرم افتقروا إلى تأويل الآية ، وعندي أنه ليس الأمر كذلك وليس في ظاهر اللفظ ما يوجب العدول عن الظاهر ، وتقريره أن قوله ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ قضية شرطية والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين أدخل على إحداهما حرف الشرط وعلى الأخرى حرف الجزاء فحصل بمجموعها قضية واحدة ، ومثاله هذه الآية فإن قوله ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ قضية مركبة من قضيتين : إحداهما : قوله ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ ، والثانية : قوله ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ * العابدين ﴾ ثم أدخل حرف الشرط وهو لفظة إن على لقضية الأولى وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية الثانية فحصل من مجموعهما قضية الأولى واحدة ، وهو القضية الشرطية ، إذ عرفت هذا فنقول القضية

الشرطية لا تفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء ، وليس فيه إشعار بكون الشرط حقاً أو باطلاً أو بكون الجزاء حقاً أو باطلاً ، بل نقول القضية الشرطية الحقة قد تكون مركبة من قضيتين حقيتين أو من قضيتين باطلتين أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل ، فأما القسم الرابع وهو أن تكون القضية الشرطية الحقة مركبة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال .

(188/693)

ولنبين أمثال هذه الأقسام الأربعة ، فإذا قلنا إن كان الإنسان حيواناً فالإنسان جسم فهذه شرطية حقة وهي مركبة من قضيتين حقيتين ، إحداهما قولنا الإنسان حيوان ، والثانية قولنا الإنسان جسم ، وإذا قلنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين فهذه شرطية حقة لكنها مركبة من قولنا الخمسة زوج ، ومن قولنا الخمسة منقسمة بمتساويين وهما باطلان ، وكونهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً ، وقد ذكرنا أن القضية الشرطية لا تفيد إلا مجرد الاستلزام وإذا قلنا إن كان الإنسان حجراً فهو جسم ، فهذا جسم ، فهذا أيضاً حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا الإنسان حجر ، ومن جزء حق وهو قولنا الإنسان جسم ، وإنما جاز هذا لأن الباطل قد يكون بحيث يلزم

من فرض وقوعه وقوع حق ، فإنا فرضنا كون الإنسان حجراً وجب كونه جسماً فهذا شرط باطل يستلزم جزءاً حقاً .

(189/693)

وأما القسم الرابع : وهو تركيب قضية شرطية حقة من شرط حق وجزاء باطل ، فهذا محال ، لأن هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزماً للباطل وذلك محال بخلاف القسم الثالث فإنه يلزم منه كون الباطل مستلزماً للحق وذلك ليس بمحال ، إذا عرفت هذا الأصل فلنرجع إلى الآية فنقول قوله ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل لأن قولنا كان للرحمن ولد باطل ، وقولنا أنا أول العابدين لذلك الولد باطل أيضاً إلا أنا بينا أن كون كل واحد منهما باطلاً لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً كما ضربنا من المثال في قولنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين ، فثبت أن هذا الكلام لا امتناع في إجرائه على ظاهره ، ويكون المراد منه أنه إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد ، فإن السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده ، وقد بينا أن هذا التركيب لا يدل على الاعتراف بإثبات ولد أم لا .

ومما يقرب من هذا الباب قوله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] فهذا الكلام قضية شرطية والشرط هو قولنا ﴿ فِيهِمَا آلِهَةٌ ﴾ والجزاء هو قولنا ﴿ فسدتا ﴾ فالشرط في نفسه باطل والجزاء أيضاً باطل لأن الحق أنه ليس فيهما آلهة ، وكلمة لو تفيد الشيء بانتفاء غيره لأنهما ما فسدتا ثم مع كون الشرط باطلاً وكون الجزاء باطلاً كان استلزام ذلك الشرط لهذا الجزاء حقاً فكذا ههنا ، فإن قالوا الفرق أن ههنا ذكر الله تعالى هذه الشرطية بصيغة لو فقال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ ﴾ وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، وأما في الآية التي نحن في تفسيرها إنما ذكر الله تعالى كلمة إن وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، بل هذه الكلمة تفيد الشك في أنه هل حصل الشرط أم لا ، وحصول هذا الشك للرسول غير ممكن ، قلنا الفرق الذي ذكرتم صحيح إلا أن مقصودنا بيان أنه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزءيها صادقتين أو كاذبتين على ما قررناه أما قوله إن لفظة إن تفيد حصول الشرط هل حصل أم لا ، قلنا هذا ممنوع فإن حرف إن حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزار ، وأما بيان أن ذلك الشرط معلوم الوقوع أو مشكوك الوقوع ، فاللفظ لا دلالة فيه عليه ألبتة ، فظهر

من المباحث التي لخصناها أن الكلام ههنا ممكن الإجراء على ظاهره من جميع الوجوه وأنه لا حاجة فيه ألبتة إلى التأويل ، والمعنى أنه تعالى قال : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ لذلك الولد وأنا أول الخادمين له ، والمقصود من هذا الكلام بيان أني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة فإن بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقراً به معترفاً بوجوب خدمته إلا أنه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته ألبتة ، فكيف أقول به ؟ بل الدليل القاطع قائم على عدمه فكيف أقول به وكيف أعترف

(191/693)

بوجوده ؟ وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به ألبتة إلى التأويل والعدول عن الظاهر ، فهذا ما عندي في هذا الموضع ونقل عن السدي من المفسرين أنه كان يقول حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن ولا حاجة إلى التأويل ، والتقرير الذي ذكرناه يدل على أن الذي قاله هو الحق ، أما القائلون بأنه لا بد من التأويل فقد ذكروا وجوهاً الأول : قال الواحدي كثرت الوجوه في تفسير هذه الآية ، والأقوى أن يقال المعنى ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ في زعمكم ﴿ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ أي الموحدين لله المكذبين لقولكم بإضافة الولد إليه ، ولقائل أن يقول إما أن يكون تقدير الكلام : إن يثبت للرحمن ولد في نفس الأمر فأنا أول المنكرين له أو يكون

التقدير إن يثبت لكم ادعاء أن للرحمن ولداً فأنا أول المنكرين له ، والأول : باطل لأن ثبوت الشيء في نفسه لا يقتضي كون الرسول منكراً له ، لأن قوله إن كان الشيء ثابتاً في نفسه فأنا أول المنكرين يقتضي إصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول ، والثاني : أيضاً باطل لأنهم سواء أثبتوا لله ولداً أو لم يثبتوه له فالرسول منكر لذلك الولد ، فلم يكن لزعمهم تأثير في كون الرسول منكراً لذلك الولد فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثراً في كون الرسول منكراً للولد .

الوجه الثاني : قالوا معناه : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتدت أنفته فهو عبد وعابد ، وقرأ بعضهم (عبدين) .

واعلم أن السؤال المذكور قائم ههنا لأنه إن كان المراد : إن كان للرحمن ولد في نفس الأمر فأنا أول الآنفين من الإقرار به ، فهذا يقتضي الإصرار على الجهل والكذب ، وإن كان المراد إن كان للرحمن ولد في زعمكم واعتقادكم فأنا أول الآنفين ، فهذا التعليق فاسد لأن هذه الأنفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل ، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزاً .

(192/693)

والوجه الثالث : قال بعضهم إن كلمة إن ههنا هي النافية والتقدير ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له .

واعلم أن التزام هذه الوجوه البعيدة إنما يكون للضرورة ، وقد بينا أنه لا ضرورة ألبتة فلم يجز المصير إليها ، والله أعلم .

ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ سبحان رَبِّ السموات والأرض رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ والمعنى أن إله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته ، وكل ما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزأ بوجه من الوجوه ، والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أجزائه فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله ، وهذا إنما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزىء والتبعيض ، وإذا كان ذلك محالاً في حق إله العالم امتنع إثبات الولد له ، ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾ والمقصود منه التهديد ، يعني قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا وهم لم يلتفتوا إليها لأجل كونهم مستغرقين في طلب المال والجاه والرياسة فاتركهم في ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذي وعدوا فيه بما وعدوا ، والمقصود منه التهديد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 196 . 198 ﴾

(193/693)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾

اختلف في معناه ؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدّي : المعنى ما كان للرحمن ولد ، ف "إن" بمعنى ما ، ويكون الكلام على هذا تاماً ، ثم تبتدىء : "فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ" أي الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له .

والوقف على "الْعَابِدِينَ" تام .

وقيل : المعنى قل يا محمد إن ثبت للّه ولد فأنا أوّل من يعبد ولَده ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ؛ وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أوّل من يعتقده ؛ وهذا مبالغة في الاستبعاد ؛ أي لا سبيل إلى اعتقاده .

وهذا ترقيق في الكلام ؛ كقوله : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] .

والمعنى على هذا : فأنا أوّل العابدين لذلك الولد ، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد .

وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل من عبده وحده ، على أنه لا ولد له .

وقال السُّدّي أيضاً : المعنى لو كان له ولد كنت أوّل من عبده على أن له ولداً ؛ ولكن لا ينبغي ذلك .

قال المهدويّ : ف "إن" على هذه الأقوال للشرط ، وهو الأجود ، وهو اختيار الطبري ، لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى .

وقيل : إن معنى "الْعَابِدِينَ" الآنفين .

وقال بعض العلماء : لو كان كذلك لكان العَبدِينَ .

وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني "فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبدِينَ" بغير ألف ، يقال : عَبِدَ يَعْبَدَ عَبَداً (بالتحريك) إذا أَنِف وغضِب فهو عَبِد ، والاسم العَبَدة مثل الأنفة ، عن أبي زيد .

قال الفرزدق :

أولئك أجلاسي فجئني بمثلهم . . .

وأَعْبُدُ أن أهْجُو كُلَيْباً بدارِمِ

وينشد أيضاً :

أولئك ناس إن هَجَوْنِي هجوتهم . . .

وأَعْبُدُ أن يُهجي كُلَيْبٌ بدارمِ

(194/693)

قال الجوهري : وقال أبو عمرو وقوله تعالى : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ من الأَنَف والغضب ، وقاله الكسائي والقُتَبي ، حكاه الماوردي عنهما .

وقال الهَرَوِي : وقوله تعالى : "فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ" قيل هو من عَبِد يَعْبَد ؛ أي من الآنفين .

وقال ابن عرفة : إنما يقال عَبِد يَعبَدُ فهو عَبِد ؛ وقلّما يقال عابد ، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، ولكن المعنى فأنا أوّل من يعبد الله عز وجلّ على أنه واحد لا ولد له .

وروي أن امرأة دخلت على زوجها فولدت منه لستة أشهر ، فذُكر ذلك لعثمان رضي الله عنه فأمر برجمها ؛ فقال له عليّ : قال الله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15] وقال في آية أخرى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : 14] فوالله ما عَبِد عثمانُ أن بعث إليها تُرَدّ .

قال عبد الله بن وهب : يعني ما استنكف ولا أَنِف .

وقال ابن الأعرابي : "فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ" أي الغضاب الآنفين .

وقيل : "فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ" أي أنا أوّل من يعبده على الوحدانية مخالفاً لكم .

أبو عبيدة : معناه الجاحدين ؛ وحكي : عَبَدَني حَقّي أي جحدني .

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً "وُلْد" بضم الواو وإسكان اللام .

الباقون وعاصم "ولد" وقد تقدّم .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السماوات والأرض ﴾ أي تنزيهاً له وتقديساً .

نَزَّه نفسه عن كل ما يقتضي الحدوث ، وأمرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالتنزيه .

﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عما يقولون من الكذب .

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ يعني كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة .

أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾ إمّا العذاب في الدنيا أو في الآخرة .

وقيل : إن هذا منسوخ بآية السيف .

وقيل : هو مُحْكم ، وإنما أخرج مخرج التهديد .

(195/693)

وقرأ ابن مُحيْصِن ومجاهد وحُميد وابن القَعْقَاع وابن السَّمَيْقَع "حَتَّى يَلْقَوا" بفتح الياء وإسكان اللام من غير ألف ؛ وفتح القاف هنا وفي "الطور" و "المعارج" .

الباقون "يُلاَقُوا" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(196/693)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ أي للكفرة تحقيقاً للحق وتنبيهاً لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك ما يعبدون من الملائكة عليهم السلام ليس لبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل إنما هو لجزمك باستحالة ما نسبوا إليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله سبحانه وتعالى ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ أي لذلك الولد وكان بمعنى صح كما يقال ما كان لك أن تفعل كذا وهو أحد استعمالاتها ، و ﴿ أَوَّلُ ﴾ أفعل تفضيل والمفضل عليه المقول لهم ، وجوز اعتبار ذلك مطلقاً ، والمراد إظهار الرغبة والمسارعة ، والمنساق إلى الذهن الأول .

ووجه الملازمة أنه عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بشؤنه تعالى وبما يجوز عليه وبما لا يجوز وأحرصهم على مراعاة حقوقه وما توجبه من تعظيم ولده سبحانه فإن حق الوالد على شخص يوجب عليه تعظيم ولده لما أن تعظيم الولد تعظيم الوالد ، فالمعنى إن كان للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فإنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لعظم أبيه ، وهذا نفي لكينونة ولد له سبحانه على أبلغ وجه وهو الطريق البرهاني والمذهب الكلامي ، فإنه في الحقيقة قياس استثنائي استدل فيه بنفي اللازم البين انتفاؤه وهو عبادته صلى الله عليه وسلم للولد على نفي الملزوم وهو كينونة الولد له سبحانه ، وذلك نظير قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] لكنه جيء بأن دون لو لجعل ما في حيزها بمنزلة ما لا قطع بعدمه على طريق المساهلة وإرخاء العنان للتبكيت والإفحام .

(197/693)

وفي الكشف أن في الآية مبالغة من حيث أنه جعل الممكن في نفسه أعني عبادته عليه الصلاة والسلام لما يدعونه ولداً محالاً فهو نفي لعبادة الولد على أبلغ وجه حيث جعل مسبباً عن محال ثم نفي للولد كذلك من طريق آخر وهو أنه لما لم يعبد صلى الله عليه وسلم الولد مع كونه أولى بعبادته لو كان دل على نفيه ، ونحوها ذكر في الآية مروياً عن قتادة .

والسدى .

والطبري .

وأخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن جرير عن مجاهد أن المعنى قل إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول من عبد الله تعالى وحده وكذبكم بما تقولون فالمراد من كونه عليه الصلاة والسلام أول العابدين كونه صلى الله عليه وسلم من ينكر ذلك عليهم ، والملازمة في الشرطية باعتبار أن نسبتهم الولد

له تعالى تقتضي أن يكذبهم النبي صلى الله عليه وسلم وأن يكون أول من ينكره لأنه صاحب الدعوة إلى التوحيد ، وقد خفى ذلك على الإمام فنفى صحة هذا الوجه ، وتكلف بعضهم فقال : إن تسبب الجزاء عن الشرط عليه باعتبار الأولية في العبادة والتوحيد من بينهم فإنهم إذا أطبقوا على ذلك الزعم يكون النبي صلى الله عليه وسلم أولهم في عبادة الله تعالى وحده لا محالة ، وقيل : إن السببية باعتبار الأخبار والذكر نحو أن تضربني فأنا لا أضربك وهو أولى مما قبله ، والإنصاف أن الارتباط خفي لا يظهر إلا لمجاهد ، وحكى أبو حاتم عن جماعة ولم يسم أحداً منهم أن ﴿ العابدين ﴾ من عبد يعبد كفرح يفرح إذا أنف من الشيء ، ومنه قوله :

وأعبد أن اهجو كليباً بدارم . . .

وقول الآخر :

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله . . .

ويعبد عليه لا محالة ظالماً

أي أن كان للرحمن ولد فأنا أول الآنفين من الولد أو من كونه لله سبحانه ونسبته له عز وجل . وروي نحو هذا عن ابن عباس أخرج الطستي عنه أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ فقال : أنا أول من ينفر عن أن يكون لله تعالى ولد ، وأيد ذلك بقراءة السلمي .

واليماني ﴿ العابدين ﴾ جمع عبد كحذر وحذرين وهو المعروف في معنى أنف وقلما يقال فيه فابد ، ومن هنا ضعف ابن عرفة هذا الوجه لما فيه من استعمال ما قل استعماله في كلامهم ، وذكر الخليل في كتاب "العين" أنه قرىء ﴿ العابدين ﴾ بسكون الباء تخفيف العبدين بكسرها ، وقال أبو حاتم : العبد بكسر الباء الشديد الغضب ، وقال أبو عبيدة : العرب تقول عبدني حقي أي جحدني ، وروي عن الحسن .

وابن زيد .

وزهير بن محمد وهو رواية عن ابن عباس .

وقتادة .

والسدى أيضاً أن ﴿ إن ﴾ نافية أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال ذلك وعبد ووحد ، و﴿ كَانَ ﴾ عليه للاستمرار والمقصود استمرار النفي لا نفي الاستمرار والفاء للسببية .

وتعقب بأنه خلاف الظاهر مع خفاء وجه السببية أو حسنها ، وزعم مكي أنه لا يجوز لا يهامه نفي الولد فيما مضى وهو كما ترى .

وقرأ عبد الله .

وابن وثاب .

وطلحة .

والأعمش .

وحمزة .

والكسائي كما قال القاضي ﴿ وَلَدَ ﴾ بضم الواو وسكون اللام جمع ولد بفتحهما .

﴿ سبحان رَبّ السموات والأرض رَبّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

أي عن وصفهم أو الذي يصفونه به من كونه سبحانه له ولد ، وفي إضافة اسم الرب إلى أعظم الإجرام وأقواها تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته تعالى وربوبيته عز وجل كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزأ منه سبحانه وهو ينافي وجوب الوجود ، وفي تكرير ذلك الاسم الجليل تفخيم لشأن العرش .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فدعهم غير ملتفت إليهم حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلي ﴿ يَخُوضُواْ ﴾ في أباطيلهم ﴿ وَيَلْعَبُواْ ﴾ في دنياهم فإن ما هم فيه من الأقوال والأفعال ليس إلا من باب الجهل ، والجزم لجواب الأمر ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة عند الأكثرين ، وعن عكرمة .

وجماعة أنه يوم بدر وقد وعدوا الهلاك فيه ، وقريب منه تفسيره بيوم الموت ، وقيل : ينبغي تفسيره به دون يوم القيامة لأن الغاية للخوض واللعب إنما هو يوم الموت لانقطاعهما بالموت ، وانتصر للأكثرين بأن يوم القيامة هو اليوم الموعود وبه سمي في لسان الشرع وتفسيره بذاك مخالف للمعروف ولما بعد من ذكر الساعة ، وما ذكر من أمر الانقطاع مدفوع بأن الموت وما بعده في حكم القيامة ولذا ورد من مات فقد قامت قيامته ومثله قد يراد به الدلالة على طول المدة مع قطع النظر عن الانتهاء فيقال : لا يزال في ضلالة إلى أن تقوم القيامة .

وقرأ أبو جعفر .

وابن محيصن .

وعبيد بن عقيل .

عن أبي عمرو ﴿ يلاقوا ﴾ مضارع لقي ، والآية قيل منسوخة بآية السيف . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(200/693)

وقال ابن عجيبة :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) ﴾

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ قلْ ﴾ يا محمد ﴿ إن كان للرحمن ولدٌ ﴾ على زعمكم ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ لله ، كان أو لم يكن ، ويسمى هذا إرخاء العنان ، أي : أنا أول مَن يخضع لله ، كان له ولد أو لم يكن ، وقد قام البرهان على نفيه . قال معناه السدي ، أو : وإن كان للرحمن ولد فأنا أول مَن يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته ، والانقياد إليه ، كما يعظم ولد المِلك ، لتعظيم أبيه ؛ وهذا الكلام وارد على سبيل الفرض ، والمراد : نفي الولد ، وذلك أنه علَّق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان الملعلق بها محالاً مثلها ، ونظيره ، قول سعيد بن جبير للحجاج – حين قال له : والله لأبدلنَّك بالدنيا ناراً تلظى – : لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك . أو : إن كان للرحمن ولد في زعمكم ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أي : الموحّدين لله ، المكذِّبين قولكم ، بإضافة الولد إليه ؛ لأن مَن عَبَدَ الله ، واعترف بأنه إلهه فقد دفع أن يكون له ولد . أو : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، أي : الجاحدين والآنفين من أن يكون له ولد ، مِن عبَدِ : بكسر الباء : إذا اشتد أنفسه فهو عبَد وعابد ، ومنه قول الشاعر :

متى ما يشاء ذو الوُدِّ يَصْرِمْ خَليلَهُ . . . ويَعْبَدْ عليه لا محالةَ ظالما

وقول الحريري :

قال ما يجب على عابد الحقّ . . . قال يحلف بالإله الخلق

أي : على جاحد الحق . وقيل هي « إنْ » النافية ، أي : ما كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد الله ووحَّده ، فيوقف على « ولد » على هذا التأويل .

رُوي : أن النضر قال : إن الملائكة بنات الله ، فنزلت الآية ، فقال النضر : ألا ترون أنه صدّقني ؛ فقال الوليد : ما صدّقك ، ولكن قال : ما كان للرحمن ولداً ، فأنا أوّل الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له . وسيأتي في الإشارة قول آخر .

قال القشيري : وفي الآية وأمثالها دليل على جواز حكاية قول المبتدعة فيما أخطأوا فيه في الاعتقاد ، على وجه الردّ عليهم . انتهى انتهى . ا هـ قلت : ولا تجوز مطالقعة أقوالهم إلا لمَن رسختْ قدمه في المعرفة ، والإعراض عنها أسلم .

ثم نزَّه ذاته عن اتخاذ الولد ، فقال : ﴿ سبحان ربِّ السماوات والأرض ربِّ العرش عما يصفون ﴾ أي : تنزّه رب هذه العوالم العظام عن اتخاذ الولد ؛ لأن اتخاذ الولد من صفة الأجسام ، ولو كان جسماً ما قدر على خلو هذه الأجرام ، وفي إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها ، تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملوكت

ربوبيته ؛ كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه . وفي تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش .

﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ في باطلهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم أي : حيث لم يُذعنوا لك ، ولم يرجعوا عن غيهم ، أعرض عنهم واتركهم في لهوهم ولعبهم ، ﴿ حتى يُلاقوا يومهم الذي يُوعدون ﴾ وهو القيامة ، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا ، وما يفعل بهم ، أو : يوم بدر ، قاله عكرمة وغيره .

وهذا دليل على أن ما يقولونه إنما هو خوض ولعب لا حقيقة له .

(202/693)

الإشارة : قل يا محمد : إن كان للرحمن ولد ، على زعمكم في عيسى والملائكة ، فأنا أولى بهذه النسبة على تقدير صحتها ؛ لأني أنا أول مَن عبد الله في سابق الوجود ؛ لأن أول ما ظهر نوري ، فعَبَد اللّهَ سنين متطاولة ؛ ثم تفرّعت منه الكائنات ، ومَن سبق إلى الطاعة كان أولى بالتقريب ، فلِمَ خصصتم الملائكة وعيسى بهذه النسبة ، وأنا قد سبقتهم في العبادة ، بل لا وجود لهم إلا من نوري ، لكن لا ولد له ، فأنا عبد الله ورسوله . (1)

قال جعفر الصادق : أول ما خلق الله نور محمد صلى الله عليه وسلم قبل كل شي (2) ،

وأول مَن وحّد الله عزّ وجل من خلقه ، دُرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأول ما جرى به القلم « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ه . قاله الورتجبي . ففي الآية إشارة إلى سبقيته صلى الله عليه وسلم ، وأنه أول تجلٍّ من تجليات الحق ، فمِن نوره انشقت أسرار الذات ، وانفلقت أنوار الصفات ، وامتدت من نوره جميع الكائنات .

قوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا . . . ﴾ الخ ، كل مَن خاض في بحار التوحيد بغير برهان العيان ، تصدق عليه الآية ، وكذا كل مَن اشتغل بغير الله ، وبغير ما يُقرب إليه ؛ فهو ممن يخوض ويلعب ، وفي الحديث : « الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها إلا ذِكْرَ الله ، وما والاَه ، أو عالماً أو متعلماً » . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 5 صـ 272 . 274 ﴾ .

بتصرف يسير .

---

(1) إلى هذا الرأى مال الشيخ العلامة / محمود غريب ، واستَدَلَّ له بقوله تعالى فى سورة الزمر ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4) ﴾ ومع أنه أفضل الخلق صلى الله عليه وسلم فهو لم يدع ذلك وما ينبغى له فكيف بمن دونه صلى الله عليه وسلم فى المنزلة . والله أعلم .

(2) ضعيف .

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) ﴾

اختلف العلماء في معنى ﴿ إِن ﴾ في هذه الآية .

فقالت جماعة من أهل العلم إنها شرطية ، واختاره غير واحد ، وممن اختاره ابن جرير الطبري ، والذين قالوا إنها شرطية ، اختلفوا في المراد بقوله : فأنا أول العابدين .

فقال بعضهم : فأنا أول العابدين لذلك الولد .

وقال بعضهم : فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولداً .

وقال بعضهم : فأنا أول العابدين لله جازمين بأنه لا يمكن أن يكون له ولد وقالت جماعة آخرون : إن لفظة ﴿ إِن ﴾ في الآية نافية .

والمعنى ما كان لله ولد ، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ ثلاثة أوجه الأول وهو أقربها : أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله ، المنزهين له عن الولد ، وعن كل ما لا يليق بكماله ، وجلاله .

والثاني أن معنى قوله ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ : أي الآنفين المستنكفين من ذلك يعني القول

الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له .

والعرب تقول : عبد بكسر الباء يعبد بفتحها فهو عبد بفتح فكسر على القياس ، وعابد أيضاً سماعاً ، إذا اشتدت أنفته واستنكافه وغضبه ، ومنه قول الفرزدق :

أولئك قومي إن هجوني هجوتهم . . . وأعقد أن أهجو كليباً بدارم

فقوله : وأعبد ينفي آنف وأستنكف .

ومنه أيضاً قول الآخر :

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله . . . ويعبد عليه لا محالة ظالما

(204/693)

وفي قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه المشهورة : أنه جيء بامرأة من جهينة تزوجت ، فولدت لستة أشهر ، فبعث بها عثمان لترجم ، اعتقاداً منه أنها كانت حاملاً قبل العقد لولادتها قبل تسعة أشهر ، فقال له علي رضي الله عنهما : إن الله يقول : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15] ، ويقول جل وعلا : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : 14] فلم يبق عن الفصال من المدة إلا ستة أشهر .

فما عبد عثمان رضي الله عنه ، أن بعث إليها ، لترد ولا ترجم .

ومحل الشاهد من القصة ، فوالله : [ما عبد عثمان] أي ما أنف ولا استنكف من الرجوع إلى الحق .

الوجه الثالث : أن المعنى ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ أي الجاحدين النافين أن يكون لله ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له :

الذي يظهر لي في معنى هذه الآية الكريمة : أنه يتعين المصير إلى القول بأن إن نافية ، وأن القول بكونها شرطية لا يمنع أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن ، وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء .

وإنما اخترنا أن ﴿ إن ﴾ هي النافية لا الشرطية ، وقلنا إن المصير إلى ذلك متعين في نظرنا لأربعة أمور :

الأول : إن هذا القول جار على الأسلوب العربي ، جرياناً واضحاً ، لا إشكال فيه ، فكون إن كان بمعنى ما كان كثير في القرآن ، وفي كلام العرب كقوله تعالى :

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [يس : 29] أي ما كانت إلا صيحة واحدة .

(205/693)

فقولك مثلاً معنى الآية الكريمة : ما كان لله ولد فأنا أول العابدين ، الخاضعين للعظيم الأعظم ، المنزه عن الولد أو الآنفين المستنكفين ، من أن يوصف ربنا بما لا يليق بكماله وجلاله ، من نسبة الولد إليه ، أو الجاحدين النافين ، أن يكون لربنا ولد ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً لا إشكال فيه ، لأنه جار على اللغة العربية ، التي نزل بها القرآن ، دال على تنزيه الله ، تنزيهاً تاماً عن الولد ، من غير إيهام ألبتة لخلاف ذلك .

الأمر الثاني : أن تنزيه الله عن الولد ، بالعبارات التي لا إيهام فيها ، هو الذي جاءت به الآيات الكثيرة ، في القرآن كما قدمنا إيضاحه ، في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ﴾ [الكهف : 4] الآية . وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ [مريم : 88 - 89] والآيات الكثيرة التي ذكرناها في ذلك تبين أن (إن) نافية .

فالنفي الصريح الذي لا نزاع فيه يبين أن المراد في محل النزاع النفي الصريح .

وخير ما يفسر به القرآن القرآن فكون المعبر في الآية : وما كان للرحمن ولد بصيغة النفي الصريح مطابق لقوله تعالى في آخر سورة بني إسرائيل ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ [الإسراء : 111] الآية . وقوله تعالى في أول الفرقان ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ ﴾ [الفرقان : 2] الآية . وقوله تعالى : ﴿ مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ ﴾ [المؤمنون : 91] الآية . وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص : 3] وقوله تعالى

﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الصافات : 151 - 152]

إلى غير ذلك من الآيات .

(206/693)

وأما على القول بأن إن شرطية وأن قوله تعالى : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ جزاء لذلك الشرط فإن ذلك لا نظير له ألبتة في كتاب الله ، ولا توجد فيه آية تدل على مثل هذا المعنى .

الأمر الثالث : هو أن القول بأن (إن) شرطية لا يمكن أن يصح له معنى في اللغة العربية ، إلا معنى محذور ، لا يجوز القول به بحال ، وكتاب الله جل وعلا ، يجب تنزيهه عن حمله على معان محذورة لا يجوز القول بها .

وإيضاح هذا أنه على القول بأن (إن) شرطية ، وقوله : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ جزاء الشرط لا معنى لصدقه ألبتة إلا بصحة الربط بين الشرط والجزاء .

والتحقيق الذي لا شك فيه أن مدار الصدق والكذب في الشرطية المتصلة ، منصب على صحة الربط بين مقدمها الذي هو الشرط وتاليها الذي هو الجزاء ، والبرهان القاطع على صحة هذا ، هو كون الشرطية المتصلة ، تكون في غاية الصدق مع كذب طرفيها معاً ، أو أحدهما لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها ، فمثال كذبهما معاً مع صدقها قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ ﴾ [الأنبياء : 22] فهذه قضية في غاية الصدق كما ترى ، مع أنها لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها كان كل واحد من طرفيها ، قضية كاذبة بلا شك ، ونعني بأداة الربط لفظة لو من الطرف الأول ، واللام من الطرف الثاني ، فإنهما لو أزيلا وحذفا صار الطرف الأول كان فيهما آلهة إلا الله ، وهذه قضية في منتهى الكذب ، وصار الطرف الثاني فسدتا أي السماوات والأرض ، وهذه قضية في غاية الكذب كما ترى .

فاتضح بهذا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة الربط بين الطرفين وعدم صحته . فإن كان الربط صحيحاً فهي صادقة ، ولو كذب طرفاها أو أحدهما عند إزالة الربط . وإن كان الربط بينهما كاذباً كانت كاذبة كما لو قلت : لو كان هذا إنساناً لكان حجراً ، فكذب الربط بينهما وكذب القضية بسببه كلاهما واضح .

(207/693)

وأمثلة صدق الشرطية مع كذب طرفيها كثيرة جداً كالآية التي ذكرنا ، وكقولك لو كان الإنسان حجراً لكان جماداً ، ولو كان الفرس ياقوتاً لكان حجراً ، فكل هذه القضايا ونحوها صادقة مع كذب طرفيها لو أزيلت أداة الربط .

ومثال صدقها مع كذب أحدهما ، قولك لو كان زيد في السماء ما نجا من الموت فإنها

شرطية صادقة لصدق الربط بين طرفيها ، مع أنها كاذبة أحد الطرفين دون الآخر ، لأن عدم النجاة من الموت صدق ، وكون زيد في السماء كذب ، هكذا مثل بهذا المثال البناني ، وفيه عندي أن هذه الشرطية التي مثل بها اتفاقية لا لزومية ، ولا دخل للاتفاقيات في هذا المبحث .

والمثال الصحيح : لو كان الإنسان حجراً لكان جسماً .

واعلم أن قوماً زعموا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات منصب على خصوص التالي الذي هو الجزاء ، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك .

وزعموا أن هذا المعنى هو المراد عند أهل اللسان العربي .

والتحقيق الأول . ولم يقل أحد ألبتة بقول ثالث في مدار الصدق والكذب في الشرطيات .

فإذا حققت هذا ، فاعلم أن الآية الكريمة ، على القول بأنها جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها ألبتة بحال على واحد من القولين اللذين لا ثالث لهما إلا على وجه محذور لا يصح القول به بحال .

وإيضاح ذلك أنه على القول الأخير ، أن مصب الصدق والكذب ، في الشرطيات إنما هو التالي الذي هو الجزاء ، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك .

فمعنى الآية عليه باطل بل هو كفر .

لأن معناه أن كونه أول العابدين يشترط فيه أن يكون للرحمن ولد ، سبحانه وتعالى عن ذلك

علواً كبيراً .

لأن مفهوم الشرط أنه إن لم يكن له ولد ، لم يكن أول العابدين ، وفساد هذا المعنى كما ترى .

وأما على القول الأول الذي هو الصحيح أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة الربط بين طرفي الشرطية .

(208/693)

فإنه على القول بأن الآية الكريمة جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها ألبتة أيضاً ، إلا على وجه محذور لا يجوز المصير إليه بحال ، لأن كون المعبود ذا ولد ، واستحقاقه هو ، أو ولده العبادة ، لا يصح الربط بينهما ألبتة إلا على معنى هو كفر بالله ، لأن المستحق للعبادة لا يعقل بحال أن يكون ولداً أو والداً .

وبه تعلم أن الشرط المزعوم في قوله ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ إنما يعلق به محال لاستحالة كون الرحمن ذا ولد .

ومعلوم أن المحال لا يعلق عليه إلا المحال .

فتعليق عبادة الله التي هي أصل الدين على كونه ذا ولد ظهور فساده كما ترى ، وإنما تصدق الشرطية في مثال هذا لو كان المعلق عليه مستحيلاً ، فادعاء أن (إن) في الآية

شرطية مثل ما لو قيل : لو كان معه آلهة لكنت أول العابدين له ، وهذا لا يصدق بحال ، لأن واحداً من آلهة متعددة ، لا يمكن أن يعبد ، فالربط بين طرفيها مثل هذه القضية لا يصح بحال .

ويتضح لك ذلك بمعنى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : 91] الآية .

فإن قوله إذاً : أي لو كان معه غيره من الآلهة ، لذهب كل واحد منهم بما خلق واستقل به ، وغالب بعضهم بعضاً ولم ينتظم للسماوات والأرض نظام ولفسد كل شيء .

كما قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] ، وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] على الصحيح الذي هو الحق من التفسيرين .

ومعنى ابتغائهم إليه تعالى سبيلاً هو طلبهم طريقاً إلى مغالبته كما يفعله بعض الملوك مع بعضهم .

(209/693)

والحاصل : أن الشرط إن علق به مستحيل فلا يمكن أن يصح الربط بينه وبين الجزاء ، إلا إذا كان الجزاء مستحيلاً أيضاً لأن الشرط المستحيل لا يمكن أن يوجد به إلا الجزاء المستحيل .

أما كون الشرط مستحيلاً والجزاء هو أساس الدين وعماد الأمر . فهذا مما لا يصح بحال .

ومن ذهب إليه من أهل العلم والدين لا شك في غلطه .

ولا شك في أن كل شرطية صدقت مع بطلان مقدمها الذي هو الشرط وصحة تاليها الذي هو الجزاء لا يصح التمثيل بها لهذه الآية بوجه من الوجوه ، وأن ما ظنه الفخر الرازي من صحة التمثيل لها بذلك غلط فاحش منه بلا شك ، وإيضاح ذلك أن كل شرطية كاذبة الشرط صادقة الجزاء عند إزالة الربط لا بد أن يكون موجب ذلك فيها أحد أمرين لا ثالث لهما ألبتة .

وكلاهما يكون الصدق به من أجل أمر خاص لا يمكن وجود مثله في الآية الكريمة التي نحن بصددها ، بل هو مناقض لمعنى الآية .

والاستدلال بوجود أحد المتناقضين على وجود الآخر ضروري البطلان .

ونعني بأول الأمرين المذكورين كون الشرطية اتفاقية لا لزومية أصلاً .

وبالثاني منهما كون الصدق المذكور ، من أجل خصوص المادة .

ومعلوم أن الصدق من أجل خصوص المادة لا عبرة به في العقليات ، وأنه في حكم الكذب

لعدم اضطراده ، لأنه يصدق في مادة ويكذب في أخرى .

والمعتبر إنما هو الصدق اللازم المضطرد ، الذي لا يختلف باختلاف المادة بحال .

ولا شك أن كل قضية شرطها محال لا يضطرد صدقها إلا إذا كان جزاؤها محالاً خاصة .

فإن وجدت قضية باطلة الشرط صحيحة الجزاء ، فلا بد أن يكون ذلك ، لكونها اتفاقية أو لأجل خصوص المادة فقط .

فمثال وقوع ذلك لكونها اتفاقية قولك : إن كان زيد في السماء لم ينج من الموت . فالشرط الذي هو كونه في السماء باطل والجزاء الذي هو كونه لم ينج من الموت صحيح .

وإنما صح هذا لكون هذه الشرطية اتفاقية .

ومعلوم أن الاتفاقية لا علاقة بين طرفيها أصلاً .

(210/693)

فلا يقتضي ثبوت أحدهما ولا نفيه ثبوت الآخر ولا نفيه ، فلا ارتباط بين طرفيها في المعنى أصلاً وإنما هو في اللفظ فقط .

فكون زيد في السماء لا علاقة له بعدم نجاته من الموت أصلاً ، ولا ارتباط بينهما إلا في اللفظ .

فهو كقولك : إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل .

وقد قدمنا إيضاح الفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : 57] فراجعه .

ومعلوم أن قوله ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ لم يقل أحد إنها شرطية اتفاقية ولم يدع أحد ، أنها لا علاقة بين طرفيها أصلاً .

ومثال وقوع ذلك لأجل خصوص المادة فقط ، ما مثل به الفخر الرازي لهذه الآية الكريمة ، مع عدم انتباهه لشدة المنافاة بين الآية الكريمة وبين ما مثل لها به ، فإنه لما قال : إن الشرط الذي هو ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ باطل ، والجزاء الذي هو : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ صحيح .

مثل لذلك بقوله : إن كان الإنسان حجراً فهو جسم ، يعني أن قوله : إن كان الإنسان حجراً شرط باطل فهو كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَد ﴾ فكون الإنسان حجراً وكون الرحمن ذا ولد كلاهما شرط باطل .

فلما صح الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله : إن كان الإنسان حجراً فهو جسم دل ذلك على أن الجزاء الصحيح في قوله : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ يصح ترتيبه على الشرط الباطل الذي هو ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَد ﴾ .

وهذا غلط فاحش جداً ، وتسوية بين المتنافيين غاية المنافاة ، لأن الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله : إن كان الإنسان حجراً فإنما هو جسم إنما صدق لأجل خصوص المادة لا لمعنى اقتضاه الربط ألبتة .

وإيضاح ذلك أن النسبة بين الجسم والحجر ، والنسبة بين الإنسان والجسم هي العموم والخصوص المطلق في كليهما .

(211/693)

فالجسم أعم مطلقاً من الحجر ، والحجر أخص مطلقاً من الجسم ، كما أن الجسم أعم من الإنسان أيضاً عموماً مطلقاً ، والإنسان أخص من الجسم أيضاً خصوصاً مطلقاً : فالجسم جنس قريب للحجر ، وجنس بعيد للإنسان ، وإن شئت قلت : جنس متوسط له .

وإيضاح ذلك أن تقول في التقسيم الأول :

الجسم إما نام أي يكبر تدريجاً أو غير نام ، فغير النامي كالحجر مثلاً ، ثم تقسم النامي تقسيماً ثانياً ؟ فتقول :

النامي إما حساس أو غير حساس ، فغير الحساس منه كالنبات .

ثم تقسم الحساس تقسيماً ثالثاً فتقول :

الحساس إما ناطق أو غير ناطق ، والناطق منه هو الإنسان .

فاتضح أن كلاً من الإنسان والحجر يدخل في عموم الجسم ، والحكم بالأعم على الأخص صادق في الإيجاب بلا نزاع ولا تفصيل .

فقولك : الإنسان جسم صادق في كل تركيب ، ولا يمكن أن يكذب بوجه ، وذلك للملابسة الخاصة بينهما من كون الجسم جنساً للإنسان ، وكون الإنسان فرداً من أفراد أنواع الجسم ، فلأجل خصوص هذه الملابسة بينهما ، كان الحكم على الإنسان بأنه جسم صادقاً ، على كل حال ، سواء كان الحكم بذلك ، غير معلق على شيء أو كان معلقاً على باطل أو حق .

فالاستدلال يصدق هذا المثال على صدق الربط بين الشرط والجزاء في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ بطلانه كالشمس في رابعة النهار .

والعجب كل العجب من عاقل يقوله ، لأن المثال المذكور إنما صدق لأن الإنسان يشمله مسمى الجسم .

أما من كان له ولد فالنسبة بينه وبين المعبود الحق هي تباين المقابلة ، لأن المقابلة بين المعبود بحق وبين والد أو ولد هي المقابلة بين الشيء ومساوي نقيضه .

لأن من يولد أو يولد له لا يمكن أن يكون معبوداً بحق بحال .

وإيضاح المنافاة بين الأمرين أنك لو قلت : الإنسان جسم لقلت الحق ولو قلت : المولود له معبود ، أو المولود معبود . قلت الباطل الذي هو الكفر البواح .

ومما يوضح ما ذكرنا إجماع جميع النظار على أنه إن كانت إحدى مقدمتي الدليل باطلة ، وكانت النتيجة صحيحة أن ذلك لا يكون إلا لأجل خصوص المادة فقط ، وأن ذلك الصدق لا عبرة به ، فحكمه الكذب ولا يعتبر إلا الصدق اللازم المضطرد في جميع الأحوال .

فلو قلت مثلاً : كل إنسان حجر ، وكل حجر جسم ، لأنتج من الشكل الأول كل إنسان جسم ، وهذه النتيجة في غاية الصدق كما ترى .

مع أن المقدمة الصغرى ، من الدليل التي هو قولك : كل إنسان حجر في غاية الكذب كما ترى .

وإنما صدقت النتيجة لخصوص المادة كما أوضحنا ، ولولا ذلك لكانت كاذبة لأن النتيجة لازم الدليل والحق لا يكون لازماً للباطل فإن وقع شيء من ذلك فلخصوص المادة كما أوضحنا .

وبهذا التحقيق تعلم ، أن الشرط الباطل لا يلزم وتطرد صحة ربطه إلا بجزاء باطل مثله .

وما يظنه بعض أهل العلم من أن قوله تعالى ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ

الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس : 94] كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ [الزخرف : 81] فهو غلط فاحش والفرق بين معنى الآيتين شاسع فظن استوائها في المعنى باطل .

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ الآية معناه المقصود منه جار على الأسلوب العربي ، ولا إيهام فيه ، لأنا أوضحنا سابقاً أن مدار صدق الشرطية على صحة الربط بين شرطها وجزئها ، فهي صادقة ولو كذب طرفاها عند إزالة الربط كما تقدم إيضاحه قريباً .

(213/693)

فربط قوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ [يونس : 94] بقوله ﴿ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب ﴾ [يونس : 94] ربط صحيح لا إشكال فيه ، لأن الشاك في أمره شأنه أن يسأل العالم به عنه كما لا يخفى ، فهي قضية صادقة ، مع أن شرطها وجزاءها كلاهما باطل بانفراده ، فهي كقوله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] فهي شرطية صادقة لصحة الربط بين طرفيها ، وإن كان الطرفان باطلين عند إزالة الربط .

أما قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ [الزخرف : 81] على

القول بأن إن شرطية لا تمكن صحة الربط بين شرطها وجزائها ألبتة ، لأن الربط بين المعبود وبين كونه والداً أو ولداً لا يصح بحال .

ولذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب " فنفي الطرفين مع أن الربط صحيح ، ولا يمكن أن ينفي صلى الله عليه وسلم هو ولا غيره الطرفين في الآية الأخرى ، فلا يقول هو ولا غيره : ليس له ولد ولا أعبده .

وعلى كل حال ، فالربط بين الشك وسؤال الشاك للعالم أمر صحيح ، بخلاف الربط بين العبادة وكون المعبود والداً أو ولداً فلا يصح .

فاتضح الفرق بين الآيتين وحديث : " لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب " رواه قتادة بن دعامة مرسلاً .

وبنحوه قال بعض الصحابة . فمن بعدهم ، ومعناه صحيح بلا شك .

وما قاله الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة يستغربه كل من رآه لقبحه وشناعته ، ولم أعلم أحداً من الكفار في ما قص الله في كتابه يتجرأ على مثله أو قريب منه .

وهذا مع عدم فهمه لما يقول وتناقض كلامه .

وسنذكر هنا كلامه القبيح للتنبيه على شناعة غلطه ، الديني واللغوي .

قال في الكشاف ما نصه : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرحمن وَلَدٌ ﴾ [الزخرف : 81] وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له ، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه .

وهذا كلام وراد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه ، وألا يترك للناطق به شبهة إلا مضمحلة ، مع الترجمة عن نفسه بإثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها حالاً مثلها فهو في صورة إثبات الكينونة ، والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها .

ونظيره أن يقول العدلي للمجبر : إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً فأنا أول من يقول : هو شيطان وليس بإله .

فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقاً للكفر .

وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا ، مع الدلالة على سماحة المذهب ، وضلالة الذاهب إليه ، والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه .

ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له : " أما والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ، لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك " .

وقد تمحل الناس ؟ أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه ، فقيل : إن كان للرحمن . ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم لإضافة الولد . إليه ا ه الغرض من كلام الزمخشري .

وفي كلام هذا من الجهل بالله وشدة الجراءة عليه ، والتخبط والتناقض في المعاني اللغوية ما الله عالم به .

ولا أظن أن ذلك يخفى على عاقل تأمله .

(215/693)

وسنبين لك ما يتضح به ذلك أولاً قال : إن كان للرحمن ولد وضح ذلك ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته ، والانقياد له كما يعظم الرجل ، ولد الملك لتعظيم أبيه .

فكلامه هذا لا يخفى بطلانه على عاقل ، لأنه على فرض صحة نسبة الولد إليه ، وقيام البرهان الصحيح والحجة الواضحة على أنه له ولد ، فلا شك أن ذلك يقتضي ، أن ذلك الولد لا يستحق العبادة ، بحال ، ولو كان في ذلك تعظيم لأبيه ، لأن أباه مثله في عدم

استحقاق العبادة والكفر بعبادة كل والد وكل مولود شرط في إيمان كل موحد ، فمن أي وجه يكون هذا الكلام صحيحاً .

أما في اللغة العربية فلا يكون صحيحاً ألبتة .

وما أظنه يصح في لغة من لغات العجم فالربط بين هذا الشرط وهذا الجزاء لا يصح بوجه .

فمعنى الآية عليه لا يصح بوجه ، لأن المعلق على المحال لا بد أن يكون محالاً مثله .

والزمخشري في كلامه كلما أراد أن يأتي بمثال في الآية خارج عنها اضطر إلى أن لا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً .

فضربه للآية المثل بقصة ابن جبير مع الحجاج ، دليل واضح على ما ذكرنا وعلى تناقضه وتخبطه .

فإنه قال فيها إن الحجاج قال لسعيد بن جبير : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى .

قال سعيد للحجاج : لو علمت إن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك .

فهو يدل على أنه علق المحال على المحال ، ولو كان غير متناقض للمعنى الذي مثل له به الزمخشري لقال : لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله .

فقوله : لو علمت أن ذلك إليك في معنى ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ ، فنسبة الولد والشريك إليه معناهما في الاستحالة وادعاء النقص واحد .

فلو كان سعيد يفهم الآية كفهمك الباطل لقال : لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين

لله .

ولكنه لم يقل هذا ، لأنه ليس له معنى صحيح يجوز المصير إليه .

وكذلك تمثيل الزمخشري للآية الكريمة في كلامه القبيح البشع الشنيع الذي يتقاصر عن التلفظ به كل كافر .

(216/693)

فقد اضطر فيه أيضاً إلى ألا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً شنيعاً فإنه قال فيه : ونظيره أن يقول العدلي للمجبر : إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله .

فانظر قول هذا الضال في ضربه المثل في معنى هذه الآية الكريمة بقول الضال الذي يسميه العدلي : إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب إلخ .

فخلق الله للكفر في القلوب وتعذيبه على كفرهم ، مستحيل عنده كاستحالة نسبة الولد لله ، وهذا المستحيل في زعمه الباطل ، إنما علق عليه أفظع أنواع المستحيل وهو زعمه الخبيث أن الله إن كان خالقاً للكفر في القلوب ، ومعذباً عليه فهو شيطان لا إله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فانظر رحمك الله فظاعة جهل هذا الإنسان بالله ، وشدة تناقضه في المعنى العربي للآية .

لأنه جعل قوله : إن كان الله خالقاً للكفر ومعذباً عليه بمعنى " إن كان للرحمن ولد " في أن الشرط فيهما مستحيل ، وجعل قوله في الله أنه شيطان لا إله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

كقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أول العابدين .

فاللازم لكلامه أن يقول : لو كان خالقاً للكفر فأنا أول العابدين له ، ولا يخفى أن الادعاء على الله أنه شيطان مناقض لقوله : فأنا أول العابدين .

وقد أعرضت عن الإطالة في بيان بطلان كلامه ، وشدة ضلاله ، وتناقضه لشناعته ووضح بطلانه ، فهي عبارات مزخرفة ، وشقشقة لا طائل تحتها ، وهي تحمل في طياتها الكفر والجهل بالمعنى العربي للآية ، والتناقض الواضح وكم من كلام مليء بزخرف القول ، وهو عقيم لا فائدة فيه ، ولا طائل تحته كما قيل :

وإني وإني ثم إني وإنني . . . إذا انقطعت نعلي جعلت له شسعا

فظل يعمل أياماً رويته . . . وشبه الماء بعد الجهد بالماء

واعلم أن الكلام على القدر ، وخلق أفعال العباد ، قدمنا منه جملاً كافية في هذه السورة الكريمة ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف : 20] ، ولا يخفى تصريح القرآن بأن الله خالق كل شيء ، كما قال تعالى : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : 62] الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] . وقال : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله ﴾ [فاطر : 3] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] .

فالإيمان بالقدر خيره وشره الذي هو من عقائد المسلمين جعله الزمخشري يقتضي أن لله شيطان ، سبحانه الله وتعالى عما يقوله الزمخشري علواً كبيراً .

وجزى الزمخشري بما هو أهله .

الأمر الرابع : هو دلالة استقراء القرآن العظيم أن الله تعالى إذا أراد أن يفرض المستحيل ليبين الحق بفرضه علقه أولاً بالأداة التي تدل على عدم وجوده وهي لفظة لو : ولم يعلق عليه ألبتة إلا محالاً مثله ، كقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] ، وقوله تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ الله أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الزمر : 4] ، وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ [الأنبياء : 17] الآية .

وأما تعليق ذلك بأداة لا تقتضي عدم وجوده كلفظة إن مع كون الجزاء غير مستحيل فليس معهوداً في القرآن .

ومما يوضح هذا المعنى الذي ذكرنا ، المحاورة التي ذكرها جماعة من المفسرين ، التي وقعت بين النضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة ، وهي وإن كانت أسانيدها غير قائمة ، فإن معناها اللغوي صحيح .

وهي أن النضر بن الحارث كان يقول :

الملائكة بنات الله فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ [الزخرف : 81] الآية .

(218/693)

فقال النضر للوليد بن المغيرة : ألا ترى أنه قد صدقني ؟

فقال الوليد : لا ما صدقك ولكنه يقول :

ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، أي الموحدين ، من أهل مكة المنزهين له عن الولد .

فمحاورة هذين الكافرين ، العالمين بالعربية ، مطابقة لما قررنا .

لأن النضر قال : إن معنى الآية على أن إن شرطية مطابق لما يعتقده الكفار من نسبة الولد إلى الله ، وهو معنى محذور وأن الوليد قال : إنَّ (إنْ) نافية ، وأن معنى الآية على ذلك هو مخالفة الكفار وتنزيه الله عن الولد .

وبجميع ما ذكرنا يتضح أن إن في الآية الكريمة نافية .

وذلك مروري عن ابن عباس والحسن والسدي وقتادة وابن زيد وزهير بن محمد وغيرهم .

تنبيه

اعلم أن ما قاله ابن جرير وغير واحد من أن القول بأن إن نافية يلزمه إيهام المحذور الذي لا يجوز في حق الله .

قالوا : لأنه إن كان المعنى ما كان لله ولد فإنه لا يدل على نفي الولد ، إلا في الماضي ، فللكفار أن يقولوا إذا صدقت لم يكن له في الماضي ولد .

ولكن الولد طرأ عليه ، بعد ذلك لما صاهر الجن ، وولدت له بناته التي هي الملائكة .

وإن هذا المحذور يمنع من الحمل على النفي لا شك في عدم صحته لدلالة الآيات القرآنية بكثرة على أن هذا الإيهام لا أثر له ولو كان له أثر لما كان الله يمدح نفسه بالثناء عليه بلفظة كان الدالة على خصوص الزمن الماضي في نحو قوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : 158] ، ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء : 17] ، ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 96] ، ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ [الأحزاب : 27] ، ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ [النساء : 34] إلى غير ذلك من الآيات التي يصعب حصرها .

فإن معنى كل تلك الآيات أنه كان ولم يزل .

فلو كان الكفار يقولون ذلك الذي زعموه الذي هو قولهم : صدقت ما كان له ولد في الماضي ولكنه طرأ له لقالوا مثله في الآيات التي ذكرنا .

كأن يقولوا ﴿ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء : 24] في الماضي ولكنه طرأ عليه عدم ذلك وهكذا في جميع الآيات المذكورة ونحوها .

وأيضاً فإن المحذور الذي زعموه لم يمنع من إطلاق نفي الكون الماضي في قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : 64] ، وقوله ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] وقوله ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص : 59] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة .

ومن أوضحها في محل النزاع قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [المؤمنون : 91] الآية .

ولم يمنع من نفي القرآن للولد في الزمن الماضي في قوله تعالى ﴿ مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ ﴾ [المؤمنون : 91] فإن الكفار لم يقولوا يوماً ما : صدقت ما اتخذه في الماضي ولكنه طرأ عليه اتخاذه .

وكذلك في قوله ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ [الفرقان : 2] وقوله ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ [الإخلاص : 3] ، لأن لم تنقل المضارع إلى معنى الماضي .

والكفار لم يقولوا يوماً صدقت لم يتخذ ولداً في الماضي ، ولكنه طرأ عليه اتخاذه ولم يقولوا لم يلد في الماضي ، ولكنه ولد أخيراً .

والحاصل أن الكفار لم يقروا أن الله منزه عن الولد لا في الماضي ولا في الحال ، ولا في الاستقبال .

ومعلوم أن الولادة المزعومة حدث متجدد .

وبذلك تعلم أنما زعموه من إيهام المحذور في كون إن في الآية نافية لا أساس له ولا معول عليه ، وأن ما ادعوه من كونها شرطية ليس له معنى في اللغة العربية إلا المعنى المحذور الذي لا يجوز في حق الله بحال .

واعلم أن كلام الفخر الرازي في هذه الآية الكريمة الذي يقتضي إمكان صحة الربط بين طرفيها على أنها شرطية لا شك في غلطه فيه .

(220/693)

وأما إبطاله لقول من قال : إن المعنى إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين له والمكذبين لكم في ذلك ، فهو إبطال صحيح ، وكلامه فيه في غاية الحسن والدقة ، وهو يقتضي إبطاله بنفسه ، لجميع ما كان يقرره في الآية الكريمة .

والحاصل أن كون معنى إن في الآية الكريمة هو النفي لا إشكال فيه ، ولا محذور ولا إيهام ، وأن الآيات القرآنية تشهد له لكثرة الآيات المطابقة لهذا المعنى في القرآن .

وأما كون معنى الآية الشرط والجزاء فلا يصح له معنى ، غير محذور في اللغة ، وليس له في كتاب الله نظير ، لإجماع أهل اللسان العربي على اختلاف المعنى في التعليق بإن ، والتعليق بلو .

لأن التعليق بلو يدل على عدم الشرط ، وعدم الشرط استلزم عدم المشروط بخلاف إن . فالتعليق بها يدل على الشك في وجود الشرط بلا نزاع .

وما خرج عن ذلك من التعليق بها مع العلم بوجود الشرط أو العلم بنفيه ، فلأسباب أخر ، وأدلة خارجة ، ولا يجوز حملها على أحد أمرين المذكورين ، إلا بدليل منفصل كما أوضحناه ، في غير هذا الموضع .

تنبيه

اعلم أن ما ذكرنا من أن لو تقتضي الشك فيه ، لا يرد عليه قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 94] الآية . كما أشرنا له قريباً .

لأن التحقيق أن الخطاب في قوله : (إن كنت في شك) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به من يمكن أن يشك في ذلك من أمته .

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ [الإسراء : 22] الآية . دلالة القرآن الصريحة على أنه صلى الله عليه وسلم يتوجه إليه الخطاب من الله ، والمراد به التشريع لأمته ، ولا يراد هو صلى الله عليه وسلم ألبتة بذلك الخطاب .

(221/693)

وقدمنا هناك أن من أصرح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ [الإسراء : 23] الآية ، فالتحقيق أن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته لا هو نفسه ، لأنه هو المشرع لهم بأمر الله .

وإيضاح ذلك أو معنى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر ﴾ أي إن يبلغ عندك الكبر يا نبي الله والداك أو أحدهما فلا تقل لهما أف .

ومعلوم أن أباه مات وهو حمل ، وأمه ماتت وهو في صباه فلا يمكن أن يكون المراد : إن يبلغ

الكبر عندك هما أو أحدهما والواقع أنهما قد ماتا قبل ذلك بأزمان .

وبذلك يتحقق أن المراد بالخطاب من غيره من أمته الذي يمكن إدراك والديه أو أحدهما الكبر عنده .

وقد قدمنا أن مثل هذا أسلوب عربي معروف وأوردنا شاهداً لذلك رجز سهل بن مالك الفزاري في قوله :

يا أخت خير البدو والحضاره . . . كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره . . . إياك أعني واسمعي يا جاره

وقد بسطنا القصة هناك ، وبينا أن قول من قال : إن الخطاب في قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ [الإسراء : 23] الآية : لكل من يصح خطابه من أمته ، صلى الله عليه وسلم لا له هو نفسه ، باطل بدليل قوله تعالى بعده في سياق الآيات : ﴿ ذَلِكَ مِمَّآ أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحكمة ﴾ [الإسراء : 39] الآية .

(222/693)

والحاصل أن آية : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 94] الية . لا ينقص بها الضابط الذي ذكرنا لأنها كقوله : ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ ﴾ [الإسراء :

22] ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [البقرة : 147] ﴿ وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 48] ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] إلى غير ذلك من الآيات .

ومعلوم أنه هو صلى الله عليه وسلم ، لا يفعل شيئاً من ذلك ألبتة ، ولكنه يؤمر وينهي ليشرع لأمته على لسانه .

وبذلك تعلم اطراد الضابط الذي ذكرنا في لفظة لو ، ولفظة إن ، وأنه لا ينتقض بهذه الآية .

هذا ما ظهر لنا في هذه الآية الكريمة ، ولا شك أنه لا محذور فيه ولا غرر ولا إيهام ، والعلم عند الله تعالى .

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : 3] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(223/693)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) ﴾

لما جرى ذكر الذين ظلموا بادعاء بنوة الملائكة في قوله : ﴿ فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يومٍ أليمٍ ﴾ [الزخرف : 65] عَقِب قوله : ﴿ ولما ضُرب ابن مريم مثلاً ﴾ [الزخرف : 57] ، وعَقِب قوله قبله ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثاً ﴾ [الزخرف : 19] .

وأعقب بما ينتظرهم من أهوال القيامة وما أُعد للذين انخلعوا عن الإشراك بالإيمان ، أمر الله رسوله أن ينتقل من مقام التحذير والتهديد إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولَد ، جمعاً بين الرد على بعض المشركين الذين عبدوا الملائكة ، والذين زعموا أن بعض أصنامهم بنات الله مثل اللاتِ والعُزَّى ، فأمره بقوله : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ أي قل لهم جدلاً وإفحاماً ، ولقَّنه كلاماً يدل على أنه ما كان يعزب عنه أن الله ليس له ولد ولا يخطر بباله أن لله ابناً .

والذين يقول لهم هذا المقول هم المشركون الزاعمون ذلك فهذا غرض الآية على الإجمال لأنها افتتحت بقوله : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ مع علم السامعين أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يروج عنده ذلك .

ونظم الآية دقيق ومُعضِل ، وتحته معانٍ جمّة:

وأولُها وأوْلاها : أنه لو يَعلم أن لله أبناءَ لكان أول من يعبدهم ، أي أحق منكم بأن أعبدهم ، أي لأنه ليس أقل فهماً من أن يعلم شيئاً ابناً لله ولا يعترف لذلك بالإلهية لأن ابن الله يكون منسلاً من ذات إلهية فلا يكون إلا إلها وأنا أعلم أن الإله يستحق العبادة ، فالدليل مركب من مُلاَزَمةٍ شرطية ، والشرط فرضيٌّ ، والملازمة بين الجواب والشرط مبنية على أن المتكلم عاقل داعٍ إلى الحق والنجاة فلا يرضى لنفسه ما يورطه ، وأيضاً لا يرضى لهم إلا ما رضيه لنفسه ، وهذا منتهى النصح لهم ، وبه يتمّ الاستدلال ويفيد أنه ثابت القدم في توحيد الإله .

(224/693)

ونُفي التعدد بنفي أخص أحوال التعدد وهو التعدد بالأبوة والبنوة كتعدد العائلة ، وهو أصل التعدد فينتفي أيضاً تعدد الآلهة الأجانب بدلالة الفحوى .

ونظيره قول سعيد بن جبير للحجاج .

وقد قال له الحجاج حين أراد أن يقتله : لأُبَدّلَنّك بالدنيا ناراً تَلَظّى فقال سعيد : لو عرفتُ أن ذلك إليك ما عبدتُ إلها غيرك ، فنبهه إلى خطئه بأن إدخال النار من خصائص الله تعالى .

والحاصل أن هذا الاستدلال مركب من قضية شرطية أول جُزْأيها وهو المقدم باطل ، وثانيهما وهو التالي باطل أيضاً ، لأن بطلان التالي لازم لبطلان المقّدم ، كقولك : إن كانت الخمسة زوجاً فهي منقسمة بمتساويين ، والاستدلال هنا ببطلان التالي على بطلان المقدم لأن كون النبي صلى الله عليه وسلم عابداً لمزعوم بنوتُه لله أمرٌ منتفٍ بالمشاهدة فإنه لم يزل ناهياً إياهم عن ذلك .

وهذا على وزان الاستدلال في قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : 22] ، إلا أن تلك جعل شرطها بأداة صريحة في الامتناع ، وهذه جعل شرطها بأداة غير صريحة في الامتناع .

والنكتة في العدول عن الأداة الصريحة في الامتناع هنا إيهامُهم في بادىء الأمر أن فرضَ الولد لله محل نظرٍ ، وليتأتى أن يكون نظم الكلام موجهاً حتى إذا تأملوه وجدوه ينفي أن يكون لله ولد بطريق المذهب الكلامي .

ويدل لهذا ما رواه في "الكشاف" أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال : إن الملائكة بنات الله فنزل قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ .

فقال النضر : ألا ترون أنه قد صدَّقني ، فقال له الوليد بن المغيرة : ما صدَّقك ولكن قال : ما كان للرحمان ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة .

ورُوي مجمل هذا المعنى عن السدّي فكان في نظم الآية على هذا النظم إيجاز بديع ،

وإطماع للخصوم بما إن تأملوه استبان وجه الحق فإن أعرضوا بعد ذلك عُد إعراضهم نكوصاً .

وتحتمل الآية وجوهاً أخر من المعاني .

(225/693)

منها : أن يكون المعنى إن كان للرحمان ولد في زعمكم فأنا أول العابدين لله ، أي فأنا أول المؤمنين بتكذيبكم ، قاله مجاهد ، أي بقرينة تذييله بجملة ﴿ سبحان رب السموات والأرض ﴾ الآية .

ومنها ، أن يكون حرف ﴿ إنْ ﴾ للنفي دون الشرط ، والمعنى : ما كان للرحمان ولد فتفرع عليه : أنا أول العابدين لله ، أي أتنزه عن إثبات الشريك له ، وهذا عن ابن عباس وَقتادة وزيد بن أسلم وابنه .

ومنها : تأويل ﴿ العابدين ﴾ أنه اسم فاعل من عبد يعبَد من باب فرح ، أي أنف وغضب ، قاله الكسائي ، وطعن فيه نفطويه بأنه إنما يقال في اسم فاعل عبد يَعْبَدُ عَبِد وقلما يقولون : عَابد والقرآن لا يأتي بالقليل من اللّغة .

وقرأ الجمهور ﴿ ولد ﴾ بفتح الواو وفتح اللام .

وقرأه حمزة والكسائي ﴿ وُلْد ﴾ بضم الواو وسكون اللام جمع ولَد .

وجملة ﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ ، يجوز أن تكون تكملة لما أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله ، أي قل : إن كان للرحمن ولد على الفرض ، والتقدير : مع تنزيه عن تحقق ذلك في نفس الأمر .

فيَكون لهذه الجملة حكم التالي في جزأي القياس الشرطي الاستثنائي .

وليس في ضمير ﴿ يصفون ﴾ التفات لأن تقدير الكلام : قل لهم إن كان للرحمن ولد .

ويجوز أن تكون كلاماً مستأنفاً من جانب الله تعالى لإنشاء تنزيهه عما يقولون فتكون معترضة بين جملة ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ وجملة ﴿ وهو الذي في السماء إله ﴾ [الزخرف : 84] .

ولهذه الجملة معنى التذييل لأنها نزهت الله عن جميع ما يصفونه به من نسبَة الولد وغير ذلك .

ووصفه بربوبيةِ أقوى الموجودات وأعمها وأعظمها ، لأنه يفيد انتفاء أن يكون له ولد لانتفاء فائدة الولادة ، فقد تم خلق العوالم ونظام نمائها ودوامها ، وعلم من كونه خالقها أنه غير مسبوق بعدم وإلا لاحتاج إلى خالق يخلُقه ، واقتضى عدمُ السبق بعدم أنه لا يلحقه فناء فوجود الولد له يكون عبثاً .

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)

اعتراض بِتَفْرِيعٍ عَن تنزيه الله عما ينسبونه إليه من الولد والشركاء ، وهذا تأييس من إجداء الحجة فيهم وأن الأَوْلى به متاركتهم في ضلالهم إلى أن يحِين يومٌ يلقون فيه العذاب الموعود .

وهذا متحقق في أئمة الكفر الذين ماتوا عليه ، وهم الذين كانوا متصدين لمحاجّة النبي صلى الله عليه وسلم ومجادلته والتشغيب عليه مثل أبي جهل وأمية بن خلف وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة والوليد بن المغيرة والنضر بن عبد الدار ممن قُتلوا يوم بدر .

و(اليومَ) هنا محتمل ليوم بدر وليوم القيامة وكلاهما قد وُعدوه ، والوعد هنا بمعنى الوعيد كما دل عليه السياق .

والخَوْض حقيقته : الدخول في لُجّة الماء ماشياً ، ويطلق مجازاً على كثرة الحديث ، والأخبار والاقتصار على الاشتغال بها ، وتقدم في قوله : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ في سورة الأنعام (68) .

والمعنى : فأعرض عنهم في حال خَوضهم في الأحاديث ولَعِبهم في مواقع الجد حين يهزأوون بالإسلام .

واللعب : المزح والهزل .

وجُزم فعل ﴿ يخوضوا ويلعبوا ﴾ بلام الأمر محذوفة وهو أولى من جعله جزماً في جواب الأمر ، وقد تكرر مثله في القرآن فالأمر هنا مستعمل في التهديد من قبيل ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : 40] .

وقرأ الجمهور ﴿ يلاقوا ﴾ بضم الياء وبألف بعد اللام ، وصيغة المفاعلة مجاز في أنه لقاء مُحقق .

وقرأه أبو جعفر ﴿ يَلْقوا ﴾ بفتح الياء وسكون اللام على أنه مضارع المُجرد . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(227/693)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والتسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/694)

الجزء الرابع والتسعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 84 ﴾ من سورة الزخرف

وحتى الآية ﴿ 89 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/694)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَلَا

يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نزهه سبحانه عن الولد ودل على ذلك بأنه مالك كل شيء وملكه ، وكان ذلك غير ملازم للألوهية ، دل على أنه مع ذلك هو الإله لا غيره في الكونين بدليل بديهي يشترك في علمه الناس كلهم ، وقدم السماء ليكون أصلاً في ذلك يتبع لأن الأرض تبع لها في غالب الأمور ، فقال دالاً على أن نسبة الوجود كله إليه على حد سواء لأنه منزه عن الاحتياج إلى مكان أو زمان عاطفاً على ما تقديره : تنزه عما نسبوه إليه الذي هو معنى ﴿ سبحان ﴾ : ﴿ وهو الذي ﴾ هو ﴿ في السماء إله ﴾ أي معبود لا يشرك به شيء ﴿ وفي الأرض إله ﴾ توجه الرغباب إليه في جميع الأحوال ، ويخلص له في جميع أوقات الأضطرار ، فقد وقع الإجماع من جميع من في السماء والأرض على إلهيته فثبت استحقاقه لهذه الرتبة وثبت اختصاصه باستحقاقها في الشدائد فباقي الأوقات كذلك من غير فرق لأنه لا مشارك له في مثل هذا الاستحقاق ، فعبادة غيره باطلة ، قال في القاموس : أله – أي بالفتح – إلاهة وألوهة

وألوهية : عبد عبادة ، ومنه : لفظ الجلالة – وأصله : إله بمعنى معبود وكل ما اتخذ معبوداً فهو إله عند متخذه ، وأله كفرح : تحير ، فقد علم من هذا جواز تعلق الجار بإله .

(5/694)

ولما كان الإله لا يصلح للألوهية إلا إذا كان يضع الأشياء في محلها بحيث لا يتطرق إليه فساد ، ولا يضرها إفساد مفسد ، وكان لا يكون كذلك إلا بالغ العلم قال : ﴿ وهو الحكيم ﴾ أي البليغ الحكمة ، وهي العلم الذي لأجله وجب الحكم من قوام من أمر المحكوم عليه في عاجلته وآجلته ، ولما كانت الحكمة العلم بما لأجله وجب الحكم قال تعالى : ﴿ العليم ﴾ أي البالغ في علمه إلى حد لا يدخل في عقل العقلاء أكثر من وصفه به على طريق المبالغة ولو وسعوا أفكارهم وأطالوا أنظارهم لأنه ليس كمثله شيء في ذاته ولا صفة من صفاته ليقاس به ، وكل من ادعى فيه أنه شريك له لا يقدر من أشرك به أن يدعي له ما وصف به من الإجماع على ألوهيته ومن كمال علمه وحكمه ، فثبت قطعاً ببطلان الشركة بوجه يفهمه كل أحد ، فلا خلاص حينئذ إن خالف كائناً من كان ، وإذا قد صح أنه الإله وحده وأنه منزه عن شريك وولد وكل شائبة نقص كان بحيث لا يخاف وعيده ، فلا يخوض ولا يعلب عبده ، ومن خاض منهم أو لعب فلا يلومن إلا نفسه ، فإن عمله محفوظ بعلمه فهو

مجاز عليه بحكمته .

ولما نزه ذاته الأقدس وأثبت لنفسه استحقاق الإلهية بالإجماع من خلقه بما ركزه في فطرهم وهداهم إليه بعقولهم ، أتبع ذلك أدلة أخرى بإثبات كل كمال بما تسعه العقول وبما لا تسعه مصرحاً بالملك فقال : ﴿ وتبارك ﴾ أي ثبت ثباتاً لا يشبهه ثبات لأنه لا زوال مع التيمن والبركة وكل كمال ، فلا تشبيه له حتى يدعي أنه ولد له أو شريك ، ثم وصفه بما يبين تباركه واختصاصه بالإلهية فقال : ﴿ الذي له ملك السماوات ﴾ أي كلها ﴿ والأرض ﴾ كذلك ﴿ وما بينهما ﴾ وبين كل اثنين منها ، والدليل على هذا الإجماع القائم على توحيده عند الاضطرار .

(6/694)

لما ثبت اختصاصه بالملك وكان الملك لا يكون إلا عالماً بملكه وكان ربما ادعى مدع وتكذب معاند في الملك أو العلم ، قطع الأطماع بقوله : ﴿ وعنده ﴾ أي وحده ﴿ علم الساعة ﴾ سائقاً له مساق ما هو معلوم الكون ، لا مجال للخلاف فيه إشارة إلى ما عليها من الأدلة القطعية المركوزة في الفطرة الأولى فكيف بما يؤدي إليه الفكر من الذكر المنبه عليه السمع ، ولأن من ثبت اختصاصه بالملك وجب قبول أخباره لذاته ، وخوفاً من سطواته ،

ورجاء في بركاته ﴿ وإليه ﴾ أي وحده لا إلى غيره بعد قيام الساعة ﴿ ترجعون ﴾ بأيسر أمر تحقيقاً لملكه وقطعاً للنزاع في وحدانيته ، وقراءة الجماعة وهم من عدا ابن كثير وحمزة والكسائي وورش عن يعقوب بالخطاب أشد تهديداً من قراءة الباقين بالغيب ، وأدل على تناهي الغضب على من لا يقبل إليه بالمتاب بعد رفع كل ما يمكن أن يتسبب عنه ارتياب .

ولما أرشد السياق قطعاً إلى التقدير : فلا شريك له في شيء من ذلك ولا ولده ولا يقدر أحد منهم على التخلف عن الرجوع إليه كما أنه لا يقدر أحد على مدافعة قضائه وقدره ، عطف عليه قوله : ﴿ ولا يملك ﴾ أي بوجه من الوجوه في وقت ما ﴿ الذين يدعون ﴾ أي يجعلونهم في موضع الدعاء بعبادتهم لهم ، وبين سفول رتبتهم بقوله تعالى : ﴿ من دونه ﴾ من أدنى رتبة من رتبته من الأصنام والملائكة والبشر وغيرهم ﴿ الشفاعة ﴾ أي فلا يكون منهم شفيع كما زعموا أنهم شفعاؤهم ﴿ إلا من شهد ﴾ أي منهم ﴿ بالحق ﴾ .

أي التوحيد الذي يطابقه الواقع إذا انكشف أتم انكشاف وكذا ما يتبعه فإنه يكون أهلاً لأن يشفع كالملائكة والمسيح عليهم الصلاة والسلام ، والمعنى أن أصنامهم التي ادعوا أنها تشفع لهم لا تشفع غير أنه تعالى ساقه على أبلغ ما يكون لأنه كالدعوى .

(7/694)

ولما كان ذلك مركوزاً حتى في فطر الكفار فلا يفزعون في وقت الشدائد إلا إلى الله ، ولكنهم لا يلبثون أن يعملوا من الإشراك بما يخالف ذلك ، فكأنه لا علم لهم قال : ﴿ وهم ﴾ أو والحال أن من شهد ﴿ يعلمون ﴾ أي على بصيرة مما شهدوا به ، فلذلك لا يعملون بخلاف ما شهدوا إلا جهلاً منهم بتحقيق معنى التوحيد ، فلذلك يظنون أنهم لم يخرجوا عنه وإن أشكروا ، أو يكون المعنى : وهم من أهل العلم ، والأصنام ليسوا كذلك ، وكأنه أفرد أولاً إشارة إلى أن التوحيد فرض عين على كل أحد بخصوصه وإن خالفه كل غير ، وجمع ثانياً إيذاناً بالأمر بالمعروف ليجتمع الكل على العلم والتوحيد هو الأساس الذي لا تصح عبادة إلا به ، وتحقيقه هو العلم الذي لا علم يعدله ، قال الرازي في اللوامع : وجميع الفرق إنما ضلوا حيث لم يعرفوا معنى الواحد على الوجه الذي ينبغي إذ الواحد قد يكون مبدأ العدد ، وقد يكون مخالطاً للعدد ، وقد يكون ملازماً للعدد ، والله تعالى منزه عن هذه الواحدات – انتهى .

ففي الآية تبكيت لهم في أنهم يوحدون في أوقات ، فإذا أنجاهم الذي وحدوه جعلوا شكرهم له في الرخاء إشراكهم به ، ومنع لهم من ادعاء هذه الرتبة ، وهي الشهادة بالحق لأنهم انسلخوا بإشراكهم عن العلم ، وأن الملائكة لا تشفع لهم لأن ذلك يؤدي إلى أن تكون قد عملت بخلاف ما تعلم ، وذلك ينتج الانسلاخ من العلم المؤهل للشفاعة ، وقال ابن

الجوزي : وفي الآية دليل على أن شرط جميع الشهادات أن يكون الشاهد عالماً بما يشهد به .

(8/694)

ولما كان التقدير لتقرير وجود إلهيته في الأرض بالاجتماع : فلئن سألتهم من ينجيهم في وقت كروبهم ليقولن : الله ، ليس لمن ندعوه من دونه هناك فعل ، فقال عطفاً عليه : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أي الكفار ﴿ من خلقهم ﴾ أي العابدين والمعبودين معاً ، أجابوا بما يدل على عمى القلب الحقيقي المجبول عليه والمطبوع بطابع الحكمة الإلهية عليه ، ولم يصدقوا في جواب مثله بقوله : ﴿ إذ سألتهم ﴾ : ﴿ ليقولن الله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال هو الذي خلق الكل ليس لمن يدعوه منه شيء ، ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فأنّى ﴾ أي كيف ومن أي جهة بعد أن أثبتوا له الخلق والأمر ﴿ يؤفكون ﴾ أي يقلبون عن وجوه الأمور إلى أقفائها من قالب ما كائناً من كان ، فيدعون أن له شريكاً تارة بالولدية ، وتارة بغيرها ، مع ما ركز في فطرهم مما ثبت به أنه لا شريك له لأن له الخلق والأمر كله .

(9/694)

ولما أبطل سبحانه شبهتهم ووهى غاية التوهية أمرهم في شركهم وادعائهم الولد وغير ذلك مما تضمنته أقوالهم الفاسدة المنسوبة إليهم في هذه السورة ، وأقام حجج الحق ، ونصب براهين الصدق ، وأُبت ما ينفعهم ، وحذرهم ما يضرهم ، حتى ختم ذلك بقوله مقسماً مع جلالة قدره وعظم أمره ﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ ثم حصر أمرهم في رد ذلك إن ردوه إلى قسمين في حالين : حال مجاهرة وحال مماكرة ، وأخبر أنه لا نجاة لهم على حالة منهما ، وأخبر أن رسله تعالى يكتبون جميع أمورهم ، ذلك مع غناه عن ذلك لعلمه بما يكتبونه من ذلك وغيره مما لا يطلعون ، عليه ، فكان ذلك فخراً عظيماً ملاحماً أشد الملاحمة لما قدمه من شبهتهم في ادعاء الولد فأكد إبطالها وحقق زوالها ، وختم بالتعجيب من حالهم في تركهم وجوه الأمور واتباعهم أقفائها ، وكان من جملة ذلك عملهم عمل من يظن أن الله سبحانه لا يسمع قولهم الموجب لأخذهم وقول رسوله : الموجب لنصره ، عطف على ما مضى من إنكارهم عليهم عدم سماعه لقولهم ، ولما كان اشتدادهم في تكذيبهم ومباعدتهم وعنادهم لا يزداد بمرور الزمان إلا قوة أوقع في نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسفاً ورقة وشفقة عليهم وعطفاً ، وصار يشكو أمرهم إلى ربه شكوى المضطر سراً وعلناً إرادة التيسير في أمرهم والتهوين لشأنهم ، فاختير للتعبير عن هذا المعنى مصدر " قال " المشترك لفظه مع لفظ الماضي المبني للمجهول إشارة إلى أن شكواه بذلك كأنها

صارت أمراً ضرورياً له لا اختيار له في قوله فكأنه صار قولاً من غير قائل أو من غير قصد ، لأنه صار حالاً من الأحوال ، ووصل به الضمير من غير تقدم ذكر ، إشارة إلى أن ضميره قد امتلأ بتلك الشفقة عليهم والرحمة لهم ، فقال تعالى عطفاً على سرهم المقدر بعد ﴿ بلى ﴾ في قوله تعالى : ﴿ إنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ﴾ أو يكون معطوفاً على محل الساعة أي " ويعلم قيله " قاله الزجاج ، وعدل في هذا الوجه - وهو قراءة عاصم له وحمزة بالجر

(10/694)

فإنه ظاهر في تعلقه بذلك لعطفه على لفظ ﴿ الساعة ﴾ ، وقرئ شاذاً بالرفع ، ووجهه أن الواو للحال ، أي كيف يصرفون عن اتباع رسولنا الآمر لهم بتوحيدنا في العبادة كما أنا توحدنا بالخلق والحال أن قيله كذا في شكايتهم ، أفيظنون أنا لا ننصره وقد أرسلناه : ﴿ وقيله ﴾ الذي صار في ملازمته وعدم انفكاكه حالاً من الأحوال ، الدال على وجه قيله وانكسار نفسه بما دلت عليه كسرة المصدر وياؤه المجانسة لها ، والتعبير بقوله : ﴿ يا رب ﴾ دال على ذلك بما تفيده " يا " الدالة على بعد ، أو تقديره ، والرب الدال على الإحسان والعطف والشفقة والتدبير والسيادة الاختصاص والولاية ، وذلك على غير

العادة في دعاء المقربين ، فإنها جارية في القرآن بإسقاط أداة النداء .

ولما كان الإرسال إليهم - والمرسل قادر - مقتضياً لإيمانهم ، أكد ما ظهر له من حالهم بقوله زيادة في التحسر وإشارة إلى أن تأخير أمرهم يدل على أن إيمانهم مطموع فيه : ﴿ إن هؤلاء ﴾ لم يضفهم إلى نفسه بأن يقول : قومي ، ونحو ذلك من العبارات ولا سماهم باسم قبيلتهم لما ساءه من حالهم ، وأتى بهاء المنبهة قبل اسم على غير عادة الأصل إشارة إلى أن استشعر من نفسه بعداً استصغاراً لها واحتقاراً ﴿ قوم ﴾ أي أقوياء على الباطل ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي لا يتجدد منهم هذا الفعل .

(11/694)

ولما كان هذا قولاً دالاً على غاية ما يكون من بلوغ الجهد ، تسبب عنه ما يسره بإيمانهم وبلوغهم الرتب العالية التي هي نتيجة ما كان مترجى لهم أول السورة ، وذلك كله ببركته - صلى الله عليه وسلم - في سياق ظاهره التهديد وباطنه - بالنسبة إلى علمه - البشارة بالتشديد فقال : ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي اعف عمن أعرض منهم صفحاً فلا تلتفت إليهم بغير التبليغ ﴿ وقل ﴾ أي لهم : ﴿ سلام ﴾ أي شأني الآن متاركتكم بسلامتكم مني وسلامتي منكم ﴿ فسوف يعلمون ﴾ بوعد لا خلف فيه ، فهذا ظاهره تهديد كبير ،

وقراءة المدنيين وابن عامر بالخطاب أشد تهديداً ، وباطنه من التعبير بالصفح عنهم والسلام بشارة لأنهم يصيرون علماء فيفوقون الأمم في العلم بعد أن يفوقهم في العقل – بما أفهمه أول السورة – فيعلون الأمم في المشي على مناهيج العقل ، فللّه دره من آخر عانق الأول ، ومقطع رد إلى المطلع تنزل ، يا ناظم اللآلئ ! أين تذهب عن هذا البناء العالي ، وتغفل عن هذا الجوهر الرخص الغالي ، وتضل عن هذا الضياء اللامع الملألىء ، ثم أعلاه فأنزله ، وأغلاه بدر المعاني وفضله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 57 .

﴿ 61

(12/694)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي فِي السماء إله وَفِي الأرض إله ﴾

وفيه أبحاث :

البحث الأول : قال أبو علي نظرت فيما يرتفع به إله فوجدت ارتفاعه يصح بأن يكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير وهو الذي في السماء هو إله .

والبحث الثاني : هذه الآية من أدل الدلائل على أنه تعالى غير مستقر في السماء ، لأنه تعالى بيّن بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالإلهية كنسبته إلى الأرض ، فلما كان إلهاً للأرض مع أنه غير مستقر فيها فكذلك يجب أن يكون إلهاً للسماء مع أنه لا يكون مستقراً فيها ، فإن قيل وأي تعلق لهذا الكلام بنفي الولد عن الله تعالى ؟ قلنا تعلقه به أنه تعالى خلق عيسى بمحض كن فيكون من غير واسطة النطفة والأب ، فكأنه قيل إن هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولداً لله سبحانه ، لأن هذا المعنى حاصل في تخليق السموات والأرض وما بينهما من انتفاء حصول الولدية هناك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الحكيم العليم ﴾ وقد ذكرنا في سورة الأنعام أن كونه تعالى حكيماً عليماً ينافي حصول الولد له .

(13/694)

ثم قال : ﴿ وَتَبَارَكَ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ واعلم أن قوله تبارك إما أن يكون مشتقاً من الثبات والبقاء ، وإما أن يكون مشتقاً من كثرة الخير ، وعلى التقديرين فكل واحد من هذين الوجهين ينافي كون عيسى عليه السلام ولداً لله تعالى ، لأنه إن كان المراد منه الثبات والبقاء فعيسى عليه السلام لم

يكن واجب البقاء والدوام ، لأنه حدث بعد أن لم يكن ، ثم عند النصارى أنه قتل ومات ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباقي الدائم الأزلي مجانسة ومشابهة ، فامتنع كونه ولداً له ، وإن كان المراد بالبركة كثرة الخيرات مثل كونه خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فعيسى لم يكن كذلك بل كان محتاجاً إلى الطعام وعند النصارى أنه كان خائفاً من اليهود وبالآخرة أخذوه وقتلوه ، فالذي هذا صفته كيف يكون ولداً لمن كان خالقاً للسموات والأرض وما بينهما !

وأما قوله ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ فالمقصود منه أنه لما شرح كمال قدرته فكذلك شرح كمال علمه ، والمقصود التنبيه على أن من كان كاملاً في الذات والعلم والقدرة على الحد الذي شرحناه امتنع أن يكون ولده في العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم بالحد الذي وصفه النصارى .

(14/694)

ولما أطنب الله تعالى في نفي الولد أردفه ببيان نفي الشركاء فقال : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشفاعة إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ذكر المفسرون في هذه الآية قولين أحدهما : أن الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى وعزير ، والمعنى أن الملائكة

وعيسى وعزيراً لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق ، روي أن النصر بن الحرث ونفراً معه قالوا إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد ، فأنزل الله هذه الآية يقول لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا لأحد ثم استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ والمعنى على هذا القول هؤلاء لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق ، فأضمر اللام أو يقال التقدير إلا شفاعة من شهد بالحق فحذف المضاف ، وهذ على لغة من يعدي الشفاعة بغير لام ، فيقول شفعت فلاناً بمعنى شفعت له كما تقول كلمته وكلمت له ونصحته ونصحت له والقول الثاني : أن الذين يدعون من دونه كل معبود من دون الله ، وقوله ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ الملائكة وعيسى وعزير ، والمعنى أن الأشياء التي عبدها الكفار لا يملكون الشفاعة إلا من شهد بالحق ، وهم الملائكة وعيسى وعزير فإن لهم شفاعة عند الله ومنزلة ، ومعنى من شهد بالحق من شهد أنه لا إله إلا الله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لا تفيد ألبتة ، واحتج القائلون بأن إيمان المقلد لا ينفع ألبتة ، فقالوا بيّن الله تعالى أن الشهادة لا تنفع إلا إذا حصل معها العلم والعلم عبارة عن اليقين الذي لو شكك صاحبه فيه لم يتشكك ، وهذا لم يحصل إلا عند الدليل ، فثبت أن إيمان المقلد لا ينفع ألبتة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ظن قوم أن هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على أن القوم مضطرون إلى الاعتراف بوجود الإله للعالم ، قال الجبائي وهذا لا يصح لأن قوم فرعون قالوا لا إله لهم غيره ، وقوم إبراهيم قالوا ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ [إبراهيم : 9] فيقال لهم لا نسلم أن قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله ، والدليل على قولنا قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً ﴾ [النمل : 14] وقال موسى لفرعون ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض بَصَائِرَ ﴾

[الإسراء : 102] فالقراءة بفتح التاء في علمت تدل على أن فرعون كان عارفاً بالله ، وأما قوم إبراهيم حيث قالوا ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ فهو مصروف إلى إثبات القيامة وإثبات التكاليف وإثبات النبوة .

المسألة الثالثة :

اعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وفي آخرها ، والمقصود التنبيه على أنهم لما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع ، بل هي جمادات محضة .

وأما قوله ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ معناه لم تكذبون على الله فتقولون إن الله أمرنا بعبادة الأصنام ، وقد احتج بعض أصحابنا به على أن إفكهم ليس منهم بل من غيرهم بقوله ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ وأجاب القاضي بأن من يضل في فهم الكلام أو في الطريق يقال له أين يذهب بك ، والمراد أين تذهب ، وأجاب الأصحاب بأن قول القائل أين يذهب بك ظاهره يدل على أن ذاهباً آخر ذهب به ، فصرف الكلام عن حقيقته خلاف الأصل الظاهر ، وأيضاً فإن الذي ذهب به هو الذي خلق تلك الداعية في قلبه ، وقد ثبت بالبرهان الباهر أن خالق تلك الداعية هو الله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يا رب إِنَّ هؤلاء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ وفيه مباحث :

(16/694)

الأول : قرأ الأكثرون ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ بفتح اللام وقرأ عاصم وحمزة بكسر اللام ، قال الواحدي وقرأ أناس من غير السبعة بالرفع ، أما الذين قرؤا بالنصب فذكر الأخفش والفراء فيه قولين أحدهما : أنه نصب على المصدر بتقدير وقال قيله وشكا شكواه إلى ربه يعني النبي صلى الله عليه وسلم فانتصب قيله بإضمار قال والثاني : أنه عطف على ما تقدم من قوله ﴿ أم يحسبون أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونجواهم . . .

وَقِيلِهِ ﴾ [الزخرف : 80] وذكر الزجاج فيه وجهاً ثالثاً : فقال إنه نصب على موضع الساعة لأن قوله ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ معناه أنه علم الساعة ، والتقدير علم الساعة ، وقيله ، ونظيره قولك عجبت من ضرب زيد وعمراً ، وأما القراءة بالجر فقال الأخفش والفراء والزجاج إنه معطوف على الساعة ، أي عنده علم الساعة ، وعلم قيله يا رب ، قال المبرد العطف على المنصوب حسن وإن تباعد المعطوف من المعطوف عليه لأنه يجوز أن يفصل بين المنصوب وعامله والمجرور يجوز ذلك فيه على قبح ، وأما القراءة بالرفع ففيها وجهان الأول : أن يكون ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ مبتدأ وخبره ما بعده والثاني : أن يكون معطوفاً على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله ، قال صاحب "الكشاف" : هذه الوجوه ليست قوية في المعنى لا سيما وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً ، ثم ذكر وجهاً آخر وزعم أنه أقوى مما سبق ، وهو أن يكون النصب والجر على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ، يكون قوله ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ جواب القسم كأنه قيل وأقسم بقيله يا رب أو وقيله يا رب قسمي ، وأقول هذا الذي ذكره صاحب

"الكشاف" متكلف أيضاً وههنا إضمار امتلأ القرآن منه وهو إضمار اذكر ، والتقدير واذكر قيله يا رب ، وأما القراءة بالجر ، فالتقدير واذكر وقت قيله يا رب ، وإذا وجب التزام الإضمار فلأن يضمر شيئاً جرت العادة في القرآن بالتزام إضمار أولى من غيره ، وعن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله ﴿ وَقِيلِهِ يارب ﴾ المراد وقيل يا رب والهاء زيادة .

البحث الثاني : القيل مصدر كالقول ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " نهى عن قيل وقال " قال الليث تقول العرب كثر فيه القيل والقال ، وروى شمر عن أبي زيد يقال ما أحسن قيلك وقولك وقالك ومقالتك خمسة أوجه .

(18/694)

البحث الثالث : الضمير في قيله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

البحث الرابع : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ضجر منهم وعرف إصرارهم أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون وهو قريب مما حكى الله عن نوح أنه قال : ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونيا واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ [نوح : 21] .

ثم إنه تعالى قال له : ﴿ فاصفح عَنْهُمْ ﴾ فأمره بأن يصفح عنهم وفي ضمنه منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب ، والصفح هو الإعراض .

ثم قال : ﴿ وَقُلْ سلام ﴾ قال سيبويه إنما معناه المتاركة ، ونظيره قول إبراهيم لأبيه ﴿ سلام عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ [مريم : 47] وكقوله ﴿ سلام عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] .

قوله ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ والمقصود منه التهديد .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن عامر تعلمون بالتاء على الخطاب ، والباقون بالياء كناية عن قوم لا يؤمنون .

المسألة الثانية :

احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر ، وأقول إن صح هذا الاستدلال فهذا يوجب الاقتصار على مجرد قوله سلام وأن يقال للمؤمن سلام عليكم .

والمقصود التنبيه على التحية التي تذكر للمسلم والكافر .

المسألة الثالثة :

قال ابن عباس قوله تعالى : ﴿ فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سلام ﴾ منسوخ بآية السيف ، وعندي أن التزام النسخ في أمثال هذه المواضع مشكل ، لأن الأمر لا يفيد الفعل إلا مرة واحدة فإذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ ، فأي حاجة فيه إلى التزام النسخ ، وأيضاً

فمثله يمين الفور مشهورة عند الفقهاء وهي دالة على أن اللفظ قد يتقيد بحسب قرينة العرف ، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة فيه إلى التزام النسخ ، والله أعلم بالصواب .

(19/694)

قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضوان : تمّ تفسير هذه السورة يوم الأحد الحادي عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً ، والصلاة على ملائكته المقربين والأنبياء والمرسلين خصوصاً على محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه أجمعين أبد الآبدين ودهر الداهرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 198 . 201 ﴾

(20/694)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة وما يقال لهم ، عقب ذلك بذكر حال الكفرة من الخلود في النار

ولتتضح الأمور التي منها النذارة ، والمجرمون في هذه الآية : الكفار ، بدليل الخلود وما تتضمنه الألفاظ من مخاطبة مالك وغيره . والملبس : المبعد اليائس من الخيرة ، قاله قتادة وغيره .

وقرأ ابن مسعود : " وهم مبلسون " أي في جهنم .

وقوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقه ، ولكن هم ظلموا في أن وضعوا العبادة فيمن لا يستوجبها وضعفوا الكفر والتفريط في جنب الله تعالى .

وقرأ الجمهور : "كانوا هم الظالمين " على الفصل . وقرأ ابن مسعود : " هم الظالمون " على الابتداء والخبر ، وأن تكون الجملة خبر "كان " .

ثم ذكر تعالى عن أهل النار أنهم ينادون مالكاً خازن النار ، فيقولون على معنى الرغبة التي هي في صيغة الأمر ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ أي ليمتنا مرة حتى يتكرر عذابنا .

وقرأ النبي عليه السلام على المنبر : " يا مالكٍ " بالكاف ، وهي قراءة الجمهور . وقرأ ابن مسعود ويحيى والأعمش : " يا مال " بالترخيم ، ورويت عن علي بن أبي طالب ، ورواها أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والقضاء في هذه الآية بمعنى الموت ، كما قال تعالى : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ [القصص : 15] وروي في تفسير هذه الآية عن ابن عباس أن مالكاً يقيم بعد سؤالهم ألف

سنة ، وقال نوف : مائة سنة ، وقيل : ثمانين سنة . وقال عبد الله بن عمر : وأربعين سنة ، ثم حينئذ يقول لهم : ﴿ إنكم ماكثون ﴾ .

(21/694)

وقوله : ﴿ لقد جئناكم ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون من قول مالك لأهل النار ، ويكون قوله : ﴿ جئناكم ﴾ (على حد ما يدخل أحد جملة الرئيس كناية عن نفسه في فعل الرئيس فيقول غلبناكم وفعلنا بكم ونحو هذا ، ثم ينقطع كلام مالك في قوله : ﴿ كارهون ﴾ ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ جئناكم ﴾ من قول الله تعالى لقريش بعقب حكاية أمر الكفار مع مالك ، وفي هذا توعد وتخويف فصيح ، بمعنى انظروا كيف تكون حالكم ، ثم تتصل الآية على هذا بما بعدها من أمر قريش .

وقوله تعالى : ﴿ أم أبرموا أمراً ﴾ من أمور كفرهم وتدبيرهم على عهد محمد صلى الله عليه وسلم كما فعلوا في اجتماعهم على قتله في دار الندوة إلى غير ذلك ، و: ﴿ أم ﴾ في هذه الآية : المنقطعة .

وقوله : ﴿ فإنا مبرمون ﴾ أي فإنا محكمو نصره وحمايته . والإبرام : أن تجمع خيطين ثم تفتلهما فتلاً متقناً . والبريم : خيط فيه لونان .

وقوله تعالى : ﴿ أم يحسبون ﴾ الآية ، قال محمد بن كعب القرظي : نزلت لأن كثيراً من العرب كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يسمع السر ، ومنه حديث الثقفي والقرشيين الذين سمعهم ابن مسعود يقولون عند الكعبة : أترى الله يسمعنا ؟ فقال أحدهم : يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا الحديث ، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يسمع ، أي يدرك السر والنجوى ، وأن رسله الحفظة من الملائكة يكتبون أعمال البشر مع ذلك ، وتعد للجزاء يوم القيامة .

واختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ، فأنا أول العابدين ﴾ فقالت فرقة : العابدون : هو من العبادة ، ثم اختلفوا في معنى الآية بعد ذلك ، فقال قتادة والسدي والطبري ، المعنى :

﴿ قل ﴾ لهم ﴿ إن كان للرحمن ولد ﴾ كما تقولون فأنا أول من يعبده على ذلك ، ولكن ليس به شيء من ذلك تعالى وجل . قال الطبري : فهذا الطاف في الخطاب ، ونحوه قوله : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] .

(22/694)

قال القاضي أبو محمد : وقوله تعالى : في مخاطبة الكفار : ﴿ أين شركائي ﴾ [النحل : 27 ، القصص : 62-72 ، فصلت : 47] .

وقال مجاهد المعنى : إن كان لله ولد في قولكم فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم . وقال قتادة أيضاً وزهير بن محمد وابن زيد : ﴿ إن ﴾ نافية بمعنى : ما ، فكأنه قال : ما كان للرحمن ولد . وهنا هو الوقف على هذا التأويل ، ثم يبتدئ قوله : ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ قاله أبو حاتم . وقالت فرقة : العابدون في الآية : من عبد الرجل إذا أنف وأنكر الشيء ، ومنه قول الشاعر :

متى يشأ ذو الود يصرم خليله . . . ويعبد عليه لا محالة ظالما

ومنه حديث عثمان وعلي في المرجومة حين قال علي : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ [الأحقاف : 15] قال : فما عبد عثمان أن بعث إليها لترد . والمعنى : إن جعلتم للرحمن ولداً وكان ذلك في قولكم فأنا أول الآنفين المنكرين لذلك .

وقرأ الجمهور : " وَلَد " بفتح الواو واللام . وقرأ ابن مسعود وابن وثاب وطلحة والأعمش : " وُلْد " بضم الواو وسكون اللام .

وقرأ أبو عبد الرحمن : " فأنا أول العابدين " وهي على هذا المعنى ، قال أبو حاتم : العبد بكسر الباء : الشديد الغضب . وقال أبو عبيدة معناه : أول الجاحدين ، والعرب تقول : عبدني حقي ، أي جحدني .

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82)

لما قال تعالى : ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ [الزخرف : 81] نزه الرب تعالى عن هذه المقالة التي قالوها و: ﴿ سبحان ﴾ تنزيه . وخص ﴿ السماوات والأرض ﴾ و﴿ العرش ﴾ لأنها عظم المخلوقات .

وقوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ مهادنة ما وترك ، وهي مما نسخت بآية السيف وقرأ الجمهور " يلاقوا " وقرأ أبو جعفر وابن محيصن : " حتى يلقوا " . وقال جمهور اليوم الذي توعدهم به هو القيامة . وقال عكرمة وغيره : هو يوم بدر .

(23/694)

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله ﴾ الآية آية حكم بعظمته وإخبار بألوهيته ، أي هو النافذ أمره .

وقرأ عمر بن الخطاب وجابر بن زيد وأبو شيخ والحكم بن أبي العاصي وبلال بن أبي بردة وابن مسعود ويحيى بن يعمر وأبي بن كعب وابن السميفع : " وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله ، و: ﴿ الحكيم ﴾ المحكم . ﴿ وتبارك ﴾ تفاعل من البركة ، أي تزيدت بركاته . و: ﴿ السماوات والأرض وما بينهما ﴾ حصر لجميع الموجودات المحسوسات .

و: ﴿ علم الساعة ﴾ معناه: علم تحديد قيامها والوقف على تعيينه، وهذا هو الذي استأثر الله بعلمه، وإلا فنحن عندنا علم الساعة، أي إنها واقعة، وإنها ذات أهوال وبصفات ما، والمصدر في قوله: ﴿ علم الساعة ﴾ مضاف إلى المفعول.

وقرأ أكثر القراء: "وإليه يرجعون" بالياء من تحت. وقرأ نافع وأبو عمرو: "تُرجعون" بالتاء من فوق مضمومة.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)

قوله تعالى: ﴿ ولا يملك ﴾ الآية مخاطبة لمحمد عليه السلام. و: ﴿ الذين ﴾ هم المعبودون، والضمير في: ﴿ يدعون ﴾ هو للكفار الذين عبدوا غير الله عز وجل، فأعلم تعالى أن من عبد من دون الله فإنه لا يملك شفاعة عند الله يوم القيامة.

(24/694)

وقرأ الجمهور: "يدعون" بالياء من تحت. وقرأ ابن وثاب: "تدعون"، بالتاء من فوق، ثم استثنى تعالى من هذه الأخبار، واختلف الناس في المستثنى، فقال قتادة: استثنى ممن عبد من دون الله: عيسى وعزيراً والملائكة، والمعنى فإنهم يملكون شفاعة، بأن يملكها الله إياهم، إذ هم ممن شهد بالحق وهم يعلمونه في كل أحوالهم، فالاستثناء على هذا

التأويل متصل وقال مجاهد وغيره : استثنى من في المشفوع فيهم ، فكأنه قال : لا يشفع هؤلاء الملائكة وعزير وعيسى إلا فيمن شهد بالحق وهو يعلمه ، أي هو بالتوحيد ، فالاستثناء على هذا التأويل منفصل ، كأنه قال : لكن من يشهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء ، والتأويل الأول أصوب ، والله أعلم . ثم أظهر تعالى عليهم الحجة من أقوالهم وإقرارهم بأن الله هو خالقهم وموجدهم بعد العدم ، ثم وقفهم على جهة التقرير والتوبيخ بقوله : ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أي فلأي جهة يصرفون .

(25/694)

وقرأ جمهور القراء بالنصب ، وهو مصدر كالقول ، والضمير فيه لمحمد عليه السلام ، وحكى مكي قولاً أنه لعيسى وهو ضعيف ، واختلف الناس في الناصب ، فقالت فرقة هو معطوف على قوله : ﴿ سرهم ونجواهم ﴾ [الزخرف : 80] . وقالت فرقة العامل فيه ﴿ يكتبون ﴾ [الزخرف : 80] أي أقوالهم من أفعالهم . ﴿ وقيله ﴾ . وقالت فرقة : الناصب له ما في قوله : ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ [الزخرف : 85] من قوة الفعل ، أي ويعلم قيله ، ونزل قوله تعالى : ﴿ وقيله يا رب ﴾ بمنزلة وشكوى محمد واستغاثته من كفرهم وعتوهم . وقرأ عاصم وحمزة وابن وثاب والأعمش : و" قيلِهِ "

بالخفض عطفاً على ﴿ الساعة ﴾ [الزخرف : 85] . وقرأ الأعرج وأبو قلابة ومجاهد : " وقيلُه " بالرفع على الابتداء . وخبره في قوله : ﴿ يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ أي قيله هذا القول ، أو يكون التقدير : وقيله يا رب مسموع ومتقبل ، ف ﴿ يا رب ﴾ على هذا منصوب الموضع ب " قيله " وقرأ أبو قلابة : " يا ربَّ " بفتح الباء المشددة ، وأراد يا رب على لغة من يقول : يا غلاماً ، ثم حذف الألف تخفيفاً واتباعاً لخط المصحف .

وقوله : ﴿ فاصفح عنهم ﴾ موادعة منسوخة بآيات السيف .

وقوله : ﴿ سلام ﴾ تقديره : وقل أمري سلام ، أي مسالمة . (وقالت فرقة) المعنى : وقل سلام عليكم على جهة الموادعة والملاينة ، والنسخ قد أتى على هذا السلام ، فسواء كان تحية أو عبارة عن الموادعة .

وقرأ جمهور القراء : " يعلمون " بالياء . وقرأ نافع وابن عامر في رواية هشام عنه والحسن والأعرج وأبو جعفر : " تعلمون " بالتاء من فوق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(26/694)

وقال القرطبى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾

هذا تكذيب لهم في أن للّه شريكاً وولداً ؛ أي هو المستحق للعبادة في السماء والأرض .

وقال عمر رضي الله عنه وغيره : المعنى وهو الذي في السماء إله في الأرض ؛ وكذلك قرأ .

والمعنى أنه يعبد فيهما .

وروي أنه قرأ هو وابن مسعود وغيرهما "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللَّهُ وَفِي الْأَرْضِ اللَّهُ" وهذا خلاف المصحف .

و"إله" رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ؛ أي وهو الذي في السماء هو إله ؛ قاله أبو علي .

وحسن حذفه لطول الكلام .

وقيل : "في" بمعنى على ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] أي على جذوع النخل ؛ أي هو القادر على السماء والأرض .

﴿ وَهُوَ الحكيم العليم ﴾ تقدّم .

﴿ وَتَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة ؛ وقد تقدّم .

﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ أي وقت قيامها .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي "وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" بالياء .

الباقون بالتاء .

وكان ابن مُحَيْصِن وحُميد ويعقوب وابن أبي إسحاق يفتحون أوله على أصولهم.

وضم الباقون.

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)

فيه مسألتان:

الأولى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بالحق ﴾ "مَنْ" في موضع الخفض.

وأراد ب "الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ" عيسى وعزيراً والملائكة.

والمعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة؛ قاله سعيد بن جبير وغيره.

قال: وشهادة الحق لا إله إلا الله.

وقيل: "مَنْ" في محل رفع؛ أي ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة؛ يعني الآلهة في قول قتادة أي لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق؛ يعني عُزيراً وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله.

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة ما شهدوا به.

وقيل : إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث ونَفَراً من قريش قالوا : إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولّى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه ؛ فأنزل الله : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشفاعة إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ أي اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لهم ولا شفاعة لأحد يوم القيامة .

﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ يعني المؤمنين إذا أذِن لهم .

قال ابن عباس : "إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ" أي شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وقيل : أي لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق ؛ فإن من شهد بالحق يشفع له ولا يشفع لمشرك .

و"إِلاَّ" بمعنى لكن ؛ أي لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق ؛ فهو استثناء منقطع .

ويجوز أن يكون متصلاً ؛ لأن في جملة "الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ" الملائكة .

ويقال : شَفَعْتُه وشَفَعْت له ؛ مثل كِلْته وكلْت له .

وقد مضى في "البقرة" معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها .

وقيل : "إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ" إلا من تشهد له الملائكة بأنه كان على الحق في الدنيا ، مع علمهم بذلك منه بأن يكون الله أخبرهم به ، أو بأن شاهدوه على الإيمان .

الثانية قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على معنيين : أحدهما أن

الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة .

والثاني أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالماً بها .

ونحوه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فَدَعْ "

وقد مضى في "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ أي لأقرّوا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئاً .

(28/694)

﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له .

يقال : أَفَكَه يَأْفِكُه أَفْكاً ؛ أي قلبه وصرفه عن الشيء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ [الأحقاف : 22] .

وقيل : أي ولئن سألت الملائكة وعيسى "مَنْ خَلَقَهُمْ" لقالوا الله .

"فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ" أي فأنّى يُؤفك هؤلاء في ادعائهم إياهم آلهة .

وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88)

في "قِيلِهِ" ثلاث قراءات : النصب ، والجرّ ، والرفع .

فأمّا الجرّ فهي قراءة عاصم وحمزة .

وبقية السبعة بالنصب .

وأما الرفع فهي قراءة الأعرج وقتادة وابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدُب .

فمن جرّ حمله على معنى : وعنده علم الساعة وعلم قِيلِه .

ومن نصب فعلى معنى : وعنده علم الساعة ويعلم قِيلَه ؛ وهذا اختيار الزجاج .

وقال الفرّاء والأخفش : يجوز أن يكون ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ عطفاً على قوله : ﴿ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ [الزخرف : 80] .

قال ابن الأنباري : سألت أبا العباس محمد بن يزيد المبرد بأيّ شيء تنصب القيل ؟ فقال : أنصبه على "وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيَعْلَم قِيلَهِ" .

فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على "تُرْجَعُونَ" ، ولا على "يَعْلَمُونَ" .

ويحسن الوقف على "يَكْتُبُونَ" .

وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القيل على معنى : لا نسمع سِرّهم ونجواهم وقِيلَه ؛ كما ذكرنا عنهما .

فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على "يَكْتُبُونَ" .

وأجاز الفراء والأخفش أيضاً : أن ينصب على المصدر ؛ كأنه قال : وقال قِيله ، وشكا

شكواه إلى الله عز وجل ، كما قال كعب بن زهير :

تمشي الوُشاةُ جَنابَيها وقِيلُهُم . . .

إنّك يا بْنَ أبي سُلْمَى لَمَقْتُولُ

أراد : ويقولون قيلهم .

ومن رفع "قيله" فالتقدير : وعنده قيلُه ، أو قِيلُه مسموع ، أو قيلُه هذا القول .

(29/694)

الزمخشريّ : والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً ومع تنافر النظم .

وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه .

والرفع على قولهم : أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ، ويكون قوله : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ جواب القسم ؛ كأنه قال : وأقسم بقيله يا ربّ ، أو قيله يا ربّ قسمي ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون .

وقال ابن الأنباري : ويجوز في العربية "وقيلُه" بالرفع ، على أن ترفعه بإن هؤلاء قوم لا

يؤمنون .

المهدوِيّ : أو يكون على تقدير وقِيلُه قِيلُه يا ربّ ؛ فحذف قيله الثاني الذي هو خبر ، وموضع "يا ربّ" نصب بالخبر المضمر ، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذف بعض الموصول وبقي بعضه ؛ لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور .

والهاء في "قِيله" لعيسى ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى ذكره إذ قال : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ [الزخرف : 81] .

وقرأ أبو قِلابة "يَا ربَّ" بفتح الباء .

والقيل مصدر كالقول ؛ ومنه الخبر : "نهى عن قيل وقال" .

ويقال : قلت قَوْلاً وقِيلاً وقالاً .

وفي النساء ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾ [النساء : 122] .

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

قال قتادة : أمر بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم ؛ فصار الصفح منسوخاً بالسيف .

ونحوه عن ابن عباس قال : "فَاصْفَحْ عَنْهُمْ" أعرض عنهم .

﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أي معروفاً ؛ أي قل لمشركي أهل مكة "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" ثم نُسخ هذا في سورة "براءة" بقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5]

الآية.

وقيل: هي محكمة لم تنسخ.

(30/694)

وقراءة العامة "فَسَوْفَ يعلمون" (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيه بالتهديد.

وقرأ نافع وابن عامر "تَعْلَمُونَ" (بالتاء) على أنه من خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم للمشركين بالتهديد.

و"سلامٌ" رفع بإضمار عليكم؛ قاله الفراء.

ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيّة لهم؛ حكاه النقاش.

وروى شعيب بن الحبحاب أنه عرّفه بذلك كيف السلام عليهم؛ والله أعلم. انتهى انتهى.

اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 16 صـ﴾

(31/694)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ، وما يقال لهم من لذائذ البشارة ، أعقب ذلك بذكر حال الكفرة ، وما يجاوبون به عند سؤالهم .

وقرأ عبد الله : وهم فيها ، أي في جهنم ؛ والجمهور : وهم فيه أي في العذاب .

وعن الضحاك : يجعل المجرم في تابوت من نار ، ثم يردم عليه ، فيبقى فيه خالداً لا يرى ولا يرى .

﴿ لا يفتر عنهم ﴾ : أي لا يخفف ولا ينقص ، من قولهم : فترت عنه الحمى ، إذا سكنت قليلاً ونقص حرها .

والمبلس : الساكت اليائس من الخير .

﴿ وما ظلمناهم ﴾ : أي ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقه .

﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ : أي الواضعين الكفر موضع الإيمان ، فظلموا بذلك أنفسهم .

وقرأ الجمهور : والظالمين ، على أن هم فصل .

وقرأ عبد الله ، وأبو زيد النحويان : الظالمون بالرفع ، على أنهم خبرهم ، وهم مبتدأ .

وذكر أبو عمرو الجرمي : أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ ، ويرفعون ما بعده

على الخبر .

وقال أبو زيد : سمعتهم يقرأون : ﴿ تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجراً ﴾ يعني : برفع خير وأعظم .

وقال قيس بن دريج :

نحن إلى ليلى وأنت تركتها . . .

وكنت عليها بالملا أنت أقدر

قال سيبويه : إن رؤبة كان يقول : أظن زيداً هو خير منك ، يعني بالرفع .

﴿ ونادوا يا مالك ﴾ : تقدم أنهم مبلسون ، أي ساكتون ، وهذه أحوال لهم في أزمان متطاولة ، فلا تعارض بين سكوتهم وندائهم .

وقرأ الجمهور : يا مالك .

وقرأ عبد الله ، وعليّ ، وابن وثاب ، والأعمش : يا مال ، بالترخيم ، على لغة من ينتظر الحرف .

وقرأ أبو السرار الغنوي : يا مال ، بالبناء على الضم ، جعل اسماً على حياله .

واللام في : ﴿ ليقض ﴾ لام الطلب والرغبة .

والمعنى : يمتنا مرة حتى لا يتكرر عذابنا ، كقوله : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ أي

أماته .

﴿ قال ﴾ : أي مالك ، ﴿ إنكم ماكثون ﴾ : أي مقيمون في النار لا تبرحون .

(32/694)

وقال ابن عباس : يجيبهم بعد مضي ألف سنة ، وقال نوف : بعد مائة ، وقيل : ثمانين ، وقال عبد الله بن عمرو : أربعين .

﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ : يظهر أنه من كلام الله تعالى .

وقيل : من كلام بعض الملائكة ، كما يقول أحد خدم الرئيس : أعلمناكم وفعلنا بكم .

قيل : ويحتمل أن يكون ﴿ قد جئناكم ﴾ من قول الله لقريش بعقب حكاية أمر الكفار مع مالك ، وفي هذا توعد وتخويف بمعنى : انظروا كيف يكون حالكم .

﴿ أم أبرموا ﴾ : والضمير لقريش ، أي بل أحكموا أمراً من كيدهم للرسول ومكرهم ، ﴿ فإنا مبرمون ﴾ كيدنا ، كما أبرموا كيدهم ، كقوله : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ وكانوا يتناجون ويتسارعون في أمر الرسول ، فقال تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرّهم ﴾ ، وهو ما يحدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال .

﴿ ونجواهم ﴾ : وهي ما تكلموا به فيما بينهم .

﴿ بلى ﴾ : أي نسمعها ، ﴿ رسلنا ﴾ ، وهم الحفظة .

﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ ، كما تقولون ، ﴿ فأنا أول ﴾ من يعبده على ذلك ، ولكن ليس له شيء من ذلك .

وأخذ الزمخشري هذا القول وحسنه بفصاحته فقال : إن كان للرحمن ولد ، وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح يوردونه ، وحجة واضحة يبذلونها ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له ، كما يعظم الرجل ولد الملك لعظم أبيه .

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه ، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالاً مثلها .

فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة ، وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها .

ثم قال الزمخشري : ونظيره أن يقول العدلي للمجبر .

ثم ذكر كلاماً يستحق عليه التأديب ، بل السيف ، نزهت كتابي عن ذكره .

(33/694)

ثم قال : وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقلة بالتوحيد على أبلغ وجوهه ، فقيل : إن كان للرحمن ولد ، في زعمكم ، فأنا أول العابدين ، الموحدين لله ، المكذبين قولهم بإضافة الولد إليه .

وقيل : إن كان للرحمن ولد ، فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد ، إذ اشتد أنفه فهو عبد وعابد .

وقرأ بعضهم : عبدين ، وقيل : هي إن النافية ، أي ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد .

وروي أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال : أن الملائكة بنات الله ، فنزلت ، فقال النضر : ألا ترون أنه قد صدقني ؟ فقال له الوليد بن المغيرة : ما صدقك ، ولكن قال : ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له . انتهى .

أما القول : إن كان لله ولد في زعمكم ، فهو قول مجاهد ، وأما القول : فأنا أول الآنفين ، فهو قول جماعة ، حكاه عنهم أبو حاتم ولم يسم أحداً منهم ، ويدل عليه قراءة السلمي واليماني : العبدين ، وقراءة ذكرها الخليل بن أحمد في كتابه العين : العبدين ، بإسكان الباء ، تخفيف العبدين بكسرها .

وذكر صاحب اللوامح أنه جاء عن ابن عباس في معنى العابدين : أنه الآنفين انتهى .

وقال ابن عرفة : يقال : عبد يعبد فهو عبد ، وقلما يقال : عابد .

والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، ثم قال : كقول مجاهد .

وقال الفرزدق :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم . . .

واعبد أن أهجوا كليباً بدارمي

أي : آنف وأستنكف .

وقال آخر :

متى ما يشا ذو الود يصرم خليله . . .

ويعبد عليه لا محالة ظالما

وأما القول بأن إن نافية ، فمروي عن ابن عباس ، والحسن ، والسدي ، وقتادة ، وابن زيد ، وزهير بن محمد ، وقال مكي : لا يجوز أن تكون إن بمعنى ما النافية ، لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت ، وهذا محال .

انتهى .

(34/694)

ولا يلزم منه محال ، لأن كان قد تستعمل فيما يدوم ولا يزول ، كقولك : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لم يزل ، فالمعنى : ما كان وما يكون .

وقال أبو حاتم : العبد ، بكسر الباء : الشديد الغضب .

وقال أبو عبيدة : معناه أول الجاحدين .

والعرب تقول : عبدني حقي ، أي جحدني .

وقرأ ولد بفتحتين .

عبد الله ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : بضم الواو وسكون اللام .

ثم قال : ﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ : أي من نسبة الولد إليه ، والمعنى : إزالة العلم يجب أن يكون واجب الوجود ، وما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزي .

والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أجزائه ، فيتولد منه شخص مثله ، ولا يكون إلا فيما هو قابل ذاته للتجزي ، وهذا محال في حقه تعالى ، فامتنع إثبات الولد .

ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال : ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ ، أي في باطلهم ، ﴿ ويلعبوا ﴾ ، أي في دنياهم .

وظاهر هذين الأمرين مهادنة وترك ، وذلك مما نسخ بآية السيف .

وقرأ الجمهور : ﴿ حتى يلاقوا ﴾ ، وأبو جعفر ، وابن محيصن ، وعبيد بن عقيل ، عن أبي

عمرو : يلقوا ، مضارع لقي .

﴿ يومهم الذي يوعدون ﴾ : يوم القيامة .

وقال عكرمة وغيره : يوم بدر ، وأضاف اليوم إليهم ، لأنه الذي فيه هلاكهم وعذابهم .

وقرأ الجمهور : إله فيهما .

وقرأ عمر .

وعبد الله ، وأبي ، وعلي ، والحكم بن أبي العالي ، وبلال بن أبي بردة ، وابن يعمر ، وجابر ، وابن زيد ، وعمر بن عبد العزيز ، وأبو الشيخ الهنائي ، وحميد ، وابن مقسم ، وابن السميفع : الله فيهما .

ومعنى إله : معبود به ، يتعلق الجار والمجرور ، والمعنى : أنه هو معبود في السماء ومعبود في الأرض ، والعائد على الموصول محذوف تقديره : هو إله ، كما حذف في قولهم : ما أنا بالذي قائل لك شيئاً ، وحسنه طوله بالعطف عليه ، كما حسن في قائل لك شيئاً طوله بالمعول .

(35/694)

ومن قرأ : الله ، ضمنه أيضاً معنى المعبود ، كما ضمن العلم في نحو قولهم : هو حاتم في طيىء ، أي جواد في طيىء .

ويجوز أن تكون الصلة الجار والمجرور .

والمعنى : أنه فيهما بالإلهية والربوبية ، إذ يستحيل حمله على الاستقرار .

وفي قوله : ﴿ وفي الأرض ﴾ ، نفى لآلهتهم التي كانت تعبد في الأرض .

﴿ وعنده علم الساعة ﴾ : أي علم تعيين وقت قيامها ، وهو الذي استأثر به تعالى .

وقرأ الجمهور : يرجعون ، بياء الغيبة ؛ ونافع ، وعاصم ، والعدنيان : بتاء الخطاب ، وهو في كلتا القراءتين مبني للمفعول .

وقرىء : بفتح تاء الخطاب مبنياً للفاعل .

وقرأ الجمهور : بياء الغيبة وشد الدال ، وعنه بتاء الخطاب وشد الدال ، والمعنى : ولا يملك آلهتهم التي يدعون الشفاعة عند الله .

قال قتادة : استثنى ممن عبد من دون الله عيسى وعزيراً والملائكة ، فإنهم يملكون شفاعة بأن يملكها الله إياهم ، إذ هم ممن شهد بالحق ، وهم يعلمونه في أحوالهم ، فالاستثناء على هذا متصل .

وقال مجاهد وغيره : من المشفوع فيهم ؟ كأنه قال : لا يشفع هؤلاء الملائكة وعزير وعيسى إلا فيمن شهد بالحق ، وهو يعلمه ، أي بالتوحيد ، قالوا : فالاستثناء على هذا منفصل ،

كأنه قال : لكن من شهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء .

وهذا التقدير الذي قدروه يجوز أن يكون فيه الاستثناء متصلاً ، لأنه يكون المستثنى منه محذوفاً ، كأنه قال : ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة في أحد ، إلا فيمن شهد بالحق ، فهو استثناء من المفعول المحذوف ، كما قال الشاعر :

نجا سالم والنفس منه بشدقه . . .

ولم ينج إلا جفن سيف ومئزار

أي : ولم ينج إلا جفن سيف ، فهو استثناء من المشفوع فيهم الجائز فيه الحذف ، وهو متصل .

فإن جعلته مستثنى من ﴿ الذين يدعون ﴾ ، فيكون منفصلاً ، والمعنى : ولا يملك آلهتهم ، ويعني بهم الأصنام والأوثان ، الشفاعة .

كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله .

(36/694)

ولكن ﴿ من شهد بالحق ﴾ ، وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما شهد به ، هو الذي يملك الشفاعة ، وإن أدرجت الملائكة في ﴿ الذين يدعون ﴾ ، كان استثناء متصلاً .

وقرأ الجمهور : ﴿ فانى يؤفكون ﴾ ، بياء الغيبة ، مناسباً لقوله : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ ، أي كيف يصرفون عن عبادة من أقروا أنه موجد العالم .

وعبد الوارث ، عن أبي عمرو : بتاء الخطاب .

وقرأ الجمهور : وقيله ، بالنصب .

فعن الأخفش : أنه معطوف على سرهم ونجواهم ، وعنه أيضاً : على وقال قيله ، وعن الزجاج ، على محل الساعة في قوله : ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ .

وقيل : معطوف على مفعول يكتبون المحذوف ، أي يكتبون أقوالهم وأفعالهم .

وقيل : معطوف على مفعول يعلمون ، أي يعلمون الحق .

﴿ وقيله يا رب ﴾ : وهو قول لا يكاد يعقل ، وقيل : منصوب على إضمار فعل ، أي ويعلم قيله .

وقرأ السلمي ، وابن وثاب ، وعاصم ، والأعمش ، وحمزة ، وقيله ، بالخفض ، وخرج على أنه عطف على الساعة ، أو على أنها واو القسم ، والجواب محذوف ، أي : لينصرن ، أو لأفعلن بهم ما أشاء .

وقرأ الأعرج ، وأبو قلابة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، ومسلم بن جندب : وقيله بالرفع ، وخرج على أنه معطوف على علم الساعة ، على حذف مضاف ، أي وعلم قيله حذف ، وأقيم المضاف إليه مقامه .

وروي هذا عن الكسائي ، وعلى الابتداء ، وخبره : يا رب إلى لا يؤمنون ، أو على أن الخبر محذوف تقديره مسموع ، أو متقبل ، فجملة النداء وما بعده في موضع نصب بو قيله .

وقرأ أبو قلابة : يا رب ، بفتح الباء ؛ أراد : يا ربا ، كما تقول : يا غلام .

ويتخرج على جواز الأخفش : يا قوم ، بالفتح وحذف الألف والاجتزاء بالفتحة عنها .

وقال الزمخشري : والذي قالوه يعني من العطف ليس بقوي في المعنى ، مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطف عليه بما لا يحسن اعتراضاً ، ومع تنافر النظم ، وأقوى من ذلك .

(37/694)

والوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه ، والرفع على قولهم : أيمن الله ، وأمانة الله ، ويمين الله ، ولعمرك ، ويكون قوله : ﴿ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ ، جواب القسم ، كأنه قال : وأقسم بقيله ، أو وقيله يا رب قسمي .

﴿ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ ، وإقسام الله بقيله ، رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه . انتهى ، وهو مخالف لظاهر الكلام ، إذ يظهر أن قوله : يا رب إلى لا يؤمنون ، متعلق بقيله ، ومن كلامه عليه السلام : وإذا كان أن هؤلاء جواب القسم ، كان من إخبار الله عنهم وكلامه ، والضمير في وقيله للرسول ، وهو المخاطب بقول ﴿ فاصفح عنهم ﴾ ، أي

أعرض عنهم وتاركهم ، ﴿ وقل سلام ﴾ ، أي الأمر سلام ، فسوف يعلمون وعيد لهم وتهديد وموادعة ، وهي منسوخة بآية السيف .

وقرأ الجمهور : يعلمون ، بياء الغيبة ، كما في : فاصفح عنهم .

وقرأ أبو جعفر ، والحسن ، والأعرج ، ونافع ، وهشام : بتاء الخطاب .

وقال السدي : وقل سلام ، أي خيراً بدلاً من شرهم .

وقال مقاتل : أورد عليهم معروفاً .

وحكى الماوردي : قل ما تسلم به من شرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(38/694)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا عباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

حكايةٌ لما يُنادَى به المتقونَ المتحابونَ في الله يومئذٍ تشريفاً لهم وتطييباً لقلوبهم . ﴿ الذين ءامَنُواْ بآياتنا ﴾ صفةٌ للمُنادَى أو نُصب على المدحِ . ﴿ وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ أي مُخلصينَ وجوهَهُم لنَا جاعلينَ أنفسَهُم سالمةً لطاعتِنا ، وهو حالٌ من واوِ آمنُوا . عن مقاتلٍ : إذَا

بعثَ اللهُ النَّاسَ فزعَ كلُّ أحدٍ فيُنادِي منادٍ يا عبادِي فيرفعُ الخلائقُ رؤوسَهُم على الرجاءِ ثم يتبعُها الذينَ آمنُوا الآيةَ فينكّسُ أهلُ الأديانِ الباطلةِ رؤوسَهُم . ﴿ ادخلوا الجنة أَنتُمْ وأزواجكم ﴾ نساؤُكم المؤمناتُ . ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تُسرُّون سروراً يظهرُ حَبارُه أي أثرُه على وجوهِكم ، أو تُزينونَ من الحَبَرةِ وهو حُسن الهيئةِ ، أو تُكرمونَ إكراماً بليغاً . والحَبْرةُ المبالغةُ فيما وصفَ بجميلٍ . ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ بعدَ دخولِهم الجنَّةَ حسبَما أُمروا بهِ . ﴿ بصحاف مّن ذَهَبٍ وأكواب ﴾ كذلك . والصِّحافُ جمعُ صَحْفةٍ ، قيلَ : هيَ كالقصعَةِ ، وقيلَ : أعظمُ القِصَاعِ الجفنةُ ثم القصعةُ ثم الصحفةُ ثم المكيلةُ . والأكوابُ جمعُ كوبٍ وهو كوزٌ لا عُروةَ لَهُ . ﴿ وَفِيهَا ﴾ أي في الجَّنةِ ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس ﴾ من فُنونِ الملاذِّ . وقُرِئَ ما تَشْتَهي . ﴿ وَتَلَذُّ الأعين ﴾ أي تستلذُّه وتقرُّ بمشاهدتِه ، وقُرِئَ وتلذُّهُ ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خالدون ﴾ إتمامٌ للنعمةِ وإكمالٌ للسرورِ ، فإنَّ كلَّ نعيمٍ له زوالٌ بالآخرةِ مقارنٌ لخوفِه لا محالةَ . والالتفاتُ للتشريفِ .

(39/694)

﴿ وَتِلْكَ الجنة ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ ﴿ التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ وقُرِئَ وُرِّثْتُمُوهَا ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدُنيا الأعمالِ الصالحةِ ، شبَّه جزاءَ العملِ بالميراثِ لأنَّه يخلُفه العامل عليه ،

وقيلَ تلكَ الجنةُ مبتدأٌ وصفةٌ والموصولُ مع صلتِه خبرُهُ ، وقيلَ : هو صفةُ الجنةُ كالوجهِ الأولِ والخبرُ بما كنتُم تعملُون فتتعلقُ الباءُ بمحذوفٍ لا بأُورثتمُوها كما في الأولَينِ . ﴿ لَكُمْ فِيهَا فاكهة كَثِيرَةٌ ﴾ بحسبِ الأنواعِ والأصنافِ لا بحسبِ الأفرادِ فقطْ ﴿ مّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي بعضَها تأكلونَ في كلِّ نوبةٍ ، وأمَّا الباقِي فعَلى الأشجارِ على الدوامِ لا ترى فيها شجرةً خلتْ عن ثمرِهَا لحظةً فهي مزينةٌ بالثمارِ أبداً مُوقَرةٌ بَها . وعنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " لا ينزعُ رجلٌ من الجنَّةِ من ثمرِها إلا نبتَ مثلاَها مكانَها " .

(40/694)

﴿ إِنَّ المجرمين ﴾ أي الراسخينَ في الإجرامِ وهم الكفارُ حسبَما نبىءُ عنْهُ إيرادُهم في مقابلةِ المؤمنينَ بالآياتِ ﴿ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خالدون ﴾ خبرُ إنَّ ، أو خالدونَ هُو الخبرُ ، وفي متعلقةٌ بِهِ . ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخففُ العذابُ عنُهم ، من قولِهم فَتَرتْ عنْهُ الحُمَّى إذا سكِنتْ قليلاً ، والتركيبُ للضعفِ . ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ أي في العذابِ . وقُرِىءَ فيَها أي في النَّارِ ﴿ مُّبْلِسُونَ ﴾ آيسونَ منَ النَّجاةِ . ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بذلكَ ﴿ ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ لتعريضِهم أنفسَهُم للعذابِ الخالدِ . ﴿ وَنَادَوْاْ ﴾ خازنَ النَّارِ ﴿ يا مالك ﴾ وقُرِىءَ يا مَالِ على التَّرخيمِ بالضمِّ والكسرِ ، ولعلَّه رمزٌ إلى ضعفِهم وعجزِهم عن تأديةِ

اللفظِ بتمامِه . ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي لِيُمتنا حتَّى نستريحَ من قضَى عليه إذا أماتَهُ والمعنى سَلْ ربَّك أنْ يقضي علينا ، وهَذا لا يُنافِي ما ذُكرَ من إبلاسِهم لأنَّه جؤارٌ وتمنَ للموتِ لفرطِ الشدَّةِ ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ أيْ فِي العذابِ أبداً لا خلاصَ لكُم منْهُ بموتٍ ولا بغيرِه ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهُما : أنَّه لا يُجيبُهم إلا بعدَ ألفِ سنةٍ ، وقيلَ : بعد مائةٍ ، وقيلَ : بعدَ أربعينَ سنةً .

(41/694)

﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ ﴾ في الدُّنيا بإرسالِ الرُّسلِ وإنزال الكتبِ وهو خِطَابُ توبيخٍ وتقريعٍ من جهةِ الله تعالَى مقررٌ لجوابِ مالكٍ ومبينٌ لسببِ مكثِهم ، وقيلَ : في قالَ ضميرُ الله تعالَى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ ﴾ أي حقَ كانَ ﴿ كَارِهُونَ ﴾ لا يقبلونَهُ وينفرونَ عنْهُ ، وأما الحقُّ المعهودُ الذي هو التوحيدُ أو القرآنُ فكلُّهم كارهونَ له مشمئزّونَ منْهُ ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً ﴾ كلامٌ مبتدأٌ ناعٍ على المشركينَ ما فعلُوا من الكيدِ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم . وأمْ منقطعةٌ وما فيها من معنًى بلْ للانتقالِ من توبيخِ أهلِ النَّارِ إلى حكايةِ جنايةِ هؤلاءِ ، والهمزةُ للإنكارِ ، فإنْ أُريدَ بالإبرامِ الإحكامُ حقيقةً فهيَ لإنكارِ الوقوعِ واستبعادِه ، وإنْ أُريدَ الإحكامُ صورةً فهيَ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه أيْ أأبرمَ مشركُو مكَةَ أمراً من كيدِهم

ومكرِهم برسولِ الله صلى الله عليه وسلم. ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ كيدنَا حقيقةً لا همُ أو فإنَّا مبرمونَ كيدنَا بهم خقيقةً كما أبرمُوا كيدَهُم صورةً كقولِه تعالى: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ وكانُوا يتناجَون في أنديتِهم ويتشاورُون في أمورِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

(42/694)

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ ﴾ أي بلْ أيحسبونَ ﴿ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ وهو ما حدَّثُوا به أنفسَهُم أو غيرَهُم في مكانٍ خالٍ ﴿ ونجواهم ﴾ أي ما تكلمُوا به فيما بينهم بطريقِ التَّناجِي ﴿ بلى ﴾ نحن نسمعُهما ونطَّلِعُ عليهما ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ الذينَ يحفظونَ عليهم أعمالَهم ويلازمونَهم أينَما كانُوا ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ عندَهُم ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ أي يكتبونهما أو يكتبونَ كلَّ ما صدرَ عنهُم من الأفعالِ والأقوالِ التي من جُمْلتِها ما ذُكرَ من سرِّهم ونجواهم. والجملةُ إما عطفٌ على ما يترجمُ عنْهُ بَلَى، أو حالٌ، أي نسمعُهما والحالُ أنَّ رسلَنا يكتبونَ ﴿ قُلْ ﴾ أي للكَفرةِ تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً لهم على أنَّ مخالفتَكَ لهم بعدمِ عبادتِك لما يعبدونَهُ من الملائكةِ عليهمِ السَّلامُ ليستْ لبغضِكَ وعداوتِكَ لَهُم أو لمعبوديهم، بلْ إنَّما هُو لجزمِكَ باستحالةِ ما نسبُوا إليهم وبنَوا عليه عبادتَهُم من كونِهم بناتِ الله تعالى ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ

العابدين ﴾ أيْ لَهُ وذلكَ لأَنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أعلمُ النَّاسِ بشؤونِه تعالَى وبما يجوزُ عليهِ وبما لا يجوزُ وأولاهُم بمراعاةِ حقوقِه ومن مواجبِ تعظيمِ الوالدِ تعظيمُ ولدِه ، وفيهِ من الدلالةِ على انتفاءِ كونِهم كذلكَ على أبلغِ الوجوهِ وأقواها وعلى كونِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم على قوةِ يقينٍ وثباتِ قدمٍ في بابِ التَّوحيدِ ما لا يَخْفى معَ ما فيهِ من استنزالِ الكفرةِ عن رُتبةِ المكابرةِ حسبمَا يُعربُ عنْهُ إيرادُ إنْ مكانَ لَوْ المنبئةِ عن امتناعِ مقدمِ الشرطيةِ ، وقيلَ : إنْ كانَ للرحمنِ ولدٌ في زعمِكم فأَنَا أولُ العابدينَ الموحدينَ للهِ تعالَى ، وقيلَ : فأَنَا أولُ الآنفينَ أي المستنكفينَ منْهُ أو منْ أنْ يكونَ له ولدٌ ، منْ عَبِدَ يَعْبَدُ إذَا اشتدَّ أَنَفُه ، وقيلَ : إنْ نافيةٌ أي ما كانَ للرحمنِ ولدٌ فأَنَا أولُ

(43/694)

من قالَ بذلكَ . وقُرِيءَ وُلْدٌ .

﴿ سبحانَ ربِّ السموات والأرض ربِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي يصفونَهُ بهِ منْ أنْ يكونَ له ولدٌ . وفي إضافةِ اسمِ الربِّ إلى أعظمِ الأجرامِ وأقواها تنبيهٌ على أنَّها وما فيهَا من المخلوقاتِ حيثُ كانتْ تحتَ ملكوتِه وربوبيتِه كيفَ يتوهمُ أنْ يكونَ شيءٌ منها جُزْءاً منْهُ سبحانَهُ وفي تكريرِ اسمِ الربِّ تفخيمٌ لشأنِ العرشِ . ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ حيثُ لمْ يُذعنُوا للحقِّ

بعد ما سمعُوا هذا البرهانَ الجليَّ. ﴿ يَخُوضُواْ ﴾ في أباطيلِهم ﴿ وَيَلْعَبُواْ ﴾ في دُنياهُم فإنَّ ما هُم فيهِ من الأفعالِ والأقوالِ ليستْ إلا من بابِ الجهلِ واللعبِ. والجزمُ في الفعلِ لجوابِ الأمرِ. ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ من يومِ القيامةِ فإنَّهم يومئذٍ يعلمونَ ما فعلُوا وما يُفعلُ بهم. ﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله ﴾ الظرفانِ متعلقانِ بالمَعْنى الوصفيِّ، الذي ينبىءُ عنْهُ الاسمُ الجليلُ من مَعْنى المعبوديةِ بالحقِّ بناءً على اختصاصهِ بالمعبودِ بالحقِّ كما مرَّ في تفسيرِ البسملةِ، كأنَّه قيلَ: وهُو الذي مستحقٌّ لأنْ يعبدَ فيهمَا، وقد مرَّ تحقيقُه في سورةِ الأنعامِ.

وقُرِىءَ وهُو الذي في السماءِ اللهُ وفي الأرضِ اللهُ، والراجعُ إلى الموصولِ مبتدأٌ قد حذفَ لطولِ الصلةِ بمتعلقِ الخبرِ والعطفِ عليهِ، ولا مساغَ لكونِ الجارِّ خبراً مقدماً وإلهٌ مبتدأٌ مؤخرٌ للزومِ عراءِ الجُملةِ حينئذٍ عن العائدِ، نعمَ يجوزُ أن يكونَ صلةً للموصولِ وإلهٌ خبراً لمبتدأٍ محذوفٍ، على أنَّ الجملةَ بيانٌ للصلةِ وأنَّ كونَهُ في السماءِ على سبيلِ الإلهيةِ لا على سبيلِ الاستقرارِ، وفيهِ نفيُ الآلهةِ السماويةِ والأرضيةِ وتخصيصٌ لاستحقاقِ الإلهيةِ به تعالَى. وقولُه تعالَى: ﴿ وَهُوَ الحكيم العليم ﴾ كالدليلِ على ما قبلَهُ.

(44/694)

﴿ وَتَبَارَكَ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ إمَّا على الدوامِ كالهواءِ أو في بعضِ الأوقاتِ كالطيرِ. ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ أي العلمُ بالساعةِ التي فيها تقومُ القيامةُ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاءِ. والالتفاتُ للتهديدِ، وقُرِىءَ على الغَيبةِ، وقُرِىءَ تُحشرونَ.

(45/694)

﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ ﴾ أي يدعُونهم، وقُرِىءَ بالتَّاءِ مخففاً ومشدداً ﴿ مِن دُونِهِ الشفاعة ﴾ كما يزعمُونَ ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ الذي هُو التوحيدُ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بما يشهدونَ بِهِ عن بصيرةٍ وإيقانٍ وإخلاص، وجمعُ الضميرِ باعتبارِ مَعْنى مَنْ كمَا أنَّ الإفرادَ أولاً باعتبارِ لفظِها، والاستثناءُ إمَّا متصلٌ والموصولُ عامٌّ لكلِّ ما يُعبدُ من دونِ الله، أو مُنفصلٌ على أنَّه خاصٌّ بالأصنامِ. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أي سألتَ العابدينَ والمعبودينَ ﴿ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ لتعذرِ الإنكارِ لغايةِ بطلانِه ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيفَ يُصرفونَ عن عبادتِه إلى عبادةِ غيرِه مع اعترافِهم بكونِ الكلِّ مخلوقاً له تعالى ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ بالجرِّ، إمَّا على أنَّه عطفٌ على الساعةِ أيْ عندَهُ علمُ الساعةِ وعلم قولِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ يا ربِّ ﴾ الخ. فإنَّ القولَ والقيلَ والقالَ كلَّها مصادرُ، أو عَلى أنَّ الواوَ للقسمِ،

وقولَه تعالَى : ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ جوابُه . وفي الإقسامِ بِهِ من رفعِ شأنِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام وتفخيمِ دُعائِه والتجائِه إليهِ تعالَى ما لا يَخْفى . وقُرِىءَ بالنصب بالعطفِ على سرَّهم أو على محلِّ الساعةِ أو بإضمارِ فعلِه أو بتقديرِ فعلِ القسمِ ، وقُرِىءَ بالرفعِ على الابتداءِ والخبرُ ما بعدَهُ ، وقد جُوِّزَ عطفُه على علمُ الساعةِ . ﴿ فاصفح عَنْهُمْ ﴾ فأعرضْ عن دعوتِهم واقنَطْ عن إيمانِهم ﴿ وَقُلْ سلام ﴾ أيْ أمري تسلمٌ منكم ومتاركةٌ . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ حالَهم ألبتةَ وإنْ تأخرَ ذلكَ ، وهو وعيدٌ من الله تعالَى لهم وتسليةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم . وقُرِىءَ تعلمونَ على أنَّه داخلٌ في حيزِ قُلْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(46/694)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله ﴾

الظرفان متعلقان بإله لأنه صفة بمعنى معبود من أله بمعنى عبد وهو خبر مبتدأ محذوف أي هو إله وذلك عائد الموصول وحذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه .

وقال غير واحد : الجار متعلق بإله باعتبار ما ينبىء عنه من معنى المعبودية بالحق بناء

على اختصاصه بالمعبود بالحق وهذا كتعلق الجار بالعلم المشتهر بصفة نحو قولك : هو حاتم في طيء حاتم في تغلب ، وعلى هذا تخرج قراءة عمر .

وعلي .

وعبد الله .

وأبي .

والحكم بن أبي العالي .

وبلال بن أبي بردة .

وابن يعمر .

وجابر .

وابن زيد .

وعمر بن عبد العزيز .

وأبو شيخ الهنائي .

وحميد .

وابن مقسم .

وابن السميقع ﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء الله وَفِيكُمْ الأرض الله ﴾ فيعلق الجار بالاسم الجليل باعتبار الوصف المشتهر به ، واعتبر بعضهم معنى الاستحقاق للعبادة وعلل ذلك

بأن العبادة بالفعل لا تلزم ، وجوز كون الجار والمجرور صلة الموصول ، و ﴿ إِلَهٍ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أيضاً على أن الجملة بيان للصلة وأن كونه سبحانه في السماء على سبيل الإلهية لا على معنى الاستقرار .

(47/694)

واختيار كون ﴿ إِلَهٍ ﴾ في هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف على كونه خبراً آخر للمبتدأ المذكور أو بدلاً من الموصول أو من ضميره بناء على تجويزه لأن إبدال النكرة الغير الموصوفة من المعرفة إذا أفادت ما لم يستفد أولاً كما هنا جائز حسن على ما قال أبو علي في الحجة لأن البيان ههنا أتم وأهم فلذا رجح مع ما فيه من التقدير وحينئذ فلا فاصل أجنبي بين المتعاطفين ، ولا يجوز كون اجلار والمجرور خبر مقدماً وإله مبتدى مؤخراً للزوم خلو الجملة عن العائد مع فساد المعنى ، وفي الآية نفي الآلهة السماوية والأرضية واختصاص الإلهية به عز جل لما فيها من تعريف طرفي الإسناد ، والموصول في مثل ذلك كالمعرف بالأداة وللاعتناء بكل من إلهيته تعالى في السماء وإلهيته عز وجل في الأرض قيل دوهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ ولم يقل : وهو الذي في السماء وفي الأرض إله أو هو الذي في

السماء والأرض إله ، وحديث الإعادة قيل مما لا يجري ههنا لأن القاعدة أغلبية كأكثر قواعد العربية .

(48/694)

وقال بعض الأفاضل : يجوز إجراء القاعدة فيه والمغايرة بين الشيئين أعم من أن تكون بالذات أو بالوصف والاعتبار والمراد هنا الثاني ولا شك أن طريق عبادة أهل السماء له تعالى غير طريق عبادة أهل الأرض على ما يشهد به تتبع الآثار فإذا كان إله بمعنى معبود كان معنى الآية أنه تعالى معبود في السماء على وجه ومعبود في الأرض على وجه آخر ، وإن كان بمعنى التحير فيه فالتحير في أهل السماء غير التحير في أهل الأرض فلا جرم تكون أطوارهم مخالفة لأطوار أهل الأرض ، ومن ذلك اختلاف علومهم فإن علوم أهل الأرض إن كانت ضرورية فأكثرها مستندة إلى الحس وإن كانت نظرية كانت مكتسبة من النظر فإذا انسد طريق النظر والحس عجزوا وتحيروا ولا كذلك أهل السماء لتنزههم عن الكسب والحسن فتحيرهم على نحو آخر ، أو نقول التحير في إدراك ذاته تعالى وصفاته إنما ينشأ من مشاهدة آثار عظمته وكمال قدرته سبحانه ولا شك أن تلك الآثار في السماء أعظم من الآثار في الأرض وعليه فيجوز أن يكون الإله بمعنى المتحير فيه ويكون مجازاً عن عظيم

الشأن من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم فيكون المعنى أنه تعالى عظيم الشأن في السماء على نحو وعظيم الشأن في الأرض على نحو آخر اه ، ولا يخلو عن شيء كما لا يخفى ﴿ وَهُوَ الحكيم العليم ﴾ كالدليل على النفي والاختصاص المشار إليهما فإن من لا يتصف بكمال الحكمة والعلم لا يستحق الإلهية .

(49/694)

﴿ وَتَبَارَكَ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كالهواء ومخلوقات الجو المشاهدة وغيرها ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ أي العلم بالساعة أي الزمان الذي تقوم القيامة فيه فالمصدر مضاف لمفعوله ، والساعة بمعناها اللغوي وهو مقدار قليل من الزمان ، ويجوز أن يراد بها معناها الشرعي وهو يوم القيامة ، والمحذور مندفع بأدنى تأمل ، وفي تقديم الخبر إشارة إلى استئثاره تعالى بعلم ذلك ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء ، والالتفات إلى الخطاب للتهديد ، وقرأ الأكثر بياء الغيبة والفعل في القراءتين مبني للمفعول ؛ وقرىء بفتح تاء الخطاب والبناء للفاعل ، وقرىء ﴿ تُحْشَرُونَ ﴾ بتاء الخطاب أيضاً والبناء للمفعول .

﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ ﴾ أي ولا يملك آلهتهم الذين يدعونهم ﴿ مِن دُونِهِ الشفاعة

﴿ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله عز وجل ، وقرىء ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بتاء الخطاب والتخفيف ؛ والسلمي .

وابن وقاب بها وشد الدال ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ الذي هو التوحيد ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يعلمونه ، والجملة في موضع الحال ، وقيد بها لأن الشهادة عن غير علم بالمشهود به لا يعول عليها ، وجمع الضمير باعتبار معنى من كما كما أن الافراد أولا باعتبار لفظه ، والمراد به الملائكة .

وعيسى وعزير .

(50/694)

وأضرابهم صلاة الله تعالى وسلامه عليهم ، والاستثناء قيل : متصل إن أريد بالذين يدعون من دونه كل ما يعبد من دون الله عز وجل ومنفصل إن أريد بذلك الاصنام فقط ، وقيل : هو منفصل مطلقاً وعلل بإن المراد نفي ملك الآلهة الباطلة السفاعة للكفرة ومن شهد بالحق منها لا يملك الشفاعة لهم أيضاً وإنما يملك الشفاعة للمؤمنين فكأنه قيل على تقدير التعميم : ولا يملك الذين يدعونهم من دون الله تعالى كائنين ما كانوا السفاعة لهم لكن من شهد بالحق يملك الشفاعة لمن شاء الله سبحانه من المؤمنين ؛ فالكلام نظير قولك) ما جاء القوم إلى إلا

زيدا جاء إلى عمرو فتأمل .

وقال مجاهد .

وغيره : المراد بمن شهد بالحق المشفوع فيهم ، وجعل الاستثناء عليه متصلا والمستثنى منه محذوفاً كأنه قيل : ولا يملك هؤلاء الملائكة واضرابهم الشفاعة في أحد إلا فيمن وحد عن إيقان وإخلاص ومثله في حذف المستثنى منه قوله :

نجا سالم والنفس منه بشرقة . . .

ولم ينج إلا جفن سيف ومئزراً

أي ولم ينج شيء إلا جفن سيف ، واستدل بالآية على أن العلم ما لا بد منه في الشهادة دون المشاهدة .

(51/694)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أي سألت العابدين أو المعبودين ﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ لتعذر المكابرة في ذلك من فرط ظهوره ووجه قول المعبودين ذلك أظهر من أن يخفى ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف يصرفون عن عبادته تعالى إلى عبادة غيره سبحانه ويشركونه معه عز وجل مع إقرارهم بأنه تعالى خالقهم أو مع علمهم بإقرار آلهتهم بذلك ، والفاء جزائية أي إذا

كان الأمر كذلك فإني الخ ، والمراد التعجب من اشراكهم مع ذلك ، وقيل : المعنى فكيف يكذبون بعد علمهم بذلك فهو تعجب من عبادة غيره تعالى وإنكارهم للتوحيد مع أنه مركوز في فطرتهم ، وأياً ما كان فهو متعلق بما قبله من التوحيد والإقرار بأنه تعالى هو الخالق ، وأما كون المعنى فكيف أو أين يصرفون عن التصديق بالبعث مع أن الإعادة أهون من الإبداء وجعله متعلقاً بأمر الساعة كما قيل فيأباه السياق .

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ تُؤْفَكُونَ ﴾ بتاء الخطاب .

﴿ وَقِيلِهِ يارب رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بجر ﴿ قيله ﴾ وهي قراءة عاصم .

وحمزة .

والسلمي .

وابن وثاب : والأعمش .

وقرأ الأعرج .

وأبو قلابة .

ومجاهد .

والحسن .

وقتادة .

ومسلم بن جندب برفعه وهي قراءة شاذة .

وقرأ الجمهور بنصبه ، واختلف في التخريج فقيل الجر على عطفه على لفظ الساعة في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [الزخرف : 85] أي عنده علم قيله ، والنصب على عطفه على محلها لأنها في محل نصب بعلم المضاف إليها فإنه كما قدمنا مصدر مضاف لمفعوله فكأنه قيل : يعلم الساعة ويعلم قيله ، والرفع على عطفه على ﴿ عِلْمُ الساعة ﴾ على حذف مضاف والأصل وعلم قيله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ونسب الوجه الأول لأبي علي والثالث لابن جنى وجميع الأوجه للزجاج وضمير ﴿ قيله ﴾ عليها للرسول صلى الله عليه وسلم المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ [الزخرف : 87] والقيل والقال والقول مصادر جاءت بمعنى واحد ، والمنادي وما في حيزه مقول القول ، والكلام خارج مخرج التحسر والتحزن والتشكي من عدم إيمان أولئك القوم ، وفي الإشارة إليهم بهؤلاء دون قوله قومي ونحوه تحقير لهم وبتر منهم لسوء حالهم ، والمراد من أخباره تعالى بعلمه ذلك وعيده سبحانه إياهم ، وقيل : الجر على إضمار حرف القسم والنصب على حذفه وإيصال فعله إليه محذوفاً والرفع على نحو لعمرك لأفعلن وإليه ذهب الزمخشري وجعل المقول يا رب وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ الخ جواب

القسم على الأوجه الثلاثة وضمير ﴿ قيله ﴾ كما سبق ، والكلام اخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون وإقسامه سبحانه عليه بقوله صلى الله عليه وسلم : يا رب لرفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتعظيم دعائه والتجائه إليه تعالى ، والواو عنده للعطف أعني عطف الجملة القسمية على الجملة الشرطية لكن لما كان القسم بمنزلة الجملة الاعتراضية صارت الواو كالمضمحل عنها معنى العطف ، وفيه أن الحذف الذي تضمنه تخريجه من ألفاظ شاع استعمالها في القسم كعمرك وايمن الله واضح الوجه على الأوجه اللثلاثة ، وأما في غيرها كالقيل هنا فلا حكاه في البحر وهو كما ترى ، وقيل : النصب على العطف على مفعول يكتبون المحذوف أي يكتبون

(53/694)

أقوالهم وأفعالهم وقيله يا رب الخ وليس بشيء ، وقيل : هو على العطف على مفعول ﴿ يعلمون ﴾ [الزخرف : 86] أعني الحق أي يعلمون الحق وقيل الخ ، وهو قول لا يكاد يعقل ، وعن الأخفش أنه على العطف على ﴿ سِرَّهُمْ ونجواهم ﴾ [الزخرف : 80] ورد بأنه ليس بقوى في المعنى مع وقوع الفصل بما لا يحسن اعتراضاً ومع تنافر النظم .

وتعقب أن ما ذكر من الفصل ظاهر وأما ضعف المعنى وتنافر النظم فغير مسلم لأن تقديره

أم يحسبون أنه لا نسمع سرهم ونجواهم وانا لا نسمع قيله الخ وهو منتظم أتم انتظام ، وعنه أيضاً أنه على اضمار فعل من القيل ناصب له على المصدرية والتقدير قال قيله ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿ وقال الرسول ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها .

(54/694)

ورد بأنه لا يظهر فيه ما يحسن عطفه على الجملة قبله وليس التأكيد بالمصدر في موقعه ولا ارتباط لقوله تعالى : ﴿ فاصفح ﴾ [الزخرف : 89] به ، وقال العلامة الطيبي : في توجيهه إن قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ [الزخرف : 87] تقديره وقلنا لك : ولئن سألتهم الخ وقلت : يا رب يأسا من إيمانهم وإنما جعل غائباً على طريق الالتفات لأنه كأنه صلى الله عليه وسلم فاقد نفسه للتحزن عليهم حيث لم ينفع فيهم سعيه واحتشاده ، وقيل : الواو على هذا الوجه للحال وقال بتقدير قد والجملة حالية أي فاني يؤفكون وقد قال الرسول يا رب الخ ، وحاصله فإني يؤفكون وقد شكا الرسول عليه الصلاة والسلام اصرارهم على الكفر وهو خلاف الظاهر ، وقيل : الرفع على الابتداء والخبر يا رب إلى لا يؤمنون أو هو محذوف أي مسمون أو متقبل فملة النداء وما بعده في موضع نصب بقيله والجملة حال أو معطوفة ، ولا يخفى ما في ذلك ، والأوجه عندي ما نسب إلى الزجاج ،

والاعتراض عليه بالفصل هين ، وبضعف المعنى والتنافر غير مسلم ، ففي الكشف بعد ذكر تخريج الزجاج الجر أن الفاصل أعني من قوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ إلى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : 85 87] يصلح اعتراضاً لأن قوله سبحانه ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [الزخرف : 85] مرتبط بقوله تعالى : ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ [الزخرف : 83] على ما لا يخفى ، والكلام مسوق للوعيد البالغ بقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : 85 ، 68] متصل بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [الزخرف : 85] اتصال العصا بلحاها ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ خطاب لمن يتأتى منه السؤال تتميم لذلك الكلام باستحقاقهم ما أوعدوه لعنادهم البالغ ، ومنه يظهر وقوع التعجب في قوله سبحانه : ﴿ فَإِنّي يُؤْفَكُونَ ﴾ وعلى هذا ظهر ارتباط وعلم قيله بقوله

(55/694)

تعالى : ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ وأن الفاصل متصل بهما اتصالاً يجل موقعه ، ومن هذا التقرير يلوح أن ما ذهب إليه الزجاج في الأوجه الثلاثة حسن ، ولك أن ترجحه على ما ذهب إليه الأخفش بتوافق القراءتين ، وأن حمل ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ على الخطاب المتروك

إلى غير معين أوفق بالمقام من حمله على خطابه عليه الصلاة والسلام وسلامته من اضمار القول قبل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ مع أن السياق غير ظاهر الدلالة عليه اه ، وهو أحسن ما رأيته للمفسرين في هذا المقام .

وقرأ أبو قلابة ﴿ قَالَتْ رَبّ ﴾ بفتح الباء ووجه ظاهر .

﴿ فاصفح ﴾ فأعرض ﴿ عَنْهُمْ ﴾ ولا تطمع في إيمانهم ، وأصل الصفح لي صفحة العنق فكنى به عن الإعراض .

﴿ وَقُلْ ﴾ لهم ﴿ سلام ﴾ أي امرى سلام تسلم منكم ومتاركة فليس ذلك أمراً بالسلام عليهم والتحية وإنما هو أمر بالمتاركة ، وحاصله إذا أبيتم القبول فأمري التسلم منكم ، واستدل بعضهم بذلك على جواز السلام على الكفار وابتدائهم بالتحية ، أخرج ابن أبي شيبة .

عن شعيب بن الحبحاب قال : كنت مع علي بن عبد الله البارقي فمر علينا يهودي أو نصراني فسلم عليه قال شعيب : فقلت : إنه يهودي أو نصراني فقرأ على آخر سورة الزخرف ﴿ وَقِيلِهِ يارب ﴾ [الزخرف : 88] إلى الآخر ، وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن عون بن عبد الله أنه قال قلت لعمر بن عبد العزيز كيف تقول أنت في ابتداء أهل الذمة بالسلام ؟ فقال : ما أرى بأساً أن نبتدئهم قلت لم ؟ قال : لقوله تعالى : ﴿ فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سلام ﴾ ومما ذكرنا يعلم ضعفه ، وقال السدى : المعنى قل خيراً بدلاً من شرهم ،

وقال مقاتل : اردد عليهم معروفاً ، وحكى الماوردي أي قل ما تسلم به من شرهم والكل كما ترى والحق ما قدمنا ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ حالهم السيئة وإن تأخر ذلك وهو وعيد من الله سبحانه لهم وتسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وقرأ أبو جعفر .

والحسن .

والأعرج .

ونافع .

(56/694)

وهشام ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ بتاء الخطاب على أنه داخل في حيز ﴿ قُلْ ﴾ وإن أريد من الآية الكف عن القتال فهي منسوخة وإن أريد الكف عن مقابلتهم بالكلام فليست بمنسوخة والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(57/694)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ المجرمين ﴾

أي : أهل الإجرام الكفرية ، كما يدل عليه إيرادهم في مقابلة المؤمنين الذين لهم ما ذكره الله سبحانه قبل هذا ﴿ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خالدون ﴾ لا ينقطع عنهم العذاب أبداً ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي : لا يخفف عنهم ذلك العذاب ، والجملة في محل نصب على الحال ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي : آيسون من النجاة ، وقيل : ساكتون سكوت يأس ، وقد مضى تحقيق معناه في الأنعام ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ أي : ما عذبناهم بغير ذنب ، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿ ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب .

قرأ الجمهور : ﴿ الظالمين ﴾ بالنصب على أنه خبر كان ، والضمير ضمير فصل .

وقرأ أبو زيد النحوي : (الظالمون) بالرفع على أن الضمير مبتدأ ، وما بعده خبره ، والجملة خبر كان ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك ﴾ أي : نادى المجرمون هذا النداء ، ومالك هو : خازن النار .

قرأ الجمهور : ﴿ يا مالك ﴾ بدون ترخيم .

وقرأ عليّ ، وابن مسعود ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش : (يا مال) بالترخيم ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ بالموت ، توسلوا بمالك إلى الله سبحانه ؛ ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت ؛ ليستريحوا من العذاب ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ ماكثون ﴾ أي : مقيمون في العذاب ، قيل : سكت

عن إجابتهم ثمانين سنة ، ثم أجابهم بهذا الجواب ، وقيل : سكت عنهم ألف عام ، وقيل : مائة سنة ، وقيل : أربعين سنة .

﴿ لَقَدْ جئناكم بالحق ﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام الله سبحانه ، ويحتمل أن يكون من كلام مالك ، والأوّل أظهر ؛ والمعنى : إنا أرسلنا إليكم الرسل ، وأنزلنا عليهم الكتب ، فدعوكم ، فلم تقبلوا ، ولم تصدّقوا ، وهو معنى قوله : ﴿ ولكن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقّ كارهون ﴾ لا يقبلونه ، والمراد بالحق : كل ما أمر الله به على ألسن رسله ، وأنزله في كتبه .

وقيل : هو خاص بالقرآن .

قيل : ومعنى ﴿ أكثركم ﴾ : كلكم .

(58/694)

وقيل : أراد الرؤساء ، والقادة ، ومن عداهم أتباع لهم ﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ أم هي : المنقطعة التي بمعنى بل ، والهمزة ، أي : بل أبرموا أمراً .

وفي ذلك انتقال من توجع أهل النار إلى حكاية ما يقع من هؤلاء ، والإبرام : الإتقان ، والإحكام ، يقال : أبرمت الشيء : أحكمته ، وأتقنته ، وأبرم الحبل : إذا أحكم فتله ، والمعنى : بل أحكموا كيداً للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإنا محكمون لهم كيداً قاله مجاهد

، وقتادة ، وابن زيد ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ [الطور : 42] وقيل : المعنى : أم قضوا أمراً ، فإنا قاضون عليهم أمرنا بالعذاب ، قاله الكلبي .

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونجواهم ﴾ أي : بل أيحسبون أنا لا نسمع ما يسرّون به في أنفسهم ، أو ما يتحادثون به سرًّا في مكان خالٍ ، وما يتناجون به فيما بينهم ﴿ بلى ﴾ نسمع ذلك ، ونعمل به ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي : الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول ، أو فعل ، والجملة في محل نصب على الحال ، أو معطوفة على الجملة التي تدلّ عليها بلى .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة ، ويقطع ما يوردونه من الشبهة ، فقال : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ أي : إن كان له ولد في قولكم ، وعلى زعمكم ، فأنا أوّل من عبد الله وحده ، لأن من عبد الله وحده ، فقد دفع أن يكون له ولد ، كذا قال ابن قتيبة .

وقال الحسن ، والسدّي : إن المعنى : ما كان للرحمن ولد ، ويكون قوله : ﴿ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ ابتداء كلام ، وقيل : المعنى : قل يا محمد إن ثبت لله ولد ، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته ، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد .

وفيه نفي للولد على أبلغ وجه ، وأتمّ عبارة ، وأحسن أسلوب ، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا وَإِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] ، ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره : إن ثبت ما تقوله بالدليل ، فأنا أوّل من يعتقده ، ويقول به ، فتكون "إن" في ﴿ إِن كَانَ ﴾ شرطية ، ورجح هذا ابن جرير ، وغيره .

وقيل : معنى العابدين : الآنفين من العبادة ، وهو تكلف لا ملجىء إليه ، ولكن قرأ أبو عبد الرحمن اليماني : (العبدين) بغير ألف ، يقال : عبد يعبد عبداً بالتحريك : إذا أنف ، وغضب ، فهو : عبد ، والاسم العبدة مثل الأنفة ، ولعل الحامل لمن قرأ هذه القراءة الشاذة البعيدة هو استبعاد معنى : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ ، وليس بمستبعد ، ولا مستنكر . وقد حكى الجوهري عن أبي عمرو في قوله : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ أنه من الأنف ، والغضب .

وحكاه الماوردي عن الكسائي ، والقتيبي ، وبه قال الفراء .

وكذا قال ابن الأعرابي : إن معنى العابدين : الغضاب الآنفين .

وقال أبو عبيدة : معناه : الجاحدين ، وحكى : عبدني حقي ، أي : جحدني ، وقد أنشدوا على هذا المعنى الذي قالوه قول الفرزدق :

أولئك أجلاسي فجئني بمثلهم . . . وأعبد أن أهجو كليباً بدارم

وقوله أيضاً :

أولاك أناس لو هجوني هجوتهم . . . وأعبد أن يهجى كليب بدارم

ولا شك أن عبد ، وأعبد بمعنى : أنف ، أو غضب ثابت في لغة العرب ، وكفى بنقل هؤلاء الأئمة حجة ، ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا ملجىء إليه ، ومن التعسف الواضح .

وقد ردّ ابن عرفة ما قالوه فقال : إنما يقال عبد يعبد ، فهو : عبد ، وقلّ ما يقال : عابد ، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ، ولا الشاذ .

(60/694)

قرأ الجمهور : ﴿ ولد ﴾ بالإفراد ، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما : (ولد) بضم الواو ، وسكون اللام ﴿ سبحان رَبّ السموات والأرض رَبّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : تنزيهاً له ، وتقديساً عما يقولون من الكذب بأن له ولداً ، ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجنابه ، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه ، فقد نزه نفسه عما قالوه ، وإن كان من تمام كلام رسوله الذي أمره بأن يقوله ، فقد أمره بأن يضمّ إلى ما حكاه عنهم بزعمهم الباطل تنزيه ربه ،

وتقديسه ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ أي : اترك الكفار حيث لم يهتدوا بما هديتهم به ، ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا في أباطيلهم ، ويلهوا في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ وهو : يوم القيامة ، وقيل : العذاب في الدنيا ، قيل : وهذا منسوخ بآية السيف ، وقيل : هو غير منسوخ ، وإنما أخرج مخرج التهديد .

قرأ الجمهور : ﴿ يلاقوا ﴾ ، وقرأ مجاهد ، وابن محيصن ، وحميد ، وابن السميفع : (حتى يلقوا) بفتح الياء ، وإسكان اللام من غير ألف ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو .

﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله ﴾ الجار ، والمجرور في الموضعين متعلق بإله ؛ لأنه بمعنى : معبود ، أو مستحق للعبادة ، والمعنى : وهو الذي معبود في السماء ، ومعبود في الأرض ، أو مستحق للعبادة في السماء ، والعبادة في الأرض .

قال أبو عليّ الفارسي : ﴿ وإله ﴾ في الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : وهو الذي في السماء هو إله ، وفي الأرض هو إله ، وحسن حذفه لطول الكلام ، قال : والمعنى : على الإخبار بإلاهيته ، لا على الكون فيهما .

قال قتادة : يعبد في السماء ، والأرض ، وقيل : في بمعنى على ، أي : هو القادر على السماء ، والأرض كما في قوله : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] وقرأ عمر بن الخطاب ، وعليّ بن أبي طالب ، وابن مسعود : (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله) على تضمين العلم معنى المشتق ، فيتعلق به الجار والمجرور من هذه الحيثية ﴿ وَهُوَ الحكيم العليم ﴾ أي : البليغ الحكمة الكثير العلم ﴿ وَتَبَارَكَ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ تبارك : تفاعل من البركة ، وهي : كثرة الخيرات ، والمراد بما بينهما : الهواء ، وما فيه من الحيوانات ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ أي : علم الوقت الذي يكون قيامها فيه ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازي كلّ أحد بما يستحقه من خير ، وشرّ ، وفيه وعيد شديد .

قرأ الجمهور : ﴿ ترجعون ﴾ بالفوقية ، وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، بالتحتية ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشفاعة ﴾ أي : لا يملك من يدعونه من دون الله من الأصنام ، ونحوها الشفاعة عند الله كما يزعمون أنهم يشفعون لهم .

قرأ الجمهور ﴿ يدعون ﴾ بالتحتية ، وقرأ السلمي ، وابن وثاب بالفوقية ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ أي : التوحيد ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : هم على علم ، وبصيرة بما شهدوا به ، والاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً ، والمعنى : إلا من شهد بالحق ، وهم : المسيح ، وعزير ، والملائكة ، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها .

وقيل : هو منقطع ، والمعنى : لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء ، ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفاً ، أي : لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق .

قال سعيد بن جبير ، وغيره : معنى الآية : أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق ، وآمن على علم ، وبصيرة .

وقال قتادة : لا يشفعون لعابديها ، بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية .

(62/694)

وقيل : مدار الاتصال في هذا الاستثناء على جعل الذين يدعون عاماً لكل ما يعبد من دون الله ، ومدار الانقطاع على جعله خاصاً بالأصنام .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ اللام هي : الموطئة للقسم ، والمعنى : لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام من خلقهم أقرّوا واعترفوا بأن خالقهم الله ، ولا يقدرون على الإنكار ، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر ، وجلائه ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف ، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم ، أو حيوان ، وعبده مع الله ، أو عبده وحده ، فقد عبد بعض مخلوقات الله ، وفي هذا من الجهل ما لا يقادر قدره .

يقال : أفكه يأفكه إفكاً : إذا قلبه ، وصرفه عن الشيء ، وقيل : المعنى : ولئن سألت المسيح ، وعزيراً ، والملائكة من خلقهم ؟ ليقولنّ : الله ، فأنى يؤفك هؤلاء الكفار في اتخاذهم لها آلهة .

وقيل : المعنى : ولئن سألت العابدين ، والمعبودين جميعاً .

قرأ الجمهور : (وقيله) بالنصب عطفاً على محلّ الساعة ، كأنه قيل : إنه يعلم الساعة ، ويعلم قيله ، أو عطفاً على سرّهم ، ونجواهم ، أي : يعلم سرّهم ، ونجواهم ، ويعلم قيله ، أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف ، أي : يكتبون ذلك ، ويكتبون قيله ، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف أي : يعلمون ذلك ، ويعلمون قيله ، أو هو مصدر أي : قال قيله ، أو منصوب بإضمار فعل ، أي : الله يعلم قيل رسوله ، أو هو معطوف على محل بالحقّ ، أي : شهد بالحق ، وبقيله ، أو منصوب على حذف حرف القسم .

ومن المجوّزين للوجه الأوّل : المبرد ، وابن الأنباري ، ومن المجوّزين للثاني الفرّاء ، والأخفش ، ومن المجوّزين للنصب على المصدرية الفراء ، والأخفش أيضاً .

(63/694)

وقرأ حمزة، وعاصم: ﴿ وقيله ﴾ بالجرّ عطفاً على لفظ الساعة، أي: وعنده علم الساعة، وعلم قيله، والقول والقال، والقيل بمعنى واحد، أو على أن الواو للقسم.

وقرأ قتادة، ومجاهد، والحسن، وأبو قلابة، والأعرج، وابن هرمز، ومسلم بن جندب: (وقيله) بالرفع عطفاً على علم الساعة أي: وعنده علم الساعة، وعنده قيله، أو على الابتداء، وخبره الجملة المذكورة بعده، أو خبره محذوف تقديره، وقيله كيت، وكيت، أو وقيله مسموع.

قال أبو عبيد: يقال: قلت قولاً، وقيلاً، وقالاً، والضمير في ﴿ وقيله ﴾ راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

قال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه، وقيل: الضمير عائد إلى المسيح، وعلى الوجهين، فالمعنى: أنه قال منادياً لربه: ﴿ يارب إِنَّ هَؤُلآء ﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ثم لما نادى ربه بهذا أجابه بقوله: ﴿ فاصفح عَنْهُمْ ﴾ أي: أعرض عن دعوتهم ﴿ وَقُلْ سلام ﴾ أي: أمري تسليم منكم، ومتاركة لكم.

قال عطاء: يريد مداراة حتى ينزل حكمي، ومعناه: المتاركة كقوله: ﴿ سلام عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ [القصص: 55].

وقال قتادة: أمره بالصفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفح منسوخاً بالسيف، وقيل

: هي محكمة لم تنسخ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه تهديد شديد ، ووعيد عظيم من الله عزّ وجلّ .

قرأ الجمهور : ﴿ يعلمون ﴾ بالتحتية ، وقرأ نافع ، وابن عامر بالفوقية .

قال الفراء : إن " سلام " مرفوع بإضمار عليكم .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث والنشور ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك ﴾ قال : يمكث عنهم ألف سنة ، ثم يجيبهم ﴿ إِنَّكُمْ ماكثون ﴾ .

(64/694)

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها ، قرشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقرشي ، فقال واحد منهم : ترون أن الله يسمع كلامنا ؟ فقال واحد منهم : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، فنزلت ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونجواهم ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ يقول : إن يكن للرحمن ولد ﴿ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ قال : الشاهدين .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ قال : هذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط ، أي : ما كان .

وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(65/694)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الله فِي السماوات وَفِي الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام : 3] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ .

قد بينا الآيات الموضحة في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] الآية .

وفي الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] وفي غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشفاعة ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة : 48] الآية . وفي غير ذلك من المواضع .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة ، في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] .

وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88)

قرأ هذا الحرف نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، والكسائي (وقيله) بفتح اللام وضم الهاء ، وقرأه عاصم وحمزة : (وقيله) بكسر اللام والهاء .

قال بعض العلماء إعرابه بأنه عطف محل على الساعة لأن قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [الزخرف : 85] مصدر مضاف إلى مفعوله .

فلفظ الساعة مجرور لفظاً بالإضافة ، منصوب محلاً بالمفعولية ، وما كان كذلك جاز في تابعه النصب نظراً إلى المحل ، والخفض نظراً إلى اللفظ ، كما قال في الخلاصة :

وجر ما يتبع ما جر ومن . . . راعى في الاتباع المحل فحسن

وقال في نظيره في الوصف :

واخفض أو انصب تابع الذي انخفض . . . كمبتغي جاه ومالا من نهض

وقال بعضهم : هو معطوف على ﴿ سِرَّهُمْ ﴾ [الزخرف : 80] .

وعليه فالمعنى : أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، ﴿ وَقِيلِهِ يارب ﴾ الآية .

وقال بعضهم : هو منصوب على أنه مفعول مطلق .

أي ، وقال : قيله وهو بمعنى قوله إلا أن القاف لما كسرت ، أبدلت الواو ياء لمجانسة الكسرة .

قالوا : ونظير هذا الإعراب قول كعب بن زهير :

تمشي الوشاة جانبيها وقيلهم . . . إنك يا بن أبي سلمى لمقتول

أي ويقولون : قيلهم .

وقال بعضهم : هو منصوب بيعلم محذوفة لأن العطف الذي ذكرنا على قوله : سرهم ، والعطف على الساعة يقال فيه إنه يقتضي الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يصلح لكونه اعتراضاً ، وتقدير الناصب إذا دل المقام عليه لا إشكال فيه . كما قال في الخلاصة :

ويحذف الناصبها إن علما . . . وقد يكون حذفه ملتزما

وأما على قراءة الخفض ، فهو معطوف على الساعة ، أي وعنده علم الساعة ، وعلم قيله

يا رب .

واختار الزمخشري أنه مخفوض بالقسم ، ولا يخفى بعده كما نبه عليه أبو حيان .

والتحقيق أن الضمير في قيله ، للنبي صلى الله عليه وسلم .

والدليل على ذلك ، أن قوله بعد : ﴿ فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ ﴾ [الزخرف : 89] خطاب له صلى الله عليه وسلم بلا نزاع ، فادعاء أن الضمير في قيله لعيسى لا دليل عليه ولا وجه له .

(67/694)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من شكواه صلى الله عليه وسلم ، إلى ربه عدم إيمان قومه ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرسول يا رب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] ، وذكر مثله عن موسى في قوله تعالى في الدخان : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤلاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ [الدخان : 22] ، وعن نوح قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دعآئي إِلاَّ فِرَاراً ﴾ [نوح : 5 - 6] إلى آخر الآيات .

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

قرأ هذا الحرف ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : (فسوف يعلمون) بياء الغيبة ، وقرأ نافع وابن عامر (فسوف تعلمون) بتاء الخطاب .

وهذه الآية الكريمة تضمنت ، ثلاثة أمور :

الأول : أمره صلى الله عليه وسلم بالصفح عن الكفار .

والثاني : أن يقول لهم سلام .

والثالث : تهديد الكفار ، بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من عذاب النار .

وهذه الأمور الثلاثة جاءت موضحة في غير هذا الموضع :

كقوله تعالى في الأول ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر : 85] ،

وقوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [الأحزاب : 48] .

والصفح الإعراض عن المؤاخذة بالذنب .

قال بعضهم : وهو أبلغ من العفو .

قالوا : لأن الصفح أصله مشتق من صفحة العنق ، فكأنه يولي المذنب بصفحة عنقه معرضاً عن عتابه فما فوقه .

وأما الأمر الثاني ، فقد بين تعالى أنه هو شأن عباده الطيبين .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم سيدهم كما قال تعالى ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] . وقال عن إبراهيم إنه قال له أبوه : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً ﴾ [مريم : 46] قال له ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم : 47] .

ومعنى السلام في الآيات المذكورة ، إخبارهم بسلامة الكفار من أذاهم ، ومن مجازاتهم لهم بالسوء ، أي سلمتم منا لا نسافهكم ، ولا نعاملكم بمثل ما تعاملوننا .

وأما الأمر الثالث الذي هو تهديد الكفار بأنهم سيعلمون الحقيقة قد جاء موضحاً في آيات كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : 88] وقوله تعالى : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 67] وقوله : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : 4 – 5] . وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : 3 – 4] . وقوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ [التكاثر : 6 – 7] إلى غير ذلك من الآيات .

وكثير من أهل العلم يقول : إن قوله تعالى : ﴿ فاصفح عَنْهُمْ ﴾ [89] وما في معناه منسوخ بآيات السيف ، وجماعات من المحققين يقولون هو ليس بمنسوخ .

والقتال في المحل الذي يجب فيه القتال ، والصفح عن الجهلة ، والإعراض عنهم ، وصف كريم ، وأدب سماوي ، لا يتعارض مع ذلك ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(69/694)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » .

هو بيان لقدرة اللّه ، وجلاله ، وعظمة ملكه ، واقتدار سلطانه . .

فهو سبحانه ، المتفرد بالألوهة فى السماء . . لا شريك له فيها . . وبهذا يدين له أهل السماء بالعبودية . .

وهو سبحانه ، المتفرد بالألوهة فى الأرض . . لا شريك له فيها . . وبهذا يدين له أهل الأرض بالولاء ويخصّونه بالعبادة . . وأنه إذا كان فى الناس من ضلّ وغوى ، فانحرف عن هذا الوضع الذي يتخذه أهل السماء والأرض ، فإنهم - مع هذا - مقهورون للّه ، واقعون تحت سلطانه . . طوعا أو كرها ، كما يقول سبحانه : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً » (93 : مريم) وكما يقول جل شأنه ، « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي

السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً » (15 : الرعد) .

وقوله تعالى : « وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » . إشارة إلى الصفتين الكريمتين اللتين يتجلّى اللّه سبحانه وتعالى بهما على ملكه فى السموات والأرض . . وهما :

الحكمة والعلم فكل ما خلق اللّه سبحانه ، موزون بميزان الحكمة ، مقدر بقدرها . . وكل ما فى السموات والأرض ، واقع فى علم اللّه « لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ » (3 : سبأ) وهكذا كل أمر . صغر أو كبر . إنما ملاكه الحكمة والعلم . .

فبالحكمة يقوم الأمر ، وبالعلم تضبط مصادره وموارده ، ولهذا كان مما طلب به « يوسف » القيام على تدبير خزائن الأرض . أنه حفيظ عليم ، فقال للملك : « اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ . . إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » (55 : يوسف) والحفظ شعبة من شعب الحكمة ! .

قوله تعالى : « وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

(70/694)

هو تسبيح بحمد اللّه وتقديس لجلاله ، بلسان كل مخلوق فى السموات والأرض . . فهو سبحانه . المتفرد بالألوهة فى السماء ، والأرض . . ومن ثمّ كان كل من فى السموات

والأرض لسان حمد للّه ، وتسبيح للّه ، وولاء لجلاله .

وفى قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » تذكير للناس . وهم يشهدون جلال اللّه ، وعظمته فى هذا الملك العظيم الذي له وحده . تذكير لهم بيوم الحساب والجزاء ، الذي لا يعلمه إلا هو . . وذلك يوم يرجعون إلى اللّه ، ويجزى كل امرئ بما عمل . .

قوله تعالى : «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

المراد بالمدعوّين من دون اللّه هنا ، هم الملائكة ، الذين يعبدهم المشركون فى هذه الأصنام التي سموها بأسماء أطلقوها على بعض الملائكة ، مثل اللات ، والعزى ، ومناة ، وغيرها ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى » (27 : النجم) وهؤلاء الملائكة الذين يعبدهم المشركون فى تلك الأصنام التي يتمثلونها فيهم . وبتلك الأسماء التي يسمونهم بها . هؤلاء الملائكة ، لا يملكون الشفاعة لأحد ، كما يتوهم هؤلاء المشركون إذ يقولون عنهم : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » (3 : الزمر) ويقولون فيهم : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » (18 : يونس) .

وقوله تعالى : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ » هو استثناء من عموم النفي الواقع على شفاعة الملائكة . . أي أن الملائكة لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق ، فآمن باللّه ، وبرسل اللّه ، وباليوم الآخر . . كما يقول اللّه تعالى : « لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » (78 : الزخرف) . . فهؤلاء الذين كرهوا

الحق وأنكروه ليس للملائكة شفاعة فيهم . . وهم أكثر المشركين . . أما من شهد بالحق من هؤلاء المشركين ـ وهم أقلية ـ وآمنوا بالله ، وأخلصوا دينهم لله له ، فإن للملائكة شفاعة فيهم ، تنال العاصين منهم . . وتلك الشفاعة ، هى الاستغفار لهم كما يقول الله تعالى : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ » (7 : غافر) . فهذا من شفاعة الملائكة للعصاة من المؤمنين . . وهى شفاعة مقبوله عند الله سبحانه وتعالى . .

وقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » يمكن أن يكون حالا من الاسم الموصول « الذين » أي أن الملائكة لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . . وهم يعلمون هذا . . أي يعلمون أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق .

ويمكن أن يكون حالا من الاسم الموصول « مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ » أي لا تشفع للملائكة إلا لمن شهد بالحق ، أي شهادة قائمة على علم ، يملأ القلب إيمانا واطمئنانا ، لا مجرد شهادة ينطق بها اللسان دون أن تقع من القلب موقعا . .

قوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

أي أن هؤلاء المشركين إذا سئلوا عمن خلقهم ، لما وجدوا بين أيديهم إلا جوابا واحدا ، وهو أن اللّه هو الذي خلقهم . . إنهم لا يستطيعون أن يقولوا إن الملائكة الذين يعبدونهم ، هم الذين خلقوهم ، وخلقوا من فى السموات والأرض . .

بل إنهم ليعلمون أن الملائكة من خلق اللّه ، وإن كانوا أبناء للّه عندهم .

ومع هذا الإقرار منهم بخلق اللّه لهم ، فإنهم لا يعبدون رب السموات والأرض ، الذي خلقهم ويعبدون خلقا من خلقه . . وهذا منطق معكوس ، لا يلتقى أوله مع آخره . . ولذا جاء قوله تعالى : « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » منكرا على هؤلاء

(72/694)

المشركين هذا الإفك والافتراء الذي جعلوا منه دينا يدينون به ، ولا مستند له من منطق ، حتى منطقهم هم الذي ينتزع قضاياه من الوهم والضلال . .

قوله تعالى : « وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ » .

القيل : معناه القول . . والضمير المضاف إليه هذا القول ، هو للنبى صلوات للّه وسلامه عليه . . ومقول القول هو قوله تعالى : « يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ » .

وهو مثل قوله تعالى : « وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً » (30 :

الفرقان) وقد اختلف المفسرون اختلافا كبيرا فى الربط بين هذه الآية وما قبلها . . كما اختلف القرّاء فى قراءة « وَقِيلِهِ » فقرىء بفتح اللام ، وقرىء بكسرها ، وقرىء بضمها . . ولكل قراءة تأويل تؤول عليه . .

ولا نريد أن نعرض لهذه المقولات ، فهى مبسوطة فى كتب التفاسير ، يرجع إليها من شاء مزيدا من العلم ، أو الرياضة الذهنية . .

والذي نراه فى تأويل هذه الآية ، ونرجو أن يكون بتوفيق اللّه صوابا ، هو - واللّه اعلم - أن الواو فى قوله تعالى : « وَقِيلِهِ » . . هى بمعنى « مع » . .

وعلى هذا تكون الآية مرتبطة بقوله تعالى : « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ » . . فهذا الاستفهام ينكر عليهم أن يعبدوا غير اللّه ، وأن ينصرفوا إلى غير خالقهم وخالق السموات والأرض ، الذي شهدت له بذلك ألسنتهم . . ومع هذا فهم يعبدون غير اللّه ، بشهادة الواقع الذي هم فيه ، وبشهادة الرسول الذي خبر حالهم ، وعرف الداء المتمكن منهم ، فقال شاكيا إلى ربه : « يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ . . »

وتحرير المعنى ، هو : إلى أين ينصرف هؤلاء المشركون ، مع شركهم الذي هم فيه ، ومع ما يرى الرسول من حالهم فى المستقبل ، وأنهم ممن لا يرجى صلاحهم ، أو يتوقّع شفاؤهم من هذا الداء الذي معهم ؟ .

ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك :

«فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» .

-جاء ردّا على قول النبي : « يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ » وداعيا له إلى الرفق بهم ، ومقابلة جهلهم بالحلم ، وسفاهتهم بالمغفرة والصفح . . وأنهم كلما قالوا فحشا وهجرا قال لهم سلاما ومغفرة ، كما يقول سبحانه فى وصف عباد الرحمن : « وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً » (63 : الفرقان) وكما يقول جل شأنه لنبيه الكريم : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ » (199 : الأعراف) .

وفى هذا ما يشير إلى أن هؤلاء المشركين ينتظر منهم خير كثير ، وسيكون منهم بناة الإسلام ، ومادة دولته التي ستظهر عما قريب . . وقد كان ، فدخل كثير من هؤلاء المشركين فى دين اللّه ، حتى أنه إذا جاء يوم الفتح لم يبق مشرك من قريش -خاصة- لم يدخل فى الإسلام .

وفى قوله تعالى : « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أي أنهم هم الآن على جهل يزيّن لهم هذا الباطل الذي

هم فيه ، ويغذيهم بهذا السفه الذي ترمى به أفواههم . .

ولكنهم مع الزمن ، ومع ما يأخذهم به الرسول الكريم من حلم ، وصفح ومغفرة ، سيعلمون بعد جهل ، ويؤمنون بعد كفر . . ويصبحون جندا من جنود اللّه ، ورايات من رايات الإسلام التي تخفق فى آفاق الأرض . . وليس هذا من الوعيد ، كما يذهب إلى ذلك جمهور المفسرين . . فإن السورة قد ختمت بهذا الختام الذي يدعو النبي إلى الصفح والمغفرة والمسالمة . . ولا يتفق مع هذا

(74/694)

أن يلقى النبىّ المشركين بالصفح والمسالمة ، ثم يلقاهم اللّه سبحانه بعد ذلك بالوعيد . . هذا ، واللّه اعلم .

ونود هنا ، بعد ختام هذه السورة أن نشير إلى أمر كان ملفتا للنظر . .

فقد كثر فى هذه السورة ذكر الاسم الكريم « الرَّحْمنِ » الذي تكرر فى سبعة مواضع من السورة هى :

«وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا . . . » الآية : (17) « وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً . . . » الآية : (19) « وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ

. . . » الآية : (20) « وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ . . . » الآية (33) « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . . . » الآية : (36) « وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ . . » (45) .

« قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ . . . » الآية : (81) ولذكر « الرَّحْمنِ » موقعه فى الآية التي ذكر فيها ، كما له حكمته التي تلتمس من هذا الذكر فى هذا الموضع . . فحيث ذكر « الرحمن » جلّ وعلا ، كانت تجليات الرحمة ، ورحمات الرحمن ، مبسوطة لكل طالب ، طالبة لكل

معرض فمن فاته حظه من رحمة اللّه فى هذا المقام فهو الشقي المحروم من كل خير . .

ولكن الذي نريد أن نقف بين يديه موقف النظر والاعتبار ، هو هذا الإكثار من ذكر هذا الاسم الكريم فى تلك السورة . .

وبادىء ذى بدء ، فإن تكرار هذا الذكر للاسم الكريم « الرَّحْمنِ » هو تأكيد لتلك الدعوة التي يدعو إليها الرحمن عباده ، ويبسط بها يده تبارك وتعالى إليهم بالرحمة ، يلقاهم بها على

كل طريق من طرق الغواية والضلال التي يركبونها . . فهذا الذكر نداءات متتابعة ، إلى موارد هذه الرحمة الواسعة . .

وهذا التكرار فى ذاته ، هو رحمة من رحمة اللّه . .

ثم إنه - من جهة أخرى - كانت السورة كلها معرضا لمواجهة المشركين بعبادتهم الملائكة ، على أنهم أبناء اللّه ، وأنهم كانوا يعرفون اللّه تعالى ، ويعترفون بأنه خالق السموات والأرض - كما أنه كان من أكثر أسماء اللّه عندهم هو اسم « الرَّحْمنِ » ولهذا كان الحديث إليهم عن اللّه باسم (الرحمن) إشارة إلى أنه هو الإله لذى يدعون إلى عبادته ، وأن اسمه « الرَّحْمنِ » وأنه ليس له ولد . . ولهذا أنكروا أن يكون الرحمن الذي يعرفونه ، هو الرحمن الذي يدعوهم النبي إلى عبادته ، كما يقول اللّه سبحانه : « وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ ؟ . أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا ؟ وَزادَهُمْ نُفُوراً » (60 : الفرقان) إن الرحمن فى تصورهم هو أب لقبيلة كبيرة ، هى الملائكة ! ! .

ومن جهة ثالثة ، فإن موقف هذه السورة من المشركين ، هو موقف ملاطفة ، وموادعة ، على مسيرة لدعوة التي كثرت فيها القوارع التي يقرع بها

القرآن عناد المشركين ، ويسفّه أحلامهم ، ويفضح جهلهم . . فكانت هذه السورة أشبه بالهدنة التي يراجع فيها المتحاربون موقفهم ، وقد ينتهى الأمر إلى الصلح ، والسلام . . ومن أجل هذا كثر فى السورة ذكر الرحمن الذي يذكّر بالرحمة التي ينبغى أن تكون بين النبي وأهله . . ولهذا دعى النبي إلى أن يصفح عنهم ، وأن يلقاهم بالموادعة والسلام ، وقد وعد بأنهم سيعلمون بعد الجهل ، ويؤمنون بعد الكفر ، فكان ختام السورة قوله تعالى : « فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ . . فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 13 صـ 179.171 ﴾

(77/694)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾

عطف على جملة ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ [الزخرف : 81] والجملتان اللتان بينهما اعتراضان ، قصد من العطف إفادة نفي الشريك في الإلهية مطلقاً بعد نفي الشريك فيها بالبُنوة ، وقصد بذكر السماء والأرض الإحاطة بعوالم التدبير والخلق لأن المشركين جعلوا لله شركاء في الأرض وهم أصنامهم المنصوبة ، وجعلوا له شركاء في السماء وهم

الملائكة إذ جعلوهم بنات لله تعالى فكان قوله : ﴿ في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ إبطالاً للفريقين مما زُعمت إلهيتهم .

وكان مقتضى الظاهر بهذه الجملة أن يكون أوّلها ﴿ الذي في السَّماء إله ﴾ على أنه وصف للرحمان من قوله : ﴿ إن كان للرحمن ولد ﴾ [الزخرف : 81] ، فعُدل عن مقتضى الظاهر بإيراد الجملة معطوفة لتكون مستقلة غير صفة ، وبإيراد مبتدأ فيها لإفادة قصر صفة الإلهية في السماء وفي الأرض على الله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره ، لأن إيراد المسند إليه معرفة والمسند معرفة طريق من طرق القصر .

فالمعنى وهو لا غيره الذي في السماء إله وفي الأرض إله ، وصلة ﴿ الذي ﴾ جملة اسمية حذف صدرها ، وصَدرُها ضمير يعود إلى معاد ضمير ﴿ وهو ﴾ وحذْفُ صدر الصلة استعمال حسن إذا طالت الصلة كما هنا .

والتقدير : الذي هو في السماء إله .

والمجروران يتعلقان بـ ﴿ إله ﴾ باعتبار ما يتضمنه من معنى المعبود لأنه مشتق من أَلَهَ ، إذا عبَد فشابه المشتق .

وصح تعلق المجْرور به فتعلقه بلفظ إله كتعلق الظرف بغِربال وأقوى من تعلق المجرور بكانون في قول الحطيئة يهجو أمه من أبيات :

أغِرْبالاً إذا استُودِعْتَ سِرّاً

وكَانُوناً على المتحدّثينا

﴿ إله وَهُوَ الحكيم ﴾ .

(78/694)

بعد أن وصف الله بالتفرد بالإلهية أُتبع بوصفه بـ ﴿ الحكيم العليم ﴾ تدقيقاً للدليل الذي في قوله : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ ، حيث دل على نفي إلهية غيره في السماء والأرض واختصاصه بالإلهية فيهما لما في صيغة القصر من إثبات الوصف له ونفيه عمن سواه ، فكان قوله : ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ تتميماً للدليل واستدلالاً عليه ، ولذلك سميناه تدقيقاً إذ التدقيق في الاصطلاح هو ذكر الشيء بدليلِ دليله وأما التحقيق فذكرُ الشيء بدليله لأن الموصوف بتمام الحكمة وكمال العلم مستغن عما سواه فلا يحتاج إلى ولد ولا إلى بنت ولا إلى شريك .

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)

عطف على ﴿ سبحان ربّ السموات والأرض ﴾ [الزخرف : 82] ، قصد منه إتباع إنشاء التنزيه بإنشاء الثناء والتمجيد .

و﴿ تبارك ﴾ خبر مستعمل في إنشاء المدح لأن معنى ﴿ تبارك ﴾ كان متصفاً بالبَركة اتصافاً قوياً لما يدل عليه صيغة تفَاعَل من قوة حصول المشتق منه لأن أصلها أن تدل على صدور فعل من فاعلين مثل : تقاتل وتمارى ، فاستعملت في مجرد تكرر الفعل ، وذلك مثل : تسامى وتعالى .

والبركَة : الزيادة في الخير .

وقد ذكر مع التنزيه أنه رب السماوات والأرض لاقتضاء الربوبية التنزيهَ عن الولد المسوق الكلام لنفيه ، وعن الشريك المشمول لقوله : ﴿ عما يصفون ﴾ [الزخرف : 82] ، وذُكر مع التبريك والتعظيم أن له مُلك السماوات والأرض لمناسبة الملك للعظمة وفيْضِ الخير ، فلا يَرِيبك أنَّ ﴿ ربِّ السماوات والأرض ﴾ [الزخرف : 82] مغنٍ عن ﴿ الذي له مُلك السماوات والأرض ﴾ ، لأن غرض القرآن التذكير وأغراضُ التذكير تخالف أغراض الاستدلال والجدل ، فإن التذكير يلائم التنبيه على مختلف الصفات باختلاف الاعتبارات والتعرض للاستمداد من الفضل .

ثم إنّ صيغة ﴿ تبارك ﴾ تدل على أن البركة ذاتية لله تعالى فيقتضي استغناءه عن الزيادة باتخَاذِ الولد واتخاذِ الشريك ، فبهذا الاعتبار كانت هذه الجملة استدلالاً آخر تابعاً لدليل قوله : ﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ [الزخرف : 82] .

وقد تأكد انفراده بربوبية أعظم الموجودات ثلاث مرات بقوله : ﴿ رب العرش ﴾ [الزخرف : 82] وقوله : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ [الزخرف : 84] وقوله : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ .

فكم من خصائص ونكت تنهالُ على المتدبر من آيات القرآن التي لا يحيط بها إلا الحكيم العليم .

ولما كان قوله : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ مفيداً التصرف في هذه العوالم مدة وجودها ووجودِ ما بينها أردفه بقوله : ﴿ وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ﴾ للدلالة على أن له مع ملك العوالم الفانية مُلك العوالم الباقية ، وأنه المتصرف في تلك العوالم بما فيها بالتنعيم والتعذيب ، فكان قوله : ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ توطئة لقوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ وإدماجاً لإثبات البعث .

وتقديم المجرور في ﴿ إليه ترجعون ﴾ لقصد التقوّي إذ ليس المخاطبون بمثبتين رُجْعَى إلى غيره فإنهم لا يؤمنون بالبعث أصلاً .

وأما قولهم للأصنام ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] فمرادهم أنهم شفعاء لهم في الدنيا أو هو على سبيل الجدل ولذلك أتبع بقوله : ﴿ ولا يملك الذين يَدْعُون من دونه الشفاعة ﴾ [الزخرف : 86] .

وقرأ الجمهور ﴿ ترجعون ﴾ بالفوقية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمباشرة بالتهديد .

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالتحتية تبعاً لأسلوب الضمائر التي قبله ، وهم متفقون على أنه مبني للمجهول .

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)

(80/694)

لما أنبأهم أن لله ملكَ السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة أعلمهم أن ما يعبدونه من دون الله لا يقدر على أن يشفع لهم في الدنيا إبطالاً لزعمهم أنهم شفعاؤهم عند الله .

ولما كان من جملة من عُبدوا دون الله الملائكة استثناهم بقوله : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ أي فهم يشفعون ، وهذا في معنى قوله : ﴿ وَقَالُوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل

عبادٌ مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] ثم قال : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وقد مضى في سورة الأنبياء (28) .

ووصف الشفعاء بأنهم شَهِدوا بالحق وهم يعلمون أي وهم يعلمون حال من يستحق الشفاعة .

فقد علم أنهم لا يشفعون للذين خالف حالهم حال من يشهد لله بالحق .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)

بعد أن أمعن في إبطال أن يكون إله غير الله بما سِيق من التفصيلات ، جاء هنا بكلمة جامعة لإبطال زعمهم إلهية غير الله بقوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ أي سألتهم سؤال تقرير عمن خلقهم فإنه يُقرّون بأن الله خلقهم ، وهذا معلوم من حال المشركين كقول ضِمام بن ثعلبة للنبيء صلى الله عليه وسلم " أسألك بربّك وربّ من قبلك آلله أرسلك " ولأجل ذلك أُكِّد إنهم يقرون لله بأنه الخالق فقال : ﴿ ليقولن الله ﴾ ، وذلك كافٍ في سفاهة رأيهم إذ كيف يكون إلها من لم يخلق ، قال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمَن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ [النحل : 17] .

والخطاب في قوله : ﴿ سألتهم ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يكون لغير معيّن ، أي إن سألهم من يتأتى منه أن يسأل .

وفرع على هذا التقرير والإقرار الإنكارُ والتعجيبُ من انصرافهم من عبادة الله إلى عبادة

آلهة أخرى بقوله : ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ .

و(أنّى) اسم استفهام عن المكان فمحله نصب على الظرفية ، أي إلى أيِّ مكان يصرفون .

(81/694)

و ﴿ يؤفكون ﴾ يُصْرَفون : يقال : أفكَه عن كذا ، يأفِكه من بابْ ضَرب ، إذا صرفه عنه ، وبُني للمجهول إذ لم يصرفهم صارف ولكن صرفوا أنفسهم عن عبادة خالقهم ، فقوله : ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ هو كقول العرب : أين يُذهَب بك ، أي أين تذهب بنفسك إذ لا يريدون أن ذاهباً ذهب به يسألونه عنه ولكن المراد : أنه لم يذهب به أحد وإنما ذهب بنفسه .

وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88)

القيل مصدر قَال ، والأظهر أنه اسم مراد به المفعول ، أي المقول مثل الذِبح وأصله : قِوْل ، بكسر القاف وسكون الواو .

والمعنى : ومقوله .

والضمير المضاف إليه : (قيل) ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم بقرينة سياق الاستدلال والحجاجِ من قوله : ﴿ قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين ﴾ [الزخرف : 81] ، وبقرينة قوله : ﴿ يا رب ﴾ وبقرينة أنه قال : ﴿ إن هؤلاء قوم لا

يؤمنون ﴾ وبقرينة إجابته بقوله : ﴿ فاصفح عنهم وقلْ سلام ﴾ [الزخرف : 89] ، والأولى أن يكون ضمير الغائب التفاتاً عن الخطاب في قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ﴾ [الزخرف : 87] ، فإنه بعد ما مضى من المحاجّة ومن حكاية إقرارهم بأن الله الذي خلقهم ، ثم إنهم لم يتزحزحوا عن الكفر قيد أنملة ، حصل اليأس للرسول من إيمانهم فقال : ﴿ يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ التجاء إلى الله فيهم وتفويضاً إليه ليجري حكمه عليهم .

وهذا من استعمال الخبر في التحسر أو الشكاية وهو خبر بمعنى الإنشاء مثل قوله تعالى : ﴿ وقال الرسول يا ربّ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ [الفرقان : 30] ، أي لم يعملوا به فلم يؤمنوا ، ويؤيد هذا تفريع ﴿ فاصفَح عنهم ﴾ [الزخرف : 89] ، ففي ضمير الغيبة التفات لأن الكلام كان جارياً على أسلوب الخطاب من قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ﴾ [الزخرف : 87] فمقتضى الظاهر : وقولَكَ : يا ربّ الخ .

(82/694)

ويحسِّن هذا الالتفات أنه حكاية لشيء في نفس الرّسول فجعل الرسول بمنزلة الغائب لإظهار أن الله لا يهمل نداءه وشكواه على حدّ قوله تعالى : ﴿ عبس وتولّى ﴾ [عبس :

1] .

وإضافة القيل إلى ضمير الرسول مشعرة بأنه تكرر منه وعرف به عند ربّه ، أي عُرف بهذا وبما في معناه من نحو ﴿ يا ربّ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً وقوله : ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه مَتَى نصر الله ﴾ [البقرة : 214] .

وقرأ الجمهور ﴿ وقيلَه ﴾ بنصب اللام على اعتبار أنه مصدر نُصب على أنه مفعول مطلق بَدل من فعله .

والتقدير : وقال الرسول قيلَه ، والجملة معطوفة على جملة ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ﴾ [الزخرف : 87] أو على جملة ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ [الزخرف : 87] ، أي وقال الرسول حينئذٍ يا ربّ الخ .

ونظيره قول كعب بن زهير :

تمشي الوشاة جنابيْها وقيلَهم

إنك يا بنَ أبي سُلْمى لمقتول . . .

على رواية (قيلَهم) ونصبه ، أي ويقولون : قيلهم وهي رواية الأصمعي .

ويجوز أن يكون النصب على المفعول به لقوله : ﴿ لا نَسْمَع ﴾ [الزخرف : 80] ، والتقدير : بلى ونعلم قِيلَه وهذا اختيار الفراء والأخفش ، وقال المبرد والزجاج : هو منصوب بفعل مقدر دل عليه قوله : ﴿ وعِنده علم الساعة ﴾ [الزخرف : 85] أي

ويعلم قيله .

وقرأ عاصم وحمزة بجرّ لام (قيلِه) ويجوز في جرّه وجهان:

أحدهما : أن يكون عطفاً على ﴿ الساعة في قوله : ﴿ وعنده علم الساعةِ ﴾ [الزخرف : 85] أي وعلمُ قيلِ الرسول : يا ربّ ، وهو على هذا وعد للرسول بالنصر وتهديد لهم بالانتقام .

وثانيهما : أنْ تكون الواو للقسم ويكون جواب القسم جملة ﴿ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ على أن الله أقسم بقول الرسول : يا ربّ ، تعظيماً للرسول ولقيله الذي هو تفويض للرب وثقة به .

ومقول ﴿ قيله ﴾ هُو ﴿ يا رب ﴾ فقط ، أي أُقسم بندَاء الرسول ربَّه نداءَ مضطر .

(83/694)

وذكر ابن هشام في "شرح الكَعبية" عن أبي حاتم السجستاني : أن مَن جرّ فقوله بظن وتخليط ، وأنكره عليه ابن هشام لإمكان تخريج الجرّ على وجه صحيح .

وقد حذف بعد النداء ما نودي لأجله مما دل عليه مقام من أعيته الحيلة فيهم ففوض أمره إلى ربّه فأقسم الله بتلك الكلمة على أنهم لا يؤمنون ولكن الله سينتقم منهم فلذلك قال : ﴿

فسوف تعلمون ﴾ [الزخرف : 89] .

والإشارة بـ ﴿ هؤلاء ﴾ إلى المشركين من أهل مكة كما هي عادة القرآن غالباً ووصفهم بأنهم قوم لا يؤمنون ، أدل على تمكن عدم الإيمان منهم مِن أن يقول : هؤلاء لا يؤمنون .

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

الفاء فصيحة لأنها أفصحت عن مقدر ، أي إذْ قلتَ ذلك القيل وفوضتَ الأمر إلينا فسأتَولى الانتصاف منهم فاصفح عنهم ، أي أعرض عنهم ولا تحزن لهم وقل لهم إن جادلوك : ﴿ سلامٌ ﴾ ، أي سلمنا في المجادلة وتركناها .

وأصل ﴿ سلام ﴾ مصدر جاء بدلاً من فعله .

فأصله النصب ، وعدل إلى رفعه لقصد الدلالة على الثبات كما تقدم في قوله : ﴿ الحمد لله ربّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] .

يقال : صَفَح يصفح من باب منع بمعنى : أعرضَ وترك ، وتقدم في أول السورة ﴿ أفنضربُ عنكم الذكر صفحاً ﴾ [الزخرف : 5] ولكن الصفح المأمور به هنا غير الصفح المُنكَر وقوعُه في قوله : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صَفحاً .

وفرع عليه فسوف تعلمون ﴾ تهديداً لهم ووعيداً .

وحذف مفعول ﴿ تعلمون ﴾ للتهويل لتذهب نفوسهم كل مذهب ممكن .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ورَوْح عن يعقوب ﴿ تعلمون ﴾ بالمثناة الفوقية على أن ﴿

فسوف تعلمون ﴾ مما أمر الرسول بأن يقوله لهم ، أي وقل سوف تعلمون .

وقرأه الجمهور بياء تحتية على أنه وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه منتقم من المكذبين .

(84/694)

وما في هذه الآية من الأمر بالإعراض والتسليم في الجدال والوعيد ما يؤذن بانتهاء الكلام في هذه السورة وهو من براعة المقطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(85/694)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾

هذا العطف مع التنكير في هذه الآية يتوهم الجاهل منه تعدد الآلهة مع أن الآيات القرآنية مصرحة بأنه واحد كقوله: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ

وَاحِدٌ ﴾ الآية.

والجواب- أن معنى الآية أنه تعالى هو معبود أهل السموات والأرض فقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ ﴾ أي معبود وحده في السماء كما أنه المعبود بالحق في الأرض سبحانه وتعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 259 ﴾

(86/694)

" فصل "

قال السيوطي:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) ﴾

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ قال: الطوفان وما معه من الآيات.

وأخرج عبد بن حميد، عن عكرمة ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ قال: هو عام السنة.

وأخرج عبد بن حميد، عن قتادة ﴿ وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾ قال: يتوبون أو يذكرون.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، عن مجاهد ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ لئن آمنا

ليكشفن عنا العذاب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة في قوله ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ قال : يغدرون .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله ﴿ ونادى فرعون في قومه ﴾ قال : ليس هو نفسه ، ولكن أمر أن ينادي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الأسود بن يزيد قال : قلت لعائشة : ألا تعجبين من رجل من الطلقاء ينازع أصحاب محمد في الخلافة ؟ ! قالت : وما تعجب من ذلك ، هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر ، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ قال : قد كان لهم جنان وأنهار ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ قال : ضعيف ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ قال : عيي اللسان ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ﴾ قال : أحلية من ذهب ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي متتابعين . ﴿ فلما آسفونا ﴾ قال : أغضبونا ﴿ فجعلناهم سلفاً ﴾ قال : إلى النار ﴿ ومثلاً ﴾ قال : عظة ﴿ للآخرين ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ قال : كانت لموسى لثغة في لسانه .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ قال : يمشون معاً .

(87/694)

وأخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، عن عكرمة قال : لم يخرج فرعون من زاد على الأربعين سنة ، ومن دون العشرين ، فذلك قوله : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ يعني استخف قومه في طلب موسى عليه السلام .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة ﴿ فلما آسفونا ﴾ قال : أغضبونا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ فلما آسفونا ﴾ قال : أغضبونا . وفي قوله : ﴿ سلفاً ﴾ قال : أهواء مختلفة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ فلما آسفونا ﴾ قال : أغضبونا ﴿ فجعلناهم سلفاً ﴾ قال : هم قوم فرعون كفارهم ﴿ سلفاً ﴾ لكفار أمة محمد ﴿ ومثلاً للآخرين ﴾ قال : عبرة لمن بعدهم .

وأخرج أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم ، عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء وهو مقيم على

معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له " ثم تلا ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن طارق بن شهاب قال : كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة ، فقال : تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر ، ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه كان يقرأ ﴿ فجعلناهم سلفاً ﴾ بنصب السين واللام .

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57)

أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : " إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير " فقالوا : ألست : تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً وقد عبدته النصارى ؟ ! فإن كنت صادقاً ، فإنه كآلهتهم . فأنزل الله ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾ قال : يضجون ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : هو خروج عيسى ابن مريم قبيل يوم القيامة " .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه قال : لما ذكر عيسى ابن مريم جزعت قريش وقالوا : ما ذكر محمد عيسى ابن مريم ، ما يريد محمد إلا أن نصنع به كما صنعت النصارى بعيسى ابن مريم . فقال الله : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرؤها ﴿ يصدون ﴾ يعني بكسر الصاد يقول : يضجون .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن أبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ يصدون ﴾ بضم الصاد .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن إبراهيم ﴿ يصدون ﴾ قال : يعرضون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سعيد بن معبد بن أخي عبيد بن عمير الليثي رضي الله عنه قال : قال لي ابن عباس : ما لعمك يقرأ هذه الآية ؟ ﴿ إذا قومك منه يصدون ﴾ انها ليست كذا إنما هي ﴿ إذا قومك منه يصدون ﴾ إذا هم يهجون إذا هم يضجون .

وأخرج عبد بن حميد ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ إذا قومك منه يصدون ﴾ قال : يضجون .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد والحسن وقتادة رضي الله عنهما مثله .

وأخرج ابن مردويه ، عن علي رضي الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ يصدون ﴾ بالكسر .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل " ثم قرأ ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : ما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل . ثم قرأ ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور ، عن أبي ادريس الخولاني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ما ثار قوم فتنة إلا أوتوا بها جدلاً ، وما ثار قوم في فتنة إلا كانوا لها حرزاً " .

وأخرج ابن عدي والخرائطي في مساوىء الأخلاق ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكذب باب من أبواب النفاق ، وإن آية النفاق أن يكون الرجل جدلاً خصماً " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه قال : لما ذكر الله عيسى عليه السلام في القرآن ، قال مشركو مكة إنما أراد محمد أن نحبه كما أحب النصارى عيسى قال : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ قال : ما قالوا هذا القول إلا ليجادلوا ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ قال : ذلك نبي الله عيسى أن كان عبداً صالحاً أنعم الله عليه ﴿ وجعلناه مثلاً ﴾ قال : آية ﴿ لبني إسرائيل ﴾ ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ قال : يخلف بعضهم بعضاً مكان بني آدم .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن المشركين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : أرأيت ما يعبد من دون الله أين هم ؟ قال : في النار . قالوا : والشمس والقمر ؟ قال : والشمس والقمر ، قالوا : فعيسى ابن مريم ؟ فأنزل الله ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ قال : يعمرون الأرض بدلاً منكم .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : خروج

عيسى قبل يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : خروج عيسى يمكث في الأرض أربعين سنة ، تكون تلك الأربعون أربع سنين يحج ويعتمر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة .

(90/694)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : نزول عيسى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : نزول عيسى علم للساعة ، وناس يقولون : القرآن علم للساعة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن شيبان رضي الله عنه قال : كان الحسن يقول ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : هذا القرآن .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : هذا القرآن بخفض العين .

وأخرج عبد بن حميد ، عن حماد بن سلمة رضي الله عنه قال : قرأتها في مصحف أبيّ " وإنه لذكر للساعة " .

وأخرج ابن جرير من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال : نزول عيسى .

وأخرج ابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ قال : من تبديل التوراة .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66)

أخرج ابن مردويه ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تقوم الساعة والرجلان يحلبان اللقحة ، والرجلان يطويان الثوب " ثم قرأ ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67)

أخرج ابن مردويه ، عن سعد بن معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام ، وقلت الأنساب ، وذهبت الأخوّة ، إلا الأخوة في الله " وذلك قوله : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ قال : معصية الله في الدنيا متعادين .

(91/694)

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " الأخلاء أربعة مؤمنان وكافران ، فمات أحد المؤمنين ، فسئل عن خليله فقال : اللهم لم أر خليلاً آمر بمعروف ولا أنهى عن منكر منه ، اللهم اهده كما هديتني ، وأمته على ما أمتني عليه ، ومات أحد الكافرين ، فسئل عن خليله ؟ فقال : اللهم لم أر خليلاً آمَرَ بمنكر منه ولا أنهى عن معروف منه ، اللهم أضله كما أضللتني وأمته على ما أمتني عليه قال : ثم يبعثون يوم القيامة ، فقال : ليثن بعضكم على بعض ، فاما المؤمنان ، فاثنى كل واحد منهما على صاحبه كأحسن الثناء ، وأما الكافران ، فأثنى كل واحد منهما على صاحبه كأقبح الثناء " .

(92/694)

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن كعب رضي الله عنه قال : يؤتى بالرئيس في الخير يوم القيامة ، فيقال : أجب ربك ، فينطلق به إلى ربه ، فلا يحجب عنه ، فيؤمر به إلى الجنة ، فيرى منزله ومنازل أصحابه الذين كانوا يجامعونه على الخير ، ويعينونه عليه ، فيقال هذه منزلة فلان وهذه منزلة فلان ، فيرى ما أعد الله في الجنة من الكرامة ، ويرى منزلته أفضل من منازلهم ، ويكسى من ثياب الجنة ، ويوضع على رأسه تاج ويعلقه من ريح الجنة ويشرق وجهه حتى يكون مثل القمر ليلة البدر ، فيخرج فلا يراه أهل ملأ إلا قالوا : اللهم اجعله منهم حتى يأتي أصحابه الذين كانوا يجامعونه على الخير ويعينونه عليه ، فيقول أبشر يا فلان ، فإن الله أعد لك في الجنة كذا وأعد لك في الجنة كذا وكذا ، فلا يزال يخبرهم بما أعد الله لهم في الجنة من الكرامة حتى يعلو وجوههم من البياض مثل ما علا وجهه ، فيعرفهم الناس ببياض وجوههم ، فيقولون هؤلاء أهل الجنة . ويؤتى بالرئيس في الشر ، فيقال أجب ربك ، فينطلق به إلى ربه ، فيحجب عنه ويؤمر به إلى النار ، فيرى منزله ومنازل أصحابه ، فيقال هذه منزلة فلان وهذه منزلة فلان ، فيرى ما أَعَدَّ الله فيها من الهوان ويرى منزلته شراً من منازلهم ، فَيَسْوَدُّ وَجْهَهُ وَتَزْرَقُّ عيناه ويوضع على رأسه قلنسوة من نار ، فيخرج فلا يراه أهل ملأ إلا تعوذوا بالله منه ، فيقول ما أعاذكم الله مني ؟ أما تذكر يا فلان كذا وكذا ، فيذكرهم الشر الذي كانوا يجامعونه ويعينونه عليه ، فما يزال يخبرهم بما أعد الله لهم في النار حتى يعلو وجوههم

من السواد مثل الذي علا وجهه ، فيعرفهم الناس بسواد وجوههم ، فيقولون هؤلاء أهل النار .

(93/694)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في ترغيبه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين ﴾ قال : خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، توفي أحد المؤمنين ، فبشر بالجنة فذكر خليله ، فقال : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر وينبئني أني ملاقيك اللهم فلا تضله بعدي حتى تريه ما أريتني وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له اذهب ، فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً ، ثم يموت الآخر ، فيجمع بين أرواحهما ، فيقال : ليثن كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه نعم الأخر ونعم الصاحب ونعم الخليل ، وإذا مات أحد الكافرين بشر بالنار ، فيذكر خليله ، فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير وينبئني أني غير ملاقيك ، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما اريتني وتسخط عليه

كما سخطت علي ، فيموت الآخر ، فيجمع بين أرواحهما ، فيقال ليثن كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه بئس الأخ وبئس الصاحب وبئس الخليل .

وأخرج ابن جرير ، عن سليمان التيمي قال : سمعت أن الناس حين يبعثون ليس فيهم إلا فزع ، فينادي منادٍ ﴿ يا عبادِ ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ فيرجوها الناس كلهم فيتبعها ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ تحبرون ﴾ قال : تكرمون والله تعالى أعلم .

(94/694)

وأخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والطبراني في الأوسط بسندٍ رجاله ثقات ، عن أنس رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة ، لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف ، بيد كل واحد صحفتان : واحدة من ذهب ، والأخرى من فضة ، في كل واحدة لون ليس في الأخرى مثله ، يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها ، يجد لآخرها من الطيب واللذة مثل الذي يجد لأولها ، ثم يكون ذلك ريح المسك الأذفر ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ، إخواناً على سرر متقابلين " .

وأخرج ابن جرير ، عن السدي رضي الله عنه ﴿ بصحاف ﴾ قال : القصاع .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن كعب رضي الله عنه قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة يوم القيامة ، ليؤتى بغدائه في سبعين ألف صحفة ، في كل صحفة لون ليس كالآخر ، فيجد للآخر لذته ، أوله ليس منه أول .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ الأكواب ﴾ الجرار من الفضة .

وأخرج هناد وابن جرير ، عن مجاهد رضي الله عنه قال ﴿ الأكواب ﴾ التي ليس لها آذان .

وأخرج الطستي في مسائله ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ وأكواب ﴾ قال : القلال التي لا عرا لها . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الهذلي ؟

فلم ينطق الديك حتى ملأت . . . كوب الذباب له فاستدارا

وأخرج ابن جرير ، عن الضحاك في قوله : ﴿ بأكواب ﴾ قال : جرار ليس لها عرا ، وهي بالنبطية كوى .

(95/694)

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " إن أهون أهل النار عذاباً رجل يطأ على جمرة يغلي منها دماغه " قال أبو بكر الصديق : وما كان جرمه يا رسول الله ؟ قال : " كانت له ماشية يغشى بها الزرع ويؤذيه وحرم الله الزرع وما حوله رمية بحجر ، فلا تستحبوا أموالكم في الدنيا وتهلكوا أنفسكم في الآخرة " وقال : " إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لا يدخل بعده أحد ، يفسح له في بصره مسيرة عام في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه كل يوم ويراح بسبعين ألف صحفة في كل صحفة لون ليس في الآخر مثله ، شهوته في آخرها كشهوته في أولها ، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً " " .

وأخرج ابن جرير ، عن أبي أمامة قال : إن الرجل من أهل الجنة يشتهي الطائر وهو يطير ، فيقع منفلقاً نضيجاً في كفه ، فيأكل منه حتى ينتهي ثم يطير ، ويشتهي الشراب ، فيقع الإِبريق في يده ، فيشرب منه ما يريد ثم يرجع إلى مكانه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة ﴿ وأكواب ﴾ قال : هي دون الأباريق ، بلغنا أنها مدوّرة الرأس .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي أمامة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم وذكر الجنة فقال : " والذي نفسي بيده ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه ، ثم يخطر على باله

طعام آخر ، فيتحول الطعام الذي في فيه على الذي اشتهى " ثم قرأ ﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، عن ابن عباس قال : الرمانة من رمان الجنة يجتمع عليها بشر كثير يأكلون منها ، فان جرى على ذكر أحدهم شيء وجده في موضع يده حيث يأكل .

(96/694)

وأخرج ابن أبي الدنيا والبزار وابن المنذر والبيهقي في البعث ، عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنك ستنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً " .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، عن ميمونة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل ليشتهي الطير في الجنة ، فيجيء مثل البختي حتى يقع على خوانه لم يصبه دخان ولم تمسه نار ، فيأكل منه حتى يشبع ، ثم يطير " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : أخس أهل الجنة منزلاً له سبعون ألف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب لو نزل به أهل الأرض جميعاً لأوصلهم ، لا

يستعين عليهم بشيء من عند غيره . وذلك في قول الله ﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس أنه سئل في الجنة ولد ؟ قال : إن شاؤوا .

وأخرج أحمد وهناد والدارمي وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن المنذر وابن حبان والبيهقي في البعث ، عن أبي سعيد الخدري قال : " قلنا يا رسول الله إن الولد من قرة العين وتمام السرور ، فهل يولد لأهل الجنة ؟ فقال : " إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة : كما يشتهي " " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن ابن سابط قال : " قال رجل يا رسول الله : أفي الجنة خيل ؟ فإني أحب الخيل ؛ قال : " إن يدخلك الله الجنة ما من شيء شئت إلا فعلت " فقال الأعرابي : أفي الجنة إبل ؟ فإني أحب الإِبل ؛ فقال يا اعرابي : " إن أدخلك الله الجنة أصبت فيها ما تشتهي نفسك ولذت عينك " " .

(97/694)

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه ، عن بريدة قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل في الجنة خيل ؟ فإنها تعجبني ؛ قال : " إن أحببت ذلك أتيت

بفرس من ياقوتة حمراء ، فتطير بك في الجنة حيث شئت " فقال له رجل : إن الإِبل تعجبني ؛ فهل في الجنة من إبل ؟ فقال : " يا عبد الله ، إن أدخلت الجنة ، فلك فيها ما تشتهي نفسك ولذت عينك " " .

وأخرج عبد بن حميد ، عن كثير بن مرة الحضرمي قال : إن السحابة لتمر بأهل الجنة فتقول ما أمطركم ؟

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن ابن سابط قال : إن الرسول يجيء إلى الشجرة من شجر الجنة ، فيقول : إن ربي يأمرك أن تفتقي لهذا ما شاء ، فإن الرسول ليجيء إلى الرجل من أهل الجنة ، فينشر عليه الحلة ، فيقول : قد رأيت الحلل ، فما رأيت مثل هذه !

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عمر بن قيس قال : إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الثمرة ، فتجيء حتى تسيل في فيه ، وإنها في أصلها في الشجرة .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن عبد الرحمن بن سابط قال : إن الرجل من أهل الجنة ، ليزوّج خمسمائة حوراء ، وأربعمائة بكر ، وثمانية آلاف ثيب ، ما منهن واحدة إلا يعانقها عمر الدنيا كلها ، لا يوجد واحد منهما من صاحبه ، وإنه لتوضع مائدته ، فما تنقضي منها نهمته عمر الدنيا كلها ، وإنه ليأتيه الملك بتحية من ربه ، وبين أصبعيه مائة أو سبعون حلة ، فيقول ما أتاني من ربي شيء أعجب إليّ من هذه ! فيقول : أيعجبك هذا ؟ فيقول : نعم فيقول : الملك لأدنى شجرة بالجنة تلوني لفلان من هذا ما اشتهت نفسه .

وأخرج ابن جرير ، عن أبي ظبية السلمي قال : إن السرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول : ما أمطركم ؟ فما يدعو داع من القوم بشيء ، الا أمطرتهم ، حتى أن القائل منهم ليقول : أمطرينا كواعب أترابا .

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72)

(98/694)

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ " .

وأخرج هناد بن السري وعبد بن حميد في الزهد ، عن عبد الله بن مسعود قال : تجوزون الصراط بعفو الله ، وتدخلون الجنة برحمة الله ، وتقتسمون المنازل بأعمالكم .

قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ قال : مستسلمون .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي في سننه ، عن يعلى بن أمية قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن علي أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن الأنباري ، عن مجاهد قال : في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ .

وأخرج الطبراني ، عن يعلى بن أمية قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور ، عن ابن عباس : ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ قال : مكث عنهم ألف سنة ، ثم يجيبهم ﴿ إنكم ماكثون ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ﴾ قال : أم أجمعوا أمراً فإنا مجمعون ، إن كادوا شراً ، كدناهم مثله .

وأخرج ابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي قال : بينا ثلاثة بين الكعبة واستارها ؛ قرشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقرشي ، فقال واحد منهم : ترون الله يسمع كلامنا ؟ فقال واحد : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، فنزلت ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ يقول : لم يكن للرحمن ولد ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ قال : الشاهدين .

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس : إن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ، ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ قال : أنا أول متبرىء من أن يكون لله ولد ! ! ! قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت تبعاً وهو يقول ؟ :

وقد علمت فهر بأني ربهم . . . طراً ولم تعبد

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن وقتادة ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ قالا : ما كان للرحمن ولد ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ قال : يقول محمد صلى الله عليه وسلم : " فأنا أول من عبد الله من هذه الأمة " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد ﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ في زعمكم ﴿ فأنا أوّل العابدين ﴾ فأنا أول من عبد الله وحده ، وكذبكم بما تقولون .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ قال : المؤمنين بالله ، فقولوا ما شئتم .

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة قال : هذه كلمة من كلام العرب : ﴿ إن كان للرحمن ولد ﴾ أي ؛ إن ذلك لم يكن .

وأخرج ابن جرير ، عن زيد بن أسلم قال : هذا مقول من قول العرب ، إن كان هذا الأمر قط ، أي ما كان .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الأعمش أنه كان يقرأ : كل شيء بعد السجدة في مريم ولد ، والتي في الزخرف ونوح وسائر ، ولد .

(100/694)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن قتادة في قوله ﴿ عما يصفون ﴾ قال : عما يكذبون . وفي قوله ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ قال : هو الذي يعبد في السماء ، ويعبد في الأرض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ قال : عيسى وعزير والملائكة ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ قال

: كلمة الإِخلاص ﴿ وهم يعلمون ﴾ إن الله حق ، وعيسى وعزير والملائكة - يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة ، ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ وهو يعلم الحق .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ قال : الملائكة وعيسى وعزير ، فإن لهم عند الله شفاعة .

وأخرج البيهقي في الشعب عن مجاهد في الآية قال : ﴿ شهد بالحق ﴾ وهو يعلم أن الله ربه .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عوف قال : سألت إبراهيم ، عن الرجل يجد شهادته في الكتاب ويعرف الخط والخاتم ولا يحفظ الدراهم فتلا ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ قال : هذا قول نبيكم صلى الله عليه وسلم يشكو قومه إلى ربه ، وعن ابن مسعود أنه قرأ " وقال الرسول يا رب " .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ وقيله يا رب ﴾ بخفض اللام والهاء .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة ﴿ فاصفح عنهم ﴾ قال : نسخ الصفح .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن شعيب بن الحجاب قال : كنت مع علي بن عبد الله البارقي ، فمر علينا يهودي أو نصراني ، فسلم عليه ، فقال شعيب : قلت إنه يهودي أو نصراني ، فقرأ

علي آخر سورة الزخرف ﴿ وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ .

(101/694)

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عون بن عبد الله قال : سئل عمر بن عبد العزيز عن ابتداء أهل الذمة بالسلام ، فقال : ترد عليهم ولا تبتدئهم . قلت : فكيف تقول أنت ؟ قال : ما أرى بأساً أن نبدأهم . قلت : لم ؟ قال : لقول الله تعالى ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(102/694)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

فِي التَّسْمِيَةِ عِنْدَ الرُّكُوبِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ :

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ : ﴿ أَنَّهُ شَهِدَ عَلِيًّا - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - حِينَ رَكِبَ ، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ فَلَمَّا اسْتَوَى قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ثُمَّ قَالَ : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، قَالَ : ثُمَّ حَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَكَبَّرَ ثَلَاثًا ، ثُمَّ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ ضَحِكَ فَقِيلَ لَهُ : مِمَّ تَضْحَكُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَ مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتُ وَقَالَ مِثْلَ الَّذِي قُلْتُ ، ثُمَّ ضَحِكَ فَقِيلَ لَهُ : مِمَّ تَضْحَكُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؟ قَالَ : الْعَبْدُ ، أَوْ قَالَ عَجَبٌ لِلْعَبْدِ إِذَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا هُوَ .

(103/694)

﴿ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَكِبَ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ : هَذَا مَنُّكَ وَفَضْلُكَ عَلَيْنَا الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّنَا ثُمَّ يَقُولُ : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ .

وَرَوَى حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

﴿ عَلَى ذِرْوَةِ سَنَامِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ فَإِذَا رَكِبْتُمُوهَا فَقُولُوا كَمَا أَمَرَكُمْ اللَّهُ : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . ﴾

وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ : " إذَا رَكِبَ الدَّابَّةَ فَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ رَدَفَهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَهُ : تَغَنَّ فَإِنْ لَمْ يُحْسِنْ قَالَ لَهُ : تَمَنَّ " .

فَصْلٌ فِي إبَاحَةِ لُبْسِ الْحُلِيِّ لِلنِّسَاءِ .

قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ " رُخِّصَ لِلنِّسَاءِ فِي الذَّهَبِ " ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ وَرَوَى نَافِعٌ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هِنْدٍ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﴿ لُبْسُ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي حَلَالٌ لِإِنَاثِهَا .

(104/694)

﴿ وَرَوَى شَرِيكٌ عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ رزيح عَنْ الْبَهِيِّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ ﴾ : سَمِعْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ وَهُوَ يَمُصُّ الدَّمَ عَنْ شَجَّةٍ بِوَجْهِ أُسَامَةَ وَيَمُجُّهُ : لَوْ كَانَ أُسَامَةُ جَارِيَةً لَحَلَّيْنَاهُ ، لَوْ كَانَ أُسَامَةَ جَارِيَةً لَكَسَوْنَاهُ لِتُنْفِقَهُ .

﴿ وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ، أَنَّ ﴾ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَتَيْنِ عَلَيْهِمَا أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ : أَتُحِبَّانِ أَنْ يُسَوِّرَكُمَا اللَّهُ بِأَسْوِرَةٍ مِنْ نَارٍ ؟

قَالَتَا : لَا قَالَ : فَأَدِّيَا حَقَّ هَذَا .

﴿ وَقَالَتْ عَائِشَةُ : " لَا بَأْسَ بِلُبْسِ الْحُلِيِّ إذَا أَعْطَى زَكَاتَهُ " .

وَكَتَبَ عُمَرُ إلَى أَبِي مُوسَى أَنْ مُرْ مَنْ قِبَلَك مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصَّدَّقْنَ مِنْ الْحُلِيِّ .

وَرَوَى أَبُو حَنِيفَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ أَنَّ عَائِشَةَ حَلَّتْ أَخَوَاتِهَا الذَّهَبَ ، وَأَنَّ ابْنَ عُمَرَ حَلَّى بَنَاتَه الذَّهَبَ .

، وَقَدْ رَوَى خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ ﴿ : لَمَّا نَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ لُبْسِ الذَّهَبِ قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَنَرْبِطُ الْمِسْكَ بِشَيْءٍ مِنْ الذَّهَبِ ؟ قَالَ : أَفَلَا تَرْبِطُونَهُ بِالْفِضَّةِ ثُمَّ تُلَطِّخُونَهُ بِشَيْءٍ مِنْ زَعْفَرَانٍ فَيَكُونُ مِثْلَ الذَّهَبِ .

(105/694)

﴿ وَرَوَى جَرِيرٌ عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ كُنْت قَاعِدًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : سِوَارَانِ مِنْ نَارٍ فَقَالَتْ :

قُرْطَانِ مِنْ ذَهَبٍ ، قَالَ : قُرْطَانِ مِنْ نَارٍ ، قَالَتْ : طَوْقٌ مِنْ ذَهَبٍ ، قَالَ : طَوْقٌ مِنْ نَارٍ ، قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ الْمَرْأَةَ إذَا لَمْ تَتَزَيَّنْ لِزَوْجِهَا صَلِفَتْ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : مَا يَمْنَعُكُنَّ أَنْ

تَجْعَلْنَ قُرْطَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ تُصَفِّرِينَهُ بِعَنْبَرٍ أَوْ زَعْفَرَانٍ فَإِذَا هُوَ كَالذَّهَبِ ؟ .

﴿ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي إِبَاحَتِهِ لِلنِّسَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ مِنْ أَخْبَارِ الْحَظْرِ ، وَدَلَالَةُ الْآيَةِ أَيْضًا ظَاهِرَةٌ فِي إِبَاحَتِهِ لِلنِّسَاءِ ، وَقَدْ اسْتَفَاضَ لُبْسُ الْحُلِيِّ لِلنِّسَاءِ مُنْذُ لَدُنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ إلَى يَوْمِنَا هَذَا مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ مِنْ أَحَدٍ عَلَيْهِنَّ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ لَا يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِإِخْبَارِ الْآحَادِ .

(106/694)

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يَعْنِي أَنَّ الْكُفَّارَ قَالُوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا الْأَصْنَامَ وَلَا الْمَلَائِكَةَ ، وَإِنَّا إنَّمَا عَبَدْنَاهُمْ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ مِنَّا ذَلِكَ فَأَكْذَبَهُمْ اللَّهُ فِي قِيلِهِمْ هَذَا وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَخْرُصُونَ وَيَكْذِبُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ فِي أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَمْ يَشَأْ كُفْرَهُمْ .

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ بِقَوْلِهِمْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ، وَأَبَانَ بِهِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ شَاءَ أَنْ لَا يُشْرِكُوا .

وَهَذَا كُلُّهُ يُبْطِلُ مَذْهَبَ الْجَبْرِ وَالْجَهْمِيَّةِ .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ بَلْ قَالُوا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى إبْطَالِ التَّقْلِيدِ لِذَمِّهِ إيَّاهُمْ عَلَى تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ وَتَرْكِهِمْ النَّظَرَ فِيمَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ إلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يَنْتَظِمُ مَعْنَيَيْنِ .

أَحَدُهُمَا : أَنَّ الشَّهَادَةَ بِالْحَقِّ غَيْرُ نَافِعَةٍ إلَّا مَعَ الْعِلْمِ وَأَنَّ التَّقْلِيدَ لَا يُغْنِي مَعَ عَدَمِ الْعِلْمِ بِصِحَّةِ الْمَقَالَةِ .

(107/694)

وَالثَّانِي : أَنَّ شَرْطَ سَائِرِ الشَّهَادَاتِ فِي الْحُقُوقِ وَغَيْرِهَا أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ عَالِمًا بِهَا . وَنَحْوُهُ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا رَأَيْت مِثْلَ الشَّمْسِ فَاشْهَدْ وَإِلَّا فَدَعْ . ﴾

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ قَالَ : " نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِلْمٌ لِلسَّاعَةِ " ، وَنَاسٌ يَقُولُونَ : " الْقُرْآنُ عِلْمٌ لِلسَّاعَةِ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الزُّخْرُفِ فِيهَا سِتُّ آيَاتٍ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ الْإِبِلَ دُونَ الْبَقَرِ ؛ لِأَنَّ الْبَقَرَ لَمْ تُخْلَقْ لِتُرْكَبَ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ بَقَرَةً إذْ قَالَتْ لَهُ : إنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا ، وَإِنَّمَا خُلِقْت لِلْحَرْثِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : آمَنْت بِذَلِكَ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَمَا هُمَا فِي الْقَوْمِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ يَعْنِي الْإِبِلَ خَاصَّةً ؛ لِأَنَّ الْفُلْكَ إنَّمَا

تُرْكَبُ بُطُونُهَا ، وَلَكِنَّهُ ذَكَرَهُمَا جَمِيعًا فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ، وَعَطَفَ أَحَدَهُمَا عَلَى آخِرِهِمَا .
وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُجْعَلَ ظَاهِرُهَا بَاطِنَهَا ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ غَمَرَهُ وَسَتَرَهُ ، وَبَاطِنُهَا ظَاهِرٌ ؛ لِأَنَّهُ انْكَشَفَ لِلرَّاكِبِينَ وَظَهَرَ لِلْمُبْصِرِينَ .

(109/694)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أَيْ مُطِيقِينَ ، تَقُولُ : قَرَنْت كَذَا وَكَذَا إذَا رَبَطْته بِهِ ، وَجَعَلْته قَرِينَهُ ، وَأَقْرَنْت كَذَا بِكَذَا إذَا أَطَقْته وَحَكَمْته ، كَأَنَّهُ جَعَلَهُ فِي قَرَنٍ وَهُوَ الْحَبْلُ ، فَأَوْثَقَهُ بِهِ ، وَشَدَّهُ فِيهِ ؛ فَعَلَّمَنَا اللَّهُ تَعَالَى مَا نَقُولُ إذَا رَكِبْنَا الدَّوَابَّ ، وَعَلَّمَنَا اللَّهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى عَلَى لِسَانِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا نَقُولُ إذَا رَكِبْنَا السُّفُنَ ، وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا رَكِبَ قَعُودًا لَهُ وَقَالَ : إنِّي لَمُقْرِنٌ لَهُ ، فَرَكَضَتْ بِهِ الْقَعُودُ حَتَّى صَرَعَتْهُ ، فَانْدَقَّتْ عُنُقُهُ .

وَمَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَدَعَ قَوْلَ هَذَا ، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ ذِكْرُهُ بِاللِّسَانِ ، وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ اعْتِقَادُهُ بِالْقَلْبِ ، أَمَّا أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لَهُ ذِكْرُهُ بِاللِّسَانِ فَيَقُولُ مَتَى رَكِبَ وَخَاصَّةً بِاللِّسَانِ إذَا تَذَكَّرَ فِي

السَّفَرِ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ ﴾ يَعْنِي بِالْحَوْرِ وَالْكَوْرِ تَشَتُّتَ أَمْرِ الرَّجُلِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ .

(110/694)

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ : رَكِبْت مَعَ أَبِي جَعْفَرٍ إلَى أَرْضٍ لَهُ نَحْوُ حَائِطٍ يُقَالُ لَهَا مَدْرَكَةٌ ، فَرَكِبَ عَلَى جَمَلٍ صَعْبٍ ، فَقُلْت لَهُ : أَبَا جَعْفَرٍ ، أَمَا تَخَافُ أَنْ يَصْرَعَك .

فَقَالَ : ﴿ إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : عَلَى سَنَامِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ ، فَإِذَا رَكِبْتُمُوهَا فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ ، ثُمَّ امْتَهِنُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُ اللَّهُ ﴾ .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ : ﴿ شَهِدْت عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَكِبَ دَابَّةً يَوْمًا ، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى الدَّابَّةِ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ .

ثُمَّ قَالَ : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ .

وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ .

ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ثَلَاثًا ، اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ظَلَمْت نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ ضَحِكَ فَقُلْت لَهُ : مَا أَضْحَكَك ؟ قَالَ : رَأَيْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَنَعَ كَمَا صَنَعْت ، وَقَالَ كَمَا قُلْت ، ثُمَّ ضَحِكَ ، فَقُلْت لَهُ : مَا يُضْحِكُك يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لِعَبْدٍ أَوْ قَالَ : عَجَبًا لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ : اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ظَلَمْت نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُهُ ﴾ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

(111/694)

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي شَرْحِ الْكَلِمَةِ ؛ وَهِيَ النُّبُوَّةُ فِي قَوْلٍ ، وَالتَّوْحِيدُ فِي قَوْلٍ آخَرَ ؛ وَلَا جَرَمَ لَمْ تَزَلْ النُّبُوَّةُ بَاقِيَةً فِي ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيمَ وَالتَّوْحِيدُ هُمْ أَصْلُهُ ، وَغَيْرُهُمْ فِيهِ تَبَعٌ لَهُمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فِي عَقِبِهِ ﴾ : بِنَاءُ ع ق ب لِمَا يَخْلُفُ الشَّيْءَ ، وَيَأْتِي بَعْدَهُ ، يُقَالُ : عَقَبَ يَعْقُبُ عُقُوبًا وَعَقِبًا إذَا جَاءَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، وَلِهَذَا قِيلَ لِوَلَدِ الرَّجُلِ مِنْ بَعْدِهِ عَقِبُهُ .

وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ أَنَّهُ سَافَرَ فِي عَقِبِ رَمَضَانَ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى مَوَارِدِ

كَثِيرَةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ إِنَّمَا كَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ فِي الْأَعْقَابِ مَوْصُولَةً بِالْأَحْقَابِ بِدَعْوَتَيْهِ الْمُجَابَتَيْنِ :

إِحْدَاهُمَا بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فَقَدْ قَالَ لَهُ : نَعَمْ ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ ، فَلَا عَهْدَ لَهُ .

ثَانِيهِمَا قَوْلُهُ : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ .

وَقِيلَ بَدَلُ الْأُولَى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ فَكُلُّ أُمَّةٍ تُعَظِّمُهُ ؛ بَنُوهُ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ فِي سَامٍ أَوْ فِي نُوحٍ .

(112/694)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ جَرَى ذِكْرُ الْعَقِبِ هَا هُنَا مَوْصُولًا فِي الْمَعْنَى بِالْحُقْبِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَدْخُلُ فِي الْأَحْكَامِ ، وَتَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ عُقُودُ الْعُمْرَى أَوْ التَّحْبِيسِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْمَرَ عُمْرَى لَهُ وَلِعَقِبِهِ فَإِنَّهَا لِلَّذِي أُعْطِيهَا لَا تَرْجِعُ إلَى الَّذِي أَعْطَاهَا ﴾ ؛ لِأَنَّهُ أَعْطَى عَطَاءً وَقَعَتْ فِيهِ الْمَوَارِيثُ .

وَهِيَ تَرِدُ عَلَى أَحَدَ عَشَرَ لَفْظًا قَوْلُهُ : اللَّفْظُ الْأَوَّلُ الْوَلَدُ ، وَهُوَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ عِبَارَةٌ عَمَّنْ وُجِدَ عَنْ الرَّجُلِ وَامْرَأَتِهِ مِنْ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ ، وَعَنْ وَلَدِ الذُّكُورِ دُونَ وَلَدِ الْإِنَاثِ لُغَةً

وَشَرْعًا ؛ وَلِذَلِكَ وَقَعَ الْمِيرَاثُ عَلَى الْوَلَدِ الْمُعَيَّنِ وَأَوْلَادِ الذُّكُورِ مِنْ الْمُعَيَّنِ دُونَ وَلَدِ الْبَنَاتِ ، لِأَنَّهُ مِنْ قَوْمٍ آخَرِينَ ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْحَبْسِ بِهَذَا اللَّفْظِ ؛ قَالَهُ مَالِكٌ فِي الْمَجْمُوعَةِ وَغَيْرِهَا .

اللَّفْظُ الثَّانِي الْبَنُونَ فَإِنْ قَالَ : هَذَا حَبْسٌ عَلَى ابْنِي فَلَا يَتَعَدَّى الْوَلَدَ الْمُعَيَّنَ وَلَا يَتَعَدَّدُ .

وَلَوْ قَالَ : وَلَدِي لَتَعَدَّى وَتَعَدَّدَ فِي كُلِّ مَنْ وُلِدَ .

وَإِنْ قَالَ : عَلَى بَنِيَّ دَخَلَ فِيهِ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ .

قَالَ مَالِكٌ : مَنْ تَصَدَّقَ عَلَى بَنِيهِ وَبَنِي بَنِيهِ فَإِنَّ بَنَاتَه وَبَنَاتَ بَنَاتِهِ يَدْخُلْنَ فِي ذَلِكَ .

وَرَوَى عِيسَى عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ فِيمَنْ حَبَسَ عَلَى بَنَاتِهِ فَإِنَّ بِنْتَ بِنْتِهِ تَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَعَ بَنَاتِ صُلْبِهِ .

وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ أَصْحَابِهِ أَنَّ وَلَدَ الْبِنْتِ لَا يَدْخُلُونَ فِي الْبَنِينَ .

(113/694)

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَسَنِ بْنِ بِنْتِهِ : إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

قُلْنَا : هَذَا مَجَازٌ ، وَإِنَّمَا أَشَارَ بِهِ إلَى تَشْرِيفِهِ وَتَقْدِيمِهِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَجُوزُ نَفْيُهُ عَنْهُ ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ فِي وَلَدِ بِنْتِهِ :

لَيْسَ بِابْنِي ، وَلَوْ كَانَ حَقِيقَةً مَا جَازَ نَفْيُهُ عَنْهُ ؛ لِأَنَّ الْحَقَائِقَ لَا تُنْفَى عَنْ مُسَمَّيَاتِهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يُنْسَبُ إِلَى أَبِيهِ دُونَ أُمِّهِ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ : إِنَّهُ هَاشِمِيٌّ ؛ وَلَيْسَ بِهِلَالِيٍّ ، وَإِنْ كَانَتْ أُمُّهُ هِلَالِيَّةً .

اللَّفْظُ الثَّالِثُ الذُّرِّيَّةُ ، وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ ذَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ، فِي الْأَشْهَرِ ، فَكَأَنَّهُمْ وُجِدُوا عَنْهُ وَنُسِبُوا إِلَيْهِ .

وَيَدْخُلُ فِيهِ عِنْدَ عُلَمَائِنَا وَلَدُ الْبَنَاتِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ . إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ قِبَلِ أُمِّهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا أَبَ لَهُ .

اللَّفْظُ الرَّابِعُ الْعَقِبُ ، وَهُوَ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنْ شَيْءٍ جَاءَ بَعْدَ شَيْءٍ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِهِ ، يُقَالُ أَعْقَبَ اللَّهُ بِخَيْرٍ ، أَيْ جَاءَ بَعْدَ الشِّدَّةِ بِالرَّخَاءِ .

وَأَعْقَبَ الشَّيْبُ السَّوَادَ .

وَالْمِعْقَابُ مِنْ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِدُ ذَكَرًا بَعْدَ أُنْثَى هَكَذَا أَبَدًا .

وَعَقِبُ الرَّجُلِ وَلَدُهُ وَوَلَدُ وَلَدِهِ الْبَاقُونَ بَعْدَهُ .

(114/694)

وَالْعَاقِبَةُ : الْوَلَدُ قَالَ يَعْقُوبُ : وَفِي الْقُرْآنِ : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ .

وَقِيلَ : بَلْ الْوَرَثَةُ كُلُّهُمْ عَقِبُ .

وَالْعَاقِبَةُ : الْوَلَدُ ، كَذَلِكَ فَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ هَاهُنَا .

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ هَاهُنَا : هُمْ الذُّرِّيَّةُ .

وَقَالَ ابْنُ شِهَابٍ : هُمْ الْوَلَدُ وَوَلَدُ الْوَلَدِ .

وَأَمَّا مِنْ طَرِيقِ الْفِقْهِ فَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي الْمَجْمُوعَةِ : الْعَقِبُ الْوَلَدُ ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى .

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : وَلَيْسَ وَلَدُ الْبَنَاتِ عَقِبًا بِحَالٍ .

وَقَالَ مُحَمَّدٌ عَنْ إبْرَاهِيمَ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ ، عَنْ مَالِكٍ فِيمَنْ حَبَسَ عَلَى عَقِبِهِ وَلِعَقِبِهِ وَلَدٌ فَإِنَّهُ يُسَاوِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آبَائِهِمْ لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى سَوَاءٌ ، وَيُفَضَّلُ ذُو الْعِيَالِ ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ ابْنِ شِهَابٍ إنَّهُ الْوَلَدُ وَوَلَدُ الْوَلَدِ ، وَلَيْسَ

وَلَدُ الِابْنَةِ عَقِبًا وَلَا ابْنَةُ الِابْنَةِ .

وَقَالَ الْقَاضِي : إنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ التَّوْحِيدَ ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْإِمَامَةَ فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ إلَّا الذَّكَرُ وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّ الْأُنْثَى لَيْسَتْ بِإِمَامٍ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ وَأَوْضَحْنَاهُ ؛ وَإِنَّمَا لَا يَكُونُ وَلَدُ الْبَنَاتِ عَقِبًا وَلَا وَلَدًا إذَا كَانَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ : عَلَى وَلَدِي أَوْ عَقِبِي مُفْرَدًا ، وَأَمَّا إذَا تَكَرَّرَ فَقَالَ : عَلَى وَلَدِي وَوَلَدِ وَلَدِي ، وَعَلَى عَقِبِي

وَعَقِبِ عَقِبِي ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ وَلَدُ الْبَنَاتِ فِيهِ حَسْبَمَا يَذْكُرُ فِيهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيمَا بَعْدَهُ مِثْلَ قَوْلِهِ : أَبَدًا ، وَمِثْلَ قَوْلِهِ مَا تَنَاسَلُوا .

(115/694)

اللَّفْظُ الْخَامِسُ نَسْلِي ، وَهُوَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا كَقَوْلِهِ : وَلَدُ وَلَدِي فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ وَلَدُ الْبَنَاتِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَدْخُلُوا ؛ لِأَنَّ " نَسْلَ " بِمَعْنَى خَرَجَ ، وَوَلَدُ الْبَنَاتِ قَدْ خَرَجُوا مِنْهُ بِوَجْهٍ ، وَلَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ مَا يَخُصُّهُ ، كَمَا اقْتَرَنَ بِقَوْلِهِ : عَقِبِي مَا تَنَاسَلُوا ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

اللَّفْظُ السَّادِسُ الْآلُ ، وَهُمْ الْأَهْلُ .

وَهُوَ اللَّفْظُ السَّابِعُ .

قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : هُمَا سَوَاءٌ ، وَهُمْ الْعَصَبَةُ وَالْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ ، وَالْبَنَاتُ وَالْعَمَّاتُ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ الْخَالَاتُ ، وَأَصْلُ الْأَهْلِ الِاجْتِمَاعُ ، يُقَالُ مَكَانٌ آهِلٌ إذَا كَانَ فِيهِ جَمَاعَةٌ ، وَذَلِكَ بِالْعَصَبَةِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِي الْعَقْدِ ؛ وَالْعَصَبَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْهُ ، وَهِيَ أَخَصُّ بِهِ .

وَفِي حَدِيثِ الْإِفْكِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَهْلُك وَلَا نَعْلَمُ إلَّا خَيْرًا يَعْنِي عَائِشَةَ ؛ وَلَكِنْ لَا تَدْخُلُ الزَّوْجَةُ فِيهِ بِإِجْمَاعٍ ، وَإِنْ كَانَتْ أَصْلَ التَّأَهُّلِ ؛ لِأَنَّ ثُبُوتَهَا لَيْسَ بِيَقِينٍ ، وَقَدْ يَتَبَدَّلُ رَبْطُهَا

وَيَنْحَلُّ بِالطَّلَاقِ .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : آلُ مُحَمَّدٍ كُلُّ تَقِيٍّ ، وَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الْإِيمَانَ أَخَصُّ مِنْ الْقَرَابَةِ ،

وَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ وَقُصِدَ بِالرَّحْمَةِ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ التُّونُسِيُّ : يَدْخُلُ فِي الْأَهْلِ مَنْ كَانَ مِنْ جِهَةِ الْأَبَوَيْنِ فَوَفَّى الِاشْتِقَاقَ حَقَّهُ ، وَغَفَلَ عَنْ الْعُرْفِ وَمُطْلَقِ الِاسْتِعْمَالِ .

(116/694)

وَهَذِهِ الْمَعَانِي إنَّمَا تُبْنَى عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْ الْعُرْفِ الْمُسْتَعْمَلِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ ، فَهَذَانِ لَفْظَانِ .

اللَّفْظُ الثَّامِنُ الْقَرَابَةُ ، وَفِيهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ مَالِكٌ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ ، وَابْنِ عَبْدُوسٍ : إنَّهُمْ الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ بِالِاجْتِهَادِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ وَلَدُ الْبَنَاتِ ، وَلَا وَلَدُ الْخَالَاتِ .

الثَّانِي يَدْخُلُ فِيهِ أَقَارِبُهُ مِنْ قِبَلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ؛ قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ .

الثَّالِثُ : قَالَ أَشْهَبُ : يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ ذِي رَحِمٍ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .

الرَّابِعُ قَالَ ابْنُ كِنَانَةَ : يَدْخُلُ فِيهِ الْأَعْمَامُ وَالْعَمَّاتُ وَالْأَخَوَاتُ وَالْخَالَاتُ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ قَالَ : إِلَّا أَنْ تَصِلُوا قَرَابَةَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَقَالَ : لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَابَةٌ ، فَهَذَا يَضْبِطُهُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

اللَّفْظُ التَّاسِعُ : الْعَشِيرَةُ ، وَيَضْبِطُهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَنْزَلَ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُطُونَ قُرَيْشٍ وَسَمَّاهُمْ ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، وَهُمْ الْعَشِيرَةُ الْأَقْرَبُونَ ؛ وَسِوَاهُمْ عَشِيرَةٌ فِي الْإِطْلَاقِ ، وَاللَّفْظُ يُحْمَلُ عَلَى الْأَخَصِّ الْأَقْرَبِ بِالِاجْتِهَادِ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ عُلَمَائِنَا .

(117/694)

اللَّفْظُ الْعَاشِرُ الْقَوْمُ [قَالَ الْقَرَوِيُّونَ] : يُحْمَلُ ذَلِكَ عَلَى الرِّجَالِ خَاصَّةً مِنْ الْعَصَبَةِ دُونَ النِّسَاءِ .

وَالْقَوْمُ يَشْتَمِلُ عَلَى الرِّجَالِ

وَالنِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَ الشَّاعِرُ قَدْ قَالَ : وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ أَخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنَّ الرَّجُلَ إذَا دَعَا قَوْمَهُ لِلنُّصْرَةِ عَنَى الرِّجَالَ ، وَإِذَا دَعَاهُمْ لِلْحُرْمَةِ دَخَلَ فِيهِمْ

الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ ، فَتَعُمُّهُ الصِّفَةُ وَتَخُصُّهُ الْقَرِينَةُ .

اللَّفْظُ الْحَادِي عَشَرَ الْمَوَالِي : قَالَ مَالِكٌ : يَدْخُلُ فِيهِ مَوَالِي أَبِيهِ وَابْنِهِ مَعَ مَوَالِيهِ .

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ : يَدْخُلُ فِيهِ أَوْلَادُ مَوَالِيهِ .

قَالَ الْقَاضِي : وَالَّذِي يَتَحَصَّلُ فِيهِ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ يَرِثُهُ بِالْوَلَاءِ ؛ وَهَذِهِ فُصُولُ الْكَلَامِ وَأُصُولُهُ مُرْتَبِطَةٌ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ ؛ وَالسُّنَّةُ الْمُبَيِّنَةُ لَهُ وَالتَّفْرِيعُ وَالتَّتْمِيمُ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ الْهَوَانِ بِحَيْثُ كَانَ يَجْعَلُ بُيُوتَ الْكُفَّارِ وَدُرَجِهَا وَأَبْوَابِهَا ذَهَبًا وَفِضَّةً ، لَوْلَا غَلَبَةُ حُبِّ الدُّنْيَا عَلَى الْقُلُوبِ ، فَيُحْمَلُ ذَلِكَ عَلَى الْكُفْرِ .

(118/694)

وَالْقَدَرُ الَّذِي [جُعِلَ] عِنْدَ الْكُفَّارِ مِنْ الدُّنْيَا وَعِنْدَ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَغْنِيَاءِ إنَّمَا هُوَ فِتْنَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّك بَصِيرًا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السَّقْفَ لِصَاحِبِ السُّفْلِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَيْتَ عِبَارَةٌ عَنْ قَاعَةٍ وَجِدَارٍ وَسَقْفٍ وَبَابٍ ، فَمَنْ لَهُ الْبَيْتُ فَلَهُ أَرْكَانُهُ ، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْعُلُوَّ لَهُ إلَى السَّمَاءِ .

وَاخْتَلَفُوا فِي السُّفْلِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هُوَ لَهُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَيْسَ لَهُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ شَيْءٌ .

وَفِي مَذْهَبِنَا الْقَوْلَانِ .

وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ حَدِيثُ الْإِسْرَائِيلِيِّ الصَّحِيحُ فِيمَا تَقَدَّمَ : أَنَّ رَجُلًا بَاعَ مِنْ رَجُلٍ دَارًا فَبَنَاهَا فَوَجَدَ فِيهَا جَرَّةً مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَاءَ بِهَا إلَى الْبَائِعِ ، فَقَالَ : إنَّمَا اشْتَرَيْت الدَّارَ دُونَ الْجَرَّةِ .

وَقَالَ الْبَائِعُ : إنَّمَا بِعْت الدَّارَ بِمَا فِيهَا .

وَكَلَاهُمَا تَدَافَعَا فَقَضَى بَيْنَهُمْ أَنْ يُزَوِّجَ أَحَدُهُمَا وَلَدَهُ مِنْ بِنْتِ الْآخَرِ ، وَيَكُونُ الْمَالُ بَيْنَهُمَا .

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْعُلُوَّ وَالسُّفْلَ لَهُ إلَّا أَنْ يَخْرُجَ عَنْهُ بِالْبَيْعِ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فَإِذَا بَاعَ أَحَدُهُمَا أَحَدَ الْمَوْضِعَيْنِ فَلَهُ مِنْهُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ ، وَبَاقِيهِ لِلْمُبْتَاعِ مِنْهُ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَك وَلِقَوْمِك وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي الذِّكْرِ ؛ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهُمَا : الشَّرَفُ .

الثَّانِي : الذِّكْرَى بِالْعَهْدِ الْمَأْخُوذِ فِي الدِّينِ .

الثَّالِثُ : قَالَ مَالِكٌ : هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ .

وَإِذَا قُلْنَا : إِنَّهُ الشَّرَفُ وَالْفَضْلُ فَإِنَّ ذَلِكَ حَقِيقَةً إِنَّمَا هُوَ بِالدِّينِ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَا شَرَفَ فِيهَا .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَفَاخُرَهَا بِالْأَحْسَابِ ، وَالنَّاسُ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أَوْ كَافِرٌ شَقِيٌّ ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ، وَإِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وَقِيلَ : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَك وَلِقَوْمِك يَعْنِي الْخِلَافَةَ فَإِنَّهَا فِي قُرَيْشٍ لَا تَكُونُ فِي غَيْرِهِمْ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ ، مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ ، وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ : هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ ، وَلَمْ أَجِدْ فِي الْإِسْلَامِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ إِلَّا بِبَغْدَادَ ، فَإِنَّ بَنِي التَّمِيمِيِّ بِهَا يَقُولُونَ : حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِذَلِكَ شَرُفَتْ أَقْدَارُهُمْ ، وَعَظَّمَ النَّاسُ شَأْنَهُمْ وَتَهَمَّمَتْ الْخِلَافَةُ بِهِمْ .

وَرَأَيْت بِمَدِينَةِ السَّلَامِ ابْنَيْ أَبِي مُحَمَّدٍ رِزْقَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنَ أَبِي الْفَرَجِ بْنَ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ الْجَرْدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ اللَّيْثِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَسَدِ بْنِ سُفْيَانَ بْنِ يَزِيدَ بْنِ أَكَيْنَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيَّ وَكَانَا يَقُولَانِ : سَمِعْنَا أَبَانَا رِزْقَ اللَّهِ يَقُولُ : سَمِعْت أَبِي يَقُولُ : سَمِعْت أَبِي يَقُولُ : سَمِعْت عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ الْحَنَّانِ الْمَنَّانِ ، الْحَنَّانُ الَّذِي يُقْبِلُ عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ .

وَالْمَنَّانُ الَّذِي يَبْدَأُ بِالنَّوَالِ قَبْلَ السُّؤَالِ ، وَالْقَائِلُ سَمِعْت عَلِيًّا أَكَيْنَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ جَدَّهُمْ الْأَعْلَى .

وَالْأَقْوَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِك ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ، فَعَلَيْهِ يَنْبَنِي الْكَلَامُ ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي تَنْقِيحِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

(121/694)

وَفِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْجَنَّةُ مَخْصُوصَةٌ بِالْحَرِيرِ وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ لُبْسًا وَأَكْلًا وَشُرْبًا وَانْتِفَاعًا ، وَقَطَعَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا عَنْ الْخَلْقِ إجْمَاعًا عَلَى اخْتِلَافٍ فِي الْأَحْكَامِ

، وَتَفْصِيلٍ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، فَأَمَّا الْحَرِيرُ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ .

قَالَ الرَّاوِي : وَإِنْ لَبِسَهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَمْ يَلْبَسْهُ هُوَ ، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ تَأْوِيلِ الرَّاوِي .

وَقَدْ بَيَّنَّا تَأْوِيلَ هَذَا الْحَدِيثِ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ بِمَا يُغْنِي عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا .

وَأَمْثَلُهَا تَأْوِيلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ مَعْنَاهُ وَلَمْ يَتُبْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ ، وَكَذَلِكَ خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ فِي الْحَرِيرِ أَيْضًا بِنَصِّهِ .

الثَّانِي : وَهُوَ الَّذِي يُقْضَى [بِنَصِّهِ] عَلَى الْأَوَّلِ أَنَّ مَعْنَاهُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ ، وَآخِرُ الْأَمْرِ إِلَى حُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَجَمِيلِ الْمَآلِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي لِبَاسِ الْحَرِيرِ عَلَى تِسْعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ مُحَرَّمٌ بِكُلِّ حَالٍ .

الثَّانِي : أَنَّهُ مُحَرَّمٌ إِلَّا فِي الْحَرْبِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ مُحَرَّمٌ إِلَّا فِي السَّفَرِ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ مُحَرَّمٌ إِلَّا فِي الْمَرَضِ .

الْخَامِسُ : أَنَّهُ مُحَرَّمٌ إِلَّا فِي الْغَزْوِ .

السَّادِسُ : أَنَّهُ مُبَاحٌ بِكُلِّ حَالٍ .

السَّابِعُ : أَنَّهُ مُحَرَّمٌ إِلَّا الْعَلَمَ .

الثَّامِنُ : أَنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .

التَّاسِعُ : أَنَّهُ مُحَرَّمٌ لُبْسُهُ دُونَ فَرْشِهِ ؛

قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَابْنُ الْمَاجِشُونِ .

فَأَمَّا كَوْنُهُ مُحَرَّمًا عَلَى الْإِطْلَاقِ فَلِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحُلَّةِ السِّيَرَاءِ : ﴿ إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ ، وَشَبَهُهُ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ مُحَرَّمٌ إِلَّا فِي الْحَرْبِ فَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ الْمَاجِشُونِ مِنْ أَصْحَابِنَا فِي الْغَزْوِ بِهِ وَالصَّلَاةِ فِيهِ ؛ وَأَنْكَرَهُ مَالِكٌ فِيهِمَا .

وَوَجْهُهُ أَنَّ لِبَاسَ الْحَرِيرِ مِنْ السَّرَفِ وَالْخُيَلَاءِ ، وَذَلِكَ أَمْرٌ يُبْغِضُهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا فِي الْحَرْبِ ، فَرُخِّصَ فِيهِ مِنْ الْإِرْهَابِ عَلَى الْعَدُوِّ .

وَهَذَا تَعْلِيلُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ الشَّرِيعَةَ ، فَظَنَّ أَنَّ النَّصْرَ بِالدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلْ فَتَحَ اللَّهُ الْفُتُوحَ عَلَى قَوْمٍ مَا كَانَتْ حِلْيَةُ سُيُوفِهِمْ إِلَّا الْعَلَابِيَّ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ مُحَرَّمٌ إِلَّا فِي السَّفَرِ فَلَمَّا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَخَّصَ لِلزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي قُمُصِ الْحَرِيرِ فِي السَّفَرِ لِحَكَّةٍ كَانَتْ

بِهِمَا ﴾ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ يَحْرُمُ إِلَّا فِي الْمَرَضِ فَلِأَجْلِ إِبَاحَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمَا اسْتِعْمَالَهُ عِنْدَ الْحِكَّةِ .

(123/694)

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ مُحَرَّمٌ إِلَّا فِي الْغَزْوِ فَلِأَجْلِ مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ طُرُقِ أَنَسٍ ﴿ إِنَّهُ رَخَّصَ لِلزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي قُمُصِ الْحَرِيرِ فِي غَزَاةٍ لَهُمَا ﴾ ، فَذِكْرُ لَفْظِ الْغَزْوِ فِي الْعِلَّةِ ، وَذِكْرُ الصِّفَةِ فِي الْحُكْمِ تَعْلِيلٌ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ وَهَا هُنَا كَمَا سَبَقَ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ مُبَاحٌ بِكُلِّ حَالٍ فَإِنَّهُ رَأَى الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ يُبِيحُهُ لِلْحِكَّةِ ، وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الصَّحِيحِ ﴿ لِأَجْلِ الْقَمْلِ ﴾ ، وَلَوْ كَانَ حَرَامًا مَا أَبَاحَهُ لِلْحِكَّةِ وَلَا لِلْقَمْلِ ، كَالْخَمْرِ وَالْبَوْلِ ، فَإِنَّ التَّدَاوِي بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ لَا يَجُوزُ .

وَهَذَا ضَعِيفٌ ؛ فَإِنَّ التَّحْرِيمَ قَدْ ثَبَتَ يَقِينًا ، وَالرُّخْصَةَ قَدْ وَرَدَتْ حَقًّا ، وَلِلْبَارِئِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَضَعَ وَظَائِفَ التَّحْرِيمِ كَيْفَ شَاءَ مِنْ إِطْلَاقٍ وَاسْتِثْنَاءٍ ؛ وَإِنَّمَا أَذِنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ لَهُمَا لِأَجْلِ الْقَمْلِ وَالْحِكَّةِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانَتْ عِنْدَهُمْ خَمَائِصُ غَلِيظَةٌ لَا

يَحْتَمِلُهَا الْبَدَنُ ، فَنَقَلَهُمْ إلَى الْحَرِيرِ ، لِعَدَمِ دَقِيقِ الْقُطْنِ وَالْكَتَّانِ ، وَإِذَا وَجَدَ صَاحِبُ الْجَرَبِ وَالْقَمْلِ دَقِيقَ الْكَتَّانِ وَالْقُطْنِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَأْخُذَ لِينَ الْحَرِيرِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ مُحَرَّمٌ بِكُلِّ حَالٍ إلَّا الْعَلَمَ ، فَلِمَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ إبَاحَةِ الْعَلَمِ ، وَتَقْدِيرُهُ بِأُصْبُعَيْنِ .

(124/694)

وَفِي رِوَايَةٍ بِثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ ؛ وَالْيَقِينُ ثَلَاثُ أَصَابِعَ ، وَهُوَ الَّذِي رَآهُ مَالِكٌ فِي أَشْهَرِ قَوْلَيْهِ ، وَالْأَرْبَعُ مَشْكُوكٌ فِيهِ ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يُكَفَّ الثَّوْبُ بِالْحَرِيرِ كَمَا يَجُوزُ إدْخَالُ الْعَلَمِ فِيهِ ، لِمَا رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ لَهُ فَرْوَةٌ مَكْفُوفَةٌ بِالدِّيبَاجِ ﴾ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى أَسْمَاءَ قَالَ : ﴿ أَخْرَجَتْ إلَيَّ أَسْمَاءُ طَيَالِسَةً كِسْرَوَانِيَّةً ، لَهَا لِبْنَةُ دِيبَاجٍ ، وَفَرْجَاهَا مَكْفُوفَانِ بِالدِّيبَاجِ ، فَقَالَتْ : هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَ عَائِشَةَ تَلْبَسُهَا حَتَّى قُبِضَتْ .

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْبَسُهَا ، فَنَحْنُ نَغْسِلُهَا لِلْمَرْضَى لِيُسْتَشْفَى بِهَا ﴾ .

وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ ، وَأَصْلٌ صَرِيحٌ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَى النِّسَاءِ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ خَطَبَ فَقَالَ : أَلَا لَا تَلْبَسُوا نِسَاءَكُمْ الْحَرِيرَ ؛ فَإِنِّي سَمِعْت عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : سَمِعْت رَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهِ يَقُولُ : ﴿ لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ ، فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ .

(125/694)

وَهَذَا ظَنٌّ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ يَدْفَعُهُ يَقِينُ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ جَمَاعَةٍ ، مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : ﴿ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُلَّةٌ سِيَرَاءُ ، فَبَعَثَ بِهَا إلَيَّ فَلَبِسْتُهَا ، فَعَرَفْت الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ ، وَقَالَ : إنِّي لَمْ أَبْعَثْ بِهَا إلَيْك لِتَلْبَسَهَا ، إنَّمَا بَعَثْتُهَا إلَيْك لِتَشُقَّهَا خُمُرًا بَيْنَ النِّسَاءِ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ ﴿ شَقَقْتُهُ خُمُرًا بَيْنَ الْفَوَاطِمِ ﴾ ، إحْدَاهُنَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوَّجَ عَلِيَّ ، وَالثَّانِيَةُ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنُ هَاشِمٍ زَوْجُ أَبِي طَالِبٍ أُمُّ عَلِيٍّ وَجَعْفَرٍ وَعَقِيلٌ وَطَالِبُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَكَانَتْ أَسْلَمَتْ ، وَهِيَ أَوَّلُ هَاشِمِيَّةٍ وُلِدَتْ لِهَاشِمِيٍّ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِغَيْرِهِمَا .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّمَا حُرِّمَ لُبْسُهُ لَا فَرْشُهُ ، وَهُوَ أَبُو حَنِيفَةَ فَهِيَ نَزْغَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ لَمْ يَعْلَمْ مَا هُوَ اللِّبَاسُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَلَا فِي الشَّرِيعَةِ ، وَالْفَرْشُ وَالْبَسْطُ لَيْسَ لُغَةً ، وَهُوَ كَذَلِكَ حَرَامٌ عَلَى الرِّجَالِ فِي الشَّرِيعَةِ ؛ فَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ قَالَ فِيهِ : ﴿ فَقُمْت إلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ الْحَرِيرُ حَرَامٌ عَلَى الرِّجَالِ ، وَحَلَالٌ لِلنِّسَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(126/694)

وَالْأَصْلُ فِيهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ قَالَ فِي الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ هَذَانِ حَرَامَانِ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي حِلٌّ لِإِنَاثِهَا ﴾ ، وَلِلْمَرْأَةِ أَنْ تَتَّخِذَ ثِيَابَ الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ وَالدِّيبَاجِ ، وَلِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ مَعَهَا فِيهَا ، فَإِذَا انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ لَمْ يَجُزْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَدْ رَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ حِينَ تَزَوَّجَ : اتَّخَذْت أَنْمَاطًا ؟ قُلْت : وَأَنَّى لَنَا الْأَنْمَاطُ ؟ قَالَ : أَمَا إنَّهَا سَتَكُونُ ﴾ .

وَلَيْسَ يَلْزَمُ الرَّجُلَ أَنْ يَخْلَعَهَا عَنْ ثِيَابِهَا ، وَلَا أَنْ يُعَرِّيَ بَيْتَهَا وَفِرَاشَهَا ، وَحِينَئِذٍ يَسْتَمْتِعُ بِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ لُبْسُ الْخَزِّ جَائِزٌ ، وَهُوَ مَا سَدَاهُ حَرِيرٌ وَلَيْسَ لُحْمَتُهُ مِنْهُ ؛ وَقَدْ لَبِسَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَكَانَ يَرَى الْحَرِيرَ حَرَامًا عَلَى النِّسَاءِ ، وَلِهَذَا أَدْخَلَهُ مَالِكٌ عَنْهُ فِي الْمُوَطَّإِ ، وَقَدْ لَبِسَهُ عُثْمَانُ ، وَكَفَى بِهِ حُجَّةً ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ فَأَمَّا اسْتِعْمَالُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَفِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ، مِنْ رِوَايَةِ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلَّذِي يَشْرَبُ فِي آنِيَةٍ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .

فَإِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ .

(127/694)

وَرَوَى حُذَيْفَةُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهِمَا ، وَلَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَالدِّيبَاجَ فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ .

وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي اسْتِعْمَالِهَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ ؛ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلرِّجَالِ اسْتِعْمَالُهَا فِي شَيْءٍ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ : ﴿ هَذَانِ حَرَامَانِ عَلَى

ذُكُورِ أُمَّتِي حِلٌّ لِإِنَاثِهَا ﴾ ؛ وَالنَّهْيُ عَنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ فِيهَا ، وَسَائِرُ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ اسْتِعْمَالِهَا ؛ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ الْمَتَاعِ ، فَلَمْ يَجُزْ ، أَصْلُهُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ ؛ وَلِأَنَّ الْعِلَّةَ فِي ذَلِكَ اسْتِعْجَالُ أَجْرِ الْآخِرَةِ ؛ وَذَلِكَ يَسْتَوِي فِيهِ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَسَائِرُ أَجْزَاءِ الِانْتِفَاعِ ؛ وَلِأَنَّهُ ﴿ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ ؛ فَلَمْ يَجْعَلْ لَنَا فِيهَا حَظًّا فِي الدُّنْيَا .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ إذَا كَانَ الْإِنَاءُ مُضَبَّبًا بِهِمَا أَوْ فِيهِ حَلْقَةٌ مِنْهُمَا ، فَقَالَ مَالِكٌ : لَا يُعْجِبُنِي أَنْ يُشْرَبَ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ الْمِرْآةُ تَكُونُ فِيهَا الْحَلْقَةُ مِنْ الْفِضَّةِ لَا يُعْجِبُنِي أَنْ يَنْظُرَ فِيهَا وَجْهَهُ ، وَقَدْ كَانَ عِنْدَ أَنَسٍ إنَاءٌ مُضَبَّبٌ بِالْفِضَّةِ .

وَقَالَ : ﴿ لَقَدْ سَقَيْت فِيهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

(128/694)

قَالَ ابْنُ سِيرِينَ : كَانَتْ فِيهِ حَلْقَةُ حَدِيدٍ ، فَأَرَادَ أَنَسٌ أَنْ يَجْعَلَ فِيهِ حَلْقَةَ فِضَّةٍ ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِمَّا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَتَرَكَهُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ إذَا لَمْ يَجُزْ اسْتِعْمَالُهَا لَمْ يَجُزْ اقْتِنَاؤُهَا ؛ لِأَنَّ مَا لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُ لَا يَجُوزُ

اقْتِنَاؤُهُ كَالصَّنَمِ وَالطُّنْبُورِ .

وَفِي كُتُبِ عُلَمَائِنَا إنَّهُ يَلْزَمُ الْغُرْمُ فِي قِيمَتِهَا لِمَنْ كَسَرَهَا ؛ وَهُوَ مَعْنًى فَاسِدٌ ؛ فَإِنَّ كَسْرَهَا وَاجِبٌ ؛ فَلَا ثَمَنَ لِقِيمَتِهَا ؛ وَلَا يَجُوزُ تَقْوِيمُهَا فِي الزَّكَاةِ بِحَالٍ ، وَغَيْرُ هَذَا لَا يُلْتَفَتُ إلَيْهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهَا فِي الْمَسَائِلِ بِأَبْلَغَ مِنْ هَذَا .

الْآيَةُ السَّادِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الشَّهَادَةَ مَنْصِبٌ عَظِيمٌ ، وَوِلَايَةٌ كَرِيمَةٌ ، فِيهَا تَنْفِيذُ قَوْلِ الْغَيْرِ عَلَى الْغَيْرِ ، وَلَا يَكُونُ إلَّا بِمَا قَدْ عَلِمَهُ الشَّاهِدُ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْعِلْمِ بِمَا يَكُونُ قَطْعًا عِنْدَهُ ، وَقَدْ يَكُونُ عِنْدَهُ ظَاهِرًا ، وَذَلِكَ مُسْتَقْصًى فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَمَسَائِلِهِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(129/694)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى صفح)

نظر إليه بصَفْح وَجهه ، ويصُفْح وجهه .

وضربته على صَفْحِهِ وصَفْحَته : على جَنْبه .

وجلا صَفْحَتَىْ السّيف ، وكتب فى صفحتى الورقة .

وتصفَّح الشىءَ : تأمّله ، ونظر فى صَفَحاته .

وتصفَّح القومَ : نظر فى أَحوالهم ، ونظر فى خِلالهم هل يرى فلاناً .

وصَفَحْتُ عنه : أَعرضت عن ذنبه وعن تثريبه .

وهو أَبلغ من العفو ، (وقد) يعفو الإِنسان ولا يَصفح .

وصفحت عنه : أَوْلته صفحةً جميلة .

وقوله تعالى : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ ﴾ أَمْرٌ للنّبىّ صلَّى الله عليه وسلم أَن يخفِّف على نفسه كُفر من كفر ؛ كما قال : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

ومن المجاز قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ﴾ .

وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ أَمْر للنبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّجاوز عن جنايات المؤمنين .

وقوله : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ ﴾ إِشارة إِلى الآباءِ والأَزواج بالعفو عن الأَولاد والعِيال .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ ﴾ إِشارة إِلى أَبى بكر الصّدّيق رضى الله عنه

بالتجاوز عن ذنْب مِسْطح بن أُثَاثة فيما أَخطأَ من الخوض فى حديث الإِفْكِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 421.422 ﴾

(130/694)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

وضَرْبُ المَثَلِ بعيسى هو قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران : 59] ؛ خَلَقَ عيسى بلا أب كما خلق آدم بلا أبوين . فحجدوا بهذه الآية .

وقيل هو قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] فقالوا : رضينا بأن نكون في النار مع عيسى وعُزَيْر والملائكة ، وليس لهم في الآية موضع ذِكْرٍ ؛ لأنه سبحانه قال : " وما " تعبدون ، ولم يقل " ومن " تعبدون .

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ : وذلك أنهم قالوا : إن قال آلهتكم خيرٌ فقد أقرَّ بأنها معبودة ، وإن قال : عيسى خيرٌ من آلهتكم فقد أقرَّ بأن عيسى يصلح لأن يُعْبد ، وإن قال : ليس واحدٌ منهم خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه . وهم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه ، ولم

يكن سؤالهم للاستفادة فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم عليهم : " أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعْبَد ؛ إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام بمستحق أن يكون معبوداً من دون الله " وهكذا بيَّن الله – سبحانه – لنبيِّه أنهم قوم جَدِلون ، وأنَّ حُجَتَهم داحضةٌ عند ربهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ ﴾ فليس عيسى إلا عبدٌ أنعمنا عليه بالنبوَّة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلاَئِكَةً فِى الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ .

ولو شِئْنا لأنزلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سُكَّانَ الأرض بَدَلَكم .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَاذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

(131/694)

﴿ وإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ : يعني به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للساعة ، ﴿ فَلاَ تَمْتَرُونَّ ﴾ بنزوله بين يديّ القيامة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

ولا يصدنكم الشيطانُ عن الإيمان بالساعة ، وعن أتِّباع الإيمانِ بهُداي .

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63)

ذكرَ مجيءَ عيسى عَلَيْه السلام أول مرة ؛ حيث أتى قومَه بالشرائع الواضحة ، ودعاهم إلى دين الله ، ولكنهم تحزَّبوا عليه ، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

ما كان لغيرِ اللَّهِ فمآلُه إلا الضياع والأخلاءُ الذين اصطحبوا عَلَى مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو ؛ يتبرَّأ بعضُهم من بعضَ ، فلا ينفع أحدٌ أحداً .

وامَّا الأخلاءُ في الله فيشفع بعضهم في بعض ، ويتكلم بعضهم في شأن بعض ، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله : ﴿ إِلاَّ الْمُتَقِينَ ﴾ .

وشرط الخلَّة في الله ؛ ألا يستعمل بعضُهم بعضاً في الأمور الدنيوية ، ولا يرتفق بعضهم ببعضٍ ؛ حتى تكونَ الصحبةُ خالصةً لله لا لنصيبٍ في الدنيا ، ويكون قبولُ بعضهم بعض لأَجْلِ الله ، ولا تجري بينهم مُداهَنَةٌ ، وبقَدْرِ ما يرى أحدُهم في صاحبه من قبولٍ لطريقِ اللَّهِ يقبله ؛ فإنْ عَلِمَ منه شيئاً لا يرضاه اللَّهُ لا يَرْضَى ذلك من صاحبه ، فإذا عاد إلى تركه عاد هذا إلى مودته ، وإلاّ فلا ينبغي أن يُساعدَه عَلَى معصيته ، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه ، وألا يسكنَ إليه لغرضٍ دنيوي أو لطمعٍ أو لِعوَض .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

يقال لهم غداً : ﴿ يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليوم ﴾ مما يلقاه أهل الجمع من الأهوال ، ولا أنتم تحزنون فيما قَصَّرْتُم من الأعمال . . .

امَّا الذنوب . . فقد غفرناها ، وأمَّا الأهوال . . فكفيناها ، وأمَّا المظالم . . فقضيناها .

فإذا قال المنادي : هذا الخطاب يُطْمِعُ الكلَّ قالوا : نحن عباده ، فإذا قال :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِأَيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ .

أيِسَ الكفارُ ، وقَوِيَ رجاءُ المسلمين .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ .

في رياض الجنة ، وترْتَعون .

ويقال : ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ من لذة السماع .

قوله جل ذكره : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

العُبَّاد لهم فيها ما تشتهي أنفُسهم لأنهم قاسوا في الدنيا –بحُكم المجاهدات– الجوعَ والعطشَ ، وتحمَّلوا وجُوهَ المشاقِّ فيُجازون في الجنة بوجوهٍ من الثواب .

وأمَّا أهل المعرفة والمحبّون فلهم ما يلذ أعينهم من النظر إلى الله لطول ما قاسوه من فَرْطِ الاشتياق بقلوبهم ؛ وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليلهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

أي يقال لهم –والخطاب للمطيعين غداً– : أنتم يا أصحاب الإخلاص في أعمالكم ؛ والصدق في أحوالكم :

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

من الفاكهة الكثيرة تأكلون ، وفي الأُنس تتقبلون .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ .

هؤلاء هم الكفار المشركون ، فهم أهل الخلود ، لا يُفْتَّرُ عنهم العذاب ولا يُخَفَّف .

(133/694)

وأمَّا أهل التوحيد : فقد يكون منهم قومٌ في النار . ولكن لا يخلدون فيها . ودليلُ الخطابِ يقتضي أنه يُفَتَّرُ عنهم العذاب . ورد في الخبر الصحيح : أنه لا يُميتهم الحقُّ – سبحانه – إماتةً إلى أن يُخْرِجَهم من النار – والميت لا يحسُّ ولا يتألم .

﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ .

الإبلاس من الخيبة ويدل ذلك على أن المؤمنين لا يأس لهم فيها ، وإن كانوا في بلائهم فهم على وصف رجائهم ؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهي حسابهم .

ولقد قال الشيوخ : إنَّ حالَ المؤمن في النار – من وجهٍ – أرْوَحُ لقلبه من حاله في الدنيا ؛ فاليومَ – خوفُ الهلاك : ، وغداً – يقينُ النجاة ، وأنشدوا :

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها . . . متوقِّعٌ لقواصم الظَّهْرِ

وفضيلةُ البلوى تَرَقُّبُ أهلِها . . . – عقبَ الرجاء – مودةَ الدهر

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكِن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هذا الخطاب يُشْبِهُ كلمة العُذْر – وإن جلّ قَدْرُه – سبحانه – عن ذلك .

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77)

لو قالوا : " يا مَلِك " لعلَّ أقوالهم كانت أقربَ إلى الإجابة ، ولكنَّ الأجنبيةَ حالت بينهم وبين ذلك ، فكان الجوابُ عليهم :

﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ فيها . . . نُصِحْتم فلم تنتصحوا ، ولم تقبلوا القولَ في حينه ، وكان أكثرهم للحق كارهين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ .

بل أمورُهم مُنْتَقَضةٌ عليهم ؛ فلا يتمشّى لهم شيء مما دبَّروه ، ولا يرتفع لهم أمرٌ على نحو ما قدَّروه – وهذه الحالُ أوضحُ دليل على إثبات الصانع .

قوله جل ذكْره : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .

(134/694)

إنما خوَّفهم بسماع المَلَك ، وبكتابتهم أعمالهم عليهم بغفلتهم عن الله – سبحانه ، ولو كان لهم خبرٌ عن الله لما خوَّفهم بغير الله ، ومَنْ عَلِمَ أنَّ أعمالَه تُكْتَبُ عليه ، وأنه يُطالَبُ بمقتضى ذلك – قَلَّ إلمامُه بما يخاف أن يُسألَ عنه . .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ .

أي إن كان في ضميركم وفي حُكْمِكم وفي اعتقادكم أنَّ للرحمن ولداً فأنا أوَّلُ مَنْ يستنكِفُ من هذه القالة .

قوله جل ذكره : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

تنزَّه الله تنزيهاً ، وتقدَّس تقديساً عمَّا قالوه . وفي هذه الآيات وأمثالِهَا دليلٌ على جوازِ حكاية قول المبتدعة – فيما أخطأوا فيه من وصف المعبود – قصداً للردِّ عليهم ، وإخباراً بتقبيح أقولهم ، وبطلانِ مزاعمهم .

ثم قال جلَّ ذكره : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ .

إذ ليس يفوت أمرُهم ، وهم لا محالة سيلقون صغرهم .

وفي هذا دليلٌ على أنه لا ينبغي للعبد أن يَغْتَرَّ بطول السلامة فإنَّ العواقبَ غيرُ مأمونة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَآءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ .

المعبودُ – في السماء – الله ، والمقصودُ – في طلب الحوائج في الأرض – الله .

أهلُ السماءِ لا يعبدون غير الله ، وأهل الأرض لا يَقْضِي حوائجهم غير الله .

﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في إمهاله للعُصاة ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالِ العِباد .

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتكبَّرَ الذي له مُلْكُ السموات والأرض .

السمواتُ والأرضُ بقدرته تظهر . . . لا هو بظهورها يتعزَّز .

(135/694)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أي شهد –اليوم– بالتوحيد ، فيثبت له الحقُّ حقِّ الشفاعة . وفي الآية دليل على أن جميع

المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبوله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

فكيف لا يعتبرون ؟ وكيف يتكبّرون عن طاعة الله .

﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَآءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أي يعلم علم الساعة ويعلم ﴿ قيله يا رب ﴾ .

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أي أَمْهِلْهُم ، وقل لكم مني سلامٌ . . ولكن سوف تعلمون عقوبة ما تستوجبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 371.378 ﴾

(136/694)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾

يعني : وصف ابن مريم شبهاً ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ يعني : يعرضون عن ذكره .

ويقال : لما قالت النصارى إن عيسى ابن الله إذا قومك منه يصدون .

قرأ ابن عامر ، والكسائي ونافع (يَصُدُّونَ) بضم الصاد .

وقرأ الباقون (يَصِدُّونَ) بالكسر فمن قرأ بالضم فمعناه يعرضون ، ومن قرأ بالكسر فمعناه يضجون ، ويرفعون أصواتهم تعجباً ، وذلك أنهم قالوا : لما جاز أن يكون عيسى ابن الله ، جاز أن تكون الملائكة بناته ، فعارضوه بذلك ، يعني : أهل مكة ، ورفعوا أصواتهم بذلك .

ويقال : إن عبد الله بن الزبعرى قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما ذكرنا في سورة الأنبياء ، ففرح المشركون بذلك ، ورفعوا أصواتهم تعجباً من قوله آلهتنا خير .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ يعني : أم عيسى فإذا جاز أن يكون هو ولداً ، جاز أن تكون الأصنام والملائكة كذلك .

ويقال : فإذا جاز أن يكون هو في النار ، جاز أن تكون معه الأصنام في النار .

قوله : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ يعني : ما عارضوك بهذه المعارضة ، إلا جدلاً ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ يعني : يجادلونك شديد المجادلة بالباطل .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي : ما كان عيسى إلاَّ عبداً لله ، أنعم الله تعالى عليه بالنبوة ، وأكرمه بها ﴿ وجعلناه مَثَلاً لِّبَنِى إسراءيل ﴾ يعني : عبرة لبني إسرائيل ، ليعتبروا به ، حين ولد ابن من غير أب .

ثم قال : ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلَٰئِكَةً فِى الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ يعني : لو شاء الله ، لجعل مكانكم في الأرض ملائكة يخلفون ، فكانوا خلفاً منكم .

ثم رجع إلى صفة عيسى عليه السلام فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ يعني : نزول عيسى ، علامة لقيام الساعة .

(137/694)

ويقال : نزول عيسى آية للناس .

وروى وكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبي رزين ، عن أبي يحيى ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ قال : خروج عيسى ابن مريم .

وروى معمر ، عن قتادة قال : نزول عيسى وروى عبادة ، عن حميد ، عن أبي هريرة قال : " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، حَتَّى يُرى عيسى عليه السلام في الأَرْض إِمَاماً مُقْسِطاً ، وَكُنْتُ أَرْجُو أَلاَّ أَمُوتَ حَتَّى آكُل مع عيسى عليه السلام ، عَلَى مَائِدَةٍ ، فَمَنْ لَقِيهُ مِنْكُمْ ، فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلاَمَ " قرأ بعضهم ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بكسر العين أي : بنزول المسيح يعلم أنه قد قربت الساعة .

ومن قرأ : (وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ) بالنصب ، فإنه بمعنى الدليل ، والعلامة .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ يعني : لا تشكن في القيامة والبعث ﴿ وَاتَّبِعُونِي ﴾ يعني : أطيعوني ﴿ فاعبدوه هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ عني هذا التوحيد صراط مستقيم ﴿

وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشيطان ﴾ يعني : لا يصرفنكم الشيطان عن طريق الهدى ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة .

﴿ وَلَمَّا جَاء عيسى بالبينات ﴾ يعني : بالآيات والعلامات ، وهو إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص .

ويقال : بالبينات ، يعني : بالإنجيل ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ يعني : بالنبوة ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال : بعضهم ، يعني : كل الذي تختلفون فيه .

وقال بعضهم معناه : لأبين تحليل بعض الذي تختلفون فيه .

كقوله : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِأَيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران : 50] وكانوا في ذلك التحريم مختلفين ، فمصدق ومكذب ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد .

(138/694)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ يعني : خالقي وخالقكم ﴿ فاعبدوه ﴾ يعني : وحدوه وأطيعوه ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ يعني : دين الإسلام ﴿ فاختلف الاحزاب مِن بَيْنِهِمْ ﴾ أي : تفرقوا في أمر عيسى ، وهم النسطورية ، والماريعقوبية ، والملكانية .

وقد ذكرناه من قبل .

ويقال : الأحزاب تحزبوا وتفرقوا في أمر عيسى ، وهم اليهود .

فقالوا فيه قولاً عظيماً ، وفي أمه .

فقالوا : إنه ساحر .

ويقال : اختلفوا في قتله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ يعني : أشركوا ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾

يعني : عذاب يوم شديد .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ يعني : ما ينظرون إذا لم يؤمنوا إلا الساعة ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ يعني : فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بقيامها قوله تعالى : ﴿ الاخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ قال مجاهد : الأخلاء في معصية الله تعالى في الدنيا ، يومئذٍ متعادين في الآخرة ﴿ إِلاَّ المتقين ﴾ الموحدين .

قال مقاتل : نزلت في أبي بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط .

وقال الكلبي : كل خليل في غير طاعة الله ، فهو عدوٌّ لخليله .

وروى عبيد بن عمير .

قال : كان لرجل ثلاثة أخلاء ، بعضهم أخص به من بعض ، فنزلت به نازلة ، فلقي أخص الثلاثة .

فقال : يا فلان : إني قد نزل بي كذا وكذا ، وإني أحب أن تعينني .

فقال له : ما أنا بالذي أعينك ، ولا أنفعك ، فانطلق إلى الذي يليه .

فقال له : أنا معك حتى أبلغ المكان الذي تريده ، ثم رجعت وتركتك .

فانطلق إلى الثالث فقال له : أنا معك حيثما دخلت .

قال : فالأول ماله ، والثاني أهله وعشيرته ، والثالث عمله .

(139/694)

وروى أبو إسحاق عن الحارث ، عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، أنه سئل عن قوله : ﴿ الاخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ فقال : خليلان مؤمنان ، وخليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين فيثني على صاحبه خيراً ، ثم يموت الآخر ، فيجمع بين أرواحهما فيقول : كل واحد منهما لصاحبه ، نعم الأخ ونعم الصاحب ، ويموت أحد الكافرين ، فيثني على صاحبه شراً ، ثم يموت الآخر ، فيجمع بين أرواحهما فيقول : كل واحد منهما لصاحبه ، بئس الأخ وبئس الصاحب .

قوله تعالى : ﴿ المتقين يا عباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ يعني : يوم القيامة ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين ءامَنُواْ بآياتنا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ يعني : مخلصين بالتوحيد .

قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة أَنْتُمْ وأزواجكم تُحْبَرُونَ ﴾ يعني : تكرمون وتنعمون .

ويقال : ترون والحبرة : السرور .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بصحاف مّن ذَهَبٍ ﴾ قال كعب : يطاف عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ، في كل صحفة لون وطعام ، ليس في الأخرى ، والصحفة هي القصعة .

﴿ وَأَكْوابٍ ﴾ وهي : الأباريق التي لا خراطيم لها ، يعني : مدورة الرأس .

ويقال : التي لا عُرى لها ، واحدها كوب .

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الانفس ﴾ يعني : تتمنى كل نفس ﴿ وَتَلَذُّ الاعين ﴾ من النظر إليها ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خالدون وَتِلْكَ الجنة ﴾ يعني : هذه الجنة ﴿ التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ يعني : أنزلتموها ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : دخلتموها برحمة الله تعالى ، بإيمانكم واقتسمتموها بأعمالكم .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فاكهة كَثِيرَةٌ ﴾ لا تنقطع .

لقوله : ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 33] ﴿ مّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : من الفواكه متى تشاؤوا .

ثم وصف المشركين فقال : ﴿ إِنَّ المجرمين ﴾ يعني : المشركين ﴿ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خالدون ﴾ أي : دائمون ، لا يموتون ولا يخرجون ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ يعني : لا ينقطع عنهم العذاب طرفة عين ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ يعني : آيسين من رحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ يعني : لم نعذبهم بغير ذنب ﴿ ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ لأنهم كانوا يستكبرون عن الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك ﴾ وذلك أنه لما يشتد عليهم العذاب ، يتمنون الموت ، ويقولون لخازن جهنم : يَا مَالِك ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ يعني : ادع ربك لقبض أرواحنا ، فأجابهم بعد أربعين سنة ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ ماكثون ﴾ وروى عطاء بن السائب ، عن رجل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يجيبهم بعد ألف سنة ﴿ إِنَّكُمْ ماكثون ﴾ ويقال : إنهم ينادون ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ فأوحى الله تعالى إلى مالك ليجيبهم ، فيقول لهم مالك قَالَ : إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جئناكم بالحق ﴾ يعني : جاءكم جبريل في الدنيا ، بالقرآن والتوحيد ﴿ ولكن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارهون ﴾ يعني : جاحدون .

وهو قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً ﴾ قال مقاتل : وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة ، ودخل إبليس عليهم ، وقد ذكرناه في سورة الأنفال .

فنزل ﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ يعني : أجمعوا أمرهم بالشر على النبي صلى الله عليه

وسلم ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ أي : مجمعون أمرنا على ما يكرهون .

وقال الكلبي : وذلك أن ثلاثة نفر ، اجتمعوا وقالوا : إنه يقول : بأن ربي يعلم السر .

أترى أنه يعلم مَا نقول بيننا ؟ فنزل ﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً ﴾ يعني : أقاموا على المعصية ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ أي : معذبون عليها .

قال القتبي : أي : أحكموه ، والمبرم : المفتول على طاقين .

(141/694)

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ ﴾ يعني : بل يظنون .

ويقال : أيظنون ، والميم صلة ﴿ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونجواهم ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التوبيخ ، ومعناه إن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم .

قال ابن عباس : الذين يتناجون خلف الكعبة ، يعني : الذين يقولون : إن الله لا يسمع مقالتنا .

قال الله تعالى : ﴿ بلى ﴾ يعني : نسمع ذلك ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ مقالتهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ يعني : الموحدين من أهل مكة .

قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية ، وقرئت عليهم فقال النضر بن الحارث : ألا ترونه صدقني .

فقال له الوليد : ما صدقك ، ولكنه يقول : ما كان للرحمن ولد .

يعني : إنَّ إن بمعنى ما قال : ﴿ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ يعني : الموحدين من أهل مكة .

وقال الكلبي : أنا أول الآنفين أن لله ولداً .

وقال القتبي : إن كان هذا في زعمكم ، فأنا أول الموحدين ، لأنكم تزعمون أن له ولداً ، فأَنَّا أوّلِ الآنفين من ذلك ، فلم توحدوه ومن وحد الله ، فقد عبده ، ومن جعل له ولداً ، فليس من العابدين كقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] أي : ليوحدون ثم نزه نفسه فقال :

﴿ سبحان رَبّ السموات والأرض رَبّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ يعني : عما يقولون إن لله ولداً ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ يعني : كفار مكة ، حين كذبوا بالعذاب ﴿ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ يعني : يخوضوا في أباطيلهم ، ويستهزئوا ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ يعني : حتى يعاينوا يومهم الذي يوعدون ، وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله ﴾ يعني : إله كل شيء ، ويعلم كل شيء .

ويقال : هو إله في السماء يعبد ، وفي الأرض إله يعبد .

ويقال : يوحد في السماء ويوحد في الأرض ﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ في أمره ﴿ العليم ﴾ بخلقه وبمقالتهم ، ثم عظم نفسه فقال تعالى : ﴿ وَتَبَارَكَ الذى ﴾ يعني : تعالى عما وصفوه الَّذي ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يعني : خزائن السموات المطر ، وخزائن الأرض النبات ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ يعني : قيام الساعة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قرأ أبو عمرو ، ونافع ، وعاصم (تُرْجَعُونَ) بالتاء ، على معنى المخاطبة .

وقرأ الباقون بالياء ، على معنى الخبر عنهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ ﴾ يعني : لا يقدر الذين يعبدون ﴿ مِن دُونِهِ الشفاعة إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ يعني : بلا إله إلا الله مخلصاً ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه الحق ، حين شهدوا بها من قبل أنفسهم ، وأنهم يشفعون لهؤلاء قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ يعني : كفار قريش ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ يعني : أنى يصرفون بعد التصديق .

ثم قال : ﴿ وَقِيلِهِ يارب إِنَّ هَؤُلاَء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : قال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ يعني : وقوله .

قرأ عاصم وحمزة (قِيلِهِ) بكسر اللام ، والباقون بالنصب .

وقرىء في الشاذ (وَقِيلُهُ) بضم اللام ، فمن قرأ بالنصب ، فنصبه من وجهين : أحدهما

على العطف على قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ علام الغيوب ﴾ [التوبة : 78] (وقيله) ومعنى آخر وعنده علم الساعة ، وعلم قيله يا رب .

يعني : يعلم الغيب ومن قرأ بالكسر معناه وعنده علم الساعة ، وعلم قيله يا رب .

(143/694)

ومن قرأ بالرفع فمعناه : وقيله قول يا رب ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون ﴿ فاصفح عَنْهُمْ ﴾ يعني : أعرض عنهم ، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ﴿ وَقُلْ سلام ﴾ يعني : سداداً من القول ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا وعيد منه .

قرأ نافع وابن عامر (تَعْلَمُونَ) بالتاء ، على معنى المخاطبة لهم ، والباقون بالياء على معنى الخبر عنهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 248 . 253 ﴾

(144/694)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ الآية .

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : ما رواه ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّهُ لَيسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِن دُونِ اللَّهِ فِيهِ خَيْرٌ" فقالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً ؟ فقد كان يعبد من دون الله ، فنزلت .

الثاني : ما حكاه مجاهد أن قريشاً قالت : إن محمداً يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى ، فنزلت .

الثالث : ما حكاه قتادة أن الله لما ذكر نزول عيسى في القرآن قالت قريش : يا محمد ما أردت إلى ذكر عيسى ؟ فنزلت هذه الآية .

الرابع : ما ذكره ابن عيسى أنه لما ذكر الله خلق عيسى من غير ذكر كآدم أكبرته قريش فنزلت هذه الآية . وضربه مثلاً أن خلقه من أنثى بغير ذكر كما خلق آدم من غير أنثى ولا ذكر ولذلك غلت فيه النصارى حين اتخذته إلهاً .

﴿ . . . يَصِدُّونَ ﴾ فيه قراءتان :

إحداهما : بكسر الصاد .

والثانية : بضمها فاختلف أهل التفسير في اختلافهما على قولين :

أحدهما : معناه واحد وإن اختلف لفظهما في الصيغة مثل يشد ويشُد وينم وينُم ، فعلى هذا في تأويل ذلك أربعة أوجه :

أحدها : يضجون ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك .

الثاني : يضحكون ، قاله قتادة .

الثالث : يجزعون ، حكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم .

الرابع : يعرضون ، قاله إبراهيم .

والقول الثاني : معناهما مختلف ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها بالضم يعدلون ، وبالكسر يتفرقون ، قاله الحسن .

الثاني : أنه بالضم يعتزلون ، وبالكسر يضجون ، قاله الأخفش .

الثالث : أنه بالضم من الصدود ، وبالكسر من الضجيج ، قاله قطرب .

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ وهذا قول قريش ، قالوا : آلهتنا وهي أصنامهم التي يعبدونها خير ﴿ أَمْ هُوَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أم محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله قتادة .

الثاني : أم عيسى ، قاله السدي .

(145/694)

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ قال السدي : هو قول قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم تزعم كل شيء عبد من دون الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة هؤلاء قد عبدوا من دون الله .

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الخصم الحاذق بالخصومة .

الثاني : أنه المجادل بغير حجة .

قوله عز وجل : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ قال قتادة : يعني عيسى .

﴿ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بالنبوة .

الثاني : بخلقه من غير أب كآدم . وفيه وجه .

الثالث : بسياسة نفسه وقمع شهوته .

﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني أنه لبني إسرائيل ، قاله قتادة .

الثاني : لتمثيله بآدم ، قاله ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكم مَّلاَئِكَةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني لقلبنا بعضكم ملائكة من غير أب كما خلقنا عيسى من غير أب ليكونوا

خلفاء من ذهب منكم .

الثاني : جعلنا بدلاً منكم ملائكة .

﴿ فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : ملائكة يخلف بعضها بعضاً ، قاله قتادة .

الثاني : ملائكة يكونون خلفاً منكم ، قاله السدي .

الثالث : ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم ، قاله مجاهد .

الرابع : ملائكة يكونون رسلاً إليكم بدلاً من الرسل منكم .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن القرآن علم الساعة لما فيه من البعث والجزاء ، قاله الحسن وسعيد بن جبير .

الثاني : أن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى ، قاله ابن إسحاق .

(146/694)

الثالث : أن خروج عيسى علم الساعة لأنه من علامة القيامة وشروط الساعة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، والسدي . وروى خالد عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأَنبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُم شَتَّى وَدِينُهُم وَاحِدٌ ، أَنَا

أَولَى النَّاسِ بعيسَى ابنِ مَرْيَمَ ، إِنَّهُ لَيسَ بَينِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ أَوَّلُ نَازِلٍ ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخنزيرَ ، وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الإِسْلاَمِ " .

وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا : إذا نزل عيسى رفع التكليف لئلا يكون رسولاً إلى أهل ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى وينهاهم ، وهذا قول مردود لثلاثة أمور : للحديث الذي قدمناه ، ولأن بقاء الدنيا يقتضي بقاء التكليف فيها ، ولأنه ينزل آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر وليس يستنكر أن يكون أمر الله تعالى مقصوراً على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه .

وحكى مقاتل أن عيسى ينزل من السماء على ثنية جبل بأرض الشام يقال له أفيف .

﴿ فَلاَ تَمْتَرُونَّ بِهَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا تشكون فيها يعني الساعة . قاله يحيى بن سلام .

الثاني : فلا تكذبون بها ، قاله السُدي .

﴿ وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : القرآن صراط مستقيم إلى الجنة ، قاله الحسن .

الثاني : عيسى ، قاله ابن عباس .

الثالث : الإسلام ، قاله يحيى .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أنه الإنجيل ، قاله قتادة .

الثاني : أنه الآيات التي جاء بها من إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، والإخبار بكثير من الغيوب ، قاله ابن عباس .

﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بالنبوة ، قاله السدي .

الثاني : بعلم ما يؤدي إلى الجميل ويكف عن القبيح ، قاله ابن عيسى .

(147/694)

ويحتمل ثالثاً : أن الحكمة الإنجيل الذي أنزل عليه .

﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : تبديل التوراة ، قاله مجاهد .

الثاني : ما تختلفون فيه من أمر دينكم لا من أمر دنياكم ، حكاه ابن عيسى .

وفي قوله : ﴿ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أي كل الذي تختلفون فيه ، فكان البعض هنا بمعنى الكل ما اقتصر على بيان بعض دون الكل ، قاله الأخفش ، وأنشد لبيد :

ترّاك أمكنة إذا لم أرضها . . . أو يعتلق بعض النفوس حمامها

والموت لا يعتلق النفوس دون بعض .

الثاني : أنه بين لهم بعضه دون جميعه ، ويكون معناه أبين لكم بعض ذلك أيضاً وأكلكم في بعضه إلى الاجتهاد ، وأضمر ذلك لدلالة الحال عليه .

قوله عز وجل : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ قال قتادة يعني ﴿ مِن بَيْنِهِم ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى خالف بعضهم بعضاً ، قاله مجاهد والسدي .

الثاني : فرق النصارى من النسطورية واليعاقبة والملكية اختلفوا في عيسى فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت اليعاقبة هو الله . وقالت الملكية ثالث ثلاثة أحدهم الله ، قاله الكلبي ومقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم أعداء في الدنيا ، لأن كل واحد منهم زين للآخر ما يوبقه ، وهو معنى قول مجاهد .

الثاني : أنهم أعداء في الآخرة مع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا لما رأوا سوء العاقبة فيها بالمقارنة ، وهو معنى قول قتادة .

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في أمية بن خلف الجمحي ، وعقبة بن أبي معيط كانا خليلين . وكان عقبة يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فقالت قريش قد صبأ عقبة بن أبي معيط وقال له أمية : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتفل في وجهه ففعل عقبة ذلك فنذر النبي صلى الله عليه وسلم قتله ، فقتله يوم بدر صبراً ، وقتل أمية في المعركة ، وفيهما نزلت هذه الآية .

قوله عز وجل : ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : هم وأزواجهم المؤمنات في الدنيا .

الثاني : ومن يزوجون من الحور في الآخرة .

الثالث : هم وقرناؤهم في الدنيا .

وفي ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ ستة تأويلات :

أحدها : تكرمون ، قاله ابن عباس ، والكرامة في المنزلة .

الثاني : تفرحون ، قاله الحسن ، والفرح في القلب .

الثالث : تتنعمون ، قاله قتادة ، والنعيم في البدن .

الرابع : تسرّون ، قاله مجاهد ، والسرور في العين .

الخامس : تعجبون ، قاله ابن أبي نجيح ، والعجب ها هنا درك ما يستطرف .

السادس : أنه التلذذ بالسماع ، قاله يحيى بن أبي كثير .

قوله عز وجل : ﴿ . . وَأَكْوَابٍ ﴾ فيها خمسة أقاويل :

أحدها : أنه الآنية المدورة الأفواه ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها ليست لها آذن ، قاله السدي .

الثالث : أن الكوب : المدور القصير العنق القصير العروة ، والإبريق : الطويل العنق الطويل العروة ، قاله قتادة .

الرابع : أنها الأباريق التي لا خراطيم لها ، قاله الأخفش .

الخامس : أنها الأباريق التي ليس لها عروة ، قاله قطرب .

قوله عز وجل : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم في رواية حفص ﴿ تَشْتَهِيهِ ﴾ .

ويحتمل وجهين :

أحدهما : ما تشتهي الأنفس ما تتمناه ، وما تلذ الأعين هو ما رآه فاشتهاه .

الثاني : ما تشتهيه الأنفس هو ما كان طيب المخبر ، وما تلذ الأعين ما كان حسن المنظر .

(149/694)

قوله عز وجل : ﴿ وَنَادَوْاْ يَا مَالِكُ ﴾ هذا نداء أهل النار لخزانها حين ذاقوا عذابها .

﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي يميتنا ، طلبوا الموت ليستريحوا به من عذاب النار .

﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ أي لابثون في عذابها أحياء ، وفي مدة ما بين ندائهم وجوابه أربعة أقاويل .

أحدها : أربعون سنة ، قاله عبد الله بن عمرو .

الثاني : ثمانون سنة ، قاله السدي .

الثالث : مائة سنة ، قاله نوف .

الرابع : ألف سنة ، قاله ابن عباس ، لأن بعد ما بين النداء والجواب أخزى لهم وأذل .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث ، قاله قتادة .

الثاني : أن أحكموا كيداً فإنا محكمون لها كيداً ، قاله ابن زيد .

الثالث : قضوا أمراً فإنا قاضون عليهم بالعذاب ، قاله الكلبي .

وقيل إن هذه الآية نزلت في كفار قريش حين اجتمع وجوههم في دار الندوة يتشاورون في أمر النبي صلى الله عليه وسلم حتى استقر رأيهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله فتضعف المطالبة بدمه ، فنزلت هذه الآية ، وقتل الله جميعهم عليهم اللعنة يوم بدر .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : إن كان للرحمن ولد فأنا أول من يعبد الله ليس له ولد ، قاله ابن زيد . ومجاهد .

الثاني : معناه فأنا أول العابدين ، ولكن لم يكن ولا ينبغي أن يكون ، قاله قتادة .

الثالث : قل لم يكن للرحمن ولد وأنا أول الشاهدين بأن ليس له ولد . قاله ابن عباس .

الرابع : قل ما كان للرحمن ولد ، وهذا كلام تام ثم استأنف فقال : فأنا أول العابدين أي الموحدين من أهل مكة ، قاله السدي .

الخامس : قل إن قلتم إن للرحمن ولداً فأنا أول الجاحدين أن يكون له ولد ، قاله سفيان .

(150/694)

السادس : إن كان للرحمن ولد فأنا أول الآنفين أن يكون له ولد ، قاله الكسائي وابن قتيبة ، ومنه قول الفرزدق :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم . . . وأعْبُدُ أن أهجو تميماً بدارم

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ وهذا إبطال أن يكون غير الله إلَهاً وأن الإلَه هو الذي يكون في السماء إلهاً وفي الأرض إلهاً وليست هذه صفة لغير الله ، فوجب أن يكون هو الإله .

وفي معنى الكلام وجهان :

أحدهما : أنه الموحد في السماء والأرض ، قاله مقاتل .

الثاني : أنه المعبود في السماء والأرض ، قاله الكلبي .

﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه يذكر ذلك صفة لتعظيمه .

الثاني : أنه يذكره تعليلاً لإلاهيته لأنه حكيم عليم وليس في الأصنام حكيم عليم .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : الشركة ومنه أخذت الشفعة في البيع لاستحقاق الشريك لها . ويكون معنى الكلام أن الذين يدعون من دون الله لا يملكون مع الله شركة يستحقون أن يكونوا بها آلهة إلا أن يشهدوا عند الله بالحق على من عليه حق أو له حق ، وهذا معنى قول ابن بحر .

الثاني : أن الشفاعة استعطاف المشفوع إليه فيما يرجى ، واستصفاحه فيما يخشى وهو قول الجمهور .

وقيل إن سبب نزولها ما حكي أن النضر بن الحارث ونفراً من قريش قالوا إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة ، وهم أحق بالشفاعة لنا منه فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ معناه الذين يعبدونهم من دون الله وهم الملائكة

الشفاعة لهم . وقال قتادة : هم الملائكة وعيسى وعزير لأنهم عبدوا من دون الله .

﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه وجهان :

(151/694)

أحدهما : يعني أن الشهادة بالحق إنما هي لمن شهد في الدنيا بالحق وهم يعلمون أنه الحق فتشفع لهم الملائكة ، قاله الحسن .

الثاني : أن الملائكة لا تشفع إلا لمن شهد أن لا إله إلا الله وهم يعلمون أن الله ربهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهي تقرأ على ثلاثة أوجه بالنصب والجر والرفع .

فأما الجر فهي على قراءة عاصم وحمزة ، وهي في المعنى راجعة إلى قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ وعلم قيله .

وأما الرفع فهو قراءة الأعرج ، ومعناها ابتداء ، وقيله ، قيل محمد ، يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . والقيل هو القول .

وأما النصب فهي قراءة الباقين من أئمة القراء ، وفي تأويلها أربعة أوجه :

أحدها : بمعنى إلا من شهد بالحق وقال قيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، على وجه

الإنكار عليهم ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أنها بمعنى أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيلَه يا رب ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : بمعنى وشكا محمد إلى ربه قيله ، ثم ابتداء فأخبر ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَآءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، قاله الزجاج .

قوله عز وجل : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ قال قتادة : أمره بالصفح عنهم ، ثم أمره بقتالهم فصار الصفح منسوخاً بالسيف . ويحتمل الصفح عن سفههم أن يقابلهم عليه ندباً له إلى الحلم .

﴿ وَقُلْ سَلاَمٌ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أي قل ما تسلم به من شرهم ، قاله ابن عيسى .

الثاني : قل خيراً بدلاً من شرهم ؛ قاله السدي .

الثالث : أي احلم عنهم ؛ قاله الحسن .

الرابع : أنه أمره بتوديعهم بالسلام ولم يجعله تحية لهم ؛ حكاه النقاش .

الخامس : أنه عرفه بذلك كيف السلام عليهم ؛ رواه شعيب بن الحباب .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ يحتمل أمرين :

أحدهما : فسوف يعلمون حلول العذاب بهم .

الثاني : فسوف يعلمون صدقك في إنذارهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(152/694)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾

في خلقه من غيرِ أَب . فشبه بآدم من غيرِ أَب ولا أُم .

﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ ويقولون ما يريد محمد منا إلاّ أن نعبده ونتخذه إلهاً كما عبدت النصارى عيسى . قاله قتادة .

وقال ابن عباس : أَراد به مناظرة عبد الله بن الزبعري مع النبي صلى الله عليه وسلم وشأن عيسى (عليه السلام) ، وقد ذكرناها في الأنبياء (عليهم السلام) وأختلف القرّاء في قوله : ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ فقرأ أهل المدينة والشام وجماعة من الكوفيين بضم الصاد ، وهي قراءة علي والنخعي ومعناه يعرضون ، ونظيره قوله : ﴿ رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ [النساء : 61] .

وقرأ الباقون بكسر الصاد ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم واختلفوا في معناه ، فقال

الكسائي : هما لغتان مثل يعرشون ويعرشون ، ويعكفون ويعكفون ، ودرّت الشاة تدر وتدُرُ ، وشذ عليه يشذ ويشد ، ونمّ الحديث ينمه وينمُه ، وقال ابن عباس : معناه يضجون . سعيد بن المسيب : يصيحون ضحاك : يعجون . قتادة : يجزعون ويضحكون ، وقال القرظي : يضجرون .

وقال الفراء : حدثني أبو بكر بن عياش أنَّ عاصماً قرأ يصُدُون من قراءة أبي عبد الرحمن ، وقرأ يصدُون ، وفي حديث آخر إنّ ابن عباس لقي أخي عبيد بن عمير ، فقال : إنّ عمك لعربي ، فماله يلحن في قوله سبحانه تعالى : ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ ؟ .

﴿ وقالوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم فنعبد إلهه ونطيعه ونترك آلهتنا ، هذا قول قتادة ، وقال السدي وابن زيد : أم هُوَ يعنون عيسى (عليه السلام) ، قالوا : يزعم محمد إنّ كلّ ما عبد من دون الله في النّار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عزير وعيسى والملائكة في النّار .

(153/694)

قال الله تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ ﴾ يعني هذا المثل . ﴿ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ خصومة بالباطل . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أخبرنا أبو بكر عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن

عبد الله بن علي الجمشاذي الفقيه ، بقراءتي عليه ، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل . حدثني أبي ، حدثنا عبد الله بن نمير الكوفي ، حدثنا حجاج بن دينار الواسطي ، أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا هارون بن محمد بن هارون ، حدثنا السريّ ، حدثنا أبو النضر ، حدثنا عنبسة بن عبد الواحد القريشي ، عن الحجاج بن دينار ، عن أبي غالب ، عن أبي أُمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه ، إلاَّ أُتوا الجدل ، ثمّ قرأ : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ " .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لبني إِسْرَائِيلَ ﴾ يعني آية أو عبرة وعظه لبني إسرائيل . ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ لأهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم . ﴿ مَّلاَئِكَةً فِي الأرض يَخْلُفُونَ ﴾ يعني يكونون خلفاً منكم فيعمرون الأرض ويعبدونني ويطيعونني .

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني عيسى (عليه السلام) . ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بنزوله يعلم قيام الساعة ويستدل على ذهاب الدّنيا وإقبال الآخرة .

(154/694)

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا طلحة بن محمد وعبيد الله بن أحمد ، قالا : حدثنا أبو بشر بن مجاهد ، حدثنا فضل بن الحسن ، حدثنا عبيد الله بن معاد ، حدثنا أبي ، عن عمران بن جرير ، قال : سمعت أبا نضرة يقرأ ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ ، قال : هو عيسى ، وبإسناده عن ابن مجاهد ، حدثني عبد الله بن (عمر) بن سعد ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، حدثنا خالد بن الحرث ، حدثنا أبو مكي ، عن عكرمة ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ ، قال : ذلك عيسى (عليه السلام) .

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة و مالك بن دينار والضحاك ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بفتح السين واللام ، أي إمارة وعلامة ، وفي الحديث : ينزل عيسى بن مريم على ثنية بالأرض المقدسة ، يقال لها : أفيق ، بين مُمصرّتَيْن وشعر رأسه دهين وبيده حربة يقتل بها الدجال . فيأتي بيت المقدس والنّاس في صلاة العصر ، والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام ، فيتقدّمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثمّ يقتل الخِنزير ، ويكسر الصليب ، ويخرب البيع والكنائس ، ويقتل النصارى . إلاَّ من آمن به .

وقال قوم : الهاء في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ كناية عن القرآن ، ومعنى الآية وإنَّ القرآن لَعِلمٌ لِلسَّاعَةِ يعلمكم قيامها ويخبركم بأحوالها وأهوالها ، وإليه ذهب الحسن .

﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تَشكُنَّ بها أي فيها . ﴿ واتبعون هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ ﴾ ولا يَصرفنّكم ﴿ الشيطان ﴾ عن دين الله . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَلَمَّا

جَآءَ عيسى ﴾ بني إسرائيل . ﴿ بالبينات قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ بالنبوة . ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من أحكام التوراة .

(155/694)

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * إِنَّ الله هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فاختلف الأحزاب ﴾ اليهود والنصارى . ﴿ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ كفروا واشركوا كما في سورة مريم . ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * الأخلاء ﴾ على المعصية في الدنيا . ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة . ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ . المتحابين في الله على طاعة الله .

أخبرنا عقيل بن محمد إنّ أبا الهرج البغدادي القاضي أخبرهم ، عن محمد بن جرير ، حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، عن أبي اسحاق ، إنّ علياً رضي الله عنه قال في هذه الآية : خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فمات أحد المؤمنين ، فقال : يا ربّ إنّ فلان كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالخير ، وينهاني عن الشرّ ، ويخبرني إنّي ملاقيك . يا ربّ فلا تضلّه بعدي واهده ، كما هديتني ، وإكرمه كما أكرمتني .

وإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما ، فيقول : ليتني أحدكما على صاحبه . يقول : يا ربّ انه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ ، ويخبرني أنّي ملاقيك ، فيقول : نعم الأخ ، ونعم الخليل ، ونعم الصاحب .

قال : ويموت أحد الكافرين ، فيقول : إنّ فلان كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالشّر ، وينهاني عن الخير ويخبرني إنّي غير ملاقيك .

فيقول : بئس الأخ ، وبئس الخليل ، وبئس الصاحب .

(156/694)

﴿ ياعباد ﴾ أي فيقال لهم يا عبادي . ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

أخبرنا عقيل بن محمد ، أخبرنا المعافا بن زكريا ، أخبرنا محمد بن جرير . أخبرنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه ، قال : سمعت إنّ الناس حتّى يبعثون ليس منهم أحد إلاّ فزع ، فينادي مناد : ﴿ ياعباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ فيرجوها الناس كلّهم . قال : فيتبعها . ﴿ الذين آمَنُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ فينكس اهل الاديان رؤسهم غير المسلمين .

﴿ ادخلوا الجنة أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ تسرون وتنعمون . ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ

بِصِحَافٍ ﴾ بقصاع واحدتها صفحة .

﴿ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أباريق مستديرة الرؤوس ليست لها آذان ولا خراطم ، واحدها كوب . قال الأعشى :

صريفيّة طَيّبٌ طعمها . . . لها زَبَدٌ بين كوب ودَنّ

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه ، حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، حدثني أبي ، حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا السكوني عبد الحميد بن عبد العزيز ، حدثنا الأشعث الضرير ، عن شهر بن حوشب ، عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة لمن له سبع درجات هو على السادسة وفوق السابعة ، وإنَّ له لثلاثمائة خادم ، ويُغدي ويراح عليه كل يوم ثلاثمائة صحيفة " ، ولا أعلمه إلاَّ قال : " من ذهب في كل صحيفة لون ليس في الأخرى ، وإنَّه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء ، في كلّ إناء لون ليس في الأخرى ، وإنَّهُ ليلذ أوله كما يلذ آخره ، وإنّه ليقول يا ربّ لو أذنتني لأطعمت أهل الجنّة ، وسقيتهم لا ينقص مما عندي شيء إنّ له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة ، سوى زوجته في الدّنيا ، وإنّ الواحدة منهنّ ليأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض " .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه الدينوري ، حدثنا ابن حبش المقري ، حدثنا ابن رنجويه ، حدثنا سلمة ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن إسماعيل بن أبي سعيد ، إنّ عكرمة أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة وأسفلهم درجة ، رجل لا يدخل الجنّة بعده أحد ، يفتح له بصره مسيرة مائة عام في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس منها موضع شبر ، إلاّ معمور يغدى عليه ويراح سبعين ألف صحيفة من ذهب ، ليس منها صحيفة إلاّ وفيها لون ليس في الأخرى مثله " .

" شهوته في آخرها كشهوته في أولها ، لو نزل به جميع أهل الدنيا لوسع عليهم مما أعطي لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً " " .

﴿ وَفِيهَا ﴾ في الجنّة . ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس ﴾ قرأ أهل المدينة والشام وحفص عن عاصم ﴿ تَشْتَهِيهِ ﴾ بالهاء وكذلك هي في مصاحفهم .

﴿ وَتَلَذُّ الأعين وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أخبرنا عقيل بن محمد ، أخبرنا المعافا بن زكريا ، أخبرنا محمد بن جرير ، حدثنا ابن يسار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن ابن سابط ، إنّ رجلاً قال : يا رسول الله إنّي أحبُّ الخيل ، فهل في الجنة خيل ؟ . فقال : " إنّ يدخلك الله الجنّة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء تطير بك في أي الجنّة شئت ، إلاَّ ركبت " .

فقال : إعرابي يا رسول الله إنّي أحبّ الإبل ، فهل في الجنّة إبل ؟ . فقال : " يا إعرابي إن يدخلك الله الجنّة إن شاء الله . كان لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك " " .

وبه عن ابن جرير ، حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأياد ، عن محمد ابن سعد الأناري ، عن أبي ظبية السلمي ، قال : إنّ السرب من أهل الجنّة لتظلهم السحابة ، فتقول : ما أمطركم ؟ . فما يدعو داع من القوم بشيء إلاَّ مطرتهم ، حتّى إنّ القائل منهم ليقول : أمطرينا كواعب أترابا ً .

(158/694)

وبه عن ابن جرير ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن ، حدثنا زيد بن الحُبان بن الرَّيان ، أخبرنا معاوية بن صالح ، حدثني سليمان بن عامر ، قال : سمعت أبا أُمامة يقول : إنّ الرجل من أهل الجنّة ليشتهي الطائر وهو يطير ، فيقع منفلقاً نضيجاً في كفه ، فيأكل منه حتّى تنتهي نفسه ، ثمّ يطير ، ويشتهي الشراب فيقع الإبريق في يده فيشرب منه ما يريد ثمّ يرجع إلى مكانه .

﴿ وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه ، حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك ، حدثنا

محمد بن إبراهيم ابن زياد الطيالسي الرازي ، حدثنا محمد بن حسان الأزرق ، حدثنا ريحان بن سعيد ، حدثنا عباد ابن منصور ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي أسماء الرحبي ، عن ثوبان ، إنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا ينزع رجل من أهل الجنّة من ثمرها إلاّ أعيد في مكانها مثلاها " .

﴿ إِنَّ المجرمين ﴾ المشركين . ﴿ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين * وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ليمتنا ربّك فنستريح ، فيجيبهم مالك بعد ألف سنة : ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ مقيمون في العذاب .

(159/694)

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري ، حدثنا ابن حبش المقري ، حدثنا ابن الفضل ، حدثنا جعفر ابن محمد الدنقاي الضبي ، حدثنا عاصم بن يوسف اليربوعي ، حدثنا قطبة بن عبد العزيز السعدي ، عن الأعمش ، عن سمر بن عطية ، عن شهر بن حوشب ، عن أُم الدرداء ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يلقى على أهل النّار الجوع حتّى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني

من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيدفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم ، فيقولون ادعوا خزنة جهنم ، فيقولون ألم تك تأتكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ، قال : فيقولون إدعوا مالكاً ، فيدعون : يا مالك ليقض علينا ربّك ، فيجيبهم إنّكم ماكثون " .

قال : فقال الأعمش : أنبئت إنّ بين دعائهم وبين إجابته إياهم الف عام .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا هارون بن محمد بن هارون ، حدثنا محمد بن عبد العزيز ، حدثنا القاسم بن يونس الهلالي ، حدثنا قطبة بن عبد العزيز يعني السعدي ، عن الأعمش ، عن سمر بن عطية ، عن شهر بن حوشب ، عن أُم الدرداء ، عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ونادوا يا مالك ليقض علينا ربّك " باللام .

﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بالحق ولكن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * أَمْ أبرموا ﴾ أحكموا . ﴿ أَمْراً ﴾ في المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ محكمون .

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بلى ﴾ نسمع ونعقل ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ يعني الحفظة .

﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ يعني ﴿ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ في قولكم وبزعمكم ، فأنا أولُ الموحدين المؤمنين بالله في تكذيبكم والجاحدين لما قلتم من إنّ له ولداً . قاله مجاهد .

وقال ابن عباس : يعني ما كان للرّحمن ولد وأنا أول الشاهدين له بذلك والعابدين له ، جعل بمعنى النفي والجحد ، يعني ما كان وما ينبغي له ولد . ثمّ ابتداء ﴿ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ ، وقال السدي : معناه ، قل : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ ﴾ أول من عبده بأنّ له ولد ، ولكن لا ولد له ، وقال قوم من أهل المعاني : معناه ، قل ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ ﴾ الآنفين من عبادته .

ويحتمل أن يكون معناه ما كان للرحمن ولدٌ . ثم قال : فأنا أول العابدين الآنفين من هذا القول المنكرين إنّ له ولداً . يقال عبد إذا أنف وغضب عبداً . قال الشاعر :

ألا هويت أُم الوليد وأصحبت . . . لما أبصرت في الرأس مني تعبد

وقال آخر :

متى ما يشاء ذو الود يَصرّم خليله . . . ويعبد عليه لا محالة ظالما

أخبرنا عقيل بن محمد أجازة ، أخبرنا أبو الفرج ، أخبرنا محمد بن جرير ، حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنا ابن أبي ذئب محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة ، عن ابن قشط ،

عن نعجة بن بدر الجهني إنّ امرأة منهم دخلت على زوجها وهو رجل منهم أيضاً فولدت في ستة أشهر فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان رضي الله عنه وأمر بها ترجم ، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : إنّ الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15] وقال : (وفصاله في عامين) قال : فوالله ما عبد عثمان رضي الله عنه أن بعث إليها ترد . قال عبد الله بن وهب : ما استنكف ولا أنف

(161/694)

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السماوات والأرض رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ يكذبون . ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ ﴾ في باطلهم . ﴿ وَيَلْعَبُواْ ﴾ في دنياهم . ﴿ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله ﴾ يعني يعبد في السّماء ويعبد في الأرض .

﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ في تدبير خلقه . ﴿ العليم ﴾ بصلاحهم .

﴿ وَتَبَارَكَ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشفاعة إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ .

اختلف العلماء في معنى هذه الآية . فقال قوم : ﴿ مِن ﴾ في محل النصب وأراد ب ﴿

الذين يَدْعُونَ ﴾ عيسى وعزير والملائكة ، ومعنى الآية : ولا يملك عيسى وعزير والملائكة ﴿ الشفاعة إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ فآمن على علم وبصيرة ، وقال آخرون : ﴿ مَن ﴾ في وضع رفع والّذين يدعون الأوثان والمعبودين من دون الله . يقول : ولا يملك المعبودون من دون الله ﴿ الشفاعة إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ وهم عيسى وعزير والملائكة يشهدون بالحقّ .

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة ما شهدوا . ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ عن عبادته . ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ يعني قول محمد صلى الله عليه وسلم شاكياً إلى ربّه . ﴿ يارب إِنَّ هؤلاء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

واختلف القُراء في قوله : ، فقرأ عاصم وحمزة ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ بكسر اللام على معنى ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ وعلم قيله ، وقرأ الأعرج بالرفع ، أي وعنده قيله ، وقرأ الباقون بالنصب وله وجهان : أحدهما : إنّا لا نسمع سرهم ونجواهم ونسمع قيله والثاني : وقال : ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ .

﴿ فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ ﴾ نسختها آية القتال ، ثمّ هددهم .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ بالتاء أهل المدينة والشام وحفص ، واختاره أيوب وأبو عبيد ، الباقون بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 340 . 347 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

لما قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على قريش إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ امتعضوا «1» من ذلك امتعاضا شديدا ، فقال عبد اللّه بن الزبعرى : يا محمد ، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ، ألست تزعم أنّ عيسى ابن مريم نبىّ وتثني عليه خيرا وعلى أمه ، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما . وعزير يعبد . والملائكة يعبدون ، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا وضحكوا ، وسكت النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فأنزل اللّه تعالى إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ونزلت هذه الآية «2» . والمعنى : ولما ضرب عبد اللّه بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا ، وجادل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعبادة النصارى إياه إِذا قَوْمُكَ

(1) . قوله «امتعضوا من ذلك» غضبوا منه وشق عليهم ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . تقدم في أواخر الأنبياء .

قريش من هذا المثل يَصِدُّونَ ترتفع لهم جلبة وضجيج «1» فرحا وجزلا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بجدله، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم. وأمّا من قرأ: يصدّون - بالضم - فمن الصدود، أى: من أجل هذا المثل يصدّون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد وهو الجلبة، وأنهما لغتان نحو: يعكف ويعكف ونظائر لهما وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ يعنون أنّ آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا ما ضَرَبُوهُ أى ما ضربوا هذا المثل لَكَ إِلَّا جَدَلًا إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الميز بين الحق والباطل بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ لدّ شداد الخصومة دأبهم اللجاج، كقوله تعالى قَوْماً لُدًّا وذلك أنّ قوله تعالى إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما أريد به إلا الأصنام، وكذلك قوله عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» إنما قصد به الأصنام، ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة، إلا أن ابن الزبعرى بخبه وخداعه وخبث دخلته «2»، لما رأى كلام اللّه ورسوله محتملا لفظه وجه العموم، مع علمه بأنّ المراد به أصنامهم لا غير، وجد للحيلة مساغا، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير اللّه، على طريقة المحك والجدال «3» وحب المغالبة والمكابرة، وتوقح في ذلك فتوقر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى أجاب عنه ربه: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى فدل به على أنّ الآية

خاصة في الأصنام ، على أنّ الظاهر قوله وَما تَعْبُدُونَ لغير العقلاء . وقيل : لما سمعوا قوله تعالى إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ قالوا .

نحن أهدى من النصارى ، لأنهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة ، فنزلت . وقوله أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ على هذا القول : تفضيل لآلهتهم على عيسى ، لأنّ المراد بهم الملائكة وما ضربوه لك إلا جدلا . معناه : وما قالوا هذا القول ، يعنى : ء آلهتنا خير أم هو . إلا للجدال ، وقرئ :

أآلهتنا خير ، بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها ، لدلالة أم العديلة عليها . وفي حرف ابن مسعود : خير أم هذا . ويجوز أن يكون جدلا حالا ، أى : جدلين . وقيل : لما نزلت إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ قالوا : ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرا ، كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر . ومعنى يَصِدُّونَ يضجون ويضجرون . والضمير في أَمْ هُوَ لمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم : السخرية به والاستهزاء .

ويجوز أن يقولوا – لما أنكر عليهم قولهم : الملائكة بنات اللّه وعبدوهم – ما قلنا بدعا من القول ،

---

(1) . قوله «ترتفع لهم جلبة وضجيج» أى صياح وكذا اللجب . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «و خبث دخلته» بالضم : باطن أمره . أفاده الصحاح ، (ع)

(3) . قوله «على طريقة المحك» أى : اللجاج ، كما في الصحاح . (ع)

(164/694)

ولا فعلنا نكرا من الفعل ، فإنّ النصارى جعلوا المسيح ابن اللّه وعبدوه ، ونحن أشف «1» منهم قولا وفعلا ، فإنا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسى ، فقيل لهم : مذهب النصارى شرك باللّه ، ومذهبكم شرك مثله ، وما تنصلكم مما أنتم عليه بما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل ، وما عيسى إِلَّا عَبْدٌ كسائر العبيد أَنْعَمْنا عَلَيْهِ حيث جعلناه آية : بأن خلقناه من غير سبب ، كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوّة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبنى إسرائيل .

[سورة الزخرف (43) : آية 60]

وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60)

وَلَوْ نَشاءُ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر لَجَعَلْنا مِنْكُمْ لولدنا منكم يا رجال مَلائِكَةً يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام ، وذات

القديم متعالية عن ذلك .

[سورة الزخرف (43) : آية 61]

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

وَإِنَّهُ وإن عيسى عليه السلام لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ أى شرط من أشراطها تعلم به ، فسمى الشرط علما لحصول العلم به . وقرأ ابن عباس : لعلم ، وهو العلامة . وقرئ : للعلم . وقرأ : أبىّ : لذكر ، على تسمية ما يذكر به ذكرا ، كما سمى ما يعلم به علما . وفي الحديث : أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدّسة : يقال لها أفيق وعليه ممصرتان ، وشعر رأسه دهين ، وبيده حربة ، وبها يقتل الدجال ، فيأتى بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم ، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ، ويخرب البيع والكنائس ، ويقتل النصارى إلا من آمن «2» به .

وعن الحسن : أن الضمير للقرآن ، وأن القرآن به تعلم الساعة ، لأن فيه الإعلان بها فَلا تَمْتَرُنَّ بِها من المرية وهي الشك وَاتَّبِعُونِ واتبعوا هداي وشرعي . أو رسولي . وقيل : هذا أمر لرسول اللّه أن يقوله هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أى هذا الذي أدعوكم إليه . أو هذا القرآن إن جعل الضمير في وَإِنَّهُ للقرآن .

---

(1) . قوله «ونحن أشف منهم» أى : أرق . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي بغير سند . وهو موجود في أحاديث متفرقة . فقوله «ثنية أفيق» عند الحاكم من حديث عثمان بن أبى العاص . وقوله «و عليه ممصرتان» عند أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة . وقوله والناس في صلاة الصبح ، عند ابن ماجة من حديث أبى أسامة . وقوله «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب» في الصحيح من حديث أبى هريرة .

(165/694)

[سورة الزخرف (43) : آية 62]

وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62)

عَدُوٌّ مُبِينٌ قد بانت عداوته لكم «1» : إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 63 إلى 65]

وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)

بِالْبَيِّناتِ المعجزات . أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات بِالْحِكْمَةِ يعنى الإنجيل والشرائع . فإن قلت : هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه ؟ قلت : كانوا يختلفون

في الديانات وما يتعلق بالتكليف وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه ، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم الْأَحْزابُ الفرق المتحزبة بعد عيسى وقيل : اليهود والنصارى فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وعيد للأحزاب . فإن قلت : مِنْ بَيْنِهِمْ إلى من يرجع الضمير فيه ؟ قلت : إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وهم قومه المبعوث إليهم .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 66 إلى 73]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (73)

---

(1) . قوله «قد بانت عداوته لكم» في الصحاح «بان الشيء بيانا» : اتضح فهو بين ، كذلك أيان فهو مبين . (ع)

أَنْ تَأْتِيَهُمْ بدل من الساعة . والمعنى : هل ينظرون إلا إتيان الساعة . فإن قلت : أما أدى قوله بَغْتَةً مؤدّى قوله وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فيستغنى عنه ؟ قلت : لا ، لأنّ معنى قوله تعالى وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ : وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم ، كقوله تعالى تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ويجوز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون يَوْمَئِذٍ منصوب بعدوّ ، أى : تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات اللّه ، وتنقلب عداوة ومقتا ، إلا خلة المتصادقين في اللّه ، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوّة إذا رأوا ثواب التحاب في اللّه تعالى والتباغض في اللّه . وقيل إِلَّا الْمُتَّقِينَ إلا المجتنبين أخلاء السوء . وقيل : نزلت في أبىّ بن خلف وعقبة ابن أبى معيط يا عِبادِ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في اللّه يومئذ ، والَّذِينَ آمَنُوا منصوب المحل صفة لعبادي ، لأنه منادى مضاف ، أى : الذين صدّقوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ مخلصين وجوههم لنا ، جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا . وقيل : إذا بعث اللّه الناس فزع كل أحد ، فينادى مناد : يا عبادي فيرجوها الناس كلهم ، ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين .

وقرئ : يا عباد تُحْبَرُونَ تسرون سرورا يظهر حباره - أى : أثره - على وجوهكم ، كقوله تعالى تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ وقال الزجاج : تكرمون إكراما يبالغ فيه . والحبرة : المبالغة فيما وصف بجميل . والكوب : الكوز لا عروة له وَفِيها الضمير للجنة . وقرئ

تشتهي وتشتهيه. وهذا حصر لأنواع النعم، لأنها إما مشتهاة في القلوب، وإما مستلذة في العيون.

وَتِلْكَ إشارة إلى الجنة المذكورة. وهي مبتدأ، والْجَنَّةُ خبر. والَّتِي أُورِثْتُمُوها صفة الجنة. أو الجنة صفة للمبتدإ الذي هو اسم الإشارة. والتي أورثتموها: خبر المبتدإ. أو التي أورثتموها: صفة، وبِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الخبر، والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار. وفي الوجه الأول تتعلق بأورثتموها. وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة. وقرئ: ورّثتموها مِنْها تَأْكُلُونَ من للتبعيض، أى: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في شجرها، فهي مزينة بالثمار أبدا موقرة بها، لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها «1» إلا نبت مكانها مثلاها «2».»

[سورة الزخرف (43): الآيات 74 إلى 78]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (74) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (78)

---

(1). قوله «من ثمرها إلا نبت مكانها» في الخازن: ورد في الحديث «أنه لا ينزع أحد في

الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها» . (ع)

(2) . أخرجه البزار عن ثوبان . وقد تقدم في البقرة .

(167/694)

لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ لا يخفف ولا ينقص ، من قولهم : فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلا ونقص حرّها . والمبلس : اليائس الساكت سكوت يأس من فرج . وعن الضحاك : يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالدا : لا يرى ولا يرى هُمْ فصل عند البصريين ، عماد عند الكوفيين . وقرئ : وهم فيها ، أى : في النار «1» وقرأ على وابن مسعود رضى اللّه عنهما : يا مال ، بحذف الكاف للترخيم ، كقول القائل :

والحق يا مال غير ما تصف «2»

وقيل لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ : ونادوا يا مال ، فقال : ما أشغل أهل النار عن الترخيم «3» .

وعن بعضهم : حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه . وقرأ أبو السرار الغنوي : يا مال ، بالرفع كما يقال : يا حار «4» لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ من قضى عليه إذا أماته فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ والمعنى : سل ربك أن يقضى علينا . فإن قلت : كيف

قال وَنَادَوْا يا مالِكُ بعد ما وصفهم بالإبلاس ؟ قلت : تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم ، وعلمهم أنه لا فرج لهم ، ويغوّثون «5» أوقاتا لشدّة ما بهم ماكِثُونَ لابثون . وفيه استهزاء . والمراد : خالدون . عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : إنما يجيبهم بعد ألف سنة «6» . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «يلقى على أهل

---

(1) . قوله «و قرئ وَهُمْ فِيهِ أى في النار» لعل تأخير الكلام على هذه القراءة عن الكلام على الضمير السابق من تصرف الناسخ . لأنه مخالف لترتيب التلاوة . (ع)

(2) يحيى رفات العظام بالية والحق يا مال غير ما تصف

أى : يحيى اللّه المتفتت من العظام حال كونها بالية ، يقال : رفته رفتا ، إذا فتته . والرفات : اسم منه كالفتات ، قال : والحق غير ما تذكره يا مالك ، فرخمه بحذف الكاف ، كأنه كان أخبره بموت أحد ثم ظهرت حياته .

(3) . لم أجده بإسناد . وفي البخاري عن يعلى بن أمية «أنه سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم يقرؤها كذلك» .

(4) . قوله «كما يقال يا حار» في نداء حارث . (ع) [. . . . .]

(5) . قوله «و يغوثون» في الصحاح «غوث الرجل» : قال وا غوثاه . (ع)

(6) . أخرجه الحاكم من رواية سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن

عباس في قوله وَنَادَوْا يا مالِكُ قال : مكث عنهم ألف سنة ثم يقول : إنكم ماكثون ، وروى الترمذي من رواية قطبة بن عبد العزيز عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون . فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع - الحديث : وفيه قال الأعمش بين أن ينزل عليهم وإجابة مالك ألف عام» وقال الترمذي : قطبة ثقة .

وبعض أهل الحديث كان يرفع هذا . وهذا أخرجه الطيراني والبيهقي في الشعب ورواه الطبري من رواية شريك عن الأعمش موقوف ولم يفصل الكلام الأخير . ثم رواه من طريق قطبة مرفوعا ، ولم يفعل أيضا .

(168/694)

النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيقولون : ادعوا مالكا ، فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك «1»» . لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ كلام اللّه عز وجل : بدليل قراءة من قرأ : لقد جئتكم . ويجب أن يكون في قال ضمير اللّه عز وجل . لما سألوا مالكا أن يسأل اللّه تعالى القضاء عليهم : أجابهم اللّه بذلك كارِهُونَ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه ،

لأنّ مع الباطل الدعة ، ومع الحق التعب .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 79 إلى 80]

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

أَمْ أبرم مشركو مكة أَمْراً من كيدهم ومكرهم برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فَإِنَّا مُبْرِمُونَ كيدنا كما أبرموا كيدهم ، كقوله تعالى أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ؟ وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فإن قلت : ما المراد بالسر والنجوى ؟ قلت : السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال . والنجوى : ما تكلموا به فيما بينهم بَلى نسمعهما ونطلع عليهما وَرُسُلُنا يريد الحفظة عندهم يَكْتُبُونَ ذلك .

وعن يحيى بن معاذ الرازي : من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السماوات فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وهو من علامات النفاق .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 81 إلى 82]

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (81) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82)

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون

بها فَأَنَا أَوَّلُ من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له : «2» كما يعظم الرجل

---

(1) . هو في الحديث الذي قبله .

(2) . قال محمود : «معناه إن صح وثبت برهان قاطع ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له . . . الخ» قال أحمد : لقد اجترأ عظيما واقتحم مهلكة في تمثيله ذلك بقول من سماه عدليا : إن كان اللّه خالقا للكفر في القلوب ومعذبا عليه فأنا أول القائلين إنه شيطان وليس باله ، فلينقم عليه ذلك بقول القائل : قد ثبت قطعا عقلا وشرعا أنه تعالى خالق لذلك في القلوب كما خلق الايمان ، وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق إلا اللّه ، وتصديقا بمضمون قوله تعالى هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ وقوله اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلا ونقلا : لزمه فرك أذنه وغل عنقه ، إذ يلحد في اللّه إلحادا لم يسقه إليه أحد من عباده الكفرة ، ولا تجرأ عليه مارد من مردة الفجرة . ومن خالف في كفر القدرية فقد وافق على كفر من تجرأ فقال هذه المقالة واقتحم هذه الضلالة بلا محالة ، فانه قد صرح بكلمة الكفر على أقبح وجوهها وأشنع أنحائها : واللّه المسئول أن يعصمنا وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفى الولد والإطناب فيه ، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها ، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة ، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها . ونظيره أن يقول العدلى للمجبر «1» . إن كان اللّه تعالى خالقا للكفر في القلوب ومعذبا عليه عذابا سرمدا ، فأنا أول من يقول : هو شيطان وليس بإله ، فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفى أن يكون اللّه تعالى خالقا للكفر ، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ، ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا ، مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه ، والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه ، وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه . ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه اللّه للحجاج حين قال له - : أما واللّه «2» لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى - : لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك . وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه ، فقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم ، فأنا أول العابدين الموحدين للّه ، المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه . وقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد : إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد . وقرأ بعضهم :

العبدين . وقيل : هي إن النافية ، أى : ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد ، وروى أنّ النضر بن عبد الدار بن قصى قال : إن الملائكة بنات اللّه فنزلت ، فقال النضر : ألا ترون أنه قد صدقنى . فقال له الوليد بن المغيرة : ما صدقك ولكن قال : ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة : أن لا ولد له . وقرئ : ولد ، بضم الواو . ثم نزه ذاته موصوفة بربوبية السماوات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد ، ليدل على أنه من صفة الأجسام .

---

(1) . قوله «و نظيره أن يقول العدلى للمجبر» يريد : أحد المعتزلة لأحد أهل السنة ، وفي هذا التنظير من سوء الأدب في حقه تعالى ما لا يخفى . (ع)

(2) . قوله «قال له : أما واللّه» في الصحاح : «أما» مخفف تحقيق للكلام الذي يتلوه اه . ولعل حذف الألف لغة ، فليحرر . (ع)

(170/694)

ولو كان جسما لم يقدر على خلق هذا العالم وتدبير أمره .

[سورة الزخرف (43) : آية 83]

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا في باطلهم وَيَلْعَبُوا في دنياهم حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ وهذا دليل على أنّ ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب ، وإعلام لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة ، وإن ركب في دعوتهم كل صعب وذلول ، وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان ، كقوله تبارك تعالى اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ وإيعاد بالشقاء في العاقبة .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 84 إلى 85]

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)

ضمن اسمه تعالى معنى وصف ، فلذلك علق به الظرف في قوله فِي السَّماءِ وَفِي الْأَرْضِ «1» كما تقول ، هو حاتم في طيّ حاتم في تغلب ، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به ، كأنك قلت :

هو جواد في طى جواد في تغلب . وقرئ : وهو الذي في السماء اللّه وفي الأرض اللّه . ومثله قوله تعالى وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ كأنه ضمن معنى المعبود أو المالك أو نحو ذلك .

والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام ، كقولهم : ما أنا بالذي قائل لك شيئا ، وزاده طولا أنّ المعطوف داخل في حيز الصلة . ويحتمل أن يكون فِي السَّماءِ صلة الذي وإله خبر

مبتدإ محذوف ، على أنّ الجملة بيان للصلة . وأنّ كونه في السماء على سبيل الإلهية والربوبية ، لا على معنى الاستقرار . وفيه نفى الآلهة التي كانت تعبد في الأرض تُرْجَعُونَ قرئ بضم التاء وفتحها . ويرجعون ، بياء مضمومة . وقرئ : تحشرون ، بالتاء .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 86 إلى 87]

وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)

---

(1) . قال محمود : «ضمن اسمه عز وجل معنى وصف ، فعلق به الظرف ، وهو قوله فِي السَّماءِ . . . الخ» قال أحمد : ومما سهل حذف الراجع مضافا إلى الطول الذي ذكره : وقوع الموصول خبرا عن مضمر لو ظهر الراجع لكان كالتكرار المستكره ، إذ كان أصل الكلام : وهو الذي هو في السماء إله . ولا ينكر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل ، وأن الراجع إنما حذف على فلة حذف مثله لأمر متأكد ، فانه لم يرد في الكتاب العزيز إلا في قوله تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ومع أى في موضعين على رأى .

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون اللّه الشفاعة ، كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند اللّه ، ولكن من شَهِدَ بِالْحَقِّ وهو توحيد اللّه ، وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص : هو الذي يملك الشفاعة ، وهو استثناء منقطع . ويجوز أن يكون متصلا ، لأنّ في جملة الذين يدعون من دون اللّه : الملائكة ، وقرئ : تدعون بالتاء . وتدّعون ، بالتاء وتشديد الدال .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 88 إلى 89]

وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

وَقِيلِهِ قرئ بالحركات الثلاث ، وذكر في النصب عن الأخفش أنه حمله على : أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله : وعنه : وقال قيله . وعطفه الزجاج على محل الساعة ، كما تقول : عجبت من ضرب زيد وعمرا ، وحمل الجرّ على لفظ الساعة ، والرفع على الابتداء ، والخبر ما بعده : وجوّز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف . معناه : عنده علم الساعة وعلم قيله . والذي قالوه ليس بقوى في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ، ومع تنافر النظم . وأقوى من ذلك وأوجه : أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه ، والرفع على قولهم : أيمن اللّه ، وأمانة اللّه ، ويمين اللّه ، ولعمرك : ويكون قوله إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ جواب القسم ، كأنه قيل : وأقسم بقيله يا رب . أو وقيله يا رب قسمي إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون فَاصْفَحْ عَنْهُمْ فأعرض عن دعوتهم يائسا عن إيمانهم ، وودعهم وتاركهم ، وَقُلْ لهم سَلامٌ أى تسلم منكم

ومتاركة فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وعيد من اللّه لهم وتسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم . والضمير في وَقِيلِهِ لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وإقسام اللّه بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه .

عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . ادخلوا الجنة بغير حساب» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 259. 268 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

(172/694)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولمّا ضُرِبَ ابنُ مريمَ مَثَلاً ﴾

أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادَلة ابنِ الزِّبعري رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين نزل قوله : ﴿ إِنَّكم وما تعبُدون مِنْ دونِ الله .

.

﴾ الآية [الأنبياء : 98] وقد شرحنا القصة في سورة [الأنبياء : 101] .

والمشركون هم الذين ضربوا عيسى مَثَلاً لآلهتهم وشبَّهوه بها ، لأن تلك الآية إنما تضمنت ذِكْر الأصنام لأنها عُبِدَتْ مِنْ دون الله ، فألزموه عيسى ، وضربوه مَثلاً لأصنامهم ، لأنه معبود النصارى .

والمراد بقومه : المشركون .

فأمّا ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ فقرأ ابن عامر ، ونافع ، والكسائي : بضم الصاد ، وكسرها الباقون ؛ قال الزجاج : ومعناهما جميعاً : يَضِجُّون ، ويجوز أن يكون معنى المضمومة : يُعْرِضون .

وقال أبو عبيدة : من كسر الصاد ، فمجازها : يَضِجُّون ، ومن ضمَّها ، فمجازها : يَعْدِلون .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أآلهتُنا خيرٌ أَمْ هُوَ ﴾ المعنى : ليست خيراً منه ، فإن كان في النار لأنه عُبِدَ مِنْ دون الله ، فقد رضينا أن تكون آلهتُنا بمنزلته .

﴿ ما ضَرَبوه لك إلاّ جَدَلاً ﴾ أي : ما ذَكَروا عيسى إلاّ ليجادلوك به ، لأنهم قد عَلِموا أن المراد ب ﴿ حَصَبَ جهنم ﴾ ما اتخذوه من الموات ﴿ بل هُمْ قَوْمٌ خَصِمونَ ﴾ أي : أصحاب خصومات .

قوله تعالى : ﴿ وجَعَلْناه مَثَلاً ﴾ أي : آية وعبرة ﴿ لبني إسرائيل ﴾ يعرِفون به قُدرة الله على ما يريد ، إذ خلَقه من غير أب .

ثم خاطب كفار مكة ، فقال : ﴿ ولو نشاء لَجَعَلْنا منكم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن المعنى : لَجَعَلْنا بدلاً منكم ﴿ ملائكةً ﴾ ؛ ثم في معنى ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : يخلُف بعضُهم بعضاً ، قاله ابن عباس .

والثاني : يخلُفونكم ليكونوا بدلاً منكم ، قاله مجاهد .

والثالث : يخلُفون الرُّسل فيكونون رسلاً إليكم بدلاً منهم ، حكاه الماوردي .

(173/694)

والقول الثاني : أن المعنى : " ولو نشاء لجَعَلْنا منكم ملائكة " أي : قَلَبْنَا الخِلقة فجَعَلْنا بعضَكم ملائكةً يخلُفون مَنْ ذهب منكم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لَعِلْمٌ للسّاعة ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : [أنها] تَرْجِع إلى عيسى عليه السلام .

ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : نزولُ عيسى من أشراط الساعة يُعْلَم به قُربها ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي .

والثاني : أن إحياءَ عيسى الموتى دليلٌ على الساعة وبعث الموتى ، قاله ابن إسحاق .

والقول الثاني : أنها تَرْجِع إلى القرآن ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير .

وقرأ الجمهور ﴿ لَعِلْمٌ ﴾ بكسر العين وتسكين اللام ؛ وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، وقتادة ، وحميد ، وابن محيصن : بفتحهما .

قال ابن قتيبة : من قرأ بكسر العين ، فالمعنى أنه يُعْلَم به قُرْبُ الساعة ، ومن فتح العين واللام ، فإنه بمعنى العلامة والدليل .

قوله تعالى : ﴿ فلا تَمْتَرُنَّ بها ﴾ أي : فلا تَشُكُّنَّ فيها ﴿ واتبعون ﴾ على التوحيد ﴿ هذا ﴾ الذي أنا عليه ﴿ صراط مستقيم ﴾ .

﴿ ولمّا جاء عيسى بالبيّنات ﴾ قد شرحنا هذا في [البقرة : 87] .

﴿ قال قد جئتُكم بالحكمة ﴾ وفيها قولان .

أحدهما : النُّبوَّة ، قاله عطاء ، والسدي .

والثاني : الإِنجيل قاله مقاتل .

﴿ ولأُبيِّن لكم بعضَ الذي تختلفون فيه ﴾ أي من أمر دينكم ؛ وقال مجاهد : " بعضَ الذي تختلفون فيه " من تبديل التوراة ؛ وقال ابن جرير : من أحكام التوراة .

وقد ذهب قوم إِلى أن البعض ها هنا بمعنى الكُلّ .

وقد شرحنا ذلك في [حم المؤمن : 28] ؛ قال الزجاج : والصحيح أن البعض لا يكون في

معنى الكُلّ ، وإنما بيَّن لهم عيسى بعض الذي اختلَفوا فيه ممّا احتاجوا إليه ؛ وقد قال ابن جرير : كان بينهم اختلاف في أمر دينهم ودنياهم ، فبيَّن لهم أمر دينهم فقط .

(174/694)

وما بعد هذا قد سبق بيانه [النساء : 175] [مريم : 37] إلى قوله : ﴿ هل ينظُرونَ ﴾ يعني كفار مكة .

قوله تعالى : ﴿ الأخِلاَّءُ ﴾ أي : في الدنيا ﴿ يومَئذ ﴾ أي : في القيامة ﴿ بعضُهم لبعض عدوٌّ ﴾ لأن الخُلَّة إذا كانت في الكفر والمعصية صارت عداوةً يومَ القيامة ؛ وقال مقاتل : نزلت في أُمية بن خلف وعقبة ابن أبي معيط ﴿ إلاّ المتَّقينَ ﴾ يعني الموحّدين .

فإذا وقع الخوف يومَ القيامة نادى منادٍ ﴿ يا عبادِ لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تَحْزَنونَ ﴾ ، فيرفع الخلائق رؤوسهم .

فيقول : ﴿ الذين آمَنوا بآياتنا وكانوا مُسْلِمينَ ﴾ ، فينكّس الكفار رؤوسهم .

قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ يا عبادي ﴾ بإثبات الياء في الحالين وإسكانها ، وحذفها في الحالين ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ، والمفضل عن عاصم ، وخلف .

وفي أزواجهم قولان :

أحدهما : زوجاتهم .

والثاني : قرناؤهم .

وقد سبق معنى ﴿ تُحْبَرونَ ﴾ [الروم : 15] .

قوله تعالى : ﴿ يُطاف عليهم بِصِحافٍ ﴾ قال الزجاج : واحدها صَحْفة ، وهي القَصْعة والأكواب واحدها : كُوب وهو إناء مستدير لا عُرْوَة له ؛ قال الفراء : الكُوب : [الكوز] المستدير الرأس الذي لا أُذُن له ، وقال عديّ :

مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه . . .

يَسْعَى عليه العَبْدُ بالكُوبِ

وقال ابن قتيبة : الأكواب : الأباريق التي لا عُرى لها .

وقال شيخنا أبو منصور اللغوي : وإنما كانت بغير عُرىً لِيَشرب الشارب من أين شاء ، لأن العُروة تَرُدُّ الشارب من بعض الجهات .

قوله تعالى : ﴿ وفيها ما تشتهي الأنفسُ ﴾ وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿ تشتهيه ﴾ بزيادة هاءٍ وحذفُ الهاء كإثباتها في المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وتَلَذُّ الأعيُنُ ﴾ يقال : لَذِذْتُ الشيءَ ، واستلذذتُه ، والمعنى : ما من شيء اشتهتْه نَفْس أو استلذَّته عين إلاّ وهو في الجنة ، وقد جمع الله تعالى جميع نعيم الجنة في هذين الوصفين ، فإنه ما من نِعمة إلاّ وهي نصيب النَّفْس أو العين ، وتمام النَّعيم الخلود ، لأنه لو انقطع لم تَطِب .

﴿ وتلك الجَنَّةُ ﴾ يعني التي ذكرها في قوله : " ادْخُلوا الجَنَّة ﴿ التي أُورِثْتُموها ﴾ قد شرحنا هذا في [الأعراف : 43] عند قوله ﴿ أُورِثْتُموها ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ المُجْرِمينَ ﴾ يعني الكافرين ، ﴿ لا يُفَتَّرُ ﴾ أي : لا يُخَفَّفُ ﴿ عنهم وهُم فيه ﴾ يعني في العذاب ﴿ مُبْلِسُونَ ﴾ قال ابن قتيبة : آيسون من رحمة الله .

وقد شرحنا هذا في [الأنعام : 44] ﴿ وما ظَلَمْناهم ﴾ أي : ما عذَّبْناهم على غير ذَنْبٍ ﴿ ولكن كانوا هُمُ الظالمين ﴾ لأنفسهم بما جَنَوْا عليها .

قال الزجاج : والبصريُّون يقولون : " هُم " ها هنا فصل ، كذلك يسمُّونها ، ويسمِّيها الكوفيُّون العِماد .

قوله تعالى : ﴿ ونادَوا يا مالِكُ ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، وابن يعمر : [" يا مالِ "] بغير كاف مع كسر اللام .

قال الزجاج : وهذا يسميه النحويون : [الترخيم] ، ولكني أكرهها لمخالفة المصحف .

قال المفسرون : يَدْعُون مالكاً خازنَ النار فيقولون ﴿ لِيَقْضِ علينا ربُّكَ ﴾ [أي] : لِيُمِتْنا ؛ والمعنى : أنهم توسَّلوا به ليَسأل الله تعالى لهم الموتَ فيستريحوا من العذاب ؛ فيسكُت ، عن جوابهم مُدَّةً ، فيها أربعة أقوال .

أحدها : أربعون عاماً ، قاله عبد الله بن عمرو ، ومقاتل .

والثاني : ثلاثون سنة قاله أنس .

والثالث : ألف سنة ، قاله ابن عباس .

والرابع : مائة سنة ، قاله كعب .

وفي سكوته عن جوابهم هذه المدة قولان .

أحدهما : أنه سكت حتى أوحى الله إليه أَن أَجِبْهم ، قاله مقاتل .

(176/694)

والثاني : لأن بُعْدَ ما بين النداء والجواب أخزى لهم وأذَلُّ .

قال الماوردي : فردَّ عليهم مالك فقال ﴿ إنكم ماكثون ﴾ أي : مقيمون في العذاب .

﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ أي : أرسَلْنا رسلنا بالتوحيد ﴿ ولكنَّ أكثركم ﴾ قال ابن عباس يريد : كُلَّكم ﴿ كارِهونَ ﴾ لِما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أبرَموا أمْراً ﴾ في "أَمْ" قولان .

أحدهما : أنها للاستفهام .

والثاني : بمعنى "بل" والإِبرام : الإِحكام .

وفي هذا الأمر ثلاثة أقوال .

أحدها : المَكْرُ برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتُلوه أو يُخرِجوه حين اجتمعوا في دار النَّدوة ؛ وقد سبق بيان القصة [الأنفال : 30] ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه إِحكام أمرهم في تكذيبهم ، قاله قتادة .

والثالث : أنه إِبرامُ أمرهم يُنجيهم من العذاب قاله الفراء .

﴿ فإنّا مُبرِمون ﴾ أي : مُحْكِمون أمراً في مجازاتهم .

﴿ أَمْ يَحْسَبوْن أنّا لا نَسْمَع سِرَّهم ﴾ وهو ما يُسِرُّونه من غيرهم ﴿ ونجواهم ﴾ ما يتناجَوْن به بينهم ﴿ بلى ﴾ والمعنى : إنّا نَسمع ذلك ﴿ ورُسُلنا ﴾ يعني [من] الحَفَظة ﴿ لديهم يكتُبون ﴾ .

﴿ قُلْ إِنْ كان للرحمن وَلَدٌ ﴾ في "إِنْ" قولان .

أحدهما : أنها بمعنى الشرط ؛ والمعنى : إِن كان له ولد في قولكم وعلى زعمكم ، فعلى هذا في قوله ﴿ فأنا أوّلُ العابدِين ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : فأنا أول الجاحدين ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أن أعرابيَّين اختصما إليه ، فقال أحدهما : إن هذا كانت لي في يده أرض ، فعبدنيها .

فقال ابن عباس : الله أكبر فأنا أوّلُ العابدين الجاحدين أن لله ولداً .

والثاني : فأنا أوّل مَنْ عَبَدَ اللهَ مخالفاً لقولكم ، هذا قول مجاهد .

وقال الزجاج : معناه : إن كنتم تزعُمون للرحمن وَلَداً ، فأنا أوّل الموحِّدين .

والثالث : فأنا أول الآنفين لله مما قُلتم .

قاله ابن السائب ، وأبو عبيدة .

(177/694)

قال ابن قتيبة : يقال عَبِدْتُ من كذا ، أَعبَدُ عَبَداً ، فأنا عَبِدٌ وعابِدٌ قال الفرزدق :

[أولئكَ قَوْمٌ إنْ هَجَوني هَجَوتُهم] . . .

وأَعْبَدُ أنْ تُهْجَى تَمِيمٌ بِدارِمِ

أي : آنَفُ وأنشد أبو عبيدة :

وأَعْبَدُ أن أُسَبَّهُمُ بقَوْمِي . . .

وأُوثِرُ دارِماً وبَنِي رَزَاحِ

والرابع : أن معنى الآية : كما أنِّي لستُ أول عابدٍ لله فكذلك ليس له ولد ؛ وهذا كما تقول : إن كنتَ كاتباً فأنا حاسبٌ ، أي لستَ كاتباً ولا أنا حاسبٌ .

حكى هذا القول الواحدي عن سفيان بن عيينة .

والقول الثاني : أنّ " إِنْ " بمعنى " ما " قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ؛ فيكون المعنى : ما كان للرحمن [ولد] ، فأنا أولُ من عَبَدَ اللهَ على يقين أنه لا وَلَدَ له .

وقال أبو عبيدة : الفاء على [هذا القول] بمعنى الواو .

قوله تعالى : ﴿ فذَرْهم ﴾ يعني كفار مكة ﴿ يخوضوا ﴾ في باطلهم ﴿ ويَلْعَبوا ﴾ في دنياهم ﴿ حتَّى يُلاقوا ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن محيصن ، وأبو جعفر : " حتَّى يَلْقَوا " بفتح الياء والقاف وسكون اللام من غير ألف .

والمراد : يلاقوا [يوم] القيامة .

وهذه الآية [عند الجمهور] منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إِله وفي الأرض إِله ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : يُعْبَد في السماء ويُعْبَد في الأرض .

وقال الزجاج : هو الموحَّد في السماء وفي الأرض .

وقرأ عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن السميفع ، وابن يعمر والجحدري : " في السماء اللهُ وفي الأرض الله " بألف ولام من غير تنوين ولا همز فيهما .

وما بعد هذا سبق بيانه [الأعراف : 54] [لقمان : 34] إلى قوله : ﴿ ولا يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِنْ دُونه الشفاعة ﴾ سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا : إن كان ما يقول محمد حَقّاً فنحن نتولّى الملائكة ، فهم أحق بالشفاعة من محمدٍ .

فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

(178/694)

وفي معنى الآية قولان :

أحدهما : أنه أراد بالذين يَدْعَون مِنْ دونه : آلهتهم ، ثم استثنى عيسى وعزيرَ والملائكةَ فقال : ﴿ إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحق ﴾ وهو أن يشهد أن لا إله إلا الله ﴿ وهم يَعلمون ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم ، وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثاني : أن المراد بالذين يَدْعُون : عيسى وعزيرُ والملائكةُ الذين عبدهم المشركون بالله لا يَمْلِك هؤلاء الشفاعةَ لأحد ﴿ إلاَ مَنْ شَهِد ﴾ أي : [إلاَ] لِمَنْ شَهِد ﴿ بالحق ﴾ وهي كلمة الإِخلاص ﴿ وهم يَعْلَمون ﴾ أن الله عز وجل خلق عيسى وعزير والملائكة ، وهذا مذهب قوم منهم مجاهد .

وفي الآية دليل على أن شرط جميع الشهادات أن يكون الشاهد عالماً بما يَشهد به .

قوله تعالى : ﴿ وقِيلِهِ ياربِّ ﴾ قال قتادة : هذا نبيُّكم يشكو قومَه إلى ربِّه .

وقال ابن عباس : شكا إلى الله تخلُّف قومه عن الإيمان .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو : ﴿ وقِيلَه ﴾ بنصب اللام ؛ وفيها ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه أضمر معها قولاً كأنه قال : وقال قيلَه وشكا شكواه إلى ربِّه .

والثاني : أنه عطف على قوله : ﴿ أم يَحسبون أنّا لانسمع سِرَّهم ونجواهم ﴾ وقِيلَه ؛ فالمعنى : ونَسمع قِيلَه ، ذكر القولين الفراء ، والأخفش .

والثالث : أنه منصوب على معنى : وعنده عِلْم الساعة ويَعْلَم قِيلَه ، لأن معنى " وعنده عِلْمُ الساعة " : يَعْلَم الساعة ويَعْلَم قِيلَه .

هذا اختيار الزجاج .

وقرأ عاصم ، وحمزة : ﴿ وقِيلِهِ ﴾ بكسر اللام والهاء حتى تبلغ إلى الياء ؛ والمعنى : وعنده عِلْم الساعة وعِلْمُ قِيلِه .

وقرأ أبو هريرة وأبو رزين ، وسعيد بن جبير ، وأبو رجاء ، والجحدري ، وقتادة ، وحميد : برفع اللام ؛ والمعنى : ونداؤه هذه الكلمة : يارب ؛ ذكر عِلَّة الخفض والرفع الفراء والزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فاصْفَحْ عنهم ﴾ أي فأعْرِض عنهم ﴿ وقُلْ سلامٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : قُلْ خيراً بدلاً من شرِّهم ، قاله السدي .

والثاني : ارْدُد [عليهم] معروفاً ، قاله مقاتل .

والثالث : قُلْ ما تَسْلَم به من شرِّهم ، حكاه الماوردي .

﴿ فسوف يَعْلَمونَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : يَعْلَمون عاقبة كفرهم .

والثاني : أنك صادق .

والثالث : حلول العذاب بهم ، وهذا تهديد لهم : " فسوف يعلمون " .

وقرأ نافع ، وابن عامر : " تعلمون " بالتاء .

ومن قرأ بالياء ، فعلى الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بهذا ، قاله مقاتل ؛ فنَسخت آيةُ السيف الإعراضَ والسلامَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 335.323 ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في مجادلة عبد الله بن الزبعرى مع النبي (صلى الله عليه وسلم) في شأن عيسى ابن مريم وذلك لما نزل قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وقد تقدم ذكره في سورة الأنبياء ومعنى الآية ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً وجادل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعبادة النصارى إياه ﴿ إذا قومك ﴾ يعني قريشاً ﴿ منه ﴾ أي من المثل ﴿ يصدون ﴾ أي يرتفع لهم ضجيج وصياح وفرح وقيل يقولون إن محمداً ما يريد منا إلا أن نعبده ونتخذه إلهاً كما عبدت النصارى عيسى ابن مريم .

﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو ﴾ يعنون محمداً (صلى الله عليه وسلم) فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا وقيل معنى أم هو يعني عيسى والمعنى قالوا يزعم محمد أن كل ما عبد من دون الله في النار فنحن قد رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة في النار قال الله تعالى : ﴿ ما ضربوه ﴾ يعني هذا المثل ﴿ لك إلا جدلاً ﴾ أي خصومة بالباطل وقد علموا أن المراد من قوله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ هؤلاء الأصنام ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ أي بالباطل .

عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب صحيح ثم ذكر عيسى فقال تعالى : ﴿ إن هو ﴾ أي ما عيسى ﴿ إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ أي بالنبوة ﴿ وجعلناه مثلاً ﴾ أي آية وعبرة ﴿ لبني إسرائيل ﴾ يعرفون به قدرة الله على ما يشاء حيث خلقه من غير أب ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ﴾ الخطاب لأهل مكة ﴿ ملائكة ﴾ معناه لو نشاء لأهلكناكم ولجعلنا بدلاً منكم ملائكة ﴿ في الأرض يخلفون ﴾ أي يكونون خلفاً منكم يعمرون الأرض ويعبدونني ويطيعونني ، وقيل يخلف بعضهم بعضاً ﴿ وإنه ﴾ يعني عيسى ﴿ لعلم للساعة ﴾ يعني نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها (ق) .

(182/694)

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير

ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد " وفي رواية أبي داود أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " ليس بيني وبين عيسى نبي وإنه نازل فيكم فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله تعالى في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك الدجال ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون " (ق) عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم " وفي رواية فأمكم منكم قال ابن أبي ذؤيب فأمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم (صلى الله عليه وسلم) ويروى أنه ينزل عيسى وبيده حربة وهي التي يقتل بها الدجال ، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر فيتأخر الإمام ليقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن وقيل في معنى الآية وإنه أي وإن القرآن لعلم للساعة أي يعلم قيامها ويخبركم بأحوالها وأهوالها ﴿ فلا تمترن بها ﴾ أي لا تشكن فيها ، وقال ابن عباس : لا تكذبوا بها ﴿ واتبعون ﴾ أي على التوحيد ﴿ هذا ﴾ أي الذي أنا عليه ﴿ صراط مستقيم ﴾ .

﴿ ولا يصدنكم ﴾ أي لا يصرفنكم ﴿ الشيطان ﴾ أي عن دين الله الذي أمر به ﴿ إنه ﴾ يعني الشيطان ﴿ لكم عدو مبين ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ أي بالنبوة ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ أي من أحكام التوراة وقيل من اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى وقيل الذي جاء به عيسى الإنجيل وهو بعض الذي اختلفوا فيه فبين لهم عيسى في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي فيما آمركم به ﴿ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي اختلف الفرق المتحزبة بعد عيسى ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم هل ينظرون ﴾ أي ينتظرون ﴿ إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ﴾ أي فجأة والمعنى أنها تأتيهم لا محالة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ .

﴿ الأخلاء ﴾ أي على الكفر والمعصية في الدنيا ﴿ يومئذ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ بعضهم لبعض عدو ﴾ أي إن الخلة إذا كانت كذلك صارت عداوة يوم القيامة ﴿ إلا المتقين ﴾ أي إلا الموحدين المتحابين في الله المجتمعين على طاعته ، روي عن علي بن أبي طالب في الآية قال : " خليلان مؤمنان وخليلان كافران مات أحد المؤمنين فقال يا رب إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك (صلى الله عليه وسلم) ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ويخبرني أني ملاقيك يا رب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما

أكرمتني فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما فيقول ليثن كل منكما على صاحبه فيقول نعم الأخ ونعم الخليل ونعم الصاحب ، قال ويموت أحد الكافرين فيقول رب إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك فيقول ليثن كل منكما على صاحبه فيقول بئس الأخ وبئس الخليل وبئس الصاحب " .

(184/694)

قوله : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ قيل إن الناس حين يبعثون ليس أحد منهم إلا فزع فينادي مناد يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون فيرجوها الناس كلهم فيتبعها ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ فييأس الناس كلهم غير المسلمين فيقال لهم ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ أي تسرون وتنعمون ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ جمع صحفة وهي القصعة الواسعة ﴿ وأكواب ﴾ جمع كوب وهو إناء مستدير بلا عروة ﴿ وفيها ﴾ أي في الجنة ﴿ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ عن عبد الرحمن بن سابط قال " قال رجل يا رسول الله هل في الجنة خيل فإني أحب الخيل قال إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت وسأله آخر فقال يا رسول الله هل في الجنة من إبل فإني أحب

الإبل قال فلم يقل ما قال لصاحبه فقال إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك " أخرجه الترمذي ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ .

(185/694)

﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ ورد في الحديث " أنه لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها " قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين ﴾ يعني المشركين ﴿ في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم ﴾ أي لا يخفف عنهم ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ أي آيسون من رحمة الله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي وما عذبناهم بغير ذنب ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ أي لأنفسهم بما جنوا عليها ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ يعني يدعون مالكاً خازن النار يستغيثون به فيقولون ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ أي ليمتنا بل لنستريح والمعنى توسلوا به ليسأل الله تعالى لهم الموت فيجيبهم بعد ألف سنة قاله ابن عباس ، وقيل بعد مائة سنة ، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال " إن أهل النار يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً ثم يرد عليهم " ﴿ قال إنكم ماكثون ﴾ قال هانت والله دعوتهم على مالك وعلى رب مالك ومعنى ماكثون مقيمون في العذاب ﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ يقول أرسلنا إليكم يا معشر قريش رسولنا بالحق ﴾

ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمراً ﴾ أي أحكموا أمراً في المكر بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ﴿ فإنا مبرمون ﴾ أي محكمون أمراً في مجازاتهم إن كاد شراً كدتهم بمثله ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ أي ما يسرونه من غيرهم ويتناجون به بينهم ﴿ بلى ﴾ نسمع ذلك كله ونعلمه ﴿ ورسلنا ﴾ يعني الحفظة من الملائكة ﴿ لديهم يكتبون ﴾ قوله : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ معناه إن كان للرحمن ولد في قولكم وعلى زعمكم فأنا أول من عبد الرحمن فإنه لا شريك له ولا ولد له ، وقال ابن عباس : إن كان أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الشاهدين له بذلك .

وقيل : معناه لو كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده بذلك ولكن لا ولد له ، وقيل : العابدين بمعنى الآنفين أي أنا أول الجاحدين المنكرين لما قلتم وأنا أول من غضب للرحمن أن يقال له ولد .

(186/694)

وقال الزمخشري في معنى الآية : إن كان للرحمن ولد وصح وثبت ببرهان صحيح تورد ونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض وهو

المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق عليها محالاً مثلها ثم نزه نفسه عن الولد

(187/694)

﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ أي عما يقولونه من الكذب ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ أي في باطلهم ﴿ ويلعبوا ﴾ أي في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ يعني هو الإله الذي يعبد في السماء وفي الأرض لا إله إلا هو ﴿ وهو الحكيم ﴾ يعني في تدبير خلقه ﴿ العليم ﴾ يعني بمصالحهم ﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ قيل سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد (صلى الله عليه وسلم) فنزلت هذه الآية وأراد بالذين يدعون من دونه آلهتهم ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة بقوله ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ لأنهم عبدوا من دون الله ولهم شفاعة وقيل المراد بالذين يدعون من دونه عيسى وعزير

والملائكة فإن الله تعالى لا يملك لأحد من هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وهي كلمة الإخلاص وهي لا إله إلا الله فمن شهدها بقلبه شفعوا له وهو قوله ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم وقيل يعلمون أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة ويعلمون أنهم عباده ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ يعني أنهم إذا أقروا بأن الله خالق العالم بأسره فكيف قدموا عبادة غيره ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ يعني يصرفون عن عبادته إلى غيره ﴿ وقيله يا رب ﴾ يعني قوله محمد (صلى الله عليه وسلم) شاكياً الله ربه يا رب ﴿ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ قال ابن عباس : شكا إلى الله تعالى تخلف قومه عن الإيمان ، وقال قتادة : هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه .

(188/694)

﴿ فاصفح عنهم ﴾ يعني أعرض عنهم وفي ضمنه منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب ﴿ وقل سلام ﴾ معناه المتاركة ، وقيل معناه قل خيراً بدلاً من شرهم ﴿ فسوف يعلمون ﴾ يعني عاقبة كفرهم وفيه تهديد لهم وقيل معناه يعلمون أنك صادق ، قال مقاتل : نسختها آية السيف والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 138.142 ﴾

(189/694)

وقال ابن جزى :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾

روي عن ابن عباس وغيره في تفسيره هذه الآية : أنه لما نزل في القرآن ذكر عيسى ابن مريم والثناء عليه ، قالت قريش : ما يريد محمد إلا أن نعبده نحن كما عبدت النصارى عيسى ؛ فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً ، حكى ذلك ابن عطية والذي ضرب المثل على هذا هو الله في القرآن ، ويصدون بمعنى يُعرضون ، وقال الزمخشري : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] امتعضوا من ذلك ، وقال عبد الله بن الزبعرى : أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ؛ ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيراً ، وقد علمت أن النصارى عبدوه ، فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ، ففرحت قريش بذلك ، وضحكوا وسكت النبي صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] ونزلت هذه الآية ،

فالمعنى على هذا : لما ضربَ ابن الزبعرى عيسى مثلاً وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه ، إذا قريش من هذا المثل يصدون : أي يضحكون ويصيحون من

الفرح ، وهذا المعنى إما يجري على قراءة يصدون بكسر الصاد بمعنى الضجيج والصياح

.

(190/694)

﴿ وقالوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ يعنون بهو عيسى ، والمعنى أنهم قالوا آلهتنا خير أم عيسى ، فإن كان عيسى يدخل النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ، لأنه خير من آلهتنا ، وهذا الكلام من تمام ما قبله على ما ذكره الزمخشري في تفسير الآية التي قبله ، وأما على ما ذكر ابن عطية فهذا ابتداء معنى آخر ، وحكى الزمخشري في معنى هذه الآية قولاً آخر : وهو أنهم لما سمعوا ذكر عيسى قالوا : نحن أهدى من النصارى ، لأنهم عبدوا آدمياً ونحن عبدنا الملائكة ، وقالوا آلهتنا وهم الملائكة خير أم عيسى ؛ فمقصدهم تفضيل آلهتهم على عيسى . وقيل : إن قولهم أم هو : يعنون به محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإنهم لما قالوا إنما يريد محمد أن نعبد كما عبدت النصارى عيسى . قالوا : أآلهتنا خير أم هو يريدون تفضيل آلهتهم على محمد والأظهر أن المراد بهو عيسى وهو قول الجمهور ، ويدل على ذلك تقدم ذكره ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل ، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره سواء غلبه بحق أو بباطل ، فإن ابن الزبعرى

وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى : حصب جهنم ، ولكنهم أرادوا المغالطة ، فوصفهم الله بأنهم قوم خصمون .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني عيسى والإنعام عليه بالنبوة والمعجزات ، وغير ذلك .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلاَئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ في معناها قولان : أحدهما لو نشاء لجعلنا بدلاً منكم ملائكة يسكنون الأرض ويخلفون فيها بني آدم ، فقوله منكم يتعلق ببدل المحذوف أو بيخلفون ، والآخر لو نشاء لجعلنا منكم ، أي لولدنا منكم أولاداً ملائكة يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم ، فإنا قادرون على أن نخلق من أولاد الناس ملائكة فلا تنكروا أن خلقنا عيسى من غير والد ، حكى ذلك الزمخشري .

(191/694)

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ الضمير لعيسى وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل للقرآن ، فأما على القول بأنه لعيسى أو لمحمد فالمعنى أنه شرط من أشراط الساعة ، يوجب العلم بها فسمى الشرط علماً لحصول العلم به ، ولذلك قرأ ابن عباس لعَلَم بفتح العين واللام : أي علامة وأما على القول بأنه للقرآن : فالمعنى أنه يعلمكم بالساعة .

﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فاتقوا ﴾ إما بيّن البعض دون الكل ، لأن الأنبياء إنما يبينون أمور الدين لا الدنيا ، وقيل : بعض بمعنى كل هذا ضعيف .

﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ ذكر في مريم ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ أي ينتظرون ، والضمير لقريش أو للأحزاب ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ ﴿ الأخلاء ﴾ : جمع خليل وهو الصديق ، وإما يعادي الخليل خليله يومَ القيامة ، لأن الضرر دخل عليه من صحبته ، ولذلك استثنى المتقين ، لأن النفع دخل على بعضهم من بعض ﴿ ياعباد لاَ ﴾ الآية . تقديره : يقول الله يوم القيامة للمتقين يا عبادي ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون .

﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي تنعمون وتسرون .

﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي يائسون من الخير .

(192/694)

﴿ وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ المعنى أنهم طلبوا الموت ليستريحوا من العذاب ، وروي أن مالكاً يبقى عبد ذلك ألف سنة ، وحينئذ يقول لهم : ﴿ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ أي دائمون في النار ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بالحق ﴾ الآية كلام الله تعالى لأهل النار ، أو من كلام الله

لقريش في الدنيا ﴿ أَمْ أبرموا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ الضمير لكفار قريش ، والمعنى أنهم إن أحكموا كيد النبي صلى الله عليه وسلم فإنا مُحكِمون نصره وحمايته ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ ﴾ الآية : روي أنها نزلت في الأخنس بن شريق والأسود بن عبد يغوث اجتمعا وقال الأخنس : أترى الله يسمع سرنا ، فقال الآخر : يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا ﴿ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ السرّ ما يحدث الإنسان به نفسه أو غيره في خفية ، والنجوى : ما تكلموا به فيما بينهم ﴿ بلى ﴾ أي نسمع ورسلنا مع ذلك تكتب ما يقولون ، والرسل هنا الملائكة الحافظون للأعمال .

(193/694)

﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ في تأويل أربعة أقوال : الأول أنها احتجاج وردّ على الكفار ، على تقدير قولهم ، ومعناها لو كان للرحمن ولد كما يقول الكفار لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد ؛ كما يعظم خدم الملك ولد الملك لتعظيم والده ، ولكن ليس للرحمن ولد ، فلست بعابد إلا الله وحده ، وهذا نوع من الأدلة يسمى دليل التلازم ؛ لأنه علق عبادة الولد بوجوده ، ووجوده محال فعبادته محال ، القول الثاني إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد الله وحده ، وكذبكم في قولكم أن له ولداً ، والعابدين على هذين القولين

بمعنى العبادة ، القول الثالث أن العابدين بمعنى المنكرين : يقال عَبِد الرجل إذا أنف وتكبر وأنكر الشيء ، والمعنى : إن زعمتم أن للرحمن ولداً فأنا أول المنكرين لذلك ، وإن على هذه الأقوال الثلاثة شرطية ، القول الرابع قال قتادة وابن زيد : إن هنا نافية بمعنى ما كان للرحمن ولد وتم الكلام ، ثم ابتدأ قوله ﴿ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ ، والأول هو الصحيح لأنه طريقة معروفة في البراهين والأدلة ، وهو الذي عوَّل عليه الزمخشري ، وقال الطبري : هو ملاطفة الخطاب ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] وقال ابن عطية منه قوله تعالى في مخاطبة الكفار ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ﴾ [النحل : 27] يعني شركائي على قولكم .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ الآية موادعة منسوخة بالسيف .

(194/694)

﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله ﴾ أي هو الإله لأهل الإرض وأهل السماء ، والمجرور يتعلق بإله ، لأن فيه معنى الوصفية ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ أي علم زمان وقوعها ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشفاعة ﴾ أي لا يملك كل من عبد من دون الله أن يشفع عند الله ، لأن الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه فهو المالك للشفاعة وحده ﴿

إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ اختلف هل يعني شهد بالحق الشافع أو المشفوع فيه ، فإن أراد المشفوع فيه فالاستثناء منطقع ، والمعنى لا يملك المعبودون شفاعة ؛ لكن من شهد بالحق وهو عالم به فهو الذي يشفع فيه ، ويحتمل على هذا أن يكون من شهد مفعولاً بالشفاعة على إسقاط حرف الجر تقديره : الشفاعة فيمن شهد بالحق ، وإن أراد بمن شهد بالحق الشافع فيحتمل أن يكون الاستثناء منطقعاً وأن يكون متصلاً إلا فيمن عبد عيسى والملائكة ، والمعنى على هذا لا يملك المعبودون شفاعة إلا من شهد بالحق .

(195/694)

﴿ وَقِيلِهِ يا رب إِنَّ هؤلاء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ القيل مصدر كالقول ، والضمير يعود على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرئ ﴿ قِيلَهِ ﴾ بالنصب والخفض وقرئ في غير السبع بالرفع ، فأما النصب فقيل هو معطوف على سرهم ونجواهم ، وقيل : معطوف على موضع الساعة ؛ لأنها مفعول أضيف إلى المصدر وقيل : معطوف على مفعول محذوف تقديره : يكتبون أقوالهم وقيله ، وأما الخفض فقيل : إنه معطوف على لفظ الساعة ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على قوله بالحق ، وأما الرفع فقيل : إنه مبتدأ وخبره ما بعده ، وضعَّف الزمخشري ذلك كله وقال : إنه من باب القسم فالنصب والخفض على إضمار حرف القسم

كقولك : الله لأضربنّ زيداً والرفع كقولهم : أيمنُ الله ولعمرُك ، وجواب القسم قوله : ﴿ إِنَّ هؤلاء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ كأنه قال : أقسم بقيله أن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴿ فاصفح عَنْهُمْ ﴾ منسوخ بالسيف ﴿ وَقُلْ سَلاَمٌ ﴾ تقديره أمري سلام : أي مسالمة ، وقيل سلام عليكم على جهة الموادعة وهو منسوخ على الوجهين ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 31.34 ﴾

(196/694)

وقال النسفى :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾

لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] غضبوا فقال ابن الزبعري : يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : " هو لكم ولآلهتكم .

ولجميع الأمم " فقال : ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثني عليه وعلى أمه خيراً ؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما وعزيز يعبد ، والملائكة يعبدون .

فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وءآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا ،

وسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] ونزلت هذه الآية .

والمعنى ولما ضرب ابن الزبعري عيسى بن مريم مثلاً لآلهتهم وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه ﴿ إِذَا قَوْمُكَ ﴾ قريش ﴿ مِنْهُ ﴾ من هذا المثل ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات النبي صلى الله عليه وسلم بجدله ، ﴿ يَصدُونَ ﴾ مدني وشامي والأعشى وعلي ، من الصدود أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه .

وقيل : من الصديد وهو الجلبة وأنهما لغتان نحو يعكف ويعكف ﴿ وَقَالُوآ ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا ﴿ مَا ضَرَبُوهُ ﴾ أي ما ضربوا هذا المثل ﴿ لَكَ إِلاَّ جَدَلاَ ﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل .

(197/694)

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ لد شداد الخصومة دأبهم اللجاج وذلك أن قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ لم يرد به إلا الأصنام لأن ما لغير العقلان إلا أن ابن الزبعري بخداعه لما رأى

كلام الله محتملاً لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير ، وجد للحيلة مساغاً فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريق اللجاج والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقح في ذلك فتوقر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أجاب عنه ربه ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما عيسى ﴿ إِلاَّ عَبْدٌ ﴾ كسائر العبيد ﴿ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بالنبوة ﴿ وجعلناه مَثَلاً لِّبَنِى إسراءيل ﴾ وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلَئِكَةً فِى الأرض ﴾ أي بدلاً منكم كذا قاله الزجاج.

وقال جامع العلوم : لجعلنا بدلكم و"من" بمعنى البدل ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ يخلفونكم في الأرض أو يخلف الملائكة بعضهم بعضاً .

وقيل : ولو نشاء لقدرتنا على عجائب الأمور لجعلنا منكم ، لولّدنا منكم يا رجال ملائكة يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم كما ولّدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجساد لا تتولد إلا من أجسام والقديم متعالٍ عن ذلك .

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ وإن عيسى مما يعلم به مجيء الساعة .

وقرأ ابن عباس ﴿ لعلم للساعة ﴾ وهو العلامة أي وإن نزوله علم للساعة ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكن فيها من المرية وهو الشك ﴿ واتبعون ﴾ وبالياء فيهما : سهل ويعقوب أي واتبعوا هداي وشرعي أو رسولي أو هو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوله ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه ﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشيطان ﴾ عن الإيمان بالساعة أو عن الاتباع ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عيسى بالبينات ﴾ بالمعجزات أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ أي الإنجيل والشرائع ﴿ وَلاُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو أمر الدين لا أمر الدنيا ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ إِنَّ الله هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ هذا تمام كلام عيسى عليه السلام .

﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم : اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمعونية ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ من بين النصارى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ حيث قالوا في عيسى ما كفروا به ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ الضمير لقوم عيسى أو للكفار ﴿ أَن تَأْتِيَهُم ﴾ بدل من ﴿ الساعة ﴾ أي هل ينظرون إلا إتيان الساعة ﴿ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي وهم غافلون لاشتغالهم

بأمور دنياهم كقوله

﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس : 49] ﴿ الأخلاء ﴾ جمع خليل ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ أي المؤمنين .

(199/694)

وانتصاب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ب ﴿ عَدُوٌّ ﴾ أي تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتاً إلا خلة المتصادقين في الله فإنها الخلة الباقية ﴿ ياعباد ﴾ بالياء في الوصل والوقف : مدني وشامي وأبو عمرو ، وبفتح الياء : أبو بكر .

الباقون : بحذف الياء ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ هو حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ ﴿ الذين ﴾ منصوب المحل على صفة لعبادي لأنه منادى مضاف ﴿ ءَامَنُواْ بآياتنا ﴾ صدقوا بآياتنا ﴿ وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ لله منقادين له ﴿ ادخلوا الجنة أَنتُمْ وأزواجكم ﴾ المؤمنات في الدنيا ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تسرون سروراً يظهر حباره أي أثره على وجوهكم .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بصحاف ﴾ جمع صفحة ﴿ مِّن ذَهَبٍ وأكواب ﴾ أي من ذهب أيضاً والكوب الكوز لا عروة له ﴿ وَفِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس ﴾ مدني وشامي

وحفص بإثبات الهاء العائدة إلى الموصول ، وحذفها غيرهم لطول الموصول بالفعل والفاعل والمفعول .

(200/694)

و ﴿ وَتَلَذُّ الأعين ﴾ وهذا حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهيات في القلوب أو مستلذة في العيون ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خالدون وَتِلْكَ الجنة التى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة وهي مبتدأ و ﴿ الجنة ﴾ خبر و ﴿ التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ صفة الجنة ، أو ﴿ الجنة ﴾ صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة و ﴿ التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ خبر المبتدأ ، أو ﴿ التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ صفة المبتدأ و ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الخبر ، والباء تتعلق بمحذوف أي حاصلة أو كائنة كما في الظروف التي تقع أخباراً ، وفي الوجه الأول تتعلق ب ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة ﴿ لَكُمْ فِيهَا فاكهة كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ "من" للتبعيض أي لا تأكلون إلا بعضها وأعقابها باقية في شجرها فهي مزينة بالثمار أبداً ، وفي الحديث "لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاها" .

﴿ إِنَّ المجرمين فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خالدون ﴾ خبر بعد خبر ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ خبر آخر

أي لا يخفف ولا ينقص ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ في العذاب ﴿ مُّبْلِسُونَ ﴾ آيسون من الفرج متحيرون ﴿ وَمَا ظلمناهم ﴾ بالعذاب ﴿ ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ هم فصل ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك ﴾ لما آيسوا من فتور العذاب نادروا يا مالك وهو خازن النار .

وقيل لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ "يا مال" فقال : ما أشغل أهل النار عن الترخيم ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ليمتنا من قضى عليه إذا أماته ﴿ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ ﴾ [القصص : 15] والمعنى سل ربك أن يقضي علينا ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ ماكثون ﴾ لا بثون في العذاب لا تتخلصون عنه بموت ولا فتور ﴿ لَقَدْ جئناكم بالحق ﴾ كلام الله تعالى .

ويجب أن يكون في ﴿ قَالَ ﴾ ضمير الله لما سألوا مالكاً أن يسأل القضاء عليهم أجابهم الله بذلك .

(201/694)

وقيل : هو متصل بكلام مالك والمراد بقوله جئناكم الملائكة إذ هم رسل الله وهو منهم ﴿ ولكن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارهون ﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب .

﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً ﴾ أم أحكم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومكرهم بمحمد صلى الله

عليه وسلم ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ حديث أنفسهم ﴿ ونجواهم ﴾ ما يتحدثون فيما بينهم ويخفونه عن غيرهم ﴿ بلى ﴾ نسمعها ونطلع عليها ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ أي الحفظة ﴿ لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ عندهم يكتبون ذلك ، وعن يحيى بن معاذ : من ستر من الناس عيوبه وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من أمارات النفاق .

﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ وصح ذلك ببرهان ﴿ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد إليه كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والمراد نفي الولد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها ، ونظيره قول سعيد بن جبير للحجاج حين قال له : والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى : لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك .

وقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين أي الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه .

وقيل ؛ إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد ، من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد .

وقرىء ﴿ العبدين ﴾ وقيل : هي "إن" النافية أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد .

(202/694)

ورُوي أن النضر قال : الملائكة بنات الله فنزلت : فقال النضر : ألا ترون أنه صدقني فقال له الوليد : ما صدقك ولكن قال ما كان للرحمن ولد فأنا أو الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له .

﴿ وُلْد ﴾ حمزة وعلي .

ثم نزه ذاته على اتخاذ الولد فقال ﴿ سبحان رَبِّ السماوات والأرض رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي هو رب السماوات والأرض والعرش فلا يكون جسماً إذ لو كان جسماً لم يقدر على خلقها ، وإذا لم يكن جسماً لا يكون له ولد لأن التولد من صفة الأجسام ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ ﴾ في باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُواْ ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ أي القيامة ، وهذا دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب .

﴿ وَهُوَ الذى فِى السمآء إله وَفِى الأرض إله ﴾ ضمن اسمه تعالى معنى وصف فلذلك علق به الظرف في قوله ﴿ فِى السماء ﴾ ﴿ وَفِى الأرض ﴾ كما تقول : هو حاتم في طيّ

وحاتم في تغلب .

على تضمين معنى الجواد الذي شهر به كأنك قلت : هو جواد في طيّ جواد في تغلب .

وقرىء ﴿ وهو الذي فى السماء الله وفى الأرض الله ﴾ ومثله قوله ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السماوات وَفِى الأرض ﴾ فكأنه ضمن معنى المعبود .

والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام كقولهم "ما أنا بالذي قائل لك شيئاً" والتقدير : وهو الذي هو في السماء إله .

(203/694)

و ﴿ إِلَه ﴾ يرتفع على أنه خبر مبتدأ مضمر ولا يرتفع ﴿ إِلَه ﴾ بالابتداء وخبره ﴿ فِى السماء ﴾ لخلو الصلة حينئذ من عائد يعود إلى الموصول ﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله ﴿ العليم ﴾ بما كان ويكون ﴿ وَتَبَارَكَ الذى لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ أي علم قيامها ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ : مكي وحمزة وعلي ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ ﴾ آلهتهم ﴿ الذين يَدْعُونَ ﴾ أي يدعونهم ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ من دون الله ﴿ الشفاعة ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ أي ولكن من شهد بالحق بكلمة التوحيد ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله ربهم حقاً

ويعتقدون ذلك هو الذي يملك الشفاعة ، وهو استثناء منقطع أو متصل لأن في جملة الذين يدعون من دون الله الملائكة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ لا الأصنام والملائكة ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف أو من أين يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار

﴿ وَقِيلِهِ ﴾ بالجر : عاصم وحمزة أي وعنده علم الساعة وعلم قيله ﴿ يا رب ﴾ والهاء يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره في قوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ .

وبالنصب : الباقون عطفاً على محل ﴿ الساعة ﴾ أي يعلم الساعة ويعلم قيله أي قيل محمد يا رب .

والقيل والقول والمقال واحد ، ويجوز أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه .

وجواب القسم ﴿ إِنَّ هَؤُلآءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ كأنه قيل : وأقسم بقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه ﴿ فاصفح عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم وودعهم وتاركهم و ﴿ وَقُلْ ﴾ لهم ﴿ سلام ﴾ أي تسلم منكم ومتاركة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وبالتاء : مدني وشامي .

في الخبر "من قرأها ليلة جمعة أصبح مغفوراً له" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 126.121 ﴾

(204/694)

وقال البيضاوى :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾

أي ضربه ابن الزبعرى لما جادل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أو غيره بأن قال النصارى أهل كتاب وهم يعبدون عيسى عليه السلام ويزعمون أنه ابن الله والملائكة أولى بذلك ، أو على قوله تعالى : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أو أن محمداً يريد أن نعبده كما عبد المسيح . ﴿ إِذَا قَوْمُكَ ﴾ في قريش ﴿ مِنْهُ ﴾ من هذا المثل . ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ يضجون فرحاً لظنهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم صار ملزماً به . وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالضم من الصدود أي يصدون عن الحق ويعرضون عنه . وقيل هما لغتان نحو يعكف ويعكف .

﴿ وَقَالُواْ ءَأَالِهَتُنَا أَمْ هُوَ ﴾ أي آلهتنا خير عندك أم عيسى عليه السلام فإن يكن في النار فلتكن آلهتنا معه ، أو آلهتنا الملائكة خير أم عيسى عليه السلام فإذا أجاز أن يعبد ويكون ابن الله آلهتنا أولى بذلك ، أو آلهتنا خير أم محمد صلى الله عليه وسلم فنعبده وندع آلهتنا . وقرأ الكوفيون "ءَآلِهَتُنَا" بتحقيق الهمزتين وألف بعدهما . ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والخصومة لا لتمييز الحق من الباطل . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ شداد الخصومة حراص على اللجاج .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بالنبوة . ﴿ وجعلناه مَثَلاً لِّبَنِى إسراءيل ﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائر لبني إسرائيل ، وهو كالجواب المزيح لتلك الشبهة .

(205/694)

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ لولدنا منكم يا رجال كما ولدنا عيسى من غير أب ، أو لجعلنا بدلكم . ﴿ ملائكة فِى الأرض يَخْلُفُونَ ﴾ ملائكة يخلفونكم في الأرض ، والمعنى أن حال عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبة فإنه تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك ، وأن الملائكة مثلكم من حيث أنها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً ، فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ وإن عيسى عليه السلام . ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ لأن حدوثه أو نزوله من أشراط الساعة يعلم به دنوها ، أو لأن احياء الموتى يدل على قدرة الله تعالى عليه .

وقرىء ﴿ لَعِلْمٌ ﴾ أي لعلامة ولذكر على تسمية ما يذكر به ذكراً ، وفي الحديث ينزل عيسى عليه السلام على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة يقتل بها الدجال ، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه الصلاة والسلام ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ، ويخرب البيع والكنائس ، ويقتل النصارى إلا من آمن به . وقيل الضمير للقرآن فإن فيه الإعلام بالساعة والدلالة عليها . ﴿ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكن فيها . ﴿ واتبعون ﴾ واتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي . وقيل هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوله . ﴿ هذا ﴾ الذي أدعوكم إليه . ﴿ صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضل سالكه .

﴿ وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشيطان ﴾ عن المتابعة . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثابت عداوته بأن أخرجكم عن الجنة وعرضكم للبلية .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عيسى بالبينات ﴾ بالمعجزات أو بآيات الإنجيل ، أو بالشرائع الواضحات .

﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة ﴾ بالإنجيل أو بالشريعة . ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلق بأمر الدنيا ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يبعثوا لبيانه ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام " أنتم أعلم بأمر دنياكم "

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أبلغه عنه .

﴿ إِنَّ الله هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه ، وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع . ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين وهو تتمة كلام عيسى عليه الصلاة والسلام ، أو استئناف من الله تعالى يدل على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك .

﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ الفرق المتحزبة . ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ من بين النصارى أو اليهود والنصارى من بين قومه المبعوث إليهم . ﴿ فَوَيْلٌ للذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ من المتحزبين ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ هو القيامة .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ الضمير لقريش أو ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ . ﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ ﴾ بدل من ﴿ الساعة ﴾ والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة . ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ غافلون عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارهم لها .

﴿ الأخلاء ﴾ الأحباء . ﴿ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي يتعادون يومئذ لانقطاع

العلق لظهور ما كانوا يتخالون له سبباً للعذاب . ﴿ إِلاَّ المتقين ﴾ فإن خلتهم لما كانت في الله تبقى نافعة أبد الآباد .

﴿ ياعباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ حكاية لما ينادي به المتقون المتحابون في الله يومئذ ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص بغير الياء .

(207/694)

﴿ الذين ءَامَنُواْ بآياتنا ﴾ صفة المنادي . ﴿ وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ حال من الواو أي الذين آمنوا مخلصين ، غير أن هذه العبارة آكد وأبلغ .

﴿ ادخلوا الجنة أَنتُمْ وأزواجكم ﴾ نساؤكم المؤمنات . ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تسرون سروراً يظهر حباره أي أثره على وجوهكم ، أو تزينون من الحبر وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراماً يبالغ فيه ، والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بصحاف مّن ذَهَبٍ وأكواب ﴾ الصحاف جمع صحفة ، والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له . ﴿ وَفِيهَا ﴾ وفي الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِى الأنفس ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿ تَشْتَهِيهِ الأنفس ﴾ على الأصل . ﴿ وَتَلَذُّ الأعين ﴾ بمشاهدته وذلك تعميم بعد تخصيص ما يعد من الزوائد في التنعم والتلذذ . ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خالدون

﴿ فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال ومستعقب للتحسر في ثاني الحال .

﴿ وَتِلْكَ الجنة التى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقرأ ورثتموها ، شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه عليه العامل ، وتلك إشارة إلى الجنة المذكورة وقعت مبتدأ والجنة خبرها ، و﴿ التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ صفتها أو ﴿ الجنة ﴾ صفة ﴿ تِلْكَ ﴾ و﴿ التى ﴾ خبرها أو صفة ﴿ الجنة ﴾ والخبر ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وعليه يتعلق الباء بمحذوف لا ب ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فاكهة كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ بعضها تأكلون لكثرتها ودوام نوعها ، ! ولعل تفصيل التنعم بالمطاعم والملابس وتكريره في القرآن وهو حقير بالإضافة إلى سائر نعائم الجنة لما كان بهم من الشدة والفاقة .

﴿ إِنَّ المجرمين ﴾ الكاملين في الإجرام وهم الكفار لأنه جعل قسيم المؤمنين بالآيات ، وحكى عنهم ما يخص بالكفار . ﴿ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خالدون ﴾ خبر إن أو خالدون خبر والظرف متعلق به .

(208/694)

﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً والتركيب للضعف. ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ في العذاب ﴿ مُّبْلِسُونَ ﴾ آيسون من النجاة.

﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ مر مثله غير مرة وهم فصل.

﴿ وَنَادَوْاْ يامالك ﴾ وقرىء "يا مال" على الترخيم مكسوراً ومضموماً، ولعله إشعار بأنهم لضعفهم لا يستطيعون تأدية اللفظ بالتمام ولذلك اختصروا فقالوا: ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ والمعنى سل ربنا أن يقضي علينا من قضى عليه إذا أماته، وهو لا ينافي إبلاسهم فإنه جؤار وتمن للموت من فرط الشدة ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ ماكثون ﴾ لا خلاص لكم بموت ولا بغيره.

﴿ لَقَدْ جئناكم بالحق ﴾ بالإرسال والإنزال، وهو تتمة الجواب إن كان في ﴿ قَالَ ﴾ ضمير الله وإلا فجواب منه فكأنه تعالى تولى جوابهم بعد جواب مالك. ﴿ ولكن أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقّ كارهون ﴾ لما في اتباعه من إتعاب النفس وآداب الجوارح.

﴿ أَمْ أَبْرَمُواْ أَمْراً ﴾ في تكذيب الحق ورده ولم يقتصروا على كراهته. ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ أمراً في مجازاتهم والعدول عن الخطاب للإشعار بأن ذلك أسوأ من كراهتهم، أو أم أحكم المشركون أمراً من كيدهم بالرسول ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ كيدنا بهم، ويؤيده قوله: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ حديث أنفسهم بذلك. ﴿ ونجواهم ﴾

وتناجيهم. ﴿ بلى ﴾ نسمعهما . ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ والحفظة مع ذلك. ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ ملازمة لهم. ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ ذلك.

(209/694)

﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ منكم فإن النبي صلى الله عليه وسلم يكون أعلم بالله وبما يصح له وبما لا يصح له ، وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه ومن تعظيم الوالد تعظيم ولده ، ولا يلزم من ذلك صحة كينونة الولد وعبادته له إذ المحال قد يستلزم المحال بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ غير أن ﴿ لَوْ ﴾ ثم مشعرة بانتفاء الطرفين ، و ﴿ إن ﴾ ههنا لا تشعر به ولا بنقيضه فإنها لمجرد الشريطة بل الانتفاء معلوم لانتفاء اللازم الدال على انتفاء ملزومه ، والدلالة على أن إنكاره الولد ليس لعناد ومراء بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به . وقيل معناه إن كان له ولد في زعمكم فأنا أول العابدين لله الموحدين له أو الآنفين منه ، أو من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه ، أو ما كان له ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة . وقرأ حمزة والكسائي ﴿ وَلَدَ ﴾ بالضم وسكون اللام .

﴿ سبحان رَبِّ السموات والأرض رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عن كونه ذا ولد فإن هذه

الأجسام لكونها أصولاً ذات استمرار تبرأت عما يتصف به سائر الأجسام من توليد المثل ، فما ظنك بمبدعها وخالقها .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ ﴾ في باطلهم . ﴿ وَيَلْعَبُواْ ﴾ في دنياهم . ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ أي يوم القيامة ، وهو دلالة على أن قولهم هذا جهل واتباع هوى ، وإنهم مطبوع على قلوبهم معذبون في الآخرة .

(210/694)

﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله ﴾ مستحق لأن يعبد فيهما ، والظرف متعلق به لأنه بمعنى المعبود أو متضمن معناه كقولك : هو حاتم في البلد ، وكذا فيمن قرأ "الله" والراجع مبتدأ محذوف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه ، ولا يجوز جعله خبراً له لأنه لا يبقى له عائد لكن لو جعل صلة وقدر الإِله مبتدأ محذوف يكون به جملة مبينة للصلة دالة على أن كونه في السماء بمعنى الألوهية دون الاستقرار ، وفيه نفي الآلهة السماوية والأرضية واختصاصه باستحقاق الألوهية .

﴿ وَهُوَ الحكيم العليم ﴾ كالدليل عليه .

﴿ وَتَبَارَكَ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كالهواء . ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ

الساعة ﴿ العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها . ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم وروح بالتاء على الالتفات للتهديد .

﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشفاعة ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله . ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بالتوحيد ، والاستثناء متصل إن أريد بالموصول كل ما عبد من دون الله لاندراج الملائكة والمسيح فيه ، ومنفصل إن خص بالأصنام .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ سألت العابدين أو المعبودين . ﴿ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره ﴿ فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

﴿ وَقِيلِهِ ﴾ وقول الرسول ونصبه للعطف على سرهم ، أو على محل الساعة أو لإضمار فعله أي وقال ﴿ قيله ﴾ . وجره عاصم وحمزة عطفاً على ﴿ الساعة ﴾ ، وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره . ﴿ يارب إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ أو معطوف على ﴿ عِلْمُ الساعة ﴾ بتقدير مضاف . وقيل هو قسم منصوب بحذف الجار أو مجرور بإضماره ، أو مرفوع بتقدير ﴿ وَقِيلِهِ يارب ﴾ قسمي ، و ﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ جوابه .

(211/694)

﴿ فاصفح عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم . ﴿ وَقُلْ سلام ﴾ تسلم منكم ومتاركة . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم ، وقرأ نافع وابن عامر بالتاء على أنه من المأمور بقوله . عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة ﴿ يا عبادي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 149 . 156 ﴾

(212/694)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

التفسير : هذا نوع آخر من قبائح أقوال كفرة قريش . وفي تفسير المثل وجوه للمفسرين : أحدها أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون عيسى قالوا : إذا جاز أن يكون عيسى ابن الله جاز أن تكون الملائكة بنات الله . وانتصب ﴿ مثلاً ﴾ على أنه مفعول ثانٍ لضرب أي جعل مثلا فالضارب للمثل كافرو ﴿ إذا قومك ﴾ أي المؤمنون ﴿ منه ﴾ أي من المثل أو ضربه ﴿ يصدون ﴾ أي يجزعون ويضجون ﴿ وقالوا ﴾ أي الكفار أهذا خير أم هو يعنون الملائكة خير من عيسى . وثانيها ما مر في آخر الأنبياء أنه حين نزل ﴿ أنكم وما

تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [الآية : 98] قال ابن الزبعري للنبي صلى الله عليه وسلم : قد علمت أن النصارى يعبدون عيسى وأمه وعزيراً ، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم .

(213/694)

فسكت النبي صلى الله عليه وسلم وخرج القوم وضحكوا وصيحوا فأنزل الله تعالى قوله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] ونزلت هذه الآية أيضاً .

والمعنى ولما ضرب ابن الزبعري عيسى ابن مريم مثلاً إذا قومك قريش من هذا المثل يصدون بالكسر والضم أي يرتفع لهم جلبة وصياح فرحاً وسروراً بما رأوا من سكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن العادة قد جرت بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الآخر الفرح . ﴿ وقالوا آلهتنا ﴾ وهي الأصنام ﴿ خير أم ﴾ عيسى فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا أهون . وقيل : من قرأ بالضم فمن الصدود أي من أجل هذا المثل يمنعون عن الحق . وثالثها أنه صلى الله عليه وسلم لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح إلهاً وأن مثله عند الله كمثل آدم ، قال كفار مكة : إن محمداً يريد أن نتخذه إلهاً كما اتخذ النصارى المسيح إلهاً وضجروا وضجوا وقالوا : آلهتنا خير أم هو يعنون

محمداً ، وغرضهم أن آلهتهم خير لأنها مما عبدها آباؤهم وأطبقوا عليها فأبطل الله تعالى كلامهم بقوله ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ أي لم يضربوا هذا المثل لأجلك إلا للجدال والغلبة دون البحث عن الحق ﴿ بل هم قوم ﴾ من عادتهم الخصومة واللدد . ثم قرر أمر عيسى عليه السلام بقوله ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ بأن خلقناه من غير أب وصيرناه عبرة وحاله عجيبة ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ﴾ أي بدلاً منكم ﴿ ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ يقومون مقامكم . وقيل : أراد لولدنا منكم يا رجال ملائكة يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم . والغرض بيان كمال القدرة وأن كون الملائكة في السموات لا يوجب لهم الإلهية ولا نسباً من الله . ثم بين مآل حال عيسى عليه السلام بقوله ﴿ وأنه ﴾ يعني عيسى ﴿ لعلم للساعة ﴾ لعلامة من علامات القيامة كما جاء في الحديث " أنا أولى الناس بعيسى ليس بيني وبينه نبي وأنه أول نازل يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام " وقيل :

إذا نزل عيسى رفع التكليف . وقيل : أن عيسى كان يحيي الموتى فعلم بالساعة والبعث . وقيل : الضمير في ﴿ وإنه ﴾ للقرآن أي القرآن يعلم منه وفيه ثبوت الساعة ﴿ فلا تمترن

بها ﴾ فلا تشكن فيها ﴿ واتبعوني ﴾ هذه حكاية قول النبي صلى الله عليه وسلم ، أو المراد واتبعوا رسولي وشرعي والباقي واضح إلى قوله ﴿ هل ينظرون ﴾ وقد مر في آل عمران وفي " مريم " . وقوله ﴿ أن تأتيهم ﴾ بدل من الساعة و ﴿ الأخلاء ﴾ جمع خليل و ﴿ يومئذ ﴾ ظرف ﴿ عدو ﴾ وهو كقوله ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾

(215/694)

[البقرة : 166] ولكن خلة المتقين ثابتة لأن المحبة في الله لا تزول . ومعنى ﴿ تحبرون ﴾ تسرون والحبور السرور ، والصحاف جمع صحفة وهي القصعة فيها طعام ، والأكواب جمع كوب وهو الإبريق لا عروة له . وقد يدور في الخلد أن العروة للكوز أمر زائد على مصلحة الشرب وإنما هو لدفع حاجة كتعليق وتعلق وأهل الجنة فيها براء من أمثال ذلك فلهذا كانت أكوازها أكواباً والله أعلم بأسراره . ﴿ وفيها ﴾ أي في الجنة . قال القفال : جمع بها تين اللفظتين ما لو اجتمع الخلق كلهم على تفصيله لم يخرجوا عنه . ثم يقال لهم ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ إلى آخره . ثم وصف حال أهل الجرائم من الكفار أو منهم ومن الفساق على اختلاف بين السني والمتعزلي . ومعنى ﴿ لا يفتر ﴾ لا يخفف من الفتور ومبلسون آيسون ساكتون تحيراً ودهشاً . ولما أيسوا من فتور العذاب ﴿ نادوا يا مالك ﴾

وهو اسم خازن النار ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ أي ليمتنا كقوله ﴿ فقضى عليه ﴾ [القصص : 15] قال مالك : بعد أربعين عاماً أو بعد مائة أو ألف أو قال الله بدليل قوله ﴿ ولقد جئناكم ﴾ فإنه ظاهر من كلام الله وإن كان يحتمل أن يكون قول الملائكة . قال أهل التحقيق : سمى خازن النار مالكاً لأن الملك علقة والتعلق من أسباب دخول النار كما سمى خازن الجنة رضواناً لأن الرضا بحكم الله سبب كل راحة وسعادة وصلاح وفلاح . ثم عاد إلى توبيخ قريش وتجهيلهم والتعجيب من حالهم فقال ﴿ أم أبرموا أمراً ﴾ والإبرام والإحكام والمعنى أنهم كلما أحكموا أمراً في المكر بمحمد صلى الله عليه وسلم فإنا نحكم أمراً في مجازاتهم . وقال قتادة : أجمعوا على التكذيب وأجمعنا على التعذيب ، وذلك أنهم اجتمعوا في دار الندوة وأطبقوا على الاغتيال بمحمد صلى الله عليه وسلم وتناجوا في ذلك فكف عنه شرهم وأوعدهم عليه بأنه يعلم سرهم وهو ما حدّث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خالٍ . ونجواهم وهي ما تكلموا به فيما بينهم على سبيل الخفية أيضاً .

(216/694)

ثم أكد علمه بأن حفظة الأعمال يكتبونه ، ثم برهن على نفي الولد عن نفسه فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ وهذه قضية شرطية

جزآها ممتنعان إلا أن الملازمة صادقة نظيره قولك : إن كانت الخمسة زوجاً فهي منقسمة بمتساويين . وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، وبيان الملازمة أن الولد يجب محبته وخدمته لرضا الوالد وتعظيمه ، فلو كان المقدم حاصلاً في الواقع لزم وقوع التالي عادة وإنما ادعى أوليته في العبادة لأن النبي متقدم في كل حكم على أمته خصوصاً فيما يتعلق بالأصول كتعظيم المعبود وتنزيهه ، لكن التالي غير واقع فكذا المقدم وهذا الكلام ظاهر الإلزام ، واضح الإفحام ، قريب من الأفهام ، لا حاجة فيه إلى تقريب المرام .

(217/694)

وأما المفسرون الظاهريون لا دراية لهم بالمعقول فقد ذكروا فيه وجوهاً متكلفة منها : إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الموحدين لله . ومنها إن كان له ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد . يقال : عبد بالكسر يعبد بالفتح إذا اشتد أنفه . ومنها جعل " إن " نافية أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك ، ووحد ثم نزه نفسه عما لا يليق بذاته ، ثم أمر نبيه أن يتركهم في باطلهم واللعب بدنياهم حتى يلاقوا القيامة . ثم مدح ذاته بقوله ﴿ وهو الذي في السماء إله ﴾ أي معبود كما مر في قوله ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ [الأنعام : 3] والتقدير وهو الذي هو في السماء إله إلا أنه حذف الراجع لطول

الكلام . ثم أبطل قول الكفرة إن الأصنام تنفعهم . وقوله ﴿ إلا من شهد ﴾ استثناء منقطع أي لكن من شهد بالتوحيد عن علم وبصيرة هو الذي يملك الشفاعة ، ويجوز أن يكون متصلاً لأن من جملة من يدعونهم الملائكة وعيسى وعزيراً . وجوز أن تكون اللام محذوفة لأن الشفاعة تقتضي مشفوعاً له أي لمن شهد بالحق وهم المؤمنون قال بعض العلماء ﴿ وهم يعلمون ﴾ دلالة على أن إيمان المقلد وشهادته غير معتبر . ثم كرر ما ذكر في أول السورة قائلاً ﴿ ولئن سألتهم ﴾ والغرض التعجيب من حالهم أنهم يعترفون بالصانع ثم يجعلون له أنداداً . وقيل : الضمير في ﴿ سألتهم ﴾ للمعبودين . من قرأ ﴿ وقيله ﴾ بالنصب فعن الأخفش أنه معطوف على ﴿ سرهم ونجواهم ﴾ أو المراد وقال قيله أي قوله ، والضمير للنبي صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره بالكناية في قوله ﴿ قل إن كان ﴾ وعن أبي علي أنه يعود إلى عيسى ، وفيه تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن يكون النصب بالعطف على محل الساعة أي وعنده علم الساعة وعلم قيله كقراءة من قرأ بالجر . ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بأعمال الخلق الحسن معهم إلى أوان النصر وهو ظاهر والله أعلم بالتوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 96 . 99 ﴾

(218/694)

وقال الخطيب الشربينى :

واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر المفسرين : نزلت في مجادلة عبد الله بن الزبعرى مع النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى عليه السلام لما نزل قوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ كما تقدم في سورة الأنبياء والمعنى : ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه ﴿ إذا قومك ﴾ أي : من قريش ﴿ منه ﴾ أي : من هذا المثل ﴿ يصدون ﴾ أي : يرفع لهم ضجيج فرحاً بسبب ما رأوا من سكوت النبي صلى الله عليه وسلم فإن العادات قد جرت بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج ، وقال قتادة : يقولون ما يريد محمد منا إلا أن نعبده ونتخذه إلهاً كما عبدت النصارى عيسى .

﴿ وقالوا آلهتنا ﴾ أي : التي نعبدها من الأصنام ﴿ خير أم هو ﴾ قال قتادة : يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا ، وقال السدي وابن زيد : يعنون عيسى عليه السلام قالوا : توهم محمد أن كل ما نعبد من دون الله فهو في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة في النار قال الله تعالى : ﴿ ما ضربوه ﴾ أي : المثل ﴿ لك إلا جدلا ﴾ أي : خصومة بالباطل لعلمهم أن لفظ ما لغير العاقل فلا يتناول من

ذكروه ﴿ بل هم قوم ﴾ أي : أصحاب قوة على القيام فيما يحاولونه ﴿ خصمون ﴾ أي : شديدُ الخصام .

(219/694)

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال" . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم يصدون بكسر الصاد ، والباقون بضمها وهما بمعنى واحد يقال صد يصد ويصد كعكف يعكف ويعكف وعرش يعرش ويعرش ، وقيل : الضم من الصدود وهو الإعراض ، وقرأ الكوفيون : آلهتنا بتحقيق الهمزتين ، والباقون بتسهيل الثانية واتفقوا على إبدال الثانية ألفاً ، ثم إنه تعالى بين أن عيسى عبد من عبيده الذين أنعم عليهم بقوله تعالى:

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هو ﴾ أي : عيسى عليه السلام ﴿ إلا عبد ﴾ أي : وليس هو بإله ﴿ أنعمنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ عليه ﴾ أي : بالنبوة والإقدار على الخوارق ﴿ وجعلناه ﴾ أي : بما خرقنا به العادة في ميلاده وغير ذلك من آياته ﴿ مثلاً ﴾ أي : أمراً عجيباً كالمثل لغرابته من أنثى فقط بلا واسطة ذكر كما خلقنا آدم من غير ذكر وأنثى وشرفناه بالنبوة ﴿ لبني إسرائيل ﴾ الذين هم أعرف الناس به ، بعضهم بالمشاهدة ،

وبعضهم بالنقل القريب المتواتر فيعرفون به قدرة الله تعالى على ما يشاء حيث خلقه من غير أبٍ .

﴿ ولو نشاء ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ لجعلنا ﴾ ما هو أغرب مما صنعناه من أمر عيسى عليه السلام ﴿ منكم ﴾ أي : جعلا مبتدأ منكم إما بالتوليد كما جعلنا عيسى عليه السلام من أنثى من غير ذكر ، وجعلنا آدم عليه السلام من تراب من غير أنثى ولا ذكر ، وإما بالبدلية ﴿ ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ أي : يخلفونكم في الأرض والمعنى : أن حال عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبة فالله تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك ، وأن الملائكة مثلكم من حيث إنها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله تعالى .

(220/694)

﴿ وإنه ﴾ أي : عيسى عليه السلام ﴿ لعلم للساعة ﴾ أي : نزوله سبب للعلم بقرب الساعة التي هي تعم الخلائق كلها بالموت فنزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها قال صلى الله عليه وسلم "يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وتهلك في زمنه الملل كلها إلا الإسلام" .

وروي : "أنه ينزل على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها : أنيق وبيده حربة وعليه مخصرتان وشعر رأسه دهين يقتل الدجال ويأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر ، وروي في صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به" . وقال النبي صلى الله عليه وسلم "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم" . وقال الحسن وجماعة . وإنه أي : القرآن لعلم للساعة يعلمكم قيامها ويخبركم أحوالها وأهوالها ﴿ فلا تمترن بها ﴾ حذف منه نون الرفع للجزم وواو الضمير لالتقاء الساكنين من المرية وهي الشك أي : لا تشكن فيها وقال ابن عباس : لا تكذبوا بها ﴿ واتبعوني ﴾ أي : أوجدوا تبعكم لي ﴿ هذا ﴾ أي : كل ما أمرتكم به من هذا أو غيره ﴿ صراط ﴾ أي : طريق واضح ﴿ مستقيم ﴾ أي : لا عوج له ، وقرأ أبو عمرو بإثبات الياء في الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وصلاً وقفاً .

﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ أي : عن هذا الطريق الواضح الواسع المستقيم الموصل إلى المقصود بأيسر سعي ﴿ إنه لكم ﴾ أي : عامة وأكد الخبر لأن أفعال التابعين له أفعال من ينكر عداوته ﴿ عدو مبين ﴾ أي : واضح العداوة في نفسه مناد بها وذلك بإبلاغه في عداوة أبيكم آدم عليه السلام حتى أنزلكم بإنزاله عن محل الراحة إلى موضع النصب عداوة ناشئة عن الحسد فهي لا تنفك أبداً .

﴿ ولما جاء عيسى ﴾ أي : إلى بني إسرائيل ﴿ بالبينات ﴾ أي : المعجزات أي : بآيات الإنجيل وبالشرائع الواضحات ﴿ قال ﴾ منبهاً لهم ﴿ قد جئتكم ﴾ بما يدلكم قطعاً على أني آية من عند الله وكلمة منه ﴿ بالحكمة ﴾ أي : الأمر المحكم الذي لا يستطاع نقضه ، ولا يدفع بالمعاندة لأخلصكم بذلك مما وقعتم فيه من الضلال ﴿ ولأبين لكم ﴾ أي : بياناً واضحاً ﴿ بعض الذي تختلفون ﴾ أي : الآن ﴿ فيه ﴾ ولا تزالون تجددون الخلاف بسببه ، فإن قيل : لِمَ لم يبين لهم كل الذي يختلفون فيه ؟ .

أجيب : بأنه بين لهم كل ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلق بأمر الدنيا فإن الأنبياء لم تبعث لبيانه ، ولذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم "أنتم أعلم بأمر دنياكم" . ويحتمل أن يكون المراد أنه يبين لهم بعض المتشابه وهو ما يكون بيانه كافياً في رد بقية المتشابه إلى المحكم بالقياس عليه ، فإن الشأن في كل كتاب أن يجمع المحكم والمتشابه ، فالمحكم : ما ليس فيه التباس ، والمتشابه : ما يكون ملتبساً وفيه ما يرده إلى المحكم لكن على طريق الرمز والإشارة التي لا يذوقها إلا أهل البصائر ليتبين بذلك الصادق من الكاذب ، فالصادق الذي رسخ علماً وإيماناً يرد المتشابه منه إلى المحكم أو يعجز فيقول : الله أعلم بمراده ﴿ ربنا لا تزغ

قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ (آل عمران :)

ولا يتزلزل ، والكاذب يتبع المتشابه فيجريه على ظاهره كأهل الإلحاد الجوامد المفتونين أو يؤوله بحسب هواه بما لا يتمشى على قواعد العلم ولا يوافق المحكم فيفتتن .

ولما بين لهم الأصول والفروع قال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي : خافوا من له الملك الأعظم من الكفر والإعراض عن دينه لأن له كل شيء منكم ومن غيركم ، ومن المعلوم لكل ذي عقل أنه لا يتصرف في ملك الغير بوجه من الوجه إلا بإذنه ﴿ وأطيعون ﴾ أي : فيما أبلغه عنه إليكم من التكاليف فطاعتي لأمره بما يرضيه هو ثمرة التقوى وكلما زاد المتقي في أعمال الطاعة زادت تقواه .

(222/694)

﴿ إن الله ﴾ أي : الذي اختص بالجلال والجمال فكان أهلاً لأن يُتقى ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ ربي وربكم ﴾ أي : المحسن إلي وإليكم ﴿ فاعبدوه ﴾ أي : بما أمركم به لأنه صدقني في أمركم باتباعي بما أظهره على يدي فصار هو الآمر لكم لا أنا ﴿ هذا ﴾ أي : الأمر العظيم الذي دعوتكم إليه ﴿ صراط ﴾ أي : طريق واسع جداً واضح ﴿ مستقيم ﴾ لا عوج فيه .

ولما كان الطريق الواضح القويم موجباً للاجتماع عليه والوفاق عند سلوكه بين تعالى أنهم اختلفوا فيه بقوله تعالى:

﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ أي: الفرق المتحزبة ﴿ من بينهم ﴾ أي: اختلافاً ناشئاً ابتداء من بني إسرائيل في عيسى أهو الله؟ أو ابن الله؟ أو ثالث ثلاثة؟ وقوله تعالى: ﴿ فويل ﴾ كلمة عذاب ﴿ للذين ظلموا ﴾ أي: وضعوا الشيء في غير موضعه بما قالوه في عيسى عليه السلام ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ أي: مؤلم وإذا كان اليوم مؤلماً فما الظن بعذابه.

﴿ هل ينظرون ﴾ أي: هل ينظر كفار مكة أو الذين ظلموا ﴿ إلا الساعة ﴾ أي: ساعة الموت العام والبعث والقيامة فإن ذلك لتحقق أمره كأنه موجود منظور إليه وقوله تعالى: ﴿ أن تأتيهم ﴾ بدل من الساعة، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ بغتة ﴾ أي: فجأة يفيد قوله تعالى: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي: بوقت مجيئها قبله؟

أجيب: بأنه يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه.

﴿ الأخلاء ﴾ أي: الأحباء في الدنيا على المعصية وقوله تعالى: ﴿ يومئذ ﴾ أي: يوم القيامة، متعلق بقوله تعالى: ﴿ بعضهم لبعض عدو ﴾ أي: يتعادون في ذلك اليوم لانقطاع العلق لظهور ما كانوا يتحابون له سبباً للعذاب ﴿ إلا المتقين ﴾ أي: المتحابين في الله على طاعة الله تعالى وهم الموحدون الذين يخالل بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى فإن خلتهم لا تصير عداوة.

روى أبو ثور عن مَعْمَر عن قَتَادة عن أبي إسحاق أن علياً قال في الآية : خليلان مؤمنان وخليلان كافران فمات أحد المؤمنين فقال : يا رب إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك يأمرني بالخير وينهاني عن الشر ويخبرني أني ملاقيك يا رب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني ، فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما فيقول : لِيثنين أحدكم على صاحبه فيقول : نِعم الأخ ونِعم الخليل ونِعم الصاحب ، قال : ويموت أحد الكافرينِ فيقول : يا رب إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك فبئس الأخ وبئس الخليل وبئس الصاحب . ثم بين تعالى ما يتلقى به المؤمنين الذين قد توادوا فيه سبحانه تشريفاً لهم وتسكيناً لما يقتضيه ذلك المقام من الأهوال بقوله تعالى:

﴿ يا عباد ﴾ فأضافهم إلى نفسه إضافة تشريفٍ لأن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين ، وفيه أنواع كثيرة توجب المدح أولها : أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة وهذا تشريف عظيم بدليل أنه تعالى لما أراد تشريف نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾

والثاني قوله : ﴿ لا خوف ﴾ أي : بوجه من الوجوه ﴿ عليكم اليوم ﴾ أي : في يوم الآخرة مما يحويه من الأهوال والأمور الشداد والزلزال ، وثالثها : قوله تعالى : ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ أي : لا يتجدد لكم حزن على شيء فات في وقت من الأوقات الآتية لأنكم لا يفوتكم شيء تسرون به ، وقرأ شعبة بفتح الياء في الوصل وسكنها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحذفها الباقون وقفاً ووصلاً وقوله تعالى:

(224/694)

﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : أوجدوا هذه الحقيقة يجوز أن يكون نعتاً لعبادي أو بدلاً منه أو عطف بيان له أو مقطوعاً منصوباً بفعلٍ أي : أعني الذين آمنوا أو مرفوعاً وخبره مضمر تقديره يقال لهم : ادخلوا الجنة ، قال مقاتل : إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد : يا عبادي لا خوف عليكم اليوم فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم فيقول الذين آمنوا ﴿ بآياتنا ﴾ الظاهرة عظمتها في نفسها أولاً وبنسبتها إلينا ثانياً ﴿ وكانوا ﴾ أي : دائماً بما هو لهم كالجبلة والخلق ﴿ مسلمين ﴾ أي : منقادين للأوامر والنواهي أتم انقياد فبذلك يعدلون إلى حقيقة التقوى فينكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم فيمر حسابهم على أحسن الوجوه ثم يقال لهم:

﴿ ادخلوا الجنة ﴾ ولما كان السرور لا يكمل إلا بالرفيق السار قال تعالى : ﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ أي : نساؤكم اللاتي كن مشاكلات لكم في الصفات ، وأما قرناؤهم من الرجال فدخلوا في قوله تعالى وكانوا مسلمين ﴿ تحبرون ﴾ أي : تسرون وتنعمون والحبرة : المبالغة في الإكرام على أحسن الوجوه وقوله تعالى:

﴿ يطاف ﴾ قبله محذوف أي : يدخلون يطاف ﴿ عليهم ﴾ أي : المتقين الذي جعلناهم بهذا النداء ملوكاً ﴿ بصحاف من ذهب ﴾ فيها من ألوان الأطعمة والفواكه والحلوى ما لا يدخل تحت الوهم ، والصحاف جمع صَحْفَة كجفنة وجفان ، قال الجوهري : الصحفة كالقصعة والجمع صحاف ، قال الكسائي : أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تليها تشبع العشرة ثم الصحفة تشبع الخمسة ثم المِئكلة تشبع الرجلين والثلاثة ثم الصحيفة تشبع الرجل والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف .

(225/694)

ولما كانت آلة الشرب في الدنيا أقل من آنية الأكل جرى على ذلك المعهود فعبر بجمع القلة في قوله تعالى : ﴿ وأكواب ﴾ جمع كوب وهو كوز مستدير مدور الرأس لا عروة له إيذاناً بأنه لا حاجة أصلاً إلى تعليق شيء لتبريد أو صيانة عن أذى أو نحو ذلك : وقيل : هو كالإبريق إلا

أنه لا عروة له ، وقيل : إنه لا خرطوم له ، وقيل : إنه لا عروة له ولا خرطوم معاً قال الجواليقي : ليتمكن الشارب من أين شاء فإن العروة تمنع من ذلك وقال عدي:

*متكئاً تصفق أبوابه ** يطوف عليه العبد بالكوب*

ثم إنه تعالى لما ذكر التفصيل ذكر بياناً كلياً فقال ﴿ وفيها ﴾ أي : الجنة ﴿ ما تشتهي الأنفس ﴾ من الأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة جزاء لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا ﴿ وتلذ الأعين ﴾ أي : من الأشياء المبصرة التي أعلاها النظر إلى وجهه الكريم جزاء ما تحملوه من مشاق الاشتياق .

روي أن رجلاً قال : "يا رسول الله أفي الجنة خيل فإني أحب الخيل فقال : إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت ، فقال أعرابي : يا رسول الله أفي الجنة إبل فإني أحب الإبل فقال : يا أعرابي إن أدخلك الله الجنة أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك" وقرأ نافع وابن عامر وحفص بهاء بعد الياء بإثبات العائد على الموصول كقوله تعالى : ﴿ الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ والباقون بغيرها بعد الياء كقوله تعالى : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ وهذه القراءة مشبهة بقوله تعالى : ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ وهذه الهاء في هذه السورة رسمت في مصاحف المدينة والشام وحذفت من غيرها ، وقد وقع لأبي عبد الله الفاسي شارح

القصيدة وهم فسبق قلمه فكتب الهاء منه محذوفة في مصاحف المدينة والشام مثبوتة في غيرها فعكس .

(226/694)

ولما كان ذلك لا يكمل إلا بالدوام قال تعالى عائداً إلى الخطاب لأنه أشرف وأكد ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ لبقائها وبقاء كل ما فيها فلا كلفة عليهم أصلاً من خوف من زوال ولا خوف من فوات . ثم أشار إلى فخامتها بأداة البعد فقال تعالى:

﴿ وتلك الجنة ﴾ أي : العالية المقام ﴿ التي أورثتموها ﴾ شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه عليه العامل ، وقرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي بإدغام الثاء المثلثة في المثناة وأظهرها الباقون ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كنتم تعملون ﴾ أي : مواظبين على ذلك لا تفترون لأن العمل كان لهم كالجبلة التي جبلوا عليها فالمنة لربهم في الحقيقة بما زكى لهم أنفسهم .

ولما ذكر سبحانه الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال:

﴿ لكم فيها فاكهة ﴾ أي : ما يؤكل تفكهاً وإن كان لحماً وخبزاً ﴿ كثيرة ﴾ ودل على الكثرة وعلى دوام النعمة بقصد التفكه لكل شيء فيها بقوله تعالى : ﴿ منها ﴾ أي : لا من

غيرها مما يلحظ فيه القوت ﴿ تأكلون ﴾ فلا تنفد أبداً ولا تتأثر بأكل الآكلين لأنها على صفة الماء النابع لا يؤخذ منها شيء إلا خلف مكانه مثله في الحال ، ورد في الحديث : "أنه لا ينزع رجل ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها" .

تنبيه:

لما بعث الله تعالى نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام إلى العرب وكانت في ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة ذكر الله تعالى هذه المعاني مرة بعد أخرى تكميلاً لرغباتهم وتقوية لدواعيهم ومِنْ في قوله تعالى ﴿ منها تأكلون ﴾ تبعيضية أو ابتدائية وقدم الجار لأجل الفاصلة .

ولما ذكر سبحانه الوعد أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر في القرآن فقال تعالى:

﴿ إن المجرمين ﴾ أي : الراسخين في قطع ما أمر الله به أن يوصل ﴿ في عذاب جهنم ﴾ أي : النار التي من شأنها إلقاء داخلها بالتجهم والكراهة والعبوسة كما كان يعمل عند قطعه لأولياء الله تعالى ﴿ خالدون ﴾ لأن اجتراءهم كان طبعاً لهم لا ينفكون عنه أصلاً ما بقوا .

(227/694)

﴿ لا يفتر عنهم ﴾ أي : لا يقصد إضعافه بنوع من الضعف فنفي التفتر نفي للفتور من غير عكس ، قال البيضاوي : وهو من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً والتركيب للضعف ﴿ وهم فيه ﴾ أي : العذاب ﴿ مبلسون ﴾ أي : ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج ، وعن الضحاك : يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يقفل عليه فيبقى خالداً لا يرى ولا يرى .

﴿ وما ظلمناهم ﴾ نوعاً من الظلم ﴿ ولكن كانوا ﴾ جبلة وطبعاً وعملاً وصنعاً ﴿ هم الظالمين ﴾ لأنهم بارزوا المنعم عليهم بالعظائم ونووا أنهم لا ينفكون عن ذلك ما بقوا والأعمال بالنيات .

ولما كان مفهوم الإبلاس السكوت بين تعالى أنهم ليسوا ساكتين دائماً بقوله تعالى:

﴿ ونادوا ﴾ ثم بين أن المنادي خازن النار بقوله تعالى : مؤكداً البعد بأداته ﴿ يا مالك ليقض علينا ﴾ أي : سل سؤالاً حتماً أن يقضي القضاء الذي لا قضاء مثله وهو الموت على كل واحد منا وجروا على عادتهم في الغباوة والجلافة فقالوا : ﴿ ربك ﴾ أي : المحسن إليك فلم يروا للَّه تعالى عليهم إحساناً وهم في تلك الحالة ولا شك أن إحسانه ما انقطع عن موجود أصلاً ، وأقل ذلك أنه لا يعذب أحداً منهم فوق استحقاقه ، ولذلك جعل النار دركات كما جعل الجنة درجات فأجاب مالك عليه السلام بأن ﴿ قال ﴾ مؤكداً قطعاً لأطماعهم لأن كلامهم هذا هو بحيث يفهم الرجاء وإعلاماً بأن رحمة الله التي موضع

الرجاء خاصة بغيرهم ﴿ إنّكم ماكثون ﴾ أي : دائماً أبداً لا خلاص لكم بموت ولا غيره وليس في القرآن متى أجابهم هل أجابهم في الحال أو بعد مدة لكن .

(228/694)

روى ابن عباس : أن أهل النار يدعون مالكاً خازن النار يقولون : ليقض علينا ربك أي : ليمتنا ربك فنستريح ، فيجيبهم مالك بعد ألف سنة إنكم ماكثون أي : مقيمون في العذاب . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص : يجيبهم بعد أربعين ، وعن غيره مائة سنة واختلفوا في أن قولهم : ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ على أي وجه طلبوه فقال بعضهم : على التمني وقال آخرون : على وجه الاستغاثة وإلا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم من ذلك العذاب .

ثم إنه تعالى ذكر ما هو كالعلة لذلك الجواب بقوله تعالى:

﴿ لقد جئناكم ﴾ أي : في هذه السورة خصوصاً وفي جميع القرآن عموماً ﴿ بالحق ﴾ على لسان الرسل وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار الدال عند الجيم ، والباقون بالإدغام ﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ لما فيه من المنع من الشهوات فلذلك أنتم تقولون إنه ليس بحق لأجل كراهتكم فقط لا لأجل أن في حقيّته نوعاً من الخفاء ، فإن قيل : كيف قال : ونادوا يا مالك بعد أن وصفهم بالإبلاس ؟

أجيب : بأنها أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتاً لشدة ما بهم ، روى أنه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون : ادعوا مالكاً فيدعون ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ .

ولما ذكر تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم في الدنيا فقال تعالى:

﴿ أم أبرموا ﴾ أي : أحكم كفار مكة ﴿ أمراً ﴾ أي : في المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رد أمرنا ومعاداة أوليائنا مع علمهم بأنا مطلعون عليهم ﴿ فإنا مبرمون ﴾ أي : محكمون أمراً في مجازاتهم أي : مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ (الطور :)

قال مقاتل : نزلت في تدبيرهم المكر في دار الندوة .

(229/694)

تنبيه : أم منقطعة والإبرام : الإتقان وأصله في الفتل يقال أبرم الحبل ، أي : أتقن فتله وهو الفتل الثاني والأول يقال له سحيل قال زهير:

*لعمري لنعم السيدان وجدتما ** على كل حال من سحيل ومبرم*

﴿ أم يحسبون أنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة المقتضية لجميع صفات الكمال ﴿ لا نسمع سرهم ﴾ أي : كلامهم الخفي ولو كان في الضمائر فيما يغضبنا ، والسر ما حدث به الشخص نفسه أو غيره في مكان خال .

ولما كان ربما وقع في الأوهام أن المراد بالسمع إنما هو العلم لأن السر ما يخفى وهو يعلم ما في الضمائر وهي مما يعلم حقق أن المراد به حقيقته بقوله تعالى : ﴿ ونجواهم ﴾ أي : تناجيهم في كلامهم المرتفع فيما بينهم حتى كأنه على نجوة أي : مكان عال ، فعلم أن المراد حقيقة السمع وأنه تعالى يسمع كل ما يمكن أن يسمع ﴿ بلى ﴾ نسمع الصنفين كليهما على حد سواء ﴿ ورسلنا ﴾ وهم الحفظة من الملائكة على الجميع السلام على ما لهم من العظمة بنسبتهم إلينا ﴿ لديهم ﴾ أي : عندهم ، وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها ﴿ يكتبون ﴾ أي : يجددون الكتابة كل ما تجدد ما يقتضيها لأن الكتابة أوقع في التهديد لأن من علم أن أعماله محصاة مكتوبة يجتنب ما يخاف عاقبته ، وعن يحيى بن معاذ الرازي : من ستر عن الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق .

ولما تقدم أول السورة تبكيتهم والتعجيب منهم في ادعائهم لله ولداً من الملائكة وهددهم

بقوله تعالى : ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم:

(230/694)

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء البعداء البغضاء ﴿ إن كان للرحمن ﴾ أي : العام الرحمة ﴿ ولد ﴾ أي : على زعمكم والمراد به الجنس لادعائهم في الملائكة وغيرهم ﴿ فأنا ﴾ أي : في الرتبة ، وقرأ نافع بمد الألف بعد النون والباقون بغير مد ﴿ أول العابدين ﴾ للرحمن العبادة التي هي العبادة ولا يستحق غيرها أن يسمى عبادة وهي الخالصة أي : فأنا لا أعبد غيره لا ولداً ولا غيره ، ولم يشأ لي الرحمن أن أعبد الولد ولا غيره ، أو يكون المعنى : أنا أول العابدين للرحمن على وجه الإخلاص لم أشرك به شيئاً أصلاً في وقت من الأوقات بما سميتموه ولداً أو شريكاً أو غيرهما ، ولو شاء ما عبدته على وجه الإخلاص ولا شك عندكم وعند غيركم أن من أخلص لأحد كان أولى من غيره برحمته فلو أن الإخلاص له ممنوع ما شاءه لي ولولا أن عبادة غيره ممنوعة لشاءها لي ولو أن له ولداً لشاء لي عبادته ، فإن عموم رحمته لكافة خلقه لكونهم خلقه وخصوصها بي لكوني عبده خالصاً يمنع على

زعمكم من أن يشقيني وأنا أخلص له فبطلت شبهتكم بمثلها بل بأقوى منها ، وهذا مما علق بشيء هو بنقيضه أولى .

(231/694)

وقال الزمخشري : إن كان للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها ، ثم قال : وقد تمحل الناس بما أخرجوه من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه فقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه ، وقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد .

وقال ابن عباس : إن أن نافية أي : ما كان له ولد فإني أول من عبده رتبة وما علمت له ولداً ولو كان له ولد إله لعبدته تقرباً إليه بعبادة ولده ، وروي أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال : إن الملائكة بنات الله تعالى فنزلت فقال النضر : ألا ترون أنه قد صدقني فقال له الوليد بن المغيرة : ما صدقك ولكن قال ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له ثم إنه تعالى نزه نفسه فقال:

﴿ سبحان رب ﴾ أي : مبدع ومالك ﴿ السموات والأرض ﴾ أي : اللتين كل ما فيهما ومن فيهما مقهور مربوب محتاج لا يصح أن يكون له منه سبحانه نسبة بغير العبودية بالإيجاد والتربية .

(232/694)

ولما كانت خاصة الملك أن يكون له ما لا يصل إليه غيره بوجه أصلاً قال محققاً لملكه لجميع ما سواه ومن سواه وملكه له ، ولم يعد العطف لأن العرش من السموات ﴿ رب العرش ﴾ أي : المختص به لكونه خاصة الملك الذي وسع كرسيه السموات والأرض ﴿ عما يصفون ﴾ أي : يقولون من الكذب من أن له ولداً أو شريكاً وذلك أن إله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته ، وكل ما كان كذلك فهو لا يقبل التجزي بوجه من الوجوه ، والولد

عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله وهذا إنما يعقل فيمن تكون ذاته قابلة للتجزي والتبعيض ، وإذا كان ذلك محالاً في حق إله العالم امتنع إثبات الولد .

ولما ذكر تعالى هذا البرهان القاطع قال تعالى مسبباً عن ذلك:

﴿ فذرهم ﴾ أي : اتركهم على أسوأ أحوالهم ﴿ يخوضوا ﴾ أي : يفعلوا في باطلهم فعل الخائض في الماء ﴿ ويلعبوا ﴾ أي : يفعلوا فعل اللاعب في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا ﴾ أي : يفعلوا بتصرم أعمارهم في فعل ما لا ينفعهم فعل المجتهدين في أن يلقوا ﴿ يومهم الذي يوعدون ﴾ أي : بوعد لا خلف فيه وهو يوم القيامة فيظهر فيه وعيدهم والمقصود منه التهديد لأنه تعالى ذكر الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا فلم يلتفتوا إليها لأجل استغراقهم في طلب المال والجاه والرياسة ، فاتركهم في ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الموعود به ثم زاد في التنزيه فقال تعالى:

(233/694)

﴿ وهو الذي في السماء إله ﴾ أي : معبود لا شريك له ﴿ وفي الأرض إله ﴾ تتوجه الرغبات إليه في جميع الأحوال وتخلص إليه في جميع أوقات الاضطرار ، فقد وقع الإجماع من

جميع من في السماء والأرض على إلهيته فثبت استحقاقه لهذه الرتبة وثبت اختصاصه باستحقاقها في الشدائد فباقي الأوقات كذلك من غير فرق لأنه لا مشارك له في هذا الاستحقاق فعبادة غيره باطلة ، وقرأ قالون والبزي بتسهيلها مع المد والقصر ، وقرأ أبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر ، وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وإبدالها أيضاً ألفاً وقرأ الباقون بتحقيقهما .

تنبيه : كل من الظرفين متعلق بما بعده لأن إله بمعنى معبود أي : معبود في السماء ومعبود في الأرض وحينئذ يقال : الصلة لا تكون إلا جملة أو ما في تقديرها وهو الظرف وعديله ولا شيء منهما هنا ؟

أجيب : بأن المبتدأ حذف لدلالة المعنى عليه وذلك المحذوف هو العائد تقديره وهو الذي هو في السماء إله وهو في الأرض إله ، وإنما حذف لطول الصلة بالمعمول فإن الجار متعلق بإله ومثله ما أنا بالذي قائل لك سوأ ﴿ وهو الحكيم ﴾ أي : البليغ الحكمة في تدبير خلقه ﴿ العليم ﴾ أي : البالغ في علمه بمصالحهم .

﴿ وتبارك ﴾ أي : وثبت ثباتاً لا يشبهه ثبات لأنه لا زوال له مع اليمن والبركة وكل كمال فلا شبيه له حتى يدعى أنه ولد له أو شريك . ثم وصفه تعالى بما يبين تباركيته واختصاصه بالألوهية فقال عز من قائل : ﴿ الذي له ملك السموات ﴾ أي : كلها ﴿ والأرض ﴾ كذلك ﴿ وما بينهما ﴾ أي : وما بين كل اثنين منهما ، والدليل على هذا الإجماع القائم على

توحيده عند الاضطرار ﴿ وعنده ﴾ أي : وحده ﴿ علم الساعة ﴾ أي : العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها ﴿ وإليه ﴾ أي : وحده لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ بأيسر أمر تحقيقاً لملكه وقطعاً للنزاع في وحدانيته ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء التحتية على الغيبة ، والباقون بالفوقية على الالتفات للتهديد .

(234/694)

﴿ ولا يملك ﴾ أي : بوجه من الوجوه في وقت ما ﴿ الذين يدعون ﴾ أي : يعبدون أي : الكفار ﴿ من دونه ﴾ أي : الله تعالى ﴿ الشفاعة ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله وقوله تعالى ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ أي : قال : لا إله إلا الله ، فيه قولان ؛ أحدهما : أنه متصل إن أريد بالموصول كل ما عبد من دون الله والمعنى : لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا لأحد إلا من شهد بالحق ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي : بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم وهم عيسى ومريم وعزير والملائكة فإنهم يملكون أن يشفعوا للمؤمنين بتمليك الله تعالى إياهم لها ، والثاني : هو منقطع إن خص بالأصنام .

﴿ ولئن سألتهم ﴾ أي : الكفار مع ادعائهم الشريك ﴿ من خلقهم ﴾ أي : العابدين والمعبودين معاً ﴿ ليقولون الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال لتعذر المكابرة من

فرط ظهوره ﴿ فأنى ﴾ أي : فكيف وأي جهة بعد أن أثبتوا له الخلق والأمر ﴿ يؤفكون ﴾ أي : يصرفون عن اتباع رسولنا الآمر لهم بتوحيدنا في العبادة كما أنا توحدنا في الخلق .

وقرأ :

﴿ وقيله ﴾ أي : قول محمد صلى الله عليه وسلم عاصم وحمزة بخفض اللام والهاء على معنى وعنده علم الساعة وعلم قبله ، والباقون بنصب اللام ورفع الهاء على المصدر بفعله المقدر أي : وقال ﴿ يا رب إن هؤلاء قوم ﴾ أي : أقوياء على الباطل ولم يضفهم إلى نفسه بأن يقول قومي ونحو ذلك من العبارات ولا سماهم باسم قبيلتهم لما شأنه من حالهم ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي : لا يتجدد منهم هذا الفعل أصلاً .

(235/694)

﴿ فاصفح ﴾ أي : اعف عفو من أعرض ﴿ عنهم ﴾ صفحاً فلا تلتفت إليهم بغير التبليغ ﴿ وقل ﴾ أي : لهم ﴿ سلام ﴾ أي : شأني الآن متاركتكم بسلامتكم مني وسلامتي منكم ، قال ابن عباس : وهذا منسوخ بآية السيف ، وقال الرازي : وعندي التزام النسخ في مثل هذه المواضع مشكل لأن الأمر لا يقيد بالفعل إلا مرة واحدة فسقطت دلالة اللفظ فأي حاجة إلى التزام النسخ ، وأيضاً فاللفظ المطلق قد يتقيد بحسب العرف فإذا كان

كذلك فلا حاجة إلى التزام النسخ وجرى على النسخ الجلال المحلي فقال : وهذا قبل أن يؤمر بقتالهم وقوله تعالى : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ فيه تهديد لهم وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقرأ نافع وابن عامر بتاء الخطاب التفاتاً ، والباقون بياء الغيبة نظراً لما تقدم وما قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة : يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 435.448 ﴾

(236/694)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾

أي : في كونه كآدم ، كما أشارت له آية : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عِمْرَان : 59] ، والمعنى : لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة ، عبادته كفر ، ودعاؤه شرك ، إذ لم يأذن الله بعبادة غيره : ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ ﴾ أي : من مثله المضروب ووصفه المبين : ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ أي : يعرضون ، ولا يعون : ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ يعنون بآلهتهم الملائكة الذين عبدوهم

، زعماً منهم أنهم بنات الله تعالى ، كما ذكر عنهم ذلك في أول السورة . أي : أنهم خير من عيسى وأفضل ، لأنهم من الملأ الأعلى والنوع الأسمى ، فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى ، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة . كأنهم يقرون على شركهم أصولاً صحيحة ، ويبنون على تمسكهم أقيسة صريحة ، وغفلوا ، لجهلهم ، عن بطلان المقيس والمقيس عليه ، وأن البرهان الصادع قام على بطلان عبادة غيره تعالى ، وعلى استحالة التوالد في ذاته العلية .

وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال ، والمشاغبة بالجدال . كما قال تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ﴾ أي : ما ضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدل والخصومة ، لا عن اعتقاد ، لظهور بطلانه : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي : شديد والخصومة بالباطل تمويهاً وتلبيساً . وفي الحديث < ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل > وما ذكرناه في تفسير هذه الآية ، هو الجلي الواضح ، لدلالة السياق والسباق فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف .

ثم جلى شأن عيسى عليه السلام ، بما يرفع كل لبس ، بقوله سبحانه :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي : بالنبوة والرسالة : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : آية لهم وحجة عليهم ، بما ظهر على يديه ، مما أيد نبوته ، ورسالته ، وصدق دعواه .

﴿ وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم ﴾ أي : بدلكم : ﴿ مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ أي : يكونون مكانكم . إيعاد لهم بأنهم في قبضة المشيئة في إهلاكهم ، وإبدال من هو خير منهم . كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد : 38] ، وقيل معنى : ﴿ لَجَعَلْنَا مِنكُم ﴾ لولدنا منكم ملائكة ، كما ولدنا عيسى من غير أب ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة . واللفظ الكريم يحتمله ، إلا أن الأظهر هو الأول ، لما جرت به عادة التنزيل ، من خواتم أمثال ما تقدم ، بنظائر هذا الوعيد ، والله أعلم .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ الضمير إما للقرآن كما ذهب إليه قوم ، أي : وإن القرآن الكريم يعلم بالساعة ويخبر عنها وهن أهوالها ، وفي جعله عين العلم ، مبالغة . والعلم بمعنى العلامة . وقيل الضمير لعيسى عليه السلام . أي : إن ظهوره من أشراط الساعة . ونزوله إلى الأرض في آخر الزمان دليل على فناء الدنيا . وقال بعضهم : معناه أن عيسى سبب للعلم بها . فإنه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل على إمكان البعث . فالآية مجاز مرسل علاقته

المسببية ؛ إذ أطلق المسبب وهو العلم ، وأراد السبب وهو عيسى ومعجزاته . كقولك : أمطرت السماء نباتاً ؛ أي : مطراً يتسبب عنه النبات .

(238/694)

وقرئ : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بفتحتين . أي : أنه كالجبل الذي يهتدي به إلى معرفة الطريق ونحوه ؛ فبعيسى عليه السلام يهتدي إلى طريقة إقامة الدليل على إمكان الساعة وكيفية حصولها . انتهى . وهو جيد : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ﴾ أي : اتبعوا هداي ، أو شرعي ، أو رسولي ، أو هو أمر للرسول أن يقوله : ﴿ هَذَا ﴾ أي : القرآن ، أو ما أدعوكم إليه : ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي : عن الاتباع : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أي من أحكام التوراة وغيرها . كاختلاف اليهود في القيامة ، لعدم صراحتها في كتبهم . وقد جاء في نحوها آية : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عِمْرَان : 50] ، وقد وضع عن اليهود شيئاً من إصْر التوراة ، وأغلال الناموس ، كما فعل في يوم السبت ، خففت شدّة حكمه .

قال بعض المحققين : وإنما لم يقل : ولأبين لكم كل ما تختلفون فيه ؛ لأنه لم يفعل ذلك . بل ترك بيان كثير من الأشياء ، كالفساد الذي دخل في أغلب كتبهم للفارقليط – محمد صلى الله عليه وسلم – الذي يأتي بعده ، لعدم استعداد الناس في زمنه لقبول كل شيء منه . كما قال هو نفسه في : إنجيل يوحنا ، في الإصحاح السادس عشر ، وخصوصاً إذا تعرض للطعن في كتبهم ، وهي رأس مالهم الوحيد وتراث أجدادهم ، ولو فعل ذلك لشك فيه الكثيرون منهم وكذبوه ، ولما اتبعه إلا الأقلون أو النادرون ، فتضيع الفائدة من بعثته التي بيناها في المتن ، وهي التي بعث من أجلها .

وأما قول الله تعالى عن لسانه : ﴿ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ [آل عِمْرَان : 50] ، فالمراد بمثل هذا التعبير ، أنه بمجيئه عليه السلام تحققت نبوات التوراة عنه ، وبه صحت وصدقت . وكلمة التوراة ، تطلق على كتاب العهد القديم ؛ فالمعنى أن مجيء عيسى كان وفق ما أنبأ به النبيون عنه من قبل . ولولاه لما صدقت تلك النبوات ؛ فإنها لا تنطبق إلا عليه . وليس المراد أن عيسى يقرّ كل ما في التوراة ، كما يتوهم النصارى الآن من مثل هذه الآية . وإلا لما قال بعدها مباشرة : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [

آل عِمْرَان : 50] ، فكيف يقرّها وهو قد جاء ناسخاً لبعض ما فيها ؟ فتدبر ذلك ولا تكن كهؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويفسرون ما لا يفهمون . انتهى كلامه . وهو وجيه جداً .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ قال ابن جرير : أي : إن الله الذي يستوجب علينا إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له ، ربي وربكم جميعاً . فاعبدوه وحده لا تشركوا معه في عبادته شيئاً . فإنه لا يصح ولا ينبغي أن يعبد شيء سواه

(240/694)

﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي : هذا الذي أمرتكم به ، من اتقاء الله وطاعتي ، وإفراد الله بالألوهية ، هو الطريق القويم . وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام ، فلا عبرة بقول الملحدين فيه والمفترين عليه ما لم يقله . ثم أشار إلى وعيد من خالف الحق بعد وضوحه ، بقوله تعالى :

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ ﴾ أي : الفرق المتحزبة اختلافاً نشأ : ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ أي : لا من قوله تعالى ، ولا من قول عيسى . بل ظلماً وعناداً : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ

أَلِيمٍ ﴾ أي : مؤلم من شدة الأهوال ، وكثرة الفضائح ، وظلمهم بترك النظر في الدلائل العقلية والنقلية .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أي : قريش : ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : المتخالون على المعاصي والفساد ، والصد عن الحق يوم القيامة : ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي : معاد ، يتبرأ كل من صاحبه : ﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : المتصادقين في طاعة الله ومحبته . قال القاشاني : الخلة إما أن تكون خيرية ، أوْ لا . والخيرية إما أن تكون في الله أو لله ومحبته . وغير الخيرية إما أن يكون سببها اللذة النفسانية أو النفع العقلي .

(241/694)

والقسم الأول هو المحبة الروحانية الذاتية المستندة إلى تناسب الأرواح في الأزل ، التي قال فيها < فما تعارف منها ائتلف > فهم إذا برزوا في هذه النشأة ، وتوجهوا إلى الحق ، وتجددوا عن مواد الرجس ، فلما تلاقوا تعارفوا ، وإذا تعارفوا تحابوا ، لتجانسهم الأصلي ، وتوافقهم في الوجهة والطريقة ، وتشابههم في السيرة والغريزة ، وتجردهم عن الأغراض الفاسدة والأعراض الذاتية ، التي هي سبب العداوة . وانتفع كل منهم بالآخر في سلوكه

وعرفانه . والتذ بلقائه ، وتصفى بصفائه ، وتعاونوا في أمور الدنيا والآخرة . فهي الخلة التامة الحقيقية التي لا تزول أبداً كمحبة الأنبياء ، والأصفياء ، والأولياء ، والشهداء .

والقسم الثاني هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف ، والأخلاق ، والسير الفاضلة ، ونشأته الاعتقادات ، والأعمال الصالحة . كمحبة الصلحاء والأبرار فيما بينهم ، ومحبة العرفاء والأولياء إياهم . ومحبة الأنبياء أممهم .

والقسم الثالث هو المحبة النفسانية المستندة إلى اللذات الحسية ، والأعراض الجزئية . كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة ، ومحبة الفجار ، والفساق المتعاونين في اكتساب الشهوات ، واستلاب الأموال .

(242/694)

والقسم الرابع هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعاش ، وتيسير المصالح الدنيوية ، كمحبة التجار والصناع ، ومحبة المحسَن إليه للمحسِن . فكل ما استند إلى غرض فانٍ ، وسبب زائل ، زال بزواله ، وانقلب عند فقدانه عداوة . لتوقع كل من المتحابين ما اعتاد من صاحبه ، من اللذة المعهودة ، والنفع المألوف ، وامتناعه لزوال سببه ، ولما كان الغالب على أهل العلم أحد القسمين الأخيرين ، أطلق الكلام ، وقال : ﴿

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ لانقطاع أسباب الوصلة بينهم ، وانتفاء الآلات البدنية عنهم ، وامتناع حصول اللذة الحسية ، والنفع الجسماني ، وانقلابهما حسرات وآلاماً وضرراً وخسراناً . قد زالت اللذات والشهوات ، وبقيت العقوبات والتبعات ، فكل يمقت صاحبه ويبغضه ؛ لأنه يرى ما به من العذاب ، منه وبسببه .

ثم استثنى المتقين المتناولين للقسمين الباقيين لقلتهم ، كما لقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ [ص : 24] ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : 13] ، ولعمري ، إن القسم الأول أعز من الكبريت الأحمر . وهم الكاملون في التقوى ، البالغون إلى نهايتها ، الفائزون بجميع مراتبها . ويليهم القسم الثاني ، وكلا القسمين ، لاشتراكهما في طلب مرضاة الله ، وطلب ثوابه ، واجتناب سخطه ، وعقابه ، نسبهم سبحانه إلى نفسه بقوله :

﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي : لأمنهم من العذاب : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ أي : على فوات لذات الدنيا ؛ لكونهم على ألذّ منها وأبهج ، وأحسن حالاً وأجمل .

(243/694)

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : صدقوا بكتاب الله ورسله ، وعملوا بما جاءتهم به رسلهم : ﴿ وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ أي : أهل خضوع لله بقلوبهم ، وقبول منهم لما جاءتهم به رسولهم

عن ربهم ، على دين إبراهيم عليه السلام ، حنفاء ، لا يهود ، ولا نصارى ، ولا أهل أوثان .

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ أي : تسرون سروراً يظهر حباره ، أي : أثره على وجوهكم ، كقوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين : 24]

.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ الصحاف جمع صفحة ، وهي آنية الأكل . والأكواب جمع كوب ، وهو ما يشرب منه كالكوز ، إلا أن الكوب ما لا عروة له . قال الشهاب : العروة ما يمسك منه ويسمى أذاناً . ولذا قال من ألغز فيه :

~وَذِي أُذُنٍ بِلَا سَمْعٍ لَهُ قَلْبٌ بِلَا قَلْبِ

~إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى صَبٍّ فَقُلْ مَا شِئْتَ فِي الصَّبِّ

(244/694)

ومن اللطائف هنا ما قيل : إنه لما كانت أواني المأكولات أكثر بالنسبة لأواني المشروب عادة ، جمع الأول جمع كثرة ، والثاني جمع قلة ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ أي : بمشاهدته : ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : من الخيرات ، والأعمال الصالحات . وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة ، من الجنة

ونعيمها الباقي لهم ، بما يخلفه المرء لورّاثه من الأملاك ، والأرزاق . ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورث ، على صيغة اسم الفاعل ، فهو استعارة تبعية ، أو تمثيلية .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : ما اشتهيتم ، ومن إما ابتدائية أو تبعيضية ، ورجح بدلالته على كثرة النعم ، وأنها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنها مزينة بالثمار أبداً ، موقرة بها .

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : الذين اجترموا الكفر ، والمعاصي في الدنيا : ﴿ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي : لا يخفف ولا ينقص : ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي : مستسلمون يائسون .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي : بهذا العذاب : ﴿ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : بكفرهم الله ، وجحودهم توحيده .

(245/694)

﴿ وَنَادَوْا ﴾ أي : بعد إدخالهم جهنم : ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي : ليمتنا . أي : سله أن يفعل بنا ذلك . تمنوا تعطل الحواس وعدم الإحساس ، لشدة التألم بالعذاب الجسماني ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ أي : لابثون : ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ

لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ أي : لا تقبلونه وتنفرون منه ، وعبّر بالأكثر ؛ لأن من الأتباع من يكفر تقليداً .

لطيفة :

قال القاشاني : سمي خازن النار مالكاً لاختصاصه بمن ملك الدنيا وآثرها . لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات : 37 - 39] كما سمي خازن الجنة رضواناً لاختصاصه بمن رضي الله عنهم ، ورضوا عنه .

﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ أي : أم أبرم مشركو مكة أمراً فأحكموه ، يكيدون به الحق الذي جاءهم ، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم ، من النكال . كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ [الطور : 42] .

(246/694)

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ أي : ما أخفوه من تناجيهم بما يمكرون ، فلا نجازيهم عليه لخفائه علينا : ﴿ بَلَى ﴾ أي : نسمعهما ونطّلع عليهما : ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ يعني الحفظة : ﴿ لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي : ما تكلّموا به ولفظوا من قول ، ثم أشار إلى ردّ إفكهم في أن الملائكة بنات الله تعالى ، ختماً للسورة مما بدئت به ، المسمى عند البديعيين :

رد العجز على الصدر . فقال سبحانه :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أي : لذلك الولد . والأولية بالنسبة إلى المخاطبين ، لا لمن تقدّمهم . قال الشهاب : ولو أبقى على إطلاقه ، على أن المراد إظهار الرغبة والمسارعة ، جاز . انتهى .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ على نفي التالي . وهو عبادة الولد ؛ أي : أوحّده وأنزّهه تعالى عما يصفونه من كونه مماثلاً لشيء ، لكونه ربّاً خالقاً للأجسام كلها ، فلا يكون من جنسها ، فيفيد انتفاء الولد على الطريق البرهاني . وأما دلالته على الثاني ، فإذا جعل قوله : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ ﴾ الخ من كلام الله تعالى ، لا من كلام الرسول ؛ أي : نزّه رب السماوات عما يصفونه ، فيكون نفياً للمتقدم ويكون تعليق عبادة الرسول من باب التعليق بالمحال ، والمعلق بالشرط عند عدمه فحوى بدلالة المفهوم ، أبلغ عند علماء البيان من دلالة المنطوق . كما قال في استبعاد الرؤية : ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [الأعراف : 143] . انتهى .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ أي : في باطلهم : ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ أي : في دنياهم : ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ قال ابن جرير : وذلك يوم يُصليهم الله بفريتهم عليه جهنم ، وهو يوم القيامة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ أي : المعبود فيهما بلا شريك : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : في تدبير خلقه ، وتسخيرهم لما يشاء بمصالحهم .

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ أي : الشفاعة لهم عند الله ، كما زعموا أن أندادهم شفعاء : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : من آمن بالله ، وأقر بتوحيده ، وهم يعلمون حقيقة توحيده ؛ أي : وحّدوه ، وأخلصوا له على علم منهم ويقين ، كقوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : 28] . قال ابن كثير : هذا استثناء منقطع ، أي : لكن من شهد بالحق على بصيرة ، وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له .

تنبيه :

قال الشهاب : استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الشهادة لا تكون إلا عن علم ، وأنها تجوز وإن لم يشهد .

وفي " الإكليل " قال إلكيا : يدل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ على معنيين : أحدهما – أن الشهادة بالحق غير نافعة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة . والثاني – أن شرط الشهادات في الحقوق وغيرها ، أن يكون الشاهد عالماً بها .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي : خلقنا لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره : ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

﴿ وَقِيلِهِ ﴾ أي : قيل محمد صلوات الله عليه ، شاكياً إلى ربه تبارك وتعالى ، قومه الذين كذبوه وما يتلقى منهم : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء ﴾ أي : الذين أمرتني بإنذارهم ، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك : ﴿ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : بالتوحيد ، والرسالة ، واليوم الآخر . كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30]

.

﴿ فَاصْفَحْ ﴾ أي : أعرض : ﴿ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أي : لكم ، أو عليكم ، أو أمري سلام ؛ أي : متاركة فهو سلام متاركة لا تحية .

وقال الرازي : احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر . ثم قال : إن صح هذا الاستدلال فإنه يوجب الاقتصار على مجرد قوله : سلام . وأن يقال للمؤمن : سلام عليكم . والمقصود التنبيه على التحية التي تذكر للمسلم والكفار .

وفيه نظر ؛ لأنه جمود على الظاهر البحت هنا ، والغفلة عن نظائره . من نحو قول إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم : 47] ، وآية : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : 55] ، على أن الأكثر على أن الخبر هنا محذوف ، أي : عليكم والمقدر كالمذكور ، والمحذوف لعلة كالثابت ، فالصواب أن السلام للمتاركة . والله أعلم : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : حقية ما أرست به, بسموّ الحق ، وزهوق الباطل

تنبيه :

قرىء : ﴿ وقيلَه ﴾ بالنصب عطفاً على ، سرّهم ونجواهم . وضعّف بوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، بما لا يحسن اعتراضاً ، أو على محل الساعة ؛ لأنه في محل نصب ؛ لأنه مصدر مضاف لمفعوله ، أو بإضمار فعله ؛ أي : وقال قيله .

وقرىء بالجر عطفاً على الساعة ، أو الواو للقسم ، والجواب محذوف ؛ أي : لأفعلن بهم ما أريد ، أو مذكور وهو قوله : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقرىء بالرفع عطفاً على علم الساعة ، بتقدير مضاف ؛ أي : وعندهم علم قيله ، أو مرفوع بالابتداء ، وجملة يا رب الخ هو الخبر . أو الخبر محذوف ؛ أي : وقيله كيت وكيت ، مسموع أو متقبل . وفي " الحواشي " مجازيات جدلية ، فازدد بمراجعتها علماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 284.296 ﴾

(250/694)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) ﴾

في هذا الدرس الأخير من السورة يستطرد السياق إلى حكاية أساطيرهم حول عبادة الملائكة ؛ ويحكي حادثاً من حوادث الجدل الذي كانوا يزاولونه ، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية ، لا بقصد الوصول إلى الحق ، ولكن مراء ومحالاً !

فلما قيل لهم : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم . وكان القصد هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة ثم عبدوها بذاتها . وقيل لهم : إن كل عابد وما يعبد من دون الله في النار . لما قيل لهم هذا ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم وقد عبده المنحرفون من قومه أهو في النار ؟ وكان هذا مجرد جدل ومجرد مراء . ثم قالوا : إذا كان أهل الكتاب

يعبدون عيسى وهو بشر فنحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ! وكان هذا باطلاً يقوم على باطل .

وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفاً من قصة عيسى ابن مريم ، يكشف عن حقيقته وحقيقة دعوته ، واختلاف قومه من قبله ومن بعده .

ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعاً بمجيء الساعة بغتة . وهنا يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة ، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين ، وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين .

وينفي أساطيرهم عن الملائكة ، وينزه الله سبحانه عما يصفون ، ويعرفه لعباده ببعض صفاته ؛ وملكيته المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة وإليه يرجعون .

ويختم السورة بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الصفح عنهم والإعراض ويدعهم ليعملوا ما سيعملون ! وهو تهديد ملفوف يليق بالمجادلين المرائين بعد هذا الإيضاح والتبيين .

(251/694)

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جدلاً . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني

إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون ، هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ . .

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ . .

(252/694)

ذكر ابن إسحاق في السيرة قال : " جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه . ثم تلا عليه وعليهم : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ . . الآيات . . ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبد الله بن الزبعري التميمي حتى جلس . فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ! وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبعري : أما والله لو

وجدته لخصمته . سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم . فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري ورأوا أنه قد احتج وخاصم . فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده . فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته " فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ . . أي عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾ . . أي يصدون عن أمرك بذلك " .

(253/694)

وذكر صاحب الكشاف في تفسيره : " لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً . فقال عبد الله بن الزبعري : يا محمد . أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال

عليه السلام : " هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم " فقال : خصمتك ورب الكعبة ! ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي ، وتثني عليه خيراً وعلى أمه ؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ؟ وعزير يعبد ؟ والملائكة يعبدون ؟ فإن كل هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ! ففرحوا وضحكوا . وسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ ونزلت هذه الآية " والمعنى : ولما ضرب عبد الله بن الزبعري عيسى ابن مريم مثلاً ، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه ﴿ إذا قومك ﴾ قريش من هذا المثل ﴿ يصدون ﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج ، فرحاً وجذلاً وضحكاً بما سمعوا من إسكات رسول الله – صلى الله عليه وسلم بجدله ، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعبوا بحجة ثم فتحت عليهم . وأما من قرأ ﴿ يصدون ﴾ بالضم فمن الصدود . أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه .

وقيل : من الصديد وهو الجبة . وأنهما لغتان نحو يعكُف ويعكِف ونظائر لهما . ﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو ؟ ﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ؛ وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً ! " .

ولم يذكر صاحب الكشاف من أين استقى روايته هذه . وهي تتفق في عمومها مع رواية ابن إسحاق .

ومن كليهما يتضح الالتواء في الجدل ، والمراء في المناقشة . ويتضح ما يقرره القرآن عن طبيعة القوم وهو يقول : ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ . . ذوو لدد في الخصومة ومهارة . فهم يدركون من أول الأمر ما يقصد إليه القرآن الكريم وما يقصد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فيلوونه عن استقامته ، ويتلمسون شبهة في عموم اللفظ فيدخلون منها بهذه المماحكات الجدلية ، التي يغرم بمثلها كل من عدم الإخلاص ، وفقد الاستقامة ؛ يكابر في الحق ، ويعمد إلى شبهة في لفظ أو عبارة أو منفذ خلفي للحقيقة ! ومن ثم كان نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشديده عن المراء ، الذي لا يقصد به وجه الحق ، إنما يراد به الغلبة من أي طريق .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، عن عبادة بن عبادة ، عن جعفر ، عن القاسم ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن . فغضب غضباً شديداً ، حتى كأنما صب على وجهه الخل . ثم قال : صلى الله عليه وسلم : " لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض . فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل " . ثم تلا صلى الله عليه وسلم ﴿ ما ضربوه

لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ . . "

وهناك احتمال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالوا : آآلهتنا خير أم هو ؟ ﴾ يرشح له سياق الآيات في صدد أسطورتهم عن الملائكة . وهم أنهم عنوا أن عبادتهم للملائكة خير من عبادة النصارى لعيسى ابن مريم . بما أن الملائكة أقرب في طبيعتهم وأقرب نسباً حسب اسطورتهم من الله سبحانه وتعالى عما يصفون . ويكون التعقيب بقوله تعالى : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ . . يعني الرد على ابن الزبعري كما سبق . كما يعني أن ضربهم المثل بعبادة النصارى للمسيح باطل . فعمل النصارى ليس حجة لأنه انحراف عن التوحيد . كانحرافهم هم . فلا مجال للمفاضلة بين انحراف وانحراف . فكله ضلال . وقد أشار إلى هذا الوجه بعض المفسرين أيضاً . وهو قريب .

(255/694)

ومن ثم جاء التعقيب بعد هذا :

﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ . .

فليس إلهاً يعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه .

إنما هو عبد أنعم الله عليه . ولا جريرة له في عبادتهم إياه . فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلاً

لبني إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون به . فنسوا المثل ، وضلوا السبيل !

واستطرد إلى أسطورتهم حول الملائكة ، يبين لهم أن الملائكة خلق من خلق الله مثلهم . ولو شاء الله لجعل الملائكة يخلفونهم في هذه الأرض ، أو لحول بعض الناس إلى ملائكة يخلفونهم في الأرض :

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ . .

فمرد الأمر إلى مشيئة الله في الخلق . وما يشاؤه من الخلق يكون . وليس أحد من خلقه يمت إليه بنسب ، ولا يتصل به سبحانه إلا صلة المخلوق بالخالق ، والعبد بالرب ، والعابد بالمعبود .

ثم يعود إلى تقرير شيء عن عيسى عليه السلام . يذكرهم بأمر الساعة التي يكذبون بها أو يشكون فيها :

﴿ وإنه لعلم الساعة . فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ . .

وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ بمعنى أنه يُعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية ﴿ وإنه لَعَلَم للساعة ﴾ بمعنى أمارة وعلامة . وكلاهما قريب من قريب .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي

بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها " .

(256/694)

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال : صل لنا . فيقول : لا . إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله تعالى لهذه الأمة " .

وهو غيب من الغيب الذي حدثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين .

﴿ فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم ﴾ . .

وكانوا يشكون في الساعة ، فالقرآن يدعوهم إلى اليقين . وكانوا يشردون عن الهدى ، والقرآن يدعوهم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اتباعه فإنه يسير بهم في الطريق المستقيم ، القاصد الواصل الذي لا يضل سالكوه .

ويبين لهم أن انحرافهم وشردوهم أثر من اتباع الشيطان . والرسول أولى أن يتبعوه :

﴿ ولا يصدنكم الشيطان . إنه لكم عدو مبين ﴾ . .

والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم ، ومنذ المعركة الأولى في الجنة . وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدواً يقف له بالمرصاد ، عن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ؛ ثم لا يأخذ حذره ؛ ثم يزيد فيصبح تابعاً لهذا العدو الصريح !

وقد أقام الإسلام الإنسان في هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض ؛ ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر ، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كذلك على قلب بشر .

وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة ؛ التي تجعل من الإنسان إنساناً ، وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطبائع والطباع ! والتي تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان ؛ فينتصر على الشر والخبث والرجس ؛ ويثبت في الأرض قوائم الخير والنصح والطهر .

(257/694)

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى عليه السلام وحقيقة ما جاء به ؛ وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده :

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ . .

فعيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من الخوارق التي أجراها الله على يديه ، أو من الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم . وقال لقومه : ﴿ قد جئتكم بالحكمة ﴾ . ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وأمن الزلل والشطط أمنه للتفريط والتقصير ؛ واطمأن إلى خطواته في الطريق على اتزان وعلى نور . وجاء ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه . وقد اختلفوا في كثير من شريعة موسى عليه السلام وانقسموا فرقاً وشيعاً . ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله . وجهر بكلمة التوحيد خالصة لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض : ﴿ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ﴾ . . ولم يقل : إنه إله ، ولم يقل : إنه ابن الله . ولم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه والربوبية من جانب الله رب الجميع . وقال لهم : إن هذا صراط مستقيم لا التواء فيه ولا اعوجاج ، ولا زلل فيه ولا ضلال . ولكن الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزاباً كما كان الذين من قبله مختلفين أحزاباً . اختلفوا ظالمين لا حجة لهم ولا شبهة : ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ . .

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ؛ وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا

فيه من الذل تحت حكم الرومان ؛ وقد طال انتظارهم له ، فلما جاءهم نكروه وشاقوه ، وهموا أن يصلبوه !

ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعاً ونحلا كثيرة ، أهمها أربع فرق أو طوائف .

طائفة الصدوقيين نسبة إلى " صدوق " وإليه وإلى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان .

(258/694)

وحسب الشريعة لا بد أن يرجع نسبه إلى هارون أخي موسى . فقد كانت ذريته هي القائمة على الهيكل . وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها ، ينكرون " البدع " في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذ الحياة ؛ ولا يعترفون بأن هناك قيامة !

وطائفة الفريسيين ، وكانوا على شقاق مع الصدوقيين . ينكرون عليهم تشددهم في الطقوس والشكليات ، وجحدهم للبعث والحساب . والسمة الغالبة على الفريسيين هي الزهد والتصوف وإن كان في بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والمعرفة . وكان المسيح عليه السلام ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشقة اللسان !

وطائفة السامريين ، وكانوا خليطاً من اليهود والأشوريين ، وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية ، وتنفي ما عداها مما أضيف إلى هذه الكتب في العهود المتأخرة ، مما يعتقد غيرهم بقداسته .

وطائفة الآسين أو الأسينيين . وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية ، وكانوا يعيشون في عزلة عن بقية طوائف اليهود ، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف ، كما يأخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم .

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية ، وبلبلة في الاعتقد والتقاليد بين بني إسرائيل ، الراضخين لضغط الإمبراطورية الرومانية المستذلين المكبوتين ، الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

فلما أن جاء المسيح عليه السلام بالتوحيد الذي أعلنه : ﴿ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ﴾ . وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس ، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس .

ومما يؤثر عنه عليه السلام في هذا قوله عن هؤلاء : " إنهم يحزمون الأوقار ، ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ، ولا يمدون إليها إصبعاً يزحزحونها ، وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم ! يعرضون عصائبهم ، ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم ، والمجالس الأولى في المجامع ، ويبتغون التحيات في الأسواق . وأن يقال لهم : سيدي . سيدي . حيث يذهبون ! " . .

أو يخاطب هؤلاء فيقول : " أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل . . إنكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة ، وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون . إنكم كالقبور المبيضة . خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة " . .

وإن الإنسان وهو يقرأ هذه الكلمات المأثورة عن المسيح عليه السلام وغيرها في بابها ليكاد يتصور رجال الدين المحترفين في زماننا هذا . فهو طابع واحد مكرر . لهؤلاء الرسميين المحترفين من رجال الدين ، الذين يراهم الناس في كل حين !

ثم ذهب المسيح عليه السلام إلى ربه ، فاختلف أتباعه من بعده . اختلفوا شيعاً وأحزاباً . بعضها يؤلهه . وبعضها ينسب لله سبحانه بنوته . وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدها المسيح ابن مريم . وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى عليه السلام . وضاعت دعوته الناس ليلجأوا إلى ربهم ويعبدوه مخلصين له الدين .

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ . .

ثم جاء مشركو العرب يحاجون رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام بما فعلته الأحزاب المختلفة من بعده ، وما أحدثته حوله من أساطير !

وحين يصل السياق إلى الحديث عن الظالمين ، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى عليه السلام مع المحاجين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بفعل هذه الأحزاب ؛ ويصور حالهم يوم القيامة في مشهد رائع طويل ، يحتوي كذلك صفحة المتقين المكرمين في جنات النعيم :

(260/694)

﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ؟ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ .

﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون . ﴾

﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا : يا مالك ليقض علينا ربك . قال : إنكم ماكثون . .

يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها ، لا يشعرون بمقدمها :

﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ !

هذه المفاجأة تحدث حدثاً غريباً ، يقلب كل ما كانوا يألفونه في الحياة الدنيا :

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ . .

وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم . . لقد كانوا في الحياة الدنيا يجتمعون على الشر ، ويملي بعضهم لبعض في الضلال . فاليوم يتلاومون . واليوم يلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر . واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون ، من حيث كانوا أخلاء يتناجون ! ﴿ إلا المتقين ﴾ . . فهؤلاء مودتهم باقية فقد كان اجتماعهم على الهدى ، وتناصحهم على الخير ، وعاقبتهم إلى النجاة . .

وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون ، يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوي الكريم للمتقين :

﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ . .

أي تسرون سروراً يشيع في أعطافكم وقسماتكم فيبدو عليكم الحبور .

ثم نشهد بعين الخيال فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم . وإذا لهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس . وفوق شهوة النفوس التذاذ العيون ، كمالاً وجمالاً في التكريم :

(261/694)

﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ﴾ . .

ومع هذا النعيم . ما هو أكبر منه وأفضل . التكريم بالخطاب من العلي الكريم :

﴿ وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون . . ﴾

فما بال المجرمين الذين تركناهم منذ هنيهة يتلاحون ويختصمون ؟

﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ﴾ .

.

وهو عذاب دائم ، وفي درجة شديدة عصيبة . لا يفتر لحظة ، ولا يبرد هنيهة . ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد . فهم فيه يائسون قانطون :

﴿ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾ . .

كذلك فعلوا بأنفسهم ، وأوردوها هذا المورد الموبق ، ظالمين غير مظلومين :

﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ . .

ثم تتناوح في الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق :

﴿ ونادوا : يا مالك . ليقض علينا ربك ﴾ . .

إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم .

إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين . إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث .

فهم مبلسون يائسون . إنما يصيحون في طلب الهلاك . الهلاك السريع الذي يريح . .

وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا ! . . وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق .

وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب ، وأجساماً

تجاوز الألم بها حد الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة : ﴿ يا مالك . ليقض علينا

ربك ﴾ !

ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام :

﴿ قال : إنكم ماكثون ﴾ !

فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء . . إنكم ماكثون !

وفي ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق ، المعرضين عن

الهدى ، الصائرين إلى هذا المصير ؛ ويعجب من أمرهم على رؤوس الأشهاد ، في أنسب جو للتحذير والتعجيب .

(262/694)

﴿ لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون . أم أبرموا أمراً ؟ فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ . .

وكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه ، لا عدم إدراك أنه الحق ، ولا الشك في صدق الرسول الكريم ؛ فما عهدوا عليه كذباً قط على الناس ، فكيف يكذب على الله ويدعي عليه ما يدعيه ؟

والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه ، لأنه يصادم أهواءهم ، ويقف في طريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ؛ ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته ! فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجتراء على الدعاة !

لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت ، العليم بما يسرون وما يمكرون :

﴿ أم أبرموا أمراً ؟ فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا

لديهم يكتبون ﴾ . .

فإصرارهم على الباطل في وجه الحق يقابله أمر اله الجازم وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته . وتدبيرهم ومكرهم في الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى . والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون ، أمام الخالق العزيز العليم .

ويتركهم بعد هذا التهديد المرهوب ، ويوجه رسوله الكريم ، إلى قول يقوله لهم . ثم يدعهم من بعده لمصيرهم الذي شهدوا صورته منذ قليل :

﴿ قل : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين .

سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش عما يصفون . فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ . .

لقد كانوا يعبدون الملائكة بزعم أنهم بنات الله . ولو كان لله ولد لكان أحق أحد بعبادته ، وبمعرفة ذلك ، نبي الله ورسوله ، فهو منه قريب ، وهو أسرع إلى طاعة الله وعبادته ، وتوقير ولده إن كان له ولد كما يزعمون ! ولكنه لا يعبد إلا الله . فهذا في ذاته دليل على أن ما يزعمونه من بنوة أحد لله لا أصل له ، ولا سند ولا دليل ! تنزه الله وتعالى عن ذلك الزعم الغريب !

﴿ سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش . عما يصفون ﴾ . .

وحين يتأمل الإنسان هذه السماوات والأرض ، ونظامها ، وتناسقها ، ومدى ما يكمن وراء هذا النظام من عظمة وعلو . ومن سيطرة واستعلاء . يشير إلى هذا كله قوله : ﴿ رب العرش ﴾ . . يصغر في نفسه كل وهم وكل زعم من ذلك القبيل . ويدرك بفطرته أن صانع هذا كله لا يستقيم في الفطرة أن يكون له شبه أي شبه بالخلق . الذين يلدون وينسلون ! ومن ثم يبدو مثل ذلك القول لهواً ولعباً ؛ وخوضاً وتقحماً ؛ لا يستحق شيء منه المناقشة والجدل ؛ إنما يستحق الإهمال أو التحذير :

﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ . .

والذي شهدوا صورة منه يوم يكون !

ثم يمضي بعد الإعراض عنهم وإهمالهم في تمجيد الخالق وتوحيده بما يليق بربوبيته للسماوات والأرض والعرش العظيم :

﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله . وهو الحكيم العليم . وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وعنده علم الساعة ، وإليه ترجعون . ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ . .

وهو تقرير الألوهية الواحدة في السماء وفي الأرض ، والتفرد بهذه الصفة لا يشاركه فيها

مشارك . مع الحكمة فيما يفعل . والعلم المطلق بهذا الملك العريض .

ثم تمجيد لله وتعظيم في لفظ ﴿ تبارك ﴾ أي تعاظم الله وتسامى عما يزعمون ويتصورون . وهو ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾ . وهو الذي يعلم وحده علم الساعة وإليه المرجع والمآب .

ويومذاك لا أحد ممن يدعونهم أولاداً أو شركاء يملك أن يشفع لأحد منهم كما كانوا يزعمون أنهم يتخذونهم شفعاء عند الله . فإنه لا شفاعة إلا لمن شهد بالحق ، وآمن به . ومن يشهد بالحق لا يشفع في من جحده وعاداه !

ثم يواجههم بمنطق فطرتهم ، وبما لا يجادلون فيه ولا يشكون ، وهو أن الله خالقهم . فكيف حينئذ يشركون معه أحداً في عبادته ، أو يتوقعون من أحد شفاعة عنده لمن أشرك به :

(264/694)

﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله . فأنى يؤفكون ﴾ ؟

وكيف يصرفون عن الحق الذي تشهد به فطرتهم ويحيدون عن مقتضاه المنطقي المحتوم ؟

وفي ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم لربه ، يشكو إليه كفرهم وعدم إيمانهم .

فيبرزه ويقسم به :

﴿ وقيله . يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ . .

وهو تعبير خاص ذو دلالة وإيحاء بمدى عمق هذا القول ، ومدى الاستماع له ، والعناية به ، والرعاية من الله سبحانه والاحتفال .

ويجيب عليه في رعاية بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصفح والإعراض ، وعدم الاحتفال والمبالاة . والشعور بالطمأنينة . ومواجهة الأمر بالسلام في القلب والسماحة والرضاء . وذلك مع التحذير الملفوف للمعرضين المعاندين ، مما ينتظرهم يوم ينكشف المستور :

﴿ فاصفح عنهم ، وقل سلام . فسوف يعلمون ﴾ . .

لقد كانت قريش تقول : إنها من ذرية إبراهيم وهذا حق وإنها على ملة إبراهيم وهذا ما ليس بحق فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ؛ ومن أجلها هجر أباه وقومه بعد ما تعرض للقتل والتحريق ؛ وعليها قامت شريعته ، وبها أوصى ذريته . فلم يكن للشرك فيها ظل ولا خيط رفيع !

وفي هذا الشوط من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعواهم التي يدعون . . ثم يحكي اعتراضهم على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وقولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ . . ويناقش قولتهم هذه ، وما تنطوي عليه من خطأ في تقدير القيم الأصيلة التي أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفة التي تخايل لهم وتصدهم عن الحق والهدى . . وعقب تقرير الحقيقة في هذه القضية يطلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله بعد أن يطلعهم على علة هذا العمى وهو من وسوسة الشيطان . .

ويلتفت في نهاية هذا الدرس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يسليه ويؤسيه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادي العمي أو مسمع الصم ؛ وسيلقون جزاءهم سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم . ويوجهه إلى الاستمساك بما أوحى إليه فإنه الحق ، الذي جاء به الرسل أجمعون . فكلهم جاءوا بكلمة التوحيد : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾ . .

ثم يعرض من قصة موسى عليه السلام حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم . وكأنما هي نسخة مكررة تحوي ذات الاعتراضات التي يعترضونها ، وتحكي اعتزاز فرعون وملئه بذات القيم التي يعتز بها المشركون . .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ . .

إن دعوة التوحيد التي يتنكرون لها هي دعوة أبيهم إبراهيم . الدعوة التي واجه بها أباه وقومه مخالفاً بها عقيدتهم الباطلة ، غير منساق وراء عبادتهم الموروثة ، ولا مستمسك بها لمجرد أنه وجد أباه وقومه عليها ؛ بل لم يجاملهم في إعلان تبرئه المطلق منه في لفظ واضح صريح ، يحكيه القرآن الكريم بقوله :

﴿ إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ .

.

(266/694)

ويبدو من حديث إبراهيم عليه السلام وتبرئه مما يعبدون إلا الذي فطره أنهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلاً ؛ إنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه ، فتبرأ من كل ما يعبدون ، واستثنى الله ؛ ووصفه بصفته التي تستحق العبادة ابتداء ، وهو أنه فطره وأنشأه ، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنه الموجد . وقرر يقينه بهداية ربه له ، بحكم أنه هو الذي فطره ؛ فقد فطره ليهديه ؛ وهو أعلم كيف يهديه .

قال إبراهيم هذه الكلمة التي تقوم بها الحياة . كلمة التوحيد التي يشهد بها الوجود . قالها :

﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ . .

ولقد كان لإبراهيم عليه السلام أكبر قسط في إقرار هذه الكلمة في الأرض ، وإبلاغها إلى الأجيال من بعده ، عن طريق ذريته وعقبه . ولقد قام بها من بنيه رسل ، كان منهم ثلاثة من أولي العزم : موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل عليهم صلوات الله وسلامه واليوم بعد عشرات القرون يقوم في الأرض أكثر من ألف مليون ، من أتباع الديانات الكبرى يدينون بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم ، الذي جعل هذه الكلمة باقية في عقبه ، يضل منهم عنها من يضل ، ولكنها هي باقية لا تضيع ، ثابتة لا تتزعزع ، واضحة لا يتلبس بها الباطل ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ . . يرجعون إلى الذي فطرهم فيعرفوه ويعبدوه . ويرجعون إلى الحق الواحد فيدركوه ويلزموه .

(267/694)

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم . ولكن هذه الكلمة لم تستقر في الأرض إلا من بعد إبراهيم . عرفتها على لسان نوح وهود وصالح وربما إدريس ، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ، ولها . فلما عرفتها على لسان إبراهيم ظلت متصلة في أعقابه ؛ وقام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون ، حتى كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل ، وأشبه أبنائه به : محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ،

وقائل كلمة التوحيد في صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة ، التي تجعل الحياة كلها تدور حول هذه الكلمة ، وتجعل لها أثراً في كل نشاط للإنسان وكل تصور .

فهذه هي قصة التوحيد منذ أبيهم إبراهيم الذي ينتسبون إليه ؛ وهذه هي كلمة التوحيد التي جعلها إبراهيم باقية في عقبه . هذه هي تأتي إلى هذا الجيل على لسان واحد من عقب إبراهيم فكيف يستقبلها من ينتسبون إلى إبراهيم ، وملة إبراهيم ؟

لقد بعد بهم العهد ؛ ومتعهم الله جيلاً بعد جيل ، حتى طال عليهم العمر ، ونسوا ملة إبراهيم ، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة منكرة ، واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال وقاسوا الرسالة السماوية بالمقاييس الأرضية ، فاختل في أيديهم كل ميزان :

﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين .

ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ؛ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ . .

يُضْرب السياق عن حديث إبراهيم ، ويلتفت إلى القوم الحاضرين :

﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ . .

وكأنه بهذا الإضراب يقول : لندع حديث إبراهيم ، فما لهم به صلة ولا مناسبة ؛ ولننظر في شأن هؤلاء وهو لا يتصل بشأن إبراهيم . . إن هؤلاء وآباءهم من قبلهم ، قد هيأت لهم المتاع ومددت لهم في الأجل ، حتى جاءهم الحق في هذا القرآن ، وجاءهم رسول مبين ، يعرض عليهم هذا الحق في وضوح وتبيين :

﴿ ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به كافرون ﴾ . .

ولا يختلط الحق بالسحر . فهو واضح بين ، وإنما هي دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها . فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ؛ ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم ، فيقولون : إنه سحر ، ويعلنون كفرهم به على سبيل التوكيد ، يقولون : ﴿ وإنا به كافرون ﴾ ليلقوا في روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ؛ فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد . شأن الملأ من كل قوم ، في التغرير بالجماهير ، خيفة أن يفلتوا من نفوذهم ، ويهتدوا إلى كلمة التوحيد التي يسقط معها كل كبير ، ولا يعبد ويتقى إلا الله العلي الكبير !

ثم يحكي القرآن تخليطهم في القيم والموازين ؛ وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد صلى

الله عليه وسلم ليحمل إليهم الحق والنور :

﴿ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ! . .

يقصدون بالقريتين مكة والطائف . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذؤابة قريش ، ثم من ذؤابة بني هاشم . وهم في العلية من العرب . كما كان شخصه صلى الله عليه وسلم معروفاً بسمو الخلق في بيئته قبل بعثته . ولكنه لم يكن زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، في بيئته تعتز بمثل هذه القيم القبلية . وهذا ما قصد إليه المعترضون بقولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل . ولعله سبحانه لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها ، ولا قوة من خارج حقيقتها ؛ فاختار رجلاً ميزته الكبرى . . الخلق . . وهو من طبيعة هذه الدعوة . . وسمته البارزة . . التجرد . . وهو من حقيقة هذه الدعوة .

. ولم يختره زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، ولا صاحب جاه ، ولا صاحب ثراء . كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء . ولكي لا تزدان

هذه الدعوة بجلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها في شيء . ولكي لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة . ولكي لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف .

ولكن القوم الذين غلب عليهم المتاع ، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء ، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض .

﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ !

فرد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله ، التي يختار لها من عباده من يشاء ؛ وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء ؛ مبيناً لهم عن حقيقة القيم التي يعتزون بها ، ووزنها الصحيح في ميزان الله :

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ . .

أهم يقسمون رحمة ربك ؟ يا عجباً ! وما لهم هم ورحمة ربك ؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ، ولا يحققون لأنفسهم رزقاً حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه ؛ وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة .

﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ . .

ورزق المعاش في الحياة الدنيا يتبع مواهب الأفراد ، وظروف الحياة ، وعلاقات المجتمع .

وتختلف نسب التوزيع بين الأفراد والجماعات وفق تلك العوامل كلها . تختلف من بيئة لبيئة ، ومن عصر لعصر ، ومن مجتمع لمجتمع ، وفق نظمه وارتباطاته وظروفه العامة كلها . ولكن السمة الباقية فيه ، والتي لم تتخلف أبداً حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة للإنتاج وللتوزيع أنه متفاوت بين الأفراد .

وتختلف أسباب التفاوت ما تختلف بين أنواع المجتمعات وألوان النظم . ولكن سمة التفاوت في مقادير الرزق لا تتخلف أبداً . ولم يقع يوماً حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة أن تساوى جميع الأفراد في هذا الرزق أبداً : ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعضه درجات ﴾ . .

والحكمة في هذا التفاوت الملحوظ في جميع العصور ، وجميع البيئات ، وجميع المجتمعات هي :

﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ . .

ليسخر بعضهم بعضاً . . ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتما .

وليس التسخير هو الاستعلاء . . استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد . . كلا ! إن هذا معنى قريب ساذج ، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهي الخالد . كلا ! إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور في أوضاع الجماعة البشرية ؛ وأبعد مدى من ظرف يذهب وظرف يجيء . . إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض . ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخر بعضهم لبعض في كل وضع وفي كل ظرف .

المقدر عليه في الرزق مسخر للمبسوط له في الرزق . والعكس كذلك صحيح . فهذا مسخر ليجمع المال ، فيأكل منه ويرتزق ذاك . وكلاهما مسخر للآخر سواء بسواء .

والتفاوت في الرزق هو الذي يسخر هذا لذاك ، ويسخر ذاك لهذا في دورة الحياة . . العامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل . والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل . وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء . . وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات ، والتفاوت في الأعمال والأرزاق . .

(271/694)

وأحسب أن كثيرين من دعاة المذاهب الموجهة يتخذون من هذه الآية موضع هجوم على الإسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية . وأحسب أن بعض المسلمين يقفون يجمجمون

أمام هذا النص ، كأنما يدفعون عن الإسلام تهمة تقرير الفوارق في الرزق بين الناس ، وتهمة تقرير أن الناس يتفاوتون في الرزق ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا !

وأحسب أنه قد آن لأهل الإسلام أن يقفوا بإسلامهم مواجهة وصراحة موقف الاستعلاء المطلق ، لا موقف الدفاع أمام اتهام تافه ! إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة المركوزة في فطرة هذا الوجود ؛ الثابتة ثبات السماوات والأرض ونواميسها التي لا تختل ولا تتزعزع .

وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ؛ والتفاوت في مدى اتقان هذا العمل . وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض . ولو كان جميع الناس نسخاً مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة . ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد لها مقابلاً من الكفايات ، ولا تجد من يقوم بها والذي خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو ، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها . وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت الرزق . . هذه هي القاعدة . . أما نسبة التفاوت في الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، ومن نظام إلى نظام . ولكنها لا تنفي القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية لنمو الحياة . ومن ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعة المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس ، ولا بين أجر الجندي وأجر القائد . على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم . وهزموا أمام الناموس الإلهي الذي تقرره هذه

الآية من كلام الله . وهي تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة .

ذلك شأن الرزق والمعاش في هذه الحياة الدنيا . ووراء ذلك رحمة الله :

﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ . .

(272/694)

والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أنهم لها أهل . ولا علاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا ؛ ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا . فهذه القيم عند الله زهيدة زهيدة . ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار ، وينالها الصالحون والطالحون . بينما يختص برحمته المختارين .

وإن قيم هذه الأرض لمن الزهادة والرخص بحيث لو شاء الله لأغدقها إغداقاً على الكافرين به .

ذلك إلا أن تكون فتنة للناس ، تصدهم عن الإيمان بالله :

﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفاً . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا . والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ . .

فهكذا لولا أن يفتتن الناس . والله أعلم بضعفهم وتأثير عرض الدنيا في قلوبهم لجعل لمن يكفر

بالرحمن صاحب الرحمة الكبيرة العميقة بيوتاً سقفها من فضة ، وسلالمها من ذهب . بيوتاً ذات أبواب كثيرة . قصورا . فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة . . رمزاً لهوان هذه الفضة والذهب والزخرف والمتاع ؛ بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن !

﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ . .

متاع زائل ، لا يتجاوز حدود هذه الدنيا . ومتاع زهيد يليق بالحياة الدنيا .

﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ . .

وهؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم ؛ فهو يدخر لهم ما هو أكرم وأبقى ؛ ويؤثرهم بما هو أقوم وأغلى . ويميزهم على من يكفر بالرحمن ، ممن يبذل لهم من ذلك المتاع الرخيص ما يبذله للحيوان !

(273/694)

وإن عرض الحياة الدنيا الذي ضرب الله له بعض الأمثال من المال والزينة والمتاع ليفتن الكثيرين . وأشد الفتنة حين يرونه في أيدي الفجار ، ويرون أيادي الأبرار منه خالية ؛ أو يرون هؤلاء في عسر أو مشقة أو ابتلاء ، وأولئك في قوة وثروة وسطوة واستعلاء . والله يعلم وقع هذه الفتنة في نفوس الناس . ولكنه يكشف لهم عن زهادة هذه القيم وهوانها

عليه ؛ ويكشف لهم كذلك عن نفاسة ما يدخره للأبرار الأتقياء عنده . والقلب المؤمن يطمئن لاختيار الله للأبرار وللفجار .

وأولئك الذين كانوا يعترضون على اختيار الله لرجل لم يؤت شيئاً من عرض هذه الحياة الدنيا ؛ ويقيسون الرجال بما يملكون من رياسة ، أو بما يملكون من مال . يرون هذه الآيات هوان هذه الأعراض وزهادتها عند الله . وأنها مبذولة لشر خلق الله وأبغضهم عند الله . فهي لا تدل على قربى منه ولا تنبئ عن رضى ، ولا تشي باختيار !

وهكذا يضع القرآن الأمور في نصابها ؛ ويكشف عن سنن الله في توزيع الأرزاق في الدنيا والآخرة ؛ ويقرر حقيقة القيم كما هي عند الله ثابتة . وذلك في صدد الرد على المعترضين على رسالة محمد ؛ واختياره . واطراح العظماء المتسلطين !

وهكذا يرسي القواعد الأساسية والحقائق الكلية التي لا تضطرب ولا تتغير ؛ ولا تؤثر فيها تطورات الحياة ، واختلاف النظم ، وتعدد المذاهب ، وتنوع البيئات . فهناك سنن للحياة ثابتة ، تتحرك الحياة في مجالها ؛ ولكنها لا تخرج عن إطارها . والذين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبر الحقائق الثابتة ، لا يفطنون لهذا القانون الإلهي ، الذي يجمع بين الثبات والتغير ، في صلب الحياة وفي أطوار الحياة ؛ ويحسبون أن التطور والتغير ، يتناول حقائق الأشياء كما يتناول أشكالها .

ويزعمون أن التطور المستمر يمتنع معه أن تكون هناك قواعد ثابتة لأمر من الأمور ؛ وينكرون أن يكون هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر . فهذا هو القانون الوحيد الذي يؤمنون بثباته ! فأما نحن أصحاب العقيدة الإسلامية فنرى في واقع الحياة مصداق ما يقرره الله من وجود الثبات والتغير متلازمين في كل زاوية من زوايا الكون ، وفي كل جانب من جوانب الحياة . وأقرب ما بين أيدينا من هذا التلازم ثبات التفاوت في الرزق بين الناس ، وتغير نسب التفاوت وأسبابه في النظم والمجتمعات . . وهذا التلازم مطرد في غير هذا المثال .

ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله ؛ وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله ، ولا يشير إلى فلاح ؛ وأن الآخرة عند ربك للمتقين ، استطراد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض ، وهم عمي عن ذكر الله ، منصرفون عن الطاعات التي تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين :

﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ . .

والعشى كلال البصر عن الرؤية ، وغالباً ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذي لا تملك

العين أن تحدق فيه ؛ أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله . وقد يكون ذلك لمرض خاص . والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته في الضمير .

﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ . .

(275/694)

وقد قضت مشيئة الله في خلقة الإنسان ذلك . واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء .

وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة ، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ، كما قضاه الله في علمه .

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون :

﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ . .

وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين . أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ؛ ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ؛ إنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم ! حتى يصطدم

بالمصير الأليم .

والتعبير بالفعل المضارع : ﴿ ليصدونهم ﴾ . . ﴿ ويحسبون ﴾ . . يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار ؛ يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون :

﴿ حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين ﴾ !

وهكذا ننتقل في ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة .

ويطوى شريط الحياة السادرة ، ويصل العمي (الذين يعشون عن ذكر الرحمن) إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار . هنا يفيقون كما يفيق المخمور ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ؛ وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذي زين له الضلال ، وأوهمه أنه الهدى ! وقاده في طريق الهلاك ، وهو يلوح له بالسلامة ! ينظر إليه في حنق يقول : ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ ! يا ليته لم يكن بيننا لقاء . على هذا البعد السحيق !

ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله : ﴿ فبئس القرين ﴾ !

ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع :

﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ !

فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون !

عندئذ ينصرف عن هؤلاء ، في مشهدهم البائس الكئيب ؛ ويدعهم يتلاومون ويتشاتمون . ويتجه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسليه عن هذا المصير البائس الذي انتهى إليه فريق من البشر ؛ ويعزيه عن إعراضهم عنه وكفرهم بما جاء به ؛ ويثبته على الحق الذي اوحى إليه ؛ وهو الحق الثابت المطرد من قديم ، في رسالة كل رسول :

﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ؟ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون . فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون . واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾ . .

وهذا المعنى يتكرر في القرآن تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبياناً لطبيعة الهدى والضلال ، ورجعهما إلى مشيئة الله وتقديره وحده ؛ وإخراجهما من نطاق وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ووضع حدود فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة في أعلى درجاتها عند مرتقى النبوة ، ومجال القدرة الإلهية الطليقة ؛ وتثبيت معنى التوحيد في صورة من أدق صوره ، وفي موضع من ألطف مواضعه :

﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ﴾ . .

وهم ليسوا صماً ولا عمياً ، ولكنهم كالصم والعمي في الضلال ، وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى ، والإشارة إلى دلائله . ووظيفة الرسول أن يُسمع من يَسمع ، وأن يهدي من يبصر . فإذا هم عطلوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم . فما للرسول إلى هداهم من سبيل ؛ ولا عليه من ضلالهم ، فقد قام بواجبه الذي يطيق .

والله يتولى الأمر بعد أداء الرسول لواجبه المحدود :

﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ . .

(277/694)

والأمر لا يخرج عن هذين الحالين . فإذا ذهب الله بنبيه فسيتولى هو الانتقام من مكذبيه . وإذا قدر له الحياة حتى يتحقق ما أنذرهم به ، فالله قادر على تحقيق النذير ، وهم ليسوا له بمعجزين .

ومرد الأمر إلى مشيئة الله وقدرته في الحالين ، وهو صاحب الدعوة . وما الرسول إلا رسول .

﴿ فاستمسك بالذي أوحي إليك . إنك على صراط مستقيم ﴾ . .

واثبت على ما أنت فيه ، وسر في طريقك لا تحفل ما كان منهم وما يكون . سر في طريقك مطمئن القلب . ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ . . لا يلتوي بك ولا ينحرف ولا يحيد .

وهذه العقيدة متصلة بحقيقة الكون الكبرى ، متناسقة مع الناموس الكلي الذي يقوم عليه هذا الوجود . فهي مستقيمة معه لا تنفرج عنه ولا تنفصل . وهي مؤدية بصاحبها إلى خالق هذا الوجود ، على استقامة تؤمن معها الرحلة في ذلك الطريق !

والله سبحانه يثبت رسوله صلى الله عليه وسلم بتوكيد هذه الحقيقة . وفيها تثبيت كذلك للدعاة من بعده ، مهما لاقوا من عنت الشاردين عن الطريق !

﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ . .

ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين :

أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير .

أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك . وهذا ما حدث فعلاً . .

فأما الرسول صلى الله عليه وسلم فإن مئات الملايين من الشفاه تصلي وتسلم عليه ، وتذكره ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ قرابة ألف وأربع مئة عام .

ومئات الملايين من القلوب تخفق بذكره وحبه منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم ، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة . وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية . وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به . فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض ، واستصغرتهم الدنيا ؛ وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك ، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين !

وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه ، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة ، إذا هي تخلت عن الأمانة : ﴿ وسوف تسألون ﴾ . .

وهذا المدلول الأخير أوسع وأشمل . وأنا إليه أميل .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾ . .

والتوحيد هو أساس دين الله الواحد منذ أقدم رسول . فعلام يرتكن هؤلاء الذين يجعلون من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟

والقرآن يقرر هذه الحقيقة هنا في هذه الصورة الفريدة . . صورة الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل الرسل قبله عن هذه القضية : ﴿ أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾

وحول هذا السؤال ظلال الجواب القاطع من كل رسول . وهي صورة طريفة حقاً . وهو أسلوب موح شديد التأثير في القلوب .

وهناك أبعاد الزمان والمكان بين الرسول صلى الله عليه وسلم والرسل قبله . وهناك أبعاد الموت والحياة وهي أكبر من أبعاد الزمان والمكان .

. ولكن هذه الأبعاد كلها تتلاشى هنا أمام الحقيقة الثابتة المطردة . حقيقة وحدة الرسالة المرتكزة كلها على التوحيد . وهي كفيلة أن تبرز وتثبت حيث يتلاشى الزمان والمكان والموت والحياة وسائر الظواهر المتغيرة ؛ ويتلاقى عليها الأحياء والأموات على مدار الزمان متفاهمين متعارفين . . وهذه هي ظلال التعبير القرآني اللطيف العجيب . .

(279/694)

على أنه بالقياس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإخوانه من الرسل مع ربهم لا يبقى شيء بعيد وآخر قريب . فهناك دائماً تلك اللحظة اللدنية التي تزال فيها الحواجز وترتفع فيها السدود ، وتتجلى الحقيقة الكلية عارية من كل ستار . حقيقة النفس وحقيقة الوجود كله وأهل هذا الوجود . تتجلى وحدة متصلة ، وقد سقط عنها حاجز الزمان وحاجز المكان وحاجز الشكل والصورة . وهنا يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ويجاب ، بلا حاجز

ولا حجاب . كما وقع في ليلة الإسراء والمعراج .

وإنه ليحسن في مثل هذه المواطن ألا نعتد كثيراً بالمألوف في حياتنا . فهذا المألوف ليس هو القانون الكلي . ونحن لا ندرك من هذا الوجود إلا بعض ظواهره وبعض آثاره ، حين نهتدي إلى طرف من قانونه . وهناك حجب من تكويننا ذاته ومن حواسنا وما نرتبه عليها من مألوفات . فأما اللحظة التي تتجرد فيها النفس من هذه العوائق والحجب فيكون لقاء الحقيقة المجردة للإنسان بالحقيقة المجردة لأي شيء آخر أمراً أيسر من لمس الأجسام للأجسام !

وفي سياق تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يعترض به المعترضون من كبراء قومه على اختياره ؛ واعتزازهم بالقيم الباطلة لعرض هذه الحياة الدنيا . تجيء حلقة من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه ، يذكر فيها اعتزاز فرعون بمثل ما يعتز به من يقولون : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ! وتباهيه بما له من ملك ومن سلطان ، وتساؤله في فخر وخيلاء : ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون ؟ ﴾ . . وانتفاخه على موسى عبد الله ورسوله وهو مجرد من الجاه الأرضي والعرض الدنيوي : ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ؟ ﴾ . . واقتراحه الذي يشبه ما يقترحون : ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه

الملائكة مقترنين ﴾ . .

وكأنما هي نسخة تكرر ، أو اسطوانة تعاد !

(280/694)

ثم يبين كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة ؛ على الرغم من الخوارق التي عرضها عليهم موسى عليه السلام وعلى الرغم مما أصابهم من ابتلاءات ، واستغاثتهم بموسى ليدعو ربه فيكشف عنهم البلاء .

ثم كيف كانت العاقبة بعد ما ألزمهم الله الحجة بالتبليغ : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ . .

وها هم أولاء الآخرون لا يعتبرون ولا يتذكرون !

ومن خلال هذه الحلقة تتجلى وحدة الرسالة ، ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق .

كما تتبدى طبيعة الكبراء والطغاة في استقبال دعوة الحق ، واعتزازهم بالتافه الزهيد من عرض هذه الأرض ؛ وطبيعة الجماهير التي يستخفها الكبراء والطغاة على مدار القرون !

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال : إني رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ . .

هنا يعرض حلقة اللقاء الأول بين موسى وفرعون ، في إشارة مقتضبة تمهيداً لاستعراض النقطة الرئيسية المقصودة من القصة في هذا الموضع وهي تشابه اعتراضات فرعون وقيمه مع اعتراضات مشركي العرب وقيمهم ويلخص حقيقة رسالة موسى : ﴿ فقال : إني رسول رب العالمين ﴾ . . وهي ذات الحقيقة التي جاء بها كل رسول : أنه ﴿ رسول ﴾ وأن الذي أرسله هو ﴿ رب العالمين ﴾ . .

ويشير كذلك إشارة سريعة إلى الآيات التي عرضها موسى ، وينهي هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها : ﴿ إذا هم منها يضحكون ﴾ . . شأن الجهال المتعالين !

يلي ذلك إشارة إلى ما أخذ الله به فرعون وملأه من الابتلاءات المفصلة في سور أخرى : ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا : يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ . .

(281/694)

وهكذا لم تكن الآيات التي ظهرت على يدي موسى عليه السلام مدعاة إيمان ، وهي تأخذهم متتابعة . كل آية أكبر من أختها . مما يصدق قول الله تعالى في مواضع كثيرة ،

وفحواه أن الخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهل للهدى ؛ وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدي العمي !

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم : ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ . . فهم أمام البلاء ، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء . ومع ذلك يقولون له : ﴿ يا أيها الساحر ﴾ ويقولون كذلك : ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ وهو يقول لهم : إنه رسول ﴿ رب العالمين ﴾ لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص ! ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم ، ولا خالطتها بشاشة الإيمان ، على الرغم من قولهم : ﴿ إننا لمهتدون ﴾ :

﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ . .

ولكن الجماهير قد تؤخذ بالخوارق المعجزة ، وقد يجد الحق سبيلاً إلى قلوبها المخدوعة .

وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه ، وفي زخرفه وزينته ، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي ، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان ، المخدوعة بالأبهة والبريق :

﴿ ونادى فرعون في قومه : قال : يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ، ولا يكاد يبين ؟ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟ ﴾ .

إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون ، أمر قريب مشهود للجماهير ، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه .

فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما ومصر لا تساوي هباءة فيه فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه ، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد !

والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ؛ ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد !

(282/694)

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب !

﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ؟ ﴾ .

وهو يعني بالمهانة أن موسى ليس ملكاً ولا أميراً ولا صاحب سطوة ومال مشهود . أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستعبد المهين . شعب إسرائيل . أما قوله : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ فهو استغلال لما كان معروفاً عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان . وإلا فقد استجاب الله سؤاله حين دعاه : ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ وحلت عقدة لسانه فعلاً ، وعاد يبين .

وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون الذي له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته ، خيراً من موسى عليه السلام ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم !

﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ؟ ﴾ . .

هكذا . من ذلك العرض التافه الرخيص ! أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول ! أسورة من ذهب تساوي أكثر من الآيات المعجزة التي أيد الله بها رسوله الكريم ! أم لعله كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تتويجه بالملك ، إذ كانت هذه عادتهم ، فيكون الرسول ذا ملك وذا سلطان ؟

﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ . .

وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر ، تؤخذ به الجماهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ! وهو اعتراض مكرور ، ووجه به أكثر من رسول !

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ . .

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه ؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعودوا يبحثون عنها ؛ ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة . ومن ثم

يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ويلين قيادهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين !

(283/694)

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسكون بحبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان . فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح . ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول :

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ . .

ثم انتهت مرحلة الابتداء والإنذار والتبصير ؛ وعلم الله أن القوم لا يؤمنون ؛ وعمت الفتنة فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهي في خيلاء ، وعشت عن الآيات البينات والنور ؛ فحقت كلمة الله وتحقق النذير :

﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ .

(284/694)

يتحدث الله سبحانه عن نفسه في مقام الانتقام والتدمير ; إظهاراً لغضبه ولجبروته في هذا المقام . فيقول: (فلما آسفونا) . . أي أغضبونا أشد الغضب . . (انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) . . يعني فرعون وملأه وجنده . وهم الذين غرقوا على إثر موسى وقومه وجعلهم الله سلفاً يتبعه كل خلف ظالم (ومثلاً للآخرين) الذين يجيئون بعدهم , ويعرفون قصتهم , فيعتبرون . .

وهكذا تلتقي هذه الحلقة من قصة موسى – عليه السلام – بالحلقة المشابهة لها من قصة العرب في مواجهة رسولهم الكريم . فتثبت الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين معه ; وتحذر المشركين المعترضين , وتنذرهم مصيراً كمصير الأولين . .

وتلتقي الحقيقة في عرض القصة , بالتناسق بين الحلقة المعروضة والحال القائمة والغاية من إيرادها في هذه الحال القائمة . وتصبح القصة بهذا أداة للتربية في المنهج الإلهي الحكيم .

ثم ينتقل السياق من هذه الحلقة في قصة موسى , إلى حلقة من قصة عيسى , بمناسبة جدل القوم حول عبادتهم للملائكة وعبادة بعض أهل الكتاب للمسيح . . وذلك في الدرس الأخير

الوحدة الثالثة: 57 – 89 الموضوع: عيسى هو عبد الله ورسوله وعذاب المشركين وثواب الموحدين وألوهية الله وحده مقدمة الوحدة

في هذا الدرس الأخير من السورة يستطرد السياق إلى حكاية أساطيرهم حول عبادة الملائكة ; ويحكي حادثاً من حوادث الجدل الذي كانوا يزاولونه , وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية , لا بقصد الوصول إلى الحق , ولكن مراء ومحالاً !

(285/694)

فلما قيل لهم: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم . وكان القصد هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة ثم عبدوها بذاتها . وقيل لهم: إن كل عابد وما يعبد من دون الله في النار . لما قيل لهم هذا ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم – وقد عبده المنحرفون من قومه – أهو في النار ? وكان هذا مجرد جدل ومجرد مراء . ثم قالوا: إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر فنحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ! وكان هذا باطلاً يقوم على باطل .

وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفاً من قصة عيسى ابن مريم , يكشف عن حقيقته وحقيقة دعوته , واختلاف قومه من قبله ومن بعده . .

ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعاً بمجيء الساعة بغتة . وهنا يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة , يتضمن صفحة من النعيم للمتقين , وصفحة من العذاب الأليم

للمجرمين .

وينفي اساطيرهم عن الملائكة , وينزه الله – سبحانه – عما يصفون , ويعرفه لعباده ببعض صفاته ; وملكيته المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة وإليه يرجعون .

ويختم السورة بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الصفح عنهم والإعراض ويدعهم ليعلموا ما سيعلمون ! وهو تهديد ملفوف يليق بالمجادلين المرائين بعد هذا الإيضاح والتبيين .

الدرس الأول: 57 – 65 عيسى هو عبد الله ورسوله ونقاش النصارى والمشركين حوله

(ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا: أآلهتنا خير أم هو ? ما ضربوه لك إلا جدلاً . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون , هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) . .

ولما جاء عيسى بالبينات قال: قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه , فاتقوا الله وأطيعون . ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف

الأحزاب من بينهم , فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم . .

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57)

(287/694)

ذكر ابن إسحاق في السيرة قال: جلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما بلغني مع الوليد بن المغيرة في المسجد , فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم , وفي المجلس غير واحد من رجال قريش , فتكلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فعرض له النضر بن الحارث , فكلمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى أفحمه . ثم تلا عليه وعليهم(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) . . الآيات . . ثم قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأقبل عبد الله بن الزبعري التميمي حتى جلس . فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ! وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته . سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ? فنحن نعبد الملائكة , واليهود تعبد عزيراً , والنصارى تعبد المسيح ابن مريم . فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري ورأوا أنه قد احتج وخاصم . فذكر ذلك

لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: "كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده . فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته " فأنزل الله عز وجل: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) . . أي عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل , فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله , ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام , وأنه يعبد من دون الله , وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته: (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) . . أي يصدون عن أمرك بذلك . . .

(288/694)

وذكر صاحب الكشاف في تفسيره: "لما قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على قريش: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً . فقال عبد الله بن الزبعري: يا محمد . أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام: " هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم " فقال: خصمتك ورب الكعبة ! ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي , وتثني عليه خيراً وعلى أمه ؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ؟ وعزير يعبد ؟ والملائكة يعبدون ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا

معهم ! ففرحوا وضحكوا . وسكت النبي (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى)ونزلت هذه الآية . والمعنى:ولما ضرب عبد الله بن الزبعري عيسى ابن مريم مثلاً , وجادل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعبادة النصارى إياه "إذا قومك" – قريش – من هذا المثل "يصدون" ترتفع لهم جلبة وضجيج , فرحاً وجذلاً وضحكاً بما سمعوا من إسكات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بجدله , كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعبوا بحجة ثم فتحت عليهم . وأما من قرأ "يصدون" بالضم فمن الصدود . أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه . وقيل:من الصديد وهو الجبة . وأنهما لغتان نحو يعكُف ويعكِف ونظائر لهما . (وقالوا أآلهتنا خير أم هو ؟)يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى "وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً ! " .

ولم يذكر صاحب الكشاف من أين استقى روايته هذه . وهي تتفق في عمومها مع رواية ابن إسحاق .

ومن كليهما يتضح الالتواء في الجدل , والمراء في المناقشة . ويتضح ما يقرره القرآن عن طبيعة القوم وهو يقول: (بل هم قوم خصمون) . . ذوو لدد في الخصومة ومهارة . فهم يدركون من أول الأمر ما يقصد إليه القرآن الكريم وما يقصد إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيلوونه عن استقامته , ويتلمسون شبهة في عموم اللفظ فيدخلون منها بهذه المماحكات الجدلية , التي يغرم بمثلها كل من عدم الإخلاص , وفقد الاستقامة

وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60)

يكابر في الحق , ويعمد إلى شبهة في لفظ أو عبارة أو منفذ خلفي للحقيقة ! ومن ثم كان نهي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتشديده عن المراء , الذي لا يقصد به وجه الحق , إنما يراد به الغلبة من أي طريق .

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب , حدثنا أحمد بن عبد الرحمن , عن عبادة بن عبادة , عن جعفر , عن القاسم , عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن . فغضب غضباً شديداً , حتى كأنما صب على وجهه الخل . ثم قال (صلى الله عليه وسلم): " لا تضربوا كتاب الله

بعضه ببعض . فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل . ثم تلا (صلى الله عليه وسلم) (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون) " . .

(290/694)

وهناك احتمال في تفسير قوله تعالى: (وقالوا: أآلهتنا خير أم هو ؟) يرشح له سياق الآيات في صدد أسطورتهم على الملائكة . وهو أنهم عنوا أن عبادتهم للملائكة خير من عبادة النصارى لعيسى ابن مريم . بما أن الملائكة أقرب في طبيعتهم وأقرب نسباً – حسب اسطورتهم – من الله سبحانه وتعالى عما يصفون . ويكون التعقيب بقوله تعالى: (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون) . . يعني الرد على ابن الزبعري كما سبق . كما يعني أن ضربهم المثل بعبادة النصارى للمسيح باطل . فعمل النصارى ليس حجة لأنه انحراف عن التوحيد . كانحرافهم هم . فلا مجال للمفاضلة بين انحراف وانحراف . فكله ضلال . وقد أشار إلى هذا الوجه بعض المفسرين أيضاً . وهو قريب .

ومن ثم جاء التعقيب بعد هذا:

(إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل) . .

فليس إلهاً يعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه . إنما هو عبد أنعم الله عليه . ولا

جريرة له في عبادتهم إياه . فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلاً لبني إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون به . فنسوا المثل , وضلوا السبيل !

واستطرد إلى أسطورتهم حول الملائكة , يبين لهم أن الملائكة خلق من خلق الله مثلهم . ولو شاء الله لجعل الملائكة يخلفونهم في هذه الأرض , أو لحول بعض الناس إلى ملائكة يخلفونهم في الأرض:

(ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون) . .

فمرد الأمر إلى مشيئة الله في الخلق . وما يشاؤه من الخلق يكون . وليس أحد من خلقه يمت إليه بنسب , ولا يتصل به – سبحانه – إلا صلة المخلوق بالخالق , والعبد بالرب , والعابد بالمعبود .

ثم يعود إلى تقرير شيء عن عيسى عليه السلام . يذكرهم بأمر الساعة التي يكذبون بها أو يشكون فيها :

(وإنه لعلم للساعة . فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) . .

وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى – عليه السلام – إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية: (وإنه لعلم للساعة) بمعنى أنه يُعلم بقرب مجيئها , والقراءة الثانية (وأنه لَعَلَم للساعة) بمعنى أمارة وعلامة . وكلاهما قريب من قريب .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً , فيكسر الصليب , ويقتل الخنزير , ويضع الجزية , ويفيض المال حتى لا يقبله أحد , حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها " .

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (62) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (64)

وعن جابر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . فينزل عيسى ابن مريم , فيقول أميرهم: تعال: صل لنا . فيقول: لا . إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله تعالى لهذه الأمة " .

وهو غيب من الغيب الذي حدثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم , ولا قول

فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين .

(فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم) . .

وكانوا يشكون في الساعة , فالقرآن يدعوهم إلى اليقين . وكانوا يشردون عن الهدى , والقرآن يدعوهم على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى اتباعه فإنه يسير بهم في الطريق المستقيم , القاصد الواصل الذي لا يضل سالكوه .

(292/694)

ويبين لهم أن انحرافهم وشرودهم أثر من اتباع الشيطان . والرسول أولى أن يتبعوه:

(ولا يصدنكم الشيطان . إنه لكم عدو مبين) . .

والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم , ومنذ المعركة الأولى في الجنة . وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدواً يقف له بالمرصاد , عن عمد وقصد , وسابق إنذار وإصرار ثم لا يأخذ حذره ثم يزيد فيصبح تابعاً لهذا العدو الصريح !

وقد أقام الإسلام الإنسان في هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض ; ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر , ورصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كذلك على قلب بشر . وبذلك حول طاقة القتال فيه

إلى هذه المعركة الدائبة ; التي تجعل من الإنسان إنساناً , وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطبائع والطباع ! والتي تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان ; فينتصر على الشر والخبث والرجس ; ويثبت في الأرض قوائم الخير والنصح والطهر .

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى – عليه السلام – وحقيقة ما جاء به ; وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده:

(ولما جاء عيسى بالبينات قال:قد جئتكم بالحكمة , ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه , فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه , هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم , فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) . .

(293/694)

فعيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من الخوارق التي أجراها الله على يديه , أو من الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم . وقال لقومه: (قد جئتكم بالحكمة) . ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً , وأمن الزلل والشطط أمنه للتفريط والتقصير ; واطمأن إلى خطواته في الطريق على اتزان وعلى نور . وجاء ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه .

وقد اختلفوا في كثير من شريعة موسى – عليه السلام – وانقسموا فرقاً وشيعاً . ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله . وجهر بكلمة التوحيد خالصة لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض: (إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه) . . ولم يقل: إنه إله , ولم يقل: إنه ابن الله . ولم يشر من قريب أو بعيد

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70)

إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه والربوبية من جانب الله رب الجميع . وقال لهم: إن هذا صراط مستقيم لا التواء فيه ولا اعوجاج , ولا زلل فيه ولا ضلال . ولكن الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزاباً كما كان الذين من قبله مختلفين أحزاباً . اختلفوا ظالمين لا حجة لهم ولا شبهة: (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) . .

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ; وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الذل تحت حكم الرومان ; وقد طال انتظارهم له , فلما جاءهم نكروه وشاقوه , وهموا أن يصلبوه !

ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعاً ونحلا كثيرة , أهمها أربع فرق أو طوائف .

طائفة الصدوقيين نسبة إلى "صدوق" وإليه وإلى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان . وحسب الشريعة لا بد أن يرجع نسبه إلى هارون أخي موسى . فقد كانت ذريته هي القائمة على الهيكل . وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها , ينكرون "البدع" في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذ الحياة ; ولا يعترفون بان هناك قيامة !

وطائفة الفريسيين , وكانوا على شقاق مع الصدوقيين . ينكرون عليهم تشددهم في الطقوس والشكليات , وجحدهم للبعث والحساب . والسمة الغالبة على الفريسيين هي الزهد والتصوف وإن كان في بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والمعرفة . وكان المسيح – عليه السلام – ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشقة اللسان !

وطائفة السامريين , وكانوا خليطاً من اليهود والأشوريين , وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية , وتنفي ما عداها مما أضيف إلى هذه الكتب في العهود المتأخرة , مما يعتقد غيرهم بقداسته .

وطائفة الآسين أو الأسينيين . وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية , وكانوا يعيشون في عزلة عن بقية طوائف اليهود , ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف , كما يأخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم .

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية , وبلبلة في الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل , الراضخين لضغط الإمبراطورية الرومانية المستذلين المكبوتين , الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

(295/694)

فلما أن جاء المسيح – عليه السلام – بالتوحيد الذي أعلنه: (إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه) . وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس , حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس .

ومما يؤثر عنه – عليه السلام – في هذا قوله عن هؤلاء: "إنهم يحزمون الأوقار , ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم , ولا يمدون إليها إصبعاً يزحزحونها , وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم ! يعرضون عصائبهم , ويطيلون أهداب ثيابهم , ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم , والمجالس الأولى في المجامع , ويبتغون التحيات في الأسواق . وأن يقال

لهم:سيدي . سيدي . حيث يذهبون ! " . .

أو يخاطب هؤلاء فيقول: "أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل . . إنكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة , وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون . إنكم كالقبور المبيضة . خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة " . .

وإن الإنسان – وهو يقرأ هذه الكلمات المأثورة عن المسيح – عليه السلام – وغيرها في بابها – ليكاد يتصور رجال الدين المحترفين في زماننا هذا . فهو طابع واحد مكرر . لهؤلاء الرسميين المحترفين من رجال الدين , الذين يراهم الناس في كل حين !

ثم ذهب المسيح عليه السلام إلى ربه , فاختلف أتباعه من بعده . اختلفوا شيعاً وأحزاباً . بعضها يؤلهه . وبعضها ينسب لله سبحانه بنوته . وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدها المسيح ابن مريم . وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى عليه السلام . وضاعت دعوته الناس ليلجأوا إلى ربهم ويعبدوه مخلصين له الدين .

(فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) . .

ثم جاء مشركو العرب يحاجون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في عيسى – عليه السلام – بما فعلته الأحزاب المختلفة من بعده , وما أحدثته حوله من أساطير !

الدرس الثاني: 66 – 77 قيام الساعة وعداوة الأخلاء الفاسدين ونعيم المؤمنين وعذاب الكافرين

وحين يصل السياق إلى الحديث عن الظالمين , يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى – عليه السلام – مع المحاجين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بفعل هذه الأحزاب ; ويصور حالهم يوم القيامة في مشهد رائع طويل , يحتوي كذلك صفحة المتقين المكرمين في جنات النعيم:

هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ? الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين .

(يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب , وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين , وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون .

(إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا: يا مالك ليقض علينا ربك . قال: إنكم ماكثون . .

يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها , لا يشعرون بمقدمها :

(هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) !

هذه المفاجأة تحدث حدثاً غريباً , يقلب كل ما كانوا يألفونه في الحياة الدنيا :

(الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) . .

(297/694)

وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم . . لقد كانوا في الحياة الدنيا يجتمعون على الشر , ويملي بعضهم لبعض في الضلال . فاليوم يتلاومون . واليوم يلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر . واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون , من حيث كانوا أخلاء يتناجون ! (إلا المتقين) . . فهؤلاء مودتهم باقية فقد كان اجتماعهم على الهدى , وتناصحهم على الخير , وعاقبتهم إلى النجاة . .

وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون , يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوي الكريم للمتقين:

(يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) .

يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78)

أي تسرون سروراً يشيع في أعطافكم وقسماتكم فيبدو عليكم الحبور .

ثم نشهد – بعين الخيال – فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم . وإذا لهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس . وفوق شهوة النفوس التذاذ العيون , كمالاً وجمالاً في التكريم:

(يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تشتهيه الأنفس , وتلذ الأعين) . .

ومع هذا النعيم . ما هو أكبر منه وأفضل . التكريم بالخطاب من العلي الكريم:

(وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) فما بال المجرمين الذين تركناهم منذ هنيهة يتلاحون ويختصمون ؟

(إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون) . .

وهو عذاب دائم , وفي درجة شديدة عصيبة . لا يفتر لحظة , ولا يبرد هنيهة . ولا تلوح

لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص , ولا كوة من رجاء بعيد . فهم فيه يائسون قانطون:

(لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) . .

كذلك فعلوا بأنفسهم , وأوردوها هذا المورد الموبق , ظالمين غير مظلومين:

(وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) . .

ثم تتناوح في الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق:

(ونادوا: يا مالك . ليقض علينا ربك) . .

إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم .

إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين . إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث

. فهم مبلسون يائسون . إنما يصيحون في طلب الهلاك . الهلاك السريع الذي يريح . .

وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا ! . . وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق .

وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب , وأجساماً

تجاوز الألم بها حد الطاقة , فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة: (يا مالك . ليقض علينا

ربك) !

ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل , وبلا رعاية ولا اهتمام:

(قال: إنكم ماكثون) !

فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء . . إنكم ماكثون !

الدرس الثالث: 78 - 80 تقريع الكفار لجرائمهم تجاه الحق وأهله

وفي ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق , المعرضين عن الهدى , الصائرين إلى هذا المصير ; ويعجب من أمرهم على رؤوس الأشهاد , في أنسب جو للتحذير والتعجيب

(لقد جئناكم بالحق , ولكن أكثركم للحق كارهون . أم أبرموا أمراً ? فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ? بلى ورسلنا لديهم يكتبون) . .

(299/694)

وكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه , لا عدم إدراك أنه الحق , ولا الشك في صدق الرسول الكريم ; فما عهدوا عليه كذباً قط على الناس , فكيف يكذب على الله ويدعي عليه ما يدعيه ?

والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه الحق , ولكنهم يكرهونه , لأنه يصادم أهواءهم , ويقف

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)

في طريق شهواتهم , وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ; ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته ! فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجتراء على الدعاة !

لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت , العليم بما يسرون وما يمكرون:

أم أبرموا أمراً ? فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم و نجواهم ? بلى ورسلنا لديهم يكتبون . .

فإصرارهم على الباطل في وجه الحق يقابله أمر الله الجازم وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته . وتدبيرهم ومكرهم في الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى . والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون , أمام الخالق العزيز العليم .

(300/694)

الدرس الرابع: 81 - 83 لا شريك مع الله وتهديد الكفار

ويتركهم بعد هذا التهديد المرهوب , ويوجه رسوله الكريم , إلى قول يقوله لهم . ثم يدعهم من بعده لمصيرهم الذي شهدوا صورته منذ قليل:

(قل: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين . سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش عما يصفون . فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) . .

لقد كانوا يعبدون الملائكة بزعم أنهم بنات الله . ولو كان لله ولد لكان أحق أحد بعبادته , وبمعرفة ذلك , نبي الله ورسوله , فهو منه قريب , وهو أسرع إلى طاعة الله وعبادته , وتوقير ولده إن كان له ولد كما يزعمون ! ولكنه لا يعبد إلا الله . فهذا في ذاته دليل على أن ما يزعمونه من بنوة أحد لله لا أصل له , ولا سند ولا دليل ! تنزه الله وتعالى عن ذلك الزعم الغريب !

(سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش . عما يصفون) . .

(301/694)

وحين يتأمل الإنسان هذه السماوات والأرض , ونظامها , وتناسقها , ومدى ما يكمن وراء هذا النظام من عظمة وعلو . ومن سيطرة واستعلاء . يشير إلى هذا كله قوله: (رب

العرش) . . يصغر في نفسه كل وهم وكل زعم من ذلك القبيل . ويدرك بفطرته أن صانع هذا كله لا يستقيم في الفطرة أن يكون له شبه – اي شبه – بالخلق . الذين يلدون وينسلون ! ومن ثم يبدو مثل ذلك القول لهواً ولعباً وخوضاً وتقحماً لا يستحق شيء منه المناقشة والجدل ; إنما يستحق الإهمال أو التحذير:

(فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) . .

والذي شهدوا صورة منه يوم يكون !

الدرس الخامس: 84 ألوهية الله وملكيته للسماوات والأرض

ثم يمضي – بعد الإعراض عنهم وإهمالهم – في تمجيد الخالق وتوحيده بما يليق بربوبيته للسماوات والأرض والعرش العظيم:

(وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله , وهو الحكيم العليم . وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما , وعنده علم الساعة , وإليه ترجعون . ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) . .

وهو تقرير الألوهية الواحدة في السماء وفي الأرض , والتفرد بهذه الصفة لا يشاركه فيها مشارك . مع الحكمة فيما يفعل . والعلم المطلق بهذا الملك العريض .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

ثم تمجيد لله وتعظيم في لفظ (تبارك) أي تعاظم الله وتسامى عما يزعمون ويتصورون .

وهو (رب السماوات والأرض وما بينهما) . وهو الذي يعلم وحده علم الساعة وإليه المرجع والمآب .

(302/694)

ويومذاك لا أحد ممن يدعونهم أولاداً أو شركاء يملك أن يشفع لأحد منهم - كما كانوا يزعمون أنهم يتخذونهم شفعاء عند الله . فإنه لا شفاعة إلا لمن شهد بالحق , وآمن به .

ومن يشهد بالحق لا يشفع في من جحده وعاداه !

الدرس السادس: 87 اعتراف الكفار بخلق الله لهم

ثم يواجههم بمنطق فطرتهم , وبما لا يجادلون فيه ولا يشكون , وهو أن الله خالقهم . فكيف حينئذ يشركون معه أحداً في عبادته , أو يتوقعون من أحد شفاعة عنده لمن أشرك به:

(ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله . فأنى يؤفكون) ؟

وكيف يصرفون عن الحق الذي تشهد به فطرتهم ويحيدون عن مقتضاه المنطقي المحتوم ؟

الدرس السابع: 88 - 89 شكوى الرسول من كفر قومه وعورته للصفح

وفي ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لربه , يشكو إليه

كفرهم وعدم إيمانهم . فيبرزه ويقسم به:

(وقيله . يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) . .

وهو تعبير خاص ذو دلالة وإيحاء بمدى عمق هذا القول , ومدى الاستماع له , والعناية به , والرعاية من الله سبحانه والاحتفال .

ويجيب عليه – في رعاية – بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الصفح والإعراض , وعدم الاحتفال والمبالاة . والشعور بالطمأنينة . ومواجهة الأمر بالسلام في القلب والسماحة والرضاء . وذلك مع التحذير الملفوف للمعرضين المعاندين , مما ينتظرهم يوم ينكشف المستور:

(فاصفح عنهم , وقل سلام . فسوف يعلمون) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3204.3194 ﴾

(303/694)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47) ﴾

قوله : ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ : قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف جازَ أَنْ تُجاب " لَمَّا " ب " إذا " المفاجأة ؟ قلت : لأنَّ فِعْلَ المفاجأةِ معها مقدَّرٌ ، وهو عاملُ النصبِ في مَحَلِّها ، كأنه قيل : فلمَّا جاءهم بآياتنا فاجَؤُوا وقتَ ضَحِكهم " . قال الشيخ : " ولا نعلَمُ نحوَ ما ذهب إلى ما ذَهَبَ إليه مِنْ أنَّ " إذا " الفجائيةَ تكونُ منصوبةً بفعلٍ مقدرٍ تقديره : فاجأ ، بل المذاهبُ ثلاثةٌ : إمَّا حرفٌ فلا تحتاجُ إلى عاملٍ ، أو ظرفُ مكانٍ ، أو ظرفُ زمانٍ . فإنْ ذُكِرَ بعد الاسمِ الواقع بعدها خبرٌ كانت منصوبةً على الظرفِ ، والعاملُ فيها ذلك الخبرُ نحوَ : " خرجتُ فإذا زيدٌ قائمٌ " تقديره : خرجتُ ففي المكان الذي خَرَجْتُ فيه زيدٌ قائمٌ ، أو ففي الوقتِ الذي خَرَجْتُ فيه زيدٌ قائمٌ ، وإنْ لم يُذْكَرْ بعد الاسمِ خبرٌ ، أو/ ذُكِرَ اسمٌ منصوبٌ على الحالِ : فإنْ كان الاسمُ جثةً وقلنا : إنها ظرفُ مكانٍ كان الأمرُ واضحاً نحو : خرجْتُ فإذا الأسدُ أي : فبالحضرةِ الأسدُ ، أو فإذا الأسدُ رابضاً . وإنْ قلنا : إنها ظرفُ زمانٍ كان على حذفِ مضافٍ لئلا يُخْبَرَ بالزمانِ عن الجثةِ نحو : " خَرَجْتُ فإذا الأسدُ " أي : ففي الزمانِ حضورُ الأسدِ ، وإن كان الاسمُ حَدَثاً جازَ أن يكونَ مكاناً أو زماناً . ولا حاجةَ إلى تقديرِ مضافٍ نحو : " خرجْتُ فإذا القتالُ " إنْ شِئْتَ قَدَّرْتَ فبالحضرة القتالُ ، أو ففي الزمانِ القتالُ " . وفيه تلخيصٌ وزيادةٌ كبيرةٌ في الأمثلةِ رأيتُ تركَها مُخِلاً .

وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)

قوله : ﴿ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ ﴾ : جملةٌ واقعةٌ صفةً لقوله : " مِنْ آية " فيُحْكَمُ على موضِعها بالجَرِّ اعتباراً باللفظِ ، وبالنصبِ اعتباراً بالمحلِّ ، وفي معنى قوله : ﴿ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أوجهٌ ، أحدها : – قاله ابنُ عطية – وهو أنهم يَسْتَعْظِمون الآيةَ التي تأتي ، لجِدَّةِ أَمْرِها وحُدوثِه ؛ لأنهم أَنِسُوا بتلك الآيةِ السابقةِ فيَعْظُم أَمْرُ الثانيةِ ويَكْبُرُ ، وهذا كما قال :

3999 على أَنَّها تَعْفُو الكُلُوم ، وإنما . . . نُوَكَّلُ بالأَدْنى وإنْ جَلَّ ما يَمْضي

الثاني : ما ذكرَه بعضُهم : مِنْ أَنَّ المعنى : إلاَّ هي أكبرُ من أختها السابقةِ ، فحذفَ الصفةَ للعِلْمِ بها . الثالث : قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : هو كلامٌ متناقضٌ ؛ لأنَّ معناه : ما مِنْ آيةٍ من التسعِ إلاَّ وهي أكبرُ مِنْ كلِّ واحدةٍ منها ، فتكونُ كلُّ واحدةٍ منها فاضلةً ومفضولةً في حالةٍ واحدة . قلت : الغرضُ بهذا الكلامِ وَصْفُهُنَّ بالكبرِ لا يَكَدْنَ يتفاوَتْنَ فيه ، وكذلك العادةُ في الأشياء التي تتقارَبُ في الفضلِ التقاربَ اليسيرَ ، تختلفُ آراءُ الناس في تفضيلِها ، فبعضُهم يفضِّل هذا ، وبعضُهم يفضِّل هذا ، وربما اختلفَتْ آراءُ الواحدِ فيها ، كقول الحماسيِّ :

4000 مَنْ تَلْقَ منهم تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ . . . مثلَ النجومِ التي يَهْدِي بها السَّاري

وقالت الأنمارية في الجُمْلة من أبنائها : ثَكِلْتُهُمْ إنْ كنتُ أعلمُ أيُّهم أفضلُ ، هم كالحَلْقَةِ المُفْرَغَةِ لا يُدْرى أين طرفاها " انتهى كلامُه . وأولُه فظيعٌ جداً كأن العباراتِ ضاقَتْ عليه حتى قال ما قال ، وإنْ كان جوابُه حَسَناً فسؤالُه فظيعٌ . وقد تقدَّم الخلافُ في ﴿ يا أيُّهَا الساحر ﴾ في النور .

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50)

وقرأ أبو حيوةَ "يَنْكِثُوْن" بكسرِ الكافِ . وهي لغةٌ .

(305/694)

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)

قوله : ﴿ وهذه الأنهار ﴾ : يجوزُ في " وهذه " وجهان ، أحدهما : أَنْ تكونَ مبتدأةً ، والواوُ للحال . والأنهارُ صفةٌ لاسمِ الإشارةِ ، أو عطفُ بيانٍ . و " تجري " الخبرُ . والجملةُ حالٌ مِنْ ياء " لي " . والثاني : أنَّ " هذه " معطوفةٌ على " مُلْك مِصْرَ " ، و " تَجْري " على هذا حالٌ أي : أليس مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهارُ جاريةً أي : الشيئان .

قوله : " تُبْصِرونَ " العامَّةُ على الخطابِ لِمَنْ ناداه . وقرأ عيسى بكسر النون أي :

تُبْصِروني . وفي قراءةِ العامَّةِ المفعولُ محذوفٌ أي : تُبْصِرون مُلْكي وعَظَمتي . وقرأ فهد بن الصقر "يُبْصِرون" بياء الغَيْبة : إمَّا على الالتفاتِ من الخطاب إلى الغَيْبة ، وإمَّا رَدًّا على قوم موسى .

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)

قوله : ﴿ أَمْ أَنَآ خَيْرٌ ﴾ : في "أم" أقوالٌ ، أحدها : أنها منقطعةٌ ، فتتقدَّرُ ب بل التي لإضرابِ الانتقال ، وبالهمزة التي للإنكار . والثاني : أنها بمعنى بل فقط ، كقوله :

4001 بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ في رَوْنَقِ الضُّحى . . . وصورتِها أم أنتِ في العينِ أَمْلَحُ

(306/694)

أي : بل أنتِ . الثالث : أنها منقطعةٌ لفظاً ، متصلةٌ معنىً . قال أبو البقاء : "أمْ هنا منقطعةٌ في اللفظ لوقوعِ الجملةِ بعدَها في اللفظ ، وهي في المعنى متصلةٌ معادِلةٌ ؛ إذ المعنى : أنا خيرٌ منه أم لا ، وأيُّنا خيرٌ" وهذه عبارةٌ غريبةٌ : أن تكونَ منقطعةً لفظاً ، متصلةً معنى ، وذلك أنهما معنيان مختلفان ؛ فإن الانقطاعَ يَقْتضي إضراباً : إمَّا إبطالاً ، وإمّا انتقالاً . الرابع : أنها متصلةٌ ، والمعادِلُ محذوفٌ تقديره : أم تُبْصِرون . وهذا لا يجوزُ إلاَّ إذا كانت "لا" بعد أم نحو : أتقومُ أم لا ؟ أي : أم لا تقوم . وأزيدٌ عندك أم لا ؟ أي : أم لا هو عندك . أمَّا

حَذْفُه دون "لا" فلا يجوزُ، وقد جاء حَذْفُ "أم" مع المعادِلِ وهو قليلٌ جداً. قال الشاعر:

4002 دعاني إليها القلبُ إني لأَمْرِها . . . سميعٌ فلا أَدْري أَرُشْدٌ طِلابُها

(307/694)

أي: أم غَيٌّ. وكان الشيخ قد نقل عن سيبويه أنَّ هذه هي "أم" المعادِلَةُ أي: أم تُبْصِرُون الأمرَ الذي هو حقيقٌ أَنْ يُبْصَرَ عنده، وهو أَنَّه خيرٌ مِنْ موسى. قال: "وهذا القولُ بدأ به الزمخشريُّ فقال: "أم/ هذه متصلة لأنَّ المعنى: أفلا تُبْصِرون أم تُبْصرون، إلاَّ أنه وَضَعَ قولَه: "أنا خيرٌ" موضعَ "تُبْصِرون"؛ لأنهم إذا قالوا: أنت خيرٌ، فهم عنده بُصَراءُ، وهذا من إنزالِ السببِ منزلةَ المسبب". قال الشيخ: "وهذا متكلَّفٌ جداً؛ إذ المعادِلُ إنما يكونُ مقابلاً للسابقِ. فإن كان المعادِلُ جملةً فعليةً كان السابقُ جملةً فعليةً أو جملةً اسميةً يتقدَّر منها فعليةٌ، كقوله: ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ [الأعراف: 193] لأنَّ معناه: أم صَمَتُّم، وهنا لا تتقدَّرُ منها جملةٌ فعليةٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ ليس مقابلاً لقولِه: "أفلا تُبْصِرون". وإن كان السابقُ اسماً كان المعادِلُ اسماً، أو جملةً فعليةً يتقدَّر منها اسمٌ نحو قولِه:

4003 أمُخْدَجُ اليدَيْنِ أم أَتَمَّتِ . . . ف " أتَمَّت " معادِلٌ للاسم ، فالتقديرُ : أم مُتِمًّا "

قلت : وهذا الذي رَدَّه على الزمخشريّ رَدٌّ على سيبويه ؛ لأنه هو السابقُ به ، وكذا قولُه أيضاً : إنه لا يُحْذَفُ المعادِلُ بعد " أم " إلاَّ وبعدها " لا " فيه نظرٌ ؛ من حيث تجويزُ سيبويه حَذْفُ المعادِلِ دون " لا " فهو رَدٌّ على سيبويهِ أيضاً .

[قوله : ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ هذه الجملةُ يجوزُ أَنْ تكونَ معطوفةً على الصلةِ ، وأَنْ تكونَ مستأنفةً ، وأن تكونَ حالاً] . والعامَّة على "يُبين " مِنْ أبان ، والباقر "يَبين " بفتحِها مِنْ بان أي : ظهر .

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

(308/694)

قوله : ﴿ أَسْوِرَةٌ ﴾ : قرأ حفص " أَسْوِرَة " كأَحْمِرَة . والباقون " أساوِرَة " . فأَسْوِرَة جمع سِوار كحِمار وأَحْمِرَة ، وهو جمعُ قلةٍ ، وأساوِرَة جمعُ إسْوار بمعنى سِوار . يقال : سِوارُ المرأة وإسْوارُها ، والأصل : أساوير بالياء ، فعُوِّضَ من حرف المدّ تاءُ التأنيثِ كزَنادقة . وقيل : بل هي جمعُ أَسْوِرة فهي جمعُ الجمعِ . وقرأ أُبَيٌّ والأعمش - ويُرْوى عن أبي عمرو - " أساوِر " دونَ تاءٍ . ورُوِي عن أُبَيّ أيضاً وعبد الله أساوِير . وقرأ الضحاك

"أُلْقِيَ" مبنياً للفاعلِ أي الله . و "وأساورة" نصباً على المفعولية . و "مِنْ ذَهَبٍ" صفةٌ لأساورة . ويجوز أَنْ تكون "مِنْ" الداخلةَ على التمييز .

فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55)

قوله : ﴿ آسَفُونَا ﴾ : منقولٌ بهمزةِ التعديةِ مِنْ أسِفَ بمعنى غَضِبَ ، والمعنى : أَغْضَبونا بمخالَفَتِهم أمرَنا . وفي التفسيرِ : أحزنوا أولياءَنا يعني السَّحَرَةَ .

فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56)

قوله : ﴿ سَلَفاً ﴾ : قرأ الأخَوان بضمتين ، والباقون بفتحتين . فأمَّا الأُولى فتحتمل ثلاثةَ أوجهٍ ، أحدُها : أنها جمعُ سَليف كرَغيف ورُغُف . وسمع القاسمُ بنُ مَعَن من العرب : " مضى سَليفٌ من الناس " . والسَّليفُ من الناس كالفريقِ منهم . والثاني : أنها جمعُ سالِف كصابِر وصُبُر . والثالث : أنها جمعُ سَلَف كأَسَد وأُسُد . والثانية تحتمل وجهين ، أحدهما : أَنْ يكونَ جمعاً لسالِف كحارس وحَرَس ، وخادِم وخَدَم . وهذا في الحقيقة اسمُ جمعٍ لا جمعُ تكسيرٍ ؛ إذ ليس في أبنيةِ التكسير صيغةُ فَعَل . والثاني : أنه مصدرٌ يُطْلق على الجماعة تقول : سَلَفَ الرجلُ يَسْلُفُ سَلَفاً أي : تقدَّم . وسلَفُ الرجلِ آباؤه المتقدِّمون ، والجمع أَسْلافٌ وسُلاف . وقال طفيل :

4004 مَضَوْا سَلَفاً قَصْدُ السَّبيلِ عليهمُ . . . صُروفُ المنايا بالرجالِ تَقَلَّبُ

وقرأ عليٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وجهَه ومجاهد " سُلَفاً " بضم السين وفتح اللام . وفيها وجهان ، أشهرُهما : أنه جمعُ سُلْفَة كغُرْفَة وغُرَف ، والسُّلْفَةُ الأمة . وقيل : الأصل " سُلُفاً " بضمتين ، وإنما أُبْدل من الضمة فتحةً .

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57)

قوله : ﴿ مَثَلاً ﴾ : إمَّا مفعولٌ ثانٍ إنْ كانت بمعنى صَيَّر ، وإلاَّ حالاً .

قوله : "يَصِدُّون " قرأ نافع وابن عامر والكسائي "يَصُدُّون " بضمِ الصادِ . والباقون بكسرِها . فقيل : هما بمعنىً واحدٍ ، وهو الصحيحُ ، واللفظُ يُقال : صَدَّ يَصِدُّ ويَصُدُّ كعَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ ، ويَعْرُشُ ويَعْرِشُ . وقيل : الضمُّ مِن الصُّدود ، وهو الإعراضُ . وقد أنكر ابنُ عباسٍ الضمَّ ، وقد رُوِي له عن علي رضي الله عنهما – والله أعلم – قبل بلوغِه تواتُرُه .

وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58)

قوله : ﴿ وقالوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ ﴾ : قرأ أهلُ الكوفة بتحقيق الهمزةِ الثانيةِ ، والباقون بتسهيلِها بينَ بينَ ، ولم يُدْخِلْ أحدٌ مِنْ القرّاء الذين مِنْ قاعدتِهم الفصلُ بين الهمزتين بألفٍ ، ألفاً ، كراهةً لتوالي أربعةِ مُتشابهات ، وأَبْدل الجميعُ الهمزةَ الثالثة ألفاً . ولا بُدّ/ مِنْ زيادةِ بيان : وذلك أن " آلِهة " جمعُ إله كعِماد وأَعْمِدَة ، فالأصل أُأْلِهَة بهمزتين : الأولى زائدةٌ ، والثانيةُ فاء الكلمة وقعتِ الثانيةُ ساكنةً بعد مفتوحةٍ وَجَبَ قلْبُها ألفاً كأَمِن وبابه ، ثم دَخَلَتْ همزةُ الاستفهامُ على الكلمةِ ، فالتقى همزتان في اللفظ : الأولى للاستفهامِ والثانيةُ همزةُ أَفْعِلة . والكوفيون لم يَعْتَدُّوا باجتماعِهما فأَبْقَوْهما على حالِهما . وغيرُهم استثقَل فخفَّفَ الثانيةَ بالتسهيلِ بينَ بينَ ، والثالثةُ بألفٍ محضةٍ لم تُغَيِّرْ البتةَ . وأكثرُ أهلِ العصرِ يُقرُّونَ هذا الحرفَ بهمزةٍ واحدة بعدها ألفٌ على لفظِ الخبرِ ولم يقرأْ به أحدٌ من السبعة فيما قَرَأْتُ به ، إلاَّ أَنَّه رُوِي أنَّ وَرْشاً قرأ كذلك في روايةِ أبي الأَزْهر ، وهي تحتملُ الاستفهامَ كالعامَّةِ ، وإنما حَذَفَ أداةَ الاستفهامِ لدلالة " أم " عليها وهو كثيرٌ ، وتَحْتمل أَنَّه قرأه خبراً مَحْضاً وحينئذٍ تكون " أم " منقطعةً فتُقَدَّرُ ب بل والهمزة .

وأمَّا الجماعةُ فهي عندهم متصلةٌ . فقوله : " أم هو " على قراءةِ العامة عطفٌ على " آلهتنا " وهو من عطفِ المفرداتِ . التقدير : أآلهتُنا أم هو خيرٌ أي : أيُّهما خيرٌ . وعلى قراءةِ ورشٍ يكونُ " هو " مبتدأً ، وخبرُه محذوفٌ تقديرُه : بل أهو خيرٌ ، وليست " أم " حينئذٍ عاطفةً .

قوله : " جَدَلاً " مفعولٌ مِنْ أجله أي : لأجلِ الجدلِ والمِراءِ لا لإظهارِ الحقِّ . وقيل : هو مصدرٌ في موضعِ الحال أي : إلاَّ مُجادِلين .

(311/694)

وقرأ ابنُ مقسم " جِدالاً " والوجهان جاريان فيه . والظاهر أنَّ " هو " لعيسى كغيره من الضمائر . وقيل : هو للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم .

وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60)

قوله : ﴿ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلَائِكَةً ﴾ : في " مِنْ " هذه أقوالٌ ، أحدها : أنها بمعنى بَدَل أي : لَجَعَلْنا بَدَلَكم . ومنه أيضاً ﴿ أَرَضِيتُمْ بالحياة الدنيا مِنَ الآخرة ﴾ [التوبة : 38] أي بَدَلَها . وأنشد :

4005 أخَذُوا المَخاضَ من الفَصيل غُلُبَّةً . . . ظُلْماً ويُكْتَبُ للأمير إفالا

وقال آخر :

4006 جارِيَةٌ لم تَأْكُلِ المُرَقَّقَا . . . ولم تَذُقْ من البُقولِ الفُسْتُقا

والثاني : – وهو المشهورُ – أنها تبعيضِيَّةٌ . وتأويلُ الآية عندهم : لَوَلَّدْنا منكم يا رجالُ ملائكةً في الأرض يَخْلُفونكم كما يَخْلُفكم أولادُكم ، كما وَلَّدْنا عيسى مِنْ أنثى دونَ ذكرٍ ،

ذكره الزمخشري . والثالث : أنها تبعيضيَّةٌ . قال أبو البقاء : " وقيل : المعنى : لَحَوَّلْنا بعضَكم ملائكةً " . وقال ابن عطية : " لَجَعَلْنا بَدَلاً مِنْكم " .

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ ﴾ : المشهورُ أنَّ الضمير لعيسى ، يعني نزولَه آخر الزمان . وقيل الضميرُ للقرآن أي : فيه عِلْمُ الساعةِ وأهوالُها ، أو هو علامةٌ على قُرْبها . وفيه ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 1] ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] . وقيل : للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم . ومنه " بُعِثْت أنا والساعةُ كهاتَيْن " .

(312/694)

والعامَّةُ على " عِلْم " مصدراً ، جُعِل عِلْماً مبالغةً لَمَّا كان به يَحْصُلُ العِلْمُ ، أو لَمَّا كان شَرْطاً يُعْلَم به ذلك أُطْلِق عليه عِلْم . وابن عباس وأبو هُرَيْرَة وأبو مالكِ الغِفاري وزيد بن علي " لَعَلَمٌ " بفتح الفاءِ والعينِ أي : لَشَرْطٌ وعَلامةٌ ، وقرأ أبو نضرة وعكرمة كذلك ، إلاَّ أنهما عَرَّفا باللام ، فقرآ " للعَلَمُ " أي : للعلامَةُ المعروفةُ .

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67)

قوله : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ ﴾ : مبتدأ ، وخبرُه " عَدُوٌّ " . والتنوين في " يومئذٍ " عِوَضٌ عن

جملة تقديرُه : يومَ إذْ تأْتيهم الساعةُ . والعامل في "يَوْمئذ " لفظُ " عَدُوٌّ " أي : عداوتُهم في ذلك اليوم .

يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68)

قوله : ﴿ ياعبادي ﴾ : قرا أبو بكرٍ عن عاصمٍ " يا عبادِيَ ، لا خَوْفٌ " بفتح الياء . والأخوانَ وابن كثير وحفصٌ بحَذْفِها وصلاً ووقفاً . والباقون بإثباتها ساكنةً . وقرأ العامَّة " لا خوفٌ " بالرفع والتنوينِ : إمَّا مبتدأً ، وإمَّا اسماً لها ، وهو قليلٌ . وابن محيصن دونَ تنوينٍ على حَذْفِ مضافٍ وانتظاره : لا خوفُ شيءٍ . والحسنُ وابن أبي إسحاق بالفتح على " لا " التبرئةِ ، وهي عندهم أَبْلَغُ .

الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69)

قوله : ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ نعتاً ل " عبادي " أو بدلاً منه ، أو عطف بيانٍ له ، أو مقطوعاً منصوباً أو مرفوعاً .

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71)

(313/694)

قوله : ﴿ يُطَافُ ﴾ : قبلَه محذوفٌ أي : يَدْخُلونُ يُطاف . والصِّحافُ : جمعُ صَحْفَة كجَفْنَة وجِفان . قال الجوهري : " الصَّحْفَةُ كالقَصْعَةِ . وقال الكسائيُّ : أعظمُ القَصاعِ الجَفْنةُ ، ثم القَصْعَةُ تُشْبِع العَشَرة ، ثم الصَّحْفَةُ تُشْبِعُ الخمسةَ ، ثم المِئْكَلَة تُشْبِعُ/ الرجلين والثلاثة " . والصَّحيفة : الكتابُ ، والجمعُ : صُحُف وصَحَائف . وأمال الكسائيُّ في روايةٍ " بِصحاف " . والأَكْواب جمعٌ . فقيل : هو كالإِبريق إلاَّ أنه لا عُرْوَةَ له . وقيل : إلاَّ أنه لا خُرْطومَ له . وقيل : إلاَّ أنه لا عُرْوَةَ له ولا خُرْطومَ معاً . قال الجواليقي : " ليتمكَّنَ الشاربُ مِنْ أين شاءَ ، فإنَّ العُرْوَةَ تمنعُ من ذلك " .

وقال عَدِيّ :

4007 مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه . . . يَسْعَى عليه العبدُ بالكُوبِ

والتقدير : وأكواب مِنْ ذَهَب أو لم يُرِدْ تَقْييدَها .

قوله : ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس ﴾ قرأ نافعٌ وابن عامرٍ وحفصٍ " تَشْتَهيه " بإثباتِ العائدِ على الموصول كقوله : ﴿ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطان ﴾ [البقرة : 275] والباقون بحَذْفِه كقوله : ﴿ أهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾ [الفرقان : 41] وهذه القراءةُ شبيهةٌ بقوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس : 35] وتقدَّم ذلك في يس ،

وهذه الهاءُ في هذه السورةِ رُسِمَتْ في مصاحفِ المدينة والشام ، وحُذِفَتْ مِنْ غيرِها .

وقد وقع لأبي عبد الله الفاسيِّ شارحِ القصيدِ وَهَمٌ فسَبَقَ قلمُه فكتب : " والهاءُ منه

محذوفةٌ في مصاحفِ المدينةِ والشامِ ثابتةٌ في غيرِهما " . أراد أن يكتبَ " ثابتةٌ في مصاحف المدينة والشام محذوفةٌ من غيرِهما " فعكَسَ . وفي مصحفِ عبد الله ﴿ تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين ﴾ بالهاء فيهما .

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)

(314/694)

قوله : ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ : " مِنْ " تبعيضيةٌ أو ابتدائيةٌ ، وقُدِّم الجارُّ لأجلِ الفاصلةِ .

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75)

قوله : ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ ، وكذلك ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ : وقرأ عبد الله " وهُمْ فيها " أي : في النار لدلالةِ العذاب عليها .

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76)

قوله : ﴿ ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ : العامَّةُ على الياء خبراً لـ " كان " ، و " هم " إمَّا فَصْلٌ وإمَّا توكيدٌ . وقرأ عبد الله وأبو زيدٍ النحويان " الظالمون " على أنَّ " هو " مبتدأٌ . و " الظالمون " خبرُه . والجملةُ خبر كان ، وهي لغةُ تميم . قال أبو زيد : " سَمِعْتُهم يَقْرؤون " تَجِدُوْه عند الله هو خيرٌ وأعظمُ أجراً " بالرفعِ . وقال قيس بن ذُرَيح :

4008 تَحِنُّ إلى ليلى وأنت تَرَكْتَها . . . وكنتَ عليها بالمَلا أنتَ أقدرُ

برفع "أقدرُ" و "أنت" فصلٌ أو توكيدٌ . قال سيبويه : "بَلَغَنا أنَّ رؤبةَ كان يقولُ : أظنُّ زيداً هو خيرٌ منك" يعني بالرفع .

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77)

قوله : ﴿ يامالك ﴾ : العامَّةُ مِنْ غير ترخيمٍ . وعلي بن أبي طالب وعبدُ الله وابنُ وثَّاب والأعمش "يا مالِ" مرخماً على لغة مَنْ ينتظر . وأبو السِّوار الغَنَويُّ "يا مالُ" مبنياً على الضم على لغةِ مَنْ لا يَنْوي .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79)

قوله : ﴿ أَمْ أبرموا ﴾ : أم منقطعةٌ . والإِبرام : الإِتقانُ ، وأصلُه في الفَتْلِ . يقال : أَبْرَمَ الحَبْلَ أي : أتقن فَتْلَه ، وهو الفَتْلُ الثاني ، والأول يُقال له : سَحِيل . قال زهير :

4009 لَعَمْرِي لَنِعْمَ السَّيِّدان وُجِدْتُما . . . على كل حالٍ مِنْ سَحِيلٍ ومُبرَمِ

(315/694)

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81)

قوله : ﴿ إِن كَانَ للرحمن ﴾ : قيل : هي شرطيةٌ على بابِها . واخْتُلِفَ في تأويله فقيل : إنْ

صَحَّ ذلك فأنا أولُ مَنْ يَعْبُده لكنه لم يَصِحَّ البتةَ بالدليلِ القاطعِ ، وذلك أنَّه عَلَّق العبادةَ بكَيْنونة الولدِ ، وهي مُحالٌ في نفسِها ، فكان المُعَلَّقُ بها مُحالاً مثلَها ، فهو في صورةِ إثباتِ الكينونةِ والعبادةِ ، وفي معنى نَفْيِهما على أَبْلغِ الوجوهِ وأَقْواها ، ذكره الزمخشريُّ . وقيل : إن كان له ولدٌ في زَعْمِكم . وقيل : العابدين بمعنى : الآنفين . مِنْ عَبِدَ يَعْبَدُ إذا اشْتَدَّ أَنَفَةً فهو عَبِدٌ وعابِدٌ . ويؤيِّدُه قراءةُ السُّلَميِّ واليماني " العَبِدين " دون ألفٍ . وحكى الخليل قراءةً غريبةً وهي " العَبْدِيْن " بسكون الباءِ ، وهي تخفيفُ قراءةِ السُّلَمي فأصلها الكسرُ . قال ابنُ عرفة : " يقال : عَبِدَ بالكسر يَعْبَد بالفتح فهو عَبِد ، وقلَّما يقال : عابِد ، والقرآن لا يجيْءُ على القليلِ ولا الشاذِّ " . قلتُ : يعني فتخريج مَنْ قال : إنَّ العابدين بمعنى الآنفين لا يَصِحُّ ، ثم قال كقول مجاهد . وقال الفرزدق :

4010 أولئك آبائي فجِئْني بمثْلِهم . . . وأَعْبَدُ أنْ أَهْجُوْ كُلَيْباً بدارِمِ

أي : آنَفُ . وقال آخر :

4011 متى ما يَشَأْ ذو الوُدِّ يَصْرِمْ خليلَه . . . ويُعْبَدْ عليه لا مَحالةَ ظالما

وقال أبو عبيدة : " معناه الجاحِدين " . يقال : عَبَدَني حَقِّي أي : جَحَدنيه . وقال أبو حاتم : " العَبِدُ بكسر الباءِ : الشديدُ الغَضَبِ " ، وهو معنى حسنٌ أي : إنْ كان له ولدٌ على زَعْمِكم فأنا أولُ مَنْ يَغْضَبُ لذلك .

وقيل : " إنْ " نافيةٌ أي : ما كان ، ثم أَخْبَرَ بقولِه : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ وتكونُ الفاءُ سببيةً . ومنع مكي أَنْ تكونَ نافيةً قال : " لأنه يُوْهِمُ أَنَّك إنما نَفَيْتَ عن الله الولدَ فيما مضى دونَ ما هو آتٍ ، وهذا مُحالٌ " .

وقد رَدَّ الناسُ على مكيّ ، وقالوا : كان قد تَدُلُّ على الدوامِ كقوله : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 96] إلى ما لا يُحْصَى ، والصحيحُ من مذاهبِ النحاةِ : أنها لا تدُلُّ على الانقطاعِ ، والقائلُ بذلك يقولُ : ما لم يكنْ قرينة كالآياتِ المذكورةِ . وتقدَّمَ الخلافُ في قراءَتَيْ : وَلَد ووُلْد في مريم .

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)

قوله : ﴿ يُلاَقُواْ ﴾ : العامَّةُ من المُلاقاةِ . وابنُ محيصن – وتُرْوى عن أبي عمرٍو – " يَلْقَوا " مِنْ لَقِيَ .

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84)

قوله : ﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله ﴾ : " في السماء " متعلِّقٌ ب " إله " لأنه بمعنى معبودٌ أي : معبودٌ في السماء ومعبودٌ في الأرض ، وحينئذٍ فيقال : الصلة لا تكونُ إلاَّ جملةً أو ما في تقديرِها وهو الظرفُ وعديلُه ، ولا شيءَ منها هنا . والجوابُ : أنَّ المبتدأَ حُذِفَ لدلالة المعنى عليه ، وذلك المحذوفُ هو العائدُ تقديرُه : وهو الذي في السماءِ إلهٌ ، وهو في الأرض

إلهٌ ، وإنما / حُذِف لطولِ الصلةِ بالمعمولِ فإنَّ الجارَّ متعلِّقٌ ب إله . ومثلُه " ما أنا بالذي قائلٌ لك سوءاً " .

(317/694)

وقال الشيخ : " وحَسَّنه طولُه بالعطفِ عليه ، كما حَسَّنَ في قولِهم : قائل [لك] شيئاً طولُه بالمعمولِ " . قلت : حصولُه في الآيةِ وفيما حكاه سواءٌ ؛ فإن الصلةَ طالَتْ بالمعمولِ في كلَيْهما ، والعطفُ أمرٌ زائدٌ على ذلك فهو زيادةٌ في تحسين الحَذْفِ . ولا يجوزُ أَنْ يكونَ الجارُّ خبراً مقدماً ، و " إله " مبتدأٌ مؤخرٌ لئلا تَعْرَى الجملةُ مِنْ رابطٍ ، إذ يصيرُ نظيرَ " جاء الذي في الدار زيد " . فإن جَعَلْتَ الجارَّ صلةً وفيه ضميرٌ عائدٌ على الموصولِ وجَعَلْتَ " إله " بدلاً منه . قال أبو البقاء : " جاز على ضَعْفٍ ؛ لأن الغَرَض الكليَّ إثباتُ الإلهيةِ لا كونُه في السماء والأرض ، فكان يَفْسُدُ أيضاً من وجهٍ آخرَ وهو قولُه : ﴿ وَفِي الأَرضِ إله ﴾ لأنه معطوفٌ على ما قبلَه ، وإذا لم تُقَدِّرْ ما ذكرْنا صار منقطعاً عنه وكان المعنى : أنَّ في الأرض إلهاً " انتهى . وقال الشيخ : " ويجوزُ أَنْ تكونَ الصلةُ الجارَّ والمجرورَ ، والمعنى : أنه فيهما بألوهِيَّتِه وربُوبِيَّتِه ، إذ يَستحيل حَمْلُه على الاستقرار " .

وقرأ عمرُ وعلي وعبد الله في جماعة ﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء الله ﴾ ضُمِّن العَلَمُ أيضاً

معنى المشتقِّ ، فيتعلَّقُ به الجارُّ . ومثله " هو حاتمٌ في طَيِّئ " أي : الجوادُ فيهم . ومثلُه : فرعون العذاب .

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)

قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ : الأخَوان وابن كثير بالياء مِنْ تحتُ ، والباقون بالتاء مِنْ فوقُ ، وهو في كلَيْهما مبني للمفعول . وقُرِئ بالخطاب مبنياً للفاعل .

وقرأ العامَّةُ أيضاً " يَدْعُوْنَ " بياء الغَيْبة والضميرُ للموصل . والسلمي وابنُ وثاب بتاء الخطاب ، والأسود بن يزيد بتشديد الدالِ ، ونُقِل عنه القراءةُ مع ذلك بالتاء والياء .

(318/694)

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)

قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ﴾ : فيه قولان ، أحدهما : أنه متصلٌ والمعنى : إلاَّ مَنْ شهد بالحقِّ كعُزَيْرٍ والملائكةِ ، فإنهم يملكون الشفاعةَ بتمليك اللَّهِ إياهم لها . وقيل : هو منقطعٌ بمعنى : أنَّ هؤلاءِ لا يَشْفَعُون إلاَّ فيمَنْ شَهِد بالحقِّ ، أي : لكن مَنْ شَهِدَ بالحق يَشْفَعُ فيه هؤلاء ، كذا قَدَّروه . وهذا التقديرُ يجوزُ فيه أَنْ يكونَ الاستثناءُ متصلاً على حَذْفِ

المفعول ، تقديرُه : ولا يملكون الذين يَدْعُون مِنْ دونه الشفاعةَ في أحدٍ إلاَّ فيمَنْ شَهِدَ .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)

وقرأ العامَّة " فأنَّى يُؤْفَكون " بالغَيْبة . ورُوي عن أبي عمروٍ بالخطاب .

وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88)

قوله : ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ : قرأ حمزةُ وعاصمٌ بالجرِّ . والباقون بالنصب . فأمَّا الجرُّ فعلى وجهَيْن ، أحدهما : أنَّه عطفٌ على " الساعة " أي : عنده عِلْمُ قيلِه ، أي : قولِ محمدٍ أو عيسى عليهما السلام . والقَوْلُ والقالُ والقِيْلُ بمعنى واحد جاءَتْ المصادرُ على هذه الأوزانِ . والثاني : أنَّ الواوَ للقَسم . والجوابُ : إمَّا محذوفٌ تقديرُه : لتُنْصَرُنَّ أو لأَفْعَلَنَّ بهم ما أريد ، وإمَّا مذكورٌ وهو قولُه : ﴿ إِنَّ هؤلاء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ ذكره الزمخشريُّ .

(319/694)

وأمَّا قراءةُ النصبِ ففيها ثمانيةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّه منصوبٌ على محلِّ " الساعة " . كأنَّه قيل : إنه يَعْلَمُ الساعةَ ويعْلَمُ قِيْله كذا . الثاني : أنَّه معطوفٌ على " سِرَّهم ونجواهم " أي : لا نعلم سِرَّهم ونجواهم ولا نعلمُ قِيْلَه . الثالث : عطفٌ على مفعولِ " يكتُبون " المحذوفِ أي : يكتبون ذلك ويكتبون قيلَه كذا أيضاً . الرابع : أنَّه معطوفٌ على مفعولِ " يعلمون "

المحذوفِ أي : يَعْلمون ذلك ويعلمون قيلَه . الخامس : أنه مصدرٌ أي : قالَ قيلَه . السادس : أَنْ ينتصِبَ بإضمارِ فعلٍ أي : اللَّهُ يعلمُ قيلَ رسولِه وهو محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم . السابع : أَنْ ينتصِبَ على محلِّ " بالحق " أي : شَهِدَ بالحقِّ وبِقيْلِه . الثامن : أَنْ ينتصِبَ على حَذْفِ حرفِ القسمِ كقوله :

4012 . . . . . فذاك أمانةَ اللَّهِ الثَّريدُ

وقرأ الأعرجُ وأبو قلابةَ ومجاهدٌ والحسنُ بالرفع ، وفيه أوجه [أحدها :] الرفعُ عطفاً على " علمُ الساعةِ " بتقديرِ مضافٍ أي : وعنده عِلْمُ قِيْلِه ، ثم حُذِفَ وأُقيم هذا مُقامَه . الثاني : أَنَّه مرفوعٌ بالابتداءِ ، والجملةُ مِنْ قولِه : " يا رب " إلى آخره هي الخبر . الثالث : أنه مبتدأٌ وخبرُه محذوفٌ تقديرِه : وقيلُه كيتَ وكيتَ مَسْموعٌ أو مُتَقَبَّلٌ . الرابع : أنه مبتدأ وأصلُه القسمُ كقولِهم : " ايمُنُ الله " و " لَعَمْرُ الله " فيكونُ خبرُه محذوفاً . والجوابُ كما تقدَّم ، ذَكَرَه الزمخشري أيضاً .

(320/694)

واختار القراءةَ بالنصب جماعةٌ . قال النحاس : " القراءةُ البَيِّنَةُ بالنصب من جهتَيْن ، إحداهما : أنَّ التفرقةَ بين المنصوبِ وما عُطِفَ عليه مُغْتَفَرَةٌ بخلافِها بين المخفوضِ وما

عُطِفَ عليه . والثانيةُ تفسيرُ أهلِ التأويل بمعنى النصب " . قلت : وكأَنَّه يُريدُ ما قال أبو عبيدة قال : " إنما هي في التفسيرِ : أم يَحْسَبون أنَّا لا نَسْمع سِرَّهم ونجواهم ولا نسمعُ قِيْلَه يا رب . ولم يَرْتَضِ الزمخشريُّ من الأوجهِ المتقدمةِ شيئاً ، وإنما اختار أَنْ تكونَ قَسَماً في القراءاتِ الثلاثِ ، وتقدَّم تحقيقُها .

وقرأ أبو قلابة " يا رَبَّ " بفتح الباءِ على قَلْب الياء ألفاً ثم حَذَفَها مُجْتَزِئاً عنها بالفتحة كقولِه :

4013 . . . . . بلَهْفَ ولا بِلَيْتَ

. . . . . .

والأخفشُ يَطَّرِدُها .

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ : قرأ نافعٌ وابنُ عامر " تَعْلمون " بالخطاب التفاتاً ، والباقون بالغَيْبة نظراً لِما تقدَّم . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 9 صـ 694.713﴾

(321/694)

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ يُشْبِهُ قَوْلَهُ : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إذَا قَوْمُك مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ فَيُشْبِهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ ضَرْبُ الْمَثَلِ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَسِيحَ ابْنَهُ . وَالْمَلَائِكَةَ بَنَاتَه وَالْوَلَدُ يُشْبِهُ أَبَاهُ فَجَعَلُوهُ لِلَّهِ شَبِيهًا وَنَظِيرًا . أَوْ يَكُونُ الْمَعْنَى فِي الْمَسِيحِ أَنَّهُ مَثَلٌ لِآلِهَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ ضَارِبُهُ كَضَارِبِ الْمَثَلِ لِلرَّحْمَنِ وَهُمْ النَّصَارَى وَالْمُشْرِكُونَ وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ ضَارِبُهُ هُوَ الَّذِي عَارَضَ بِهِ قَوْلَهُ : ﴿ إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ فَلَمَّا قَالَ ابْنُ الزبعرى : لَأَخْصِمَنَّ مُحَمَّدًا . فَعَارَضَهُ بِالْمَسِيحِ وَنَاقَضَهُ بِهِ كَانَ قَدْ ضَرَبَهُ مَثَلًا قَاسَ الْآلِهَةَ عَلَيْهِ وَيَتَرَجَّحُ هَذَا بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلَّا جَدَلًا ﴾ فَعُلِمَ أَنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ

(322/694)

ضَرَبُوهُ لَا النَّصَارَى . فَإِنَّ " الْمَثَلَ " يُقَالُ عَلَى الْأَصْلِ وَعَلَى الْفَرْعِ " وَالْمَثَلُ " يُقَالُ عَلَى الْمُفْرَدِ وَيُقَالُ عَلَى الْجُمْلَةِ الَّتِي هِيَ الْقِيَاسُ كَمَا قَدْ ذَكَرْت فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ ضَرْبَ الْمَثَلِ هُوَ

الْقِيَاسُ أَمَّا قِيَاسُ التَّمْثِيلِ فَيَكُونُ الْمَثَلُ هُوَ الْمُفْرَدُ وَأَمَّا قِيَاسُ الشُّمُولِ فَيَكُونُ تَسْمِيَتُهُ ضَرْبَ مِثْلٍ كَتَسْمِيَتِهِ قِيَاسًا كَمَا بَيَّنْته فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ جِهَةِ مُطَابَقَةِ الْمَعَانِي الذِّهْنِيَّةِ لِلْأَعْيَانِ الْخَارِجِيَّةِ وَمُمَاثَلَتِهَا لَهَا وَمِنْ جِهَةِ مُطَابَقَةِ ذَلِكَ الْمُفْرَدِ الْمُعَيَّنِ لِلْمَعْنَى الْعَامِّ الشَّامِلِ لِلْأَفْرَادِ وَلِسَائِرِ الْأَفْرَادِ ؛ فَإِنَّ الذِّهْنَ يَرْتَسِمُ فِيهِ مَعْنًى عَامٌّ يُمَاثِلُ الْفَرْدَ الْمُعَيَّنَ وَكُلُّ فَرْدٍ يُمَاثِلُ الْآخَرَ فَصَارَ هَذَا الْمَعْنَى يُمَاثِلُ هَذَا وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُمَاثِلُ الْمَعْنَى الْعَامَّ الشَّامِلَ لَهُمَا . وَبِهَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ سُمِّيَ ضَرْبَ مَثَلٍ وَسُمِّيَ قِيَاسًا فَإِنَّ الضَّرْبَ الْجَمْعُ وَالْجَمْعُ فِي الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَهُوَ الْعُمُومُ وَالشُّمُولُ فَالْجَمْعُ وَالضَّرْبُ وَالْعُمُومُ وَالشُّمُولُ فِي النَّفْسِ مَعْنًى وَلَفْظًا فَإِذَا ضَرَبَ مَثَلًا فَقَدْ صِيغَ عُمُومًا مُطَابِقًا أَوْ صِيغَ مُفْرَدًا مُشَابِهًا ؛ فَتَدَبَّرْ هَذَا فَإِنَّهُ حَسَنٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ . وَلَك أَنْ تَقُولَ : كُلُّ إخْبَارٍ بِمَثَلٍ صَوَّرَهُ الْمُخْبِرُ فِي النَّفْسِ فَهُوَ ضَرْبُ

(323/694)

مَثَلٍ ؛ لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ جَمَعَ مَثَلًا فِي نَفْسِهِ وَنَفْسِ الْمُسْتَمِعِ بِالْخَبَرِ الْمُطَابِقِ لِلْمُخْبَرِ فَيَكُونُ الْمَثَلُ هُوَ الْخَبَرُ وَهُوَ الْوَصْفُ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ . وَبَسْطُ هَذَا اللَّفْظِ وَاشْتِمَالُهُ عَلَى مَحَاسِنِ الْأَحْكَامِ وَالْأَدِلَّةِ قَدْ

ذَكَرْته فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 40 .

42 ﴾

(324/694)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الزّخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5)

الإعراب :

(الواو) واو القسم (الكتاب) مجرور بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (قرآنا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " (أقسم) بالكتاب . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " إنّا جعلناه . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " جعلناه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لعلّكم تعقلون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تعقلون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

4 - (الواو) عاطفة (في أم) متعلّق بـ (عليّ) ، (لدينا) ظرف مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بـ (عليّ) (اللام) المزحلقة للتوكيد .

وجملة : " إنّه . . . لعليّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

5 - (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (عنكم) متعلّق بـ (نضرب) بتضمينه معنى نمسك أو نعرض (صفحا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في المعنى " 1 " ، (أن) حرف مصدريّ . .

والمصدر المؤوّل (أن كنتم قوما . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (نضرب) أي لأن كنتم " 2 " . . .

الصرف :

(صفحا) ، مصدر صفح الثلاثيّ وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

---

(1) أو هو مصدر في موضع الحال .

(2) وجملة نضرب . . . لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أنهملكم .

وجملة : كنتم قوما لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

(325/694)

---

1 – فن التناسب : في قوله تعالى " وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ : إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "

في هذه الآية الكريمة أقسم اللّه تعالى بالقرآن ، وإنما يقسم بعظيم ، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن عربي مرجو به أن يعقل به العالمون ، أي : يتعقلوا آيات اللّه تعالى ، فكان جواب القسم مصححا للقسم .

وهذا ما يسمى بفن التناسب ، فقد حصل التناسب بين القسم والمقسم به ، لأنهما شيء واحد .

2 – الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ " .

فقد استعار لفظ الأم للأصل ، وهو اللوح المحفوظ ، ذلك هو المشبه المحذوف .

وهذه الاستعارة من أجل تمثيل ما ليس بمرئي حتّى يصير مرئيا والإفادة من هذه الاستعارة هي الظهور ، لأن الأم أظهر للحس من الأصل .

3 – الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ " .

أي أ فننحيه ونبعده عنكم ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، من قولهم " ضرب الغرائب عن الحوض " ، حيث شبه حال الذكر وتنحيته ، بحال غرائب الإبل وذودها عن الحوض إذا دخلت مع غيرها عند الورود ، ثم استعمل ما كان في

تلك القصة ها هنا ، ومنه قول الحجاج : لأضربنكم ضرب غرائب الإبل .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 6 إلى 8]

وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (7) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كم) خبريّة اسم كناية في محلّ نصب مفعول به مقدّم (من نبيّ) تمييز كم (في الأوّلين) متعلّق بـ (أرسلنا) .

(326/694)

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

7 - (الواو) عاطفة (ما) نافية (نبيّ) مجرور لفظا بمن مرفوع محلّا فاعل يأتيهم (إلّا) للحصر (به) متعلّق بـ (يستهزئ) .

وجملة : " ما يأتيهم من نبيّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "كانوا به يستهزئون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يستهزئون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

8 – (الفاء) عاطفة (أشدّ) مفعول أهلكنا ، وهو أصلا نعت لمنعوت مقدّر أي قوما أشدّ (منهم) متعلّق بـ (أشدّ) ، (بطشا) تمييز منصوب (الواو) استئنافيّة . . .

وجملة : " أهلكنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما يأتيهم .

وجملة : " مضى مثل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(بطشا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ بطش باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(مضى) ، فيه إعلال بالقلب أصله مضي – بياء في آخره – تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

الفوائد

– كم الاستفهامية وكم الخبرية . . .

1 – (كم) الاستفهامية يطلب بها تعيين العدد ، ومميزها منصوب دائما ، مثل (كم كتابا قرأت) ؟ إلا إذا اقترنت بحرف جر فإن مميزها يجر ، مثل : (بكم ليرة اشتريت الكتاب) ؟

2 – كم الخبرية تفيد الإخبار والتكثير ، ومميزها مجرور بالإضافة مثل : (كم فارس تبارز في

الميدان) . كما يأتي مميزها مجرورا بمن ، مثل : (كم من شهيد سقط دفاعا عن الكرامة) والمعنى كثير من الشهداء سقطوا دفاعا عن الكرامة .

3 – تعرب كم الاستفهامية وكم لخبرية حسب ما بعدها من الكلام .

آ – تعربان في محلّ رفع مبتدأ إذا وليهما اسم مثل :

كم فارسا في الميدان ؟ كم بطل في الساحة ! وفي قولنا كم مالك ؟ يجوز في (كم) أن تكون مبتدأ أو أن تكون خبرا مقدما .

وكذلك إذا وليهما فعل لازم تعربان مبتدأ مثل :

كم رجلا جاء للمشاركة في الاحتفال ؟ كم شهيد سار على درب النضال !

وكذلك إذا وليهما فعل متعد استوفى مفعوله ، تعربان مبتدأ . كم كتابا قرأته ؟

(327/694)

كم صديق زرته للّه ! ب – وتعربان في محلّ نصب مفعولا به ، إذا وليهما فعل متعد لم يستوف مفعوله : (كم كتابا قرأت ؟ كم صديق زرت اللّه) .

ج – وتعربان في محلّ نصب على الظرفية الزمانية أو المكانية ، إذا وليهما ظرف زمان أو مكان ، شريطة ألا يطلب الفعل مفعولا به . .

كم ساعة سرت في الطريق ؟ كم ميل مشيت إليك !

د – وتعربان في محلّ نصب مفعولا مطلقا ، إذا وليهما مصدر من لفظ الفعل :

كم ضربة ضربت العدو ؟ كم طعنة طعنها العدو ! ج – وتعرب كم الاستفهامية خبرا للفعل الناقص إذا وليها : كم أصبح أولادك ؟ كم كان مالك ؟

ملاحظة هامة :

1 – يمكن حذف مميّز كم الاستفهامية والخبرية ، إذا فهم من السياق : كم صمت ، أي كم يوما صمت . كم مشينا على الخطوب كراما ، أي كم مشية مشينا .

2 – مميز كم الاستفهامية يعرب تمييزا منصوبا ، ومميز كم الخبرية يعرب مضافا إليه .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 9 إلى 14]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13)

وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (14)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) موطّئة للقسم (سألتهم) ماض في

(328/694)

محلّ جزم فعل الشرط (من) اسم استفهام مبتدأ خبره جملة خلق (اللام) لام القسم (يقولّن) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون – وقد حذفت لتوالي الأمثال – و(الواو) لالتقاء الساكنين فاعل و(النون) للتوكيد (العليم) نعت للعزيز مرفوع.

جملة : " سألتهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " من خلق السموات . . . " في محلّ نصب مفعول السؤال المعلّق بالاستفهام بتقدير الجارّ.

وجملة : " يقولّن . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

وجملة : " خلقهنّ العزيز . . . " في محلّ نصب مقول القول.

10 – (الذي) موصول في محلّ رفع نعت ثان للعزيز " 1 " (لكم) متعلّق بحال من المفعول به الثاني مهدا ، (لكم) الثاني متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (فيها) متعلّق بالمفعول الثاني – أو

بـ(جعل) . .

وجملة : " جعل (الأولى) . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " جعل (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل (الأولى) .

وجملة : " لعلّكم تهتدون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تهتدون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

11 - (الواو) عاطفة (الذي) موصول في محلّ رفع معطوف على الموصول الأولى (من السماء) متعلّق بـ(نزّل) ، (بقدر) متعلّق بنعت لـ(ماء) ، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (أنشرنا) ، (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله (تخرجون) . . و(الواو) فيه نائب الفاعل .

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة استئنافيّة .

وجملة : " نزّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " أنشرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وفيها التفات .

وجملة : " تخرجون " لا محلّ لها اعتراضيّة .

12 - (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (الذي) موصول في محلّ رفع معطوف على الموصول الأول (كلّها) توكيد معنويّ لـ (الأزواج) منصوب مثله (لكم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (من الفلك) متعلّق بحال من (ما) المفعول الأول " 1 " . .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثالث .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

وجملة : " تركبون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 2 " .

13 - (اللام) لام العاقبة أو الصيرورة (تستووا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (على ظهوره) متعلّق بـ (تستووا) ، (تذكروا) مضارع منصوب معطوف على (تستووا) ، (إذا) ظرف للمستقبل مجرّد من الشرط متعلّق بـ (تذكروا) (عليه) متعلّق بـ (استويتم) ، (الواو) عاطفة (تقولوا) مضارع منصوب معطوف على (تذكروا) ، (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (الذي) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (لنا) متعلّق بـ (سخّر) ، (الواو) حاليّة (ما) نافية (له) متعلّق بالخبر (مقرنين) .

والمصدر المؤوّل (أن تستووا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعل) .

وجملة : " تستووا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تذكروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تستووا .

وجملة : " استويتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) ما ، موصول أو نكرة موصوفة ، والعائد محذوف أي تركبونها .

(2) أو في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

الجدول ج 25 ، ص : 70

وجملة : " تقولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تذكروا .

وجملة : " (نسبّح) سبحان . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سخّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " ما كنّا له مقرنين " في محلّ نصب حال .

(إلى ربّنا) متعلّق بـ (منقلبون) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد .

وجملة : " إنّا . . . لمنقلبون " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

الصرف :

---

(13) مقرنين : جمع مقرن ، اسم فاعل من (أقرنه) أي أطاقه ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

1 – فن الحذف : في قوله تعالى " لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ " .

حيث حذف الموصوف ، وهو الله سبحانه تعالى ، وأقام صفاته مقامه ، لأن الكلام مجزأ ، فبعضه من قولهم ، وبعضه من قول الله تعالى . فالذي هو من قولهم " خلقهن " ، وما بعده من قول الله عز وجل . وأصل الكلام أنهم قالوا : خلقهن الله ، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى : " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ " ثم لما قالوا : خلقهن الله ، وصف ذاته بهذه الصفات ولما سيق الكلام كله سياقه ، حذف الموصوف من كلامهم ، وأقيمت الصفات المذكورة من كلام الله تعالى مقامه ، كأنه كلام واحد . ونظير هذا أن تقول للرجل : من أكرمك من القوم ؟ فيقول : أكرمني زيد ، فتقول أنت واصفا المذكور : الكريم الجواد الذي صفته كذا وكذا .

2 – الالتفات : في قوله تعالى " فَأَنْشَرْنا " .

حيث وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل ، فجاء أوله على لفظ الغيبة ، وآخره على الانتقال منها إلى التكلم ، في قوله " فأنشرنا " . ومن هذا النمط

قوله تعالى ، حكاية عن موسى : " قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى " ، فجاء أول الكلام حكاية عن موسى إلى قوله (ولا ينسى) ، ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى ، فوصف ذاته أوصافا متصلة بكلام موسى

حتّى كأنه كلام واحد . وابتدأ في ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله " فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى " .

(331/694)

---

3 - سرّ الحال : في قوله تعالى " وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ " .

فكم من راكب دابة عثرت به ، أو شمست ، أو تقحمت ، أو طاح من ظهرها فهلك وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا ، فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر ، واتصالا بسبب من أسباب التلف كان من حق الراكب ، وقد اتصل بسبب من أسباب التلف ، أن لا ينسى عند اتصاله به شؤمه ، وأنه هالك لا محالة ، فمنقلب إلى اللّه غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه ، حتى يكون مستعدا للقاء اللّه بإصلاحه من نفسه .

[سورة الزخرف (43) : آية 15]

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (له) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (من عباده) متعلّق بـ (جعلوا) ،

(اللام) مزحلقة .

جملة : " جعلوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " إنّ الإنسان لكفور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الزخرف (43) : آية 16]

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (16)

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالا بتقدير قد مرتبطة مع قوله تعالى : ولئن سألتهم . . . فهم ينقضون الاعتراف بربوبيّة اللّه بجعلهم بعض عباده منتسبين له .

(332/694)

الإعراب :

(أم) بمعنى بل ، أو بمعنى الهمزة ، أو بمعنى بل والهمزة وهي للإنكار " 1 " ، (ممّا) متعلّق بـ (اتخذ) وهو في موضع المفعول الثاني (بنات) مفعول به أوّل منصوب وعلامة النصب الكسرة ملحقّ بجمع المؤنّث (الواو) عاطفة - أو حالية - (بالبنين) متعلّق بـ (أصفاكم) . .

وجملة : " اتّخذ . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : أم تقولون اتّخذ . . .

وجملة : " يخلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أصفاكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اتّخذ " 2 " .

[سورة الزخرف (43) : آية 17]

---

(1) أجاز ذلك أبو حيّان .

(2) يجوز أن تكون حالا بتقدير (قد) .

(333/694)

وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (بما) متعلّق بـ (بشّر) ، (للرحمن) متعلّق بـ (ضرب) ، (مثلا) مفعول به ثان عامله ضرب بتضمينه معنى جعل ، والمفعول به الأول محذوف أي ضربه (الواو) حاليّة . .

جملة : " بشّر أحدهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ضرب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ظلّ وجهه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " هو كظيم . . . " في محلّ نصب حال .

[سورة الزخرف (43) : آية 18]

أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) استئنافيّة (من)

موصول في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره يجعلون " 1 " ، ونائب الفاعل لفعل (ينشأ) ضمير يعود على (من) ، (في الحلية) متعلّق بـ (ينشّأ) ، (الواو) حالية (في الخصام) متعلّق بـ (مبين) " 2 " . .

جملة : " (يجعلون) من . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " ينشّأ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هو . . . غير مبين " في محلّ نصب حال .

]

سورة الزخرف (43) : الآيات 19 إلى 23]

---

(1) أي : أيجعلون من ينشّأ . . . ولدا ، ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ والخبر محذوف أي : أو من ينشّأ . . ولد .

(2) لا يمتنع عمل المضاف إليه هنا في ما قبله لأنّ المضاف لفظ غير بمعنى النفي . .

(3) جوّزوا عطفها على جملة مقدّرة مستأنفة أي : أيجترئون ويجعلون من ينشّأ . . .

وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (19) وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (الذين) موصول في محلّ نصب نعت للملائكة (إناثا)

مفعول به ثان عامله جعلوا (الهمزة) للاستفهام

الإنكاريّ . .

جملة : " جعلوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو معطوفة على جملة الاستئناف المقدّرة في الآية السابقة - وجملة : " هم عباد الرحمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " شهدوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ستكتب شهادتهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يسألون " لا محلّ لها معطوفة على جملة ستكتب .

20 - (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (ما) نافية في الموضعين (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (بذلك) متعلّق بحال من علم (علم) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلوا . .

(335/694)

وجملة : " شاء الرحمن . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما عبدناهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ما لهم بذلك من علم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن هم إلّا يخرصون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة : " يخرصون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

21 - (أم) منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار " 1 " ، (كتابا) مفعول به ثان منصوب (من قبله) متعلّق بنعت لـ (كتابا) والضمير في (قبله) يعود على القرآن العظيم " 2 " ، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (مستمسكون) .

وجملة : " آتيناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم به مستمسكون " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيناهم .

---

(1) الإضراب هنا عن نفي أن يكون لهم مستمسك عقليّ إلى إنكار أن يكون لهم سند نقليّ . [. . . . .]

(2) أو متعلّق بـ (آتيناهم) .

(336/694)

---

22 - (بل) للإضراب الانتقاليّ (على أمّة) متعلّق بحال من آباء (على آثارهم) متعلّق بالخبر (مهتدون) " 1 " .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّا وجدنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " وجدنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّا على آثارهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

23 - (الواو) عاطفة (كذلك) متعلّق بمحذوف خبر والمبتدأ مقدّر أي الأمر كذلك بعجزهم عن الحجّة وتمسّكهم بالتقليد (ما) نافية (من قبلك) متعلّق بحال من نذير " 2 " ،

(في قرية) متعلّق بـ(أرسلنا) ، (إلّا) للحصر (إنّا وجدنا . . . مقتدون) مثل إنا وجدنا . . . مهتدون (في الآية السابقة) .

وجملة : " (الأمر) كذلك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا . . .

وجملة : " ما أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " قال مترفوها . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " إنّا وجدنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) يجوز أن يكون متعلّقا بمحذوف خبر . . و(مهتدون) خبرا ثانيا .

(2) أو متعلّق بـ(أرسلنا) .

وجملة : " وجدنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّا على آثارهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّا وجدنا .

الصرف :

(21) مستمسكون : جمع مستمسك ، اسم فاعل من السداسيّ استمسك ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين .

(23) مقتدون : جمع المقتدي ، اسم فاعل من الخماسيّ اقتدى ، وزنه مفتع – المفتعل – بضمّ الميم وكسر العين . . . ففي (مقتدون) إعلال بالحذف ، أصله مقتديون – بكسر الدال وضمّ الياء – استثقلت الضمة على الياء فسكّنت ونقلت الضمّة إلى الدال – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين فأصبح مقتدون وزنه مفتعون .

الفوائد

– بناء الفعل للمجهول . .

يقسم الفعل إلى مبني للمعلوم ومبني للمجهول ، فالأول ما ذكر معه فاعله مثل : كسر الولد الزجاج ، والثاني ما حذف فاعله وأنيب عنه غيره ، مثل : كسر الزجاج .

ويجب عند البناء للمجهول تغيير صورة الفعل ، فإن كان ماضيا كسر ما قبل آخره وضم كلّ متحرك قبله ، مثل : (حفظ الكتاب) و(تقبّلت الصدقة) (استخرج المعدن) .

وإن كان مضارعا ضم أوله وفتح ما قبل آخره ، (يقطع الغصن) (يتعلّم الحساب) (يستخرج المعدن) .

فإن كان ما قبل آخر الماضي ألفا قلبت ياء وكسر ما قبلها ، فنقول في : قال واختار . قيل واختير .

وإن كان ما قبل آخر المضارع حرف مد قلبت ألفا : يقول ويبيع يصبحان : يقال ويباع .

ملاحظة : الفعل اللازم لا يبنى للمجهول إلا إذا كان نائب الفاعل مصدرا أو ظرفا أو جارا ومجرورا ، مثل : (احتفل احتفال عظيم) و(ذهب أمام الأمير) و(فرح بالعيد) .

2 - الفعل المتعدي لمفعولين يصبح المفعول الأول نائب فاعل ، والمفعول الثاني يبقى على حاله ، مثل : (أعطي الفقير مالا) الفقير نائب فاعل ، ومالا مفعول به ثان .

(338/694)

[سورة الزخرف (43) : الآيات 24 إلى 25]

قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (24)
فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (الواو) حالية (لو) حرف شرط غير جازم (بأهدى) متعلّق بـ (جئتكم) - أو بحال من ضمير الخطاب في (جئتكم) ، (ممّا) متعلّق بـ (أهدى) ، (عليه) متعلّق بحال من (آباءكم) ، (بما) متعلّق بـ (كافرون) (به) متعلّق بـ (أرسلتم) ، وضمير الخطاب نائب الفاعل .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " جئتكم . . . " في محلّ نصب حال . . ومقول القول محذوف أي أ تفعلون ذلك ولو جئتكم . . . وجواب الشرط مقدّر دلّ عليه مقول القول المحذوف .

وجملة : " وجدتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّا . . . كافرون " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرسلتم به " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

25 - (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (منهم) متعلّق بـ (انتقمنا) ، (الفاء) الثانية رابطة لجواب شرط مقدّر (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان . .

وجملة : " انتقمنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا .

وجملة : " انظر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كذّبك قومك فانظر . . .

وجملة : " كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق عن العمل المباشر بالاستفهام وذلك بتقدير الجارّ . .

البلاغة

فن الإلجاء : في قوله تعالى " قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ " الآية ، ومعنى هذا الفن البلاغي : أن يبادر المتكلم الخصم بما يلجئه إلى الاعتراف بحقيقة نفسه ودخيلة قلبه .

ففي الآية الكريمة ، التعبير بالتفضيل المقتضي أن ما عليه آباؤهم فيه هداية ، لم يكن إلا لإلجائهم إلى الاعتراف بحقيقة نيّاتهم التي يضمرونها . كأنه يتنزل معهم إلى أبعد الحدود ، ويرخي العنان لهم ، ليعترفوا .

الفوائد

- كيف الاستفهامية . .

وهي اسم : للإخبار بها ومباشرتها الفعل (كيف كنت) ، فهي هنا في محل نصب خبر مقدم لكنت ، وهذا دليل على أنها اسم .

وقد وردت في الآية التي نحن بصددها خبرا لكان في قوله تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) ويكون إعرابها :

1 - خبرا إن وليها اسم مثل : كيف أنت ، أو فعل ناقص مثل : كيف كنت .

2 - وتعرب حالا إذا وليها فعل تام (أي غير ناقص) مثل :

كيف جاء زيد . وكثير من النحاة ، ومنهم ابن هشام ، يعربونها في أمثال ذلك مفعولا مطلقا ، كما في قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ) أي (أيّ فعل فعل) .

ملاحظة :

كيف اسم استفهام ملازم البناء على الفتح دائما . .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 26 إلى 28]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (لأبيه) متعلّق بـ (قال) ، (ممّا) متعلّق بـ (براء) ، (ما) موصول والعائد محذوف .

جملة : " قال إبراهيم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّني براء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تعبدون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

27 - (إلّا) للاستثناء (الذي) موصول في محلّ نصب على الاستثناء " 1 " ، (الفاء) تعليليّة (السين) حرف استقبال .

وجملة : " فطرني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " إنّه سيهدين " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " سيهدين " في محلّ رفع خبر إنّ " 2 " .

28 - (الواو) استئنافيّة ، وضمير الغائب في (جعلها) يعود إلى كلمة التوحيد المفهومة من قول إبراهيم السابق (كلمة) مفعول به ثان منصوب (في عقبه) متعلّق بـ (باقية) ، وضمير

الغائب في (يرجعون) قد يعود إلى أهل مكة لا إلى عقب إبراهيم.

---

(1) هو منقطع إن كانوا يعبدون الأصنام وحدها . . وهو متّصل إن كانوا يشركون مع اللّه الأصنام.

(2) النون في (سيهدين) للوقاية تقي الفعل من الكسر قبل ياء المتكلّم المقدّرة لمناسبة الفواصل.

(340/694)

وجملة: "جعلها . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لعلّهم يرجعون" لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يرجعون" في محلّ رفع خبر لعلّ.

الصرف:

(26) براء: مصدر (برىء) الثلاثيّ باب فرح وزنه فعال بفتح الفاء - وقد استخدم في موضع الصفة - وثمّة مصادر أخرى للفعل هي برؤ بضمّ الباء وبراءة بتاء مربوطة في آخره.

[سورة الزخرف (43): الآيات 29 إلى 31]

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا

هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30) وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (الواو) عاطفة (آباءهم) معطوف على اسم الإشارة هؤلاء ، منصوب (حتّى) للغاية (الواو) عاطفة . .

والمصدر المؤوّل (أن جاءهم . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (متّعت) .

جملة : " متّعت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاءهم الحقّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

30 - (الواو) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط (الواو) عاطفة (به) متعلّق بـ (كافرون) .

(341/694)

وجملة : " جاءهم الحقّ " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " هذا سحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّا به كافرون " في محلّ نصب معطوفة على جملة هذا سحر .

31 - (الواو) عاطفة (لولا) حرف تحضيض (القرآن) بدل من اسم الإشارة هذا في محلّ رفع - أو عطف بيان عليه - (على رجل) متعلّق بـ (نزّل) ، (من القريتين) متعلّق بنعت لـ (رجل) ، وفيه حذف مضاف أي من إحدى القريتين " 1 " .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا الأولى .

وجملة : " نزّل هذا القرآن . . . " في محلّ نصب مقول القول .

[سورة الزخرف (43) : آية 32]

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (قسمنا) ، (في الحياة) متعلّق بـ (قسمنا) ، (فوق) ظرف منصوب متعلّق بـ (رفعنا) ، (درجات) مفعول مطلق نائب عن المصدر - وصف للمصدر - أي : رفعا متفاوتا " 2 " ، (اللام) للتعليل (يتّخذ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (سخريّا) مفعول به ثان منصوب . . (الواو) استئنافيّة (ممّا) متعلّق بـ (خير) ، و(ما) موصول والعائد محذوف " 3 " .

(1) قال قتادة : هما الوليد بن المغيرة بمكّة ، أو عروة بن مسعود الثقفيّ بالطائف .

(2) يجوز أن يكون حالا بحذف مضاف أي ذوي درجات .

(3) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريّا فلا حذف . .

(342/694)

جملة : " هم يقسمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقسمون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : " نحن قسمنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " قسمنا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن) .

وجملة : " رفعنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة قسمنا .

وجملة : " يتّخذ بعضهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر والمصدر المؤوّل (أن يتّخذ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (رفعنا) .

وجملة : " رحمة ربّك خير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يجمعون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الفوائد

- الناس درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا . .

بينت هذه الآية قانونا اجتماعيا في حياة الناس ومعاشهم ، فقد اقتضت حكمته أن يكون هذا غنيا وهذا فقيرا ، وهذا قويا وهذا ضعيفا ، وهذا رئيسا وهذا مرءوسا ليخدم بعضهم بعضا ، ولتتكامل الحياة بكافة جوانبها ، وتتوازن أوضاع البشر فيها ، فلا يحدث الخلل والاضطراب ، وتتعطل بعض جوانب الحياة وهذا قانون مطرد في حياة الناس وأوضاعهم ، في كلّ زمان ومكان ، ولا يمكن لأحد أن يغيّر منه أو يبدل فيه وانطلاقا من هذا القانون ، فإن اللّه عز وجل ، يختص بعض عباده بالرسالة والوحي ، ليكتمل جانب من أهم جوانب الحياة ، فلا يعترض على ذلك إلا أحمق قاصر النظر ، لا يفقه من الحياة شيئا ، فاللّه يختص برحمته من يشاء ، له الحكم وإليه المصير .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 33 إلى 35]

وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (34) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)

الجدول ج 25 ، ص : 83

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لولا) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مصدريّ ونصب . .

والمصدر المؤوّل (أن يكون) في محلّ رفع مبتدأ بحذف مضاف أي : لولا كراهة كون الناس أمّة واحدة على الكفر . . . أي أن يجتمعوا على الكفر . –

وخبر المبتدأ محذوف .

(اللام) رابطة لجواب لولا بالشرط (لمن) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (بالرحمن) متعلّق بـ (يكفر) ، (لبيوتهم) بدل من الموصول بإعادة الجارّ ، وهو بدل اشتمال ، (من فضّة) نعت للمفعول الأول (سقفا) ، (معارج) معطوف على (سقفا) بالواو ، منصوب ومنع من التنوين لأنه جمع على صيغة منتهى الجموع (عليها) متعلّق بـ (يظهرون) .

جملة : " لولا أن يكون . . . (الاسميّة) " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يكون الناس أمّة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يكفر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يظهرون " في محلّ نصب نعت لمعارج .

34 – (الواو) عاطفة (لبيوتهم أبوابا . . . يتّكئون) مثل لبيوتهم سقفا . . .

يظهرون ومعطوفة عليها .

وجملة : " يتّكئون " في محلّ نصب نعت لـ (سررا) " 1 " .

(الواو) عاطفة (زخرفا) مفعول به لفعل محذوف تقديره جعلنا " 2 " ، (الواو) استئنافيّة

(إن) حرف نفي (لمّا) للحصر بمعنى الّا (متاع) خبر المبتدأ (كلّ) مرفوع (الواو) عاطفة

(عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (المتّقين) (للمتّقين) متعلّق بخبر المبتدأ (الآخرة) . .

وجملة : " (جعلنا) زخرفا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " إن كلّ ذلك لمّا متاع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الآخرة . . . للمتّقين " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن كلّ ذلك . . .

الصرف :

(33) فضّة : اسم جامد للمعدن المعروف وزنه فعلة بكسر فسكون .

(معارج) ، جمع معرج ، اسم آلة من الثلاثيّ عرج على غير القياس فهو على وزن مفعل بفتح الميم وقد يكون على القياس بكسرها .

الفوائد

1 - (إن) المخففة من الثقيلة . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَإِنْ كُلُّ ذِلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا فـ (إن) هنا مخففة من الثقيلة ، وقد أهملت ، فلم تعمل كـ (إنّ) . وسنبين فيما يلي حكمها بالتفصيل :

1 - إن : المخففة من الثقيلة ، تدخل على الجملتين : الاسميّة والفعلية ، فإن دخلت على الاسميّة جاز إعمالها خلافا للكوفيين ، وقد ورد إعمالها في القرآن الكريم

---

(1) يجوز أن يكون (سررا) مفعولا به لفعل محذوف تقديره جعلنا . . وحينئذ تعطف الجملة على (جعلنا) الأولى .

(2) يجوز أن يكون منصوبا على نزع الخافض معطوفا على (من فضّة) أي من فضّة ومن زخرف - أي من ذهب - . . .

كما في قراءة الحرميّين وأبى بكر (وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ) ، وحكاية سيبويه (إن عمرا لمنطلق) ، ويكثر إهمالها ، وهذا ما عليه كثير من النحاة ، مثل قوله تعالى وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ وقراءة حفص : (إن هذان لساحران) وقوله تعالى وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ .

2 - وإن دخلت على الفعل أهملت وجوبا ، والأكثر أن يكون الفعل ماضيا ناسخا ، نحو (وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً) و(إِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) . وقد يرد مضارعا ناسخا ، كقوله تعالى (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ) . ومتى وردت إن وبعدها اللام المفتوحة فاحكم

عليها بأن أصلها التشديد .

2 - متاع الدنيا قليل . .

بينت هذه الآية سرعة زوال الدنيا ، وانقضاء نعيمها ، وأن الآخرة خير وأبقى .

عن سهل بن سعد قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ، ما سقى منها كافرا شربة ماء . أخرجه الترمذي

وقال : حديث حسن غريب . و

(345/694)

عن المستورد بن شداد ، جدّ بني فهر ، قال : كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) على السخلة (ابنة العنز) الميتة ، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) :

أترون هذه هانت على أصحابها حين ألقوها ، قالوا : من هوانها ألقوها يا رسول اللّه ، قال : فإن الدنيا أهون على اللّه من هذه الشاة على أصحابها . أخرجه الترمذي

وقال :

حديث حسن .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 36 إلى 38]

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (عن ذكر) متعلّق بـ (يعش) ، (له) متعلّق بـ (نقيّض) ، (الفاء) عاطفة (له) الثاني متعلّق بـ (قرين) .

جملة : " من يعش . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعش " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " نقيّض . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " هو له قرين " في محلّ نصب معطوفة على مقدّر هو نعت لـ (شيطانا) أي : شيطانا يفتنه فهو له قرين .

37 - (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوكيد (عن السبيل) متعلّق بـ (يصدّونهم) . . . (الواو) حاليّة .

والمصدر المؤوّل (أنّهم مهتدون) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يحسبون ، والضمير فيه يعود إلى (العاشين) في قوله من يعش . . .

وجملة : " إنّهم ليصدون " في محلّ نصب معطوفة على جملة هو له قرين .

وجملة : " يصدّون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يحسبون . . . " في محلّ نصب حال .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(346/694)

---

38 - (حتّى) حرف ابتداء (يا) للتنبيه (بيني) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر ليت . . (بينك) ظرف منصوب معطوف على الظرف الأول (بعد) اسم ليت منصوب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (القرين) فاعل بئس . .

والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره أنت .

وجملة : " جاءنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ليت بيني . . . بعد " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " بئس القرين " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنت اتّخذتك قرينا فبئس القرين أنت .

الصرف :

(36) يعش : فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم . . وزنه يفع بضمّ العين لأنّ الحرف المحذوف واو . . عشا يعشو أي أعرض .

البلاغة

1 – النكرة الواقعة في سياق الشرط : في قوله تعالى " وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً " . في هذه الآية الكريمة نكتة بديعة ، وهي أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم ، حيث أراد عموم الشياطين لا واحدا ، وذلك لأنه أعاد عليه الضمير مجموعا في الآية التي بعدها في قوله : " وإنهم " فإنه عائد إلى الشيطان قولا واحدا .

2 – التغليب : في قوله تعالى "بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ " .

وهذا الفن : هو أن يغلب الشيء على ما لغيره ، ذلك بأن يطلق اسمه على الآخر ، ويثنى بهذا الاعتبار ، للتناسب الذي بينهما .

ففي الآية ذكر المشرقين ، وأراد المشرق والمغرب ، لكن غلب المشرق على المغرب وثنيا ، كقولهم : الأبوين للأب والأم . ومنه قوله تعالى " وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ " .

وقولهم : القمرين للشمس والقمر .

ومثله الخافقان في المشرق والمغرب ، وإنما الخافق المغرب ، ثم إنما سمى خافقا مجازا وإنما هو مخفوق فيه ، والقمرين في الشمس والقمر ، وقيل : إن منه قول الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

وقيل إنما أراد بالقمرين محمدا والخليل عليهما الصلاة والسلام ، لأن نسبه راجع إليهما بوجه ، وإنما المراد بالنجوم الصحابة . وقالوا : العمرين في أبى بكر وعمر ،

وقالوا : العجّاجين في رؤبة والعجّاج ، والمروتين في الصفا والمروة .

ولأجل الاختلاط أطلقت (من) على مالا يعقل في قوله تعالى : فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ فإن الاختلاط حاصل في العموم السابق في قوله تعالى (كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ) . كما أطلق اسم (المذكرين) على المؤنث حتّى عدت منهم ، وهي مريم بنت عمران رضي اللّه عنهما في قوله تعالى وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ والملائكة على إبليس حتّى استثني منهم في (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) . قال الزمخشري : والاستثناء متصل لأنّه واحد من بين أظهر الألوف من الملائكة ، فغلّبوا عليه في (فسجدوا) ، ثم استثني منهم استثناء أحدهم ، ثم قال : ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا .

الفوائد :

- لفتة في الأسلوب . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ فقد جمع ضمير (من) وضمير الشيطان الواردين في الآية السابقة ، لأن (من) مبهم في جنس العاشي ، وقد قيض له شيطان مبهم من جنسه ، فجاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا .

[سورة الزخرف (43) : آية 39]

وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (39)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ينفعكم) ، (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بـ (ينفعكم) على تقدير : إذ تبيّن ظلمكم " 1 " ، (في العذاب) متعلّق بـ (مشتركون) . .

---

(1) لولا هذا التقدير ما صحّ التعليق بـ (ينفعكم) لأنّه للمستقبل وإذ للماضي . . ويجوز أن يكون بدلا من (اليوم) بالنظر إلى أنّ الدنيا والآخرة متّصلتان وهما في حكم اللّه وعلمه سواء .

والمصدر المؤوّل (أنّكم في العذاب مشتركون) في محلّ رفع فاعل ينفعكم أي لن ينفعكم اشتراككم في العذاب بالتّأسيّ " 1 " .

[سورة الزخرف (43) : آية 40]

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (40)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (الفاء) استئنافيّة (أو ، الواو) عاطفان (من) موصول في محلّ نصب معطوف على العمي (في ضلال) متعلّق بخبر كان . .

جملة : " أنت تسمع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تسمع . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنت) .

وجملة : " تهدي . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة تسمع .

وجملة : " كان في ضلال . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 41 إلى 42]

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (ما) زائدة (نذهبنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في

محلّ جزم فعل الشرط (بك) متعلّق بـ (نذهبنّ) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط في الآيتين (منهم) متعلّق بالخبر (منتقمون) .

---

(1) يجوز أن يكون الفاعل ضميرا مستترا يعود على التمنيّ المفهوم من السياق في قوله : ليت بيني . . . والمصدر المؤوّل حينئذ في محلّ جرّ بلام مقدّرة متعلّق بـ (ينفعكم) أي لن ينفعكم التمنيّ لأنكم في العذاب مشتركون . [. . . . .]

الجدول ج 25 ، ص : 90

جملة : " نذهبنّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّا منهم منتقمون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

(349/694)

---

42 - (أو) حرف عطف (نرينّك) مثل نذهبنّ ، ومعطوف عليه " 1 " ، (الذي) موصول في محلّ نصب مفعول به ثان (إنّا عليهم مقتدرون) مثل إنّا منهم منتقمون . .

وجملة : " نرينّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نذهبنّ . . .

وجملة : " وعدناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " إنّا عليهم مقتدرون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وهو معطوف على

الجواب السابق بـ (أو) .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 43 إلى 45]

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (44) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بالذي) متعلّق بـ (استمسك) ، (إليك) متعلّق بـ (أوحي) ، ونائب الفاعل هو العائد (على صراط) متعلّق بخبر إنّ .

جملة : " استمسك . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن جاءك الوحي فاستمسك .

وجملة : " أوحي إليك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

---

(1) أو هو فعل الشرط لأداة شرط مقدّرة .

وجملة : " إنّك على صراط . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

44 – (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوكيد (لك) متعلّق بـ (ذكر) وكذلك (لقومك)

(الواو) اعتراضيّة ، والواو في (تسألون) نائب الفاعل .

وجملة : " إنّه لذكر . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة : " سوف تسألون . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

45 – (الواو) عاطفة (من) موصول في محلّ نصب مفعول به (من قبلك) متعلّق بـ (أرسلنا)

، (من رسلنا) تمييز الموصول – أو حال من العائد المقدّر – (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ

(من دون) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . .

وجملة : " اسأل . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة استمسك .

(351/694)

وجملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يعبدون " في محلّ نصب نعت لآلهة .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا " .

أوقع السؤال على الرسل ، مع أن المراد أممهم وعلماء دينهم ، كقوله تعالى " فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ " . وفائدة هذا المجاز هي التنبيه على أن المسؤل عنه ما نطقت به ألسنة الرسل ، لا ما يقوله أممهم وعلماؤهم من تلقاء أنفسهم .

فهم إنما يخبرونه عن كتاب الرسل ، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء عليهم السلام .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 46 إلى 48]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (46) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (47) وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (بآياتنا) متعلّق بحال من موسى (إلى فرعون) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (الفاء) عاطفة .

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " إنّي رسول . . . " في محلّ نصب مقول القول .

47 - (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب (بآياتنا) متعلّق بحال من فاعل جاءهم وهو ضمير يعود على موسى (إذا) فجائيّة (منها) متعلّق بـ (يضحكون) .

وجملة : " جاءهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هم منها يضحكون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(352/694)

وجملة : " يضحكون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

48 - (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) نافية (آية) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به ثان - والرؤية بصريّة - (إلّا) للحصر (من أختها) متعلّق بـ (أكبر) (بالعذاب) متعلّق بحال من ضمير الغائب في (أخذناهم) . .

وجملة : " ما نريهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم " 1 " .

وجملة : " هي أكبر . . . " في محلّ نصب حال من آية .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة اعتراضيّة بين متعاطفين . . جملة أخذناهم على الجملة الاستئنافيّة .

(353/694)

وجملة : " أخذناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

فانتقمنا منهم وأخذناهم . . .

وجملة : " لعلّهم يرجعون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يرجعون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

البلاغة

الكلام الجامع المانع : في قوله تعالى " وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا " .

أي أن كلّ واحدة من هذه الآيات ، إذا أفردتها بالفكر ، استغرقت عظمتها الفكر وبهرته حتى يجزم أنها النهاية ، وأن كلّ آية دونها . فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضا فكره بعظمها ، وذهل عن الأولى ، فجزم بأن هذا النهاية ، وأن كلّ آية دونها والحاصل أنّه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما ، ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة ، بل مهما أفرده بالفكر جزم بأنه النهاية .

وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يرد من أمثاله .

الفوائد

- حذف الصفة . .

من أساليب العرب أنهم يحذفون الصفة في سياق الكلام لفهمها . وقد ورد ذلك في الآية الكريمة التي نحن بصددها في قوله تعالى وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا .

(354/694)

أي من أختها السابقة . وقد ورد ذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم مثل : (يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) أي سفينة صالحة ، بدليل أنّه قريء كذلك . ومنه (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ) أي كلّ شيء سلطت عليه . (قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ) أي الواضح . وقد ورد ذلك في الشعر ، قال العباس بن مرداس :

وقد كنت في الحرب ذا تدرأ فلم أعط شيئًا ولم أمنع

والتقدير ولم أعط شيئًا طائلا . ومنه قول عمران بن حطان :

وليس لعيشنا هذا مهاه وليس دارنا هاتا بدار

والتقدير بدار دائمة . ومعنى مهاه : الحسن . وتدرأ : القوة . ومنه قوله تعالى قُلْ يا أَهْلَ

الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ أي نافع و(إن نظن إلا ظنا) أي ضعيفا .

[سورة الزخرف (43) : آية 49]

وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (49)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لنا) متعلّق بـ (ادع) ، (بما) متعلّق بـ (ادع) ، و(الباء) سببيّة " 1 " ، (عندك) ظرف منصوب متعلّق بـ (عهد) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد . .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ادع . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " عهد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : " إنّنا لمهتدون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

[سورة الزخرف (43) : آية 50]

فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (50)

الإعراب :

مرّ إعراب نظيرها " 3 " مفردات وجملا . .

---

(1) ما : اسم موصول والعائد محذوف دالّ على الدعاء . . أو حرف مصدريّ .

(2) في الكلام حذف أي: ادع لنا ربّك بكشف العذاب عنّا . . وكأنّ موسى يسألهم، ما موقفكم حينئذ فالجواب: إنّنا لمهتدون.

(3) في الآية (47) من هذه السورة.

(355/694)

[سورة الزخرف (43) : الآيات 51 إلى 56]

وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (55)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (56)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (في قومه) متعلّق بـ (نادى) ، (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف (الهمزة) للاستفهام التقريريّ (ليّ) متعلّق بخبر ليس (الواو) حاليّة " 1 " ، (هذه) اسم إشارة مبتدأ خبره جملة

تجري (الأنهار) بدل من الإشارة - أو عطف بيان عليه - (من تحتي) متعلّق بحال من فاعل تجري بحذف مضاف أي من تحت قصري (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية . .

جملة : " نادى فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أليس لي ملك مصر . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " هذه الأنهار تجري " في محلّ نصب حال .

---

(1) أو عاطفة ، تعطف اسم الإشارة على ملك . . وجملة تجري حال . .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هذه) .

وجملة : " لا تبصرون " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أغفلتم فلا تبصرون .

52 - (أم) هي المنقطعة بمعنى بل التي للإضراب الانتقاليّ " 1 " ، (من هذا) متعلّق بـ

(خير) ، (الذي) موصول في محلّ جرّ بدل من اسم الإشارة .

وجملة : " أنا خير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو مهين . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " لا يكاد يبين " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يبين " في محلّ نصب خبر يكاد .

53 – (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لولا) حرف تحضيض (عليه) متعلّق بـ (ألقي) ، (من ذهب) متعلّق بنعت لـ (أسورة) ، (معه) ظرف منصوب متعلّق بحال من الملائكة " 2 " ، (مقترنين) حال من الملائكة منصوبة ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " ألقي عليه أسورة " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كان صادقا فلولا ألقي .

وجملة : " جاء معه الملائكة . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة ألقي .

54 – (الفاء) عاطفة في الموضعين (فاسقين) نعت لـ (قوما) منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " استخف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نادى فرعون . . أو جملة قال وما بين الجملتين مقول القول .

---

(1) أجاز ابن هشام جعلها متصلة ، فهي تعطف جملة أنا خير على جملة لا تبصرون لأنّ

جملة أنا خير بمعنى تبصرون وابن هشام يتبع الزمخشريّ في ذلك .

(2) أو متعلّق بـ (جاء) .

الجدول ج 25 ، ص : 97

وجملة : " أطاعوه " لا محلّ لها معطوفة على جملة استخفّ .

وجملة : " إنّهم كانوا قوما . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كانوا قوما . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

55 - (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب انتقمنا (منهم) متعلّق بـ (انتقمنا) ، (الفاء) عاطفة (أجمعين) توكيد معنوي لضمير الغائب في (أغرقناهم) - أو حال منه - .

وجملة : " آسفونا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " انتقمنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أغرقناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة انتقمنا .

56 - (الفاء) عاطفة (سلفا) مفعول به ثان منصوب (للآخرين) متعلّق بـ (مثلا) .

وجملة : " جعلناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أغرقناهم .

الصرف :

(53) مقترنين : جمع مقترن ، اسم فاعل من الخماسيّ اقترن ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

(55) آسفونا : فيه دمج فاء الفعل مع همزة التعدية قبلها لأنّ الفعل على وزن أفعل أي : أأسف . . اجتمعت الهمزتان والثانية ساكنة أدغمتا ووضع فوقهما مدّة .

(56) سلفا : اسم جمع لا مفرد له من لفظه بمعنى السابقين ، وقيل هو جمع مفرده سالف مثل خدم وخادم ، وزنه فعل بفتحتين .

(الآخرين) ، جمع الآخر - بكسر الخاء . . انظر الآية (8) من سورة البقرة .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَنَادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ " .

فقد أسند النداء إليه مجازا . والمراد أمر بالنداء بذلك ، في الأسواق والأزقة ومجامع الناس . وهذا كما يقال : بنى الأمير المدينة ، والعلاقة هنا محلية ، فقد جعل قومه محلّا لندائه ، وموقعا له ، وذلك بقوله " في قومه " ، أي في مجامعهم وأماكنهم .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 57 إلى 62]

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ

لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (59) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62)

الإعراب :

(358/694)

(الواو) استئنافيّة (لما) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (ابن) نائب الفاعل (مثلا) مفعول به منصوب بتضمين ضرب معنى جعل (إذا) فجائية (منه) متعلّق بـ (يصدّون) .

جملة : " ضرب ابن مريم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قومك منه يصدّون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يصدّون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (قومك) .

58 - (الواو) عاطفة (الهمزة) للاستفهام (أم) حرف عطف معادل للهمزة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع معطوف على المبتدأ (آلهتنا) ، (ما) نافية (لك)

متعلّق بـ (ضربوه) ، (إلّا) للحصر (جدلا) مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (بل) للإضراب الانتقاليّ . .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " آلهتنا خير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما ضربوه . . . إلّا جدلا " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هم قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

59 – (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (عليه) متعلّق بـ (أنعمنا) ، (لبني) متعلّق بنعت لـ (مثلا) " 2 " .

وجملة : " إن هو إلّا عبد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنعمنا . . . " في محلّ رفع نعت لعبد .

وجملة : " جعلناه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنعمنا .

60 – (الواو) اعتراضيّة (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) رابطة لجواب الشرط (منكم) في موضع المفعول الثاني ، قيل هي تبعيضية ، وقيل هي بمعنى بدلكم (في الأرض) متعلّق بـ (جعلنا) – أو بـ (يخلفون) – وجملة : " نشاء . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يخلفون " في محلّ نصب نعت لملائكة .

61 - (الواو) عاطفة ، والضمير في (إنّه) يعود على عيسى عليه السلام على حذف مضاف أي نزوله " 3 " ، (اللام) مزحلقة للتوكيد (للساعة) متعلّق بنعت لـ (علم) - و(اللام) بمعنى على أي على الساعة أي على قربها - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تمترنّ) مضارع مجزوم وعلامة الجزم

---

(1) أو مصدر في موضع الحال منصوب .

(2) أو متعلّق بـ (جعلناه) .

(3) يجوز أن يعود إلى القرآن الكريم .

حذف النون ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) للتوكيد (بها) متعلّق بـ (تمترنّ) ، والنون في (اتّبعون) للوقاية قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف . .

وجملة : " إنّه لعلم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنعمنا " 1 " .

وجملة : " لا تمترنّ بها " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن جاءكم خبرها فلا تشكّوا فيها .

وجملة : " اتّبعون " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر " 2 " أي قل لهم . . .

وجملة : " هذا صراط . . . " لا محلّ لها تعليل للأمر السابق .

62 - (الواو) عاطفة (لا يصدنّكم) (لا) ناهية (يصدنّكم) مضارع مبني على الفتح في محلّ جزم و(النون) للتوكيد (الشيطان) فاعل ، والفعل مبنيّ على الفتح في محلّ جزم (لكم) متعلّق بحال من عدوّ . . .

وجملة : " لا يصدنّكم الشيطان " في محلّ نصب معطوفة على جملة اتّبعون .

وجملة : " إنّه لكم عدو . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(خصمون) جمع خصم ، صفة مشبهة من الثلاثي خصم باب ضرب وزنه فعل بفتح فكسر .

الفوائد

- عناد المكذبين ومماحكتهم . .

يذكر المفسرون حكاية ممتعة بسبب نزول هذه الآية . قال ابن عباس : نزلت

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

(2) وجملة القول المقدّرة استئنافيّة . . ويجوز أن يكون الكلام من قول اللّه تعالى أي : اتّبعوا هداي أو شرعي أو رسولي ، فالجملة معطوفة على جواب الشرط . . وجملة لا يصدنّكم معطوفة على جملة اتبعون لا محلّ لها أيضا . .

هذه الآية في مجادلة عبد اللّه بن الزبعرى مع النبي (صلى اللّه عليه وسلم) في شأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وذلك لما نزل قوله تعالى : إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ قام ابن الزبعرى ، في ثلة من أصحابه ، ومنهم الوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث ، وقالوا : يا محمد ، أ لست تزعم أن كلّ معبود دون اللّه هو في جهنم كما أنزل عليك . قال : نعم ، قالوا : فإن النصارى يعبدون عيسى ، واليهود يعبدون عزيرا ، ونحن : نعبد الملائكة ، فإذا كان الأمر كذلك فعيسى والعزير والملائكة في جهنم . فقال عليه الصلاة والسلام : ذلك لكلّ من يعبد من دون اللّه وهو راض بأن يكون معبودا ، فأنزل اللّه عز وجل وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا أي ضربه كفار قريش مثلا لما يعبد من دون اللّه ، وأنّه في جهنم كما مر ، (إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) أي يرتفع لهم ضجيج وصياح وفرح.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 63 إلى 65]

وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (64)

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)

الإعراب :

(361/694)

(الواو) استئنافيّة (بالبيّنات) متعلّق بحال من عيسى " 1 " (بالحكمة) متعلّق بحال من فاعل جئتكم " 2 " (الواو) عاطفة في الموضعين (اللام) لتعليل (أبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (لكم) متعلّق بـ (أبيّن) .

والمصدر المؤوّل (أن أبين . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف

(1 ، 2) يجوز تعليقه بفعل المجيء . [. . . . .]

(362/694)

تقديره جئتكم . .

(الذي) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (فيه) متعلّق بـ (تختلفون) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، و(النون) في (أطيعون) للوقاية ، جاءت قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة

فاصلة الآية . .

جملة : " جاء عيسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قد جئتكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أبيّن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تختلفون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " اتّقوا اللّه . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن بلغكم ما أقول فاتّقوا . .

وجملة : " أطيعون . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة اتّقوا اللّه .

64 - (هو) ضمير فصل " 1 " ، (الفاء) للربط .

وجملة : " إنّ اللّه . . . ربّي . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " اعبدوه " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : تنبّهوا فاعبدوه .

وجملة : " هذا صراط . . . " لا محلّ لها تعليليّة " 2 " .

65 - (الفاء) عاطفة في الموضعين (من بينهم) متعلّق بحال من الأحزاب " 3 " ،

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره ربّي ، والجملة الاسميّة خبر إنّ .

(2) أو استئناف من كلام اللّه لا من كلام عيسى .

(3) أي حال كون الأحزاب بعض النصارى .

(363/694)

(ويل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (للذين) متعلّق بخبر المبتدأ ويل (من عذاب) متعلّق بالخبر المحذوف " 2 " .

وجملة : " اختلف الأحزاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف في قوله (ولمّا جاء عيسى بالبيّنات) .

وجملة : " ويل للذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اختلف الأحزاب .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

[سورة الزخرف (43) : آية 66]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (66)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام فيه معنى النفي (إلّا) للحصر (بغتة) مصدر في موضع الحال " 3 " ، (الواو) حالية .

والمصدر المؤوّل (أن تأتيهم . . .) في محلّ نصب بدل من الساعة .

جملة : " ينظرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تأتيهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " هم لا يشعرون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يشعرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الفوائد

- هل . .

هل حرف للاستفهام ، ولكنها ترد في عدد من المعاني ، وفي الآية الكريمة التي

---

(1) جاء نكرة لأنه في معرض الذمّ .

(2) أو حال من الضمير المستكنّ في الخبر ، والعامل فيه الاستقرار أي حال كونه من عذاب الآخرة لا من عذاب الدنيا .

(3) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه فيه المعنى . . انظر الآية (31) من سورة الأنعام .

نحن بصددها خرجت عن معنى الاستفهام إلى معنى النفي في قوله تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) . والمعنى ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم . وقد ذكر ذلك ابن هشام فقال :

إنه يراد بالاستفهام بها النفي ، ولذلك دخلت على الخبر بعدها (إلا) في قوله تعالى هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ ، والباء في قول الفرزدق : (ألا هل أخو عيش لذيذ بدائم) ، وصح العطف في قول امرئ القيس :

وإن شفائي عبرة مهراقة وهل عند رسم دارس من معول

إذ لا يعطف الإنشاء على الخبر . فصدر البيت خبر ، والعطف يدل على أن عجز البيت خبر أي لا يصح هل للاستفهام ، بل هي نافية .

وتأتي الهمزة للإنكار ، كما في قوله تعالى أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ إنكارا على من ادعى ذلك ، ويلزم من ذلك معنى الانتفاء ، لا أنها للنفي . ولهذا لا يجوز أن تقول : أقام إلا زيد ؟ كما يجوز هل قام إلا زيد !

[سورة الزخرف (43) : آية 67]

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67)

الإعراب :

(يومئذ) ظرف منصوب مضاف إلى ظرف مبنيّ متعلّق بـ (عدوّ) ، والتنوين عوض من جملة

محذوفة أي يوم إذ تأتيهم الساعة (بعضهم) مبتدأ ثان مرفوع (لبعض) متعلّق بـ (عدوّ) ،

(إلّا) للاستثناء (المتّقين) مستثنى بإلّا منصوب . .

جملة : "الأخلّاء . . . عدوّ" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : "بعضهم لبعض عدوّ" في محلّ رفع خبر المبتدأ (الأخلّاء) .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 68 إلى 73]

يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ

(69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ

وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي

أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72)

لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (73)

الجدول ج 25 ، ص : 105

الإعراب :

(عباد) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف (لا) نافية مهملة " 1 " ، (خوف) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (عليكم) متعلّق بخبر المبتدأ (اليوم) ظرف منصوب متعلّق بالخبر المحذوف (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي واجبة التكرار (أنتم تحزنون) مثل خوف عليكم . .

جملة : " يا عباد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " لا خوف عليكم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنتم تحزنون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا خوف عليكم .

69 - (الذين) موصول في محلّ نصب نعت لعبادي (بآياتنا) متعلّق بـ (آمنوا) ، (الواو) عاطفة - أو حالية - .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " كانوا مسلمين . . . " لا محلّ لها معطوفة على صلة الموصول " 4 " .

---

(1) أو عاملة عمل ليس وخوف اسمها وعليكم خبرها .

(2) النكرة معتمدة على نفي .

(3) أو في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

(4) أو في محلّ نصب حال من فاعل آمنوا .

---

70 – (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ ، عطف عليه بالواو (أزواجكم) .

وهو مرفوع . . . والواو في (تحبرون) نائب الفاعل .

وجملة : " ادخلوا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز النداء .

وجملة : " أنتم . . . تحبرون " في محلّ نصب حال من فاعل ادخلوا .

وجملة : " تحبرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

71 – (عليهم) نائب الفاعل للمجهول (يطاف) ، (بصحاف) متعلّق بـ (يطاف) ، (من ذهب) متعلّق بنعت لـ (صحاف) ، (الواو) عاطفة (فيها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ما) ، و(فيها) الثاني متعلّق بـ (خالدون) .

وجملة : " يطاف عليهم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " فيها ما تشتهيه الأنفس " لا محلّ لها معطوفة على جملة يطاف .

وجملة : " تشتهيه الأنفس . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تلذّ الأعين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تشتهيه الأنفس .

وجملة : " أنتم فيها خالدون " في محلّ نصب معطوفة على جملة أنتم . . .

تجبرون وما بينهما اعتراض فيه التفات " 2 " .

72 - (الواو) عاطفة (تلك) اسم إشارة مبتدأ خبره جملة لكم فيها فواكه . .

(التي) موصول نعت للجنّة مرفوع ، وضمير الخطاب في (أورثتموها) نائب الفاعل ، والواو زائدة إشباع حركة الميم ، وضمير الغائب مفعول به (ما) مصدرية " 3 " .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم تعملون) في محلّ جرّ بالباء السببيّة متعلّق بـ (أورثتموها) .

---

(1) أو هي جواب شرط مقدّر أيّ : إذا دخلوها يطاف عليهم . . وأجاز بعضهم جعلها حالا من الجنّة والرابط فيها مقدّر ، تقديره فيها .

(2) يجوز أن تكون حالا من الضمير في (عليهم) على تقدير الالتفات .

(3) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف والجملة بعده صلة .

وجملة : " تلك الجنّة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " أورثتموها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " كنتم تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم .

73 - (لكم) متعلّق بخبر مقدّم (فيها) متعلّق بالخبر المحذوف (فاكهة) مبتدأ مؤخّر مرفوع (منها) متعلّق بفعل (تأكلون) .

وجملة : " لكم فيها فاكهة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ تلك .

وجملة : " تأكلون . . . " في محلّ رفع نعت لفاكهة .

الصرف :

(71) صحاف : جمع صحفة اسم جامد للوعاء الكبير ، وزنه فعلة بفتح فسكون ، ووزن صحاف فعال بكسر الفاء .

(أكواب) ، جمع كوب ، اسم جامد للكأس الذي لا عروة له ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، ووزن أكواب أفعال - جمع قلّة - .

البلاغة

1 - الإيجاز : في قوله تعالى " وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ " .

(368/694)

وهذا حصر لأنواع النعم ، لأنها إما مشتهاة في القلوب ، وإما مستلذه في العيون . و قد قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) لأعرابي : إن أدخلك اللّه الجنّة أصبت فيها ما

اشتهت نفسك ولذّت عينك .

2 – الاستعارة التبعية : في قوله تعالى " وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها " .

حيث شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة ، من الجنّة ونعيمها الباقي لهم ، بما يخلّفه المرء لوارثه من الأملاك والأرزاق ، ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورث اسم فاعل ، فاستعير الميراث لما استحقوه ، ثم اشتق أورثتموها ، فيكون هناك استعارة تبعية .

وقيل الإرث : مجاز مرسل للنيل والأخذ .

الفوائد

– فضل اللّه وإحسانه . .

بين سبحانه في هذه الآية نعيم الجنّة ، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ،

فقد ورد في الحديث عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : قال اللّه تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . واقرؤوا إن شئتم " فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ " متفق عليه .

و

عن أبى هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : أول زمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم ، على أشد كوكب درّي في

السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوّة (عود الطيب) ، أزواجهم الحور العين .

على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعا في السماء . متفق عليه . وفي رواية للبخاري ومسلم : " آنيتهم فيها الذهب ، ورشحهم فيها المسك ، ولكلّ واحد منهم زوجتان ، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض . قلوبهم قلب رجل واحد ، يسبحون اللّه بكرة وعشيا .

و

(369/694)

عن أبى سعيد الخدري رضى اللّه عنه عن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) قال : إن في الجنّة شجرة ، يسير الراكب الجواد المضمر السريع ، مائة سنة ، ما يقطعها .

متفق عليه .

و

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) إذا دخل أهل الجنّة الجنّة ، ينادي مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا

أبدا ، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا . رواه مسلم .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 74 إلى 76]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (74) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76)

الإعراب :

(في عذاب) متعلّق بالخبر (خالدون) " 1 " . .

جملة : " إنّ المجرمين . . . خالدون " لا محلّ لها استئنافيّة .

75 - (لا) نافية ، ونائب الفاعل ضمير مستتر يعود على العذاب (عنهم) متعلّق بـ (يفتّر) ، (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (فيه) متعلّق بالخبر (مبلسون) . .

وجملة : " لا يفتّر عنهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " هم فيه مبلسون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يفتّر " 3 " .

76 - (الواو) عاطفة (ما) نافية (الواو) الثانية عاطفة (لكن) للاستدراك لا عمل له (هم) ضمير فصل " 4 " .

وجملة : " ما ظلمناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يفتّر .

وجملة : " كانوا هم الظالمين " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما ظلمناهم .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 77 إلى 78]

وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (78)

---

(1) أو هو خبر أوّل. [. . . . .]

(2) أو في محلّ نصب حال من الضمير في (خالدون) أو من عذاب.

(3) أو في محلّ نصب حال من الضمير في (عنهم).

(4) يجوز أن يكون توكيدا لضمير الغائب اسم كانوا في محلّ رفع.

(370/694)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام الأمر (علينا) متعلّق بـ (يقض) . .

جملة: "نادوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يا مالك . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "ليقض علينا ربّك . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إنّكم ماكثون" في محلّ نصب مقول القول.

78 - (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل جئناكم (الواو) عاطفة (للحقّ) متعلّق بالخبر (كارهون) .

وجملة : " جئناكم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجملة القسم المقدّرة استئناف في حيّز القول " 1 " .

وجملة : " لكنّ أكثركم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

الصرف :

(مالك) ، اسم علم لخازن النار .

(يقض) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه يفع .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 79 إلى 80]

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

الإعراب :

(أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر . .

جملة : " أبرموا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّا مبرمون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن فعلوا ذلك

---

(1) أو هي مقول القول لقول مقدّر من اللّه عزّ وجلّ . .

فإنّا مبرمون .

80 - (أم) مثل الأولى (لا) نافية (بلى) حرف جواب (الواو) حالية (لديهم) ظرف مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بـ (يكتبون) .

وجملة : " يحسبون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا نسمع . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنا لا نسمع) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يحسبون .

وجملة : " رسلنا لديهم يكتبون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يكتبون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (رسلنا) .

الصرف :

(مبرمون) ، جمع مبرم اسم فاعل من (أبرم) الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 81 إلى 82]

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (81) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82)

الإعراب :

(كان) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (للرحمن) متعلّق بخبر كان (الفاء) رابطة لجواب الشرط.

جملة : "كان للرحمن ولد . . . " في محلّ نصب مقول القول للاستئنافيّة قل .

وجملة : " أنا أوّل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

82 - (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف (ربّ) الثاني بدل من الأول مجرور (عمّا) متعلّق بالفعل المحذوف العامل في سبحان ، و(ما) موصول والعائد محذوف . . .

الجدول ج 25 ، ص : 112

وجملة : " نسبّح سبحان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو اعتراضيّة - وجملة : " يصفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

فوائد

- اللّه واحد لا شريك له . . .

نفت هذه الآية أن يكون للرحمن ولد ، في قوله تعالى قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ . وقد تشعبت أقوال المفسرين حول معنى هذه الآية ، فقيل :

معناه : إن كان للرحمن ولد ، في قولكم وعلى زعمكم ، فأنا أول من عبد الرحمن ، فإنه لا شريك له ولا ولد له . وقال ابن عباس : (إن كان) أي (ما كان) للرحمن ولد (فأنا أول

العابدين) أي الشاهدين له بذلك . وقيل : معناه لو كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده بذلك ولكن لا ولد له وقيل : العابدين بمعنى الآنفين ، أي أنا أول الجاحدين المنكرين لما قلتم ، وأنا أول من غضب للرحمن أن يقال له ولد .

(372/694)

وقال الزمخشري في معنى الآية : إن كان للرحمن ولد ، وصحّ وثبت ببرهان صحيح توردونه ، وحجة واضحة تدلون بها ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته ، كما يعظم الرجال ولد الملك لتعظيم أبيه . وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل ، لغرض وهو المبالغة في نفى الولد ، والإطناب فيه ، مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علّق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعلّق عليها محال مثلها .

[سورة الزخرف (43) : آية 83]

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (يخوضوا) مضارع مجزوم جواب الطلب ، ومثله

(يلعبوا) المعطوف عليه (حتّى) حرف غاية وجرّ (يلاقوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (الذي) موصول في محلّ نصب نعت ليومهم ، والواو في (يوعدون) نائب الفاعل . .

والمصدر المؤوّل (أن يلاقوا . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (يخوضوا ويلعبوا) .

جملة : " ذرهم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أعرضوا عن الإيمان فذرهم .

وجملة : " يخوضوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إن تذرهم يخوضوا . .

وجملة : " يلعبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخوضوا .

وجملة : " يلاقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يوعدون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

الصرف :

(يلاقوا) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف . . أصله يلاقيوا ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى القاف قبلها - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع الواو فأصبح يلاقوا ، وزنه يفاعوا .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 84 إلى 85]

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (في السماء) متعلّق بـ (إله) بمعنى معبود (إله) الأول خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (في الأرض) مثل في السماء (إله) الثاني مثل الأول مرفوع مثله (الواو) عاطفة . .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (هو) . . . إله " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " (هو) في الأرض إله " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هو الحكيم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

85 - (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (ملك) ، (ما) موصول في محلّ رفع معطوف على ملك (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (عنده) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (علم) ، (إليه) متعلّق بالمبني للمجهول (ترجعون) ، والواو فيه نائب الفاعل .

وجملة : " تبارك الذي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي . .

وجملة : " له ملك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " عنده علم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " ترجعون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

[سورة الزخرف (43) : آية 86]

وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لا) نافية (من دونه) متعلّق بحال من العائد المحذوف ، والضمير يعود على اللّه (الشفاعة) مفعول به عامله (يملك) (إلّا) للاستثناء (من) موصول بدل من الذين " 1 " في محلّ رفع (بالحقّ) متعلّق بـ (شهد) ، (الواو) حاليّة . .

---

(1) والمقصود به المعبودات من دون اللّه . . أصناما كانت أم غيرها . ويجوز أن يكون (من) في محلّ نصب على الاستثناء المتّصل أو المنقطع بحسب تفسير (الذين) .

جملة : " لا يملك الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " شهد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هم يعلمون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة الزخرف (43) : آية 87]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) موطّئة لقسم مقدّر (سألتهم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة خلقهم (اللام) لام القسم (يقولنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (اللّه) لفظ الجلالة فاعل لفعل محذوف تقديره خلقهم " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أنّى) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب على الظرفيّة المكانيّة متعلّق بـ (يؤفكون) "

.

جملة : " إن سألتهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من خلقهم . . . " في محلّ نصب مفعول فعل السؤال المعلّق بالاستفهام (من) بتقدير الجارّ .

وجملة : " خلقهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " يقولنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " (خلقهم) اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنّى يؤفكون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كانوا يعرفون ذلك فأنّى يؤفكون .

---

(1) قياسا على قوله تعالى في الآية (9) من هذه السورة " . . . ليقولنّ خلقهنّ العزيز . . . "

ويجوز أن يكون لفظ الجلالة مبتدأ خبره محذوف تقديره خالقهم .

(2) يجوز أن يحمّل معنى كيف فيكون حالا من نائب الفاعل . .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 88 إلى 89]

وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (قيله) معطوف على (الساعة) " 1 " ، والضمير في قيله يعود على الرسول

عليه السلام ، (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف (لا) نافية .

جملة : " يا ربّ . . . " في محلّ نصب مقول القول للمصدر قيله .

وجملة : " إنّ هؤلاء قوم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا يؤمنون " في محلّ رفع نعت لقوم .

89 – (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (عنهم) متعلّق بـ (اصفح) ، (سلام) خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمري أو شأني (الفاء) للربط (سوف) حرف استقبال .

وجملة : " اصفح . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن عارضوك فاصفح . .

وجملة : " قل . . . " معطوفة على جملة اصفح .

وجملة : " (أمري) سلام " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سوف يعلمون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر آخر أي إن قاوموك وحاربوك فسوف يعلمون . . .

الصرف :

(قيله) ، مصدر سماعيّ لفعل قال مثل القول والقال والمقالة . . وزنه فعل بكسر فسكون ، وفيه إعلال بالقلب أصله قول بكسر فسكون ، قلبت الواو ياء لأنّ ما قبلها مكسور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجدول حـ 25 صـ 116.63 ﴾

(1) أي عنده علم الساعة وعلم قيله . . وهو رأي ابن كثير والعكبريّ ، ويجوز أن يكون مجرورا بواو القسم وجواب القسم هو قوله " إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون " وهو اختيار الزمخشريّ .

(376/694)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(43) سورة الزخرف

مكية وآياتها تسع وثمانون

[سورة الزخرف (43) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (7) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)

الإعراب :

(حم . وَالْكِتابِ الْمُبِينِ) حم : تقدم القول في فواتح السور معنى وإعرابا والواو واو القسم والكتاب مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم والمبين نعت للكتاب (إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) إن واسمها وجملة جعلناه خبرها وجعلناه أي صيّرناه وفعل وفاعل ومفعول به وقرآنا مفعول به ثان وعربيا نعت ولعلّ واسمها وجملة تعقلون خبرها وجملة إنّا جعلناه جواب القسم وقد استهوى هذا الجواب علماء البلاغة كما سيأتي . وأجاز الزمخشري أن يكون جعلناه بمعنى خلقناه جريا على قاعدة المعتزلة في القول بخلق القرآن وسيأتي حديث عنها في باب الفوائد فيكون قرآنا حالا من الهاء وجملة لعلكم تعقلون تعليلية لا محل لها لأن الترجّي مستعار لمعنى الإرادة أي جعلناه قرآنا عربيا إرادة أن تعقله العرب (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) الواو عاطفة والجملة معطوفة على جواب القسم فهي بمثابة جواب ثان وإن واسمها وفي أم الكتاب متعلقان بمحذوف خبرها والتقدير مثبت وأم الكتاب أصل الكتب أي اللوح المحفوظ قال تعالى :

" بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ " ولدينا ظرف متعلق بمحذوف حال واللام المزحلقة وعليّ خبر ثان وحكيم خبر ثالث ، واعترض بعضهم على هذا الإعراب لأن فيه تقديم الخبر غير المقرون باللام على المقرون بها قال أبو البقاء : " في أم الكتاب يتعلق بعلي واللام لا تمنع من ذلك ولدينا بدل من الجار والمجرور ويجوز أن يكون حالا من الكتاب أو من أم ولا يجوز أن يكون واحد من الظرفين خبرا لأن الخبر قد لزم أن يكون علي من أجل اللام ولكن يجوز أن يكون كل واحد منهما صفة للخبر فصارت حالا بتقدمها " (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف مقدّر بينها وبين الهمزة تقديره أنهملكم فنضرب ، ونضرب فعل مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره نحن وعنكم متعلقان بنضرب والذكر مفعول به أي القرآن وصفحا فيه أوجه أحدها أنه مصدر مرادف لمعنى نضرب لأنه يقال ضرب عن كذا وأضرب عنه بمعنى أعرض عنه وصرف وجهه عنه والثاني أنه منصوب على الحال من فاعل نضرب أي صافحين والثالث أنه منصوب على أنه ظرف بمعنى الجانب من قولهم

نظر إليه بصفح وجهه كما تقول ضع هذا الكتاب جانبا وامش جانبا والرابع أنه مفعول من أجله والمعنى أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضا عنكم وسيأتي مزيد من القول في هذه الآية . وأن مصدرية وقرىء بكسر الهمزة فهي شرطية فهي ومدخولها على الأول مفعول من أجله وعلى الثاني يكون كنتم فعل الشرط والجواب محذوف وعبارة الزمخشري : " فإن قلت كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا مسرفين على البت ؟ قلت : هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدلّ بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفّني حقّي وهو عالم بذلك ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجهالا له " وكنتم : كان واسمها وقوما خبرها ومسرفين نعت (وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ) كم خبرية في محل نصب مفعول مقدّم لأرسلنا ومن نبي تمييز لكم الخبرية وفي الأولين متعلقان بأرسلنا (وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) الواو عاطفة وما نافية ويأتيهم فعل مضارع مرفوع ومفعول به مقدم ومن حرف جر زائد ونبي مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل وإلا أداة حضر وكان واسمها وبه متعلقان بيستهزئون وجملة يستهزئون خبر كانوا (فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) الفاء الفصيحة وأهلكنا فعل وفاعل وأشد مفعول به ومنهم متعلقان بأشد وبطشا تمييز على الأرجح وقيل حال من فاعل أهلكنا أي باطشين وأراه محض تكلّف ، ومضى عطف على فأهلكنا ومثل الأولين فاعل

مضى .

البلاغة :

1 – القسم في قوله " والكتاب المبين إنّا جعلناه " الآية فن التناسب ، فقد أقسم بالقرآن وإنما يقسم بعظيم ثم جعل المقسم عليه

(379/694)

تعظيم القرآن بأنه قرآن عربي مرجو له أن يعقل به العالمون فكان جواب القسم مصححا للقسم وتم التناسب بين القسم والمقسم به لأنهما من واد واحد ، وقد تعلق الشعراء بأذيال هذه البلاغة العالية فأقسم أبو تمام بالثنايا إذ قال :

وثناياك إنها إغريض ولآل توم وبرق وميض

وأقاح منوّر في بطاح هزّه في الصباح روض أريض

وارتكاض الكرى بعينيك في النوم فنونا وما لعيني غموض

فقد أقسم أبو تمام بالثنايا وهي مقدم أسنانها أنها أغريض فالقسم وجوابه متعلقان بشيء واحد ، والإغريض – كما في الصحاح – الطلع وكل أبيض طري ، والتوم واحدة تومة وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة .

2- الاستعارة : وفي قوله " وإنه في أم الكتاب " استعارة تصريحية ، وقد استعير لفظ الام للأصل وهو المشبه المحذوف لأن الأولاد تنشأ من الام كما تنشأ الفروع من الأصول وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئي حتى يصير مرئيا ولم تفد هذه الاستعارة سوى الظهور لأن الام أظهر للحس من الأصل .

الفوائد :

1- فتنة خلق القرآن : كانت المعتزلة تقول بنفي صفات المعاني عن اللّه تعالى ، ومنها الكلام ، لأن إثباتها يؤدي إلى التشبيه وإلى تعدّد القديم وذلك ينافي التوحيد وكان من النتائج اللازمة لذلك أن قالوا : بأن القرآن كلام اللّه مخلوق ، قال صاحب المواقف : " قالت المعتزلة : كلامه تعالى أصوات وحروف لكنها ليست قائمة بذاته بل يخلقها اللّه في غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبي وهو حادث " وليست المعتزلة أول

من قال بخلق القرآن ، كما أنهم ليسوا أول من أنكر الصفات ، بل إن أول من عرف بالقول بخلقه الجعد بن درهم بدمشق ، وهو مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وأخذ عنه ذلك القول جهم بن صفوان الترمذي زعيم فرقة الجهمية الجبرية فقال بخلقه إذ أن

الجهمية تنكر الصفات وذكروا أن بشر بن غياث المريسي ، وهو زعيم المريسية من فرق المرجئة ، قال أيضا بخلق القرآن في عصر الرشيد ونهاه أبو يوسف عن ذلك فلم ينته فهجره وطرده من مجلسه وقال : لا تنتهي أو تفسد خشبة- يريد الصلب- ولما بلغ ذلك الرشيد قال عليّ إن أظفرني اللّه به أن أقتله وظل بشر مختفيا طول خلافة الرشيد ولم يظفر به مع شدّة طلبه له ، وذكروا أيضا أن حفصا الفرد ، وهو من أكابر المجبرة ، قال بذلك القول وأن الشافعي ناظره وكفّره ، وكان الناس في تلك المسألة ، في عصر الرشيد ، بين أخذ وترك حتى ولي المأمون فقال بخلقه وكان من أشد نصراء الاعتزال ، ويطول بنا القول إن عمدنا إلى نقل مجريات هذه الفتنة فارجع إليها في مظانها الكثيرة إن شئت .

على أننا لا نمرّ بهذا البحث دون أن نشير إلى محنة الإمام أحمد بن حنبل لذيوعها فنقول : أحضر المعتصم الإمام أحمد وعقد له مجلسا للمناظرة وفيه عبد الرحمن بن إسحق والقاضي أحمد بن داود وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم في جدال إلى اليوم الرابع فأمر المعتصم بضربه بالسياط ، ولم يحل عن رأيه إلى أن أغمي عليه ونخسه عجيف بن عنبسة بالسيف ورمى عليه بارية (وهي الحصير المنسوج) وديس عليه ثم حمل إلى منزله بعد أن ضرب ثمانية وثلاثين سوطا وكانت مدة مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهرا وارجع إلى تاريخ الطبري ووفيات الأعيان ومروج الذهب لتقرأ العجيب من أخبار هذه

الفتنة .

2- وعدناك بأن نتحدث إليك عن أسلوب القرآن فنقول :

(381/694)

احتوى القرآن على ألفاظ كثيرة وصفها بعض الصحابة والتابعين أنها من غير لغة العرب ، كما ألّف العلماء في ذلك كتبا خاصة ، ووجود المعرب في القرآن قضية علمية اختلف حولها العلماء اختلافا كبيرا على رأيين ، أحدهما :

الرأي الأول : وجود المعرب في القرآن وإلى ذلك ذهب بعض الصحابة والتابعين والعلماء منهم ابن عباس ووهب بن منبّه وابن مسعود وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وعطاء والضحاك والسدي وأبو عمران الجويني وعمرو بن شرحبيل وأبو موسى الأشعري والزمخشري وابن الحاجب والسيوطي وغيرهم .

الرأي الثاني : أن القرآن لا يحتوي على غير العربي من الألفاظ وهو مذهب كثير من العلماء ومنهم الإمام الشافعي وأبو عبيدة وابن فارس وابن جرير الطبري والباقلاني والرازي وغيرهم .

وليس مما يفيد كثيرا أن نعرض التفاصيل لكلا الرأيين وأدلتهما والردّ عليهما وإنما المفيد في

ذلك فهم الأمور الآتية :

1 – أن الدارسين المتأخرين قد ارتضوا الرواية التالية عن أبي عبيد القاسم بن سلام وكأنما وجدوا فيها حلا للقضية وخروجا من هذا الخلاف والرواية هي : قال أبو عبيد : وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة أنه من غير لسان العرب مثل (سجيل والمشكاة واليم والطور وأباريق واستبرق) وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ولكنهم ذهبوا إلى مذهب ، وذهب هذا إلى غيره وكلاهما مصيب إن شاء اللّه تعالى .

وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل فقال أولئك

على الأصل ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته فصار عربيا إياه فهي عربية في هذه الحال ، أعجمية الأصل فهذا القول يصدق على الفريقين جميعا .

(382/694)

و قد أورد هذه الرواية الجواليقي بعد أن أورد قول عبيدة : من زعم أن في القرآن لسانا سوى العربية فقد أعظم على اللّه القول واحتجّ بقوله تعالى : " إنّا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " ثم نقل هذه الرواية من جاء بعد الجواليقي ودرس موضوع التعريب في القرآن

كالسيوطي وغيره.

2- إنه سواء أكانت الألفاظ الواردة في القرآن من لغات أخرى أعجمية باعتبار الأصل عربية باعتبار الحال أو أعجمية باعتبار الأصل والحال فإن ورودها في القرآن يدل على أن العرب قد فهموها وتقبلوها وفهمهم لها يدل على شيوعها بينهم من قبل أن يأتيهم بها وهذا يثبت ما نحن بصدده من وجود الألفاظ المنقولة من لغات أخرى في الجاهلية ومن استمرار ذلك حين جاء الإسلام.

3- يبدو أن الذين رفضوا وجود المعرب في القرآن سيطر عليهم الوازع الديني أكثر من تقرير الواقع اللغوي ولذلك فإن السيوطي حين أورد هذه الألفاظ في كتابيه "المتوكلي فيما في القرآن من المعرب" و"المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب" ساق بين يديها أسانيد نسبتها إلى الصحابة والتابعين كأنما يتحرز هو أيضا من القول بذلك بنفسه وقد عدّد اللغات المنقول عنها تلك الألفاظ فأوصلها إلى عشر وهي الحبشية والفارسية والرومية والهندية والسريانية والعبرانية والنبطية والقبطية والتركية والزنجية والبربرية.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 9 إلى 14]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13)

وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (14)

اللغة :

(بِقَدَرٍ) بمقدار أي يؤدي ما تحتاجون إليه فلا يكون قليلا لا ينفع ولا يكون كثيرا فيؤذي ويضرّ .

(فَأَنْشَرْنا) أحيينا ، وفي المصباح : " نشر الموتى نشورا حيوا ، ونشرهم اللّه يتعدى ولا يتعدى ويتعدى بالهمزة أيضا فيقال أنشرهم اللّه ونشرت الأرض نشورا أيضا حييت وأنبتت ويتعدى بالهمزة فيقال أنشرتها إذا أحييتها بالماء " .

(مُقْرِنِينَ) مطيقين يقال أقرن الشيء إذا أطاقه ، قال ابن هرمة :

وأقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصدّ يا دعد والهجر

قال الزمخشري : " وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف " وقال الأخفش وأبو عبيدة : " مقرنين ضابطين وقيل

مماثلين في الأيدي والقوة من قولهم هو قرن فلان إذا كان مثله في القوة ويقال فلان مقرن لفلان أي ضابط له وأقرنت كذا أي أطقته وأقرن له أي أطاقه وقوي عليه كأنه صار له قرنا قال اللّه تعالى :

"

(384/694)

و ما كنّا له مقرنين " أي مطيقين ، وقال آخرون : وفي أصله قولان أحدهما أنه مأخوذ من الأقران يقال أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق أو أقرنت كذا إذا أطقته وأحكمته كأنه جعله في قرن وهو الحبل فأوثقه به وشده والثاني أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض في حبل تقول : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

الإعراب :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية وسألتهم فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك والتاء فاعل والهاء مفعول به (مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ) من اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة خلق السموات والأرض خبر والجملة الاستفهامية في محل نصب مفعول ثان لسألتهم المعلقة عن العمل بالاستفهام (لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ

الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) اللام واقعة في جواب القسم لأنه المتقدم كما هي القاعدة ويقولنّ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وقد تقدمت له نظائر والواو المحذوفة فاعل والنون للتوكيد ولو كان مجزوما لكان الحذف للجازم لا لتوالي الأمثال وجملة خلقهنّ مقول القول وكرر الفعل للتأكيد والعزيز فاعل والعليم صفة وسيأتي مزيد من بحث هذه الآية في باب البلاغة (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً) اسم الموصول صفة ثانية أو بدل وجملة جعل صلة ولكم متعلقان بجعل على أنها بمعنى خلق وإن كانت بمعنى صير

(385/694)

فيكون متعلقا بمحذوف حال والأرض مفعول به أول ومهدا مفعول به ثان أو حال (وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا) عطف على ما تقدم ولكم متعلقان بجعل أو في موضع المفعول الثاني وفيها حال وسبلا مفعول به (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) لعل واسمها وجملة تهتدون خبرها (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ) عطف على الموصول الأول وجملة نزل صلة ومن السماء متعلقان بنزل وماء مفعول به وبقدر في موضع نصب على الحال (فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ) الفاء عاطفة وأنشرنا عطف على نزل ، وفيه التفات سيأتي سره في باب البلاغة ، وبه متعلقان بأنشرنا وبلدة مفعول به وميتا صفة لبلدة وكذلك صفة لمصدر محذوف وتخرجون

فعل وفاعل (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها) عطف أيضا وجملة خلق الأزواج صلة وكلها تأكيد (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ) عطف على خلق الأزواج داخل في حيز الصلة ولكم في موضع المفعول الثاني ومن الفلك حال والأنعام عطف على الفلك وما موصول مفعول به وجملة تركبون صلة والعائد محذوف أي ما تركبونه وسيأتي بحث عن فعل الركوب في باب الفوائد (لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ) اللام للتعليل والجار والمجرور متعلقان بجعل وتستووا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والواو فاعل وعلى ظهوره متعلقان بتستووا ، ثم حرف عطف وتذكروا عطف على تستووا ونعمة ربكم مفعول تذكروا وإذا ظرف مستقبل متعلق بجوابه المحذوف والمدلول عليه بتذكروا وجملة استويتم في محل جر بإضافة الظرف إليها وعليه متعلقان باستويتم وذكر الضمير في ظهوره نظرا للفظ ما كما جمع الظهور لذلك (وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا) وتقولوا عطف على ما تقدم وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف والذي مضاف إليه وجملة سخر

صلة ولنا متعلقان بسخر وهذا مفعول به (وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) الواو للحال وما نافية وكان واسمها وله متعلقان بمقرنين ومقرنين

خبر كنا (وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ) الواو حالية أيضا وسيأتي سرّ هذا الحال في باب البلاغة وإن واسمها وإلى ربنا متعلقان بمنقلبون واللام المزحلقة ومنقلبون خبر إن .

البلاغة :

انطوت هذه الآيات على أفانين من البلاغة نوجزها فيما يلي :

1 – فأول فن فيها هو الحذف ، فقد حذف الموصوف وهو اللّه تعالى وأقام صفاته مقامه لأن الكلام مجزأ فبعضه من قولهم وبعضه من قول اللّه تعالى فالذي هو من قولهم خلقهنّ وما بعده هو من قول اللّه تعالى وأصل الكلام أنهم قالوا خلقهنّ اللّه بدلالة قوله في آية أخرى : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ اللّه ثم لما قالوا خلقهنّ اللّه وصف اللّه تعالى ذاته بهذه الصفات وأقيمت مقام الموصوف كأنه كلام واحد ونظير هذا أن تقول للرجل : من أكرمك من القوم ؟ فيقول أكرمني زيد فتقول أنت واصفا له : الكريم الجوّاد المفضال الذي من صفته كذا وكذا .

2 – الالتفات : والفن الثاني هو الالتفات فإنه لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام اللّه عزّ وجلّ جاء أوله على لفظه الغيبة وآخره على الانتقال منها إلى التكلم في قوله فأنشرنا افتنانا في أفانين البلاغة ولتسجيل المنّة على عباده وقرع أسماعهم بها ومن هذا النمط في القرآن

كثير .

3- سرّ الحال : والسر في قوله " وإنا إلى ربنا لمنقلبون " أنه كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو طاح عن ظهرها فهلك وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم ففرقوا فلما كان الركوب بحد ذاته أمرا شديدا لخطورة مجهول المغبة والراكب مستهدف لأنواع المتالف

(387/694)

و صنوف المخاطر كان من حقه أن لا ينسى أنه هالك لا محالة ، وأنه منقلب إلى اللّه ، ولن يتاح له الإفلات من قضائه إذا حمّ ، ومن قدره إذا حلّ ، والغاية من كل ذلك أن يكون منتبها إلى نفسه ، غير مؤثر لدنياه على آخرته .

الفوائد :

من الأسرار التي تدق على الأفهام ، مباحث تعدية الأفعال فالعرب يعدّون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة ، مثل سكرت وأخواته ويعدّون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة مثل دعوت وصلّيت فإنك تقول : صلى النبيّ على آل أبي أوفى ولو قلت : دعا على آل أبي أوفى لأفهم عكس المقصود ولكن دعا لآل أبي أوفى ، ويعدّون بعضهما إلى مفعولين ومرادفه إلى مفعول واحد كعلم وعرف فلا يترتب على الاختلاف بالتعدّي والقصور

والاختلاف في المعنى ، ويستنتج من هنا أن ركب باعتبار القبيلين معناه واحد وإن خصّ أحدهما باقتران الواسطة والآخر بسقوطها فالصواب أحد الأمرين ، أما تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه والأقرب تعليله باعتبار التعدّي بنفسه ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى " فأجمعوا أمركم وشركاءكم " على أحد التأويلين فيه فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى أعني جمع الأمر وجمع الشركاء ولكن لما تقاربا غلب أحدهما على الآخر ثم جعل المغلب هو المتعدي بنفسه .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 15 إلى 19]

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (19)

اللغة :

(جُزْءاً) قال في القاموس : " الجزء : البعض ويفتح والجمع أجزاء وبالضم موضع ورمل ، وجزأه كجعله : قسّمه أجزاء كجزّأه ، وبالشيء اكتفى كاجتزأ وتجزأ ، والشيء شدّه ، والإبل بالرطب عن الماء : قنعت كجزئت بالكسر ، وأجزأتها أنا وجزّأتها ، وأجزأت عنك مجزأ فلان ومجزأته ، ويضمّان : أغنيت عنك مغناه ، والمخصف جعلت له جزأة أي نصابا ، والخاتم في إصبعي أدخلته ، والمرعى التفّ نبته ، والأم ولدت الإناث ، وشاة عنك : قضت لغة في جزت ، والشيء إياي : كفاني ، والجوازئ الوحش . " وجعلوا له من عباده جزءا " أي إناثا " وأنكره الزمخشري وقال إنه اصطناع لا لغة وفيما يلي نص عبارته :

ومعنى من عباده جزءا أن قالوا : الملائكة بنات اللّه فجعلوهم جزءا له وبعضا منه كما يكون الولد بضعة من والده وجزءا له ، ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث وادّعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث متحوّل ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزأت المرأة ثم صنعوا بيتا :

إن أجزأت حرة يوما فلا عجب زوجتها من بنات الأوس مجزئة

قد يكون للزمخشري عذره في استبعاد هذا التفسير ، ولكن عذره يصبح معدوما عند ما نذكر أن الزجّاج والمبرّد هما اللذان رواياه وهما

إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها .

(الْحِلْيَةِ) الزينة .

الإعراب :

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً) الواو عاطفة على رأي الزمخشري لأنه جعل الكلام متصلا بقوله : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض أي وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين ولك أن تجعلها مستأنفة . وجعلوا فعل وفاعل والجعل هنا بمعنى التصيير وله في موضع المفعول الثاني ومن عباده حال وجزءا مفعول جعلوا الأول (إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ) إن واسمها واللام المزحلقة وكفور خبر إن ومبين صفة أي مظهر لكفره (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ) أم متصلة معطوف على استفهام محذوف المقصود منه الإنكار والتوبيخ والتقدير أتقولون أم اتخذ وقال بعضهم منقطعة بمعنى بل وقال آخرون بهما معا وكل صحيح وقد تقدم القول مطولا في أم . واتخذ فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ومما متعلقان بمحذوف هو مفعول اتخذ الثاني وجملة يخلق صلة وبنات مفعول اتخذ الأول وأصفاكم عطف على اتخذ وبالبنين متعلقان بأصفاكم (وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدم وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وبشّر فعل ماض مبني

للمجهول وأحدهم نائب فاعل وبما متعلقان ببشر وجملة ضرب صلة وضرب متضمن معنى جعل فيتعلق للرحمن بمحذوف في موضع المفعول الثاني ومثلا مفعول ضرب الأول (ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) ظل فعل ماض ناقص ووجهه اسمها ومسودّا خبرها والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والواو حالية وهو مبتدأ وكظيم خبر والجملة حالية (أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ)

(390/694)

الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو حرف عطف عطفت الجملة على جملة مقدرة أي يجترئون ويبلغون أبعد الآماد في سوء الأدب ويجعلون للّه من ينشّؤ في الحلية ، فمن موصول مفعول به لفعل محذوف وقيل هي مبتدأ خبره محذوف تقديره جزءا وولدا ، وجملة ينشّؤ صلة وينشّؤ مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر يعود على من ، وفي الحلية متعلقان بينشّؤ ، وفي الخصام متعلقان بمبين ، وغير مبين خبر هو والجملة حالية وعبارة أبي البقاء : " فإن قلت المضاف إليه لا يعمل فيما قبله قيل إلا في غير لأن فيها معنى النفي فكأنه قال : وهو لا يبين في الخصام ومثله مسألة الكتاب : أنا زيدا غير ضارب وقيل ينتصب بفعل يفسره ضارب وكذا في الآية " وقيل هو من باب " على لا حب لا يهتدي بناره " أي لا منار له

فيهتدي به أي لا يكون منها خصام وليس ببعيد . (وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً) الواو عاطفة وجعلوا فعل وفاعل والملائكة مفعول جعلوا الأول والذين نعت وهم مبتدأ وعباد الرحمن خبره والجملة صلة الذين وإناثا مفعول جعلوا الثاني (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ) السين حرف استقبال وسيأتي سره في باب البلاغة وتكتب فعل مضارع مبني للمجهول وشهادتهم نائب فاعل ويسألون عطف على ستكتب .

البلاغة :

معنى الاستقبال : إنما ضجّ إلى الاستقبال فأتى بالسين الدّالة عليه ليتضمن الكلام معنى انفساح الوقت للتوبة وبناء الرجاء على الاستعطاف لقبولها قبل كتابة ما قالوا جريا على ما كانوا يعتقدون من تفضيل الذكور على الإناث ونسبة شرّ الجزأين وهو الإناث إلى اللّه ، وفي هذا منتهى التسفيه لآرائهم لأنهم تجنّوا على نصفنا الثاني فنسبوا إليه الشرّ ونقصان العقل ثم تجنّوا على خالقهم بنسبتهم هذا الجزء

الذي هو شر إليه ، وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت :

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا حكمة ربي ذي الجلال فينا

[سورة الزخرف (43) : الآيات 20 إلى 25]

وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (24)

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)

اللغة :

(يَخْرُصُونَ) في المصباح : " وخرص الكافر خرصا من باب قتل كذب فهو خارص " وفي القاموس والتاج " الخراص : الكذاب " وللخاء والراء فاء وعينا للكلمة سر عجيب أنهما تدلّان على المهانة والاستقذار وإحداث الأثر السيّء : فخرئ خرءا وخراءة وخروءا

تغوط وسلح يقال :

خرئت بينهم الضبع أي دخلت بينهم العداوة والمخراة والمخرأة :

(392/694)

المكان الذي يخرأ فيه والجمع مخارئ ، وخرب البيت ضد عمر وخرب الرجل : صار مشقوق الأذن أو مثقوبها فهو أخرب وهي خرباء ، وخربش الكتاب أو العمل : أفسد ، وهي من العامي الفصيح ، وخربص أيضا بمعنى أخذ المال وذهب به عامية فصيحة أيضا ، وخرت الأذن : ثقبها وخرّت الأرض عرفها ولم تخف عليه طرقها لأنه ذهب في أرجائها وخرب في أكنافها ، والخرثاء من صفات المرأة المستقبحة فهي الضخمة الخاصرتين المسترخية اللحم ، والخرتي بضم الخاء أردأ المتاع وسقطه وخرتي الكلام ما لا خير فيه ، وخرج برز وهو معروف والخراج الوّلاج بالتشديد كثير الخروج والولوج والخراج مثلثة الخاء الأتاوة وأصله ما يخرج من غلة الأرض والمال والخراج بضم الخاء كل ما يخرج بالبدن كالدمل والخارجي : من خلف السلطان والجماعة ومنه سمّيت الخوارج وهم سبع فرق من كبار الفرق الإسلامية ، وخرخر النائم : غطّ ، والخريدة اللؤلؤة التي لم تثقب ، والخرور معروف وفيه مهانة لصاحبه ، والخرازة مهنة ممتهنة وأخرسه اللّه معروف وأطعموا النفساء

خرستها وهو طعامها خاصة وقد خرّست فتخرّست قال :

فللّه عينا من رأى مثل مقبسي إذا النفساء أصبحت لم تخرّس

ورماه اللّه بخرساء وهي الداهية قال الأخطل :

وكم أنقذتني من جرور حبالكم وخرساء لو يرمى بها الفيل تلبّدا

وأصلها الأفعى ، قال عنترة :

عليهم كل محكمة دلاص كأن قتيرها أعيان خرس

ورأيت عليه قميصا مثل خرشاء الحية رقة وصفاء وهو سلحها وهو يلقي من صدره

خراشيّ منكرة وهي النخامة والبلغم ، وخرط الورق قشره عن الشجرة اجتذابا له

ووسمه على الخرطوم أذله وهم خراطيم القوم وشرب الخرطوم : السلامة لأنها أول ما

ينعصر ، قال الأخطل :

جادت بها من ذوات القار مترعة كلفاء ينحتّ عن خرطومها المدر

وفي العود خرع أي لين ورخاوة ومنه قيل للفاجرة الخريع قال :

يزيد جمال الدّل منها رزانة وحلم إذا خفّ النساء الخرائع

(393/694)

و هو رخو كالخروع ، وخرف الثمار اجتناها وأخرفي لنا يا جارية ، وخرق الثوب وخرّقه : وسّع شقّه وانخرق وتخرّق واتسع الخرق على الراقع وشاة خرقاء مثقوبة الأذن وقد خرق في عمله وفيه خرق وهو أخرق وهي خرقاء ، وخرم الشيء خرقه واخترمهم الدهر وتخرمهم ، قال أبو ذؤيب الهذلي :

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرّموا ولكل جنب مصرع

وهذا من أعاجيب لغتنا الشريفة .

(أُمَّةٍ) طريقة تؤم وتقصد وتكسر همزتها .

الإعراب :

(وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان نوع آخر من أنواع كفرهم ، وقالوا فعل وفاعل ولو شرطية وشاء الرحمن فعل وفاعل والمفعول به محذوف وكثير حذفه بعد فعل المشيئة كما تقدم أي لو شاء عدم عبادة الملائكة ما عبدناهم وما نافية وعبدناهم فعل وفاعل ومفعول به والجملة لا محل لها لأنها واقعة في جواب لو (ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) ما نافية ولهم خبر مقدم وبذلك حال لأنه كان في الأصل صفة ومن حرف جر زائد وعلم مبتدأ مؤخر ولك أن تجعل ما حجازية على رأي من يجيز تقديم خبرها على اسمها وإن نافية وهم مبتدأ وإلا أداة حصر ويخرّصون فعل مضارع مرفوع (أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ)

أم حرف عطف معادل للاستفهام في قوله اشهدوا خلقهم فهي متصلة وقال بعضهم أم منقطعة بمعنى همزة الاستفهام الإنكاري كأنه بعد أن نفى حجتهم العقلية أضرب عن الكلام إلى نفي حجتهم النقلية ورجح الشهاب الخفاجي هذا الوجه لبعده عن قوله شهدوا (بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ) بل حرف عطف وإضراب وقالوا فعل وفاعل وإن واسمها وجملة وجدنا آباءنا خبرها وجملة إن واسمها وخبرها مقول قولهم وعلى أمة في موضع المفعول الثاني لوجدنا (وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ) الواو عاطفة وإن واسمها وعلى آثارهم متعلقان بمهتدون ومهتدون خبرها وقيل على آثارهم هو الخبر أي ماشون ومهتدون خبر ثان ولعله أولى (وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ) الواو عاطفة وكذلك نعت لمصدر محذوف وقد تقدمت له نظائر وما نافية وأرسلنا فعل وفاعل ومن قبلك متعلقان بأرسلنا ، في قرية متعلقان بمحذوف حال ومن حرف جر زائد ونذير مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول أرسلنا (إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ) إلا أداة حصر والاستثناء من أعمّ الأحوال وقال مترفوها فعل وفاعل وما بعده تقدم إعرابه (قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ) قال فعل ماض والفاعل

ضمير مستتر تقديره هو والهمزة للاستفهام والواو حالية والتقدير أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم من الضلالة ولو شرطية وجئتكم فعل وفاعل ومفعول به وبأهدى متعلقان بجئتكم وسيأتي سرّ التفضيل في باب البلاغة ومما متعلقان بأهدى وجملة وجدتم صلة وعليه متعلقان بوجدتم (قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ) قالوا فعل وفاعل وإن واسمها وبما متعلقان بكافرون وجملة أرسلتم صلة الموصول وبه متعلقان بأرسلتم

(395/694)

وكافرون خبر إنّا (فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) الفاء حرف عطف وانتقمنا فعل وفاعل ومنهم متعلقان بانتقمنا ، فانظر الفاء

عاطفة وانظر فعل أمر وفاعله مستتر تقدره أنت وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر مقدّم لكان وكان فعل ماض ناقص وعاقبة المكذبين اسمها المؤخر .

البلاغة :

في قوله " قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون " فن الإلجاء وهو أن يبادره المتكلم الخصم بما يلجئه إلى الاعتراف بحقيقة نفسه ودخيلة قلبه ،

فالتعبير في الآية بالتفضيل المقتضي أن ما عليه آباؤهم فيه هداية لم يكن إلا لإلجائهم إلى الاعتراف بحقيقة نيّاتهم التي يضمرونها كأنه يتنزل معهم إلى أبعد الحدود ويرخي لهم العنان إلى أقصى الآماد ليعترفوا بالتالي بمكابرتهم التي لا تجدي معها المناصحة في القول ولا ينفع في تذليلها الإتيان بالحجّة.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 26 إلى 32]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (30)

وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)

اللغة:

)

بَراءٌ) بفتح الباء وألف وهمزة بعد الراء وهو مصدر في الأصل وقع موقع الصفة ولذلك استوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والاثنان والجماعة وفي المختار : " وتبرأ من كذا فهو براء منه بالفتح والمدّ لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر كالسماع " وفي القاموس : " وأنا براء منه لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث أي بريء " .

(عَقِبِهِ) ذريته وفي القاموس : " العقب : الجري بعد الجري والولد وولد الولد كالعقب ككتف " .

(سُخْرِيًّا) بضم السين نسبة إلى السخرة وهي العمل بلا أجرة وفي القاموس " وسخره كمنعه سخريا بالكسر ويضم كلّفه ما لا يريد وقهره " وقد تقدم شرحها ويبعد أن تكون من السخرية التي هي الاستهزاء والتهكم خلافا لمن قال إنها من السخرية التي هي بمعنى الاستهزاء أي ليستهزئ الغني بالفقير .

الإعراب :

(وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتذكير العرب بحال جدّهم الأعلى ، والظرف متعلق باذكر محذوفا وجملة قال إبراهيم في محل جر بإضافة الظرف إليها ولأبيه متعلقان بقال وقومه عطف على أبيه وجملة

إنني برآء في محل نصب مقول للقول ومما متعلقان ببراء وجملة تعبدون صلة ما (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) إلا أداة استثناء والذي مستثنى والاستثناء

(397/694)

منقطع كأنه قال لكن الذي فطرني فإنه سيهدين ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا بناء على أنهم كانوا يسركون مع اللّه الأصنام ، وأجاز الزمخشري وغيره أن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن " ما " في ما تعبدون موصوفة تقديره إنني برآء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فهو نظير قوله تعالى " لو كان فيهما آلهة إلا اللّه لفسدتا " ورجح أبو حيان انقطاع الاستثناء إذ كانوا لا يعبدون اللّه مع أصنامهم . وجملة فطرني صلة للموصول والفاء تعليلية وإن واسمها وجملة سيهدين خبرها والسين للتأكيد لا للاستقبال أي يديم هدايتي لأنه تعالى هاديه في المستقبل والحال والمفعول به محذوف أي سيهديني لرعاية الفاصلة (وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الواو حرف عطف وجعلها فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول والضمير يعود على إبراهيم وكلمة مفعول به ثان وباقية صفة وفي عقبه متعلقان بباقية ، ولعلهم لعل واسمها وجملة يرجعون خبرها وسيأتي المراد بالكلمة الباقية في باب الفوائد (بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ) بل حرف إضراب وعطف

والإضراب عن محذوف لا بدّ من تقديره ليتسلسل الكلام والتقدير وجعلها كلمة باقية في عقبه بأن وصّاهم بها رجاء أن يثوب إليها المشركون فلم يحصل ما ترجاه بل متعت هؤلاء الذين يمتّون بالنسبة إلى إبراهيم ولم أعاملهم بالعقوبة وأنسأت في آجالهم .

(398/694)

و هؤلاء اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب مفعول به وآباءهم عطف على هؤلاء أو مفعول معه وحتى حرف غاية وجر ، وسيأتي سر غاية التمتيع في باب البلاغة ، وجاءهم الحق فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ورسول عطف على الحق ومبين صفة لرسول (وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ) الواو حرف عطف ولما رابطة أو حينية وجاءهم الحق فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وجملة قالوا لا محل لها لأنها واقعة في جواب شرط غير جازم وهذا مبتدأ وسحر خبره والجملة

(399/694)

مقول قولهم وإنّا إن واسمها وبه متعلقان بكافرون وكافرون خبر إنّا (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) الواو عطف على الكلام المتقدم وقالوا فعل وفاعل ولولا حرف تحضيض بمعنى هلّا ونزل فعل ماضي مبني للمجهول وهذا اسم إشارة نائب فاعل والقرآن بدل وعلى رجل متعلقان بنزل ومن القريتين صفة لرجل وعظيم صفة ثانية لرجل وسيأتي القول عنهما في باب الفوائد (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري تجهيلا لهم واستركاكا لعقولهم وهم مبتدأ وجملة يقسمون خبر ورحمة ربك مفعول يقسمون وكتبت رحمة ربك في المصحف بالتاء المفتوحة وسيأتي تفصيل ذلك في باب الفوائد (نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا) نحن مبتدأ وجملة قسمنا خبر وبينهم ظرف متعلق بقسمنا ومعيشتهم مفعول به وفي الحياة الدنيا متعلقان بمحذوف حال (وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا) الواو حرف عطف ورفعنا فعل وفاعل وبعضهم مفعول به وفوق بعض ظرف متعلق برفعنا ودرجات تمييز واللام للتعليل وقيل للصيرورة أو العاقبة ويتخذ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد اللام وبعضهم فاعل وبعضا مفعول به أول وسخريا مفعول به ثان ويترتب على هذا ما أفصح عنه الخازن بقوله : " يعني أنّا لو سوّينا بينهم في كل الأحوال لم يخدم أحد أحدا ولم يصر أحد منهم مسخرا لغيره وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد حال الدنيا "

(وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) الواو عاطفة أو حالية ورحمة ربك مبتدأ وخير خبر

ومما متعلقان بيجمعون وجملة يجمعون صلة ما .

البلاغة :

في مجيء الإضراب بقوله تعالى " بل متّعت هؤلاء " الآية ، وجعل الغاية للتمتع مجيء الحق نكتة بديعة لأنه ليس المقصود من الإضراب

(400/694)

رد الكلام السابق ولكن المقصود هو التأكيد والاستمرار ليبيّن أنهم شغلوا عمّا جاءهم من الحق إذ لا مناسبة بين مجيء الحق والتمتيع ، والمعنى أنهم شغلوا عن شكر المنعم فإنهم بدلا من أن ينصاعوا إلى الحق ويأخذوا بأسبابه ، ويعكفوا عليه واستجلاء آلائه جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها .

الفوائد :

1- المراد بالكلمة الباقية في عقب إبراهيم صلوات اللّه عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله : إنني برآء مما تعبدون إلا الذي فطرني .

2- المراد بالقريتين مكة والطائف والمراد بالرجلين الوليد بن المغيرة المخزومي بمكة وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف لأن الرجل الشريف عندهم وحسب معتقداتهم السخيفة

هو الذي يكون كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك فليست الرسالة لائقة به .

3- رسمت التاء مفتوحة في قوله " ورحمة ربك " في المصحف كما رسمت في الأعراف والروم وهود والبقرة .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 33 إلى 39]

وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (34) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (39)

اللغة :

(سُقُفاً) في القاموس : " السقف للبيت كالسقيف والجمع سقوف وسقف بضمتين " وعن الفراء جمع سقيفة وقرىء سقوفا جمعا على فعول نحو كعب وكعوب .

(وَمَعارِجَ) جمع معرج بفتح الميم وكسرها وسمّيت المصاعد من الدرج معارج لأن المشي عليها مثل مشي الأعرج.

(وَزُخْرُفاً) الزخرف الذهب والزينة، وقال ابن زيد: هو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة والأثاث، وقال الحسن: النقوش وأصله الزينة يقال زخرفت الدار أي زينتها وتزخرف فلان أي تزين، وأوردت معاجم اللغة معاني عديدة للزخرف منها الذهب وحسن الشيء وزخرف الكلام أباطيله المموّهة وزخرف الأرض ألوان بناتها والجمع زخارف.

(يَعْشُ) في القاموس: العشا مقصور سوء البصر في الليل والنهار والعمى عشا كرضي ودعا وفي المختار وعشا عنه أعرض وبا به عدا ومنه قوله تعالى: "ومن يعش عن ذكر الرحمن" قلت وفسره بعضهم في الآية بضعف البصر وقال أبو الهيثم والأزهري: عشوت إلى كذا أي قصدته وعشوت عن كذا أي أعرضت عنه فيفرّق بين إلى وعن مثل ملت إليه وملت عنه.

(نُقَيِّضْ) نسبب ونقدّر يقال قيّض اللّه له كذا: قدّره له وقيض اللّه فلانا لفلان: جاءه به.

الإعراب:

)

وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً) الواو استئنافية ولولا حرف امتناع لوجود وأن وما بعدها في تأويل مصدر مبتدأ محذوف الخبر والناس اسم يكون وأمة خبرها وواحدة صفة ومعنى كونهم أمة واحدة اجتماعهم على أمر واحد ، وأريد به هنا الكفر بقرينة الجواب كما سيأتي (لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ) اللام رابطة للجواب وجعلنا فعل وفاعل ولمن في موضع المفعول الثاني وجملة يكفر صلة لمن وبالرحمن متعلقان بيكفر ولبيوتهم بدل اشتمال من لمن يكفر بإعادة الجار وسقفا مفعول جعلنا الأول ومن فضة صفة لسقفا ومعارج عطف على سقفا وعليها متعلقان بيظهرون ويظهرون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والجملة صفة لمعارج (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ) عطف على ما تقدم وتكرر لفظ البيوت لزيادة التقرير ولك أن تقدّر مقدرا لتنصب أبوابا وسررا فيكون من عطف الجمل (وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا) وزخرفا عطف أيضا على سررا أو مفعول به لفعل محذوف أي وجعلنا لهم زخرفا وعطفه الزمخشري على محل من فضة كأنه قال سقفا من فضة وذهب أي بعضها كذا وبعضها كذا والواو عاطفة وإن نافية وكل ذلك مبتدأ ولما بالتشديد بمعنى إلا ومتاع الحياة الدنيا خبر وقرىء بتخفيف لما فإن عندئذ مخففة من الثقيلة مهملة واللام الفارقة وما زائدة (وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) الواو حالية والآخرة مبتدأ وعند ربك ظرف متعلق

بمحذوف حال وللمتقين متعلقان بمحذوف خبر الآخرة وفي هذا تقرير واف على أن العظيم حقا هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) كلام مستأنف مسوق لسرد مآل المعرضين عن ذكر اللّه

وقيل هو متصل بقوله أول بالسورة

(403/694)

أفنضرب عنكم الذكر صفحا ، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويعش فعل الشرط وعن ذكر الرحمن متعلقان بيعش ونقيض جواب الشرط وجملتا الشرط والجزاء خبر من وله متعلقان بنقيض وشيطانا مفعول به لنقيض والفاء حرف عطف وهو مبتدأ وله حال لأنه كان في الأصل صفة لقرين وتقدمت عليه وقرين خبر (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) الواو عاطفة وإن واسمها واللام المزحلقة وجملة يصدّونهم خبر إن وعن السبيل متعلقان بيصدّونهم (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) الواو حالية أو عاطفة ويحسبون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون وأن واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولي يحسبون وسيأتي سرّ الجمع في باب البلاغة (حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) حتى حرف غاية وجر وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط وجملة

جاءنا في محل جر بإضافة الظرف إليها وفاعل جاءنا يعود على العاشي المأخوذ من يعش الآنف وجملة قال لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ويا حرف تنبيه أو حرف نداء والمنادى محذوف ظاهر التقدير وليت حرف تمن ونصب وبيني ظرف متعلق بمحذوف خبرها المقدم وبينك عطف على بيني وبعد المشرقين اسم ليست المؤخر وسيأتي معنى المشرقين في باب البلاغة (فَبِئْسَ الْقَرِينُ) الفاء الفصيحة وبئس فعل ماض جازم لإنشاء الذم والقرين فاعل بئس والمخصوص بالذم محذوف تقديره أنت (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ) كلام مستأنف مسوق لبسط ما يقال لهم في الآخرة ولن حرف نفي ونصب واستقبال وينفعكم فعل مضارع منصوب بلن واليوم ظرف متعلق بينفعكم وإذ ظرف لما مضى من الزمن بدل من اليوم ولا يقال إن إذ للمضي واليوم للحال فلا يجوز البدل لأن الدنيا و

(404/694)

الآخرة متصلتان وهما سواء في حكم اللّه وعلمه فكأن إذ مستقبلة وكأن اليوم ماض ، قال ابن جنّي في مساءلته أبا علي : راجعت فيها مرارا وآخر ما

حصل منه أن الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء في حكم اللّه وعلمه .

وجملة ظلمتم في محل جر بإضافة الظرف إليها وأن وما بعدها في تأويل مصدر فاعل ينفعكم أي لن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الاشتراك في مصائب الدنيا حيث يتأسى المصاب بمثله وقيل الفاعل مستتر تقديره تمنّيكم وهو المدلول عليه بقوله " يا ليت بيني وبينه " أي لن ينفعكم تمنّيكم البعد ويؤيد إضمار الفاعل قراءة إنكم بالكسر فإنه استئناف يفيد التعليل إما بالفتح فأن وما بعدها في موضع نصب بنزع الخافض أي لأنكم والجار والمجرور متعلقان بينفعكم وفي العذاب متعلقان بمشتركون ومشتركون خبر إن .

البلاغة :

1 – النكرة الواقعة في سياق الشرط : في قوله : " ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا " الآية نكتة بديعة وهي أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم ولذلك أعاد عليه الضمير مجموعا في قوله :

" وإنهم ليصدّونهم " والثاني الواو في قوله " ويحسبون " والثالث الهاء في قوله إنهم .

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشا قالت قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه فقيضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد اللّه فأتاه وهو في القوم فقال أبو بكر : إلام تدعوني ؟

قال : أدعوك إلى عبادة اللّات والعزّى قال أبو بكر : وما اللات ؟ قال :

أولاد اللّه ، قال : وما العزّى ؟ قال : بنات اللّه ، قال أبو بكر فمن أمهم ؟

فسكت طلحة ولم يجبه فقال لأصحابه : أجيبوا الرجل فسكت القوم .

فقال طلحة : قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه فأنزل اللّه : ومن يعش عن ذكر الرحمن ، الآية .

(405/694)

2- وفي هذه الآية أيضا من التنكيت وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسدّ مسدّه لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه على سواه ، فإن لقائل أن يقول لأي نكتة عدل عن لفظ الحقيقة فلم يقل : ومن يعرض عن ذكر الرحمن فاستعار لفظة العشا للضلال فنقول : النكتة في ذلك أن لفظ الاستعارة موفّ بالمعنى المراد بخلاف لفظ الحقيقة فإن الإعراض إعراضان : إعراض يرجى بعده الإقبال لأن المعرض متمكّن من الإقبال وذلك إعراض المؤمن المعتقد أحسن معتقد فيعرض له من الملاذّ التي تستغرق فكره وتشغل قلبه وعقله شغلا بتلك اللذة أو ضدها أو غيرها من أمور الدنيا فيعرض عن الذكر في تلك الحالة فمصاحبة الشيطان لذلك غير دائمة لأنه يمكن أن يؤوب إلى اللّه سبحانه ويتوب عن ذلك فيقبل على ما كان أعرض عنه من الذكر الذي عرف قديما طريقه واهتدى إلى سبيله وربي عليه أو لأجل عناية إلهية اقتضتها سابقة أزلية تجذبه إليه وإعراض ضلال عن طريق

الرشد وسبيل الخير حتى لو قدّرنا أنه أراد الإقبال على الخير لمنعته منه سابقة الضلال والشقوة التي غلبت عليه ، والمراد بالإعراض في الآية إعراض الضلال لا إعراض الغفلة فلا جرم أنه حسن استعارة العشا للضلال فيها وهذا المعرض هو الذي يقيض له مقارنة الشيطان أين كان وحيث كان وبذلك يتبين موضع النكتة التي رجّحت العدول عن لفظ الحقيقة إلى لفظ الاستعارة .

3- التغليب : وفي قوله : " بعد المشرقين " فن التغليب وهو شائع في كلامهم يغلبون الشيء على ما لغيره وذلك بأن يطلق اسمه على الآخر ويثنى بهذا الاعتبار لتناسب بينهما واختلاط فمثال التغليب للتناسب قولهم الأبوين للأب والأم ومنه قوله تعالى " ولأبويه لكل واحد منهما السدس " والمشرقين والمغربين والخافقين وهو محل الخفوق أي الغروب من خفق النجم أي غرب والقمرين في الشمس والقمر قال أبو الطيب :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا

(406/694)

و استقبلت قمر السما بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

أي الشمس وهو وجهها وقمر السماء ، والقمران في العرف الشمس والقمر ، وقيل إن منه

قول الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

وقيل إنما أراد محمدا والخليل عليهما الصلاة والسلام لأن نسبه يمتّ إليها ، وقالوا العمرين في أبي بكر وعمر وقيل المراد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز فلا تغليب ، وأما الأول ففيه تغليب غلبوا الأخف وقيل لطول عمره ، وقالوا العجاجين في رؤبة والعجاج ، والمروتين في الصفا والمروة ، ومثال التغليب للاختلاط قوله تعالى :

" فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع " فإن الاختلاط حاصل في العموم السابق في قوله "كل دابة " ثم فصله فيما بعد وفي من يمشي على رجلين في عبارة التفصيل فإنه يضم الإنسان والطائر وقوله تعالى : " اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون " لأن لعل متعلقة بخلقكم لا باعبدوا لئلا يلزم تعليل الشيء بنفسه أي اعبدوا لأجل التقوى والتقوى هي العبادة وغلبوا المذكر على المؤنث حتى عدت منهم في قوله تعالى : " وكانت من القانتين " أي مريم وعدت من الذكور حيث جعلت بمثابتهم في التعبير بلفظ يخصّ به الذكور في أصل الوضع ولو لم يغلب لقال : من القانتات .

الفوائد :

الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر في صحيح الترمذي : " عن أبي

هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " وعن سهل بن سعد قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لو كانت الدنيا تعدل عند اللّه جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء " .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 40 إلى 45]

(407/694)

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (40) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (44)

وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

الإعراب :

(أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ) كلام مستأنف مسوق لتسليته صلى اللّه عليه وسلم أي إن هؤلاء صم فلا يمكنك إسماعهم وعمي فلا يمكنك هدايتهم ، والهمزة للاستفهام الإنكاري التعجبي والفاء عاطفة على محذوف مقدر وأنت ضمير منفصل في محل رفع

مبتدأ وجملة تسمع خبر والصمّ مفعول به واو حرف عطف وجملة تهدي العمي عطف على تسمع الصمّ (وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الواو عاطفة ومن اسم موصول معطوف على العمي وجملة كان صلة من واسم كان ضمير مستتر تقديره هو وفي ضلال خبر كان ومبين صفة (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ) الفاء عاطفة وإن شرطية أدغمت نونها في ما الزائدة

(408/694)

و نذهبن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم فعل الشرط وبك متعلقان بنذهبنّ ، فإنّا : الفاء رابطة لجواب الشرط وإن واسمها ومنهم متعلقان بمنتقمون ومنتقمون خبر إن وجملة فإنّا في محل جزم جواب الشرط (أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ) عطف على الجملة السابقة والذي مفعول نرينك الثاني وجملة وعدناهم صلة وإن واسمها وخبرها (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ) الفاء الفصيحة أي إن علمت هذا وتأكدت منه فاستمسك ، واستمسك فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وبالذي متعلقان باستمسك وجملة أوحي إليك صلة (إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) الجملة لا محل لها من الإعراب لأنها تعليل للأمر وإن واسمها وعلى صراط خبرها

ومستقيم صفة (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ) الواو عاطفة وإن واسمها واللام المزحلقة وذكر خبر إن ولك متعلقان بذكر أو صفة له ولقومك عطف على لك والواو عاطفة وسوف حرف تسويف وتسألون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا) الواو عاطفة واسأل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ومن مفعول به وجملة أرسلنا صلة الموصول ومن قبلك متعلقان بأرسلنا ومن رسلنا حال وسيأتي بحث المجاز في هذا السؤال في باب البلاغة (أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) الجملة سدّت مسدّ مفعولي اسأل المعلقة عن العمل بالاستفهام والهمزة للاستفهام وجعلنا فعل وفاعل ومن دون الرحمن مفعول جعلنا الثاني وآلهة مفعول جعلنا الأول وجملة يعبدون صفة لآلهة ويعبدون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

البلاغة :

المجاز في مساءلة الشعراء للديار والرسوم : في قوله " واسأل من

أرسلنا من قبلك " مجاز مرسل فقد أوقع السؤال على الرسل مع أن المراد أممهم لعلاقة الهداية المفضية بهم إلى معرفة اليقين ويكثر في العربية السؤال الواقع مجازا حيث لا يصحّ

السؤال على الحقيقة ومنه مساءلة الشعر الديار والرسوم والأطلال على حدّ قول عنترة :

هلّا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

وقيل هو على حذف مضاف فيكون مجازا بالحذف أي واسأل أمم من أرسلنا من قبلك

وهلّا سألت راكبي الخيل ، ويشهد لهذا التأويل وإرادة سؤال الأمم قوله تعالى " فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك " .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 46 إلى 56]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (46) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (47) وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (50)

وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (55)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (56)

الإعراب :

)

(410/694)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان شبهة أوردها فرعون على موسى كما أوردت قريش شبهة الفقر على محمد صلى اللّه عليه وسلم .

واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل وموسى مفعول به وبآياتنا حال فالباء للملابسة وإلى فرعون متعلقان بأرسلنا وملئه عطف على فرعون (فَقالَ إِنّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ) الفاء حرف عطف وإني : إن واسمها ورسول رب العالمين خبرها وجملة إن وما بعدها مقول القول (فَلَمّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ) الفاء عاطفة على مقدر أي فطلبوا منه الآيات الدالّة على صدقه ، ولما ظرفية حينية أو رابطة وجاءهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وبآياتنا متعلقان بجاءهم وإذا فجائية ولك أن تجعلها ظرفا معمولا لفعل المفاجأة الذي هو جواب لما ولك أن تجعلها حرفا ، وفيما يلي نص عبارة أبي حيان بهذا الصدد قال : " قال الزمخشري : فإن قلت كيف جاز أن تجاب لما بإذا الفجائية ؟ قلت : لأن فعل المفاجأة معها مقدّر وهو عامل النصب في محلها كأنه قيل : فلما

جاءهم بآياتنا فاجئوا وقد ضحكهم انتهى . ولا نعلم نحويا ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجل من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدّر تقديره فاجأ بل المذاهب فيها ثلاثة مذاهب : أما إنها حرف فلا تحتاج إلى عامل أو ظرف مكان أو ظرف زمان فإن ذكر بعد الاسم الواقع بعدها خبر كانت منصوبة على الظرف والعامل فيها ذلك الخبر نحو خرجت فإذا زيد قائم تقديره وخرجت ففي المكان الذي خرجت فيه زيد قائم أو

(411/694)

ففي الوقت الذي خرجت فيه زيد قائم وإن لم يذكر بعد الاسم أو ذكر اسم منصوب على الحال كانت إذا خبر للمبتدأ فإن كان الاسم جثة وقلنا إنها ظرف مكان كان الأمر واضحا نحو خرجت فإذا الأسد أي ففي الحضرة الأسد أو فإذا الأسد رابضا وإن قلنا إنها ظرف زمان كان على حذف مضاف لئلا يخبر الزمان عن الجثة نحو خرجت فإذا الأسد أي ففي الزمان حضور الأسد وما ادّعاه الزمخشري من إضمار فعل المفاجأة لم ينطق به ولا في موضع واحد ثم المفاجأة التي ادّعاها لا يدل المعنى على أنها تكون من الكلام السابق بل المعنى يدل على أن المفاجأة تكون من الكلام الذي فيه إذا تقول خرجت فإذا الأسد والمعنى ففاجأني الأسد وليس المعنى ففاجأت الأسد " وقد أوردنا القول في إذا الفجائية

، وهم مبتدأ ومنها متعلقان بيضحكون وجملة يضحكون خبرهم (وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها) الواو عاطفة وما نافية ونريهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول ومن حرف جر زائد وآية مفعول به ثان لنريهم وإلا أداة حصر وهي مبتدأ وأكبر خبر ومن أختها متعلقان بأكبر والجملة صفة لآية وسيأتي المزيد من بحث هذا الكلام في باب البلاغة (وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الواو عاطفة وأخذناهم فعل وفاعل ومفعول به وبالعذاب متعلقان بأخذناهم ولعل واسمها وخبرها (وَقالُوا : يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ) الواو عاطفة وقالوا فعل وفاعل ويا أيها نداء تقدم إعرابه والساحر بدل من أي أو نعت لها وادع فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ولنا متعلقان بادع وربك مفعول به وبما متعلقان بادع وما يحتمل أن تكون موصولة وأن تكون مصدرية وجملة عهد صلة أو مؤولة بمصدر مجرور بالبناء وعندك ظرف متعلّق بعهد وإن واسمها ولمهتدون خبرها واللام المزحلقة (فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ

(412/694)

الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ) الفاء عاطفة على محذوف مقدّر أي فدعا موسى فلما كشفنا ، ولما رابطة أو حينية وكشفنا فعل وفاعل وعنهم

متعلقان بكشفنا والعذاب مفعول به وإذا فجائية تقدّم القول فيها مفصلا وهم مبتدأ وجملة ينكثون خبرها (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الواو استئنافية أو عاطفة ونادى فرعون فعل وفاعل وفي قومه متعلقان بنادى ، وسيأتي سر هذا النداء والظرفية في باب البلاغة ، وقال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو والجملة تفسيرية ويا قوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة و الهمزة للاستفهام التقريري وليس فعل ماض ناقص جامد ولي خبرها المقدم وملك مصر اسمها المؤخر وهذه الواو إما حالية فالجملة نصب على الحال وإما عاطفة وهذه عطف على ملك مصر وعلى الأول تكون هذه مبتدأ والأنهار بدل وجملة تجري خبر ومن تحتي متعلقان بتجري ، أفلا : الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة على مقدّر ولا نافية وتبصرون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) أم حرف عطف وهي منقطعة مقدّرة ببل والهمزة أي بل أنا خير فهي منقطعة لفظا متصلة معنى وقال الزمخشري والسيوطي : أم هذه متصلة لأن المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع قوله أنا خير منه موضع تبصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير كانوا عنده بصراء وهذا من إنزال السبب منزلة المسبّب . واعترض أبو حيان على الزمخشري بأن المعادل لا يحذف بعد أم إلا إن كان بعدها لفظ لا نحو أتقول أم لا أي أم لا تقول أما حذفه بدون لا كما هنا فلا يجوز على أنه جاء حذف أم والمعادل وهو قليل ومنه قول الشاعر :

دعاني إليها القلب إني لأمره سميع فما أدري أرشد طلابها

يريد أم غي .

(413/694)

و قال أبو البقاء : " أم هنا منقطعة في اللفظ الوقوع الجملة بعدها وهي في المعنى متصلة معادلة إذ المعنى أنا خير منه أم لا " وسيأتي

مزيد من هذا البحث في باب الفوائد ، وأنا مبتدأ وخير خبر ومن هذا متعلقان بخير والذي بدل من اسم الإشارة وهو مبتدأ ومهين خبر والجملة صلة الذي (وَلا يَكادُ يُبِينُ) لك في الواو أن تجعلها عاطفة فالجملة معطوفة على صلة الموصول ولك أن تجعلها مستأنفة فالجملة لا محل لها أيضا وأجازوا أن تكون حالية ولا نافية ويكاد فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة واسمها ضمير مستتر تقديره هو وجملة يبين خبر يكاد أي يظهر كلامه (فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ) الفاء عاطفة ولو لا حرف تحضيض بمعنى هلّا وألقي فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بألقي وأسورة نائب فاعل وهو جمع سوار ومن ذهب صفة لأسورة (أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) أو حرف عطف وجاء فعل ماض ومعه ظرف متعلق بجاء والملائكة فاعل ومقترنين حال أي متتابعين يشهدون بصدقه (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ

فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ) الفاء عاطفة واستخف فعل ماض أي استفز ، وفي المختار : " استفزه الخوف : استخفه " وفي المصباح : " واستخف قومه : حملهم على الخفّة والجهل " وقومه مفعول به .

(414/694)

فأطاعوه : الفاء عاطفة وأطاعوه فعل ماض وفاعل ومفعول به وإن واسمها وجملة كانوا خبرها وجملة إن تعليلية لا محل لها وقوما خبر كانوا وفاسقين صفة (فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ) الفاء عاطفة ولما حينية ظرفية أو رابطة وآسفونا فعل ماض وفاعل ومفعول به وهو منقول بالهمزة من أسف إذا غضب فعداه بالهمزة والمعنى فلما عملوا ما يوجب دالة الحلم ويثير الحفائظ ، وجملة انتقمنا لا محل لها لأنها جواب لما ومنهم متعلقان بانتقمنا ، فأغرقناهم عطف على انتقمنا وأجمعين تأكيد للهاء (فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ) الفاء عاطفة وجعلناهم فعل وفاعل ومفعول به أول وسلفا مفعول به ثان أي سابقين متقدمين إلى العذاب ليتعظ بهم غيرهم ومثلا عطف على سلفا وللآخرين صفة لمثلا .

البلاغة :

1- في قوله " وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها " كلام جامع مانع يعني أنهنّ موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه ، قال الزمخشري : " وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا أرأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ومنه بيت الحماسة :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقد فاضلت الأنمارية بين الكلمة من بنيها ثم قالت لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها " فالوصف بالكبر مجاز وإن ذلك بالنسبة إلى الناظرين فيها .

(415/694)

2- المجاز أيضا : وفي قوله " ونادى فرعون في قومه " مجاز مرسل علاقته المحلية فقد جعل قومه محلا لندائه وموقعا له والمعنى أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم كما أن المراد من نادى فيها فأسند النداء إليه كقولك قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه .

الفوائد :

أم أيضا : قدّمنا في باب الإعراب لمحة عن أم وذكرنا في مواضع متقدمة من هذا الكتاب مباحث جليلة فيها وننقل هنا الفصل الممتع الذي عقده صاحب المغني بصددها مع تعليق مفيد عليه ، قال ابن هشام : " سمع حذف أم المتصلة ومعطوفها كقول الهذلي :

دعاني أيها القلب إني لأمره سميع فما أدري أرشد طلابها

تقديره أم غي ، كذا قالوا ، وفيه بحث كما مر ، – أي في الألف المفردة من أن الهمزة هنا كهل فلا تحتاج إلى معادل – وأجاز بعضهم حذف معطوفها بدونها فقال في قوله تعالى : " أفلا تبصرون أم " إن الوقف هنا وإن التقدير أم تبصرون ثم يبتدئ أنا خير وهذا باطل إذ لم يسمع حذف معطوف بدون عاطفه وإنما المعطوف جملة أنا خير ووجه المعادلة بينهما وبين الجملة قبلها أن الأصل أم تبصرون ثم أقيمت الاسمية مقام الفعلية والسبب مقام المسبّب لأنهم إذا قالوا له : أنت خير كانوا عنده بصراء وهذا معنى كلام سيبويه . فإن قلت : فإنهم يقولون أتفعل هذا أم لا والأصل أم لا تفعل ، قلت : إنما وقع الحذف بعد لا ولم يقع بعد العاطف وأحرف الجواب تحذف الجمل بعدها كثيرا وتقوم هي في اللفظ مقام تلك الجمل فكأن الجملة هنا مذكورة لوجود ما يغني عنها " .

و عبارة سيبويه في الكتاب : " هذا باب أم منقطعة وذلك قولك أعمرو عندك أم عندك زيد فهذا ليس بمنزلة أيهما عندك ، ألا ترى أنك لو قلت أيهما عندك لم يستقم إلا على التكرير والتوكيد ويدلك على أن الآخر منقطع عن الأول قول الرجل إنها لا بل ثم يقول أم شاء فكما جاءت أم هنا بعد الخبر منقطعة كذلك تجيء بعد الاستفهام وذلك أنه حين قال : أعمرو عندك فقد ظن أنه عنده ثم أدركه مثل ذلك الظن في زيد بعد أن استغنى كلامه ثم قال ومثل ذلك : وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير كأن فرعون قال أفلا تبصرون أم أنتم بصراء فقوله أم أنا خير من هذا بمنزلة أم أنتم بصراء لأنهم لو قالوا أنت خير منه كان بمنزلة قولهم نحن بصراء فكذلك أم أنا خير بمنزلة أم أنتم بصراء " فقد حكم سيبويه بأن أم منقطعة .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 57 إلى 62]

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (59) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62)

الإعراب :

)

(417/694)

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان نوع آخر من لجاجهم وإمعانهم في المكابرة ، ولما ظرفية حينية أو رابطة وضرب فعل ماض مبني للمجهول وابن مريم نائب فاعل ومثلا مفعول به ثان لأن ضرب ضمن معنى جعل ويجوز أن يعرب حالا أي ذكر ممثلا به وإذا فجائية تقدم القول فيها وقومك مبتدأ ومنه متعلقان بيصدون وجملة يصدون خبر قومك وهو بكسر الصاد أي ترتفع لهم جلبة وضوضاء فرحا وجذلا وضحكا مما سمعوا ، وستأتي القصة في باب الفوائد وقرئ يصدون بالضم من الصدود أي الإعراض وقيل هما لغتان (وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ) الواو عاطفة وقالوا فعل وفاعل والهمزة للاستفهام وآلهتنا مبتدأ وخير خبر وأم حرف عطف وهي متصلة وهو معطوف على آلهتنا (ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) ما نافية وضربوه فعل وفاعل ومفعول به ولك متعلقان بضربوه وإلا أداة

(418/694)

حصر وجدلا مفعول من أجله أي لأجل الجدال والمراء واللجاج لا لإظهار الحق ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال أي لا مجادلين وبل حرف إضراب وهم مبتدأ وقوم خبر وخصمون صفة لقوم (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ) إن نافية وهو مبتدأ وإلا أداة حصر وعبد خبر هو وجملة أنعمنا صفة لعبد وعليه متعلقان بأنعمنا وجعلناه عطف على أنعمنا ومثلا مفعول به ثان لجعلناه ولبني إسرائيل صفة لمثلا (وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) الواو عاطفة ولو شرطية ونشاء فعل مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره نحن واللام واقعة في جواب لو لا وجعلنا فعل وفاعل ومنكم في موضع المفعول الثاني إن كانت جعلنا بمعنى صيّرنا وإن كانت بمعنى خلقنا فالجار والمجرور متعلقان بجعلنا وفي الأرض متعلقان بيخلفون وجملة يخلفون صفة لملائكة ، وقال بعض النحويين : " من تكون للبدل أي لجعلنا بدلكم ملائكة وجعل من ذلك قوله تعالى " أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة " أي بدل الآخرة وقول الشاعر :

أخذوا المخاض من الفصيل غلبة ظلما ويكتب للأمير أفالا

أي بدل الفصيل والأولى أنها للتبعيض كما ذكرنا في الإعراض (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها) الواو عاطفة وإن واسمها واللام المزحلقة وعلم خبر إنه وللساعة صفة لعلم أي شرط من أشراطها تعلم به فسمي الشرط علما لحصول العلم به والفاء الفصيحة ولا ناهية وتمترن

فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة والمرية الشك (وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ) الواو عاطفة واتبعوني فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء المحذوفة خطا اتّباعا لسنّة المصحف مفعول به وهذا مبتدأ وصراط خبر ومستقيم

(419/694)

صفة (وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) الواو عاطفة ولا ناهية ويصدنكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم بلا والكاف مفعول به والشيطان فاعل وجملة إنه لكم عدوّ مبين تعليلية لا محل لها من الإعراب.

الفوائد :

من القصص الممتع ما يرويه المؤرخون بصدد هذه الآية " ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدّون " فقد ذكروا أنه لما قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على قريش : إنكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم ، امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا فقال عبد اللّه بن الزبعرى : يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام هو لكم ولجميع الأمم فقال : خصمتك ورب الكعبة أليست النصارى يعبدون المسيح واليهود يعبدون

عزيرا وبنو مليح يعبدون الملائكة فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى : إذا قومك منه يصدون ، ففند اللّه مكابرتهم بأنه إنما قصد به الأصنام ولم يقصد به الأنبياء والملائكة إلا أن ابن الزبعرى لما رأى كلام رسول اللّه محتملا لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد به أصنامهم ليس غير وجد للحيلة مساغا فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة على طريق المماحكة واللجاج فتوقر رسول اللّه عن إجابته حتى أجاب عنه ربه بقوله : " إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون " ، فدلّ به على أن الآية خاصة بالأصنام ، هذه خلاصة القصة ولا بدّ من التنبيه إلى أن عبد اللّه بن الزبعرى صحابي مشهور وشاعر معروف وقد أسلم وحسن إسلامه وهذه القصة على تقدير صحتها كانت قبل إسلامه ، والزبعرى بكسر الزاي وفتح الباء وسكون العين والراء المفتوحة والألف المقصورة ومعناه في اللغة السيئ الخلق .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 63 إلى 65]

وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)

الإعراب :

(وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان تعنت بني إسرائيل ولما رابطة أو حينية وجاء عيسى فعل ماض وفاعل وبالبيّنات متعلقان بجاء وجملة قال لا محل لها وجملة قد جئتكم بالحكمة مقول القول ، ولأبين : الواو عاطفة واللام لام التعليل وأبين فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام التعليل والجار والمجرور معطوفان على بالحكمة وعبارة الشهاب : " قوله ولأبين لكم متعلق بمقدر أي وجئتكم لأبين ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله ليؤذن بالاهتمام بالعلّة حتى جعلت كأنها كلام برأسه " ولكم متعلقان بأبين وبعض الذي مفعول به لأبين وجملة تختلفون صلة وفيه متعلقان بتختلفون (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) لك أن تجعل الفاء عاطفة فيكون الكلام معطوفا على ما سبقه على أنه تتمة كلام عيسى ولك أن تجعلها استئنافية فيكون الكلام مستأنفا من اللّه للدلالة

على طريق الطاعة ومحجتها الواضحة ، واتقوا اللّه فعل أمر وفاعل ومفعول به وأطيعون عطف على فاتقوا والياء المحذوفة لمراعاة خط المصحف مفعول به (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ) الجملة تفسير لما تقدم من قوله وأطيعون وإن واسمها وهو مبتدأ وربي خبر والجملة خبر إن وربكم عطف على ربي والفاء الفصيحة واعبدوه فعل وفاعل ومفعول به وهذا مبتدأ وصراط خبر ومستقيم صفة (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) الفاء عاطفة واختلف الأحزاب فعل وفاعل ومن بينهم حال من الأحزاب (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) الفاء عاطفة وويل مبتدأ وقد تقدم أنها كلمة عذاب فلذلك ساغ الابتداء بها وللذين خبره ومن عذاب يوم أليم خبر ثان أو حال أي حال كونه كائنا من عذاب يوم القيامة .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 66 إلى 73]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ

مِنْها تَأْكُلُونَ (73)

اللغة :

)

(422/694)

الْأَخِلَّاءُ) جمع خليل وهو الصديق وفي المصباح : " الخليل الصديق والجمع أخلاء كأصدقاء وفي القاموس : " والخل بالكسر والضم الصديق المختص أو لا يضم إلا مع ود يقال : كان لي ودّا وخلّا والجمع أخلال كالخليل والجمع أخلّاء وخلّان أو الخليل الصادق أو من أصفى المودّة وأصحّها " واستدرك في التاج فقال : " قال ابن سيده وكسر الخاء أكثر ويقال للأنثى خل أيضا " .

(تُحْبَرُونَ) تسرّون سرورا يظهر حباره أي أثره على وجوهكم ، وقال الزجّاج : تكرمون إكراما يبالغ فيه والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل وفي القاموس : " والحبر بفتحتين الأثر كالحبار بكسر أوله وفتحه " .

(بِصِحافٍ) بقصاع قال الكسائي : " أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة وهي تشبع العشرة ثم الصحفة وهي تشبع الخمسة ثم المئكلة وهي تشبع الرجلين أو الثلاثة " .

(وَأَكْوابٍ) جمع كوب وهو إناء لا عروة له قال قطرب : الإبريق لا عروة له وقال الأخفش : الإبريق لا خرطوم له وقيل كالإبريق إلا أنه لا أذن له ولا مقبض . وقال أبو منصور الجواليقي : " إنما كان بغير عروة ليشرب الشارب من أين يشاء لأن العروة ترد الشارب من بعض الجهات " وقال عدي :

متكئا تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

الإعراب :

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) هل حرف استفهام معناه النفي أي لا ينظرون ، وينظرون فعل مضارع مرفوع

بثبوت النون والواو فاعل وإلا أداة حصر والساعة مفعول به وأن تأتيهم :

(423/694)

المصدر المنسبك من أن وتأتيهم بدل من الساعة بدل اشتمال والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة وبغتة حال والواو للحال وهم مبتدأ وجملة لا يشعرون خبر والجملة حال ثانية

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الأخلاء مبتدأ ويومئذ ظرف منصوب بعدو أي تنقطع في ذلك اليوم كل آصرة أو خلّة بين المتخالين وتستحيل عداوة ومقتا وإذ ظرف

مضاف إلى مثله والتنوين عوض عن الجملة وتقديرها يوم إذ تأتيهم الساعة وبعضهم مبتدأ ثان ولبعض متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لعدو وعدو خبر بعضهم والجملة الاسمية خبر الأخلاء وإلا أداة استثناء والمتقين مستثنى بإلا منصوب (يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) الجملة مقول قول محذوف أي ويقال لهم ويا حرف نداء وعباد منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة مراعاة لخط المصحف ولا نافية وخوف مبتدأ وساغ الابتداء به لأنه سبق بنفي وعليكم خبر واليوم ظرف متعلق بمحذوف حال ولا عطف على ما تقدم وأنتم مبتدأ وتحزنون جملة فعلية في محل رفع خبر (الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ) الذين صفة لعبادي لأنه منادى مضاف وجملة آمنوا صلة الذين وبآياتنا متعلقان بآمنوا وكانوا كان واسمها ومسلمين خبرها والجملة معطوفة على الصلة ، واختار بعضهم أن تكون الواو حالية والجملة في محل نصب على الحال من الواو وقال أنها آكد (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ) ادخلوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجنة مفعول به على السعة وأنتم مبتدأ وأزواجكم عطف على أنتم وجملة تحبرون خبر أنتم (يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ) يطاف فعل مضارع مبني للمجهول وعليهم في موضع رفع نائب فاعل وبصحاف متعلقان بيطاف ومن ذهب صفة لصحاف وأكواب عطف على صحاف وذكر

الذهب في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب

كقوله تعالى " والذاكرون الله كثيرا والذاكرات " (وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ) الواو عاطفة وفيها خبر مقدم وما موصول مبتدأ مؤخر وجملة تشتهيه الأنفس صلة ما وتلذ الأعين عطف على الصلة داخلة في حيزها وأنتم مبتدأ وفيها متعلقان بخالدون وخالدون خبر أنتم (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الواو عاطفة وتلك مبتدأ والجنة خبر والتي نعت للجنة وجملة أورثتموها صلة وبما متعلقان بأورثتموها وكنتم كان واسمها وجملة تعملون خبر كنتم (لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ) لكم خبر مقدم وفيها حال وفاكهة مبتدأ مؤخر وكثيرة صفة ومنها متعلقان بتأكلون وجملة تأكلون نصب لفاكهة ، ويجوز أن تعرب الجنة بدلا من اسم الإشارة فتكون جملة لكم فيها فاكهة هي الخبر ، وعبارة أبي حيان المتفقة مع عبارة الزمخشري هي : " وتلك الجنة مبتدأ وخبر والتي أورثتموها صفة أو الجنة صفة والتي أورثتموها وبما كنتم تعملون الخبر وما قبله صفتان فإذا كان بما الخبر تتعلق بمحذوف وعلى القولين الأولين يتعلق بأورثتموها " .

البلاغة :

حفلت هذه الآيات بضروب من البلاغة وأفانين من البيان نوجزها فيما يلي :

1- الإيجاز : وذلك في نداء اللّه تعالى لعباده ، فقد اشتمل هذا النداء على أمور أربعة :

1- نفى عنهم الخوف 2- نفى عنهم الحزن 3- أمرهم بدخول الجنة 4- بشّرهم باستحواذ السرور على أنفسهم .

2- الإيجاز أيضا : وذلك في قوله تعالى " وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين " فقد حصر أنواع النعم لأنها لا تعدو أمرين اثنين : إما مشتهاة في القلوب وإما مستلذة في العيون ، وجاء في الحديث : إن

رجلا قال يا رسول اللّه أفي الجنة خيل فإني أحب الخيل ، فقال : إن يدخلك اللّه الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من ياقوتة حمراء فتطير بك في أيّ الجنة شئت إلا فعلت فقال أعرابي يا رسول اللّه أفي الجنة إبل فإني أحب الإبل فقال يا أعرابي إن أدخلك اللّه الجنة أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عينك .

3- الالتفات : في قوله " وتلك الجنة التي أورثتموها " فقد التفت من الغيبة إلى الخطاب للتشريف والمخاطب كل واحد ممّن دخل الجنة ولذلك أفرد الكاف ولم يقل وتلكم مع أن مقتضى أورثتموها أن يقول وتلكم وذلك للإيذان بأن كل واحد من أهل الجنة مقصود

بالذكر لذاته .

4- الاستعارة : فقد شبّه الجنة بالمال الموروث والتلاد الموفور ثم استعار له الإرث على طريق الاستعارة المكنية لأن كل عمل لا بد أن يلقى جزاءه إذ يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل ، أو أنها شبّهت في بقائها على أهلها وإفاضة النعم السوابغ عليهم بالميراث الباقي لا ينضب له معين ولا ينتهي إلى نفاد .

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي اللّه عنهما عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدا ذلك قول اللّه عزّ وجلّ " ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " رواه مسلم والترمذي .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 74 إلى 78]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (74) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (78)

اللغة :

)

يُفَتَّرُ) يخفف وفي القاموس : " فتر يفتر ويفتر فتورا وفتارا سكن بعد مدة ولان بعد شدّة وفتره تفتيرا وفتر الماء سكن " .

(مُبْلِسُونَ) ساكتون سكوت يأس وفي المصباح : " أبلس الرجل إبلاسا سكت وأبلس سكن " .

الإعراب :

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ) كلام مستأنف مسوق للشروع في الوعيد بعد الإفاضة في حديث الوعد وإن واسمها وفي عذاب جهنم خبر أول وخالدون خبر ثان ولك أن تعلّق الجار والمجرور بخالدون (لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) الجملة حالية ولا نافية ويفتر فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو أي العذاب وعنهم متعلقان بيفتر والواو للحال وهم مبتدأ وفيه متعلقان بمبلسون ومبلسون خبرهم والجملة حال ثانية (وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) الواو عاطفة وما نافية وظلمناهم فعل ماض وفاعل ومفعول به والواو حالية ولكن مخففة مهملة وكان واسمها وهم ضمير فصل لا محل له أو هو توكيد للواو والظالمين خبر كانوا (وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ) الواو عاطفة ونادوا فعل ماض وفاعل وعبر بالماضي عن المضارع إيذانا بحقيقة وقوعه فهو من باب أتى أمر اللّه ، ويا مالك نداء ، وسيأتي الحديث عن مالك وندائه في باب الفوائد ،

واللام لام الأمر ويقض فعل

مضارع مجزوم بلام الأمر وعلينا متعلقان بيقض أي ليمتنا وربك فاعل (قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ)

إن واسمها وخبرها في موضع نصب مقول القول (لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ

كارِهُونَ) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجئناكم فعل وفاعل وبالحق

متعلقان بجئناكم والواو حالية وإن واسمها وللحق متعلقان بكارهون وكارهون خبر إن .

الفوائد :

(427/694)

---

1 - قرأ علي وابن مسعود رضي اللّه عنهما يا مال بحذف الكاف للترخيم وقيل لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ ونادوا يا مال فقال : ما أشغل أهل النار عن الترخيم وعن بعضهم أن الذي حسن الترخيم لأهل النار ضعفهم عن إتمام الاسم لأنهم في غنية عن الترخيم قال ابن جنّي : " وللترخيم في هذا الموضع سر وذلك أنهم لعظم ما هم عليه خفتت أصواتهم ووهنت قواهم وذلّت أنفسهم فكان هذا من موضع الاختصار ضرورة " قال الطيبي " قلت هذا اعتذار منه لقراءة ابن مسعود حيث ردّها ابن عباس بقوله : ما أشغل أهل النار عن الترخيم فإن ما للتعجب وفيه معنى الصدّ نظير قولك لمن كان في شدة

واشتغل عنها بما لا يهمه : ما أشغلك عن هذا أما يصدّك عن هذا ما أنت فيه من الهول والشدّة " قلت والترخيم هو لغة التسهيل والتليين يقال صوت رخيم أي سهل لين ، واصطلاحا حذف بعض الكلمة على وجه مخصوص وهو ثلاثة أنواع :

1- ترخيم النداء 2- ترخيم الضرورة 3- ترخيم التصغير ، ومباحثها في كتب النحو .

ومالك هو خازن النار أي رئيس سدنتها الماضي عليهم كلامه

ومجلسه في وسط النار وفيها جسور تمر عليها ملائكة العذاب فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها .

(428/694)

2- الحديث المتعلق بالآية : وعن أبي الدرداء رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيدفع إليهم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم فيقولون " ألم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى

قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " قال : فيقولون : ادعوا مالكا فيقولون : " يا مالك ليقض علينا ربك " قال فيجيبهم : إنكم ماكثون قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون : ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون : " ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنّا قوما ضالّين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون " قال : فيجيبهم :

" اخسئوا فيها ولا تكلمون " قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والويل .

وعن عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنهما قال : إنّ أهل النار يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يقول : إنكم ماكثون ثم يدعون ربهم فيقولون : " ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون " فلا يجيبهم مثل الدنيا ثم يقول : " اخسئوا فيها ولا تكلمون " ثم ييئس القوم فما هو إلا الزفير والشهيق تشبه أصواتهم أصوات الحمير أولها شهيق وآخرها زفير .

[سورة الزخرف (43) : الآيات 79 إلى 89]

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80) قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (81) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (88)

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

اللغة :

(أَبْرَمُوا) أحكموا وفي المصباح : " وأبرمت العقد إبراما : أحكمته فانبرم هو وأبرمت الشيء دبرته " ويقال أبرم الحبل إذا أتقن فتله والمراد القتل الثاني وأما الأول فيقال له سحل وفي القاموس : السحل ثوب لا يبرم غزله كالسحيل ، قال زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف :

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

الإعراب :

)

(430/694)

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) كلام مستأنف مسوق للانحاء باللائمة على المشركين لما بدر منهم ، وأم منقطعة بمعنى بل فبل للإضراب والانتقال من توبيخ أهل النار وحكاية حالهم إلى حكاية جناية هؤلاء المشركين والهمزة للإنكار وأبرموا فعل ماض وفاعل وأمرا مفعول به والفاء عاطفة وإن واسمها وخبرها (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ؟) أم تقدم القول فيها ويحسبون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وأن وما بعدها سدّت مسدّ مفعولي تحسبون وجملة لا نسمع خبر أنّا وسرّهم مفعول نسمع ونجواهم عطف على سرّهم (بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) بلى حرف جواب أي نسمع ذلك والواو للحال ورسلنا مبتدأ ولديهم ظرف متعلق بيكتبون وجملة يكتبون خبر رسلنا والجملة حالية (قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والجملة مستأنفة مسوقة لتفنيد ما ورد من مزاعم لهم في أول السورة بأن للّه ولدا من الملائكة وإن شرطية وكان فعل ماض ناقص وللرحمن خبرها المقدّم وولد اسمها المؤخر والفاء رابطة لجواب الشرط وأنا

مبتدأ وأول العابدين خبر وسيأتي معنى تعليق العبادة بكينونة الولد في باب الفوائد

(سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) سبحان مفعول مطلق لفعل محذوف ورب السموات والأرض مضاف إليه ورب العرش بدل من رب الأولى وعمّا متعلقان بسبحان وجملة يصفون صلة ما (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) الفاء الفصيحة وذرهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ويخوضوا جواب الطلب ولذلك جزم ويلعبوا عطف على يخوضوا ، حتى حرف غاية وجر ويلاقوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والواو فاعل ويومهم مفعول به والذي صفة وجملة يوعدون صلة ويوعدون مضارع

(431/694)

مبني للمجهول والواو نائب فاعل (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) الواو استئنافية وهو مبتدأ والذي خبره وفي السماء متعلقان بإله لأنه بمعنى معبود ، ومثل له الزمخشري بقولهم هو حاتم طي حاتم في تغلب على تضمين معنى الجواد الذي شهر به كأنك قلت هو جواد في طي جواد في تغلب . وإله خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة صلة الذي وفي الأرض إله عطف على قوله في السماء إله وهو مبتدا والحكيم العليم خبران

(وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما) الواو عاطفة وتبارك فعل ماض والذي فاعله وله خبر مقدم وملك السموات مبتدأ مؤخر والجملة صلة وما عطف على السموات والأرض والظرف متعلق بمحذوف هو الصلة (وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) الواو عاطفة وعنده ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وعلم الساعة مبتدأ مؤخر وإليه متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل (وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ) الواو عاطفة ولا نافية ويملك فعل مضارع والذين فاعله وجملة يدعون صلة الموصول ومن دونه متعلقان بيدعون والشفاعة مفعول يملك (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) إلا أداة حصر ومن مستثنى من الذين وهو استثناء منقطع والمعنى ولا يملك آلهتهم ويعني بهم الأصنام والأوثان الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند اللّه ولكن من شهد بالحق وهو توحيد اللّه وهو يعلم ما شهد به هو الذي يملك الشفاعة ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا لأنه يكون المستثنى منه محذوفا كأنه قال ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق فهو استثناء من المفعول المحذوف على حدّ قول الشاعر :

نجا سالم والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزر

فهو استثناء من المشفوع فيهم . وجملة شهد بالحق صلة من وهم

الواو حالية أو عاطفة وهم مبتدأ وجملة يعلمون خبر (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية وسألتهم فعل ماض وفاعل ومفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة خلقهم خبر من وجملة الاستفهام المعلقة في محل نصب مفعول به ثان لسألتهم وليقولنّ اللام جواب القسم وجواب الشرط محذوف على القاعدة المعروفة وهي اجتماع قسم وشرط ويقولنّ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة واللّه فاعل بفعل محذوف دلّ عليه موصول الاستفهام والتقدير خلقنا اللّه لأن القضية الشرطية لا تستدعي الوقوع ولا عدمه والدليل على أن المرفوع فاعل فعله محذوف لا مبتدأ أنه جاء عند عدم الحذف كقوله تعالى الآنف الذكر " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهنّ العزيز العليم " على أن هذه الحجة قد تعارض بالمثل فيقال والدليل على أنه مبتدأ أنه قد جاء كذلك كقوله تعالى : " قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر – إلى قوله – قل اللّه ينجيكم منها " وما يقال أنه قدّم لإفادة الاختصاص ممنوع لأن الفاعل لا يجوز تقديمه على عامله على الأصح والأحسن أن يقال إن الحجة الفعلية في هذا الباب أكثر فالحمل عليها أولى .

و قال ابن هشام : " يقول بعضهم في ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن اللّه إن اسم اللّه سبحانه وتعالى مبتدأ أو فاعل أي اللّه خلقهم أو خلقهم اللّه والصواب الحمل على الثاني بدليل ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز الحكيم " وتعقبه الدماميني شارع المغني فقال " هذا معارض بقوله تعالى : قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه إلى أن قال : قل اللّه ينجيكم منها ومن كل كرب " وتعقبه الشمني فقال : " وأقول لا يعارضه لأن الكلام إنما هو في خصوص الجواب الذي سنده خلق لا في كل جواب " .

والفاء عاطفة وأنى اسم استفهام بمعنى كيف في محل نصب على الحال ويؤفكون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل (وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ) الواو للقسم وقيله أي قوله مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم والجواب إما محذوف أي لأفعلنّ بهم ما أريد وإما مذكور وهو قوله إن هؤلاء قوم لا يؤمنون كأنه قيل وأقسم بقيله يا رب وقيل هو معطوف على الساعة وفيه بعد وقرئ بالنصب قال الجلال السيوطي " ونصبه على المصدر بفعله المقدّر وقيل إن النصب بالعطف على سرهم ونجواهم وقيل إنه بالعطف على محل الساعة كأنه قيل إنه يعلم الساعة وقرئ بالرفع

على الابتداء والخبر ما بعده أو إن الخبر محذوف تقديره وقيله مسموع أو متقبل " وإن واسمها وخبرها وجملة لا يؤمنون صفة (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) الفاء الفصيحة واصفح فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعنهم متعلقان باصفح وقل عطف على فاصفح وسلام خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر سلام فسوف الفاء عاطفة وسوف حرف تسويف ويعلمون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل والمفعول به محذوف للتفخيم أي مغبة أمرهم .

الفوائد :

(434/694)

وعدناك بالحديث عن تعليق العبادة بكينونة الولد وقد شجر بين المفسرين والمتكلمين جدال طويل في صددها وخاصة بين أهل السنّة والمعتزلة ، فقال الزمخشري بأسلوبه البارع ما يلي : " قل إن كان للرحمن ولد وصحّ ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على سبيل

الفرض والتمثيل لغرض وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه وأن لا يترك الناطق به شبهة

إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد وذلك أنه علّق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلّق بها محالا مثلها فهو في صورة إثباته الكينونة والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها " ثم أورد تهكما بأهل السنّة وأرخى للسانه العنان فأساء إلى الذات الإلهية إذ قال : " ونظيره أن يقول العدلي للمجبر إن كان اللّه خالقا للكفر في القلوب ومعذب عليه عذابا سرمدا فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون اللّه تعالى خالقا للكفر وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه " .

وقد نوّه أبو حيان بإساءة الزمخشري فقال بعد أن نقل ما نقلناه من كلام الزمخشري : " ثم ذكر كلاما يستحق عليه التأديب بل السيف نزّهت كتابي عن ذكره " وهذا ليس بالردّ كما ترى بل فيه مقابلة المهاترة بالمهاترة والشطط بالشطط .

و ردّ الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي قاضي الإسكندرية المتوفى سنة 683 ه على الزمخشري ردّا حسنا سلك فيه جادة النقد الصحيح فقال " لقد اجترأ عظيما واقتحم مهلكة في تمثيله بقول من سمّاه عدليا إن كان اللّه خالقا للكفر في القلوب ومعذبا عليه فأنا أول القائلين إنه شيطان وليس بإله فلينتقم عليه ذلك بقول القائل : قد ثبت عقلا وشرعا أنه تعالى خالق لذلك في القلوب كما خلق الإيمان وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق إلا اللّه وتصديقا بمضمون قوله تعالى : " هل من خالق غير اللّه وقوله : اللّه خالق كل شيء وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلا ونقلا لزمه فرك أذنه وغلّ عنقه إذ يلحد في اللّه إلحادا لم يسبقه إليه أحد من عباده الكفرة ولا تجرأ عليه ما ردّ من مردّة الفجرة " إلى آخر هذا الرد الذي لم يخل من السباب والشتائم أيضا .

ثم قال الزمخشري : " وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقلة بالتوحيد على أبلغ وجوهه فقيل إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين للّه المكذبين قولهم بإضافة الولد إليه وقيل إن كان للرحمن ولد فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد " وقيل : هي إن النافية أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد وقد فنّد أبو حيان هذه الوجوه كلها بما لا يتّسع له صدر هذا الكتاب .

وعبارة الشوكاني : " أي إن كان له ولد في قولكم وعلى زعمكم فأنا أول من عبد اللّه وحده

لأن من عبد اللّه وحده فقد دفع أن يكون له ولد ، كذا قال ابن قتيبة وقال الحسن والسدّي : إن المعنى ما كان للرحمن ولد ويكون قوله فأنا أول العابدين ابتداء كلام ، وقيل المعنى :

(436/694)

قل يا محمد إن ثبت للّه ولد فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته ولكنه يستحيل أن يكون له ولد وفيه نفي للولد على أبلغ وجه وأتم عبارة وأحسن أسلوب وهذا هو الظاهر من النظم القرآني ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : وإنّا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ، ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره إن ثبت ما تقوله بالدليل فأنا أول من يعتقده ويقول به ، فتكون إن شرطية وهذا ما اخترناه ورجحه ابن جرير وغيره وهناك أقوال أخرى ضربنا عنها صفحا لأنها من التمحّل والتكلّف لا يليق بالقرآن الكريم أن يأتي بها أو يرمي إليها لأن القرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 116.59﴾

(437/694)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والتسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/695)

الجزء الخامس والتسعون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الدخان)

(4/695)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الدخان)

(5/695)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : مَنْ قرأَ حم الَّتى يذكر فيها الدّخان فى ليلة الجمعة أَصبح مغفوراً له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 425 ﴾

(6/695)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الدخان

مقصودها الإنذار من الهلكة لمن لم يقبل ما في الذكر الكريم الحكيم من الخير والبركة رحمة جعلها بين عامة مشتركة ، وعلى ذلك دل اسمها الدخان إذا تؤملت آياته وإفصاح ما فيها وإشاراته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 62 ﴾

(7/695)

فصل

قال الآلوسى :

سورة الدخان

مكية كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم واستثنى بعض قوله تعالى

إننا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون وآيها كما قال الداني تسع وخمسون في الكوفي وسبع في البصري وست في عدد الباقين

واختلافها على ما فيم جمعا لبيان أربع آيات حم وإن هؤلاء ليقولون كوفي شجرة الزقوم عراقي شامي والمدني الأولفي البطون عراقي مكي والمدني الأخير ووجه مناسبتها لما قبلها أنه عز وجلختم ما قبل بالوعيد والتهديد وافتتح هذه بشيء من الأنذار الشديد وذكر سبحانه هنا كقول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : يا ربإن هؤلاء قوم لا يؤمنون وهنا نظيره فيما حكى عن أخيه موسى عليهم الصلاة والسلام بقوله تعالى فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون وأيضا ذكر فيما تقدم لإأفصح عنهم وقل سلام وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام إني عذبت بربي وربكم أن ترجعون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون وهوقريب من قريب إلى غير ذلك وهي إحدى النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما أخرج الطراني عن ابن مسعود الذاريات والطور والنجم واقتربت والرحمن والواقعة ونون والحاقة والمزمل ولا أقسم بيوم القيامة وهل أتى على الإنسان والمرسلات وعم يتساءلون والنازعات وعبس وويل للمطففين وإذا الشمس كورت والدخان وورد بفضلها أخبار

(8/695)

أخرج الترمذي ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك وأخرج المذكورون عنه أيضا يرفعه من قرأ حم الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفورا له وفي رواية للبيهقي وابن الضريس عنه مرفوعا من قرأ ليلة الجمعة حم الدخان ويس أصبح مغفورا له وأخرج ابن الضريس عن الحسن أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال من قرأ سورة الدخان في ليلة غفر له ما تقدم من ذنبه وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ حم الدخان في ليلة جمعة أو يوم جمعة بني الله له بيتا في الجنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ 110 ﴾

(9/695)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . حم والكتاب المبين إنا أنزلناه)

السّورة مكِّيّة إجماعاً .

آياتها تسع وخمسون فى عدّ الكوفة ، وسبع فى عدّ البصرة ، وستّ للباقين .

كلماتها ثلاثمائة وست وأَربعون .

وحروفها أَلف وأَربعمائة وأَحد وثلاثون .

المختلف فيها من الآى أَربع : حم ، ﴿ إِنَّ هؤلاء لَيَقُولُونَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ ، ﴿ فِي الْبُطُونِ ﴾ .

فواصل آياتها كلّها (من) سمّيت سورة الدّخان لقوله فيها : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

معظم مقصود السورة : نزول القرآن فى ليلة القدر ، وآيات التوحيد ، والشكاية من الكفَّار ، وحديث موسى وبنى إِسرائيل وفرعون ، والرّد على منكرى البعث ، وذلّ الكفار فى العقوبة ، وعزّ المؤمنين فى الجنَّة ، والمنَّة على الرّسول بتيسير القرآن على لسانه فى قوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ .

(الناسخ والمنسوخ :

فيها آية منسوخة : ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ م آية السيف ن) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 424 ﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الدخان

406 - مسألة :

قوله تعالى : (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26)

وقال هنا : وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28)) وقالت في الشعراء : (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) .

جوابه :

مع حسن التنويع في الخطاب أن (كنوزا) أبلغ فيما فات على فرعون ، فناسب بسط ذكره أولا وملكه وتسلطه

ذَكَرَ " الكنوز " وهي الأموال المجموعة .

وهنا في الدخان : قصتهم مختصرة فناسب ذكر الزروع . وأما "بنى إسرائيل هناك و" قوما آخرين " في الدخان : فلأنه ، لما تقدم ذكر بنى إسرائيل ونعمة الله عليهم بغرق عدوهم ونجاتهم منه : ناسب ذكر نعمته عليهم بعودتهم إلى مصر ، ولكن بعد مئين من السنين حين تهود ملك مصر ، وامتحن الأحبار بالتوراة . والعجب كل العجب من عدة من

المفسرين يذكرون هنا أن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر بعد غرق فرعون ، وهو غفلة عما دل عليه القرآن والأخبار والتواريخ من انتقالهم إلى الشام بعد تجاوز البحر ، وأمر التيه ، وموت هارون وموسى عليهما السلام في التيه والمختام أن الضمير في " أورثناها " : للنعم والجنات بالشام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 335.336 ﴾

(11/695)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُوْلَى ﴾ مرفوع .

وفى الصّافات منصوب .

ذكر فى المتشابه ، وليس منه ؛ لأَنَّ ما فى هذه السّورة مبتدأ وخبر ، وما فى الصّافّات استثناء .

قوله : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أَى على علم منّا .

ولم يقل فى الجاثية : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ لأَنه ذكر فيه : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ .

قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ بالجمع ؛ لموافقة أَوّل السّورة : ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 425 ﴾

(12/695)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الدخان

472 - قوله تعالى إن هي إلا موتتنا الأولى 35 مرفوع وفي الصافات منصوب ذكر في المتشابه وليس منه لأن ما في هذه السورة مبتدأ وخبر وما في الصافات استثناء

473 - قوله ولقد اخترناهم على علم على العالمين 32 أي على علم منا ولم يقل في الجاثية وفضلناهم على علم بل قال وفضلناهم على العالمين 16 لأنه مكرر في وأضله الله على علم 23 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار التكرار فى القرآن صـ 192 ﴾

(13/695)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان

سميت هذه السورة حم الدخان روى الترمذي بسندين ضعيفين يعضد بعضهما بعضا : عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ حم الدخان في ليلة أو في ليلة الجمعة " الحديث .

واللفظان بمنزلة اسم واحد لأن كلمة ﴿ حم ﴾ غير خاصة بهذه السورة فلا تعد علما لها ، ولذلك لم يعدها صاحب الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم وسميت في المصاحف وفي كتب السنة سورة الدخان .

ووجه تسميتها بالدخان وقوع لفظ الدخان فيها المراد به آية من آيات الله أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم فلذلك سميت به اهتماما بشأنه ، وإن كان لفظ " الدخان " بمعنى آخر قد وقع في سورة حم تنزيل في قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] وهي نزلت قبل هذه السورة على المعروف من ترتيب تنزيل سور القرآن عن رواية جابر بن زيد التي اعتمدها الجعبري وصاحب الإتقان على أن وجه التسمية لا يوجبها .

وهي مكية كلها في قول الجمهور .

قال ابن عطية : هي مكية لا أحفظ خلافا في شيء منها .

ووقع في الكشاف استثناء قوله ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ [الدخان : 15] ولم يعزه إلى قائل ، ومثله القرطبي ، وذكره الكواشي قولا وما عزاه إلى معين .

وأحسب أنه قول نشأ عما فهمه القائل ، وسنبينه في موضعه .

وهي السورة الثالثة والستون في عد نزول السور في قول جابر بن زيد ، نزلت بعد سورة الزخرف وقبل سورة الجاثية في مكانها هذا وعدت آيها ستا وخمسين عند أهل المدينة ومكة والشام ، وعدت عند أهل البصرة سبعا وخمسين ، وعند أهل الكوفة تسعا وخمسين .

(14/695)

أغراضها

أشبه افتتاح هذه السورة فاتحة سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن وشرفه وشرف وقت ابتداء نزوله ليكون ذلك مؤذنا أنه من عند الله ودالا على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليتخلص منه إلى أن المعرضين عن تدبر القرآن ألهاهم الاستهزاء واللمز عن التدبر فحق عليهم دعاء الرسول بعذاب الجوع ، إيقاظا لبصائرهم بالأدلة الحسية حين لم تنجع

فيهم الدلائل العقلية ، ليعلموا أن إجابة الله دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم دليل على أنه أرسله ليبلغ عنه مراده .

فأنذرهم بعذاب يحل بهم علاوة على ما دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم تأييدا من الله له بما هو زائد على مطلبه .

وضرب لهم مثلا بأمم أمثالهم عصوا رسل الله إليهم فحل بهم من العقاب من شأنه أن يكون عظة لهؤلاء ، تفصيلا بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه ، ودون التفصيل بقوم تبه ، وإجمالا وتعميما بالذين من قبل هؤلاء .

وإذ كان إنكار البعث وإحالته من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبر في مراد الله تعالى انتقل الكلام إلى إثباته والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين ومثوبة المؤمنين ترهيبا وترغيبا .

وأدمج فيها فضل الليلة التي أنزل فيها القرآن ، أي ابتدئ إنزاله وهي ليلة القدر وأدمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسبات من دلائل الوحدانية وتأييد الله من آمنوا بالرسل ، ومن إثبات البعث .

وختمت بالشد على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بانتظار النصر وانتظار الكافرين القهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 25 صـ 306 . 307 ﴾

(15/695)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الدخان

يشبه إيقاع هذه السورة المكية , بفواصلها القصيرة , وقافيتها المتقاربة , وصورها العنيفة , وظلالها الموحية . . يشبه أن يكون إيقاعها مطارق على أوتار القلب البشري المشدودة .

ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة , ذات محور واحد , تشد إليه خيوطها جميعاً . سواء في ذلك القصة , ومشهد القيامة , ومصارع الغابرين , والمشهد الكوني , والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة . فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشري واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة , كما يبثها هذا القرآن في القلوب .

وتبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله في ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم , رحمة من الله بالعباد وإنذاراً لهم وتحذيراً . ثم تعريف للناس بربهم: رب السماوات والأرض وما بينهما , وإثبات لوحدانيته وهو المحيي والمميت رب الأولين والآخرين .

ثم يضرب عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم: (بل هم في شك يلعبون) ! ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب: (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى

الناس هذا عذاب أليم) . . ودعاءهم بكشف العذاب عنهم وهو يوم يأتي لا يكشف . وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد , وهو الآن عنهم مكشوف , فلينتهزوا الفرصة , قبل أن يعودوا إلى ربهم , فيكون ذلك العذاب المخوف: (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) . .

ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ; ينتقل بهم إلى مصرع فرعون وملئه يوم جاءهم رسول كريم , وناداهم: أن أدوا إليَّ عباد الله إني لكم رسول أمين . وألا تعلوا على الله . . فأبوا أن يسمعوا حتى يئس منهم الرسول . ثم كان مصرعهم في هوان بعد الاستعلاء والاستكبار: (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) . .

(16/695)

وفي غمرة هذا المشهد الموحي يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة , وقولهم: (إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين , فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) ليذكرهم بمصرع قوم تبع , وما هم بخير منهم ليذهبوا ناجين من مثل مصيرهم الأليم .

ويربط بين البعث , وحكمة الله في خلق السماوات والأرض ,(وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق . ولكن أكثرهم لا يعلمون) . .

ثم يحدثهم عن يوم الفصل: (ميقاتهم أجمعين) . وهنا يعرض مشهداً عنيفاً للعذاب بشجرة الزقزم , وعتل الأثيم , وأخذه إلى سواء الجحيم , يصب من فوق رأسه الحميم . مع التبكيت والترذيل:(ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون) . .

وإلى جواره مشهد النعيم عميقاً في المتعة عمق مشهد العذاب في الشدة . تمشياً مع ظلال السورة العميقة وإيقاعها الشديد . .

وتختم السورة بالإشارة إلى القرآن كما بدأت:(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) . .

وبالتهديد الملفوف العنيف:(فارتقب إنهم مرتقبون) .

إنها سورة تهجم على القلب البشري من مطلعها إلى ختامها , في إيقاع سريع متواصل . تهجم عليه بإيقاعها كما تهجم عليه بصورها وظلالها المتنوعة المتحدة في سمة العنف والتتابع . وتطوف به في عوالم شتى بين السماء والأرض , والدنيا والآخرة , والجحيم والجنة , والماضي والحاضر , والغيب والشهادة , والموت والحياة , وسنن الخلق ونواميس الوجود . . فهي – على قصرها نسبياً – رحلة ضخمة في عالم الغيب وعالم الشهود .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 3206 . 3207 ﴾

(17/695)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الدخان

مكية وآياتها تسع وخمسون آية

بين يدي السورة

* سورة الدخان مكية وهي تتناول أهداف السور المكية (التوحيد ، الرسالة ، البعث) لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم – المعجزة الخالدة – الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلة مباركة ، من أفضل ليالي العمر هي " ليلة القدر " وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تفصل وتدبر فيها أمور الخلق ، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية ، على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (صلى الله عليه وسلم) [حم

* والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين . .] الآيات .

* ثم تحدثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم ، وأنهم في شك وارتياب من أمره ، مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه ؟ وأنذرتهم بالعذاب الشديد [بل هم في شك يلعبون فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين 00] الآيات .

* ثم تحدثت عن قوم فرعون ، وما حل بهم من العذاب والنكال ، نتيجة الطغيان والإجرام ، وعن الآثار التي تركوها بعد هلاكهم ، من قصور ودور ، وحدائق وبساتين ، وأنهار وعيون ، وعن ميراث بني إسرائيل لهم ، لما حدث لهم من تشرد وضياع ، بسبب عصيانهم لأوامر الله [كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . .] الآيات .

* وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش ، وإنكارهم للبعث والنشور ، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ، ولذلك كذبوا الرسول ، وبينت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بإلى رم على الله ، ممن سبقهم من الأمم الطاغية ، وأن سنة الله لا تتخلف في إهلاإلى الطغاة المجرمين [أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين .] الآيات .

(18/695)

---

* وختمت السورة الكريمة ببيان مصير الأبرار ومصير إلى جار ، بطريق الجمع بين الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار [إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة .

التسمية :

سميت " سورة الدخان " لأن الله تعالى جعله آية لتخويف الكفار ، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة ، بسبب تكذيبهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكون ، ثم نجاهم الله بعد ذلك ببركة دعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 169 ﴾

(19/695)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الدخان

ليلة مباركة : هى ليلة القدر ، منذرين : أي مخوّفين ، يفرق : أي يفصل ويبين ، حكيم : أي محكم لا يستطاع أن يطعن فيه بحال ، موقنين أي تطلبون اليقين وتريدونه كما يقال منجد متهم : أي يريد نجدا وتهامة .

ارتقب : أي انتظر ، من قولهم : رقبته أي انتظرته وحرسته ، والمراد من الدخان ما أصابهم من الظلمة فى أبصارهم من شدة الجوع حتى كأنهم كانوا يرون دخانا ، فإن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه ورأى الدنيا كالمملوءة دخانا ، يغشى

الناس : أي يحيط بهم ، اكشف عنا : أي ارفع ، أنّى : أي كيف يكون ومن أين معلّم أي يعلمه غلام رومى لبعض ثقيف ، وبطش به أخذه بالعنف والسطوة كأبطشه ، والبطش : الأخذ الشديد فى كل شىء والبأس ، قاله صاحب القاموس .

فتنا : أي بلونا وامتحنا ، كريم : أي جامع لخصال الخير والأفعال المحمودة قاله الراغب ، أدّوا إلىّ عباد اللّه : أي أطلقوا وسلموا ، أمين : أي ائتمنه اللّه على وحيه ورسالته ، وأن لا تعلوا على اللّه : أي لا نستكبروا على اللّه بالاستهانة بوحيه ، بسلطان مبين :

أي بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها ، عذت بربي وربكم : أي التجأت إليه وتوكلت عليه ، أن ترجمون : أي تؤذوني ضربا أو شتما ، فاعتزلون : أي كونوا بمعزل منى لا علىّ ولا لى ولا تتعرضوا لى بسوء ، مجرمون : أي كافرون ، أسر بعبادي : أي سر بهم ليلا ، متبعون : أي يتبعكم فرعون وقومه ، رهوا : أي ساكنا ، يقال عيش راه إذا كان خافضا وادعا ، وافعل ذلك سهوا رهوا : أي ساكنا بغير تشدد ، قال القطامي فى وصف الرّكاب :

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتّكل

(20/695)

مقام كريم : أي مجالس ومنازل حسنة ، نعمة : أي حسن ونضرة ، قال صاحب الكشاف : النعمة (بالفتح) من التنعم ، (وبالكسر) من الإنعام ، فاكهين : أي طيبى الأنفس ناعمين ، فما بكت عليهم السماء : أي لم تكترث لهلاكهم ولا اعتدّت بوجودهم ، وقد جرى الناس أن يقولوا حين هلاك الرجل العظيم الشأن : إنه قد أظلمت الدنيا لفقده ، وكسفت الشمس والقمر له – وبكت عليه السماء والأرض كما قال جرير يرثى عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه :

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

منظرين : أي ممهلين ومؤخرين ، العذاب المهين : أي الشديد الإهانة والإذلال ، عاليا : أي جبارا متكبرا ، من المسرفين : أي فى الشر والفساد ، اخترناهم : أي اصطفيناهم ، على علم : أي عالمين باستحقاقهم ذلك ، على العالمين : أي عالمى زمانهم ، الآيات : أي المعجزات كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى ، بلاء مبين : أي اختبار ظاهر . بمنشرين : أي بمبعوثين ، يقال نشر اللّه الموتى وأنشرهم إذا أحياهم ، وتبّع : واحد التبابعة ، وهم ملوك اليمن ، وهذا اللقب أشبه بفرعون لدى قدماء المصريين ، وهم طبقتان : الطبقة الأولى ملوك سبإ وريدان من سنة 115 قبل الميلاد إلى 275 بعده . والطبقة الثانية ملوك سبإ وريدان وحضرموت والشّحر من سنة 275 بعد الميلاد إلى سنة 525 ، وأولهم شمر برعش ، وآخرهم ذو نواس ثم ذو جدن ، ومنهم ذو القرنين أو إفريقش ،

ويسمى الصعب . وبعده عمرو زوج بلقيس ثم أبو بكر ابنه ثم ذو نواس ، والذين اشتهروا من هؤلاء الملوك ثلاثة شمر برعش وذو القرنين وأسعد أبو كرب .

لاعبين : أي عابثين ، بالحق : أي بسبب الحق وهو الإيمان بالله والطاعة له ، يوم الفصل : هو يوم القيامة ، سمى بذلك لأنه يفصل فيه بين الحق والباطل ، ميقاتهم :

أي وقت موعدهم ، يغنى : أي ينفع ، مولى : أي ابن عم أو حليف

(21/695)

شجرة الزقوم : هى شجرة ذات ثمر مرّ تنبت بتهامة ، شبهت بها الشجرة التي تنبت فى الجحيم ، والأثيم : أي الكثير الآثام والذنوب وهو الكافر ، والمهل : دردىء الزيت ، والحميم : الماء الذي تناهى حره ، والعتل أن تأخذ بمنكبي الرجل فتجره إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة . وقال ابن السكيت : عتلته إلى السجن وأعتلته إذا دفعته دفعا عنيفا ، وسواء الجحيم : وسطها

فى مقام أمين : أي فى مجلس أمنوا فيه من كل همّ وحزن ، سندس : أي ديباج رقيق ، إستبرق : أي حرير فيه بريق ولمعان ، زوّجناهم : أي قرناهم ، بحور عين :

أي بحوار بيض حسان واسعات العيون ، يدعون : أي يطلبون ، وقاهم : أي حفظهم

ارتقب : أي انتظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 25 صـ 118.136 ﴾ .

باختصار .

(22/695)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان

وهي مكية

1 - قوله جل وعز (حم .

والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين) (آية 1 - 3) قال مجاهد وقتادة (في ليلة مباركة) ليلة القدر قال أبو جعفر في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال: أ - فمن أصحها ما رواه حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال أنزل القرآن في ليلة القدر إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم نزل به جبرائيل في عشرين سنة وهذا إسناد لا يدفع

ب - وقيل المعنى إنا أنزلناه قرآنا في تفضيل ليلة القدر وهو قوله تعالى (ليلة القدر خير من الف شهر) فهذان قولان ج - وقيل المعنى إنا ابتدانا به إنزاله في ليلة القدر كما تقول إنا أخرج

إلى مكة غدا أي أنا ابتدئ الخروج 2 - وقوله جل وعز (فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين) (آية 4 - 5) في معناه قولان متقاربان: قال ابن عباس يحكم الله جل وعز أمر الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق

وقال أبو عبد الرحمن السلمي والحسن ومجاهد

وقتادة نحوا من هذا إلا أن مجاهد قال إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران قال أبو جعفر فهذا قول والمعنى عليه أنه تؤمر ليلة القدر الملائكة بما يكون من القطر والرزق والحياة والموت إلى قابل ومعنى (يفرق) و (يؤمر) واحد كأنه قال يؤمر كل أمر حكيم أمرا من عندنا والقول الآخر: أنها ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد

(23/695)

وقال غيره (يفرق) يقضي ويفصل في تلك الليلة إلى مثلها من السنة الأخرى و (حكيم) بمعنى محكم وقيل إن معنى (يفرق) يفصل اي يفصل بين المؤمن والكافر والمنافق فيقال للملائكة هذا ويعرفونه 3 - وقوله جل وعز (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) (آية 10) روى إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي بن أبى طالب عليه السلام قال

آية الدخان لم تمض بعد وستكون يا تي دخان يصيب المؤمنين الزكام وينقد الكافر وروى الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال جلس

رجل فقال إن الدخان لم يكن وإنما يكون يوم القيامة يأخذ المؤمنين منه مثل الزكام ويشتد على الكافرين والمنافقين فدخلنا على عبد الله بن مسعود وهو متكئ فحكينا له ما قال فقام فجلس مغضبا وقال إذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل لا علم لي به فإن الله جل وعز يقول لنبيه (قل لا اسالكم عليه من أجر وما أنا

من المتكلفين) وسأخبركم عن الدخان إن قريشا استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفرت فدعا الله جل وعز عليها ان يجوعها فأصابها جوع شديد حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا من الجوع والحر فقالت قريش (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) فكشفه الله عنهم فعادوا ثم بطش بهم البطشة الكبرى يوم بدر ولو كان الدخان يوم القيامة ما كشف عنهم 4 - وقوله جل وعز (إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون) (آية 15)

يجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون في المعاصي ويجوز أن يكون بمعنى ميتين 5 - وقوله جل وعز (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) (آية 16) قال أبي بن كعب وابن مسعود في (البطشة الكبرى) إنها يوم بدر وروى عوف وقتادة عن الحسن (يوم نبطش البطشة الكبرى) قال يوم القيامة

---

6 - وقوله جل وعز (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) (آية 17) روى سعيد عن قتادة قال ابتليناهم قال (وجاءهم رسول كريم) يعني موسى صلى الله عليه وسلم قال (وأن لا تعلوا علي) أن لا تعتوا قال وقوله (إني آتيكم بسلطان مبين) اي بعذر مبين

7 - ثم قال جل وعز (وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون) (آية 20)

قال قتادة بالحجارة قال الفراء الرجم ههنا القتل وروى إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح في (وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون) قال ان يقولوا ساحر أو كاهن أو شاعر 8 - ثم قال جل وعز (وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) (آية 21) أي دعوني كفافا لا لي ولا علي 9 - وقوله جل وعز (واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون) (آية 24)

روى عكرمة عن ابن عباس قال (رهوا) طريقا

وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال سهلا وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد (واترك البحر رهوا): أي ساكنا لا تأمره أن يرجع إلى ما كان عليه حتى يحصل فيه آخرهم وروي عن مجاهد أنه قال (رهوا) اي يابسا قال أبو جعفر هذه الأقوال متقاربة ويقال للساكن رهو كما قال الشاعر: والخيل تمرغ رهوا في أعنتها * كالطير ينجو من الشؤبوب ذي البرد

ويقال جاء القوم رهوا على نظم واحد 10 - وقوله جل وعز (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم) (آية 25 ، 26) قال الفراء يقال المنازل الحسنة ويقال المنابر 11 - ثم قال جل وعز (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) (آية 29) روى المسيب بن رافع عن علي عليه السلام أنه قال يبكي على المؤمن الباب الذي يصعد منه عمله ومصلاه من الأرض وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال للمؤمن باب يصعد منه عمله وينزل منه رزقه فإذا مات بكى عليه وبكى عليه

الموضع الذي كان يصلي عليه ولم يكن في آل فرعون خير ولا كان لهم عمل صالح يصعد قال الله تعالى (فما بكت عليهم السماء والأرض)

(25/695)

وقيل المعنى فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض كما قال تعالى (واسأل القرية) قال أبو جعفر العرب إذا عظمت هلاك الإنسان قالت بكت عليه السماء وأظلمت له الشمس على التمثيل كما قال:

والشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكي عليك نجوم الليل والقمرا ثم قال تعالى (وما كانوا منظرين) أي مؤخرين 12 - وقوله جل وعز (ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين من

فرعون إنه كان عاليا من المسرفين) (آية 31) قال قتادة كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم 13 - ثم قال جل وعز (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) (آية 32) قال قتادة على عالمي أهل زمانهم

17 - ثم قال جل وعز (وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) (آية 33) قال قتادة أنجاهم من عدوهم وأقطعهم البحر وأنزل عليهم المن والسلوى قال أبو جعفر فالبلاء ههنا النعمة على هذا القول كما قال الشاعر: (فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو) وقد يكون البلاء ههنا العذاب ضد النعمة أي لحقهم البلاء لما

كفروا بآيات الله

15 - ثم قال جل وعز (إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) (آية 35) إن (هؤلاء) يعني قريشا (إن هي) بمعنى ما هي والمنشرون ثم المبعوثون أنشر الله الموتى فنشروا كما قال الشاعر: يا آل بكر أنشروا لي كليبا * يا آل بكر أين أين الفرار 16 - ثم قال جل وعز (فأتوني بآبائنا إن كنتم صادقين) (آية 36) الفراء يذهب إلى أن قوله فائتوا مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم وحده على ما تستعمله العرب في مخاطبة الجليل

17 – ثم قال جل وعز (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم) (آية 37) قالت عائشة كان تبع رجلا صالحا فذم الله قومه ولم يذممه وقال سعيد بن جبير سال ابن عباس كعبا كيف ذكر الله جل وعز قوم تبع ولم يذكر تبعا فقال كان تبع ملكا من الملوك وكان قومه كهانا وكان معهم قوم من أهل الكتاب فكان قومه يكذبون على أهل الكتاب عنده فقال لهم جميعا قربوا قربانا فقربوا فتقبل قربان اهل الكتاب ولم يتقبل قربان قومه فاسلم فلذلك ذكر الله قومه ولم يذكره

18 – وقوله جل وعز (ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) (آية 39) (إلا بالحق) أي إلا لإقامة الحق 19 – وقوله جل وعز (يوم لا يغني مولى عن مولى شيئًا ولا هم ينصرون) (آية 41) المولى الولي والناصر كما قال الشاعر: فغدت كلا الفرجين تحسب انه * مولى المخافة خلفها وأمامها وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (من كنت مولاه فعلي مولاه

في معناه ثلاثة أقوال: أحدها أن يكون المعنى من كنت أتولاه فعلي يتولاه والقول الثاني من كان يتولاني تولاه والقول الثالث أنه يروى أن أسامة بن زيد قال لعلي عليه السلام لست مولاي إنما مولاي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام (من كنت مولاه فعلي مولاه) 20 – وقوله جل وعز (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) (آية 44) قال شعبة سمعت سليمن عن مجاهد قال كان ابن عباس جالسا وفي يده محجن والناس يطوفون بالبيت فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس اتقوا الله ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون فلو أن قطرة من الزقوم قطرت على أهل الدنيا لأمرت عليهم عيشهم فكيف بمن طعامه الزقوم

(27/695)

قال أبو الدرداء (طعام الأثيم) طعام الفاجر 21 - ثم قال جل وعز (كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم) (آية 45) روى سعيد بن جبير وابو ظبيان عن ابن عباس قال المهل دردي الزيت ثم قال (تغلي في البطون) يعني الشجرة ومن قال (يغلي) جعله للطعام والزقوم وقال الفراء وأبو حاتم من قال (يغلي) جاز أن يجعله للمهل

قال أبو جعفر وهذا غلط لأن المهل ليس هو الذي يغلي في البطون وإنما شبه به ما يغلي والحميم الماء الحار كما قال: (فيها كباء معد وحميم) الكباء البخور يقال كببت العود اي بخرته والكبا مقصور الكناسة 22 - ثم قال جل وعز (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم) (آية 47) أي يقول للملائكة خذوه فاعتلوه قال مجاهد أي فادفعوه

قال أبو جعفر يقال عتله يعتله ويعتله إذا جره

بعنف وشدة قال قتادة (إلى سواء الجحيم) إلى وسط الجحيم 23 - وقوله جل وعز (ذق إنك انت العزيز الكريم) (آية 49) وقرا الحسن بن علي عليهما السلام (ذق انك) بفتح

الهمزة وهي قراءة الكسائي والمعنى عليها ذق لأنك كنت تقول هذا والمعنى على قولك قال قتادة أنزل الله عز وجل في أبي جهل الآية (أولى لك فأولى ثم اولى لك فأولى) فقال أيوعدني محمد وما بين جبليها أعز مني ولا أكرم فأنزل الله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وأنزل فيه (كلا لا تطعه واسجد واقترب) 24 - وقوله جل وعز (إن المتقين في مقام أمين) (آية 51) قال الكسائي المقام لمكان والمقام الإقامة كما قال: (عفت الديار محلها فمقامها) ومعنى (أمين) أي من العلل والأحزان قال قتادة أمين من الشيطان والأنصاب والأحزان 25 - وقوله جل وعز (يلبسون من سندس واستبرق متقابلين) (آية 53)

قال عكرمة الاستبرق غليظ الديباج قال أبو إسحاق الاستبرق مأخوذ من البريق وهو الذي

(28/695)

يجعل على الكعبة والسندس الرقيق منه 26 - ثم قال جل وعز (كذلك وزوجناهم بحور عين) (آية 54) قال مجاهد أي أنكحناهم قال قتادة وفي قراءة عبد الله (كذلك وزوجناهم بعيس عين) ومعناه البيض يقال جمل اعيس ولا إذا كان أبيض يضرب إلى الشقرة 27 - ثم قال جل وعز (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) (آية 55)

قال قتادة آمنين من الموت والوصب والشيطان وقال غيره آمنين من انقطاع ذلك ومن غائلة أذاه ومكروهة وليس كفاكهة الدنيا التي لها غائلة وتنفد 28 - ثم قال جل وعز (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم) (آية 56) المعنى لا يذوقون فيها الموت البتة ثم قال (إلا الموتة الأولى) استثناء ليس من الأول وأنشد سيبويه: من كان أسرع في تفرق فالج * فلبونه جربت معا وأغدت ثم استثنى ما ليس من الأول فقال: إلا كناشرة التي ضيعتم * كالغصن في غلوائه المتنبت

29 - وقوله جل وعز (فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم) (آية 57) قال الفراء اي فعل ذلك تفضلا

30 - وقوله جل وعز (فارتقب إنهم مرتقبون) (آية 59) أي منتظرون انتهت سورة الدخان. انتهى انتهى. اهـ ﴿معاني القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 395. 418﴾

(29/695)

وقال الفراء :

سورة (الدخان)

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . . . ﴾ .

﴿ أَمْراً . . . ﴾ هو منصوب بقوله: يفرق ، على معنى يفرق كل أمر فرقاً وأمرا وكذلك .

قوله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . . ﴾ ، يفرق ذلك رحمة من ربك ، ويجوز أن تنصب الرحمة بوقوع مرسلين عليها ، تجعل الرحمة هى النبى صلى الله عليه .

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . . . ﴾ .

خفضها الأعمش وأصحابه ، ورفعها أهل المدينة ، وقد خفضها الحسن أيضا على أن تكون تابعة لربك رب السماوات .

ومن رفع جعله تابعا لقوله: ﴿ إِنهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ ، ورفع أيضا آخر على الاستئناف كما قال: "وما بينهُما الرحمنُ" .

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَاذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . . . يَغْشَى النَّاسَ هَاذَا عَذَابٌ . . . ﴾ .

كان النبى صلى الله عليه دعا عليهم ، فقال: اللهم اشدد وطأتك على مُضر ، اللهم كَسِنِى يوسف ، فأصابهم جوعٌ ، حتّى أكلوا العظام والميتة ، فكانوا يرون فيما بينهم وبين السماء دخانا .

وقوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَاذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . ﴾ .

يراد به ذلك عذاب ، ويقال: إن الناس كانوا يقولون: هذا الدخان عذاب .

﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾

وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ . . . ﴾ .

يقال: عائدون إلى شرككم ، ويقال: عائدون إلى عذاب الآخرة .

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ . . . ﴾ .

يعنى: يوم بدر ، وهى البطشة الكبرى .

(30/695)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ . . . ﴾ .

أى على ربه كريم ، ويكون كريم من قومه ؛ لأنه قال: ما بعث نبى إلا وهو فى شرف قومه .

﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

وقوله: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ . . . ﴾ .

يقول: ادفعوهم إلىّ ، أرسلوهم معى ، وهو قوله: ﴿ أَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

ويقال: أن أدّوا إلىّ يا عباد الله ، والمسألة الأولى نصب فيها العباد بأدوا .

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾

وقوله: ﴿ أَن تَرْجُمُونِ . . . ﴾ .

الرجم ههنا : القتل .

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ . . . ﴾ .

يقول: فاتركون لا علىّ ، ولا لى .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ . . . ﴾ .

تفتح (أَنَّ) ، ولو أضمرت القول فكسرتها لكان صوابا .

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا . . . ﴾ .

يقول: ساكنا ، قال: وأنشدنى أبو ثروان:

كأنما أهلُ حجر ينظرون مَتى * يَرَونَنى خارجاً طير تَنَادِيد

طيرٌ رأَتْ بازيا نَضْخُ الدماءِ به * أو أمةٌ خرجَتْ رهواً إلى عيد

﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . . . ﴾ .

يقال: منازل حسنة ، ويقال: المنابر .

(31/695)

[حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى أبو شعيب عن منصور ابن المعتمر عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ . . . ﴾ قال: يبكى على المؤمن من الأرض مصلاّه ، ويبكى عليه من السماء مصعد عمله .

قال الفراء: وكذلك ذكره حبان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾

وقوله: ﴿ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . . . ﴾ وفى حرف عبد الله: "مِنْ عَذَابِ المُهِين" .

وهذا مما أضيف إلى نفسه لاختلاف الاسمين مثل قوله: ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ ﴾ . مثل قوله: ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ وهى فى قراءة عبد الله: "وذلك الدينُ القَيِّمَةُ" .

﴿ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ . . . ﴾ .

يريد : نعم مبيّنة ، منها : أن أنجاهم من آل فرعون ، وظللهم بالغمام ، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى ، وهو كما تقول للرجل: إن بلائى عندك لحسن ، وقد قيل فيهما : إن البلاء عذاب ، وكلٌّ صواب .

﴿ فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . . . ﴾ .

يخاطبون النبى – صلى الله عليه – وحده ، وهو كقوله: ﴿ يا أَيُّها النَّبىُّ إذا طَلَّقتُمُ النِّساءَ ﴾ فى كثير من كلام العرب ، أن تجمع العرب فعل الواحد ، منه قول الله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرْجِعُونِ ﴾ .

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ . . . ﴾ .

يريد : للحق .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ . . . ﴾ .

يريد : الأولين والآخرين ، ولو نصب ﴿ مِيقَاتُهم ﴾ لكان صواباً يجعل اليوم صفة ، قال:

أنشدنى بعضهم:

(32/695)

لو كنت أعلم أنّ آخر عهدكم * يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

فنصب: يوم الرحيل ، على أنه صفة .

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ . . . ﴾ .

فإن المؤمنين يشفّع بعضهم فى بعض ، فإن شئت فاجعل – من – فى موضع رفع ، كأنك قلت: لا يقوم أحد إلا فلان ، وإن شئت جعلته نصبا على الاستثناء والانقطاع عن أول الكلام تريد : اللهم إلاَّ من رحمت .

﴿ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ طَعَامُ الأَثِيمِ . . . ﴾ .

يريد : الفاجر .

﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾

وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ تَغْلِي . . . ﴾ .

قرأها كثير من أصحاب عبد الله: "تغلى" ، وقد ذُكرت عن عبد الله ، وقرأها أهل المدينة كذلك ، وقرأها الحسن "يغلى" . جعلها للطعام أو للمهل ، ومن أنثها ذهب إلى تأنيث الشجرة .

ومثله قوله: ﴿أَمَنَةً نُعَاساً ﴾ تغشى ويغشى ؛ فالتذكير للنعاس ، والتأنيث للأمَنَة ، ومثله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى ﴾ التأنيث للنطفة ، والتذكير من المنى .

﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ فَاعْتِلُوهُ . . . ﴾ .

قرأها بالكسر عاصم والأعمش ، وقرأها أهل المدينة: "فاعتلُوه" . بضم التاء .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . . . ﴾ .

(33/695)

قرأها القراء بكسر الألف حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال: حدثنى شيخ عن حجر عن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال: سمعت الحسن بن على بن أبى طالب على المنبر

يقول: "ذُقْ أَنَّك" بفتح الألف. والمعنى فى فتحها: ذق بهذا القول الذى قلته فى الدنيا، ومن كسر حكى قوله، وذلك أن أبا جهل لقى النبى - صلى الله عليه - قال: فأخذه النبى صلى الله عليه فهزه، ثم قال [له]: أولى لك يا أبا جهل أولى فأنزلها الله كما قالها النبى صلى الله عليه. ورد عليه أبو جهل، فقال: [و] الله ما تقدر أنت ولا ربك علىَّ، إنى لأكرم أهل الوادى على قومه، وأعزُّهم؛ فنزلت كما قالها قال: فمعناه - فميا نرى والله أعلم -: انه توبيخ أى [/ب] ذق فإنك كريم كما زعمت. ولست كذلك.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . . . ﴾.

قرأها الحسن والأعمش وعاصم: ﴿ مَقَامٍ ﴾، وقرأها أهل المدينة (فى مُقام) بضم الميم. والمَقام بفتح الميم أجود فى العربية؛ لأنه المكان، والمُقام: الإقامة وكلٌّ صواب.

﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ . . . ﴾.

وفى قراءة عبد الله: "وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِعِيسٍ عِينٍ"، والعيساء: البيضاء. والحوراء كذلك.

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى . . . ﴾.

يقول القائل: كيف استثنى موتا فى الدنيا قد مضى من موت الآخرة ، فهذا مثل قوله: ﴿ ولا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكم من النِّساءِ إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ ﴾ فإلاّ فى هذا لموضع بمنزلة سوى ، كأنه قال: لا تنكحوا ، لا تفعلوا سوى ما قد فعل آباؤكم ، كذلك قوله: ﴿ لا يذُوقون فيها الموتَ ﴾ . سوى الموتة الأولى ، ومثله: ﴿ خالدِينَ فيها ما دَامتِ السّماوَاتُ والأرضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّك ﴾ أى سوى ما شاء ربك لهم من الزيادة على مقدار الدنيا من الخلود .

وأنت قائل فى الكلام: لك عندى ألفٌ إلاَّ ما لَكَ من قِبَل فلان ، ومعناه: سوى مالك علىّ من قِبَل فلان ، وإلا تكون على أنها حطٌّ مما قبلها وزيادة عليها فما ذكرناه لك من هذه الآيات فهو زيادة على ما قبل إلا ، والحط مما قبل إلا قولُك: هؤلاء ألفٌ إلاَّ مائةً فمعنى هذه ألف ينقصون مائة .

وقوله: ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . . . فضلاً . . . ﴾ .

أى فعله تفضلا منه ، وهو مَّما لو جاء رفعا لكان صوابا أى : ذلك فضل من ربك . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 39 . 44 ﴾

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الدخان

(إنا أنزلناه في ليلة مباركة) [3] أي: ابتداء إنزاله فيها . (بدخان مبين) [10] كان النبي صلى الله عليه قال: اللهم اشدد وطأتك على مضر ، فأجدبوا وصاروا /يرون بالجوع بينهم وبين السماء دخاناً . (أنى لهم الذكرى) [13] أي: أنى لهم التذكر . (وقد جاءهم رسول) فكذبوه . (البطشة الكبرى) [16]

يوم القيامة عن ابن عباس . ويوم بدر عن ابن مسعود . (وأن لا تعلوا على الله) [19] لا تستكبروا عن أمره . (فما بكت عليهم السماء والأرض) [29] أي: لم يلحق -بفقدهم- شيئاً من ذلك خلل ولا نقص ، كما قال النابغة في ضده: 1082- بكى حارث الجولان من هلك ربه وجولان منه خاشع متضائل 1083- وآب مضلوه بعين سخينة وغودر بالجولان حزم ونائل .

(ما فيه بلاء مبين) [33] إحسان ونعمة ، كما قال أوس بن حجر : 1084- لعمرك ما ملت ثواء ثويها حليمة إذ ألقي مراسي مقعد 1085- وقد غبرت شهري ربيع كليهما بحمل البلايا والخباء الممدد . (فأتوا بآبائنا) [36] لم يجابوا فيه ، لأن النشأة الآخرة للجزاء لا لإعادة التكليف . (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) [38] أي: لو بطل

الجزاء على الأعمال ، لكان الخلق أشبه شيء باللهو واللعب .

([فـ]ـاعتلوه) [47] ادفعوه بشدة وعنف . والعتل: أن يأخذ بمجامع ثوب الإنسان عند صدره حتى يميل من شدة الجذب ، وعنف الأخذ عنقه يجره على ذلك . وضم التاء فيه لغة إلا أن الكسر أشهر .

[تمت سورة الدخان] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1303.1306 ﴾

(36/695)

وقال الأخفش :

سورة (الدخان)

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قال ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ﴿ أَمْراً ﴾ وقال ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وانتصابه على "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ أَمْراً وَرَحْمَةً" في الحال .

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ ﴾ فجعله بدلا من الاسم المضمر في ﴿ يُنصَرُونَ ﴾ [41]

وان شئت جعلته مبتدأ . واضمرت [170] خبره تريد "إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ فَيُغْنِي عَنْه" .

﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾

وقال ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ يقول - والله أعلم - "جَعَلْنَاهُم أَزْوَاجاً بالحور" ومن العرب من يقول "عين حير" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 516 ﴾

(37/695)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الدخان

مكية كلها

4 - يُفْرَقُ أي يفصل .

10 - يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ أي بجدب ، يقال : «إن الجائع فيه كان يرى بينه وبين السماء دخانا ، من شدة الجوع» .

ويقال : «بل قيل للجوع : دخان ليبس الأرض في سنة الجدب ، وانقطاع النبات ، وارتفاع الغبار . فشبه ما يرتفع منه بالدخان . كما قيل لسنة المجاعة : غبراء ، وقيل : جوع اغبر ،

وربما وضعت العرب الدخان موضع الشر إذا علا ، فيقولون : كان بيننا امر ارتفع له دخان» .

15 - إِنَّكُمْ عائِدُونَ إلى شرككم . ويقال : إلى الآخرة .

16 - يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى يعني : يوم بدر .

20 - عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ أي تقتلون .

21 - وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ أي دعوني كفافا لا عليّ ولا لي .

24 - وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً أي ساكنا .

29 - فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ ، وَما كانُوا مُنْظَرِينَ مبين في كتاب «تأويل المشكل» .

(38/695)

---

33 - وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ أي نعم بينة عظام .

35 - وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ أي بمحيين .

41 - يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً أي ولي عن وليه بالقرابة او غيرها .

44 - طَعامُ الْأَثِيمِ أي طعام الفاجر .

45 - كَالْمُهْلِ قد تقدم تفسيره.

46 - والْحَمِيمِ: الماء الحار.

47 - خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ، وتقرأ: واعتلوه خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ، أي فردوه بالعنف. وتقرأ: فَاعْتِلُوهُ، يقال: جيء بفلان يعتل إلى السلطان، أي يقاد. إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ وسط النار. أي يقاد. إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ وسط النار.

53 - و(الإستبرق): ما غلظ من الديباج. و(السندس): ما رق منه.

54 - كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أي قرناهم بهن.

- و[قوله]: لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى، مبين في كتاب «تأويل المشكل».

59 - فَارْتَقِبْ أي انتظر، إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ أي منتظرون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 346. 347 ﴾

(39/695)

وقال الغزنوى:

سورة الدخان

3 إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ: [أي ليلة القدر] «1» أي: ابتداء إنزاله فيها «2».

4 أَمْرٍ حَكِيمٍ : أمر فيه حكمة .

5 أَمْراً مِنْ عِنْدِنا : نصب أَمْراً ، ورَحْمَةً على الحال ، أي :

[إنا] أنزلناه آمرين أمرا وراحمين رحمة «3» .

10 بدُخانٍ : أي : الظلمة التي تغشى الأبصار للجوع ، حين دعا على قريش «4» .

13 أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى : أي : التذكر .

وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ : فكذبوه .

16 الْبَطْشَةَ الْكُبْرى : يوم القيامة «5» . وقيل «6» : يوم بدر .

---

(1) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(2) عن نسخة «ج» .

(3) ينظر معاني القرآن للأخفش : 2/ 691 ، ومعاني الزجاج : 4/ 424 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 126 ، وتفسير الطبري : 25/ 110 .

(4) أي حين دعا عليهم النبي صلى اللّه عليه وسلم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان .

وقد ورد هذا المعنى في أثر طويل أخرجه البخاري في صحيحه : 5/ 19 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة الروم» عن ابن مسعود رضي اللّه عنه .

وانظر تفسير الطبري : 25/ 111 ، وتفسير ابن كثير : 7/ 233 .

(5) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 25/ 117 عن ابن عباس ، والحسن .

وصحح الحافظ ابن كثير في تفسيره : 7/ 237 إسناده إلى ابن عباس رضي اللّه عنهما ، ورجح هذا القول فقال : «والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا» .

(6) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 40 ، وأبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 208 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 402 .

وأخرجه الطبري في تفسيره : (25/ 116 ، 117) عن ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 408 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن مسعود رضي اللّه عنه .

19 وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ : لا تستكبروا عن أمره ، أو لا تطغوا بافتراء الكذب عليه «1» .

21 وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ : اصرفوا أذاكم عني .

24 رَهْواً : ساكنا «2» .

33 ما فِيهِ بَلاؤُا مُبِينٌ : إحسان ونعمة «3» .

36 فَأْتُوا بِآبائِنا : لم يجابوا فيه لأنّ النشأة الأخيرة للجزاء لا لإعادة التكليف .

37 أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ : عدل عن جوابهم إلى الوعيد لأنّ من تجاهل وشغب فالوجه العدول إلى الوعظ له .

38 وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ : أي : لو بطل الجزاء على الأعمال لكان [88/أ] الخلق/أشبه شيء باللّهو واللعب .

اعتلوه «4» - بكسر التاء وضمها «5» - : ادفعوه بعنف «6» ، و«العتل» أن

---

(1) تفسير الطبري : 25/ 119 .

(2) ينظر هذا المعنى في معاني القرآن : 3/ 41 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 208 ، ومعاني الزجاج : 4/ 426 ، والمفردات للراغب : 204 ، واللسان : 14/ 341 (رها) .

(3) معاني القرآن للفراء : 3/ 42 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 403 ، وتفسير

القرطبي :

143/16 .

(4) من قوله تعالى : خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ [آية : 47] .

(5) بكسر التاء قراءة عاصم ، والكسائي ، وحمزة ، وأبي عمرو . وقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر بضم التاء .

ينظر السبعة لابن مجاهد : (592 ، 593) ، والتبصرة لمكي : 326 ، والتيسير للداني :

198 .

(6) تفسير غريب القرآن : 403 ، وتفسير الطبري : 25/ 133 ، ومعاني الزجاج : 4/ 428 ، وتفسير المشكل لمكي : 313 . [. . . . .]

(41/695)

تأخذ بمجامع ثوبه عند صدره تجرّه «1» .

49 إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ : كان أبو جهل يقول : أنا أعز من بها «2» وأكرم .

إستبرق «3» : قيل ذلك لشدّة بريقه «4» .

مُتَقَابِلِينَ : أي : بالمحبة لا متدابرين بالبغضة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 741 . 743 ﴾

---

(1) المفردات للراغب : 321 ، واللسان : 11/ 424 (عتل) .

(2) أي بمكة ، وانظر خبره في تفسير الطبري : 25/ 134 ، وتفسير الماوردي : 4/ 17 ، وأسباب النزول للواحدي : 436 ، وتفسير ابن كثير : 7/ 246 .

(3) من قوله تعالى : يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ [آية : 53] .

(4) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 4/ 428 .

(42/695)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الدخان

عدد 24 - 64 - 24

نزلت بمكة بعد الزخرف وهي تسع وخمسون آية وثلاثمائة وست وأربعون كلمة ، وألف وأربعمائة وواحد وثلاثون حرفا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "حم" 1 تقدم ما فيه وهو رمز بين اللّه ورسوله لا يعلمه غيرهما ، وهذا من معجزات القرآن (أن المنزل عليهم لا يعلمون وقت انزاله أن هناك كلمات معروفة عند المخاطب أو المخاطب مجهولة عند غيرهما ، ومنه أخذت الملوك الرموز فيما بينهم (شفرة) لا يعرفها غيرهم ، ثم أقسم جل قسمه فقال "وَالْكِتابِ الْمُبِينِ" 2 المظهر الحلال والحرام والحدود والاحكام .

وجواب القسم قوله "إِنَّا أَنْزَلْناهُ" أي القرآن العظيم المقسم به بلفظ الكتاب "فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ" هي ليلة القدر السابعة والعشرون من شهر رمضان سنة 41 من ميلاده الشريف ، إذ أنزل فيها جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة في سماء الدنيا ، ثم نزل مفرقا بحسب ما أراده اللّه تعالى القائل (شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) الآية 186 من سورة البقرة في ج 3 ، وقال هنا (إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ) وقال (إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) السورة المارة في ج 1 ، وانما وصفها بالبركة إذ لا أبرك ولا أعظم ولا أحسن ولا أشرف مما نزل فيها ، لا سيما أنها كانت ليلة الجمعة فصارت مباركة من وجوه شتى ، وإنما أنزله ليلا لأن الليل زمن المناجاة ومهبط النفحات ومورد

الكرامات ومحل الاسرار ومجمع الأبرار وفيه فراغ القلوب واجتماع المحب بالمحبوب بخلاف النهار .

ولهذه الأسباب وقع الإسراء ليلا كما أشرنا اليه أول سورة الاسراء ج 1 فراجعها وراجع

سورة القدر وآية البقرة المذكورة أعلاه لتقف على ما يتعلق بها .

مطلب في ليلة القدر وليلة النصف من شعبان وفضل الأزمنة والأمكنة والأشخاص والأعمال :

(43/695)

وتفسير هذه الليلة بليلة القدر هو ما عليه ابن عباس وقتادة وابن جبير ومجاهد وابن زيد والحسن وأكثر المفسرين وهو الموافق لظاهر التنزيل وهناك أقوال لعكرمة وغيره بأنها ليلة النصف من شعبان المسماة ليلة البراءة ومشى عليه بعض المفسرين لما روى البغوي بسنده أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل ينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى .

ولما روى عن عائشة رضي اللّه عنها قالت قصدت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذات ليلة فخرجت أطلبه فإذا هو بالبقيع رافعا رأسه إلى السماء فقال يا عائشة أكنت تخافين أن يحيف اللّه عليك ورسوله ؟ قلت ما بي من ذلك ولكني ظننت أنك أتيت بعض نسائك ، فقال إن اللّه عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم بنى كلب . - أخرجه الترمذي وابن أبي شيبة والبيهقي وابن ماجه - قالوا

وبينها وبين ليلة القدر أربعون أو واحد وأربعون يوما ما عداهما ، ويقول ابن عباس رضي اللّه عنهما إن اللّه تعالى يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر .

وهذه الأحاديث والأقوال على فرض صحتها غاية ما فيها عدّ ليلة النصف من شعبان مباركة ، وهو كذلك لأنها لا تزال معظمة يقومها الناس ويصومها البعض ويتصدقون فيها ، إلا أنها ليس فيها ما يدل على أن القرآن أنزل فيها ، ولا يوجد ما يقابل النصوص الظاهرة الصريحة المارة المثبتة بأن المراد في هذه الليلة الواردة في هذه السورة هي ليلة القدر وما ورد لا ينافي أفضلية ليلة البراءة المشار إليها بما تقدم وبما أخرجه ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها فإن اللّه تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى

السماء الدنيا فيقول : ألا مستغفر فأغفر له ، ألا مسترزق فأرزقه ، ألا مبتلي فأعافيه ، ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر .

وبما أخرجه أحمد ابن حنبل في المسند عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : يطلع اللّه تعالى إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين مشاحن وقاتل نفس ، وفي رواية وقاطع رحم .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تؤيد أفضليتها على غيرها عدا ليلة القدر ، ولا أعلم كيف صرفوا هذه الليلة إلى ليلة النصف من شعبان مع صراحة القرآن بأنها ليلة القدر ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ولا يوجد حديث صحيح يصرفها بل ولا غير صحيح ، وأما أقوال المفسرين فمجرد اجتهاد منهم وقد أخذ بعضهم عن الآخر دون استناد لقرآن أو سنة ، ولم يذكر في هذه الأحاديث أنها ليلة النصف من شعبان ، وهنا يظهر لك قول المغالين بأنها ليلة البراءة أنه غير مستند على نص صريح من الكتاب والسنة أنها هي ، أما فضلها فلم يختلف فيه اثنان .

(45/695)

واعلم أن ما ورد في فضل بعض الليالي والأيام والأوقات وما قيل إن للّه خواصّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص هو بالنسبة لما يقع فيها من الأعمال والأفعال والأقوال ، وإلا فالأيام والساعات والمواقع متساوية من حيث هي ، وعلى هذا فإن أفضل السنين السنة التي ولد

فيها محمد صلّى اللّه عليه وسلم وهي عام الفيل التي حمى اللّه بها بيته ، وأهلك من قصد تخريبه أبرهة ومن معه ، وأفضل الشهور شهر رمضان لذكره تعالى باسمه في القرآن العظيم ولإنزال القرآن فيه ولتشريف سيدنا محمد بالرسالة فيه أيضا ، ثم ربيع الأول لوقوع ولادته الشريفة فيه ، ثم رجب لانه مفرد الأشهر الحرام المذكورة صراحة في القرآن الكريم ولوقوع الإسراء فيه وتحريم القتال فيه ، ثم شعبان لوقوعه بين رجب ورمضان ولكون ليلة البراءة فيه المحترمة لسنية صيامها وقيامها ، وقد ورد بارك اللّه في خميسها وسبتها لوقوعهما في جوار الجمعة ، ثم ذو الحجة لوقوع الحج فيه ولكون الأيام المعدودات والمعلومات المنوه بهما في القرآن العظيم فيه ومنها يوم عرفه ويوم التروية ويوم النحر وأيام التشريق ، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلها ، ثم شوال لوقوعه بين رمضان وذي القعدة

الحرام ولكون عيد الفطر فيه واستحباب صيام الأيام الستة منه ، ثم ذو القعدة لمجاورته ذا الحجة ، ولهذا

فإن الدار إذا كانت بين جيران صالحين تفضل على غيرها وتعتز بجوارها حتى قيل بجيرانها تغلو الديار وترخص .

ثم المحرم شهر الأنبياء ورأس السنة وآخر الأشهر الحرام وفيه يوم عاشوراء وفيه أجاب اللّه تعالى دعوة أنبيائه وأهلك أعداءه .

وأفضل الأيام يوم الجمعة لما فيه من اجتماع الناس لسماع الذكر ، ولأنها بمثابة العيد وجاء أنها حج المساكين وفيها ساعة الإجابة ، راجع الآية 4 من سورة القدر في ج 1 .

(46/695)

هذا في الأزمنة ، أما الأمكنة فأفضل بقعة في الأرض بل وفي السماء البقعة التي ضمت جثمان سيد الكائنات عليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد أجمع على هذا السلف والخلف

ولما دفن فيها رثته ريحانته فاطمة رضي اللّه عنها فقالت :

ماذا على من شمّ تربة أحمد أن لا يشمّ مدى الدهور غواليا

صبّت علي مصائب لو أنها صبّت على الأيام صرن لياليا

وقال الأعرابي حينما زار تلك الروضة المطهرة :

يا خير من دفنت في الترب أعظمه وطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي فداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ورثاه حسان رضي اللّه عنه فقال :

كنت السواد لناظري فعمى عليك الناظر

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

ولم يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق بمثل هذا ، ثم المسجد الحرام المشتمل على الكعبة المعظمة ، وقد جاء أن الصلاة فيه تعدل مئة ألف صلاة بغيره ، ثم مسجده صلّى اللّه عليه وسلم لاحتوائه على الروضة المقدسة ، وورد أن الصلاة فيه تعدل ألفا بغيره ، ثم المسجد الأقصى لاحتوائه على الصخرة الشريفة والحرم المقدس مهبط الأنبياء ومجمع أضرحتهم الطاهرة ، وجاء أن الصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة بغيره ، مما يدل على أفضلية هذه المواقع الكريمة ، ثم مدافن الأنبياء والأولياء العارفين والعلماء الكاملين لقربهم من اللّه تعالى والجوامع والمساجد والمحال التي يقام ذكر اللّه بها ويتلى فيها كتابه وأحاديث نبيه .

أما الأشخاص فأفضل من عليها الرسل الفخام والأنبياء العظام ، ثم الأمثل فالأمثل من الأولياء العارفين والعلماء العاملين والشهداء والشجعان المقاتلين

في سبيل اللّه فمن دونهم ، وقد نص اللّه تعالى على تفضيل الأنبياء وكونهم درجات لما أوتوا من منّ اللّه عليهم وتوفيقه ، ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء .

(47/695)

وأما الأعمال فلبعضها أيضا فضل وشرف على بعض بالنسبة لفاعلها وللزمان والمكان المعمولة فيه وبحسب النيات والمقاصد والإخلاص ، قال ابن الفارض رحمه اللّه :

وعندي عيد كل وقت أرى به جمال محياها سبعين قريرة

وكل الليالي ليلة القدر إن دنت كما كل أيام اللقا يوم جمعة

أما التسمية فمقتضى الحال سميت ليلة القدر لما يقدر اللّه تعالى فيها من الأمور ، وسميت مباركة لما يعود فيها من البركة على العاملين فيها وليلة الرحمة لما يقع فيها من رحمات الرحمن على عباده ، وسميت ليلة البراءة ليلة النصف من شعبان لما أن من قبل فيها برىء من الذنوب وصار كيوم ولدته أمه نقيا وليلة الإجابة لما أن اللّه يطلع فيها على عباده فيجيب ما يطلبونه منه ، وليلة العرض لما فيها من اطلاع اللّه تعالى على عباده المتعرضين لألطافه ، وليلة الصك لأن العامل إذا استوفى الخراج من الناس أعطاهم صكا بوفاء ما عليهم من الذّمة فكذلك الباري جل جلاله يكتب لعباده المقبولين صكا بقبول أعمالهم وغفران ذنوبهم ، ويوم العيد لأن اللّه تعالى يعود بالإحسان على عباده فيه ، وقد جاء في الخبر : إذا كان يوم العيد وخرج الناس إلى الجبّانة يقول اللّه تعالى ما حق الأجير إذا أكمل عمله ؟ فتقول الملائكة أن يعطى أجره ، فيقول اللّه اشهدوا أني قد غفرت لهم .

وليلة التروية لأن الخليل رأى فيها ذبح ولده ، وليلة عرفة لأنه عرف أن تلك الرؤيا من اللّه حقا فعزم على تنفيذها ، ويوم النحر لنحر إبراهيم ولده إسماعيل وفاء لأمر ربّه .

هذا ، وما قيل إن آدم عليه السلام تلاقى مع حواء في عرفة فسمي به لم يثبت ثبوتا يصح

الاستناد إليه ويستدل فيه ، وهكذا لم يوضع اسم إلا لمعنى في الأصل زمن وضعه والله أعلم .

(48/695)

قال تعالى "إِنَّا كُنَّا" نحن إله السموات والأرض ولم نزل "مُنْذِرِينَ" 3 الناس أن يجتنبوا مخالفتنا ويحذروا عقابنا ، واعلموا أيها الناس أن تلك الليلة المباركة "فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ" 4 مفصول مقضى به حسب حكمتنا بمقتضى إرادتنا ، قال ابن عباس يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر

ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج فيبرم وينفذ ذلك ، لأن الكتابة لا تكون إلا ليلة البراءة كما تقدم ، قال تعالى ما معناه نأمر بكل شيء "أَمْرًا" نصب على الاختصاص وإن الأمر المحكم الذي أنزلناه حاصل "مِنْ عِنْدِنَا" بمقتضى علمنا وتدبيرنا وحكمتنا "إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ" 5 الرسل إلى الأمم السابقة لأجل إرشادهم وقد أرسلناك يا محمد إلى من على وجه الأرض وخاصة لأهل زمانك "رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ" إليهم ورأفة بهم ونعمة عليهم "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ" لأقوالهم إذا أجابوا دعوتك وآمنوا بك "الْعَلِيمُ" 6 بأفعالهم كلها .

ومن قال إن الضمير في أنزلناه لا يعود للكتاب وأراد بالكتاب اللوح المحفوظ المقدس أعاده إلى غير موجود لمعلوميته كما في قوله (إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) كما أشرنا إليه في الآية 34 من الشورى المارة ، قال تعالى "رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ" أيها الناس "مُوقِنِينَ" 7 به عن علم فهو رب هذين الهيكلين العظيمين ومن فيهما ومرسل الرسل رحمة ومنزل الكتب هدى ، وهذا كما تقول إن هذا الإنعام الكثير هو انعام فلان الذي تسامع الناس بكرمه وداع صيته لدى الخاص والعام ، أي بلغك حديثه أو حدثت عنه أو ذكرت لك قصته "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" عنى القطع والجزم هو الذي "يُحْيِي وَيُمِيتُ" وهل تعلم أحدا يقدر على هذا غيره ، كلا ثم كلا ، هذا هو الإله العظيم القهار "رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ" 8 لا ربّ غيره ، وإن هذه الأصنام ليست بآلهة لأحد وليست بقدرة على شيء من ذلك بل عاجزة عن كل شيء ، قال تعالى مخبرا نبيه بعدم إيقانهم بذلك "بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ" منه ، ولذلك تراهم "يَلْعَبُونَ" 9 فلم يتأثروا من هذه الآيات ولم يلقوا لها بالا ولم يوقروا مبلغها لهم بل يسخرون منه ويستهزئون به "فَارْتَقِبْ" يا سيد الرسل عذابهم "يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ" 10 يراه كل أحد وذلك أن الهواء يتكدر في سني الجدب والقحط لما يخالطه من

الغبار فيراه الرائي كأنه دخان حتى ان الجائع يصير على بصره مثل الغشاوة فيرى الفضاء ما بينه وبين السماء كأنه دخان

"يَغْشَى النَّاسَ" أجمع حتى يقولوا من شدة جزعهم منه "هذا عَذابٌ أَلِيمٌ" 11 لا يطيقه البشر ، ولهذا سماه عذابا ووصفه بكونه مؤلما ، لأنه ناشىء عن شدة الجوع .

مطلب آية الدخان والمراد ببكاء السماء والأرض ونبذة من قصة موسى مع قومه وألقاب الملوك وقصة تبّع :

(50/695)

وليعلم أن هذا الدخان ليس بالدخان الذي هو آية من آيات الساعة ، لأن ذلك لم يحضره حضرة الرسول ، ولو كان المراد هو لما خاطبه به بقوله تعالى :

(فَارْتَقِبْ) وإنما هو ما ذكرنا والله أعلم ، وذلك لمن حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم لما رأى قومه لا يزالون يتمادون في الإنكار والكذب دعا عليهم فقال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف .

فأجاب اللّه دعاءه فأخذتهم سنة قد حصت أي أهلكت كل شيء حتى أكلوا الجيف والجلود وقد أثر فيهم الجوع حتى صار أحدهم يرى الفضاء كهيئة الدخان ، فأتاه أبو

سفيان فقال يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة اللّه وبصلة الرحم وإن قومك أنهكهم الجوع ، فادع اللّه لهم يرفع عنهم ما حل بهم وإلا هلكوا .

فأنزل اللّه هذه الآية إلى قوله (عائِدُونَ) .

يؤيد هذا ما رواه البخاري ومسلم عن مسروق قال : كنا جلوسا عند عبد اللّه ابن مسعود وهو مضطجع بيننا ، فأتاه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن إن قاصّا عند باب كنده يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام ، فقام عبد اللّه وجلس وهو غضبان فقال يا أيها الناس اتقوا اللّه ، من علم منكم شيئا فليقل به ومن لا يعلم شيئا فليقل اللّه أعلم ، فإن من العلم أن يقول ، اللّه أعلم ، فإن اللّه عز وجل قال لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم (قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) الآية 88 من سورة ص في ج 1 ، إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما رأى الناس إدبارا ، قال اللهم سبعا كسبع يوسف .

وفي رواية للبخاري قالوا "رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ" 12 فقيل له إن كشفنا عنهم القحط عادوا فدعا ربه فكشف عنهم وسقوا الغيث ، وأطبقت السماء عليهم فشكوا كثرة المطر فلجأوا إليه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال اللهم حوالينا ولا علينا فكشف عنهم .

ومع ذلك عادوا إلى إصرارهم وكفرهم فانتقم اللّه منهم يوم بدر ، فذلك قوله تعالى (فَارْتَقِبْ) إلى قوله (إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) .

هذا ، وإطلاق الدخان على ما يراه الجائع

أو على الذي يرى عند تكدر الهواء لا يأباه وصفه بقوله (مُبِينٍ) لأنه مما يتخيل ويتوهم أنه دخان ظاهر ، وقد يقره العقل .

واعلم بأن إرادة الجدب من هذا الدخان والمجاعة مجاز من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، وهذا هو الصارف عن إرادة الظاهر ، لأنه لو كان المراد به الدخان الذي هو من علامات الساعة لما صح قوله تعالى على لسانهم (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ) ولم يصح أيضا قوله جل جلاله (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ) الآية ، إذ لا يكون شيء من ذلك يوم القيامة .

هذا ، وما روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود قال (خمس قد مضين أي من علامات الساعة اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان) فهو غير هذا الدخان المقصود في هذه الآية ، وعلى فرض صحته فيها وهو بعيد فتكون الآية على ظاهرها وتلزم بأن نقول إن المخاطب بها غيره صلّى اللّه عليه وسلم ممن لم يخلق بعد أو نجبر أن نقول بوقوعها في زمانه صلّى اللّه عليه وسلم وهو خلاف الواقع ، إذ لم يثبت أن هذه العلامة وقعت بزمنه صلّى

اللّه عليه وسلم .

وعلى كل الحالين فلا يصح تأويلها به واللّه أعلم .

(52/695)

هذا وقد وقع في دير الزور وأطرافها سنة 1931 - 1932 غبار في أوقات متفرقة بسبب انقطاع الأمطار ويبس الأرض وارتفع بالجو فأظلم الأفق وصار ذلك الفضاء العظيم ملآن بما يشبه الدخان حتى أنرلنا المصابيح لأنا صرنا بحالة لم ير أحدنا الآخر من كثافة ذلك الغبار ولا نستطيع الخروج إلى الساحات والطرق وضاقت النفوس وأولئك كثير من الأطفال والشيوخ أن يهلكوا لو لا أن منّ اللّه تعالى علينا بكشفه بعد ساعات ، بما يدل على أن هذا مثل ذلك ، وأن الدخان الذي هو من علامات الساعة لم يقع بعد ، وما رواه البغوي بإسناد الثعلبي عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين (على وزن اقرن جزيرة اليمن) تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا .

قال حذيفة يا رسول اللّه وما الدخان ؟ فتلا هذه الآية (المارة) يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة ، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام ، وأما الكافر كمنزلة السكران

يخرج من منخريه وأذنيه ودبره ، فعلى فرض صحة هذا الحديث فهو صريح بأنه يكون آخر الزمان وهو من علامات الساعة ولا ينطبق

بصورته المبينة في هذا الحديث على هذه الآية بمقتضى ما فسرت به وواقع الحال في ذلك الزمن ، إذ لم يثبت وقوعه البتة على الصورة المبينة في هذا الحديث ، وتلاوة الآية من قبل حضرة الرسول على فرض صحته يكون من قبيل التمثيل ، لأن الآية صالحة لذلك مجازا لا حقيقة ، وعليه فإن ما جرينا عليه من التفسير هو ما عليه جمهور جهابذة المفسرين ومروى عن قتادة وأبي العالية والنخعي والضحاك ومجاهد ومقاتل واختاره الزجاج والقراء .

(53/695)

قال تعالى "أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى " أي كيف يتذكرون ومن أين يتعظون بما أصابهم "وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ" 13 لكل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم فهو أعظم واولى من أن يتذكروا به ولم يتذكروا "ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ" ولم يلتفتوا إليه ولم يصغوا لإرشاده "وَقالُوا مُعَلَّمٌ" من قبل الغير يعنون عداما غلاما لبعض ثقيف أعجمي ولم يكتفوا بقولهم معلم بل قالوا "مَجْنُونٌ" 14 أيضا لأنه يغشى عليه كالمجنون ، وذلك أنهم يرونه حين ينزل عليه الوحي كالمغمى عليه ، قال تعالى "إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ" القحط الذي حل بكم إجابة لدعوة نبيكم ومؤخرون العذاب الآخر

"قَلِيلًا إِنَّكُمْ" يا أهل مكة "عائِدُونَ" 15 إلى الكفر والجحود لا محالة سواء أمهلناكم أم لا ، ولهذا لم نرجئكم كثيرا ، فانتظروا "يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى" فيكم بالدنيا في بدر وغيرها وفي الأخرى أكبر وأشد لأن يوم بدر مهما كان عظيما لا يبلغ هذا المبلغ الموصوف بالآية ولا يحصل به الانتقام النام من الكفرة ، ولكن يوم القيامة بعد الفصل بين الناس "إِنَّا مُنْتَقِمُونَ" 16 منكم الانتقام القاسي وناهيك بالجبار إذا كان هو المنتقم كفانا اللّه شر انتقامه "وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ" قبل قومك يا سيد الرسل "قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ" 17 على ربه مثل ما أنت كريم عليه ، ولما كان إرساله للقبط قوم فرعون ولبني إسرائيل قومه قال موسى لفرعون وملائه "أَنْ أَدُّوا" أعطوا وسلموا "إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ" الذين استعبدتموهم وتخلوا عنهم "إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ" من اللّه بذلك "أَمِينٌ" 18 على أداء الرسالة إليكم "وَأَنْ لا تَعْلُوا" تترفعوا وتتبخترا وتستكبروا "عَلَى اللَّهِ" الذي أرسلني إليكم ، وإن شئتم بيّنة على صدقي "إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ"

(54/695)

---

19 دليل واضح وبرهان ساطع تقتنعون به إذا لم يتغلب عليكم العناد والمكابرة .

فلما سمعوا هذا منه هددوه وتوعدوه بالقتل إن لم يكف عنهم فقال لهم "وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي

وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ" 20 تقتلوني رجما بالأحجار أو تؤذوني بكلام قبيح ، وإنما قال عذت ، لأن اللّه تعالى أخبره بقوله (فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ) الآية 35 من سورة القصص في ج 1 ، راجع تفسيرها

(55/695)

و لوثوقه بعهد ربه أنهم لا يتمكنون من أذاه كرّ عليهم فقال "وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ" 21 أيها القبط وخلوني واتركوا لي بني إسرائيل قومي إذ أيس منهم وعلم بإعلام اللّه إياه أن القبط لا يؤمنون "فَدَعا رَبَّهُ" قائلا في دعائه "أَنَّ هؤُلاءِ" القبط قوم فرعون "قَوْمٌ مُجْرِمُونَ" 22 لا يهتدون إلى الرشاد لكثرة إجرامهم ، فاهلكهم يا رب وأنجز لي وعدك فيهم ، فأجابه بقوله "فَأَسْرِ بِعِبادِي" بني إسرائيل خاصة "لَيْلًا" وهذا إعلام بتلبية طلبه بإهلاك القبط وإنجاء بني إسرائيل "إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ 23 من فرعون وقومه ، فخرج بهم إلى البحر فدخله وقومه ، ثم تبعه فرعون وقومه فدخلوه وراءهم حتى صاروا جميعا فيه ، قال تعالى "وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً" ساكنا على حالته حتى يكمل خروج قومك منه ويكمل دخول آل فرعون "إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ" 24 كلهم جميعا لا محالة وأنت وقومك كلهم ناجون فلا تستعجل ، فامتثل أمر ربه ، ولما تم خروج بني إسرائيل وتكامل دخول القبط أمره ربه أن يأمر البحر ينطبق عليهم ،

فأمره فانطبق عليهم ، فلم ينج منهم أحد ، كما لم يغرق من بني إسرائيل أحد ، ثم نعى اللّه تعالى حال المغرقين بعد أن اطمأن موسى وقومه فقال "كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ" 25 تدفق بين البساتين "وَزُرُوعٍ" متنوعة تركوها "وَمَقَامٍ كَرِيمٍ" 26 محل قعود مزخرف عظيم بناؤه كانوا ينعمون به وليس بمقام واحد بل مقامات كثيرة بدليل التنكير "وَنَعْمَةٍ" جليلة وهي نعم كثيرة أيضا عظيمة "كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ" 27 ناعمين أشرين بطرين ، لأنهم لم يقدروها ولم يشكروها ، لذلك حرموا منها "كَذَلِكَ" مثل هذا الفعل الفظيع أفعل بأعدائي فيذهبوا هدرا "وَأَوْرَثْنَاهَا" تلك البساتين والأنهار والقصور وغيرها

(56/695)

"قَوْمًا آخَرِينَ" 28 هم بنو إسرائيل إذ عادوا إلى مصر بعد ذلك واحتلوا محالهم "فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ" إذ لا عمل صالح لهم يصعد إلى السماء أو يعمل في الأرض لتفقداه فتبكيان على فقده بخلاف المؤمنين فإنهما تبكيان عليهم لأن لهم فيها عملا صالحا قارا وصاعدا ، وذلك لأن السماء تبكي على فقد عبد كان لتسبيحه وتكبيره وتهليله وقراءته فيها دوي كدوي النحل ، وإن الأرض تبكي على فقد عبد كان يعمرها بالقيام والركوع والسجود والقعود للصلاة والاعتكاف والذكر وللإصلاح بين الناس قال النابغة :

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منه جاشع متضائل

وقال جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

وقال الفرزدق يرثي عمر بن عبد العزيز :

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

أي لا تعجب كيف طلعت في زمن حقها أن لا تطلع أو تطلع كاسفة .

والقمر منصوب بواو المعية ونجوم منصوب بكاسفة ، وقرأ بعضهم برفع النجوم والقمر على أنهما فاعل تبكي ، والأول أولى تدبر .

ونقل صاحب الكشاف عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : ما من مؤمن يموت في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض .

"وَما كانُوا مُنْظَرِينَ" 29 لو أنهم طلبوا الانتظار حين نزول العذاب ولم نمهلهم ، لأنه وقع في وقته المقدر ، وهو لا يتقدم ولا يتأخر "وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ" 30 هو قتل أبنائهم واستحياء نسائهم للخدمة والاسترقاق ، ولا هوان يضاهيه ، ولا مهانة تساويه ، وتلك الحقارة عليهم

"مِنْ فِرْعَوْنَ" وقومه وملائه "إِنَّهُ كانَ عالِياً" على ما في أرض مصر وتوابعها أجمع متكبرا عليهم متجبرا يفعل فيهم ما يشاء ، عاتيا "مِنَ الْمُسْرِفِينَ" 31 في أنواع الظلم ، إذ تجاوز حده حتى انه ادعى الربوبية "وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ" 32 لأنا قدرنا أن يكون منهم أنبياء وأولياء وملوك وأمراء وأناس صالحون لزمانهم "وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ" بعد إنجائهم من الفرق الذي هو الآية الكبرى بحقهم

(58/695)

وإغراق أعدائهم بآن واحد وإنزال المن والسلوى عليهم وإظلالهم بالغمام وتفجير الماء من الصخرة في التيه وغيرها "ما فِيهِ بَلاؤُا" اختبار وامتحان "مُبِينٌ" 33 ظاهر لننظر كيف يعملون ، ونظهر لمن بعدهم ذلك ، ونري من عاصرهم إياه ، وإلا فنحن عالمون بما يقع منهم قبل خلقهم ، راجع قصتهم مفصلة في الآية 52 فما بعدها من سورة الشعراء في ج 1 ، قال تعالى بعد أن قص على حبيبه ما جرى لموسى مع قومه "إِنَّ هؤُلاءِ" قومك يا سيد الرسل "لَيَقُولُونَ" 34 لك عند ما تخبرهم بالبعث بعد الموت "إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ" 35 بعدها مرة ثانية ويقولون لك لفرط "جهلهم فَأْتُوا بِآبائِنا" الذين ماتوا قبلنا "إِنْ

كُنْتُمْ صادِقِينَ" 36 أنا نحيا بعد الموت ، قال تعالى "أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ" ملك اليمن ، قالوا إن المراد به أسعد بن مليك المكنّى بأبي كرب ، وكانت ملوك اليمن تلقب بلفظ تبع ، كما أن ملوك الحبشة تلقب بالنجاشي والروم بقيصر والفرس بكسرى والقبط بفرعون والترك بخاقان والعرب بالخليفة ، وسمي تبعا لكثرة أتباعه بالنسبة إلى غيره في ذلك الزمن عدا قوم الملك حمير لأن الملك كان فيهم ، يقول اللّه تبارك وتعالى يا أكرم الرسل إن قومك المتطاولين عليك ليسوا بأحسن من قوم تبع لا في العمل ، ولا أقوى منهم في الشدة ، ولا أكثر منهم في الأموال والأولاد والعدد والعدد ، فلما ذا يتطاولون عليك ؟ قالوا وكان تبّع سار بقومه وجيوشه نحو المشرق وحيّر الحيّرة وبنى سمرقند وعاد إلى المدينة حيث ترك ابنا له فيها عند ذهابه ، وعلم أن أهلها قتلوه غيلة وصار يقاتلهم لأجله ، وصمم على استئصالهم وتخريب بلدتهم ، وصار أهلها يقاتلونه نهارا ويقرونه ليلا ، فقال إن هؤلاء لكرام ، ثم جاءه حبران عالمان من بني قريظة وقالا له أيها الملك لا تفعل ما صممت عليه وإن أبيت أن تسمع قولنا حيل بينك وبين ما

تريد ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ، قال ولم ؟ قالا إن هذه المدينة مهاجر نبيّ يخرج من قريش اسمه محمد ، وسيكون في منزلك الآن قتال بين أصحابه وعدوهم ، قال ومن يقاتله وهو نبي ؟ قالا قومه ، فانكف عن قتالهم وعدل عن استئصالهم وتخريب بلدتهم ، وترك دم ابنه حرمة لما قالوه ، وقفل إلى اليمن وأخذ الحبرين مع نفر

من اليهود معه بغاية الإكرام ، فصادفه بالطريق نفر من هذيل وقالوا له ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة ، قال ما هو ؟ قالوا له مكة وأرادوا بذلك إهلاكه لأن مكة لا يقصدها أحد بسوء إلا أهلكه اللّه كما هو متعارف بينهم ، فاستدعى الحبرين

واستشارهما في ذلك ، فقالا له لا تفعل ، لأن هؤلاء لم يريدوا نصحك وإنما أرادوا قتلك لأن هذا البيت لا يناوئه أحد إلا هلك فاتخذه مسجدا وانسك عنده وانحر واحلق رأسك وأكرمه واصنع عنده ما يصنعه أهله ، فقال أفعل وأخذ النفر من هذيل وقطع أيديهم وسمر أعينهم ثم صلبهم ودخل مكة فنزل الشعب الطامح ونحر فيه ستة آلاف بدنه وكسا البيت بالوصائل وهي برود تصنع باليمن وهو أول من كساه كما أن أول من سمي تبعا أول ملوك اليمن ، وأقام فيه ستة أيام ، وطاف وحلق ، وانصرف ، فلما دنا من اليمن حال من فيها من قومه بينه وبين دخوله ، لأنه ترك دينهم ، فخطب فيهم ودعاهم إلى الإيمان باللّه وحده وهو خير من دينهم ، لأنهم عبدة أوثان ، فطلبوا منه أن يتحاكموا إلى النار التي هي أسفل جبل عندهم ومن شأنها أن تحرق الظالم ولا تضر المظلوم ، فوافقهم على ذلك ، فخرجوا بأوثانهم

وما يتقربون به إليها في دينهم ، وخرج هو والحبران وما معهما من الكتب في أعناقهما ، وقعد الفريقان عند مخرج النار ، فخرجت وغشيتهم ، فأكلت الأوثان وما قربوه لها معها ، والرجال

(60/695)

الذين كانوا يحملون القرابين ، وخرج الحبران يتلوان التوراة ، ونكصت النار حتى رجعت إلى المحل الذي خرجت منه فأعلن تبع إيمانه بالله وأصر قومه على الكفر ، فذمهم الله "وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم الكافرة وأخبر عن مصيرهم بقوله جل قوله "أَهْلَكْنَاهُمْ" بكفرهم وعدم انقيادهم للإيمان كما أهلكنا قوم تبع هؤلاء بسبب عنادهم .

قالوا وكان هذان ومن معهم أصل اليهود في اليمن ، وان تبعا آمن بمحمد حسب إخبارهما له عنه قبل مبعثه وولادته ، وكان بينه وبين مبعثه سبعمئة سنة ، ومما نسب لتبع هذا قوله :

وكسونا البيت الذي حرم الله حلاء معصيا وبرودا

وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لنا به إقليدا

وخرجنا منه نؤم سهيلا قد رفعنا لواءنا معقودا

هذا وأخرج أحمد بن حنبل في مسنده عن سهيل بن سعد قال : سمعت رسول الله صلّى

اللّه عليه وسلم يقول لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم .

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت : لا تسبوا تبعا فإنه كان رجلا صالحا ، ألا ترى أن اللّه تعالى ذم قومه ولم يذمه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لا تقولوا في تبع إلا خيرا فإنه قد حج البيت وآمن بما جاء به عيسى بن مريم .

وهذا يدل على أنه بعد مبعث عيسى عليه السلام ، والأول أصح لأن الحبرين لم يذكرا عن عيسى شيئا ، ولعله آمن بما جاء به موسى لأن الحبرين من أتباعه ، والحادثة هذه قبل الميلاد بمئة وثلاثين سنة تقريبا ، أو أنه عاش لمبعث عيسى عليهم السلام ، قالوا وإن الحبرين أخبراه لا يدرك محمدا صلّى اللّه عليه وسلم فأوصى الأوس والخزرج أن يقيموا بالمدينة وأن يؤازروه إذا خرج وهم أحياء ، وأن يوصوا من بعدهم بمؤازرته ، وقال رحمه اللّه أيضا :

حدثت بأن رسول المليك يخرج حقا بأرض الحرم

ولو مدّ دهري إلى دهره كنت وزيرا له وابن عم

قالوا وكتب كتابا بإيمانه وأودعه لديهم على أن يعطيه لحضرة الرسول العربي من يبلغ زمانه منهم .

قال تعالى "وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ" 38 لأنه إذا لم يكن بعث ولا حساب يترتب عليه الثواب والعقاب ، فيكون خلق الخلق لمجرد الفناء لعبا بل عبثا ، وهذا دليل قاطع على البعث .

ولبحثه صلة في الآية 16 من سورة المؤمنين الآتية ، فراجعه .

"ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ" الجد الصحيح القاطع "وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ" 39 ذلك ولهذا قال المؤمنون (رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا) الكون وما فيه (باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ) الآية 191 من آل عمران في ج 3 ، قال تعالى مهددا لهم ولأمثالهم من الكفرة "إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ" بين الصادق والكاذب والمحق والمبطل والمؤمن والكافر "مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ" 40 قومك فمن قبلهم ومن بعدهم

"يَوْمَ لا يُغْنِي" فيه "مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً" من الأشياء أي لا تنفع القرابة والصداقة والخلّة والسيادة من أي ولي كان "وَلا هُمْ" الموالي والرؤساء "يُنْصَرُونَ" 41 أيضا فلا يقدرون على نصرة أنفسهم ، ولا دفع العذاب عنهم ،

فكيف ينفعون غيرهم "إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ" فلا يخلص من العذاب غير الذين يرحمهم اللّه فإنهم يخلصون ويشفعون لغيرهم أيضا بإذن اللّه لمن يشاء رحمته .

راجع الآية 86 من سورة الزخرف المارة "إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ" الغالب على أعدائه "الرَّحِيمُ"

42 بأوليائه .

قال تعالى "إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ" 43 مرّ ذكرها في الآية 42 من الصافات فراجعها فهي "طَعَامُ الْأَثِيمِ" 44 في جهنم وهي خاصة بكثيري الآثام كبيري الكفر عامة ، وما قيل إنها خاصة في أبي جهل على فرض صحته لا يقيد عمومها وشرابه فيها "كَالْمُهْلِ" در دري الزيت وعكره ووسخه حال حرارته "يَغْلِي فِي الْبُطُونِ" 45 حال نزوله فيها "كَغَلْيِ الْحَمِيمِ" 46 الماء المتناهي في الحرارة .

(62/695)

أخرج الترمذي وقال حديث صحيح عن ابن عباس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه ، أجارنا اللّه ثم يقال لذلك الأثيم بعنف وشدة "خُذُوهُ" جرّوه واسحبوه "فَاعْتِلُوهُ" احملوه وأوقعوه "إِلى سَوَاءِ الْجَحِيمِ" 47 وسطها "ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ" 48 الماء الشديد الغليان وإضافة العذاب إلى الحميم إضافة مبالغة أي عذابا هو الحميم ، وسمي عذابا لعظم حرارته ، ثم يقال له على سبيل التبكيت والتحقير "ذُقْ" هذا أحد أنواع العذاب المخصّصة لك "إِنَّكَ" تزعم في الدنيا "أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ"

49 عند قومك وتصف نفسك بهاتين الصفتين ، ولا تعلم أيها الكافر أن العزيز من أعزه اللّه ، لا من أعزته الدنيا بحطامها ، والكريم من أكرمه اللّه لا من احترمه الناس لماله أو جاهه أو عشيرته أو رياسته :

مطلب دعاء أبي جهل في الدنيا ومأواه في الآخرة ونعيم الجنة ومعنى الموتة الأولى :

قيل كان أبو جهل يقول : ما بين لابتيها (يريد مكة) أعز وأكرم مني فتقول له خزنة جهنم على طريق التوبيخ والتقريع والسخرية (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) .

واعلم أن لفظ الشجرة فيها ثلاث لغات : فتح الشين وكسرها وإبدال الجيم ياء ، ويوجد الآن طائفة من العرب في العراق ينطقون الجيم ياء فيقولون ريل بدل رجل .

ويقال لهذا الأثيم أيضا "إِنَّ هذا" العذاب جزاء "ما كُنْتُمْ بِهِ"

في الدنيا "تَمْتَرُونَ" 50 تشكون بصحته ولا تصدقون من أخبركم به ، هذا وقد علمت أن هذه الآية عامة في جميع الكفار فيدخل فيها أبو جهل وأضرابه دخولا أوليا لأنهم كانوا يقاومون حضرة الرسول بأنواع المقاومات وهو أكرم الخلق وأعزهم على اللّه .

انتهى وصف حال أهل النار حمانا اللّه منها .

وهناك وصف أهل الجنة ، رزقنا اللّه إياها ،

قال تعالى "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ" 51 من كل سوء ، والمقام بفتح الميم المكان وهو من الخاص الذي استعمل بمعنى العام ، وبالضم موضع الإقامة "فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ" 52 جارية خلالها لزيادة البهجة وحسن النضارة ، وأهل هذه الجنات "يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ" الحرير الرقيق "وَإِسْتَبْرَقٍ" ما ثخن منه ويسمى ديباج قيل هو أعجمي معرب أو أنه خرج من الأعجمية لاستعماله في العربية قبل نزول القرآن .

ومعنى التعريب جعل الكلام الأعجمي عربيا لتصرفه وإجرائه مجرى الكلمات العربية بتغيره عن منهاجه الأعجمي وتمشيته على أوجه الإعراب ، راجع الآية 182 من سورة الشعراء في ج 1 ، تقف على جميع الكلمات الموجودة في القرآن المقول فيها إنها أعجمية هي عربية ، "مُتَقَابِلِينَ" 53 يعني هؤلاء الأبرار في جلوسهم ، ينظر بعضهم إلى بعض بشوق ومحبة ، وهذا من آداب المجالسة والمخاطبة ، لأن في الصدود وإعطاء الظهر للجليس والمخاطب إهانة وعدم اكتراث بكلامه ، راجع الآية 44 من سورة الصافات المارة والآية 16 من سورة الواقعة في ج 1 ، "كَذَلِكَ" كما أكرمناهم بما ذكرنا ، فقد أحببناهم "وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ" 54 نقيات بيض واسعات الأعين يحار الرائي من وصفهن "يَدْعُونَ فِيهَا" يطلبون أهل الجنة "بِكُلِّ فَاكِهَةٍ" أرادوها فتحضر لهم حالا "آمِنِينَ 55 من تعب قطفها وانقطاعها وغسلها ، لأن ثمر الجنة يدنو لطالبه ، دائما لا ينقطع ، طاهر زكي لا

يتقيد بموسم ، أو بقطر كثمار الدنيا ولا ينقص ، إذ يخلق اللّه بدله حين قطفه ، ومهما أكثروا من أكلها فهم بمأمن من مضرّتها ، بخلاف ثمار الدنيا ، لأن اللّه تعالى جعل في كل قطر زمنا للفواكه والخضراوات بحسب ما يوافق أهله ، والبيئة التي هم فيها ، حتى ان الحكماء الأقدمين حذروا أكلها بغير موسمها ، وقبل نضجها ، ولو علم اللّه فيها خيرا لهم لجعلها دائمة

(64/695)

في كل مكان ، إذ لا يعجزه شيء ، ولجعلها مما يدخر كالزيتون والتين والتمر والزبيب وغيرها ، ولذلك ينبغي أن يتحاشى عن أكلها في غير موسمها وقبل نضجها ، ويكثر منها وقتها لما فيها من النفع للوجود بصورة لا تؤدي إلى التخمة ، قال تعالى "لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ" لأن الجنة محل الخلود دائما "إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى" التي فارقوا الدنيا بها ، وإنما ليستثنى الموقة الأولى من موت الجنة مع أنها لا موت فيها البتة ، لأن السعداء جعلنا اللّه منهم إذا ماتوا يصيرون بلطف اللّه تعالى إلى أسباب الجنة لما يرون من نعيم برزخ القبر فيلقون فيه الروح والريحان ، ويرون منازلهم في الجنة عند خروج أرواحهم ، كما مر في الآية 89 من سورة الواقعة في ج 1 ، فكأن موتهم في الدنيا كان في الجنة لانصالهم بأسبابها ومشاهدتهم إياها ، لأن اللّه تعالى قال في سورة الواقعة المذكورة (إِذا بَلَغَتِ) الروح (الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ) عند بلوغ

الروح الحلقوم لا تقدرون على التكلم ولكنكم (تَنْظُرُونَ) منزلتكم في الجنة أو النار ، وإنما جعل اللّه تعالى هذه الرؤيا في تلك الحالة حتى لا يقبل فيها إيمان ولا توبة لأنها حالة يأس ، وإلا لما مات أحد على الكفر ، راجع الآية 90 من سورة يونس المارة وما ترشدك إليه من الآيات المتعلقة في هذا البحث .

قال تعالى "وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ" 56 وقرىء ووقّاهم بالتشديد للتكثير "فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ" أي أن ذلك العطاء بمجرد الفضل من اللّه لأن أعمالهم لا توّهلهم ذلك ولا بعضه ، بل لا يستحقون بعملهم على اللّه شيئا ، لأنه مهما كان كثيرا لا يقابل بعض نعم اللّه عليهم "ذِلكَ" وقايتهم من النار وإدخالهم الجنة "هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" 57 الذي لا أعظم منه .

(65/695)

قال تعالى ملتفتا لحبيبه محمد صلّى اللّه عليه وسلم "فَإِنَّما يَسَّرْناهُ" القرآن المشار إليه أول السورة "بِلِسانِكَ" يا سيد الرسل "لَعَلَّهُمْ" قومك المشار إليهم آنفا في الآية 22 المصدرة بقوله (أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ) أي لعلهم يتفكرون به فيؤمنون حين "يَتَذَكَّرُونَ" 58 به فيتعظون ويرجعون عن غيّهم وطغيانهم وإلا "فَارْتَقِبْ" فيهم نزول العذاب كما "إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ" 59 ما يحل بك من الدوائر بزعمهم ، وستكون عليهم دائرة السوء .

هذا ، ولا وجه لقول من قال إن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، لأن غاية ما فيها إخبار اللّه تعالى نبيّه عما يحل بقومه الكافرين وما يناله عباده المؤمنين ، ومن المعلوم أن الاخبار والوعيد والتهديد لا يدخلها النسخ ، راجع بحث الناسخ والمنسوخ في المقدمة .

هذا ، ولا يوجد سورة مختومة في هذه اللفظة غير هذه .

وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 92.109 ﴾

(66/695)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الدخان

مكية وقيل إلا قوله أنا كاشفوا لعذاب الآية فمدني

وقد علم حكم حم والكتاب المبين مما مر في السورة السابقة أنا أنزلناه في ليلة مباركة تام إن

جعل جوابا للقسم وان جعل صفة للكتاب فالوقف التام على منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم كاف وكذا رحمة من ربك السميع العليم تام لمن قرأ رب السموات بالرفع على غير البدلية من السميع وليس بوقف لمن قراه بالرفع عليها أو بالجر بدلا من ربك موقنين تام لا اله إلا هو حسن وأحسن من يحيي ويميت الأولين كاف وكذا يلعبون بدخان مبين صالح يغشى الناس أصلح منه عذاب اليم كاف مؤمنون حسن وكذا مجنون وعائدون يوم نبطش أي وذاكر يوم نبطش منتقمون تام أمين جائز وكذا بسلطان مبين وترجمون فاعتزلون تام مجرمون صالح متبعون مفهوم مغرقون تام فاكهين كاف وقيل بل كذلك ووقع في الأصل بدل فاكهين كريم وهو سهو قوما آخرين صالح منظرين حسن من فرعون كاف من المسرفين حسن على العالمين جائز بلاء مبين حسن وكذا صادقين أم قوم تبع تام وقال أبو عمرو كاف هذا إن جعل ما بعده مستأنفا فان جعل معطوفا على قوم تبع فليس ذلك بوقف أهلكناهم هم كاف مجرمين تام وكذا لاعبين ولا يعلمون أجمعين راس آية وليس بوقف لان يوم لا يغنى بدل من يوم الفصل من رحم الله كاف الرحيم تام كالمهل جائز لمن قرا تغلى بالتاء أي الشجرة وليس بوقف لمن قراه بالياء الحميم كاف وكذا ذق لمن قرا انك بالكسر وليس بوقف لمن قراه بالفتح أي ذق لأنك الكريم حسن تمترون تام متقابلين حسن وقيل الوقف على كذلك بحور عين صالح آمنين كاف الأولى جائز وكذا عذاب الجحيم من ربك تام العظيم يتذكرون صالح آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ 704. 709 ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الدخان

مكية قيل الاقوله انا كاشفوا العذاب قليلا الآية فدنى كلمها ثلثمائة وست وأربعون كلمة وحروفها ألف وأربعمائة واحد وأربعون حرفا وآيها ست وأربعون كلمة وحروفها ألف وأربعمائة واحد وأربعون حرفا وآيها ست أو سبع أو تسع وخمسون آية 0

حم والكتاب المبين (حسن) ان جعل جواب القسم حم مقدّما وليس بوقف ان جعل جوابه انا أنزلناه وان جعل والكتاب المبين قسما كان الوقف على في ليلة مباركة تاما وان جعل في ليلة مباركة صفة للكتاب والقسم حم كان الجواب والوقف انا كنا منذرين ومنع بعضهم أن تكون حم قسما لان القسم لان الهاء راجعة الى الكتاب وكأنه أقسم على نفس المقسم عليه وفسر الشيء بنفسه والأكثر على ان القسم واقع عليه 0

كل أمر حكيم (كاف) ان نصب أمرا بفعل مقدر أو نصب على المصدر بتأويل العامل فيه الى معناه أي أمرنا أمرا بسبب الانزال أو نصب على الاختصاص وليس المراد الاختصاص الاصطلاحى فانه لا يكون نكرة أعني بهذا الأمر أمرا خاصا وليس بوقف ان نصب بيفرق

أو نصب على معنى يفرق أي فرقا الذي هو مصدر يفرق لأنه إذا حكم بشيء وكتبه فقد أمر به أو نصب على الحال من كل المضافة والمسّوغ عام لأن كل من صيغ العموم أو حالا من أمر فهو خاص لوصفه بحكيم وفيه مجئ الحال من المضاف إليه في غير المواضع المذكورة أو نصب حالا من الضمير في حكيم أو نصب على إنه مفعول منذرين والمفعول الأول محذوف أي منذرين الناس أمرا أو نصب من ضمير الفاعل في أنزلناه أو من ضمير المفعول وهو الهاء في أنزلناه أي آمرين به أمرا أو مأمورا به أو نصب على إنه مفعول له والعامل فيه أنزلناه وحينئذ لا يحسن الوقف على شيء من قوله إنا أنزلناه إلى هذا الموضع 0

من عندنا (حسن) ومثله إنا كنا مرسلين إن نصب رحمة بفعل مقدّر وليس بوقف إن نصب رحمة من حيث ينتصب أمرا من الحال والمفعول له ولم يحسن الوقف من قوله إنا أنزلناه إلى هذا الموضع 0

(68/695)

سمى الله تعالى ارسال الرسل رحمة أي رحمة لمن أطاعهم وقال سعيد بن جبير اللفظ عام للمؤمن والكافر فالمؤمن قد سعد به والكافر بتأخير العذاب عنه وعلى هذا لا يوقف على مرسلين 0

رحمة من ربك (كاف)

العليم (تام) لمن قرأ رب بالرفع مبتدأ والخبر لا اله إلا هو أو رفع خبر مبتدأ محذوف أي هو رب وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وليس بوقف لمن جره بدلا من ربك وحينئذ لا يوقف على من ربك ولا على العليم وهي قراءة أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي 0

موقنين (تام)

لا إله إلا هو (حسن) إن جعل ما بعده خبرا ثانيا وليس بوقف إن جعل حالا كائنك قلت محييا ومميتا 0

يحيي ويميت (أحسن) مما قبله على استئناف ما بعده 0

الأولين (كاف) ومثله يلعبون ووقف بعضهم على فارتقب 0

بدخان مبين (جائز) لأنه رأس آية وإن كان ما بعده نعتا 0

يغشى الناس (حسن)

عائدون (أحسن) مما قبله إن نصب يوم بفعل مقدّر ولا يجوز أن ينصب بعائدون ولا بمنتقمون لأن ما بعد إن لا يعمل في شيء مما قبلها ولو وصله لصار يوم نبطش ظرفا لعودهم إلى الكفر إذ يوم بدر أو يوم القيامة العود إلى الكفر فيهما غير ممكن 0

منتقمون (تام)

قوم فرعون (حسن)

كريم (جائز) لإنه رس آية وإن كان ما قبل أن قد عمل فيها كأنه قال بأن أدّوا إلى عباد الله فأ

، مفسرة وعباد منصوب بأدّوا فلا يجوز الوقف على إلى وقيل عباد منصوب بالنداء كأنه

قال أن أدوا إلى يا عباد الله فإن الوقف على عباد الله حسن 0

أمين (جائز) إن جعلت أن بمعنى أي لا تعلوا والا فلا يجوز للعطف 0

على الله (جائز) ومثله مبين وقيل ليس بوقف لإن ما بعده داخل في السؤال 0

أن ترجمون (جائز)

فاعتزلون (تام) قال ابن عرفة المالكي أي فدعوني لا على ولالي 0

مجرمون (تام) لإنه قد انقضى السؤال وفي الكلام حذف والتقدير فاجيب فقيل له ان كان

الأمر هكذا فأسر بعبادي ليلا

وليلا (حسن)

متبعون (كاف)

رهوا (حسن)

(69/695)

مغرقون (كاف) ولا وقف من قوله كم تركوا إلى فاكهين فلا يوقف على زروع ولا على كريم لإن العطف يصيرا الأشياء كلها كالشيء الواحد فاكهين في محل الكاف من كذلك الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فالرفع على إنها خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك أو في محل نصب أي أخرجنا آل فرعون من منازلهم كما وعدنا ايراثها قوما آخرين أو في محل جر صفة لمقام أي مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم فإن كانت الكاف في محل رفع كان الوقف على فاكهين تاما لعدم تعلق ما بعده بما قبله والتشبيه أول الكلام وإن كانت في محل نصب أو جر كانت متصلة بما قبلها من جهة المعنى فقط فيوقف على كذلك ويبتدئ بها لتعلق ما بعدها بما قبلها وكان الوقف على كذلك كافيا دون كريم وفاكهين والتشبيه من تمام الكلام ثم يبتدئ بكذلك أو بقوله وأورثناها قوما آخرين 0

وآخرين (جائز)

منظرين (حسن) المهيمن ليس بوقف لإن بعده حرف جر بدل من الأولى 0

من فرعون (كاف)

من المسرفين (كاف)

على العالمين (جائز)

بلواء مبين (كاف) ورسموا بلواء بلواء بواو وألف كما ترى 0

بمنشرين (أحسن) مما قبله 0

صادقين (كاف) وكذا أم قوم تبع عند أبي حاتم على استئناف ما بعده وليس بوقف إن

عطف على قوم تبع 0

أهلكناهم (كاف) لتناهي الاستفهام 0

مجرمين (تام)

لاعبين (كاف) الا بالحق ليس بوقف للاستدراك بعده 0

لا يعلمون (كاف)

أجمعين (جائز) إن نصب يوم بفعل مقدّر وليس بوقف إن أبدل يوم لا يغنى من يوم الفصل 0

شيأ (حسن)

ينصرون ليس بوقف لحرف الاستثناء 0

من رحم الله (كاف)

الرحيم (تام) ولا وقف من قوله إن شجرت الى كالمهل فلا يوقف على الزقوم لان خبر إن لم

يأت ولا على الاثيم لإن بعده كاف التشبيه ورسموا شجرت بالتاء المجرورة كما ترى 0

(70/695)

كالمهل (حسن) لمن قرأ تغلي بالتاء الفوقية وليس بوقف لمن قرأ يغلي بالياء التحتية لإنه جعل الغليان للمهل كالمهل وفيه نظر لان المهل إنما ذكر للتشبيه في الذوب لا في الغليان وإنما يغلي ما شبه به والمعنى أن ما يأكله أهل النار يتحرك في أجوافهم من شدّة حرارته وتوقده في البطون ليس بوقف لإن بعده كاف التشبيه 0

الحميم (كاف)

الجحيم ليس بوقف لأن ثم حرف عطف 0

الحميم (كاف) ومثله ذق لمن كسر همزة إنك على الابتداء وليس بوقف لمن فتحها والمعنى ذق وبال هذا القول وجزاءه لإنك كان يقال لك العزيز الكريم وهو قول خزنة النار لأبي جهل على الاستهزاء فعلى هذا يوقف على الجيم ثم يبتدئ ذق وهي قراءة الكسائي 0

الكريم (كاف)

تمترون (تام) لانتقاله من صفة أهل النار إلى صفة أهل الجنة ولا وقف من قوله إن المتقين إلى متقابلين فلا يوقف على أمين لتعلق الظرف ولا على وعيون إن جعل ما بعده حالا وإن جعل يلبسون خبرا ثانيا حسن الوقف عليه 0

متقابلين (كاف) على أن الكاف في كذلك في محل رفع أي الأمر كذلك وقيل الوقف على كذلك أي كذلك نفعل بالمتقين أو كذلك حكم الله لأهل الجنة فالتشبيه من تمام الكلام 0

بحور عين (كاف)

آمنين (جائز) وقيل لا يجوز لإن ما بعده صفة لهم لإن الا من انما يتم بأن لا يذوقوا الموت 0

إلا الموتة الإولى (حسن) على أن الاستثناء متصل أي لا يذوقون فيها الموت بعد الموتة

الإولى في الدنيا وبعد توضع موضع الا في مواضع لتقرب المعنى وبعض الناس يقف على

الموت قال لإنه كلام مفيد وما بعده استثناء ليس من الأول قاله النكزاوى 0

عذاب الجحيم (جائز) إن نصب فضلا لفعل مقدّر أي تفضلنا بذلك تفضلا وليس بوقف

إن نصب على أنه مفعول من أجله والعامل فيه يدعون أو ووقاهم 0

فضلا من ربك (كاف)

العظيم (تام)

يتذكرون (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ 704 . 709 ﴾

(71/695)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الدخان :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة الحسن وأبي رجاء طلحة ، بخلاف : "يَوْمَ نَبْطِش 1" ، مضمومة النون ، مكسورة الطاء .

قال أبو الفتح : معنى نبطش أي نسلط عليهم من يبطش بهم ، فهذا من بطش هو ، وأبطشته أنا ، كقولك : قدر وأقدرته ، وخرج وأخرجته . وإلى هذا ذهب أبو حاتم في هذه الآية فيما رويناه عنه .

وأما انتصاب "البطشة" فبفعل آخر غير هذا الظاهر ، إلا أن هذا دل عليه ، فكأنه قال : يوم نبطش من نبطشه ، فيبطش البطشة الكبرى ، فيجري نحو من قولهم : أعلمت زيدا عمرا العلم اليقين إعلاما ، فإعلاما منصوب بأعلمت . وأما العلم اليقين فمنصوب بما دل عليه أعلمت ، وهو علم العلم اليقين . وعليه قوله :

ورضت فذلت صعبة أي إذلال2

فأي إذلال منصوب بما دل عليه قوله : ﴿ رُضْت ﴾ ؛ لأن "رضتها" وأذللتها بمعنى3 واحد ولك أن تنصب "البطشة الكبرى" لا على المصدر ، ولكن على أنها مفعول به ، فكأنه

---

1 سورة الدخان : 16 .

2 لامرئ القيس ، وصدره :

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا

وقبله :

فلما تنازعنا الحديث واسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

أسمحت : لانت وانقادت, هصرت : جذبت . والغصن : يريد به القوام . والشماريخ : جمع شمروخ ، أو شمراخ ، وهو في الأصل العثكال ، يريد الشماريخ فروع صاحبته الديوان : 141 .

3 في ك : معنى .

(72/695)

قال : يوم تقوى البطشة الكبرى عليهم ، وتمكنها منهم ، كقولك : يوم نسلط القتل عليهم ، وتوسع الأخذ منهم .

ومن ذلك قراءة عكرمة : "وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِين1" .

قال أبو حاتم : وفي قراءة عبد الله بن مسعود : "وَزَوَّجْنَاهُمْ بِعيس عِين" .

قال أبو الفتح : هذه الإضافة تفيد ما تفيده الصفة ؛ لأن حور العين حور عين في المعنى ، إلا أن لفظ الصفة أوفى2 من لفظ الإضافة ؛ إذ كان المضاف والمضاف إليه جاريين مجرى

المفرد . والصفة تأتي من الاختصاص المستفاد منها مأتى الزيادة المسهب بها ، وهي مع ذلك أشد إصراحا بالمعنى من المضاف .

ألا ترى أنك إذا قلت : مررت بظريف كرام جاز أن يكون ذلك الظريف كريما ، وجاز أن يكون منسوبا إليهم ؛ لاتصاله بهم وإن لم يكن كريما مثلهم ؟ وإذا قلت : مررت بظريف كريم فقد أثبت له مذهب الكرم [146ط] البتة .

وأما قراءة عبد الله : "بِعِيسٍ عِين" فإن العيساء : البيضاء ، والأعيس : الأبيض ، وكذلك فسرها أبو حاتم والفراء جميعا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 259 .

260 ﴾

---

1 سورة الدخان : 54 .

2 في ك : أوفر .

(73/695)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الدخان

مكية وآيها خمسون وست حجازي وشامي وسبع بصري وتسع كوفي خلافها أربع حم

وليقولون كوفي الزقوم مكي وحمصي ومدني أخير البطون تركها دمشقي ومدني أول مشبه الفاصلة آيتان يحيي ويميت بني إسرائيل القراآت مر حكم حم إمالة وسكتا واختلف في الباء من قوله تعالى ( ) رب السماوات (الآية 7 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف يخفضونها بدلا من ربك أو صفة وافقهم ابن محيصن والحسن والباقون بالرفع على إضمار مبتدأ أي هو رب أو مبتدأ خبره لا إله إلا هو وعن ابن محيصن ربكم ورب بالجر فيهما على البدل أو النعت لرب السموات

وأمال أبي حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما وأدغم دال وقد جاءهم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (نبطش) الآية 16 بضم الطاء أبو جعفر لغة فيه كما مر بالأعراف وعن الحسن يبطش بالياء المضمومة مبنيا للمفعول والبطشة بالرفع على النيابة وفتح الياء من إني أتيكم نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر وأدغم ذال عذب أبو عمرو وهشام بخلفه وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف وأثبت الياء في ترجمون و فاعتزلون وصلا ورش وفي الحالين يعقوب وفتح الياء من تؤمنوا لي ورش واتفقوا على عدم إمالة فدعا لكونه واويا مرسوما بالألف

وقرأ (فأسر) الآية 23 بهمزة وصل نافع وابن كثير وابو جعفر ومر بهود وقرأ وعيون معا بكسر العين ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي وقرأ فكهين بالقصر أبو جعفر ومر بيس ومر حكم الهاء والميم من عليهم السماء ضما وكسرا وقرأ إسرائل بتسهيل الثانية أبو جعفر مع المد والقصر كما مر بالبقرة مع خلف الأزرق في مد همزها ووقف حمزة عليها ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على ما فيه بلؤا باثني عشر وجها مرت مبينة أول الأنعام وذلك لرسمه بالواو في جميع المصاحف ووقف على شجرت بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب وعن الحسن كالمهل بفتح الميم فقط لغة فيه

واختلف في ﴿ تغلي ﴾ الآية 45 فابن كثير وحفص ورويس بالياء على التذكير وفاعله يعود إلى الطعام وافقهم ابن محيصن بخلفه والباقون بالتأنيث والضمير للشجرة

واختلف في (فاعتلوه) الآية 47 فنافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب بضم التاء وافقهم ابن محيصن والحسن والباقون بكسرها لغتان في مضارع عتله ساقه بجفاء وغلظة

واختلف في ( ) ذق إنك ( ) الآية 49 فالكسائي بفتح الهمزة على العلة أي لأنك وافقه الحسن والباقون بكسرها على الاستئناف المفيد للعلة فيتحدان أو محكي بالقول المقدر أي اعتلوه وقولوا له كيت وكيت

واختلف في ( ) مقام أمين (الآية 51 فنافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الميم الأولى بمعنى

الإقامة وافقهم الأعمش والباقون بفتحها موضع الإقامة وخرج بقيد أمين ومقام كريم أول السورة المتفق على فتح ميمه ومر حكم وعيون قريبا وعن ابن محيصن واستبرق بوصل الهمزة وفتح قافه بلا تنوين جعله فعلا ماضيا كما قاله أبو حيان

(75/695)

المرسوم كتبوا ( ) فأسر بعبادي (بالياء واتفقوا على رسم ﴿ ما فيه بلؤا) ﴾ بواو بعد اللام ثم ألف واتفقوا على قطع أن عن لا في ( ) وأن لا تعلوا (ياءات الإضافة ثنتان ( ) إني آتيكم (الآية 19 ( ) تؤمنوا لي ( ) الآية 21 وزائد تان (ترجمون) الآية 20 (فاعتزلون) الآية 21 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 499. 500 ﴾

(76/695)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الدخان "

" حم " سكت أبو جعفر على حرفي الهجاء كما سبق .

" أنزلناه ، عنه ، جلي للمكي .

" رب السموات " قرأ الكوفيون بجر الباء وغيرهم برفعها .

" نبطش " ضم الطاء أبو جعفر وكسرها غيره .

" منتقمون " آخر الربع .

الممال

جاء ، وجاءهم لابن ذكوان وخلف ، وحمزة ، عيسى ونجواهم بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، الذكرى والكبرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش ، بلى ويغشى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه عنه فأنى وأنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه ، حم بالإمالة لابن ذكوان وشعبة والخوين وخلف والتقليل لورش والبصري .

المدغم

" الصغير " " قد جئتكم " لقد جئناكم ، ولقد جاءهم للبصري وهشام والأخوين وخف . أورثتموها . للبصري وهشام والأخوين .

" الكبير " : مريم مثلا ، ولأبين لكم ، وإن الله هو ، فاعبدوه هذا ، ربك قال: يفرق كل ، أنه هو .

" إني آتيكم " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" ترجمون ، فاعتزلون " أثبت الياء وصلا ورش ، وفي الحالين ، يعقوب وحذفها الباقون مطلقا .

" تؤمنوا لي " فتح الياء ورش وأسكنها غيره .

" فأسر " قرأ المدنيان والمكي بوصل الهمزة ، والباقون بقطعها .

" بعبادي " أثبت الجميع الياء في الحالين .

" وعيون " كسر العين المكي وابن ذكوان وشعبة والأخوان ، وضمها غيرهم .

" ومقام كريم " اتفقوا على فتح ميم ومقام .

" فاكهين " قرأ أبو جعفر بحذف الألف بعد الفاء ، وغيره بإثباتها .

" عليهم السماء " إسرائيل ، خير ، جلي .

" بلاؤا " رسمت الهمزة على واو ففيه لهشام وحمزة ، اثنا عشر وجها ذكرت غير مرة .

" شجرت " رسم بالتاء ، ووقف بالهاء المكي والبصريان والكسائي والباقون بالتاء .

" يغلي " قرأ ابن كثير وحفص ورويس بياء التذكير ، والباقون بتاء التأنيث .

" فاعتلوه " ضم التاء نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب ، وكسرها غيرهم .

(77/695)

" ذق إنك " فتح الهمزة الكسائي ، وكسرها غيره .

" مقام أمين " ضم ميم مقام المدنيان والشامي ، وفتحها غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 298 . 299 ﴾

(78/695)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الدخان

قوله تعالى ﴿ رب السماوات والأرض ﴾

يقرا بالرفع والخفض ها هنا وفي المزمل وعم يتساءلون فالحجة لمن خفض أنه جعله بدلا من الاسم الذي قبله والحجة لمن رفع أنه جعله مبتدأ أو خبرا لمبتدأ أو أبدله من قوله ﴿ هو السميع العليم ﴾ رب

قوله تعالى ﴿ فاعتلوه ﴾ يقرأ بكسر التاء وضمها وهما لغتان كقوله ﴿ يعرشون ﴾ ﴿ يعكفون ﴾ وقد ذكرت علله فيما مضى

قوله تعالى ﴿ ذق إنك ﴾ يقرأ بكسر الهمزة وفتحها فالحجة لمن كسر أنه جعل تمام الكلام

عند قوله ذق وابتدأ إن بالكسر والحجة لمن فتحها أنه أراد حرف الخفض فحذفه ففتح لذلك

وقيل معنى قوله ﴿ إنك أنت العزيز الكريم ﴾ يريد عند نفسك فأما عندنا فلا وقيل هو كناية من الله عز وجل بأحسن الألفاظ والمراد به السفيه الأحمق أو الذليل كقول قوم شعيب له ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾

قوله تعالى ﴿ يغلي في البطون ﴾ يقرأ بالياء ردا على المهل وبالتاء ردا على الشجرة والأثيم ها هنا أبو جهل

قوله تعالى ﴿ في مقام أمين ﴾ يقرأ بضم الميم وفتحها وقد ذكر معنى ذلك بما فيه كفاية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 324 ﴾

(79/695)

وقال ابن زنجلة :

44 - سورة الدخان

رحمة من ربك إنه هو السميع العليم رب السموات والأرض 6 و 7

قرأ عاصم وحمزة والكسائي رب السموات بالخفض على الصفة على قوله رحمة من ربك

رب السموات

وقرأ الباقون رب بالرفع على النعت لقوله إنه هو السميع العليم رب السموات وإن شئت على الاستئناف وعلى معنى هو رب السموات ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره الجملة التي عاد الذكر منها إليه وهو قوله لا إله إلا هو 8 ويقويه قوله رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو

إن شجرت الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون 43 , 45

قرأ ابن كثير وحفص يغلي في البطون بالياء رد على المهل وال طعام وقرأ الباقون تغلي بالتاء رد على ال شجرة ومثله أمنة نعاسا يغشى طائفة و تغشى فالتذكير للنعاس والتأنيث للأمنة

ذق إنك أنت العزيز الكريم إن المتقين في مقام أمين 49و51

قرأ الكسائي ذق أنك بالفتح بمعنى ذق لأنك أنت العزيز الكريم عند نفسك في دعواك فأما عندنا فلست عزيزا ولا كريما

وقرأ الباقون إنك بالكسر على الابتداء على جهة الحكاية وذلك أن أبا جهل كان يقول ما بالوادي أعز مني ولا أكرم فالمعنى إنك أنت العزيز الكريم في زعمك وفيما تقوله ومثل هذا قوله تعالى أين شركائي فليس لله شريك ولكن على زعمكم

قرأ نافع وابن عامر إن المتقين في مقام أمين بضم الميم أي في إقامة وهي مصدر أقام يقيم إقامة

ومقاما

وقرأ الباقون في مقام بالفتح أي في مكان ومنزل وصفه بالأمن يقوي أنه يراد به المكان . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 656. 657 ﴾

(80/695)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الدخان

مكية ونظيرتها في المدني الأول خاصة المدثر ولا نظير لها في غيره

وكلمها ثلاث مئة وست وأربعون كلمة

وحروفها ألف وأربع مئة وأحد وثلاثون حرفا

وهي خمسون وتسع آيات في الكوفي وسبع في البصري وست في عدد الباقين

اختلافها أربع آيات (﴿ حم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ إن هؤلاء ليقولون ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ إن شجرة الزقوم ﴾) لم يعدها المدين الآخر والمكي وعدها الباقون (﴿ في البطون ﴾) لم يعدها المدني الأول والشامي وعدها

الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضعان (﴿ يحيي ويميت ﴾ بني إسرائيل

) ورؤوس الآي

المبين

2 منذرين

3 حكيم

4 مرسلين

5 العليم

6 موقنين

7 الأولين

8 يلعبون

9 مبين

10 أليم

11 مؤمنون

12 مبين

13 مجنون

14 عائدون

15 منتقمون

16 كريم

17 أمين

18 مبين

19 ترجمون

20 فاعتزلون

21 مجرمون

22 متبعون

23 مغرقون

24 وعيون

25 كريم

26 فاكهين

27 آخرين

28 منظرين

29 المهين

30 المسرفين

31 العالمين

32 مبين

33 بمنشرين

35 صادقين

36 مجرمين

37 لاعبين

38 لا يعلمون

39 أجمعين

40 ينصرون

41 الرحيم

42 الأثيم

44 البطون

45 الحميم

46 الجحيم

47 الحميم

48 الكريم

49 تمترون

50 أمين

51 وعيون

52 متقابلين

53 عين

54 آمنين

55 الجحيم

56 العظيم

57 يتذكرون

58 مرتقبون

59 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 225﴾

(81/695)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (إنا أنزلناه) هو جواب القسم ، و (إنا كنا) مستأنف ، وقيل هو جواب آخر من غير عاطف .

قوله تعالى (فيها يفرق) هو مستأنف ، وقيل هو صفة لليلة ، و " إنا " معترض بينهما .

قوله تعالى (أمرا) في نصبه أوجه: أحدها هو مفعول منذرين كقوله " لينذر بأسا شديدا " والثانى هو مفعول له ، والعامل فيه أنزلناه أو منذرين أو يفرق .

والثالث هو حال من الضمير في حكيم أو من أمر ، لأنه قد وصف ، أو من كل ، أو من الهاء في أنزلناه .

والرابع أن يكون في موضع المصدر .

أي فرقا من عندنا والخامس أن يكون مصدرا : أي أمرنا أمرا ، ودل على ذلك ما يشتمل الكتاب عليه من الأوامر .

والسادس أن يكون بدلا من الهاء في أنزلناه ، فأما (من عندنا) فيجوز أن يكون صفة لأمر ، وأن يتعلق بيفرق .

قوله تعالى (رحمة) فيه أوجه: أحدها أن يكون مفعول مرسلين فيراد به النبي صلى الله عليه وسلم.

والثاني أن يكون مفعولا له.

والثالث أن يكون مصدرا: أي

رحمناكم رحمة.

والرابع أن يكون في موضع الحال من الضمير في مرسلين، والأحسن أن يكون التقدير: ذوى رحمة.

قوله تعالى (رب السموات) بالرفع على تقدير هو رب، أو على أن يكون مبتدأ، والخبر (لا إله إلا هو) أو خبر بعد خبر، وبالجر بدلا من ربك.

قوله تعالى (ربكم) أي هو ربكم، ويجوز أن يكون خبرا آخر، وأن يكون فاعل يميت، وفي " يحيى " ضمير يرجع إلى ما قبله، أو على شريطة التفسير.

قوله تعالى (يوم تأتى) هو مفعول فارتقب.

(82/695)

قوله تعالى (هذا عذاب) أي يقال هذا ، و (الذكرى) مبتدأ ، ولهم الخبر ، وأن ظرف يعمل في الاستقرار ، ويجوز أن يكون أنى الخبر ولهم تبيين (وقد جاءهم) حال و (قليلا) أي زمانا قليلا ، أو كشفا قليلا ، (ويوم نبطش) قيل هو بدل من تأتى ، وقيل هو ظرف لعائدون ، وقيل التقدير: اذكر ، وقيل ظرف لما دل عليه الكلام: أي ننتقم يوم نبطش ، ويقرأ " نبطش " بضم النون وكسر الطاء ، يقال أبطشته إذا مكنته من البطش: أي نبطش الملائكة .

قوله تعالى (عباد الله) أي يا عباد الله: أي أدوا إلى ما وجب عليكم ، وقيل هو مفعول أدوا: أي خلوا بينى وبين من آمن بى (وإنى عذت) مستأنف ، و (أن ترجمون) أي من أن ترجمون ، و (أن هؤلاء) منصوب بدعا ، ويقرأ بالكسر لأن دعا بمعنى قال ، و (رهوا) حال من البحر: أي ساكنا ، وقيل هو مفعول ثان: أي صيره ، و (كم) نصب ب (تركوا) ، و (كذلك) أي الأمر كذلك ، وقيل التقدير: تركا كذلك .

قوله تعالى (من فرعون) هو بدل من العذاب بإعادة الجار: أي من عذاب فرعون ، ويجوز أن يكون جعل فرعون نفسه عذابا ، و (من المسرفين) خبر آخر أو حال من الضمير في عاليا ، و (على علم) حال من ضمير الفاعل: أي

اخترناهم عالمين بهم ، وعلى يتعلق باخترنا .

قوله تعالى (والذين من قبلهم) يجوز أن يكون معطوفا على قوم تبع ، فيكون (أهلكناهم) مستأنفا أو حالا من الضمير في الصلة ، ويجوز أن يكون مبتدأ

والخبر أهلكناهم ، وأن يكون منصوبا بفعل محذوف ، و (لاعبين) حال و (أجمعين) توكيد للضمير المجرور (يوم لا يغنى) يجوز أن يكون بدلا من يوم الفصل ، وأن يكون صفة لميقاتهم ، ولكنه بنى ، وأن يكون ظرفا لما دل عليه الفصل: أي يفصل بينهم يوم لا يغنى ، ولا يتعلق بالفصل نفسه لأنه قد أخبر عنه .

قوله تعالى (إلا من رحم) هو استثناء متصل: أي من رحمه الله بقبول الشفاعة فيه ، ويجوز أن يكون بدلا من مفعولي ينصرون: أي لا ينصرون إلا من رحم الله .

(83/695)

قوله تعالى (يغلى) يقرأ بالياء: ويجوز أن يكون حالا من الضمير في الكاف: أي يشبه المهل غالبا ، وقيل هو حال من المهل ، وقيل التقدير: هو يغلى: أي الزقوم أو الطعام .

وأما الكاف فيجوز أن تكون خبرا ثانيا ، أو على تقدير: هو كالمهل ، ولايجوز أن يكون حالا من طعام لأنه لا عامل فيها إذ ذاك ، ويقرأ بالتاء: أي الشجرة والكاف في موضع نصب: أي غليا كغلى الحميم (فاعتلوه) بكسر التاء وضمها لغتان .

قوله تعالى (ذق إنك) إنك يقرأ بالكسر على الاستئناف ، وهو استهزاء به ، وقيل أنت العزيز الكريم عند قومك ، ويقرأ بالفتح: أي ذق عذاب أنك أنت ، و (مقام) بالفتح والضم

مذكورة في الأحزاب ، و (في جنات) بدل من مقام بتكرير الجار ، وأما (يلبسون) فيجوز أن يكون خبر إن فيتعلق به في ، وأن يكون حالا من الضمير في الجار ، وأن يكون مستأنفا ، و (كذلك) أي فعلنا كذلك

أو الأمر كذلك ، و (يدعون) حال من الفاعل في زوجنا ، و (لا يذوقون) حال أخرى من الضمير في يدعون ، أو من الضمير في آمنين ، أو حال أخرى بعد آمنين ، أو صفة لآمنين .

قوله تعالى (إلا الموتة الأولى) قيل الاستثناء منقطع: أي ماتوا الموتة ، وقيل هو متصل لأن المؤمن عند موته في الدنيا بمنزلته في الجنة لمعاينته ما يعطاه منها ، أو ما يتيقنه من نعيمها ، وقيل إلا بمعنى بعد ، وقيل بمعنى سوى ، و (فضلا) مصدر: أي تفضلنا بذلك تفضيلا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 229 . 231 ﴾

(84/695)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الدخان

[سورة الدخان (44) : الآيات 1 الى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9)

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10)

(85/695)

"حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ" تقدم إعراب مثيله "إِنَّا" إن واسمها "أَنْزَلْنَاهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة "فِي لَيْلَةٍ" متعلقان بالفعل "مُبَارَكَةٍ" صفة "إِنَّا" إن واسمها "كُنَّا" كان واسمها "مُنْذِرِينَ" خبرها والجملة الفعلية خبر إنا والجملة الاسمية مستأنفة "فِيهَا" متعلقان بما بعدهما "يُفْرَقُ" مضارع مبني للمجهول "كُلُّ" نائب فاعل "أَمْرٍ" مضاف إليه "حَكِيمٍ" صفة أمر والجملة مستأنفة "أَمْرًا" مفعول به لفعل محذوف "مِنْ عِنْدِنَا" متعلقان بمحذوف صفة أمرا "إِنَّا" إن واسمها "كُنَّا مُرْسِلِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة الفعلية خبر إنا والجملة الاسمية مستأنفة "رَحْمَةً" مفعول لأجله منصوب "مِنْ رَبِّكَ"

متعلقان برحمة "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" خبران لإن والجملة الاسمية تعليل "رَبِّ" بدل من ربك "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَما" معطوف على ما قبله "بَيْنَهُما" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول "إِنْ" شرطية جازمة "كُنْتُمْ" كان واسمها "مُوقِنِينَ" خبرها وجملة كنتم ابتدائية "لا" نافية تعمل عمل إن "إِلهَ" اسمها وخبرها محذوف "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ" بدل من اسم لا "يُحْيِي" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة حال "وَيُمِيتُ" معطوف على يحيي "رَبُّكُمْ" بدل "وَرَبُّ" معطوف "آبائِكُمُ" مضاف إليه "الْأَوَّلِينَ" صفة "بَلْ" حرف إضراب "هُمْ" مبتدأ "فِي شَكٍّ" متعلقان بمحذوف خبر "يَلْعَبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية حال والجملة الاسمية مستأنفة "فَارْتَقِبْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "يَوْمَ" مفعول به والجملة جواب شرط غير جازم "تَأْتِي" مضارع "السَّماءُ" فاعل "بِدُخانٍ" متعلقان بالفعل "مُبِينٍ" صفة والجملة في محل جر بالإضافة.

(86/695)

[سورة الدخان (44) : الآيات 11 الى 18]

يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ

الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15)

يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18)

(87/695)

"يَغْشَى" مضارع فاعله مستتر "النَّاسَ" مفعول به والجملة صفة دخان "هذا عَذابٌ" مبتدأ وخبره "أَلِيمٌ" صفة عذاب والجملة الاسمية مقول قول محذوف "رَبَّنَا" منادى مضاف "اكْشِفْ" فعل دعاء فاعله مستتر "عَنَّا" متعلقان بالفعل "الْعَذابَ" مفعول به وجملة ربنا مقول قول محذوف "إِنَّا" إن واسمها "مُؤْمِنُونَ" خبرها والجملة الاسمية تعليلية "أَنَّى" اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم "لَهُمُ" متعلقان بمحذوف خبر ثان "الذِّكْرى" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مقول قول محذوف "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله "رَسُولٌ" فاعل مؤخر "مُبِينٌ" صفة رسول والجملة حالية "ثُمَّ" حرف عطف "تَوَلَّوْا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَنْهُ" متعلقان بالفعل "وَقالُوا" الواو حرف عطف وقالوا معطوف على تولوا "مُعَلَّمٌ" خبر لمبتدأ محذوف "مَجْنُونٌ" خبر ثان

والجملة الاسمية مقول القول "إِنَّا" إن واسمها "كاشِفُوا" خبرها "الْعَذابِ" مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة "قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق محذوف "إِنَّكُمْ عائِدُونَ" إن واسمها وخبرها والجملة الاسمية مستأنفة "يَوْمَ" مفعول به لفعل محذوف "نَبْطِشُ" مضارع فاعله مستتر "الْبَطْشَةَ" مفعول به "الْكُبْرى" صفة البطشة والجملة في محل جر بالإضافة "إِنَّا" إن واسمها "مُنْتَقِمُونَ" خبرها والجملة مستأنفة "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر والمقسم به محذوف واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "فَتَنَّا" ماض وفاعله والجملة جواب القسم لا محل لها "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان "قَوْمَ" مفعول به "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه "وَجاءَهُمْ" الواو حرف عطف وماض ومفعوله "رَسُولٌ" فاعل مؤخر "كَرِيمٌ" صفة رسول والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنْ" تفسيرية "أَدُّوا" أمر وفاعله والجملة تفسيرية لا محل لها "إِلَيَّ" متعلقان بالفعل "عِبادَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه

(88/695)

"إِنِّي" إن واسمها "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف حال "رَسُولٌ" خبر إن "أَمِينٌ" صفة والجملة الاسمية تعليلية.

[سورة الدخان (44) : الآيات 19 الى 25]

وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23)

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25)

"وَأَنْ" الواو حرف عطف وأن معطوفة على ما قبلها "لا تَعْلُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل "إِنِّي" إن واسمها "آتِيكُمْ" خبر والجملة الاسمية

(89/695)

تعليل "بِسُلْطانٍ" متعلقان بآتيكم "مُبِينٍ" صفة "وَإِنِّي" الواو حالية وإن واسمها "عُذْتُ" ماض وفاعله والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية حالية "بِرَبِّي" متعلقان بالفعل "وَ رَبِّكُمْ" معطوف على بربي "أَنْ تَرْجُمُونِ" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف جر محذوف والجار والمجرور متعلقان بالفعل عذت "وَإِنْ" الواو حرف عطف وإن شرطية جازمة "لَمْ" حرف جازم "تُؤْمِنُوا" مضارع مجزوم

بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "لِي" متعلقان بالفعل "فَاعْتَزِلُونِ" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط "فَدَعَا" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "رَبَّهُ" مفعول به والجملة معطوفة على جملة مقدرة "أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ" أن واسمها وخبرها "مُجْرِمُونَ" صفة قوم والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بالفعل دعا "فَأَسْرِ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف حرف العلة فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب شرط مقدر "بِعِبادِي" متعلقان بالفعل "لَيْلًا" ظرف زمان "إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ" إن واسمها وخبرها والجملة الاسمية تعليل "وَاتْرُكِ الْبَحْرَ" حرف عطف وأمر ومفعوله والفاعل مستتر "رَهْواً" حال والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّهُمْ جُنْدٌ" إن واسمها وخبرها "مُغْرَقُونَ" صفة جند والجملة الاسمية تعليل "كَمْ" خبرية في محل نصب مفعول به مقدم "تَرَكُوا" ماض وفاعله "مِنْ جَنَّاتٍ" متعلقان بمحذوف حال "وَ

عُيُونٍ" معطوف على جنات.

[سورة الدخان (44) : الآيات 26 الى 35]

وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (27) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (28) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (29) وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (30)

مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (32) وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاؤُا مُبِينٌ (33) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35)

"وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ" معطوفان على جنات "كَرِيمٍ" صفة مقام "وَنَعْمَةٍ" معطوف على ما قبله "كانُوا" كان واسمها "فِيها" متعلقان بفاكهين "فاكِهِينَ" خبر كانوا والجملة الفعلية صفة نعمة "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "وَأَوْرَثْناها" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة على ما قبلها "قَوْماً" مفعول به ثان "آخَرِينَ" صفة "فَما" الفاء استئنافية وما نافية "بَكَتْ" ماض "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "السَّماءُ" فاعل "وَالْأَرْضُ" معطوف على السماء والجملة مستأنفة "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "كانُوا مُنْظَرِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة

على ما قبلها "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "نَجَّيْنا" ماض وفاعله "بَنِي" مفعول به منصوب بالياء "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه وجملة نجينا جواب القسم لا محل لها والكلام مستأنف "مِنَ الْعَذابِ" متعلقان بنجينا "الْمُهِينِ" صفة "مِنْ فِرْعَوْنَ" بدل من قوله من العذاب "إِنَّهُ" إن واسمها "كانَ عالِياً" كان وخبرها واسمها مستتر والجملة الفعلية خبر إن "مِنَ الْمُسْرِفِينَ" متعلقان بمحذوف خبر ثان والجملة الاسمية تعليل "وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ" انظر الآية رقم 30 من السورة "عَلى عِلْمٍ" متعلقان بمحذوف حال "عَلَى الْعالَمِينَ" متعلقان بالفعل "وَآتَيْناهُمْ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنَ الْآياتِ" متعلقان بالفعل "ما" مفعول به ثان "فِيهِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "بَلاؤُا" مبتدأ مؤخر والجملة صلة "مُبِينٌ" صفة بلاء "إِنَّ هؤُلاءِ" إن واسمها "لَيَقُولُونَ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة "إِنْ" نافية "هِيَ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "مَوْتَتُنَا" خبر "الْأُولى" صفة والجملة الاسمية مقول القول "وَما" الواو حرف عطف ما نافية عاملة عمل ليس "نَحْنُ" اسمها "بِمُنْشَرِينَ" مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الدخان (44) : الآيات 36 الى 43]

فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (36) أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ
كانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (38) ما
خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (39) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40)

(92/695)

يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (42) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43)

"فَأْتُوا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم
"بِآبائِنا" متعلقان بالفعل "إِنْ" شرطية جازمة "كُنْتُمْ" كان واسمها "صادِقِينَ" خبرها
والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها "أَ هُمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري و"هُمْ" مبتدأ
"خَيْرٌ" خبر والجملة مستأنفة "أَمْ" حرف عطف "قَوْمُ" معطوف على الضمير "تُبَّعٍ" مضاف
إليه "وَالَّذِينَ" معطوف على قوم "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "أَهْلَكْناهُمْ"
ماض وفاعله ومفعوله والجملة حالية "إِنَّهُمْ" إن واسمها "كانُوا" كان واسمها "مُجْرِمِينَ"
خبرها والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل "وَما" الواو حرف استئناف وما
نافية "خَلَقْنَا السَّماواتِ" ماض وفاعله ومفعوله "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات

والجملة مستأنفة "وَما" معطوفة على السموات "بَيْنَهُما" ظرف مكان "لاعِبِينَ" حال منصوبة بالياء "ما" نافية "خَلَقْناهُما" ماض وفاعله ومفعوله "إِلَّا" أداة حصر "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ" الواو حالية ولكن واسمها "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية

(93/695)

خبر لكن والجملة الاسمية حال "إِنَّ يَوْمَ" إن واسمها "الْفَصْلِ" مضاف إليه "مِيقاتُهُمْ" خبرها والجملة مستأنفة "أَجْمَعِينَ" توكيد "يَوْمَ" بدل من يوم الفصل "لا" نافية "يُغْنِي" مضارع "مَوْلًى" فاعله "عَنْ مَوْلًى" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "شَيْئاً" مفعول به "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "هُمْ" مبتدأ "يُنْصَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "إِلَّا" حرف استثناء "مَنْ" مستثنى بإلا "رَحِمَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة صلة من "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" خبران والجملة الاسمية تعليل "إِنَّ شَجَرَةَ" إن واسمها "الزَّقُّومِ" مضاف إليه.

[سورة الدخان (44) : الآيات 44 الى 53]

طَعامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى
سَواءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (48)
ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ
(51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (53)

(94/695)

"طَعامُ" خبر إن "الْأَثِيمِ" مضاف إليه "كَالْمُهْلِ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ثان "يَغْلِي" مضارع فاعله مستتر "فِي الْبُطُونِ" متعلقان بالفعل والجملة حال "كَغَلْيِ" متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف "الْحَمِيمِ" مضاف إليه "خُذُوهُ" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة مقول قول محذوف "فَاعْتِلُوهُ" الفاء حرف عطف وفعل أمر معطوف على ما قبله "إِلى سَواءِ" متعلقان بالفعل "الْجَحِيمِ" مضاف إليه "ثُمَّ" حرف عطف "صُبُّوا" أمر وفاعله "فَوْقَ" ظرف مكان "رَأْسِهِ" مضاف إليه "مِنْ عَذابِ" متعلقان بالفعل "الْحَمِيمِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "ذُقْ" أمر فاعله مستتر والجملة مقول قول محذوف "إِنَّكَ" إن واسمها "أَنْتَ" ضمير فصل "الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" خبران والجملة الاسمية تعليلية "إِنَّ هذا" إن واسمها "ما" خبرها "كُنْتُمْ" كان

واسمها والجملة صلة ما "بِهِ" متعلقان بتمترون "تَمْتَرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة إن هذا مقول قول مقدر "إِنَّ الْمُتَّقِينَ" إن واسمها "فِي مَقامٍ" متعلقان بمحذوف خبر إن "أَمِينٍ" صفة ثان "جَنَّاتٍ" بدل من في مقام "عُيُونٍ" معطوف على ما قبله "يَلْبَسُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر ثان لإن "مِنْ سُندُسٍ" متعلقان بمحذوف صفة المفعول المحذوف "وَإِسْتَبْرَقٍ" معطوف على ما قبله "مُتَقابِلِينَ" حال.

[سورة الدخان (44) : الآيات 54 الى 59]

كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58)

(95/695)

فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

"كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك

"وَزَوَّجْناهُمْ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على جملة يلبسون "بِحُورٍ" متعلقان بالفعل "عِينٍ" صفة "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "فِيها" متعلقان بالفعل "بِكُلِّ" متعلقان بالفعل أيضا "فاكِهَةٍ" مضاف إليه "آمِنِينَ" حال والجملة حالية "لا يَذُوقُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حالية "فِيهَا" متعلقان بالفعل "الْمَوْتَ" مفعول به "إِلَّا" حرف استثناء "الْمَوْتَةَ" مستثنى "الْأُولى" صفة الموتة "وَوَقاهُمْ" الواو حالية وماض ومفعوله وفاعله مستتر "عَذابَ" مفعول به ثان "الْجَحِيمِ" مضاف إليه والجملة حالية "فَضْلًا" مفعول مطلق محذوف "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بفضلا "ذلِكَ" مبتدأ "هُوَ" ضمير فصل "الْفَوْزُ" خبر المبتدأ "الْعَظِيمُ" صفة والجملة الاسمية ذلك استئنافية لا محل لها "فَإِنَّما" الفاء استئنافية وكافة ومكفوفة "يَسَّرْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "بِلِسانِكَ" متعلقان بالفعل "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَتَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعل والجملة الاسمية تعليل "فَارْتَقِبْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "إِنَّهُمْ" إن واسمها "مُرْتَقِبُونَ" خبرها والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها والجملة الفعلية جواب شرط مقدر لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن /لدعاس حـ 3 صـ 208. 213﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الدُّخان

ذكر فِيهَا أحد عشر حَدِيثا

1170 - الحَدِيث الأول

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من صَلَّى فِي هَذِه اللَّيْلَة مائة رَكْعَة يَعْنِي لَيْلَة النّصْف من شعْبَان أرسل الله تَعَالَى إِلَيْهِ مائة ملك ثَلَاثُونَ يُبَشّرُونَهُ بِالْجنَّةِ وَثَلَاثُونَ يُؤَمّنُونَهُ من عَذَاب النَّار وَثَلَاثُونَ يدْفَعُونَ عَنهُ آفَات الدُّنْيَا وَعشرَة يدْفَعُونَ عَنهُ مَكَائِد الشَّيْطَان)

قلت رَوَاهُ الإِمَام أَبُو الْفَتْح سليم بن أَيُّوب الرَّازِيّ الْفَقِيه الشَّافِعِي فِي كتَاب التَّرْغِيب بِتَغَيُّر يسير حَدثنَا أَبُو عبد الله الْحُسَيْن بن عَلّي بن جَعْفَر ثَنَا أَبُو الْقَاسِم سُلَيْمَان بن أَحْمد الطَّبَرَانِيّ ثَنَا إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم الدبري ثَنَا عبد الرازق عَن تَوْبَة عَن عُثْمَان بن عبد الله عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد عَن أَبِيه قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من صَلَّى لَيْلَة النّصْف من شعْبَان مائة رَكْعَة يقْرَأ فِي كل رَكْعَة الْحَمد لله و قل هُوَ الله أحد عشر مَرَّات لم يمت حَتَّى يريه الله فِي مَنَامه مائة ملك ثَلَاثُونَ يُبَشّرُونَهُ بِالْجنَّةِ وَثَلَاثُونَ يُؤَمّنُونَهُ من عَذَاب النَّار وَثَلَاثُونَ يَحْفَظُونَهُ من خطاياه وَعشرَة يكلئونه من عدوه) انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الإِمَام أَبُو الْفضل مُحَمَّد بن نَاصِر السلَامِي فِي كتَاب فَضَائِل شعْبَان من حَدِيث عَلّي بن عَاصِم عَن عَمْرو بن مِقْدَام عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد عَن أَبِيه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَذكره سَوَاء

ثمَّ أخرجه من حَدِيث سهل بن مَنْصُور ثَنَا الْحسن بن علوان عَن جَعْفَر

(97/695)

ابْن مُحَمَّد عَن أَبِيه عَن عَلّي بن أبي طَالب فَذكره وَلم يرفعهُ

وَرَوَاهُ الْحَافِظ أَبُو مُحَمَّد عبد الْعَزِيز بن الْأَخْضَر فِي كِتَابه فَضَائِل شعْبَان وَهُوَ جُزْء حَدِيثي وَكَذَا الَّذِي قبله من طَرِيق مُحَمَّد بن إِسْحَاق السّني أَنا الْحُسَيْن بن عبد الله الْقطَّان ثَنَا مُوسَى بن مَرْوَان ثَنَا يَحْيَى بن الحكم عَن عمر ابْن ثَابت عَن جَعْفَر الْمَدَائِنِي عَن يَحْيَى القَتَّات قَالَ ثني بضعَة وَثَلَاثُونَ رجلا من أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَالَ فَذكره

وَهُوَ فِي الفردوس من حَدِيث ابْن عمر بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور

1171 - الحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الله يرحم أمتِي فِي هَذِه اللَّيْلَة بِعَدَد شعر أَغْنَام

بني كلب)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي الصَّوْم وَابْن ماجة فِي التَّهَجُّد من حَدِيث الْحجَّاج بن أَرْطَاة عَن يَحْيَى بن أبي كثير عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت فقدت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذَات لَيْلَة فَخرجت أطلب فَإِذا هُوَ بِالبَقِيعِ رَافع رَأسه إِلَى السَّمَاء فَقَالَ (يَا عَائِشَة أَكنت تَخَافِينَ أَن يَحِيف الله عَلَيْك وَرَسُوله) قَالَت قد قلت وَمَا بِي ذَلِك وَلَكِنِّي ظَنَنْت أَنَّك أتيت بعض نِسَائِك فَقَالَ (إِن الله تَعَالَى ينزل لَيْلَة النّصْف من شعْبَان إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا فَيغْفر لأَكْثر من عدد شعر غنم كلب) انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث الْحجَّاج وَسمعت مُحَمَّدًا يَعْنِي البُخَارِيّ يضعف هَذَا الحَدِيث وَقَالَ إِن يَحْيَى بن أبي كثير لم يسمع من عُرْوَة وَالْحجاج لم يسمع من يَحْيَى بن أبي كثير انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما

(98/695)

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من طَرِيق الدَّارَقُطْنِيّ بسَنَدِهِ عَن عَطاء بن عجلَان عَن عبد الله بن أبي ملكية عَن عَائِشَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (فِي لَيْلَة النّصْف من شعْبَان يعْتق الله فِيهَا من النَّار أَكثر من عدد شعر غنم كلب) مُخْتَصر وَقَالَ

تفرد بِهِ عَطاء بن عجلَان عَن ابْن أبي ملكية قَالَ ابْن مِعين عَطاء بن عجلَان لَيْسَ بِشَيْء كَانَ يوضع لَهُ حَدِيث فَيحدث بِهِ وَقَالَ الفلاس وَالسَّعْدِي كَذَّاب انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الدَّعْوَات الْكَبِير عَن أبي عبد الله الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى إِبْرَاهِيم بن إِسْحَاق الْغَسِيلِيّ ثَنَا وهب ثَنَا سعيد بن عبد الْكَرِيم الوَاسِطِيّ عَن أبي نعْمَان السَّعْدِيّ عَن أبي رَجَاء العطاردي عَن أنس بن مَالك عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَهَا (أَتَدْرِينَ مَا هَذِه اللَّيْلَة هَذِه لَيْلَة النّصْف من شعْبَان لله فِيهِ عُتَقَاء من النَّار بعَدَد سعر غنم كلب) قَالَت وَمَا بَال غنم كلب قَالَ (لَيْسَ فِي الْعَرَب أَكثر غنما مِنْهُم) مُخْتَصر قَالَ الْبَيْهَقِيّ فِي إِسْنَاده بعض من يجهل انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية وَقَالَ إِنَّه لَا يَصح قَالَ أَبُو الْفَتْح الْأَزْدِيّ سعيد بن عبد الْكَرِيم مَتْرُوك انْتَهَى

قَالَ ابْن دحْيَة فِي الْعلم الْمَشْهُور هَذَا حَدِيث مَوْضُوع وَإِبْرَاهِيم بن إِسْحَاق هَذَا من ولد حَنْظَلَة الغسيل قَالَ فِيهِ ابْن حبَان يقلب الْأَخْبَار وَيسْرق الحَدِيث وَشَيْخه وهب أَكذب النَّاس وَسَعِيد مَتْرُوك وَلَيْسَ فِي لَيْلَة النّصْف من شعْبَان حَدِيث يَصح ذكر أهل التَّعْدِيل وَالتَّجْرِيح انْتَهَى

1172 - الحَدِيث الثَّالِث

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الله تَعَالَى يغْفر لجَمِيع الْمُسلمين فِي تلْكَ اللَّيْلَة إِلَّا لِكَاهِنٍ أَو سَاحر أَو مُشَاحِن أَو مدمن خمر أَو عَاق للْوَالِدين أَو مصر عَلَى الزِّنَا)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَأقرب مَا وجدته حديثان

أَحدهمَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالْعِشْرين عَن سَلام ابْن سليم أَنا سَلام الطَّوِيل عَن وهب الْمَكِّيّ عَن أبي رهم عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ أَنه دخل عَلَى عَائِشَة فَقَالَت لَهُ يَا أَبَا سعيد إِلَى أَن قَالَ فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَكنت تَخَافِينَ أَن يَحِيف الله عَلَيْك وَرَسُوله إِن جِبْرِيل أَتَانِي فَقَالَ هَذِه اللَّيْلَة لَيْلَة النّصْف من شعْبَان وَلله فِيهَا عُتَقَاء من النَّار بِعَدَد شُعُور غنم كلب لَا ينظر الله فِيهَا إِلَى مُشْرك وَلَا إِلَى مُشَاحِن وَلَا إِلَى قَاطع رحم وَلَا إِلَى مُسبل وَلَا إِلَى عَاق وَالديهِ وَلَا مدمن خمر) مُخْتَصر

وَالثَّانِي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الدَّعْوَات الْكَبِير من حَدِيث سعيد ابْن عبد الْكَرِيم الوَاسِطِيّ عَن أبي نعْمَان السَّعْدِيّ عَن أبي رَجَاء العطاردي عَن أنس ابْن مَالك عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَهَا (أَتدْرِينَ مَا هَذِه اللَّيْلَة هَذِه لَيْلَة النّصْف من شعْبَان لله فِيهَا عُتَقَاء من النَّار بِعَدَد شعر غنم كلب) قَالَت وَمَا بَال غنم كلب قَالَ (لَيْسَ فِي الْعَرَب أَكثر غنما مِنْهُم لَا أَقُول فيهم سِتَّة نفر مدمن خمر وَلَا عَاق وَالديهِ وَلَا مصر عَلَى الزِّنَا وَلَا عَلَى الرِّبَا وَلَا مصارم وَلَا مُصَور وَلَا قتَّات) مُخْتَصرا قَالَ الْبَيْهَقِيّ فِي إِسْنَاده بعض من يجهل

وَأعله ابْن الْجَوْزِيّ بِسَعِيد وَقد تقدم فِي الحَدِيث قبله وَالله أعلم

وَرَوَى ابْن ماجة فِي سننه فِي التَّهَجُّد عَن الضَّحَّاك بن عبد الرَّحْمَن بن عَرْزَم عَن أَبِيه عَن أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن الله ليطلع فِي لَيْلَة النّصْف من شعْبَان فيغْفر لجَمِيع خلقه إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَو مُشَاحِن)

وَرَوَى ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول من حَدِيث مَكْحُول عَن مَالك بن يخَامر عَن معَاذ بن جبل عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (يطلع الله إِلَى خلقه لَيْلَة النّصْف من شعْبَان) إِلَى آخِره سَوَاء

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان

وَرَوَى البرَاز فِي مُسْنده من حَدِيث عبد الْملك بن عبد الْملك عَن مُصعب ابْن أبي ذِئْب عَن الْقَاسِم بن مُحَمَّد عَن أَبِيه أَو عَمه عَن أبي بكر مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء وَقَالَ لَا نعلمهُ يرْوَى عَن أبي بكر إِلَّا من هَذَا الْوَجْه وَقد رُوِيَ عَن غير أبي بكر وَأَعْلَى من رَوَاهُ أَبُو بكر وَإِن كَانَ فِي إِسْنَاده شَيْء فجلالة أبي بكر تُحسنهُ انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ أَيْضا فِي الشّعب

وَأعله ابْن عدي والعقيلي فِي كِتَابَيْهِمَا بِعَبْد الْملك

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ أَيْضا وَالْبَزَّار من حَدِيث عبد الله بن لَهِيعَة عَن عبد الله ابْن زِيَاد بن أنعم عَن عبَادَة بن نسي عَن كثير بن مرّة عَن عَوْف بن مَالك مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ وَالْبَزَّار أَيْضا من حَدِيث هِشَام بن عبد الرَّحْمَن عَن الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء

وَلم يروه الْبَغَوِيّ فِي تَفْسِيره إِلَّا بِهَذَا اللَّفْظ من حَدِيث أبي بكر بِسَنَد البرَاز وَمَتنه

(101/695)

1173 - الْحَدِيث الرَّابِع

رُوِيَ أَنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَأَلَ لَيْلَة الثَّالِث عشر من شعْبَان فِي أمته فَأعْطِي الثُّلُث مِنْهَا ثمَّ سَأَلَ لَيْلَة الرَّابِع عشر فَأعْطَى الثُّلُثَيْنِ ثمَّ سَأَلَ لَيْلَة الْخَامِس عشر فَأعْطِي الْجَمِيع إِلَّا من شرد عَلَى الله شِرَاد الْبَعِير

قلت غَرِيب

1174 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أول الْآيَات الدُّخان ونزول عِيسَى ابْن مَرْيَم ونار تخرج

من قَعْر عدن أبين تَسوق النَّاس إِلَى الْمَحْشَر) قَالَ حُذَيْفَة يَا رَسُول الله فَمَا الدُّخان فَتلا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَارْتَقِبْ يَوْم تَأْتي السَّمَاء بِدُخَان الْآيَة وَقَالَ (يَمْلَأ مَا بَين الْمشرق وَالْمغْرب يمْكث أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَة أما الْمُؤمن فَيُصِيبهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَام وَأما الْكَافِر فَهُوَ كَالسَّكْرَانِ يخرج من مَنْخرَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَدبره)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنِي عِصَام بن رواد بن الْجراح ثَنَا أبي ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ ثَنَا مَنْصُور بن الْمُعْتَمِر عَن ربعي بن حِرَاش قَالَ سَمِعت حُذَيْفَة ابْن الْيَمَان يَقُول قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أول الْآيَات الدَّجَّال ونزول عِيسَى بن مَرْيَم ونار تخرج من قَعْر عدن أبين وَالدُّخَان) قَالَ حُذَيْفَة يَا رَسُول الله وَمَا الدُّخان فَتلا إِلَى آخِره سَوَاء

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَمن طَرِيق الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الْبَغَوِيّ

وَضَعفه الطَّبَرِيّ فَقَالَ وحَدثني مُحَمَّد مُحَمَّد بن خلف الْعَسْقَلَانِي انه سَأَلَ رَوَّادًا عَن هَذَا الْحَدِيث هَل سَمعه من سُفْيَان فَقَالَ لَا قَالَ فَقلت أَقرَأته عَلَيْهِ

(102/695)

قَالَ لَا قَالَ فَقلت لَهُ أَقْرِئ عَلَيْهِ وَأَنت حَاضر فَقَالَ لَا قلت فَمن أَيْن جِئْت بِهِ قَالَ جَاءَنِي بِهِ قوم فَعَرَضُوهُ عَلَي وَقَالُوا لي اسْمَعْهُ منا فَقَرَءُوهُ ثمَّ ذَهَبُوا فَحَدثُوا بِهِ عني قَالَ ابْن كَثِير وَقد

أَجَاد الطَّبَرِيّ فَإِنَّهُ مَوْضُوع بِهَذَا السَّنَد انْتَهَى

1175 - قَوْله

عَن ابْن مَسْعُود قَالَ خمس قد مَضَت الرّوم وَالدُّخَان وَالْقَمَر وَالْبَطْشَة وَاللزَام

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي التَّوْبَة عَن ابْن مَسْعُود قَالَ خمس قد مضين الرّوم وَالدُّخَان وَاللزَام وَالْبَطْشَة وَالْقَمَر انْتَهَى

1176 - الْحَدِيث السَّادِس

رُوِيَ انه قيل لِابْنِ مَسْعُود إِن قَاصا عِنْد أَبْوَاب كِنْدَة يَقُول إِنَّه دُخان يَأْتِي يَوْم الْقِيَامَة فَيَأْخُذ بِأَنْفَاس النَّاس فَقَالَ من علم علما فَلْيقل بِهِ وَمن لم يعلم فَلْيقل الله أعلم ثمَّ قَالَ أَلا وَسَأُحَدِّثُكُمْ أَن قُرَيْشًا لما استعصمت عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا عَلَيْهِم فَقَالَ (اللَّهُمَّ أشدد وطأتك عَلَى مُضر وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِم سِنِين كَسِنِي يُوسُف فَأَصَابَهُمْ الْجهد حَتَّى أَكلُوا الْجِيَف وَالْعِلْهِز وَكَانَ الرجل يرَى بَين السَّمَاء وَالْأَرْض الدُّخان وَكَانَ يحدث الرجل فَيسمع كَلَامه وَلَا يراهُ من الدُّخان فَمَشى إِلَيْهِ أَبُو سُفْيَان وَنَفر مَعَه وَنَاشَدُوهُ الله وَالرحم وَعَاهَدُوهُ إِن دَعَا لَهُم وكشف عَنْهُم أَن يُؤمنُوا فَلَمَّا كشف عَنْهُم رجعُوا إِلَى شركهم

(103/695)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي الاسْتِسْقَاء وَفِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة من حَدِيث مَسْرُوق قَالَ كُنَّا عِنْد عبد الله بن مَسْعُود جُلُوسًا وَهُوَ مُضْطَجع بَيْننَا فَأَتَاهُ رجل فَقَالَ يَا أَبَا عبد الرَّحْمَن إِن قَاصا عِنْد أَبْوَاب كِنْدَة يقص وَيَزْعُم فِي هَذِه الْآيَة يَوْم تَأْتي السَّمَاء بدُخَان مُبين قَالَ يَأْتِي النَّاس يَوْم الْقِيَامَة دُخان فَيَأْخُذ بِأَنْفَاسِهِمْ حَتَّى يَأْخُذهُمْ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَام فَقَالَ عبد الله من علم علما فَلْيقل بِهِ وَمن لم يعلم فَلْيقل الله اعْلَم فَإِن من فقه الرجل أَن يَقُول لما لَا علم لَهُ الله أعلم إِنَّمَا كَانَ هَذَا أَن قُرَيْشًا لما اسْتَعْصَتْ عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دَعَا عَلَيْهِم بسنين كَسِنِي يُوسُف فَأَصَابَهُمْ قحط وَجهد حَتَّى أَكلُوا الْجُلُود وَالْمَيتَات وَكَانَ ينظر إِلَى السَّمَاء فَيرَى بَينه وَبَينهَا كَهَيْئَةِ الدُّخان من الْجهد فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَان فَقَالَ يَا مُحَمَّد إِنَّك جِئْت تَأمر بطَاعَة الله وَبِصِلَة الرَّحِم وَإِن قَوْمك قد هَلَكُوا فَادع الله لَهُم فَدَعَا لَهُم فَمُطِرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُم الرَّفَاهِيَة عَادوا إِلَى مَا كَانُوا فَأَنْزل الله تَعَالَى فَارْتَقِبْ يَوْم تَأْتي السَّمَاء بدُخَان مُبين الْآيَة انْتَهَى

وَلم أجد العلهز فِي شَيْء من طرقه وَإِنَّمَا هُوَ مَوْجُود فِي حَدِيث آخر رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي تَفْسِير سُورَة الْمُؤمنِينَ من حَدِيث ابْن عَبَّاس قَالَ جَاءَ أَبُو سُفْيَان إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا مُحَمَّد أَنْشدك الله وَالرحم فقد أكلنا العلهز يَعْنِي الْوَبر وَالدَّم فَأَنْزل الله تَعَالَى وَلَقَد أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لربهم وَمَا يَتَضَرَّعُونَ انْتَهَى

(104/695)

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجاهُ وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة

وَقد رُوِيَ فِي قصَّة أبي سُفْيَان مَا دلّ عَلَى أَن ذَلِك كَانَ بعد الْهِجْرَة وَلَعَلَّه مرَّتَانِ انْتَهَى

1177 - الْحَدِيث السَّابِع

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا من مُؤمن مَاتَ فِي غربَة غَابَتْ فِيهَا بواكيه إِلَّا بَكت عَلَيْهِ السَّمَاء وَالْأَرْض)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السّبْعين من حَدِيث يَحْيَى ابْن يَحْيَى ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عَيَّاش عَن صَفْوَان بن عَمْرو عَن شُرَيْح بن عبيد الْحَضْرَمِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن الْإِسْلَام بَدَأَ غَرِيبا وَسَيَعُودُ غَرِيبا أَلَا لَا غربَة عَلَى مُؤمن مَا مَاتَ مُؤمن فِي غربَة غَابَتْ عَنهُ فِيهَا بواكيه إِلَّا بَكت عَلَيْهِ السَّمَاء وَالْأَرْض) انْتَهَى ثمَّ قَالَ هَكَذَا وجدته مُرْسلا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثني يَحْيَى بن طَلْحَة ثَنَا عِيسَى بن يُونُس عَن صَفْوَان بن عَمْرو بِهِ سَوَاء

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ

1178 - الْحَدِيث الثَّامِن

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا تسبوا تبعا فَإِنَّهُ كَانَ قد أسلم)

قلت رُوِيَ من حَدِيث سهل بن سعد السَّاعِدِيّ رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من طَرِيق ابْن لَهِيعَة ثَنَا أَبُو زرْعَة عَمْرو بن جَابر الْحَضْرَمِيّ عَن سهل بن سعد السَّاعِدِيّ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (لَا تسبوا تبعا فَإِنَّهُ كَانَ قد أسلم) انْتَهَى

(105/695)

وَمن طَرِيق أَحْمد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَمن طَرِيق الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الْبَغَوِيّ وَكَذَلِك رَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه عَن الطَّبَرَانِيّ وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيريهما

وَله طَرِيق آخر عِنْد الدَّارَقُطْنِيّ فِي غرائب مَالك رَوَاهُ من حَدِيث حبيب عَن مَالك عَن أبي حَازِم بن دِينَار أَنه سمع سهل بن سعد السَّاعِدِيّ يَقُول قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا تَلْعَنُوا تبعا فَإِنَّهُ كَانَ قد أسلم) انْتَهَى ثمَّ قَالَ تفرد بِهِ حبيب عَن مَالك

وَحَدِيث ابْن عَبَّاس رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه ثَنَا أَحْمد بن عَلِي الْأَبَّار ثَنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن أبي بزَّة ثَنَا مُؤَمل بن إِسْمَاعِيل ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن سماك ابْن حَرْب عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا تسبوا تبعا فَأَنَّهُ كَانَ قد أسلم) انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَيْضا فِي مُعْجَمه الْوسط وَقَالَ لم يروه عَن سُفْيَان إِلَّا مُؤَمل انْتَهَى

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث مُحَمَّد ابْن زَكَرِيَّا ثَنَا أَبُو حُذَيْفَة ثَنَا سُفْيَان بِهِ سندا ومتنا

1179 - الْحَدِيث التَّاسِع

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (مَا أَدْرِي أَكَانَ تبع نَبيا أَو غير نَبِي)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من طَرِيق عبد الرازق أَنا معمر عَن ابْن أبي ذِئْب عَن الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مَا أَدْرِي تبع كَانَ نَبيا أَو غير نَبِي) انْتَهَى

وَلم أَجِدهُ فِي تَفْسِير عبد الرازق

(106/695)

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب السّنة من حَدِيث أبي سعيد الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مَا أَدْرِي تبع أَلَعِين هُوَ أم لَا وَمَا أَدْرِي أَعُزَيْر نَبِي أم لَا) انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك إِلَّا أَنه قَالَ عوض عُزَيْر ذُو القرنين وَزَاد وَمَا أَدْرِي الْحُدُود كَفَّارَات لأَهْلهَا أَو لَا انْتَهَى وَقَالَ عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجاهُ

وَذكره ابْن عبد الْبر فِي كتاب الْعلم ثمَّ قَالَ قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ تفرد بِهِ عبد الرازق وَحَدِيث عبَادَة بن الصَّامِت أَن الْحُدُود كَفَّارَات لأَهْلهَا أصح وَأثبت إِسْنَادًا ثمَّ سَاقه من طَرِيق الْبُخَارِيّ بِسَنَدِهِ إِلَى عبَادَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ

تُبَايِعُونِي عَلَى أَن لَا تُشْرِكُوا بِاللَّه شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا فَمن وَفَى مِنْكُم فَأَجره عَلَى الله وَمن أصَاب من ذَلِك شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَة لَهُ)

1180 - الْحَدِيث الْعَاشِر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (من قَرَأَ حم الدُّخان فِي لَيْلَة أصبح يسْتَغْفر لَهُ سَبْعُونَ أَلف ملك)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي فَضَائِل الْقُرْآن من حَدِيث عمر بن أبي خثعم ثَنَا يَحْيَى بن أبي كثير عَن أبي سَلَمَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ حم الدُّخان) إِلَى آخِره وَقَالَ حَدِيث غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من هَذَا الْوَجْه وَعمر بن أبي خثعم يضعف قَالَ مُحَمَّد مُنكر الْحَدِيث انْتَهَى

(107/695)

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع عشر وَقَالَ عمر بن أبي خثعم مُنكر الحَدِيث انْتَهَى وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بعمر بن عبد الله بن أبي خثعم وَقَالَ إِنَّه مُنكر الحَدِيث

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَمن طَرِيقه رَوَاهُ الْبَغَوِيّ

وَقَالَ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء عمر بن أبي رَاشد اليمامي وَهُوَ الَّذِي يُقَال لَهُ عمر بن عبد الله بن أبي خثعم كَانَ يروي الموضوعات عَن الثِّقَات لَا يحل كتب حَدِيثه إِلَّا عَلَى سَبِيل الْقدح وَأسْند عَن ابْن معِين انه قَالَ فِيهِ لَيْسَ بِشَيْء

1181 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

وَعنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ حم الَّتِي يذكر فِيهَا الدُّخان فِي لَيْلَة جُمُعَة أصبح مغفورا)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي فَضَائِل الْقُرْآن أَيْضا من حَدِيث هِشَام أبي الْمِقْدَام عَن الْحسن عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ حم الدُّخان فِي لَيْلَة الْجُمُعَة غفر لَهُ) انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث لَا نعرفه إِلَّا من هَذَا الْوَجْه وَأَبُو الْمِقْدَام يضعف وَالْحسن لم يسمع من أبي هُرَيْرَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ بِهَذَا السَّنَد أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده وَفِيه عَن الْحسن قَالَ سَمِعت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذكره

وَهُوَ مُخَالف لِلتِّرْمِذِي كَذَا وجدته فِي ثَلَاث نسخ وَعنهُ الإِمَام أَبُو بكر بن السّني فِي عمل الْيَوْم وَاللَّيْلَة وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان كلهم بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء قَالَ الْبَيْهَقِيّ تفرد بِهِ هِشَام أَبُو الْمِقْدَام وَهُوَ ضَعِيف انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه والثعلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 272.261﴾

(108/695)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الدّخان» (44)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«فِيها يُفْرَقُ» (4) يفصل ويقسط . .

«إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» (5 - 6) نصب على مجاز نصب المصادر . قال أبو عبيدة : سمعت ابن عون يقول : قد مضى الدخان «1» وزعم غيره أن الدخان هو الجدب والسنون التي دعا النبي صلى اللّه عليه فيها على مضر ، اللهم اشدد وطأتك على

مضر ، وقال بعضهم وطأتك «2» . .

«يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى» (16) يقال : إنها يوم بدر «3» . .

«وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً» (24) ساكنا «4» : يقال : أره على نفسك أي ارفق بها ولا تخرق . يقال : عيش راه ، قال بشر بن أبى خازم :

فإن أهلك عمير فربّ زحف يشبّه نقعه رهوا ضبابا

«5» [834]

---

(1) . - 5 «قد مضى الدخان» : وفى الطبري (25/ 61 : حدثنا أبو كريب قال حدثنا أبو بكر ابن عباس عن عاصم قال شهدت جنازة فيها زيد بن على فأنشأ يحدث يومئذ فقال إن الدخان يجىء قبل يوم القيامة فيأخذ بأنف المؤمن الزكام ويأخذ بمسامع الكافر قال قلت وحد اللّه إن صاحبنا عبد اللّه قال غير هذا . قال إن الدخان قد مضى . . .

(2) . - 6 «اللهم . . . وطأتك» : هذا الحديث فى النهاية واللسان (وطأ) وقالا صاحبهما :

وكان حماد بن سلمة يروى هذا الحديث أشدد وطدتك على مضر والوطد الإثبات والغمز فى الأرض .

(3) . - 8 «يقال . . . بدر» : هو قول ابن مسعود ! وابن عباس وأبى بن كعب ومجاهد

والضحاك، وانظر القرطبي (16/ 134).

(4). - 9 «ساكنا»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 339).

(5). - 834: فى اللسان (رهو).

(109/695)

«أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ» (37) ملوك اليمن كان كل واحد منهم يسمّى تبّعا لأنه يتبع صاحبه وكذلك الظل لأنه يتبع الشمس «1» وموضع تبّع فى الجاهلية موضع الخليفة فى الإسلام وهم ملوك العرب الأعاظم..

«يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا» (41) ابن عم عن ابن عم..

«ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ» (49) فى الدنيا..

«وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ» (54) جعلناهم أزواجا كما تزوج النعل بالنعل جعلناهم اثنين اثنين جميعا بجميع. «2» «3». انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 208. 209﴾

---

(1). - 1 - 2 «تبع... الشمس»: رواه البخاري يقول وقال غيره تبع... إلخ.

وقال ابن حجر: قول أبى عبيدة بلفظه وزاد موضع... الأعاظم (فتح الباري 8/

439) .

(2) . - 835 : من قصيدة مفضلية وهى فى الشرح 526 - 544 .

(3) . - 836 : فى اللسان (حور) . [. . . . .]

(110/695)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن حم وهى السورة التي يذكر فيها «الدخان»

[سورة الدخان (44) : آية 4]

فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

قوله سبحانه : فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ [4] وهذه استعارة ، وقد مضى الكلام على مثلها فى بنى إسرائيل . والمراد - والله أعلم - تبيين كل أمر حكيم فى هذه الليلة ، حتى يصير كفرق الصبح فى بيانه ، أو مفرق الطريق فى اتضاحه . ومنه قولهم : فرقت الشعر . إذا خلصت بعضه من بعض ، وبيّنت مخطّ وسطه بالمدرى «1» أو بالأصبع .

[سورة الدخان (44) : آية 19]

وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (19)

وقوله سبحانه: وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ [19] وهذه استعارة.

والمراد بالعلوّ هاهنا: الاستكبار على اللّه سبحانه، وعلى أوليائه.

ويوصف المستكبر فى كلامهم بأن يقال: قد شمخ بأنفه. وهذه الصفة مثل وصفه بالعلو.

لأن الشامخ: العالي.

وقال سبحانه: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ «2» أي تجبّر فيها، واستكبر على أهلها.

وليس يراد بذلك العلوّ الذي هو الصعود. وإنما يراد به العلوّ الذي هو الاستكبار والعتوّ.

وضدّ وصفهم المستكبر بالعلو والتطاول وصفهم المتواضع بالخشوع والتضاؤل.

[سورة الدخان (44): آية 29]

فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (29)

وقوله سبحانه: فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ [29] وهذه استعارة. وقد قيل فى معناها أقوال: أحدها أن البكاء هاهنا بمعنى الحزن، فكأنه

---

(1) المدرى: المشط الذي يدرى به الرأس ويمشط.

(2) سورة القصص. الآية رقم 4.

تعالى قال : فلم تحزن عليهم السماء والأرض بعد هلاكهم وانقطاع آثارهم . وإنما عبّر سبحانه عن الحزن بالبكاء لأن البكاء يصدر عن الحزن فى أكثر الأحوال . ومن عادة العرب أن يصفوا الدّار إذا ظعن عنها سكّانها ، وفارقها قطّانها بأنها باكية عليهم ، ومتوجعة لهم . على طريق المجاز والاتساع . بمعنى ظهور علامات الخشوع والوحشة عليها ، وانقطاع أسباب النعمة والأنسة عنها .

ووجه آخر وهو أن يكون المعنى : لو كانت السموات والأرض من الجنس الذي يصح منه البكاء لم تبكيا عليهم ، ولم تتوجّعا لهم ، إذ كان اللّه سبحانه عليهم ساخطا ، ولهم ماقتا .

ووجه آخر ، قيل معنى ذلك : ما بكى عليهم من السموات والأرض ما يبكى على المؤمن عند وفاته ، من مواضع صلواته ، ومصاعد أعماله ، على ما ورد الخبر به . «1»

وفى ذلك وجهان آخران يخرج بهما الكلام عن طريق الاستعارة ، فأحدهما أن يكون المعنى : فما بكى عليهم أهل السماء والأرض . ونظائر ذلك فى القرآن كثيرة . والآخر أن يكون المعنى أنه لم ينتصر أحد لهم ، ولم يطلب طالب بثأرهم .

ومضى فى أشعار العرب : بكينا فلانا بأطراف الرماح ، وبمضارب الصفاح . أي طلبنا دمه ، وأدركنا ثأره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 303 . 304 ﴾

(1) روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان : باب ينزل منه رزقه ، وباب يدخل منه كلامه وعمله ، فإذا مات فقداه فبكيا عليه . ثم تلا قوله تعالى فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ انظر «الجامع لأحكام القرآن» ج 16 ص 140 وقال على وابن عباس رضى اللّه عنهما : إنه يبكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله من السماء . (نفس المصدر السابق) .

(112/695)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الدخان

" حم " الدخان . بدأت السورة بقسم بالقران الكريم " والكتاب المبين " ، أى الواضح الجلى " إنا أنزلناه في ليلة مباركة " ، هى يقينا ليلة القدر من ليالى رمضان . وأخطأ المفسرون الذين جوزوا أن تكون ليلة النصف من شعبان ! وإنما بوركت الليلة بما نزل فيها من الوحى الخاتم ، فهو وحى عامر بالحكمة والنور والخير الكثير " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . . . " . " وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه . . . " . وبركة هذا الكتاب أنه

يصنع من البشر ملائكة ، وأنه صنع من العرب الهمل أمة ذات حضارة لا تغيب عنها الشمس . " إنا كنا منذرين " للطغيان السائد ، وهادمى قواعده ، وهذا من قبيل التخلية قبل التحلية ، فما قامت عدالة الإسلام إلا بعد الإجهاز على الممالك الظالمة التى سبقته . ومضت الآيات تؤكد عقيدة التوحيد وحاجة الأولين والآخرين إليها . ومعروف أن العرب قاوموا أول أمرهم دعوة الإسلام ، وأحرجوا حملتها وأخرجوهم من ديارهم ، فدعا النبى ربه " اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف" . فأجدبت الأرض وانقطع المطر وجاع المشركون وأظلمت الدنيا فى عيونهم فكأن الجو غطاه الدخان ، وملأته غبرة . فذهب ناس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألونه أن يعفو عن قومه ! ولكنهم بعد العفو عنهم وعودة العافية لهم نكثوا ! ! " إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون " . وقد انتقم الله منهم يوم بدر فأهلك رؤساء الكفر وألحق بهم هزيمة مخزية . ذلك تفسير الجمهور

للآيات .

(113/695)

وهناك رأى آخر أنا إليه أميل . ربما كان الدخان آية يكشف عنها الغد ؟ وكما يوجل العالم الآن من ثقب " الأوزون " وخطره على الناس ، قد تتمخض الآفاق عن مصيبة داهمة وعذاب أليم لما شاع فى الأرض من إلحاد وفسوق ، ولما يلقاه الإسلام من خصومة وجفاء ، ولما يوجه إلى شخص الرسول من مفتريات . عندئذ يجأر الناس إلى الله طالبين الرحمة ، ونادمين على موقفهم الخائن من الرسالة الخاتمة . فهل يصدقون ؟ أيا ما كان الأمر ، فإن الحساب الجامع عند اللقاء الأخير ، يومئذ توفى كل نفس ما قدمت وأخرت ! ! وقد بينت السورة أن حملة الوحى الأول مستهم البأساء والضراء ، فإن موسى ناشد فرعون أن يطلق سراح قومه ، وأن يتركهم ينطلقون معه إلى بلد آخر ولكن فرعون أبى إلا حبسهم على الأذى ، فماذا كانت عاقبته ومن معه ؟ أهلكوا جميعا "كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين " . والتاريخ يعيد نفسه ، وعاقبة الظلمة فى كل عصر واحدة . والمهم أن أصحاب الدعوات يرتفعون إلى مستواها وتصدق أعمالهم أقوالهم ، فإذا آل الأمر إليهم كانوا نماذج للعدل والطهر ! والمحزن أن الصلاح قصير الأجل فى حياة أغلب المتدينين . فسرعان ما تغلبهم أهواؤهم ويحيدون عن تراث أنبيائهم . يقول تعالى فى اليهود " ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين " . فماذا فعلوا بعدما تحرروا وملكوا ؟ أظهروا فى الأرض الفساد فمزقهم القدر الساهر . . واختار القدر بعدهم العرب ، وأورثهم القرآن

العظيم ، فساروا به أشواطا ثم تخفوا عنه إلا قليلا ، فأدركهم العقاب العتيد المرصد لكل منحرف ، فهم الآن شر اذم يلغ فى دمها كل جبار ! إن الذين يخلصون للوحى يرثون خير الدنيا والآخرة . ذلك هو وعد الله للمؤمنين الصالحين . وأصحاب الحضارة الحديثة على قدر كبير من الذكاء ، بيد أنهم لا يلتفتون للحياة الآخرة ، ولا يخطر ببالهم أنهم ملاقو الله

(114/695)

يوما ، وهم يشبهون أهل الجاهلية من عرب الجزيرة الذين كانوا يسخرون من الحياة بعد الموت ، ويعدونه حديث خرافة . .

" إن هؤلاء ليقولون * إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين * فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين " . وسيجمع الله الآباء والأبناء ، ويحاسب كلا على ما قدمت يداه ، وإلا كانت الحياة عبثا باطلا ، وكفاحا فارغا هازلا " وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون * إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين " . والحق الذى خلقت به السموات والأرض يظهر فى القوانين الدقيقة التى تحكم الذرة والمجرة ، والنملة والفيل ، والسهول والغابات ، والبر والبحر ! وهناك علوم جادة تبحث فى هذه الأرجاء كلها ، وتعود بالعجائب الهاتفة بعظمة الخالق . . وكذلك يظهر هذا الحق فى

حساب أخير يفصل بين المسلمين والمجرمين ، والذاكرين والغافلين ، وذوى الضمائر الحية والضمائر الميتة ! ويمتاز القرآن الكريم بأنه غلب ضجيج الحياة البشرية بوعده ووعيده ، وأثبت من صور الدار الآخرة ما ينفى الغرور بهذه الدار الدنيا . وقد ختمت سورة الدخان بأحد هذه النماذج " إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين * يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون " . ماذا ينتظر الأشرار ؟ " إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم " . وماذا ينتظر الأخيار ؟ " إن المتقين في مقام أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين " . "إن الله أنزل القرآن على محمد ليوقظ الغافلين ويصنع به أمة ذات رسالة عظيمة " فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون * فارتقب إنهم مرتقبون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 386.384 ﴾

(115/695)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والتسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والتسعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الدخان

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ من السورة

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/696)

قوله تعالى ﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الجبار الواحد القهار (الرحمن) الذي عم بنعمة النذارة (الرحيم) الذي خص أهل وداده برحمة البشارة .

تقدمت الإشارة إلى شيء من أسرار أخواتها .

ولما ختمت الزخرف ببشارة باطنة ونذارة ظاهرة ، وكان ما بشر به سبحانه من علم

العرب وسلامتهم من غوائل ما كانوا فيه مستبعداً ، افتتح هذا بمثل ذلك مقسماً عليه .

فقال :

(6/696)

﴿ والكتاب ﴾ أي الجامع لكل خير ﴿ المبين ﴾ أي البين في نفسه ، الموضح لما تقدم من دقيق البشارة لأهل الصفاء والبصارة ، واضح النذارة بصريح العبارة ، وغير ذلك من كل ما يراد منه ، ولأجل ما ذكر من الاستبعاد أكد جواب القسم وأتى به في مظهر العظمة فقال : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ أنزلناه ﴾ أي الكتاب إما جميعاً إلى بيت العزة في سماء الدنيا أو ابتدأنا إنزاله إلى الأرض ﴿ في ليلة مباركة ﴾ أي ليلة القدر – قاله ابن عباس - رضى الله عنهما - أو النصف من شعبان ، فلذلك يتأثر عنه من التأثيرات ما لم تحط به الأفهام في الدين والدنيا ، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري : ينزل إلى سماء الدنيا كل سنة بمقدار ما كان جبريل عليه السلام ينزله على الرسول - صلى الله عليه وسلم - في تلك السنة وسماها ﴿ مباركة ﴾ لأنها ليلة افتتاح الوصلة وأشد الليالي بركة يكون العبد فيها حاضراً بقلبه مشاهداً لربه ، يتنعم فيها بأنوار الوصلة ويجد فيها نسيم القربة ، وقال الرازي في اللوامع : وأعظم الليالي بركة ما كوشف فيها بحقائق الأشياء .

ولما كان هذا موضحاً لما لوح به آخر تلك من البشارة في ظاهر النذارة ، علل الإنزال أو استأنف ما فيه من واضح النذارة الموصل إلى المعاني المقتضية للبشارة ، فقال مؤكداً لأجل تكذيبهم : ﴿ إنا ﴾ أي على ما نحن عليه من الجلال ﴿ كنا ﴾ بما لنا من العظمة دائماً لعبادنا ﴿ منذرين ﴾ لا نؤاخذهم من غير إنذار ، فلأجل رحمتنا لهؤلاء القوم وهم أرق الناس طبعاً وأصفاهم قلوباً وأوعاهم سمعاً نوصلهم بما هيأناهم به من ذلك إلى ما لم يصل غيرهم إليه ولم يقاربه من المعالي في الأخلاق والشمائل والاكتساب لجميع الفضائل .

(7/696)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه ، وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآناً عربياً إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون ﴾ [الزخرف : 44] وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة ، افتتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض ، وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ ثم ذكر من فضلها فقال ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ فحصل وصف الكتاب بخصائصه

والتعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا وتقدم الأهم من ذلك في السورتين قبل ، وتأخر التعريف بوقت إنزاله إلى السماء الدنيا إذ ليس في التأكيد كالمتقدم ، ثم وقع إثر هذا تفصيل وعيد قد أجمل في قوله تعالى ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ وما تقدمه من قوله ﴿ أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ﴾ وقوله سبحانه ﴿ أم يحسبون أنا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ وتنزيهه سبحانه وتعالى نفسه عن عظيم افترائهم في جعلهم الشريك والولد - إلى آخر السورة ، ففصل بعض ما أجملته هذه الآي في قوله تعالى في صدر سورة الدخان ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ وقوله تعالى ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ ، والإشارة إلى يوم بدر ، ثم ذكر شأن غيرهم في هذا وهلاكهم بسوء ما ارتكبوا ليشعروا أن لا فارق إن هم عقلوا واعتبروا ، ثم عرض بقرنهم في مقالته ما بين لابتيها أعز مني ولا أكرم ، ثم ذكر تعالى : ﴿ شجرة الزقوم ﴾ إلى قوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ والتحم هذا كله التحاماً يبهر العقول ، ثم اتبع بذكر حال المتقين جرياً على المطرد من شفع الترغيب والترهيب ليبين حال الفريقين وينتج علم الواضح من الطريقين ، ثم قال لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ وقد أخبره مع بيان الأمر ووضوحه أنه ﴿ إنما

يتذكر من يخشى ﴾ ثم قال ﴿ فارتقب ﴾ وعدك ووعيدهم ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ .

ولما وصف ليلة إنزال هذا القرآن بالبركة ، وأعلم أن من أعظم بركتها النذارة ، وكانت النذارة مع أنها فرقت من البشارة أمراً عظيماً موجباً لفرقان ما بين المحاسن والمساوىء من الأعمال قائدة إلى كل خير بدليل أن أتباع ذوي البركة من العلماء ، وإذا تعارض عندهم أمر العالم والظالم ، قدموا أمر الظالم لما يخافون من نذارته ، وأهملوا أمر العالم وإن عظم الرجاء لبشارته ، قال معللاً لبركتها بعد تعليل الإنزال فيها ، ومعمماً لها يحصل فيها من بركات التفضيل : ﴿ فيها ﴾ أي الليلة المباركة سواء قلنا : إنها ليلة القدر أو ليلة النصف أصالة أو مآلاً ﴿ يفرق ﴾ أي ينشر ويبين ويفصل ويوضح مرة بعد مرة ﴿ كل أمر حكيم ﴾ أي محكم الأمر لا يستطاع أن يطعن فيه بوجه من جميع ما يوحى به من الكتب وغيرها والأرزاق والآجال والنصر والهزيمة والخصب والقحط وغيرها من جميع أقسام الحوادث وجزئياً في أوقاتها وأماكنها ، ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء فيزدادون بذلك إيماناً ، قال البغوي رحمه الله : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر ، والأرزاق والآجال ، قال : وروى أبو الضحى عنه أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان فيسلمها إلى أربابها في ليلة القدر .

وقال الكرماني : فيسلمها إلى إلى أربابها وعملها من الملائكة ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان .

(9/696)

ولما كان هذا مفهماً لأمور لا حصر لها ، بين أنه لا كلفة عليه سبحانه فيه ، ولا تجدد عنده في وقت من الأوقات لشيء لم يكن قبل إلا تعليق القدرة على وفق الإرادة ، فقال مؤكداً لفخامة ما تضمنه وصفه بأنه حكيم : ﴿ أمراً ﴾ أي حال كون هذا كله مع انتشاره وعدم انحصاره أمراً عظيماً جداً واحداً لا تعدد فيه دبرناه في الأزل وقررناه وأتقناه واخترناه ليوجد في أوقاته بتقدير ، ويبرز على ما له من الإحكام في أحيانه في أقل من لمح البصر ، ودل على أنه ليس مستغرقاً لما تحت قدرته سبحانه بإثبات الجار فقال : ﴿ من عندنا ﴾ أي من العاديات والخوارق وما وراءها .

(10/696)

ولما بين حال الفرقان الذي من جملته الإنذار ، علله بقوله مؤكداً لما لهم من الإنكار :

﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من أوصاف الكمال وكمال العظمة ﴿ كنا ﴾ أي أزلاً وأبداً

﴿ مرسلين ﴾ أي لنا صفة الإرسال بالقدرة عليها في كل حين والإرسال لمصالح العباد ، لا بد فيه من الفرقان بالبشارة والنذارة وغيرهما حتى لا يكون لبس ، فلا يكون لأحد على الله حجة بعد الرسل ، وهذا الكلام المنتظم والقول الملتحم بعضه ببعض ، المتراصف أجمل رصف في وصف ليلة الإنزال دال على أنه لم تنزل صحيفة ولا كتاب إلا في هذه الليلة ، فيدل على أنها ليلة القدر للأحاديث الواردة في أن الكتب كلها نزلت فيها كما بينته في كتابي " مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور " وكذا قوله في سورة القدر ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ فإن الوحي الذي هو مجمع ذلك هو روح الأمور الحكيمة ، وبين سبحانه حال الرسالات بقوله : ﴿ رحمة ﴾ وعدل لأجل ما اقتضاه التعبير بالرحمة عما كان من أسلوب التكلم بالعظمة من قوله " منا " إلى قوله : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك وإرسال كل نبي مضى من قبلك ، فإن رسالاتهم كانت لبث الأنوار في العباد ، وتمهيد الشرائع في العباد ، حتى استنارت القلوب ، واطمأنت النفوس ، بما صارت تعهد من شرع الشرائع وتوطئة الأديان ، فتسهلت طرق الرب لتعميم رسالتك حتى ملأت أنوارك الآفاق ، فكنت نتيجة كل من تقدمك من الرفاق .

ولما كانت الرسالة لا بد فيها من السمع والعلم ، قال : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده

﴿ السميع ﴾ أي فهو الحي المريد ﴿ العليم ﴾ فهو القدير البصير المتكلم ، يسمع ما يقوله رسله وما يقال لهم ، وكل ما يمكن أن يسمع وإن كان بحيث لا يسمعه غيره من الكلام النفسي وغيره الذي هو بالنسبة إلى سمعنا كنسبة ما تسمعه من الكلام إلى سمع الأصم وسمعه ليس كأسماعنا ، بل هو متعلق بالمسموعات على ما هي عليه قبل وجودها كما أن علمه متعلق بالمعلومات كما هي قبل كونها .

(11/696)

ولما ذكر إنزال الكتاب على تلك الحال العظيمة البركة لأجل الإرسال ، وبين أن معظم ثمرة الإرسال الإنذار لما للمرسل إليهم من أنفسهم من التوراة ، دل على ذلك من التدبير المحكم الذي اقتضته حكمة التربية فقال : ﴿ رب ﴾ أي مالك ومنشئ ومدبر ﴿ السماوات ﴾ أي جميع الأجرام العلوية ﴿ والأرض ﴾ وما فيها ﴿ وما بينهما ﴾ مما تشاهدون من هذا الفضاء ، وما فيه من الهواء وغيره ، مما تعلمون من اكتساب العباد ، وغيرهما مما لا تعلمون ، ومن المعلوم أنه ذو العرش والكرسي فعلم بهذا أنه مالك الملك كله .

ولما كانوا مقرين بهذا الربوبية ويأنفون من وصفهم بأنهم غير محققين لشيء يعترفون به ، أشار إلى ما يلزمهم بهذا الإقرار إن كانوا كما يزعمون من التحقيق فقال : ﴿ إن كنتم

موقنين ﴾ أي إن كان لكم إيقان بأنه الخالق لما ركز في غرائزكم وجبلاتكم رسوخ العلم الصافي السالم عن شوائب الأكدار من حظوظ النفوس وعوائق العلائق ، فأنتم تعلمون أنه لا بد لهذه الأجرام الكثيفة جداً المتعالي بعضها عن بعض بلا ممسك تشاهدونه مع تغير كل منها بأنواع الغير من رب ، وأنه لا يكون وهي على هذا النظام إلا وهو كامل العلم شامل القدرة ، مختار في تدبيره ، حكيم في شأنه كله وجميع تقديره ، وأنه لا يجوز في الحكمة أن يدع من فيها من العلماء العقلاء الذين هم خلاصة ما فيهما هملاً يبغي بعضهم على بعض من غير رسول معلم بأوامره ، وأحكامه وزواجره ، منبه لهم على أنه ما خلق هذا الخلق كله إلا لأجلهم ، ليحذروا سطواته ويقيدوا بالشكر على ما حباهم به من أنواع هباته .

(12/696)

ولما ثبت بهذا النظر الصافي ربوبيته ، وبعدم اختلال التدبير على طول الزمان وحدانيته ، وبعدم الجري على نظام واحد من كل وجه فعله بالاختيار وقدرته ، صرح بذلك منبهاً لهم على أن النظر الصحيح أنتج ذلك ولا بد فقال تعالى : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي وإلا لنازعه في أمرهما أو بعضه منازع ، أو أمكن أن ينازع فيكون محتاجاً لا محالة ، وإلا لدفع عنه من يمكن نزعه له وخلافه إياه ، فلا يكون صالحاً للتدبير والقهر لكل من يخالف رسله والإيحاء لكل

من يوافقهم على مر الزمان وتطاول الدهر ومد الحدثان على نظام مستمر ، وحال ثابت مستقر .

ولما ثبت أنه لا مدبر للوجود غيره ، ثبت قوله تعالى : ﴿ يحيى ويميت ﴾ لأن ذلك من أجل ما فيهما من التدبير ، وهو تنبيه على تمام دليل الوحدانية لأنه لا شيء ممن فيهما يبقى ليسند التدبير إليه ، ويحال شيء من الأمور عليه ، فهما جملتان : الأولى نافية لما أثبتوه من الشركة ، والثانية مثبتة لما نفوه من البعث .

ولما ثبت أنه المختص بالإفاضة والسلب ، وكان السلب أدل على القهر ، ذكرهم ما لهم من ذلك في أنفسهم فقال سبحانه : ﴿ ربكم ﴾ أي الذي أفاض عليكم ما تشاهدون من النعم في الأرواح وغيرها ﴿ ورب آبائكم ﴾ ولما كانوا يشاهدون من ربوبيته لأقرب آبائهم ما يشاهدون لأنفسهم ، رقي نظرهم إلى النهاية فقال : ﴿ الأولين ﴾ أي الذين أفاض عليهم ما أفاض عليكم ثم سلبهم ذلك كما تعلمون ، فلم يقدر أحد منهم على ممانعة ولا طمع في منازعة بنوع مدافعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 62 . 66 ﴾

(13/696)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ رب السموات ﴾ بالجر على البدل ﴿ من ربك ﴾ : عاصم وحمزة وعلي وخلف . الباقون : بالرفع ﴿ أني آتيكم ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ ترجموني ﴾ ﴿ فاعتزلوني ﴾ بالياء في الحالين : يعقوب وافق ورش وسهل وعباس في الوصل ﴿ لي ﴾ بالفتح : ورش ﴿ فكهين ﴾ بغير الألف : يزيد ﴿ يغلي ﴾ على التذكير والضمير للطعام : ابن كثير وحفص والمفضل ورويس وابن مجاهد عن ابن ذكوان . الباقون : بتاء التأنيث والضمير للشجرة ﴿ فاعتلوه ﴾ بضم التاء : ابن كثير ونافع وابن عامر وسهل ويعقوب . الآخرون : بالكسر ﴿ ذق أنك ﴾ بفتح الهمزة على حذف لام التعليل . ﴿ في مقام ﴾ بضم الميم من الإقامة : أبو جعفر ونافع وابن عامر .

(14/696)

الوقوف : ﴿ حم ﴾ كوفي ه ﴿ المبين ﴾ ه لا ومن لم يقف على ﴿ حم ﴾ وقف على ﴿ المبين ﴾ ﴿ منذرين ﴾ ه ﴿ حكيم ﴾ ه ط بناء على أن التقدير أمرنا أمراً ﴿ من عندنا ﴾ ط ﴿ مرسلين ﴾ ه ج لاحتمال أن ﴿ رحمة ﴾ مفعول له أو به أو التقدير رحمنا

رحمة ﴿ من ربك ﴾ ط ﴿ العليم ﴾ ه لا لمن خفض ﴿ رب ﴾ ﴿ بينهما ﴾ ط ﴿
موقنين ﴾ ه ﴿ ويميت ﴾ ط ﴿ الأولين ﴾ ه ﴿ يلعبون ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه ط ﴿
الناس ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ مؤمنون ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه لا للعطف ﴿ مجنون ﴾ ه لئلا
يوهم أن ما بعده من قول الكفار ﴿ عائدون ﴾ ه م لئلا يظن أن ما بعده ظرف للعود ﴿
الكبرى ﴾ ج لاحتمال التعليل ﴿ منتقمون ﴾ ه ﴿ كريم ﴾ ه لا ﴿ عباد الله ﴾ ط ﴿
أمين ﴾ ه ﴿ على الله ﴾ ج ﴿ مبين ﴾ ه ج ﴿ ترجمون ﴾ ه ﴿ فاعتزلون ﴾ ه ﴿
مجرمون ﴾ ه ﴿ متبعون ﴾ ه لا ﴿ رهوا ﴾ ط ﴿ مغرقون ﴾ ه ﴿ وعيون ﴾ ه لا ﴿
كريم ﴾ ه لا ﴿ فاكهين ﴾ ه لا لأن المعنى تركوها مهيأة كما كانت ﴿ آخرين ﴾ ه ﴿
منظرين ﴾ ه ﴿ المهين ﴾ ه لا ﴿ من فرعون ﴾ ط ﴿ المفسرين ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه
ج ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ ليقولون ﴾ ه لا ﴿ بمنشرين ﴾ ه ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ تبع ﴾ لا
للعطف ﴿ من قبلهم ﴾ ط لتناهي الاستفهام إلى ابتداء الأخبار ﴿ أهلكناهم ﴾ ج لأن
التعليل أوضح ﴿ مجرمين ﴾ ه ﴿ لاعبين ﴾ ه ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ أجمعين ﴾ ه لا لأن
ما بعده بدل ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ ه لا ﴿ رحم الله ﴾ ط ﴿ الرحيم ﴾ ه ﴿ الأثيم
﴾ ه ج لاحتمال أن يكون ﴿ كالمهل ﴾ خبراً بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ في
البطون ﴾ لا ﴿ الحميم ﴾ ه ﴿ الجحيم ﴾ ه ﴿ الحميم ﴾ ه ط لأن التقدير قولوا أو يقال
له ذق ﴿ الكريم ﴾ ه ﴿ تمترون ﴾ ه ﴿ أمين ﴾ ه لا ﴿ وعيون ﴾ ه ج لاحتمال ما

بعده الاستئناف والحال ﴿ متقابلين ﴾ ه ج لاحتمال أن يراد كما ذكرنا من حالهم قبل أو يكون التقدير الأمر كذلك ﴿ عين ﴾ ه ج لئلا يوهم أن ما بعده صفة للحور ﴿ آمنين ﴾ ه لا لأن ما بعده صفة فإن الأمن لا يتم إلا به ﴿ الأولى ﴾ ج لأن ما بعده يصلح استئنافاً وحالاً بإضمار قد ﴿ الجحيم ﴾ ه لا لأن ﴿ فضلاً ﴾ مفعول به ﴿ من ربك ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ﴿ يتذكرون ﴾ ه ﴿ مرتقبون ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 101. 102 ﴾

(15/696)

فصل

قال الفخر:

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى:

في قوله ﴿ حم * والكتاب المبين ﴾ وجوه من الاحتمالات أولها: أن يكون التقدير: هذه حام والكتاب المبين كقولك هذا زيد والله وثانيها: أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله

﴿ حم ﴾ ثم يقال ﴿ والكتاب المبين * إِنَّا أنزلناه ﴾ ، وثالثها : أن يكون التقدير : وحام ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه ، فيكون ذلك في التقدير قسمين على شيء واحد .

المسألة الثانية :

قالوا هذا يدل على حدوث القرآن لوجوه الأول : أن قوله ﴿ حم ﴾ تقديره : هذه حام ، يعني هذا شيء مؤلف من هذه الحروف ، والمؤلف من الحروف المتعاقبة محدث الثاني : أنه ثبت أن الحلف لا يصح بهذه الأشياء بل بإله هذه الأشياء فيكون التقدير ورب حام ورب الكتاب المبين ، وكل من كان مربوباً فهو محدث الثالث : أنه وصفه بكونه كتاباً والكتاب مشتق من الجمع فمعناه أنه مجموع والمجموع محل تصرف الغير ، وما كان كذلك فهو محدث الرابع : قوله ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ والمنزل محل تصرف الغير ، وما كان كذلك فهو محدث ، وقد ذكرنا مراراً أن جميع هذه الدلائل تدل على أن الشيء المركب من الحروف المتعاقبة والأصوات المتوالية محدث ، والعلم بذلك ضروري بديهي ، لا ينازع فيه إلا من كان عديم العقل وكان غير عارف بمعنى القديم والمحدث ، وإذا كان كذلك فكيف ينازع في صحة هذه الدلائل ، إنما الذي ثبت قدمه شيء آخر سوى ما تركب من هذه الحروف والأصوات .

المسألة الثالثة :

يجوز أن يكون المراد بالكتاب ههنا الكتب المتقدمة التي أنزلها الله على أنبيائه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان ﴾ [الحديد : 25] ويجوز أن يكون المراد اللوح المحفوظ ، كما قال : ﴿ يَمْحُو الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ [الرعد : 39] وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا ﴾ [الزخرف : 4] ويجوز أن يكون المراد به القرآن ، وبهذا التقدير فقد أقسم بالقرآن على أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة ، وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن ، فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم رجل له حاجة إليه : أستشفع بك إليك وأقسم بحقك عليك .

المسألة الرابعة :

﴿ المبين ﴾ هو المشتمل على بيان ما بالناس حاجة إليه في دينهم ودنياهم ، فوصفه بكونه مبيناً ، وإن كانت حقيقة الإبانة لله تعالى ، لأجل أن الإبانة حصلت به ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بني إسرائيل ﴾ [النمل : 76] وقال في آية أخرى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [يوسف : 3] وقال : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سلطانا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : 35] فوصفه بالتكلم إذ كان غاية في الإبانة ، فكأنه ذو لسان ينطق ، والمعنى فيه المبالغة في وصفه بهذا المعنى .

المسألة الخامسة :

اختلفوا في هذه الليلة المباركة ، فقال الأكثرون : إنها ليلة القدر ، وقال عكرمة وطائفة آخرون : إنها ليلة البراءة ، وهي ليلة النصف من شعبان أما الأولون فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه أولها : أنه تعالى قال :

(17/696)

﴿ إِنَّا أنزلناه فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] وهاهنا قال : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِي لَيْلَةٍ مباركة ﴾ فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر ، لئلا يلزم التناقض وثانيها : أنه تعالى قال : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] فبيّن أن إنزال القرآن إنما وقع في شهر رمضان ، وقال هاهنا ﴿ إِنَّا أنزلناه فِي لَيْلَةٍ مباركة ﴾ فوجب بأن تكون هذه الليلة واقعة في شهر رمضان ، وكل من قال إن هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان ، قال إنها ليلة القدر ، فثبت أنها ليلة القدر وثالثها : أنه تعالى قال في صفة ليلة القدر ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سلام هِيَ ﴾ [القدر : 4 ، 5] وقال أيضاً ههنا ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ وهذا مناسب لقوله ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ﴾ وههنا قال : ﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ وقال في تلك الآية ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ وقال ههنا ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وقال في تلك الآية ﴿ سلام هِيَ ﴾ وإذا تقاربت

الأوصاف وجب القول بأن إحدى الليلتين هي الأخرى ورابعها : نقل محمد بن جرير الطبري في "تفسيره" : عن قتادة أنه قال : نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، والتوراة لست ليال منه ، والزبور لاثنتي عشرة ليلة مضت منه ، والإنجيل لثمان عشرة ليلة مضت منه ، والقرآن لأربع وعشرين ليلة مضت من رمضان ، والليلة المباركة هي ليلة القدر وخامسها : أن ليلة القدر إنما سميت بهذا الاسم ، لأن قدرها وشرفها عند الله عظيم ، ومعلوم أنه ليس قدرها وشرفها لسبب ذلك الزمان ، لأن الزمان شيء واحد في الذات والصفات ، فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته ، فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة عالية لها قدر عظيم ومرتبة رفيعة ، ومعلوم أن منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا ، وأعلى الأشياء وأشرفها منصباً في

(18/696)

الدين هو القرآن ، لأجل أن به ثبتت نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل في سائر كتب الله المنزّلة ، كما قال في صفته ﴿ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 48] وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ، ودركات أرباب الشقاوات ، فعلى هذا لا شيء إلا والقرآن أعظم قدراً وأعلى ذكراً وأعظم منصباً منه فلو كان نزوله إنما وقع في ليلة

أخرى سوى ليلة القدر ، لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأولى ، وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر التي وقعت في رمضان ، علمنا أن القرآن إنما أنزل في تلك الليلة ، وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية ، هي ليلة النصف من شعبان ، فما رأيت لهم فيه دليلاً يعول عليه ، وإنما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض الناس ، فإن صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه كلام فلا مزيد عليه ، وإلا فالحق هو الأول ، ثم إن هؤلاء القائلين بهذا القول زعموا أن ليلة النصف من شعبان لها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصك ، وليلة الرحمة ، وقيل إنما سميت بليلة البراءة ، وليلة الصك ، لأن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة ، كذلك الله عزّ وجلّ يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة ، وقيل هذه الليلة مختصة بخمس خصال الأول : تفريق كل أمر حكيم فيها ، قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ والثانية : فضيلة العبادة فيها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(19/696)

" من صلّى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة ، وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار ، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا ، وعشرة يدفعون عنه مكايد

الشيطان " الخصلة الثالثة : نزول الرحمة ، قال عليه السلام : " إن الله يرحم أمتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب " والخصلة الرابعة : حصول المغفرة ، قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة ، إلا لكاهن ، أو مشاحن ، أو مدمن خمر ، أو عاق للوالدين ، أو مصر على الزنا " والخصلة الخامسة : أنه تعالى أعطى رسوله في هذه الليلة تمام الشفاعة ، وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطي الثلث منها ، ثم سأل ليلة الرابع عشر ، فأعطي الثلثين ، ثم سأل ليلة الخامس عشر ، فأعطي الجميع إلا من شرد على الله شراد البعير ، هذا الفصل نقلته من "الكشاف" ، فإن قيل لا شك أن الزمان عبارة عن المدة الممتدة التي تقديرها حركات الأفلاك والكواكب ، وأنه في ذاته أمر متشابه الأجزاء فيمتنع كون بعضها أفضل من بعض ، والمكان عبارة عن الفضاء الممتد والخلاء الخالي فيمتنع كون بعض أجزائه أشرف من البعض ، وإذا كان كذلك كان تخصيص بعض أجزائه بمزيد الشرف دون الباقي ترجيحاً لأحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وإنه محال ، قلنا القول بإثبات حدوث العالم وإثبات أن فاعله فاعل مختار بناء على هذا الحرف وهو أنه لا يبعد من الفاعل المختار تخصيص وقت معين بإحداث العالم فيه دون ما قبله وما بعده ، فإن بطل هذا الأصل فقد بطل حدوث العالم وبطل الفاعل المختار وحينئذ لا يكون الخوض في تفسير القرآن فائدة ، وإن صح هذا الأصل فقد زال ما ذكرتم من السؤال ، فهذا هو الجواب المعتمد ، والناس قالوا لا يبعد أن يخص الله تعالى بعض

الأوقات بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعياً للمكلف إلى الإقدام على الطاعات في ذلك الوقت ، ولهذا السبب بيّن أنه تعالى أخفاه في

(20/696)

الأوقات وما عيته لأنه لم يكن معيناً جوز المكلف في كل وقت معين أن يكون هو ذلك الوقت الشريف فيصير ذلك حاملاً له على المواظبة على الطاعات في كل الأوقات ، وإذا وقعت على هذا الحرف ظهر عندك أن الزمان والمكان إنما فازا بالتشريفات الزائدة تبعاً لشرف الإنسان فهو الأصل وكل ما سواه فهو تبع له ، والله أعلم .

المسألة السادسة :

روي أن عطية الحروري سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله ﴿ إِنَّا أنزلناه فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] وقوله ﴿ إِنَّا أنزلناه فِي لَيْلَةٍ مباركة ﴾ كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الشهور ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : يا ابن الأسود لو هلكت أنا ووقع هذا في نفسك ولم تجد جوابه هلكت ، نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور ، وهو في السماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالاً فحالا ، والله أعلم .

المسألة السابعة :

في بيان نظم هذه الآيات ، اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه أحدها : بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته الثاني : بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذي نزل فيه الثالث : بيان تعظيمه بحسب شرف منزلته ، أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه أحدها : أنه تعالى أقسم به وذلك يدل على شرفه وثانيها : أنه تعالى أقسم به على كونه نازلاً في ليلة مباركة ، وقد ذكرنا أن القسم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف وثالثها : أنه تعالى وصفه بكونه مبيناً وذلك يدل أيضاً على شرفه في ذاته .

(21/696)

وأما النوع الثاني : وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه فهو قوله ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ وهذا تنبيه على أن نزوله في ليلة مباركة يقتضي شرفه وجلالته ، ثم نقول إن قوله ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ يقتضي أمرين : أحدها : أنه تعالى أنزله والثاني : كون تلك الليلة مباركة فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجرى مجرى البيان لكل واحد منهما ، أما بيان أنه تعالى لم أنزله فهو قوله ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم إلا به ، وأما بيان أن هذه الليلة ليلة مباركة فهو أمران : أحدهما

: أنه تعالى يفرق فيها كل أمر حكيم ، والثاني : أن ذلك الأمر الحكيم مخصوصاً بشرف أنه إنما يظهر من عنده ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ .

وأما النوع الثالث : فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله وذلك هو قوله ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ فبيّن أن ذلك الإنذار والإرسال إنما حصل من الله تعالى ، ثم بيّن أن ذلك الإرسال إنما كان لأجل تكميل الرحمة وهو قوله ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وكان الواجب أن يقال رحمة منا إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمر إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين ، ثم بيّن أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين لأنه تعالى يسمع تضرعاتهم ، ويعلم أنواع حاجاتهم ، فلهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ فهذا ما خطر بالبال في كيفية تعلق بعض هذه الآيات ببعض .

المسألة الثامنة :

(22/696)

في تفسير مفردات هذه الألفاظ ، أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِي لَيْلَةٍ مباركة ﴾ فقد قيل فيه إنه تعالى أنزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في هذه الليلة ، ثم أنزل في كل وقت ما يحتاج إليه المكلف ، وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة

ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبرائيل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل (1) صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت .

أما قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ ﴾ أي في تلك الليلة المباركة يفرق أي يفصل ويبين من قوله فرقت الشيء أفرقه فرقاً وفرقاناً ، قال صاحب "الكشاف" وقرىء يفرق بالتشديد ويفرق على إسناد الفعل إلى الفاعل ونصب كل والفارق هو الله عز وجل ، وقرأ زيد ابن علي نفرق بالنون .

---

(1) هكذا في الأصل والمعروف المشهور المتواتر أن اسمه «إسرافيل» ، ولعله خطأ من الناسخ .

(23/696)

أما قوله ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ فالحكيم معناه ذو الحكمة ، وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل أحد بحالة معينة من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة لله تعالى ، فلما كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمة فاعلها وصفت بكونها حكيمة ، وهذا من الإسناد بالمجازي ، لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف

الأمر به مجاز ، ثم قال : ﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ وفي انتصاب قوله ﴿ أَمْراً ﴾ وجهان : الأول : أنه نصب على الاختصاص ، وذلك لأنه تعالى بيّن شرف تلك الأقضية والأحكام بسبب أن وصفها بكونها حكيمة ، ثم زاد في بيان شرفها بأن قال أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا كائناً من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا والثاني : أنه نصب على الحال وفيه ثلاثة أوجه : الأول : أن يكون حال من أحد الضميرين في ﴿ أنزلناه ﴾ ، إما من ضمير الفاعل أي : إنا أنزلناه آمرين أمراً أو من ضمير المفعول أي : إنا أنزلناه في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل والثالث : ما حكاه أبو علي الفارسي عن أبي الحسن رحمهما الله أنه حمل قوله ﴿ أَمْراً ﴾ على الحال وذو الحال قوله ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ وهو نكرا .

ثم قال : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ يعني أنا إنما فعلنا ذلك الإنذار لأجل إنا كنا مرسلين يعني الأنبياء .

ثم قال : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي للرحمة فهي نصب على أن يكون مفعولاً له .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ يعني أن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة لأن المحتاجين ، إما أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم ، وإما أن لا يذكروها فإن ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم ، وإن لم يذكروها فهو تعالى عالم بها فثبت أن كونه سميعاً عليماً يقتضي أن ينزل رحمته عليهم .

ثم قال : ﴿ رَبِّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(24/696)

قرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الباء من رب عطفاً على قوله ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ والباقون بالرفع عطفاً على قوله ﴿ هُوَ السميع العليم ﴾ .

المسألة الثانية :

المقصود من هذه الآية أن المنزل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة .

المسألة الثالثة :

الفائدة في قوله ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ من وجوه الأول : قال أبو مسلم معناه إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا ، كقولهم فلان منجد متهم أي يريد نجداً وتهامة والثاني : قال صاحب "الكشاف" كانوا يقرون بأن للسموات والأرض رباً وخالقاً فقيل لهم إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب سبحانه وتعالى ، ثم قيل إن هذا هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم

عن علم ويقين ، كما تقول هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه إن بلغك حديثه وسمعت قصته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 202 . 206 ﴾

(25/696)

وقال القرطبى :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) ﴾

إن جعلت "حم" جواب القسم تمّ الكلام عند قوله : ﴿ المبين ﴾ ثم تبتدىء "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ" .

وإن جعلت "إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ" جواب القسم الذي هو "الْكِتَابِ" وقفت على "مُنْذِرِينَ" وابتدأت "فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ" .

وقيل : الجواب "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ" ، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقْسَم به ، ولا تكون صفة المقسم به جواباً للقَسَم ، والهاء في "أَنْزَلْنَاهُ" للقرآن .

ومن قال : أقسم بسائر الكتب فقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ ﴾ كنى به عن غير القرآن ، على ما تقدّم بيانه في أوّل "الزخرف" .

والليلة المباركة ليلة القدر .

ويقال : ليلة النصف من شعبان ، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة

الصَّك ، وليلة القدر .

ووصفها بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب .

وروى قتادة عن واثلة " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أنزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لسِتّ مضَيْن من رمضان وأنزلت الزبور لاثنتي عشرة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان" " ثم قيل : أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا في هذه الليلة .

ثم أنزل نَجْماً نَجْماً في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب .

وقيل : كان ينزل في كل ليلة القدر ما ينزل في سائر السنة .

وقيل : كان ابتداء الإنزال في هذه الليلة .

وقال عكرمة : الليلة المباركة ها هنا ليلة النصف من شعبان .

والأوّل أصح لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] .

(26/696)

قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العِزّة في سماء الدنيا ، ثم أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين

سنة .

وهذا المعنى قد مضى في "البقرة" عند قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] ، ويأتي آنفاً إن شاء الله تعالى .

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

قال ابن عباس : يُحْكم اللّهُ أمرَ الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق .

وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم .

وقيل : إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيّران ، قاله ابن عمر .

قال المهدوي : ومعنى هذا القول أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون في ذلك العام ولم يزل ذلك في علمه عز وجل .

وقال عكرمة : هي ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة ويُنسخ الأحياء من الأموات ، ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد .

وروى عثمان بن المغيرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى ﴾ وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلتها وصوموا نهارها فإن

الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول ألا مستغفر فأغفر له ألا مبتلًى فأعافيه ألا مسترزق فأرزقه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر " ذكره الثعلبي .

(27/696)

وخرج الترمذي بمعناه عن عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كَلْب " وفي الباب عن أبي بكر الصديق قال أبو عيسى : حديث عائشة لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحجاج بن أرْطاة عن يحيى بن أبي كثير عن عروة عن عائشة ، وسمعت محمداً يضعف هذا الحديث ، وقال : يحيى بن أبي كثير لم يَسمع من عروة ، والحجاج بن أرطاة لم يَسمع من يحيى بن أبي كثير .

قلت : وقد ذكر حديث عائشة مطولاً صاحب كتاب العروس ، واختار أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ليلة النصف من شعبان ، وأنها تسمى ليلة البراءة .

وقد ذكرنا قوله والرد عليه في غير هذا الموضع ، وأن الصحيح إنما هي ليلة القدر على ما بيّناه .

روى حماد بن سلمة قال أخبرنا ربيعة بن كُلْثوم قال : سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال : يا

أبا سعيد ، أرأيت ليلة القدر أفي كل رمضان هي ؟ قال : أيْ والله الذي لا إله إلا هو ، إنها في كل رمضان ، إنها الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضي الله كلّ خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها .

وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج ؛ يقال : يحج فلان ويحج فلان .

وقال في هذه الآية : إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى .

وهذه الإبانة لإحكام السنة إنما هي للملائكة الموكلين بأسباب الخلق .

وقد ذكرنا هذا المعنى آنفاً .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر .

(28/696)

ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ؛ وهو باطل لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] فنصّ على أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عيّن من زمانه الليل ها هنا بقوله : ﴿ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ ؛ فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفِرْية على الله ، وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يعوّل

عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها .

الزمخشريّ : "وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر ؛ فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبريل ، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ؛ ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو مَلَك عظيم ؛ ونسخة المصائب إلى ملك الموت .

وعن بعضهم : يعطي كل عامل بركات أعماله ؛ فيلقي على ألسنة الخلق مدحه ، وعلى قلوبهم هيبته .

وقرىء "نفرق" بالتشديد ، و "يَفْرق" كلٌّ على بنائه للفاعل ونصب "كل" ، والفارق الله عز وجل .

وقرأ زيد بن عليّ رضي الله عنه "نفرق" بالنون .

﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ كل شأن ذي حكمة ؛ أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة" .

قوله تعالى : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَآ ﴾ قال النقاش : الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده .

وقال ابن عيسى : هو ما قضاه الله في الليلة المباركة من أحوال عباده .

وهو مصدر في موضع الحال .

وكذلك ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وهما عند الأخفش حالان ؛ تقديرهما : أنزلناه آمرين به وراحمين .

المبرد : "أمراً" في موضع المصدر ، والتقدير : أنزلناه إنزالاً .

الفراء والزجاج : "أمراً" نصب ب "يُفْرَق" ، مثل قولك "يفرق فرقاً" فأمر بمعنى فرق فهو مصدر ، مثل قولك : يضرب ضرباً .

وقيل : "يفرق" يدلّ على يؤمر ، فهو مصدر عمل فيه ما قبله .

"إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ" قال الفراء : "رَحْمَةً" مفعول ب "مرسِلِين" .

(29/696)

والرحمة النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال الزجاج : "رَحْمَةً" مفعول من أجله ؛ أي أرسلناه للرحمة .

وقيل : هي بدل من قوله .

"أَمْراً" وقيل : هي مصدر .

الزمخشريّ : "أَمْراً" نصب على الاختصاص ، جعل كلّ أمر جزلاً فَخْماً بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا ، كائناً من لَدُنَّا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا .

وفي قراءة زيد بن عليّ "أَمْرٌ مِنْ عِنْدِنَا" على هو أمر ، وهي تنصر انتصابه على الاْختصاص .

وقرأ الحسن "رحمة" على تلك هي رَحْمَةٌ ، وهي تنصر انتصابها بأنه مفعول له .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السماوات والأرض ﴾ قرأ الكوفيون "رَبِّ" بالجر .

الباقون بالرفع ؛ رَدًّا على قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ .

وإن شئت على الابتداء ، والخبرُ لا إله إلا هو .

أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ تقديره : هو ربّ السموات والأرض .

والجر على البدل من "رَبِّكَ" وكذلك : "رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ" بالجر فيهما ؛ رواه الشَّيْزَرِيّ عن الكسائي .

الباقون بالرفع على الاستئناف .

ثم يحتمل أن يكون هذا الخطاب مع المعترف بأن الله خلق السموات والأرض ؛ أي إن كنتم موقنين به فاعلموا أن له أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب .

ويجوز أن يكون الخطاب مع من لا يعترف أنه الخالق ؛ أي ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق ؛ وأنه الذي يحيي ويميت .

وقيل : الموقن هاهنا هو الذي يريد اليقين ويطلبه ؛ كما تقول : فلان يُنْجِد ؛ أي يريد نجداً . ويُتهِم ؛ أي يريد تِهامة .

﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي هو خالق العالم؛ فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شيء .

و"هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ" أي يحيي الأموات ويميت الأحياء .

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي مالككم ومالك من تقدم منكم .

واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(30/696)

وقال الآلوسى :

﴿ حم والكتاب المبين ﴾

الكلام فيه كالذي سلف في السورة السابقة .

﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ أي الكتاب المبين الذي هو القرآن على القول المعول عليه ﴿ فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ هيب ليلة القدر على ما روي عن ابن عباس .

وقتادة .

وابن جبير .

ومجاهد .

وابن زيد .

والحسن .

وعليه أكثر المفسرين والظواهر معهم ، وقال عكرمة .

وجماعة : هي ليلة النصف من شعبان .

وتسمى ليلة الرحمن والليلة المباركة وليلة الصك وليلة البراءة ، ووجه تسميتها بالأخيرين أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة والصك كذلك أن الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة والصك في هذه الليلة .

وظاهر كلامهم هنا أن البراءة وهي مصدر بريء براءة إذا تخلص تطلق على صك الأعمال والديون وما ضاهاها وأنه ورد في الآثار ذلك وهو مجاز مشهور وصار بذلك كالمشترك ، وفي المغرب بريء من الدين والعيب براءة ، ومنه البراءة لخط الابراء والجمع براءات وبروات عامية اه .

وأكثر أهل اللغة على أنه لم يسمع من العرب وأنه عامي صرف وإن كان من باب المجاز الواسع .

قال ابن السيد في المقتضب البراءة في الأصل مصدر برىء براءة ، وأما البراءة المستعملة في صناعة الكاتب فتسميتها بذلك اما على أنها من برىء من دينه إذا أداه وبرئت من الأمر

إذا تخيلت منه فكأن المطلوب منه أمر تبرأ إلى الطالب أو تخلي ، وقيل : أصله أن الجاني كان إذا جنى وعفا عنه الملك تب له كاتب أمان مما خافه فكان يقال : كتب السلطان لفلان براءة ثم عمم ذلك فيما كتب من أولي الأمر وأمثالهم اه .

وذكروا في فضل هذه الليلة أخباراً كثيرة ، منها ما أخرجه ابن ماجه .

(31/696)

والبيهقي في شعب الإيمان عن علي كرم الله وجهه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا فيقول : ألا مستغفر فأغفر له ألا مسترزق فأرزقه ألا مبتلي فأعافيه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر " وما أخرجه الترمذي .

وابن أبي شيبة .

والبيهقي .

وابن ماجه .

عن عائشة قالت : " فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فخرجت أطلبه فإذا هو بالبيقع رافعاً رأسه إلى السماء فقال يا عائشة : أكنت تخافين أن يحيف الله تعالى

عليك ورسوله ؟ قلت : ما بي من ذلك ولكني ظننت أنك أتيت بعض نسائك ، فقال : إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب " وما أخرجه أحمد بن حنبل في المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" يطلع الله تعالى إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين مشاحن وقاتل نفسه " وذكر بعضهم فيها صلاة مخصوصة وأنها تعدل عشرين حجة مبرورة وصيام عشرين سنة مقبولاً ، ولاوي في ذلك حديثاً طويلاً عن علي كرم الله تعالى وجهه ، وقد أخرجه البيهقي ثم قال : يشبه أن يكون هذا الحديث موضوعاً وهو منكر وفي رواته مجهولون وأطال الوعاظ الكلام في هذه الليلة وذكر فضائلها وخواصها ، وذكروا عدة أخبار في أن الآجال تنسخ فيها .

وفي الدر المنثور طرف غير يسير من ذلك وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى .

وفي البحر قال الحافظ أبو بكر بن العربي : لا يصح فيها شيء ولا نسخ الآجال فيها ولا يخلو من مجازفة والله تعالى أعلم .

(32/696)

والمراد بإنزاله في تلك الليلة إنزاله فيها جملة إلى السماء الدنيا من اللوح فالإنزال المنجم في ثلاث وعشرين سنة أو أقل كان من السماء الدنيا وروي هذا عن ابن جرير وغيره ، وذكر أن المحل الذي أنزل فيه من تلم السماء البيت المعمور وهو مسامت للكعبة بحيث لو نزل لنزل عليها .

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النخعي أنه قال : نزل القرآن جملة على جبريل عليه السلام وكان جبريل عليه السلام يجيء به بعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال غير واحد : المراد ابتداء إنزاله في تلك الليلة على التجوز في الطرف أو النسبة واستشكل ذلك بأن ابتداء السنة المحرم أو شهر ربيع الأول لأنه ولد فيه صلى الله عليه وسلم ومنه اعتبر التاريخ في حياته عليه الصلاة والسلام إلى خلافة عمر رضي الله تعالى عنه وهو الأصح ، وقد كان الوحي إليه صلى الله عليه وسلم على رأس الأربعين سنة من مدة عمره عليه الصلاة والسلام على المشهور من عدة أقوال فكيف يكون ابتداء الإنزال في ليلة القدر من شهر رمضان أو في ليلة البراءة من شعبان .

وأجيب بأن ابتداء الوحي كان مناماً في شهر ربيع الأول ولم يكن بأنزال شيء من القرآن والوحي يقظة من الإنزال كان في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، وقيل لسبع منه ، وقيل لأربع وعشرين ليلة منه ، وأنت تعلم كثرة اختلاف الأقوال في هذا المقام فمن يقول بابتداء أنزاله في شهر يلتزم منها ما لا يأباه .

واختلف في أول ما نزل منه ، ففي "صحيح مسلم" أنه ﴿ يا أَيُّهَا المدثر ﴾ [المدثر : 1] وتعقبه النووي في شرحه فقال : إنه ضعيف بل باطل والصواب أن أول ما نزل على الأطلاق ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ [العلق : 1] كما صرح به في حديث عائشة ، وأما ﴿ رَّحِيمٌ يا أَيُّهَا المدثر ﴾ فكان نزولها بعد فترة الوحي كما صرح به في رواية الزهري عن أبي سلمة . عن جابر .

(33/696)

وأما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يكذر اه والكلام في ذلك مستوفى في الاتقان فليرجع إليه من أراده .

ووصف الليلة بالبركة لما أن إنزال القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وفضيلة العبادة أو لما فيها من ذلك وتقدير الأرزاق وفصل الأقصية كالآجال وغيرها وإعطاء تمام الشفاعة له عليه الصلاة والسلام ، وهذا بناء على أنها ليلة البراءة ، فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم سأل ليلة الثالق عشر من شعبان في أمته فأعطى الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع إلا من شرد على الله تعالى شراد البعير ، وأياً ما كان فقد قيل

: إن التعليل إنما يحتاج إليه بناء على القول بما اختاره العز بن عبد السلام من أن الأمكنة والأزمنة كلها متساوية في حد ذاتها لا يفضل بعضها بعضاً إلا بما يقع فيها من الأعمال ونحوها ، وزاد بعضهم أو يحل لتدخل البقعة التي ضمته صلى الله عليه وسلم فإنها أفضل البقاع الأرضية والسماوية حتى قيل وبه أقول إنها أفضل من العرش .

والحق أنه لا يبعد أن يخص الله سبحانه بعضها بمزيد ، تشريف حتى يصير ذلك داعياً إلى إقدام المكلف على الأعمال فيها أو لحكمة أخرى ، وجملة ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ جواب القسم ، وفي ذلك مبالغة نحو ما في قوله :

وثناياك أنها إغريض . . .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ استئناف يبين المقتضى للإنزال ، وقوله تعالى :

(34/696)

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ استئناف أيضاً لبيان التخصيص بالليلة المباركة فكأنه قيل : أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب وكان إنزاله في تلك الليلة المباركة لأنه من الأمور الدالة على الحكم البالغة وهي ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم ففي الكلام لف ونشر ، واشتراط أن يكون كل منهما بجملتين مستقلتين مما لا داعي إليه ، وقيل : إن جملة ﴿ فِيهَا

يُفْرَقُ ﴾ الخ صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض لا يضر الفصل به بل لا يعد الفصل به فصلاً ، وقيل إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان : 3] هو جواب القسم وما بينهما اعتراض وإليه ذهب ابن عطية زاعماً أنه لا يجوز جعل ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ [الدخان : 3] جواباً له لما فيه من القسم بالشيء على نفسه .

واعترض بأن قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ يكون حينئذ من تتمة الاعتراض فلا يحسن تأخره عن المقسم عليه ولا يدفعه أن هذه الجملة مستأنفة لا صفة أخرى لأنه استئناف بياني متعلق بما قبل كما سمعت آنفاً فلا يليق الفصل أيضاً كما لا يخفى على من له ذوق سليم ، وما ذكر من حديث القسم بالشيء على نفسه فقد أشرنا إلى جوابه ، وقيل أن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ جواب آخر للقسم وفيه تعدد المقسم عليه من غير عطف ولم نر من تعرض له ، ومعنى يفرق ويفصل ويلخص ، والحكيم بمعنى المحكم لأنه لا يبدل ولا يغير بعد إبرازه للملائكة عليهم السلام بخلافه قبله وهو في اللوح فإن الله تعالى يمحو منه ما يشاء ويثبت .

وجوز أن يكون بمعنى المحكوم به ونسبته إلى الأمر عليها حقيقة ، ويجوز أن يكون المعنى كل أمر ملتبس بالحكمة والأصل حكيم صاحبه فتجوز في النسبة ، وقيل : إن حكيم للنسبة كتامر ولابن وقد أبهم سبحانه هذا الأمر .

وأخرج محمد بن نصر .

وابن المنذر .

(35/696)

وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج يحج فلان ويحج فلان .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال : كنت عند الحسن فقال له رجل : يا أبا سعيد ليلة القدر في كل رمضان هي ؟ قال : إي والله إنها لفي كل رمضان وإنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فيها يقضي الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها ، وروي هذا التعميم عن غير واحد من السلف .

وأخرج البيهقي عن أبي الجوزاء فيها يفرق كل أمر حكيم هي ليلة القدر يجاء بالديوان الأعظم السنة إلى السنة فيغفر الله تعالى شأنه لمن يشاء ألا ترى أنه عز وجل قال : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الدخان : 6] وفيه بحث ، وإلى مثل ذلك التعميم ذهب بعض من قال : إن الليلة المباركة هي ليلة البراءة ، أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم من طريق محمد بن سوقة عن عكرمة أنه قال في الآية : في ليلة النصف من شعبان يبرم أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد ، وفي كثير من الأخبار الاقتصار على قطع الآجال ، أخرج ابن جرير .

(36/696)

والبيهقي في "شعب الإيمان" عن الزهري عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخفش قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى " ، وأخرج الدينوري في المجالسة عن راشد بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " في ليلة النصف من شعبان يوحي الله تعالى إلى ملك الموت بقبض كل نفس يريد قبضها في تلك السنة " ونحوه كثير ، وقيل : يبدأ في استنساخ كل أمر حكيم من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل عليه السلام ونسخة الحروب إلى جبرائيل عليه السلام وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الأعمال إلى إسماعيل عليه السلام صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تقضي الأقضية كلها ليلة النصف من شعبان وتسلم إلى أربابها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان .

واعترض بما ذكر على الاستدلال بالظواهر على أن الليلة المذكورة هي ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان ومن تدبر علم أنه لا يخدش الظواهر ، نعم حكي عن عكرمة أن ليلة النصف من شعبان هي ليلة القدر ويلزمه تأويل ما يأبى ظاهره ذلك فتدبر ، وسيأتي إن شاء الله عز وجل الكلام في هذا المقام مستوفى على أتم وجه في تفسير سورة القدر وهو سبحانه الموفق .

وقرأ الحسن .

والأعرج .

والأعمش ﴿ يُفْرَقُ ﴾ بفتح الياء وضم الراء ﴿ كُلٌّ ﴾ بالنصب أي يفرق الله تعالى ، وقرأ زيد بن علي فيما ذكر الزمخشري عنه ﴿ نُفَرّقُ ﴾ بالنون ﴿ كُلٌّ ﴾ بالنصب وفيما ذكر أبو علي الأهوازي عنه بفتح الياء وكسر الراء ونصب ﴿ كُلٌّ ﴾ ورفع ﴿ حَكِيمٌ ﴾ على أنه الفاعل بيفرق ، وقرأ الحسن .

وزائدة عن الأعمش ﴿ يُفْرَقُ ﴾ بالتشديد وصيغة المفعول وهو للتكثير وفيه رد على قول بعض اللغويين كالحريري أن الفرق مختص بالمعاني والتفريق بالأجسام .

﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ نصب على الاختصاص وتنكيره للتفخيم ، والجار والمجرور في موضع الصفة له وتعلقه بيفرق بيس بشيء ، والمراد بالعندية أنه على وفق الحكمة والتدبير أي أعني بهذا الأمر أمراً فخيماً حاصلاً على مقتضى حكمتنا وتدبيرنا وهو بيان لزيادة فخامته ومدحه ، وجوز كونه حالاً من ضمير ﴿ أمر ﴾ [الدخان : 4] السابق المستتر في حكيم الواقع صفة له أو من ﴿ أَمْرٍ ﴾ نفسه ، وصح مجيء الحال منه مع أنه نكرة لتخصصه بالوصف على أن عموم النكرة المضاف إليها كل مسوغ للحالية من غير احتياج الوصف ، وقول السمين : إن فيه القول بالحال من المضاف إليه في غير المواضع المذكورة في النحو صادر عن نظر ضعيف لأنه كالجزء في جواز الاستغناء عنه بأن يقال : يفرق أمر حكيم على إرادة عموم النكرة في الإثبات كما في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : 14] وقيل : حال من ﴿ كُلُّ ﴾ وأياً ما كان فهو مغاير لذي الحال لوصفه بقوله تعالى : ﴿ مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ فيصح وقوعه حالاً من غير لغوية فيه .

(38/696)

وكونها مؤكدة غير متأت مع الوصفية كما لا يخفى على ذي الذهن السليم ، وهو على هذه الأوجه واحد الأمور وجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي على أنه واحد الأوامر فحينئذٍ يكون منصوباً على المصدرية لفعل مضمر من لفظه أي أمرنا أمراً من عندنا ، والجملة بيان لقوله سبحانه : ﴿ يُفْرَقُ ﴾ [الدخان : 4] الخ ، وقيل : إما أن يكون نصباً على المصدرية ليفرق لأن كتب الله تعالى للشيء إيجابه وكذلك أمره عز وجل به كأنه قيل : يؤمر بكل شأن مطلوب على وجه الحكمة أمراً فالأمر وضع موضع الفرقان المستعمل بمعنى الأمر ، وإما أن يكون على الحالية من فاعل ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ [الدخان : 3] أو مفعوله أي إنا أنزلناه آمرين أمراً أو حال كون الكتاب أمراً يجب أن يفعل ؛ وفي جعل الكتاب نفس الأمر لاشتماله عليه أيضاً تجوز فيه فخامة ، وتعقب ذلك في "الكشف" فقال : فيه ضعف للفصل بالجملتين بين الحال وصاحبها على الثاني ولعدم اختصاص الأوامر الصادرة منه تعالى بتلك الليلة على الأول .

ووجهه أن تخص بالقرآن ولا يجعل قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ ﴾ علة للإنزال في الليلة بل هو تفصيل لما أجمل في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ [الدخان : 3] على معنى فيها أنزل الكتاب المبين الذي هو المشتمل على كل مأمور به حكيم كأنه جعل الكتاب كله أمراً أو ما أمر به كل المأمورات وفيه مبالغة حسنة ، ولا يخفى أن في فهمه من الآية تكلفاً .

وقال الخفاجي في أمر الفصل : إنه لا يضر ذلك الفاصل على الاعتراض وكذا على التعليل لأنه غير أجنبي .

وجوز بعضهم على تقدير أن يراد بالأمر ضد النهي كونه مفعولاً له والعامل فيه ﴿ يُفْرَقُ ﴾ أو ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ أو ﴿ مُّنذِرِينَ ﴾ .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ أَمْرٍ ﴾ بالرفع وهي تنصر كون انتصابه في قراءة الجمهور على الاختصاص لأن الرفع عليه فيها .

(39/696)

وقوله تعالى ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) ﴾

تعليل ليفرق أو لقوله تعالى : ﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ ورحمة مفعول به لمرسلين وتنوينها للتفخيم ، والجار والمجرور في موضع الصفة لها ، وإيقاع الإرسال عليها هنا كإيقاعه عليها في قوله سبحانه : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : 2] والمعنى على ما في "الكشاف" يفصل في هذه الليلة كل أمر لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة أي أن المقصود الأصلي بالذات من ذلك الرحمة أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من عادتنا ذلك

والأوامر الصادرة من جهته تعالى من باب الرحمة أيضاً لأن الغاية لتكليف العباد تعريضهم للمنافع ، وفيه كما قيل إشارة إلى أن جعله تعليلاً لقوله سبحانه : أمراً من عندنا إنما هو على تقدير أن يراد بالأمر مقابل النهي وهو يجري على تقديري المصدرية والحالية .

وفي "الكشف" أن قوله : يفصل الخ أو تصدر الأوامر الخ تبيين لمعنى التعليل على التفسيرين في ﴿ يُفْرَقُ ﴾ [الدخان : 4] لأنه أما بمعنى الفصل على الحقيقة من قسمة الأرزاق وغيرها أو بمعنى يؤمر والشأن المطلوب يكون مأموراً به لا محالة فحاصله يرجع إلى قوله : أو تصدر الأوامر من عندنا لا لوجهي التعليل من تعلقه بيفرق أو بأمراً فإن تعلقه بأمراً إنما يصح إذا نصب على الاختصاص وإذ ذاك ليس الأمر ما يقابل النهي لأن الأمر إذا كان المقابل فهو إما مصدر وإنما يعلل فعله وإما حال مؤكدة فيكون راجعاً إلى تعليل الإنزال المخصوص وليس المقصود وإنما لم يذكر المعنى على تقدير تعلقه بأمراً لأن المعنى الأول يصلح تفسيراً له أيضاً انتهى .

(40/696)

والظاهر كون ذلك تبييناً لوجهي التعليل ، وما ذكر في نفيه لا يخلو عن بحث كما يعرف بالتأمل ، واعتبار العادة في بيان المعنى جاء من كنا فإنه يقال : كان يفعل كذا لما تكرر

وقوعه وصار عادة كما صرحوا به في الكتب الحديثية وغيرها ولإفادة ذلك عدل عن أنا مرسلون الأخصر وقوله سبحانه : ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير والأصل منا فجيء بلفظ الرب مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم على وجه تخصيص الخطاب به صلى الله عليه وسلم تشريفاً له عليه الصلاة والسلام ودلالة على أن كونه سبحانه ربك وأنت مبعوث رحمة للعالمين مما يقتضي أن يرسل الرحمة .

وقال الطيبي : خص الخطاب برسوله عليه الصلاة والسلام والمراد العموم ، والأصل من ربكم وجيء بلفظ الرب ليؤذن بأن المربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين وليكون تمهيده يبتني عليه التعليل الآتي المتضمن للتعريض بواسطة الحصر بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً وتعقب بأنه لو أريد العموم لفاتت النكتة المذكورة ولزم أن يدخل المؤمنون في قوله تعالى :

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الدخان : 7] وما بعده وليس المعنى عليه وفي القلب منه شيء وفسر بعضهم الرحمة المرسلة بنبينا صلى الله عليه وسلم ولا يخفى أن صحة التعليل تأبى ذلك .

وجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ بدلاً من قوله سبحانه : ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ [الدخان : 3] الواقع تعليلاً لإنزال الكتاب بدل كل أو اشتمال باعتبار الإرسال والإنذار ، ويكون ﴿ رَحْمَةً ﴾ حينئذٍ مفعولاً له أي أنزلنا القرآن لأن عادتنا إرسال الرسل والكتب إلى العباد لأجل الرحمة عليهم واختيار كون الرحمة مفعولاً له ليتطابق البدل والمبدل منه إذ معنى المبدل منه فاعلين الإنذار ويطابقه فاعلين الإرسال ولم يجوز كونها كذلك على وجه التعليل بل أوجب كونها مفعولاً به ليصح إذ لو قيل : فيها تفصيل كل شأن حكيم لأنا فاعلون الإرسال لأجل الرحمة لم يفد أن الفصل رحمة ولا أنه سبحانه مرسل فلا يستقيم التعليل قيل وينصر نصب رحمة على المفعول قراءة الحسن وزيد بن علي برفعها لأن الكلام عليه جملة مستأنفة أي هي ﴿ رَحْمَةً ﴾ تعليلاً للإرسال فيلائم القول بأنها في قراءة النصب مفعول له وليطابق قراءتهما في كون معنى ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إنا كنا فاعلين الإرسال ، وقال بعض أجلة المحققين : أن القول بأنه تعليل أظهر من القول بأنه بدل ليكون الكلام على نسق في التعليل غب التعليل ، ولما ذكر في الحالة المقتضية للإبدال ولوقوع الفصل ، وأشار على ما قيل بما ذكر في الحالة المقتضية للإبدال بأن المبدل منه غير مقصود وأنه في حكم السقوط وههنا ليس كذلك ، وتعقب هذا بأنه أغلبي لا مطرد ، وقوله : لوقوع الفصل أي بين البدل والمبدل منه بأن الفاصل غير أجنبي فلا يضر الفصل به فتدبر ، وجوز كون رحمة مصدراً لرحمنا مقدر وكونها حالاً من ضمير ﴿

مُرْسِلِينَ ﴾ وكونها بدلاً من ﴿ أَمْراً ﴾ فلا تغفل ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لكل مسموع فيسمع أقوال العباد ﴿ العليم ﴾ لكل معلوم فيعلم أحوالهم ، وتوسيط الضمير مع تعريف الطرفين لإفادة الحصر ، والجملة تحقيق لربوبيته عز وجل وأنها لا تحق إلا لمن هذه نعوته ، وفي تخصيص ﴿ السميع العليم ﴾ على ما

(42/696)

قال الطيبي إدماج لوعيد الكفار ووعد المؤمنين الذين تلقوا الرحمة بأنواع الشكر .

﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بدل من ﴿ رَبِّكَ ﴾ [الدخان : 6] أو بيان أو نعت .

وقرأ غير واحد من السبعة والأعرج .

وابن أبي إسحاق .

وأبو جعفر .

وشيبة بالرفع على أنه خبر آخر لإن أو خبر مبتدأ محذوف أي هو رب ، والجملة مستأنفة لإثبات ما قبلها وتعليله ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم ممن عنده شيء من الإيقان وطرف من العلوم اليقينية على أن الوصف المتعدي منزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى ما

يتعلق به ، وجواب الشرط محذوف أي إن كنتم من أهل الإيقان علمتم كونه سبحانه رب السموات والأرض لأنه من أظهر اليقينيات دليلاً وحينئذٍ يلزمكم القول بما يقتضيه مما ذكر أولاً ، ويجوز أن يكون مفعوله مقدراً أي إن كنتم موقنين في إقراركم إذا سئلتم عمن خلق السموات والأرض فقلتم الله تعالى خلقهن ، والجواب أيضاً محذوف أي إن كنتم موقنين في إقراركم بذلك علمتم ما يقتضيه مما تقدم لظهور اقتضائه إياه ، وجعل غير واحد الجواب على الوجهين تحقق عندكم ما قلناه ، ولم يجوزوا جعله مضمون ﴿ رَبّ السموات ﴾ الخ لأنه سبحانه كذلك أيقنوا أم لم يوقنوا فلا معنى لجعله دالاً عليه ، وكذا جعله مضمون ما بعد بل هذا مما لا يحسن باعتبار العلم أيضاً .

وفي هذا الشرط تنزيل إيقانهم منزلة عدمه لظهور خلافه عليهم ، وهو مراد من قال : إنه من باب تنزيل العالم منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم ، قيل : ولا يصح أن يقال : إنهم نزلوا منزلة الشاكين لمكان قوله سبحانه بعد : ﴿ بْل هُمْ فَى شَكّ ﴾ [الدخان : 9] ولا أرى بأساً في أن يقال : إنهم نزلوا أولاً كذلك ثم سجل عليهم بالشك لأنهم وإن أقروا بأنه عز وجل رب السموات والأرض لم ينفكوا عن الشك لإلحادهم في صفاته سبحانه وإشراكهم به تعالى شأنه .

وجوز أن يكون ﴿ مُّوقِنِينَ ﴾ مجازاً عن مريدين الإيقان والجواب محذوف أيضاً أي إن كنتم مريدين الإيقان فاعلموا ذلك ، وفيه بعد ، وأما جعل ﴿ إن ﴾ نافية كما حكاه النيسابوري فليس بشيء كما لا يخفى .

﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وقيل : خبر لمبتدأ محذوف أي هو سبحانه لا إله إلا هو ؛ وجملة المبتدأ وخبره مستأنفة مقررة لذلك ، وقيل : خبر آخر لإن على قراءة ﴿ رَبّ السموات ﴾ [الدخان : 7] بالرفع وجعله خبراً ، وقيل : خبر له على تلك القراءة وما بينهما اعتراض ﴿ لاَ إِلَهَ ﴾ مستأنفة كما قبلها ، وكذا قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الاولين ﴾ بإضمار مبتدأ أو بدل من ﴿ رَبّ السموات ﴾ على تلك القراءة أو بيان أو نعت له ، وقيل : فاعل ليميت ، وفي ﴿ يُحْيِ ﴾ ضمير راجع إليه والكلام من باب التنازع أو إلى ﴿ رَبّ السموات ﴾ ، وقيل : ﴿ لاَ إِلَهَ ﴾ خبر آخر لرب السموات وكذا ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ وقيل : هما خبران آخران لإن ، وقرأ ابن أبي إسحاق .

وابن محيصن .

وأبو حيوة .

والزعفراني وابن مقسم .

والحسن .

وأبو موسى .

وعيسى بن سليمان .

وصالح كلاهما عن الكسائي بالجر بدلاً من ﴿ رَبّ السموات ﴾ على قراءة الجر ، وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي بالنصب على المدح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(44/696)

وقال ابن عاشور :

﴿ حم (1) ﴾

القول في نظائره تقدم .

وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3)

القول في نظير هذا القَسَم وجوابه تقدم في أول سورة الزخرف .

ونوه بشأن القرآن بطريقة الكناية عنه بذكر فضل الوقت الذي ابتدىء إنزاله فيه .

فتعريف ﴿ الكتاب ﴾ تعريف العهد ، والمراد بالكتاب : القرآن .

ومعنى الفعل في ﴿ أنزلناه ﴾ ابتداء إنزاله فإن كل آية أو آيات تنزل من القرآن فهي منضمة

إليه انضمام الجزء للكل ، ومجموع ما يبلغ إليه الإنزال في كل ساعة هو مسمّى القرآن إلى أن تم نزول آخر آية من القرآن .

وتنكير ﴿ ليلة ﴾ للتعظيم ، ووصفها بـ ﴿ مباركة ﴾ تنويه بها وتشويق لمعرفتها .

فهذه الليلة هي الليلة التي ابتدُىء فيها نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في الغار من جَبل حِرَاءٍ في رمضان قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : 185] .

والليلة التي ابتدىء نزول القرآن فيها هي ليلة القدر قال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ [القدر : 1] .

والأصح أنها في العشر الأواخر من رمضان وأنها في ليلة الوتر .

وثبت أن الله جعل لنظيرتها من كل سنة فضلاً عظيماً لكثرة ثواب العبادة فيها في كل رمضان كرامة لذكرى نزول القرآن وابتداء رسالة أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم إلى النّاس كافة .

قال تعالى : ﴿ تنزَّل الملائكةُ والروحُ فيها بإذن ربّهم من كل أمرٍ سلامٌ هي حتى مطلع الفجر ﴾ [القدر : 4 ، 5] .

وذلك من معاني بركتها وكم لها من بركات للمسلمين في دينهم ، ولعل تلك البركة تسري إلى شؤونهم الصالحة من أمور دنياهم .

فبركة الليلة التي أنزل فيها القرآن بركة قدَّرها الله لها قبل نزول القرآن ليكون القرآن بابتداء نزوله فيها مُلابساً لوقت مبارك فيزداد بذلك فضلاً وشرفاً ، وهذا من المناسبات الإلهية الدقيقة التي أنبأنا الله ببعضها .

(45/696)

والظاهر أن الله أمدّها بتلك البركة في كل عام كما أوماً إلى ذلك قوله : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن إذ قاله بعد أن مضى على ابتداء نزول القرآن بضْعَ عشرة سنة .

وقولُه ﴿ ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهرٍ ﴾ [القدر : 3] وقوله ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر وقوله : فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ .

وعن عكرمة : أن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان وهو قول ضعيف .

واختلف في الليلة التي ابتدىء فيها نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم من ليالي رمضان ، فقيل : هي ليلة سبعَ عشرة منه ذكره ابن إسحاق عن الباقر أخذاً من قوله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ [الأنفال : 41] فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى هو والمشركون ببدر يوم الجمعة صبيحة سبعَ عشرة ليلة من رمضان أ هـ .

أي تأول قوله : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا ﴾ [الأنفال : 41] أنه ابتداء نزول القرآن .

وفي المراد بـ ﴿ ما أنزلنا ﴾ احتمالات ترفع الاحتجاج بهذا التأويل بأن ابتداء نزول القرآن كان في مثل ليلة يوم بدر .

والذي يجب الجزم به أن ليلة نزول القرآن كانت في شهر رمضان وأنه كان في ليلة القدر .

ولما تضافرت الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر " اطلبوها في العشر الأواخر من رمضان في ثالثة تبقى في خامسة تبقى في سابعة تبقى في تاسعة تبقى " .

فالذي نعتمده أن القرآن ابتدىء نزوله في العشر الأواخر من رمضان ، إلاّ إذا حُمل قول النبي صلى الله عليه وسلم " اطلبوها في العشر الأواخر " على خصوص الليلة من ذلك العام .

وقد اشتهر عند كثير من المسلمين أنّ ليلة القدر ليلة سبع وعشرين باستمرار وهو مناف لحديث " اطلبوها في العشر الأواخر " على كل احتمال .

وجملة ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ معترضة .

(46/696)

وحرف (إنَّ) يجوز أن يكون للتأكيد ردًّا لإنكارهم أن يكون الله أرسل رسلاً للناس لأن المشركين أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بزعمهم أن الله لا يرسل رسولاً من

البشر قال تعالى : ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] ، فكان ردّ إنكارهم ذلك ردًّا لإنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فتكون جملة ﴿ إنا كنّا منذرين ﴾ مستأنفة .

ويجوز أن تكون (إنَّ) لمجرد الاهتمام بالخبر فتكون مغنية غناء فاء التسبب فتفيد تعليلاً ، فتكون جملة ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ تعليلاً لجملة ﴿ أنزلناه ﴾ أي أنزلناه للإنذار لأن الإنذار شأننا ، فمضمون الجملة علة العلة وهو إيجاز وإنما اقتصر على وصف ﴿ منذرين ﴾ مع أن القرآن منذر ومُبشّر اهتماماً بالإنذار لأنه مقتضى حال جمهور الناس يومئذٍ ، والإنذار يقتضي التبشير لمن انتذر .

وحذف مفعول ﴿ منذرين ﴾ لدلالة قوله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ عليه ، أي منذرين المخاطبين بالقرآن .

وجملة ﴿ فيها يُفْرَقُ كلّ أمر حكيم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن تنكير ﴿ ليلة ﴾ .

ووصفها بـ ﴿ مباركة ﴾ كما علمت آنفاً فدل على عظم شأن هاتِه الليلة عند الله تعالى فإنها ظهر فيها إنزال القرآن ، وفيها يفرق عند الله كل أمر حكيم .

وفي هذه الجمل الأربع محسن اللف والنشر ، ففي قوله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ لفٌّ بين معنيين أولهما : تعيين إنزال القرآن ، وثانيهما : اختصاص تنزيله في ليلة مباركة ثم علل

المعنى الأول بجملة ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ ، وعُلل المعنى الثاني بجملة ﴿ فيها يُفْرَق كل أمر حكيم ﴾ .

والمنذر : الذي ينذر ، أي يخبر بأمر فيه ضرّ لقصد أن يتقيه المخبر به ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ في سورة البقرة (119) .

(47/696)

والفرق : الفصل والقضاء ، أي فيها يُفصَل كل ما يراد قضاؤه في النّاس ولهذا يُسمى القرآن فرقاناً ، وتقدم قوله تعالى : ﴿ فافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ في سورة المائدة (25) ، أي جَعل الله الليلة التي أنزل فيها القرآن وقتاً لإنفاذ وقوع أمور هامة مِثل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً لتلك المقضيات وتشريفاً لتلك الليلة .

وكلمة ﴿ كلّ ﴾ يجوز أن تكون مستعملة في حقيقة معناها من الشمول وقد علم الله ما هي الأمور الحكيمة فجمعها للقضاء بها في تلك الليلة وأعظمها ابتداء نزول الكتاب الذي فيه صلاح الناس كافّة .

ويجوز أن تكون ﴿ كل ﴾ مستعملة في معنى الكثرة ، وهو استعمال في كلام الله تعالى وكلام العرب ، وقد تقدم في قوله تعالى في سورة النمل (23) ﴿ وأوتيت من كل شيءٍ ﴾

أي فيها تُفْرَق أمور عظيمة .

والظاهر أن هذا مستمر في كل ليلة توافق عدّ تلك الليلة من كل عام كما يؤذن به المضارع في قوله : ﴿ يُفْرق ﴾ .

ويحتمل أن يكون استعمال المضارع في ﴿ يفرق ﴾ لاستحضار تلك الحالة العظيمة كقوله تعالى : ﴿ فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] .

والأمر الحكيم : المشتمل على حكمة من حكمة الله تعالى أو الأمر الذي أحكمه الله تعالى وأتقنه بما ينطوي عليه من النُّظُم المدبرة الدالة على سعة العلم وعمومه .

وبعض تلك الأمور الحكيمة يُنفِذُ الأمرَ به إلى الملائكة الموكلين بأنواع الشؤون ، وبعضها يُنفذ الأمر به على لسان الرّسول مدة حياته الدنيوية ، وبَعْضاً يلهمُ إليه من ألهمه الله أفعالاً حكيمة ، والله هو العالم بتفاصيل ذلك .

وانتصب ﴿ أمراً من عندنا ﴾ على الحال من ﴿ أمر حكيم ﴾ .

وإعادة كلمة ﴿ أمراً ﴾ لتفخيم شأنه ، وإلا فإن المقصود الأصلي هو قوله : ﴿ من عندنا ﴾ ، فكان مقتضى الظاهر أن يقع ﴿ من عندنا ﴾ صفةً ل ﴿ أمر حكيم ﴾ فخولف ذلك لهذه النكتة ، أي أمراً عظيماً فخماً إذا وصف بـ ﴿ حكيم ﴾ .

ثم بكونه من عند الله تشريفاً له بهذه العندية ، وينصرف هذا التشريف والتعظيم ابتداءً وبالتعيين إلى القرآن إذ كان بنزوله في تلك الليلة تشريفها وجعلها وقتاً لقضاء الأمور الشريفة الحكيمة .

وجملة ﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ معترضة وحرف (إنّ) فيها مثل ما وقع في ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ .

واعلم أن مفتتح السورة يجوز أن يكون كلاماً موجهاً إلى المشركين ابتداء لفتح بصائرهم إلى شرف القرآن وما فيه من النفع للناس ليكفُّوا عن الصدّ عنه ولهذا وردت الحروف المقطعة في أوَلها المقصودُ منها التحدّي بالإعجاز ، واشتملت تلك الجمل الثلاث على حرف التأكيد ، ويكون إعلام الرّسول صلى الله عليه وسلم بهذه المزايا حاصلاً تبعاً إن كان لم يسبق إعلامه بذلك بما سبق من آي القرآن أو بوحي غير القرآن .

ويجوز أن يكون موجهاً إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم أصالة ويكون علم المشركين بما يحتوي عليه حاصلاً تبعاً بطريق التعريض ، ويكون التوكيد منظوراً فيه إلى الغرض التعريضي .

ومفعول ﴿ مرسلين ﴾ محذوف دل عليه مادة اسم الفاعل ، أي مرسلين الرسل .

و ﴿ رحمة من ربّك ﴾ مفعول له من ﴿ إنَّا كنّا مرسلين ﴾ أي كنّا مرسلين لأجل رحمتنا ،

أي بالعباد المرسل إليهم لأن الإرسال بالإنذار رحمة بالناس ليتَجنَبوا مهاوي العذاب ويكتسبوا مكاسب الثواب ، قال تعالى:

﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] .

ويجوز أن يكون ﴿ رحمة ﴾ حالاً من الضمير المنصوب في ﴿ أنزلناه ﴾ .

وإيراد لفظ الربّ في قوله : ﴿ من ربك ﴾ إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقول : رحمة منا .

(49/696)

وفائدة هذا الإظهار الإشعار بأن معنى الربوبية يستدعي الرحمة بِالمَرْبُوبينَ ثم إضافة (ربّ) إلى ضمير الرّسول صلى الله عليه وسلم صرف للكلام عن مواجهة المشركين إلى مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم بالخطاب لأنه الذي جرى خطابهم هذا بواسطته فهو كحاضر معهم عند توجيه الخطاب إليهم فيصرف وجه الكلام تارة إليه كما في قوله : ﴿ يوسف أعْرِض عن هذا واستغفري لذنبكِ ﴾ [يوسف : 29] وهذا لقصد التنويه بشأنه بعد التنويه بشأن الكتاب الذي جاء به .

وإضافة الربّ إلى ضمير الرّسول صلى الله عليه وسلم ليتوصل إلى حظ له في خلال هذه

التشريعات بأن ذلك كله من ربّه ، أي بواسطته فإنه إذا كان الإرسال رحمة كان الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] ، ويعلم من كونه ربّ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه رب الناس كلهم إذ لا يكون الرّب رب بعض الناس دون بعض فأغنى عن أن يقول : رحمة من ربّك وربهم ، لأن غرض إضافة رب إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم يأبى ذلك ، ثم سيصرح بأنه ربّهم في قوله ﴿ ربّكم ورب آبائكم الأولين ﴾ [الدخان : 8] وهو مقام آخر سيأتي بيانه .

وجملة ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تعليل لجملة ﴿ إنا كنّا مرسلين رحمة من ربّك ﴾ أي كنا مرسلين رحمة بالناس لأنه عَلم عبادة المشركين للأصنام وعلم إغواء أئمة الكفر للأمم وعلم ضجيج الناس من ظلم قويّهم ضعيفَهم وعلم ما سوى ذلك من أقوالهم فأرسل الرُسل لتقويمهم وإصلاحهم وعَلم أيضاً نوايا الناس وأفعالهم وإفسادهم في الأرض فأرسل الرّسل بالشرائع لكف الناس عن الفساد وإصلاح عقائدهم وأعمالهم ، فأشير إلى علم النوع الأول بوصف ﴿ السميع ﴾ لأن السميع هو الذي يعلم الأقوال فلا يخفى عليه منها شيء .

وأشير إلى علم النّوع الثاني بوصف ﴿ العليم ﴾ الشامل لجميع المعلومات .

وقدم ﴿ السميع ﴾ للاهتمام بالمسموعات لأنّ أصل الكفر هو دعاء المشركين أصنامهم .

واعلم أن السميع والعليم تعليلان لجملة ﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ بطريق الكناية الرمزية لأن علة الإرسال في الحقيقة هي إرادة الصلاح ورحمة الخلق .

وأما العلم فهو الصفة التي تجري الإرادة على وفقه ، فالتعليل بصفة العلم بناء على مقدمة أخرى وهي أن الله تعالى حكيم لا يحب الفساد ، فإذا كان لا يحب ذلك وكان عليماً بتصرفات الخلق كان علمه وحكمته مقتضيين أن يرسل للناس رسلاً رحمةً بهم .

وضمير الفصل أفاد الحصر ، أي هو السميع العليم لا أصنامكم التي تدعونها .

وفي هذا إيماء إلى الحاجة إلى إرسال الرّسول إليهم بإبطال عبادة الأصنام .

وفي وصف ﴿ السميع العليم ﴾ تعريض بالتهديد .

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7)

هذا عود إلى مواجهة المشركين بالتذكير على نحو ما ابتدأت به السورة .

وهو تخلّص للاستدلال على تفرد الله بالإلهية إلزاماً لهم بما يُقرّون به من أنه ربّ السماوات والأرض وما بينهما ، ويُقرون بأن الأصنام لا تخلق شيئاً ، غير أنهم مُعرضون عن نتيجة الدليل ببطلان إلهية الأصنام ألاَ ترى القرآن يكرر تذكيرهم بأمثال هذا مثل قوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ [النحل : 17] وقوله : ﴿ والذين تدْعُون من دون الله لا يخلقُون شيئاً وهم يُخلَقون أمواتٌ غير أحياء ﴾ [النحل : 20 ، 21] ،

ولأجل ذلك ذَكر الربوبية إجمالاً في قوله : ﴿ رحمة من ربك ﴾ [الدخان : 6] ثم تفصيلاً بذكر صفة عموم العلم التي هي صفة المعبود بحق بصيغة قصر القلب المشير إلى أن الأصنام لا تسمع ولا تعلم .

وبذكر صفة التكوين المختصة به تعالى بإقرارهم ارتقاءً في الاستدلال .

(51/696)

فلما لم يكن مجال للريب في أنه تعالى هو الإله الحق أعقب هذا الاستدلال بجملة ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ بطريقة إثارة التيقظ لعقولهم إذ نزلهم منزلة الْمَشْكُوكِ إيقانُهم لعدم جريهم على موجب الإيقان لله بالخالقية حين عبدوا غيره بأنْ أُتي في جانب فرض إيقانهم بطريقة الشرط ، وأُتي بحرف الشرط الذي أصله عدم الجزم بوقوع الشرط على نحو قوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إنْ كنتم قوماً مسرفين ﴾ [الزخرف : 5] .

وقرأ الجمهور ﴿ رب السموات ﴾ برفع ﴿ ربُّ ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وهو من حذف المسند إليه لمتابعة الاستعمال في مثله بعد إجراء أخبار أو صفات عن ذات ثم يردف بخبر آخر ، ومن ذلك قولهم بعد ذكر شخص : فتًى يفعل ويفعل .

وهو من الاستئناف البياني إذ التقدير : إن أردت أن تعرفه فهو كذا .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بجر ﴿ رب ﴾ على أنه بَدَلٌ من قوله : ﴿ ربِّك ﴾ [الدخان : 6] .

وحذف متعلق ﴿ موقنين ﴾ للعلم به من قوله : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾ .

وجواب الشرط محذوف دل عليه المقام .

والتقدير : إن كنتم موقنين فلا تعبدوا غيره ، ولذلك أعقبه بجملة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ [الدخان : 8] .

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)

جملة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ نتيجة للدليل المتقدم لأن انفراده بِرُبوبيَة السماوات والأرض وما بينهما دليل على انفراده بالإلهية ، أي على بطلان إلهية أصنامهم فكانت هذه الجملة نتيجة لذلك فلذلك فصلت لشدة اقتضاء الجملة التي قبلها إياها .

(52/696)

وجملة ﴿ يحي ويميت ﴾ مستأنفة للاستدلال على أنه لا إله إلا هو بتفرده بالإحياء والإماتة ، والمشركون لا ينازعون في أن الله هو المحيي والمميت فكما استدل عليهم بتفرده

بإيجاد العوالم وما فيها استدل عليهم بخلق أعظم أحوال الموجودات وهي حالة الحياة التي شرّف بها الإنسان عن موجودات العالم الأرضي وكرّم أيضاً بإعطائها للحيوان لتسخيره لانتفاع الإنسان به بسببها ، وبتفرده بالإماتة وهي سلب الحياة عن الحيّ للدلالة على أن الحياة ليست ذاتية للحيّ .

ولما كان تفرده بالإحياء والإماتة دليلاً واضحاً في أحوال المخاطبين وفيما حولهم من ظهور الأحياء بالولادة والأمواتِ بالوفاة يوماً فيوماً من شأنه أن لا يجهلوا دلالته بَلْهَ جحودهم إياها ومع ذلك قد عبدوا الأصنام التي لا تحيي ولا تُميت ، أعقب بإثبات ربوبيته للمخاطبين تسجيلاً عليهم بجحد الأدلة وبكفران النعمة .

وعطف ﴿ ورب آبائكم الأولين ﴾ ليسجل عليهم الإلزام بقولهم : ﴿ وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف : 22] .

ووصفهم بـ ﴿ الأولين ﴾ لأنهم جعلوا أقدم الآباء حجة أعظم من الآباء الأقربين كما قال تعالى حكاية عنهم ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [المؤمنون : 24] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(53/696)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى فرق)

فَرَق بينهما فَرْقاً وفُرْقانا : فَصَلَ .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أَى يقضَى .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ ﴾ ، أَى فَصَّلناه وأَحكمناه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾ أَى فلقناه .

وقوله تعالى : ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ﴾ ، أَى الملائكة تنزل بالفَرْق بين الحقّ والباطل .

والفُرْق بالضَّم والفُرقان : القرآن ، وكلُّ ما فُرِق به بين الحقّ والباطل .

والفُرقان : النصر ، والبرهان ، والصّبح ، والتوراة ، وانفراق البحر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ .

ويوم الفرقان يوم بدر .

والفِراق والفَراق بالكسر والفتح : ضدّ الوصال ، وقرئ : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾

بالفتح .

والفِرقة بالكسر : الطَّائفة من الناس ، والجمع ، فِرق وأَفراق .

وجُمع فى الشعر على أَفارقة .

وجمع الجمع : أَفاريق .

والفريق / أَكثر من الفرقة .

والفُرْقة بالضمّ : الافتراق ، قال :

*وننشا ومما زاد بَثًّا وقوفنا * فريقىْ هوى منَّا مَشُوق وشائقُ*

*على ذا مضى الناس اجتماعٌ وفرقة * ومَيْت ومولود وقال ووامقُ*

وقد ورد فى القرآن ما يتصرّف من هذه المادة على وجوه :

الأَوّل : فريق من اليهود أَعرضوا عن كتاب الله : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ .

الثانى : فريق بدّلوا كتاب الله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ﴾ .

الثالث : فريق ذُمّ بالإِعراض عن الحقّ : ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

الرابع : فريق كذَّبوا بالكتاب وقتلوا الرّسل : ﴿ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ .

الخامس : فريقان مؤْمن وكافر : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ .

السادس : فريقان للهدى والضَّلال : ﴿ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ ﴾ .

السابع : فريق هم أَهل المماراة والمباهاة من المؤمنين والكافرين : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً ﴾ .

الثامن : فريق من المستخِفِّين المستهترينِ بالضّعَفَاءِ والفقراءِ : ﴿ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي ﴾ إلى قوله ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً ﴾ .

التاسع : فريقان : مُقرّ ومنكر من قوم صالح عليه السّلام : ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

العاشر : فريق أَنكروا وأَشركوا بعد التوبة والنجاة من البلاءِ والمِحَنِ : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

الحادى عشر : فريق مالوا للهزيمة والفرار : ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ .

الثانى عشر : فريقان [أَولهما] للعذاب والنكال ، وثانيهما للثواب والوصال : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ .

والفِراق ورد فى مواضع مختلفةِ :

فراق الرّجال النساء بالطلاق : ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ .

فراق الكفار الدين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ .

فِراق خِضر موسى : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ .

فراق الشخص الدنيا بالموت : ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ .

فراق الحقّ من الباطل : ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ﴾ .

فراقة طائفة أَوطانهم فى طلب العلم والدين : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ ﴾ .

فراق موسى قومه بالسؤال : ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

فراق المؤْمنين الكفَّار : ﴿ وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

تفرقة بين أَهل الإِسلام قد نهى عنها : ﴿ وَلا تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ .

(55/696)

تفرُّق أَهل الكتاب بعد نزول القرآن : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ومنه قوله : ﴿ وَلا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ ﴾ .

تفرقةٌ خشِى هارون أَن ينسبها موسى إِليه : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ .

تفرقةٌ أَمر يعقوبُ بها أَولاده خشية العين : ﴿ لا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ

مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ .

تفرقة جعلها الله معجزة لموسى فى البحر : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ .

والفَرْق والفَلْق أَخوان .

وكذا فَرَقُ الصُّبح وفَلَقه .

والفَرَق بالتحريك : الخوف الذى يُفَرِّق القلب .

ورجل فَرُوق وفَرُوقة : خوّاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 186 189. ﴾

(56/696)

قوله تعالى ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان أكثرهم منكراً لما لزمه القطع به بهذا البرهان الزاهر والسلطان الظاهر القاهر عناداً ولدداً وإن كان باطنه على غير ذلك ، فكان فعله فعل الشاك اللاعب ، كان التقدير لأجل ما يظهر من حالهم : لكنكم غير موقنين بعلم من العلوم ، بنى عليه قوله مع الصرف إلى الغيبة إعراضاً عنهم أيذاناً بالغضب ، وأنهم أهل للمعاجلة بالعطب : ﴿ بل هم ﴾ أي بضمائرهم ﴿ في شك ﴾ لأنهم لا يجردون أنفسهم من شوائب المكدرات لصفاء العلم ، ثم أعلم نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الشاغل لهم عن هذا المهم حال الصبيان مع ادعائهم الكمال بأخلاق الأجلاء من الرجال فقال : ﴿ يلعبون ﴾ أي يفعلون دائماً فعل التارك لما هو فيه من أجد الجد الذي لا مرية فيه اللعب الذي لا فائدة فيه ولا ثمرة له بوجه بعد فعل الشاك بالإعراض وعدم الإسراع إلى التصديق والإيقاض .

(57/696)

ولما كان هذا موضع أن يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ المفهوم من السياق : فماذا صنع فيهم بعد هذا البيان ، الذي لم يدع لبساً لإنسان ؟ سبب عن ذلك قوله تسلية له وتهديداً لهم : ﴿ فارتقب ﴾ أي انتظر بكل جهد عالياً عليم ناظراً لأحوالهم نظر من هو حارس لها ، متحفظاً من مثلها بهمة كهمة الأسد الأرقب ، والفعل متعد ولكنه قصر تهويلاً

لذهاب الوهم في مفعوله كل مذهب ، ولعل المراد في الأصل ما يحصل من أسباب نصرك وموجبات خذلانهم ﴿ يوم تأتي السماء ﴾ أي فيما يخيل للعين لما يغشي البصر من شدة الجهد بالجوع إن كان المراد ما حصل لهم من المجاعة الناشئة عن القحط الذي سببه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف " وروي في الصحيح أن الرجل منهم كان يرى ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان ، وفي الواقع أن المراد عند قرب الساعة وعقب قيامها ، فإنه ورد أنه يأتي إذ ذاك فيغشي الناس ويحصل للمؤمن منه كهيئة الزكام ، ويجوز أن يكون المراد أعم من ذلك كله وأوله وقت القحط وكان آية على ما بعده ، أو منه ما يأتي عند خروج الدخان من القحط الذي يحصل قبله أو غيره كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إني قد خبأت لك خبأ فما هو ؟ " قال : الدخ ، ففسر بالدخان ، فلذلك قال تعالى : ﴿ بدخان مبين ﴾ أي واضح لا لبس فيه عند رائية ومبين لما سواه من الآيات للفطن ﴿ يغشى الناس ﴾ أي المهددين بهذا ، وهم الذين رضوا بحضيض النوس والاضطراب عن أوج الثبات في رتبة الصواب ، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " بادروا بالأعمال ستاً : الدجال والدخان ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم " .

ولما كان من المعلوم أنهم يقولون عند إتيانه جرياً على عادة جهلهم : ما هذا ؟ أجيبوا بقوله تعالى حكاية عن لسان الحال ، أو قول بعضهم أو بعض أولياء الله : ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ يخلص وجعه إلى القلب فيبلغ في ألمه بما كنتم تؤلمون دعاتكم إلى الله برد مقولهم والاستخفاف باغترارکم بكثرة العدد والقوة والمدد .

ولما كان كأنه قيل : فما قالوا حين تحققوا ذلك ؟ قيل : قالوا وقد انحلت عرى تلك العزائم ، ووهت تلك القوى من كل عازم ، وسفلت بعد العو تلك الشوامخ من الهمم مدعين أنهم لغاية الإذعان من أهل القرب والرضوان : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المبدع لنا والمحسن إلينا ﴿ اكشف عنا العذاب ﴾ ثم عللوا ذلك بما علموا أنه الموجب كشفه ، فقالوا مؤكدين لما لحالهم من المنافاة لخبرهم : ﴿ إنا مؤمنون ﴾ أي عريقون في وصف الإيمان واصلون إلى رتبة الإيقان ، وهذا يصح أن يراد به بعد طلوع الشمس من مغربها ، روى الشيخان عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها " ثم قرأ الآية ، وإن كان المراد بالعذاب ما حصل من القحط كان هذا الإيمان على سبيل الوعد .

ولما كان كشف الآيات وإظهار العذاب لا يفيد في الدلالة على الحق أكثر مما أفاده الرسول ـ

صلى الله عليه وسلم ـ بما أقامه من المعجزات بل إفادة الرسول أعظم ، أجيب من كأنه سأل عن حالهم عند ذلك بقوله معرضاً عن خطابهم ، إيذاناً بدوام مصابهم ، لئلا يظن أنه ما كشف عنهم العذاب إلا لظن أنهم صادقون : ﴿ أنى ﴾ أي كيف ومن أين ﴿ لهم الذكرى ﴾ أي هذا التذكر العظيم الذي وصفوا به أنفسهم ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ جاءهم ﴾ ما هو أعظم من ذلك بما لا يقايس ﴿ رسول مبين ﴾ أي ظاهر غاية الظهور أنه رسولنا ، وموضح غاية الإيضاح لما جاء به عنا بما أظهر من الآيات ، وغير ذلك من الدلالات .

(59/696)

ولما كان الإعراض عنه مع ماله من العظمة بالبيان استخفافاً به وبمن جاء من بعده ، أشار إلى ذلك بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد ما له من عليّ الرتبة في نفسه وبالإضافة إلى من أرسله .

ولما كانت الفطر الأولى داعية إلى الإقبال على الحق ، نازعة إلى الانقطاع إلى الله والعكوف ببابه ، واللجاء إلى جنابه ، إلا بجهد من النفس في النفور وعلاج دواعي الثبور ، أشار إلى ذلك بالتعبير بصيغة التفعل فقال : ﴿ تولوا عنه ﴾ أي أطاعوا ما دعاهم إلى الإدبار عنه

من دواعي الهوى ونوازع الشهوات والحظوظ ﴿ وقالوا ﴾ أي زيادة على إساءتهم بالتولي : ﴿ معلم ﴾ أي علمه غيره من البشر ﴿ مجنون ﴾ فلم يبالوا بالتناقض البين الأمر ، وهذا يدل على أن من لا يبالي بعرضه ولا حياء له لا طيب لدائه لأنه لا وجود لدوائه ، وأنه إذا مس بما يلينه ويرده ويهينه لا يؤمن من رجوعه إلى الحال السيىء عند كشف ذلك الضر عنه .

ولما لفت سبحانه الخطاب عنهم إهانة لهم ، بين أن سببه أن داءهم عضال ، فليس له أبداً زوال ، فقال مؤكداً لاستبعادهم زوال ما هم فيه : ﴿ إنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة بالعلم المحيط وغيره ﴿ كاشفوا العذاب ﴾ أي عنكم بدعاء رسولكم صل الله عليه وسلم في القول بأن الدخان ما كانوا يرونه بسبب الجوع من القحط ﴿ قليلاً ﴾ إقامة للحجة عليكم لا لخفاء ما في ضمائركم علينا .

(60/696)

ولما كانوا قد أكدوا الإخبار بإيمانهم ، وهو باطل ، أكد سبحانه الإخبار بكذبهم ، ومن أصدق منه سبحانه قيلاً ، فقال تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ [الأنعام : 28] : ﴿ إنكم عائدون ﴾ أي ثابت

عودكم بعد كشفنا عنكم في ذلك الزمن القصير إلى الكفران وإن أكدتم حصول الإيمان بأكيد الإيمان لما في جبلاتكم من العوج ولطباعكم من المبادرة إلى الزلل ، فإيمانكم هذا الذي أخبرتم برسوخه عرض زائل وخيال باطل ، وإن كان هذا في آخر الزمان فلا يدع أن يكون الخطاب لهم على حقيقته بملك أو غيره ممن يرده الله تعالى لأن ذلك زمان خرق العادات ونقض المطردات إقامة للحجة عليهم وله الحجة البالغة ، وتأديباً لنا وتعليماً .

ولما كان اليوم قد يراد به المن المجتمع في حكم من الأحكام ، وكان زمان الدخان إن كان المراد به القحط الذي كان قبل يوم بدر أو ما يقرب من الساعة يسمى يوماً واحداً لاتحاد ذلك الحكم ، أبدل من ﴿ يوم الدخان ﴾ قوله تهديداً بشق الأكباد : ﴿ يوم نبطش ﴾ أي بما لنا من العظمة ، والبطش : الأخذ بقوة ﴿ البطشة الكبرى ﴾ أي التي تنحل لها عراهم وتنخل بها عزائمهم وقواهم ولا يحتملها حقائقهم ولا مناهم ، سواء كانت البطشة يوم بدر أو غيره فيخسر هنالك من كشف حال الابتلاء عن طغيانه ، وتمرده على ربه وعصيانه ، ويجوز أن يكون هذا ظرفاً لعائدون .

ولما كان ما له سبحانه من الحلم وطول الإمهال موجباً لأهل البلادة والغلظة الشك في وعيده ، قال مؤكداً ﴿ إنا منتقمون ﴾ أي ذلك صفة ثابتة لم نزل نفعلها بأعدائنا لنسر أضدادهم في أوليائنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 67.70 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى رد أن يكونوا موقنين بقوله ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ وأن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ولا عن جد وحقيقة بل قول مخلوط بهزء ولعب ، والله أعلم .

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) ﴾

اعلم أن المراد بقوله ﴿ فارتقب ﴾ انتظر ويقال ذلك في المكروه ، والمعنى انتظر يا محمد عذابهم فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذكر بعده عليه وهو قوله ﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ويجوز أيضاً أن يكون ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السماء ﴾ مفعول الارتقاب وقوله ﴿ بِدُخَانٍ ﴾ فيه قولان :

الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قومه بمكة لما كذبوه فقال : " اللهم اجعل سنيهم كسني يوسف " فارتفع المطر وأجدبت الأرض وأصابت قريشاً شدة المجاعة حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف ، فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات ومقاتل مجاهد واختيار الفراء والزجاج وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه وكان ينكر أن يكون الدخان إلا هذا الذي أصابهم من شدة الجوع كالظلمة في أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخاناً ،

فالحاصل أن هذا الدخان هو الظلمة التي في أبصارهم من شدة الجوع ، وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان بهذه الحالة وجهين الأول : أن في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير ويظلم الهواء ، وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال لسنة المجاعة الغبراء الثاني : أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان فيقول كان بيننا أمر ارتفع له دخان ، والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان .

(62/696)

والقول الثاني : في الدخان أنه دخان يظهر في العالم وهو إحدى علامات القيامة ، قالوا فإذا حصلت هذه الحالة حصل لأهل الإيمان منه حالة تشبه الزكام ، وحصل لأهل الكفر حالة يصير لأجلها رأسه كرأس الحنيذ ، وهذا القول هو المنقول عن علي بن أبي طالب عليه السلام وهو قول مشهور لابن عباس واحتج القائلون بهذا القول بوجوه الأول : أن قوله ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السماء بِدُخَانٍ ﴾ يقتضي وجود دخان تأتي به السماء وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع فذاك ليس بدخان أتت به السماء فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه عدولاً عن الظاهر لا لدليل منفصل ، وإنه لا يجوز الثاني : أنه وصف

ذلك الدخان بكونه مبيناً ، والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم ، ومثل هذا لا يوصف بكونها دخاناً مبيناً والثالث : أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشي الناس ، وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم والحال التي ذكرتموها لا توصف بأنها تغشي الناس إلا على سبيل المجاز وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل الرابع : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(63/696)

" أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم عليهما السلام ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر " قال حذيفة يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال " دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره " رواه صاحب "الكشاف" وروى القاضي عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " باكروا بالأعمال ستاً ، وذكر منها طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة " أما القائلون بالقول الأول ، فلا شك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز ،

وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع والقوم لم يذكروا ذلك الدليل فكان المصير إلى ما ذكروه مشكلاً جداً ، فإن قالوا الدليل على أن المراد ما ذكرناه ، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون ﴿ رَبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ وهذا إذا حملناه على القحط الذي وقع بمكة استقام فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله والرحم وأوعده (1) أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية أن يؤمنوا به ، فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم ، أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك ، لأن عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا ﴿ رَبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ ولم يصح أيضاً أن يقال لهم ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ والجواب : لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جارياً مجرى ظهور سائر علامات القيامة في أنه لا يوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة ، ثم إن الناس يخافون جداً فيتضرعون ، فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق ، وإذ كان هذا محتملاً فقد سقط ما قالوه ، والله اعلم .

---

(1) هكذا الأصل ، والصواب «ووعده» بدون الألف ، لأن أوعده لا تكون إلا في الشر بخلاف وعده فهي في الخير دائما .

ولنرجع إلى التفسير فنقول قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي ظاهر الحال لا يشك أحد في أنه دخان يغشي الناس أي يشملهم وهو في محل الجر صفة لقوله ﴿ بِدُخَانٍ ﴾ وفي قوله ﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قولان الأول : أنه منصوب لمحل بفعل مضمر وهو يقولون ويقولون منصوب على الحال أي قائلين ذلك الثاني : قال الجرجاني صاحب "النظم" هذا إشارة إليه وإخبار عن دنوه واقترابه كما يقال هذا العدو فاستقبله والغرض منه التنبيه على القرب .

ثم قال : ﴿ رَّبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب ﴾ فإن قلنا التقدير : يقولون هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب فالمعنى ظاهر وإن لم يضمر القول هناك أضمرناه ههنا والعذاب على القول الأول هو القحط الشديد ، وعلى القول الثاني الدخان المهلك ﴿ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي بمحمد وبالقرآن ، والمراد منه الوعيد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب .

ثم قال تعالى : ﴿ أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ يعني كيف يتذكرون وكيف يتعظون بهذه الحالة وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة وهو ما ظهر على رسول الله من المعجزات القاهرة والبينات الباهرة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ ولم يلتفتوا إليه ﴿ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ وذلك لأن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام قولان منهم من كان يقول إن محمداً يتعلم هذه الكلمات من بعض الناس لقوله ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الذي

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ [النحل : 103] وكقوله تعالى : ﴿ وأعانه عليه قومٌ آخرون ﴾ [الفرقان : 4] ومنهم من كان يقول إنه مجنون والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشي .

(65/696)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ أي كما يكشف العذاب عنكم تعودون في الحال إلى ما كنتم عليه من الشرك ، والمقصود التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى ، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر والتقليد لمذاهب الأسلاف .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" وقرىء نبطش بضم الطاء ، وقرأ الحسن نبطش بضم النون كأنه تعالى يأمر الملائكة بأن يبطشوا بهم والبطش الأخذ بشدة ، وأكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع ثم صار بحيث يستعمل في إيصال الآلام المتتابعة ، وفي المراد بهذا اليوم قولان :

القول الأول : أنه يوم بدر وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومقاتل وأبي العالية رضي الله تعالى عنهم ، قالوا إن كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم القحط والجوع عادوا إلى

التكذيب فانتقم الله منهم يوم بدر .

والقول الثاني : أنه يوم القيامة روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر ، وأنا أقول هي يوم القيامة ، وهذا القول أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [غافر : 17] ولأن هذه البطشة لما وصفت بكونها كبرى على الإطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش وذلك ليس إلا في القيامة ولفظ الانتقام في حق الله تعالى من المتشابهات كالغضب والحياء والتعجب ، والمعنى معلوم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 209.206 ﴾

(66/696)

وقال القرطبى :

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾

أي ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم : إن الله خالقهم ؛ وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم فهم في شك .

وإن توهّموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون في دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة .

وقيل : "يَلْعَبُونَ" يضيفون إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الافتراء استهزاء .

ويقال لمن أعرض عن المواعظ : لاعب ؛ وهو كالصبي الذي يلعب فيفعل ما لا يدري عاقبته .

قوله تعالى : ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِي السمآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين ؛ قاله قتادة .

وقيل : معناه احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين ؛ ولذلك سُمِّيَ الحافظ رقيباً .

وفي الدُّخَان أقوال ثلاثة : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجىء بعدُ ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض ؛ فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم ؛ وهو من آثار جهنم يوم القيامة .

وممن قال إن الدخان لم يأت بعدُ : عليّ وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وزيد بن عليّ والحسن وابن أبي مليكة وغيرهم .

وروى أبو سعيد الخُدْرِيّ مرفوعاً أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة ؛ يأخذ المؤمن منه

كالزكمة.

وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه؛ ذكره الماوردي.

(67/696)

وفي صحيح مسلم عن أبي الطُّفَيل " عن حُذيفة بن أسِيد الغِفَارِيّ قال: اطلع النبيّ صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: "ما تذكرون"؟ قالوا: نذكر الساعة؛ قال: "إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عشر آيات فذكر الدُّخانَ والدَّجَّالَ والدابةَ وطلوعَ الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وخروج يأجوجَ ومأجوجَ وثلاثةَ خُسُوف خَسْفٌ بالمَشْرِق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ بجزيرة العرب وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمَن تَطْرُد الناس إلى مَحْشَرهم" " في رواية عن حُذيفة " إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ في جزيرة العرب والدُّخانَ والدَّجالُ ودابَّةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوجُ وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن تُرَحِّلُ الناس " وخرجه الثعلبيّ أيضاً عن حُذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " "أوّل الآيات خروجاً الدَّجالُ ونزولُ عيسى ابن مريم ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن أَبْيَنَ تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتَقِيل معهم إذا قالوا وتصبح معهم إذا أصبحوا وتُمْسي

معهم إذا أمسوا" .

قلت : يا نبيّ الله ، وما الدخان ؟ قال هذه الآية : ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِي السمآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره" "

فهذا قول .

القول الثاني أن الدخان هو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً ؛ قاله ابن مسعود .

قال : وقد كشفه الله عنهم ، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم .

والحديث عنه بهذا في صحيح البخاريّ ومسلم والترمذيّ .

(68/696)

قال البخاريّ : حدثني يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مَسْرُوق قال : " قال عبد الله : إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصت على النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كَسِنِي يوسف ، فأصابهم قَحْطٌ وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿

فارتقب يَوْمَ تَأْتِي السمآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى الناس هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال : فَأُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل : يا رسول الله ، استسق اللهِ لِمُضَر فإنها قد هلكت .

قال : "لِمُضَر ! إنك لجريء" .

فاستسقى فسُقُوا ؛ فنزلت : ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ " فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ .

قال : يعني يوم بدر .

قال أبو عبيدة : والدُّخَان الجَدْب .

القُتَبيّ : سُمِّيَ دخاناً لِيُبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان .

القول الثالث إنه يوم فتح مكة لما حجبت السماءَ الغبرة ؛ قاله عبد الرحمن الأعرج .

﴿ يَغْشَى الناس ﴾ في موضع الصفة للدخان ، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود فهو خاص بالمشركين من أهل مكة ، وإن كان من أشراط الساعة فهو عام على ما تقدم .

﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يقول الله لهم : ﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فمن قال : إن الدخان قد مضى فقوله : "هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ" حكاية حال ماضية ، ومن جعله مستقبلاً فهو حكاية حال آتية .

وقيل : "هَذَا" بمعنى ذلك .

وقيل : أي يقول الناس لذلك الدخان : "هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ" .

وقيل : هو إخبار عن دنوّ الأمر ؛ كما تقول : هذا الشتاء فأعدّ له .

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12)

أي يقولون ذلك : اكشف عنا العذاب ف "إِنَّا مُؤْمِنُونَ" ؛ أي نؤمن بك إن كشفته عنا .

(69/696)

قيل : إن قريشاً أَتَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، ثم نقضوا هذا القول .

قال قتادة : "الْعَذَابَ" هنا الدخان .

وقيل : الجوع ؛ حكاه النقاش .

قلت : ولا تناقض ؛ فإن الدخان لم يكن إلا من الجوع الذي أصابهم ؛ على ما تقدم .

وقد يقال للجوع والقحط : الدخان ؛ ليبس الأرض في سنة الجدب وارتفاع الغبار بسبب قلة الأمطار ؛ ولهذا يقال لسنة الجدب : الغبراء .

وقيل : إن العذاب هنا الثلج .

قال الماورديّ : وهذا لا وجه له ؛ لأن هذا إنما يكون في الآخرة أو في أهل مكة ، ولم تكن مكة من بلاد الثلج ؛ غير أنه مقول فحكيناه .

قوله تعالى : ﴿ أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ أي من أين يكون لهم التذكُّر والاتعاظ عند حلول العذاب .

﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ يبيّن لهم الحق ، والذِّكْرى والذِّكْر واحد ؛ قاله البخاريّ .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ أي أعرضوا .

قال ابن عباس : أي متى يتّعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد توليّهم عن محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم إيّاه .

وقيل : أي أنَّى ينفعهم قولهم : "إِنَّا مُؤْمِنُونَ" بعد ظهور العذاب غداً أو بعد ظهور أعلام الساعة ، فقد صارت المعارف ضرورية .

وهذا إذا جعلت الدخان آية مرتقبة .

﴿ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي عَلّمه بَشَرٌ أو علّمه الكَهَنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو العذاب قَلِيلاً ﴾ أي وقتاً قليلاً ، وعد أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً ؛ أي في زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ؛ قاله ابن مسعود .

فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم عادوا إلى تكذيبه .

ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة .

ثم مَن قضى عليه بالكفر يستمر على كفره .

(70/696)

ومن قال هذا في القيامة قال : أي لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر .

وقيل : معنى ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ إلينا ؛ أي مبعوثون بعد الموت .

وقيل : المعنى "إِنَّكُمْ عَائِدُونَ" إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ ﴾ محمول على ما دلّ عليه ﴿ مُنتَقِمُونَ ﴾ ؛ أي ننتقم منهم يوم نبطِش .

وأبعده بعض النحويين بسبب أن ما بعد "إنّ" لا يفسر ما قبلها .

وقيل : إن العامل فيه "مُنْتَقِمُونَ" .

وهو بعيد أيضاً ؛ لأن ما بعد "إن" لا يعمل فيما قبلها .

ولا يحسن تعلّقه بقوله : "عَائِدُونَ" ولا بقوله : "إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ" ؛ إذ ليس المعنى عليه .

ويجوز نصبه بإضمار فعل ؛ كأنه قال : ذكّرهم أو اذكر .

ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون ، فإذا عدتم أنتقم منكم يوم نبطِش البطشة الكبرى .

ولهذا وصل هذا بقصة فرعون ، فإنهم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهم العذاب ، ثم لم يؤمنوا حتى غرِقوا .

وقيل : "إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ" كلام تام .

ثم ابتدأ : "يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ" أي ننتقم من جميع الكفار .

وقيل : المعنى وارتقب الدخان وارتقب يَوْمَ نَبْطِش ، فحذف واو العطف ؛ كما تقول : اتق النار اتق العذاب .

و ﴿ البطشة الكبرى ﴾ في قول ابن مسعود : يوم بدر .

وهو قول ابن عباس وأُبَيّ بن كعب ومجاهد والضحاك .

وقيل : عذاب جهنم يوم القيامة ؛ قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً ، واختاره الزجاج .

وقيل : دخان يقع في الدنيا ، أو جوع أو قحط يقع قبل يوم القيامة .

الماوردِيّ : ويحتمل أنها قيام الساعة ؛ لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا .

ويقال : انتقم الله منه ؛ أي عاقبه .

والاْسم منه النقمة والجمع النَّقِمات .

وقيل بالفرق بين النقمة والعقوبة ؛ فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة .

(71/696)

والنقمة قد تكون قبلها ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : العقوبة ما تقدّرت والاْنتقام غير مقدّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(72/696)

وقال الآلوسى :

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكّ ﴾

إضراب إبطالي أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه ، وتنوين ﴿ شَكٌّ ﴾ للتعظيم أي في شك عظيم ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ لا يقولون ما يقولون مما هو مطابق لنفي الأمر عن جد وإذعان بل يقولونه مخلوطاً بهزء ولعب وهذه الجملة خبر بعد خبر لهم .

وجوز أن تكون هي الخبر والظرف متعلق بالفعل قدم للفاصلة ، والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم وعدم التفاتهم ، والفاء في قوله تعالى :

(73/696)

﴿ فارتقب ﴾ لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ما قبلها فإن كونهم في شك يلعبون مما يوجب ذلك حتماً أي فانتظر لهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي يوم تأتي بجدب ومجاعة فإن الجائع جداً يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان وهي ظلمة تعرض للبصر لضعفه فيتوهم ذلك فإطلاق الدخان على ذلك المرئي باعتبار أن الرائي يتوهمه دخاناً ، ولا يأباه وصفه بمبين وإرادة الجدب والمجاعة منه مجاز من باب ذكر المسبب وإرادة السبب أو لأن الهواء يتكدر سنة الجدب بكثرة الغبار لقلة الأمطار المسكنة له فهو كناية عن الجدب وقد فسر أبو عبيدة الدخان به ، وقال القتيبي : يسمى دخاناً ليبس الأرض حتى يرتفع منها ما هو كالدخان ، وقال بعض العرب : نسمي الشر الغالب دخاناً ، ووجه ذلك بأن الدخان مما يتأذى به فأطلق على كل مؤذ يشبهه ، وأريد به هنا الجدب ومعناه الحقيقي معروف ، وقياس جمعه في القلة أدخنة وفي الكثرة دخنان نحو غراب وأغربة وغربان ، وشذوا في جمعه على فواعل فقالوا : دواخن كأنه جمع داخنة تقديراً ، وقرينة التجوز فيه هنا حالية

كما ستعلمه إن شاء الله تعالى من الخبر ، والمراد باليوم مطلق الزمان وهو مفعول به لارتقب أو ظرف له والمفعول محذوف أي ارتقب وعد الله تعالى في ذلك اليوم وبالسماء جهة العلو ، وإسناد الإتيان بذلك إليهما من قبيل الإسناد إلى السبب لأنه يحصل بعدم إمطارها ولم يسند إليه عز وجل مع أنه سبحانه الفاعل حقيقة ليكون الكلام مع سابقه المتضمن إسناد ما هو رحمة إليه تعالى شأنه على وزان قوله تعالى : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : 7] وتفسير الدخان بما فسرناه به مروى عن قتادة .

وأبي العالية .

والنخعي .

والضحاك .

ومجاهد .

ومقاتل وهو اختيار الفراء .

والزجاج .

وقد روي بطرق كثيرة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، أخرج أحمد .

والبخاري .

وجماعة عن مسروق قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : إني تركت رجلاً في المسجد يقول في هذه الآية ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السماء بِدُخَانٍ ﴾ الخ : يغشى الناس قبل يوم القيامة دخان ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام فغضب وكان متكئاً فجلس ثم قال : من علم منكم علماً فليقل به ، ومن لم يكن يعلم فليقل الله تعالى أعلم .

فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله تعالى أعلم ، وسأحدثكم عن الدخان إن قريشاً لما استصعبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبطؤا عن الإسلام قال : اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينه كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فارتقب ﴾ إِلَى ﴿ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان : 11] فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقيل : يا رسول الله استسق الله تعالى لمضر فاستسقى لهم عليه الصلاة والسلام ، فسقوا فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ [الدخان : 15] الخبر .

وفي رواية أخرى صحيحة أنه قال : لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس إدباراً قال : اللهم سبعاً كسبع يوسف فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام ، فجاءه أبو سفيان وناس من أهل مكة فقالوا : يا محمد إنك تزعم أنك قد بعثت رحمة وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله تعالى فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقوا الغيث

فأطبقت عليهم سبعاً فشكا الناس كثرة المطر فقال : اللهم حوالينا ولا علينا فانحدرت السحابة عن رأسه فسقى الناس حولهم قال : فقد مضت آية الدخان وهو الجوع الذي أصابهم الحديث ، وظاهره يدل كما في تاريخ ابن كثير على أن القصة كانت بمكة فالآية مكية .

وفي بعض الروايات أن قصة أبي سفيان كانت بعد الهجرة فلعلها وقعت مرتين ، وقد تقدم ما يتعلق بذلك في سورة المؤمنين .

(75/696)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي لهيعة عن عبد الرحمن الأعرج أنه قال في هذا الدخان : كان في يوم فتح مكة وفي "البحر" عنه أنهق ال : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى السماء ﴾ وهو يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغبرة ، وفي رواية ابن سعيد أن الأعرج يروي عن أبي هريرة أنه قال : كان يوم فتح مكة دخان ، وهو قول الله تعالى : ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ويحسن على هذا القول أن يكون كناية عما حل بأهل مكة في ذلك اليوم من الخوف والذل ونحوهما ، وقال علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عمر .

وابن عباس .

وأبو سعيد الخدري .

وزيد بن علي .

والحسن : إنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ ويعتري المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص .

وأخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً أول الآيات الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا والدخان ، قال حذيفة : يا رسول الله وما الدخان ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال : يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره ، فالدخان على ظاهره والمعنى فارتقب يوم ظهور الدخان .

وحكى السفاريني في "البحور الزاخرة" عن ابن مسعود أنه كان يقول : هما دخانان مضى واحد والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ولا يصيب المؤمن إلا بالزكمة وأما الكافر فيشق مسامعه فيبعث الله تعالى عند ذلك الريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الناس ، ولا أظن صحة هذه الرواية عنه .

وحمل ما في الآية على ما يعم الدخانين لا يخفى حاله ، وقيل : المراد بيوم تأتي السماء الخ يوم القيامة فالدخان يحتمل أن يراد به الشدة والشر مجازاً وأن يراد به حقيقته .

وقال الخفاجي : الظاهر عليه أن يكون قوله تعالى : ﴿ تَأْتِي السماء ﴾ إلى آخره استعارة تمثيلية إذ لا سماء لأنه يوم تشقق فيه السماء فمفرداته على حقيقتها ، وأنت تعلم أنه لا مانع من القول بأن السماء كما سمعت أولاً بمعنى جهة العلو سلمنا أنها بمعنى الجرم المعروف لكن لا مانع من كون الدخان قبل تشققها بأن يكون حين يخرج الناس من القبور مثلاً بل لا مانع من القول بأن المراد من إتيان السماء بدخان استحالتها إليه بعد تشققها وعودها إلى ما كانت عليه أولاً كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] ويكون فناؤها بعد صيرورتها دخاناً .

هذا والأظهر حمل الدخان على ما روي عن ابن مسعود أولاً لأنه أنسب بالسياق لما أنه في كفار قريش وبيان سوء حالهم مع أن في الآيات بعد ما هو أوفق به ، فوجه الربط أنه سبحانه لما ذكر من حالهم مقابلتهم الرحمة بالكفران وأنهم لم ينتفعوا بالمنزل والمنزل عليه عقب بقوله تعالى شأنه : ﴿ فارتقب يَوْمَ ﴾ الخ ، للدلالة على أنهم أهل العذاب والخذلان لا أهل

الإكرام والغفران .

﴿ يغشى الناس ﴾ أي يحيط بهم ، والمراد بهم كفار قريش ، ومن جعل الدخان ما هو من أشراط الساعة حمل (الناس) على من أدركه ذلك الوقت ، ومن جعل ذلك يوم القيامة حمل (الناس) على العموم .

والجملة صفة أخرى للدخان .

وقوله تعالى : ﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ رَّبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ في موضع نصب بقول مقدر وقع حالاً أي قائلين أو يقولون هذا الخ .

(77/696)

والإشارة للتفخيم ، وقيل : يجوز أن يكون هذا عذاب أليم إخباراً منه عز وجل تهويلاً للأمر كما قال سبحانه وتعالى في قصة الذبيح ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ [الصافات : 106] فهو استئناف أو اعتراض والإشارة بهذا للدلالة على قرب وقوعه وتحققه ، وما تقدم أولى ، وقوله سبحانه : ﴿ رَّبَّنَا ﴾ إلى آخره كما صرح به غير واحد من المفسرين وعد منهم بالإيمان إن كشف جل وعلا عنهم العذاب ، فكأنهم قالوا : ربنا إن كشفت عنا

العذاب آمنا لكن عدلوا عنه إلى ما في المنزل إظهاراً لمزيد الرغبة وحملوه على ذلك لما في بعض الروايات أنه لما اشتد القحط بقريش مشى أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم وواعده أن دعا لهم وزال ما بهم آمنوا والمراد بقوله سبحانه وتعالى .

﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾ نفي صدقهم في الوعد وأن غرضهم إنما هو كشف العذاب والخلاص أي كيف يتذكرون أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم .

﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم من ذلك في إيجابهما حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ظاهر أمر رسالته بالآيات والمعجزات التي تخر لها صم الجبال أو مظهر لهم مناهج الحق بذلك .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ أي عن ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام وهو هو والجملة عطف على قوله تعالى : و﴿ قَدْ جَاءَهُمُ ﴾ [الدخان : 13] إلى آخره ، وعطفها على قوله سبحانه : ﴿ رَّبَّنَا ﴾ [الدخان : 12] الخ لأنه على معنى قالوا : ربنا الخ ليس بذاك ، وثم للاستبعاد والتراخي الرتبي وإلا فهم قد تولوا ريثما جاءهم وشاهدوا منه ما شاهدوا مما يوجب الإقبال إليه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالُواْ ﴾ مع ذلك في حقه عليه الصلاة والسلام .

﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي قالوا تارة : يعلمه عداس غلام رومي لبعض ثقيف وأخرى مجنون أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا ولم يقل ومجنون بالعطف لأن المقصود تعديد فبائحهم وقرأ زر بن حبيش معلم بكسر اللام فمجنون صفة له وكأنهم أرادوا رسول مجنون وحاشاه ثم حاشاه صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم وأخبار بالعود على تقدير الكشف أي إن كشفنا عنكم العذاب كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً عدتم والمراد على ما قيل عائدون إلى الكفر ؛ وأنت تعلم أن عودهم إليه يقتضي إيمانهم وقد مر أنهم لم يؤمنوا وإنما وعدوا الإيمان فإما أن يكون وعدهم منزلاً منزلة إيمانهم أو المراد عائدون إلى الثبات على الكفر أو على الإقرار والتصريح به وقال قتادة : هذا توعد بمعاد الآخرة وهو خلاف الظاهر جداً ومن قال : إن الدخان يوم القيامة قال إن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ﴾ إلى آخره وعد بالكشف على نحو قوله عز وجل : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] ومن قال المراد به ما هو من أشراط الساعة قال بإمكان الكشف وعدم انقطاع التكليف عند ظهوره وإن كان من الأشراط بل جاء في بعض الآثار أنه يمكث أربعين يوماً وليلة فيكشف عنهم فيعودون إلى ما كانوا عليه من الضلال ، وحمله على ما روي عن ابن مسعود ظاهر الاستقامة لا قيل فيه ولا قال ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ

جَاءهُمْ ﴾ [الدخان : 13] الخ قوي الملاءمة له وهو بعيد الملاءمة للقول المروى عن الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه فقد احتيج في تحصيلها إلى جعل الإسناد من باب إسناد حال البعض إلى الكل أو حمل الناس على الكفار الموجودين في ذلك الوقت والأمر على القول بأنه ما كان في فتح مكة أهون إلا أنه مع ذلك ليس كقول ابن مسعود فتأمل .

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى ﴾ هو يوم بدر عند ابن مسعود وأخرجه عبد بن حميد .

(79/696)

وابن جرير عن أبي بن كعب .

ومجاهد .

والحسن .

وأبي العالية .

وسعيد بن جبير .

ومحمد بن سيرين .

وقتادة .

وعطية ، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس .

وأخرج ابن جرير .

وعبد بن حميد بسند صحيح عن عكرمة .

قال : قال ابن عباس قال ابن مسعود البطشة الكبرى يوم بدر ، وأنا أقول : هي يوم القيامة

ونقل في "البحر" حكاية أنه يوم القيامة عن الحسن .

وقتادة أيضاً .

والظرف معمول لما دل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ أي إنا ننتقم يوم إذ انا منتقمون ،

وقيل لمنتقمون ورده الزجاج وغيره بأن ما بعد إن لا يجوز أن يعمل فيما قبلها ، وقيل لعائدون

على معنى إنكم لعائدون إلى العذاب يوم نبطش .

وقيل بكاشفوا العذاب وليس بشيء وقيل لذكرهم أو اذكر مقدراً ، وقيل هو بدل من ﴿

يَوْمَ تَأْتِى ﴾ [الدخان : 10] الخ .

وقرىء ﴿ نَبْطِشُ ﴾ بضم الطاء وقرأ الحسن .

وأبو رجاء .

وطلحة بخلاف عنه ﴿ نَبْطِشُ ﴾ بضم النون من باب الأفعال على معنى نحمل الملائكة

عليهم السلام على أن يبطشوا بهم أو نمكنهم من ذلك فالمفعول به محذوف للعلم وزيادة

التهويل ، وجعل البطشة على هذا مفعولاً مطلقاً على طريقة ﴿ أنبتكم . . .

نباتاً ﴾ [نوح : 17] ، وقال ابن جني ، وأبو حيان : هي منصوبة بفعل مضمر يدل عليه

الظاهر أي يوم نبطش من نبطشه فيبطش البطشة الكبرى ، وقال ابن جني : ولك أن تنصبها على أنها مفعول كأنه به قيل : يوم نقوي البطشة الكبرى عليهم ونمكنها منهك كقولك : يوم نسلط القتل عليهم ونوسع الأخذ منهم ، وفي "القاموس" بطش به يبطش ويبطش أخذه بالعنف والسطوة كابطشة والبطش الأخذ الشديد في كل شيء والبأس اه فلا تغفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(80/696)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ حم * والكتاب المبين ﴾

قد تقدّم في السورتين المتقدمتين قبل هذه السورة الكلام على هذا معنى ، وإعراباً ، وقوله : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ جواب القسم ، وإن جعلت الجواب ﴿ حم ﴾ كانت هذه الجملة مستأنفة ، وقد أنكر بعض النحويين أن تكون هذه الجملة جواباً للقسم ، لأنها صفة للمقسم به ، ولا تكون صفة المقسم به جواباً للقسم ، وقال : الجواب ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ، واختاره ابن عطية ، وقيل : إن قوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ جواب ثانٍ ، أو جملة مستأنفة مقرّرة للإنزال ، وفي حكم العلة له كأنه قال : إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار ،

والضمير في ﴿ أنزلناه ﴾ راجع إلى الكتاب المبين ، وهو : القرآن .

وقيل : المراد بالكتاب : سائر الكتب المنزّلة والضمير في ﴿ أنزلناه ﴾ راجع إلى القرآن

على معنى : أنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزّلة : أنه أنزل القرآن ، والأوّل أولى .

والليلة المباركة : ليلة القدر كما في قوله : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] ولها

أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصكّ ، وليلة القدر .

قال عكرمة : الليلة المباركة هنا : ليلة النصف من شعبان .

وقال قتادة : أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أمّ الكتاب ، وهو : اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة

في سماء الدنيا ، ثم أنزله الله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم في الليالي والأيام في

ثلاث وعشرين سنة ، وقد تقدّم تحقيق الكلام في هذا في البقرة عند قوله : ﴿ شَهْرُ

رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] وقال مقاتل : كان ينزل من اللوح كل ليلة

قدر من الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل في السنة إلى مثلها من العام .

(81/696)

ووصف الله سبحانه هذه الليلة ، بأنها مباركة لنزول القرآن فيها ، وهو مشتمل على

مصالح الدين والدنيا ، ولكونها تتنزّل فيها الملائكة ، والروح كما سيأتي في سورة القدر ،

ومن جملة بركتها ما ذكره الله سبحانه ها هنا بقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، ومعنى يفرق : يفصل ، ويبين من قولهم : فرقت الشي أفرقه فرقاً ، والأمر الحكيم : المحكم ، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت ، وبسط وقبض ، وخير وشرّ ، وغير ذلك ، كذا قال مجاهد ، وقتادة ، والحسن ، وغيرهم .

وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة ، وما بينهما اعتراض ، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها .

قرأ الجمهور : ﴿ يفرق ﴾ بضمّ الياء ، وفتح الراء مخففاً ، وقرأ الحسن ، والأعمش ، والأعرج بفتح الياء وضم الراء ، ونصب كل أمر ، ورفع حكيم على أنه الفاعل .

والحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هي : ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان ، لأن الله سبحانه أجملها هنا ، وبينها في سورة البقرة بقوله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾

[البقرة : 185] وبقوله في سورة القدر : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] ، فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف ، ولا ما يقتضي الاشتباه ﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ قال الزجاج ، والفراء : انتصاب ﴿ أمراً ﴾ ب ﴿ يفرق ﴾ ، أي : يفرق فرقاً ، لأن أمراً بمعنى : فرقاً .

والمعنى : إنا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ ، فهو على هذا منتصب على المصدرية مثل قولك : يضرب ضرباً .

قال المبرد : ﴿ أمراً ﴾ في موضع المصدر ، والتقدير : أنزلناه إنزالاً .

وقال الأخفش : انتصابه على الحال ، أي : آمرين .

وقيل : هو منصوب على الاختصاص ، أي : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا ، وفيه تفخيم لشأن القرآن ، وتعظيم له .

(82/696)

وقد ذكر بعض أهل العلم في انتصاب ﴿ أمراً ﴾ اثني عشر وجهاً أظهرها ما ذكرناه ، وقرأ زيد بن علي : (أمر) بالرفع ، أي : هو أمر ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ هذه الجملة إما بدل من قوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ، أو جواب ثالث للقسم ، أو مستأنفة .

قال الرازي : المعنى : إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل إنا كنا مرسلين للأنبياء ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ انتصاب ﴿ رحمة ﴾ على العلة ، أي : أنزلناه للرحمة ، قاله الزجاج .

وقال المبرد : إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين أي : إنا كنا مرسلين رحمة .

وقيل : هي مصدر في موضع الحال ، أي : راحمين ، قاله الأخفش .

وقرأ الحسن : (رحمة) بالرفع على تقدير هي رحمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لمن دعاه ﴿ العليم ﴾ بكل شيء .

ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على عظيم قدرته الباهرة ، فقال : ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ قرأ الجمهور : (ربُّ) بالرفع عطفاً على السميع العليم ، أو على أنه مبتدأ ، وخبره ﴿ لا إله إلاّ هو ﴾ ، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هو ربّ ، وقرأ الكوفيون : ﴿ ربّ ﴾ بالجرّ على أنه بدل من ربك ، أو بيان له ، أو نعت ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ بأنه ربّ السموات ، والأرض ، وما بينهما ، وقد أقرّوا بذلك كما حكاه الله عنهم في غير موضع ، وجملة ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، أو خبر ربّ السموات كما مرّ ، وكذلك جملة ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ، فإنها مستأنفة مقرّرة لما قبلها ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الأولين ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ ، أي : هو ربكم ، أو على أنه بدل من ﴿ ربّ السموات ﴾ ، أو بيان ، أو نعت له ، وقرأ الكسائي في رواية الشيرازي عنه ، وابن محيصن ، وابن أبي إسحاق ، وأبو حيوة ، والحسن بالجرّ ، ووجه الجرّ ما ذكرناه في قراءة من قرأ بالجرّ في ربّ السموات ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكّ يَلْعَبُونَ ﴾ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم في شكّ من التوحيد والبعث ، وفي إقرارهم بأن الله خالقهم ، وخالق سائر المخلوقات ، وأن ذلك منهم على طريقة اللعب والهزو ، ومحلّ ﴿

يلعبون ﴾ الرفع على أنه خبر ثان ، أو النصب على الحال .

﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، لأن كونهم في شك ولعب يقتضي ذلك ؛ والمعنى : فانتظر لهم يا محمد يوم تأتي السماء بدخان مبين ، وقيل المعنى : احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين .

وقد اختلف في هذا الدخان المذكور في الآية متى يأتي ؟ فقيل : إنه من أشراط الساعة ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً .

(84/696)

وقد ثبت في الصحيح : أنه من جملة العشر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة ، وقيل : إنه أمر قد مضى ، وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان الرجل يرى بين السماء ، والأرض دخاناً ، وهذا ثابت في الصحيحين ، وغيرهما : وذلك حين دعا عليهم النبي بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، وكان الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، وقيل : إنه يوم فتح مكة ، وسيأتي في آخر البحث بيان ما يدلّ على هذه الأقوال .

وقوله : ﴿ يَغْشَى الناس ﴾ صفة ثانية لدخان ، أي : يشملهم ، ويحيط بهم ﴿ هذا

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : يقولون هذا عذاب أليم ، أو قائلين ذلك ، أو يقول الله لهم ذلك ﴿ رَّبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يقولون ذلك ، وقد روي أنهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، والمراد بالعذاب : الجوع الذي كان بسببه ما يرونه من الدخان ، أو يقولونه إذا رأوا الدخان الذي هو من آيات الساعة ، أو إذا رأوه يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال .

والراجح منها : أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجهد ، وشدّة الجوع ، ولا ينافي ترجيح هذا ما ورد أن الدخان من آيات الساعة ، فإن ذلك دخان آخر ، ولا ينافيه أيضاً ما قيل : إنه الذي كان يوم فتح مكة ، فإنه دخان آخر على تقدير صحة وقوعه .

﴿ أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ أي : كيف يتذكرون ، ويتعظون بما نزل بهم والحال أن ﴿ قَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ يبين لهم كل شيء يحتاجون إليه من أمر الدين ، والدنيا ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ أي : أعرضوا عن ذلك الرسول الذي جاءهم ، ولم يكتفوا بمجرّد الإعراض عنه ، بل جاوزوه ﴿ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي قالوا : إنما يعلمه القرآن بشر ، وقالوا : إنه مجنون ، فكيف يتذكر هؤلاء ، وأنى لهم الذكرى .

(85/696)

ثم لما دعوا الله بأن يكشف عنهم العذاب ، وأنه إذا كشفه عنهم آمنوا أجاب سبحانه عليهم بقوله : ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب قَلِيلاً ﴾ أي : إنا نكشفه عنهم كشفاً قليلاً ، أو زماناً قليلاً ، ثم أخبر الله سبحانه عنهم أنهم لا ينزجرون عما كانوا عليه من الشرك ، ولا يفون بما وعدوا به من الإيمان ، فقال : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ أي : إلى ما كنتم عليه من الشرك ، وقد كان الأمر هكذا ، فإن الله سبحانه لما كشف عنهم ذلك العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، والعناد ، وقيل المعنى : إنكم عائدون إلينا بالبعث ، والنشور ، والأوّل أولى ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى ﴾ الظرف منصوب بإضمار اذكر ، وقيل : هو بدل من يوم تأتي السماء ، وقيل : هو متعلق ب ﴿ منتقمون ﴾ ، وقيل : بما دلّ عليه منتقمون ، وهو ننتقم . والبطشة الكبرى : هي : يوم بدر ، قاله الأكثر .

والمعنى : أنهم لما عادوا إلى التكذيب ، والكفر بعد رفع العذاب عنهم انتقم الله منهم بوقعة بدر .

وقال الحسن ، وعكرمة : المراد بها : عذاب النار ، واختار هذا الزجاج ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور : ﴿ نبطش ﴾ بفتح النون ، وكسر الطاء ، أي : نبطش بهم ، وقرأ الحسن ، وأبو جعفر بضم الطاء وهي لغة ، وقرأ أبو رجاء ، وطلحة بضم النون ، وكسر الطاء .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ قال : أنزل القرآن في ليلة القدر ، ونزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً لجواب الناس .

وأخرج محمد بن نصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ قال : يكتب من أمّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق وموت ، وحياة ، ومطر ، حتى يكتب الحاج : يحج فلان ، ويحج فلان .

(86/696)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عمر : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ قال : أمر السنة إلى السنة إلا الشقاء والسعادة ، فإنه في كتاب الله لا يبدّل ، ولا يغير .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب قال : إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ الآية ، يعني : ليلة القدر ، قال : ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل من موت ، أو حياة ، أو رزق ، كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها .

وأخرج ابن زنجويه ، والديلمي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان ، حتى إن الرجل لينكح ، ويولد له ، وقد خرج اسمه في الموتى " وأخرجه ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس ، وهذا مرسل ، ولا تقوم به حجة ، ولا تعارض بمثله صرائح القرآن .

وما روي في هذا ، فهو إما مرسل ، أو غير صحيح .

وقد أورد ذلك صاحب الدرّ المنثور ، وأورد ما ورد في فضل ليلة النصف من شعبان ، وذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله : ﴿ في ليلة مباركة ﴾ .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما ، عن ابن مسعود : أن قريشاً لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبطئوا عن الإسلام قال :

(87/696)

" اللهمّ أعني عليهم بسبع كسبع يوسف " ، فأصابهم قحط ، وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله : ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِي السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ الآية ، فأتي النبي فقيل : يا رسول الله استسق الله لمضر ، فاستسقى لهم ، فسقوا ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ ، فانتقم الله منهم يوم بدر ، فقد مضى البطشة ، والدخان ، واللزام .

وقد روي عن ابن مسعود ، نحو هذا من غير وجه ، وروي نحوه عن جماعة من التابعين .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم عن ابن أبي مليكة قال : دخلت على ابن عباس فقال : لم أنم هذه الليلة ، فقلت : لم ؟ قال : طلع الكوكب ، فخشيت أن يطرق الدخان .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ، وكذا صححه السيوطي ، ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية .

(88/696)

وقد عرّفناك أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يتراءى لقريش من الجوع ، وبين كون الدّخان من آيات الساعة ، وعلاماتها ، وأشراطها ، فقد وردت أحاديث صحاح ، وحسان ، وضعاف بذلك ، وليس فيها أنه سبب نزول الآية ، فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها ، والواجب التمسك بما ثبت في الصحيحين ، وغيرهما : أن دخان قريش عند الجهد ، والجوع هو سبب النزول ، وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذي هو من أشراط الساعة كابن كثير في تفسيره ، وغيره ، وهكذا يندفع قول من قال : إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال : كان يوم فتح مكة دخان ، وهو قول الله ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فإن

هذا لا يعارض ما في الصحيحين على تقدير صحة إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضي الله عنه ظنّ من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية ، ولهذا لم يصرّح بأنه سبب نزولها .

وأخرج ابن جرير ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس : قال ابن مسعود : البطشة الكبرى : يوم بدر ، وأنا أقول : هي يوم القيامة .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح .

وقال ابن كثير قبل هذا : فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر ، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدّخان بما تقدّم ، وروي أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه ، وعن أبيّ بن كعب ، وجماعة ، وهو محتمل .

والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً .

انتهى .

قلت : بل الظاهر أنه يوم بدر ، وإن كان يوم القيامة يوم بطشة أكبر من كل بطشة ، فإن السياق مع قريش ، فتفسيره بالبطشة الخاصة بهم أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل عاص من الإنس والجنّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(89/696)

وقال ابن عاشور :

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) ﴾

﴿ بل ﴾ للإضراب الإبطالي ردّ به أن يكونوا موقنين ومقرّين بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما فإن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ثابت بل هو كالْعَدَمِ لأنهم خلطوه بالشك واللعب فارتفعت عنه خاصية اليقين والإقرار التي هي الجري على موجَب العلم ، فإن العلم إذا لم يجر صاحبه على العمل به وتجديد ملاحظته تطرق إليه الذهول ثم النسيان فضعف حتى صار شكّاً لانحجاب الأدلة التي يرسخ بها في النفس ، أي هم شاكّون في وحدانية الله تعالى .

والإتيان بحرف الظرفية للدلالة على شدة تمكن الشك من نفوسهم حتى كأنه ظرف محيط بهم لا يجدون عنه مخرجاً ، أي لا يفارقهم الشك ، فالظرفية استعارة تبعية مثل الاستعلاء في قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ [البقرة : 5] .

وجملة ﴿ يلعبون ﴾ حال من ضمير ﴿ هم ﴾ أي اشتغلوا عن النظر في الأدلة التي تزيل الشك عنهم وتجعلهم مهتدين ، بالهزء واللعب في تلقي دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فكأن انغماسهم في الشك مقارِناً لحالهم من اللعب ، ولهذه الجملة الحالية موقع عظيم إذ بها أفيد أنّ الشك حامِل لهم على الهزء واللعب ، وأن الشغل باللعب يزيد الشك فيهم رسوخاً

بخلاف ما لو قيل : بل هم في شك ولعب ، فتفطّنْ .

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10)

تفريع على جملة ﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ [الدخان : 9] قُصد منه وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بانتقام الله من مكذبيه ، ووعيد المشركين على جحودهم بدلائل الوحدانية وصدق الرسول وعكوفهم على اللعب ، أي الاستهزاء بالقرآن والرسول ، وذكر له مخوفات للمشركين لإعدادهم للإيمان وبطشةُ انتقام من أيمتهم تستأصلهم .

فالخطاب في ﴿ ارتقبْ ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم والأمر مستعمل في التثبيت .

والارتقاب : افتعال من رقَبَه ، إذا انتظره ، وإنما يكون الانتظار عند قرب حصول الشيء المنتظر .

(90/696)

وفعل (ارتقب) يقتضي بصريحه أن إتيان السماء بدخان لم يكن حاصلاً في نزول هذه الآية ، ويقتضي كنايةً عن اقتراب وقوعه كما يُرتقب الجائي من مكان قريب .

و ﴿ يوم ﴾ اسم زمان منصوب على أنه مفعول به ل (ارتقب) وليس ظرفاً وذلك كقوله تعالى : ﴿ يخافون يوماً ﴾ [النور : 37] ، وهو مضاف إلى الجملة بعده لتمييز اليوم المراد

عن بقية الأيام بأنه الذي تأتي فيه السماء بدخان مبين فنصب ﴿ يومَ ﴾ نصب إعراب ولم ينون لأجل الإضافة .

والجملة التي يضاف إليها اسم الزمان تستغني عن الرابط لأن الإضافة مغنية عنه .

ولأن الجملة في قوة المصدر .

والتقدير : فارتقب يوم إتيان السماء بدخان .

وأطلق اليوم على الزمان فإن ظهور الدخان كان في أيامٍ وشهور كثيرة .

والدخان : ما يتصاعد عند إيقاد الحَطب ، وهو تشبيه بليغ ، أي بمثل دخان .

والمبين : البين الظاهر ، وهو اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بَان .

والمعنى : أنه ظاهر لكل أحد لا يُشك في رؤيته .

وقال أبو عبيدة وابن قتيبة : الدخان في الآية هو : الغبار الذي يتصاعد من الأرض من جراء الجفاف وأن الغبار يسمّيه العرب دُخَاناً وهو الغبار الذي تثيره الرياح من الأرض الشديدة الجفاف .

وعن الأعرج : أنه الغبار الذي أثارته سنابك الخيل يوم فتح مكة فقد حجبت الغبرة السماء ، وإسناد الإتيان به إلى السماء مجاز عقلي لأن السماء مكانه حين يتصاعد في جو السماء أو حين يلوح للأنظار منها .

والكلام يؤذن بأن هذا الدخان المرتقب حادث قريب الحصول ، فالظاهر أنه حَدث يكون

في الحياة الدنيا ، وأنه عقاب للمشركين .

فالمراد بالنّاس من قوله : ﴿ يغشى الناس ﴾ هم المشركون كما هو الغالب في إطلاق لفظ الناس في القرآن ، وأنه يُكشف زمناً قليلاً عنهم إعذاراً لهم لعلهم يؤمنون ، وأنهم يعودون بعد كشفه إلى ما كانوا عليه ، وأن الله يعيده عليهم كما يؤذن بذلك قوله : ﴿ إنّا كاشفوا العذاب قليلاً ﴾ [الدخان : 15] .

(91/696)

وأما قوله : ﴿ يوم نبطش البطشة ﴾ [الدخان : 16] فهو عذاب آخر .

وكل ذلك يؤذن بأن العذاب بالدخان يقع في الدنيا وأنه مستقبل قريب ، وإذ قد كانت الآية مكية تعيّن أن هذا الدخان الذي هو عذاب للمشركين لا يصيب المؤمنين لقوله تعالى : ﴿ وما كان اللهِ لِيُعذِّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [الأنفال : 33] فتعيّن أن المؤمنين يوم هذا الدخان غير قاطنين بدار الشرك ، فهذا الدخان قد حصل بعد الهجرة لا محالة وتعيّن أنه قد حصل قبل أن يسلم المشركون الذين بمكة وما حولها فيتعيّن أنه حصل قبل فتح مكة أو يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال .

والأصح أن هذا الدخان عُني به ما أصاب المشركين من سِنِي القحط بمكة بعد هجرة

النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

والأصح في ذلك حديث عبد الله بن مسعود في "صحيح البخاري" عن مسلم وأبي الضحى عن مسروق قال : دخلتُ على عبد الله بن مسعود فقال : إنَّ قريشاً لما غَلَبوا على النبي صلى الله عليه وسلم واستعصوا عليه قال : اللّهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأخذتهم سَنة أكلوا فيها العظام والميتةَ من الجَهْد حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع فأُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : استسقِ لمُضر أن يكشف عنهم العذاب ، فدعا فكشف عنهم وقال الله له : إنْ كشفنا عنهم العذاب عَادوا ، فعادُوا : فانتقم الله منهم يومَ بدر فذلك قوله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبينٍ ﴾ إلى قوله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ [الدخان : 10 16] والبطشة الكبرى يوم بدر .

وإن عبَد الله قال : مَضى خمس : الدخانُ ، والرومُ والقَمَرُ والبطشة واللِّزَام .

في حديث أبي هريرة في "صحيح البخاري" في أبواب الاستسقاء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة من الصبح يقول : " اللهم أنْج عياش بن أبي ربيعة .

(92/696)

اللّهم أنج سلمة بن هشام ، اللهم أنج الوليد بن الوليد ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدُدْ وطْأَتَك على مُضَر ، اللهم اجعلها عليهم سنينَ كسنينِ يوسُف " وهؤلاء الذين دعا لهم بالنجاة كانوا ممن حبسهم المشركون بعد الهجرة ، وكل هذه الروايات يؤذن بأن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين بالسنين كان بعد الهجرة لئلا يعذب المسلمون بالجوع وأنه كان قبل وقعة بدر ، وفي بعض روايات القنوت أنه دعا في القنوت على بني لحيان وعُصيَّة .

والذي يستخلص من الروايات أن هذا الجوع حلّ بقريش بُعيد الهجرة ، وذلك هو الجوع الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال : " اللّهم أعِنّي عليهم بسبَعٍ كسَبْعِ يُوسف " وفي رواية " اللّهم اشْدُدْ وَطْأَتَك على مُضر ، اللهم اجعلها عليهم سِنين كسنينِ يوسف " فأُتي النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : استسقِ لمُضَر وفي رواية عن مسروق عن ابن مسعود في "صحيح البخاري" أن الذي أتى النبي هو أبو سفيان .

وقال المفسرون : إن أبا سفيان أتاه في ناس من أهل مكة يعني أتوا المدينة لمَّا علموا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان دعا عليهم بالقحط ، فقالوا : إن قومك قد هلَكُوا فادع الله أن يسقيهم فدعا .

وعلى هذه الرواية يكون قوله تعالى : ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ تمثيلاً لهيئة ما

يراه الجائعون من شبه الغِشاوة على أبصارهم حين ينظرون في الجوّ بهيئة الدخان النازل من الأفق ، فالمجاز في التركيب .

وأما مفردات التركيب فهي مستعملة في حقائقها لأن من معاني السماء في كلام العرب قُبة الجو ، وتكون جملة ﴿ يغشى الناس ﴾ ترشيحاً للتمثيلية لأن الذي يغشاهم هو الظلمة التي في أبصارهم من الجوع ، وليس الدخانَ هو الذي يغشاهم .

(93/696)

وبعض الروايات ركب على هذه الآية حديثَ الاستسقاء الذي في "الصحيح" أن رجلاً جاء يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : يا رسول الله هلك الزرع والضرع فادعُ الله أن يسقينا فرفع يديه وقال : اللّهم اسقنَا ثلاثاً ، وما يُرَى في السماء قَزَعَةُ سحاب ، فتلبدت السماء بالسحاب وأمطروا من الجمعة إلى الجمعة حتى سالت الأودية وسال وادي قَنَاة شهراً ، فأتاه آت في الجمعة القابلة هو الأول أو غيره ، فقال : يا رسول الله تقطعت السبل فادع الله أن يمسك المطر عنا ، فقال : اللّهم حَوَالَينا ولا علينا ، فتفرقت السحب حتى صارت المدينة في شبه الإكليل من السحاب .

والجمع بين الروايتين ظاهر .

ويظهر أن هذا القحط وقع بعد يوم بدر فهو قحط آخر غير قحط قريش الذي ذكر في هذه الآية.

ومعنى ﴿ يغشى الناس ﴾ أنه يحيط بهم ويعمّهم كما تحيط الغَاشية بالجسد ، أي لا ينجو منه أحد من أولئك الناس وهم المشركون.

فإن كان المراد من الدخان ما أصاب أبصارهم من رؤية مثل الغبرة من الجوع فالغشيان مجاز ، وإن كان المراد منه غبار الحرب يوم الفتح فالغشيان حقيقة أو مجاز مشهور.

ويجوز أن يكون غباراً متصاعداً في الجو من شدة الجفاف.

وقوله : ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ قال ابن عطية يجوز أن يكون إخباراً من جانب الله تعالى تعجيباً منه كما في قوله تعالى في قصة الذبيح ﴿ إنَّ هذا لهوَ البلاء المبين ﴾ [الصافات : 106].

ويحتمل أن يكون ذلك من قول الناس الذين يغشاهم العذاب بتقدير : يقولون : هذا عذاب أليم.

والإشارة في ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ إلى الدخان المذكور آنفاً ، عُدل عن استحضاره بالإضمار وأن يقال : هو عذاب أليم ، إلى استحضاره بالإشارة ، لتنزيله منزلة الحاضر المشاهد تهويلاً لأمره كما تقول : هذا الشتاء قادم فأعدَّ له.

وقريب منه الأمر بالنظر في قوله تعالى : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ [الأنعام : 24] فإن المحكي مما يحصل في الآخرة .

(94/696)

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12)

هذه جملة معترضة بين جملة ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ [الدخان : 11] وجملة ﴿ أنّى لهم الذكرى ﴾ [الدخان : 13] فهي مقول قول محذوف .

وحملها جميع المفسرين على أنها حكاية قولِ الذين يغشاهم العذابُ بتقدير يقولون : ربّنا اكشف عنا العذاب ، أي هو وَعد صادر من النّاس الذين يغشاهم العذاب بأنهم يؤمنون إن كشف عنهم العذاب أي فيكون مثل قوله تعالى في سورة الزخرف (49) ﴿ وقالوا يا أيها الساحر ادعُ لنا ربّك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ أي إنْ دعوتَ ربّك اتبعناك ويكون بمعنى قوله في سورة الأعراف (134) ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادْعُ لنا ربّك ﴾ إلى قوله : ﴿ لئن كشفت عنا الرجز لَنُؤمِنَن لك .

﴾ ومما تسمح به تراكيب الآية وسياقها أن يكون القول المحذوف مقدَّراً بفعلِ أمرٍ أي قولوا لتلقين المسلمين أن يستعيذوا بالله من أن يصيبهم ذلك العذاب إذ كانوا والمشركين في بلد

واحد كما استعاذ موسى عليه السلام بقوله : ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ [الأعراف : 155] .

وفيه إيماء إلى أن الله سيخرج المؤمنين من مكة قبل أن يحلّ بأهلها هذا العذاب ، فهذا التلقين كالذي في قوله تعالى : ﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ [البقرة : 286] الآيات .

(95/696)

وعليه فجملة ﴿ إنا مؤمنون ﴾ تعليل لطلب دفع العذاب عنهم ، أي إنا متلبسون بما يدفع عنا عذاب الكافرين ، وفي تلقينهم بذلك تنويه بشرف الإيمان ، وأسلوبُ الكلام جارٍ على أن جملة ﴿ إنا مؤمنون ﴾ تعليل لطلب كشف العذاب عنهم لما يقتضيه ظاهر استعمال حرف (إنَّ) من معنى الإخبار دون الوعد ، ومن التعليل دون التأكيد ، ولما يقتضيه اسم الفاعل في زمن الحال دون الاستقبال ، ولأن سياقه خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم بترقب إعانة الله إياه على المشركين ، كما كان يدعو " أعني عليهم بسبع كسني يوسف " فمقتضى المقام تأمينُه من أن يصيبَ العذابُ المسلمين وفيهم النبي صلى الله عليه وسلم وظاهر مادة الكشف تقتضي إزالة شيء كان حاصلاً في شيء إلاّ أن الكشف هنا لما لم

يكن مستعملاً في معناه الحقيقي كان مجازه محتملاً أن يكون مستعملاً في منع حصول شيء يُخشى حصوله كما في قوله تعالى : ﴿ إلاَّ قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ [يونس : 98] فإن قوم يونس لم يحل بهم عذاب فزال عنهم ولكنهم تُوعدوا به فبادروا بالإيمان فنجاهم الله منه ، وقول جعفر بن عُلْبة الحارثي :

لا يَكشف الغَماء إلا ابنُ حرة

يَرى غمراتتِ الموت ثم يَزُورها . . .

أراد أنه يمنع العدوّ من أن ينالهم بسوء ، ومحتملاً للاستعمال في زوال شيء كان حصل .

ولم يذكر أحد من رواة السِير والآثار أن المشركين وعَدوا النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يسلمون إن أزال الله عنهم القحط .

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13)

(96/696)

هذه الجملة جعلها جميع المفسرين جواباً عن قول القائلين ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ [الدخان : 12] تكذيباً لوعدهم ، أي هم لا يتذكرون ، وكيف يتذكرون وقد جاءهم ما هو أقوى دلالة من العذاب وهي دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

وأمَّا على التأويل الذي انتزعناه من تركيب الآية فهي جملة مستأنفة ناشئة عن قوله : ﴿ بل هم في شكٍ يلعبون ﴾ [الدخان : 9] وهي كالنتيجة لها لأنهم إذا كانوا في شك يلعبون فقد صاروا بُعداء عن الذكرى .

و ﴿ أَنَّى ﴾ اسم استفهام أصله استفهام عن أمكنة حصول الشيء ويتوسعون فيها فيجعلونها استفهاماً عن الأحوال بمعنى (كيف) بتنزيل الأحوال منزلة ظروف في مكان كما هنا بقرينة قوله : ﴿ وقد جاءهم رسول مبين ﴾ .

والمعنى : من أين تحصل لهم الذكرى والمخافة عند ظهور الدخان المبين وقد سدت عليهم طرقها بطعنهم في الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أتاهم بالتذكير .

والاستفهام مستعمل في الإنكار والإحالة ، أي كيف يتذكرون وهم في شك يلعبون وقد جاءهم رسول مبين فتولوا عنه وطعنوا فيه .

فجملة ﴿ وقد جاءهم ﴾ في موضع الحال .

و ﴿ مبين ﴾ اسم فاعل إما من أبان المتعدّي ، وحذف مفعوله لدلالة ﴿ الذِكرى ﴾ عليه ، أي مبين لهم ما به يتذكرون ، ويجوز أن يكون من أبان القاصر الذي هو بمعنى بانَ ، أي رسول ظاهر ، أي ظاهرة رسالته عن الله بما توفر معها من دلائل صدقه .

وإيثار ﴿ مبين ﴾ بتخفيف الياء على ﴿ مبيّن ﴾ بالتشديد من نكتِ الإعجاز ليفيد المعنيين .

و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي وهو ترقٍ من مفاد قوله : ﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ [الدخان : 9] الذي اتصلت به جملة كانت جملة وقد جاءهم رسول مبين ﴾ من متعلّقاتها .

فالمعنى : وقد جاءهم رسول فشكُّوا في رسالته ثم تولّوا عنه وطعنوا فيه ، فالتولّي والطعن حصلا عند حصول الشك واللعب ، ولذلك كانت ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لا لتراخي الزمان .

(97/696)

ومعنى التراخي الرتبي هنا أن التولي والبهتان أفظع من الشك واللعب .

والمعلَّم الذي يعلِّمه غيره ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلِّمه بشر ﴾ في سورة النحل (103) .

والمعنى : أنهم وصفوه مرة بأنه يعلّمه غيره ، ووصفوه مرة بالجنون ، تنقلاً في البهتان ، أو وصفَه فريق بهذا وفريق بذلك ، فالقول موزع بين أصحاب ضمير قالوا ﴾ أو بين أوقات القائلين .

ولا يصح أن يكون قولاً واحداً في وقت واحد لأن المجنون لا يكون معلّماً ولا يتأثر بالتعليم .

إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15)

يجيء على مَا فسر به جميع المفسرين قولَه ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب ﴾ [الدخان : 12] ، أن هذه الجملة جواب لسؤالهم ، ويجيء على ما درجنا عليه أن تكون هذه الجملة إعلاماً للنبيء صلى الله عليه وسلم بأنْ يُكشَف العذابُ المتوعَّد به المشركون مدةً ، فيعودون إلى ما كانوا فيه ، وعليه فضمير ﴿ إنكم عائدون ﴾ التفات إلى خطاب المشركين ، أي يُمسكون عن ذلك مدة وهي المدة التي أرسلوا فيها وفْدَهم إلى المدينة ليسأل الرسولَ صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله بكشف القحط عنهم فإنهم أيامئذٍ يمسكون عن الطعن والذمّ رجاء أن يدعو لهم ثم يعودون لما كانوا فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مَسّ الإنسانَ ضرٌّ دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوّله نعمةً منه نَسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴾ [الزمر : 8] كما اقتضى أن العذاب عائد إليهم بعد عودتهم إلى ما كانوا فيه من أسباب إصابتهم بالعذاب .

فمعنى ﴿ إنا كاشفوا العذاب ﴾ : إنا كاشفوه في المستقبل بقرينة قوله قبله ﴿ فارتَقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبينٍ ﴾ [الدخان : 10] المقتضي أنه يحصل في المستقبل ، والآية متصل بعضها ببعض وكذلك معنى ﴿ إنكم عائدون ﴾ ، أي في المستقبل .

واسم الفاعل يكون مراداً به الحصول في المستقبل بالقرينة .

روي أنهم كشف عنهم القحط بعد استسقاء النبي صلى الله عليه وسلم فحيُوا وحييت أنعامهم ثم عادُوا فعاودهم القحط كمال سبع سنين ، ولعلها عقبها فتحُ مكة .

وجملة ﴿ إنكم عائدون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنهم إذا سمعوا ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً ﴾ تطلّعوا إلى ما سيكون بعدَ كشفه ، وتطلعَ المؤمنون إلى ما تصير إليه حال المشركين بعد كشف العذاب هل يقلعون عن الطعن فكان قوله : ﴿ إنكم عائدون ﴾ مبيناً لما يتساءلون همخ .

يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

هذا هو الانتقام الذي وُعد به الرسول صلى الله عليه وسلم وتُوعّد به أئمة الكفر .

والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ [الدخان : 15] فإن السامع يُثار في نفسه سؤال عن جزائهم حيث يعودون إلى التولي والطعْن فأجيب بأن الانتقام منهم هو البطشة الكبرى ، وهي الانتقام التامّ ، ولأجل هذا التطلع والتساؤل أكدَ بخبر بحرف التأكيد دفعاً للتردد .

وأصل تركيب الجملة : إنا منتقمون يوم نبطش البطشة الكبرى ، ف ﴿ يوم ﴾ منصوب على المفعول فيه لاسم الفاعل وهو ﴿ منتقمون ﴾ .

وتقدم على عامله للاهتمام به لِتهويله ولا يمنع من هذا التعليق أن العامل في الظرف خبر عن (

إنَّ) بناء على الشائع من كلام النحاة أن ما بعد (إنَّ) لا يعمل فيما قبلها فإن الظروف ونحوها يتوسع فيها .

و﴿ البطشة الكبرى ﴾ : هي بطشة يوم بدر فإن ما أصاب صناديد المشركين يومئذٍ كان بطشة بالشرك وأهلِه لأنهم فقدوا سادتهم وذوي الرأي منهم الذين كانوا يسيّرون أهل مكة كما يريدون .

والبطشة : واحدة البطش وهو : الأخذ الشديد بعنف ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ أم لهم أيد يبطشون بها ﴾ في سورة الأعراف (195) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(99/696)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ

كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : لفقد فتناهم بإرسالك إليهم ليكشف ذلك لمن لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه عما نعلمه في الأزل ، وفيما لا يزال ولم يزل ، من بواطن أمورهم ، فتقوم الحجة على من خالفنا على مقتضى عاداتكم ، عطف عليه محذراً لقريش ومسلياً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : ﴿ ولقد فتنا ﴾ أي فعلنا على ما لنا من العظمة فعل الفاتن وهو المختبر الذي يريد أن يعلم حقيقة الشيء بالإملاء والتمكين ثم الإرسال .

ولما كان من المعلوم أن قوم فرعون لم يستغرقوا الزمان ولا كانوا أقرب الناس زماناً إلى قريش ، نزع الجار قبل الظرف لعدم الإلباس أو أنه عظم فتنتهم لما كان لهم من العظمة والمكنة ، فجعلها لذلك كأنها مستغرقة لجميع الزمان فقال : ﴿ قبلهم ﴾ أي قبل هؤلاء العرب ليكون ما مضى من خبرهم عبرة لهم وعظة .

(100/696)

ولما كان فرعون من أقوى من جاءه رسول قبلهم بما كان له من الجنود والأموال والمكنة ، وكان الرسول الذي أتاه قد جمع له - صلى الله عليه وسلم - الآيات التي اشتملت على التصرف في العناصر الأربعة .

فكان فيها الماء والتراب والنار والهواء ، وكانوا إذا أتتهم الآية قالوا : يا أيها الساحر ! ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ، فإذا كشف عنهم ذلك عادوا إلى ما كانوا عليه كما أخبر تعالى عن هؤلاء عند مجيء الدخان - إلى غير ذلك مما شابهوهم فيه من الأسرار التي كشفها هذا المضمار ، وكان آخر ذلك أن أهلكهم أجمعين ، فكانوا أجلى مثل لقوله تعالى في التي قبلها ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ [الزخرف : 8] خصهم بالذكر من بين المفتونين قبل فقال : ﴿ قوم فرعون ﴾ أي مع فرعون لأن ما كان فتنة لقومه كان فتنة له لأن الكبير أرسخ في الفتنة بما أحاط به من الدنيا ، وسيأتي التصريح به في آخر القصة ﴿ وجاءهم ﴾ أي المضافين والمضاف إليه في زيادة فتنتهم ﴿ رسول كريم ﴾ أي يعلمون شرفه نسباً وأخلاقاً وأفعالاً ، ثم زاد بيان كرمه بما ظهر لله به من العناية بما أيده به من المعجزات .

ولما أخبر بمجيئه إليهم بالرسالة التي لا تكون إلا بالقول ، فسر ما بلغهم منها بقوله : ﴿ أن أدوا ﴾ أي أوصلوا مع البشر وطيب النفس ، وأبرز ذلك في صيغة الأمر الذي لا يسوغ مخالفته ولما كان بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين تصرفه في قومه حائل كثيف من ظلم

فرعون وقومه ، أشار إليه بحرف الغاية فقال : ﴿ إليّ ﴾ ونبهه على أنه لا حكم له عليهم بقوله ﴿ عباد الله ﴾ أي بني إسرائيل الذين استعبدتموهم ظلماً وليست عليهم عبودية إلا للذي أظهر في أمورهم صفات جلاله وجماله بما صنع مع آبائهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومن بعده وما سيظهر مما ترونه وما يكون بعدكم .

(101/696)

ولما كان لهم به من النفع إن تبعوا ما جاءهم به والضر إن ردوه ما ليس لغيرهم ، وكان لا يقدر على تأدية بني إسرائيل إليه من أهل الأرض غيرهم لاحتوائهم عليهم كان تقديم الجار في أحكم مواضعه فلذلك قال مؤكداً فإنكارهم لرسالته عليه الصلاة والسلام : ﴿ إني لكم ﴾ أي خاصة بسبب ذلك ﴿ رسول ﴾ أي من عند من لا تكون الرسالة الكاملة إلا منه ، ولما كان الإنسان لا يأتمن على السياسة إلا ثقة كافياً ، قال واصفاً لنفسه بما يزيل عذرهم ويقيم الحجة عليهم : ﴿ أمين ﴾ أي بالغ الأمانة لأن الملك الديان لا يرسل إلا من كان كذلك .

ولما كان استعباد عبد الغير بغير حق في صورة العلو على مالك العبد قال : ﴿ وأن لا تعلوا ﴾ أي تفعلوا باستعبادكم لبني إسرائيل نبي الله ابن خليل الله فعل العالي ﴿ على

الله ﴾ الذي له مجامع العظمة ومعاقد العزة بنفوذ الكلمة وجميع أوصاف الكمال فإنكم إن فعلتم ذلك أخذكم بعزته ودمركم بعظمته .

ولما كان علو من يتصرف في العبد على مالك العبد لا يثبت إلا بعد ثبوت أنه ملكه وأنه لا يجب التصرف فيه ، علل ذلك بقوله مؤكداً لأجل أن ما أتى به بصدد أن ينكروه لأن النزوع عما استقر في النفس ومضى عليه الإلف بعيد : ﴿ إني آتيكم ﴾ وهو يصح أن يكون اسم فاعل وأن يكون فعلاً مضارعاً .

ولما كان فعلهم فعل العالي على السلطان ، قال : ﴿ بسلطان ﴾ أي أمر باهر قاهر من عند مالكهم ، لا يسوغ لأحد الاستعلاء عليه فكيف بالاستعلاء على من هو بأمره ﴿ مبين ﴾ أي واضح في نفسه سلطنته ومظهر لغيره ذلك .

(102/696)

ولما كان من العجائب أن يقتل منهم نفساً ثم يخرج فاراً منهم ثم يأتي إليهم لا سيما إتياناً يقاهرهم فيه في أمر عظيم من غير أن يقع بينهم وبينه ما يمحو ما تقدم منه ، نبههم على إتيانه هذا على هذا الحال آية أخرى دالة على السلطان ، فقال مؤكداً تكذيباً لظنهم أنه في قبضتهم : ﴿ وإني عذت ﴾ أي اعتصمت وامتنعت ﴿ بربي ﴾ الذي رباني على ما

اقتضاه لطفه بي وإحسانه إليّ ﴿ وربكم ﴾ الذي أعاذني من قتلكم لي بكم على ما دعت إليه حكمته من جبروتكم وتكبركم وقوة مكنتكم ﴿ أن ترجمون ﴾ أي أن يتجدد في وقت من الأوقات قتل منكم لي ، ما أتيتكم حتى توثقت من ربي في ذلك ، فإني قلت ﴿ إني أخاف أن يقتلون ﴾ فقال ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا ﴾ [القصص : 38] فهو من أعظم آياتي أن لا تصلوا على قوتكم وكثرتكم إلى قتلي منع أنه لا قوة لي بغير الله الذي أرسلني .

ولما كان التقدير : فإن آمنتم بذلك وسلمتم لي أفلحتم ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن لم تؤمنوا لي ﴾ أي تصدقوا لأجلي ما أخبرتكم به ﴿ فاعتزلون ﴾ أي وإن لم تعتزلوني هلكتم ، ولا تقدرون على قتلي بوجه وأنا واحد ممن تسومونهم سوء العذاب ، وما قتلتم أبناءهم إلا من أجلي ، فرباني على كف من ضاقت عليه الأرض بسببي وسفك الدماء في شأني ، ومنعه الله من أن يصل إليّ منه سوء قبل أن أعوذ به ، فكيف به بعد أن أرسلني وعذت به فأعاذني ، واستجرت به فأجارني .

(103/696)

ولما كان التقدير : لم يؤمنوا به ولا لأجله ولم يعتزلوه ، بل بغوا له الغوائل وراموا أن يواقعوا به الدواهي والقواصم ، فلم يقدروا على ذلك وآذوا قومه وطال البلاء ، سبب عنه قوله : ﴿ فدعا ربه ﴾ الذي أحسن إليه وضمن له سياسته وسياسة قومه ، ثم فسر ما دعا به بقوله : ﴿ أن هؤلاء ﴾ أي الحقيرون الأراذل الذليلون ﴿ قوم ﴾ أي لهم قوة على القيام بما يحاولونه ﴿ مجرمون ﴾ أي عريقون في قطع ما أمرت به أن يوصل ، وذلك متضمن وصل ما أمرت به أن يقطع ، فكان المعنى : فدعا بهذا المعنى ، ولذلك أتى " بأن " الدالة على المصدرية .

ولما كان ممن يستجيب دعاءه ويكرم نداءه ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فأسر ﴾ أي فقلنا له : سر عامة الليل – هذا على قراءة المدنيين وابن كثير بوصل الهمزة وعلى قراءة غيرهم بالقطع المعنى : أوقع السرى وهو السير عامة الليل ﴿ بعبادي ﴾ الذين هم أهل لإضافتهم إلى جنابي ، قومك الذين أرسلناك لإسعادهم باستنقاذهم ممن يظلمهم وتفريغهم لعبادتي لا لعبادة غيري .

ولما كان سبحانه قد تقدم إلى بني إسرائيل في أن يكونوا متهيئين في الليلة التي أمر بالسرى فيها بحيث لا يكون لأحد منهم عاقة أصلاً كما تقدم بيانه في الأعراف عن التوراة ، بين تأكيده لذلك بقوله : ﴿ ليلاً ﴾ فصار تأكيداً بغير اللفظ ، وإنما أمره بالسير في الليل لأنه أوقع بالقبط

موت الأبكار ليلاً ، فأمر فرعون موسى عليه الصلاة والسلام أن يخرج بقومه في ذلك خوفاً من أن يموت القبط .

(104/696)

ولما علم الله تعالى أنهم إن تأخروا إلى أن يطلع الفجر ويرتفع عنهم الموت ، منعوهم الخروج ، وإن تأخروا إلى آخر الليل أدركوهم قبل الوصول إلى البحر فيقتلوهم ، علل هذا الأمر بقوله مؤكداً له لأن حال القبط عندما أمروهم بالخروج كان حال من لا يصدق له ترجع في قوله : ﴿ إنكم متبعون ﴾ أي مطلوبون بغاية الشهوة والجهد من عدوكم ، فلا يغرنكم ما هم فيه عند أمركم بالخروج من الجزع من إقامتكم بين أظهرهم وسؤالهم لكم في الخروج عنهم بسبب وقوع الموت الفاشي فيهم ، فإن القلوب بيد الله ، فهو يقسي قلب فرعون بعد رؤية هذه الآيات حين يرتفع عنهم الموت ويفرغون من دفن موتاهم فيطلبكم لما دبرته في القدم من سياستكم بإغراقهم أجمعين ليظهر مجدي بذلك وأدفع عنكم روع مدافعتهم فإني أعلم أنه لا قوة لكم ولا طاقة بهم ، فلم أكلفكم لمباشرة شيء من أمرهم .

ولما أمره بالإسراء وعلله ، أمره بما يفعل فيه وعلله فقال : ﴿ واترك البحر ﴾ أي إذا أسريت بهم وتبعك العدو ووصلت إليه وأمرناك بضربه لينفتح لتدخلوا فيه فدخلتم ونجوتم

﴿ رهواً ﴾ بعد خروجكم منه بأجمعكم أي منفرجاً واسعاً ساكناً بحيث يكون المرتفع من مائه مرتفعاً والمنخفض منخفضاً كالجدار ، وطريقه الذي سرتم به يابساً ذا سير سهل على الحالة التي دخلتم فيها ليدخل فيه عدوكم فنمجد بإغراقهم كما وعدناكم ، وقال البغوي : راهياً أي ذا رهو فسمي بالمصدر – وعزاه إلى مقاتل – انتهى .

ولما كانت هذه أسباباً لدخول آل فرعون فيه ، علل بما يكون عنها تسكيناً لقلوبهم في ترك البحر طريقاً مفتوحاً يدخله العدو ، فقال مؤكداً لأجل استبعاد بني إسرائيل مضمون الخبر لأنه من خوارق العادات مع ما لفرعون وآله في قلوبهم من الهيبة الموجبة لأن يستبعدوا معها عمومهم بالإهلاك ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ أي متمكنون في هذا الوصف وإن كان لهم وصف القوة والتجمع الذي محطه النجدة الموجبة للعلو في الأمور .

(105/696)

ولما أرشد السياق ولا بد إلى تقدير : فأسرى موسى بعباد الله كما أمره الله فتعبهم آل فرعون كما أخبر سبحانه ، ففتح الله البحر بباهر قدرته وأمسك ماءه كالجدران بقاهر عظمته وتركه بعد طلوعهم منه على حالته فتبعهم عباد الشيطان بما فاض عليهم من شقاوته فأغرقهم الله بعزته لم يفلت منهم أحد ، عبر سبحانه عن هذا كله بقوله على طريق

الاستئناف : ﴿كم تركوا﴾ أي الذي سبق الحكم بإغراقهم فغرقوا ﴿من جنات﴾ أي بساتين هي في غاية ما يكون من طيب الأرض وكثرة الأشجار وزكاء الثمار والنبات وحسنها الذي يسر المهموم ويستر الهموم ، ودل على كرم الأرض بقوله : ﴿وعيون وزروع﴾ أي مما هو دون الأشجار .

ولما كان ذلك لا يكمل إلا بمنازل ومناظر في الجنان وغيرها فقال : ﴿ومقام كريم﴾ أي مجلس شريف هو أهل لأن يقيم الإنسان فيه ، لأن النهاية فيما يرضيه .

ولما كان ذلك قد يكون بتعب صاحبة فيه ، دل على أنه كان بكد غيرهم وهم في غاية الترف ، وهذا هو الذي حملهم على اتباع من كان يكفيهم ذلك حتى أداهم إلى الغرق قال : ﴿ونعمة﴾ هي بفتح النون اسم للتنعم بمعنى الترفه والعيش اللين الرغد ، وأما التي بالكسر فهي الإنعام ﴿كانوا فيها﴾ أي دائماً ﴿فاكهين﴾ أي فعلهم في عيشهم فعل المترفه لا فعل من يضطر إلى إقامة نفسه .

ولما كان هذا أمراً عظيماً لا يكاد يصدق أن يكون لأحد ، دل على عظمه وحصوله لهم بقوله : ﴿كذلك﴾ أي الأمر كما أخبرنا به من تنعيمهم وإخراجهم وإغراقهم وأنهم تركوا جميع ما كانوا فيه لم يغن عنهم شيء منه ، فلا يغترن أحد بما ابتليناه به من النعم لئلا يصنع به من الإهلاك ما صنعنا بهم .

ولما أفهم سوق الكلام هكذا إغراقهم كلهم ، زاده إيضاحاً بالتعبير بالإرث الذي حقيقته الأخذ عن الميت أخذاً لا منازع فيه فقال عاطفاً على ما تقدم تقديره بعد اسم الإشارة : ﴿ وأورثناها ﴾ أي تلك الأمور العظيمة ﴿ قوماً ﴾ أي ناساً ذوي قوة في في القيام على ما يحاولونه ، وحقق أنهم غيرهم تحقيقاً لإغراقه بقوله : ﴿ آخرين ﴾ قال ابن برجان ، وقال في سورة الظلمة : " وعيون وكنوز " مكان " وزروع " لما كان المعهود من الزرع الحصد في أقرب المدة أورث زروعها وجناتها وما فيها من مقام كريم قوماً بآل فرعون فإنهم أهلكوا ولا بني إسرائيل فإنهم قد عبروا البحر ، ولما توطد ملكهم في الأرض المقدسة اتصل بمصر ، فورثوا الأرض بكنوزها وأموالها ونعمتها ومقامها الكريم – انتهى .

ولما كان الإهلاك يوجب أسفاً على المهلكين ولو من بعض الناس ولا سيما إذا كانوا جمعاً فكيف إذا كانوا أهل مملكة ولا سيما إذا كانوا في نهاية الرئاسة ، أخبر بأنهم كانوا لهوانهم عنده سبحانه وتعالى على خلاف ذلك ، فسبب عما مضى قوله : ﴿ فما بكت عليهم ﴾ استعارة لعدم الاكتراث لهم لهوانهم ﴿ السماء والأرض ﴾ وإذا لم يبك السكن فما ظنك بالساكن الذي هو بعضه ، روى أبو يعلى في مسنده والترمذي في جامعه – وقال : غريب والربذي والرقاشي يضعفان في الحديث – عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

" ما من مسلم إلا وله في السماء بابان ، باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه فإذا مات بكيا عليه " وتلا هذه الآية ، وقال علي ـ رضى الله عنه ـ : إن المؤمن إذا مات بكى مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء .

(107/696)

ولما جرت العادة بأن العدو قد يستمهله عدوه في بعض الأوقات لمثل وصية وقضاء حاجة فيمهله ، أخبر تتميماً لعدم الاكتراث بهم أنهم كانوا دون ذلك فقال : ﴿ وما كانوا ﴾ ولما كان هذا لكونه خيراً عنهم بعد مضيهم المقصود منه تحذير من بعدهم فقط ، لم يذكر التقييد بذلك الوقت بإذن ونحوها دلالة على أن ما كانوا فيه من طويل الإمهال كان كأنه لم يكن لعظم هذا الأخذ بخلاف ما مر في في الحجر من التخويف من إنزال الملائكة عليهم ، فإن تقييد عدم الإنظار بذلك الوقت لرد السامعين عن طلب إنزالهم فقال تعالى : ﴿ منظرين ﴾ أي ممهلين عما أنزلنا بهم من المصيبة من ممهل ما لحظه فما فوقها ليتداركوا بعض ما فرطوا فيه وينظروا في شيء مما يهمهم بل كان أخذهم لسهولته علينا في أسرع من اللمح ، لم يقدروا على دفاع ، فنالهم عذاب الدنيا وصاروا إلى عذاب الآخرة فخسروا الدارين وما ضروا غير أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 70 ـ 75 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن كفار مكة مصرون على كفرهم ، بين أن كثيراً من المتقدمين أيضاً كانوا كذلك ، فبين حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون ، قال صاحب "الكشاف" قرىء ، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس ابتلينا ، وقال الزجاج بلونا ، والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسول إليهم ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو موسى واختلفوا في معنى الكريم ههنا فقال الكلبي كريم على ربه يعني أنه استحق على ربه أنواعاً كثيرة من الإكرام ، وقال مقاتل حسن الخلق وقال الفراء يقال فلان كريم قومه لأنه قل ما بعث رسول ألا من أشراف قومه وكرامهم .

ثم قال : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ ﴾ وفي أن قولان الأول : أنها أن المفسرة وذلك لأن مجيء الرسول إلى من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله الثاني : أنها المخففة من الثقيلة ومعناه وجاءهم بأن الشأن والحديث أدواء ، وعباد الله مفعول به وهم بنو إسرائيل يقول أدوهم إلي وأرسلوهم معي وهو كقوله ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسرائيل وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه : 47] ويجوز أيضاً أن يكون نداء لهم والتقدير : أدوا إلى عباد الله ما هو واجب عليكم من الإيمان ، وقبول دعوتي ، وأتباع سبيلي ، وعلل ذلك بأنه ﴿ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته وأن لا تعلوا أن هذه مثل الأول في وجهيها أي لا تتكبروا على الله بإهانة وحيه ورسوله ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ بحجة بينة يعترف بصحتها كل عاقل ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ قيل المراد أن تقتلون وقيل ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ بالقول فتقولوا ساحر كذاب ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي ﴾ أي إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتكم به من الحجة ، فاللام في لي لام الأجل

﴿ فاعتزلون ﴾ أي اخلوا سبيلي لا لي ولا علي .

قل مصنف الكتاب رحمه الله تعالى : إن المعتزلة يتصلفون ويقولون إن لفظ الاعتزال أينما جاء في القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لا عن الحق ، فاتفق حضوري في بعض المحافل ، وذكر بعضهم هذا الكلام فأوردت عليه هذه الآية ، وقلت المراد الاعتزال في هذه

الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته وذلك لا شك أنه اعتزال عن الحق فانقطع الرجل .

(110/696)

ثم قال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ الفاء في فدعا تدل على أنه متصل بمحذوف قبله التأويل أنهم كفروا ولم يؤمنوا فدعا موسى ربه بأن هؤلاء قوم مجرمون ، فإن قالوا الكفر أعظم حال من الجرم ، فما السبب في أن جعل صفة الكفار كونهم مجرمين حال ما أراد المبالغة في ذمهم ؟ قلت لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه وقد يكون مجرماً في دينه وقد يكون فاسقاً في دينه فيكون أخس الناس ، قال صاحب "الكشاف" قرىء (إن هؤلاء) بالكسر على إضمار القول أي فدعا ربه فقال : إن هؤلاء قوم مجرمون .

ثم قال : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ قرأ بن كثير ونافع ﴿ فَأَسْرِ ﴾ موصولة بالألف والباقون مقطوعة لألف سرى وأسرى لغتان أي أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ، أي يتبعكم فرعون وقومه ذلك سبباً لهلاكهم ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ وفي الرهو قولان أحدهما : أنه الساكن يقال عيش راه إذا كان خافضاً وادعاً ، وافعل ذلك سهواً رهواً أي ساكناً بغير تشدد ، أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما

كان فأمره الله تعالى بأن يتركه ساكناً على هيئته قاراً على حاله في انفلاق الماء وبقاء الطريق يبساً حتى تدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم والثاني : أن الرهو هو الفرجة الواسعة ، والمعنى ذا رهو أي ذا فرجة يعني الطريق الذي أظهره الله فيما بين لبحر أنهم جند مغرقون ، يعني اترك الطريق كما كان يدخلوا فيغرقوا ، وإنما أخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شرهم وإيذائهم .

(111/696)

ثم قال تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جنات وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ دلت هذه الآية على أنه تعالى أغرقهم ، ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام ، وبيّن تعالى أنهم تركوا هذه الأشياء الخمسة ، وهي الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة ، وقيل المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فاكهين ﴾ قال علماء اللغة نعمة العيش ، بفتح النون حسنه ونضارته ، ونعمة الله إحسانه وعطاؤه ، قال صاحب "الكشاف" النعمة بالفتح من التنعم وبالكسر من الإنعام ، وقرىء فاكهين وفكهين كذلك الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها وأورثناها أو في موضع الرفع على تقدير أن الأمر ﴿ كَذَلِكَ وأورثناها قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾

ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء ، وهم بنو إسرائيل كانوا مستعبدين في أيديهم فأهلكهم الله على أيديهم وأورثهم ملكهم وديارهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ وفيه وجوه : الأول : قال الواحدي في "البسيط" روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه " وتلا هذه الآية ، قال وذلك لأنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً فتبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء كلام طيب ولا عمل صالح فتبكي عليهم ، وهذا قول أكثر المفسرين .

القول الثاني : التقدير : فما بكت عليهم أهل السماء وأهل الأرض ، فحذف المضاف والمعنى ما بكت عليهم الملائكة ولا المؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين .

والقول الثالث : أن عادة الناس جرت بأن يقولوا في هلاك الرجل العظيم الشأن : إنه أظلمت له الدنيا ، وكسفت الشمس والقمر لأجله وبكت الريح والسماء والأرض ، ويريدون المبالغة في تعظيم تلك المصيبة لا نفس هذا الكذب .

(112/696)

ونقل صاحب "الكشاف" : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض " .

وقال جرير :

الشمس طالعة ليست بكاسفة . . تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وفيه ما يشبه السخرية بهم يعني أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم ، وكانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض ، فما كانوا في هذا الحد ، بل كانوا دون ذلك ، وهذا إنما يذكر على سبيل التهكم .

ثم قال : ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ أي لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر لتوبة وتدارك وتقصير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 210.212 ﴾

(113/696)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) ﴾

تقدم القول في : ﴿ حم ﴾ . وقوله : ﴿ والكتاب المبين ﴾ قسم أقسم الله تعالى به . و: ﴿ المبين ﴾ يحتمل أن يكون من الفعل المتعدي ، أي يبين الهدى والشرع ونحوه ، ويحتمل أن

يكون من غير المتعدي ، أي هو مبين في نفسه .

وقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ يحتمل أن يقع القسم عليه ، ويحتمل أن يكون : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ من وصف الكتاب فلا يحسن وقوع القسم عليه ، وهذا اعتراض يتضمن تفخيم الكتاب ويحسن القسم به ، ويكون الذي وقع القسم عليه : ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ .

واختلف الناس في تعيين الليلة المباركة ، فقال قتادة والحسن : هي ليلة القدر ، وقالوا : إن كتب الله كلها إنما نزلت في رمضان : التوراة في أوله ، والإنجيل في وسطه ، والزبور في نحو ذلك ونزل القرآن في آخره في ليلة القدر ، ومعنى هذا النزول : أن ابتداء النزول كان في ليلة القدر ، وهذا قول الجمهور . وقالت فرقة : بل أنزله الله جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور ، ومن هنالك كان جبريل يتلقاه . وقال عكرمة وغيره : الليلة المباركة هي النصف من شعبان .

وقوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا ﴾ معناه : يفصل من غيره ويتخلص ، وروي عن عكرمة في تفسير هذه الآية أن الله تعالى يفصل للملائكة في ليلة النصف من شعبان ، وقال الحسن وعمير مولى غفرة ومجاهد وقتادة : في ليلة القدر كل ما في العام المقبل من الأقدار والآجال والأرزاق وغير ذلك ، ويكتب ذلك لهم إلى مثلها من العام المقبل . قال هلال بن يساف كان يقال : انتظروا القضاء من شهر رمضان . وروي في بعض الحديث عن

النبي صلى الله عليه وسلم " إن الرجل يتزوج ويعرس وقد خرج اسمه في الموتى ، لأن الآجال تقطع في شعبان " .

(114/696)

وقرأ الحسن والأعرج والأعمش : "يَفرُق " بفتح الياء وضم الراء . و: ﴿ حكيم ﴾ بمعنى محكم .

وقوله : ﴿ أمراً من عندنا ﴾ نصب على المصدر . وقوله : ﴿ من عندنا ﴾ صفة لقوله : ﴿ أمراً ﴾ .

وقوله : ﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ يحتمل أن يريد الرسل والأنبياء ، ويحتمل أن يريد الرحمة التي ذكر بعد ، وعلى التأويل الأول نصب قوله : ﴿ رحمة ﴾ على المصدر ، ويحتمل أن يكون نصبها على الحال .

وقوله : ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ تقرير وتثبيت ، أي إن كنت موقناً بهذا يكون يقينك ، كما تقول لإنسان تقيم نفسه : العلم غرضك إن كنت رجلاً .

وقوله : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي مالككم ومالك آبائكم الأولين .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر : " ربُّ السماوات " بالرفع على القطع

والاستئناف ، وهي قراءة الأعرج وابن أبي إسحاق وأبي جعفر وشيبة . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالكسر على البدل ﴿ من ربك ﴾ المتقدم ، وهي قراءة ابن محيصن والأعمش . وأما قوله تعالى : " ربُّكم وربُّ " فالجمهور على رفع الباء .

وقرأ الحسن بالكسر ، رواها أبو موسى عن الكسائي .

وقوله تعالى : ﴿ بل هم في شك ﴾ إضراب قبله نفي مقدر ، كأنه يقول : ليس هؤلاء ممن يؤمن ولا ممن يتبع وصاة ، بل هم في شك يلعبون في أقوالهم وأعمالهم .

(115/696)

واختلف الناس في الدخان الذي أمر الله تعالى بارتقابه ، فقالت فرقة منها علي بن أبي طالب وزيد بن علي وابن عمر وابن عباس والحسن بن أبي الحسن وأبو سعيد الخدري : هو دخان يجيء قبل يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام ، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين حتى تكون كأنها مصلية حنيذة . وقالت فرقة منها عبد الله بن مسعود وأبو العالية وإبراهيم النخعي : هو الدخان الذي رأته قريش حين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بسبع كسبع يوسف ، فكان الرجل يرى من الجدب والجوع دخاناً بينه وبين السماء ، وما يأتي من الآيات يقوي هذا التأويل . وقال ابن مسعود : خمس قد مضين ،

الدخان واللزام والبطشة والقمر والروم وذكر الطبري حديثاً عن حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أول آيات الساعة الدخان ، ونزول عيسى ابن مريم ، ونار تخرج من قعر عدن " وضعف الطبري سند هذا الحديث ، واختار قول ابن مسعود رضي الله عنه في الدخان قال : ويحتمل إن صح حديث حذيفة أن يكون قد مر دخان ويأتي دخان .

يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11)

﴿ يغشى ﴾ معناه : يغطي .

(116/696)

وقوله تعالى : ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ يحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى ، كأنه يعجب منه على نحو من قوله تعالى لما وصف قصة الذبح : ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ [الصافات : 106] ، ويحتمل أن يكون ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ من قول الناس ، كأن تقدير الكلام : يقولون هذا عذاب أليم ، ويؤيد هذا التأويل سياقه حكاية عنهم أنهم يقولون ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ ، وعلم الله تعالى أن قولهم في حال الشدة ﴿ إنا مؤمنون ﴾ إنما هو عن غير حقيقة منهم ، فدل على ذلك بقوله : ﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ ،

أي من أين لهم أن يتذكروا وهم قد تركوا الذكرى وراء ظهورهم بأن جاءهم رسول مبين ، وهو محمد عليه السلام فكفروا به . و ﴿ تولوا عنه ﴾ أي أعرضوا ، وقالوا إنه يعلم هذا الكلام الذي يتلو وأنه ﴿ مجنون ﴾ ، وإخباره تعالى بأنه يكشف عنهم ﴿ العذاب قليلاً ﴾ إخبار عن إقامة الحجة عليهم ومبالغة في الإملاء لهم ، ثم أخبرهم بأنهم عائدون إلى الكفر . وقال قتادة : هو توعد بمعاد الآخرة ، ثم أخبرهم بأنه ينتقم منهم بسبب هذا كله في يوم البطشة ، وقدم اليوم وذكره على الذي عمل فيه تهمماً به وتخويفاً منه ، والعامل فيه ﴿ منتقمون ﴾ ، وقد ضعف البصريون هذا من حيث هو خبر إن ، وأبعدوا أن يعمل خبرها فيما قبلها ، وقالوا العامل فعل مضمر يدل عليه ﴿ منتقمون ﴾ .

واختلف الناس في يوم ﴿ البطشة الكبرى ﴾ ، فقال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة : هو يوم القيامة وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس أيضاً وأبي بن كعب ومجاهد : هو يوم بدر .

وقرأ جمهور الناس : " نَبطِش " بفتح النون وكسر الطاء . وقرأ الحسن بن أبي الحسن : بضم الطاء . وقرأ الحسن أيضاً وأبو رجاء وطلحة بن مصرف : بضم النون وكسر الطاء ، ومعناها : نسلط عليهم من يبطش بهم ، ثم ذكر تعالى قوم فرعون على جهة المثال لقريش .

و : ﴿ فتنا ﴾ معناه : امتحنا واختبرنا . والرسول الكريم : قال قتادة : هو موسى عليه السلام ، ومعنى الآية يعطي ذلك بلا خلاف وهنا متروك يدل عليه الظاهر ، تقديره قال لهم : ﴿ أدوا ﴾ هذا ، مأخوذ من الأداء ، كأنه يقول : أن ادفعوا إلي وأعطوني ومكنوني .

واختلف المتأولون في الشيء المؤدى في هذه الآية ما هو ؟ فقال مجاهد وابن زيد وقتادة : طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل وإياهم أراد بقوله : ﴿ عباد الله ﴾ وقال ابن عباس المعنى : اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق ، فقوله : ﴿ عباد الله ﴾ منادى مضاف ، والمؤدى هي الطاعة والإيمان والأعمال .

قال القاضي أبو محمد : والظاهر من شرع موسى عليه السلام أنه بعث إلى دعاء فرعون إلى الإيمان ، وأن يرسل بني إسرائيل ، فلما أبى أن يؤمن ، ثبتت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل ، وفي إرسالهم هو قوله : ﴿ أن أدوا إلى عباد الله ﴾ أي بني إسرائيل ، ويقوي ذلك قوله بعد : ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ [الدخان : 21] ، وهذا قريب نص في أنه إنما يطلب بني إسرائيل فقط ، ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فاسر بعبادي ﴾ فيظهر أنه إياهم أراد موسى بقوله : ﴿ عباد الله ﴾ وقوله : ﴿ رسول أمين ﴾ معناه على وحي الله تعالى أؤديه إلى عباده .

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19)

المعنى كانت رسالته وقوله : ﴿ أن أدوا ﴾ [الدخان : 18] ﴿ وأن تعلوا ﴾ وعبر بالعلو عن الطغيان والعتو على الله تعالى وعلى شرعه وعلى رسوله .

وقرأ الجمهور : " إني آتيكم " بكسر الألف على الإخبار المؤكد ، والسلطان : الحجة ، فكأنه قال : لا تكفروا ، فإن الدليل المؤدي إلى الإيمان بيّن . وقرأت فرقة : " أني آتيكم " بفتح الألف . و " أن " في موضع نصب بمعنى : لا تكفروا من أجل أني آتيكم بسلطان مبين ، فكأن مقصد هذا الكلام التوبيخ ، كما تقول لإنسان : لا تغضب ، لأن الحق قيل لك .

(118/696)

وقوله : ﴿ وإني عذت ﴾ الآية ، كلام قاله موسى عليه السلام لخوف لحقه من فرعون وملئه و: ﴿ عذت ﴾ معناه : استجرت وتحرمت . وأدغم الدال في التاء الأعرج وأبو عمرو .

واختلف الناس في قوله : ﴿ أن ترجمون ﴾ فقال قتادة وغيره : أراد الرجم بالحجارة المؤدي إلى القتل . وقال ابن عباس وأبو صالح : أراد الرجم بالقول من السباب والمخالفة ونحوه ، والأول أظهر ، لأنه أعيذ منه ولم يعذ من الآخر ، بل قيل فيه عليه السلام وله .

وقوله : ﴿ تؤمنوا لي ﴾ بمعنى : تؤمنوا بي . والمعنى : تصدقوا . وقوله : ﴿ فاعتزلون ﴾

مشاركة صريحة . قال قتادة : أراد خلّوا سبيلي .

وقوله : ﴿ فدعا ربه ﴾ قبله محذوف من الكلام ، تقديره : فما كفوا عنه ، بل تطرقوا إليه وعتوا عليه وعلى دعوته ﴿ فدعا ربه ﴾ .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وعيسى " إن هؤلاء " بكسر الألف من " إن " على معنى " قال إن " ، وقرأ جمهور الناس والحسن أيضاً : " أن هؤلاء " بفتح الألف ، والقراءتان حسنتان .

وحكم عليهم بالإجرام المضمن للكفر حين يئس منهم ، وهنا أيضاً محذوف من الكلام تقديره : فقال الله له : ﴿ فاسر بعبادي ﴾ وهذا هو الأمر الذي أنفذه الله إلى موسى بالخروج من ديار مصر ببني إسرائيل ، وقد تقدم شرحه وقصصه في سورة الأنبياء وغيرها .

وقرأ جمهور الناس : " فاسر " موصولة الألف . وقرأ : " فأسر " بقطع الألف : الحسن وعيسى ، ورويت عن أبي عمرو . وأعلمه تعالى بأنهم ﴿ متبعون ﴾ ، أي يتبعهم فرعون وجنوده .

واختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ . متى قالها لموسى ؟ فقالت فرقة : هو كلام متصل ﴿ إنكم متبعون واترك البحر ﴾ إذا انفرق لك ﴿ رهواً ﴾ وقال قتادة وغيره : خوطب به بعد ما اجتاز البحر وخشي أن يدخل فرعون وقومه وراءه ، وأن

يخرجوا من المسالك التي خرج منها بنو إسرائيل ، فهم موسى أن يضرب البحر عسى أن يلتئم ويرجع إلى حاله ، فقيل له عند ذلك : ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ .

(119/696)

واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الرهو ، فقال مجاهد وعكرمة معناه : يبساً من قوله تعالى : ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ [طه : 77] . وقال الضحاك بن مزاحم معناه : دمثاً ليناً .

وقال عكرمة أيضاً : جرداً . وقال ابن زيد : سهلاً . وقال ابن عباس معناه : ساكناً ، أي كما جزته ، وهذا القول الأخير هو الذي تؤيده اللغة ، فإن العيش الواهي هو الذي هو في خفض ودعة وسكون ، حكاه المبرد وغيره . والرهو في اللغة هو هذا المعنى ، ومنه قول عمرو بن شييم القطامي :

يمشون رهواً فلا الأعجاز خاذلة . . . ولا الصدور على الأعجاز تتكل

فإنما معناه : يمشون اتئاداً وسكوناً وتماهلاً . ومنه قول الآخر :

وأمة خرجت رهواً إلى عيد . . . أي خرجوا في سكون وتماهل ، فقيل لموسى عليه السلام : اترك البحر ساكناً على حاله من الانفراق ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . والرهو :

من أسماء الكركي الطائر ، ولا مدخل له في تفسير هذه الآية ، ويشبه عندي أن سمي رهواً لسكونه ، وأنه أبداً على تماهل .

وقوله : ﴿ كم تركوا ﴾ الآية ، قبله محذوف تقديره : فغرقوا وقطع الله دابرهم ، ثم أخذ يعجب من كثرة ما تركوا من الأمور الرفيعة الغبيطة في الدنيا ، و: ﴿ كم ﴾ خبر للتكثير . والجنات والعيون : روي أنها كانت متصلة ضفتي النيل جميعاً من رشيد إلى أسوان . وأما العيون فيحتمل أنه أراد الخلجان الخارجة من النيل فشبهها بالعيون ، ويحتمل أنه كانت ثم عيون ونضبت كما يعتري في كثير من بقاع الأرض .

(120/696)

وقرأ قتادة ومحمد بن السميفع اليماني ونافع في رواية خارجة عنه : " ومُقام " بضم الميم ، أي موضع إقامة . وكذلك قرأ اليماني في كل القرآن إلا في مريم ﴿ خير مقاماً ﴾ [مريم : 73] فكأن المعنى : ﴿ كم تركوا ﴾ من موضع حسن كريم في قدره ونفعه . وقرأ جمهور الناس ونافع : " ومَقام " بفتح الميم ، أي موضع قيام ، فعلى هذه القراءة قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير : أراد المنابر . وعلى ضم الميم في : " مُقام " قال قتادة : أراد المواضع الحسان من المساكن وغيرها ، والقول بالمنابر بهي جداً .

والنَعمة بفتح النون : غضارة العيش ولذاذة الحياة ، والنِعمة بكسر النون أعم من هذا ، لأن النعمة بالفتح هي من جملة النعم بالكسر ، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نعماً ، ولا يقال فيها نَعمة بالفتح . وقرأ أبو رجاء : " ونعمة " بالنصب .

وقرأ جمهور الناس : " فاكهين " بمعنى : ناعمين . والفاكه : الطيب النفس : أو يكون بمعنى أصحاب فاكهة كلابن وتامر . وقرأ أبو رجاء والحسن بخلاف عنه ، وابن القعقاع : " فكهين " ، ومعناه قريب من الأول ، لأن الفكه يستعمل كثيراً في المستخف المستهزئ ، فكأنه هنا يقول : كانوا في هذه النعمة مستخفين بشكرها والمعرفة بقدرها .

وقوله : ﴿ كذلك وأورثناها ﴾ معناه الأمر كذلك ، وسماها وراثة من حيث كانت أشياء أناس وصلت إلى قوم آخرين من بعد موت الأولين ، وهذه حقيقة الميراث في اللغة وربطها الشرع بالنسب وغيره من أسباب الميراث ، والآخرون من ملك مصر بعد القبط .

وقال قتادة : القوم الآخرون ، هم بنو إسرائيل ، وهذا ضعيف ، لأنه لم يروا أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ولا ملكوها قط ، إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام ، وقد ذكر الثعلبي عن الحسن أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون .

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)

نفت هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكت على قوم فرعون ، فاقتضى أن للسماء والأرض بكاء . واختلف المتأولون في معنى ذلك فقال علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد وابن جبير : إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحاً ، وبكى عليه من السماء موضع صعود عمله ، قالوا فلم يكن في قوم فرعون مَن هذه حاله ، فهذا معنى الآية . وقال السدي وعطاء : بكاء السماء : حمرة أطرافها . وقالوا إن السماء احمرت يوم قتل الحسين بن علي ، وكان ذلك بكاء عليه ، وهذا هو معنى الآية .

قال القاضي أبو محمد : والمعنى الجيد في الآية أنها استعارة باهية فصيحة تتضمن تحقير أمرهم ، وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وإن كان مكرهم لتزول ﴾ [إبراهيم : 46] على قراءة من قرأ " لِتزولَ " بكسر اللام ونصب الفعل وجعل ﴿ إن ﴾ [إبراهيم : 46] نافية ، ومثل هذا المعنى قول النبي عليه السلام : " لا ينتطح فيها عنزان " فإنه يتضمن التحقير ، لكن هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه ، وهو قتل المرأة الكافرة التي كانت تؤذي النبي عليه السلام . وعظم قصة فرعون وقومه يجيء بحسبها جمال الوصف وبهاء العبارة في قوله : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ ومن نحو هذا أن يعكس قول جرير : [الكامل]

لما أتى خبر الزبير تواضعت . . . سور المدينة والجبال الخشع

فيقال في تحقير : مات فلان فما خشعت الجبال ، ونحو هذا ، وفي الحديث عن النبي عليه السلام أنه قال : " ما مات مؤمن في غربة غاب عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض " ثم قرأ هذه الآية ، وقال : " إنهما لا يبكيان على كافر " . ومن التفخيم ببكاء المخلوقات العظام قول يزيد بن مفرغ [مجزوء الكامل] :

الريح تبكي شجوه . . . والبرق يلمع في غمامه

وقول الفرزدق :

فالشمس طالعة ليست بكاسفة . . . تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

و: ﴿ منظرين ﴾ معناه : مؤخرين وممهلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(122/696)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) ﴾

أي ابتليناهم .

ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر بالطاعة .

والمعنى : عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم فكذبوا فأهلكوا ؛ فهكذا أفعل بأعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا .

وقيل : فتنّاهم عذبناهم بالغرق .

وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير : ولقد جاء آلَ فرعون رسول كريم وفتنّاهم ، أي أغرقناهم ؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل .

والواو لا ترتّب .

ومعنى ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي كريم في قومه .

وقيل : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح .

وقال الفرّاء : كريم على ربّه إذ اختصه بالنبوّة وإسماع الكلام .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أدوا إِلَيَّ عِبَادَ الله ﴾ قال ابن عباس : المعنى جاءهم فقال : اتبعوني .

ف "عِبَادَ اللَّهِ" منادى .

وقال مجاهد : المعنى أرسلوا معي عباد الله وأطلقوهم من العذاب .

ف "عِبَادَ اللَّهِ" على هذا مفعول .

وقيل : المعنى أدُّوا إليّ سمعكم حتى أبلغكم رسالةَ ربي .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي أمين على الوحي فاقبلوا نصحي .

وقيل : أمين على ما أستأديه منكم فلا أخون فيه .

﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى اللهِ ﴾ أي لا تتكبروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته .

وقال قتادة : لا تبغوا على الله .

ابن عباس : لا تفتروا على الله .

والفرق بين البغي والاْفتراء : أن البغي بالفعل والاْفتراء بالقول .

وقال ابن جريج : لا تَعْظُمُوا على الله .

يحيى بن سلام : لا تستكبروا على عبادة الله .

والفرق بين التعظيم والاْستكبار : أن التعظيم تطاولُ المقتدر ، والاْستكبارَ تَرفُّعُ المحتقر ؛ ذكره الماوردي .

﴿ إِنِي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ قال قتادة : بعذر بيّن .

وقال يحيى بن سلام بحجة بيّنة .

والمعنى واحد ؛ أي برهان بيّن .

وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20)

كأنهم توعدوه بالقتل فاستجار بالله .

قال قتادة : "تَرْجُمُونِ" بالحجارة .

وقال ابن عباس : تشتمونِ ؛ فتقولوا ساحر كذاب .

وأظهر الذال من "عُذْت" نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ويعقوب .

وأدغم الباقون .

والإدغام طلباً للتخفيف ، والإظهار على الأصل .

ثم قيل : إني عذت بالله فيما مضى ؛ لأن الله وعده فقال : ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ [القصص : 35] .

وقيل : إني أعوذ ؛ كما تقول نشدتك بالله ، وأقسمت عليك بالله ؛ أي أقسم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي ﴾ أي إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني ؛ فاللام في "لي" لام أجل .

وقيل : أي وإن لم تؤمنوا بي ؛ كقوله : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : 26] أي به .

﴿ فاعتزلون ﴾ أي دعوني كَفافاً لا لِيَ ولا عَلَيّ ؛ قاله مقاتل .

وقيل : أي كونوا بمعزل مني وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا .

وقيل : فخلّوا سبيلي وكُفُّوا عن أذاي .

والمعنى متقارب ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ فيه حذف ؛ أي فكفروا فدعا ربه .

﴿ أَنَّ هؤلاء ﴾ بفتح "أنّ" أي بأن هؤلاء .

﴿ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ أي مشركون ، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيل ومن الإيمان .

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ (23)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ أي فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادي ؛ أي بمن آمن بالله من بني إسرائيل .

﴿ لَيْلاً ﴾ أي قبل الصباح .

﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ وقرأ أهل الحجاز "فاسر" بوصل الألف .

وكذلك ابن كثير ؛ من سرى .

الباقون "فَأَسْرِ" بالقطع ؛ من أسرى .

وقد تقدم .

وتقدم خروج فرعون وراء موسى في "البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس" وإغراقه وإنجاء موسى ؛ فلا معنى للإعادة .

الثانية أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلاً .

وسَيْرُ الليل في الغالب إنما يكون عن خَوْف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدوّ فيتخذ الليل سِتراً مُسْدِلاً ؛ فهو من أستار الله تعالى .

وإما من خوْف المشقة على الدواب والأبدان بِحَرّ أو جَدْب ، فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يَسْرِي ويُدْلج ويترفّق ويستعجل ، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا سافرتم في الخِصْب فأعطوا الإبل حَظّها من الأرض وإذا سافرتم في السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها " وقد مضى في أول "النحل" ؛ والحمد لله .

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24)

قال ابن عباس : ﴿ رَهْواً ﴾ أي طريقاً .

وقاله كعب والحسن .

وعن ابن عباس أيضاً سمتاً .

الضحاك والربيع : سهلاً .

عكرمة : يَبَساً ، لقوله : ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ﴾ [طه : 77] .

وقيل : مفترقاً .

مجاهد : منفرجاً .

وعنه يابساً .

وعنه ساكناً ، وهو المعروف في اللغة .

وقاله قتادة والهَرويّ .

وقال غيرهما : منفرجاً .

وقال ابن عرفة : وهما يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما ، لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج .

وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام .

والرَّهْوُ عند العرب : الساكن ، يقال : جاءت الخيل رَهْواً ، أي ساكنة .

قال :

والخيل تَمْزَعُ رَهْواً في أعنّتها . . .

كالطير تنجو من الشُّؤْبُوب ذي البرد

الجوهري : ويقال افعل ذلك رَهْواً ، أي ساكناً على هِينَتِك .

وعيشٌ راهٍ ، أي ساكن رافِه .

وخِمْسٌ راهٍ ، إذا كان سهلاً .

ورها البحر أي سكن .

وقال أبو عبيد : رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْواً أي فتح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ .

والرَّهْوُ : السير السهل ، يقال : جاءت الخيل رَهْواً .

قال ابن الأعرابي : رَهَا يَرْهُو في السير أي رفَقَ .

قال القطامي في نعت الركاب :

يَمْشِين رَهْواً فلا الأعجازُ خاذِلةٌ . . .

ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ

والرَّهْوُ والرَّهْوَة : المكان المرتفع ، والمنخفض أيضاً يجتمع فيه الماء ، وهو من الأضداد .

(125/696)

وقال أبو عبيد : الرَّهْو : الجَوْبة تكون في مَحَلّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره .

وفي الحديث أنه قضى أن : " لا شفعة في فِناء ولا طريقٍ ولا مَنْقَبَةٍ ولا رُكْح ولا رَهْوٍ " والجمع رِهَاء .

والرَّهْوُ : المرأة الواسعة الهَنِ ، حكاه النَّضْر بن شُمَيلٍ .

والرَّهْو : ضرب من الطير ، ويقال : هو الكُرْكيّ .

قال الهَرَوِيّ : ويجوز أن يكون "رَهْواً" من نعت موسى وقاله القشيريّ أي سِرْ ساكناً على هِينَتِك ؛ فالرهو من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر ، وعلى الأوّل هو من نعت البحر ؛ أي اتركه ساكناً كما هو قد انفرق فلا تأمره بالانْضمام حتى يدخل فرعون وقومه .

قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر لما قطعه بعصاه حتى يلتئم ، وخاف أن يتبعه فرعون فقيل له هذا .

وقيل : ليس الرَّهْو من السكون بل هو الفرجة بين الشيئين ؛ يقال : رَهَا ما بين الرجلين أي فرج .

فقوله : "رَهْواً" أي منفرجاً .

وقال الليث : الرَّهْو مَشْيٌ في سكون ، يقال : رها يرهو رَهْواً فهو راهٍ .

وعيشٌ راهٍ : وادعٌ خافض .

وافعل ذلك سَهْواً رَهْواً ؛ أي ساكناً بغير شدّة .

وقد ذكرناه آنفاً .

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي إن فرعون وقومه .

﴿ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه .

قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ كَمْ ﴾ للتكثير .

وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في "الشعراء" مستوفى .

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ النَّعْمة (بالفتح) : التنعيم ، يقال : نعّمه الله وناعَمَه فتنعّم .

وامرأة مُنَعَّمة ومُنَاعَمَة ، بمعنًى .

والنِّعمة (بالكسر) : اليد والصنِيعة والمِنّة وما أُنعِم به عليك .

وكذلك النُّعْمى .

فإن فتحت النون مددت وقلت : النَّعماء .

والنعيم مثله .

وفلان واسع النعمة ، أي واسع المال ؛ جميعه عن الجوهريّ .

وقال ابن عمر : المراد بالنعمة نيل مصر .

ابن لهِيعة : الفيوم .

(126/696)

ابن زياد : أرض مصر لكثرة خيرها .

وقيل : ما كانوا فيه من السعة والدعة .

وقد يقال : نَعْمَة ونِعْمَة (بفتح النون وكسرها) ، حكاه الماورديّ .

قال : وفي الفرق بينهما وجهان : أحدهما أنها بكسر النون في المِلْك ، وبفتحها في البَدَن والدين ، قاله النَّضْر بن شُمَيل .

الثاني أنها بالكسر من المِنّة وهو الإفضال والعطيّة ، وبالفتح من التنعيم وهو سعة العيش والراحة ؛ قاله ابن زياد .

قلت : هذا الفرق هو الذي وقع في الصحاح وقد ذكرناه .

وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة "فَكِهِينَ" بغير ألف ، ومعناه أشِرِين بَطِرين .

قال الجوهري : فَكِه الرجل (بالكسر) فهو فَكِه إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً .

والفِكه أيضاً الأشِر البطِر .

وقرىء "وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ" أي أَشِرين بطِرين .

و"فَاكِهِينَ" أي ناعمين .

القشيري : "فَاكِهِينَ" لاهين مازحين ، يقال : إنه لفاكه أي مَزَّاح .

وفيه فكاهة أي مزح .

الثعلبيّ : وهما لغتان كالحاذر والحَذِر ، والفارِه والفَرِه .

وقيل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة .

والفاكهة : فضلٌ عن القوت الذي لا بدّ منه .

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28)

قال الزجاج: أي الأمر كذلك؛ فيوقف على "كَذَلِكَ".

وقيل: إن الكاف في موضع نصب، على تقدير نفعل فعلاً كذلك بمن نريد إهلاكه.

وقال الكلبي: "كَذَلِكَ" أفعل بمن عصاني.

وقيل: "كَذَلِكَ" كان أمرهم فأهلكوا.

﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ يعني بني إسرائيل، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث.

ونظيره: ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا ﴾ [الأعراف: 137] الآية.

قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض ﴾ أي لكفرهم.

(127/696)

﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ أي مؤخرين بالغرق.

وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض؛ أي عمّت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق، وبكته الليالي الشاتيات.

قال الشاعر :

فالريح تبكي شَجْوَهَا . . .

والبرق يلمع في الغمامة

وقال آخر :

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة . . .

تُبكِي عليك نجومَ الليل والقمرا

وقالت الخارجية :

أيا شجر الخابور ما لك مُورِقاً . . .

كأنك لم تجزع على ابن طَرِيف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجزع والبكاء عليه .

والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فَقْد .

وقيل : في الكلام إضمار ، أي ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة ؛ كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] بل سرّوا بهلاكهم ، قاله الحسن .

وروى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه ثم تلا ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض ﴾ " يعني أنهم لم يعملوا على

الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم لأجله ، ولا صعِد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكي فَقْدَ ذلك .

وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحاً .

قال أبو يحيى : فعجبت من قوله فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكي على عبد يَعْمُرها بالركوع والسجود ! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيّ كدوِيّ النحل ! .

وقال عليّ وابن عباس رضي الله عنهما : إنه يبكي عليه مُصَلاّه من الأرض ومصعد عمله من السماء .

وتقدير الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض .

وهو معنى قول سعيد بن جُبير .

وفي بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه : أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان .

ويشبه أن يكون قول مجاهد .

(128/696)

وقال شُرَيح الحضرمي قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " "إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء يوم القيامة" قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال "هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا" ثم قال "ألا لا غُرْبة على مؤمن وما مات مؤمن في غُربة غائباً عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض" ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْض ﴾ ثم قال " ألا إنهما لا يبكيان على الكافر" " .

قلت : وذكر أبو نعيم محمد بن معمر قال : حدثنا أبو شعيب الحرّاني قال حدثنا يحيى بن عبد الله قال حدثنا الأوزاعيّ قال حدثني عطاء الخراساني قال : ما من عبد يسجد للّه سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت .

وقيل : بكاؤهما حمرة أطرافهما ؛ قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعطاء والسدّي والترمذي محمد بن عليّ وحكاه عن الحسن .

قال السدّي : لما قتل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما بكت عليه السماء ؛ وبكاؤها حمرتها .

وحكى جرير عن يزيد بن أبي زياد قال : لما قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما احمر له آفاق السماء أربعة أشهر .

قال يزيد : واحمرارها بكاؤها .

وقال محمد بن سِيرين : أخبرونا أن الحمرة التي تكون مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين بن

عليّ رضي الله عنهما .

وقال سليمان القاضي : مُطِرْنا دماً يوم قتل الحسين .

قلت : روى الدّارَقُطْنِيّ من حديث مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الشفق الحمرة " وعن عُبادة بن الصامت وشداد بن أوس قالا : الشفق شفقان ؛ الحمرة والبياض ؛ فإذا غابت الحمرة حَلّت الصلاة .

وعن أبي هريرة قال : الشفق الحمرة .

وهذا يردّ ما حكاه ابن سِيرين .

وقد تقدم في "سبحان" عن قرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكرياء والحسين بن عليّ ، وحمرتها بكاؤها .

(129/696)

وقال محمد بن علي الترمذي : البكاء إدرار الشيء فإذا أدرّت العين بمائها قيل بكت ، وإذا أدرّت السماء بحمرتها قيل بكت ، وإذا أدرت الأرض بغبرتها قيل بكت ؛ لأن المؤمن نور ومعه نور الله ؛ فالأرض مضيئة بنوره وإن غاب عن عينيك ، فإن فقدت نور المؤمن اغبرّت فدرّت باغبرارها ؛ لأنها كانت غبراء بخطايا أهل الشرك ، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن

؛ فإذا قبض المؤمن منها دَرّت بغبرتها .

وقال أنس : لما كان اليوم الذي دخل فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء كل شيء ، فلما كان اليوم الذي قبض فيه أظلم كل شيء ، وإنا لفي دفنه ما نفضنا الأيدي منه حتى أنكرنا قلوبنا .

وأما بكاء السماء فحمرتها كما قال الحسن .

وقال نصر بن عاصم : إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر ، وإنما ذلك لدنوّ الساعة ، فتدر بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين .

وقيل : بكاؤها أمارة تظهر منها تدلّ على أسف وحزن .

قلت : والقول الأوّل أظهر ؛ إذ لا استحالة في ذلك .

وإذا كانت السموات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم كما بيناه في "سبحان ومريم وحم فصلت" فكذلك تبكي ، مع ما جاء من الخبر في ذلك والله أعلم بصواب هذه الأقوال .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(130/696)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) ﴾

هذه السورة مكية ، قيل : إلا قوله : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ .

ومناسبة هذه السورة أنه ذكر في أواخر ما قبلها : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ فذكر يوماً غير معين ، ولا موصوفاً .

فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم ، بوصف وصفه فقال : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ ، وأن العذاب يأتيهم من قبلك ، ويحل بهم من الجدب والقحط ، ويكون العذاب في الدنيا ، وإن كان العذاب في الآخرة ، فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة .

والظاهر أن الكتاب المبين هو القرآن ، أقسم به تعالى .

ويكون الضمير في أنزلناه عائداً عليه .

قيل : ويجوز أن يراد به الكتب الإلهية المنزلة ، وأن يراد به اللوح المحفوظ ، وجواب القسم .

وقال الزمخشري وغيره : قوله : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ ، على أن الكتاب هو القرآن ، ويكون قد عظمه تعالى بالإقسام به .

وقال ابن عطية : لا يحسن وقوع القسم عليه ، أي على ﴿ إنا أنزلناه ﴾ ، وهو اعتراض يتضمن تفخيم الكتاب ، ويكون الذي وقع عليه القسم ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ . انتهى .

قال قتادة ، وابن زيد ، والحسن : الليلة المباركة : ليلة القدر .

وقالوا : كتب الله كلها إنما نزلت في رمضان ؛ التوراة في أوله ، والإنجيل في وسطه ، والزبور في نحو ذلك ، والقرآن في آخره ، في ليلة القدر ؛ ويعني ابتداء نزوله كان في ليلة القدر .

وقيل : أنزل جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور ، ومن هناك كان جبريل يتلقاه .

وقال عكرمة وغيره : هي ليلة النصف من شعبان ، وقد أوردوا فيها أحاديث .

وقال الحافظ أبو بكر بن العربي : لا يصح فيها شيء ، ولا في نسخ الآجال فيها .

إنا كنا منذرين : أي مخوفين .

(131/696)

قال الزمخشري : فإن قلت : ﴿ إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ ، ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان ، فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ ، كأنه قيل : أنزلناه ، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب .

وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً ، لأن إنزال القرآن من الأمور المحكمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم ، والمباركة : الكثيرة الخير ، لما ينتج الله فيها من الأمور التي تتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده ، لكفى به بركة .

انتهى .

وقرأ الحسن ، والأعرج ، والأعمش : يفرق ، بفتح الياء وضم الراء ، كل : بالنصب ، أي يفرق الله .

وقرأ زيد بن علي ، فيما ذكر الزمخشري : نفرق بالنون ، كل بالنصب ؛ وفيما ذكر أبو على الأهوازي : عينه بفتح الياء وكسر الراء ، ونصب كل ، ورفع حكيم ، على أنه الفاعل بيفرق .

وقرأ الحسن : وزائدة عن الأعمش بالتشديد مبنياً للمفعول ، أو معنى يفرق : يفصل من غيره ويلخص .

ووصف أمر بحكيم ، أي أمر ذي حكمة ؛ وقد أبهم تعالى هذا الأمر .

وقال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد : في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأقدار والأرزاق والآجال وغير ذلك ، ويكتب ذلك إلى مثلها من العام المقبل .

وقال هلال بن أساف : كان يقال : انتظر والقضاء في رمضان .

وقال عكرمة : لفضل الملائكة في ليلة النصف من شعبان .

وجوزوا في أمراً أن يكون مفعولاً به بمنذرين لقوله : ﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾ أو على الاختصاص ، جعل كل أمر حكيم جزلاً فخماً ، بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة

وفخامة نفسه بأن قال : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا ، كائناً من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ، كذا قال الزمخشري .

(132/696)

وقال : وفي قراءة زيد بن علي : ﴿ أمراً من عندنا ﴾ ، على هو أمراً ، وهي نصب على الاختصاص ومقبولاً له ، والعامل أنزلنا ، أو منذرين ، أو يفرق ، ومصدراً من معنى يفرق ، أي فرقاً من عندنا ، أو من أمرنا محذوفاً وحالاً ، قيل : من كل ، والذي تلقيناه من أشياخنا أنه حال من أمر ، لأنه وصف بحكيم ، فحسنت الحال منه ، إلا أن فيه الحال من المضاف إليه ، وهو ليس في موضع رفع ولا نصب ، ولا يجوز .

وقيل : من ضمير الفاعل في أنزلناه ، أي أمرني .

وقيل : من ضمير المفعول في أنزلناه ، أي في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل .

والظاهر أن من عندنا صفة لأمراً ، وقيل : يتعلق بيفرق .

﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ : لما ذكر إنزال القرآن ، ذكر المرسل ، أي مرسلين الأنبياء بالكتب للعباد .

فالجملة المؤكدة مستأنفة .

وقيل : يجوز أن يكون بدلاً من ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ .

وجوزوا في رحمة أن يكون مصدراً ، أي رحمنا رحمة ، وأن يكون مفعولاً له بأنزلناه ، أو ليفرق ، أو لأمراً من عندنا .

وأن يكون مفعولاً بمرسلين ؛ والرحمة توصف بالإرسال ، كما وصفت به في قوله : ﴿ وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ والمعنى على هذا : أنا نفصل في هذه الليلة كل أمر ، أو تصدر الأوامر من عندنا ، لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا .

وقرأ زيد بن علي ، والحسن : رحمة ، بالرفع : أي تلك رحمة من ربك ، التفاتاً من مضمر إلى ظاهر ، إذ لو روعي ما قبله ، لكان رحمة منا ، لكنه وضع الظاهر موضع المضمر ، إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين .

وقرأ ابن محيصن ، والأعمش ، وأبو حيوة ، والكوفيون : ﴿ رب السموات ﴾ ، بالخفض بدلاً من ربك ؛ وباقي السبعة ، والأعرج ، وابن أبي إسحاق ، وأبو جعفر ، وشيبة : بالرفع على القطع ، أي هو رب .

(133/696)

وقرأ الجمهور : ﴿ ربكم ورب ﴾ ، برفعهما ؛ وابن أبي إسحاق ، وابن محيصن ، وأبو حيوة ، والزعفراني ، وابن مقسم ، والحسن ، وأبو موسى عيسى بن سليمان ، وصالح الناقط ، كلاهما عن الكسائي : بالجر ؛ وأحمد بن جبير الأنطاكي : ربكم ورب ، بالنصب على المدح ، وهم يخالفون بين الإعراب ، الرفع والنصب ، إذا طالت النعوت .

وقوله : ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ ، تحريك لهم بأنكم تقرون بأنه تعالى خالق العالم ، وأنه أنزل الكتب ، وأرسل الرسل رحمة منه ، وأن ذلك منكم من غير علم وإيقان .

ولذلك جاء : ﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ ، أي في شك لا يزالون فيه يلعبون .

فإقرارهم ليس عن حد ولا تيقن .

﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ .

قال علي بن طالب ، وابن عمر ، وابن عباس ، وسعيد الخدري ، وزيد بن علي ، والحسن : هو دخان يجيء يوم القيامة ، يصيب المؤمن منه مثل الزكام ، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين ، حتى تكون مصقلة حنيذة .

وقال ابن مسعود ، وأبو العالية ، والنخعي : هو الدخان الذي رأته قريش .

قيل لعبد الله : إن قاصاً عند أبواب كندة يقول إنه دخان يأتي يوم القيامة ، فيأخذ أنفاس الناس ، فقال : من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم .

ألا وسأحدثكم أن قريشاً لما استعصت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، دعا

عليهم فقال : " اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف " ، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف ، والعلهز .

والعلهز : الصوف يقع فيه القراد فيشوى الصوف بدم القراد ويؤكل .

وفيه أيضاً : حتى أكلوا العظام .

وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان يحدث الرجل فيسمع الكلام ولا يرى المحدث من الدخان .

فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه ، وناشده الله والرحم ، وواعدوه ، إن دعا لهم وكشف عنهم ، أن يؤمنوا .

فلما كشف عنهم ، رجعوا إلى شركهم .

وفيه : فرحمهم النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وبعث إليهم بصدقة ومال .

(134/696)

وفيه : فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ قال : يعني يوم بدر .

وقال عبد الرحمن : خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم .

وقال عبد الرحمن الأعرج: ﴿ يوم تأتي السماء ﴾ ، هو يوم فتح مكة ، لما حجبت السماء الغبرة .

وفي حديث حذيفة : أول الآيات خروج الدجال ، والدخان ، ونزول عيسى بن مريم ، ونار تخرج من قعر عدن ؛ وفيه قلت : يا نبي الله ، وما الدخان على هذه الآية : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ ؟ وذكر بقية الحديث ، واختصرناه بدخان مبين ، أي ظاهر .

لا شك أنه دخان ﴿ يغشى الناس ﴾ : يشملهم .

فإن كان هو الذي رأته قريش ، فالناس خاص بالكفار من أهل مكة ، وقد مضى كما قال ابن مسعود ؛ وإن كان من أشراط الساعة ، أو يوم القيامة ، فالناس عام فيمن أدركه وقت الأشراط ، وعام بالناس يوم القيامة .

﴿ هذا عذاب ﴾ إلى ﴿ مؤمنون ﴾ في موضع نصب بفعل القول محذوفاً ، وهو في موضع الحال ، أي يقولون .

ويجوز أن يكون إخباراً من الله ، كأنه تعجب منه ، كما قال في قصة الذبيح : ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ ﴿ إنا مؤمنون ﴾ : وعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب ، والإيمان واجب ، كشف العذاب أو لم يكشف .

﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ : أي كيف يذكرون ويتعظون ويقولون بما وعدوه من الإيمان عند

كشف العذاب ، وقد جاءهم ما هو أعظم ؟ وأدخل في باب الادكار من كشف الدخان ؟ وهو ما ظهر على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الآيات والبينات ، من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات ، فلم يذكروا ، وتولوا عنه وبهتوه بأن عدّاسا غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه ، ونسبوه إلى الجنون .

وقرأ زر بن حبيش : معلم ، بكسر اللام .

﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً ﴾ : إخبار عن إقامة الحجة عليهم ، ومبالغة في الإملاء لهم . ثم أخبر أنهم عائدون إلى الكفر .

(135/696)

وقال قتادة : هو توعد بمعاد الآخرة : وإن كان الخطاب لقريش حين حل بهم الجدب ، كان ظاهراً ؛ وإن كان الدخان قبل يوم القيامة ، فإذا أتت السماء بالعذاب ، تضرع منافقوهم وكافروهم وقالوا : ربنا اكشف عنا العذاب ، إنا مؤمنون .

فيكشف عنهم ، قيل : بعد أربعين يوماً ؛ فحين يكشفه عنهم يرتدون .

ويوم البطشة الكبرى على هذا : هو يوم القيامة ، كقوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ وكونه يوم القيامة ، هو قول ابن عباس والحسن وقتادة .

وكونه يوم بدر ، هو قول عبد الله وأبي وابن عباس ومجاهد .

وانتصب يوم نبطش ، قيل : بذكراهم ، وقيل : بننتقم الدال عليه منتقمون ، وضعف بأنه لا نصب إلا بالفعل ، وقيل : بمنتقمون .

ورد بأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها .

وقرأ الجمهور : نبطش ، بفتح النون وكسر الطاء ؛ والحسن ، وأبو جعفر : بضمها ؛ والحسن أيضاً ، وأبو رجاء ، وطلحة : بضم النون وكسر الطاء ، بمعنى : نسلط عليهم من يبطش بهم .

والبطشة على هذه القراءة ليس منصوباً بنبطش ، بل بمقدر ، أي نبطش ذلك المسلط البطشة ، أو يكون البطشة في معنى الإبطاشة ، فينتصب بنبطش .

﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ : هذا كالمثال لقريش ، ذكرت قصة من أرسل إليهم موسى عليه السلام ، فكذبوه ، فأهلكهم الله .

وقرىء : فتنا ، بتشديد التاء ، للمبالغة في الفعل ، أو التكثير ، متعلقة ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ : أي كريم عند الله وعند المؤمنين ، قاله الفراء ؛ أو كريم في نفسه ، لأن الأنبياء إنما يبعثون من سروات الناس ، قاله أبو سليمان ؛ أو كريم حسن الخلق ، قاله مقاتل .

﴿ أن أدوا إليّ عباد الله ﴾ يحتمل أن تكون أن تفسيرية ، لأنه تقدم ما يدل على معنى القول ، وهو رسول كريم ، وأن تكون أن مخففة من الثقيلة أو الناصبة للمضارع ، فإنها توصل

بالأمر .

قال ابن عباس : أن أدوا إليّ الطاعة يا عباد الله : أي اتبعوني على ما أدعوكم إليه من الإيمان .

(136/696)

وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل ، كم قال : فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم .

فعلى ابن عباس : عباد الله : منادى ، ومفعول أدوا محذوف ؛ وعلى قول مجاهد ومن ذكر معه : عباد الله : مفعول أدوا .

﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ : أي غير متهم ، قد ائتمنني الله على وحيه ورسالته .

﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ : أي لا تستكبروا على عبادة الله ، قاله يحيى بن سلام .

قال ابن جريج : لا تعظموا على الله .

قيل : والفرق بينهما أن التعظيم تطاول المقتدر ، والاستكبار ترفع المحتقر ، ذكره الماوردي ، وأن هنا كان السابق في أوجهها الثلاثة .

﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ : أي بحجة واضحة في نفسها ، وموضحة صدق

دعواي .

وقرأ الجمهور : إني ، بكسر الهمزة ، على سبيل الإخبار ؛ وقرأت فرقة : بفتح الهمزة .

والمعنى : لا تعلوا على الله من أجل أني آتيكم ، فهذا توبيخ لهم ، كما تقول : أتغضب إن قال لك الحق ؟ ﴿ وإني عذت ﴾ : أي استجرت ﴿ بربي وربكم أن ترجمون ﴾ : كانوا قد توعدوه بالقتل ، فاستعاذ من ذلك .

وقرىء : عدت ، بالإدغام .

قال قتادة وغيره : الرجم هنا بالحجارة .

وقال ابن عباس ، وأبو صالح : بالشتم ؛ وقول قتادة أظهر ، لأنه قد وقع منهم في حقه ألفاظ لا تناسب ؛ وهذه المعاذة كانت قبل أن يخبره تعالى بقوله : ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ وإن لم تؤمنوا إلي : أي تصدقوا ، فاعتزلون : أي كونوا بمعزل ، وهذه مشاركة حسنة .

﴿ فدعا ربه ﴾ : أني مغلوب فانتصر ، ﴿ أن هؤلاء ﴾ : لفظ تحقير لهم .

وقرأ الجمهور : أن هؤلاء ، بفتح الهمزة ، أي بأن هؤلاء .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، وعيسى ، والحسن في رواية ، وزيد بن علي : بكسرها .

﴿ فأسر بعبادي ﴾ : في الكلام حذف ، أي فانتقم منهم ، فقال له الله : أسر بعبادي ، وهم بنوا إسرائيل ومن آمن به من القبط .

وقال الزمخشري : فيه وجهان : إضمار القول بعد الفاء ، فقال : أسر بعبادي ، وأن يكون جواباً بالشرط محذوف ؛ كأنه قيل : قال إن كان الأمر كما تقول ، فأسر بعبادي . انتهى .

وكثيراً ما يجيز هذا الرجل حذف الشرط وإبقاء جوابه ، وهو لا يجوز إلا لدليل واضح ؛ كأن يتقدمه الأمر وما أشبهه مما ذكر في النحو ، على خلاف في ذلك .

﴿ إنكم متبعون ﴾ : أي يتبعكم فرعون وجنوده ، فتنجون ويغرق المتبعون .

﴿ واترك البحر رهواً ﴾ : قال ابن عباس : ساكناً كما أجراه .

وقال مجاهد وعكرمة : يبساً من قوله : ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ وقال الضحاك : دمثاً ليناً .

وقال عكرمة : جدداً .

وقال ابن زيد : سهلاً .

وقال مجاهد أيضاً : منفرداً .

قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ، لما قطعه ، حتى يلتئم ؛ وخاف أن يتبعه فرعون ، فقيل : لمه هذا ؟ ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ : أي فيه ، لأنهم إذا رأوه ساكناً على حالته حين دخل فيه موسى وبنوا إسرائيل ، أو مفتوحاً طريقاً يبساً ، دخلوا فيه ، فيطبقه الله عليهم .

﴿ كم تركوا ﴾ : أي كثيراً تركوا .

﴿ من جنات وعيون ﴾ : تقدم تفسيرهما في الشعراء .

وقرأ الجمهور : ﴿ ومقام ﴾ ، بفتح الميم .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير : أراد المقام .

وقرأ ابن هرمز ، وقتادة ، وابن السميفع ، ونافع : في رواية خارجة بضمها .

قال قتادة : أراد المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها .

﴿ ونعمة ﴾ ، بفتح النون : نضارة العيش ولذاذة الحياة .

وقرأ أبو رجاء : ﴿ ونعمة ﴾ ، بالنصب ، عطفاً على كم ﴿ كانوا فيها فاكهين ﴾ .

قرأ الجمهور : بألف ، أي طيبي الأنفس وأصحاب فاكهة ، كلابن ، وتامر ، وأبو رجاء ، والحسن : بغير ألف .

والفكه يستعمل كثيراً في المستخف المستهزىء ، فكأنهم كانوا مستخفين بشكل النعمة التي كانوا فيها .

وقال الجوهري : فكه الرجل ، بالكسر ، فهو فكه إذا كان مزاحاً ، والفكه أيضاً الأشر .

وقال القشيري : فاكهين : لاهين كذلك .

وقال الزجاج : والمعنى : الأمر كذلك ، فيوقف على كذلك ؛ والكاف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف ؛ وقيل : الكاف في موضع نصب ، أي يفعل فعلاً كذلك ، لمن يريد إهلاكه .

وقال الكلبي : كذلك أفعل بمن عصاني .

وقال الحوفي : أهلكنا إهلاكاً ، وانتقمنا انتقاماً كذلك .

وقال الزمخشري : الكاف منصوبة على معنى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ، ﴿ وأورثنا قوماً آخرين ﴾ ليسوا منهم ، وهم بنوا إسرائيل .

كانوا مستعبدين في يد القبط ، فأهلك الله تعالى القبط على أيديهم وأورثهم ملكهم .

وقال قتادة ، وقال الحسن : إن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون ، وضعف قول قتادة بأنه لم يرو في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ، ولا ملكوها قط ؛ إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشأم . انتهى .

ولا اعتبار بالتواريخ ، فالكذب فيها كثير ، وكلام الله صدق .

قال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ وقيل : قوماً آخرين ممن ملك مصر بعد القبط من غير بني إسرائيل .

﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ : استعارة لتحقير أمرهم ، وأنه لم يتغير عن هلاكهم شيء .

ويقال في التعظيم : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس .

وقال زيد بن مفرغ :

الريح تبكي شجوه . . .

والبرق يلمع في غمامه

وقال جرير :

فالشمس طالعة ليست بكاسفة . . .

تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وقال النابغة :

بكى حادث الجولان من فقد ربه . . .

وحوران منه خاشع متضائل

وقال جرير :

لما أتى الزهو تواضعت . . .

سور المدينة والجبال الخشع

ويقول في التحقير : مات فلان ، فما خشعت الجبال .

ونسبة هذه الأشياء لما لا يعقل ولا يصير ذلك منه حقيقة ، عبارة عن تأثر الناس له ، أو عن عدمه .

وقيل : هو على حذف مضاف ، أي : فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الملائكة وأهل الأرض ، وهم المؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين .

روي ذلك عن الحسن .

(139/696)

وما روي عن علي ، وابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير : إن المؤمن إذا مات ، بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحاً ، وبكى عليه السماء موضع صعود عمله .

قالوا : فلم يكن في قوم فرعون من هذه حاله تمثيل .

﴿ وما كانوا منظرين ﴾ : أي مؤخرين عن العذاب لما حان وقت هلاكهم ، بل عجل الله لهم ذلك في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(140/696)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ حم * والكتاب المبين ﴾

الكلامُ فيهِ كالذي سلفَ في السورةِ السابقةِ . ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ أي الكتابَ المبينَ الذي هُو القُرآنُ . ﴿ فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ هيَ ليلةُ القدرِ ، وقيلَ ليلةُ البراءةِ ابتدىءَ فيها إنزالُه ، وأُنزلَ فيها جُملةً إلى السماءِ الدُّنيا من اللوحِ وأملاهُ جبريلُ عليهِ السَّلامُ على السَّفرَةِ ثم كانَ ينزله على النبيِّ صلى الله عليه وسلم نحوَ ما في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً كما مرَّ في سورةِ الفاتحةِ . ووصفُها بالبركةِ لما أنَّ نزولَ القُرآنِ مستتبعٌ للمنافعِ الدينيةِ والدنيويةِ بأجمعِها أو لما فيها من تنزلِ الملائكةِ والرحمةِ وإجابةِ الدعوةِ وقسمِ النعمةِ وفصلِ الأقضيةِ وفضيلةِ العبادةِ وإعطاءِ تمامِ الشفاعةِ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقيلَ : يزيدُ في هذهِ الليلةِ ماءُ زمزمَ زيادةً ظاهرةً ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ استئنافٌ مبينٌ لما يقتضِي الإنزالَ كأنَّه قيلَ : إنَّا أنزلناهُ لأن من شأنِنا الإنذارَ والتحذيرَ من العقابِ ، وقيلَ : جوابٌ للقسمِ وقولُه تعالى إنَّا أنزلناهُ الخ اعتراضٌ وقيلَ : جوابٌ ثانٍ بغيرِ عاطفٍ . ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ استئنافٌ كما قبلَهُ فإنَّ كونَها مفْرَقَ الأمورِ المحكمةِ أو الملتبسةِ بالحكمةِ الموافقةِ لها يستدعِي أنْ ينزلَ فيها القرآنُ الذي هُو من عظائِمها ، وقيلَ : صفةٌ أُخرى لليلةِ وما بينَهُما اعتراضٌ وهذا يدلُّ على أنَّها ليلةُ القدرِ ومَعْنى يُفرقُ أنه يكتبُ ويفصلُ كلُّ أمرٍ حكيمٍ من

أرزاقِ العبادِ وآجالِهم وجميعُ أمورِهم من هذِه الليلةِ إلى الأُخرى من السنةِ القابلةِ ، وقيلَ : يبدأُ في استنساخِ ذلك من اللوحِ في ليلةِ البراءةِ ويقعُ الفراغُ في ليلةِ القدرِ فتدفعُ نسخةُ الأرزاقِ إلى ميكائيلَ ونسخةُ الحروبِ إلى جبريلَ وكذا الزلازلُ والخسفُ والصواعقُ ، ونسخةُ الأعمالِ إلى إسماعيلَ صاحبِ سماءِ الدُّنيا وهُو مَلكٌ عظيمٌ ونسخةُ المصائبِ

(142/696)

إلى مَلكِ الموتِ عليهم السَّلامُ . وقُرِىءَ يُفرَّقُ بالتشديدِ ، وقُرِىءَ يَفرُقُ على البناءِ للفاعلِ أي يفرقُ اللهُ تعالى كلَّ أمرٍ حكيمٍ ، وقُرِىءَ نَفْرُقُ بنونِ العظمةِ .

(143/696)

﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ نصبَ على الاختصاصِ أيْ أعنِي بهذا الأمرِ أمراً حاصلاً من عندِنا على مُقتضَى حكمتِنا وهو بيانٌ لفخامتِه الإضافيةِ بعدَ بيانِ فخامتِه الذاتيةِ ويجوزُ كونُه حالاً من كلِّ أمرٍ لتخصصِه بالوصفِ أو من ضميرِه في حكيمٍ وقد جُوِّزَ أنْ يرادَ به مقابلَ النهي ويجعلَ مصدراً مؤكداً ليُفرَقُ لاتحادِ الأمرِ والفرقانِ في المَعْنى ، أو لفعلِه المضمرِ

لما أنَّ الفرقَ بهِ ، أو حالاً من أحدِ ضميريْ أنزلناهُ أي آمرينَ أو مأموراً بهِ ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ بدلٌ من إنَّا كُنَّا منذرينَ وقيلَ : جوابٌ ثالثٌ وقيل : مستأنفٌ ، وقولُه تعالى ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ غايةٌ للإرسالِ متأخرةٌ عنه على أنَّ المرادَ بها الرحمةُ الواصلةُ إلى العبادِ وباعثٌ متقدمٌ عليه على أنَّ المرادَ مبدؤُها أي إنَّا أنزلنا القرآنَ لأنَّ من عادتِنا إرسالَ الرسلِ بالكتبِ إلى العبادِ لأجلِ إفاضةِ رحمتِنا عليهم أو لاقتضاءِ رحمتِنا السابقةِ إرسالَهم ، ووضعُ الربِّ موضعَ الضميرِ للإيذانِ بأنَّ ذلكَ من أحكامِ الربوبيةِ ومقتضياتِها ، وإضافتُه إلى ضميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لتشريفِه أو تعليلٌ ليُفرقُ أو لقولِه تعالى أمراً ، على أنَّ قولَه تعالى رحمةً مفعولٌ للإرسالِ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ﴾ أي يفرقُ فيها كلُّ أمرٍ أو تصدرُ الأوامرُ من عندِنا لأنَّ من عادتِنا إرسالَ رحمتِنا . ولا ريبَ في أنَّ كلاً من قسمةِ الأرزاقِ وغيرِها والأوامرِ الصادرةِ منه تعالى من بابِ الرحمةِ فإن الغايةَ لتكليفِ العبادِ تعريضُهم للمنافعِ . وقُرِئَ رحمةٌ بالرفعِ ، أي تلكَ رحمةٌ . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ تحقيقٌ لربوبيتِه تعالى وأنَّها لا تحِقُّ إلا لمَنْ هذهِ نعوتُه .

(144/696)

﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بدلٌ من ربّك أو بيانٌ أو نعتٌ ، وقُرِىءَ بالرفعِ على أنَّه خبرٌ آخرُ أو استئنافٌ على إضمارِ مبتدأٍ ﴿ إن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ أي إنْ كنتُم من أهلِ الإيقانِ في العلومِ أو إنْ كنتُم موقنينَ في إقرارِكم بأنَّه تعالَى ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينَهُما إذَا سئلتُم مَنْ خلَقها فقلتُم اللهُ علمتُم أنَّ الأمرَ كمَا قُلنا أو إنْ كنتُم مريدينَ اليقينَ فاعلمُوا ذلكَ ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مقررةٌ لما قبلَها ، وقيلَ : خبرٌ لقولِه ربّ السمواتِ الخ وما بينهما اعتراضٌ ﴿ يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ مستأنفةٌ كما قبلَها وكَذا قولُه تعالى ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الأولين ﴾ بإضمارِ مبتدأٍ أو بدلٌ من ربّ السمواتِ على قراءةِ الرفعِ ، أو بيانٌ أو نعتٌ له ، وقيلَ : فاعلٌ ليميتُ ، وفي يُحيي ضميرٌ راجعٌ إلى ربّ السمواتِ . وقُرِىءَ بالجرّ بدلاً من ربّ السمواتِ عَلى قراءةِ الجرّ . ﴿ بْل هُمْ فى شَكّ ﴾ مما ذُكِرَ من شؤونِه تعالَى غيرُ موقنينَ في إقرارِهم ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ لا يقولونَ ما يقولونَ عن جدٍ وإذعانٍ بلْ مخلوطاً بهُزْؤٍ ولعبٍ .

(145/696)

الفاءُ في قولِه تعالى ﴿ فارتقب ﴾ لترتيبِ الارتقابِ أو الأمرِ به على ما قبلَها فإنّ كونَهُم في شكٍ مما يُوجِبُ ذلكَ حَتْماً أي فانتظرْ لَهُم ﴿ يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي يومَ شدّةٍ

ومَجَاعةٍ فإنَّ الجائعَ يَرَى بينَهُ وبينَ السماءِ كهيئةِ الدُّخانِ إما لضعفِ بصرِهِ أو لأنَّ في عامِ القحطِ يُظلمُ الهواءُ لقلةِ الأمطارِ وكثرةِ الغُبارِ أو لأنَّ العربَ تُسمّي الشرَّ الغالبَ دُخاناً وذلكَ أنَّ قريشاً لَمَّا استعصتْ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم دعَا عليهم فقالَ : " اللهَّم اشدُدْ وطأَتَكَ على مضرَ واجعلْها عليهم سنينَ كسِنِي يوسفَ " فأخذتْهُم سَنَةٌ حتى أكلُوا الجيفَ والعظامَ والعِلْهِزَ وكانَ الرجلُ يَرَى بينَ السماءِ والأرضِ الدُّخانَ وكان يحدثُ الرجلَ ويسمعُ كلامَهُ ولا يراهُ من الدخانِ وذلكَ قولُه تعالى :

(146/696)

﴿ يَغْشَى الناس ﴾ أي يحيطُ بهم ﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي قائلينَ ذلكَ ، فمشَى إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبو سفيانَ ونَفَرٌ معَهُ وناشدُوه اللهَ تعالَى والرحمَ وواعدُوه إنْ دعَا لهم وكشفَ عنُهم أنْ يُؤمنوا ، وذلكَ قولُه تعالى ﴿ رَّبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ وهَذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ وابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنُهم وبه أخذَ مجاهدٌ ومقاتلٌ وهو اختيارُ الفرَّاءِ والزَّجَّاجِ ، وقيلَ : هو دُخانٌ يأتِي من السماءِ قبلَ يومِ القيامةِ ، فيدخلُ في أسماعِ الكفرةِ حتَّى يكونَ رأسُ الواحدِ كالرأسِ الحنيذِ ويعترِي المؤمنَ منه كهيئةِ الزكامِ وتكونُ الأرضُ كُلُّها كبيتٍ أُوقدَ فيه ليسَ فيه خصاصٌ . وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : "

أولُ الآياتِ الدُّخانُ ونزولُ عيسى ابنِ مريمَ ونارٌ تخرجُ من قعرِ عدنٍ أيْنَ تسوقُ النَّاسَ إلى المحشرِ ، قالَ حذيفةُ : يا رسولَ اللهِ وما الدُّخانُ ؟ فتَلا الآيةَ ، وقالَ يملأُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ يمكثُ أربعينَ يوماً وليلةً أمَّا المؤمنُ فيصيبُه كهيئةِ الزكمةِ وأما الكافرُ فهو كالسكرانِ يخرجُ من مَنْخِريهِ وأذنيهِ ودبُرِه " . والأولُ هُو الذي يستدعيهِ مساقُ النظمِ الكريمِ قطعاً . فإنَّ قولَه تعالى : ﴿ أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ إلخ ردٌّ لكلامِهم واستدعائِهم الكشفَ وتكذيبٌ لهم في الوعدِ بالإيمانِ المنبىءِ عن التذكرِ والاتعاظِ بما اعتراهُم من الداهيةِ أي كيفَ يتذكرونَ أو مِنْ أين يتذكرون بذلك ويفُون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذابِ عنهم ﴿ وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ أيْ والحالُ أنَّهم شاهُدوا منْ دَوَاعي التذكرِ وموجباتِ الاتعاظِ ما هو أعظمُ منهُ في إيجابِها حيثُ جاءَهُم رسولٌ عظيمُ الشأنِ وبين لهم مناهجَ الحقِّ بإظهارِ آياتٍ ظاهرةٍ ومعجزاتٍ قاهرةٍ تخِرُّ لها صُمُّ الجبال . ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ عن ذلك الرسول وهو هو ريثما

(147/696)

شاهدوا منه ما شاهدوه من العظائمِ الموجبةِ للإقبال عليه ولم يقتنعوا بالتولّي ﴿ وَقَالُواْ ﴾ في حقِّهِ ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي قالوا تارة يعلمُه غلامٌ أعجميٌّ لبعض ثقيفٍ وأُخرى مجنونٌ

، أو يقولُ بعضهم كذَا وآخرونَ كَذا فَهلْ يتوقعُ من قوم هذه صفاتُهم أنْ يتأثرُوا بالعظة والتذكير ، وما مثلُهم إلا كمثلِ الكلب إذَا جاعَ ضَغَا وإذا شبعَ طَغَى .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ جوابٌ من جهتِهِ تعالى عن قولِهم رَّبنا اكشفْ عنَّا العذابَ إنَّا مؤمنونَ بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد وما بينهما اعتراضٌ أيْ إنا نكشفُ العذابَ المعهودَ عنكم كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً إنكم تعودون إثرَ ذلك إلى ما كنتم عليه من العُتوّ والإصرارِ على الكفر وتنسَون هذه الحالَة . وصيغةُ الفاعلِ في الفعلين للدِلالة على تحقُّقهما لا محالةَ ، ولقد وقعَ كلاهُما حيثُ كشَفَهُ الله تعالى بدعاءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فمَا لبثُوا أنْ عادُوا إلى ما كانوا عليهِ من العُتوّ والعِنادِ . ومَن فسر الدخانَ بما هُو من الأشراطِ قال إذَا جاء الدخانُ تضوّرَ المعذبونَ به من الكفارِ والمنافقينِ وغوّثُوا وقالُوا ربَّنا اكشفْ عنَّا العذابَ إنَّا مؤمنونَ فيكشفه الله تعالَى عنهُم بعدَ أربعينَ يوماً وريثما يكشفُه عنهم يرتدونَ ولا يتمهلونَ .

(148/696)

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى ﴾ يومَ القيامةِ وقيل : يومَ بدرٍ وهو ظرفٌ لما دلَّ عليه قولُه تعالى ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ لا لمنتقمون لأن إنَّ مانعةٌ من ذلكَ أي يومئذٍ ننتقمُ إنَّا منتقمون وقيلَ

: هو بدلٌ من بدلٍ منْ يومَ تأتِي الخ وقُرِىءَ نُبطش أي نحملُ الملائكةَ على أن يبطشُوا بهم البطشةَ الكُبرى وهو التناولُ بعنفٍ وصَولةٍ أو نجعل البطشةَ الكُبرى باطشةً بهم وقُرِىءَ نبطُش بضمِّ الطاءِ وهي لغةٌ. ﴿ ولقد فتنَّا قبلهم قومَ فرعونَ ﴾ أي امتحناهُم بإرسالِ مُوسى عليه السلامُ أو أوقعناهُم في الفتنةِ بالإمهالِ وتوسيعِ الرزقِ عليهم وقُرِىءَ بالتشديدِ ، للمبالغة أو لكثرة القوم. أي امتحناهُم بإرسالِ مُوسى عليه السلامُ أو أوقعناهُم في الفتنةِ بالإمهالِ وتوسيعِ الرزقِ عليهم وقُرِىءَ بالتشديدِ ، للمبالغة أو لكثرة القوم. ﴿ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ على الله تعالى أو على المؤمنين أو في نفسه لأن الله تعالى لم يبعثْ نبياً إلا منْ سَراةِ قومِه وكرامِهم. ﴿ أَنْ أَدُّواْ إِلَىَّ عِبَادَ الله ﴾ أيْ بأنْ أدُّوا إليَّ بني إسرائيلَ وأرسلُوهم معي أو بأنْ أدُّوا إليَّ يا عبادَ الله حقَّه من الإيمانِ وقبولِ الدَّعوةِ ، وقيلَ : أنْ مفسرةٌ ، لأنَّ مجيءَ الرسولِ لا يكونُ إلا برسالةٍ ودعوةٍ ، وقيل : مخففةٌ من الثقيلةِ أيْ جاءَهُم بأنَّ الشأنَ أدُّوا إلى إلخ. وقولُه تعالى : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ تعليلٌ للأمر أو لوجوب المأمورِ به أيْ رسولٌ غيرُ ظَنِينٍ قد ائتمننى الله تعالى على وحيه وصدَّقَنِي بالمعجزاتِ القاهرةِ. ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى الله ﴾ أي لا تتكبرُوا عليه تعالى بالاستهانة بوحيهِ وبرسوله وأنْ كالتي سلفتْ ، وقولُه تعالى : ﴿ إِنِّى ءَاتِيكُم ﴾ أي من جهته تعالى ﴿ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ تعليلٌ للنَّهي أيْ آتيكُم بحجةٍ واضحةٍ لا سبيلَ إلى إنكارها وآتيكم على صيغةِ الفاعلِ أو المضارعِ ،

وفي إيراد الأداءِ معَ الأمين ، والسلطانِ مع العُلاَ منَ الجزالةِ مَا لا يَخْفى .

﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ أي التجأتُ إليهِ وتوكلتُ عليهِ ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ من أنْ ترجمُونِي أيْ تُؤذونِي ضرباً أو شتماً أو أنْ تقتلوني ، قيلَ لمَّا قالَ وأنْ لا تعلُوا على اللهِ توعّدوه بالقتلِ . وقُرِىءَ بإدغامِ الذالِ في التَّاءِ . ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فاعتزلون ﴾ أي وإنْ كابرتُم مقتضَى العقلِ ولم تُؤمنوا لي فخلُّوني كَفافاً عليَّ ولا ليَ ، ولا تتعرضُوا لي بشرَ ولا أذَى فليس ذلك جزاءَ من يدعُوكم إلى ما فيهِ فلاحُكم . وحملُه على مَعْنى فاقطعُوا أسبابَ الوصلةِ عنّي فلا موالاةَ بيني وبينَ منْ لا يُؤمنُ يأباهُ المقامُ .

(150/696)

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ بعدما تمُّوا على تكذيبهِ عليه السَّلامُ ﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ أي بأنَّ هؤلاءِ ﴿ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ وهو تعريضٌ بالدُّعاءِ عليهم بذكرِ ما استوجبُوه بهِ ولذلك سُمّيَ دعاءً وقُرِىءَ بالكسرِ على إضمارِ القولِ . قيلَ كانَ دعاؤُه اللَّهم عجّلْ لهُم ما يستحقونَهُ بإجرامِهم ، وقيلَ : هُو قولُه : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً ﴾ بإضمارِ القولِ إمَّا بعدَ الفاءِ أيْ فقالَ ربُّه : أسرِ بعبادِي وإما قبلَها كأنَّه قيلَ قال : إنْ

كانَ الأمرُ كما تقولُ فأسرِ بعبادِي أيْ ببنِي إسرائيلَ فقد دبَّر اللهُ تعالى أنْ تتقدمُوا . وقُرِىءَ بوصلِ الهمزةِ منْ سَرَى . ﴿ إِنَّكُم مّتَّبعُونَ ﴾ أي يتبعُكم فرعونُ وجنودُه بعد ما علمُوا بخروجِكم . ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ مفتوحاً ذا فجوةٍ واسعةٍ ، أو ساكناً على هيئته بعدَ ما جاوزْتَه ، ولا تضربْهُ بعصاكَ لينطبقَ ولا تغيّرْهُ عن حالِه ليدخلَه القبطُ . ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ وقرىءَ أنَّهم بالفتحِ أيْ لأنَّهم ﴿ كَمْ تَرَكُواْ ﴾ أي كثيراً تركوا بمصرَ ﴿ مّن جنات وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ محافلَ مزيّنة ومنازلَ محسَّنةٍ ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ أي تنعمٍ ﴿ كَانُواْ فِيهَا فاكهين ﴾ متنعمينَ وقُرِىءَ فكِهينَ ﴿ كذلك ﴾ الكافُ في حيّزِ النصب وذلك إشادة إلى مصدر فعل يدل عليه تركوا ، أي مثل ذلك السلبِ سلبناهُم إيَّاها ﴿ وأورثناها قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾ وقيلَ : مثلَ ذلكَ الإخراجِ أخرجناهُم منها ، وقيلَ : في حيزِ الرفعِ على الخبريةِ أيِ الأمرُ كذلكَ فحينئذٍ يكونُ أورثناهَا معطوفاً على تركُوا وعلى الأولَينِ على الفعلِ المقدرِ .

(151/696)

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ مجازٌ عن عدمِ الاكتراثِ بهلاكِهم والاعتدادِ بوجودِهم ، فيهِ تهكمٌ بهِم وبحالهم المنافيةِ لحالِ من يعظمُ فقدُه فيقالُ له بكتْ عليه السماءُ

والأرضُ ، ومنْهُ (ما رُويَ إنَّ المؤمنَ ليبكي عليه مُصَّلاهُ ومحلُّ عبادتِه ومصاعدُ عملِه ومهابطُ رزقِه وآثارُه في الأرضِ) ، وقيلَ : تقديرُه أهلُ السماءِ والأرضِ . ﴿ وَمَا كَانُواْ ﴾ لَمَّا جاءَ وقتُ هلاكِهم ﴿ مُّنظَرِينَ ﴾ ممهلينَ إلى وقتٍ أخرَ أو إلى الآخرةِ ، بلْ عُجِّلَ لهم في الدُّنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(152/696)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾

أي امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم على أنه من فتن الفضة عرضها على النار فيكون بمعنى الامتحان وهو استعارة والمراد عاملناهم معاملة الممتحن ليظهر حالهم لغيرهم أو أوقعناهم في الفتنة على أنه بمعناه المعروف والمراد بالفتنة حينئذٍ ما يفتن به الشخص أي يغتر ويغفل عما فيه صلاحه كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : 15] وفسرت هنا بالإمهال وتوسيع الرزق .

وفسر بعضهم الفتنة بالعذاب ثم تجوز به عن المعاصي التي هي سبب وهو تكلف ما لا داعي له .

وقرىء ﴿ فَتَّا ﴾ بتشديد التاء إما لتأكيد معناه المصدري أو لتكثير المفعول أو الفعل .

﴿ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ أي مكرم معظم عند الله عز وجل أو عند المؤمنين أو عنده تعالى وعندهم أو كريم في نفسه متصف بالخصال الحميدة والصفات الجليلة حسباً ونسباً ، وقال الراغب : الكرم إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه ، ونقل عن بعض العلماء أن الكرم كالحرية إلا أن الحرية قد تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة .

وقال الخفاجي أصل معنى الكريم جامع المحامد والمنافع وادعى لذلك أن تفسيره به أحسن من تفسيره بالتفسيرين السابقين .

﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ ﴾ اطلقوهم وسلموهم إلى ، والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون مستعبدهم ، والتعبير عنهم بعباد الله تعالى للإشارة إلى أن استعباده إياهم ظلم منه ، والأداء مجاز عما ذكر ، وهذا كقوله عليه السلام ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ [طه : 47] وروى ذلك عن ابن زيد ومجاهد .

وقتادة أو أدوا إلى حق الله تعالى من الايمان وقبول الدعوة يا عباد الله على أن مفعول ﴿ أَدُّوا ﴾ محذوف وعباد منادى وهو عام لبني إسرائيل والقبط ، والأداء بمعنى الفعل للطاعة وقبول الدعوة وروى هذا عن ابن عباس ، وأن عليهما قيل مصدرية قبلها حرف جر مقدر متعلق بجاءهم أي بأن أدوا ، وتعقب بأنه لا معنى لقولك : جاءهم بالتأدية إلى ، وحمله على طلب التأدية إلى لا يخلو عن تعسف ورد بأنه بتقدير القول وهو شائع مطرد فتقديره بأن قال أدوا إلى ولا يخلو عن تكلف ما ومع هذا الأمر مبني على جواز وصل المصدرية بالأمر والنهي وهو غير متفق عليه ، نعم إلا صح الجواز .

وقيل : هي مخففة من الثقيلة ، وتعقب بأنها حينئذ يقدر معها ضمير الشأن ومفسره لا يكون إلا جملة خبرية وأيضاً لا بد أن يقع بعدها النفي أوقد أو السين أو سوف أو لو وأن يتقدمها فعل قلبي ونحوه وأجيب بأن مجيء الرسول يتضمن معنى فعل التحقيق كالأعلام والفصل المذكور غير متفق عليه ، فقد ذهب المبرد تبعاً للبغاددة إلى عدم اشتراطه ، والقول بأنه شاذ يصان الررن عن مثله غير مسلم واشتراط كون مفسر ضمير الشأن جملة خبرية فيه خلاف على ما يفهم من كلام بعضهم ، ولم يذكر في "المغنى" في الباب الرابع في الكلام على ضمير الشأن .

إلا اشتراط كون مفسره جملة ولم يشترط فيها الخبرية ولم يتعرض لخلاف ، نعم قال في الباب الخامس : النوع الثامن اشتراطهم في بعض الجملة الخبرية وفي بعضها الإنشائية وعد من

الأول خبر إن وضمير الشأن لكنه قال بعد : وينبغي أن يستثني من ذلك في خبري أن وضمير الشأن خبر أن المفتوحة إذا خففت فإنه يجوز أن يكون جملة دعائية كقوله تعالى : ﴿ والخامسة أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا ﴾ [النور : 9] في قراءة من قرأ أن وغضب بالفعل والاسم الجليل فاعل .

(154/696)

وحقق بعض الأجلة أن الاخبار عن ضمير الشأن بجملة إنشائية جائز عند الزمخشري أو هي مفسرة وقد تقدم ما يدل على القول دون حروفه لأن مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة وكأن التفسير لمتعلقه المقدر أي جاءهم بالدعوة وهي أن ادوا إلى عبار الله ﴿ وَإِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ .

﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى اللهِ ﴾ ولا تستكبروا عليه سبحانه بالاستهانة بوحيه جل شأنه ورسوله عليه السلام ﴿ وَأَنْ ﴾ كالتي قبلها ، والمعنى على المصدرية بكفكم عن العلو على الله تعالى ﴿ إِنِّى ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ تعليل للنهي أي آتيكم بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها أو موضحة صدق دعواي ﴿ وآتيكم ﴾ على صيغة الفاعل أو المضارع ، ولا يخفى حسن ذكر الأمين مع الأداء والسلطان مع العلاء ، وذكر أن في الأول

ترشيحاً للاستعارة المصرحة أو المكنية بجعلهم كأنهم مال للغير في يده أمره بدفعه لمن يؤتمن عليه وفي الثاني تورية عن معنى الملك مرشحة بقوله ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ ﴾ وقرأت فرقة ﴿ إِنّى ﴾ بفتح الهمزة فقيل هو أيضاً على تعليل النهي بتقدير اللام ، وقيل : هو متعلق بما دخله النهي نظير قولك لمن غضب من قول الحق له لا تغضب لأن قيل لك الحق .

﴿ وَإِنّى عُذْتُ بِرَبّى وَرَبّكُمْ ﴾ أي التجأت إليه تعالى وتوكلت عليه جل شأنه ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ من أن ترجموني أي تؤذوني ضرباً أو شتماً أو أن تقتلوني ، وروى هذا عن قتادة وجماعة قيل .

لما قال : ﴿ أن لا تعلوا على الله ﴾ [الدخان : 19] توعدوه بالقتل فقال ذلك ، وفي "البحر" أن هذا كان قبل أن يخبره عز وجل بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه : فلا يصلون إليكما والجملة عطف على الجملة المستأنفة ، وقرأ أبو عمرو .

والإخوان عت بإدغام الذال في التاء .

وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21)

(155/696)

فكونوا بمعزل مني لا علي ولا لي ولا تتعرضوا لي بسوء فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلا حكم ، وقيل : المعنى وإن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن فتنحوا واقطعوا أسباب الوصلة عني ، ففي الكلام حذف الجواب وإقامة المسبب عنه مقامه والأول أوفق بالمقام ، والاعتزال عليه عبارة عن الترك وإن لم تكن مفارقة بالأبدان .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ بعد أن أصروا على تكذيبه عليه السلام ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ أي بأن هؤلاء الخ فهو بتقدير الباء صلة الدعاء كما يقال دعا بهذا الدعاء ، وفيه اختصار كأنه قيل : أن هؤلاء قوم مجرمون تناهى أمرهم في الكفر وأنت أعلم بهم فافعل بهم ما يستحقونه قيل كان دعاؤه عليه السلام اللهم عجل لهم ما يستحقون باجرامهم ، وقيل : قوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : 85-88] وإنما ذكر الله سبحانه السبب الذي استوجبوا به الهلاك ليعلم منه دعاؤه والإجابة معاً وأن دعاءه كان على يأس من إيمانهم وهذا من بليغ اختصارات الكتاب المعجز .

وقرأ ابن أبي إسحق .

وعيسى .

والحسن في رواية .

وزيد بن علي بكسر همزة أن وخرج على إضمار القول أي قائلاً أن هؤلاء الخ .

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ وهم بنو إسرائيل وم آمن به من القبط ﴿ لَيْلاً ﴾ بقطع من الليل ، والكلام باضمار القول أما بعد الفاء أي فقال أسر الخ فالفاء للتعقيب والترتيب والقول معطوف على ما قبله أو قبلها كأنه قيل قال : أو فقال أن كان الأمر كما تقول : فاسر الخ ، فالفاء واقعة في جواب شرط مقدر وهو وجوابه مقول القول المقدر مع الفاء أو بدونها على أنه استئناف والاضمار الأول لقلة التقدير مع أن تقدير أن لا يناسب إذ لا شك فيه تحقيقاً ولا تنزيلاً وجعلها بمعنى إذا تكلف على تكلف وأبو حيان لا يجيز حذف الشرط وإبقاؤ جوابه في مثل هذا الموضع وقد شنع على الزمخشري في تجويزه ، وقرأ نافه .

وابن كثير .

﴿ فَأَسْرِ ﴾ بوصل الهمزة من سرى .

﴿ إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم فالجملة مستأنفة لتعليل الأمر بالسرى ليلاً ليتأخر العلم به فلا يدركون والتأكيد لتقدم ما يلوح بالخبر .

﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ أي ساكناً كما قال ابن عباس يقال رها البحر يرهو رهواً سكن ويقال : جاءت الخيل رهواً أي ساكنة ، قال الشاعر :

والخيل تمزع رهواً في أعنتها . . .

كالطير ينجو من الشؤبوب ذي البرد

ويقال افعل ذلك رهواً أي ساكناً على هينة وأنشد غير واحد للقطامي في نعت الركاب :

يمشين رهواً فلا الإعجاز خاذلة . . .

ولا الصدور على الاعجاز تتكل

(157/696)

والظاهر أنه مصدر في الأصل يؤول باسم الفاعل ، وجوز أن يكون بمعنى الساكن حقيقة وعن مجاهد رهواً أي منفرجاً مفتوحاً قال أبو عبيدة رها الرجل يرهو رهواً فتح بين رجليه ، وعن بعض العرب أنه رأى جملاً فالجاً أي ذا سنامين فقال : سبحان الله تعالى رهو بين سنامين قالوا : أراد فرجة واسعة ، والظاهر أيضاً أنه مصدر مؤول أو فيه مضاف مقدر أي ذا فرجة قال قتادة : أراد موسى عليه السلام بعد أن جاوز البحر هو ومن معه أن يضربه بعصاه حتى يلتئم كما ضربه أولاً فانفلق لئلا يتبعه فرعون وجنوده فأمر بأن يتركه رهواً أي مفتوحاً منفرجاً أو ساكناً على هيئته قاراً على حاله من انتصاب الماء وكون الطريق يبساً ولا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئاً ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله تعالى عليهم ،

وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ فهو تعليل للأمر بتركه رهواً ، وقيل : رهواً سهلاً ، وقيل : يابساً ، وقيل : جدداً ، وقيل : غير ذلك والكل بيان لحاصل المعنى ، وزعم الراغب أن الصحيح أن الرهو السعة من الطريق ثم قال : ومنه الرهاء المفازة المستوية ويقال لكل جوبة مستوية يجتمع فيها الماء رهو ومنه قيل : لا شفعة في رهو .

والحق أن ما ذكره من جملة إطلاقاته وأما أنه الصحيح فلا وقرىء ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بالفتح أي لأنهم .

﴿ كَمْ تَرَكُواْ ﴾ أي كثيراً تركوا بمصر ﴿ مّن جنات وَعُيُونٍ ﴾ .

﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ حسن شريف في بابه ، وأريد بذلك كما روى عن قتادة المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

وابن مردويه عن جابر أنه أريد به المناب ، ر وروى ذلك عن مجاهد وابن جبير أيضاً ، وقيل : السرر في الحجال والأول أولى ، وقرأ ابن هرمز .

وقتادة .

وابن السميقن .

ونافع في رواية خارجة ﴿ مَّقَامِ ﴾ بضم الميم .

﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ أي تنعم ، قال الراغب : النعمة بالفتح التنعم وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة والنعمة بالكسر الحالة الحسنة وبناؤها بناء التي يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة وتقال للجنس الصادق بالقليل والكثير واختير ههنا تفسير النعمة بالشيء المنعم به لأنه أنسب للترك وهي كثيراً ما تكون بهذا المعنى .

وقرأ أبو رجاء ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ بالنصب وخرج بالعطف على ﴿ كَمْ ﴾ [الدخان : 25] ، وقيل : هي معطوفة على محل ما قبلها كأنه قيل : كم تركوا جنات وعيوناً وزروعاً ومقاماً كريماً ونعمة ﴿ كَانُواْ فِيهَا فاكهين ﴾ طيبي الأنفس وأصحاب فاكهة ففاكه كلابن وتامر ، وقال القشيري : لاهين ، وقرأ الحسن .

وأبو رجاء ﴿ فَكِهِينَ ﴾ بغير ألف والفكه يستعمل كثيراً في المستخف المستهزىء فالمعنى مستخفين بشكر النعمة التي كانوا فيها .

وقال الجوهري ؛ فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان مزاحاً والفكه أيضاً الأشر .

﴿ كذلك ﴾ قال الزجاج : المعنى الأمر كذلك ، والمراد التأكيد والتقرير فيوقف على ذلك فالكاف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أو الجار والمجرور كذلك ، وقيل : الكاف في موضع نصب أي نفعل فعلاً كذلك لمن نريد إهلاكه ، وقول الكلبي : أي كذلك أفعل بمن عصاني ظاهراً فيما ذكر ، وقال الزمخشري : الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج

أي المفهوم مما تقدم أخرجناهم منها ﴿ وأورثناها قَوْماً ءاخَرِينَ ﴾ عطف على ﴿ تركوا ﴾ [الدخان : 25] والجملة معترضة فيما عدا القول الأخير وعلى أخرجناهم فيه ، وقيل : الكاف منصوبة على معنى تركوا تركاً مثل ذلك فالعطف على ﴿ تَرَكُواْ ﴾ بدون اعتراض وهو كما ترى ، والمراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل وهم مغايرون للقبط جنساً ودينا .

ويفسر ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء (59) ﴿ كَذَلِكَ وأورثناها بَنِى إسرائيل ﴾ وهو ظاهر في أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وملكوها وبه قال الحسن .

(159/696)

وقيل : المراد بهم غير بني إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك القبط وإليه ذهب قتادة قال : لم يرد في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر ولا أنهم ملكوها قط وأول ما في سورة الشعراء بأنه من باب ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ [فاطر : 11] وقولك : عندي درهم ونصفه فليس المراد خصوص ما تركوه بل نوعه وما يشبهه ، والإيراث الإعطاء .

وقيل : المراد من إيراثها إياهم تمكينهم من التصرف فيها ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى

مصر كما كانوا فيها أولاً ، وأخذ جمع بقول الحسن وقالوا لا اعتبار بالتواريخ وكذا الكتب التي بيد اليهود اليوم لما أن الكذب فيها كثير وحسبنا كتاب الله تعالى وهو سبحانه أصدق القائلين وكتابه جل وعلا مأمون من تحريف المحرفين .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ مجاز عن عدم الاكتراب بهلاكهم والاعتداد بوجودهم ، وهو استعارة تمثيلية تخييلية شبه حال موتهم لشدته وعظمته بحال من تبكي عليه السماء والأجرام العظام وأثبت له ذلك والنفي تابع للإثبات في التجوز كما حقق في موضعه ، وقيل : هي استعارة مكنية تخييلية بأن شبه السماء والأرض بالإنسان وأسند إليهما البكاء أو تمثيلية بأن شبه حالهما في عدم تغير حالهما وبقائهما على ما كانا عليه بحال من لم يبك ، وليس بشيء كما لا يخفى على من راجع كلامهم ، وقد كثر في التعظيم لمهلك الشخص بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح ونحو ذلك ، قال يزيد بن مفرغ :

الريح يبكي شجوه . . .

والبرق يلمع في غمامه

وقال النابغة :

بكى حارث الجولان من فقد ربه . . .

وحوران منه خاشع متضائل

أراد بهما مكانين معروفين ، وقال جرير :

لما أتى بخبر الزبير تواضعت . . .

سور المدينة والجبال الخشع

وقال الفرزدق يرثي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز :

الشمس طالعة ليست بكاسفة . . .

تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

(160/696)

يتعجب من طلوع الشمس وكان من حقها أن لا تطلع أو تطلع كاسفة ، والنجوم تروى منصوبة ومرفوعة فالنصب على المغالبة أي تغلب الشمس النجوم في البكاء نحو باكيته فبكيته ، قال جار الله : كان رضي الله تعالى عنه يتهجد بالليل فتبكيه النجوم ويعدل بالنهار فتبكيه الشمس والشمس غالبة في البكار لأن العدل أفضل من صلاة الليل ، والجوهري جعلها منصوبة بكاسفة أي لا تكسف ضوء النجوم لكثرة بكائها وكأنه جعل خفاء النجوم تحت ضوء الشمس كسفاً لها مجازاً ، وفيه أن الكسف بالمعنى المذكور غير واضح وتخلل تبكي غير مستفصح وفي "حواشي الصحاح" الشمس كاسفة ليست بطالعة .

وفيها أن نجوم الليل ظرف أي طول الدهر كأنه من باب آتيك الشمس والقمر أي وقتهما كأنه قيل : تبكي ما يطلع النجوم والقمر ، وفيه أن مثل هذا الظرف مسموع لا يثبت إلا بثبت فكيف يعدل إليه مع المعنى الواضح ، وقيل : التقدير تبكي بكاء النجوم فحذف المضاف .

وفيه أنه مما لا يكاد يفهم ، والرفع واضح والقمر منصوب على أنه مفعول معه وهذا استطراد دعانا إليه شهرة البيت مع كثرة الخبط فيه .

وأخرج الترمذي .

وجماعة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يصعد مه علمه وباب ينزل منه رزقه فالمؤمن إذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ " وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملاً صالحاً فتفقدهم فتبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم .

وأخرج البيهقي في "شعب الايمان" والحاكم وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال ؛ "إن الأرض لتبكي على المؤمن أربعين صباحاً ثم قرأ الآية" وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم تلا ﴿ فَمَا بَكَتْ ﴾ الخ وجعلوا كل ذلك من باب التمثيل .

ومن أثبت كالصوفية للأجرام السماوية والأرضية وسائر الجمادات شعوراً لائقاً بحالها لم يحتج إلى اعتبار التمثيل وأثبت بكاء حقيقياً لها حسبما تقتضيه ذاتها ويليق بها أو أوله بالحزن أو نحوه وأثبته لها حسب ذلك أيضاً .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر عن عطاء بكاء السماء حمرة أطرافها .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن نحوه ، وأخرج عن سفيان الثوري قال : كان يقال هذه الحمرة التي تكون في السماء بكاء السماء على المؤمن ؛ ولعمري ينبغي لمن لم يضحك من ذلك أن يبكي على عقله ، وأنا لا أعتقد أن من ذكر من الأجلة كانوا يعتقدونه ، وقيل : إن الآية على تقدير مضاف أي فما بكت عليهم سكان السماء وهم الملائكة وسكان الأرض وهم المؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين .

وروى هذا عن الحسن والأحسن ما تقدم ﴿ وَمَا كَانُواْ ﴾ لما جاء وقت هلاكهم ﴿

مُّنظَرِينَ ﴾ ممهلين إلى وقت آخر أو إلى يوم القيامة بل عجل لهم في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعاني حـ 25 صـ ﴾

(162/696)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) ﴾

جعل الله قصة قوم فرعون مع موسى عليه السلام وبني إسرائيل مثلاً لحال المشركين مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به ، وجعل ما حلّ بهم إنذاراً بما سيحلّ بالمشركين من القحط والبطشة مع تقريب حصول ذلك وإمكانه ويُسره وإن كانوا في حالة قوة فإن الله قادر عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً ﴾ [الزخرف : 8] فذكرها هنا تأييد للنبيء ووَعدٌ له بالنصر وحسنِ العاقبة ، وتهديدٌ للمشركين .

وهذا المثل وإن كان تشبيهاً لمجْمُوعِ الحالة بالحالة فهو قابل للتوزيع بأن يشبَّه أبو جهل بفرعون ، ويشبه أتباعه بملإِ فرعون وقومِه أو يشبه محمد صلى الله عليه وسلم بموسى عليه السلام ، ويشبه المسلمون ببني إسرائيل .

وقبولُ المثل لتوزيع التشبيه من محاسنه .

وموقع جملة ﴿ ولقد فتنا ﴾ يجوز أن يكون موقع الحال فتكون الواوُ للحال وهي حال من ضمير ﴿ إنا منتقمون ﴾ [الدخان : 16] .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ إنا منتقمون ﴾ [الدخان : 16] ، أي منتقمون منهم في المستقبل وانتقمنا من قومِ فرعون فيما مضى .

وأشعر قولَه قبلَهم ﴾ أن أهل مكة سيُفتنون كما فُتِن قوم فرعون ، فكان هذا الظرف مؤذناً بجملة محذوفة على طريقة الإيجاز ، والتقدير : إنا منتقمون ففاتنوهم فقد فتنا قبلهم قوم فرعون ، ومؤذناً بأن المذكور كالدليل على توقع ذلك وإمكانه وهو إيجاز آخر .

والمقصود تشبيه الحالة بالحالة ولكن عدل عن صَوغ الكلام بصيغة التشبيه والتمثيل إلى صوغه بصيغة الإخبار اهتماماً بالقصة وإظهاراً بأنها في ذاتها مما يهم العلمُ به ، وأنها تذكير مستقل وأنها غير تابعة غيرها .

(163/696)

ولأن جملة ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ عطفت على جملة ﴿ فتنا ﴾ أي ولقد جاءهم رسول كريم ، عطفَ مفصل على مجمل ، وإنما جاء معطوفاً إذ المذكور فيه أكثرُ من معنى الفتنة ، فلا تكون جملة ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ بياناً لجملة ﴿ فتنا ﴾ بل هي تفصيل

لقصة بعثة موسى عليه السلام .

والفَتن : الإيقاع في اختلال الأحوال ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ والفتنة أشدّ من القتل ﴾ في سورة البقرة (191) .

والرسول الكريم : موسى ، والكريم : النفيس الفائق في صنفه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إِنِيَ أُلْقِيَ إِلَيّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ في سورة النمل (29) ، أي رسول من خِيرة الرسل أو من خِيرة الناس .

وأن أدوا إلي عباد الله ﴾ تفسير لما تضمنه وصف ﴿ رَسول ﴾ وفعل ﴿ جاءهم ﴾ من معنى الرسالة والتبليغ ففيهما معنى القول .

ومعنى ﴿ أدوا إلي ﴾ أرْجعوا إلي وأعطوا قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ من إن تأمَنْه بدينار لا يُؤدِه إليك ﴾ [آل عمران : 75] ، يقال : أدَّى الشيء أوصله وأبلغه .

وهمزة الفعل أصلية وهو مضاعف العين ولم يسمع منه فِعل سالم غير مضاعف ، جَعل بني إسرائيل كالأمانة عند فرعون على طريقة الاستعارة المكنية .

وخطاب الجمع لقوم فرعون .

والمرادُ : فرعون ومن حضر من ملئه لعلهم يشيرون على فرعون بالحق ، ولعله إنما خاطب مجموع الملإ لمّا رأى من فرعون صلفاً وتكبراً من الامتثال ، فخطاب أهل مشورته لعل فيهم من يتبصر الحق .

و﴿ عباد الله ﴾ يجوز أن يكون مفعول ﴿ أدوا ﴾ مراداً به بنو إسرائيل ، أجري وصفهم ﴿ عباد الله ﴾ تذكيراً لفرعون بموجب رفع الاستعباد عنهم ، وجاء في سورة الشعراء (17) ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ فحصل أنّه وصفهم بالوصفين ، فوصف ﴿ عباد الله ﴾ مبطل لحسبان القبط إياهم عَبيداً كما قال : ﴿ وقومُهُما لنا عابدون ﴾ [المؤمنون : 47] وإنما هم عباد الله ، أي أحرار فعباد الله كناية عن الحرية كقول بشار يخاطب نفسه :

أصبحتَ مولى ذي الجلال وبعضُهم

(164/696)

مولَى العَبيد فلُذْ بفضلك وافخَر . . .

ويجوز أن يكون مفعول فعل ﴿ أدوا ﴾ محذوفاً يدل عليه المقام ، أي أدّوا إليَّ الطاعةَ ويكون ﴿ عباد الله ﴾ منادى بحذف حرف النداء .

قال ابن عطية : الظاهر من شرع موسى أنه بعث إلى دعاء فرعون للإيمان وأن يرسل بني إسرائيل ، فلما أبى فرعون أن يؤمن ثبتت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل ، قال : ويدل عليه قوله بعد ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ .

وقوله : ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ علة للأمر بتسليم بني إسرائيل إليه ، أي لأني مرسل إليكم بهذا ، وأنا أمين ، أي مؤتمن على أني رسول لكم .

وتقديم ﴿ لكم ﴾ على ﴿ رسول ﴾ للاهتمام بتعلق الإرسال بأنه لهم ابتداءً بأن يعطوه بني إسرائيل لأن ذلك وسيلة للمقصود من إرساله لتحرير أمة إسرائيل والتشريعِ لها ، وليس قوله : ﴿ لكم ﴾ خطاباً لبني إسرائيل فإن موسى قد أبلغ إلى بني إسرائيل رسالتَه مع التبليغ إلى فرعون قال تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه على خوفٍ من فرعون وملائهم أن يفتنهم ﴾ [يونس : 83] ، وليكون امتناع فرعون من تسريح بني إسرائيل مبرراً لانسلاخ بني إسرائيل عن طاعة فرعون وفرارهم من بلاده .

وعطف على طلب تسليم بني إسرائيل نهياً عن الاستكبار عن إجابة أمر الله أَنَفَة من الحطّ من عظمته في أنظار قومهم فقال : ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تَعْلُوا على أمره أو على رسوله فلما كان الاعتلاء على أمر الله وأمر رسوله ترفيعاً لأنفسهم على واجب امتثال ربهم جعلوا في ذلك كأنهم يتعالون على الله .

و﴿ أن لا تعلوا ﴾ عطف على ﴿ أن أدوا إلي ﴾ .

وأعيد حرف ﴿ أنْ ﴾ التفسيرية لزيادة تأكيد التفسير لمدلول الرسالة .

و﴿ لا ﴾ ناهية ، وفعل ﴿ تعلوا ﴾ مجزوم بـ ﴿ لا ﴾ الناهية .

وجملة ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ علة جديرة بالعود إلى الجمل الثلاث المتقدمة وهي ﴿ أدوا إلي عباد الله ﴾ ، ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ ، ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ لأن المعجزة تدل على تحقق مضامين تلك الجمل مَعلولِها وعلتها .

والسلطان من أسماء الحجة قال تعالى : ﴿ إن عندكم من سلطانٍ بهذا ﴾ [يونس : 68] فالحجة تلجىء المحوج على الإقرار لمن يحاجّه فهي كالمتسلط على نفسه .

والمعجزة : حجة عظيمة ولذلك وصف السلطان بـ ﴿ مبين ﴾ ، أي وَاضح الدلالة لا ريب فيه .

وهذه المعجزة هي انقلاب عصاه ثعباناً مبيناً .

و﴿ آتيكم ﴾ مضارع أو اسم فاعل (أتى) .

وعلى الاحتمالين فهو مقتض للإتيان بالحجّة في الحال .

وجملة ﴿ وإني عذت بربي ﴾ عطف على جملة ﴿ أدوا إلي عباد الله ﴾ ، فإن مضمون هذه الجملة مما شمله كلامه حين تبليغ رسالته فكان داخلاً في مجمل معنى ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ المفسرُ بما بعد ﴿ أنْ ﴾ التفسيرية .

ومعناه : تحذيرهم من أن يرجموه لأن معنى ﴿ عذت بربي ﴾ جعلتُ ربي عوذاً ، أي مَلْجَأً .

والكلام على الاستعارة بتشبيه التذكير بخوف الله الذي يمنعهم من الاعتداء عليه بالالتجاء إلى حصن أو معقل بجامع السلامة من الاعتداء .

ومثل هذا التركيب ممّا جرى مجرى المثل ، ومنه قوله في سورة مريم (18) ﴿ قالت إنّي أعوذ بالرحمان منك إن كنتَ تقياً ﴾ وقال أحَدُ رُجّاز العرب :

قالت وفيها حَيْدة وذُعْر

عَوْذ بربي منكمُ وحِجْر . . .

والتعبير عن الله تعالى بوصف ﴿ ربي وربكم ﴾ لأنه أدخل في ارعوائهم من رجمه حين يتذكرون أنه استعصم بالله الذي يشتركون في مربوبيته وأنهم لا يخرجون عن قدرته .

والرجم : الرمي بالحجارة تباعاً حتى يموت المرمِي أو يثخنه الجراح .

والقصد منه تحقير المقتول لأنهم كانوا يرمون بالحجارة من يطردونه ، قال : ﴿ فاخرُج منها فإنك رجيمٌ ﴾ [الحجر : 34] .

وإنّما استعاذ موسى منه لأنه علم أن عادتهم عقاب من يخالف دينهم بالقتل رمياً بالحجارة .

وجاء في سورة القصص (33) ﴿ فأخاف أن يقْتلون ﴾ ومعنى ذلك إن لم تؤمنوا بما جئت به فلا تقتلوني ، كما دل عليه تعقيبه بقوله : ﴿ وإن لم تؤمنوا لي ﴾ .

والمعنى : إن لم تؤمنوا بالمعجزة التي آتيكم بها فلا ترجموني فإني أعوذ بالله من أن ترجموني ولكن اعتزلوني فكونوا غير موالين لي وأكون مع قرمي بني إسرائيل ، فالتقدير : فاعتزلوني وأعتزلكم لأن الاعتزال لا يتحقق إلا من جانبين .

وجيء في شرط ﴿ إن لم تؤمنوا لي ﴾ بحرف ﴿ إنْ ﴾ التي شأنها أن تستعمل في الشرط غير المتيقّن لأن عدم الإيمان به بعد دلالة المعجزة على صدقه من شأنه أن يكون غير واقع فيفرضَ عدمُه كما يُفرض المحال .

ولعله قال ذلك قبل أن يعلمه الله بإخراج بني إسرائيل من مصر ، أو أراد : فاعتزلوني زمناً ، يعني إلى أن يعيّن له الله زمن الخروج .

وعدّي ﴿ تؤمنوا ﴾ باللام لأنه يقال : آمَن به وآمن لَه ، قال تعالى : ﴿ فآمن له لوطٌ ﴾ [العنكبوت : 26] ، وأصل هذه اللام لام العلة على تضمين فعل الإيمان معنى الركون .

وقد جاء ترتيب فواصل هذا الخطاب على مراعاة ما يبدو من فرعون وقومه عند إلقاء موسى دعوته عليهم إذْ ابتدأ بإبلاغ ما أرسل به إليهم فآنس منهم التعجب والتردد فقال : ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ ، فرأى منهم الصلف والأنفة فقال : ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ فلم يرعُووا فقال : ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ ، فلاحت عليهم علامات إضمار

السوء له فقال : ﴿ وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ ، فكان هذا الترتيب بين الجُملِ مغنياً عن ذكر ما أجابوا به على أبدع إيجاز .

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22)

(167/696)

التعقيب المفاد بالفاء تعقيب على محذوف يقتضي هذا الدعاءَ إذ ليس في المذكور قبل الفاء ما يناسبه التعقيبُ بهذا الدعاء إذ المذكور قبله كلام من موسى إليهم ، فالتقدير : فَلَمْ يستجيبوا له فيما أمرهم ، أو فأصرّوا على أذاه وعدم متاركته فدعا ربه ، وهذا التقرير الثاني أليق بقوله : ﴿ أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ .

وهذا كالتعقيب الذي في قوله تعالى : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] ، وقوله : ﴿ أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ اتفق القراء العشرة على قراءته بفتح الهمزة وشد النون فما بعدها في قوة المصدر ، فلذلك تقدر الباء التي يتعدّى بها فعل (دَعا) ، أي دعا ربه بما يجمعه هذا التركيبُ المستعمل في التعريض بأنهم استوجبوا تسليط العقاب الذي يَدعو به الداعي ، فالإخبار عن كونهم قوماً مجرمين مستعمل في طلب المجازاة على الإجرام أو في الشكاية من اعتدائهم ، أو في التخوف من

شرهم إذا استمرّوا على عدم تسريح بني إسرائيل ، وكل ذلك يقتضي الدعاء لكف شرّهم ، فلذلك أطلق على هذا الخبر فعل ﴿ دعا ﴾ .

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23)

تفريع على جملة ﴿ أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ [الدخان : 22] ، والمفرَّع قول محذوف دلت عليه صيغة الكلام ، أي فدعا فقلنا : اسْرِ بعبادي .

وقرأه نافع وابن كثير وأبو جعفر ﴿ فاسْرِ ﴾ بهمزة وصل على أنه أمر من (سرى) ، وقرأه الباقون بهمزة قطع من (أسرى) يقال : سرَى وأَسْرى .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ [الإسراء : 1] فتقييده بزمان الليل هنا نظير تقييده في سورة الإسراء ، والمقصود منه تأكيد معنى الإسراء بأنه حقيقة وليس مستعملاً مجازاً في التبكير بناءً على أن المتعارف في الرحيل أن يكون فجْراً .

وفائدة التأكيد أن يكون له من سعة الوقت ما يَبلغون به إلى شاطىء البحر الأحمر قبل أن يدركهم فرعون بجنوده .

(168/696)

وجملة ﴿ إنكم متبعون ﴾ تقيد تعليلاً للأمر بالإسراء ليلاً لأنه مما يستغرب ، أي أنكم متَّبعون فأردنا أن تقطعوا مسافة يتعذّر على فرعون لحاقكم .

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) لتنزيل غير السائل منزلة السائل إذا قُدّم إليْه ما يلوّح له بالخبر فيستشرفُ له استشرافَ المتردد السائل ، على حد قوله تعالى : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ [هود : 37] .

وأسند الإتباع إلى غير مذكور لأنه من المعلوم أن الذي سيتبعهم هو فرعون وجنوده .

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24)

عطف على جملة ﴿ فأسرِ بعبادي ليلاً ﴾ [الدخان : 23] فيجوز أن تكون الجملتان صَدَرَتا متصلتين بأنْ أعلَم الله موسى حين أمره بالإسراء بأنه يضرب البحر بعصاه فينفلق عن قعره اليابس حتى يمر منه بنو إسرائيل كما ورد في آيات أخرى مثل آية سورة الشعراء .

ولما أمره بذلك طمَّنه بأن لا يخشَى بقاءه منفلقاً فيتوقع أن يلحق به فرعون بل يجتاز البحرَ ويتركه فإنه سَيَطغَى على فرعون وجنده فيغرقون ، ففي الكلام إيجاز تقديره : فإذا سريتَ بعبادي فسنفتح لكم البحر فتسلكونه فإذا سلكتَه فلا تخشَ أن يلحقكم فرعون وجندُه واتركه فإنهم مغرقون فيه .

ويجوز أن تكون الجملة الثانية صدرت وقت دخول موسى ومن معه في طرائق البحر فيقدّر قول محذوف ، أي وقُلنا له : اترك البحر رَهْواً ، أي سيدخله فرعون وجنده ولا يخرجون

منه لأن في بَقائِهِ مفروقاً حكمةً أخرى وهي دخول فرعون وجنده في طرائقه طمَعاً منهم أن يلحقوا موسى وقومَه ، حتى إذا توسطوه انضمّ عليهم ، فتحصل فائِدة إنْجَاء بني إسرائيل وفائدةُ إهلاك عدوّهم ، فتكون الواو عاطفة قولاً محذوفاً على القول المحذوف قبله .

وعلى الوجهين فالترك مستعمل مجازاً في عدم المبالاة بالشيء كما يقال : دَعْه يفعل كذا ، وذَرْه ، كقوله تعالى : ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ [الأنعام : 91] ، وقالت كبشة بنت معد يكرب :

(169/696)

ودَعْ عنك عَمْرا إن عَمرا مُسالم

وهل بَطْن عمرو غيرُ شِبْر المَطْعَم . . .

والبحر هو بحر القلزم المسمى اليوم البحر الأحمر .

والرهْوُ : الفجوة الواسعة .

وأصله مصدر رها ، إذا فتح بين رجليه ، فسميت الفجوة رهواً تسمية بالمصدر ،

وانتصب ﴿ رَهْواً ﴾ على الحال من البحر على التشبيه البليغ ، أي مثل رَهْو .

وجملة ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ استئناف بياني جواباً عن سؤال ناشىء عن الأمر بترك

البحر مفتوحاً ، وضمير ﴿ إنهم ﴾ عائد إلى اسم الإشارة في قوله : ﴿ أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ [الدخان : 22] والجند : القوم والأمة وعسكر المَلك .

وإقحام لفظ ﴿ جند ﴾ دون الاقتصار على ﴿ مغرقون ﴾ لإفادة أن إغراقهم قد لزمهم حتى صار كأنه من مقومات عنديتهم كما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25)

استئناف ابتدائي مسوق للعبرة بعواقب الظالمين المغرورين بما هم فيه من النعمة والقوة ، غروراً أنساهم مراقبة الله فيما يرضيه ، فموقع هذا الاستئناف موقع النتيجة من الدليل أو البيان من الإجمال لما في قوله : ﴿ ولقد فتنَّا قبلهم قوم فرعون ﴾ [الدخان : 17] من التنظير الإجمالي .

وضمير ﴿ تركوا ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ [الدخان : 24] .

والترك حقيقته : إلقاء شيء في مَكانٍ منتقلَ عنه إبقاء اختيارياً ، ويطلق مجازاً على مفارقة المكان والشيءِ الذي في مكانٍ غلبة دون اختيار وهو مجاز مشهور يقال : ترك الميت مالاً ، ومنه سمي مخلف الميت تركة وهو هنا من هذا القبيل .

وفعل ﴿ تركوا ﴾ مؤذن بأنهم أغرقوا وأعدموا ، وذلك مقتضى أن ما أمر الله به موسى

من الإسراء ببني إسرائيل وما معه من اتباع فرعون إياهم وانفلاق البحر وإزلاف بني إسرائيل واقتحام فرعون بجنوده البحر ، وانضمام البحر عليهم قد تم ، ففي الكلام إيجازُ حذفِ جمل كثيرة يدل عليها ﴿ كم تركوا ﴾ .

(170/696)

و ﴿ كم ﴾ اسم لعدد كثير مُبهم يفسّر نوعَه مميزٌ بعد ﴿ كم ﴾ مجرورٌ بـ ﴿ من ﴾ مذكورةٍ أو محذوفة .

وحكم ﴿ كم ﴾ كالأسماء تكون على حسب العوامل .

وإذ كان لها صدر الكلام لأنها في الأصل استفهام فلا تكون خبرَ مبتدأ ولا خبرَ (كان) ولا (إنّ) وإذا كانت معمولة للأفعال وجب تقديمها على عاملها .

وانتصب ﴿ كم ﴾ هنا على المفعول به ل ﴿ تركوا ﴾ أي تركوا كثيراً من جنات .

و ﴿ مِن ﴾ مميزة لمبهم العدد في ﴿ كم ﴾ .

والمَقام بفتح الميم : مكان القيام ، والقيام هنا مجاز في معنى التمكن من المكان .

والكريم من كل نوع أنفسه وخيره ، والمراد به : المساكن والديار والأسواق ونحوها مما كان لهم في مدينة (منفسين) .

والنَّعمة بفتح النون : اسم للتنعم مصُوغ على وزنة المرة .

وليس المراد به المرة بل مطلق المصدر باعتبار أن مجموع أحوال النعيم صار كالشي الواحد وهو أبلغ وأجمع في تصوير معنى المصدر ، وهذا هو المناسب لِفِعْلِ ﴿ تركوا ﴾ لأن المتروك هو أشخاص الأمور التي ينعم بها وليس المتروك وهو المعنى المصدري .

و ﴿ فاكهين ﴾ متصفين بالفُكاهة بضم الفاء وهي اللعب والمزح ، أي كانوا مغمورين في النعمة لاعبين في تلك النعمة .

وقرأ الجمهور ﴿ فاكهين ﴾ بصيغة اسم الفاعل .

وقرأه حفص وأبو جعفر ﴿ فَكِهين ﴾ بدون ألف على أنه صفة مشبهة .

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ راجع لفعل ﴿ تركوا ﴾ .

والتقدير : تركاً مثل ذلك الترك .

والإشارة إلى مقدر دل عليه الكلام ومعنى الكاف ، وهذا التركيب تقدم الكلام عليه عند قوله : ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبراً ﴾ في سورة الكهف (91) .

كَذَلِكَ وأورثناها قَوْماً ﴾ .

(171/696)

عطف على ﴿ تركوا ﴾ أي تركوها وأورثناها غيرهم ، أي لفرعون الذي وُلي بعد موت منفطا وسمي صطفا منفطا وهو أحد أُمراء فرعون منفطا تزوج ابنة منفطا المسماةَ طُوسِير التي خلفت أباها منفطا على عرش مصر ، ولكونه من غير نسل فرعون وُصف هو وَجُندُه بقوم آخرين ، وليس المراد بقوله : ﴿ قوماً آخرين ﴾ قوماً من بني إسرائيل ، ألا ترى أنه أعيد الاسم الظاهر في قوله عقبه

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل ﴾ [الدخان : 30] ، ولم يقل ولقد نجيناهم .

ووقع في آية الشعراء ﴿ فأخرجناهم من جناتٍ وعيونٍ وكنوزٍ ومقامٍ كريمٍ كذلك وَأورثناها بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : 57 59] والمراد هنالك أن أنواعاً مما أخرجنا منه قومَ فرعون أورثناها بني إسرائيل ، ولم يُقصد أنواعُ تلك الأشياء في خصوص أرض فرعون .

ومناسبة ذلك هنالك أن القومَين أخرجا مما كانا فيه ، فسُلب أحد الفريقين ما كان له دون إعادة لأنهم هلكوا ، وأعطي الفريق الآخَر أمثال ذلك في أرض فلسطين ، ففي قوله : ﴿ وأورثناها ﴾ تشبيه بليغ وانظر آية سورة الشعراء .

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)

تفريع على قوله : ﴿ كم تركوا من جنات ﴾ إلى قوله : ﴿ قوماً آخرين ﴾ [الدخان : 25 28] ، فإن ذلك كله يتضمن أنهم هلكوا وانقرضوا ، أي فما كان مُهلَكُهم إلا كمُهلَك

غيرهم ولم يكن حدثاً عظيماً كما كانوا يحسبون ويحسب قومُهم ، وكان من كلام العرب إذا هلك عظيم أن يهوِّلوا أمر موته بنحو : بَكت عليه السماء ، وبكته الريح ، وتزلزلتْ الجبال ، قال النابغة في توقع موت النعمان بن المنذر من مرضه :

فإن يهلك أبو قابوس يهلِك

ربيعُ الناس والبلدُ الحرام . . .

وقال في رثاء النعمان بن الحارث الغساني :

بكَى حارثُ الجَولان من فقد ربه

وحَوْران منه موحَش مُتضائل . . .

(172/696)

والكلام مسوق مساق التحقير لهم ، وقريب منه قوله تعالى : ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ [إبراهيم : 46] ، وهو طريقة مسلوكة وكثر ذلك في كلام الشعراء المحدثين ، قال أبو بكر بن اللَّبَّانَةِ الأندلسي في رثاء المعتمد بن عباد ملك إشبيلية :

تبكي السماء بمزن رائحٍ غَاد

على البهاليل من أبناء عَباد . . .

والمعنى : فما كان هلاكهم إلا كهلاك غيرهم ولا أنظروا بتأخير هلاكهم بل عجّل لهم الاستئصال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(173/696)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة الدخان

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من ذكرها نال في الدنيا والعقبى بهجته ، ومن عرفها بدل في طلبها مهجته .

كلمة إذا استولت على قلب عطلته عن كل شغل ، كلمة إذا واظب على ذكرها عبد أمنته من كل هول .

قوله جل ذكره : (حم والكتاب المبين)

الحاء تشير إلى حقّه ؛ والميم تشير إلى محبته . ومعناه : بحقي وبمحبتي لِعبادي ، وبكتابي العزيز إليهم : إنّي لا أُعذِّبُ أهل معرفتي بفرقتي .

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

﴿ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ : قيل هي ليلة القَدْر ، وقيل هي النصف من شعبان وهي ليلة الصَّك . أُنْزِلَ القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كلَّ سَنَةٍ بمقدار ما كان جبريل ينزل به على الرسول صلى الله عليه وسلم .

وسمَّاها : ﴿ لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ لأنها ليلة افتتاح الوصلة . وأشدُّ الليالي بركةً ليلةٌ يكون العبدُ فيها حاضراً ، بقلبه ، مشاهداً لربِّه ، يتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة ، ويجد فيها نسيم القربة .

وأحوال هذه الطائفة في لياليهم مختلفة ، كما قالوا :

لا أظْلِمُ الليلَ ولا أدَّعي . . . أنَّ نجومَ الليل ليست تزولُ

لَيْلي كما شاءت : قصيرٌ إذا . . . جادَتْ ، وإن ضنَّتْ فَلَيْلي طويلُ

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ يكتب من أمِّ الكتاب في هذه الليلة ما يحل في السنة كلّها من أقسام الحوادث في الخير والشرّ ، في المحن والمِنَن ، في النصر والهزيمة ، في الخصب والقحط .

ولهؤلاء القوم (يعني الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجدب ، والوصل والفصل ، والوفاق والخلاف ، والتوفيق والخذلان ، والقبض والبسط . فكم مِنْ عبدٍ ينزل له الحكم والقضاء بالبُعْدِ والشقاء ، وآخر ينزل حكمه بالرِّفد والوفاء .

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5)

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ : وهي الرسولُ – صلى الله عليه وسلم ، قال صلوات الله عليه : " أنا رحمة مهداة " .

ويقال : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ رحمةً لنفوسُ أوليائنا بالتوفيق ، ولقلوبهم بالتحقيق .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ : " السميع " لأنين المشتاقين ، " العليم " بحنين المحبين .

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7)

مالك السموات والأرضين ، ومالك ما بينهما – وتداخل في ذلك اكسابُ العباد .

وتَمْلُّكُها بمعنى القدرة عليها ، وإذا حَصَلَ مقدورٌ في الوجود دَلَّ على أنه مفعولُه ؛ لأن معنى الفعل مقدورٌ وجدَ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

هذه الكلمة فيها نَفْيُ ما أثبتوه بجهلهم ، وإثباتُ ما نَفَوْه بجحدهم .

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : مُرَبِّي أصْلَكُم ونَسْلَكُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ .

اللَّعِبُ فِعْلٌ يجري على غير ترتيب تشبيهاً باللُّعاب الذي يسيل لا على نظام مخصوص ؛ فَوَصَفَ المنافقَ باللَّعبِ ؛ وذلك لتردُّدِه وتحيُّرِه نتيجةَ شكِّه في عقيدته .

قوله جل ذكره : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

هذا من اشراط الساعة ؛ إذ يتقدم عليها .

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجَّلة (أي تتم هنا في هذه الدنيا) فيومُهم الذي تأتي السماء فيه بدخان مبين هو يومُ غيبةِ الأحباب ، وانسداد ما كان مفتوحاً من الأبواب ، أبوابِ الأُنسِ بالأحباب في معناه قالوا :

فما جانبُ الدنيا بسَهْلٍ ولا الضُّحى . . . بطَلْقٍ ولا ماءُ الحياةِ ببارِدِ

قوله جل ذكره : ﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

(175/696)

وعذابُ هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيمٌ في الغالب ، وهو عذابٌ مُسْتَعذَبٌ ، أولئك يقولون :

﴿ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ .

وهؤلاء يستزيدون – على العكس من الخَلْق – العذاب ، وفي ذلك يقول قائلهم :

فكلُّ ما آربي قد نِلْتُ منها . . . سوى ملذوذِ وجدي بالعذاب

فهم يسألون البلاَءَ والخَلْقُ يستكشفونه ، ويقولون :

أنت البلاءُ فكيف أرجو كَشْفَه . . . إنَّ البلاءَ إذا فَقَدْتُ بلائي

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13)

إن خالفوا دواعي قلوبهم من الخواطر التي تَرِدُ من الحقّ عليهم عوقبوا – في الوقت بما لا يتَّسعُ لهم ويُسْعِفهم ، فإذا أخذوا في الاستغاثة يقال لهم : أَنَّى لكم الذكرى وقد جاءكم الرسول على قلوبكم فخالفتم ؟ !

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ .

حيث نورثكم حزناً طويلاً ، ولا تجدون في ظلال انتقامنا مقيلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ .

فتَنَهم بعد ما أصَرُّوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشد من نفرة عنودهم .

﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ : يطالبهم بإزالة الظلم عن بني إسرائيل ، وأن يستبصروا ، واستنفرهم لله ، وأظهر الحُجَّةَ من قِبَلِ الله .

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ .

أمَرَه بأن يَسْرِيَ بعباده المؤمنين ، وعرَّفهم أنهم سيُنْقَذون ، وأنَّ عدوَّهم ﴿ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ .

ما خلفوه من أحوالهم ومن رياشهم ، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم .

(176/696)

﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾ .

وأسْكَنَّا قوما آخرين في منازلهم ودورهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ .

لم يكن لهم من القَدْرِ والخَطَرِ ما يتحرك في العالَم بسببهم ساكنٌ ، أو يسكن متحركٌ فلا الخضراء بسببهم اغبرَّتْ ، ولا الغبراءُ لغيبتهم اخضَّرتْ . لم يبقَ منهم عينٌ ولا أثر ، ولم يظهر مِنْ قِبَلِهم على قلبِ أحدٍ من عبادِنا أثرٌ . وكيف تبكي السماءُ لفقْدِ من لم تستبشر به من قَبْلُ ؟ بعكس المؤمن الذي تُسَرُّ السماءُ بصعودِ عمله إليها ، فإنها تبكي عند غيابه وفَقْدِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 379.384 ﴾

(177/696)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والتسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والتسعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 30 ﴾ من سورة الدخان

وحتى الآية ﴿ 59 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/697)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إنقاذ بني إسرائيل من القبط أمراً باهراً لا يكاد يصدق فضلاً عن أن يكون بإهلاك أعدائهم ، أكد سبحانه الإخبار بذلك إشارة إلى ما يحق له من العظمة تنبيهاً على أنه قادر

أن يفعل بهذا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه كذلك وإن كانت قريش يرون ذلك محالاً وأنهم في قبضتهم فقال : ﴿ ولقد نجينا ﴾ أي بما لنا من العظمة " تنجية عظيمة " مع كونها بسبب الآيات المتفرقات كانت على التدريج ﴿ بني إسرائيل ﴾ عبدنا المخلص لنا ﴿ من العذاب المهين ﴾ بسبب أنهم كانوا عندهم في عداد العبيد يتسخدمون الرجال والنساء بل أذل للزيادة على التصرف العبيد بالتذبيح للأبناء .

ولما تشوف السامع إلى صاحب ذلك العذاب قال مبدلاً مما قبله إفهاماً لأن فرعون نفسه كان عذاباً لإفراطه في أذاهم : ﴿ من فرعون ﴾ ثم علل ذلك بما يعرف منه صحة الوصف للعذاب فقال مؤكداً لأن حال قريش في استذلال المؤمنين حل من يكذب بأن الله أنجى بني إسرائيل على ضعفهم فهو ينجي غيرهم من الضعفاء أو يكذب أن فرعون كان قوياً ﴿ إنه كان عالياً ﴾ في جبلته العراقة في العلو ﴿ من المسرفين ﴾ أي العريقين في مجاوزة الحدود .

(5/697)

ولما كانت قريش تفتخر بظواهر الأمور من الزينة والغرور ويعدونه تعظيماً من الله ويعدون ضعف الحال في الدنيا شقاء وبعداً من الله ، رد عليهم قولهم بما أتى بني إسرائيل على ما كانوا فيه من الضعف وسوء الحال بعد إهلاك آل فرعون بعذاب الاستئصال ، فقال مؤكداً

لاستبعاد قريش أن يختار من قل حظه من الدنيا : ﴿ ولقد ﴾ اخترناهم ﴾ أي فعلنا بما لنا من العظمة في جعلنا لهم خياراً فعل من اجتهد في ذلك ، وعظم أمرهم بقوله بانياً على ما تقديره : اختياراً مستعلياً ﴿ على علم ﴾ أي منا بما يكون منهم من خير وشر ، وقد ظهر من آثاره أنكم صرتم تسألونهم وأنتم صريح ولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام عما ينوبكم وتجعلونهم قدوتكم فيما يصيبكم وتضربون إليه أكباد الإبل ، وهكذا يصير عن قليل كل من اتبع رسولكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم ومن غيركم .

ولما بين المفضل ، بين المفضل عليه فقال : ﴿ على العالمين ﴾ أي الموجودين في زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتاب وأرسلنا إليهم من الرسل .

ولما أعلم باختيارهم ، بين آثار الاختيار فقال : ﴿ وآتيناهم ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ من الآيات ﴾ أي العلامات الدالة على عظمتنا واختيارنا لهم من حين أتى موسى عبدنا عليه الصلاة والسلام فرعون إلى أن فارقهم بالوفاة وبعد وفاته على أيدي الأنبياء المقررين لشرعه عليهم الصلاة والسلام ﴿ ما فيه بلاؤا ﴾ أي اختبار مثله يميل من ينظره أو يسمعه أو يحيله إلى غير ما كان عليه ، وذلك بفرق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك مما رأوه من الآيات التسع ، وفي هذا ما هو رادع للعرب عن بعض أقوالهم من خوف التخطف من العرب والفقر لقطع الجلب عنهم وغير ذلك ﴿ مبين ﴾ أي

بين لنفسه موضح لغيره ، وما أنسب هذا الختم لقوله أول قصتهم " ولد فتنا قبلهم قوم فرعون " .

(6/697)

ولما ثبت بما مضى أنه سبحانه متصف بالإحياء والإماتة ، وكان إنكار ذلك عناداً لا يستطيع أحد يثبت الإله أن ينكره ، وكان الإقرار بذلك في بعض وإنكاره في بعض تحكماً ومخالفاً لحاكم العقل وصارم النقل ، وكان من الآيات التي أوتوها إحياؤهم بعد إماتتهم حين طلبوا الرؤية فأخذتهم الصاعقة ، وحين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وكان ذلك هو البعث بعينه ، وكان العرب ينكرونه ويبالغون في إنكارهم له ولا يسألونهم عنه ، قال موبخاً لهم مشيراً بالتأكيد إلى أنه لا يكاد يصدق أن أحداً ينكر ذلك لما له من الأدلة :

﴿ إن ﴾ وحقرهم بقوله : ﴿ هؤلاء ﴾ أي الأدنياء الأقلاء الأذلاء ﴿ ليقولون ﴾ أي بعد قيام الحجة البالغة عليهم مبالغين في الإنكار في نظير تأكيد الإثبات : ﴿ إن ﴾ أي ما .

ولما كان قد تقدم قوله تعالى ﴿ يحيي ويميت ﴾ وهم يعلمون أن المراد به أن يتكرر منه الإحياء للشخص الواحد ، وكان تعالى قد قال ولا يخاطبهم إلا بما يعرفونه ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ [البقرة : 28] أي بالانتشار بعد الحياة

وقال ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ [غافر : 11] قالوا : ما ﴿ هي إلا موتتنا ﴾ على حذف مضاف أي ما الحياة إلا حياة موتتنا ﴿ الأولى ﴾ أي التي كانت قبل نفخ الروح - كما سيأتي في الجاثية ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ وعبروا عنها بالموتة إشارة إلى أن الحياة في جنب الموت المؤبد على زعمهم أمر متلاش لا نسبة لها منه ، وساق سبحانه كلامهم على هذا الوجه إشارة إلى أن الأمور إذا قيس غائبها على شاهدها ، كان الإحياء بعد الموتة الثانية أولى لكونه بعد حياة من الإحياء بعد الموتة الأولى ، فحط الأمر على أن الابتداء كان من موت لم يتقدمه حياة ، والقرار يكون على حياة لا يعقبها موت .

(7/697)

ولما كان المعنى : وليس وراءها حياة ، أكدوه بما يفهمه تصريحاً فقالوا برد ما أثبته الله على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ وما نحن ﴾ وأكدوا النفي فقالوا :

﴿ بمنشرين ﴾ أي من منشر ما بالبعث بحيث نصير ذوي حركة اختيارية ننتشر بها بعد الموت ، يقال : نشره وأنشره - إذا أحياه .

ولما كانوا يزعموه أن دعوى الإحياء لا يصح إلا إذا شاهدوا أحداً من الأموات الذين يعرفونه حياً بعد أن تمزق جلده وعظامه ، سببوا عن إنكارهم مخاطبين للنبي - صلى الله عليه

وسلم ـ ومن تبعه : ﴿ فأتوا ﴾ أي أيها الزاعمون أنا نبعث بعد الموت إيذاناً بأنهم لا يصدقون بذلك وإن كثر معتقدوه من جنس بشرهم وتبعهم ﴿ بآبائنا ﴾ أي لكوننا نعرفهم ونعرف وفور عقولهم فلا نشك في أن ذلك إحياء لمن مات ليكون ذلك آية لنا على البعث ، وأكدوا تكذيبهم بقوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي ثابتاً صدقكم .

ولما أخبروا على هذه العظمة تنطعاً لأنها لو وقعت لم يكن بأدل على ثبوت النبوة المستلزمة لتصديق كل ما يقول لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يأتيهم به من الآيات ، غير خائفين من الله وهم يعلمون قدرته وإهلاكه للماضين لأجل تكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وكأنهم يدعون خصوصيته في مكنة من عين أو معنى ينجون بها من مساواة من قبلهم في ذلك ، فقال تعالى منكراً عليهم : ﴿ أهم خير ﴾ أي في الدين والدنيا ﴿ أم قوم تبع ﴾ أي الذين ملك بهم تبع الأرض بطولها والعرض وحيرة الحيرة وبنى قصر سمرقند وكان مؤمناً ، وقومه حمير ومن تبعهم أقرب المهلكين إلى قريش زماناً ومكاناً .

وكان له بمكة المشرفة ما ليس لغيره من الآثار ، وقال الرازي في اللوامع : هو أول من كسا البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيام وطاف به وحلق .

(8/697)

وقال البغوي بعد أن ذكر قصته مع الأنصار لما قتل ابنه غيلة بالمدينة الشريفة وما وعظته به اليهود في الكف عن إخراب المدينة لأنها مهاجر نبي من قريش : فصدقهم وتبع دينهم ، وذلك قبل نسخه ، وقال عن الرقاشي : آمن تبع بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يبعث بسبعمائة عام ، وعن عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا أنها قالت : لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً .

ولما كان ذلك في سياق التهديد بالإهلاك لأجل مخالفتهم ، وكان الإهلاك لذلك إنما كان لبعض من تقدم زمانهم لا لجميع الخلق ، أدخل الجار فقال : ﴿ والذين من قبلهم ﴾ أي من مشاهير الأمر كمدين وأصحاب الأيكة والرس وثمود وعاد .

ولما كان كأنه قيل : ما لهؤلاء الأمم ؟ قيل : ﴿ أهلكناهم ﴾ أي بعظمتنا وإن كانوا عظماء لا يشعرهم هؤلاء فيما لهم من المكنة لقطعهم من أمر الله به أو يوصل من الرسل وأتباعهم ، وتكذيبهم بما أتوا به ، ولذلك علل الإهلاك تحذيراً للعرب بقوله مؤكداً لظنهم أن هلاكهم إنما هو على عادة الدهر : ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ مجرمين ﴾ أي عريقين في الإجرام ، فليحذر هؤلاء إذا ارتكبوا مثل أفعالهم من مثل حالهم وأن يحل بهم ما حل بهم .

ولما كان التقدير للاستدلال على الجزاء الذي جامعه التكفل بجميع أنحائه يوم القيامة : فإنا ما خلقنا الناس عبثاً يبغي بعضهم على بعض ثم لا يؤاخذون ، عطف عليه ما هو أكبر في الظاهر منه فقال : ﴿ وما خلقنا السماوات ﴾ أي على عظمها واتساع كل واحدة منها

واحتوائها لما تحتها ، وجمعها لأن العمل كلما زاد كان أبعد من العبث مع أن إدراك تعددها مما يقتضي المشاهدة بما فيها من الكواكب ، ووحد في سورة الأنبياء تخصيصاً بما يتحقق المكذبون بالبعث رؤيته لما ذكر هناك من اختصاص " لدن " بما بطن .

(9/697)

ولما كان الدليل على تطابق الأرضي دقيقاً وحدها فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي على ما فيها من المنافع ﴿ وما بينهما ﴾ أي النوعين وبين كل واحدة منها وما يليها ﴿ لاعبين ﴾ أي على ما لنا من العظمة التي يدرك من له أدنى عقل تعاليها عن اللعب لأنه لا يفعله إلا ناقص ، ولو تركنا الناس يبغي بعضهم على بعض كما تشاهدون ثم لا نأخذ لضعيفهم بحقه من قويهم لكان خلقنا لهم لعباً ، بل اللعب أخف منه ، ولم نكن على ذلك التقدير مستحقين لصفة القدوسية ، فإنه " لا قدست أمة لا يؤخذ لضعيفها بالحق من قويها غير متعتع " - رواه ابن ماجة عن أبي سعيد وابن جميع في معجمه عن جابر ، وصاحب الفردوس عن أبي موسى -رضى الله عنه- م رفعوه ، وهو شيء لا يرضى به لنفسه أقل حكام الدنيا ، فكان هذا برهاناً قاطعاً على صحة الحشر ليظهر هناك الفصل بالعدل والفضل .

ولما نفى أن يكون خلق لك اللعب الذي هو باطل ، أثبت ما خلقه له ولم يصرح بما في البين لأنه

تابع ، وقد نبه ما مضى ، فقال مستأنفاً : ﴿ ما خلقناهما ﴾ أي السماوات والأراضي مع ما بينهما ﴿ إلا بالحق ﴾ من الحكم بين من فيهما ، فمن عمل الباطل عاقبناه ومن عمل الحق أثبناه ، وبذلك يظهر غاية الظهور إحاطتنا بجميع أوصاف الكمال كما نبهنا عليه أهل الكمال في هذا الدار بخلقهما الذي واقعة بمطابق للحق ، وهو ما لنا من تلك الصفات المقتضية للبعث لأحقاق الحق وإبطال الباطل بما لا خفاء فيه عند أحد .

ولما كان أكثر الخلق لا يعلم ذلك لعظمته عن النظر في دليله وإن كان قطعياً بديهيّاً .

(10/697)

﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي أكثر هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم وهم يقولون : ﴿ إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ وكذا من نحا نحوهم ﴿ لا يعلمون ﴾ أي أنا خلقنا الخلق بسبب إقامة الحق فهم لأجل ذلك يجترئون على المعاصي ويفسدون في الأرض لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، ولو تذكروا ما ركزناه في جبلاتهم لعلموا علماً ظاهراً أنه الحق الذي لا معدل عنه كما يتولى حكامهم المناصب لأجل إظهار الحكم بين رعاياهم ، ويشرطون الحكم بالحق ، ويؤكدون على أنفسهم أنهم لا يتجاوزونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 75 .

79 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كيفية إهلاك فرعون وقومه بيّن كيفية إحسانه إلى موسى وقومه .

واعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إسرائيل مِنَ العذاب المهين ﴾ يعني قتل الأبناء واستخدام النساء والإتعاب في الأعمال الشاقة .

ثم قال : ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن يكون التقدير من العذاب المهين الصادر من فرعون الثاني : أن يكون فرعون بدلاً من العذاب المهين كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم .

قال صاحب "الكشاف" وقرىء ﴿ مِنْ عَذَابِ المهين ﴾ وعلى هذه القراءة (فالمهين) هو فرعون لأنه كان عظيم السعي في إهانة المحقين .

وفي قراءة ابن عباس ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ وهو بمعنى الاستفهام وقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ

المسرفين ﴾ جوابه كأن التقدير أن يقال هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته ؟ ثم عرف حاله بقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين ﴾ أي كان عالي الدرجة في طبقة المفسرين ، ويجوز أن يكون المراد ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً ﴾ لقوله ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض ﴾ [القصص : 4] وكان أيضاً مسرفاً ومن إسرافه أنه على حقارته وخسته ادعى الإلهية ، ولما بيّن الله تعالى أنه كيف دفع الضرر عن بني إسرائيل وبيّن أنه كيف أوصل إليهم الخيرات فقال :

﴿ وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : أن قوله ﴿ على عِلْمٍ ﴾ في موضع الحال ثم فيه وجهان أحدهما : أي عالمين بكونهم مستحقين لأن يختاروا ويرجحوا على غيرهم والثاني : أن يكون المعنى مع علمنا بأنهم قد يزيغون ويصدر عنهم الفرطات في بعض الأحوال .

(12/697)

البحث الثاني : ظاهر قوله ﴿ وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين ﴾ يقتضي كونهم أفضل من كل العالمين فقيل المراد على عالمي زمانهم ، وقيل هذا عام دخله التخصيص كقوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] .

(13/697)

ثم قال تعالى : ﴿ وءاتيناهم مِنَ الآيات ﴾ مثل فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم ﴿ بلاء مبين ﴾ أي نعمة ظاهرة ، لأنه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضاً بالنعمة اختباراً ظاهراً ليتميز الصديق عن الزنديق ، وها هنا آخر الكلام في قصة موسى عليه السلام ثم رجع إلى ذكر كفار مكة ، وذلك لأن الكلام فيهم حيث قال : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكّ يَلْعَبُونَ ﴾ أي بل هم في شك من البعث والقيامة ، ثم بيّن كيفية إصرارهم على كفرهم ، ثم بيّن أن قوم فرعون كانوا في الإصرار على الكفر على هذه القصة ، ثم بيّن كيف أهلكهم وكيف أنعم على بني إسرائيل ، ثم رجع إلى الحديث الأول ، وهو كون كفار مكة منكرين للبعث ، فقال : ﴿ إِنَّ هَؤُلاَء لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ فإن قيل القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقهم أن يقولوا : إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين ؟ قلنا إنه قيل لهم إنكم تموتون موتة تعقبها حياة ، كما أنكم حال كونكم نطفاً كنتم أمواتاً وقد تعقبها حياة ، وذلك قوله ﴿ وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ فَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى ﴾ يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية ، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقيب الحياة لها إلا الموتة الأولى خاصة ، فلا فرق إذاً بين هذا الكلام وبين قوله ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ هذا ما ذكره صاحب

"الكشاف" : ويمكن أن يذكر فيه وجه آخر ، فيقال قوله ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى ﴾ يعني أنه لا يأتينا شيء من الأحوال إلا الموتة الأولى ، وهذا الكلام يدل على أنهم لا تأتيهم الحياة الثانية ألبتة ، ثم صرحوا بهذا المرموز فقالوا ﴿ وَمَا نَحْنُ

(14/697)

بِمُنشَرِينَ ﴾ فلا حاجة إلى التكلف الذي ذكره صاحب "الكشاف" .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ يقال نشر الله الموتى وأنشرهم إذا بعثهم ، ثم إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا : إن كان البعث والنشور ممكناً معقولاً فجعلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بأن تسألوا ربكم ذلك ، حتى يصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في النبوة والبعث في القيامة ، قيل طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله حتى ينشر قصي بن كلاب ليشاوروه في صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفي صحة البعث ، ولما حكى الله عنهم ذلك قال : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ والذين مِن قَبْلِهِمْ أهلكناهم إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ والمعنى أن كفار مكة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يحتاج إلى الجواب عنها ، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار ، فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد ، فقال إن سائر الكفار كانوا

أقوى من هؤلاء ، ثم إن الله تعالى أهلكهم فكذلك يهلك هؤلاء ، فقوله تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار ، قال أبو عبيدة : ملوك اليمن كان كل واحد منهم يسمى تبعاً (1) لأن أهل الدنيا كانوا يتبعونه ، وموضع تبع في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام وهم الأعاظم من ملوك العرب قالت عائشة ، كان تبع رجلاً صالحاً ، وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمه ، قال الكلبي هو أبو كرب أسعد ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي "

---

(1) القياس أن يقول لأنه كان يتبع الملوك قبله وآثارهم ، ولذلك سمي الظل تبعا لأنه يتبع الشمس وفي «القاموس» : ولا يسمى به إلا إذا كانت حمير وحضرموت ، ودار التبابعة بمكة ولد بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم .

(15/697)

فإن قيل ما معنى قوله ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ مع أنه لا خير في الفريقين ؟ قلنا معناه أهم خير في القوة والشوكة ، كقوله ﴿ أكفاركم خَيْرٌ مِّنْ أولئكم ﴾ [القمر : 43] بعد ذكر آل فرعون ، ثم إنه تعالى ذكر الدليل القاطع على القول بالبعث والقيامة ، فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعباً وعبثاً ،

وقد مرّ تقرير هذه الطريقة بالاستقصاء في أول سورة يونس ، وفي آخر سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ حيث قال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : 115] وفي سورة ص حيث قال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهم باطلاً ﴾ [ص : 27] . ثم قال : ﴿ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ والمراد أهل مكة ، وأما استدلال المعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يخلق الكفر والفسق ولا يريدهما فهو مع جوابه معلوم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 212.214 ﴾

(16/697)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) ﴾

يعني ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون ، من قتل الأبناء واستخدام النساء ، واستعبادهم إياهم وتكلفهم الأعمال الشاقة .

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من "الْعَذَابِ الْمُهِينِ" فلا تتعلق "مِنْ" بقوله : "مِنَ الْعَذَابِ" لأنه قد وصف ، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل .

وقيل : أي أنجيناهم من العذاب ومن فرعون .

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين ﴾ أي جباراً من المشركين .

وليس هذا عُلوّ مَدْح بل هو عُلُوٌّ في الإسراف ، كقوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض ﴾ [القصص : 4] .

وقيل : هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اخترناهم ﴾ يعني بني إسرائيل .

﴿ على عِلْمٍ ﴾ أي على علم مِنَّا بهم لكثرة الأنبياء منهم .

﴿ عَلَى العالمين ﴾ أي عالمي زمانهم ، بدليل قوله لهذه الأمة : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] .

وهذا قول قتادة وغيره .

وقيل : على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء .

وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم ؛ حكاه ابن عيسى والزَّمَخْشَرِيّ وغيرهما .

ويكون قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ أي بعد بني إسرائيل .

والله أعلم .

وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيات ﴾ أي من المعجزات لموسى .

﴿ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ ﴾ قال قتادة : الآيات إنجاؤهم من فرعون وفلق البحر لهم ، وتظليل

الغمام عليهم وإنزال المَنّ والسَّلْوَى .

ويكون هذا الخطاب متوجّهاً إلى بني إسرائيل .

وقيل : إنها العصا واليد .

ويشبه أن يكون قول الفرّاء .

ويكون الخطاب متوجهاً إلى قوم فرعون .

وقول ثالث إنه الشر الذي كَفّهم عنه والخير الذي أمرهم به ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد .

(17/697)

ويكون الخطاب متوجهاً إلى الفريقين معاً من قوم فرعون وبني إسرائيل .

وفي قوله : ﴿ بَلاَءٌ مُّبِينٌ ﴾ أربعة أوجه : أحدها نعمة ظاهرة ؛ قاله الحسن وقتادة .

كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ المؤمنين مِنْهُ بلاء حَسَناً ﴾ [الأنفال : 17] .

وقال زهير :

فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو . . .

الثاني عذاب شديد ؛ قاله الفرّاء .

الثالث اختبار يتميز به المؤمن من الكافر ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد .

وعنه أيضاً : ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ؛ ثم قرأ : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هؤلاء لَيَقُولُونَ ﴾ يعني كفار قريش ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى ﴾ ابتداء وخبر ؛ مثل : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف : 155] ، ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ [المؤمنون : 37] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أي بمبعوثين .

﴿ فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنشر الله الموتى فنشروا .

وقد تقدّم .

والمنشورون المبعوثون .

قيل : إنّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل ، قال : يا محمد ، إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا : أحدهما قصيّ بنِ كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً ؛ لنسأله عما يكون بعد الموت .

وهذا القول من أبي جهل من أضعف الشبهات ؛ لأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف ؛ فكأنه قال : إن كنت صادقاً في إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف .

وهو كقول قائل : لو قال إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء ؛ فلم لا يرجع من مضى من الآباء ؛ حكاه الماوردي .

ثم قيل : "فَأْتُوا بِآبَائِنَا" مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ؛ كقوله : ﴿ رَبِّ

ارجعون ﴾ [المؤمنون : 99] قاله الفرّاء .

وقيل : مخاطبة له ولأتباعه .

(18/697)

قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هذا استفهام إنكار ؛ أي إنهم مستحقون في هذا القول العذاب ؛ إذ ليسوا خيراً من قوم تبع والأمم المهلكة ، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء .

وقيل : المعنى أهم أظهر نعمة وأكثر أموالاً أم قوم تُبَّع .

وقيل : أهم أعزّ وأشدّ وأمنع أم قوم تُبّع .

وليس المراد بتُبّع رجلاً واحداً بل المراد به ملوك اليمن ؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة .

فتُبَّعْ لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين ، وكِسْرَى للفُرْس ، وقَيْصر للروم .

وقال أبو عبيدة : سُمِّيَ كل واحد منهم تُبَّعاً لأنه يتبع صاحبه .

قال الجوهري : والتبابعة ملوك اليمن ، واحدهم تُبّع .

والتُّبَّع أيضاً الظِّل ؛ وقال :

يَرد المياه حضِيرةً ونَفِيضةً . . .

وِرْدَ القطَاة إذا اسمأل التُّبَّع

والتبع أيضاً ضرب من الطير .

وقال السهيلي : تُبّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر وحضرموت .

وإن مَلكَ اليمن وحدها لم يقل له تُبّع ؛ قاله المسعودي .

فمن التبابعة : الحارث الرائش ، وهو ابن همال ذي سدد .

وأبرهة ذو المنار .

وعمرو ذو الأذعار .

وشمر بن مالك ، الذي تنسب إليه سَمَرْقَنْد .

وأفريقيس بن قيس ، الذي ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان ، وبه سميت إفريقية .

والظاهر من الآيات : أن الله سبحانه إنما أراد واحداً من هؤلاء ، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدّ من معرفة غيره ؛ ولذلك قال عليه السلام : " ولا أدري أُتُبّع لَعِينٌ أم لا " ثم قد روي عنه أنه قال : " لا تَسُبُّوا تُبَّعاً فإنه كان مؤمناً " فهذا يدلّك على أنه كان واحداً بعينه ؛ وهو والله أعلم أبو كرب الذي كسا البيت بعدما أراد غزوه ، وبعدما غزا المدينة وأراد خرابها ، ثم انصرف عنها لمّا أخبر أنها مُهاجَر نبيّ اسمه أحمد .

وقال شعراً أودعه عند أهلها ؛ فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فأدّوْهُ إليه .

ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد بن زيد .

وفيه :

شهدت على أحمد أنه . . .

رسول من الله باري النَّسَمْ

فلو مُدّ عمري إلى عمره . . .

لكنت وزيراً له وابن عَمْ

وذكر الزجاج وابن أبي الدنيا والزمخشري وغيرهم أنه حُفر قبر له بصنعاء ويقال بناحية حمير في الإسلام ، فوجِد فيه امرأتان صحيحتان ، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب "هذا قبر حُبَّى ولَميس" ويروى أيضاً : "حبى وتماضر" ويروى أيضاً : "هذا قبر رضوى وقبر حُبّى ابنتا تبع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئاً ؛ وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما" .

قلت : وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان في الكتاب الذي كتبه : "أما بعد ، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك ، وأنا على دينك وسنتك ، وآمنت بربّك وربّ كل شيء ،

وآمنت بكل ما جاء من ربّك من شرائع الإسلام ؛ فإن أدركتك فبِها ونِعمت ، وإن لم أدركك فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة ؛ فإني من أمتك الأوّلين وبايعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام" .

ثم ختم الكتاب ونقش عليه : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْد ﴾ [الروم : 4] .

وكتب على عنوانه "إلى محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله ، خاتم النبيّين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم .

من تُبّع الأول" .

وقد ذكرنا بقيّة خبره وأوّله في "اللمع اللؤلؤية شرح العشر بينات النبوية" للفارابي رحمه الله .

وكان من اليوم الذي مات فيه تبع إلى اليوم الذي بعث فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا يزيد ولا ينقص .

واختلف هل كان نبِيًّا أو مَلِكاً ؛ فقال ابن عباس : كان تُبّع نبيًّا .

وقال كعب : كان تبع مِلكاً من الملوك ، وكان قومه كُهّاناً وكان معهم قوم من أهل الكتاب ، فأمر الفريقين أن يقرّب كل فريق منهم قُرْبَاناً ففعلوا ، فَتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم .

(20/697)

وقالت عائشة رضي الله عنها : لا تسبّوا تُبَّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً .

وحكى قتادة أن تبعاً كان رجلاً من حِمير ، سار بالجنود حتى عبر الحِيرة وأتى سَمَرْقَنْد فهدمها ، حكاه الماوردي .

وحكى الثعلبي عن قتادة أنه تبع الحِميري ، وكان سار بالجنود حتى عبر الحِيرة .

وبنى سَمَرْقَنْد وقتل وهدم البلاد .

وقال الكلبي : تبع هو أبو كَرِب أسعد بن ملكيكرب ، وإنما سمي تبعاً لأنه تَبِع مَن قبله .

وقال سعيد بن جُبَير : هو الذي كسا البيت الحِبَرات .

وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمّه ، وضرب بهم لقريش مثلاً لقربهم من دارهم وعِظمهم في نفوسهم ؛ فلما أهلكهم الله تعالى ومَن قبلهم لأنهم كانوا مجرمين كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك .

وافتخر أهل اليمن بهذه الآية ، إذ جعل الله قوم تبع خيراً من قريش .

وقيل : سُمّيَ أوّلهم تبعاً لأنه اتبع قرن الشمس وسافر في الشرق مع العساكر .

قوله تعالى : ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ "الَّذِينَ" في موضع رفع عطف على "قَوْمُ تُبَّعٍ" .

"أَهْلَكْنَاهُمْ" صلته .

ويكون "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقاً به .

ويجوز أن يكون "مِنْ قَبْلِهِمْ" صلة "الَّذِينَ" ويكون في الظرف عائد إلى الموصول .

وإذا كان كذلك كان "أَهْلَكْنَاهُمْ" على أحد أمرين : إمّا أن يقدّر معه "قد" فيكون في موضع الحال .

أو يقدر حذف موصوف ؛ كأنه قال : قوم أهلكناهم .

والتقدير أفلا تعتبرون أنا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاءِ المذكورين قدرنا على إهلاك المشركين .

ويجوز أن يكون "وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" ابتداء خبره "أَهْلَكْنَاهُمْ" .

ويجوز أن يكون "الَّذِينَ" في موضع جر عطفاً على "تُبَّعٍ" كأنه قال : قوم تبع المهلكين من قبلهم .

ويجوز أن يكون "الَّذِينَ" في موضع نصب بإضمار فعل دلّ عليه "أَهْلَكْنَاهُمْ" .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ أي غَافلين ؛ قاله مقاتل .

وقيل : لاهين ؛ وهو قول الكلبي .

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِالحق ﴾ أي إلا بالأمر الحق ؛ قاله مقاتل .

وقيل : إلا للحق ؛ قاله الكلبي والحسن .

وقيل : إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته .

وقد مضى هذا المعنى في "الأنبياء" .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعني أكثر الناس ﴿ لاَيَعْلَمُونَ ﴾ ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(22/697)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إسرائيل ﴾

بما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا ﴿ مِنَ العذاب المهين ﴾ من استبعاد فرعون وقتله أبناءهم واستحيائه نساءهم على الخسف والضيم .

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من العذاب على حذف المضاف والتقدير من عذاب فرعون أو جعله عليه اللعنة عين العذاب مبالغة ، وجوز أن يتعلق بمحذوف يقع حالاً أي كائناً من جهة

فرعون ، وقيل : متعلق بمحذوف واقع صفة أي كائناً أو الكائن من فرعون ولا بأس بهذا إذا لم يعد ذلك من حذف الموصول مع بعض صلته .

وقرأ عبد الله ﴿ مِنْ عَذَابِ المهين ﴾ على إضافة الموصوف إلى صفته كبقلة الحمقاء .

وقرأ ابن عباس من ﴿ فِرْعَوْنُ ﴾ على الاستفهام لتهويل العذاب أي هل تعرفون من فرعون في عتوه وشيطنته فما ظنكم بعذابه ، وقيل : لتحقير فرعون بجعله غير معلوم يستفهم عنه كالنكرة لما فيه في القبائح التي لم يعهد مثلها وما بعد يناسب ما قبل كما لا يخفى .

وأياً ما كان فالظاهر أن الجملة استئناف ، وقيل : إنها مقول قول مقدر هو صفة للعذاب ، وقدر المقول عنده إن كان تعريف العذاب للعهد ومقول إن كان للجنس فلا تغفل ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً ﴾ متكبراً ﴿ مِّنَ المسرفين ﴾ في الشر والفساد ، والجار والمجرور إما خبر ثان لكان أي كان متكبراً مغرقاً في الإسراف ، وإما حال من الضمير المستتر في عالياً أي كان متكبراً في حال إغراقه في الإسراف .

﴿ وَلَقَدِ اخترناهم ﴾ أي اصطفينا بني إسرائيل وشرفناهم ﴿ على عِلْمٍ ﴾ أي عالمين باستحقاقهم ذلك أو مع علم منا بما يفرط منهم في بعض الأحوال ، وقيل : عالمين بما يصدر منهم من العدل والإحسان والعلم والايمان ، ويرجع هذا إلى ما قيل أولاً فإن العدل وما معه من أسباب الاستحقاق ، وقيل : لأجل علم فيهم ، وتعقب بأنه ركيك لأن تنكير العلم لا يصادف محزه .

وأجيب بأنه للتعظيم ويحسن اعتباره علة للاختيار ﴿ عَلَى العالمين ﴾ أي عالمي زمانهم كما قال مجاهد .

(23/697)

وقتادة فالتعريف للعهد أو الاستغراق العرفي فلا يلزم تفضيلهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين هم خير أمة أخرجت للناس على الإطلاق ، وجوز أن يكون للاستغراق الحقيقي والتفضيل باعتبار كثرة الأنبياء عليهم السلام فيهم لا من كل الوجوه حتى يلزم تفضيلهم على هذه الأمة المحمدية ، وقيل : المراد اخترناهم للإيحاء على الوجه الذي وقع وخصصناهم به دون العالمين ، وليس بشيء ، ومما ذكرنا يعلم أنه ليس في الآية تعلق حرفي جر بمعنى بمتعلق واحد لأن الأول متعلق بمحذوف وقع حالاً والثاني متعلق بالفعل كقوله :

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت . . .

على وآلت حلفة لم تحلل

وقيل : لأن كل حرف بمعنى .

﴿ وءاتيناهم مِنَ الآيات ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التي لم يعهد مثلها في غيرهم ، وبعضها وأن أوتيها موسى عليه السلام يصدق

عليه أنهم أوتوه لأن ما للنبي لأمته ﴿ مَا فِيهِ بَلَؤُاْ مُّبِينٌ ﴾ أي نعمة ظاهرة أو اختبار ظاهر للنظر كيف يعملون ، وفي ﴿ فِيهِ ﴾ إشارة إلى أن هناك أموراً أخرى ككونه معجزة .

﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ كفار قريش لأن الكلام فيهم ، وذكر قصة فرعون وقومه استطرادي للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والإنذار عن مثل ما حل بهم ، وفي اسم الإشارة تحقير لهم ﴿ لَيَقُولُونَ ﴾ .

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى ﴾ أي ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أي بمبعوثين بعدها ، وتوصيفها بالأولى ليس لقصد مقابلة الثانية كما في قولك : حج زيد الحجة الأولى ، ومات .

قال الأسنوي في "التمهيد" : الأول : في اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون ، كما تقول : هذا أول ما اكتسبته فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب كذا ذكره جماعة منهم الواحدي في تفسيره والزجاج .

(24/697)

ومن فروع المسألة ما لو قال : إن كان أول ولد تلدينه ذكراً فأنت طالق تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره بالاتفاق ، قال أبو علي : اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولاً أن يكون بعده

آخر ، وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره اه ، ومنه يعلم ما في قول بعضهم : إن الأول يضايف الآخر والثاني ويقتضي وجوده بلا شبهة ، والمثال إن صح فإنما هو فيمن نوى تعدد الحج فاخترمته المنية فلحجة ثان باعتبار العزم من قصور الإطلاع وأنه لا حاجة إلى أن يقال : إنها أولى بالنسبة إلى ما بعدها من حياة الآخرة بل هو في حد ذاته غير مقبول لما قال ابن المنير من أن الأولى إنما يقابلها أخرى تشاركها في أخص معانيها ، فكما لا يصح أو لا يحسن أن يقال : جاءني رجل وامرأة أخرى لا يقال الموتة الأولى بالنسبة لحياة الآخرة ، وقيل : إنه قيل لهم أنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة ، وذلك قوله عز وجل ﴿ وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] فقالوا : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الاولى ﴾ يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تتعقبها حياة ، إلا الموتة الأولى دون الثانية وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة ، وهذا ما ارتضاه جار الله وأراد أن النفي والإثبات لما كان لرد المنكر المصر إلى الصواب كان منزلاً على إنكارهم ، لا سيما والتعريف في الأولى تعريف عهد ، وقوله تعالى : ﴿ الموتة الاولى ﴾ تفسير للمبهم وهي على نحو هي العرب تقول كذا فيتطابقان والمعهود الموتة التي تعقبتها الحياة الدنيوية ، ولذلك استشهد بقوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أمواتا ﴾ الخ فليس اعتبار الوصف عدولاً عن الظاهر من غير حاجة كما قال ابن المنير .

وقوله في الاعتراض أيضاً : إن الموت السابق على الحياة الدنيوية لا يعبر عنه بالموتة لأن ﴿ فِيهَا ﴾ لمكان بناء المرة إشعاراً بالتجدد والموت السابق مستصحب لم تتقدمه حياة مدفوع كما قال "صاحب الكشف" ، ثم أنه لا يلزم من تفسير الموتة الأولى بما بعد الحياة في قوله تعالى :

﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الاولى ﴾ [الدخان : 56] تفسيرها بذلك هنا لأن إيقاع الذوق عليها هناك قرينة أنها التي بعد الحياة الدنيا لأن ما قبل الحياة غير مذوق ، ومع هذا كله الإنصاف إن حمل الموتة الأولى هنا أيضاً على التي بعد الحياة الدنيا أظهر من حملها على ما قبل الحياة من العدم بل هي المتبادرة إلى الفهم عند الإطلاق المعروفة بينهم ، وأمر الوصف بالأولى على ما سمعت أولاً .

وقيل : إنهم وعدوا بعد هذه الموتة موتة القبر وحياة البعث فقوله تعالى عنهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الاولى ﴾ رد للموتة الثانية وفي قوله سبحانه : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ نفي لحياة القبر ضمنا إذ لو كانت بدون الموتة الثانية لثبت النشر ضرورة .

﴿ فَأْتُواْ بِآبَائِنَا ﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين أي فأتوا لنا بمن مات من آبائنا ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في وعدكم ليدل ذلك على صدقكم ودلالة الايقان إما لمجرد الإحياء بعد الموت وإما بأن يسألوا عنه ، قيل : طلبوا من الرسول عليه الصلاة

والسلام أن يدعو الله تعالى فيحيي لهم قصي بن كلاب ليشاوروه في صحة النبوة والبعث إذ كان كبيرهم ومستشارهم في النوازل .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ في القوة والمنعة ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو تبع الأكبر الحميري واسمه أسعد بهمزة ، وفي بعض الكتب سعد بدونها وكنيته أبو كرب وكان رجلاً صالحاً .

(26/697)

أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت : كان تبع رجلاً صالحاً ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه ، وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس لا يشتبهن عليكم أمر تبع فإنه كان مسلماً ، وأخرج أحمد .

والطبراني .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم " وأخرج ابن عساكر .

وابن المنذر .

(27/697)

عن ابن عباس قال : سألت كعباً عن تبع فإني أسمع الله تعالى يذكر في القرآن قوم تبع ولا يذكر تبعاً فقال : إن تبعاً كان رجلاً من أهل اليمن ملكاً منصوراً فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند فرجع فأخذ طريق الشام فأسر بها أحباراً فانطلق بهم نحو اليمن حتى إذا دنا من ملكه طار في الناس أنه هادم الكعبة فقال له الأحبار : ما هذا الذي تحدث به نفسك فإن هذا البيت لله تعالى وإنك لن تسلط عليه فقال : إن هذا لله تعالى وأنا أحق من حرمه فأسلم من مكانه وأحرم فدخلها محرماً فقضي نسكه ثم انصرف نحو اليمن راجعاً حتى قدم على قومه فدخل عليه أشرافهم فقالوا : يا تبع أنت سيدنا وابن سيدنا خرجت من عندنا على دين وجئت على غيره فاختر منا أحد أمرين إما تخلينا وملكنا وتعبد ما شئت وإما أن تذر دينك الذي أحدثت وبينهم يومئذ نار تنزل من السماء فقال الأحبار عند ذلك : اجعل بينك وبينهم النار فتواعد القوم جميعاً على أن يجعلوها بينهم فجيء بالأحبار وكتبهم وجيء بالأصنام وعمارها وقدموا جميعاً إلى النار وقامت الرجال خلفهم بالسيوف فهدرت النار هدير الرعد ورمت شعاعاً لها فنكص أصحاب الأصنام وأقبلت النار وأحرقت الأصنام وعمارها وسلم الآخرون فأسلم قوم واستسلم قوم فلبثوا بعد ذلك عمر تبع حتى إذا نزل بتبع الموت استخلف أخاه وهلك فقتلوا أخاه وكفروا صفقة واحدة ، وفي رواية عن ابن عباس أن تبعاً لما أقبل من الشرق بعد أن حير الحيرة أي بناها ونظم أمرها

وهي بكسر الحاء المهملة وياء ساكنة مدينة بقرب الكوفة وبني سمرقند وهي مدينة بالعجم معروفة ، وقيل : إنه هدمها وقصد المدينة وكان قد خلف بها حين سافر ابناً له فقتل غيلة فأجمع على خرابها واستئصال أهلها فجمع له الأنصار وخرجوا لقتاله وكانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فأعجبه ذلك وقال : إن هؤلاء لكرام فبينما هو على ذلك إذ جاءه كعب .

(28/697)

وأسد ابنا عم من قريظة حبرإن وأخبراه أنه يحال بينك وبين ما تريد فإنها مهاجر نبي من قريش اسمه محمد صلى الله عليه وسلم ومولده بمكة فثناه قولهما عما يريد ثم دعواه إلى دينهما فاتبعهما وأكرمهما فانصرفوا عن المدينة ومعهم نفر من اليهود فقال له في الطريق نفر من هذيل : ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وذهب وفضة بمكة وأرادت هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه ما أراده أحد بسوء إلا هلك فذكر ذلك للحبرين فقالا : ما نعلم لله عز وجل بيتاً في الأرض اتخذه لنفسه غير هذا فاتخذه مسجداً وانسك عنده واحلق رأسك وما أراد القوم إلا هلاكك فأكرمه وكساه وهو أول من كسى البيت وقطع أيدي أولئك النفر من هذيل وأرجلهم وسمل أعينهم وصلبهم .

وفي رواية أنه قال للحبرين حين قالا له ما قالا : وأنتما ما يمنعكما من ذلك ؟ فقالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله وبالدماء التي يريقونها عنده وهم نجس أهل شرك فعرف صدقهما ونصحهما فطاف بالبيت ونحر وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل ، وقيل : إنه أراد تخريب البيت فرمى بداء عظيم فكف عنه وكساه .

وأخرج ابن عساكر عن ابن إسحاق أن تبعاً أرى في منامه أن يكسو البيت فكساه الخصف ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الوصائل وصائل اليمن فكان فيما ذكر لي أول من كساه وأوصى بها ولاته من جرهم وأمر بتطهيره وجعل له باباً ومفتاحاً .

(29/697)

وفي رواية أنه قال أيضاً : ولا تقربوه دماً ولا ميتاً ولا تقربه حائض ، وفي نهاية ابن الأثير في الحديث أن تبعاً كسى البيت المسوح فانتفض البيت منه ومزقه عن نفسه ثم كساه الخصف فلم يقبله ثم كساه الانطاع ، وفي موضع آخر منها إن أول من كسى الكعبة كسوة كاملة تبع

كساها الانطاع ثم كساها الوصائل والخصف فعل بمعنى مفعول من الخصف وهو ضم الشيء إلى الشيء والمراد شيء منسوج من الخوص على ما هو الظاهر ، وقيل : أريد به ههنا الثياب الغلاظ جداً تشبيهاً بالخصف المذكور ، والمعافر برود من اليمن منسوبة إلى معافر قبيلة بها ، والميم زائدة ، والوصائل ثياب حمر مخططة يمانية ، والمسوح جمع مسح بكسر الميم وسكون المهملة أثواب من شعر غليظة ، والانطاع جمع نطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك بسط من أديم .

وأخرج ابن سعد .

وابن عساكر عن أبي بن كعب قال : لما قدم تبع المدينة ونزل بفنائها بعث إلى أحبار يهود فقال : إني مخرب هذا البلد حتى لا تقوم به يهودية ويرجع الأمر إلى دين العرب فقال له : شامول اليهودي وهو يومئذ أعلمهم : أيها الملك إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل مولده بمكة اسمه أحمد وهذه دار هجرته إلى أن قال : قال وما صفته ؟ قال : رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة يركب البعير ويلبس الشملة سيفه على عاتقه لا يبالي من لاقى حتى يظهر أمره فقال تبع : ما إلى هذا البلد من سبيل وما كان ليكون خرابها على يدي .

وذكر أبو حاتم الرياشي أنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة ، وقيل بينه وبين مولده عليه الصلاة والسلام ألف سنة ، والقولان يدلان على أنه قبل مبعث

عيسى عليه السلام .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لا تقولوا في تبع إلا خيراً فإنه قد حج البيت وآمن بما جاء به عيسى ابن مريم ، وهو يدل على أنه بعد مبعث عيسى عليه السلام ، والأول أشهر .

(30/697)

ومن حديث عباد بن زياد المري أنه لما أخبره اليهود أنه سيخرج نبي بمكة يكون قراره بهذا البلد يعني المدينة اسمه أحمد وأخبروه أنه لا يدركه قال للأوس والخزرج : أقيموا بهذا البلد فإن خرج فيكم فوازروه وإن لم يخرج فأوصوا بذلك أولادكم ، وقال في شعره :

حدثت أن رسول الملي . . .

ك يخرج حقاً بأرض الحرم ولو مد دهري إلى دهره

لكنت وزيراً له وابن عم . . .

وفي "البحر" بدل البيت الأول :

شهدت على أحمد أنه . . .

رسول من الله باري النسم

وفيه أيضاً رواية عن ابن إسحاق .

وغيره أنه كتب أيضاً كتاباً وكان فيه أما بعد فإني آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك وأنا على دينك وسنتك وآمنت بربك ورب كل شيء وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام فإن أدركتك فبها ونعمت وإن لم أدركك فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة فإني من أمتك الأولين وتابعيك قبل مجيئك وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام ، ثم ختم الكتاب ونقش عليه لله الأمر من قبل ومن بعد ، وكتب عنوانه إلى محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله خاتم النبيين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم من تبع الأول ودفعه إلى عظيم من الأوس والخزرج وأمره أن يدفعه للنبي عليه الصلاة والسلام إن أدركه .

ويقال : إنه بنى له داراً في المدينة يسكنها إذا أدركه صلى الله عليه وسلم وقدم إليها وأن تلك الدار دار أبي أيوب خالد بن زيد وأن الشعر والكتاب وصلا إليه وأنه من ولد ذلك الرجل الذي دفعا إليه أولاً ، ولما ظهر النبي عليه الصلاة والسلام دفعوا الكتاب إليه فلما قرىء عليه قال : مرحباً بتبع الأخ الصالح ثلاث مرات .

(31/697)

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم عليه صلاة الجنازة وكذا على البراء بن معروف بعد وفاته بشهر يوم قدومه عليه الصلاة والسلام المدينة كما قال النجم الغيطي وكانت صلاة الجنازة قد فرضت تلك السنة ، وكون هذا هو تبع الأول ويقال له الأكبر هو المذكور في غير ما كتاب ، وذكر عبد الملك بن عبد الله بن بدرون في شرحه لقصيدة ابن عبدون أن أسعد هذا هو تبع الأوسط وذكر أيضاً أن ملكه ثلثمائة وعشرين سنة وملك بعده عمرو أربعاً وستين سنة ، وقال ابن قتيبة : حسان وهو الذي قتل زرقاء اليمامة وأباد جديسا وكان ملكه خمساً وعشرين سنة ؛ والتواريخ ناطقة بتقدم تبابعة عليه فإن تبعا يقال لمن ملك اليمن مطلقاً كما يقال لملك الترك خاقان ، والروم قيصر ، والفرس كسرى أولاً يسمى به إلا إذا كانت له حمير وحضرموت كما في "القاموس" أو إلا إذا كانت له حمير وسبأ وحضرموت كما ذكره الطيبي ، والمتصف بذلك غير واحد كما لا يخفى على من أحاط خبراً بالتواريخ .

وما تقدم من حكاية أنه هدم سمرقند ذكر عبد الملك خلافه ونسب هدمها إلى شمر بن افريقيس ابن أبرهة أحد التبابعة أيضاً كان قبل تبع المذكور بكثير قال : إن شمر خرج نحو العراق ثم توجه يريد الصين ودخل مدينة الصغد فهدمها وسميت شمر كند أي شمر خربها وعربت بعد فقيل سمرقند اه .

وحكاية البناء يمكن نسبتها إلى شمر هذا فإن كند في لغة أهل أذربيجان ونواحيها على ما قيل بمعنى القرية فسمرقند بمعنى قرية شمر وهو أوفق بالبناء ، وذكر علامة عصره الملأ أمين

أفندي العمري الموصلي تغمده الله تعالى برحمته في كتابه شرح ذات الشفاء أن تبعاً الذي ذكر سابقاً هو ابن حسان وأنه ملك الدنيا كلها وأنه يقال له الرائش لأنه راش الناس بالعطاء ، ولعل ما قاله قول لبعضهم وإلا فقد قال ابن قتيبة : إنه ابن كليكرب .

(32/697)

وفي شرح قصيدة ابن عبدون أن الرائش لقب الحرث بن بدر أحد التبابعة ، وهو قبل أسعد المتقدم ذكره بزمان طويل جداً ، وهو أيضاً ممن ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم في شعره فقال :

ويملك بعدهم رجل عظيم . . .

نبي لا يرخص في الحرام يسمى أحمداً يا ليت أني

أعمر بعد مخرجه بعام . . .

ثم إن ملكه الدنيا كلها غير مسلم ، وبالجملة الأخبار مضطربة في أمر التبابعة وأحوالهم وترتيب ملوكهم بل قال صاحب تواريخ الأمم : ليس في التواريخ أسقم من تاريخ ملوك حمير لما يذكر من كثرة عدد سنينهم مع قلة عدد ملوكهم فإن ملوكهم ستة وعشرون ومدتهم ألفان وعشرون سنة .

وقال بعض : إن مدتهم ثلاثة آلاف واثنان وثمانون سنة ثم ملك من بعدهم اليمن الحبشة والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، والقدر المعول عليه ههنا أن تبعا المذكور هو أسعد أبو كرب وأنه كان مؤمناً بنبينا صلى الله عليه وسلم وكان على دين إبراهيم عليه السلام ولم يكن نبياً ، وحكاية نبوته عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا تصح ، وإخباره بمبعثه صلى الله عليه وسلم لا يقتضيها لأنه علم ذلك من أحبار اليهود وهم عرفوه من الكتب السماوية .

وما روي من أنه عليه الصلاة والسلام قال : ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي لم يثبت ، نعم روى أبو داود .

والحاكم أنه عليه الصلاة والسلام قال : " ما أدري أذو القرنين هو أم لا " وليس فيه ما يدل على التردد في نبوته وعدمها فإن ذا القرنين ليس بنبي على الصحيح ، ثم إن الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام درى بعد أنه ليس ذا القرنين .

وقال قوم : ليس المراد بتبع هاهنا رجلاً واحداً إنما المراد ملوك اليمن ، وهو خلاف الظاهر والأخبار تكذبه ، ومعنى تبع متبوع فهو فعل بمعنى مفعول وقد يجيء هذا اللفظ بمعنى فاعل كما قيل للظل تبع لأنه يتبع الشمس ، ويقال لملوك اليمن أقيال من يقيل فلان أباه إذا اقتدى به لأنهم يقتدى بهم ، وقيل : سمى ملكهم قيلاً لنفوذ أقواله وهو مخفف قيل كميت .

﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي قبل قوم تبع كعاد .

وثمود أو قبل قريش فهو تعميم بعد تخصيص ﴿ أهلكناهم ﴾ استئناف لبيان عاقبة أمرهم هدد به كفار قريش أو حال بإضمار قد أو بدونه من الضمير المستتر في الصلة أو خبر عن الموصول إن جعل مبتدأ ولم يعطف على ما قبله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ تعليل لإهلاكهم أي أهلكناهم بسبب كونهم مجرمين فليحذر كفار قريش الإهلاك لإجرامهم .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي ما بين الجنسين وهو شامل لما بين الطبقات .

وقرأ عبيد بن عمير ﴿ وَمَا بَيْنَهُنَّ ﴾ فالضمير لمجموع السموات والأرض ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ أي عابثين وهو دليل على وقوع الحشر كما مر في الأنبياء (16) وغيرها .

﴿ مَا خلقناهما ﴾ أي وما بينهما ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي ما خلقناهما ملتبسين بشيء من الأشياء إلا ملتبسين بالحق فالجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل ، وجوز أن يكون في موضع الحال من المفعول ، والباء للملابسة فيهما ، وجوز أن تكون للسببية ، والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب أي ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء والملابسة أظهر ﴿ ولكن

أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ تذييل وتجهيل فخيم لمنكري الحشر وتوكيد لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ولهذا قال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا سبحانك فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : 191] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(34/697)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾

أي : ابتليناهم ، ومعنى الفتنة هنا : أن الله سبحانه أرسل إليهم رسله ، وأمروهم بما شرعه لهم ، فكذبوهم ، أو وسع عليهم الأرزاق ، فطغوا وبغوا .

قال الزجاج : بلوناهم ، والمعنى : عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم ، وقرىء (فتنا) بالتشديد ﴿ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : كريم على الله كريم في قومه ، وقال مقاتل : حسن الخلق بالتجاوز ، والصفح .

وقال الفراء : كريم على ربه إذا اختصه بالنبوّة ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ الله ﴾ "أن" هذه هي المفسرة لتقدّم ما هو بمعنى القول ، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة ، والمعنى : أن الشأن

، والحديث أدّوا إليّ عباد الله ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أي : بأن أدّوا ؛ والمعنى : أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بني إسرائيل .

قال مجاهد : المعنى : أرسلوا معي عباد الله ، وأطلقوهم من العذاب ، فعباد الله على هذا مفعول به .

وقيل المعنى : أدّوا إليّ عباد الله ما وجب عليكم من حقوق الله ، فيكون منصوباً على أنه منادى مضاف .

وقيل : أدّوا إليّ سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربكم .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ هو : تعليل لما تقدّم ، أي : ﴿ رسول ﴾ من الله إليكم ﴿ أمين ﴾ على الرسالة غير متهم ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى الله ﴾ أي : لا تتجبروا ، وتتكبروا عليه ، بترفعكم عن طاعته ، ومتابعة رسله ، وقيل : لا تبغوا على الله ، وقيل : لا تفتروا عليه ، والأوّل أولى .

وبه قال ابن جريج ، ويحيى بن سلام ، وجملة ﴿ إِنِي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ تعليل لما قبله من النهي ، أي : بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها .

وقال قتادة : بعذر بين .

والأوّل أولى ، وبه قال يحيى بن سلام .

قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿ إِنِّى ﴾ ، وقرىء بالفتح بتقدير اللام ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ استعاذ بالله سبحانه لما توعدوه بالقتل ، والمعنى : من أن ترجمون . قال قتادة : ترجموني بالحجارة ، وقيل : تشتمون ، وقيل : تقتلون ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فاعتزلون ﴾ أي : إن لم تصدّقوني ، وتقرّوا بنبوّتي ، فاتركوني ، ولا تتعرّضوا لي بأذى . قال مقاتل : دعوني كفافاً لا عليّ ، ولا لي .

وقيل : كونوا بمعزل عني ، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا ، وقيل : فخلوا سبيلي ، والمعنى متقارب .

ثم لما لم يصدّقوه ، ولم يجيبوا دعوته ، رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى الله عنه بقوله : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاَء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على إضمار حرف الجرّ ، أي : دعاه بأن هؤلاء ، وقرأ الحسن ، وابن أبي إسحاق ، وعيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول ، وفي الكلام حذف ، أي : فكفروا فدعا ربه ، والمجرمون : الكافرون ، وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرّد كونهم مجرمين ، لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً ﴾ أجاب الله سبحانه دعاءه ، فأمره أن يسري ببني إسرائيل ليلاً ، يقال : سرى وأسرى لغتان ، قرأ الجمهور : ﴿ فأسر ﴾ بالقطع .

وقرأ أهل الحجاز بالوصل ، ووافقهم ابن كثير ، فالقراءة الأولى من أسرى ، والثانية من

سرى ، والجملة بتقدير القول ، أي : فقال الله لموسى أسر بعبادي ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ ﴾ أي : يتبعكم فرعون ، وجنوده ، وقد تقدّم في غير موضع خروج فرعون بعدهم ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ أي : ساكناً ، يقال : رها يرهو رهواً : إذا سكن لا يتحرّك .

قال الجوهري : يقال : افعل ذلك رهواً ، أي : ساكناً على هيئتك ، وعيش راه ، أي : ساكن ، ورها البحر سكن ، وكذا قال الهروي ، وغيره ، وهو المعروف في اللغة ، ومنه قول الشاعر :

(36/697)

والخيل تمرح رهوا في أعنتها . . . كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد

أي : والخيل تمرح في أعنتها ساكنة ، والمعنى : اترك البحر ساكناً على صفته بعد أن ضربته بعصاك ، ولا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك ، وبعد بني إسرائيل ، فينطبق عليهم ، فيغرقون .

وقال أبو عبيدة : رها بين رجليه يرهو رهواً ، أي : فتح .

. قال : ومنه قوله : ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ ، والمعنى : اتركه منفرجاً كما كان بعد دخولكم فيه ، وكذا قال أبو عبيد : وبه قال مجاهد ، وغيره .

قال ابن عرفة : وهما يرجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف لفظاهما ، لأن البحر إذا سكن جريه انفرج.

قال الهروي : ويجوز أن يكون ﴿ رهواً ﴾ نعتاً لموسى ، أي : سر ساكناً على هيئتك .

وقال كعب ، والحسن : ﴿ رهواً ﴾ : طريقاً .

وقال الضحاك ، والربيع : سهلاً .

وقال عكرمة : يبساً كقوله : ﴿ فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِى البحر يَبَساً ﴾ [طه : 77]

وعلى كل تقدير ، فالمعنى : اتركه ذا رهو ، أو اتركه رهواً على المبالغة في الوصف بالمصدر

﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ أي : إن فرعون ، وقومه مغرقون .

أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه ، ويطمئن جأشه .

قرأ الجمهور بكسر إن على الاستئناف لقصد الإخبار بذلك ، وقرىء بالفتح على تقدير لأنهم .

﴿ كَمْ ﴾ هي الخبرية المفيدة للتكثير ، وقد مضى الكلام في معنى الآية في سورة الشعراء .

قرأ الجمهور : ﴿ وَمَقَامٍ ﴾ بفتح الميم على أنه اسم مكان للقيام ، وقرأ ابن هرمز ، وقتادة ، وابن السميفع ، وروى عن نافع بضمها اسم مكان الإقامة ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فاكهين ﴾

النعمة بالفتح : التنعم يقال : نعمه الله ، وناعمه ، فتنعم ، وبالكسر : المنة ، وما أنعم به

عليك ، وفلان واسع النعمة ، أي : واسع المال ذكر معنى هذا الجوهري .

قرأ الجمهور : ﴿ فاكهين ﴾ بالألف .

(37/697)

وقرأ أبو رجاء ، والحسن ، وأبو الأشهب ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة : (فكهين) بغير ألف ، والمعنى على القراءة الأولى : متنعمين طيبة أنفسهم ، وعلى القراءة الثانية : أشرين بطرين .

قال الجوهري : فكه الرجل بالكسر ، فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحاً ، والفكه أيضاً : الأشر البطر .

قال : ﴿ وفاكهين ﴾ أي : ناعمين .

وقال الثعلبي : هما لغتان كالحاذر ، والحذر ، والفاره والفره .

وقيل : إن الفاكهة هو : المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة .

﴿ كَذَٰلِكَ وأورثناها قَوْماً ءاخَرِينَ ﴾ الكاف في محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف .

قال الزجاج : أي : الأمر كذلك ، ويجوز أن تكون في محل نصب ، والإشارة إلى مصدر فعل يدلّ عليه تركوا ، أي : مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ، وقيل : مثل ذلك الإخراج

أخرجناهم منها ، وقيل : مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم .

فعلى الوجه الأوّل يكون قوله : ﴿ وأورثناها ﴾ معطوفاً على ﴿ تَرَكُواْ ﴾ ، وعلى الوجوه الآخرة يكون معطوفاً على الفعل المقدّر .

والمراد بالقوم الآخرين : بنو إسرائيل ، فإن الله سبحانه ملكهم أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين ، فصاروا لها وارثين ، أي : أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث ، ومثل هذا قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ [الأعراف : 137] ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ هذا بيان لعدم الاكتراث بهلاكهم .

قال المفسرون : أي : إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم به ، ولم يصعد لهم إلى السماء عمل طيب يبكي عليهم به ، والمعنى : أنه لم يصب بفقدهم وهلاكهم أحد من أهل السماء ، ولا من أهل الأرض ، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء ، والأرض ، أي : عمت مصيبته ، ومن ذلك قول جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت . . . سور المدينة والجبال الخشع

ومنه قول النابغة :

بكى حارث الحولان من فقد ربه . . . وحوران منه خاشع متضائل

وقال الحسن : في الكلام مضاف محذوف ، أي : ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة والناس .

وقال مجاهد : إن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحاً ، وقيل : إنه يبكي على المؤمن مواضع صلاته ، ومصاعد عمله ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ أي : ممهلين إلى وقت آخر بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم ، وشدّة عنادهم ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إسراءيل مِنَ العذاب المهين ﴾ أي : خلصناهم بإهلاك عدوّهم مما كانوا فيه من الاستعباد ، وقتل الأبناء واستحياء النساء ، وتكليفهم للأعمال الشاقة ، وقوله : ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من العذاب إما على حذف مضاف ، أي : من عذاب فرعون ، وإما على المبالغة كأنه نفس العذاب ، فأبدل منه ، أو على أنه حال من العذاب تقديره : صادراً من فرعون ، وقرأ ابن عباس : (من فرعون) ؟ بفتح الميم على الاستفهام التحقيري كما يقال لمن افتخر بحسبه ، أو نسبه : من أنت ؟ ثم بيّن سبحانه حاله ، فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين ﴾ أي : عالياً في التكبر والتجبر من المسرفين في الكفر بالله ، وارتكاب معاصيه كما في قوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأرض ﴾ [القصص : 4] .

ولما بيّن سبحانه كيفية دفعه للضر عن بني إسرائيل بيّن ما أكرمهم به ، فقال : ﴿ وَلَقَدِ

اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين ﴾ أي : اختارهم الله على عالمي زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك ، وليس المراد : أنه اختارهم على جميع العالمين بدليل قوله في هذه الأمة :

(39/697)

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] وقيل : على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم ، ومحل ﴿ على علم ﴾ النصب على الحال من فاعل ﴿ اخترناهم ﴾ أي : حال كون اختيارنا لهم على علم منا ، و ﴿ على العالمين ﴾ متعلق باخترناهم ﴿ وءاتيناهم مِنَ الآيات ﴾ أي : معجزات موسى ﴿ مَا فِيهِ بَلَؤٌاْ مُّبِينٌ ﴾ أي : اختبار ظاهر ، وامتحان واضح لننظر كيف يعملون .

وقال قتادة : الآيات إنجاؤهم من الغرق ، وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم ، وإنزال المنّ والسلوى لهم .

وقال ابن زيد : الآيات هي : الشرّ الذي كفهم عنه ، والخير الذي أمرهم به .

وقال الحسن ، وقتادة : البلاء المبين : النعمة الظاهرة كما في قوله : ﴿ وَلِيُبْلِيَ المؤمنين مِنْهُ بَلاء حَسَنًا ﴾ [الأنفال : 17] ، ومنه قول زهير :

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو . . . والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ إلى كفار قريش ، لأن الكلام فيهم ، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم في الإصرار على الكفر ﴿ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى ﴾ أي : ما هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها في الدنيا ، ولا حياة بعدها ، ولا بعث ، وهو معنى قوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أي : بمبعوثين ، وليس في الكلام قصد إلى إثبات موتة أخرى ، بل المراد : ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ، قال الرازي : المعنى : أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى ، ثم أوردوا على من وعدهم بالبعث ما ظنوه دليلاً ، وهو : حجة داحضة ، فقالوا : ﴿ فَأْتُواْ بِآبَائِنَا ﴾ أي : ارجعوهم بعد موتهم إلى الدنيا ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فيما تقولونه ، وتختبرونا به من البعث .

(40/697)

ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ أي : أهم خير في القوّة والمنعة ، أم قوم تبع الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه ، وغلب أهلها ، وقهرهم ، وفيه وعيد شديد .

وقيل : المراد بقوم تبع : جميع أتباعه لا واحد بعينه .

وقال الفراء : الخطاب في قوله : ﴿ فَأْتُواْ بِآبَائِنَا ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده كقوله : ﴿ رَبِّ ارجعون ﴾ [المؤمنون : 99] ، والأولى أنه خطاب له ، ولأتباعه من المسلمين والمراد ب ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ عاد ، وثمود ، ونحوهم ، وقوله : ﴿ أهلكناهم ﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم ، وعاقبة أمرهم ، وجملة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ تعليل لإهلاكهم ، والمعنى : أن الله سبحانه قد أهلك هؤلاء بسبب كونهم مجرمين ، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرماً مع ضعفه ، وقصور قدرته بالأولى .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ قال : ابتلينا ﴿ قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ قال : هو : موسى ﴿ أَنْ أَدُّواْ إِلَيَّ عِبَادَ الله ﴾ أرسلوا معي بني إسرائيل ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى الله ﴾ قال : لا تعتوا ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ قال : بعذر مبين ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ قال : بالحجارة ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فاعتزلون ﴾ أي : خلوا سبيلي .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه في قوله : ﴿ أَنْ أَدُّواْ إِلَيَّ عِبَادَ الله ﴾ قال : يقول : اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق ، وفي قوله : ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى الله ﴾ قال : لا تفتروا وفي قوله : ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ قال : تشتمون .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه أيضاً في قوله : ﴿ رَهْواً ﴾ قال :

سمتا .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ رَهْواً ﴾ قال : كهيئة ، وامضه .

(41/697)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عنه أيضاً : أنه سأل كعباً عن قوله : ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ قال : طريقاً .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس أيضاً قال : الرّهو : أن يترك كما كان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ قال : المنابر .

وأخرج ابن مردويه ، عن جابر مثله .

وأخرج الترمذي ، وابن أبي الدنيا ، وأبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والخطيب عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد إلاّ وله بابان : باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات ، فقداه ، وبكيا عليه " ، وتلا هذه الآية ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام صالح ، فتفقدهم ، فتبكي عليهم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الشعب نحوه من قول ابن عباس .

وأخرج أبو الشيخ عنه قال : يقال : الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، ألا لا غربة على مؤمن ، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه ، إلا بكت عليه السماء والأرض " ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ ثم قال : " إنهما لا يبكيان على كافر " وأخرج ابن المبارك ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع ، عن عليّ بن أبي طالب قال : إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله من السماء ، ثم تلا الآية .

(42/697)

وأخرج ابن المبارك ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب ، عن ابن عباس قال : إن الأرض لتبكي على ابن آدم أربعين صباحاً ، ثم قرأ الآية .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسبوا تبعاً

فإنه قد أسلم " وأخرجه أحمد ، والطبراني ، وابن ماجه ، وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر مثله ، وروي نحو هذا عن غيرهما من الصحابة ، والتابعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(43/697)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) ﴾

معطوف على الكلام المحذوف الذي دلّ عليه قوله : ﴿ إنهم جندٌ مغرقون ﴾ [الدخان : 24] الذي تقديره : ﴿ فأغرقناهم ونجّينا بني إسرائيل ﴾ كما قال في سورة الشعراء (64 66) ﴿ وأزلفنا ثَمَّ الآخَرين وأنجينا موسى ومن معه أجْمَعين ثم أغرقنا الآخَرين ﴾ .

والمعنى : ونجينا بني إسرائيل من عذاب فرعون وقساوته ، أي فكانت آيةُ البَحر هلاكاً لقوم وإنجاء لآخَرين .

والمقصود من ذكر هذا الإشارةُ إلى أن الله تعالى ينجي الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم من عذاب أهل الشرك بمكة ، كما نجّى الذين اتبعوا موسى من عذاب فرعون .

وجُعل طغيان فرعون وإسرافه في الشر مثلاً لطغيان أبي جهل وملئه ولأجل هذه الإشارة أُكد الخبر باللام .

وقد يفيد تحقيق إنجاء المؤمنين من العذاب المقدَّر للمشركين إجابة لدعوة ﴿ ربَّنَا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ [الدخان : 12] .

و﴿ العذاب المهين ﴾ : هو ما كان يعاملهم به فرعون وقومه من الاستعباد والإشقاق عليهم في السخرة ، وكان يكلفهم أن يصنعوا له اللَّبِن كل يوم لبناء مدينتي فيثوم ورعمسيس وكان اللبن يصنع من الطوب والتبْن فكان يكلفهم استحضار التبْن اللازم لصنع اللبن ويلتقطون متناثره ويذلونهم ولا يتركون لهم راحة ، فذلك العذاب المهين لأنه عذاب فيه إذلال .

وقوله : ﴿ من فرعون ﴾ الأظهر أن يكون بدلاً مطابقاً للعذاب المهين فتكون ﴿ مِن ﴾ مؤكدة ل ﴿ من ﴾ الأولى المعدية ل ﴿ نجينا ﴾ لأن الحرف الداخل على المبدل منه يجوز أن يدخل على البدل للتأكيد .

ويحسن ذلك في نكت يقتضيها المقام وحسنّه هنا ، فأظهرت ﴿ مِن ﴾ لخفاء كون اسم فرعون بدلاً من العذاب تنبيهاً على قصد التهويل لأمر فرعون في جَعل اسمه نفس العذاب المَهِين ، أي في حال كونه صادراً من فرعون .

وجملة ﴿ إنه كان عالياً ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لبيان التهويل الذي أفاده جعل اسم فرعون بدلاً من العذاب المهين .

والعالي : المتكبر العظيم في الناس ، قال تعالى : ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ [القصص : 4] .

و ﴿ من المسرفين ﴾ خبر ثان عن فرعون ، والإسراف : الإفراط والإكثار .

والمراد هنا الإكثار في التعالي ، يراد الإكثار في أعمال الشر بقرينة مقام الذم .

و ﴿ من المسرفين ﴾ أشد مبالغة في اتصافه بالإسراف من أن يقال : مسرفاً ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ بالله أنْ أكونَ من الجاهلين ﴾ في سورة البقرة (67) .

وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32)

إشارة إلى أن الله تعالى قد اختار الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم على أمم عصرهم كما اختار الذين آمنوا بموسى عليه السلام على أمم عصرهم وأنه عالم بأن أمثالهم أهل لأن يختارهم الله .

والمقصود : التنويه بالمؤمنين بالرسل وأن ذلك يقتضي أن ينصرهم الله على أعدائهم ولأجل هذه الإشارة أكد الخبر باللام و (قد) ، كما أكد في قوله آنِفاً ﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل ﴾ [الدخان : 30] ، و ﴿ على ﴾ في قوله : ﴿ على علم ﴾ بمعنى (مع) ، كقول

الأحوص :

إني على ما قد علمتِ محسَّد

أنمي على البغضاء والشنآن . . .

وموضع المجرور بها موضع الحال .

والمراد بـ ﴿ العالمين ﴾ الأمم المعاصرة لهم .

ثم بدلوا بعد ذلك فضربت عليهم الذلة ، وقد اختار الله أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على الأمم فقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران : 110] أي أخرجها الله للناس .

واختار المسلمين بعدهم اختياراً نسبياً على حسب استقامتهم واستقامة غيرهم من الأمم على أن التوحيد لا يعدله شيء .

وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33)

إيتاء الآيات من آثار الاختيار لأنه من عناية الله بالأمة لأنه يزيدهم يقيناً بإيمانهم .

(45/697)

والمراد بالآيات المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام أيد الله به بني إسرائيل في مواقع حروبهم بنصر الفئة القليلة منهم على الجيوش الكثيرة من عدوّهم .

وهذا تعريض بالإنذار للمشركين بأن المسلمين سيغلبون جمعهم مع قِلتِهم في بدر وغيرها .

والبلاء : الاختبار يكون بالخير والشر .

فالأول اختبار لمقابلة النعمة بالشكر أو غيره ، والثاني اختبار لمقدار الصبر ، قال تعالى : ﴿ ونبْلوكم بالشر والخير فتنةً ﴾ [الأنبياء : 35] أي ما فيه اختبار لهم في نظر الناس ليعلم بعضهم أنهم قابلوا نعمة إيتاء الآيات بالشكر ، ويحذروا قومهم من مقابلة النعمة بالكفران .

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35)

اعتراض بين جملة ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنّا منتقمون ﴾ [الدخان : 16] وجملة ﴿ أهم خيرٌ أم قوم تُبّع ﴾ [الدخان : 37] فإنه لما هددهم بعذاب الدخان ثم بالبطشة الكبرى وضرب لهم المثل بقوم فرعون أعقب ذلك بالإشارة إلى أن إنكار البعث هو الذي صرفهم عن توقع جزاء السوء على إعراضهم .

وافتتاح الكلام بحرف ﴿ إنّ ﴾ الذي ليس هو للتأكيد لأن هذا القول إلى المشركين لا تردّد فيه حتى يحتاج إلى التأكيد فتعين كون حرف ﴿ إنَّ ﴾ لمجرد الاهتمام بالخبر ، وهو إذا وقع مثل هذا الموقع أفاد التسبب وأغنى عَن الفاء .

فالمعنى : إنا منتقمون منهم بالبطشة الكبرى لأنهم لا يرتدعون بوعيد الآخرة لإنكارهم الحياة الآخرة فلم ينظروا إلا لما هم عليه في الحياة الدنيا من النعمة والقوة فلذلك قدر الله لهم الجزاء على سوء كفرهم جزاء في الحياة الدنيا .

وضمير ﴿ هي ﴾ ضمير الشأن ويقال له : ضمير القصة لأنه يستعمل بصيغة المؤنث بتأويل القصة ، أي لا قصة في هذا الغرض إلا الموتة المعروفة فهي موتة دائمة لا نشور لنا بعدها .

(46/697)

وهذا كلام من كلماتهم في إنكار البعث فإن لهم كلمات في ذلك ، فتارة ينفون أن تكون بعد الموت حياة كما حكى عنهم في آيات أخرى مثل قوله تعالى : ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [الأنعام : 29] ، وتارة ينفون أن يطرأ عليهم بعد الموتة المعروفة شيء غيرها يعنون بذلك شيئاً ضد الموتة وهو الحياة بعد الموتة .

فلهم في نَفْي الحياة بعد الموت أفانين من أقوال الجحود ، وهذا القصر قصر حقيقي في اعتقادهم لأنهم لا يؤمنون باعتراء أحوال لهم بعد الموت .

وكلمة ﴿ هؤلاء ﴾ حيثما ذكر في القرآن غير مسبوق بما يصلح أن يشار إليه : مراد به

المشركون من أهل مكة كما استنبطناه ، وقدمنا الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء ﴾ في سورة الأنعام (89) .

ووصف ﴿ الأولى ﴾ مراد به السابقة مثل قوله : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ [النجم : 50] ومنه قوله تعالى : ﴿ ولقد ضلّ قبلهم أكثرُ الأولين ﴾ [الصافات : 71] .

ونظيرها قوله تعالى : ﴿ أفما نحن بميتين إلاّ موتَتَنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ [الصافات : 58 ، 59] .

وأعقبوا قصر ما ينتابهم بعد الحياة على الموتة التي يموتونها ، بقوله : ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ تصريحاً بمفهوم القصر .

وجيء به معطوفاً للاهتمام به لأنه غرض مقصود مع إفادته تأكيد القصر وجعلوا قولهم : ﴿ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ حجة على نفي البعث بأن الأموات السابقين لم يرجع أحد منهم إلى الحياة وهو سفسطة لأن البعث الموعود به لا يحصل في الحياة الدنيا ، وهذا من تورّكهم واستهزائهم .

وضمير جمع المخاطبين أرادوا به النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين الذين كانوا يقولون لهم ﴿ إنكم مبعوثون ﴾ [هود : 7] كما جاء في حديث خبّاب بن الأرتّ مع العاصي بن وائل الذي نزل بسببه قوله تعالى : ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتَيَنّ مالاً وولداً ﴾ الآية ، وتقدم في سورة مريم (77) .

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37)

استئناف ناشىء عن قوله : ﴿ ولقد فتنّا قبلهم قوم فرعون ﴾ [الدخان : 17] فضمير ﴿ هم راجع إلى اسم الإشارة في قوله : ﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ [الدخان : 34 ، 35] فبعد أن ضرب لهم المثل بمهلك قوم فرعون زادهم مثلاً آخر هو أقرب إلى اعتبارهم به وهو مُهلك قوم أقرب إلى بلادهم من قوم فرعون وأولئك قوم تبّع فإن العرب يتسامعون بعظمة مُلك تُبَّع وقومه أهل اليمن وكثير من العرب شاهدوا آثار قوتهم وعظمتهم في مراحل أسفارهم وتحادثوا بما أصابهم من الهلك بسيل العرم .

وافتتح الكلام بالاستفهام التقريري لاسترعاء الأسماع لمضمونه لأن كل أحد يعلم أن تُبَّعاً ومن قبله من الملوك خير من هؤلاء المشركين .

والمعنى : أنهم ليسوا خيراً من قوم تبع ومن قبلهم من الأمم الذين استأصلهم الله لأجل إجرامهم فلما مَاثلوهم في الإجرام فلا مزيّة لهم تدفع عنهم استئصال الذي أهلك الله به أمماً قبلهم .

والاستفهام في ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ تقريري إذ لا يسعهم إلا أن يعترفوا بأن قوم تبّع

والذين من قبلهم خير منهم لأنهم كانوا يضربون بهم الأمثال في القوة والمنعة .

والمراد بالخيرية التفضيل في القوة والمنعة ، كما قال تعالى بعد ذكر قوم فرعون ﴿ أكفاركم خيرٌ من أُولئكم ﴾ في سورة القمر (43) .

وقوم تُبّع هم حمير وهم سكان اليمن وحضرَموت من حمير وسبأ وقد ذكرهم الله تعالى في سورة قَ .

وتُبّع بضم الميم وتشديد الموحدة لقب لِمَن يملك جميع بلاد اليمن حِمْيراً وسبأ وحضرموت ، فلا يطلق على الملك لقب تُبّع إلا إذا ملك هذه المواطن الثلاثة .

(48/697)

قيل سمّوه تُبّعاً باسم الظل لأنه يَتبع الشمس كما يتبع الظل الشمس ، ومعنى ذلك : أنه يسير بغزاوته إلى كل مكان تطلع عليه الشمس ، كما قال تعالى في ذي القرنين ﴿ فاتّبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ إلى قوله : ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ [الكهف : 85 90] ، وقيل لأنه تتبعه ملوك مخاليف اليمن ، وتخضع له جميع الأقيال والأذواء من ملوك مخاليف اليمن وأذوائه ، فلذلك لُقّبَ تُبّعاً لأنه تتبعه الملوك .

وتُبّع المراد هُنا المسمّى أسعد والمُكنّى أبا كَرِب ، كان قد عظم سلطانه وغزا بلاد العرب

ودخل مكة ويثرب وبلغ العراق .

ويقال : إنه الذي بنى مدينة الحِيرة في العراق ، وكانت دولة تُبّع في سنة ألف قبل البعثة المحمدية ، وقيل كان في حدود السبعمائة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وتعليق الإهلاك بقوم تُبّع دونه يقتضي أن تبّعاً نجا من هذا الإهلاك وأن الإهلاك سلط على قومه ، قالت عائشة : ألا ترى أن الله ذمّ قومه ولم يَذمه .

والمروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في مسند أحمد وغيره أنه قال : " لا تسبوا تُبعاً فإنه كان قد أسلم وفي رواية كان مؤمناً " وفسره بعض العلماء بأنه كان على دين إبراهيم عليه السلام وأنه اهتدى إلى ذلك بصحبة حبْرَين من أحبار اليهود لقيهما بيثرب حين غزاها وذلك يقتضي نجاته من الإهلاك .

ولعل الله أهلك قومه بعد موته أو في مغيبه .

وجملة ﴿ أهلكناهم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لما أثاره الاستفهام التقريري من السؤال عن إبهامه ماذا أريد به .

وجملة ﴿ إنهم كانوا مجرمين ﴾ تعليل لمضمون جملة ﴿ أهلكناهم ﴾ ، أيْ أهلكناهم عن بكرة أبيهم بسبب إجرامهم ، أي شركهم .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38)

عطف على جملة ﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ [الدخان : 34 ، 35] ردّاً عليهم كما علمته آنفاً .

(49/697)

والمعنى : أنه لو لم يكن بعثٌ وجزاءٌ لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما عبثاً ، ونحن خلقنا ذلك كله بالحق ، أي بالحكمة كما دل عليه إتقان نظام الموجودات ، فلا جرم اقتضى خلق ذلك أن يجازَى كل فاعل على فعله وأن لا يضاع ذلك ، ولما كان المشاهد أن كثيراً من النّاس يقضي حياته ولا يرى لنفسه جزاء على أعماله تعيّن أن الله أخّر جزاءهم إلى حياة أخرى وإلا لكان خلقهم في بعض أحواله من قبيل اللعب .

وذكر اللعب توبيخ للذين أحالوا البعث والجزاء بأنهم اعتقدوا ما يفضي بهم إلى جعل أفعال الحكيم لعباً ، وقد تقدم وجه الملازمة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون ﴾ في سورة المؤمنون (115) وعند قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وَما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ﴾ في سورة ص (27) .

ولاعبين ﴾ حال من ضمير ﴿ خلقنا ﴾ ، والنفي متوجه إلى هذا الحال فاقتضى نفي أن يكون شيء من خلق ذلك في حالة عبث فمن ذلك حالة إهمال الجزاء .

وجملة ﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ .

والباء في ﴿ بالحق ﴾ للملابسة ، أي خلقنا ذلك ملابساً ومقارناً للحق ، أو الباء للسببية ، أي بسبب الحق ، أي لإيجاد الحق من خلقهما .

والحق : ما يحق وقوعه من عمل أو قول ، أي يجب ويتعين لسببية أو تفرع أو مجازاة ، فمن الحق الذي خُلقت السماوات والأرض وما بينهما لأجله مكافأة كل عامل بما يناسب عمله ويُجازيه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ في سورة الروم (8) .

والاستدراك في قوله : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ناشىء عما أفاده نفي أن يكون خلق المخلوقات لَعباً وإثبات أنه للحق لا غير من كون شأن ذلك أنْ لا يخفى ولكن جهل المشركين هو الذي سوّل لهم أن يقولوا ﴿ ما نحن بمنشرين ﴾ [الدخان : 35] .

(50/697)

وجملة الاستدراك تذييل ، وقريب من معنى الآية قوله : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية ﴾ في آخر سورة الحجر (85) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(51/697)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) ﴾

أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ قال : أنزل القرآن في ليلة القدر ، ثم نزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً بجواب كلام الناس .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن قتادة ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ قال : هي (ليلة القدر) .

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي الجلد قال : نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزل الإِنجيل لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين .

وأخرج سعيد بن منصور ، عن إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ قال : نزل القرآن جملة على جبريل وكان جبريل يجيء بعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج سعيد بن منصور ، عن سعيد بن جبير قال : نزل القرآن من السماء العليا إلى السماء الدنيا جميعاً في (ليلة القدر) ثم فصل بعد ذلك في تلك السنين .

وأخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : يكتب من ﴿ أم الكتاب ﴾ [الرعد : 39] ﴿ في ليلة القدر ﴾ ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج ، يحج فلان ويحج فلان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عمر في قوله ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : أمر السنة إلى السنة إلا الشقاء والسعادة ، فإنه في كتاب الله لا يبدل ولا يغير .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء الخراساني ، عن عكرمة ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : يقضي في (ليلة القدر) (كل أمر محكم) .

وأخرج ابن أبي شيبة ومحمد بن نصر وابن المنذر من طريق محمد بن سوقة ، عن عكرمة قال : يؤذن للحاج ببيت الله في (ليلة القدر) فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، فلا يغادر تلك الليلة أحد ممن كتب ، ثم قرأ ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم .

وأخرج سعيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه أنه سئل عن قوله ﴿ حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾ ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : يفرق ﴿ في ليلة القدر ﴾ ما يكون من السنة إلى السنة إلا الحياة والموت ، يفرق فيها المعايش والمصائب كلها .

وأخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن جرير ، عن ربيعة بن كلثوم قال : كنت عند الحسن فقال له رجل يا أبا سعيد (ليلة القدر) في كل رمضان هي ؟ قال : أي والله إنها لفي كل رمضان وإنه لليلة ﴿ يفرق فيها كل أمر حكيم ﴾ فيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها .

وأخرج ابن جرير ، عن عمر مولى غفرة قال : يقال ينسخ لملك الموت من يموت من (ليلة القدر) إلى مثلها ، وذلك لأن الله يقول : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ إلى قوله ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ فتجد الرجل ينكح النساء ويفرش الفرش واسمه في الأموات .

وأخرج ابن جرير عن هلال بن يساف قال : كان يقال انتظروا القضاء في شهر رمضان .

وأخرج ابن جرير ، عن قتادة ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ قال : (ليلة القدر) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإِيمان ، عن ابن عباس قال : إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ، ثم قرأ ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾ ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ يعني (ليلة القدر) قال : ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل موت أو حياة أو رزق كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها من قابل .

(53/697)

وأخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر والبيهقي ، عن أبي مالك في قوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : عمل السنة إلى السنة .

وأخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن جرير والبيهقي ، عن أبي عبد الرحمن السلمي في قوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : يدبر أمر السنة إلى السنة (في ليلة القدر) .

وأخرج البيهقي ، عن أبي الجوزاء ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : هي (ليلة القدر) يجاء بالديوان الأعظم السنة إلى السنة ، فيغفر الله عز وجل لمن يشاء ، ألا ترى أنه قال : ﴿ رحمة من ربك ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن نصر وابن جرير والبيهقي ، عن قتادة في قوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : فيها يفرق أمر السنة إلى السنة ، وفي لفظ قال : فيها يقضى ما يكون من السنة إلى السنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر والبيهقي ، عن أبي نضرة ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : يفرق أمر السنة في كل (ليلة قدر) خيرها وشرها ورزقها وأجلها وبلاؤها ورخاؤها ومعاشها إلى مثلها من السنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق محمد بن سوقة ، عن عكرمة ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ قال : في ليلة النصف من شعبان يبرم أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات ويكتب الحاج ، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد .

وأخرج ابن زنجويه والديلمي ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان ، حتى أن الرجل لينكح ويولد له ، وقد خرج اسمه في الموتى " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عطاء بن يسار قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر أكثر صياماً منه في شعبان ، وذلك أنه ينسخ فيه آجال من ينسخ في السنة .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر ، عن عائشة قالت : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر أكثر صياماً منه في شعبان لأنه ينسخ فيه أرواح الأحياء في الأموات ، حتى أن الرجل يتزوج وقد رفع اسمه فيمن يموت ، وإن الرجل ليحج وقد رفع اسمه فيمن يموت .

وأخرج أبو يعلى ، عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم شعبان كله ، فسألته ؟ قال : " إن الله يكتب فيه كل نفس مبتة تلك السنة ، فأحب أن يأتيني أجلي وأنا صائم " " .

وأخرج الدينوري في المجالسة ، عن راشد بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " في ليلة النصف من شعبان يوحي الله إلى ملك الموت بقبض كل نفس يريد قبضها في تلك السنة " .

وأخرج ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان ، عن الزهري ، عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل ينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى " قال : الزهري وحدثني أيضاً عثمان بن محمد بن المغيرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من يوم طلعت شمسه إلا يقول من استطاع أن يعمل فيّ خيراً فليعمله ، فإني غير مكر عليكم أبداً ، وما من يوم إلا ينادي مناديان من السماء يقول أحدهما : يا طالب الخير أبشر ، ويقول الآخر

: يا طلب الشر أقصر ، ويقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً مالاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكاً مالاً تلفاً " .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، عن عطاء بن يسار قال : إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة ، فيقال اقبض من في هذه الصحيفة ، فإن العبد ليفرش الفراش وينكح الأزواج ويبني البنيان وان اسمه قد نسخ في الموتى .

(55/697)

وأخرج الخطيب في رواة مالك ، عن عائشة : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " يفتح الله الخير في أربع ليال ، ليلة الأضحى والفطر ، وليلة النصف من شعبان ، ينسخ فيها الآجال والأرزاق ويكتب فيها الحاج ، وفي ليلة عرفة إلى الأذان " .

وأخرج الخطيب وابن النجار ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم شعبان كله حتى يصله برمضان ولم يكن يصوم شهراً تاماً إلا شعبان ، فقلت يا رسول الله : إن شعبان لمن أحب الشهور إليك أن تصومه ؟ فقال : " نعم يا عائشة إنه ليس نفس تموت في سنة إلا كتب أجلها في شعبان ، فأحب أن يكتب أجلي وأنا في عبادة ربي وعمل صالح "

ولفظ ابن النجار " يا عائشة إنه يكتب فيه ملك الموت ومن يقبض ، فأحب أن لا ينسخ اسمي إلا وأنا صائم " وأخرج ابن ماجة والبيهقي في شعب الإِيمان ، عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان ليلة النصف من شعبان ، فقوموا ليلها وصوموا نهارها ، فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى سماء الدنيا ، فيقول ألا مستغفر فأغفر له ، ألا مسترزق فأرزقه ، ألا مبتلى فأعافيه ، ألا سائل فأعطيه ، ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر " .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن ماجة والبيهقي ، " عن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فخرجت أطلبه ، فإذا هو بالبقيع رافعاً رأسه إلى السماء ، فقال يا عائشة : " أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ قلت : ما بي من ذلك ؛ ولكني ظننت أنك أتيت بعض نسائك ، فقال : إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا ، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب " " .

(56/697)

وأخرج البيهقي ، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر ، عن أبيه أو عن عمه أو جده أبي بكر الصديق ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل الله إلى السماء الدنيا ليلة النصف

من شعبان ، فيغفر لكل شيء ، إلا لرجل مشرك أو في قلبه شحناء " .

وأخرج البيهقي ، عن أبي ثعلبة الخشني ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان ليلة النصف من شعبان ، اطلع الله تعالى إلى خلقه ، فيغفر للمؤمنين ، ويملي للكافرين ، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه " .

وأخرج البيهقي ، عن معاذ بن جبل ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يطلع الله في ليلة النصف من شعبان ، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن " .

وأخرج البيهقي ، عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً نحوه .

وأخرج البيهقي ، " عن عائشة قالت : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل يصلي ، فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك ، قمت حتى حركت إبهامه ، فتحرك ، فرجعت ، فلما رفع رأسه من السجود وفرغ من صلاته ، فقال : " يا عائشة ، أو يا حميراء ظننت أن النبي قد خاس بك " قلت : لا والله يا نبي الله ولكني ظننت أنك قبضت لطول سجودك فقال : " أتدرين أي ليلة هذه ؟ " قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : " هذه ليلة النصف من شعبان ، فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم " " .

وأخرج البيهقي وضعفه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : " دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عنه ثوبيه ثم لم يستتم أن قام ، فلبسهما فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنه يأتي بعض صويحباتي ، فخرجت أتبعه فأدركته بالبقيع بقيع الغرقد يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء ، فقلت : بأبي أنت وأمي أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا ، فانصرفت فدخلت في حجرتي ولي نَفَسٌ عالٍ ، ولحقني النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا النفس يا عائشة ؟ فقلت : بأبي أنت وأمي أتيتني ، فوضعت عنك ثوبيك ثم لن تستتم أن قمت فلبستهما ، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع . قال يا عائشة : " أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ بل أتاني جبريل عليه السلام ، فقال هذه الليلة ليلة النصف من شعبان ، ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعور غنم كلب ، لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن ولا إلى قاطع رحم ولا إلى مسبل ولا إلى عاق لوالديه ولا إلى مدمن خمر . قالت : ثم وضع عنه ثوبيه ، فقال لي : يا عائشة أتأذنين لي في القيام هذه الليلة ؟ فقلت : نعم بأبي وأمي ، فقام فسجد ليلاً طويلاً حتى ظننت أنه قد قبض ، فقمت ألتمسه ووضعت يدي على باطن قدميه ، فتحرك وسمعته يقول في سجوده ، أعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك جل وجهك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ،

فلما أصبح ذكرتهن له ، فقال يا عائشة : تعلمتيهن ؟ فقلت : نعم ، فقال : تعلميهن وعلميهن ، فإن جبريل عليه السلام علمنيهن وأمرني أن أرددهن في السجود " " .

(58/697)

وأخرج البيهقي ، " عن عائشة قالت : كانت ليلة النصف من شعبان ليلتي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندي ، فلما كان في جوف الليل ، فقدته فأخذني ما يأخذ النساء من الغيرة ، فتلفعت بمرطي ، فطلبته في حجر نسائه ، فلم أجده فانصرفت إلى حجرتي ، فإذا أنا به كالثوب الساقط وهو يقول في سجوده : " سجد لك خيالي وسوادي وآمن بك فؤادي فهذه يدي وما جنيت بها على نفسي يا عظيم يرجى لكل عظيم يا عظيم اغفر الذنب العظيم سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره ، ثم رفع رأسه ، ثم عاد ساجداً ، فقال : أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ بك منك أنت كما أثنيت على نفسك ، أقول كما قال أخي داود أعفر وجهي في التراب لسيدي وحق له أن يسجد ، ثم رفع رأسه فقال : اللهم ارزقني قلباً تقياً ، من الشر نقياً ، لا جافياً ولا شقياً ، ثم انصرف فدخل معي في الخميلة ولي نفس عال ، فقال ما هذا النفس يا حميراء ؟ فأخبرته ، فطفق يمسح بيديه على ركبتي ويقول : ويح هاتين الركبتين ما لقيتا في هذه الليلة ! هذه ليلة

النصف من شعبان ينزل الله فيها إلى السماء الدنيا ، فيغفر لعباده إلا المشرك والمشاحن " .

وأخرج البيهقي ، عن عثمان بن أبي العاص ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان ليلة النصف من شعبان ينزل فيها إلى السماء الدنيا نادى مناد هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ فلا يسأل أحد إلا أعطي ، إلا زانية بفرجها أو مشرك " .

(59/697)

وأخرج البيهقي ، عن علي قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة النصف من شعبان قام ، فصلى أربع عشرة ركعة ثم جلس بعد الفراغ ، فقرأ بأم القرآن أربع عشرة مرة ، وقل هو الله أحد أربع عشرة مرة ، وقل أعوذ برب الفلق أربع عشرة مرة ، وقل أعوذ برب الناس أربع عشرة مرة ، وآية الكرسي مرة ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [التوبة : 128] الآية فلما فرغ من صلاته سألته عما رأيت من صنيعه ؟ قال : " من صنع مثل الذي رأيت ، كان له ثواب عشرين حجة مبرورة ، وصيام عشرين سنة مقبولة ، فإذا أصبح في ذلك اليوم صائماً كان له كصيام سنتين سنة ماضية وسنة مستقبلة " قال البيهقي : يشبه أن يكون هذا الحديث موضوعاً وهو منكر وفي رواته مجهولون .

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6)

أخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ ﴿ رب السماوات والأرض ﴾ بالخفض .

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10)

أخرج ابن جرير ، عن قتادة ﴿ فارتقب ﴾ أي فانتظر .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي عبيدة ، عن ابن مسعود قال : آية الدخان قد مضت .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي عبيدة وأبي الأحوص ، عن عبد الله قال : الدخان جوع أصاب قريشاً حتى كان أحدهم لا يبصر السماء من الجوع .

وأخرج ابن مردويه من طريق عتبة بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن مسعود قال : الدخان قد مضى ، كان أناس أصابهم مخمصة وجوع شديد حتى كانوا يرون الدخان فيما بينهم وبين السماء .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي وائل ، عن عبد الله ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ قال : جوع أصاب الناس بمكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن أبي العالية قال : مضى الدخان والبطشة الكبرى يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد ، عن محمد بن سيرين قال : قال ابن مسعود : كل ما وعدنا الله ورسوله ، فقد رأيناه غير أربع : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، فاما الدخان فقد مضى وكان سني كسني يوسف ، وأما القمر فقد انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما البطشة الكبرى فيوم بدر .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل ، عن مسروق قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : إني تركت رجلاً في المسجد يقول : في هذه الآية ﴿ يوم تأتي السماء بدخان ﴾ ﴿ يغشى الناس ﴾ يوم القيامة دخان ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام ، فغضب وكان متكئاً ، فجلس ثم قال : من علم منكم علماً فليقل به ، ومن لم يكن يعلم ، فليقل الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم ، وسأحدثكم عن الدخان : إن قريشاً لما استصعبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأوا عن الإِسلام قال : اللهم أَعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ فأتي النبي صلى الله عليه وسلم فقيل يا رسول الله : استسق الله لمضر ، فاستسقى لهم فسقوا ، فأنزل الله ﴿ إنا كاشفوا العذاب

قليلاً إنكم عائدون ﴾ أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ؟ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم . فأنزل الله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ فانتقم الله منهم يوم بدر ، فقد مضى البطشة والدخان واللزام .

(61/697)

وأخرج البيهقي في الدلائل ، عن ابن مسعود قال : " لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس إدباراً ، قال : " اللهم سبع كسبع يوسف " فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام ، فجاءه أبو سفيان وناس من أهل مكة ، فقالوا يا محمد : إنك تزعم أنك قد بعثت رحمة ، وأن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسقوا الغيث ، فأطبقت عليهم سبعاً ، فشكا الناس كثرة المطر ، فقال : " اللهم حوالينا ولا علينا " فانحدرت السحابة على رأسه ، فسقي الناس حولهم . قال : فقد مضت آية الدخان وهو الجوع الذي أصابهم . وهو قوله : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ وآية الروم والبطشة الكبرى وانشقاق القمر وذلك كله يوم بدر " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ قال : الجدب وإمساك المطر عن كفار قريش .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ قال : الأليم الموجع ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ قال : الدخان ﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ قال : أنى لهم التوبة ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً ﴾ يعني الدخان ﴿ إنكم عائدون ﴾ إلى عذاب الله يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ قال : بعد وقوع البلاء بهم ﴿ وقد تولوا ﴾ ، عن محمد ﴿ وقالوا معلم مجنون ﴾ ثم كشف عنهم العذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن لهيعة ، عن عبد الرحمن الأعرج ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ قال : كان يوم فتح مكة .

وأخرج ابن سعد من طريق ابن لهيعة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : كان يوم فتح مكة دخان وهو قول الله ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ .

(62/697)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن علي قال : إن الدخان لم يمض بعد ، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وينفخ الكافر حتى ينفد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم بسند صحيح ، عن ابن أبي مليكة قال : دخلت على ابن عباس رضي الله عنهما فقال : لم أنم هذه الليلة ، فقلت : لم ؟ قال : طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يطرق الدخان .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عمر قال : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكمة ، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الدخان إذا جاء نفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع من مسامعه ، ويأخذ المؤمن منه كالزكمة " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : الدخان قد بقي وهو أول الآيات .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق الحسن ، عن أبي سعيد الخدري قال : يهيج الدخان بالناس ، فأما المؤمن ، فيأخذه كهيئة الزكمة .

وأما الكافر ، فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه .

وأخرج ابن جرير ، عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً " أول الآيات : الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا ، والدخان قال : حذيفة : يا رسول الله ، وما الدخان ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما

المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره " .

وأخرج ابن جرير والطبراني بسند جيد ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن منه كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال " .

(63/697)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يهيج الدخان بالناس فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة ، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن أبيّ بن كعب ومجاهد والحسن وأبي العالية وسعيد

بن جبير ومحمد بن سيرين وقتادة وعطية مثله .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن رضي الله عنه قال : إن يوم البطشة الكبرى يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبي العالية قال : كنا نتحدث أن قوله : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ يوم بدر والدخان قد مضى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير بسند صحيح ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس قال : ابن مسعود ﴿ البطشة الكبرى ﴾ يوم بدر وأنا أقول : هي يوم القيامة .

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17)

أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولقد فتنا ﴾ قال : بلونا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولقد فتنا ﴾ قال : ابتلينا ﴿ قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ﴾ قال : هو موسى ﴿ أن أدوا إليَّ عباد الله ﴾ قال : يعني أرسلوا بني إسرائيل ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ قال : لا تعتوا ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ قال : بعذر مبين ﴿ وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ﴾ قال : بالحجارة ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ أي خلوا سبيلي .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أن أدوا إليَّ عباد الله ﴾ قال : يقول اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق ، وفي قوله ﴿ وأن لا تعلوا ﴾ قال : لا تفتروا ، وفي قوله ﴿ أن ترجمون ﴾ قال : تشتمون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عبد الحكم في فتوح مصر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ رهواً ﴾ قال : سمتاً .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ قال : كهيئته وامضه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن الحارث الهاشمي أن ابن عباس ، سأل كعباً ، عن قوله ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ قال : طريقاً .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ قال : طريقاً يبساً .

وأخرج ابن الأنباري ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ قال : ساكناً .

وأخرج ابن جرير ، عن الربيع ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ قال : سهلاً .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ قال : الرهو

أن يترك كما كان ، فإنهم لن يخلصوا من ورائه .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ قال : دمثاً .

وأخرج ابن جرير ، عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ قال : جدداً .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ قال : طريقاً يابساً كهيئته يوم ضربه يقول : لا تأمره أن يرجع بل اتركه حتى يدخل آخرهم .

وأخرج ابن عبد الحكم ، عن الحسن رضي الله عنه ﴿ رهواً ﴾ قال : سهلاً دمثاً .

وأخرج محمد بن كعب القرظي ﴿ رهواً ﴾ قال : طريقاً مفتوحاً .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ رهواً ﴾ قال : طريقاً منفرجاً .

(65/697)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة رضي الله عنه قال : لما قطع موسى البحر عطف ليضرب البحر بعصاه ليلتئم : وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده ، فقيل له ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ يقول : كما هو طريقاً يابساً ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ومقام كريم ﴾ قال : المنابر .

وأخرج ابن مردويه ، عن جابر مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ ومقام كريم ﴾ قال : مقام حسن ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ قال : ناعمين أخرجه الله من جناته وعيونه وزروعه حتى أورطه في البحر كذلك ﴿ وأورثناها قوماً آخرين ﴾ يعني بني إسرائيل والله أعلم .

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)

أخرج الترمذي وابن أبي الدنيا في ذكر الموت ، وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والخطيب ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل عليه منه رزقه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه ، وتلا هذه الآية ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح ، فتفقدهم فتبكي عليهم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإِيمان ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل ، عن قوله : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء ، فقده فبكى عليه ، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه ، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير فلم تبك عليهم السماء والأرض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن قتادة ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ قال : هم كانوا أهون على الله من ذلك . قال : وكنا نحدث أن المؤمن تبكي عليه بقاعه التي كان يصلي فيها من الأرض ومصعد عمله من السماء .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ قال : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض صياحاً . قال : فقيل له تبكي ما تعجب ! وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ ! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره دويّ كدوي النحل ؟ !

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : إن العالم إذا مات بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً .

وأخرج عبد بن حميد ، عن معاوية بن قرة رضي الله عنه قال : إن البقعة التي يصلي عليها المؤمن تبكي عليه إذا مات وبجذائها من السماء ، ثم قرأ ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، عن وهب رضي الله عنه قال : إن الأرض لتحزن على العبد الصالح أربعين صباحاً .

وأخرج عبد بن حميد ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ قال : لم تبك عليهم السماء لأنهم لم يكونوا يرفع لهم فيها عمل صالح ، ولم تبك عليهم الأرض ، لأنهم لم يكونوا يعملون فيها بعمل صالح .

(67/697)

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : كان يقال : الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يقال الأرض تبكي على المؤمن

أربعين صباحاً .

وأخرج ابن المبارك وأبو الشيخ ، عن ثور بن يزيد ، عن مولى لهذيل قال : ما من عبد يضع جبهته في بقعة من الأرض ساجداً لله عز وجل إلا شهدت له بها يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير ، عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلاً رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " إن الإِسلام بدا غريباً وسيعود غريباً ، ألا لا غربة على مؤمن ، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ ثم قال : إنهما لا يبكيان على كافر " . وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عباد بن عبد الله رضي الله عنه قال : سأل رجل علياً ، هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال : إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله في السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا مصعد في السماء .

وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع ، عن علي رضي الله عنه قال : إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ، ثم تلا ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : ما من ميت يموت إلا

تبكي عليه الأرض أربعين صباحاً .

وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : إن الأرض لتبكي على المؤمن أربعين صباحاً . ثم قرأ ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ .

(68/697)

وأخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا ، عن عطاء الخرساني – رضي الله عنه – قال : ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض ، إلا شهدت له يوم القيامة ، وبكت عليه يوم يموت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب ، عن إبراهيم – رضي الله عنه – قال : ما بكت السماء منذ كانت الدنيا ، إلا على اثنين . قيل لعبيد : أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن ؟ قال : ذاك مقامه وحيث يصعد عمله . قال : وتدري ما بكاء السماء ؟ قال : لا . قال : تحمر وتصير وردة كالدهان إن يحيى بن زكريا لما قتل ، احمرت السماء وقطرت دماً . وإن حسين بن علي يوم قتل احمرت السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن زياد – رضي الله عنه – قال : لما قتل الحسين ، احمرت

آفاق السماء أربعة أشهر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن عطاء - رضي الله عنه - قال : بكاء السماء حمرة أطرافها .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن - رضي الله عنه - قال : بكاء السماء ، حمرتها .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن سفيان الثوري - رضي الله عنه - قال : كان يقال : هذه الحمرة التي تكون في السماء ، بكاء السماء على المؤمن .

وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32)

أخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ قال : فضلناهم على من بين أظهرهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : اخترناهم على خير ، علمه الله فيهم على العالمين . قال : العالم الذي كانوا فيه ، ولكل زمان عالم ﴿ وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ قال : أنجاهم من عدوهم وأقطعهم البحر وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ قال : قد قال مشركو العرب ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ قال : بمبعوثين .

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37)

أخرج الطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم " .

وأخرج أحمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم " .

وأخرج ابن عساكر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا يشتبهن عليكم أمر تبع فإنه كان مسلماً .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا تقولوا لتبع إلا خيراً ، فإنه قد حج البيت وآمن بما جاء به عيسى بن مريم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن كعب رضي الله عنه قال : إن تبعاً نعت الرجل الصالح ، ذم الله قومه ولم يذمه . قال : وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً .

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان تبع رجلاً صالحاً ، ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه !

وأخرج ابن عساكر عن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه قال : لا تسبوا تبعاً ، فإن رسول

الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سبه .

وأخرج ابن المنذر وابن عساكر ، عن وهب بن منبه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سب أسعد وهو تبع . قيل : وما كان أسعد ؟ قال : كان على دين إبراهيم وكان إبراهيم يصلي كل يوم صلاة ولم تكن شريعة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا أسعد الحميري وقال : هو أوّل من كسا الكعبة " .

وأخرج ابن المنذر وابن عساكر ، عن سعيد بن جبير قال : ان تبعاً كسا البيت .

وأخرج ابن عساكر ، عن سعيد بن عبد العزيز قال : كان تبع إذا عرض الخيل قاموا صفاً من دمشق إلى صنعاء اليمن .

(70/697)

وأخرج ابن المنذر وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : سألت كعباً عن تبع فإني أسمع الله يذكر في القرآن قوم تبع ولا يذكر تبعاً ؟ فقال : إن تبعاً كان رجلاً من أهل اليمن ملكاً منصوراً ، فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند ، رجع فأخذ طريق الشام ، فأسر بها أحباراً ، فانطلق بهم نحو اليمن – حتى إذا دنا من ملكه طار في الناس أنه هادم الكعبة ، فقال له

الأحبار : ما هذا الذي تحدث به نفسك ، فإن هذا البيت لله وإنك لن تُسَلَّط عليه ، فقال : إن هذا لله وأنا أحق من حرمه ، فأسلم من مكانه وأحرم فدخلها محرماً ، فقضى نسكه ثم انصرف نحو اليمن راجعاً حتى قدم على قومه ، فدخل عليه أشرافهم فقالوا : يا تبع ، أنت سيدنا وابن سيدنا خرجت من عندنا على دين وجئت على غيره ، فاختر منا أحد أمرين ؛ إما أن تخلينا وملكنا وتعبد ما شئت ، وإما أن تذر دينك الذي أحدثت – وبينهم يومئذ نار تنزل من السماء – فقال الأحبار عند ذلك : اجعل بينك وبينهم النار ، فتواعد القوم عند ذلك جميعاً على أن يجعلوا بينهم النار ، فجيء بالأحبار وكتبهم ، وجيء بالأصنام وعمارها وقدموا جميعاً إلى النار ، وقامت الرجال خلفهم بالسيوف ، فهدرت النار هدير الرعد ورمت شعاعاً لها ، فنكص أصحاب الأصنام ، وأقبلت النار فأحرقت الأصنام وعمالها ، وسلم الآخرون ، فأسلم قوم واستسلم قوم ، فلبثوا بعد ذلك عمر تبع ، حتى إذا نزل بتبع الموت استخلف أخاه وهلك ، فقتلوا أخاه وكفروا صفقة واحدة .

(71/697)

وأخرج ابن سعد وابن عساكر ، عن أبيّ بن كعب قال : لما قدم تبع المدينة ونزل بفناه بعث إلى أحبار يهود فقال : إني مخرب هذا البلد حتى لا تقوم به يهودية ويرجع الأمر إلى دين

العرب . فقال له شابور اليهودي . – وهو يومئذ اعلمهم – أيها الملك ، إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل ، مولده بمكة اسمه أحمد وهذه دار هجرته ، إن منزلك هذا الذي نزلت به ، يكون من القتال والجراح أمر كثير في أصحابه وفي عدوهم . قال تبع : ومن يقاتله يومئذ وهو نبي كما تزعم ؟ قال : يسير إليه قومه ؛ فيقتتلون ههنا . قال : فأين قبره ؟ قال : بهذا البلد . قال : فإذا قوتل لمن تكون الدبرة ؟ قال : تكون عليه مرة وله مرة ، وبهذا المكان الذي أنت به يكون عليه ، ويقتل به أصحابه مقتلة عظيمة لم تقتل في موطن ، ثم تكون العاقبة له ويظهر ، فلا ينازعه هذا الأمر أحد . قال : وما صفته ؟ قال : رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ، في عينيه حمرة يركب البعير ويلبس الشملة ، سيفه على عاتقه ، ولا يبالي من لاقى حتى يظهر أمره . فقال تبع : ما إلى هذا البلد من سبيل وما كان ليكون خرابها على يدي ، فرجع تبع منصرفاً إلى اليمن .

وأخرج ابن عساكر عن عباد بن زياد المري عمن أدرك قال : أقبل تبع يفتتح المدائن ويعمل العرب حتى نزل المدينة ، وأهلها يومئذ يهود ، فظهر على أهلها ، وجمع أحبار اليهود فأخبروه أنه سيخرج نبيّ بمكة يكون قراره بهذا البلد اسمه أحمد ، وأخبروه أنه لا يدركه ، فقال تبع للأوس والخزرج : أقيموا بهذا البلد ؛ فإن خرج فيكم ، فآزروه وصدقوه ، وإن لم يخرج ، فأوصوا بذلك أولادكم وقال في شعره :

حدثت أن رسول المليك . . . يخرج حقّاً بأرض الحرم

ولو مدّ دهري إلى دهره . . . لكنت وزيراً له وابن عم

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن سلام قال : لم يمت تبع حتى صدق بالنبي صلى الله عليه وسلم لما كان يهود يثرب يخبرونه .

(72/697)

وأخرج ابن عساكر عن ابن إسحاق قال : أري تبع في منامه أن يكسو البيت فكساه الخصف ، ثم أري ان يكسوه أحسن من ذلك فكساه العافر ، ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الوصائل ، وصائل اليمن ، فكان تبع فيما ذكر لي أول من كساه ، وأوصى بها ولاته من جرهم ، وأمر بتطهيره وجعل له باباً ومفتاحاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ قال يوم يفصل بين الناس بأعمالهم يوفي فيه للأولين والآخرين ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ قال : انقطعت الأسباب يومئذ وذهبت الآصار ، وصار الناس إلى أعمالهم فمن أصاب يومئذ خيراً سعد به ، ومن أصاب يومئذ شرّاً شقي به .

وأخرج ابن المبارك عن الضحاك في قوله ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ قال : ولي عن ولي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى السماء)

وهو/ أَعلى كلّ شىء ، وكلُّ سماء بالإِضافة إِلى مادونها فسماءٌ ، وبالإِضافة إِلى ما فوقها فأَرض ، إِلاَّ السّماء العُلْيا ، فإِنَّها سماءٌ بلا أَرض .

وحُمل على هذا قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

وسُمّى المَطَر سماء لخروجه منها .

وقيل : إِنَّما سمّى سماءً ما لم يقع بالأَرض اعتبارًا بما تقدّم .

وسُمّى النَّبَات سماءً إِمّا لكونه من المطر الَّذِى هو سماءِ ، وإِمّا لارتفاعه عن الأَرض .

والسّماءُ المقابلة للأَرض مؤنث ، وقد يذكَّر .

ويستعمل للواحد والجمع كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ .

وقد يقال فى جمعها : سماوات .

وقال : ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ ، وقال : ﴿ إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ ﴾ ، ووجه ذلك أَنَّه

كالنَّخل والشَّجر وما يجرى مجراهما من أَسماءِ الأَجناس الَّتى تذكّر وتؤَنَّث ويخبر عنه بلفظ الواحد والجمع .

والسّماء الَّذِى هو المطر مذكّر ، ويجمع على أَسْمِيَة وسُمِىَ .

وفى الحديث : "صلَّى بنا فى إِثْر سماءٍ من الليل أَى مطر" .

ويقال : ما زلنا نطأُ السّماء حتى أَتيناكم ، أَى المطر .

قال :

*فإِنّ سماءَنا لمّا تجلّت * خلالَ نجومها حتى الصباحِ*

*رياض بَنَفْسَجٍ خَضِلٍ نَداه * تفتّح بينها نَوْر الأَقاحى*

وقال :

أَردّد عينى فى النجوم كأَنَّها * دنانير لكنَّ السّماءَ زبرجد *

*وخِلْتُ بها والصّبح ما حان وردُه * قناديل والخضراء صرْح ممرّد*

وهو من مسمَّى قومِه : خيارهم .

وتسامَوا على الخيل ، ركبوا .

وأَسميته من بلد : أَشخصته .

وهم يَسْمُون على المائةِ : يزيدون .

ما سمَوت لكم : لم أَنهض لقتالكم .

وقد ورد السّماء فى القرآن على وجوه :

الأَوّل : بمعنى سقْف البيت : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ﴾ : إلى السّقف .

(74/697)

الثَّانى : بمعنى السّحاب : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً ﴾ أَى من السّحاب .

الثالث : بمعنى المطر : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ أَى المطر .

الرابع : بمعنى سماءِ الجَنَّة وأَرضها : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ ، وفى الحديث : "أَرض الجنة من ذهب وسماؤها عرش الرّحمن" .

الخامس : بمعنى سماءِ جهنّم : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ ﴾ إلى قوله ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ .

السادس : بمعنى المقابل للأَرض : ﴿ وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ ﴾ ، ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ ، ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، ونظائرها كثيرة .

والسَّماوة : الشَّخص العالى .

وسَما لى شخصٌ ؛ وسما الفحل على الشُّوَّل سماوة لتجلّلها .

والاسم : ما يعرف به ذات الأَصل .

وأَصله سِمْوٌ بدليل قولهم : أَسماءٌ وسُمِىّ .

وأَصله من السّمُوّ ، وهو الَّذِى به رَفْع ذكر المسمّى فيُعرف به .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ أَى الأَلفاظ والمعانى ، مفرداتِها ومركّباتها .

وبيان أَنَّ الاسم يستعمل على ضربين :

أَحدهما : بحسب الوضع الاصطلاحىّ ، وذلك هو فى المخبَر عنه ، نحو : رجل ، وفرس .

والثانى : بحسب الوضع الأَوّلىّ ، ويقال ذلك للأَنواع الثلاثة : المخبَر عنه ، والمخبَر به ، والرّابط بينهما المسمّى بالحرف ، وهذا هو المراد بالآية ؛ لأَنَّ آدم عليه السّلام كما عُلِّم الاسم عُلّم الفعل والحرف .

ولا يعرف الإِنسان الاسم فيكون عارفًا مسمّاه إِذا عُرض عليه المسمّى إِلاَّ إِذا عَرَف ذاته ، أَلا ترى أَنَّا لو علمنا أَسامى أَشياء بالهنديّة أَو الرّوميّة لم نعرف صورة ما له تلك الأَسماءُ المجرّدة ، بل كنّا عارفين بأَصواتٍ مجرَّدة .

فثبت أَنَّ معرفة الأَسماء لا تحصل إلاَّ بمعرفة المسمّى ، وحصول صورته فى الضمير .

فإذاً المراد بقوله : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ الأَنواع الثلاثة من الكلام وصورة المسّميات فى ذواتها .

وقوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ معناه : أَن الأَسماءَ التى تذكرونها ليس لها مسمّيات ، وإنَّما هى أَسماء على غير مسمَّى ، إذ كان حقيقة ما يعتقدون فى الأَسماءِ بحسب تلك الأَسماء غير موجود فيها .

وقولُه : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ ، فليس المراد أَن يذكروا أَساميها نحو اللَّات والعزَّى ، وإنما أَظْهروا تحقيق ما تدْعونه آلهة ، وأَنه هل يوجد معانى تلك الأَسماء فيها .

ولهذا قال بعد : ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ .

وقولُه : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ أَى البركة والنعمة الفائضة فى صفاته إذا اعتبرت ، وذلك نحو الكريم ، العليم ، البارىء ، الرحمان ، الرحيم .

وقوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ أَى نظيرًا له يستحقّ اسمَه ، وموصوفاً يستحقّ صفته ، على التحقيق .

وليس المعنى : هل تجد من يتسمّى باسمه ؛ إذ كان كثير من أَسمائه قد يُطلق على غيره ،

لكن ليس معناه إذا استعمل فيه كان معناه إذا استعمل فى غيره . والله أعلم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 262 . 266 ﴾

(76/697)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كأنه قيل : إنا نرى أكثر المظلومين يموتون بمرير غصصهم مقهورين ، وأكثر الظالمين يذهبون ظافرين بمطالبهم مسرورين ، فمتى يكون هذا الحق ؟ قال جواباً لذلك مؤكداً لأجل تكذيبهم : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ عند جمع الأولين والآخرين من جميع المكلفين الذين ينتظره كل أحد للفرق بين كل ملبس ، فلا يدع نوعاً منه حتى أنه يميز بين المكاره والمحاب

ودار النعيم وغار الجحيم ، وبين أهل كل منهما بتمييز المحق من المبطل بالثواب والعقاب وهو بعد البعث من الموت ﴿ ميقاتهم ﴾ أي وقت جمع الخلائق للحكم بينهم الذي ضرب لهم في الأزل وأنزلت به الكتب على ألسنة الرسل ﴿ أجمعين ﴾ لا يتخلف عنه أحد ممن مات من الجن والإنس والملائكة وجميع الحيوانات .

(77/697)

ولما ذكر هذا اليوم الذي دل على عظمته بهذه العبارة إفراداً وتركيباً ، ذكر من وصفه ما يحمل على الخوف والرجاء ، فقال مبدلاً منه : ﴿ يوم لا يغني ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ مولى ﴾ بقرابة أو غيرها بحلف أو رق من أعلى أو أسفل ﴿ عن مولى ﴾ أريد أخذه بما وقع منه ﴿ شيئاً ﴾ من الإغناء .

ولما كان الإغناء تارة يكون بالرفق وأخرى بالعنف ، صرح بالثاني لأنه أعظمها والسياق للإهلاك والقهر فقال : ﴿ ولا هم ﴾ أي القسمان ﴿ ينصرون ﴾ أي من ناصر ما لو أراد بعضهم نصرة بعض ، أو أراد غيرهم لو فرض أن ينصرهم ، وعبر بالجمع الذي أفاده الإبهام للمولى ليتناول القليل والكثير منه لأن النفي عنه نفي عن الأفراد من باب الأولى .

ولما نفى الإغناء استثنى منه فقال : ﴿ إلا من رحم الله ﴾ أي أراد إكرامه الملك الأعظم

وهم المؤمنون يشفع بعضهم لبعض بإذن الله في الشفاعة لأحدهم فيكرم الشافع فيه بقبول شفاعته ويكرمه بقبوله الشفاعة فيه .

ولما كان ما تقدم دالاً على تمام القدرة في الإكرام والانتقام ، وكان الإكرام قد يكون عن ضعف ، قال نافياً لذلك ومقرراً لتمام القدرة اللازم منه الاختصاص بذلك مؤكداً له تنبيهاً على أنه ما ينبغي أن يجعل نصب العين وتعقد عليه الخناصر ، ولأن إشراكهم وتكذيبهم بالبعث يتضمن التكذيب بذلك : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده ﴿ العزيز ﴾ أي المنيع الذي لا يقدح في عزته عفو ولا عقاب ، بل ذلك دليل على عزته فإنه يفعل ما يشاء فيمن يشاء من غير مبالاة بأحد .

ولما كان العزيز قد لا يرحم قال : ﴿ الرحيم ﴾ أي الذي لا تمنع عزته أن يكرم من يشاء .

(78/697)

ولما كان السياق للانتقام ، أخبر عن حال الفجار على سبيل الاستئناف ، فقال مؤكداً لما يكذبون به : ﴿ إن شجرة الزقوم ﴾ التي تقدم من وصفها ما يقطع القلوب من أنها تخرج من أصل الجحيم ، وأن طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، وغيره مما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى والذي تعرفونه من ذلك في الدنيا أنها شجرة صغيرة الورق ذفرة أي شديد النتن – مرة ، من

الزقم ، أي اللقم الشديد والشوب والمفرط ، وقال عبد الحق في كتابه الواعي : الزقوم شجرة غبراء صغيرة الورق لا شوك لها ذفرة لها كعابر في سوقها أي عقد كالأنابيب ولها ورد تجرسه النحل ، ورأس ورقها قبيح جداً ، وهي مرعى ، ومنابتها السهل ، قال ابن برجان : وهي في النار في مقابلة شجرة طوبى في الجنة ، يضطرون إلى أكلها وإلى شرب الغسلين كما يضطر أهل الدنيا لإدخال الطعام والشراب ﴿ طعام الأثيم ﴾ أي المبالغ في اكتساب الآثام حتى مرن عليها فصارت به إلى الكفر ﴿ كالمهل ﴾ أي القطران الرقيق وما ذاب من صفر أو حديد أو دردية ، روى أحمد والترمذي – وقال : لا نعرفه إلا من حديث رشدين – وابن حبان في صحيحه والحاكم من وجه آخر – وقال الحاكم : صحيح الإسناد – عن أبي سعيد ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله ﴿ كالمهل ﴾ قال : "كعكر الزيت فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه " ﴿ تغلي ﴾ أي الشجرة – على قراءة الجماعة بالتأنيث ، والطعام على قراءة ابن كثير وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب بالتذكير ولا يعود الضمير على المهل لأنه مشبه به ﴿ في البطون ﴾ أي من شدة الحر .

(79/697)

ولما كان للتذكير بما يعرف شأن عظيم من الإقبال أو التنفير وإن كان دون ما شبه به قال : ﴿ كغلي ﴾ أي مثل غلي ﴿ الحميم ﴾ أي الماء الذي تناهى حره بما يوقد تحته ، فهو يثبت كأنه يريد أن يتخلص مما هو فيه من الحر ، روى – وقال حسن صحيح – والنسائي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم – وقال صحيح على شرطهما – عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معائشهم فكيف بمن يكون هذا طعامه " .

ولما كان كأنه قيل : ما للأثيم يأكل هذا الطعام ، وما الحامل له عليه وعلى مقاربة مكانه ، أجيب بأنه مقهور عليه ، يقتضيه صفة العزة فيه الرحمة لإعادته بأن يقال للزبانية : ﴿ خذوه ﴾ أي أخذ قهر فلا تدعوه يملك من أمره شيئاً ﴿ فاعتلوه ﴾ أي جروه بقهر بغلظة وعنف وسرعة إلى العذاب والإهانة بحيث يكون كأنه محمول ، وقال الرازي في اللوامع : والعتل أن يأخذ بمجامع ثوبه عند صدره يجره ، وقراءة الضم أدل على تناهي الغلظة والشدة من قراءة الكسر ﴿ إلى سواء ﴾ أي وسط ﴿ الجحيم ﴾ أي النار التي في غاية الاضطرام والتوقد ، وهي موضع خروج الشجرة التي هي طعامه .

ولما أفهم هذا صار في موضع يحيط به العذاب فيه من جميع الجوانب ، بين أن له نوعاً آخر من النكد رتبته في العظمة مما يستحق العطف بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم صبوا ﴾ أي في جميع الجهة التي هي ﴿ فوق رأسه ﴾ ليكون المصبوب محيطاً بجميع جسمه ﴿ من عذاب

الحميم ﴾ أي العذاب الذي يغلي به الحميم أو الذي هو الحميم نفسه ، والتعبير عنه بالعذاب أهول ، وهذا في مقابلة ما كان لهم من البركة بما ينزل من السماء من المطر ليجتمع لهم حر الظاهر بالحميم والباطن بالزقوم .

(80/697)

ولما علم بهذا أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، بل وصل إلى غاية الهوان ، دل عليه بالتهكم بما كان يظن في نفسه من العظمة التي يترفع بها في الدنيا على أوامر الله ، فقيل بناء على ما تقديره : يفعل به ذلك مقولاً له : ﴿ ذق ﴾ أي من هذا أوصلك إليه تغررك على أولياء الله .

ولما كان أولياء الله من الرسل وأتباعهم يخبرون في الدنيا أنه – لإبائه أمر الله – هو الذليل ، وكان هذا الأثيم وأتباعه يكذبون بذلك ويؤكدون قولهم المقتضي لعظمته لإحراق أكباد الأولياء حكى له قولهم على ما كانوا يلفظون به زيادة في تعذيبه بالتوبيخ والتقريع معللاً للأمر بالذوق : ﴿ إنك ﴾ وأكد بقوله : ﴿ أنت ﴾ وحدك دون هؤلاء الذين يخبرون بحقارتك ﴿ العزيز ﴾ أي الذي يغلب ولا يغلب ﴿ الكريم ﴾ أي الجامع إلى الجود شرف النفس وعظم الإباء ، فلا تنفعك عن ستر مساوئ الأخلاق بإظهار معاليها فلست بلئيم أي بخيل

مهين النفس خسيس الإباء ، فهو كناية عن مخاطبته بالخسة مع إقامة الدليل على ذلك بما هو فيه من المهالك ، وقراءة الكسائي بفتح " إن " دالة على هذا العذاب قولاً وفعلاً على ما كان يقال له من هذا الدنيا ويعتقد هو أنه حق .

ولما دل على أنه يقال هذا لكل من الأثماء ويفعل به على حدته ، دل على ما يعمون به ، فقال مؤكداً رداً لتكذيبهم سائقاً لهم على وجه مفهم أنه علة ما ذكر من عذابهم : ﴿ إن هذا ﴾ أي العذاب قولاً وفعلاً وحالاً ﴿ ما كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً طبعناكم عليه لتظهر قدرتنا في أمركم دنيا وأخرى ﴿ به تمترون ﴾ أي تعالجون أنفسكم وتحملونها على الشك فيه وتردونها عما لها من الفطرة الأولى من التصديق بالممكن لا سيما لمن جرب صدقه وظهرت خوارق العادات على يده بحيث كنتم لشدة ردكم له كأنكم تخصونه بالشك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 79 . 83 ﴾

(81/697)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) ﴾

اعلم أن المقصود من قوله ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ [الدخان : 38] إثبات القول بالبعث والقيامة ، فلا جرم ذكر عقيبه قوله ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ميقاتهم أَجْمَعِينَ ﴾ وفي تسمية يوم القيامة بيوم الفصل وجوه الأول : قال الحسن : يفصل الله فيه بين أهل الجنة وأهل النار الثاني : يفصل في الحكم والقضاء بين عباده الثالث : أنه في حق المؤمنين يوم الفصل ، بمعنى أنه يفصل بينه وبين كل ما يكرهه ، وفي حق الكفار ، بمعنى أنه يفصل بينه وبين كل ما يريده ، الرابع : أنه يظهر حال كل أحد كما هو ، فلا يبقى في حاله ريبة ولا شبهة ، فتنفصل الخيالات والشبهات ، وتبقى الحقائق والبينات ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى أن يوم يفصل الرحمن بين عباده ميقاتهم أجمعين البر والفاجر ، ثم وصف ذلك اليوم فقال : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ﴾ يريد قريب عن قريب ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي ليس لهم ناصر ، والمعنى أن الذي يتوقع منه النصرة إما القريب في الدين أو في النسب أو المعتق ، وكل هؤلاء يسمون بالمولى ، فلما لم تحصل النصرة منهم فبأن لا تحصل ممن سواهم أولى ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : 123] قال الواحدي : والمراد بقوله ﴿ مَوْلًى عَن مَّوْلًى ﴾ الكفار ألا ترى أنه ذكر المؤمن فقال : ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة .

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على أن القول بالقيامة حق ، ثم أردفه بوصف ذلك اليوم ذكر

عقيبه وعيد الكفار ، ثم بعده وعد الأبرار ، أما وعيد الكفار فهو قوله ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم ﴾ وفيه مسائل :

(82/697)

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" قرىء ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم ﴾ بكسر الشين ، ثم قال وفيها ثلاث لغات : شجرة بفتح الشين وكسرها ، وشيرة بالياء ، وشبرة بالباء .

المسألة الثانية :

لبحث عن اشتقاق لفظ الزقوم قد تقدم في سورة والصافات ، فلا فائدة في الإعادة .

المسألة الثالثة :

قالت المعتزلة : الآية تدل على حصول هذا الوعيد الشديد للأثيم ، والأثيم هو الذي صدر عنه الإثم ، فيكون هذا الوعيد حاصلاً للفساق والجواب : أنا بينا في أصول الفقه أن اللفظ المفرد الذي دخل عليه حرف التعريف الأصل فيه أن ينصرف إلى المذكور السابق ، ولا يفيد العموم ، وههنا المذكور السابق هو الكافر ، فينصرف إليه .

المسألة الرابعة :

مذهب أبي حنيفة أن قراءة القرآن بالمعنى جائز ، واحتج عليه بأنه نقل أن ابن مسعود كان يقرىء رجلاً هذه الآية فكان يقول : طعام اللئيم ، فقال قل طعام الفاجر ، وهذا الدليل في غاية الضعف على ما بيناه في أصول الفقه .

ثم قال : ﴿ كالمهل ﴾ قرىء بضم الميم وفتحها وسبق تفسيره في سورة الكهف ، وقد شبه الله تعالى هذا الطعام بالمهل ، وهو دردى الزيت وعكر القطران ومذاب النحاس وسائر الفلزات ، وتمّ الكلام ههنا ، ثم أخبر عن غليانه في بطون الكفار فقال : ﴿ يَغْلِي فِي البطون ﴾ وقرىء بالتاء فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الشجرة ، ومن قرأ بالياء حمله على الطعام في قوله ﴿ طَعَامُ الأثيم ﴾ لأن الطعام هو (ثمر) الشجرة في المعنى ، واختار أبو عبيد الياء لأن الاسم المذكور يعني المهل هو الذي بل الفعل فصار التذكير به أولى ، واعلم أنه لا يجوز أن يحمل الغلي على المهل لأن المهل مشبه به ، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل كغلي الحميم والماء إذا اشتد غليانه فهو حميم .

(83/697)

ثم قال : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أي خذوا الأثيم ﴿ فاعتلوه ﴾ قرىء بكسر التاء ، قال الليث : العتل أن تأخذ بمنكث الرجل فتعتله أي تجره إليك وتذهب به إلى حبس أو منحة ، وأخذ

فلان بزمام الناقة يعتلها وذلك إذا قبض على أصل الزمام عند الرأس وقادها قوداً عنيفاً ، وقال ابن السكيت عتلته إلى السجن وأعتلته إذا دفعته دفعاً عنيفاً ، هذا قول جميع أهل اللغة في العتل ، وذكروا في اللغتين ضم التاء وكسرها وهما صحيحان مثل يعكفون ويعكفون ، ويعرشون ويعرشون .

قوله تعالى : ﴿ إلى سَوَاء الجحيم ﴾ أي إلى وسط الجحيم ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ وكان الأصل أن يقال : ثم صبوا من فوق رأسه الحميم أو يصب من فوق رؤوسهم الحميم إلا أن هذه الاستعارة أكمل في المبالغة كأنه يقول : صبوا عليه عذاب ذلك الحميم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [البقرة : 25] و ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] وذكروا فيه وجوهاً الأول : أنه يخاطب بذلك على سبيل الاستهزاء ، والمراد إنك أنت بالضد منه والثاني : أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً والثالث : أنك كنت تعتز لا بالله فانظر ما وقعت فيه ، وقرىء أنك بمعنى لأنك .

ثم قال : ﴿ إِنَّ هذا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ أي أن هذا العذاب ما كنتم به تمترون أي تشكون ، والمراد منه ما ذكره في أول السورة حيث قال : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان : 9] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 214.216 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) ﴾

﴿ يَوْمَ الفصل ﴾ هو يوم القيامة ؛ وسُمّيَ بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه .

دليله قوله تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة : 3] .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم : 14] .

ف "يَوْمَ الْفَصْلِ" ميقات الكل ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ مِيقَاتاً ﴾ [النبأ : 17] أي الوقت المجعول لتمييز المسيء من المحسن ، والفصل بينهما : فريق في الجنة وفريق في السعير .

وهذا غاية في التحذير والوعيد .

ولا خلاف بين القرّاء في رفع "مِيقَاتُهُمْ" على أنه خبر "إنّ" واسمها "يَوْمَ الْفَصْلِ" .

وأجاز الكسائي والفرّاء نصب "مِيقَاتهم" .

ب "إن" و "يوم الفصل" ظرف في موضع خبر "إن" ؛ أي إن ميقاتهم يوم الفصل .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ﴾ "يَوْمَ" بدل من "يوم" الأوّل .

والمَوْلَى : الْوَلِيُّ وهو ابن العمّ والناصر .

أي لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ، ولا قريب عن قريبه ، ولا صديق عن صديقه .

﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا ينصر المؤمن الكافر لقرابته .

ونظير هذه الآية : ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ [البقرة : 48] الآية .

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ "مَنْ" رفع على البدل من المضمر في "يُنْصَرُونَ" ؛ كأنك قلت : لا يقوم أحد إلا فلان .

أو على الابتداء والخبر مضمر ؛ كأنه قال : إلا من رحم الله فمغفور له ؛ أو فيغني عنه ويشفع وينصر .

أو على البدل من "مَوْلًى" الأول ؛ كأنه قال : لا يغني إلا من رحم الله .

وهو عند الكسائي والفرّاء نصب على الاستثناء المنقطع ؛ أي لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى مَن يغنيهم من المخلوقين .

ويجوز أن يكون استثناء متصلاً ؛ أي لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض .

﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز الرحيم ﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ؛ كما قال : ﴿ شَدِيدِ العقاب ذِي الطول ﴾ [غافر : 3] فقرن الوعد بالوعيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم ﴾ كل ما في كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء ؛ إلا حرفاً واحداً في سورة الدخان ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم ﴾ ؛ قاله ابن الأنباري .

و ﴿ الأثيم ﴾ الفاجر ؛ قاله أبو الدرداء .

وكذلك قرأ هو وابن مسعود .

وقال همام بن الحارث : كان أبو الدرداء يقرىء رجلاً "إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ"

والرجل يقول : طعام اليتيم ، فلما لم يفهم قال له : "طعام الفاجر" .

قال أبو بكر الأنباريّ : حدّثني أبي قال حدّثنا نصر قال حدّثنا أبو عبيد قال حدّثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : عَلّم عبد الله بن مسعود رجلاً "إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ .

طَعَامُ الْأَثِيمِ" فقال الرجل : طعام اليتيم ، فأعاد عليه عبد الله الصواب وأعاد الرجل الخطأ ، فلما رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول

طعام الفاجر ؟ قال بلى ، قال فافعل .

ولا حجة في هذا للجهال من أهل الزَّيْغ ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للمتعلّم ، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الزَّمَخْشريّ : "وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤديةً معناها .

ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهي أن يؤدّي القارىء المعاني على كمالها من غير أن يَخْرِم منها شيئاً .

(86/697)

قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ؛ لأن في كلام العرب خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه ، من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقلّ بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر .

وروى عليّ بن الجعد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة

بالفارسية" .

وشجرة الزقوم : الشجرة التي خلقها الله في جهنم وسمّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجأوا إليها فأكلوا منها ، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحار .

وشبّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل ، وهو النُّحاس المذاب .

وقراءة العامة "تَغْلِي" بالتاء حملاً على الشجرة .

وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحَيْصِن ورُوَيْس عن يعقوب "يغلي" بالياء حملاً على الطعام ؛ وهو في معنى الشجرة .

ولا يُحمل على المهْل لأنه ذكر للتشبيه .

و"الأثيم" الآثم ؛ من أَثِم يأثَم إثْماً ؛ قاله القشيريّ وابن عيسى .

وقيل هو المشرك المكتسب للإثم ؛ قاله يحيى بن سلام .

وفي الصحاح : وقد أثم الرجل (بالكسر) إثماً ومأثماً إذا وقع في الإثم ، فهو آثم وأثيم وأثوم أيضاً .

فمعنى "طَعَامُ الْأَثِيمِ" أي ذي الإثم الفاجر ، وهو أبو جهل .

وذلك أنه قال : يعِدنا محمد أن في جهنم الزقّوم ، وإنما هو الثريد بالزبد والتمر ، فبيّن الله خلاف ما قاله .

وحكى النقاش عن مجاهد أن شجرة الزقّوم أبو جهل .

قلت : وهذا لا يصح عن مجاهد .

وهو مردود بما ذكرناه في هذه الشجرة في سورة "الصافات وسبحان" أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أي يقال للزبانية خذوه ؛ يعني الأثيم .

﴿ فاعتلوه ﴾ أي جُرُّوه وسُوقوه .

والعَتْل : أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِله ، أي تجرّه إليك لتذهب به إلى حبس أو بليّة .

عتلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلاً إذا جذبته جَذْباً عنيفاً .

ورجل مِعْتَل (بالكسر) .

وقال يصف فَرَساً :

(87/697)

نَفْرَعهُ فَرْعاً ولسنا نَعْتِله . . .

وفيه لغتان ؛ عَتَلَهُ وعَتَنَه (باللام والنون جميعاً) ، قاله ابن السكيت .

وقرأ الكوفيون وأبو عمرو "فاعتلوه" بالكسر .

وضم الباقون .

﴿ إلى سَوَآءِ الجحيم ﴾ وسط الجحيم .

﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ .

قال مقاتل : يضرب مالك خَازن النار ضربة على رأس أبي جهل بمقمع من حديد ، فيتفتّت رأسه عن دماغه ، فيجرِي دماغه على جسده ، ثم يصبّ الملك فيه ماءً حميماً قد انتهى حره فيقع في بطنه ؛ فيقول المَلَك : ذُقِ العذاب .

ونظيره : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ [الحج : 19] .

قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ قال ابن الأنباريّ : أجمعت العوام على كسر "إنّ" .

وروي عن الحسن عن عليّ رحمه الله "ذُق أَنَّكَ" بفتح "أن" ، وبها قرأ الكسائيّ .

فمن كسر "إن" وقف على "ذُقْ" .

ومن فتحها لم يقف على "ذُقْ" ؛ لأن المعنى ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم .

قال قتادة : نزلت في أبي جهل وكان قد قال : ما فيها أعزّ منّي ولا أكرم ؛ فلذلك قيل له : "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" .

وقال عكرمة : " التقى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو جهل فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله أمرني أن أقول لك أَوْلَى لك فأولى فقال : بأي شيء تهدّدني ! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه ؛ فقتله الله يوم بدر وأذلّه ونزلت هذه الآية" " أي يقول له المَلَك : ذق إنك أنت العزيز الكريم

بزعمك .

وقيل : هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص ؛ أي قال له : إنك أنت الذليل المهان .

وهو كما قال قوم شُعيب لشعيب : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] يعنون السفيه الجاهل في أحد التأويلات على ما تقدّم .

وهذا قول سعيد بن جبير .

﴿ إِنَّ هذا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تقول لهم الملائكة : إن هذا ما كنتم تشكون فيه في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(88/697)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ﴾

أي فصل الحق عن الباطل والمحق عن المبطل بالجزاء أو فصل الشخص عن أحبابه وذوي قرابته ﴿ ميقاتهم ﴾ وقت وعدهم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ وقرىء ﴿ ميقاتهم ﴾ بالنصب على أنه اسم إن والخبر ﴿ يَوْمُ الفصل ﴾ أي إن ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل

وليس مثل إن حراسنا أسداً .

﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى ﴾ بدل من ﴿ يوم الفصل ﴾ [الدخان : 40] أو عطف بيان عند من لا يشترط المطابقة تعريفاً وتنكيراً ، وجوز نصبه بأعني مقدراً وأن يكون ظرفاً لما دل عليه الفصل لا له للفصل بينه وبينه بأجنبي ، وهو مصدر لا يعمل إذا فصل لضعفه أوله على قول من اغتفر الفصل إذا كان المعمول ظرفاً كابن الحاجب .

والرضى ، وجوز أبو البقاء كونه صفة لميقاتهم .

وتعقب بأنه جامد نكرة لإضافته للجملة فكيف يكون صفة للمعرفة مع أنه لا يصح بناؤه عند البصريين إذا أضيف إلى جملة صدرها معرب وهو المضارع أي يوم لا يجزى ﴿ مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ﴾ من الإغناء أي الإجزاء ، فشيئاً منصوب على المصدرية ويجوز كونه مفعولاً به ، ويغني بمعنى يدفع وينفع .

وتنكير ﴿ شَيْئاً ﴾ للتقليل ، والمولى الصاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره فيدخل في ذلك ابن العم والحليف والعتيق والمعتق وغيرهم ، وذكر الخفاجي أنه من الولاية وهي التصرف فيشمل كل من يتصرف في آخر لأمر ما كقرابة وصداقة وهو قريب مما ذكرنا .

وأياً ما كان فليس ذلك من استعمال المشترك في أكثر من معنى واحد ، ولو سلم أن هناك مشتركاً استعمل في أكثر من معنى كانت الآية دليلاً لابن الهمام عليه الرحمة في جواز ذلك في

النفي فيقال عنده : ما رأيت عيناً ويراد العين الباصرة وعين الذهب وغيرها ويعلم من نفى إغناء المولى نفى إغناء غيره من باب أولى .

(89/697)

﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ الضمير عند جمع للمولى الأول ؛ والجمع باعتبار المعنى لأنه نكرة في سياق النفي وهي تعم دون الثاني لأنه أفيد وأبلغ لأن حال المولى الثاني نصرته معلوم من نفي الإغناء السابق ، ولأنه إذا لم ينصر من استند إليه فكيف هو ، وأيضاً وجه جمع الضمير فيه أظهر ، وجوز عوده على الثاني للدلالة على أنه لا ينصره غير مولاه وهو في سياق النفي أيضاً وإن لم يكن في ذلك بمرتبة الأول .

نعم قيل في وجه الجمع : عليهما ؛ إن النكرة في سياق النفي تدل على كل فرد فرد فلا يرجع الضمير لها جمعاً .

وأجيب بأنه لا يطرد لأنها قد تحمل على المجموع بقرينة عود ضمير الجمع عليها ، ولعل الأولى عود الضمير على المولى المفهوم من النكرة المنفية ، وقال بعض : لو جعل الضمير للكفار كضمير ﴿ ميقاتهم ﴾ [الدخان : 40] كثرت الفائدة وقلت المؤنة فتأمل .

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللهُ ﴾ في محل رفع على أنه بدل من ضمير ﴿ يُنصَرُونَ ﴾ [الدخان :

41] أو في محل نصب على الاستثناء منه أي لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله تعالى وذلك بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه .

وجوز كونه بدلاً أو استثناءً من ﴿ مَوْلَى ﴾ وفيه كما في الأول دليل على ثبوت الشفاعة لكن الرجحان للأول لفظاً ومعنى ؛ والاستثناء من أي كان متصل ، وقال الكسائي : إنه منقطع أي لكن من رحمه الله تعالى فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه ولا إلى ناصر ينصره ، ولا وجه له مع ظهور الاتصال ، نعم إنه لا يتأتى على كون الاستثناء من الضمير وكونه راجعاً للكفار فلا تغفل .

﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز ﴾ الغالب الذي لا ينصر من أراد سبحانه تعذيبه ﴿ الرحيم ﴾ لمن أراد أن يرحمه عز وجل .

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم ﴾ مر معنى الزقوم في الصافات (62) وقرىء ﴿ شَجَرَةِ ﴾ بكسر الشين .

(90/697)

﴿ طَعَامُ الأثيم ﴾ أي الكثير الآثام والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه دون ما يعمه والعاصي المكثر من المعاصي ثم إن المراد به جنس الكافر لا واحد بعينه ، وقال ابن

زيد .

وسعيد بن جبير : إنه هنا أبو جهل ، وليس بشيء ولا دليل على ذلك بما أخرجه سعيد بن منصور عن أبي مالك من أن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول : تزقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد صلى الله عليه وسلم فنزلت : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الاثيم ﴾ لما لا يخفى ، ومثله ما قيل : إنه الوليد .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الأنباري .

وابن المنذر عن عوف بن عبد الله أن ابن مسعود أقرأ رجلاً ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الاثيم ﴾ فقال الرجل طعام اليثيم فرددها عليه فلم يستقم بها لسانه فقال أتستطيع أن تقول طعام الفاجر ؟ قال : نعم قال : فافعل ، وأخرج الحاكم وصححه وجماعة عن أبي الدرداء أنه وقع له مثل ذلك فلما رأى الرجل أنه لا يفهم قال : إن شجرة الزقوم طعام الفاجر .

واستدل بذلك على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها .

وتعقبه القاضي أبو بكر في الانتصار بأنه أراد أن ينبهه على أنه لا يريد اليتيم بل الفاجر فينبغي أن يقرأ ﴿ الاثيم ﴾ وأنت تعلم أن هذا التأويل لا يكاد يتأتى فيما روي عن ابن مسعود فإنه كالنص في تجويز الإبدال لذلك الرجل وأبعد منه عن التأويل ما أخرج ابن مردويه عن أبي أنه كان يقرىء رجلاً فارسياً فكان إذا قرأ عليه ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الاثيم ﴾ قال : طعام اليتيم فمر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " قل له طعام الظلام " فقالها

ففصح بها لسانه ، وفي الباب أخبار كثيرة جياد الأسانيد كخبر أحمد من حديث أبي هريرة " أنزل القرآن على سبعة أحرف عليماً حكيمً غفوراً رحيماً "

(91/697)

وكخبره من حديث أبي بكرة كله أي القرآن شاف كاف ما لم تختم آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب نحو قولك تعالى وأقبل وأسرع وعجل إلى غير ذلك ، لكن قال الطحاوي : إنما كان ذلك رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ ، وكذا قال ابن عبد البر .

والباقلاني .

وآخرون ، ولعله أن تحقق إبدال من أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعده عليه الصلاة والسلام يقال : إنه كان منه قبل الاطلاع على النسخ ومتى لم يجز إبدال كلمة مكان كلمة مؤدية معناها مع الاتحاد عربية فعدم جواز ذلك مع الاختلاف عربية وفارسية مثلاً أظهر ، وما روي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه من أنه يرى جواز قراءة القرآن بالفارسية بشرط أداء المعاني على كمالها فقد صح عنه خلافه ، وقد حقق الشرنبلالي

عليه الرحمة هذه المسألة في رسالة مفردة بما لا مزيد عليه ، وقد تقدم في هذا الكتاب شيء من ذلك فتذكر ، والطعام ما يتناول منه من الغذاء وأصله مصدر فلذا وقع خبراً عن المؤنث ولم يطابق ، وجوز أن يكون ذلك من باب قوله :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى . . .

وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

فكأنه قيل : إن الزقوم طعام الأثيم .

﴿ كالمهل ﴾ عكر الزيت كما روي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما وجاء في حديث رواه الحاكم وغيره عن أبي سعيد مرفوعاً وفيه "فإذا قرب إلى وجهه يعني الجهنمي سقطت فروة وجهه وربما يؤيد بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ [المعارج : 8] مع قوله سبحانه : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] وقال بعض : عكر القطران ، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الصديد ، ومنه ما في حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه ادفنوني في ثوبي هذين فإنما هما للمهل والتراب .

(92/697)

وفي رواية أخرى عنه رضي الله تعالى عنه أنه ما أذيب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص ، وروي ذلك عن ابن مسعود ، قيل : وسمي ذلك مهلاً لأنه يمهل في النار حتى يذوب فهو من المهل بمعنى السكون ، وادعى بعضهم الاشتراك وقد جاء استعماله في كل ما سمعت ، وقرأ الحسن ﴿ كالمهل ﴾ بفتح الميم وهو لغة فيه ، والجار والمجرور أو الكاف في محل رفع خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف لبيان حال الطعام أي هو كالمهل أو مثل المهل ، وقوله عز وجل : ﴿ يَغْلِى فِى البطون ﴾ خبر ثان لذلك المبتدأ ، وقيل : حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور فيكون وصفاً للطعام أيضاً ؛ وقال أبو عبيد : هو حال من المهل ، وقيل : صفة له لأن أل فيه للجنس نحو أمر على اللئيم يسبني ويعتبر داخلاً في التشبيه وأنت تعلم أن غليان الطعام في البطن فيه مبالغة أما التشبيه بمهل يغلي في البطن فلا ، وقيل كالمهل أو الكاف خبر ثان لإن وجملة ﴿ يَغْلِى فِى البطون ﴾ حال من الزقوم أو الطعام .

وتعقب بأنه منع مجيء الحال من المضاف إليه في غير صور مخصوصة ليس هذا منها ومنع مجيئه من الخبر ومن المبتدأ .

وأجيب بأن هذا بناءً على جواز مجيء الحال من الخبر ومن المبتدأ والمضاف إليه المبتدأ في حكمه وأن ما ذكر من الصور التي يجيء الحال فيها من المضاف إليه لأن المضاف كالجزء في جواز إسقاطه ، ولا يخفى أنه بناءً على ضعيف ، وقيل : كالمهل خبر ثان والجملة حال من ضمير الشجرة المستتر فيه ، والتذكير باعتبار كونها طعام الأثيم أو لاكتسابها إياه مما

أضيفت إليه نظير ما سمعت في البيت آنفاً وهو تكلف مستغنى عنه ، وقيل : الجملة على ذلك خبر مبتدأ محذوف هو ضمير الطعام أو الزقوم فإن كانت الجملة حينئذٍ مستأنفة فالبحث هين وإن كانت حالة عاد ما مر آنفاً ولا أراك تظنه هيناً ، وقيل : كالمهل حال من طعام وحاله معلوم ، وبالجملة الوجوه في إعراب الآية كثيرة وأنا أختار منها ما ذكرته أولاً .

وقرأ عمرو بن ميمون .

(93/697)

وأبو رزين .

والأعرج .

وأبو جعفر .

وشيبة .

وابن محيصن .

وطلحة .

والحسن في رواية .

وأكثر السبعة ﴿ تغلي ﴾ بالتاء الفوقية فكالمهل خبر ثان لإن وجملة ﴿ تغلي ﴾ خبر

ثالث واتحاد المبتدأ والخبر متكفل باتحاد القراءتين معنى فافهم ولا تغفل .

﴿ كَغَلْيِ الحميم ﴾ صفة مصدر محذوف أي غلياً كغلي الحميم ، وجوز أن يكون حالاً ، والحميم ما هو في غاية الحرارة .

﴿ خُذُوهُ ﴾ على إرادة القول والمقول له الزبانية أي ويقال لهم خذوه ﴿ فاعتلوه ﴾ فجروه بقهر .

قال الراغب : العتل الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر ، وبعضهم يعبر بالثوب بدل الشيء وليس ذاك بلازم والمدار على الجر مع الإمساك بعنف .

وقال الأعمش .

ومجاهد : معنى ﴿ اعتلوه ﴾ اقصفون كما يقصف الحطب ، والظاهر عليه التضمين أو تعلق الجار بخذوه ، والمعنى الأول هو المشهور .

وقرأ زيد بن علي .

والحجازيان .

وابن عامر .

ويعقوب ﴿ خُذُوهُ فاعتلوه ﴾ بضم التاء وروي ذلك عن الحسن .

وقتادة .

والأعرج .

على أنه من باب قعد ، وعلى قراءة الجمهور من باب نصر وهما لغتان ﴿ إلى سَوَاء الجحيم ﴾ أي وسطه ، وسمي سواء لاستواء بعد جميع أطرافه بالنسبة إليه .

﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ كأن أصله صبوا فوق رأسه الحميم ، ثم قيل : صبوا فوق رأسه عذاباً هو الحميم للمبالغة بجعل العذاب عين الحميم ، وهو مترتب عليه ولجعله مصبوباً كالمحسوس ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف ، وزيد ﴿ مِنْ ﴾ للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع فهناك إما تمثيل أو استعارة تصريحية أو مكنية أو تخييلية .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ أي ويقال : أو قولوا له ذلك استهزاءً وتقريعاً على ما كان يزعمه .

أخرج عبد الرزاق وغيره عن قتادة قال : لما نزلت ﴿ خُذُوهُ فاعتلوه إلى سُوء الجحيم ﴾ [الدخان : 47] قال أبو جهل : ما بين جبليها رجل أعز ولا أكرم مني ، فقال الله تعالى : ﴿ ذُقْ ﴾ الخ .

وأخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء لقد علمت أنني أمنع أهل بطحاء وأنا العزيز الكريم فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ وروي أن اللعين قال يوماً : يا معشر قريش أخبروني ما أسمي فذكرت له ثلاثة أسماء عمر والجلاس . وأبو الحكم فقال : ما أصبتم أسمي إلا أخبركم به ؟ قالوا : بلى قال : اسمي العزيز الكريم فنزلت ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم ﴾ [الدخان : 43] الآيات ، وهذا ونحوه لا يدل أيضاً على تخصيص حكم الآية به فكل أثيم يدعي دعواه كذلك يوم القيامة ، وقيل : المعنى ذق إنك أنت العزيز في قومك الكريم عليهم فما أغنى ذلك عنك ولم يفدك شيئاً ، والذوق مستعار للإدارك .

وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما على المنبر .

والكسائي ﴿ إِنَّكَ ﴾ بفتح الهمزة على معنى لأنك .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي العذاب أو الأمر الذي أنتم فيه ﴿ مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكون وتمارون فيه ، وهذا ابتداء كلام منه عز وجل أو من مقول القول والجمع باعتبار المعنى لما سمعت أن المراد جنس الأثيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) ﴾

هذه الجملة تتنزل من التي قبلها منزلة النتيجة من الاستدلال ولذلك لم تعطف ، والمعنى : فيوم الفصل ميقاتهم إعلاماً لهم بأن يوم القضاء هو أجَل الجزاء ، فهذا وعيد لهم وتأكيد الخبر لرد إنكارهم .

و﴿ يوم الفصل ﴾ : هو يوم الحكم ، لأنه يفصل فيه الحق من الباطل وهو من أسماء يوم القيامة قال تعالى : ﴿ لأيّ يوم أُجِّلَت ليوم الفصل ﴾ [المرسلات : 12 ، 13] .

والميقات : اسم زمان التوقيت ، أي التأجيل ، قال تعالى : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ [النبأ : 17] ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل هي مواقيت للناس والحجّ ﴾ في سورة البقرة (189) وحذف متعلق الميقات لظهوره من المقام ، أي ميقات جزائهم .

وأضيف الميقات إلى ضمير المخبر عنهم لأنهم المقصود من هذا الوعيد وإلاّ فإن يوم الفصل ميقات جميع الخلق مؤمنيهم وكفارهم .

والتأكيد بـ ﴿ أجمعين ﴾ للتنصيص على الإحاطة والشمول ، أي ميقات لجزائهم كلهم لا يفلت منه أحد منهم تَقْوِيَةً في الوعيد وتأييساً من الاستثناء .

و﴿ يوم لا يغني مولى ﴾ بدل من ﴿ يوم الفصل ﴾ أو عطف بيان .

وفتحة ﴿ يوم لا يغنى ﴾ فتحة إعراب لأن ﴿ يوم ﴾ أضيف إلى جملة ذات فعل معرب .

والمولى : القريب والحليف ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإني خِفتُ الموالي من ورائي ﴾ في سورة مريم (5) .

وتنكير مولًى ﴾ في سياق النفي لإفادة العموم ، أي لا يغني أحد من الموالي كائناً من كان عن أحد من مواليه كائناً من كان .

و﴿ شيئاً ﴾ مفعول مطلق لأن المراد ﴿ شيئاً ﴾ من إغناء .

وتنكير ﴿ شيئاً ﴾ للتقليل وهو الغالب في تنكير لفظ شيء ، كما قال تعالى : ﴿ وشيءٍ من سِدْرٍ قليلٍ ﴾ [سبأ : 16] .

ووقوعه في سياق النفي للعموم أيضاً ، يعني أيَّ إغناء كان في القلة بَلْهَ الإغناء الكثير .

(96/697)

والمعنى : يوم لا تغني عنهم مواليهم ، فعُدل عن ذلك إلى التعميم لأنه أوسع فائدة إذ هو بمنزلة التذييل .

والإغناء : الإفادة والنفع بالكثير أو القليل ، وضميرا ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ راجعان إلى ما رجع إليْهِ ضمير ﴿ أهم خيرٌ ﴾ [الدخان : 37] ، وهو اسم الإشارة من قوله : ﴿

إن هؤلاء ليقولون ﴾ [الدخان : 34] .

والمعنى : أنهم لا يغني عنهم أولياؤهم المظنون بهم ذلك ولا ينصرهم مقيّضون آخرون ليسوا من مواليهم تأخذهم الحمية أو الغيرة أو الشفقة فينصرونهم .

والنصر : الإعانة على العدوّ وعلى الغالب ، وهو أشد الإغْناء .

فعطف ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ على ﴿ لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ زيادة في نفي عدم الإغناء .

فمحصل المعنى أنه لا يغني مُوال عن مُواليه بشيء من الإغناء حسب مستطاعه ولا ينصرهم ناصر شديد الاستطاعة هو أقوى منهم يدفع عنهم غلب القوي عليهم ، فالله هو الغالب لا يدفعه غالب .

وبُني فعل ﴿ ينصرون ﴾ إلى المجهول ليعم نفي كل ناصر مع إيجاز العبارة .

والاستثناء بقوله : ﴿ إلا من رحم الله ﴾ وقع عقب جملتي ﴿ لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ﴾ فحُق بأن يرجع إلى ما يَصلح للاستثناء منه في تينك الجملتين .

ولنا في الجملتين ثلاثة ألفاظ تصلح لأن يستثنى منها وهي ﴿ مولى ﴾ الأولُ المرفوع بفعل ﴿ يغني ﴾ ، و ﴿ مولى ﴾ الثاني المجرورُ بحرف ﴿ عن ﴾ ، وضميرُ ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ ، فالاستثناء بالنسبة إلى الثلاثة استثناء متصل ، أي إلا من رحمه الله من الموالي ، أي فإنه يأذن أن يُشْفَع فيه ، ويأذَن للشافع بأن يَشْفَعَ كما قال تعالى : ﴿ ولا تنفع

الشفاعة عنده إلا لمن أذِن له ﴾ [سبإ : 23] وقال : ﴿ ولا يَشْفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] .

وفي حديث الشفاعة أنه يقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم " سَلْ تُعْطَه واشفَعْ تُشَفَّع " .

والشفاعة : إغناء عن المشفوع فيه .

(97/697)

والشفعاء يومئذٍ أولياء للمؤمنين فإن من الشفعاء الملائكَة وقد حكى الله عنهم قولهم للمؤمنين ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [فصلت : 31] .

وقيل هو استثناء منقطع لأن من رحمه الله ليس داخلاً في شيء قبله مما يدل على أهل المحشر ، والمعنى : لكن من رحمه الله لا يحتاج إلى من يُغني عنه أو ينصره وهذا قول الكسائي والفراء .

وأسباب رحمة الله كثيرة مرجعها إلى رضاه عن عبده وذلك سِر يعلمه الله .

وجملة ﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ استئناف بياني هو جوابٌ مجمل عن سؤال سائل عن تعيين من رحمهُ الله ، أي أن الله عزيز لا يُكرهه أحد على العدول عن مراده ، فهو يرحم من

يَرحمه بمحض مشيئته وهو رحيم ، أي واسع الرحمة لمن يشاء من عباده على وفق ما جرى به علمه وحكمته ووعدُه .

وفي الحديث : " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " .

إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (43)

لما ذكر الله فريقاً مرحومين على وجه الإجمال قابله هنا بفريق معذَّبون وهم المشركون ، ووصف بعض أصناف عذابهم وهو مأكلهم وإهانتهم وتحريقهم ، فكان مقتضى الظاهر أن يبتدأ الكلام بالإخبار عنهم بأنهم يأكلون شجرة الزقوم كما قال في سورة الواقعة (51 ، 52) ﴿ ثم إنكم أيها الضالّون المكذّبون لآكلون من شجرٍ من زقومٍ ﴾ الآية ، فعُدل عن ذلك إلى الإخبار عن شجرة الزقوم بأنها طعام الأثيم اهتماماً بالإعلام بحال هذه الشجرة .

وقد جُعلت شجرة الزقوم شيئاً معلوماً للسامعين فأخبر عنها بطريق تعريف الإضافة لأنها سبق ذكرها في سورة الواقعة التي نزلت قبل سورة الدخان فإن الواقعة عدت السادسة والأربعين في عداد نزول السور وسورة الدخان ثالثة وستين .

ومعنى كون الشجرة طعاماً أن ثمرها طعام ، كما قال تعالى : ﴿ طَلعُها كأنه رؤوس الشياطين فإنَّهم لآكلون منها ﴾ [الصافات : 65 ، 66] .

وكتبت كلمة ﴿ شجرت ﴾ في المصاحف بتاء مفتوحة مراعاة لحالة الوصل وكان الشائع في رسم أواخر الكلم أن تراعى فيه حالة الوقف ، فهذا مما جاء على خلاف الأصل .

و ﴿ الأثيم ﴾ : الكثير الآثام كما دلت عليه زنة فَعيل .

والمراد به : المشركون المذكورون في قوله : ﴿ إنّ هؤلاء ليَقُولُون إن هي إلاّ موتتنا الأولى ﴾ [الدخان : 34 ، 35] ، فهذا من الإظهار في مقام الإضمار لقصد الإيماء إلى أن المهم بالشرك مع سبب معاملتهم هذه .

وتقدم الكلام على شجرة الزقوم في سورة الصافات (62) عند قوله تعالى : ﴿ أذَلك خَيْرٌ نُزُلاً أم شجرة الزقوم .

﴿ والمُهل بضم الميم دُرْدِيُّ الزيت .

والتشبيه به في سواد لونه وقيل في ذوبانه .

والحميم ﴾ : الماء الشديد الحرارة الذي انتهى غليانه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ لهم شرابٌ من حميم ﴾ في سورة الأنعام (70) .

ووجه الشبه هو هيئة غليانه .

وقرأ الجمهور تغلي ﴾ بالتاء الفوقية على أن الضمير ل ﴿ شجرة الزقوم ﴾ .

وإسناد الغليان إلى الشجَرَة مجاز وإنما الذي يغلي ثمرها .

وقرأه ابن كثير وحفص بالتحتية على رجوع الضمير إلى الطعام لا إلى المُهل .

والغليان : شدة تأثر الشيء بحرارة النار يقال : غلي الماء وغلت القدر ، قال النابغة :

يسير بها النعمان تغلي قدوره

وجملة ﴿ خذوه ﴾ الخ مقول لقول محذوف دلّ عليه السياق ، أي يقال لملائكة العذاب :

خذوه ، والضمير المفرد عائد إلى الأثيم باعتبار آحاد جنسه .

والعَتْلُ : القوْد بعنف وهو أن يؤخذ بتلبيب أحد فيقاد إلى سجن أو عذاب ، وماضيه جاء

بضم العين وكسرها .

وقرأه بالضم نافع وابن كثير وابن عامر .

وقرأه الباقون بكسر التاء .

وسَواء الشيء : وسطه وهو أشد المكان حرارة .

وقوله : ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ يتنازعه في التعلق كلٌّ من فعلي ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾

لتضمنهما : سوقوه سوقاً عنيفاً .

و ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لأن صب الحميم على رأسه أشد عليه من أخذه وعتله .

والصبّ : إفراغ الشيء المظروف من الظرف وفعل الصّبّ لا يتعدى إلى العذاب لأن العذاب أمر معنوي لا يصب .

فالصب مستعار للتقوية والإسراع فهو تمثيلية اقتضاها ترويع الأثيم حين سمعها ، فلما كان المحكي هنا القول الذي يسمعه الأثيم صيغ بطريقة التمثيلية تهويلاً ، بخلاف قوله: ﴿ يُصَبّ من فوق رءوسهم الحميم ﴾ [الحج : 19] الذي هو إخبار عنهم في زمن هم غير سامعيه فلم يؤت بمثل هذه الاستعارة إذ لا مقتضى لها .

وجملة ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ مقول قول آخر محذوف تقديره : قولوا له أو يقال له .

والذوق مستعار للإحساس وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة .

وقوله : ﴿ إنك أنت العزيز الكريم ﴾ خبر مستعمل في التهكم بعلاقة الضدّية .

والمقصود عكس مدلوله ، أي أنت الذليل المهان ، والتأكيد للمعنى التهكمي .

وقرأه الجمهور بكسر همزة ﴿ إنك ﴾ .

وقرأه الكسائي بفتحها على تقدير لام التعليل وضمير المخاطب المنفصل في قوله : ﴿ أنت ﴾ تأكيد للضمير المتصل في ﴿ إنك ﴾ ولا يؤكد ضمير النصب المتصل إلا بضمير رفع منفصل .

وجملة ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ بقية القول المحذوف ، أي ويقال للآثمين جميعاً : إن

هذا ما كنتم به تمترون في الدنيا .

والخبر مستعمل في التنديم والتوبيخ واسم الإشارة مشار به إلى الحالة الحاضرة لديهم ، أي هذا العذاب والجزاء هو ما كنتم تكذبون به في الدنيا .

والامتراء : الشك ، وأطلق الامتراء على جزيتهم بنفي يقينهم بانتفاء البعث لأن يقينهم لما كان خلياً عن دلائل العلم كان بمنزلة الشك ، أي أن البعث هو بحيث لا ينبغي أن يوقن بنفيه على نحو ما قرر في قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(100/697)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ، هذه الآية الكريمة يتوهم من ظاهرها ثبوت العزة والكرم لأهل النار مع أن الآيات القرآنية مصرحة بخلاف ذلك كقوله: ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين أذلاء .

وكقوله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ، وقوله هنا : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ .

والجواب- أنها نزلت في أبي جهل لما قال: أيوعدني محمد صلى الله عليه وسلم وليس بين جبليها أعز ولا أكرم مني فلما عذبه الله بكفره قال له ذق إنك أنت العزيز الكريم في زعمك الكاذب بل أنت المهان الخسيس الحقير فهذا التقريع نوع من أنواع العذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 260 ﴾

(101/697)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وصف سبحانه ما للمبالغ في المساوئ وأفرده أولاً إشارة إلى قليل في قوم هذا النبي الكرمي الذي تداركهم الله بدعوته تشريفاً له وإعلاء لمقداره ، وجمع آخراً ذاكراً من آثار ما

استحق به ذلك من مشاركة في أوزاره ، ففهم أن وصفه انقضى ، ومر ومضى ، فتاقت النفس إلى تعرف ما لأضداده الذين خالفوه في مبدئه ومعاده ، قال مؤكداً لما لهم من التكذيب : ﴿ إن المتقين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف ﴿ في مقام ﴾ أي موضع إقامة لا يريد الحال فيه تحولاً عنه ﴿ أمين ﴾ أي يأمن صاحبه فيه من كل ما لا يعجبه .

ولما كان الوصف بعد الوصف شديد الترغيب في الشيء ، قال مبدلاً من " مقام " : ﴿ في جنات ﴾ أي بساتين تقصر العقول عن إدراك وصفها كل وصفها ﴿ وعيون ﴾ كذلك بحيث تقر بها العيون ، ولما كان قد أشار إلى وصف ما للباطن من لذة النظر ولباس الأكل والشرب ، أتبعه كسوة الظاهر وما لكل من القرب فقال : ﴿ يلبسون ﴾ .

ولما وصف ما أعد لهم من اللبس في الجنة ، دل على الكثرة جداً بقوله : ﴿ من سندس ﴾ وهو ما رق من الحرير يعمل وجوهاً ، وزاد صنفاً آخر فقال : ﴿ وإستبرق ﴾ وهو ما غلظ منه يعمل بطائن ، وسمي بذلك لشدة بريقه .

(102/697)

ولما كان وصف الأثماء بما لهم من القبض الشاغل لكل منهم عن نفسه وغيره بعد ما تقدم في الزخرف في آية الأخلاء ما أعلم بكونهم مدابرين وصف أضدادهم بما لهم من البسط مع

الاجتماع فقال : ﴿ متقابلين ﴾ أي ليس منهم أحد يدابر الآخر لا حساً ولا معنى ، وود أن كلاًّ منهم يقابل الآخر ناظراً إليه ، فإذا أرادوا النساء حالت الستور بينهم .

ولما كان هذا أمراً يبهر العقل ، فلا يكاد يتصوره ، قال مؤكداً له : ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كما ذكرنا سواء لا مرية فيه .

ولما كان ذلك لا يتم السرور به إلا بالأزواج قال : ﴿ وزوجناهم ﴾ أي قرناهم كما تقرن الأزواج ، وليس المراد به العقد لأنه فعل متعد بنفسه وهو لا يكون في الجنة لأن فائدته الحل ، والجنة ليست بدار كلفة من تحليل أو تحريم ، وذكر مظهر العظمة تنبيهاً على كمال الشرف ﴿ بحور ﴾ أي على حسب التوزيع بحواري بيض حسان نقيات الثياب ﴿ عين ﴾ أي واسعات الأعين .

ولما كان الإنسان في الدنيا يخشى كلفة النفقات ، وصف ما هنالك من سعة الخيرات فقال : ﴿ يدعون ﴾ أي يطلبون طلباً هو بغاية المسرة ﴿ فيها بكل ﴾ لا يمتنع عليهم صنف من الأصناف ببعد مكان ولا فقد أوان ، ولا غير ذلك من الشأن ، وقال : ﴿ فاكهة ﴾ إيذاناً بأن ذلك مع سعته ليس فيها شيء لإقامة البينة وإنما هو للفتكه ومجرد التلذذ .

ولما كان التوسع في التلذذ يخشى منه غوائل جمة قال : ﴿ آمنين ﴾ أي وهم في غاية الأمن من كل مخوف .

ولما ذكر الأمان ، وكان أخوف ما يخاف أهل الدنيا الموت ، قال : ﴿ لا يذوقون فيها ﴾ أي الجنة ﴿ الموت ﴾ أي لا يتجدد لهم أوائل استطعامه فكيف بما وراء ذلك .

(103/697)

ولما كان المراد نفي ذلك على وجه يحصل معه القطع بالأمن على أعلى الوجوه ، وكان الاستثناء معيار العموم ، وكان من المعلوم أن ما كان في الدنيا من ذوق الموت الذي هو معنى من المعاني قد استحال عوده ، قال معللاً معلقاً على هذا المحال : ﴿ إلا الموتة ﴾ ولما كان المعنى مع إسناد الذوق إليه لا يلبس لأن ما قبل نفخ الروح ليس مذوقاً ، عبر بقوله : ﴿ الأولى ﴾ وقد أفهم التقييد بالظرف أن النار يذاق فيها الموت ، والوصف بالأولى أن المذوق موتة ثانية ، فكان كأنه قيل : لكن غير المتقين ممن كان عاصياً فيدخل النار فيذوق فيها موتة أخرى - كما جاء في الأحاديث الصحيحة ، ويجوز أن يجعل وصف المتقين أعم من الراسخين وغيرهم ، فيكون الحكم على المجموع ، أي أن الكل لا يذوقون ، وبعضهم - وهم من أراد الله من العصاة - يذوقونه في غيرها وهو النار ، ويجوز أن تكون الموتة الأولى كانت في الجنة المجازية فلا يكون تعليقاً بمحال ، وذلك أن المتقي لم يزل فيها في الدنيا مجازاً بما له من التسبب وبما سبق من حكم الله له بها ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " المؤمن إذا

عاد أخاه لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع ، قيل : وما خرفة الجنة ؟ قال : جناها " " وإذا مررتم برياض الجنة فارتعوا " وكذا المحكوم له بما هو فيها عند الموت وبعده بما له من التمتع بالنظر ونحوه من الأكل للشهداء وغير ذلك مما ورد في الأخبار الصحيحة ، ومن ذلك ما رواه البخاري عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن عمه النضر ـ رضى الله عنه ـ قال يوم أحد : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد ، ثم قاتل حتى قتل .

ثم يكون تمام ذلك النعيم بالجنة بعد البعث ، قال ابن برجان : الدنيا إذا تحققت في حق المؤمن المتقي وتتبع النظر فيها فإنها جنة صغرى لتوليه سبحانه إياهم فيها وقربه منهم ونظره إليهم وذكرهم له وعبادتهم إياه وشغلهم به وهو معهم أينما كانوا .

(104/697)

ولما كان السياق للمتقين قال : ﴿ ووقاهم ﴾ أي جملة المتقين في جزاء ما اتقوه ﴿ عذاب الجحيم ﴾ أي التي تقدم إصلاء الأثيم لها ، وأما غير المتقين من العصاة فيدخل الله من أراد منهم النار فيعذر كلاًّ منهم على قدر ذنوبه ثم يميتهم فيها ويستمرون إلى أن يأذن الله في الشفاعة فيهم فيخرجهم ثم يحييهم بما يرش عليهم أهل الجنة من ماء الحياة ، روى الإمام أحمد في مسنده ومسلم في الإيمان من صحيحه وابن حبان في الشفاعة من سننه والدرامي

في صفة الجنة والنار من سننه المشهور بالمسند ، وابن أبي حاتم في تفسيره عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أما أهل النار الذين هم أهلها " – وقال الدارمي : الذين هم للنار – " فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس منكم أصابتهم النار بذنوبهم " ، – أو قال : " بخطاياهم – فأماتهم الله إماتة " ، وقال الإمام أحمد : " فيميتهم إماتة " ، وقال الدرامي : " فإن النار تصيبهم على قدر ذنوبهم فيحرقون فيها حتى إذا كانوا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم " وقال الدرامي : " فيخرجون من النار ضبائر ضبائر فنبتوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة ، أفيضوا عليهم ، فينبتون " ، وقال الدرامي فتنبت لحومهم نبات الحبة في حميل السيل .

(105/697)

الضبائر قال عبد الغافر الفارسي في مجمع الرغائب : جمع ضبارة مثل عمارة عمائر : جماعات الناس ، وروى أبو يعلى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " يدخل ناس في النار حتى إذا صاروا فحماً أدخلوا الجنة ، فيقول أهل الجنة : من هؤلاء ؟ ، فيقال : هؤلاء الجهنميون " ، ولأحمد بن منيع عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " يوضع الصراط " فذكر شفاعة المؤمنين

في إخوانهم بعد جواز الصراط وإذن الله لهم في إخراجهم ، قال : " فيخرجونهم منها فيطرحونهم في ماء الحياة فينبتون نبات الزرع في غثاء السيل " ، ولابن أبي عمر عن عبيد بن عمير ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يخرج الله قوماً من النار بعد ما امتحشوا فيها وصاروا فحماً فيلقون في نهر على باب الجنة يسمى نهر الحياة ، فينبتون فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل – أو كما تنبت الثعارير – فيدخلون الجنة ، فيقال : هؤلاء عتقاء الرحمن " الثعارير – بالثاء المثلثة والعين والراء المهملتين : نبات كالهليون ، وروى الترمذي – وقال : حسن صحيح – وروي من غير وجه عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا فيها حمماً ثم تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما تنبت الغثاء في حمالة السيل ثم يدخلون الجنة " .

(106/697)

ولما كان السياق للمتقين ، فكان ربما ظن أن هذا الذي فعل بهم حق لهم لا بد و لا محيد عنه ، بين أن الأمر على غير ذلك ، وأنه سبحانه لو واخذهم ولم يعاملهم بفضله وعفوه لهلكوا ،

فقال : ﴿ فضلاً ﴾ أي فعل بهم ذلك لأجل الفضل ، ولذلك عدل عن مظهر العظمة فقال تعالى : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بكمال إحسانه إلى اتباعك إحساناً يليق بك ، قال الرازي في اللوامع : أصل الإيمان رؤية الفضل في جميع الأحوال .

ولما عظمه تعالى بإظهار هذه الصفة مضافة إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، زاد في تعظيمه بالإشارة بأداة البعد فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الفضل العظيم الواسع ﴿ هو ﴾ أي خاصة ﴿ الفوز ﴾ أي الظفر بجميع المطالب ﴿ العظيم ﴾ الذي لم يدع جهة الشرف إلا ملأها .

ولما قدم سبحانه في هذه السورة ما للقرآن من البركة بما اشتمل عليه من البشارة والندارة والجمع والفرق ، وذكرهم بما يقرون به من أنه مبدع هذا الكون مما يستلزم إقرارهم بتوحيده المستلزم لأنه يفعل ما يشاء من إرسال وإنزال وتنبيه وبعث وغير ذلك ، وهددهم بما لا يقدر عليه غيره من الدخان والبطشة ، وفعل بعض ذلك ، وذكرهم بما يعرفون من أخبار من مضى من قروم القرون وأنهم مع ذلك كله أنكروا البعث ، ثم ذكر ما يقتضي التحذير والتبشير – كل ذلك في أساليب فأتت كل المدى ، فأعجزت جميع القوى ، مع ما لها من المعاني الباهرة ، والبدائع الزاهرة القاهرة ، سبب عن قوله فذلكة للسورة : ﴿ فإنما يسرناه ﴾ أي جعلنا له يسراً عظيماً وسهولة كبيرة .

ولما كان الإنسان كلما زادت فصاحته وعظمت بلاغته ، كان كلامه أبين وقوله أعذب وأرصن وأرشق وأمتن ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفصح الناس وأبعدهم لذلك من التكلف ، أضافه إليه فقط فقال : ﴿ بلسانك ﴾ أي هذا العربي المبين وهم عرب تعجبهم الفصاحة ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي ليكونوا عند من يراهم وهو عارف بلسانهم ممن شأنه كشأنهم على رجاء من أن يتذكروا أن هذا القرآن شاهد بإعجازه بصحة ما فيه من التوحيد والرسالة وغيرهما مما سبق إليك وجلى عليك وإلا لقدروا هم وهم أفصح الناس على معارضة شيء منه فيتذكروا ما غفلوا عنه من أنه عزيز بإهلاكه الجبابرة ، وأنه حكيم بنصبه الآيات لأنبيائه وتأييدهم بالمعجزات ، ومن أن الكبير منهم لا يرضى أن يطعن أحد في كبريائه ولا أن يترك من له عليه حكم وهو تحت قهره أن يبغي بعضهم على بعض ثم لا ينصر المظلوم منهم على ظالمه ويأخذ بيده حتى لا يستوي المحسن بالمسيء ، فإذا تذكروا ذلك مع ما يعرفون من قدرة الملك وكبريائه وحكمته علموا قطعاً أنه لا بد من البعث للتمييز بين أهل الصلاح والفساد ، والفصل بين جميع العباد ، فتسبب عن ذلك قوله :

﴿ فارتقب ﴾ أي ما رجيتك به من تذكرهم المستلزم لهدايتهم .

ولما كانوا يظهرون تجلداً ولدداً أنهم لا يعبؤون بشيء من القرآن ولا غيره مما يأتي به ولا يعدون شيئاً منه آية ، أخبر عما يبطنون من خوفهم وانتظارهم لجميع ما يهددهم به مؤكداً

لأجل ظن من حمل تجلدهم على أنه جلد فقال : ﴿ إنهم ﴾ وزاد الأمر بالإخبار بالاسم الدال على الثبات والدوام فقال : ﴿ مرتقبون ﴾ أي تكليفهم أنفسهم المراقبة وإجهادهم أفكارهم في ذلك دائم لا يزايلهم بل قد قطع قلوبهم وملأ صدورهم ، فقد انطبق آخر السورة على أولها ، بل وعلى المراد من مجملها ومفصلها ، بذكر الكتاب والأرتقاب لأنواع العذاب – والله الهادي إلى الصواب ، إنه الكريم الوهاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 83.87 ﴾

(108/697)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في الآيات المتقدمة ذكر الوعد في هذه الآيات فقال : ﴿ إِنَّ المتقين ﴾ قال أصحابنا كل من اتقى الشرك فقد صدق عليه اسم المتقي فوجب أن يدخل الفاسق في هذا الوعد .

واعلم أنه تعالى ذكر من أسباب تنعمهم أربعة أشياء أولها : مساكنهم فقال : ﴿ فِى مَقَامٍ

أَمِينٍ ﴾ .

واعلم أن المسكين إنما يطيب بشرطين أحدهما : أن يكون آمناً عن جميع ما يخاف ويحذر وهو المراد من قوله ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ قرأ الجمهور في مقام بفتح الميم ، وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم ، قال صاحب "الكشاف" المقام بفتح الميم هو موضع القيام ، والمراد المكان وهو من الخاص الذي جعل مستعملاً في المعنى العام وبالضم هو موضع الإقامة ، والأمين من قولك أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن ، فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأنه يخون صاحبه والشرط الثاني : لطيب المكان أن يكون قد حصل فيه أسباب النزهة وهي الجنات والعيون ، فلما ذكر تعالى هذين الشرطين في مساكن أهل الجنة فقد وصفها بما لا يقبل الزيادة .

والقسم الثاني : من تنعماتهم الملبوسات فقال : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ قيل السندس ما رقّ من الديباج ، والإستبرق ما غلظ منه ، وهو تعريب استبرك ، فإن قالوا كيف جاز ورود الأعجمي في القرآن ؟ قلنا لما عرب فقد صار عربياً .

والقسم الثالث : فهو جلوسهم على صفة التقابل والغرض منه استئناس البعض بالبعض ، فإن قالوا الجلوس على هذا الوجه موحش لأنه يكون كل واحد منهم مطلعاً على ما يفعله الآخر ، وأيضاً فالذي يقل ثوابه إذا اطلع على حال من يكثر ثوابه يتنغص عيشه ، قلنا أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا .

والقسم الرابع : أزواجهم فقال : ﴿ كَذَلِكَ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ الكاف فيه وجهان أن تكون مرفوعة والتقدير الأمر كذلك أو منصوبة والتقدير آتيناهم مثل ذلك ، قال أبو عبيدة : جعلناهم أزواجاً كما يزوج البعل بالبعل أي جلعناهم اثنين اثنين ، واختلفوا في أن هذا اللفظ هل يدل على حصول عقد التزويج أم لا ؟ ، قال يونس قوله ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي قرناهم بهن فليس من عقد التزويج ، والعرب لا تقول تزوجت بها وإنما تقول تزوجتها ، قال الواحدي رحمه الله والتنزيل يدل على ما قال يونس وذلك قوله ﴿ فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زوجناكها ﴾ [الأحزاب : 37] ولو كان المراد تزوجت بها زوجناك بها وأيضاً فقول القائل زوجته به معناه أنه كان فرداً فزوجته بآخر كما يقال شفعته بآخر ، وأما الحور ، فقال الواحدي أصل الحور البياض والتحوير التبييض ، وقد ذكرنا ذلك في تفسير الحواريين ، وعين حوراء إذا اشتد بياض بياضها واشتد سواد سوادها ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينيها بياضاً في لون الجسد ، والدليل على أن المراد بالحور في هذه الآية البيض قراءة ابن مسعود بعيس عين والعيس البيض ، وأما العين فجمع عيناء وهي التي تكون عظيمة العينين من النساء ، فقال الجبائي رجل أعين إذا كان ضخم العين واسعها

والأنثى عيناء والجمع عين ، ثم اختلفوا في هؤلاء الحور العين ، فقال الحسن هن عجائزكم الدرد ينشئهن الله خلقاً آخر ، وقال أبو هريرة إنهن ليسوا من نساء الدنيا .

والنوع الخامس : من تنعمات أهل الجنة المأكول فقال : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ قالوا إنهم يأكلون جميع أنواع الفاكهة لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض .

ولما وصف الله تعالى أنواع ما هم فيه من الخيرات والراحات ، بين أن حياتهم دائمة ، فقال : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ وفيه سؤالان :

(110/697)

السؤال الأول : أنهم ما ذاقوا الموتة الأولى في الجنة فكيف حسن هذا الاستثناء ؟ وأجيب عنه من وجوه الأول : قال صاحب "الكشاف" أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت ألبتة فوضع قوله ﴿ إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال في المستقبل ، فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل إن كانت الموتة الأولى يمكن ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها الثاني : أن إلا بمعنى لكن والتقدير لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها والثالث : أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته ، وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان الذي فاز بهذه السعادة فهو في الدنيا في الجنة وفي الآخرة أيضاً

في الجنة ، وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموتة الأولى حين كان الإنسان في الجنة الحقيقية التي هي جنة المعرفة بالله والمحبة ، فذكر هذا الاستثناء كالتنبيه على قولنا إن الجنة الحقيقية هي حصول هذه الحالة لا الدار التي هي دار الأكل والشرب ، ولهذا السبب قال عليه السلام : " أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار " والرابع : أن من جرب شيئاً ووقف عليه صح أن يقال إنه ذاقه ، وإذا صح أن يسمى العلم بالذوق صح أن يسمى تذكره أيضاً بالذوق فقوله ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ يعني إلا الذوق الحاصل بسبب تذكر الموتة الأولى .

السؤال الثاني : أليس أن أهل النار أيضاً لا يموتون فلم بشر أهل الجنة بهذا مع أهل النار يشاركونهم فيه ؟ والجواب : أن البشارة ما وقعت بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات والسعادات فظهر الفرق .

(111/697)

ثم قال تعالى : ﴿ ووقاهم عَذَابَ الجحيم ﴾ قرىء ووقاهم بالتشديد ، فإن قالوا مقتضى الدليل أن يكون ذكر الوقاية عن عذاب الجحيم متقدماً على ذكر الفوز بالجنة لأن الذي وقى عن عذاب الجحيم قد يفوز وقد لا يفوز ، فإذا ذكر بعده أنه فاز بالجنة حصلت الفائدة ، أما

الذي فاز بخيرات الجنة فقد تخلص عن عقاب الله لا محالة فلم يكن ذكر الفوز عن عذاب جهنم بعد الفوز بثواب الجنة مفيداً ، قلنا التقدير كأنه تعالى قال : ووقاهم في أول الأمر عن عذاب الجحيم .

ثم قال : ﴿ فَضْلاً مّن رَّبّكَ ﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون من الخلاص عن النار والفوز بالجنة فإنما يحصل بتفضل الله ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الثواب يحصل تفضلاً من الله تعالى لا بطريق الاستحقاق لأنه تعالى لما عدد أقسام ثواب المتقين بين أنها بأسرها إنما حصلت على سبيل الفضل والإحسان من الله تعالى ، قال القاضي أكثر هذه الأشياء وإن كانوا قد استحقوه بعملهم فهو بفضل الله لأنه تعالى تفضل بالتكليف ، وغرضه منه أن يصيرهم إلى هذه المنزلة فهو كمن أعطى غيره مالاً ليصل به إلى ملك ضيعة ، فإنه يقال في تلك الضيعة إنها من فضله ، قلنا مذهبك أن هذا الثواب حق لازم على الله ، وإنه تعالى لو أخل به لصار سفيهاً ولخرج به عن الإلهية فكيف يمكن وصف مثل هذا الشيء بأنه فضل من الله تعالى ؟

(112/697)

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن التفضيل أعلى درجة من الثواب المستحق ، فإنه تعالى وصفه بكونه فضلاً من الله ثم وصف الفضل من الله بكونه فوزاً عظيماً ، ويدل عليه أيضاً أن الملك العظيم إذا أعطى الأجير أجرته ثم خلع على إنسان آخر فإن تلك الخلعة أعلى حالاً من إعطاء تلك الأجرة ، ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال : ﴿ فَإِنَّمَا يسرناه بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ والمعنى أنه تعالى وصف القرآن في أول هذه السورة بكونه كتاباً مبيناً أي كثير البيان والفائدة وذكر في خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال : إن ذلك الكتاب المبين ، الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك ، أي إنما أنزلنا عربياً بلغتك ، لعلّهم يتذكرون ، قال القاضي وهذا يدل على أنه أراد من الكل الإيمان والمعرفة وأنه ما أراد من أحد الكفر وأجاب أصحابنا أن الضمير في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ عائد إلى أقوام مخصوصين فنحن نحمل ذلك على المؤمنين .

ثم قال : ﴿ فارتقب ﴾ أي فانتظر ما يحل بهم ﴿ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ ما يحل بك ، متربصون بك الدوائر ، والله أعلم .

(113/697)

قال المصنف رحمه الله تعالى : تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء في نصف الليل الثاني عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة ، يا دائم المعروف ، يا قديم الإحسان ، شهد لك إشراق العرش ، وضوء الكرسي ، ومعارج السموات ، وأنوار الثوابت والسيارات ، على منابرها ، المتوغلة في العلو الأعلى ، ومعارجها المقدسة عن غبار عالم الكون والفساد ، بأن الأول الحق الأزلي ، لا يناسبه شيء من علائق العقول ، وشوائب الخواطر ، ومناسبات المحدثات ، فالقمر بسبب محوه مقر النقصان ، والشمس بشهادة المعارج بتغيراتها ، معترفة بالحاجة إلى تدبير الرحمن ، والطبائع مقهورة تحت القدرة القاهرة ، فالله في غيبيات المعارج العالية ، والمتغيرات شاهدة بعدم تغيره ، والمتعاقبات ناطقة بدوام سرمديته ، وكل ما نوجه عليه أنه مضى وسيأتي فهو خالقه وأعلى منه ، فبجوده الوجود وإيجاد ، وبإعدامه الفناء والفساد ، وكل ما سواه فهو تائه في جبروته ، نائر عند طلوع نور ملكوته ، وليس عند عقول الخلق إلا أنه بخلاف كل الخلق ، له العز والجلال ، والقدرة والكمال ، والجود والإفضال ، ربنا ورب مبادينا إياك نروم ، ولك نصلي ونصوم ، وعليك المعول ، وأنت المبدأ الأول ، سبحانك سبحانك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 216.219 ﴾

(114/697)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

ثم ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل في أنجائهم من فرعون وقومه ، و ﴿ العذاب المهين ﴾ هو ذبح الأبناء والتسخير في المهن كالبنيان والحفر وغيره .

وفي قراءة ابن مسعود : " من عذاب المهين " ، بسقوط التعريف بالألف واللام من العذاب .

وقوله : ﴿ من فرعون ﴾ بدل من قوله : ﴿ من العذاب ﴾ . و: " مِن " بكسر الميم هي قراءة الجمهور . وروى قتادة أن ابن عباس كان يقرأها " مَن " بفتح الميم " فرعونُ " برفع النون .

وقوله : ﴿ على علم ﴾ أي على شيء سبق عندنا فيهم وثبت في علمنا أنه سينفذ .

وقوله : ﴿ على العالمين ﴾ يريد على جميع الناس ، هذا على التأويل المتقدم في العلم .

والمعنى : لقد اخترناها لهذا الإنجاء وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم وخصصناهم بذلك دون العالم ، ويحتمل قوله : ﴿ على علم ﴾ أن يكون معناه : على علم وفضائل فيهم ، والمعنى : اخترناهم للنبوءات والرسالات ، فيكون قوله : ﴿ على العالمين ﴾ في هذا التأويل ، معناه : على عالم زمانهم ، وذلك بدليل فضل أمة محمد لهم وعليهم ، وأن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس .

وقوله تعالى : ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ لفظ جامع لمعجزات موسى وللعبر التي ظهرت في قوم فرعون من الجراد والقمل والضفادع وغير ذلك ، ولما أنعم به على بني إسرائيل من تظليل

الغمام والمن والسلوى وغير ذلك ، فإن لفظ ﴿ الآيات ﴾ يعم جميع هذا . والبلاء في هذا الموضع : الامتحان والاختبار ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ [الأنبياء : 35] و: ﴿ مبين ﴾ بمعنى بين .

(115/697)

ثم ذكر تعالى قريشاً وحكى عنهم على جهة الإنكار لقولهم حين أنكروا فيه ما هو جائز في العقل فقال : ﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ أي ما آخر أمرنا ومنتهى وجودنا إلا عند موتتنا ، وما نحن بمبعوثين من القبور ، يقال أنشر الله الميت فنشر هو ، وقول قريش : ﴿ فأتوا ﴾ مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه من حيث كان النبي عليه السلام مسنداً في أقواله وأفعاله إلى الله تعالى وبواسطة ملك خاطبوه كما تخاطب الجماعة ، وهم يريدونه وربه وملائكته . واستدعاء الكفار في هذه الآية أن يحيي لهم بعض آبائهم وسموا قصياً لكي يسألوهم عما رأوا في آخرتهم ، ولم يستقص في هذه الآية الرد عليهم لبيانه ، ولأنه مبثوث في غير ما آية من كتاب الله ، فإن الله تعالى قد جزم البعث من القبور في أجل مسمى لا يتعداه أحد ، وقد بينت الأمثلة من الأرض الميتة وحال النبات أمر البعث من القبور .

قوله تعالى : ﴿ أهم خير ﴾ الآية تقرير فيه وعيد ، و: ﴿ تبع ﴾ ملك حميري ، وكان يقال لكل ملك منهم : ﴿ تبع ﴾ ، إلا أن المشار إليه في هذه الآية رجل صالح من التبابعة . قال كعب الأحبار : ذم الله تعالى قومه ولم يذمه ، ونهى العلماء عن سبه ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق سهل بن سعد : أن تبعاً هذا أسلم وآمن بالله ، وروي أن ذلك كان على يد أهل كتاب كانوا بحضرته . وقال ابن عباس : كان ﴿ تبع ﴾ نبياً . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أدري أكان ﴿ تبع ﴾ نبياً أم غير نبي ؟ " . وقال ابن جبير : هو الذي كسا الكعبة ، وقد ذكره ابن إسحاق في السيرة ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا مجرمين ﴾ يريد بالكفر . وقرأت فرقة : " أنهم " بفتح الألف . وقرأ الجمهور بكسرها .

(116/697)

وقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات ﴾ الآية ، إخبار فيه تنبيه وتحذير . وقوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ يريد بالواجب المقتضي للخيرات وفيض الهبات . و: ﴿ يوم الفصل ﴾ هو يوم القيامة ، وهذا هو الإخبار بالبعث ، وهو أمر جوزه العقل وأثبته الشرع بهذه الآية

وغيرها . والمولى في هذه الآية : يعم جميع الموالي من القرابات وموالي العتق وموالي الصداقة .

وقوله : ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ إن كان الضمير يراد به العالم ، فيصح أن يكون من قوله : ﴿ إلا من ﴾ في موضع نصب على الاستثناء المتصل ، وإن كان الضمير يراد به الكفار فالاستثناء منقطع ، ويصح أن يكون في موضع رفع علة الابتداء والخبر تقديره : فإنه يغني بعضهم عن بعض في الشفاعة ونحوها ، أو يكون تقديره : فإن الله ينصره .

وقوله تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ روي عن ابن زيد ﴿ الأثيم ﴾ المشار إليه : أبو جهل ، ثم هي بالمعنى تتناول كل أثيم ، وهو كل فاجر يكتسب الإثم ، وروي عن ابن زيد أن أبا الدرداء أقرأ أعرابياً فكان يقول : " طعام اليتيم " ، فرد عليه أبو الدرداء مراراً فلم يلقن ، فقال له : قل " طعام الفاجر " ، فقرئت كذلك ، وإنما هي على التفسير . و: ﴿ شجرة الزقوم ﴾ هي الشجرة الملعونة في القرآن ، وهي تنبت في أصل الجحيم ، وهي التي طلعها كأنه رؤوس الشياطين .

وروي أن أبا جهل لما نزلت هذه الآية فيه ، وأشار الناس بها إليه ، جمع عجوة بزبد ودعا إليها ناساً وقال لهم : " تزقموا ، فإن الزقوم هو عجوة يثرب بالزبد ، وهو طعامي الذي حدّث به محمد " ، وإنما قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتلبيس على الجهلة .

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45)

قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما : " المهل " : دردي الزيت وعكره . وقال ابن مسعود وابن عباس أيضاً : " المهل " ما ذاب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص ونحوه . قال الحسن : كان ابن مسعود على بيت المال لعمر بالكوفة ، فأذاب يوماً فضة مكسرة ، فلما انماعت ، قال : يدخل من بالباب ، فدخلوا ، فقال لهم : هذا أشبه ما رأينا في الدنيا بالمهل . والمعنى أن هذه الشجرة إذا طعمها الكافر في جهنم صارت في جوفه تفعل كما يفعل المهل السخن من الإحراق والإفساد .

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر : " تغلي " بالتاء على معنى : تغلي الشجرة ، وهي قراءة عمرو بن ميمون وأبي رزين والحسن والأعرج وابن محيصن وطلحة . وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص : " يغلي " على معنى : يغلي الطعام ، وهي قراءة مجاهد وقتادة والحسن بخلاف عنه . و: ﴿ الحميم ﴾ : الماء الساخن الذي يتطاير من غليانه .

وقوله تعالى : ﴿ خذوه ﴾ الآية ، معناه : يقال يومئذ للملائكة عن هذا الأثيم ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ . والعتل : السَّوق بعنف وإهانة ودفع قوي متصل ، كما يساق أبداً مرتكب

الجرائم ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر : بضم التاء ، والباقون بكسرها ، وقد روي الضم عن أبي عمرو ، وكذلك روي الوجهان عن الحسن وقتادة والأعرج .

والسواء : الوسط ، وقيل المعظم وذلك متلازم في العظم أبداً من مثل هذا إنما هو في الوسط ، وفي الآية ما يقتضي أن الكافر يصب على رأسه من حميم جهنم ، وهو ما يغلى فيها من ذوب ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ [الحج : 19] وإلى هذا نظر بعض ولاة المدينة فإنه كان يصب الخمر على رأس الذي شربها أو توجد عنده عقوبة له وأدباً ، ذكر ذلك ابن حبيب في الواضحة .

(118/697)

وقوله تعالى : ﴿ ذق ، إنك أنت العزيز الكريم ﴾ مخاطبة على معنى هذا التقريع ، ويروى عن قتادة أن أبا جهل لما نزلت : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ [الدخان : 43-44] قال أيتهددني محمد وأنا ما بين جبليها أعزمني وأكرم ، فنزلت هذه الآيات ، وفي آخرها : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أي على قولك ، وهذا كما قال جرير :

ألم يكن في وسوم قد وسمت بها . . . من خان موعظة يا زهرة اليمن

يقولها للشاعر الذي سمى نفسه به ، وذلك في قوله :

أبلغ كليباً وأبلغ عنك شاعرها . . . أني الأعز وأني زهرة اليمن

فجاء بيت جرير على هذا الهزء .

وقرأ الجمهور : " إنك " بكسر الهمزة . وقرأ الكسائي وحده : " أنك " بفتح الألف ، والمعنى واحد في المقصد وإن اختلف المؤخذ إليه ، وبالفتح قرأها على المنبر الحسين بن علي بن أبي طالب أسنده إليه الكسائي وأتبعه فيها .

وقوله تعالى : ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ عبارة عن قول يقال للكفرة عند عذابهم ، أي هذه الآخرة وجهنم التي كنتم تشكون فيها . ثم ذكر تعالى حالة المتقين بعقب ذكر حالة الكافر ليبين الفرق .

وقرأ نافع وابن عامر : " في مُقام " بضم الميم ، وهي قراءة أبي جعفر وشيبة وقتادة وعبد الله بن عمر بن الخطاب والحسن والأعرج . وقرأ الباقون : " في مَقام " بفتحها ، وهي قراءة أبي رجاء وعيسى ويحيى والأعمش .

و: ﴿ أمين ﴾ يؤمن فيه الغير ، فكأنه فعيل بمعنى مفعول ، أي مأمون فيه . وكسر عاصم العين من " عِيون " . قال أبو حاتم : وذلك مردود عند العلماء ، ومثله شيوخ وبيوت ، بكسر الشين والباء . والسندس : رقيق الحرير . والاستبرق : خشينه .

وقرأ ابن محيصن : " واستبرقَ " بالوصل وفتح القاف .

وقوله : ﴿ متقابلين ﴾ وصف لمجالس أهل الجنة ، لأن بعضهم لا يستدبر بعضاً في المجالس ، وقوله : ﴿ كذلك وزوجناهم ﴾ تقديره : والأمر كذلك .

(119/697)

وقرأ الجمهور : " عين " وهو جمع عيناء . وقرأ ابن مسعود : " عيس " ، وهو جمع عيساء ، وهي أيضاً البيضاء ، وكذلك هي من النوق . وقرأ عكرمة : " بحورِ عين " على ترك التنوين في " حور " وأضافها إلى " عين " . قال أبو الفتح : الإضافة هنا تفيد ما تفيد الصفة ، وروى أبو قرصافة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إخراج القمامة من المسجد من مهور الحور العين " .

وقوله تعالى : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ معناه : يدعون الخدمة والمتصرفين .

وقوله تعالى : ﴿ إلا الموتة الأولى ﴾ قدر قوم ﴿ إلا ﴾ بسوى ، وضعف ذلك الطبري ، وقدرها ببعد ، وليس تضعيفه بصحيح ، بل يصح المعنى بسوى ويتسق ، وأما معنى الآية : فبين أنه نفى عنهم ذوق الموت ، وأنه لا ينالهم من غير ذلك ما تقدم في الدنيا ، والضمير في قوله : ﴿ يسرناه ﴾ عائد على القرآن . وقوله : ﴿ بلسانك ﴾ معناه بلغة العرب ولم يرد الجارحة .

وقوله : ﴿ فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ معناه : ﴿ فارتقب ﴾ نصرنا لك ، ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ فيما يظنون الدوائر عليك ، وفي هذه الآية وعد له ، ووعيد لهم ، وفيها متاركة ، وهذا وما جرى منسوخ بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(120/697)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾

لما ذكر مستقر الكافرين وعذابَهم ذكر نُزل المؤمنين ونعيمهم .

وقرأ نافع وابن عامر "فِي مُقَامٍ" بضم الميم .

الباقون بالفتح .

قال الكسائي : المُقام المكان ، والمُقام الإقامة ، كما قال :

عَفَتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها . . .

قال الجوهريّ : وأما المَقام والمُقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم ، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم ، لأنه مشبه ببنات الأربعة ، نحو دحرج

وهذا مُدَحْرَجُنا .

وقيل : المقام (بالفتح) المشهد والمجلس ، و (بالضم) يمكن أن يراد به المكان ، ويمكن أن يكون مصدراً ويقدّر فيه المضاف ، أي في موضع إقامة .

﴿ أَمِينٍ ﴾ يؤمن فيه من الآفات ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ بدل "مِنْ مَقَامٍ أَمِينٍ" .

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض ، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا .

والسُّنْدُس : ما رَقّ من الديباج .

والإستبرق : ما غلظ منه .

وقد مضى في "الكهف" .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي الأمر كذلك الذي ذكرناه .

فيوقف على "كَذَلِكَ" .

وقيل : أي كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدّم ذكره ، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم حُوراً عِيناً .

وقد مضى الكلام في العِين في "والصَّافَّاتِ" .

والحور : البِيض ؛ في قول قتادة والعامة ، جمع حوراء .

والحَوْراء : البيضاء التي يرى ساقها من وراء ثيابها ، ويرى الناظر وجهه في كعبها ؛ كالمرآة

من دقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون .

ودليل هذا التأويل أنها في حرف ابن مسعود "بِعيس عِين" .

وذكر أبو بكر الأنباريّ أخبرنا أحمد بن الحسين قال حدّثنا حسين قال حدّثنا عمار بن محمد قال : صلّيت خلف منصور بن المعتمر فقرأ في "حم" الدخان "بِعِيس عِين .

(121/697)

لا يذوقون طعم الموتِ إلا الموتة الأولى" .

والعِيس : البيض ؛ ومنه قيل للإبل البيض : عيس ، واحدها بعير أَعْيَس وناقة عَيْساء .

قال امرؤ القيس :

يَرُعْنَ إلى صوتي إذا ما سمعنه . . .

كما تَرْعَوِي عِيطٌ إلى صوت أَعْيَسَا

فمعنى الحور هنا : الحسان الثاقبات البياض بحسن .

وذكر ابن المبارك أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحُور العين ليرى مُخّ ساقها من وراء اللحم والعظم ، ومن تحت سبعين حُلّة ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء .

وقال مجاهد : إنما سمّيت الحُور حوراً لأنهنّ يحار الطرف في حسنهنّ وبياضهنّ وصفاء لونهنّ .

وقيل : إنما قيل لهنّ حور لحَوَر أعينهنّ .

والحَوَر : شدّة بياض العين في شدّة سوادها .

امرأة حَوْراء بيّنة الحَوَر .

يقال : احورت عينه احورارا ، واحور الشيء ابيض .

قال الأصمعي : ما أدري ما الحَوَر في العَيْن ؟ وقال أبو عمرو : الحَور أن تسودّ العين كلّها مثل أعين الظباء والبقر .

قال : وليس في بني آدم حَوَر ؛ وإنما قيل للنساء : حُور العِين لأنهنّ يشبهن بالظباء والبقر .

وقال العجاج :

بأعْيُنٍ مُحَوَّراتٍ حُورِ . . .

يعني الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الحَدق .

والعِين جمع عَيْناء ؛ وهي الواسعة العظيمة العينين .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مهور الحُور العِين قبضات التمر وفِلَق الخبز " وعن أبي قِرصافة سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إخراج القُمَامة من المسجد مهور الحور العِين " وعن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال

: "كنس المساجد مهور الحور العِين" ذكره الثعلبي رحمه الله .

وقد أفردنا لهذا المعنى باباً مفرداً في (كتاب التذكرة) والحمد لله .

(122/697)

واختلف أيما أفضل في الجنة ؛ نساء الآدميات أم الحور ؟ فذكر ابن المبارك قال : وأخبرنا رِشْدِين عن ابن أَنْعُم عن حِبّان بن أبي جَبَلة قال : إن نساء الآدميات من دخل منهنّ الجنة فُضِّلن على الحور العِين بما عملن في الدنيا .

وروى مرفوعاً : "إن الآدميات أفضل من الحور العِين بسبعين ألف ضعف" وقيل : إن الحور العين أفضل ؛ لقوله عليه السلام في دعائه : "وأبدِله زوجاً خيراً من زوجه" والله أعلم .

وقرأ عكرمة "بِحُورِ عِينٍ" مضاف .

والإضافة والتنوين في "بحور عين" سواء .

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55)

قال قتادة : "آمِنِينَ" من الموت والوَصَب والشيطان .

وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم ، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه .

قوله تعالى : ﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ أي لا يذوقون فيها الموت أَلْبَتَّةَ لأنهم خالدون فيها .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ على الاستثناء المنقطع ؛ أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا .

وأنشد سيبويه :

من كان أسرع في تَفَرُّق فالج . . .

فلَبُونه جَرِبتْ معاً وأغدّتِ

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال :

إلا كناشِرةَ الذي ضيَّعْتُمُ . . .

كالغصن في غُلَوائه المتنبّتِ

وقيل : إن "إلاَّ" بمعنى بعد ؛ كقولك : ما كلّمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عندك ، أي بعد رجل عندك .

وقيل : "إلاَّ" بمعنى سوى ، أي سوى الموتة التي ماتوها في الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النسآء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] .

وهو كما تقول : ما ذقت اليوم طعاماً سوى ما أكلت أمس .

وقال القتبيّ : "إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى" معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة

الرحمة ويلقى الرَّوْح والرَّيحان ، وكان موته في الجنة لاتْصافه بأسبابها ، فهو استثناء صحيح .

(123/697)

والموت عَرَض لا يذاق ، ولكن جعل كالطعام الذي يكره ذوقه ، فاستعير فيه لفظ الذوق .

﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجحيم فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي فعل ذلك بهم تفضُّلاً منه عليهم .

ف "فَضْلاً" مصدر عمل فيه "يَدْعُونَ" .

وقيل : العامل فيه "وَوَقَاهُمْ" .

وقيل فعل مضمر .

وقيل : معنى الكلام الذي قبله ، لأنه تفضل منه عليهم ، إذ وفّقهم في الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة .

﴿ ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ أي السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة .

وقيل : هو من قولك فاز بكذا ، أي ناله وظَفِر به .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ يعني القرآن ، أي سهّلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتعظون وينزجرون .

ونظيره : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

فختم السورة بالحثّ على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكوراً ، كما قال في مفتتح السورة : إِنَّا أَنْزَلْنَاه فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] على ما تقدّم .

﴿ فارتقب إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أي انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت ؛ حكاه النقاش .

وقيل : انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك .

وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان .

والمعنى متقارب .

وقيل ارتقب ما وعدتك من الثواب فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب .

وقيل : ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل ، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة ، جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك .

والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(124/697)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) ﴾

لما ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه ، ذكر إحسانه لبني إسرائيل ؛ فبدأ بدفع الضرر عنهم ، وهو نجاتهم مما كانوا فيه من العذاب .

ثم ذكر اتصال النفع لهم ، من اختيارهم على العالمين ، وإيتائهم الآيات والعذاب المهين : قتل أبنائهم ، واستخدامهم في الأعمال الشاقة .

وقرأ عبد الله : ﴿ من العذاب المهين ﴾ : وهو من إضافة الموصوف إلى صفته ، كبقلة الحمقاء .

و﴿ من فرعون ﴾ : بدل ﴿ من العذاب ﴾ ، على حذف مضاف ، أي من عذاب فرعون .

أولاً حذف جعل فرعون نفسه هو العذاب مبالغة .

وقيل : يتعلق بمحذوف ، أي كائناً وصادراً من فرعون .

وقرأ ابن عباس : ﴿ من فرعون ﴾ ، من : استفهام مبتدأ ، وفرعون خبره .

لما وصف فرعون بالشدة والفظاعة قال : من فرعون ؟ على معنى : هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته ؟ ثم عرف حاله في ذلك بقوله : ﴿ إنه كان عالياً من المسرفين ﴾ : أي مرتفعاً على العالم ، أو متكبراً مسرفاً من المسرفين .

﴿ ولقد اخترناهم ﴾ : أي اصطفيناهم وشرفناهم .

﴿ على علم ﴾ علم مصدر لم يذكر فاعله ، فقيل : على علم منهم ، وفضل فيهم ، فاخترناهم للنبوات والرسالات .

وقيل : على علم منا ، أي عالمين بمكان الخيرة ، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا .

وقيل : على علم منا بما يصدر من العدل والإحسان والعلم والإيمان ، بأنهم يزيفون ، وتفرط منهم الهنات في بعض الأموال .

وقيل : اخترناهم بهذا الإنجاء وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم ، وخصصناهم بذلك دون العالم .

﴿ على العالمين ﴾ : أي عالمي زمانهم ، لأن أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) مفضلة عليهم .

وقيل : على العالمين عام لكثرة الأنبياء فيهم ، وهذا خاص بهم ليس لغيرهم .

وكان الاختيار من هذه الجهة ، لأن أمة محمد أفضل .

(125/697)

وعلى ، في قوله : ﴿ علم علم ﴾ ، ليس معناها معنى على في قوله : ﴿ على العالمين ﴾ ، ولذلك تعلقا بفعل واحد لما اختلف المدلول ، كقوله :

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت . . .

عليّ وآلت حلفة لم يحلل

فعلى علم : حال ، إما من الفاعل ، أو من المفعول .

وعلى ظهر : حال من الفاعل في تعذرت ، والعامل في ذي الحال .

﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ : أي المعجزات الظاهرة في قوم فرعون ، وما ابتلوا به ؛ وفي بني إسرائيل مما أنعم به عليهم من تظليل الغمام والمنّ والسلوى ، وغير ذلك مما لم يظهرها لغيرهم .

﴿ ما فيه بلاء ﴾ : أي اختبار بالنعم ظاهر ، أو الابتلاء بالنعم كقوله : ﴿ ونبلكم بالشر والخير ﴾ ﴿ إن هؤلاء ﴾ : يعني قريشاً ، وفي اسم الإشارة تحقير لهم .

﴿ ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ : أي ما الموتة إلا محصورة في موتتنا الأولى .

وكان قد قال تعالى : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ فذكر موتتين ، أولى وثانية ، فأنكروا هم أن يكون لهم موتة ثانية .

والمعنى : ما آخر أمرنا ومنتهى وجودنا إلا عند موتتنا .

فيتضمن قولهم هذا إنكار البعث ، ثم صرحوا بما تضمنه قولهم ، فقالوا : ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ : أي بمبعوثين بحياة دائمة يقع فيها حساب وثواب وعقاب ؛ وكان قولهم ذلك

في معنى قولهم :

﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ : خطاب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وللمؤمنين الذين كانوا يعدونهم بالبعث ، أي إن صدقتم فيما تقولون ، فأحيوا لنا من مات من أبنائنا ، بسؤالكم ربكم ، حتى يكون ذلك دليلاً على البعث في الآخرة .

قيل : طلبوا من الرسول أن يدعوا الله فيحيي لهم قصي بن كلاب ، ليشاوروه في صحة النبوة والبعث ، إذ كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل .

﴿ أهم ﴾ : أي قريش ، ﴿ خير أم قوم تبع ﴾ ؟ الظاهر أن تبعاً هو شخص معروف ، وقع التفاضل بين قومه وقوم الرسول عليه الصلاة والسلام .

(126/697)

وإن كان لفظ تبع يطلق على كل من ملك العرب ، كما يطلق كسرى على من ملك الفرس ، وقيصر على من ملك الروم ؛ قيل : واسمه أسعد الحميري ، وكنى أبا كرب ؛ وذكر أبو حاتم الرياشي أنه آمن بالنبي (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يبعث بسبعمائة سنة .

وروي أنه لما آمن بالمدينة ، كتب كتاباً ونظم شعراً .

أما الشعر فهو :

شهدت على أحمد أنه . . .

رسول من الله باري النسم

فلو مد عمري إلى عمره . . .

لكنت وزيراً له وابن عم

وأما الكتاب ، فروى ابن اسحاق وغيره أنه كان فيه : أما بعد : فإني آمنت بك ، وبكتابك الذي أنزل عليك ، وأنا على دينك وسنتك ، وآمنت بربك ورب كل شيء ، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام ، فإن أدركتك فيها ونعمت ، وإن لم أدركك ، فاشفع لي ، ولا تنسني يوم القيامة ، فإني من أمتك الأولين ، وتابعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام .

ثم ختم الكتاب ونقش عليه : لله الأمر من قبل ومن بعد .

وكتب عنوانه : إلى محمد بن عبد الله ، نبي الله ورسوله ، خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين (صلى الله عليه وسلم) ، من تبع الأول .

ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب ، خالد بن زيد ، فلم يزل عنده حتى بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر ، حتى أدّوه للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

وعن ابن عباس : كان تبع نبياً ، وعنه لما أقبل تبع من الشرق ، بعد أن حير الحيرة وسمرقند ، قصد المدينة ، وكان قد خلف بها حين سافر ابناً ، فقتل غيلة ، فأجمع على خرابها واستئصال أهلها .

فجمعوا له الأنصار ، وخرجوا لقتاله ، وكانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل .

فأعجبه ذلك وقال : إن هؤلاء لكرام ، إذ جاءه كعب وأسد ، ابنا عم من قريظة جيران ، وأخبراه أنه يحال بينك وبين ما تريد ، فإنها مهاجر نبي من قريش اسمه محمد ، ومولده بمكة ، فثناه قولهما عما كان يريد .

ثم دعواه إلى دينهما ، فاتبعهما وأكرمهما .

(127/697)

وانصرفوا عن المدينة ، ومعهم نفر من اليهود ، فقال له في الطريق نفر من هذيل : يدلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة بمكة ، وأرادت هذيل هلاكه ، لأنهم عرفوا أنه ما أراده أحد بسوء إلا هلك .

فذكر ذلك للحبرين ، فقالوا : ما نعلم الله بيتاً في الأرض غير هذا ، فاتخذه مسجداً ، وانسك عنده ، واحلق رأسك ، وما أراد القوم إلا هلاكك .

فأكرمه وكساه ، وهو أول من كسا البيت ؛ وقطع أيدي أولئك النفر من هذيل وأرجلهم ، وسمر أعينهم وصلبهم .

وقال قوم : ليس المراد بتبع رجلاً واحداً ، إنما المراد ملوك اليمن ، وكانوا يسمون التتابعة .

والذي يظهر أنه أراد واحداً من هؤلاء ، تعرفه العرب بهذا الاسم أكثر من معرفة غيره به .

وفي الحديث : " لا تسبوا تبعاً فإنه كان مؤمناً " ، فهذا يدل على أنه واحد بعينه .

قال الجوهري : التتابعة ملوك اليمن ، والتبع : الظل ، والتبع : ضرب من الطير .

وقال أبو القاسم السهيلي : تبع لكل ملك اليمن ، والشحر حضرموت ، وملك اليمن وحده لا يسمى تبعاً ، قاله المسعودي .

والخيرية الواقعة فيها التفاضل ، وكلا الصنفين لا خير فهم ، هي بالنسبة للقوة والمنعة ، كما قال : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ بعد ذكر آل فرعون في تفسير ابن عباس : أهم أشد أم قوم تبع ؟ وإضافة قوم إلى تبع دليل على أنه لم يكن مذهبهم .

﴿ أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ﴾ : إخبار عما فعل تعالى بهم ، وتنبيه على أن علة الإهلاك هي الإجرام ، وفي ذلك وعيد لقريش ، وتهديد أن يفعل بهم ما فعل بقوم تبع ومن قبلهم من مكذبي الرسل لإجرامهم ، ثم ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث ، وهو خلق العالم بالحق .

وقرأ الجمهور : ﴿ وما بينهما ﴾ من الجنسين ، وعبيد بن عميس : وما بينهن لاعبين .

قال مقاتل : عابثين .

﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ : أي بالعدل ، يجازي المحسن والمسيء بما أراد تعالى من ثواب وعقاب .

(128/697)

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أنه تعالى خلق ذلك ، فهم لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً .

وقرىء : ميقاتهم ، بالنصب ، على أنه اسم إن ، والخبر يوم الفصل ، أي : إن يوم الفصل ميعادهم وجزاؤهم ، ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ يعم جميع الموالي من القرابة والعتاقة والصلة شيئاً من إغناء ، أي قليلاً منه : ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ : جمع ، لأن عن مولى في سياق النفي فيعم ، فعاد على المعنى ، لا على اللفظ .

﴿ إلا من رحم الله ﴾ ، قال الكسائي : من رحم : منصوب على الاستثناء المنقطع ، أي لكن من رحمه الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه من لعنهم من المخلوقين .

قيل : ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً ، أي لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين ، فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض .

وقال الحوفي : ويجوز أن يكون بدلاً من مولى المرفوع ، ويكون يغني بمعنى ينفع .

وقال الزمخشري : ﴿ من رحم الله ﴾ ، في محل الرفع على البدل من الواو في ﴿ ينصرون ﴾ ، أي لا يمنع من العذاب إلا من رحم الله ؛ وقاله الحوفي قبله .

﴿ إنه العزيز الرحيم ﴾ : لا ينصر من عصاه ، الرحيم لمن أطاعه ومن عفا عنه .

﴿ إن شجرة الزقوم ﴾ : قرىء بكسر الشين ، وتقدم الكلام فيها في سورة الصافات .

﴿ طعام الأثيم ﴾ : صفة مبالغة ، وهو الكثير الآثام ، ويقال له : أثوم ، صفة مبالغة أيضاً ، وفسر بالمشرك .

وقال يحيى بن سلام : المكتسب للإثم .

وعن ابن زيدان : الأثيم هنا هو أبو جهل ، وقيل : الوليد .

﴿ كالمهل ﴾ : هو دردي الزيت ، أو مذاب الفضة ، أو مذاب النحاس ، أو عكر القطران ، أو الصديد ؛ أولها لابن عمر وابن عباس ، وآخرها لابن عباس .

وقال الحسن : كالمهل ، بفتح الميم : لغة فيه .

وعن ابن مسعود ، وابن عباس أيضاً : المهل : ما أذيب من ذهب ، أو فضة ، أو حديد ، أو رصاص .

وقرأ مجاهد ، وقتادة ، والحسن ، والابنان ، وحفص : يغلي ، بالياء ، أي الطعام .

وعمرو بن ميمون ، وأبو رزين ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وابن محيصن ، وطلحة ، والحسن : في رواية ، وباقي السبعة : تغلي بالتاء ، أي الشجرة .

﴿ كغلي الحميم ﴾ : وهو الماء المسخن الذي يتطاير من غليانه .

﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ ، يقال للزبانية : خذوه فاعتلوه ، أي سوقوه بعنف وجذب .

وقال الأعمش : معنى اتعلوه : اقصفوه كما يقصف الحطب إلى سواء الجحيم .

قال ابن عباس : وسطها .

وقال الحسن : معظمها .

وقرأ الجمهور : فاعتلوه ، بكسر التاء ، وزيد بن علي ، والابنان ، ونافع : بضمها ؛ والخلاف عن الحسن ، وقتادة ، والأعرج ، وأبي عمرو .

﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ : وفي الحج يصيب من فوق رؤوسهم الحميم ، والمصبوب في الحقيقة هو الحميم ، فتارة اعتبرت الحقيقة ، وتارة اعتبرت الاستعارة ، لأنه أذم من الحميم ، فقد صب ما تولد عنه من الآلام والعذاب ، فعبر بالمسبب عن السبب ، لأن العذاب هو المسبب عن الحميم ، ولفظة العذاب أهول وأهيب .

﴿ ذق ﴾ : أي العذاب ، ﴿ إنك أنت العزيز الكريم ﴾ ، وهذا على سبيل التهكم والهزء لمن كان يتعزز ويتكرم على قومه .

وعن قتادة ، أنه لما نزلت : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ ، قال أبو جهل : أتهددني يا محمد ؟ وإن ما بين لابتيها أعز مني ولا أكرم ، فنزلت هذه الآية ، وفي آخرها : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ ، أي على قولك ، وهذا كما قال جرير :

ألم تكن في رسوم قد رسمت بها . . .

من كان موعظة يا زهرة اليمن

يقولها لشاعر سمى نفسه به في قوله :

أبلغ كليباً وأبلغ عنك شاعرها . . .

إني الأعز وإني زهرة اليمن

فجاء به جرير على جهة الهزء .

وقرىء : إنك ، بكسر الهمزة .

وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب على المنبر ، والكسائي بفتحها .

﴿ إن هذا ﴾ : أي الأمر ، أو العذاب ، ﴿ ما كنتم تمترون ﴾ : أي تشكون .

ولما ذكر حال الكفار أعقبه بحال المؤمنين فقال : ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾ .

(130/697)

وقرأ عبد الله بن عمر ، وزيد بن علي ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، والحسن ، وقتادة ، ونافع ، وابن عامر : في مقام ، بضم الميم ؛ وأبو رجاء ، وعيسى ، ويحيى ، والأعمش ، وباقي السبعة : بفتحها ؛ ووصف المقام بالأمين ، أي يؤمن فيه من الغير ، فكأنه فعيل بمعنى مفعول ، أي مأمون فيه ، قاله ابن عطية .

وقال الزمخشري : الأمين ، من قولك : أمن الرجل أمانة ، فهو أمين ، وهو ضد الخائن ؛ فوصف به المكان استعارة ، لأن المكان المخيف كان يخوف صاحبه بما يلقى فيه من المكاره .

وتقدم شرح السندس والإستبرق .

وقرأ ابن محيصن : ﴿ وإستبرق ﴾ ، جعله فعلاً ماضياً .

﴿ متقابلين ﴾ : وصف لمجالس أهل الجنة ، لا يستدبر بعضهم بعضاً في المجالس .

﴿ كذلك ﴾ : أي الأمر كذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ بحور ﴾ ، وعكرمة : بغير تنوين ، لأن العين تقسمن إلى حور وغير حور ، فهؤلاء من حور العين ، لا من شهلن مثلاً .

﴿ يدعون فيها ﴾ : أي الخدم والمتصرفين عليهم ، ﴿ بكل فاكهة ﴾ أرادوا إحضارها لديهم ، ﴿ آمنين ﴾ من الأمراض والتخم .

﴿ لا يذوقون فيها الموت ﴾ .

وقرأ عبيد بن عمير : لا يذاقون ، مبنياً للمفعول .

﴿ إلا الموتة الأولى ﴾ : هذا استثناء منقطع ، أي لكن الموتة الأولى ذاقوها في الدنيا ، وذلك تنبيه على ما أنعم به عليهم من الخلود السرمدي ، وتذكير لهم بمفارقة الدنيا الفانية إلى هذه الدار الباقية .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ؟ قلت : أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع قوله : ﴿ إلا الموتة الأولى ﴾ موضع ذلك ، لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل ، فإنهم يذوقونها .

وقال ابن عطية : قدر قوم إلاّ بسوى ، وضعف ذلك الطبري وقدرها ببعد ، وليس تضعيفه بصحيح ، بل يصح المعنى بسوى ويتسق .

وأما معنى الآية ، فتبين أنه نفى عنهم ذوق الموت ، وأنه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدم في الدنيا .

وقرأ أبو حيوة : ﴿ ووقاهم ﴾ ، مشدداً بالقاف ، والضمير في ﴿ يسرناه ﴾ عائد على القرآن ؛ و﴿ بلسانك ﴾ : بلغتك ، وهي لغة لعرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إسراءيل ﴾

بأنْ فعلنا بفرعونَ وقومِه ما فعلنا ﴿ مِنَ العذاب المهين ﴾ من استعبادِ فرعونَ إيَّاهم وقتلِ أبنائِهم واستحياءِ نسائِهم على الخسفِ والضيمِ ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدلٌ من العذابِ إمَّا على جعلِه نفسَ العذابِ لإفراطِه فيهِ ، وإمَّا على حذفِ المضافِ أي عذابِ فرعونَ ، أو حالٌ من المهينِ أي كائناً منْ فرعونَ . وقُرِىءَ مَنْ فرعونُ على مَعْنى هل تعرفونَهُ من هُو في عُتوّه وتفرْعُنِهِ ، وفي إبهامِ أمرِه أولاً وتبيينِه بقولِه تعالَى ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين ﴾ ثانياً من الإفصاحِ عن كُنهِ أمرِه في الشرِّ والفسادِ ما لا مزيدَ عليهِ . وقولُه تعالَى منَ المُسرفينَ إمَّا خبرٌ ثانٍ لكانَ أي كان متكبراً مسرفاً ، أو حالٌ من الضميرِ في عالياً أيُ كانَ رفيعَ الطبقةِ من بينِ المسرفينَ فائقاً لهُم بليغاً في الإسرافِ . ﴿ وَلَقَدِ اخترناهم ﴾ أي بني إسرائيلَ ﴿ على عِلْمٍ ﴾ أي عالمينَ بأنَّهم أحِقَّاءُ بالاختيارِ أو عالمينَ بأنَّهم يزيغونَ في بعضِ الأوقاتِ ويكثرُ منُهم الفرطاتُ ﴿ عَلَى العالمين ﴾ جميعاً لكثرةِ الأنبياءِ فيهم أو على عالَمِيْ زمانِهم ﴿ وءاتيناهم مِنَ الأيات ﴾ كفلْقِ البحرِ وتظليلِ الغمامِ وإنزالِ المنِّ والسَّلْوى وغيرِها من عظائمِ الآياتِ التي لمْ يُعهدْ مثلُها في غيرِهم . ﴿ مَا فِيهِ بلاؤا مُّبِينٌ ﴾ نعمةٌ جليةٌ أو اختبارٌ ظاهرٌ لننظرَ كيفَ يعملونَ .

(132/697)

﴿ إِنَّ هَؤُلَآءِ ﴾ يَعْني كفارَ قريشٍ لأنَّ الكلامَ فيهم وقصةُ فرعونَ وقومِه مَسوقةٌ للدلالةِ على تماثلهم في الإصرارِ عَلَى الضّلالةِ والتحذيرِ عن حلولِ مثلِ ما حَلَّ بهم . ﴿ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى ﴾ أي ما العاقبةُ ونهايةُ الأمرِ إلا الموتةُ الأُولى المزيلةُ للحياةِ الدُّنيويةِ ، ولا قصدَ فيهِ إلى إثباتِ موتةٍ أُخْرى كمَا في قولِك حجَّ زيد الحجَّةَ الأُولى وماتَ . وقيلَ لَمَّا قيلَ لهم : إنكُم تموتونَ موتةً تعقبُها حياةٌ كمَا تقدمتكم موتةٌ كذلكَ قالُوا ما هيَ إلا موتتُنا الأُولى أي ما الموتةُ التي تعقبُها حياةٌ إلا الموتةُ الأُولى وقيل : المَعْنى ليست الموتةُ إلا هذهِ الموتة دونَ الموتةِ التي تعقبُ حياةَ القبرِ كَما تزعمونَ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ بمبعوثِينَ .

﴿ فَأْتُواْ بِآبَائِنَا ﴾ خطابٌ لمن وعَدَهُم بالنُّشورِ من الرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنينَ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ فيمَا تعِدونه مِنْ قيامِ السَّاعةِ وبعثِ الموتَى ليظهر أنَّه حقٌّ وقيلَ : كانُوا يطلبونَ إليهم أنْ يدعُوا اللهَ تعالى فينشُرَ لهم قُصَيَّ بنَ كلابٍ ليشاورُوه وكانَ كبيرَهُم ومفزَعَهُم في المهمَّاتِ والملمَّاتِ .

(133/697)

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ ردٌّ لقولِهم وتهديدٌ لَهُم أيْ أهُم خيرٌ في القوةِ والمنعةِ اللتينِ يُدفعُ بهما أسبابُ الهلاكِ ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو تبعٌ الحميريُّ الذي سارَ بالجيوشِ وحيَّرَ الحِيرةَ وبني سمرقندَ وقيل هدمَها وكان مؤمناً وقومُه كافرينَ ولذلكَ ذمَّهم الله تعالَى دونَهُ وكان يكتبُ في عنوانِ كتابِه بسمِ الله الذي ملكَ بحراً وبحراً أي بحاراً كثيرةً وعنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : "لا تسبُّوا تُبعاً فإنَّه كانَ قد أسلمَ" وعنْهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : "ما أدْرِي أكانَ تبعٌ نبياً أو غيرَ نبيَ" وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهُمَا : "أنَّه كانَ نبياً" . وقيلَ لملوكِ اليمنِ التبابعةِ لأنَّهم يُتبعونَ ، كما يقالُ لهم الأقيالُ لأنَّهم يتقيَّلونَ . ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ عطفٌ على قومُ تبعٍ والمرادُ بهم عادٌ وثمودُ وأضرابُهم من كلِّ جبَّارٍ عَنيدٍ أولي بأسٍ شديدٍ . والاستفهامُ لتقريرِ أنَّ أولئكَ أقوى مِنْ هؤلاءِ . وقولُه تعالَى ﴿ أهلكناهم ﴾ استئنافٌ لبيانِ عاقبةِ أمرِهم . وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ تعليلٌ لإهلاكِهم ليَعلمَ أنَّ أولئكَ حيثُ أهُلكُوا بسببِ إجرامِهم معَ ما كانُوا في غايةِ القوةِ والشدةِ فلأنْ يَهلكَ هؤلاءِ وهم شركاءُ لهم في الإجرامِ أضعفُ منهم في الشدةِ والقوةِ أَوْلَى .

(134/697)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي ما بينَ الجنسينِ . وقُرِىءَ وما بينهنَّ ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ لاهينَ من غيرِ أنْ يكونَ في خلقِهما غرضٌ صحيحٌ وغايةٌ حميدةٌ . ﴿ مَا خلقناهما ﴾ وما بينَهما ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعمِّ الأحوالِ أو أعمِّ الأسبابِ أي ما خلقناهُمَا ملتبساً بشيءٍ من الأشياءِ إلا ملتبساً بالحقِّ أو ما خلقناهُمَا بسببٍ من الأسبابِ إلا بسببِ الحقِّ الذي هُو الإيمانُ والطَّاعةُ والبعثُ والجزاءُ . ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنَّ الأمرَ كذلكَ فينكرون البعثَ والجزاءَ ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ﴾ أي فصلِ الحقِّ عن الباطلِ وتمييزِ المحقِّ من المبطلِ أو فصلِ الرجلِ عن أقاربِه وأحبَّائِه ﴿ ميقاتهم ﴾ وقتَ موعدِهم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ وقُرِىءَ ميقاتَهُم بالنصبِ على أنَّه اسمُ إنَّ ويومِ الفصلِ خبرُها أي أنَّ ميعادَ حسابِهم وجزائِهم في يومِ الفصلِ .

﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى ﴾ بدلٌ من يومَ الفصلِ أو صفةٌ لميقاتُهم أو ظرفٌ لما دلَّ عليه الفصل لا لنفسِه ﴿ مَوْلًى ﴾ مِنْ قرابةٍ أو غيرِها ﴿ عَن مَّوْلًى ﴾ أيُّ مَوْلًى كانَ ﴿ شَيْئاً ﴾ أيْ شيئاً من الإغناءِ ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ الضميرُ لمولَى الأول باعتبارِ المَعْنى لأنَّه عامٌّ .

(135/697)

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ بالعفوِ عنْهُ وقبولِ الشفاعةِ في حقّه ، ومحلُّه الرفعُ على البدلِ من الواوِ أو النصبُ على الاستثناءِ ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز ﴾ الذي لا يُنصرُ من أرادَ تعذيبَهُ ﴿ الرحيم ﴾ لمنْ أرادَ أنْ يرحَمهُ ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم ﴾ وقُرِىءَ بكسرِ الشينِ وقد مرَّ مَعْنى الزقومِ في سورةِ الصَّافاتِ ﴿ طَعَامُ الأثيم ﴾ أي الكثيرِ الآثامِ والمرادُ به الكافرُ لدلالةِ ما قبلَهُ وما بعدَه عليهِ ﴿ كالمهل ﴾ وهو ما يُمهلُ في النَّارِ حتَّى يذوبَ وقيلَ : هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ ﴿ يَغْلِى فِى البطون ﴾ وقُرِىءَ بالتاءِ على إسنادِ الفعلِ إلى الشَّجرةِ . ﴿ كَغَلْىِ الحميم ﴾ غلياناً كغليهِ ﴿ خُذُوهُ ﴾ عَلى إرادةِ القولِ والخطابُ للزبانيةِ ﴿ فاعتلوه ﴾ أي جُرُّوه ، والعَتلُ الأخذُ بمجامعِ الشيءِ وجرُّه بقهرٍ وعنفٍ وقُرِىءَ بضمِّ التاءِ وهي لغةٌ فيهِ . ﴿ إلى سَوَاء الجحيم ﴾ أي وسطِه ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ كانَ الأصلُ يُصبُّ من فوقِ رؤوسِهم الحميمُ فقيلَ يصبُّ من فوقِ رؤوسِهم عذابٌ هو الحميمُ للمبالغةِ ثم أضيفَ العذابُ إلى الحميمِ للتخفيفِ وزيدَ من للدلالةِ على أنَّ المصبوبَ بعضُ هذا النوعِ ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ أي وقولُوا له ذلكَ استهزاءً بهِ وتقريعاً له على ما كانَ يزعمُه ، رُويَ أنَّ أبا جهلٍ قالَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم : ما بينَ جبليَها أعزُّ ولا أكرمُ منّي فوالله ما تستطيعُ أنتَ ولا ربُّك أنْ تفعَلا بي شيئاً . وقُرِىءَ بالفتحِ أي لأنَّك أو عذابُ أنَّك ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي العذابَ ﴿ مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكونَ وتُمارونَ فيهِ والجمعُ باعتبارِ المعنى لأنَّ المرادَ جنسُ الأثيمِ .

﴿ إِنَّ المتقين ﴾ أيْ عن الكفرِ والمَعَاصِي ﴿ فِى مَقَامٍ ﴾ في موضعَ قيامٍ ، والمرادُ المكانُ على الإطلاقِ فإنَّه من الخاصِّ الذي شاعَ استعمالُه في مَعْنى العمومِ . وقُرِىءَ بضمِّ الميمِ وهو مَوضعُ إقامة ﴿ أَمِينٌ ﴾ يأمن صاحبُه الآفاتِ والانتقالَ عنْهُ وهو منَ الأمنِ الذي هُو ضدُّ الخيانةِ ، وصفَ به المكانُ بطريقِ الاستعارةِ ، كأنَّ المكانَ المخيفَ يخونُ صاحبَهُ لما يَلْقى فيهِ من المكارهِ ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ بدلٌ من مقامٍ جيءَ بهِ دِلالةً على نزاهتِه واشتمالِه على طيباتِ المآكلِ والمشاربِ ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ إما خبرٌ ثانٍ أو حالٌ من الضميرِ في الجارِّ ، أو استئنافٌ . والسندسُ ما رقَّ من الحريرِ ، والإستبرقُ ما غلُظَ منْهُ معرَّبٌ . ﴿ متقابلين ﴾ في المجالسِ ليستأنسَ بعضُهم ببعضٍ ﴿ كذلك ﴾ أي الأمرُ كذلكَ أو كذلكَ أثبناهُم ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ على الوصفِ وقُرِىءَ بالإضافةِ أي قرنّاهم بهنَّ والحورُ جمعُ الحوراءِ وهي البيضاءُ ، والعينُ جمعُ العيناءِ وهي العظيمةُ العينينِ واختُلفَ في أنهنَّ نساءُ الدُّنيا أو غيرُها ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فاكهة ﴾ أي يطلبونَ ويأمرونَ بإحضارِ ما يشتهونَهُ من الفواكهِ لا يتخصصُ شيءٌ منها بمكانٍ ولا زمانٍ ﴿ ءامِنِينَ ﴾ من كلِّ ما يسوؤهم ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ بل يستمرُّونَ على الحياةِ أبداً

والاستثناءُ منقطعٌ أو متصلٌ على أنَّ المرادَ بيانُ استحالةِ ذوقِ الموتِ فيها على الإطلاقِ كأنَّه قيلَ : لا يذوقونَ فيها الموتَ إلا إذا أمكن ذوقُ الموتةِ الأُولى حينئذٍ ﴿ ووقاهم عَذَابَ الجحيم ﴾ وقُرِىءَ مشدداً للمبالغةِ في الوقايةِ . ﴿ فَضْلاً مّن رَّبّكَ ﴾ أي أُعطوا ذلكَ كلُّه عطاءً وتفضلاً منه تعالَى . وقُرِىءَ بالرفعِ أي ذلكَ فضلٌ ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوزَ وراءَهُ إذ هُو خلاصٌ عن جميعِ

(137/697)

المكارهِ ونيلٌ لكلِّ المطلبِ . وقولُه تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يسرناه بلسانك لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فذلكةٌ للسورةِ الكريمةِ إنَّما أنزلنَا الكتابَ المبينَ بلغتِكَ كي يفهمُه قومُك ويتذكروا ويعملُوا بموجبه وإذْ لم يفعلُوا ذلكَ ﴿ فارتقب ﴾ فانتظرْ ما يحلُّ بهم ﴿ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ ما يحلُّ بكَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(138/697)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ المتقين فِى مَقَامٍ ﴾

في موضع قيام ، والمراد بالقيام الثبات والملازمة كما في قوله تعالى : ﴿ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ [آل عمران : 75] ويكنى به عن الإقامة لأن المقيم ملازم لمكانه ، وهو مراد من قال : في مقام أي موضع إقامة .

وقرأ عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما .

وزيد بن علي .

وأبو جعفر .

وشيبة .

والأعرج .

والحسن .

وقتادة .

ونافع .

وابن عامر ﴿ مَّقَامِ ﴾ بضم الميم ومعناه موضع إقامة ، وعلى ما قررنا ترجع القراءتان إلى معنى واحد .

﴿ أَمِينٌ ﴾ يأمن صاحبه مما يكره فهو صفة من الأمن وهو عدم الخوف عما هو من شأنه ،

ووصف المقام به باعتبار أمن من آمن به فهو إسناد مجازي كما في نهر جار ، وظاهر كلام الزمخشري أن ذلك استعارة من الأمانة كأن المكان مؤتمن وضع عنده ما يحفظه من المكاره ففيه استعارة مكنية وتخييلية ، وقال ابن عطية : فعيل بمعنى مفعول أي مأمون فيه وليس بذاك ، وجوز أن يكون للنسبة أي ذي أمن .

﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ بدل من ﴿ مَّقَامٍ ﴾ [الدخان : 51] بإعادة الجار أو الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور ، وظرفية العيون للمجاورة ، والظاهر أنه بدل اشتمال لا كل وبعض ، وفي ذلك دلالة على نزاهة مكانهم واشتماله على ما يستلذ من المآكل والمشارب . ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير في الجار والمجرور أو استئناف ، والسندس قال ثعلب : الرقيق من الديباج والواحدة سندسة ، والاستبرق غليظه ، وقال الليث : هو ضرب من البزيون يتخذ من المرعز ، ولم يختلف أهل اللغة في أنهما معربان كذا ذكره بعضهم .

وفي "الكشاف" الاستبرق ما غلظ من الديباج وهو تعريب استبر ، قال الخفاجي : ومعنى استبر في لغة الفرس الغليظ مطلقاً ثم خص بغليظ الديباج وعرب ، وقيل : إنه عربي من البراقة ، وأيد بقراءته بوصل الهمزة وهو كما ترى .

وذكر بعضهم أن السندس أصله سندي ومعناه منسوب إلى السند المكان المعروف لأن السندس كان يجلب منه فأبدلت ياء النسبة سيناً ، وقد مر الكلام في ذلك فتذكر ، ثم إن وقوع المعرب في القرآن العظيم لا ينافي كونه عربياً مبيناً .

ونقل صاحب الكشف عن جار الله أنه قال : الكلام المنظوم مركب من الحروف المبسوطة في أي ليان كان تركي أو فارسي أو عربي ثم لا يدل على أن العربي أعجمي فكذا ههنا ، ثم قال صاحب الكشف : يريد أن كون استبرأ عجمياً لا يلزمه أن يكون استبرق كذلك .

وقرأ ابن محيصن ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فعلاً ماضياً كما في "البحر" ، والجملة حينئذٍ قيل معترضة ، وقيل : حال من ﴿ سُندُسٍ ﴾ والمعنى يلبسون من سندس وقد برق لصقالته ومزيد حسنه ﴿ متقابلين ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كذلك فالكاف في محل رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف ، والمراد تقرير ما مر وتحقيقه .

ونقل عن جار الله أنه قال : والمعنى فيه أنه لم يستوف الوصف وأنه بمثابة ما لا يحيط به الوصف فكأنه قيل : الأمر نحو ذلك وما أشبهه .

وأراد على ما قال المدقق أن الكاف مقحم للمبالغة وذلك مطرد في عرفي العرب والعجم ، وجوز أن يكون في محل نصب على معنى أثبناهم مثل ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وزوجناهم ﴾ على هذا عطف على الفعل المقدر وعلى ما قبل على ﴿ يَلْبِسُونَ ﴾ [الدخان : 53] والمراد على ما قال غير واحد وقرناهم ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ وفسر بذلك قيل لأن الجنة ليس فيها تكليف فلا عقد ولا تزويج بالمعنى المشهور ، وقيل : لمكان الباء ، وزوجه المرأة بمعنى أنكحه إياها متعد بنفسه ، وفيه بحث فإن الأخفش جوز الباء فيه فيقال : زوجته بامرأة فتزوج بها ، وأزدشنوءة يعدونه بالباء أيضاً ، وفي "القاموس" زوجته امرأة وتزوجت امرأة وبها أو هي قليلة ، ويعلم مما ذكر أن قول بعض الفقهاء زوجته بها خطأ لا وجه له ، ويجوز أن يقال : إن ذلك التفسير لأن الحور العين في الجنة ملك يمين كالسراري في الدنيا فلا يحتاج الأمر إلى العقد عليهن ، على أنه يمكن أن يكون في الجنة عقد وإن لم يكن فيها تكليف .

وقد أخرج ابن جرير .

وغيره عن مجاهد أنه قال : زوجناهم أنكحناهم .

ومن الناس من قال بالتكليف فيها بمعنى الأمر والنهي لكن لا يجدون في الفعل والترك كلفة ، نعم المشهور أن لا تكليف فيها ، وبعض ما حرم في الدنيا كنكاح امرأة الغير ونكاح المحارم لا

يفعلونه لعدم خطوره لهم ببال أصلاً ، والحور جمع حوراء وهي البيضاء كما روي عن ابن عباس .

والضحاك .

وغيرهما ، وقيل : الشديدة سواد العين وبياضها ، وقيل : الحوراء ذات الحور وهو سواد المقلة كلها كما في الظباء فلا يكون في الإنسان إلا مجازاً .

وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن مجاهد أن الحوراء التي يحار فيها الطرف .

والعين جمع عيناء وهي عظيمة العينين وأكثر الأخبار تدل على أنهن لسن نساء الدنيا ، أخرج ابن أبي حاتم .

والطبراني عن أبي أمامة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق الحور العين من زعفران " وأخرج ابن مردويه .

(141/697)

والخطيب عن أنس بن مالك مرفوعاً نحوه ، وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال : إن الله تعالى لم يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافور وزعفران .

وأخرج ابن مردويه .

والديلمي عن عائشة قالت : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حور العين خلقهن من تسبيح الملائكة عليهم السلام "

وهذا إن صح لا يعارض ما قبله إذ لا بد عليه من أن يقال بتجسد المعاني فيجوز تجسد التسبيح وجعله جزأً مما خلقن منه ، وقيل : المراد بهن هنا نساء الدنيا وهن في الجنة حور عين بالمعنى الذي سمعت بل هن أجمل من الحور العين أعني النساء المخلوقات في الجنة من زعفران أو غيره ويعطي الرجل هناك ما كان له في الدنيا من الزوجات ، وقد يضم إلى ذلك ما شاء الله تعالى من نساء متن ولم يتزوجن ، ومن تزوجت بأكثر من واحد فهي لآخر أزواجها أو لأولهم إن لم يكن طلقها في الدنيا أو تخير فتختار من كان أحسنهم خلقاً معها أقوال صحح جمع منها الأول ، وتعطى زوجة كافر دخلت الجنة لمن شاء الله تعالى .

وقد ورد أن آسية امرأة فرعون تكون زوجة نبينا صلى الله عليه وسلم .

وقرأ عكرمة ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ بازضافة وهي على معنى من أي بالحور من العين ، وفي قراءة عبد الله ﴿ الطرف عِينٌ ﴾ والعياس ء البيضاء تعلوها حمرة .

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكلّ فاكهة ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ولا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿ ءَامنينع ﴾ من الضرر أي ضرر كان ، وهو حال من ضمير ﴿ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ وكونه حالاً من الضمير في قوله سبحانه : ﴿ فِي جنات ﴾ [

الدخان : 52] بعيد ، وأبعد منه جعل ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ حينئذٍ صفة الحور والنون فيه ضمير النسوة ومنه يفعلن لما فيه من ارتكاب خلاف الظاهر مع عدم المناسبة للسياق .

وقوله تعالى :

(142/697)

﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ جملة مستأنفة أو حالية وكأنه أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع الموتة الأولى موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها ، ونظيره قول القائل لمن يستسقيه : لا أسقيك إلا الجمر وقد علم أن الجمر لا يسقى ، ومثله قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءابَاؤُكُمْ مِّنَ النساء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] فالاستثناء متصل والدخول فرضي للمبالغة ، وضمير ﴿ فِيهَا ﴾ للجنات ، وقيل : هو متصل والمؤمن عند موته لمعاينة ما يعطاه في الجنة كأنه فيها فكأنه ذاق الموتة الأولى في الجنة ، وقيل : متصل وضمير ﴿ فِيهَا ﴾ للآخرة والموت أول أحوالها ، ولا يخفى ما فيه من التفكيك مع ارتكاب التجوز ، وقيل : الاستثناء منقطع والضمير للجنات أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا ، والأصل اتصال الاستثناء ،

وقال الطبري : إلا بمعنى بعد ، والجمهور لم يثبتوا هذا المعنى لها ، وقال ابن عطية : ذهب قوم إلى أن إلا بمعنى سوى وضعفه الطبري .

وقال أبو حيان : ليس تضعيفه بصحيح بل يصح المعنى بسوى ويتسق .

وفائدة الوصف تذكير حال الدنيا .

والداعي لما سمعت من الأوجه دفع سؤال يورد ههنا من أن الموتة الأولى مما مضى لهم في الدنيا وما هو كذلك لا يمكن أن يذوقوه في الجنة فكيف استثنيت ؟ وقيل : إن السؤال مبني على أن الاستثناء من النفي إثبات فيثبت للمستثني الحكم المنفي عن المستثنى منه ومحال أن يثبت للموتة الأولى الماضية الذوق في الجنة ، وأما على قول من جعله تكلماً بالباقي بعد الثنيا ، والمعنى لا يذوقون سوى الموتة الأولى من الموت فلا إشكال فتأمل .

(143/697)

وقرأ عبيد بن عمير ﴿ لا ﴾ مبنياً للمفعول ، وقرأ عبد الله ﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا يَعْقُوبَ الموت ﴾ وجاء في الحديث النوم لأنه أخو الموت ، أخرج البزار .

والطبراني في "الأوسط" .

وابن مردويه .

والبيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال : " قيل يا رسول الله أينام أهل الجنة ؟ قال : لا النون أخو الموت وأهل الجنة لا يموتون ولا ينامون "

﴿ ووقاهم عَذَابَ الجحيم ﴾ وقرأ أبو حيوة ﴿ ووقاهم ﴾ مشدد القاف على المبالغة في التكثير في الوقاية لأن التفعيل لزيادة المعنى لا للتعدية لأن الفعل متعد قبله .

﴿ فَضْلاً مّن رَّبِّكَ ﴾ أي أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلاً منه تعالى فهو نصب على المصدرية ، وجوز فيه أن يكون حالاً ومفعولاً له ، وأياً ما كان ففيه إشارة إلى نفي إيجاب أعمالهم الإثابة عليه سبحانه وتعالى .

وقرىء ﴿ فَضَّلَ ﴾ بالرفع أي ذلك فضل ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ لأنه فوز بالمطالب وخلاص من المكاره .

﴿ فَإِنَّمَا يسرناه ﴾ أي فإنما سهلنا القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ أي بلغتك ، وقيل : المعنى أنزلناه على لسانك بلا كتابة لكونك أمياً ، وهذا فذلكة وإجمال لما في السورة بعد تفصيل تذكيراً لما سلف مشروحاً فيها ، فالمعنى ذكرهم بالكتاب المبين فإنما يسرناه بلسانك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي كي يفهموه ويتذكروا به ويعملوا بموجبه .

﴿ فارتقب ﴾ أي وأن لم يتذكروا فانتظر ما يحل بهم وهو تعميم بعد تخصيص بقوله تعالى : ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِى السماء ﴾ [الدخان : 10] منتظرون ما يحل بك كما قالوا : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] وقيل : معناه مرتقبون ما يحل بهم تهكماً ، وقيل :

هو مشاكلة ، والمعنى أنهم صائرون للعذاب ، وفي الآية من الوعد له صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، وقيل : فيها الأمر بالمتاركة وهو منسوخ بآية السيف فلا تغفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(144/697)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

أي : بين جنسي السماء ، والأرض ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ أي : لغير غرض صحيح .

قال مقاتل : لم نخلقهما عابثين لغير شيء .

وقال الكلبي : لاهين ، وقيل : غافلين .

قرأ الجمهور : ﴿ وما بينهما ﴾ وقرأ عمرو بن عبيد : (وما بينهنّ) لأن السموات ، والأرض جمع ، وانتصاب ﴿ لاعبين ﴾ على الحال ﴿ مَا خلقناهما ﴾ أي : وما بينهما ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ أي : إلا بالأمر الحق ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال .

وقال الكلبي : إلا للحق ، وكذا قال الحسن ، وقيل : إلاّ لإقامة الحق ، وإظهاره ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر كذلك ، وهم المشركون ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ميقاتهم أَجْمَعِينَ

﴿ أي : إن يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق عن الباطل ميقاتهم ، أي : الوقت المجعول لتمييز المحسن من المسيء ، والمحقّ من المبطل ، ﴿ أجمعين ﴾ لا يخرج عنهم أحد من ذلك .

وقد اتفق القراء على رفع ميقاتهم على أنه خبر " إن " ، واسمها ﴿ يوم الفصل ﴾ .

وأجاز الكسائي ، والفراء نصبه على أنه اسمها ، و " يوم الفصل " خبرها .

ثم وصف سبحانه ذلك اليوم ، فقال : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ﴾ ﴿ يوم ﴾ بدل من ﴿ يوم الفصل ﴾ ، أو منتصب بفعل مضمر يدل عليه الفصل ، أي : يفصل بينهم يوم لا يغني ، ولا يجوز أن يكون معمولاً للفصل ؛ لأنه قد وقع الفصل بينهما بأجنبي ، والمعنى : أنه لا ينفع في ذلك اليوم قريب قريباً ، ولا يدفع عنه شيئاً ، ويطلق المولى على الوليّ ، وهو : القريب ، والناصر ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ الضمير راجع إلى المولى باعتبار المعنى ؛ لأنه نكرة في سياق النفي ، وهي من صيغ العموم ، أي : ولا هم يمنعون من عذاب الله ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ قال الكسائي : الاستثناء منقطع ، أي : لكن من رحم الله ، وكذا قال الفراء .

(145/697)

وقيل : هو متصل ، والمعنى : لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين ، فإنهم يؤذن لهم في الشفاعة ، فيشفعون ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على البدل من ﴿ مولى ﴾ الأوّل ، أو من الضمير في ﴿ ينصرون ﴾ ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز الرحيم ﴾ أي : الغالب الذي لا ينصر من أراد عذابه الرحيم لعباده المؤمنين .

ثم لما وصف اليوم ذكر بعده ، وعيد الكفار ، فقال : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الأثيم ﴾ شجرة الزّقوم هي : الشجرة التي خلقها الله في جهنم ، وسماها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها ، فأكلوا منها ، وقد مضى الكلام على شجرة الزقوم في سورة الصافات .

والأثيم : الكثير الإثم .

قال في الصحاح : أثم الرجل بالكسر إثماً ، ومأثماً : إذا وقع في الإثم ، فهو : آثم ، وأثيم ، وأثوم .

فمعنى طعام الأثيم : ذي الإثم ﴿ كالمهل ﴾ وهو : دردي الزيت ، وعكر القطران .

وقيل : هو النحاس المذاب .

وقيل : كلّ ما يذوب في النار ﴿ يَغْلِى فِى البطون * كَغَلْىِ الحميم ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تغلي ﴾ بالفوقية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الشجرة ، والجملة خبر ثانٍ ، أو حال ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي : تغلي غلياً مثل غلي الحميم ، وهو : الماء الشديد الحرارة .

وقرأ ابن كثير ، وحفص ، وابن محيصن ، وورش ، عن يعقوب : ﴿ يغلي ﴾ بالتحتية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام وهو : في معنى الشجرة ، ولا يصح أن يكون الضمير عائداً إلى المهل ؛ لأنه مشبه به ، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل ، وقوله : ﴿ كَغَلْيِ الحميم ﴾ صفة مصدر محذوف ، أي : غلياً كغلي الحميم ﴿ خُذُوهُ فاعتلوه إلى سَوَاء الجحيم ﴾ أي : يقال للملائكة الذين هم خزنة النار : خذوه ، أي : الأَثيم ، فاعتلوه ، العتل : القود بالعنف ، يقال : عتله يعتله ، إذا جرّه ، وذهب به إلى مكروه ، وقيل العتل : أن يأخذ بتلابيب الرجل ، ومجامعه ، فيجره ، ومنه قول الشاعر يصف فرساً :

(146/697)

نقرعه قرعاً ولسنا نعتله . . . ومنه قول الفرزدق يهجو جريراً :

حتى تردّ إلى عطية تعتل . . . قرأ الجمهور : ﴿ فاعتلوه ﴾ بكسر التاء .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر بضمها ، وهما : لغتان ﴿ إلى سَوَاء الجحيم ﴾ أي : إلى وسطه ، كقوله : ﴿ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الجحيم ﴾ [الصافات : 55] ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ " من " هي التبعيضية ، أي : صبوا فوق رأسه بعض هذا النوع ، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان ، أي : عذاب هو الحميم ، وهو : الماء الشديد الحرارة

كما تقدّم ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ أي : وقولوا له تهكماً ، وتقريعاً ، وتوبيخاً : ذق العذاب إنك أنت العزيز الكريم .

وقيل : إن أبا جهل كان يزعم أنه أعزّ أهل الوادي ، وأكرمهم ، فيقولون له : ذق العذاب أيها المتعزّز المتكرم في زعمك ، وفيما كنت تقوله .

قرأ الجمهور : ﴿ إنك ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ الكسائي – وروي ذلك عن عليّ – بفتحها أي لأنك .

قال الفراء : أي : بهذا القول الذي قلته في الدنيا ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إلى العذاب ﴿ مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ أي : تشكون فيه حين كنتم في الدنيا ، والجمع باعتبار جنس الأثيم .

ثم ذكر سبحانه مستقرّ المتقين ، فقال : ﴿ إِنَّ المتقين فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أي : الذين اتقوا الكفر والمعاصي .

قرأ الجمهور : ﴿ مقام ﴾ بفتح الميم ، وقرأ نافع ، وابن عامر بضمها .

فعلى القراءة الأولى هو : موضع القيام ، وعلى القراءة الثانية هو : موضع الإقامة قاله الكسائي ، وغيره .

وقال الجوهري : قد يكون كل واحد منهما بمعنى : الإقامة ، وقد يكون بمعنى : موضع القيام .

ثم وصف المقام بأنه أمين يأمن صاحبه من جميع المخاوف ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ بدل من ﴿ مقام أمين ﴾ ، أو بيان له ، أو خبر ثانٍ ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ خبر ثانٍ ، أو ثالث ، أو حال من الضمير المستكنّ في الجار والمجرور ، والسندس : ما رقّ من الديباج ، والإستبرق : ما غلظ منه ، وقد تقدّم بيانه في سورة الكهف ، وانتصاب ﴿ متقابلين ﴾ على الحال من فاعل ﴿ يلبسون ﴾ ، أي : متقابلين في مجالسهم ينظر بعضهم إلى بعض ، والكاف في قوله : ﴿ كذلك ﴾ إما نعت مصدر محذوف ، أي : نفعل بالمتقين فعلاً كذلك .

أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : الأمر كذلك ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي : أكرمناهم بأن زوّجناهم بحور عين ، والحور جمع حوراء وهي : البيضاء ، والعين جمع عيناء : وهي الواسعة العينين .

وقال مجاهد : إنما سميت الحوراء حوراء ، لأنه يحار الطرف في حسنها ، وقيل : هو من حور العين وهو : شدّة بياض العين في شدّة سوادها كذا قال أبو عبيدة .

وقال الأصمعي : ما أدري ما الحور في العين .

قال أبو عمرو : الحور أن تسودّ العين كلها مثل أعين الظباء والبقر ، قال : وليس في بني آدم حور ، وإنما قيل للنساء حور : لأنهنّ شبهن بالظباء والبقر .

قيل : والمراد بقوله : ﴿ زوّجناهم ﴾ قرناهم ، وليس من عقد التزويج ، لأنه لا يقال : زوّجته بامرأة .

وقال أبو عبيدة : وجعلناهم أزواجاً لهنّ كما يزوّج البعل بالبعل أي : جعلناهم اثنين اثنين ، وكذا قال الأخفش ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكلّ فاكهة ءامِنِينَ ﴾ أي : يأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه حال كونهم آمنين من التخمة ، والأسقام ، والآلام .

قال قتادة : آمنين من الموت ، والوصب ، والشيطان ، وقيل : من انقطاع ما هم فيه من النعيم .

(148/697)

﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ أي : لا يموتون فيها أبداً إلا الموتة التي ذاقوها في الدنيا ، والاستثناء منقطع ، أي : لكن الموتة التي قد ذاقوها في الدنيا ، كذا قال الزّجاج والفراء ، وغيرهما ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءابَاؤُكُمْ مّنَ النساء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] وقيل : إن " إلا " بمعنى بعد ، كقولك : ما كلمت رجلاً

اليوم إلا رجلاً عندك ، أي : بعد رجل عندك ، وقيل : هي بمعنى : سوى ، أي : سوى الموتة الأولى .

وقال ابن قتيبة : إنما استثنى الموتة الأولى وهي في الدنيا ، لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله وقدرته إلى أسباب من الجنة يلقون الروح والريحان ، ويرون منازلهم من الجنة ، وتفتح لهم أبوابها ، فإذا ماتوا في الدنيا ، فكأنهم ماتوا في الجنة لاتصالهم بأسبابها ، ومشاهدتهم إياها ، فيكون الاستثناء على هذا متصلاً .

واختار ابن جرير أن إلا بمعنى بعد ، واختار كونها بمعنى سوى ابن عطية ﴿ ووقاهم عَذَابَ الجحيم ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ وقاهم ﴾ بالتخفيف ، وقرأ أبو حيوة بالتشديد على المبالغة ﴿ فَضْلاً مّن رَّبّكَ ﴾ أي : لأجل الفضل منه ، أو أعطاهم ذلك عطاء فضلاً منه ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ أي : ذلك الذي تقدّم ذكره هو الفوز الذي لا فوز بعده ، المتناهي في العظم .

ثم لما بيّن سبحانه الدلائل ، وذكر الوعد ، والوعيد ، قال : ﴿ فَإِنَّمَا يسرناه بلسانك لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : إنما أنزلنا القرآن بلغتك كي يفهمه قومك ، فيتذكروا ، ويعتبروا ، ويعملوا بما فيه ، أو سهلناه بلغتك عليك ، وعلى من يقرؤه لعلهم يتذكرون ﴿ فارتقب إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أي : فانتظر ما وعدناك من النصر عليهم ، وإهلاكهم على يدك ، فإنهم منتظرون ما

ينزل بك من موت ، أو غيره ، وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم ، فإنهم منتظرون بك نوائب الدهر ، والمعنى متقارب .

(149/697)

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ يقول : لست بعزيز ، ولا كريم .

وأخرج الأموي في مغازيه ، عن عكرمة قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل ، فقال : " إن الله أمرني أن أقول لك : ﴿ أولى لَكَ فأولى * ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ " [القيامة : 34 ، 35] قال : فنزع يده من يده ، وقال : ما تستطيع لي أنت ، ولا صاحبك من شيء ، لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله يوم بدر ، وأذله ، وعيره بكلمته ، وأنزل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الأثيم ﴾ قال : المهل .

وأخرج عنه أيضاً : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ قال : هو أبو جهل بن هشام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ .

أبهم تعالى هذه الليلة المباركة هنا ، ولكنه بين أنها هي ليلة القدر في قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] وبين كونها (مباركة) المذكورة هنا في قوله تعالى ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : 3] إلى آخر السورة .

فقوله ﴿ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ أي كثيرة البركات والخيرات .

ولا شك أن ليلة هي خير من ألف شهر ، إلى آخر الصفات التي وصفت فيها ، في سورة القدر كثيرة البركات ، والخيرات جداً .

وقد بين تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر ، التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان ، في قوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] .

فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة وغيره ، لا شك في أنها دعوى باطلة لمخالفتها لنص القرآن الصريح .

ولا شك كل ما خالف الحق فهو باطل .

والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنهم من شعبان المخالفة لصريح القرآن لا أساس لها ، ولا يصح سند شيء منها ، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين .

فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح ، بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة .

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَآ ﴾ .

معنى قوله يفرق ، أي يفصل ويبين ، ويكتب في الليلة المباركة ، التي هي ليلة القدر ، كل أمر حكيم ، أي ذي حكمة بالغة لأن كل ما يفعله الله ، مشتمل على أنواع الحكم الباهرة :

قال بعضهم : حكيم ، أي محكم ، ولا تغيير فيه ، ولا تبديل .

وكلا الأمرين حق لأن ما سبق في علم الله ، لا يتغير ولا يتبدل ، ولأن جميع أفعاله في غاية الحكمة .

وهي في الاصطلاح وضع الأمور في مواضعها وإيقاعها في مواقعها .

(151/697)

وإيضاح معنى الآية أن الله تبارك وتعالى في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم ، بالتفصيل والإيضاح جميع ما يقع في تلك السنة ، إلى ليلة القدر من السنة الجديدة .

فتبين في ذلك الآجال والأرزاق والفقر والغنى ، والخصب والجدب والصحة والمرض ، والحروب والزلازل ، وجميع ما يقع في تلك السنة كائناً ما كان .

قال الزمخشري في الكشاف : ومعنى يفرق : يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم ، وجميع أمورهم فيها ، إلى الأخرى القابلة إلى أن قال : فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبرائيل ، وكذلك الزلازل ، والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت ا ه محل الغرض منه بلفظه .

ومرادنا بيان معنى الآية ، لا التزام صحة دفع النسخ المذكورة للملائكة المذكورين ، لأنا لم نعلم له مستنداً .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، يدل أيضاً على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر فهو بيان قرآني آخر .

وإيضاح ذلك أن معنى قوله ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة ، من رزق وموت ، وحياة وولادة ومرض ، وصحة وخصب وجدب ، وغير ذلك من جميع أمور السنة .

قال بعضهم : حتى إن الرجل لينكح ويتصرف في أموره ويولد له ، وقد خرج اسمه في الموتى في تلك السنة .

وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر ، فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : 4] .

وقد قدمنا في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء : 87] أن قدر بفتح الدال مخففاً يقدر بالكسر والضم كيضرب وينصر قدراً قدر تقديراً ، وأن ثعلباً أنشد لذلك قول الشاعر :

فليست عشيات الحمى برواجع . . . لنا أبداً ما أورق السلم النضر

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى . . . تباركت مع ما تقدر يقع ولك الشكر

وبينا هناك ، أن ذلك هو معنى ليلة القدر ، لأن الله يقدر فيها وقائع السنة .

وبينا أن ذلك هو معنى قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ وأوضحنا هناك أن القدر بفتح الدال والقدر بسكونها هما ما يقدره الله من قضائه : ومنه قول هدبة بن الخشرم :

ألا يا لقومي للنوائب والقدر . . . وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

واعلم أن قول من قال : إنما سميت ليلة القدر لعظمها وشرفها على غيرها من الليالي من

قولهم : فلان ذو قدر أي ذو شرف ومكانة رفيعة لا ينافي القول الأول لاتصافها بالأمرين معاً ، وصحة وصفها بكل منهما كما أوضحنا مثله مراراً .

واختلف العلماء في إعراب قوله ﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَآ ﴾ قال بعضهم : هو مصدر منكر في موضع الحال ، أي أنزلناه في حال كوننا آمرين به .

وممن قال بهذا الأخفش .

وقال بعضهم : هو ما ناب عن المطلق من قوله (أنزلناه) وجعل (أمراً) بمعنى : إنزالاً .

وممن قال به المبرد .

وقال بعضهم هو ما ناب عن المطلق من يفرق ، فجعل (أمراً) بمعنى فرقاً أو فرق بمعنى أمراً .

وممن قال بهذا الفراء والزجاج.

وقال بعضهم هو حال من (أمر) أي (يفرق فيها بين كل أمر حكيم) .

في حال كونه أمراً من عندنا ، وهذا الوجه جيد ظاهر ، وإنما ساغ إتيان الحال من النكرة وهي متأخرة عنها لأن النكرة التي هي (أمر) وصفت بقوله (حكيم) كما لا يخفى .

وقال بعضهم ﴿ أمراً ﴾ مفعول به لقوله (منذرين) وقيل غير ذلك . واختار الزمخشري : أنه منصوب بالاختصاص ، فقال : جعل كل أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم ثم زاده

جزالة وأكسبه فخامة ، بأن قال : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا ، كائناً من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا وهذا الوجه أيضاً ممكن ، والعلم عند الله تعالى .

(153/697)

قوله تعالى : أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَآ ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الكهف : 65] الآية . وفي سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ ﴾ [فاطر : 2] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ .

هذا الذي ادعوه على النبي صلى الله عليه وسلم افتراء ، من أنه يعلم ، يعنون أن هذا القرآن علمه إياه بشر ، وأنه صلى الله عليه وسلم مجنون ، وقد بينا الآيات الموضحة لإبطاله .

أما دعواهم أنه معلم فقد قدمنا الآيات الدالة على تلك الدعوى في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل : 103] وفي سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : 4 - 5] .

وبينا الآيات الموضحة لافترائهم وتعنتهم فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

وفى الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها ﴾ [الفرقان : 4-5] .

وأما دعواهم أنه مجنون ، فقد قدمنا الآيات الموضحة لها . ولإبطالها في سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ [المؤمنون : 70] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أدوا إِلَيَّ عِبَادَ الله ﴾ .

الرسول الكريم هو موسى ، والآيات الدالة على أن موسى هو الذي أرسل لفرعون وقومه كثيرة ومعروفة .

(154/697)

وقوله : ﴿ أدوا إِلَيَّ ﴾ أي سلموا إلى عباد الله يعني بني إسرائيل ، وأرسلوهم معي .

فقوله ﴿ عِبَادَ الله ﴾ مفعول به لقوله : ﴿ أدوا ﴾ .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن موسى طلب فرعون أن يسلم له بني إسرائيل ويرسلهم معه جاء موضحاً في أبيات آخر ، مصرح فيها بأن عباد الله بنو إسرائيل ، كقوله تعالى في طه

: ﴿ فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه : 47]

وقوله تعالى في الشعرا ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 16 – 17] الآية .

والتحقيق أنَّ أنْ في قوله ﴿ أَنْ أدوا ﴾ هي المفسرة ، لأن مجيء الرسول يتضمن معنى القول لا المخففة من الثقيلة ، وأن قوله : ﴿ عِبَادَ الله ﴾ مفعول به كما ذكرنا وكما أوضحته آية طه والشعراء لا منادى مضاف .

وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ تعالى : [غافر : 27] .

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28)

لم يبين هنا من هؤلاء القوم الذين الذين أورثهم ما ذكره هنا ، ولكنه بين في سورة الشعراء أنهم بنو إسرائيل وذلك في قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 59] الآية كما تقدم في الترجمة ، وفي الأعراف .

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31)

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه نجى بني إسرائيل من العذاب المهين الذي كان يعذبهم به فرعون وقومه ، جاء موضحاً في آيات أخر ، مصرح فيها بأنواع العذاب المذكور ، كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : 50 – 50] . الى قوله ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ وقوله في الأعراف ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ [الأعراف : 141] الآية . وقوله تعالى في المؤمن ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بالحق مِنْ عِندِنَا قَالُواْ اقتلوا أَبْنَاءَ الذين آمَنُواْ مَعَهُ ﴾ [غافر : 25] الآية . وقوله تعالى في إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 6] الآية . وقوله في الشعراء ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 22] .

فتعبيده إياهم من أنواع عذابه لهم ، إلى غير ذلك من الآيات .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، من أن فرعون كان عالياً من المسرفين ، أوضحه

أيضاً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في يونس ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ [يونس : 83] وقوله تعالى في أول القصص ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين ﴾ [القصص : 4] إلى غير ذلك من الآيات .

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48)

قدمنا الآيات الموضحة في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ [الحج : 19] .

وقد تركنا إحالات متعددة بينا فيها بعض آيات سورة الدخان هذه خشية الإطالة بكثرة الإحالة .

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58)

قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة مريم في الكلام على قوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ﴾ [مريم : 97] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » .

هذه الآيات والتي بعدها ، تعرض الصورة المقابلة لأهل الضلال والمنكر ، وما يلقون فى جهنم من عذاب وهوان . . وفى المقابلة بين الصورتين تتضح المعالم فى كلّ منهما ، ويرى كلّ فى الصورة المقابلة ، ما يضاعف ما هو فيه من بلاء أو نعيم . .

فأهل النار ، إذ يرون أصحاب الجنة ، وما هم فيه من نعيم ورضوان ، يزداد بلاؤهم وتتضاعف محنتهم ، ويشتد عذابهم وحسرتهم . . وأصحاب « الجنة » إذ يرون أهل النار ، وما هم فيه من محن وشدائد ، يعظم نعيمهم ، ويتضاعف رضوانهم ، فلا يجدون غير أن يسبّحوا بحمد ربهم أن عافاهم من هذا البلاء . . « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ . . إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » (34 . 35 : فاطر) .

ولهذا كان أصحاب الجنة وأصحاب النار ، على مشهد من بعضهم ، حيث يرى

بعضهم بعضا ، ويتحدث بعضهم إلى بعض ، دون أن يصل إلى أصحاب الجنة شىء من عذاب أهل النار ، ودون أن يصل شىء من نعيم الجنة وريحها إلى أهل النار . . « وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . . قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » (50 : الأعراف) .

قوله تعالى : « يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ . . مُتَقَابِلِينَ » .

وحيث يلبس أهل النار من النار أثوابا ، يلبس أصحاب الجنة حللا من سندس وإستبرق .

والسندس . . الرقيق من الديباج وهو ما كان سداه ولحمته من الحرير . .

والإستبرق : الغليظ من الحرير . .

وإذ يتدابر أهل النار ، فلا ينظر بعضهم إلى بعض ، لما وقع بينهم من عداوة ، ولما يشهدون من العذاب الذي يعذب به المعذبون . فإن أصحاب الجنة ، يواجه بعضهم بعضا ، ويأنس بعضهم بالنظر إلى بعض ، وبما يصافح أنظارهم من آيات الرضا والبهجة ، التي تملأ الصدور ، وتفيض على الوجوه . . « عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » (23 . 24 : المطففين) قوله تعالى : « كَذَلِكَ . . وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » .

أي كذلك شأنهم الذي هم فيه . . وأكثر من هذا ، فقد زوجهم الله سبحانه وتعالى ، بحور عين من حور الجنة ، وعرائسها . .

والحور : جمع حوراء . . وهى التي فى عينها حور ، وهو شدة سواد العين مع شدة بياضها

، وهذا من مفاتن المرأة ، يقول جرير :

إن العيون التي فى طرفها حور قتلننا ثم لا يحيين قتلانا

(159/697)

والعين : جمع عيناه ، وهى الواحدة من بقر الوحش ، وذلك لسعة عينيها وجمالها ، وبها تشبه المرأة الحسناء ، ذات العيون الفاتنة .

قوله تعالى : « يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ . . آمِنِينَ » .

أي يرزقون فيها من كل فاكهة يطلبونها ، مما تشتهيه أنفسهم . .

وقد عبر عن الطلب بالدعاء ، لأنه التماس ورجاء من رب كريم . . وعدّى الفعل بالباء مع أنه يتعدى بنفسه ، لتضمنه معنى الهتاف بالفاكهة . . فما هى إلا أن يهتف بها أحدهم حتى تكون حاضرة بين يديه ، من غير أن يحملها إليه أحد ، أو يمد إليها هو يده . . بل يجدها بين يديه ، وهو آمن ، ساكن ، لا يلتفت ، ولا يتحرك .

قوله تعالى : « لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ » .

هو تعليل لقوله تعالى : « آمِنِينَ » . . أي أنهم فى أمان من أن يزعجهم عن هذا النعيم الذي هم فيه ، أىّ خاطر يخطر لهم ، من انقطاع هذا النعيم بالموت ، أو بالتحول عنه إلى غيره . .

فهم فى أمان من الموت . . « لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ » أبدا ، فإنها حياة خالدة ، ونعيم خالد . . فلا يتحولون أبدا عن هذا النعيم إلى ما يقابله من عذاب الجحيم الذي يصلاه أهل النار ، فقد وقاهم اللّه هذا العذاب وأنقذهم منه ، فلا يتعرضون له أبدا . .

وفى قوله تعالى : « إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » إشارة إلى قول المكذبين باليوم

(160/697)

الآخر : « إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ » . . أي أن أهل الجنة قد ذاقوا هذه الموتة الأولى ، التي كانوا على إيمان بالحياة والبعث بعدها ، فكان هذا الإيمان سببا فى خلاصهم من عذاب النار ، كما كان سببا فى هذا النعيم الذي هم فيه . . ومذاق هذه الموتة عندهم ، غير مذاقها عند من يكذبون بالبعث . . حيث يجد المؤمنون بالبعث ، أن هذا الموت سبيل إلى الحياة الآخرة ، وإلى لقاء اللّه ، وإلى ما أعد اللّه للمؤمنين المحسنين من جزاء كريم ، على حين يجد المكذبون باليوم الآخر ، أن الموت هو حكم عليهم بالفناء الأبدى ، الذي يتحولون بعده إلى تراب فى هذا التراب . .

إنه الضياع الأبدى لهم ، والفراق الذي لا لقاء بعده للأهل والولد ! فهم يعذبون بالموت فى الدنيا ، كما يقول اللّه سبحانه وتعالى : « وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » (55 : التوبة)

وهم كذلك يعذبون بهذا الموت فى الآخرة ، إذ كان هو الذي انتقل بهم إلى هذا العذاب الجهنمى الذي يتجرعون كئوسه ألوانا . .

فهذا الموت ، الذي ذاقه المؤمنون فى الدنيا ، هو سبب مسراتهم التي يسرّون بها فى الجنة ، إذ يذكرونه - وهم فى الجنة - فيذكرون أنه هو الذي أوصلهم إلى هذا النعيم ، فلولا الموت لما كان البعث . .

قوله تعالى : «فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .

هو تعليل لقوله تعالى : «لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ» أي أن ما قضى اللّه سبحانه وتعالى به فى أهل الجنة ، من أنهم

لا يذوقون الموت ، ولا يتحولون عن هذا النعيم الذي هم فيه ، إنما كان ذلك فضلا من فضل اللّه ، وإحسانا من إحسانه ، ورحمة من رحمته ، إلى عباده المؤمنين . . وحسبهم بهذا فوزا . . فذلك هو الفوز العظيم ، الذي لا يعدله فوز . .

قوله تعالى : «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» . .

الضمير فى «يَسَّرْناهُ» يراد به القرآن الكريم . . والمراد بتيسيره . .

بلسان النبي ، تمكين العرب من الالتقاء بهذا القرآن ، والأخذ عنه ، وتلقى الهدى منه ، لأنه بلسانهم ، الذي هو لسان النبي المبعوث فيهم . .

وفى قوله تعالى : « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » . . تذكير لهؤلاء المشركين بنعمة اللّه عليهم ، إذ أنزل عليهم كتابا من عنده ، باللسان الذي يتكلمون به . .

ولو جاءهم بغير هذا اللسان ، لما كان لهم سبيل إلى الاتصال به ، والحياة فى رياضه النضرة ، والاقتطاف من ثماره الطيبة المباركة . .

فهذه نعمة جليلة من نعم اللّه على الأمة العربية ، وإنه لجدير بها أن تلتقى بهذه النعمة ، وأن تأخذ حظها منها . . فهو كتاب اللّه إليهم ، ورحمته فيهم . .

وقد ذكر القرآن بضميره ، دون أن يكون لهذا الضمير مرجع ، لأن القرآن أشهر من أن يذكر ، إذ هو حجة قائمة على المؤمنين ، وغير المؤمنين جميعا . .

قوله تعالى : « فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ » .

(162/697)

العطف بالفاء هنا يشير إلى أن الأمر بين النبي ، وقومه ، لم ينته إلى نهايته بعد ، وأنهم ما زالوا فى هذا الامتحان مع القرآن الكريم ، فلينتظر النبي ما يكون منهم ، وليصبر على أذاهم ،

ولا ييأس من استجابتهم له ، وذلك لأنهم « مُرْتَقِبُونَ » لم يقطعوا برأى بعد فيما يدعوهم إليه ، وإن كانوا مقيمين على كبر وعناد . . وهكذا كان شأن قريش مع النبي ، إنهم لا يكذبون النبي ، ولا يشكّون فى أنه رسول اللّه ، ولكنّ كبرهم وعنادهم هو الذي كان يقطع عليهم الطريق إليه . . وإنهم لينتظرون ما تأتى به الأيام . . ولن تأتى الأيام إلا بما يسوء المعاندين والمكابرين منهم . . ويخيب ظنونهم ، حيث يبدو لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون . . إنهم سيبعثون ، وقد كانوا لا يتوقعون بعثا ، وإنهم ليحاسبون ، وقد كانوا لا يرجون حسابا ، وإنهم ليعذبون فى النار ، وقد كانوا فى تكذيب بهذا العذاب ، وفى شك منه . .

وإذا كان القوم لم يرتقبوا شيئا من هذا كله ، فإنهم مكرهون على هذا الارتقاب ، إذ لا مفرّ لهم منه . .

ولقد أدّى بهم ارتقابهم فى الدنيا إلى أن رأوا كلمة اللّه تعلو ، وشهدوا جند الحقّ ينتصرون ، وإذا ظل الشرك ينسخ شيئا فشيئا حتى تدول دولته ، ويجىء فتح اللّه والنصر ، ويدخل الناس فى دين اللّه أفواجا . . وهنا يرى النبىّ قومه وقد استجابوا لدعوته ، وأصبحوا جميعا جندا من جنود الحق الذي يدعو إليه . .

فكان ذلك يوم النصر والفتح ، الذي تحقق فيه للنبى ما وعده به ربّه يوم اصطفاه لحمل الرسالة ، فقال سبحانه : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » . انتهى انتهى . اهـ ﴾

التفسير القرآنى للقرآن حـ 13 صـ 213 . 218 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) ﴾

استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من وصف عذاب الأثيم إلى وصف نعيم المتقين لمناسبة التضاد على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس .

والمُقام بضم الميم : مكان الإقامة .

والمَقام بفتح الميم : مكان القيام ويتناول المسكن وما يتبعه .

وقرأه نافع وابنُ عامر وأبو جعفر بضم الميم .

وقرأه الباقون بفتح الميم .

والمراد بالمُقام المكان فهو مجاز بعلاقة الخصوص والعموم .

والأمين بمعنى الآمِن والمراد : الآمن ساكنه ، فوصفه بـ ﴿ أمين ﴾ مجاز عقلي كما قال تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ [التين : 3] .

والأمن أكبر شروط حسن المكان لأن الساكن أولُ ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمناً في منزله كان مطمئن البال شاعراً بالنعيم الذي يناله .

وأبدل منه بأنهم ﴿ في جنات وعيون ﴾ وذلك من وسائل النزهة والطيب .

وأعيد حرف ﴿ في ﴾ مع البدل للتأكيد .

والجنات : جمع جنة ، وتقدم في أول البقرة .

والعيون : جمع عين ، وتقدم في قوله : ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ في سورة البقرة (60) ، فهذا نعيم مكانهم .

ووُصف نعيم أجسادهم بذكر لباسهم وهو لباس الترف والنعيم وفيه كناية عن توفر أسباب نعيم الأجساد لأنه لا يَلبس هذا اللّباسَ إلا من استكمل ما قبله من ملائمات الجسد باطنهِ وظاهره .

والسندس : الديباج الرقيق النفيس ، والأكثر على أنه معرب من الفارسية وقيل عربي .

أصله : سِنْدِي ، منسوب إلى السِند على غير قياس .

والسندس يلبس مما يلي الجسد .

والإستبرق : الديباج القوي يلبس فوق الثياب وهو معرب استبره فارسية ، وهو الغليظ مطلقاً ثم خص بغليظ الديباج ، ثم عُرب .

وتقدما في قوله ﴿ يلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ﴾ في سورة الكهف (31) فارجع إليه .

ومن ﴿ لبيان الجنس ، والمبيَّن محذوف دل عليه ﴿ يلبسون ﴾ .

والتقدير : ثياباً من سندس وإستبرق .

(164/697)

ثم وُصف نَعيم نفوسهم بعضِهم مع بعض في مجالسهم ومحادثاتهم بقوله : ﴿ متقابلين ﴾ لأن الحديث مع الأصحاب والأحبّة نعيم للنفّس فأغنَى قوله : ﴿ متقابلين ﴾ عن ذكر اجتماعهم وتحابهم وحديث بعضهم مع بعض وأن ذلك شأنهم أجمعين بأن ذكر ما يستلزم ذلك وهو صيغة متقابلين ومادتُه على وجه الإيجاز البديع .

كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54)

﴿ متقابلين ﴾ .

اعتراض وقد تقدم بيان معناه عن قوله تعالى : ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبْراً ﴾ في سورة الكهف (91) .

وتقدم نظيره آنفاً في هذه السورة .

﴿ كَذَلِكَ وزوجناهم بِحُورٍ ﴾ ﴿ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكلِّ فاكهة ءَامِنِينَ * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت ﴾ .

معنى ﴿ زوجناهم ﴾ جعلناهم أزواجاً جمع زوج ضد الفرد ، أي جعلنا كل فرد من المتقين زوجاً بسبب نساءٍ حور العيون .

والزوج هنا كناية عن القرين ، أي قرنَّا بكل واحد نساءً حوراً عيناً ، وليس فعل ﴿ زوجناهم ﴾ هنا مشتقاً من الزوج الشائع إطلاقُه على امرأة الرجل وعلى رجل المرأة لأن ذلك الفعل يتعدى بنفسه يقال : زوجه ابنتَه وتزوج بنت فلان ، قال تعالى : ﴿ زوَّجناكها ﴾ [الأحزاب : 37] ، وليس ذلك بمراد هنا إذ لا طائل تحته ، إذ ليس في الجنة عقود نكاح ، وإنما المراد أنهم مأنوسون بصحبة حبائب من النساء كما أنسوا بصحبة الأصحاب والأحبة من الرجال استكمالاً لمتعارف الأنس بين الناس .

وفي كلا الأنسين نعيم نفساني منجرّ للنفس من النعيم الجثماني ، وَهذا معنًى سامٍ من معاني الانبساط الروحي وإنما أفسد بعضه في الدّنيا ما يخالط بعضه من أحوال تجرّ إلى فساد منهي عنه مثل ارتكاب المحرم شرعاً ومثل الاعتداء على المرأة قسراً ، ومن مصطلحات متكلفة ، وقد سمى الله سكوناً فقال : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنُوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً ﴾ [الروم : 21] .

والحور : جمع الحوراء ، وهي البيضاء ، أي بنساء بضيضات الجلد .

والعِين : جمع العيناء ، وهي واسعة العين ، وتقدم في سورة الصافات .

وشمل الحور العين النساء اللّاءِ كُنَّ أزواجهن في الدنيا ، ونساءً يخلقهن الله لأجل الجنة قال تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً ﴾ [الواقعة : 35] وقال تعالى : ﴿ هم وأزواجهم في ظلالٍ ﴾ [يس : 56] .

ومعنى ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة ﴾ أي هم يأمرون بأن تحضر لهم الفاكهة ، أي فيجابون .

والدعاء نوع من الأمر أي يأذنون بكل فاكهة ، أي بإحضار كل فاكهة .

و ﴿ كل ﴾ هنا مستعملة في الكثرة الشديدة لكل واحد منهم ويجوز أن تكون بمعنى الإحاطة ، أي بكل صنف من أصناف الفاكهة .

والفاكهة : ما يتفكه به ، أي يتلذذ بطعمه من الثمار ونحوها .

وجملة ﴿ يدعون ﴾ حال من ﴿ المتقين ﴾ [الدخان : 51] ، و ﴿ آمنين ﴾ حال من ضمير ﴿ يدعون ﴾ .

والمراد هنا أمن خاص غير الذي في قوله : ﴿ في مقامٍ أمينٍ ﴾ [الدخان : 51] وهو الأمن من الغوائل والآلام من تلك الفواكه على خلاف حال الإكثار من الطعام في الدنيا كقوله في خمر الجنة ﴿ لا فيها غوْلٌ ولا هم عنها ينزفون ﴾ [الصافات : 47] ، أو آمنين من نفاد

ذلك وانقطاعه .

وجملة ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ حال أخرى .

وهذه بشارة بخلود النعمة لأن الموت يقطع ما كان في الحياة من النعيم لأصحاب النعيم كما كان الإعلام بأن أهل الشرك لا يموتون نذارة بدوام العذاب .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا الموتة الأولى ﴾ من تأكيد الشيء بما يشبه ضده لزيادة تحقيق انتفاء ذوق الموت عن أجل الجنة فكأنه قيل لا يذوقون الموت البتة وقرينة ذلك وصفها بـ ﴿ الأولى ﴾ .

والمراد بـ ﴿ الأولى ﴾ السالفة ، كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ [الدخان : 35] .

﴿ الاولى ووقاهم عَذَابَ ﴾ ﴿ الجحيم * فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ .

عطف على ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ وهذا تذكير بنعمة السلامة مما ارتبك فيه غيرهم .

وذلك مما يحمد الله عليه كما ورد أن من آداب من يرى غيره في شدة أو بأس أن يقول : الحمد لله الذي عافاني مما هو فيه .

وضمير ﴿ وقاهم ﴾ عائد إلى ضمير المتكلم في ﴿ وزوجناهم ﴾ على طريقة الالتفات .

و ﴿ فضلاً ﴾ حال من المذكورات .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم

وذكر الرب إظهار في مقام الإضمار ومقتضى الظاهر أن يقال : فضلاً منه أو منا .

ونكتة هذا الإظهار تشريف مقام النبي صلى الله عليه وسلم والإيماء إلى أن ذلك إكرام له لإيمانهم به .

وجملة ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ تذييل ، والإشارة في ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ لتعظيم الفضل ببعد المرتبة .

وأتي بضمير الفصل لتخصيص الفوز بالفضل المشار إليه وهو قصر لإفادة معنى الكمال كأنه لا فوز غيره .

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58)

الفاء للتفريع إشارة إلى أن ما بعدها متفرّع عما قبلها حيث كان المذكور بعد الفاء فذلكة للسورة ، أي إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى إحضاراً لتلك الأغراض وضبطاً

لترتُّب علتها .

وضمير ﴿ يسرناه ﴾ عائد إلى الكتاب المفهوم من المقام والمذكور في قوله ﴿ والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلةٍ مباركةٍ ﴾ [الدخان : 2 ، 3] الخ ، والذي كان جلّ غرض السورة في إثبات إنزاله من الله كما أشار إليه افتتاحها بالحروف المقطعة ، وقوله : ﴿ والكتاب المبين ، فهذا التفريع مرتبط بذلك الافتتاح وهو من ردّ العجز على الصدر .

فهذا التفريع تفريع لمعنى الحصر الذي في قوله : فإنما يسرناه بلسانك ﴾ لبيان الحكمة في إنزال القرآن باللسان العربي فيكون تفريعاً على ما تقدم في السورة وما تخلله وتبعه من المواعظ .

ويجوز أن يكون المفرع قوله : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ .

وقدم عليه ما هو توطئة له اهتماماً بالمقدم وتقدير النظم فلعلهم يتذّكرون بهذا لما يسّرناه لهم بلسانهم .

(167/697)

والقصر المستفاد من (إنما) قصر قلب وهو رد على المشركين إذ قد سهَّل لهم طريق فهمه بفصاحته وبلاغته فقابلوه بالشك والهزء كما قصه الله في أول السورة بقوله : ﴿ بل هم في

شَكٍّ يلعبون ﴾ [الدخان : 9] أي إنا جعلنا فهمه يسيراً بسبب اللغة العربية الفصحى وهي لغتهم إلا ليتذكروا فلم يتذكروا .

فمفعول ﴿ يسرناه ﴾ مضاف مقدر دل عليه السياق تقديره : فهمه .

والباء في ﴿ بلسانك ﴾ للسببية ، أي بسبب لغتك ، أي العربية وفي إضافة اللسان إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم عناية بجانبه وتعظيم له ، وإلا فاللسان لسان العرب كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ﴾ [إبراهيم : 4] .

وإطلاق اللسان وهو اسم الجارحة المعروفة في الفم على اللّغة مجاز شائع لأن أهم ما يستعمل فيه اللسان الكلام قال تعالى : ﴿ بلسانٍ عربيٍ مبينٍ ﴾ [الشعراء : 195] .

وأفصح قوله ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ عن الأمر بالتذكير بالقرآن .

والتقدير : فذكّرهم به ولا تسأم لعنادهم فيه ودم على ذلك حتى يحصل التذكر ، فالتيسير هنا تسهيل الفهم ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فإنما يسرّناه بلسانك لتبشر به المتقين ﴾ الخ في سورة مريم (97) .

و(لعلّ) مستعملة في التعليل ، أي لأجل أن يتذكّروا به ، وَهَذَا كقوله : ﴿ وهذا كتابٌ مصدقٌ لساناً عربياً لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ [الأحقاف : 12] .

وفي هذا الكلام الموجز إخبار بتيسير القرآن للفهم لأن الغرض منه التذكر ، قال تعالى : ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾ [القمر : 17] ، وبأن سبب ذلك التيسير كونُه

بأفصح اللغات وكونُه على لسان أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم فلذلك كان تسببه في حصول تذكرهم تسبباً قريباً لو لم يكونوا في شك يلعبون .

(168/697)

وباعتبار هذه المعاني المتوافرة حسن أن يفرع على هذه الجملة تأييد النبي صلى الله عليه وسلم وتهديد معانديه بقوله : ﴿ فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ أي فارتقب النصر الذي سألته بأن تعان عليهم بسنين كسنين يوسف فإنهم مرتقبون ذلك وأشد منه وهو البطشة الكبرى .

وإطلاق الارتقاب على حال المعاندين استعارة تهكمية لأن المعنى أنهم لاقُون ذلك لا محالة وقد حسنها اعتبار المشاكلة بين (ارتقب) و ﴿ مرتقبون ﴾ .

وجملة ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ تعليل للأمر في قوله ﴿ فارتقب ﴾ أي ارتقب النصر بأنهم لاَقُوا العذاب بالقحط وقد أغنت (إنّ) التّسبُب والتعليل .

وفي هذه الخاتمة ردّ العجز على الصدر إذ كان صدر السورة فيه ذكر إنزال الكتاب المبين وأنه رحمة من الله بواسطة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وكان في صدرها الإنذار بارتقاب يوم تأتي السماء بدخان مبين وذكر البطشة الكبرى .

فكانت خاتمة هذه السورة خاتمة عزيزة المنال اشتملت على حسن براعة المقطع وبديع الإيجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(169/697)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾

والمقام الأمين موضع الإقامة والأمين الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص واهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد والبلد الأمين الذي قد أمن من أهله فيه مما يخالف منه سواهم وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى أن المتقين في مقام أمين وفي قوله تعالى يدعون فيها بكل فاكهة آمنين فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادى الأرواح صـ 100 . 101 ﴾

(170/697)

وقال أيضا :

وقال تعالى ﴿ إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾

(171/697)

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على الثمار والأنهار وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضا وتمام اللذة بالحور العين ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتا والحور جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين وقال زيد بن أسلم الحوراء التي يحار فيها الطرف وعين حسان الأعين وقال مجاهد الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون وقال الحسن الحوراء شديدة بياض العين شديدة سواد العين واختلف في اشتقاق هذه اللفظة فقال ابن عباس الحور في كلام العرب البيض وكذلك قال قتادة الحور البيض وقال مقاتل الحور البيض الوجوه

وقال مجاهد الحور العين التي يحار فيهن الطرف باديا مخ سوقهن من وراء ثيابهن ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون وهذا من الإتفاق وليست اللفظة مشتقة من الحيرة وأصل الحور البياض والتحوير التبييض والصحيح أن الحور مأخوذ من الحور في العين وهو شدة بياضها مع قوة سوادها فهو يتضمن الأمرين وفي الصحاح الحور شدة بياض العين في شدة سوادها امرأة حوراء بينة الحور وقال أبو عمرو الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر وليس في بني آدم حور وإنما قيل للنساء حور العين لأنهن شبهن بالظباء والبقر وقال الأصمعي ما أدري ما الحور في العين قلت خالف أبو عمرو أهل اللغة في اشتقاق اللفظة ورد الحور إلى السواد والناس غيره إنما ردوه إلى البياض أو إلى بياض في سواد والحور في العين معنى يلتئم من حسن البياض والسواد وتناسبهما واكتساب كل واحد منهما الحسن من

(172/697)

الآخر عين حوراء إذا اشتد بياض أبيضها وسواد أسودها ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد والعين جمع عيناء وهي العظيمة العين من النساء ورجل أعين إذا كان ضخم العين وامرأة عيناء والجمعت والجمع عين والصحيح أن العين

اللاتي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة قال مقاتل العين حسان الاعين ومن محاسن المرأة اتساع عينها في طول و ضيق العين في المرأة من العيون و إنما يستحب الضيق منها في أربعة مواضع فيها وخرق أذنها وانفها وما هنالك ويستحب السعة منها في أربعة مواضع ووجهها وصدرها وكأهلها وهو ما بين كتفيها وجبهتها ويستحسن البياض منها في أربعة مواضع لونها وفرقها وثغرها وبياض عينها ويستحب السواد منها في أربعة مواضع عينها وحاجبها وهدبها وشعرها ويستحب الطول منها في أربعة قوامها وعنقها وشعرها وبنانها ويستحب القصر منها في أربعة وهي معنوية لسانها ويدها ورجلها وعينها فتكون قاصر الطرف قصيرة الرجل واللسان عن الخروج وكثرة الكلام قصيرة اليد عن تناول ما يكره الزوج وعن بذله وتستحب الرقة منها في أربعة خصرها وفرقها وحاجبها وانفها فصل

(173/697)

وقوله تعالى وزوجناهم بحور عين قال أبو عبيدة جعلناهم أزواجا كما يزوج النعل بالنعل جعلناهم اثنين اثنين وقال يونس قرناهم بهن وليس من عقد التزويج قال والعرب لا تقول تزوجت بها و إنما تقول تزوجتها قال بن نصر هذا والتنزيل يدل على ما قاله يونس وذلك قوله تعالى فلما قضى زيدا منها وطرا زوجناكها ولو كان على تزوجت بها لقال زوجناك

بها وقال ابن سلام تميم تقول تزوجت امرأة وتزوجت بها وحكها الكسائي أيضا وقال الأزهري تقول العرب زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس من كلامهم تزوجت بامرأة وقوله تعالى وزوجناهم بحور عين أي قرناهم وقال الفراء هي لغة في ازدشنؤة قال الواحدي وقال أبي عبيدة في هذا احسن لانه جعله من التزويج الذي هو بمعنى جعل الشيء زوجا لا بمعنى عقد النكاح ومن هذا يجوز أن يقال كان فردا فزوجته بآخر كما يقال شفعته بآخر و إنما تمتنع الباء عند من يمنعها إذا كان بمعنى عقد التزويج قلت ولا يمتنع أن يراد الأمران معا فلفظ التزويج يدل على النكاح كما قال مجاهد أنكحناهم الحور ولفظ الباء تدل على الاقتران والضم وهذا ابلغ من حذفها والله اعلم وقال تعالى فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان وصفهن سبحانه بقصر الطرف في ثلاثة مواضع

(174/697)

أحدها هذا والثاني قوله تعالى في الصافات وعندهم قاصرات الطرف عين والثالث قوله تعالى في ص وعندهم قاصرات الطرف أتراب والمفسرون كلهم على أن المعنى قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم وقيل قصرن طرف أزواجهن كلهن فلا

يدعهم حسنهن وجمالهن أن ينظروا إلى غيرهن وهذا صحيح من جهة المعنى واما من
جهة اللفظ فقاصرات صفة مضافة إلى الفاعل لحسان الوجوه واصله قاصر طرفهن أي
لبس بطامح متعد قال آدم حدثنا ورقاء عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله قاصرات الطرف
قال يقول قاصرات الطرف على أزواجهن فلا يبغين غير أزواجهن قال آدم وحدثنا المبارك
بن فضلة عن الحسن قال قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم والله ما هن
متبرجات ولا متطلعات وقال منصور عن مجاهد قصرن أبصارهن وقلوبهن و أنفسهن على
أزواجهن فلا يردن غيرهم وفي تفسير سعيد عن قتادة قال وقصرن أطرافهن على أزواجهن
فلا يردن غيرهم و أما الأتراب فجمع ترب وهو لذة الإنسان قال أبو عبيدة و أبو إسحاق
أقران أسنانهن واحدة قال ابن عباس وسائر المفسرين مستويات على سن واحد وميلاد
واحد وبنات ثلاث وثلاثين سنة وقال مجاهد أتراب أمثال قال إسحاق هن في غاية الشباب
والحسن وسمي سن الإنسان وقرنه تربه لانه مس تراب الأرض معه في وقت واحد والمعنى
من الأخبار باستواء أسنانهن أنهن ليس فيهن عجائز قد فات حسنهن ولا ولائد لا يقطن
الوطء بخلاف الذكور فان فيهم الولدان وهم الخدم وقد اختلف في مفسر الضمير في قوله
فيهن فقالت طائفة مفسره الجنتان وما حوتاه من القصور والغرف والخيام وقالت طائفة
مفسره الفرش المذكورة في قوله متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وفي بمعنى على وقوله
تعالى لم يطمثهن انس قبلهن ولا جان قال أبو عبيدة لم يمسهن يقال ما طمث هذا البعير حبل

قط أي ما مسه وقال يونس تقول العرب هذا جمل ما طمثه حبل قط أي ما مسه وقال الفراء الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية والطمث هو الدم وفيه لغتان طمث يطمث

(175/697)

ويطمث قال الليث طمثت الجارية إذا افترعتها والطامث في لغتهم هي الحائض قال أبو الهيثم يقال للمرأة طمثت تطمث إذا أدميت بالافتضاض وطمثت على فعلت تطمث إذا حاضت أول ما تحيض فهي طامث وقال في قول الفرزدق

خرجن إلى لم يطمثن قبلي . . . وهن اصح من بيض النعام

أي لم يمسسن قال المفسرون لم يطأهنولم يغشهن يجاملهم ولم يغشين ولم يجامعن هذه ألفاظهم وهم مختلفون في هؤلاء فبعضهم يقول هن اللواتي أنشئن في الجنة من حورها وبعضهم يقول يعني نساء الدنيا أنشئن خلقا آخر ابكارا كما وصفن قال الشعبي نساء من نساء الدنيا لم يمسسن منذ انشئن خلقا وقال مقاتل لأنهن خلقن في الجنة وقال عطاء عن ابن عباس هن الآدميات اللاتي متن أبكارا وقال الكلبي لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه انس ولا جان قلت ظاهر القران أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا وانما هن من الحور حور العين و أما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس ونساء الجن قد طمثهن الجن والاية تدل على ذلك قال

أبو إسحاق وفي الآية دليل على أن الجن يغشي كما أن الأنس يغشى ويدل على أنهن الحور اللاتي خلقن في الجنة انه سبحانه جعلهن مما أعده الله في الجنة لأهلها من الفاكهة والثمار و الأنهار والملابس وغيرها ويدل عليه أيضا الآية التي بعدها وهي قوله تعالى حور مقصورات في الخيام ثم قال لم يطمثن انس قبلهم ولا جان قال الإمام احمد والحور العين لا يمتن عند النفخة للصور لأنهن خلقن للبقاء وفي الآية دليل لما ذهب إليه الجمهور أن مؤمن الجن في الجنة كما أن كافرهم في النار وبوب عليه البخاري في صحيحه فقال باب ثواب الجن وعقابهم ونص عليه غير واحد من السلف قال ضمرة بن حبيب وقد سئل هل للجن ثواب فقال نعم وقرا هذه الآية ثم قال الإنسيات للإنس والجنيات للجن وقال مجاهد في هذه الآية إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على احليله فجامع معه والضمير في قوله قبلهم للمعنيين بقوله متكئين وهم أزواج هؤلاء النسوة

(176/697)

وقوله كأنهم الياقوت والمرجان قال الحسن وعامة المفسرين أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان شبههن في صفاء اللون وبياضه وبالياقوت والمرجان ويدل عليه ما قاله عبد الله ان المرأة من النساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من

ورائهن ذلك بان الله يقول كأنهن الياقوت والمرجان إلا وان الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكا ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادى الأرواح صـ 218.223 ﴾

(177/697)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) ﴾

أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال : إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول تزقموا بهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد ، فنزلت ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم والخطيب في تاريخه عن سعيد بن جبير في الآية قال : ﴿ الأثيم ﴾ أبو جهل .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الأنباري وابن المنذر عن عون بن عبد الله أن ابن مسعود أقرأ رجلاً ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ فقال الرجل : طعام اليتيم فرددها عليه فلم يستقم بها لسانه ، فقال : أتستطيع أن تقول : طعام الفاجر ؟ قال : نعم . قال : فافعل .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن همام بن الحارث قال : كان أبو الدرداء يقرىء رجلاً ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ فجعل الرجل يقول : طعام اليتيم . فلما رأى أبو الدرداء أنه لا يفهم قال : إن شجرة الزقوم طعام الفاجر .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ قال : ادفعوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ يقول : لست بعزيز ولا كريم .

وأخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال : " لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل ، فقال : إن الله أمرني أن أقول لك ﴿ أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ﴾ [القيامة : 34-35] قال : فنزع يده من يده ، وقال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : قال أبو جهل : أيوعدني محمد وأنا أعز من مشى بين جبليها فنزلت ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن قال : أخبرت أن أبا جهل قال : يا معشر قريش أخبروني ما اسمي ؟ فذكرت له ثلاثة أسماء عمرو والجلاس وأبو الحكم ، قال : ما أصبتم اسمي ألا أخبركم ؟ قالوا : بلى . قال : اسمي العزيز الكريم . فنزلت ﴿ إن شجرة الزقوم ﴾ الآيات .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال لما نزلت ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ﴾ قال أبو جهل : ما بين جبليها رجل أعز ولا أكرم مني فقال الله ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ قال : أبو جهل .

وأخرج ابن مردويه عن أبيّ بن كعب " أنه كان يقرىء رجلاً فارسياً فكان إذا قرأ عليه ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ قال : طعام اليتيم فمر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قل له طعام الظالم فقالها ففصح بها لسانه " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن وعمرو بن ميمون إنهما قرآ " كالمهل تغلي في البطون " بالتاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ فاقصفوه كما يقصف الحطب .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ﴾ قال : خذوه فادفعوه في وسط الجحيم .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ قال : وسط الجحيم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ قال : هو يومئذ ذليل ولكنه يستهزأ به كما كنت تعزز في الدنيا وتكرم بغير كرم الله وعزه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾ قال : أمنوا الموت والعذاب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك في قوله ﴿ في مقام أمين ﴾ قال : أمنوا الموت أن يموتوا ، وأمنوا الهرم أن يهرموا ولا يجوعوا ولا يعروا .

(179/697)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾ قال أمين من الشيطان والأوصاب والأحزان وفي قوله ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ قال : بيض عين . قال : وفي قراءة ابن مسعود بعيس عين وفي قوله ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ قال : أمنوا من الموت والأوصاب والشيطان .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ قال : أنكحناهم حوراً والحور التي يحار فيها الطرف بادياً يرى مخ سوقهن من وراء ثيابهن ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ حور عين ﴾ قال الحوراء البيضاء الممتعة . قال : وهل تعرف العرب ذلك قال : نعم أما سمعت الأعشى الشاعر وهو يقول :

وحور كأمثال الدمى ومناصف . . . وماء وريحان وراح يصفق

وأخرج البيهقي في البعث عن عطاء في قوله ﴿ بحور عين ﴾ قال : سوداء الحدقة عظيمة العين .

وأخرج هناد بن السري وعبد بن حميد عن الضحاك في قوله ﴿ بحور عين ﴾ قال الحور البيض والعين العظام الأعين .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الحور العين من الزعفران " .

وأخرج ابن مردويه والخطيب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحور العين خلقن من زعفران " .

وأخرج ابن جرير عن ليث بن أبي سليم قال : بلغني أن الحور العين خلقن من الزعفران .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : خلق الحور العين من الزعفران .

وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال : إن الله لم يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافور وزعفران .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن أبي حاتم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن حوراء بزقت في بحر لجي لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها " .

(180/697)

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عمرو قال : لشفر المرأة أطول من جناح النسر .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال : لو أن حوراء أخرجت كفها بين السماء والأرض لافتتن الخلائق بحسنها ، ولو أخرجت نصيفها لكانت الشمس عند حسنه مثل الفتيلة في الشمس لا ضوء لها ، ولو أخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض .

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حور العين خلقهن من تسبيح الملائكة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه أنه قال : ليوجد ريح المرأة من الحور العين من مسيرة خمسمائة سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ وزوّجناهم بحور عين ﴾ قال : هي لغة يمانية ، وذلك أن أهل اليمن يقولون : زوجنا فلاناً بفلانة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : في قراءة ابن مسعود " لا يذقون فيها طعم الموت " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يجاء بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيعرفه هؤلاء ، ويعرفه هؤلاء ، فيقول أهل النار : اللهم سلطه علينا ، ويقول أهل الجنة : اللهم إنك قضيت أن لا نذوق فيها الموت إلا الموتة الأولى ، فيذبح بينهما ، فييأس أهل النار من الموت ، ويأمن أهل الجنة من الموت " .

وأخرج البزار والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه قال : " قيل يا رسول الله أينام أهل الجنة ؟ قال : لا ، النوم أخو الموت ، وأهل الجنة لا يموتون ولا ينامون " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ يعني القرآن ، وفي قوله ﴿ فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ فانتظر إنهم منتظرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الدُّخَانِ فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ الْآيَةُ الْأُولَى

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ بِاللَّيْلِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ مِنْهُ لَيْلِيًّا وَمِنْهُ نَهَارِيًّا وَمِنْهُ سَفَرِيٌّ وَحَضَرِيٌّ ، وَمِنْهُ مَكِّيٌّ وَمَدَنِيٌّ ، وَمِنْهُ سَمَائِي وَأَرْضِيٌّ ، وَمِنْهُ هَوَائِيٌّ ؛ وَالْمُرَادُ هَاهُنَا مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ أُنْزِلَ جُمْلَةً فِي اللَّيْلِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوُ مَا فِي عِشْرِينَ عَامًا وَنَحْوِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ مُبَارَكَةٍ ﴾ الْبَرَكَةُ : هِيَ النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ ، وَسَمَّاهَا مُبَارَكَةً لِمَا يُعْطِي اللَّهُ فِيهَا مِنْ الْمَنَازِلِ ، وَيَغْفِرُ مِنْ الْخَطَايَا ، وَيُقَسِّمُ مِنْ الْحُظُوظِ ، وَيَبُثُّ مِنْ الرَّحْمَةِ ، وَيُنِيلُ مِنْ الْخَيْرِ ، وَهِيَ حَقِيقَةُ ذَلِكَ وَتَفْسِيرُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ تَعْيِينُ هَذِهِ اللَّيْلَةِ : وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهَا لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ؛ وَهُوَ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ الصَّادِقِ الْقَاطِعِ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ فَنَصَّ عَلَى أَنَّ مِيقَاتَ نُزُولِهِ رَمَضَانُ ، ثُمَّ عَبَّرَ عَنْ زَمَانِيَّةِ اللَّيْلِ هَاهُنَا بِقَوْلِهِ : ﴿ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللَّهِ ، وَلَيْسَ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ حَدِيثٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ، لَا فِي فَضْلِهَا ، وَلَا فِي نَسْخِ الْآجَالِ فِيهَا ، فَلَا تَلْتَفِتُوا إلَيْهَا .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى السُّرَى : سَيْرُ اللَّيْلِ .

وَالْإِدْلَاجُ : سَيْرُ السَّحَرِ ، وَالْإِسْآدُ : سَيْرُهُ كُلِّهِ .

وَالتَّأْوِيبُ : سَيْرُ النَّهَارِ .

وَيُقَالُ : سَرَى وَأَسْرَى ، وَقَدْ يُضَافُ إلَى اللَّيْلِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّيْلِ إذَا يَسْرِ ﴾ وَهُوَ يُسْرَى فِيهِ ، كَمَا قِيلَ : لَيْلٌ نَائِمٌ ، وَهُوَ يُنَامُ فِيهِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ اتِّسَاعَاتِ الْعَرَبِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ أَمْرٌ بِالْخُرُوجِ بِاللَّيْلِ ، وَسَيْرُ اللَّيْلِ يَكُونُ مِنْ الْخَوْفِ ؛ وَالْخَوْفُ يَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ : إمَّا مِنْ الْعَدُوِّ فَيُتَّخَذُ اللَّيْلُ سِتْرًا مُسْدَلًا ، فَهُوَ مِنْ أَسْتَارِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَإِمَّا مِنْ خَوْفِ الْمَشَقَّةِ عَلَى الدَّوَابِّ وَالْأَبْدَانِ بِحَرٍّ أَوْ جَدْبٍ ، فَيُتَّخَذُ السُّرَى مَصْلَحَةً مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْرِي وَيُدْلِجُ وَيَتَرَفَّقُ وَيَسْتَعْجِلُ قَدْرَ الْحَاجَةِ وَحَسْبَ الْعَجَلَةِ ، وَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ .

وَفِي جَامِعِ الْمُوَطَّإِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَيَرْضَى بِهِ ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ ، فَإِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ الْعَجَمَ فَأَنْزِلُوهَا مَنَازِلَهَا ، فَإِنْ كَانَتْ الْأَرْضُ جَدْبَةً فَانْجُوا عَلَيْهَا بِنِقْيِهَا ، وَعَلَيْكُمْ بِسَيْرِ اللَّيْلِ فَإِنَّ الْأَرْضَ تَطْوِي بِاللَّيْلِ مَا لَا تَطْوِي بِالنَّهَارِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّعْرِيسَ عَلَى الطَّرِيقِ فَإِنَّهُ طُرُقُ الدَّوَابِّ وَمَأْوَى الْحَيَّاتِ ﴾ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الزَّقُّومُ : كُلُّ طَعَامٍ مَكْرُوهٍ ، يُقَالُ : تَزَقَّمَ الرَّجُلُ إذَا تَنَاوَلَ مَا يَكْرَهُ .

وَيُحْكَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الزَّقُّومَ هُوَ التَّمْرُ وَالزُّبْدُ بِلِسَانِ الْبَرْبَرِ ، وَيَا لِلَّهِ وَلِهَذَا الْقَائِلِ وَأَمْثَالِهِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْكِتَابِ بِالْبَاطِلِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ أَقْرَأَ رَجُلًا طَعَامَ الْأَثِيمِ فَلَمْ يَفْهَمْهَا ؛ فَقَالَ لَهُ : طَعَامُ الْفَاجِرِ ، فَجَعَلَهَا النَّاسُ قِرَاءَةً ، حَتَّى رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : أَقْرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَجُلًا إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقُولُ : طَعَامُ الْيَتِيمِ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : طَعَامُ الْفَاجِرِ .

فَقُلْت لِمَالِكٍ : أَتَرَى أَنْ يَقُولَ كَذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

وَرَوَى الْبَصْرِيُّونَ عَنْهُ أَنَّهُ لَا يُقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ بِمَا يُرْوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ .

وَقَالَ ابْنُ شَعْبَانَ : لَمْ يَخْتَلِفْ قَوْلُ مَالِكٍ إنَّهُ لَا يُصَلَّى بِقِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى بِهَا أَعَادَ صَلَاتَهُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ بِالتَّفْسِيرِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا الْقَوْلَ فِي حَالِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَلَوْ صَحَّتْ قِرَاءَتُهُ لَكَانَتْ الْقِرَاءَةُ بِهَا سُنَّةً ، وَلَكِنَّ النَّاسَ أَضَافُوا إلَيْهِ مَا لَمْ يَصِحَّ عَنْهُ ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ : لَا يُقْرَأُ بِمَا يُذْكَرُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ .

وَالَّذِي صَحَّ عَنْهُ مَا فِي الْمُصْحَفِ الْأَصْلِيِّ .

(185/697)

فَإِنْ قِيلَ : فَفِي الْمُصْحَفِ الْأَصْلِيِّ قِرَاءَاتٌ وَاخْتِلَافَاتٌ فَبِأَيٍّ يُقْرَأُ ؟ قُلْنَا : وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ بِجَمِيعِهَا بِإِجْمَاعٍ مِنْ الْأُمَّةِ ، فَمَا وُضِعَتْ إلَّا لِحِفْظِ الْقُرْآنِ ، وَلَا كُتِبَتْ إلَّا لِلْقِرَاءَةِ بِهَا ، وَلَكِنْ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ يُعَيَّنَ الْمَقْرُوءُ بِهِ مِنْهَا ، فَيُقْرَأَ بِحَرْفِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَأَهْلِ الشَّامِ ، وَأَهْلِ مَكَّةَ ، وَإِنَّمَا يَلْزَمُهُ أَلَّا يَخْرُجَ عَنْهَا ، فَإِذَا قَرَأَ آيَةً بِحَرْفِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَقَرَأَ الَّتِي بَعْدَهَا بِحَرْفِ أَهْلِ الشَّامِ كَانَ جَائِزًا ، وَإِنَّمَا ضَبَطَ أَهْلُ كُلِّ بَلَدٍ قِرَاءَتَهُمْ بِنَاءً عَلَى مُصْحَفِهِمْ ، وَعَلَى مَا نَقَلُوهُ عَنْ سَلَفِهِمْ ، وَالْكُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، فَاقْرَءُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(186/697)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

نجّاهم ، وأقمى عدوّهم ، وأهلكه .

﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ ﴾ أي عَلِمنا ما يحتقبون من أوزارهم ، فرفعنا – باختيارنا – من أقدارِهم ما وَضعَه فِعْلُهم وتدنسُّهم بأوضارهم .

ويقال : " على علمٍ منا " بأحوالهم أنهم يُؤثِرون أمرنا على كل شيء .

ويقال : " على علمٍ منا " بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا .

ويقال : " على علم منا " بما نودع عندهم من اسرارنا ، وما نكاشفهم به من حقائق حقّنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُم مِّنَ الأَيَاتِ مَا فِيهِ بَلآءٌ مُّبِينَ ﴾ .

من مطالبته بالشكر عند الرخاء ، والصبر عند الكَدَر والعناء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ هَؤُلآءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحنُ بِمُنشَرِينَ فَأْتُواْ بِئَابَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

اقترح أبو جهلٍ على النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يحييَ لهم نَفْساً :

" لتخبرنا : هل أنت صادق أم لا ؟ " فأخبر الله – سبحانه – أنهم اقترحوا هذا بعد قيامِ الحُجَّةِ عليهم ، وإظهار ما أزاح لهم من العُذْر :

ثم قال جل ذكره : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

" تُبّع " هو ملك لليمن ، وكان مسلماً ، وكان في قومه كثرة ، وأهلك الله سبحانه قومَه على

كثرة عددهم ، وكمال قُوَّتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ .

(187/697)

ما خلقناهما إلا بالحقِّ ، بالحُكْمِ الحقِّ ، وبالأمرِ الحقِّ . . . " فأنا مُحِقٌّ في خَلْقِهما " : أي كان لي خَلْقُهما .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لاَ يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

يومئذٍ لا يُغْني ناصرٌ عن ناصر ولا حميمٌ عن حميم ، ولا نسيبٌ عن نسيبٍ . . . شيئاً . ولا ينالهم نصرٌ إلا من رَحِمَه الله ؛ وبفَضْلِه ونِعْمته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ كَغَلْىِ الْحَمِيمِ ﴾ .

" الأثيم " مرتكبُ الذنوب . " المهل " المذاب . " الحميم " : الماء الحار .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَآءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ .

ادفعوا به إلى وسط الحميم . ويقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ .

أنت كذلك عند قومك ، ولكنك عندنا ذليلٌ مَهينٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ .

آمنين من المحن من جميع الوجوه ، لِباسُهم من حرير ، وفراشُهم من سُندسٍ واستبرق ، " متقابلين " : لا يبرحون ولا يبغون عنها حِوَلاً .

كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54)

تُباح لهم صُحْبَتُهن ، ولا يكون في الجنة عقد تزويج ولا طلاقٌ ، ويمكّن الوليُّ بهذه الاوصاف من هذه الألطاف . ثم قد يُخْتطفُ قومُ من بين هذه الأسباب ، فيتحررون عن هذه الجملة ؛ فكما انهم في الدنيا مُختَطَفُون عن كلِّ العلائق فإنهم في الآخرة تطمع الحورُ العينُ في صحبتهم فيستلبهم الحقُّ عن كلِّ شيء .

الزاهدُ في الدنيا يحميه منها ، والعارفُ في الجنة يحميه من الجنة .

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56)

الموتة الأولى هي بقبض أرواحهم في الدنيا ، ويقيهم الله في الآخرة العذاب بفضله ، وذلك هو الظَّفَرُ بالبغية ، ونجاح السُّؤل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ .

يا محمد ، ليذكر به أهلُك ، فارتقِبْ العواقب تَرَ العجائب . إنهم يرتقبون ، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 384 . 387 ﴾

(189/697)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ حم والكتاب المبين إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾

يعني : الكتاب أنزلناه في ليلة القدر سميت مباركة لما فيها من البركة ، والمغفرة للمؤمنين ، وذلك أن القرآن ، أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، إلى السماء الدنيا في ليلة القدر إلى السفرة .

ثم أنزله جبريل متفرقاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقال : كان ينزل من اللوح المحفوظ ، إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ، مقدار ما ينزل به جبريل عليه السلام ، متفرقاً إلى

السنة الثانية ثم قال : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ يعني : مخوفين بالقرآن .

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ يعني : في ليلة القدر ، يقضى كل أمر محكم ، ما يكون في تلك السنة إلى السنة الأخرى ، وهذا قول عكرمة .

وروى منصور ، عن مجاهد قال فيها : يقضى أمر السنة إلى السنة ، من المصائب والأرزاق وغير ذلك .

وهذا موافق للقول الأول .

ويقال : في تلك الليلة ، يفرق يعني : ينسخ من اللوح المحفوظ ، ما يكون إلى العام القابل من الرزق ، والأجل ، والأمراض ، والخصب ، والشدة .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، أنه قال : إنك لتلقى الرجل في الأسواق ، وقد وقع اسمه في الأموات .

ثم قرأ هذه الآية : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ يعني : في تلك الليلة ، يفرق كل أمر الدنيا إلى مثلها إلى السنة من قابل ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ يعني : قضاء من عندنا .

ويقال : معناه بأمر من عندنا ، فنزع حرف الخافض فصار نصباً ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ يعني : الرسل إلى الخلق .

ويقال : يعني : الملائكة في تلك الليلة ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني : إنزال الملائكة ، رحمة من الله تعالى .

ويقال : الرسالة رحمة من الله تعالى .

ويقال : هذا القرآن رحمة لمن آمن به ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لقولهم ﴿ العليم ﴾ بهم وبأعمالهم .

(190/697)

قوله عز وجل : ﴿ رَبّ السموات والأرض ﴾ قرأ أهل الكوفة رب ، بكسر الباء ، والباقون بالضم ، فمن قرأ بالكسر رده إلى قوله : رحمة من ربك رب السموات .

ومن قرأ بالضم ، رده إلى قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ رب السموات .

ويقال : على الاستئناف .

ومعناه : هو ربكم ، وهو رب السموات والأرض ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ يعني : مؤمنين بتوحيد الله ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ ﴾ وقد ذكرناه ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ أي : خالقكم ورازقكم ﴿ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الاولين ﴾ يعني : هو خالقهم ورازقهم .

قوله عز وجل : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكّ يَلْعَبُونَ ﴾ يعني : يستهزئون .

ويقال : هذا جواب قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ فكأنه قال : لا يوقنون ، بل هم في شك يلعبون يعني : يخوضون في الباطل .

قوله تعالى : ﴿ فارتقب ﴾ يعني : فانتظر يا محمد ﴿ يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني : الجدب والقحط قال القتبي : سمي الجدب والقحط .

دخاناً ، وفيه قولان : أحدهما أن الجائع كأنه يرى بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع ، والثاني : أنه سمي القحط دخاناً ، ليبس الأرض ، وانقطاع النبات ، وارتفاع الغبار ، فشبه بالدخان .

وروى الأعمش ، عن مسلم بن صبيح ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : "خمس مضين ، الدخان واللزام يعني : العذاب الأكبر ، والروم ، والبطشة ، والقمر .

وروي عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : بينما رجل يحدث في المسجد ، فسئل عن قوله : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فقال : إذا كان يوم القيامة ، نزل دخان من السماء ، فأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، وأخذ المؤمنون منه بمنزلة الزكام .

قال مسروق : فدخلت على عبد الله فأخبرته ، وكان متكئاً ، فاستوى قاعداً .

ثم أنشأ فقال : يا أيها الناس : من كان عنده علم فسئل عنه ، فليقل به ، ومن لم يكن عنده علم ، فليقل الله أعلم .

(191/697)

إن قريشاً حين كذبوه يعني : صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : " اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِّي يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام " فأصابهم سنة ، وشدة الجوع ، حتى أكلوا الكلاب ، والجيف والعظام ، حتى كان يرى أحدهم كأن بينه وبين السماء دخاناً .

فذلك قوله : ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني : انتظر بهلاكهم يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴿ يَغْشَى الناس ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني : يقولون : هذا الجوع عذاب أليم ثم إن أبا سفيان وعتبة بن ربيعة والعاص بن وائل وأصحابهم قالوا : يا رسول الله استسق الله لنا ، فقد أصابنا شدة .

قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب ﴾ يعني : الجوع ﴿ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ يعني : من أين لهم التوبة والعظة والتذكرة ﴿ وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ بلغتهم ومفقه لهم ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ يعني : أعرضوا عما جاء به ، فلم يصدقوه ومع ذلك ﴿ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ يعلمه جبر ويسار أسماء الرجلين غلامي الخضر ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلى المعصية ، فعادوا فانتقم منهم يوم بدر ، فذلك قوله : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى ﴾ يعني : نعاقب العقوبة العظمى ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ منهم بكفرهم ويقال : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى ﴾ يعني : يوم القيامة .

ويقال : آية الدخان لم تمض ، وستكون في آخر الزمان .

وروى إسرائيل عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي رضي الله عنه قال : لم تمض آية الدخان يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وينتفخ الكافر حتى يصير كهيئة الجمل .

(192/697)

وروى ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس قال : " أُخْبِرْتُ أَنَّ الكَوْكَب ذَا الذَّنب قد طَلَعَ ، فَخَشِيتُ أَنْ يَكونَ الدُّخَانَ قَد طَرق " ويقال : هذا كله يوم القيامة ، إذا خرجوا من قبورهم ، تأتي السماء بدخان مبين ، محيط بالخلائق فيقول الكافرون : ﴿ رَّبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب ﴾ أي : ردنا إلى الدنيا ﴿ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ يقول الله تعالى : من أين لهم الرجعة ، وقد جاءهم رسول مبين فلم يجيبوه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ يعني : ابتلينا قبل قومك قوم فرعون .

﴿ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ على ربه ، وهو موسى عليه السلام .

ويقال : رسول كريم .

أي : شريف ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ الله ﴾ يعني : أرسلوا معي بني إسرائيل ، واتبعوني على ديني ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ قد جئتكم من عند الله تعالى .

ويقال : كريم لأنه كان يتجاوز عنهم ، ويقال أمين فيكم قبل الوحي ، فكيف تتهموني اليوم .

ويقال كريم حيث يتجاوز عنهم ، حين دعا موسى ، ورفع عنهم الجراد ، والقمل ، والضفادع والدم ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فيما بينكم وبين ربكم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى اللّهِ ﴾ يعني : لا تخالفوا أمر الله تعالى .

ويقال : لا تستكبروا عن الإيمان ، ولا تعلوا بالفساد ، لأن فرعون لعنه الله ، كان عالياً من المسرفين ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى ﴾ يعني : آتيكم بحجة بينة اليد والعصى ، وغير ذلك .

﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ يعني : أعوذ بالله ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ يعني : أن تقتلون .

ومعناه : أسأل الله تعالى ، أن يحفظني لكي لا تقتلوني .

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ عُذْتُ ﴾ بإدغام الذال في التاء ، لقرب مخرجيهما ، والباقون بغير إدغام ، لتبيين الحرف .

ثم قال : ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فاعتزلون ﴾ يعني : إن لم تصدقوني فاتركوني .

(193/697)

قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ يعني : دعا موسى ربه ، كما ذكر في سورة يونس ﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَآ إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِى الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أموالهم واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ [

يونس : 88] وقوله : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [يونس : 86] ﴿ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ يعني : مشركون فأبوا أن يطيعوني ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ فأوحى الله تعالى إليه ، أن أدلج ببني إسرائيل ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ يعني : إنَّ فرعون يتبع أثركم ، فخرج موسى ببني إسرائيل ، وضرب بعصاه البحر ، فصار طريقاً يابساً .

وهذا كقوله : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [طه : 77] فلما جاوز موسى مع بني إسرائيل البحر ، فأراد موسى أن يضرب بعصاه البحر ، ليعود إلى الحالة الأولى ، فأوحى الله تعالى إليه بقوله ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ قال قتادة : يعني : طريقاً يابساً واسعاً .

وقال الضحاك : رَهْواً يعني : سهلاً .

وقال مجاهد : يعني : منفرجاً .

وقال القتبي : يعني : طريقاً سالكاً .

كما هو .

ويقال : رهواً أي : سككاً جدداً ، طريقاً يابساً ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ وذلك ، أن بني إسرائيل خشوا أن يدركهم فرعون ، فقالوا لموسى : اجعل البحر كما كان ، فإننا نخشى أن يلحق بنا .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ يعني : سيغرقون ، فدخل فرعون وقومه البحر ،

فأغرقهم الله تعالى ، وبقيت قصورهم وبساتينهم قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جنات وَعُيُونٍ ﴾ يعني : بساتين وأنهاراً جارية ﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ يعني : الحروق ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني : مساكن ومنازل حسن .

(194/697)

كذلك يعني : هكذا أخرجناهم من النعم ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فاكهين ﴾ يعني : معجبين .

وقال أهل اللغة : النِّعمة بكسر النون هي المنة ، واليد الصالحة ، والنُّعمة بالضم هي الميسرة ، وبالنصب هي السعة في العيش .

ثم قال : ﴿ كذلك ﴾ يعني : هكذا أخرجناهم من السعة والنعمة ﴿ كَذَلِكَ وأورثناها قَوْماً ﴾ يعني : جعلناها ميراثاً لبني إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ قال بعضهم : هذا على سبيل المثل ، والعرب إذا أرادت تعظيم ملك ، عظيم الشأن ، عظيم العطية تقول : كَسَفَ القَمَرُ لِفَقْدِهِ ، وبَكَت الرِّيحُ والسَّمَاءُ وَالأَرْضُ ، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم ، فأخبر الله تعالى ، أن فرعون لم يكن ممن يجزع له جازع ، ولم يقم لفقده فقد ، وقال بعضهم : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ يعني : أهل السماء ، وأهل الأرض .

فأقام السماء والأرض مقام أهلها .

كما قال : ﴿ واسئل القرية التى كُنَّا فِيهَا والعير التى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لصادقون ﴾ [يوسف : 82] وقال بعضهم : يعني : بكت السماء بعينها ، وبكت الأرض .

وقال ابن عباس : " لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بَابٌ فِي السَّمَاءِ ، يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ ، وَيَنْزِلُ مِنهُ رِزْقُهُ ، فَإِذا مَاتَ بَكَى عَلَيْهِ بَابُه فِي السَّمَاءِ ، وَبَكَتْ عَلَيْهِ آثَارُهُ فِي الأَرْضِ " وذكر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، أنه سئل : أتبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال نعم ، إذا مات المؤمن ، بكت عليه معادنه من الأرض ، التي كان يذكر الله تعالى فيها ويصلي ، وبكى عليه بابه الذي كان يرفع فيه عمله ، فأخبر الله تعالى : أن قوم فرعون ، لم تبك عليهم السماء والأرض ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ يعني : مؤجلين .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إسراءيل مِنَ العذاب المهين ﴾ يعني : من العذاب الشديد .

ويقال : المهين يعني : الهوان .

(195/697)

وهو قتل الأبناء ، واستخدام البنات ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ يعني : من عذاب فرعون ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين ﴾ يعني : كان عاصياً ، عاتياً ، مستكبراً ، متعظماً وكان من

المسرفين .

يعني : من المشركين ﴿ وَلَقَدِ اخترناهم ﴾ يعني : اصطفينا بني إسرائيل ﴿ على عِلْمٍ ﴾ يعني : على علم من الله تعالى ، أنهم أهل لذلك .

ويقال : ﴿ على عِلْمٍ ﴾ الله فيهم من صبرهم ﴿ عَلَى العالمين ﴾ يعني : على عالمي زمانهم ﴿ وءاتيناهم مِنَ الآيات ﴾ يعني : أعطيناهم من العلامات ﴿ مَا فِيهِ بَلَؤٌاْ مُّبِينٌ ﴾ يعني : ابتلاء بيناً ، مثل انفلاق البحر ، وأشباه ذلك .

ثم ذكر كفار مكة فقال : ﴿ إِنَّ هَؤُلاَء لَيَقُولُون إِنْ هِىَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الاولى ﴾ يعني : ما هي إلا موتتنا الأولى ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ بعدها ﴿ فَأْتُواْ بِأَبَائِنَا إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أنا نبعث بعد الموت ، يعني : قالوا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ يعني : قومك خير أم قوم تبع ، وإنما ذكر قوم تبع ، لأنهم كانوا أقرب إلى أهل مكة في الهلاك من غيرهم .

قال الكلبي : وكانوا أشراف حمير ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ أهلكناهم ﴾ فكيف لا نهلك قومك إذا كذبوك قال : وكان تبع اسم ملك منهم ، مثل فرعون .

ويقال : إنما سمي تبع ، لكثرة أتباعه ، فأسلم فخالفوه فأهلكهم الله تعالى ، وكان اسمه سعد بن ملكي كرب .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، أن عائشة رضي الله عنها قالت : إن تبع كان

رجلاً صالحاً .

وكان كعب الأحبار يقول : ذم الله قومه ، ولم يذمه .

وقال سعيد بن جبير : إن تبعاً كسا البيت ، يعني : الكعبة .

وقال القتبي : هم ملوك اليمن ، كل واحد منهم يسعى تبعاً ، لأنه يتبع صاحبه ، وكذلك الظل يسمى : تبعاً لأنه يتبع الشمس ، وموضع التبع في الجاهلية ، موضع الخليفة في الإسلام ، وهم ملوك العرب .

(196/697)

ثم قال : ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : من قبل تبع ﴿ أهلكناهم ﴾ يعني : عذبناهم عند التكذيب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ يعني : مشركين .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ يعني : عابثين لغير شيء ﴿ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ يعني : إلا لأمر هو كائن .

ويقال : خلقناهما للعبرة ، ومنفعة الخلق ويقال : للأمر والنهي ، والترهيب والترغيب ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون ، ولا يفقهون .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ﴾ أي : يوم القضاء بين الخلق ، وهو يوم القيامة ﴿ ميقاتهم

أَجْمَعِينَ ﴾ يعني : ميعادهم أجمعين ، الأولين والآخرين .

ويقال : يوم الفصل ، يعني : يوم يفصل بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، والزوج والزوجة ، والخليل والخليلة ، ثم وصف ذلك اليوم فقال : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ﴾ يعني : لا يدفع ولي عن ولي ، ولا قريب عن قريب شيئاً في الشفاعة ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يعني : لا يمنعون مما نزل بهم من العذاب .

يعني : الكافرين .

ثم وصف المؤمنين ، فإنه يشفع بعضهم لبعض فقال : ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ العزيز ﴾ في نعمته للكافرين ﴿ الرحيم ﴾ بالمؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الاثيم ﴾ يعني : الفاجر وهو الوليد ، وأبو جهل ، ومن كان مثل حالهما ﴿ كالمهل يَغْلِى فِى البطون ﴾ يعني : كالصفر المذاب .

قرأ ابن كثير ، وعاصم في رواية حفص ﴿ كالمهل يَغْلِى ﴾ ، بالياء بلفظ التذكير .

والباقون بلفظ التأنيث ، فمن قرأ بلفظ التذكير ، رده إلى المهل .

ومن قرأ بلفظ التأنيث ، رده إلى الشجرة ﴿ كَغَلْىِ الحميم ﴾ يعني : الماء الحار الذي قد انتهى حره .

ثم قال للزبانية : ﴿ خُذُوهُ فاعتلوه إلى سَوَاء الجحيم ﴾ يعني : فسوقوه وادفعوه إلى وسط الجحيم .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر فَاعْتُلُوه بضم التاء ، والباقون بالكسر ، وهما لغتان ، معناهما واحد ، يعني : امضوا به بالعنف والشدة .

وقال مقاتل : يعني : ادفعوه على وجهه .

وقال القتبي : خذوه بالعنف ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ ويقال له : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ وذلك أن أبا جهل قال : أنا في الدنيا أعز أهل هذا الوادي ، وأكرمه فيقال له في الآخرة : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ ، يعني : المتعزز المتكرم ، كما قلت في الدنيا .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ هذا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ يعني : تشكون في الدنيا .

قرأ الكسائي ﴿ ذُقْ إِنَّكَ ﴾ بنصب الألف ، والباقون بالكسر .

فمن قرأ بالنصب فمعناه ذق يا أبا جهل ، لأنك قلت : أنك أعز أهل هذا الوادي فقال الله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ القائل أنا ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49]

ومن قرأ بالكسر ، فهو على الاستئناف .

ثم وصف حال المؤمنين في الآخرة .

فقال تعالى ﴿ إِنَّ المتقين فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ يعني : في منازل حسنة ، آمنين من العذاب .

قرأ نافع ، وابن عامر فِي مُقَامٍ ، بضم الميم .

والباقون بالنصب ، فمن قرأ بالنصب يعني : المكان والموضع ، ومن قرأ بالضم يعني : الإقامة ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ يعني : في بساتين ، وأنهار جارية ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ﴾ يعني : ما لطف من الديباج ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ يعني : ما ثخن منه ﴿ متقابلين ﴾ يعني : متواجهين كما قال في آية أخرى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ [الحجر : 47] ثُم قال : ﴿ كذلك ﴾ يعني : هكذا ، كما ذكرت لهم في الجنة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ يعني : بيض الوجوه حسان الأعين ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكلّ فاكهة ءامِنِينَ ﴾ يعني : ما يتمنون من الفواكهة ، آمنين من الموت ومن زوال المملكة .

(198/697)

ويقال : ﴿ ءامِنِينَ ﴾ مما يلقى أهل النار ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت ﴾ يعني : في الجنة ﴿ إِلاَّ الموتة الاولى ﴾ يعني : سوى ما قضى عليهم من الموتة الأولى في الدنيا ﴿ ووقاهم

عَذَابَ الجحيم ﴾ يعني : يصرف عنهم عذاب النار قوله تعالى : ﴿ فَضْلاً مّن رَّبّكَ ﴾ يعني : هذا الثواب ، عطاء من ربك للمؤمنين المخلصين ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ يعني : النجاة الوافرة ﴿ فَإِنَّمَا يسرناه بِلِسَانِكَ ﴾ يعني : هَوَّنَا قراءة القرآن على لسانك ، لكي تقرأه وتخبرهم بذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني : يتعظون بالقرآن ﴿ فارتقب ﴾ يعني : انتظر بهلاكهم ﴿ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ يعني : منتظرون بهلاكك .

روى يعلى بن عبيد ، عن إسماعيل ، عن عبد الله بن عيسى قال : أخبرت أنه : من قرأ ليلة الجمعة سورة الدخان إيماناً ، واحتساباً وتصديقاً ، أصبح مغفوراً له ، والله أعلم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي ، وآله وأزواجه الطيبين الطاهرين ، وسلم تسليماً دائماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 254. 261 ﴾

(199/697)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

يعني والقرآن المبين ، فأقسم به ، وفي قسمه ب ﴿ حم ﴾ وجهان من اختلافهم في تأويله .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ ﴾ يعني القرآن أنزله الله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا .

﴿ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها ليلة النصف من شعبان ؛ قاله عكرمة .

الثاني : أنها ليلة القدر .

روى قتادة عن واثلة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِن رَمَضَانَ ، وَأُنزِلَت التَّوْرَاةُ لِستٍ مَضَيْنَ مِن رَمَضَانَ وَأُنزِلَ الزَّبُورُ لاثْنَتَي عَشْرَةَ مَضَتْ مِن رَمَضَانَ ، وَأُنزِلَ الإِنْجِيلُ لِثَمَانِيَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِن رَمَضَانَ . وَأُنزِلَ القُرْآنُ لأَرْبَعٍ وَعشرِينَ مِن رَمَضَانَ "

وفي تسميتها مباركة وجهان :

أحدهما : لما ينزل فيها من الرحمة .

الثاني : لما يجاب فيها من الدعاء .

﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ بالقرآن من النار .

ويحتمل : ثالثاً : منذرين بالرسل من الضلال .

﴿ فِيهَا ﴾ في هذه الليلة المباركة .

﴿ يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ وفي يفرق أربعة أوجه :

أحدها : يقضى ، قاله الضحاك .

الثاني : يكتب ، قاله ابن عباس .

الثالث : ينزل ، قاله ابن زيد .

الرابع : يخرج ، قاله ابن سنان .

وفي تأويل ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : الآجال والأرزاق والسعادة والشقاء من السنة إلى السنة ، قاله ابن عباس .

الثاني : كل ما يقضى من السنة إلى السنة ، إلا الشقاوة والسعادة فإنه في أم الكتاب لا يغير ولا يبدل ، قاله ابن عمر .

الثالث : كل ما يقضى من السنة إلى السنة إلا الحياة والموت ، قاله مجاهد .

الرابع : بركات عمله من انطلاق الألسن بمدحه ، وامتلاء القلوب من هيبته ، قاله بعض أصحاب الخواطر .

(200/697)

الحكيم هنا هو المحكم . وليلة القدر باقية ما بقي الدهر ، وهي في شهر رمضان في العشر الأواخر منه . ولا وجه لقول من قال إنها رفعت بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا لقول من جوزها في جميع السنة لأن الخبر والأثر والعيان يدفعه . واختلف في محلها من العشر الأواخر من رمضان على أقاويل ذكرها في سورة القدر أولى .

قوله عز وجل : ﴿ أَمْراً مِنْ عِندِنَا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده ، حكاه النقاش .

الثاني : أنه ما قضاه الله في الليلة المباركة من أحوال عباده قاله ابن عيسى .

ويحتمل :

ثالثاً : أنه إرسال محمد صلى الله عليه وسلم نبياً .

﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مرسلين الرسل للإنذار .

الثاني : منزلين ما قضيناه على العباد .

الثالث : مرسلين رحمة من ربك .

وفي ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ هنا وجهان :

أحدهما : أنها نعمة الله ببعثة رسوله صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أنها رأفته بهداية من آمن به .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لقولهم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بفعلهم .

قوله عز وجل : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ في ارتقب وجهان :

أحدهما : معناه فانتظر يا محمد بهؤلاء يوم تأتي السماء بدخان مبين ، قاله قتادة .

الثاني : معناه فاحفظ يا محمد قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين ،

ولذلك سمي الحافظ رقيباً ، قال الأعشى :

عليّ رقيب له حافظٌ . . . فقل في امرىءٍ غِلقٍ مرتهن

وفي قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ثلاثة أقاويل :

(201/697)

أحدها : ما أصاب أهل مكة من شدة الجوع حتى صار بينهم وبين السماء كهيئة الدخان لما دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في إبطائهم عن الإيمان وقصدهم له بالأذى ، فقال : " اللَّهُمَّ اكفِنِيهِم بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ " قاله ابن مسعود . قال أبو عبيدة والدخان الجدب . وقال ابن قتيبة : سمي دخاناً ليبس الأرض منه حتى يرتفع منها الدخان .

الثاني : أنه يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغيوم ، قاله عبد الرحمن بن الأعرج .

الثالث : أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة يأخذ المؤمن منه كالزكمة ، وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه ، رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً .

قوله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الدخان ، قاله قتادة .

الثاني : الجوع : قاله النقاش .

الثالث : أنه الثلج وهذا لا وجه له لأن هذا إما أن يكون في الآخرة أو في أهل مكة ، ولم تكن مكة من بلاد الثلج غير أنه مقول فحكيناه .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أي عائدون إلى نار جهنم .

الثاني : إلى الشرك ، قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم عادوا إلى تكذيبه .

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ والبطشة الكبرى هي العقوبة الكبرى ، وفيها قولان :

أحدهما : القتل بالسيف يوم بدر ، قاله ابن مسعود وأُبي بن كعب ومجاهد والضحاك .

الثاني : عذاب جهنم يوم القيامة ، قاله ابن عباس والحسن .

ويحتمل :

ثالثاً : أنها قيام الساعة لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا .

﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ أي من أعدائنا . وفي الفرق بين النقمة والعقوبة ثلاثة أوجه :

أحدها : أن العقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة ، والنقمة قد تكون قبلها ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أن العقوبة قد تكون في المعاصي ، والنقمة قد تكون في خلقه لأجله .

الثالث : أن العقوبة ما تقدرت ، والانتقام غير مقدر .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي ابتليناهم .

﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو موسى بن عمران عليه السلام . وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : كريم على ربه ، قاله الفراء .

الثاني : كريم في قومه .

الثالث : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح .

قوله عز وجل : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أي أرسلوا معي بني إسرائيل ولا تستعبدوهم ، قاله مجاهد .

الثاني : أجيبوا عباد الله خيراً ، قاله أبو صالح .

الثالث : أدوا إليَّ يا عباد الله ما وجب عليكم من حقوق الله ، وهذا محتمل .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أمين على أن أؤديه لكم فلا أتزيد فيه .

الثاني : أمين على ما أستأديه منكم فلا أخون فيه .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : لا تبغوا على الله ، قاله قتادة .

الثاني : لا تفتروا على الله ، قاله ابن عباس ، والفرق بين البغي والافتراء أن البغي بالفعل ، والافتراء بالقول .

الثالث : لا تعظموا على الله ، قاله ابن جريج .

الرابع : لا تستكبروا على عباد الله ، قاله يحيى . والفرق بين التعظيم والاستكبار أن التعظيم تطاول المقتدر ، والاستكبار ترفع المحتقر .

﴿ إِنِّي ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بعذر مبين ، قاله قتادة .

الثالث : بحجة بينة ، قاله يحيى .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لجأت إلى ربي وربكم .

الثاني : استغثت . والفرق بينهما أن الملتجىء مستدفع والمستغيث مستنصر .

قوله : ﴿ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أي ربي الذي هو ربكم .

﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بالحجارة ، قاله قتادة .

الثاني : أن تقتلوني ، قاله السدي .

الثالث : أن تشتموني بأن تقولوا ساحر أو كاهن أو شاعر ، قاله أبو صالح .

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أي إن لم تؤمنوا بي وتصدقوا قولي فخلوا سبيلي وكفوا عن أذاي .

قوله عز وجل : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : سمتاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : يابساً ، قاله ابن أبي نجيح .

الثالث : سهلاً ، قاله الربيع .

الرابع : طريقاً ، قاله كعب والحسن .

الخامس : منفرجاً ، قاله مجاهد .

السادس : غرقاً ، قاله عكرمة .

السابع : ساكناً ، قاله الكلبي والأخفش وقطرب . قال القطامي :

يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلةٌ . . . ولا الصدور على الأعجاز تتكل

قال قتادة : لما نجا بنو إسرائيل من البحر وأراد آل فرعون أن يدخلوه خشي نبي الله موسى عليه السلام أن يدركوه فأراد أن يضرب البحر حتى يعود كما كان فقال الله تعالى : ﴿

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ﴾ أي طريقاً يابساً حتى يدخلوه .

﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ قال مقاتل : هو النيل ، وكان عرضه يومئذٍ فرسخين ، قال الضحاك : كان غرقهم بالقلزم وهو بلد بين مصر والحجاز .

فإن قيل فليست هذه الأحوال في البحر من فعل موسى ولا إليه .

قيل يشبه أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه إنْ ضرب البحر بعصاه ثانية تغيرت أحواله ، فأمره أن يكف عن ضربه حتى ينفذ الله قضاءه في فرعون وقومه .

وتأويل سهل بن عبد الله ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ ﴾ أي اجعل القلب ساكناً في تدبيري ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ أي إن المخالفين قد غرقوا في التدبير .

قوله عز وجل : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ الجنات البساتين . وفي العيون قولان :

أحدهما : عيون الماء ، وهو قول الجمهور .

الثاني : عيون الذهب ، قاله ابن جبير .

(204/697)

﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ قيل إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أول مصر إلى آخرها ، وكانت مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما دبروه وقدروه من قناطر وجسور .

﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها المنابر ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد .

الثاني : المساكن ، قاله أبو عمرو والسدي ، لمقام أهلها فيها .

الثالث : مجالس الملوك لقيام الناس فيها .

ويحتمل رابعاً : أنه مرابط الخيل لأنها أكرم مذخور لعدة وزينة .

وفي الكريم ثلاثة أوجه :

أحدها : هو الحسن ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : هو المعطي لديه كما يعطي الرجل الكريم صلته ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أنه كريم لكرم من فيه ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ في النعمة هنا أربعة أوجه :

أحدها : نيل مصر ، قاله ابن عمر .

الثاني : الفيّوم ، قاله ابن لهيعة .

الثالث : أرض مصر لكثرة خيرها ، قاله ابن زياد .

الرابع : ما كانوا فيه من السعة والدعة .

وقد يقال نعمة ونِعمة بفتح النون وكسرها ، وفي الفرق بينهما وجهان :

أحدهما : أنها بكسر النون في الملك ، وبفتحها في البدن والدين ؛ قاله النضر بن شميل .

الثاني : أنها بالكسر من المنة وهو الإفضال والعطية ، وبالفتح من التنعم وهو سعة العيش والراحة ، قاله ابن زياد .

وفي ﴿ فاكهين ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : فرحين ، قاله السدي .

الثاني : ناعمين ، قاله قتادة .

الثالث : أن الفاكه هو المتمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة ، قاله ابن عيسى .

وقرأ يزيد بن القعقاع ﴿ فَكِهِينَ ﴾ ومعناه معجبين .

قوله عز وجل ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾ يعني بني إسرائيل ملكهم الله أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين ، فصروا لها وارثين لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث .

قوله عز وجل : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِم السَّمَآءُ وَالأَرْضُ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني أهل السماء وأهل الأرض ، قاله الحسن .

(205/697)

الثاني : أن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحاً ؛ قاله مجاهد .

قال أبو يحيى : فعجبت من قوله ، فقال أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان

يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل ؟

الثالث : أنه يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ، قاله علي كرم الله وجهه . وتقديره فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض .

وهو معنى قول سعيد بن جبير .

الرابع : ما رواه يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلا وله في السماء بابان ، باب ينزل منه رزقه ، وباب يدخل منه كلامه وعمله ، فإذا مات فقداه فبكيا عليه " ثم تلا هذه الآية .

وفي بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه كالمعروف من بكاء الحيوان ويشبه أن يكون قول مجاهد .

الثاني : أنه حمرة أطرافها ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعطاء .

وحكى جرير عن يزيد بن أبي زياد قال : لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما احمر له آفاق السماء أربعة أشهر ، واحمرارها بكاؤها .

الثالث : أنها أمارة تظهر منها تدل على حزن وأسف . كقول الشاعر :

والشمس طالعة ليست بكاسفة . . . تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مؤخرين بالغرق ، قاله الكلبي .

الثاني : لم ينظروا بعد الآيات التسع حتى أغرقوا ، قاله مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ ﴾ معناه على علم منا بهم . وفي اختياره لهم ثلاثة أوجه :

أحدها : باصطفائهم لرسالته ، والدعاء إلى طاعته .

الثاني : باختيارهم لدينه وتصديق رسله .

الثالث : بإنجائهم من فرعون وقومه .

وفي قوله : ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قولان :

أحدهما : على عالمي زمانهم ، لأن لكل زمان عالماً ، قاله قتادة .

(206/697)

الثاني : على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم ، حكاه ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ وءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلآءٌ مُّبِينٌ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه أنجاهم من عدوهم وفلق البحر لهم وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، قاله قتادة . ويكون هذا الخطاب متوجهاً إلى بني إسرائيل .

الثاني : أنها العصا ويده البيضاء ، ويشبه أن يكون قول الفراء . ويكون الخطاب متوجهاً إلى قوم فرعون .

الثالث : أنه الشر الذي كفهم عنه والخير الذي أمرهم به ، قاله عبد الرحمن بن زيد . ويكون الخطاب متوجهاً إلى الفريقين معاً من قوم فرعون وبني إسرائيل .

وفي قوله ﴿ مَا فِيهِ بَلآءٌ مُّبِينٌ ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : نعمة ظاهرة ، قاله الحسن وقتادة كما قال تعالى ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلآءً حَسَناً ﴾ وقال زهير :

فأبلاه خير البلاء الذي يبلو . . . الثاني : عذاب شديد ، قاله الفراء .

الثالث : اختيار بيّن يتميز به المؤمن من الكافر ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ هَؤُلآءِ لَيَقُولُونَ ﴾ يعني كفار قريش .

﴿ إِن هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أي بمبعوثين قيل : إن قائل هذا أبو جهل قال : يا محمد إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما قصيّ بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً ، لنسأله عما يكون بعد الموت وهذا القول من أبي جهل من أضعف الشبهات ، لأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف . فكأنه قال : إن كنت صادقاً في

إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف . وهو كقول قائل لو قال : إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء ، فلم لا يرجع من مضى من الآباء .

قوله عز وجل : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أهم أظهر نعمة وأكثر أموالاً .

الثاني : أهم أعز وأشد أم قوم تبع .

(207/697)

وحكى قتادة أن تبعاً كان رجلاً من حِمير سار بالجيوش حتى عبر الحيرة وأتى سمرقند فهدمها . وحكي لنا أنه كان إذا كتب ؛ كتب باسم الله الذي سما وملك براً وبحراً وضحاً وريحاً .

وروي عن عمرو بن رجاء عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم . وحكى ابن قتيبة في المعارف شعراً ذكر أنه لتبع وهو :

منح البقاءَ تقلبُ الشمسِ . . . وطلوعها من حيث لا تُمْسِي

وشروقها بيضاء صافية . . . وغروبُها حمراءَ كالورْسِ

وتشتت الأهواءِ أزعجني . . . سيراً لأبلغ مطلع الشمسِ

ولرب مطعمةٍ يعود لها . . . رأي الحليم إلى شفا لبسِ

وفي تسميته تبعاً قولان :

أحدهما : لأنه تَبعَ من قبله من ملوك اليمن كما قيل خليفة لأنه خلف من قبله .

الثاني : لأنه اسم لملوك اليمن .

وذم الله قومه ولم يذمه ، وضرب بهم مثلاً لقريش لقربهم من دارهم ، وعظمهم في نفوسهم ، فلما أهلكهم الله ومن قبلهم – لأنهم كانوا مجرمين – كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : غافلين ، قاله مقاتل .

الثاني : لاهين ، قاله الكلبي .

﴿ وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحِقِّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : للحق ، قاله الكلبي .

الثاني : بقول الحق ، قاله مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعني يوم القيامة ، وفي تسميته بيوم الفصل وجهان :

أحدهما : [إن الله] يفصل فيه أمور عباده .

الثاني : لأنه يفصل فيه بين المرء وعمله .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾ قد ذكرنا ما في الزقوم من الأَقاويل ، وهو في اللغة ما أُكِلَ بكرْه شديد . ولهذا يقال قد تزقم هذا الطعام تزقماً أي هو في حكم من أكله بكره شديد لخشونه وشدة شره .

وحكى النقاش عن مجاهد أن شجرة الزقوم أبو جهل .

وفي الأثيم وجهان :

(208/697)

أحدهما : أنه الآثم ، قاله ابن عيسى .

الثاني : المشرك المكتسب للإثم ، قاله يحيى .

قوله عز وجل : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : فجروه ، قاله الحسن .

الثاني : فادفعوه ، قاله مجاهد .

الثالث : فسوقوه ، حكاه الكلبي .

الرابع : فاقصفوه كما يقصف الحطب ، حكاه الأعمش :

الخامس : فردوه بالعنف ، قاله ابن قتيبة . قال الفرزدق :

ليس الكرام بنا حليك أباهم . . . حتى ترد إلى عطية تعتل

﴿ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وسط الجحيم ، قاله ابن عباس والضحاك وقتادة .

الثاني : معظم الجحيم يصيبه الحر من جوانبها ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ قال قتادة : نزلت في أبي جهل ، وفيه أربعة أوجه :

أحدها : معناه أنك لست بعزيز ولا كريم ، لأنه قال توعدني محمد ، والله إني لأعز من مشى حبليها ، فرد الله عليه قوله ، قاله قتادة .

الثاني : أنك أنت العزيز الكريم عند نفسك ، قاله قتادة أيضاً .

الثالث : أنه قيل له ذلك استهزاء على جهة الإهانة ، قاله سعيد بن جبير .

الرابع : أنك أنت العزيز في قومك ، الكريم على أهلك حكاه ابن عيسى .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أمين من الشيطان والأحزان ، قاله قتادة .

الثاني : أمين من العذاب ، قاله الكلبي .

الثالث : من الموت ، قاله مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فيهما ثلاثة أوجه :

أحدها : أن السندس الحرير الرقيق ، والاستبرق الديباج الغليظ ، قاله عكرمة .

الثاني : السندس يعمل بسوق العراق وهو أفخر الرقم ، قاله يحيى ، والاستبرق الديباج سمي استبرقاً لشدة بريقه ، قاله الزجاج .

الثالث : أن السندس ما يلبسونه ، والاستبرق ما يفترشونه .

وفي ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ وجهان :

أحدهما : متقابلين بالمحبة لا متدابرين بالبغضة ، قاله علي بن عيسى .

(209/697)

الثاني : متقابلين في المجالس لا ينظر بعضهم قفا بعض ، قاله مجاهد .

قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ يعني القرآن ، وفيه وجهان :

أحدهما : معناه جعلناه بلسانك عربياً .

الثاني : أطلقنا به لسانك تيسيراً .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يرجعون .

الثاني : يعتبرون .

﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فانتظر ما وعدتك من النصر عليهم . إنهم منتظرون بك الموت ، حكاه النقاش .

الثاني : وانتظر ما وعدتك من الثواب فإنهم من المنتظرين لما وعدتهم من العقاب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(210/697)

وقال الثعلبى :

﴿ حم* والكتاب المبين * إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ قال قتادة وابن زيد : هي ليلة القدر ، أنزل الله تعالى القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السّماء الدّنيا ، ثمّ أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم في الليالي والأيام ، وقال الآخرون : هي ليلة النصف من شعبان .

أخبرنا الحسين بن محمّد فنجويه ، حدثنا عمر بن أحمد بن القاسم ، حدثنا إبراهيم المستملي الهستجاني ، حدثنا أبو حصين بن يحيى بن سليمان ، حدثنا عبد الرزاق ،

أخبرنا أبو بكر بن أبي سبره ، عن إبراهيم بن محمد ، عن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب " رضي الله عنه " قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا كان ليلة النصف من شعبان ، قوموا ليلتها وصوموا يومها ، فإنّ الله تعالى ينزل لغروب الشمس إلى سمّاء الدنّيا فيقول : ألاّ مستغفر فأغفرله ، ألاّ مسترزق فأرزقه ، ألاّ مبتلى فأعافيه ، ألاّكذا ، ألاّكذا ، ألاّكذا ، حتّى يطلع الفجر ، ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ " .

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ ﴾ يفصل . ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ محكم . قال الحسن ومجاهد وقتادة : يبرم في ليلة القدر من شهر رمضان كُلّ أجل وعمل وخلق ورزق ، وما يكون في تلك السنة ، وقال أبو عبد الرّحمن السلمي : يدبر أمر السنة في ليلة القدر ، وقال هلال بن نساف : كان يقال : انتظروا القضاء في شهر رمضان .

وقال عكرمة : في ليلة النصف من شعبان ، يُبرم فيه أمر السنة ، وينسخ الأحياء من الأموات ، ويكتب الحاج ، فلا يزاد فيهم أحد ، ولا ينقص منهم أحد .

(211/697)

يدل عليه ما أخبرنا عقيل بن محمد ، أخبرنا أبو الفرج القاضي ، أخبرنا محمد بن جبير ، حدثني عبيد بن آدم بن أبي إياس ، حدثني أبي ، حدثنا الليث ، عن عقيل بن خالد ، عن ابن شهاب ، عن عثمان بن محمد بن المغيرة الأخنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان . حتّى أنّ الرجل لينكح ويولد له ، وقد خرج أسمه في الموتى " .

﴿ أَمْراً ﴾ أي أنزلنا أمراً . ﴿ مِّنْ عِنْدِنَآ ﴾ من لدنا ، وقال الفراء : نصب على معنى نفرق كل أمر فرق وأمراً . ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم إلى عبادنا .

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وقيل : أنزلناه رحمة ، وقيل : أرسلناه رحمة ، وقيل : الرحمة .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم * رَبِّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ كسر أهل الكوفة (بائهُ) ردًا على قوله من ربك ، ورفعهُ الآخرون ردًا على قوله ﴿ هُوَ السميع العليم ﴾ وإن شئت على الابتداء .

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ إنّ الله ﴿ رَبِّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ فأيقنوا إنّ محمداً رسوله ، وإنّ القرآن تنزيله .

﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فارتقب ﴾ فانتظر . ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السمآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

اختلفوا في هذا الدّخان ، ما هو ، ومتى هو ، فروى الأعمش ومسلم بن صبيح ، عن مسروق ، قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً ، وهو مضطجع بيننا ، فأتاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرّحمن ، إنّ قاصاً عند أبواب كنده ، يقص ويقول في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السمآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ إنّه دّخان يأتي يوم القيامة ، فيأخذ بأنفاس الكفّار والمنافقين وأسماعهم وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام ، فقام عبد الله وجلس ، وهو غضبان ، فقال : يا أيّها الناس اتقوا الله ، مَن عَلِمَ شيئاً فليقل ما يعلم ، ومن لا يعلم ، فليقل الله أعلم ، فأن الله تعالى ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ المتكلفين ﴾ [ص : 86] وسأحدثكم عن ذلك : أنّ قريشاً لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم ، فقال : " اللَّهم سبع سنين كسنين يوسف " فأصابهم من الجهد والجوع ما أكلوا الجيف والعظام والميتة والجلود ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلاّ الدخان من ظلمة أبصارهم من شدة الجوع ، فأتاه أبو سفيان بن حرب ، فقال : يا محمد إنّك حيث تأمر بالطاعة وصلة الرحم ، وإنّ قومك قد هلكوا فادع الله لهم فإنّهم لك مطيعون .

فقال الله تعالى : فقالوا :

﴿ رَبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ فدعا فكشف عنهم ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا

كَاشِفُو العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ إلى كفركم . ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر ، فهذه خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروّم .

(213/697)

وقال الآخرون : بل هو دخان يجيء قبل قيام السّاعة ، فيدخل في أسماع الكفّار والمنافقين ، حتّى تكون كالرأس الحنيذ ، ويعتري المؤمن منهم كهيئة الزكام ، وتكون الأرض كلّها كبيت أوقد فيه وليس فيه خصاص .

قالوا : ولم يأتِ بعد ، وهو آت وهذا قول ابن عباس وابن عمير والحسن وزيد بن علي ، يدل عليه ما أنبأني عقيل بن محمد ، أخبرنا المعافا بن زكريا ، أخبرنا محمد بن جرير ، حدثنا عصام بن داود الجراح ، حدثنا أبي ، حدثنا سفيان بن سعيد ، حدثنا منصور بن المعتمر عن ربعي ابن حراش ، قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق النّاس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا " .

قال حذيفة : يا رسول الله ما الدخان ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي السمآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى الناس هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة .

أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام ، وأما الكافر كمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره .

وبه عن ابن جرير ، حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عليه ، عن ابن جريج ، عن عبد الله بن أبي مليكة ، قال : غدوت على ابن عباس ذات يوم ، فقال : ما نمت الليلة حتّى أصبحت . قلت : لِمَ ؟ قال : قالوا : طلع الكوكب ذو الذنب فخشيت أن يكون الدُّخان قد طرق فما نمت حتّى أصبحت .

﴿ رَبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ من أين لهم للتذكير والإتعاظ بعد نزول البلاء وحلول العذاب . ﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ محمّد صلى الله عليه وسلم ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ ﴾ يعلمه بشر . ﴿ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ إلى كفركم ، وقال قتادة : عائدون في عذاب الله .

(214/697)

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى ﴾ وهو يوم بدر . ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ هذا قول أكثر العلماء ، وقال الحسن : هو يوم القيامة .

وروي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال ابن مسعود : ﴿ الكبرى ﴾ يوم بدر و ﴿ إِنَّا ﴾ أقول هي يوم القيامة .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ على الله وهو موسى بن عمران (عليه السلام) ، وقيل : شريف وبسيط في قومه . ﴿ أَنْ أدوا ﴾ أن إدفعوا . ﴿ إِلَيَّ عِبَادَ الله ﴾ يعني بني إسرائيل فلا يعذبهم . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ على الوحي . ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ ﴾ تطغوا وتبغوا . ﴿ عَلَى الله ﴾ فتعصوه وتخالفوا أمره . ﴿ إِنِي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ برهان مبين فتوعدوه بالقتل . فقال : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ يقتلون ، وقال قتادة : ترجمون بالحجارة . ابن عباس : يشتمون ويقولون هو ساحر . ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فاعتزلون ﴾ فخلوا سبيلي غير مرجوم باللسان ولا باليد . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤلاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ مشركون ، فقال سبحانه : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ بني إسرائيل . ﴿ لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وقومه .

﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ إذا قطعته أنت وأصحابك رهواً ساكناً على حالته وهيئته التي كان عليها حين دخلته . ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ .

واختلفت عبارات المفسرين عن معنى الرهو فروى الوالبي عن ابن عباس رهواً ، قال :

سمتاً . العوفي عنه : هو أن يترك كما كان . كعب : طريقاً . ربيع : سهلاً . ضحاك : دمثاً . عكرمة : يابساً جزراً ، وقيل جذاذاً . قتادة : طريقاً يابساً ، وأصل الرهو في كلام العرب السكون . قال الشاعر :

كإنما أهل حجر ينظرون متى . . . يرونني خارجاً طيراً يناديد

طيراً رأت بازياً نضح الدماء به . . . وأمه خرجت رهواً إلى عيد

يعني عليها سكون .

(215/697)

﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ ﴾ مجلس ﴿ كَرِيمٍ ﴾ شريف وإنّما سماه كريماً لأنّه مجلس الملوك ، قاله مجاهد وسعيد بن جبير ، وقالا : هي المنابر ، وقال قتادة : الكريم الحسن .

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ ناعمين فاكهين أشرين بطرين معجبين . ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ بني إسرائيل . نظيره قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ [الأعراف : 137] الآية .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ وذلك إن المؤمن إذا مات بكت عليه السّماء

والأرض أربعين صباحاً ، وقال عطاء : في هذه الآية بكاءها حمرة أطرافها ، وقال السدي : لما قتل الحسين بن علي " رضي الله عنهما " بكت عليه السّماء ، وبكاؤها حمرتها .

حدثنا خالد بن خداش ، عن حماد بن زيد ، عن هشام ، عن محمد بن سيرين . قال : أخبرونا إنّ الحمرة الّتي مع الشفق لم تكن ، حتّى قتل الحسين رضي الله عنه .

أخبرنا ابن بكر الخوارزمي ، حدثنا أبو العياض الدعولي ، حدثنا أبي بكر بن أبي خثيمة ، وبه عن أبي خثيمة ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا سليم القاضي ، قال : مطرنا دماً أيام قتل الحسين .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه ، حدثنا أبو علي المُقري ، حدثنا أبو بكر الموصلي ، حدثنا أحمد بن إسحاق البصري ، حدثنا مكي بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن عبيدة الرمدني ، أخبرني يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم إنّه قال : " ما من عبد إلاّ له في السّماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ " ، وذلك إنّهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم ، ولم يصعد إلى السّماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي .

أخبرنا عقيل بن محمد : إنّ المعافا بن زكريا أخبره ، عن محمد بن جرير ، حدثنا يحيى بن طلحة ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن صفوان بن عمر ، عن شريح بن عبيد الحضرمي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، ألاّ لا غربة على مؤمن ، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه ، إلاّ بكت عليه السّماء والأرض " . ثمّ قرأ رسول الله (عليه السلام) : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ ، ثمّ قال : " إنّهما لا تبكيان على الكافر " .

﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بني إِسْرَائِيلَ مِنَ العذاب المهين ﴾ قتل الأبناء واستحياء النساء . ﴿ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين * وَلَقَدِ اخترناهم ﴾ يعني مؤمني بني إسرائيل .

﴿ على عِلْمٍ ﴾ منّا لهم . ﴿ عَلَى العالمين ﴾ يعني عالمي زمانهم ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيات مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ ﴾ قال قتادة : نعمة بيّنة حين فلق لهم البحر وظلّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسّلوى .

وقال ابن زيد : ابتلاهم بالرخاء والشدة ، وقرأ : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ هؤلاء ﴾ يعني مشركي مكّة . ﴿ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى وَمَا نَحْنُ

بِمُنشَرِينَ ﴾ بمبعوثين بعد موتنا . ﴿ فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا ﴾ الّذين ماتوا . ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إنَّا نُبعث أحياء بعد الموت .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ قال قتادة : هو تبّع الحميري ، وكان سار بالجيوش حتّى حيّر الحيرة ، وبنى سمرقند ، وكان إذا كتب ، كَتَب باسم الّذي يملك براً وبحراً وضحاً وريحاً . وذكر لنا إنّ كعباً يقول : ذمّ الله قومهُ ولم يذمّهُ ، وكانت عائشة "رضي الله عنها" تقول : لا تسبوا تُبّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً ، وقال سعيد بن جبير : هو الّذي كسا البيت .

(217/697)

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه ، حدثنا أبو بكر بن محمد القطيعي ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، حدثنا أبي ، حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعه ، حدثنا أبو زرعة عمرو بن جابر ، عن سهل بن سعد ، قال : سمعت النبي (عليه السلام) يقول : " لا تسبوا تُبّعاً ، فإنّه قد كان أسلم " .

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري ، حدثنا عبيد الله بن محمد بن شنبه ، حدثنا محمد بن علي سالم الهمذاني ، حدثنا أبو الأزهر أحمد بن الأزهر النيسابوري ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن أبي ذيب ، عن المقبري ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : " ما أدري تُبّع نبياً كان أم غير نبي " .

﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم الخالية الكافرة .

﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بالحق ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الفصل مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ﴾ لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ولا صديق عن صديقه .

﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ اختلف النحاة في محل ﴿ مَن ﴾ فقال بعضهم : محله رفع بدلاً من الاسم المضمر في ينصرون ، وإن شئت جعلته ابتداء وأضمرت خبره ، يريد ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ فنغني عنه ونشفع له ، وإن شئت جعلته نصباً على الإستثناء والإنقطاع ، عن أول الكلام يريد اللَّهُم ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ .

﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز الرحيم * إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم ﴾ الفاجر وهو أبو جهل بن هشام .

أنبأني عقيل بن حمد ، خبرنا المعافا بن زكريا ، أخبرنا محمد بن جرير ، حدثني أبو السائب ، حدثني أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن همام بن الحارث ، قال : كان أبو الدرداء يقريء رجلاً ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم ﴾ فجعل الرجل يقول : طعام اليتيم ، فلما أكثر عليه أبو الدرداء فرآه لا يفهم . قال : قل إِنَّ شجرت الزقوم طعام الفاجر .

﴿ كالمهل يَغْلِي ﴾ بالياء ابن كثير وحفص ، ورُوَيس جعل الفعل غيرهم بالتاء لتأنيث الشجرة . ﴿ في البُطُونِ كَغَلْيِ الحَمِيمِ خُذُوهُ ﴾ يعني الأَثيم . ﴿ فاعتلوه ﴾ فادخلوه وادفعوه وسوقوه الى النّار . يقال : عتله يعتله عتلاً إذا ساقه بالعنف والدفع والجذب . قال الفرزدق :

ليس الكرام بنا حليك أباهم . . . حتّى تردَّ إلى عطية تُعْتَل

أي ساق دفعاً وسحباً ، وفيه لغتان : كسر التاء ، وهي قراءة أبي جعفر وأبي مرو وأهل الكوفة ، وضمها وهي قراءة الباقي .

﴿ إلى سَوَآءِ الجحيم * ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ وهو الماء الّذي قال الله تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ [الحج : 19] ثمّ يقال له : ﴿ ذُقْ ﴾ هذا العذاب . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ في قومك . ﴿ الكريم ﴾ بزعمك ، وذلك إنّ أبا جهل . قال : ما بين حبليها رجل أعز ولا أكرم مني . فيقول له الخزنة هذا على طريق الإستخفاف والتحقيق .

وقراءة العامة إنّك بكسر الألف على الابتداء ، وقرأ الكسائي بالنصب على معنى لأنّك .

﴿ إِنَّ هذا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكون ولا تؤمنون به فقد لقيتموه فذوقوه .

﴿ إِنَّ المتقين فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ قرأ أهل المدينة والشام بضم (الميم) من المقام على المصدر أي في إقامة ، وقرأ غيرهم بالفتح أي في مكان كريم .

(219/697)

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ﴾ وهو ما رَقَّ من الديباج . ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو ما غلظ منه معرّب . ﴿ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ ﴾ وكما أكرمناهم بالجنان والعيون واللباس كذلك أكرمناهم بأن . ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ ﴾ وهي النساء النقيات البياض ، قال مجاهد : يحار فيهن الطرف من بياضهنّ وصفاء لونهنّ ، بادية سوقهنّ من وراء ثيابهنّ ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون .

ودليل هذا التأويل إنّها في حرف ابن مسعود (بعيس عين) وهي البيض ومنه قيل للإبل البيض عيس ، وواحده بعير أعيس ، وناقة عيساء ، وقيل : الحور الشديدات بياض الأعين ، الشديدات سوادها ، واحدها أحور ، والعين جمع العيناء ، وهي العظيمة العينين .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله الطبري الحاجّي ، حدثنا أبو علي الحسن ابن اسماعيل بن خلف الخياط ، حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين بن الفرج ، حدثنا محمد بن عبيد بن عبد الملك ، حدثنا محمد بن يعلي أبو علي الكوفي ، حدثنا عمر بن صبيح ، عن مقاتل بن حيان ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مهور الحور العين قبضات التمر وفلق الخبز " .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ، حدثنا محمد بن عمر بن إسحاق ، عن حبش ، حدثنا عبد الله بن سليمان بن الأشعث ، حدثنا أيوب بن علي يعني الصباحي حدثنا زياد بن سيار مولى لي عن عزة بنت أبي قرصافة ، عن أبيها قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إخراج القمامة من المسجد مهور الحور العين " .

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ اشتهوها . ﴿ آمِنِينَ ﴾ من نفادها وعدمها في بعض الأزمنة ومن غائلتها ومضرّتها ، وقال قتادة : ﴿ آمِنِينَ ﴾ من الموت والأوصاب والشيطان .

﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ يعني سوى ﴿ الموتة الأولى ﴾ وبعدها وضع ﴿ إِلاَّ ﴾ موضع بعد كقوله : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] . يعني بعد ما قد فعل آباؤكم وسواه ، وهذا كما يقول في الكلام : ما ذقت اليوم طعاماً سوى ما أكلته أمس .

﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجحيم * فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ سهلناه ، كناية عن غير مذكور .

﴿ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فارتقب ﴾ فانتظر الفتح والنصر من ربّك . ﴿ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ بزعمهم قهرك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 348 . 357 ﴾

(221/697)

وقال الزمخشري :

سورة الدخان

مكية ، إلا قوله إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا . . . الآية وهي سبع وخمسون آية . وقيل تسع وخمسون [نزلت بعد سورة الزخرف] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الدخان (44) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)

الواو في وَالْكِتابِ واو القسم ، إن جعلت حم تعديدا للحروف أو اسما للسورة ، مرفوعا على خبر الابتداء المحذوف وواو العطف إن كانت حم مقسما بها . وقوله إِنَّا أَنْزَلْناهُ جواب القسم ، والكتاب المبين القرآن . والليلة المباركة : ليلة القدر . وقيل : ليلة النصف من شعبان ، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصكّ ، وليلة الرحمة وقيل : بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة . وقيل في تسميتها : ليلة البراءة . والصكّ : أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة ، كذلك اللّه عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة .

وقيل : هي مختصة بخمس خصال : تفريق كل أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل اللّه إليه مائة ملك :

ثلاثون يبشرونه بالجنة ، وثلاثون يؤمنون من عذاب النار ، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا . وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان «1»» . ونزول الرحمة : قال عليه الصلاة والسلام : «إنّ اللّه يرحم أمّتى «2» في هذه

---

(1) . ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن عمر هكذا وأخرجه أبو الفتح سليم بن أيوب في الترغيب له من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن على موقوفا . وأخرجه ابن الأخضر من رواية جعفر المدائني عن أبى يحيى العتابى حدثني بضعة وثلاثون من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال - فذكره

(2) . قوله «يرحم أمتى في هذه الليلة» لعله : من أمتى . (ع)

الليلة بعدد شعر أغنام بنى كلب «1»» وحصول المغفرة : قال عليه الصلاة والسلام : «إنّ اللّه تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين ، أو مصرّ على الزنا» «2» وما أعطى فيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من تمام الشفاعة ، وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمّته ، فأعطى الثلث منها ، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين ، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى

الجميع ، إلا من شرد عن اللّه شراد البعير . ومن عادة اللّه في هذه الليلة : أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة ، والقول الأكثر : أنّ المراد بالليلة المباركة :

ليلة القدر ، لقوله تعالى إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ولمطابقة قوله : فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ لقوله : تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ وقوله تعالى شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان . فإن قلت : ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة ؟ قلت : قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا ، وأمر السفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نجوما نجوما . فإن قلت : إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان «3» . فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ كأنه قيل : أنزلناه ، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصا ، لأنّ إنزال القرآن من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم . والمباركة : الكثيرة الخير لما يتيح «4» اللّه فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة . ومعنى يُفْرَقُ يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم ، وجميع أمورهم منها إلى

---

(1) . أخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث عائشة مرفوعا «إن اللّه ينزل ليلة النصف

من شعبان إلى سماء الدنيا .

فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب . قال الترمذي : لا نعرفه إلا من حديث الحجاج؟

وسمعت محمدا يضعفه . وقال :

ابن يحيى لم يسمع من عروة ، والحجاج لم يسمع من يحيى ، وفي الباب عن أنس عن عائشة في الدعوات البيهقي . وفي روايته مجاهيل . ومن وجه آخر عن عائشة في الافراد للدارقطني . وفيه عطاء بن عجلان . وهو متروك .

(2) . لم أجد ، هكذا . وفي ابن حبان من حديث معاذ بن جبل وقال يطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن» وفي ابن ماجة من حديث أبى موسى كذلك . والبزار من حديث أبى بكر وفي إسناده ضعف والبزار أيضا من حديث عوف بن مالك . وفيه ابن لهيعة . ومن حديث أبى هريرة وفيه من لا يعرف . ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبى سعيد عن عائشة . وفيها لا ينظر اللّه فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن ولا إلى قاطع رحم ولا إلى عاق ولا إلى مدمن خمر وفي رواية أنس عن عائشة التي ذكرناها في التي قبلها «المدمن والعاق والمصر على الزنا وزادوا : ولا مصور ولا قتار .

(3) . قوله «ملفوفتان» لعله من اللف والنشر المقرر في البيان ، وبيانه ما بعده . (ع)

(4) . قوله «لما يتيح اللّه فيها» أى يقدر . (ع) [. . . . .]

الأخرى القابلة . وقيل : يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ، ويقع الفراغ في ليلة القدر ، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخه الحروب إلى جبريل ، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت . وعن بعضهم : يعطى كل عامل بركات أعماله ، فيلقى على ألسنة الخلق مدحه ، وعلى قلوبهم هيبته . وقرئ : يُفْرَقُ بالتشديد . ويُفْرَقُ كل على بنائه للفاعل ونصب كل ، والفارق : اللّه عزّ وجلّ ، وقرأ زيد بن على رضى اللّه عنه : نفرق ، بالنون ، كل أمر حكيم :

كل شأن ذى حكمة ، أى : مفعول على ما تقتضيه الحكمة ، وهو من الإسناد المجازى ، لأنّ الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ، ووصف الأمر به مجاز أَمْراً مِنْ عِنْدِنا نصب على الاختصاص . جعل كل أمر جزلا فخما بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال : أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لدنا ، وكما اقتضاء علمنا وتدبيرنا .

ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهى ، ثم إما أن يوضع موضع فرقانا الذي هو مصدر

يفرق ، لأنّ معنى الأمر والفرقان واحد ، من حيث أنه إذا حكم بالشيء وكتبه فقد أمر به وأوجبه . أو يكون حالا من أحد الضميرين في أنزلناه : إما من ضمير الفاعل ، أى : أنزلناه آمرين أمرا . أو من ضمير المفعول أى أنزلناه في حال كونه أمرا من عندنا بما يجب أن يفعل فإن قلت : إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ بم يتعلق ؟ قلت : يجوز أن يكون بدلا من قوله إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ورَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ مفعولا له ، على معنى : إنا أنزلنا القرآن ، لأنّ من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم ، وأن يكون تعليلا ليفرق . أو لقوله أَمْراً مِنْ عِنْدِنا ورحمة : مفعولا به ، وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به في قوله تعالى وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ أى يفصل في هذه الليلة كل أمر . أو تصدر الأوامر من عندنا ، لأنّ من عادتنا أن نرسل رحمتنا . وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة ، وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا ، لأنّ الغرض في تكليف العباد تعريضهم للمنافع . والأصل : إنا كنا مرسلين رحمة منا ، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذانا بأنّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين ، وفي قراءة زيد بن على : أمر من عندنا ، على : هو أمر ، وهي تنصر انتصابه على الاختصاص . وقرأ الحسن : رحمة من ربك . على : تلك رحمة ، وهي تنصر انتصابها بأنها مفعول له إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وما بعده تحقيق لربوبيته ، وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه . وقرئ : رب السماوات . . . ربكم ورب آبائكم ، بالجر بدلا من ربك . فإن قلت :

ما معنى الشرط الذي هو قوله إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ؟ قلت: كانوا يقرون بأن للسماوات والأرض ربا وخالقا، فقيل لهم: إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل: إن هذا

(224/697)

الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان، كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهر وإسخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته.

[سورة الدخان (44): الآيات 9 إلى 12]

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12)

ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ وأن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن، ولا عن جدّ وحقيقة: بل قول مخلوط بهزء ولعب يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ مفعول به مرتقب. يقال: رقبته وارتقبته. نحو: نظرته وانتظرته. واختلف في الدخان، فعن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه وبه أخذ الحسن: أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة، حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ «1»، ويعترى المؤمن منه كهيئة

الزكام ، وتكون الأرض كلها كبيت أو قد فيه ليس فيه خصاص «2» . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أوّل الآيات : الدخان ، ونزول عيسى ابن مريم ، ونار تخرج من قعر عدن أبين «3» تسوق الناس إلى المحشر «4» «قال حذيفة : يا رسول اللّه ، وما الدخان ؟ فتلا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الآية وقال : «يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة .

أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمّة ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره» وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : خمس قد مضت : الروم ، والدخان ، والقمر ، والبطشة .

واللزام . ويروى أنه قيل لابن مسعود : إن قاصا عند أبواب كندة يقول : إنه دخان يأتى يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق ، فقال : من علم علما فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : اللّه أعلم ، فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه : اللّه أعلم ، ثم قال : ألا وسأحدّثكم أنّ قريشا لما استعصت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دعا عليهم فقال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، «5»

---

(1) . قوله «كالرأس الحنيذ» أى المشوى ، كما في الصحاح . (ع)

(2) . قوله «ليس فيه خصاص» أى : فرج . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «أبين» في الصحاح : «أبين» : اسم رجل نسب إليه عدن . (ع)

(4) . هذا أولى . وفي إسناده رواه ابن الجراح وهو متروك . وقد اعترف بأنه لم يسمع هذا الحديث .

(5) . متفق عليه دون قوله «حتى أكلوا الجيف والعلهز» وقد رواه النسائي والحاكم والطبراني من حديث ابن عباس قال «جاء أبو سفيان إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : أنشدك اللّه والرحم لقد أكلنا العلهز يعنى الوبر والدم فأنزل اللّه وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ - الآية .

(225/697)

واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف «1» والعلهز ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان يحدّث الرجل «2» فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان ، فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشدوه اللّه والرحم وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا ، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم بِدُخانٍ مُبِينٍ ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان يَغْشَى النَّاسَ يشملهم ويلبسهم ، وهو في محل الجر صفة لدخان .

وهذا عَذابٌ إلى قوله مُؤْمِنُونَ منصوب المحل بفعل مضمر ، وهو : يقولون . ويقولون :

منصوب على الحال ، أى : قائلين ذلك . إِنَّا مُؤْمِنُونَ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب .

[سورة الدخان (44) : الآيات 13 إلى 16]

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب وَقَدْ جاءَهُمْ ما هو أعظم وأدخل في وجوب الادّكار من كشف الدخان ، وهو ما ظهر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات ، فلم يذكروا وتولوا عنه ، وبهتوه «3» بأن عداسا غلاما أعجميا لبعض ثقيف هو الذي علمه ، ونسبوه إلى الجنون ، ثم قال إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ أى ريثما نكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهال . فإن قلت : كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا ؟ قلت : إذا أتت السماء بالدخان تضور «4» المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوّثوا وقالوا رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ منيبون ، فيكشفه اللّه عنهم بعد أربعين يوما ، فريثما يكشفه عنهم يرتدون لا يتمهلون ، ثم قال : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى يريد

(1) . قوله «حتى أكلوا الجيف والعلهز» في الصحاح «العلهز» - بالكسر - : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة . (ع)

(2) . قوله «وكان يحدث الرجل فيسمع» لعله : يحدث الرجل الرجل ، ويمكن أن يجعل الفاعل ضميرا يعود على الرجل السابق . (ع)

(3) . قوله وتولوا عنه وبهتوه» رموه بما ليس فيه والتغويث قولها : وا غوثاه ، كما في الصحاح أيضا . (ع)

(4) . قوله «تضور المعذبون به» التضور : الصياح والتلوي عند الألم . أفاده الصحاح . (ع)

(226/697)

يوم القيامة ، كقوله تعالى فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى . إِنَّا مُنْتَقِمُونَ أى ننتقم منهم في ذلك اليوم . فإن قلت : بم انتصب يوم نبطش ؟ قلت : بما دل عليه إِنَّا مُنْتَقِمُونَ وهو ننتقم . ولا يصح أن ينتصب بمنتقمون ، لأن «إن» تحجب عن ذلك . وقرئ : نبطش ، بضم الطاء .

وقرأ الحسن : نبطش بضم النون ، كأنه يحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة

الكبرى.

أو يجعل البطشة الكبرى باطشة بهم. وقيل الْبَطْشَةَ الْكُبْرى: يوم بدر.

[سورة الدخان (44): الآيات 17 إلى 21]

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21)

وقرئ: ولقد فتنا، بالتشديد للتأكيد. أو لوقوعه على القوم. ومعنى الفتنة: أنه أمهلهم ووسع عليهم في الرزق، فكان ذلك سببا في ارتكابهم المعاصي واقترافهم الاثام. أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا، فاختاروا الكفر على الإيمان. أو سلبهم ملكهم وأغرقهم كَرِيمٌ على اللّه وعلى عباده المؤمنين. أو كريم في نفسه، لأنّ اللّه لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ هي أن المفسرة، لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى اللّه. أو المخففة من الثقيلة ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث أدّوا إليّ وَعِبادُ الرَّحْمنِ مفعول به وهم بنو إسرائيل، يقول: أدوهم إليّ وأرسلوهم معى، كقوله تعالى فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ويجوز أن يكون نداء لهم على: أدوا إليّ يا عباد اللّه ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي واتباع سبيلي، وعلل ذلك بأنه رَسُولٌ أَمِينٌ غير ظنين قد ائتمنه اللّه على وحيه

ورسالته وَأَنْ لا تَعْلُوا أن هذه مثل الأولى في وجهيها ، أى : لا تستكبروا عَلَى اللَّهِ بالاستهانة برسوله ووحيه . أو لا تستكبروا على نبىّ اللّه بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة أَنْ تَرْجُمُونِ أن تقتلون . وقرئ : عت ، بالإدغام . ومعناه أنه عائذ بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل فَاعْتَزِلُونِ يريد : إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمنوا ، فتنحوا عنى واقطعوا أسباب الوصلة عنى ، أى : فخلوني كفافا لا لي ولا علىّ ، ولا تتعرضوا لي بشركم وأذاكم ، فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ذلك .

(227/697)

[سورة الدخان (44) : الآيات 22 إلى 24]

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24)

أَنَّ هؤُلاءِ بأن هؤلاء ، أى : دعا ربه بذلك . قيل : كان دعاؤه : اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم : وقيل هو قوله رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وإنما ذكر اللّه تعالى السبب الذي استوجبوا به الهلاك ، وهو كونهم مجرمين . وقرئ : إنّ هؤلاء ، بالكسر على إضمار القول ،

أى : فدعا ربه فقال : إن هؤلاء فَأَسْرِ قرئ بقطع الهمزة من أسرى ، ووصلها من سرى .

وفيه وجهان : إضمار القول بعد الفاء ، فقال : أسر بعبادي . وأن يكون جواب شرط محذوف ، كأنه قيل : قال إن كان الأمر كما تقول فأسر بِعِبادِي يعنى : فأسر ببني إسرائيل ، فقد دبر اللّه أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده ، فينجى المتقدمين ويغرق التابعين . الرهو فيه وجهان ، أحدهما : أنه الساكن . قال الأعشى :

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتّكل «1»

أى مشيا ساكنا على هينة . أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق ، كما ضربه فانفلق ، فأمر بأن يتركه ساكنا على هيئته ، قارّا على حاله : من انتصاب الماء ، وكون الطريق يبسا لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئا ليدخله القبط ، فإذا حصلوا فيه أطبقه اللّه عليهم . والثاني :

---

(1) يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل

فهن معترضات والحصى رمض والريح ساكنة والظل معتدل

يتبعن سامية العينين تحسبها مجنونة أو ترى ما لا ترى الإبل

تهدى لنا كلما كانت علاوتنا ريح الخزامى جرى فيها الندى الخضل

للقطافى ، يصف إبلا يمشين مشيا رهوا على هينة وسكينة ، فلا أعجازها خادلة أى تاركة لصدورها متكلة عليها بحيث تضعف من ورائها ، ولا صدورها تتكل على

أعجازها بأن تضعف من قدامها ، فأطلق الخذلان والاتكال وأراد لازمهما ، وهو الضعف : مجازا مرسلا . وأصل تتكل توتكل ، فقلبت الواو تاء وأدغمت فيما بعدها ، فهن سائرات في عرض الفلوات . والحال أن الحصى حار من شدة وقع الشمس عليه . ورمض الحصى والرمل رمضا كتعب تعبا : اشتد حره من الشمس ، فأطلق المصدر على اسم الفاعل مبالغة . ويجوز أنه رمض كحذر والريح ساكنة ، فلا نسيم يأتي بالبرودة . أو فلا غبار يضر بالسفر والظل معتدل : كناية عن اشتداد الحر ، لأنه لا يعتدل إلا بتوسط الشمس في كبد السماء يتبعن تلك المطايا ناقة حديدة البصر رافعة طرفها لتبصر أمامها ، تظنها يا من تراها مجنونة . أو رائية شيئا لا تراه بقية الإبل . أو شيئا لا تراه الإبل عادة ، فلذلك استغربته ، تهدى لنا تلك الناقة أو الإبل بمشيها كلما وجد ارتفاعنا في الطريق ريح الخزامى . والعلاوة – بالضم – : ضد السفالة . وأما بالكسر فهي ما يعلق على البعير بعد حمله . والخزامى : نبت طيب الرائحة . والخضل : الرطب والمبتل والناعم . وضمير فيها عائد على الخزامى .

أو على الريح ، لكن هذا يفيد أن السفر كان صباحا .

(228/697)

أن الرهو الفجوة الواسعة. وعن بعض العرب: أنه رأى جملا فالجا «1» فقال: سبحان اللّه، رهو بين سنامين، أى: اتركه مفتوحا على حاله منفرجا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ وقرئ بالفتح، بمعنى: لأنهم.

[سورة الدخان (44): الآيات 25 إلى 27]

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27)

والمقام الكريم: ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة. وقيل: المنابر. والنعمة - بالفتح - من التنعم، وبالكسر - من الإنعام. وقرئ: فاكهين وفكهين.

[سورة الدخان (44): الآيات 28 إلى 29]

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)

كَذَلِكَ الكاف منصوبة على معنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها وَأَوْرَثْنَاهَا أو في موضع الرفع على الأمر كذلك قَوْمًا آخَرِينَ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل: كانوا متسخرين مستعبدين في أيديهم، فأهلكهم اللّه على أيديهم، وأورثهم ملكهم وديارهم. إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض، وبكته الريح، وأظلمت له الشمس. وفي حديث رسول اللّه صلى اللّه

عليه وسلم : «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» «2» وقال جرير :

تبكى عليك نجوم اللّيل والقمرا «3»

---

(1) . قوله «أنه رأى جملا فالجا» في الصحاح «الفالج» الضخم ذو السنامين . (ع)

(2) . أخرجه البيهقي في الشعب في السبعين منه والطبري والثعلبي من حديث شريح بن عبيد الحضرمي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا إلا غربة على مؤمن . ما مات مؤمن في غربة غائب عنه فيها بواكيه – الحديث»

(3) نعى النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت اللّه واعتمرا

حملت أمرا عظيما فاصطبرت له وقمت فيه بأمر اللّه يا عمرا

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

لجرير ، يرثى عمر بن عبد العزيز . والنعي : النداء بالموت . وقوله «يا خير» حكاية قول النعاة ، أى : قائلين يا خير ، ويحتمل أنه من كلام الشاعر ، ففيه التفات . والأمر العظيم : الخلافة ومشاقها : شبهها بالمحسوس على طريق المكنية .

والتحصيل : تخييل . وأمر اللّه : شرعه ، أو اكتفى به عن ذكر النهى لدلالته عليه . وعمرا : منادى مندوب ، وألف الندبة منعت ضمة وجلبت فتحة . واستعمال «يا» في الندبة مع أن الأصل فيها «وا» لعدم اللبس في النداء بعد ذكر النعي . ويقال : كسفت الشمس

كسوفا ، وكسفها اللّه كسفا ، وبكى على زيد وبكاء ، وباكاء فبكاه ، أى غلبه في البكاء ، كفاخره ففخره إذا غلبه في الفخر ، فكسف ، وبكى : متعديان ولازمان ، وطالعة : خبر الشمس .

وليست بكاسفة : خبر ثان . وتبكى عليك : حال أو خبر ثالث . ونجوم الليل : مفعول كاسفة ، أى : لم تكسف الشمس نجوم الليل لانطماسها وقلة ضوئها من كثرة بكائها ، فلا تقدر على منع الكواكب من الظهور . ويحتمل أن نجوم الليل مفعول تبكى . أى : تغلب نجوم الليل في البكاء عليك . وقيل : روايته هكذا وهم ، والرواية : الشمس كاسفة ليست بطالعة : أى لا تطلع أبدا من حينئذ ، فالأوجه أن نجوم الليل مفعول تبكى . وقيل : ظرف له ، أى :

مدة نجوم . . . الخ . وقيل «نجوم» مرفوع على الفاعلية ، والقمر : مفعول معه ، ثم إن المراد بهذا حزن جميع المخلوقات عليه ، لا سيما الناس العقلاء .

(229/697)

وقالت الخارجية :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنّك لم تجزع على ابن طريف «1»

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه ، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : من بكاء مصلى المؤمن ، وآثاره في الأرض ، ومصاعد عمله ، ومهابط رزقه في السماء : تمثيل ، ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده : فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين ، يعنى : فما بكى عليهم

---

(1) أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فان مات لم يرض الندى بحليف

فقد ناء فقدان الربيع وليتنا فديناه من ساداتنا بألوف

لليلى بنت طريف ترثى أخاها الوليد . وأيا : حرف نداء . والخابور : موضع كثير الشجر ، نزلت شجرة منزلة العاقل ، فنادته واستفهمته عن سبب إخراجه الورق ، من باب تجاهل العارف ساقت المعلوم مساق المجهول ، واستفهمت عنه لفرط ما بها من الجزع تيقنت أن كل الأشياء جزعت عليه حتى الشجر ، فخاطبته بقولها : كأنك لم تجزع على أخى ، وذكرته بكنيته تعظيما لقدره وتنويها بذكره . ومورقا : حال من كاف الخطاب ، ثم قالت : هو فتى لا يحب أن يتزود إلا من التقى ، ولا يحب المال إلا من الغنائم بالحرب ، فقولها «إلا

من قنا وسيوف» : كناية عن ذلك . والقناة :

الرماح ، واحده : قناة . حليف الندى : أى ملازم له تلازم المتحالفين على الاجتماع ، فهو استعارة مصرحة ، ثم قالت : يرضى به أى بصحبته الندى : مدة حياته وإن طالت .

وهذا ترشيح للاستعارة . وقولها : فان مات «إن» فيه بمعنى إذ ، فهي لمجرد الربط لا للشك ، كما ذهب إليه الكوفيون في نحو قوله تعالى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وهذا على أنه كان قد مات كما هو ظاهر قولها فقدناه . ويحتمل أنه كان في مرض الموت ، أى : شارفنا فقده مجازا ، كأنه قد حصل . وشبهته بالربيع في ضمن تشبيه فقدانه فقدان الربيع بجامع عموم نفع كل : مدحته بالتقوى والشجاعة والكرم وعموم النفع والسيادة ، وتنكير ألوف للتكثير ، ويروى : دهمائنا ، بدل سادتنا . والدهماء : السواد العظيم . وظاهر التمني يدل أيضا على أنه كان قد مات ، إلا أن يكون المعنى : ليتنا فديناه مما أصابه فأمرضه .

وتكرير «حليف» من باب رد العجز على الصدر [. . . . .]

(230/697)

أهل السماء وأهل الأرض وَما كانُوا مُنْظَرِينَ لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر ، ولم يمهلوا إلى الآخرة ، بل عجل لهم في الدنيا .

[سورة الدخان (44) : الآيات 30 إلى 31]

وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31)

مِنْ فِرْعَوْنَ بدل من العذاب المهين ، كأنه في نفسه كان عذابا مهينا ، لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم . ويجوز أن يكون المعنى : من العذاب المهين واقعا من جهة فرعون . وقرئ من عذاب المهين . ووجهه أن يكون تقدير قوله مِنْ فِرْعَوْنَ : من عذاب فرعون ، حتى يكون المهين هو فرعون . وفي قراءة ابن عباس : من فرعون ، لما وصف عذاب فرعون بالشدة والفظاعة قال : من فرعون ، على معنى : هل تعرفونه من هو في عتوّه وشيطنته ، ثم عرف حاله في ذلك بقوله إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ أى كبيرا رفيع الطبقة ، ومن بينهم فائقا لهم ، بليغا في إسرافه .

أو عاليا متكبرا ، كقوله تعالى إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ . ومِنَ الْمُسْرِفِينَ خبر ثان ، كأنه قيل : إنه كان متكبرا مسرفا .

[سورة الدخان (44) : الآيات 32 إلى 34]

وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (32) وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاؤُا مُبِينٌ (33) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34)

الضمير في اخْتَرْناهُمْ لبنى إسرائيل . وعَلى عِلْمٍ في موضع الحال ، أى : عالمين بمكان الخيرة ،

وبأنهم أحقاء بأن يختاروا . ويجوز أن يكون المعنى : مع علم منا بأنهم يزيغون ويفرط منهم الفرطات في بعض الأحوال عَلَى الْعالَمِينَ على عالمى زمانهم . وقيل : على الناس جميعا لكثرة الأنبياء منهم مِنَ الْآياتِ من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك من الآيات العظام التي لم يظهر اللّه في غيرهم مثلها بَلاؤُا مُبِينٌ نعمة ظاهرة ، لأن اللّه تعالى يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة . أو اختبار ظاهر لننظر كيف تعملون ، كقوله تعالى وَفِي ذِلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

[سورة الدخان (44) : الآيات 34 إلى 36]

إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (36)

(231/697)

هؤُلاءِ إشارة إلى كفار قريش فإن قلت : كان الكلام واقعا في الحياة الثانية «1» لا في الموت «2» ، فهلا قيل : إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين ؟ كما قيل : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ؟ وما معنى قوله إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى ؟ وما معنى ذكر الأولى ؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى ؟ قلت : معناه - واللّه

الموفق للصواب - : أنه قيل لهم : إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة ، كما تقدّمتكم موتة قد تعقبتها حياة ، وذلك قوله عزّ وجل وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ فقالوا إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى يريدون : ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية ، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة ، فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا في المعنى . يقال : أنشر اللّه الموتى ونشرهم : إذا بعثهم فَأْتُوا بِآبائِنا خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور : من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، أى : إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلا على أنّ ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق ، وقيل كانوا يطلبون اليهم أن يدعوا اللّه وينشر لهم قصىّ بن كلاب ليشاوروه ، فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعاظم الشئون .

[سورة الدخان (44) : آية 37]

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (37)

هو تبع الحميري : كان مؤمنا وقومه كافرين ، ولذلك ذمّ اللّه قومه ولم يذمّه ، وهو الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند . وقيل : هدمها وكان إذا كتب قال : بسم اللّه الذي ملك برّا وبحرا . وعنى النبي صلى اللّه عليه وسلم «لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم» «3» وعنه عليه الصلاة

(1) . قوله «واقعا في الحياة الثانية» أى التي ينكرونها . (ع)

(2) . قال محمود : «فان قلت : كان الكلام معهم واقعا في الحياة الثانية لا في الموت . . . الخ» قال أحمد :

وأظهر من ذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين : الأولى منهما الموت ، والأخرى حياة البعث :

أثبتوا الحالة الأولى وهي الموت ، ونفوا ما بعدها ، وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أن لا شيء بعدها ، لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم ، وهذا أولى من حمل الموتة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا لوجهين ، أحدهما : أن الاقتصار عليها لا يعتقدونه ، لأنهم يثبتون الموت الذي يعقب حياة الدنيا ، وحمل الحصر المباشر للموت في كلامهم على صفة لم تذكر لا على نفس الموت المشاهد لهم : فيه عدول عن الظاهر بلا حاجة . الثاني :

أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالموتة ، فان الموتة فعلة فيها إشعار بالتجدد والطريان . والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تتقدمه حياة طرأ عليها هذا ، مع أن في بقية السورة قوله تعالى لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وإنما عنى ب الْمَوْتَةَ الْأُولَى هنا : الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط ، ففيه إرشاد لما ذكرته ، والله أعلم .

(3) . أخرجه أحمد والطبراني والطبري وابن أبى حاتم من حديث سهل بن سعد وفيه

ابن لهيعة عن عمرو بن جابر . وهما ضعيفان . وروى حبيب عن مالك عن أبى حازم عن سهل مثله قال الدارقطني : تفرد به حبيب وهو متروك . وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في معجمه وابن مردويه قال محمد بن زكريا . عن أبى حذيفة عن سفيان .

(232/697)

والسلام «ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير «1» نبى» وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : كان نبيا .

وقيل : نظر إلى قبرين بناحية حمير قال : هذا قبر رضوى وقبر حبى بنت تبع لا تشركان باللّه شيئا . وقيل : هو الذي كسا البيت . وقيل لملوك اليمن : التبابعة ، لأنهم يتبعون ، كما قيل : الأقيال ، لأنهم يتقيلون «2» . وسمى الظل «تبعا» لأنه يتبع الشمس . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى أَهُمْ خَيْرٌ ولا خير في الفريقين ؟ قلت : معناه أهم خير في القوّة والمنعة ، كقوله تعالى أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ بعد ذكر آل فرعون . وفي تفسير ابن عباس رضى اللّه عنهما : أهم أشدّ أم قوم تبع .

[سورة الدخان (44) : الآيات 38 إلى 42]

وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (38) ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (39) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42)

وَما بَيْنَهُما وما بين الجنسين. وقرأ عبيد بن عمير: وما بينهن. وقرأ: ميقاتهم بالنصب على أنه اسم إن، ويوم الفصل: خبرها، أى: إنّ ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل لا يُغْنِي مَوْلًى أىّ مولى كان من قرابة أو غيرها عَنْ مَوْلًى عن أى مولى كان شَيْئاً من إغناء، أى: قليلا منه وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ الضمير للموالي، لأنهم في المعنى كثير، لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ في محل الرفع على البدل من الواو في يُنْصَرُونَ أى: لا لا يمنع من العذاب إلا من رحمه اللّه. ويجوز أن ينتصب على الاستثناء إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ لا ينصر منه من عصاه الرَّحِيمُ لمن أطاعه.

[سورة الدخان (44): الآيات 43 إلى 47]

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (47)

---

(1). أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبى ذئب عن المقبري عن أبى هريرة بهذا.

والمعروف بهذا الاسناد «ما أدرى العيني هو أم لا، وما أدرى أعزير نبى أم لا» أخرجه أبو داود. وكذا الحاكم لكن قال: ذو القرنين بدل «عزير» قال الدارقطني تفرد به عبد الرزاق

وغيره أرسله .

(2) . قوله «لأنهم يتقيلون» في الصحاح : تقيل شرب نصف النهار ، وتقيل فلان أباه : تبعه . (ع)

(233/697)

قرئ : إنّ شجرت الزقوم ، بكسر الشين ، وفيها ثلاث لغات : شجرة ، بفتح الشين وكسرها وشيرة ، بالياء . وروى أنه لما نزل أَذِلكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ قال ابن الزبعرى : إنّ أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر : التزقم ، فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال : تزقموا فإنّ هذا هو الذي يخوّفكم به محمد ، فنزل إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ وهو الفاجر الكثير الآثام . وعن أبى الدرداء أنه كان يقرئ رجلا فكان يقول طعام اليثيم ، فقال : قل طعام الفاجر «1» يا هذا .

وبهذا يستدل على أنّ إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهي : أن يؤدى القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ، لأنّ في كلام العرب خصوصا في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف

المعاني والأغراض ما لا يستقل بإذائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه اللّه يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر وروى على بن الجعد عن أبى يوسف عن أبى حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية كَالْمُهْلِ قرئ بضم الميم وفتحها ، وهو دردى «2» الزيت . ويدل عليه قوله تعالى يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ مع قوله فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ وقيل : هو ذائب الفضة والنحاس ، والكاف رفع خبر بعد خبر ، وكذلك يَغْلِي وقرئ بالتاء للشجرة ، وبالياء للطعام . والْحَمِيمِ الماء الحار الذي انتهى غليانه : يقال للزبانية خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ فقودوه بعنف وغلظة ، وهو أن يؤخذ بتلبيب «3» الرجل فيجر إلى حبس أو قتل . ومنه : العتلّ وهو الغليظ الجافي . وقرئ بكسر التاء وضمها إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ إلى وسطها ومعظمها . فإن قلت : هلا قيل : صبوا فوق رأسه من الحميم ، كقوله تعالى يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ لأنّ الحميم هو المصبوب لا عذابه ؟ قلت : إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدّته ، إلا أن صب العذاب طريقة الاستعارة ، كقوله :

---

(1) . قال محمود : «نقل أن أبا الدرداء أقرأها رجلا فلم يقم النطق بالأثيم وجعل يقول طعام اليثيم . . . الخ» قال أحمد : لا دليل فيه لذلك . وقول أبى الدرداء محمول على إيضاح المعنى ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عونا على أن يأتى بالقراءة كما أنزلت . على هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار ، وهو الوجه ، واللّه أعلم .

(2) . قوله «و هو دردى الزيت» لعله : ردى الزيت كعبارة النسفي . (ع)

(3) . قوله «و هو أن يؤخذ بتلبيب الرجل» الذي في الصحاح : لبهت الرجل تلبيبا ، إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة ، ثم جررته اه ويجوز أنه أراد بتلبيب الرجل : ثيابه من عند صدره ونحره . (ع)

(234/697)

صبّت عليه صروف الدّهر من صبب «1»

وكقوله تعالى أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً فذكر العذاب معلقا به الصب ، مستعارا له ، ليكون أهول وأهيب يقال ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه .

وروى أنّ أبا جهل قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ما بين جبليها أعز ولا أكرم منى ، فو اللّه ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا . وقرئ : إنك ، بمعنى : لأنك . وعن الحسن ابن على رضى اللّه عنهما أنه قرأ به على المنبر إِنَّ هذا العذاب . أو إن هذا الأمر هو ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ أى تشكون . أو تتمارون وتتلاجون .

[سورة الدخان (44) : الآيات 51 إلى 57]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57)

قرئ : في مقام ، بالفتح : وهو موضع القيام ، والمراد المكان ، وهو من الخاص الذي وقع مستعملا في معنى العموم . وبالضم : وهو موضع الإقامة . وأَمِينٍ من قولك : أمن الرجل أمانة فهو أمين . وهو ضد الخائن ، فوصف به المكان استعارة ، لأنّ المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره . قيل : السندس : ما رق من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه وهو تعريب استبر . فإن قلت : كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمى ؟ قلت : إذا عرب خرج من أن يكون عجميا ، لأن معنى التعريب أن يجعل عربيا بالتصرف فيه ، وتغييره عن منهاجه ، وإجرائه على أوجه الإعراب كَذَلِكَ الكاف مرفوعة على :

الأمر كذلك . أو منصوب على : مثل ذلك أثبناهم وَزَوَّجْنَاهُمْ وقرأ عكرمة : بحور عين ، على الإضافة : والمعنى : بالحور من العين ، لأن العين إما أن تكون حورا أو غير حور ، فهؤلاء

---

(1) كم امرئ كان في خفض وفي دعة صبت عليه صروف الدهر من صبب

الصبب : مكان الصباب الماء وانحداره . يقول : كثير من الناس كان في لين عيش وفي راحة ، توالت عليه حوادث الدهر كأنها سيل منحدر من صبب ، فاستعار الصب لنزول الحوادث بالشخص على طريق التصريح ، والصب ترشيح أو شبه الحوادث بالسيل على سبيل المكنية . والصبب : تخييل . والصب : ترشيح . والصروف : جمع صرف ، كحروف جمع حرف : مكاره الزمن ومصائبه .

(235/697)

من الحور العين «1» لا من شهلهن مثلا . وفي قراءة عبد اللّه : بعيس عين : والعيساء : البيضاء تعلوها حمرة وقرأ عبيد بن عمير : لا يذاقون فيها الموت . وقرأ عبد اللّه : لا يذوقون فيها طعم الموت . فإن قلت : كيف استثنيت الموتة الأولى - المذوقة قبل دخول الجنة - من الموت المنفي ذوقه فيها ؟ قلت : أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع قوله إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل ، فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها «2» . وقرئ ووقاهم بالتشديد فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ عطاء من ربك وثوابا ، يعنى : كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار . وقرئ : فضل ، أى . ذلك فضل .

[سورة الدخان (44) : الآيات 58 إلى 59]

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ فذلكة للسورة. ومعناها: ذكرهم بالكتاب المبين فَإِنَّما يَسَّرْناهُ أى: سهلناه، حيث أنزلناه عربيا بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا فَارْتَقِبْ فانتظر ما يحل بهم إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ما يحل بك متربصون الدوائر.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قرأ سورة حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» «3» وعنه عليه السلام: » من قرأ حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفورا له» «4». انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 269. 283﴾

---

(1). قوله «من الحور العين» لعله: من حور العين. (ع)

(2). قال محمود: «إنما استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها . . . الخ» قال أحمد: هذا الذي ذكره مبنى على أن الموتة بدل، على طريقة بنى تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس. وأما على طريقة الحجازيين، فانتصبت الموتة استثناء منقطعا. وسر اللغة التميمية: بناء النفي المراد على وجه لا يبقى للسامع مطمعا في الإثبات، فيقولون: ما فيها أحد إلا حمار، على معنى: إن كان الحمار من الأحدين ففيها أحد، فيعلقون الثبوت على أمر محال حتما بالنفي. وعليه حمل الزمخشري قُلْ لا يَعْلَمُ

مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ أى إن كان اللّه ممن في السماوات والأرض ، ففي السماوات والأرض من يعلم الغيب ، فإذا نفر السامع من ثبوت الأول تعدت النفرة إلى ثبوت الثاني ، فجزمت بالنفي ، واللّه أعلم .

(3) . أخرجه الترمذي أيضا وابن عدى والشعبي والبيهقي في الشعب من رواية عمر بن خثعم عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، وقال : غريب ، وعمر بضعف . قال محمد : إنه منكر الحديث . قلت : وهو بمعنى الذي قبله .

(4) . أخرجه الترمذي وأبو يعلى وابن السنى في اليوم والليلة» والبيهقي في الشعب وقال تفرد به أبو المقدام .

وهو ضعيف . وعن الحسن عن أبى هريرة وقال الترمذي : أبو المقدام ضعيف والحسن لم يسمع من أبى هريرة .

(236/697)

وقال ابن الجوزى :

قوله عز وجل : ﴿ حم والكتابِ المُبينِ ﴾

قد تقدم بيانه [المؤمن] و [الزخرف] ، وجواب القسم ﴿ إِنّا أنزَلْناه ﴾ ، والهاء كناية

عن الكتاب ، وهو القرآن ﴿ في ليلةٍ مباركة ﴾ وفيها قولان :

أحدهما : أنها ليلة القدر ، وهو قول الأكثرين ، وروى عكرمة عن ابن عباس قال : أُنزلَ القرآنُ من عند الرحمن ليلة القدر جُملةً واحدةً ، فوُضع في السماء الدنيا ، ثم أُنزِلَ نجوماً .

وقال مقاتل : نزل القرآن كلّه في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .

والثاني : أنها ليلة النصف من شعبان ، قاله عكرمة .

قوله تعالى : ﴿ إِنّا كُنّا مُنْذِرِينَ ﴾ أي : مخوّفين عقابنا .

﴿ فيها ﴾ أي في تلك الليلة ﴿ يُفْرَقُ كُلُّ ﴾ أي : يُفْصَل .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو نهيك ، ومعاذ القارىء : "يْفِرقُ" بفتح الياء وكسر الراء "كُلَّ" بنصب اللام .

﴿ أمرٍ حكيمٍ ﴾ أي : مُحْكَم .

قال ابن عباس : يُكتَب من أُمِّ الكتاب في ليلة القَدْر ما هو كائن في السنة من الخير والشرِّ والأرزاق والآجال ، حتى الحاج ، وإنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى .

وعلى ما روي عن عكرمة أن ذلك في ليلة النصف من شعبان ، والرواية عنه بذلك مضطربة قد خولف الراوي لها ، فروي عن عكرمة أنه قال في ليلة القَدْر ، وعلى هذا المفسرون .

قوله تعالى : ﴿ أمراً من عندنا ﴾ قال الأخفش : " أمراً " و " رحمةً " منصوبان على الحال ؛ المعنى : إنّا أنزلْناه آمرين أمراً وراحمين رحمة .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون منصوباً ب ﴿ يُفْرَقُ ﴾ بمنزلة يُفْرَقُ فَرْقاً ، لأن " أمراً " بمعنى " فَرْقاً " .

قال الفراء : ويجوز أن تُنصب الرحمة بوقوع " مرسِلين " عليها ، فتكون الرحمة هي النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال مقاتل : " مرسِلين " بمعنى منزِلين هذا القرآن ، أنزْلناه رحمةً لِمَن آمن به .

(237/697)

وقال غيره : " أمراً من عندنا " أي : إنا نأمر بنَسخ ما يُنسخ من اللوح ﴿ إنّا كنّا مُرْسِلين ﴾ الأنبياء ، ﴿ رحمةً ﴾ منّا بخَلْقنا ﴿ ربِّ السموات ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : " ربُّ " بالرفع .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ ربِّ ﴾ بكسر الباء .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله ﴿ بَلْ هُمْ ﴾ يعني الكفار ﴿ في شكٍّ ﴾ مما جئناهم به ﴿ يَلعبون ﴾ يهزؤون به .

﴿ فارتقِبْ ﴾ أي : فانتظر ﴿ يومَ تأتي السماءُ بدخانٍ مبينٍ ﴾ اختلفوا في هذا الدخان ووقته على ثلاثة أقوال :

أحدها : [أنه] دخان يجيء قبل قيام الساعة ، فروي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الدُّخان يجيء فيأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزّكام .

وروى عبد الله بن أبي مليكة قال : غدوتُ على ابن عباس ذاتَ يوم ، فقال : ما نمتُ الليلة حتى أصبحتُ ، قلت : لم ، قال : طلع الكوكب ذو الذَّنَب ، فخشيتُ أن يطرق الدخان ، وهذا المعنى مروي عن علي ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، والحسن .

(238/697)

والثاني : أن قريشاً أصابهم جوع ، فكانوا يرون بينهم وبين السماء دخاناً من الجوع ؛ فروى البخاري ومسلم في " الصحيحين " من حديث مسروق ، قال : كنا عند عبد الله ، فدخل علينا رجل ، فقال : جئتُكَ من المسجد ، وتركتُ رجلاً يقول في هذه [الآية] ﴿ يوم تأتي السماءُ بدخانٍ مُبينٍ ﴾ : يغشاهم يومَ القيامة دخان يأخذ بأنفاسهم حتى يصيبَهم منه كهيئة الزكام ؛ فقال عبد الله : من عَلِم عِلْماً فلْيَقُل به ، ومن لم يَعْلَم فلْيَقُل : الله أعلم ، إنما كان

[هذا] لأن قريشاً لمّا استعصت على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنيِّ يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعل الرجل يُنظُر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فقالوا ﴿ ربَّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمِنون ﴾ ، فقال الله تعالى : ﴿ إنّا كاشِفو العذابِ قليلاً إنكم عائدون ﴾ ، فكشف عنهم ، ثم عادوا إلى الكفر ، فأخذوا يومَ بدر ، فذلك قوله : ﴿ يومَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبرى ﴾ ، وإلى نحو هذا ذهب مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن السائب ، ومقاتل .

والثالث : أنه يوم فتح مكة لمّا حُجبت السماءُ بالغبرة ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ هذا عذابٌ ﴾ أي : يقولون هذا عذابٌ .

﴿ ربَّنا اكشِفْ عنّا العذاب ﴾ فيه قولان .

أحدهما : الجوع .

والثاني : الدخان .

﴿ إنّا مؤمِنون ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن .

﴿ أنَّى لهم الذِّكرى ﴾ أي : من أين لهم التذكُّر والاتِّعاظ بعد نزول هذا البلاء ، ﴿ و ﴾ حالهم أنه ﴿ قد جاءهم رسول مبين ﴾ أي : ظاهر الصِّدق .

﴿ ثم تولَّوْا عنه ﴾ أي : أعرضوا ولم يقبلوا قوله ﴿ وقالوا مُعَلَّمٌ مجنونٌ ﴾ أي : هو معلَّم يعلِّمه بشر مجنون بادعائه النُّبوَّة ؛ قال الله تعالى : ﴿ إنّا كاشفوا العذابِ قليلاً ﴾ أي :

زماناً يسيراً .

وفي العذاب قولان :

(239/697)

أحدهما : الضُّرُّ الذي نزل بهم كُشف بالخِصب ، هذا على قول ابن مسعود .

قال مقاتل كشفه إلى يوم بدر .

والثاني : أنه الدخان ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ إنكم عائدون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : إلى الشرك ، قاله ابن مسعود .

والثاني : إلى عذاب الله قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ يومَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبرى ﴾ وقرأ الحسن ، وابن يعمر ، وأبو عمران : ﴿ يومَ تُبْطَشُ ﴾ بتاء مرفوعة وفتح الطاء " البَطْشَةُ " بالرفع .

قال الزجاج : المعنى واذكر يومَ نَبْطِش .

ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله : " منتقِمون " ، لأن ما بعد ﴿ إنّا ﴾ لا يجوز أن يعمل فيما قبلها .

وفي هذا اليوم قولان :

أحدهما : يوم بدر قاله ابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب ، وأبو هريرة ، وأبو العالية ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : يوم القيامة ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والبَطْش : الأخذ بقوّة .

قوله تعالى : ﴿ ولقد فتَنّا ﴾ أي ابتَلَينا ﴿ قَبْلَهم ﴾ أي : قَبْلَ قومك ﴿ قومَ فرعون ﴾ بارسال موسى إليهم ﴿ وجاءهم رسولٌ كريمٌ ﴾ وهو موسى بن عمران .

وفي معنى ﴿ كريم ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : حسن الخُلُق ، قاله مقاتل .

والثاني : كريم على ربّه ، قاله الفراء .

والثالث : شريفٌ وسيطُ النسب ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : ﴿ أن أدُّوا ﴾ أي : بان أدّوا ﴿ إليَّ عبادَ الله ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أدُّوا إلى ما أدعوكم إليه من الحق باتّباعي ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس .

فعلى هذا ينتصب ﴿ عبادَ الله ﴾ بالنداء قال الزجاج : ويكون المعنى أن أدُّوا إليَّ ما آمُركم به يا عباد الله .

والثاني : أرسِلوا معي بني إِسرائيل ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والمعنى : أطلِقوهم من تسخيركم ، وسلِّموهم إِليَّ .

﴿ وأن لا تَعْلُوا على الله ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تفتروا عليه ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا تعتوا عليه ، قاله قتادة .

(240/697)

والثالث : لا تعظَّموا عليه ، قاله ابن جريج ﴿ إِنّي آتيكم بسلطان مبين ﴾ أي : بحجة تدل على صدقي .

فلمّا قال هذا تواعدوه بالقتل فقال : ﴿ وإِنّي عُذْتُ بربّي وربِّكم أن ترجُمونِ ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه رجم القول ، قاله ابن عباس ؛ فيكون المعنى : أن يقولوا : شاعر أو مجنون .

والثاني : القتل ، قاله السدي .

﴿ وإِن لم تؤمِنوا لي فاعتزلونِ ﴾ أي : فاتركوني لا معي ولا عليَّ ، فكفروا ولم يؤمنوا ﴿ فدعا ربَّه أنَّ هؤلاء ﴾ قال الزجاج : من فتح ﴿ أنَّ ﴾ فالمعنى : بأن هؤلاء ؛ ومن كسر ،

فالمعنى : قال : إِن هؤلاء ، ﴿ وإِنّ ﴾ بعد القول مكسورة .

وقال المفسرون : المجرمون .

هاهنا : المشركون .

فأجاب اللهُ دعاءه ، وقال ﴿ فأسْرِ بعبادي ليلاً ﴾ يعني بالمؤمنين ﴿ إِنكم متَّبَعونَ ﴾ يتبعكم فرعون وقومه ؛ فأعلمهم أنهم يتبعونهم ، وأنه سيكون سبباً لغرقهم .

﴿ واترُكِ البحر رَهْواً ﴾ أي ساكناً على حاله بعد أن انفرق لك ، ولا تأمره أن يرجع كما كان حتى يدخُلَه فرعون وجنوده .

والرَّهْو : مشيٌ في سُكون .

قال قتادة : لمّا قطع موسى عليه السلام البحر ، عطف يضرب البحر بعصاه ليلتئم ، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده ، فقيل [له] : " واترك البحر رَهْواً " ، أي كما هو طريقاً يابساً .

قوله تعالى : ﴿ إِنهم جُنْدٌ مُغْرَقون ﴾ أخبره الله عز وجل بغرقهم لِيَطْمَئِنَّ قلبُه في ترك البحر على حاله .

﴿ كم تَرَكوا ﴾ أي : بعد غرقهم ﴿ مِنْ جَنَّاتٍ ﴾ وقد فسرنا الآية في [الشعراء : 57] .

فأما " النَّعمة " فهو العيش اللَّيِّن الرغد .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [يس : 55] إِلى قوله : ﴿ وأَوْرَثْناها قوماً آخَرين ﴾ يعني

بني إسرائيل .

﴿ فما بَكَتْ عليهم السماءُ ﴾ أي : على آل فرعون وفي معناه ثلاثة أقوال :

(241/697)

أحدها : أنه على الحقيقة ؛ روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما مِنْ مُسْلِمٍ إلاّ وله في السماء بابان ، باب يصعَدُ فيه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات بكيا عليه "

وتلا صلى الله عليه وسلم هذه الآية .

وقال علي رضي الله عنه : إن المؤمن إذا مات بكى عليه مُصَلاّه من الأرض ومَصْعَد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مُصَلّى ولا في السماء مَصْعَد عمل ، فقال الله تعالى : ﴿ فما بَكَتْ عليهم السماء والأرض ﴾ ، وإلى نحو هذا ذهب ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل ، وقال ابن عباس : الحُمرة التي في السماء : بكاؤها .

وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً ، فقيل له : أو تَبكي ؟ قال : وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ ! .

وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره ، فيها دَويّ كَدَويّ النحل ؟ ! .

والثاني : أن المراد : أهل السماء وأهل الأرض ، قاله الحسن ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ حتى تَضَعَ الحربُ أوزارَها ﴾ [محمد : 4] ، أي : أهل الحرب .

والثالث : أن العرب تقول : إذا أرادت تعظيمَ مَهلكِ عظيمٍ : أظلمت الشمسُ له ، وكَسَفَ القمرُ لفقده ، وبكَتْه الرّيحُ والبرقُ والسماءُ والأرضُ ، يريدون المبالغة في وصف المصيبة ، وليس ذلك بكذب منهم ، لأنهم جميعاً متواطئون عليه ، والسّامِعُ له يَعرف مذهبَ القائل فيه ؛ وبيّنَتُهم في قولهم : أظلمت الشمسُ كادت تُظْلِم ، وكَسَفَ القمرُ : كاد يَكْسِف ، ومعنى "كاد" : هَمَّ أن يَفعَل ولم يفعل ؛ قال ابن مُفَرِّغ يرثي رجلاً :

الرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهُ . . .

والبَرْقُ يَلْمَعُ في غَمامَهْ

وقال الآخر :

الشَّمْسُ طالِعَةٌ لَيْسَتْ بكاسِفةٍ . . .

تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ والْقَمَرا

أراد : الشمسُ طالعةٌ تبكي عليه ، وليست مع طلوعها كاسِفةً النجومَ والقمرَ ، لأنها مُظْلِمةٌ ، وإنما تَكْسِفُ بضوئها ، فنجُومُ الليل باديةٌ بالنهار ، فيكون معنى الكلام : إن الله لمّا أهلك قوم فرعون لم يبك عليهم باكٍ ، ولم يَجْزَعْ جازعٌ ، ولم يوجد لهم فَقْدٌ ، هذا كلُّه كلامُ ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ من العذاب المُهِينِ ﴾ يعني قتل الأبناء واستخدام النساء والتعب في أعمال فرعون ، ﴿ إنه كان عالياً ﴾ أي : جبَّاراً .

﴿ ولقد اخْتَرْنَاهم ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ على عِلْمٍ ﴾ عَلِمه اللهُ فيهم على عالَمي زمانهم ، ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ كانفراق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المَنِّ والسَّلْوى ، إلى غير ذلك ﴿ ما فيه بلاءٌ مُبِينٌ ﴾ أي : نِعمة ظاهرة .

ثم رجع إلى ذِكْر كفار مكة ، فقال : ﴿ إنَّ هؤلاء لَيَقُولون إنْ هي إلاّ موْتَتُنا الأولى ﴾ يعنون التي تكون في الدنيا ﴿ وما نحن بمُنْشَرِين ﴾ أي : بمبعوثين ، ﴿ فائتوا بآبائنا ﴾ أي : ابعثوهم لنا ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في البعث .

وهذا جهل منهم من وجهين :

أحدهما : أنهم قد رأوا من الآيات ما يكفي في الدلالة ؛ فليس لهم أن يتنطّعوا .

والثاني : أن الإعادة للجزاء ؛ وذلك في الآخرة ، لا في الدنيا .

ثم خوّفهم عذابَ الأُمَم قَبْلَهم فقال : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ أي : أشَدُّ وأقوى ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾

؟ ! أي : ليسوا خيراً منهم .

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أدري تُبَّعاً ، نبيّ ، أو غير نبيّ " وقالت عائشة : لا تسُبُّوا تُبَّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً ، ألا ترى أن الله تعالى ذمَّ قومَه ولم يذمُّه .

وقال وهب : أسلَم تُبَّع ولم يُسْلِم قومُه فلذلك ذُكر قومه ولم يُذكر .

وذكر بعض المفسرين أنه كان يعبدُ النار ، فأسلم ودعا قومَه وهم حِمْيَر إلى الإِسلام فكذَّبوه .

(243/697)

فأمّا تسميته ب ﴿ تُبَّع ﴾ فقال أبو عبيدة : كل مِلك من ملوك اليمن كان يسمّى : تُبَّعاً ، لأنه يَتْبَع صاحبَه ، فموضعُ " تُبَّع " في الجاهلية موضعُ الخليفة في الإِسلام وقال مقاتل : إنما سمّي تُبَّعاً لكثرة أتباعه ، واسمه : مَلْكَيْكَرِب .

وإنما ذكر قوم تُبَّع ، لأنهم كانوا أقربَ في الهلاك إلى كفار مكة من غيرهم .

وما بعد هذا قد تقدم [الأنبياء : 16] [الحجر : 85] إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يومَ الفَصْل ﴾ وهو يوم يَفْصِلُ اللهُ عز وجل بين العباد ﴿ ميقاتُهم ﴾ أي : ميعادهم ﴿ أجمعين ﴾

يأتيه الأوّلون والآخِرون .

﴿ يومَ لا يُغْنِي مولىً عن مولىً شيئاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا يَنْفَع قريبٌ قريباً ، قاله مقاتل .

وقال ابن قتيبة : لا يُغْنِي وليٌّ عن وليّه بالقرابة أو غيرها .

والثاني : لا يَنْفَع ابنُ عمٍّ ابنَ عمّه ، قاله أبو عبيدة .

﴿ ولا هُمْ يُنْصَرون ﴾ أي ، لا يُمْنَعون من عذاب الله ، ﴿ إلاّ مَنْ رَحِمَ اللهُ ﴾ وهم المؤمنون ، فإنه يشفع بعضهم في بعض .

﴿ إنَّ شجرَةَ الزَّقُّوم ﴾ قد ذكرناها في [الصافات : 62] .

و" الأثيم " : الفاجر ؛ وقال مقاتل : هو أبو جهل .

وقد ذكرنا معنى " المُهْل " في [الكهف : 29] .

قوله تعالى : ﴿ يَغْلِي في البُطونِ ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿ يغلي ﴾ بالياء ؛ والباقون : بالتاء .

فمن قرأ [﴿ تغلي ﴾] بالتاء ، فلتأنيث الشجرة ؛ ومن قرأ بالياء ، حمله على الطعام قال أبو علي الفارسي : ولا يجوز أن يُحْمَل الغَلْيُ على المُهْل ، لأن المهْل ذُكِر للتشبيه في الذَّوْب ، وإنما يغلي ما شُبِّه به ﴿ كغَلْيِ الحميم ﴾ وهو الماء الحارُّ إذا اشْتَدَّ غَلَيانُه .

قوله تعالى : ﴿ خُذوه ﴾ أي : يقال للزبانية : خذوه ﴿ فاعْتِلُوه ﴾ وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، ويعقوب : بضم التاء ؛ وكسرها الباقون ؛ قال ابن قتيبة : ومعناه قُودوه بالعُنف ، يقال جيء بفلان يُعْتَلُ إلى السلطان ، و " سواء الجحيم " : وسط النار .

قال مقاتل : الآيات في أبي جهل يضربه الملَك من خُزّان جهنم على رأسه بمقمعة من حديد فتنقُب عن دماغه ، فيجري دماغُه على جسده ، ثم يصُبُّ الملَك في النَّقْب ماءً حميماً قد انتهى حَرُّه ، فيقع في بطنه ، ثم يقول [له] الملَك : (ذُقْ) العذاب ﴿ إنَّك أنتَ العزيز الكريم ﴾ هذا توبيخ له بذلك ؛ وكان أبو جهل يقول : أنا أعَزّ قريش وأكرمُها .

وقرأ الكسائي : ﴿ ذُقْ أنَّكَ ﴾ بفتح الهمزة ؛ والباقون : بكسرها قال أبو علي : من كسرها ، فالمعنى أنت العزيز في زعمك ، ومن فتح ، فالمعنى بأنَّكَ .

فإن قيل : كيف سُمِّي بالعزيز وليس به ؟

فالجواب : من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قيل ذلك استهزاءً به ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل .

والثاني : أنت العزيز [الكريم] عند نَفْسك ، قاله قتادة .

والثالث : أنت العزيز في قومك ، الكريم على أهلك ، حكاه الماوردي .

ويقول الخزّان لأهل النار : ﴿ إنّ هذا ما كنتم به تَمْتَرون ﴾ أي : تَشُكُّون في كونه .

ثم ذكر مستقرَّ المُتَّقِين فقال : ﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ فِي مُقَام ﴾ بضم الميم ؛ والباقون : بفتحها قال الفراء : المَقام ، بفتح الميم : المكان ، وبضمها الإِقامة .

قوله تعالى : ﴿ أَمِينٍ ﴾ أي : أمِنوا فيه الغِيَر والحوادث .

وقد ذكرنا " الجَنّات " في [البقرة : 25] و [ذكرنا] معنى " العُيون " ومعنى " متقابِلين " في [الحجر : 45 47] وذكرنا " السُّندُس والإِستبرق " في [الكهف : 31] .

(245/697)

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : الأمر كما وَصَفْنا ﴿ وزوَّجْناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ قال المفسرون : المعنى : قَرَّناهم بهِنّ ، وليس من عقد التزويج .

قال أبو عبيدة : المعنى : جَعَلْنا ذكور أهل الجنة أزواجاً ﴿ بحور عِينٍ ﴾ من النساء ، تقول للرجل : زوِّج هذه النَّعل الفرد بالنَّعل الفرد .

أي : اجعلهما زَوْجاً ، والمعنى : جَعَلْناهم اثنين اثنين .

وقال يونس : العرب لا تقول تزوَّج بها ، إِنما يقولون تزوجَّها ومعنى ﴿ وزَوَّجْناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ : قَرَّناهم .

وقال ابن قتيبة : يقال : زوَّجتُه امرأة ، وزوَّجتُه بامرأة .

وقال أبوعلي الفارسي : والتنزيل على ما قال يونس ، وهو قوله تعالى : ﴿ زَوَّجْناكها ﴾ [الأحزاب : 37] ، وما قال : زَوَّجْناك بها .

فأمّا الحُور ، فقال مجاهد : الحُور النساء النقيّات البياض .

وقال الفراء : الحَوْراء : البيضاء من الإبِل ؛ قال : وفي " الحُور العِين " لغتان : حُور عِين ، وحِير عين ، وأنشد :

أزمانَ عيناء سرور المسير . . .

وحَوْراء عيناء مِنَ العِين الحِير

وقال أبو عبيدة : الحوراء : الشديدة بياض بياض العَيْن ، الشديدة سواد سوادها .

وقد بيَّنّا معنى " العِين " في [الصافات : 48] .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فيها بكل فاكهة آمِنين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : آمنين من انقطاعها في بعض الأزمنة .

والثاني : آمنين من التُّخَم والأسقام والآفات .

قوله تعالى : ﴿ إلاّ المَوْتَةَ الأُولى ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها بمعنى " سوى " ، فتقدير الكلام : لا يذوقون في الجنة الموت سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا ؛ ومثله : ﴿ ولا تَنْكِحوا ما نَكَحَ أباؤكم من النّساء إلاّ ما قد سَلَف ﴾ [

النساء : 22] وقوله : ﴿ خالدين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ إلاّ ما شاءَ ربُّكَ ﴾ [هود : 107] أي : سوى ما شاء لهم ربُّك من الزيادة على مقدار الدنيا ، هذا قول الفراء ، والزجاج.

(246/697)

والثاني : أن السُّعداء حين يموتون يصيرون إلى الرَّوح والرَّيحان .

وأسباب من الجنة يَرَوْنَ منازلهم منها ، وإذا ماتوا في الدنيا ، فكأنهم ماتوا في الجنة ، لا تصالهم بأسبابها ، ومشاهدتهم إيّاها ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن ﴿ إلاّ ﴾ بمعنى "بَعْد " ، كما ذكرنا في أحد الوجوه في قوله : ﴿ إلاّ ما قد سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] ، وهذا قول ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ فَضْلاً مِنْ ربّك ﴾ أي : فعل اللهُ ذلك بهم فَضْلاً منه .

﴿ فإنَّما يَسَّرْناه ﴾ أي : سهَّلْناه ، والكناية عن القرآن ﴿ بلسانك ﴾ أي : بلُغة العرب ﴿ لعلَّهم يَتذكَّرونَ ﴾ أي : لكي يتَّعِظوا فيُؤْمِنوا ، ﴿ فارْتَقِبْ ﴾ أي : انْتَظِرْ بهم العذاب ﴿ إنَّهم مُرْتَقِبُونَ ﴾ هلاكك ؛ وهذه عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف ، وليس بصحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 336 . 353 ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ حم والكتاب المبين ﴾

يعني المبين ما يحتاج الناس إليه من حلال وحرام وغير ذلك من الأحكام ﴿ وإنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ قيل هي ليلة القدر أنزل الله تعالى فيها القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ثم نزل به جبريل نجوماً على حسب الوقائع في عشرين سنة ، وقيل هي ليلة النصف من شعبان عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله تبارك وتعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم بني كلب " أخرجه الترمذي .

﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي مخوفين عقابنا ﴿ فيها ﴾ أي في تلك الليلة المباركة ﴿ يفرق ﴾ أي يفصل ﴿ كل أمر حكيم ﴾ أي محكم ، قال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج يقال : يحج فلان ويحج فلان وقيل هي ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات ، وروى البغوي بسنده أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " تقطع الآجال من

شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى " وعن ابن عباس " إن الله يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر " ﴿ أمراً ﴾ أي أنزلنا أمراً ﴿ من عندنا إنا كنا مرسلين ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ومن قبله من الأنبياء .

(248/697)

﴿ رحمة من ربك ﴾ قال ابن عباس رأفة مني بخلقي ونعمة عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل وقيل أنزلناه في ليلة مباركة رحمة من ربك ﴿ إنه هو السميع ﴾ أي لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ أي بأحوالهم ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ أي إن الله رب السموات والأرض وما بينهما ﴿ لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ قوله تعالى : ﴿ بل هم في شك ﴾ أي من هذا القرآن ﴿ يلعبون ﴾ أي يهزؤون به لاهون عنه ﴿ فارتقب ﴾ أي يا محمد ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ (ق) عن مسروق قال : كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو مضطجع بيننا فأتاه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً عند باب كندة يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنين منها كهيئة الزكام فقام عبد الله

وجلس وهو غضبان فقال يا أيها الناس اتقوا الله من علم منكم شيئاً فليقل به ومن لا يعلم شيئاً فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم فإن الله قال لنبيه (صلى الله عليه وسلم) " قل ما أسالكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين " " إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما رأى من الناس إدباراً قال اللهم سبعاً كسبع يوسف " وفي رواية " لما دعا قريشاً فكذبوه واستعصوا عليه قال : اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف " فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان فأتاه أبو سفيان فقال يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم قال الله : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ إلى قوله ﴿ عائدون ﴾ قال عبد الله فيكشف عذاب الآخرة يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون فالبطشة يوم بدر

(249/697)

﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ فقيل له إن كشفناه عنهم عادوا فدعا ربه فكشف عنهم فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر فذلك قوله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي

السماء بدخان مبين ﴾ إلى قوله ﴿ إنا منتقمون ﴾ قوله حصت كل شيء بالحاء والصاد المهملتين أي أهلكت واستأصلت كل شيء (ق) .

(250/697)

عن عبد الله بن مسعود قال : " خمس قد مضين اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان قيل أصابهم من الجوع كالظلمة في أبصارهم وسبب ذلك أن في سنة القحط العظيم تيبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار ويظلم الهواء والجو وذلك يشبه الدخان وقيل هو دخان يجيء قبل قيام الساعة ولم يأت بعد فيدخل في أسماع الكفار والمنافقين حتى يكون الرجل رأسه كالرأس الحنيذ يعني المشوي ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ، وهو قول ابن عباس وابن عمر والحسن يدل عليه ما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا ، قال حذيفة : يا رسول الله وما الدخان ؟ فتلا هذه الآية ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام وأما الكافر فكمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره "

﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ أي كيف يتذكرون ويتعظون بهذه الحالة ﴿ وقد جاءهم رسول مبين ﴾ معناه وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة وهو ما ظهر على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من المعجزات الظاهرات والآيات البينات الباهرة ﴿ ثم تولوا عنه ﴾ أي أعرضوا عنه ﴿ وقالوا معلم ﴾ أي يعلمه بشر ﴿ مجنون ﴾ أي تلقي إليه الجن هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشي ﴿ إنا كاشفوا العذاب ﴾ أي الجوع ﴿ قليلاً ﴾ أي زمناً يسيراً قيل إلى يوم بدر ﴿ إنكم عائدون ﴾ أي إلى كفركم ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ هو يوم بدر ﴿ إنا منتقمون ﴾ أي منكم في ذلك اليوم ، وهو قول ابن مسعود وأكثر العلماء وفي رواية عن ابن عباس أنه يوم القيامة .

(251/697)

قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا قبلهم ﴾ أي قبل هؤلاء ﴿ قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ﴾ يعني على الله وهو موسى بن عمران عليه السلام ﴿ أن أدوا إليّ عباد الله ﴾ يعني أطلقوا إلي بني إسرائيل ولا تعذبوهم ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ يعني على الوحي ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ يعني لا تتجبروا عليه بترك طاعته ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ يعني ببرهان بيِّن على صدق قولي فلما قال ذلك توعده بالقتل فقال ﴿ وإني عذت بربي وربكم أن

ترجمون ﴾ أن تقتلون وقال ابن عباس : تشتمون وتقولوا هو ساحر وقيل ترجموني بالحجارة ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ أي فاتركون لا معي ولا عليّ ، وقال ابن عباس : اعتزلوا أذاي باليد واللسان فلم يؤمنوا ﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ أي مشركون ﴿ فأسر بعبادي ليلاً ﴾ أي أجاب الله دعاءه وأمره أن يسري ببني إسرائيل بالليل ﴿ إنكم متبعون ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ﴿ واترك البحر ﴾ أي إذا قطعته أنت وأصحابك ﴿ رهواً ﴾ أي ساكناً والمعنى لا تأمره أن يرجع بل اتركه على حالته حتى يدخله فرعون وقومه ، وقيل اتركه طريقاً يابساً وذلك أنه لما قطع موسى البحر رجع ليضربه بعصاه ليلتئم وخاف أن يتبعه فرعون بجنوده فقيل لموسى اترك البحر كما هو ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ يعني أخبر موسى بإغراقهم ليطمئن قلبه في تركه البحر كما هو ﴿ كم تركوا ﴾ أي بعد الغرق ﴿ من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ﴾ أي مجلس شريف حسن ﴿ ونعمة ﴾ أي وعيش لين رغد ﴿ كانوا فيها ﴾ أي في تلك النعمة ﴿ فاكهين ﴾ أي ناعمين وقرىء فكهين أي أشرين بطرين .

﴿ كذلك ﴾ أي أفعل بمن عصاني ﴿ وأورثناها قوماً آخرين ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ وذلك أن المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض أربعين صباحاً ، وهؤلاء لم يكن يصعد لهم عمل صالح فتبكي السماء على فقده ولا لهم على الأرض عمل صالح فتبكي الأرض عليه .

عن أنس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال " ما من مؤمن إلا وله بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه فإذا مات بكيا عليه " فذلك قوله تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، قيل : بكاء السماء حمرة أطرافها ، وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً فقيل : أوتبكي ، فقال : وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل وقيل المراد أهل السماء وأهل الأرض ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي لم يمهلوا حين أخذهم العذاب لتوبة ولا لغيرها قوله : ﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ﴾ أي من قتل الأبناء واستحياء النساء والتعب في العمل ﴿ من فرعون إنه كان عالياً ﴾ أي جباراً ﴿ من المسرفين ولقد اخترناهم على علم ﴾ أي علمه الله تعالى فيهم ﴿ على العالمين ﴾ أي عالمي زمانهم ﴿ وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ أي نعمة بينة من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى والنعم التي أنعمنا بها عليهم وقيل ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني مشركي مكة ﴿

ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ أي لا موتة لنا إلا هذه التي نموتها في الدنيا ولا بعث بعدها وهو قوله ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ أي بمبعوثين بعد موتتنا هذه ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ أي الذين ماتوا قبل ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي إنا نبعث أحياء بعد الموت قيل طلبوا من النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يحيي لهم قصي بن كلاب ثم خوفهم مثل عذاب الأمم الخالية فقال تعالى : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ أم ليسوا خيراً من قوم تبع يعني في الشدة والقوة والكثرة قيل هو تبع الحميري وكان من ملوك اليمن سمي تبعاً لكثرة أتباعه وقيل كل واحد من ملوك اليمن يسمى تبعاً لأنه يتبع صاحبه الذي قبله كما يسمى في

(253/697)

الإسلام خليفة وكان تبع هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه . عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم "

(254/697)

أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي " وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت " لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً " وكان من قصته على ما ذكر محمد بن إسحاق وغيره ، وذكر عكرمة عن ابن عباس قالوا : كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن مليك وكان سار بالجيوش نحو المشرق حتى حير الحيرة وبنى سمرقند ورجع من قبل المشرق فجعل طريقه على المدينة وقد كان حين مر بها خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع على خرابها واستئصال أهلها ، فجمع له هذا الحي من الأنصار حين سمعوا بذلك من أمره فخرجوا لقتاله فكان الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل ، فأعجبه ذلك وقال : إن هؤلاء لكرام فبينا هو كذلك إذ جاءه حبران عالمان من أحبار بني قريظة وكانا ابني عم اسم أحدهما كعب والآخر أسد حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له : أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينه ولم نأمن عليك عاجل العقوبة فإن هذه المدينة مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش اسمه محمد مولده بمكة وهذه دار هجرته ومنزلك الذي أنت فيه يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه وفي عدوهم ، قال تبع ومن يقاتله وهو نبي قالا يسير إليه قومه فيقتتلون ها هنا فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتبعهما على دينهما وأكرمهما وانصرف عن المدينة ، وخرج بهما ونفر من اليهود عامدين إلى اليمن فأتاه في الطريق نفر من هذيل وقالوا له

إنا ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة قال أي بيت هذا قالوا بيت بمكة وإنما أراد هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك فذكر الملك ذلك للأحبار ، فقالوا : ما نعلم لله في الأرض بيتاً غير هذا البيت الذي بمكة فاتخذه مسجداً وانسك عنده وانحر واحلق رأسك وما أراد القوم إلا

(255/697)

هلاكك .

وما ناوأه أحد قط إلا هلك فأكرمه واصنع عنده ما يصنعه أهله فلما قالوا له ذلك أخذ أولئك النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم صلبهم فلما قدم مكة شرفها الله تعالى نزل بالشعب شعب البطائح وكسا البيت الوصائل وهي برود تصنع باليمن وهو أول من كسا البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيام وطاف به وحلق وانصرف ، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا له لا تدخلها علينا وأنت قد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه وقال : إنه دين خير من دينكم قالوا فحاكمنا إلى النار .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ أي بالعدل

وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ قوله : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ أي الذي يفصل الله فيه بين العباد ﴿ ميقاتهم أجمعين ﴾ أي يوافي يوم القيامة الأولون والآخرون ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ أي لا ينفع قريب قريبه ولا يدفع عنه شيئاً ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي يمنعون من عذاب الله ﴿ إلا من رحم الله ﴾ يعني المؤمنين فإنه يشفع بعضهم لبعض ﴿ إنه هو العزيز ﴾ أي في انتقامه من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ أي بأوليائه المؤمنين ، قوله تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ أي ذي الإثم وهو أبو جهل ﴿ كالمهل ﴾ أي كدردي الزيت الأسود ﴿ يغلي في البطون ﴾ أي في بطون الكفار ﴿ كغلي الحميم ﴾ يعني كالماء الحار إذا اشتد غليانه عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) " في قوله كالمهل ؛ قال كعكر الزيت فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه " أخرجه الترمذي وقال لا نعرفه إلا من حديث رشدين سعد وقد تكلم فيه من قبل حفظه .

(256/697)

عن ابن عباس " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قرأ هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ثم قال رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : ﴿ خذوه ﴾ أي يقال للزبانية خذوه يعني الأثيم ﴿ فاعتلوه ﴾ أي دافعوه وسوقوه بالعنف ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي إلى وسط النار ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ قيل إن خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه من دماغه ثم يصب فيه ماء حميماً قد انتهى حره ثم يقال له ﴿ ذق ﴾ أي هذا العذاب ﴿ إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أي عند قومك بزعمك وذلك أن أبا جهل لعنه الله كان يقول أنا أعز أهل الوادي وأكرمهم فيقول له خزنة النار هذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ أي تشكون فيه ولا تؤمنون به ثم ذكر مستقر المتقين ﴿ في مقام أمين ﴾ أي في مجلس أمنوا فيه من الغير ﴿ في جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق ﴾ قيل السندس ما رق من الديباج والإستبرق ما غلظ منه وهو معرب إستبر .

فإن قلت كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي .

قلت إذا عرب خرج من أن يكون أعجمياً لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه وتغييره عن منهاجه وإجرائه على أوجه الإعراب ﴿ متقابلين ﴾ أي يقابل بعضهم بعضاً ﴿ كذلك ﴾ أي كما أكرمناهم بما وصفنا من الجنات والعيون واللباس كذلك ﴿ و ﴾ أكرمناهم بأن ﴿ زوجناهم بحور عين ﴾ أي قرناهم بهن وليس هو من عقد التزويج وقيل جعلناهم أزواجاً لهن أي جعلناهم اثنين واثنين الحور من النساء النقيات البيض ، وقيل يحار الطرف من بياضهن وصفاء لونهن وقيل الحور الشديدات بياض العينين ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة ﴾ يعني أرادوها واشتهوها ﴿ آمنين ﴾ أي من نفادها ومن مضرتها وقيل آمنين فيها من الموت والأوصاب والشيطان ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ أي لا يذوقون في الجنة الموت سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا إلا وقيل إلا بمعنى لكن ، وتقديره ليذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها وقيل إنما استثنى الموتة من موت الجنة لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله إلى أسباب الجنة يلقون الروح والريحان ويرون منازلهم في الجنة فكان موتهم في الدنيا كأنه في الجنة لاتصالهم بأسبابها ومشاهدتهم إياها ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ .

(258/697)

﴿ فضلاً من ربك ﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون من الخلاص من عذاب النار والفوز بالجنة إنما حصل لهم ذلك بفضل الله تعالى وفعل ذلك بهم تفضلاً منه ﴿ ذلك هو الفوز العظيم فإنما يسرناه بلسانك ﴾ أي سهلنا القرآن على لسانك كناية عن غير مذكور ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي يتعظون ﴿ فارتقب ﴾ أي فانتظر النصر من ربك وقيل انتظر لهم العذاب ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ أي منتظرون قهرك بزعمهم وقيل منتظرون موتك قيل هذه الآية منسوخة بآية السيف عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وعمر بن خثعم أحد رواته وهو ضعيف ، وقال البخاري : هو منكر الحديث وعنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة غفر له " أخرجه الترمذي وقال هشام أبو المقداد أحد رواته ضعيف والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 143 . 150 ﴾

(259/697)

وقال ابن جزى :

﴿ والكتاب المبين ﴾

ذكر في الزخرف وهو قسم جوابه إنا أنزلناه ، وقيل إنا كنا منذرين وهو بعيد .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ يعني ليلة القدر من رمضان ، وكيفية إنزاله فيها أنه أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل به جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً بعد شيء ، وقيل : معناه أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ، وقيل : يعني بالليلة المباركة ليلة النصف من شعبان وذلك باطل ، لقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] مع قوله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] .

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ معنى يفرق يفصل ويخلص ، والأمر الحكيم أرزاق العباد وآجالهم ، وجميع أمورهم في ذلك العام نسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر ، ليتمثل الملائكة ذلك بطول السنة القابلة ، وقيل : إن هذا يكون ليلة النصف من شعبان وهذا باطل لما قدمنا .

﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَآ ﴾ مفعول بفعل مضمر على الاختصاص قاله الزمخشري ، وقال ابن عطية نصب على المصدر ، وقيل على الحال ﴿ مُرْسِلِينَ ﴾ إرسال الرسل عليهم السلام ، وقيل : من إرسال الرحمة والأول أظهر .

﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِي السمآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ في هذا قولان أحدهما قول علي بن أبي طالب وابن عباس أن الدخان يكون قبل يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام ، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين وهو من أشراط الساعة ، وروى حذيفة أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال : إن أول أشراط الساعة الدخان والثاني : قول ابن مسعود ؛ إن الدخان عبارة عما أصاب قريشاً حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجدب ، فكان الرجل يرى دخاناً بينه وبين السماء من شدّة الجوع . قال ابن مسعود : خمس قد مضين ؛ الدخان واللزام والبطشة والقمر والردم .

(260/697)

﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى ، أو من قول الناس لما أصابهم الدخان ، وهذا أظهر لأن ما بعده من كلامهم باتفاق فيكون الكلام متناسقاً .

﴿ أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ هذا من كلام الله تعالى ، ومعناه استبعاد تذكير الكفار مع تكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، والواو في قوله : ﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ ﴾ واو الحال ﴿ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني محمداً ﴿ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ ﴾ أي يعلمه بشر .

﴿ البطشة الكبرى ﴾ قال ابن عباس : هي يوم القيامة ، وقال ابن مسعود : هي يوم بدر .

﴿ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿ أَنْ أدوا إِلَيَّ عِبَادَ الله ﴾ أن هنا مفسرة نائب مناب القول ، وأدّوا فعل أمر من الأداء وعباد الله مفعول به وهم بنو إسرائيل ، والمعنى أرسلوا بني إسرائيل كما قال في طه " أرسل معنا بني إسرائيل " وقيل : عباد الله منادى ،

والمعنى أدّوا إليّ الطاعة والإيمان يا عباد الله ، والأول أظهر ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ ﴾ أي لا تتكبروا ﴿ بِسُلْطَانٍ ﴾ أي حجة وبرهان ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ اختلف هل معناه الرجم بالحجارة أو السب والأول أظهر ﴿ فاعتزلون ﴾ أي اتركون وخلوا سبيلي .

(261/697)

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ هذا أمر من الله لموسى عليه السلام والعباد هنا بنو إسرائيل أي أخرج بهم بالليل ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ إخبار أن فرعون وجنوده يتبعونهم ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ أي ساكناً على هيئته وقيل : يابساً وروي أن موسى لما جاوز البحر أراد يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق ، فقال الله له : اتركه كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه ، وقيل : معنى رهوا سهلاً ، وقيل : منفرجاً ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ يحتمل أن يريد الخلجان الخارجة من النيل ، وكانت ثم عيون في ذلك الزمان ، وقيل يعني الذهب والفضة وهو بعيد ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ فيه قولان المنابر والمساكن الحسان ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ من التنعم بالأرزاق وغيرها ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ أي متنعمين ، وقيل : فرحين وقيل : أصحاب فاكهة .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ في موضع نصب أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ، أو في موضع رفع تقديره : الأمر كذلك ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ يعني بني إسرائيل حكاه الزمخشري والماوردي

، وضعفه ابن عطية قال : لأنه لم يرو في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في ذلك الزمان ، وقد قال الحسن إنهم رجعوا إليها ، ويدل على أن المراد بنو إسرائيل قوله في الشعراء : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 59] .

(262/697)

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض ﴾ فيه ثلاثة أقوال : الأول أنه عبارة عن تحقيرهم ، وذلك إنه إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيمه : بكت عليه السماء والأرض على وجه المجاز والمبالغة ، فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهم أحقر من أن يبالى بهم . الثاني قيل : إذا مات المؤمن بكى عليه من الأرض موضع عبادته ، ومن السماء موضع صعود عمله ، فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهم كفار ، أو ليس لهم عمل صالح : الثالث أن المعنى ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض ، والأوّل أفصح وهو منزع معروف في كلام العرب ﴿ كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ أي مؤخرين .

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من العذاب ﴿ عَالِياً ﴾ أي متكبراً .

﴿ اخترناهم على عِلْمٍ ﴾ أي كنا عالمين بأنهم مستحقون لذلك ﴿ عَلَى العالمين ﴾ أي على أهل زمانهم ﴿ بَلاَءٌ مُّبِينٌ ﴾ أي اختبار .

﴿ إِنَّ هؤلاء ﴾ يعني كفار قريش .

﴿ فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا ﴾ خاطبت قريش بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على وجه التعجيز ، رُوي أنهم طلبوا أن يُحْيِيَ لهم قصي بن كلاب يسألوه عن أحوال الآخرة .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ كان تبع ملك من حمير كان مؤمناً وقومه كفاراً ، فذم قومه لوم يذمه ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبيّ ، ومعنى الآية : أقريش أشدّ وأقوى أم قوم تبع والذين من قبلهم من الكفار ، وقد أهكلنا قوم تبع وغيرهم لما كفروا فكذلك نهلك هؤلاء ، فمقصود الكلام تهديد ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ عطف على قوم تبع : وقيل هو مبتدأ فيوف على ما قبله ، والأول أصح .

﴿ لاَعِبِينَ ﴾ حال منفية ذكرت في الأنبياء .

﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى ﴾ المولى هنا يعم الولي والقريب وغير ذلك من الموالي ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ استثناء منقطع إن أراد بقوله ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ الكفار ، ومتصل إن أراد بذلك جميع الناس .

﴿ طَعَامُ الأثيم ﴾ أي الفاجر وهو من الإثم ، وقيل : يعني أبا جهل فالألف واللام للعهد ، والأظهر أنها للجنس فتعم أبا جهل وغيره ﴿ كالمهل ﴾ هو دردي الزيت ، وقيل ما يذاب من الرصاص وغيره .

﴿ فاعتلوه ﴾ أي سوقوه بتعنيف ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ المصبوب في الحقيقة إنما هو الحميم وهو الماء الحار ، ولكن جعل المصبوب هنا العذاب المضاف إلى الحميم مجازاً لأن ذلك أبلغ وأشد تهويلاً ، وقد جاء الاصل في قوله في ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ [الحج : 19] ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ يقال هذا للكافر على وجه التوبيخ والتهكم به ، أي كنت العزيز الكريم عند نفسك ، وروي أن أبا جهل قال : ما بين جبليها أعز مني ولا أكرم . فنزلت الآية ﴿ تَمْتَرُونَ ﴾ تفتعلون من المرية وهو الشك .

﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ قرأ نافع وابن عامر بضم الميم أي موضع إقامة ، والباقون بفتحها أي موضع قيام والمراد به الجنة ، والأمين من الأمن أي مأمون فيه ، وقيل : من الأمنة وصف به المكان مجازاً .

﴿ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السندس الرقيق من الديباج والاستبرق الغليظ منه ﴿ كَذَلِكَ ﴾ في موضع رفع أي الأمر كذلك ، أو في موضع نصب أي مثل ذلك زوّجناهم ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ أي يدعون خدامهم ﴿ إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ استثناء منقطع ، والمعنى لا

يذوقون فيها الموت : قد ذاقوا الموتة الأولى خاصة قبل ذلك ، ولولا قوله ﴿ فِيهَا ﴾ لكان متصلاً لعموم لفظ الموت ، وقيل : إلا هنا بمعنى بعد وذلك ضعيف .

﴿ يَسَّرْنَاهُ ﴾ أي سهلناه والضمير للقرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ أي بلغتك وهي لسان العرب .

﴿ فارتقب إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أي ارتقب نصرنا لك وإهلاكهم ، فإنهم مرتقبون ضدّ ذلك ، ففيه وعد له ووعيد لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 34 . 37 ﴾

(264/697)

وقال النسفى :

﴿ حم والكتاب المبين ﴾ أي القرآن .

الواو في ﴿ والكتاب ﴾ واو القسم .

إن جعلت ﴿ حم ﴾ تعديداً للحروف ، أو اسماً للسورة مرفوعاً على خبر الابتداء المحذوف ، وواو العطف إن كانت ﴿ حم ﴾ مقسماً بها وجواب القسم ﴿ إِنَّآ أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ أي ليلة القدر أو ليلة النصف من شعبان .

وقيل : بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة .

والجمهور على الأول لقوله ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] وقوله ﴿ شَهْرُ

رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان .

ثم قالوا : أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل به جبريل في وقت وقوع الحاجة إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : ابتداء نزوله في ليلة القدر .

والمباركة الكثيرة الخير لما ينزل فيها من الخير والبركة ويستجاب من الدعاء ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ ﴾ هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسر بهما جواب القسم كأنه قيل : أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً ، لأن إنزال القرآن من الأمور الحكمية وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم .

ومعنى ﴿ يُفْرَقُ ﴾ يفصل ويكتب كل أمر من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى ليلة القدر التي تجيء في السنة المقبلة ﴿ حَكِيمٍ ﴾ ذي حكمة أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة ، وهو من الإسناد المجازي لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجازاً .

﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ نصب على الاختصاص جعل كل أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وفخامة بأن قال : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ بدل من ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ مفعول له على معنى أنزلنا القرآن .

لأن من شأننا وعادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم ، أو تعليل لقوله ﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ ، و ﴿ رَحْمَةً ﴾ مفعول به .

وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به في قوله ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : 2] والأصل إنا كنا مرسلين رحمة منا فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم ﴿ رَبِّ ﴾ كوفي بدل من ﴿ رَّبِّكَ ﴾ وغيرهم بالرفع أي هو ربٌّ ﴿ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ ومعنى الشرط أنهم كانوا يقرون بأن للسموات والأرض رباً وخالقاً فقيل لهم : إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب ، ثم قيل : إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرّون به ومعترفون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان كما تقول : إن هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه إن

بلغك حديثه وحدثت بقصته ﴿ لآ إله إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ ﴾ أي هو ربكم ﴿ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الأولين ﴾ عطف عليه .

(266/697)

ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ وإن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن بل قول مخلوط بهزؤ ولعب ﴿ فارتقب ﴾ فانتظر ﴿ يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ ﴾ يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ ، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص .

وقيل : إن قريشاً لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : " اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف " فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان وكان يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان ﴿ مُّبِينٍ ﴾ ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان ﴿ يَغْشَى الناس ﴾ يشملهم ويلبسهم وهو في محل الجر صفة ل ﴿ دُخَان ﴾ وقوله ﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَّبَّنا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي سنؤمن إن تكشف عنا العذاب

منصوب المحل بفعل مضمر وهو يقولون ويقولون منصوب المحل على الحال أي قائلين ذلك ﴿ أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الاذّكار من كشف الدخان ، وهو ما ظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات والبينات من الكتاب المعجز وغيره فلم يذكروا وتولوا عنه وبهتوه بأن عدّاساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه ونسبوه إلى الجنون ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب قَلِيلاً ﴾ زماناً قليلاً أو كشفاً قليلاً ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾ إلى الكفر الذي كنتم فيه أو إلى العذاب ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى ﴾ هي يوم القيامة أو يوم بدر ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ أي ننتقم منهم في ذلك اليوم .

(267/697)

وانتصاب ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ﴾ ب "اذكر" أو بما دل عليه ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ وهو ننتقم لا ب ﴿ مُنتَقِمُونَ ﴾ لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ ﴾ قبل هؤلاء المشركين أي فعلنا بهم فعل المختبر ليظهر منهم ما كان باطناً ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين ، أو كريم في

نفسه حسيب نسيب لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سراة قومه وكرامهم ﴿ أَنْ أَدُّوا آ إِلَيَّ ﴾ هي "أن" المفسرة لأن مجيء الرسول إلى من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله ، أو المخففة من الثقيلة ومعناه وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا إليَّ سلّموا إلي ﴿ عِبَادَ الله ﴾ هو مفعول به وهم بنو إسرائيل يقول : أدوهم إلي وأرسلوهم معي كقوله :

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إسراءيل وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه : 47] .

ويجوز أن يكون نداء لهم على معنى أدوا إلي يا عباد الله ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي واتباع سبيلي ، وعلل ذلك بقوله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي على رسالتي غير متهم ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى الله ﴾ "أن" هذه مثل الأولى في وجهيها أي لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه ، أو لا تستكبروا على نبي الله ﴿ أَنِّى ءَاتِيكُم بسلطان مُّبِينٍ ﴾ بحجة واضحة تدل على أني نبي ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ ﴾ مدغم : أبو عمرو وحمزة وعلي ﴿ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ أن تقتلوني رجماً ومعناه أنه عائذ بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم فهو غير مبالٍ بما كانوا يتوعدونه من الرجم والقتل ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فاعتزلون ﴾ أي إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن فتنحوا عني ، أو فخلوني كفافاً لا لي ولا عليَّ ولا تتعرضوا لي بشركم وأذاكم ، فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ذلك .

﴿ ترجموني ﴾ ، ﴿ فاعتزلوني ﴾ في الحالين : يعقوب .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ شاكياً قومه ﴿ أَنَّ هَؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ بأن هؤلاء أي دعا ربه بذلك .

قيل : كان دعاؤه : اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم .

وقيل : هو قوله ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ﴾ وقرىء ﴿ إِنَّ هَؤُلَآء ﴾ بالكسر على إضمار القول أي فدعا ربه فقال إن هؤلاء ﴿ فَأَسْرِ ﴾ من أسرى .

﴿ فَأَسْرِ ﴾ بالوصل : حجازي من سرى والقول مضمر بعد الفاء أي فقال أسر ﴿ بِعِبَادِى ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجي المتقدمين ويغرق التابعين ﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ ساكناً .

أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق فأمر بأن يتركه ساكناً على هيئته قاراً على حاله من انتصاب الماء وكون الطريق يبساً لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئاً ليدخله القبط ، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم .

وقيل : الرهو : الفجوة الواسعة أي اتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ

﴿ بعد خروجكم من البحر ، وقرىء بالفتح أي لأنهم .

﴿ كَمْ ﴾ عبارة عن الكثرة منصوب بقوله : ﴿ تَرَكُواْ مِن جنات وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ هو ما كان لهم من المنازل الحسنة وقيل : المنابر ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ تنعم ﴿ كَانُواْ فِيهَا فاكهين ﴾ متنعمين ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كذلك فالكاف في موضع الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر ﴿ وأورثناها قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم بنو إسرائيل ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض ﴾ لأنهم ماتوا كفاراً ، والمؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض فيبكي على المؤمن من الأرض مصلاه ومن السماء مصعد عمله ، وعن الحسن : أهل السماء والأرض ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ أي لم ينظروا إلى وقت آخر ولم يمهلوا .

(269/697)

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إسراءيل مِنَ العذاب المهين ﴾ أي الاستخدام والاستعباد وقتل الأولاد ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من ﴿ العذاب المهين ﴾ بإعادة الجار كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم ، أو خبر مبتدأ محذوف أي ذلك من فرعون ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً ﴾ متكبراً ﴿ مِّنَ المسرفين ﴾ خبر ثانٍ أي كان متكبراً مسرفاً ﴿ وَلَقَدِ

اخترناهم ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ على عِلْمٍ ﴾ حال من ضمير الفاعل أي عالمين بمكان الخيرة وبأنهم أحقاء بأن يختاروا ﴿ عَلَى العالمين ﴾ على عالمي زمانهم ﴿ وءاتيناهم مِنَ الأيات ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك ﴿ مَا فِيهِ بَلَؤٌاْ مُّبِينٌ ﴾ نعمة ظاهرة أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون ﴿ إِنَّ هَؤُلآءِ ﴾ يعني كفار قريش ﴿ لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ ﴾ ما الموتة ﴿ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأولى ﴾ والإشكال أن الكلام وقع في الحياة الثانية لا في الموت ، فهلا قيل : إن هي إلا حياتنا الأولى ؟ وما معنى ذكر الأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى جحدوها وأثبتوا الأولى ؟ والجواب أنه قيل لهم إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة وذلك قول تعالى :

﴿ وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] فقالوا : إن هي إلا موتتنا الأولى يريدون ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى فلا فرق إذاً بين هذا وبين قوله ﴿ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ [الأنعام : 29] في المعنى .

ويحتمل أن يكون هذا إنكاراً لما في قوله : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ [غافر : 11] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ بمبعوثين يقال : أنشر الله الموتى .

ونشرهم إذا بعثهم ﴿ فَأْتُواْ بِئَابَآئِنَا ﴾ خطاب الذين كانوا يعدونهم النشور من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلاً على أن ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ في القوة والمنعة ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو تبع الحميري كان مؤمناً وقومه كافرين .

وقيل : كان نبياً في الحديث : " وما أدرى أكان تبع نبياً أو غير نبي " ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مرفوع بالعطف على ﴿ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ ﴿ أهلكناهم إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ كافرين منكرين للبعث ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أي وما بين الجنسين ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ حال ولو لم يكن بعث ولا حساب ولا ثواب كان خلق الخلق للفناء خاصة فيكون لعباً ﴿ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ بالجد ضد اللعب ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه خلق لذلك .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ﴾ بين المحق والمبطل وهو يوم القيامة ﴿ ميقاتهم أَجْمَعِينَ ﴾ وقت موعدهم كلهم ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ﴾ أيّ ولي كان عن أي ولي كان شيئاً من إغناء أي قليلاً منه ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ الضمير للمولى لأنهم في المعنى لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ في محل الرفع على البدل من الواو في

﴿ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا يمنع من العذاب إلا من رحمة الله ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز ﴾ الغالب على أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ لأوليائه .

﴿ إِنّ شَجَرَةَ الزقوم ﴾ هي على صورة شجرة الدنيا لكنها في النار والزقوم ثمرها وهو كل طعام ثقيل ﴿ طَعَامُ الأثيم ﴾ هو الفاجر الكثير الآثام .

وعن أبي الدرداء أنه كان يقرىء رجلاً فكان يقول : طعام اليتيم .

فقال : قل طعام الفاجر يا هذا .

(271/697)

وبهذا تستدل على أن إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها ، ومنه أجاز أبو حنيفة رضي الله عنه القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدي القارىء المعاني كلها على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً .

قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة لأن في كلام العرب خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعاني والدقائق ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها .

ويُروى رجوعه إلى قولهما وعليه الاعتماد ﴿ كالمهل ﴾ هو دردي الزيت ، والكاف رفع

خبر بعد خبر ﴿ يَغْلِى فِى البطون ﴾ بالياء : مكي وحفص (وقرىء بالتاء) فالتاء للشجرة والياء للطعام ﴿ كَغَلْىِ الحميم ﴾ أي الماء الحار الذي انتهى غليانه ومعناه غلياً كغلي الحميم فالكاف منصوب المحل .

ثم يقال للزبانية ﴿ خُذُوهُ ﴾ أي الأثيم ﴿ فاعتلوه ﴾ فقودوه بعنف وغلظة ، ﴿ فاعتلوه ﴾ مكي ونافع وشامي وسهل ويعقوب ﴿ إلى سَوَآءِ الجحيم ﴾ إلى وسطها ومعظمها ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ المصبوب هو الحميم لا عذابه إلا أنه إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدته وصب العذاب استعارة ويقال له ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ على سبيل الهزؤ والتهكم .

﴿ إِنَّكَ ﴾ أي لأنك : عليّ ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي العذاب أو هذا الأمر هو ﴿ مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكون .

(272/697)

﴿ إِنَّ المتقين فِى مَقَامٍ ﴾ بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذي وقع مستعملاً في معنى العموم ، وبالضم : مدني وشامي وهو موضع الإقامة ﴿ أَمِينٍ ﴾ من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن ، فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف

كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ بدل من ﴿ مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ﴾ ما رقّ من الديباج ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما غلظ منه وهو تعريب استبر ، واللفظ إذا عرب خرج من أن يكون أعجمياً لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه وتغييره عن منهاجه وإجرائه على أوجه الإعراب فساغ أن يقع في القرآن العربي ﴿ متقابلين ﴾ في مجالسهم وهو أتم للأنس ﴿ كذلك ﴾ الكاف مرفوعة أي الأمر كذلك ﴿ وزوجناهم ﴾ وقرناهم ولهذا عدي بالباء ﴿ بِحُورٍ ﴾ جمع حوراء وهي الشديدة سواد العين والشديدة بياضها ﴿ عِينٍ ﴾ جمع عيناء وهي الواسعة العين ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ يطلبون في الجنة ﴿ بِكلِّ فاكهة ءَامِنِينَ ﴾ من الزوال والانقطاع وتولد الضرر من الإكثار ﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ الموت ﴾ البتة ﴿ إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ أي سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا .

وقيل : لكن الموتة قد ذاقوها في الدنيا ﴿ ووقاهم عَذَابَ الجحيم فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي للفضل فهو مفعول له أو مصدر مؤكد لما قبله لأن قوله ﴿ ووقاهم عَذَابَ الجحيم ﴾ تفضل منه لهم لأن العبد لا يستحق على الله شيئاً ﴿ ذلك ﴾ أي صرف العذاب ودخول الجنة ﴿ هُوَ الفوز العظيم فَإِنَّمَا يسرناه ﴾ أي الكتاب وقد جرى ذكره في أول السورة ﴿ بلسانك لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون ﴿ فارتقب ﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ

﴿ منتظرون ما يحل بك من الدوائر . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير النسفى حـ 4 صـ 132.126 ﴾

(273/697)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَم والكتاب المبين ﴾

القرآن والواو للعطف إن كان ﴿ حم ﴾ مقسماً به وإلا فللقسم والجواب قوله :

﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ ليلة القدر ، أو البراءة ابتدىء فيها إنزاله ، أو أنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، ثم أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم نجوماً وبركتها لذلك ، فإن نزول القرآن سبب للمنافع الدينية والدنيوية ، أو لما فيها من نزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الأقضية . ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ استئناف يبين المقتضى للإنزال وكذلك قوله :

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ فَإِن كونها مفرق الأمور المحكمة أو الملتبسة بالحكمة يستدعي أن ينزل فيها القرآن الذي هو من عظائمها ، ويجوز أن يكون صفة ﴿ لَيْلَةٍ مباركة

﴿ وما بينهما اعتراض ، وهو يدل على أن الليلة ليلة القدر لأنه صفتها لقوله : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ وقرىء "يُفْرَقُ" بالتشديد و ﴿ يُفْرَقُ ﴾ كل أي يفرقه الله ، و"نفرق" بالنون .

﴿ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا ، وهو مزيد تفخيم للأمر ويجوز أن يكون حالاً من كل أوامر ، أو ضميره المستكن في ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لأنه موصوف ، وأن يكون المراد به مقابل النهي وقع مصدراً ل ﴿ يُفْرَقُ ﴾ أو لفعله مضمراً من حيث أن الفرق به ، أو حالاً من أحد ضميري ﴿ أنزلناه ﴾ بمعنى آمرين أو مأمورا . ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ .

(274/697)

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بدل من ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أي أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل الرحمة عليهم ، وضع الرب موضع الضمير للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك ، فإنه أعظم أنواع التربية أو علة ل ﴿ يُفْرَقُ ﴾ أو ﴿ أَمْراً ﴾ ، و ﴿ رَحْمَةً ﴾ مفعول به أي يفصل فيها كل أمر أو تصدر الأوامر ﴿ مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ لأن من شأننا أن نرسل رحمتنا ، فإن فصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها وصدور الأوامر

الإلهية من باب الرحمة ، وقرىء ﴿ رَحْمَةً ﴾ على تلك رحمة . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ يسمع أقوال العباد ويعلم أحوالهم ، وهو بما بعده تحقيق لربوبيته فإنها لا تحق إلا لمن هذه صفاته .

﴿ رَبِّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ خبر آخر أو استئناف . وقرأ الكوفيون بالجر بدلاً ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ . ﴿ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقان في العلوم ، أو كنتم موقنين في إقراركم إذا سئلتم من خلقها ؟ فقلتم الله ، علمتم أن الأمر كما قلنا ، أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك .

﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ إذ لا خالق سواه . ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ كما تشاهدون . ﴿ رَّبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الأولين ﴾ وقرئا بالجر بدلاً ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ .

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ رد لكونهم موقنين .

(275/697)

﴿ فارتقب ﴾ فانتظر لهم . ﴿ يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من ضعف بصره ، أو لأن الهواء يظلم عام القحط لقلة الأمطار وكثرة الغبار ، أو لأن العرب تسمي الشر الغالب دخاناً وقد قحطوا

حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها ، وإسناد الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفه عن الأمطار ، أو يوم ظهور الدخان المعدود في أشراط الساعة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال : أول الآيات الدخان ونزول عيسى عليه السلام ، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر . قيل وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال : " يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره " أو يوم القيامة والدخان يحتمل المعنيين .

﴿ يَغْشَى الناس ﴾ يحيط بهم صفة للدخان وقوله : ﴿ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ رَّبَّنَا اكشف عَنَّا العذاب إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ مقدر بقول وقع حالاً و ﴿ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ وعد بالإيمان إن كشف العذاب عنهم .

﴿ أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ من أين لهم وكيف يتذكرون بهذه الحالة . ﴿ وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ بين لهم ما هو أعظم منها في إيجاب الإدكار من الآيات والمعجزات .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي قال بعضهم يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف وقال آخرون إنه ﴿ مَّجْنُونٍ ﴾ .

﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ العذاب ﴾ بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لما دعا رفع القحط ﴿ قَلِيلاً ﴾ كشفا قليلاً أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم . ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلى الكفر غب الكشف ، ومن فسر الدخان بما هو من الأشراط قال إذا جاء الدخان غوث الكفار بالدعاء فيكشفه الله عنهم بعد الأربعين ، فريثما يكشفه عنهم يرتدون ، ومن فسره بما في القيامة أوله بالشرط والتقدير .

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى ﴾ يوم القيامة أو يوم بدر ظرف لفعل دل عليه . ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ لا لمنتقمون فإن إن تحجزه عنه ، أو بدل من ﴿ يَوْمَ تَأْتِى ﴾ . وقرىء ﴿ نَبْطِشُ ﴾ أي نجعل البطشة الكبرى باطشة بهم ، أو نحمل الملائكة على بطشهم وهو التناول بصولة .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم ، أو أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم . وقرىء بالتشديد للتأكيد أو لكثرة القوم . ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرف نسبه وفضل حسبه .

﴿ أَنْ أَدُّواْ إِلَىَّ عِبَادَ الله ﴾ بأن أدوهم إلى وأرسلوا معي ، أو بأن أدوا إلي حق الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله ، ويجوز أن تكون ﴿ أن ﴾ مخففة ومفسرة لأن مجيء

الرسول يكون برسالة ودعوة . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ غير متهم لدلالة المعجزات على صدقه ، أو لائتمان الله إياه على وحيه وهو علة الأمر .

﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى الله ﴾ ولا تتكبروا عليه بالاستهانة بوحيه ورسوله ، و ﴿ أن ﴾ كالأولى في وجهيها . ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ علة للنهي ولذكر ال ﴿ أَمِينٌ ﴾ مع الأداء ، والسلطان مع العلاء شأن لا يخفى .

﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ التجأت إليه وتوكلت عليه . ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ أن تؤذوني ضرباً أو شتماً أو أن تقتلوني . وقرىء "عت" بالإدغام فيه .

(277/697)

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فاعتزلون ﴾ فكونوا بمعزل مني لا علي ولا لي ، ولا تتعرضوا إليَّ بسوء فإنه ليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلا حكم .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ بعد ما كذبوه . ﴿ أَنْ هَؤُلآءِ ﴾ بأن هؤلاء ﴿ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سماه دعاء ، وقرىء بالكسر على إضمار القول .

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً ﴾ أي فقال أسر أو قال إن كان الأمر كذلك ﴿ فَأَسْرِ ﴾ ، وقرأ

نافع وأبو عمرو وابن كثير بوصل الهمزة من سرى ﴿ إِنَّكُم مّتَّبِعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم .

﴿ واترك البحر رَهْواً ﴾ مفتوحاً ذا فجوة واسعة أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ولا تضربه بعصاك ولا تغير منه شيئاً ليدخله القبط ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ وقرىء بالفتح بمعنى لأنهم .

﴿ كَمْ تَرَكُواْ ﴾ كثيراً تركوا . ﴿ مّن جنات وَعُيُونٍ ﴾ .

﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ محافل مزينة ومنازل حسنة .

﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ وتنعم . ﴿ كَانُواْ فِيهَا فاكهين ﴾ متنعمين ، وقرىء "فكهين" .

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجناهم أو الأمر كذلك . ﴿ وأورثناها ﴾ عطف على المقدر أو على ﴿ تَرَكُواْ ﴾ . ﴿ قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾ ليسوا منهم في شيء وهم بنو إسرائيل ، وقيل غيرهم لأنهم لم يعودوا إلى مصر .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض ﴾ مجاز من عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم كقولهم : بكت عليهم السماء والأرض وكسفت لمهلكهم الشمس في نقيض ذلك . ومنه ما روي في الأخبار : إن المؤمن ليبكي عليه مصلاه ومحل عبادته ومصعد عمله ومهبط رزقه . وقيل تقديره فما بكت عليهم أهل السماء والأرض ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ

﴿ ممهلين إلى وقت آخر .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إسراءيل مِنَ العذاب المهين ﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم .

(278/697)

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من ﴿ العذاب ﴾ على حذف المضاف ، أو جعله عذاب لإفراطه في التعذيب ، أو حال من المهين بمعنى واقعاً من جهته ، وقرىء ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ على الاستفهام تنكيراً له لنكر ما كان عليه من الشيطنة . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً ﴾ متكبراً . ﴿ مِّنَ المسرفين ﴾ في العتو والشرارة ، وهو خبر ثان أي كان متكبراً مسرفاً ، أو حال من الضمير في ﴿ عَالِياً ﴾ أي كان رفيع الطبقة من بينهم .

﴿ وَلَقَدِ اخترناهم ﴾ اخترنا بني إسرائيل . ﴿ على عِلْمٍ ﴾ عالمين بأنهم أحقاء بذلك ، أو مع علم منا بأنهم يزيغون في بَعض الأحوال . ﴿ عَلَى العالمين ﴾ لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالمي زمانهم .

﴿ وءاتيناهم مِنَ الآيات ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى . ﴿ مَا فِيهِ بَلَؤٌاْ مُّبِينٌ ﴾ نعمة جلية أو اختبار ظاهر .

﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ يعني كفار قريش لأن الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على

أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة ، والإنذار عن مثل ما حل بهم . ﴿ لَيَقُولُونَ ﴾ . ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى ﴾ ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ، ولا قصد فيه إلى إثبات ثانية كما في قولك : حج زيد الحجة الأولى ومات . وقيل لما قيل إنكم تموتون موتة يعقبها حياة كما تقدم منكم موتة كذلك قالوا إن هي إلا موتتنا الأولى ، أي ما الموتة التي من شأنها كذلك إلا الموتة الأولى . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ بمبعوثين . ﴿ فَأْتُواْ بِآبَائِنَا ﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين . ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في وعدكم ليدل عليه .

(279/697)

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ في القوة والمنعة . ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ تبع الحميري الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند . وقيل هدمها وكان مؤمناً وقومه كافرين ولذلك ذمهم دونه . وعنه عليه الصلاة والسلام : " ما أدري أكان تبع نبياً أم غير نبي " وقيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون كما قيل لهم الأقيال لأنهم يتقيلون . ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كعاد وثمود . ﴿ أهلكناهم ﴾ استئناف بمآل قوم تبع ، ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هدد به كفار قريش أو حال بإضمار قد أو خبر من الموصول إن استؤنف به . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ بيان للجامع

المقتضي للإهلاك .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وَمَا بين الجنسين وقرىء "وما بينهن" . ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ لاهين ، وهو دليل على صحة الحشر كما مر في الأنبياء وغيرها .

﴿ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ إلا بسبب الحق الذي اقتضاه الدليل من الإيمان والطاعة ، أو البعث والجزاء . ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لقلة نظرهم .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ﴾ فصل الحق عن الباطل ، أو المحق عن المبطل بالجزاء ، أو فصل الرجل عن أقاربه وأحبائه .

﴿ ميقاتهم ﴾ وقت موعدهم . ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ وقرىء ﴿ ميقاتهم ﴾ بالنصب على أنه الاسم أي إن ميعاد جزائهم في ﴿ يَوْمُ الفصل ﴾ .

﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى ﴾ بدل من ﴿ يَوْمُ الفصل ﴾ أو صفة ل ﴿ ميقاتهم ﴾ ، أو ظرف لما دل عليه الفصل لا له الفصل . ﴿ مَوْلًى ﴾ من قرابة أو غيرها . ﴿ عَن مَّوْلًى ﴾ أي مولى كان . ﴿ شَيْئاً ﴾ من الاغناء . ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ الضمير ل ﴿ مَوْلًى ﴾ الأول باعتبار المعنى لأنه عام .

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه ، ومحله الرفع على البدل من الواو والنصب على الاستثناء ﴿ إِنَّهُ هُوَ العزيز ﴾ لا ينصر منه من أراد تعذيبه . ﴿ الرحيم ﴾ لمن أراد أن يرحمه .

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم ﴾ وقرىء بكسر الشين ومعنى ﴿ الزقوم ﴾ سبق في "الصافات" .

﴿ طَعَامُ الأثيم ﴾ الكثير الآثام ، والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه .

﴿ كالمهل ﴾ وهو ما يمهل في النار حتى يذوب . وقيل دردي الزيت . ﴿ يَغْلِي فِى البطون ﴾ وقرأ ابن كثير وحفص ورويس بالياء على أن الضمير لل ﴿ طَعَامُ ﴾ ، أو ﴿ الزقوم ﴾ لا "للمهل" إذ الأظهر أن الجملة حال من أحدهما .

﴿ كَغَلْيِ الحميم ﴾ غلياناً مثل غليه .

﴿ خُذُوهُ ﴾ على إرادة القول والمقول له الزبانية . ﴿ فاعتلوه ﴾ فجروه والعتل الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر ، وقرأ الحجازيان وابن عامر ويعقوب بالضم وهما لغتان . ﴿ إلى سَوَاءِ الجحيم ﴾ وسطه .

﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ﴾ كان أصله يصب من فوق رؤوسهم الحميم فقيل يصب من ﴿ فَوْقَ ﴾ رؤوسهم ﴿ عَذَابِ ﴾ هو ﴿ الحميم ﴾ للمبالغة ، ثم أضيف ال ﴿ عَذَابِ ﴾ إلى ﴿ الحميم ﴾ للتخفيف وزيد من الدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ أي وقولوا له ذلك استهزاء به وتفريعاً على ما كان يزعمه ، وقرأ الكسائي "أنك" بالفتح أي ذق لأنك أو ﴿ عَذَابِ ﴾ ﴿ إِنَّكَ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إن هذا ال ﴿ عَذَابِ ﴾ . ﴿ مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكون وتمارون فيه .

﴿ إِنَّ المتقين فِى مَقَامٍ ﴾ في موضع إقامة ، وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم ﴿ أَمِين ﴾ يأمن صاحبه عن الآفة والانتقال .

﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ بدل من مقام جيء به للدلالة على نزاهته ، واشتماله على ما يستلذ به من المآكل والمشارب .

(281/697)

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير في الجار أو استئناف ، والسندس ما رَقَّ من الحرير والاستبرق ما غلظ منه معرب استبره ، أو مشتق من البراقة .

﴿ متقابلين ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض . ﴿ كذلك ﴾ الأمر كذلك أو آتيناهم مثل ذلك . ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ قرناهم بهن ولذلك عدي بالباء ، والحوراء البيضاء والعيناء عظيمة العينين ، واختلف في أنهن نساء الدنيا أو غيرها .

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكلّ فاكهة ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه لا يتخصص شيء منها بمكان ولا بزمان . ﴿ ءامِنِينَ ﴾ من الضرر .

﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ بل يحيون فيها دائماً ، والاستثناء منقطع أو متصل والضمير للآخرة و ﴿ الموت ﴾ أول أحوالها ، أو الجنة والمؤمن يشارفها بالموت ويشاهدها عنده فكأنه فيها ، أو الإِستثناء للمبالغة في تعميم النفي وامتناع ﴿ الموت ﴾ فكأنه قال : ﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا الموت ﴾ إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى في المستقبل . ﴿ ووقاهم عَذَابَ الجحيم ﴾ وقرىء "ووقاهم" على المبالغة .

﴿ فَضْلاً مّن رَّبّكَ ﴾ أي أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلاً منه . وقرىء بالرفع أي ذلك فضل . ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ لأنه خلاص عن المكاره وفوز بالمطالب .

﴿ فَإِنَّمَا يسرناه بِلِسَانِكَ ﴾ سهلناه حيث أنزلناه بلغتك وهو فذلكة السورة . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لعلهم يفهمونه فيتذكرون به ما لم يتذكروا .

﴿ فارتقب ﴾ فانتظر ما يحل بهم . ﴿ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ منتظرون ما يحل بك . عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ حم الدخان ليلة جمعة أصبح مغفوراً له " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 157 . 166 ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) ﴾

(283/697)

التفسير : أقسم بالقرآن ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ لأن من شأننا الإنذار والتخويف من العقاب وإنما أنزل في هذه الليلة خصوصاً لأن إنزال القرآن أشرف الأمور الحكمية ، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر ذي حكمة فالجملتان - أعني قوله ﴿ إنا كنا منذرين فيها يفرق على أمر حكيم ﴾ كالتفسير لجواب القسم قال صاحب النظم : ليس من عادتهم أن يقسموا بنفس الشيء إذا أخبروا عنه فجواب القسم ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ وقوله ﴿ إنا أنزلناه ﴾ اعتراض . والجمهور على الأول ولا بأس لأن المعنى إنا أنزلنا القرآن على محمد ولم يتقوله ، ويحتمل أن القسم وقع على إنزاله في ليلة مباركة . وأكثر المفسرين على أنها ليلة القدر لقوله ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ [القدر : 1] وليلة القدر عند الأكثرين من رمضان . ونقل محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة أنه قال : نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، والتوراة لست ليال منه ، والزبور لاثنتي عشرة مضت ، والإنجيل لثمان عشرة منه

، والفرقان لأربع وعشرين مضت ، والليلة المباركة هي ليلة القدر . وزعم بعضهم كعكرمة وغيره أنها ليلة النصف من شعبان . وما رأيت لهم دليلاً يعوّل عليه . قالوا : وتسمى ليلة البراءة أيضاً وليلة الصك لأن الله تعالى يكتب لعباده المؤمنين البراءة من النار في هذه الليلة . وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله تعالى إليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشراً يدفعون عنه مكايد الشيطان . " وقال " إن الله يرحم أمتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب " وقال : " إن الله يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو ساخر أو مدمن خمر أو عاق للوالدين أو مصر على الزنا " ومما أعطى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم تمام الشفاعة وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته

(284/697)

فأعطى الثلث منها ، ثم سأل ليلة الرابع عشر منها فأعطى الثلثين ، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع إلا من شرد على الله شراد البعير . ومن عادة الله عز وجل في هذه الليلة أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة . وبعضهم أراد أن يجمع بين القولين فقال : ابتدىء

بانتساخ القرآن من اللوح المحفوظ ليلة البراءة ووقع الفراغ في ليلة القدر . والمباركة الكثيرة الخير ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن لكفى به بركة . ومعنى ﴿ يفرق ﴾ يفصل ويكتب ﴿ كل أمر ﴾ هو ضد النهي أو كل أمر له شأن من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم إلى العام القابل ، فيدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب والزلازل والصواعق والخسوف إلى جبرائيل ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت .

(285/697)

وقيل : يعطي كل عامل بركات أعماله فيلقى على ألسنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته . وفي انتصاب ﴿ أمراً ﴾ وجوه : إما أن يكون حالاً من ﴿ أمر حكيم ﴾ لأنه قريب من المعرفة أو من الهاء في ﴿ أنزلناه ﴾ أو من الفاعل أي آمرين ، أو على المصدر لأمر ، أو على الاختصاص لأن كونه من عند الله يوجبه مزيد شرف وفخامة ، أو يكون مصدراً من غير لفظ الفعل وهو ﴿ يفرق ﴾ لأنه إذا حكم بالشيء وفصله وكتبه فقد أوجبه وأمر به قوله ﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من قوله تعالى ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي أنزلنا القرآن لأن من شأننا إرسال الرسل وإنزال الكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة ، ويحتمل

كونه تعليلاً ليفرق ، أو لقوله ﴿ أمراً من عندنا ﴾ وقوله ﴿ من ربك ﴾ وضع للظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة . ثم حقق ربوبيته بقوله ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ إلى قوله الأولين . ومعنى الشرط في قوله ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ نظير ما هو في أول الشعراء وذلك أنهم كانوا مقرين بأنه رب السموات والأرض . قيل لهم : إن كنتم على بصيرة وإيقان من ذلك فلا تشكوا فيه ، أو إن كنتم موقنين بشيء فأيقنوا بما أخبرتكم ، أو إن كنتم تريدون اليقين فاعلموا ذلك . وقيل : إن نافية ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله ﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ في الدنيا أو يستهزؤون بنا فلا جرم أوعدهم بقوله ﴿ فارتقب ﴾ و ﴿ يوم ﴾ مفعول به أي انتظره . والأكثرون على أن هذا الدخان من أمارات القيامة فإن الدنيا ستصير كبيت لاخصاص له مملوء دخاناً يدخل في أنوف الكفار وآذانهم فيكونون كالسكارى ، ويصيب المؤمن فيه كالزكام فيبقى ذلك أربعين . وعن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أيين تسوق الناس إلى المحشر " أيين بكسر الهمزة وفتحها اسم رجل بنى هذه البلدة ونزل بها . وقيل : الدخان يكون في القيامة إذا خرجوا من قبورهم يحيط بالخلائق ويغشاهم . وقيل :

الدخان الشر والفتنة . وعن ابن مسعود : خمس قد مضت الروم والدخان والقمر والبطشة واللزام . وذلك أن قريشاً لما استصعبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فقال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني ويوسف . فأصابهم اللزام وهو القحط حتى أكلوا الجيف ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان فيسمع كلام صاحبه ولا يراه من الدخان . فمشى إليه صلى الله عليه وسلم أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم ، وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا . فلما كشف عنهم من الدخان رجعوا إلى شركهم وذلك قوله ﴿ هذا عذاب ﴾ أي قائلين هذا إلى آخره .

(287/697)

ثم استبعد منهم الاتعاظ بقوله ﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم ﴾ ما هو أعظم من كشف الدخان وهو القرآن المعجز وغيره فلم يتذكروا ﴿ وتولوا عنه ﴾ واتهموه صلى الله عليه وسلم بأنه إنما يعلمهن بشر ونسبوه إلى الجنون . ومعنى " ثم " تبعيد الحالتين . ثم بين أنهم يعودون إلى الكفر عقيب كشف العذاب عنهم زماناً قليلاً . واعلم أن ارتدادهم إلى الكفر

أمر ممكن سواء يجعل الدخان من أمارات القيامة أو يقال إنه قد مضى . والبطشة الكبرى القيامة أو يوم بدر على التفسيرين . و ﴿ يوم ﴾ ظرف لما دل عليه منتقمون فإن ما بعد " أن " لا يعمل فيما قبله . وقيل : بدل من ﴿ يوم تأتي السماء ﴾ ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم بقصة موسى . ومعنى ﴿ فتنا ﴾ امتحنا وقد وصفه بالكرم لأنه كان حبيباً في قومه أو بكرم خلقه ، أو المراد أنه لم يخاشنهم في التبليغ كما قال ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ [طه : 44] " وأن " مفسرة لأن مجيء الرسول يتضمن القول ، أو مخففة من الثقيلة ، أو مصدرية والياء محذوف . و ﴿ عباد الله ﴾ مفعول به لقوله ﴿ أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ [طه : 47] أو منادى والمعنى أدوا إليَّ يا عباد الله ما هو واجب عليكم من الإيمان والطاعة . والقصة مذكورة في " الشعراء " وغيرها و ﴿ وأن ترجمون ﴾ أن تقتلون أو تشتمون بالنسبة إلى الكذب والسحر ﴿ وإن لم تؤمنوا لي ﴾ أي لم تصدقوني فقارقوني وكونوا بمعزل عني لا عليّ ولا لي ﴿ فدعا ربه ﴾ شاكياً ﴿ أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ مصرون على الكفر ﴿ فأسر ﴾ أي فأجبنا دعاءه وقلنا له أسر وكان من دعائه اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم . ويحتمل أن يكون الدعاء وهو ما في " يونس " ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ [الآية : 88] وفي ﴿ رهواً ﴾ وجهان : أحدهما ساكناً أي لا تضربه . ثانياً واتركه على هيئته من انتصاب الماء وكون الطريق يبساً . وذلك أن موسى

أراد أن يضربه ثانياً حتى ينطبق ويزول الانفلاق خوفاً من أن يدركهم قوم فرعون ، والله تعالى أراد

(288/697)

أن يدخل القبط البحر ثم يطبقه عليهم ، وثانيهما أن الرهو الفجوة الواسعة أي اتركه مفتوحاً منفرجاً على حاله . والنعمة بفتح النون التنعم والباقي مذكور في " الشعراء " . وقوله ﴿ فما بكت ﴾ كان إذا مات الرجل الخطير قالوا في تعظيم مصيبته بكت عليه السماء والأرض وأظلمت الدنيا ، ومنه الحديث " وما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء " وفيه تمثيل وتخييل وتهكم بهم أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم ويعتقدون أنهم لو ماتوا لقال الناس فيهم ذلك ، فأخبر ما كانوا في هذا الحد بل كانوا أنهم دون ذلك .

(289/697)

وجوز كثير من المفسرين أن يكون البكاء حقيقة وجعلوا الخسوف والكسوف والحمرة التي تحدث في السماء وهبوب الرياح العاصفة من ذلك . قال الواحدى في البسيط : روي أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من عبد إلا له في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية " ثم إن هؤلاء الكفار لم يكن لهم عمل صالح يصعد إلى السماء فلا جرم لم تبك عليهم . وعن الحسن : أراد أهل السماء والأرض أي ما بكت عليهم الملائكة والمؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين ﴿ وما كانوا إذا منظرين ﴾ أي لما جاء وقت هلاكهم لم يمهلوا إلى الآخرة بل عجل لهم في الدنيا . قوله ﴿ من فرعون ﴾ بدل من العذاب بل جعل في نفسه عذاباً مهيناً لشدة شكيمته وفرط عتوه . وقيل : المضاف محذوف أي من عذابه . وقيل : تقديره المهين الصادر من فرعون ، وفي قراءة ابن عباس ﴿ من فرعون ﴾ على الاستفهام أي ما ظنكم بعذاب من تعرفونه أنه عال قاهر عات مجاوز حد الاعتدال . ثم ثنى على بني إسرائيل بقوله ﴿ ولقد اخترناهم ﴾ بإيتاء الملك والنبوة ﴿ على علم ﴾ منا باستحقاقهم ذلك وقيامهم بالشكر عليه على عالمي زمانهم . ولا ريب أن هذا قبل التحريف . وقيل : أي على علم منا بأنه يبدو منهم بوادر وتفريطات والبلاء النعمة أو المحنة ، والآيات هي التسع وغيرها .

ثم عاد إلى ما انجر الكلام فيه وهو قوله ﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ فقال ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني كفار قريش ﴿ ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ قال المفسرون : يؤل إلى ما حكى عنهم في موضع آخر ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [المؤمنون : 37] وذلك أن النزاع إنما وقع في موتة تعقبها حياة فأنكروا أن تكون موتة بهذا الوصف إلا الموتة الأولى وهو حال كونهم نطفاً . ويحتمل أن يراد إن هي أي الصفة أو النهاية أو الحالة أو العاقبة إلا الموتة الأولى ، وليست إثباتاً لموتة ثانية إنما هو كقولك : حج فلان الحجة الأولى ، ومات ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ أنشر الله الموتى أحياهم ﴿ فأتوا ﴾ أيها النبي والذين آمنوا معه ﴿ بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ يروى أنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله لهم إحياء الموتى فينشر كبيرهم قصي بن كلاب ليشاوروه في صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة البعث ، فلم يجبهم الله تعالى إلى ذلك ولكنه أوعدهم بقوله ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ أي ليسوا بخير منهم في العدد والعز والمنعة . ابن عباس : تبع نبي . أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " لا أدري تبع نبياً كان أم غير نبي "

(291/697)

رواه الثعلبي عن عائشة كان رجلاً صالحاً ذم الله قومه ولم يذمه . وإنما خصهم بالذكر لقربهم من العرب زماناً ومكاناً . وعن سعيد بن جبير كسا البيت . وقال قتادة : كان من حمير سار فبنى الحيرة وسمرقند . وقال أبو عبيدة : هم ملوك اليمن يسمى كل واحد منهم تبعاً لكثرة تبعه ، أو لأنه يتبع صاحبه وهو بمنزلة الخليفة للمسلمين ، وكسرى للفرس ، وقيصر للروم ، وجمعه تبابعة ، وكان يكتب إذا كتب بسم الذي ملك براً وبحراً . ثم برهن على صحة البعث بقوله ﴿ وما خلقنا ﴾ إلى آخره ، وقد مر في " الأنبياء " وفي " ص " نظيره . وإنما جمع السموات ههنا لموافقة قوله في أول السورة ﴿ رب السموات ﴾ وسمى يوم القيامة يوم الفصل لأنه يفصل بين عباده في الحكم والقضاء ، أو يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ، أو يفصل بين المؤمنين وبين ما يكرهون وللكافرين بينهم وبين وما يشتهونه فيفصل بين الوالد وولده والرجل وزوجته والمرء وخليله . والمولى في الآية يحتمل الولي والناصر والمعين وابن العم ، والمراد أن أحداً منهم بأي معنى فرض لا يتوقع منه النصرة . والضمير في ﴿ لا ينصرون ﴾ للمولى الثاني لأنه جمع في المعنى لعمومه وشياعه . وقوله ﴿ إلا من رحم الله ﴾ في محل الرفع على البدل أو في محل النصب على الاستثناء ﴿ إنه هو العزيز ﴾ الغالب على من عصى ﴿ الرحيم ﴾ لمن أطاع . ثم أراد أن يختم السورة بوعيد الفجار ووعد الأبرار فقال ﴿ إن شجرت الزقوم ﴾ وقد مر تفسيرها في الصافات . و ﴿ الأثيم ﴾ مبالغة الآثم ولهذا يمكن أن يقال : إنه مخصوص بالكافر . والمهل دردي الزيت وقد مر في "

الكهف " . ولعل وجه التشبيه هو بشاعة الطعم كما أن الوجه في قوله ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ [الصافات : 65] هو كراهة المنظر ثم وصفه بشدة الحرارة قائلاً ﴿ يغلي ﴾ إلى آخره . ثم أخبر أنه سبحانه يقول للزبانية ﴿ خذوه ﴾ أي خذوا الأثيم ﴿ فاعتلوه ﴾ جروه بعنف وغلظة كأن يؤخذ بتلبيبه فيجر إلى وسط النار . ومنه العتل

(292/697)

للجافي الغليظ . وقوله ﴿ من عذاب الحميم ﴾ دون أن يقول " من الحميم " تهويل سلوك لطريق الاستعارة لأنه إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدته . يروي أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين جبليها أعز ولا أمنع مني فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي " شيئاً " فنزلت الآية . أي يقال له ذق لأنك أنت العزيز الكريم عند نفسك وفيه من التهكم ما فيه ﴿ إن هذا ﴾ العذاب ﴿ ما كنتم به تمترون ﴾ تشكون . ثم شرع في وعد الأبرار والمقام الأمين ذو الأمن ، أو أصله من الأمانة لأن المكان المخيف كأنما يخوف صاحبه بما يلقى فيه من المكاره .

وقوله ﴿ وزوجناهم ﴾ اختلفوا في أن هذا اللفظ هل يدل على حصول عقد التزوج أم لا . والأكثرون على نفيه ، وأن المراد قرناهم بهن . وقيل : زوجته امرأة وزوجته بامرأة

لغتان . وهكذا اختلفوا في الحور . فعن الحسن : هن عجائزكم ينشئهن الله خلقاً آخر .

وقال أبو هريرة : لسن من نساء الدنيا . ﴿ يدعون ﴾ أي يحكمون ويأمرون في الجنة بإحضار ما يشتهون من الفواكه في أي وقت ومكان ﴿ آمنين ﴾ من التخم والتبعات ، ثم أخبر عن خلودهم بقوله ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ قال جار الله : هو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها . وقيل : الاستثناء منقطع أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها . وقال أهل التحقيق : إن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله وبمحبته . فالإنسان الكامل هو في الدنيا في الجنة . وفي الآخرة أيضاً في الجنة فقد صح أنه لم يذق في الجنة إلا الموتة الأولى . ثم ختم الكلام بفذلكته والمعنى ذكرناهم بالكتاب المبين فأسهلناه حيث أنزلناه بلغتك إرادة تذكرهم فانتظر ما يحل فإنهم يتربصون بك الدوائر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 102 . 107 ﴾

(293/697)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الدخان

مكية وقيل : إلا قوله تعالى : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً ﴾ الآية وهي ست أو سبع أو تسع وخمسون آية وثلاثمئة وست وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وواحد وثلاثون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الملك الجبار الواحد القهار .

﴿ الرحمن ﴾ الذي عم بنعمته سائر مخلوقاته ﴿ الرحيم ﴾ بأهل وداده وقوله تعالى:

﴿ حم ﴾ قرأه ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بإمالة الحاء محضة ، وقرأه ورش وأبو عمرو بالإمالة بين بين والباقون بالفتح وتقدمت الإشارة إلى شيء من أسرار أخواتها وقوله تعالى:

﴿ والكتاب المبين ﴾ فيه احتمالان ؛ الأول : أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين كقولك : هذا زيد والله ، الثاني : أن يكون التقدير حم والكتاب المبين .

﴿ إنا أنزلناه ﴾ فيكون في ذلك تقدير قسمين على شيء واحد ويجوز أن يكون ﴿ إنا أنزلناه ﴾ جواب القسم وأن يكون اعتراضاً والجواب قوله تعالى : ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ واختاره ابن عطية ، وقيل : ﴿ إنا كنا ﴾ مستأنف و ﴿ فيها يفرق ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون صفة ليلة وما بينهما اعتراض .

تنبيه : يجوز أن يكون المراد بالكتاب هنا الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم السلام كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ (الحديد :)

ويجوز أن يكون المراد به اللوح المحفوظ قال الله تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده

أم الكتاب ﴾ (الرعد :)

وقال تعالى : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ (الزخرف :)

(294/697)

ويجوز أن يكون المراد به القرآن واقتصر على ذلك البيضاوي وتبعه الجلال المحلي ، وعلى هذا فقد أقسم بالقرآن أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة ، وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم الرجل له إليه حاجة : أتشفع بك إليك وأقسم بحقك عليك وجاء في الحديث : "أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك ، وبك منك لا أحصي ثناء عليك" . والمبين : هو المشتمل على بيان ما بالناس من حاجة إليه في دينهم ودنياهم فوصفه بكونه مبيناً وإن كانت حقيقة الإبانة لله تعالى لأن الإبانة حصلت به كقوله تعالى : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ (الروم :) فوصفه بالتكلم إذ كان غاية في الإبانة فكأنه ذو لسان ينطق مبالغة في وصفه .

واختلف في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ في ليلة مباركة ﴾ فقال قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين : هي ليلة القدر : وقال عكرمة وطائفة : إنها ليلة البراءة وهي ليلة النصف من شعبان ، واحتج الأولون بوجوه ؛ الأول : قوله تعالى ﴿ إنا أنزلنا في ليلة القدر ﴾ (القدر :)

فقوله تعالى ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ يجب أن تكون هي تلك الليلة المسماة بليلة القدر لئلا يلزم التناقض ، ثانيها : قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ (البقرة :) فقوله تعالى ههنا ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ يجب أن تكون هذه الليلة المباركة في رمضان فثبت أنها ليلة القدر ، ثالثها : قوله تعالى في صفة ليلة القدر : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ (القدر :)

وقال تعالى ههنا .

﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ وقال ههنا ﴿ رحمة من ربك ﴾ وقال تعالى في ليلة القدر ﴿ سلام هي ﴾ (القدر :)

(295/697)

وإذا تقاربت الأوصاف وجب القول بأن إحدى الليلتين هي الأخرى ، رابعها : نقل محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة أنه قال : نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، والتوراة لست ليال منه ، والزبور لثنتي عشرة ليلة مضت منه ، والقرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان ، والليلة المباركة هي : ليلة القدر ، خامسها : أن ليلة القدر إنما سميت بهذا الاسم لأن قدرها وشرفها عند الله عظيم ، ومعلوم أن قدرها وشرفها ليس بسبب

نفس الزمان لأن الزمان شيء واحد في الذات والصفات فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة لها قدر عظيم ، ومن المعلوم أن منصب الدين أعظم من مناصب الدنيا ، وأعظم الأشياء وأشرفها شعباً في الدين هو القرآن لأنه ثبت به نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل كما قال تعالى في صفته : ﴿ ومهيمناً عليه ﴾ (المائدة :)

وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا لا شيء إلا والقرآن أعظم قدراً وأعلى ذكراً وأعظم منصباً ، وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر هي التي وقعت في رمضان علمنا أن القرآن إنما أنزل في تلك الليلة وهذه أدلة ظاهرة واضحة ، واحتج الآخرون على أنها ليلة النصف من شعبان بوجوه ؛ أولها : أن لها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة ، وقيل : بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة .

(296/697)

وقيل في تسميتها : ليلة البراءة والصك أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة وكذلك الله تعالى يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة ، ثانيها : أنها مختصة بخمس خصال الأولى : قال تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ والثانية : فضيلة العبادة

فيها ، روى الزمخشري أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله تعالى إليه مائة ملك : ثلاثون يبشرونه بالجنة ، وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار ، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا ، وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان" . ثالثها : نزول الرحمة قال صلى الله عليه وسلم "إن الله يرحم أمتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب" . رابعها : حصول المغفرة فيها قال صلى الله عليه وسلم "إن الله يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا الكاهن والساحر ومدمن الخمر وعاق والديه والمصر على الزنا" .

خامسها : أنه تعالى أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة تمام الشفاعة في أمته ، قال الزمخشري : وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطي الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطي الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطي الجميع إلا من شرد عن الله شرود البعير .

وروي أن عطية الحروري سأل ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (القدر :)

كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الشهور فقال ابن عباس : يا ابن الأسود لو هلكت أنا ووقع في نفسك هذا ولم تحرجوا به لهلكت ، نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور في السماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالاً فحالاً ، وقال قتادة وابن زيد : أنزل الله تعالى القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا ثم نزل به جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم نجوماً في عشرين سنة وقوله تعالى ﴿ إنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ كنا ﴾ أي : دائماً لعبادنا ﴿ منذرين ﴾ أي : مخوفين استئناف بين به المقتضى للإنزال وكذلك قوله تعالى:

﴿ فيها ﴾ أي : الليلة المباركة سواء قلنا إنها ليلة القدر أو ليلة النصف ﴿ يفرق ﴾ أي : ينشر ويبين ويفصل ويوضح مرة بعد مرة ﴿ كل أمر حكيم ﴾ أي : محكم الأمر لا يستطاع أن يطعن فيه بوجه من جميع ما يوحي به من الكتب وغيرها والأرزاق والآجال والنصر والهزيمة والخصب والقحط وغيرها من جميع أقسام الحوادث وجزئياتها في أوقاتها وأماكنها ، ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء فيزدادون بذلك إيماناً ، قال ابن عباس : يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج يقال : يحج فلان ويحج فلان ، وقال الحسن ومجاهد وقتادة : يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل عمل وأجل وخلق ورزق وما يكون في تلك السنة ، وقال عكرمة : ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة

وتنسخ الأحياء من الأموات فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد قال صلى الله عليه وسلم "تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح النساء ويولد له وقد خرج اسمه في ديوان الموتى" .

(298/697)

وعن ابن عباس : أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدور ، وروي : أن الله تعالى أنزل القرآن من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ووقع الفراغ في ليلة القدر فدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ونسخة الحروب إلى جبريل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الأعمال ، قال ابن عادل : إلى إسرافيل وقال الزمخشري : إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت ، قال الزمخشري : وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على ألسنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته وقوله تعالى:

﴿ أمراً ﴾ أي : فرقاً حال من فاعل أنزلناه ومن مفعوله أي : أنزلناه آمرين أو مأموراً به كائناً ﴿ من عندنا ﴾ على مقتضى حكمتنا وقوله تعالى : ﴿ إنا كنا ﴾ أي : أزلاً وأبداً ﴿ مرسلين ﴾ جواب ثالث أو مستأنف أو بدل من قوله تعالى : ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي :

لنا صفة الإرسال بالقدرة عليها في كل حين والإرسال لمصالح العباد لا بد فيه من الفرقان بالبشارة والنذارة وغيرهما حتى لا يكون لبس فلا يكون لأحد على الله تعالى حجة ، قال البقاعي : وهذا الكلام المنتظم والقول الملتئم بعضه ببعض المتراصف أجمل رصف في وصف ليلة الإنزال دال على أنه لم ينزل صحيفة ولا كتاباً إلا في هذه الليلة ، فيدل على أنها ليلة القدر للأحاديث الواردة في أن الكتب كلها نزلت فيها ، وكذلك قوله تعالى في سورة القدر : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ (القدر :)

فإن الوحي الذي هو مجمع ذلك هو روح الأمر الحكيم ثم بين تعالى حال الرسالات بقوله تعالى:

(299/697)

﴿ رحمة ﴾ وعدل لأجل ما اقتضاه التعبير بالرحمة عما كان من أسلوب التكلم بالعظمة من قوله : ﴿ منا ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ من ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإرسالك وإرسال كل نبي مضى من قبلك فإن رسالاتهم كانت لب الأنوار في العبادات وتمهيد الشرائع في البلاد حتى استنارت القلوب واطمأنت النفوس بما صارت تعهد من شرع الشرائع وتوطئة الأديان فتسهلت طرق الرب لتعميم رسالتك حتى ملأت أنوارك الآفاق فكنت نتيجة كل من

تقدمك من الرفاق وقال ابن عباس : معنى رحمة من ربك أي : رأفة مني بخلقي ونعمة عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل ، وقال الزجاج : أنزلناه في ليلة مباركة للرحمة ﴿ إنه هو ﴾ أي : وحده ﴿ السميع العليم ﴾ أي : أن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة لأن المحتاجين إما أن يذكروا حاجاتهم بألسنتهم أو لم يذكروها فإن ذكروها فإنه سميع وإن لم يذكروها فهو تعالى عالم بها .

﴿ رب ﴾ أي : مالك ومنشئ ومدبر ﴿ السموات ﴾ أي : جميع الأجرام العالية ﴿ والأرض وما بينهما ﴾ مما تشاهدون من هذا الفضاء وما فيه من الهواء وغيره مما تعلمون من أكساب العباد وغيرها مما لا تعلمون ، ومن المعلوم أنه ذو العرش والكرسي فعلم بهذا أنه مالك الملك كله ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بخفض الباء الموحدة على البدل أو البيان أو النعت ، والباقون برفعها على إضمار مبتدأ أو على أنه مبتدأ خبره لا إله إلا هو ، والمقصود من هذه الآية أن المنزِل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزَّل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة ، فإن قيل : ما معنى الشرط الذي هو قوله تعالى ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ ؟

أجيب : بأنهم كانوا يقرون بأن للسموات والأرض رباً وخالقاً فقيل لهم : إن كنتم يا أهل مكة موقنين بأنه تعالى رب السموات والأرض فأيقنوا بأن محمداً عبده ورسوله .

ولما ثبت بهذا النظر الصافي ربوبيته وبعدم اختلال التدبير على طول الزمان وحدانيته أنتج ذلك قوله تعالى:

(300/697)

﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي : وإلا لنازعه في أمرهما منازع ، أو أمكن أن ينازع فيكون محتاجاً لا محالة وإلا لدفع عنه من يمكن نزاعه وخلافه إياه فلا يكون صالحاً للتدبير والقهر لكل من يخالف رسله والإنجاء لكل من يوافقهم على ممر الزمان وتطاول الدهر ومر الحدثان على نظام مستمر وحال ثابت مستقر .

ولما ثبت أنه لا مدبر للوجود غيره ثبت قوله تعالى : ﴿ يحيي ويميت ﴾ لأن ذلك من أجل ما فيهما من التدبير وهو تنبيه على تمام دلائل التوحيد لأنه لا شيء ممن فيهما يبقى ليسند التدبير إليه ويحال شيء من الأمر عليه فهما جملتان الأولى : نافية لما أثبتوه من الشركة ، والثانية ، مثبتة لما نفوه من البعث ﴿ ربكم ﴾ أي : الذي أفاض عليكم ما تشاهدونه من النعم في الأرواح وغيرها ﴿ ورب آبائكم الأولين ﴾ أي : الذي أفاض عليهم ما أفاض عليكم ثم سلبهم ذلك كما تعلمون فلم يقدر أحد منهم على ممانعة ، ولا طمع في منازعة بنوع مدافعة .

﴿ بل هم ﴾ أي : بضمائرهم ﴿ في شك ﴾ أي : من البعث ﴿ يلعبون ﴾ أي : يفعلون دائماً فعل التارك لما هو فيه من أخذ الجد الذي لا مرية فيه إلى اللعب الذي لا فائدة فيه ولا ثمرة له بوجه استهزاء بك يا أشرف الرسل فقال صلى الله عليه وسلم "اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف" قال تعالى:

﴿ فارتقب ﴾ أي : انتظر بكل جهد عالياً عليهم ناظراً لأحوالهم نظر من هو حارس لها ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ أي : ظاهر .

(301/697)

﴿ يغشى الناس ﴾ أي : المهددين بهذا فقالوا عند إتيانه ﴿ هذا عذاب اليم ﴾ أي : يخلص وجعه إلى القلب فيبلغ في ألمه كما كنتم تؤلمون من يدعوكم إلى الله تعالى ، واختلف في هذا الدخان فروى أبو الصفاء عن مسروق قال : بينما رجل يحدث في كندة قال : يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام ففزعنا ، فأتينا ابن مسعود وكان متكئاً فغضب فجلس فقال : من علم فليقل به ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم : لا أعلم ، فإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ فإن قريشاً أبطأوا عن

الإسلام فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان ، فجاءه أبو سفيان فقال : يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله تعالى لهم فقرأ ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ عائدون ﴾ وهذا قول ابن عباس ومقاتل ومجاهد واختيار الفراء والزجاج وهو قول ابن مسعود وكان ينكر أن يكون الدخان إلا هذا الذي أصابهم من شدة الجوع كالظلمة في أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخاناً .

وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان في هذه الحالة وجهين الأول : أن في سنة القحط يعظم يبس الأرض فبسبب انقطاع المطر يرتفع الغبار الكثير ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ويقولون : كان بيننا أمر ارتفع له دخان ، ولهذا يقال للسنة المجدبة الغبراء ، الثاني : أن العرب يسمون الشيء الغالب بالدخان والسبب فيه : أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه ويرى الدنيا كالمملوءة من الدخان .

(302/697)

ونقل عن علي بن أبي طالب : أنه دخان يظهر في العالم وهو إحدى علامات القيامة ، ويروى أيضاً عن ابن عباس في المشهور عنه لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا قال حذيفة : يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال : يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كالزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه النار" . وقال صلى الله عليه وسلم "باكروا بالأعمال ستاً وذكر منها طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة" رواه الحسن . واحتج الأولون بأنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون:

﴿ ربنا اكشف عنا العذاب ﴾ ثم عللوا بما علموا أنه الموجب للكشف فقالوا مؤكدين ﴿ إنا مؤمنون ﴾ أي : عريقون في وصف الإيمان فإذا حمل على القحط الذي وقع بمكة استقام ، فإنه نقل أن الأمر لما اشتد على أهل مكة مشى إليه أبو سفيان فناشده الله والرحم وواعده إن دعا لهم وأزال عنهم تلك البلية أن يؤمنوا به ، فلما أزالها الله عنهم رجعوا إلى شركهم ، أما إذا حمل على أن المراد منه : ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك لأن عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ ولم يصح أيضاً أن يقال : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾

قال البقاعي : ويصح أن يراد به طلوع الشمس من مغربها ، روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها" ثم قرأ الآية .

(303/697)

﴿ أنى ﴾ أي : كيف ومن أين ﴿ لهم الذكرى ﴾ أي : هذا التذكر العظيم الذي وصفوا به أنفسهم ، وقرأ حمزة والكسائي أنى بالإمالة محضة ، وقرأ أبو عمرو بالإمالة بين بين ، وورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح وأمال الذكرى محضة أبو عمرو وحمزة والكسائي ، وأمال ورش بين بين ، والباقون بالفتح وكذلك الكبري ﴿ وقد ﴾ أي : والحال أنه قد ﴿ جاءهم ﴾ ما هو أعظم من ذلك وأدخل في وجوب الطاعة ﴿ رسول مبين ﴾ أي : ظاهر غاية الظهور ، وموضح غاية الإيضاح ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم وأظهر دال قد نافع وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون .

﴿ ثم تولوا عنه ﴾ أي : أطاعوا ما دعاهم إلى الإدبار عنه من دواعي الهوى ونوازع الشهوات والحظوظ ﴿ وقالوا ﴾ أي : زيادة على إساءتهم بالتولي ﴿ معلم ﴾ أي : علمه غيره القرآن من البشر ، قال بعضهم : علمه غلام أعجمي لبعض ثقيف ، وقال آخرون : إنه

﴿ مجنون ﴾ أي : يلقي الجن إليه هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشي .

﴿ إنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ كاشفو العذاب ﴾ أي : بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم فإنه دعا فرفع عنهم القحط ﴿ قليلاً ﴾ أي : زمناً يسيراً ، قيل : إلى يوم بدر ، وقيل : ما بقي من أعمارهم ﴿ إنكم عائدون ﴾ أي : ثابت عودكم عقب كشفنا عنكم إلى الكفران لما في جبلاتكم من العوج وطبائعكم من المبادرة إلى الزلل ، فإيمانكم هذا الذي أخبرتم برسوخه عرض زائل وخيال باطل وقوله تعالى:

﴿ يوم نبطش ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ البطشة الكبرى ﴾ أي : يوم بدر منصوب باذكر أو بدل من يوم تأتي ، والبطش : الأخذ بقوة ﴿ إنا منتقمون ﴾ أي : منهم في ذلك اليوم وهو قول ابن عباس وأكثر العلماء وفي رواية عن ابن عباس : أنه يوم القيامة .

(304/697)

﴿ ولقد فتنا ﴾ أي : اختبرنا بما لنا من العظمة فعل الفاتن وهو المختبر الذي يريد أن يعلم حقيقة الحال بالإبلاء والتمكين ثم الإرسال ﴿ قبلهم ﴾ أي : هؤلاء العرب ليكون ما مضى من خبرهم عبرة لهم ﴿ قوم فرعون ﴾ أي : مع فرعون لأن ما كان فتنة لقومه كان فتنة له لأن الكبير أرسخ في الفتنة بما أحاط به من الدنيا وسيأتي التصريح به في آخر القصة

﴿ وجاءهم ﴾ أي : فرعون وقومه زيادة في فتنتهم ﴿ رسول كريم ﴾ هو موسى عليه السلام قال الكلبي : كريم على ربه بمعنى أنه تعالى أعطاه أنواعاً كثيرة من الإكرام ، وقال مقاتل : حسن الخلق ، وقال الفراء : يقال فلان كريم قومه ، قيل : ما بعث نبي إلا من أشراف قومه وأكرمهم ثم فسر ما بلغهم من الرسالة بقوله:

﴿ أن أدوا إلي ﴾ ما أدعوكم إليه من الإيمان أي : أظهروا طاعتكم بالإيمان لي يا ﴿ عباد الله ﴾ أو أطلقوا بني إسرائيل ولا تعذبوهم وأرسلوهم معي كقوله ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ (طه :)

﴿ إني لكم ﴾ أي : خاصة بسبب ذلك ﴿ رسول ﴾ أي : من عند الله الذي لا تكون الرسالة الكاملة إلا منه ﴿ أمين ﴾ أي : بالغ الأمانة لأن الملك الديان لا يرسل إلا من كان كذلك وقوله عليه السلام :

﴿ وأن لا تعلوا ﴾ معطوف على أنّ الأولى وأَنْ هذه مقطوعة في الرسم ، والمعنى لا تتكبروا ﴿ على الله ﴾ تعالى بإهانة وحيه ورسوله ﴿ إني آتيكم بسلطان ﴾ أي : برهان ﴿ مبين ﴾ أي : بين على رسالتي فتوعدوه حين قال لهم ذلك بالرجم فقال:

﴿ وإني عذت ﴾ أي : اعتصمت وامتنعت ﴿ بربي ﴾ الذي رباني على ما اقتضاه لطفه وإحسانه إلي ﴿ وربكم ﴾ الذي أعاذني من تكبركم وقوة مكَّنتكم ﴿ أن ترجمون ﴾ أي : أن يتجدد في وقت من الأوقات قتل منكم لي فإني قلت : إني أخاف أن يقتلون فقال

تعالى ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا ﴾

(القصص :)

(305/697)

فمن أعظم آياتي أن لا تصلوا مع قوتكم وكثرتكم إلى قتلي مع أنه لا قوة لي بغير الله الذي أرسلني ، وقال ابن عباس : أن ترجمون بالقول وهو الشتم وتقولوا : هو ساحر ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي عذت بإدغام الذال في التاء ، والباقون بالإظهار ، وقرأ ورش بإثبات الياء بعد النون في ترجمون في الوصل دون الوقف ، والباقون بغير ياء وقفاً وصلاً وكذلك فاعتزلون الآتي .

ولما كان التقدير فإن آمنتم بذلك وسلمتم لي أفلحتم عطف عليه قوله تعالى:

﴿ وإن لم تؤمنوا لي ﴾ أي : تصدقوا لأجل ما أخبرتكم به ﴿ فاعتزلون ﴾ أي : كونوا بمعزل مني لا عليّ ولا ليّ فلا تتعرضوا إلي بسوء فإنه ليس جزاء دعائكم إلى ما فيه فَلاحُكم ، والفاء في قوله تعالى:

﴿ فدعا ﴾ تدل على أنه متصل بمحذوف قبله وتأويله أنهم كفروا ولم يرضوا فدعا موسى عليه السلام ﴿ ربه ﴾ الذي أحسن إليه سياسته وسياسة قومه ثم فسر ما دعا بقوله :

﴿ أن هؤلاء ﴾ أي : الحقيرين الأذلين الأرذلين ﴿ قوم ﴾ لهم قوة على القيام فيما يحاولونه ﴿ مجرمون ﴾ أي : موصوفون بالعراقة في قطع ما أمرت به أن يوصل ، فإن قيل : الكفر أعظم حالاً من الجرم فما السبب في أنه جعل الكفار مجرمين حين أراد المبالغة في ذمهم ؟ أجيب : بأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه وقد يكون فاسقاً في دينه والفاسق في دينه ، أخس الناس . ثم تسبب عن دعائه لأنه ممن يستجاب دعاؤه قوله تعالى:

﴿ فأسر بعبادي ﴾ أي : بني إسرائيل الذين أرسلناك لإسعادهم باستنقاذهم ممن يظلمهم وتفريغهم لعبادتي وقوله تعالى : ﴿ ليلاً ﴾ نصب على الظرفية ، والإسراء : سير الليل ، فذكر الليل تأكيد بغير اللفظ وإنما أمره بالسير بالليل لأنه أوقع بالقبط موت الإبكار ليلاً فأمر موسى أن يخرج بقومه في ذلك الوقت خوفاً من أن يموتوا مع القبط .

(306/697)

ولما علم الله تعالى أنهم إن تأخروا إلى أن يطلع الفجر ويرتفع عنهم الموت منعوهم الخروج وإن تأخروا إلى آخر الليل أدركوهم قبل الوصول إلى البحر فقتلوهم ، علل هذا الأمر بقوله مؤكداً له لأن حال القبط عندما أمرهم بالخروج كان حال من لا يتهيأ له الخروج في قوله : ﴿ إنكم متبعون ﴾ أي : مطلوبون بغاية الجهد من عدوكم فلا يغرنكم ما هم فيه عند أمركم بالخروج

من الجزع من إقامتكم بين أظهرهم وسؤالهم لكم في الخروج عنهم بسبب وقوع الموت الناشئ فيهم ، فإن القلوب بيد الله تعالى فهو ينسي قلب فرعون بعد رؤية هذه الآيات حين يرتفع عنهم الموت ويفرغون من دفن موتاهم فيطلبكم لما دبرته في القدم من سياستكم بإغراقهم أجمعين ليظهر مجدي بذلك وأدفع عنكم روع مدافعتهم ، فإني أعلم أنه لا قوة لكم ولا طاقة بكم فلم أكلفكم بمباشرة شيء من أمرهم ، وقرأ نافع وابن كثير فاسر بوصل الهمزة بعد الفاء ، والباقون بقطعها ، قال الزمخشري : وفيه وجهان إضمار القول بعد الفاء أي : فقال اسر بعبادي ، وجواب شرط مقدر كأنه قال : إن كان الأمر كما تقول : فأسر بعبادي ، قال أبو حيان : وكثيراً ما يدعى حذف الشرط ولا يجوز إلا لدليل واضح كأن يتقدمه الأمر أو ما أشبهه يقال : سرى وأسرى لغتان .

ولما أمر بالإسراء أمر بما يفعل فيه فقال تعالى:

﴿ واترك البحر ﴾ أي : إذا سريت بهم وتبعك العدو ووصلت بعد إليه وأمرناك بضربه لينفتح لتدخلوا فيه فدخلتم ونجيتم ﴿ رهواً ﴾ بعد خروجكم منه بأجمعكم وفي الرهو وجهان أحدهما : أنه الساكن أي : اتركه ساكناً قال الأعشى:

*يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلة ** ولا الصدور على الأعجاز تتكل*

أي : مشياً ساكناً على هينه قاراً على حاله بحيث يبقى المرتفع من مائه مرتفعاً ، والمنخفض منخفضاً كالجدار ، وطريقه الذي سرتم به يابساً ذا سير سهل على الحالة التي دخلتم فيها لأن موسى لما جاوز البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق ، فأمر أن يتركه ساكناً على هيئته قاراً على حاله ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله تعالى عليهم ، والثاني : أن الرهو الفجوة الواسعة وعن بعض العرب أنه رأى جملاً فالجاً فقال : سبحان الله رهو بين سنامين أي : اتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ أي : متمكنون في هذا الوصف وإن كان لهم وصف القوة والتجمع الذي محطه النجدة الموجبة للعلو في الأمور .

ولما أخبر تعالى عن غرقهم أخبر عن متخلفهم بقوله تعالى:

﴿ كم تركوا ﴾ أي : كثيراً ترك الذين سبق الحكم بإغراقهم فغرقوا ﴿ من جنات ﴾ أي : بساتين هي في غاية ما يكون من طيب الأرض وكثرة الأشجار وزكاء الثمار والنبات وحسنها الذي يستر الهموم ودل على كرم الأرض بقوله تعالى : ﴿ وعيون ﴾ ﴿ وزروع ﴾ أي : ما هو دون الأشجار ، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين والباقون بضمها ثم أخبر عن منازلهم بقوله تعالى : ﴿ ومقام كريم ﴾ أي : مجلس شريف هو أهل لأن يقوم الإنسان فيه لأنه في النهاية فيما يرضيه .

﴿ ونعمة ﴾ وهي اسم للتنعم بمعنى الترفيه والعيش اللين الرغد ﴿ كانوا فيها ﴾ أي : دائماً ﴿ فاكهين ﴾ أي : فعلهم في عيشهم فعل المتفكه المترفه لا فعل من يضطر إلى إقامة نفسه وقوله تعالى:

(308/697)

﴿ كذلك ﴾ خبر لمبتدأ مضمر أي : الأمر كما أخبرنا به من تنعيمهم وإخراجهم وإغراقهم وأنهم تركوا جميع ما كانوا فيه لم يغن عنهم شيء منه فلا يغتر أحد بما ابتليناه من النعم لئلا نصنع به من الإهلاك ما صنعنا بهم وقوله تعالى : ﴿ وأورثناها ﴾ أي : تلك الأمور العظيمة عطف على تركوا ﴿ قوماً ﴾ أي : ناساً ذوي قوة في القيام على ما يحاولونه وحقق أنهم غيرهم تحقيقاً لإغراقهم بقوله تعالى : ﴿ آخرين ﴾ ليسوا منهم في شيء وهم بنو إسرائيل وقيل : غيرهم لأنهم لم يعودوا إلى مصر بل سكنوا الأرض المقدسة .

ولما سكن القوم الآخرون بمصر ورثوا كنوزها وأموالها ونعمها ومقامها الكريم وقوله تعالى: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم لهوانهم ، وإذا لم تبك المساكن فما ظنك بالساكن الذي هو فيها تقول العرب : إذا مات رجل خطير في تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس قال الفرزدق:

*فالشمس طالعة ليست بكاسفة ** تبكي عليك نجوم الليل والقمر*

وقالت الخارجية:

*أيا شجر الخابور مالك مورقاً ** كأنك لم تجزع على ابن طريف*

وقال جرير:

*لما أتى خبر الزبير تواضعت ** سور المدينة والجبال الخشع*

وذلك على سبيل التخييل والتمثيل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء ، عليه قال الزمخشري : وكذلك ما يروى عن ابن عباس من بكاء مصلى المؤمن وآثاره في الأرض ومصاعد عمله ومهابط رزقه في السماء تمثيل ، ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ تهكماً بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض .

(309/697)

وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من مسلم إلا وله في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله فإذا مات وفقداه بكيا عليه وتلا هذه الآية" . وقال علي رضي الله عنه : إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض

ومصعد عمله من السماء . وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين يعني فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض . وقال عطاء : بكاء السماء حمرة أطرافها ، وقال السدي : لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما : بكت عليه السماء وبكاؤها حمرتها ، وقرأ أبو عمرو عليهم في الوصل بكسر الهاء والميم ، وحمزة والكسائي بضمهما ، والباقون : بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف فحمزة بضم الهاء والباقون بالكسر ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي : لما جاء وقت هلاكهم لم يمهلوا إلى وقت آخر لتوبة وتدارك تقصير .

ولما كان إنقاذ بني إسرائيل من القبط أمراً باهراً لا يكاد يصدق فضلاً عن أن يكون بإهلاك أعدائهم ، أكد سبحانه الأخبار بذلك إشارة إلى ما يحق له من العظمة تنبيها على أنه قادر أن يفعل بهذا النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه كذلك وإن كانت قريش يرون ذلك محالاً وأنهم في قبضتهم فقال تعالى:

﴿ ولقد نجينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة تنجية عظيمة ﴿ بني إسرائيل ﴾ بعبدنا المخلص لنا ﴿ من العذاب المهين ﴾ أي : من استعباد فرعون وقتله أبناءهم وقوله تعالى:

﴿ من فرعون ﴾ بدل من العذاب على حذف المضاف ، أو جعله عذاباً لإفراطه في التعذيب ، أو حال من المهين أي : واقعاً من جهته ﴿ إنه كان عالياً ﴾ أي : في جبلته العراقة في العلو ﴿ من المسرفين ﴾ أي : العريقين في مجاوزة الحدود .

﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أي : بني إسرائيل بما لنا من العظمة ﴿ على علم ﴾ أي : عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويجوز أن يكون المعنى مع علم منا بأنهم يزيغون ويفرط منهم الفرطات في بعض الأحوال . ثم بين المفضل عليه بعد أن بين المفضل بقوله تعالى : ﴿ على العالمين ﴾ أي : الموجودين في زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب وأرسلنا إليهم من الرسل ، وقيل : على الناس جميعاً لكثرة الأنبياء منهم ، وقيل : عام دخله التخصص ثم بين آثار الاختيار بقوله تعالى:

﴿ وآتيناهم ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ من الآيات ﴾ أي : العلامات الدالة على عظمتنا واختيارنا لهم من حين أتى موسى عبدنا عليه السلام فرعون إلى أن فارقهم بالوفاة وبعد وفاته على أيدي الأنبياء المقررين للشريعة عليهم السلام ﴿ ما فيه بلاء ﴾ أي : اختبار مثله يميل من ينظره أو يسمعه إلى غير ما كان عليه ، وذلك بفرق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك مما رأوه من الآيات التسع ﴿ مبين ﴾ أي : بين في نفسه موضح لغيره .

﴿ إن هؤلاء ﴾ إشارة إلى كفار قريش لأن الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة

على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والإنذار على مثل ما حل بهم ﴿ ليقولون ﴾ أي : بعد قيام الحجة البالغة عليهم مبالغين في الإنكار .

﴿ أن ﴾ أي : ما ﴿ هي ﴾ وقولهم ﴿ إلا موتتنا ﴾ على حذف مضاف أي : ما الحياة إلا حياة موتتنا ﴿ الأولى ﴾ التي كانت قبل نفخ الروح كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الجاثية ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ (الأنعام :)

وقال الجلال المحلي : إن هي ما الموتة التي بعدها الحياة إلا موتتنا الأولى أي : وهم نطف ، وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة وأبو عمرو بين بين ، وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ أي : بمبعوثين بحيث نصير ذوي حركة اختيارية ننتشر بها بعد الموت ، يقال : نشره وأنشره أحياه ثم احتجوا على نفي الحشر والنشر بقولهم:

(311/697)

﴿ فأتوا ﴾ أي : أيها الزاعمون أنا نبعث بعد الموت ﴿ بآبائنا ﴾ أي : لكوننا نعرفهم ونعرف وفور عقولهم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : ثابتاً صدقكم في أنا نبعث يوم القيامة أحياء بعد الموت ثم خوفهم الله تعالى بمثل عذاب الأمم الخالية فقال تعالى:

﴿ أهم خير ﴾ أي : في الدين والدنيا ﴿ أم قوم تُبّع ﴾ أي : ليسوا خيراً منهم فهو استفهام على سبيل الإنكار ، قال أبو عبيدة : ملوك اليمن كل واحد منهم يسمى تبعاً لأن أهل الدنيا كانوا يتبعونه ، وموضع تبع في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام وهم الأعاظم في ملوك الحرب ، وقال قتادة : هو تبع الحميري وكان من ملوك اليمن سمي بذلك : لكثرة أتباعه وكان هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه ، ولذلك ذم الله تعالى قومه ولم يذمه ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم "لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم" . وعنه صلى الله عليه وسلم "ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي" . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : "لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً" . وذكر عكرمة عن ابن عباس : أنه كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن مليك وكان سار بالجيوش نحو المشرق وحبر الحبر وبنى قصر سمرقند ، وملك بقومه الأرض طولها والعرض وكان أقرب المملكين إلى قريش زماناً ومكاناً ، وكان له بمكة المشرفة ما ليس لغيره من الآثار ، قال الرازي في اللوامع : هو أول من كسا البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيام وطاف به وحلق .

قال البغوي بعد أن ذكر قصته مع الأنصار : لما قتل ابنه غيلة في المدينة الشريفة وما وعظ به اليهود في الكف عن خراب المدينة لأنها مهاجر نبي من قريش إنه صدقهم واتبع دينهم وذلك قبل نسخه . وعن الرياشي آمن تبع بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة عام ، فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ مع أنه لا خير في الفريقين ؟

أجيب : بأن معناه أهم خير في القوة والشوكة كقوله تعالى : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ (القمر :)

بعد ذكر آل فرعون ويجوز في قوله تعالى : ﴿ والذين من قبلهم ﴾ أي : مشاهير الأمم كمدين وأصحاب الأيكة والرس وثمود وعاد ، ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أن يكون معطوفاً على قوم تبع ، ثانيها : أن يكون مبتدأ وخبره ﴿ أهلكناهم ﴾ أي : بعظمتنا وإن كانوا أصحاب مكنة وقوة ، وأما على الأول ﴿ فأهلكناهم ﴾ إما مستأنف ، وإما حال من الضمير المستكن في الصلة ، ثالثها : أن يكون منصوباً بفعل مقدر يفسره أهلكناهم ولا محل لأهلكناهم حينئذ ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ مجرمين ﴾ أي : عريقين في الإجرام فليحذر هؤلاء إن ارتكبوا مثل أفعالهم من مثل حالهم .

ولما أنكر تعالى على كفار مكة قولهم ، ووصفهم بأنهم أضعف ممن كان قبلهم ، ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة فقال تعالى:

﴿ وما خلقنا السموات ﴾ أي : على عظمها واتساع كل واحدة منها واحتوائها لما تحتها وجمعها لأن العمل كلما زاد كان أبعد عن العبث .

ولما كان الدليل على تطابق الأرض دليلاً دقيقاً وحدها بقوله تعالى : ﴿ والأرض ﴾ أي : على ما فيها من المنافع ﴿ وما بينهما ﴾ أي : النوعين وبين كل واحدة منهما وما يليها ﴿ لاعبين ﴾ أي : على ما لنا من العظمة التي يدرك من له أدنى عقل تعاليها عن اللعب لأنه لا يفعله إلا ناقص ، ولو تركنا الناس يبغي بعضهم على بعض كما تشاهدون ثم لا نأخذ لضعيفهم بحقه من قويهم لكان خلقنا لهم لعباً بل اللعب أخف منه ، ولم نكن على ذلك التقدير مستحقين للصفة القدسية وقد تقدم تقرير هذا الدليل في أول سورة يونس وفي آخر سورة المؤمنين عند قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾ (المؤمنون :) وفي ص عند قوله تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ (ص :) ٢٠

(313/697)

﴿ ما خلقناهما ﴾ أي : السموات والأرض مع ما بينهما وقوله تعالى : ﴿ إلا بالحق ﴾ حال إما من الفاعل وهو الظاهر ، وإما من المفعول أي : إلا محقين في ذلك يستدل به على وحدانيتنا وقدرتنا وغير ذلك ، أو متلبسين بالحق ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي : هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم وهم يقولون : ﴿ إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ وكذا من نحا نحوهم ﴿ لا

يعلمون ﴾ أي : إنا خلقنا الخلق بسبب إقامته الحق عليهم فهم لأجل ذلك يجترؤون على المعاصي ويفسدون في الأرض لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، ولو تذكروا ما ذكرناه في جبلاتهم لعلموا علماً ظاهراً أنه الحق الذي لا معدل عنه ، كما يتولى حكامهم المناصب لأجل إظهار الحكم بين رعاياهم ويشترطون الحكم بالحق ويؤكدون على أنفسهم أنهم لا يتجاوزونه .

ولما ذكر الدليل على إثبات البعث والقيامة ذكر عقبه يوم الفصل فقال تعالى:

﴿ إن يوم الفصل ﴾ أي : يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين العباد ، قال الحسن : سمي بذلك ؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بين أهل الجنة والنار ، وقيل : يفصل فيه بين المؤمن وما يكرهه وبين الكافر وما يريده ﴿ ميقاتهم ﴾ أي : وقت موعدهم الذي ضرب لهم في الأزل وأنزلت فيه الكتب على ألسنة الرسل ﴿ أجمعين ﴾ لا يتخلف عنه أحد ممن مات من الجن والأنس والملائكة وجميع الحيوانات وقوله تعالى:

﴿ يوم لا يغني ﴾ أي : بوجه من الوجوه بدل من يوم الفصل ، أو منصوب بإضمار أعني ، أو صفة لميقاتهم ، ولا يجوز أن ينتصب بالفصل نفسه لما يلزم من الفصل بينهما بأجنبي وهو ميقاتهم ﴿ مولى ﴾ أي : من قرابة أو غيرها ﴿ عن مولى ﴾ بقرابة أو غيرها أي : لا يدفع عنه ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء كثر أو قل ﴿ ولا هم ﴾ أي : القسمان ﴿ ينصرون ﴾ أي : ليس لهم ناصر يمنعهم من عذاب الله تعالى .

تنبيه : المولى إما في الدين ، أو في النسب ، أو العتق ، وكل هؤلاء لا يسمون بالمولى فلما لم تحصل النصرة منهم فأن لا تحصل ممن سواهم أولى ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ (البقرة :)

وقال الواحدي : المراد بقوله تعالى : ﴿ مولى عن مولى ﴾ الكفار لأنه ذكر بعده المؤمن فقال تعالى:

﴿ إلا من رحم الله ﴾ أي : أراد إكرامه الملك الأعظم وهم المؤمنون يشفع بعضهم لبعض بإذن الله تعالى في الشفاعة لأحدهم فيكرم الشافع فيه وقال ابن عباس : يريد المؤمن فإنه يشفع له الأنبياء والملائكة .

تنبيه : يجوز في ﴿ إلا من رحم الله ﴾ أوجه ؛ أحدها : وهو قول الكسائي أنه منقطع ، ثانيها : أنه متصل تقديره لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنهم يؤذن لهم في الشفاعة فيشفعون في بعضهم كما مر ، ثالثها : أن يكون مرفوعاً على البدلية من مولى الأول ويكون يغني بمعنى ينفع قاله الحوفي ، رابعها : أنه مرفوع المحل أيضاً على البدل من واو ينصرون أي : لا يمنع من العذاب إلا من رحم الله ﴿ إنه ﴾ أي : وحده ﴿ هو العزيز ﴾ أي : المنيع الذي

لا يقدح في عزته عفو ولا عقاب بل ذلك دليل على عزته فإنه يفعل ما يشاء فيمن يشاء من غير مبالاة بأحد ﴿ الرحيم ﴾ أي : الذي لا يمنع عزته أن يكرم من شاء .

ولما وصف تعالى اليوم ذكر بعده وعيد الكفار فقال سبحانه:

﴿ إن شجرت الزقوم ﴾ هي من أخبث الشجر المر بتهامة ينبتها الله تعالى في الجحيم وقد مر الكلام عليها في الصافات ، ورسمت بالتاء المجرورة فوقف عليها بالهاء أبو عمرو وابن كثير والكسائي ، ووقف الباقون بالتاء على الرسم .

﴿ طعام الأثيم ﴾ أي : المبالغ في اكتساب الآثام حتى صارت به إلى الكفر قال أكثر المفسرين : هو أبو جهل .

(315/697)

﴿ كالمهل ﴾ أي : وهو ما يمهل في النار حتى يذوب من ذهب أو فضة وكل ما في معناهما من المنطبعات سواء كان من صفر أو حديد أو رصاص ، وقيل : هو عكر القطران ، وقيل : عكر الزيت وقرأ ﴿ يغلي في البطون ﴾ أي : من شدة الحر ابن كثير وحفص بالياء التحتية على أن الفاعل ضمير يعود على طعام ، وجوز أبو البقاء أن يعود على الزقوم ، وقيل : يعود على المهل نفسه والباقون بالتاء الفوقية على أن الفاعل ضمير الشجر .

﴿ كغلي ﴾ أي : مثل غلي ﴿ الحميم ﴾ أي : الماء الذي تناهى حره بما يوقد تحته ، وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن تكون طعامه" ويقال للزبانية:

﴿ خذوه ﴾ أي : هذا الأثيم أخذ قهر فلا تدعوه يملك من أمره شيئاً ﴿ فاعتلوه ﴾ أي : جروه بقهر بغلظة وعنف وسرعة إلى العذاب والإهانة بحيث يكون كأنه محمول ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بضم التاء والباقون بكسرها وهما لغتان في مضارع عتل ، قال البقاعي : وقراءة الضم أدل على تناهي الغلظة والشدة من قراءة الكسر ﴿ إلى سواء ﴾ أي : وسط ﴿ الجحيم ﴾ أي : النار التي هي غاية في الاضطرام والتوقد وهو موضع خروج الشجرة التي هي طعامه .

﴿ ثم صبوا فوق رأسه ﴾ أي : ليكون المصبوب محيطاً بجميع جسده ﴿ من عذاب الحميم ﴾ أي : من الحميم الذي لا يفارقه العذاب فهو أبلغ مما في آية ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ (الحج :)

ويقال له توبيخاً وتقريعاً :

﴿ ذق ﴾ أي : العذاب ﴿ إنك ﴾ وأكد بقوله : ﴿ أنت ﴾ أي : وحدك دون هؤلاء الذين يخبرون بحقارتك ﴿ العزيز الكريم ﴾ بزعمك وقولك : ما بين جبليها أعز وأكرم مني ، وقرأ الكسائي بفتح الهمزة بعد القاف على معنى العلة أي : لأنك ، وقيل : تقديره ذق عذاب

الحميم إنك أنت العزيز ، والباقون بالكسر على الاستئناف المفيد للعلة فتتحد القراءتان معنى ، وهذا الكلام الذي على سبيل التهكم أغيظ للمستهزأ به ومثله قول جرير لشاعر سمى نفسه زهرة اليمن:

(316/697)

---

*ألم يكن في رسوم قد رسمت بها ** من كان موعظة يا زهرة اليمن*

وكان هذا الشاعر قد قال:

*أبلغ كليباً وأبلغ عنك شاعرها ** أني الأعز وأني زهرة اليمن*

ويقال لهم:

﴿ إن هذا ﴾ أي : الذي ترون من العذاب ﴿ ما كنتم به ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ تمترون ﴾ أي : تعالجون أنفسكم وتحملونها على الشك فيه وتردونها عما لها من الفطرة الأولى من التصديق بالممكن لاسيما من جرب صدقه وظهرت خوارق العادات على يده بحيث كنتم لشدة ردكم له كأنكم تخصونه بالشك .

ولما ذكر سبحانه وتعالى وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال:

﴿ إن المتقين ﴾ أي : العريقين في هذا الوصف ﴿ في مقام ﴾ أي : موضع إقامة لا يريد

الحال فيه تحولاً عنه ﴿ أمين ﴾ أي : يأمن صاحبه فيه من كل ما لا يعجبه ، وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم أي : في مجلس أمين ، والباقون بضمها على المصدر أي : في إقامة وقوله تعالى:

﴿ في جنات ﴾ أي : بساتين تقصر العقول عن إدراك كل وصفها ، بدل من قوله تعالى في مقام أمين أو خبر ثان وقرأ ﴿ وعيون ﴾ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين ، والباقون بضمها .

ولما كان لا يتم العيش إلا بكسوة البدن أشار إلى ذلك بقوله تعالى:

﴿ يلبسون ﴾ ودل على الكثرة جداً بقوله تعالى : ﴿ من سندس ﴾ وهو ما رق من الحرير يعمل وجوهاً ﴿ وإستبرق ﴾ هو ما غلظ منه يعمل بطائن ، وسمي بذلك : لشدة بريقه وقوله تعالى : ﴿ متقابلين ﴾ أي : في مجلسهم ليستأنس بعضهم ببعض حال وقوله : ﴿ يلبسون ﴾ حال من الضمير المستكن في الجار أو خبر ثان فيتعلق الجار به أو مستأنف ، فإن قيل : الجلوس على هذه الهيئة موحش لأن كل واحد منهم يصير مطلعاً على ما يفعل الآخر وأيضاً فقليل الثواب إذا طلع على كثيره ينغص عليه ؟

أجيب : بأن أحوال الآخرة ليست كأحوال الدنيا وقد قال تعالى ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ (الأعراف :)

وقوله تعالى:

﴿كذلك﴾ يجوز فيه وجهان ؛ أحدهما : النصب نعتاً لمصدر أي : نفعل بالمتقين فعلاً كذلك أي : مثل ذلك الفعل ، ثانيهما : الرفع على خبر مبتدأ مضمر أي : الأمر كذلك .

ولما كان ذلك لا يتم السرور به إلا بالأزواج قال تعالى : ﴿وزوجناهم﴾ أي : قرناهم كما تقرن الأزواج وليس المراد به العقد لأن فائدة العقد الحل والجنة ليست بدار تكليف من تحليل أو تحريم ﴿بحور﴾ أي : جوار بيض حسان نقيات الثياب ﴿عين﴾ أي : واسعات الأعين قال البيضاوي : واختلف في أنهن نساء الدنيا أو غيرهن .

ولما كان الشخص في الدنيا يخشى كلف النفقات وصف ما هنالك من سعة الخيرات فقال تعالى:

﴿يدعون﴾ أي : يطلبون طلباً هو غاية المسرة ﴿فيها﴾ أي : الجنة أي : يؤتون ﴿بكل فاكهة﴾ أي : لا يمتنع عليهم صنف من الأصناف لبعد مكان ولا فقدان ولا غير ذلك من الشأن ، وفي ذلك إيذان بأنه مع سعته ليس فيه شيء لإقامة البنية وإنما هو للتفكه والتلذذ حال كونهم مع ذلك ﴿آمنين﴾ في غاية الأمن من كل مخوف .

﴿لا يذوقون فيها﴾ أي : الجنة ﴿الموت﴾ لأنها دار خلود لا دار فناء وقوله تعالى ﴿إلا

الموتة الأولى ﴾ فيه أوجه ؛ أحدها : أنه استثناء منقطع أي : لكن الموتة الأولى قد ذاقوها ، ثانيها : أنه متصل وتأولوه بأن المؤمن عند موته في الدنيا يصير بلطف الله كأنه في الجنة لاتصاله بأسبابها ومشاهدته إياها وما يعطاه من نعيمها فكأنه مات فيها ، ثالثها : أن إلا بمعنى سوى أي : سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا كما في قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ (النساء :)

(318/697)

أي : سوى ما قد سلف ، رابعها : أن إلا بمعنى بعد ، أي : لا يذوقون فيها الموت بعد الموتة الأولى في الدنيا واختاره الطبري لكن نوزع بأن إلا بمعنى بعد لم يثبت وقد يجاب : بأن من حفظ حجة على من لم يحفظ ، خامسها : قال الزمخشري : أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله : ﴿ إلا الموتة الأولى ﴾ موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها ، سادسها : المراد بالمتقين أعم من الراسخين وغيرهم وإن ضمير فيها يرجع للآخرة ، فالعاصي إذا أراد الله تعالى تعذيبه بالنار يذيقه فيها موتة أخرى كما جاء في الأحاديث الصحيحة فيكون على المجموع ، سابعها : أن الموتة الأولى في الجنة

المجازية فلا يكون ذلك بالمحال وذلك أن المتقي لم يزل فيها في الدنيا .

قال بعض العلماء : الدنيا إذا تحققت في حق المؤمن التقي فإنها جنة صغرى لتوليه سبحانه إياه فيها وقربه منه ونظره إليه وذكره له وعبادته إياه وشغله به وهو معه أينما كان ، فإن قيل : أهل النار لا يذوقون الموت أبداً فلم بشر أهل الجنة بهذا مع أن أهل النار يشاركونهم فيه ؟ أجيب : بأن البشارة ما وقعت بدوام الحياة فقط بل مع حصول تلك الخيرات والسعادات فافترقا ﴿ ووقاهم ﴾ أي : المتقين ﴿ عذاب الجحيم ﴾ أي : التي تقدم أنها لكل كفار أثيم وأما غير المتقين من العصاة فيدخل الله تعالى من أراد منهم النار فيعذب كلاً منهم على قدر ذنوبه ثم يميتهم فيها ويستمرون إلى أن يأذن الله تعالى في الشفاعة فيهم ، فيخرجهم ثم يحييهم بما يرش عليهم من ماء الحياة ، ثم يدخلهم الله تعالى الجنة .

(319/697)

روي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يدخل ناس في النار حتى إذا صاروا فحماً أدخلوا الجنة فيقول أهل الجنة : من هؤلاء فيقال : هؤلاء الجهنميون" . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا فيها حمماً ثم تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة" ، فيرش عليهم أهل الجنة الماء

فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل ثم يدخلون الجنة . وقوله تعالى:

﴿ فضلاً ﴾ مفعول لأجله أي : فعل ذلك بهم لأجل الفضل ، وجعله أبو البقاء : منصوباً بمقدر أي : تفضلنا بذلك فضلاً أي : تفضلاً .

تنبيه : احتج أهل السنة بهذه الآية على أن الثواب يحصل من الله تعالى فضلاً وإحساناً وأن كل ما وصل إليه العبد من الخلاص من النار والفوز بالجنة فإنما يحصل بفضل الله تعالى

﴿ من ربك ﴾ أي : المحسن إليك بكمال إحسانه إلى أتباعك إحساناً يليق بك ، قال الرازي في اللوامع : أصل الإيمان رؤية الفضل في جميع الأحوال .

ولما عظمه الله تعالى بإظهار هذه الصفة مضافة إليه صلى الله عليه وسلم زاد تعظيمه بالإشارة بأداة البعد فقال تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الفضل العظيم الواسع ﴿ هو ﴾ أي : خاصة ﴿ الفوز ﴾ أي : الظفر بجميع المطالب ﴿ العظيم ﴾ لأنه خلاص عن المكاره ولم يدع جهة من الشرف إلا ملأها ، وهذا يدل على أن الفضل أعلى من درجات الثواب المستحق لأنه تعالى وصفه بكونه فوزاً عظيماً ، وأيضاً فإن الملك العظيم إذا أعطى الأجير أجرته ثم خلع على إنسان آخر فإن تلك الخلعة أعلى من إعطاء تلك الأجرة .

ولما بيّن تعالى الدليل وشرح الوعد والوعيد قال تعالى:

﴿ فإنما يسرناه ﴾ أي : سهلنا القرآن سهولة كبيرة ﴿ بلسانك ﴾ أي : هذا العربي المبين

وهم عرب سجيتهم الفصاحة ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي : يفهمونه فيتعظون به وإن لم يتعظوا ولم يؤمنوا به .

(320/697)

﴿ فارتقب ﴾ أي : فانتظر ما يحل بهم ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ أي : منتظرون ما يحل بك فمفعولا الارتقاب محذوفان أي : فارتقب النصر من ربك إنهم مرتقبون بك ما يتمنونه من الدوائر والغوائل ولن يضرك ذلك ، وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ حم الدخان ليلة جمعة أصبح مغفوراً له" . رواه الترمذي وزاد الزمخشري : "من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك" ورواه البغوي عن أبي هريرة . قال ابن عادل : قال أبو أمامة رضي الله تعالى عنه : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتاً في الجنة" والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 449 . 470 ﴾

(321/697)

وقال القاسمي :

سورة الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ [1 – 3]

يعني ليلة القدر التي قدر فيها سبحانه إنزال ذكره الحكيم . وكانت في رمضان . كما قال سبحانه (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) قال ابن كثير : ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان ، فقد أبعد النجعة . فإن نص القرآن أنها في رمضان . وما روي من الآثار في فضلها ، فمثله لا تعارض به النصوص . هذا على فرض صحتها . وإلا فهي ما بين مرسل وضعيف . والبركة اليمن . ولا ريب أنها كانت أبرك ليلة وأيمنها على العالمين ، بتنزيل ما فيه الحكمة والهدى ، والنجاة من الضلال والردى . قال القاشاني : ووصفها بالمباركة ، لظهور الرحمة والبركة ، والهداية والعدالة في العالم بسببها . وازدياد رتبته صلى الله عليه وسلّم وكماله بها . كما سماها (ليلة القدر) لأن قدره وكماله إنما ظهر بها . ﴿ إنّا كنّا منذرين ﴾ أي من خالف مقتضى الحكمة وقوة الدلائل ، واختار المذام وتذلل للهوى ولم يكتف بهداية الله ، ولم يقت روحه بقوت معارفه ، وذلك لتقوم حجة الله على عباده .

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أي : يفصل ويبين كل أمر تقتضيه الحكمة ، على وجه متين محمود عند الكمل تقتات به أرواحهم ، وترحم به نفوسهم .

(322/697)

﴿ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا ﴾ نصب على الاختصاص ؛ أي : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمنا . وهو بيان لفخامته الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي : مرسلين إلى الناس رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ، رحمة منه تعالى بهم ، لمسيس الحاجة إليه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] ، وجوز كون رحمة علة للإنزال . أي : رحمة تامة كاملة على العالمين بإنزاله ، لاستقامة أمورهم الدينية والدنيوية ، وصلاح معاشهم ومعادهم ، وظهور الخير ، والكمال ، والبركة ، والرشاد فيهم بسببه .

والوجه هو الأول ، وهو كونه غاية للإرسال ؛ لإفصاح تلك الآية عنه : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ أي : لدعوة حقائق الأشياء بمقتضياتها : ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ أي : بمقادير قابلياتها ، فلا يبعد عليه الإرسال والإنزال ، قاله المهايمي . وقال القاشاني : أي : السميع لأقوالهم

المختلفة في الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم ، العليم : أي : بعقائدهم الباطلة ، وآرائهم الفاسدة ، وأمورهم المختلفة ، ومعايشهم غير المنتظمة . فلذلك رحمهم بإرسال الرسول الهادي إلى الحق في أمر الدين ، الناظم لمصالحهم في أمر الدنيا ، المرشد إلى الصواب فيهما ، بتوضيح الصراط المستقيم ، وتحقيق التوحيد بالبرهان ، وتقنين الشرائع وسنن الأحكام لضبط النظام .

(323/697)

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ قال أبو مسلم : أي : إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا ، كقولهم : فلان منجد متْهم ؛ أي : يريد نجداً وتهامة . وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به ، من أنه رب الجميع ، وخالقه : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أي : بل ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته ؛ لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان ، وإنما هو قول ممزوج بلعب ، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم ، بصائر قلوبهم وأرواحهم .

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي انتظر لمجازاتهم ذلك اليوم الهائل ، ولا يستعمل الارتقاب إلا في أمر

مكروه . وللسلف في معنى الدخان ثلاثة أوجه :

الأول – قال بعضهم : كان ذلك حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش أن يؤخذوا بسنين كسنين يوسف ، فأخذوا بالمجاعة . قالوا : وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ في أبصارهم من شدة الجوع ، من الظلمة كهيئة الدخان ، روى ابن جرير عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً وهو مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن : إن قاصاً عند أبواب كندة يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام ، فقال :

(324/697)

يا أيها الناس ! اتقوا الله . فمن علم شيئاً فليقل بما يعلم , ومن لا يعلم فليقل : الله أعلم ؛ فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم . وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم : لا أعلم ؛ فإن الله عز وجل يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : 86] ، إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدباراً قال : < اللهم سبعاً كسبع يوسف > . فأخذتهم سنة حصّت كل شيء حتى أكلوا الجلود ، والميتة ، والجيف . ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخاناً ، من الجوع .

فأتاه أبو سفيان بن حرب فقال : يا محمد ! إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم . . . . قال عز وجل : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ [الدخان : 15] ، قال : فكشف عنهم : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ [الدخان : 16] ، فالبطشة يوم بدر . وقد مضت آية الروم ، وآية الدخان ، والبطشة واللزام .

قال ابن كثير : وهذا الحديث مخرج في " الصحيحين " ، ورواه الإمام أحمد في " مسنده " وهو عند الترمذي والنسائي في " تفسيرهما " ، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة ، وقد وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى ، جماعةٌ من السلف كمجاهد ، وأبي العالية ، وإبراهيم النَّخَعِي ، والضحاك ، وعطية العوفي ، وهو اختيار ابن جرير . قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : والظاهر أن مجيء أبي سفيان كان قبل الهجرة . لقول ابن مسعود : ثم عادوا . ولم ينقل أن أبا سفيان قدم المدينة قبل بدر . وعلى هذا فيحتمل أن يكون أبو طالب كان حاضراً ذلك . فلذلك قال :

~ وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ

لكن روي ما يدل على أن القصة المذكورة وقعت بالمدينة ، فإن لم يحمل على التعدد ، وإلا فهو مشكل جداً . والله المستعان . انتهى .

وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان على هذا معنيين :

أحدهما – أن في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ، ويرتفع الغبار الكثير ، ويظلم الهواء . وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال لسنة المجاعة : الغبراء .

ثانيهما – أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان ، فيقولون : كان بيننا أمر ارتفع له دخان . والسبب فيه أن الْإِنْسَانْ إذا اشتد خوفه أو ضعفه ، أظلمت عيناه ، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان . انتهى .

وقال الشهاب : الظاهر أن هذه التسمية استعارة ؛ لأن الدخان مما يتأذى به ، فأطلق على كل مؤذٍ يشبهه ، أو على ما يلزمه ، ولذا قيل :

~تُرِيْدُ مُهَذَّباً لَا عَيْبَ فِيْهِ وَهَلْ عَوْدٌ يَفُوْحُ بِلَا دُخَانِ

الوجه الثاني في الآية – أنه دخان يظهر في العالم ، وهو إحدى علامات القيامة ، ولم يأت بعد ، وهو آت وهو قول حذيفة . ويروى عن عليّ وابن عباس وجمع من التابعين . قال الرازي : واحتج القائلون بهذا القول بوجوه :

الأول – أن قوله : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ ﴾ يقتضي وجود دخان تأتي به السماء . وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع ، فذاك ليس بدخان أتت به

السماء . فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه ، عدولاً عن الظاهر ، لا لدليل منفصل ، وإنه لا يجوز .

الثاني – أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبيناً ، والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم ، ومثل هذا لا يوصف بكونه دخاناً مبيناً .

والثالث – أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشي الناس . وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التي ذكرتموها لا تغشي الناس إلا على سبيل المجاز . وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل .

(326/697)

الرابع – ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدّه الدخان من الآيات المنتظرة . أما القائلون بالقول الأول ، فلا شك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز ، وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ما ذكروه مشكلاً جداً . فإن قالوا : الدليل على أن المراد ما ذكرناه أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ وهذا ، إذا حملناه على القحط الذي وقع بمكة ، استقام . فإنه نقل أن القحط لما اشتد ، بمكة مشى

إليه أبو سفيان , وناشده بالله وبالرحم ، ووعده أنه إن لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ، أن يؤمنوا به . فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم .

أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة ، لم يصح ذلك ؛ لأن عند ظهور علامات القيامة . لا يمكنهم أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ ولم يصح أيضاً أن يقال لهم : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ والجواب : لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جارياً مجرى ظهور سائر علامات القيامة ، في أنه لا يوجب انقطاع التكليف ، فتحدث هذه الحالة . ثم إن الناس يخافون جداً فيتضرعون . فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق ، وإذا كان هذا محتملاً ، فقد سقط ما قالوه ، والله أعلم . انتهى كلام الرازي .

(327/697)

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثاني ، ذهاباً إلى ما صح عن ابن عباس ، ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح , والحسان وغيرهما ، التي أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة ، على أن الدخان من الآيات المنتظرة . مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ

﴿ أي : بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه ، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى : ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ أي : يتغشاهم ويعمهم . ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه : ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً . كقوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور : 13 - 14] ، أو يقول بعضهم لبعض ذلك .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه ، سائلين رفعه , وكشفه عنهم ، كقوله جلت عظمته : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام : 27] ، وكذا قوله جل وعلا : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : 44] . وهكذا قال جل جلاله .

(328/697)

﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي : كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة . ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه . بل كذبوه وقالوا معلّم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر : 23] الآية . وكقوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ : 51] . إلى آخر السورة . وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ يحتمل معنيين :

أحدهما – أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ، ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون : 75] ، وكقوله جلت عظمته : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] .

(329/697)

والثاني – أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ، ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن

يكون باشرهم . كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] . ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم . بل كانوا قد انعقد سببه عليهم ، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه ، قال الله تعالى ، إخباراً عن شعيب عليه السلام ، أنه قال لقومه حين قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : 88 – 89] . وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم . وقال قتادة : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلى عذاب الله . وقوله عز وجل :

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ فسرّ ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم ، وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما ، من رواية العوفي عنه . وعن أبي ابن كعب رضي الله عنه ، وجماعة عنه ، وهو محتمل . والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً .

قال ابن جرير : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذاء عن عِكْرِمَة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال ابن مسعود رضي الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصري ، وعكرمة في أصح الروايتين عنه . والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

فصل :

وممن رجح الوجه الأول ، وهو أن المراد بالدخان يوم المجاعة والشدة مجازاً ، بذكر المسبّب وإرادة السبب . أو بالاستعارة ، العلامة أبو السعود حيث قال : والأول هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم قطعاً . فإن قوله تعالى : ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾ الخ ، ردّ لكلامهم ، واستدعائهم الكشف ، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان ، المنبئ عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية ، أي : كيف يتذكرون ؟ أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ؟ : ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أي : والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر ، وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم منه في إيجابها . حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، وبيّن لهم مناهج الحق ، بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ، تخرّ لها صم الجبال .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ عن ذلك الرسول وهو هو ، ريثما يشاهدون منه ما شاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه ، ولم يقتنعوا بالتولي : ﴿ وَقَالُوا ﴾ في حقه : ﴿ مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ

﴿ أي : قالوا تارة : يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف . وأخرى مجنون ، أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا . فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضعف ، وإذا شبع طغى .

(331/697)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ بطريق الالتفات ، لمزيد التوبيخ والتهديد ، وما بينهما اعتراض . أي : [في المطبوع : ألى] : إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفاً قليلاً ، أو زماناً قليلاً . إنكم تعودون إثر ذلك إلى [في المطبوع : إى] ما كنتم عليه من العتو ، والإصرار على الكفر ، وتنسون هذه الحالة ، وفائدة التقييد بقوله : ﴿ قَلِيلاً ﴾ الدلالة على زيادة خبثهم ؛ لأنهم إذا عادوا قبل تمام الانكشاف ، كانوا بعده أسرع إلى العود . وصيغة الفاعل في الفعلين ، للدلالة على تحققهما لا محالة ، ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى ، بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتوّ والعناد . انتهى ما قاله أبو السعود بزيادة .

فصل :

وأما الوجه الثالث في الآية ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي . حدثنا جعفر بن مسافر . حدثنا يحيى بن حسان . حدثنا ابن مهيعة . حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ قال : كان يوم فتح مكة . قال ابن كثير : وهذا القول غيب جداً . بل منكر . انتهى .

أي لأنه لم يرو مرفوعاً ولا موقوفاً على ابن عباس ، ترجمان القرآن ، أو غيره من الصحب ، إلا أن عدم كونه مأثوراً لا ينافي احتمال لفظ الآية له ، وصدقها عليه ، لاسيما ، ويؤيده قوله تعالى في آخر السورة : ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ مما هو وعد بظهوره عليهم ، وكان ذلك يوم الفتح . وحينئذ ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ ﴾ أي : ما ينزل بهم يومئذ ، برفع القتل والأسر عنهم . ومعنى : ﴿ عَائِدُونَ ﴾ أي : إلى لقاء الله ومجازاته .

فصل :

(332/697)

يظهر مما نقلناه عن السلف في هذه الآية من الأقوال الثلاثة ، أن هذه الآية من الآي اللاتي أخذت من الصحب ، عليهم الرضوان ، اهتماماً في معناها ، وعناية في البحث عن المراد منها . حتى كان ابن مسعود مصراً على وجه ، وعلي وابن عباس وحذيفة على وجه

آخر . على ما أسند عنهم من طرق ، ولعمر الحق ! إن هذه الآية لجديرة بزيادة العناية . وهكذا كل ما كان من معارك الأنظار للأئمة الكبار . وسبب الاختلاف هو إيجاز [في المطبوع : إيجار] الأسلوب الكريم ، وإيثاره من الألفاظ أرقها ، وأوجزها . مما يصدق لبلاغته حقيقة تارة ومجازاً أخرى . هذا أولاً .

وثانياً ، لما كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات ، كان ذلك مما يقرب بينهما ، ويدعوا إلى اتحاد المراد منهما . لما تقرر من شرح السنة للكتاب ، وهذا ما درج عليه المحدثون قاطبة . فترى أحدهم إذا رأى في خبر ما يشير إلى آية ، قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتعده . وأما من فتح للتدبر باباً ، ومهد للنظر مجالاً ، وأرى أن الأثر قد يكون من محمولات الآية وما صدقاتها ، وأنها أعم وأشمل ، أو إن حمل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه . فذاك وسّع للسالك المسالك ، وفتح للمريد المدارك ، ورقاه من حظيره النقل إلى فضاء العقل . ولكلٍّ وجهة .

(333/697)

إذا علمت ذلك ، رأيت أن من فسر هذه الآية بالمجاعة التي حصلت لقريش ، أمكنه تطبيق الآية عليها مجازاً في بعض مفرداتها ، وحقيقة في بقيتها وفي وقوع مصداقها ، في رأيه . ومن

فسرها بالدخان المنتظر ، المروي من أشراط الساعة ، وقف مع المروي ورأى أنه تفسيرها ؛ لأن الأصل التوافق والحمل على المعهود ؛ لأنه الأقرب خطوراً والأسبق حضوراً ، ومن فسرها بالظهور عليهم يوم الفتح ، رأى أنها من بليغ المجاوز وبديع الكناية في ذلك ، وأن الوعد بالارتقاب . كثر أشباهه ونظائره في غير ما آية ، مراداً به الفتح . كآية : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ [السجدة : 28 – 30] .

فهذا وأمثاله يبين مآخذ الأئمة ، ومداركهم في التأويل . وبه يعلم أن أطراف المدارك قد تتجاذب اللفظ فتستوقف الرأي عن التشيع لمدرك دون آخر . ما لم يكن ثمة ما يرشح أحدها وقد يظن الواقف على كلام الرازي المتقدم ، واحتجاجه للوجه الثاني بما أطال به ، أن لا منتدح ، بعد ، عنه . مع أن للذاهب إلى غيره أن يجيب عن احتجاجه بما أسلفنا من صحة المجاز . بل وقوّته هنا ؛ لأن المقام مقام إنذار ، وإيعاد ، والذوق أكبر حاكم وإليه مرد البلاغة . ولا يلزم المتأول نكرانه للدخان المنتظر كما قد يتوهم . بل يتعرف بأنه آية آتية يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وينقلب هذا النظام إلى نشأة ثانية ، وأنه لا يلزم من الاشتراك اللفظي اتحاد المتلو والمروي .

وبالجملة ، فاللفظ الكريم يتناول المعاني الثلاثة . وسببه تحقق مصداق الجميع . وأما تعيين

واحد منها للمراد ، فصعب جداً فيما أراه ، لاسيما ولم يتفق الصحب على رأي فيها .

هذا ما نقوله الآن . والله العلم . وقوله تعالى :

(334/697)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : ابتلينا ، قبل هؤلاء المشركين ، قوم فرعون ، بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا . فاختاروا الكفر على الإيمان : ﴿ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : على الله والمؤمنين ، أو في نفسه . فعلى الأول كريم بمعنى مكرم أي : معظَّم . وعلى الثاني ، من الكرم بمعنى الاتصاف بالخصال الحميدة ، حسباً ونسباً .

. . . .

﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ أي : أرسلوا معي بني إسرائيل ، لأسير بهم إلى بلادنا الأولى ، وأطلقوهم من أسركم وحبسكم ؛ فإنهم قوم أحرار ، أبوا – للضيم – هذه الديار : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي : على وحيه ورسالته ، التي حمّلنيها إليكم ؛ لأنذركم بأسه إن عصيتم .

﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : بإنكار ربوبيته ، ودعوى الربوبية لأنفسكم ، وتكذيب

رسوله ، وغضب عباده : ﴿ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : حجة واضحة على ربوبية الله ، ونفي ربوبيتكم ، وعلى رسالتي ، وعلى أن بني إسرائيل عباده الخاصة .

(335/697)

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ أي : اعتصمت به من رجمكم ؛ يعني القتل ، فعصمني ، فلا ينالني منك مكروه ، مع أنه لا يعصم من افترى عليه ، وقصد بهذه الجملة ، إظهار مزيد شجاعته وثباته في موقف تضطراب فيه الأفئدة ، وتزلّ الأقدام ، خوفاً ورعباً ، وما ذاك إلا لإيوائه إلى عصمة الله وتأييده .

﴿ وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أي : فكونوا بمعزل عني . فلست بموالٍ منكم أحداً .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ أي : لما تابوا عن إجابته : ﴿ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ أي : مشركون مفسدون .

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ أي : فأجاب دعاءه ، وأوحى إليه بأن سر بقومك ليلاً : ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي : إن فرعون ، وقومه من القبط متبعوكم ، إذا شخصتم عن بلدهم ، وأرضهم ليرجعوكم .

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ﴾ أي : فإذا قطعت البحر أنت وأصحابك ، فاتركه ساكناً على

حاله التي كان عليها حين دخلته ، ولا تضربه بعصاك ليدخله القبط فيغرقوا : ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُوا ﴾ أي : بعد هلاكهم بالغرق : ﴿ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي : بساتين وعيون يسقى منها ، ويتنعم بالنظر فيها ، هذا في التفكة والتنزه .

(336/697)

﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ أي : قائمة مزارعهم للقوت : ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : محافل مزينة ، ومنازل مزخرفة .

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ أي : متنعمين من نساء ، وأموال ، وحشم ، وما لا يحصى من المشتهيات .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : أخرجناهم مثل هذا الإخراج . فالكاف ، أو الجار والمجرور صفة مصدر مفهوم من الترك . أو هو خبر محذوف ؛ أي : الأمر كذلك . والمراد به التأكيد والتقرير

﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ يعني من خلفهم بعد مهلكهم .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ ﴾ قال الزمخشري : إذا مات رجل خطير ، قالت العرب في تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس

. قال جرير :

~تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا

وقالت الخارجية :

~أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقاً كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

(337/697)

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل . مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه ، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنه ، من بكاء مصلى المؤمن ، وآثاره في الأرض ، ومصاعد عمله ، ومهابط رزقه في السماء : تمثيل . ونفي ذلك عنهم في قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ ﴾ فيه تهكم بهم وبجالهم ، المنافية لحال من يعظم فقده ، فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض ، وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين . يعني : فما بكى عليهم أهل السماء ، وأهل الأرض : ﴿ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ أي : مؤخّرين بالعقوبة . بل عجلوا بها ، زيادة سخط عليهم .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ يعني استعباد فرعون ، وقتله أبناءهم .

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من العذاب ، على حذف مضاف ، أو جعله عذاباً مبالغةً لإفراطه

في التعذيب ، أو حال من المهين ، بمعنى واقعاً من جهته : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً ﴾ أي : متكبراً على الناس : ﴿ مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي : المتجاوزين الحدّ ، في العتو والشر .

﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي : فضلناهم لأجل علمٍ معهم ، على عالمي زمانهم . أو عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويؤثروا .

(338/697)

﴿ وَآتَيْنَاهُم ﴾ أي : زيادة على اختبارهم ، وتفضيلهم : ﴿ مِّنَ الْآيَاتِ ﴾ أي : المعجزات والكرامات : ﴿ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ ﴾ أي : نعمة ظاهرة ؛ لأنهم حجة واضحة على أعدائهم .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاء ﴾ أي : مشركي قريش : ﴿ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى ﴾ أي : المتعقبة للحياة ، كأنهم أرادوا إلا موتتنا هذه . وليس القصد إلى إثبات ثانية . قال الإسنوي في " التمهيد " : الأول في اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان ، وقد لا يكون . كما تقول : هذا أول ما اكتسبته . فقد تكتسب بعده شيئاً ، وقد لا تكتسب . كذا ذكره جماعة ، منهم الواحدي في تفسيره ، والزجاج . ومن فروع المسألة ، ما لو قال : إن كان أول ولد تلدينه ذكراً فأنت طالق ، تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره ، بالاتفاق . قال أبو علي :

اتفقوا على أن ليس من شرط كونه أولاً ، أن يكون بعده آخر . وإنما الشرط أن لا تقدم عليه غيره . انتهى .

وما ذكر أظهر مما للزمخشري هنا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أي : مبعوثين .

﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : في بعثنا بعد بلائنا في قبورنا . قال ابن كثير : وهذه حجة باطلة ، وشبهة فاسدة . فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لا في دار الدنيا . بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، ثم أنذرهم تعالى بأسه الذي لا يردّ ، كما حلّ بأشباههم من المشركين ، بقوله سبحانه :

(339/697)

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [37] .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ أي : في القوة والمنعة : ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أي : أهلكناهم بجرمهم ، وهو كفرهم وفسادهم . وهم ما هم . فما بال قريش لا تخاف أن يصيبها ما أصابهم ؟ وقوم تبع هم حمير وأهل سبأ . أهلكهم الله عز وجل وفرقهم في البلاد شذر مذر . كما تقدم في سورة سبأ . قال ابن كثير : وقد كانوا عرباً

من قحطان . كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً . كما يقال : كسرى ، لمن ملك الفرس . وقيصر ، لمن ملك الروم . وفرعون ، لمن ملك مصر كافراً . والنجاشي ، لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس .

(340/697)

لكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن ، وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند ، واشتد ملكه ، وعظم سلطانه وجيشه ، واتسعت مملكته ، وبلاده ، وكثرت رعاياه ، وهو الذي مصّر الحيرة ، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية ، وذلك في أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه ، وقاتلوه بالنهار , وجعلوا يقْرُونَه بالليل . فاستحيا منه وكف عنهم ، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود ، كانا قد نصحاه , وأخبراه أن لا سبيل له على هذه البلدة . فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان . فرجع عنها ، وأخذهما معه إلى بلاد اليمن . فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة . فنهياه عن ذلك أيضاً . وأخبراه بعظمة هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وأنه سيكون له شأن عظيماً على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان ، فعظمها وطاف بها , وكساها المُلاء والوصائل والحبر . ثم كرّ راجعاً إلى اليمن ، ودعا أهلها إلى التهود معه . وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة

والسلام ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام . فتهود معه عامة أهل اليمن .

(341/697)

وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه " السيرة " . وترجمة الحافظ ابن عساكر في " تاريخه " ترجمة حافلة ، وذكر أنه ملك دمشق . وساق ما روي في النهي عن سبه ولعنه . قال ابن كثير : وكأنه ، والله أعلم . كان كافراً ثم أسلم ، وتابع دين الكليم على يدي من كان أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عليه السلام ، وحج البيت في زمن الجرهميين وكساه المُلاء ، والوصائل من الحرير والحبر ، ونحر عنده ستة آلاف بدنة ، وعظمه وأكرمه ، ثم عاد إلى اليمن ، وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطة ، عن أبي بن كعب ، وعبد الله بن سلام ، وعبد الله بن عباس ، رضي الله عنهم ، وكعب الأحبار ، وإليه المرجع في ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً , وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهبه بن منبه ، ومحمد بن إسحاق في " السيرة " كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ، ترجمة تبع هذا ، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل ؛ فإن تبعا هذا المشار

إليه في القرآن أسلم قومه على يديه , ثم لما توفي عادوا بعده إلى عبادة الثيران والأصنام ، فعاقبهم الله تعالى ، كما ذكره في سورة سبأ .

وتبع هذا هو تبع الأوسط . واسمه أسعد أبو كرب . ولم يكن في حمير أطول مدة منه .

وتوفي قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بنحو من سبعمائة سنة ، وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة ، أن هذه البلدة مهاجر نبي في آخر الزمان اسمه أحمد ، قال في ذلك شعراً ، واستودعه عند أهل المدينة . فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف ، وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، الذي نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في داره ، وهو :

~شَهِدْتُ عَلَىْ أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُوْلٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمْ

~فَلَوْ مُدَّ عُمْرِيْ إِلَىْ عُمْرِهِ لَكُنْتُ وَزِيْراً لَهُ وَابْنُ عَمْ

(342/697)

~وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ وَفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ غَمْ

ثم ساق ابن كثير آثاراً في النهي عن سبه , وبالجملة فإن قصته المذكورة , والمروي في شأنه ، وإن لم يكن سنده على شرط الصحيح ، إلا إن ذلك مما يتحمل التوسع فيه ، لكونه نبأ محضاً

مجرداً عن حكم شرعي . نعم ، لا يشك أن قريشاً كانت تعلم من فخامة نبئه المروي لها بالتواتر ، ما فيه أكبر موعظة لها ، ولذا طوى نبأه ، إحالة على ما تعرفه من أمره ، وما تسمر به من شأنه . وما القصد إلا العظة والاعتبار ، لا قصّ ذلك خبراً من الأخبار ، وسمراً من الأسمار ، كما هو السر في أمثال نبئه . وبالله التوفيق .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي : الاستدلال على خالقهما ، لعبادته وطاعته : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : حكمة خلقها ، فيعرضون عنه .

(343/697)

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ أي : فصل الله بين الخلائق وقضاءه عليهم ، ليجزيهم بما أسلفوا من خير أو شر : ﴿ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا ﴾ أي : عليه إثابة ، أو تحمل عقاب : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴾ أي : بأن وفّقه للإيمان ، والعمل الصالح : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الغالب في انتقامه من أعدائه : ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : بأوليائه ، وأهل طاعته .

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ أي : التي هي أخبث شجرة معروفة في البادية .

﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ أي : الفاجر الكثير الآثام .

﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ وهو دردي الزيت ، أي : عكره في قعره : ﴿ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ أي : يضطرب فيها من شدة الحرارة فيقلق القلوب ويحرقها . وقوله : ﴿ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ أي : الماء الحار الذي انتهى غليانه . وقوله : ﴿ فِي الْبُطُونِ ﴾ كقوله : ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ [الهمزة : 6 - 7] ، وهذه الآية كآية الصافات : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ [الصافات : 62 - 67] ,

(344/697)

﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ ﴾ أي : ادفعوه بعنف : ﴿ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ أي : وسطها ، ومعظمها .

﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ أي : لتستوفي جميع أجزاء بدنه نصيبها .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي : يقال له ذلك ، على سبيل الهزؤ والتهكم ، فيتم له ، مع العذاب الأول - وهو الحسى - العذابُ العقلي .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي : العذاب أو الأمر : ﴿ مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ أي : تشكّون ، مع ظهور دلائله ، أو تتمارون وتتلاحقون

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أي : يأمن صاحبه من الخوف والفزع .

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي : ما رقّ من الحرير وكثف :

﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أي : في مجالسهم ، أو أماكنهم ؛ لحسن ترتيب الغرف ، وتصفيف منازلهم

.

﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي : قرنّاهم بما فيه قرة أعينهم ، واستئناس قلوبهم ، لوصولهم بمحبوبهم ، وحصولهم على كمال مرادهم .

(345/697)

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ أي : يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ، آمنين من كل ضرر .

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ قال ابن جرير : أي : لا يذوق هؤلاء المتقون في الجنة ، الموت بعد الموتة الأولى ، التي ذاقوها في الدنيا .

وكان بعض أهل العربية يوجه : ﴿ إِلَّا ﴾ هنا بمعنى سوى ؛ أي : سوى الموتة الأولى .

انتهى .

يعني أن الاستثناء منقطع ، أي : لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا : ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أي : سهلناه حيث أنزلناه بلغتك ، وهو فذلكة للسورة : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : يتعظون بعبره وعظاته وحججه ، فينيبوا إلى طاعة ربهم ويذعنوا للحق : ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ أي : ما يحل بهم من زهوق باطلهم : ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أي : منتظرون عند أنفسهم غلبتك ، أو هو قولهم : ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ وهذا وعد له صلى الله عليه وسلم بالنصرة والفتح عليهم , وتسلية ووعيد لهم . وقد أنجز الله وعده ، كما قال سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : 21] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : 51] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 298.316 ﴾

(346/697)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) ﴾

تبدأ السورة بالحرفين حا . ميم . على سبيل القسم بهما وبالكتاب المبين المؤلف من جنسهما . وقد تكرر الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور ؛ فأما عن القسم بهذه الأحرف كالقسم بالكتاب ، فإن كل حرف معجزة حقيقية أو آية من آيات الله في تركيب الإنسان ، وإقداره على النطق ، وترتيب مخارج حروفه ، والرمز بين اسم الحرف وصوته ، ومقدرة الإنسان على تحصيل المعرفة من ورائه . . وكلها حقائق عظيمة تكبر في القلب كلما تدبرها مجرداً من وقع الألفة والعادة الذي يذهب بكل جديد !

فأما المقسم عليه فهو تنزيل هذا الكتاب في ليلة مباركة :

﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة . إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴾ . .

والليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن هي والله أعلم الليلة التي بدأ فيها نزوله ؛ وهي إحدى ليالي رمضان ، الذي قيل فيه : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ والقرآن لم ينزل كله في تلك الليلة ؛ كما أنه لم ينزل كله في رمضان ؛ ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض ؛ وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك . وهذا يكفي في تفسير إنزاله في الليلة المباركة .

وإنها لمباركة حقاً تلك الليلة التي يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية ، والتي يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهي في حياة البشر ؛ والتي يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة في هذا القرآن ترجمة يسيرة ، تستجيب لها الفطرة وتلبيها في هوادة ؛ وتقيم

على أساسها عالماً إنسانياً مستقراً على قواعد الفطرة واستجاباتها ، متناسقاً مع الكون الذي يعيش فيه ، طاهراً نظيفاً كريماً بلا تعمل ولا تكلف ؛ يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولاً بالسماء في كل حين .

(347/697)

ولقد عاش الذين أنزل القرآن لهم أول مرة فترة عجيبة في كنف السماء ، موصولين مباشرة بالله ؛ يطلعهم أولاً بأول على ما في نفوسهم ؛ ويشعرهم أولاً بأول بأن عينه عليهم ، ويحسبون هم حساب هذه الرقابة ، وحساب هذه الرعاية ، في كل حركة وكل هاجسة تخطر في ضمائرهم ؛ ويلجأون إليه أول ما يلجأون ، واثقين أنه قريب مجيب .

ومضى ذلك الجيل وبقي بعده القرآن كتاباً مفتوحاً موصولا بالقلب البشري ، يصنع به حين يتفتح له ما لا يصنعه السحر ؛ ويحول مشاعره بصورة تحسب أحياناً في الأساطير !

وبقي هذا القرآن منهجاً واضحاً كاملاً صالحاً لإنشاء حياة إنسانية نموذجية في كل بيئة وفي كل زمان . حياة إنسانية تعيش في بيئتها وزمانها في نطاق ذلك المنهج الإلهي المتميز الطابع ، بكل خصائصه دون تحريف . وهذه سمة المنهج الإلهي وحده . وهي سمة كل ما يخرج من يد القدرة الإلهية .

إن البشر يصنعون ما يغني مثلهم ، وما يصلح لفترة من الزمان ، ولظرف خاص من الحياة .

فأما صنعة الله فتحمل طابع الدوام والكمال ، والصلاحية المستمرة وتلبية الحاجات في كل ظرف وفي كل حين ؛ جامعة بين ثبات الحقيقة وتشكل الصورة في اتساق عجيب .

أنزل الله هذا القرآن في هذه الليلة المباركة . . أولا للإنذار والتحذير : ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ . فالله يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه وحاجته إلى الإنذار والتنبيه .

وهذه الليلة المباركة بنزول هذا القرآن كانت فيصلاً وفارقاً بهذا التنزيل :

﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ . .

وقد فرق فيها بهذا القرآن في كل أمر ، وفصل فيها كل شأن ، وتميز الحق الخالد والباطل الزاهق ، ووضعت الحدود ، وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين ؛ فلم يبق هناك أصل من الأصول التي تقوم عليها الحياة غير واضح ولا مرسوم في دنيا الناس ، كما هو واضح ومرسوم في الناموس الكلي القديم . وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره ، ومشيئته في إرسال الرسل للفصل والتبيين :

﴿ أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ﴾ .

وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين :

﴿ رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴾ . .

وما تتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى في تنزيل هذا القرآن ، بهذا اليسر ، الذي يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم في العروق . وتحول الكائن البشري إلى إنسان كريم ، والمجتمع البشري إلى حلم جميل ، لولا أنه واقع تراه العيون ! إن هذه العقيدة التي جاء بها القرآن في تكاملها وتناسقها جميلة في ذاتها جمالاً يحبّ ويعشق ؛ وتتعلق به القلوب ! فليس الأمر فيها أمر الكمال والدقة وأمر الخير والصلاح . فإن هذه السمات فيها تظل ترتفع وترتفع حتى يبلغ الكمال فيها مرتبة الجمال الحبيب الطليق . الجمال الذي يتناول الجزئيات كلها بأدق تفصيلاتها ، ثم يجمعها ، وينسقها ، ويربطها كلها بالأصل الكبير .

﴿ رحمة من ربك ﴾ نزل بها هذا القرآن في الليلة المباركة . . ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ . يسمع ويعلم ، وينزل ما ينزل للناس على علم وعلى معرفة بما يقولون وما يعملون ، وما يصلح لهم ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم .

وهو المشرف على هذا الكون الحافظ لمن فيه وما فيه :

﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين ﴾ . .

فما ينزله للناس يربيهم به ، هو طرف من ربوبيته للكون كله ، وطرف من نواميسه التي تصرف الكون . . والتلويح لهم باليقين في هذا إشارة إلى عقيدتهم المضطربة المزعزعة المهوشة ، إذ كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، ثم يتخذون من دونه أرباباً ، مما يشي بغموض هذه الحقيقة في نفوسهم وسطحيتها وبعدها عن الثبات واليقين .

وهو الإله الواحد الذي يملك الموت والحياة ؛ وهو رب الأولين والآخرين :

﴿ لا إله إلا هو يحيي ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ . .

(349/697)

والإحياء والإماتة أمران مشهودان للجميع ، وأمرهما خارج عن طاقة كل مخلوق . يبدو هذا بأيسر نظر وأقرب تأمل . ومشهد الموت كمشهد الحياة في كل صورة وفي كل شكل يلمس القلب البشري ويهزه ؛ ويستجيشه ويعده للتأثر والانفعال ويهيئه للتقبل والاستجابة . ومن ثم يكثر ذكره في القرآن وتوجيه المشاعر إليه ولمس القلوب به بين الحين والحين .

وعندما يبلغ الموقف هذا الحد من الاستثارة والاستجاشة يضرب السياق عنه ، ويلتفت بالحديث إلى حكاية حالهم تجاهه ، وهو حال مناقض لما ينبغي أن يكونوا عليه تجاه حقيقة

الموقف الجاد الذي لا مجال للعب فيه : ﴿ بل هم في شك يلعبون . فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس ، هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا : معلم مجنون . إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ . .

يقول : إنهم يلعبون إزاء ذلك الجد ، ويشكون في تلك الآيات الثابتة . فدعهم إلى يوم هائل عصيب : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس . هذا عذاب أليم ﴾ . .

وقد اختلف السلف في تفسير آية الدخان . فقال بعضهم . إنه دخان يوم القيامة ، وإن التهديد بارتقابه كالتهديد المتكرر في القرآن . وإنه آت يترقبونه ويترقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : بل هو قد وقع فعلاً ، كما توعدهم به . ثم كشف عن المشركين بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم فنذكر هنا ملخص القولين وأسانيدها . ثم نعقب بما فتح الله به ، ونحسبه صواباً إن شاء الله .

(350/697)

قال سليمان بن مهران الأعمش ، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح ، عن مسروق . قال : دخلنا المسجد يعني مسجد الكوفة عند أبواب كندة . فإذا رجل يقص على أصحابه : ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ . . تدرون ماذا الدخان ؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام . قال : فأتينا ابن مسعود رضي الله عنه فذكرنا ذلك له ، وكان مضطجعاً ففزع فقعد ، وقال : إن الله عز وجل قال لنبيكم صلى الله عليه وسلم :

(351/697)

﴿ قل : ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . أحدثكم عن ذلك . إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف . فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ؛ وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد قال الله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ . . فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : يا رسول الله استسق الله لمضر

فإنها قد هلكت . فاستسقى صلى الله عليه وسلم لهم فسقوا . فنزلت . ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ . . قال ابن مسعود رضي الله عنه : أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ؟ . . فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ . . قال : يعني يوم بدر . قال ابن مسعود رضي الله عنه فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام " . . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين . رواه الإمام أحمد في مسنده . وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما . وعند ابن جرير ، وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به . وقد وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى ، جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي . وهو اختيار ابن جرير .

(352/697)

وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما ورد في حديث أبي سريحة حذيفة ابن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال : " أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفة ونحن نتذاكر الساعة ، فقال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة

حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرف ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا " . تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عوف ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي ، حدثني ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال "

ورواه الطبراني عن هاشم بن زيد ، عن محمد بن إسماعيل بن عياش بهذا النص (وقال ابن كثير في التفسير : وهذا إسناد جيد) .

وقال ابن جرير كذلك : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن ابن جريج ، عن عبد الله بن أبي مليكة . قال : غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم ، فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت . قلت : لم ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت . . وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن

ابن عمر ، عن سفيان ، عن عبد الله بن أبي يزيد ، عن عبد الله ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس : رضي الله عنهما فذكره .

(353/697)

قال ابن كثير في التفسير : (وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن . وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها ، مما فيه مقتنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ . . أي بيّن واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى : ﴿ يغشى الناس ﴾ . . أي يتغشاهم ويعميهم . ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه : ﴿ يغشى الناس ﴾ . . وقوله تعالى : ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ . . أي يقال لهم ذلك ، تقريعاً وتوبيخاً . كقوله تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ . أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ . . أي يقول الكافرون إذا

عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله جلت عظمته : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ وكذا قوله جل وعلا : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ ﴾ وهكذا قال جل وعلا ها هنا : ﴿ أنى لهم الذكرى ، وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا : معلم مجنون ﴾ . . يقول : كيف لهم التذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة ، ومع هذا تولوا عنه ، وما وافقوه بل كذبوه ، وقالوا : معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته : ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ الآية . وقوله عز وجل : ﴿ ولو ترى إذ فزعوا ، فلا فوت ، وأخذوا من مكان قريب . وقالوا : آمنا به . وأنى لهم التناوش من

(354/697)

مكان بعيد ؟ ﴾

إلى آخر السورة . . وقوله تعالى : ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ . . يحتمل معنيين : أحدهما : أنه يقول تعالى : ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا

لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى : ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون ﴾ وكقوله جلت عظمته : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ والثاني : أن يكون المراد : إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ، ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم . كقوله تعالى : ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم ، بل كان قد انعقد سببه عليهم . . وقال قتادة : إنكم عائدون إلى عذاب الله . . وقوله عز وجل : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ . . فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه ، وجماعة عنه على تفسير الدخان بما تقدم وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفي عنه وأبي بن كعب رضي الله عنه وهو محتمل : والظاهر أن ذلك يوم القيامة . وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً . قال ابن جرير : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذاء . عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما قال ابن مسعود رضي الله عنه البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول : هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه ، والله أعلم) . . انتهى كلام ابن كثير . .

ونحن نختار قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة ، وقول ابن كثير في تفسيره . فهو تهديد له نظائره الكثيرة في القرآن الكريم ، في مثل هذه المناسبة .

ومعناه : إنهم يشكون ويلعبون . فدعهم وارتقب ذلك اليوم المرهوب . يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس . ووصف هذا بأنه عذاب أليم . وصور استغاثتهم : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ . . ورده عليهم باستحالة الاستجابة ، فقد مضى وقتها : ﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ . . يعلمه ذلك الغلام الأعجمي ! وهو كما زعموا مجنون . .

وفي ظل هذا المشهد الذي يرجون فيه كشف العذاب فلا يجابون يقول لهم : إن أمامكم فرصة بعد لم تضع ، فهذا العذاب مؤخر عنكم قليلاً وأنتم الآن في الدنيا . وهو مكشوف عنكم الآن فآمنوا كما تعدون أن تؤمنوا في الآخرة فلا تجابون . وأنتم الآن في عافية لن تدوم .

فإنكم عائدون إلينا ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ . . يوم يكون ذلك الدخان الذي شهدتم مشهده في تصوير القرآن له . ﴿ إنا منتقمون ﴾ من هذا اللعب الذي تلعبون ، وذلك البهت الذي تبهتون به الرسول صلى الله عليه وسلم إذ تقولون عنه : ﴿ معلم مجنون ﴾ . . وهو الصادق الأمين . .

بهذا يستقيم تفسير هذه الآيات ، كما يبدو لنا ، والله أعلم بما يريد .

بعد ذلك يأخذ بهم في جولة أخرى مع قصة موسى عليه السلام . فيعرضها في اختصار ينتهي ببطشة كبرى في هذه الأرض . بعد إذ أراهم بطشته الكبرى يوم تأتي السماء بدخان مبين :

﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ، وجاءهم رسول كريم : أن أدوا إليَّ عباد الله ، إني لكم رسول أمين . وألا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين . وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ، وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون .

﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . . فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون . واترك البحر رهواً ، إنهم جند مغرقون ﴾ .

(356/697)

﴿ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ .

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ . .

هذه الجولة تبدأ بلمسة قوية لإيقاظ قلوبهم إلى أن إرسال الرسول لقومه قد يكون فتنة وابتلاء . والإملاء للمكذبين فترة من الزمان ، وهم يستكبرون على الله ، ويؤذون رسول الله والمؤمنين معه قد يكون كذلك فتنة وابتلاء . وأن إغضاب الرسول واستنفاد حلمه على أذاهم ورجائه في هدايتهم قد يكون وراءه الأخذ الأليم والبطش الشديد :

﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ . .

وابتليناهم بالنعمة والسلطان ، والتمكين في الأرض ، والإملاء في الرخاء ، وأسباب الثراء والاستعلاء .

﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ . .

وكان هذا طرفاً من الابتلاء ، ينكشف به نوع استجابتهم للرسول الكريم ، الذي لا يطلب منهم شيئاً لنفسه ؛ إنما يدعوهم إلى الله ، ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شيء لله ، وألا يستبقوا شيئاً لا يؤدونه من ذوات أنفسهم يضنون به على الله :

﴿ أن أدوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين . وألا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين . وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ . .

إنها كلمات قصيرة تلك التي جاءهم بها رسولهم الكريم موسى عليه السلام :

إنه يطلب إليهم الاستجابة الكلية . والأداء الكامل . والاستسلام المطلق . الاستسلام المطلق لله . الذي هم عباده . وما ينبغي للعباد أن يعلوا على الله . فهي دعوة الله يحملها

إليهم الرسول ، ومعه البرهان على أنه رسول الله إليهم . البرهان القوي والسلطان المبين ، الذي تذعن له القلوب . وهو يتحصن بربه ويعوذ به أن يسطوا عليه وأن يرجموه .

(357/697)

فإن استعصوا على الإيمان فهو يفاصلهم ويعتزلهم ويطلب إليهم أن يفاصلوه ويعتزلوه . وذلك منتهى النصفة والعدل والمسالمة .

ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة ، فهو يخشى الحق أن يظل طليقاً ، يحاول أن يصل إلى الناس في سلام وهدوء . ومن ثم يحارب الحق بالبطش . ولا يسالمه أبداً . فمعنى المسالمة أن يزحف الحق ويستولي في كل يوم على النفوس والقلوب . ومن ثم يبطش الباطل ويرجم ولا يعتزل الحق ولا يدعه يسلم أو يستريح !

ويختصر السياق هنا حلقات كثيرة من القصة ، ليصل إلى قرب النهاية . حين وصلت التجربة إلى نهايتها ؛ وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له ولن يستجيبوا لدعوته ؛ ولن يسالموه أو يعتزلوه . وبدا له إجرامهم أصيلاً عميقاً لا أمل في تخليهم عنه . عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير :

﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ . .

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيلة التي جنتها يداه؟ وإلا أن ينفض أمره بين يديه، ويدع له التصرف بما يريد؟

وتلقى موسى الإجابة إقراراً من ربه لما دمغ به القوم.. حقاً إنهم مجرمون..

﴿ فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون. واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ﴾..

والسرى لا يكون إلا ليلاً، فالنص عليه يعيد تصوير المشهد، مشهد السرى بعباد الله وهم بنو إسرائيل. ثم للإيحاء بجو الخفية، لأن سراهم كان خفية عن عيون فرعون ومن وراء علمه. والرهو: الساكن. وقد أمر الله موسى عليه السلام أن يمر هو وقومه وأن يدع البحر وراءه ساكناً على هيئته التي مر هو وقومه فيها، لإغراء فرعون وجنده باتباعهم، ليتم قدر الله بهم كما أراده: ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾.. فهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب الظاهرة. والأسباب ذاتها طرف من هذا القدر المحتوم.

(358/697)

ويختصر السياق حكاية مشهد الغرق أو عرضه، اكتفاء بالكلمة النافذة التي لا بد أن تكون: ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾.. ويمضي من هذا المشهد المضمر إلى التعقيب عليه؛ تعقيباً يشي بهوان فرعون الطاغية المتعالي وملئه الممالئ له على الظلم والطغيان. هوانه

وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود الذي كان يشمخ فيه بأنفه ، فيطأطئ له الملأ المفتونون به ؛ وهو أضأل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ، ولا يرثي له أحد على سوء المآل :

﴿ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ . .

ويبدأ المشهد بصور النعيم الذي كانوا فيه يرفلون . . جنات . وعيون . وزروع . ومكان مرموق ، ينالون فيه الاحترام والتكريم . ونعمة يتلذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين .

ثم ينزع هذا كله منهم أو ينزعون منه . ويرثه قوم آخرون وفي موضع آخر قال : ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ وبنو إسرائيل لم يرثوا ملك فرعون بالذات .

ولكنهم ورثوا ملكاً مثله في الأرض الأخرى . فالمقصود إذن هو نوع الملك والنعمة . الذي زال عن فرعون وملئه ، وورثه بنو إسرائيل !

ثم ماذا ؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس في هذه الأرض : ذهبوا فلم يأس على ذهابهم أحد ، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض ؛ ولم ينظروا أو يؤجلوا عند ما حل الميعاد :

﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ . .

وهو تعبير يلقي ظلال الهوان ، كما يلقي ظلال الجفاء . . فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء . ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء . وذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا جبارين في الأرض يطأون الناس بالنعال ! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه ، وهو مؤمن بربه ، وهم به كافرون ! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه !

(359/697)

ولو أحس الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله . ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه ، مقطوعين عنه ، لا تربطهم به آصرة ، وقد قطعت آصرة الإيمان .

وفي الصفحة المقابلة مشهد النجاة والتكريم والاختيار :

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ . .

ويذكر هنا نجاة بني إسرائيل من العذاب ﴿ المهين ﴾ في مقابل الهوان الذي انتهى إليه المتجبرون المتعالون المسرفون في التجبر والتعالي : ﴿ من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين

﴿ . .

ثم يذكر اختيار الله لبني إسرائيل على علم بحقيقتهم كلها ، خيرها وشرها . اختيارهم على العالمين في زمانهم بطبيعة الحال ، لما يعلمه الله من أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقهم بالاختيار والاستخلاف ؛ على كل ما قصه عنهم بعد ذلك من تلكو ومن انحراف والتواء . مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره قد يكون لأفضل أهل زمانهم ؛ ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالي ؛ إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة .

﴿ وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ . .

فتعرضوا للاختبار بهذه الآيات ، التي آتاهم الله إياها للابتلاء . حتى إذا تم امتحانهم ، وانقضت فترة استخلافهم ، أخذهم الله بانحرافهم والتوائهم ، وبنتيجة اختبارهم وابتلائهم ، فضربهم بمن يشردهم في الأرض ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وتوعدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بغوا في الأرض إلى يوم الدين . .

(360/697)

وبعد هذه الجولة في مصرع فرعون وملئه ، ونجاة موسى وقومه ، وابتلائهم بالآيات بعد فتنة فرعون وأخذه . . بعد هذه الجولة يعود إلى موقف المشركين من قضية البعث والنشور ، وشكهم فيها ، وإنكارهم لها . يعود ليربط بين قضية البعث وتصميم الوجود كله وبنائه على الحق والجد ، الذي يقتضي هذا البعث والنشور :

﴿ إن هؤلاء ليقولون : إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين .

فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين . وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم ﴾ . .

إن هؤلاء المشركين من العرب ليقولون : ما هي إلا الموتة التي نموتها ، ثم لا حياة ولا نشور . ويسمونها ﴿ الأولى ﴾ بمعنى السابقة المتقدمة على الموعد الذي يوعدونه للبعث والنشور . ويستدلون على أنه ليس هناك إلا هذه الموتة وينتهي الأمر . يستدلون بأن آباءهم الذين ماتوا هذه الموتة ومضوا لم يعد منهم أحد ، ولم ينشر منهم أحد ؛ ويطلبون الإتيان بهم إن كان النشور حقاً وصدقاً .

وهم في هذا الطلب يغفلون عن حكمة البعث والنشور ؛ ولا يدركون أنها حلقة من حلقات النشأة البشرية ، ذات حكمة خاصة وهدف معين ، للجزاء على ما كان في الحلقة الأولى . والوصول بالطائعين إلى النهاية الكريمة التي تؤهلهم لها خطواتهم المستقيمة في رحلة الحياة الدنيا ؛ والوصول بالعصاة إلى النهاية الحقيرة التي تؤهلهم لها خطواتهم المنتكسة المرتكسة في الحمأة المستقذرة . . وتلك الحكمة تقتضي مجيء البعث والنشور بعد انقضاء مرحلة الأرض كلها ؛ وتمنع أن يكون البعث لعبة تتم حسب رغبة أو نزوة بشرية لفرد أو لجماعة محدودة من البشر كي يصدقوا بالبعث والنشور ! وهم لا يكمل إيمانهم إلا أن يشهدوا بالغيب على هذه القضية ، التي يخبرهم بها الرسل ؛ ويقتضيها التدبر في طبيعة هذه الحياة ، وفي حكمة الله في خلقها على هذا الأساس . وهذا التدبر وحده يكفي للإيمان بالآخرة ، والتصديق بالنشور .

وقبل أن يوجههم هنا إلى هذا التدبر في تصميم الكون ذاته ، يلمس قلوبهم لمسة عنيفة بمصرع قوم تبع . والتبابعة من ملوك حمير في الجزيرة العربية . ولا بد أن القصة التي يشير إليها كانت معروفة للسامعين ، ومن ثم يشير إليها إشارة سريعة للمس قلوبهم بعنف ، وتحذيرها مصيراً كهذا المصير :

﴿ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ﴾ . .

وفي ظل هذه الذكرى ، وارتجاف القلوب من تصورها ، يقودهم إلى النظر في تصميم السماوات والأرض ؛ وتنسيق هذا الكون ؛ وما يبدو وراء هذا التنسيق من قصد وصدق وتدبير :

﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾ . .

واللفتة لطيفة ، والمناسبة بين خلق السماوات والأرض وما بينهما وبين قضية البعث والنشور مناسبة دقيقة .

(362/697)

ولكن الفطرة البشرية تدركها في يسر حين توجه إليها مثل هذا التوجيه .

والواقع أن تدبر ما في خلق السماوات والأرض من دقة وحكمة وقصد ظاهر وتنسيق ملحوظ ، وخلق كل شيء بمقدار لا يزيد ولا ينقص عن تحقيق الغاية من خلقه ، وتحقيق تناسقه مع كل شيء وحوله ، وظهور القصد في خلق كل شيء بالقدر والشكل الذي خلق به ، وانتفاء المصادفة والبعث في أي جانب صغر أو كبر في تصميم هذه الخلائق الهائلة وما

فيها من خلائق دقيقة لطيفة .

الواقع أن تدبر هذا كله يوقع في النفس أن لهذا الخلق غاية فلا عبث فيه ؛ وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه . وأن له نهاية لم تأت بعد ، ولا تجيء بالموت ، بعد هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب . وأن أمر الآخرة ، وأمر الجزاء فيها حتم لا بد منه من الناحية المنطقية البحتة لهذا التصميم المقصود في بناء هذه الحياة وهذا الوجود . حتى تتحقق به النهاية الطبيعية للصلاح والفساد في هذه الحياة الدنيا . هذا الصلاح وهذا الفساد اللذان ركب الإنسان على أساس الاستعداد لهما ؛ وظهور جهده هو وإرادته في اختيار أحدهما ، وتلقي جزاء هذا الاختيار في نهاية المطاف .

وإن خلق الإنسان بهذا الاستعداد المزدوج ، ونفي العبث عن فعل الله سبحانه ، ليقتضيان أن يكون لهذا الإنسان مصير معين ، ينتهي إليه بعد انتهاء رحلته الأرضية . وهذا هو صميم قضية الآخرة . ومن ثم يجيء بعد توجيه النظر إلى الحكمة والقصد في خلق السماوات والأرض . يجيء قوله تعالى :

﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم ﴾ . .

يجيء هذا القول طبيعياً ومرتبطاً بما قبله كل الارتباط . فالحكمة تقتضي أن يكون هناك يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم في الأرض ، ومن كل قربى وآصرة ، ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم ، يتلقون جزاء ما عملت أيديهم ، لا ينصرهم أحد ، ولا يرحمهم أحد ، إلا من ينال رحمة ربه العزيز القادر الرحيم العطوف . الذي خرجوا من يده سبحانه ليعملوا ؛ وعادوا إلى يده سبحانه ليتسلموا منه الجزاء . وما بين خروجهم ورجوعهم إنما هو فرصة للعمل ومجال للابتداء .

هكذا تقتضي الحكمة الظاهرة في تصميم هذا الكون ، وفي خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق ، وفي التقدير الواضح والقصد الناطق في كل شيء في هذا الوجود . .

وبعد تقرير هذا المبدأ يعرض عليهم مشهداً من مشاهد يوم الفصل ؛ وما ينتهي إليه العصاة والطائعون من عذاب ومن نعيم . مشهداً عنيفاً يتناسق مع ظلال السورة وجوها العنيف :

﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم .

(364/697)

ويبدأ المشهد بعرض لشجرة الزقوم , بعد تقرير أنها طعام الأثيم . عرض مفزع مرعب مخيف . إن هذا الطعام مثل دردي الزيت المغلي – وهو المهل – يغلي في البطون كغلي الحميم . وهناك هذا الأثيم . هذا المتعالي على ربه وعلى الرسول الأمين . وهذا هو الأمر العالي يصدر إلى الزبانية ليأخذوه في عنف يليق بمقامه(الكريم !) :

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) . .

خذوه أخذاً واعتلوه عتلاً , وشدوه في إهانة وجفوة فلا كرامة ولا هوادة . وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلي الذي يشوي ويكوي . ومع الشد والجذب والدفع والعتل والكي والشي . . التأنيب والترذيل:

(ذق . إنك أنت العزيز الكريم) . .

وهذا جزاء العزيز الكريم في غير ما عزة ولا كرامة , فقد كان ذلك على الله وعلى المرسلين !

(إن هذا ما كنتم به تمترون) . .

فقد كنتم تشكون في هذا اليوم كما كنتم تسخرون وتستهزئون !

(365/697)

وبينما الأخذ والعتل , والصب والكي , والتأنيب والخزي . . في جانب من جوانب الساحة . . يمتد البصر – بعين الخيال – إلى الجانب الآخر . فإذا (المتقون) الذين كانوا يخشون هذا اليوم ويخافون . إذا هم: (في مقام أمين) . . لا خوف فيه ولا فزع , ولا شد فيه ولا جذب , ولا عتل فيه ولا صب ! بل هم منعمون رافلون (في جنات وعيون) . . يلبسون من سندس – وهو الحرير الرقيق – ومن إستبرق – وهو الحرير السميك – ويجلسون متقابلين في مجالسهم يسمرون . كل ذلك ومثله تزويجهم بحور عين , يتم بهن النعيم . وهم في الجنة أصحاب الدار , يطلبون ما يشاءون و(يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) . . لا يتوقعون نهاية لهذا النعيم , فلا موت هنالك وقد ذاقوا الموتة الأولى , وغيرها لا يذوقون . وذلك في مقابل ما كان المشركون يقولون: (إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) . . فنعم إنها الموتة الأولى ولكن وراءها الجحيم والنعيم . (ووقاهم عذاب الجحيم) . . تفضلاً منه سبحانه . فالنجاة من العذاب لا تكون إلا بفضله ورحمته: (فضلاً من ربك . ذلك هو الفوز العظيم) . . وأي فوز عظيم ؟ !

الدرس السادس: 58 – 59 نعمة الرسالة وتخويف من خاتمة التكذيب

وفي ظل هذا المشهد العنيف العميق المؤثر بجانبيه تختم السورة بالتذكير بنعمة الرسالة والتخويف من عاقبة التكذيب:

(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون) . .

وهو ختام يلخص جو السورة وظلها . ويتناسق مع بدئها وخط سيرها . فقد بدأت بذكر الكتاب وتنزيله للإنذار والتذكير , وورد في سياقها ما ينتظر المكذبين . (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) . . فجاء هذا الختام يذكرهم بنعمة الله في تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربي الذي يفهمونه ويدركون معانيه . ويخوفهم العاقبة والمصير , في تعبير ملفوف . ولكنه مخيف: (فارتقب إنهم مرتقبون) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3217.3207 ﴾

(366/697)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ ﴾ : يجوزُ أن يكونَ جوابَ القسمِ ، وأَنْ يكونَ اعتراضاً ، والجوابُ قولُه : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ، واختاره ابنُ عطية . وقيل : "إنَّا كُنَّا " مستأنفٌ ، أو جوابٌ ثانٍ مِنْ غيرِ عاطِفٍ .

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

قوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ مُسْتَأْنَفَةً ، وأَنْ تكونَ صفةً ل " ليلة " وما بينهما اعتراضٌ . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : إنَّا كُنَّا مُنْذِرين ، فيها يُفْرَقُ ، ما موقعُ هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان مَلْفوفتان ، فَسَّر بهما جوابَ القسمِ الذي هو " أَنْزَلْناه " كأنه قيل : أَنْزَلْناه ؛ لأنَّ مِنْ شَأْنِنا الإِنذارَ والتحذيرَ ، وكان إنزالُنا إياه في هذه الليلةِ خصوصاً ؛ لأنَّ إنزالَ القرآنِ مِنَ الأمورِ الحكيمةِ ، وهذه الليلةُ يُفْرَقُ فيها كلُّ أمرٍ حكيم " .

قلت : وهذا مِنْ محاسِنِ هذا الرجلِ .

وقرأ الحسن والأعرج والأعمش " يَفْرُقُ " بفتح الياء وضمِّ الراءِ ، " كلَّ " بالنصب أي : يَفْرُقُ اللَّهُ كلَّ أَمْرٍ . وزيد بن علي " نَفْرِقُ " بنونِ العظمةِ ، " كلَّ " بالنصب ، كذا نقله الزمخشريُّ ، ونَقَلَ عنه الأهوازي " يَفْرِق " بفتح الياء وكسرِ الراء ، " كلَّ " بالنصب ، " حكيمٌ " بالرفع على أنه فاعل " يَفْرِق " ، وعن الحسن والأعمش أيضاً " يُفَرِّقُ " كالعامَّةِ ، إلاَّ أنه بالتشديد .

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5)

قوله : ﴿ أَمْراً ﴾ : فيه اثنا عشر وجهاً ، أحدُها : أَنْ ينتصِبَ حالاً مِنْ فاعل " أَنْزَلْناه " . الثاني : أنه حالٌ مِنْ مفعولِه أي : أنزلناه آمِرِيْن ، أو مَأْموراً به . الثالث : أَنْ يكونَ مفعولاً له ، وناصبُه : إمَّا " أَنْزَلْناه " وإمَّا " مُنْذِرين " وإمَّا " يُفْرَقُ " . الرابع : أنه مصدرٌ مِنْ معنى يُفْرَق أي : فَرْقاً . الخامس : أنه مصدرٌ ل " أَمَرْنا " محذوفاً . السادس : أَنْ يكونَ " يُفْرَقُ " بمعنى يَأْمُر . والفرقُ بين هذا وما تقدَّم : أَنَّك رَدَدْتَ في هذا بالعاملِ إلى المصدرِ وفيما تقدَّم بالعكس . السابع : أَنَّه حالٌ مِنْ " كُلُّ " . الثامن : أنه حالٌ مِنْ " أَمْرٍ " وجاز ذلك لأنه وُصِفَ . إلاَّ أنَّ فيه شيئَين : مجيءَ الحالِ من المضاف إليه في غيرِ المواضع المذكورة . والثاني : أنها مؤكدةٌ . التاسع : أنه مصدرٌ ل " أَنْزَل " أي : إنَّا أَنْزَلْناه إنزالاً ، قاله الأخفش . العاشر : أَنَّه مصدرٌ ، لكن بتأويل العاملِ فيه إلى معناه أي : أَمَرْنا به أَمْراً بسببِ الإنزال ، كما قالوا ذلك في وَجْهي فيها يُفْرَقُ فَرْقاً أو يَنْزِل إنزالاً . الحادي عشر : أنه منصوبٌ على الاختصاص ، قاله الزمخشري ، ولا يَعْني بذلك الاختصاصَ الاصطلاحيَّ فإنه لا يكون نكرةً . الثاني عشر : أَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ في " حكيم " . الثالث عشر : أَنْ ينتصِبَ مفعولاً به ب " مُنْذِرين " كقولِه : ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً ﴾ [الكهف : 2] ويكونُ المفعولُ الأول محذوفاً أي : مُنْذِرين الناسَ أمراً . والحاصل أَنَّ انتصابَه يَرْجِعُ إلى أربعة أشياء : المفعولِ به ، والمفعولِ له ، والمصدريةِ ، والحاليةِ ، وإنما التكثيرُ بحَسبِ المحالِّ ، وقد عَرَفْتَها بما قَدَّمْتُه لك .

وقرأ زيد بن علي " أَمْرٌ " بالرفع . قال الزمخشري : " وهي تُقَوِّي النصبَ على الاختصاصِ " .

(368/697)

قوله : " مِنْ عِنْدِنا " يجوز أَنْ يتعلَّق ب "يُفْرَقُ " أي : مِنْ جهتِنا ، وهي لابتداءِ الغاية مجازاً . ويجوز أَنْ يكونَ صفةً ل أَمْراً .

قوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ جوابٌ ثالثٌ أو مستأنفٌ ، أو بدلٌ من قوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ .

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6)

قوله : ﴿ رَحْمَةً ﴾ : فيها خمسةُ أوجهٍ [أحدها] : المفعولُ له . والعاملُ فيه : إمَّا " أَنْزَلْناه " وإمَّا " أَمْراً " وإمَّا "يُفْرَقُ " وإمَّا " مُنْذِرين " . الثاني : مصدرٌ بفعلٍ مقدرٍ أي : رَحِمْنا رَحْمَةً . الثالث : مفعولٌ ب مُرْسِلين . الرابع : حالٌ من ضمير " مُرْسِلين " أي : ذوي رحمة . الخامس : أنها بدلٌ مِنْ " أَمْراً " فيجيءُ فيها ما تقدَّم ، وتكثُرُ الأوجهُ فيها حينئذٍ .

و " مِنْ رَبِّك " يتعلَّقُ برَحْمة ، أو بمحذوفٍ على أنها صفةٌ . وفي " مِنْ رَبِّك " التفاتٌ من

التكلُّم إلى الغَيْبة ، ولو جَرَى على مِنْوالِ ما تقدَّمَ لقال : رحمةً منا .

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7)

قوله : ﴿ رَبِّ السماوات ﴾ : قرأ الكوفيون بخفض " رَبِّ " ، والباقون برفعِه . فالجرُّ على البدلَ ، أو البيانَ ، أو النعتِ . والرفعُ على إضمارِ مبتدأ ، أو على أنَّه مبتدأٌ ، خبرُه ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ .

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)

(369/697)

قوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ﴾ : العامَّةُ على الرفع بدلاً أو بياناً أو نعتاً لـ " ربُّ السماوات " فيمَنْ رَفَعه ، أو على أنَّه مبتدأٌ ، والخبرُ ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ أو خبرٌ بعد خبرٍ لقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ عند الجميعِ أعني قُرَّاءَ الجرِّ والرفع ، أو فاعلٌ لقوله : " يُميت " . وفي " يُحْيي " ضميرٌ يَرْجِعُ إلى ما قبلَه أي : يُحْيي هو ، أي : ربُّ السماوات ويميتُ هو ، فأوقَعَ الظاهرَ مَوْقِعَ المضمرِ ، ويجوزُ أَنْ يكونَ " يُحيي ويُميت " من التنازع . ويجوزُ أَنْ يُنْسَبَ الرفعُ إلى الأول أو الثاني نحو : يَقُوم ويَقْعد زيد ، وهذا عَنَى أبو البقاء بقوله : " أو على شريطةِ التفسير " .

وقرأ ابنُ محيصن وابنُ أبي إسحاق وأبو حيوة والحسن بالجرّ/ على البدلِ أو البيانِ أو النعتِ ل " رب السماوات " ، وهذا يُوْجِبُ أَنْ يكونوا يَقْرؤون " رَبِّ السماوات " بالجرِّ .

والأنطاكي بالنصب على المدحِ .

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10)

قوله : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ﴾ : منصوبٌ ب " ارْتَقِبْ " على الظرفِ . والمفعولُ محذوفٌ أي : ارتقِبْ وَعْدَ الله في ذلك اليومِ . ويجوز أَنْ يكونَ هو المفعولَ المرتقبَ .

يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11)

قوله : ﴿ يَغْشَى الناس ﴾ : صفةٌ ثانيةٌ أي : بدُخان مُبين غاشٍ .

قوله : " هذا عَذابٌ " في محلِّ نصبٍ بالقول . وذلك القولُ حالٌ أي : قائلين ذلك ، ويجوز أَنْ لا يكونَ معمولاً لقولِ البتة ، بل هو مجرَّدُ إخبارٍ .

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13)

قوله : ﴿ أنى لَهُمُ الذكرى ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ " أَنَّى " خبراً ل " ذِكْرى " و " لهم " تبيينٌ . ويجوز أَنْ يكونَ " أَنَّى " منصوباً على الظرفِ بالاستقرار في " لهم " ، فإن " لهم " وَقَعَ خبراً ل " ذِكْرى " .

قوله : " وقد جاءَهم " حال مِنْ " لهم " . وقرأ زيد بن علي " مُعَلِّم " بكسر اللام .

إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15)

قوله : ﴿ قَلِيلاً ﴾ : نعتٌ لزمانٍ أو مصدرٍ محذوف ، أي : كَشْفاً قليلاً أو زماناً قليلاً .

يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

قوله : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ﴾ قيل : هو بدلٌ مِنْ " يَومَ تأتي " . وقيل : منصوبٌ بإضمارِ اذْكُر . وقيل : ب مُنْتَقِمون . وقيل : بما دَلَّ عليه " مُنْتَقِمون " وهو يَنْتقم . ورُدَّ هذا : بأنَّ ما بعد " إنَّ " لا يَعْمل فيما قبلها ، وبأنه لا يُفَسَّر إلاَّ ما يَصِحُّ أَنْ يَعْمَلَ .

قوله : " نَبْطِش " العامَّةُ على فتح النونِ وكسرِ الطاء أي : نَبْطِش بهم . وقرأ الحسن وأبو جعفر بضم الطاء ، وهي لغةٌ في مضارع بَطَشَ . والحسن وأبو رجاء وطلحة بضمِّ النونِ وكسرِ الطاءِ ، وهو منقولٌ مِنْ بَطَشَ أي : تَبْطِشُ بهم الملائكةُ . والبَطْشَةُ على هذا يجوز أن تكونَ منصوبةً ب نُبْطِشُ على حَذْفِ الزائد نحو : ﴿ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] وأَنْ يَنْتَصِبَ بفعلٍ مقدر أي : تَبْطِشُ الملائكةُ بهم فيَبْطِشُون البطشةَ .

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17)

قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ : قُرِئ " فَتَّنَّا " بالتشديدِ على المبالغة أو التكثيرِ لكثرةِ متعلَّقِه . و

"جاءهم رسولٌ" يحتمل الاستئنافَ والحالَ .

أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18)

(371/697)

قوله : ﴿ أَنْ أدوا ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ المفسِّرَةَ ؛ لتقدُّمِ ما هو بمعنى القول ، وأَنْ تكونَ المخفَّفَةَ ، وأَنْ تكونَ الناصبةَ للمضارع ، وهي تُوْصَلُ بالأمر . وفي جَعْلِها مخففةً إشكالٌ تَقَدَّم : وهو أنَّ الخبرَ في هذا البابِ لا يقع طلباً ، وعلى جَعْلِها مصدريَّةً تكون على حَذْفِ الجرِّ أي : جاءهم بأَنْ أَدُّوا . و "عبادَ الله" يُحتمل أَنْ يكونَ مفعولاً به . وفي التفسير : أنَّه طلبَ منهم أَنْ يُؤَدُّوا إليه بني إسرائيل ، ويَدُلُّ عليه ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، وأَنْ يكونَ منادى ، والمفعولُ محذوفٌ أي : أَعْطوني الطاعةَ يا عبادَ الله .

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19)

قوله : ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُواْ ﴾ : عطفٌ على "أَنْ" الأولى . والعامَّةُ على كسرِ الهمزةِ مِنْ قولِه : "إِنِّي آتِيْكم" على الاستئنافِ . وقُرِئ بالفتح على تقديرِ اللامِ أي : وأَنْ لا تَعْلُوا لأَنِّي آتِيْكم .

وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20)

قوله : ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ : أي : مِنْ أَنْ تَرْجُمون .

وقوله : " إِنّي عُذْتُ " مستأنفٌ . وأدغم الذالَ في التاء أبو عمروٍ والأخَوان . وقد مَضَى توجيهُه في طه عند قوله : ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ [طه : 96] .

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22)

قوله : ﴿ أَنَّ هؤلاء ﴾ : العامَّةُ على الفتحِ بإضمارِ حرفِ الجرّ أي : دعاه بأنَّ هؤلاء .

وابنُ أبي إسحاق وعيسى والحسن بالكسرِ على إضمارِ القول عند البَصْرِيين ، وعلى إجراءِ " دَعا " مُجْرى القول عند الكوفيين .

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23)

(372/697)

قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ : قد تقدَّم قراءتا الوصل والقطع . وقال الزمخشري : " وفيه وجهان : إضمارُ القولِ بعد الفاء : فقال أَسْرِ بعبادي ، وجوابُ شرطٍ مقدرٍ ، كأَنَّه قال : إن كان الأمرُ - كما تقول - فَأَسْرِ بعبادي " . قال الشيخ : " وكثيراً ما يَدَّعي حَذْفَ الشرطِ ولا يجوزُ إلاَّ لدليلٍ واضحٍ كأَنْ يتقدَّمَه الأمرُ أو ما أشبهه " .

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24)

قوله : ﴿ رَهْواً ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً ثانياً على أنَّ " تَرَكَ " بمعنى صَيَّر ، وأَنْ يكونَ حالاً على أنَّها ليسَتْ بمعناها . والرَّهْوُ قيل : السكونُ ، فالمعنى : اتْرُكْه ساكناً . يقال : رَهَا يَرْهُوا رَهْواً . ومنه جاءَتِ الخيلُ رَهْواً . قال النابغة :

4014 والخيلَ تَمْزَعُ رَهْواً في أَعِنَّتِها . . . كالطيرِ تَنْجُوْ مِنَ الشُّؤْبوب ذي البَرَدِ

ورَهَا يَرْهُو في سيرِه . أي : تَرَفَّقَ . قال القطامي :

4015 يَمْشِيْنَ رَهْواً فلا الأَعْجازُ خاذِلَةٌ . . . ولا الصدورُ على الأعجازِ تَتَّكِلُ

عن أبي عبيدةَ : رَهْواً : أي اتركْه مُنْفَتحاً فُرَجاً على ما تركْتَه .

وفي التفسير : أنَّه لَمَّا انْفَلَقَ البحرُ لموسى وطَلَعَ منه خاف أن يتبعَه فرعونُ فأراد أَنْ يَضْرِبَه ليعودَ حتى لا يَلحقوه . فأَمَرَ أَنْ يتركَه فُرَجاً . وأصلُه مِنْ قولِهم : / رَها الرجلُ يَرْهُو رَهْواً فتح ما بينَ رِجْلَيْه ، والرَّهْوُ والرَّهْوَةُ : المكانُ المرتفعُ والمنخفضُ يَجْتمع فيه فهو من الأضداد . والرَّهْوَةُ المرأةُ الواسعةُ الهَنِ . والرَّهْوُ : طائر يقال هو الكُرْكِيّ . وقد تقدَّم الكلامُ في الشعراء على نظير ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ ﴾ .

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26)

قوله : ﴿ وَمَقَامٍ ﴾ : العامَّةُ على فتح الميم وهو اسم مكان القيام . وابن هرمز وقتادة وابن السَّمَيْفع ونافعٌ في روايةِ خارجةَ بضمِّها اسمُ مكانٍ مِنْ أقام .

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27)

والنَّعْمَةُ بالفتح : نَضارةُ العيشِ ولَذاذتُه . والجمهور على جَرِّها . ونَصَبَها أبو رجاءٍ عَطْفاً على "كم" أي : تركوا كثيراً مِنْ كذا ، وتركوا نَعْمة .

قوله : " فاكِهين " العامَّةُ على الألف أي : طَيِّبي الأنفسِ أو أصحابُ فاكهة كلابنِ وتامرِ . وقيل : فاكهين لاهين . وقرأ الحسن وأبو رجاء " فَكِهين " أي : مُسْتَخِفِّين مُسْتهزئين . قال الجوهري : "يُقال : فَكِهَ الرجلُ بالكسرِ فهو فَكِهٌ إذا كان مَزَّاحاً والفَكِهُ أيضاً : الأشِرُ" .

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ الكافُ مرفوعةَ المحلِّ خبراً لمبتدأ مضمر أي : الأمرُ كذلك ، وإليه نحا الزجَّاج . ويجوز أَنْ تكون منصوبةَ المحلِّ ، فقدَّرها الحوفيُّ : أَهْلكنا إهْلاكاً وانتقَمْنا انتقاماً كذلك . وقال الكلبيُّ : "كذلك أَفْعَلُ بمَنْ عَصاني" . وقيل : تقديرُه : يَفْعل فِعْلاً كذلك . وقال أبو البقاء : " تَرْكاً كذلك " فجعله نعتاً للتركِ المحذوفِ . وعلى هذه الأوجهِ كلِّها يُوْقَفُ على "كذلك" ويُبْتدأ " وأَوْرَثْناها " . وقال الزمخشري : " الكافُ منصوبةٌ على معنى : مثلَ ذلك الإخراجِ أَخْرَجْناهم منها وأَوْرَثْناها قوماً آخرين ليسوا منهم " ، فعلى هذا يكون " وأَوْرَثْناها " معطوفاً على تلك الجملةِ الناصبةِ للكاف ، فلا يجوزُ

الوقفُ على "كذلك" حينئذٍ .

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)

قوله : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماءُ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ استعارةً كقولِ الفرزدق :

(374/697)

4016 الشمسُ طالِعَةٌ ليسَتْ بكاسِفَةٍ . . . تَبْكي عليك نجومَ الليلِ والقمرا

وقال جرير :

4017 لَمَّا أتى خبرُ الزُّبَيْرِ تواضَعَتْ . . . سُوْرُ المدينةِ والجبالُ الخُشَّعُ

وقال النابغة :

4018 بكى حارِثُ الجَوْلانِ مِنْ فَقْدِ رَبِّهِ . . . وحَوْرَانُ منه خاشِعٌ مُتَضائِلُ

مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31)

قوله : ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أَنَّه بدلٌ من العذاب : إمَّا على حَذْفِ مضافٍ أي : مِنْ عذابِ فرعونَ ، وإمَّا على المبالغةِ جعلَه نفسَ العذابِ فأبدله منه .

والثاني : أنه حالٌ من العذابِ تقديرُه : صادراً مِنْ فرعونَ .

وقرأ عبد الله ﴿ مِنَ عَذَابِ المهين ﴾ وهي مِنْ إضافةِ الموصوفِ لصفتِه ؛ إذ الأصلُ :

العذابُ المُهين ، كالقراءةِ المشهورةِ .

وقرأ ابن عباس " مَنْ فرعونُ " بفتح ميم " مَنْ " ورفع " فرعونُ " على الابتداءِ والخبرِ ، وهو استفهامُ تحقيرٍ كقولِك : مَنْ أنتَ وزيداً . ثم بَيَّنَ حالَه بالجملة بعدُ في قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين ﴾ .

وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32)

قوله : ﴿ على عِلْمٍ عَلَى العالمين ﴾ : " على " الأولى متعلّقةٌ بمحذوفٍ لأنَّها حالٌ من الفاعل في " اخْتَرْناهم " . والثانية متعلقةٌ ب " اخْتَرْناهم " . وفي عبارة الشيخ : أنَّه لَمَّا اختلفَ مدلولُها جاز تعلُّقُهما ب " اخْتَرْنا " . وأنشد الشيخُ نظيرَ ذلك :

4019 ويَوْماً على ظَهْرِ الكَثِيْبِ تَعَذَّرَتْ . . . عليَّ وآلَتْ حَلْفَةً لم تَحَلَّلِ

(375/697)

ثم قال : " ف " على عِلْم " حالٌ : إمَّا من الفاعلِ أو من المفعول . و " على ظَهْر " حالٌ من الفاعل في " تَعَذَّرَتْ " . والعاملُ في الحال هو العاملُ في صاحبها " . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ قولَه أولاً : " ولذلك تَعَلَّقا بفعلٍ واحدٍ لَمَّا اختلف المدلولُ " ينافي جَعْلَ الأولى حالاً ؛ لأنَّها لم تتعلَّقْ به . وقولُه : " والعاملُ في الحالِ هو العاملُ في صاحبِها " لا يَنْفَعُ في ذلك .

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37)

قوله : ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ : يجوزُ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أَنْ يكونَ معطوفاً على " قومُ تُبَّع " . الثاني : أَنْ يكونَ مبتدأً ، وخبرُه ما بعده مِنْ " أَهْلَكْناهم " ، وأمَّا على الأول ف " أَهْلَكْناهم " : إمَّا مستأنفٌ ، وإمَّا حالٌ من الضمير الذي اسْتَكَنَّ في الصلة . الثالث : أَنْ يكونَ منصوباً بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّره " أَهْلَكْناهم " . ولا مَحَلَّ لـ أَهْلكنا " حينئذٍ .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38)

قوله : ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ : حال . وقرأ عمرو بن عبيد " وما بينَهُنَّ " لأنَّ السماواتِ والأرضَ جمعٌ . والعامَّةُ " بينَهما " باعتبار النَوْعين .

مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39)

قوله : ﴿ إلاَّ بالحق ﴾ : حالٌ : إمَّا من الفاعلِ ، وهو الظاهرُ ، وإمَّا من المفعولِ أي : إلاَّ مُحِقِّين أو مُلْتَبِسين/ بالحق .

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40)

قوله : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل مِيقَاتُهُمْ ﴾ : العامَّةُ على رَفْعِ " ميقاتُهم " خبراً لـ " إنَّ " . وقُرِئ بنصبِه على أنه اسمُ " إنَّ " و " يومَ الفصلِ " خبرُه . و " أَجْمعين " تأكيدٌ للضميرِ المجرور .

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (41)

قوله: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴾: يجوز أَنْ يكونَ بدلاً من "يومَ الفصل" أو بياناً عند مَنْ لا يَشْتَرِط المطابقةَ تعريفاً وتنكيراً، وأَنْ يكونَ منصوباً بإضمار أَعْني. وأَنْ يكونَ صفةً لـ "مِيقاتُهم" ولكنه بُني. قاله أبو البقاء. وهذا لا يتأَتَّى عند البَصْريين لإضافتِه إلى مُعْرَب. وقد تقدَّمَ آخرَ المائدة، وأَنْ يَنْتَصِبَ بفعلٍ يَدُلُّ عليه "يومَ الفَصْلِ" أي: يَفْصِلُ بينهم يومَ لا يُغْني. ولا يجوز أَنْ ينتصِبَ بالفصلِ نفسِه لما يَلْزَمُ مِنْ الفَصْلِ بينهما بأجنبيّ وهو "ميقاتُهم"، و "الفَصْل" مصدر لا يجوز فيه ذلك. وقال أبو البقاء: "لأَنَّه قد أُخْبر عنه"، وفيه تَجَوُّزٌ فإنَّ الإخبارَ عَمَّا أُضِيْفَ إلى الفَصْلِ لا غي الفَصْلِ.

قوله: "ولا هم" جُمِع الضميرُ عائداً به على "مَوْلَى"، وإنْ كان مفرداً لأنه قَصَدَ معناه فجُمِعَ، وهو نكرةٌ في سِياق النفيِ فَعَمَّ.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42)

قوله: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللهُ ﴾ يجوزُ فيه أربعةُ أوجهٍ، أحدُها: - وهو قولُ الكسائيِّ - أنه منقطِعٌ. الثاني: أنه متصِلٌ تقديرُه: لا يُغْني قريبٌ عن قريبٍ إلاَّ المؤمنين فإنَّهم يُؤْذَنُ لهم في الشفاعةِ فيَشْفَعُون في بعضِهم. الثالث: أَنْ يكونَ مرفوعاً على البدليةِ مِنْ "مَوْلَى" الأول، ويكونُ "يُغْني" بمعنى يَنْفَعُ، قاله الحوفي. الرابع: أنه مرفوعُ المحلِّ أيضاً على البدلِ مِنْ واو "

يُنْصَرُون " أي : لا يمنعُ من العذابِ إلاَّ مَنْ رحمه الله .

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45)

(377/697)

قوله : ﴿ كالمهل ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، وأَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : هو كالمُهْلِ . ولا يجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ " طعام الأثيم " . قال أبو البقاء : " لأَنَّه لا عاملَ إذ ذاك " . وفيه نظرٌ ؛ لأَنَّه يجوز أَنْ يكونَ حالاً ، والعاملُ فيه معنى التشبيه ، كقولك : زيدٌ أخوك شجاعاً .

والأَثيم صفةُ مبالَغَةٍ . ويقال : الأَثُوم كالصَّبورِ والشَّكور . والمُهْل : قيل دُرْدِيُّ الزيت . وقيل عَكَرُ القَطِران . وقيل : ما أُذِيْبَ مِنْ ذَهَبٍ أو فضة . وقيل : ما أُذِيْبَ منهما ومِنْ كُلِّ ما في معناهما من المُنْطبعات كالحديدِ والنحاس والرَّصاص . والمَهْلُ بالفتح : التُّؤَدَةُ والرِّفْقُ . ومنه ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ [الطارق : 17] . وقرأ الحسن " كالمَهْل " بفتح الميم فقط ، وهي لغةٌ في المُهْلِ بالضم .

قوله : " يَغْلي " قرأ ابن كثير وحفصٌ بالياءِ مِنْ تحتُ . والفاعلُ ضميرٌ يعود على طعام . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ يعودَ على الزَّقُّوم . وقيل : يعود على المُهْلِ نفسِه ، و " يَغْلي " حالٌ من

الضميرِ المستترِ في الجارِّ أي : مُشْبهاً المُهْلَ غالياً . ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً مِنَ المُهْلِ نفسِه .

وجَوَّزَ أبو البقاء أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ أي : هو يَغْلي أي : الزقُّوم أو الطعامُ .

والباقون " تَغْلي " بالتاء مِنْ فوقُ ، على أنَّ الفاعلَ ضميرُ الشجرةِ ، والجملةُ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ على رأْيٍ ، أو خبرُ مبتدأ مضمر أي : هي تَغْلي .

كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46)

قوله : ﴿ كَغَلْيِ الحميم ﴾ : نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ ، أو حالٌ مِنْ ضميرِه أي : تَغْلي غَلْياً مثلَ غَلْيِ الحميمِ أو يَغْليه مُشْبهاً غَلْيَ الحميمِ .

خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47)

(378/697)

قوله : ﴿ فاعتلوه ﴾ : قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابن عامر بضمِّ عين " اعْتُلوه " . والباقون بكسرها ، وهما لغتان في مضارع عَتَله أي : ساقَه بجفاءٍ وغِلْظَة كعَرَش يَعْرِش ويَعْرُش .

والعُتُلُّ : الجافي الغليظُ .

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49)

قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ : قرأه الكسائيُّ بالفتحِ على معنى العلَّةِ أي : لأنَّك . وقيل : تقديرُه

: ذُقْ عذابَ أَنَّك أنت العزيزُ . والباقون بالكسرِ على الاستئنافِ المفيدِ للعلَّة ، فتتحدُ القراءاتان معنىً . وهذا الكلامُ على سبيلِ التهكمِ ، وهو أغيَظُ للمُسْتَهْزَأ به ، ومثلُه قولُ جريرٍ لشاعرٍ سَمَّى نفسه زهرةَ اليمن :

4020 أَلَمْ يَكُنْ في وُسُومٍ قد وَسَمْتُ بها . . . مَنْ كان موعظةً يا زهرةَ اليَمَنِ

وكان هذا الشاعرُ قد قال :

4021 أَبْلِغْ كُلَيْباً وأَبْلِغْ عَنْك شاعرَها . . . أَنِّي الأَغَرُّ وأَنِّي زهرةُ اليمنِ

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52)

قوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ : / يجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ قولِه : " في مَقام " بتكريرِ العاملِ ، ويجوزُ أَنْ يكونَ خبراً ثانياً .

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53)

قوله : ﴿ يَلْبَسُونَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ المستكِنِّ في الجارِّ ، وأَنْ يكونَ خبراً ل " إنَّ " فيتعلَّقَ الجارُّ به ، وأَنْ يكون مُسْتأنفاً .

قوله : " مُتقابلين " حالٌ مِنْ فاعلِ " يَلْبَسون " وقد تقدَّم تفسيرُ هذه الألفاظِ : السُّنْدس والإِستبرق والمقام .

كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ : في هذه الكاف وجهان ، أحدُهما : النصبُ نعتاً لمصدرٍ أي : نفعلُ بالمتقين فعلاً كذلك أي : مِثْلَ ذلك الفعلِ . والثاني : الرفعُ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ أي : الأمرُ كذلك . وقَدَّر أبو البقاء قبلَه جملةً حاليةً فقال : " تقديرُه : فَعَلْنا ذلك والأمرُ كذلك " ، ولا حاجةَ إليه . والوقفُ على "كذلك" ، والابتداءُ بقولِه " وزَوَّجْناهم " .

قوله : " بِحُوْرٍ عِيْنٍ " العامَّةُ على تنوين " حور " مَوْصوفين ب " عِيْن " . وعكرمة لم يُنَوِّن ، أضافهنَّ لأنهنَّ ينقسِمْنَ إلى عِيْنٍ وغيرِ عِيْنٍ . وتقدَّم تفسيرُ الحُور العين .

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55)

قوله : ﴿ يَدْعُونَ ﴾ : حالٌ مِنْ مفعولِ " زَوَّجْناهم " ، ومفعولُه محذوفٌ أي : يَدْعُوْن الخَدَمَ بكلِّ فاكهةٍ .

قوله : " آمِنين " يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً ثانية ، وأَنْ يكونَ حالاً من فاعلِ "يَدْعُون" فتكونَ حالاً متداخلةً .

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56)

قوله : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ في " آمِنين " ، وأَنْ يكونَ حالاً ثالثةً أو ثانيةً مِنْ مفعولِ " زَوَّجْناهم " و " آمنين " حالٌ مِنْ فاعلِ "يَدْعُون" كما تقدَّمَ ، أو صفةٌ لـ " آمِنين " أو مستأنفٌ . وقرأ عمرو بن عبيد " لا يُذاقون " مبنياً للمفعول .

قوله : ﴿ إِلاَّ الموتةَ الأولى ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّه منقطعٌ أي : لكنْ الموتةُ الأولى قد ذاقُوها . الثاني : أنه متصلٌ وتأَوَّلوه : بأنَّ المؤمنَ عند موتِه في الدنيا بمنزلته في الجنة لمعاينة ما يُعْطاه منها ، أو لما يَتَيَقَّنُه مِنْ نعيمِها . الثالث : أنَّ " إلاَّ " بمعنى سِوى نقله الطبريُّ وضَعَّفَه . قال ابن عطية : " وليس تَضْعيفُه بصحيحٍ ، بل هو كونُها بمعنى سِوى مستقيمٌ مُتَّسِقٌ " . الرابع : أن " إلاَّ " بمعنى بَعْد . واختاره الطبريُّ ، وأباه الجمهورُ ؛ لأنَّ " إلاَّ " بمعنى بعد لم يَثْبُتْ . وقال الزمخشري : " فإنْ قلت : كيف اسْتُثْنِيَتِ الموتةُ الأُولى المَذُوْقَةُ قبلَ دخول الجنةِ مِنَ الموتِ المنفيِّ ذَوْقُه ؟ قلت : أُريدَ أَنْ يُقالَ : لا يَذُوْقون فيها الموتَ البتةَ ، فوضع قوله ﴿ إِلاَّ الموتةَ الأولى ﴾ مَوْضِعَ ذلك ؛ لأنَّ الموتةَ الماضيةَ مُحالٌ ذَوْقُها في المستقبل فهو من بابِ التعليقِ بالمُحال : كأنَّه قيل : إنْ كانت الموتةُ الأُولى يَسْتقيم ذَوْقُها في المستقبلِ ؛ فإنَّهم يَذُوْقونها في الجنة " . قلت : وهذا عند علماءِ البيانِ يُسَمَّى نَفْيَ الشيء بدليلِه . ومثلُه قول النابغةِ :

4022 لا عَيْبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ . . . بهنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكتائبِ

يعني : إنْ كان أحدٌ يَعُدُّ فُلولَ السيوفِ مِنْ قِراعِ الكتائب عَيْباً فهذا عيبُهم ، لكنَّ عَدَّهُ من

العيوبِ مُحالٌ ، فانتفى عنهم العيبُ بدليل تعلُّقِ الأمرِ على مُحال . وقال ابن عطية بعد ما قَدَّمْتُ حكايَته عن الطبريّ : فَبيَّنَ أنه نَفَى عنهم ذَوْقَ الموتِ ، وأنه لا ينالُهم من ذلك غيرُ ما تقدَّمَ في الدنيا " . يعني أنه كلامٌ محمولٌ على معناه .

قوله : " ووَقاهم " الجمهورُ على التخفيف . وقرأ أبو حيوةَ " ووقَّاهم " بالتشديد على المبالغة ، ولا يكونُ للتعدية فإنَّه متعدٍّ إلى اثنين قبلَ ذلك .

(381/697)

فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57)

قوله : ﴿ فَضْلاً ﴾ : هذا مفعولٌ مِنْ أجلِه ، وهو مُرادُ مكي حيث قال : " مصدرٌ عَمِلَ فيه "يَدْعُون " . وقيل : العاملُ فيه " ووَقاهم " وقيل : آمِنين " فهذا إنما يظهر على كونِه مفعولاً مِنْ أجله . على أنَّه يجوز أن يكونَ مصدراً لأنَّ يَدْعُون وما بعده من باب التفضُّلِ ، فهو مصدرٌ مُلاقٍ لعامِله في المعنى . وجَعَله أبو البقاء منصوباً بمقدر أي : تَفَضَّلْنا بذلك فَضْلاً أي : تَفَضُّلاً .

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58)

قوله : ﴿ يَسَّرْنَاهُ ﴾ : أي : القرآن بلسانك أي بلغتك . والباءُ للمصاحبة/ .

فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

قوله : ﴿ فارتقب إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ : مفعولا الارتقاب محذوفان أي : فارتقب النصرَ مِنْ رَبِّك إنهم مُرْتَقِبون بك ما يتمنَّوْنَه من الدوائرِ والغوائلِ ولن يَضِيْرَك ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 715.732 ﴾

(382/697)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ما ذكروه في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ [الدخان : 17] إلى آخر القصة من تطبيق ذلك على ما في الأنفس ، وهو مما يعلم ما ذكرناه في باب الإشارة من هذا الكتاب غير مرة فلا نطيل به ، وقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ [الدخان : 38 ، 39] إنه إشارة إلى الوحدة كقوله عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الافاق وَفِى أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت : 53] وأفصح بعضهم فقال : الحق هو عز وجل والباء للسببية أي ما خلقناهما إلا بسبب أن تكون مرايا لظهور الحق جل وعلا ، ومن جعل منهم

الباء للملابسة أنشد :

رق الزجاج وراقت الخمر . . .

فتشاكلا وتشابه الأمر فكأنما خمر ولا قدح

وكأنما قدح ولا خمر . . .

والعبارة ضيقة والأمر طور ما وراء العقل والسكوت أسلم ، وقالوا في شجرة الزقوم : هي شجرة الحرص وحب الدنيا تظهر يوم القيامة على أسوأ حال وأخبث طعم ، وقالوا : ﴿ الموتة الاولى ﴾ [الدخان : 56] ما كان في الدنيا بقتل النفس بسيف الصدق في الجهاد الأكبر وهو المشار إليه بموتوا قبل أن تموتوا فمن مات ذلك الموت حيى أبداً الحياة الطيبة التي لا يمازجها شيء من ماء الألم الجسماني والروحاني وذلك هو الفوز العظيم ، والله تعالى يقول الحق وهو سبحانه يهدي السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(383/697)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الدّخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)

الإعراب :

(الواو) واو القسم (الكتاب) مجرور بالواو ، متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (في ليلة) متعلّق بـ (أنزلناه) . . .

جملة : " (أقسم) بالكتاب . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " إنّا أنزلناه . . . . . " لا محلّ لها جواب القسم وجملة : " أنزلناه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّا كنّا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " كنّا منذرين . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثاني) 4 - 5 - (فيها) متعلّق بالمبنيّ للمجهول (يفرق) (أمرا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في المعنى أي فرقا " 1 " (من عندنا) متعلّق بنعت لـ (أمرا) .

وجملة : " يفرق كلّ أمر . . . " في محلّ جرّ نعت لليلة وجملة : " إنّا كنّا . . . " لا محلّ لها

تعليليّة .

(رحمة) مفعول لأجله منصوب " 2 " ، (من ربّك) متعلّق بنعت لـ (رحمة) ، (هو) ضمير فصل " 3 " .

وجملة : " إنّه . . . السميع . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

(ربّ) بدل من ربّك مجرور مثله (الواو) عاطفة (ما) موصول في محلّ جرّ معطوف على السموات (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . .

وجملة : " كنتم موقنين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " . . . وجواب الشرط محذوف أي فأيقنوا برسالة محمّد عليه السلام 8 - (ربّكم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو وجملة : " لا إله إلّا هو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 5 " وجملة : " يحيى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّ " 6 "

---

(1) أو في موضع الحال من فاعل أنزلناه أو من مفعوله أو من فاعل يفرق . . أو هو مفعول لأجله عامله أنزلنا أو منذرين أو يفرق .

(2) أو مفعول به لمرسلين ، أو بدل من (أمرا) . .

(3) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره السميع ، والجملة الاسميّة خبر إنّ .

(4) أو اعتراضيّة .

(5) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (اللّه) في محلّ رفع . . أو خبر ثان للحرف المشبّه بالفعل إنّ .

(6) أو هي خبر بعد خبر ، ومثلها جملة (هو) ربّكم . [. . . . .]

(384/697)

وجملة : " يميت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يحيى .

وجملة : " (هو) ربّكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

[سورة الدخان (44) : آية 9]

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (في شكّ) متعلّق بخبر المبتدأ (هم) . .

جملة : " هم في شكّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يلعبون . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (هم)

فوائد

- بل . . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ فـ (بل) حرف إضراب ، ومعنى الإضراب أن تنفي الحكم عما قبلها ، وتثبته لما بعدها ، مثل : جاء زيد بل عمرو .

وسنوضح شيئاً مما يتعلق بها :

1 - هي حرف إضراب ، فإن تلاها جملة ، كان معنى الإضراب ، إما الإبطال كقوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ أي بل هم عباد ، وقد أبطلت (بل) حكم اتخاذ الرحمن ولدا . وكقوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ .

(385/697)

وإما أن تفيد الانتقال من غرض إلى آخر ، كقوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ وهي في ذلك كله حرف ابتداء لا عاطفة على الصحيح .

2 - وإن تلاها مفرد فهي عاطفة ، ثم إن تقدمها أمر أو إيجاب : (كاضرب زيدا بل عمرا) و(قام زيد بل عمرو) فما قبلها لا يحكم عليه بشيء ، ويثبت الحكم لما بعدها .

3 - وإن تقدمها نفي أو نهي : فهي لتقرير ما قبلها على حالته وجعل ضده لما بعده ، نحو " ما قام زيد بل عمرو " و " لا يقم زيد بل عمرو " .

4 – وتزاد قبلها " لا " لتوكيد الإضراب بعد الإيجاب ، كقول الشاعر :

وجهك البدر لا بل الشمس لو لم يقض للشمس كسفة أو أفول

وإذا وقعت بعد النفي تؤكد تقرير ما قبلها .

[سورة الدخان (44) : الآيات 10 إلى 12]

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة للربط (يوم) مفعول به منصوب (بدخان) متعلّق بـ (تأتي) ، و(الباء) للتعدية .

جملة : " ارتقب . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مسبّب عمّا سبق أي تنبّه فارتقب .

وجملة : " تأتي السماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " يغشي . . . " في محلّ جرّ نعت لدخان وجملة : " هذا عذاب . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : قالوا هذا عذاب وجملة : " ربّنا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة : " اكشف عنّا . . . " لا محلّ لها جواب النداء وجملة : " إنّا مؤمنون . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الفوائد

- بعض علائم القيامة . .

(386/697)

روي أن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) لما رأى من كفار مكة إدبارا قال :

اللهم سبعا كسبع يوسف ، فأخذتهم سنة حصّت كلّ شي ء ، حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر أحدهم إلى السماء ، فيرى كهيئة الدخان . فأتاه أبو سفيان فقال : إنك جئت تأمر بطاعة اللّه وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع اللّه لهم .

فدعا فكشف اللّه عنهم العذاب ، فعادوا ، فانتقم منهم يوم بدر ، بدليل قوله تعالى : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ .

وقيل هو دخان يجي ء قبل قيام الساعة ، ولم يأت بعد ، فيدخل في أسماع الكفار والمنافقين ، حتى يكون الرجل رأسه كالرأس الحنيذ (المشوي) ، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام ، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه . وهو قول ابن عباس وابن عمر والحسن ، ويدل عليه ما

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن حذيفة بن اليمان ، قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه

وسلم) : أول الآيات (أي علائم الساعة) نزول عيسى ابن مريم ، ونار تخرج من قعر عدن ، تسوق الناس إلى المحشر ، تقيل معهم (تنام) إذا قالوا . قال حذيفة : يا رسول اللّه ، وما الدخان ؟

فتلا هذه الآية يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ يملأ ما بين المشرق والمغرب ، يمكث أربعين يوما وليلة . أما المؤمن ، فيصيبه منه كهيئة الزكام ، وأما الكافر كمنزلة السكران ، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره .

واللّه أعلم . ومعنى حصت : أهلكت .

[سورة الدخان (44) : الآيات 13 إلى 16]

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

الإعراب :

(أَنَّى) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق

بمحذوف خبر مقدّم " 1 " ، (لهم) متعلّق بحال من الذكرى (الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق .

جملة : " أنّى لهم الذكرى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " جاءهم رسول . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (لهم) 14 - (تولّوا) مبني على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (عنه) متعلّق بـ (تولّوا) ، (معلّم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (مجنون) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " تولّوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة جاءهم رسول وجملة : " قالوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة جاءهم رسول " 2 " وجملة : " (هو) معلّم . . . " في محلّ نصب مقول القول 15 - (قليلا) اسم منصوب نائب عن طرف مقدّر أي زمنا قليلا " 3 " . . .

وجملة : " إنّا كاشفوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ جواب لدعائهم . . .

وجملة : " إنّكم عائدون . . . " لا محلّ لها تعليل للاستئناف المتقدّم 16 - (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (عائدون) " 4 " . (البطشة) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " نبطش . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّا منتقمون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة -

الصرف :

(14) معلّم : اسم مفعول من الرباعيّ علّم ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة ،

---

(1) أو هو ظرف يعمل به الاستقرار ، والخبر هو (لهم) .

(2) أو هي حال من فاعل تولّوا بتقدير قد .

(3) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر ، أي كشفا قليلا .

(4) أو متعلّق بفعل محذوف تقديره اذكر . .

---

(15) عائدون : جمع عائد ، اسم فاعل من الثلاثيّ عاد ، وزنه فاعل ، وفيه إبدال حرف العلّة همزة ، أصله عاود ، جاءت الواو بعد ألف فاعل قلبت همزة اطّرادا في اسم الفاعل للأجوف .

(16) البطشة : مصدر المرّة من فعل بطش الثلاثيّ ، وزنه فعلة فتح فسكون . .

[سورة الدخان (44) : الآيات 17 إلى 22]

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21)

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (قبلهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (فتنا) ، الواو (عاطفة) - أو حالية - .

جملة : " قد فتنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة لا محلّ لها .

وجملة : " جاءهم رسول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم " 1 " 18 - (أن) تفسيريّة لتقدّم ما فيه معنى القول عليها " 2 " ، (إليّ) متعلّق

---

(1) أو في محلّ نصب حال بتقدير قد .

(2) يجوز أن تكون مصدريّة ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بباء محذوفة أي بأن أدّوا ، والجارّ متعلّق بـ (جاءهم) . . ويجوز أن تكون مخفّفة من الثقيلة ، فاسمها ضمير الشأن محذوف ، وجملة أدّوا خبر أنّ .

الجدول ج 25 ، ص : 124

ب (أدّوا) ، (عباد) منادى منصوب حذف منه أداة النداء ومفعول (أدّوا) محذوف (لكم) متعلّق بحال من رسول .

وجملة : " أدّوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " النداء وجوابه المقدّر " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " إنّي لكم رسول . . . " لا محلّ لها تعليل للأمر المتقدّم – أو استئناف بيانيّ .

19 – (الواو) عاطفة (أن) مثل الأولى بكلّ حالاتها (لا) ناهية (على اللّه) متعلّق بـ (تعلوا) ، (آتيكم) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء " 1 " ، (بسلطان) متعلّق بـ (آتيكم) " 2 " .

وجملة : " لا تعلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

---

(1) وهو اسم فاعل – أو هو مضارع مرفوع و(كم) مفعول به والجملة خبر إنّ .

(2) أو متعلّق بحال من الضمير المستتر في آتيكم . .

وجملة : " إنّي آتيكم . . . " لا محلّ لها تعليل للنهي المتقدّم – أو استئناف بيانيّ .

20 – (الواو) استئنافيّة (بربّي) متعلّق بـ (عذت) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب ، والنون في (ترجمون) للوقاية قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة فاصلة الآية . .

والمصدر المؤوّل (أن ترجمون) في محلّ حرف جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (عذت) أي من أن ترجموني .

وجملة : " إنّي عذت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عذت . . . " خبر إنّ .

وجملة : " ترجمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن)

21 – (الواو) عاطفة (لم) للنفي فقط (تؤمنوا) مضارع مجزوم فعل الشرط ، وعلامة الجزم حذف النون ، و(الواو) فاعل (لي) متعلّق بـ (تؤمنوا) بتضمينه معنى تقرّوا (الفاء) رابطة لجواب الشرط ، و(النون) في (اعتزلون) للوقاية وجملة : " إن لم تؤمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّي عذت وجملة : " اعتزلون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

22 – (الفاء عاطفة) وجملة : " دعا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فلم يتركوه فدعا ربه والمصدر المؤوّل (أنّ هؤلاء قوم . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (دعا) أي : دعا ربّه بأنّ هؤلاء قوم . . و(الباء) للتعدية .

الصرف :

(18) أدّوا : فيه إعلال بالحذف بدءا من المضارع ، فمضارعه المسند إلى واو الجماعة هم يؤدّون ، أصله يؤديون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الدال – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح يؤدّون ، فلمّا انتقل إلى الأمر بقي الإعلال ، ووزن أدّوا أفعوا .

---

(19) تعلوا : فيه إعلال بالحذف أصله تعلووا - بواوين - فلمّا التقى ساكنان حذفت واو الفعل حرف العلّة وأصبح تعلوا ، وزنه تفعوا . .

(آتيكم) ، اسم فاعل من الثلاثيّ أتى ، فهو على وزن فاعل ، ولمّا اجتمعت همزة أتى مع ألف فاعل أدغمتا ووضع فوقهما مدّة . . وفيه إعلال بالتسكين ، والأصل فيه آتيكم بضمّ الياء . .

هذا ويجوز أن يكون اللفظ مضارعا للثلاثيّ أتى ، فلمّا دخلت همزة المضارعة ، والهمزة الثانية ساكنة ، أدغمتا ووضع فوقهما المدّة ، والأصل أأتى بفتح فسكون .

[سورة الدخان (44) : الآيات 23 إلى 24]

فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بعبادي) متعلّق بـ (أسر) ، (ليلا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أسر) ، وجاء الظرف للتوكيد . .

جملة : " أسر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردت النجاة فأسر . . وجملة

الشرط في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي قال اللّه تعالى لموسى . .

وجملة : " إنّكم متّبعون " لا محلّ لها تعليليّة .

24 - (الواو) عاطفة (رهوا) مصدر في موضع الحال من البحر " 1 " . .

وجملة : " اترك . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة أسر . . .

وجملة : " إنّهم جند . . . " لا محلّ لها تعليليّة

الصرف :

(رهوا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ رها يرهو بمعنى سكن أو انفرج ، واستعمل في الآية في موضع الصفة بمعنى ساكن أو منفرج .

الفوائد

- همزة الأمر . .

همزة الأمر ، هي همزة وصل في الثلاثي والخماسي والسداسي . فالثلاثي مثل اكتب - انزل - اذهب .

والخماسي مثل : انتظم - ارتقب - احترس .

والسداسي مثل : استخدم - استغفر ، ويلاحظ أن حركتها الكسر في فعل الأمر ما عدا الثلاثي المضموم العين فإنها تأتي مضمومة مثل : اكتب - أرسم . وكذلك

---

(1) أو مفعول به ثان لفعل (اترك) إن كان من أفعال التحويل ، قاله العكبريّ .

تضم في مضارع الخماسي والسداسي المبني للمجهول مثل : انتصر على العدو .

استخدم الكتاب استخداما نافعا . أما في أمر الرباعي المبدوء بهمزة ، فتكون همزة قطع ، مثل : أكرم - أحسن . . . إلخ . . وقد وردت في الآية التي نحن بصددها :

فأسر .

[سورة الدخان (44) : الآيات 25 إلى 29]

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)

الإعراب :

(كم) خبريّة كناية العدد في محلّ نصب مفعول به مقدّم (من جنّات) تمييز (فيها) متعلّق بـ (فاكهين) جملة : " تركوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "كانوا فيها فاكهين " في محلّ جرّ نعت لنعمة 28 - (كذلك) متعلّق بخبر لمبتدأ مقدّر أي : الأمر كذلك " 1 " ، (الواو)

عاطفة (قوما) مفعول به ثان منصوب.

وجملة: "(الأمر) كذلك . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة وجملة: "أورثناها . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة 29 - (الفاء) عاطفة وكذلك (الواو)، (عليهم) متعلّق بـ (بكت)، (ما) كافية في الموضعين . .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف مفعول مطلق والعامل فيه فعل تركوا أو محذوف تقديره أهلكناهم أو أخرجناهم . . وحينئذ تعطف جملة أورثناها على الجملة المقدّرة.

(392/697)

وجملة: "ما بكت عليهم السماء "لا محلّ لها معطوفة على جملة أورثناها وجملة: "ما كانوا منظرين "لا محلّ لها معطوفة على أورثناها

الصرف:

(29) بكت: فيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين لام الكلمة وتاء التأنيث . . وزنه فعت.

البلاغة

الاستعارة التمثيلية التخييلية : في قوله تعالى " فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ " .

حيث شبه حال موتهم ، لشدته وعظمته ، بحال من تبكي عليه السماء والأجرام العظام .

وقيل : هي استعارة مكنية تخييلية ، بأن شبه السماء والأرض بالإنسان ، وأسند إليهما البكاء .

وكان إذا مات رجل ، خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، ونحو ذلك ، قال الشاعر ، يرثي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز :

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

الفوائد

- ورد في هذه الآية (كم) الخبرية ، وقد تكلمنا عن كم الاستفهامية وكم الخبرية بالتفصيل في سورة الزخرف الآية (6) فارجع إليها .

[سورة الدخان (44) : الآيات 30 إلى 33]

وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (32) وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاؤُا مُبِينٌ

(33)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) تحقيق (من العذاب) متعلّق بـ (نجّينا) جملة : "نجّينا . . . "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة لا محلّ لها .

31 - (من فرعون) بدل من العذاب بإعادة الجارّ (من المسرفين) متعلّق بخبر ثان لـ (كان) وجملة : "إنّه كان عاليا . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

32 - (ولقد) مثل الأول ، والواو عاطفة (على علم) حال من ضمير الفاعل (على العالمين) متعلّق بـ (اخترناهم) بتضمينه معنى ميّزناهم .

وجملة : "اخترناهم . . . "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم الأولى .

(394/697)

---

33 - (الواو) عاطفة (من الآيات) متعلّق بحال من (ما) ، وهو المفعول الثاني (فيه) متعلّق بخبر مقدّم لـ (بلاء) .

وجملة : " آتيناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اخترناهم وجملة : " فيه بلاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

الفوائد

- وردت (ما) في الآية الكريمة بقوله تعالى : وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاؤُا مُبِينٌ و(ما) هنا تحتمل وجهين : إما أن تكون موصولة ، وإما أن تكون نكرة موصوفة بمعنى شيء وفي الحالتين هي مفعول به ، والجملة بعدها صلة الموصول في الحالة الأولى ، وصفة في الحالة الثانية . وقد بين ابن هشام هذه الناحية فقال : في قولنا : أعجبني ما صنعت ، يجوز فيه كون (ما) بمعنى الذي ، وكونها نكرة موصوفة ، وعليها فالعائد محذوف ، تقديره أعجبني ما صنعته ، وكونها مصدرية ، فلا عائد وعلى هذا فالتقدير : أعجبني الذي صنعت ، أو شيئا صنعت ، أو صنعك . وقد وردت هذه الأوجه الثلاثة في قوله تعالى : ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ أي من الذي قضيت ، أو من شيء قضيت ، أو من قضائك .

ويقول ابن هشام : ولا أعلمهم زادوا (ما) بعد الباء إلا ومعناها السببية .

كما في قوله تعالى : فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ .

أما (من) فأحيانا تحتمل الموصولة أو الموصوفة ، كما في قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ والتقدير : ومن الناس الذي يقول ، أو أحد يقول .

[سورة الدخان (44) : الآيات 34 إلى 36]

إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (36)

الإعراب :

(395/697)

(اللام) المزحلقة للتوكيد (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (منشرين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما . . .

جملة : "إنّ هؤلاء ليقولون . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "يقولون . . . "في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : "إن هي إلّا موتتنا . . . "في محلّ نصب مقول القول وجملة : "ما نحن بمنشرين . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول 36 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بآبائنا) متعلّق بـ (ائتوا) ، (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط وجملة : "ائتوا . . . "في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنتم تقولون صدقا فأتوا . . . وجملة : "إن كنتم صادقين "لا محلّ لها تفسيريّة . . وجواب الشرط مقدّر دلّ عليه ما قبله

الصرف :

(35) منشرين : جمع منشر بضمّ فسكون ففتح ، اسم مفعول من الرباعيّ أنشر ، وزنه مفعل

[سورة الدخان (44) : الآيات 37 إلى 39]

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (38) ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (39)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام وفيه معنى التوبيخ (أم) حرف عطف (قوم) معطوف على ضمير الغائب هم (الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (الذين) موصول في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول ، جملة : " هم خير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " الذين من قبلهم أهلكناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " أهلكناهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وجملة : " إنّهم كانوا مجرمين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) يجوز أن يكون معطوفا على (قوم) بالواو ، وجملة أهلكناهم مستأنفة .

وجملة : "كانوا مجرمين . . . " في محلّ رفع في خبر إنّ (الواو) استئنافيّة (ما) نافية (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على السموات (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (لاعبين) حال منصوبة من فاعل خلقنا .

وجملة : " ما خلقنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

39 - (إلّا) للحصر (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل خلقناهما (الواو) عاطفة (لا) نافية

وجملة : " ما خلقناهما . . . " لا محلّ لها بدل من جملة ما خلقنا السموات . .

وجملة : " لكنّ أكثرهم لا يعلمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما خلقناهما وجملة : " لا يعلمون . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ

الصرف :

(تبّع) ، اسم علم وهو تبّع الحميريّ قيل هو نبيّ أو رجل صالح ، وزنه فعّل بضمّ الفاء وفتح العين المشددة .

فوائد

- من هو تبّع . .

قيل : هو تبع الحميري من ملوك اليمن ، سمي تبعا لكثرة أتباعه . وقيل : هو لقب لملوك اليمن ، كما يسمى في الإسلام خليفة وكان تبع يعبد النار ، فأسلم ودعا قومه حمير إلى الإسلام

فكذبوه .

عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) يقول : لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم . رواه أحمد بن حنبل .

و

عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : ما أدري أكان تبع نبيا أو غير نبي .

(397/697)

وعن عائشة رضى اللّه عنها قالت : لا تسبّوا تبعا فإنه كان رجلا صالحا . وذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس قالوا : كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن مليك ، وكان سار بالجيوش نحو المشرق ، حتى حير الحيرة ، وبنى سمرقند ، ورجع من قبل المشرق ، فجعل طريقه على المدينة ، فوجد ابنه الذي خلفه فيها قد قتل غيلة ، فأجمع على خرابها ، وكان الأنصار يقاتلونه نهارا ، ويقرونه بالليل ، فأعجبه ، وبينما هو كذلك ، جاءه جبران من قريظة ، فأقنعاه بترك القتال ، ودخل في دينهما ثم ارتحل قاصدا اليمن ، وفي الطريق لقيه نفر من هذيل ، فأغروه بالكعبة ، فعند ما علم كذبهم قتلهم ، وتوجه إلى الكعبة فكساها ،

ونحر ستة آلاف بدنة ، وطاف وحلق ، ثم انصرف إلى اليمن ، ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه .

[سورة الدخان (44) : الآيات 40 إلى 42]

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42)

الإعراب :

(أجمعين) توكيد معنوي للضمير في (ميقاتهم) مجرور . . .

جملة : " إنّ يوم الفصل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 41 - (يوم) بدل من يوم الأول منصوب (لا) نافية (عن مولى) متعلّق بـ (يغني) ، (شيئا) مفعول به منصوب أي شيئا من العذاب (الواو) عاطفة (لا) نافية ، والواو في (ينصرون) نائب الفاعل .

وجملة : " لا يغني مولى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " لا هم ينصرون . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة لا يغني وجملة : " ينصرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) 42 - (إلّا) للاستثناء (من) في محلّ رفع بدل من نائب الفاعل " 1 " ، (هو) ضمير فصل " 2 " . .

وجملة : " رحم اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " إنّه . . . العزيز " لا محلّ لها تعليليّة .

(1) أو من مولى الأول.

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره العزيز، والجملة خبر إنّ . . ويجوز أن يكون مستعارا لمحلّ النصب توكيدا لاسم إنّ.

(398/697)

[سورة الدخان (44) : الآيات 43 إلى 50]

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (47)

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50)

الإعراب:

(كالمهل) متعلّق بخبر ثان لـ (إنّ) " 1 " ، (في البطون) متعلّق بـ (يغلي) ، (كغلي) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي غليا كغلي الحميم.

جملة: "إنّ شجرة الزقّوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "يغلي . . . " في محلّ نصب حال من المهل 47 - 50 - (الفاء) عاطفة (إلى سواء) متعلّق بـ (اعتلوه) ، (ثمّ) حرف

عطف (فوق) ظرف منصوب متعلّق بـ (صبّوا) ، (من عذاب) متعلّق بـ (صبّوا) ، (أنت) ضمير فصل " 2 " ، (ما) موصول خبر إنّ (به) متعلّق بـ (تمترون) .

وجملة : " خذوه . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر " 3 " وجملة : " اعتلوه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول وجملة : " صبّوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اعتلوه وجملة : " ذق . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر " 4 " وجملة : " إنّك . . . العزيز " لا محلّ لها تعليليّة وجملة : " إنّ هذا ما . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

---

(1) أو متعلّق بحال من طعام الأثيم ، والعامل فيها معنى التوكيد في (إنّ) . [. . . . .]

(2) أو ضمير مستعار لمحلّ النصب توكيد لاسم إنّ .

(3) أي يقول اللّه للزبانية .

(4) أي تقول له الزبانية . .

وجملة : " كنتم به تمترون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " تمترون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم

الصرف :

(46) غلى : مصدر سماعيّ للثلاثيّ غلى يغلي باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون

(49) ذق : فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون أصل ذوق حذفت الواو لالتقاء للساكنين

البلاغة

1 – التشبيه : في قوله تعالى " إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ " .

حيث شبه الزقوم بالنحاس المذاب بفعل النار ، وهو مهل ، لأنه يمهل في النار حتى يذوب ، وهم يصفون كلّ مذموم من الطعام بأنه يغلي في البطون حقيقة ، وإنما هو المجاز ، كما تقول : الحقد يغلي في قلبه ، والعداوة تغلي في صدره .

2 – الاستعارة المكنية التخييلية : في قوله تعالى " ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ " .

حيث شبه العذاب بالشيء المائع ، ثم خيّل له بالصب ، كقوله :

صبّت عليه صروف الدّهر من صبب . وكقوله تعالى " أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً " فذكر العذاب معلقا به الصب ، مستعارا له ، ليكون أهول وأهيب .

3 – فن التهكم : في قوله تعالى " ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ " وهذا الفن هو : عبارة عن

الإتيان بلفظ البشارة في موضع النذارة ، والوعد في مكان الوعيد ، تهاونا من القائل بالمقول له ، واستهزاء به وهو أغيظ للمستهزأ به وأشد إيلاما له .

حيث جاءت هذه الآية الكريمة على سبيل الهزء والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه .

[سورة الدخان (44) : الآيات 51 إلى 57]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (53) كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (55)

لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57)

الإعراب :

(في مقام) متعلّق بخبر إنّ (في جنّات) بدل من مقام بإعادة الجارّ (من سندس) متعلّق بـ (يلبسون) .

جملة : "إنّ المتّقين في مقام . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "يلبسون . . . " لا محلّ لها

استئناف بيانيّ " 1 " (كذلك) متعلّق بمحذوف خبر لمبتدأ مقدّر أي : الأمر كذلك (الواو) عاطفة (بحور) متعلّق بـ (زوّجناهم) .

وجملة : " الأمر كذلك . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " زوّجناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يلبسون .

55 - (فيها) متعلّق بـ (يدعون) ، (بكلّ) متعلّق بـ (يدعون) بتضمينه معنى يرغبون (آمنين) حال من فاعل يدعون وجملة : " يدعون . . . " في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (زوّجناهم) 56 - 57 - (لا) نافية (فيها) متعلّق بـ (يذوقون) ، (إلّا) للاستثناء

---

(1) أو في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) .

(الموتة) مستثنى منصوب على الاستثناء المنقطع " 1 " ، (الواو) عاطفة (فضلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في الاشتقاق أي تفضّلا " 2 " ، (من ربّك) متعلّق بنعت لـ (فضلا) ، (هو) ضمير فصل . .

وجملة : " لا يذوقون . . . " في محلّ نصب حال من الفاعل في (يدعون) أو من الضمير في

(آمنين) وجملة : " وقاهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة زوّجناهم بمراعاة الالتفات

وجملة : " ذلك . . . الفوز " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(54) حور : جمع حوراء مؤنّث أحور ، صفة مشبهة من حور يحور باب فرح أي اشتدّ

سواد العين واشتد بياضها ، وزنه فعل بضمّ فسكون

البلاغة

الاستعارة المكنية التخييلية : في قوله تعالى " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ " .

---

(1) وقال قوم الاستثناء متّصل ، والتأويل : إنّ المؤمن عند موته في الدنيا بمنزلته في الجنّة لما يعطاه منها أو لما يتيقّنه من نعيمها (حاشية الجمل) .

(2) يجوز أن يكون مفعولا لأجله عامله وقاهم أو يدعون . .

" أمين من الأمن الذي هو ضد الخيانة ، وصف به المكان ، بطريق الاستعارة ، كأن المكان المخيف يخون صاحبه لما يلقى فيه من المكاره .

[سورة الدخان (44) : آية 58]

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إنّما) كافّة ومكفوفة (بلسانك) متعلّق بـ (يسّرناه) ، و(الباء) للمصاحبة

جملة : "يسّرناه . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "لعلّهم يتذكرون "لا محلّ لها

استئناف بيانيّ .

وجملة : "يتذكّرون "في محلّ رفع خبر لعلّ .

البلاغة

- الأفعال الخمسة .

ورد في هذه الآية قوله تعالى لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فالفعل يتذكرون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون ، لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل . وسنبين فيما يلي أهم ما يتعلق بالأفعال الخمسة :

1 - سميت الأفعال الخمسة ، لأننا نصوغ من الفعل خمس صيغ ، والأفعال الخمسة هي : كلّ مضارع اتصلت به ألف الاثنين ، أو واو الجماعة ، أو ياء الخطاب .

فالفعل يكتب ، نصوغ منه الأفعال الخمسة على الشكل التالي : يكتبون - تكتبون - يكتبان - تكتبان - تكتبين .

2 - ترفع الأفعال الخمسة بثبوت النون .

3 – تنصب وتجزم بحذف النون .

فأقول : لم يكتبوا – لم تحفظي – لن تذهبوا – لن تنصرفا .

ملاحظة : ألف الاثنين وواو الجماعة وياء الخطاب ، المتصلة بالفعل ، فهي في محل رفع فاعل ، أو رفع اسمها إن كان الفعل ناقصا (أي كان وأخواتها) .

[سورة الدخان (44) : آية 59]

فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر . .

(403/697)

جملة : " ارتقب " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كفروا فارتقب هلاكهم .

وجملة : " إنّهم مرتقبون " لا محلّ لها تعليلية .

الصرف :

(مرتقبون) ، جمع مرتقب اسم فاعل من الخماسيّ ارتقب ، وزنه مفتعل بضم الميم وكسر العين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 25 صـ 117. 138 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(44) سورة الدخان

مكيّة وآياتها تسع وخمسون

[سورة الدخان (44) : الآيات 1 إلى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4)

أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9)

الإعراب :

(حم وَالْكِتابِ الْمُبِينِ) تقدم القول في مثلها في سورة الزخرف فجدّد به عهدا (إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) إن واسمها وجملة أنزلناه خبرها وفي ليلة متعلقان بأنزلناه

ومباركة نعت ليلة وجملة إنّا أنزلناه جواب القسم وإنّا إن واسمها وجملة كنّا خبرها وكان واسمها ومنذرين خبرها وجملة إنّا كنّا لا محل لها لأنها جواب القسم أيضا من غير عاطف أو مستأنفة أو تفسيرية لجواب القسم (فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

(405/697)

الجملة مستأنفة أو صفة لليلة وعبارة الزمخشري غاية في إعرابها قال : " فإن قلت إنّا كنّا منذرين فيها يفرّق كل أمر حكيم ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسّر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى : إنّا أنزلناه في ليلة مباركة كأنه قيل أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصا لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر حكيم " وفيها متعلقان بيفرق ويفرق فعل مضارع مبني للمجهول وكل أمر نائب فاعل وحكيم صفة لأمر أي يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع شئونهم (أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) أجازوا في أمرا وجوها عديدة ولم يترجح لنا وجه معين لنجزم به فنورد عبارة أبي البقاء ثم نورد بقية الأقوال في باب الفوائد قال : " في نصبه أوجه أحدها هو مفعول منذرين

كقوله لينذر بأسا شديدا والثاني هو مفعول له والعامل فيه أنزلناه أو منذرين أو يفرق والثالث هو حال من الضمير في حكيم أو من أمر لأنه قد وصف أو من كل أو من الهاء في أنزلناه والرابع أن يكون في موضع المصدر أي فرقا من عندنا والخامس أن يكون مصدرا أي أمرنا أمرا ودلّ على ذلك ما يشتمل الكتاب عليه من الأوامر والسادس أن يكون بدلا من الهاء في فأنزلناه " ومن عندنا صفة لأمر أو متعلق بيفرق وإن واسمها وجملة كنّا مرسلين خبر إنّا (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أجازوا في رحمة خمسة أوجه متساوية الرجحان الأول المفعول لأجله والعامل فيه إما أنزلناه وإما أمرا وإما يفرق وإما منذرين والثاني أنه مصدر منصوب بفعل مقدّر أي رحمنا رحمة والثالث أنه مفعول بمرسلين والرابع أنه حال من ضمير مرسلين أي ذوي رحمة والخامس أنه بدل من أمرا فيجيء فيه ما تقدم ، ومن ربك صفة لرحمة أو متعلق بنفس الرحمة وإن واسمها وهو

(406/697)

مبتدأ أو ضمير فصل والسميع العليم خبران لهو أو لإنه وقد تقدمت له نظائر

(رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) رب السموات والأرض بدل من ربك وما عطف على السموات والأرض والظرف صلة الموصول وإن شرطية وكنتم في محل جزم

فعل الشرط وموقنين خبر كنتم وجواب الشرط محذوف تقديره فأيقنوا بأن محمدا رسوله (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) الجملة خبر أيضا لأن ، وربكم خبر رابع أو خبر لمبتدأ محذوف ورب آبائكم الأولين عطف على ما تقدم (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ) إضراب عن محذوف كأنه قال فليسوا بموقنين بل هم في شكّ بحسب ضمائرهم وهم مبتدأ وفي شك خبر وجملة يلعبون حال .

الفوائد :

1 – ليلة القدر : المراد بالليلة المباركة ليلة القدر وقد اختلف فيها وفي تحديد موعدها وقيل ليلة النصف من شعبان ويمكن الرجوع في معرفتها إلى المطولات هذا ويتطلع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إلى ليلة القدر والاحتفال بها والحرص عليها والتعرّض لما يحتشد فيها من خير كثير وثواب كبير وليلة القدر من الشئون الدينية التي صحّ بها النص صحة لا تدع في صدر المؤمن ريبا أو حرجا وإن كان لم يرد معها ذلك السر الذي دعا المسلمين إلى تكريمها من أجله ، والذي نراه أن ليلة القدر لم تكن ولن تكون بابا يفتح في السماء أو نورا يملأ فضاء البيت وإنما هي مبدأ لرحمة اللّه الشاملة التي استنفذت الإنسانية كلها من ربقة الطغيان وأخذت بأيدي الحيارى إلى مسالك واضحة المعالم شريفة الغايات والأهداف يستشعرون فيها برد الطمأنينة ، وراحة السكينة واسترجاع الرشد العازب ،

وربما كان من أجل هذه المعاني الشريفة في ليلة القدر جعل قيامها سترا للعيوب وغفرانا للذنوب فقال رسول اللّه

(407/697)

صلى اللّه عليه وسلم من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

2- أقوال المعربين في أمرا : قال الزمخشري : " أمرا من عندنا نصب على الاختصاص ، جعل كل أمر جزلا بأن وصفه بالحكيم ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال أعني بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا كائنا من لدنا وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ، ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي ثم إما أن يوضع موضع فرقانا الذي هو مصدر يفرق لأن معنى الأمر والفرقان واحد من حيث أنه إذا أحكم بالشيء وكتبه فقد أمر به أو يكون حالا من أحد الضميرين في أنزلناه إما من ضمير الفاعل أي أنزلناه آمرين أمرا أو من ضمير المفعول أي أنزلناه في حال كونه أمرا من عندنا بما يجب أن يفعل " .

أما الشهاب السمين فقد قال فيه أوجه : أحدها أن ينتصب حالا من فاعل أنزلناه والثاني أنه حال من مفعوله أي أنزلناه آمرين أو مأمورا به والثالث أن يكون مفعولا له وناصبه إما أنزلناه وإما منذرين وإما يفرق والرابع أنه مصدر من معنى يفرق أي فرقا وهناك أقوال أخرى

لا تخرج عن هذا النطاق.

[سورة الدخان (44) : الآيات 10 إلى 16]

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14)

إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

اللغة:

)

(408/697)

بِدُخانٍ) الدخان معروف وقال أبو عبيدة: والدخان الجدب قال القتبي: سمي دخانا لييبس الأرض منه حتى يرتفع منها كالدخان وقياس جمعه في القلّة أدخنة وفي الكثرة دخنان نحو غراب وأغربة وغربان وشذوا في جمعه على فواعل فقالوا: دواخن كأنه جمع داخنة تقريبا كما شذّوا في عنان فقالوا عوانن وفي القاموس: والدخان كغراب وجبل ورمان الغبار

والجمع أدخنة ودواخن ودواخين .

الأعراب :

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ) الفاء الفصيحة وارتقب فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ويوم مفعول به لارتقب وجملة تأتي السماء في محل جر بإضافة الظرف إليها وبدخان متعلقان بتأتي ومبين صفة لدخان وفي الدخان المذكور أقوال متشعبة يرجع إليها في مطولات كتب التفسير وملخصها : هو دخان يجيء يوم القيامة يصيب المؤمن (يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ) الجملة في محل جر صفة لدخان أيضا أي يشملهم ويلبسهم والناس مفعول به وهذا مبتدأ وعذاب خبر وأليم صفة لعذاب والجملة مقول قول محذوف وجملة القول في محل نصب على الحال أي قائلين لربك (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) تتمة مقولهم وربنا منادى مضاف واكشف فعل أمر للدعاء والفاعل مستتر تقديره أنت وعنّا متعلقان باكشف والعذاب مفعول به وإن واسمها ومؤمنون خبرها والجملة تعليلية للدعاء (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ) أنّى اسم استفهام بمعنى كيف في محل نصب على الظرفية وهو في محل رفع خبر مقدم ولهم حال والذكرى مبتدأ مؤخر ، والاستفهام هنا محمول على غير حقيقته ، بل المراد استبعاد أن يكون

لهم الذكرى بقرينة قوله " وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه " أي كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوا به من الإيمان عند كشف العذاب عنهم وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الادّكار من كشف الدخان وهو ما ظهر على يد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الآيات البيّنات ومن الكتاب المعجز وغيره فلم يذكروا وأعرضوا عنه والواو حالية وقد حرف تحقيق وجاءهم رسول فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ومبين صفة (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ) ثم حرف عطف وتولوا فعل وفاعل والعطف على محذوف أي فلم يذكروا ثم تولوا وعنه متعلقان بتولوا وقالوا عطف على تولوا ومعلم خبر لمبتدأ محذوف أي هو معلم بفتح اللام المشددة اسم مفعول من علم أي يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة النحل ومجنون خبر ثان (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) إن واسمها وكاشفوا العذاب خبرها وقليلا ظرف زمان متعلق بكاشفوا وإن واسمها وعائدون خبرها (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) يوم ظرف متعلق بمحذوف دلّ عليه إنّا منتقمون أي ننتقم واقتصر على هذا الإعراب الزمخشري وأجاز غيره أن يكون بدلا من يوم تأتي وقيل منصوب بإضمار اذكر وقيل بمنتقمون وردّ الزمخشري هذا الوجه بأن إن تحجب عن ذلك وجملة نبطش في محل جر بإضافة الظرف إليها والبطشة مفعول مطلق والكبرى صفة وإن واسمها ومنتقمون خبرها .

[سورة الدخان (44) : الآيات 17 إلى 29]

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21)

(410/697)

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِن

" الرهو فيه وجهان : أحدهما أنه الساكن قال الأعشى :

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل

أي مشيا ساكنا على هنية ، أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق فأمر بأن يتركه ساكنا على هنية قارا على حاله من انتصاب الماء وكون الطريق يبسا لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئا ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه اللّه عليهم . والثاني أن الرهو الفجوة الواسعة وعن بعض العرب أنه رأى جملا فالجا فقال سبحان اللّه رهو بين سنامين أي اتركه على حاله منفرجا " فهو في الأصل مصدر رها يرهو

رهوا كعدا يعدو عدوا إما بمعنى سكن وإما بمعنى انفرج وانفتح

وفي المختار : " رها بين رجليه أي فتح وبابه عدا ، ورها البحر سكن وبابه عدا أيضا " .

(فاكِهِينَ) طيبي الأنفس أو أصحاب فاكهة كلابن وتامر وقد مرت هذه الصيغة وعبارة القاموس " الفاكهة الثمر كله والفاكهاني بائعها وكخجل آكلها والفاكه صاحبها وفكههم تفكيها أطرفهم بها والاسم الفكيهة والفكاهة بالضم وفكه كفرح فكها فهو فكه وفاكه طيب النفس ضحوك أو يحدّث صحبه فيضحكهم " .

الإعراب :

)

(411/697)

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) كلام مستأنف مسوق للشروع في ضرب الأمثلة لهم بمن تقدمهم من الأقوام واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وفتنا فعل ماض وفاعل وقبلهم ظرف متعلق بفتنا وقوم فرعون مفعول به ، وجاءهم : الواو عاطفة وجاءهم فعل ماض ومفعول به مقدم ورسول فاعل وكريم صفة (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) أن يجوز أن تكون مفسّرة لأن مجيء الرسل متضمن معنى القول

ويجوز أن تكون مصدرية وهي مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بجاءهم ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة أدّوا إليّ خبر وعباد اللّه منادى مضاف محذوف منه حرف النداء فيكون المراد بعباد اللّه القبط ، واختار الزمخشري أن تكون عباد اللّه مفعولا به وهم بنو إسرائيل يقول أدّوهم إليّ وأرسلوهم معي ويؤيد هذا ما جاء في سورة الشعراء " فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل " وإن واسمها ولكم متعلقان بمحذوف حال ورسول خبر إنّي وأمين صفة (وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ) الواو عاطفة

(412/697)

و أن عطف على أن الأولى ويجوز فيها من الأوجه ما جاز في الأولى ولا ناهيه وتعلو فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون وعلى اللّه متعلقان بتعلوا وإن واسمها وجملة آتيكم خبرها وبسلطان متعلقان بآتيكم ومبين صفة والجملة تعليلية للنهي لا محل لها (وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ) الواو حرف عطف على بربي وإن واسمها وجملة عذت خبرها وربي متعلقان بعذت وربكم عطف على بربي وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بعذت أي من أن ترجمون وياء المتكلم

المحذوفة مفعول ترجمون (وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ) الواو عاطفة وإن شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتؤمنوا فعل الشرط والفاء رابطة وجملة اعتزلون في محل جزم جواب الشرط واقترنت الجملة بالفاء وجوبا لأنها طلبية ولا ترسم الياء أيضا لأنها من آيات الزوائد (فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ) الفاء حرف عطف والكلام معطوف على مقدّر قدّره الجلال بقوله فلم يتركوه ، ودعا ربه فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وأن ومدخولها في محل نصب بنزع الخافض أي بأن هؤلاء والجار والمجرور متعلقان بدعا وأن واسمها وخبرها ومجرمون صفة لقوم (فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ) الفاء الفصيحة وهي الواقعة جوابا لشرط مقدّر كأنه قال : إن كان الأمر كما تقول فأسر وبعبادي متعلقان بأسر وليلا ظرف زمان متعلق بأسر أيضا وإن واسمها وخبرها والجملة تعليل للأمر بالإسراء وهو السير ليلا (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ) الواو عاطفة واترك فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ورهوا حال أو مفعول به ثان لاترك وإن واسمها وخبرها والجملة تعليل للأمر بالترك (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) الكلام مرتبط بمقدّر لا بدّ منه ليلتئم نظام

الكلام والتقدير فاطمأن موسى بذلك فتمّ إغراقهم ، وكم خبرية في محل نصب مفعول به مقدّم لتركوا ومن جنات

وعيون في محل نصب على الحال (وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) عطف على جنات وعيون والمقام الكريم يراد به مجالسهم الحافلة التي كانوا يقيمونها ومحافلهم الهائئة التي كانوا يلتّفون فيها (وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ) عطف أيضا وهو من عطف العام على الخاص لأن النعمة لا تشمل جميع ما تقدم وغيره مما لم يذكر وجملة كانوا صفة لنعمة وفيها متعلقان بفاكهين وفاكهين خبر كانوا (كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ) كذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك وقال الزمخشري : " الكاف منصوبة على مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها " فهي عنده في موضع المفعول المطلق وقال أبو البقاء تركا كذلك فجعله نعتا للترك المحذوف ، والواو حرف عطف وأورثناها فعل وفاعل ومفعول به والجملة عطف على كم تركوا وقوما مفعول به ثان وآخرين نعت لقوما (فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ) الفاء عاطفة والكلام معطوف على جملة أغرقوا

المقدّرة وبكت عليه السماء والأرض فعل وفاعل وما نافية وكانوا منظرين كان واسمها وخبرها .

البلاغة :

معنى بكت عليهم السماء والأرض : في قوله " فما بكت عليهم السماء والأرض " استعارة

مكنية تخييلية شبّه السماء والأرض بمن يصحّ منه الاكتراث ثم حذف المشبه به وهو من يصحّ منه الاكتراث واستعار له شيئًا من لوازمه وهو البكاء والمعنى أنهم لم يكونوا يعملون عملا صالحا ينقطع بهلاكه فتبكي الأرض لانقطاعه وتبكي السماء لأنه لم يصعد إليها شيء من ذلك العمل الصالح بعد هلاكهم وجعله بعضهم مجازا مرسلا عن الاكتراث بهلاك الهالك والعلاقة السببية ، ذكر المسبب وأراد السبب فإن الاكتراث المذكور سبب يؤدي إلى البقاء عادة .

(414/697)

قال أبو حيان : فما بكت عليهم السماء والأرض استعارة لتحقير أمرهم وأنه لم يتغير عن هلاكهم شيء ويقال في التعظيم بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس وقال زيد بن مفرغ :

الريح تبكي شجوها والبرق يلمع في غمامه

وقال جرير :

فالشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

ولا مندوحة لنا عن أن نتناول بيت جرير بالشرح والإعراب فقد شغل النقاد كثيرا وهو من

قصيدة يرثي بها عمر بن عبد العزيز وقبله :

نعى النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت اللّه واعتمرا

حملت أمرا عظيما فاضطلعت به وقمت فيه بأمر اللّه يا عمرا

فالشمس طالعة (البيت) وقوله يا خير حكاية قول النعاة أي قائلين يا خير ويحتمل أنه من كلام الشاعر ففيه التفات ، والنعي النداء بالموت ، والأمر العظيم الخلافة ومشاقها وأعباؤها شبهها بالأمر المحسوس الذي يحمل على طريق الاستعارة المكنية والتحميل تخييل للاستعارة ، وأمر اللّه شرعه ، وفي هذا البيت أقوال منها أن فيه تقديما وتأخيرا وأن نجوم الليل والقمر منصوبان بكاسفة لا بقوله تبكي وتقديره ليست بكاسفة نجوم الليل ولا القمر تبكي عليك وإذا كانت غير كاسفة لغيرها من الكواكب كانت غير مضيئة فهي سوداء مظلمة والزمان كله ليل وهذا في غاية ما يكون من المبالغات في المراثي ومن أجود ما قيل في الرثاء ، وطالعة خبر الشمس وليست بكاسفة خبر ثان وتبكي عليك حال أو خبر ثالث ونجوم الليل مفعول كاسفة أي لم تكسف الشمس نجوم الليل لانطماسها وقلّة ضوئها

من كثرة بكائها فلا تقدر على منع الكواكب من الظهور ، ويحتمل أن نجوم الليل مفعول تبكي أي تغلب نجوم الليل في البكاء عليك وقيل روايته هكذا وهم والرواية الشمس كاسفة ليست بطالعة أي لا تطلع أبدا من حينئذ فالأوجه أن نجوم الليل مفعول تبكي وقيل ظرف له أي مدة نجوم إلخ وقيل نجوم مرفوع على الفاعلية والقمر مفعول معه ، ونصب عمر مشكل لأنه علم مفرد فكان ينبغي أن يبنى على الضم وفيه وجوه منها أنه أراد يا عمر بن الخطاب أو يا عمر بن عبد العزيز والمنادى المضاف يكون منصوبا ثم قطع الإضافة لانتهاء الوزن ومنها أنه أراد يا عمراه على الندبة وحذف الهاء كما قيل في قوله تعالى : " يا أسفا على يوسف " وقيل غير ذلك مما يطول فيه القول وليس بطائل .

[سورة الدخان (44) : الآيات 30 إلى 37]

وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (32) وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاؤُا مُبِينٌ (33) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34)

إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (37)

اللغة :

(تُبَّعٍ) هو تبع الحميري الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند وقيل هدمها كان

مؤمنا وكان قومه كافرين ولذلك ذمّهم اللّه دونه وعبارة أبي حيان : " الظاهر أن تبعا هو شخص معروف وقع التفاضل بين

(416/697)

قومه وقوم الرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان لفظ تبع يطلق على كل من ملك العرب كما يطلق كسرى على من ملك الفرس وقيصر على من ملك الروم قيل اسمه أسعد الحميري وكنّي أبا كرب ، وذكر أبو حاتم الرياشي أنه آمن بالنبي صلى اللّه عليه وسلم قبل أن يبعث بتسعمائة سنة وروي أنه لما آمن بالمدينة كتب كتابا ونظم شعرا ، أما الشعر فهو :

شهدت على أحمد أنه رسول من اللّه باري النسم

فلو مدّ عمري إلى عمره لكنت وزيرا له وابن عمّ

وأما الكتاب فروى ابن إسحق وغيره أنه كان فيه : أما بعد فإني آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك وأنا على دينك وسنّتك وآمنت بربك ورب كل شيء وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام فإن أدركتك فبها ونعمت وإن لم أدركك فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة فإني من أمتك الأولين وتابعتك قبل مجيئك وأنا على ملّتك وملّة أبيك إبراهيم عليه السّلام ثم ختم الكتاب ونقش عليه للّه الأمر من قبل ومن بعد وكتب عنوانه : إلى محمد بن

عبد اللّه نبيّ اللّه ورسوله خاتم النبيين ورسول رب العالمين صلى اللّه عليه وسلم من تبع الأول . ويقال كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد بن زيد فلم يزل عنده حتى بعث النبي صلى اللّه عليه وسلم . وكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر حتى أدوه للنبي صلى اللّه عليه وسلم . وقال قوم ليس المراد بتبع رجلا واحدا إنما المراد ملوك اليمن وكانوا يسمّون التّابعة ، قال الجوهري : " التّابعة ملوك اليمن والتبع الظل والتبع الظل والتبع ضرب من الطير " وعبارة الزمخشري : " وقيل لملوك اليمن التّابعة لأنهم يتبعون كما قيل الأقيال لأنهم يتقيلون " وفي مختار الصحاح : التقيل شرب نصف النهار . وسمي الظل تبعا لأنه يتبع الشمس .

هذا وكان منهم سبعون تبعا ، قال النعمان بن بشير الأنصاري :

لنا من بني قحطان سبعون تبعا أطاعت لنا بالخرج منّا الأعاجم

(417/697)

و منّا سراة الناس هود وصالح وذو الكفل منّا والملوك الأعاظم

وقيل كانوا ثمانين فلم يتفق له في الشعر هذا وتفاصيل أخبارهم مبثوثة في بطون كتب التاريخ المطوّلة فليرجع إليها من استهوته قراءة الأساطير الممتعة وما فيها من قصص عجيب .

الإعراب :

(وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ) كلام مستأنف مسوق لتسلية النبي صلى اللّه عليه وسلم عمّا كان يكابده من قريش وإثلاج صدره بأن اللّه قادر على إنقاذه وإنقاذ أتباعه من أذاهم كما نجى بني إسرائيل من القبط وهو أمر كان بحسب الظاهر أمرا بعيد الوقوع.

واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ونجينا فعل وفاعل وبني إسرائيل مفعول به ومن العذاب متعلقان بنجينا والمهين صفة للعذاب (مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ) من فرعون بدل من قوله من العذاب بإعادة الجار كأنه في نفسه كان عذابا مهينا لما كابدوه منه من عذاب وإهانة وقيل متعلقان بمحذوف حال من العذاب أي كائنا أو صادرا من فرعون، وإن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو وعاليا خبرها ومن المسرفين خبر ثان لكان وجملة إن وما بعدها لا محل لها لأنها تعليلية (وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق واخترناهم فعل وفاعل ومفعول به وعلى علم متعلقان بمحذوف حال وعلى بمعنى مع أي مع علمنا بأنهم يزيفون وتفرط منهم الفرطات وعلى العالمين متعلقان باخترناهم أو لكثرة الأنبياء منهم (وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاؤُا مُبِينٌ) عطف على ما تقدم وآتيناهم فعل وفاعل ومفعول ومن

الآيات حال مقدّم وما مفعول به ثان لآتيناهم وفيه خبر مقدم وبلاء مبتدأ مؤخر ومبين صفة لبلاء والجملة صلة الموصول (إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ) إن واسمها واللام المزحلقة ويقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة خبر إن وجملة إن هؤلاء مستأنفة مسوقة للحديث عن قريش بعد استطراد حديث بني إسرائيل (إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ) إن نافية وهي مبتدأ وإلا أداة حصر وموتتنا خبر هي والأولى نعت ، وسيأتي معنى الميتة الأولى في باب الفوائد ، والواو حرف عطف وما نافية حجازية ونحن اسمها وبمنشرين الباء حرف جر زائد ومنشرين خبرها منصوب محلا مجرور لفظا (فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الفاء الفصيحة أي إن كنتم صادقين فيما تقولون فعجّلوا لنا إحياء من مات من آبائنا لينهض دليلا على ما تعدّونه من قيام الساعة وبعث الموتى (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري وهم مبتدأ وخير خبر وأم حرف عطف وقوم تبع عطف على هم والذين عطف على قوم تبع ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الذين ، وجملة أهلكناهم حال من المعطوف والمعطوف عليه أو مستأنفة لا محل لها وإن واسمها وجملة كانوا مجرمين خبرها والمراد بالخيرية المفضلة القوة والمنعة في الدنيا ، وجملة انهم كانوا مجرمين تعليلية لا محل لها لأنها تعليل لإهلاكهم .

الفوائد :

معنى الموتة الأولى أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين الأولى منهما الموت والأخرى حياة البعث أثبتوا الحالة الأولى وهي الموت ونفوا ما بعدها وسمّوها أولى مع أنهم اعتقدوا أن لا شيء بعدها لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات فجعلوها أولى على ما ذكرت

(419/697)

لهم وهذا أولى من حمل الموتة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا لوجهين أحدهما أن الاقتصار عليها لا يعتقدونه لأنهم يثبتون الموت الذي يعقب حياة الدنيا وحمل الحصر المباشر للموت في كلامهم على صفة تذكر لا على نفس الموت المشاهد لهم فيه عدول عن الظاهر بلا حاجة ، الثاني أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالموتة فإن الموتة فعلة فيها إشعار بالتجدّد والطريان والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تتقدمه حياة طرأ عليها مع أن في بقية السورة قوله تعالى : " لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى " وإنما عنى بالموتة الأولى هنا الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط .

[سورة الدخان (44) : الآيات 38 إلى 50]

وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (38) ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (39) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى
شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42)
إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ
(46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (47)
ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هذا ما
كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50)

اللغة :

(مَوْلًى) في المختار : " المولى المعتق وابن العم والناصر والجار والحليف " .

(شَجَرَةَ الزَّقُّومِ) تقدم الكلام فيها في سورة الصافات فارجع إليها .

)

(420/697)

المهل) اسم يجمع معدنيات الجواهر كالفضة والحديد ، والصفر ما كان منها ذائبا ، والقطران الرقيق ، والزيت الرقيق ، والسم ، والقيح ، أو صديد الميت خاصة ، وما يتحات عن الخبز من الرماد ، وهو بضم الميم وأجازوا فتح الميم لأنهم سمعوا لغة قليلة فيه

وإنما المهل بالفتح التؤدة والرفق .

(الْحَمِيمِ) الماء الشديد الحرارة .

(فَاعْتِلُوهُ) أي فقودوه بعنف وغلظة ، والعتل هو أن يأخذ بتلابيب الرجل فيجر إلى حبس أو قتل ومنه العتل وهو الجافي الغليظ وفي المختار : " عتل الرجل جذبه جذبا عنيفا وبابه ضرب ونصر " فقولهم العتّال للذي ينقل الأحمال بالأجرة صحيح لا غبار عليه والحرفة العتالة .

الإعراب :

(وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ) كلام مستأنف مسوق للتدليل على صحة الحشر ووقوعه ولك أن تعطفه على ما قبله ليتناسق الكلام ويلتئم طرفاه . وما نافية وخلقنا السموات فعل وفاعل ومفعول به وما عطف على السموات والأرض وبينهما ظرف متعلق بمحذوف هو صلة ما ولاعبين حال من الفاعل (ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الجملة مفسّرة لما قبلها وما نافية وخلقناهما فعل وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر وبالحق حال أي محقّين في ذلك

ليكون في ذلك برهان للعاقل والواو حالية ولكن حرف مشبه بالفعل للاستدراك وأكثرهم اسمها وجملة لا يعلمون خبرها (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ) إن واسمها وميقاتهم خبرها وأجمعين تأكيد للضمير أي للناس جميعا (يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) يوم يجوز أن يكون بدلا من يوم الفصل وأن يكون ظرفا لما دلّ عليه الفصل أي يفصل بينهم يوم لا يغني ، ولا يتعلق بالفصل نفسه لأنه قد أخبر عنه ، وجملة لا يغني في محل جر بإضافة الظرف إليها ومولى فاعل وعن مولى متعلقان بيغني وشيئا مفعول به أو مفعول مطلق أي قليلا منه والواو حرف عطف ولا نافية وهم مبتدأ وجملة ينصرون خبر وهو مبني للمجهول والواو نائب فاعل (إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ) إلا أداة حصر ومن في محل رفع بدل من الواو في ينصرون أي لا يمنع من العذاب إلا من رحمه اللّه ، ويجوز أن ينصب على الاستثناء فيكون منقطعا على رأي الكسائي أي ولكن من رحم اللّه لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من ينفعهم من المخلوقين أو متصلا تقديره لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في الشفاعة فيشفعون في بعضهم وجملة رحم اللّه صلة الموصول (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) إن واسمها وهو مبتدأ أو ضمير فصل والعزيز الرحيم خبران لإن أو لهو والجملة خبر إن (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ) إن واسمها والزقوم مضاف إليه وطعام الأثيم خبرها (كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) كالمهل خبر ثان لإن وجملة يغلي حال من الزقوم أو من طعام الأثيم وقد تقدم بحث مجيء الحال من المضاف إليه لأنه كالجزء من المضاف وفي البطون متعلقان بيغلي

والكاف ومجرورها نعت لمصدر محذوف أي تغلي غليانا مثل غليان الحميم (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ) خذوه فعل أمر مبني على حذف النون والواو

(422/697)

فاعله والهاء مفعوله والأمر للزبانية فالجملة مقول قول محذوف ، فاعتلوه عطف على خذوه وإلى سواء الجحيم

متعلقان باعتلوه أي إلى وسط الجحيم (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وصبّوا فعل أمر وفاعل وفوق رأسه ظرف متعلق بصبّوا وعذاب الجحيم مفعول به (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الجملة مقول قول محذوف أي ويقال له ذق ، وذق فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وإن واسمها وأنت مبتدأ أو ضمير فصل والعزيز الكريم خبران لإن أو لأنت وجملة إنك إلخ تعليلية وسيأتي سر هذا التعليل في باب البلاغة (إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ) إن واسمها وما خبرها وجملة كنتم صلة وبه متعلقان بتمترون وجملة تمترون خبر كنتم .

البلاغة :

1- في قوله " ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم " استعارة مكنية تخييلية فقد شبّه

العذاب بالمائع ثم خيّل له بالصب .

2- وفي قوله " ذق إنك أنت العزيز الكريم " فن التهكم وقد تقدم أنه عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع النذارة والوعد في مكان الوعيد تهاونا من القائل بالمقول له واستهزاء به وقد تقدمت أمثلته في مواضعها كقوله تعالى في النساء : " بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما " وهو أغيظ للمستهزأ به وأشد إيلاما له .

[سورة الدخان (44) : الآيات 51 إلى 59]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55)

لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

اللغة :

(السندس) هو ما رقّ من الديباج ، والإستبرق ما غلظ منه ، وهو تعريب استير قال

الزمخشري : " فإن قلت : كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي ؟ قلت إذا عرب خرج عن أن يكون أعجميا لأن معنى التعريب أن يجعل عربيا بالتصرّف فيه وتغييره عن منهاجه وإجرائه على أوجه الإعراب " وهناك سؤال آخر أورده الملحد ابن الراوندي وهو كيف وعد اللّه أهل الجنة بلبس الإستبرق وهو غليظ الديباج مع أنه عند أغنياء الدنيا عيب ونقص ؟ والجواب أن غليظ ديباج الجنة لا يساويه غليظ ديباج الدنيا حتى يعاب كما أن سندس الجنة وهو رقيق الديباج لا يساويه سندس الدنيا ، وقد أشبع أبو العلاء المعرّي في رسالة الغفران ابن الراوندي تهكما وسخرية .

الإعراب :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) وإن واسمها وفي مقام خبرها وأمين نعت لمقامٍ ي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) الجار والمجرور بدل من في مقام بإعادة الجار (يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ) الجملة إما خبر ثان لإن وإما حال من الضمير المستكن في الجار ومن سندس متعلقان بيلبسون ومتقابلين حال من الضمير في يلبسون وفي هذه الحال وصف جميل لمجالس أهل الجنة لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرة بهم (كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) كذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه جيء بها

للتقرير ، وزوجناهم عطف على يلبسون وهو فعل ماض وفاعل ومفعول به وبجور متعلقان بزوجناهم وعين نعت لحور ، وسيأتي في باب الفوائد وصف طريف للحور العين (يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ) الجملة حال من الهاء في وزوجناهم ويدعون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وفيها حال وبكل متعلقان بيدعون أي يطلبون إحضارها لديهم وآمنين حال أي لا يخافون من مغبة أكلها (لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى) الجملة حال من الضمير في آمنين ولا نافية ويذوقون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وفيها حال والموت مفعول به وإلا أداة استثناء والموتة مستثنى من الموت على أنه استثناء منقطع والأولى صفة ، وسيأتي مزيد من القول في إعراب هذا الاستثناء في باب الفوائد (وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ) الواو عاطفة ووقاهم فعل ماض وفاعل مستتر يعود على اللّه وعذاب الجحيم مفعول به ثان (فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) فضلا مفعول مطلق لفعل محذوف وقيل مفعول من أجله والأول أقرب لأنه مصدر ملاق لعامله في المعنى أي تفضلنا بذلك فضلا ومن ربك صفة لفضلا وذلك مبتدأ وهو ضمير فصل والفوز خبر والعظيم نعت للفوز ويجوز أن يكون هو مبتدأ ثانيا والفوز خبره والجملة خبر اسم الإشارة (فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) الفاء الفصيحة وإنما كافة ومكفوفة وإنما جعلناها فصيحة لأن الآية فذلكة للسورة فقد أفصحت عن مقدر ، ويسّرناه فعل ماض وفاعل ومفعول به

وبلسانك متعلقان بيسرناه ولعل واسمها وجملة يتذكّرون خبرها (فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ)

الفاء الفصيحة أيضا أي إن لم يتعظوا ولم يؤمنوا به فارتقب ، وارتقب فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ومفعوله محذوف تقديره هلاكهم وجملة إنهم مرتقبون تعليلية للأمر بالانتظار وإن واسمها وخبرها ، فمفعول

مرتقبون محذوف أيضا تقديره هلاكك .

(425/697)

الفوائد :

1 - استثناء مشكل : قال الشهاب السمين " قوله إلا الموتة الأولى فيه أوجه : أحدها أنه استثناء منقطع أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها ، والثاني أنه متصل وتأولوه بأن المؤمن عند موته في الدنيا بمنزلته في الجنة لمعاينته ما يعطاه منها أو لما يتيقنه من نعيمها ، الثالث أن إلا بمعنى سوى ، نقله الطبري وضعفه ، قال ابن عطية وليس تضعيفه بصحيح بل كونها بمعنى سوى مستقيم متّسق ، الرابع أن إلا بمعنى بعد واختاره الطبري وأباه الجمهور لأن مجيء إلا بمعنى بعد لم يثبت ، وقال الزمخشري : فإن قلت كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقة فيها ! قلت : أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة

فوضع قوله إلا الموتة الأولى موضع ذلك لأنه الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها في الجنة " أقول هذا الذي ذكره الزمخشري ونقله السمين مبني على أن الموتة بدل على طريقة البدل المجوز فيها البدل من غير الجنس وأما على طريقة الحجازيين فانتصبت الموتة استثناء منقطعا ، وسرّ اللغة التميمية بناء النفي المراد على وجه لا يبقي للسامع مطمعا في الإثبات ، فيقولون ما فيها أحد إلا حمار على معنى إن كان الحمار من الأحدين ففيها أحد فيعلقون الثبوت على أمر محال حتما بالنفي .

2- الحور العين : وعدناك بنقل وصف طريف للحور العين مقتبس من الحديث الشريف ، وقبل أن نورد ما اخترناه من الأحاديث الواردة بهذا الصدد نقول الحور جمع حوراء وهي كما في القاموس وغيره من الحور بالتحريك وهو أن يشتد بياض العين ويسودّ سوادها وتستدير حدقتها وترقّ جفونها ويبيض ما حواليها ، والعين جمع عيناء

كحمراء فعين أصله بضم الغين بوزن قفل لكنها كسرت لتصحّ الياء أي واسعات الأعين وفيما يلي نص الحديث الذي اخترناه لهذا الوصف :

" عن علي رضي اللّه عنه أنه سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن هذه الآية " يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا . . . إلى آخرها قال قلت يا رسول اللّه ما الوفد إلا ركب قال النبي صلى اللّه عليه وسلم :

والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رحال الذهب شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مثل مدّ البصر وينتهون إلى باب الجنة فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان فإذا شربوا من أحدهما جرت في وجوههم بنضرة النعيم وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبدا فيضربون الحلقة بالصحيفة فلو سمعت طنين الحلقة يا علي فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتستخفها العجلة فتبعث قيّمها فيفتح له الباب فيقول لولا أن اللّه عزّ وجلّ عرفه نفسه لخرّ له ساجدا مما يرى من النور والبهاء فيقول : أنا قيّمك الذي وكلت بأمرك فيتبعه فيقفو أثره فيأتي زوجته فتستخفها العجلة فتخرج من الخيمة فتعانقه وتقول أنت حبّي وأنا حبّك وأنا الراضية فلا أسخط أبدا وأنا الناعمة فلا أبأس أبدا وأنا الخالدة فلا أظعن أبدا فيدخل بيتا من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع مبني على جندل اللؤلؤ والياقوت طرائق حمر وطرائق خضر وطرائق صفر ما منها طريقة تشاكل صاحبها فيأتي الأريكة فإذا عليها سرير ، على السرير سبعون فراشا على كل فراش سبعون زوجة على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقها من باطن الحلل يقضي جماعهن في مقدار ليلة تجري

من تحتهم أنهار مطّردة ، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها وأنهار من لبن لم يتغير طعمه لم يخرج من

(427/697)

بطون الماشية فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها من أيّ الألوان شاءوا ثم تطير فتذهب وفيها ثمار متدلية إذا اشتهوها انبعث الغصن إليهم فيأكلون من أيّ الثمار شاءوا إن شاء قائما وإن شاء متكئا وذلك قوله " وجنى الجنتين دان " وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ " رواه ابن أبي الدنيا في كتاب صفة الجنة عن الحارث ، ونكتفي بهذا الحديث مجتزئين بها عن أحاديث كثيرة في هذا المعنى وسترد في مواضعها إن شاء اللّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 117 . 140﴾

(428/697)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والتسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والتسعون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الجاثية)

(4/698)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الجاثية)

(5/698)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة

فيه حديث ضعيف : من قرأَ سورة الجاثية كان له بكلّ حرف عشرُ حسنات ، ومَحْوُ

عشر سيئات ، ورفع عشر درجات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 427 ﴾

(6/698)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الجاثية

مقصودها الدلالة على أن منزل هذا الكتاب - كما دل عليه في الدخان - ذو العزة لأنه لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء ، والحكمة لأنه لم يضع شيئاً إلا في أحكم مواضعه ، فعلم أنه المختص بالكبرياء ، فوضع شرعاً هو في غاية الاستقامة لا تستقل العقول بإدراكه ولا يخرج شيء منه عنه ، أمر فيه ونهى ، ورغب ورهب ثم بطن حتى أنه لا يعرف ، ثم ظهر حتى أنه لا يجهل ، فمن المكلفين من حكم عقله وجانب هواه فشهد جلاله فسمع وأطاع ، ومنه من تبع هواه فضل عن نور العقل فزاغ وأضاع فاقتضت الحكمة ولا بد أن يجمع سبحانه الخلق ليوم الفصل فيظهر كل الظهور ويدين عباده ليشهد رحمته المطيع وكبرياءه العاصي ، وينشر العدل ويظهر الفضل ، ويتجلى في جميع صفاته لجميع خلقه ، وعلى ذلك

دل اسمها الشريعه ، واسمها الجاثية واضح الدلالة فيه إذا تؤمل كل من آيتهما – والله سبحانه وتعالى الهادي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 88 ﴾

(7/698)

فصل

قال الآلوسى :

سورة الجاثية

وتسمى سورة الشريعة وسورة الدهر كما حكاه الكرماني في العجائب لذكرهما فيها وهي مكية قال ابن عطية : بلا خلاف وذك الماوردي إلا قل للذين آمنوا يغفروا الآية فمدنية وحكى هذا الاستثناء في جمال القراء عن قتادة وسيأتي الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي وست وثلاثون في الباقية لاختلافهم في حم هل هي آية مستقلة أولا ومناسبة أوله الآخر ما قبلها في غاية الوضوح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ 138 ﴾

(8/698)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)

السّورة مكِّيّة بالإِجماع .

آياتها سبع وثلاثون فى الكوفة ، وست فى الباقين .

كلماتها أَربعمائة وثمانون .

وحروفها أَلفان ومائة وتسعون .

مجموع فواصل آياتها (من) ولها اسمان : سورة الجاثية ؛ لقوله ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ ، وسورة الشريعة ؛ لقوله ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان حُجّة التّوحيد ، والشكية من الكفار والمتكبرين ، وبيان النفع ، والضرّ والإِساءَة ، والإِحسان ، وبيان شريعة الإِسلام والإِيمان ، وتهديد العصاة والخائنين من أَهل الإِيمان ، وذمّ متابعى الهوى ، وذلّ الناس فى المحشر ، ونَسْخ كُتُب الأَعمال من اللَّوح المحفوظ ، وتأبيد الكفَّار فى النَّار ، وتحميد الرّب المتعال بأَوجز لفظ ، وأَفصح مقال ، فى قوله : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَتِ وَرَبِّ الأَرْضِ ﴾ إلى آخر السورة .

المنسوخ فيها آية واحدة : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 426 ﴾

(9/698)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الجاثية

407 - مسألة :

قوله زمالة : (وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ) وقال في حم عسق : (وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ) ؟ .

جوابه :

أن المراد هنا ذكر استمرار نعمه وقدرته على الناس

قوما بعد قوم . والمراد بآية الشورى ابتداء خلقه الدواب

وبثها في الأرض .

408 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

وقال تعالى في البقرة : (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ) ؟ .

جوابه :

أن المراد " بالرزق " : الماء ، لأنه سببه وأصله ، وبه نبات

الأرزاق تسمية للسبب باسم المسبب .

وخصص لفظ "الرزق " هنا لتقدم قوله تعالى : (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ) لحاجته لا

في الرزق .

40 - مسألة :

قواته تعالى : (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) وقال تعالى في الزمر : (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) ؟

.

جوابه :

أن القيامة مواقف . وقد تقدم مرات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 336 .

338 ﴾

(10/698)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ ﴾ نزلت فى اليهود .

وقد سبق .

قوله : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ سبق .

وقيل : فيه تقديم وتأْخير ، أَى نحيا ونموت .

وقيل : يحيا بعض ، ويموت بعض .

وقيل : هذا كلام مَن يقول بالتناسُخ .

قوله : ﴿ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ بالباءِ موافقة لقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ لتقدّم ﴿ كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ﴾ و ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ قوله : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ تعظيما لإِدخال الله المؤمنين فى رحمته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 426. 427 ﴾

(11/698)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الجاثية

474 - قوله لتجري الفلك فيه 12 أي البحر وقد سبق

475 - قوله وآتيناهم بينات من الأمر 17 نزلت في اليهود وقد سبق

476 - قوله نموت ونحيا 24 قيل فيه تقديم نموت وتأخير نحيا قيل يحيا البعض ويموت البعض وقيل هو كلام من يقول بالتناسخ

477 - قوله وليجزي كل نفس بما كسبت 22 بالياء موافقة لقوله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون 14

478 - قوله سيئات ما عملوا 33 لتقدم كنتم تعملون 29 وعملوا الصالحات 30

479 - قوله ذلك هو الفوز المبين 30 تعظيما لإدخال الله المؤمنين في رحمته . انتهى

انتهى . اهـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 193 ﴾

(12/698)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

سميت هذه السورة في كثير من المصاحف العتيقة بتونس وكتب التفسير وفي صحيح البخاري سورة الجاثية معرفا باللام.

وتسمى حم الجاثية لوقوع لفظ ﴿ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية: 28] فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن، واقتران لفظ "الجاثية" بلام التعريف في اسم السورة مع أن اللفظ المذكور فيها خلي عن لام التعريف لقصد تحسين الإضافة، والتقدير: سورة هذه الكلمة، أي السورة التي تذكر فيها هذه الكلمة، وليس لهذا التعريف فائدة غير هذه.

وذلك تسمية حم غافر، وحم الزخرف.

وتسمى سورة شريعة لوقوع لفظ ﴿ شريعة ﴾ [الجاثية: 18] فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن.

وتسمى سورة الدهر لوقوع ﴿ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: 24] فيها ولم يقع لفظ الدهر في ذوات حم الأخر.

وهي مكية قال ابن عطية: بلا خلاف، وفي القرطبي عن ابن عباس وقتادة استثناء قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ إلى ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الجاثية: 14] نزلت بالمدينة.

وعن ابن عباس أنها نزلت عن عمر بن الخطاب شتمه رجل من المشركين بمكة فأراد أن يبطش به فنزلت .

وهي السورة الرابعة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد ، نزلت بعد سورة الدخان وقبل الأحقاف .

وعدد آيها في عد المدينة ومكة والشام والبصرة ست وثلاثون .

وفي عد الكوفة سبع وثلاثون لاختلافهم في عد لفظ ﴿ حم ﴾ آية مستقلة .

أغراضها

الابتداء بالتحدي بإعجاز القرآن وأنه جاء بالحق توطئة لما سيذكر بأنه حق كما

(13/698)

اقتضاه قوله ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الجاثية : 6]

وإثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلائل ما في السماوات والأرض من آثار خلقه وقدرته في جواهر الموجودات وأعراضها وإدماج ما فيها مع ذلك من نعم يحق على الناس شكرها لا كفرها .

ووعيد الذين كذبوا على الله والتزموا الآثام بالإصرار على الكفر والإعراض عن النظر في

آيات القرآن والاستهزاء بها .

والتنديد على المشركين إذ اتخذوا آلهة على حسب أهوائهم وإذ جحدوا البعث ، وتهديدهم بالخسران يوم البعث ، ووصف أهوال ذلك ، وما أعد فيه من العذاب للمشركين ومن رحمة للمؤمنين .

ودعاء المسلمين للإعراض عن إساءة الكفار لهم والوعد بأن الله سيخزي المشركين .

ووصف بعض أحوال يوم الجزاء .

ونظر الذين أهملوا النظر في آيات الله مع تبيانها وخالفوا على رسولهم صلى الله عليه وسلم فيما فيه صلاحهم بحال بني إسرائيل في اختلافهم في كتابهم بعد أن جاءهم العلم وبعد أن اتبعوه فما ظنك بمن خالف آيات الله من أول وهلة تحذيرا لهم من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تسليط الأمم عليهم وذلك تحذير بليغ .

وذلك تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم بأن شأن شرعه مع قومه كشأن شريعة موسى لا تسلم من مخالف ، وأن ذلك لا يقدح فيها ولا في الذي جاء بها ، وأن لا يعبأ بالمعاندين ولا بكثرتهم إذ لا وزن لهم عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 25 صـ 346 . 347﴾

(14/698)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الجاثية

هذه السورة المكية تصور جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية , وطريقتهم في مواجهة حججها وآياتها , وتعنتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها , واتباعهم للهوى اتباعاً كاملاً في غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذي سلطان . كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى , المغلقة دون الهدى ; وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة , ويذكرهم عذابه , ويصور لهم ثوابه , ويقرر لهم سننه , ويعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود .

ومن خلال آيات السورة وتصويرها للقوم الذين واجهوا الدعوة في مكة , نرى فريقاً من الناس مصرا على الضلالة , مكابراً في الحق , شديد العناد , سيىء الأدب في حق الله وحق كلامه , ترسمه هذه الآيات , وتواجهه بما يستحقه من الترذيل والتحذير والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم:

(ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه , ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها , فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً , أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم , ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب

عظيم) . .

ونرى جماعة من الناس , ربما كانوا من أهل الكتاب سيئي التصور والتقدير ; لا يقيمون وزناً لحقيقة الإيمان الخالصة , ولا يحسون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات . والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقاً أصيلاً في ميزان الله بين الفريقين , ويقرر سوء حكمهم وسوء تصورهم للأمور ; وقيام الأمر في ميزان الله على العدل الأصيل في صلب الوجود كله منذ بدء الخلق والتكوين:

(15/698)

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات , سواء محياهم ومماتهم ? ساء ما يحكمون ! وخلق الله السماوات والأرض بالحق , ولتجزى كل نفس بما كسبت , وهم لا يظلمون) . .

ونرى فريقاً من الناس لا يعرف حكماً يرجع إليه إلا هواه , فهو إلهه الذي يتعبده , ويطيع كل ما يراه . نرى هذا الفريق من الناس مصوراً تصويراً فذاً في هذه الآية ; وهو يعجب من أمره ويشهر بغفلته وعماه:

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه , وأضله الله على علم , وختم على سمعه وقلبه , وجعل على

بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) . .

ونرى هذا الفريق من الناس ينكر أمر الآخرة , ويشك كل الشك في قضية البعث والحساب , ويتعنت في الإنكار وفي طلب البرهان بما لا سبيل إليه في هذه الأرض . والقرآن يوجه هذا الفريق إلى الدلائل القائمة الحاضرة على صدق هذه القضية , وهم عنها معرضون:

(وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا , وما يهلكنا إلا الدهر . وما لهم بذلك من علم , إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا: ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل: الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . .

ويجوز أن يكون هؤلاء جميعاً فريقاً واحداً من الناس يصدر منه هذا وذاك , ويصفه القرآن في السورة هنا وهناك . كما يجوز أن يكونوا فرقاً متعددة ممن واجهوا الدعوة في مكة . بما في ذلك بعض أهل الكتاب , وقليل منهم كان في مكة . ويجوز أن تكون هذه إشارة عن هذا الفريق ليعتبر بها أهل مكة دون أن يقتضي هذا وجوده في مكة بالذات في ذلك الحين .

وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم , وتحدث عنهم في هذه السورة ذلك الحديث . . كذلك واجههم بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم , وحذرهم حساب يوم القيامة , وبصرهم بما جرى لمن قبلهم ممن انحرفوا عن دين الله القويم .

واجههم بآيات الله في هذا الأسلوب البسيط المؤثر العميق:

(إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها , وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق , فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟) . .

وواجههم بها مرة أخرى في صورة نعم من أنعم الله عليهم يغفلون عن تذكرها وتدبرها :

(الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

.

كذلك واجههم بحالهم يوم القيامة الذي ينكرونه أو يمارون فيه:

ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته . ذلك هو الفوز المبين . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ؟ وإذا قيل: إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها . قلتم: ما ندري ما الساعة , إن نظن إلا ظناً ,

وما نحن بمستيقنين . وبدا لهم سيئات ما عملوا , وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون .

وقيل:اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا , ومأواكم النار , وما لكم من ناصرين:ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون

. .

كذلك لم يدع أي لبس أو شك في عدالة الجزاء وفردية التبعة ; فبين أن هذا الأصل عميق في تكوين الوجود كله , وعليه يقوم هذا الوجود . ذلك حين يقول:

(من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها , ثم إلى ربكم ترجعون) . .

وحين يرد على من يحسبون وهم يجترحون السيئات أنهم عند الله كالمؤمنين الذين يعملون الصالحات , فيقول:

(17/698)

(وخلق الله السماوات والأرض بالحق , ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) . .

والسورة كلها وحدة في علاج موضوعها ; ولكننا قسمناها إلى درسين اثنين لتيسير عرضها وتفصيلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 5 صـ 3219 . 3221﴾

(18/698)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الجاثية

مكية نزلت بعد الدخان وآياتها سبع وثلاثون آية

بين يدي السورة

* سورة الجاثية مكية ، وقد تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع الإيمان بالله تعالى ، ووحدانيته ، والإيمان بالقرآن ، ونبوة محمد عليه السلام ، والإيمان بالآخرة والبعث والجزاء ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة ، هو : إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .

*تبتدىء السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره ، وهو الله العزيز في ملكه ، الحكيم في خلقه ، الذي أنزل كتابه المجيد رحمة بعباده ، ليكون نبراسا مضيئاآ ، ينير للبشرية طريق السعادة والخير [حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين 00 الآيات .

* ثم ذكرت بعض الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح ، ففي السموات البديعة آيات ، وفي الأرض الفسيحة آيات ، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آيات ، وفي تعاقب الليل والنهار ، وتسخير الرياح الأمطار آيات ، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله

وجلاله ، وقدرته ووحدانيته ، ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن ، الذين يسمعون آياته المنيرة ، فلا يزدادون إلا استكبارا وطغيانا ، وأنذرتهم بالعذاب الأليم ، في دركات الجحيم [ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها . .] الآيات .

* وتحدثت السورة عن نعم الله الجليلة على عباده ليشكروه ، ويتفكروا في آلائه التي أسبغها عليهم ، ويعلموا أن الله وحده هو مصدر هذه النعم ، الظاهرة والباطنة ، وإنه لا خالق ولا رازق إلا الله [الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . .] الآيات .

(19/698)

---

* وتحدثت عن إكرام الله لبني إسرائيل بأنواع التكريم ، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان ، بالجحود والعصيان ، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام ، وبينت أنه لا يتساوى في عدل الله وحكمته ، أن يجعل المجرمين كالمحسنين ، ولا أن يجعل الأشرار كالأبرار ، ثم بينت سبب ضلال المشركين ، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلها ومعبودا حتى طمست بصيرتهم فلم يهتدوا إلى الحق أبدا [ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم

وإلى نبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم . .] الآيات .

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين ، حيث تنقسم الإنسانية إلى فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير [فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة] .

التسمية :

سميت " سورة الجاثية " للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب ، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب ، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال [وترى كل أمة جاثية ، كل أمين تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون] وحقا إنه ليوم رهيب ، يشيب له الولدان . ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 180 . 181 ﴾

(20/698)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الجاثية

لآيات : أي لعبرا ، يبث : أي يفرق وينشر ، اختلاف الليل والنهار : أي تعاقبهما ليل بعد نهار ونهار بعد ليل ، من رزق . أي من مطر ، وسمى بذلك لأنه سبب له ، وتصريف الرياح : أي تغييرها من جهة إلى أخرى ، ومن حال إلى حال

الأفاك : كثير الإفك والكذب ، والأثيم : كثير الإثم والمعاصي ، والإصرار على الشيء : ملازمته ، من ورائهم : أي من بعد آجالهم ، يغنى : أي يدفع ، أولياء : أي أصناما ، والرجز : أشد العذاب .

سخر : هيأ ، الفلك : السفينة ، والابتغاء : الطلب ، يغفر : أي يعفو ويصفح ، لا يرجون : أي لا يتوقعون حصولها ، وأيام الله : وقائعه بأعداء دينه كما يقال لوقائع العرب أيام العرب ، والقوم هم المؤمنون الغافرون .

الكتاب : المراد به الكتب التي نزلت على أنبيائهم ، الحكم : الفصل بين الناس فى الخصومات ، لأنهم كانوا ملوكا ، بينات من الأمر : أي دلائل واضحات فى أمر الدين ، ويندرج فيها معجزات موسى عليه السلام ، بغيا : أي حسدا وعنادا ، على شريعة من الأمر : أي على طريقة ومنهاج فى أمر الدين . وأصل الشريعة مورد الماء فى الأنهار ونحوها

، وشريعة الدين يرد منها الناس إلى رحمة اللّه والقرب منه ، بصائر للناس : أي معالم للدين بمنزلة البصائر فى القلوب .

الاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدى ، والمراد بالسيئات : سيئات الكفر والإشراك باللّه .

جاثية : أي باركة على الركب مستوفزة ، وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر ما يكره ، إلى كتابها : أي إلى صحيفة أعمالها التي كتبها الحفظة لتحاسب على ما قيّد فيها ، ينطق : أي يشهد ، نستنسخ : أي نجعل الملائكة تكتب وتنسخ .

(21/698)

فى رحمته : أي فى جنته ، الفوز : هو الظفر بالبغية ، المبين : أي الظاهر أنه لا فوز وراءه ، آياتي : أي آيات كتبى التي جاءت فى الشرائع السماوية ، وعد اللّه : أي بأنه محيى الموتى من قبورهم ، بمستيقنين : أي بمتحققين ، وبدا : أي ظهر ، سيئات ما عملوا : أي عقوباتها ، وحاق : أي حل ، ننساكم ، أي نترككم ، نسيتم : أي تركتم ، آيات اللّه : أي حججه ، غرتكم : أي خدعتكم ، الحياة الدنيا : أي زينتها ، يستعتبون : أي يطلب

منهم العتبى بالتوبة من ذنوبهم ، والإنابة إلى ربهم ، الكبرياء : العظمة والسلطان . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 25 صـ 140 . 164 ﴾ . باختصار .

(22/698)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

وهي مكية

1 - من ذلك قوله جل وعز (إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين) (آية 3) والمعنى إن في خلق السموات والأرض ودل عليه قوله (وفي خلقكم وما يبث من دابة) (آية 4) وكل ما فيه الروح فهو دابة 2 - وقوله جل وعز (وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) (آية 5)

قال قتادة إن شاء جعلها رحمة وإن شاء جعلها عذابا 3 - وقوله جل وعز (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون) (آية 6) أي بعد قرآن الله كما قال تعالى (واسأل القرية) 4 - وقوله جل وعز (ويل لكل أفاك أثيم) (آية 7)

الأفاك الكذاب 5 - وقوله جل وعز (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا

منه) (آية 13)

روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال منه النور ومنه الشمس ومنه القمر ويقرأ (جميعا منة) بمعنى من به منة ويقرأ (منة) بمعنى ذلك منة ويجوز (منه) على أنه مصدر كما قال تعالى (صنع الله) 6 - وقوله جل وعز (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) (آية 14) قال مجاهد أي لا يبالون نعم الله أي لا يعلمون أنه أنعم بها عليهم كما قال تعالى (وذكرهم بأيام الله) قال أبو جعفر يجوز أن يكون المعنى لا يرجون البعث أي لا يؤمنون به وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) 7 - وقوله جل وعز (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) (آية 18) روى سعيد عن قتادة قال الشريعة الفرائض والحدود والأمر والنهي قال أبو جعفر الشريعة في اللغة المذهب والملة ومنه شرع فلان في كذا ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد فالشريعة

(23/698)

ما شرع الله لعباده من الدين والجمع الشرائع أي المذاهب 8 - وقوله جل وعز (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) (آية 20) أي هذا القرآن 9 - وقوله جل وعز (أم

حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) (ى ية لم 21) (اجترحوا السيئات) أي كسبوا السيئات ومنه (ويعلم ما جرحتم بالنهار) ومنه الجوارح أي الكواسب 10 – وقوله تعالى (سواء محياهم ومماتهم) (آية 21)

قال مجاهد المؤمن يموت مؤمنا ويبعث مؤمنا والكافر يموت كافرا ويبعث كافرا ويقرأ (سواء محياهم ومماتهم) وقرأ الأعمش (سواء محياهم ومماتهم) قال أبو جعفر القراءة الأولى أحسن من جهة المعنى على قول مجاهد وهي أيضا أجود عند النحويين من جهة الإعراب وقراءة الأعمش على البدل وعند الفراء بمعنى الظرف

11 – وقوله جل وعز (أفرأيت من اتخذ إلهة هواه وأضله الله على علم) (آية 23) قال سعيد بن جبير كان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه قال هذا أحسن من هذا فعبده وقال الحسن وقتادة في قوله (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال المنافق إذا هوي شيئا ركبه ثم قال (وأضله الله على علم) (آية 23) روي عن ابن عباس أنه قال (على علم) قد علمه عنده

وقيل على علم انه لا ينفعه ولا يضره 12 – وقوله جل وعز (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) (آية 24) يقال هم لا يقرون بالبعث فما معنى (نموت ونحيا) ؟ ففيه ثلاثة أجوبة: 1 – منها ان المعنى يموت بعضنا ويحيا بعض 2 – ومنه ان في

الكلام تقديما وتأخيرا وأن المعنى نحيا ونموت 3 - والجواب الثالث أن معنى (نموت) نخلق مواتا ثم نحيا في الدنيا وقوله جل وعز (وما يهلكنا إلا الدهر)

(24/698)

قال مجاهد اي الزمان أي مر السنين والأيام وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر في معناه ثلاثة أقوال: 1 - منها أن المعنى لا تسبوا خلقا من خلق الله فيما لا ذنب له فيه فإن الله هو الدهر أي خالق الدهر كما قال تعالى (واسأل القرية) 2 - وقيل لما كانوا يقولون فعل الله بالزمان فإنه قد فعل بنا كذا وكان الله جل وعز هو القاضي بتلك الأشياء قال لهم لا تسبوا فاعل

الأشياء فإن الدهر ليس يفعلها 3 - وقد روي فإن الله هو الدهر والمعنى عليه لا تسبوا الدهر فإن الله مقيم الدهر أي مقيم أبدا لا يزال وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى (وما لهم بذلك من علم) قال قولهم لا نبعث 13 - وقوله جل وعز (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها) (آية 28) في معناه قولان: روى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وابن عيينة عن ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى (وترى كل أمة جاثية)

قال مستوفرين على الركب قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح الأمة ههنا الواحد قال سفيان

بن أبي عيينة ولا يكون المستوفز إلا على ركبتيه وأطراف أصابعه قال الضحاك (جاثية) عند الحساب فهذا قول وقال الفراء في قوله تعالى (وترى كل أمة جاثية) قال أهل كل دين وجاثية مجتمعة قال أبو جعفر قد يقال لما اجتمع من التراب جثوة فأحسب الفراء أخذه من هذا قال الشاعر: ترى جثوتين من تراب عليهما * صفائح صم من صفيد ابن منضد والقول الأول أعرف وأشهر 14 - وقوله جل وعز (كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) (آية 28) في معناه قولان: أحدهما أن كتابها ما فرض عليها من حلال وحرام والقول الآخر أن كتابها ما كتبت الملائكة عليها وهذا أولى لأن بعده ما يدل عليه 15 - وقوله جل وعز (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنتج ما كنتم تعملون) (آية 29) (ينطق) أي يبين أي تنظرون فتذكرون ما عملتم

(25/698)

ثم قال تعالى (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) (آية 29) في معناه قولان: أحدهما ان المعنى ما تكتبه الملائكة وتنسخه قوله من أعمال بني آدم والقول الآخر رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال فرغ الله جل وعز مما هو كائن فتنسخ الملائكة ما يعمل يوما بيوم من اللوح المحفوظ فيقابل به ما يعمله الإنسان لا يزيد على ذلك ولا ينقص قال فقيل لابن عباس ما

توهمنا إلا إنهم يكتبونه بعد ما يعمل فقال أنتم قوم عرب والله جل وعز يقول (إنا كنا نستنسخ) ولا يكون الاستنساخ إلا من نسخة 16 - وقوله جل وعز (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين) (آية 31)

في الكلام حذف والمعنى فيقال لهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم ؟ 17 - وقوله جل وعز (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) (آية 34)

روى معمر عن قتادة قال فاليوم نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا قال أبو جعفر المعنى على هذا فاليوم نترككم في النار كما تركتم العمل ليومكم هذا 18 - وقوله جل وعز (وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (آية 37) الكبرياء العظمة انتهت سورة الجاثية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 421.434 ﴾

(26/698)

وقال الفراء :

سورة (الجاثية)

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ . . . ﴾ .

يقول: فى خلق الآدميين وسواهم من كل ذى روح آيات . تقرأ: الآيات بالخفض على تأويل النصب . يرد على قوله: ﴿ إنّ فى السمَّواتِ والأرْضِ لآياتٍ ﴾ . ويقوّى الخفض فيها أنها فى قراءة عبد الله: ﴿ لآيات ﴾ . وفى قراءة أُبى: لآيات لآيات لآياتٍ ثلاثهن . والرفع قراءة الناس على الاستئناف فيما بعد انّ ، والعرب تقول: إن لى عليك مالا ، وعلى أخيك مال كثير . فينصبون الثانى ويرفعونه .

وفى قراءة عبد الله : "وفى اختلاف اللّيل والنهارِ" . فهذا يقوى خفض الاختلاف ، ولو رفعه رافع فقال: واختلاف الليل والنهار آياتٌ أيضا يجعل الاختلاف آياتٍ ، ولم نسمعه من أحد من القراء قال: ولو رفع رافع الآيات ، وفيها اللام كان صوابا . قال: أنشدنى الكسائى:

إنّ الخلافة بعدهم لذميمة * وخلائف طرف لمما أحقر

فجاء باللام ، وإنما هى جواب لأنّ ، وَقد رفع لأن الكلام مبنى على تأويل إنّ .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ . . . ﴾ .

(27/698)

معناه فى الاصل حكاية بمنزلة الأمر ، كقولك: قل للذين آمنوا اغفروا ؛ فإذا ظهر الأمر مصرحا فهو مجزوم ؛ لأنه أمر ، وإذا كان على الخبر مثل قوله: ﴿ قُلْ للذين آمَنوا يَغْفِروا ﴾ ، ﴿ وقُلْ لِعبادى يَقُولُوا ﴾ و ﴿ قُلْ لِعبادِىَ الذين آمَنُوا يُقيمُوا الصلاةَ ﴾ ، فهذا مجزوم بالتشبيه بالجزاء والشرط كأنه قولك: قم تصب خيرا ، وليس كذلك ، ولكن العرب إذا خرج الكلام فى مثال غيره وهو مقارب له عرّبوه بتعريبه ، فهذا من ذلك ، وقد ذكرناه فى غير موضع ، ونزلت قوله: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُو يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللّهِ ﴾ فى المشركين قبل أن يؤمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتال أهل مكة .

وقوله: ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . . . ﴾ .

قرأها يحيى بن وثاب: لنجزى بالنون ، وقرأها الناس بعد ﴿ لِيجْزِىَ قوما ﴾ بالياء وهما سواء بمنزلة قوله: ﴿ وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، "وقد خلقناك من قبل" وقد قرأ بعض القراء فيما ذُكر لى: لِيُجزَى قَوْماً ، وهو فى الظاهر لحن ، فإن كان أضمر فى "يجزى" فعلا يقع به الرفع كما تقول: أُعطِىَ ثوبا لِيُجزى ذلك الجزاء قوما فهو وجه .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ عَلَى شَرِيعَةٍ . . . ﴾ .

على دين وملة ومنهاج كل ذلك يقل .

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ . . . ﴾ .

ترفع الله ، وهو وجه الإعراب إذا جاء الاسم بعد إنَّ ، وخبر فارفعه كان معه فعل أو لم يكن . فأما الذى لا فعل معه فقوله: ﴿ أنّ اللّهَ بريءٌ من المشركينَ ورسولُه ﴾ وأمّا الذى معه فعل فقوله جل وعز: ﴿ واللّهُ وَلىُّ المتقين ﴾ .

(28/698)

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ . . . ﴾ .

الاجتراح: الاقتراف ، والاكتساب .

وقوله: ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ . . . ﴾

تنصب سواء ، وترفعه ، والمحيا والممات فى موضع رفع بمنزلة قوله: رأيت القومَ سواء صغارهم وكبارهم [/ب] ، تنصب سواء ؛ لأنك تجعله فعلا لما عاد على الناس من ذكرهم ، وما عاد على القوم وجميع الأسماء بذكرهم ، وقد تقدم فعله ، فاجعل الفعل معربا بالاسم الأول . تقول: مررت بقوم سواء صغارهم وكبارهم ، ورأيت قوم سواء صغارهم

وكبارهم.

وكذلك الرفع - وربما جعلت العرب: (سواءً) فى مذهب اسم بمنزلة حسبك، فيقولون: رأيت قوما سواء صغارهم وكبارهم، فيكون كقولك: مررت برجل حسبك أخوه ولو جعلت مكان سواء مستوٍ لم ترفع، ولكن تجعله متبعا لما قبله، مخالفا لسواء؛ لأن مستويا من صفة القوم، ولأن سواء - كالمصدر، والمصدر اسم.

ولو نصبت: المحيا والممات - كان وجها تريد أن تجعلهم سواء فى محياهم ومماتهم.

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً . . . ﴾.

قرأها يحيى بن وَثاب (غَشْوَة) بفتح الغين، ولا يلحق فيها ألفا، وقرأها الناس (غِشاوَة)، كأن غشاوَة اسم، وكأن غشوة شىء غشيها فى وَقعة واحدة، مثل: الرجفة، والرحمة، والمرَّة.

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

وقوله: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا . . . ﴾.

يقول القائل: كيف قال: نموت ونحيا ، وهم مكذبون بالبعث ؟ فإنما أراد نموت ، ويأتى بعدنا أبناؤنا ، فجعل فعل أبنائهم كفعلهم ، وهو فى العربية كثير .

وقوله: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدَّهْرُ . . . ﴾ .

يقولون: إلاّ طول الدهر ، ومرور الأيام والليالى والشهور والسنين .

وفى قراءة عبدالله: "وما يُهْلِكُنا إلاّ دَهْرٌ" ، كأنه: إلاّ دهر يمر .

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً . . . ﴾ .

يريد : كلّ أهل دين جاثية يقول: مجتمعة للحساب ، ثم قال: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا . . . ﴾ . يقول إلى حسابها ، وهو من قول الله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه ﴾ . و ﴿ بشماله ﴾ .

﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . . . ﴾ .

الاستنساخ: أن الملكين يرفعان عمل الرجل صغيرِه وكبيرِه ، فيُثبت الله من عمله ما كان له ثواب أو عقاب ، ويطرَح منه اللغو الذى لا ثواب فيه ولا عقاب ، كقولك هلُمَّ ، وتعال ، واذهب ، فذلك الاستنساخ.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ . . . ﴾ .

أضمر القول فيقال: أفلم ، ومثله: ﴿ فأما الَّذين اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ ﴾ معناه ، فيقال: أكفرتم ، والله أعلم . وذلك أنّ أما لا بد لها من أن تجاب بالفاء ، ولكنها سقطت لما سقط الفعل الذى أضمر .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾

(30/698)

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا . . . ﴾

ترفع الساعة وهو وجه الكلام وإن نصبتها فصواب ، قرأ بذلك حمزة الزيات ، وفى قراءة عبد الله: "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حقٌّ وإن السَّاعةَ لا رَيْبَ فيها" ، فقد عرفت الوجهين ، وفسّرا فى غير هذا الموضع .

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَاذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ . . . ﴾ .

نترككم فى النار كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، يقول: كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا .

﴿ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ . . . ﴾ .

يقول: لا يراجعون الكلام بعد دخولهم النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 45 . 49 ﴾

(31/698)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الجاثية

(وفي خلقكم وما يبث من دابة ءايات) [4] رفع آيات بالعطف على موضع "إن" لا على لفظه ، كما تقول: إن زيداً قائم ، وعمرو قاعد . وقال الكوفيون: الرفع في مثل هذا يكون معنى الفاعل ، وكذلك ما ارتفع بعد الظروف ، مثل قولك: في الدار زيد . وتقريبه من الفاعل/تقديره: استقر في الدار زيد ، وثبت في خلقكم آيات . وأما جرها فللعطف على الآيات الأولى ، إما بالعامل الأول [أو] بتقدير عامل آخر ، أي: وإن في خلقكم آيات .

(وسخر لكم ما في السموات) [13] أي: من الشمس والقمر والنجوم والأمطار وغيرها ، فكلها يجري على منافع العباد . (لا يرجون أيام الله) [14] لا يطمعون في نصره في الدنيا ، ولا في ثوابه في الآخرة . (سواء محيهم ومماتهم) [21] الضمير في الكناية يجوز للمؤمنين وحدهم ، وللذين اجترحوا السيئات وحدهم . ولو نظرت إلى قوله (ساء ما يحكمون) ترجح ضمير المجترحين . ولو قلت: إنه خبر مبتدأ محذوف ، أي: هم سواء محياهم ومماتهم ، ترجح ضمير المؤمنين ، لأنه يكون كالنص على استئناف ذكرهم للتشريف . (اتخذ إلهه هواه) [23] أي: لا يعصيه ، ولا يمنعه منه خوف الله . (إلى كتابها) [28]

أي: كتابها الذي أنزل على رسولها ، ويجوز أن يكون الكتاب اسم الجنس ، أي: [تدعى] إلى صحائف أعمالها . (نستنسخ) [29] ننسخ كقوله: (وإذا رأوا ءاية يستسخرون) أي: يسخرون . وقيل: نستدعي ذلك ، أي: نأمر الملائكة بكتابته وحفظه ، ليحتج عليهم بأعمالهم ، كقوله: (بلى ورسلنا لديهم يكتبون) . (فيدخلهم ربهم في رحمته) [30]

استعارة ومجاز ، لتجليل الرحمة لهم ودخولهم فيها . وللمجاز ثلاثة أوصاف: الاتساع ، والتأكيد ، والتشبيه . وقد انتظم جميعها هذا اللفظ . أما الاتساع: فكأنه زيد في أسماء الجهات والمحال [اسم] هو الرحمة

وأما التشبيه ، فلأنه شبه الرحمة -وإن لم يصح دخولها- بما يجري [مجرى] دخولها ووضعها موضعه . وأما التوكيد فلأنه [أخبر] عن المعنى بما يخبر به عن الجوهر المتصور المحسوس ، ومثل هذا الموضع [في] انتظام/المعاني الثلاثة ، قول الشاعر : 1086- قرعت ظنابيب الهوى يوم عالج ويوم النقا [حتى] قسرت الهوى قسرا . وقول الآخر : 1087- غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال .

وقول الآخر : 1088- تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير . فوصف الحب بالتغلغل من مجاوزة مكان إلى آخر ، فيكون ذلك بتفريغ الأول ، وشغل الثاني ، وهو من أوصاف الأعيان لا الأحداث .

[تمت سورة الجاثية] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1307.1311 ﴾

(33/698)

وقال الأخفش :

سورة (الجاثية)

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَائِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ

يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً وَلاَ مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

وقال ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً ﴾ ثم قال ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً ﴾ فجمع لأنه قد قال ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [7] فهو في معنى جماعة مثل الأشياء التي تجيء في لفظ واحد ومعناها معنى [170 ب] جماعة وقد جعل ﴿ الذي ﴾ بمنزلة ﴿ من ﴾ وقال ﴿ وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَائِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ فـ"الذي" في لفظ واحد . ثم قال ﴿ أُوْلَائِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

وقال ﴿ سَوَآءٌ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ رفع . وقال بعضهم: إنَّ المَحْيَا والمَمات للكفار كأنه قال: أَمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرحوا السيئات أَن تَجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات" ثم قال "سواءٌ محيا الكفارِ ومماتُهم" اي محياهم محيا سَوْء ومماتهم ممات سَوْء فرفع "السواء" على الابتداء . ومن فسر "المحيا" و"الممات" للكفار والمؤمنين فقد يجوز في هذا المعنى نصب السواء ورفعه لأن من جعل السواء مستويا فينبغي له ان يرفعه لأنه الاسم الا ان ينصب المحيا والممات على البدل ونصب السواء على الاستواء . وان شاء رفع السواء اذا كان في معنى مستوي لأنها صفة لا تصرف كما تقول "رأيتُ رَجُلاً خيراً منهُ أَبوهُ" والرفع أجود .

(34/698)

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾

[و] قال ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أَي: فَيُقَال لَهُم: "أَلَمْ تَكُن آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُم" ودخلت الفاء لمكان "أما" .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾

وقال ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ مَا نَظُنُّ إِلاّ ظَنّاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 517.518 ﴾

(35/698)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الجاثية

مكية كلها

10 - مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ أي امامهم .

18 - ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ أي على ملة ومذهب . ومنه يقال :

شرعت لك كذا ، وشرع فلان في كذا : إذا أخذ فيه . ومنه «مشارع الماء» [وهي] :

الفرض التي يشرع فيها الناس والواردة .

21 - اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ

أي اكتسبوها . ومنه قيل لكلاب الصيد :

جوارح .

24 - وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ : مرور السنين والأيام .

28 - وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً : [باركة] على الركب . يراد : انها غير مطمئنة .

تُدْعى إِلى كِتابِهَا أي إلى حسابها .

29 - هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ يريد : انهم يقرءونه فيدلهم ويذكرهم ، فكأنه ينطق

عليهم .

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي نكتب «1» .

---

(1) قال بذلك مجاهد أيضا .

32 - قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ، وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ أي ما نعلم ذلك إلا ظنا وحدسا وما نستيقنه .

و«الظن» قد يكون بمعنى «العلم» قال : وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها [سورة الكهف آية : 53] ، وقال دريد :

فقلت لهم : ظنوا بألفي مدجج . سراتهم في الفارسي المسرد

أي أيقنوا [بإتيانهم إياكم] .

33 - [قوله : وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، هو مثل قوله] : وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [سورة الزمر آية : 47] ، يعيرون انهم عملوا في الدنيا أعمالا كانوا يظنون انها تنفعهم ، فلم تنفعهم مع شركهم .

34 - وَقِيلَ : الْيَوْمَ نَنْساكُمْ أي نترككم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 348.349 ﴾

(37/698)

وقال الغزنوى :

سورة الجاثية

13 وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ : من الشّمس والقمر والنّجوم والأمطار . . . وغيرها ، فكلها تجري على منافع العباد .

14 لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ : لا يطمعون في نصره في الدنيا ولا في ثوابه في الآخرة «1» .

23 اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ : لا يعصيه ولا يمنعه منه خوف اللّه .

29 نَسْتَنْسِخُ : نستدعي . [نسخته] «2» أي : نأمر الملائكة بكتابه لنحتج به عليهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 743 ﴾

---

(1) ينظر هذا المعنى في تفسير الماوردي : 4/ 20 ، والمحرر الوجيز : 14/ 310 ، وتفسير القرطبي : 16/ 162 .

(2) في الأصل : «نسخت» ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» ، وذكر المؤلف رحمه اللّه هذا القول في وضح البرهان : 2/ 292 دون عزو .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الجاثية

عدد 15 - 65 - 45

نزلت بمكة بعد سورة الدخان عدا الآية 14 ، فإنها مدنية ، وهي سبع وثلاثون آية وأربعمائة وثمانون كلمة ، وألفان ومئة وواحد وتسعون حرفا ، وتسمى سورة الشريعة وسورة الدهر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "حم" 1 راجع ما قبله تجد معناه "تَنْزِيلُ الْكِتابِ" القرآن عليك يا سيد الرسل "مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ 2 لتبشر به المؤمنين وتنذر به الكافرين الذين يطلبون منك نزول الآيات "إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ" عظيمات دالات على قدرة القدير كافية "لِلْمُؤْمِنِينَ" 3 بها فلا حاجة لإنزال غيرها ، لأنهم إذا أجالوا النظر وأنعموا الفكر فيها تزيدهم هدى ونورا إذا أرادوا الإيمان ، والذين لا يريدونه لا تنفعهم كثرة الآيات لأنهم لا يستدلون بها على موجدها ، فلا تزيدهم إلا عمى وضلالا ، لأن فيهما "وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ" فيهما "مِنْ دابَّةٍ" صغيرة أو كبيرة ناطقة أو عجماء "آياتٌ" أيضا لأن في هذه الدواب المختلفة الجنس والنوع والعقل والمعاش والفعل والتناسل دلائل كثيرة على الصانع المبدع "لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ 4" أنه الإله الفعال لكل شيء ، أما الذين لا يوقنون فلو ملأت لهم الأرض آيات

لا يؤمنون لأنهم في غفلة عن ما يؤدي لفوزهم وخلاصهم "وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ" وما يحصل من تعاقبهما من ظلمة ونور ، وزيادة ونقص ، وطول وقصر بصورة منتظمة لا تنخرم حتى يأذن اللّه بخراب هذا الكون ، آيات أيضا عظيمات دالات علي حكمة الحكيم لمن كان له قلب حي "وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ" غيث

(39/698)

لأنه ينشأ عنه ومن هنا للتأكيد والتقوية راجع الآية 13 من سورة المؤمن المارة ويراد به هنا المطر للعلة نفسها هناك لأن أعظم الأرزاق هو الماء ومنه يتغذى ما يكون رزقا لجميع الخلق "فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ" التي هي معدن الأرزاق "بَعْدَ مَوْتِها" يبسها ويبس نباتها ، وفيها الاستدلال على البعث بعد الموت ، لأن الذي أحياها يحيي الموتى "وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ" يمينا وشمالا شرقا وغربا ، وجعلها باردة وحارة ومعتدلة وشديدة كدرة وصافية لينة وعاصفة "آياتٌ" عظيمات أيضا دالات على وجود الإله المغير لها المعبود بالحق وعلى نفي الأوثان العاجزة عن كل شيء "لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" 5 مراد اللّه في ذلك كله .

(40/698)

اعلم أرشدك اللّه أن في ترتيب هذه الآيات آيات أيضا لمن تدبرها وتفكر فيها ، لأنه إذا نظر هذين الهيكلين الجسيمين علم بالضرورة أنه لا يقدر على صنعها إلا الرب العظيم فآمن به ، وإذا تفكر في خلق نفسه وكيفة تقلبها من حال إلى حال فنظر في أصل خلقه وخلق الحيوانات بالولادة والتولد ومصيره ومصيرها ازداد إيمانا ، وإذا استحد فكرته وراجع فطنته في الحوادث المتجددة ليل نهار وما يقع صباح مساء أيقن بأن لا فاعل مختار لهذه الأشياء إلا الواحد القهار ، وإذا تدبر تصاريف الرياح وتقلبات الدهر واستدل بإحياء الأرض بالمطر بعد اليبس الذي هو بمثابة الموت لها على حياة البشر بعد موته لأن السبب واحد فيهما استحكم إيمانه وكمل يقينه وعقل الحكمة التي أرادها ربه من إيجاد الكون وأخلص للّه ففاز بخير الدنيا والآخرة ، ولهذا ختم اللّه الآية الأولى بالمؤمنين ، والثانية بالموقنين ، والثالثة بالعاقلين ، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث أفلح وفاز فاعقل هذا في الدنيا هداك اللّه لحكمته لتتوصل في الآخرة إلى فسيح جنته "تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ" الذي برأ كل شيء وأحسن خلقه وهداه لما فيه هداه ، وقد أوجدها عبرة وعظة لأولي الألباب ليعقلوا معناها ويعرفوا مغزاها ، "نَتْلُوهَا عَلَيْكَ" يا سيد الرسل "بِالْحَقِّ" الناصع بواسطة أميننا جبريل لتتلوها على قومك علهم يؤمنوا بها وإذا لم يفعلوا فقل لهم "فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ" 6 أي لا يؤمنون أبدا ، إذ غلب على عقولهم الإفك ، وحجب قلوبهم وسخ

الإثم ، وصم آذانهم رين التكذيب ، وعمى أبصارهم

غلو الشرك .

وهذه الآية التي عجب فيها الوليد فذكرها إلى قومه كما أشرنا إليه في الآية 28 من سورة المدثر في ج 1 فراجعها .

(41/698)

واعلم يا سيد الرسل أن من لم يؤمن بما تتلوه عليه من هذه الآيات المدللات له "وَيْلٌ" وهلاك كبير كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ 7 يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ"

فلا يلتفت إليها ولا يعتبر بها "ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً" يأنف عنها ويتجبر "كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا" لشدة عتوه وعناده ، وثم هنا للاستبعاد وعليه قول جعفر بن عليه :

لا يكشف النعماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

(42/698)

"فَبَشِّرْهُ" يا سيد الرسل "بِعَذابٍ أَلِيمٍ" 8 توبيخا له وهذه البشارة على طريق التهكم والسخرية ، لأن البشارة تكون في الأمر السّار ، فإذا اقترنت بضدّه كان معناها الإنذار وأريد بها التقريع ، قال تعالى "وَإِذا عَلِمَ" بالتخفيف والبناء للفاعل ، وقرأه بعضهم بالتشديد والبناء للمفعول ، أي إذا تيقن هذا المستكبر "مِنْ آياتِنا شَيْئاً" بسماعها منك "اتَّخَذَها هُزُواً" وصار يسخر بها ويقرؤها على أضرابه ليضحكوا منها ، لأنهم لا يفقهون معناها بسبب كثافة صدأ قلوبهم ، وقد صدهم اللّه عنه لخبث طويتهم وسوء نيتهم "أُولئِكَ" الذين هذه صفتهم "لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ" 9 ثم بين نوع إهانته بقوله عزّ قوله "مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ" ومن أمامهم أيضا لأن الوراء الجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام ، ومن كانت جهنم وراءه فهي قدامه حتما لأنه إذا زج فيها صارت وراءه ، لأنها كانت أمامه "وَلا يُغْنِي" يدفع ويمنع "عَنْهُمْ ما كَسَبُوا" شيئا في الدنيا من العمل لقبحه ولا من إخوانهم لأنهم أشرار مثلهم ، ولا من المال لأنه من حرام ، فلم يجمعه من حل ، ولم ينفقه في سبيل اللّه ، ولا من الأهل لأنهم كفرة ، وعلى فرض إيمانهم فلا صلة بين المؤمن والكافر ولا تراحم البتة ، وإذا كان لهم عمل طيب فقد كوفئوا به في الدنيا "وَلا" يغني عنهم أيضا "مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ" لأنها إن كانت أصناما فلا تضر ولا تنفع ، وإن كانت الملائكة وعزير والمسيح فإنهم يتبرءون منهم ، وهم لا يشفعون إلا لمن أذن اللّه بالشفاعة له ورضيها كما مرّ غير مرة ، ولبحثها صلة في الآية 28 من سورة

الأنبياء الآتية "وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ" 10 نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث لأنه كان يشتري من أحاديث العجم ويتلوه على الناس ليشغلهم عن سماع القرآن ويحبذ لهم سماعها ، والاستهزاء بالقرآن ، قاتله اللّه الذي وهي عامة في كل من هذا شأنه ونزولها فيه لا يقيدها .

قال تعالى "هذا" الكتاب المنزل عليك يا سيد الرسل "هُدىً" لمن عقله يهتدي به ورشد لمن استرشد به "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ" هو عليهم عمى وضلالة "لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ" هو أشد العذاب في الآخرة كما أن الموت أشد عذاب الدنيا ولذلك يطلق عليه لفظ الرجز "أَلِيمٌ" 11 نعت للزجر على قراءة الجر ، وللعذاب على قراءة الرفع ، ثم عدد أفضاله على عبده بقوله عز قوله "اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ" التي تركبونها وتحملون أثقالكم عليها "فِيهِ" في البحر "بِأَمْرِهِ" جل أمره لأنها تجري بالرياح ، وهي لا تهب إلا بأمر اللّه والتي تجري بالمحركات كذلك بأمره ، إذ لو شاء لما تحركت والتي بقوة البشر أيضا بأمره إذ لو أراد لأعجزهم "وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ" من ربح التجارة وزيارة البلدان والاجتماع بالإخوان واستخراج اللآلئ "وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" 12 نعمه عند سيرها وبلوغكم مقاصدكم إذا

كنتم لا تشكرونه دائما "وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ" من الكواكب وغيرها "وَما فِي الْأَرْضِ" من حيوان ونبات ومعادن لتنتفعوا بها "جَمِيعاً مِنْهُ" وحده وأنى لغيره شيء من ذلك لعجزه عن جزء بعض ما هنالك "إِنَّ فِي ذلِكَ" التسخير من حيث لا حول لكم ولا قوة عليه "لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" 13 في آلائه ومكوناته فيتعظون ويعتبرون ، وهذه الآية المدنية قال تعالى يا أكرم الرسل "قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ" ولا يتوقعون وقائعه بأعدائه ولا يخافون انتقامه

(44/698)

مع استحقاقهم إياه فالرجاء مجاز عن التوقع كما أن الأيام مجاز عن الحوادث واستعمالها شائع في ذلك "لِيَجْزِيَ قَوْماً" أي المؤمنين وتنوينه للتعظيم ولفظ قوم يدل على المدح "بِما كانُوا يَكْسِبُونَ" 14 من العمل الصالح الذي من جملته العفو والصفح عمن يعتدي عليهم .

وسبب نزول هذه الآية على ما حكاه ابن عباس هو أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم نزل بأصحابه في غزوة بني المصطلق على بئر المريسيع ،

فأرسل ابن أبي غلامة ليستسقي فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له ما حبسك ؟ قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستسقي حتى ملأ قرب النبي صلّى اللّه عليه وسلم

وقرب أبي بكر ، فقال ابن أبي لعلامة ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل (سمّن كلبك يأكلك) قاتله اللّه ما أخبثه وكلامه ، ولكن الدنّ ينضح بما فيه ، ويكفي أنه رئيس المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم .

فبلغ ذلك عمر فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل اللّه هذه الآية .

وما قيل إنها نزلت في عمر رضي اللّه عنه حينما شتمه المشرك من غفار بمكة قبل الهجرة فهمّ أن يبطش به غير سديد ، لأن الآية مدنية بالاتفاق كما علمت ، ولأن المسلمين في مكة عاجزون عن البطش ، والذي لا يقدر ينتصر لنفسه لا يؤمر بالعفو .

(45/698)

وما قاله بعضهم إن هذه الآية منسوخة لا يصح ، لأن المراد بها ترك النزاع في المحقرات والتجاوز عن بعض ما يؤذي "مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ" ثواب عمله "وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها" وزر إساءته "ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ" 15 في الآخرة فيعاملكم بما كنتم تعملون في الدنيا ، ونظير صدر هذه الآية الآية 45 من فصلت المارة "وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ" بين الناس "وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ" الحلال ولا طيّب إلا وهو حلال ولا حلال إلا وهو طيب "وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ" 16 في زمانهم وعلى من قبلهم عدا نوح

وإبراهيم وموسى وعيسى لأنهم من أولي العزم للاجماع على تفضيلهم "وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ" يعرفون بها الحلال من الحرام والحق من الباطل والجد من الهزل "فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ" الذي هو موجب للاتفاق لا الاختلاف ، فكان اختلافهم بعد العلم "بَغْياً بَيْنَهُمْ" حاكوه بينهم حسدا للأنبياء وحبا ببقاء الرياسة ، وهذا تعجب من حالهم لأن العلم يرفع الاختلاف لا يوقعه "إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" 17 بمحض العناد وإظهار التكبر وليس عن جهل ليعذروا به ، لأن التوراة أنزلت على نبيهم موسى عليه السلام مفصل فيها كل شيء يحتاجونه من أمر الدين والدنيا ، فاختلافهم في تأويلها وعدم قبولهم بعض أحكامها ما هو إلا بغي وتجبر وطغيان ، قال تعالى "ثُمَّ جَعَلْناكَ" يا سيد الرسل "عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ"

العائد لدينك وآتيناك سنة مستوية ومنهاجا قويما وطريقة مستقيمة "فَاتَّبِعْها" أنت وقومك المؤمنين بك "وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ" 18 طريقتك

(46/698)

هذه وأخيرتها مما يدعونك إليه من طرق آبائهم المعوجة "إِنَّهُمْ" هؤلاء الكفرة الذين يريدونك على دينهم وسنة آبائهم الضالة لو أطعتهم على فرض المحال واتبعت أهواءهم "لَنْ يُغْنُوا"

يمنعوا ويدفعوا "عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً" أراد إيقاعه فيك "وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ" في الدنيا ولا وليّ لهم في الآخرة ولا يتبعهم إلا ظالم مثلهم "وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ" 19 فيها وأنت خلاصتهم ، فدم على ما أنت عليه من التوجه إلى اللّه والإعراض عن وأعدائه أعدائك ، وهذا الخطاب الموجه إلى حضرة الرسول مراد به غيره من أصحابه الذين معه لأنه معصوم من اتباع الكفرة ، راجع الآية 63 فما بعدها من سورة الزمر المارة ، قال تعالى "هذا" القرآن المنزل عليك يا حبيبي "بَصائِرُ لِلنَّاسِ" في قلوبهم وكما هو نور لأبصارهم وحياة لأرواحهم ، هو معالم لحدودهم وأحكامهم "وَهُدىً" من الضلال لمن اتبعه "وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" 20 به ويصدقون بما فيه

"أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا"

اكتسبوا بجوارحهم اليد والرجل واللسان والفرج وغيرها ففعلوا فيها "السَّيِّئاتِ" هي كل ما ساءك فعله فيك من الغير أو خالف أمر دينك أو أغضب غيرك صنعه "أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ"

كلا لا نفعل ولا ينبغي لنا أن نفعل ذلك ، وإن كانوا هم يحكمون بالمساواة فقد "ساءَ ما يَحْكُمُونَ"

21 وبئس القضاء قضاؤهم ذلك ، إذ لا يستوي الخبيث والطيب ، كما لا تستوي الظلمات والنور ، راجع الآية 104 من سورة المائدة ج 3 .

قال بعض كفرة قريش لإن كان ما تقولونه في البعث حقا لنفضلنكم فيه كما فضلناكم في الدنيا بالمال والنشب والسعة والجاه ، فأنزل اللّه هذه الآية يخبرهم فيها بأنه شتان ما بين المؤمن والكافر في الآخرة ، لأن المؤمن مؤمن في حياته ومماته بالدنيا والآخرة ، والكافر كافر في حياته ومماته فيهما ، ومال الدنيا زائل لا محالة فلا قيمة له ولا عبرة بالتفاضل فيها ، أما حال الآخرة الذي هو محل التفاضل والتنافس فهو باق للمؤمنين في نعيم الجنة ، وباق للكافرين في جحيم

النار ، والبون شاسع بين الحالتين فليس من أقعد على بساط الموافقة ، كمن أجلس مع مقام المخالفة ، ولا بد من الفرق وإعلاء المؤمنين وإخزاء الكافرين في يوم لا شفيع فيه ولا معين إلا من رحم اللّه ، وأذن له بالشفاعة .

قال مسروق : قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري ، ولقد رأيته قام ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب اللّه يركع بها ويسجد ويبكي (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ)

الآية ، ولما بلغها الفضيل جعل يرددها ويبكي ويقول ليت شعري من أي الفريقين أنت يا

فضيل ؟ .

قال تعالى "وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ" ويعدل فيهما بين خلقه بالحق فينصف المظلوم من الظالم ويظهر التفاوت بين المسيء والمحسن ، فإذا لم يكن كل ذلك في الحياة لأمور اقتضتها حكمته فلا بد من كينونها في الممات أي بعده حتما .

وهذه الآية بمعرض الإنكار على حسبانهم تساوي الفريقين بدليل قوله "وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ" في دنياها "وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ" 22 في الآخرة فلا يزاد على جزاء الظالم ولا ينقص من مكافآت المحسن .

مطلب تفنيد مذهب القدرية وذم اتباع الهوى وأقوال حكيمة ، والدهر :

(48/698)

قال تعالى "أَ فَرَأَيْتَ" أيها الإنسان الكامل "مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ" فصار تبعا لما تهواه نفسه "وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ" منه بعاقبة أمره "وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ" فلم يجعله يسمع الهدى "وَقَلْبِهِ" فلم يدعه يعقله "وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً" فلم يتركه يراه فمن هذا شأنه أخبروني "فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ" استفهام إنكاري ، أي لا يهديه أحد البتة لأنه لا يجاب إلا بلا "أَ فَلا تَذَكَّرُونَ" 23 أيها الناس فنلاحظون وتقولون لا هادي إلا الله ، ولا مضل لمن هداه ، ولا

هادي لمن أضله .

قال الواحدي : لم يبق للقدرية مع هذه الآية عذرا وحيلة لأن اللّه تعالى صرح بمنعه إياه عن الهوى حتى أخبر بأنه ختم على جوارحه كلها وعطلها عن النظر إلى طريق الهدى ، وقيل في هذا المعنى :

إذا طلبتك النفس يوما بشهوة وكان إليها للخلاف طريق

فدعها وخالف ما هويت فإنّما هواك عدو والخلاف صديق

لأن أصل الشر كله متابعة الهوى وكل الخير في مخالفته ، وقيل :

نون الهوان من الهوى مسروقة فأسير كل هوى أسير هوان

وقال أبو عمرو موسى بن عمر الأشبيلي الزاهد :

فخالف هواعا واعصها إن من يطع هوى نفسه ينزع به شر منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده وترم به في ؟ ؟ ؟ أي مصرع

واعلم أن متابعة الهوى مذمومة قبل الإسلام ، قال عنترة :

إني امرؤ سمح الخليقة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها

وقال الأبوصيري :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وقال غيره :

هي النفس إن تمهل تلازم خساسة وإن تنبعث نحو الفضائل تبتهج

قال ابن عباس : ما ذكر اللّه هوى إلا ذمه .

وقال وهب : إذا شككت في خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك .

(49/698)

وقال سهل التستري هواؤك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك ، وجاء في الحديث والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأماني ، وفي حديث آخر : ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه .

فيجب على النبيه النبيل أن يعرض عن هواه فإنه مفارقه ، وإلا فهو نار ثانية عليه يذهب معه إلى جهنم ، قال :

جمع الهواء مع الهوى في مهجتي فتكاملت في أضلعي ناران

فقصرت بالممدود عن نيل المنى ومددت بالمقصور في أكفاني

وهذه نزلت في الحارث بن قيس السهمي ، إذ كان لا يهوى شيئا إلا ركبه .

وحكما عام في كل من اتبع هواه ، وفيها إعلام عن ذم الهوى واتباع الشهوات ما فيها لمن اتبع

ذلك ، لأن جواهر الأرواح منها ما هو مشرق علوي نوراني ، فلا يميل إلا لما يرضي خالقه مبدعه ، ومنها ما هو رذيل سفلي ظلماني فلا يميل إلا لما يعجب نفسه ، وإن اللّه تعالى يقابل كلا بما يليق بماهيته وجوهره .

ونظير هذه الآية

الآيتان 43 - 44 من سورة الفرقان ، في ج 1 فراجعهما .

قال تعالى "وَقالُوا" منكرو البعث بعد هذه الآيات البينات على إثباته "ما هِيَ" الحياة "إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا" لا حياة بعدها أبدا "نَمُوتُ" أي يموت آباؤنا "وَنَحْيا" نحن بعدهم ونموت نحن ويحيا أبناؤنا بعدنا ، وهكذا أرحام تدفع وأرض تبلع ، أو نحيا نحن ونموت ، لأن العطف بالواو لا يفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، وعلى هذا قوله تعالى (يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ) أي رافعك إلى السماء الآن ومتوفيك بعد ، راجع الآية 55 من سورة آل عمران ج 3 "وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ" في كره ومره واختلاف جديديه .

واعلم أن الدهر اسم لمدة العالم من مبدإه إلى منتهاه ، ويعبر به عن كل مدة طويلة ، بخلاف الزمن ، فإنه يقع على القليل والكثير .

(50/698)

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال اللّه عز وجل يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار .

وفي رواية يؤذيني ابن آدم ، ويقول يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما .

وفي رواية يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار .

وأخرج مسلم لا يسب أحدكم الدهر فإن اللّه هو الدهر .

وأخرج أبو داود والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم : يقول اللّه عز وجل استقرضت عبدي فلم يقرضني ، وشتمني عبدي وهو لا يدري ، يقول وا دهراه ، وأنا الدهر .

وأخرج البيهقي : لا تسبوا الدهر ، قال اللّه عز وجل أنا الأيام والليالي أجودها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك .

ومعنى ذلك أن اللّه تعالى هو الآتي بالحوادث ، فإذا سببتم الدهر على أنه فاعل وقع السب على اللّه تعالى عز وجل ، ولهذا عدّ بعض العلماء سب الدهر من الكبائر ، لأنه يؤدي إلى سبه تعالى وتنزه وهو كفر ، وما أدّى إليه فأدنى مراتبه أن يكون كبيرة ، وقالت الشافعية مكروه لا غير .

وعندنا نحن الحنفية تفصيل ، فمن سب الدهر وأراد به الزمان كما هو المتعارف لدى العامة فلا كلام في الكراهة ، وإذا أراد رب الزمن وهو اللّه عز وجل ولا أظن أحدا يريد ذلك

فلا كلام في الكفر ، راجع الآية 139 من سورة الأنعام المارة .

ومن هذا القبيل إذا نسب فعل الأشياء إلى الكواكب

وغيرها ، فإن أراد أنها بنفسها تؤثر يكون كفرا ، وإذا قال المؤثر هو اللّه وإنما اقتضت قدرته أن يكون إذا كان كذا كان كذا فلا بأس ، وإن أطلق في هاتين المسألتين فمحل تردد لاحتمال الأمرين ، والأولى أن يحمل على ما هو الأحسن في مثل هذا .

(51/698)

وكانوا قبل الإسلام يستدون الإهلاك إلى الدهر إنكارا منهم لقبض الأرواح من قبل ملك الموت بإذن اللّه ، وكذلك يستدون كافة الحوادث إليه لجهلهم أنها بتقدير اللّه تعالى ، وهؤلاء بخلاف الدهرية لأنهم مع اسنادهم الوقائع إلى الدهر لا يقولون بوجوده تعالى ، بل يقولون إن الدهر مستقل بالتأثير ، أما هؤلاء فيعترفون بوجود اللّه .

قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ . . .)

الآية 9 من سورة الزخرف المارة ، وهي مكررة كثيرا في القرآن "وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ" 24 أي لا علم لهم ولا يقين فيما يقولونه ، لأن مصدره الحسبان والميل إلى ما

يشتهون من القول من غير موجب ، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول من غير حجة أو بينة فاسد باطل ، وإن متابعة الشك والوهم منكر .

(52/698)

واعلم أن بعض العلماء أنكر قراءة أنا الدهر بضم الراء الوارد في حديث أبي داود المار ذكره بداعي لو كان صحيحا لكان من جملة أسمائه تعالى ، ويرويه بفتح الراء ظرفا لأقلب ، أي إني أقلب الليل والنهار الدهر ، ولكن يردّه رواية مسلم (فإن اللّه هو الدهر) لذلك إن الجمهور على ضم الراء ولا يلزم أن يكون من أسمائه تعالى ، لأنه جار على التجوز ولا مانع لأن اللّه تعالى له أسماء كثيرة لا يعلمها غيره وهذه التسعة والتسعون المشهورة هي أسماؤه الحسنى ، راجع الآية 8 من سورة طه في ج 1 تعلم أن أسماءه لا تحصى وأن لها مشتقات كثيرة ، قال تعالى "وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ" واضحات لا تحتاج إلى تأويل أو تفسير لأنها ظاهرة "ما كانَ حُجَّتَهُمْ" بعدم قبولها والأخذ بها "إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا" الذي ماتوا قبلنا "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" 25 أنت وأصحابك يا محمد بأن ربكم اللّه يحيي بعد الموت ، فيا سيد الرسل "قُلِ" لهؤلاء الجهلة "اللَّهُ يُحْيِيكُمْ" من العدم ابتداء من نطفة ضعيفة ميتة "ثُمَّ يُمِيتُكُمْ" عند انقضاء آجالكم من الدنيا "ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ" أنتم ومن قبلكم ومن بعدكم

أحياء كما يقتضيه معنى الجمع "إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ" الذي مجيئه حق "لا رَيْبَ فِيهِ" لأنه لا بد واقع "وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" 26 حقيقة قدرته تعالى وتصرفه في ذلك "وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ" بدل من يوم في صدر الآية والعامل بهما "يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ" 27 إذ يصيرون إلى النار .

(53/698)

قال تعالى "وَتَرى" يا سيد الرسل في ذلك اليوم الرهيب "كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً" على ركبها بين يدي اللّه عز وجل تنتظر القضاء بالعدل من الحاكم العدل وإذ ذاك "كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا" الذي نمقته حفظتها بأعمالها وأقوالها ويقال لها "الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 28 في الدنيا عن الخير خيرا منه وعن الشر بمثله .

ثم يقول اللّه تعالى "هذا" الذي أحصاه حفظتنا هو "كِتابُنا" لأنا أمرناهم بتدوينه وهو منطبق على ما كان في علمنا قبلا وهو الآن "يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ" الذي وقع منكم بلا زيادة ولا نقص لأنه موافق للحق الذي هو في لوحنا أزلا ، واعلموا أيا الناس "إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ" نأمر الملائكة بنسخ وكتابة "ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 29 في الدنيا مما هو مدون عندنا ، لأن الاستنساخ لا يكون إلا عن أصل .

وتدل هاتان الآيتان على أن استحقاق العقوبة لا يكون إلا بعد مجيء الشرع ، على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع خلافا للمعتزلة القائلين إن بعض الواجبات تجب بالعقل .

هذا ومما يؤيد التفسير الذي جرينا عليه ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : إن اللّه تعالى خلق النون وهي الدواة ، وخلق القلم ، فقال اكتب ، قال ما أكتب ؟ قال ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر ، ورزق مقسوم حلال أو حرام ، ثم ألزم كل شيء بيانه ، وذلك دخوله في الدنيا متى ، وخروجه منها كيف ، ومقامه فيها كم وخروجه منها كيف ، ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزانا ، فالحفظة يستنسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم ، فإذا فنى الرزق وانقطع الأمر وانقضى الأجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم ، فيقول الخزنة ما نجد لصاحبكم عندنا شيئا ، فترجع فيجدونه قد مات .

ثم قال ابن عباس : ألستم قوما عربا تسمعون الحفظة يقولون (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ) وهل يكون

الاستنساخ إلا من أصل ؟ وفي رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه رضي اللّه عنه أنه سئل عن الآية ، فذكر نحو ذلك ، ثم قال هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب ؟

وقد روى الاستنساخ من اللوح عنه جماعة "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ" و"ذلِكَ" الإدخال "هُوَ الْفَوْزُ" للمؤمنين والظفر العظيم "الْمُبِينُ" 30 الظاهر لهم في الجنة جزاء عملهم

"وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا" فيقال لهم يوم الحساب وظهور الحجة عليهم "أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ" في الدنيا من قبل رسلي وتحذركم من هول هذا الموقف "فَاسْتَكْبَرْتُمْ" عن الأخذ بها منهم "وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ" 31 معتادين الإجرام حتى صارت ديدنا لكم لا يحتمل انفكاككم عنها "وَ" قد كنتم في الدنيا أيضا "إِذا قِيلَ" لكم "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ" بالبعث "حَقٌّ وَالسَّاعَةُ" هذه التي أنتم فيها الآن حق "لا رَيْبَ فِيها" أيضا "قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ" ولم تلتفتوا إلى أن الذين أخبروكم بها هم رسل اللّه وأنهم يتكلمون عن اللّه وبأمر اللّه وجاوبتموهم بقولكم "إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا" بما تقولونه فلا نعتقده إلا توهما ولا نقول به إلا حدسا كأن الذين يعظونكم بذلك ليسوا بشيء وقد أكدتم تكذيبهم بقولكم "وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ" 32 ما تقولونه وبقيتم شاكين بوجود هذه الحياة ومنكرين يوم الجمع هذا لأنه عندكم لا يعقل وإن ما لا يعقل لا يكون ، ولم تعلموا أن أفعال اللّه لا تدرك ، وأنها لا تقابل إلا بالخضوع لها ، فانظروا الآن إلى ما كان منكم في الدنيا .

قال تعالى "وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا" في الدنيا وجزاؤه لأن العقوبة تسيء صاحبها وتقبح منه لذلك سميت سيئات ولما رأوها مجسمة أمامهم دهشوا "وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ" 33 من أنواع العقاب الذي كان أخبرهم به رسلهم ، إذ كانوا ينكرون ولا يصدقون ويسخرون بهم عند ما يذكرون لهم ذلك ويخوفونهم به "وَقِيلَ" لهم بعد إدخالهم النار وإحاطة العذاب بهم "الْيَوْمَ نَنْساكُمْ" فنترككم في هذا الشقاء ونجعلكم كالمنسيين بالنسبة لكم وهذا من باب المقابلة أي المتروكين لأن اللّه تعالى لا ينسى شيئا وذلك "كَما نَسِيتُمْ" في الدنيا "لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا" في الآخرة ولم تبالوا به ولم تصفوا لنصح أنبيائكم وإرشادهم لكم بالعودة إليه "وَمَأْواكُمُ" الذي تأوون إليه للاستراحة وعند النوم هو "النَّارُ" لا راحة لكم ولا نوم فيها بل عذاب دائم مستمر "وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ" 34 يخلصونكم منها أو يمنعون عذابها عنكم "ذلِكُمْ" الجزاء الشاق والعذاب الذي لا يطاق "بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا" بنعيمها الزائل وبهجتها المزخرفة وشغلكم حكامها عن الاعتراف بهذا اليوم .

"فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها" أبدا وقرىء بضم ياء يخرجون وفتحها وهو أحسن "وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ" 35 يسترضون فلا يطلب منهم إرضاء ربهم والإيمان به وبالبعث والنبوة لأنه لا يقبل عذر فيه ولا توبة .

والالتفات من الخطاب إلى الغيبة إيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم ، وأن الخطاب للخزنة الذين نقلوهم من مقام المخاطبة إلى غيابة النار ، والالتفات من أنواع البديع المستحسنة في الكلام .

(56/698)

قال تعالى "فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ" 36 إخبار مراد منه الإنشاء أي احمدوا ربكم أيها الناس ومجدوه وعظموه لأنه ربكم ورب كل شيء "وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" فكبروه وعزروه وحق للرب أن يعظم ويمجد ويكبر ويحمد "وَهُوَ الْعَزِيزُ" الغالب في الانتقام من أعدائه البليغ في النصرة لأوليائه "الْحَكِيمُ" 37 في أحكامه وإحكامه .

وقد ختمت هذه السورة بمثل ما بدئت به من الصفتين الجليلتين كما هو شأن كثير من السور ، وتفيد هذه الصفات أن الكمال كله في القدرة والرحمة والحكمة ليس إلا للّه وأن لا متّصف بكمال هذه الصفات غير الإله العظيم الكبير في سمواته وأرضه ، المتصرف بما فيهما ، ويوجد سورتان مختومتان بهذه اللفظة ، الحشر والتغابن ، روى مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : العزّ إزاره والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعه

عذبه .

وأخرج الرقاق وأبو مسعود عنهما : يقول اللّه عز وجل العزّ إزاري والكبرياء ردائي ، فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار .

وهذا مخرج على ما تعتاده العرب في بديع استعارتهم ، وذلك أنهم يكنون عن الصفة اللازمة بالثوب ، فيقولون شعاره التقوى ولباسه الزهد ، فضرب اللّه عز وجل بالإزار والرداء مثلا له جل شأنه في

انفراده في صفة الكبرياء والعظمة .

وفي هذا إعلام بأنهما ليسا كسائر الصفات التي يتصف بها بعض المخلوقين مجازا كالرحمة والكرم وغيرهما ، وشبههما بذلك لأن المتصف بهما يشملانه كما يشمل الرداء الإنسان ، ولأنه لا يشاركه في ردائه وإزاره أحد ، فكذلك اللّه تعالى لا ينبغي أن

(57/698)

يشاركه فيهما أحد ، لأنهما من صفاته اللازمة المختصة به وهذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 109 . 122 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الجاثية

مكية إلا قوله قل للذين آمنوا يغفروا الآية فمدني

وقد علم حكم حم تنزيل الكتاب مما مر في سورة المؤمن الحكيم حسن وقال أبو عمرو كاف للمؤمنين حسن وقال أبو عمرو كاف وكذا لمن قرأ من دابة آيات بالرفع وكذا يوقنون إن قرئ آيات الأخيرة بالرفع ومن قرأ لكسر فيهما لم يكن الوقف على الآيتين حسنا لتعلق ما بعدهما بالعامل السابق وهو إن يعقلون تام يؤمنون تام يؤمنون تام كاف لم يسمعها صالح أليم كاف هزوا أكفى منه مهين حسن اولياء كاف وكذا عظيم هذدى حسن أليم تام تشكرون حسن جميعا منه كاف يتفكرون تام وكذا يكسبون وترجعون على العالمين جائز بغيا بينهم تام يختلفون كاف لا يعلمون حسن وكذا شيئا وأولياء بعض المتقين تام يوقنون حسن وكذا وعملوا الصالحات لمن قرأ سواء بالرفع ومحياهم ومماتهم ساء ما يحكمون تام وكذا بالحق عند أبي حاتم بجعل لام لتجزى لام قسم كما مر نظيره لا يظلمون تام من بعد الله كاف

تذكرون حسن إلا الدهر تام إلا يظنون حسن وكذا صادقين لا ريب فيه كاف لا يعلمون تام والأرض كاف وكذا المبطلون جاثية حسن لمن رفع كل الثانية على الابتداء وليس بوقف لمن نصبه إلى كتابها حسن وكذا كنتم تعملون وبالحق وتعلمون في رحمته كاف المبين حسن وكذا مجرمين بمستيقنين تام ما عملوا جائز يستهزؤن كاف وكذا ومأواكم النار من ناصرين حسن الحياة الدنيا يستعتبون حسن رب العالمين آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 710.713 ﴾

(59/698)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الجاثية

مكية إلا قوله قل للذين آمنوا يغفروا الآية فمدني كلمها أربعمائة وثمان وثمانون كلمة وحروفها ألفان ومائة واحد وتسعون حرفا وآيها ست أو سبع وثلاثون آية 0

حم تنزيل الكتاب (حسن) إن جعل تنزيل مرفوعا بالابتداء كان الوقف على حم تاما وكاف إن جعل خبر مبتدأ محذوف 0

الحكيم (كاف) ومثله للمؤمنين لمن رفع آيات بالابتداء وبها قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو

عمرو وابن عامر وما قبلها خبر وليس بوقف لمن قرأ آيات بكسر التاء وقوله وما يبث

عطف على خلق المضاف إلى كم واستقبح عطفه على الكاف لإن الضمير المتصل المجرور

لا يعطف عليه إلا بإعادة حرف الجر لا تقول مررت بك وزيد حتى تقول مررت بك ويزيد

والأصح أن في السموات العطف على معمولي عاملين مختلفين العاملان إن وفي المعمولان

السموات وآيات فعطف وتصريف على السموات وعطف آيات الثانية على لأيات فيمن

نصب آيات وفي ذلك دليل على جوازه والأصح عدم جوازه 0

يوقنون (كاف) لمن قرأ وتصريف الرياح آيات بالرفع خبر مبتدأ محذوف أي ما ذكر آيات

العقلاء ومن قرأ بالنصب على لآيات فيهما لم يحسن الوقف على الآيتين لتعلق ما بعدهم

بالعامل السابق وهو إن وهي قراءة بالنصب على لآيات فيهما لم يحسن الوقف على الآيتين

لتعلق ما بعدهم بالعامل السابق وهو إن وهي قراءة حمزة والكسائي ولا يوقف على بعد

موتها ولا على الرياح 0

يعقلون (تام)

بالحق (حسن)

يؤمنون (تام) ومثله أثيم إن جعل يسمع مستأنف وليس بوقف إن جعل صفة لما قبله

والتقدير سامع 0

كأن لم يسمعها (جائز)

أليم (كاف) على استئناف ما بعده

هزوا (حسن)

مهين (كاف) على استئناف ما بعده 0

جهنم (جائز)

شيأ ليس بوقف لإن ولا ماتخذوا مرفوع عطفا على ما الأولى 0

أولياء (كاف) ومثله عظيم 0

هذا هدى (حسن) لإن والذين مبتدأ بآيات ربهم ليس بوقف لإن خبر الذين لم يأت بعد 0

أليم (تام)

(60/698)

ولا وقف من قوله الله الذي إلى تشكرون فلا يوقف على بأمره ولا على من فضله للعطف فيهما 0

تشكرون (كاف) ومثله جميعا منه وقرئ منه بكسر الميم وتشديد النون ونصب التاء مصدر من يمن منة وهي قراءة ابن عباس وابن عمير أي من الله عليكم منة وأغرب بعضهم ووقف على وسخر لكم وجعل ما في السموات مبتدأ وما في الأرض عطفا عليه وجميعا

منه الخبر وجوّز الوقف أيضاً على السموات وجعل وما في الأرض مبتدأ وجميعا منه الخبر 0

يتفكرون (تام) ومثله يكسبون 0

فلنفسه (كاف) وقال ابن نصير لا يوقف على أحد المعادلين حتى يأتى الثاني والأولى التفريق بينهما بالوقف 0

فعليها (كاف)

ترجعون (تام)

والنبوة (جائز) ومثله من الطيبات 0

العالمين (كاف)

من الامر (حسن)

العلم ليس بوقف لان قوله بغيا بينهم معناه اختلافهم للبغى فهو مفعول له 0

بغيا بينهم (كاف)

يوم القيامة ليس بوقف لإن ما بعده ظرف للحكم

يختلفون (تام)

فاتبعها (جائز)

لا يعلمون (كاف)

شيأ (حسن) ومثله أولياء بعض 0

المتقين (تام)

بصائر للناس ليس بوقف لإن ما بعده عطف عليه 0

يوقنون (تام) ومثله وعملوا الصالحات لمن قرأ سواء بالرفع خبر مبتدأ أو مبتدأ وما بعده خبر وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي بكر عن عاصم وليس بوقف لمن قرأ بالنصب وهي قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم على أنه مفعول ثان لنجعلهم أي لا نجعلهم مستوين في المحيا والممات وقراء الامصار متفقون على رفع مماتهم ورويت عن غيرهم بفتح التاء والمعنى أن محيا المؤمنين ومماتهم سواء عند الله في الكرامة ومحيا المجترحين ومماتهم سواء في الاهانة فلف الكلام اتكالا على ذهن السامع وفهمه ويجوز أن يعود على المجترحين فقط أخبر أن حالهم في الزمانين سواء ، اهـ سمين 0

ومماتهم (حسن) في القراءتين 0

ما يحكمون (تام) ومثله بالحق عند أبي حاتم لانه يجعل لام ولتجزي لام قسم وتقدم الرد عليه 0

لا يظلمون (تام) ولا وقف من قوله أفرأيت إلى من بعد الله فلا يوقف على هواه ولا على قلبه

ولا على غشاوة للعطف في كل 0

من بعد الله (كاف) لإن الفائدة في قوله فمن يهديه من بعد الله 0

تذكرون (أكفى منه)

نموت ونحى (جائز)

إلا الدهر (تام)

من علم (جائز)

إلا يظنون (كاف) ومثله صادقين 0

لا ريب فيه الأولى تجاوزه 0

لا يعلمون (تام)

والأرض (حسن)

المبطلون (كاف)

جاثية (حسن) لمن رفع كل الثانية على الابتداء وتدعى خبرها وهي قراءة العامة وليس

بوقف لمن نصبها بدلا من كل الاولى بدل نكرة موصوفة من مثلها وهي قراءة يعقوب 0

إلى كتابها (حسن) على القراءتين

تعملون (كاف)

بالحق (حسن)

تعملون (تام)

في رحمته (كاف)

المبين (تام) ومثله مجرمين 0

إن وعد الله حق ليس بوقف سواء نصبت الساعة أو رفعتها فحمزة قرأ بنصبها عطفا

على وعد الله والباقون برفعها على الابتداء وما بعدها من الجملة المنفية خبرها ومثله في

عدم الوقف لا ريب فيها لإن جواب إذا لم يأت بعد 0

ما الساعة (جائز)

إن نظن الاظنا (حسن) ولا كراهة في الإبتداء بقول الكفار لإن القارئ غير معتقد معنى

ذلك وإنما هو حكاية حكاها الله عمن قاله من منكري البعث كما تقدم غير مرة 0

بمستيقنين (كاف)

ماعملوا (جائز) على استئناف ما بعده 0

يستهزؤن (كاف)

هذا (حسن)

ومأواكم النار (أحسن) مما قبله 0

من ناصرين (كاف)

هزوا ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

الحياة الدنيا (حسن) وتام عند أبي حاتم 0

لا يخرجون منها (حسن)

يستعتبون (تام) أي وإن طلبوا الرضا فلا يجابون 0

رب العالمين (كاف) قرأ العامة رب الثلاثة بالجر تبعا للجلالة بيانا أو بدلا أو نعتا وقرأ ابن

محيصن برفع الثلاثة على المدح باضمار هو 0

وله الكبرياء في السموات والأرض (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 710.713 ﴾

(62/698)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الجاثية :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة ابن عباس وعبد الله بن عمرو الجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير : "جَمِيعًا

مِنَّةً1" ، منصوبة ، منونة .

وقرأ : "جَمِيعًا مِنُّةً" – سلمة – فيما حكاه ورويته عنه – أبو حاتم .

قال أبو الفتح : أما "منة" فمنصوب على المصدر بما دل عليه قوله "تعالى" : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ؛ لأن ذلك منه "عز اسمه" منة منها عليهم ، فكأنه قال : من عليهم منة . ومن نصب وميض البرق من قولهم : تبسمت وميض البرق بنفس تبسمت ، لكونه في معنى أومضت – نصب أيضا "منة" بنفس سخر لكم ، على ما مضى .

وأما "منة" بالرفع فحمله أبو حاتم على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : ذلك ، أو هو "منة" ، كذا قال . ويجوز أيضا عندي أن يكون مرفوعا بفعله هذا الظاهر ، أي : سخر لكم ذلك "منة" كقولك : أحياني إقبالك علي ، وسدد أمري حسن رأيك في ؛ فتعمل فيه هذا اللفظ الظاهر ، ولا تحتاج إلى إبعاد التناول واعتقاده ما ليس بظاهر .

ومن ذلك قراءة يعقوب : "كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى2" ، بفتح اللام .

قال أبو الفتح : "كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى" بدل من قوله : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ . وجاز إبدال الثانية من الأولى لما في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى ؛ لأن جثوها ليس فيه شيء من شرح حال الجثو . والثانية فيها ذكر السبب الداعي إلى جثوها ، وهو استدعاؤها إلى ما في

1 سورة الجاثية : 13 ، والآية بتمامها : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

2 سورة الجاثية : 28 .

(63/698)

كتابها ، فهي أشرح من الأولى ، 0 فذلك أفاد إبدالها منها . ونحو ذلك رأيت رجلا من أهل البصرة رجلا من الكلاء 1 .

فإن قلت : فلو قال : وترى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها لأغني عن الإطالة .

قيل : الغرض هنا هو الإسهاب ؛ لأنه موضع إغلاظ ووعيد ، فإذا أعيد لفظ "كل أمة" كان أفخم من الاقتصار على الذكر الأول ، وقد مضى نحو هذا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 261.262 ﴾

---

1 الكلاء : موضع البصرة .

(64/698)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الجاثية

مكية وقيل إلا قوله قل للذين الآية فمدنية وآيها ثلاثون وست في غير الكوفي وسبع فيه خلافها حم كوفي مشبه الفاصلة واحد هو للذين القراآت مر حكم إمالة حم والسكت على حرفيها

واختلف في ( ) آيات لقوم يوقنون ( ) الآية 4 و ( ) آيات لقوم يعقلون (الآية 5 الثاني والثالث فحمزة والكسائي ويعقوب بكسر التاء منصوبة فيهما عطفا على اسم إن أي وإن في خلقكم وإن في اختلاف والخبر وقوله وفي خلقكم وفي اختلاف أو كرر آيات تأكيد للأول أي إن في السموات وفي خلقكم وفي اختلاف الليل لآيات ويكون في خلقكم عطفا على في السموات كرر معه حرف العطف توكيدا وافقهم الأعمش والباقون برفعهما على الابتداء والظرف قيل هو الخبر وهي حينئذ جملة معطوفة على جملة مؤكدة بأن ويحتمل أن تكون آيات عطفا على محل أن ومعمولها وهو رفع بالابتداء إن عطفت عطف المفرد وبتقدير هو أن عطفت عطف الجمل وخرج بالقيد المذكور الأول المتفق على كسره لأنه اسم أن وأمال فأحيا به الكسائي وقلله الأزرق بخلفه

وقرأ ﴿ وتصريف الريح ﴾ الآية 5 بالتوحيد حمزة والكسائي وخلف وأبدل همزة فباي ياء مفتوحة الأصبهاني وسهل همزة كان لم يسمعها كما سبق في الهمز المفرد

واختلف في ( ) وآياته يؤمنون ( ) الآية 6 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر وروح بالغيب وافقهم الحسن واليزيدي والباقون بتاء الخطاب وقرأ هزوا معا بإبدال الهمزة واوا في الحالين حفص وقرأ حمزة وخلف بسكون الزاي ويوقف عليه لحمزة بالنقل على القياس وبإبدال الهمزة واوا مفتوحة على الرسم وأما بين بين والتشديد فكلاهما ضعيف لا يقرأ به

وقرأ ( ) من رجز أليم (الآية 11 برفع الميم نعتا لعذاب ابن كثير وحفص ويعقوب ومر بسبأ وعن ابن محيصن بخلفه جميعا منه بتشديد النون وبعدها تاء تأنيث منونة منصوبة مصدر من منة سنة

(65/698)

واختلف في ( ) ليجزي قوما ( ) الآية 12 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء من تحت مبنيا للفاعل أي ليجزي الله وافقهم اليزيدي والحسن والأعمش وقرأ أبو جعفر بالياء المضمومة وفتح الزاي مبنيا للمفعول مع نصب (قوما) أي ليجزي الخير والشر أو الجزاء أي ما يجزى به لا المصدر فإن الإسناد إليه سيما مع وجود المفعول به ضعيف قاله القاضي وقيل النائب الظرف وهو بما قاله السمين وفي هذه حجة للأخفش والكوفيين

حيث يجوزون نيابة غير المفعول به مع وجوده والباقون بنون العظمة مفتوحة مبنيا للفاعل

وقرأ (ترجعون) الآية 15 بفتح التاء وكسر الجيم يعقوب وسهل أبو جعفر همز إسرائل ومر أول البقرة خلاف الأزرق في مده ووقف حمزة عليه كهمزة النبوة لنافع

وقرأ ( ) سواء محياهم (الآية 21 بالنصب حمزة وحفص والكسائي وخلف وتقدم بالحج وأمال محياهم الكسائي فقط وقلله الأزرق بخلفه وقرأ أفرأيت بتسهيل الثانية نافع وابو جعفر وللأزرق وجه آخر إبدالها ألفا خالصة مع إشباع المد لأجل الساكن بعدها وحذفها الكسائي ومر ما فيه بالأنعام وغيرها

واختلف في (غشاوة) الآية 23 فحمزة والكسائي وخلف بفتح الغين وسكون الشين بلا ألف وافقهم الأعمش وعنه أيضا كسر الغين والباقون بكسر الغين وفتح الشين وألف بعدها لغتان بمعنى غطاء وقرأ تذكرون بتخفيف الذال حفص وحمزة والكسائي وخلف ومر حكم إمالة الدنيا غير مرة وعن الحسن ما كان حجتهم بالرفع اسم كان وإلا أن قالوا الخبر والجمهور بالنصب على أنها الخبر وهو الراجح وقرأ لا ريب معا بالمد المتوسط حمزة بخلفه

واختلف في) كل أمة تدعى ( ) الآية 28 فيعقوب بنصب كل على البدل من كل أمة الأولى بدل نكرة موصوفة من مثلها والباقون بالرفع على الابتداء وتدعى خبرها

وأمال تدعى وتتلى حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه وأشم قيل هشام والكسائي ورويس

واختلف في (الساعة) الآية 32 فحمزة بالنصب عطفا على وعد الله وافقه الأعمش والباقون بالرفع على الابتداء خبره لا ريب فيها أو عطفا على محل إن واسمها أو على المرفوع في حق

وأمال وحاق حمزة ومر حكم يستهزؤون لأبي جعفر وغيره وأظهر ذال اتخذتم ابن كثير وحفص ورويس بخلفه ومر التنبيه على هزوا وقرأ لا يخرجون بفتح الياء وضم الراء حمزة والكسائي وخلف ومر بالأعراف. انتهى انتهى. اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 501 .502﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الجاثية "

" حم " فيه سكت أبي جعفر .

" آيات لقوم يوقنون ، آيات لقوم يعقلون " قرأ الأخوان ويعقوب بنصب التاء بالكسرة فيهما ، والباقون برفعها كذلك .

" الرياح " قرأ الأخوان وخلف بالإفراد ، وغيرهم بالجمع .

" وآياته يؤمنون " قرأ المدنيان والبصري وروح والمكي وحفص بياء الغيبة ، وغيرهم بتاء الخطاب ، وإبدال همزة لا يخفى .

" يصر مستكبرا " هزوا ، جلي .

" من رجز أليم " رفع ميم أليم المكي ويعقوب وحفص وخفضها غيرهم ، وهو آخر الربع .

الممال

وجاء لابن ذكوان وخلف وحمزة الأولى معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، ووقاهم ، وتتلى ، وهدى لدى الوقف عليه . ومولى معا لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . ولا تقليل فيه للبصري لأنه على زنة مفعل ، حم بالإمالة لابن ذكوان وشعبة والأخوين وخلف والتقليل للبصري وورش . والنهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، فأحيا بالإمالة للكسائي والتقليل لورش بخلف عنه ، ولا تقليل ولا إمالة في دعا ، لكونه واويا .

المدغم

" الصغير " عذت للبصري والأخوين وخلف وأبي جعفر .

" الكبير " البحر رهوا ، إنه هو ، علم من .

" ليجزي قوما " قرأ الشامي والأخوان وخلف بنون مفتوحة بعد اللام وكسر الزاي وفتح الياء ، والباقون ما عدا أبا جعفر ، بياء مفتوحة في مكان النون مع كسر الزاي وفتح الياء أيضا ، وقرأ أبو جعفر بياء مضمومة مع فتح الزاي وألف بعدها ولا خلاف بين العشرة في نصب قوما .

" ترجعون " فتح يعقوب التاء وكسر الجيم ، وضم غيره التاء وفتح الجيم .

" إسرائيل " والنبوة ، فيه ، بصائر ، يظلمون ، أفرأيت ، عليهم ، قالوا ائتوا ، قيل يستهزءون ، وهو ، هزوا ، كله جلي .

" سواء " قرأ حفص والأخوان وخلف بنصب الهمزة ، والباقون برفعها .

" غشاوة " قرأ الأخوان وخلف بفتح الغين وإسكان الشين ، والباقون بكسر الغين وفتح الشين وألف بعدها .

(68/698)

" تذكرون " خفف الذال حفص والأخوان وخلف ، وشددها غيرهم .

" كل أمة تدعى " قرأ يعقوب بنصب لام كل ، والباقون برفعها .

" والساعة لا ريب " قرأ حمزة بنصب التاء ، والباقون برفعها ، ولا خلاف في رفع التاء في ما الساعة .

" لا يخرجون " قرأ الأخوان وخلف بفتح الياء وضم الراء ، والباقون بضم الياء وفتح الراء .

" الحكيم " آخر السورة ، وآخر الربع .

الممال

جاءهم لابن ذكوان وخلف وحمزة . للناس والناس لدوري البصري ، هدى لدى الوقف ولتجزى وهواه ونحيا وتتلى معا . وتدعى وننساكم ومأواكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . محياهم بالإمالة للكسائي والتقليل لورش بخلف عنه . الدنيا معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . وترى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . وحاق لحمزة ، ولا إمالة ولا تقليل في وبدا ، لأنه واوي .

المدغم

" الصغير " اتخذتم لغير المكي وحفص ورويس .

" الكبير " سخر لكم معا ، بصائر للناس ، الصالحات سواء ، آلهه هواه ، آيات الله هزوا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 299 . 301 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الجاثية

قوله تعالى ﴿ وما يبث من دابة آيات ﴾ ﴿ وتصريف الرياح آيات ﴾ يقرآن بالرفع والنصب ودليل النصب فيه كسرة التاء فالحجة لمن رفع أنه جعل الآيات مبتدأة وما تقدم من الصفة وما تعلقت به خبرا عنها

ولمن نصب وجهان أحدهما العطف على الأول وفيه ضعف عند النحويين لأنه عطف على معمولي عاملين مختلفين على إن وهي تنصب وعلى في وهي تخفض والثاني أن تبدل الآيات الثانية من الأولى ويعطف بالثالثة على الثانية وإن اختلفت الآيات فكانت إحداهن في السماء والأخرى في الأرض فقد اتفقا في أنهما خلق لله عز وجل

قوله تعالى ﴿ وآياته يؤمنون ﴾ يقرأ بالياء والتاء على ما قدمناه في أمثاله

قوله تعالى ﴿ ليجزي قوما ﴾ يقرأ بالياء إخبارا من الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه وبالنون إخبارا من الله عز وجل عن نفسه

قوله تعالى ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾ يقرأ برفع الميم وخفضها وقد تقدم ذكر العلة فيه

قوله تعالى ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ يقرأ بالنصب والرفع فالحجة لمن نصب انه عدى

إليه قوله ? < أن يجعلهم > ? سواء والحجة لمن رفع أنه جعل قوله ? < كالذين آمنوا > ? هو المفعول الثاني ورفع سواء بالابتداء ومحياهم الخبر وقد يجوز لمن جعل كالذين آمنوا المفعول الثاني أن ينصب سواء على الحال ويقف عليه

قوله تعالى ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ يقرأ بكسر الغين وإثبات الألف وبفتحها وحذف الألف فالحجة لمن كسر الغين أنه جعله مصدرا مجهولا كقولك الولاية والكفاية والحجة لمن فتح الغين أنه جعله كالخطفة والرجعة وقال بعض أهل النظر إنما قال غشاوة لاشتمالها على البصر بظلمتها فهي في الوزن مثل الهداية

قوله تعالى ﴿ والساعة لا ريب فيها ﴾ إجماع القراء على الرفع إلا حمزة فإنه قرأه بالنصب فالحجة لمن رفع أن من شرط إن إذا تم خبرها قبل العطف عليها كان الوجه الرفع ودليله قوله تعالى ﴿ أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾

(70/698)

فأما حجة حمزة فإنه عطف بالواو لفظ الساعة لأنها من تمام حكاية قولهم وعلى ذلك كان الجواب لهم في قوله ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة ﴾

قوله تعالى ﴿ فاليوم لا يخرجون ﴾ يقرأ بفتح الياء وضمها وقد ذكر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 325.326 ﴾

(71/698)

وقال ابن زنجلة :

45 - سورة الجاثية

إن في السموات والأرض لآيت للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة ءايت لقوم يوقنون

واختلف الليل والنهار وتصريف الريح ءايت لقوم يعقلون 3و4و5

قرأ حمزة والكسائي وما يبث من دابة آيات وتصريف الرياح آيات بالخفض فيهما وقرأ

الباقون بالرفع فيهما قوله وما يبث من دابة آيات جاز الرفع فيها من وجهين أحدهما العطف

على موضع إن وما عملت فيه فيحمل الرفع على الموضع فتقول إن زيدا قائم وعمرا وعمرو

فتعطف ب عمرو على زيد إذا نصبت وإذا رفعت فعلى موضع إن مع زيد والوجه الآخر

أن يكون مستأنفا على معنى وفي خلقكم آيات ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة قال

سيبويه آيات رفع بالابتداء و وجه قراءة حمزة والكسائي في قوله وما يبث من دابة آيات

وتصريف الرياح آيات فعلى أنه لم يحمل على موضع إن كما حمل الرفع في الموضعين ولكن حمل

على لفظ إن دون موضعها فحمل آيات في الموضعين على نصب إن في قوله إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وإنما كسرت التاء لأنها غير أصلية فإن سأل سائل فقال كيف جاز أن يعطف بحرف واحد على عاملين مختلفين إن في قوله إن في السموات والعامل الثاني قوله وفي خلقكم وما يبث من دابة ثم قال واختلاف الليل فعطف بالواو على عاملين وسيبويه لا يجيزه قيل يجوز أن تقدر في في قوله تعالى واختلاف الليل والنهار وإن كانت محذوفة في اللفظ وإنما لم يذكر لأن ذكره قد تقدم في موضعين في قوله إن في السموات وفي خلقكم فلما تقدم ذكره في هذين لم يذكره وعلى مذهب الأخفش يجوز أن يعطف على عاملين كقوله تعالى واختلاف الليل عطف على قوله وفي خلقكم وعلى قوله إن في السموات قال ومثله في الكلام إن في الدار زيدا والحجرة عمرا فقد عطف على عاملين مختلفين

تلك ءايت الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وءايته يؤمنون 6

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وآياته يؤمنون بالياء وقرأ الباقون بالتاء

(72/698)

وحجة الياء قوله قبلها لآيات للمؤمنين 3 و لقوم يعقلون 5 قال أبو عبيدة مع هذا قد خاطب النبي صلى الله عليه فقال تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فكيف يجوز أن يقال للنبي صلى

الله عليه بأي حديث بعد الله وآياته تؤمنون بالتاء أي تؤمن أنت وهم بل إنما قال فبأي

حديث بعد الله وآياته يؤمن هؤلاء المشركون وشاهدها قوله في المرسلات فبأي حديث

بعده يؤمنون لم يختلف فيه أنه بالياء فهذه مثلها

وحجة التاء هي أن الكلام جرى عقيب الخطاب في قوله وفي خلقكم وما يبث من دابة

فالمعنى فبأي حديث أيها المشركون بعد كتاب الله تؤمنون ويجوز أن يكون تمام الخطاب عند

قوله نتلوها عليك بالحق ثم استأنف بالفاء على معنى قل لهم فبأي حديث بعد ذلك تؤمنون

والذين كفروا بئايت ربهم لهم عذاب من رجز أليم 11

من رجز أليم قد ذكرت في سورة سبأ

قل للذين ءامنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون 14

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي لنجزي قوما بالنون على إخبار الله عن نفسه أي نحن نجزي

وحجتهم قوله ذلك جزيناهم بما كفروا وقرأ الباقون ليجزي بالياء أي ليجزي الله

وحجتهم أن ذكر الله قد تقدم في قوله لا يرجون أيام الله فيكون فاعل يجزي

أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين ءامنوا وعملوا الصلحت سواء

محياهم ومماتهم 21

قرأ حمزة والكسائي وحفص سواء محياهم بالنصب جعلوه المفعول الثاني من نجعلهم الهاء

والميم المفعول وإن جعلت كالذين آمنوا المفعول الثاني نصبت سواء على الحال وترفع

محياهم بمعنى استوا محياهم ومماتهم والمعنى أحسبوا أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم أي أن يعطوا في الآخرة كما أعطوا في الدنيا

وقرأ الباقون سواء بالرفع جعلوه مبتدأ وما بعده خبرا عنه قال مجاهد قوله سواء محياهم ومماتهم أي يموت المؤمن على إيمانه ويبعث عليه ويموت الكافر على كفره ويبعث عليه وهذا التفسير يدل على هذه القراءة

وجعل على بصره غشوة 23

(73/698)

قرأ حمزة والكسائي غشوة بفتح الغين وقرأ الباقون غشاوة وحجتهم قوله وعلى أبصارهم غشاوة قال الفراء كأن غشاوة اسم و غشوة شيء يغشي البصر في مرة واحدة وفي وقعة واحدة مثل الرمية والوقعة

وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها 32

قرأ حمزة والساعة لا ريب فيها بالنصب وقرأ الباقون بالرفع ورفعها من وجهين أحدهما أن تعطفه من الأول فتعطف جملة على جملة على معنى وقيل الساعة لا ريب فيه والوجه الآخر أن يكون المعطوف محمولا على موضع إن وما عملت فيه وموضعها رفع وحجتهم

إجماع الجميع على قوله إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ومن نصب حمله على لفظ الوعد المعنى وإذا قيل إن وعد الله حق وإن الساعة مثل إن زيدا منطلق وعمرا قائم

فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون 35

قرأ حمزة والكسائي فاليوم لا يخرجون منها بالفتح جعلا الفعل لهم وقرأ الباقون لا يخرجون بالرفع وحجتهم قوله ربنا أخرجنا منها ويقوي الرفع قوله ولا هم يستعتبون فكذلك ما تقدم هذا ليكون الكلام على نظم واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 658. 662﴾

(74/698)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الجاثية

مكية ونظيرتها في غير الكوفي المطففون ولا نظير لها فيه

وكلمها أربع مئة وثمان وثمانون كلمة

وحروفها ألفان ومئة وأحد وتسعون حرفا

وهي ثلاثون وسبع آيات في الكوفي وست في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ حم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون وليس فيها مما يشبه الفواصل

شيء ورؤوس الآي

الحكيم

2 للمؤمنين

3 يوقنون

4 يعقلون

5 يؤمنون

6 أثيم

7 أليم

8 مهين

9 عظيم

10 أليم

11 تشكرون

12 يتفكرون

13 يكسبون

14 ترجعون

15 العالمين

16 يختلفون

17 لا يعلمون

18 المتقين

19 يوقنون

20 يحكمون

21 لا يظلمون

22 تذكرون

23 يظنون

24 صادقين

25 لا يعلمون

26 المبطلون

27 تعملون

28 تعملون

29 المبين

30 مجرمين

31 بمستيقنين

32 يستهزئون

33 ناصرين

34 يستعتبون

35 العالمين

36 الحكيم

37 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 226﴾

(75/698)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (آيات لقوم يوقنون) يقرأ بكسر التاء وفيه وجهان: أحدهما أن " إن " مضمرة حذفت لدلالة إن الأولى عليها وليست آيات معطوفة على آيات الأولى لما فيه من العطف على عاملين .

والثانى أن يكون كرر آيات التوكيد ، لأنها من لفظ آيات الأولى ، فأعربها بإعرابه كقولك: إن بثوبك دما وبثوب زيد دما ، فدم الثاني مكرر لأنك مستغن عن ذكره ، ويقرأ بالرفع على أنه مبتدأ ، وفي خلقكم خبره ، وهى جملة مستأنفة ، وقيل هي في الرفع على التوكيد أيضا .

وأما قوله تعالى (واختلاف الليل) فمجرورة بفي مقدرة غير الأولى ، و (آيات) بالكسر والرفع على ما تقدم ، ويجوز أن يكون اختلاف معطوفا على المجرور بفي ، وآيات توكيد ، وأجاز قوم أن يكون ذلك من باب العطف على عاملين .

قوله تعالى (نتلوها) قد ذكر إعرابه في قوله تعالى " نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين " .

قوله تعالى (يسمع) هو في موضع جر على الصفة أو حال من الضمير في أثيم ، أو مستأنف ، و (تتلى) حال ، و (كأن لم يسمعها) حال أيضا .

قوله تعالى (ولا ما اتخذوا) هو معطوف على ما كسبوا ، وما فيهما بمعنى الذى أو مصدرية ، و (من رجز أليم) قد ذكر في سبأ .

قوله تعالى (جميعا منه) يجوز أن يكون متعلقا بسخر ، وأن يكون نعتا لجميع ، ويقرأ منة بالنصب: أي الامتنان ، أو من به عليكم منة ، ويقرأ منه بالرفع والإضافة على أنه فاعل

سخر ، أو على تقدير ذلك منه .

قوله تعالى (قل للذين آمنوا يغفر) قد ذكر مثله في إبراهيم .

قوله تعالى (ليجزى قوما) بالياء والنون على تسمية الفاعل وهو ظاهر ، ويقرأ على ترك التسمية ونصب قوم وفيه وجهان: أحدهما وهو الجيد أن يكون التقدير: ليجزى الخير قوما على أن الخبر مفعول به في الأصل كقولك: جزاك الله خيرا ، وإقامة المفعول الثاني مقام الفاعل جائزة والثانى أن يكون القائم مقام الفاعل المصدر .

(76/698)

أي ليجزى الجزاء ، وهو بعيد .

قوله تعالى (سواء محياهم ومماتهم) يقرأ سواء بالرفع ، فمحياهم مبتدأ ، ومماتهم معطوف عليه ، وسواء خبر مقدم ، ويقرأ سواء بالنصب وفيه وجهان:

أحدهما هو حال من الضمير في الكاف: أي نجعلهم مثل المؤمنين في هذه الحال .

والثانى أن يكون مفعولا ثانيا لحسب ، والكاف حال ، وقد دخل سواء محياهم ومماتهم على هذا الوجه في الحسبان ، ومحياهم ومماتهم مرفوعان بسواء لأنه بمعنى مستو وقد قرئ باعتماده ، ويقرأ مماتهم بالنصب: أي في محياهم ومماتهم ، والعامل فيه نجعل أو سواء ، وقيل

هما ظرفان ، فأما الضمير المضاف إليه فيرجع إلى القبيلين ، ويجوز أن يرجع إلى الكفار لأن محياهم كمماتهم ، ولهذا سمى الكافر ميتا ، و (على علم) حال ، و (من يهديه) استفهام (من بعد الله) أي من بعد إضلال الله إياه .

قوله تعالى (يومئذ يخسر) هو بدل من يوم الأول .

قوله تعالى (كل أمة) مبتدأ ، و (تدعى) خبره ، وقرئ بالنصب بدلا من كل الأولى ، فتدعى على هذا مفعول ثان أو وصف لكل أو لأمة .

قوله تعالى (ينطق) يجوز أن يكون حالا من الكتاب ، أو خبرا ثانيا .

قوله تعالى (والساعة لاريب فيها) يقرأ بالرفع على الابتداء ، وما بعده الخبر ، وقيل هو معطوف على موضع " إن " وما عملت فيه ، ويقرأ بالنصب عطفا على اسم " إن " .

قوله تعالى (إن نظن إلا) تقديره: إن نحن إلا نظن ظنا ، فإلا مؤخرة لولا هذا التقدير لكان المعنى: مانظن إلا ظنا ، وقيل هي في موضعها لأن نظن قد تكون بمعنى العلم والشك فاستثنى الشك: أي مالنا اعتقاد إلا الشك .

قوله تعالى (في السموات) يجوز أن يكون حالا من الكبرياء ، والعامل فيه الاستقرار ، وأن يكون ظرفا ، والعامل فيه الظرف الأول ، أو الكبرياء لأنها بمعنى العظمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 232 . 233 ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الجاثية

[سورة الجاثية (45) : الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7)

(78/698)

"حم" تقدم إعرابها "تَنْزِيلُ" مبتدأ "الْكِتابِ" مضاف إليه "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن ومتعلقان بالخبر "الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" صفتان للفظ الجلالة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "لَآياتٍ" اللام

لام الابتداء للتوكيد وآيات اسم إن المؤخر "لِلْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بمحذوف صفة آيات والجملة الاسمية مستأنفة "وَفِي خَلْقِكُمْ" الواو حرف عطف وجار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم والمبتدأ المؤخر هو آيات من الآية/ 5/ ومعطوفان على في السموات والأرض "وَما" معطوف على خلقكم "يَبُثُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "مِنْ دابَّةٍ" متعلقان بالفعل "آياتٌ" مبتدأ مؤخر "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة آيات "يُوقِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم "وَاخْتِلافِ" معطوف على خلقكم "اللَّيْلِ" مضاف إليه "وَالنَّهارِ" معطوف على الليل "وَما" معطوف على اختلاف "أَنْزَلَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزل "مِنْ رِزْقٍ" متعلقان بمحذوف حال من من السماء "فَأَحْيا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل "الْأَرْضَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "بَعْدَ" ظرف زمان "مَوْتِها" مضاف إليه "وَتَصْرِيفِ" معطوف على اختلاف "الرِّياحِ" مضاف إليه "آياتٌ" مبتدأ مؤخر "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة آيات "يَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة صفة قوم "تِلْكَ" مبتدأ "آياتُ" خبر والجملة مستأنفة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "نَتْلُوها" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حالية "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "فَبِأَيِّ" الفاء الفصيحة وبأي متعلقان بالفعل بعدهما "حَدِيثٍ" مضاف إليه "بَعْدَ" ظرف زمان "اللَّهِ" لفظ جلالة مضاف إليه "وَ

آياتِهِ" معطوف على اللّه "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَيْلٌ" مبتدأ "لِكُلِّ" جار ومجرور خبر "أَفَّاكٍ" مضاف إليه "أَثِيمٍ" صفة والجملة مستأنفة.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 8 الى 11]

يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (10) هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

"يَسْمَعُ آياتِ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة حال "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل

"ثُمَّ" حرف عطف "يُصِرُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "مُسْتَكْبِراً" حال "كَأَنْ" حرف مشبه بالفعل واسمه ضمير شأن محذوف "لَمْ يَسْمَعْها" مضارع مجزوم بلم ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر كأن والجملة الاسمية حال "فَبَشِّرْهُ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والهاء مفعوله "بِعَذابٍ" متعلقان بالفعل "أَلِيمٍ" صفة والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَ" حرف استئناف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "عَلِمَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْ آياتِنا" متعلقان بالفعل "شَيْئاً" مفعول به "اتَّخَذَها" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "هُزُواً" مفعوله الثاني والجملة جواب شرط غير جازم "أُولئِكَ" مبتدأ "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "مُهِينٌ" صفة عذاب والجملة الاسمية خبر أولئك وجملة أولئك مستأنفة "مِنْ وَرائِهِمْ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "جَهَنَّمُ" مبتدأ مؤخر "وَلا" الواو حالية ولا نافية "يُغْنِي" مضارع مرفوع "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل والجملة حال "كَسَبُوا" ماض وفاعله "شَيْئاً" مفعوله والجملة صلة ما "وَلا مَا اتَّخَذُوا" معطوف على ما كسبوا "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَوْلِياءَ" مفعول به "وَلَهُمْ" الواو حرف عطف وجار ومجرور خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "عَظِيمٌ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "هذا هُدىً" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "وَالَّذِينَ" الواو حرف

عطف ومبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِآياتِ" متعلقان بالفعل "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والجملة الاسمية معطوفة

(81/698)

على ما قبلها "لَهُمْ" خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة خبر الذين "مِنْ رِجْزٍ" متعلقان بعذاب "أَلِيمٌ" صفة.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 12 الى 14]

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (14)

"اللَّهُ الَّذِي" لفظ الجلالة مبتدأ والذي خبره والجملة مستأنفة "سَخَّرَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "الْبَحْرَ" مفعول به والجملة صلة "لِتَجْرِيَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل "الْفُلْكُ" فاعله والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل سخر "فِيهِ" متعلقان بتجري "بِأَمْرِهِ" متعلقان بتجري

"وَلِتَبْتَغُوا" معطوف على لتجري "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بالفعل "وَلَعَلَّكُمْ" الواو حرف عطف ولعل واسمها "تَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعل والجملة الاسمية لعلكم معطوفة على ما قبلها "وَسَخَّرَ" الواو حرف عطف

(82/698)

و ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "ما" مفعول به "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَما فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما في السموات "جَمِيعاً" حال "مِنْهُ" متعلقان بمحذوف حال "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذِلكَ" متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم "لَآياتٍ" اللام لام الابتداء للتوكيد آيات اسم إن المؤخر والجملة الاسمية مستأنفة "لِقَوْمٍ" صفة آيات "يَتَفَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم "قُلْ" أمر فاعله مستتر "لِلَّذِينَ" متعلقان بيغفروا "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "يَغْفِرُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب طلب وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة مقول القول وجملة قل مستأنفة "لِلَّذِينَ" متعلقان بيغفروا "لا" نافية "يَرْجُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "أَيَّامَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لِيَجْزِيَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والمصدر المؤول من

أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل يغفروا "قَوْماً" مفعول به "بِما" متعلقان بيجزي "كانُوا" كان واسمها "يَكْسِبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كان وجملة كانوا صلة ما .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 15 الى 20]

(83/698)

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15) وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (16) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَما اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19)

هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

(84/698)

"مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "عَمِلَ" ماض فاعله مستتر "صالِحاً" صفة مفعول مطلق محذوف "فَلِنَفْسِهِ" الفاء واقعة في جواب الشرط واللام حرف جر واسم مجرور وهما متعلقان بفعل محذوف والجملة الفعلية المقدرة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من "وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها" معطوف على من عمل صالحا والإعراب نفسه "ثُمَّ" حرف عطف "إِلى رَبِّكُمْ" متعلقان بما بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر والمقسم به محذوف واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "آتَيْنا بَنِي" ماض وفاعله ومفعوله المنصوب بالياء "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه "الْكِتابَ" مفعول به ثان والجملة جواب القسم لا محل لها "وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ" معطوفان على الكتاب "وَرَزَقْناهُمْ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "مِنَ الطَّيِّباتِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَفَضَّلْناهُمْ" معطوف على رزقناهم "عَلَى الْعالَمِينَ" متعلقان بالفعل "وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ" الواو حرف عطف وماض

وفاعله ومفعوله الأول وبينات مفعوله الثاني "مِنَ الْأَمْرِ" متعلقان ببينات "فَمَا" الفاء حرف استئناف وما نافية "اخْتَلَفُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِلَّا" حرف حصر "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل "ما" مصدرية "جاءَهُمُ" ماض ومفعوله "الْعِلْمُ" فاعل "بَغْياً" مفعول لأجله "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان والمصدر المؤول من ما وما بعدها في محل جر بالإضافة "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والجملة الاسمية مستأنفة "يَقْضِي" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "فِيما" متعلقان بالفعل "كانُوا" كان واسمها "فِيهِ" متعلقان بما بعدهما والجملة صلة ما "يَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا . "ثُمَّ" حرف عطف "جَعَلْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "عَلى شَرِيعَةٍ" متعلقان بالفعل وهما في موضع المفعول الثاني "مِنَ الْأَمْرِ" متعلقان بصفة من شريعة "فَاتَّبِعْها" الفاء الفصيحة وأمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَلا" الواو حرف عطف ولا ناهية "تَتَّبِعْ" مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر "أَهْواءَ" مفعول به "الَّذِينَ" مضاف إليه "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة وجملة لا تتبع معطوفة على ما قبلها "إِنَّهُمْ" إن واسمها "لَنْ" حرف ناصب "يُغْنُوا" مضارع منصوب والواو فاعله والجملة خبر إن وجملة إن تعليل "عَنْكَ" متعلقان بيغنوا "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بيغنوا أيضا "شَيْئاً" مفعول به "وَإِنَّ" الواو حرف عطف وإن حرف مشبه بالفعل "الظَّالِمِينَ" اسمه "بَعْضُهُمْ" مبتدأ "أَوْلِياءُ" خبره "بَعْضٍ" مضاف

إليه والجملة خبر إن "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "وَلِيُّ" خبره "الْمُتَّقِينَ" مضاف إليه "هذا بَصائِرُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "لِلنَّاسِ" متعلقان بالفعل "وَهُدىً وَرَحْمَةٌ" معطوفة

(86/698)

"لِقَوْمٍ" متعلقان برحمة "يُوقِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 21 الى 23]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (21) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (22) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (23)

"أَمْ"

حرف عطف "حَسِبَ الَّذِينَ"

ماض وفاعله والجملة مستأنفة "اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ"

ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "أَنْ نَجْعَلَهُمْ"

مضارع منصوب بأن والهاء مفعوله وأن وما بعدها في تأويل مصدر سد مسد مفعولي

حسب "كَالَّذِينَ"

الكاف في محل نصب مفعول به ثان لنجعلهم والذين مضاف إليه "آمَنُوا"

ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ"

معطوف على آمنوا "سَواءً"

حال "مَحْياهُمْ"

فاعل لسواء "وَمَماتُهُمْ"

معطوف على محياهم "ساءَ"

ماض جامد للذم فاعله مستتر "ما"

نكرة تامة في محل نصب على التمييز "يَحْكُمُونَ"

مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة ما وجملة ساء مستأنفة "وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ"

الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "وَالْأَرْضَ" معطوف

على السموات "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "وَلِتُجْزى" الواو حرف عطف ومضارع مبني للمجهول منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل "كُلُّ" نائب فاعل "نَفْسٍ" مضاف إليه والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور معطوفان على الحق "بِما" متعلقان بتجزى "كَسَبَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "لا"

نافية "يُظْلَمُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال "أَفَرَأَيْتَ" الهمزة حرف استفهام والفاء زائدة وماض وفاعله "مَنِ" موصولية مفعول به أول والمفعول الثاني محذوف "اتَّخَذَ إِلهَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "هَواهُ" مفعول به ثان والجملة صلة "وَأَضَلَّهُ" الواو حرف عطف وماض ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "عَلى عِلْمٍ" حال والجملة معطوفة على ما قبلها "وَخَتَمَ" ماض معطوف على ما قبله "عَلى سَمْعِهِ" متعلقان بختم "وَقَلْبِهِ" معطوف على ما سبق "وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً" معطوف على جملة الصلة أيضا "فَمَنْ" الفاء استئنافية ومن اسم استفهام مبتدأ "يَهْدِيهِ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر من والجملة الاسمية مستأنفة "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَفَلا" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف استئناف ولا نافية "تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 24 الى 26]

(88/698)

وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (24) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (26)

(89/698)

"وَقالُوا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله والجملة مستأنفة "ما" نافية "هِيَ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "حَياتُنَا" خبر والجملة الاسمية مقول القول "الدُّنْيا" صفة "نَمُوتُ" مضارع فاعله مستتر "وَنَحْيا" معطوف على نموت وجملة نموت حال "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "يُهْلِكُنا" مضارع ومفعوله "إِلَّا" حرف حصر "الدَّهْرُ" فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَما" الواو حالية وما نافية "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "بِذلِكَ" متعلقان بعلم "مِنْ" حرف جر زائد "عِلْمٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر

والجملة حالية "إِنْ" نافية "هُمْ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "يَظُنُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "وَإِذا" الواو حرف استئناف وظرفية شرطية غير جازمة "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "آياتُنا" نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "بَيِّناتٍ" حال "ما" نافية "كانَ" ماض ناقص "حُجَّتَهُمْ" خبره المقدم "إِلَّا" حرف حصر "أَنْ" حرف مصدري ونصب "قالُوا" ماض وفاعله والمصدر المؤول في محل رفع اسم كان المؤخر "ائْتُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول القول "بِآبائِنا" متعلقان بالفعل "أَنْ" حرف شرط جازم "كُنْتُمْ" كان واسمها "صادِقِينَ" خبرها والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها وجملة ما كان جواب شرط غير جازم لإذا لا محل لها "قُلِ" أمر فاعله

(90/698)

مستتر "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يُحْيِيكُمْ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مقول القول وجملة قل مستأنفة "ثُمَّ يُمِيتُكُمْ" معطوفة على ما قبلها "ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ" معطوف على ما قبله "إِلى يَوْمِ" متعلقان بالفعل "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن "رَيْبَ" اسمها "فِيهِ" متعلقان بمحذوف خبر لا والجملة الاسمية

حالية "وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ" الواو حرف استئناف ولكن واسمها والناس مضاف إليه "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لكن والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 27 الى 30]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30)

(91/698)

"وَلِلَّهِ" الواو حرف استئناف وجار ومجرور خبر مقدم "مُلْكُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة مستأنفة "وَيَوْمَ" الواو حرف استئناف وظرف زمان "تَقُومُ السَّاعَةُ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "يَوْمَئِذٍ" بدل من يوم "يَخْسَرُ" مضارع "الْمُبْطِلُونَ" فاعل مرفوع بالواو والجملة في محل جر بالإضافة "وَتَرى" الواو حرف عطف ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "كُلَّ" مفعول به أول "أُمَّةٍ" مضاف إليه "جاثِيَةً" مفعول به ثان "كُلُّ" مبتدأ "أُمَّةٍ"

مضاف إليه "تُدْعى " مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر "إِلى كِتابِهَا" متعلقان بالفعل "الْيَوْمَ" ظرف زمان "تُجْزَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "ما" مفعول به وجملة اليوم تجزون مقول قول محذوف "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة "هذا كِتابُنا" مبتدأ وخبره "يَنْطِقُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حال "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "إِنَّا" إن واسمها "كُنَّا" كان واسمها "نَسْتَنْسِخُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كنا وجملة كنا خبر إن والجملة الاسمية إنا تعليل "ما" مفعول به "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة "فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف وأما أداة شرط وتفصيل "الَّذِينَ" مبتدأ والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "الصَّالِحاتِ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "فَيُدْخِلُهُمْ" الفاء واقعة في جواب أما ومضارع ومفعوله "رَبُّهُمْ" فاعله "فِي رَحْمَتِهِ" متعلقان بالفعل والجملة خبر الذين "ذلِكَ" مبتدأ "هُوَ" ضمير فصل "الْفَوْزُ" خبر "الْمُبِينُ" صفة والجملة

(92/698)

مستأنفة.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 31 الى 33]

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31) وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (33)

(93/698)

"وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا" تقدم إعراب مثيله في الآية السابقة "أَفَلَمْ" الهمزة حرف استفهام وتقرير والفاء حرف عطف على محذوف ولم حرف جزم "تَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم بلم "آياتِي" اسمه "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة خبر تكن "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل وجملة لم تكن معطوفة على جملة محذوفة "فَاسْتَكْبَرْتُمْ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَكُنْتُمْ" الواو حرف عطف وكان واسمها "قَوْماً" خبرها "مُجْرِمِينَ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "وَإِذا" الواو حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "قِيلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "إِنَّ وَعْدَ" إن واسمها "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "حَقٌّ"

خبرها والجملة مقول القول "وَالسَّاعَةُ" الواو حرف عطف والساعة مبتدأ "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن "رَيْبَ" اسمها المبني على الفتح "فِيها" متعلقان بمحذوف خبر لا والجملة خبر الساعة "قُلْتُمْ" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "ما" نافية "نَدْرِي" مضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول "ما" اسم استفهام مبتدأ "السَّاعَةُ" خبره والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي ندري "إِنْ" نافية "نَظُنُّ" مضارع فاعله مستتر "إِلَّا" حرف حصر "ظَنًّا" مفعول مطلق "وَما" الواو حالية وما نافية حجازية تعمل عمل ليس "نَحْنُ" اسمها "بِمُسْتَيْقِنِينَ" الباء حرف جر زائد واسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة حال "وَبَدا" الواو حرف استئناف وماض "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "سَيِّئاتُ" فاعل "ما" مضاف إليه والجملة مستأنفة "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَحاقَ" معطوف على بدا "بِهِمْ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بما بعدهما "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع والواو

فاعله والجملة خبر كانوا .

(94/698)

[سورة الجاثية (45) : الآيات 34 الى 37]

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (34) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

"وَقِيلَ" الواو حرف عطف وماض مبني للمجهول "الْيَوْمَ" ظرف زمان "نَنْساكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول وجملة قيل معطوفة على ما قبلها "كَما" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "نَسِيتُمْ لِقاءَ" ماض وفاعله ومفعوله "يَوْمِكُمْ" مضاف إليه "هذا" صفة يومكم "وَمَأْواكُمُ" الواو حالية ومبتدأ "النَّارُ" خبر والجملة حال "وَما" حرف عطف وما نافية "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "ناصِرِينَ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "ذِلِكُمْ" مبتدأ "بِأَنَّكُمُ" الباء حرف جر وأن واسمها "اتَّخَذْتُمْ" ماض وفاعله "آياتِ" مفعوله الأول "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "هُزُواً" مفعوله الثاني وجملة اتخذتم خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ذلكم وجملة

ذلكم مستأنفة "وَغَرَّتْكُمُ" الواو حرف عطف وماض ومفعوله "الْحَيَاةُ" فاعل مؤخر "الدُّنْيَا" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "فَالْيَوْمَ" الفاء حرف استئناف وظرف زمان "لا" نافية "يُخْرَجُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "مِنْهَا" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "وَلا" حرف عطف ولا نافية "هُمْ" مبتدأ "يُسْتَعْتَبُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "فَلِلَّهِ" الفاء حرف استئناف وجار ومجرور خبر مقدم "الْحَمْدُ" مبتدأ مؤخر "رَبِّ" بدل من لفظ الجلالة "السَّمَاوَاتِ" مضاف إليه "وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" معطوف على ما قبله والإعراب واضح "وَلَهُ" حرف عطف وجار ومجرور خبر مقدم "الْكِبْرِيَاءُ" مبتدأ مؤخر "فِي السَّمَاوَاتِ" متعلقان بمحذوف حال "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبران والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 214. 221﴾

(96/698)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الجاثية

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة أَحَادِيث

1182 - الحَدِيث الأول

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا تسبوا الدَّهْر فَإِن الله هُوَ الدَّهْر)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي قتل الْحَيَّات من حَدِيث ابْن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة وَاللَّفْظ لمُسلم قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا تسبوا الدَّهْر فَأن الله هُوَ الدَّهْر) انْتَهَى وَلَفظ البُخَارِيّ قَالَ قَالَ الله تَعَالَى يُؤْذِينِي ابْن آدم يسب الدَّهْر وَأَنا الدَّهْر بيَدي الْأَمر أقلب اللَّيْل وَالنَّهَار انْتَهَى

1183 - الحَدِيث الثَّانِي فِي الحَدِيث من جثا جَهَنَّم وَالْمُصَنّف احْتج بِهِ عَلَى أَن جثا جمع جثوَة وَهِي الْجَمَاعَة

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كتاب الْأَمْثَال وَالنَّسَائِيّ فِي السّير وَفِي التَّفْسِير فِي آخر سُورَة الْحَج وَاللَّفْظ لَهُ من حَدِيث أبي سَلام أَن الْحَارِث بن الْحَارِث الْأَشْعَرِيّ حَدثهُ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّة فَإِنَّهُ من جثا جَهَنَّم) قَالَ رجل يَا رَسُول الله وَإِن صَلَّى وَصَامَ قَالَ (نعم وَإِن صَلَّى وَصَامَ فَادعوا بدعوة الله الَّتِي سَمَّاكُم بهَا

الْمُسلمين الْمُؤمِنِينَ عباد الله) انْتَهَى وَطوله التِّرْمِذِيّ وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب وَأَبُو سَلام اسْمه مَمْطُور قَالَ مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل والْحَارث الْأَشْعَرِيّ لَهُ صُحْبَة وَله غير هَذَا الْحَدِيث انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السَّادِس وَالْخمسين من الْقسم الأول

ثمَّ قَالَ والْحَارث الْأَشْعَرِيّ هُوَ أَبُو مَالك الْأَشْعَرِيّ من سَاكِني الشَّام انْتَهَى

(97/698)

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي أول الصَّوْم وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجاهُ لأَنَّهُمَا لم يجدا لِلْحَارِثِ الْأَشْعَرِيّ رَاوِيا غير مَمْطُور بن سَلام فَتَركَاهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم

وَرَوَى الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي تَفْسِير سُورَة الْإِسْرَاء من حَدِيث آدم ابْن عَلّي قَالَ سَمِعت ابْن عمر يَقُول سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (إِن النَّاس يصيرون يَوْم الْقِيَامَة جثا كل أمة تتبع نبيها يَقُولُونَ أَي فلَان أشفع لنا حَتَّى تَنْتَهِي الشَّفَاعَة إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَذَلِك يَوْم يَبْعَثهُ الله الْمقَام الْمَحْمُود) انْتَهَى

1184 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ حم الجاثية ستر الله عَوْرَته وَسكن رَوْعَته يَوْم الْحساب)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد ابْن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمَذْكُورين فِي آل عمرَان

وَبِسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 275.276 ﴾

(98/698)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الجاثية

قوله تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ) ، الآية/ 14 .

قال : نسخها قوله تعالى : (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) «1» .

ومن سورة الأحقاف :

قوله تعالى : (ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ) «2» :

فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها :

فأولها : المعقول ، وهو قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ) «3» .

وهو احتجاج بدليل العقل أن الجماد لا يجوز أن يدعى من دون اللّه ، وأنه لا يضر ولا ينفع ، ثم قال : (ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا) .

فيه بيان أدلة السمع .

أو أثارة من علم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 371﴾

---

(1) وقد سبق القول في هذه المسألة في سورة التوبة آية 5 .

(2) سورة الأحقاف آية 4

(3) سورة الأحقاف آية 4

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الجاثية» (45)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ» (9) أي من بين أيديهم . .

«لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ» (14) لا يخافون . .

«عَلى شَرِيعَةٍ» (18) على طريقة وسنة . .

«هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ» (19) مجازها : هذا القرآن بصائر للناس . .

«أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ»

(21) اكتسبوا «أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»

(21) تم الكلام ثم استأنف فقال «سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ»

(21) أي سواء حياة الكافر ومماته هو كافر حياته ومماته والمؤمن مؤمن حياته ومماته . .

«يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ» (25) عاد إلى اليوم أي لا شك فيه فى اليوم . .

«وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً» (28) على الركب «1» ، قال الكميت :

هم تركوا سراتكم جثيّا ومن بعد السراة مغربلينا

---

(1) . - 12 «الركب» رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 441) .

«إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (29) أي نثبت . .

«وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ» (31) أي نترككم «1» نخرجكم من رحمتنا «كَما نَسِيتُمْ» (31) كما تركتم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 210. 211﴾

---

(1) . - 2 «ننساكم نترككم» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 441) .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن حم ومن السورة التي يذكر فيها «الجاثية»

[سورة الجاثية (45) : آية 18]

ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (18)

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها [18] وهذه استعارة .

لأن الشريعة فى أصل اللغة اسم للطريق المفضية إلى الماء المورود . وإنما سمّيت الأديان شرائع لأنها الطرق الموصّلة إلى موارد الثواب ، ومنافع العباد ، تشبيها بشرائع المناهل التي هى مدرجة إلى الماء ، ووصلة إلى الرّواء .

[سورة الجاثية (45) : آية 29]

هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29)

وقوله سبحانه : هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ [29] وهذه استعارة . وقد مضت الإشارة إلى نظيرها فيما تقدم . والمعنى أن الكتاب ناطق من جهة البيان ، كما يكون الناطق من جهة اللّسان . وشهادة الكتاب ببيانه ، أقوى من شهادة الإنسان بلسانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 305 ﴾

(102/698)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الجاثية

فى الحث على دراسة الكون واكتشاف آياته جاء صدر سورة " الجاثية " لافتا الأنظار إلى ملكوت السموات والأرض وما حوى من عجائب تقود إلى الله سبحانه . " حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار " إلخ . وقد مضت نظائر لهذه الآيات فى سورة البقرة وآل عمران وغيرهما . والمراد دعم البناء العقلى للإيمان ، وإقامته على الفكر السوى والبصر الذكى ! فهل تكفى هذه الدراسة النظرية لإسعاد الإنسان ؟ لا . إنها جانب واحد . والجانب الآخر استغلال الكون نفسه لمصلحة الإنسان ، فلهذا خلق . " الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " . والهيمنة على قوانين الكون كما تنفع الإنسان فى الحياة الدنيا ماديا ، فهى تقدره على إعزاز عقائده والدفاع عنها . وما تأخر المسلمون وذلوا أمام أعدائهم إلا لتخلفهم فى هذا الميدان ! " تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون " . القرآن يقود النفوس بهداياته ، والكون يدل على الله بآياته ، فلماذا يزيغ امرؤ بعد ذلك أو تضل شعوب ؟ " ويل لكل أفاك أثيم " . ومع هذا التوجيه المزدوج ، فإن الله رحمة منه بعباده أبى تعجيل العقوبة للتائهين ! ووسع لهم الفرصة كى يهتدوا فنصح المسلمين أن يتريثوا فى عرض الدعوة وأن تخص وطأتهم على الكافرين : " قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا

يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون * من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون " .

(103/698)

وإلى جانب العلوم العقلية والكونية توجد علوم نقلية شرعية . والمهم فى هذين الصنفين من العلوم أن تقود البشر إلى سبيل الرشاد . ولكن الذى حدث أن جماهير من دارسى العلوم الكونية لم يحسنوا الإفادة منها ، فغزوا الفضاء وبقوا كافرين بالله ! ورأوا الأجنة تتخلق فى البطون ، وبدل أن يعترفوا بالخالق قالوا إن الفاعل مجهول ! وهذا الإلحاد صبغة عامة فى الحضارة الحديثة ، تشمل غرب أوروبا وشرقها ، ويمتد دخانها إلى بقية القارات . ولهذا العوج العلمى نظير بين حملة العلوم الدينية ، فقد تحولت موروثاتهم إلى دراسات شكلية لا تهذب نفسا ولا تصقل فكرا . إنهم معها كالدواب التى تحمل صناديق الكتب ولا صلة لها بما حوت ! ونصف فساد العالم يرجع إلى قصور رجال الدين وتبلدهم النفسى ! ولعل علماء بنى إسرائيل أول من أبطل نظرية سقراط (أن الفضيلة هى المعرفة) ، فإنهم لبسوا أردية العلم على أجسام لوثها الهوى " ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا

إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . . . " . إن العلم الدينى إذا لم يورث الصدق والإنصاف فلا خير فيه ولا قيمة له . ويوجد الآن علماء دينيون وعلماء كونيون ماتت ضمائرهم ، وكان فى مقدورهم أن يسدوا للإنسانية الخير الجزيل . . ! " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله . . . ! . والذكاء فى فهم الدنيا مع الغباء فى فهم الآخرة يحول الإنسان إلى عبد لشهواته ، ويربطه بهذه الحياة وحدها ، ويصرفه عن الاستعداد لما بعدها ، بل يجعله من المنكرين الجاحدين " وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون " . ولذلك جاء ختام هذه السورة تهديدا بالبعث والحساب ووصفا لمواقف الناس أمام ربهم وهو يسائلهم عما قدموا . . " ولله ملك السماوات

(104/698)

والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون * وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون " .

والمتأمل فى حضارة هذا الزمان يرى التقدم العلمى رفه حياة البشر ، ويسر لهم الملذات وعلقهم بالفترة القليلة التى يقضونها هنا ، وأذهلهم عن الخلود الطويل الذى ينتظرهم هناك . ثم إن أهل الكتاب عجزوا عن العودة بالناس إلى الله ، وانضموا إلى أعدائه فى ضرب الإسلام ومنع تقدمه ، فكانت النتيجة إطباق الفوضى على آفاق الأرض كلها ، وزوال شرائع الله فى سياسة عباده . فلا عجب إذا وجهوا يوم القيامة بهذا الخطاب " وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين " . إن العابدين للدنيا قد يربحون قليلا فى العاجلة ، فهل ضروا الله شيئا ؟ إنهم الخاسرون أولا وآخرا . " فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم " . إن آخر السورة طابق أولها فى تمجيد الله وتوكيد اسمين من أسمائه الحسنى وهما العزيز والحكيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 387 . 389 ﴾

(105/698)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والتسعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والتسعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الجاثية

وحتى الآية ﴿ 26 ﴾ من نفس السورة

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/699)

قوله تعالى ﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي تفرد بتمام العز والكبرياء (الرحمن) الذي أحكم رحمته البيان العام للسعداء والأشقياء (الرحيم) الذي خص بملابس طاعته الأولياء) .

(6/699)

﴿ حم ﴾ أي حكمة محمد إليها المنتهى كما تقدم في الدخان ما أفهم إنزاله من أم الكتاب جملة إلى بيت العزة ، ودل على بركته مما دل على حكمة منزله وعزته بالبشارة والنذارة والإيقاع بالمجرمين بعد طول الحلم والأناة والنجاة للمتقين وغير ذلك من أمور هي في غاية الدلالة على ذلك لأنها راجعة إلى الحسن لمن ألقى السمع ، وهو شهيد ، وأشار إلى سهولتها على من تأمل هذا الذكر المترجم بلسان أعلى الخلق وأكملهم وأشرفهم خلائق وأفضلهم ، ابتدأ هذه بالإعلام بأنه زاد ذلك يسراً وسهولة بإنزاله منجماً بحسب الوقائع مطابقاً لها أتم مطابقة بعد إنزاله جملة من أم الكتاب ثم مرتباً لما أنزل منه ترتيباً يفهم علوماً ويوضح أسراراً غامضة مهمة فقال : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي إنزال الجامع لكل خير مفرقاً لزيادة التسهيل في التفهيم والإبلاغ في اليسر في التعليم وغير ذلك من الفضل العميم وزاده عظماً بقوله : ﴿ من الله ﴾ أي كائن من المحيط بصفات الكمال .

ولما كان – كما مضى – للعزة والحكمة أعظم بركة هنا قال : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فكان كتابه عزيزاً حكيماً لا كما تقول الكفرة من أنه شعر أو كذب أو كهانة لأنه لا حكمة لذلك ولا عزة بحيث يلتبس أمره بأمره هذا الكتاب المحيط بدائرة الحكمة والصواب ، ودل بشواهد القدرة وآثار الصنعة من نسخة هذا الكتاب على الصفتين وعلى وحدانيته فيهما اللازم

منه تفرده المطلق فقال مؤكداً لأجل من ينكر ذلك ولو بالعمل ، وترغيباً في تدقيق النظر بتأمل آيات الوجود التي هذا الكتاب شرح لمغلقها وتفصيل لمجملها .

(7/699)

وإيماء إلى أنها أهل لصرف الأفكار إلى تأملها ﴿ إن في ﴾ ولما كانت الحواميم - كما روى أبو عبيدة في كتاب الفضائل عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لباب القرآن ، حذف ما ذكر في البقرة من قوله " خلق " ليكون ما هنا أشمل فقال : ﴿ السماوات ﴾ أي ذواتها بما لها من الدلالة على صانعها وخلقها على ما فيها من العبر بما فيها من المنافع وعظيم الصنعة ما لها من الشفوف الدال على تعددها بما فيها من الكواكب ﴿ والأرض ﴾ كذلك وبما حوت من المعادن والمعايش والمنابع والمعاون ﴿ لآيات ﴾ أي دلائل على وحدانيته وجميع كماله ، فإن من المعلوم أنه لا بد لكل من ذلك من صانع متصف بذلك ﴿ للمؤمنين ﴾ أي لأنهم برسوخهم في هذا الوصف الشريف أهل للنظر لأن ربهم يهديهم بإيمانهم فشواهد الربوبية لهم منهما لائحة ، وأدلة الإلهية فيهما واضحة ، ولعله أشار بالتعبير بالوصف إلى أنه لا بد في رد شبه أهل الطبائع من تقدم الإيمان ، وأن من لم يكن راسخ الإيمان لم يخلص من شكوكهم .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمنت السورة المتقدمة إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه وأنه شاف كاف وهدى ونور ، كان أمر من كفر من العرب أعظم شيء لانقطاعهم عجزهم وقيام الحجة به عليهم حتى رضوا بالقتل والخزي العاجل وما قاموا بادعاء معارضته ولا تشوفوا إلى الإسناد إلى عظيم تلك المعارضة ، أتبع ذلك تعالى تنبيهاً لنبيه والمؤمنين إلى ما قد نصبه من الدلائل سواه مما صد المعرض عن الاعتبار بها أو ببعضها مجرد هواه ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، فقال تعالى بعد القسم بالكتاب المبين ﴿ إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ أي لو لم تجئهم يا محمد بعظيم آية الكتاب فقد كان لهم فيما نصبنا من الأدلة أعظم برهان وأعظم تبيان ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ [الروم : 8] فلما نبه بخلق السماوات والأرض ، أتبع بذكر ما بث في الأرض فقال ﴿ وفي خلقكم وما بث فيهما من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الّيل والنهار ﴾ أي في دخول أحدهما على الآخر بألطف اتصال وأربط انفصال ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾ ثم نبه على الاعتبار بإنزال الماء من السماء وسماه رزقاً بحط القياس فقال ﴿ وما

أنزل الله من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ ثم قال ﴿ وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾ الاستدلال بهذه الآي يستدعي بسطاً يطول ، ثم قال ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ أي علاماته ودلائله ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ ثم قال ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ أبعد ما شاهدوه من شاهد الكتاب وما تضمنه خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهن من عجائب الدلائل الواضحة لأولي الألباب ، فإذا لم يعتبروا بشيء من ذلك فبماذا يعتبر ، ثم أردف تعالى بقريعهم وتوبيخهم في تصميمهم مع وضوح الأمر فقال ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ الآيات الثلاث ، ثم قال ﴿ هذا هدى ﴾ وأشار إلى الكتاب وجعله نفس

(9/699)

الهدى لتحمله كل أسباب الهدى وجميع جهاته ، ثم توعد من كفر به ثم أردف ذلك بذكر نعمه وآلائه ليكون ذلك زائداً في توبيخهم ، والتحمت الآي عاضدة هذا الغرض تقريعاً وتوبيخاً ووعيداً وتهديداً إلى آخر السورة - انتهى .

ولما ذكر سبحانه بالنظر في آيات الآفاق ، أتبعها آيات الأنفس فقال : ﴿ وفي خلقكم ﴾ أي المخالف لخلق الأرض التي أنتم منها بالاختيار والعقل والانتشار والقدرة على السار

والضار ﴿ وما يبث ﴾ أي ينشر ويفرق بالحركة الاختيارية بثاً على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ من دآبة ﴾ مما تعلمون ومما لا تعلمون بما في ذلك من مشاركتكم في الحركة بالاختيار والهداية للمنافع بإدراك الجزئيات ومخالفتكم في الصورة والعقل وإدراك الكليات وغير ذلك من مخالفة الأشكال والمنافع والطبائع ونحوها ﴿ آيات ﴾ أي على صفات الكمال ولا سيما العزة والحكمة ، وهي على قراءة حمزة والكسائي ويعقوب بالنصب هنا ، وفي الذي بعده عطف الآيتين على حيز إن في الآية الأولى من الاسم والخبر ، فلهذه الآية نظر إلى التأكيد ، وهو على قراءة الجماعة مبتدأ بالعطف على " إن " وما في حيزها ، وهي أبلغ لأنها تشير إلى أن ما في تصوير الحيوان وجميع شأنه من عجيب الصنع ظاهر الدلالة على الله فهو بحيث لا ينكره أحد ، فهو غني عن التأكيد ، ويجوز أن تكون الآية على قراءة النصب من الاحتباك : حذف أولاً الخلق بما دل عليه ثانياً ، وثانياً ذوات الأنفس بما دل عليه من ذوات السماوات أولاً .

(10/699)

ولما كانت آيات الأنفس أدق وأدل على القدرة والاختيار بما لها من التجدد والاختلاف ، قال : ﴿ لقوم ﴾ أي فيهم أهلية القيام بما يحاولونه ﴿ يوقنون ﴾ أي يتجدد لهم العروج في

درجات الإيمان إلى أن يصلوا إلى شرف الإيقان ، فلا يخالطهم شك في وحدانيته ؛ قال الحرالي في تفسير ﴿ أو كالذي مر على قرية ﴾ : آية النفس منبهة على آية الحس ، وآية الحس منبهة على آية النفس ، إلا أن آية النفس أعلق ، فهي لذلك أهدى ، غاية آية الآفاق الإيمان ، وغاية آية النفس اليقين .

ولما ذكر الظرف وما خلق لأجله من الناس ، ضم إليهم بعض ما خلقه لأجلهم لشرفه بالحياة ، أتبعه ما أودع الظرف من المرافق لأجل الحيوان فقال : ﴿ واختلاف الّيل والنهار ﴾ بذهاب أحدهما ووجود الآخر بعد ذهابه على التعاقب آية متكررة للدلالة على القدرة على الإيجاد بعد الإعدام بالبعث وغيره ، وجر " اختلاف " بتقدير " في " فينوب حرف العطف مناب عامل واحد للابتداء عند من رفع " آيات " ، ومناب " إن " عند من نصب ، فلم يلزم نيابته مناب عاملين مختلفين في الابتداء في الرفع وفي " إن " في النصب .

ولما كان المطر أدل مما مضى على البعث والعزة ، لأن الشيء كلما قل الإلف له كان أمكن للتأمل فيه ، أولاه إياه فقال : ﴿ وما أنزل الله ﴾ أي الذي تمت عظمته فنفذت كلمته .

ولما كان الإنزال قد يستعمل فيما اتى من علو معنوي وإن لم يكن حسياً ، بين أن المراد هنا الأمران فقال : ﴿ من السماء ﴾ .

ولما كانت منافع السماء غير منحصرة في الماء قال : ﴿ من رزق ﴾ أي مطر وغيره من الأسباب المهيئة لإخراج الرزق ﴿ فأحيا به ﴾ أي بسببه وتعقبه ﴿ الأرض ﴾ أي

الصالحة للحياة ، ولذلك قال : ﴿ بعد موتها ﴾ أي يبسها وتهشم ما كان فيها من النبات وانقلابه بالاختلاط بترابها تراباً ، فإذا نزل عليها الماء جمعه منها فأخرجه على ما كان عليه كلما تجدد نزوله ، ولذلك لم يأت بالجار إشارة إلى دوام الحياة بالقوة إن لم يكن بالفعل .

(11/699)

ولما ذكر ما يشمل الماء ، ذكر سبب السحاب الذي يحمله فقال : ﴿ وتصريف الرياح ﴾ في كل جهة من جهات الكون وفي كل معنى من رحمة وعذاب وغير ذلك من الأسباب ، ولم يذكر الفلك والسحاب كما في البقرة لاقتضاء اللبابية المسماة بها الحواميم ، ذلك لأنهما من جملة منافع التصريف ، وتوحيد حمزة والكسائي أبلغ لأن تصريف الشيء الواحد في الوجوه الكثيرة أعجب ﴿ آيات ﴾ قراءة الرفع أبلغ لإشارتها بعدم الحاجة إلى التأكيد إلى أن ما في الآية ظاهر الدلالة على القدرة والاختيار للصانع بما في التصريف من الاختلاف ، والماء بما يحدث عنه من الإنبات أوضح دلالة من بقيتها على البعث ، ولأجل شدة ظهورها ناط الأمر فيها بالعقل فقال : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ وقال القالي : والمعنى أن المنصفين لما نظروا في السماوات والأرض وأنه لا بد لهما من صانع آمنوا ، فإذا نظروا في خلق أنفسهم ونحوها ازدادوا إيماناً فأيقنوا ، فإذا نظروا في سائر الحوادث عقلوا واستحكم علمهم .

ولما ذكر هذه الآيات العظيمات ، وكانت كلها مشتركة في العظم ، بعد ما أشار إلى تباين رتبها في الخفاء والجلاء بفواصلها ، قال مشيراً إلى علو رتبها بأداة البعد : ﴿ تلك ﴾ أي الآيات الكبرى ﴿ آيات الله ﴾ أي دلائل المحيط بصفات الكمال التي لا شيء أجلى ولا أظهر ولا أوضح منها .

(12/699)

ولما كان كأنه قيل : ما لها ؟ قال ، أو يكون المراد : نشير إليها حال كوننا ﴿ نتلوها ﴾ أي نتابع قصها ﴿ عليك ﴾ سواء كانت مرئية أو مسموعة ، متلبسة ﴿ بالحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي لا يستطاع تحويله فليس بسحر ولا كذب ، فتسبب عن ذلك حينئذ الإنكار عليهم وعلى من يطلب إجابتهم إلى المقترحات طمعاً في إيمانهم في قوله تعالى : ﴿ فبأي حديث ﴾ أي خبر عظيم صادق يتجدد علمهم به يستحق أن يتحدث به ، واستغرق كل حديث فقال : ﴿ بعد الله ﴾ أي الحديث الأعظم عن الملك الأعلى ﴿ وآياته ﴾ أي والحديث عن دلالاته العظيمة ﴿ يؤمنون ﴾ من خاطب - وهم الجمهور - ردوه على قوله " وفي خلقكم " وهو أقوى تبكيتاً ، وغيرهم وهم أبو عمرو وحفص عن عاصم وروح عن

يعقوب رأوا أن ذلك الخطاب صرف إلى خطاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 88 ـ 92 ﴾

(13/699)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وفي خلقكم ﴾ مدغماً : عباس . ﴿ آيات ﴾ بالنصب في الموضعين : حمزة وعلي ويعقوب ﴿ الريح ﴾ على التوحيد : حمزة وعلي وخلف ﴿ يؤمنون ﴾ على الغيبة : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وسهل وحفص ﴿ أليم ﴾ مذكور في " سبأ " ﴿ لنجزي ﴾ بالنون : ابن عامر وحمزة وعلي وخلف ﴿ ليجزي ﴾ بالياء مبنياً للمفعول ﴿ قوم ﴾ بالرفع : يزيد . الباقون : مبنياً للفاعل ﴿ قوماً ﴾ سواء بالنصب : حمزة وعلي وخلف وحفص وروح وزيد ﴿ غشوة ﴾ بفتح الغين وسكون الشين من غير ألف : حمزة وعلي وخلف 3 ﴿ كل أمة تدعي ﴾ بالنصب على الإبدال من الأول : يعقوب ﴿ الساعة ﴾ بالنصب : حمزة ﴿ لا يخرجون ﴾ من الخروج حمزة وعلي وخلف .

(14/699)

الوقوف : ﴿ حم ﴾ كوفي ه ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ للمؤمنين ﴾ ه ط ومن نصب ، ﴿ آيات ﴾ لم يقف لأنها عطف المفردين على المفردين وهما الخبر واسم أن المفردين ﴿ يوقنون ﴾ ه لا للعطف على ﴿ عاملين ﴾ كما يجيء ﴿ يعقلون ﴾ ه ﴿ بالحق ﴾ ج للاستفهام مع الفاء ﴿ يؤمنون ﴾ ه ﴿ أثيم ﴾ ه ﴿ يسمعها ﴾ ج لانقطاع النظم مع فاء التعقيب ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ هزواً ﴾ ط ﴿ مهين ﴾ ه ط لأنه لو وصل اشتبه بأنها وصف ﴿ عذاب جهنم ﴾ ج لعطف المختلفين ﴿ أولياء ﴾ ج لذلك ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ هدى ﴾ ط لأن ما بعده مبتدأ مع العاطف ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ تشكرون ﴾ ه ج للآية مع العطف ﴿ منه ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ ج ﴿ يكسبون ﴾ ه ﴿ فلنفسه ﴾ ج ﴿ فعليها ﴾ ز لأن "ثم" لترتيب الأخبار مع اتحاد القصة ﴿ ترجعون ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه ج للآية والعطف ﴿ من الأمر ﴾ ج لعطف المختلفتين ﴿ بينهم ﴾ ط ﴿ يختلفون ﴾ ه ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ شيئاً ﴾ ج ﴿ بعض ﴾ ج للتمييز بين الحالين المختلفين مع اتفاق الجملتين ﴿ المتقين ﴾ ه ﴿ يوقنون ﴾ ه ﴿ الصالحات ﴾ قف ومن نصب ﴿ سواء ﴾ لم يقف . ﴿ ومماتهم ﴾ ط ﴿ يحكمون ﴾ ه ﴿ لا يظلمون ﴾ ه ﴿ غشاوة ﴾ ط ﴿ من بعد الله ﴾ ط ﴿ تذكرون ﴾ ه ﴿ الدهر ﴾ ج لاحتمال الواو الحال ﴿ من علم ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتصال المعنى ﴿ يظنون ﴾ ه ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ط

﴿ المبطلون ﴾ ه ﴿ جاثية ﴾ قف لمن قرأ ﴿ كل ﴾ بالرفع ﴿ كتابها ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ بالحق ﴾ ه ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ في رحمته ﴾ ط ﴿ المبين ﴾ ه ﴿ مجرمين ﴾ ه ﴿ ما الساعة ﴾ لا تحرزاً عن الابتداء بقول الكفار ﴿ بمستيقنين ﴾ ه ﴿ يستهزؤون ﴾ ه ﴿ ناصرين ﴾ ه ﴿ الدنيا ﴾ ج للعدول عن الخطاب إلى الغيبة ﴿ يستعتبون ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ص لعطف الجملتين المتفقتين ﴿ الحكيم ﴾ ه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 109. 110 ﴾

(15/699)

فصل

قال الفخر:

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى:

اعلم أن قوله ﴿ حم، تنزيل الكتاب ﴾ وجوهاً الأول: أن يكون ﴿ حم ﴾ مبتدأ و ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ خبره وعلى هذا التقدير فلا بد من حذف مضاف، والتقدير تنزيل

حم ، تنزيل الكتاب ، و ﴿ مِنَ الله ﴾ صلة للتنزيل الثاني : أن يكون قوله ﴿ حم ﴾ في تقدير : هذه حم ثم نقول ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ واقع من الله العزيز الحكيم الثالث : أن يكون ﴿ حم ﴾ قسماً و ﴿ تنْزِيل الكتاب ﴾ نعتاً له ، وجواب القسم ﴿ إِنَّ فِي السموات ﴾ والتقدير : وحم الذي هو تنزيل الكتاب أن الأمر كذا وكذا .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ يجوز جعلهما صفة للكتاب ، ويجوز جعلهما صفة لله تعالى ، إلا أن هذا الثاني أولى ، ويدل عليه وجوه الأول : أنا إذا جعلناهما صفة لله تعالى كان ذلك حقيقة ، وإذا جعلناهما صفة للكتاب كان ذلك مجازاً والحقيقة أولى من المجاز الثاني : أن زيادة القرب توجب الرجحان الثالث : أنا إذا جعلنا العزيز الحكيم صفة لله كان ذلك إشارة إلى الدليل الدال على أن القرآن حق ، لأن كونه عزيزاً يدل على كونه قادراً على كل الممكنات وكونه حكيماً يدل على كونه عالماً بجميع المعلومات غنياً عن كل الحاجات ، ويحصل لنا من مجموع كونه تعالى : عزيزاً حكيماً كونه قادراً على جميع الممكنات ، عالماً بجميع المعلومات ، غنياً عن كل الحاجات ، وكل ما كان كذلك امتنع منه صدور العبث والباطل ، وإذا كان كذلك كان ظهور المعجز دليلاً على الصدق ، فثبت أنا إذا جعلنا كونه عزيزاً حكيماً صفتين لله تعالى يحصل منه هذه الفائدة ، وأما إذا جعلناهما صفتين للكتاب

لم يحصل منه هذه الفائدة ، فكان الأول أولى ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السموات والأرض لآيات لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفيه مباحث :

(16/699)

البحث الأول : أن قوله ﴿ إِنَّ فِى * السموات والأرض لآيَاتٍ ﴾ يجوز إجراؤه على ظاهره ، لأنه حصل في ذوات السموات والأرض أحوال دالة على وجود الله تعالى مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها ، وأيضاً الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار موجودة في السموات والأرض وهي آيات ، ويجوز أن يكون المعنى : إن في خلق السموات والأرض كما صرّح به في سورة البقرة في قوله ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السموات والأرض ﴾ [البقرة : 164] وهو يدل على وجود القادر المختار في تفسير قوله ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 1] .

(17/699)

البحث الثاني : قد ذكرنا الوجوه الكثيرة في دلالة السموات والأرض على وجود الإله القادر المختار في تفسير قوله ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ ولا بأس بإعادة بعضها فنقول إنها تدل على وجود الإله من وجوه : الأول : أنها أجسام لا تخلو عن الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث فهذه الأجسام حادثة وكل حادث فله محدث الثاني : أنها مركبة من الأجزاء وتلك الأجزاء متماثلة ، لما بينا أن الأجسام متماثلة ، وتلك الأجزاء وقع بعضها في العمق دون السطح وبعضها في السطح دون العمق فيكون وقوع كل جزء في الموضع الذي وقع فيه من الجائزات وكل جائز فلا بد له من مرجح ومخصص الثالث : أن الأفلاك والعناصر مع تماثلها في تمام الماهية الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية ، فيكون ذلك أمراً جائزاً ولا بد لها من مرجح الرابع : أن أجرام الكواكب مختلفة في الألوان مثل كمودة زحل ، وبياض المشتري ، وحمرة المريخ ، والضوء الباهر للشمس ، ودرية الزهرة ، وصفرة عطارد ، ومحو القمر ، وأيضاً فبعضها سعيدة ، وبعضها نحسة ، وبعضها نهاري ذكر ، وبعضها ليلي أنثى ، وقد بينا أن الأجسام في ذواتها متماثلة ، فوجب أن يكون اختلاف الصفات لأجل أن الإله القادر المختار خصص كل واحد منها بصفته المعينة الخامس : أن كل فلك فإنه مختص بالحركة إلى جهة معينة ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء ، وكل ذلك أيضاً من

الجائزات ، فلا بد من الفاعل المختار السادس : أن كل فلك مختص بشيء معين وكل ذلك أيضاً من الجائزات ، فلا بد من الفاعل المختار ، وتمام الوجوه مذكور في تفسير تلك الآيات .

(18/699)

البحث الثالث : قوله ﴿ لآيات لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقتضي كون هذه الآيات مختصة بالمؤمنين ، وقالت المعتزلة إنها آيات للمؤمن والكافر ، إلا أنه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات إلى المؤمنين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] فإنه هدىً لكل الناس كما قال تعالى : ﴿ هُدىً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 185] إلا أنه لما انتفع بها المؤمن خاصة لا جرم قيل ﴿ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فكذا ههنا ، وقال الأصحاب الدليل والآية هو الذي يترتب على معرفته حصول العلم ، وذلك العلم إنما يحصل بخلق الله تعالى لا بإيجاب ذلك الدليل ، والله تعالى إنما خلق ذلك العلم للمؤمن لا للكافر فكان ذلك آية دليلاً في حق المؤمن لا في حق الكافر والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءايات لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قال صاحب "الكشاف" : قوله ﴿ وَمَا يَبُثُّ ﴾ عطف على الخلق المضاف لا على الضمير المضاف إليه ، لأن المضاف ضمير متصل مجرور والعطف عليه

مستقبح ، فلا يقال مررت بك وزيد ، ولهذا طعنوا في قراءة حمزة ﴿ تَسَاءلُونَ بِهِ والأرحام ﴾ [النساء : 1] بالجر في قوله ﴿ والأرحام ﴾ وكذلك إن الذين استقبحوا هذا العطف ، فلا يقولون مررت بك أنت وزيد .

البحث الثاني : قرأ حمزة والكسائي ﴿ ءايات ﴾ بكسر التاء وكذلك الذي بعده ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح ءايات ﴾ والباقون بالرفع فيهما ، أما الرفع فمن وجهين ذكرهما المبرد والزجاج وأبو علي : أحدهما : العطف على موضع إن وما عملت فيه ، لأن موضعهما رفع بالابتداء فيحمل الرفع فيه على الموضع ، كما تقول إن زيداً منطلق وعمر ، و

﴿ أَنَّ الله بَرِىء مّنَ المشركين وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : 3] لأن معنى قوله ﴿ أَنَّ الله بَرِىء ﴾ أن يقول الله برىء من المشركين ورسوله ، والوجه الثاني : أن يكون قوله ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ مستأنفاً ، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة أخرى كما تقول إن زيداً منطلق وعمرو كاتب ، جعلت قولك وعمرو كاتب كلاماً آخر ، كما تقول زيد في الدار وأخرج غداً إلى بلد كذا ، فإنما حدثت بحديثين ووصلت أحدهما بالآخر بالواو ، وهذا الوجه هو اختيار أبي الحسن والفراء ، وأما وجه القراءة بالنصب فهو بالعطف على قوله ﴿ إِنَّ فِي السموات ﴾

على معنى وإن في خلقكم لآيات ويقولون هذه القراءة إنها في قراءة أُبي وعبد الله ﴿ لآياتٍ ﴾ ودخول اللام يدل على أن الكلام محمول على إن .

البحث الثالث : قوله ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ معناه خلق الإنسان ، وقوله ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ إشارة إلى خلق سائر الحيوانات ، ووجه دلالتها على وجود الإله القادر المختار أن الأجسام متساوية فاختصاص كل واحد من الأعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين ، لا بد وأن يكون بتخصيص القادر المختار ، ويدخل في هذا الباب انتقاله من سن إلى سن آخر ومن حال إلى حال آخر ، والاستقصاء في هذا الباب قد تقدم .

ثم قال تعالى : ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ وهذا الاختلاف يقع على وجوه : أحدها : تبدل النهار بالليل وبالضد منه وثانيها : أنه تارة يزداد طول النهار على طول الليل وتارة بالعكس وبمقدار ما يزداد في النهار الصيفي يزداد في الليل الشتوي وثالثها : اختلاف مطالع الشمس في أيام السنة .

(20/699)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السماء مِّن رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وهو يدل على القول بالفاعل المختار من وجوه أحدها : إنشاء السحاب وإنزال المطر منه وثانيها :

تولد النبات من تلك الحبة الواقعة في الأرض وثالثها : تولد الأنواع المختلفة وهي ساق الشجرة وأغصانها وأوراقها وثمارها ثم تلك الثمرة منها ما يكون القشر محيطاً باللب كالجوز واللوز ، ومنها ما يكون اللب محيطاً بالقشر كالمشمش والخوخ ، ومنها ما يكون خالياً من القشر كالتين ، فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها وتباين أقسامها يدل على صحة القول بالفاعل المختار الحكيم الرحيم .

ثم قال : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح ﴾ وهي تنقسم إلى إقسام كثيرة بحسب تقسيمات مختلفة فمنها المشرقية والمغربية والشمالية والجنوبية ، ومنها الحارة والباردة ومنها الرياح النافعة والرياح الضارة ، ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الكثيرة من الدلائل قال إنها آيات لقوم يعقلون .

واعلم أن الله تعالى جمع هذه الدلائل في سورة البقرة فقال : ﴿ إن في خلق السموات والأَرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾

(21/699)

[البقرة : 164] فذكر الله تعالى هذه الأقسام الثمانية من الدلائل والتفاوت بين الموضعين من وجوه الأول : أنه تعالى قال في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السموات والأرض ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِنَّ فِي السموات ﴾ والصحيح عند أصحابنا أن الخلق عين المخلوق ، وقد ذكر لفظ الخلق في سورة البقرة ولم يذكره في هذه السورة تنبيهاً على أنه لا يتفاوت بين أن يقال السموات وبين أن يقال خلق السموات فيكون هذا دليلاً على أن الخلق عين المخلوق الثاني : أنه ذكر هناك ثمانية أنواع من الدلائل وذكر ههنا ستة أنواع وأهمل منها الفلك والسحاب ، والسبب أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة فذكر الرياح الذي هو كالسبب يغني عن ذكرهما والتفاوت الثالث : أنه جمع الكل وذكر لها مقطعاً واحداً وههنا رتبها على ثلاثة مقاطع والغرض التنبيه على أنه لا بد من إفراد كل واحد منها بنظر تام شاف الرابع : أنه تعالى ذكر في هذا الموضوع ثلاثة مقاطع أولها : يؤمنون وثانيها : يوقنون وثالثها : يعقلون ، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل ، واعلم أن كثيراً من الفقهاء يقولون إنه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون ، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه ، وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام وفيه سور كثيرة خصوصاً المكيات ليس فيها

إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوّة والبعث والقيامة وكل ذلك من علوم الأصوليين ، ومن تأمل علم أنه ليس في يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الإجمال .

(22/699)

ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ آيات الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق ﴾ والمراد من قوله ﴿ بالحق ﴾ هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية وذلك لأن العلم بأنها حقة صحيحة إما أن يكون مستفاداً من النقل أو العقل والأول باطل لأن صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم بإثبات الإله العالم القادر الحكيم وبإثبات النبوّة وكيفية دلالة المعجزات على صحتها ، فلو أثبتنا هذه الأصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل ، وإذا كان كذلك كان قوله ﴿ تِلْكَ ءايات الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق ﴾ ومن أعظم الدلائل على الترغيب في علم الأصول وتقرير المباحث العقلية .

ثم قال تعالى : ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ يعني أن من ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف وبين أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله ، وقوله ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قرىء بالياء والتاء ، واختار أبو

عبيدة الياء لأن قبله غيبة وهو قوله ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ و ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فإن قيل إن في أول الكلام خطاباً وهو قوله ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ قلنا الغيبة التي ذكرنا أقرب إلى الحرف المختلف فيه والأقرب أولى ، ووجه قول من قرأ على الخطاب أن قل فيه مقدر أي قل لهم فبأي حديث بعد ذلك تؤمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 220 . 224 ﴾

(23/699)

وقال ابن عطية :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور . و: ﴿ تنزيل ﴾ رفع بالابتداء أو على خبر ابتداء مضمر . و: ﴿ العزيز ﴾ معناه عام في شدة أخذه إذا انتقم ، ودفاعه إذا حمي ونصر وغير ذلك . و: ﴿ الحكيم ﴾ المحكم للأشياء .

وذكر تبارك الآيات التي في السماوات والأرض مجملة غير مفصلة ، فكأنها إحالة على غوامض تثيرها الفكر ، ويخبر بكثير منها الشرع ، فلذلك جعلها للمؤمنين ، إذ في ضمن الإيمان العقل والتصديق . ثم ذكر تعالى خلق البشر والحيوان ، وكأنه أغمض مما أحال عليه

أولاً وأكثر تلخيصاً ، فجعله للموقنين الذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين في معتقداتهم . ثم ذكر تعالى اختلاف الليل والنهار والعبرة بالمطر والرياح ، فجعل ذلك ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ، إذ كل عاقل يحصل هذه ويفهم قدرها ، وإن كان هذا النظر ليس بلازم ولا بد فإن اللفظ يعطيه .

و: ﴿ يبث ﴾ معناه : ينشر في الأرض . والدابة : كل حيوان يدب ، أو يمكن فيه أن يدب ، يدخل في ذلك الطير والحوت ، وشاهد الطير قول الشاعر : [الطويل]

صواعقها لطيرهن دبيب . . . وقول الآخر : [الطويل]

دبيب قطا البطحاء في كل منهل . . . وشاهد الحوت قول أبي موسى : وقد ألقى البحر دابة مثل الظرب ودواب البحر لفظ مشهور في اللغة .

(24/699)

وقرأ حمزة والكسائي : " آياتٍ " بالنصب في الموضعين الآخرين . وقرأ الباقون والجمهور : " آياتٌ " بالرفع فيهما ، فأما من قرأ بالنصب فحمل " آياتٍ " في الموضعين على نصب ﴿ إن ﴾ في قوله ﴿ إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ ولا يعرض في ذلك العطف على عاملين الذي لا يجيزه سيبويه وكثير من النحويين ، لأنا نقدر ﴿ في ﴾ معادة في قوله : ﴿ واختلاف ﴾ وكذلك هي في مصحف ابن مسعود : " وفي اختلاف " ، فكأنه قال

على قراءة الجمهور : " وفي اختلاف الليل " ، وذلك أن ذكرها قد تقدم في قوله : ﴿ وفي خلقكم ﴾ فلما تقدم ذكر الجار جاز حذفه من الثاني ، ويقدر مثبتاً كما قدر سيبويه في قول الشاعر [أبو دؤاد الأيادي] : [المتقارب]

أكل امرئ تحسبين امرأً . . . ونار توقد بالليل نارا

أي وكل نار ، وكما قال الآخر : [الرجز]

أوصيت من برة قلباً حرّا . . . بالكلب خيراً والحماة شرّا

أي وبالحماة ، وهذا الاعتراض كله إنما هو في ﴿ آيات ﴾ الثاني ، لأن الأول قبله حرف الجر ظاهر . وفي قراءة أبي بن كعب وابن مسعود في الثلاثة المواضع : " لآيات " . قال أبو علي : وهذا يدل على أن الكلام محمول على أن في قراءة من أسقط اللامات في الاثنين الآخرين ، وأما من رفع " آياتٌ " في الموضعين فوجهه العطف على موضع ﴿ إن ﴾ وما عملت فيه ، لأن موضعها رفع بالابتداء ، ووجه آخر وهو أن يكون قوله : ﴿ وفي خلقكم وما يبث ﴾ مستأنفاً ، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة ، وقال بعض الناس : يجوز أن يكون جملة في موضع الحال فلا تكون غريبة على هذا .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ إما بالنور والظلام ، وإما بكونهما خلفة . والرزق المنزل من السماء : هو المطر ، سماه رزقاً بمآله ، لأن جميع ما يرتزق فعن المطر هو . ﴿ وتصريف

الرياح ﴾ هو بكونها صباً ودبوراً وجنوباً وشمالاً ، وأيضاً فبكونها مرة رحمة ومرة عذاباً ، قاله قتادة ، وأيضاً بلينها وشدتها وبردها وحرها .

(25/699)

وقرأ طلحة وعيسى : " وتصريف الريح " بالإفراد ، وكذلك في جميع القرآن إلا ما كان فيه مبشرات وخالف عيسى في الحجر فقرأ : ﴿ الرياح لواقح ﴾ [الحجر : 22] .

وقوله : ﴿ تلك آيات الله ﴾ إشارة إلى ما ذكر . وقوله : ﴿ نتلوها ﴾ فيه حذف مضاف ، أي يتلو شأنها وتفسيرها وشرح العبرة لها ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ آيات الله ﴾ القرآن المنزل في هذه المعاني فلا يكون في ﴿ نتلوها ﴾ حذف مضاف . وقوله : ﴿ بالحق ﴾ معناه : بالصدق والإعلام بحقائق الأمور في أنفسها . وقوله : ﴿ فبأي حديث ﴾ الآية توبيخ وتقريع ، وفيه قوة التهديد .

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وأبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة : " يؤمنون " بالياء من تحت وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم أيضاً والأعمش " تؤمنون " بالتاء على مخاطبة الكفار . وقرأ طلحة بن مصرف : " توقنون " بالتاء من فوق من اليقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ حم ﴾ مبتدأ و ﴿ تَنزِيلُ ﴾ خبره .

وقال بعضهم : "حما" اسم السورة .

و"تَنْزِيلُ الْكِتَابِ" مبتدأ .

وخبره "مِنَ اللَّهِ" .

والكتاب القرآن .

و"الْعَزِيزِ" المنيع .

"الحكِيم" في فعله .

وقد تقدّم جميع هذا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السماوات والأرض ﴾ أي في خلقهما ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ واختلاف الليل والنهار وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ السمآء مِّن رِّزْقٍ ﴾ يعني المطر .

﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرياح آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقدّم جميعه مستوفى

في "البقرة" وغيرها .

وقراءة العامة "وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ" "وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ" بالرفع فيهما .

وقرأ حمزة والكسائي بكسر التاء فيهما .

ولا خلاف في الأوّل أنه بالنصب على اسم "إنّ" وخبرها "فِي السَّمَوَاتِ" .

ووجه الكسر في "آيات" الثاني العطف على ما عملت فيه ؛ التقدير : إن في خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ .

فأما الثالث فقيل : إن وجه النصب فيه تكرير "آيَاتٌ" لما طال الكلام ؛ كما تقول : ضربت زيداً زيداً .

وقيل : إنه على الحمل على ما عملت فيه "إنّ" على تقدير حذف "في" ؛ التقدير : وفي اختلاف الليل والنهار آيات .

فحذفت "في" لتقدّم ذكرها .

وأنشد سيبويه في الحذف :

أَكُلَّ امرىء تَحْسِبِين امرأً . . .

ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا

فحذف "كل" المضاف إلى نار المجرورة لتقدّم ذكرها .

وقيل : هو من باب العطف على عاملين .

ولم يُجزه سيبويه ، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين ؛ فعطف "واخْتِلاَفِ" على قوله : ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح آيَاتٌ ﴾ فيحتاج إلى العطف على عاملين ، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل ، فلم تَقْوَ أن تنوب مناب عاملين مختلفين ؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعاً ناصباً في حال .

وأما قراءة الرفع فحملا على موضع "إن" مع ما عملت فيه .

وقد ألزم النحويون في ذلك أيضاً العطف على عاملين ؛ لأنه عَطَف "وَاخْتِلاَفِ" على "وفِي خَلْقِكُمْ" ، وعطف "آيَات" على موضع "آيات" الأوّل ، ولكنه يقدّر على تكرير "في" .

ويجوز أن يرفع على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء ، وما قبله خبره ، ويكون عطف جملة على جملة .

وحكى الفراء رفع "واختِلاف" و "آيات" جميعاً ، وجعل الاختلاف هو الآيات .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الله ﴾ أي هذه آيات الله ؛ أي حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته .

﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق ﴾ أي بالصدق الذي لا باطل ولا كذب فيه .

وقرىء "يَتْلُوهَا" بالياء .

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله ﴾ وقيل بعد قرآنه ﴿ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر .

وقرأ ابن مُحَيْصِن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي "تُؤْمِنُونَ" بالتاء على الخطاب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(28/699)

وقال الآلوسى :

﴿ حم ﴾ إن جعل اسماً للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هذا مسمى بحم ،

وقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ صلته أو خبر ثالث أو حال من ﴿ تَنزِيلَ ﴾ عاملها معنى الإشارة أو من ﴿ تَنزِيلَ ﴾ عاملها معنى الإشارة أو من ﴿ الكتاب ﴾ الذي هو مفعول معنى عاملها المضاف ، وقيل : ﴿ حم ﴾ مبتدأ وهذا خبره والكلام

على المبالغة أيضاً أو تأويل ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بمنزل ، والإضافة من إضافة الصفة لموصوفها ، واعتبار المبالغة أولى أو المسمى به تنزيل الخ .

وتعقب بأن الذي يجعل عنواناً للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه وإذ لا عهد بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها ، وجوز جار الله جعل ﴿ حم ﴾ مبتدأ بتقدير مضاف أي تنزيل حم و ﴿ تَنزِيلَ ﴾ المذكور خبره و ﴿ مِنَ الله ﴾ صلته ، وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر إيذاناً بأنه الكتاب الكامل إن أريد بالكتاب السورة ، وفيه تفخيم ليس في تنزيل حم تنزيل من الله ، ولهذا لما لم يراع في حم السجدة هذه النكتة عقب بقوله تعالى : ﴿ كتاب فُصّلَتْ ﴾ [فصلت : 3] ليفيد هذه الفائدة مع التفنن في العبارة ، وإن أريد الكتاب كله فللاشعار بأن تنزيله كإنزال الكل في حصول الغرض من التحدي والتهدي ، فدعوى عراء هذا الوجه عن فائدة يعتد بها عراء عن إنصاف يعتد به .

وإن جعل تعديداً للحروف فلا حظ له من الإعراب وكان ﴿ تَنزِيلَ ﴾ خبر مبتدأ مضمر يلوح به ما قبله أي المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب أو مبتدأ خبره الظرف بعده على ما قاله جار الله ، وقيل : ﴿ حم ﴾ مقسم به ففيه حرف جر مقدر وهو في محل جر أو نصب على الخلاف المعروف فيه و ﴿ تَنزِيلَ ﴾ نعت مقطوع فهو خبر مبتدأ مقدر والجملة مستأنفة وجواب القسم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِى السموات والأرض لآيات لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو على ما تقدم استئناف للتنبيه على الآيات التكوينية ، وجوز أن يكون ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله ﴾ [الجاثية : 2] مبتدأ وخبراً والجملة جواب القسم ، وهو خلاف الظاهر ، وقيل : يدر ﴿ حم ﴾ على كونه مقسماً به مبتدأ محذوف الخبر أي حم قسمي ويكون ﴿ تَنزِيلَ ﴾ نعتاً له غير مقطوع ، وعلى سائر الأوجه قوله سبحانه : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ نعت للاسم الجليل .

وجوز الإمام كونه صفة للكتاب ءلا أنه رجح الأول بعد احتياجه إلى ارتكاب المجاز مع زيادة قرب الصفة من الموصوف فيه ، وأوجبه أبوحيان لما في الثاني من الفصل بين الصفة والموصوف الغير الجائز .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِى السموات ﴾ الخ يجوز أن يكون بتقدير مضاف أي إن في خلق السموات كما رواه الواحدي عن الزجاج لما أنه قد صرح به في آية أخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، ويناسبه قوله عز وجل :

﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ إلى آخره ، ويجوز أن يكون على ظاهره وحينئذ يكون على أحد وجهين .

أحدهما : إن فيهما لآيات أي ما فيهما من المخلوقات كالجبال والمعادن والكواكب والنيرين وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ من عطف الخاص على العام .

والثاني : أن أنفسهما لآيات لما فيها من فنون الدلالة على القادر الحكيم جل شأنه ، وهذا أظهر وهو أبلغ من أن يقال : إن في خلقهما لآيات وإن كان المعنى آيلاً إليه ، و ﴿ فِى خَلَقَكُمْ ﴾ خبر مقدم وقوله سبحاه : ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ عطف على خلق ، وجوز في ﴿ مَا ﴾ كونها مصدرية وكونها موصولة إما بتقدير مضاف أي وفي خلق ما ينشره ويفرقه من دابة أو بدونه .

وجوز عطفه على الضمير المتصل المجرور بالإضافة وما موصولة لا غير على الظاهر ، وهو مبني على جواز العطف على الضمير المتصل المجرور من غير إعادة الجار وذلك مذهب الكوفيين .

ويونس .

(30/699)

والأخفش ؛ قال أبو حيان : وهو الصحيح ، واختاره الأستاذ أبو علي الشلوبين ، ومذهب سيبويه .

وجمهور البصريين منع العطف المذكور سواء كان الضمير مجرور بالحرف أو بالإضافة لشدة الاتصال فأشبه العف على بعض الكلمة .

وذكر ابن الحاجب في "شرح المفصل" في باب الوقف منه أن بعض النحويين يجوزون العطف في المجرور بالإضافة دون المجرور بالحرف لأن اتصال المجرور بالمضاف ليس كاتصاله بالجار لاستقلال كل واحد منهما بمعناه فلم يشتد اتصاله فيه اشتداد مع الحرف وأجاز الجرمي .

والزيادي العطف إذا أكد الضمير المتصل بمنفصل نحو مررت بك أنت وزيد وقوله تعالى : ﴿ ءايات ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على جملة ﴿ إِنَّ فِى السموات ﴾ [الجاثية : 3] الخ .

وقرأ أبي .

وعبد الله ﴿ لآيَاتٍ ﴾ باللام كذا في "البحر" ولم يبين أن آيات مرفوع أو منصوب ، فإن كان منصوباً فاللام زائدة في اسم إن المتقدم عليه خبرها وهو أحد مواضع زيادته المطردة الكثيرة ، وإن كان مرفوعاً فهي زائدة في المبتدأ ويقل زيادتها فيه ، وحسن زيادتها هنا تقدم إن في الجملة المعطوف عليها فهو كقوله :

إن الخلافة بعدهم لذميمة . . .

وخلائف ظرف لما أحقر

وقرأ زيد بن علي ﴿ ءايَةً ﴾ بالإفراد .

وقرأ الأعمش .

والجحدري .

وحمزة.

والكسائي.

ويعقوب ﴿ ءايات ﴾ بالجمع والنصب على أنها عطف على ﴿ ءايات ﴾ السابق الواقع اسماً لأن و﴿ فِى خَلَقَكُمْ ﴾ معطوف على ﴿ فِي السموات ﴾ فكأنه قيل: وإن في خلقكم وما يبث من دابة آيات ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ بالجر على إضمار في، وقد قرأ عبد الله بذكره.

وجاء حذف الجار مع إبقاء عمله كما في قوله:

إذا قيل أي الناس شر قبيلة . . .

أشارت كليب بالأكف الأصابع

وحسن ما هنا ذكر الجار في الآيتين قبل.

(31/699)

وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿ ءايات ﴾ بعد، والمراد باختلافهما تعاقبهما أتفاوتهما طولاً وقصراً، وقيل: اختلافهما في أن أحدهما نور والآخر ظلمة ﴿ وَمَا أَنزَلَ

الله ﴾ عطف على ﴿ اختلاف ﴾ ﴿ مّنَ السماء ﴾ جهة العلو ، وقيل : السحاب ، وقيل : الجرم المعروف بضرب من التأويل .

﴿ مِن رّزْقٍ ﴾ من مطر ، وسمي رزقاً لأنه سببه فهو مجاز ، ولو لم يؤل صح لأنه في نفسه رزق أيضاً .

﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزرع والثمرات والنبات ، والسببية عادية اقتضتها الحكمة ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح ﴾ من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال ، وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه في الوجوه إما للإيذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة ، وإما لأن كون التصريف آية ليس بمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار .

وقرأ زيد بن علي .

وطلحة .

وعيسى ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح ﴾ بالأفراد ﴿ ءايات لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار والمجرور أعني ﴿ فِى اختلاف ﴾ على ما سمعت ، والجملة معطوفة على ما قبلها .

وقيل : إن ﴿ اختلاف ﴾ بالجر عطف على ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ [الجاثية : 4] المجرور بفي قبله و ﴿ ءايات ﴾ عطف على ﴿ آيات ﴾ [الجاثية : 4] السابق المرفوع بالابتداء ، وفيه العطف على معمولي عاملين مختلفين ، ومن الناس من يمنعه وهم أكثر البصريين ، ومنهم من يجيزه وهم أكثر الكوفيين ، ومنهم من يفصل فيقول : وهو جائز في نحو قولك : في الدار زيد والحجرة عمرو وغير جائز في نحو قولك : زيد في الدار وعمر والحجرة لأن الأول يلي المجرور فيه العاطف فقام العاطف مقام الجار ، والثاني لم يل فيه المجرور العاطف فكان فيه إضمار الجار من غير عوض ، وتمام الكلام في هذه المسألة في محله ؛ وقيل : إن ﴿ اختلاف ﴾ عطف على المجرور قبل و ﴿ ءايات ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي آيات ؛ واختاره من لم يجوز العطف على معمولي عاملين ويقول بضعف حذف الجار مع بقاء عمله وإن تقدمه ذكر جار .

وقال أبو البقاء : ﴿ ءايات ﴾ مرفوع على التأكيد لآيات السابق وهم يعيدون الشيء إذا طال الكلام في الجملة للتأكيد والتذكير .

وتعقب بأن ذلك إنما يكون بعين ما تقدم واختلاف الصفات يدل على تغاير الموصوفات فلا

وجه للتأكيد ، وأيضاً فيه الفصل بين المعطوف المجرور والمعطوف عليه وبين المؤكد والمؤكد وهو إن جاز يورث تعقيداً ينافي فصاحة القرآن العظيم .

وقرأ ﴿ ءايات ﴾ هنا بالنصب من قرأها هناك به فهي مفعول لفعل محذوف أي أعني آيات ، وقيل : العاطف في قوله تعالى : ﴿ واختلاف ﴾ عطف اختلاف على المجرور بفي قبل وعطفها على اسم ﴿ إن ﴾ [الجاثية : 3] وهو مبني على جواز العطف على معمولي عاملين ، وقال أبو البقاء : هي منصوبة على التأكيد والتكرير لاسم إن نحو إن بثوبك دماً وبثوب زيد دماً ، ومر آنفاً ما فيه .

(33/699)

وقال بعضهم : إنها اسم إن مضمرة وهي قد تضمر ويبقى عملها ، ذكر أبو حيان في الارتشاف في الكلام على إن من خير النار أو خيرهم زيد أن محمل بن يحيى بن المبارك اليزيدي ذهب إلى نصب خيرهم ورفع زيد فاسم إن محذوف وأو خيرهم منصوب بإضمار إن لدلالة إن المذكورة تقديره إن من خير الناس زيداً وإن خيرهم زيد .

وقد أقر الشاطبي تخريج النصب في الآية على ذلك لكن نقله السفاقسي عن أبي البقاء ورده بأن إن لا تضمر .

وقال ابن هشام في آخر الباب الرابع من المغني : : إنه بعيد ، والظاهر أنه لا بد عليه من إضمار الجار في ﴿ اختلاف ﴾ وحينئذ لا يخفى حاله ، وسائر القراءات مروية هنا عمن رويت عنه فيما تقدم ، وتنكير ﴿ ءايات ﴾ في الآيات للتفخيم كما وكيفا ، والمعنى إن المنصفين من العباد إذ نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنها لا بد لها من صانع فآمنوا بالله تعالى وأقروا ، وإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى أخرى وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا ايماناً وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بعد موتها وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً وشدة وضعفاً وحرارة وبرودة عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم كذا في "الكشاف" ومنه يعلم نكتة اختلاف الفواصل .

(34/699)

وفي "الكشف" أنه ذكر ما حاصله أنه على سبيل الترقي وهو يوافق ما عليه الصوفية وغيرهم من أن الايقان مرتبة خاصة في الايمان ، ثم العقل لما كان مدارهما أي الايمان والايقان ونعني به العقل المؤيد بنور البصيرة جعله لخلوص الايقان من اعتراء الشكوك من كل

وجه ففي استحكامه كل خير ، وروعي في ترتيب الآيات ما روعي في ترتيب المراتب الثلاث من تقديم ما هو أقدم وجوداً ، ولا يلزم أن تكون الآية الثانية أعظم من الأولى ولا الثالثة من الثانية لما ذكره من أن الجامع بين النظرين موقن وبين الثلاثة عاقل على أنها كذلك في تحصيل هذا الغرض فإن كانت أعظم من وجه رخر فلا بأس فإن النظر إلى حال نفسه وما هو من نوعه ثم جنسه من سائر الأناسي والحيوان للقرب والتكرر وكثرة العدد أدخل في انتفاء الشك وحصول اليقين وإن كان النظر في السماء والأرض أتم دلالة على كمال القدرة والعلم فذلك لا يضر ولا هو المطلوب ههنا ثم النظر إلى اختلاف المذكور أدل على استحكام ذلك اليقين من حيث أنه يتجدد حيناً فحيناً ويبعث على النظر والاعتبار كلما تجدد هذا ، والتحقيق أن تمام النظر في الثاني يضطر إلى النظر في الأول لأن السموات والأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه ، وكذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين ، أما على الأول فظاهر من أسباب تكون الحيوان بوجه ، وكذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين ، أما على الأول فظاهر وأما على الثاني فلأنه العلة الغائية فلا بد من أن يكون جامعاً انتهى ، وهو كلام نفيس جداً .

(35/699)

وقال الإمام في ترتيب هذه الفواصل : أظن أن سببه أنه قيل إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين بل كنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل ، ولا يخفى أنه فاته ذلك التحقيق ولم يختر الترقي وهو بالاختيار حقيق ، والمغايرة بين ما هنا وما في سورة البقرة (164) أعني ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تَجْرِى فِى البحر بِمَا يَنفَعُ الناس ﴾ الآية للتفنن والكلام المعجز مملوء منه ، وذكر الإمام في ذلك ما لا يهش له السامع فتأمل .

﴿ تِلْكَ آيات الله ﴾ مبتدأ وخبر ، وقوله تعالى : ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ حال عاملها معنى الإشارة نحو ﴿ هذا بَعْلِى شَيْخاً ﴾ [هود : 72] على المشهور ، وقيل : هو الخبر و ﴿ الله إِلاَّ ﴾ بدل أو عطف بيان وقوله سبحانه : ﴿ بالحق ﴾ حال من فاعل ﴿ نَتْلُوهَا ﴾ أو من مفعوله أي نتلوها محقين أو ملتبسة بالحق فالباء للملابسة ويجوز أن تكون للسببية الغائية ، والمراد بالآيات المشار إليها إما آيات القرآن أو السورة أو ما ذكر قبل من السموات والأرض وغيرهما فتلاوتها بتلاوة ما يدل عليها ، وفسرت بالسرد أي نسردها عليك .

وقال ابن عطية : الكلام بتقدير مضاف أي نتلوا شأنها وشأن العبرة بها .

(36/699)

وقرىء ﴿ يتلوها ﴾ بالياء على أن الفاعل ضميره تعالى والمراد على القراءتين تلاوتها عليه صلى الله عليه وسلم بواسطة الملك عليه السلام ﴿ يَعْقِلُونَ تِلْكَ ءايات الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق ﴾ هو من باب قولهم : أعجبني زيد وكرمه يريدون أعجبني كرم زيد إلا أنهم عدلوا عنه للمبالغة في الإعجاب أي فبأي حديث بعد هذه الآيات المتلوة بالحق يؤمنون ، وفيه دلالة على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان ولا آية أدل من هذه الآية ، وتفخيم شأن الآيات من اسم الإشارة وإضافتها إلى الله عز وجل ، وجعل ﴿ نَتْلُوهَا ﴾ حالاً مع ضمير التعظيم ثم تكرير الاسم الجليل للنكتة المذكورة وإضافتها إليه بواسطة الضمير مرة أخرى ، وقد ذكر ذلك الزمخشري وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بشيء لأن فيه من حيث المعنى إقحام الأسماء من غير ضرورة والعطف ، والمراد غير العفط من إخراجه إلى باب البدل لأن تقدير كرم زيد إنما يكون في أعجبني زيد كرمه بغير واو على البدل وهذا قلب لحقائق النحو ، وإنما المعنى في المثال أن ذات زيد أعجبته وأعجبه كرمه فهما إعجابان لا إعجاب واحد وهو مبني على عدم التعمق في فهم كلام جار الله .

ومن تعمق فيه لا يرى أنه قائل بالإقحام وإنما بيان حاصل المعنى يوهمه ، وبين هذه الطريقة وطريقة البدل مغايرة تامة ، فقد ذكر أن فائدة هذه الطريقة وهي طريقة إسناد الفعل إلى شيء والمقصود إسناده إلى ما عطف عليه قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه من

جهة الدلالة على أنه صار من التلبس بحيث يصح أن يسند أوصافه وأفعاله وأحواله إلى الأول قصداً لأنه بمنزلته ولا كذلك البدل لأن المقصود فيه بالنسبة هو الثاني فقط وهنا هما مقصودان ، فإن قلت : إذا لم يكن ذلك الوصف منسوباً للمعطوف عليه لزم إقحامه كما قال أبو حيان ، وما يذكر من المبالغة لا يدفع المحذور ، وعلى فرض تسليمه فدلالته على ما ذكر بأي طريق من طرق الدلالة المشهورة .

(37/699)

أجيب بأنه غير منسوب إليه في الواقع لكن لما كان بينهما ملابسة تامة من جهة ما ككون الآيات ههنا بإذنه تعالى أو مرضية له عز وجل جعل كأنه المقصود بالنسبة وكنى بها عن ذلك الاختصاص كناية إيمائية ثم عطف عليه المنسوب إليه وجعل تابعاً فيها وبهذا غاير البدل مغايرة تامة غفل عنها المعترض فالنسبة بتمامها مجازية كذا قرره بعض المحققين .

وقال الواحدي : أي فبأي حديث بعد حديث الله أي القرآن وقد جاء إطلاقه عليه في قوله تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ [الزمر : 23] وحسن الإضمار لقرينة تقدم الحديث ، وقوله سبحانه : ﴿ وءاياته ﴾ عطف عليه لتغايرهما إجمالاً وتصيلاً لأن الآيات هي ذلك الحديث ملحوظ الأجزاء ، وإن أريد ما بين فيه من الآيات والدلائل فليس من

عطف الخاص على العام لأن الآيات ليست من القرائن وإنما وجه دلالتها وإيرادها منه فيكون في هذا الوجه الدلالة أيضاً على حال البيان والمبين كما في الوجه الأول ، وقال الضحاك : أي فبأي حديث بعد توحيد الله ولا يخفى أنه بظاهره مما لا معنى له فلعله أراد بعد حديث توحيده تعالى أي الحديث المتضمن ذلك أو هو بعد تقدير المضاف من باب أعجبني زيد وكرمه ، وأياً ما كان فالفاء في جواب شرط مقدر والظرف صفة ﴿ حَدِيثُ ﴾ وجوز أن يكون متعلقاً بيؤمنون قدم للفاصلة .

وقرأ ابن عامر .

وأبو بكر .

وحمزة .

والكسائي ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ بالتاء الفوقانية وهو موافق لقوله تعالى : ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ [الجاثية : 4] بحسب الظاهر والصورة وإلا فالمراد هنا الكفار بخلاف ذلك .

وقرأ طلحة ﴿ تُوقِنُونَ ﴾ بالتاء الفوقانية والقاف من الإيقان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(38/699)

وقال ابن عاشور :

﴿ حم (1) ﴾

تقدم القول في نظائره ، وهذه جملة مستقلة .

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2)

استئناف ابتدائي وهو جملة مركبة من مبتدأ وخبر .

﴿ الكتاب ﴾ هو المعهود وهو ما نزل من القرآن إلى تلك الساعة .

والمقصود : إثبات أن القرآن موحى به من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فكان مقتضى الظاهر أن يجعل القرآن مسنداً إليه ويخبر عنه فيقال القرآن مُنزّل من الله العزيز الحكيم لأن كونه منزلاً من الله هو محل الجدال فيقتضي أن يكون هو الخبر ولو أذعنوا لكونه تنزيلاً لَمَا كان منهم نزاع في أن تنزيله من الله ولكن خولف مُقتضَى الظاهر لغرضين:

أحدهما : التشويق إلى تلقي الخبر لأنهم إذا سمعوا الابتداء بتنزيل الكتاب استشرفوا إلى ما سيخبر عنه ؛ فَأَمَّا الكافرون فيترقبون أنه سيلقى إليهم وصف جديد لأحوال تنزيل الكتاب فيتهيّأون لخوض جديد من جدالهم وعنادهم ، والمؤمنون يترقبونِ لِمَا يزيدهم يقيناً بهذا التنزيل .

والغرض الثاني : أن يُدَّعى أن كون القرآن تنزيلاً أمر لا يختلف فيه فالذين خالفوا فيه كأنهم خالفوا في كونه منزّلاً من عند الله وهل يكون التنزيل إلا من عند الله فيؤول إلى تأكيد

الإخبار بأنه منزل من عند الله إذ لا فرق بين مدلول كونه تنزيلاً وكونه من عند الله إلا باختلاف مفهوم المعنيين دون مَا صْدَقَيْهما على طريقة قوله : ﴿ لاَ ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] .

(39/699)

وإيثار وصفي ﴿ العزيز الحكيم ﴾ بالذكر دون غيرهما من الأسماء الحسنى لإشعار وصف ﴿ العزيز ﴾ بأن ما نزل منه مناسب لعزته فهو كتاب عزيز كما وصفه تعالى بقوله : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ [فصلت : 41] ، أي هو غالب لمعانديه ، وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته ، ولإشعار وصف ﴿ الحكيم ﴾ بأن ما نزل من عنده مناسبِ لِحكمته ، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة ، ففي ذلك إيماء إلى أن إعجازه ، من جانب بلاغته إذ غَلبت بلاغةَ بلغائهم ، ومن جانب معانيه إذْ أعجزت حكمته حكمة الحكماء ، وقد تقدم مثيل هذا في طالعة سورة الزمر وقريب منه في طالعة سورة غافر .

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3)

موقع هذا الكلام موقع تفصيل المجمل لما جمعته جملة ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ [الجاثية : 2] باعتبار أن آيات السماوات والأرض وما عطف عليها إنما كانت آيات

للمؤمنين الموقنين ، وللذين حصل لهم العلم بسبب ما ذكرهم به القرآن ، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك ﴾ [الجاثية : 6] .

وأكد بـ ﴿ إنَّ ﴾ وإن كان المخاطبون غير منكريه لتنزيلهم منزلة المنكر لذلك بسبب عدم انتفاعهم بما في هذه الكائنات من دلالة على وحدانية الله تعالى وإلا فقد قال الله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خَلَق السماوات والأرض ليقولُن خلقهنّ العزيز العليم ﴾ في سورة الزّخرف (9) .

والخطاب موجه إلى المشركين ولذلك قال : لآيات للمؤمنين ﴾ وقال : ﴿ آيات لقوم يوقنون ﴾ دون أن يقال : لآيات لكم أو آيات لكم ، أي هي آيات لمن يعلمون دلالتها من المؤمنين ومن الذين يوقنون إشارة إلى أن تلك الآيات لا أثر لها في نفوس من هم بخلاف ذلك .

(40/699)

والمراد بكون الآيات في السماوات والأرض أن ذات السماوات والأرض وعداد صفاتها دلائل على الوحدانية فجعلت السماوات والأرض بمنزلة الظرف لما أودعته من الآيات لأنها ملازمة لها بأدنى نظر وجعلت الآيات للمؤمنين لأنهم الذين انتفعوا بدلالتها وعلموا منها أن موجدها ومقدر نظامها واحد لا شريك له .

وعطف جملة ﴿ وفي خلقكم ﴾ الخ على جملة ﴿ إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ عطف خاص على عام لما في هذا الخاص من التذكير بنعمة إيجاد النوع استدعاء للشكر عليه .

والبث : التوزيع والإكثار وهو يقتضي الخلق والإيجاد فكأنه قيل وفي خلق الله ما يبثّ من دابة .

وتقدم البث في قوله تعالى : ﴿ وبث فيها من كل دابّة ﴾ في سورة البقرة (164) .

وعبر بالمضارع في ﴿ يبث ﴾ ليفيد تجدد البث وتكرره باعتبار اختلاف أجناس الدواب وأنواعها وأصنافها .

والدابة تطلق على كل ما يدبّ على الأرض غير الإنسان وهذا أصل إطلاقها وقد تطلق على ما يدب بالأرجل دون الطائر كقوله : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] .

والرزق أطلق هنا على المطر على طريقة المجاز المرسل لأن المطر سبب وجود الأقوات .

والرزق : القوت .

وقد ذكر في آية سورة البقرة (164) ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ وتقدمت نظائر هذه الآية في أواسط سورة البقرة وفي مواضع عدّة .

والمراد بـ (المؤمنين) ، وب (قوم يوقنون) ، وب (قوم يعقلون) واحد ، وهم المؤمنون

بتوحيد الله فحصل لهم اليقين وكانوا يعقلون ، أي يعلمون دلالة الآيات .

والمعنى : أن المؤمنين والذين يُوقنون ، أي يعلمون ولا يكابرون ، والذين يعقلون دلالة الآثار على المؤثر ونظروا النظر الصحيح في شواهد السماوات والأرض فعلموا أن لا بد لها من صانع وأنه واحد فأيقن بذلك العاقل منهم الذي كان متردداً ، وازداد إيماناً من كان مؤمناً فصار موقناً .

(41/699)

فالمعنى : أن الذين انتفعوا بالآيات هم المؤمنون العاقلون ، فوزعت هذه الأوصاف على فواصل هذه الآي لأن ذلك أوقع في نفس السامع من إتْلاَءِ بعضها لبعض .

وقُدم المتصفون بالإيمان لشرفه وجعل خلق الناس والدواب آية للموصوفين بالإيقان لأن دلالة الخلق كائنة في نفس الإنسان وما يحيط به من الدواب ، وجعل اختلاف الليل والنهار واختلافُ حوادث الجو آية للذين اتصفوا بالعقل لأن دلالتها على الوحدانية بواسطة لوزام مترتبة بإدراك العقل .

وقد أومأ ذكر هذه الصفات إلى أن الذين لم يهتدوا بهذه الآيات ليسوا من أصحاب هذه الصفات ولذلك أعقبه بقوله : ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ [الجاثية : 6]

استفهاماً إنكارياً بمعنى النفي .

واعلم أن هذا الكلام وإن كان موجهاً إلى قوم لا ينكرون وجود الإله وإنما يزعمون له شركاء ، وكان مقصوداً منه ابتداء إثباتُ الوحدانية ، فهو أيضاً صالح لإقامة الحجة على المعَطِّلين الذين ينفون وجود الصانع المختار وفي العرب فريق منهم .

فإن أحوال السماوات كلها متغيرة دالة على تغير ما اتصفت بها ، والتغير دليل الحدوث وهو الحاجة إلى الفاعل المختار الذي يوجدها بعد العدم ثم يُعدمها .

وقرأ الجمهور قوله : ﴿ آيات لقوم يوقنون ﴾ وقوله : ﴿ آياتٌ لقوم يعقلون ﴾ برفع ﴿ آيات ﴾ فيهما على أنهما مبتدآن وخبراهما المجروران .

وتقدّر (في) محذوفة في قوله ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ لدلالة أختها عليها التي في قوله : ﴿ وفي خلقكم ﴾ .

والعطف في كلتا الجملتين عطف جملة لا عطف مفرد .

(42/699)

وقرأها حمزة والكسائي وخلف ﴿ لآيات ﴾ في الموضعين بكسرة نائبة عن الفتحة ف ﴿ آياتٍ ﴾ الأول عطف على اسم ﴿ إنَّ ﴾ و ﴿ في خلقكم ﴾ عطف على خبر ﴿ إنّ

﴿ فهو عطف على معمولي عامل واحد ولا إشكال في جوازه وأما ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ فكذلك ، إلا أنه عطف على معمولي عَامِلَيْن مختلفين ، أي ليسا مترادفين هما (إنّ) و (في) على اعتبار أن الواو عاطفة ﴿ آيات ﴾ وليست عاطفة جملة ﴿ في خلقكم ﴾ الآية ، وهو جائز عند أكثر نحاة الكوفة وممنوع عند أكثر نحاة البصرة ، ولذلك تأول سيبويه هذه القراءة بتقدير (في) عند قوله : ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ لدلالة أختها عليها وتبقى الواو عاطفة ﴿ آياتٍ ﴾ على اسم (إنّ) فلا يكون من العطف على معمولي عاملين .

والحق ما ذهب إليه جمهور الكوفيين وهو كثير كثرة تنبو عن التأويل .

وجعل ابن الحاجب في "أماليه" قراءة الجمهور برفع ﴿ آياتٌ ﴾ في الموضعين أيضاً من العطف على معمولي عاملين لأن الرفع يحتاج إلى عَاملٍ كما أن النصب يحتاج إلى عَاملٍ قال : وأكثر الناس يفرض الإشكال في قراءة النصب لكون العامل لفظيًّا وهما سواء .

وقرأ يعقوب ﴿ آياتٍ ﴾ الثانية فقط بكسر التاء على أنه حال متعدد من اختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق وتصريف الرياح ، والسحاب .

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)

يجوز أن تكون الإشارة وبيانها بآيات الله إشارة إلى الآيات المذكورة في قوله ﴿ لآيات للمؤمنين ﴾ [الجاثية : 3] وقوله : ﴿ آيات لقوم يوقنون ﴾ [الجاثية : 4] وقوله : ﴿

آيات لقوم يعقلون ﴾ [الجاثية : 5] .

وإضافتها إلى اسم الجلالة لأن خالقها على تلك الصفات التي كانت لها آيات للمستنصرين .

(43/699)

وجملة ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ في موضع الحال من ﴿ آيات الله ﴾ والعامل في اسم الإشارة من معنى الفعل على نحو قوله تعالى : ﴿ وهذا بَعْلِي شيخاً ﴾ [هود : 72] .

والتلاوة : القراءة .

ومعنى كون الآيات مَتلوة أنّ في ألفاظ القرآن المتلوة دلالة عليها فاستعمال فعل (نتلو) مجاز عقلي لأن المتلوَ ما يدل عليها .

ويجوز أن تكون الإشارة إلى حاضر في الذهن غير مذكور لما دَل عليه قوله : ﴿ الكتاب ﴾ [الجاثية : 2] أي تلك آيات الله المنزلة في القرآن ، فيكون استعمال فعل ﴿ نتلوها ﴾ في حقيقته .

وإسناد التلاوةِ إلى الله مجاز عقلي أيضاً لأن الله موجد القرآن المتلو الدال على تلك الآيات .

وقوله : ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ، و ﴿ بعد ﴾ هنا بمعنى (دون) .

فالمعنى : فبأي حديث دون الله وآياته ، وتقدم قوله تعالى : ﴿ ومن يضلل الله فما له من

ولي من بعده ﴾ في سورة الشورى (44) ، وفي الأعراف (185) ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ والاستفهام في قوله : ﴿ فبأي حديث ﴾ مستعمل في التأييس والتعجيب كقول الأعشى :

فمن أيِّ ما تأتي الحوادث أفرَقُ

وإضافة ﴿ بعد ﴾ إلى اسم الجلالة على تقدير مضاف دل عليه ما تقدم من قوله : ﴿ فبأي حديث ﴾ ، والتقدير : بعد حديث الله ، أي بعد سماعه ، كقول النابِغة :

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي

على وعل في ذي المطارة عاقل . . .

أي على مخافة وعل .

واسم ﴿ بعد ﴾ مستعمل في حقيقته .

والمراد بالحديث : الكلام ، يعني القرآن كقوله : ﴿ الله نَزَّل أحسن الحديث ﴾ [الزمر : 23] وكما وقع إضافة حديث إلى ضمير القرآن في قوله في الأعراف (185) ﴿ فبأيّ حديث بعده يؤمنون ﴾ وفي آخر المرسلات (50) ﴿ فبأيّ حديث بعده يؤمنون ﴾ وعطف و ﴿ آياته ﴾ على ﴿ حديث ﴾ لأن المراد بها الآيات غير القرآن من دلائل السموات والأرض مما تقدم في قوله : ﴿ إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ [الجاثية : 3] .

(44/699)

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر وروح عن يعقوب ﴿ يؤمنون ﴾

بالتحتية .

وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ورويس عن يعقوب بالتاء الفوقية فهو التفات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(45/699)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(44) . . . ﴿ وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذا النص القرآني اللافت للنظر جاء في مقدمات سورة الجاثية , وهي سورة مكية , وعدد آياتها سبع وثلاثون , وقد سميت بهذا الاسم لورود حقيقة من حقائق الآخرة في الآية الثامنة والعشرين منها , تقرر بأن الخلائق سوف تجثو علي ركبها في انتظار الحساب يوم القيامة من هول الفزع والهلع الذي يجتاحهم في هذا اليوم العصيب الذي نسأل الله (تعالي) ان ينجينا من أهواله . . ! !(آمين) .

ويدور محور السورة أساسا حول القرآن الكريم وما يدعو إليه من ركائز الإيمان , ويحذر من الإصرار علي مختلف صور الضلال مثل الكفر والشرك وإنكار البعث , واتباع الهوي , والمكابرة في الحق ومن عواقب ذلك كله يوم القيامة .

وقد استهلت سورة الجاثية بحرفين من الحروف المقطعة (حم) وهذان الحرفان قد وردا في مطلع سبع من سور القرآن الكريم المتتابعة (من غافر إلي الأحقاف) , إلا أنه في سورة الشوري قد استفتحت بهما السورة ثم لحقت بهما ثلاثة حروف اخري في الآية التالية فيقول ربنا (تبارك وتعالي) : حم * عسق

وهذه الفواتح الهجائية التي جاءت في مستهل عدد من سور القرآن الكريم هي من اسراره , التي حاول عدد من الكتاب استجلاء كنهها , ووضع عدد من التفسيرات لها , دون ان يجزم احد بالوصول الي جواب نهائي لذلك .

وتتابع سورة الجاثية بتقرير أن القرآن الكريم هو كتاب منزل من الله العزيز الحكيم , شامل لكل الرسالات السماوية التي انزلت من قبل , فكلها كتاب واحد متكامل في القرآن الكريم , واستدلت السورة بعدد من آيات الله في الأنفس وفي الآفاق علي صحة الوحي الإلهي الحق الذي أنزل به هذا الكتاب

الكريم .

(46/699)

وتتساءل السورة : إذا لم تكن آيات الله في الأنفس والآفاق , ولا آياته المنزلة علي خاتم أنبيائه ورسله كافية لإقناع المكابرين من الخلق فأي حديث آخر يمكن أن يقنعهم بأن للكون الها , خالقا مبدعا , عظيما , خلق الكون بكل من فيه وما فيه , وخلق الانسان لعبادة الله (تعالي) بما امر ولحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض , وإقامة عدل الله فيها , والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار , والاستعداد للقاء الله لكي تجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .

وتنعي سورة الجاثية علي المكذبين بكتاب الله , الجاحدين لنعمه , وتؤكد ان الويل لكل كذاب أثيم يسمع آيات الله تتلي عليه ثم يصر علي انكارها من قبيل الاستكبار والعناد كأن

لم يسمعها , وإذا علم منها شيئا تطاول علي خالقه بالسخرية منها , والاستهزاء بها , وتطلب السورة الكريمة من رسول الله صلي الله عليه وسلم (ومن ثم من كل مؤمن برسالته) ان يبشر هذا المنكر وامثاله بعذاب اليم لأن جزاء كل من يفعل ذلك عذاب مهين في الآخرة , وخلود في جهنم التي تنتظرهم في لهفة , وفيها لن يغني عنهم شيء مما كسبوا في الحياة الدنيا , ولا مما اتخذوا من دون الله من أولياء فجميعهم ينتظرهم عذاب عظيم . . . ! ! .

والواقعة لها سبب محدد ولكن حكمها عام مطلق الي يوم الدين , لأن العبرة في القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثم تعاود سورة الجاثية مرة أخري التأكيد أن القرآن الكريم هو هدي من الله , وان الذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من أشد صور العذاب إيلاما .

وذكرت السورة عددا من نعم الله وأفضاله علي عباده , وأشارت الي ان تلك النعم والأفضال تستدعي التفكير فيها والوصول الي عدد من الاستنتاجات والقناعات من خلال تدبرها , فهي من دلائل الربوبية , والألوهية , والوحدانية . .

ويأمر ربنا (تبارك وتعالي) خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) في هذه

السورة الكريمة أن يطالب المؤمنين بالتجاوز عما يصدر من الكفار والمشركين من بذاءات مؤذية في حق الله ورسوله ,(من مثل ما يملأ صفحات شبكة المعلومات الدولية اليوم) لأن الله تعالي سوف يعاقبهم في الآخرة بما كانوا يكسبون في الدنيا , وسوف يجزي الصالحين بأعمالهم الصالحة في الدنيا ومنها الصبر علي ايذاء كل من المشركين والكافرين .

وتؤكد الآيات الكريمة ان الله (تعالي) هو الذي يجزي كل نفس بما كسبت فمن عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها , والي الله سوف ترجع الخلائق .

وتنعي سورة الجاثية علي بني اسرائيل تزويرهم للتوراة , واختلافهم في الدين من بعد ما جاءهم من العلم بغيا بينهم , ومن بعد ما بين الله لهم شرائع الفصل بين الناس , وبعد إنعام الله تعالي علي اسلافهم بعدد من الطيبات , وإكرامهم بالنعم الكثيرة التي لم يشكروها ; وتؤكد الآيات أن الله (تعالي) يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

وتخاطب السورة الكريمة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بأن الله (تعالي) قد جعله علي النهج الصحيح للدين الذي أنزله (تبارك وتعالي) علي فترة من الرسل , وأكمله وأتمه في الوحي الذي آتاه إياه , وأمره باتباعه , والانصراف عن اهواء الذين لا يعلمون لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض , وان الله (تعالي) ولي المتقين .

وتعاود سورة الجاثية للمرة الثالثة التأكيد أن القرآن الكريم هو بينات من الله للناس وهدي

ورحمة للذين يؤمنون به ويوقنون بثوابه وعقابه .

وتستنكر السورة الكريمة أن يظن الذين اكتسبوا السيئات واقترفوا المعاصي من الكفار والمشركين , أن يساويهم الله (تعالي) في كل من الحياة والممات بالذين آمنوا وعملوا الصالحات ; وتؤكد ان الله (تعالي) خلق السموات والأرض بالحق ولتجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .

وتسأل السورة الكريمة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم)

(48/699)

عن أنموذج من البشر يتخذ هواه معبودا , يخضع له , ويستجيب لشهواته بغير تعقل ولا بصيرة , فيضله الله (تعالي) علي علم , ويختم علي سمعه وقلبه , ويجعل علي بصره غشاوة , فلا يهزه الوعظ , ولا تحركه الآيات , ولا يستطيع أن يري الهدي أو أن يميزه من الضلال , فهل يمكن لأحد أن يهدي مثل هذا الضال من بعد الله ؟ وهذا الضال وامثاله ممن انكروا البعث بالظن الخاطيء دون ادني قدر من العلم او المعرفة فكانت دعواهم في انكار البعث كلما تلي علي مسامعهم القرآن الكريم وجاء ذكره إلا ان قالوا : ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين (الجاثية 25) ثم يأتي الجواب القاطع من الله (تعالي) بأنه هو الذي يحيي الخلق في

الدنيا من العدم , ثم يميتهم فيها عند انقضاء الأجل ثم يبعثهم من مراقدهم ويجمعهم جميعا الي يوم القيامة لا ريب فيه ولكن اكثر الناس لا يعلمون وان لله ملك السموات والارض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون (الجاثية 27) ومن مظاهر الهول والهلع , والترقب والفزع في هذا اليوم , ان جميع الخلائق سوف تجثو علي ركبها وهم يدعون الي كتبهم وسجلات اعمالهم ويقال لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون (الجاثية 28) ويقال لهم كذلك : هذا كتابنا الذي سجلنا فيه تاريخ حياة كل منكم من لحظة ميلاده الي لحظة وفاته ينطق عليكم بالحق . . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين (الجاثية 29 و 30) .

وأما الذين كفروا بالله , وملائكته , وكتبه , ورسله , وكذبوا بالبعث بعد أن اخبروا بحتميته , واستمعوا الأدلة العديدة لإثبات امكانيته فيقال لهم توبيخا وتحقيرا : . . أفلم تكن آياتي تتلي عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين

(الجاثية 31) .

وحينئذ يتبين لهؤلاء المكذبين مدي سوء جرمهم أن كذبوا بآيات ربهم , فينالهم من العقاب ما يستحقون , وحينئذ يقال لهم

كذلك :

. . . اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين (الجاثية 34) .

أي اليوم تنسون في العذاب كما نسيتم أنكم ملاقوا ربكم يوم الحساب , ومقركم النار , وليس لكم من ناصرين يغيثونكم من عذابها , أو يمكن لهم ان يخرجوكم منها , وذلك جزاء تكذيبكم لآيات الله , واستهزائكم بها , واغترارکم بالدنيا وزخرفها وبهرجاتها ولا عتبي لكم اليوم عندنا .

وتختتم السورة الكريمة بإقرار الحمد لله رب السموات ورب الأرض رب العالمين , الذي له وحده الكبرياء في السماوات والارض , بغير ولد ولا صاحبة , ولا منازع , ولا شبيه , ولا شريك وهو العزيز الحكيم .

والآيات الكونية التي استشهدت بها سورة الجاثية علي صدق ما جاء فيها من حقائق ايمانية آيات عديدة منها ما يلي :

1 . ما في السماوات والارض من آيات .

2 . تسخير ما في السماوات والارض جميعا لخدمة الانسان , ورعايته وحمايته .

3 . الآيات الكثيرة في خلق كل من الانسان والحيوان .

4 . الآيات في اختلاف الليل والنهار .

5 ـ الآيات في إنزال الرزق من السماء فتحيا به الارض بعد موتها .

6 ـ الآيات البينات في تصريف الرياح .

7 ـ الآيات الواضحات في تسخير البحر لتجري الفلك فيه بأمر الله وليبتغي الخلق مما فيه من خيرات الله وفضله لعلهم يشكرون .

وسوف اختار هنا النقطة السادسة فقط وهي آيات الله البينات في تصريف الرياح , وأبدأ بذكر الرياح في القرآن الكريم .

الرياح في القرآن الكريم

المناطق المناخية على سطح الأرض ودورها فى تصريف الرياح

يعرف (الريح) بأنه الهواء المتحرك , وجاء ذكر الريح في تسعة وعشرين (29) موضعا من القرآن الكريم منها (14) مرة بالمفرد (ريح) . وأربع (4) مرات بالصياغة (ريحا) , ومرة واحدة بالصياغة (ريحكم) , وعشر (10) مرات بصفة الجمع المعرف (الرياح) .

(50/699)

كما جاءت الاشارة الي الرياح بعدد من صفاتها مثل (الذاريات) وهي الرياح التي تذرو التراب وغيره لقوتها , و (العاصفات) وهي الرياح الشديدة المدمرة لمن ترسل عليهم , و (

المرسلات) وهي الرياح المرسلة لعذاب الكافرين , والمشركين والمكذبين .

ومعظم الآيات القرآنية التي ذكر فيها ارسال (الريح) بالإفراد (أي بلفظ الواحد) جاءت في مقام العذاب ومعظم المواضع التي ذكرت فيها (الرياح) بلفظ الجمع جاءت في مقامات الرحمة والثواب .

ومن آيات ذكر الريح بالإفراد قول الله (تعالي) :

(1) مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون (آل عمران :117) .

(2) هو الذي يسيركم في البر والبحر حتي إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (يونس :22) .

(3) مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا علي شيء ذلك هو الضلال البعيد

(إبراهيم :18)

(4) أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخري فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا (الإسراء :69) .

(5) ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلي الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء

عالمين

(الأنبياء :81) .

(6) حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق (الحج :31)

(7) ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر . . (سبأ :12)

(8) فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . (ص :36) .

(9) ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد علي ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (الشوري :33,32) .

(51/699)

---

(10) فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . (الأحقاف :34) .

(11) وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم

(الذاريات :41) .

(12) وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية

(الحاقة :6) .

(13) ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون (الروم : 51) .

(14) . . إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها (الأحزاب :9) .

(15) فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزي وهم لا ينصرون

(فصلت :16) .

(16) إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . (القمر :19) .

ومن آيات ذكر (الرياح) بالجمع قول الله (تعالي) :

(1) . . . وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون .

(البقرة :164) .

(2) وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتي إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون .

(الأعراف :57) .

(3) وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين

(الحجر :22) .

(4) . . فأصبح هشيما تذروه الرياح . . .

(الكهف :45) .

(5) وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا

(الفرقان :48) .

(6) . . . ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته . . (النمل :63) .

(7) ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات . . .

(الروم :46) .

(8) الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا . . .

(الروم :48) .

(9) والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا . . .

(فاطر :9) .

(10) . . . وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون

(الجاثية :5) .

أقوال المفسرين

تصريف الرياح حول الأرض

في تفسير قوله (تعالي) :

إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين , وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (الجاثية : 3 ـ 5) .

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : يرشد الله تعالي خلقه إلي التفكير في آلائه ونعمه , وقدرته العظيمة التي خلق بها السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع , من الملائكة والجن والإنس والدواب , والطيور والوحوش والسباع والحشرات , وما في البحر من الأصناف المتنوعة , واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران , هذا بظلامه , وهذا بضيائه , وما أنزل الله تبارك وتعالي من السحاب , من المطر في وقت الحاجة اليه , وسماه رزقا لأن به يحصل الرزق (فأحيا به الأرض بعد موتها) أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء , وقوله عز وجل (وتصريف الرياح) أي جنوبا وشمالا برية وبحرية , ليلية ونهارية , ومنها ما هو للمطر , ومنها ما هو للقاح , ومنها ما هو غذاء للأرواح , ومنها ما هو عقيم لا ينتج . . .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين رحمهما الله رحمة واسعة ما نصه : (إن في السماوات والأرض) أي : في خلقهما (لآيات) دالة علي قدرة الله ووحدانيته تعالي (للمؤمنين) ؛ (وفي خلقكم) أي : في خلق كل منكم من نطفة , ثم علقة , ثم مضغة , إلي أن صار إنسانا (و

) خلق (ما يبث) يفرق في الأرض (من دابة) هي : ما يدب علي الأرض من الناس وغيرهم (آيات لقوم يوقنون) بالبعث ;(و) في (اختلاف الليل والنهار) ذهابهما ومجيئهما (متعاقبين , أو

زيادة أحدهما ونقصان الآخر) (وما أنزل الله من السماء) أي : السحاب (من رزق) مطر , لأنه سبب الرزق (فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح) تقليبها , مرة جنوبا ومرة شمالا , وباردة وحارة ,(وشديدة ولينة) (آيات لقوم يعقلون) الدليل فيؤمنون .

(53/699)

وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه : وقبل أن يعرض للقوم وموقفهم من هذا الكتاب , يشير الي آيات الله المبثوثة في الكون من حولهم , وقد كانت وحدها كفيلة بتوجيههم إلي الإيمان , ويوجه قلوبهم إليها لعلها توقظها وتفتح مغاليقها , وتستجيش فيها الحساسية بالله منزل هذا الكتاب , وخالق هذا الكون العظيم : . . . . (وتصريف الرياح) . . وهي تمضي شمالا وجنوبا , وشرقا وغربا , منحرفة ومستقيمة , دافئة وباردة , وفق النظام الدقيق المنسوق المقصود في تصميم هذا الكون العجيب ; وحساب كل شيء فيه حسابا دقيقا لا يترك شيئا للمصادفة العمياء . . ولتصريف الرياح علاقة

معروفة بدورة الأرض , وبظاهرتي الليل والنهار , وبالرزق الذي ينزل من السماء , وكلها تتعاون في تحقيق مشيئة الله في خلق هذا الكون , وتصريفه كما أراد ; وفيها (آيات) معروضة في الكون , ولكن لمن ؟ (لقوم يعقلون) . . فللعقل هنا عمل , وله في هذا الميدان مجال .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه : اشتملت هذه الآيات الثلاث علي ستة أدلة كونية : خلق السموات والأرض , والمتأمل فيهما يعلم أنه لابد لهما من صانع حكيم , فيؤمن به , وخلق الإنسان وانتقاله في أطواره , وخلق ما علي الأرض من صنوف الحيوان ; والمتأمل فيهما وفي ارتباط تكونهما بالعالم العلوي يصل بالتأمل الي مرتبة اليقين , والحوادث المتجددة في كل وقت من اختلاف الليل والنهار , ونزول المطر الذي به حياة الأرض بالنبات ; وتقلب الرياح وآثارها في البر والبحر ; والتأمل فيها يؤدي الي استحكام العلم وقوة اليقين , وذلك لا يكون إلا بالعقل الكامل ; ولذا اختتمت كل آية بما يناسب ما سبق فيها من الدليل . . .

(54/699)

و (يبث) أي ينشر ويفرق . . . (وتصريف الرياح) تقلبها من جهة الي اخري , ومن حالة الي حالة . وهنا أشار الي الآية (164) من سورة البقرة حيث ذكر في تفسير قوله تعالي :(وتصريف الرياح) ما نصه : تقليبها جنوبا وشمالا ودبورا , حارة وباردة , عاصفة ولينة , عقيما ولواقح , بالرحمة تارة وبالعذاب أخري , وتصريف مصدر مضاف للمفعول , والفاعل هو الله , أي وتصريف الله الرياح أو مضاف للفاعل , والمفعول السحاب , أي : وتصريف الرياح السحاب .

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) ما نصه : . . . وفي اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر , والنور والظلام مع تعاقبهما علي نظام ثابت , وفيما أنزل الله من السماء من مطر فأحيا به الأرض بالإنبات بعد موتها بالجدب ; وبتصريف الرياح (في جهات متعددة مع اختلافها برودة وحرارة , وقوة وضعفا علامات واضحة علي كمال قدرة الله لقوم فكروا بعقولهم فخلص يقينهم .

وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبه خير الجزاء) ما نصه : . . . . . (إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين) أي إن في خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة , والأحوال الغريبة , والأمور البديعة , لعلامات باهرة علي كمال قدرة الله وحكمته , لقوم يصدقون بوجود الله ووحدانيته (وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) أي وفي خلقكم أيها الناس من نطفة ثم من علقة , متقلبة في أطوار مختلفة إلي

تمام الخلق ; وفيما ينشره تعالي ويفرقه من أنواع المخلوقات التي تدب علي وجه الأرض ; آيات باهرة أيضا لقوم يصدقون عن إذعان ويقين بقدرة رب العالمين (واختلاف الليل والنهار) أي وفي تعاقب الليل والنهار , دائبين لا يفتران , هذا بظلامه وذاك

(55/699)

بضيائه , بنظام محكم دقيق (وما أنزل الله من السماء من رزق) أي وفيما أنزله الله تبارك وتعالي من السحاب , من المطر الذي به حياة البشر في معاشهم وأرزاقهم . . . (فأحيا به الأرض بعد موتها) أي فأحيا بالمطر الأرض بعد ما كانت هامدة يابسة لا نبات فيها ولا زرع , . . . (وتصريف الرياح) أي وفي تقليب الرياح جنوبا وشمالا , باردة وحارة (آيات لقوم يعقلون) أي علامات ساطعة واضحة علي وجود الله ووحدانيته , لقوم لهم عقول نيرة وبصائر مشرقة . . . .

تصريف الرياح في منظور العلوم المكتسبة

يعرف الريح بأنه الهواء المتحرك بالنسبة للأرض , والذي يمكن إدراكه إلي ارتفاع يصل إلي 65 كم تقريبا فوق مستوي سطح البحر , وإلي هذا الارتفاع تحكم حركة الرياح نفس العوامل التي تحكمها فوق سطح البحر وهي : الجاذبية الأرضية , قدر الاحتكاك بسطح

الأرض , وتدرج معدلات الضغط الجوي , أما في المستويات الأعلي من ذلك فإن عوامل أخري تسود من مثل الكهربية الجوية , المغناطيسية , وعمليات المد والجزر الهوائيين .

وبما أن 99% من كتلة الغلاف الغازي للأرض تقع دون ارتفاع 50 كم فوق مستوي سطح البحر أي دون مستوي الركود الطبقي

(TheStratopause) ,

فإن دراسة حركة الرياح تتركز أساسا في هذا الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض .

وتقسم الرياح بالنسبة إلي ارتفاعها عن سطح الأرض إلي ما يلي :

(1) رياح سطحية وتمتد من مستوي سطح البحر إلي بضعة كيلو مترات قليلة فوقه .

(2) رياح متوسطة وتمتد فوق الرياح السطحية إلي ارتفاع 35 كم فوق مستوي سطح البحر .

(3) ورياح مرتفعة وتمتد في المستوي من 35 إلي 65 كم فوق مستوي سطح البحر .

وتقسم الرياح السطحية حسب شدتها علي النحو التالي :

ويصف القرآن الكريم الصنفين الأول والثاني من هذا التصنيف باسم الريح الساكن , والأصناف من الثالث إلي السادس باسم الريح الطيبة , والأصناف من السابع إلي التاسع

باسم الريح العاصف , والأصناف من التاسع إلي الثالث عشر باسم الريح القاصف , وهذا سبق قرآني بأكثر من عشرة قرون للمعرفة العلمية المكتسبة في هذا المجال .

ويمكن تصنيف الرياح بحسب القوي المحركة لها وأهمها التأثير المشترك للعوامل التالية : التوازن الإشعاعي للشمس , وتوزيع درجات الحرارة عبر خطوط العرض المختلفة , ودوران الأرض حول محورها أمام الشمس , بالإضافة إلي التضاريس الأرضية المختلفة .

ويقدم كم الطاقة الشمسية التي تصل إلي الأرض الطاقة اللازمة لحركة الرياح , وذلك لأن أشعة الشمس التي تتعامد علي خط الاستواء وتميل ميلا كبيرا فوق القطبين تؤدي إلي التباين في توزيع درجات الحرارة علي سطح الأرض , هذا التباين الذي ينتج عنه حركة صاعدة للهواء الساخن حول خط الاستواء , وحركة هابطة للهواء البارد فوق القطبين .

كذلك فإن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلي الشرق يؤدي إلي دفع الهواء المحيط بالمنطقة الاستوائية في اتجاه الغرب , والحقيقة أن الدورة الفعلية للرياح لها عدد من الخلايا بين خط الاستواء وكل قطب من قطبي الأرض , وعند تحرك كتلة من الهواء من فوق خط الاستواء باتجاه أحد القطبين فإنه نتيجة لحفظ العزم الزاوي للهواء المتحرك فوق أرض تدور فإن الهواء المتحرك في اتجاه القطب لابد أن ينحرف شرقا , والهواء المتحرك فوق خط الاستواء لابد أن ينحرف في اتجاه الغرب , وبالمثل الرياح السطحية تتجه إلي الشرق , بينما

تتجه الرياح الوسطي إلي الغرب .

والنتيجة هي دورة عامة للرياح شديدة الانتظام حول الأرض , وذات عدة دوائر كبيرة بين خط الاستواء وكل قطب من قطبي الأرض منها دوائر حارة فوق المناطق الاستوائية , ودوائر باردة فوق القطبين , ودوائر معتدلة الحرارة بينهما , مع وجود عدد من الجبهات الهوائية بين تلك الدوائر , وبالإضافة إلي ذلك تتدخل الظروف الجغرافية المحلية فيكون الهواء دافئًا ورطبا فوق المحيطات

(57/699)

المدارية , وحارا جافا فوق الصحاري , وباردا جافا فوق المناطق المكسوة بالجليد , وتتداخل هذه الكتل الهوائية , وتتكون بذلك السحب ومنها الممطر والعقيم وتحدث الاعاصير بمراحلها المختلفة وتتحرك كتل الهواء الساخن من المناطق الاستوائية في اتجاه القطبين , كما تتحرك كتل الهواء البارد من القطبين في اتجاه خطوط العرض العالية , في تموجات واضحة تظهر آثارها علي كل من أسطح البحار , وفي شواطئها (نيم البحر) , وفي تموجات أسطح الكثبان الرملية (علامات النيم) وغير ذلك من آثار حركات كل من الرياح وأمواج البحار .

ومن الظروف الجغرافية المحلية التي تؤثر في حركة الرياح تضاريس سطح الأرض مثل السلاسل الجبلية , والتلال , والهضاب , والسهول والمنخفضات , والكتل المائية المختلفة , ففي الصيف تسخن اليابسة بسرعة أكبر من المحيطات , وفي الشتاء يحتفظ ماء المحيطات بالحرارة لمدة أطول فتكون أدفأ من اليابسة , وينشأ عن تلك الفروق نسيم البر والبحر , كما ينشأ عن فروق التضاريس دورة الرياح بين الجبال والأودية والمنخفضات , وهذه الحركات الأفقية للكتل الهوائية تصاحبها حركات رأسية , فإذا ارتفعت درجة حرارة كتلة من الهواء بحيث تصبح أدفأ من الهواء المحيط بها , فإن الهواء الساخن يصعد إلي أعلي , فيتناقص ضغطه وتنخفض درجة حرارته , وتبدأ ما فيه من رطوبة في التكثف إذا وصلت درجة الحرارة إلي نقطة التشبع (نقطة تكون الندي) , وبذلك تتكون السحب وتتهيأ الفرص لهطول المطر بإذن الله .

من هذا العرض يتضح أن الرياح التي تبدو للمراقب من الناس هوجاء عاصفة لها في الحقيقة توزيع دقيق علي سطح الأرض , تحكمه قوانين شديدة الانضباط , وقد وصف القرآن الكريم هذه الدقة في التوزيع والانضباط في الحركة بوصف معجز هو تصريف الرياح , بمعني أن الرياح لا تتحرك هذه الحركات العديدة بذاتيتها , ولكن بقدرة الله الذي يصرفها بعلمه وبحكمته كيفما

يشاء , والرياح تقوم بدور رئيسي (بإذن الله) في تكوين السحب , وإنزال المطر , وإتمام دورة الماء حول الأرض وإلا فسد , وفي تفتيت الصخور وتعريتها , وتكوين التربة والرمال السافية وتحريكها , وفي تلطيف الجو وتكييفه , وتطهيره من الملوثات التي تحملها حركة الرياح جنوبا وشمالا في اتجاه قطبي الأرض وغير ذلك من المهام الرئيسية في جعل الأرض صالحة للعمران . فسبحان مصرف الرياح , ومجري السحاب , ومنزل القطر الذي أنزل في محكم كتابه , وعلي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) من قبل ألف وأربعمائة من السنين هذا الوصف المعجز (تصريف الرياح) , وهو وصف لم يدرك العلم الكسبي دلالته إلا في القرن العشرين وبعد مجاهدة استغرقت جهود آلاف من المتخصصين , وهو مع دقته يؤكد أن حركة الرياح وإن فهمنا بعض القوي الدافعة لها تبقي من جند الله , يجريها وفق مشيئته بالخير لمن يشاء من عباده , كما يجريها وفق إرادته لإبادة العاصين من الكفار والمشركين المتجبرين في الأرض والمحاربين لعباد الله فيها , ففهمنا لميكانيكية الحدث لا يخرجه عن إطار كونه من جند الله , خاضعا لإرادته ومشيئته , فالحمد لله الذي أنزل القرآن بعلمه , وعلمه خاتم أنبيائه ورسله , وأبقاه شاهدا علي حقيقة نبوته ورسالته , وحفظه بلغة وحيه حفظا كاملا علي مدي أربعة عشر قرنا أو يزيد وإلي يوم الدين , هاديا لطلاب الحق في كل مكان وزمان .

وصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(59/699)

قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان لا يبقى على الكفر نوع بقاء فضلاً عن الإصرار بعد هذا البيان إلا من يستحق النكال لمجاهرته بالعناد ، قال على وجه الاستنتاج مهدداً : ﴿ ويل ﴾ أي مكان معروف في جهنم ﴿ لكل أفاك ﴾ أي مبالغ في صرف الحق عن وجهه ﴿ أثيم ﴾ أي مبالغ في

اكتساب الإثم وهو الذنب ، وعمل ما لا يحل مما يوجب العقاب ، وفسر هذا بقوله :

﴿ يسمع آيات الله ﴾ أي دلالات الملك الأعظم الظاهرة حال كونها ﴿ تتلى ﴾ أي يواصل استماعه لها بلسان القال أو الحال من أيّ تال كان ، عالية ﴿ عليه ﴾ بجميع ما فيها من سهولة فهمها وعذوبة ألفاظها وظهور معانيها وجلالة مقاصدها مع الإعجاز فكيف إذا كان التالي أشرف الخلق .

ولما كانت تلاوتها موجبة لإقلاعه فكان إصراره مع بعد رتبته في الشناعة مستبعداً كونه قال : ﴿ ثم يصر ﴾ أي يدوم دوماً عظيماً على قبيح ما هو فيه حال كونه ﴿ مستكبراً ﴾ أي طالباً الكبر عن الإذعان وموجداً له .

ولما كان مع ما ذكر من حاله يجوز أن يكون سماعه لها ، خفف من مبالغته في الكفر ، بين أنها لم تؤثر فيه نوعاً من التأثير ، فكان قلبه أشد قسوة من الحجر فقال : ﴿ كأن ﴾ أي كأنه ﴿ لم يسمعها ﴾ فعلم من ذلك ومن الإصرار وما قيد به من الاستكبار أن حاله عند السماع وقبله وبعده على حد سواء ، وقد علم بهذا الوصف أن كل من لم ترده آيات الله تعالى كان مبالغاً في الإثم والإفك ، فكان له الويل .

ولما كان الإصرار معناه الدوام المتحكم ، لم يذكر الوقر الذي هو من الأمراض الثابتة كما ذكره في سورة لقمان ، قال ابن القطاع وابن ظريف في أفعالهما ، أصر على الذنب والمكروه : أقام ، وقال عبد الغافر الفارسي في المجمع : أصررت على الشيء أي أقمت ودمت عليه ، وقال ابن فارس في المجمل : والإصرار : العزم على الشيء والثبات عليه ، وقال أبو عبد الله القزاز في ديوانه ونقله عن عبد الحق في واعيه : وأصل الصر الإمساك ، ومنه يقال : أصر فلان على كذا ، أي أقام عليه وأمسكه في نفسه وعقده لأنه قد يقول ما ليس في نفسه وما لا يعتقده ، والرجل مصر على الذنب أي ممسك له معتقد عليه ، ثم قال : من الإصرار عليه وهو العزم على أن لا يقلع عنه ، وقال الأصفهاني تبعاً لصاحب الكشاف : وأصله من أصر الحمار على العانة ، وهو أن ينحني عليها صاراً أذنيه .

ولما أخبر عن ثباته على الخبث ، سبب عنه تهديده في أسلوب دال – بما فيه من التهكم – على شدة الغضب وعلى أنه إن كان له بشارة فهي العذاب فلا بشارة له أصلاً فقال تعالى : ﴿ فبشره ﴾ أي على هذا الفعل الخبيث ﴿ بعذاب ﴾ لا يدع له عذوبة أصلاً ﴿ أليم ﴾ أي بليغ الإيلام .

(61/699)

ولما بين تعالى كفره بما يسمع من الآيات ، أتبعه ما هو أعم منه فقال : ﴿ وإذا علم ﴾ أي أيّ نوع كان من أسباب العلم ﴿ من آياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة بإضافتها إلينا ﴿ شيئاً ﴾ وراءه وكان كلما رأوا الإنسان في غاية التمكن منه ، قال مبيناً للعذاب : ﴿ جهنم ﴾ أي تأخذهم لا محالة وهم في غاية الغفلة عنها بترك الاحتراز منها ، ويحسن التعبير بالوراء أن الكلام في الأفاك ، وهو انصراف الأمور عن أوجهها إلى اقفائها فهو ماش أبداً إلى ورائه فهو ماش إلى النار بظهره ، ويستعمل ، " وراء " في الإمام ، فيكون حينئذ مجاراً عن الإحاطة أي تأخذهم من الجهة التي هم بها عالمون والجهة التي هم بها جاهلون ، فتلقاهم بغاية التجهم والعبوسة والغيظ والكراهة ضد ما كانوا عليه عند العلم بالآيات المرئية والمسموعة من الاستهزاء الملازم للضحك والتمايل بطراً وأشراً ، ومثل ما كانوا عليه عند الملاقاة للمصدقين بتلك الآيات .

ولما كانوا يظهرون الركون إلى ما بأيديهم من الأعراض الفانية ، قال : ﴿ ولا يغني عنهم ﴾ أي في دفع ذلك ﴿ ما كسبوا ﴾ أي حصلوا من الأمور التي أفادتهم العز الذي أورثهم الاستهزاء ﴿ شيئاً ﴾ أي من إغناء .

ولما كان هؤلاء لما هم عليه من العمى يدعون إغناء آلهتهم عنهم ، قال مصرحاً بها : ﴿ ولا ما اتخذوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم أي كلفوا أنفسهم بأخذه مخالفين لما دعتهم إليها فطرهم الأولى السليمة من البعد عنها .

ولما كان كفرهم إنما هو الإشراك ، فكانوا يقولون " الله " أيضاً ، قال معبراً بما يفهم سفول ما سواه : ﴿ من دون الله ﴾ أي أدنى رتبة من رتب الملك الأعظم ﴿ أولياء ﴾ أي يطمعون في أن يفعلوا معهم ما يفعله القريب من النفع والذب والدفع ﴿ ولهم ﴾ مع عذابه بخيبة الأمر ﴿ عذاب عظيم ﴾ لا يدع جهة من جهاتهم ولا زماناً من أزمانهم ولا عضواً من أعضائهم إلا ملأه .

(62/699)

ولما أخبر عما لمن أعرض عن الآيات بما هو أجل موعظة وأردع زاجر عن الضلال ، قال مشيراً إلى ما افتتح به الكلام من المتلو الذي هذا منه : ﴿ هذا ﴾ أي التنزيل المتلو عليكم ﴿ هدى ﴾ أي عظيم جداً بالغ في الهداية كامل فيها ، فالذين اهتدوا بآيات ربهم لأنهم - لم يغتروا بالحاضر لكونه زائلاً فاستعملوا عقولهم فآمنوا به لهم نعيم مقيم ﴿ والذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دلتهم عليهم مرائي عقولهم به - هكذا كان الأصل ، ولكنه نبه على أن كل جملة من جمله ، بل كل كلمة من كلماته دلالة واضحة عليه سبحانه فقال : ﴿ بآيات ربهم ﴾ أي وهذه التغطية بسبب التكذيب بالعلامات الدالة على وحدانية المحسن إليهم فضلوا عن السبيل لتفريطهم في النظر لغروهم بالحاضر الفاني ﴿ لهم عذاب ﴾ كائن ﴿ من

رجز ﴾ أي عقاب قذر شديد جداً عظيم القلقلة والاضطراب متتابع الحركات ، قال القزاز ، الرجز والرجس واحد ﴿ أليم ﴾ أي بليغ الإيلام ، الآية من الاحتباك : ذكر الهدى أولاً دليلاً على الضلال ثانياً ، والكفر والعذاب ثانياً دليلاً على ضدهما أولاً ، وسره أنه ذكر السبب المسعد ترغيباً فيه ، والمشقى ترهيباً منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 94.92 ﴾

(63/699)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن الآيات للكفار وبين أنهم بأي حديث يؤمنون إذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها ، أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الأفاك الكذب والأثيم المبالغ في اقتراف الآثام ، واعلم ن هذا الأثيم له مقامان :

المقام الأول : أن يبقى مصراً على الإنكار والاستكبار ، فقال تعالى : ﴿ يَسْمَعُ ءايات الله تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي يقيم على كفره إقامة بقوة وشدة ﴿ مستكبراً ﴾ عن الإيمان

بالآيات معجباً بما عنده ، قيل نزلت في النضر بن الحرث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن والآية عامة في كل من كان موصوفاً بالصفة المذكورة ، فإن قالوا ما معنى ثم في قوله ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ﴾ ؟ ، قلنا نظيره قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ إلى قوله ﴿ ثْمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] ومعناه أنه تعالى لما كان خالقاً للسموات والأرض كان من المستبعد جعل هذه الأصنام مساوية له في العبودية كذا ههنا سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالإنكار والإعراض .

ثم قال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ الأصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن ومحل الجملة النصب على الحال أي يصير مثل غير السامع .

المقام الثاني : أن ينتقل من مقام الإصرار والاستكبار إلى مقام الاستهزاء فقال : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءاياتنا شَيْئاً اتخذها هُزُواً ﴾ وكان من حق الكلام أن يقال اتخذه هزواً أي اتخذ ذلك الشيء هزواً إلا أنه تعالى قال : ﴿ اتخذها ﴾ للإشعار بأن هذا الرجل إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أولئك إشارة إلى كل أفاك أثيم لشموله جميع الأفاكين ، ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال : ﴿ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي من قدامهم جهنم ، قال صاحب "الكشاف" : الوراء اسم للجهة التي توارى بها الشخص من خلف أو قدام ، ثم بيّن أن ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال : ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً ﴾ .

ثم بيّن أن أصنامهم لا تنفعهم فقال : ﴿ وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ فإن قالوا إنه قال قبل هذه الآية ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فما الفائدة في قوله بعده ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ قلنا كون العذاب مهيناً يدل على حصول الإهانة مع العذاب وكونه عظيماً يدل على كونه بالغاً إلى أقصى الغايات في كونه ضرراً .

ثم قال : ﴿ هذا هُدًى ﴾ أي كامل في كونه هدىً ﴿ والذين كَفَرُواْ بآيات رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ والرجز أشد العذاب بدلالة قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السماء ﴾ [البقرة : 59] وقوله ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ [الأعراف : 134] وقرىء ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بالجر والرفع ، أما الجر فتقديره لهم عذاب من عذاب أليم وإذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليماً ، ومن رفع كان المعنى له عذاب أليم ويكون المراد من الرجز الرجس الذي هو النجاسة ومعنى النجاسة فيه قوله ﴿ ويسقى مِن مَّاء

صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 16] وكأن المعنى لهم عذاب من تجرع رجس أو شرب رجس فتكون من تبييناً للعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 224 .

225 ﴾

(65/699)

وقال ابن عطية :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) ﴾

الويل في كلام العرب : المصائب والحزن والشدة من هذه المعاني ، وهي لفظة تستعمل في الدعاء على الإنسان . وروي في بعض الآثار أن في جهنم وادياً اسمه : ﴿ ويل ﴾ ، وذهب الطبري إلى أنه المراد بالآية ، ومقتضى اللغة أنه الدعاء على أهل الإفك والإثم بالمعاني المتقدمة . والأفاك : الكذاب الذي يقع منه الإفك مراراً . والأثيم : بناء مبالغة ، اسم فاعل من أثم يأثم .

وروي أن سبب هذه الآية أبو جهل ، وقيل النضر بن الحارث ، والصواب أن سببها ما كان المذكوران وغيرهما يفعل ، وأنها تعم كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة :

و: ﴿ يصر ﴾ معناه : يثبت على عقيدته من الكفر .

وقوله : ﴿ فبشره بعذاب ﴾ حسن ذلك لما أفصح عن العذاب ، ولو كانت البشارة غير مقيدة بشيء لما حصلت إلا على المحاب .

وقرأ جمهور الناس : " وإذا عَلِمَ " بفتح العين وتخفيف اللام ، والمعنى : وإذا أخبر بشيء ﴿ من آياتنا ﴾ فعلم نفس الخبر لا المعنى الذي تضمنه الخبر ولو علم المعاني التي تضمنها إخبار الشرع وعرف حقائقها لكان مؤمناً . وقرأ قتادة ومطر الوراق " عُلِّم " بضم العين وشد اللام .

(66/699)

وقوله : ﴿ أولئك ﴾ رد على لفظ كل أفاك ، لأنه اسم جنس له الصفات المذكورة بعد قوله : ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ قال فيه بعض المفسرين معناه : من أمامهم ، وهذا نحو الخلاف الذي في قوله تعالى : ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ [الكهف : 79] ولحظ قائل هذه المقالة الأمر من حيث تأول أن الإنسان كأنه من عمره يسير إلى جنة أو نار ، فهما أمامه ، وليس لفظ الوراء في اللغة كذلك ، وإنما هو ما يأتي خلف الإنسان ، وإذا اعتبر الأمر بالتقدم أو التأخر في الوجود ، على أن الزمان كالطريق للأشياء استقام الأمر ، فما يأتي بعد الشيء في الزمان فهو وراءه ، فكأن الملك وأخذه السفينة وراء ركوب أولئك إياها ، وجهنم

وإحراقها للكفرة يأتي بعد كفرهم وأفعالهم ، وهذا كما تقول : افعل كذا وأنا من ورائك عضداً ، وكما تقول ذلك على التهديد ، أنا من وراء التقصي عليك ، ونحو هذا . وقوله تعالى : ﴿ ولا ما اتخذوا ﴾ يعني بذلك الأوثان .

وقوله تعالى : ﴿ هذا هدى ﴾ إشارة إلى القرآن .

وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص : " أليمٌ " على النعت ل ﴿ عذاب ﴾ وهي قراءة ابن محيصن وابن مصرف وأهل مكة . وقرأ الباقون : " أليمٍ " على النعت ل ﴿ رجز ﴾ وهي قراءة الحسن وأبي جعفر وشيبة وعيسى والأعمش . والرجز : أشد العذاب .

وقوله : ﴿ لهم عذاب ﴾ بمنزلة قولك : لهم حظ ، فمن هذه الجهة ومن جهة تغاير اللفظتين حسن قوله : ﴿ عذاب من رجز ﴾ إذ الرجز هو العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(67/699)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾

" وَيْلٌ " وادٍ في جهنم .

توعد من ترك الاستدلال بآياته .

والأفّاك : الكذاب .

والإفك الكذب .

"أَثِيمٍ" أي مرتكب للإثم .

والمراد فيما رُوِيَ : النضرُ بن الحارث وعن ابن عباس أنه الحارث بن كَلَدة .

وحكى الثعلبي أنه أبو جهل وأصحابه .

﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تتلى عَلَيْهِ ﴾ يعني آيات القرآن .

﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ﴾ أي يتمادى على كفره متعظماً في نفسه عن الانقياد ؛ مأخوذ من صرّ الصُّرة إذا شدّها .

قال معناه ابن عباس وغيره .

وقيل : أصله من إصرار الحمار على العانة ، وهو أن ينحني عليها صارًّا أذنيه .

و"أنْ" من "كأَنْ" مخففة من الثقيلة ؛ كأنه لم يسمعها ، والضمير ضمير الشأن ؛ كما في قوله :

كأَنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى ناضر السَّلَمْ . . .

ومحل الجملة النصب ، أي يصرّ مثل غير السامع .

وقد تقدّم في أوّل "لقمان" القول في معنى هذه الآية .

وتقدّم معنى ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتخذها هُزُواً ﴾ نحو قوله في الزقوم : إنه الزبد والتمر ، وقوله في خزنة جهنم : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدي .

﴿ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ مذل مخزٍ .

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي من وراء ما هم فيه من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق جهنمُ .

وقال ابن عباس : "مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ" أي أمامهم ، نظيره : "مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ" أي من أمامه .

قال :

أليس ورائي إن تراخت مِنيّتي . . .

أدُبّ مع الولدان أزْحَفُ كالنَّسْر

﴿ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً ﴾ أي من المال والولد ؛ نظيره : ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : 10] (أي من المال والولد) .

﴿ وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني الأصنام.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي دائم مؤلم.

قوله تعالى: ﴿ هذا هُدًى ﴾ ابتداء وخبر؛ يعني القرآن.

وقال ابن عباس: يعني كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ رِبِّهِمْ ﴾ أي جحدوا دلائله.

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ الرجز العذاب؛ أي لهم عذاب من عذاب أليم؛ دليله قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السمآء ﴾ [البقرة: 59] أي عذاباً.

وقيل: الرجز القذر مثل الرجس؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ ويسقى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: 16] أي لهم عذاب من تجرّع الشراب القذِر.

وضم الراء من الرجز ابن محيصن حيث وقع.

وقرأ ابن كَثير وابن محيصن وحفص "أَلِيمٌ" بالرفع؛ على معنى لهم عذاب أليم من رجز.

الباقون بالخفض نعتاً للرجز. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(69/699)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾

كثير الإفك أي الكذب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الإثم ، والآية نزلت في أبي جهل ، وقيل : في النضر بن الحرث وكان يشتري حديث الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن لكنها عامة كما هو مقتضي كل ويدخل من نزلت فيه دخولاً أولياً ، و ﴿ أَثِيمٍ ﴾ صفة ﴿ أَفَّاكٍ ﴾

وقوله تعالى :

﴿ يَسْمَعُ ءايات الله ﴾ صفة أخرى له ، وقيل استئناف ، وقيل حال من الضمير في ﴿ أَثِيمٍ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ تتلى عَلَيْهِ ﴾ حال من ﴿ الله إِلاَّ ﴾ ولم يجوز جعله مفعولاً ثانياً ليسمع لأن شرطه أن يكون ما بعده مما لا يسمع كسمعت زيداً يقرأ ، والظاهر أن المراد بتتلى الاستمرار لأنه المناسب للاستبعاد المدلول عليه بقوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ فإن ثم لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات وهي للتراخي الرتبي ويمكن إبقاؤه على حقيقته إلا أن الأول أبلغ وأنسب بالمقام ، ونظير ذلك في الاستبعاد قول جعفر بن علية :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة . . .

يرى غمرات الموت ثم يزورها

والإصرار على الشيء ملازمته وعدم الانفكاك عنه من الصر وهو الشد ومنه صرة الدراهم ، ويقال : صر الحمار أذنيه ضمهما صراً وأصر الحمار ولا يقال أذنيه على ما في

"الصحاح" وكأن معناه حينئذ صار صاراً أذنيه .

والمراد هنا ثم يقيم على كفره وضلاله ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ عن الايمان بالآيات وهو حال من ضمير ﴿ يُصِرُّ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ حال بعد حال أو حال من ضمير ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ وجوز الاستئناف ، و ﴿ كَأَنَ ﴾ مخففة من كأن بحذف إحدى النونين واسمها ضمير الشأن ، وقيل : لا حاجة إلى تقديره كما في أن المفتوحة ، والمعنى يصر مستكبراً مثل غير السامع لها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على إصراره ذلك ، والبشارة في الأصل الخبر المغير للبشرة خيراً كان أو شراً ، وخصها العرف بالخبر السار فإن أريد المعنى العرفي فهو استعارة تهكمية أو هو من قبيل :

(70/699)

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءايَاتِنَا شَيْئاً ﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها .

﴿ اتخذها هُزُواً ﴾ بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ، وجوز أن يكون المعنى وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملاً يتسلق به على الطعن والغميزة افترصه واتخذ آيات الله تعالى هزواً وذلك نحو اعتراض ابن

الزبعري في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] ومغالطته رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله على ما بعض الروايات : خصمتك فضمير ﴿ اتخذها ﴾ على الوجهين للآيات ، والفرق بينهما أن ﴿ شَيْئاً ﴾ على الثاني فيه تخصيص لقرينة ﴿ اتخذها هُزُواً ﴾ إذ لا يحتمل إلا ما يحسن أن يخيل فيه ذلك ثم يجعله دستوراً للباقي فيقول : الكل من هذا القبيل ، وفرق بين الوجهين أيضاً بأن الأول الاتخاذ قبل التأمل وفي الثاني بعده وبعد تمييز آية عن أخرى ، وقيل : الاستهزاء بما علمه من الآيات إلا أنه أرجع الضمير إلى الآيات لأن الاستهزاء بواحدة منها استهزاء بكلها لما بينها من التماثل ، وجوز أن يرجع الضمير إلى شيء والتأنيث لأنه بمعنى الآية كقول أبي العتاهية :

نفسي بشيء من الدنيا معلقة . . .

الله والقائم المهدي يكفيها

يعني الشيء وأراد به عتبة جارية للمهدي من حظاياه وكان أبو العتاهية يهواها فقال ما قال .

وقرأ قتادة .

ومطر الوراق ﴿ عِلْمٍ ﴾ بضم العين وشد اللام مبنياً للمفعول ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى ﴿ كل أفاك ﴾ [الجاثية : 7] من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح ، والجمع باعتبار الشمول للكل كما في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : 32] كما أن

الأفراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد ، وأداة البعد للإشارة إلى بعد منزلتهم في الشر .

(71/699)

﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وصف العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله عز وجل :

﴿ مّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي من قدامهم لأنهم متوجهون إليها أو من خلفهم لأنهم معرضون عن الالتفات إليها والاشتغال عما ينجيهم منها مقبلون على الدنيا والانهماك في شهواتها ، والوراء تستعمل في هذين المعنيين لأنها اسم للجهة التي يواريها الشخص فتعم الخلف والقدام ، وقيل في توجيه الخلفية : إن جهنم لما كانت تتحقق لهم بعد الأجل جعلت كأنها خلفهم ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُم ﴾ ولا يدفع ﴿ مَّا كَسَبُواْ ﴾ أي الذي كسبوه من الأموال والأولاد ﴿ شَيْئاً ﴾ من عذاب الله تعالى أو شيئاً من الإغناء على أن ﴿ شَيْئاً ﴾ مفعول به أو مفعول مطلق ﴿ وَلاَ مَا اتخذوا ﴾ أي الذي اتخذوه ﴿ مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾ أي الأصنام .

وجوز أن تفسر ﴿ مَا ﴾ بما تعمها وسائر المعبودات الباطلة ، والأول أظهر ، وجوز في ﴿

مَا ﴾ في الموضعين أن تكون مصدرية ، وتوسيط حرفي النفي بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً مبني على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ، وفيه تهكم ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره .

﴿ هذا ﴾ أي القرآن كما يدل عليه ما بعد وكذا ما قبل ك ﴿ يسمع آيات الله ﴾ [الجاثية : 8] و ﴿ إذا علم من آياتنا ﴾ [الجاثية : 9] و ﴿ تِلْكَ آيات الله نَتْلُوهَا ﴾ [الجاثية : 6] ﴿ هُدًى ﴾ في غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها ﴿ والذين كَفَرُواْ بآيات رَبِّهِمْ ﴾ يعني القرآن أيضاً على أن الإضافة للعهد ، وكان الظاهر الإضمار لكن عدل عنه إلى ما في النظم الجليل لزيادة تشنيع كفرهم به وتفظيع حالهم ، وجوز أن يراد بالآيات ما يشمله وغيره .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مّن رّجْزٍ ﴾ من أشد العذاب ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بالرفع صفة ﴿ عَذَابِ ﴾ أخر للفاصلة .

وقرأ غير واحد من السبعة ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بالجر على أنه صفة ﴿ رِجْزَ ﴾ ، وجعله صفة ﴿ عَذَابِ ﴾ أيضاً والجر للمجاورة مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ، وقيل : على قراءة الرفع إن الرجز بمعنى الرجس الذي هو النجاية ، والمعنى لهم عذاب أليم من تجرع رجس أو شرب رجس والمراد به الصديد الذي يتجرعه الكافر ولا يكاد يسيغه ولا داعي لذلك كما لا يخفى ، وتنوين ﴿ عَذَابِ ﴾ في المواقع الثلاثة للتفخيم ، ورفعه إما على الابتداء وإما على الفاعلية للظرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(73/699)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) ﴾

ذكر جل وعلا ، في هذه الآيات الكريمة ، من أول سورة الجاثية ست براهين ، من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله ، وكمال قدرته ، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى .

الأول : منها خلقه السماوات والأرض . الثاني : خلقه الناس .

الثالث : خلقه الدواب .

الرابع : اختلاف الليل ونهار .

الخامس : إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به .

السادس : تصريف الرياح .

وذكر أن هذه الآيات والبراهين ، إنما ينتفع بها المؤمنون ، الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه ، وآياته .

فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم .

ولذا قال : ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة ، جاءت موضحة في آيات كثيرة جداً كما هو معلوم .

(74/699)

أما الأول منها وهو خلقه السماوات والأرض المذكور في قوله : ﴿ إِنَّ فِي السماوات والأرض لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وذكرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيب ﴾ [ق : 6 – 8] وقوله تعالى ﴿

أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [سبأ : 9] الآية . وقوله : ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 101] الآية . وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السماوات والأرض ﴾ [الأعراف : 185] الآية . وقوله ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض ﴾ [الروم : 22 والشورى : 29] في الروم والشورى . وقوله : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً ﴾ [البقرة : 22] وقوله : ﴿ الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً والسمآء بِنَآءً ﴾ [غافر : 64] ، وقوله تعالى ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون والأرض فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الماهدون ﴾ [الذاريات : 47 - 48] . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً ﴾ [النبأ : 6] الى قوله ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ [النبأ : 12] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً معروفة .

(75/699)

وأما الثاني منها : وهو خلقه الناس المذكور في قوله : ﴿ وَفِي خَلْقِكُم ﴾ فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : 20] وقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين

مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة: 21] الآية. وقوله تعالى عن نبيه نوح: ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ نوح: [13 - 14]، وقوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك لا إله إِلاَّ هُوَ فَأَنى تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: 6] وقوله ﴿ وفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: 21]، والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الثالث منها: وهو خلقه الدواب المذكور في قوله: ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ فقد جاء أيضاً موضحاً في آيات كثيرة أيضاً من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: 29]. وقوله تعالى في البقرة: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السمآء مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [البقرة: 164] الآية. وقوله تعالى: ﴿ واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: 45]، وقوله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر: 6] والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الرابع منها : وهو اختلاف الليل والنهار المذكور في قوله : واختلاف الليل والنهار . فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى فى البقرة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس ﴾ [البقرة : 164] الى قوله ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 164] . وقوله تعالى في آل عمران ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب ﴾ [آل عمران : 190] ، وقوله تعالى في فصلت : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ [فصلت : 37] الاية ، وقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس : 37 – 38] الآية . وقوله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ الله الليل والنهار إِنَّ فِي ذلك لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأبصار ﴾ [النور : 44] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ القصص : 71 – 73] ، وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اختلاف الليل والنهار أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمون : 80] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما الخامس منها وهو : إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به وإنبات الرزق فيها المذكور فى قوله : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السمآء مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فقد جاء موضحاً أيضاً فى آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى فى البقرة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السمآء مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة : 164] الى قوله ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ [البقرة : 164] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾ [عبس : 24 - 27] الى قوله ﴿ مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : 32] وإيضاح هذا البرهان باختصار أن قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ [عبس : 24 ﴾ أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف أن ينظر ويتأمل في طعامه كالخبز الذي يأكله ، ويعيش به من خلق الماء الذي كان سبباً لنباته . هل يقدر أحد غير الله أن يخلقه ؟

الجواب : لا .

ثم وهب أن الماء قد خلق بالفعل ، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله إلى الأرض ، على هذا

الوجه الذي يحصل به النفع ، من غير ضرر بإنزاله على الأرض رشاً صغيراً ، حتى تروى به الأرض تدريجاً . من غير أن يحصل به هدم ، ولا غرق كما قال تعالى ﴿ فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ [النور : 43 والروم : 48] .

الجواب : لا .

ثم هب أن الماء قد خلق فعلاً ، وأنزل في الأرض ، على ذلك الوجه الأتم الأكمل ، هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض ، ويخرج منها مسمار النبات ؟

الجواب : لا .

ثم هب أن النبات خرج من الأرض ، وانشقت عنه فهل يقدر أحد غير الله أن يخرج السنبل من ذلك النبات ؟

الجواب : لا .

(78/699)

ثم هب أن السنبل خرج من النبات فهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبه وينقله من طور إلى طور حتى يدرك ويكون صالحاً للغذاء والقوت ؟

الجواب : لا .

وقد قال تعالى : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 99] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ : 14 – 16] . وقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 33] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

واعلم أن إطلاقه تعالى الرزق على الماء ، فى آية الجاثية هذه ، قد أوضحنا وجهه فى سورة المؤمن فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ [غافر : 13] الآية .

وأما السادس منها : وهو تصريف الرياح المذكور فى قوله ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ فقد فقد جاء موضحاً أيضاً فى آيات من كتاب الله كقوله فى البقرة : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 164] وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ [الروم : 46] ، وقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 22] الى غير ذلك من الآيات .

تنبيه

اعلم أن هذه البراهين العظيمة المذكورة ، في أول سورة الجاثية ، هذه ثلاثة منها ، من براهين البعث ، التي يكثر في القرآن العظيم ، الاستدلال بها على البعث ، كثرة مستفيضة .

وقد أوضحناها في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة وسورة النحل وغيرهما ، وأحلنا عليها مراراً كثيرة من هذا الكتاب المبارك وسنعيد طرفاً منها هنا لأهميتها إن شاء الله تعالى .

(79/699)

والأول من البراهين المذكورة هو خلق السماوات والأرض هنا في سورة الجاثية هذه ﴿ إِنَّ فِي السماوات والأرض لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن خلقه جل وعلا للسماوات والأرض ، من أعظم البراهين على بعث بعد الموت لأن خلق الأعظم الأكبر ، لا شك في قدرته على خلق الأضعف الأصغر .

والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] أي ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أن قادر على خلق الأصغر ، وقوله تعالى :

﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ ﴿ يس : 81] . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى بلى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [

الأحقاف : 33] وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [الإسراء : 99] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُم ﴾ [النازعات : 27 - 33] .

ونظيرة آية النازعات هذه قوله تعالى فى أول الصافات : ﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ [الصافات : 11] الآية ، لأن قوله : ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ يشير به الى خلق السماوات والأرض ، وما ذكر معهما المذكور فى قوله تعالى : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ [الصافات : 5] الى قوله ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] .

(80/699)

وأما الثانى من البراهين المذكورة : فهو خلقه تعالى للناس المرة الأولى ، لأن من ابتدع خلقهم على غير مثال سابق ، لا شك فى قدرته على إعادية خلقهم ، مرة أخرى كما لا يخفى .

(81/699)

والاستدلال بهذا البرهان على البعث كثير جداً في كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ ﴿ الحج : 5] الى آخر الآيات . وقوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ [يس : 78 – 79] وقوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾ [مريم : 66 – 68] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ﴾ [الإسراء : 51] وقوله تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : 104] وقوله تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ق : 15] وقوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ [الواقعة : 62] وقوله تعالى : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ [النجم : 45 – 47] وقوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ [القيامة : 36 – 40] .

(82/699)

وقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون وَطُورِ سِينِينَ وهذا البلد الأمين لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 1 – 4] الى قوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ [التين : 7] يعنى أى شئ يحملك على التكذيب بالدين أى بالبعث والجزاء ، وقد علمت أنى خلقتك الخلق الأول فى أحسن تقويم ، وأنت تعلم أنه لا يخفى على عاقل أن من ابتدع الإيجاد الأول لا شك فى قدرته ، على إعادته مرة أخرى إلى غير ذلك من الآيات .

وأما البرهان الثالث منها : وهو إحياء الأرض بعد موتها المذكور فى قوله تعالى فى سورة الجاثية هذه : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، فانه يكثر الاستدلال به أيضاً على البعث فى القرآن العظيم ، لأن من أحيا الأرض بعد موتها قادر على أحياء الناس بعد موتهم ، لأن الجميع أحياء بعد موت .

(83/699)

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتبلغوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ [الحج : 5 – 7] وقوله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : 50] وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 57] .

(84/699)

فقوله تعالى : ﴿ كَذَالِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾ أى نبعثهم من قبورهم أحياء كما أخرجنا تلك الثمرات بعد عدمها ، وأحيينا بإخراجها ذلك البلد الميت ، وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحي

مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَيُحْيِي الأَرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : 19] يعني تخرجون من قبوركم أحياء بعد الموت ، وقوله تعالى : ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الخروج ﴾ [ق : 11] إلى غير ذلك من الآيات .

أقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق ﴾ .

أشار جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم إلى آيات القرآن العظيم ، وبين لنبيه أنه يتلوها عليه ، متلبسة بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

وما ذكره جل وعلا في آية الجاثية هذه ، ذكره في آيات أخر بلفظه كقوله تعالى في البقرة ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرض ولكن اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العالمين تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق وَإِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [البقرة : 251 - 252] وقوله تعالى في آل عمران : ﴿ وَأَمَّا الذين ابيضت وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : 107 - 108] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ تلك ﴾ بمعنى هذه .

ومن أساليب اللغة العربية إطلاق الإشارة إلى البعيد على الإشارة إلى القريب كقوله : ﴿ ذَلِكَ الكتاب ﴾ [البقرة : 2] بمعنى هذا الكتاب . كما حكاه البخاري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، ومن شواهده قول خفاف بن ندبة السلمي :

فإن تك خيلي قد أصيب صميمها . . . فعمداً على عيني تيممت مالكاً

أقول له والرمح يأطر متنه . . . تأمل خفافاً إنني أنا ذالكما

هذا .

(85/699)

وقد اوضحنا هذا المبحث وذكرنا أوجهه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتب) في أول سورة البقرة وقوله تعالى : ﴿ نتلوها ﴾ أي نقرؤها عليك .

وأسند جل وعلا تلاوتها إلى نفسه لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله بواسطة الملك ، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغاً عنه جل وعلا .

ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 16 - 19] .

فقوله : فإذا قرأناه أي قرأه عليك المرسل به ، من قبلنا مبلغاً عنا ، وسمعته منه ، فاتبع قرآنه أي فاتبع قراءته واقرأه كما سمعته يقرؤه .

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] .

وسماعه صلى الله عليه وسلم القرآن من الملك المبلغ من الله كلام الله وفهمه له هو معنى

تنزله إياه على قلبه في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : 97] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 192 - 195] وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ [الجاثية : 6] يعني آياته الدينية .

واعلم أن لفظ الآية ، يطلق في اللغة العربية إطلاقين ، وفي القرآن العظيم إطلاقين أيضاً . أما إطلاقاه في اللغة العربية .

فالأول منهما وهو المشهور في كلام العرب ، فهو إطلاق الآية بمعنى العلامة ، وهذا مستفيض في كلام العرب ، ومنه قول نابغة ذبيان :

توهمت آيات لها فعرفتها . . . لستة أعوام وذا العام سابع

ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار في قوله بعده :

رماد ككحل العين لأياً أبنيته . . . ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

(86/699)

وأما الثاني منهما فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة ، يقولون : جاء بآيتهم أي بجماعتهم .

ومنه قول برج بن مسهر :

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا . . . بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقوله : بآياتنا يعني بجماعتنا .

وأما إطلاقاه في القرآن العظيم .

فالأول منهما إطلاق الآية الشرعية الدينية كآيات هذا القرآن العظيم ، ومنه قوله تعالى هنا : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا ﴾ الآية .

وأما الثاني منهما : فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية كقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأُوْلِي الألباب ﴾ [آل عمران : 190] .

أما الآية الكونية القدرية فهي بمعنى الآية اللغوية التي هي العلامة ، لأن الآيات الكونية علامات قاطعة ، على أن خالقها هو الرب المعبود وحده .

وأما الآية الشرعية الدينية ، فقال بعض العلماء : أنها أيضاً من الآية التي هي العلامة ، لأن آيات هذا القرآن العظيم ، علامات على صدق من جاء بها ، لما تضمنته من برهان الإعجار ، أو لأن فيها علامات يعرف بها مبدأ الآيات ومنتهاها .

وقال بعض العلماء أنها من الآية بمعنى الجماعة ، لتضمنها جملة من كلمات القرآن وحروفه .

واختار غير واحد أن أصل الآية أيية بفتح الهمزة وفتح الياءين بعدها ، فاجتمع في الياءين

موجباً إعلال ، لأن كل منهما متحركة أصلية بعد فتح متصل ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

من واو وياء بتحريك أصل . . . ألفاً أبدل بعد فتح متصل

إن حراك التالي . . . . الخ

والمعروف في علم والمعروف فى علم التصريف ، أنه إن اجتمع موجبا إعلال فى كلمة واحدة فالأكثر فى اللغة العربية تصحيح الأول منهما ، وإعلال الثانى بإبداله ألفا كالهوى والنوى والطوى والشوى ، وربما صحح الثانى وأعل الأول كغاية ، وراية ، وآية على الأصح ، من أقوال عديدة ، ومعلوم أن إعلالهما لا يصح ، ولذها أشار فى الخلاصة بقوله :

من واو وياء بتحريك أصل . . . ألفاً أبدل بعد فتح متصل

(87/699)

ان حرك التالي . . . إلخ .

والمعروف فى علم التصريف ، أنه إن اجتمع موجباً إعلال فى كلمة واحدة فالأكثر فى اللغة العربية تصحيح الأول منها ، وإعلال الثانى بإبداله ألفا كالهوى والنوى والطوى والشوى ، وربما صحح الثانى وأعل الأول كغاية وراية ، وآية على الأصح ، من اقوال عديدة ، ومعلوم

أن إعلالهما لا يصح ، ولهذا أشار فى الخلاصة بقوله :

وإن لحرفين ذا الإعلال استحق . . . صحح أول وعكس قد يحق

قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أن من كفر بالله وبآيات الله ولم يؤمن بذلك مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان بالله ، وآياته أنه يستبعد ، أن يؤمن بشئ آخر ، لأنه لو كان يؤمن بحديث لآمن بالله وبآياته لظهور الأدلة على ذلك ، وأن من لم يؤمن بآيات الله متوعد بالويل ، وأنه أفاك أثيمن والأفاكك كثير الإفك وهو أسوأ الكذب ، والأثيم : هو مرتكب الإثم بقلبه وجوارحه ، فهو مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه ، قد ذكره تعالى فى غير هذا الموضع فتوعد المكذبين لهذا القرآن ، بالويل يوم القيامة ، وبين استبعاد إيمانهم ، بأى حديث بعد أن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، وذلك بقوله فى آخر المرسلات :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات : 48 – 50] فقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ كقوله هنا ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ .

وقد كرر تعالى وعيد المكذبين بالويل فى سورة المرسلات كما هو معلوم وقوله فى آخر المرسلات :

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ كقوله هنا فى الجاثية : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ومعلوم أن الإيمان بالله على الوجه الصحيح ، يستلزم الإيمان بآياته ، وأن الإيمان بآياته كذلك يستلزم الإيمان به تعالى ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يدل على ان من يسمع القرآن يتلى ثم يصير على الكفر والمعاصي فى حالة كونه متكبراً عن الانقياد إلى الحق الذى تضمنته آيات القرآن كأنه لم يسمع آيات الله ، له البشارة يوم القيامة بالعذاب الأليم وهو الخلود فى النار ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى في لقمان : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : 7] وقوله تعالى فى الحج : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلكم النار وَعَدَهَا اللهُ الذين كَفَرُواْ وَبِئْسَ المصير ﴾ [الحج : 72] وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الذين

طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد : 16] ، فقوله تعالى عنهم : ماذا قال آنفاً : يدل على أنهم ما كانوا يبالون بما يتلو عليهم النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والهدى .

(89/699)

وقد ذكرنا كثيراً من الآيات المتعلقة بهذا المبحث فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : 4 - 5] الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ خففت فيه لفظة كأن ، ومعلوم أن كأن إذا خففت كان اسمها مقدراً وهو ضمير الشأن والجملة خبرها كما قال فى الخلاصة :

وخففت كأن أيضاً فنوى . . . منصوبها وثابتاً أيضاً روى

وقد قدمنا فى أول سورة الكهف : أن البشارة تطلق غالباً على الإخبار بما يسر ، وأنها ربما أطلقت فى القرآن وفى كلام العرب على الإخبار بما يسوء أيضاً .

وأوضحنا ذلك بشواهده العربية ، وقوله فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ .

قال بعض العلماء : ﴿ وَيْلٌ ﴾ واد فى جهنم .

والأظهر أن لفظه ﴿ وَيْلٌ ﴾ كلمة عذاب وهلاك ، وأنها مصدر لا لفظ له من فعله ، وأن المسوغ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها فى معرض الدعاء عليهم بالهلاك .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قرأه نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو وحفص ، عن عاصم : يؤمنون بياء الغيبة .

وقرأه ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وشعبة عن عاصم تؤمنون بتاء الخطاب .

وقرأه ورش عن نافع والسوسي عن أبى عمرو يؤمنون بإبدال الهمزة واواً وصلاً ووقفاً .

وقرأه حمزة بإبدال الهمزة واواً فى الوقف دون الوصل .

والباقون بتحقيق الهمزة مطلقاً .

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (9)

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة توعد الأفاك الأثيم بالويل ، والبشارة بالعذاب الأليم .

(90/699)

وقد قدمنا قريباً أن من صفاته ، أنه إذا سمع آيات الله تتلى عليه أصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، وذكر فى هذه الآية الكريمة أنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً أى مهزوءاً

بها ، مستخفاً بها ، ثم توعده على ذلك بالعذاب المهين .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يتخذون آيات الله هزواً ، وأنهم سيعذبون على ذلك يوم القيامة ، قد بينه تعالى فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى آخر الكهف : ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ واتخذوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً > ﴾ [الكهف : 106]

وقوله تعالى في الكهف أيضاً : ﴿ وَيُجَادِلُ الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق واتخذوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُواْ هُزُواً وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاه ﴾ [الكهف : 56 – 57] الآية . وقوله تعالى فى سورة الجاثية هذه : ﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتخذتم آيَاتِ الله هُزُواً ﴾ [الجاثية : 34 – 35] الآية .

وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة وحفص عن عاصم هزؤاً بضم الزاى بعدها همزة محققة .

وقرأه حفص عن عاصم بضم الزاي وإبدال الهمزة واواً .

وقرأه حمزة هزءاً بسكون الزاي بعدها همزة محققة فى حالة الوصل .

وأما فى حالة الوقف ، فعن حمزة نقل حركة الهمزة إلى الزاي فتكون الزاي مفتوحة بعدها ألف ، وعنه إبدالها واواً محركة بحركة الهمزة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي لأن عذاب الكفار الذين كانوا

يستهزءون بآيات الله لا يراد به إلا إهانتهم وخزيهم وشدة إيلامهم بأنواع العذاب .

وليس فيه تطهير ولا تمحيص لهم بخلاف عصاة المسلمين فإنهم وإن عذبوا فسيصيرون إلى الجنة بعد ذلك العذاب .

(91/699)

فليس المقصود بعذابهم مجرد الإهانة بل ليؤلوا بعده إلى الرحمة ودار الكرامة .

قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ قد قدمنا الآيات الوضحة له مع الشواهد العربية فى سورة إبراهيم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ واستفتحوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّن وَرَآئِهِ ﴾ [إبراهيم : 15- 16] الآية . وبينا هناك أن أصح الوجهين أن وراء بمعنى أمام .

فمعنى من ورائه جهنم أى أمامه جهنم يصلاها يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف : 79] أى أمامهم ملك .

وذكر هناك الشهواهد العربية على إطلاق وراء بمعنى أمام ، وبينا أن هذا هو التحقيق فى معنى الآية وكذلك آية الجاثية هذ ، فقوله تعالى ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى أمامهم جهنم يصلونها يوم القيامة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُمْ مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً وَلاَ مَا اتَّخَذُواْ مِنْ دُونِ

اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ .

أوضح فيه أن ما كسبه الكفار فى دار الدنيا من الأموال والأولاد لا يغنى عنهم شيئاً يوم القيامة أي لا ينفعهم بشئ فلا يجلب لهم بسببه نفع ولا يدفع عنهم بسببه ضر ، وإنما اتخذوه من الأولياء فى دار الدنيا من دون الله ، كالمعبودات التى كانوا يعبدونها ، ويزعمون أنها شركاء لله لا ينفعهم يوم القيامة أيضاً بشئ .

وهاتان المسألتان اللتان تضمنتهما هذه الآية الكريمة ، قد أوضحهما الله فى آيات كثيرة من كتابه .

(92/699)

أما الأولى منها : وهى كونهم لا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً فقد أوضحها فى آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : 1 - 2] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ [الليل : 11] وقوله تعالى : ﴿ الذى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الحطمة ﴾ [الهمزة : 2 - 4] الآية . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر - 50] وقوله تعالى : ﴿ ياليتها كَانَتِ القاضية مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ [الحاقة :

27 – 28] الآية . وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ مَا أَغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف : 48] . وقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ [الشعراء : 87 – 88] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ [سبأ : 37] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ الله شَيْئاً وأولئك هُمْ وَقُودُ النار ﴾ [آل عمران : 10] . قوله تعالى ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ الله شَيْئاً وأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران : 116] . وقوله تعالى فى المجادلة ﴿ اتخذوا أَيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ الله شَيْئاً ﴾ [المجادلة : 16 – 17] الآية .

والآيات بمثل هذا كثيرة جداً ، وقد قدمنا كثيراً منها فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

(93/699)

وأما الثانية منهما ، وهى كونهم لا تنفعهم المعبودات ، التى اتخذوها أولياء من دون الله ، فقد أوضحها تعالى فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى فى هود : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن ظلموا

أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ التي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : 101] . وقوله تعالى ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف : 28] . وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص : 64] : وقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الذين زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾ [الكهف : 52] وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً ﴾ [الأحقاف : 5 – 6] الآية وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : 13 – 14] . وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [81 – 82] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة

الدنيا ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 25] ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ وَلاَ مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ ، الأولياء جمع وليى .

والمراد بالأولياء هنا ، المعبودات التى يوالونها بالعبادة من دون الله ، ﴿ وما ﴾ فى قوله : ﴿ وما كسبوا ﴾ ؟ ﴿ وَمَا اتَّخَذُواْ ﴾ موصولة وهى فى محل رفع فى الموضعين ، لأن ﴿ ما ﴾ الأولى فاعل يغني ﴾ ؟ ﴿ وما ﴾ الثانية معطوفة عليها وزيادة لا ، قبل المعطوف على منفي معروفة . وقوله : ﴿ وَلاَ يُغْنِى ﴾ أي لا ينفع . والظاهر أن أصله من الغناء بالفتح والمد وهو النفع .

ومنه قول الشاعر :

وقل غناء عنك مال جمعته . . . إذا صار ميراثاً ووارك لاحد

فقوله : قل غناء أي قل نفعاً . وقول الآخر :

قل الغناء إذا لاقى الفتى تلفا . . . قول الأحبة لا تبعد وقد بعدا

فقوله : الغناء أي النفع

والبيت من شواهد إعمال المصدر المعرف بالألف واللام ، لأن قوله : قول الأحبة ، فاعل قوله الغناء . وأما الغناء بالكسر والمد فهو الألحان المطربة .

وأما الغنى بالكسر والقصر فهو ضد الفقر .

وأما الغنى بالفتح والقصر فهو الإقامة ، من قولهم غنى بالمكان بكسر النون يغنى بفتحها غنى بفتحتين إذا أقام به .

ومنه قوله تعالى ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ [يونس : 24] وقوله تعالى ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ [الأعراف : 92] كأنهم لم يقيموا فيها .

وأما الغنى بالضم والقصر فهو جمع غنية وهى ما يستغنى به الإنسان .

وأما الغناء بالمد والضم فلا أعلمه فى العربية .

وهذه اللغات التى ذكرنا فى مادة غنى كنت تلقيتها فى أول شبابى فى درس من دروس الفقه لقننيها شيخى الكبير أحمد الأفرم بن محمد المختار الجكنى ، وذكر لي بيتى رجز فى ذلك لبعض أفاضل علماء القطر وهما قوله :

(95/699)

وضد فقر كإلى وكسحاب . . . النفع والمطرب أيضاً ككتاب

وكفتى إقامة وكهنا . . . جمع لغنية لما به الغنى

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

الإشارة فى قوله ﴿ هذا هُدًى ﴾ راجعة للقرآن العظيم المعبر عنه بآيات الله فى قوله ﴿

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ ﴾ [البقرة: 252]. وقوله ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ ﴾ [الجاثية: 6] الآية. وقوله: ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تتلى عَلَيْهِ ﴾ [الجاثية: 8] وقوله: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً ﴾ [الجاثية: 9].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن هدى، وأن من كفر بآياته له العذاب الأليم، جاء موضحاً في غير هذا الموضع.

أما كون القرآن هدى، فقد ذكره تعالى، في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ على عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 52]. وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: 89] وقوله تعالى ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9] وقوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهدى والفرقان ﴾ [البقرة: 185] وقوله ﴿ الم ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 1 - 2] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: 44]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون من كفر بالقرآن يحل له بسبب ذلك العذاب الأليم ، فقد جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [هود : 17] الآية : وقوله تعالى ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً خَالِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ [طه : 99 - 101] وقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ واتخذوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴾ [الكهف : 106] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة .

وقد قدمنا فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت : 17] الآية . وغير ذلك من المواضع ، أن الهدى يطلق فى القرآن إطلاقاً عاماً ، بمعنى أن الهدى هو البيان والإرشاد وإيضاح الحق ، كقوله ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ أي بينا لهم الحق وأوضحناه وأرشدناهم إليه وإن لم يتبعوه ، وكقوله ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 185] وقوله هنا ﴿ هذا هُدًى ﴾ وأنه يطلق أيضاً فى القرآن بمعناه الخاص وهو التفضل بالتوفيق الى طريق الحق والاصطفاء كقوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] وقوله ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت : 44] وقوله ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] وقوله ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أوضحنا فى سورة فصلت أن معرفة إطلاق الهدى المذكورين ، يزول بها الإشكال

الواقع فى آيات من كتاب الله .

والهدى مصدر هداه على غير قياس ، وهو هنا من جنس النعت بالمصدر ، وبينا فيما مضى مراراً أن تنزيل المصدر منزلة الوصف إما على حذف مضاف ، وإما على المبالغة .

(97/699)

وعلى الأول فالمعنى هذا القرآن ذو هدى أي يحصل بسببه الهدى لمن اتبعه كقوله ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] .

وعلى الثانى فالمعنى أن المراد المبالغة فى اتصاف القرآن بالهدى حتى أطلق عليه أنه هو نفس الهدى .

وقوله فى هذه الآية الكريمة ، لهم عذاب من رجز أليم ، أصح القولين فيه أن المراد بالرجز العذاب ، ولا تكرار فى الآية لأن العذاب أنواع متفاوتة والمعنى لهم عذاب ، من جنس العذاب الأليم ، والأليم معناه المؤلم . أى الموصوف بشدة الألم وفظاعته .

والتحقيق إن شاء الله : أن العرب تطلق الفعيل وصفاً بمعنى المفعل ، فما يذكر عن الأصمعى من أنه أنكر ذلك إن صح عنه فهو غلط منه ، لأن إطلاق الفعيل بمعنى المفعل معروف فى القرآن العظيم وفى كلام العرب ، ومن إطلاقه فى القرآن العظيم قوله تعالى ﴿

بَدِيعُ السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 117] أي مبدعهما وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ 46] الآية . أي منذر لكم ، ونظير ذلك من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب :

أمن ريحانة الداعى السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

فقوله الداعي السميع يعني الداعي المسمع . وقوله أيضاً :

وخيل قد دلفت لها بخيل . . . تحية بينهم ضرب وجيع

أي موجع . وقول غيران بن عقبة :

ويرفع من صدور شمردلات . . . يصك وجوهها وهد أليم

أي مؤلم . وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم من رجز أليم بخفض أليم على أنه نعت لرجز .

وقرأه ابن كثير وحفص عن عاصم بن رجز أليم ، برفع أليم على أنه نعت لعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(98/699)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) ﴾

أعقب ذكر المؤمنين الموقنين العَاقلين المنتفعين بدلالة آيات الله وما يفيده مفهوم تلك الصفات التي أجريت عليهم من تعريض بالذين لم ينتفعوا بها ، بصريح ذكر أولئك الذين لم يؤمنوا ولم يعقلوها كما وصف لذلك قوله : ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ [الجاثية : 6] .

وافتتح ذكره بالويل له تعجيلاً لإنذاره وتهديده قبل ذكر حاله .

و(ويل له) كلمة دعاء بالشكر وأصل الويل الشر وحلوله .

و(الأَفَّاك) القويّ الإفك ، أي الكذب .

والأثيم مبالغة أو صفة مشبهة وهو يدل على المبالغ في اقتراف الآثام ، أي الخطايا .

وفسره الفيروزآبادي في "القاموس" بالكذّاب وهو تسامح وإنما الكذب جزئي من جزئيات الأثيم .

وجعلت حالتُه أنه يسمع آيات الله ثم يُصرّ مستكبراً لأن تلك الحالة وهي حالة تكرر سماعه آيات الله وتكرر إصراره مستكبراً عنها تحمله على تكرير تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتكرير الإثم ، فلا جرم أن يكون أفاكاً أثيماً بَلْهَ ما تلبس به من الشرك الذي كله كذب وإثم .

والمراد بـ ﴿ كل أفّاك أثيم ﴾ جميع المشركين الذين كذبوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وعاندوا في معجزة القرآن وقالوا ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ [سبإ : 31] وبخاصة زعماء أهل الشرك وأيمة الكفر مثل النضْر بنِ الحارث ، وأبي جهل وقرنائهم .

و ﴿ آيات الله ﴾ أي القرآن فإنها المتلوة .

و ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لأن ذلك الإصرار بعد سماع مثل تلك الآيات أعظم وأعجب ، فهو يصر عند سماع آيات الله وليس إصراره متأخراً عن سماع الآيات .

والإصرار : ملازمة الشيء وعدم الانفكاك عنه ، وحُذف متعلق ﴿ يصِرّ ﴾ لدلالة المقام عليه ، أي يُصرُّون على كفرهم كما دل على ذلك قوله : ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ [الجاثية : 6] .

(99/699)

وشبه حالهم في عدم انتفاعهم بالآيات بحالهم في انتفاء سماع الآيات ، وهذا التشبيه كناية عن وضوح دلالة آيات القرآن بحيث أن من يسمعها يصدق بما دلت عليه فلولا إصرارهم واستكبارهم لانتفعوا بها .

و﴿ كَأَنْ ﴾ أصلها (كأنَّ) المشددة فخففت فقدر اسمها وهو ضمير الشأن .

وفرّع على حالتهم هذه إنذارهم بالعذاب الأليم وأطلق على الإنذار اسم البشارة التي هي الإخبار بما يسر على طريقة التهكم .

والمراد بالعلم في قوله : ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً ﴾ السمع ، أي إذا ألقى سمعه إلى شيء من القرآن اتخذه هُزؤاً ، أي لا يَتلقى شيئاً من القرآن إلا ليجعله ذريعة للهزء به ، ففعل ﴿ عَلِم ﴾ هنا متعدّ إلى واحد لأنه بمعنى عَرف .

وضمير التأنيث في ﴿ اتخذها ﴾ عائد إلى ﴿ آياتنا ﴾ ، أي اتخذ الآيات هزؤاً لأنه يستهزىء بما علمه منها وبغيره ، فهو إذا علم شيئاً منها استهزأ بما علمه وبغيره .

ومعنى اتخاذهم الآيات هزؤاً : أنهم يلوكونها بأفواههم لوك المستهزىء بالكلام ، وإلا فإن مطلق الاستهزاء بالآيات لا يتوقف على العِلم بشيء منها .

ومن الاستهزاء ببعض الآيات تحريفُها على مواضعها وتحميلها غير المراد منها عمداً للاستهزاء ، كقول أبي جهل لما سَمِع ﴿ إنَّ شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ [الدخان : 43 ، 44] تجاهل بإظهار أن الزقوم اسم لمجموع الزبد والتمر فقال : "زقّمونا" ، وقوله : لما سمع قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عَشَر ﴾ [المدثر : 30] : أنا أُلْقَاهُمْ وحدي .

﴿ هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾ ﴿ لله مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً وَلاَ مَا ﴾ .

جيء باسم الإشارة للتنبيه على أن ما ذكر من الأوصاف من قوله تعالى : ﴿ لكل أفاك أثيم ﴾ إلى قوله ﴿ هزؤاً ﴾ على أن المشار إليهم أحرياء بِهِ لأجْلِ ما قبل اسم الإشارة من الأوصاف .

وجملة ﴿ من ورائهم ﴾ بيان لجملة ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ .

(100/699)

وفي قوله : ﴿ من ورائهم ﴾ تحقيق لحصول العذاب وكونه قريباً منهم وأنهم غافلون عن اقترابه كغفلة المرء عن عدوّ يتبعه من ورائه ليأخذه فإذا نظر إلى أمامه حسب نفسه آمناً .

ففي الوراء استعارة تمثيلية للاقتراب والغفلة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وكان وراءهم مَلِك يأخذ كلّ سفينة غصباً ﴾ [الكهف : 79] ، وقول لبيد :

أليسَ ورائي إنْ تراخت منيتي . . .

لُزومُ العصا تُحنى عليها الأصابع

ومن فسر وراء بقُدّام ، فما رعَى حق الكلام .

وعطف جملة ﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ﴾ على جملة ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ لأن ذلك من جملة العذاب المهين فإن فقدان الفداء وفقدان الوليّ مما يزيد العذاب شدة

ويكسب المعاقب إهانة .

ومعنى الإغناء في قوله : ﴿ ولا يغني عنهم ﴾ الكفاية والنفع ، أي لا ينفعهم .

وعُدي بحرف (عن) لتضمينه معنى يدفع فكأنَّه عُبّر بفعلين لا يغنيهم وبالدفع عنهم ، وتقدم في قوله : ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ في سورة آل عمران (10) .

و ﴿ ما كسبوا ﴾ : أموالهم .

و ﴿ شيئاً ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة ، أي شيئاً من الإغناء لأن ﴿ شيئاً ﴾ من أسماء الأجناسسِ العاليةِ فهو مفسر بما وقع قبله أو بعده ، وتنكيره للتقليل ، أي لا يدفع عنهم ولو قليلاً من جهنم ، أي عذابها .

﴿ ولا ما اتخذوا ﴾ عطف على ﴿ ما كسبوا ﴾ وأعيد حرف النفي للتأكيد ، و ﴿ أولياء ﴾ مفعول ثان ل ﴿ اتخذوا ﴾ .

وحذف مفعوله الأول وهو ضميرهم لوقوعه في حيز الصلة فإن حذف مثله في الصلة كثير .

وأردف ﴿ عذاب مهين ﴾ بعطف ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ لإفادة أن لهم عذاباً غير ذلك وهو عذاب الدنيا بالقتل والأسر ، فالعذاب الذي في قوله : ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ غير العذاب الذي في قوله : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

جملة ﴿ هذا هدى ﴾ استئناف ابتدائي انتُقل به من وصف القرآن في ذاته بأنه منزل من الله وأنه من آيات الله إلى وصفه بأفضل صفاته بأنه هدى ، فالإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى القرآن الذي هو في حال النزول وَالتِلاوةِ فهو كالشيء المشاهد ، ولأنه قد سبق من أوصافه من قوله : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ [الجاثية : 2] وقوله : ﴿ تلك آيات الله ﴾ [الجاثية : 6] إلى آخره ما صيره متميزاً شخصاً بِحسن الإشارة إليه .

ووصف القرآن بأنه ﴿ هدى ﴾ من الوصف بالمصدر للمبالغة ، أي : هاد للناس ، فمن آمن فقد اهتدى ومن كفر به فله عذاب لأنه حَرَمَ نفسه من الهدى فكان في الضلال وارتبق في المفاسد والآثام .

فجملة ﴿ والذين كفروا ﴾ عطف على جملة ﴿ هذا هدى ﴾ والمناسبة أن القرآن من جملة آيات الله وأنه مذكِّر بها ، فالذين كفروا بآيات الله كفروا بالقرآن في عموم الآيات ، وهذا واقع موقع التذييل لما تقدمه ابتداء من قوله : ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ [الجاثية : 7] .

وجيء بالموصول وصلته لما تشعر به الصلة من أنهم حقيقون بالعقاب .

واستُحْضِروا في هذا المقام بعنوان الكُفر دون عنواني الإصرار والاستكبار اللذين

استحضروا بهما في قوله : ﴿ ثم يُصِرّ مستكبراً ﴾ [الجاثية : 8] لأن الغرض هنا النعي عليهم إهمالهم الانتفاع بالقرآن وهو النعمة العظمى التي جاءتهم من الله فقابلوها بالكفران عوضاً عن الشكر ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون ﴾ [الواقعة : 82] .

والرجز : أشد العذاب ، قال تعالى : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يَفْسُقون ﴾ [البقرة : 59] .

ويجوز أن يكون حرف ﴿ مِن ﴾ للبيان فالعذاب هو الرجز ويجوز أن يكون للتبعيض ، أي عذاب مما يسمى بالرجز وهو أشده .

و ﴿ أليم ﴾ يجوز أن يكون وصفاً ل ﴿ عذاب ﴾ فيكون مرفوعاً وكذلك قرأه الجمهور .

(102/699)

ويجوز أن يكون وصفاً ل ﴿ رجزٍ ﴾ فيكون مجروراً كما قرأه ابن كثير وحفص عن عاصم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(103/699)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة الجاثية

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " باسم ملك لا يستظهر بجيشه ، أحد لا يستمسك بعيشه (1) ، جبار ارتدى بكبريائه ، قهار اتصف بعز سنائه .

" بسم الله " باسم كريم صمد ، لا يستغرق وجوده أمد ، أبدى عظيم أحد ، لا يوجد من دونه مفر ولا ملتحد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

﴿ الْعَزِيزِ ﴾ : في جلاله ، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ : في أفعاله .

﴿ الْعَزِيزِ ﴾ : في آزاله ، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ : في لطفه بالعبد بوصف إقباله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

شواهد الربوبية لائحةٌ ، وأدلةُ الإلهية واضحةٌ ؛ فمَنْ صحا مِنْ سَكْرَةِ الغفلة ، ووضعَ سِرَّه في محالِّ العِبرة حَظِيَ – لا محالةَ – بحقائق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

إذا أنعم العبدُ نَظَرَه في استواء قدّه وقامته ، واستكمال عقله وتمام تمييزه ، وما هو مخصوص به في جوارحه وحوائجه ، ثم فكَّرَ فيما عداه من الدواب ؛ في أجزائها وأعضائها . . ثم وقف على اختصاص وامتياز بني آدم من بين البريَّة من الحيوانات في الفهم والعقل والتمييز والعلم ، ثم في الإيمان والعرفان ووجوهِ خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة في فنون الإحسان – عَرَفَ تخصُّصَهم بمناقبهم ، وانفرادَهم بفضائلهم ، فاستيقن أن الله كرَّمهم ، وعلى كثيرٍ من الخلوقات قدَّمَهُم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

---

(1) هكذا في ص ، وفي م . . ولو صح أنها هكذا عن القشيري فربما كان قصده أن الله سبحانه – حي بدون عوامل استمساك تثبت هذه الحياة . . فهو حي لا بسبب أو عارض لأنه لا يفتقر إلى ذلك ، أما المحدث فإنه يعتمد في حياته على ما يحفظ حياته ، وتزول هذه الحياة بزوال عوامل هذا الحفظ .

جَعَلَ اللَّهُ العلومَ الدينية كسببيةً مُصَحَّحةً بالدلائل ، مُحَقِّقةً بالشواهد . فَمَنْ لم يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُه عن الطراط المستقيم (1) ، ووقع في عذاب الجحيم ؛ فاليومَ في ظلمة الحيرة والتقليد ، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فَمَنْ لا يؤمن بها فبأي حديثٍ يؤمن ؟ ومن أي أصل يستمد بعده ؟ ومن أي بَحْرٍ في التحقيق يغترف ؟ هيهات ! ما بقي للإشكال في هذا مجال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

كلُّ صامتٍ ناطقٌ ، يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم .

فَمَنْ استمع بسمع الفهم ، واستبصر بنور التوحيد فاز بذُخْرِ الدارين ، وتصدَّى لِعِزِّ المنزلين . ومَنْ تصامم بحكم الغفلة وقع في وهدة الجهل ، ووُسِم بكيِّ الهَجْر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

قابله بالعناد ، وتأوَّله عَلَى ما يقع له من وجه المراد مِنْ دون تصحيح بإسناد . . . فهؤلاء ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ : مُذِلٌّ .

وقد يُكاشَفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفاتٍ لا يتداخله فيها ريبٌ ، ولا يتخالجه

منها شكٌّ فيما هو به من حاله . . . فإذا استهان بها وقع في ذُلِّ الحجبة وهون الفرقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُمْ مَّا كَسَبُواْ شَيْئًا وَلاَ مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

---

(1) فى هذا ردّ على من يزعمون أن الصوفية يتنكرون العلوم الكسبية فهى كما هو واضح ذات أهمية قصوى في تثبيت الإيمان . هذا في الوقت الذي يقر القشيري بالعلوم الوهبية كما يتضح من الهامش رقم (2) فى الصفحة التالية .

(105/699)

فعند هذه الفترة ، وفي وقت هذه المحنة فلا عُذْرَ يُقْبَلُ منهم ، ولا خطابَ يُسْمَعُ عنهم ، ولهم عذابٌ متصل ، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف :

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبكا . . . فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 387 . 390 ﴾

(106/699)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه وتعالى صفة الربوبية ، ذكر بعض آثارها وما فيها من أياته ، فقال مستأنفاً دالاً على عظمتها بالاسم الأعظم : ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعلى المحيط بجميع صفات الكمال .

ولما كان آخر الآيات التي قدمها الرياح ، ذكر ما يتصرف بتسييرها فقال : ﴿ الذي سخر ﴾ أي وحده من غير حول منكم في ذلك بوجه من الوجوه ﴿ لكم ﴾ أيها الناس بربكم وفاجركم ﴿ البحر ﴾ بما جعل فيه مما لا يقدر عليه إلا واحد لا شريك له فاعل بالاختيار من القبلية للسير فيه بالرقة والليونة والاستواء مع الريح الموافقة وأنه يطفوا عليه ما كان من الخشب مع ما علم من صنعته على هذا الوجه الذي تم به المراد ﴿ لتجري الفلك ﴾ أي السفن ﴿ فيه بأمره ﴾ ولو كانت موقرة بأثقال الحديد الذي يغوص فيه أخف

شيء منه كالإبرة وما دونها .

ولما كان التقدير : لتعبروا بذلك فتعلموا أنه بقدرته خاصة لتؤمنوا به ، عطف عليه قوله : ﴿ ولتبتغوا ﴾ أي تطلبوا بشهوة نفس واجتهاد بما تحملون فيه من البضائع وتتوصلون إليه من الأماكن والمقاصد بالصيد والغوص وغير ذلك ﴿ من فضله ﴾ لم يصنع شيئاً منه سواه .

ولما كان التقدير : لتظهر عليكم آثار نعمته ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي ولتكونوا بحيث يرجوا منكم من ينظر حالكم ذلك الشكر من أنعم عليكم به ليزيدكم من فضله في الدنيا والآخرة .

(107/699)

ولما ذكر آية البحر لعظمتها ، عم بمنافع الخافقين دلالة على أنه ما خلق ذلك كله ، على عظمه إلا لنا ، تنبيهاً على أن الأمر عظيم فقال تعالى : ﴿ وسخر لكم ﴾ أي خاصة ولو شاء لمنعه ﴿ ما في السماوات ﴾ بإنزاله إليكم منبهاً على أنها بحيث لا يمكنكم الوصول إليه بوجه ، وأكد بإعادة الموصول لأن السياق للدلالة على عزته وحكمته الدالتين على توحده باستحقاق العبادة الذي هم له منكرون كما دلتا على توحده بالإيجاد والسيادة

وهم معترفون بذلك بألسنتهم ، وأفعالهم أفعال من ينكره ، فقال : ﴿ وما في الأرض ﴾ وأوصلكم إليه ولو شاء لجعلكم كما في السماء لا وصول لكم إليه ، وأكد ما دل على ما مضى من العموم بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ حال كون ذلك كله من أعيان تلك الأشياء ومن تسخيرها ﴿ منه ﴾ لا صنع لأحد غيره في شيء منه في ذلك ، قال الرازي في اللوامع : قال أبو يعقوب النهر جوري : سخر لك الكل لئلا يسخرك منها شيء ، وتكون مسخراً لمن سخر لك الكل وهو الله تعالى ، فإنه يقبح بالمخدوم أن يخدم خادمه ، وقال القشيري : ما من شيء من الأعيان الظاهرة إلا ومن وجه للانسان به انتفاع ، فمن أن يستسخرك ما هو مسخر لك .

ولما صح أنه لا شريك له في شيء من الخلق لا من الذوات ولا من المعاني ، حسن جداً قوله ، مؤكداً لأن عملهم يخالفه : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم وهو تسخيره لنا كل شيء في الكون ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات واضحات على أنهم في الالتفات إلى غيره في ضلال مبين بعد تسخيره لنا ما لنا من الأعضاء والقوى على هذا الوجه البديع مع أن من هذا المسخر لنا ما هو أقوى منا ﴿ لقوم ﴾ أي ناس فيهم أهلية للقيام بما يجعل إليهم ﴿ يتفكرون ﴾ أنه المتوحد باستحقاق الإلهية فلا يشركون به شيئاً .

ولما علمت دلائل التوحيد على وجه علم منه أنه قد بسط نعمه على جميع خلقه طائعهم وعاصيهم ، فعلمت بواسطة ذلك الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة ، وكان على المقبل عليه المحب له التخلق بأوصافه ، أنتج قوله مخاطباً لأفهم خلقه عنه وأطوعهم له الذي الأوامر إنما هي له من شدة طواعته تكوين لا تكليف : ﴿ قل ﴾ أي بقالك وحالك ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي ادعوا التصديق بكل ما جاءهم من الله : اغفروا تسنناً به من أساء إليكم .

ولما كان هذا الأمر في الذروة من اقتضاء الإحسان إلى المسيء فكيف بالصفح عنه ، كان كأنه علة مستقلة في الإقبال عليه والقبول منه والإعراض عن مؤاخذة المسيء ، فإن ذلك يقدح في كمال الإقبال عليه مع أن من كان يريد هو سبحانه الانتقام منه فهو يكفي أمره ، ومن لم يرد ذلك منه فلا حيلة في كفه بوجه فالاشتغال به عبث فنبه على ذلك بأن جعل جواب الأمر قوله : ﴿ يغفروا ﴾ أي يستروا ستراً بالغاً .

(109/699)

ولما كان العاقل من سعى جهده في نفع نفسه ، وكان الأذى لعباد الله مظنة لتوقع الغضب منه وقادحاً فيما يرجى من إحسانه قال : ﴿ للذين ﴾ وعبر في موضع ﴿ أساؤوا إليهم ﴾ بقوله تعالى : ﴿ لا يرجون ﴾ أي حقيقة ومجازاً ، والتعبير في موضع الخوف بالرجاء لما فيه من الاستجلاب والترغيب والتأليف والاستعطاف ، وقال بعد ما نبه عليه بتلك العبارة من جليل الإشارة : ﴿ أيام الله ﴾ أي مثل وقائع الملك الأعظم المحيط بصفات الكمال في الأمم الخالية بإدالة الدول تارة لهم وأخرى عليهم ، وفيه أعظم ترغيب في الحث على الغفران للموافق في الدين ، وتنبيه على أنه لا يقدم على الإساءة إلى عبيده إلا من أعرض عنه ، فصار حاله حال الآئس من صنائعه سبحانه في جزائه للمسيء والمحسن في الأيام والليالي ، وعبر بالاسم الشريف تنبيهاً على ما له من الجلال والجمال في معاملة كل منهما ، قال ابن برجان : وهذه الآية وشبهها من النسي المذكور في قوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ [البقرة : 106] وليس بنسخ بل هو حكم يجيء ويذهب بحسب القدرة على الانتصار ، وكان ينزل مثل هذا بمكة والمسلمون في ضعف ، ونزل بعد الهجرة آية الجهاد والأمر بالمعروف ، وتركت هذه وأمثالها مسطورة في القرآن لما عسى أن يدور من دوائر أيام الله ومن أيامه إزالة أهل الكفر تنبيهاً للمسلمين ليراجعوا أمرهم ويصلحوا ما بينهم وبين ربهم .

ولما كان من قوصص على جنايته في الدنيا ، سقط عنه أمرها في الآخرة ، وكان المسلط للجاني في الحقيقة إنما هو الله تعالى وكان تسليطه إياه لحكم بالغة تظهر غاية الظهور في الآخرة ، علل الأمر بالغفران مهدداً للجاني ومسلياً للمجني عليه : ﴿ ليجزي ﴾ أي الله في قراءة الجماعة بالتحتانية والبناء للفاعل ، ونحن بما لنا من العظمة في قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي بالنون ، وبناه أبو جعفر للمفعول فيكون النائب عن الفاعل الخير أو الشر بتقدير حرف الجر لجزائهم في الدنيا وفي الآخرة حيث يظهر الحكم وينجلي الظلم .

ولما كان ربما جوزي جميع الجناة ، وربما عفي عن بعضهم بالتوبة عليه أو غيرها تفضلاً لحكم أخرى ويثاب المظلوم على ظلامته لمثل ذلك قال : ﴿ قوماً ﴾ أي من الجناة وإن كانوا في غاية العلو الكبرياء والجبروت ومن المجني عليهم وإن كانوا في غاية الضعف ﴿ بما ﴾ أي بسبب الذي ﴿ كانوا ﴾ أي في جبلاتهم وأبرزوه إلى الخارج ﴿ يكسبون ﴾ أي يفعلون على ظن أنه ينفعهم أو بسبب كسبهم من خير أو شر ، والحاصل أنه تعالى يقول : أعرض عمن ظلمك وكل أمره إليّ فإني لا أظلمك ولا أظلم أحداً ، فسوف أجزيك على صبرك أجزيه على بغيه وأنا قادر ، وأفادت قراءة أبي جعفر الإبلاغ في تعظيم الفاعل وأنه معلوم ، وتعظيم ما أقيم مقامه وهو الجزاء بجعله عمدة مسنداً إليه لأن عظمته على حسب ما أقيم مقامه ، فالتقدير لكون الفعل يتعدى إلى مفعولين كما قال تعالى

﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ [الدهر : 12] ليجزي الملك الأعظم الجزاء الأعظم من الخير للمؤمن والشر للكافر قوماً ، فجعل الجزاء كالفاعل وإن كان مفعولاً كما جعل " زيد " فاعلاً في مات زيد وإن كان مفعولاً في المعنى : تنبيهاً على عظيم تأثير الفعل فإنه لا انفكاك عنه لأنه يجعل متمكناً من المجزي تمكن المجزي من جزائه ومحيصاً به لأن الله تعالى بعظم قدرته يجعل عمل الإنسان نفسه جزاء له ، قال الله تعالى ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ [الأنعام : 139] بما كانوا يعملون ، ويجوز أن يكون النائب عن الفاعل ضمير " الذين " بالنظر إلى لفظه فيكون المعنى : سيجزي الذين آمنوا ناساً كانوا أقوياء على القيام في أذاهم بسبب أذاهم لهم فيجعل كلاً منهم فداء لكل منهم من النار ، وربما رأوا بعض آثار ذلك في الدنيا ، روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد إلا رفعه الله عز وجل " ولأحمد والترمذي واللفظ له وقال حسن صحيح عن أبي كبشة الأنماري ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : " ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : ما نقص مال عبد من صدقة ، وما ظلم

عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله باب فقر " – أو كلمة نحوها ، وروى الحاكم وصحح إسناده ، قال المنذري : وفيه انقطاع عن أبي بن كعب ـ رضى الله عنه ـ قال : " من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ويصل من قطعه " .

(112/699)

ولما رغب سبحانه ورهب وتقرر أنه لا بد من الجزاء ، زاد في الترغيب والترهيب بأن النفع والضر لا يعدوهم فقال شارحاً للجزاء : ﴿ من عمل صالحاً ﴾ قال أو جل ﴿ فلنفسه ﴾ أي خاصة عمله يرى جزاءه في الدنيا أو في الآخرة ﴿ ومن أساء ﴾ أي كذلك إساءة قلت أو جلت ﴿ فعليها ﴾ خاصة إساءته كذلك ، وذلك في غاية الطهور لأنه لا يسوغ في عقل عاقل أن ملكاً يدع عبيده من غير جزاء ولا سيما إذا كان حكيماً وإن كانت نقائص النفوس قد غطت على كثير من العقول ذلك ومن جزائه أنه يديل المسيء على المحسن لهفوة وقعت له ليراجع حاله بالتوبة .

ولما كان سبحانه قادراً لا يفوته شيء كان بحيث لا يعجل فأخر الجزاء إلى اليوم الموعود : ﴿ ثم ﴾ أي بد الابتلاء بالإملاء في الدنيا والحبس في البرزخ ﴿ إلى ربكم ﴾ أي المالك لكم

وحده لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 94.

﴿98

(113/699)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾

اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر وذلك لا يحصل إلا بسبب تسخير ثلاثة أشياء أحدها : الرياح التي تجري على وفق المراد ثانيها : خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك ثالثها : خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه .

وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر ، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى ، وقوله ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ معناه إما بسبب التجارة ، أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، أو لأجل استخراج اللحم الطري .

ثم قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ والمعنى لولا

أن الله تعالى أوقف أجرام السموات والأرض في مقارها وأحيازها لما حصل الانتفاع ، لأن بتقدير كون الأرض هابطة أو صاعدة لم يحصل الانتفاع بها ، وبتقدير كون الأرض من الذهب والفضة أو الحديد لم يحصل الانتفاع ، وكل ذلك قد بيناه ، فإن قيل ما معنى ﴿ مِنْهُ ﴾ في قوله ﴿ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ ؟ قلنا معناه أنها واقعة موقع الحال ، والمعنى أنه سخّر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعني أنه تعالى مكونها وموجودها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه ، قال صاحب "الكشاف" قرأ سلمة بن محارب منه على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازي أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ذلك منه أو هو منه .

(114/699)

واعلم أنه تعالى لم علم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة بقوله ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ والمراد بالذين لا يرجون أيام الله الكفار ، واختلفوا في سبب نزول الآية قال ابن عباس ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ يعني عمر ﴿ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ يعني عبد الله بن أُبي ، وذلك أنهم نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها المريسيع ، فأرسل عبد الله غلامة

ليستقي الماء فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له ما حبسك ؟ قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحد يستقي حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبي بكر وملأ لمولاه ، فقال عبد الله ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمن كلبك يأكلك ، فبلغ قوله عمر فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال مقاتل شتم رجل من كفار قريش عمر بمكة فهم أن يبطش به فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية .

وروى ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودي لما أنزل قوله ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَنًا ﴾ [البقرة : 245] قال احتاج رب محمد ، فسمع بذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج في طلبه ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طلبه حتى رده ، وقوله ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ قال ابن عباس لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية ، وذكرنا تفسير أيام الله عند قوله

﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ [إبراهيم : 5] وأكثر المفسرين يقولون إنه منسوخ ، وإنما قالوا ذلك لأنه يدخل تحت الغفران أو لا يقتلوا ، فما أمر الله بهذه المقاتلة كان نسخاً ، والأقرب أن يقل إنه محمول على ترك المنازعة في المحقرات على التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية والأفعال الموحشة .

ثم قال تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي لكي يجازي بالمغفرة قوماً يعملون الخير ، فإن قيل : ما الفائدة في التنكير في قوله ﴿ ليجزي قَوْماً ﴾ مع أن المراد بهم هم المؤمنون المذكورون في قوله ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ ؟ قلنا التنكير يدل على تعظيم شأنهم كأنه قيل : ليجزي قوماً وأي قوم من شأنهم الصفح عن السيئات والتجاوز عن المؤذيات وتحمل الوحشة وتجرع المكروه ، وقال آخرون معنى الآية قل للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار ، ليجزي الله الكفار بما كانوا يكسبون من الإثم ، كأنه قيل لهم لا تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن ، ثم ذكر الحكم العام فقال : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ ﴾ وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون ﴿ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ مثل ضربه للكفار الذين كانوا يقدمون على إيذاء الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل ، فبيّن تعالى أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله ، والعمل الردىء يعود بالضرر على فاعله ، وأنه تعالى أمر بهذا ونهى عن ذلك لحظ العبد لا لنفع يرجع إليه ، وهذ ترغيب منه في العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 225 . 226 ﴾

(116/699)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي سَخَّرَ لَكُمُ البحرِ لِتَجْرِيَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده ، وبيّن أنه خلق ما خلق لمنافعهم .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسانٌ منه وإنعام .

وقرأ ابن عباس والجحدرِي وغيرهما "جَمِيعاً مِنّةً" بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء ، منصوباً على المصدر .

قال أبو عمرو : وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها "مِنّةً" أي تفضلاً وكرماً .

وعن مسلمة بن محارب أيضاً "جميعاً مَنُّهُ" على إضافة المنّ إلى هاء الكناية .

وهو عند أبي حاتم خبر ابتداء محذوف ، أي ذلك ، أو هو مَنُّه .

وقراءة الجماعة ظاهرة .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ ﴾ جزم على جواب "قُلْ" تشبيهاً بالشرط والجزاء ؛ كقولك : قم تُصِب خيراً .

وقيل : هو على حذف اللام .

وقيل : على معنى قل لهم اغفروا يغفروا ؛ فهو جواب أمر محذوف دلّ الكلام عليه ؛ قاله عليّ بن عيسى واختاره ابن العربيّ .

ونزلت الآية بسبب أن رجلاً من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمّ أن يبطش به .

قال ابن العربيّ : وهذا لم يصح .

وذكر الواحديّ والقشيريّ وغيرهما عن ابن عباس : أن الآية نزلت في عمر مع عبد الله بن أُبيّ في غَزْوة بني المُصْطَلِق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها "المُرَيْسِيع" فأرسل عبد الله غلامه ليستقي ، وأبطأ عليه فقال : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر ، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قِرب النبيّ صلى الله عليه وسلم وقِرب أبي بكر ، وملأ لمولاه .

فقال عبد الله : ما مَثَلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سَمِّن كلبك يأكلك .

(117/699)

فبلغ عمرَ رضي الله عنه قولُه ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ؛ فأنزل الله هذه الآية .

هذه رواية عطاء عن ابن عباس .

وروى عنه ميمون بن مِهران قال : " لما نزلت ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ [البقرة : 245] قال يهوديّ بالمدينة يقال له فِنحاص : احتاج ربّ محمد ! قال : فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه ؛ فجاء جبريل عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "إن ربّك يقول لك قُلْ لِلَّذِين آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِين لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ" .

وأعلمَ أن عمر قد اشتمل على سيفه وخرج في طلب اليهودي ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه ، فلما جاء قال : "يا عمر ، ضع سيفك" قال : يا رسول الله ، صدقت ، أشهد أنك أرسلت بالحق .

قال : "فإن ربك يقول : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ " قال : لا جرم ! والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي " .

قلت : وما ذكره المهدوِيّ والنحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول القُرَظيّ والسُّدّي ، وعليه يتوجه النسخ في الآية .

وعلى أن الآية نزلت بالمدينة أو في غزوة بني المُصْطَلِق فليست بمنسوخة .

ومعنى : "يَغْفِرُوا" يعفوا ويتجاوزوا .

ومعنى : "لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ" أي لا يرجون ثوابه .

وقيل : أي لا يخافون بأس الله ونقمه .

وقيل : الرجاء بمعنى الخوف ؛ كقوله : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح : 13] أي

لا تخافون له عظمة .

والمعنى : لا تخشون مثل عذاب الأمم الخالية .

والأيام يعبّر بها عن الوقائع .

وقيل : لا يأمُلون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه .

وقيل : المعنى لا يخافون البعث .

﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ قراءة العامة "لِيَجْزِيَ" بالياء على معنى ليجزي الله .

وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر "لِنَجْزِيَ" بالنون على التعظيم .

(118/699)

وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة "لِيُجْزَى" بياء مضموم وفتح الزاي على الفعل المجهول ، "وقَوْماً" بالنصب .

قال أبو عمرو : وهذا لحن ظاهر .

وقال الكسائيّ : معناه ليجزي الجزاءُ قوماً ، نظيره : ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 88] على قراءة ابن عامر وأبي بكر في سورة "الأنبياء" .

قال الشاعر :

ولو وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جرْوَ كَلْبٍ . . .

لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا

أي لَسُبَّ السَّبُّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(119/699)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ حم ﴾ الكلامُ فيه كما مرَّ في فاتحةِ سورةِ المؤمنِ فإنْ جُعلَ اسماً للسورةِ ، فمحلُّه الرفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ أي هذا مُسمَّى بحم . والإشارةُ إلى السورةِ قبل جريانِ ذكرِها قد وقفتَ على سرِّه مراراً ، وإنْ جُعلَ مسروداً على نمطِ التعديدِ فلا حظَّ له من الإعرابِ . وقولُه تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ على الأولِ خبرٌ بعدَ خبرٍ ، على أنَّه مصدرٌ أطلقَ على المفعولِ مبالغةً ، وعلى الثانِي خبرٌ لمبتدأٍ مضمرٍ يلوحُ به ما قبلَهُ أي المؤلفُ من جنسِ ما ذُكِرَ تنزيلُ الكتابِ وقيلَ : هو خبرٌ لحم أي المُسمَّى به تنزيلُ الخ وقد مرَّ مراراً أنَّ الذي يُجعلُ عُنواناً للموضوعِ حقَّه أنْ يكونَ قبلَ ذلكَ معلومَ الانتسابِ إليه ، وإذ لا عهدَ بالتسميةِ بعدُ فحقُّها الإخبارُ بها ، وأما جعلُه خبراً له بتقديرِ المضافِ وإبقاءِ التنزيلِ على

أصلِه أي تنزيلُ حم تنزيلُ الكتابِ فمعَ عرائهِ عن إفادةِ فائدةٍ يُعتدُّ بها تمحلٌ على تمحلٍ .

وقولُه تعالى : ﴿ مِنَ اللهِ العزيزِ الحكيم ﴾ كما مرَّ في صدرِ سورةِ الزمرُ على التفصيلِ ، وقيلَ : حم مقسمٌ به ، وتنزيلُ الكتابِ صفتُه ، وجوابُ القسمِ قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ فِى السموات والأرض لأَيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو على الوجوهِ المتقدمةِ كلامٌ مسأنفٌ مسوقٌ للتنبيهِ على الآياتِ التكوينيةِ الآفاقيةِ والأنفسيةِ ، ومحلُّ الآياتِ إمَّا نفسُ السمواتِ والأرضِ فإنَّهما منطويتانِ من فنونِ الآياتِ على ما يقصرُ عنه البيانُ وإما خلقُهما كما في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السموات والأرض ﴾ وهو الأوفقُ بقولِه تعالى ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ أي من نطفةٍ ثم من علقةٍ متقلبةٍ في أطوارٍ مختلفةٍ إلى تمامِ الخلقِ ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ عطفٌ على المضافِ دونَ المضافِ إليه أي وفيمَا ينشرُه ويفرّقُه من دابةٍ .

(120/699)

﴿ ءايات ﴾ بالرفعِ على أنَّه مبتدأٌ خبرُهُ الظرفُ المقدمُ . والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها من الجملةِ المصدرةِ بإنَّ وقيلَ : آياتٌ عطفٌ على ما قبلَها من آياتٍ باعتبارِ المحلِّ عندَ من يُجوّزُه وقُرِئَ آيةٌ بالتوحيدِ ، وقرىء آيات بالنصب عطفاً على ما قبلها من اسم إنَّ والخبر هو الخبر

كأنه قيل : وإن في خلقكم ما يبث من دابة آياتٍ ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي من شأنهم أنْ يُوقنوا بالأشياءِ على ما هيَ عليهِ .

(121/699)

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ بالجرّ على إضمارِ الجارّ المذكورِ في الآيتينِ قبلَهُ . وقد قُرِئَ بذكرِه . والمرادُ باختلافِهما إمَّا تعاقُبهما أو تفاوتُهما طولاً وقِصَراً . ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السماء ﴾ عطفٌ على اختلافِ ﴿ مِن رِّزْقٍ ﴾ أي من مطرٍ ، وهو سببٌ للرزقِ عُبرَ عنهُ بذلكَ تنبيهاً على كونِه آيةً من جهتَيْ القُدرةِ والرحمةِ . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض ﴾ بأنْ أخرجَ منها أصنافَ الزروعِ والثمراتِ والنباتِ . ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وعرائها عن آثارِ الحياةِ وانتقاءِ قوةِ التنميةِ عنها وخُلوّ أشجارِها عن الثمارِ . ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح ﴾ من جهةٍ إلى أُخرى ، ومن حالٍ إلى حالٍ . وقُرِئَ بتوحيدِ الريحِ . وتأخيرُه عن إنزالِ المطرِ مع تقدمِه عليهِ في الوجودِ ، إمَّا للإيذانِ بأنه آيةٌ مستقلةٌ حيثُ لو رُوعيَ الترتيبُ الوجوديُّ لربما تُوهم أنَّ مجموعَ تصريفِ الرياحِ وإنزالِ المطرِ آيةٌ واحدةٌ ، وإمَّا لأنَّ كونَ التصريفِ آيةً ليسَ لمجردِ كونِه مبدأً لإنشاءِ المطرِ بل لهُ ولسائرِ المنافعِ التي من جُملتها سوقُ السفنِ في البحارِ . ﴿ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ بالرفعِ على أنَّه مبتدأٌ خبرُهُ ما تقدمَ من الجارّ والمجرورِ . والجملةُ

معطوفةٌ على ما قبلَها . وقُرِئَ بالنصبِ على الاختصاصِ ، وقيلَ : على أنَّها اسمُ أنَّ والمجرورُ المتقدمُ خبرُها بطريقِ العطفِ على معمولَيْ عاملينِ مختلفينِ هُمَا أنَّ وفي أقيمتِ الواوُ مُقامَهُما فعملتِ الجرَّ في اختلافِ والنصبَ في آياتٍ . وتنكيرُ آياتٍ في المواقعِ الثلاثةِ للتفخيمِ كماً وكيفاً واختلافُ الفواصلِ لاختلافِ مراتبِ الآياتِ في الدقةِ والجلاءِ .

(122/699)

﴿ تِلْكَ آيات الله ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ . وقولُه تعالَى : ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ حالٌ عاملُها معنى الإشارةِ وقيلَ : هو الخبرُ وآياتُ الله بدلٌ أو عطفُ بيانٍ ﴿ بالحق ﴾ حالٌ من فاعلِ نتلُو ومن مفعولِه أي نتلُوها مُحِقينَ أو ملتبسةً بالحقِّ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ﴾ من الأحاديثِ ﴿ بَعْدَ الله وءاياته ﴾ أي بعد آياتِ الله ، وتقديمُ الاسمِ الجليلِ لتعظيمِها ، كما في قولِهم : أعجبني زيدٌ وكرمُه ، أو بعدَ حديثِ الله الذي هُو القرآنُ حسبما نطقَ به قولُه تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ وهو المرادُ بآياتِه أيضاً ومناطُ العطفِ التغايرُ العُنوانِي . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بصيغةِ الغَيبةِ وقُرِئَ بالتاءِ . ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كذابٍ ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثيرِ الآثامِ . ﴿ يَسْمَعُ ءايات الله ﴾ صفةٌ أخرى لأفَّاكٍ وقيلَ : حالٌ من الضميرِ في أثيمٍ . ﴿ تتلى عَلَيْهِ ﴾ حالٌ من آياتِ الله ولا مساغَ لجعلِه مفعولاً ثانياً ليسمعُ ، لأنَّ شرطَهُ أنْ يكونَ ما بعدَهُ مِمَّا لا

يُسمعُ كقولِكَ سمعتُ زيداً يقرأُ . ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي يقيمُ على كُفره . وأصلُه من إصرارِ الحمارِ على العانة . ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ عن الإيمانِ بما سمعهُ من آياتِ الله تعالى والإذعانِ لما تنطقُ بهِ من الحقِّ مُزدرياً لها مُعجَباً بما عندهُ من الأباطيلِ . وقيلَ : نزلتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ وكان يشتري من أحاديثِ الأعاجمِ ويشغلُ بها النَّاسَ عن استماعِ القُرآنِ ، لكنَّها وردتْ بعبارةٍ عامةٍ ناعيةٍ عليهِ وعلى كلِّ من يسيرُ سيرتَهُ ما هم فيه من الشرِّ والفسادِ . وكلمةُ ثُمَّ لاستبعادِ الإصرارِ والاستكبارِ بعد سماعِ الآياتِ التي حقُّها أنْ تُذعنَ لها القلوبُ وتخضعَ لها الرقابُ كما في قولِ مَنْ قالَ

(123/699)

يَرَى غَمَراتِ الموتِ ثمَّ يزورُهَا . . . ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كأنَّه لم يسمعْهَا فخففَ وحُذفَ ضميرَ الشأنِ . والجملةُ حالٌ من يُصرُّ أي يصرُّ شبيهاً بغيرِ السامعِ . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على إصرارِه واستكبارِه .

(124/699)

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءايَاتِنَا شَيْئاً ﴾ أي إذا بلغَهُ من آياتِنا شيءٌ وعلم أنَّه من آياتِنا لا أنه علمهُ كما هُو عليهِ فإنَّه بمعزلٍ عن ذلك العلمِ ، وقيلَ : إذا علم منها شيئاً يمكنُ أنْ يتشبثَ به المعاندُ ويجدَ له محملاً فاسداً يتوصلُ به إلى الطعنِ والغميزةِ ﴿ اتخذها ﴾ أي الآياتِ كلَّها ﴿ هُزُواً ﴾ أي مَهْزُوءاً بها لا ما سمَعهُ فقطْ ، وقيلَ : الضميرُ للشيءِ ، والتأنيثُ لأنَّه في معنى الآيةِ . ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى كلِّ أفاكٍ من حيثُ الاتصافُ بما ذُكرَ من القبائحِ ، والجمعُ باعتبارِ الشمولِ للكلِّ كما في قولِه تعالى : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ كما أنَّ الإفرادَ فيما سبقَ من الضمائرِ باعتبارِ كلِّ واحدٍ واحدٍ . ﴿ لَهُمْ ﴾ بسببِ جناياتِهم المذكورةِ ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وصفُ العذابِ بالإهانةِ توفيةً لحقِّ استكبارِهم واستهزائِهم بآياتِ اللهِ سبحانه وتعالى . ﴿ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي من قُدامِهم لأنهم متوجهونَ إلى ما أُعدَّ لهُم ، أو من خلفِهم لأنهم معرضونَ عن ذلكَ مقبلونَ على الدُّنيا فإن الوراءَ اسمٌ للجهةِ التي يُواريها الشخصُ من خلفٍ وقُدامٍ . ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُم ﴾ ولا يدفعُ ﴿ مَّا كَسَبُواْ ﴾ من الأموالِ والأولادِ ﴿ شَيْئاً ﴾ من عذابِ اللهِ تعالى أو شيئاً من الإغناءِ ﴿ وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي الأصنامَ ، وتوسيطُ حرفِ النفي بينَ المعطوفينِ مع أنَّ عدمَ إغناءِ الأصنامِ أظهرُ وأجلى من عدمِ إغناءِ الأموالِ والأولادِ قطعاً مبنيٌّ على زعمِهم الفاسدِ حيثُ كانُوا يطمعونَ في شفاعتِهم وفيه تهكمٌ . ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فيما وراءَهُم من جهنمَ ﴿ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ لا يُقادرُ قدرُه .

﴿ هذا ﴾ أي القرآنُ ﴿ هُدًى ﴾ في غايةِ الكمالِ من الهدايةِ كأنَّه نفسُها ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ أي بالقرآنِ وإنما وضعَ موضعَ ضميرِه في قوله تعالى : ﴿ بآيات ربِّهِمْ ﴾ لزيادةِ تشنيعِ كفرِهم به وتفظيعِ حالِهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ ﴾ أي من أشدِّ العذابِ ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بالرفعِ صفةُ عذابٌ ، وقُرِىءَ بالجرِّ على أنَّه صفة رجزٍ ، وتنوينُ عذابٌ في المواقعِ الثلاثةِ للتفخيمِ ، ورفعُه إما على الابتداء وإما على الفاعلية .

﴿ اللهُ الذى سَخَّرَ لَكُمُ البحر ﴾ بأنْ جعلَه أملسَ السطحِ يطفُو عليهِ ما يتخللُ كالأخشابِ ولا يمنعُ الغوصَ والخرقَ لمَيَعانه . ﴿ لِتَجْرِىَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ وأنتم راكبوها ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ بالتجارةِ والغوصِ والصيدِ وغيرِها ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكيْ تشكرُوا النعَمَ المترتبةَ على ذلكَ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِى والأرض ﴾ من الموجوداتِ بأنْ جعلَها مداراً لمنافعِكم ﴿ جَمِيعاً ﴾ إما حالٌ مِنْ ما في السمواتِ والأرضِ ، أو توكيدٌ له ﴿ مِنْهُ ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لجميعاً أو حالٌ منْ مَا ، أيْ جميعاً كائناً منْهُ تعالَى ، أو سخَّر لكُم هذهِ الأشياءَ كائنةً منه مخلوقةً له تعالى أو خبرٌ لمحذوفٍ أيْ هي جميعاً منْهُ تعالَى . وقُرِىءَ منه عَلى المفعولِ لَهُ ومنه على أنه فاعلُ سخَّر

على الإسنادِ المجازيّ أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي ذلكَ منْهُ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذُكِرَ من الأمورِ العظامِ ﴿ لَأَيَاتٍ ﴾ عظيمةَ الشأنِ كثيرةَ العددِ ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في بدائعِ صُنْعِ اللهِ تعالى فإنَّهم يقفونَ بذلكَ على جلائلِ نعمهِ تعالى ودقائِقها ويوفقونَ لشكرِها .

(126/699)

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ حُذفَ المقولُ لدلالةِ ﴿ يَغْفِرُواْ ﴾ عليهِ فإنَّه جوابٌ للأمرِ باعتبارِ تعلقهِ به لا باعتبارِ نفسِه فقطْ أي قُلْ لهم اغفِروا يغفروا . ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ﴾ أي يعفُوا ويصفحوا عنِ الذينَ لا يتوقعونَ وقائعَهُ تعالى بأعدائِه من قولِهم أيامُ العربِ لوقائِعها ، وقيلَ : لا يأملون الأوقاتَ التي وقَّتها اللهُ تعالى لثوابِ المؤمنينَ ووعدهم الفوزَ فيها . قيلَ : نزلتْ قبلَ آيةِ القتالِ ثمَّ نُسختْ بها ، وقيلَ : نزلتْ في عمرَ رضيَ اللهُ عنه حينَ شتَمَهُ غفاريٌّ فهَمَّ أنْ يبطشَ بهِ ، وقيلَ : حينَ قالَ ابنُ أُبيٍّ ما قالَ ، وذلكَ أنَّهم نزلُوا في غزوةِ بني المصطلِقِ على بئرٍ يقالُ لها المرُيْسِيْعُ فأرسلَ ابنُ أُبيَ غلامَهُ يستَقي فأبطأَ عليهِ فلمَّا أتاهُ قالَ له : ما حبسكَ ؟ قال : غلامُ عمرَ قعدَ على طرفِ البئرِ فما تركَ أحداً يستَقي حتى ملأَ قُرَبَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وقُرَبَ أبي بكرٍ ، فقالَ ابنُ أُبيَ : ما مثلُنا ومثلُ هؤلاءِ إلا

كَما قيلَ : سمّنْ كلْبكَ يأكلْكَ فبلغَ ذلكَ عمرَ رضيَ اللهُ عنه فاشتملَ سيفَهُ يريدُ التوجَه إليهِ فأنزلَها اللهُ تعالَى .

(127/699)

﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالمغفرةِ ، والمرادُ بالقومِ المؤمنونَ والتنكيرِ لمدحِهم والثناءِ عليهم ، أي أُمروا بذلكَ ليجزيَ يومَ القيامةِ قوماً أيّما قومٍ قوماً مخصوصينَ بما كسبوا في الدُّنيا من الأعمالِ الحسنةِ التي من جُملتها الصبرُ على أذيةِ الكفارِ والإغضاءُ عنهم بكظمِ الغيظِ واحتمالِ المكروهِ ما يقصرُ عنه البيانُ من الثوابِ العظيمِ . هذا وقد جُوّزَ أنْ يرادَ بالقومِ الكفرةُ وبما كانُوا يكسبونَ سيئاتُهم التي من جُملتها ما حُكِيَ من الكلمةِ الخبيثةِ ، والتنكيرُ للتحقيرِ ، وفيهِ أنَّ مطلقَ الجزاءِ لا يصلحُ تعليلاً للأمرِ بالمغفرةِ لتحققِه على تقديريْ المغفرةِ وعدمِها فلا بُدَّ من تخصيصِه بالكلِّ بأنْ لا يتحققَ بعضٌ منه في الدُّنيا أو بما يصدرُ عنه تعالى بالذاتِ وفي ذلكَ من التكلفِ ما لا يخفى وأنْ يرادَ كلا الفريقينِ وهو أكثرُ تكلفاً وأشدُّ تمحلاً . وقُرِئَ ليُجْزَى قومٌ وليُجْزَى قوماً أي ليُجْزَى الجزاءُ قوماً ، وقُرِئَ لنَجْزِي بنونِ العظمةِ .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾

لا يكادُ يسري عملٌ إلى غيرِ عامِله . ﴿ ثُمَّ إلى ربِّكُمْ ﴾ مالكِ أمورِكم ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكُم على أعمالِكم خيراً كانَ أو شراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(128/699)

وقال الآلوسى :

﴿ الله الذى سَخَّرَ لَكُمُ البحر ﴾

بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿ لِتَجْرِىَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ بتسخيره تعالى إياه وتسهيل استعمالها فيما يراد بها ، وقيل : بتكوينه تعالى أو بإذنه عز وجل ، وسياق الامتنان يقتضي أن يكون المعنى لتجري الفلك فيه وأنتم راكبوها .

﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك ، وهذا أعني ﴿ الله الذى سَخَّرَ ﴾ الخ ذرك تتميماً للتقريع ولهذا رتب عليه الأغراض العاجلة فإنه مما يستوجب الشكر غالباً للكافر أيضاً فكأنه قيل : تلك الآيات أولى بالشكر ولهذا عقب بما يعم القسمين أعني قوله سبحانه

:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي من الموجودات بأن جعل فيها منافع لكم منها ظاهرة ومنها خفية ، وعقب بالتفكر لينبه على أن التفكر هو الذي يؤدي إلى ما ذكر من الأولوية ويدل به على أن التفكر ملاك الأمر في ترتيب الغرض على ما جعل آية من الايمان والإيقان والشكر ﴿ جَمِيعاً ﴾ حال من ﴿ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أو توكيد له وقوله تعالى : ﴿ مِنْهُ ﴾ حال من ذلك أيضاً ، والمعنى سخر هذه الأشياء جميعاً كائنة منه وحاصلة من عنده يعني أنه سبحانه مكونها وموجودها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه .

وجوز فيه أوجه أخر .

(129/699)

الأول أن يكون خبر مبتدأ محذوف فقيل "جميعا" حينئذ حال من المضير المستتر في الجار والمجرور بناء على جواز تقدم الحال على مثل هذا العامل أو من المبتدأ بناء على تجويز الحال منه أي هي جميعاً منه تعالى وقيل : جميعاً على ما كان ويلاحظ في تصوير المعنى فالضمير المبتدأ يقدر بعده ويعتبر رجوعه إلى ما تقدم بقيد جميعاً ، والجملة على القولين

استئناف جيء به تأكيداً لقوله تعالى : ﴿ سَخَّرَ ﴾ أي أنه عز وجل أوجدها ثم سخرها لا أنها حصلت له سبحانه من غيره كالملوك ، الثاني أن يجعل ﴿ ما في السموات ﴾ مبتدأ ويكون هو خبره و ﴿ جَمِيعاً ﴾ حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور والواقع صلة ويكون ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ﴾ تأكيداً للأول أي سخر وسخر ، وفي العطف إيماء إلى أن التسخير الثاني كأنه غير الأول دلالة على أن المتفكر كلما فكر يزداد إيماناً بكمال التسخير والمنة عليه ، وجملة ﴿ مَا فِي السموات ﴾ الخ مستأنفة لمزيد بيان القدرة والحكمة .

واعترض بأنه إن أريد التأكيد اللغوي فهو لا يخلو من الضعف لأن عطف مثله في الجمل غير معهود ، وإن أريد التأكيد الاصطلاحي كما قيل به في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : 3 ، 4] فهو مخالف لما ذكره ابن مالك في التسهيل من أن عطف التأكيد يختص بثم ، وقال الرضى : يكون بالفاء أيضاً وهو ههنا بالواو ولم يجوزه أحد منهم وان لم يذكروا وجه الفرق على أنه قد تقرر في المعاني أنه لا يجري في التأكيد العطف مطلقاً لشدة الاتصال ، واعترض أيضاً بأن فيه حذف مفعول ﴿ سَخَّرَ ﴾ من غير قرينة وهذا كما ترى ، الثالث أن يكون ﴿ مَّا فِى الأرض ﴾ مبتدأ و ﴿ مِنْهُ ﴾ خبره ولا يخفى أنه ضعيف بحسب المساق .

وأخرج ابن المنذر من طريق عكرمة أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لم يكن يفسر هذه الآية ، ولعله ان صح محمول على أنه لم يبسط الكلام فيها ، فقد أخرج ابن جرير عه أنه قال فيها كل شيء هو من الله تعالى .

وأخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حيمد .

وابن المنذر .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن طوس قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله ممن خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب قال : فمم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدري ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأل فقال مثل قول عبد الله بن عمرو فاتي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فسأله مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب قال : فمم خلق هؤلاء ؟ فقرأ ابن عباس ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ﴾ فقال الرجل : ما كان ليأتي بهذا الارجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

واختلف أهل العلم فيما أراد ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بذلك فقال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه تعالى أي من خلقه وابداعه واختراعه خلق الماء أولاً أو الماء وما شاء عز وجل من خلقه لا عن أصل ولا عن مثال سبق ثم جعله تعالى أصلاً لما خلق بعده فهو جل شأنه المبدع وهو سبحانه البارىء لا إله غيره ولا خالق سواه اه ، وعليه جميع المحدثين والمفسرين ومن حذا حذوهم ، وقال الشيخ إبراهيم الكوارني من الصوفية : إن المخلوقات تعينات الوجود المفاض الذي هو صورة النفس الرحماني المسمى بالعماء وذلك أن العماء قد انبسط على الحقائق التي هي أمر وعدمية متميزة في نفس الأمر والانبساط حادث والعماء من حيث اقترانه بالماهيات غير ذات الحق تعالى فإنه سبحانه الوجود المحض الغير المقترن بها فالموجودات صور حادثة في العماء قائمة به والله تعالى قيومها لأنه جل وعلا الأول الباطن الممد لتلك الصور بالبقاء ولا يلزم من ذكل قيام الحوادث بذات الحق تعالى ولا كونه سبحانه مادة لها لأن وجوده تعالى مجرد عن الماهيات غير مقترن بها والمتعين بحسبها هو العماء الذي هو الوجود المفاض فأراد ابن عباس أن الأشياء جميعا منه تعالى أي من نوره سبحانه المضاف الذي هو العماء والوجود المفاض منه تعالى بآيجاده جل شأنه

، وبهذا ينطبق الجواب على السؤال من غير تكلف ولا محذور ، ولو كان مراد ابن عباس مجرد ما ذكره البيهقي من أن مصدر الجميع من خلقه تعالى كان يكفي في ذلك قوله تعالى : ﴿ اللهُ خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد : 16] لكن السؤال إنما وقع بمم ووقع الجواب بمنه في تلاوته الآية فالظاهر أن ما فهمه السائل من تلاوته رضي الله تعالى عنه ليس مجرد ما ذكره بقرينة مدحه بقوله : ما كان ليأتي بهذا الخ فإن ما ذكره البيهقي يعرفه كل من آمن بقوله تعالى : ﴿ اللهُ خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فلا يظهر حينئذ وجه لقول كل من ابن عمرو .

(132/699)

وابن الزبير لا أدري فإنهما من أفضل المؤمنين بأن الله تعالى خالق كل شيء بل ما فهمه هو ما أشرنا إليه اه ، وعليه عامة أهل الوحدة ﴿ أُرْسِلَ الاولون ﴾ بأن مراد ابن عباس قطع التسليل في السؤال بعد ذكر مادة لبعضها بأن مرجع الأمر أن الأشياء كلها خلقت بقدرته تعالى لا من شيء وهو كلام حكيم يمدح قائله لم يهتد إليه ابن الزبير .

وابن عمرو ، ولا يعكر على هذا قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ [الطور : 35] لما قاله المفسرون فيه وسيأتي إن ساء الله تعالى في محله فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك ، وقد أورد الحسين بن علي بن واقد في مجلس الرشيد هذه الآية رداً على بعض النصارى

في زعمه ان قوله تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ وروحٌ منه ﴾ [النساء : 171] يدل على ما يزعمه فيه عليه السلام من أنه ابن الله سبحانه وتعالى عما يصفون .

وحكى أبو الفتح .

وصاحب اللوامح عن ابن عباس .

وعبد الله بن عمرو .

والجحدري .

وعبد الله بن عبيد بن عمير أنهم قرؤوا "منة" بكسر الميم وشد النون ونصب التاء على أنه مفعول له أي سخر لكم ذلك نعمة عليكم ، وحكاها عن ابن عباس أيضاً ابن خالويه .

ولكن قال أبو حاتم : إن سند هذه القراءة إليه مظلم فإذا صح السند يمكن أن يقال فيما تقدم من حديث طاوس : إنه ذكر الآية على قراءة الجمهور ويحتمل أن له قراءتين فيها .

(133/699)

وقرأ مسلمة بن محارب كذلك إلا أنه ضم التاء على تقدير هو أو هي منة ، وعنه أيضاً فتح الميم وشد النون وهاء الكناية عائدة على الله تعالى أي انعامه وهو فاعل "سخر" على الإسناد المجازي كما تقول : كرم الملك أنعشني أو هو خبر مبتدأ محذوف أي هذا أو هو منه

تعالى ، وجوزت الفاعلية في قراءته الأولى ، وتذكير الفعل لأن الفاعل ليس مؤنثاً حقيقياً مع وجود الفاصل ، والوجه الأول أولى وإن كان فيه تقدير ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر ﴿ لَأَيَاتٍ ﴾ عظيمة الشأن كثيرة العدد ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في بدائع صنعه تعالى وعظائم شأنه جل شأنه فإن ذلك يجرهم إلى الإيمان والإيقان والشكر .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ ﴾ حذف المقول لدلالة "يغفروا" عليه فإنه جواب للأمر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط أي قل لهم اغفروا يغفروا ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ أي يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون وقائعه تعالى بأعدائه ونقمته فيهم فالرجل مجاز عن التوقع وكذا الأيام مجاز عن الوقائع من قولهم : أيام العرب لوقائعها وهو مجاز مشهور وروي ذلك عن مجاهد أولاً يأملون الأوقات التي وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها ، والآية قيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها .

وقال بعضهم : لا نسخ لأن المراد هنا ترك النزاع في المحقرات والتجاوز عن بعض ما يؤذي ويوحش ، وحكى النحاس .

والمهدوي عن ابن عباس أنها نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه ستمه مشرك بمكة قبل الهجرة فهم أن يبطش به فنزلت وروي ذلك عن مقاتل وهذا ظاهر في كونها مكية كأخواتها .

وارادة فهم أن يبطش به بعد الهجرة لأن المسلمين بمكة قبلها عاجزون مقهورون لا يمكنهم الانتصار من المشركين والعاجز لا يأمر بالعفو والصفح غير ظاهر محتاج إلى نقل ، ودوام عجز كل من المسلمين غير معلوم بل من وقف على أحوال أبي حفص رضي الله تعالى عنه لا يتوقف في أنه قادر على ما هم به لا يبالي بما يترتب عليه .

وهذا أولى في الجواب من أن يقال : إن الأمر بفعل ذلك بينه وبين الله تعالى بقلبه ليثاب عليه ، نعم قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال له المريسيع فأرسل ابن أبي غلامه ليستقي فأبطأ عليه فلما أتاه قال له : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال ابن أبي : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه فأنزل الله تعالى الآية ؛ وحكاه الإمام عن ابن عباس وهو يدل على أنها مدنية ، وكذا ما روي عن ميمون بن مهران قال : إن فنحاصا اليهودي قال : لما أنزل الله تعالى : ﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَنًا ﴾ [البقرة : 245] احتاج رب محمد فسمع بذلك عمر رضي الله تعالى عنه فاشتمل سيفه وخرج فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طلبه حتى رده ونزلت الآية لِيَجْزِيَ قَوْماً بمعا كَانُوا يعكْسبُونَ ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة ، وجوز أن يكون

تعليلاً للأمر بالقول لأنه سبب لامتثالهم المجازي عليه ، والمراد بالقوم المؤمنون الغافرون والتكير للتعظيم ، ولفظ القوم في نفسه اسم مدح على ما يرشد إليه الاشتقاق والاستعمال في نحو يا ابن القوم .

(135/699)

وفي هذا التنكير كمال التعريف والتنبيه على أنهم لا يخفون نكروا أو عرفوا مع العلم بأن المجزي لا يكون إلا العامل وهو الغافر ههنا أي أمروا بذلك ليجزي الله تعالى يوم القيامة قوماً أيما قوم وقوماً مخصوصين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار والأغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المروه ما لا يحيط به نطاق البيان من الثواب العظيم ، ومنهم من خص ما كسبوه بالمغفرة والصبر على الأذية ، و﴿ مَا ﴾ في الوجهين موصولة وجوز أن تكون مصدرية ، والباء للسببية أو للمقابلة أو صلة يجزي ، وجوز أن يراد بالقوم الكفرة وبما كسبوا سيآتهم التي من جملتها إيذاؤهم المؤمنين والتنكير للتحقير : وتعقب بأن مطلق الجزاء لا يصلح تعليلاً للأمر بالمغفرة لتحققه على تقديري المغفرة وعدمها فلا بد من تخصيصه بالكل بأن لا يتحقق بعض منه في الدنيا أو بما يصدر عنه تعالى بالذات ، وفي ذلك من التكلف ما لا يخفى ، وأن يراد كلا الفريقين والتنكير

للشيوع ، وتعقب بأنه أكثر تكلماً وأشد تمحلاً ، والذي يشهد للوجه السابق ما روي عن سعيد بن المسيب قال : كنا بين يدي عمر رضي الله تعالى عنه فقرأ قارىء هذه الآية فقال : ليجزي عمر بما صنع ، وقرأ زيد بن علي .

وأبو عبد الرحمن .

والأعمش .

وأبو خليد .

وابن عامر .

وحمزة .

والكسائي ﴿ لنجزي ﴾ بنون العظمة ، وقرىء ﴿ الأرض لِيَجْزِيَ ﴾ بالياء والبناء للمفعول ﴿ قَوْمٌ ﴾ بالرفع على أنه نائب الفاعل ، وقرأ سيبة .

وأبو جعفر بخلاف عنه كذلك إلا إنهما نصباً ﴿ قَوْماً ﴾ وروي ذلك عن عاصم ، واحتج به من يجوز نيابة الجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول الصريح فيقول : ضرب بسوط زيداً فبما كسبوا نائب الفاعل ههنا ولا يجيز ذلك الجمهور ، وخرجت هذه القراءة على أن القائم مقام الفاعل ضمير المصدر أي ليجزي هو أي الجزاء .

ورد بأنه لا يبقام مقماه عند وجود المفعول به أيضاً على الصحيح ، وأجازه الكوفيون على خلاف في الإطلاق والاستحسان أو على أنه ضمير المفعول الثاني وهو الجزاء بمعنى المجزي به كما في قوله تعالى : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جنات عَدْنٍ ﴾ [البينة : 8] وأضمر لدلالة السياق كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾ [النساء : 11] والمفعول الثاني في باب أعطى يقوم مقام الفاعل بلا خلاف وهذا من ذاك ، وأبو البقاء اعتبر الخير بدل الجزاء المذكور أو على أن ﴿ قَوْماً ﴾ منصوب بأعني أو جزي مضمراً لدلالة المجهول على أن ثم جازياً واختاره أبو حيان ، و ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ حينئذ من باب يعطي ويمنع وحيل بين العير والنزوان فمعناه ليفعل الجزاء ويكون هناك جملتان .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ لا يكاد يسري عمل إلى غير عامله ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ مالك أموركم ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم حسبما تقتضيه الحكمة خيراً على الخير وشراً على الشر ، والجملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(137/699)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ حم ﴾

قد تقدّم الكلام في هذه الفاتحة ، وفي إعرابها ، في فاتحة سورة " غافر " ، وما بعدها ، فإن جعل اسماً للسورة ، فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ ، وإن جعل حروفاً مسرودة على نمط التعديد ، فلا محلّ له ، وقوله : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ على الوجه الأوّل خبر ثان ، وعلى الوجه الثاني خبر المبتدأ ، وعلى الوجه الثالث خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره ﴿ مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ ثم أخبر سبحانه بما يدل على قدرته الباهرة ، فقال : ﴿ إِنَّ فِى السموات والأرض لآيات لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : فيها نفسها ، فإنها من فنون الآيات ، أو في خلقها .

قال الزجاج : ويدلّ على أن المعنى في خلق السموات والأرض قوله : ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ أي : في خلقكم أنفسكم على أطوار مختلفة .

قال مقاتل : من تراب ، ثم من نطفة إلى أن يصير إنساناً ، ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءايات ﴾ أي : وفي خلق ما يبثّ من دابة ، وارتفاع آيات على أنها مبتدأ مؤخر ، وخبره الظرف قبله ، وبالرفع قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة ، والكسائي (آيات) بالنصب عطفاً على اسم إن ، والخبر قوله : ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ كأنه قيل : وإن في خلقكم وما يبثّ من دابة آيات ، أو على أنها تأكيد لآيات الأولى .

وقرأ الجمهور أيضاً ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ بالرّفع ، وقرأ حمزة ، والكسائي بنصبها مع اتفاقهم على الجرّ في اختلاف ، أما جرّ " اختلاف " ، فهو على تقدير حرف الجرّ أي : في ﴿ لَهُ اختلاف الليل والنهار ﴾ آيات ، فمن رفع آيات ، فعلى أنها مبتدأ ، وخبرها : في اختلاف ، وأما النصب فهو من باب العطف على معمولي عاملين مختلفين .

قال الفراء : الرفع على الاستئناف بعد إنّ ، تقول العرب : إنّ لي عليك مالاً ، وعلى أخيك مال ، ينصبون الثاني ويرفعونه ، وللنحاة في هذا الموضع كلام طويل .

(138/699)

والبحث في مسألة العطف على معمولي عاملين مختلفين ، وحجج المجوّزين له ، وجوابات المانعين له مقرّر في علم النحو مبسوط في مطوّلاته .

ومعنى : ﴿ مَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ : ما يفرقه وينشره ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ تعاقبهما ، أو تفاوتهما في الطول والقصر ، وقوله : ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السماء مِّن رِزْقٍ ﴾ معطوف على اختلاف ، والرزق : المطر ؛ لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به ، وإحياء الأرض : إخراج نباتها ، و ﴿ مَوْتِهَا ﴾ : خلوّها عن النبات ومعنى ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح ﴾ : أنها تهب تارة من جهة وتارة من أخرى ، وتارة تكون حارّة وتارة تكون باردة ، وتارة

نافعة ، وتارة ضارّة ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أي : هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه ، ومحل : ﴿ نتلوها عليك ﴾ النصب على الحال ، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر اسم الإشارة ، وآيات الله بيان له ، أو بدل منه ، وقوله : ﴿ بالحق ﴾ حال من فاعل نتلو ، أو من مفعوله أي : محقين ، أو ملتبسة بالحقّ ، ويجوز أن تكون الباء للسببية ، فتتعلق بنفس الفعل ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ أي : بعد حديث الله وبعد آياته ، وقيل إن المقصود : فبأي حديث بعد آيات الله ، وذكر الاسم الشريف ليس إلاّ لقصد تعظيم الآيات ، فيكون من باب : أعجبني زيد ، وكرمه .

وقيل المراد : بعد حديث الله ، وهو القرآن كما في قوله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر : 23] ، وهو المراد بالآيات ، والعطف لمجرّد التغاير العنواني .

قرأ الجمهور : (تؤمنون) بالفوقية ، وقرأ حمزة ، والكسائي بالتحتية .

والمعنى : يؤمنون بأيّ حديث ، وإنما قدّم عليه ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي : لكل كذاب كثير الإثم مرتكب لما يوجبه ، والويل : واد في جهنم .

ثم وصف هذا الأفاك بصفة أخرى، فقال: ﴿ يَسْمَعُ ءايات الله تتلى عَلَيْهِ ﴾ وقيل: إن يسمع في محل نصب على الحال، وقيل: استئناف، والأول أولى، وقوله: ﴿ تتلى عَلَيْهِ ﴾ في محل نصب على الحال ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ على كفره، ويقيم على ما كان عليه حال كونه ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ أي: يتمادى على كفره متعظماً في نفسه عن الانقياد للحقّ، والإصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحني عليها صارًّا أذنيه.

قال مقاتل: إذا سمع من آيات القرآن شيئًا اتخذها هزواً، وجملة: ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾: في محل نصب على الحال، أو مستأنفة؛ وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذا من باب التهكم أي: فبشّره على إصراره واستكباره، وعدم استماعه إلى الآيات بعذاب شديد الألم ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءايا تنا شَيْئاً ﴾ قرأ الجمهور ﴿ علم ﴾ بفتح العين، وكسر اللام مخففة على البناء للفاعل.

وقرأ قتادة، ومطر الورّاق على البناء للمفعول.

والمعنى: أنه إذا وصل إليه علم شيء من آيات الله ﴿ اتخذها ﴾ أي: الآيات ﴿ هُزُواً ﴾ وقيل: الضمير في اتخذها عائد إلى ﴿ شيئًا ﴾؛ لأنه عبارة عن الآيات، والأوّل أولى.

والإشارة بقوله: ﴿ أولئك ﴾ إلى كلّ أفاك متصف بتلك الصفات ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ بسبب ما فعلوا من الإصرار، والاستكبار عن سماع آيات الله، واتخاذها هزواً،

والعذاب المهين : هو المشتمل على الإذلال ، والفضيحة ﴿ مّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا ، والتكبر عن الحقّ جهنّم ؛ فإنها من قدّامهم ؛ لأنهم متوجهون إليها ، وعبر بالوراء عن القدّام ، كقوله : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ [الرعد : 16] وقول الشاعر :

(140/699)

أليس ورائي إن تراخت منيتي . . . وقيل : جعلها باعتبار إعراضهم عنها ، كأنها خلفهم ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً ﴾ أي : لا يدفع عنهم ما كسبوا من أموالهم ، وأولادهم شيئًا من عذاب الله ، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿ وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾ معطوف على ما كسبوا أي : ولا يغني عنهم ما اتخذوا من دون الله أولياء من الأصنام ، و "ما" في الموضعين إما مصدرية ، أو موصولة ، وزيادة لا في الجملة الثانية للتأكيد ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ في جهنم التي هي من ورائهم ﴿ هذا هُدًى ﴾ جملة مستأنفة من مبتدأ وخبر ، يعني : هذا القرآن هدى للمهتدين به ﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات رَبّهِمْ ﴾ القرآنية ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مّن رّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ الرجز : أشدّ العذاب .

قرأ الجمهور : (أليم) بالجرّ صفة للرّجز .

وقرأ ابن كثير ، وحفص ، وابن محيصن بالرفع صفة لعذاب ﴿ اللهُ الذى سَخَّرَ لَكُمُ البحر ﴾ أي : جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه ﴿ لِتَجْرِىَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ أي : بإذنه وإقداره لكم ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ بالتجارة تارة ، والغوص للدرّ ، والمعالجة للصيد وغير ذلك ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : لكي تشكروا النعم التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ أي : سخّر لعباده جميع ما خلقه في سماواته ، وأرضه مما تتعلق به مصالحهم ، وتقوم به معايشهم ، ومما سخّره لهم من مخلوقات السموات : الشمس والقمر ، والنجوم النيرات ، والمطر والسحاب والرّياح ، وانتصاب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال من ﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ ، أو تأكيد له ، وقوله : ﴿ منه ﴾ يجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة ل ﴿ جميعاً ﴾ أي : كائنة منه ، ويجوز أن يتعلق بسخر ، ويجوز أن يكون حالاً من ما في السموات ، أو خبراً لمبتدأ محذوف ، والمعنى : أن كل ذلك رحمة منه لعباده ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ المذكور من التسخير ﴿ لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وخصّ المتفكرين ؛ لأنه لا ينتفع بها إلاّ من تفكر فيها ، فإنه ينتقل من التفكر إلى الاستدلال بها على التوحيد .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ ﴾ أي : قل لهم اغفروا يغفروا ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ﴾

وقيل : هو على حذف اللام ، والتقدير : قل لهم ليغفروا .

والمعنى : قل لهم يتجاوزوا عن الذين لا يرجون وقائع الله بأعدائه ، أي : لا يتوقعونها ، ومعنى الرجاء هنا : الخوف ، وقيل : هو على معناه الحقيقي .

(142/699)

والمعنى : لا يرجون ثوابه في الأوقات التي وقّتها الله لثواب المؤمنين ، والأوّل أولى ، والأيام يعبر بها عن الوقائع كما تقدّم في تفسير قوله : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ ﴾ [إبراهيم : 5] قال مقاتل : لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية ، وذلك أنهم لا يؤمنون به ، فلا يخافون عقابه .

وقيل المعنى : لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه ، وقيل : لا يخافون البعث .

قيل : والآية منسوخة بآية السيف ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ قرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : (لنجزي) بالنون أي : لنجزي نحن .

وقرأ باقي السبعة بالتحتية مبنياً للفاعل .

أي : ليجزي الله .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، وعاصم بالتحتية مبنياً للمفعول مع نصب قوماً ، فقيل : النائب عن الفاعل مصدر الفعل ، أي : ليجزى الجزاء قوماً ، وقيل : إن النائب الجارّ والمجرور ، كما في قول الشاعر :

ولو ولدت فقيرة جرو كلب . . . لسبّ بذلك الجرو الكلابا

وقد أجاز ذلك الأخفش ، والكوفيون ، ومنعه البصريون ، والجملة لتعليل الأمر بالمغفرة ، والمراد بالقوم : المؤمنون ، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار ، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه .

وقيل : المعنى : ليجزي الكفار بما عملوا من السيئات كأنّه قال : لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن ، والأوّل أولى .

ثم ذكر المؤمنين وأعمالهم ، والمشركين وأعمالهم ، فقال : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ والمعنى : أن عمل كل طائفة من إحسان ، أو إساءة لعامله لا يتجاوزه إلى غيره ، وفيه ترغيب وتهديد ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازي كلاً بعمله إن كان خيراً فخير ، وإن كان شرّاً فشرّ .

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة من طريق عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ قال : منه النور والشمس والقمر .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : كل شيء هو من الله .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن طاووس قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله ممّ خلق الخلق ؟ قال : من الماء ، والنور والظلمة ، والهواء والتراب ، قال : فمم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدري .

ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير ، فسأله ، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، فأتى ابن عباس ، فسأله ممّ خلق الخلق ؟ فقال : من الماء ، والنور والظلمة ، والريح والتراب ، قال : فممّ خلق هؤلاء ؟ فقرأ ابن عباس ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مّنْهُ ﴾ فقال الرجل : ما كان ليأتي بهذا إلاّ رجل من أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ يَغْفِرُواْ ﴾ الآية قال : كان نبيّ الله صلى الله عليه وسلم يعرض عن المشركين إذا آذوه ،

وكانوا يستهزئون به ويكذبونه ، فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة ، فكان هذا من المنسوخ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(144/699)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾

استئناف ابتدائي للانتقال من التذكير بما خلق الله من العوالم وتصاريف أحوالِها من حيث إنها دلالات على الوحدانية ، إلى التذكير بما سخر الله للناس من المخلوقات وتصاريفها من حيثُ كانت منافع للناس تقتضي أن يشكروا مقدّرها فجحدوا بها إذ توجهوا بالعبادة إلى غير المنعم عليهم ، ولذلك عُلق بفعليْ ﴿ سخر ﴾ في الموضعين مجرور بلام العلة بقوله : ﴿ لكم ﴾ ؛ على أن هذه التصاريف آيات أيضاً مثلُ اختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، وتصريف الرياح ، ولكن لُوحظ هنا ما فيها من النعم كما لوحظ هنالك ما فيها من الدلالة ، والفَطِنُ يَستخلص من المقامين كلا الأمرين على ما يشبه الاحتباك .

ومناسبة هذا الانتقال واضحة .

واسم الجلالة مسند إليه والموصول مسند ، وتعريف الجزأين مفيد الحصر وهو قَصر قلب بتنزيل المشركين منزلة من يحسب أن تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض إنعام من شركائهم كقوله تعالى : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ [الروم : 40] ، فكان هذا القصر إبطالا لهذا الزعم الذي اقتضاه هذا التنزيل .

وقوله : ﴿ لتجري الفلك فيه ﴾ بَدل اشتمال من ﴿ لكم ﴾ لأن في قوله : ﴿ لكم ﴾ إجمالاً أريد تفصيله .

فتعريف ﴿ الفلك ﴾ تعريف الجنس ، وليس جري الفلك في البحر بنعمة على الناس إلا باعتبار أنهما يجرونهما للسفر في البحر فلا حاجة إلى جعل الألف واللام عوضاً عن المضاف إليه من باب ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات : 41] .

وعطف عليه ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ باعتبار ما فيه من عموم الاشتمال ، فحصل من مجموع ذلك أن تسخير البحر لجري الفلك فيه للسفر لقضاء مختلف الحاجات حتى التنزه وزيارة الأهل .

وعطف ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ على قوله : ﴿ لتجري الفلك فيه ﴾ لا باعتبار ما اشتمل عليه إجمالاً ، بل باعتبار لفظه في التعليق بفعله .

وهذا مناط سَوق هذا الكلام ، أي لعلكم تشكرون فكفرتم ، وتقدم نظير مفردات هذه الآية غير مرة ما أغنى عن إعادته .

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ

هذا تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أولاً ثم التعميم ثانياً .

و ﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ عام مخصوص بما تحصل للناس فائدة من وجوده : كالشمس للضياء ، والمطر للشراب ، أو من بعض أحواله : كالكواكب للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر ، والشجر للاستظلال ، والأنعام للركوب والحرث ونحو ذلك .

وأما ما في السماوات والأرض مما لا يفيد الناس فغير مراد مثل الملائكة في السماء والأهوية المنحبسة في باطن الأرض التي يأتي منها الزلزال .

وانتصب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال من ﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ .

وتنوينه تنوين عوض عن المضاف إليه ، أي جميع ذلك مثل تنوين (كل) في قوله : ﴿ كلاً هدينا ﴾ [الأنعام : 84] .

و(من) ابتدائية ، أي جميع ذلك من عند الله ليس لغيره فيه أدنى شركة .

وموقع قوله : ﴿ منه ﴾ موقع الحال من المضاف إليه المحذوف المعوّض عنه التنوين أو من

ضمير ﴿ جميعاً ﴾ لأنه في معنى مجموعاً .

﴿ مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ ﴾ .

(146/699)

أي في ذلك المذكور من تسخير البحر وتسخير ما في السموات والأرض دلائل على تفرد الله بالإلهية فهي وإن كانت مننا يحق أن يشكرها الناس فإنها أيضاً دلائل إذا تفكر فيها المنعَم عليهم اهتدوا بها ، فحصلت لهم منها ملائمات جسمانية ومعارف نفسانية ، وبهذا الاعتبار كانت في عداد الآيات المذكورةِ قبلها من قوله : ﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ [الجاثية : 3] ، وإنما أُخرت عنها لأنها ذكرت في معرض الامتنان بأنها نعم ، ثم عُقبت بالتنبيه على أنها أيضاً دلائل على تفرد الله بالخلق .

وأوثر التفكر بالذكر في آخر صفات المستدلين بالآيات ، لأن الفكر هو منبع الإيمان والإيقان والعلم المتقدمة في قوله : ﴿ لآيات للمؤمنين ﴾ [الجاثية : 3] ﴿ آياتٌ لقوم يوقنون ﴾ [الجاثية : 4] ﴿ آياتٌ لقوم يعقلون ﴾ [الجاثية : 5] .

قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)

إن كانت هذه متصلة بالآي التي قبلها في النزول ولم يصح ما روي عن ابن عباس في سبب

نزولها فمناسبة وقعها هنا أن قوله : ﴿ ويل لكل أفّاك أثيم ﴾ إلى قوله : ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾ [الجاثية : 7 11] يثير غضب المسلمين على المستهزئين بالقرآن .

وَقد أخذ المسلمون يعتزون بكثرتهم فكان ما ذكر من استهزاء المشركين بالقرآن واستكبارهم عن سماعه يتوقع منه أن يبطش بعض المسلمين ببعض المشركين ، ويحتمل أن يكون بَدَرَ من بعض المسلمين غضب أو توعد وأن الله علم ذلك من بعضهم .

(147/699)

قال القرطبي والسدي : نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة أصابهم أذى شديد من المشركين فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمرهم الله بالتجاوز عن ذلك لمصلحة في استبقاء الهدوء بمكة والمتاركة بين المسلمين والمشركين ففي ذلك مصالح جمّة من شيوع القرآن بين أهل مكة وبين القبائل النازلين حولها فإن شيوعه لا يخلو من أن يأخذ بمجامع قلوبهم بالرغم على ما يبدونه من إعراض واستكبار واستهزاء فتتهيّأ نفوسهم إلى الدخول في الدين عند زوال ممانعة سادتهم بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبعد استئصال صناديد قريش يوم بدر .

وقد تكرر في القرآن مثل هذا من الأمر بالصفح عن المشركين والعفو عنهم والإعراض عن

أذاهم ، ولكن كان أكثر الآيات أمراً للنبيء صلى الله عليه وسلم في نفسه وكانت هذه أمراً له بأن يبلغ للمؤمنين ذلك ، وذلك يشعر بأن الآية نزلت في وقت كان المسلمون قد كثروا فيه وأحسّوا بعزتهم .

فأمروا بالعفو وأن يكلوا أمر نصرهم إلى الله تعالى ، وإن كانت نزلت على سبب خاص عرض في أثناء نزول السورة فمناسبتها لأغراض السورة واضحة لأنها تعليم لما يصلح به مقام المسلمين بمكة بين المضادين لهم واحتمال ما يلاقونه من صَلفهم وتجبرهم إلى أن يقضي الله بينهم .

وقد روي في سبب نزولها أخبار متفاوتة الضعف ، فروى مكي بن أبي طالب أن رجلاً من المشركين شتم عمر بن الخطاب فَهَمّ أن يبطش به قال ابن العربي : "وهذا لم يصح" .

وفي "الكشاف" أن عمر شتمه رجل من غِفار فَهَمَّ أن يبطش به فنزلت .

وعن سعيد بن المسيب "كنا بين يدي عمر بن الخطاب فقرأ قارىء هذه الآية فقال عمر : ليَجزِيَ عُمَرَ بما صنع" يعني أنه سبب نزول الآية .

وروى الواحدي والقشيري عن ابن عباس : إنها نزلت في غزوة بني المصطلق : نزلوا على بئر يقال لها : المُرَيْسِيع فأرسَل عبدُ الله بن أُبَيّ غلامه ليستقي من البئر فأبطأ ، فلما أتاه قال : ما حسبك .

قال : غلام عُمر قعد على فم البئر فما ترك أحداً يسقي حتى مَلأ قِرَبَ النبي صلى الله عليه وسلم وقِرَب أبي بكر ومَلأ لمولاه ، فقال عبد الله بن أُبيّ : ما مَثَلُنا ومثَلُ هؤلاء إلا كما قال القائل : "سَمِّن كلبَك يأكُلك" فهَمَّ عمر بن الخطاب بقتله ، فنزلت .

وروى ابن مهران عن ابن عباس لما نزل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ [البقرة : 245] الآية قال فنحاص اليهودي : احتاج ربّ محمد ، فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه فنزلت الآية ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه فلما جاء قال : ضع سيفك .

وهاتان روايتان ضعيفتان ومن أجلهما روي عن عطاء وقتادة وابن عباس أن هذه الآية مدنية .

وأقرب هذه الأخبار ما قاله مكي بن أبي طالب .

ولو صحت ما كان فيه ما يفكك انتظام الآيات سواء صادف نزولها تلك الحادثة أو أمر الله بوضعها في هذا الموضع .

وجزْم ﴿ يغفروا ﴾ على تقدير لام الأمر محذوفاً ، أي قل لهم ليغفروا ، أو هو مجزوم في جواب ﴿ قل ﴾ ، والمقول محذوف دل عليه الجواب .

والتقدير : قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا .

وهذا ثقة بالمؤمنين أنهم إذا قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم امتثلوا .

والوجهان يتأَّتيان في مثل هذا التركيب كلما وقع في الكلام ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ في سورة إبراهيم (31) .

و﴿ الذين لا يرجون أيام الله ﴾ يراد بهم المشركون من أهل مكة .

والرجاء : ترقب وتطلب الأمر المحبوب ، وهذا أشهر إطلاقاته وهو الظاهر في هذه الآية .

(149/699)

والأيام : جمع يوم ، وهذا الجمع أو مفرده إذا أضيف إلى اسم أحد أو قوم أو قبيلة كان المراد به اليوم الذي حصل فيه لمَن أضيف هو إليه نَصر وغلب على معاند أو مُقاتل ، ومنه أطلق على أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب : أيامُ العرب ، أي التي كان فيها قتال بين قبائل منهم فانتصر بعضهم على بعض ، كما يقال أيام عبس ، وأيام داحس والغبراء ، وأيام البَسوس ، قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنَا غرٍّ طِوال

عَصينا المَلْك فيها إن نَدِينا . . .

فإذا قالوا : أيام بني فلان ، أرادوا الأيام التي انتصر فيها من أضيفت الأيام إلى اسمه ، ويقولون

: أيام بني فلان على بني فلان فيريدون أن المجرور بحرف الاستعلاء مغلوب لتضمن لفظ ﴿ أيام ﴾ أو (يوم) معنى الانتصار والغلب .

وبذلك التضمّن كان المجرور متعلقاً بلفظ ﴿ أيام ﴾ أو (يوم) وإن كان جامداً ، فمعنى ﴿ أيام الله ﴾ على هذا هو من قبيل قولهم : أيام بني فلان ، فيحصل من محمل الرجاء على ظاهر استعماله .

ومحمل ﴿ أيام الله ﴾ على محمل أمثاله أن معنى الآية للذين لا تترقب نفوسهم أيام نصر الله ، أي نصر الله لهم : إما لأنهم لا يتوكلون على الله ولا يستنصرونه بل توجّههم إلى الأصنام ، وإما لأنهم لا يخطر ببالهم إلا أنهم منصورون بحولهم وقوتهم فلا يخطر ببالهم سؤال نصر الله أو رجاؤه وهم معروفون بهذه الصلة بين المسلمين فلذلك أجريت عليهم هنا وعرفوا بها . وأوثر تعريفهم بهذه الصلة ليكون في ذلك تعريض بأن الله ينصر الذين يرجون أيام نصره وهم المؤمنون .

والغرض من هذا التعريض الإيماء بالموصول إلى وجه أمر المؤمنين أن يغفِروا للمشركين ويصفحوا عن أذى المشركين ولا يتكلفوا الانتصار لأنفسهم لأن الله ضمن لهم النصر .

وقد يطلق ﴿ أيام الله ﴾ في القرآن على الأيام التي حصل فيها فضله ونعمته على قوم ، وهو أحد تفسيرين لقوله تعالى : ﴿ وذَكِّرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم : 5] .

ومعنى ﴿ لا يرجون أيام الله ﴾ على هذا التأويل أنهم في شغل عن ترقب نعم الله بما هم فيه من إسناد فعل الخير إلى أصنامهم بانكبابهم على عبادة الأصنام دون عبادة الله ويأتي في هذا الوجه من التعريض والتحريض مثل ما ذكر في الوجه الأول لأن المؤمنين هم الذين يرجون نعمة الله .

وفسر به قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ [الفرقان : 21] وقوله : ﴿ ما لكم لا تَرْجَون لله وقاراً ﴾ [نوح : 13] ، فيكون المراد بـ ﴿ أيام الله ﴾ : أيام جزائه في الآخرة لأنها أيام ظهور حكمه وعزته فهي تقارب الأيام بالمعنى الأول ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ذلك اليوم الحقّ ﴾ [النبأ : 39] ، أي ذلك يوم النصر الذي يحق أن يطلق عليه (يوم) فيكون معنى هذه الآية : أنهم لا يخافون تمكن الله من عقابهم لأنهم لا يؤمنون بالبعث .

ومعنى الآية أن المؤمنين أمروا بالعفو عن أذى المشركين وقد تكرر ذلك في القرآن قال تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ [آل عمران : 186] .

وفي "صحيح البخاري" عن أسامة بن زيد في هذه الآية : وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى .

وقوله : ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ تعليل للأمر المستفاد من قوله : ﴿ يغفروا

﴿ أي ليغفروا ويصفحوا عن أذى المشركين فلا ينتصروا لأنفسهم ليجزيهم الله على إيمانهم وعلى ما أوذوا في سبيله فإن الانتصار للنفس توفية للحق وماذا عساهم يبلغون من شفاء أنفسهم بالتصدّي للانتقام من المشركين على قلتهم وكثرة أولئك فإذا توكلوا على نصر ربّهم كان نصره لهم أتم وأخضد لشوكة المشركين كما قال نوح ﴿ إني مغلوب فانتصر ﴾ [القمر : 10].

وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ﴾ [الحجر : 85].

(151/699)

وكان مقتضى الظاهر أن يقال ليجزيهم بما كانوا يكسبون ، فعدل إلى الإظهار في مقام الإضمار ليكون لفظُ ﴿ قوماً ﴾ مشعراً بأنهم ليسوا بمضيعة عند الله فإن لفظ (قوم) مشعر بفريق له قِوامه وعزته ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ [محمد : 11] .

وتنكير ﴿ قوماً ﴾ للتعظيم ، فكأنه قيل : ليجزي أيما قوم ، أي قوماً مخصوصين .

وهذا مدح لهم وثناء عليهم .

ونحْوُه ما ذكر الطيبي عن ابن جنّي عن أبي علي الفارسي في قول الشاعر :

أفآت بنو مروان ظلماً دماءنا

وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل . . .

قال أبو علي : هو تعالى أعرف المعارف وسماه الشاعر : حكماً عدلاً وأخرج اللفظ مخرج التنكير ، ألا ترى كيف آل الكلام من لفظ التنكير إلى معنى التعريف أ هـ .

قيل : والأظهر أن ﴿ قوماً ﴾ مراد به الإبهام وتنوينه للتنكير فقط .

والمعنى : ليجزي الله كل قوم بما كانوا يكسبون من خير أو شر بما يناسب كسبهم فيكون وعيداً للمشركين المعتدين على المؤمنين ووعداً للمؤمنين المأمورين بالصفح والتجاوز عن أذى المشركين ، وهذا وجه عدم تعليق الجزاء بضمير الموقنين لأنه أريد العموم فليس ثمة إظهار في مقام الإضمار ويؤيد هذا قوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ [فصلت : 46] .

وهذا كالتفصيل للإجمال الذي في قوله : ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ .

ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف على سابقتها ، وتقدم نظيره في سورة فصّلت .

وقرأ الجمهور ﴿ ليجزي قوماً ﴾ بتحتية في أوله ، والضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ يَرْجُونَ أَيَّامَ ﴾ .

وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بنون العظمة في أوله على الالتفات .

وقرأه أبو جعفر بتحتية في أوله مضمومة وبفتح الزاي على البناء للمجهول ونَصبَ ﴿ قوماً

﴾ .

وتأويلها أن نائب الفاعل مصدر مأخوذ من فعل (يُجْزي) .

والتقدير : ليجزَى الجزاءُ .

﴿ وقوماً ﴾ مفعول ثان لفعل (يجزى) من باب كسا وأعطى .

(152/699)

وليس هذا من إنابة المصدر الذي هو مفعول مطلق وقد منعه نحاة البصرة بل جعل المصدر مفعولاً أول من باب أعطى وهو في المعنى مفعول ثان لفعل جزى ، وإنابة المفعول الثاني في باب كسا وأعطى متفق على جوازه وإن كان الغالب إنابة المفعول الأول كقوله تعالى : ﴿ ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى ﴾ [النجم : 41] .

وقوله : ﴿ ثم إلى ربّكم ترجعون ﴾ أي بعد الأعمال في الدنيا تصيرون إلى حكم الله تعالى فيجازيكم على أعمالكم الصالحة والسيئة بما يناسب أعمالكم .

وأطلق على المصير إلى حكم الله أنه رجُوع إلى الله على طريقة التمثيل بحال من كان بعيداً عن سيده أو أميره فعمل ما شاء ثم رجع إلى سيده أو أميره فإنه يلاقي جزاء ما عمله ، وقد تقدمت نظائره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق ﴾ قال : المطر . وفي قوله ﴿ وتصريف الرياح ﴾ إذا شاء جعلها رحمة وإذا شاء جعلها عذاباً . وفي قوله ﴿ لكل أفاك أثيم ﴾ قال : كذاب .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لكل أفاك أثيم ﴾ قال : المغيرة بن مخزوم .

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)

أخرج ابن المنذر من طريق عكرمة رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لم يكن يفسر أربع آيات قوله ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ والرقيم والغسلين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لم يفسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية إلا لندبة القارىء ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ نور الشمس والقمر .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ قال : كل شيء هو من الله .

(154/699)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن طاوس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فسأله : مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب . قال : فمم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدري . ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه فسأله فقال له مثل قول عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، فأتى ابن عباس رضي الله عنهما فسأله : مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب . قال : فمم خلق

هؤلاء ؟ فقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ فقال الرجل : ما كان يأتي بهذا إلا رجلٌ من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)

أخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ الآية قال : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بالعفو ، ويحث عليه ويرغب فيه حتى أمر أن يعفو عمن لا يرجو أيام الله ، وذكر أنها منسوخة نسختها الآية التي في الأنفال ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب ﴾ [الأنفال : 57] الآية .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ الآية قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يعرض عن المشركين إذا أذوه ، وكان يستهزؤون به ، ويكذبونه ، فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة ، فكان هذا من المنسوخ .

وأخرج أبو داود في تاريخه وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ . قال : الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم ، قال سفيان رضي الله عنه : بلغني أنها نسختها آية القتال .

وأخرج ابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ قال : هي منسوخة بقول الله ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ .

وأخرج ابن عساكر عن أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه أنه قال لجارية له : لولا أن الله تعالى يقول ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ لأوجعتك . فقالت : والله إني لممن يرجو أيامه ، فما لك لا توجعني ؟ فقال : إن الله تعالى يأمرني أن أغفر للذين لا يرجون أيامه ، فعمّن يرجو أيامه أحرى ، انطلقي فأنت حرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(156/699)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ

شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم بهذه الحكم ما افتتحت به السورة من أن منزل هذا الكتاب عزيز حكيم ، فكان التقدير فذلكة لذلك : لفقد آتيناك الكتاب والحكم والنبوة وفضلناك وأمتك على العالمين وأرسلناك لتنبه الناس على ما أمامهم وكان قومه بعد ائتلافهم على الضلال قد اختلفوا بهذا الكتاب الذي كان ينبغي لهم أن يشتد اجماعهم به واستنصارهم من أجله ، عطف عليه مسلياً قوله : ﴿ ولقد آتينا ﴾ أي على ما لنا من العظمة والقدرة الباهرة ﴿ بني إسرائيل ﴾ نبي الله ابن عمكم إسحاق نبي الله ابن أبيكم إبراهيم خليل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿ الكتاب ﴾ الجامع للخيرات وهو يعم التوارة والإنجيل والزبور وغيرها مما أنزل على أنبيائهم ﴿ والحكم ﴾ أي العلم والعمل الثابتين ثبات الاحكام بحيث لا يتطرق إليهما فساد بما للعلم من الزينة بالعمل ، وللعمل من الإتقان بالعلم ﴿ والنبوة ﴾ التي تدرك بها الأخبار العظيمة التي لا يمكن اطلاع الخلق عليها بنوع اكتساب منهم ، فأكثرنا فيهم من الأنبياء ﴿ ورزقناهم ﴾ بعظمتنا لإقامة أبدانهم ﴿ من الطيبات ﴾ من المن والسلوى وغيرهما من الأرزاق اللدنية وغيرها ﴿ وفضلناهم ﴾ بما لنا من العزة ﴿ على العالمين ﴾

وهم الذين تحقق إيجادنا لهم في زمانهم وما قبله فإنا آتيناهم من الآيات المرئية والمسموعة وأكثرنا فيهم من الأنبياء ما لم نفعله لغيرهم ممن سبق ، وكل ذلك فضيلة ظاهرة

﴿ وآتيناهم ﴾ مع ذلك ﴿ بينات من الأمر ﴾ الموحى به إلى أنبيائهم من الأدلة القطعية والأحكام والمواعظ المؤيدة بالمعجزات ، ومن صفات الأنبياء الآتين بعدهم وغير ذلك مما هو في غاية الوضوح لمن قضينا بسعادته ، وذلك أمر يقتضي الألفة والاجتماع وقد كانوا متفقين وهم في زمن الضلال لا يختلفون إلا اختلافاً يسيراً لا يضر مثله ولا يعد اختلافاً .

(157/699)

ولما كان حالهم بعد هذا الإيتاء مجملاً ، فصله فقال تعالى : ﴿ فما اختلفوا ﴾ أي أوقعوا الاختلاف والافتراق بغاية جهدهم ، ولما لم يكن اختلافهم مستغرقاً لجميع الزمن الذي بعد الإيتاء ، أثبت الجار فقال : ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ الذي من شأنه الجمع على المعلوم ، فكان ما هو سبب الاجتماع سبباً لهم في الافتراق لأن الله تعالى أراد ذلك وهو عزيز .

ولما كان هذا عجباً ، بين علته محذراً من مثلها فقال : ﴿ بغياً ﴾ أي للمجاوزة في الحدود التي اقتضاها لهم طلب الرئاسة والحسد وغيرهما من نقائص النفوس .

ولما كان البغي على البعيد مذموماً ، زاده عجباً بقوله : ﴿ بينهم ﴾ واقعاً فيهم لم يعدهم إلى غيرهم ، وقد كانوا قبل ذلك وهم تحت أيدي القبط في غاية الاتفاق واجتماع الكلمة على الرضا بالذل ، ولذلك استأنف قوله الذي اقتضاه الحال على ما يشاهده العباد من أفعال الملوك فيمن خالف أوامرهم ، مؤكداً لأجل إنكارهم .

(158/699)

﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك وتكثير أمتك وحفظهم مما ضل به القرون الأولى وبيان يوم الفصل الذي هو محط الحكمة بياناً لم يبينه على لسان أحد ممن سلف ﴿ يقضي بينهم ﴾ بإحصاء الأعمال والجزاء عليها ، لأن هذا مقتضى الحكمة والعزة ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي ينكره قومك الذين شرفناهم برسالتك مع أنه لا يجوز في الحكمة إنكاره ﴿ فيما كانوا ﴾ أي بما هو لهم كالجبلة ﴿ فيه يختلفون ﴾ بغاية الجهد متعمدين له بخلاف ما كان يقع منهم خطأ فإنه يجوز في الحكمة أن يتفضل عليهم بالعفو عنه فقد علم أنه لا يجوز في الحكمة أصلاً أن يترك المختلفون من غير حكم بينهم لأن هذا لا يرضاه أقل الملوك فإنه لا يعرف الملك إلا بالقهر والعزة ولا يعرف كونه حكيماً إلا بالعدل ، وإذا كان هذا لا يرضاه ملك فكيف يرضاه ملك الملوك ، وإذا كان هذا القضاء مقتضى الحكمة كان لا فرق فيه بين

ناس وناس ، فهو يقتضي بينكم أيضاً كذلك ، ومن التأكيد للوعد بذلك اليوم التعبير باسم الرب مضافاً إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما كان معنى هذا أنه سبحانه وتعالى جعل بني إسرائيل على شريعة وهددهم على الخلاف فيها ، فكان تهديدهم تهديداً لنا ، قال مصرحاً بما اقتضاه سوق الكلام وغيره من تهديدنا منبهاً على علو شريعتنا : ﴿ ثم ﴾ أي بعد فترة من رسلهم ومجاوزة رتب كثيرة عالية على رتبة شريعتهم ﴿ جعلناك ﴾ أي بعظمتنا ﴿ على شريعة ﴾ أي طريقة واسعة عظيمة ظاهرة مستقيمة سهلة موصلة إلى المقصود هي جديرة بأن يشرع الناس فيها ويخالطوها مبتدئة ﴿ من الأمر ﴾ الذي هو وحينا وهو حياة الأرواح كما أن الأرواح حياة الأشباح .

ولما بين بهذه العبارة بعض فضلها على ما كان قبلها ، سبب عنه قوله موجهاً الخطاب إلى الإمام بما أراد به المأمومين ليكون أدعى إلى اجتهادهم ، فإن أمرهم تكليف وأمر إمامهم تكوين : ﴿ فاتبعها ﴾ أي بغاية جهدك .

(159/699)

ولما كانت الشريعة العقل المحفوظ الذي أخبر الله أنه به يأخذ وبه يعطي ، كان الإعراض عنها إلى غيرها إنما هو هوى ، ولما كان أحاد الأمة غير معصومين أشار إلى العفو عن هفواتهم بقوله تعالى : ﴿ ولا تتبع ﴾ أي تتعمدا أن تتبعوا ﴿ أهواء الذين لا يعلمون ﴾ أي لا علم لهم أو لهم علم ولكنهم يعملون عمل من ليس لهم علم أصلاً من كفار العرب وغيرهم ، فإن من تعمد اتباعهم فعلت بهم ما فعلت ببني إسرائيل حيث لعنتهم على لسان داود وعيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام بعد ما لعنتهم على لسان موسى عليه الصلاة والسلام ، ثم علل هذا النهي مهدداً بقوله : مؤكداً تنبيهاً على أن من خالف أمر الله لأجل أحد كان عمله عمل من يظن أنه يحميه : ﴿ إنهم ﴾ وأكد النفي فقال تعالى : ﴿ لن يغنوا عنك ﴾ أي لا يتجدد لهم نوع إغناء مبتدىء ﴿ من الله ﴾ المحيط بكل شيء قدرة وعلماً واصل إليه ، وكل ما لا يكون ذا وصلة به فهو عدم ﴿ شيئاً ﴾ من إغناء إن تبعتهم كما أنهم لن يقدروا لك على شيء من أذى إن خالفتهم وناصبتهم .

ولما كان التقدير : فإنهم ظلمة لا يضعون شيئاً في موضعه ، ومن اتبعهم فهو منهم قال تعالى عاطفاً عليه : ﴿ وإن ﴾ وكان الأصل : وإنهم ولكنه أظهر للاعلام بوصفهم فقال : ﴿ الظالمين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف الذميم ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ فلا ولاية – أي قرب – بينهم وبين الحكيم أصلاً لتباعد ما بين الوصفين فكانت أعمالهم كلها باطلة لبنائها على غير أساس خلافاً لمن يظن بها غير ذلك تقيداً بالأمور الظاهرة في هذه الدار

﴿ والله ﴾ أي الذي له جميع صفات الجلال والجمال والعز والكمال ﴿ ولي المتقين ﴾ الذين همهم الأعظم الاتصاف بالحكمة باتخاذ الوقايات المنجية لهم من سخط الله ولا ولاية بينه وبين الظالمين .

ولما أوصل سبحانه إلى هذا الحد من البيان ، الفائت لقوى الإنسان ، قال مترجماً عنه : ﴿ هذا ﴾ أي الوحي المنزل .

(160/699)

ولما كان في عظم بيانه وإزالة اللبس عن كل ملبس دق أو جل بحيث لا يلحقه شيء من خفاء ، جعله نفس البصيرة ، مجموعة جمع كثرة بصيغة منتهى الجموع كما جعله روحاً فقال : ﴿ بصائر للناس ﴾ أي الذين هم في أدنى المراتب ، يبصرهم بما يضرهم وما ينفعهم ، فما ظنك بمن فوقهم من الذين آمنوا ثم الذين يؤمنون ومن فوقهم .

ولما بين ما هو لأهل السفول ، بين ما هو لأهل العلو فقال تعالى : ﴿ وهدى ﴾ أي قائد إلى كل خير ، مانع من كل زيغ ﴿ ورحمة ﴾ أي كرامة وفوز ونعمة ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أي ناس فيهم قوة القيام بالوصول إلى العلم الثابت وتجديد الترقي في درجاته إلى ما لا نهاية له أبداً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 99 . 101 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾

اعلم أنه تعالى بيّن أنه أنعم بنعم كثيرة على بني إسرائيل ، مع أنه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغي والحسد : والمقصود أن يبين أن طريقة قومه كطريقة من تقدم .

واعلم أن النعم على قسمين : نعم الدين ، ونعم الدنيا ، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا ، فلهذا بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين ، فقال ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا بَنِى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ والأقرب أن كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايراً لصاحبه ، أما الكتاب فهو التوراة ، وأما الحكم ففيه وجوه ، يجوز أن يكون المراد العلم والحكمة ، ويجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات ، ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه ، وأما النبوة فمعلومة ، وأما نعم الدنيا فهي المراد من قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقناهم مِّنَ الطيبات ﴾ وذلك لأنه تعالى وسع عليهم في الدنيا ، فأورثهم أموال قوم فرعون وديارهم ثم أنزل عليهم المن والسلوى ، ولما بيّن تعالى أنه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيباً

وافراً ، قال : ﴿ وفضلناهم عَلَى العالمين ﴾ يعني أنهم كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممن سواهم في وقتهم ، فلهذا المعنى قال المفسرون المراد : وفضلناهم عن عالمي زمانهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وءاتيناهم بينات مّنَ الأمر ﴾ وفيه وجوه الأول : أنه آتاهم بينات من الأمر ، أي أدلة على أمور الدنيا الثاني : قال ابن عباس : يعني بيّن لهم من أمر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ، ويكون أنصاره أهل يثرب الثالث : المراد ﴿ وءاتيناهم بينات ﴾ أي معجزات قاهرة على صحة نبوتهم ، والمراد معجزات موسى عليه السلام .

(162/699)

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ وهذا مفسر في سورة ﴿ حم * عسق ﴾ [الشورى : 1 ، 2] والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وههنا صار مجيء العلم سبباً لحصول الاختلاف ، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم ، ثم ههنا احتمالات يريد أنهم علموا ثم عاندوا ، ويجوز أن يريد بالعلم الدلالة التي توصل إلى العلم ، والمعنى أنه تعالى وضع الدلائل والبينات التي لو تأملوا

فيها لعرفوا الحق ، لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا النزاع .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ والمراد أنه لا ينبغي أن يغتر المبطل بنعم الدنيا ، فإنها وإن ساوت نعم المحق أو زادت عليها ، فإنه سيرى في الآخرة ما يسؤوه ، وذلك كالزجر لهم ، ولما بيّن تعالى أنهم أعرضوا عن الحق لأجل البغي والسحد ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعدل عن تلك الطريقة ، وأن يتمسك بالحق ، وأن لا يكون له غرض سوى إظهار الحق وتقرير الصدق ، فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جعلناك على شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمر ﴾ أي على طريقة ومنهاج من أمر الدين ، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبينات ، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال وأديانهم المبنية على الأهواء والجهل ، قال الكلبي : إن رؤساء قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة : ارجع إلى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(163/699)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ أي لو ملت إلى أديانهم الباطلة فصرت مستحقاً للعذاب ، فهم لا يقدرون على دفع عذاب الله عنك ، ثم بيّن تعالى أن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا وفي الآخرة ، ولا ولي لهم ينفعهم في إيصال الثواب وإزالة العقاب ،

وأما المتقون المهتدون ، فالله وليهم وناصرهم وهم موالوه ، وما أبين الفرق بين الولايتين ، ولما بيّن الله تعالى هذه البيانات الباقية النافعة ، قال : ﴿ هذا بصائر للنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وقد فسرناه في آخر سورة الأعراف ، والمعنى هذا القرآن بصائر للناس جعل ما فيه من البيانات الشافية ، والبينات الكافية بمنزلة البصائر في القلوب ، كما جعل في سائر الآيات روحاً وحياة ، وهو هدى من الضلالة ، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 227. 228 ﴾

(164/699)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بني إِسْرَائِيلَ الكتاب ﴾

يعني التوراة .

﴿ والحكم والنبوة ﴾ الحكم : الفهم في الكتاب .

وقيل : الحكم على الناس والقضاء .

"والنُّبُوَّةَ" يعني الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام .

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ أي الحلال من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت

بالشام .

وقيل : يعني المَنّ والسَّلْوَى في التّيه .

﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العالمين ﴾ أي على عالَمِي زمانهم ؛ على ما تقدّم في "الدخان" بيانه .

﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأمر ﴾ قال ابن عباس : يعني أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وشواهد نبوّته بأنه يهاجر من تِهامة إلى يَثْرِب ، وينصره أهل يثرب .

وقيل : بيّنات الأمر شرائعُ واضحات في الحلال والحرام ومعجزات .

﴿ فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم ﴾ يريد يُوشَع بن نُون ؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم ؛ حكاه النقاش .

وقيل : "إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ" نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها .

﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ أي حسداً على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال معناه الضحاك .

قيل : معنى "بَغْياً" أي بغى بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة ، وقتلوا الأنبياء ؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد ، قد جاءتهم البيّنات ولكن أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي يحكم ويفصِل .

﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا .

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ على شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمر ﴾ الشريعة في اللغة : المذهب والمِلّة .

ويقال لمشرعة الماء وهي مورد الشاربة : شريعة .

ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد .

(165/699)

فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ؛ والجمع الشرائع .

والشرائع في الدين : المذاهب التي شرعها الله لخلقه .

فمعنى : "جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ" أي على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق .

وقال ابن عباس : "عَلَى شَرِيعَةٍ" أي على هدًى من الأمر .

قتادة : الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض .

مقاتل : البيّنة ؛ لأنها طريق إلى الحق .

الكلبي : السُّنة ؛ لأنه يُستن بطريقة مَن قبله من الأنبياء .

ابن زيد : الدِّين ؛ لأنه طريق النجاة .

قال ابن العربي : والأمر يرِد في اللغة بمعنيين : أحدهما بمعنى الشأن كقوله : ﴿ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : 97] .

والثاني أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي .

وكلاهما يصح أن يكون مراداً هاهنا ؛ وتقديره : ثم جعلناك على طريقة من الدين وهي ملّة الإسلام ؛ كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ [النحل : 123] .

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح ، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه .

الثانية قال ابن العربي : ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا ؛ لأن الله تعالى أفرد النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية بشريعة ، ولا ننكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته منفردان بشريعة ، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المشركين .

وقال ابن عباس : قُريظة والنَّضِير .

وعنه : نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه .

(166/699)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللّهِ شَيْئاً ﴾ أي إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً .

﴿ وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب .

قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أولياء اليهود .

﴿ واللّهُ وَلِيُّ المتقين ﴾ أي ناصرهم ومعينهم .

والمتقون هنا : الذين اتقوا الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : ﴿ هذا بَصَائِرُ للنَّاسِ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أي هذا الذي أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس في الحدود والأحكام .

وقرىء "هَذِهِ بَصَائِرُ" أي هذه الآيات .

﴿ وَهُدًى ﴾ أي رشد وطريق يؤدّي إلى الجنة لمن أخذ به .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ فِي الآخرة ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(167/699)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

هذه السورة مكية ، قال ابن عطية : بلا خلاف ، وذكر الماوردي : إلا ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ الآية ، فمدنية نزلت في عمر بن الخطاب .

قال ابن عباس ، وقتادة ، وقال النحاس ، والمهدوي ، عن ابن عباس : نزلت في عمر : شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فنزلت .

ومناسبة أولها لآخر ما قبلها في غاية الوضوح .

قال : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ وقال : ﴿ حم تنزيل الكتاب ﴾ ، وتقدم الكلام على ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ أول الزمر .

وقال أبو عبد الله الرازي : وقوله : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ ، يجوز جعله صفة لله ، فيكون ذلك حقيقة ؛ ﴿ وإن جعلناه ﴾ صفة للكتاب ، كان ذلك مجازاً ؛ والحقيقة أولى من المجاز

، مع أن زيادة القرب توجب الرجحان . انتهى .

وهذا الذي ردّد في قوله : ﴿ وإن جعلناه ﴾ صفة للكتاب لا يجوز .

لو كان صفة للكتاب لوليه ، فكان يكون التركيب : تنزيل الكتاب العزيز الحكيم من الله ، لأن من الله ، إما أن يكون متعلقاً بتنزيل ، وتنزيل خبر لحم ، أو لمبتدأ محذوف ، فلا يجوز الفصل به بين الصفة والموصوف ، لا يجوز أعجبني ضرب زيد سوط الفاضل ؛ أو في موضع الخبر ، وتنزيل مبتدأ ، فلا يجوز الفصل بين الصفة والموصوف أيضاً ، لا يجوز ضرب زيد شديد الفاضل ، والتركيب الصحيح في نحو هذا أن يلي الصفة موصوفها .

﴿ إن في السموات والأرض ﴾ ، احتمل أن يريد : في خلق السموات ، كقوله : ﴿ وفي خلقكم ﴾ ، والظاهر أنه لا يراد التخصيص بالخلق ، بل في السموات والأرض على الإطلاق والعموم ، أي في أي شيء نظرت منهما من خلق وغيره ، من تسخير وتنوير وغيرهما ، ﴿ لآيات ﴾ : لم يأت بالآيات مفصلة ، بل أتى بها مجملة ، إحالة على غوامض يثيرها الفكر ويخبر بكثير منها الشرع .

وجعلها ﴿ للمؤمنين ﴾ ، إذ في ضمن الإيمان العقل والتصديق .

﴿ وما يبث من دابة ﴾ ، أي في غير جنسكم ، وهو معطوف على : ﴿ خلقكم ﴾ .

ومن أجاز العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض ، أجاز في ﴿ وما يبث ﴾ أن يكون معطوفاً على الضمير ﴿ وفي خلقكم ﴾ ، وهو مذهب الكوفيين ، ويونس ، والأخفش ؛ وهو الصحيح ، واختاره الأستاذ أبو علي الشلوبين .

وقال الزمخشري : يقبح العطف عليه ، وهذا تفريع على مذهب سيبويه وجمهور البصريين ، قال : وكذلك أن أكدوه كرهوا أن يقولوا : مررت بك أنت وزيد . انتهى .

وهذا يجيزه الجرمي والزيباري في الكلام ، وقال : ﴿ لقوم يوقنون ﴾ : وهم الذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ : تقدم الكلام على نظيره في سورة البقرة .

وقرأ الجمهور : آيات ، جمعاً بالرفع فيهما ؛ والأعمش ، والجحدري ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب : بالنصب فيهما ؛ وزيد بن علي ؛ برفعهما على التوحيد .

وقرأ أبي ، وعبد الله : لآيات فيهما ، كالأولى .

فأما : ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ رفعاً ونصباً ، فاستدل به وشبهه مما جاء في كلام الأخفش ، ومن أخذ بمذهبه على عطف معمولي عاملين بالواو ، وهي مسألة فيها أربعة مذاهب ، ذكرناها في (كتاب التذييل والتكميل لشرح التسهيل) .

فأما ما يخص هذه الآية ، فمن نصب آيات بالواو عطفت ، واختلاف على المجرور بفي قبله

وهو : ﴿ وفي خلقكم وما يبث ﴾ ، وعطف آيات على آيات ، ومن رفع فكذلك ، والعاملان أولاهما إن وفي ، وثانيهما الابتداء وفي .

وقال الزمخشري : أقيمت الواو مقامهما ، فعملت الجر ، واختلاف الليل والنهار والنصب في آيات ، وإذا رفعت والعاملان الابتداء ، وفي عملت الرفع للواو ليس بصحيح ، لأن الصحيح من المذاهب أن حرف العطف لا يعمل ؛ ومن منع العطف على مذهب الأخفش ، أضمر حرف الجر فقدر .

(169/699)

وفي اختلاف ، فالعمل للحرف مضمراً ، ونابت الواو مناب عامل واحد ؛ ويدل على أن في مقدرة قراءة عبد الله : وفي اختلاف ، مصرحاً وحسن حذف في تقدمها في قوله : ﴿ وفي خلقكم ﴾ ؛ وخرج أيضاً النصب في آيات على التوكيد لآيات المتقدمة ، ولإضمار حرف في وقرىء واختلاف بالرفع على خبر مبتدأ محذوف ، أي هي آيات ولإضمار حرف أيضاً .

وقرأ : واختلاف الليل والنهار آية بالرفع في اختلاف ، وفي آية موحدة ؛ وكذلك ﴿ وما يبث من دابة ﴾ .

وقرأ زيد بن علي ، وطلحة ، وعيسى : ﴿ وتصريف الرياح ﴾ .

وقال الزمخشري : والمعنى أن المنصفين من العباد ، إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح ، علموا أنها مصنوعة ، وأنه لا بد لها من صانع ، فآمنوا بالله وأقروا .

فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة ، في خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ، ازدادوا إيماناً وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس .

فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت ، كاختلاف الليل والنهار ، ونزول الأمطار ، وحياة الأرض بها بعد موتها ، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً ، عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم .

وقال أبو عبد الله الرازي : ذكر في البقرة ثمانية دلائل ، وهنا ستة ؛ لم يذكر الفلك والسحاب ، والسبب في ذلك أن مدار الحركة للفلك والسحاب على الرياح المختلفة ، فذكر الرياح ؛ وهناك جعل مقطع الثمانية واحداً ، وهنا رتبها على مقاطع ثلاثة : يؤمنون ، يوقنون ، يعقلون .

قال : وأظن سبب هذا الترتيب : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فافهموا هذه الدلائل ؛ فإن لم تكونوا مؤمنين ولا موقنين ، فلا أقل أن تكونوا من العاقلين ، فاجتهدوا .

وقال هناك : ﴿ إن في خلق السموات ﴾ وهنا : ﴿ في السموات ﴾ ، فدل على أن الخلق غير المخلوق ، وهو الصحيح عند أصحابنا ، ولا تفارق بين أن يقال : في السموات ،

وفي خلق السموات .

انتهى ، وفيه تلخيص وتقدم وتأخير .

(170/699)

﴿ تلك آيات الله ﴾ : أي تلك الآيات ، وهي الدلائل المذكورة ؛ ﴿ نتلوها ﴾ : أي نسردها عليك ملتبسة بالحق ، ونتلوها في موضع الحال ، أي متلوة .

قال الزمخشري : والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة ونحوه ، وهذا بعلى شيخاً .

انتهى ، وليس نحوه ، لأن في وهذا حرف تنبيه .

وقيل : العامل في الحال ما دل عليه حرف التنبيه ، أي تنبه .

وأما تلك ، فليس فيها حرف تنبيه عاملاً بما فيه من معنى التنبيه ، لأن الحرف قد يعمل في الحال : تنبه لزيد في حال شيخه وفي حال قيامه .

وقيل : العامل في العامل في مثل هذا التركيب فعل محذوف يدل عليه المعنى ، أي انظر إليه في حال شيخه ، فلا يكون اسم الإشارة عاملاً ولا حرف التنبيه ، إن كان هناك .

وقال ابن عطية : نتلوها ، فيه حذف مضاف ، أي نتلو شأنها وشرح العبرة بها .

ويحتمل أن يريد بآيات الله القرآن المنزل في هذه المعاني ، فلا يكون في نتلوها حذف

مضاف . انتهى .

وتتلوها معناه : يأمر الملك أن تتلوها .

وقرئ : يتلوها ، بياء الغيبة ، عائداً على الله ؛ وبالحق : بالصدق ، لأن صحتها معلومة بالدلائل العقلية .

﴿ فبأي حديث ﴾ الآية ، فيه تقريع وتوبيخ وتهديد ؛ ﴿ بعد الله ﴾ : أي بعد حديث الله ، وهو كتابه وكلامه ، كقوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ﴾ وقال : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ أي بعد حديث الله وكلامه .

وقال الضحاك : بعد توحيد الله .

وقال الزمخشري : بعد الله وآياته ، أي بعد آيات الله ، كقولهم : أعجبني زيد وكرمه ، يريدون : أعجبني كرم زيد . انتهى .

وهذا ليس بشيء ، لأن فيه من حيث المعنى إقحام الأسماء من غير ضرورة ؛ والعطف والمراد غير العطف من إخراجه إلى باب البدل ، لأن تقدير كرم زيد إنما يكون في : أعجبني زيد كرمه ، بغير واو على البدل ؛ وهذا قلب لحقائق النحو .

وإنما المعنى في : أعجبني زيد وكرمه ، أن ذات زيد أعجبته ، وأعجبه كرمه ؛ فهما إعجابان لا إعجاب واحد ، وقد رددنا عليه مثل قوله هذا فيما تقدم .

وقرأ أبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة ، وقتادة ، والحرميان ، وأبو عمرو ، وعاصم في رواية : يؤمنون ، بالياء من تحت ؛ والأعمش ، وباقي السبعة : بتاء الخطاب ؛ وطلحة : توقنون بالتاء من فوق ، والقاف من الإيقان .

﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ ، قيل : نزلت في أبي جهل ؛ وقيل : في النضير بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن .

والآية عامة فيمن كان مضاراً لدين الله ؛ وأفاك أثيم ، صفتا مبالغة ؛ وألفاظ هذه الآية تقدم الكلام عليها .

وقرأ الجمهور : علم ؛ وقتادة ومطر الوراق : بضم العين وشد اللام ؛ مبنياً للمفعول ، أي عرف .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى : ثم ، في قوله : ﴿ ثم يصر مستكبراً ﴾ ؟ قلت : كمعناه في قول القائل :

يرى غمرات الموت ثم يزورها . . .

وذلك بأن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائبها بنفسه ويطلب الفرار منها ، وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها ، فأمر مستبعد .

فمعنى ثم : الإيذان بأن فعل المقدم عليها ، بعدما رآها وعاينها ، شيء يستبعد في العادة والطباع ، وكذلك آيات الله الواضحة القاطعة بالحق ، من تليت عليه وسمعها ، كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها .

﴿ اتخذها هزواً ﴾ ، ولم يقل : اتخذه ، إشعاراً بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه .

(172/699)

وقال الزمخشري : ويحتمل ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً ﴾ ، يمكن أن يتشبث به المعاند ويجعله محملاً يتسلق به على الطعن والغميزة ، افترضه واتخذ آيات الله هزواً ، وذلك نحو افترص ابن الزبعري قوله عز وجل : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ ومغالطته رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقوله : خصمتك ؛ ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء ، لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية :

نفسي بشيء من الدنيا معلقة . . .

الله والقائم المهدي يكفيها

حيث أراد عتبة . انتهى .

وعتبة جارية كان أبو العتاهية يهواها وينتسب بها .

والإشارة بأولئك إلى كل أفاك ، لشموله الأفاكين .

حمل أولاً على لفظ كل ، وأفرد على المعنى فجمع ، كقوله : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ : أي من قدامهم ، والوراء : ما توارى من خلف وأمام .

﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ﴾ من الأموال في متاجرهم ، ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله ﴾ من الأوثان .

﴿ هذا ﴾ ، أي القرآن ، ﴿ هدًى ﴾ ، أي بالغ في الهداية ، كقولك : هذا رجل ، أي كامل في الرجولية .

قرأ طلحة ، وابن محيصن ، وأهل مكة ، وابن كثير ، وحفص : ﴿ أليم ﴾ ، بالرفع نعتاً لعذاب ؛ والحسن ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وعيسى ، والأعمش ، وباقي السبعة : بالجر نعتاً لرجز .

﴿ الله الذين سخر ﴾ الآية : آية اعتبار في تسخير هذا المخلوق العظيم ، والسفن الجارية فيه بهذا المخلوق الحقير ، وهو الإنسان .

﴿ بأمره ﴾ : أي بقدرته .

أناب الأمر مناب القدرة ، كأنه يأمر السفن أن تجري .

﴿ من فضله ﴾ بالتجارة وبالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، واستخراج اللحم الطري .

﴿ ما في السموات ﴾ من الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والهواء ، والأملاك الموكلة بهذا كله .

﴿ وما في الأرض ﴾ من البهائم والمياه والجبال والنبات .

وقرأ الجمهور : ﴿ منه ﴾ ، وابن عباس : بكسر الميم وشد النون ونصب التاء على المصدر .

قال أبو حاتم : نسبة هذه القراءة إلى ابن عباس ظلم .

(173/699)

وحكاها أبو الفتح ، عن ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والجحدري ، وعبد الله بن عبيد بن عمير ، وحكاها أيضاً عن هؤلاء الأربعة صاحب اللوامح ، وحكاها ابن خالويه ، عن ابن عباس ، وعبيد بن عمير .

وقرأ سلمة بن محارب كذلك ، إلا أنه ضم التاء ، أي هو منه ، وعنه أيضاً فتح الميم وشد النون ، وهاء الكناية عائد على الله ، وهو فاعل سخر على الإسناد المجازي ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي ذلك ، أو هو منه .

والمعنى ، على قراءة الجمهور : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة عنده ، إذ هو موجدها بقدرته وحكمته ، ثم سخرها لخلقه .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون يعني منه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هي جميعاً منه ، وأن يكون : وما في الأرض ، مبتدأ ، ومنه خبره .

انتهى .

ولا يجوز هذان الوجهان إلا على قول الأخفش ، لأن جميعاً إذ ذاك حال ، والعامل فيها معنوي ، وهو الجار والمجرور ؛ فهو نظير : زيد قائماً في الدار ، ولا يجوز على مذهب الجمهور .

﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ : نزلت في صدر الإسلام .

أمر المؤمنين أن يتجاوزوا عن الكفار ، وأن لا يعاقبوهم بذنب ، بل يصبرون لهم ، قاله السدّي ومحمد بن كعب ، قيل : وهي محكمة ، والأكثر على أنها منسوخة بآية السيف .

يغفروا ، في جزمه أوجه للنحاة ، تقدّمت في : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ في سورة إبراهيم .

﴿ لا يرجون أيام الله ﴾ : أي وقائعه بأعدائه ونقمته منهم .

وقال مجاهد : وقيل أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك .

وقيل : لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز .

قيل : نزلت قبل آية القتال ثم نسخ حكمها .

(174/699)

وتقدم قول ابن عباس أنها نزلت في عمر بن الخطاب ؛ قيل : سبه رجل من الكفار ، فهم أن يبطش به ، وقرأ الجمهور : ليجزي الله ، وزيد بن عليّ ، وأبو عبد الرحمن ، والأعمش ، وأبو علية ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بالنون ؛ وشيبة ، وأبو جعفر : بخلاف عنه بالياء مبنياً للمفعول .

وقد روي ذلك عن عاصم ، وفيه حجة لمن أجاز بناء الفعل للمفعول ، على أن يقام المجرور ، وهو بما ، وينصب المفعول به الصريح ، وهو قوماً ؛ ونظيره : ضرب بسوط زيداً ؛ ولا يجيز ذلك الجمهور .

وخرجت هذه القراءة على أن يكون بني الفعل للمصدر ، أي وليجزي الجزاء قوماً .

وهذا أيضاً لا يجوز عند الجمهور ، لكن يتأول على أن ينصب بفعل محذوف تقديره يجزى قوماً ، فيكون جملتان ، إحداهما : ليجزي الجزاء قوماً ، والأخرى : يجزيه قوماً ؛ وقوماً هنا يعني به الغافرين ، ونكره على معنى التعظيم لشأنهم ، كأنه قيل : قوماً ، أي قوم من شأنهم

التجاوز عن السيئات والصفح عن المؤذيات وتحمل الوحشة .

وقيل : هم الذين لا يرجون أيام الله ، أي بما كانوا يكسبون من الإثم ، كأنه قيل : لم تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن .

﴿ من عمل صالحاً ﴾ كهؤلاء الغافرين ، ﴿ ومن أساء ﴾ كهؤلاء الكفار ، وأتى باللام في فلنفسه ، لأن المحاب والحظوظ تستعمل فيها على الدالة على العلو والقهر ، كما تقول : الأمور لزيد متأتية وعلى عمرو مستصعبة .

والكتاب : التوراة ، والحكم : القضاء ، وفصل الأمور لأن الملك كان فيهم .

قيل : والحكم : الفقه .

ويقال : لم يتسع فقه الأحكام على نبي ، كما اتسع على لسان موسى من الطيبات المستلذات الحلال ، وبذلك تتم النعمة ، وذلك المن والسلوى وطيبات الشام ، إذ هي الأرض المباركة .

بينات : أي دلائل واضحة من الأمر ، أي من الوحي الذي فصلت به الأمور .

وعن ابن عباس : من الأمر ، أي من أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب .

وقيل معجزات موسى .

﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ : تقدم تفسيره في الشورى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(175/699)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا بَنِى إسرائيل الكتاب ﴾

وهو التوراة على أن التعريف للعهد ، وجوز جعله للجنس ليشمل الزبور والإنجيل ولا يضر في ذلك كون الزبور أدعية ومناجاة والإنجيل أحكامه قليلة جداً ومعظم أحكام عيسى عليه السلام من التوراة لأن إيتاء الكاتب مطلقاً منة ﴿ والحكم ﴾ القضاء وفصل الأمور بين الناس لأن الملك كان فيهم واختاره أبو حيان ، أو الفقه في الدين ويقال : لم يتسع فقه الأحكام على نبي ما اتسع على لسان موسى عليه السلام ، أو الحكم النظرية الأصلية والعملية الفرعية ﴿ والنبوة ﴾ حيث كثر فيهم الأنبياء عليهم السلام ما لم يكثر في غيرهم ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مّنَ الطيبات ﴾ المستلذات الحلال وبذلك تتم النعمة وذلك كالمن والسلوى ﴿ وفضلناهم عَلَى العالمين ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم من فلق البحر واظلال الغمام ونظائرهما فالمراد تفضيلهم على العالمين مطلقاً من بعض الوجوع لا من كلها ولا من

جهة المرتبة والثواب فلا ينافي ذلك تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم عليهم من وجه آخر ومن جهة المرتبة والثواب ، وقيل : المراد بالعالمين عالمو زمانهم .

﴿ وءاتيناهم بينات مّنَ الأمر ﴾ دلائل ظاهرة في أمر الدين فمن بمعنى في والبينات الدلائل ويندرج فيها معجزات موسى عليه السلام وبعضهم فسرها بها ، وعن ابن عباس آيات من أمر النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات مبينة لصدقه عليه الصلاة والسلام ككونه يهاجر من مكة إلى يثرب ويكون أنصاره أهلها إلى غير ذلك مما ذكر في كتبهم ﴿ فَمَا اختلفوا ﴾ في ذلك الأمر ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ حتى جَاءهُمُ العلم ﴾ بحقيقة الحال فجعلوا ما ويجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ عداوة وحسداً لا شكا فيه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيمة ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿ فِيمَا كَانُواْ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين .

(176/699)

﴿ ثُمَّ جعلناك على شَرِيعَةٍ ﴾ أي سنة وطريقة من شرعه إذا سنه ليسلك ، وفي البحر الشريعة في كلام العرب الموضع الذي يرد منه الناس في الأنهار ونحوها فشريعة الدين من ذلك من حيث يرد الناس منها أمر الله تعالى ورحمته والقرب منه عز وجل ، وقال الراغب : الشرع مصدر ثم جعل اسما للطريق النهج فقيل له شرع وشرعة وشريعة واستعير ذلك

للطريقة الإلهية من الدين ثم قال : قال بعضهم سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث أن من شرع فيها على الحقيقة والصدق روي وتطهر ، وأعني بالري ما قال بعض الحكماء : كنت أشرب فلا أروى فلما عرفت الله تعالى رويت بلا شرب ، وبالتطهر ما قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهِ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : 33] والظاهر هنا المعنى اللغوي ، والتنوين للتعظيم أي شريعة عظيمة الشأن ﴿ مِنَ الأمر ﴾ أي أمر الدين ، وجوز أبو حيان كونه مصدر أمر ، والمراد من الأمر والنهي وهو كما ترى ﴿ فاتبعها وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي آراء الجهال التابعة للشهوات ، والمراد بهم ما يعم كل ضال ، وقيل : هم جهال قريظة .

والنضير ، وقيل : رؤساء قريش كانوا يقولون له صلى الله عليه وسلم : ارجع إلى دين آبائك .

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ الله شَيْئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الأغناء ان اتبعتهم والجملة مستأنفة مبينة لعلة النهي ﴿ وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ لا يواليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم .

﴿ والله وَلِيُّ المتقين ﴾ الذين أنت قدوتهم فدم على ما أنت عليه من توليه سبحانه خاصة والاعراض عما سواه عز وجل بالكلية .

﴿ هذا ﴾ أي القرآن ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ فإن ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر في القلوب ، وقيل : الإشارة إلى اتباع الشريعة والكلام من باب التشبيه البليغ ، وجمع الخبر على الوجهين باعتبار تعدد ما تضمنه المبتدأ واتباع مصدر مضاف فيعم ويخبر عنه بمتعدد أيضاً ، وقرىء ﴿ هذه ﴾ أي الآيات ﴿ وهدى ﴾ جليل من ورطة الضلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ من شأنهم الإيقان بالأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(178/699)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾

الوجه أن يكون سَوق خبر بني إسرائيل هنا توطئةً وتمهيداً لقوله بعده ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ﴾ [الجاثية : 18] أثار ذلك ما تقدم من قوله : ﴿ ويل لكلّ أفّاك أثيم يسمع آيات الله تُتْلَى عليه ﴾ إلى قوله : ﴿ اتخذها هزؤا ﴾ [الجاثية : 97] ثم قوله : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ [الجاثية : 14] فكان المقصدُ قولَه

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر ﴾ [الجاثية : 18] ولذلك عطفت الجملة بحرف ﴿ ثمَّ الدال على التراخي الرتبي ، أي على أهمية ما عطف بها .

ومقتضى ظاهر النظم أن يقع قوله : ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب ﴾ الآيتين بعد قوله : ﴿ جعلناك على شريعة من الأمر ﴾ [الجاثية : 18] فيكونَ دليلاً وحجة له فأخرج النظم على خلاف مقتضى الظاهر فجعلت الحجة تمهيداً قصداً للتشويق لما بعده ، وليقع ما بعده معطوفاً بـ ﴿ ثم الدالةِ على أهمية ما بعدها .

وقد عرف من تورك المشركين على النبي في شأن القرآن ما حكاه الله عنهم في قوله : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثلَ ما أوتي موسى ﴾ [القصص : 48] وقولهم : ﴿ لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] ، فمن أجل ذلك وقع هذا بعد قوله : ﴿ ويل لكل أفّاك أثيم إلى قوله : وإذا عَلم من آياتنا شيئاً اتخذها هزؤا ﴾ [الجاثية : 97] وقوله : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ [الجاثية : 14] ، فالجملة معطوفة على تلك الجمل .

وأدمج في خلالها ما اختلف فيه بنو إسرائيل على ما دعتهم إليه شريعتهم ، لما فيه من تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على مخالفة قومه دعوته تنظيراً في أصل الاختلاف دون أسبابه وعوارضه .

ولما كان في الكلام ما القصد منه التسلية والاعتبار بأحوال الأمم حَسن تأكيد الخبر بلام القسم وحرفِ التحقيق ، فمصب هذا التحقيق هو التفريع الذي في قوله : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ [يونس : 93] تأكيداً للمؤمنين بأن الله يقضي بينهم وبين المشركين كشأنه فيما حدث بين بني إسرائيل .

وقد بُسِط في ذكر النظير في بني إسرائيل من وصف حالهم حينما حدث الاختلاف بينهم ، ومن التصريح بالداعي للاختلاف بينهم ما طُوي من مِثلِ بعضِه من حال المشركين حين جاءهم الإسلام فاختلفوا مع أهله إيجازاً في الكلام للاعتماد على ما يفهمه السامعون بطريق المقايسة على أن أكثره قد وقع تفصيله في الآيات السابقة مثل قوله : ﴿ تِلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ [الجاثية : 6] وقوله هذا هدى [الجاثية : 11] فإن ذلك يقابل قولَه هنا ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحُكم والنبوءة ﴾ ومثل قوله : ﴿ وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض ﴾ [الجاثية : 13] فإنه يقابل قولَه هنا ﴿ ورَزقناهم من الطيبات ﴾ ، ومثل قوله : ﴿ يسمع آيات الله تُتْلَى عليه ثم يُصرّ مستكبراً ﴾ إلى قوله ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ [الجاثية : 8 ، 9] فإنه يقابل قوله هنا ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ ، ومثل قوله: ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ [الجاثية : 14] فإنه مقابل قوله هنا ﴿ إن ربك

يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

و﴿ الكتاب ﴾ : التوراة .

و﴿ الحكم ﴾ يصح أن يكون بمعنى الحِكمة ، أي الفهم في الدّين وعلم محاسن الأخلاق كقوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحُكم صبيّاً ﴾ [مريم : 12] ، يعني يحيى ، ويصح أن يكون بمعنى السيادة ، أي أنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ولا تحكمهم أمة أخرى كقوله تعالى و ﴿ جَعلَكم ملوكاً ﴾ [المائدة : 20] ، و ﴿ النبوءة ﴾ أن يقوم فيهم أنبياء .

(180/699)

ومعنى إيتائهم هذه الأمور الثلاثة : إيجادها في الأمة وإيجاد القائمين بها لأن نفع ذلك عائد على الأمة جمعاء فكان كل فرد من الأمة كمن أوتي تلك الأمور .

وأما رزقهم من الطيبات فبأن يسّر لهم امتلاك بلاد الشام التي تفيض لبناً وعسلاً كما في التوراة في وعد إبراهيم والتي تجبى إليها ثمرات الأرضين المجاورة لها وتَرد عليها سلع الأمم المقابلة لها على سواحل البحر فتزخر مراسيها بمختلف الطعام واللباس والفواكه والثمار والزخارف ، وذلك بحُسن موقِعِ البلاد من بين المشرق براً والمغرب بحراً .

و﴿ الطيبات ﴾ : هي التي تطيب عند الناس وتحسن طعْماً ومنظراً ونفعاً وزينة .

وأما تفضيلهم على العالمين فبأن جمع الله لهم بين استقامة الدّين والخَلق ، وبين حكم أنفسهم بأنفسهم ، وبث أصول العدل فيهم ، وبين حسن العيش والأمن والرخاء ، فإن أمماً أخرى كانوا في بحبوحة من العيش ولكن ينقص بعضَها استقامةُ الدّين والخلق ، وبعضها عزة حكم النفس وبعضَها الأمن بسبب كثرة الفتن .

والمراد بـ ﴿ العالمين ﴾ : أمم زمانهم وكل ذلك إخبار عما مضى من شأن بني إسرائيل في عنفوان أمرهم لا عَمَّا آل إليه أمرهم بعد أن اختلفوا واضمحل ملكهم ونسخت شريعتهم .

و ﴿ بيّنات ﴾ صفة نزلت منزلة الجامد ، فالبينة : الحجة الظاهرة ، أي آتيناهم حججاً ، أي علمناهم بواسطة كتبهم وبواسطة علمائهم حجج الحق والهدى التي من شأنها أن لا تترك للشك والخلطأ إلى نفوسهم سبلاً إلا سدتها .

و ﴿ الأمر ﴾ : الشأن كما في قوله : ﴿ وما أمر فرعون برشيدٍ ﴾ [هود : 97]

والتعريف في ﴿ الأمر ﴾ للتعظيم ، أي من شؤون عظيمة ، أي شأن الأمة وما به قوام نظامها إذْ لم يترك موسى والأنبياء من بعده شيئاً مُهماً من مصالحهم إلا وقد وضحوه وبينوه وحذروا من الالتباس فيه .

و ﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ من الأمر ﴾ بمعنى (في) الظرفيّة فيحصل من هذا أن معنى ﴿ وءاتيناهم بينات من الأمر ﴾ : علمناهم حججاً وعلوماً في أمر دينهم ونظامهم بحيث يكونون على بصيرة في تدبير مجتمعهم وعلى سلامة من مخاطر الخطأ والخطل .

وفُرِع على ذلك قولُه ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ تفريعَ إدماج لمناسبته للحالة التي أريد تنظيرها .

وتقدير الكلام : فاختلفوا وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ، فحذف المفرَّع لدلالة ما بعده عليه على طريقة الإيجاز إذ المقصود هو التعجيب من حالهم كيف اختلفوا حينَ لا مظنة للاختلاف إذ كان الاختلاف بينهم بعد ما جاءهم العلم المعهود بالذكر آنفاً من الكتاب والحُكم والنبوءة والبينات من الأمر ، ولو اختلفوا قبل ذلك لكان لهم عذر في الاختلاف وهذا كقوله تعالى:

﴿ وأضلّه الله على علم ﴾ [الجاثية : 23] .

وهذا الكلام كناية عن عدم التعجيب من اختلاف المشركين مع المؤمنين حيث أن المشركين ليسوا على علم ولا هدى ليعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ملطوف به في رسالته .

والبغي : الظلم .

والمراد : أن اختلافهم عن عمد ومكابرة بعضهم لبعض وليس عن غفلة أو تأويل ، وهذا الظلم هو ظلم الحسد فإن الحسد من أعظم الظلم ، أي فكذلك حال نظرائهم من المشركين

ما اختلفوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا بغياً منهم عليه مع علمهم بصدقه بدلالة إعجاز القرآن لفظاً ومعاني .

وانتصب ﴿ بغياً ﴾ إمّا على المفعول لأجله ، وإمّا على الحال بتأويل المصدر باسم الفاعل ، وعلى كلا الوجهين فالعامل فيه فعل ﴿ اختلفوا ﴾ ، وإن كان منفياً في اللفظ لأن الاستثناء أبطل النفي إذ ما أريد إلا نفي أن يكون الاختلاف في وقت قبل أن يحثهم العلم فلما استفيد ذلك بالاستثناء صار الاختلاف ثابتاً وما عدا ذلك غير منفي .

(182/699)

وجملة ﴿ إن ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن خبرَهم العجيب يثير سؤالاً في نفس سامعه عن جزاء الله إياهم على فعلهم ، وهذا جواب فيه إجمال لتهويل ما سيُقضَى به بينهم في الخير والشر لأن الخلاف يقتضي محقّاً ومبطلاً .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ولقد بوّأنا بني إسرائيل مُبَوّأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ في سورة يونس (93) .

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18)

﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل ، ولولا إرادة التراخي الرتبي لكانت الجملة معطوفة بالواو .

وهذا التراخي يفيد أن مضمون الجملة المعطوفة بحرف ﴿ ثم ﴾ أهم من مضمون الجملة المعطوفِ عليها أهمية الغرض على المقدمة والنتيجةِ على الدليل .

وفي هذا التراخي تنويه بهذا الجعل وإشارة إلى أنه أفضل من إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوءة والبّيناتِ من الأمر ، فنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم وكتابُه وحُكمه وبَيناته أفضل وأهدى مما أوتيه بنو إسرائيل من مثل ذلك .

و﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي ، أي التمكن والثبات على حد قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ [البقرة : 5] .

وتنوين ﴿ شريعة ﴾ للتعظيم بقرينة حرف التراخي الرتبي .

والشريعة : الدين والملة المتَّبعة ، مشتقة من الشرع وهو : جَعل طريق للسير ، وسمي النهج شَرعاً تسميةً بالمصدر .

وسُميت شَريعة الماء الذي يرده الناس شريعةً لذلك ، قال الراغب : استعير اسم الشريعة للطريقة الإلهية تشبيهاً بشريعة الماء قلتُ : ووجه الشبه ما في الماء من المنافع وهي الري والتطهير .

و ﴿ الأمر ﴾ : الشأن ، وهو شأن الدين وهو شأن من شؤون الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] ، فتكون ﴿ مِن ﴾ تبعيضية وليست كالتي في قوله آنفاً ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ [الجاثية : 17] لأن إضافة ﴿ شريعة ﴾ إلى ﴿ الأمر ﴾ تمنع من ذلك .

وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغاً عظيماً إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى ، وأنها شريعة عظيمة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم متمكن منها لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها والدعوة إليها .

ولذلك فرع عليه أمره باتباعها بقوله : ﴿ فاتّبعها ﴾ أي دُم على اتباعها ، فالأمر لطلب الدوام مثل ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136] .

وبين قوله : ﴿ فاتبعها ﴾ وقوله : ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ محسِّن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع آخر .

و ﴿ الذين لا يعلمون ﴾ هم المشركون وأهواؤهم دين الشرك قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهاه هواه ﴾ [الجاثية : 23] .

والأهواء : جمع هوى ، وهو المحبة والميل .

والمعنى : أن دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها ولا اقتضتها البراهين .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود منه : إسماع المشركين لئلا يطمعوا بمصانعة الرسول صلى الله عليه وسلم إيَّاهم حين يرون منه الإغضاء عن هفواتهم وأذاهم وحِينَ يسمعون في القرآن بالصفح عنهم كما في الآية السالفة ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ [الجاثية : 14] .

وفيه أيضاً تعريض للمسلمين بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون .

وعن ابن عباس "أنها نزلت لمّا دعته قريش إلى دين آبائه" قال البغوي : كانوا يقولون له : ارجع إلى دين آبائك فإنهم أفضل منك .

(184/699)

وجملة ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون ، ويتضمن تعليلَ الأمر باتباع شريعة الله فإن كونهم لا يغنون عنه من الله شيئاً يستلزم أن في مخالفة ما أمر الله من اتباع شريعته ما يوقع في غضب الله وعقابه فلا يغني عنه اتباع أهوائهم من عقابه .

والإغناء : جعل الغير غنياً ، أي غير محتاج ، فالآثم المهدد من قدير غير غنيّ عن الذي يعاقبه ولو حماه من هو كفء لمهدده أو أقدر منه لأغناه عنه وضُمّن فعل الإغناء معنى الدفع فعدّي بـ (عن) .

وانتصب ﴿ شيئاً ﴾ على المفعول المطلق ، و ﴿ من الله ﴾ صفة ل ﴿ شيئاً ﴾ و ﴿ مِن ﴾ بمعنى بَدل ، أي لن يُغنُوا عنك بدلاً من عذاب الله ، أي قليلاً من الإغناء البديل من عقاب الله فالكلام على حذف مضاف ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ في آل عمران (10) .

وعُطف على هذا التعليل تعليل آخر وهو ﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ أي إنهم ظالمون وأنت لست من الظالمين في شيء فلا يجوز أن تتبعهم في شيء وإنما يتبعهم من هم أولياؤهم .

وذُيل ذلك بقوله : ﴿ والله ولي المتقين ﴾ وهو يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم الله وليُّه لأن النبي صلى الله عليه وسلم أول المتقين .

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

إن كانت الإشارة إلى الكلام المتقدم وما فيه من ضرب المثل بموسى وقومه ومن تفضيل شريعة محمد على شريعة موسى عليهما الصلاة والسلام والأمر بملازمة اتباعها والتحذير من اتباع رغائب الذين لا يعلمون ، فهذه الجملة بمنزلة التذييل لما قبلها والتهيئةِ لأغراضها تنبيهاً لما في طيها من عواصمَ عن الشك والباطل بمنزلة قوله تعالى بعد عدة آيات في آخر سورة الأحقاف (35) ﴿ بلاغ ﴾ وقوله في سورة الأنبياء (105 ، 106) ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقومٍ عابدين ﴾ وإن كانت الإشارة إلى القرآن إذ هو حاضر في الأذهان كانت الجملة استئنافاً أعيد بها التنويه بشأن القرآن ومتبعيه والتعريضُ بتحميق الذين أعرضوا عنه ، وتكون مفيدة تأكيد قوله آنفاً ﴿ هذا هدىً والذين كفروا بآيات ربّهم لهم عذابٌ من رجزٍ أليم ﴾ [الجاثية : 11] ، وتكون الجملة المتقدمة صريحة في وعيد الذين كفروا بآياته وهذه تعريضاً بأنهم لم يَحْظَوْا بهذه البصائر ، وكلا الاحتمالين رشيق ، وكل بأن يكون مقصوداً حقيق .

و﴿ بصائر ﴾ : جمع بصيرة وهي إدراك العقل الأمور على حقائقها ، شبهت ببصر العين ، وفرق بينهما بصيغة فعلية للمبالغة قال تعالى : ﴿ أدْعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومَن اتّبعني ﴾ في سورة يوسف (108) .

وقال : ﴿ قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربّ السماوات والأرض بصائر ﴾ في سورة

الإسراء (102) وقوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس ﴾ في سورة القصص (43) .

ووصف الآيات السابقة أو القرآن بالبصائر مجاز عقلي لأن ذلك سبب البصائر .

(186/699)

وجمع البصائر : إن كانت الإشارة إلى القرآن باعتبار المتبصرين بسببه كما اقتضاه قوله : للناس ﴾ لأن لكل أحد بصيرته الخاصة فهي أمر جزئي بالتبع لكَون صاحبِ كل بصيرة جزئياً مشخصاً فناسب أن تُورد جمعاً ، فالبصيرة : الحاسَّة من الحواس الباطنة ، وهذا بخلاف إفراد ﴿ هدى ورحمة ﴾ لأن الهدى والرحمة معنيان كليان يصلحان للعدد الكثير قال تعالى : ﴿ هدى للناس ﴾ [آل عمران : 4] وقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] .

وإنما كان هدى لأنه طريق نفع لمن اتبع إرشاده فاتباعه كالاهتداء للطريق الموصلة إلى المقصود .

وإنّما كان رحمة لأن في اتباع هديه نجاح الناس أفراداً وجَماعاتٍ في الدنيا لأنه نظام مجتمعهم ومناط أمنهم ، وفي الآخرة لأنه سبب نوالهم درجات النعيم الأبدي .

وكان بصائر لأنه يبين للناس الخير والشر ويحَرضهم على الخير ويحذرهم من الشر ويعدهم على فعل الخير ويوعدهم على فعل الشرور فعمله عمل البصيرة .

وجُعل البصائر للناس لأنه بيان للناس عامة وجعل الهدى والرحمة لقوم يوقنون لأنه لا يهتدي ببيانه إلا الموقن بحقيقته ولا يرحم به إلا من اتبعه المؤمن بحقيته .

وذكر لفظ (قوم) للإيماء إلى أن الإيقان متمكن من نفوسهم كأنه من مقومات قوميتهم التي تميزهم عن أقوام آخرين .

والإيقان : العلم الذي لا يتردد فيه صاحبه .

وحذف متعلقه لأنه معلوم بما جاءت به آيات الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(187/699)

قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ

بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير بعد هذا البيان الذي لم يدع لبساً في أمر الحساب بما حده من الملك الذي يوجب ما له من العظمة والحكمة أن يحاسب عبيده لثواب المحسن وعقاب المسيء : أعلم هؤلاء المخاطبون – لأنهم لا يعدون أن يكونوا من الناس أو من الذين يوقنون بهذه البصائر لما لهم من حسن الغرائز المعلية لهم عن حضيض الحيوان إلى أوج الإنسان أنا نفرق بين المسيئين الذين بعضهم أولياء بعض وبين المحسنين الذين نحن أولياؤهم ، عطف عليه سبحانه وتعالى قوله : ﴿ أم ﴾ قال الأصبهاني : قال الإمام : كلمة وضعت للاستفهام عن شيء حال كونه معطوفاً على آخر سواء كان المعطوف مذكوراً أو مضمراً – انتهى .

وكان الأصل : حسبوا ، ولكنه عدل عنه للتنبيه على أن ارتكاب السوء معم للبصيرة مضعف للعقل كما أفاده التعبير بالحسبان كما تقدم بيانه في البقرة فقال : ﴿ حسب الذين اجترحوا ﴾ أي فعلوا بغاية جهدهم ونزوع شهواتهم ﴿ السيئات أن نجعلهم ﴾ مع ما لنا من العظمة المانعة من الظلم المقتضية للحكمة ﴿ كالذين آمنوا وعملوا ﴾ تصديقاً لإقرارهم ظاهراً وباطناً وسراً وعلانية ﴿ الصالحات ﴾ بأن نتركهم بلا حساب للفصل بين المحسن والمسيء .

ولما كانت المماثلة مجملة ، بينهما استئنافاً بقوله مقدماً ما هو عين المقصود من الجملة الأولى : ﴿ سواء ﴾ أي مستو استواء عظيماً ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ أي حياتهم وموتهم وزمان ذلك ومكانه في الارتفاع والسفول واللذة والكدر وغير ذلك من الأعيان والمعاني .

ولما كان هذا مما لا يرضاه أحد لمن تحت يده ولا لغيره ، قال معبراً بمجمع الذم : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي بلغ حكمهم هذا في نفسه ولا سيما وهم بإصرارهم عليه في تجديد له كل ساعة أقصى نهايات السوء ، فهو مما يتعجب منه ، لأنه لا يدري الحامل عليه ، وذلك أنه نسبوا الحكيم الذي لا حكيم في الحقيقة غيره إلى ما لا يفعله أقل الناس فيمن تحت يده .

(188/699)

ولما أنكر التسوية وذمهم على الحكم بها ، أتبع ذلك الدليل القطعي على أن الفريقين لا يستويان وإلا لما كان الخالق لهذا الوجود عزيزاً ولا حكيماً ، فقال دالاً على إنكار التسوية وسوء حكمهم بها ، عاطفاً على ما تقديره : فقد خلق الله الناس كلهم بالحق وهو الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع ، وهو ثبات أعمال المحسنين وبطلان أفعال المسيئين ، عطف عليه قوله : ﴿ وخلق الله ﴾ أي الذي له جميع أوصاف الكمال ولا يصح ولا يتصور أن يخلقه نوع نقص ﴿ السماوات والأرض ﴾ اللتين هما ظرف لكم وابتدئت السورة بالتنبيه

على آياتهما ، خلقاً ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ فلا يطابق الواقع فيهما أبداً شيئاً باطلاً ، فمتى وجد سبب الشيء وانتفى مانعه وجد ، ومتى وجد مانع الشيء وانتفى سببه انتفى ، لا يتخلف ذلك أصلاً ، ولذلك جملة ما وقع من خلقهما طابقه الواقع الذي هو قدرة الله وعلمه وحكمته وجميع ما له من صفات الكمال التي دل خلقهما عليها ، فإذا كان الظرف على هذا الإحكام فما الظن بالمظروف الذي ما خلق الظرف إلا من أجله ، هل يمكن في الحكمة أن يكون على غير ذلك فيكون الواقع الذي هو تفضيل المحسن على المسيء غير مطابق لأحوالهم ، ومن جملة المظروف ما بينهما فلذا لم يذكر هنا ، ولو كان ذلك من غير بعث ومجازاة بحسب الأعمال لما كان هذا الخلق العظيم بالحق بل بالباطل الذي تعالى عنه الحكيم فكيف وهو أحكم الحاكمين .

ولما كان التقدير : ليكون كل مسبب مطابقاً لأسبابه ، عطف عليه قوله : ﴿ ولتجزى ﴾ بأيسر أمر ﴿ كل نفس ﴾ أي منكم ومن غيركم ﴿ بما ﴾ أي بسبب الأمر الذي .

(189/699)

ولما كان السياق للعموم ، وكان المؤمن لا يجزى إلا بما عمله على عمد منه وقصد ليكتب في أعماله ، عبر بالكسب الذي هو أخص من العمل فقال : ﴿ كسبت ﴾ أي كسبها من

خير أو شر ، فيكون ما وقع الوعد به مطابقاً لكسبها ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ لا يظلمون ﴾ أي لا يوجد من موجد ما في وقت من الأوقات جزاء لهم في غير موضعه ، وهذا على ما جرت به عوائدكم في العدل والفضل ، ولو وجد منه سبحانه غير ذلك لم يكن ظلماً منه لأنه المالك المطلق والملك الأعظم ، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه كلهم لكان غير ظالم لهم في نفس الأمر ، فهذا الخطاب إنما هو على ما نتعارفه من إقامة الحجة بمخالفة الأمر .

ولما بين غاية البيان أنه الإله وحده بما له من الإحاطة بجميع صفات الكمال ، وأنه لا بد من جمعه الخلائق ليوم الفصل للحكم بينهم بما له من الحكمة والقدرة ، وحقر الهوى ونهى عن اتباعه ، وكانوا هم قد عظموه بحيث جعلوه معبوداً ، فلزم من ذلك تحقيرهم الإله ، ولم يرجعوا عن ضلالهم ، تسبب عن ذلك التعجيب ممن يظن أنه يقدر على رد أحد منهم عن غيه بشيء من الأشياء فقال : ﴿ أفرءيت ﴾ أي أعلمت علماً هو في تيقنه كالمحسوس بحاسة البصر التي هي أثبت الحواس ﴿ من اتخذ ﴾ أي بغاية جهده واجتهاده ﴿ إلهه هواه ﴾ أي حول وصف الإله حتى صار هوى لنفسه ، فهو تابع لهواه ليس غير ، فهو في أودية الضلال يهيم على غير سنن فهو معرّض لكل بلاء ، فخسر أكثر من ربحه لكونه بلا دليل ، والدليل على أنهم لا يعبدون إلا مجرد الهوى ما رواه البخاري في وفد بني حنيفة من المغازي من صحيحه عن أبي رجاء العطاردي وهو مخضرم ثقة أدرك الجاهلية ومات سنة

خمس ومائة عن مائة وعشرين سنة ، قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به – انتهى .

(190/699)

ومع ذلك فكيفما قلبت أمرهم وجدته شعبة يسيرة من كفر الاتحادية ، ولك متشبثات قريش التي عابهم الله بها تشبثت بها الاتحادية حتى قولهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] ولو قدم الهوى لكان المعنى أنه حول وصفه إلى الألوهية فاضمحل الهوى ، ولم يبق إلا ما ينسب إلى الإلهية كما اضمحل الطين في : اتحدت الطين حرقاً ، فصار المعنى أن العابد لا يتحرك إلا بحسب ما يأمره به الإله ويصير التركيب يفيد تعظيمه بغلبة الإثبات وإذهاب الهوى غاية الإذهاب ، ولو كان التقديم في هذا بحسب السياق من غير اختلاف المعنى لقدم هنا الهوى لأن السياق والسباق له وقد تقدم في سورة الفرقان ما ينفع هنا ومفعول " رأى " الثاني مقدر يدل عليه قوله آخر الكلام ﴿ فمن يهديه ﴾ تقديره : أيمكن أحداً غير الله هدايته ما دام هواه موجوداً ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه – انتهى .

ومعناه أنه يهوي بصاحبه في الهواء الممدود وهو الفضاء ، أي ينزل به عن درجة عليا إلى ما دونها .

فهو في سفول ما دام تابعاً له لأنه بحيث لا قرار ولا تمكن ، فلذلك هو يوجب الهوان ، قال الأصبهاني : سئل ابن المقفع عن الهوى ، فقال : هوان سرقة نونه ، فنظمه من قال :

نون الهوان من الهوى مسروقة . . .

وأسير كل هوى أسير هوان

وقال آخر ولم يخطىء المعنى وأجاد :

إن الهوى لهو الهوان بعينه . . .

فإذا هويت فقد لقيت هوانا

﴿ وأضله الله ﴾ أي بما له من الإحاطة ﴿ على علم ﴾ منه بما فطر عليه من أنه لا يكون أثر بلا مؤثر ، ومن أنه لا يكون منفرداً بالملك إلا وهو مستحق للتفرد بالعبادة ، وهو أنه لم يخلق الكون إلا حكيم ، وأن الحكيم لا يدع من تحت يده يبغي بعضهم على بعض من غير فصل بينهم لا سيما وقد وعد بذلك ولا سيما والوعد بذلك في أساليب الإعجاز التي هم أعرف الناس بها ، أو على علم من المضل بأن الضال مستحق لذلك لأنه جبله جبلة شر .

ولما كان الضال أحوج إلى سماع صوت الهادي منه إلى غيره ، وكان من لا ينتفع بما هو له في حكم العادم له قال : ﴿ وختم ﴾ أي زيادة على الإضلال الحاضر ﴿ على سمعه ﴾ فلا فهم له في الآيات المسموعة .

ولما كان الأصم قد يفهم بالإشارة قال : ﴿ وقلبه ﴾ أي فهو لا يعي ما من حقه وعيه .

ولما كان المجنون الأصم قد يبصر مضاره ومنافعه فيباشرها مباشرة البهائم قال : ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ فصار لا يبصر الآيات المرئية ، وترتيبها هكذا لأنها في سياق الإضلال كما تقدم في البقرة .

ولما صار هذا الإنسان الذي صار لا يسمع الهادي فيقصده ولا يعي المعاني لينتفع بما تقدم له علمه ، ولا يبصر حق البصر ليهتدي ببصره دون رتبة الحيوان ، قال تعالى منكراً مسبباً للإنكار عما تقدمه : ﴿ فمن يهديه ﴾ وأشار إلى قدرة الله عليه بقوله : ﴿ من بعد الله ﴾ أي إضلال الذي له الإحاطة بكل شيء .

ولما كان من المعلوم قطعاً أنه لا هادي له غيره ، سبب عنه الإنكار لعدم التذكر حثاً على التذكر فقال مشيراً بإدغام تاء التفعل إلى عدم الاحتياج بسبب وضوحه إلى كثير تذكر : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي يكون لكم نوع تذكر فتذكرون أنهم لا يسمعون الآيات المتلوة ولا

يعتبرون بالآيات المرئية مع ما لكل منهما من الظهور ، وأن من كان هذا حاله فلا سبيل لمخلوق مثله إلى هدايته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 101 . 105 ﴾

(192/699)

فصل

قال الفخر :

ولما بيّن الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين المتقين من الوجه الذي تقدم ، بيّن الفرق بينهما من وجه آخر ، فقال : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : ﴿ أَمْ ﴾ كلمة وضعت للاستفهام عن شيء حال كونه معطوفاً على شيء آخر ، سواء كان ذلك المعطوف مذكوراً أو مضمراً ، والتقدير ههنا : أفيعلم المشركون هذا ، أم يحسبون أنا نتولاهم كما نتولى المتقين ؟

البحث الثاني : الاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وفلان جارحة أهله ، أي كاسبهم ، قال تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ [الأنعام : 60] .

البحث الثالث : قال الكلبي : نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي عبيدة بن الجراح رضي

الله عنهم ، وفي ثلاثة من المشركين : عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة ، كما أنا أفضل حالاً منكم في الدنيا ، فأنكر الله عليهم هذا الكلام ، وبيّن أنه لا يمكن أن يكون حال لمؤمن المطيع مساوياً لحال الكافر العاصي في درجات الثواب ، ومنازل السعادات .

واعلم أن لفظ ﴿ حَسِبَ ﴾ يستدعي مفعولين أحدهما : الضمير المذكور في قوله ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ والثاني : الكاف في قوله ﴿ كالذين ءامَنُواْ ﴾ والمعنى أحسب هؤلاء المجترحين أن نجعلهم أمثال الذين آمنوا ؟ ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾

(193/699)

[السجدة : 18] وقوله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ فِى الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ [غافر : 51 ، 52] وقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : 35 ، 36] وقوله ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] .

ثم قال تعالى : ﴿ سَوَاء مَّحْيَاهُمْ ومماتهم ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ سواء ﴾ بالنصب ، والباقون بالرفع ، واختيار أبي عبيد النصب ، أما وجه القراءة بالرفع ، فهو أن قوله ﴿ مَّحْيَاهُمْ ومماتهم ﴾ مبتدأ والجملة في حكم المفرد في محل النصب على البدل من المفعول الثاني لقوله ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ﴾ وهو الكاف في قوله ﴿ كالذين ءامَنُواْ ﴾ ونظيره قوله : ظننت زيداً أبوه منطلق ، وأما وجه القراءة بالنصب فقال صاحب "الكشاف" أجرى سواء مجرى مستوياً ، فارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية وكان مفرداً غير جملة ، ومن قرأ ﴿ ومماتهم ﴾ بالنصب جعل ﴿ مَّحْيَاهُمْ ومماتهم ﴾ ظرفين كمقدم الحاج ، وخفوق النجم ، أي سواء في محياهم وفي مماتهم ، قال أبو علي من نصب سواء جعل المحيا والممات بدلاً من الضمير المنصوب في نجعلهم فيصير التقدير أن نجعله محياهم ومماتهم سواء ، قال ويجوز أن نجعله حالاً ويكون المفعول الثاني هو الكاف في قوله ﴿ كالذين ﴾ .

المسألة الثانية :

اختلفوا في المراد بقوله ﴿ مَّحْيَاهُمْ ومماتهم ﴾ قال مجاهد عن ابن عباس يعني أحسبوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم ، كلا فإنهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين ، وذلك لأن المؤمن ما دام يكون في الدينا فإنه يكون وليه هو الله وأنصاره المؤمنون وحجة الله معه ، والكافر بالضد منه ، كما ذكره في قوله ﴿ وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ وعند القرب إلى الموت ، فإن حال المؤمن ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سلام عَلَيْكُمُ ادخلوا الجنة ﴾ [النمل : 32] وحال الكافر ما ذكره في قوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل : 28] وأما في القيامة فقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : 38 41] فهذا هو الإشارة إلى بيان وقوع التفاوت بين الحالتين والوجه الثاني : في تأويل الآية أن يكون المعنى إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة ، وذلك لأن المؤمن والكافر قد يستوي محياهم في الصحة والرزق والكفاية بل قد يكون الكافر أرجح حالاً من المؤمن ، وإنما يظهر الفرق بينهما في الممات والوجه الثالث : في التأويل أن قوله ﴿ سَوَاء مَّحْيَاهُمْ ومماتهم ﴾ مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سواء فكذلك محيا المسحنين ومماتهم ، أي كل يموت على حسب ما عاش عليه ، ثم إنه تعالى صرح بإنكار تلك التسوية فقال : ﴿ سَاء مَا

يَحْكُمُونَ ﴾ وهو ظاهر .

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22)

(195/699)

اعلم إنه تعالى لما أفتى (1) بأن المؤمن لا يساوي الكافر في درجات السعادات ، أتبعه بالدلالة الظاهرة على صحة هذه الفتوى ، فقال : ﴿ وَخَلَقَ الله السموات والأرض بالحق ﴾ ولو لم يوجد البحث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل ، لأنه تعالى لما خلق الظالم وسلّطه على المظلوم الضعيف ، ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالماً ، ولو كان ظالماً لبطل أنه خلق السموات والأرض بالحق وتمام تقرير هذه الدلائل مذكور في أول سورة يونس ، قال القاضي هذه الآية تدل على أن في مقدور الله ما لو حصل لكان ظلماً ، وذلك لا يصح إلا على مذهب المجبرة الذين يقولون لو فعل كل شيء أراده لم يكن ظلماً ، وعلى قول من يقول إنه لا يوصف بالقدرة على الظلم ، وأجاب الأصحاب عنه بأن المراد فعل ما لو فعله غيره لكان ظلماً كما أن المراد من الابتلاء والاختبار فعل ما لو فعله غيره لكان ابتلاءً واختباراً ، وقوله تعالى : ﴿ ولتجزى ﴾ فيه وجهان : الأول : أنه معطوف على قوله ﴿ بالحق ﴾ فيكون التقدير وخلق الله السموات والأرض لأجل إظهار الحق ولتجزى كل نفس ، الثاني :

أن يكون العطف على محذوف ، والتقدير : وخلق الله السموات والأرض بالحق ليدل بهما على قدرته ولتجزى كل نفس والمعنى أن المقصود من خلق هذا العلم إظهار العدل والرحمة ، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين ، ثم عاد تعالى إلى شرح أحوال الكفار وقبائح طوائفهم ، فقال :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ يعني تركوا متابعة الهدى وأقبلوا على متابعة الهوى فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه ، وقرىء (آلهته هَوَاهُ) كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه وذهب خلفه ، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحداً منها .

---

(1) قال مصحح الكتاب :

التعبير بلفظ «أفتى» غير مناسب في حق اللّه تعالى وحقه أن يعبر به «قضى» أو «قدر» رعاية لمزيد الأدب .

أقول قد نسب لفظ الإفتاء إلى الله تعالى فى قوله تعالى ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ ﴾ يعني على علم بأن جوهر روحه لا يقبل الصلاح ، ونظيره في جانب التعظيم قوله تعالى : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] وتحقيق الكلام فيه أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة فمنها مشرقة نورانية علوية إلهية ، ومنها كدرة ظلمانية سفلية عظيمة الميل إلى الشهوات الجسمانية ، فهو تعالى يقابل كلاً منهم بحسب ما يليق بجوهره وماهيته ، وهو المراد من قوله ﴿ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ ﴾ في حق المردودين وبقوله ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ في حق المقبولين .

ثم قال : ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة ﴾ فقوله ﴿ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ ﴾ هو المذكور في قوله ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [البقرة : 6] إلى قوله ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] وقوله ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة ﴾ هو المراد من قوله

(197/699)

﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ [البقرة : 7] وكل ذلك قد مرّ تفسيره في سورة البقرة باللاستقصاء ، والتفاوت بين الآيتين أنه في هذه الآية قدم ذكر السمع على القلب ، وفي سورة البقرة قدم القلب على السمع ، والفرق أن الإنسان قد يسمع

كلاماً فيقع في قلبه منه أثر ، مثل أن جماعة من الكفار كانوا يلقون إلى الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم شاعر وكاهن وأنه يطلب الملك والرياسة ، فالسامعون إذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنه ، وأما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد فكانوا يستمعون إليه ، ولو سمعوا كلامه ما فهموا منه شيئاً نافعاً ، ففي الصورة الأولى كان الأثر يصعد من البدن إلى جوهر النفس ، وفي الصورة الثانية كان الأثر ينزل من جوهر النفس إلى قرار البدن ، فلما اختلف القسمان لا جرم أرشد الله تعالى إلى كلا هذين القسمين بهذين الترتيبين اللذين نبهنا عليهما ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام قال : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ﴾ أي من بعد أن أضله الله ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أيها الناس ، قال الواحدي وليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة ، لأن الله تعالى صرّح بمنعه إياهم عن الهدى حين أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره ، وأقول هذه المناظرة قد سبقت بالاستقصاء في أول سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 231.228 ﴾

(198/699)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾

أي اكتسبوها .

والاْجتراح : الاْكتساب ؛ ومنه الجوارح ، وقد تقدم في المائدة .

﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ قال الكلبي : "الَّذِينَ اجْتَرَحُوا" عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة .

و"الَّذِينَ آمَنُوا" عليّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث رضي الله عنهم حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم .

وقيل : نزلت في قوم من المشركين قالوا : إنهم يعطون في الآخرة خيراً مما يعطاه المؤمن ؛ كما أخبر الربّ عنهم في قوله : ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى ربي إِنَّ لي عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] .

وقوله : "أَمْ حَسِبَ" استفهام معطوف معناه الإنكار .

وأهل العربية يجوّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطاً للخطاب .

وقوم يقولون : فيه إضمار ؛ أي والله وليّ المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوّي بينهم .

وقيل : هي أم المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان .

وقراءة العامة "سَوَاءٌ" بالرفع على أنه خبر ابتداء مقدّم ، أي محياهم ومماتهم سواء .

والضمير في "مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ" يعود على الكفار ، أي محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك .

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش "سَوَاء" بالنصب ، واختاره أبو عبيد قال : معناه نجعلهم سواء .

وقرأ الأعمش أيضاً وعيسى بن عمر "وَمَمَاتَهم" بالنصب ؛ على معنى سواء في محياهم ومماتهم ؛ فلما أسقط الخافض انتصب .

ويجوز أن يكون "مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ" بدلاً من الهاء والميم في نجعلهم ؛ المعنى : أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم .

ويجوز أن يكون الضمير في "مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ" للكفار والمؤمنين جميعاً .

قال مجاهد : المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً ويبعث كافراً .

(199/699)

وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي الضّحا عن مسروق قال : قال رجل من أهل مكة : هذا مقام تميم الداري ، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكي ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات

أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الآية كلها .

وقال بشير : بِتّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلي فمرّ بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد .

وقال إبراهيم بن الأشعث : كثيراً ما رأيت الفُضيل بن عياض يردّد من أوّل الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها ، ثم يقول : ليت شعري ! من أي الفريقين أنت ؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة .

قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الله السماوات والأرض بالحق ﴾ أي بالأمر الحق .

﴿ ولتجزى ﴾ أي ولكي تجزى .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي في الآخرة .

﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ .

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)

قال ابن عباس والحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ؛ فلا يهوى شيئاً إلا ركبه .

وقال عكرمة : أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه أو يستحسنه ؛ فإذا استحسن شيئاً وهَوِيَهُ اتخذه إلها .

قال سعيد بن جُبير : كان أحدهم يعبد الحجر ؛ فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد

الآخر .

وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين ، لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه .

وقال سفيان بن عيينة : إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة .

وقيل : المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجيباً لذوي العقول من هذا الجهل .

وقال الحسن بن الفضل : في هذه الآية تقديم وتأخير ، مجازه : أفرأيت من اتخذ هواه إلهه .

(200/699)

وقال الشَّعْبيّ : إنما سُمِّي الهوى (هَوًى) لأنه يهوي بصاحبه في النار .

وقال ابن عباس : ما ذكر الله هَوًى في القرآن إلا ذمّه ، قال الله تعالى : ﴿ واتبع هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب ﴾ [الأعراف : 176] .

وقال تعالى : ﴿ واتبع هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [الكهف : 28] .

وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتبع الذين ظلموا أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله ﴾ [الروم : 29] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله ﴾ [القصص : 50] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [ص : 26] .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تَبعاً لما جئت به " وقال أبو أمامة : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " ما عُبِد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى " وقال شدّاد بن أوس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الكَيِّس من دان نفسه وعمِل لما بعد الموت .

والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله " وقال عليه السلام : " إذا رأيت شُحًّا مطاعاً وهَوًى مُتَّبَعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودَعْ عنك أمر العامة " وقال صلى الله عليه وسلم : " ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شُحٌّ مطاع وهوًى متبع وإعجاب المرء بنفسه .

والمنجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب " وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ؛ فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح .

وقال الأصمعي سمعت رجلاً يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه . . .

فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هَوَانٌ سرقت نونه ، فأخذه شاعر فنظمه وقال :

نُونُ الهوان من الهَوَى مسروقةٌ . . .

فإذا هَوِيت فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه . . .

فإذا هويت فقد كَسَبت هوانا

وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى . . .

فاخضع لحبّك كائناً من كانا

ولعبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة . . .

ألا يُرى لك عن هواك نزوع

العبد عبد النفس في شهواتها . . .

والحرّ يشبع تارةً ويجوع

ولابن دُرَيْد :

إذا طالبتك النفس يوماً بشهوة . . .

وكان إليها للخلاف طريق

فَدَعْها وخالف ما هَوِيت فإنما . . .

هواك عدوٌّ والخلاف صديق

ولأبي عبيد الطُّوسيّ :

والنفس إن أعطيتها مناها . . .

فاغرة نحو هواها فاها

وقال أحمد بن أبي الحَوارَى : مررت براهب فوجدته نحيفاً فقلت له : أنت عليل .

قال نعم .

قلت مذ كم ؟ قال : مذ عرفت نفسي ! قلت فتداوى ؟ قال : قد أعياني الدواء وقد عزمت على الكيّ .

قلت وما الكَي ؟ قال : مخالفة الهوى .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك .

وقال وهب : إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته .

وللعلماء في هذا الباب في ذم الهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه ؛

وحسبك بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى * فَإِنَّ الجنة

هِيَ المأوى ﴾ [النازعات: 40 41] .

قوله تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ ﴾ أي على علم قد علمه منه .

وقيل: أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه .

وقال ابن عباس: أي على علم قد سبق عنده أنه سيضل .

مقاتل: على علم منه أنه ضال؛ والمعنى متقارب .

وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر .

ثم قيل: "عَلَى عِلْمٍ" يجوز أن يكون حالاً من الفاعل؛ المعنى: أضله على علم منه به، أي أضله عالماً بأنه من أهل الضلال في سابق علمه .

ويجوز أن يكون حالاً من المفعول؛ فيكون المعنى: أضله في حال علم الكافر بأنه ضال .

(202/699)

﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ أي طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدي .

﴿ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ أي غطاء حتى لا يبصر الرشد .

وقرأ حمزة والكسائي "غَشْوة" بفتح الغين من غير ألف، وقد مضى في "البقرة" .

وقال الشاعر :

أما والذي أنا عبدٌ له . . .

يَميناً وما لَك أبدي اليمينا

لئن كنت ألبستني غَشْوة . . .

لقد كنت أصفيتك الوُدّ حينا

﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ﴾ أي من بعد أن أضله .

﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء .

وهذه الآية ترد على القدرية والإمامية ومن سلك سبيلهم في الاْعتقاد ؛ إذ هي مصرحة بمنعهم من الهداية .

ثم قيل : "وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ" إنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم .

وقيل : إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم ؛ كما تقدّم في أوّل "البقرة" .

وحكى ابن جريج أنها نزلت في الحارث بن قيس من الغياطلة .

وحكى النقاش أنها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف .

وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل ، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة ؛ فتحدّثا في شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو جهل : والله إني لأعلم أنه لصادق ! فقال له مَه ! وما دلّك على ذلكا ؟ قال : يا أبا عبد شمس ، كنا نسميه في صباه الصادق

الأمين ؛ فلما تمّ عقله وكَمُل رشده ، نسمّيه الكذاب الخائن والله إني لأعلم أنه لصادق ! قال : فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدّث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة ، واللات والعُزّى إن اتبعته أبداً .

فنزلت : ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(203/699)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾ [الجاثية : 12] إلى آخره

استئناف مسوق لبيان حال المسيئين والمحسنين إثر بيان حال الظالمين والمتقين ، و ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني ، والهمزة لإنكار الحسبان على معنى أنه لا يليق ولا ينبغي لظهور خلافه ، والاجتراح الاكتساب ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدي ، وجاء هو جارحة أهله أي كاسبهم ، وقال الراغب : الاجتراح اكتساب الاثم وأصله من الجراحة كما أن الاقتراف من قرف القرحة ، والظاهر تفسيره ههنا بالاكتساب لمكان ﴿ السيئات ﴾ والمراد بها على ما في البحر سيئات

الكفر ، وقوله تعالى : ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ ساد مسد مفعولي الحسبان ، والجعل بمعنى التصيير وهم مفعوله الأول ، وقوله سبحانه : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ مفعوله الثاني ، وقوله عز وجل : ﴿ سَوَآء ﴾ بدل من الكاف بناء على أنها اسم بمعنى مثل ، وقوله تعالى : ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ فاعل سواء أجرى مجرى مستوٍ كما قالوا : مررت برجل سواء هو والعدم ، وضمير الجمع للمجترحين ، والمعنى على إنكار حسبان جعل محيا المجترحين ومماتهم مستويين مثلهما للمؤمنين ، ومصب الإنكار استواء ذلك فإن المؤمنين تتوافق حالاهم لأنهم مرحومون في المحيا والممات وأولئك تتضاد حالاهم فانهم مرحومون حياة لا موتاً ؛ وجوز أن يكون ﴿ سَوَآء ﴾ حالاً من الضمير في الكاف بناء على ما سمعت من معناها .

(204/699)

وتعقب بأنها اسم جامد على صورة الحرف فلا يصح استتار الضمير فيها وقد صرح الفارسي بمنع ذلك ، نعم يجوز أن يكون ﴿ كالذين ﴾ جاراً ومجروراً في موضع المفعول الثاني و ﴿ سَوَآء ﴾ حالا من الضمير المستتر فيه ، وقيل : يجوز أيضاً كونه حالاً من ضمير نجعلهم وكذا يجوز كونه المفعول الثاني ، وكون الكاف أو الجار والمجرور حالاً من هذا

الضمير ، وما ذكر أولاً أظهر وأولى ، وجوز كون ضمير الجمع في ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ للمؤمنين فسواء حال من الموصول الثاني ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ كالذين ﴾ لفساد المعنى وكون الضمير للفريقين فسواء حال من مجموع الموصول الثاني وضمير الأول ، والمعنى على إنكار حسبان أن يستوي الفريقان بعد الممات في الكرامة أو ترك المؤاخذة كما استويا ظاهراً في الرزق والصحة في الحياة ، وجوز أن يكون المعنى على إنكار حسبان جعل الحياتين مستويتين لأن المؤمنين على الطاعة وأولئك على المعاصي وكذلك الموتان لأنهم ملقون بالبشري والرضوان وأولئك بالسوء والخذلان ، وقيل : به على تقدير كون الضمير للمجترحين أيضاً :

ولم يجوز المدقق الابدال من الكاف على تقدير اشتراك الضمير إذا لمثل هو المشبه و ﴿ سَوَآء ﴾ جار على المشبه والمشبه به .

(205/699)

وقرأ جمهور القراء ﴿ سَوَاء محياهم ومماتهم ﴾ برفع سواء وما بعده على أن سواء خبر مقدم وما بعده مبتدأ لا العكس لأن سواء نكرة ولا مسوغ للابتداء بها والضمير للمجترحين ، والجملة قيل : بدل من المفعول الثاني لنجعل بدل كل من كل أو بدل اشتمال أو بدل بعض ،

وأياً ما كان ففيه إبدال الجملة من المفرد وقد أجازه أبو الفتح واختاره ابن مالك ، وأورد عليه شواهد ، قال أبو حيان : لا يتعين فيها البدل ، وقال محمد بن عبد الله الاشبيلي المعروف بابن العلج في كتابه البسيط في النحو : لا يصح أن تكون جملة معمولة للأول في موضع البدل فإن كانت غير معمولة فهل تكون جملة بدلاً من جملة لا يبعد عندي جواز ذلك كالعطف والتأكيد اللفظي .

(206/699)

وظاهره أنه لا يجوز الإبدال ههنا ، وفي البحر يظهر لي أنه لا يجوز إبدال هذه الجملة من ذلك المفعول لأن الجعل بمعنى التصيير ولا يجوز صيرت زيداً أبوه قائم ولا صيرت زيداً غلامه منطلق لأن في ذلك انتقالا من ذات إلى ذات أو من وصف في الذات إلى وصف آخر فيها وليس في تلك الجملة المقدرة مفعولاً ثانياً انتقال مما ذكرنا وفيه بحث لا يخفى ، والزمخشري قد نص على جعل الجملة بدلاً من الكاف وهو إمام في العربية ، لكن أفاد صاحب الكشف أنه أاد أنه بدل من حيث المعنى لا أنه بدل من ذاك لفظاً قال : لأنه مفرد دال على الذات باعتبار المعنى وهذا دال على المعنى وإن كان الذات يلزم من طريق الضرورة إلا أن يقدر له موصوف محذوف بأن يقدر رجالاً سواء محياهم ومماتهم مثلاً ، والمعنى على البدلية كما

سمعت في قراءة النصب ، وجوز كون الجملة مفعولاً ثانياً و ﴿ كالذين ﴾ حال من ضمير ﴿ نَّجْعَلَهُمْ ﴾ ولا يخفى عليك ما عليه وما له ، وإذا كان الضمير للمؤمنين فالجملة قيل : حال من الموصول الثاني لا من الضمير في المفعول الثاني للفساد ، وتعقب بأن فيه اكتفاء الاسمية الحالية بالضمير وهو غير فصيح على ما قيل : وقيل : استئناف يبين المقتضى للإنكار على حسبان التماثل وهو أن المؤمنين سواء حالهم عند الله تعالى في الدارين بهجة وكرامة فكيف يماثلهم المجترحون ، وجوز أن تكون بياناً لوجه الشبه المجمل ، وإذا كان الضمير للفريقين فالظاهر أن الجملة كلام مستأنف غير داخل في حكم الإنكار والتساوي حينئذ بين حال المؤمنين بالنسبة إليهم خاصة وحال المجترحين كذلك وتكون الجملة تعليلاً للإنكار في المعنى دالاً على عدم المماثلة لا في الدنيا ولا في الآخرة لأن المؤمنين متساوو المحيا والممات في الرحمة وأولئك متساوو المحيا والممات في النقمة إذ المعنى كما يعيشون يموتون فلما افترق حال هؤلاء وحال هؤلاء حياة فكذلك موتاً ، وأما الإبدال فقد علم حاله فتأمل .

(207/699)

وقرأ الأعمش ﴿ سَوَآء ﴾ بالنصب ﴿ محياهم ﴾ ومماتهم به أيضاً ، وخرج الأول على ما سمعت ونصب محياهم ومماتهم على الظرفية لأنهما اسماً زمان أو مصدران أقيما مقام الزمان والعامل إما ﴿ سَوَآء ﴾ أو ﴿ نَّجْعَلَهُمْ ﴾ ، هذا والآية وإن كانت في الكفار على ما نقل عن البحر وهو ظاهر ما روي عن الكلبي من أن عتبة .

وسيبة .

والوليد بن عتبة قالوا لعلي كرم الله تعالى وجهه .

وحمزة رضي الله تعالى عنه .

والمؤمنين : والله ما أنتم على شيء ولئن كان ما تقولون حقاً لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا فنزلت الآية : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾ الخ .

وهي متضمنة للرد عليهم على جميع أوجهها كما يعرف بأدني تدبر يستنبط منها تباين حالي المؤمن العاصي والمؤمن الطائع ولهذا كان كثير من العباد يبكون عند تلاوتها حتى أنها تسمى مبكاة العابدين لذلك ، فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد .

والطبراني .

وجماعة عن أبي الضحى قال : قرأ تميم الداري سورة الجاثية فلما أتى على قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين ﴾ الآية لم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح وهو عند المقام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خيثم أن الربيع كان يصلي فمر بهذه الآية ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين ﴾ الخ فلم يزل يرددها حتى أصبح ، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعري من أي الفريقين أنت .

وقال ابن عطية : إن لفظها يعطي أن اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالإيمان ، ويحتمل أن تكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات ويون الإيمان في الفريقين ولهذا بكى الخائفون عند تلاوتها .

(208/699)

ورأيت كثيراً من المغرورين المستغرقين ليلهم ونهارهم بالفسق والفجور يقولون بلسان القال والحال : نحن يوم القيامة أفضل حالاً من كثير من العابدين وهذا منهم والعياذ بالله تعالى ضلال بعيد وغرور ما عليه مزيد ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء حكمهم هذا وهو الحكم بالتساوي فما مصدرية والكلام اخبار عن قبح حكمهم المعهود .

ويجوز أن يكون لإنشاء ذمهم على أن ﴿ سَاء ﴾ بمعنى بئس فما فيه نكرة موصوفة وقعت تمييزاً مفسراً لضمير الفاعل المبهم والمخصوص بالذم محذوف أي بئس شيئاً حكموا به ذلك .

﴿ وَخَلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحق ﴾ كأنه دليل على إنكار حسبانهم السابق أو دليل على تساوي محيا كل فريق ومماته وبيان لحكمته على تقدير كون قوله تعالى : ﴿ سَوَاء محياهم ومماتهم ﴾ [الجاثية : 21] استئنافاً وذلك من حيث أن خلق العالم بالحق المقتضى للعدل يستدعي انتصاف المظلوم من الظالم والتفاوت بين المسيء والمحسن وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات حتماً ﴿ ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ عطف على ﴿ بالحق ﴾ لأنه في معنى العلة سواء كانت الباء للسببية الغائية أو الملابسة ، أما على الأول فظاهر ، وأما على الثاني فلأن المعنى خلقها ملتبسة ومقرونة بالحكمة والصواب دون العبث والباطل وحاصله خلقها لأجل ذلك أو عطف على علة محذوفة مثل ليدل سبحانه بها على قدرته أو ليعدل ، وما موصولة أو مصدرية أي ليجزي كل نفس بالذي كسبته أو بكسبها ﴿ وَهُمْ ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس ﴿ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عذاب ، والجملة في موضع الحال ، وتسمية ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك لأنه منه سبحانه تصرف في ملكه والظلم صرف في ملك الغير بغير إذنه لأنه لو فعله غيره عز وجل كان ظلماً فالكلام على الاستعارة التمثيلية أو أنه لما كان مخالفاً لوعده سبحانه الحق سماه تعالى ظلماً .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه يعبده فالكلام على التشبيه البليغ أو الاستعارة ، والفاء للعطف على مقدر دخلت عليه الهمزة أي أنظرت من هذه حاله فرأيته فإن ذلك مام يقضي منه العجب ، وأبو حيان جعل أرأيت بمعنى أخبرني وقال : المفعول الأول من ﴿ اتخذ ﴾ والثاني محذوف يقدر بعد الصلات أي أيهتدي بدليل ﴿ فمن يهديه ﴾ والآية نزلت على ما روي عن مقاتل في الحرث بن قيس السهمي كان لا يهوى شيئاً إلا ركبه ، وحكمها عام وفيها من ذم اتباع هوى النفس ما فيها ، وعن ابن عباس ما ذكر الله تعالى هوى إلا ذمه .

وقال وهب : إذا شككت في خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك فأته ، وقال سهل التستري : هواك داؤك فإن خالفته فدواؤك ، وفي الحديث " العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى "

وقال أبو عمران موسى بن عمران الأشبيلي الزاهد :

فخالف هواها واعصها إن من يطع . . .

هوى نفسه ينزع به شر منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده . . .

وترم به في مصرع أي مصرع

وقد ذم ذلك جاهلية أيضاً ، ومنه قول عنترة :

أني امرؤ سمح الخليقة ما جد . . .

لا أتبع النفس اللجوج هواها

ولعل الأمر غني عن تكثير النقل .

وقرأ الأعرج .

وأبو جعفر ﴿ ءالِهَةً ﴾ بتاء التأنيث بدل هاء الضمير ، وعن الأعرج أنه قرأ "آلهة" بصيغة الجمع .

قال ابن خالويه : كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه مائلا إليه ، فالظاهر أن آلهة بمعناها من غير تجوز أو تشبيه والهوى بمعنى المهوى مثله في قوله :

هواي مع الركب اليمانين مصعد . . .

﴿ وَأَضَلَّهُ الله ﴾ أي خلقه ضالاً أو خلق فيه الضلال أو خذله وصرفه عن اللطف على ما قيل ﴿ على عِلْمٍ ﴾ حال من الفاعل أي أضله الله تعالى عالماً سبحانه بأنه أهل لذلك لفساد جوهر روحه .

(210/699)

ويجوز أن يكون حالا من المفعول أي أضله عالماً بطريق الهدى فهو كقوله تعالى : ﴿ فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ [الجاثية : 17] ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر في الآيات .

﴿ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة ﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار والكلام على التمثيل ،

وقرأ عبد الله .

والأعمش ﴿ غشاوة ﴾ بفتح الغين وهي لغة ربيعة ، والحسن .

وعكرمة .

وعبد الله أيضاً بضمها وهي لغة عكلية ، وأبو حنيفة .

وحمزة .

والكسائي .

وطلحة .

ومسعود بن صالح .

والأعمش أيضاً ﴿ غشاوة ﴾ بفتح الغين وسكون الشين ، وابن مصرف .

والأعمش أيضاً كذلك إلا أنهما كسرا الغين ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ﴾ أي من بعد اضلاله تعالى إياه ، وقيل : المعنى فمن يهديه غير الله سبحانه ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي ألا

تلاحظون فلا تذكرون ، وقرأ الجحدري ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتخفيف ، والأعمش "تتذكرون" بتاءين على الأصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(211/699)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

انتقال من وصف تكذيبهم بالآيات واستهزائهم بها ثم من أمر المؤمنين بالصفح عنهم وإيكال جزاء صنائعهم إلى الله ثم من التثبيت على ملازمة الشريعة الإسلامية إلى وصف صنف آخر من ضلالهم واستهزائهم بالوعد والوعيد وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاءَ على الأعمال وتخييلهم للناس أنهم يصيرون في الآخرة ، على الحال التي كانوا عليها في الدنيا ، عظيمهم في الدنيا عظيمهم في الآخرة ، وضعيفهم في الدنيا ضعيفهم في الآخرة ، وهذا الانتقال رجوع إلى بيان قوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربّكم ترجعون ﴾ [الجاثية : 15] .

فحرف ﴿ أم ﴾ للإضراب الانتقالي ، والاستفهام الذي يلزم تقديره بعد ﴿ أَمْ ﴾ استفهام

إنكاري ، والتقدير : لا يحسب الذين اجترحوا السيئات أنهم كالذين آمنوا لا في الحياة وفي في الممات .

(212/699)

و ﴿ الذين اجترحوا السيئات ﴾ في نقل عن ابن عباس : أنهم المشركون كما يؤذن به الانتقال من الغرض السابق إلى هذا الغرض وإنما عبر عنهم بهذا العنوان لما في الصلة من تعليل إنكار المشابهة والمساواة بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله في عالم الخلد ولأن اكتساب السيئات من شعار أهل الشرك إذ ليس لهم دين وازع يزعهم عن السيئات ولا هم مؤمنون بالبعث والجزاء ، فيكون إيمانهم به مرغباً في الجزاء ، ولذلك كثُر في القرآن الكناية عن المشركين بالتلبس بالسيئات كقوله : ﴿ ويلٌ للمطففين ﴾ إلى قوله : ﴿ ألاَ يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ [المطففين : 1 5] وكقوله : ﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ [المدثر : 42 46] وقوله : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدعّ اليتيم ولا يحضّ على طعام المسكين ﴾ [الماعون : 1 3] ونظيره ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ [العنكبوت : 4] ، فإن ذلك حال

الكفار ، وأما المؤمن العاصي فلا تبلغ به حاله أن يحسب أنه مفلت من قدرة الله .

قيل : نزلت في قوم من المشركين .

قال البغوي : نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين : لئن كان ما تقولون حقاً لنفضلنّ عليكم في الآخرة كما فضّلنا عليكم في الدنيا .

وعن الكلبي : أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قالوا لعلي وحمزة وبعض المسلمين : والله ما أنتم على شيء ولئن كان ما تقولون حقاً أي إن كان البعث حقاً لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما أنّا أفضل حالاً منكم في الدنيا .

وتأويل نزول هذه الآية على هذا السبب أن حدوث قول هؤلاء النفر صادف وقت نزول هذه الآيات من السورة أو أن قولهم هذا متكرر فناسب تعرض الآية له حقه .

(213/699)

ونزول الآية على هذا السبب لإبطال كلامهم في ظاهر حاله وإن كانوا لم يقولوه عن اعتقاد وإنما قالوه استهزاء ، لئلا يروج كلامهم على دهمائهم وَالحديثين في الإسلام لأن شأن التصدّي للإرشاد أن لا يغادر مغمزاً لرواج الباطل إلا سدّه ، كما في قوله تعالى :

﴿ أفرأيتَ الذي كفر بآياتنا وقال لأُوتَيّن مالاً وولداً أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمان

عهداً ﴾ [مريم : 77 ، 78] وله نظائر في القرآن .

وزاد القرطبي في حكاية كلام الكلبي أنهم قالوه حين برزوا لهم يوم بدر ، وهو لا يستقيم لأن السورة مكية ولم ينقل عن أحد استثناء هذه الآية منها .

والاجتراح : الاكتساب ، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة ، وهو مشتق من الجرح فأطلق على اكتساب السباع ونحوها ، ولذلك سميت كلاب الصيد جوارحَ وسمي به اكتساب الناس لأن غالب كسبهم في الجاهلية كان من الإغارة على إبل القوم وهي بالرماح ، قالت أم زرع : فنكحتُ بعدَه رَجُلاً سريّاً ، ركب شَرّياً ، وأخذ خطباً وأراح عليَّ نَعَماً ثَرَياً ، ولذلك غلب إطلاق الاجتراح على اكتساب الإثم والخبيث .

وظاهر تركيب الآية أن قوله : ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ داخل في الحسبان المنكور فيكون المعنى : إنكار أن يستوي المشركون مع المؤمنين لا في الحياة ولا بعد الممات ، فكما خالف الله بين حالَيْهم في الحياة الدنيا فجعل فريقاً كفرة مسيئين وفريقاً مؤمنين محسنين ، فكذلك سيخالف بين حاليهم في الممات فيموت المشركون على اليأس من رحمة الله إذ لا يوقنون بالبعث ويلاقون بعد الممات هول ما توعدهم الله به ، ويموت المؤمنون رجاء رحمة الله والبشرى بما وُعدوا به ويلاقون بعد الممات ثواب الله ورضوانه .

وقرأ الجمهور : ﴿ سواء ﴾ مرفوعاً فيكون موقع جملة ﴿ سواء محياهم ﴾ موقع البدل من كاف التشبيه التي هي بمعنى مِثل على ما ذهب إليه صاحب "الكشاف" يريد أنه بدل مطابق لأن الجملة تبدل من المفرد على الأصح ، والبدل المطابق هو عطف البيان عند التحقيق ، فيكون جملة ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ بيانَ ما حسبه المشركون .

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف منصوباً ، فلفظُ ﴿ سواء ﴾ وحده بدل من كاف المماثلة ، بَدَل مفرد من مفرد أو حال من ضمير النصب في ﴿ نجعلهم ﴾ . وهذا لأن المشركين قالوا للمسلمين : سنكون بعد الموت خيراً منكم كما كنا في الحياة خيراً منكم .

فضمير ﴿ محياهم ﴾ وضمير ﴿ مماتهم ﴾ عائدان لكل من الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا على التوزيع ، أي مَحْيَا كلٍّ مساوٍ لمماته ، أي لا يتبدل حال الفريقين بعد الممات بل يكُونون بعد الممات كما كانوا في الحياة غير أن موقع كاف التمثيل في قوله : ﴿ كالذين آمنوا ﴾ ليس واضح الملاقاة لحُسبان المشركين المسلطِ عليه الإنكار لأنهم إنما حسبوا أن يكونوا بعد الممات على تقدير وقوع البعث أحسنَ حالاً من المؤمنين لا أن يكونوا مثل المؤمنين لأنهم قالوا ذلك في مقام التطاول على المؤمنين ، وإرادة إفحامهم بسفسطتهم .

فبِنا أن نبين موقع هذا الكاف في الآية .

والذي أرى : أن موقعه الإيماء إلى أن الله قدّر للمؤمنين حسن الحال بعد الممات حتى صار ذلك المقدَّر مَضرِبَ الأمثال ومناط التشبيه ، وإلى أن حُسبان المشركين أنفسَهم في الآخرة على حالة حسنة باطل ، فعبر عن حسبانهم الباطلِ بأنهم أثبتوا لأنفسهم في الآخرة الحال التي هي حال المؤمنين ، أي حسب المشركون بزعمهم أن يكونوا بعد الموت في حالة إذا أراد الواصف أن يصفها وصفها بمشابهة حال المؤمنين في عندِ الله وفي نفس الأمر ، وليس المراد أن المشركين مَثَّلوا حالهم بحال المؤمنين فيؤول قوله : ﴿ كالذين آمنوا ﴾ إلى حكاية الكلام المحكي بعبارة تساويه لا بعبارة قائله ، وذلك مما يتوسع فيه في حكاية الأقوال كقوله تعالى حكاية عن عيسى

﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ، ربّي وربّكم ﴾ [المائدة : 117] فإن ما أمره الله به : أن اعبدوا الله ربَّك وربّهم ، وذلك من خلاف مقتضى الظاهر دعا الله هنا قصد التنويه بالمؤمنين والعناية بزلفاهم عند الله ، فكأنه قيل : أحسبوا أن نجعلهم في حالة حسنة ولكن هذا المأمول في حسبانهم هو في نفس الأمر حال المؤمنين لا حالُهم .

فأُوجز الكلام ، وفَهْم السامع يبسطه .

والمواجه بهذا الكلام هم النبي والمؤمنون تكملة للغرض المبتدأ به في قوله : ﴿ قل للذي آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ [الجاثية : 14] على أن لك أن تجعل قوله تعالى : ﴿ كالذين آمنوا ﴾ معترضاً بين مفعولي (نجعل) وهما ضميرا الغائبين وجملة ﴿ سواء محياهم ﴾ أو ولفظ ﴿ سواء ﴾ في قراءة نصبه فلا يكون مراداً إدخاله في حسبان المشركين .

ويجوز على هذا أن يكون قوله : ﴿ كالذين آمنوا ﴾ تهكماً على المشركين في حسبانهم تأكيداً للإنكار عليهم .

(216/699)

ومِن خلاف ظاهر التركيب ما قيل : إن مدلول ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ ليس من حسبان المشركين المنكور ولكنه كلام مستأنف ، والمعنى : أنه لما أنكر حسبان استواء الكافرين والمؤمنين خطر ببال السامع أن يسأل كيف واقعُ حال الفريقين فأجيب بأن حال محياهم هو مقياس حال مماتهم ، أي حالهم في الآخرة مختلف كما هو في الدنيا مختلف ، فالمؤمنون يحيون في الإقبال على ربهم ورجاء فضله ، والكافرون يعيشون معرضين عن عبادة ربّهم آيسين من البعث والجزاء .

وهذا ليس عين الجواب ولكنه من الاكتفاء بعلة الجواب عن ذكره .

والتقدير : حال الفريقين مختلف في الآخرة كما كان مختلفاً في الحياة .

وجملة ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ تذييل لما قبلها من إنكار حسبانهم وما اتصل بذلك الإنكار من المعاني .

واعلم أن هذه الآية وإن كان موردها في تخالف حالي المشركين والمؤمنين فإن نوط الحكم فيها بصلة ﴿ الذين اجترحوا السيئات ﴾ يجعل منها إيماء إلى تفاوت حالي المسيئين والمحسنين من أهل الإيمان وإن لم يحسب أحد من المؤمنين ذلك وعن تميم الداري أنه بات ليلة يقرأ هذه الآية ويركع ويسجد ويبكي إلى الصباح .

وروي مثل ذلك عن الربيع بن خيثم وعن الفضيل بن عياض : أنه كان كثيراً ما يردد من أول الليل هذه الآية ثم يقول : ليت شعري من أي الفريقين أنت .

يخاطب نفسه فكانت هذه الآية تسمى مَبكاة العابدين .

والمحيا والممات : مصدران ميميان أو اسما زَمان ، أي حياتهم وموتهم ، وهو على كلا الاعتبارين بتقدير مضاف ، أي حالة محياهم وحالات مماتهم .

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22)

الجملة معترضة والواو اعتراضية وهو اعتراض بين الكلام المتقدم وبين ما فرع عليه من قوله : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [الجاثية : 23] هو كالدليل على انتفاء أن يكون الذين اجترحوا السيئات الذين هم في بحبوحة عيش مدة حياتهم أن يكونوا في نعيم بعد مماتهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات مدة حياتهم فكان جزاؤهم النعيم بعد مماتهم ، أي بعد حياتهم الثانية بأنَّ خلق السماواتِ والأرض بالعدل يستدعي التفاوت بين المسيء والمحسن ، والانتصاف للمعتدَى عليه من المعتدي .

ووجه الاستدلال أن خلق السماوات والأرض تبين كونه في تمام الإتقان والنظام بحيث إن دلائل إرادة العدل في تصاريفها قائمة ، وما أودعه الخالق في المخلوقات من القوى مناسب لتحصيل ذلك النظام الذي فيه صلاحهم فإذا استعملوها في الإفساد والإساءة كان من إتمام إقامة النظام أن يُعاقبوا على تلك الإساءة والمشاهدُ أن المسيء كثير ما عكَف على إساءته حتى المماتِ ، فلو لم يكن الجزاء بعد الموت حصل اختلال في نظام خلق المخلوقات وخلقِ القوى الصادرِ عنها الإحسان والإساءة ، وهذا المعنى تكرر في آيات كثيرة وكلما ذكر شيء منه أتبع بذكر الجزاء ، وقد تقدم في سورة آل عمران (191) قوله : ﴿ ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ وقوله في سورة الدخان (38 40) وما خلقْنا السماوات والأرض وما بينهما

لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين .

والباء في قوله : بالحق ﴾ للسببية أو للملابسة ، أي خلقاً للسبب الحق أو ملابساً للحق لا يتخلف الحق عن حال من أحواله .

والحق : اسم جامع لما شأنه أن يَحقّ ويثبت ، ومن شأن الحكمة والحكيم أن يقيمه ، ولذلك أشير بقوله : ﴿ وخلق الله ﴾ فإن اسم الجلالة جامع لصفات الكمال وتصرفات الحكمة .

(218/699)

وعطف ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ على ﴿ بالحق ﴾ لأن المعطوف عليه المجرور بالباء فيه معنى التعليل ، وهذا تفصيل بعد إجمال فإن الجزاء على الفعل بما يناسبه هو من الحق ، ولأن تعليل الخلق بعلة الجزاء من تفصيل معنى الحق وآثارِ كون الحق سبباً لخلق السماوات والأرض أو ملابساً لأحوال خلقهما ، فظهرت المناسبة بين الباء في المعطوف عليه واللام في المعطوف .

والباء في ﴿ بما كسبت ﴾ للتعويض .

وما كسبته النفس لا تجزى به بل تجازَى بمثله وما يناسبه ، فالكلام على حذف مضاف ،

أي بمثل ما كسبته .

وهذه المماثلة مماثلة في النوع ، وأما تقدير تلك المماثلة فذلك موكول إلى الله تعالى ومراعًى فيه عظمة عالَم الجزاء في الخير والشر ومقدار تمرد المسيء وامتثال المحسن ، بخلاف الحدود والزواجر فإنها مقدرة بما يناسب عالم الدنيا من الضعف .

ولهذا أعقبه بقوله : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ فضمير ﴿ وهم ﴾ عائد إلى ﴿ كل نفس ﴾ ، فإن ذلك الجزاء مما اقتضاه العدل الذي جُعل سبباً أو ملابساً لخلق السماوات والأرض وما فيهما ، فهو عدل ، فليس من الظلم في شيء فالمُجازَى غير مظلوم ، وبالجزاء أيضاً ينتفي أثر ظلم الظالم عن المظلوم إذ لو ترك الجزاء لاستمر المظلوم مظلوماً .

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

لما كان الذين حسبوا أن يكونوا في الآخرة في نعمة وعزة كما كانوا في الدنيا قالوا ذلك عَنْ غير دليل ولا نظر ولكن عن اتباع ما يشتهون لأنفسهم من دوام الحال الحسن تفرع على حسبانهم التعجيب من حالهم ، فعطف بالفاء الاستفهامُ المستعملُ في التعجيب ، وجعل استفهاماً عن رؤية حالهم ، للإشارة إلى بلوغ حالهم من الظهور إلى حد أن تكون مرئية .

وأصل التركيب : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ الخ ، فقدمت همزة الاستفهام ، والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود من معه من المسلمين ، أو الخطاب لغير معيّن ، أي تناهت حالهم في الظهور فلا يختص بها مخاطب .

و ﴿ مَنْ ﴾ الموصولة صادقة على فريق المستهزئينَ الذين حسبوا أن يكون مَحْياهم ومماتهم سواء بقرينة ضمير الجمع في الجملة المعطوفة بقوله : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [الجاثية : 24] الخ .

والمعنى : أن حجاجهم المسلمين مركَّز على اتباع الهوى والمغالطةِ ، فلا نهوض لحجتهم لا في نفس الأمر ولا فيما أرادوه ، على فرض وقوع البعث من أن يكونوا آمنين من أهوال البعث ، وأنهم لا يرجى لهم اهتداء لأن الله خلقهم غير قابلين للهدَى فلا يستطيع غيره هداهم .

و ﴿ إلهه ﴾ يجوز أن يكون أطلق على ما يلازم طاعته حتى كأنه معبود فيكون هذا الإطلاق بطريقة التشبيه البليغ ، أي اتخذ هواه كإله له لا يخالف له أمراً .

ويجوز أن يبقى ﴿ إلهه ﴾ على الحقيقة ويكون ﴿ هواه ﴾ بمعنى مَهْوِيَّهُ ، أي عبد إلها لأنه يحب أن يعبده ، يعني الذين اتخذوا الأصنام آلهة لا يقلعون عن عبادتها لأنهم أحبوها ، أي أَلِفوها وتعلقت قلوبهم بعبادتها ، كقوله تعالى : ﴿ وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ [البقرة : 93] .

ومعنى ﴿ أضلّه الله ﴾ أنه حفّهم بأسباب الضلالة من عقول مكابرة ونفوس ضعيفة ،

اعتادت اتباع ما تشتهيه لا تستطيع حَمل المصابرة والرضى بما فيه كراهية لها .

فصارت أسماعهم كالمختوم عليها في عدم الانتفاع بالمواعظ والبراهين ، وقلوبُهم كالمختوم عليها في عدم نفوذ النصائح ودلائل الأدلة إليها ، وأبصارُهم كالمغطاة بغشاوات فلا تنتفع بمشاهدة المصنوعات الإلهية الدالة على انفراد الله بالإلهية وعلى أنَّ بعد هذا العالم بعثاً وجزاء .

ومعنى ﴿ على علم ﴾ أنهم أحاطت بهم أسباب الضلالة مع أنهم أهل علم ، أي عقول سليمةٍ أوْ مع أنهم بلغهم العِلم بما يهديهم وذلك بالقرآن ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام .

فحرف ﴿ على ﴾ هنا معناه المصاحبة بمعنى (مع) وأصل هذا المعنى استعارة معنى الاستعلاء للاستعلاء المجازي وهو التمكن بين الوصف والموصوف .

(220/699)

وشاع ذلك حتى صار معنى من معاني (على) كما في قول الحارث بن حلزة :

فيَقيناً على الشّنَاءة تَنْمينا . . .

حُصون وعِزّة قعساء

والمعنى : أنه ضال مع مَا له من صفة العلم ، فالعلم هنا من وصف من اتخذ إلهه هواه وهو متمكن من العلم لو خلع عن نفسه المكابرة والميل إلى الهوى .

وقرأ الجمهور ﴿ غشاوة ﴾ بكسر الغين وفتح الشين بعدها ألف .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ غَشْوَةٌ ﴾ بفتح الغين وسكون الشين وهو من التسمية بالمصدر وهي لغة .

وتقدم معنى الختم والغشاوة في أول سورة البقرة .

وفرع على هذه الصلة استفهام إنكاري أن يكون غيرُ الله يستطيع أن يهديهم ، والمراد به تسلية النبي صلى الله عليه وسلم لشدة أسفه لإعراضهم وبقائهم في الضلالة .

و﴿ من بعد الله ﴾ بمعنى : دون الله ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾ آخر سورة الأعراف (185) .

وفرع على ذلك استفهام عن عدم تذكر المخاطبين لهذه الحقيقة ، أي كيف نَسُوها حتى ألُّوا في الطمع بهداية أولئك الضالّين وأسفوا لعدم جدوى الحجة لديهم وهو استفهام إنكاري .

ومن المفسرين من حمل مَن ﴾ الموصولة في قوله ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ على معيَّن فقال مقاتل : هو أبو جهل بسبب حديث جرى بينَه وبين الوليد بن المغيرة كانا يطوفان ليلة فتحدثا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو جهل : والله إني لأعْلَم إنه لصادق

فقال له المغيرة : مَهْ ، وما دَلَّكَ على ذلك ، قال : كنّا نسميه في صباه الصادق الأمين فلما تمّ عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن قال : فما يمنعك أن تؤمن به قال : تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كِسرَة ، واللاتِ والعُزّى إنْ اتبعتُه أبداً فنزلت هذه الآية .

وإذا صح هذا فإن مطابقة القصة لقوله تعالى : ﴿ وأضله الله على علم ﴾ ظاهرة .

وعن مقاتل أيضاً : أنها نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين كان يَعْبُد من الأصنام ما تهواه نفسه .

(221/699)

وهذه الآية أصل في التحذير من أن يكون الهوى الباعث للمؤمنين على أعمالهم ويتركوا اتباع أدلة الحق ، فإذا كان الحق محبوباً لأحد فذلك من التخلق بمحبة الحق تبعاً للدليل مثل ما يهوى المؤمن الصلاة والجماعة وقيامَ رمضان وتلاوة القرآن وفي الحديث " أرِحْنا بها يا بلال " يعني الإقامة للصلاة .

وعن عبد الله بن عمْرو بن العاصي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به " وعن أبي الدرداء " إذا أصبح الرجل اجتمع هَواه

وعَمله وعلمه فإن كان عمَلُه تبعاً لهواه فيومه يوم سوء وإن كان عمله تبعاً لِعلمه فيومه يوم صالح " .

وأما اتباع الأمر المحبوب لإرضاء النفس دون نظر في صلاحه أو فساده فذلك سبب الضلال وسوء السيرة .

قال عمرو بن العاصي :

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه . . .

ولم ينْه قلباً غاوياً حيثُ يَمَّمَا

فيوشك أن تَلقَى له الدهرَ سبَّة . . .

إذا ذُكرت أمثالها تَمْلأ الفما

ومن الكلمات المأثورة " ثلاث من المهلكات : شُحّ مطاع ، وهوًى متبع ، وإعجاب المرأ بنفسه " ويروى حديثاً ضعيف السند .

وقدم السمع على القلب هنا بخلاف آية سُورة البقرة ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ [البقرة : 7] لأن المخبَر عنهم هنا لما أخبر عنهم بأنهم اتخذوا إلهم هواهم ، فقد تقرر أنهم عقدوا قلوبهم على الهوى فكان ذلك العَقد صَارفاً السمع عن تلقي الآيات فَقُدِّمَ لإفَادةِ أنهم كالمختوم على سمعهم ، ثم عطف عليه ﴿ وقلبِه ﴾

تكميلاً وتذكيراً بذلك العقد الصارف للسمع ثم ذكر ما ﴿ على بصره ﴾ من شبهِ الغشاوة لأن ما عقد عليه قلبه بصره عن النظر في أدلة الكائنات .

(222/699)

وأما آية سورة البقرة فإن المتحدث عنهم هم هؤلاء أنفسهم ولكن الحديث عنهم ابتدىء بتساوي الإنذار وعدمه في جانبهم بقوله : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ [البقرة : 6] فلما أريد تفصيله قدم الختم على قلوبهم لأنه الأصل كما كان اتخاذ الهوى كالإله أصلاً في وصف حالهم في آية سورة الجاثية .

فحالة القلوب هي الأصل في الانصراف عن التلقي والنظر في الآيتين ولكن نظم هذه الآية كان على حسب ما يقتضيه الذكر من الترتيب ونظم آية البقرة كان على حسب ما يقتضيه الطبْع .

وقرأ الجمهور ﴿ أفلا تذكرون ﴾ بتشديد الذال .

وقرأه عاصم بتخفيف الذال وأصله عند الجميع ﴿ تتذكرون ﴾ .

فأما الجمهور فقراءتهم بقلب التاء الثانية ذالاً لتقارب مخرجيهما قصداً للتخفيف ، وأما

عاصم فقراءته على حذف إحدى التاءين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(223/699)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾

وهذا الغطاء سري إليها من غطاء القلب فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه وأنت إذا أبغضت رجلا بغضا شديدا أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته فتلك أثر البغض والإعراض عنه وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك العشاء غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شفاء العليل صـ 205 ﴾

(224/699)

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير للدلالة على الختم على مشاعرهم ، فقد قالوا مع اعترافهم بتفرده تعالى بخلقهم ورزقهم وخلق جميع الموجدات في إنكار الوحدانية : إن له شركاء ، عطف عليه قوله : ﴿ وقالوا ﴾ أي في إنكارهم البعث مع اعترافهم بأنه قادر على كل شيء ومعرفتهم أنه قد وعد بذلك في الأساليب المعجزة وأنه لا يليق بحكيم أصلاً أن يدع من تحت يده يتهارجون من غير حكم بينهم : ﴿ ما هي ﴾ أي الحياة ﴿ إلا حياتنا ﴾ أي أيها الناس ﴿ الدنيا ﴾ أي هذه التي نحن فيها مع أن تذكر مدلول هذا الوصف الذي هو أمر نسبي لا يعقل إلا بالإضافة إلى حياة أخرى بُعدى كافٍ في إثبات البعث .

ولما أثبتوا بادعائهم الباطل هذه الحياة أتبعوها حالها فقالوا : ﴿ نموت ونحيا ﴾ أي تنزع الروح من بعض فيموت ، وتنفخ في بعض آخر فيحيى ، وليس وراء الموت حياة أخرى للذي

مات ، فقد أسلخوا أنفسهم بهذا القول من الإنسانية إلى البهيمية لوقوفهم مع الجزئيات ، ولما كان هلاكهم في زعمهم لا آخر له ، عدوا الحياة في جنبه عدماً فلم يذكروها وقالوا بجهلهم : ﴿ وما يهلكنا ﴾ أي بعد هذه الحياة ﴿ إلا الدهر ﴾ أي الزمان الطويل بغلبته علينا بتجدد إقباله وتجدد إدبارنا بنزول الأمور المكروهة بنا ، من دهره - إذا غلبة .

ولما أسند إليهم هذا القول الواهي ، بين حالهم عند قوله فقال تعالى : ﴿ وما ﴾ أي قالوه والحال أنه ما ﴿ لهم بذلك ﴾ أي القول البعيد من الصواب وهو أنه لا حياة بعد هذه ، وأن الهلاك منسوب إلى الدهر على أنه مؤثر بنفسه ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من علم ﴾ أي كثير ولا قليل ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هم إلا يظنون ﴾ بقرينة أن الإنسان كلما تقدم في السن ضعف ، وأنه لم يرجع أحد من الموتى .

(225/699)

ولما كان هذا من قولهم عجباً ، زاده عجباً بحالهم عند سماعهم للبراهين القطعية ، فقال عاطفاً على " قالوا " : ﴿ وإذا تتلى ﴾ أي تتابع بالقراءة من أيّ تال كان ﴿ عليهم آياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة في نفسها وبالإضافة إلينا حال كونها ﴿ بينات ﴾ أي في غاية المكنة في الدلالة على البعث ، فلا عذر لهم في ردها ﴿ ما كان ﴾ أي بوجه من وجوه

الكون ﴿ حجتهم ﴾ أي قولهم الذي ساقوه مساق الحجة ، وهو لا يستحق أن يسمى شبهة ﴿ إلا أن قالوا ﴾ قولاً ذميماً ولم ينظروا إلى مبدئهم ﴿ ائتوا ﴾ أيها التالون للحجج البينة من النبي – صل الله عليه وسلم – وأتباعه الذين اهتدوا بهداه ﴿ بآبائنا ﴾ الموتى ، وحاصل هذا أنه ما كان لهم حجة إلا أن أتوا بكلام معناه : ليس لنا حجة لأنه ليس فيه شبهة فضلاً عن حجة ، وما كفاهم مناداتهم على أنفسهم بالجهل حتى عرضوا لأهل البينات بالكذب فقالوا : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي عريقين في الكون في أهل الصدق الراسخين فيه من أنه سبحانه وتعالى يبعث الخلق بعد موتهم ، وذلك استبعاد منهم لأن يقدر على جمع الجسم بعد ما يلي ، وهم يقرون بأنه الذي خلق ذلك الجسم ابتداء ، ومن المعلوم قطعاً أن من قدر على إنشاء شيء من العدم قدر على إعادته بطريق الأولى .

(226/699)

ولما كان سبحانه وتعالى إنما يقبل الإيمان عند إمكان تصوره ، وذلك إذا كان بالغيب لم يجبهم إلى إحياء آبائهم إكراماً لهذه الأمة لشرف نبيها عليه أفضل الصلاة والسلام لأن سنته الإلهية جرت بأن من لم يؤمن بعد كشف الأمر بإيجاد الآيات المقترحات أهلكه كما فعل بالأمم الماضية ، فرفعهم عن الحس إلى التدريب على الحجج العقلية فقال آمراً له ـ صلى الله

عليه وسلم ـ بالجواب بقوله تعالى : ﴿ قل الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً وحكمة ﴿ يحييكم ﴾ أي يجدد هذا تجديداً لا يحصى كما أنتم به مقرون إحياء لأجساد يخترعها من غير أن يكون لها أصل في الحياة ﴿ ثم يميتكم ﴾ بأن يجمع أرواحكم من أجسادكم فيستلها منها لا يدع " شيئاً " منها في شيء من الجسد وما ذلك على الله بعزيز فإذا هو كما كان قبل الإحياء كما تشاهدون ، ومن قدر على هذا الإبداء على هذا الوجه من التكرر ثم على تمييز ما بث من الروح في حال سلها من تلك الأعضاء الظاهر عادة مستمرة كان المخبر عنه بأنه يجمع الخلق بعد موتهم من العريقين في الصدق ، فلذلك قال من غير تأكيد : ﴿ ثم يجمعكم ﴾ أي بعد التمزق فيعيد فيكم أرواحكم كما كانت بعد طول مدة الرقاد ، منتهين ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ أي القيام الأعظم لكونه عاماً لجميع الخلائق الذين أماتهم .

ولما صح بهذا الدليل القطعي المدعى ، أنتج قوله : ﴿ لا ريب ﴾ أي شك بوجه من الوجوه ﴿ فيه ﴾ بل هو معلوم علماً قطعياً ضرورياً ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ بما لهم من السفول بما ركبنا فيهم من الحظوظ والشهوات التي غلبت على غريزة العقل فردوا بها أسفل سافلين في حد النوس وهو التردد لم يرتقوا إلى الإيمان ﴿ لا يعلمون ﴾ أي لا يتجدد لهم علم لما لهم من النوس والتردد والسفول عن أوج العقل إلى حضيض الجهل ، فهم واقفون مع المحسوسات ، لا

يلوح لهم ذلك مع ما له من الظهور لتظهر قدرتنا ويتحقق اسمنا الباطن كما تحقق الظاهر عند من هديناه لعلم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 105 . 107 ﴾

(227/699)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم في إنكار القيامة وفي إنكار الإله القادر ، أما شبهتهم في إنكار القيامة فهي قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ فإن قالوا الحياة مقدمة على الموت في الدينا فمنكرو القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت ، فما السبب في تقديم ذكر الموت على الحياة ؟ قلنا فيه وجوه الأول : المراد بقوله ﴿ نَمُوتُ ﴾ حال كونهم نطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، وبقوله ﴿ نحيا ﴾ ما حصل بعد ذلك في الدينا الثاني : نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا الثالث : يموت بعض ويحيا بعض الرابع : وهو الذي خطر بالبال عند كتابة هذا الموضع أنه تعالى قدم ذكر الحياة فقال : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ ثم قال بعده : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ يعني أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك في حق الذين ماتوا ، ومنها ما لم يطرأ الموت عليها ، وذلك في

حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد ، وأما شبهتهم في إنكار الإله الفاعل المختار ، فهو قولهم ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ يعني تولد الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع ، وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة ، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت ، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك ، ولا حاجة في هذا الباب إلى إثبات الفاعل المختار ، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة .

(228/699)

ثم قال تعالى : ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ والمعنى أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها قائمة ، فالذي قالوه يحتمل وضده أيضاً يحتمل ، وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقاً ، وأن يكون القول بوجود الإله الحكيم حقاً ، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية في أن هذا الاحتمال الثاني باطل ، ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الأول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة ، فثبت أنه ليس علم ولا جزم ولا يقين في صحة القول الذي اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب إليه من غير موجب ، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبيّنة قول باطل فاسد ، وأن

متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بينات مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره .

المسألة الثانية :

سمى قولهم حجة لوجوه الأول : أنه في زعمهم حجة الثاني : أن يكون المراد من كان حجتهم هذا فليس لهم ألبتة حجة كقوله :

تحية بينهم ضرب وجيع . . (أي ليس بينهم تحية لمنافاة الضرب للتحية) الثالث : أنهم ذكروها في معرض الاحتجاج بها .

المسألة الثالثة :

أن حجتهم على إنكار البعث أن قالوا لو صح ذلك فائتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث .

واعلم أن هذه الشبهة ضعيفة جداً ، لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول ، فإن حصول كل واحد منا كان معدوماً من الأزل إلى الوقت الذي حصلنا فيه ،

ولو كان عدم الحصول في وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك ، وذلك باطل بالاتفاق .

(229/699)

ثم قال تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ فإن قيل هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ فهذا القائل كان منكراً لوجود الإله ولوجود يوم القيامة ، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ وهل هذا إلا إثبات للشيء بنفسه وهو باطل ، قلنا إنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مراراً وأطواراً .

فقوله ها هنا ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ إشارة إلى تلك الدلائل التي بيّنها وأوضحها مراراً ، وليس المقصود من ذكر هذا الكلام إثبات الإله بقول الإله ، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع في نفس الأمر .

ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى ، وثبت أن الإعادا مثل الإحياء الأول ، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله ، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة ، وثبت أن الإعادة ممكنة

في نفسها ، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقة .

وأما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ فهو إشارة إلى ما تقدم ذكره في الآية المتقدمة ، وهو أن كونه تعالى ، عادلاً خالقاً بالحق منزّهاً عن الجور والظلم ، يقتضي صحة البعث والقيامة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لكن أكثر الناس لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم ، ولا يعلمون أيضاً أنه تعالى لما كان قادراً على الإيجاد ابتداءً وجب أن يكون قادراً على الإعادة ثانياً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 231 . 233 ﴾

(230/699)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾

هذه آية عبرة في جريان السفينة في البحر ، وذلك أن الله تعالى سخر هذا المخلوق العظيم لهذا المخلوق الحقير الضعيف .

وقوله : ﴿ بأمره ﴾ أقام القدرة والإذن مناب أن يأمر البحر والناس بذلك . والابتغاء من

فضل الله : هو بالتجارة في الأغلب ، وكذلك مقاصد البر من حج أو جهاد هي أيضاً ابتغاء فضل ، والتصير فيه هو ابتغاء فضل . وتسخير ﴿ ما في السماوات ﴾ : هو تسخير الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والهواء والملائكة الموكلة بهذا كله ، ويروى أن بعض الأحبار نزل به ضيف فقدم إليه رغيفاً ، فكأن الضيف احتقره فقال له المضيف : لا تحتقره فإنه لم يستدر حتى تسخر فيه من المخلوقات والملائكة ثلاثمائة وستون بين ما ذكرنا من مخلوقات السماء وبين الملائكة وبين صناع بني آدم الموصلين إلى استدارة الرغيف ، وتسخير ما في الأرض هو تسخير البهائم والمياه والأودية والجبال وغير ذلك . ومعنى قوله : ﴿ جميعاً منه ﴾ قال ابن عباس : كل إنعام فهو من الله تعالى .

وقرأ جمهور الناس : " منه " وهو وقف جيد . وقرأ مسلمة بن محارب : " مَنُّه " بفتح الميم وشد النون المضمومة بتقدير : هو منه . وقرأ ابن عباس : بكسر الميم وفتح النون المشددة ونصب التاء على المصدر . قال أبو حاتم : سند هذه القراءة إلى ابن عباس مظلم ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس وعبد الله بن عمر والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير . وقرأ مسلمة بن محارب أيضاً : " مِنةٌ " بكسر الميم وبالرفع في التاء .

وقوله تعالى : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ الآية ، آية نزلت في صدر الإسلام ، أمر الله المؤمنين فيها أن يتجاوزوا عن الكفار وأن لا يعاقبوهم بذنب ، بل يأخذون أنفسهم بالصبر ، قاله محمد بن كعب القرظي والسدي . قال أكثر الناس : وهذه آية منسوخة بآية القتال وقالت فرقة : الآية محكمة ، والآية تتضمن الغفران عموماً ، فينبغي أن يقال : إن الأمور العظام كالقتل والكفر مجاهرة ونحو ذلك قد نسخ غفرانه آية السيف والجزية وما أحكمه الشرع لا محالة ، وإن الأمور المحقرة كالجفاء في القول ونحو ذلك يحتمل أن يبقى محكمه ، وأن يكون العفو عنها أقرب إلى التقوى . وقال ابن عباس لما نزلت : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ [البقرة : 245] قال فنحاص اليهودي . احتاج رب محمد ، فأخذ عمر سيفه ومر ليقتله ، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " إن ربك يقول : ﴿ قل للذين آمنوا ﴾ " الآية ، فهذا احتجاج بها مع قدم نزولها . وقد ذكر مكي وغيره أنها نزلت بمكة في عمر رضي الله عنه لما أراد أن يبطش بمشرك شتمه . وأما الجزم في قوله : ﴿ يغفروا ﴾ فهو جواب شرط مقدر تقديره : قل اغفروا فإن يجيبوا يغفروا .

وأخصر عندي من هذا أن ﴿ قل ﴾ هي بمثابة : أندب المؤمنين إلى الغفر .

وقوله : ﴿ أيام الله ﴾ قالت فرقة معناه : أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك ، ف ﴿ يرجون ﴾ على هذا هو من بابه . وقال مجاهد : ﴿ أيام الله ﴾ تعالى هي أيام نقمه وعذابه ، ف ﴿ يرجون ﴾ على هذا هي التي تتنزل منزلة يخافون ، وإنما تنزلت منزلتها من حيث الرجاء والخوف متلازمان لا تجد أحدهما إلا والآخر معه مقترن ، وقد تقدم شرح هذا غير مرة ، وقرأ جمهور القراء " ليجزي " بالياء على معنى : ليجزي الله . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي والأعمش وأبو عبد الرحمن وابن وثاب : " لنجزي " بالنون . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بخلاف عنه " لِيُجزَى " على بناء الفعل للمفعول " قوماً " ، وهذا على أن يكون التقدير : ليجزي الجزاء قوماً ، وباقي الآية وعيد .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)

لما تقرر في التي قبل هذه أن الله يجزي قوماً بكسبهم ويعاقبهم بذنوبهم واجترامهم ، أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ .

وقوله : ﴿ فلنفسه ﴾ هي لام الحظ ، لأن الحظوظ والمحاب إنما يستعمل فيها اللام التي هي كلام الملك ، تقول الأمور لزيد متأتية ، وتستعمل في ضد ذلك على ، فتقول : الأمور على فلان مستصعبة ، وتقول : لزيد مال وعليه دين ، وكذلك جاء العمل الصالح في هذه الآية باللام والإشارة ب " على " .

وقوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ معناه إلى قضائه وحكمه ، و ﴿ الكتاب ﴾ في

قوله : ﴿ آتينا بني إسرائيل الكتاب ﴾ هو التوراة . ﴿ والحكم ﴾ هو السنة والفقه ، فيقال إنه لم يتسع فقه الأحكام على لسان نبي ما اتسع على لسان موسى عليه السلام : ﴿ والنبوءة ﴾ هي ما تكرر فيهم من الأنبياء .

(233/699)

وقوله تعالى : ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ يعني المستلذات الحلال ، وبهذين تتم النعمة ويحسن تعديدها ، وهذه إشارة إلى المن والسلوى ، وطيبات الشام بعد ، إذ هي الأرض المباركة ، وقد تقدم القول في معنى ﴿ الطيبات ﴾ ، وتلخيص قول مالك والشافعي في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ على العالمين ﴾ يريد على عالم زمانهم . والبينات من الأمر : هو الوحي الذي فصلت لهم به الأمور .

ثم أوضح تعالى خطأهم وعظمه بقوله : ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ وذلك أنهم لو اختلفوا اجتهاداً في طلب صواب لكان لهم عذر في الاختلاف ، وإنما اختلفوا بغياً وقد تبينوا الحقائق ، ثم توعدهم تعالى بوقف أمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة .

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18)

المعنى : ﴿ ثم جعلناك على شريعة ﴾ ، فلا محالة أنه سيختلف عليك كما تقدم لبني إسرائيل فاتبع شريعتك ، والشريعة في كلام العرب : الموضع الذي يرد فيه الناس في الأنهار والمياه ومنه قول الشاعر : [البسيط] .

وفي الشرائع من جلان مقتنص . . . رث الثياب خفيّ الشخص منسرب

فشريعة الدين هي من ذلك ، كأنها من حيث يرد الناس أمر الحدود ورحمته والقرب منه .

وقال قتادة : الشريعة : الفرائض والحدود والأمر والنهي .

(234/699)

وقوله : ﴿ من الأمر ﴾ يحتمل أن يكون واحد الأمور أي من دون الله ونبواته التي بثها في سالف الزمان ، ويحتمل أن يكون مصدراً من أمر يأمر ، أي على شريعة من الأوامر والنواهي ، فسمى جميع ذلك أمراً . و ﴿ الذين لا يعلمون ﴾ هم الكفار الذين كانوا يريدون صرف محمد صلى الله عليه وسلم إلى إرادتهم . و: ﴿ يغنوا ﴾ من الغناء ، أي لن يكون لهم عنك دفاع . ثم حقر تعالى شأن الظالمين مشيراً بذلك إلى كفار قريش ، ووجه التحقير أنه قال : هؤلاء يتولى بعضهم بعضاً ، والمتقون يتولاهم الله ، فخرجوا عن ولاية الله وتبرأت

منهم ، ووكلهم الله بعضهم إلى بعض .

وقوله تعالى : ﴿ هذا بصائر ﴾ يريد القرآن . والبصائر جمع بصيرة ، وهي المعتقد الوثيق في الشيء ، كأنه مصدر من إبصار القلب ، فالقرآن فيه بيانات ينبغي أن تكون بصائر .

والبصيرة في كلام العرب : الطريقة من الدم ، ومنه قول الشاعر يصف جده في طلق الثأر وتواني غيره : [الكامل]

راحوا بصائرهم على أكتافهم . . . وبصيرتي يعدو بها عتد وأى

وفسر الناس هذا البيت بطريقة الدم إذ كانت عادة طالب الدم عندهم أن يجعل طريقة من دم خلف ظهره ليعلم بذلك أنه لم يدرك ثأره وأنه يطلبه ، ويظهر فيه أنه يريد بصيرة القلب ، أي قد اطرح هؤلاء بصائرهم وراء ظهورهم .

وقوله تعالى : ﴿ أم حسب ﴾ الآية قول يقتضي أنه نزل بسبب افتخار كان للكفار على المؤمنين قالوا لئن كانت آخرة كما تزعمون لنفضلن عليكم فيها كما فضلنا في الدنيا . و: ﴿ أم ﴾ هذه ليست بمعادلة ، وهي بمعنى بل مع ألف الاستفهام . و: ﴿ اجترحوا ﴾ معناه : اكتسبوا ، ومنه جوارح الإنسان ، ومنه الجوارح في الصيد ، وتقول العرب : فلان جارحة أهله ، أي كاسبهم .

وقرأ أكثر القراء : " سواءٌ " بالرفع " محياهم ومماتُهم " بالرفع ، وهذا على أن " سواءٌ " رفع بالابتداء " ومحياهم ومماتُهم " خبره . و: ﴿ كالذين ﴾ في موضع المفعول الثاني ل " نجعل " ، وهذا على أحد معنيين : إما أن يكون الضمير في ﴿ محياهم ﴾ يختص بالكفار المجترحين ، فتكون الجملة خبراً عن أن حالهم في الزمنين حال سوء . والمعنى الثاني : أن يكون الضمير في ﴿ محياهم ﴾ يعم الفريقين ، والمعنى : أن محيا هؤلاء ومماتهم سواء ، وهو كريم ، ومحيا الكفار ومماتهم سواء ، وهو غير كريم ، ويكون اللفظ قد لف هذا المعنى وذهن السامع يفرقه ، إذ تقدم أبعاد أن يجعل الله هؤلاء كهؤلاء .

قال مجاهد : المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً ويبعث كافراً .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه : مقتضى هذا الكلام أن لفظ الآية خبر ، ويظهر لي أن قوله : ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ داخل في المحسبة المنكرة السيئة ، وهذا احتمال ، والأول أيضاً جيد .

وقرأ طلحة وعيسى بخلاف عنه : " سواءً " بالنصب ، " محياهم ومماتُهم " بالرفع ، وهذا يحتمل وجهين أحدهما أن يكون قوله : ﴿ كالذين ﴾ في موضع المفعول الثاني ل " جعل " كما هو في قراءة الرفع ، وينصب قوله : " سواءً " على الحال من الضمير في : ﴿ نجعلهم ﴾ . والوجه الثاني أن يكون قوله : ﴿ كالذين ﴾ في نية التأخير ، ويكون قوله : " سواءً " مفعولاً ثانياً ل " جعل " ، وعلى كلا الوجهين : " محياهم ومماتُهم " مرتفع ب " سواء " على أنه فاعل . وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم والأعمش " سواءً " بالنصب " محياهم ومماتَهم " بالنصب وذلك على الظرف أو على أن يكون " محياهم " بدلاً من الضمير في : ﴿ نجعلهم ﴾ أي نجعل محياهم ومماتهم سواء ، وهذه الآية متناولة بلفظها حال العصاة من حال أهل التقوى ، وهي موقف للعارفين فيكون عنده فيه ، وروي عن الربيع بن خيثم أنه كان يردها ليلة جمعاء ، وكذلك عن الفضيل بن عياض ، وكان يقول لنفسه : ليت شعري من أي الفريقين أنت ، وقال الثعلبي : كانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين .

قال القاضي أبو محمد : وأما لفظها فيعطي أنه اجتراح الكفر بدليل معادلته بالإيمان ، ويحتمل أن تكون المعادلة بن الاجتراح وعمل الصالحات ، ويكون الإيمان في الفريقين ، ولهذا ما بكى الخائفون رضوان الله عليهم ، وإما مفعولاً ﴿ حسب ﴾ فقولهم ﴿ أن نجعلهم ﴾ يسد مسد المفعولين . وقوله : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ ، ﴿ ما ﴾ مصدرية ، والتقدير : ساء الحكم حكمهم .

﴿ وخلق الله السماوات والأرض بالحق ﴾ معناه : بأن خلقها حق واجب متأكد في نفسه لما فيه من فيض الخيرات ولتدل عليه ولتكون صنعة حاكمة لصانع وقيل لبعض الحكماء : لم خلق الله السماوات والأرض ؟ قال ليظهر جوده . واللام في قوله : ﴿ لتجزى ﴾ يظهر أن تكون لام كي ، فكأن الجزاء من أسباب خلق السماوات ، ويحتمل أن تكون لام الصيرورة أي صار الأمر فيها من حيث اهتدى بها قوم وضل عنها آخرون لأن يجازى كل أحد بعلمه وبما اكتسب من خير أو شر .

وقوله تعالى : ﴿ أفرأيت ﴾ سهل بعض القراء الهمزة وخففها قوم ، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود مخففة ، وفي مصحف أبي بن كعب : " أفرايت " دون همز . وهذه الآية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم عن المعرضين عن الإيمان ، أي لا تعجل بهم ولا تهتم بأمرهم ، فليس فيهم حيلة لبشر ، لأن الله تعالى أضلهم . وقال ابن جبير : قوله : ﴿ إلهه هواه ﴾ إشارة إلى الأصنام إذ كانوا يعبدون ما يهوون من الحجارة . وقال قتادة المعنى : لا يهوى شيئاً إلا ركبه ، لا يخاف الله ، وهذا كما يقال : الهوى إله معبود .

وقرأ الأعرج وابن جبير : " آلهة هواه " على التأنيث في " آلهة " .

وهذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأمارة ، قال ابن عباس : ما ذكر الله هوى إلا ذمة . وقال الشعبي : سمي هوى لهويه بصاحبه . وقال النبي عليه السلام : " والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله " وقال سهل التستري : هواك دوؤك ، فإن خالفته فدواؤك . وقال سهل : إذا شككت في خير أمرين ، فانظر أبعدهما من هواك فأته . ومن حكمة الشعر في هذا قول القائل :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك ال . . . هوى إلى كل ما فيه عليك مقال

(238/699)

وقوله تعالى : ﴿ على علم ﴾ قال ابن عباس المعنى : على علم من الله تعالى سابق .

وقالت فرقة : أي على علم من هذا الضال بأن الحق هو الذي يترك ويعرض عنه ، فتكون الآية على هذا من آيات العناد من نحو قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل : 14] وعلى كلا التأويلين : ف ﴿ على علم ﴾ ، حال .

وقوله تعالى : ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ استعارت كلها ، إذ هو الضال لا ينفعه ما يسمع ولا ما يفهم ولا ما يرى ، فكأنه بهذه الأوصاف المذكورة ، وهذه الآية لا حجة للجبرية فيها ، لأن التكسب فيها منصوص عليه في قوله : ﴿ اتخذ ﴾ وفي

قوله : ﴿ على علم ﴾ على التأويل الأخير فيه ، ولو لم ينص على الاكتساب لكان مراداً في المعنى .

وقرأ أكثر القراء " غِشاوة " بكسر الغين . وقرأ عبد الله بن مسعود : " غَشاوة " بفتح الغين وهي لغة ربيعة ، وحكي عن الحسن وعكرمة : " غُشاوة " بضم الغين وهي لغة عكل ، وقرأ حمزة والكسائي : " غَشْوة " بفتح الغين وإسكان الشين .

وقرأ الأعمش وابن مصرف بكسر الغين دون ألف .

وقوله : ﴿ من بعد الله ﴾ فيه حذف مضاف تقديره : من بعد إضلال الله إياه .

وقرأ عاصم وأراه الجحدري : " تذكرون " بتخفيف الذال . وقرأ جمهور الناس : " تذّكرون " على الخطاب أيضاً بتشديد الذال . وقرأ الأعمش : " تتذكرون " بتاءين .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ الآية حكاية مقالة بعض قريش ، وهذه صنيفة دهرية من كفار العرب . ومعنى قولهم : ما في الوجود إلا هذه الحياة التي نحن فيها وليست ثم آخرة ولا بعث .

واختلف المفسرون في معنى قولهم : ﴿ نموت ونحيا ﴾ فقالت فرقة المعنى : نحن موتى قبل أن نوجد ، ثم نحيا في وقت وجودنا . وقالت فرقة : المعنى : ﴿ نموت ﴾ حين نحن نطف ودم ، ثم ﴿ نحيا ﴾ بالأرواح فينا ، وهذا قول قريب من الأول ، ويسقط على القولين ذكر الموت المعروف الذي هو خروج الروح من الجسد ، وهو الأهم في الذكر . وقالت فرقة المعنى نحيا ونموت ، فوقع في اللفظ تقديم وتأخير . وقالت فرقة : الغرض من اللفظ العبارة عن حال النوع ، فكأن النوع بجملته يقول : إنما نحن تموت طائفة وتحيا طائفة دأباً . وقولهم : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ أي طول الزمان هو الملهك ، لأن الآفات تستوي فيه كمالاتها ، فنفى الله تعالى علمهم بهذا وأعلم انها ظنون وتخرص تفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى . و ﴿ الدهر ﴾ والزمان تستعمله الغرب بمعنى واحد . وفي قراءة ابن مسعود : " وما يهلكنا إلا دهر يمر " . وقال مجاهد : ﴿ الدهر ﴾ هنا الزمان ، وروى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال : " كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار " ، ويفارق هذا الاستعمال قول النبي عليه السلام : " لا تسبوا الدهر ، فإن الله تعالى هو الدهر " وفي حديث آخر : " قال الله تعالى يسب ابن آدم الدهر ، وأنا الدهر بيدي الليل والنهار " ومعنى هذا الحديث : فإن الله تعالى يفعل ما تنسبونه إلى الدهر وتسبونه بسببه . وإذا تأملت مثالات هذا في الكلام ظهرت إن شاء الله تعالى .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25)

الضمير في : ﴿ عليهم ﴾ عائد على كفار قريش . والآيات : هي آيات القرآن وحروفه بقرينة قوله : ﴿ تتلى ﴾ وعابت هذه الآية سوء مقاولتهم ، وأنهم جعلوا بدل الحجة التمني المتشطط والطلب لما قد حتم الله أن لا يكون إلا إلى أجل مسمى .

(240/699)

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد ، وعاصم فيما روى هارون وحسين عن أبي بكر عنه " حجتُهم " بالرفع على اسم ﴿ كان ﴾ والخبر في ﴿ أن ﴾ . وقرأ جمهور الناس " حجتَهم " بالنصب على مقدم واسم ﴿ كان ﴾ في ﴿ أن ﴾ . وكان بعض قريش قد قال : أحي لنا قصياً فإنه كان شيخ صدق حتى نسأله ، إلى غير ذلك من هذا النحو ، فنزلت الآية في ذلك ، وقالوا لمحمد عليه السلام : ﴿ ائتوا ﴾ من حيث المخاطبة له ، والمراد هو وإلهه والملك الوسيط الذي ذكر هولهم ، فجاء من ذلك جملة قيل لها ﴿ ائتوا ﴾ و ﴿ إن كنتم ﴾ .

ثم أمر تعالى نبيه أن يخبرهم بالحال السالفة في علم الله التي لا تبدل ، وهي أنه يحيي الخلق ويميتهم بعد ذلك ويحشرهم بعد إماتتهم ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ .

وقوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي في نفسه وذاته . والأكثر الذي لا يعلم هم الكفار والأكثر هنا على بابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(241/699)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾

هذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث وإبطال للجزاء .

ومعنى : "نَمُوتُ وَنَحْيَا" أي نموت نحن وتحيا أولادنا ؛ قاله الكلبي .

وقرىء "ونُحْيَا" بضم النون .

وقيل : يموت بعضنا ويحيا بعضنا .

وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أي نحيا ونموت ؛ وهي قراءة ابن مسعود .

﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر ﴾ قال مجاهد : يعني السنين والأيام .

وقال قتادة : إلا العمر ؛ والمعنى واحد .

وقرىء "إلا دهر يمرّ" .

وقال ابن عيينة : كان أهل الجاهلية يقولون : الدهر هو الذي يهلكنا وهو الذي يحيينا ويميتنا

؛ فنزلت هذه الآية .

وقال قُطْرب : وما يهلكنا إلا الموت ؛ وأنشد قول أبي ذُؤيب :

أَمِن المَنُونِ ورَيْبِها تتوجّعُ . . .

والدّهْرُ ليس بمعتِب مَنْ يَجْزَعُ

وقال عكرمة : أي وما يهلكنا إلا الله .

وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان أهل الجاهلية يقولون ما يهلِكنا إلا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبّون الدهر قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدّهْرَ وأنا الدّهْرُ بيدي الأمر أقلّب الليل والنهار " .

قلت : قوله "قال الله" إلى آخره نَصُّ البخاري ولفظه .

وخرّجه مسلم أيضاً وأبو داود .

وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر " وقد استدلّ بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله .

وقال : من لم يجعله من العلماء اسما إنما خرج ردّاً على العرب في جاهليتها ؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم في هذه الآية ؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضَيْم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك : لا تسبّوا الدهر فإن الله هو

الدهر ؛ أي إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تضيفونها إلى الدهر فيرجع السبّ إليه سبحانه ؛ فَنُهُوا عن ذلك .

(242/699)

ودلّ على صحة هذا ما ذكره من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم . . .

" الحديث .

ولقد أحسن من قال ، وهو أبو عليّ الثقفيّ :

يا عاتبَ الدهرِ إذا نَابَهُ . . .

لا تَلُمِ الدهر على غَدْرِهِ

الدهرُ مأمورٌ ، له آمرٌ . . .

وينتهي الدهرُ إلى أمره

كم كافرٍ أمواله جَمّةٌ . . .

تزداد أضعافاً على كفره

ومؤمنٍ ليس له درهمٌ . . .

يزداد إيماناً على فَقْرِه

وروي أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال : إياك يا بنيّ وذِكْرَ الدهر ! وأنشد :

فما الدهر بالجاني لشيء لحَيْنِة . . .

ولا جالبَ الْبَلْوَى فلا تشتم الدّهْرَا

ولكن متى ما يبعث الله باعثاً . . .

على معشر يَجعلْ مياسيرهم عُسْرا

وقال أبو عبيد : ناظرت بعض الملحدة فقال : ألا تراه يقول "فإن الله هو الدهر"ا ؟ فقلت : وهل كان أحد يسبّ الله في آباد الدهر ، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

إن محلا وإن مُرتَحَلا . . .

وإنّ في السّفْر إذ مَضَوْا مَهَلاَ

استأثر الله بالوفاء وبالعد . . .

ل وولّى الملامةَ الرّجُلاَ

قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذمُّوا الدهر عند المصائب والنوائب ؛ حتى ذكروه في أشعارهم ، ونسبوا الأحداث إليه .

قال عمرو بن قِمِيئَة :

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى . . .

فكيف بمن يُرْمَى وليس برام

فلو أنها نَبْل إذاً لاتّقيتها . . .

ولكنني أُرْمَى بغير سهام

على الراحتين مرّة وعلى العصا . . .

أُنوءُ ثلاثاً بعدهن قيامي

ومثله كثير في الشعر .

ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه ، والله سبحانه الفاعل لا ربّ سواه .

﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي علم .

و"من" زائدة ؛ أي قالوا ما قالوا شاكين .

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ أي ما هم إلا يتكلمون بالظن .

(243/699)

وكان المشركون أصنافاً ، منهم هؤلاء ، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث ، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره .

وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفاً من المسلمين ؛ فيتأوّلون ويرون القيامة موت البدن ، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم ؛ فشرّ هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار ؛ لأن هؤلاء يُلبسون على الحق ، ويُغتر بتلبيسهم الظاهر .

والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم .

وقيل : نموت ونحيا آثارنا ؛ فهذه حياة الذكر .

وقيل : أشاروا إلى التناسخ ؛ أي يموت الرجل فتجعل روحه في موات فتحيا به .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أي وإذ تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة في جواز البعث لم يكن ثَمَّ دَفْعٌ ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتوا بِآبَائِنَآ ﴾ "حُجَّتَهُمْ" خبر كان ، والاسم "إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائتوا بِآبَائِنَا" الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون ؛ فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ يعني بعد كونكم نُطَفاً أمواتاً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ كما أحياكم في الدنيا .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم .

الزمخشري : فإن قلت لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدْلَوْا به كما يُدْلِي المحتج بحجته ، وساقوه مساقها فسُمّيت حجة على سبيل التهكم .

أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة .

أو لأنه في أسلوب قوله :

تَحِيَّةٌ بينهم ضَرْبٌ وَجيعُ . . .

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة .

والمراد نفي أن تكون لهم حجة أُلْبَّتَةَ .

(244/699)

فإن قلت : كيف وقع قوله : ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ جواب ﴿ ائتوا بِآبَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل ، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبَكّت ألزموا ما هم مقرّون به من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم ، وضُمّ إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغَوْا إلى داعي الحق وهو جمعهم يوم القيامة ، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم ، وكان أهون شيء عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

(245/699)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) ﴾

لما ذكر تعالى إنعامه على بني إسرائيل واختلافهم بعد ذلك ، ذكر حال نبيه عليه الصلاة والسلام وما منّ به عليه من اصطفائه فقال : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء ﴾ .

قال قتادة : الشريعة : الأمر ، والنهي ، والحدود ، والفرائض .

وقال مقاتل : البينة ، لأنها طريق إلى الحق .

وقال الكلبي : السنة ، لأنه كان يستن بطريقة من قبله من الأنبياء .

وقال ابن زيد : الدّين ، لأنه طريق إلى النجاة .

والشريعة في كلام العرب : الموضع الذي يرد فيه الناس في الأنهار والمياه ، ومنه قول الشاعر :

وفي الشرائع من جيلان مقتص . . .

رث الثياب خفي الشخص منسرب

فشريعة الدّين من ذلك ، من حيث يرد الناس أمر الله ورحمته والقرب منه ، من الأمور التي من دين الله الذي بعثه في عباده في الزمان السالف ؛ أو يكون مصدر أمر ، أي من الأمر والنهي ، وسمي النهي أمراً .

﴿ أهواء الذين لا يعلمون ﴾ ، قيل : جهال قريظة والنضير .

وقيل : رؤساء قريش ، حين قالوا : أرجع إلى دين آبائك .

﴿ هذا بصائر ﴾ : أي هذا القرآن ؛ جعل ما نافية من معالم الدين ، بصائر للقلوب ، كما جعل روحاً وحياة .

وقرىء : هذى ، أي هذه الآيات .

﴿ أم حسب ﴾ : أم منقطعة تتقدر ببل والهمزة ، وهو استفهام إنكار .

وقال الكلبي : نزلت في عليّ ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث ، وفي عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة .

قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولئن كان ما تقولون حقاً ، لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة ؛ كما هو أفضل في الدنيا .

واجترحوا : اكتسبوا ، والسيئات : هنا سيئات الكفر ؛ ونجعلهم : نصيرهم ، والمفعول الثاني هو كالذين ، وبه تمام المعنى .

وقرأ الجمهور : سواء بالرفع ، ومماتهم بالرفع أيضاً ؛ وأعربوا سواء : مبتدأ ، وخبره ما بعده ، ولا مسوغ لجواز الابتداء به ، بل هو خبر مقدم ، وما بعده المبتدأ .

والجملة خبر مستأنف ؛ واحتمل الضمير في ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ أن يعود على ﴿ الذين اجترحوا ﴾ ، أخبر أن حالهم في الزمانين سواء ، وأن يعود على المجترحين والصالحين بمعنى : أن محيا المؤمنين ومماتهم سواء في إهانتهم عند الله وعدم كرامتهم عليه ، ويكون اللفظ قد لف هذا المعنى ، وذهن السامع يفرقه ، إذ قد تقدم إبعاد الله أن يجعل هؤلاء كهؤلاء .

قال أبو الدرداء : يبعث الناس على ما ماتوا عليه .

وقال مجاهد : المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً ويبعث كافراً .

وقال ابن عطية : مقتضى هذا الكلام أنه لفظ الآية ؛ ويظهر لي أن قوله : ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ داخل في المحسنة المنكرة السيئة ، وهذا احتمال حسن ، والأول أيضاً أجود . انتهى .

ولم يبين كيفية تشبث الجملة بما قبلها حتى يدخل في المحسنة .

وقال الزمخشري : والجملة التي هي : سواء محياهم ومماتهم ، بدل من الكاف ، لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً ؛ فكانت في حكم المفرد .

ألا تراك لو قلت : أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم كان سديداً ؟ كما تقول : ظننت زيد أبوه

منطلق . انتهى .

وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري ، من إبدال الجملة من المفرد ، قد أجازه أبو الفتح ، واختاره ابن مالك ، وأورد على ذلك شواهد على زعمه ، ولا يتعين فيها البدل .

(247/699)

وقال بعض أصحابنا ، وهو الإمام العالم ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ الإشبيلي ، ويعرف بابن العلج ، وكان ممن أقام باليمن وصنف بها ، قال في كتابه (البسيط في النحو) : ولا يصح أن يكون جملة معمولة للأول في موضع البدل ، كما كان في النعت ، لأنها تقدر تقدير المشتق تقدير الجامد ، فيكون بدلاً ، فيجتمع فيه تجوز أن ، ولأن البدل يعمل فيه العامل الأول ، فيصح أن يكون فاعلاً ، والجملة لا تكون في موضع الفاعل بغير سائغ ، لأنها لا تضمر ، فإن كانت غير معمولة ، فهل تكون جملة ؟ لا يبعد عندي جوازها ، كما يتبع في العطف الجملة للجملة ، ولتأكيد الجملة التأكيد اللفظي . انتهى .

وتبين من كلام هذا الإمام ، أنه لا يجوز أن تكون الجملة بدلاً من المفرد ، وأما تجويز الزمخشري أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم ، فيظهر لي أنه لا يجوز ؛ لأنها بمعنى التصيير . لا يجوز صيرت زيداً أبوه قائم ، ولا صيرت زيداً غلامه منطلق ، لأن التصيير انتقال من ذات

إلى ذات ، أو من وصف في الذات إلى وصف فيها .

وتلك الجملة الواقعة بعد مفعول صيرت المقدرة مفعولاً ثانياً ، ليس فيها انتقال مما ذكرنا ، فلا يجوز والذي يظهر لي أنه إذا قلنا بتشبث الجملة بما قبلها ، أن تكون الجملة في موضع الحال ، والتقدير : أم حسب الكفار أن نصيرهم مثل المؤمنين في حال استواء محياهم ومماتهم ؟ ليسوا كذلك ، بل هم مفترقون ، أي افتراق في الحالتين ، وتكون هذه الحال مبينة ما انبهم في المثلية الدال عليها الكاف ، التي هي في موضع المفعول الثاني .

وقرأ زيد بن علي ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص : سواء بالنصب ، وما بعده مرفوع على الفاعلية ، أجرى سواء مجرى مستوياً ، كما قالوا : مررت برجل سواء هو والعدم .

وجوز في انتصاب سواء وجهين : أحدهما : أن يكون منصوباً على الحال ، وكالذين المفعول الثاني ، والعكس .

(248/699)

وقرأ الأعمش : سواء بالنصب ، محياهم ومماتهم بالنصب أيضاً ، وخرج على أن يكون محياهم ومماتهم ظرفي زمان ، والعامل ، إما أن نجعلهم ، وإما سواء ، وانتصب على البدل من مفعول نجعلهم ، والمفعول الثاني سواء ، أي أن يجعل محياهم ومماتهم سواء .

وقال الزمخشري : ومن قرأ ومماتهم بالنصب ، جعل محياهم ومماتهم ظرفين ، كمقدم الحاج وخفوق النجم ، أي سواء في محياهم وفي مماتهم ، والمعنى : إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماتاً ، لافتراق أحوالهم وتمثيله بقوله : وخفوق النجم ليس بجيد ، لأن خفوق مصدر ليس على مفعل ، فهو في الحقيقة على حذف مضاف ، أي وقت خفوق النجم ، بخلاف محيا ومات ومقدم ، فإنها تستعمل بالوضع مصدراً واسم زمان واسم مكان ، فإذا استعملت اسم مكان أو اسم زمان ، لم يكن ذلك على حذف مضاف قامت هذه مقامه ، لأنها موضوعة للزمان وللمكان ، كما وضعت للمصدر ؛ فهي مشتركة بين هذه المدلولات الثلاثة ، بخلاف خفوق النجم ، فإنه وضع للمصدر فقط .

وقد خلط ابن عطية في نقل القرآن ، وله بعض عذر .

فإنه لم يكن معرباً ، فقال : وقرأ طلحة بن مصرف ، وعيسى بخلاف عنه : سواء بالنصب ، محياهم ومماتهم بالرفع ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص ، والأعمش : سواء بالنصب ، محياهم ومماتهم بالنصب ؛ ووجه كلاً من القراءتين على ما تقتضيه صنعة الإعراب ، وتبعه على هذا الوهم صاحب التحرير ، وهو معذور ، لأنه ناسخ من كتاب إلى كتاب ؛

والصواب ما استبناه من القراءات لمن ذكرنا .

ويستنبط من هذه الآية تباين حال المؤمن العاصي من حال الطائع ، وإن كانت في الكفار ، وتسمى مبكاة العابدين .

وعن تميم الداري ، رضي الله عنه ، أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام ، فبلغ هذه الآية ، فجعل يبكي ويردد إلى الصباح : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ .

(249/699)

وعن الربيع بن خيثم ، أنه كان يردّدها ليلة أجمع ، وكذلك الفضيل بن عياض ، كان يقول لنفسه : ليت شعري من أي الفريقين أنت ؟ وقال ابن عطية : وأما لفظها فيعطي أنه اجتراح الكفر ، بدليل معادلته بالإيمان ؛ ويحتمل أن تكون المعادلة هي بالاجتراح وعمل الصالحات ، ويكون الإيمان في الفريقين ، ولهذا بكى الخائفون .

﴿ ساء ما يحكمون ﴾ : هو كقوله : ﴿ بئسما اشتروا ﴾ وتقدم إعرابه في البقرة .

وقال ابن عطية : هنا ما مصدرية ، والتقدير : ساء الحكم حكمهم .

﴿ بالحق ﴾ : بأن خلقها حق ، واجب لما فيه من فيض الخيرات ، وليدل عليه دلالة الصنعة على الصانع .

﴿ ولتجزي ﴾ : هي لام كي معطوفة على بالحق ، لأن كلاًّ من التاء واللام يكونان للتعليل ، فكان الخلق معللاً بالجزاء .

وقال الزمخشري : أو على معلل محذوف تقديره : ليدل بها على قدرته ، ﴿ ولتجزي كل

نفس ﴾ .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون لام الصيرورة ، أي فصار الأمر منها من حيث اهتدى بها قوم وضل عنها آخرون ، لأن يجازي كل واحد بعمله ، وبما اكتسب من خير أو شر . انتهى .

﴿ أفرأيت ﴾ الآية ، قال مقاتل : نزلت في الحرث بن قيس السهمي ، وأفرأيت : هو بمعنى أخبرني ، والمفعول الأول هو : ﴿ من اتخذ ﴾ ، والثاني محذوف تقديره بعد الصلاة التي لمن اهتدى ، يدل عليه قوله بعد : ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ ، أي لا أحد يهديه من بعد إضلال الله إياه .

﴿ من اتخذ إلهه هواه ﴾ : أي هو مطواع لهوى نفسه ، يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنه يعبده ، كما يعبد الرجل إلهه .

قال ابن جبير ، إشارة إلى الأصنام : إذ كانوا يعبدون ما يهوون من الحجارة .

وقال قتادة : لا يهوى شيئاً إلا ركبه ، لا يخاف الله ، فلهذا يقال : الهوى إله معبود .

وقرأ الأعرج ، وأبو جعفر : آلهة ، بتاء التأنيث ، بدل من هاء الضمير .

وعن الأعرج أنه قرأ : آلهة على الجمع .

قال ابن خالويه : ومعناه أن أحدهم كان يهوى الحجر فيعبده ، ثم يرى غيره فيهواه ، فيلقى الأول ، فكذلك قوله : ﴿ إلهه هواه ﴾ الآية .

وإن نزلت في هوى الكفر ، فهي متناولة جميع هوى النفس الأمارة .

قال ابن عباس : ما ذكر الله هوى إلاّ ذمه .

وقال وهب : إذا شككت في خبر أمرين ، فانظر أبعدهما من هواك فأته .

وقال سهل التستري : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك .

وفي الحديث : " والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني " ومن حكمه الشعر قول عنترة ، وهو جاهلي :

إني امرؤ سمح الخليقة ماجد . . .

لا أتبع النفس اللجوج هواها

وقال أبو عمران موسى بن عمران الإشبيلي الزاهد ، رحمه الله تعالى :

فخالف هواها واعصها إن من يطع . . .

هوى نفسه ينزع به شر منزع

ومن يطع النفس اللجوج ترده . . .

وترم به في مصرع أي مصرع

﴿ وأضله الله على علم ﴾ : أي من الله تعالى سابق ، أو على علم من هذا الضال بأن الحق هو الدين ، ويعرض عنه عناداً ، فيكون كقوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ وقال الزمخشري : صرفه عن الهداية واللطف ، وخذ له عن علم ، عالماً بأن ذلك لا يجدي عليه ، وأنه ممن لا لطف به ، أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقربة .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

وقرأ الجمهور : ﴿ غشاوة ﴾ : بكسر الغين ؛ وعبد الله ، والأعمش : بفتحها ، وهي لغة ربيعة .

والحسن ، وعكرمة ، وعبد الله أيضاً : بضمها ، وهي لغة عكلية .

والأعمش ، وطلحة ، وأبو حنيفة ، ومسعود بن صالح ، وحمزة ، والكسائي ، غشوة ، بفتح الغين وسكون الشين .

وابن مصرف ، والأعمش أيضاً : كذلك ، إلا أنهما كسرا العين ، وتقدم تفسير الجملتين في أول البقرة .

وقرأ الجمهور : ﴿ تذكرون ﴾ ، بشد الذال ؛ والجحدري يخففها ، والأعمش : بتاءين .

﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ هي مقالة بعض قريش إنكاراً للبعث .

والظاهر أن قولهم : ﴿ نموت ونحيا ﴾ حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير ، أي تموت طائفة وتحيا طائفة .

وأن المراد بالموت مفارقة الروح للجسد .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، أي نحيا ونموت .

وقيل : نموت عبارة عن كونهم لم يوجدوا ، ونحيا : أي في وقت وجودنا ، وهذا قريب من الأول قبله ، ولا ذكر للموت الذي هو مفارقة الروح في هذين القولين .

وقيل : تموت الآباء وتحيا الأبناء .

وقرأ زيد بن علي : ونحيا ، بضم النون .

﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ : أي طول الزمان ، لأن الآفات تستوي فيه كما لاتها هذا إن كان قائلو هذا معترفين بالله ، فنسبوا الآفات إلى الدهر بجهلهم أنها مقدرة من عند الله ، وإن كانوا لا يعرفون الله ولا يقرون به ، وهم الدهرية ، فنسبوا ذلك إلى الدهر .

وقرأ عبد الله : إلا دهر ، وتأويله : إلا دهر يمر .

كانوا يضيفون كل حادثة إلى الدهر ، وأشعارهم ناطقة بشكوى الدهر ، حتى يوجد ذلك في أشعار المسلمين .

قال ابن دريد في مقصورته :

يا دهر إن لم تك عتبي فاتئد . . .

فإن ارادك والعتبي سواء

و﴿ ما كان حجتهم ﴾ ، ليست حجة حقيقة ، أي حجتهم عندهم ، أو لأنهم أدلوا بها ، كما يدلي المحتج بحجته ، وساقوها مساقها ، فسميت حجة على سبيل التهكم ؛ أو لأنه في نحو قولهم_@_ :

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

أي : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة ، والمراد نفي أن يكون لهم حجة البتة .

وقرأ الجمهور : حجتهم بالنصب ؛ والحسن ، وعمرو بن عبيد ، وزيد بن علي ، وعبيد بن عمير ، وابن عامر ، فيما روى عنه عبد الحميد ، وعاصم ، فيما روى هارون وحسين ، عن أبي بكر عنه : حجتهم ، أي ما تكون حجتهم ، لأن إذا للاستقبال ، وخالفت أدوات الشرط بأن جوابها إذا كان منفياً بما ، لم تدخل الفاء ، بخلاف أدوات الشرط ، فلا بد من الفاء .

تقول : إن تزرنا فما جفوتنا ، أي فما تجفونا .

وفي كون الجواب منفياً بما ، دليل على ما اخترناه من أن جواب إذا لا يعمل فيها ، لأن ما بعد ما النافية لا يعمل فيما قبلها .

﴿ ائتوا ﴾ : يظهر أنه خطاب للرسول والمؤمنين ، إذ هم قائلون بمقالته ، أو هو خطاب له ولمن جاء بالبعث ، وهم الأنبياء ، وغلب الخطاب على الغيبة .

وقال ابن عطية : إئتوا ، من حيث المخاطبة له ؛ والمراد : هو وإلهه والملك الوسيط الذي ذكره هو لهم ؛ فجاء من ذلك جملة قيل لها إئتوا وإن كنتم . انتهى .

ولما اعترفوا بأنهم ما يهلكهم إلا الدهر ، وأنهم استدلوا على إنكار البعث بما لا دليل لهم فيه من سؤال إحياء آبائهم ، ردّ الله تعالى عليهم بأنه تعالى هو المحيي ، وهو المميت لا الدهر ، وضم إلى ذلك آية جامعة للحساب يوم البعث ، وهذا واجب الاعتراف به إن أنصفوا ، ومن قدر على هذا قدر على الإتيان بآبائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(253/699)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا بَنِى إسراءيل الكتاب ﴾

أي التوراةَ ﴿ والحكم ﴾ أي الحكمةَ النظريةَ والعمليةَ والفقهَ في الدّينِ أو فصلَ الخصومات بينَ النَّاسِ إذْ كانَ الملكُ فيهم . ﴿ والنبوة ﴾ حيثُ كثُرَ فيهم الأنبياءُ ما لم يكثُرْ في غيرِهم ﴿ ورَزَقْنَاهُمْ مّنَ الطيبات ﴾ مما أحلَّ اللهُ تعالى من اللذائذِ كالمنِّ والسلوى ﴿ وفضلناهم عَلَى العالمين ﴾ حيث آتيناهُم ما لم نؤتِ من عَداهُم من فلقِ البحرِ وإظلالِ الغمامِ ونظائرِهما وقيلَ : على عالَمِي زمانِهم ﴿ وءاتيناهم بينات مّنَ الأمر ﴾ دلائلَ ظاهرةً في أمرِ الدينِ ومعجزاتٍ قاهرةً وقال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما هو العلمُ بمبعثِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وما بين لهُم من أمرِه وأنَّه يُهاجرُ من تِهامةَ إلى يثربَ ويكونُ أنصارُه أهلَ يثربَ . ﴿ فَمَا اختلفوا ﴾ في ذلك الأمرِ ﴿ إلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ بحقيقتِه وحقّيتِه فجعلُوا ما يوجبُ زوالَ الخلافِ مُوجباً لرسوخِه ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ أي عداوةً وحسداً لا شكاً فيه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ بالمُؤاخذةِ والجَزَاءِ ﴿ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أَمْرِ الدّينِ .

(254/699)

﴿ ثُمَّ جعلناك على شَرِيعَةٍ ﴾ أي سنةٍ وطريقةٍ عظيمةِ الشَّأْنِ ﴿ مِنَ الأمر ﴾ أي أمرِ الدينِ ﴿ فاتبعها ﴾ بإجراءِ أحكامِها في نفسِك وفي غيرِك من غيرِ إخلالٍ بشيءٍ منها ﴿

وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي آراءَ الجهلةِ واعتقاداتِهم الزائغةَ التابعةَ للشهواتِ وهم رؤساءُ قريشٍ كانُوا يقولونَ له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : ارجعْ إلى دينِ آبائِك ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ الله شَيْئاً ﴾ مما أرادَ بكَ إن اتبعتَهُم ﴿ وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ لا يوُاليهم ولا يتبعُ أهواءَهُم إلا من كانَ ظالماً مثلَهم ﴿ والله وَلِىُّ المتقين ﴾ الذين أنتَ قدوتُهم فدُمْ على ما أنتَ عليهِ من تولّيه خَاصَّةَ والإعراضِ عمَّا سواهُ بالكُلِّيةِ . ﴿ هذا ﴾ أي القرآنُ أو اتباعُ الشريعةِ ﴿ بَصَائِرَ للنَّاسِ ﴾ فإنَّ ما فيهِ من معالمِ الدينِ وشعائرِ الشرائعِ بمنزلةِ البصائرِ في القلوبِ ﴿ وهدى ﴾ منْ ورطةِ الضلالةِ ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ عظيمةٌ ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ منْ شأنِهم الإيقانُ بالأمورِ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ تباينِ حالَيْ المسيئينَ والمحسنين إثرَ تباينِ حالَيْ الظالمينَ والمتقينَ . وأَمْ منقطعةٌ وما فيها مِنْ مَعْنى بَلْ للانتقالِ من البيانِ الأولِ إلى الثَّانِي . والهمزةُ لإنكارِ الحُسبانِ لكنْ لا بطريقِ إنكارِ الوقوعِ ونفيهِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ بل بطريقِ إنكارِ الواقعِ واستقباحِه والتوبيخِ عليه ، والاجتراحُ الاكتسابُ ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ أي نُصيِّرَهُم في الحُكمِ والاعتبارِ وهُم على ما هُم عليهِ منْ مَسَاوِي الأحوالِ .

﴿ كالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وهُم فيمَا هُم فيهِ من محاسنِ الأعمالِ ونعاملُهُم معاملتهم في الكرامةِ ورفعِ الدرجةِ . وقولُه تعالَى : ﴿ سَوَاء محياهم ومماتهم ﴾ أيْ محيَا الفريقينِ جميعاً ومماتُهم . حالٌ من الضميرِ في الظرفِ والموصولِ معاً لاشتمالِه على ضميريهما على أنَّ السواءَ بمَعْنى المُستوى ، ومحياهُم ومماتُهم مرتفعانِ بهِ على الفاعليةِ . والمعَنْى أمْ حسبُوا أنْ نجعلَهم كائنينَ مثلَهمُ حالَ كونِ الكُلِّ مستوياً محياهُم ومماتُهم ، كلاَّ لا يستوونَ في شيءٍ منهُمَا فإنَّ هؤلاءِ في عزِّ الإيمانِ والطاعةِ وشرفِهما في المَحيا وفي رحمةِ الله تعالَى ورضوانِه في المماتِ وأولئكَ في ذُلِّ الكُفرِ والمَعَاصِي وهوانِهما في المَحيا وفي لعنةِ الله والعذابِ الخالدِ في المماتِ شتَّانَ بينهما . وقد قيلَ : المراد إنكارُ أنْ يستووا في المماتِ كما استَووا في الحياةِ لأن المسيئينَ والمحسنينَ مستو محياهُم في الرزقِ والصحةِ وإنما يفترقونَ في المماتِ . وقُرِىءَ محياهم ومماتَهم بالنصبِ على أنَّهما ظرفانِ كمقْدَمِ الحاجِّ ، وسواءً حالٌ على حالِه أي حالَ كونِهم مستوينَ في محياهُم ومماتِهم وقد ذُكرَ في الآيةِ الكريمةِ وجوهٌ أُخرُ من الإعرابِ والذي يليقُ بجزالةِ التنزيلِ هُو الأولُ فتدبرْ . وقُرِىءَ سواءٌ بالرفعِ على أنَّه خبرٌ ومحياهُم مبتدأٌ فقيلَ الجملةُ بدل من الكافِ وقيل : حالٌ وأيًّا ما كانَ فنسبةُ حسبانِ التَّساوي إليهم في ضمنِ الإنكارِ التوبيخيِّ مع أنَّهم بمعزلٍ منه جازمونَ بفضلِهم على المؤمنينَ للمبالغةِ في الإنكارِ والتشديدِ في التوبيخِ فإنَّ إنكارَ حسبانِ التَّساوِي والتوبيخِ عليه إنكارٌ

لحسبانِ الجزمِ بالفضلِ وتوبيخٌ عليهِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه. ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساءَ حكمُهم هَذا أو بئسَ شيئاً حكموا به ذلكَ. ﴿ وَخَلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحق ﴾ استئنافٌ مقررٌ لما

(256/699)

سبقَ من الحكمِ فإنَّ خلقَ اللهِ تعالى لَهُما وَلِما فيهما بالحقِّ المُقتضِي للعدلِ يستدعِي لا محالةَ تفصيلَ المُحْسنِ على المُسيءِ في المَحْيا والمَماتِ وانتصارَ المظلومِ من الظالمِ وإذَا لم يطّردْ ذلك في المَحيا فهُو بعد المماتِ حَتْماً ﴿ ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ عطفٌ عَلى بالحقِّ لأنَّ فيهِ مَعْنى التعليلِ إذْ معناهُ خلقَها مقرونةً بالحكمةِ والصواب دُونَ العبثِ والباطلِ فحاصلُه خلقَها لأجلِ ذلكَ ولتُجزَى الخ أو على علةٍ محذوفةٍ مثلُ ليدلَّ بَها على قدرتِه أو ليعدل ولتُجزى ﴿ وَهُمْ ﴾ أي النفوسُ المدلولُ عليها بكلِّ نفسٍ ﴿ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقصِ ثوابٍ أو بزيادةِ عقابٍ، وتسميةُ ذلكَ ظُلماً معَ أنَّه ليسَ كذلكَ على ما عُرفَ من قاعدةِ أهلِ السنةِ لبيانِ غايةِ تنزهِ ساحةِ لُطفِه تعالى عمَّا ذُكرَ تنزيلُه منزلةَ الظلمِ الذي يستحيلُ صدورُه عنْهُ تعالَى.

(257/699)

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ تعجيبٌ من حال مَنْ ترك متابعةَ الهُدى إلى مُطاوعةِ الهَوَى فكأنَّه عبدُه أيْ أنظرتَ فرأيتَهُ فإنَّ ذلكَ مِمَّا يُقْضَى منه العجبُ . وقُرِىءَ آلهةً هواهُ لأنَّ أحدَهُم كانَ يستحسنُ حجراً فيعبدُه فإذا رأى أحسنَ منه رفضَهُ إليهِ فكأنَّه اتخذ آلهةً شتَّى ﴿ وَأَضَلَّهُ الله ﴾ وخذلَه ﴿ على عِلْمٍ ﴾ أي عالماً بضلالِه وتبديلِه لفطرةِ الله تعالى التي فطرَ النَّاسَ عليها . ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ بحيثُ لا يتأثرُ بالمواعظِ ولا يتفكرُ في الآياتِ والنذرِ . ﴿ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة ﴾ مانعةً عن الاستبصارِ والاعتبارِ . وقُرِىءَ بفتحِ الغينِ وضمِّها ، وقُرِىءَ غشوةً ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ﴾ أي من بعدِ إضلالِه تعالى إيَّاهُ بموجبِ تعاميهِ عنِ الهُدى وتماديهِ في الغيِّ ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي ألاَ تلاحظونَ فلا تذكَّرونَ وقُرِىءَ تتذكرونَ على الأصلِ . ﴿ وَقَالُواْ ﴾ بيانٌ لأحكامِ ضلالِهم المحكيِّ أي قالُوا من غايةِ غيِّهم وضلالِهم ﴿ مَا هِيَ ﴾ أيْ ما الحَيَاةُ ﴿ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ التي نحنُ فيها ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي يصيبنا الموتُ والحياةُ فيها وليسَ وراءَ ذلكَ حياةٌ وقيلَ : نكونُ نطفاً وما قبلَها وما بعدَها ونحيا بعدَ ذلكَ ، أو نموتُ بأنفسِنا ونحيَا ببقاءِ أولادِنا أو يموتُ بعضُنا ويحيا بعضُنا وقد جُوِّزَ أنْ يريدُوا به التناسخَ فإنَّه عقيدةُ أكثرِ عبدةِ الأوثانِ . وقُرِىءَ نَحْيَا ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ إلا مرورُ الزمانِ وهُو في الأصلِ مدةُ بقاءِ العالمِ من دَهَرَهُ أي غلبَه . وقرِىءَ إلا دهرٌ يمرُّ وكانُوا يزعمونَ أن المؤثرَ في هلاكِ الأنفسِ

هُو مرورُ الأيامِ والليالِي وينكرونَ ملكَ الموتِ وقبضَه للأرواحِ بأمرِ الله تعالى ويضيفونَ الحوادثَ إلى الدهرِ والزمانِ . ومنْهُ قولُه صلى الله عليه وسلم :

(258/699)

"لا تسبُّوا الدهرَ فإنَّ الله هو الدهرُ" أي فإنَّ الله هُو الآتِي بالحوادثِ لا الدهرُ . ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ ﴾ أي بما ذُكِرَ من اقتصارِ الحياةِ على ما في الدُّنيا واستنادِ الحياةِ والموتِ إلى الدهرِ ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مَا مستندٍ إلى عقلٍ أو نقلٍ ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ ما هُم إلا قومٌ قُصارى أمرِهم الظنُّ والتقليدُ من غيرِ أنْ يكونَ لهم شيءٌ يصحُّ أنْ يتمسكَ به في الجملةِ ، هذا معتقدُهم الفاسدُ في أنفسِهم ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءايا تنا ﴾ النَّاطقةُ بالحقِّ الذي من جُمْلَته البعثُ ﴿ بينات ﴾ واضحاتِ الدلالةِ على ما نطقت بهِ أو مبيناتٍ له ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ بالنصبِ على أنَّه خبرُ كانَ أيْ مَا كانَ متمسكاً لهم شيءٌ من الأشياءِ . ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتوا بِئَابَآئِنَا إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في أنَّا نبعثُ بعدَ الموتِ أيْ إلاَّ هذا القولُ الباطلُ الذي يستحيلُ أنْ يكونَ من قبيلِ الحُجَّةِ ، وتسميتُه حجةً إمَّا لسوقِهم إيَّاهُ مساقَ الحُجَّةِ على سبيلِ التهكمِ بهم أو لأنَّه من قبيلِ

تحيةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ . . . وقُرِئَ برفعِ حجَّتَهم على أنها اسمُ كانَ فالمَعْنى ما كانَ حجَّتُهم شيئاً من الأشياءِ إلا هَذا القولَ الباطلَ .

(259/699)

﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ ابتداءً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عندَ انقضاءِ آجالِكم لا كما تزعمونَ من أنَّكم تحيَونَ وتموتونَ بحُكمِ الدهرِ . ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ ﴾ بعدَ الموتِ ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ للجزاءِ ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي في جمعِكم فإنَّ مَنْ قدرَ عَلَى البدءِ قدرَ على الإعادةِ والحكمةُ اقتضتْ الجمعَ للجزاءِ لا محالةَ والوعدُ المصدقُ بالآياتِ دلَّ على وقوعِها حتماً ، والإتيانُ بآبائِهم حيثُ كانَ مُزاحماً للحكمةِ التشريعيةِ امتنعَ إيقاعُه ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ استدراكٌ من قولِه تعالَى لا رَيْبَ فيهِ وهُو إمَّا من تمامِ الكلامِ المأمورِ بهِ أو كلامٌ مسوقٌ من جهتِه تعالَى تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً على أنَّ ارتيابَهُم لجهلِهم وقُصُورِهم في النظرِ والتفكرِ لا لأنَّ فيه شائبةَ رَيْبٍ مَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(260/699)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ بيان لاحكام إضلالهم والختم على سمعهم وقلوبهم وجعل غشاوة على أبصارهم فالضمير لمن باعتبار معناه أو للكفرة ﴿ مَا هِيَ ﴾ أي ما الحياة ﴿ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ التي نحن فيها ، ويجوز أن يكون الضمير للحال والحياة الدنيا من جملة الأحوال فيكون المستثنى من جنس المستثنى منه أيضاً لاستثناء حال الحياة الدنيا من أعم الأحوال ولا حاجة إلى تقدير حال مضافاً بعد أداة الاستثناء أي ما الحال إلا حال الحياة الدنيا ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير إلا أن تأخير نحي في "النظم الجليل" للفاصلة أي تموت طائفة وتحيا طائفة ولا حشر أصلاً ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وليس بذاك ، وقيل : أرادوا بالموت عدم الحياة السابق على نفخ الروح فيهم أي نكون نطفاً وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك ، وقيل : أرادوا بالحياة بقاء النسل والذرية مجازاً كأنهم قالوا : نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا وذرارينا ، وقيل : أرادوا يموت بعضنا ويحيا بعض على أن التجوز في الإسناد ، وجوز أن يريدوا بالحياة على سبيل المجاز إعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ وهو اعتقاد كثير من عبدة الأصنام ولا يخفى بعد ذلك ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ وَنَحْيَا ﴾ بضم النون ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ أي طول الزمان فالدهر أخص من الزمان وهو الذي ارتضاه السعد ، ولهم في ذلك كلام طويل ، وقال الراغب : الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ

وجوده إلى انقضائه ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة ، وهو خلاف الزمان فإنه يقع على المدة القليلة والكثيرة ، ودهر فلان مدة حياته ، ويقال : دهر فلاناً نائبة دهراً أي نزلت به حكاه الخليل فالدهر ههنا مصدر .

(261/699)

وذكر بعض الأجلة أن الدهر بالمعنى السابق منقول من المصدر وأنه يقال : دهره دهراً أي غلبه وإسنادهم الإهلاك إلى الدهر إنكار منهم لملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله عز وجل وكانوا يسندون الحوادث مطلقاً إليه لجهلهم أنها مقدرة من عند الله تعالى ، وأشعارهم لذلك مملوءة من شكوى الدهر وهؤلاء معترفون بوجود الله تعالى فهم غير الدهرية فإنهم مع إسنادهم الحوادث إلى الدهر لا يقولون بوجوده سبحانه وتعالى : ﴿ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيرًا ﴾ والكل يقول باستقلال الدهر بالتأثر ، ولا يبعد أن يكون الزمان عندهم مقدار حركة الفلك كما ذهب إليه معظم الفلاسفة .

وقد جاء النهي عن سب الدهر .

أخرج مسلم " لا يسب أحدكم الدهر فإن الله هو الدهر " وأبو داود .

والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم قال الله عز وجل : " يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة

الدهر فلا يقل أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره "

والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم أيضاً يقول الله عز وجل : " استقرضت عبدي فلم يقرضني وشتمني عبدي وهو لا يدري يقول وادهراه وأنا الدهر " والبيهقي : "لا تسبوا الدهر قال الله عز وجل : " أنا الأيام والليالي أجددها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك " ومعنى ذلك أن الله تعالى هو الآتي بالحوادث فإذا سببتم الدهر على أنه فاعل وقع السب على الله عز وجل .

وعد بعضهم سبه كبيرة لأنه يؤدي إلى سبه تعالى وهو كفر ، وما أدى إليه فأدنى مراتبه أن يكون كفراً .

(262/699)

وكلام الشافعية صريح بأن ذلك مكروه لا حرام فضلاً عن كونه كبيرة ، والذي يتجه في ذلك تفصيل وهو أن من سبه فإن أراد به الزمن فلا كلام في الكراهة ، أو الله عز وجل فلا كلام في الكفر ، ومثله إذا أراد المؤثر الحقيقي فإنه ليس إلا الله سبحانه ؛ وإن أطلق فهذا محل التردد لاحتمال الكفر وغيره وظاهر كلامهم هنا أيضاً الكراهة لأن المتبادر منه الزمن وإطلاقه على الله تعالى كما قال بعض الأجلة إنما هو بطريق التجوز .

ومن الناس من قال : إن سبه كبيرة إن اعتقد أن له تأثيراً فيما نزل به كما كان يعتقد جهلة العرب ، وفيه نظر لأن اعتقاد ذكر كفر وليس الكلام فيه ، وأنكر بعضهم كون ما في حديث أبي داود .

والحاكم "فإني أنا الدهر" بضم الراء وقال : لو كان كذلك كان الدهر من أسمائه تعالى وكان يرويه "فإني أنا الدهر" بفتح الراء ظرفاً لأقلب أي فإني أنا أقلب الليل والنهار الدهر أي على طول الزمان وممره ، وفيه أن رواية مسلم فإن الله هو الدهر تبطل ما زعمه ، ومن ثم كان الجمهور على ضم الراء .

ولا يلزم عليه أن يكون من أسمائه تعالى لما سبق أن ذلك على التجوز ، وحكى الراغب عن بعضهم أن الدهر الثاني في حديث مسلم غير الأول وأنه مصدر بمعنى الفاعل ، والمعنى أن الله تعالى هو الدهر أي المصرف المدبر المفيض لما يحدث ، وفيه بعد .

وقرأ عبد الله ﴿ إلا ﴾ وتأويله إلا دهر يمر ﴿ الدهر وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ ﴾ أي بما ذكر من قصر الحياة على ما في الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدهر ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مستند إلى عقل أو نقل ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم ما يصح أن يتمسك به في الجملة ، هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ الناطقة بالحق الذي من جملته البعث ﴿ بينات ﴾ واضحات الدلالة على ما نطقت به مما يخالف معتقدهم أو مبينات له ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بينات مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ أي في أنا نبعث بعد الموت أي ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء إلا هذا القول الباطل الذي يستحيل أن يكون حجة ، وتسميته حجة لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم أو أنه من قبيل :

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

أي ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة ، والمراد نفي أن يكون لهم حجة فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً كإعادة آبائهم التي طلبوها في الدنيا امتناعه بعد لتمتنع الإعادة إذا قامت القيامة ، والخطاب في ﴿ ائتوا وَكُنتُمْ ﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إذ هم قائلون بمقالته صلى الله عليه وسلم من البعث طالبون من الكفرة الإقرار به ، وجوز أن يكون له عليه الصلاة والسلام وللأنبياء عليهم السلام الجائين بالبعث وغلب الخطاب على الغيبة .

وقال ابن عطية : ﴿ ائتوا وَكُنتُمْ ﴾ من حيث المخاطبة له صلى الله عليه وسلم والمراد هو وإلهه والملك الذي يذكر عليه الصلاة والسلام نزوله عليه بذلك وهو جبريل عليه السلام

، وهو كما ترى .

وقرأ الحسن .

وعمرو بن عبيد .

وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد .

وعاصم فيما روى هارون .

(264/699)

وحسين عن أبي بكر عنه ﴿ حُجَّتَهُمْ ﴾ بالرفع على أنه اسم كان وما بعد خبر أي ما كان حجتهم شيئاً من الأشياء إلا هذا القول الباطل ، وجواب ﴿ إِذَا ﴾ ما كان الخ ، ولم تقترن بالفاء وإن كانت لازمة في المنفى بما إذا وقعت جواب الشرط لأنها غير جازمة ولا أصلية في الشرطية ، وهو سر قول أبي حيان : إن إذا خالفت أدوات الشرط بأن جوابها إذا كان منفياً بما لم تدخل الفاء بخلاف أدوات الشرط فلا بد معها من الفاء نحو إن تزرنا فما جفوتنا فلا حاجة إلى تقدير جواب لها كعمدوا إلى الحجج الباطلة خلافاً لابن هشام .

واستدل بوقوع ما ذكر جواباً على أن العمل في إذا ليس للجواب لصدارة ما المانعة منه ولا قائل بالفرق ، ولعل من قال بالعمل يقول يتوسع في الظرف ما لم يتوسع في غيره ، ثم إن المعنى

على الاستقبال لمكان ﴿ إِذَا ﴾ أي ما تكون حجتهم إلا أن يقولوا ذلك .

﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ ابتداءً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دل عليه الحجج لا الدهر كما تزعمون ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ أي فيه وجوز كون الفعل مضمناً معنى مبعوثين أو منتهين ونحوه ومعنى في أظهر أي يجمعكم في يوم القيامة ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي في جمعكم فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة في ذلك اليوم والوعد الصدق بالآيات دل على قرعها ، وحاصله أن البعث أمر ممكن أخبر به الصادق وتقتضيه الحكمة وكل ما هو كذلك لا محالة واقع والإتيان بالآباء حيث كان منافياً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ استدراك من قوله تعالى : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهو من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(265/699)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا بَنِى إسراءيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾

المراد بالكتاب : التوراة ، وبالحكم : الفهم والفقه الذي يكون بهما الحكم بين الناس وفصل خصوماتهم ، وبالنبوّة : من بعثه الله من الأنبياء فيهم ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ أي : المستلذات التي أحلها الله لهم ، ومن ذلك المنّ والسلوى ﴿ وفضلناهم عَلَى العالمين ﴾ من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر ونحوه ، وقد تقدّم بيان هذا في سورة الدخان ﴿ وءاتيناهم بينات مِّنَ الأمر ﴾ أي : شرائع واضحات في الحلال والحرام ، أو معجزات ظاهرات ، وقيل : العلم بمبعث النبي ، وشواهد نبوّته ، وتعيين مهاجره : ﴿ فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ أي : فما وقع الاختلاف بينهم في ذلك الأمر إلاّ بعد مجيء العلم إليهم ببيانه ، وإيضاح معناه ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لثبوته ، وقيل : المراد بالعلم : يوشع بن نون ، فإنه آمن به بعضهم وكفر بعضهم ، وقيل : نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، فاختلفوا فيها حسداً وبغياً ، وقيل : ﴿ بَغِيّاً ﴾ من بعضهم على بعض بطلب الرئاسة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

(266/699)

﴿ ثُمَّ جعلناك على شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمر ﴾ الشريعة في اللغة : المذهب ، والملة ، والمنهاج ، ويقال : لمشرعة الماء وهي مورد شاربيه : شريعة ، ومنه الشارع ؛ لأنه طريق إلى المقصد ، فالمراد بالشريعة هنا : ما شرعه الله لعباده من الدين ، والجمع شرائع ، أي : جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك إلى الحق ﴿ فاتبعها ﴾ : فاعمل بأحكامها في أمتك ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ توحيد الله وشرائعه لعباده ، وهم كفار قريش ومن وافقهم ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ الله شَيْئاً ﴾ أي : لا يدفعون عنك شيئاً مما أراده الله بك إن اتبعت أهواءهم ﴿ وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ أي : أنصار ينصر بعضهم بعضاً .

قال ابن زيد : إن المنافقين أولياء اليهود ﴿ والله وَلِيُّ المتقين ﴾ أي : ناصرهم ، والمراد بالمتقين : الذين اتقوا الشرك والمعاصي ، والإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى القرآن ، أو إلى اتباع الشريعة ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : براهين ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين ، جعل ذلك بمنزلة البصائر في القلوب ، وقرىء : (هذه بصائر) أي : هذه الآيات ؛ لأن القرآن بمعناها ، كما قال الشاعر :

سائل بني أسد ما هذه الصوت . . . لأن الصوت بمعنى الصيحة ﴿ وهدى ﴾ أي : رشد ، وطريق يؤدي إلى الجنة لمن عمل به ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ من الله في الآخرة ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي : من شأنهم الإيقان ، وعدم الشك ، والتزلزل بالشُّبه ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل ، والهمزة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني ، والهمزة لإنكار الحسبان ، والاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وقد تقدّم في المائدة ، والجملة مستأنفة ؛ لبيان تباين حالي المسيئين والمحسنين ، وهو معنى قوله : ﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي : نسوّي بينهم مع اجتراحهم السيئات ، وبين أهل الحسنات ﴿ سَوَاء محياهم ومماتهم ﴾ في دار الدنيا وفي الآخرة ، كلا لا يستوون ، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة .

وقيل المراد : إنكار أن يستووا في الممات ، كما استووا في الحياة .

قرأ الجمهور : ﴿ سواء ﴾ بالرفع على أنه خبر مقدّم ، والمبتدأ محياهم ومماتهم والمعنى : إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم ، سواء .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص ﴿ سواء ﴾ بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور في قوله : ﴿ كالذين ءامَنُواْ ﴾ أو على أنه مفعول ثان لحسب ، واختار قراءة النصب أبو عبيد ، وقال معناه : نجعلهم سواء ، وقرأ الأعمش ، وعيسى بن عمر (مماتهم) بالنصب على معنى : سواء في محياهم ومماتهم ، فلما سقط الخافض

انتصب ، أو على البدل من مفعول نجعلهم بدل اشتمال ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : ساء حكمهم هذا الذي حكموا به .

(268/699)

﴿ وَخَلَقَ الله السموات والأرض بالحق ﴾ أي : بالحقّ المقتضي للعدل بين العباد ، ومحل بالحقّ النصب على الحال من الفاعل ، أو من المفعول ، أو الباء للسببية ، وقوله : ﴿ ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يجوز أن يكون على الحقّ ؛ لأن كلا منهما سبب ، فعطف السبب على السبب ، ويجوز أن يكون معطوفاً على محذوف ، والتقدير : خلق الله السموات والأرض ؛ ليدلّ بهما على قدرته ولتجزى ، ويجوز أن تكون اللام للصيرورة ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي : النفوس المدلول عليها بكل نفس لا يظلمون بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب ، ثم عجب سبحانه من حال الكفار ، فقال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ قال الحسن ، وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلاّ ركبه ، وقال عكرمة : يعبد ما يهواه ، أو يستحسنه ، فإذا استحسن شيئاً ، وهواه اتخذه إلها .

قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر ﴿ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ ﴾ أي : على علم قد علمه ، وقيل المعنى : أضله عن

الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه ، وقال مقاتل : على علم منه أنه ضالّ ؛ لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضرّ .

قال الزجاج : على سوء في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه ، ومحل ﴿ على علم ﴾ النصب على الحال من الفاعل ، أو المفعول ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ أي : طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى ﴿ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة ﴾ أي : غطاء حتى لا يبصر الرشد .

قرأ الجمهور ﴿ غشاوة ﴾ بالألف مع كسر الغين ، وقرأ حمزة ، والكسائي (غشوة) بغير ألف مع فتح الغين ، ومنه قول الشاعر :

لئن كنت ألبستني غشوة . . . لقد كنت أصفيتك الودّ حينا

وقرأ ابن مسعود ، والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين وهي لغة ربيعة ، وقرأ الحسن ، وعكرمة بضمها وهي لغة عكل ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ﴾ أي : من بعد إضلال الله له ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ تذكر اعتبار حتى تعلموا حقيقة الحال ؟ ثم بيّن سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ أي : ما الحياة إلاّ الحياة

التي نحن فيها ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي : يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك حياة ، وقيل : نموت نحن ، ويحيا فيها أولادنا ، وقيل : نكون نطفاً ميتة ، ثم نصير أحياء .

وقيل : في الآية تقديم وتأخير ، أي : نحيا ونموت ، وكذا قرأ ابن مسعود ، وعلى كل تقدير ، فمرادهم بهذه المقالة : إنكار البعث وتكذيب الآخرة ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ أي : إلاّ مرور الأيام والليالي ، قال مجاهد : يعني : السنين والأيام .

وقال قتادة : إلاّ العمر ، والمعنى واحد .

وقال قطرب : المعنى : وما يهلكنا إلاَّ الموت .

وقال عكرمة : وما يهلكنا إلاّ الله ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي : ما قالوا هذه المقالة إلاّ شاكين غير عالمين بالحقيقة ، ثم بيّن كون ذلك صادراً منهم لا عن علم ، فقال : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ أي : ما هم إلاّ قوم غاية ما عندهم الظنّ ، فما يتكلمون إلاّ به ، ولا يستندون إلاّ إليه .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيّنَاتٍ ﴾ أي : إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها بينات واضحات ظاهرة المعنى ، والدلالة على البعث ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أنا نبعث بعد الموت ! أي : ما كان لهم حجة ، ولا متمسك إلاّ هذا القول الباطل الذي ليس من الحجة في شيء ، وإنما سماه حجة تهكماً بهم .

قرأ الجمهور بنصب ﴿ حجتهم ﴾ على أنه خبر كان ، واسمها ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ وقرأ زيد بن عليّ ، وعمرو بن عبيد ، وعبيد بن عمرو برفع ﴿ حجتهم ﴾ على أنها اسم كان ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يردّ عليهم ، فقال : ﴿ قُلِ الله يُحْيِيكُمْ ﴾ أي : في الدنيا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ بالبعث والنشور ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : في جمعكم ؛ لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بذلك ، فلهذا حصل معهم الشكّ في البعث ، وجاءوا في دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت ، ولو نظروا حقّ النظر لحصلوا على العلم اليقين ، واندفع عنهم الرّيب وأراحوا أنفسهم من ورطة الشكّ والحيرة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثُمَّ جعلناك على شَرِيعَةٍ مّنَ الأمر ﴾ يقول : على هدًى من أمر دينه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ سَوَاء محياهم ومماتهم ﴾ قال : المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن ، والكافر في الدنيا والآخرة كافر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ قال : ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدًى من الله ، ولا برهان ﴿ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ ﴾ يقول : أضله في سابق علمه .

وأخرج النسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه قال : كان الرّجل من العرب يعبد الحجر ، فإذا وجد أحسن منه أخذه وألقى الآخر ، فأنزل الله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ .

(271/699)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، فقال الله في كتابه : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ قال الله : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما من حديث أبي هريرة سمعت رسول الله يقول : " قال الله عزّ وجلّ : يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(272/699)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾

هذا عطف على جملة ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ [الجاثية : 21] أي بعد أن جادلوا المسلمين بأنه إن كان يبعث بعد الموت فستكون عقباهم خيراً من عقبى المسلمين ، يقولون ذلك لقصد الترك وهم لا يوقنون بالبعث والجزاء بل ضربوه جدلاً وإنما يقينُهم قولُهم ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ .

وتقدم في سورة الأنعام (29) ﴿ وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ وضمير ﴿ هي ﴾ ضمير القصة والشأن ، أي قصة الخوض في البعث تنحصر في أن لا حياة بعد الممات ، أي القصة هي انتفاء البعث كما أفاده حصر الأمر في الحياة الدنيا ، أي الحاضرة القريبَة منا ، أي فلا تطيلوا الجدال معنا في إثبات البعث ، ويجوز أن يكون ﴿ هي ﴾ ضمير الحياة باعتبار دلالة الاستثناء على تقدير لفظ الحياة فيكون حَصْراً لجنس الحياة في الحياة الدنيا .

وجملة ﴿ نموت ونحيا ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ أي ليس بعد هذا العالم عالم آخر فالحياة هي حياة هذا العالم لا غير فإذا مات من كان حيّاً خلفه من يوجد بعده .

فمعنى ﴿ نموت ونحيا ﴾ يموت بعضنا ويحيا بعض أي يبقى حيّاً إلى أمد أو يولد بعد من

ماتوا .

وللدلالة على هذا التطور عبّر بالفعل المضارع ، أي تتجدد فينا الحياة والموت .

فالمعنى : نموت ونحيا في هذه الحياة الدنيا وليس ثمة حياة أخرى .

ثم إن كانت هذه الجملة محكية بلفظ كلامهم فلَعَلها ممّا جرى مجرى المثل بينهم ، وإنْ كانت حكايَة لمعنى كلامهم فهي من إيجاز القرآن وهم إنما قالوا : يموت بعضنا ويحيَا بعضنا ثم يموت فصار كالمثل .

ولا يخطر بالبال أن حكاية قولهم : ﴿ نموت ونحيا ﴾ تقتضي إرادة نحيا بعد أن نموت لأن قولهم ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ يصرف عن خطور هذا بالبال .

والعطفُ بالواو لا يقتضي ترتيباً بين المتعاطفين في الحصول .

(273/699)

وإنما قدم ﴿ نموت ﴾ في الذكر على ﴿ ونحيا ﴾ في البيان مع أن المبيّن قولهم ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ فكان الظاهر أن يبدأ في البيان بذكر اللفظ المبيَّن فيقال : نَحيَا ونموت ، فقيل قُدّم ﴿ نموت ﴾ لتتأتى الفاصلة بلفظ ﴿ نحيا ﴾ مع لفظ ﴿ الدنيا ﴾ .

وعندي أن تقديم فعل ﴿ نموت ﴾ على ﴿ نَحيا ﴾ للاهتمام بالموت في هذا المقام لأنهم

بصدد تقرير أن الموت لا حياة بعده ويتبع ذلك الاهتمام تأتي طباقين بين حياتنا الدنيا ونموت ثم بين نموت ونحيا .

وحصلت الفاصلة تبعاً ، وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز ولذلك أعقبه بقوله تعالى : ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ فالإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى قولهم ﴿ وما يُهلكنا إلا الدهر ﴾ ، أي لا علم لهم بأن الدهر هو المميت إذ لا دليل .

وأما زيادة ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ فقصدوا تأكيد معنى انحصار الحياة والموت في هذا العالم المعبر عنه عندهم بالدهر .

فالحياة بتكوين الخلقة والممات بفعل الدهر .

فكيف يرجى لمن أهلكه الدهر أن يعود حيّاً فالدهر هو الزمان المستمر المتعاقب ليله ونهاره .

والمعنى : أحياؤنا يصيرون إلى الموت بتأثير الزمان ، أي حَدثانه من طول مدة يعقبها الموت بالشيخوخة ، أو من أسباب تفضي إلى الهلاك ، وأقوالهم في هذا كثيرة ومن الشعر القديم قول عَمْرو بن قميئة

. . . :

رَمَتْنِي بناتُ الدهر من حيث لا أرى

فمَا بال من يُرمى وليس بِرَامِ . . .

ولعلهم يريدون أنه لو تأثر الزمان لبقي الناس أحياء كما قال أسقف نجران

. . . :

منع البقاء تقلب الشمس

وطلوعها من حيث لا تُمسي . . .

فلما كان الموت بفعل الدهر فكيف يرجى أن يعودوا أحياء .

(274/699)

وهذه كلمات كانت تجري على ألسنتهم لقلة التدبر في الأمور وإن كانوا يعلمون أن الله هو الخالق للعوالم ، وأما ما يجري في العالم من التصرفات فلم يكن لهم فيه رأي وكيف وحالتهم الأمية لا تساعد على ذلك ، وكانوا يخطئون في التفاصيل حتى يأتوا بما يناقض ما يعتقدونه ، ولذلك أعقبه بقوله تعالى : ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ فإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى قولهم ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ أي لا علم لهم بأن الدهر هو المميت إذ لا دليل على ذلك فإن الدليل النظري بَيَّن أن الدهر وهو الزمان ليس بمُميت مباشرةً وهو ظاهر ولا بواسطةٍ في الإماتة إذ الزمان أمر اعتباري لا يفعل ولا يؤثر وإنما هو مقادير يقدِّر بها الناس الأبعاد بين الحوادث مرجعه إلى تقدير حصة النهار والليل وحصص الفصول الأربعة ، وإنما توهم عامة

الناس أن الزمان متصرف ، وهي توهمات شاعت حتى استقرت في الأذهان الساذجة .

والمراد بالظن في قوله : ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ ما ليس بعلم فهو هنا التخيل والتوهم وجملة ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ مبيّنة بجملة ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ أو استئناف بياني كأنّ سائلاً حين سَمع قوله : ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ سأل عن مستندهم في قولهم ذلك فأجيب بأنه الظن المبني على التخيل .

وجيء بالمضارع في ﴿ يظنون ﴾ لأنهم يجددون هذا الظن ويتلقاه صغيرهم عن كبيرهم في أجيالهم وما هم بمقلعين عنه .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25)

عطف على ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ [الجاثية : 24] ، أي عقدوا على عقيدة أن لا حياة بعد الممات استناداً للأوهام والأقيسة الخيالية .

وإذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة على إمكان البعث وعلى لزومه لم يعارضوها بما يبطلها بل يهرعون إلى المباهتة فيقولون إن كان البعث حقاً فأتوا بآبائنا إن صدقتم .

فالمراد بالآيات آيات القرآن المتعلقة بالبعث بدليل ما قبل الكلام وما بعده .

وفي قوله : ﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا ﴾ تسجيل عليهم بالتلجلج عن الحجة البينة ، والمصيرِ إلى سلاح العاجز من المكابرة والخروج عن دائرة البحث .

والخطاب بفعل ﴿ ائتوا ﴾ مُوجّهٌ للمؤمنين بدخول الرسول صلى الله عليه وسلم و ﴿ إلا أن قالوا ﴾ استثناء من حجتهم وهو يقتضي تسمية كلامهم هذا حجة وهو ليس بحجة إذ هو بالبهتان أشبه فإمّا أن يكون إطلاق اسم الحجة عليه على سبيل التهكم بهم كقول عمرو بن كلثوم

:

قريناكم فعجلنا قِراكم

قبيل الصبح مِرْداة طحونَا . . .

فسمى القتل قرى ، وعلى هذا يكون الاستثناء في قوله : ﴿ إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا ﴾ استثناء متصلاً تهكماً ، وإمّا أن يكون إطلاق اسم الحجة على كلامهم جرى على اعتقادهم وتقديرهم دونَ قَصد تهكّم بهم ، أي أتوا بما توهموه حجّة فيكون الإطلاق استعارة صورية والاستثناء على هذا متصل أيضاً .

وإما أن يكون الإطلاق استعارة بعلاقة الضدية فيكون مجازاً مرسلاً بتنزيل التضاد منزلة التناسب على قصد التهكم فيكون المعنى أن لا حجة لهم البتة إذ لا حجة لهم إلا هذه ،

وهذه ليست بحجة بل هي عناد فيحصل أن لا حجة لهم بطريق التمليح والكناية كَقَول

جِرَانِ العَوْدِ

:

وبلدةٍ ليس بها أنيس

إلا اليَعافيرُ وإلا العِيس . . .

أي لا أنس بها البتة .

ويقدر قوله : ﴿ أن قالوا ائتوا بآبائنا ﴾ في محل رفع بالاستثناء المفرغ على الاعتبارات الثلاثة فهو اسم ﴿ كان ﴾ و ﴿ حجتهم ﴾ خبرها لأن حجتهم منصوب في قراءة جميع القراءات المشهورة .

وتقديم خبر ﴿ كان ﴾ على اسمها لأن اسمها محصور بـ ﴿ إلاّ ﴾ فحقه التأخير عن الخبر .

(26) ﴿ صادقين * قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ .

تلقين لإبطال قولهم ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] يتضمن إبطال قولهم ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونَحْيا ﴾ [الجاثية : 24] .

والمقصود منه قوله : ﴿ ثم يميتكم ﴾ وإنما قدم عليه ﴿ يحييكم ﴾ توطئة له ، أي كما هو أوجدكم هو يميتكم لا الدهر ، فتقديم اسم الله على المسند الفعلي وهو ﴿ يحييكم ثم يميتكم ﴾ يفيد تخصيص الإحياء والإماتة به لإبطال قولهم ، إن الدهر هو الذي يميتهم .

وقوله : ﴿ ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ﴾ إبطال لقولهم : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [الجاثية : 24] وليس هو إبطالاً بطريق الاستدلال لأن أدلة هذا تكررت فيما نزل من القرآن فاستغني عن تفصيلها ولكنه إبطال بطريق الإجمال والمعارضة .

وقوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ حال من ﴿ يوم القيامة ﴾ ، أي لا ريب في وجوده بما يقتضيه من إحياء الأموات ، ومعنى نفي الريب فيه أنه حقيقة الريب وهي التي تتقوم من دلائل تُفضي إلى الشك منتفية عن قضية وقوع يوم القيامة بكثرة الدلائل الدالة على إمكانه وعلى أنه بالنسبة لقدرة الله ليس أعجب من بدء الخلق ، وأن الله أخبر عن وقوعه فوجب القطع بوقوعه .

فكان الشك فيه جديراً بالاقتلاع فكأنه معدوم .

وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الكهان " ليسوا بشيء " مع أنهم موجودون فأراد أنهم ليسوا بشيء حقيق ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا

ريب فيه ﴾ في سورة البقرة (2) .

وعُطف ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ على قوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي ولكن ارتياب كثير من الناس فيه لأنهم لا يعلمون دلائل وقوعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(277/699)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم ﴾ قال : اللب .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ثم جعلناك على شريعة ﴾ قال : على طريقة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر ﴾ يقول : على هدى من الأمر وبينة .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر ﴾ قال :

الشريعة الفرائض والحدود والأمر والنهي .

وأخرج ابن المبارك ، وسعيد بن منصور ، وابن سعد ، وابن أبي شيبة ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، والطبراني عن أبي الضحى رضي الله عنه قال : قرأ تميم الداري رضي الله عنه سورة الجاثية ، فلما أتى على هذه الآية ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ الآية ، فلم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح وهو عند المقام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خيثم رضي الله عنه قال : قام تميم الداري يصلي فمر بهذه الآية ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ فلم يزل يرددها حتى أصبح .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ قال : المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن ، والكافر في الدنيا والآخرة كافر .

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم واللالكائي في السنة والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان ﴿ وأضله الله على علم ﴾ يقول : أضله الله في سابق علمه .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : لا يهوى شيئاً إلا ركبه ، لا يخاف الله عز وجل .

وأخرج النسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر ، فإذا رأى أحسن منه أخذه وألقى الآخر ، فأنزل الله ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ .

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، فقال الله في كتابه ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ وقال الله : " يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار " .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ ﴿

وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾ .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل : " يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار " " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ قال : الزمان .

(279/699)

وأخرج ابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تبارك وتعالى : " لا يقل ابن آدم يسب الدهر بأخيبة الدهر فإني أنا الدهر أرسل الليل والنهار فإذا شئت قبضتهما " " .

وأخرج ابن جرير والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله تعالى : " استقرضت عبدي فلم يعطني وسبني عبدي يقول وادهراه وأنا الدهر " " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(280/699)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السبعمائة

من الآية ﴿ 27 ﴾ من سورة الجاثية

وحتى الآية ﴿ 37 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/700)

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (31) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل على قدرته على الإعادة بهذا الدليل الخاص الذي تقديره : فالله الذي ابتدأ خلقكم

من الأرض على هذا الوجه قادر على إعادتكم ، عطف عليه دليلاً آخر جامعاً فقال تعالى : ﴿ ولله ﴾ أي الملك الأعظم وحده ﴿ ملك السماوات ﴾ كلها ﴿ والأرض ﴾ التي ابتدأكم منها ، ومن تصرف في ملكه بشيء من الأشياء ، كان قادراً على مثله ما دام ملكاً .

(5/700)

ولما كان التقدير : له ملك ذلك أبداً ، فهو يفعل فيه اليوم ما تشاهدون مع رفع هذا وخفض هذا ، فلو أن الناس سلموا لقضائه لوصلوا إلى جميع ما وصلوا إليه بالبغي والعدوان ، فإنه لا يخرج شيء عن أمره ولكن أكثر الناس اليوم في ريبهم يترددون ، بنى عليه قوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أي توجد وتتحقق تحقق القائم الذي هو على كمال تمكنه وتمامه أمره الناهض بأعباء ما يريد ، وكرر سبحانه للتهويل والتأكيد قوله : ﴿ يومئذ ﴾ أي إذا تقول يخسرون – هكذا كان الأصل ، ولكنه قال للتعميم والتعليق بالوصف : ﴿ يخسر المبطلون ﴾ أي الداخلون في الباطل العريقون في الاتصاف به ، الذين كانوا لا يرضون بقضائي فيستعجلون فيتوصلون إلى مراداتهم بما لم آمر به ، ولا يزالون يبغون إلى أن يأتي الوقت الذي قدرت وصلوهم إليها فيه ، فيصلون ويظنون أنهم وصلوا بسعيهم ، وأنهم لو

تركوا لما كان لهم ذلك فيخسرون لأجل سعيهم بما جعلت لهم من الاختيار بمرادي فيهم على خلاف أمري ، خسارة مستمرة التجدد لا انفكاك لهم عنها ويفوز المحقون .

ولما كان ذلك من شأن اليوم مهولاً ، عم في الهول بقوله مصوراً لحاله : ﴿ وترى ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿ كل أمة ﴾ من الأمم الخاسرة فيها والفائزة ﴿ جاثية ﴾ أي مجتمعة لا يخلطها غيرها ، وهي مع ذلك باركة على الركب رعباً واستيفازاً لما لعلها تؤمر به ، جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ، ينتظروا القضاء الحاتم ، والأمر الجازم اللازم ، لشدة ما يظهر لها من هول ذلك اليوم .

ولما كان كأن قيل : هم مستوفزون ، قال : ﴿ كل أمة ﴾ أي من الجاثين ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ أي الذي أنزل إليها وتعبدها الله به والذي نسخته الحفظة من أعمالها ليطبق أحدهما بالآخر ، فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا ، ومن خاله هلك ، ويقال لهم حال الدعاء : ﴿ اليوم تجزون ﴾ على وفق الحكمة بأيسر أمر ﴿ ما ﴾ أي عين الذي ﴿ كنتم ﴾ بما هو لكم كالجبلات ﴿ تعملون ﴾ أي مصرين عليه غير راجعين عنه من خير أو شر .

(6/700)

ولما أخبر بالجزاء ، بين كيفية ما به يطبق بين كتاب الإنزال وكتاب الأعمال ، فما حكم به كتاب الإنزال أنفذه الكبير المتعال ، فقال مشيراً إلى كتاب الإنزال بأداة القريب لقربه وسهولة فهمه : ﴿ هذا كتابنا ﴾ أي الذي أنزلناه على ألسنة رسلنا ﴿ ينطق ﴾ أي يشهد شهادة هي في بيانها كالنطق ﴿ عليكم بالحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع من أعمالكم ، ذلك بأن يقول : من عمل كذا فهو كافر ، ومن عمل كذا فهو عاص ، ومن عمل كذا فهو مطيع ، فيطبق ذلك على ما عملتموه فإذا الذي أخبر به الكتاب مطابق لأعمالكم لا زيادة فيه ولا نقص ، كل كلي ينطبق على جزئيه سواء بسواء كما نعطيكم علم ذلك في ذلك اليوم ، فينكشف أمر جبلاتكم وما وقع منكم من جزئيات الأفعال لا يشذ عنه منه ذرة ، وتعلمون أن هذا الواقع منكم مطابق لما أخبر به الكتاب الذي أنزلناه ، فهو حق لأن الواقع طابقه ، هذا نطقه عليكم ، وأما نطقه لكم فالفضل : الحسنة بعشر أمثالها إلى ما فوق ذلك .

ولما كانت العادة جارية في الدنيا بإقامة الحقوق بكتابة الوثائق ، وكانوا كأنهم يقولون : من يحفظ أعمالنا على كثرتها مع طول المدة وبعد الزمان ، وكانوا ينكرون أمر الحفظة وغيره مما أتت به الرسل ، أكد قوله مجيباً بما يقرب إلى عقل من يسأل عن ذلك : ﴿ إنا ﴾ على ما لنا من القدرة والعظمة الغنية عن الكتابة ﴿ كنا ﴾ على الدوام ﴿ نستنسخ ﴾ أي نأمر ملائكتنا بنسخ أي نقل ﴿ ما كنتم ﴾ طبعاً لكم وخلقاً ﴿ تعملون ﴾ قولاً وفعلاً ونية ، فإن

كان المراد بالنسخ مطلق النقل فهو واضح ، وإن كان النقل من أصل فهو إشارة إلى لوح الجبلات المشار إليه بكتم أو من اللوح المحفوظ ليطابق به ما يفعله العامل ، ومن المشهور بين الناس أن كل أحد يسطر في جبينه ما يلقاه من خير أو شر .

(7/700)

ولما صرح بالمبطلين حسب ما اقتضاه الحال كما تقدم ، وأشار إلى المحقين ، صرح بما لوح إليه من أمر المحقين وعطف عليهم أضدادهم ، فقال بادئاً بهم على طريق النشر المشوش مفصلاً : ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ أي من الأمم الجاثية ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لدعواهم الإيمان ﴿ الصالحات فيدخلهم ﴾ أي في ذلك اليوم الذي ذكرنا عظمته وشدة هوله ﴿ ربهم ﴾ الذي أحسن إليهم بالتوفيق بالأعمال الصالحة المرضية الموصلة ﴿ في رحمته ﴾ أي تقريبه وإكرامه بجليل الثواب وحسن المآب ، وتقول لهم الملائكة تشريفاً : سلام عليكم أيها المؤمنون ، ودل على عظيم الرحمة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الإحسان العالي المنزلة ﴿ هو ﴾ أي لا غيره ﴿ الفوز ﴾ .

ولما كان السياق لغباوتهم وخفاء الأشياء عليهم قال تعالى : ﴿ المبين ﴾ الذي لا يخفى على أحد شيء من أمره ، لأنه لا يشوبه كدر أصلاً ولا نقص ، بخلاف ما كان من أسبابه

في الدنيا ، فإنها – مع كونها كانت فوزاً – كانت خفية جداً على غير الموقنين ﴿ وأما الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما جلته لهم مرائي عقولهم وفطرهم الأولى من الحق الذي أمر الله به ولو عملوا جميع الصالحات غير الإيمان ، فيدخلهم الملك الأعظم في لعنته .

ولما كان هذا الستر سبباً واضحاً في تبكيتهم قال : ﴿ أفلم ﴾ أي فيقال لهم : ألم يأتكم رسلي ، وأخلق لكم عقولاً تدلكم على الصواب من التفكر في الآيات المرئية من المعجزات التي أتوكم بها وأنزل عليكم بواسطتهم آيات مسموعة فلم ﴿ تكن آياتي ﴾ على ما لها من عظمة الإضافة إليّ وعظمة الإتيان إليكم على ألسنة رسلي الذين هم أشرف خلقي .

(8/700)

ولما كانت هذه الآيات توجب الإيمان لما لها من العظمة بمجرد تلاوتها ، بني للمفعول قوله : ﴿ تتلى ﴾ أي تواصل قراءتها من أيّ تال كان ، فكيف إذا كانت بواسطة الرسل ، تلاوة مستعلية ﴿ عليكم ﴾ لا تقدرون على رفع شيء منها بشيء يرضاه منصف ﴿ فاستكبرتم ﴾ أي فتسبب عن تلاوتها التي من شأنها إيراث الخشوع والإخبات والخضوع أن طلبتم الكبر لأنفسكم وأوجدتموه على رسلي وآياتي ﴿ وكنتم ﴾ خلقاً لازماً ﴿ قوماً ﴾ أي ذوي قيام وقدرة على ما تحاولونه ﴿ مجرمين ﴾ أي عريقين في قطع ما

يستحق الوصل ، وذلك هو الخسران المبين ، والآية من الاحتباك : ذكر الإدخال في الرحمة أولاً دليلاً على الإدخال في اللعنة ثانياً ، وذكر التبكيت ثانياً دليلاً على التشريف أولاً ، وسره أن ما ذكره أدل على شرف الولي وحقارة العدو ﴿ وإذا ﴾ أي وكنتم إذا ﴿ قيل ﴾ من أيّ قائل كان ولو على سبيل التأكيد : ﴿ إن وعد الله ﴾ الذي كل أحد يعلم أنه محيط بصفات الكمال ﴿ حق ﴾ أي ثابت لا محيد عنه يطابقه الواقع من البعث وغيره لأن أقل الملوك لا يرضى بأن يخلف وعده فكيف به سبحانه وتعالى فكيف إذا كان الإخلاف فيه مناقضاً للحكمة ﴿ والساعة ﴾ التي هي مما وعد به وهي محط الحكمة فهي أعظم ما تعلق به الوعد ﴿ لا ريب فيها ﴾ بوجه من الوجوه لأنها محل إظهار الملك لما له من الجلال والجمال أتم إظهار ﴿ قلتم ﴾ راضين لأنفسكم بحضيض الجهل : ﴿ ما ندري ﴾ أي الآن دراية علم ولو بذلنا جهدنا في محاولة الوصول إليه ﴿ ما الساعة ﴾ أي نعرف حقيقتها فضلاً عما تخبروننا به من أحوالها .

(9/700)

ولما كان أمرها مركوزاً في الفطر لا يحتاج إلى كبير نظر ، بما يعلم كل أحد من تمام قدرة الله تعالى ، فمتى نبه عليها نوع تنبيه سبق إلى القلب علمها ، سموا ذلك ظناً عناداً واستكباراً

، فقالوا مستأنفين في جواب من كأنه يقول : أفلم تفدكم تلاوة هذه الآيات البينات علماً بها : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ نظن ﴾ أي نعتقد ما تخبروننا به عنها ﴿ إلا ظناً ﴾ وأما وصوله إلى درجة العلم فلا .

ولما كان المحصور لا بد وأن يكون أخص من المحصور فيه كان الظن الأول بمعنى الاعتقاد ، ولعله عبر عنه بلفظ الظن تأكيداً لمعنى الحصر ، ولذلك عطفوا عليه – تصريحاً بالمراد لأن الظن قد يطلق على العلم – قولهم : ﴿ وما نحن ﴾ وأكدوا النفي فقالوا : ﴿ بمستيقنين ﴾ أي بموجود عندنا اليقين في أمرها ولا بطالبين له – هذا مع ما تشاهدونه من الآيات في الآفاق وفي أنفسكم وما يبث من دابة وما ينبهكم على ذلك من الآيات المسموعة ، وهذا لا ينافي آية ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ لأن آخرها مثبت للظن ، فكأنهم كانوا تارة يقوى عندهم ما في جبلاتهم وفطرهم الأولى من أمرها فيظنونها ، وتارة تقوى عليهم الحظوظ مع ما يقترن بها من الشبهة المبنية على الجهل فيظنون عدمها فيقطعون به لما للنفس إليه من الميل ، أو كانوا فرقتين – والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 107 . 110 ﴾

(10/700)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

واعلم أنه تعالى لما احتج بكونه قادراً على الإحياء في المرة الأولى ، وعلى كونه قادراً على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة ، عمم الدليل فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ أي لله القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السموات أو من الأرض ، وإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحياة في هذه الذات ممكن ، إذ لو لم يكن ممكناً لما حصل في المرة الأولى فيلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادراً على الإحياء في المرة الثانية .

ولما بيّن تعالى إمكان القول بالحشر والنشر بهذين الطريقين ، ذكر تفاصيل أحوال القيامة فأولها : قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ وفيه أبحاث :

البحث الأول : عامل النصب في يوم تقوم يخسر ، ويومئذ بدل من يوم تقوم .

البحث الثاني : قد ذكرنا في مواضع من هذا الكتاب أن الحياة والعقل والصحة كأنها رأس المال ، والتصرف فيها لطلب سعادة الآخرة يجري مجرى تصرف التاجر في رأس المال لطلب الربح ، والكفار قد أتعبوا أنفسهم في هذه التصرفات وما وجدوا منها إلا الحرمان والخذلان فكان ذلك في الحقيقة نهاية الخسران وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ قال

الليث الجثو الجلوس على الركب كما يجثى بين يدي الحاكم ، قال الزجاج ومثله جذا يجذو ، قال صاحب "الكشاف" : وقرىء جاذية ، قال أهل اللغة والجذو أشد استيفازاً من الجثو ، لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه ، وعن ابن عباس جاثية مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها .

(11/700)

ثم قال تعالى : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كتابها ﴾ على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة ، وقوله ﴿ إلى كتابها ﴾ أي إلى صحائف أعمالها ، فاكتفى باسم الجنس كقوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] والظاهر أنه يدخل فيه المؤمنون والكافرون لقوله تعالى بعد ذلك ﴿ فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ ﴾ فإن قيل الجثو على الركبة إنما يليق بالخائف والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة ، قلنا إن المحق الآمن قد يشارك المبطل في مثل هذه الحالة إلى أن يظهر كونه محقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ ﴾ والتقدير يقال لهم اليوم تجزون ، فإن قيل كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله تعالى ؟ قلنا لا منافاة بين الأمرين لأنه كتابهم بمعنى أنه الكتاب

المشتمل على أعمالهم وكتاب الله بمعنى أنه هو الذي أمر الملائكة بكتبه ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم ﴾ أي يشهد عليكم بما عملتم من غير زيادة ولا نقصان ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ ﴾ الملائكة ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي نستكتبهم أعمالكم.

ثم بيّن أحوال المطيعين فقال: ﴿ فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الفوز المبين ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايراً للإيمان زائداً عليه.

المسألة الثانية:

قالت المعتزلة علق الدخول في رحمة الله على كونه آتياً بالإيمان والأعمال الصالحة، والمعلق على مجموع أمرين يكون عدماً عند عدم أحدهما، فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة وجوابنا: أن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف.

المسألة الثالثة:

سمى الثواب رحمة والرحمة إنما تصح تسميتها بهذا الاسم إذا لم تكن واجبة ، فوجب أن لا يكون الثواب واجباً على الله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءاياتى تتلى عَلَيْكُمْ فاستكبرتم وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسماً ثالثاً وهذا يدل على أن مذهب المعتزلة إثبات المنزلتين باطل .

المسألة الثانية :

أنه تعالى علل أن استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها ، وهذا يدل على استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع ، وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع ، خلافاً لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد يجب بالعقل .

المسألة الثالثة :

جواب ﴿ أَمَّا ﴾ محذوف والتقدير : وأما الذين كفروا فيقال لهم : أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكنتم قوماً مجرمين فإن قالوا كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرماً في معرض الطعن فيه والذم له ؟ قلنا معناه أنهم مع كونهم كفاراً ما كانوا عدولاً

في أديان أنفسهم ، بل كانوا فساقاً في ذلك الدين ، والله أعلم .

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء والساعة رفعاً ونصباً قال الزجاج من نصب عطف على الوعد ومن رفع فعلى معنى وقيل : الساعة لا ريب فيها قال الأخفش الرفع أجود في المعنى وأكثر في كلام العرب ، إذا جاء بعد خبر إن لأنه كلام مستقل بنفسه بعد مجيء الكلام الأول بتمامه .

المسألة الثانية :

حكى الله تعالى عن الكفار أنهم إذا قيل إن وعد الله بالثواب والعقاب حق وإن الساعة آتية لا ريب فيها قالوا ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين .

(13/700)

أقول الأغلب على الظن أن القوم كانوا في هذه المسألة على قولين منهم من كان قاطعاً بنفي البعث والقيامة ، وهم الذين ذكرهم الله في الآية المتقدمة بقوله ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا

الدنيا ﴾ [الجاثية : 24] ومنهم من كان شاكاً متحيراً فيه ، لأنهم لكثرة ما سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية ، والذي يدل عليه أنه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين ، ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 233.235 ﴾

(14/700)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ قالت فرقة : العامل في : ﴿ يوم ﴾ قوله : ﴿ يخسر ﴾ وجاء قوله : ﴿ يومئذ ﴾ بدلاً مؤكداً . وقالت فرقة : العامل في : ﴿ يوم ﴾ فعل يدل عليه الملك ، وذلك أن يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسماء ولا بالأرض ، لأن ذلك يتبدل ، فكأنه قال : ﴿ ولله ملك السماوات والأرض ﴾ والملك يوم القيامة ، وينفرد ﴿ يخسر ﴾ بالعمل في قوله : ﴿ يومئذ ﴾ و : ﴿ المبطلون ﴾ الداخلون في الباطل .

وقوله تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة ﴾ وصف حال القيامة وهولها . والأمة : الجماعة العظيمة من الناس التي قد جمعها معنى أو وصف شامل لها . وقال مجاهد : الأمة

: الواحد من الناس ، وهذا قلق في اللغة ، وإن قيل في إبراهيم عليه السلام أمة ، وقالها النبي عليه السلام في قس بن ساعدة فذلك تجوز على جهة التشريف والتشبيه . و: ﴿ جاثية ﴾ معناه على الركب ، قاله مجاهد والضحاك ، وهي هيئة المذنب الخائف المعظم ، وفي الحديث : " فجثا عمر على ركبتيه " . وقال سلمان : في القيامة ساعة قدر عشر سنين يخر الجميع فيها جثاة على الركب .

وقرأ جمهور الناس : "كلُّ أمة" بالرفع على الابتداء . وقرأ يعقوب الحضرمي : "كلَّ أمة تدعى" بالنصب على البدل من "كل" الأولى ، إذ في "كل" الثانية إيضاح موجب الجثو .

وقرأ الأعمش : " وترى كل أمة جاثية تدعى " بإسقاط ﴿ كل أمة ﴾ الثاني .

واختلف المتأولون في قوله : ﴿ إلى كتابها ﴾ فقالت فرقة : أراد ﴿ إلى كتابها ﴾ المنزل عليها فتحاكم إليه هل وافقته أو خالفته .

وقالت فرقة : أراد ﴿ إلى كتابها ﴾ الذي كتبته الحفظة على كل واحد من الأمة ، فباجتماع ذلك قيل له ﴿ كتابها ﴾ ، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر تقديره : يقال لهم اليوم تجزون .

(15/700)

وقوله تعالى : ﴿ هذا كتابنا ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى الكتب المنزلة أو إلى اللوح المحفوظ ، قال مجاهد ومقاتل : يشهد بما سبق فيه من سعادة أو شقاء ، أو تكون الكتب الحفظة وقال ابن قتيبة هي إلى القرآن .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ نستنسخ ﴾ فقالت فرقة معناه : نكتب وحقيقة النسخ وإن كانت أن تنقل خط من أصل ينظر فيه ، فإن أعمال العباد هي في هذا التأويل كالأصل ، فالمعنى : إنا كنا نقيد كل ما عملتم . قال الحسن : هو كتب الحفظة على بني آدم . وروى ابن عباس وغيره حديثاً أن الله تعالى يأمر بعرض أعمال العباد كل يوم خميس فينقل من الصحف التي رفع الحفظة كل ما هو معد أن يكون عليه ثواب أو عقاب ويلغى الباقي . قالت هذه الفرقة : فهذا هو النسخ من أصل . وقال ابن عباس أيضاً : معنى الآية أن الله تعالى يجعل الحفظة تنسخ من اللوح المحفوظ كل ما يفعل العباد ثم يمسكونه عندهم ، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك فتقيد أيضاً ، فذلك هو الاستنساخ . . وكان ابن عباس يقول : ألستم عرباً ؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30)

ذكر الله تعالى حال الطائفتين من المؤمنين والكافرين ، وقرن بينهم في الذكر ليبين الأمر في نفس السامع ، فإن الأشياء تتبين بذكر أضدادها ، و ﴿ الفوز ﴾ : هو نيل البغية .

وقوله تعالى : ﴿ وأما الذين كفروا أفلم تكن ﴾ فإن التقدير ﴿ وأما الذين كفروا ﴾

فيقال لهم ﴿ أفلم تكن ﴾ ، فحذف يقال اختصاراً وبقيت الفاء دالة على الجواب الذي تطلبه ﴿ أما ﴾ ، ثم قدم عليها ألف الاستفهام من حيث له صدر القول على كل حالة ووقف الله تعالى الكفار على الاستكبار لأنه من شر الخلال .

(16/700)

وقرأ حمزة وحده : " والساعةَ " بالنصب عطفاً على قوله : ﴿ وعد الله ﴾ ورويت عن أبي عمرو وعيسى والأعمش . وقرأ ابن مسعود : " حق وأن الساعة لا ريب فيها " ، وكذلك قرأ أيضاً الأعمش . وقرأ الباقون : " والساعةُ " رفعاً ، ولذلك وجهان : أحدهما الابتداء والاستئناف ، والآخر العطف على موضع ﴿ إن ﴾ وما عملت فيه ، لأن التقدير : وعد الله حق ، قاله أبو علي في الحجة . وقال بعض النحاة : لا يعطف على موضع ﴿ إن ﴾ ، إلا إذا كان العامل الذي عطلته ﴿ إن ﴾ باقياً ، وكذلك هي على موضع الباء في قوله : فلسنا بالجبال ولا الحديج ، فلما كانت ليس باقية ، جاز العطف على الموضع قبل دخول الباء ، ويظهر نحو هذا النظر من كتاب سيبويه ، ولكن قد ذكرنا ما حكى أبو علي وهو القدوة .

وقولهم : ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ معناه : ﴿ إن نظن ﴾ بعد قبول خبركم ﴿ إلا ظناً ﴾ وليس يعطينا خبراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(17/700)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾

خلقاً وملكاً .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ﴾ "يَوْمَ" الأوّل منصوب ب "يَخْسَرُ" و "يَوْمَئِذٍ" تكرير للتأكيد أو بدل .

وقيل : إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة .

والعامل في "يَوْمَئِذٍ" "يَخْسَرَ" ، ومفعول "يَخسَرُ" محذوف ؛ والمعنى يخسرون منازلهم في الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أي من هول ذلك اليوم .

والأُمة هنا : أهل كُل ملة .

وفي الجاثية تأويلات خمسة : الأوّل قال مجاهد : مستوفزة .

وقال سفيان : المستوفز الذي لا يصيب الأرضَ منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله .

الضحاك : ذلك عند الحساب .

الثاني مجتمعة ؛ قاله ابن عباس .

الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين .

الثالث متميزة ؛ قاله عكرمة .

الرابع خاضعة بلغة قريش ؛ قاله مُورِّج .

الخامس باركة على الركب ؛ قاله الحسن .

والجَثْوُ : الجلوس على الركب .

جثا على ركبتيه يجثو ويجثي جُثُوًّا وجُثِيًّا ؛ على فعول فيهما ، وقد مضى في "مريم" :

وأصل الجثوة : الجماعة من كل شيء .

قال طَرَفَة يصف قبرين :

ترى جُثْوَتَيْن من تراب عليهما . . .

صفائحُ صُمٌّ من صفيح مُنَضَّدِ

ثم قيل : هو خاص بالكفار ؛ قاله يحيى بن سلام .

وقيل : إنه عام للمؤمن والكافر انتظاراً للحساب .

وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

قال : "كأني أراكم بالكَوْم جاثين دون جهنم " ذكره الماوردي .

وقال سلمان : إن في يوم القيامة لساعةً هي عشر سنين يخرّ الناس فيها جثاة على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي "لا أسألك اليوم إلا نفسي" .

﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كِتَابِهَا ﴾ قال يحيى بن سلام : إلى حسابها .

وقيل : إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر ؛ قاله مقاتل .

وهو معنى قول مجاهد .

وقيل : "كِتابِهَا" ما كتبت الملائكة عليها .

(18/700)

وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه .

وقيل : الكتاب هاهنا اللوح المحفوظ .

وقرأ يعقوب الحضرميّ "كُلَّ أُمَّةٍ" بالنصب على البدل من "كُلّ" الأولى لما في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى ؛ إذ ليس في جُثُوّها شيء من حال شرح الجثو كما في الثانية من ذكر السبب الداعي إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها .

وقيل : انتصب بإعمال "تَرَى" مضمراً .

والرفع على الابتداء .

﴿ اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر .

قوله تعالى : ﴿ هذا كِتَابُنَا ﴾ قيل من قول الله لهم .

وقيل من قول الملائكة .

﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ أي يشهد .

وهو استعارة ؛ يقال : نطق الكتاب بكذا أي بيّن .

وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ؛ فكأنه ينطق عليهم ؛ دليله قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مَالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 9 4] .

وفي المؤمنين : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : 62] وقد تقدّم .

و "يَنْطِقُ" في موضع الحال من الكتاب ، أو من ذا ، أو خبر ثان لذا ، أو يكون "كِتَابُنَا" بدلاً من "هَذَا" و "يَنْطِقُ" الخبر .

﴿ إِنَّ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي نأمر بنسخ ما كنتم تعملون .

قال عليّ رضي الله عنه : إن للّه ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم .

وقال ابن عباس : إن الله وكّل ملائكة مطهرين فينسخون من أم الكتاب في رمضان كل ما

يكون من أعمال بني آدم فيعارضون حفظة الله على العباد كل خميس ، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العباد موافقاً لما في كتابهم الذي استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيه ولا نقصان .

قال ابن عباس : وهل يكون النسخ إلا من كتاب .

الحسن : نستنسخ ما كتبته الحفظة على بني آدم ؛ لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال .

(19/700)

وقيل : تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد ، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نسخ منه الحسنات والسيئات ؛ ولا تحوّل المباحات إلى النسخة الثانية .

وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي الجنة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفوز المبين وَأَمَّا الذين كفروا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أي فيقال لهم ذلك .

وهو استفهام توبيخ .

﴿ فاستكبرتم ﴾ عن قبولها .

﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين تكسبون المعاصي .

يقال : فلان جريمة أهله إذا كان كاسِبهم ؛ فالمجرم من أكسب نفسه المعاصي .

وقد قال الله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ [القلم : 35] فالمجرم ضدّ المسلم فهو المذنب بالكفر إذاً .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي البعث كائن .

﴿ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ وقرأ حمزة "وَالسَّاعَةَ" بالنصب عطفاً على "وَعْدَ" .

الباقون بالرفع على الاْبتداء ، أو العطف على موضع "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ" .

ولا يحسن على الضمير الذي في المصدر ؛ لأنه غير مؤكد ، والضمير المرفوع إنما يعطف عليه بغير تأكيد في الشعر .

﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا الساعة ﴾ هل هي حق أم باطل .

﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ تقديره عند المبَرّد : إن نحن إلا نظن ظنًّا .

(وقيل : التقدير : إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً .

وقيل : أي وقلتم إن نظن إلا ظناً) ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أن الساعة آتية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾

بيانٌ لاختصاصِ المُلكِ المطلقِ والتَّصرفِ الكُلِّيِّ فيهمَا وفيمَا بينهُمَا باللهِ عزَّ وجلَّ إثرَ بيانِ تصرفِه تعالَى في النَّاسِ بالإحياءِ والإماتةِ والبعثِ والجمعِ للمُجازاةِ . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ﴾ العاملُ في يومَ يَخْسرُ ويومئذٍ بدلٌ منه .

﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ ﴾ منَ الأُممِ المجموعةِ ﴿ جَاثِيَةً ﴾ باركةً على الركبِ مُستوفزةً ، وقُرِىءَ جاذيةً أي جالسةً على أطرافِ الأصابعِ والجَذْوُ أشدُّ استيفازاً منَ الجُثُوّ . وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهُمَا جائيةً مجتمعةً وقيلَ : جماعاتٍ من الجُثْوةِ وهيَ الجماعةُ . ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كتابها ﴾ إلى صحيفةِ أعمالها . وقُرِىءَ كُلَّ بالنصبِ على أنَّه بدلٌ من الأولِ وتُدْعَى صفةٌ أو حالٌ أو مفعولٌ ثانٍ . ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يقالُ لهم ذلكَ وقوله تعالى :

﴿ هذا كتابنا ﴾ الخ من تمامِ ما يُقالُ حينئذٍ وحيثُ كانَ كتابُ كلِّ أمةٍ مكتوباً بأمرِ اللهِ تعالى أُضيفَ إلى نونِ العظمةِ تفخيماً لشأنِه وتهويلاً لأمرِه فهذَا مبتدأٌ وكتابُنا خبرُهُ . وقولُه

تعالى : ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم ﴾ أيْ يشهد عليكُم ﴿ بالحق ﴾ من غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ ، خبرٌ آخرُ أو حالٌ وبالحقّ حالٌ من فاعلِ ينطقُ . وقولُه تعالَى ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ ﴾ الخ تعليلٌ لنطقِهِ عليهم بأعمالِهم من غيرِ إخلالٍ بشيءٍ منَها أي إنَّا كُنَّا فيما قبلُ نستكتبُ الملائكةَ ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدُّنيا منَ الأعمالِ حسنةً كانتْ أو سيئةً .

(21/700)

وقولُه تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ أي في جنتِه ، تفصيلٌ لما يُفعلُ بالأممِ بعد بيانِ ما خُوطِبوا بِهِ من الكلامِ المُنطوي على الوعدِ والوعيدِ . ﴿ ذلك ﴾ أي الذي ذُكرَ من الإدخالِ في رحمتِه تعالى ﴿ هُوَ الفوز المبين ﴾ الظاهرُ كونُه فوزاً لا فوزَ وراءَهُ ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءاياتى تتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أي فيقالُ لهم بطريقِ التوبيخِ والتقريعِ ألم يكنْ يأتيكم رُسلي فلم تكنْ آياتِي تُتلى عليكمُ فحذفَ المعطوفُ عليه ثقةً بدلالةِ القريبةِ عليهِ . ﴿ فاستكبرتم ﴾ عن الإيمانِ بها ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ أي قوماً عادتُهم الإجرامُ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله ﴾ أي ما وعدَهُ من الأمورِ الآتيةِ أو وعدُه بذلكَ ﴿ حَقّ ﴾ أي واقعٌ لا محالةَ أو مطابقٌ للواقعِ ﴿ والساعة ﴾ التي هيَ أشهرُ ما وعدَهُ ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في وقوعِها . وقُرِىءَ والساعةَ بالنصبِ عطفاً

على اسمِ إنَّ وقراءةُ الرفعِ للعطفِ على محلِّ إنَّ واسمِها . ﴿ قُلْتُمْ ﴾ لغايةِ عُتوِّكُم ﴿ مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ هي استغرابًا لَها ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ أيْ ما نفعلُ إلا ظناً وقد مرَّ تحقيقُه في قولِه تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ ﴾ وقيلَ : ما نعتقدُ إلا ظناً أي لا علماً وقيلَ : ما نحنُ إلا نظنُّ ظناً وقيلَ : ما نظنُّ إلا ظناً ضعيفاً ويردُّه قولُه تعالى ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أي لإمكانِه فإنَّ مقابلَ الاستيقانِ مطلقُ الظنِّ لا الضعيفُ منه ولعلَّ هؤلاءِ غيرُ القائلينَ ما هيَ إلا حياتُنا الدُّنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(22/700)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾

بيان للاختصاص المطلق والتصرف الكلي فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل إثر بيان تصرفه تعالى بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة فهو تعميم للقدرة بعد تخصيص .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ﴾ قال الزمخشري : العامل في ﴿ يَوْمَ تَقُومُ ﴾ يخسر ويومئذٍ بدل من يوم تقوم وحكاه ابن عطية عن جماعة ، وتقديم الظرف على الفعل

للحصر لأن كل خسران عند الخسران في ذلك اليوم كلا خسران ، وفيه أيضاً رعاية الفواصل على ما قيل ، وتعقب حديث الإبدال بأن التنوين في ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ عوض عن الجملة المضاف إليها ، والظاهر أنها تقدر بقرينة ما قبل ﴿ تَقُومُ الساعة ﴾ فيقال ويوم تقوم الساعة يوم إذ تقوم الساعة يخسر المبطلون فيكون تأكيداً لا بدلاً إذ لا وجه له ، ولذا قيل : إنه بالتأكيد أشبه ، وقول أبي حيان : إن كان بدلاً توكيدياً وهو قليل جاز وإلا فلا لا يسمن ولا يغني ؛ وتكلف بعضهم فزعم أن اليوم الثاني بمعنى الوقت الذي هو جزء من يوم قيام الساعة فهو بدل بعض معه عائد مقدر ولما كان فيه ظهور خسرانهم كان هو المقصود بالنسبة ، وقالت فرقة : العامل في ﴿ يَوْمٍ تَقُومُ ﴾ ما يدل عليه الملك قالوا : وذلك أن يوم القيامة أمر ثالث ليس بالسماء ولا بالأرض لتبدلهما فكأنه قيل : ولله ملك السموات والأرض والملك يوم تقوم الساعة ، و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ منصوب بيخسر والجملة استئناف وإن كان لها تعلق بما قبلها من جهة تنوين العوض ، وقيل : يجوز أن يكون عطفاً على ظرف معمول لملك المذكور كأنه قيل : لله ملك السموات والأرض اليوم ويوم تقوم الساعة وهو كما ترى ، و ﴿ المبطلون ﴾ الداخلون في الباطل ، ولعل المراد به أعظم أنواعه وهو الكفر .

(23/700)

﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم المجموعة ﴿ جَاثِيَةً ﴾ باركة على الركب مستوفزة وهي هيئة المذنب الخائف المنتظر لما يكره ، وعن ابن عباس جاثية مجتمعة ، وعن قتادة جماعات من الجثوة مثلثة الجيم وهي الجماعة تجتمع على جثي أي تراب مجتمع ، وعن مؤرج السدوسي جاثية خاضعة بلغة قريش ، والخطاب في ﴿ تَرَى ﴾ لمن يصح منه الرؤية أو لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام وهي بصرية ، و ﴿ جَاثِيَةً ﴾ حال وجوز أن تكون صفة ولو كانت علمية كانت مفعولاً ثانياً ، وقرىء ﴿ جاذية ﴾ بالذال والجذو أشد استيفازاً من الجثو لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه ، وجوز أن يكون الجاذي بمعنى الجاثي أبدلت ثاؤه ذالاً فإن الثاء والذال متقارضان كما قيل شحاث وشحاذ ﴿ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كتابها ﴾ إلى صحيفة أعمالها التي كتبتها الحفظة لتحاسب ، وأفرد على إرادة الجنس وإلا فلكل واحد من كل أمة صحيفة فيها أعماله ، وقيل : المراد كتاب نبيها تدعى إليه لينظر هل عملت به أولاً وحكي ذلك عن يحيى بن سلام إلا أنه حمل كل أمة على كل أمة كافرة والظاهر العموم ، وقيل : المراد بذلك اللوح المحفوظ أي تدعى إلى ما سبق لها فيه ، وقرأ يعقوب ﴿ كُلٌّ ﴾ بالنصب وخرج على أنه بدل من كل الأول ، وجملة ﴿ تدعى ﴾ صفة ، وإبدال الأمة المدعوة إلى كتابها من الأمة الجاثية حسن وجاء ذلك من الوصف ، ويقال مثل ذلك فيما إذا كان الجملة حالاً ، وإذا كانت الرؤية علمية وجملة ﴿ تدعى ﴾ مفعولاً ثانياً فالظاهر أنه تأكيد ، وجعله تأكيداً مع

كون الجملة صفة فيه تخلل التأكيد بين الوصفين وهو كما في "الكشف" غير مستحسن ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ مقول قول مقدر هو حال أو خبر بعد خبر .

وفي الكلام مضاف مقدر أي جزاء ما كنتم الخ أو هو من المجاز .

(24/700)

﴿ هذا كتابنا ﴾ إلى آخره من تمام ما يقال حينئذٍ ، والإشارة إلى الكتاب التي تدعي إليه الأمة المقول لها ذلك ، وهو إذا كان صحيفة الأعمال فإضافته إلى ضميره جل شأنه لأدنى ملابسة على التجوز في النسبة الإضافية فإنه تعالى الذي أمر الكتبة أن يكتبوا فيه أعمالهم ، وإن كان الكتاب المنزل على نبي تلك الأمة أو اللوح المحفوظ فأمر الإضافة ظاهر ، وضمير العظمة على سائر الأوجه لتفخيم شأن الكتاب ، وجوز أن يكون الضمير للكتبة والإضافة فيه حقيقية قيل : ويأباه ﴿ نَسْتَنسِخُ ﴾ إلا أن يجعل بمعنى ننسخ ونكتب وستعلم إن شاء الله تعالى ما فيه ، واوظهر عندي حمل الكتاب في الموضعين على صحيفة الأعمال واسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبر ، وقوله سبحانه : ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم ﴾ أي يشهد عليكم ﴿ بالحق ﴾ من غير زيادة ولا نقص خبر آخر أو حال أو مستأنف ، و﴿ بالحق ﴾ حال من فاعل ﴿ يَنطِقُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ ﴾ إلى آخره تعليل لنطقه عليهم

بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها أي إنا كنا فيما قبل نستنسخ الملائكة أي نجعلها تنسخ وتكتب ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال حسنة كانت أو سيئة ، وحقيقة النسخ كتابة من أصل ينظر فيه فكان أفعال العباد هي الأصل على ما في "البحر" ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن الله تعالى خلق النون وهي الدواة وخلق القلم فقال : اكتب قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر ورزق مقسوم حلال أو حرام ثم الزم كل شيء من ذلك بيانه دخوله في الدنيا متى ومقامه فيها كم وخروجه منها كيف ثم جعل على العباد حفظه وعلى الكتاب خزاناً فالحفظة يستنسخون كل يوم من الخوان عمل ذلك اليوم فإذا فني الرزق وانقطع الأمر وانقضى الأجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم فتقول الخزنة ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً فترجع فيجدونه قد مات ثم قال ابن عباس ألستم قوماً عرباً

(25/700)

تسمعون الحفظة يقولون إن كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل ؟ وفي رواية ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن الآية فذكر نحو ما سمعت ثم قال : هل

يستنسخ الشيء إلا من كتاب ، وكون الاستنساخ من اللوح قد رواه جماعة عنه ، وما ذكرناه يصحح أن يكون هذا القول من الملائكة بدون تأويل ﴿ نَسْتَنسِخُ ﴾ بننسخ كما لا يخفى ، وقوله تعالى :

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ إلى آخره تفصيل للمجمل المفهوم من قوله تعالى : ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ [الجاثية : 29] أو يجزون من الوعد والوعيد ، والمراد بالرحمة الجنة مجازاً والظرفية على ظاهرها ، وقيل : المراد بالرحمة ما يشمل الجنة وغيرها والأول أظهر ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر من الإدخال في رحمته تعالى : ﴿ هُوَ الفوز المبين ﴾ الظاهر كونه فوزاً لا فوز وراءه .

﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءاياتي تتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أي فيقال لهم بطريق التقريع والتوبيخ : ألم تكن تأتيكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فجواب أما القول المقدر ، وحذف اكتفاءً بالمقصود وهو المقول وحذفه كثير مقيس حتى قيل هو البحر حدث عنه ، وحذف المعطوف عليه لقرينة الفاء العاطفة وأن تلاوة الآيات تستلزم إتيان الرسل معنى ، وهذا على ما ذهب إليه الزمخشري والجمهور على أن الهمزة مقدمة من تأخير لصدارتها والفاء على نية التقدير ، والتقدير فيقال لهم : ألم تكن الخ فليس هناك سوى حذف القول ، وفي "الكشف" لو حمل على أن المحذوف فيوبخون لدلالة ما بعده عليه ، وفائدة هذا الأسلوب مع أن الأصل فيدخلهم في عذابهم الدلالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرون بعد في

الموقف معذبون بالتوبيخ لكان وجهاً ﴿ فاستكبرتم ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ قوماً عادتهم الإجرام.

(26/700)

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله ﴾ أي وما وعده سبحانه من الأمور الآتية أو وعده تعالى بذلك ﴿ حَقّ ﴾ أي كائن هو أو متعلقه لا محالة ففي الكلام تجوز إما في الطرف أو في النسبة.

وقرأ الأعرج.

وعمرو بن قائد ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ ﴾ بفتح الهمزة على لغة سليم ﴿ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ برفع ﴿ الساعة ﴾ في قراءة الجمهور على العطف على محل إن واسمها على ما ذهب إليه أبو علي وتبعه الزمخشري، ومن زعم أن لاسم إن موضعاً جوز العطف عليه هنا، وزعم أبو حيان أن الصحيح أنه لا يجوز كلا الوجهين وعليه فجملة ﴿ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ عطف على الجملة السابقة، وقرأ حمزة ﴿ والساعة ﴾ بالنصب عطفاً على اسم أن وروي ذلك عن الأعمش.

وأبي عمرو.

وأبي حيوة.

وعيسى .

والعبسي .

والمفضل ، وذكر أمر الساعة وإنها لا ريب في وقوعها مع أنها من جملة ما وعد الله تعالى اعتناءً بأمر البعث المقصود بالمقام ﴿ قُلْتُمْ ﴾ لغاية عتوكم : ﴿ مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ ﴾ أي أي شيء هي استغراباً لها جداً كما يؤذن به جمع ﴿ مَّا نَدْرِى ﴾ مع الاستفهام .

(27/700)

﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ استشكل ذلك لما أنه استثناء مفرغ وقد قالوا : لا يجوم تفريغ العامل إلى المفعول المطلق المؤكد فلا يقال : ما ضربت إلا ضرباً لأنه بمنزلة ما ضربت إلا ضربت ، وقال الرضي : إن الاستثناء المفرغ يجب أن يستثنى من متعدد مقدر معرب بإعراب المستثنى مستغرق لذلك الجنس حتى يدخل فيه المستثنى بيقين ثم يخرج بالاستثناء وليس مصدر نظن محتملاً مع الظن غيره حتى يخرج الظن منه ، وكذا يقال في ما ضربت إلا ضرباً ونحوه وهذا مراد من قال : إنه من قبيل استثناء الشيء من نفسه ، واختلفوا في حله فقيل : إن معنى ما نظن ما نفعل الظن كما في نحو قيم وقعد وحينئذٍ يصح الاستثناء ويتغاير مورد النفي والإيجاب من حيث التقدير والتجوز في الاستثناء من العام المقدر وجعل ﴿ نَّظُنُّ

﴿ في معنى الفعل لا نفعل الظن كأنه قيل : ما نفعل فعلاً إلا الظن ، وكذا يقال في أمثاله ومنها قوله الأعشى :

وحل به الشيب أثقاله . . .

وما اغتره الشيب إلا اغترار

وارتضاه صاحب الكشف ، وقيل : ما نظن بتأويل ما نعتقد ويكون ﴿ ظَنّا ﴾ مفعولاً به أي ما نعتقد شيئاً إلا ظناً ، وارتضاه أبو حيان .

وتعقب بأن ظاهر حالهم أنهم مترددون لا معتقدون .

(28/700)

وأجيب بأن الاعتقاد المنفي لا ينافي ظاهر حالهم بل يقررها على أتم وجه ، وقيل المستثنى ظن أمر الساعة والمستثنى منه مطلق الظن كأنه قيل لا ظن ولا تردد لنا إلا ظن أمر الساعة والتردد فيه فالكلام لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغة ، وقال الرضي : إن ما ضربت إلا ضرباً يحتمل التعدد من حيث توهم المخاطب إذ ربما تقول ضربت وقد فعلت غير الضرب مما يجري مجراه من مقدماته كالتهديد فتدفع ذلك وتقول ضربت ضرباً فهو نظير جاء زيد زيد فلما كان ضربت محتملاً للضرب وغيره من حيث التوهم صار كالمتعدد

الشامل للضرب وغيره ، وحاصله أن لاضرب لما احتمل قبل التأكيد والاستثناء فعلاً آخر حمل على العموم بقرينة الاستثناء فيكون المعنى ما فعلت شيئاً إلا ضرباً ، وهكذا ﴿ مَا نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ وهذا كالمتحد مع ما ذكرناه أولاً .

ورد بأن الاستثناء يقتضي الشمول المحقق ولا يكفي فيه الاحتمال المحقق فضلاً عن المتوهم .

وتعقب بأنه ليس بشيء لأنه إذا تجرد الفعل لمعنى عام صار الشمول محققاً على أن عدم كفاية الشمول الفرضي غير مسلم كما يعرفه من يتتبع موارده ، وذهب ابن يعيش .

وأبو البقاء إلى أنه على القلب والتقديم والتأخير والأصل ءن نحن إلا نظن ظناً وحكى ذلك عن المبرد ، وقد حمل عليه ما حكاه أبو عمرو بن العلاء .

وسيبويه من قول العرب : ليس الطيب إلا المسك بالرفع فقال : الأصل ليس إلا الطيب المسك ليكون اسم ليس ضمير الشأن وما بعد إلا مبتدأ وخبراً في موضع الخبر لها ، ورده الرضي وقال : إنه تكلف لما فيه من التعقيد المخل بالفصاحة .

والمثال المحكي وارد على لغة بني تميم فإنهم عاملوا ليس معاملة ما فاهملوها لانتقاض النفي بإلا ، وقيل ﴿ ظَنّا ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف والمستثنى محذوف والتقدير إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً .

وحكي عن المبرد أيضاً وفيه حذف إن واسمها وخبرها وإبقاء المصدر وذلك لا يجوز ، وفيه أيضاً من التعقيد المخل بالفصاحة ما فيه ، ولا أظن صحة حكايته عن المبرد لغاية برودته ، وجوز صاحب التقريب أن يكون المراد إن نظن إلا ظناً ضعيفاً فهو مصدر مبين للنوع حذفت صفته كما صرح به في "البحر" لا مؤكد ، وهذا يوافق ما ذكره الإمام السكاكي في بحث أن التنكير قد يكون للتحقير .

وتعقب بأن قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ يأباه فإن مقابل الاستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه ، وقد صرح غير واحد بأن هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها والمراد بها استمرار النفي وتأكيده ، قيل : والمعنى وما نحن بمستيقنين إمكان الساعة أي لا نتيقن إمكانها أصلاً فضلاً عن تحقق وقوعها المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ فقولهم ذلك رد لهذا ، ولعل المثبتين لأنفسهم الظن من غير إيقان بأمر الساعة غير القائلين ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [الجاثية : 24] فإن ذلك ظاهر في أنهم منكرون للبعث جازمون بنفي الساعة فيكون الكفرة صنفين صنف جازمون بنفيها كأئمتهم وصنف مترددون متحيرون فيها فإذا سمعوا ما يؤثر عن آبائهم أنكروها وإذا سمعوا الآيات المتلوة تقهقر إنكارهم فترددوا .

ويحتمل اتحاد قائل ذاك وقائل هذا إلا أن كل قول في وقت وحال فهو مضطرب مختلف

الحالات تارة يجزم بالنفي فيقول : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [الجاثية : 24] وأخرى يظن فيقول إن نظن إلا ظناً ، وقيل : الجزم هناك بنفي وقوعها والظن من غير إيقان هنا بمجرد إمكانها فهم مترددون بإمكانها الذاتي جازمون بعدم وقوعها بالفعل فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 25 صـ ﴾

(30/700)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

اعتراض تذييل لقوله : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ﴾ [الجاثية : 26] أي لله لا لغيره مُلك السماوات والأرض ، أي فهو المتصرف في أحوال ما حوته السماوات والأرض من إحياء وإماتة ، وغير ذلك بما أوجد من أصولها وما قدّر من أسبابها ووسائلها فليس للدهر تصرف ولا لما سوى الله تعالى .

وتقديم المجرور على المسند إليه لإفادة التخصيص لرد معتقدهم من خروج تصرف غيره في بعض ما في السماوات والأرض كقولهم في الدهر .

﴿ ﴾ صلى الله عليه وسلم .

لما جرى ذِكْر يوم القيامة أعقب بإنذار الذين أنكروه من سوء عاقبتهم فيه .

و﴿ المبطلون والأرض ويَوْمَ تَقُومُ الساعةيَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون * وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كتابها اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هذا كتابنا يَنطِقُ عَلَيْكُم ﴾ : الآتون بالباطل في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم إذ الباطل ما ضادَّ الحق .

والمقصود منه ابتداء هنا هو الشرك بالله فإنه أعظم الباطل ثم تجيء درجات الباطل متنازلة وما من درجة منها إلا وهي خسارة على فاعلها بقدر فعلته وقد أنذر الله الناس وهو العليم بمقادير تلك الخسارة .

﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ يخسر ﴾ ، وقدم عليه للاهتمام به واسترعاء الأسماع لما يرد من وصف أحواله .

و﴿ يومئذٍ ﴾ توكيد ل ﴿ يوم تقوم الساعة ﴾ وتنوينه عوض عن المضاف إليه المحذوف لدلالة ما أضيف إليه يومَ عليه ، أي يوم إذْ تقوم الساعة يخسر المبطلون فالتأكيد بتحقيق مضمون الخبر ولتهويل ذلك اليوم .

والخطاب في ﴿ ترى ﴾ لكل من يصلح له الخطاب بالقرآن فلا يقصد مخاطب معين ، ويجوز أن يكون خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم والمضارع في ﴿ ترى ﴾ مراد به الاستقبال فالمعنى : وترى يومئذٍ .

والأمة : الجماعة العظيمة من الناس الذين يَجمعهم دين جاء به رسول إليهم .

و ﴿ جاثية ﴾ اسم فاعل من مصدر الجُثُوّ بضمتين وهو البروك على الركبتين باستئفاز ، أي بغير مباشرة المقعدة للأرض ، فالجاثي هو البارك المستوفز وهو هيئة الخضوع .

وظاهر كون ﴿ كتابها ﴾ مفرداً غير معرف باللام أنه كتاب واحد لكل أمة فيقتضي أن يراد كتاب الشريعة مثل القرآن ، والتوراة ، والإنجيل ، وصحف إبراهيم وغير ذلك لا صحائف الأعمال ، فمعنى ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ تدعى لتعرض أعمالها على ما أُمرت به في كتابها كما في الحديث " القرآن حجةٌ لك أو عليك " وقيل : أريد بقوله : ﴿ كتابها ﴾ كتاب تسجيل الأعمال لكل واحد ، أو مراد به الجنس وتكون إضافته إلى ضمير الأمة على إرادة التوزيع على الأفراد لأن لكل واحد من كل أمة صحيفة عمله خاصة به كما قال تعالى : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [الإسراء : 14] ، وقال : ﴿ ووَضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ [الكهف : 49] أي كل مجرم مشفق مما في كتابه ، إلا أن هذه الآية الأخيرة وقع فيها الكتاب معرفاً باللام فقبل العمومَ .

وأما آية الجاثية فعمومها بدليّ بالقرينة .

فالمراد : خصوص الأمم التي أرسلت إليها الرسل ولها كتب وشرائع لقوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

ومسألة مؤاخذة الأمم التي لم تجئها الرسل بخصوص جحد الإله أو الإشراكِ به مقررة في أصول الدين ، وتقدمت عند قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ في سورة الإسراء (15) .

وقرأ الجمهور ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ برفع ﴿ كل ﴾ على أنه مبتدأ و ﴿ تدعى ﴾ خبر عنه والجملة استئناف بياني لأن جُثو الأمة يثير سؤال سائل عما بعد ذلك الجثوّ .

وقرأه يعقوب بنصب ﴿ كلَّ ﴾ على البدل من قوله : ﴿ وترى كل أمة ﴾ .

(32/700)

وجملة ﴿ تدعى ﴾ حال من ﴿ كل أمة ﴾ فأعيدت كلمة ﴿ كل أمة ﴾ دون اكتفاء بقوله ﴿ تدعَى ﴾ أو يدعون للتهويل والدعاء إلى الكتاب بالأمم تجثو ثم تدعى كل أمة إلى كتابها فتذهب إليه للحساب ، أي يذهب أفرادها للحساب ولو قيل : وترى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها لأوهم أن الجثو والدعاء إلى الكتاب يحصلان معاً مع ما في إعادة الخبر مرة ثانية من التهويل .

وجملة ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ بتقدير قول محذوف ، أي يقال لهم اليوم تجزون ، أي يكون جزاؤكم على وفق أعْمالِكم وجريها على وفق ما يوافق كتاب دينكم من أفعالكم في الحسنات والسيئات ، وهذا البدل وقع اعتراضاً بين جملة ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ وجملة ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [الجاثية : 30] الآيات .

وجملة ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ من مقول القول المقدّر ، وهي مستأنفة استئنافاً بيانياً لتوقع سؤال من يقول منهم : ما هو طريق ثبوت أعمالها .

والإشارة إما إلى كتاب شريعة الأمة المدعوة ، وإما إلى كُتُب أفرادها على تأويل الكتاب بالجنس على الوجهتين المتقدمين .

وإفراد ضمير ﴿ ينطق ﴾ على هذا الوجه مراعاة للفظ ﴿ كتابنا ﴾ ، فالمعنى هذه كتبنا تنطق عليكم بالحق .

وإضافة (كتاب) إلى ضمير الله تعالى بعد أن أضيف إلى ﴿ كل أمة ﴾ لاختلاف الملابسة ، فالكتاب يلابس الأمة لأنّه جعل لإحصاء أعمالهم أو لأن ما كلفوا به مثبت فيه ، وإضافته إلى ضمير الله لأنه الآمر به .

وإسناد النطق إلى الكتاب مجاز عقلي وإنما تنطق بما في الكتاب ملائكة الحساب ، أو استعير النطق للدلالة نحو قولهم : نطقت الحال .

والمعنى : أن فيه شهادة عليهم بأن أعمالهم مخالفة لوصايا الكتاب أو بأنها مكتوبة في صحائف أعمالهم على التأويلين في المراد بالكتاب .

ولتضمن ﴿ ينطق ﴾ معنى (يشهد) عدي بحرف (على) .

(33/700)

ولما كان المقام للتهديد اقتصر فيه على تعدية ﴿ يَنطق ﴾ بحرف (على) دون زيادة : ولكم ، إيثاراً لجانب التهديد .

وجملة ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ استئناف بياني لأنهم إذا سمعوا ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ خطر ببالهم السؤال : كيف شهد عليهم الكتاب اليوم وهم قد عملوا الأعمال في الدنيا ، فأجيبوا بأن الله كَانَ يأمر بنسخ ما يعملونه في الصحف في وقت عمله .

وإن حمل الكتاب على كتب الشريعة كانت جملة ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ تعليلاً للجملة قبلها باعتبار تقييد النطق بأنه بالحق ، أي لأن أعمالكم كانت محصاة مبيّن ما هو منها مخالف لما أمر به كتابهم .

والاستنساخ : استفعال من النسخ .

والنسخ : يطلق على كتابة ما يكتب على مثالِ مكتوبٍ آخرَ قبله .

ويسمى بالمعارضة أيضاً .

وظاهر الأساس أن هذا حقيقة معنى النسخ وأن قولهم : نسخت الشمسُ الظلَّ مجاز .

وكلام جمهور العلماء بخلافه كما يقوله علماء أصول الفقه في باب النسخ .

وكلام الراغب يحتمل الإطلاقين ، فإذا درجتَ على كلام الجمهور فقد جُعلت كتابةُ مكتوبٍ على مثال مكتوبٍ قبله كإزالةٍ للمكتوب الأول لأن ذلك في الغالب يكون لقصد التعويض عن المكتوب الأول لمن ليس عنده أو لخشيَةِ ضياع الأصل .

وعن ابن عباس أنه يقول : ألستُم عَرَباً وهل يكون النسخ إلا من كتاب .

وأما إطلاق النسخ على كتابة أُنُفٍ ليست على مثال كتابةٍ أخرى سبقتها فكلام الزمخشري في الأساس صريح في أنه من معاني النسخ حقيقة ، وهو ظاهر كلامه في "الكشاف" ، فيكون لفظ النسخ مشتركاً في المعنيين بل ربما كان معنى مطلق الكتابة هو الأصلَ وكانت تسمية كتابةٍ على مثل كتابةٍ سابقة نسخاً لأن ذلك كتابة وكلام صاحب "اللسان" وصاحب "القاموس" أن نَقل الكتابة لا يسمى نسخاً إلا إذا كان على مثال كتابة سابقة .

وهذا اختلاف مُعضل ، والأظهر ما ذهب إليه صاحب "اللسان" وصاحب "القاموس" فيجوز أن يكون السين والتاء في ﴿ نستنسخ ﴾ للمبالغة في الفعل مثل استجاب .

ويجوز أن يكون السين والتاء للطلب والتكليف ، أيْ نكلف الملائكة نسخ أعمالكم ، وعلى هذا المحمل حمل المفسرون السين والتاء هنا أي للطلب ، ثم يجوز أن يكون النسخ على معنى نقل كتابة عن كتابة سابقة وبه فسر ابن عباس قال : إن الله وكل ملائكة ينسخون من أم الكتاب في رمضان كل ما سيكون من أعمال بني آدم ، ويجوز أن يكون النسخ بمعنى كتابة ما تعلمه النّاس دون نقل عن أصل .

والمعنى : إنا كنا نكتب أعمالكم .

وعن علي بن أبي طالب أنه قال : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم ومثله عن الحسن والسدّي .

والنسخ هنا : الكتابة ، وإسناد فعل الاستنتاج إلى ضمير الله على هذا إسناد مجازي لأن الله أمر الحفظة بكتابة الأعمال .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30)

الفاء لعطف المفصل على المجمل ، وهو تفصيل لما أجمل في قوله : ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ [الجاثية : 28] وما بينهما اعتراض .

فالكلام هنا هو متصل بقوله : ﴿ وترى كل أمة جاثية كما دل عليه قوله : وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ .

وابتدىء في التفصيل بوصف حال المؤمنين مع أن المقام للحديث عن المبطلين في قوله : ﴿ يومئذٍ يخسر المبطلون ﴾ [الجاثية : 27] تنويهاً بالمؤمنين وتعجيلاً لمسرتهم وتعجيلاً لمساءة المبطلين لأن وصف حال المؤمنين يُؤذن بمخالفة حال الآخَرين لحالهم .

والتعبير بـ (يدخلهم في رحمته) شامل لما تتصوره النفس من أنواع الكرامة والنعيم إذ جعلت رحمة الله بمنزلة المكان يدخلونه .

(35/700)

وافتتح بيان حال الذين كفروا بما يقال لهم من التوبيخ والتقرير من قِبَل الله تعالى ، فقوله : ﴿ أفلم تكن آياتي ﴾ مقول قول محذوف لظهور أن ذلك خطاب صادر من متكلم من جانب الله تعالى فيقدر فيقال لهم على طريقة قوله بعد ﴿ وقيل اليوم ننساكم ﴾ [الجاثية : 34] .

والفاء جواب ﴿ أمّا ﴾ ، أو فيقال لهم ﴿ أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ فلما حذف فعل القول قُدم حرف الاستفهام على فاء الجواب اعتداداً باستحقاقه التصدير كما يُقدم

الاستفهام على حروف العطف .

ولم يتعدّ بالمحذوف لأن التقديم لدفع الكراهة اللفظية من تأخر الاستفهام عن الحرف وهي موجُودة بعد حذف ما حُذف .

والاستفهام توبيخ وتقرير .

والمراد بالآيات القرآن ، أي فاستكبرتم على الأخذ بها ولم تقتصروا على الاستكبار بل كنتم قوماً مجرمين ، أي لم تفدكم مواعظ القرآن صلاحاً لأنفسهم بما سمعتم منه .

وإقحام ﴿ قوماً ﴾ دون الاقتصار على : وكنتم مجرمين ، للدلالة على أن الإجرام صار خُلقاً لهم وخالط نفوسهم حتى صار من مقومات قوميتهم وقد قدمناه غير مرة .

وجملة ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق ﴾ إلخ عطف على جملة ﴿ فاستكبرتم ﴾ .

والتقدير : وقلتم ما ندري ما الساعة إذا قيل لكم إن الساعة لا ريبَ فيها .

وَهذانِ القولان مما تكرر في القرآن بلفظه وبمعناه ، فهو تخصيص لبعض آيات القرآن بالذكر بعد التعميم في قوله : ﴿ أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم ﴾ .

والتعريف في ﴿ الساعة ﴾ للعهد وهي ساعة البعث ، أي زمان البعث كما عبر عنه باليوم .

وقرأ الجمهور ﴿ والساعة لا ريب فيها ﴾ برفع ﴿ الساعة ﴾ عطف على جملة ﴿ إن وعد الله حق ﴾ .

وقرأه حمزة وحده بنصب ﴿ والساعة ﴾ عطفاً على ﴿ إن وعد الله ﴾ من العطف على معمولي عامل واحد .

(36/700)

ومعنى ﴿ ما ندري ما الساعة ﴾ ما نعلم حقيقة الساعة ونفي العلم بحقيقتها كناية عن جحد وقوع الساعة ، أي علمنا أنها لا وقوع لها ، استناداً للتخيلات التي ظنوها أدلةً كقولهم : ﴿ أإذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ [الإسراء : 49] .

وقوله : ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ ظاهر في أنه متصل بما قبله من قولهم : ﴿ ما ندري ما الساعة ﴾ ، ومبين بما بعده من قوله : ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ وموقعه ومعناه مشكل ، وفي نظمه إشكال أيضاً .

فأما الإشكال من جهة موقعه ومعناه فلأن القائلين موقنون بانتفاء وقوع الساعة لما حُكي عنهم آنفاً من قولهم : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [الجاثية : 24] الخ فلا يحق عليهم أنهم يظنون وقوع الساعة بوجه من الوجوه ولو احتِمالاً .

ولا يستقيم أن يطلق الظن هنا على الإيقان بعدم حصوله فيعضِل معنى قولهم ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ ، فتأوله الفخر فقال : إن القوم كانوا فريقين ، وأن الذين قالوا ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾

فريق كانوا قاطعين بنفي البعث والقيامةِ وهم الذين ذكرهم الله في الآية المتقدمة بقوله : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [الجاثية : 24] .

ومنهم من كان شاكاً متحيراً فيه وهم الذين أراد الله بهذه الآية أ هـ .

وأقول : هذا لا يستقيم لأنه لو سلم أن فريقاً من المشركين كانوا يشكون في وقوع الساعة ولا يجزمون بانتفائه فإن جمهرة المشركين نافون لوقوعها فلا يناسب مقامَ التوبيخ تخصيصُه بالذين كانوا مترددين في ذلك .

والوجه عندي في تأويله : إما يكون هذا حكاية لاستهزائهم بخبر البعث فإذا قيل لهم : ﴿ الساعة لا ريب فيها ﴾ قالوا استهزاء ﴿ ما نظنّ إلاّ ظنّاً ﴾ ، ويدل عليه قوله عقبه ﴿ وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [الجاثية : 33] .

وتأوله ابن عطية بأن معناه إن نظن بعدَ قبول خبركم إلا ظنًّا وليس يعطينا يقيناً انتهى انتهى . ا هـ ، أي فهو إبطالهم لخصوص قول المسلمين : الساعة لا ريب فيها .

(37/700)

وأما إشكاله من جهة النظم فمرجع الإشكال إلى استثناء الظن من نفسه في قوله : ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ فإن الاستثناء المفرغ لا يصح أنْ يكون مفرغاً للمفعول المطلق لانتفاء فائدة

التفريع .

والخلاصُ من هذا ما ذهب إليه ابن هشام في "مغني اللّبيب" أن مصحح الاستثناء الظن من نفسه أن المسْتثنَى هو الظن الموصوفُ بما دل عليه تنكيره من التحقير المشعرِ به التنوينُ على حد قول الأعشى :

أحل به الشيب أثْقاله

وما اغتره الشيبُ إلا اغترارا . . .

أي ، إلا ظناً ضعيفاً .

ومفعولا ﴿ نظن ﴾ محذوفان لدليل الكلام عليهما .

والتقدير : إن نظن الساعةَ واقعة .

وقولهم : ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ يفيد تأكيد قولهم ﴿ ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً ﴾ ، وعطفه عطف مرادف ، أي للتشريك في اللفظ .

والسين والتاء في ﴿ بمستيقنين ﴾ للمبالغة في حصول الفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(38/700)

قوله تعالى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وصلوا إلى حد عظيم من العناد ، التفت إلى أسلوب الغيبة إعراضاً عنهم إيذاناً بشديد الغضب فقال تعالى : ﴿ وبدا ﴾ أي ولم يزالوا يقولون ذلك إلى أن بدت لهم الساعة بما فيها من الأوجال ، والزلازل والأهوال ، وظهر ﴿ لهم ﴾ غاية الظهور ﴿ سيئات ما ﴾ ولما كان السياق للكفرة ، وكانوا مؤاخذين بجميع أعمالهم فإنه ليس لهم أساس صالح يكون سبباً لتكفير شيء مما تقلبوا فيه ولم يقتض السياق خصوصاً مثل الزمر ، عبر بالعمل الذي هو أعم من الكسب فقال : ﴿ عملوا ﴾ فتمثلت لهم وعرفوا مقدار جزائها واطلعوا على جميع ما يلزم على ذلك ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط على حال القهر والغلبة ، قال أبو حيان : ولا يستعمل إلا في إلا في المكروه .

﴿ ما كانوا ﴾ جبلة وخلقاً ﴿ به يستهزءون ﴾ أي يوجدون الهزء به على غاية الشهوة واللذة إيجاد من هو طالب لذلك ﴿ وقيل ﴾ أي لهم على قطع الأحوال وأشدها قولاً لا معقب له ، فكأنه بلسان كل قائل : ﴿ اليوم ننساكم ﴾ أي نفعل معكم بالترك من جميع ما يصلحكم فعل المنسي الذي نقطع عنه جميع إحساننا فيأتيه كل شر ﴿ كما نسيتم ﴾ وأضاف المصدر إلى ظرفه لما فيه من الرشاقة والبلاغة فقال تعالى : ﴿ لقاء يومكم هذا ﴾ أي الذي عملتم في أمره عمل الناسي له ، ومن نسي لقاء اليوم نسيء لقاء الكائن فيه بطريق الأولى ، وقد عابهم الله سبحانه تعالى بذلك أشد العيب لأن ما عملوه ليس من فعل الحزمة أن يتركوا ما ضرره محتمل لا يعتدون له ، وإنما هذا فعل الحمق الذين هم عندهم أسقال لا عبرة لهم ولا وزن لهم ، وعبر بالنسيان لأن علمه مركوز في طبائعهم ، وعبر في فعله بالمضارع ليدل على الاستمرار ، وفي فعلهم بالماضي ليدل على أن من وقع منه ذلك وقتاً ما وإن قل كان على خطر عظيم بتعريض نفسه لاستمرار الإعراض عنه .

ولما كان تركه على هذا الحال يلزم منه استمرار العذاب ، صرح به إيضاحاً له لئلا يظن غير ذلك ، فقال مبيناً لحالهم : ﴿ ومأواكم النار ﴾ ليس لكم براح عنها أصلاً ، لأن أعمالكم أدخلتكموها ، ولا يخرج منها إلا من أذنا في إخراجه ، نحن قد جعلناكم في عداد المنسي فلا يكون من قبلنا لكم فرج ﴿ وما لكم ﴾ في نفس الأمر سواء أفكرتم وأنتم مكذبون في

مدافعة هذا اليوم أو تركتموه ترك المنسي ﴿ من ناصرين ﴾ ينقذونكم من ذلك بشفاعة ولا مقاهرة .

(40/700)

ولما ذكر جزاءهم على ما هو الحق المساوي لأعمالهم طبق الفعل بالفعل ، علله بما لزم على أعمالهم فقال : ﴿ ذلكم ﴾ أي العذاب العظيم ﴿ بأنكم اتخذتم ﴾ أي بتكليف منكم لأنفسكم وقسر على خلاف ما أدى إليه العقل ، وجاءت به الرسل ، وساعدت عليه الفطر الأول ﴿ آيات الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا شيء أعظم منه ﴿ هزواً ﴾ أي جعلتموها عين ما أنزلت للإبعاد منه ﴿ وغرتكم ﴾ لضعف عقولكم ﴿ الحياة الدنيا ﴾ أي الدنية فآثرتموها لكونها حاضرة وأنت كالبهائم لا يعدو نظركم المحسوس فقلتم : لا حياة غيرها ولا بعث ولا حساب ، ولو تعقلتم وصفكم لها لأداكم إلى الإقرار بالأخرى .

ولما أوصلهم إلى هذا الحد من الإهانة ، سبب عنه زيادة في إهانتهم وتلذيذاً لأوليائه الذين عادوهم فيه وإشماتاً لهم بهم : ﴿ فاليوم ﴾ بعد إيوائهم فيها ﴿ لا يخرجون ﴾ بمخرج ما ﴿ منها ﴾ لأن الله لا يخرجهم ولا يقدر غيره على ذلك ﴿ ولا هم ﴾ خاصة ﴿ يستعتبون ﴾ أي يطلب من طالب ما منهم الإعتاب ، وهو الاعتذار بما يثبت لهم العذر

ويزيل عنهم العتب الموجب للغضب بعمل من الأعمال الصالحات لأنهم في دار الجزاء لا دار العمل .

ولما أثبت سبحانه بعده بإثبات الآيات المرئية والمسموعة وإعزاز أوليائه وإذلال أعدائه من غير مبالاة بشيء ولا عجز عن شيء مع الإحاطة التامة بكل شيء قدرة وعلماً ، تسبب عن ذلك حتماً قوله تعالى : ﴿ فللّه ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بجميع صفات الكمال .

ولما أبان سبحانه أن ذلك ثابت له لذاته لا لشيء آخر ، أثبت أنه لا بالإحسان والتدبير فقال تعالى : ﴿ رب السماوات ﴾ أي ذات العلو والاتساع والبركات .

(41/700)

ولما كان السياق لإثبات الاختصاص بالكمال ، وكانوا قد جعلوا له سبحانه ما دل على أنهم لا شبهة لهم في عبادتهم بحصر أمرهم في الهوى ، أعاد ذكر الرب تأكيداً وإعلاماً أن له في كل واحد من الخافقين أسراراً غير ما له في الآخر ، فالتربية متفاوتة بحسب ذلك ، وأثبت العاطف إعلاماً بأن كمال قدرته في ربوبيته للأعلى والأسفل على حد سواء دفعاً لتوهم أن حكمه في الأعلى أمكن لتوهم الاحتياج إلى مسافة فقال تعالى : ﴿ ورب

الأرض ﴾ أي ذات القبول للواردات .

ولما خص الخافقين تنبيهاً على الاعتبار بما فيهما من الآيات لظهورها ، عم تنبيهاً على أن له وراء ذلك من الخلائق ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى فقال مسقطاً العاطف لعدم الاحتياج إليه بعد إثبات استواء الكونين الأعلى والأسفل في حكمه من حيث العلم والقدرة للتنزه عن المسافة ، وذلك لا يخرج عنه شيء من الخلق لأنه إما أن يكون علوياً أو سفلياً ﴿ رب العالمين ﴾ فجمع ما مفرده يجل على جميع الحوادث لأن العالم ما سوى الله .

تنبيهاً على أصنافه وتصريحاً بها وإعلاماً بأنه أريد به مدلوله المطابقي لا البعض بدلالة التضمن ، وأعاد ذكر الرب تنبيهاً على أن حفظه للخلق وتربيته لهم ذو ألوان بحسب شؤون الخلق ، فحفظه لهذا الجزء على وجه يغاير حفظه لجزء آخر ، وحفظه للكل من حيث هو كل على وجه يغاير حفظه لكل جزء على حدته ، مع أن الكل بالنسبة إلى تمام القدرة على حد سواء .

(42/700)

ولما أفاد ذلك غناه الغنى المطلق وسيادته وأنه لا كفوء له ، عطف عليه بعض اللوازم لذلك تنبيهاً على مزيد الاعتناء به لدفع ما يتوهمونه من ادعاء الشركة التي لا يرضونها لأنفسهم

فقال : ﴿ وله ﴾ أي وحده ﴿ الكبرياء ﴾ أي الكبر الأعظم الذي لا نهاية له : ﴿ في السماوات ﴾ كلها ﴿ والأرض ﴾ جميعها اللتين فيهما آيات للمؤمنين ، روى مسلم وأبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة ومسلم عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يقول الله عز وجل : " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار " ، وفي رواية : عذبته ، وفي رواية : قصمته .

﴿ وهو ﴾ وحده ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي يضع الأشياء في أتقن مواضعها ولا يضع شيئاً إلا كذلك كما أحكم أمره ونهيه وجميع شرعه ، وأحكم نظم هذا القرآن جملاً وآيات ، وفواصل وغايات ، وبعد أن حرر معانيه وتنزيله جواباً لما كانوا يعتنون به ، فصار معجزاً في نظمه ومعناه وإنزاله طبق أجوبة الوقائع على ما اقتضاه الحال ، فانطبق آخرها على أولها بالصفتين المذكورتين ، وبالحث على الاعتبار بآيات الخافقين ، والتصريح بما لزم ذلك من الكبرياء المقتضية لإذلال الأعداء وإعزاز الأولياء – والله الهادي إلى الصواب وإله المرجع والمآب – والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 110 . 113 ﴾

(43/700)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أي في الآخرة ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ وقد كانوا من قبل يعدونها حسنات فصار ذلك أول خسرانهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ وهذا كالدليل على أن هذه الفرقة لما قالوا ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ إنما ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وعلى هذا الوجه فهذا الفريق شر من الفريق الأول ، لأن الأولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين ، وهذا الفريق ضموا إلى الإصرار على الإنكار الاستهزاء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ وفي تفسير هذا النسيان وجهان الأول : نترككم في العذاب كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد الثاني : نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به ، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تلتفتوا إليه بل جعلتموه كالشيء الذي يطرح نسياً منسياً ، فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة أشياء فأولها : قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية وثانيها : أنه يصير مأواهم النار وثالثها : أن لا يحصل لهم أجر من الأعوان والأنصار ، ثم بيّن تعالى أنه يقال لهم إنكم إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد ؛ لأجل أنكم أتيتم بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة فأولها : الإصرار على إنكار الدين الحق وثانيها : الاستهزاء به والسخرية منه ، وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى : ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ﴾

وثالثها : الاستغراق في حب الدنيا والإعراض بالكلية عن الآخرة ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا ﴾ .

(44/700)

ثم قال تعالى : ﴿ فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ يُخْرَجُونَ ﴾ بفتح الياء ، والباقون بضمها ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم ، أي يرضوه ، ولما تم الكلام في هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى ، فقال : ﴿ فَلِلَّهِ الحمد رَبِّ السموات وَرَبِّ الأرض رَبِّ العالمين ﴾ أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والأرض ، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح والذوات والصفات ، فإن هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَهُ الكبرياء فِي السموات والأرض ﴾ وهذا مشعر بأمرين أحدهما : أن التكبير لا بد وأن يكون بعد التحميد ، والإشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذي ذكروه لائقاً بإنعامه ، بل هو أكبر من حمد الحامدين ، وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين والثاني : أن هذا الكبرياء له لا لغيره ، لأن واجب الوجود لذاته ليس إلا هو .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ يعني أنه لكمال قدرته يقدر على خلق أي شيء أراد ، ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرحمة والفضل والكرم ، وقوله ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ يفيد الحصر ، فهذا يفيد أن الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس إلا هو ، وذلك يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو ، ولا محسن ولا متفضل إلا هو .

(45/700)

قال مولانا رضي الله عنه : تمّ تفسير هذه السورة يوم الجمعة بعد الصلاة الخامس عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة ، والحمد لله حمداً دائماً طيباً مباركاً مخلداً مؤبداً ، كما يليق بعلو شأنه وباهر برهانه وعظيم إحسانه ، والصلاة على الأرواح الطاهرة المقدسة من ساكني أعالي السموات ، وتخوم الأرضين ، من الملائكة والأنبياء والأولياء والموحدين ، خصوصاً على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 235.236 ﴾

(46/700)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ وبدا لهم ﴾ الآية حكاية حال يوم القيامة . ﴿ وحاق ﴾ معناه : نزل وأحاط وهي مستعملة في المكروه ، وفي قوله : ﴿ ما كانوا ﴾ حذف مضاف تقديره : جزاء ما كانوا ، أي عقاب كونهم ﴿ يستهزئون ﴾ .

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34)

﴿ ننساكم ﴾ معناه : نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا ، فلم يقع منكم استعداد له ولا تأهب ، فسميت العقوبة في هذه الآية باسم الذنب . والمأوى : الموضع الذي يسكنه الإنسان ويكون فيه عامة أوقاته أو كلها أجمع . و: ﴿ آيات الله ﴾ لفظ جامع لآيات القرآن وللأدلة التي نصبها الله تعالى لينظر فيها العباد .

وقرأ أكثر القراء : " لا يُخرَجون " بضم الياء المنقوطة من تحت وفتح الراء . وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش والحسن : " يَخرُجون " بإسناد الفعل إليهم بفتح الياء وضم الراء . و: ﴿ يستعتبون ﴾ تطلب منهم مراجعة إلى عمل صالح .

وقوله تعالى : ﴿ فلله الحمد ﴾ إلى آخر السورة ، تحميد لله تعالى وتحقيق لألوهيته ، وفي ذلك كسر لأمر الأصنام والأنصاب .

وقراءة الناس : " ربِّ " بالخفض في الثلاثة على الصفة . وقرأ ابن محيصن : بالرفع فيها على

معنى هو ربٌّ .

و: ﴿ الكبرياء ﴾ بناء مبالغة ، وفي الحديث : يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني منهما شيئاً قصمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(47/700)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾

أي ظهر لهم جزاء سيئات ما عملوا .

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي نزل بهم وأحاط .

﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من عذاب الله .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ ﴾ أي نترككم في النار كما تركتم لقاء يومكم هذا ؛ أي تركتم العمل له .

﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ أي مسكنكم ومستقرّكم .

﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ من ينصركم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتخذتم آيَاتِ الله ﴾ يعني القرآن .

﴿ هُزُواً ﴾ لعباً .

﴿ وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتكم بأباطيلها وزخارفها ؛ فظننتم أن ليس ثَمّ غيرها ، وأن لا بعث .

﴿ فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي من النار .

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون .

وقد تقدّم .

وقرأ حمزة والكسائي "فَالْيَوْمَ لاَ يَخْرُجُونَ" بفتح الياء وضم الراء ؛ لقوله تعالى : ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ والجلود ﴾ [السجدة : 20] الباقون بضم الياء وفتح الراء ؛ لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ [المؤمنون : 107] .

ونحوه .

قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الحمد رَبِّ السماوت وَرَبِّ الأرض رَبِّ العالمين ﴾ .

قرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن "رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ" بالرفع فيها كلها على معنى هو رَبُّ .

﴿ وَلَهُ الكبرياء ﴾ أي العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال .

﴿ فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 16 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) ﴾

العامل في ﴿ ويوم تقوم ﴾ : يخسر ، و ﴿ يومئذ ﴾ : بدل من يوم ، قاله الزمخشري ، وحكاه ابن عطية عن فرقة .

والتنوين في يومئذ تنوين العوض عن جملة ، ولم تتقدم جملة إلا قوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ ، فيصير التقدير : ويوم تقوم إذ تقوم الساعة يخسر ؛ ولا مزيد فائدة في قوله : يوم إذ تقوم الساعة ، لأن ذلك مستفاد من ويوم تقوم الساعة .

فإن كان بدلاً توكيدياً ، وهو قليل ، جاز ذلك ، وإلا فلا يجوز أن يكون بدلاً .

وقالت فرقة العامل : في ويوم تقوم ما يدل عليه الملك ، قالوا : وذلك أن يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسماء ولا بالأرض ، لأن ذلك يتبدل ، فكأنه قال : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ ، والملك يوم القيامة ، فحذفه لدلالة ما قبله عليه ؛ ويومئذ منصوب بيخسر ، وهي جملة فيها استئناف ، وإن كان لها تعلق بما قبلها من جهة تنوين العوض .

و ﴿ المبطلون ﴾ : الداخلون في الباطل .

﴿ جاثية ﴾ : باركة على الركب مستوفرة ، وهي هيئة المذنب الخائف .

وقرىء : جاذية ، بالذال ؛ والجذو أشد استيفازاً من الجثو ، لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه .

وعن ابن عباس : جاثية : مجتمعة .

وعن قتادة : جماعات ، من الجثوة : وهي الجماعة ، يجمع على جثى ، قال الشاعر :

ترى جثويين من تراب عليهما . . .

صفائح صم من صفيح منضد

وعن مورج السدوسي : جاثية : خاضعة ، بلغة قريش .

وعن عكرمة : جاثية : متميزة .

وقرأ يعقوب : ﴿ كل أمة تدعى ﴾ ، بنصب كل أمة على البدل ، بدل النكرة الموصوفة من النكرة ؛ والظاهر عموم كل أمة من مؤمن وكافر .

قال الضحاك : وذلك عند الحساب .

وقال يحيى بن سلام : ذلك خاص بالكفار ، تدعى إلى كتابها المنزل عليها ، فتحاكم إليه ، هل وافقته أو خالفته ؟ أو الذي كتبته الحفظة ، وهو صحائف أعمالها ، أو اللوح المحفوظ ، أو المعنى إلى ما يسبق لها فيه ، أي إلى حسابها ، أقوال .

وأفراد كتابها اكتفاء باسم الجنس لقوله : ﴿ ووضع الكتاب ﴾ ﴿ اليوم تجزون ﴾ ، ﴿ هذا كتابنا ﴾ ، هو الذي دعيت إليه كل أمة ، وصحت إضافته إليه تعالى لأنه مالكه والآمر بكتبه وإليهم ، لأن أعمالهم مثبتة فيه .

والإضافة تكون بأدنى ملابسة ، فلذلك صحت إضافته إليهم وإليه تعالى

.

﴿ ينطق عليكم ﴾ : يشهد بالحق من غير زيادة ولا نقصان .

﴿ إنا كنا نستنسخ ﴾ : أي الملائكة ، أي نجعلها تنسخ ، أي تكتب .

وحقيقة النسخ نقل خط من أصل ينظم فيه ، فأعمال العباد كأنها الأصل .

وقال الحسن : هو كتب الحفظة على بني آدم .

وعن ابن عباس : يجعل الله الحفظة تنسخ من اللوح المحفوظ كل ما يفعل العباد ، ثم يمسكونه عندهم ، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك ، فبعيد أيضاً ، فذلك هو الاستنساخ .

وكان يقول ابن عباس : ألستم عرباً ؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل ؟ ثم بين حال المؤمن بأنه يدخله في رحمته ، وهو الثواب الذي أعد له ، وأن ذلك هو الظفر بالبغية ؛ وبين

الكافر بأنه يوبخ ويقال له : ﴿ أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم ﴾ عن اتباعها والإيمان بها وكنتم أصحاب جرائم ؟ والفاء في : أفلم ينوي بها التقديم ؛ وإنما قدمت الهمزة لأن الاستفهام له صدراً الكلام ، والتقدير : فيقال له ألم .

وقال الزمخشري : والمعنى ألم يأتكم رسلي ؟ فلم تكن آياتي تتلى عليكم ، فحذف المعطوف عليه . انتهى .

وقد تقدم الكلام معه في زعمه أن بين الفاء والواو ، إذا تقدمها همزة الاستفهام معطوفاً عليه محذوفاً ، ورددنا عليه ذلك .

وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد : ﴿ وإذا قيل إن وعد الله ﴾ ، بفتح الهمزة ، وذلك على لغة سليم ؛ والجمهور : إن بكسرها .

(50/700)

وقرأ الجمهور : ﴿ والساعة ﴾ بالرفع على الابتداء ، ومن زعم أن لاسم إن موضعاً جوز العطف عليه هنا ، أو زعم أن لأن واسمها موضعاً جوز العطف عليه ، وبالعطف على الموضع لأن واسمها هنا .

قال أبو علي : ذكره في الحجة ، وتبعه الزمخشري فقال : وبالرفع عطفاً على محل إن واسمها ،

والصحيح المنع ؛ وحمزة : بالنصب عطفاً على الله ، وهي مروية عن الأعمش ، وأبي عمرو ، وعيسى ، وأبي حيوة ، والعبسي ، والمفضل .

﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ ، تقول : ضربت ضرباً ، فإن نفيت ، لم تدخل إلا ، إذ لا يفرغ بالمصدر المؤكد ، فلا تقول : ما ضربت إلا ضرباً ، ولا ما قمت إلا قياماً .

فأما الآية ، فتأول على حذف وصف المصدر حتى يصير مختصاً لا مؤكداً ، وتقديره : إلا ظناً ضعيفاً ، أو على تضمين نظن معنى نعتقد ، ويكون ظناً مفعولاً به .

وقد تأول ذلك بعضهم على وضع إلا في غير موضعها ، وقال : التقدير ان نحن إلا نظن ظناً .

وحكى هذا عن المبرد ، ونظيره ما حكاه أبو عمرو بن العلاء وسيبويه من قول العرب : ليس الطيب إلا المسك . . .

_@_ قال المبرد : ليس إلا الطيب المسك . انتهى .

واحتاج إلى هذا التقدير كون المسك مرفوعاً بعد إلا وأنت إذا قلت : ما كان زيد إلا فاضلاً نصبت ، فلما وقع بعد إلا ما يظهر أنه خبر ليس ، احتاج أن يزحزح إلا عن موضعها ، ويجعل في ليس ضمير الشأن ، ويرفع إلا الطيب المسك على الابتداء والخبر ، فيصير كالملفوظ به ، في نحو : ما كان إلا زيد قائم .

ولم يعرف المبرد أن ليس في مثل هذا التركيب عاملتها بنو تميم معاملة ما ، فلم يعملوها إلا باقية مكانها ، وليس غير عامله .

وليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب في نحو ليس الطيب إلا المسك ، ولا تميمي إلا وهو يرفع .

في ذلك حكاية جرت بين عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء ، ذكرناها فيما كتبناه من علم النحو .

ونظير ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ قول الأعشى :

وجدّ به الشيب أثقاله . . .

وما اغتره الشيب إلا اغتراراً

(51/700)

أي اغتراراً بيناً .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ ؟ قلت ؛ أصله نظن ظناً ، ومعناه إثبات الظن مع نفي ما سواه ، وزيد نفى ما سوى الظن توكيداً بقوله : ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ . انتهى وهذا الكلام ممن لا

شعور له بالقاعدة النحوية من أن التفريغ يكون في جميع المعمولات من فاعل ومفعول وغيره إلا المصدر المؤكد فإنه لا يكون فيه وقدّره بعضهم إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً قال وإنما

احتيج إلى هذا التقدير لأنه لا يجوز في الكلام ما ضربت إلا ضرباً فاهتدى إلى هذه القاعدة النحوية وأخطأ في التخريج وهو محكي عن المبرد ولعله لا يصح وقولهم إن نظن دليل على أن الكفار قد أخبروا بأنهم ظنوا البعث واقعاً ودل قولهم قبل قوله إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا على أنهم منكرون البعث فهم والله أعلم فرقتان أو اضطربوا فتارة أنكروا وتارة ظنوا وقالوا إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً على سبيل الهزء

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ أي قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات وأطلق على العقوبة سيئة كما قال وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا وَحَاقَ بِهِم أي أحاط ولا يستعمل حاق إلا في المكروه نَنسَاكُمْ نترككم في العذاب أو نجعلكم كالشيء المنسي الملقى غير المبالى بهم كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ أي لقاء جزاء الله على أعمالكم ولم تخطروه على بال بعد ما ذكرتم به وتقدم إليكم بوقوعه وأضاف اللقاء لليوم توسعاً كقوله بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وقرأ الجمهور لاَ يَخْرُجُونَ مبنياً للمفعول والحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي مبنياً للفاعل مِنْهَا أي من النار وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أي بطلب مراجعة إلى عمل صالح وتقدم الكلام في الاستعتاب وقرأ الجمهور رَبّ بالجر في الثلاثة على الصفة وابن محيصن بالرفع فيهما على إضمار هو . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾

أي ظهرَ لَهُم حينئذٍ ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ على ما هيَ عليهِ من الصُّورةِ المُنكرةِ الهائلةِ وعاينوا وخامةَ عاقبتِها أو جزاءَها فإنَّ جزاءَ السيئةِ سيئةٌ ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ من الجزاءِ والعقابِ .

﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ ﴾ نترككُم في العذابِ تركَ المنسيِّ ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ في الدُّنيا ﴿ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أيْ كَما تركتُم عِدتَهُ ولم تُبالُوا بهِ ، وإضافةُ اللقاءِ إلى اليومِ إضافةُ المصدرِ إلى ظرفِه . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن ناصرين ﴾ أي مَا لأَحدٍ منكُم نَاصِرٌ وَاحِدٌ يخلصكُم منَها ﴿ ذلكم ﴾ العذابُ ﴿ بِأَنَّكُمُ ﴾ بسببِ أَنَّكُم ﴿ اتخذتم ءايات الله هُزُواً ﴾ مَهْزوءاً بَها ولم ترفعوا لها رأساً ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا ﴾ فحسبتُم أنْ لا حياةَ سواهَا ﴿ فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أيْ من النَّارِ . وقُرِىءَ يَخرجُون من الخُروجِ . والالتفاتُ إلى الغَيبةِ للإيذانِ بإسقاطِهم عن رُتبةِ الخطابِ استهانةً أو بنقلِهم من مقامِ الخطابِ إلى غيابةِ النارِ ﴿ ولاهم يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي يُطلبُ منهم أنْ يُعتبوا ربَّهم أيْ يُرضُوه لفواتِ أوانِه .

﴿ فَلِلَّهِ الحمد ﴾ خاصَّة ﴿ رَبِّ السموات وَرَبِّ الأرض رَبِّ العالمين ﴾ فلا يستحقُ

الحمد أحدٌ سواهُ ، وتكريرُ الربِّ للتأكيدِ والإيذانِ بأنَّ ربوبيتَهُ تعالى لكُلَ منَها بطريقِ الأصالةِ . وقُرِىءَ برفعِ الثلاثةِ على المدحِ بإضمارِ هُو ﴿ وَلَهُ الكبرياء فِى السموات والأرض ﴾ لظهورِ آثارِها وأحكامِها فيهما ، وإظهارُهما في موقعِ الإضمارِ لتفخيمِ شأنِ الكبرياءِ ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الذي لا يُغلبُ ﴿ الحكيم ﴾ في كلِّ ما قضَى وقدَّر فاحَمدوه وكبروه وأطيعُوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(53/700)

وقال الآلوسى :

﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾

أي ظهر لهم حينئذٍ ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي قبائح أعمالهم أي عقوباتها فإن العقوبة تسوء صاحبها وتقبح عنده أو سيآت أعمالهم أي أعمالهم السيآت على أن تكون الإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف والكلام على تقدير مضاف أي ظهر لهم جزاء ذلك أو أن يراد بالسيآت جزاؤها من باب إطلاق السبب على المسبب ، وقيل : المراد ظهر لهم الجهات السيئة الغير الحسنة عقلاً لأعمالهم أي جهات قبحها العقلي التي خفيت عليهم في الدنيا بتزيين الشيطان ؛ وهو قول بالحسن والقبح العقليين في الأفعال ، و ﴿ مَا ﴾

موصولة ، وجوز أن تكون مصدرية فلا تغفل ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي حل ﴿ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ من الجزاء والعقاب .

﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ ﴾ نترككم في العذاب من باب إطلاق السبب على المسبب لأن من نسي شيئاً تركه أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالي به على أن ثم استعارة تمثيلية ، وجوز أن يكون استعارة مكنية في ضمير الخطاب .

﴿ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي كما تركتم عدته وهي التقوى والإيمان به أو كما لم تبالوا أنتم بلقائه ولم تخطروه ببال كالشيء الذي يطرح نسياً منسياً ، وجوز أن يكون التعبير بنسيانه لأن علمه مركوز في فطرتهم أو لتمكنهم منه بظهور دلائله ففي النسيان الأول مشاكلة ، وإضافة ﴿ لِقَاء ﴾ إلى يوم من إضافة المصدر إلى ظرفه فهي على معنى في والمفعول مقدر أي لقاءكم الله تعالى وجزاءه سبحانه في يومكم هذا ، وقال العلامة التفتازاني ﴿ لِقَاء يَوْمِكُمْ ﴾ كـ ﴿ مَكْرُ الليل ﴾ [سبأ : 33] من باب المجاز الحكمي فلذا أجرى المضاف إليه مجرى المفعول به ، وإنما لم يجعل من إضافة المصدر إلى المفعول به حقيقة لأن التوبيخ ليس على نسيان لقاء اليوم نفسه بل نسيان ما فيه من الجزاء .

وقال بعض الأجلة : لا يخفى أن لقاء اليوم يجوز أن يكون كناية عن لقاء جميع ما فيه وهو أنسب بالمقام لأن السياق لإنكار البعث ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن ناصرين ﴾ ما لأحد منكم ناصر واحد يخلصكم منها .

﴿ ذلكم ﴾ العذاب ﴿ بِأَنَّكُمُ ﴾ بسبب أنكم ﴿ اتخذتم ءايات الله هُزُواً ﴾ أي مهزوءاً بها ولم ترفعوا لها رأساً ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا ﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿ فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي النار .

وقرأ الحسن .

وابن وثاب .

وحمزة .

والكسائي ﴿ لاَ يَخْرُجُونَ ﴾ مبنياً للفاعل ، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم أو بنقلهم من مقام الخطابة إلى غيابة النار ، وجوز أن يكون هذا ابتداء كلام فلا التفات .

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي يطلب منهم أن يعتبوا ربهم سبحانه أي يزيلوا عتبه جل وعلا ، وهو كناية عن إرضائه تعالى أي لا يطلب منهم إرضاؤه عز وجل لفوات أوانه ، وقد تقدم في الروم .

والسجدة أوجه أخر في ذلك فتذكر .

﴿ فَلِلَّهِ الحمد رَبّ السموات وَرَبّ الأرض رَبّ العالمين ﴾ تفريع على ما احتوت عليه السورة الكريمة ، وقد احتوت على آلاء الله تعالى وأفضاله عز وجل واشتملت على الدلائل الآفاقية والأنفسية وانطوت على البراهين الساطعة والنصوص اللامعة في المبدأ والمعاد ، واللام للاختصاص ، وتقديم الخبر لتأكيده ، وتعريف الحمد للاستغراق أو الجنس ، والجملة إخبار عن الاستحقاقه تعالى لما تدل عليه ، وجوز أن يراد الإنشاء ، وتمام الكلام قد تقدم في الفاتحة ، وفي التفريع المذكور على ما قاله بعض الأجلة إشارة إلى أن كفرهم لا يؤثر شيئاً في ربوبيته تعالى ولا يسد طريق إحسانه ورحمته عز وجل :

ومن يسد طريق العارض الهطل . . .

(55/700)

وإنما هم ظلموا أنفسهم ، وإجراء ما أجرى من الصفات الدالة على إنعامه تعالى عليه عز وجل كالدليل على استحقاقه تعالى الحمد واختصاصه به جل وعلا ؛ وقوله تعالى : ﴿ رَبّ العالمين ﴾ بدل مما قبل ؛ وفي تكرير لفظ الرب تأكيد وإيذان بأن ربوبيته تعالى لكل بطريق الأصالة .

وقرأ ابن محيصن برفعه على المدح بإضمار هو .

﴿ وَلَهُ الكبرياء ﴾ فيه من الاختصاص ما في ﴿ لِلَّهِ الحمد ﴾ [الجاثية : 36]

والكبرياء قال ابن الأثير : العظمة والملك ، وقال الراغب : الترفع عن الانقياد ، وقيل : هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، وقوله تعالى : ﴿ فِي السماوات والأرض ﴾ في موضع الحال أو متعلق بالكبرياء والتقييد بذلك لظهور آثار الكبرياء وأحكامها فيه ، والإظهار في مقام الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء ، وفي الحديث القدسي " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار " أخرجه الإمام أحمد .

ومسلم .

وأبو داود .

وابن ماجه .

وابن أبي شيبة .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة ، وهو ظاهر في عدم اتحاد الكبرياء والعظمة فلا تغفل ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الذي لا يغلب ﴿ الحكيم ﴾ في كل ما قضى وقدر ، وفي هذه الجمل إرشاد على ما قيل إلى أوامر جليلة كأنه قيل : له الحمد فاحمدوه تعالى وله الكبرياء فكبروه سبحانه وهو العزيز الحكيم فأطيعوه عز وجل ، وجعلها بعضهم مجازاً أو كناية عن الأوامر المذكورة والله تعالى أعلم ، هذا ولم أظفر من باب الإشارة بما يتعلق بشيء من آيات

هذه السورة الكريمة يفي بمؤنة نقله غير ما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : 13] من جعله إشارة إلى وحدة الوجود ، وقد مر ما يغني عن نقله ، والله عز وجل ولي التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(56/700)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

لما ذكر سبحانه ما احتج به المشركون ، وما أجاب به عليهم ذكر اختصاصه بالملك ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ أي : هو المتصرف فيهما وحده لا يشاركه أحد من عباده ، ثم توعد أهل الباطل ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ﴾ أي : المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل يظهر في ذلك اليوم خسرانهم ؛ لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل في ﴿ يوم ﴾ هو ﴿ يخسر ﴾ ، و ﴿ يومئذ ﴾ بدل منه ، والتنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه ، فيكون التقدير : ويوم تقوم الساعة يوم تقوم الساعة ، فيكون بدلاً توكيدياً ، والأولى أن يكون العامل في يوم هو ملك ، أي

: ولله ملك يوم تقوم الساعة ؛ ويكون يومئذ معمولاً ؛ ل ﴿ يخسر ﴾ ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ الخطاب لكل من يصلح له ، أو للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والأمة : الملة ، ومعنى جاثية : مستوفزة ، والمستوفز : الذي لا يصيب الأرض منه إلاّ ركبتاه وأطراف أنامله ، وذلك عند الحساب .

وقيل معنى جاثية : مجتمعة ، قال الفراء : المعنى وترى أهل كلّ ذي دين مجتمعين .

وقال عكرمة : متميزة عن غيرها .

وقال مؤرج : معناه بلغة قريش : خاضعة .

وقال الحسن : باركة على الركب ، والجثو : الجلوس على الركب ، تقول : جثا يجثو ويجثي جثواً وجثياً : إذا جلس على ركبتيه ، والأوّل أولى .

ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر في لسان العرب .

وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شيء في لغة العرب ، ومنه قول طرفة يصف قبرين :

ترى جثوتين من تراب عليهما . . . صفائح صمّ من صفائح منضد

وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل ، وغيرهم من أهل الشرك .

وقال يحيى بن سلام : هو خاصّ بالكفار ، والأوّل أولى .

ويؤيده قوله : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كتابها ﴾ ، ولقوله فيما سيأتي ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ ﴾ .

ومعنى ﴿ إلى كتابها ﴾ : إلى الكتاب المنزّل عليها ، وقيل : إلى صحيفة أعمالها ، وقيل : إلى حسابها ، وقيل : اللوح المحفوظ ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور ﴿ كل أمة ﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره : ﴿ تدعى ﴾ ، وقرأ يعقوب الحضرمي بالنصب على البدل من ﴿ كل أمة ﴾ .

﴿ اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يقال لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير وشرّ .

﴿ هذا كتابنا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ هذا من تمام ما يقال لهم ، والقائل بهذا : هم الملائكة وقيل : هو من قول الله سبحانه ، أي : يشهد عليكم ، وهو استعارة ، يقال : نطق الكتاب بكذا ، أي : بيّن ، وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرون ما عملوا ، فكأنه ينطق عليهم بالحق الذي لا زيادة فيه ، ولا نقصان ، ومحل ﴿ ينطق ﴾ النصب على الحال ، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة ، وجملة : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تعليل للنطق بالحقّ ،

أي : نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم ، أي : بكتبها ، وتثبيتها عليكم .

قال الواحدي : وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم ، فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه ، قالوا : لأن الاستنساخ لا يكون إلاّ من أصل .

وقيل المعنى : نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون .

وقيل : إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد ، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات ، وتركوا المباحات .

وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عزّ وجلّ أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

(58/700)

﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ أي : الجنة ، وهذا تفصيل لحال الفريقين ، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة ﴿ ذلك ﴾ أي : الإدخال في رحمته ﴿ هُوَ الفوز المبين ﴾ أي : الظاهر الواضح ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءاياتى تتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أي : فيقال لهم ذلك ، وهو استفهام توبيخ ؛ لأن الرسل قد أتتهم وتلت

عليهم آيات الله ، فكذبوها ولم يعملوا بها ﴿ فاستكبرتم وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : تكبرتم عن قبولها ، وعن الإيمان بها ، وكنتم من أهل الإجرام ، وهي الآثام ، والاجترام الاكتساب ، يقال : فلان جريمة أهله : إذا كان كاسبهم ، فالمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصي ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي : وعده بالبعث والحساب ، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلة واقع لا محالة ﴿ والساعة ﴾ أي : القيامة ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : في وقوعها .

قرأ الجمهور ﴿ والساعة ﴾ بالرفع على الابتداء ، أو العطف على موضع اسم إن ، وقرأ حمزة بالنصب عطفاً على اسم إن ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا الساعة ﴾ أي : أيّ شيء هي ؟ ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ أي : نحدس حدساً ونتوهم توهماً .

قال المبرد : تقديره : إن نحن إلاّ نظن ظناً ، وقيل التقدير : إن نظنّ إلاّ أنكم تظنون ظناً ، وقيل : إن نظنّ مضمن معنى نعتقد ، أي : ما نعتقد إلاّ ظناً لا علماً ، وقيل : إن ظناً له صفة مقدّرة ، أي : إلاّ ظناً بيناً ، وقيل : إن الظنّ يكون بمعنى العلم والشكّ ، فكأنهم قالوا : ما لنا اعتقاد إلاّ الشك ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أي : لم يكن لنا يقين بذلك ، ولم يكن معنا إلاّ مجرّد الظنّ أن الساعة آتية .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سيئات مَا عَمِلُواْ ﴾ أي : ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التي هي عليها ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي : أحاط بهم ، ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار ﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي : نترككم في النار كما تركتم العمل لهذا اليوم ، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعاً ؛ لأنه أضاف إلى الشيء ما هو واقع فيه ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ أي : مسكنكم ومستقرّكم الذين تأوون إليه ﴿ وَمَا لَكُمْ مّن ناصرين ﴾ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب ﴿ ذِلَكُم بِأَنَّكُمُ اتخذتم ءايات الله هُزُواً ﴾ أي : ذلكم العذاب بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا ﴾ أي : خدعتكم بزخارفها وأباطيلها ، فظننتم أنه لا دار غيرها ، ولا بعث ولا نشور ﴿ فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي : من النار .

قرأ الجمهور : ﴿ يخرجون ﴾ بضم الياء .

وفتح الراء مبنياً للمفعول ، وقرأ حمزة ، والكسائي بفتح الياء وضمّ الراء مبنياً للفاعل ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : لا يسترضون ، ويطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله ؛ لأنه يوم لا تقبل فيه توبة ، ولا تنفع فيه معذرة ﴿ فَلِلَّهِ الحمد رَبّ السموات وَرَبّ الأرض رَبّ العالمين ﴾ لا يستحقّ الحمد سواه .

قرأ الجمهور ﴿ ربّ ﴾ في المواضع الثلاثة بالجرّ على الصفة للاسم الشريف .

وقرأ مجاهد ، وحميد ، وابن محيصن بالرفع في الثلاثة على تقدير مبتدأ ، أي : هو ربّ السموات إلخ ﴿ وَلَهُ الكبرياء فِى السموات والأرض ﴾ أي : الجلال والعظمة والسلطان ، وخصّ السموات والأرض لظهور ذلك فيهما ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ أي : العزيز في سلطانه ، فلا يغالبه مغالب ، الحكيم في كل أفعاله وأقواله وجميع أقضيته .

(60/700)

وقد أخرج سعيد بن منصور ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كأني أراكم بالكوم دون جهنم جاثين " ثم قرأ سفيان (ويرى كل أمة جاثية) وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في قوله : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ قال : كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم على كوم قد علا الخلائق ، فذلك المقام المحمود .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ هذا كتابنا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ قال : هو أمّ الكتاب فيه أعمال بني آدم ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال : هم الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه بمعناه مطوّلاً ، فقام رجل فقال : يا ابن عباس ، ما

كنا نرى هذا تكتبه الملائكة في كل يوم وليلة ، فقال ابن عباس : إنكم لستم قوماً عرباً ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ هل يستنسخ الشيء إلاّ من كتاب ؟ وأخرج ابن جرير عنه نحوه أيضاً ، وأخرج ابن جرير عن عليّ بن أبي طالب قال : إن لله ملائكة ينزلون في كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر نحو ما روي ، عن ابن عباس .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : يستنسخ الحفظة من أمّ الكتاب ما يعمل بنو آدم ، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أمّ الكتاب ، وأخرج نحوه الحاكم عنه وصححه .

وأخرج الطبراني عنه أيضاً في الآية قال : إن الله وكل ملائكته ينسخون من ذلك العام في رمضان ليلة القدر ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة ، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس ، فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان .

(61/700)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ قال : نترككم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : " يقول الله تبارك وتعالى : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(62/700)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ [النحل : 14] الآية ، وفى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف : 12 - 13] .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)

﴿ قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : 7] الآية ، وفي غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بني إِسْرَائِيلَ الكتاب والحكم والنبوة وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العالمين ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه فضل بني إسرائيل على العالمين .

وذكر هذا المعنى فى موضع آخر من كتابه كقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذكروا نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47] في الموضعين . وقوله فى الدخان : ﴿ وَلَقَدِ 1649;خْتَرْنَاهُمْ على عِلْمٍ عَلَى العالمين ﴾ [الدخان : 32] ، وقوله فى الأعراف : ﴿ قَالَ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إلها وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [الأعراف : 140] .

(63/700)

ولكن الله جل وعلا بين أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، خير من بنى إسرائيل وأكرم على الله ، كما صرح بذلك فى قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف

﴿ [آل عمران : 110] الآية . فخير صيغة تفضيل والآية نص صريح فى أنهم خير من جميع الأمم ، بني إسرائيل وغيرهم .

ومما يزيد ذلك إيضاحاً حديث معاوية بن حيدة القشيري رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى امته : " أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله " وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم هو حديث مشهور .

وقال ابن كثير : حسنه الترمذي ، ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ولا شك فى صحة معنى حديث معاوية بن حيدة المذكور رضى الله عنه .

لأنه يشهد له النص المعصوم المتواتر فى قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] ، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَاس ﴾ [البقرة : 143] . وقوله : ﴿ وسطا ﴾ أي خياراً عدولاً .

واعلم أن ما ذكرنا من كون أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من بني إسرائيل كما دلت عليه الآية والحديث المذكوران وغيرهما من الأدلة لا يعارض الآيات المذكورات آنفاً فى تفضيل بني إسرائيل .

لأن ذلك التفضيل الوارد فى بني إسرائيل ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعدوم فى حال عدمه ليس بشئ حتى يفضل أو يفضل عليه .

ولكنه تعالى بعد وجود أمة محمد صلى الله عليه وسلم صرح بأنها هى خير الأمم .

وهذا واضح لأن كل ما جاء فى القرآن من تفضيل بني إسرائيل . إنما يراد به ذكر أحوال سابقة .

(64/700)

لأنهم فى وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾ [البقرة : 89] .

ومعلوم أن الله لم يذكر لهم فى القرآن فضلاً إلا ما يراد به أنه كان فى زمنهم السابق لا فى وقت نزول القرآن .

ومعلوم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن موجودة في ذلك الزمن السابق الذى هو ظرف تفضيل بني إسرائيل ، وأنها بعد وجودها ، صرح الله بأنها هي خير الأمم ، كما أوضحنا . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ على شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمر فاتبعها ﴾ .

وقد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فاستمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف : 43] .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم ، في هذه الآية الكريمة عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون .

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى ﴿ لاَّ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ الإسراء : 22] أنه جل وعلا يأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وينهاه ، ليشرع بذلك الأمر والنهي ، لأمته كقوله هنا : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

(65/700)

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يتبع أهواء الذين لا يعلمون ، ولكن النهي المذكور ، فيه التشريع لأمته كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] . وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ [القلم : 8] . وقوله ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ ﴿ القلم : 10] . وقوله : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها آخَرَ ﴾ [الإسراء : 39] . وقوله : ﴿

لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد بينا الأدلة القرآنية على أنه صلى الله عليه وسلم يخاطب ، التشريع لأمته ، فى آية بني إسرائيل المذكورة .

وما تضمنته آية الجاثية هذه ، من النهي عن اتباع أهوائهم جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى الشورى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ ﴾ [الشورى : 15] وقوله تعالى فى الأنعام : ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا والذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 150] . وقوله تعالى في القصص ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [القصص : 50] . والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقد بين تعالى فى قد أفلح المؤمنون أن الحق لو اتبع أهواءهم لفسد العالم وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : 71] .

والأهواء : جمع هوى بفتحتين وأصله مصدر ، والهمزة فيه مبدلة من ياء كما هو معلوم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ .

قد قدمنا فى هذا الكتاب المبارك مراراً ان الظلم فى لغة العرب أصله وضع الشئ فى غير موضعه .

وأن أعظم أنواعه الشرك بالله لأن وضع العبادة فى غير من خلق ورزق هو أشنع أنواع وضع الشئ فى غير موضعه .

ولذا كثر فى القرآن العظيم ، إطلاق الظلم بمعنى الشرك . كقوله تعالى : ﴿ والكافرون هُمُ الظالمون ﴾ [البقرة : 254] . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظالمين ﴾ [يونس : 106] وقوله تعالى : ﴿ يا بني لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] . وقد ثبت فى صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : 82] . " بأن معناه ولم يلبسوا إيمانهم بشرك " .

وما تضمنته آية الجاثية هذه من أن الظالمين بعضهم أولياء بعض جاء مذكوراً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى آخر الأنفال : ﴿ والذين كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأرض وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : 73] . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : 129] . وقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النور إِلَى الظلمات ﴾ [البقرة : 257] . وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله ﴾ [الأعراف : 30] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فقاتلوا أَوْلِيَاءَ الشيطان ﴾ [النساء : 76] الأية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذلكم الشيطان ﴾ [آل عمران : 175] ، وقوله ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ [النحل : 100] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

(67/700)

ذكر جل وعلافى هذه الآية الكريمة ، أنه ولي المتقين ، وهم الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه .

وذكر فى موضع آخر أن المتقين أولياؤه فهو وليهم وهم أولياؤه لأنهم يوالونه بالطاعة والإيمان ، وهو يواليهم بالرحمة والجزاء ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] .

ثم بين المراد بأوليائه فى قوله ﴿ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 63] ، فقوله ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ كقوله فى آية الداثية هذه ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقد بين تعالى فى آيات من كتابه أنه ولي المؤمنين ، وأنهم أولياؤه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ

اللهِ وَرَسُولُهُ ﴾ [المائدة : 55] الآية . وقوله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [البقرة : 257] . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمَنُواْ ﴾ [محمد : 11] الآية . وقوله تعالى ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الذي نَزَّلَ الكتاب وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين ﴾ [الأعراف : 196] وقوله تعالى فى الملائكة ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ [سبأ : 41 ﴾ الآية . إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم ايضاحه بأبسط من هذا .

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

الإشارة في قوله ﴿ هذا ﴾ للقرآن العظيم .

والبصائر جمع بصيرة والمراد بها البرهان القاطع الذى لا يترك فى حق لسبأ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هذه سبيلي أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ ﴾ [يونس : 108] أي على علم ودليل واضح .

والمعنى أن هذا القرآن براهين قاطعة ، وأدلة ساطعة ، على أن الله هو المعبود وحده ، وأن ما جاء به محمد حق .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن القرآن بصائر للناس جاء مضحاً في مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى في أخريات الأعراف ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هذا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 203] وقوله تعالى فى الأنعام ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام : 104] وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة ، ذكر تعالى مثله فى سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : 43] .

وما تضمنته آية الجاثية هذه من كون القرآن هدى ورحمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع .

أما كونه هدى فقد ذكرنا الآيات الموضحة قريباً .

وأما كونه رحمة فقد ذكرنا الآيات الموضحة له فى الكهف فى الكلام على قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الكهف : 65] ، وفى أولها فى الكلام على قوله تعالى ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] . وفى فاطر فى الكلام على قوله تعالى ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر : 2] . وفى الزخرف فى الكلام على قوله : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [

الزخرف : 32] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي لأنهم المنتفعون .

وفى هذه الآية الكريمة سؤال عربى معروف .

وهو أن المبتدأ الذى هو قوله ﴿ هذا ﴾ اسم إشارة إلى مذكر مفرد ، والخبر الذى هو بصائر جمع مكسر مؤنث .

(69/700)

فيقال : كيف يسند الجمع المؤنث المكسر الى المفرد المذكر ؟

والجواب : أن مجموع القرآن كتاب واحد ، تصح الإشارة إليه بهذا ، وهذا الكتاب الواحد يشتمل على براهين كثيرة ، فصح إسناد البصائر إليه لاشتماله عليها كام لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة (ص) فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ .

قد أوضحنا معناه فى سورة الفرقان ، فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان : 43] .

قوله تعالى : ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [البقرة : 7] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ .

(70/700)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من إنكار الكفار للبعث بعد الموت ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان : 35] وقوله ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : 35 - 37] وقوله تعالى عنهم ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] وقوله تعالى عنهم ﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات : 10 - 12] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقد قدمنا البراهين القاطعة القرآنية ، على تكذيبهم في إنكارهم البعث ، وبينا دلالتها على

أن البعث واقع لا محالة ، فى سورة البقرة ، وسورة النحل ، وسورة الحج ، وأول سورة الجاثية هذه ، وأحلنا على ذلك مراراً .

وبينا فى سورة الفرقان الآيات الموضحة أن إنكار البعث كفر بالله ، والآيات التى فيها وعيد منكري البعث بالنار فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ [الفرقان : 11]

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة المؤمن فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ الله قُضِيَ بالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون ﴾ [غافر : 78] .

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28)

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كِتَابِهَا ﴾ .

(71/700)

قد قدمنا إيضاحه فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] .

هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29)

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً ﴾ [مريم : 79] ، وفى غير ذلك من المواضع .

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة طه في الكلام على قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

قد أوضحنا معنى قوله : يستعتبون فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل : 84] .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : فاليوم لا يخرجون منها ، قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَنَادَوْاْ يا مالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف : 77] .

قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الحمد رَبِّ السماوت وَرَبِّ الأرض رَبِّ العالمين ﴾ .

أتبع الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، حمده جل وعلا بوصفه بأنه رب السماوات والأرض ورب العالمين ، وفي ذلك دلالة على أن رب السموات والأرض ، ورب العالمين مستحق لكل حمد ولكل ثناء جميل .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى فى سورة الفاتحة ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] وقوله تعالى فى آخر الزمر ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الزمر : 75] وقوله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ ﴿ الأنعام : 45] وقوله تعالى فى أول الأنعام ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وقوله تعالى في أول فاطر ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾ [فاطر : 1] الآية .

وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن له الكبرياء فى السماوات والأرض ، يعني أنه المختص بالعظمة ، والكمال والجبلال والسلطان ، فى السماوات والأرض ، لأنه هو معبود أهل السماوات والأرض ، الذي يلزمهم تكبيره وتعظيمه ، وتمجيده ، والخضوع والذل له .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً فى آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله وَهُوَ الحكيم العليم وَتَبَارَكَ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الزخرف : 84 - 85] .

فقوله ﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله ﴾ [الزخرف : 84] معناه أنه هو وحده الذى يعظم ويعبد فى السموات والارض ويكبر ويخضع له ويذل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [الروم : 27] .

فقوله ﴿ وَلَهُ المثل الأعلى فِي السماوات والأرض ﴾ [الروم : 27] معناه أن له الوصف الأكمل ، الذي هو أعظم الأوصاف ، وأكملها وأجلها فى السماوات والأرض .

(73/700)

وفى حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن الله يقول : العظمة إزاري والكبرياء ، ردائي فمن نازعنى فى واحد منهما أسكنته ناري " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(74/700)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾

عطف على جملة ﴿ أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ [الجاثية : 31] باعتبار تقدير :

فيقال لهم ، أي فيقال لهم ذلك ﴿ وبدا لهم سيئات ما عملوا ﴾ ، أي جُمع لهم بين التوبيخ والإزعاج فوبخوا بقوله : ﴿ أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ إلى آخره ، وأُزعجوا بظهور سيئات أعمالهم ، أي ظهور جزاء سيئاتهم حين رأوا دار العذاب وآلاته رؤيةَ من يوقن بأنها مُعَدة له وذلك بعِلم يحصل لهم عند رؤية الأهوال .

وعبر بالسيئات عن جزائها إشارة إلى تمام المعادلة بين العمل وجزائه حتى جعل الجزاء نفسَ العمل على حد قوله : ﴿ فذُوقوا ما كنتم تكنزونَ ﴾ [التوبة : 35] .

ومعنى ﴿ حاق ﴾ أحاط .

و ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعُم كلّ ما كان طريق استهزاء بالإسلام من أقوالهم الصادرة عن استهزاء مثل قولهم : ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] .

وقول العاصِي بن وائل لخباب بن الأرتّ : لأوتين مالاً وولدا في الآخرة فأقضي منه دينَك .

ومن الأشياء التي جعلوها هُزؤاً مثل عذاب جهنم وشجرة الزقوم وهو ما عبر عنه آنفاً بـ ﴿ سيئات ما عملوا ﴾ .

وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصولية لأن في الصلة تغليطاً لهم وتنديماً على ما فرطوا من أخذ العدة ليوم الجزاء على طريقة قول عبدة بن الطيب :

إن الذين تُرونَهم إخوانَكم

يشفي غليلَ صدورهم أن تُصرعوا . . .

والمعنى : أنهم قد أودعوا جهنم فأحاط بهم سرداقها .

والباء في ﴿ به يستهزئون ﴾ يجوز حملها على السببية وعلى تعدية فعل ﴿ يستهزئون ﴾ إلى ما لا يتعدى إليه أي العذاب .

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34)

لما أودعوا جهنم وأحاطت بهم نودوا ﴿ اليوم ننساكم ﴾ إلى آخره تأييساً لهم من العفو عنهم .

(75/700)

وبُني فعل ﴿ قيل ﴾ للنائب حطّاً لهم عن رتبة أن يصرح باسم الله في حكاية الكلام الذي واجههم به كما أشرنا إليه عند قوله آنفاً ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حقٌ ﴾ [الجاثية : 32] بناء على أن ضمير ﴿ ننساكم ﴾ ضمير الجلالة وَليس من قول الملائكة ، فإن كان من قول خزنة جهنم ببناءِ فِعل ﴿ وقيل ﴾ للنائب للعلم بالفاعل .

وأطلق النسيان على الترك المؤبد على سبيل المجاز المرسل لأن النسيان يستلزم ترك الشيء المنسي في محله أو تركه على حالته ، ويجوز أن يكون النسيان مستعاراً للإهمال وعدم المبالاة ، أي فلا تتعلق الإرادة بالتخفيف عنهم وعلى هذين الاعتبارين يفسر معنى

النسيان الثاني .

والكاف في ﴿ كما نسيتم لقاء يومكم ﴾ للتعليل كما في قوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [البقرة : 198] ، أي جزاء نسيانكم هذا اليوم ، أي إعراضكم عن الإيمان به .

واللقاء : وجدان شيء شيئاً في مكان ، وهو المصادفة يُقال : لقي زيد عمراً ، ولقي العصفور حبة .

ولقاء اليوم ، أطلق اليومُ على ما فيه من الأحداث على سبيل المجاز المرسل لأنه أوجزُ من تعداد الأهوال الحاصلة منذ البعث إلى قضاء الجزاء على الأعمال .

وإضافة يوم إلى ضمير المخاطبين في ﴿ يومكم ﴾ باعتبار أن ذلك اليوم ظرف لأحوال تتعلق بهم فإن الإضافة تكون لأدنى ملابسة ، ألا ترى أنه أضيف إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ [الأنبياء : 103] .

ووصف اليوم باسم الإشارة تمييزه أكمل تمييز تكميلاً لتعريفه بالإضافة لئلا يلتبس عليهم بيوم آخر .

وعطف ﴿ ومأواكم النار ﴾ على ﴿ اليوم ننساكم ﴾ ليعلموا أن تركهم في النار ترك مؤبد فإن المأوى هو مسكن الشخص الذي يأوي إليه بعد أعماله ، فالمعنى أنكم قد أُوِيْتم

إلى النار فأنتم باقون فيها ، وتقدم نظير قوله : ﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ قريباً ، والمقصود تخطئة زعمهم السابق أن الأصنام تنفعهم في الشدائد .

(76/700)

و ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى ﴿ مأواكم ﴾ والباء للسببية ، أي ذلكم المأوى بسبب اتخاذكم آيات الله ، وهي آيات القرآن هزؤاً ، أي مستهزأ بها ، ﴿ هزؤاً ﴾ مصدر مراد به اسم المفعول مثل خلق .

وتغرير الحياة الدنيا إياهم سبب أيضا لجعل النار مأواهم .

والتغرير : الإطماع الباطل .

ومعنى تغرير الحياة الدنيا إياهم : أنهم قاسوا أحوال الآخرة على أحوال الدنيا فظنوا أن الله لا يحيي الموتى وتطرقوا من ذلك إلى إنكار الجزاء في الآخرة على ما يعمل في الدنيا وغرّهم أيضاً ما كانوا عليه من العزة والمنعة فخالوه منتهى الكمال فلم يصيخوا إلى داعي الرشد وعظة النصح وأعرضوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن القرآن المرشد ولولا ذلك لأقبلوا على التأمل فيما دعوا إليه فاهتدوا فسلموا من عواقب الكفر ولكون هذه المغررات حاصلة في الحياة الدنيا أسند التغرير إلى الحياة على سبيل المجاز العقلي لأن ذلك أجمع

لأسباب الغرور .

وفرع على ذلك ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ بالفاء وهذا من تمام الكلام الذي قيل لهم لأن وقوع كلمة (اليوم) في أثنائه يعين أنه من القيل الذي يقال لهم يومئذٍ .

واتفق القراء على قراءة ﴿ لا يخرجون ﴾ بياء الغيبة .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : لا تُخرجون ، بأسلوب الخطاب مثل سابقه ولكن عدل عن طريقة الخطاب إلى الغيبة على وجه الالتفات .

ويحسّنه هنا أنه تخييل للإعراض عنهم بعد توبيخهم وتأييسهم وصرف بقية الإخبار عنهم إلى مخاطب آخر ينبّأ ببقية أمرهم تحقيراً لهم .

وقرأ الجمهور ﴿ يُخرجون ﴾ بضم الياء وفتح الراء ، فالمعنى : أنهم يسألون مَن يُخرجهم فلا يُخرجهم أحد كما في قوله تعالى : ﴿ ربّنا أخرجنا منها ﴾ [المؤمنون : 107] وقوله : ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ [غافر : 11] .

وقرأه حمزة والكسائي ﴿ يخرُجون ﴾ بفتح الياء وضم الراء .

(77/700)

فالمعنى : أنهم يفزعون إلى الخروج فلا يستطيعون لقوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها ﴾ [الحج : 22] .

والاستعتاب بمعنى : الإعتاب ، فالسين والتاء للمبالغة كما يقال : أجاب واستجاب .

ومعنى الإعتاب : إعطاء العُتبى وهي الرضا .

وهو هنا مبني للمجهول .

أي لا يستعتبهم أحد ، أي ولا يُرضون بما يسألون ، وتقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ فيومئذٍ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ في سورة الروم (57) .

وتقدم ﴿ هم ﴾ على ﴿ يستعتبون ﴾ وهو مسند فعلي بعد حرف النفي هنا تعريض بأن الله يُعتِب غيرهم ، أي يُرضي المؤمنين ، أي يغفر لهم .

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36)

الفاء لتفريع التحميد والثناء على الله تفريعاً على ما احتوت عليه السورة من ألطاف الله فيما خلق وأرشد وسخر وأقام من نُظم العدالة ، والإنعام على المسلمين في الدنيا والآخرة ، ومن وعيد للمعرضين واحتجاج عليهم ، فلما كان ذلك كله من الله كان دالاً على اتّصافه بصفات العظمة والجلال وعلى إفضاله على الناس بدين الإسلام كان حقيقاً بإنشاء قصر الحمد عليه فيجوز أن يكون هذا الكلام مراداً منه ظاهر الإخبار ، ويجوز أن يكون مع ذلك مستعملاً في معناه الكنائي وهو أمر الناس بأن يقصروا الحمد عليه .

ويجوز أن يكون إنشاء حمدٍ لله تعالى وثناء عليه .

وكل ما سبقه من آيات هذه السورة مقتض للوجوه الثلاثة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين ﴾ في سورة الأنعام (45) .

وتقديم (لله) لإفادة الاختصاص ، أي الحمد مختص به الله تعالى يعني الحمد الحق الكامل مختص به تعالى كما تقدم في سورة الفاتحة .

وإجراء وصف رب السموات ﴾ على اسمه تعالى إيماء إلى علّة قصر الحمد على الله إخباراً وإنشاءً تأكيداً لما اقتضته الفاء في قوله : ﴿ فللَّه الحمد ﴾ .

(78/700)

وعُطف ﴿ وربّ الأرض ﴾ بتكرير لفظ ﴿ رب ﴾ للتنويه بشأن الربوبية لأن رب السماوات والأرض يحق حمده على أهل السماء والأرض ، فأما أهل السماء فقد حمدوه كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ والملائكةُ يسبحون بحمد ربّهم ﴾ [الشورى : 5] .

وأما أهل الأرض فمن حمده منهم فقد أدى حق الربوبية ومن حمد غيره وأعرض عنه فقد سجل على نفسه سِمة الإباق ، وكان بمأوَى النار محَلّ استحقاق .

ثم أتبع بوصف ﴿ رب العالمين ﴾ وهم سكان السماوات والأرض تأكيداً لكونهم

محقوقين بأن يحمدوه لأنه خالق العوالم التي هم منتفون بها وخالق ذواتهم فيها كذلك .

وعقب ذلك بجملة ﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾ للإشارة إلى أن استدعاءه خلقَه لحمده إنما هو لنفعهم وتزكية نفوسهم فإنه غني عنهم كما قال : ﴿ وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونِ ﴾ [الذاريات : 56 ، 57] .

وتقديم المجرور في ﴿ وله الكبرياء ﴾ مثله في ﴿ فللَّه الحمد ﴾ .

والكبرياء : الكبر الحق الذي هو كمال الصفات وكمال الوجود .

ثم أتبع ذلك بصفتي ﴿ العزيز الحكيم ﴾ لأن العزة تشمل معاني القدرة والاختيارِ ، والحكمةَ تجمع معاني تمام العلم وعمومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(79/700)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) ﴾

أخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه مرّ على قوم وعليه بردة حمراء حسناء ، فقال رجل من القوم إن أنا سلبته بردته فما لي عندكم ؟ فجعلوا له شيئاً فأتاه فقال : يا أبا عبد الرحمن ! بردتك هذه لي . فقال : إني اشتريتها أمس . قال : قد أعلمتك وأنت في حرج من لبسها . فخلعها ليدفعها إليه فضحك القوم . فقال : ما لكم ؟ فقالوا : هذا رجل بطال . فالتفت إليه فقال يا أخي : أما علمت أن الموت أمامك لا تدري متى يأتيك صباحاً أو مساء أو نهاراً ثم القبر ومنكر ونكير ، وبعد ذلك القيامة يوم يخسر فيه المبطلون فأبكاهم ومضى .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ قال : متميزة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ قال : تستفز على الركب .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ يقول : على الركب عند الحساب .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كأني أراكم بالكوم دون جهنم جاثين " ثم قرأ سفيان ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم على كوم قد علا الخلائق فذلك المقام المحمود .

(80/700)

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ قال يعلمون أنه يدعى أمة قبل أمة ، وقوم قبل قوم ، ورجل قبل رجل ، ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " يمثل لكل أمة يوم القيامة ما كانت تعبد من حجر أو وثن أو خشبة أو دابة ، ثم يقال : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيكون أول ذلك الأوثان قادة إلى النار حتى تقذفهم فيها فيبقى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأهل الكتاب فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد الله وعزيراً إلا قليلاً منهم ثم يقال لهم : أما عزير فليس منكم ولستم منه ، فيؤخذ بهم ذات الشمال فينطلقون ولا يستطيعون مكوثاً . ثم يدعى بالنصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد الله والمسيح ابن مريم إلا قليلاً منهم ، فيقال : أما المسيح فليس منكم ولستم منه ، فيؤخذ بهم ذات الشمال فينطلقون ولا يستطيعون مكوثاً . وتبقى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقال : ما كنتم تعبدون ؟

فيقولون : كنا نعبد الله وحده وإنما فارقنا في الدنيا مخافة يومنا هذا ، فيؤذن للمؤمنين في السجود ، فيسجد المؤمنون ، ويمنع كل منافق ، فيقصم ظهر المنافق عن السجود ويجعل الله سجود المؤمنين عليه توبيخاً وصغاراً وحسرة وندامة " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ قال : هو أم الكتاب فيه أعمال بني آدم ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ قال : هم الملائكة عليهم الصلاة والسلام يستنسخون أعمال بني آدم .

(81/700)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن هذه الآية ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ فقال : إن أوّل ما خلق الله القلم ، ثم خلق النون وهي الدواة ، ثم خلق الألواح ، فكتب الدنيا وما يكون فيها حتى تفنى من خلق مخلوق ، وعمل معمول ، من بر أو فاجر ، وما كان من رزق حلال أو حرام ، وما كان من رطب ويابس ، ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه دخوله في الدنيا حي وبقاؤه فيها كم وإلى كم تفنى ، ثم وكل بذلك الكتاب الملائكة ، ووكل بالخلق ملائكة ، فتأتي ملائكة الخلق إلى ملائكة ذلك الكتاب فيستنسخون ما يكون في كل يوم وليلة مقسوم على ما وكلوا به ثم يأتون إلى الناس

فيحفظونهم بأمر الله ، ويسوقونهم إلى ما في أيديهم من تلك النسخ . فقام رجل يا ابن عباس . ألستم قوماً عرباً ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب ؟

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الله خلق النون وهو الدواة ، وخلق القلم فقال : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر أو رزق مقسوم حلال أو حرام ، ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه : دخوله في الدنيا ، ومقامه فيها كم ، وخروجه منها كيف ، ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزاناً تحفظه ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم ، فإذا فني ذلك الرزق انقطع الأمر وانقضى الأجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم ، فتقول لهم الخزنة : ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً ، فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ألستم قوماً عرباً تسمعون الحفظة يقولون ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل .

وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إن لله ملائكة يتولون في كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوّل شيء خلق الله القلم فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول بر أو فاجر رطب أو يابس فأحصاه عنده في الذكر وقال اقرؤوا إن شئتم ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ فهل تكون النسخة إلا من شيء قد فرغ منه ؟ " .

وأخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ قال : " هي أعمال أهل الدنيا الحسنات والسيئات تنزل من السماء كل غداة أو عشية ما يصيب الإِنسان في ذلك اليوم أو الليلة الذي يقتل ، والذي يغرق والذي يقع من فوق بيت ، والذي يتردى من فوق جبل ، والذي يقع في بئر ، والذي يحرق بالنار ، فيحفظون عليه ذلك كله . فإذا كان العشي صعدوا به إلى السماء فيجدونه كما في السماء مكتوباً في الذكر الحكيم " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : تستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم ، فإنما يعمل الإِنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كتب في الذكر عنده كل شيء هو كائن ثم بعث الحفظة على آدم عليه السلام وذريته فالحفظة ينسخون من

الذكر ما يعمل العباد ، ثم قرأ ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس في قوله ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ قال : إن الله وكل ملائكة ينسخون من ذلك العام في رمضان ليلة القدر ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المستقبلة ، فيعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان .

(83/700)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ قال : تركتم ذكري وطاعتي فكذا أترككم ﴿ كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ قال : تركتم ذكري وطاعتي ، فكذا تركتم في النار .

وأخرج ابن عساكر عن عمر بن ذر عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما قعد قوم يذكرون الله إلا قعد معهم عددهم من الملائكة ، فإذا حمدوا الله حمدوه ، وإن سبحوا الله سبحوه ، وإن كبروا الله كبروه ، وإن استغفروا الله أمنوا ، ثم عرجوا إلى ربهم

فيسألهم ، فقالوا : ربنا عبيد لك في الأرض ذكروك فذكرناك . قال : ماذا قالوا ؟ قالوا : ربنا حمدوك فقال : أوّل من عبد وآخر من حمد . قالوا : وسبحوك . قال : مدحي لا ينبغي لأحد غيري قالوا : ربنا كبروك . قال : لي الكبرياء في السموات والأرض وأنا العزيز الحكيم . قالوا : ربنا استغفروك . قال : أشهدكم أني قد غفرت لهم " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه أن لله ثلاثة أثواب : اتزر بالعزة ، وتسربل الرحمة ، وارتدى بالكبرياء فمن تعزز بغير ما أعز الله فذلك الذي يقال له ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] ومن رحم رحمه الله ، ومن تكبر فقد نازع الله الذي ينبغي له ، فإنه تبارك وتعالى يقول : لا ينبغي لمن نازعني أن أدخله الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله عز وجل : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في النار " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(84/700)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ قَالَ : نَسَخَهَا قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ أَفَرَأَيْت مَنْ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ قَالَ : " لَا يَهْوَى شَيْئًا إلَّا رَكِبَهُ ، لَا يَخَافُ اللَّهَ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقَدْ رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْهَوَى إلَهٌ يُعْبَدُ ، وَتَلَا قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ يَعْنِي يُطِيعُهُ كَطَاعَةِ الْإِلَهِ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : " كَانُوا يَعْبُدُونَ الْعُزَّى وَهُوَ حَجَرٌ أَبْيَضُ حِينًا مِنْ الدَّهْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ طَرَحُوا الْأَوَّلَ وَعَبَدُوا الْآخَرَ " وَقَالَ الْحَسَنُ : " اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ يَعْنِي لَا يَعْرِفُ إلَهَهُ بِحُجَّةِ عَقْلِهِ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُهُ بِهَوَاهُ " .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلَّا الدَّهْرُ ﴾ قِيلَ هُوَ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، أَيْ : نَحْيَا وَنَمُوتُ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ ، وَقِيلَ : نَمُوتُ وَيَحْيَا أَوْلَادُنَا ، كَمَا يُقَالُ : مَا مَاتَ مَنْ خَلَّفَ ابْنًا مِثْلَ فُلَانٍ .

(85/700)

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ فَإِنَّهُ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ قَالَ : " قَالَ ذَلِكَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ ، قَالُوا : مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، يَقُولُونَ : إِلَّا الْعُمُرُ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا قَوْلُ زَنَادِقَةِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ الصَّانِعَ الْحَكِيمَ ، وَأَنَّ الزَّمَانَ وَمُضِيَّ الْأَوْقَاتِ هُوَ الَّذِي يُحْدِثُ هَذِهِ الْحَوَادِثَ .

وَالدَّهْرُ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى زَمَانِ الْعُمُرِ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ ، يُقَالُ : فُلَانٌ يَصُومُ الدَّهْرَ ، يَعْنُونَ عُمْرَهُ كُلَّهُ وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا : إِنَّ مَنْ حَلَفَ لَا يُكَلِّمُ فُلَانًا الدَّهْرَ أَنَّهُ عَلَى عُمُرِهِ كُلِّهِ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ : " وَاللَّهِ لَا أُكَلِّمُك الْأَبَدَ " وَأَمَّا قَوْلُهُ : " لَا أُكَلِّمُك دَهْرًا " فَإِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ أَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ عَلَى سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَبُو حَنِيفَةَ مَعْنَى دَهْرًا فَلَمْ يُجِبْ فِيهِ بِشَيْءٍ .

(86/700)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثٌ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ ﴿ : لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ﴾ ، فَتَأَوَّلَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَنْسِبُونَ الْحَوَادِثَ الْمُجْحِفَةَ وَالْبَلَايَا النَّازِلَةَ وَالْمَصَائِبَ الْمُتْلِفَةَ إلَى الدَّهْرِ ، فَيَقُولُونَ فَعَلَ الدَّهْرُ بِنَا وَصَنَعَ بِنَا ، وَيَسُبُّونَ الدَّهْرَ كَمَا قَدْ جَرَتْ عَادَةُ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ بِأَنْ يَقُولُوا : أَسَاءَ بِنَا الدَّهْرُ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَسُبُّوا فَاعِلَ هَذِهِ الْأُمُورِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ فَاعِلُهَا وَمُحْدِثُهَا .

وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ قَالَ : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ - تَعَالَى - يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، ﴾ قَالَ ابْنُ السَّرْحِ : عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ مَكَانَ سَعِيدٍ فَقَوْلُهُ : " وَأَنَا الدَّهْرَ " مَنْصُوبٌ بِأَنَّهُ ظَرْفٌ لِلْفِعْلِ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : أَنَا أَبَدًا بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَكَقَوْلِ الْقَائِلِ : أَنَا الْيَوْمَ بِيَدِي الْأَمْرُ أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا وَلَوْ كَانَ مَرْفُوعًا كَانَ الدَّهْرُ اسْمًا لِلَّهِ - تَعَالَى - وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَا يُسَمِّي اللَّهَ بِهَذَا الِاسْمِ .

(87/700)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَقُولُ : لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ ، فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا ﴾ فَهَذَانِ هُمَا أَصْلُ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ ، وَالْمَعْنَى مَا ذَكَرْنَا ، وَإِنَّمَا غَلِطَ بَعْضُ الرُّوَاةِ فَنَقَلَ الْمَعْنَى عِنْدَهُ فَقَالَ : ﴿ لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ﴾ وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ : ﴿ يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَا يَلْحَقُهُ الْأَذَى وَلَا الْمَنَافِعُ وَالْمَضَارُّ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَجَازٌ مَعْنَاهُ : يُؤْذِي أَوْلِيَائِي ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْفَاعِلُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْسُبُهَا الْجُهَّالُ إلَى الدَّهْرِ ، فَيَتَأَذَّوْنَ

بِذَلِكَ كَمَا يَتَأَذَّوْنَ بِسَمَاعِ سَائِرِ ضُرُوبِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وَمَعْنَاهُ : يُؤْذُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(88/700)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ [فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ] الْآيَةُ الْأُولَى

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ شَتَمَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فَهَمَّ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ .

وَهَذَا لَمْ يَصِحَّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي إعْرَابِهَا : اعْلَمُوا وَفَّقَكُمْ اللَّهُ أَنَّ الْخَبَرَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ جَوَابَ هَذَا الْأَمْرِ ، وَجَاءَ ظَاهِرُهُ هَاهُنَا جَوَابًا مَجْزُومًا ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا [اغْفِرُوا] يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مُلْجِئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الرَّجَاءِ الْمُطْلَقِ ، عَلَى أَنْ تَكُونَ الْأَيَّامُ عِبَارَةً عَنْ النِّعَمِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْخَوْفِ ، وَيُعَبَّرُ بِالْأَيَّامِ عَنْ النِّقَمِ ، وَبِالْكُلِّ يَنْتَظِمُ الْكَلَامُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ هَذَا مِنْ الْمَغْفِرَةِ وَشَبَهُهُ مِنْ الصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ مَنْسُوخٌ بِآيَاتِ الْقِتَالِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(89/700)

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الشَّرِيعَةُ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنْ الطَّرِيقِ إلَى الْمَاءِ ، ضُرِبَتْ مَثَلًا لِلطَّرِيقِ إلَى الْحَقِّ لِمَا فِيهَا مِنْ عُذُوبَةِ الْمَوْرِدِ ، وَسَلَامَةِ الْمَصْدَرِ ، وَحُسْنِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي الْمُرَادِ بِهَا مِنْ وُجُوهِ الْحَقِّ .

وَفِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْأَمْرَ الدِّينُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ السُّنَّةُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ الْفَرَائِضُ .

الرَّابِعُ : النِّيَّةُ .

وَهَذِهِ كَلِمَةٌ أَرْسَلَهَا مَنْ لَمْ يَتَفَطَّنْ لِلْحَقَائِقِ ، وَالْأَمْرُ يَرِدُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا بِمَعْنَى الشَّأْنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ .

وَالثَّانِي أَنَّهُ أَحَدُ أَقْسَامِ الْكَلَامِ الَّذِي يُقَابِلُهُ النَّهْيُ ، وَكِلَاهُمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا هَاهُنَا ، وَتَقْدِيرُهُ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى طَرِيقَةٍ مِنْ الدِّينِ ، وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وَلَا خِلَافَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُغَايِرْ بَيْنَ الشَّرَائِعِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْمَكَارِمِ وَالْمَصَالِحِ ، وَإِنَّمَا خَالَفَ بَيْنَهَا فِي الْفُرُوعِ بِحَسْبِ مَا عَلِمَهُ سُبْحَانَهُ .

(90/700)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ ظَنَّ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْعِلْمِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا لَيْسَ بِشَرْعٍ لَنَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَفْرَدَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِشَرِيعَةٍ ؛ وَلَا نُنْكِرُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتَهُ مُنْفَرِدَانِ بِشَرِيعَةٍ ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِيمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ مِنْ شَرْعِ مَنْ قَبْلَنَا فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ وَالْعِظَةِ ، هَلْ يَلْزَمُ اتِّبَاعُهُ أَمْ لَا ؟ وَلَا إِشْكَالَ فِي لُزُومِ ذَلِكَ ، لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَقَدَّمْنَاهَا هُنَا وَفِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْبَيَانِ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ اجْتَرَحُوا ﴾ مَعْنَاهُ افْتَعَلُوا مِنَ الْجُرْحِ ؛ وَضَرَبَ تَأْثِيرَ الْجُرْحِ فِي الْبَدَنِ كَتَأْثِيرِ السَّيِّئَاتِ فِي الدِّينِ مَثَلًا ، وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ الْأَمْثَالِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ فَإِنَّهَا عَلَى مَسَاقِهَا ؛ فَلَا وَجْهَ لِإِعَادَتِهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(91/700)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾

عندما يركبون البحرَ فلربما تَسْلَمُ السفينةُ ولربما تغرق .

وكذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير ، تمشي به رياح العناية ، وأَشْرِعَةُ التوكل مرفوعةٌ ، والسُّبُلُ في بحر اليقين واضحة . وطالما تهب رياحُ السلامة فالسفينةُ ناجيةٌ . أمَّا إنْ هبَّت نكباتُ الفتنةِ فعندئذٍ لا يبْقى بيد الملاَّحِ شيءٌ ، والمقاديرُ غالبةٌ ، وسرعان ما تبلغ قلوبُ أهلِ السفينةِ الحناجرَ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ : كلُّ ما خَلَقَ من وجوه الانتفاع بها – كلُّه منه سبحانه ؛ فما من شيءٍ من الأعيان الظاهرة إلاّ – ومن وجهٍ – للأنسان به انتفاع . . . وكلها منه سبحانه ؛ فالسماءُ لهم بناء ، ولأرضُ لهم مهاد . . . إلى غير ذلك . ومِنَ الغَبْنِ أن يستسخرَك ما هو مُسَخَّرٌ لك ! وَلْيتأملْ العبدُ كلَّ شيءٍ . . كيف إنْ كان خَلَلٌ في شيءٍ منها ماذا يمكن أن يكون ؟ ! فلولا الشمسُ . . كيف كان يمكن أن يتصرَّف في النهار ؟ ولم لم يكن الليل كُيف كان يسكن بالليل . ؟ ولو لم يكن القمر . . كيف كان يهتدي إلا الحساب والآجال ؟ . . . إلى غير ذلك من جميع المخلوقات .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمَا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

نَدَبَهم إلى حُسْنِ الخُلق ، وجميلِ العِشْرَة ، والتجاوزِ عن الجهل ، والتنقي من كدورات البشرية . ومقتضياتِ الشُّحِّ .

(92/700)

وَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهِ – سبحانه – لا يفوته أحدٌ . فَمَنْ أراد أَنْ يعرِفَ كيف يحفظ أولياءَه ، وكيف يُدَمِّر أعداءَه . فَلْيَصبِرْ أياماً قلائل لِيَعْلَمَ كيف صارت عواقبُهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

مَنْ عَمِلَ صَالحاً فله مَهْناه ، ومن ارتكب سيئةً قاسى بلواه . . . ثم مرجعه إلى مولاه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

كَرَّرَ في غير موضع ذِكْرِ موسى وذِكْرَ بني إسرائيل . . . بعضه على الجملة وبعضه على التفصيل . وهنا أَجْمَلَ في هذا الموضِع ، ثم عقبه حديث نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، فقال :

قوله جلّ ذكره : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

إفردناك بلطائفَ فاعرفْها ، وسَنَنَّا لكَ طرائقَ فاسلُكْها ، وأثبتنا لك حقائقَ فلا تتجاوزْها ، ولا تجنحْ إلى متابعة غيرك :

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ .

إن أرادَ بكَ نعمةً فلا يمنعها أحدٌ ، وإن أراد بك فتنةً فلا يَصْرِفها عنك أحدٌ . فلا تُعَلِّقْ بمخلوقٍ فكْرَك ، ولا تتوجهْ بضميرك إلى شيء ، وثِقْ بربّك ، وتوكَّلْ عليه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

أنوارُ البصيرةِ إذا تلألأتْ انكشفت دونها تهمةُ التجويز .

وَنَظَرُ الناسِ على مراتب : فمِنْ ناظرٍ بنور نجومه – وهو صاحب عقل ، ومن ناظرٍ بنو فراسته وهو صاحب ظنٍّ يُقوّيه لَوْحٌ – ولكنه من وراء السِّرِّ ، ومن ناظرٍ بيقين عِلْم بحكم برهانٍ وشَرْطِ فكْرٍ ، ومِنْ ناظرٍ بعين إيمان بوصف اتِّباع ، ومن ناظرٍ بنور بصيرةٍ هو على نهار ، وشمسُه طالعة وسماؤه من السحاب مصحية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

أَمَنْ خفضناه في حضيض الضَّعةِ كَمَنْ رفعناه إلى أعالي المَنَعَة ؟

أَمَن أخذنا بيده ورحمناه كَمَنْ داسَه الخذلانُ فرجمناه . ؟

أَمَنْ وهبناه بَسْطَ وقتٍ وأُنْسَ حالٍ ورَوْحَ لُطْفٍ حتى خَصَصْناه ورَقَّيْنَاه ، ثم قَرَّبْناه وأَدْنَيْناه كَمَنْ ترك جُدَه واستفراغَ وسعه وإسبالَ دَمْعِه واحتراق قلبه . . . فما أنعشناه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ .

مَنْ لم يَسْلُكْ سبيلَ الاتباع ، ولم يستوفِ أحكامَ الرياضة ، ولم يَنْسلِخْ عن هواه بالكليّة ، ولم

يؤدِّبه إمامٌ مُقْتَدَىٌ فهو ينجرفُ في كل وَهَدَةٍ ، ويهيمُ في كلِّ ضلالة ، ويضلُّ في كل فجٍّ ، خسرانُه أكثر من ربْحِه ! ! أولئك في ضلالٍ بعيد ؛ يعملون القُرَبَ على ما يقع لهم من نشاطِ نفوسهم ، زمامُهم بيد هواهم ، أولئك أهل المكر . . . اسْتدْرِجُوا وما يَشْعُرون ! .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ .

(94/700)

لم يَعْتَبِروا بما اوجدوا عليه خَلَفَهم وسَلَفَهم ، وأَزْجَوْا في البهيمية عَيْشَهم وعُمْرَهم ، وأعفوا عن كَدِّ الفكرة قلوبهم . . . فلا بالعلم استبصروا ، ولا من التحقيق استمدوا . رأسُ مالِهم الظنُّ – وهم غافلون .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25)

طلبوا إحياءَ موتاهم ، وسوف يَرَوْن ما استبعدوا .

ثم أخبر أنَّ مُلْكَ السمواتِ والأرضِ لله ، وإذا أقام القيامةَ يُحْشَرُ أصحابُ البطلان ، فإذا جاءهم يومُ الخصام .

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28)

كلٌّ بحسابه مطالَبٌ . . . فأمَّا الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا ، وأمَّا الذين كفروا فهلكوا وبادوا . . ويقال لهم : أأنتم الذين إذا قيل لكم حديثُ عُقباكم كذَّبتم مولاكم ؟ فاليومَ – كما نسيتمونا – ننساكم ، والنارُ مأواكم .

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36)

لله الحمدُ على ما يُبْدي ويُنْشي ، ويحيي ويُفْني ، ويُجْرِي ويُمْضِي . . إذ الحكْمُ لله ، والكبرياءُ لله ، والعظمةُ والسَّناءُ لله ، والرفعة والبهاءُ لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 390 . 394 ﴾

(95/700)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ حم تَنزِيلُ الكتاب ﴾

يعني : هذا الكتاب تنزيل ﴿ مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ وقد ذكرناه ﴿ إِنَّ فِى السموات والأرض ايات لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : لعبرات للمؤمنين في خلقهن .

ويقال : معناه أن ما في السموات من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، وفي الأرض من الجبال ،

والأشجار ، والأنهار وغيرها من العجائب ، لعبرات ودلائل ، واضحات للمؤمنين .

يعني : للمقرين المصدقين ويقال ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : لمن أراد أن يؤمن ، ويتقي الشرك .

قوله عز وجل : ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ يعني : وفيما خلق من الدواب ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ واختلاف ﴾ يعني : عبرات ودلائل لمن كان له يقين .

قرأ حمزة والكسائي آياتٍ بالكسر ، والباقون بالضم .

وكذلك الاختلاف في الذي بعده ، فمن قرأ بالكسر ، فإن المعنى : إن في خلقكم آيات لقوم يوقنون ، فهو في موضع النصب إلاَّ أن هذه التاء تصير خفضاً في موضع النصب وإنما أضمر فيه إنَّ لأَنَّ قوله : ﴿ إِنَّ فِى السموات والأرض لآيَاتٍ ﴾ في موضع النصب ، فكذلك في الثاني معناه : إن في خلقكم آيات .

ومن قرأ بالضم ، فهو على الاستئناف على معنى ، وفي خلقكم آيات .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ يعني : في اختلاف الليل والنهار ، في سواد الليل ، وبياض النهار يعني : في اختلاف ألوانهما ، وذهاب الليل ومجيء النهار ﴿ وَمَا أَنزَلَ الله مِنَ السماء مِّن رِزْقٍ ﴾ وهو المطر ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يعني : بعد يبسها وقحطها ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح ﴾ مرة رحمة ، ومرة عذاباً .

ويقال : مرة جنوباً ومرة شمالاً .

ثم قال : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ ﴾ يعني : هذه دلائل الله ، وعلامة وحدانيته ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني : يقرأ عليك جبريل من القرآن ، بأمر الله ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال مقاتل : إن لم تؤمنوا بهذا القرآن ، فبأي حديث بعد توحيد الله وبعد القرآن تؤمنون .

يعني : تصدقون .

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ يعني : كذاب فاجر ﴿ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللهِ ﴾ يعني : القرآن ﴿ تتلى عَلَيْهِ ﴾ يعني : يعرض عليه ، ويقرأ عليه ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ﴾ يعني : يقيم على الكفر ، متكبراً عن الإيمان ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ يعني : كأن لم يعقلها ، ولم يفهمها ﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾ يا محمد ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يعني : شديد .

قرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ، وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ بالتاء على معنى المخاطبة .

والباقون بالياء ، على معنى الخبر عنهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئاً اتخذها هُزُواً ﴾ يعني : إذا سمع من آياتنا ، يعني : من القرآن ، اتخذها هزءاً .

يعني : سخرية .

ويقال : مثل حديث رستم وإسنفديار ، وهو النضر بن الحارث ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يهانون فيه .

قوله تعالى : ﴿ مّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ يعني : أمامهم جهنم .

ويقال : من بعدهم في الآخرة جهنم ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً ﴾ يعني : لا ينفعهم ما جمعوا من المال .

﴿ وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾ يعني : لا ينفعهم ما عبدوا دونه من الأصنام ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ هذا هُدًى ﴾ يعني : هذا القرآن بيان من الضلالة .

ويقال : هذا العذاب الذي حق ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : جحدوا ﴿ بآيات رَبّهِمْ ﴾ يعني : بالقرآن ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مّن رّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ يعني : وجيع في الآخرة .

(97/700)

قرأ ابن كثير ، وعاصم في رواية حفص ﴿ أَلِيمٌ ﴾ ، بضم الميم ، والباقون بكسر الميم ، كما ذكرنا في سورة سبأ ، ثم ذكرهم النعم ليعتبروا .

فقال تعالى ﴿ الله الذى سَخَّرَ لَكُمُ البحر لِتَجْرِىَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴾ وقد ذكرناه.

ثم قال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ يعني: ذلل لكم ما في السموات وما في الأرض، لصلاحكم.

ثم قال تعالى: ﴿ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ يعني: جميع ما سخر الله تعالى، هو من قدرته ورحمته.

ويقال: ﴿ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ يعني: مِنَّةً منه.

قال مقاتل: يعني: جميعاً من أمره.

وروى عكرمة، عن ابن عباس قال: جميعاً منه، منه النور، ومنه الشمس ومنه القمر.

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ يعني: فيما ذكر ﴿ لآيَاتٍ ﴾ يعني: دلالات وعبرات ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يعتبرون في صنعه وتوحيده.

وروى الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، "أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي الخَالِق، فَقَالَ: تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ، وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ".

وروى وكيع، عن هشام، عن عروة، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُم، فَيَقُول: مَنْ خَلَقَ السماء؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله.

فيقول: من خلق الله تعالى؟ فإذا افْتُتِنَ أَحَدُكُمْ بِذَلِكَ، فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ".

قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ قال مقاتل والكلبي: وذلك، أن رجلاً من الكفار

من قريش ، شتم عمر رضي الله عنه بمكة ، فهم عمر بأن يبطش به ، فأمره الله بأن يتجاوز عنه .

(98/700)

فقال : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ ، يعني : عمر ﴿ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ ﴾ يعني : يتجاوزوا ، ولا يعاقبوا الذين ﴿ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ يعني : لا يخافون عقوبته التي أهلك بها عاداً وثموداً ، والقرون التي أهلكت قبلهم .

يعني : لا يخشون مثل أيام الأمم الخالية .

قال قتادة : ثم نسختها آية القتال ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كتاب الله يَوْمَ خَلَقَ السماوات والأرض مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يقاتلونكم كَآفَّةً واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين ﴾ [التوبة : 36] ثم قال : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يعني : يجزيهم بأعمالهم في الآخرة .

قال مجاهد : ﴿ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ ، يعني : لا ينالون نعم الله .

قرأ حمزة والكسائي ، وابن عامر لِنَجْزِيَ بالنون على الإضافة إلى نفسه .

والباقون لِيَجْزِيَ بالياء ، أي : ليجزي الله .

قوله عز وجل ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ ﴾ يعني : ثوابه لنفسه ﴿ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ يعني : عقوبته عليها ﴿ ثُمَّ إلى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا بَنِى إسراءيل ﴾ يعني : أولاد يعقوب ﴿ الكتاب ﴾ أي : التوراة ، والزبور ، والإنجيل ، لأن موسى وداود وعيسى كانوا في بني إسرائيل ﴿ والحكم ﴾ يعني : الفهم والعلم ﴿ والنبوة ﴾ يعني : جعلنا فيهم النبوة ، فكان فيهم ألف نبي .

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مّنَ الطيبات ﴾ يعني : الحلال من الرزق ، وهو المن والسلوى .

ويقال : ﴿ رزقناهم مّنَ الطيبات ﴾ يعني : أورثناهم أموال فرعون ﴿ وفضلناهم عَلَى العالمين ﴾ يعني : فضلناهم بالإسلام على عالمي زمانهم .

(99/700)

﴿ وءاتيناهم بينات مّنَ الأمر ﴾ يعني : الحلال والحرام ، وبيان ما كان قبلهم ، ثم اختلفوا بعده قوله تعالى : ﴿ فَمَا اختلفوا ﴾ يعني : في الدين ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ أي : صفة النبي صلى الله عليه وسلم في كتبهم ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : حسداً منهم ، وطلباً للعز والملك .

ويقال : اختلفوا في الدين ، فصاروا أحزاباً فيما بينهم ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم

من دين بعض .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ يعني : يحكم بينهم ﴿ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الكتاب والدين .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ جعلناك على شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمر ﴾ يعني : أمرناك وألزمناك وأثبتناك على شريعة .

ويقال : على سنة من الأمر وذلك حين دعوه إلى ملتهم .

ويقال : على شريعة .

يعني : على ملة ومذهب .

وقال قتادة : الشريعة الفرائض والحدود والأحكام .

﴿ فاتبعها ﴾ يعني : اثبت عليها .

﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يصدقون بالتوحيد ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ الله شَيْئاً ﴾ يعني : إن تركت الإسلام ، إنهم لا يمنعوك من عذاب الله شيئاً ﴿ وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ يعني : بعضهم على دين بعض ﴿ والله وَلِيُّ المتقين ﴾ أي : ناصر الموحدين المخلصين ﴿ هذا بصائر لِلنَّاسِ ﴾ يعني : يبصرهم ما لهم وما عليهم ، والواحدة بصيرة يعني : يبين لهم الحلال والحرام .

ويقال : هذا القرآن دلائل للناس .

ويقال : دعوة وكرامة .

ثم قال : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي : هدى من الضلالة ، ورحمة من العذاب ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون بالرسل والكتاب ، ويوقنون أن الله أنزله نعمة وفضلاً .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾ يعني : اكتسبوا السيئات ، وذلك أنهم كانوا يقولون : إنا نعطى في الآخرة من الخير ، ما لم تعطوا .

(100/700)

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾ يعني : أيظن الذين عملوا الشرك ، وهو عتبة وشيبة ، والوليد وغيرهم ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن ﴾ يعني : علياً وحمزة وعيينة بن الحارث رضي الله عنهم ﴿ سَوَاء محياهم ومماتهم ﴾ يعني : يكونون سواء في نعم الآخرة ، قرأ حمزة والكسائي ، وعاصم في رواية حفص ، سَوَاءً بالنصب والباقون بالضم ، فمن قرأ بالنصب فمعناه : أحسبوا أن نجعلهم سواء ، أي : مستوياً فيجعل أَن نَّجْعَلَهُمْ متعدياً إلى مفعولين .

ومن قرأ بالضم ، جعل تمام الكلام عند قوله : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ سَوَاء محياهم ومماتهم ﴾ خبر الابتداء وقال مجاهد : ﴿ سَوَاء محياهم ومماتهم ﴾ قال :

المؤمنون في الدنيا والآخرة ، مؤمن يكون على إيمانه ، يموت على إيمانه ، ويبعث على إيمانه والكافر في الدنيا والآخرة ، كافر يموت على الكفر ، ويبعث على الكفر .

وروى أبو الزبير عن جابر قال : "يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ المُؤمِنُ عَلَى إيمانِه ، والمُنَافِقُ عَلَى نِفَاقِه " ثم قال : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : بئس ما يقضون الخير لأنفسهم ، حين يرون أن لهم ما في الآخرة ، ما للمؤمنين .

قوله عز وجل : ﴿ وَخَلَقَ الله السموات والأرض بالحق ﴾ وقد ذكرناه ﴿ ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يعني : ما عملت ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ يعني : لا ينقصون من ثواب أعمالهم ، ولا يُزادون على سيئاتهم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ قال : يعمل بهواه ، ولا يهوى شيئاً إلا ركبه ، ولا يخاف الله ﴿ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ ﴾ يعني : علم منه ، أنه ليس من أهل الهدى ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ يعني : خذله الله ، فلم يسمع الهدى ، وقلبه يعني : ختم على قلبه ، فلا يرغب في الحق ﴿ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة ﴾ يعني : غطاء .

كي لا يعتبر في دلائل الله تعالى .

قرأ حمزة والكسائي غشاوة بنصب الغين بغير ألف ، والباقون غِشَاوَةً .

كما اختلفوا في سورة البقرة ، ومعناهما واحد ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ﴾ يعني : من بعد ما أضله الله ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أن من لا يقبل إلى دين الله ، ولا يرغب في طاعته ، لا يكرمه بالهدى والتوحيد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ يعني : آجالنا تنقضي ، نموت ويحيي آخرون .

يعني : نموت نحن ويحيا أولادنا ويقال يموت قوم ويحيا آخرون ووجه آخر ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ يعني : نحيا ونموت ، لأن الواو للجمع لا للتأخير ، ووجه آخر نموت ونحيا ، أي : كنا أمواتاً في أصل الخلقة ، ثم نحيا ، ثم يهلكنا الدهر فذلك قوله : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ يعني : لا يميتنا إلا مضي الأيام ، وطول العمر .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يعني : يقولون قولاً بغير حجة ، ويتكلمون بالجهل ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ يعني : ما هم إلا جاهلون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعني : تعرض عليهم آيات القرآن واضحات ، بين فيه الحلال والحرام ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ أي : لم تكن حجتهم وجوابهم ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بينات ﴾ يعني : أحيوا لنا آباءنا ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ بأنا

نبعث ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ يخلقكم من النطفة ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم.

﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ يعني: يوم القيامة يجمع أولكم وآخركم ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه عند المؤمنين.

ويقال: لا ينبغي أن يشك فيه ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني: البعث بعد الموت.

قوله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يعني: خزائن السموات والأرض.

ويقال.

(102/700)

له: نفاذ الأمر في السموات والأرض ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ﴾ يعني: يخسر المكذبون بالبعث، وهم أهل الباطل والكذب.

ثم قال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِى السماوات والأرض لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 187].

﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ يعني: مجتمعة للحساب على الركب ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كتابها ﴾ يعني: إلى ما في كتابها من خير أو شر، وهذا كقوله: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ

بإمامهم فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [الإسراء : 71] يعني : بكتابهم ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : يقال لهم : اليوم تثابون بما كنتم تعملون في الدنيا ، من خير أو شر .

قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : هذا الذي كتب عليكم الحفظة ﴿ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ يعني : يشهد عليكم بالحق ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : نستنسخ عملكم من اللوح المحفوظ ، نسخة أعمالكم ، ﴿ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الحسنات والسيئات .

قال أبو الليث رحمه الله : حدّثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدّثنا الماسرجسي قال : حدّثنا إسحاق قال : حدّثنا بقية بن الوليد قال : حدّثنا أرطأة بن المنذر .

(103/700)

قال : عن مجاهد ، عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فَكَتَبَ مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَمَلٍ مَعْمُولٍ ، بَرًّا وَفَاجِرًا وَأَحْصَاهُ فِي الذِّكْرِ فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فَهَلْ يَكُونُ النَّسْخُ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ

".

وروى الضحاك ، عن ابن عباس ، أن الله تعالى وكل ملائكته ، يستنسخون من ذلك الكتاب المكتوب عنده ، كل عام في شهر رمضان ، ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة ، فيعارضون به ، حفظه الله تعالى على عبادة كل عشية خميس ، فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلك ، لا زيادة فيه ولا نقصان .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ألستم قوماً عرباً ، هل يكُون النَّسخ إِلاَّ من أَصْل كَان قَبْل ذَلِكَ ؟ وقال القتبي : إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ .

قال إن الحفظة يكتبون جميع ما يكون من العبد ، ثم يقابلونه بما في أم الكتاب ، فما فيه من ثواب أو عقاب أثبت ، وما لم يكن فيه ثواب ولا عقاب محي فذلك قوله : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ [الرعد : 39] الآية .

وقال الكلبي : يرفعان ما كتبا ، فينسخان ما فيها من خير أو شر .

ويطرح ما سوى ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الفوز المبين ﴾ وقد ذكرناه .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : جحدوا بالكتاب والرسل والتوحيد .

يقال لهم : ﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ﴾ يعني : تقرأ عليكم في الدنيا ﴿ فاستكبرتم

﴿ يعني : تكبرتم عن الإيمان والقرآن ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ يعني : مشركين ، كافرين بالرسل والكتب .

(104/700)

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ يعني : إذا قال لكم الرسل في الدنيا ، إن البعث بعد الموت حق ﴿ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : لا شك فيها .

قرأ حمزة ﴿ والساعة ﴾ بالنصب ، عطف على قوله : ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ الساعة ﴾ قرأ الباقون بالضم ، ومعناه : وَإِذَا قِيلَ : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَقِيلَ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ ، أي : لا شك فيها ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا الساعة ﴾ يعني : ما القيامة ، وما البعث ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ يعني : قلتم ما نظن إلا ظناً غير اليقين ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أنها كائنة .

قوله عز وجل : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أي : ظهر لهم ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ يعني : عقوبات ما عملوا في الدنيا .

ويقال : تشهد عليهم جوارحهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ يعني : نزل بهم العذاب ، ووجب عليهم العذاب ، باستهزائهم أنه غير نازل بهم ﴿ وَقِيلَ ﴾ يعني : قالت

لهم الخزنة ﴿ اليوم نَنسَاكُمْ ﴾ يعني : نترككم في النار .

﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ يعني : كما تركتم الإيمان والعمل ، لحضور يومكم هذا .

﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ يعني : مثواكم ومستقركم النار ﴿ وَمَا لَكُمْ مّن ناصرين ﴾ يعني : ليس لكم مانع يمنعكم ، مما نزل بكم من العذاب ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتخذتم ءايات الله هُزُواً ﴾ يعني : هذا العذاب ، بأنكم لم تؤمنوا ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا ﴾ يعني : ما في الدنيا من زينتها وزهرتها ﴿ فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ قرأ حمزة والكسائي بنصب الياء ، فيجعلان الفعل لهم .

والباقون بالضم على فعل ، ما لم يسم فاعله .

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يعني : لا يرجعون إلى الدنيا .

وقال الكلبي : لا يعاتبون بعد هذا القول ، ويتركون في النار .

(105/700)

ويقال : لا يراجعون الكلام بعد دخولهم النار ﴿ فَلِلَّهِ الحمد ﴾ يعني : عند ذلك ، يحمد المؤمنون الله في الجنة .

كقوله : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ

فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [الزمر : 74] ويقال : ﴿ فَلِلَّهِ الحمد ﴾ يعني : له آثار الحمد ، فعلى جميع الخلق أن يحمدوه .

ويقال : ﴿ فَلِلَّهِ الحمد ﴾ يعني : الألوهية والربوبية ﴿ رَبّ السموات وَرَبّ الأرض ﴾ يعني : الحمد لرب الأرض ﴿ رَبّ العالمين ﴾ يعني : لرب جميع الخلق الحمد والثناء ﴿ وَلَهُ الكبرياء ﴾ يعني : العظمة ، والقدرة ، والسلطان ، والعزة ﴿ فِي السموات والأرض وَهُوَ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في أمره وقضائه ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 262.269 ﴾

(106/700)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ ﴾

يعني القرآن .

﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ وفي إضافة التنزيل إليه في هذا الموضع وفي أمثاله وجهان :

أحدهما : افتتاح كتابه منه كما يفتتح الكاتب كتابه به .

الثاني : تعظيماً لقدره وتضخيماً لشأنه عليه في الابتداء بإضافته إليه .

قوله عز وجل : ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني اختلافهما بالطول والقصر .

الثاني : اختلافهما بذهاب أحدهما ومجيء الآخر .

﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : المطر الذي ينبت به الزرع وتحيا به الأرض .

الثاني : ما قضاه في السماء من أرزاق العباد .

﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : تصريفها بإرسالها حيث يشاء .

الثاني : ينقل الشمال جنوباً والجنوب شمالاً ، قاله الحسن .

الثالث : أن يجعلها تارة رحمة وتارة نقمة ؛ قاله قتادة .

قوله عز وجل : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الأفاك : الكذاب ، قاله ابن جريج .

الثاني : أنه المكذب بربه .

الثالث : أنه الكاهن ، قاله قتادة .

﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾ يعني القرآن .

﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ﴾ فيه تأويلان :

أحدها : يقيم على شركه مستكبراً عن طاعة ربه ، وهو معنى قول يحيى بن سلام .

الثاني : أن الإصرار على الشيء العقد بالعزم عليه ، وهو مأخوذ من صَرَّ الصُّرَّةَ إذا شدها ، قاله ابن عيسى .

﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ في عدم الاتعاظ بها والقبول لها .

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال ابن جريج نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث .

قوله عز وجل : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا ينالون نعم الله ، قاله مجاهد .

الثاني : لا يخشون عذاب الله ، قاله الكلبي ومقاتل .

الثالث : لا يطمعون في نصر الله في الدنيا ولا في الآخرة ، قاله ابن بحر .

وفي المراد بأيام الله وجهان :

أحدهما : أيام إنعامه وانتقامه في الدنيا ، لأنه ليس في الآخرة ، وتكون الأيام وقتاً وإن تكن أياماً على الحقيقة .

وفي الكلام أمر محذوف فتقديره : قل للذين آمنوا إغفروا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله .

الغفران ها هنا العفو وترك المجازاة على الأذى .

وحكى الكلبي أن هذه الآية نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد شتمه رجل من المشركين فهمَّ أن يبطش به ، فلما نزل ذلك فيه كف عنه .

وفي نسخ هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها ثابتة في العفو عن الأذى في غير الدين .

الثاني : أنها منسوخة وفيما نسخها قولان :

أحدهما : بقوله سبحانه ﴿ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ قاله قتادة .

الثاني : بقوله ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُواْ ﴾ قاله أبو صالح .

قوله عز وجل : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ذكر الرسول وشواهد نبوته .

الثاني : بيان الحلال والحرام ، قاله السدي .

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : من بعد يوشع بن نون فآمن بعضهم وكفر بعضهم ، حكاه النقاش .

الثاني : بعد ما أعلمهم الله ما في التوراة .

﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : طلباً للرسالة وأنفة من الإذعان للصواب ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : بغياً على رسول الله صلى عليه وسلم في جحود ما في كتابهم من نبوة وصفته ، قاله الضحاك .

الثاني : أنهم أرادوا الدنيا ورخاءها فغيروا كتابهم وأحلوا فيه ما شاؤوا وحرموا ما شاؤوا ، قاله يحيى بن آدم .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ ﴾ أي على طريقة من الدين كالشريعة التي هي طريق إلى الماء ، ومنه الشارع لأنه طريق إلى القصد .

وفي المراد بالشريعة أربعة أقاويل :

احدها : أنها الدين ، قاله ابن زيد ، لأنه طريق للنجاة .

الثاني : أنها الفرائض والحدود والأمر والنهي ، قاله قتادة لأنها طريق إلى الدين .

الثالث : أنها البينة ، قاله مقاتل : لأنها طريق الحق .

الرابع : السنة ، حكاه الكلبي لأنه يستنّ بطريقة من قبله من الأنبياء .

قوله عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي اكتسبوا الشرك . قال

الكلبي : الذين أريد بهم هذه الآية عتبه وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة .

﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ قال الكلبي أريد بهم علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أفرأيت من اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه ، قاله ابن عباس .

الثاني : أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه ويستحسنه ، فإذا استحسن شيئاً وهو به اتخذه إلهاً ، قاله عكرمة ، قاله سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر . فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر .

الثالث : أفرأيت من ينقاد لهواه انقياده لإلهه ومعبوده تعجباً لذوي العقول من هذا الجهل .

﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : وجده ضالاً ، حكاه ابن بحر .

الثاني : معناه ضل عن الله . ومنه قول الشاعر :

هبوني امرأً منكم اضلَّ بعيره . . . له ذمة إن الذمام كثير

أي ضل عنه بعيره .

وفي قوله : ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ وجهان :

أحدهما : على علم منه أنه ضال ، قاله مقاتل .

الثاني : قاله ابن عباس أي في سابق علمه أنه سيضل . ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ أي طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى .

﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَاوَةً ﴾ حتى لا يبصر الرشد .

ثم في هذا الكلام وجهان :

أحدهما : أنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم .

(109/700)

الثاني : أنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم .

وحكى ابن جريج أنها نزلت في الحارث بن قيس من الغياطلة ، وحكى الضحاك أنها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ وهذا القول منهم إنكار للآخرة وتكذيب بالبعث وإبطال للجزاء .

﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه مقدم ومؤخر ، وتقديره : نحيا نموت . وهي كذلك في قراءة ابن مسعود .

الثاني : أنه على تربيته ، وفي تأويله وجهان :

أحدهما : نموت نحن ويحيا أولادنا ، قاله الكلبي .

الثاني : يموت بعضنا .

﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : وما يهلكنا إلا العمر ، قاله قتادة . وأنشد قول الشاعر :

لكل أمر أتى يوماً له سبب . . . والدهر فيه وفي تصريفه عجب

الثاني : وما يهلكنا إلا الزمان ، قاله مجاهد .

وروى أبو هريرة قال : كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار ، والذي يهلكنا يميتنا ويحيينا ، فنزلت هذه الآية .

الثالث : وما يهلكنا إلا الموت ، قاله قطرب ، وأنشد لأبي ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجع . . . والدهر ليس بمعتب من يجزع

الرابع : وما يهلكنا إلا الله ، قاله عكرمة .

وروى الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رجال يقولون : يا خيبة الدهر ، يا بؤس الدهر ، لا تسبوا الدهر فإن الله عز وجل هو الدهر ، وإنه يقبض الأيام ويبسطها " .

قوله عز وجل : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ الأمة أهل كل ملة . وفي الجاثية خمسة تأويلات :

أحدها : مستوفزة ، قاله مجاهد . وقال سفيان : المستوفز الذي لا يصيب منه الأرض إلا ركبتاه وأطراف أناملـه .

الثاني : مجتمعة ، قاله ابن عباس .

الثالث : متميزة ، قاله عكرمة .

الرابع : خاضعة بلغة قريش ، قاله مؤرج .

الخامس : باركة على الركب ، قاله الحسن .

وفي الجثاة قولان :

أحدهما : أنه للكفار خاصة ، قاله يحيى بن سلام .

(110/700)

الثاني : أنه عام للمؤمن والكافر انتظاراً للحساب .

وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن عبد الله بن باباه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كأني أراكم بالكوم جاثين دون جهنم .

﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إلى حسابها ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر ، قاله الكلبي .

الثالث : إلى كتابها الذي أنزل على رسولها ، حكاه الجاحظ .

قوله عز وجل : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه القرآن يدلكم على ما فيه من الحق ، فكأنه شاهد عليكم ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : أنه اللوح المحفوظ يشهد بما قضي فيه من سعادة وشقاء ، خير وشر ، قاله مقاتل ، وهو معنى قول مجاهد .

الثالث : أنه كتاب الأعمال الذي يكتب الحفظة فيه أعمال العباد ويشهد عليكم بما تضمنه من صدق أعمالكم ، قاله الكلبي .

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني يكتب الحفظة ما كنتم تعملون في الدنيا ، قاله علي رضي الله عنه ومن زعم أنه كتاب الأعمال .

الثاني : أنه الحفظة تستنسخ الخزنة ما هو مدوَّن عندها من أحوال العباد ، قاله ابن عباس ومن زعم أن الكتاب هو اللوح المحفوظ .

الثالث : نستنسخ ما كتب عليكم الملائكة الحفظة ، قاله الحسن لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال .

قوله عز وجل : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : اليوم نترككم في النار كما تركتم أمري ، قاله الضحاك .

الثاني : اليوم نترككم من الرحمة كما تركتم الطاعة ، وهو محتمل

الثالث : اليوم نترككم من الخير كما تركتمونا من العمل ، قاله سعيد بن جبير .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

(111/700)

أحدها : أن الكبرياء العظمة ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أنه السلطان ، قاله مجاهد .

الثالث : الشرف ، قاله ابن زياد .

الرابع : البقاء والخلود .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ في انتقامه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في تدبيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(112/700)

وقال الثعلبي :

﴿ حم* تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم * إِنَّ فِي السماوات والأرض لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ ﴾

قرأ حمزة والكسائي ويعقوب بكسر التاء من آيات وكذلك الّتي بعدها رداً على قوله : ﴿ لآيَاتٌ ﴾ وقرأ الباقون برفعها على خبر حرف الصفة .

﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * واختلاف الليل والنهار وَمَا أَنزَلَ الله مِنَ السمآء مِّن رِّزْقٍ ﴾ يعني الغيث سماه رزقاً لأنّه سبب أرزاق العباد وأقواتهم ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرياح آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله ﴾ . أي بعد حديث الله وكلامه . ﴿ وَآيَاتِهِ ﴾ وحججه ودليله . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قرأ أهل الكوفة بالتاء ، وأختلف فيه عن عاصم ويعقوب عنهم بالياء .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كذّاب . ﴿ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ الله تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ ﴾ يعني قوله ﴿ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتخذها هُزُواً أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ نزلت في أبي جهل وأصحابه . ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ ﴾ أمامهم . ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ نظيره في سورة إبراهيم (عليه السلام) . ﴿ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ ﴾ من الأموال . ﴿ شَيْئاً وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني الأوثان .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هذا ﴾ القرآن . ﴿ هُدًى والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ من عذاب موجع .

(113/700)

﴿ الله الذي سَخَّرَ لَكُمُ البحر لِتَجْرِيَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْه ﴾ فلا تجعلوا لله أندادا .

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري ، حدثنا طلحة وعبد الله ، قالا : حدثنا ابن مجاهد ، حدثني ابن أبي مهران ، حدثني أحمد بن يزيد ، حدثنا شبابة ، عن أبي سمبلة ، عن عبد العزيز بن علي القريشي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن أيوب الثقفي ، عن عثمان بن بشير ، قال : سمعت ابن عباس يقرأ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْه ﴾ مفتوحة (الميم) ، مرفوعة (النون) ، وبه رواية ، عن ابن عمر ، قال : سمعت مسلمة يقرأ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأرض جَمِيعًا مِّنْه ﴾ مفتوحة (الميم) مرفوعة (النون) وهي مشددة ، (والهاء) مضمومة .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ أي لا يخافون وقائع الله ولا يبالون نقمه ، قال ابن عباس ومقاتل : نزلت في عمر بن الخطاب

رضي الله عنه وذلك أنّ رجلاً من بني غفار كان يشتمه فهمّ عمر أن يبطش به ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأمره بالعفو .

أخبرنا الحسين بن محمد بن عبد الله ، حدثنا موسى بن محمد بن علي بن عبد الله ، حدثنا الحسن بن علوية ، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار ، حدثنا محمد بن زياد الشكري ، عن ميمون ابن مهران ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت هذه الآية

﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ [البقرة : 245] . قال يهودي بالمدينة يقال له فنحاص : احتاج ربّ محمد .

(114/700)

قال : فلما سمع بذلك عمر بن الخطاب إشتمل على سيفه وخرج في طلبه . فجاء جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ ربّك يقول : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ ، واعلم إنّ عمر بن الخطاب قد اشتمل على سيفه وخرج في طلب اليهودي" . " فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طلبه ، فلما جاءه ، قال : " ياعمر خرج سيفك ؟ " . قال : صدقت يارسول الله ، أَشهد أنّك أُرسلت بالحقّ ، قال : " فإنّ ربّك يقول : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ " .

قال : لا جرم والّذي بعثك بالحقّ لأُرى الغضب في وجهي .

قال القرظي والسدي : نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكّة كانوا في أذىً شديد من المشركين ، قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى هذه الآية ثمّ نسختها آية القتال .

﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً ﴾ بفتح الياءين وكسر الزاء ، وقرأ أبو جعفر بضم الياء الأُولى وجزم الثانية ، قال أبو عمرو : وهو لحن ظاهر ، وقال الكسائي : وهذه ليجري الجزاء قوماً ، وقرأ الباقون بفتح اليائين على وجه الخبر عن الله تعالى ، واختاره أبو عبيده وأبو حاتم لذكر الله تعالى قبل ذلك .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكتاب والحكم والنبوة وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ الحلالات ، يعني المن والسلوى . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العالمين * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأمر ﴾ يعني أحكام التوراة .

(115/700)

﴿ فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بِيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ على شَرِيعَةٍ ﴾ سنة وطريقة . ﴿ مِّنَ الأمر ﴾ من الدّين .

﴿ فاتبعها وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني مُراد الكافرين الجاهلين ، وذلك حين دُعي إلى دين آبائه .

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ الله شَيْئاً ﴾ إن إتبعت أهواءهم . ﴿ وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ والله وَلِيُّ المتقين * هذا ﴾ يعني هذا القرآن . ﴿ بَصَائِرُ ﴾ معالم . ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ في الحدود والأحكام يبصرون بها .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا ﴾ إكتسبوا .

﴿ السيئات ﴾ يعني الكفر والمعاصي .

﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَوَآءً ﴾ قرأ أهل الكوفة نصباً واختاره أبو عبيدة ، وقال : معناه نجعلهم سواءً ، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء والخبر ، واختاره أبو حاتم ، وقرأ الأعمش ﴿ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ بنصب التاء على الظرف ، أي في .

﴿ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ بئس ما يقضون ، قال المفسرون : معناه المؤمن في الدّنيا والآخرة مؤمن ، والكافر في الدّنيا والآخرة كافر . نزلت هذه الآية في نفر من

مشركي مكّة قالوا للمؤمنين : لئن كان ما تقولون حقاً لَنفضلنَّ عليكم في الآخرة ، كما فضلنا عليكم في الدّنيا .

(116/700)

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا عبيد الله بن محمد بن شنبه ، حدثنا جعفر بن محمّد الفرماني ، حدثنا محمّد بن الحسين البلخي ، حدثنا عبد الله بن المبرك ، أخبرنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي الضحي ، عن مسروق ، قال : قال لي رجل من أهل مكّة : هذا مقام أخيك تميم الداري ، لقد رأيته ذات ليلة ، حتّى أصبح أو كاد أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله ، ويركع ، ويسجد ، ويبكي ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ . . . الآية .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه ، حدثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، حدثني أبو هشام زياد بن أيوب ، حدثنا علي بن يزيد ، حدثنا عبد الرحمن بن عجلان ، عن بشير بن أبي طعمة ، قال : بتّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة ، فقام يصلي فمر بهذه الآية ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين ﴾ فمكث ليله حتّى اصبح ما يجوز هذه الآية إلى غيرها ، ببكاء شديد ، وقال إبراهيم بن الأشعث : كثيراً ما رأيت الفضيل بن عياض ،

يردد من أول الليلة إلى آخرها هذه الآية ونظائرها ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾ ثمّ يقول : يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت .

﴿ وَخَلَقَ الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ .

قال ابن عباس والحسين وقتادة : ذلك الكافر إتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلاّ ركبه ، إنّه لا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحرم ما حرم الله ولا يحل ما أحل الله ، إنّما دينه ما هويت نفسه يعمل به ولا يحجزه عن ذلك تقوى .

وقال آخرون : معناه أفرأيت من إتخذ معبوده هواه ، فيعبد ما يهوى .

قال سعيد بن جبير : كانت قريش تعبد العُزي وهو حجر أبيض حيناً من الدهر ، وكانت العرب تعبد الحجارة والذهب والفضة ، فإذا وجدوا شيئاً أحسن من الأول رموه أو كسروه أو ألقوه في بئر ، وعبدوا الآخر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(117/700)

وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن قيس التميمي أحد المستهترين ، وذلك إنّه كان يعبد ما تهواه نفسه .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا طلحة وعبيد الله ، قالا : حدثنا ابن مجاهد ، حدثني ابن أبي مهران ، حدثنا محمد بن يحيى بن أبي عمر ، قال : قال سفيان بن عيينة : إنّما عبدوا الحجارة لإنّ البيت حجارة .

وقال الحسين بن الفضل : في هذه الآية تقديم وتأخير مجازها : أَفرأيت من أتخذ هواه إلهه .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا عبيد الله بن محمد بن شنبه ، حدثنا محمد بن عمران بن هارون ، حدثنا أبو عبيد الله المخزومي ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن ابن شبرمه ، عن الشعبي ، قال : إنّما سمي الهوى لإنّه يهوي بصاحبه في النّار .

وبه عن سفيان ، عن سليمان الأحول ، عن طاووس ، عن ابن عباس ، قال : ما ذكر الله عز وجل هوى في القرآن إلاَّ ذمه .

فروى أبو أُمامة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم إنّه ، قال : " ما عبد تحت السّماء إله أبغض إلى الله من هوى " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه " .

وروى ضمرة بن حبيب ، عن شداد بن أوس إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والفاجر من إتبع نفسه هواها وتمنى على الله " .

وقال مضر القاضي : لنحت الجبال بالأظافير حتّى تتقطع الأوصال ، أهون من مخالفة

الهوى إذا تمكن في النفوس .

وسئل ابن المقفع عن الهوى ، فقال : هوانٌ سرقت نونه ، فنظمه الشاعر :

نون الهوان من الهوى مسروقة . . . فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

إنّ الهوى لهو الهوان بعينه . . . فإذا هويت فقد كسبت هوانا

وإذا هويت فقد تعبدك الهوى . . . فإخضع لحبّك كائناً من كانا

أنشدنا أبو القاسم الحبيبي ، أنشدنا أبو حاتم محمّد بن حيان المسني ، قال : ولم ار أكمل منه

. قال : وأنشدنا محمد بن علي الحلاري لعبد الله المبرك :

ومن البلاء للبلاء علامة . . . أن لا يرى لك عن هواك نزوع

(118/700)

العبد عبد النفس في شهواتها . . . والحر يشبع تارة ويجوع

وأنشدنا أبو القاسم الحسن بن محمد الحبيبي ، أنشدنا أبو الحسن عيسى بن زيد العقيلي ،

أنشدنا أبو المثنى معاذ بن المثنى العنبري ، عن أبيه لأبي العتاهية :

فإعص هوى النفس ولا ترضها . . . إنك إن أسخطتها زانكا

حتّى متى تطلب مرضاتها . . . وإنّها تطلب عدوانكا

وأنشدنا أبو القاسم الحبيبي ، أنشدنا أبو عبيد الطوسي :

والنفس إن أعطيتها مناها . . . فاغرة نحو هواها فاها

وسمعت أبا القاسم يقول : سمعت أبا نصر بن منصور بن عبد الله الأصبهاني بهراة يقول : سمعت أبا الحسن عمرو بن واصل البحتري يقول : سئل سهل بن عبد الله التستري عن الهوى ؛ فقال للسائل : هواك يأمرك فإن خالفته فرّط بك ، وقال : إذا عرض لك أمران شككت خيرها فإنظر أبعدهما من هواك فإنه .

وأنشدنا أبو القاسم الحبيبي ، أنشدنا الإمام أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال المشاشي بمرو وأنشدني أبو بكر الزيدي :

إذا طالبتك النفس يوماً بشهوة . . . وكان إليها للخلاف طريق

فدعها وخالف ما هويت فإنما . . . هواك عدوٌّ والخلاف صديق

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ ﴾ منه بعاقبة أمره . ﴿ وَخَتَمَ ﴾ طبع . ﴿ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف (غِشَاوَةً) بفتح (الغين) من غير (ألف) والباقون ﴿ غِشَاوَةً ﴾ (بالألف) وكسر (الغين) . ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَقَالُواْ ﴾ يعني المشركين . ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ

حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ يموت الآباء ويحيا الأبناء . ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدهر ﴾ وما يفنينا إِلَّا الزمان وطول العمر وفي حرف عبد الله وما يهلكنا الدهر يمر .

(119/700)

﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أخبرنا الحسين بن فنجويه بقراءتي حدثنا أبو حذيفة أحمد بن محمّد بن علي الدينوري ، حدثنا أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب القاضي ، حدثنا أحمد بن المقدام العجلي ، حدثنا سفيان بن عيينة بن ابي عمران ، عن الزهري ، عن سعيد ابن المسيب ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كان أهل الجاهلية يقولون : إنّما الليل والنهار هو الّذي يهلكنا يميتنا ويحيينا " فقال الله تعالى في كتابه : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدهر ﴾ فيسبون الدّهر .

فقال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدّهر وأنا الدّهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار .

أخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون بقراءتي عليه في صفر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فاقرّبه ، أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشر وأحمد بن يوسف ، قالوا : حدثنا عبد الرزاق بن همام ، أخبرنا معمر بن

راشد ، عن همام بن منبه بن كامل بن سيج ، قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة ، عن محمد صلى الله عليه وسلم قال :

" قال الله تعالى : لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر فإنّي أنا الدهر ، أُرسل الليل والنهار ، فإذا شئت قبضتهما " .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه ، أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن أبي سمرة ، حدثنا عبد الملك بن أحمد البغدادي ، حدثنا محمود بن خداش ، حدثنا سفيان بن محمد الثوري ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله (عليه السلام) : " لا تسبوا الدهر فإنّ الله تعالى هو الدهر " .

(120/700)

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في تفسير هذا الحديث : إنّ هذا مما لا ينبغي لأحد من أهل الإسلام أن يجهل وجهه وذلك أن من شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب [. . . . .] إجتاحهم الدهر وتخوفتهم الأيام وأتى عليهم الزمان وما أشبه ذلك حتّى ذكروها في أشعارهم ، [ونسبوا الأحداث إليه] .

قال عمرو بن قميئة :

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى . . . فكيف بمن يرمي وليس برام

فلو أنَّها نَبلٌ إذاً لاتقيتها . . . ولكنّني أرمي بغير سهام

على الراحتين مرة وعلى العصا . . . أنوء ثلاثاً بعدهنْ من قيامي

وروي إنّ الشعبي دخل على عبد الملك بن مروان وقد ضعف . فسأله عن حاله ، فأنشده هذه الأبيات :

فاستأثر الدهر الغداة بهم . . . والدهر يرميني ولا أرمي

يا دهر قد أكثرت فجعتنا . . . بسراتنا ووقرت في العظم

وتركتنا لحم على وضم . . . لو كنت تستبقي من اللحم

وسلبتنا ما لست تعقبنا . . . يا دهر ما أنصفت في الحكم

وأنشدنا أبو القاسم السدوسي ، أنشدنا عبد السميع بن محمد الهاشمي ، أخبرنا أبو الحسن العبسي لإبن لنكك في هذا المعنى :

قل لدهر عن المكارم عطل . . . يا قبيح الفعال جهم المحيا

كم كريم حططته من بقاع . . . ولئيم ألحقته بالثريا

قال أبو عبيده : وناظرت بعض الملاحدة . فقال : إلاّ تراه يقول : فإنّ الله هو الدهر . فقلت له : وهل كان أحد يسب الله في أياد الدهر ، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعدل . . . وولى الملامة الرجلا

قال : فتأويل قوله صلى الله عليه وسلم " إنّ الله هو الدهر " ، إن الله جل ذكره هو الّذي يأتي بالدهر والشدائد والمصائب فإذا سببت الدهر وقع السب على الله تعالى لأنّه فاعل هذه الأشياء وقاضيها ومدبرها .

وقال الحسين بن الفضل : مجازه : فإنّ الله هو مدهّر الدهور .

وروي عن علي رضي الله عنه في خطبة له : مُدهّر الدهور ، ومن عنده الميسور ، ومن لدنه المعسور .

(121/700)

ودليل هذا التأويل ما أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن النيسابوري ، حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن الحسن الكارزي ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن القاسم الجمحي ، حدثنا عسر بن أحمد ، قال : بلغني إنّ سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكر الدهر ، فزجرهُ أبوه عبد الله بن عمر ، وقال له : يا بني إياك وذكر الدهر ، وأنشد :

فما الدهر بالجاني لشيء لحينه . . . ولا جالب البلوى فلا تشتم الدهرا

ولكن متى ما يبعث الله باعثاً . . . على معشر يجعل مياسيرهم عُسْرَا

وأنشدنا أبو القاسم الحبيبي ، أنشدنا الشيخ أبو محمد أحمد بن عبد الله المزني ، أنشدنا

معاذ بن نجدة بن العريان :

دار الزمان على الأمور فإنّه . . . [إن لحدا أزراك] بالآلام

وذو الزمان على الملام فإنما . . . يحكي الزمان مجاري الأقلام

يُشكى الزمان ويستزاد وإنّما . . . بيد المليك ساند الأحكام

وأنشدنا الأستاذ أبو القاسم ، أنشدني أبي ، أنشدني أبو علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي :

يا عاتبَ الدهر إذا نابَهُ . . . لا تلم الدّهر على عذره

ألدهر مأمور له آمرٌ . . . وينتهي الدهر إلى أمره

كم كافر أمواله جمة . . . تزداد أضعافاً على كفره

ومؤمن ليس له درهم . . . يزدادا ايماناً على فقره

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ القيامة ﴾ يعني ليوم القيامة . ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون * وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ مجتمعة مستوفرة على ركبها من هول ذلك اليوم ، وأصل الجثوة الجماعة من كلّ شيء .

قال طرفة يصف قبرين :

ترى جثوتين من تراب عليهما . . . صفائح صم من صفيح مصمد

(122/700)

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا موسى بن محمد الحلواني ، حدثنا يعقوب بن إسحاق العلوي . حدثنا عبد الله بن يحيى الثقفي ، حدثنا أبو عران ، عن عاصم الأحول ، عن ابن عثمان النهدي ، عن سلمان الفارسي ، قال : في القيامة ساعة هي عشر سنين يكون الناس فيها جثاة على ركبهم حتّى إبراهيم (عليه السلام) لينادي " لا أسألك اليوم إلا نفسي " .

﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كِتَابِهَا ﴾ الّذي فيه أعمالها . ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ فيه ديوان الحفظة وقيل اللوح المحفوظ .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدثنا عمر بن نوح البجلي ، حدثنا أبو خليفة ، حدثنا عثمان بن عبد الله الشامي ، حدثنا عقبة بن الوليد ، عن أرطأة بن المنذر ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول شيء خلق الله القلم من نور مسيره خمسمائة عام ، واللوح من نور مسيره خمسمائة عام ، فقال للقلم : إجر فجرى بما هو كائن

إلى يوم القيامة ، بردها وحرها ، ورطبها ويابسها ، ثمّ قرأ هذه الآية ﴿ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ " .

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال : وهل يكون النسخ إلاّ من كتاب قد فرغ منه ، ومعنى نستنسخ يأمر بالنسخ ، وقال الضحاك : نثبت . السدي نكتب . الحسن : نحفظ .

﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ جنّته ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفوز المبين ﴾ الظفر الطاهر . ﴿ وَأَمَّا الذين كفروا ﴾ فيقال لهم : ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُمْ فاستكبرتم وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله حَقٌّ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ قرأه العامة بالرفع على الابتداء وخبره فيما بعده ودليلهم قوله :

(123/700)

﴿ إِنَّ الأرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : 128] .

قرأ أبو رجاء وحمزة ﴿ والساعة ﴾ نصباً عطفاً بها على الوعد لا ريب فيها .

﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا الساعة إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ إنّها كائنة . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي جزاؤها . ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ اليوم

نَنسَاكُمْ ﴾ نترككم في النّار .

﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ كما تركتم الإيمان بيومكم هذا . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ * ذِلِكُم بِأَنَّكُمُ اتخذتم آيَاتِ الله هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ ﴾ . قرأه العامة بضم الياء ، وقرأ أهل الكوفة إلاَّ عاصم بفتحة .

﴿ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون . ﴿ فَلِلَّهِ الحمد رَبِّ السماوت وَرَبِّ الأرض رَبِّ العالمين ﴾ قرأه العامة بكسر (الباء) في ثلاثتها ، وقرأ ابن محيصن رفعاً على معنى هو ربٌّ .

﴿ وَلَهُ الكبرياء فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 358.367 ﴾

(124/700)

وقال الزمخشرى :

سورة الجاثية

مكية [إلا آية 14 فمدنية] وآياتها 37 وقيل 36 آية [نزلت بعد الدخان] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجاثية (45) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)

حم إن جعلتها اسما مبتدأ مخبرا عنه ب تَنْزِيلُ الْكِتابِ لم يكن بدّ من حذف مضاف ، تقديره : تنزيل حم تنزيل الكتاب . ومِنَ اللَّهِ صلة للتنزيل ، وإن جعلتها تعديدا للحروف كان تَنْزِيلُ الْكِتابِ مبتدأ ، والظرف خبرا إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يجوز أن يكون على ظاهره ، وأن يكون المعنى ، إنّ في خلق السماوات لقوله وَفِي خَلْقِكُمْ فإن قلت : علام عطف وَما يَبُثُّ أعلى الخلق المضاف ؟ أم على الضمير المضاف إليه ؟ قلت : بل على المضاف ، لأنّ المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه : استقبحوا أن يقال : مررت بك وزيد ، وهذا أبوك وعمرو ، وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا : مررت بك أنت وزيد . قرئ : آيات لقوم يوقنون ، بالنصب والرفع ، على قولك : إنّ زيدا في الدار وعمرا في السوق . أو عمرو في السوق . وأمّا قوله آياتٌ لِقَوْمٍ «1» يَعْقِلُونَ فمن العطف على عاملين ، سواء

نصبت أو رفعت ، فالعاملان إذا نصبت هما : إن ، وفى : أقيمت الواو مقامهما ، فعملت «2» الجر في اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ،

---

(1) . قوله «و أما قوله : آيات لقوم» أى مع قوله وَاخْتِلافِ . (ع) [. . . . .]

(2) . قوله «فعملت» أى : الواو . (ع)

(125/700)

والنصب في آياتٌ . وإذا رفعت فالعاملان : الابتداء وفي : عملت الرفع في آياتٌ ، والجر في وَاخْتِلافِ وقرأ ابن مسعود : وفي اختلاف الليل والنهار . فإن قلت : العطف على عاملين على مذهب الأخفش سديد لا مقام فيه . وقد أباه سيبويه ، فما وجه تخريج الآية عنده ؟ قلت : فيه وجهان عنده . أحدهما : أن يكون على إضمار في . والذي حسنه تقدّم ذكره في الآيتين قبلها . ويعضده قراءة ابن مسعود . والثاني : أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفا على ما قبله أو على التكرير ، ورفعها بإضمار هي : وقرئ : واختلاف الليل والنهار بالرفع . وقرئ : آية . وكذلك وما يبث من دابة آية . وقرئ وتصريف الريح . والمعنى : إنّ المنصفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض النظر الصحيح ، علموا أنها مصنوعة ، وأنه لا بدّ لها من صانع ، فآمنوا باللّه وأقرّوا ، فإذا نظروا

في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة ، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان : ازدادوا إيمانا ، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدّد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ جنوبا وشمالا وقبولا ودبورا : عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم ، وسمى المطر رزقا ، لأنه سبب الرزق تِلْكَ إشارة إلى الآيات المتقدّمة ، أى : تلك الآيات آيات اللّه . ونَتْلُوها في محل الحال ، أى : متلوة عَلَيْكَ بِالْحَقِّ والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة . ونحوه : هذا بَعْلِي شَيْخاً وقرئ : يتلوها ، بالياء بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ أى بعد آيات اللّه كقولهم : أعجبنى زيد وكرمه ، يريدون : أعجبنى كرم زيد . ويجوز أن يراد : بعد حديث اللّه ، وهو كتابه وقرآنه ، كقوله تعالى ، اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ . وقرئ يُؤْمِنُونَ بالتاء والياء .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 7 إلى 10]

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا ما اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (10)

الأفاك : الكذاب ، والأثيم : المتبالغ في اقتراف الآثام يُصِرُّ يقبل على كفره ويقيم

عليه . وأصله من إصرار الحمار على العانة «1» وهو أن ينحى عليها صارّا أذنيه مُسْتَكْبِراً عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق ، مزدريا لها معجبا بما عنده . قيل : نزلت في النضر بن الحرث وما كان يشترى من أحاديث الأعاجم ، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن .

والآية عامّة في كل ما كان مضارّا لدين اللّه . فإن قلت : ما معنى ثم في قوله ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ؟

قلت : كمعناه في قول القائل :

يرى غمرات الموت ثمّ يزورها «2»

وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة ، بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها . وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها . فأمر مستبعد ، فمعنى ثم : الإيذان بأن فعل المقدّم عليها بعد ما رآها وعاينها ، شيء يستبعد في العادات والطباع ، وكذلك آيات اللّه الواضحة الناطقة بالحق ، من تليت عليه وسمعها : كان مستبعدا في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها كَأَنْ مخففة ، والأصل كأنه لم يسمعها : والضمير ضمير الشأن ،

كما في قوله :

كأن ظبية تعطو إلى ناضر السّلم «3»

ومحل الجملة النصب على الحال . أى : يصير مثل غير السامع وَإِذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها اتَّخَذَها أى اتخذ الآيات هُزُواً ولم يقل : اتخذه ، للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها اللّه تعالى على محمد صلى اللّه عليه وسلم : خاض في الاستهزاء بجميع الآيات . ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ، ويحتمل : وإذا علم من آياتنا شيئًا

---

(1) . قوله «من إصرار الحمار على العانة» جماعة حمر الوحش كما في الصحاح . وفيه أيضا : ضر الفرس أذنيه :

ضمها إلى رأسه ، فإذا لم يوقعوا قالوا : أصر الفرس ، بالألف . (ع)

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 515 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) فيوما توافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم

ويوما تريد مالنا مع مالها فان لم ننلها لم تنمنا ولم تتم

الباعث بن صريم اليشكري يذكر حال امرأته . ويوما : ظرف مقدم . ويروى : ويوم ، أى : ورب يوم تقابلنا فيه ولا حاجة لتقدير الرابط على نصب اليوم . وقسم قساما وقسامة ،

كجمل جمالا . وظرف ظرافة . والمقسم :

المحسن . وكأن : مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير المرأة ، أو ضمير الشأن . وظبية : بالرفع على الأول خبر . وعلى الثاني : مبتدأ ، وهو مع خبره خبر كان . وتعطو : صفة على الأول ، وهو الخبر على الثاني . ويروى : ظبية ، بالنصب ، فهو الاسم وإن كان عملها مخففة قليلا . ويروى : مجرورا بالكاف ، وإن : زائدة بين الجار والمجرور :

وتعطو : تأخذ وتتناول ، ماثلة إلى وارق السلم . ومن النوادر : أورق فهو وارق . وأينع فهو يانع . والقياس :

مورق ، أي : كثير الورق . ويروى : ناضر ، بدل : وارق . والسلم : شجر العضاء ، هذا شأنها في يوم . وفي يوم آخر تؤذينا فتريد مالنا منضما إلى مالها ، فان نعطها لم تتركنا ننام من كثرة كلامها وإيذائها ، ولم تنم هي أيضا .

واليوم هنا : مطلق الزمن .

(127/700)

يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا يتسلق به على الطعن والغميزة : افترصه واتخذ آيات اللّه هزوا ، وذلك نحو افتراص ابن الزبعرى قوله عز وجل إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ومغالطته رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وقوله : خصمتك . ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء ، لأنه في معنى الآية كقول أبى العتاهية :

نفسي بشيء من الدنيا معلّقة الله والقائم المهدي يكفيها «1»

حيث أراد عتبة . وقرئ : علم أُولِئكَ إشارة إلى كل أفاك أثيم ، لشموله الأفاكين . والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام . قال :

أليس ورائي أن تراخت منيّتى أدب مع الولدان أزحف كالنّسر «2»

ومنه قوله عز وجل مِنْ وَرائِهِمْ أى من قدّامهم ما كَسَبُوا من الأموال في رحلهم ومتاجرهم وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأوثان .

[سورة الجاثية (45) : آية 11]

هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

هذا إشارة إلى القرآن ، يدل عليه قوله تعالى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لأنّ آيات ربهم هي القرآن ، أى هذا القرآن كامل في الهداية ، كما تقول : زيد رجل ، تريد كامل في الرجولية . وأيما رجل . والرجز : أشد العذاب . وقرئ بجر أليم ورفعه .

---

(1) نفسي بشيء من الدنيا معلقة اللّه والقائم المهدى يكفيها

إنى لأيأس منها ثم يطمعنى فيها احتقارك للدنيا وما فيها

لأبى العتاهية . وكنى بالشيء عن جارية من حظايا المهدى اسمها عتبة ، ولذلك أعاد

عليه الضمير مؤنثا . وقوله «من الدنيا» معناه : أنه لا يريد من الدنيا غيره . والقائم : أى بأمر الشرع . ويكفيها ، أى : يكفيني تلك الحاجة .

أو يكفى نفسي ما تريد ، والله : بقطع الهمزة ، لأن أول المصراع محل ابتداء في الجملة ، إنى لأيأس أى أقطع طمعي منها ، ثم أطمع فيها ثانيا بسبب احتقارك للدنيا وما فيها . وهو مدح بنهاية الكرم . وروى أنه كتب ذلك في ثوب ، وأدرجه في برنية وأهداها المهدى ، فهم بدفعها إليه فقالت : أتدفعني إلى رجل متكسب بالتعشق ، فأمر بملء البرنية مالا ودفعها إليه ، فقال للخزان : إنما أمر لي بدنانير ، فقال له : نعطيك دراهم ونراجعه . واختلفوا في ذلك سنة ، فقالت : لو كان عاشقا لما فرق بينهما .

(2) . لعبيد ، والهمزة للتقرير . ووراءي هنا بمعنى : أمامى ، وهو في الأصل : الجهة التي يواريها الشخص ، لكن يكثر في الجهة التي خلفه ، وتوسع فيه حتى استعمل في كل غيب . ومنه : المستقبل . وتراخت : تباعدت وتأخرت . وأدب : أمشى بهينة وتؤدة . وأن المصدرية مقدرة قبله ، لأنه اسم ليس ، وإن كان لفظه مرفوعا .

وأزحف : يحتمل أنه بدل ، وأنه حال . وكالنسر : حال . أو معناه : كزحف النسر في الأرض ، مع كونه أبيض وفيه نوع احتراس ، لأنه يتوهم من قوله «مع الولدان» نقص عقله ، فدل على أن المراد الضعف كالولدان .

والشيب كالنسر ، لأنه أبيض ، مع كونه رئيس الطيور وكلها تخشاه .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 12 إلى 13]

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13)

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر . فإن قلت : ما معنى مِنْهُ في قوله جَمِيعاً مِنْهُ وما موقعها من الإعراب ، قلت : هي واقعة موقع الحال ، والمعنى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده ، يعنى : أنه مكوّنها وموجدها بقدرته وحكمته ، ثم مسخرها لخلقه . ويجوز أن يكون خبر مبتدإ محذوف ، تقديره : هي جميعا منه ، وأن يكون وَسَخَّرَ لَكُمْ تأكيدا لقوله تعالى سَخَّرَ لَكُمْ ثم ابتدئ قوله : ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ وأن يكون ما فِي الْأَرْضِ مبتدأ ، ومِنْهُ خبره . وقرأ ابن عباس رضى اللّه عنهما : منة ، وقرأ سلمة بن محارب : منه ، على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازى . أو على أنه خبر مبتدإ محذوف ، أى : ذلك .

أو هو منه.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 14 إلى 15]

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)

حذف المقول لأنّ الجواب دال عليه. والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لا يتوقعون وقائع اللّه بأعدائه، من قولهم لوقائع العرب: أيام العرب. وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها اللّه لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت قبل آية القتال، ثم نسخ حكمها. وقيل: نزولها في عمر رضى اللّه عنه- وقد شتمه رجل من غفار فهمّ أن يبطش به.

وعن سعيد بن المسيب: كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فقرأ قارئ هذه الآية، فقال عمر: ليجزي عمر بما صنع لِيَجْزِيَ تعليل الأمر بالمغفرة، أى: إنما أمروا بأن يغفروا لما أراده اللّه من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. فإن قلت: قوله قَوْماً ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ قلت: هو مدح لهم وثناء عليهم، كأنه قيل. ليجزي أيما قوم وقوما «1» مخصوصين، لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار، وعلى ما كانوا

---

(1). قوله «أيما قوم وقوما مخصوصين» لعله: أو قوما. (ع)

يجرعونهم من الغصص بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ومعنى قوله عمر : ليجزي عمر بما صنع : ليجزي بصبره واحتماله . وقوله لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عند نزول الآية : والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهى . وقرئ : ليجزي قوما ، أى : اللّه عز وجل . وليجزي قوم . وليجزي قوما ، على معنى : وليجزي الجزاء قوما .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 16 إلى 17]

وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (16) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17)

الْكِتابَ التوراة وَالْحُكْمَ الحكمة والفقه . أو فصل الخصومات بين الناس ، لأنّ الملك كان فيهم والنبوّة مِنَ الطَّيِّباتِ مما أحل اللّه لهم وأطاب من الأرزاق وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما آتيناهم بَيِّناتٍ آيات ومعجزات مِنَ الْأَمْرِ من أمر الدين ، فما وقع بينهم الخلاف في الدين إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم . وإنما

اختلفوا لبغى حدث بينهم ، أو لعداوة وحسد .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 18 إلى 19]

ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19)

عَلى شَرِيعَةٍ على طريقة ومنهاج مِنَ الْأَمْرِ من أمر الدين ، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال . ودينهم المبنى على هوى وبدعة ، وهم رؤساء قريش حين قالوا . ارجع إلى دين آبائك . ولا توالهم ، إنما يوالى الظالمين من هو ظالم مثلهم ، وأما المتقون : فوليهم اللّه وهم موالوه . وما أبين الفصل بين الولايتين .

[سورة الجاثية (45) : آية 20]

هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

هذا القرآن بَصائِرُ لِلنَّاسِ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب . كما جعل روحا وحياة وهو هدى من الضلالة ، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن .

وقرئ : هذه بصائر ، أى : هذه الآيات .

[سورة الجاثية (45) : آية 21]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (21)

أَمْ

منقطعة. ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. والاجتراح: الاكتساب. ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله، أى: كاسبهم أَنْ نَجْعَلَهُمْ

أن نصيرهم. وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين فأوّلهما الضمير، والثاني: الكاف، والجملة التي هي سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ

بدل من الكاف، لأنّ الجملة تقع مفعولا ثانيا، فكانت في حكم المفرد. ألا تراك لو قلت: أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم: كان سديدا، كما تقول: ظننت زيدا أبوه منطلق. ومن قرأ سَواءً

بالنصب: أجرى سواء مجرى مستويا، وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية، وكان مفردا غير جملة. ومن قرأ:

ومماتهم بالنصب، جعل محياهم ومماتهم: ظرفين، كمقدم الحاج وخفوق النجم. أى: سواء في محياهم وفي مماتهم. والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا، وأن يستووا مماتا، لافتراق أحوالهم أحياء. حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك

على ركوب المعاصي . ومماتا ، حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب اللّه ورضوانه ، وأولئك على اليأس من رحمة اللّه والوصول إلى هول ما أعدّ لهم . وقيل : معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة ، لأنّ المسيئين والمحسنين مستو محياهم في الرزق والصحة ، وإنما يفترقون في الممات ، وقيل : سواء محياهم ومماتهم : كلام مستأنف على معنى : أن محيا المسيئين ومماتهم سواء ، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم : كل يموت على حسب ما عاش عليه . وعن تميم الداري رضى اللّه عنه أنه كان يصلى ذات ليلة عند المقام ، فبلغ هذه الآية ، فجعل يبكى ويردّد إلى الصباح : ساء ما يحكمون . وعن الفضيل : أنه بلغها فجعل يردّدها ويبكى ويقول : يا فضيل ، ليت شعري من أى الفريقين أنت .

[سورة الجاثية (45) : آية 22]

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (22)

وَلِتُجْزى معطوف على بالحق ، لأنّ فيه معنى التعليل . أو على معلل محذوف تقديره : خلق اللّه السماوات والأرض ، ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس .

[سورة الجاثية (45) : آية 23]

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (23)

أى : هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه .

وقرئ : آلهة هواه ، لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده ، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه ، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى : يعبد كل وقت واحدا منها وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وتركه عن الهداية «1» واللطف وخذله على علم ، عالما بأنّ ذلك لا يجدى عليه ، وأنه ممن لا لطف له .

أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقرّبة «2» فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ إِضلال اللَّهُ وقرئ : غشاوة ، بالحركات الثلاث . وغشوة ، بالكسر والفتح .

وقرئ : تتذكرون

[سورة الجاثية (45) : آية 24]

وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24)

نَمُوتُ وَنَحْيا نموت نحن ويحيا أولادنا . أو يموت بعض ويحيا بعض . أو نكون مواتا نطفا في الأصلاب ، ونحيا بعد ذلك . أو يصيبنا الأمران : الموت والحياة ، يريدون : الحياة في الدنيا

والموت بعدها ، وليس وراء ذلك حياة . وقرئ : نحيا ، بضم النون . وقرئ : إلا دهر يمرّ ، وما يقولون ذلك عن علم ، ولكن عن ظنّ وتخمين : كانوا يزعمون أنّ مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر اللّه ، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان .

ومنه قوله عليه السلام : «لا تسبوا الدهر ، فإنّ اللّه هو الدهر» «3» أى : فإنّ اللّه هو الآتي بالحوادث لا الدهر .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 25 إلى 26]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (26)

وقرئ : حجتهم بالنصب والرفع ، على تقديم خبر كان وتأخيره . فإن قلت : لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته وساقوه مساقها ، فسميت حجة

---

(1) . قوله «و تركه عن الهداية» تأويل الآية بذلك لتوافق مذهب المعتزلة : أنه لا يريد الشر ولا يفعله .

وعند أهل السنة : لا يقع في ملكه إلا ما يريد ، واللّه خالق كل شيء ، فالاضلال : خلقه

الضلال في القلب . (ع)

(2) . قوله «المحصلة والمقربة» يعنى . للهداية . (ع)

(3) . متفق عليه من حديث أبى هريرة ، واللفظ لمسلم .

(132/700)

على سبيل التهكم . أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه في أسلوب قوله :

تحيّة بينهم ضرب وجيع «1»

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد : نفى أن تكون لهم حجة البتة . فإن قلت :

كيف وقع قوله قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ جوابا لقولهم ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ؟ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل ، وحسبوا أنّ ما قالوه قول مبكت . ألزموا ما هو مقرّون به :

من أنّ اللّه عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم ، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعى الحق ، وهو جمعهم إلى يوم القيامة ، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم ، وكان أهون شيء عليه .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 27 إلى 31]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31)

عامل النصب في يَوْمَ تَقُومُ يخسر ، ويَوْمَئِذٍ بدل من يَوْمَ تَقُومُ جاثِيَةً باركة مستوفزة على الركب . وقرئ : جاذية . والجذوّ : أشد استيفازا من الجثوّ ، لأن الجاذى هو الذي يجلس على أطراف أصابعه : وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : جاثية مجتمعة . وعن قتادة : جماعات من الجثوة ، وهي الجماعة ، وجمعها : جثى . وفي الحديث «2» «من جثى جهنم» «3» وقرئ

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 60 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . هذا طرف من حديث الحرث بن الحرث الأشعرى ، قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من دعا بدعوى الجاملية فانه من جثى جهنم . . . الحديث» أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم ، وأحمد وأبو يعلى «تنبيه» احتج به المصنف على أن جثى جمع جثوة : وهي الجماعة . وفي البخاري من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما

رفعه «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا ، كل أمة تتبع نبيها .

(3) . قوله «من جثى جهنم» في الصحاح «الجثوة» مثلثه : الحجارة المجموعة . وجثى الحرم ، بالضم وبالكسر :

ما اجتمع فيه من حجارة الجمار . (ع)

(133/700)

كُلَّ أُمَّةٍ على الابتداء : وكل أمة : على الإبدال من كل أمة إِلى كِتابِهَا إلى صحائف أعمالها ، فاكتفى باسم الجنس ، كقوله تعالى وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ . الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ محمول على القول . فإن قلت : كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى اللّه عزّ وجل ؟ قلت : الإضافة تكون للملابسة ، وقد لا بسهم ولا بسه ، أما ملابسته إياهم ، فلأن أعمالهم مثبتة فيه . وأما ملابسته إياه ، فلأنه مالكه ، والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ يشهد عليكم بما عملتم بِالْحَقِّ من غير زيادة ولا نقصان إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ الملائكة ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى نستكتبهم أعمالكم فِي رَحْمَتِهِ في جنته . وجواب أما محذوف تقديره : وأما الذين كفروا فيقال لهم أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم ، فحذف المعطوف عليه .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 32 إلى 33]

وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (33)

وقرئ: والساعة، بالنصب عطفا على الوعد، وبالرفع عطفا على محل إن واسمها مَا السَّاعَةُ أىّ شيء الساعة؟ فإن قلت: ما معنى إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا؟ قلت: أصله نظن ظنا. ومعناه: إثبات الظن فحسب، فأدخل حرفا النفي والاستثناء، ليفاد إثبات الظن مع نفى ما سواء وزيد نفى ما سوى الظن توكيدا بقوله وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ . . . . . سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا أى قبائح أعمالهم. أو عقوبات أعمالهم السيئات، كقوله تعالى وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 34 إلى 35]

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (34) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35)

نَنْساكُمْ نترككم في العذاب كما تركتم عدة لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وهي الطاعة، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسى غير المبالى به، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال، كالشىء

الذي يطرح نسيا منسيا . فإن قلت : فما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم ؟ قلت : كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أى نسيتم لقاء اللّه في يومكم هذا ولقاء جزائه . وقرئ : لا يخرجون ، بفتح الياء وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه .

(134/700)

[سورة الجاثية (45) : الآيات 36 إلى 37]

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ فاحمدوا اللّه لذي هو ربكم ورب كل شيء من السماوات والأرض والعالمين ، فان مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب ، وكبروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وحق مثله أن يكبر ويعظم .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ حم الجاثية ستر اللّه عورته وسكن روعته يوم الحساب» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 284. 294﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب . [. . . . .]

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ حم تنزيلُ الكتاب ﴾

قد شرحناه في أول [المؤمن] .

قوله تعالى : ﴿ وفي خَلْقكم ﴾ أي : من تراب ثم من نُطْفة إلى أن يتكامل خَلْق الإنسان ﴿ وما يَبُثُّ مِنْ دابَّة ﴾ أي : وما يُفرِّق في الأرض من جميع ما خلق على اختلاف ذلك في الخَلْق والصُّوَر ﴿ آياتٌ ﴾ تدُلُّ على وحدانيَّته .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ آياتٌ ﴾ رفعاً ﴿ وتصريفِ الرِّياحِ آياتٌ ﴾ رفعاً أيضاً .

وقرأ حمزة ، والكسائي : بالكسر فيهما .

والرِّزق هاهنا بمعنى المطر .

قوله تعالى : ﴿ تلك آياتُ الله ﴾ أي : هذه حُجج الله ﴿ نتلوها عليك بالحق فبأيِّ حديثٍ بَعْدَ الله ﴾ أي : بعد حديثه ﴿ وآياتِه ﴾ يؤمِن هؤلاء المشركون ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لكل أفّاكٍ أثيمٍ ﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس أنها نزلت في النضر بن

الحارث .

وقد بيَّنّا معناها في [الشعراء : 222] والآية التي تليها مفسَّرة في [لقمان : 7] .

قوله تعالى : ﴿ وإذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شيئاً ﴾ قال مقاتل : معناه : إذا سمع .

وقرأ ابن مسعود : " وإذا عُلِّمَ " برفع العين وكسر اللام وتشديدها .

قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذَها هُزُواً ﴾ أي : سَخِر منها ، وذلك كفعل أبي جهل حين نزلت ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم ، طعامُ الأثيمِ ﴾ [الدخان : 43 44] فدعا بتمر وزُبْد ، وقال : تَزَقَّموا فما يَعِدُكم محمد إلاَّ هذا .

وإنما قال : ﴿ أولئك ﴾ لأنه ردَّ الكلام إلى معنى " كُلّ " .

﴿ مِنْ ورائهم جهنَّمُ ﴾ قد فسَّرناه في [إبراهيم : 16] ﴿ ولا يُغْني عنهم ما كسَبوا شيئاً ﴾ من الأموال ، ولا ما عبدوا من الآلهة .

قوله تعالى : ﴿ هذا هُدىً ﴾ يعني القرآن ﴿ والذين كفَروا ﴾ به ، ﴿ لهم عذابٌ من رِجْزٍ أليمٌ ﴾ قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : " أليمٌ " بالرفع على نعت العذاب ، وقرأ الباقون : بالكسر على نعت الرِّجز .

والرِّجز بمعنى العذاب ، وقد شرحناه في [الأعراف : 134] .

قوله تعالى : ﴿ جميعاً منه ﴾ أي : ذلك التسخير منه لا مِنْ غيره ، فهو مِنْ فضله .

وقرأ عبد الله بن عمرو ، وابن عباس ، وأبو مجلز ، وابن السميفع ، وابن محيصن ، والجحدري : ﴿ جميعاً مِنَّةً ﴾ بفتح النون وتشديدها وتاء منصوبة منوَّنة .

وقرأ سعيد بن جبير : " مَنُّهُ " بفتح الميم ورفع النون والهاء مشددة النون .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ للذين آمنوا يَغْفِروا . . .

﴾ [الآية] في سبب نزولها أربعة أقوال :

أحدها : أنهم نزلوا في غَزاة بني المصطلق على بئر يقال لها : " المريسيع " ، فأرسل عبدُ الله بن أُبيّ غلامَة ليستقيَ الماء ، فأبطأ عليه ، فلمّا أتاه قال له : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر ، ما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قُرَبَ النبيّ صلى الله عليه وسلم وقُرَبَ أبي بكر ، وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مَثَلُنا ومَثَلُ هؤلاء إلاّ كما قيل : سمّن كلبك يأكلك ، فبلغ قولُه عمر ، فاشتمل سيفَه يريد التوجُّه إليه فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : [أنها] لمّا نزلت : ﴿ مَنْ ذا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ [البقرة : 245] قال يهوديٌّ بالمدينة يقال له فنحاص : احتاج ربُّ محمد ، فلما سمع بذلك عمر ، اشتمل [على] سيفه وخرج في طلبه ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية ، فبعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم في طلب عمر ، فلمّا جاء قال : " يا عمر ، ضَعْ سيفَك " وتلا عليه الآية ، رواه

ميمون بن مهران عن ابن عباس .

والثالث : أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة كانوا في أذىً شديدٍ من المشركين قبل أن يؤمَروا بالقتال ، فشكَوْا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، قاله القرظي ، والسدي .

والرابع : أن رجلاً من كفار قريش شتم عمر بن الخطاب ، فهمَّ عمر أن يبطش به ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

(137/700)

ومعنى الآية : قُلْ للذين آمنوا : اغْفِروا ، ولكن شبّه بالشرط والجزاء ، كقوله : ﴿ قُلْ لعباديَ الذين آمَنوا يُقيموا الصلاة ﴾ [إبراهيم : 31] ، وقد مضى بيان هذا .

وقوله : ﴿ للذين لا يَرْجُونَ ﴾ أي : لا يَخافون وقائع الله في الأُمم الخالية ، لأنهم لا يؤمنون به ، فلا يخافون عقابه .

وقيل : لا يَدْرُون أَنْعَمَ اللهُ عليهم ، أم لا .

وقد سبق بيان معنى " أيام الله " في سورة [إبراهيم : 5] .

فصل

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية منسوخة ، لأنها تضمَّنت الأمر بالإِعراض عن المشركين .

واختلفوا في ناسخها على ثلاثة أقوال :

أحدها : [أنه] قوله : ﴿ فاقتُلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] ، رواه معمر عن قتادة .

والثاني : أنه قوله في [الأنفال : 57] ﴿ فإِمَّا تَثْقَفَنَّهم في الحرب ﴾ وقوله في [براءة : 36] ﴿ وقاتِلوا المشركين كافَّةً ﴾ [التوبة : 36] رواه سعيد عن قتادة .

والثالث : [أنه] قوله : ﴿ أُذِن للذين يقتَلون بأَنَّهم ظُلِموا ﴾ [الحج : 39] قاله أبو صالح .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً ﴾ وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ لِنَجْزِيَ ﴾ بالنون ﴿ قوماً ﴾ يعني الكفار ، فكأنه قال : لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن .

وما بعد هذا قد سبق [الإسراء : 7] إلى قوله : ﴿ ولقد آتَيْنا بني إِسرائيل الكتابَ ﴾ يعني التوراة ﴿ والحُكْمَ ﴾ وهو الفَهْم في الكتاب ، ﴿ ورَزَقْناهم من الطيِّبات ﴾ يعني المَنَّ والسَّلوى ﴿ وفَضَّلْناهم على العالَمِين ﴾ أي : عالَمي زمانهم .

﴿ وآتيناهم بيِّناتٍ من الأمر ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بيان الحلال والحرام ، قاله السدي .

والثاني : العِلْم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوَّته ، ذكره الماوردي .

وما بعد هذا قد تقدم بيانه [آل عمران : 19] إلى قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْناكَ على شريعة من الأمر ﴾ سبب نزولها أن رؤساء قريش دعَوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، إلى مِلَّة آبائه ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

فأمّا قوله : ﴿ على شريعةٍ ﴾ فقال ابن قتيبة : [أي] : على مِلَّة ومذهب ، ومنه يقال : شَرَعَ فلان في كذا : إذا أخَذ فيه ، ومنه " مَشارِعُ الماء " وهي الفُرَض التي شرع فيها الوارد .

قال المفسرون : ثم جعلناك بعد موسى على طريقة من الأمر ، أي : من الدِّين (فاتَّبِعْها و ﴿ الذين لا يَعلمون ﴾ كفار قريش .

﴿ إنَّهم لن يُغْنُوا عنك ﴾ أي : لن يَدْفَعوا عنك عذاب الله إن اتَّبَعتَهم ، ﴿ وإنَّ الظالمين ﴾ يعني المشركين .

﴿ واللهُ وليُّ المُتَّقِينَ ﴾ الشرك .

والآية التي بعدها [مفَّسرة] في آخر [الأعراف : 203] .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجْتَرَحُوا السَّيِّئات ﴾ سبب نزولها أن كفار مكة قالوا للمؤمنين : إنّا نُعطى في الآخرة مثلما تُعْطَون من الأجر .

قاله مقاتل .

والاستفهام هاهنا استفهام إنكار و "اجترحوا" بمعنى اكتسبوا .

﴿ سواءً مَحياهم ومَماتُهم ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وزيد عن يعقوب : ﴿ سواءً ﴾ نصباً ، وقرأ الباقون : بالرفع فمن رفع ، فعلى الابتداء ؛ ومن نصب جعله مفعولاً ثانياً ، على تقدير : أن نجعل مَحياهم ومماتَهم سواءً ؛ والمعنى : إن هؤلاء يَحْيَون مؤمنين ويموتون مؤمنين ، وهؤلاء يَحْيَون كافرين ويموتون كافرين ؛ وشتّانَ ما هم في الحال والمآل ﴿ ساءَ ما يَحْكُمونَ ﴾ أي : بئس ما يَقْضُون .

ثم ذكر بالآية التي تلي هذه أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي : للحق والجزاء بالعدل ، لئلاّ يظُن الكافرُ أنه لا يُجزي بكفره .

قوله تعالى : ﴿ أفرأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهه هواه ﴾ قد شرحناه في [الفرقان : 43] .

وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في الحارث بن قيس السهمي .

(139/700)

قوله تعالى : ﴿ وأضَلَّه اللهُ على عِلْم ﴾ أي : على عِلْمه السابق فيه أنه لا يَهتدي ﴿ وخَتَم على سَمْعه ﴾ أي : طَبَع عليه فلم يَسمع الهُدى (و) على ﴿ قَلْبه ﴾ فلم يَعْقِل الهُدى .

وقد ذكرنا الغِشاوة والخَتْم في [البقرة : 7] .

﴿ فمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ﴾ ؟ ! أي : مِنْ بَعْدِ إضلاله إيّاه ﴿ أفلا تَذَكَّرونَ ﴾ فتَعْرِفوا قُدرته على ما يشاء ؟ ! وما بعد [هذا] مفسَّر في سورة [المؤمنون : 37] إلى قوله : ﴿ وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ ﴾ أي : اختلاف الليل والنهار ﴿ وما لهم بذلك مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي : ما قالوه عن عِلْم ، إنَّما قالوه شاكّين فيه .

ومن أجل هذا قال نبيُّنا عليه الصلاة والسلام : " لا تَسُبُّوا الدَّهْر فإنَّ الله هو الدَّهْر " ، أي : هو الذي يُهْلِككم ، لا ما تتوهَّمونه من مرور الزمان .

وما بعد هذا ظاهر ، وقد تقدم بيانه [البقرة : 28] [الشورى : 7] إلى قوله : ﴿ يَخْسَرُ المُبطِلونَ ﴾ يعني : المكذِّبين الكافرين أصحابَ الأباطيل ؛ والمعنى : يظهر خسرانُهم يومئذ .

﴿ وتَرَى كُلَّ أُمَّة ﴾ قال الفراء : ترى أهل كل دين ﴿ جاثيةً ﴾ قال الزجاج : أي : جالسة على الرُّكَب ، يقال : قد جثا فلان جُثُواً : إذا جلس على ركبتيه ، ومِثْلُه : جَذا يَجْذو .

والجُذُوُّ أشد استيفازاً من الجُثُوِّ ، لأن الجُذُوَّ : أن يجلس صاحبه على أطراف أصابعه .

قال ابن قتيبة : والمعنى أنها غير مطمئنَّة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كتابها ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه كتابها الذي فيه حسناتها وسيِّئاتها ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه حسابها ، قاله الشعبي ، والفراء ، وابن قتيبة .

والثالث : كتابها الذي أنزل على رسوله ، حكاه الماوردي .

ويقال لهم : ﴿ اليومَ تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون ﴾ .

﴿ هذا كتابُنا ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه كتاب الأعمال الذي تكتبه الحَفَظة ، قاله ابن السائب .

(140/700)

والثاني : اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل .

والثالث : القرآن ، والمعنى : أنهم يقرؤنه فيَدُلُّهم ويُذكِّرُهم ، فكأنه يَنْطِق عليهم ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كنتم تعملون ﴾ أي : نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم ، أي بكَتْبها وإِثباتها .

وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ ، من اللوح المحفوظ ، تَسْتَنْسِخُ الملائكةُ كُلَّ عامٍ ما يكون من أعمال بني آدم ، فيجدون ذلك موافقاً ما يعملونه .

قالوا : والاستنساخ لا يكون إلاّ مِنْ أصل .

قال الفراء : يرفع الملَكان العمل كلَّه ، فيُثْبِتُ اللهُ منه ما فيه ثواب أو عقاب ، ويطرح منه اللَّغو .

وقال الزجاج : نستنسخ ما تكتبه الحَفَظة ، ويثبت عند الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ في رحمته ﴾ قال مقاتل في جنَّته .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آياتي ﴾ فيه إضمار ، تقديره : فيقال لهم ألم تكن آياتي ، يعني آيات القرآن ﴿ تُتْلَى عليكم فاستَكْبَرتم ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وكنتم قَوْماً مجرِمين ﴾ ؟ !

قال ابن عباس : كافرين .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل إنَّ وَعْدَ الله ﴾ بالبعث ﴿ حَقٌّ ﴾ أي : كائن ﴿ والساعةُ ﴾ قرأ حمزة : " والساعةَ " بالنصب " لا رَيْبَ فيها " أي : كائنة بلا شك ﴿ قُلْتُم ما نَدري ما السّاعةُ ﴾ أي : أنكرتموها ﴿ إنْ نَظُنُّ إلاّ ظَنّاً ﴾ أي : ما نعلم ذلك إلا ظنّاً وحَدْساً ، ولا نَسْتَيقِنُ كونَها .

وما بعد هذا قد تقدم [الزمر : 48] إلى قوله : ﴿ وقيل الْيومَ نَنْساكم ﴾ أي : نترككُم في النار ﴿ كما نَسيتم لقاءَ يومكم هذا ﴾ أي : كما تَركتُم الإيمانَ والعملَ للقاء هذا اليوم .

﴿ ذلكم ﴾ الذي فَعَلْنا بكم ﴿ بأَنَّكم اتَّخذتم آياتِ اللهِ هُزُواً ﴾ أي : مهزوءاً بها ﴿ وغرَّتكم الحياةُ الدُّنيا ﴾ حتى قلتم : إنه لا بَعْثَ ولا حساب ﴿ فاليومَ لا يُخْرَجُونَ ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي : "لا يَخْرُجُونَ" بفتح الياء وضم الراء ، وقرأ الباقون : ["لا يُخْرَجُونَ"] بضم الياء وفتح الراء ﴿ منها ﴾ أي : من النار ﴿ ولا هم يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : لا يُطلب منهم أن يَرْجِعوا إلى طاعة الله عز وجل ، لأنه ليس بحين توبة ولا اعتذار .

قوله تعالى : ﴿ وله الكِبرياءُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : السُّلطان ، قاله مجاهد .

والثاني : الشَّرَف ، قاله ابن زيد .

والثالث : العَظَمة ، قاله يحيى بن سلام ، والزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 354. 367 ﴾

(142/700)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إن في السموات والأرض ﴾

أي إن في خلق السموات والأرض وهما خلقان عظيمان يدلان على قدرة القادر المختار وهو قوله ﴿ لآيات للمؤمنين وفي خلقكم ﴾ أي وخلق أنفسكم من تراب ثم من نطفة إلى أن يصير إنساناً ذا عقل وتمييز ﴿ وما يبث من دابة ﴾ أي وما يفرق في الأرض من جميع الحيوانات على اختلاف أجناسها في الخلق والشكل والصورة ﴿ آيات ﴾ دلالات تدل على وحدانية من خلقها وأنه الإله القادر المختار ﴿ لقوم يوقنون ﴾ يعني أنه لا إله غيره . ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ يعني بالظلام والضياء والطول والقصر ﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق ﴾ يعني المطر الذي هو سبب أرزاق العباد ﴿ فأحيا به ﴾ أي بالمطر ﴿ الأرض بعد موتها ﴾ أي بعد يبسها ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي في مهابها فمنها الصبا والدبور والشمال والجنوب ومنها الحارة والباردة وغير ذلك ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ .

فإن قلت ما وجه هذا الترتيب في قوله ﴿ لآيات للمؤمنين ﴾ و ﴿ لقوم يوقنون ﴾ ﴿ ويعقلون ﴾ .

(143/700)

قلت معناه إن المنصفين من العباد إذا نظروا في هذه الدلائل النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنه لا بد لها من صانع فآمنوا به وأقروا أنه الإله القادر على كل شيء ثم إذا أمعنوا

النظر ازدادوا إيقاناً وزال عنهم اللبس فحينئذٍ استحكم علمهم وعدوا في زمرة العقلاء الذين عقلوا عن الله مراده في أسرار كتابه ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله ﴾ أي بعد كتاب الله ﴿ وآياته يؤمنون ﴾ قوله تعالى : ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ أي كذاب صاحب إثم يعني النضر بن الحارث ﴿ يسمع آيات الله ﴾ يعني القرآن ﴿ تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئاً ﴾ يعني آيات القرآن ﴿ اتخذها هزوا ﴾ أي سخر منها ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى من هذه صفته ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ ثم وصفهم فقال تعالى : ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ يعني أمامهم جهنم وذلك جهنم وذلك خزيهم في الدنيا ولهم في الآخرة النار ﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا ﴾ أي من الأموال ﴿ شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أي ولا يغني عنهم ما عبدوا من دون الله من الآلهة ﴿ ولهم عذاب عظيم هذا ﴾ يعني القرآن ﴿ هدى ﴾ أي هو هدى من الضلالة ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾ أي بسبب التجارة واستخراج منافعه ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ نعمته على ذلك ﴿ وسخر لكم ما في السموات والأرض ﴾ يعني أنه تعالى خلقها ومنافعها فهي مسخرة لنا من حيث إنا ننتفع بها ﴿ جميعاً منه ﴾ قال ابن عباس : كل ذلك رحمه منه وقيل كل ذلك تفضل منه وإحسان ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

قوله : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي لا يخافون وقائع الله ولا يبالون بمقته ، قال ابن عباس : نزلت في عمر بن الخطاب وذلك أن رجلاً من بني غفار شتمه بمكة فهم عمر أن يبطش به فأنزل الله هذه الآية وأمره أن يعفو عنه وقيل نزلت في ناس من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله هذه الآية ثم نسخها بآية القتال ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ أي من الأعمال ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ والحكم ﴾ يعني معرفة أحكام الله ﴿ والنبوة ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي الحلالات وهو ما وسع عليهم في الدنيا وأورثهم أموال قوم فرعون وديارهم وأنزل عليهم المن والسلوى ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي على عالمي زمانهم ، قال ابن عباس : لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ أي بيان الحلال والحرام وقيل

العلم ببعث محمد (صلى الله عليه وسلم) وما بين لهم من أمره ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ معناه التعجب من حالهم وذلك لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الاختلاف وهنا صار مجيء العلم سبباً لحصول الاختلاف وذلك أنه لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم وإنما كان مقصودهم منه طلب الرياسة والتقدم ثم إنهم لما علموا عاندوا وأظهروا النزاع والحسد والاختلاف ﴿ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

(145/700)

﴿ ثم جعلناك ﴾ يا محمد ﴿ على شريعة ﴾ أي على طريقة ومنهاج وسنة بعد موسى ﴿ من الأمر ﴾ أي من الدين ﴿ فاتبعها ﴾ أي اتبع شريعتك الثابتة ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ يعني مراد الكافرين وذلك أنهم كانوا يقولون له أرجع إلى دين آبائك فإنهم كانوا أفضل منك قال الله تعالى : ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ أي لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً إن اتبعت أهواءهم ﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ يعني إن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا ولأولى لهم في الآخرة ﴿ والله ولي المتقين ﴾ أي هو ناصرهم في الدنيا ووليهم في الآخرة ﴿ هذا ﴾ يعني القرآن ﴿ بصائر للناس ﴾ أي

معالم للناس في الحدود والأحكام يبصرون به ﴿ وهدى ورحمة لقوم يوقنون أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ أي اكتسبوا المعاصي والكفر ﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين لئن كان ما تقولون حقاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ معناه أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم سواء كلا والمعنى أن المؤمن مؤمن في محياه ومماته في الدنيا والآخرة والكافر كافر في محياه ومماته في الدنيا والآخرة وشتان ما بين الحالين في الحال والمآل ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس ما يقضون قال مسروق قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري ولقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله يركع بها ويسجد ويبكي ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ الآية ﴿ وخلق ﴾ الله السموات والأرض بالحق أي بالعدل ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ومعنى الآية أن المقصود من خلق هذا العالم إظهار العدل والرحمة ذلك لا يتم إلا في القيامة ليحصل التفاوت بين المحقين والمبطلين في الدرجات والدركات .

قوله : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال ابن عباس : اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركبه لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحرم ما حرم الله وقيل معناه اتخذ معبوده ما تهواه نفسه وذلك أن العرب كانت تعبد الحجارة والذهب والفضة فإذا رأوا شيئاً أحسن من الأول رموا بالأول وكسروه وعبدوا الآخر وقيل إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار ﴿ وأضله الله على علم ﴾ أي علماً منه بعاقبة أمره وقيل على ما سبق في علم الله أنه ضال قبل أن يخلقه ﴿ وختم على سمعه وقلبه ﴾ أي فلم يسمع الهدى ولم يعقله بقلبه ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ يعني ظلمة فهو لا يبصر الهدى ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ أي من بعد أن أضله الله ﴿ أفلا تذكرون ﴾ قال الواحدي ليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة لأن الله صرح بمنعه إياه عن الهدى حتى أخبر أنه ختم على سمعه وقلبه وبصره .

﴿ وقالوا ﴾ يعني منكري البعث .

(147/700)

﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ يعني ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ﴿ نموت ونحيا ﴾ يعني يموت الآباء ويحيا الأبناء وقيل تقديره نحيا ونموت ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ يعني وما

يفنينا إلا ممر الزمان واختلاف الليل والنهار ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ يعني لم يقولوه عن علم علموه ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال الله: "يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار" وفي رواية "يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما" وفي رواية "يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار" ومعنى هذه الأحاديث أن العرب كان من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل لأنهم كانوا ينسبون إلى الدهر ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر كما أخبر الله عنهم بقوله ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد وسبوا فاعلها كان مرجع سبهم إلى الله تعالى إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر فنهوا عن سب الدهر قيل لهم لا تسبوا فاعل ذلك فإنه هو الله والدهر متصرف فيه يقع به التأثير كما يقع بكم والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ معناه أن منكري البعث احتجوا بأن قالوا إن صح ذلك فأتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر

المبطلون ﴾ يعني في ذلك اليوم يظهر خسران أصحاب الأباطيل وهم الكافرون يصيرون إلى النار .

(148/700)

﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ أي باركة على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء قال سلمان الفارسي إن في القيامة ساعة هي عشر سنين يخر الناس فيها جثاة على الركب حتى إبراهيم ينادي ربه لا أسألك إلا نفسي ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ أي الذي فيه أعمالها ويقال لهم ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي من خير وشر ﴿ هذا كتابنا ﴾ يعني ديوان الحفظة .

فإن قلت كيف أضاف الكتاب إليهم أولاً بقوله ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ وإليه ثانياً بقوله ﴿ هذا كتابنا ﴾ .

قلت لا منافاة بينهما فإضافته إليهم لأنه كتاب أعمالهم وإضافته إليه لأنه تعالى هو آمر الحفظة بكتبه ﴿ ينطق عليكم بالحق ﴾ أي يشهد عليكم ببيان شاف كأنه ينطق وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ أي نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم وكتابتها وإثباتها عليكم وقيل نستنسخ أي نأخذ نسخته وذلك أن الملكين يرفعان

عمل الإنسان فيثبت الله منه ما كان له ثواب وعليه عقاب ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم واذهب ، وقيل الاستنساخ من اللوح المحفوظ تنسخ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم والاستنساخ لا يكون إلا من أصل فينسخ كتاب من كتاب ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ﴾ أي جنته ﴿ ذلك هو الفوز المبين ﴾ أي الظفر الظاهر ﴿ وأما الذين كفروا ﴾ أي يقال لهم ﴿ أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ يعني آيات القرآن ﴿ فاستكبرتم ﴾ أي عن الإيمان بها ﴿ وكنتم قوماً مجرمين ﴾ يعني كافرين منكرين قوله : ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق ﴾ أي البعث كائن ﴿ والساعة لا ريب فيها ﴾ أي لا شك في أنها كائنة ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة ﴾ أي أنكرتموها وقلتم ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ أي ما نعلم ذلك إلا حدساً وتوهماً ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ أي إنها كائنة .

(149/700)

﴿ وبدا لهم ﴾ أي في الآخرة ﴿ سيئات ما عملوا ﴾ أي في الدنيا والمعنى بدا لهم جزاء سيئاتهم ﴿ وحاق بهم ﴾ أي نزل بهم ﴿ ما كانوا به يستهزئون وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم ﴿ ومأواكم النار وما

لكم من ناصرين ﴾ أي ما لكم من مانعين يمنعونكم من العذاب ﴿ ذلكم ﴾ أي هذا الجزاء ﴿ بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ يعني حين قلتم لا بعث ولا حساب ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ أي من النار ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله والإيمان به لأنه لا يقبل ذلك اليوم عذر ولا توبة ﴿ فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴾ معناه فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين فإن مثل الربوبية والعامة توجب الحمد والثناء على كل حال ﴿ وله الكبرياء ﴾ أي وكبروه فإن له الكبرياء والعظمة ﴿ في السموات والأرض ﴾ وحق لمثله أن يكبر ويعظم ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ (م) عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " العز إزاره والكبرياء رداؤه " قال الله تعالى : " فمن ينازعني عذبته " لفظ مسلم وأخرجه البرقاني وأبو مسعود يقول الله : " العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني شيئاً منهما عذبته " ولأبي داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال الله تعالى : " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار " .

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

قيل هذا الكلام خرج على ما تعتاده العرب في بديع استعاراتهم وذلك أنهم يكنون عن الصفة اللازمة بالثياب يقولون شعار فلان الزهد ولباسه التقوى فضرب الله الإزار والرداء مثلاً له في انفراده سبحانه وتعالى بصفة الكبرياء والعظمة ، والمعنى أنهما ليسا كسائر الصفات التي يتصف بها بعض المخلوقين مجازاً كالرحمة والكرم وغيرهما وشبههما بالإزار والرداء لأن المتصف بهما يشملانه كما يشمل الرداء الإنسان ولأنه لا يشاركه في إزاره ورداءه أحد فكذلك الله تعالى لا ينبغي أن يشاركه فيهما أحد لأنهما من صفاته اللازمة له المختصة به التي لا تليق بغيره والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 155.150 ﴾

(151/700)

وقال ابن جزى :

﴿ تَنزِيلُ ﴾ ذكر في الزمر ، وما بعد ذلك تنبيه على الاعتبار بالموجودات ، وقد ذكر معناه في مواضع .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الأفاك مبالغة من الإفك وهو الكذاب ، والأثيم من الإثم ، وقيل :

إنها نزلت في النضر بن الحارث ولفظها على العموم .

﴿ يُصِرُّ ﴾ أي يدوم على حاله من الكفر ، وإنما عطفه بثم لاستعظام الإصرار على الكفر ؛ بعد سماعه آيات الله ، واستبعاد ذلك في العقل والطبع .

﴿ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ أي بلغه منها شيء ، ولم يرد العلم الحقيقي .

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ كقوله : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ ، وقد ذكر في [إبراهيم : 17] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ يعني الشمس والقمر والملائكة وبني آدم والحيوانات والنبات وغير ذلك ﴿ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ أي كل نعمة فمن الله تعالى ، والمجرور في موضع الحال أو خبر ابتداء مضمر ، وقرأ ابن عباس : منه .

(152/700)

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ أمر الله المؤمنين أن يتجاوزوا عن الكفار ، ولا يؤاخذوهم إذا آذوهم ، وكان ذلك في صدر الإسلام ، قيل : إنها منسوخة بالسيف ، وقيل : ليست بمنسوخة ، لأن احتمال الأذى مندوب إليه على كل حال ، وأما القتال على الإسلام فليس من ذلك : وروي : أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب شتمه رجل

من الكفار فأراد عمر أن يبطش به ، وأيام الله هي نعمه ، فالرجاء على أصله ، وقيل : أيام الله عبارة عن عقابه ، فالرجاء بمعنى الخوف ويغفروا مجزوم في جواب شرط مقدر دل عليه قل ، قال الزمخشري حذف معمول القول ، والمعنى : قل لهم اغفروا يغفروا ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فالع يجزي ضمير يعود على الله ، وقرئ بنون المتكلم ، وقال ابن عطية إن الآية وعيد ، فالقوم على هذا هم الذين لا يرجون أيام الله ويكسبون يعني السيئات ، وقال الزمخشري : القوم هم الذين آمنوا وجزاؤهم الثواب بما كانوا يكسبون بكظم الغيظ واحتمال المكروه .

﴿ عَلَى العالمين ﴾ ذكر في [البقرة : 47] ﴿ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأمر ﴾ أي معجزات من أمر الدين ﴿ جَعَلْنَاكَ على شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمر ﴾ أي ملة ودين .

(153/700)

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ ﴾ أم هنا للإنكار ، واجترحوا اكتسبوا ، والمراد ب ﴿ الذين اجترحوا السيئات ﴾ الكفار لمقابلته بالذين آمنوا ، ولأن الآية مكية : وقد يتناول لفظها المذنبين من المؤمنين ، ولذلك يذكر أن الفضيل بن عياض قرأها بالليل فما زال يردّدها ويبكي طول الليل ، ويقول لنفسه : من أي الفريقين

أنت ؟ ومعناها : إنكار ما حسبه الكفار من أن يكونوا هم والمؤمنون سواء في المحيا والممات ، وفي تأويلها مع ذلك قولان : أحدهما أن المراد ليس المؤمنون سواء مع الكفار ، لا في المحيا ولا في الممات ، فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة ، والكفار عاشوا على الكفر والمعصية وكذلك ملتهم ليست سواء ، والقول الآخر أنهم استووا في المحيا في أمور الدنيا من الصحة والرزق فلا يستوون في الممات ، بل يسعد المؤمنون ويشقى الكافرون ، فالمراد بها إثبات الجزاء في الآخرة ، وتفضيل المؤمنين على الكافرين في الآخرة ، وهذا المعنى هو الأظهر والأرجح فيكون معنى الآية كقوله : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ [القلم : 35] ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ هذه الجملة بدل من الكاف في قوله : ﴿ كالذين آمَنُواْ ﴾ وهي مفسرة للتشبيه ، وهي داخلة فيما أنكره الله مما حسبه الكفار ، وقيل : هي كلام مستأنف ؛ والمعنى على هذا أن محيا المؤمنين ومماتهم سواء وأن محيا الكفار ومماتهم سواء لأن كل واحد يموت على ما عاش عليه ، وهذا المعنى بعيد ، والصحيح أنها من تمام ما قبلها على المعنى الذي اخترناه ، وأما إعرابها فمن قرأ سواء بالرفع فهو مبتدأ وخبره محياهم ومماتهم ، والجملة بدل من الجار والمجرور الواقع مفعولاً ثانياً لنجعل ، ومن قرأ سواءً بالنصب فهو حال أو مفعول ثانٍ لنجعل ، ومحياهم

فاعل بسواء ، لأنه في معنى مستوى ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين .

﴿ ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ معطوف على قوله بالحق ، لأن فيه معنى التعليل ، أو على تعليل محذوف تقديره : خلق الله السموات والأرض ليدل بهما على قدرته ولتجزي كل نفس بما كسبت .

﴿ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ أي أطاعه حتى صار له كالإله ﴿ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ ﴾ أي علم من الله سابق ، وقيل : على علم من هذا الضال بأنه على ضلال ، ولكنه يتبع الضلال معاندة ﴿ وَخَتَمَ ﴾ ذكر في [البقرة : 7] ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ﴾ قال ابن عطية : فيه حذف مضاف تقديره : من بعد إضلال الله إياه ، ويحتمل أن يريد ؛ فمن يهديه غيره الله ﴿ وَقَالُواْ ﴾ الضمير لمن اتخذ إلهه هواه أو لقريش ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ فيه أربع تأويلات : أحدها أنهم أرادوا يموت قوم ويحيا قوم ، والآخر نموت نحن ويحيا أولادنا ، الثالث نموت حين كنا عدماً أو نطفاً ، ونحيا في الدنيا ، والرابع نموت الموت المعروف ، ونحيا قبله في الدنيا فوقع في اللفظ تقديم وتأخير ، ومقصودهم على كل وجه إنكار الآخرة ، ويظهر أنهم كانوا على مذهب الدهرية لقولهم : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر ﴾ ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ الآية ﴿ قَالُواْ ائتوا بِآبَآئِنَآ ﴾ ذكر في [الدخان : 36] ﴿ قُلِ الله

يُحْيِيكُمْ ﴾ الآية : ردّ على المنكرين للحشر والاستدلال على وقوعه بقدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة .

(155/700)

﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أي تجثو على الركب ، وتلك هيئة الخائف الذليل ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كِتَابِهَا اليوم ﴾ أي إلى صحائف أعمالها ، وقيل : الكتاب المنزل عليها ، والأول أرجح لقوله : ﴿ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ الآية : فإن قيل : كيف أضاف الكتاب تارة إليهم وتارة إلى الله تعالى ؟ فالجواب : أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتة فيه ، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه ، وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي نأمر الملائكة الحافظين بكتب أعمالكم ، وقيل : إن الله يأمر الحفظة أن تنسخ أعمال العباد من اللوح المحفوظ ، ثم يمسكونه عندهم فتأتي أفعال العباد على ذلك فتكتبها الملائكة ، فذلك هو الاستنساخ وكان ابن عباس يحتج على ذلك بأن يقول : لا يكون الاستنساخ إلا من أصل .

﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ﴾ تقديره : يقال لهم ذلك .

﴿ وَحَاقَ ﴾ ذكر مراراً .

﴿ اليوم نَنسَاكُمْ ﴾ النسيان هنا بمعنى الترك ، وأما في قوله : ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ فيحتمل أن يكون بمعنى الترك أو الذهول .

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ من العتبى وهي الرضا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 40.37 ﴾

(156/700)

وقال النسفى :

﴿ حم ﴾ إن جعلتها إسماً للسورة فهو مرفوعة بالابتداء والخبر ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله ﴾ صلة للتنزيل ، وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ مبتدأ والظرف خبراً ﴿ العزيز ﴾ في انتقامه ﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره ﴿ إِنَّ فِى السماوات والأرض لآيات ﴾ لدلالات على وحدانيته ، ويجوز أن يكون المعنى إن في خلق السماوات والأرض لآيات ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دليله قوله ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ ويعطف ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ على الخلق المضاف لأن المضاف إليه ضمير مجرور متصل يقبح العطف عليه ﴿ ءايات ﴾ حمزة وعلي بالنصب .

وغيرهما بالرفع مثل قولك إن زيداً في الدار وعمراً في السوق أو وعمرو في السوق ﴿ لِّقَوْمٍ

يُوقِنُونَ واختلاف الليل والنهار وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السمآء مِّن رِزْقٍ ﴾ أي مطر وسمي به لأنه سبب الرزق ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرياح ﴾ ﴿ الريح ﴾ حمزة وعلي .

﴿ ءايات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ بالنصب : علي وحمزة ، وغيرهما بالرفع ، وهذا من العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت فالعاملان إذا نصبت "إن" و "في" .

أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ والنصب في ﴿ ءايات ﴾ .

وإذا رفعت فالعاملان الابتداء و "في" .

عملت الواو الرفع في آيات والجر في ﴿ واختلاف ﴾ هذا مذهب الأخفش لأنه يجوز العطف على عاملين ، وأما سيبويه فإنه لا يجيزه وتخريج الآية عنده ، أن يكون على اضمار "في" والذي حسنه تقديم ذكر "في" في الآيتين قبل هذه الآية ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ وَفِى اختلاف الليل والنهار ﴾ ويجوز أن ينتصب ﴿ ءايات ﴾ على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله ، أو على التكرير توكيداً لآيات الأولى كأنه قيل : آيات آيات ، ورفعها بإضمار هي .

والمعنى في تقديم الإيمان على الإيقان وتوسيطه وتأخير الآخر ، أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض نظراً صحيحاً علموا أنها مصنوعة وأنه لا بد لها من صانع فآمنوا بالله ، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وفي خلق ما ظهر على الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً وأيقنوا ، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها ، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً ، عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة أي تلك الآيات ﴿ ءايات الله ﴾ وقوله ﴿ نَتْلُوهَا ﴾ في محل الحال أي متلوة ﴿ عَلَيْكَ بالحق ﴾ والعامل ما دل عليه ﴿ تِلْكَ ﴾ من معنى الإشارة ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وءاياته ﴾ أي بعد آيات الله كقولهم "أعجبني زيد وكرمه" يريدون أعجبني كرم زيد ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ حجازي وأبو عمرو وسهل وحفص ، وبالتاء غيرهم على تقدير قل يا محمد .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كذاب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ متبالغ في اقتراف الآثام ﴿ يَسْمَعُ ءايات الله ﴾ في موضع جر صفة ﴿ تتلى عَلَيْهِ ﴾ حال من آيات الله ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ يقبل على كفره ويقيم عليه ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما تنطق به من الحق مزدرياً لها معجباً بما عنده .

قيل : نزلت في النضر بن الحرث وما كان يشتري من أحاديث العجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن .

والآية عامة في كل من كان مضاراً لدين الله .

وجيء ب "ثم" لأن الإصرار على الضلالة والاستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن مستبعد في العقول ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ "كأن" مخففة والأصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن ومحل الجملة النصب على الحال أي يصر مثل غير السامع ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فأخبره خبراً يظهر أثره على البشرة .

(158/700)

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءايَاتِنَا شَيْئاً ﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿ اتخذها ﴾ اتخذ الآيات ﴿ هُزُواً ﴾ ولم يقل اتخذه للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ، ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية :

نفسي بشيء من الدنيا معلقة . . .

الله والقائم المهدي يكفيها

حيث أراد عتبة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى كل أفاك أثيم لشموله الأفاكين ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ مخز ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ ﴾ من قدامهم الوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام ﴿ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ ﴾ من الأموال ﴿ شَيْئاً ﴾ من عذاب الله ﴿ وَلاَ مَا اتخذوا ﴾ "ما" فيهما مصدرية أو موصلة ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ من الأوثان ﴿ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في جهنم.

(159/700)

﴿ هذا هُدًى ﴾ إشارة إلى القرآن ويدل عليه ﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات رَبِّهِمْ ﴾ لأن آيات ربهم هي القرآن أي هذا القرآن كامل في الهداية كما تقول: زيد رجل أي كامل في الرجولية ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ ﴾ هو أشد العذاب ﴿ أَلِيمٌ ﴾ بالرفع: مكي ويعقوب وحفص صفة ل ﴿ عذاب ﴾ وغيرهم بالجر صفة ل ﴿ رجز ﴾ ﴿ الله الذى سَخَّرَ لَكُمُ البحر لِتَجْرِىَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ بإذنه ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ هو تأكيد ما في السموات وهو مفعول ﴿ سَخَّرَ ﴾ وقيل: ﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال ﴿ مِّنْهُ ﴾ حال أي سخر هذه الأشياء كائنة منه حاصلة

من عنده ، أو خبر مبتدأ محذوف أي هذه النعم كلها منه ، أو صفة للمصدر أي تسخيراً منه ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ ﴾ أي قل لهم اغفروا يغفروا فحذف المقول لأن الجواب يدل عليه .

ومعنى يغفروا يعفوا ويصفحوا .

وقيل : إنه مجزوم بلام مضمر تقديره ليغفرو فهو أمر مستأنف وجاز حذف اللام للدلالة على الأمر ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه من قولهم لوقائع العرب أيام العرب .

وقيل : لا يؤملون الأوقات التي وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها .

قيل : نزلت في عمر رضي الله عنه حين شتمه رجل من المشركين من بني غفار فهم أن يبطش به ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة أي إنما أمروا بأن يغفروا ليوفيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة .

وتنكير ﴿ قَوْماً ﴾ على المدح لهم كأنه قيل : ليجزي أيما قوم و ﴿ قَوْماً ﴾ مخصوصين بصبرهم على أذى أعدائهم .

﴿ لنجزى ﴾ شامي وحمزة وعلي .

﴿ لِيُجْزَىَ قَوْماً ﴾ يزيد أي ليجزى الخير قوماً فأضمر الخير لدلالة الكلام عليه كما أضمر الشمس في قوله ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] لأن قوله ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعشى ﴾ دليل على تواري الشمس ، وليس التقدير ليجزي الجزاء قوماً لأن المصدر لا يقوم مقام الفاعل ومعك مفعول صحيح ، أما إقامة المفعول الثاني مقام الفاعل فجائز وأنت تقول جزاك الله خيراً ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الإحسان .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي لها الثواب وعليها العقاب ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي إلى جزائه .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِى إسراءيل الكتاب ﴾ التوراة ﴿ والحكم ﴾ الحكمة والفقه أو فصل الخصومات بين الناس لأن الملك كان فيهم ﴿ والنبوة ﴾ خصها بالذكر لكثرة الأنبياء عليهم السلام فيهم ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿ وفضلناهم عَلَى العالمين ﴾ على عالمي زمانهم ﴿ وءاتيناهم بينات ﴾ آيات ومعجزات ﴿ مِّنَ الأمر ﴾ من أمر الدين ﴿ فَمَا اختلفوآ ﴾ فما وقع الخلاف بينهم في الدين ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم وإنما اختلفوا لبغي حدث بينهم أي لعداوة وحسد بينهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ

يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ قيل : المراد اختلافهم في أوامر الله ونواهيه في التوراة حسداً وطلباً للرياسة لا عن جهل يكون الإنسان به معذوراً .

(161/700)

﴿ ثُمَّ جعلناك ﴾ بعد اختلاف أهل الكتاب ﴿ على شَرِيعَةٍ ﴾ على طريقة ومنهاج ﴿ مّنَ الأمر ﴾ من أمر الدين ﴿ فاتبعها ﴾ فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج والدلائل ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني على هوى وبدعة وهم رؤساء قريش حين قالوا : ارجع إلى دين آبائك ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ إن هؤلاء الكافرين ﴿ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ الله شَيْئاً وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ والله وَلِيُّ المتقين ﴾ وهم موالوه وما أبين الفضل بين الولايتين .

﴿ هذا ﴾ أي القرآن ﴿ بصائر للنَّاسِ ﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب كما جعل روحاً وحياة ﴿ وَهُدَىً ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ من العذاب ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ لمن آمن وأيقن بالبعث ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين ﴾ "أم" منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان ﴿ اجترحوا السيئات ﴾ اكتسبوا المعاصي والكفر ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أي كاسبهم ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ أن نصيرهم وهو من

"جعل" المتعدي إلى مفعولين فأولهما الضمير والثاني الكاف في ﴿ كالذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ والجملة التي هي ﴿ سَوَآءً محياهم ومماتهم ﴾ بدل من الكاف لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً فكانت في حكم المفرد ، ﴿ سَوَآء ﴾ علي وحمزة وحفص بالنصب على الحال من الضمير في ﴿ نَّجْعَلَهُمْ ﴾ ويرتفع ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ ب ﴿ سَوَآء ﴾ .
وقرأ الأعمش ﴿ ومماتهم ﴾ بالنصب جعل ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ ظرفين كمقدم الحاج أي سواء في محياهم وفي مماتهم .

(162/700)

والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً وأن يستووا مماتاً لافتراق أحوالهم أحياء ، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات وأولئك على اقتراف السيئات ، ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والكرامة وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة ، وقيل : معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة في الرزق والصحة ، وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية فجعل يبكي ويردد إلى الصباح ، وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددها ويبكي ويقول : يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ بئس ما يقضون إذا حسبوا أنهم كالمؤمنين فليس

من أقعد على بساط الموافقة كمن أقعد على مقام المخالفة بل نفرق بينهم فنعلي المؤمنين ونخزي الكافرين .

﴿ وَخَلَقَ الله السماوات والأرض بالحق ﴾ ليدل على قدرته ﴿ ولتجزى ﴾ معطوف على هذا المعلل المحذوف ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ أي هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه ﴿ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ ﴾ منه باختياره الضلال أو أنشأ فيه فعل الضلال على علم منه بذلك ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ ﴾ فلا يقبل وعظاً ﴿ وَقَلْبِهِ ﴾ فلا يعتقد حقاً ﴿ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة ﴾ فلا يبصر عبرة ، ﴿ غشاوة ﴾ حمزة وعلي ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ﴾ من بعد إضلال الله إياه ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتخفيف : حمزة وعلي وحفص ، وغيرهم بالتشديد .

فأصل الشر متابعة الهوى والخير كله في مخالفته فنعم ما قال :

إذا طلبتك النفس يوماً بشهوة . . .

وكان إليها للخلاف طريق

فدعها وخالف ما هويت فإنما . . .

هواك عدو والخلاف صديق

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ ﴾ أي ما الحياة لأنهم وعدوا حياة ثانية ﴿ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ التي نحن فيها ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ نموت نحن ونحيا ببقاء أولادنا ، أو يموت بعض ويحيا بعض ، أو نكون مواتاً نطفاً في الأصلاب ونحيا بعد ذلك ، أو يصيبنا الأمران الموت والحياة يريدون الحياة في الدنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة .

وقيل : هذا كلام من يقول بالتناسخ أي يموت الرجل ثم تجعل روحه في موات فيحيا به ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بإذن الله ، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان ومنه قوله عليه السلام : " لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر " أي فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ وما يقولون ذلك من علم ويقين ولكن من ظن وتخمين .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ أي القرآن يعني ما فيه من ذكر البعث ﴿ بينات مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ وسمى قولهم حجة وإن لم يكن حجة لأنه في زعمهم حجة ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتوا بِأَبَآءِنَا ﴾ أي أحيوهم .

﴿ الله إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دعوى البعث ، و ﴿ حُجَّتَهُمْ ﴾ خبر "كان" واسمها ﴿

أَن قَالُواْ ﴾ والمعنى ما كان حجتهم إلا مقالتهم : ﴿ ائتوا بِآبَائِنَا ﴾ وقرىء ﴿ حُجَّتَهُمْ ﴾ بالرفع على أنها اسم "كان" و ﴿ أَن قَالُواْ ﴾ الخبر .

(164/700)

﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ فيها عند انتهاء أعماركم ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ أي يبعثكم يوم القيامة جميعاً ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائكم ضرورة ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي في الجمع ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ قدرة الله على البعث لإعراضهم عن التفكر في الدلائل ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ﴾ عامل النصب في ﴿ يَوْمٍ تَقُومُ ﴾ ﴿ يَخْسَرُ ﴾ و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمٍ تَقُومُ ﴾ ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ جالسة على الركب ، يقال : جثا فلان يجثو إذا جلس على ركبتيه وقيل جاثية مجتمعة ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ بالرفع على الابتداء ﴿ كُلَّ ﴾ بالفتح : يعقوب على الإبدال من ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ إلى صحائف أعمالها فاكتفى باسم الجنس فيقال لهم ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا .

﴿ هذا كتابنا ﴾ أضيف الكتاب إليهم لملابسته إياهم لأن أعمالهم مثبتة فيه وإلى الله

تعالى لأنه مالكه والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم ﴾ يشهد عليكم بما عملتم ﴿ بالحق ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي نستكتب الملائكة أعمالكم .

(165/700)

وقيل : نسخت واستنسخت بمعنى وليس ذلك بنقل من كتاب بل معناه نثبت ﴿ فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ جنته ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفوز المبين وَأَمَّا الذين كَفَرُوآ ﴾ فيقال لهم ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءاياتى تتلى عَلَيْكُمْ ﴾ والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه ﴿ فاستكبرتم ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ كافرين ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله ﴾ بالجزاء ﴿ حَقٌّ والساعة ﴾ بالرفع عطف على محل "إن" واسمها .

﴿ والساعة ﴾ : حمزة عطف على ﴿ وَعَدَ الله ﴾ ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا الساعة ﴾ أي شيء الساعة ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ أصله نظن ظناً ومعناه إثبات الظن فحسب فأدخل حرف النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظن مع نفي ما سواه ، وزيد نفي ما سوى الظن توكيداً بقوله ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ ظهر لهؤلاء الكفار ﴿

سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات كقوله : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ونزل بهم جزاء استهزائهم .

(166/700)

﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي نترككم في العذاب كما تركتم عدة لقاء يومكم وهي الطاعة ، وإضافة اللقاء إلى اليوم كإضافة المكر في قوله ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] أي نسيتم لقاء الله تعالى في يومكم هذا ولقاء جزائه ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار ﴾ أي منزلكم ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن ناصرين ذلكم ﴾ العذاب ﴿ بِأَنَّكُمُ ﴾ بسبب أنكم ﴿ اتخذتم ءايات الله هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ ﴿ لاَ يَخْرُجُونَ ﴾ حمزة وعلي ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه ﴿ فَلِلَّهِ الحمد رَبِّ السماوات وَرَبِّ الأرض رَبِّ العالمين ﴾ أي فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السماوات والأرض والعالمين ، فإن مثل هذه الربوبية العامة توجب الحمد والثناء على كل مربوب ﴿ وَلَهُ الكبرياء فِى السماوات والأرض ﴾ وكبّروه

فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته في السماوات والأرض ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ في انتقامه ﴿ الحكيم ﴾ في أحكامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 133.139 ﴾

(167/700)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم تَنزِيلُ الكتاب ﴾ إن جعلت ﴿ حم ﴾ مبتدأ خبره ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ احتجت إلى إضمار مثل ذلك ﴿ تَنزِيلُ ﴾ ﴿ حم ﴾ ، وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿ تَنزِيلُ ﴾ مبتدأ خبره : ﴿ مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ وقيل ﴿ حم ﴾ مقسم به و ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ صفته وجواب القسم :

﴿ إِنَّ فِى السموات والأرض لأيات لّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو يحتمل أن يكون على ظاهره وأن يكون المعنى إن في خلق السموات لقوله :

﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ ولا يحسن عطف ما على الضمير المجرور بل عطفه على المضاف إليه بأحد الاحتمالين ، فإن بثه وتنوعه واستجماعه لما به يتم معاشه إلى غير ذلك دلائل على وجود الصانع المختار . ﴿ ءَايَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ محمول على محل إن

واسمها ، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بالنصب حملاً على الاسم .

﴿ واختلاف اليل والنهار وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السماء مِّن رِزْقٍ ﴾ من مطر وسماه رزقاً لأنه سببه . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها . ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح ﴾ باختلاف جهاتها وأحوالها ، وقرأ حمزة والكسائي "وتصريف الريح" . ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فيه القراءتان ويلزمهما العطف على عاملين في والابتداء ، أو أن إلا أن يضمر في أو ينصب ﴿ آيات ﴾ على الاختصاص أو يرفع بإضمار هي ، ولعل اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور .

(168/700)

﴿ تِلْكَ آيات الله ﴾ أي تلك الآيات دلائله ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ حال عاملها معنى الإشارة . ﴿ بالحق ﴾ ملتبسين به أو ملتبسة به . ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ ﴾ أي بعد ﴿ آيات الله ﴾ ، وتقديم اسم ﴿ الله ﴾ للمبالغة والتعظيم كما في قولك أعجبني زيد وكرمه أو بعد حديث ﴿ الله ﴾ وهو [في] القرآن كقوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ و ﴿ ءاياته ﴾ دلائله المتلوة أو القرآن ، والعطف لتغاير الوصفين .

وقرأ الحجازيان وحفص وأبو عمرو وروح ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالياء ليوافق ما قبله .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كذاب. ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام.

﴿ يَسْمَعُ ءايات الله تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ يقيم على كفره. ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ عن الإيمان بالآيات و﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات كقوله:

يَرَى غَمَرات ثُمَّ يَزُورهَا . . . ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كأنه فخففت وحذف ضمير الشأن والجملة في موضع الحال، أي يصر مثل غير السامع. ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على إصراره والبشارة على الأصل أو التهكم.

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءاياتنا شَيْئاً ﴾ وإذا بَلغه شيء من ﴿ ءاياتنا ﴾ وعلم أنه منها. ﴿ اتخذها هُزُواً ﴾ لذلك من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزء، والضمير ل ﴿ ءاياتنا ﴾ وفائدته الإشعار بأنه إذا سمع كلاماً وعلم أنه من الآيات بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على ما سمعه، أو لشيء لأنه بمعنى الآية. ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

﴿ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ من قدامهم لأنهم متوجهون إليها، أو من خلفهم لأنها بعد آجالهم. ﴿ وَلاَ يُغْنِى عَنْهُم ﴾ ولا يدفع عنهم. ﴿ مَّا كَسَبُواْ ﴾ من الأموال والأولاد. ﴿ شَيْئاً ﴾ من عذاب الله. ﴿ وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء ﴾ أي الأصنام. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ لا يتحملونه.

﴿ هذا هُدًى ﴾ الإشارة إلى القرآن ويدل عليه قوله : ﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص برفع ﴿ أَلِيمٌ ﴾ وال ﴿ رِجْزَ ﴾ أشد العذاب .

﴿ الله الذى سَخَّرَ لَكُمُ البحر ﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه . ﴿ لِتَجْرِىَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ بتسخيره وأنتم راكبوها . ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ التجارة والغوص والصيد وغيرها . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السموات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ بأن خلقها نافعة لكم . ﴿ مِنْهُ ﴾ حال من ما أي سخر هذه الأشياء كائنة منه ، أو خبر لمحذوف أي هي جميعاً منه ، أو ل ﴿ مَا فِي السموات ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ﴾ تكرير للتأكيد أول ﴿ مَّا فِى الأرض ﴾ ، وقرىء منه على المفعول له ومنه على أنه فاعل ﴿ سَخَّرَ ﴾ على الإسناد المجازي أو خبر محذوف . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في صنائعه .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ ﴾ حذف المقول لدلالة الجواب عليه ، والمعنى قل لهم اغفروا يغفروا أي يعفوا ويصفحوا . ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ لا يتوقعون وقائعه بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعهم ، أو لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لنصر المؤمنين وثوابهم ووعدهم بها . والآية نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه غفاري فهم أن يبطش به ، وقيل إنها منسوخة بآية القتال . ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ علة للأمر ، والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو الشيوع ، والكسب المغفرة أو الإساءة أو ما يعمهما . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي "لنجزي" بالنون وقرىء "لِيَجْزِيَ" قوم "وليجزي قوماً" أي ليجزي الخير أو الشر أو الجزاء ، أعني ما يجزى به لا المصدر فإن الإسناد إليه سيما مع المفعول به ضعيف .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ أي لها ثواب العمل وعليها عقابه . ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا بَنِى إسراءيل الكتاب ﴾ التوراة . ﴿ والحكم ﴾ والحكمة النظرية والعملية أو فصل الخصومات . ﴿ والنبوة ﴾ إذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثروا في غيرهم . ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ مما أحل الله من اللذائذ . ﴿ وفضلناهم عَلَى العالمين ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم .

﴿ وءاتيناهم بينات مِّنَ الأمر ﴾ أدلة في أمر الدين ويندرج فيها المعجزات . وقيل آيات من

أمر النبي عليه الصلاة والسلام مبينة لصدقه . ﴿ فَمَا اختلفوا ﴾ في ذلك الأمر . ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ بحقيقة الحال . ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ عداوة وحسداً . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بالمؤاخذة والمجازاة .

(171/700)

﴿ ثُمَّ جعلناك على شَرِيعَةٍ ﴾ طريقة ﴿ مِنَ الأمر ﴾ من أمر الدين . ﴿ فاتبعها ﴾ فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج . ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ آراء الجهال التابعة للشهوات ، وهم رؤساء قريش قالوا له ارجع إلى دين آبائك .

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ الله شَيْئاً ﴾ مما أراد بك . ﴿ وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ إذ الجنسية علة الانضمام فلا توالهم باتباع أهوائهم . ﴿ والله وَلِىُّ المتقين ﴾ فواله بالتقى واتباع الشريعة .

﴿ هذا ﴾ أي القرآن أو اتباع الشريعة . ﴿ بَصَائِرَ للنَّاسِ ﴾ بينات تبصرهم وجه الفلاح . ﴿ وهدى ﴾ من الضلالة . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ ونعمة من الله . ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يطلبون اليقين .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان

والاجتراح الاكتساب ومنه الجارحة . ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ أن نصيرهم . ﴿ كالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ مثلهم وهو ثاني مفعولي نجعل وقوله : ﴿ سَوَاءً محياهم ومماتهم ﴾ بدل منه إن كان الضمير للموصول الأول لأن المماثلة فيه إذ المعنى انكار أن يكون حياتهم ومماتهم سيين في البهجة والكرامة كما هو للمؤمنين ، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص ﴿ سَوَآء ﴾ بالنصب على البدل أو الحال من الضمير في الكاف ، أو المفعولية والكاف حال وإن كان للثاني فحال منه أو استئناف يبين المقتضى للانكار ، وإن كان لهما فبدل أو حال من الثاني ، وضمير الأول والمعنى إنكار أن يستووا بعد الممات في الكرامة أو ترك المؤاخذة كما استووا في الرزق والصحة في الحياة ، أو استئناف مقرر لتساوي محيا كل صنف ومماته في الهدى والضلال ، وقرىء "مَمَاتُهُمْ" بالنصب على أن ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ ظرفان كمقدم الحاج . ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ساء حكمهم هذا أو بئس شيئاً حكموا به ذلك .

(172/700)

﴿ وَخَلَقَ الله السموات والأرض بالحق ﴾ كأنه دليل على الحكم السابق من حيث أن خلق ذلك بالحق المقتضي للعدل يستدعي انتصار المظلوم من الظالم ، والتفاوت بين المسيء

والمحسن وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات . ﴿ ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ عَطف على بالحق لأنه في معنى العلة أو على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل ﴿ ولتجزي ﴾ . ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب ، وتسمية ذلك ظلماً ولو فعله الله لم يكن منه ظلماً لأنه لو فعله غيره لكان ظلماً كالابتلاء والاختبار . ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى فكأنه يعبده ، وقرىء "آلهة هواه" لأنه كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه إليه . ﴿ وَأَضَلَّهُ الله ﴾ وخذله . ﴿ على عِلْمٍ ﴾ عالِماً بضلاله وفساد جوهر روحه . ﴿ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ فلا يبالي بالمواعظ ولا يتفكر في الآيات . ﴿ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة ﴾ فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار ، وقرأ حمزة والكسائي "غشوة" . ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ﴾ من بعد إضلاله . ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ وقرىء "تتذكرون" .

(173/700)

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ ﴾ ما الحياة أو الحال . ﴿ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ التي نحن فيها . ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي نكون أمواتاً نطفاً وما قبلها ونحيا بعد ذلك ، أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا ، أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، أو يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة

ويحتمل أنهم أرادوا به التناسخ فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان . ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ إلا مرور الزمان وهو في الأصل مدة بقاء العالم من دهره إذا غلبه . ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يعني نسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الاستقلال ، أو إنكار البعث أو كليهما . ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ إذ لا دليل لهم عليه وإنما قالوه بناء على التقليد والإنكار لما لم يحسوا به .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على ما يخالف معتقدهم أو مبينات له . ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ ما كان لهم متشبث يعارضونها به . ﴿ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وإنما سماه حجة على حسبانهم ومساقهم ، أو على أسلوب قولهم .

تحية بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وجيعٌ . . . فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مطلقاً .

﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ على ما دلت عليه الحجج . ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ فإن من قدر على الابتداء قدر على الإعادة ، والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة على ما قرر مراراً ، والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعها ، وإذا كان كذلك أمكن الإتيان بآبائهم لكن الحكمة اقتضت أن يعادوه يوم الجمع للجزاء .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لقلة تفكرهم وقصور نظرهم على ما يحسونه .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ تعميم للقدرة بعد تخصيصها . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ﴾ أي ويخسر يوم تقوم و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل منه .

﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ مجتمعة من الجثوة وهي الجماعة ، أو باركة مستوفزة على الركب . وقرىء "جاذية" أي جالسة على أطراف الأصابع لاستيفازهم . ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كتابها ﴾ صحيفة أعمالها . وقرأ يعقوب ﴿ كُلٌّ ﴾ على أنه بدل من الأول وتدعى صفة أو مفعول ثان . ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ محمول على القول .

﴿ هذا كتابنا ﴾ أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم . . ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان . ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ ﴾ نستكتب الملائكة . ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أعمالكم .

﴿ فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ التي من جملتها الجنة . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفوز المبين ﴾ الظاهر لخلوصه عن الشوائب .

﴿ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءاياتى تتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أي فيقال لهم ألم يأتكم رسلي ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ ، فحذف القول والمعطوف عليه اكتفاء بالمقصود واستغناء بالقرينة . ﴿ فاستكبرتم ﴾ عن الإيمان بها . ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ عادتكم الإجرام .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله ﴾ يحتمل الموعود به والمصدر . ﴿ حَقّ ﴾ كائن هو أو متعلقه لا محالة : ﴿ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ إفراد للمقصود ، وقرأ حمزة بالنصب عطفاً على اسم إن . ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا الساعة ﴾ أي شيء الساعة استغراباً لها . ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ أصله نظن ظناً فأدخل حرفا النفي والاستثناء لإثبات الظن ونفي ما عداه كأنه قال : ما نحن نظن ظناً ، أو لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغة ثم أكده بقوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أي لإمكانه ، ولعل ذلك قول بعضهم تحيروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تليت عليهم من الآيات في أمر الساعة .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ ظهر لهم . ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ على ما كانت عليه بأن عرفوا قبحها وعاينوا وخامة عاقبتها ، أو جزاءها . ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ وهو الجزاء .

﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ ﴾ نترككم في العذاب ترك ما ينسى . ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ كما تركتم عدته ولم تبالوا به ، وإضافة لقاء إلى يوم إضافة المصدر إلى ظرفه . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مّن ناصرين ﴾ يخلصونكم منها .

﴿ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتخذتم ءايات الله هُزُواً ﴾ استهزأتم بها ولم تتفكروا فيها . ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا ﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها . ﴿ فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضم الراء . ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه لفوات أوانه .

(176/700)

﴿ فَلِلَّهِ الحمد رَبِّ السموات وَرَبِّ الأرض رَبِّ العالمين ﴾ إذا لكل نعمة منه ودال على كمال قدرته . ﴿ وَلَهُ الكبرياء فِى السموات والأرض ﴾ إذ ظهر فيها آثارها . ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الذي لا يغلب . ﴿ الحكيم ﴾ فيما قدر وقضى فاحمدوه وكبروه وأطيعوا له . عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 167 . 175 ﴾

(177/700)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) ﴾

التفسير : إعراب أول السورة وتفسيرها كإعراب أول " المؤمن " وتفسيره وقوله ﴿ إن في السموات ﴾ إما أن يكون على ظاهره وآياتها الشمس والقمر والنجوم وحركاتها وأوضاعها وكذا العناصر والمواليد التي في الأرض مما يعجز الحاصر عن إدراك أعدادها ، وإما أن يراد إن في خلق السموات والأرض فالآيات تشمل ما عددنا مع زيادة هيئتهما وما يتعلق بتشخيصهما .

(178/700)

استدل الأخفش بالآية الثالثة على جواز العطف على عاملين . مختلفين وهما في قراءة النصب " أن " وفي أقيمت الواو مقامها فعملت الجر في اختلاف الليل ، والنصب في آيات وهما في قراءة الرفع الابتداء وفي . وخرج لسيبويه في جوابه وجهان : أحدهما أن قوله ﴿ آيات ﴾ تكرار محض للتأكيد فقط من غير حاجة إلى ذكرها كما تقول : إن في الدار زيداً وفي الحجرة زيداً والمسجد زيداً ، وأنت تريد أن في الدار زيداً والحجرة والمسجد . والثاني

إضمار في لدلالة الأول عليه ، ويحتمل أن ينتصب ﴿ آيات ﴾ على الاختصاص . ويرتفع بإضمار هي . وتفسير هذه الآيات قد مر في نظائرها مراراً ولا سيما في أواسط " البقرة " ومما يختص بالمقام أنه خص المؤمنين بالذكر أولاً ثم قال ﴿ لقوم يوقنون ﴾ ثم ﴿ يعقلون ﴾ فما سبب هذا الترتيب ؟ قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله : أراد إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل وإلا فإن كنتم طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين ، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل ، وقال جار الله : معناه إن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها لا بد لها من صانع فآمنوا به وأقروا ، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال . وفي خلق ما بث من الدواب على ظهر الأرض ، ازدادوا إيماناً وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ، وإذا نظروا في سائر الحوادث كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار التي هي سبب الأرزاق وحياة الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً ، عقلوا واستحكم عقلهم وخلص يقينهم . وأقول : الدلائل المذكورة في هذه الآيات قسمان : نفسية وخارجية . فالنفسية أولى بالإيقان لأنه لا شيء أقرب إلى الإنسان من نفسه ، والخارجية بعضها فلكية وبعضها آثار علوية . فالفلكية لبعدها عن الإنسان اكتفى فيها بمجرد التصديق ، وأما الآثار

العلوية فكانت أولى بالنظر والاستدلال لقربها وللإحساس بها فلا جرم خصت بالتعقل والتدبر ، وأما تقديم السموات على الأرض فلشمولها ولتقدمها في الوجود . ﴿ تلك ﴾ مبتدأ والتبعيد للتعظيم والمشار إليها الآيات المتقدمة و ﴿ نتلوها ﴾ في محل الحال . وقوله ﴿ بعد الله وآياته ﴾ كقولهم : أعجبني زيد وكرمه . وأصله بعد آيات الله . والمعنى أن من لم يؤمن بكلام الله فلن يؤمن بحديث سواه . وقيل : معناه القرآن آخر كتب الله ، ومحمد آخر رسله . فإن لم يؤمنوا به فبأي كتاب بعده يؤمنون ولا كتاب بعده ولا نبي . ثم أوعد الناس المبالغين في الإثم وقد مر ما في الآية في سورة لقمان . قوله ﴿ وإذا علم ﴾ أي شعر وأحس بأنه من جملة القرآن المنزل خاض في الاستهزاء ، وإذا وقف على آية لها محل في باب الطعن والقدح افترضه وحمله على الوجه الموجب للطعن كافتراض ابن الزبعري في قوله

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ [الأنبياء : 98] وإنما أنّث الضمير في قوله ﴿ اتخذها ﴾ لأن الشيء في معنى الآية أو لأنه أراد أن يتخذ جميع الآيات هزواً ولا يقتصر على الاستهزاء بما بلغه . قوله ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ كل ما توارى عنك فهو وراء تقدم أو

تأخر ، وقد مر في سورة إبراهيم عليه السلام ﴿ هذا هدى ﴾ أي هذا القرآن كامل في باب الهداية والإرشاد . ثم ذكر دليلاً آخر على الوحدانية وهو تسخير البحر لبني آدم وقد سبق وجه الدلالة مراراً . وقوله ﴿ ولتبتغوا ﴾ أي بسبب التجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان أو باستخراج اللحم الطري . ثم عمم بعد التخصيص وقوله ﴿ منه ﴾ في موضع الحال أي سخر جميع ما في السموات والأرض كائنة منه ، يريد أنه أوجدها بقدرته وحكمته ثم سخرها لخلقه ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هذه النعم كلها منه .

عن ابن عباس برواية عطاء أن الصحابة نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر – يقال لها المريسيع – فأرسل عبد الله بن أبيّ غلامه ليستقي الماء فأبطأ عليه فلما أتاه قال له : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قعد على رأس البئر فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبي وقرب أبي بكر وملأ لمولاه . فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك فبلغ قوله عمر فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه فأنزل الله تعالى ﴿ قل للذين آمنوا ﴾ يعني عمر ﴿ يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ لا يتوقعون وقائعه بأعداء الله أو لا يأملون قوة المؤمنين في أيام الله الموعودة لهم ، والمراد الصفح والإعراض . عن عبد الله بن أبي وفي رواية ميمون بن مهران عن ابن عباس : لما نزلت ﴿ من ذا الذي يقرض الله ﴾ [البقرة : 245] قال اليهودي فنحاص بن عازوراء : احتاج رب محمد فبلغ ذلك عمر فأخذ سيفه

فخرج في طلبه ، فجاء جبرائيل وأنزل الآية هذه . وليس المقصود أن لا تقتلوا ولا تقاتلوا حتى يلزم نسخها بآية القتال كما ذهب إليه كثير من المفسرين ، ولكن

(181/700)

الأولى أن يحمل على ترك المنازعة في المحقرات وفي أفعالهم الموحشة المؤذية ، وإنما أنكر ﴿ قوماً ﴾ مع أنه أراد بقوم الذين آمنوا وهم معارف ليدل على مدحهم والثناء عليهم كأنه قيل : لنجزي قوماً كاملين في الصبر والإغضاء على أذى الأعداء ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ، وقيل : القوم هم الكافرون الكاملون في النفاق . ثم فصل الجزاء وعمم الحكم بقوله ﴿ من عمل صالحاً ﴾ الآية .

ثم بين أن للمتأخرين من الكفار أسوة بالمتقدمين منهم والكتاب التوراة والحكم بيان الشرائع والبينات من الأمر أدلة أمور الدين . وقال ابن عباس : يريد أنه تبين لهم من أمر النبي صلى الله عليه وسلم أنه مهاجر من تهامة إلى يثرب .

(182/700)

وقيل : هي المعجزات القاهرة على صحة نبوة موسى ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ فيه احتمالان : أحدهما علموا ثم عاندوا ، والثاني جاءهم أسباب المعرفة التي لو تأملوا فيها لعرفوا الحق ولكنهم أظهروا النزاع حسداً . ﴿ ثم جعلناك على شريعة ﴾ أي منهاج وطريقة ﴿ من الأمر ﴾ أمر الدين وقيل : من الأمر الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا . قال الكلبي : إن رؤساء قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ارجع إلى ملة آبائك وهم كانوا أفضل منك وأسن فزجره الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ ولا تتبع ﴾ إلى آخره أي لو ملت إلى أديانهم الباطلة لصرت مستحقاً للعذاب وهم لا يقدرون على دفعه عنك . ثم أشار بعد النهي عن اتباع أهوائهم بقوله ﴿ ولا تتبع ﴾ أتباعهم إلى الفرق بين ولاة الظالمين وهم أشكالهم من الظلمة ، وبين ولي المتقين وهو الله سبحانه . ومن جملة آثار ولايته وبركة عنايته ﴿ هذا ﴾ القرآن . وقيل : ما تقدم من اتباع الشريعة وترك طاعة الظالم وجعل القرآن مشاراً إليه أولى لقوله ﴿ بصائر من ربكم ﴾ إلى آخره . وقد مر في آخر " الأعراف " مثله . ثم بين الفرق بين الظالمين والمتقين من وجه آخر قائلاً ﴿ أم حسب ﴾ قال جار الله : " أم " منقطعة والآية نظيرة ما سلف في " ص " ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين ﴾ [الآية : 28] والاجتراح الاكتساب . من قرأ ﴿ سواء ﴾ بالنصب فمعناه مستوياً والظاهر بعده فاعله ويكون انتصابه على البدل من ثاني مفعولي ﴿ نجعل ﴾ وهو الكاف . من قرأ بالرفع بخبر ﴿ ومحياهم ﴾ مبتدأ والجملة بدل

أيضاً لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً . والمعنى إنكار أن يستوي الفريقان حياة وموتاً ، لأن المحسنين عاشوا على الطاعة وإنهم عاشوا على المعصية ومات أولئك على البشرى والرحمة ، ومات هؤلاء على الضد . وقيل : معناه إنكار أن يستويا في الممات كما استووا في الحياة من حيث الصحة والرزق ، بل قد يكون الكافر أرجح حالاً من المؤمن . فالفرق

(183/700)

المتقضي لسعادة المؤمن وشقاوة الكافر إنما يظهر بعد الوفاة . وقيل : إنه كلام مستأنف ، والمراد أن كلاً من الفريقين يموت على حسب ما عاش عليه لقوله صلى الله عليه وسلم : " كما تعيشون تموتون " وحين أفتى بأن المؤمن لا يساويه الكافر في درجات السعادات استدل على صحة هذه الدعوى بقوله ﴿ وخلق الله ﴾ الآية . قال جار الله : ﴿ ولتجزى ﴾ معطوف على ﴿ بالحق ﴾ لأنه في معنى التعليل أي للعدل ، أو ليدل بها على قدرته وللجزاء . ويجوز أن يكون المعلل محذوفاً وهو فعلنا ونحوه . والحاصل أن الغاية من خلق السماء والأرض كان هو الإنسان الكامل فكيف يترك الله جزاءه وجزاء من هو ضده والتميز بينهما بموجب العدالة .

(184/700)

ثم قرر أسباب ضلال المضلين قائلاً ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ أي يتبع ما تدعو إليه نفسه الأمارة وقد مر في الفرقان ﴿ وأضله الله على علم ﴾ بحالة أنه من أهل الخذلان والقهر ، أو على علم الضلال في سابق القضاء ، أو على علم بوجوه الهداية وإحاطته بالألطاف المحصلة لها . وقيل : أراد به المعاند لأن ضلاله عن علم ﴿ فمن يهديه من بعد ﴾ إضلال ﴿ الله ﴾ قال بعض العلماء : قدم السمع على القلب في هذه الآية وبالعكس في " البقرة " لأن كفار مكة كانوا يبغضونه بقلوبهم وما كانوا يستمعون إليه وكفار المدينة ، كانوا يلقون إلى الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم شاعر وكاهن وأنه يطلب الملك والرياسة ، فالسامعون إذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنه . ففي هذه الصورة على هذا التقدير كان الأثر يصعد من البدن إلى جوهر النفس ، وفي الصورة الأولى كان الأثر ينزل من جوهر النفس إلى قرار البدن ، فورد ما في كل سورة على ترتيبه . ثم ذكر من أسباب الضلال سبباً آخر وهو إنكارهم البعث معتقدين أن لا حياة لا هذه . وليس قولهم الدنيا تسلماً لثانية وإنما هو قول منهم على لسان المقرين وبزعمهم ﴿ نموت ونحيى ﴾ فيه تقديم وتأخير على أن الواو لا توجب الترتيب . وقيل : يموت الآباء وتحيا الأبناء وحياة الأبناء حياة الآباء ، أو يموت بعض ، ويحيا بعض ، أو أرادوا بكونهم أمواتاً حال كونهم نطفاً ، أو هو على مذهب أهل التناسخ أي يموت الرجل ثم تجعل روحه في بدن آخر . ثم إنهم لم يقنعوا

بإنكار المعاد حتى ضموا إليه إنكار المبدأ قائلين ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ اعتقدوا أن تولد الأشخاص وكون الممتزجات وفسادها ليس إلا بسبب مزاوجات الكواكب . ولا حاجة في هذا الباب إلى مبدىء المبادىء فأجاب الله عن شبهتهم بقوله ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ أي ليس لهم على ما قالوه دليل وإنما ذكروا ذلك ظناً تخميناً واستبعاداً فلا ينبغي للعاقل أن يلتفت إلى قولهم ، لأن الحجة قامت على نقيض ذلك وهي

(185/700)

دليل المبدأ والمعاد المذكور مراراً وأطواراً . وليس قولهم ﴿ ائتوا بآبائنا ﴾ من الحجة في شيء لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال فإنه يمتنع حصوله في الاستقبال بدليل الحادث اليومي الممتنع حصوله في الأمس ، فوجه الاستثناء أنه في أسلوب قوله :

تحية بينهم ضرب وجيع . . . وحين بكتهم وسكتهم صرح بما هو الحق وقال ﴿ قل الله يحييكم ﴾ إلى آخره . ثم أراد أن يختم السورة بوصف يوم القيامة وما سيجري على الكفار فيه فقال ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ العامل فيه يخسر وقوله ﴿ يومئذ ﴾ بدل من ﴿ يوم ﴾ وفيه تأكيد للحصر المستفاد من تقديم الظرف . قال ابن عباس : الجاثية المجتمعة للحساب المترقبة لما يعمل بها . وقيل : باركة جلسة المدعي عند الحاكم .

وقيل : مستوفزاً لا يصيب الأرض إلا ركبتاه وأطراف أنامله . والجثو للكفار خاصة . وقيل : عام بدليل قوله بعد ذلك ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ ﴿ وأما الذين كفروا ﴾ ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ يريد كتاب الحفظة ليقرؤه . وقال الجاحظ : إلى كتاب نبيها فينظر هل عملوا به أم لا . ويقال : يا أهل التوراة يا أهل القرآن . ﴿ اليوم تجزون ﴾ بتقدير القول ومما يؤيد القول الأول قوله ﴿ هذا كتابنا ﴾ إلى قوله ﴿ إنا كنا نستنسخ ﴾ أي نأمر بالنسخ . وإضافة الكتاب تارة إليهم وأخرى إلى الله عز وجل صحيحة لأن الإضافة يكفي فيها أدنى ملابسة ، فأضيف إليهم لأن أعمالهم مثبتة فيه ، وأضيف إلى الله سبحانه لأنه أمر ملائكته بكتبه . قوله ﴿ أفلم تكن ﴾ القول فيه مقدر أي فيقال لهم ذلك قوله ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ قال أبو علي والأخفش : هذا الكلام جار على غير الظاهر لأن كل من يظن فإنه لا يظن إلا الظن ، فتأويله أن ينوي به التقديم أي ما نحن إلا نظن ظناً . وقال المازني : تقديره إن نظن نحن إلا ظناً منكم أي أنتم شاكون فيما تزعمون وما نحن بمستيقنين أنكم لا تظنون . وقال جار الله : أصله نظن ظناً ومعناه إثبات الظن فحسب . فأدخل أداة الحصر ليفيد إثبات الظن مع نفي ما سواه وأقول : الظن قد يطلق على ما يقرب من العلم ، ولا ريب أن لهذا الرجحان مراتب

وكأنهم نفوا كل الظنون إلا الذي لا ثبوت علم فيه وأكدوا هذا المعنى بقوله ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ وباقي السورة واضح مما سلف والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 110.114 ﴾

(187/700)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الجاثية

مكية إلا ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ الآية هي سبع وثلاثون آية وأربعمائة وثمان وثمانون كلمة ، وألفان ومائة وواحد وتسعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي تفرد بتمام العز والكبرياء ﴿ الرحمن ﴾ الذي أحكم رحمته بالبيان العام للسعداء والأشقياء ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص بملابسة طاعته الأولياء وتقدم الكلام على قوله تعالى:

﴿ حم ﴾ ثم إن جعلتها اسماً مبتدأ مخبراً عنه بقوله تعالى:

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي : الجامع لكل خير لم يكن بد من حذف مضاف تقديره ، تنزيل حم تنزيل الكتاب . وقوله تعالى : ﴿ من الله ﴾ أي : المحيط بصفات الكمال صلة للتنزيل ، وإن

جعلتها تعديداً للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ والظرف خبراً ﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في صنعه .

ولما كانت الحواميم كما روى أبو عبيدة في كتاب الفضائل عن ابن عباس لبيان القرآن حذف ما ذكر في البقرة من قوله تعالى ﴿ خلق ﴾ ليكون ما هنا أشمل فقال تعالى:

﴿ إن في السموات ﴾ أي : ذواتها بما لها من الدلالة على صانعها وخلقها على ما فيها من العبر بما فيها من المنافع وعظيم الصنعة وما لها من الشفوف الدال على تعددها بما فيها من الكواكب ﴿ والأرض ﴾ كذلك وبما حوت من المعادن والمعاش ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات على وجود الإله القادر الفاعل المختار فإن من المعلوم أنه لا بد لكل ذلك من صانع متصف بذلك وقال تعالى ﴿ للمؤمنين ﴾ لأنهم برسوخهم في هذا الوصف الشريف أهل للنظر لأن ربهم يهديهم بإيمانهم ، فشواهد الربوبية لهم منهما لائحة وأدلة الإلهية فيهما واضحة .

ولما ذكر سبحانه وتعالى النظر في آيات الآفاق أتبعها آيات الأنفس بقوله تعالى:

﴿ وفي خلقكم ﴾ أي : خلق كل منكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى أن صار إنساناً المخالف لخلق الأرض التي أنتم منها بالاختيار والعقل والانتشار والقدرة على السار

والضار ﴿ وما ﴾ أي : وخلق ما ﴿ يبث ﴾ أي : ينشر ويفرق بالحركة الاختيارية على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ من دابة ﴾ مما تعلمون ومما لا تعلمون بما في ذلك من مشاركتكم بالاختيار والهداية للمنافع بإدراك الجزئيات ومخالفتكم في الصورة والعقل وإدراك الكليات وغير ذلك من مخالفة الأشكال والطبائع والمنافع وغير ذلك ﴿ آيات ﴾ دالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته .

وقرأ حمزة والكسائي آيات بكسر التاء حملاً على اسم إن ، والباقون بالرفع حملاً على محل إن واسمها ، ولما كانت آيات الأنفس أدق وأدل على القدرة والاختيار بما لها من التجدد والاختلاف قال تعالى ﴿ لقوم ﴾ أي : فيهم أهلية القيام بما يحاولونه ﴿ يوقنون ﴾ أي : يتجدد لهم العروج في درجات الإيمان إلى أن يصلوا إلى شرف الإيقان فلا يخالجهم شك في وحدانيته .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ بذهاب أحدهما ووجود الآخر بعد ذهابه على التعاقب آية متكررة للدلالة على القدرة على الإيجاد بعد الإعدام بالبعث وغيره ﴿ وما أنزل الله ﴾ أي : الذي تمت عظمته فنفذت كلمته ﴿ من السماء من رزق ﴾ أي : مطر وغيره من الأسباب المهيئة لإخراج الرزق ﴿ فأحيا به ﴾ أي : بسببه ﴿ الأرض ﴾ أي : الصالحة للحياة ولذلك قال تعالى ﴿ بعد موتها ﴾ أي : يبسها وتهشيم ما كان فيها من النبات ﴿ وتصريف ﴾ أي : تحويل ﴿ الرياح ﴾ باختلاف جهاتها وأحوالها .

وقرأ حمزة والكسائي بالتوحيد ، والباقون بالجمع وقوله تعالى ﴿ آيات ﴾ فيه القراءتان المتقدمتان ، أما الرفع فظاهر وأما الكسر ففيه وجهان ؛ أحدهما : أنها معطوفة على اسم إن والخبر قوله ﴿ وفي خلقكم ﴾ كأنه قيل : وإن في خلقكم وما يبث من دابة آيات ، والثاني : أن تكون كررت تأكيداً لآيات الأولى ويكون ﴿ في خلقكم ﴾ معطوفاً على ﴿ في السموات ﴾ كرر معه حرف الجر توكيداً ، ونظيره أن تقول : إن في بيتك زيداً وفي السوق زيداً فزيداً الثاني تأكيد للأول كأنك قلت : إن زيداً زيداً في بيتك وفي السوق وليس في هذه عطف على معمولي عاملين ألبتة .

ولما كانت هذه الآية أوضح دلالة من بقيتها على البعث قال تعالى فيها ﴿ لقوم يعقلون ﴾ الدليل فيؤمنون وأبدى بعض المفسرين معنى لطيفاً فقال : إن المنصفين إذا نظروا في السموات والأرض وأنه لا بد لهما من صانع آمنوا وإذا نظروا في خلق أنفسهم ونحوها ازدادوا إيماناً فأيقنوا ، فإذا نظروا في سائر الحوادث عقلوا واستحكم علمهم .

ولما ذكر هذه الآيات العظيمات قال تعالى مشيراً إلى علو رتبتها بأداة البعد :

﴿ تلك ﴾ أي : الآيات المذكورة ﴿ آيات الله ﴾ أي : حجج المحيط بصفات الكمال التي لا

شيء أجل منها الدالة على وحدانيته ﴿ نتلوها ﴾ أي : نقصها ﴿ عليك ﴾ سواء أكانت مرئية أو مسموعة ملتبسة ﴿ بالحق ﴾ أي : الأمر الثابت الذي لا يستطاع تحويله ليس بسحر ولا كذب ﴿ فبأي حديث ﴾ أي : خبر عظيم صادق يتجدد علمه به يستحق أن يتحدث به واستغرق كل حديث فقال تعالى ﴿ بعد الله ﴾ أي : حديث الملك الأعظم وهو القرآن ﴿ وآياته ﴾ أي : حججه ﴿ يؤمنون ﴾ أي : كفار مكة أي : لا يؤمنون ، وقرأ ابن عامر وشعبة والكسائي بتاء الخطاب رأوا أن ذلك الخطاب صرف إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ ، والباقون بياء الغيبة ردوه على قوله تعالى ﴿ وفي خلقكم ﴾ وهو أقوى تبكيتاً .

(190/700)

ولما بين الآيات للكفار وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بها بعد ظهورها فبأي حديث بعدها يؤمنون ؟ أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال تعالى:

﴿ ويل لكل أفاك ﴾ أي : مبالغ في صرف الحق عن وجهه ﴿ أثيم ﴾ أي : مبالغ في اكتساب الإثم وهو أن يبقى مصراً على الإنكار والاستكبار ، قال المفسرون : يعني النضر ابن الحارث والآية عامة فيمن كان موصوفاً بهذه الصفة وفسر هذا بقوله تعالى:

﴿ يسمع آيات الله ﴾ أي : دلالات الملك الأعظم الظاهرة حال كونها ﴿ تتلى عليه ﴾ بجميع ما فيها وهي القرآن من سهولة فهمها وعذوبة ألفاظها وظهور معانيها وجلالة مقاصدها مع الإعجاز وهي القرآن العظيم ، فكيف إذا كان التالي أشرف الخلق ، وقرأ حمزة والكسائي بإمالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ﴿ ثم يصر ﴾ أي : يدوم دواماً عظيماً على قبح ما هو فيه حال كونه ﴿ مستكبراً ﴾ أي : طالباً للكبر عن الإذعان وموجداً له ﴿ كأن ﴾ أي : كأنه ﴿ لم يسمعها ﴾ أي : حاله عند السماع وقبله وبعده على حد سواء ﴿ فبشره ﴾ أي : على هذا الفعل الخبيث ﴿ بعذاب أليم ﴾ أي : مؤلم ، والبشارة على الأصل أو التهكم ، وقرأ ابن كثير وحفص ﴿ أليم ﴾ بالرفع والباقون بالجر .

﴿ وإذا علم ﴾ أي : بلغه ﴿ من آياتنا ﴾ أي : القرآن ﴿ شيئاً ﴾ وعلم أنه من آياتنا ﴿ اتخذها هزواً ﴾ أي : مهزواً بها .

تنبيه : في الضمير المؤنث وجهان ؛ أحدهما : أنه عائد على ﴿ آياتنا ﴾ يعني القرآن ، والثاني : أنه يعود على ﴿ شيئاً ﴾ وإن كان مذكراً لأنه بمعنى الآية كقول أبي العالية:

*نفسي بشيء من الدنيا معلقة ** الله والقائم المهدي يكفيها*

لأنه أراد بشيء جاريةً يقال لها : عنبة ، والمعنى : اتخذ ذلك الشيء هزواً إلا أنه تعالى قال : ﴿ اتخذها ﴾ للإشعار بأن هذا الرجل إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد وقوله تعالى ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي : ذو إهانة إشارة إلى معنى ﴿ كل أفاك أثيم ﴾ (الشعراء :)

ليدخل فيه جميع الأفاكين ، فحمل أولاً على لفظها فأفراد ثم على معناها فجمع كقوله تعالى ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (الروم :)

ثم وصف تعالى كيفية ذلك العذاب فقال:

﴿ من ورائهم ﴾ أي : أمامهم لأنهم في الدنيا ﴿ جهنم ﴾ قال الزمخشري : والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام قال:

*أليس ورائي إن تراخت منيتي ** أدبّ مع الولدان أزحف كالنسر*

ومنه قوله تعالى ﴿ من ورائهم ﴾ أي : من قدامهم ا . ه ثم بين تعالى أن ما سلكوه في الدنيا لا ينفعهم بقوله تعالى : ﴿ ولا يغني ﴾ أي : ولا يدفع ﴿ عنهم ما كسبوا ﴾ من الأموال في رحلهم ومتاجرهم والأولاد ﴿ شيئاً ﴾ من الإغناء . وقوله تعالى : ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أي : من الأوثان عطف على ﴿ ما كسبوا ﴾ و ﴿ ما ﴾ فيهما إما

مصدرية ، أو بمعنى الذي أي : لا يغني عنهم كسبهم ولا اتخاذهم أو الذي كسبوه ولا الذي اتخذوه ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ أي : لا يدع جهة من جهاتهم ولا زماناً من أزمانهم ولا عضواً من أعضائهم إلا ملأه ، فإن قيل : قال تعالى في الأول ﴿ مهين ﴾ وفي الثاني ﴿ عظيم ﴾ فما الفرق بينهما ؟

أجيب : بأن كون العذاب مهيناً يدل على حصول العذاب مع الإهانة ، وكونه عظيماً يدل على كونه بالغاً إلى أقصى الغايات في الضرر وقوله تعالى:

(192/700)

﴿ هذا هدى ﴾ إشارة إلى القرآن يدل عليه قوله تعالى ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم ﴾ هي القرآن أي : هذا القرآن كامل في الهداية كما تقول : زيد رجل أي : كامل في الرجولية وأيما رجل ﴿ لهم عذاب ﴾ كائن ﴿ من رجز ﴾ أي : شديد العذاب ﴿ أليم ﴾ أي : بليغ الإيلام .

ولما ذكر تعالى ذكر الربوبية ذكر بعض آثارها وما فيها من آياته فقال مستأنفاً دالاً على عظمتها بالاسم الأعظم:

﴿ الله ﴾ أي : الملك الأعلى المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ الذي سخر ﴾ أي : وحده

من غير حول منكم ولا قوة في ذلك بوجه من الوجوه ﴿ لكم البحر ﴾ أيها الناس بركم وفاجركم بما جعل فيه مما لا يقدر عليه إلا واحد لا شريك له فاعل بالاختيار من القابلية للسير فيه من الرقة والليونة ﴿ لتجري الفلك ﴾ أي : السفن ﴿ فيه بأمره ﴾ أي : بإذنه ولو كانت موقرة بأثقال الحديد الذي يغوص فيه أخف شيء منه كالإبرة وما دونها ، ففي ذلك دلالة ظاهرة على وحدانيته لأن جريان الفلك على وجه الماء لا يحصل إلا بثلاثة أشياء ؛ أحدها : الرياح التي توافق المراد ، وثانيها : خلق وجه الماء على الملامسة التي تجري عليها الفلك ، وثالثها : خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغرق فيه ، وهذه الأحوال لا يقدر عليها أحد من البشر ﴿ ولتبتغوا ﴾ أي : تطلبوا بشهوة نفس واجتهاد بما تحملون فيه من البضائع وتتوصلون إليه من الأماكن والمقاصد بالصيد والغوص على اللؤلؤ والمرجان وغير ذلك ﴿ من فضله ﴾ لم يصنع شيئاً منه سواه ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ نعمه على ذلك .

(193/700)

﴿ وسخر لكم ما في السموات ﴾ من شمس وقمر ونجم بها وغير ذلك بحيث لا يمكنكم الوصول إليه بوجه ﴿ وما في الأرض ﴾ من دابة وشجر ونبات وأنهار وغيره ولو شاء لجعله

كما في السماء لا وصول لكم إليه وقوله تعالى ﴿ جميعاً ﴾ توكيد لما دل عليه معنى ما من العموم وقيل : حال من ﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ وقوله تعالى ﴿ منه ﴾ حال أي : سخرها كائنة منه تعالى لا صنع لأحد غيره في شيء من ذلك ، قال ابن عباس : كل ذلك رحمة منه ، وقال الزجاج : كل ذلك تفضل منه وإحسان ، وقال بعض العارفين : سخر لك الكل لئلا يسخرك لشيء منها فتكون مسخراً لمن سخر لك الكل وهو الله تعالى فإنه يقبح بالمخدوم أن يخدم خادمه ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم من تسخيره لنا كل شيء في الكون ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات واضحات على أنهم في الالتفات إلى غيره في ضلال مبين بعد تسخيره لنا ما لنا من الأعضاء والقوى على هذا الوجه البديع مع أن من هذا المسخر لنا ما هو أقوى منا ﴿ لقوم ﴾ أي : ناس فيهم أهلية القيام بما يجعل إليهم ﴿ يتفكرون ﴾ فيعلمون أنه المتوحد باستحقاق الإلهية فلا يشركون به شيئاً واختلف في سبب نزل قوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : يا أفضل الخلق ﴿ للذين آمنوا ﴾ ادعوا التصديق بكل ما جاءهم عن الله تعالى ﴿ يغفروا ﴾ أي : يستروا ستراً بالغاً ﴿ للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي : مثل وقائع الملك الأعظم المحيط بصفة الكمال ، فقال ابن عباس : "نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أنهم نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها : المريسيع ، فأرسل عبد الله بن أبيّ غلامه ليستقي الماء فأبطأ عليه فلما أتاه قال له ما حبسك ؟ قال غلام عمر :

قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبي بكر رضي الله عنه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك ، فبلغ ذلك عمر فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية" .

(194/700)

وقال مقاتل : إن رجلاً من بني غفار شتم عمر بمكة فهم عمر أن يبطش به ، فنزلت بالغفر والتجاوز ، وروى ميمون بن مهران : "أن فنحاص اليهودي لما نزل قوله تعالى ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ (البقرة :)

قال : احتاج رب محمد فسمع ذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج في طلبه فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه فرده" .

وقال القرطبي والسدي : "نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة كانوا في أذى كثير من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت" . ثم نسختها آية القتال ، قال الرازي : وإنما قالوا بالنسخ لأنه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا ولا يقاتلوا ، فلما أمر الله تعالى بالمقاتلة كان نسخاً والأقرب أن يقال إنه محمول على ترك المنازعة وعلى التجاوز فيما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية ،

وقال ابن عباس : لا يرجون أيام الله أي : ثوابه ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عذاب الأمم الماضية وتقدم تفسير أيام الله عند قوله تعالى ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ (إبراهيم :) وقوله تعالى ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ علة للأمر ، والقوم : هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو التنويع أو لكسب المغفرة أو الإساءة أو ما يعمهما ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالنون لنجزي نحن بما لنا من العظمة ، والباقون بالياء التحتية أي : ليجزي الله سبحانه وتعالى .

ولما رغب سبحانه وتعالى ورهب وقرر أنه لا بد من الجزاء زاد في الترغيب والترهيب بأن النفع والضر لا يعدوهم فقال تعالى شارحاً للجزاء :

(195/700)

﴿ من عمل صالحاً ﴾ قل أو جل ﴿ فلنفسه ﴾ أي : خاصة عمله يرى جزاءه في الدنيا والآخرة وهو مَثَل ضربه الله تعالى للذين يغفرون ﴿ ومن أساء ﴾ كذلك ﴿ فعليها ﴾ خاصة إساءته كذلك ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار الذين كانوا يؤذون الرسول والمؤمنين ، وذلك في غاية الظهور لأنه لا يسوغ في عقل عاقل أن ملكاً يدع عبيده من غير جزاء ولا سيما إذا كان حكيماً ، وإن كانت نقائص النفوس غطت على كثير من العقول

ذلك ﴿ ثم ﴾ أي : بعد الابتلاء بالإملاء في الدنيا والحبس في البرزخ ﴿ إلى ربكم ﴾ أي : الملك المالك لكم لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ أي : تصيرون فيجازي المصلح والمسيء .

﴿ ولقد آتينا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ بني إسرائيل الكتاب ﴾ أي : الجامع للخيرات وهو يعم التوراة والإنجيل والزبور وغيرها مما أنزل على أنبيائهم عليهم السلام ﴿ والحكم ﴾ أي : العلم والعمل الثابتين ثبات الأحكام بحيث لا يتطرق إليهما فساد بما للعلم من الزينة بالعمل وللعمل من الإتقان بالعلم ﴿ والنبوة ﴾ التي تدرك بها الخيرات العظيمة التي لا يمكن إبلاغ الخلق إليها بلوغ اكتساب منهم فأكثرنا فيهم من الأنبياء عليهم السلام .

﴿ ورزقناهم ﴾ بما لنا من العظمة لإقامة أبدانهم ﴿ من الطيبات ﴾ أي : الحلالات من المن والسلوى وغيرهما ﴿ وفضلناهم ﴾ أي : بما لنا من العزة ﴿ على العالمين ﴾ قال أكثر المفسرين : علامي زمانهم ، وقال ابن عباس : لم يكن أحد من العالمين أكرم على الله ولا أحب إليه منهم ، أي : لما آتاهم من الآيات المرئية والمسموعة وأكثر فيهم من الأنبياء مما لم يفعله بغيرهم ممن سبق وكل ذلك فضيلة ظاهرة .

﴿ وآتيناهم ﴾ مع ذلك ﴿ بينات من الأمر ﴾ أي : الموحى به إلى أنبيائهم من الأدلة القطعية والأحكام والمواعظ المؤيدة بالمعجزات ومن صفات الأنبياء الآتين بعدهم وغير ذلك مما هو في غاية الوضوح لمن قضينا بسعادته ، وذلك أمر يقتضي الألفة والاجتماع وقد كانوا متفقين وهم في زمن الضلال لا يختلفون إلا اختلافاً يسيراً لا يضر مثله ولا يعد اختلافاً ، فلما جاءهم العلم اختلفوا كما قال تعالى ﴿ فما اختلفوا ﴾ أي : أوقعوا الاختلاف والافتراق بغاية جهدهم ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي : الذي من شأنه الجمع على المعلوم فكان ما هو سبب الاجتماع سبباً لهم في الافتراق ﴿ بغياً ﴾ أي : للمجاوزة في الحدود التي اقتضاها لهم طلب الرياسة والحسد وغيرهما من نقائص النفوس ﴿ بينهم ﴾ أي : واقعاً فيهم لم يعدهم إلى غيرهم وقد كانوا قبل ذلك وهم تحت أيدي القبط في غاية الاتفاق واجتماع الكلمة على الرضا بالذل ، ولذلك استأنف قوله تعالى الذي اقتضاه الحال على ما يشاهده العباد من أفعال الملوك فيمن خالف أمرهم مؤكداً لأجل إنكارهم ﴿ إن ربك ﴾ أي : المحسن إليك ﴿ يقضي بينهم ﴾ أي : بإحصاء الأعمال والجزاء عليها ﴿ يوم القيامة ﴾ أي : الذي ينكره قومك الذين شرفناهم برسالتك ﴿ فيما كانوا ﴾ أي : لما هو لهم كالجبلة ﴿ فيه يختلفون ﴾ بغاية الجهد ، والمعنى : أنه لا ينبغي للمبطل أن يفرح بنعم الدنيا فإنها وإن ساوت نعم المحق أو زادت عليها فإنه سيرى في الآخرة ما يسوءه وذلك كالزجر لهم .

ولما بين تعالى أنهم أعرضوا عن الحق بغياً وحسداً أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعدل عن تلك الطريقة وأن يتمسك بالحق وأن لا يكون له غرض سوى إظهار الحق فقال تعالى:

(197/700)

﴿ ثم ﴾ أي : بعد فترة من رسلهم ومجاوزة رتب كثيرة عالية على رتبة شريعتهم ﴿ جعلناك ﴾ أي : بما لنا من العزة والقدرة ﴿ على شريعة ﴾ أي : طريقة واسعة عظيمة ظاهرة مستقيمة سهلة موصلة إلى المقصود هي جديرة بأن يشرع الناس فيها ويخالطوها مبتدأة ﴿ من الأمر ﴾ أي : أمر الدين الذي هو حياة الأرواح كما أن الأرواح حياة الأشباح ﴿ فاتبعها ﴾ أي : اتبع بغاية جهدك شريعتك الثابتة بالحجج ﴿ ولا تتبع أهواء ﴾ أي : آراء ﴿ الذين لا يعلمون ﴾ أي : لا علم لهم أو لهم علم لكنهم يعملون عمل من ليس لهم علم أصلاً من كفار العرب وغيرهم ، قال الكلبي : "إن رؤساء قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة : ارجع إلى دين آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن فأنزل الله تعالى هذه الآية" . ثم علل هذا النهي مهدداً بقوله تعالى مؤكداً :

﴿ إنهم ﴾ وأكد النفي فقال عز من قائل ﴿ لن يغنوا عنك ﴾ أي : لا يتجدد لهم نوع إغناء

مبتدأ ﴿ من الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ شيئاً ﴾ أي : من إغناء أي : إن اتبعتهم ، كما أنهم لن يقدروا لك على شيء من أذى إن خالفتهم وناصبتهم ﴿ وإن الظالمين ﴾ أي : الغريقين في هذا الوصف وهم الكفرة ، وكان الأصل : وإنهم ولكنه تعالى أظهر للإعلام بوصفهم ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ إذ الجنسية علة الانضمام فلا توالوهم باتباع أهوائهم ﴿ والله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ وليّ المتقين ﴾ أي : الذين همهم الأعظم الاتصاف باتخاذ الوقايات المنجية لهم من سخط الله تعالى ، والمعنى : أن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا وأما في الآخرة فلا ولي لهم ينفعهم في إيصال الثواب وإزالة العقاب ، وأما المتقون المهتدون فالله سبحانه وليهم وناصرهم .

(198/700)

﴿ هذا ﴾ أي : الوحي المنزل وهو القرآن ﴿ بصائر ﴾ أي : معالم ﴿ للناس ﴾ أي : في الحدود والأحكام فيبصروا بها ما ينفعهم وما يضرهم ﴿ وهدى ﴾ أي : قائد إلى كل خير مانع من كل زيغ ﴿ ورحمة ﴾ أي : كرامة وفوز ونعمة ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أي : ناس فيهم قوة القيام بالوصول إلى العلم الثابت وتجديد الترقي في درجاته إلى ما لا نهاية له وقوله تعالى: ﴿ أم حسب ﴾ منقطعة فتقدر ببل والهمزة أو ببل وحدها أو بالهمزة وحدها ومعنى

الهمزة فيها : إنكار الحسبان ﴿ الذين اجترحوا ﴾ أي : اكتسبوا ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أي : كاسبهم وقال تعالى ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ (الأنعام :) ﴿ السيئات ﴾ أي : الكفر والمعاصي ﴿ أن نجعلهم ﴾ أي : بما لنا من العظمة المانعة من الظلم المقتضية للحكمة ﴿ كالذين آمنوا وعملوا ﴾ تصديقاً لإقرارهم ﴿ الصالحات ﴾ أي : بأن نتركهم بغير حساب للفصل بين المحسن والمسيء .

(199/700)

ولما كانت المماثلة مجملة بينها استئنافاً بقوله تعالى : ﴿ سواء ﴾ أي : مستو استواء عظيماً ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ أي : حياتهم وموتهم وزمان ذلك ومكانه في الارتفاع والسفول واللذة والكدر وغير ذلك من الأعيان والمعاني ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص سواء بالنصب على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور وهما كالذين آمنوا ، ويكون المفعول الثاني للجعل كالذين آمنوا أي : أحسبوا أن نجعلهم مثلهم في حال استواء محياهم ومماتهم ليس الأمر كذلك ، وقرأه الباقون بالرفع على أنه خبر ومحياهم ومماتهم مبتدأ ومعطوف والجملة بدل من الكاف والضميران للكفار ، والمعنى : أحسبوا أن نجعلهم في الآخرة في خير كالمؤمنين أي : في رغد من العيش مساوٍ لعيشهم في الدنيا حيث قالوا

للمؤمنين : لئن بعثنا لنعطي من الخير مثل ما تعطون ، قال تعالى على وفق إنكاره بالهمزة ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي : ليس الأمر كذلك فهم في الآخرة في العذاب على خلاف عيشهم في الدنيا والمؤمنون في الآخرة في الثواب بأعمالهم الصالحات في الدنيا من الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك ، وما مصدرية أي : بئس حكماً حكمهم هذا .

ولما بين تعالى أن المؤمن لا يساويه الكافر في درجات السعادة أتبعه بالدلائل الظاهرة على صحة ذلك فقال تعالى:

﴿ وخلق الله ﴾ أي : الذي له جميع أوصاف الكمال ﴿ السموات والأرض ﴾ وقوله تعالى ﴿ بالحق ﴾ متعلق بخلق وقوله تعالى ﴿ ولتجزى ﴾ أي : بأيسر أمر ﴿ كل نفس ﴾ أي : منكم ومن غيركم معطوف على بالحق في المعنى لأن كلاً منهما سبب فعطف العلة على مثلها أو أنه معطوف على معلل محذوف والتقدير : خلق هذا العالم إظهاراً للعدل والرحمة ، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت بين الدرجات والدركات من المحقين والمبطلين ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كسبت ﴾ من خير أو شر ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ لا يظلمون ﴾ أي : لا يوجد من موجد ما في وقت من

الأوقات جزاء لهم في غير موضعه هذا على ما جرت به عوائدكم في العدل والفضل ، ولو وجد منه سبحانه وتعالى غير ذلك لم يكن ظلماً منه لأنه المالك المطلق والملك الأعظم ، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه كلهم لكان غير ظالم في نفس الأمر ، فهذا الخطاب إنما هو على ما يتعارفونه من إقامة الحجة بمخالفة الأمر ثم عاد سبحانه وتعالى إلى شرح أحوال الكفار وقبائح طرائقهم فقال:

﴿ أفرأيت ﴾ أي : أعلمت علماً هو في تيقنه كالمحسوس بحاسة البصر التي هي أثبت الحواس ﴿ من اتخذ ﴾ أي : بغاية جهده ﴿ إلهه هواه ﴾ أي : ما يهواه من حجر بعد حجر يراه أحسن ، روي عن أبي رجاء العطاردي وهو ثقة أدرك الجاهلية ومات سنة خمس ومائة عن مائة وعشرين سنة قال : كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب فحلبنا عليها ثم طفنا بها . قال الأصفهاني : سئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هوان سرقت نونه فنظمه من قال:

*نون الهوان من الهوى مسروقة ** فأسير كل هوى أسير هوان*

وقال آخر أيضاً :

*إن الهوى لهو الهوان بعينه ** فإذا هويت فقد لقيت هوانا*

﴿ وأضله الله ﴾ أي : بما له من الإحاطة ﴿ على علم ﴾ منه تعالى أي : عالماً بأنه من أهل الضلالة قبل خلقه ﴿ وختم ﴾ زيادة على الإضلال الخاص ﴿ على سمعه ﴾ فلا فهم له في الآيات المسموعة ﴿ وقلبه ﴾ أي : فهو لا يعي ما في حقه وعيه ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ أي : ظلمة فلا يبصر الهوى ويقدر هنا المفعول الثاني لرأيت أي : أيهتدي ، وقرأ حمزة والكسائي بفتح الغين وسكون الشين ، والباقون بكسر الغين وفتح الشين وألف بعد الشين وإذا صار بهذه المثابة ﴿ فمن يهديه ﴾ وأشار تعالى إلى قدرته عليه بقوله سبحانه وتعالى ﴿ من بعد الله ﴾ أي : إن أراد الله إضلاله الذي له الإحاطة بكل شيء أي : لا يهتدي ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي : ألم يكن لكم نوع تذكر فتتعظوا وفيه إدغام إحدى التاءين في الذال .

﴿ وقالوا ﴾ أي : في إنكارهم البعث مع اعترافهم بأنه تعالى قادر على كل شيء ﴿ ما هي ﴾ أي : الحياة ﴿ إلا حياتنا ﴾ أي : أيها الناس ﴿ الدنيا ﴾ أي : هذه التي نحن فيها ﴿ نموت ونحيا ﴾ ، فإن قيل : الحياة متقدمة على الموت في الدنيا فمنكروا القيامة كان يجب أن يقولوا : نحيا ونموت فما السبب في تقديم ذكر الموت على الحياة ؟

أجيب : من وجوه أولها : أن المراد بقولهم نموت أي : حال كونهم نطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات وبقولهم ونحيا ما حصل بعد ذلك في الدنيا ، ثانيها : نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا ، ثالثها : قال الزجاج : الواو للاجتماع والمعنى : يموت بعض ونحيا بعض ، رابعها : قال الرازي : إنه تعالى قدم ذكر الحياة فقال ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ ثم قال بعده ﴿ نموت ونحيا ﴾ يعني أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك في حق الذين ماتوا ومنها ما لا يطرأ عليه الموت بعد ذلك وهو في حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد ، وقال البيضاوي : يحتمل أنهم أرادوا به التناسخ أي : وهو أن روح الشخص إذا خرجت تنتقل إلى شخص آخر فيحيا بعد أن لم يكن فإنه عقيدة أكثر عبدة الأصنام ﴿ وما يهلكنا ﴾ أي : بعد الحياة ﴿ إلا الدهر ﴾ أي : مر الزمان الطويل بغلبته علينا وطول العمر واختلاف الليل والنهار من دهره إذا غلبه ﴿ وما ﴾ أي : قالوه والحال أنه ما ﴿ لهم بذلك ﴾ أي : المقول البعيد من الصواب وهو أنه لا حياة بعد هذه وأن الإهلاك منسوب إلى الدهر على أنه مؤثر بنفسه وأغرق في النفي فقال تعالى ﴿ من علم ﴾ أي : كثير ولا قليل ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هم إلا يظنون ﴾ أي : بقرينة أن الإنسان كلما تقدم في السن ضعف وأنه لم يرجع أحد من الموتى هذا ظنهم الفاسد .

روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله تعالى : لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أرسل الليل والنهار فإذا شئت قبضتهما" . وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يسب أحدكم الدهر فإن الدهر هو الله تعالى ولا يقولن للعنب الكرم فإن الكرم هو الرجل المسلم" . ومعنى الحديث أن العرب كان من شأنها ذم الدهر وسبُّه عند النوازل لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر كما أخبر الله تعالى عنهم فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها ، فكان يرجع سبهم إلى الله تعالى إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر فنهوا عن سبه . u

﴿ وإذا تتلى ﴾ أي : تتابع بالقراءة من أي تال كان ﴿ عليهم آياتنا ﴾ أي : على ما لها من العظمة في نفسها وبالإضافة إلينا حال كونها ﴿ بينات ﴾ أي : في غاية المكنة في الدلالة على البعث فلا عذر لهم في ردها ﴿ ما كان ﴾ أي : بوجه من وجوه الكون ﴿ حجتهم ﴾ أي : قولهم الذي ساقوه مساق الحجة ﴿ إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا ﴾ أي : أحياء ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : في أنا نبعث فهو لا يستحق أن يسمى شبهة فسمي حجة بزعمهم أو لأن

من كانت حجته هذه فليست له ألبتة حجة كقوله:

تحية بينهم ضرب وجيع

ثم إن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله تعالى:

(204/700)

﴿ قل الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة ﴿ يحييكم ﴾ أي : حين كنتم نطفاً ﴿ ثم يميتكم ﴾ أي : بأن يخرج أرواحكم من أجسادكم فتكونون كما كنتم قبل الإحياء كما تشاهدون ﴿ ثم يجمعكم ﴾ أي : بعد التمزق فيعيد فيكم أرواحكم كما كانت بعد طول مدة الرقاد منتهين ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ أي : القيام الأعظم لكونه عاماً لجميع الخلائق ﴿ لا ريب ﴾ أي : لا شك بوجه من الوجوه ﴿ فيه ﴾ بل هو معلوم علماً قطعياً ضرورياً ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي : وهم القائلون ما ذكر ﴿ لا يعلمون ﴾ أي : لا يتجدد لهم علم لما لهم من النفوس والتردد والسفول عن أوج العقل إلى حضيض الجهل فهم واقفون مع المحسوسات لا يلوح لهم ذلك مع ما له من الظهور وقوله تعالى:

﴿ ولله ﴾ أي : الملك الأعظم وحده ﴿ ملك السموات ﴾ أي : كلها ﴿ والأرض ﴾ أي : التي ابتدأكم منها تعميم للقدرة بعد تخصيصها ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أي : توجد وتتحقق

تحقق القائم الذي هو على كمال تمكنه وتمام أمره الناهض بأعباء ما يريد ثم كرر للتأكيد والتهويل قوله تعالى ﴿ يومئذ ﴾ أي : يوم تقوم يخسرون هكذا كان الأصل ولكنه قال تعالى للتعميم والتعليق بالوصف ﴿ يخسر المبطلون ﴾ أي : الداخلون في الباطل الغريقون في الاتّصاف به الذين كانوا لا يرضون بقضائي .

تنبيه : الحياة والعقل والصحة كأنها رأس مال والتصرف فيها بطلب السعادة الأخروية يجري مَجرى تصرف التاجر في ماله لطلب الربح ، والكفار قد أتعبوا أنفسهم في تصرفاتهم بالكفر والأباطيل فلم يجدوا في ذلك اليوم إلا الحرمان والخذلان ودخول النار وذلك في الحقيقة نهاية الخسران .

(205/700)

﴿ وترى ﴾ أي : في ذلك اليوم ﴿ كل أمة ﴾ أي : أهل دين ﴿ جاثية ﴾ أي : مجتمعة لا يخالطها غيرها وهي مع ذلك باركة على الركب رعباً واستيفازاً لما لعلها تؤمر به جلسة المخاصم بين يدي الحاكم تنتظر القضاء الحاتم والأمر الجازم اللازم لشدة ما يظهر لها من هول ذلك اليوم ﴿ كل أمة ﴾ من الجاثين ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ أي : الذي أنزل عليها وتعبدها الله تعالى به والذي نسخته الحفظة عليهم السلام من أعمالها ليطبق أحدهما

بالآخر فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا ومن خالفه هلك ويقال لهم حالة الدعاء ﴿ اليوم تجزون ﴾ أي : على وفق الحكمة بأيسر أمر ﴿ ما ﴾ أي : عين الذي ﴿ كنتم ﴾ بما هو لكم كالجبلات ﴿ تعملون ﴾ أي : مصرين عليه غير راجعين عنه من خير أو شر ، فإن قيل : الجثو على الركب إنما يليق بالخائف ، والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة ؟ أجيب : بأن الجاثي الآمن يشارك المبطل في مثل هذه الحالة إلى أن يظهر كونه محقاً .

﴿ هذا كتابنا ﴾ أي : الذي أنزلناه على ألسنة رسلنا عليهم الصلاة والسلام ﴿ ينطق ﴾ أي : يشهد شهادة هي في بيانها كالنطق ﴿ عليكم بالحق ﴾ أي : الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع من أعمالكم وذلك بأن يقول : من عمل كذا فهو عاص ، ومن عمل كذا فهو مطيع فينطبق ذلك على ما عملتموه سواء بسواء من غير زيادة ولا نقصان ، وقيل : المراد بالكتاب اللوح المحفوظ .

(206/700)

ولما كانت العادة جارية في الدنيا بإقامة الحقوق بكتابة الوثائق وكانوا كأنهم يقولون ومن يحفظ أعمالنا على كثرتها مع طول المدة وبعد الزمان ؟ قال تعالى مجيباً بما يقرب إلى عقل من يسأل عن ذلك ﴿ إنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة المغنية عن الكتابة ﴿ كنا ﴾ على

الدوام ﴿ نستنسخ ما كنتم ﴾ طبعاً لكم وخلقاً ﴿ تعملون ﴾ قولاً وفعلاً ونية أي : نأمر الملائكة عليهم السلام بكتبها وإثباتها عليكم ، وقيل : نستنسخ أي : نأخذ نسخه وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان فيثبت الله تعالى منه ما كان له من ثواب أو عقاب ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم واذهب ، والاستنساخ من اللوح المحفوظ ، تنسخ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم والاستنساخ لا يكون إلا من أصل كما ينسخ من كتاب كتاب ، وقال الضحاك : نستنسخ أي : نثبت ، وقال السدي : نكتب ، وقال الحسن : نحفظ .

ثم بين تعالى أحوال المطيعين بقوله تعالى:

﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ أي : من الأمم الجاثية ﴿ وعملوا ﴾ أي : تصديقاً لدعواهم الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ أي : الطاعات فوصفهم بالعمل الصالح بعد وصفهم بالإيمان يدل على أن العمل الصالح مغاير للإيمان زائد عليه ﴿ فيدخلهم ﴾ أي : في ذلك اليوم ﴿ ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم بالتوفيق بالإيمان ﴿ في رحمته ﴾ التي من جملتها الجنة والنظر إلى وجهه الكريم الذي هو الغاية القصوى وتقول لهم الملائكة تشريفاً : سلام أيها المؤمنون ودل على عظمة الرحمة بقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الإحسان العالي المنزلة ﴿ هو ﴾ أي : لا غيره ﴿ الفوز المبين ﴾ أي : الظاهر الذي لا يخفى على أحد شيء من أمره لأنّه لا يشوبه كدر أصلاً ولا نقص بخلاف ما كان من أسبابه في الدنيا فإنها مع كونها كانت فوزاً كانت خفية جداً على غير الموقنين . ثم بين تعالى أحوال الفريق الآخر بقوله تعالى:

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما أمر الله تعالى به ﴿ أفلم ﴾ أي : فيقال لهم ألم ﴿ تكن ﴾ تأتيكم رسلي فلم تكن ﴿ آياتي ﴾ على ما لها من عظمة إضافتها إلي وأعظمها القرآن ﴿ تتلى ﴾ أي : تواصل قراءتها من أي تال كان فكيف إذا كانت بواسطة الرسل تلاوة مستعلية ﴿ عليكم ﴾ لا تقدرون على دفع شيء منها .

تنبيه : حذف المقول المعطوف عليه كما تقرر اكتفاء بالمقصود واستغناء بالقرينة

﴿ فاستكبرتم ﴾ أي : فتسبب عن تلاوتها التي من شأنها إيراث الخشوع والإخبات والخضوع إن طلبتم الكبر لأنفسكم أوجدتموه على رسلي وآياتي ﴿ وكنتم قوماً ﴾ أي : ذوي قيام وقدرة على ما تحاولونه ﴿ مجرمين ﴾ أي : غريقين في قطع ما يستحق الوصل وذلك هو الخسران المبين .

﴿ وإذا ﴾ أي : وكنتم إذا ﴿ قيل ﴾ أي : من أي قائل كان ولو على سبيل التأكيد ﴿ إن وعد الله ﴾ أي : الذي كل أحد يعلم أنه محيط بصفات الكمال ﴿ حق ﴾ أي : ثابت لا محيد عنه مطابق للواقع من البعث وغيره لأن أقل الملوك لا يرضى بأن يخلف وعده فكيف به سبحانه وتعالى فكيف إذا كان الإخلاف فيه متناقضاً للحكم وقرأ ﴿ والساعة ﴾

حمزة بالنصب عطفاً على وعد الله ، والباقون برفعها وفيه ثلاثة أوجه ؛ أحدها : الابتداء وما بعدها من الجملة المنفية وهو قوله تعالى ﴿ لا ريب ﴾ أي : لا شك ﴿ فيها ﴾ خبرها ، ثانيها : العطف على محل اسم إن لأنه قبل دخولها مرفوع بالابتداء ، ثالثها : أنه عطف على محل إن واسمها معاً لأن بعضهم كالفارسي والزمخشري يرون أن لأن واسمها موضعاً وهو الرفع بالابتداء ﴿ قلتم ﴾ أي : راضين لأنفسكم بحضيض الجهل ﴿ ما ندري ﴾ أي : الآن دراية علم ولو بذلنا جهدنا في محاولة الوصول إليه ﴿ ما الساعة ﴾ أي : لا نعرف حقيقتها فضلاً عما تخبروننا به من أحوالها .

(208/700)

تنبيه : الساعة هنا مرفوعة باتفاق ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ نظن ﴾ أي : نعتقد ما تخبروننا به عنها ﴿ إلا ظناً ﴾ وأما وصوله إلى درجة العمل فلا ﴿ وما نحن ﴾ وأكدوا النفي فقالوا ﴿ بمستيقنين ﴾ أي : بموجود عندنا اليقين في أمرها ، قال الرازي : القوم كانوا في هذه المسألة على قولين : منهم من كان قاطعاً بنفي البعث والقيامة وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ ومنهم من كان شاكاً متحيراً فيه لأنهم لكثرة ما سمعوه من الرسل عليهم السلام ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم

المذكورون في هذه الآية ، ويدل على ذلك أنه حكى تعالى مذهب أولئك القاطعين ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول .

ولما وصلوا إلى حد عظيم من العناد التفت إلى أسلوب الغيبة إعراضاً عنهم إيذاناً بشدة الغضب عليهم فقال تعالى:

﴿ وبدا ﴾ أي : ولم يزالوا يقولون ذلك إلى أن بدت لهم الساعة بما فيها من الأوجال والزلازل والأهوال وظهر ﴿ لهم ﴾ غاية الظهور ﴿ سيئات ما عملوا ﴾ في الدنيا فتمثلت لهم وعرفوا مقدار جزائها واطلعوا على جميع ما يلزم على ذلك ﴿ وحاق ﴾ أي : أحاط ﴿ بهم ﴾ على حال القهر والغلبة قال أبو حيان : ولا يستعمل إلا في المكروه ﴿ ما كانوا ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ به يستهزئون ﴾ أي : يوجدون الهزء به على غاية الشهوة واللذة إيجاد من هو طالب لذلك ، وهذا كالدليل على أن هذه الفرقة لما قالوا إن نظن إلا ظناً إنما ذكروه استهزاء وسخرية فصار هذا الفريق أشر من الفريق الأول ، لأن الأولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين وهؤلاء ضموا إلى الإصرار على الإنكار الاستهزاء ، وقرأ حمزة في الوقف بتسهيل الهمزة بعد الزاي كالواو وله أيضاً إبدالها ياء ونقل عنه أيضاً غير ذلك .

(209/700)

﴿ وقيل ﴾ أي : لهم على أفظع الأحوال وأشدها قولاً لا معقب له فكأنه بلسان كل قائل ﴿ اليوم ننساكم ﴾ أي : نترككم في العذاب ﴿ كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي : كما تركتم الإيمان والعمل للقائه ، وقيل : نجعلكم منزلة الشيء المنسي غير المبالى به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم هذا ولم تلتفتوا إليه ﴿ ومأواكم النار ﴾ ليس لكم براح عنها ﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ ينقذونكم من ذلك بشفاعة ولا مقاهرة فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب ثلاثة أشياء : قطع الرحمة عنهم ، وتصيير مأواهم النار ، وعدم الأنصار ؛ لأنهم أتوا بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة وهي : الإصرار على إنكار الدين الحق ، والاستهزاء به والسخرية ، والاستغراق في حب الدنيا . وهو المراد بقوله تعالى:

﴿ ذلكم ﴾ أي : العذاب العظيم ﴿ بأنكم اتخذتم ﴾ أي : بتكليف منكم لأنفسكم ﴿ آيات الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ هزواً ﴾ أي : استهزاء بها ولم تتفكروا فيها ، وقرأ ﴿ اتخذتم ﴾ ابن كثير وحفص بإظهار الذال عند التاء والباقون بالإدغام ﴿ وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ الدنيئة لضعف عقولكم فآثرتموها لكونها حاضرة وأنتم كلابها فقلتم : لا حياة غيرها ولا بعث ولا حساب ولو تعقلتم وصفكم لها لأداكم إلى الإقرار بالآخرة ﴿ فاليوم ﴾ أي : بعد إيوائهم فيها ﴿ لا يخرجون منها ﴾ أي : النار لأن الله تعالى لا يخرجهم ولا يقدر غيره على ذلك ، وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء التحتية وضم الراء ، والباقون بضم الياء وفتح الراء ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي : لا يطلب من طالب ما منهم

الإعتاب وهو الاعتذار لأنه لا يقبل ذلك اليوم عذر ولا توبة .

ولما تم الكلام في المباحث الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال عز من قائل:

(210/700)

﴿ فلله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ الحمد ﴾ أي : الإحاطة بجميع صفات الكمال ﴿ رب السموات ﴾ أي : ذوات العلو والاتساع والبركات ﴿ ورب الأرض ﴾ أي : ذات القبول للواردات ﴿ رب العالمين ﴾ أي : خالق ما ذكر إذ الكلُّ نعمة منه دال على كمال قدرته فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والأرضين وخالق كل العالمين من الأجسام والأرواح والذوات والصفات ، فإن هذه توجب الحمد والثناء على كل من المخلوقين والمربوبين .

ولما أفاد ذلك غناه الغنى المطلق وسيادته وأنه لا كفء له عطف عليه بعض اللوازم لذلك تنبيهاً على مزيد الاعتناء به لدفع ما يتوهمونه من ادعاء الشركة التي لا يرضونها لأنفسهم فقال تعالى:

﴿ وله ﴾ أي : وحده ﴿ الكبرياء ﴾ أي : الكبر الأعظم الذي لا نهاية له ﴿ في السموات ﴾ كلها ﴿ والأرض ﴾ جميعاً اللتين فيهما آيات الموقنين روي عن أبي سعيد

الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يقول الله عز وجل : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار" . وفي رواية عذبته وفي رواية قصمته ﴿ وهو ﴾ وحده ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي يضع الأشياء في مواضعها ولا يضع شيئاً إلا كذلك كما أحكم أمره ونهيه وجميع شرعه ، وأحكم نظم هذا القرآن جملاً وآيات وفواصل وغايات بعد أن حرر معانيه وتنزيله فصار معجزاً في نظمه ومعناه وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 471 . 487 ﴾

(211/700)

وقال القاسمى :

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

قال المهايمي : فعزته تقتضي إفاضة الحجج التي بها الغلبة على الخصوم ، وإفاضة الكمالات التي يعسر الوصول إليها . وأنواع السعادات ، وحدة النظر ، والحكمة تقتضي محو الشبه وإزالة النقائص وإحراق الشقاوة وتمهيد الفكر . وقد نزله من مقام عزته بمقتضى حكمته ، لتكميل القوة النظرية والعملية ، ليتوسل بها إلى الكمالات الحقيقية ، من الإيمان ، والإيقان ، والعقل ، وذلك بالنظر إلى أنواع الآيات المتضمنة للحجج ، ورفع الشبه ؛ فمنها آيات الأجسام .

﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ أي : مطر . سمي رزقاً لأنه سببه : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : عن الله ، ما وعظهم به ودعائهم إليه .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ أي : الدالة على كمال قدرته ، وحكمته ، وإرادته : ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : بعد آياته ، ودلائله الباهرة ، وتقديم اسم الله للمبالغة ، والتعظيم ، كما في قولك : أعجبني زيد ، وكرمه .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ أي : كذاب يتكلم في حق الله ، وصفاته على خلاف الدليل : ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي : بترك الاستدلال ، لاسيما إذا لم يترك عن غفلة ، بل مع كونه :

﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : لا بالإخبار عنها بالغيب ، بل : ﴿ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي : على إنكارها : ﴿ مُسْتَكْبِراً ﴾ أي : عن قبولها ، لا يتأثر بها أصلاً : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً ﴾ استهانة بها : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : من بعد انقضاء آجالهم ، عذابها : ﴿ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا ﴾ أي : من الأموال ، والأولاد : ﴿ شَيْئاً ﴾ أي : من عذاب الله : ﴿ وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء ﴾ يعني آلهتهم التي عبدوها ، أو رؤساءهم الذين أطاعوهم في الكفر ، واتخذوهم نصراء في الدنيا : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا ﴾ أي : القرآن : ﴿ هُدًى ﴾ أي : بيان ودليل على الحق ، يهدي إلى صراط مستقيم من اتبعه ، وعمل بما فيه .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ أي : بتسخيره : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : بإستفادة علم ، وتجارة ، وأمتعة غريبة ، وجهاد ، وهداية ، وغوص فيه ؛ لاستخراج لآليه ، وصيد منه : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : نعمة هذا التسخير ، فتعبدوه وحده ، وتصرفوا ما أنعم به عليكم ، إلى ما خلقتم له .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : في آيات الله وحججه وأدلته ، فيعتبرون بها ويتفكرون . قال المهايمي : منها أن ربط بعض العالم بالبعض دليل توحيده ، وجعل البعض سبب البعض ، دليل حكمته ، وجعل الكل مسخراً للإنسان ، دليل كمال جوده . فمن أنكر هذه الآيات ، ولم يشكر هذه النعم ، استوجب أعظم ، وجوه الانتقام .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : صدّقوا بالله ، واتبعوك : ﴿ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ أي : لا يخافون بأس الله ، ونقمه ، ووقائعه بأعدائه : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : من علمهم . ومنه العفو ، والتجاوز عن بعض ما يؤذي ويوحش . وقد روي أنها نزلت في عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد شتمه رجل من غفار ، فهمّ أن يبطش به ، فتكون الآية مدنية . قيل : يؤيده ما أورد على كونها مكية . من أن من أسلم بها كانوا مقهورين فلا يمكنهم الانتصار منهم ، والعاجز لا يؤمر بالعفو والصفح ، وأجيب بأن المراد أنه يفعل ذلك بينه وبين الله بقلبه ، ليثاب عليه . مع أن دوام عجز كل أحد منهم غير معلوم . فالصواب أن الآية مكية كالسورة . ومعنى نزولها في عمر - إن صح - صدقها على قضيته ،

والاستشهاد بها لسماحه . كما حققنا المراد من النزول ، غير ما مرة .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي : لكونه افتكّها من العذاب : ﴿ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ أي : أساء عمله بمعصية ربه ، فعلى نفسه جنى ؛ لأنه أوبقها بذلك : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : تصيرون . فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

(214/700)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ أي : التوراة : ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ أي : الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التي تنزل بالكتاب : ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ أي : جعلنا منهم أنبياء ، ورسلاً إلى الخلق : ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني المنّ ، والسلوى : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي : عالمي أهل زمانهم ، بإيتائهم ما لم يؤت غيرهم . كما قال تعالى :

﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ أي : حججاً وبراهين ، وأدلة قاطعات ، تأبى الاختلاف ، ولكن أبوا إلا الاختلاف : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ أي : ظلماً وتعدياً منهم ، لطلب الحظوظ العاجلة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : بالمؤاخذة ، والمجازاة . قال ابن كثير : وهذا فيه تحذير لهذه الأمة ، أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم ؛ ولهذا قال جل وعلا :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ أي : على طريقة ، وسنة ، ومنهاج من أمر الدين ، الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا : ﴿ فَاتَّبِعْهَا ﴾ أي : تلك الشريعة الثابتة بالدلائل ، والحجج : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المشركين ، وما هم عليه من الأهواء التي لا حجة عليها .

(215/700)

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ أي : لن يدفعوا عنك من غضبه ، وعقابه شيئاً ما ﴿ وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ أي : أعوان ، وأنصار على المؤمنين ، وأهل الطاعة ، أو في التخزب والتقوى ، ولكن ماذا تغنيهم ولايتهم لبعضهم ، وقد تخلت عناية الله ونصرته عنهم ؟ : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : من اتقاه بعبادته وحده ، وخشيته بكفايته من بغى عليه ، وكاده بسوء . والأظهر تفسير الآية بآية : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة : 257] .

﴿ هَذَا ﴾ أي : القرآن : ﴿ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ أي : يبصرون به الحق من الباطل ، ويعرفون به سبيل الرشاد . قال الزمخشري : جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع ، بمنزلة البصائر

في القلوب كما جعل روحاً وحياة ، أي : فهو تشبيه بليغ : ﴿ وَهُدًى ﴾ أي : من الضلالة : ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي : من العذاب لمن آمن وأيقن : ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي : يطلبون اليقين : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أي : اكتسبوا سيئات الأعمال : ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : من عدم التفاوت .

قال الزمخشري : والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماتاً ، لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصي ، ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة ، والوصول إلى ثواب الله ورضوانه ، وأولئك على اليأس من رحمة الله ، والوصول إلى هول ما أعدّ لهم . انتهى .

(216/700)

وزد عليه : حيث عاش هؤلاء على الهدى ، والعلم بالله ، وسنن الرشاد ، وطمأنينة القلب ، وأولئك على الضلال ، والجهل ، والعبث بالفساد ، واضطراب القلب ، وضيق الصدر ، بعدم معرفة المخرج المشار إليه بآية : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه : 124] .

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالحكمة والصواب . قال ابن جرير : أي : للعدل والحق ، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله ، من التسوية بين الأبرار والفجار ؛ لأنه خلاف العدل والإنصاف : ﴿ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ قال الزمخشري : معطوف على بالحق ؛ لأن فيه معنى التعليل ، أو على معلل محذوف ، تقديره ، خلق الله السموات والأرض ليدل بها على قدرته ، ولتجزى كل نفس : ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي : في جزاء أعمالهم .

(217/700)

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أي : من ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى ، فكأنه يعبده ، فجعله إلهاً تشبيه بيلغ أو استعارة . قال القاشاني : الإله المعبود ، ولما أطاعوا الهوى فقد عبدوه وجعلوه إلهاً ؛ إذ كل ما يعبده الإنسان بمحبته وطاعته ، فهو إلهه لو كان حجراً ! : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي : عالماً بحاله ، من زوال استعداده ، وانقلاب وجهه ، إلى الجهة السفلية ، أو مع كون ذلك العابد للهوى عالماً بعلم ما يجب عليه فعله في الدين ، على تقدير أن يكون : ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ حالاً من الضمير المفعول في : ﴿ أَضَلَّهُ اللَّهُ ﴾ لا من الفاعل ، وحينئذ يكون الإخلال لمخالفته علمه بالعمل ، وتختلف القدم عن النظر ؛

لتشرب قلبه بمحبة النفس وغلبة الهوى ، أو على علم منه غير نافع ؛ لكونه من باب الفضول ، ليس فيه إلى الحق سلوك ووصول : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ أي : بالطرد من باب الهدى ، والإبعاد عن محل سماع كلام الحق وفهمه ، لمكان الرين ، وغلظ الحجاب ، فلا يعقل منه شيئاً : ﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ أي : عن رؤية حجج الله ، وآياته : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ﴾ أي : فمن يوقفه لإصابة الحق بعد إضلال الله إياه : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ أي : ما الحياة ، أو الحال غير حياتنا هذه التي نحن فيها : ﴿ نَمُوتُ ﴾ أي : بالموت البدني الطبيعي ﴿ وَنَحْيَا ﴾ أي : الحياة الجسمانية الحسية ، لا موت ولا حياة غيرهما : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ أي : مرّ الليالي ، والأيام ، وطول العمر : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي : وما يقولون ذلك عن علم ، ولكن عن ظن ، وتخمين . و : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى نسبة الحوادث إلى الدهر ، أو إلى إنكار البعث ، أو إلى كليهما . قال الزمخشري :

كانوا يزعمون أن مرور الأيام ، والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت ، وقبضه الأرواح بأمر الله ، وكانوا يضيفون كل حادثة وحدث إلى الدهر والزمان , وترى

أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم < لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر > أي : فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر . انتهى .

وقال الخطابي ، معناه أنا صاحب الدهر , ومدبر الأمور التي تنسبونها إلى الدهر . فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور ، عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها . وإنما الدهر زمان جعل ظرفاً لمواقع الأمور . وكان عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا : بؤساً للدهر ، وتباً للدهر . انتهى .

قال ابن كثير : وقد غلط ابن حزم . ومن نحا نحوه من الظاهرية ، في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى ؛ أخذاً من هذا الحديث . انتهى .

تنبيه :

في هذه الآية رد على الدهرية ، وهم المعطلة بأن متمسكهم ظن وتخمين . لم يشم رائحة اليقين . وما هذا سبيله ، فباب القبول في وجهه مسدود : ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس : 36] .

قال الشهرستاني في معطلة العرب : فصنف منهم أنكروا الخالق ، والبعث ، والإعادة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المنفي . وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ . إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي ، وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها .

فالجامع هو الطبع ، والمهلك هو الدهر : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ . فاستدل عليهم بضرورات فكرية ، وآيات فطرية ، في كم آية وسورة فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف : 184] ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : 185] . وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾ [النحل : 48] ، وقال : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة : 21] . فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق . فإنه قادر على الكمال ، إبداءً وإعادةً . انتهى . ولي في الرد على الدهريين ، وهم الماديون والطبيعيون ، كتاب وسمته " دلائل التوحيد " فليرجع إليه المريد ، فليس وراءه ، بحمده تعالى ، من مزيد .

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أي : بأن الله باعث خلقه يوم القيامة : ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : انشروهم أحياء ، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا ، وإطلاق الحجة على ذلك ، إما حقيقة بناء على زعمهم ، فإنهم

ساقوه مساق الحجة ، أو هو مجاز تهكماً بهم . كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . بمعنى أن لا حجة لهم البتة ، وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس .

(220/700)

﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : قل لهم في جواب قولهم : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ : قل الله يحييكم ثم يميتكم ، لا الدهر . لما عرف من وجوب رجوع العالم إلى واجب الوجود ، هو سبب الأسباب ، ومصدر الكائنات ، أو قل لهم - في جواب إنكارهم البعث - : بأن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة ، والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة ، على ما مرّ مراراً .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : فلا مالك غيره ، ولا معبود سواه : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي : الذين أتوا بالباطل في أقوالهم وأفعالهم ، وهم عَبْدة غيره تعالى .

(221/700)

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أي : باركة ، مستوفرة على الركب لاحراك بها . شأن الخائف المنتظر لما يكره وذلك عن السحاب أو في الموقف الأول ، وقت البعث قبل الجزاء : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ أي : اللوح الذي أثبت فيه أعمالهم ، ويعطى بيمين من كان سعيداً ، وشمال من كان شقياً ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ أي : يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان ، وإنما أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه تعالى ، لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ ﴾ أي : نستكتب الملائكة : ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : ما صلح به حالهم في المعاد الجسماني : ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي : في جنته : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : فيقال لهم : ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : بكسب الآثام ، والكفر بالله ، وعدم التصديق بمعاده ، ولا الإيمان بثواب وعقاب .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ أي : أي : شيء هي ؟ أي : لا نستيقن بها : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أي : إنها كائنة وآتية .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أي : قبائح أعمالهم ، أو عقوبات أعمالهم السيئات : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴾ يعني الجزاء : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي : نترككم في العذاب ترك ما يُنسى ، كما تركتم التأهب له . ف : ﴿ نَنْسَاكُمْ ﴾ استعارة أو مجاز مرسل : ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : خدعتكم حتى آثرتموها على الآخرة وزعمتم أن لا حياة سواها : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أي : من النار : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي : يرضوه ، من الإعتاب ، وهو إزالة العتب . كناية عن الإرضاء ، أو : لا هم يردون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة ، فما بعد الموت مستعتب .

(223/700)

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ﴾ أي : الثناء الكامل . قال ابن جرير : أي : فلله الحمد على نعمه ، وأياديه عند خلقه ، فإياه فاحمدوا أيها الناس ، فإن كل ما بكم من نعمة فمنه ، دون ما تعبدون من دونه ، من آلهة ووثن : ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ

الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : الاستعلاء ، ونهاية الرفع والكبر على كل شيء ، وغاية العلو ، والعظمة باستغنائه عنه ، وافتقاره إليه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : القوي القاهر لكل شيء : ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ قال القاشاني : أي : المرتب لاستعداد كل شيء ، بلطف تدبيره ، المهيّء لقبوله ، لما أراد منه من صفاته ، بدقيق صنعته ، وخفي حكمته : ﴿ لا إله إلا هو رب العالمين ﴾ .

وافق الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل ظهر الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة عام 1326 بمنزلنا بدمشق الشام . بقلم جامعه جمال الدين القاسمي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 318. 327 ﴾

(224/700)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ﴾

يذكر الحرفين : " حا . ميم " ويذكر بعدهما تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . وفيهما دلالة على مصدر الكتاب ، كما أسلفنا الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور . من ناحية أن هذا الكتاب المعجز مصوغ من مثل هذه الأحرف ، وهم لا يقدرون على شيء

منه ، فهذه دلالة قائمة على أن تنزيل هذا الكتاب من الله ﴿ العزيز ﴾ القادر الذي لا يعجزه شيء . ﴿ الحكيم ﴾ الذي يخلق كل شيء بقدر ، ويمضي كل أمر بحكمة . وهو تعقيب يناسب جو السورة وما تتعرض له من ألوان النفوس .

وقبل أن يعرض للقوم وموقفهم من هذا الكتاب ؛ يشير إلى آيات الله المبثوثة في الكون من حولهم . وقد كانت وحدها كفيلة بتوجيههم إلى الإيمان . ويوجه قلوبهم إليها لعلها توقظها وتفتح مغاليقها ، وتستجيش فيها الحساسية بالله منزل هذا الكتاب ، وخالق هذا الكون العظيم :

﴿ إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ . .

والآيات المبثوثة في السماوات والأرض لا تقتصر على شيء دون شيء ، ولا حال دون حال . فحيثما مد الإنسان ببصره وجد آيات الله تطالعه في هذا الكون العجيب . .

وأي شيء ليس آية ؟

هذه السماوات بأجرامها الضخمة ، وأفلاكها الهائلة ، وهي على ضخامتها مبعثرة كالنثار الصغير في الفضاء . . الفضاء الهائل الرهيب . . الجميل . . !

ودورة هذه الأجرام في أفلاكها في دقة واطراد وتناسق .

. تناسق جميل لا تشبع العين من النظر إليه ، ولا يشبع القلب من تمليه !

وهذه الأرض الواسعة العريضة بالقياس إلى البشر ، وهي ذرة ، أو هباءة بالقياس إلى

النجوم الكبيرة . ثم بالقياس إلى هذا الفضاء الذي تتوه فيه . . تتوه لولا القدرة التي تمسك بها وتنتظمها في العقد الكوني الذي لا يتوه شيء فيه !

(225/700)

وما أودعه الله طبيعة هذه الأرض في موقعها الكوني الخاص من صلاحية لنشوء الحياة فوقها ، ومن خصائص دقيقة مقصودة متراكبة متجمعة متناسقة . لو اختلت خصيصة واحدة منها أو تخلفت ما أمكن أن تقوم فيها الحياة أو تدوم !

وكل شيء في هذه الأرض وكل حي . . آية . . وكل جزء من كل شيء ومن كل حي في هذه الأرض . . آية . . والصغير الدقيق كالضخم الكبير . . آية . . هذه الورقة الصغيرة في هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة . . آية . . آية في شكلها وحجمها ، آية في لونها وملمسها . آية في وظيفتها وتركيبها . وهذه الشعرة في جسم الحيوان أو الإنسان . . آية . . آية في خصائصها ولونها وحجمها . وهذه الريشة في جناح الطائر . . آية . . آية في مادتها وتنسيقها ووظيفتها . وحيثما مد الإنسان ببصره في الأرض أو في السماء تزاحمت الآيات وتراكبت ، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره .

ولكن ، من الذي يرى هذه الآيات ويستشعرها ؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها ؟ لمن ؟

﴿ للمؤمنين ﴾ . .

فالإيمان هو الذي يفتح القلوب لتلقي الأصداء والأضواء والأنداد ؛ والإحساس بما فيها من آيات الله المبثوثة في الأرض والسماء . والإيمان هو الذي تخالط القلوب بشاشته فتحيا وترق وتلطف ؛ وتلتقط ما يذخر به الكون من إيحاءات خفية وظاهرة ، تشير كلها إلى اليد الصانعة ، وطابعها المميز في كل ما تصوغه وتبدعه من أشياء ومن أحياء . وكل ما خرج من هذه اليد فهو خارق معجز لا يقدر على إبداعه أحد من خلق الله .

ثم ينتقل بهم السياق من آفاق الكون إلى ذوات أنفسهم ؛ وهي أقرب إليهم ، وهم بها أكثر حساسية :

﴿ وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴾ . .

وخلق هذا الإنسان بهذا التكوين العجيب ، وبهذه الخصائص الفريدة ، وبهذه الوظائف اللطيفة الدقيقة المتنوعة الكثيرة . خارقة . خارقة نسيناها لطول تكرارها ، ولقربها منا ! ولكن التركيب العضوي لجارحة واحدة من جوارح هذا الإنسان مسألة تدير الرأس عجباً ودهشة واستهوالاً لهذا التركيب العجيب !

إن الحياة في أبسط صورها معجزة . في الإميبا ذات الخلية الواحدة . وفيما هو أصغر من الإميبا ! فكيف بها في هذا الإنسان الشديد التركيب والتعقيد ؟ وهو في تركيبه النفسي أشد تركباً وتعقداً من تركيبه العضوي !

وحوله تلك الخلائق التي تدب على الأرض أنواعاً وأجناساً ، وأشكالاً وأحجاماً ، لا يحصيها إلا الله . وأصغرها كأكبرها معجز في خلقه . معجز في تصريفه . معجز في تناسب حيواته على هذه الأرض ، بحيث لا يزيد جنس عن حدود معينة ، تحفظ وجوده وامتداده ، وتمنع طغيانه على الأجناس طغيان إبادة وإفناء .

واليد الممسكة بزمام الأنواع والأجناس تزيد فيها وتنقص بحكمة وتقدير ؛ وتركب في كل منها من الخصائص والقوى والوظائف ما يحفظ التوازن بينها جميعاً . .

النسور جارحة ضارية وعمرها مديد . ولكنها في مقابل هذا نزرة قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرازير . . ولنا أن نتصور كيف كان الأمر يكون لو كان للنسور نسل العصافير ؟ وكيف كانت تقضي على جميع الطيور !

والأسود كذلك في عالم الحيوان كاسرة ضارية . فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاء ؟ إنها ما كانت تبقي على لحم في الغابة ولا غذاء . . ولكن اليد التي تمسك بالزمام تجعل نسلها محدوداً بالقدر المطلوب ! وتكثر من ذوات اللحوم من الظباء والشاء وما إليها لسبب معلوم .

والذبابة الواحدة تبيض في الدورة الواحدة مئات الألوف . . وفي مقابل هذا لا تعيش إلا حوالي أسبوعين اثنين . فكيف لو أفلت الزمام فعاشت الذبابة الواحدة أشهراً أو سنين ؟ لكان الذباب يغطي الأجسام ويأكل العيون ؟ ولكن اليد المدبرة هناك تضبط الأمور وفق تقدير محسوب فيه حساب كل الحاجات والأحوال والظروف .

وهكذا وهكذا . في الخلق ذاته . وفي خصائصه . وفي تدبيره وتقديره . في عالم الناس ، وعالم الدواب . . في هذا كله آيات . آيات ناطقة . ولكن لمن ؟ من الذي يراها ويتدبرها ويدركها ؟

﴿ لقوم يوقنون ﴾ . .

(227/700)

واليقين هو الحالة المهيئة للقلوب كي تحس ، وكي تتأثر ، وكي تنيب . . اليقين الذي يدع القلوب تقر وتثبت وتطمئن ؛ وتتلقى حقائق الكون في هدوء ويسر وثقة ، وفي راحة من القلق والحيرة والزعزعة . فتصوغ من أقل ما تحصل ، أكبر النتائج وأعظم الآثار في هذا الوجود .

ثم ينتقل بهم من ذوات أنفسهم وحركة الأحياء حولهم ، إلى الظواهر الكونية ، وما ينشأ

عنها من أسباب الحياة لهم وللأحياء جميعاً :

﴿ واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، آيات لقوم يعقلون ﴾ . .

واختلاف الليل والنهار ظاهرتان قد يُخلق جدتهما في نفوس البشر التكرار ! ولكن آية عجيبة تطالع الحس البشري وهو يواجه الليل أول مرة أو يواجه النهار ؟ إن القلب الشاعر المتفتح يرى هذه العجيبة دائماً ، وينتفض لها دائماً ؛ ويرى يد الله التي تدير الكون كله كلما رأى الليل والنهار .

وتنمو معارف البشر ، ويتسع علمهم عن بعض الظواهر الكونية ، ويعرفون أن الليل والنهار ظاهرتان تنشآن عن دورة الأرض حول محورها أمام الشمس مرة في كل أربع وعشرين ساعة . ولكن العجيبة لا تنقص شيئاً بهذه المعرفة . فإن دورة الأرض هذه عجيبة أخرى . دورة هذا الجرم حول نفسه بهذه السرعة المنتظمة ، وهو عائم في الهواء ، سابح في الفضاء ، غير مستند إلى شيء إلا إلى القدرة التي تمسك به وتديره كما شاءت بهذا النظام الذي لا يتخلف ، وبهذا القدر الذي يسمح للأحياء والأشياء أن تظل على سطح هذا الكوكب السابح السارح الدائر في الفضاء !

ويتوسع البشر في علمهم فيدركون أهمية هاتين الظاهرتين على سطح الأرض بالقياس إلى الحياة والأحياء ؛ ويعرفون أن تقسيم الأوقات بين الليل والنهار بهذه النسبة على سطح هذا الكوكب عامل رئيسي لوجود الحياة وبقاء الأحياء ؛ وأنه لو لم توجد هاتان الظاهرتان بهذا القدر وعلى هذا النظام لتغير كل شيء على هذه الأرض ، وبخاصة تلك الحياة الإنسانية التي تخص المخاطبين .

من الأحياء ! ومن ثم تزداد هاتان الظاهرتان أهمية في الحس البشري ولا تنقصان !

﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ . .

والرزق قد يكون المقصود به هو الماء النازل من السماء . كما فهم منه القدماء . ولكن رزق السماء أوسع . فهذه الأشعة التي تنزل من السماء ليست أقل أثراً في إحياء الأرض من الماء . بل إنها لهي التي ينشأ عنها الماء بإذن الله . فحرارة الشمس هي التي تبخر الماء من البحار فتتكاثف وتنزل أمطاراً ، وتجري عيوناً وأنهاراً ؛ وتحيا بها الأرض بعد موتها . تحيا بالماء وتحيا بالحرارة والضياء سواء !

﴿ وتصريف الرياح ﴾ . .

وهي تمضي شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، منحرفة ومستقيمة ، دافئة وباردة ، وفق النظام الدقيق المنسوق المقصود في تصميم هذا الكون العجيب ؛ وحساب كل شيء فيه

حساباً دقيقاً لا يترك شيئاً للمصادفة العمياء . . ولتصريف الرياح علاقة معروفة بدورة الأرض ، وبظاهرتي الليل والنهار ، وبالرزق الذي ينزل من السماء . وكلها تتعاون في تحقيق مشيئة الله في خلق هذا الكون ، وتصريفه كما أراد . وفيها ﴿ آيات ﴾ معروضة في الكون . ولكن لمن ؟

﴿ لقوم يعقلون ﴾ . .

فللعقل هنا عمل ، وله في هذا الميدان مجال .

(229/700)

هذه بعض آيات الله الكونية ، يشير إليها هذه الإشارات الموحية للمؤمنين . الذين يوقنون والذين يعقلون . يشير إليها بآيات الله القرآنية ، فتلمس القلوب ، وتوقظ العقول ، وتخاطب الفطر بلغتها المباشرة ، بما بينها وبين هذا الكون من صلة عميقة باطنة ، لا يحتاج إيقاظها إلا إلى كلمات موحية كآيات هذا القرآن . فمن لم يؤمن بهذه الآيات فلا رجاء في أن يؤمن بسواها ؛ ومن لم توقظه هذه الإشارات الموحية فلن توقظه الصرخات من غير هذا الصوت المستجاب :

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ﴾ . .

إن أي كلام لن يبلغ كلام الله في القرآن . وإن أي إبداع لن يبلغ إبداع الله في الكون . وإن أية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله في الثبوت والوضوح واليقين . ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ﴾ . .

وهنا لا يليق بمن لا يؤمن إلا التهديد والتنكيل :

﴿ ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها . فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ، ولهم عذاب عظيم ﴾ .

.

وتصور هذه الآيات كما أسلفنا في تقديم السورة جانباً من استقبال المشركين لهذه الدعوة في مكة ، وإصرارهم على باطلهم ، واستكبارهم عن سماع كلمة الحق البين ، ومكابرتهم في هذا الحق كأنه لم يطرق أذهانهم ، وسوء أدبهم مع الله وكلامه . . ومقابلة القرآن لهذا كله بالترذيل والتقبيح والتهديد والوعيد ، والتلويح بالعذاب الأليم المهين العظيم .

﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ . .

والويل الهلاك . والأفاك الكذاب المارد على الكذب . والأثيم الكثير المقارفة للإثم .

والتهديد شامل لكل من هذه صفته . وهو تهديد صادر من الله القوي القاهر الجبار ،

القادر على الهلاك والدمار . الصادق الوعد والوعيد والإنذار . فهو تهديد رعيب مفزع مرهوب .

(230/700)

هذا الأفاك الأثيم . آية إفكه وعلامة إثمه ، أنه يصر على الباطل ويستكبر على الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله :

﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ﴾ . .

وهذه الصورة البغيضة ولو أنها صورة فريق من المشركين في مكة ، إلا أنها تتكرر في كل جاهلية ، وتتكرر اليوم وغداً . فكم في الأرض ، وبين من يقال إنهم مسلمون ، من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ؛ لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير مع مألوفه ، ولا تعاونه على باطله ، ولا تقره على شره ، ولا تتمشى له مع اتجاه !

﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ . .

والبشارة للخير . فهي هنا للسخرية . فإذا كان لا يسمع النذير ، فليأته الويل المنظور ، في صوت البشير ! زيادة في السخرية والتحقير !

﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ﴾ . .

بعد أن يعلمها ويعرف مصدرها . وهذه أشد وأنكى . وهي صورة كذلك مكرورة في الجاهليات الأولى والأخيرة . وكم من الناس . وبين من يقال إنهم مسلمون . من يستهزئ بآيات الله التي يعلمها ، ويتخذها مادة للسخرية منها وممن يؤمنون بها ؛ ومن يريدون أن يرجعوا أمر الناس والحياة إليها .

﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ . .

فالمهانة هي الجزاء المناسب لمن يستهزئ بآيات الله وهو يعلمها .

وهو عذاب حاضر قريب ؛ وإن كان موعده آتياً بعد حين . ولكنه في حقيقته قائم موجود :

﴿ من ورائهم جهنم ﴾ . .

ولفظ ﴿ من ورائهم ﴾ مقصودة ظلاله فوق معناه . وظلاله . . أنهم لا يرونه لأنه من ورائهم ولا يتقونه لأنهم في غفلة عنه ؛ ولا يفوتهم فهم سيقعون فيه !

﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ . .

فليس شيء مما عملوا أو ملكوا بنافعهم شيئاً ، فعملهم ولو صلح هباء لا يقدرون على شيء منه ، وهو قائم على غير أساس من إيمان . وملكهم زائل لا يصاحبهم منه شيء فيه غناء . وأولياؤهم من دون الله آلهة أو أعواناً وجنداً أو خلاناً لا يملكون لهم نصراً ولا شفاعة .

﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ . .

فوق أنه مهين . فجرمهم في الاستهزاء بآيات الله قبيح يقتضي المهانة ، جسيم يقتضي جسامة التعذيب . .

وينتهي هذا المقطع ، الذي ورد فيه ذكر الاستهزاء بآيات الله ، والصد عنها والاستكبار ، بكلمة عن حقيقة هذه الآيات ؛ وجزاء من يكفر بهذه الحقيقة في إجمال :

﴿ هذا . هدى . والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ . .

إن حقيقة هذا القرآن أنه هدى . هدى خالص مصفى . هدى ممحض لا يشوبه ضلال . فالذي يكفر بعد ذلك بالآيات ، وهذه حقيقتها ، يستحق ألم العذاب . الذي يمثله توكيد معنى الشدة والإيلام . فالرجز هو العذاب الشديد . والعذاب الذي يهددون به هو عذاب من رجز أليم . . تكرار بعد تكرار . وتوكيد بعد توكيد . يليق بمن يكفر بالهدى الخالص الممحض الصريح .

وبعد التهديد المخيف ، والوعيد الرعيب ، يعود فيلمس قلوبهم لمساً رفيقاً ، بالتذكير بأنعم

الله التي سخرها لهم في هذا الكون العريض :

﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . .

(232/700)

إن هذا المخلوق الصغير . . الإنسان . . يحظى من رعاية الله سبحانه بالقسط الوافر ، الذي يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة ، وينتفع بها على شتى الوجوه . وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذي يحكمها ، والذي تسير وفقه ولا تعصاه ! ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة ؛ بل ما استطاع أن يعيش معها ؛ وهو هذا القزم الصغير ، وهي هذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام .

والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التي سخرها الله للإنسان ، فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها ؛ عرف منه هذه الفلك التي تمخر هذا الخلق الهائل ، وهي تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها ! ﴿ لتجري الفلك فيه بأمره ﴾ . . فهو سبحانه الذي

خلق البحر بهذه الخصائص ، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص ، وجعل خصائص الضغط الجوي ، وسرعة الرياح وجاذبية الأرض . . وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تجري الفلك في البحر . وهدى الإنسان إلى هذا كله فأمكنه أن ينتفع به ، وأن ينتفع كذلك بالبحر في نواح أخرى : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ كالصيد للطعام وللزينة ، وكذلك التجارة والمعرفة والتجربة والرياضة والنزهة ؛ وسائر ما يبتغيه الحي من فضل الله في البحار .

سخر الله للإنسان البحر والفلك ، ليبتغي من فضل الله ؛ وليتجه إليه بالشكر على التفضل والإنعام ، وعلى التسخير والاهتداء : ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ . . وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق ، وإلى الارتباط بذلك الأفق ، وإلى إدراك ما بينه وبين الكون من وحدة في المصدر ووحدة في الاتجاه .

. إلى الله . .

ومن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول . فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما في السماوات وما في الأرض ، من قوى وطاقات ونعم وخيرات مما يصلح له ويدخل في دائرة خلافته :

﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ . .

فكل شيء في هذا الوجود منه وإليه ؛ وهو منشئه ومدبره ؛ وهو مسخره أو مسلطه .

وهذا المخلوق الصغير . . الإنسان . . مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية . يسخر به قوى في هذا الكون وطاقات تفوق قوته وطاقته بما لا يقاس ! وكل ذلك من فضل الله عليه . وفي كل ذلك آيات لمن يفكر ويتدبر ؛ ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليد الصانعة المدبرة المصرفة لهذه القوى والطاقات :

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . .

والفكر لا يكون صحيحاً وعميقاً وشاملاً ، إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التي يكشف سرها ، إلى مصدر هذه القوى والطاقات ؛ وإلى النواميس التي تحكمها ؛ وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة الإنسان . هذه الصلة التي تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها . ولولاها ما اتصل ولا أدرك . ولا عرف ولا تمكن ، ولا سخر ولا انتفع بشيء من هذه القوى والطاقات . .

وحين يبلغ سياق السورة إلى هذا المقطع القوي الذي يصل قلب المؤمن بقلب هذا الوجود . ويشعره بمصدر القوة الحقيقي وهو الاهتداء إلى أسرار هذا الوجود . . عند هذا يدعو المؤمنين إلى الترفع والاستعلاء وسعة الأفق ورحابة الصدر في مواجهة الضعاف العاجزين الذين لا تتصل قلوبهم بذلك المصدر الثري الغني . كما يدعوهم إلى شيء من العطف على

هؤلاء المساكين المحجوبين عن الحقائق المنيرة القوية العظيمة ؛ من الذين لا يتطلعون إلى أيام الله ، التي يظهر فيها عظمته وأسراره ونواميسه :

﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون . من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ . .

(234/700)

فهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله . تسامح المغفرة والعفو . وتسامح القوة والاستعلاء . وتسامح الكبر والارتفاع . والواقع أن الذين لا يرجون أيام الله مساكين يستحقون العطف أحياناً بحرمانهم من ذلك النبع الفياض ، الذي يزخر بالنداوة والرحمة والقوة والثراء . نبع الإيمان بالله ، والطمأنينة إليه ، والاحتماء بركنه ، واللجوء إليه في ساعات الكربة والضيق . وحرمانهم كذلك من المعرفة الحقيقية المتصلة بصميم النواميس الكونية وما وراءها من القوى والثروات . والمؤمنون الذين يملكون كنز الإيمان وذخره ، ويتمتعون برحمته وفيضه أولى بالمغفرة لما يبدو من أولئك المحرومين من نزوات وحماقات .

هذا من جانب . ومن الجانب الآخر ، ليترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن

على إحسانه ، والمسيء على إساءته . ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة في سجل الحسنات . ذلك فيما لا يظهر الفساد في الأرض ، ويعتدي على حدود الله وحرماته بطبيعة الحال :

﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ .

.

ويعقب على هذا بفردية التبعة ، وعدالة الجزاء ، وتوكيد الرجوع إلى الله وحده في نهاية المطاف :

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ . .

بذلك يتسع صدر المؤمن ، ويرتفع شعوره ؛ ويحتمل المساءات الفردية والنزوات الحمقاء من المحجوبين المطموسين ، في غير ضعف ، وفي غير ضيق . فهو أكبر وأفسح وأقوى . وهو حامل مشعل الهدى للمحرومين من النور ، وحامل بلسم الشفاء للمحرومين من النبع ، وهو مجزيٌّ بعمله ، لا يصيبه من وزر المسيء شيء . والأمر لله في النهاية ، وإليه المرجع والمآب .

(235/700)

بعد ذلك يتحدث عن القيادة المؤمنة للبشرية ، وتركز هذه القيادة أخيراً في الرسالة الإسلامية ؛ فيشير إلى اختلاف بني إسرائيل في كتابهم ، بعد ما آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة . وانتهاء راية القيادة والحكم إلى صاحب الدعوة الأخيرة . هذا وهو بعد في مكة . والدعوة بعد مطاردة محاصرة . ولكن طبيعتها هي هي منذ نشأتها ، ومهمتها هي مهمتها :

﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً . وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ . .

كانت القيادة قبل الإسلام لبني إسرائيل . كانوا هم أصحاب عقيدة السماء التي اختارها الله لتلك الفترة من التاريخ . ولا بد للبشر من قيادة مستمدة من السماء . فالأرض قيادتها هوى أو جهل أو قصور . والله خالق البشر هو وحده الذي يشرع لهم شريعته مبرأة من الهوى فكلهم عباده ، مبرأة من الجهل والقصور فهو الذي خلقهم وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ . .

فكان فيهم التوراة شريعة الله . وكان فيهم الحكم لإقامة الشريعة . وكان فيهم النبوة بعد رسالة موسى وكتابه للقيام على الشريعة والكتاب . وكثر فيهم الأنبياء وتتابعوا فترة طويلة نسبياً في التاريخ .

﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ . .

فكانت مملكتهم ونبواتهم في الأرض المقدسة ، الطيبة ، الكثيرة الخيرات بين النيل والفرات .

﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ . .

وكان تفضيلهم على أهل زمانهم بطبيعة الحال ؛ وكان مظهر هذا التفضيل الأول اختيارهم للقيادة بشريعة الله ؛ وإيتاءهم الكتاب والحكم والنبوة :

(236/700)

﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ . .

فكان ما أوتوه من الشريعة بينا حاسماً فاصلاً ، لا غموض فيه ولا لبس ولا عوج ولا انحراف ؛ فلم يكن هناك ما يدعو إلى الاختلاف في هذا الشرع البين كما وقع منهم ؛ وما كان هذا عن غموض في الأمر ، ولا كان عن جهل منهم بالصحيح من الحكم :

﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ .

.

إنما كان ذلك عن تحاسد بينهم ، ونزاع وظلم ، مع معرفة الحق والصواب :

﴿ بغياً بينهم ﴾ . .

وبذلك انتهت قيادتهم في الأرض ، وبطل استخلافهم ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله يوم القيامة

:

﴿ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . .

ثم كتب الله الخلافة في الأرض لرسالة جديدة ورسول جديد ، يرد إلى شريعة الله

استقامتها ، وإلى قيادة السماء نصاعتها ؛ ويحكم شريعة الله لا أهواء البشر في هذه القيادة

:

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر ؛ فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ . .

وهكذا يتمحض الأمر . فإما شريعة الله . وإما أهواء الذين لا يعلمون . وليس هنالك من

فرض ثالث ، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة ؛ وما يترك أحد

شريعة الله إلا ليحكم الأهواء فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون !

والله سبحانه يحذر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون ، فهم لا

يغنون عنه من الله شيئاً . وهم يتولون بعضهم بعضاً . وهم لا يملكون أن يضروه شيئاً حين

يتولى بعضهم بعضاً ، لأن الله هو مولاه :

﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض . والله ولي المتقين ﴾ . .

وإن هذه الآية مع التي قبلها لتعين سبيل صاحب الدعوة وتحدده ، وتغني في هذا عن كل قول وعن كل تعليق أو تفصيل :

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين ﴾ . .

(237/700)

إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف ، وما عداها أهواء منبعها الجهل .

وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها ، ويدع الأهواء كلها . وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء . فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة . وهم إلب عليه فبعضهم ولي لبعض . وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له أو جنوحاً عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه . ولكنهم أضعف من أن يؤذوه . والله ولي المتقين . وأين ولاية من ولاية ؟

وأين ضعاف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضاً ؛ من صاحب شريعة يتولاه الله . ولي المتقين ؟

وتعقيباً على هذا البيان الحاسم الجازم ، يتحدث عن اليقين ، وعما في هذا القول وأمثاله في القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل اليقين :

﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ . .

ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة . فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور . وهو بذاته هدى . وهو بذاته رحمة . .

ولكن هذا كله يتوقف على اليقين . يتوقف على الثقة التي لا يخامرها شك ، ولا يخالطها قلق ، ولا تتسرب إليها ريبة .

وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه ، فلا يتلجلج ولا يتعلثم ولا يحيد . وعندئذ يبدو له الطريق واضحاً ، والأفق منيراً ، والغاية محددة ، والنهج مستقيماً ، وعندئذ يصبح هذا القرآن له نوراً وهدى ورحمة بهذا اليقين .

ويعقب على الحديث عن ولاية الظالمين بعضهم لبعض وولاية الله للمتقين ؛ وعن طبيعة هذا القرآن بالقياس إلى المتقين ، وأنه بصائر وهدى ورحمة لأهل اليقين . يعقب على هذا الحديث بالتفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السيئات وحال الذين يعملون الصالحات

وهم مؤمنون . ويستنكر أن يسوى بينهم في الحكم ، وهم مختلفون في ميزان الله . والله قد أقام السماوات والأرض على أساس الحق والعدل ؛ والحق أصيل في تصميم هذا الكون .

(238/700)

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات . سواء محياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون . وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ . .

ويجوز أن يكون الحديث هنا عن أهل الكتاب ، الذين انحرفوا عن كتابهم ، واجترحوا السيئات ، وظلوا يحسبون أنفسهم في صفوف المؤمنين ، ويجعلون أنفسهم أكفاء للمسلمين الذين يعملون الصالحات ، أنداداً لهم في تقدير الله سواء في الحياة أو بعد الممات . أي عند الحساب والجزاء . . كما يجوز أن يكون حديثاً عاماً بقصد بيان قيم العباد في ميزان الله . ورجحان كفة المؤمنين أصحاب العمل الصالح ؛ واستنكار التسوية بين مجترحي السيئات وفاعلي الحسنات ، سواء في الحياة أو في الممات . ومخالفة هذا للقاعدة الثابتة الأصيلة في بناء الوجود كله . قاعدة الحق . الذي يتمثل في بناء الكون ، كما يتمثل في شريعة الله . والذي يقوم به الكون كما تقوم به حياة الناس . والذي يتحقق في التفرقة بين المسيئين

والمصلحين في جميع الأحوال ؛ وفي مجازاة كل نفس بما كسبت من هدى أو ضلال ؛ وفي تحقيق العدل للناس أجمعين : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ . .

ومعنى أصالة الحق في بناء الكون ، وارتباطه بشريعة الله للبشر ، وحكمه عليهم يوم الحساب والجزاء ، معنى يتكرر في القرآن الكريم ، لأنه أصل من أصول هذه العقيدة ، تجتمع عليه مسائلها المتفرقة ، وترجع إليه في الأنفس والآفاق ، وفي ناموس الكون وشريعة البشر . وهو أساس " فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان " .

وإلى جوار هذا الأصل الثابت يشير إلى الهوى المتقلب . الهوى الذي يجعل منه بعضهم إلهاً يتعبده . فيضل ضلالاً لا اهتداء بعده ، والعياذ بالله :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ ﴾ . .

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت ، وتتبع الهوى المتقلب ؛ وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها . وتقيمه إلهاً قاهراً لها ، مستولياً عليها ، تتلقى

إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) ﴾

هذا المقطع الأخير من السورة يعرض مقولة المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب . ويرد عليها من واقع نشأتهم الذي لا مجال لإنكاره ، وهو واقع قريب منهم . ثم يعرض مشهداً من مشاهد القيامة ، يرونه واقعاً بهم وإن كان لم يحن بعد موعده لأن التصوير القرآني يعرضه حياً شاخصاً كأنهم يرونه رأي العين من خلال الكلمات .

ثم تختم السورة بالحمد لله ، الواحد الربوبية في السماوات وفي الأرض ولجميع العالمين في السماوات والأرض ، وتمجيد عظمته وكبريائه المتفردة في السماوات والأرض ، لا ترتفع أمامها هامة ، ولا يتطاول إليها متطاول . . وهو العزيز الحكيم . .

﴿ وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل : الله يحييكم ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

هكذا كانوا ينظرون تلك النظرة القصيرة . الحياة في نظرهم هي هذا الشوط الذي يرونه في الدنيا رأي العين . جيل يموت وجيل يحيا ؛ وفي ظاهر الأمر لا تمتد إليهم يد بالموت ، إنما هي

الأيام تمضي ، والدهر ينطوي ، فإذا هم أموات ؛ فالدهر إذن هو الذي ينهي آجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون !

(240/700)

وهي نظرة سطحية لا تتجاوز المظاهر ، ولا تبحث عما وراءها من أسرار . وإلا فمن أين جاءت إليهم الحياة ؛ وإذا جاءت فمن ذا يذهب بها عنهم ؟ والموت لا ينال الأجسام وفق نظام محدد وعدد من الأيام معين ، حتى يظنوا أن مرور الأيام هو الذي يسلبهم الحياة .

فالأطفال يموتون كالشيوخ والأصحاء يموتون كالمرضى . والأقوياء يموتون كالضعاف . ولا يصلح الدهر إذن تفسيراً للموت عند من ينظر إلى الأمر نظرة فاحصة ، ويحاول أن يعرف ، وأن يدرك حقيقة الأسباب .

لهذا يقول الله عنهم بحق :

﴿ وما لهم بذلك من علم . إن هم إلا يظنون ﴾ :

يظنون ظناً غامضاً واهياً ، لا يقوم على تدبر ، ولا يستند إلى علم ، ولا يدل على إدراك لحقائق الأمور . ولا ينظرون إلى ما وراء ظاهرتي الحياة والموت من سر يشهده بإرادة أخرى غير إرادة الإنسان ، وبسبب آخر غير مرور الأيام .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، ما كان حجتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ . .

وهذه كتلك تدل على نظرة سطحية لا تدرك نواميس الخلق ، وحكمة الله فيها ، وسر الحياة والموت الكامن وراءهما ، المتعلق بتلك الحكمة الإلهية العميقة . فالناس يحيون في هذه الأرض ليعطوا فرصة للعمل وليبتليهم الله فيما مكنهم فيه . ثم يموتون حتى يحين موعد الحساب الذي أجله الله ، فيحاسبوا على ما عملوا ، وتتبين نتيجة الابتلاء في فترة الحياة . ومن ثم فهم لا يعودون إذا ماتوا . فليست هنالك حكمة تقتضي عودتهم قبل اليوم المعلوم . وهم لا يعودون لأن فريقاً من البشر يقترحون هذا . فاقتراحات البشر لا تتغير من أجلها النواميس الكبرى التي قام على أساسها الوجود ! ومن ثم فلا مجال لهذا الاقتراح الساذج الذي كانوا يواجهون به الآيات البينات :

﴿ ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ !

(241/700)

ولماذا يأتي بآبائهم قبل الموعد الذي قدره وفق حكمته العليا ؟ ألكي يقتنعوا بقدرة الله على إحياء الموتى ؟ يا عجباً ! أليس الله ينشئ الحياة أمام أعينهم إنشاء في كل لحظة ، وفق سنة

إنشاء الحياة؟

﴿ قل الله يحييكم ، ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ . .

هذه هي المعجزة التي يريدون أن يشهدوها في آبائهم . ها هي ذي تقع أمام أعينهم . بعينها وبذاتها . والله هو الذي يحيي . ثم هو الذي يميت . فلا عجب إذن في أن يحيي الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، ولا سبب يدعو إلى الريب في هذا الأمر ، الذي يشهدون نظائره فيما بين أيديهم :

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

ويعقب على هذه الحقيقة الماثلة بالأصل الكلي الذي ترجع إليه :

﴿ ولله ملك السماوات والأرض ﴾ . .

فهو المهيمن على كل ما في الملك . وهو صانع كل شيء فيه . وهو القادر على الإنشاء والإعادة لكل ما فيه وكل من فيه .

ثم يعرض عليهم مشهداً من هذا اليوم الذي يشكون فيه :

﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ . .

إنه يعجل لهم في الآية الأولى عاقبة المبطلين . فهم الخاسرون في هذا اليوم الذي يشكون فيه .

ثم ننظر من خلال الكلمات فإذا ساحة العرض الهائلة ، وقد تجمعت فيها الأجيال الحاشدة التي عمرت هذا الكوكب في عمره الطويل القصير ! وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة . في ارتقاب الحساب المرهوب . . وهو مشهد مرهوب بزحامه الهائل يوم تتجمع الأجيال كلها في صعيد واحد . ومرهوب بهيئته والكل جاثون على الركب . ومرهوب بما وراءه من حساب . ومرهوب قبل كل شيء بالوقفة أمام الجبار القاهر ، والمنعم المتفضل ، الذي لم تشكر أنعمه ولم تعرف أفضاله من أكثر هؤلاء الواقفين !

ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق . يقال لها :

﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ . . فيعلمون أن لا شيء سينسى أو يضيع ! وكيف وكل شيء مكتوب . وعلم الله لا يند عنه شيء ولا يغيب ؟ !

ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة ، على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنين . فريقين اثنين

يجمعان كل هذه الحشود : الذين آمنوا . والذين كفروا . فهاتان هما الرايتان الوحيدتان عند

الله وهذان هما الحزبان: حزب الله . وحزب الشيطان . وما عدا هذا من الملل والنحل والأجناس والأمم فإليهما يعود:

(فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات, فيدخلهم ربهم في رحمته . ذلك هو الفوز المبين) . .

وقد استراحوا من طول الارتقاب, ومن القلق والاضطراب . . والنص ينهي أمرهم في سرعة وفي بساطة, ليلقي هذا الظل المستطاب .

ثم نلقي بأبصارنا - من خلال الكلمات - إلى الفريق الآخر . فماذا نحن واجدون ? إنه التأنيب الطويل, والتشهير المخجل, والتذكير بشر الأقوال والأعمال:

(وأما الذين كفروا . أفلم تكن آياتي تتلى عليكم, فاستكبرتم, وكنتم قوماً مجرمين ? وإذا قيل: إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها . قلتم: ما ندري ما الساعة ! إن نظن إلا ظنا, وما نحن بمستيقنين) !

فالآن كيف ترون الحال ? ! وكيف تذوقون اليقين ? !

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون (33)

ويتركهم السياق لحظة ليعلن على الملأ شيئاً مما يقع لهؤلاء المنكوبين:

وبدا لهم سيئات ما عملوا, وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . .

ثم يعود إليهم بالترذيل والتأنيب وإعلان الإهمال والتحقير; والمصير الأليم:

وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا .

ومأواكم النار . وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً , وغرتكم الحياة الدنيا) . .

ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير . وهم متروكون في جهنم لا يخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب:

(فاليوم لا يخرجون منها , ولا هم يستعتبون) . .

وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهي توصد إيصادها الأخير ! وقد انتهى المشهد , فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحوير !

الدرس الثالث: 36 – 37 حمد الله وتسبيحه وملكيته للكون

هنا ينطلق صوت التحميد لله والتمجيد الانطلاقة الأخيرة في السورة بعد هذا المشهد المؤثر العميق:

(فلله الحمد . رب السماوات . ورب الأرض . رب العالمين . وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) . .

ينطلق صوت التحميد . يعلن وحدة الربوبية في هذا الوجود . سمائه وأرضه . وإنسه وجنه . وطيره ووحشه . وسائر ما فيه ومن فيه . فكلهم في رعاية رب واحد يدبرهم

ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير .

وينطلق صوت التمجيد . يعلن الكبرياء المطلقة لله في هذا الوجود . حيث يتصاغر كل كبير . وينحني كل جبار . ويستسلم كل متمرد . للكبرياء المطلقة في هذا الوجود .

ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة . . (وهو العزيز الحكيم) . . والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3221 . 3234 ﴾

(244/700)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ تَنزِيلُ ﴾ :

قد تقدَّم مثلُه أولَ غافر . وقال أبو عبدِ الله الرازيُّ : " العزيزِ الحكيمِ إنْ كانا صفةً لله كان حقيقةً ، وإنْ كانا صفةً للكتاب كان مجازاً " . وقد رَدَّ عليه الشيخ جَعْلَه إياهما صفةً للكتاب قال : " إذ لو كان كذلك لَوَلِيَتِ الصفةُ موصوفَها فكان يُقال : تَنزيلُ الكتابِ العزيزِ الحكيمِ من الله " قال : " لأنَّ " من الله " إنْ تَعَلَّقَ ب " تَنْزيل " وتنزيل خبرٌ لـ حم أو لمبتدأ

محذوفٍ لَزِمَ الفَصْلُ به بين الصفة والموصوف ، ولا يجوزُ ، كما لا يجوزُ " أعجبني ضَرْبُ زيدٍ بسوطٍ الفاضلِ ؛ أو في موضع الخبر ، و " تنزيلُ " مبتدأ ، فلا يجوز الفصْلُ به أيضاً لا يجوز : ضرْبُ زيدٍ شديدٌ الفاضلِ " .

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)

قوله : ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ : فيه وجهان ، أظهرهما : أنه معطوفٌ على " خَلْقِكم " المجرورِ ب " في " والتقديرُ : وفي ما يَبُثُّ . والثاني : أنه معطوفٌ على الضميرِ المخفوضِ بالخَلْق ، وذلك على مذهب مَنْ يرى العطفَ على الضميرِ المجرورِ دونَ إعادةِ الجارّ واستقبحه الزمخشريُّ وإنْ أُكِّد نحو : " مررتُ بك أنت وزيدٍ " يُشير بذلك إلى مذهب الجرميّ فإنَّه يقول : إن أُكِّد جازَ ، وإلاَّ فلا ، فقولُه مذهبٌ ثالثٌ .

(245/700)

قوله : ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ و ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ قرأ " آياتٍ " بالكسر في الموضعَيْن الأخوَان ، والباقون برفعهما . ولا خلافَ في كسرِ الأولى لأنها اسمُ " إنَّ " . فأمَّا ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ بالكسر فيجوزُ فيها وجهان ، أحدهما : أنها معطوفةٌ على اسم "

إنَّ " ، والخبرُ قولُه : " وفي خَلْقِكم " . كأنه قيل : وإنَّ في خَلْقِكم وما يَبُثُّ مِنْ دابة آياتٍ .

والثاني : أَنْ تكونَ كُرِّرَتْ تأكيداً لآيات الأُولى ، ويكونُ " في خَلْقكم " معطوفاً على " في السماوات " كُرِّر معه حرفُ الجَرِّ توكيداً . ونظيرُه أَنْ تقولَ : " إنَّ في بيتك زيداً وفي السوق زيداً " فزيداً الثاني تأكيدٌ للأول ، كأنك قلت : إنَّ زيداً زيداً في بيتك وفي السوق وليس في هذه عطفٌ على معمولَيْ عاملَيْن البتةَ .

وقد وَهِم أبو البقاء فجعلها مِنْ ذلك فقال : ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يُقرأ بكسر التاءِ ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنَّ " إنَّ " مضمرةٌ حُذِفَتْ لدلالة " إنَّ " الأُولى عليها ، وليسَتْ " آيات " معطوفةً على " آيات " الأولى لما فيه من العطفِ على معمولَيْ عاملَيْن . والثاني : أَنْ تكونَ كُرِّرَتْ للتأكيد لأنها مِنْ لفظ " آيات " الأُوْلى ، وإعرابُها كقولِك : " إن بثوبك دماً وبثوبِ زيد دماً " ف " دم " الثاني مكررٌ ؛ لأَنَّك مُسْتغنٍ عن ذِكْرِه " انتهى .

فقوله : " وليسَتْ معطوفةً على آياتِ الأولى لما فيه من العطفِ على عامِلَيْن " وَهَمٌ ؛ أين معمولُ العاملِ الآخر ؟ وكأنه توهَّمَ أنَّ " في " ساقطةٌ مِنْ قولِه : " وفي خَلْقِكم " أو اختلطَتْ عليه ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ بهذه ؛ لأنَّ تَيْكَ فيها ما يُوْهِمُ العطفَ على عامِلَيْن وقد ذكره هو أيضاً .

وأمَّا الرفعُ فمِنْ وجهَيْن أيضاً ، أحدهما : أَنْ يكونَ " في خَلْقِكم " خبراً مقدَّماً ، و " آياتٌ " مبتدأً مؤخراً ، وهي جملةٌ معطوفةٌ على جملة مؤكدةٍ . ب " إنَّ " . والثاني : أَنْ تكون معطوفةً على " آيات " الأولى باعتبار المحلِّ عند مَنْ يُجيزُ ذلك ، لا سيما عند مَنْ يقولُ : إنه يجوز ذلك بعد الخبرِ بإجماعٍ .

وأمَّا قولُه : ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ الآية فقد عَرَفْتَ أنَّ الأخَوَيْن يقرآن " آيات " بالكسرِ ، وهي تحتاج إلى إيضاحٍ ، فإن الناسَ قد تكلَّموا فيها كلاماً كثيراً ، وخرَّجوها على أوجهٍ مختلفةٍ ، وبها استدلَّ على جوازِ العطفِ على عاملين .

قلت : والعطفُ على عامِلَيْن لا يختصُّ بقراءةِ الأخوَيْن بل يجوز أَنْ يُسْتَدَلَّ عليه أيضاً بقراءة الباقين ، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى . فأما قراءةُ الأخوين ففيها أوجهٌ ، أحدُها : أن يكونَ " اختلافِ الليلِ " مجروراً ب " في " مضمرةً ، وإنما حُذِفَتْ لتقدُّم ذكرِها مَرَّتَيْنِ ، وحرفُ الجرِّ إذا دَلَّ عليه دليلٌ / جاز حَذْفُه وإبقاءُ عملِه . وأنشَدَ سيبويه :

4023 الآن قَرَّبْتَ تَهْجُونا وتَشْتِمُنا . . . فاذهَبْ فما بك والأيامِ من عَجَبِ

تقديرُه : وبالأيام لتقدُّم الباءِ في " بك " ولا يجوزُ عَطْفُه على الكاف لأنه ليس مِنْ مذهبه – كما عَرَفْتَ – العطفُ على الضميرِ المجرورِ دونَ إعادةِ الجارِّ ، فالتقديرُ في هذه الآيةِ : " وفي اختلافِ آيات " ف " آيات " على ما تقدَّم من الوجهين في " آيات " قبلَها : العطفِ أو التأكيدِ

. قالوا : ويَدُلُّ على ذلك قراءةُ عبد الله " وفي اختلافِ " تصريحاً ب " في " . فهذان وجهان .

(247/700)

الثالث : أَنْ يُعْطَفَ " اختلافِ " على المجرورِ ب " في " وآياتٍ على المنصوبِ ب " إنَّ " . وهذا هو العطفُ على عاملَيْنِ ، وتحقيقُه على معمولَيْ عاملين : وذلك أَنَّك عَطَفْتَ " اختلاف " على خَلْق وهو مجرورٌ ب " في " فهو معمولُ عاملٍ ، وعَطَفْتَ " آياتٍ " على اسمِ " إنَّ " وهو معمولُ عاملٍ آخرَ ، فقد عَطَفْتَ بحرفٍ واحدٍ وهو الواوُ معمولين وهما " اختلاف " و " آيات " على معمولَيْن قبلَهما وهما : خَلْق وآيات . وبظاهرِها استدلَّ مَنْ جَوَّز ذلك كالأخفشِ . وفي المسألة أربعةُ مذاهب : المَنْعُ مطلقاً ، وهو مذهبُ سيبويه وجمهورِ البصريين . قالوا : لأنه يُؤَدّي إلى إقامة حرفِ العطفِ مقامَ عاملين وهو لا يجوزُ ؛ لأنه لو جاز في عامِلَيْن لجازَ في ثلاثةٍ ، ولا قائل به ، ولأنَّ حرفَ العطفِ ضعيفٌ فلا يَقْوَى أَنْ ينوبَ عن عاملَيْنِ ولأنَّ القائلَ بجوازِ ذلك يَسْتَضْعِفُه ، والأحسنُ عنده أن لا يجوزَ ، فلا ينبغي أَنْ يُحْمَلَ عليه كتابُ اللهِ ، ولأنه بمنزلةِ التعديتَيْنِ بمُعَدٍّ واحد ، وهو غيرُ جائزٍ . قال ابن السراج : " العطفُ على عاملَيْن خطأٌ في القياسِ ، غيرُ مَسْموع من العرب " ثم حَمَل

ما في هذه الآيةِ على التكرارِ للتأكيد . قال الرمَّاني : " هو كقولِك : " إنَّ في الدارِ زيداً والبيتِ زيداً " فهذا جائزٌ بإجماعٍ فتدبَّرْ هذا الوجهَ الذي ذكره ابنُ السراجِ فإنه حسنٌ جداً ، لا يجوز أَنْ يُحْمَلَ كتابُ اللهِ إلاَّ عليه . وقد بَيَّنْتُ القراءةَ بالكسرِ ولا عيبَ فيها في القرآن على وجهٍ ، والعطفُ على عاملَيْن عيبٌ عند مَنْ أجازه ومَنْ لم يُجِزْه ، فقد تناهى في العيب ، فلا يجوزُ حَمْلُ هذه الآيةِ إلاَّ على ما ذكره ابنُ السَّراج دون ما ذهبَ إليه غيرُه " .

(248/700)

قلت : وهذا الحَصْرُ منه غيرُ مُسَلَّمٍ فإنَّ في الآيةِ تخريجاتٍ أُخَرَ غيرَ ما ذكره ابن السراج يجوزُ الحَمْلُ عليها . وقال الزجاج : " ومثلُه في الشعر :

4024 أكلَّ امرئٍ تَحْسَبين امْرَأً . . . ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا

وأنشد الفارسيُّ للفرزدق :

4025 وباشَرَ راعيها الصَّلا بلَبانِه . . . وجَنْبَيْه حَرَّ النارِ ما يتحرَّق

وقول الآخر :

4026 أَوْصَيْتُ مِنْ رُبْدَةَ قَلْباً حُرَّاً . . . بالكلبِ خيراً والحَماةِ شَرا

قلت : أمَّا البيتُ الأولُ فظاهرُه أنه عَطَفَ و " نارٍ " على " امرئ " المخفوض ب " كل " و "

ناراً " الثانية على " امرأ " الثاني . والتقدير : وتحسبين كلَّ نارٍ ناراً ، فقد عطف على معمولَيْ عاملَيْن . والبيتُ الثاني عَطَفَ فيه " جَنْبَيْه " على " بلبانه " وعَطَفَ " حَرَّ النارِ " على " الصلا " ، والتقدير : وباشر بجَنْبَيْه حرَّ النار ، والبيتُ الثالث عَطَفَ فيه " الحَماة " على " الكلب " و " شَرًّا " على " خيراً " ، تقديرُه وأَوْصَيْتُ بالحَماة شراً . وسيبويه في جميع ذلك يرى الجرَّ بخافضٍ مقدرٍ لكنه عُورض : بأنَّ إعمال حرفِ الجرّ مضمراً ضعيفٌ جداً ، ألا ترى أنَّه لا يجوزُ " مررتُ زيدٍ " بخفضِ " زيد " إلاَّ في ضرورةٍ كقوله :

4027 إذا قيلَ أيُّ الناسِ شرُّ قبيلةٍ . . . أشارَتْ كليبٍ بالأكفِّ الأصابعُ

يريد : إلى كليب ، وقولِ الآخر :

4028- . . . . . حتى تَبَذَّخَ

فارتقى الأعلامِ

أي إلى الأعلام ، فقد فَرَّ مِنْ شيءٍ فوقَع في أضعفَ منه . وأُجيب عن ذلك : بأنه لَمَّا تَقَدَّم ذِكْرُ الحرف في اللفظِ قَوِيَتِ الدلالةُ عليه ، فكأنَّه ملفوظٌ به بخلافِ ما أَوْرَدْتموه في المثالِ والشعر .

والمذهب الثاني : التفصيلُ – وهو مذهب الأخفش – وذلك أنَّه يجوز بشرطَيْن ، أحدُهما : أَنْ يكونَ أحدُ العاملَيْن جارًّا . والثاني : أن يتصلَ المعطوفُ بالعاطفِ أو يُفْصَلَ بلا ، مثالُ الأولِ الآيةُ الكريمةُ والأبياتُ التي قَدَّمْتُها . ولذلك استصوب المبردُ استشهادَه بالآيةِ . ومثالُ الفَصْل ب لا قولك : " ما في الدارِ زيدٌ ولا الحجرةِ عمروٌ " ، فلو فُقِدَ الشرطان نحو : إنَّ/ زيداً شَتَمَ بِشْراً ، ووالله خالداً هنداً ، أو فُقِدَ أحدُهما نحو : إنَّ زيداً ضربَ بَكْراً ، وخالداً بشراً . فقد نَقَلَ ابنُ مالكٍ الامتناعَ عند الجميعِ . وفيه نظرٌ لما سَتَعْرِفُه من الخلافِ .

الثالث : أَنَّه يجوزُ بشرطِ أَنْ يكونَ أحدُ العامِلَيْنِ جارًّا ، وأَنْ يكونَ متقدماً ، نحوَ الآيةِ الكريمةِ ، فلو لم يتقدَّمْ نحوَ : " إنَّ زيداً في الدار ، وعمراً السوقِ " لم يَجُزْ ، وكذا لو لم يكنْ حرفَ جرٍّ كما تقدَّمَ تمثيلُه .

الرابع : الجوازُ ، ويُعْزَى للفرَّاء .

الوجهُ الرابعِ من أوجهِ تخريجِ القراءةِ المذكورة : أَنْ تنتصِبَ " آيات " على الاختصاصِ . قاله الزمخشريُّ ، وسيأتي فيما أَحْكيه عنه .

وأمَّا قراءةُ الرفعِ ففيها أوجهٌ، أحدُها: أَنْ يكونَ الأولُ والثاني ما تقدَّم في ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. الثالث: أَنْ تكونَ تأكيداً لآيات التي قبلها، كما كانَتْ كذلك في قراءةِ النصبِ. الرابع: أَنْ تكونَ المسألةُ من بابِ العطفِ على عامِلَيْن؛ وذلك أنَّ "اختلافِ" عطفٌ على "خَلْقِكم" وهو معمولٌ لـ "في" و "آيات" معطوفةٌ على "آيات" قبلَها، وهي معمولةٌ للابتداءِ فقد عَطَفَ على معمولَيْ عامِلَيْنِ في هذه القراءةِ أيضاً. قال الزمخشري: "قُرِئَ ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ بالرفع والنصبِ على قولِك: "إنَّ زيداً في الدار وعمراً في السوقِ، أو وعمروٌ في السوق". وأمَّا قولُه: ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فمن العطفِ على عامِلَيْنِ سواءٌ نَصَبْتَ أم رَفَعْتَ فالعاملان في النصبِ هما: "إنَّ"، و "في" أُقيمت الواوُ مُقامَهما فعَمِلَتْ الجرَّ في و ﴿ واختلاف اليل والنهار ﴾ والنصبَ في "آياتٍ". وإذا رَفَعْتَ فالعاملانِ: الابتداءُ، و "في" عملت الرفع في "آيات" والجرَّ في "اختلاف"". ثم قال في توجيهِ النصبِ: "والثاني أَنْ ينتصِبَ على الاختصاصِ بعد انقضاءِ المجرور".

الوجهُ الخامسُ أَنْ يرتفعَ "آياتٌ" على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ أي: هي آياتٌ. وناقَشَه الشيخُ فقال: "ونسبةُ الجرِّ والرفعِ، والجرِّ والنصبِ للواوِ ليس بصحيحٍ؛ لأنَّ الصحيحَ من المذاهبِ أنَّ حرفَ العطفِ لا يعملُ" قلت: وقد ناقشه الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ أيضاً فقال: "فمنهم مَنْ يقولُ: هو على هذه القراءةِ أيضاً - يعني قراءةَ الرفعِ - عطفٌ على

عاملَيْنِ وهما حرفُ "في" ، والابتداءُ المقتضي للرفعِ . ومنهم مَنْ لا يُطْلِقُ هذه العبارةَ في هذه القراءةِ ؛ لأنَّ الابتداءَ ليس بعاملٍ لفظي " .

(251/700)

وقُرِئ "واختلافُ" بالرفعِ "آيةٌ" بالرفعِ والتوحيدِ على الابتداء والخبر ، وكذلك قُرِئ ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَةٌ ﴾ بالتوحيد . وقرأ زيد بن علي وطلحة وعيسى "وتصريف الريح" كذا قال الشيخ . قلت وقد قرأ بهذه القراءةِ حمزةُ والكسائيُّ أيضاً ، وقد تقدَّم ذلك في سورةِ البقرة .

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)

قوله : ﴿ نَتْلُوهَا ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ خبراً ل "تلك" و "آيات الله" بدلٌ أو عطفُ بيانٍ . ويجوز أَنْ تكونَ "تلك آيات" مبتدأً أو خبراً ، و "نَتْلُوها" حالٌ . قال الزمخشري : " والعاملُ ما دَلَّ عليه "تلك" مِنْ معنى الإشارةِ ونحوُه : ﴿ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ [هود : 72] . قال الشيخ : "وليس نحوَه ؛ لأنَّ في ﴿ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ [هود : 72] حرفَ تنبيه . وقيل : العاملُ في الحالِ ما دَل عليه حرفُ التنبيهِ أي : تَنَبَّهْ . وأمَّا "تلك" فليس فيها حرفُ تنبيهٍ ؛ فإذا كان حرفُ التنبيهِ عاملاً بما فيه مِنْ معنى التنبيهِ ، لأنَّ الحرفَ

قد يَعْمَلُ في الحال ، فالمعنى : تَنَبَّه لزيدٍ في حال شيخِه أو في حال قيامِه . وقيل : العاملُ في مثل هذا التركيبِ فعلٌ محذوفٌ يَدُلُّ عليه المعنى ، أي : انظرْ إليه في حالِ شيخه ، ولا يكون اسمُ الإِشارةِ عاملاً ولا حرفُ التنبيهِ إنْ كان هناك .

(252/700)

قلت : بل الآيةُ نحوَ ﴿ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ [هود : 72] من حيثيةِ نسبةِ العملِ لاسمِ الإِشارةِ . غايةُ ما ثَمَّ أنَّ في الآيةِ الأخرى ما يَصْلُحُ أَنْ يكونَ عاملاً ، وهذا لا يَقْدَحُ في التنظيرِ إذا قَصَدْتَ جهةً مشتركةً . وأمَّا إضمارُ الفعلِ فهو مشتركٌ في الموضعَيْن عند مَنْ يَرَى ذلك . قال ابنُ عطيَة : " وفي " نتْلوها " حَذْفُ مضافٍ أي : نَتْلُوْ شَأْنَها وشَرْحَ العِبْرَةِ فيها . ويُحتمل أَنْ يريدَ بآيات الله القرآنَ المنزَّلَ في هذا المعنى ، فلا يكونُ فيها حَذْفُ مضافٍ " / وقرأ بعضُهم "يَتْلوها " بياءِ الغَيْبةِ عائداً على الباري تعالى . و " بالحَقّ " حالٌ من الفاعل أي : مُلْتَبِسِينَ بالحق ، و من المفعولِ أي : مُلْتَبسةً بالحقِّ . ويجوز أَنْ تكونَ للسببيَّةِ فتتعلَّقَ بنفس " نَتْلوها " .

قوله : ﴿ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ ﴾ . قال الزمخشريُّ : " أي : بعد آياتِ اللَّهِ فهو كقولِكَ : أَعْجبني زيدٌ وكرمُه تريدُ كرمَ زيدٍ " . وردَّ عليه الشيخُ : بأنَّه ليس مُراداً ، بل المرادُ إعجابان ، وبأنَّ

فيه إقحامَ الأسماءِ مِنْ غيرِ ضرورة . قال : " وهذا قَلْبٌ لحقائقِ النحو " .

وقرأ الحرميَّان وأبو عمرو وعاصمٌ في روايةٍ "يُؤْمنون " بياء الغيبة . والباقون بتاءِ الخطاب . وقوله : " فبأيِّ " متعلِّقٌ به ، قُدِّم لأنَّ له صدرَ الكلامِ .

يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8)

قوله : ﴿ يَسْمَعُ ﴾ : يجوز فيه أَنْ يكونَ مستأنفاً أي : هو يَسْمَعُ ، أو دونَ إضمارِ " هو " ، وأَنْ يكونَ حالاً من الضمير في " أثيم " وأَنْ يكونَ صفةً .

(253/700)

قوله : " تُتْلَى عليه " حالٌ مِنْ " آياتِ الله " ولا يَجيءُ فيه الخلافُ : وهو أنه يجوز أَنْ يكونَ في محلِّ نصبٍ مفعولاً ثانياً ؛ لأنَّ شرطَ ذلك أَنْ يقعَ بعدها ما لا يُسْمَعُ نحو : " سمعت زيداً يقرأ " . أمَّا إذا وقع بعدها ما يُسْمَعُ نحو : " سمعتُ قراءةَ زيدٍ يترنَّم بها " فهي متعدية لواحدٍ فقط ، والآياتُ مِمَّا يُسْمَعُ .

قوله : " ثم يُصِرُّ " قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما معنى " ثم " في قوله : ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ﴾ ؟ قلت : كمعناه في قولِ القائل :

4029 . . . . . يرى غَمَراتِ

الموتِ ثم يزورُها

وذلك أنَّ غمراتِ الموتِ حقيقةٌ بأَنْ ينجوَ رائيها بنفسِه ويطلبَ الفِرارَ منها ، وأمَّا زَوْراتُها والإِقدامُ على مزاوَلَتِها فأمرٌ مُسْتَبْعَدٌ . فمعنى " ثم " الإِيذانُ بأنَّ فِعْلَ المُقْدِمِ عليها بعدما رآها وعاينها شيءٌ يُسْتَبْعَدُ في العاداتِ والطباعِ ، وكذلك آياتُ اللَّهِ الواضحةُ الناطقةُ بالحق . فَمَنْ تُلِيَتْ عليه وسَمِعها كان مُسْتَبْعَداً في القول إصرارُه على الضلالةِ عندها واستكبارُه عن الإِيمان بها " .

قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ هذه الجملةُ يجوزُ أَنْ تكون مستأنفةً ، وأَنْ تكونَ حالاً .

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (9)

قوله : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ ﴾ : العامَّةُ على فتح العينِ وكسرِ اللامِ خفيفةً مبنياً للفاعلِ . وقتادة ومطر الوراق " عُلِّم " مبنياً للمفعول مشدَّداً .

قوله : " اتَّخَذَها " الضميرُ المؤنث فيه وجهان ، أحدهما : أنه عائد على " آياتِنا " . والثاني : أنه يعودُ على " شيئاً " وإنْ كان مذكراً ؛ لأنه بمعنى الآية كقول أبي العتاهية :

4030 نفْسي بشيءٍ من الدنيا مُعَلَّقَةٌ . . . اللَّهُ والقائمُ المهدِيُّ يَقْضِيها

لأنه أراد ب " شيء " جارية يقال لها : عُتْبَة .

قوله : " أولئك " إشارةٌ إلى معنى " كلّ أَفَّاكٍ " حُمِل أولاً على لفظها فأُفْرِدَ ، ثم على معناها فَجُمِعَ كقوله : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : 53] .

قوله : ﴿ وَلاَ مَا اتخذوا ﴾ عطف على " ما كَسَبوا " ، و " ما " فيهما : إمَّا مصدريةٌ أو بمعنى الذي أي : لا يُغْني كَسْبُهُمْ ولا اتّخاذُهم ، أو الذي كَسَبُوه ولا الذي اتَّخذوه .

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

وقوله : ﴿ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ : قد ذُكِر في سبأ .

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13)

(255/700)

قوله : ﴿ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ : " جميعاً " حالٌ مِنْ ﴿ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ أو توكيدٌ . وقد عدَّها ابنُ مالكٍ في ألفاظِه . و " منه " يجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً لـ " جميعاً " ، وأَنْ يتعلَّقَ ب " سَخَّر " أي : هو صادرٌ مِنْ جهته ومِنْ عندِه . وجَوَّزَ الزمخشريُّ في " منه " أَنْ يكونَ خبرَ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هي جميعاً منه ، وأَنْ تكونَ ﴿ وَمَا فِي الأرض

﴾ مبتدأً ، و " منه " خبرَه . قال الشيخ : " وهذان لا يجوزان إلاَّ على رَأْيِ الأخفش مِنْ حيث إنَّ الحال تَقَدَّمَتْ بمعنى جميعاً ، فقُدِّمَتْ على عامِلِها المعنويّ ، يعني الجارَّ ، فهي نظيرُ : " زيد قائماً في الدار " . والعامَّةُ على " مِنْه " جارّاً ومجروراً . [وقرأ] ابن عباس بكسرِ الميمِ وتشديدِ النونِ ونصبِ التّاءِ ، جعله مصدراً مِنْ : مَنَّ يَمُنُّ مِنَّةً ، فانتصابُه عنده على المصدرِ المؤكِّد : إمَّا بعاملٍ مضمرٍ ، وإمَّا بسَخَّر ؛ لأنَّه بمعناه . قال أبو حاتم : " سَنَدُ هذه القراءةِ إلى ابنِ عباسٍ مظلمٌ " . قلت : قد رُوِيَتْ أيضاً عن جماعة جِلَّةٍ غيرِ ابنِ عباس ، فنقلها ابنُ خالويه عنه وعن عبيد بن عمير ، ونقلها صاحبُ " اللوامح " وابنُ جني ، عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير .

وقرأ مَسْلمة بن محارب كذلك ، إلاَّ أنَّه رفع التّاءَ جَعَلَها خبرَ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هي منه .

وقرأ أيضاً في روايةٍ أخرى بفتحِ الميم وتشديدِ النون وهاءِ كنايةٍ مضمومة ، جعله مصدراً مضافاً لضمير الله تعالى .

ورَفْعُه من وجهين ، أحدهما بالفاعلية ب " سَخَّر " أي : سَخَّر لكم هذه الأشياءَ مَنُّه عليكم . والثاني : أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : هو ، أو ذلك مَنُّه عليكم .

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)

قوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ ﴾ : قد تقدَّم نظيرُه في سورة إبراهيم .

قوله : " لِيَجْزِيَ " قرأ ابنُ عامر والأخَوان " لنجزيَ " بنونِ العظمةِ أي : لنجزيَ نحن . وباقي السبعة " ليجزِيَ " بالياء مِنْ تحتُ مبنياً للفاعلِ أي : ليجزيَ اللَّهُ . وأبو جعفر بخلافٍ عنه وشيبةُ وعاصم في روايةٍ كذلك ، إلاَّ أنه مبنيٌّ للمفعولِ . هذا مع نصبِ " قوماً " . / وفي القائمِ مَقامَ الفاعلِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : ضميرُ المفعولِ الثاني عادَ الضميرُ عليه لدلالةِ السِّياقِ تقديرُه : لِيُجْزَى هو أي : الخيرُ قوماً . والمفعول الثاني مِنْ بابِ " أَعْطى " يقومُ مَقامَ الفاعلِ بلا خلافٍ . ونظيرُه : " الدرهمُ أُعْطي زيداً " . الثاني : أنَّ القائمَ مقامَه ضميرُ المصدرِ المدلولِ عليه بالفعلِ أي : لِيُجْزَى الجزاءُ . وفيه نظر ؛ لأنه لا يُتْرَكُ المفعول به ويُقام المصدرُ ولا سيما مع عَدَمِ التصريحِ به . الثالث : أنَّ القائمَ مَقامَه الجارُّ والمجرورُ . وفيه حُجَّةٌ للأخفشِ والكوفيين ، حيث يُجيزون نيابةَ غيرِ المفعولِ به مع وجودِه وأنشدوا :

4031 . . . . . لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكِلابا

[وقوله] :

4032 لم يُعْنَ بالعلياءِ إلاَّ سَيِّدا . . . والبصريون لا يُجيزونه .

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18)

قوله : ﴿ على شَرِيعَةٍ ﴾ : هو المفعولُ الثاني ل " جَعَلْناك " . والشريعةُ في الأصلِ : ما يَرِدُه الناسُ من المياهِ في الأنهارِ . يقال لذلك الموضع : شَرِيعة . والجمعُ شرائِع قال :

4033 وفي الشَّرائِع مِنْ جَيْلانَ مُقْتَنِصٌ . . . رَثُّ الثيابِ خَفِيُّ الشخصِ مُنْسَرِبُ

فاسْتُعير ذلك للدين لأنَّ العبادَ يَرِدُوْن ما تَحْيا به نفوسُهم .

(257/700)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

قوله : ﴿ هذا بَصَائِرُ ﴾ : أي : هذا القرآنُ . جمعُ " بَصيرة " باعتبارِ ما فيه . وقُرِئ " هذه " رُجوعاً إلى الآياتِ ؛ ولأنَّ القرآنَ بمعناها كقولِه :

4034 . . . . . .

سائِلْ بني أَسَدٍ ما هذه الصَّوْتُ

لأنه بمعنى الصيحة .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21)

قوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ ﴾ : " أم " منقطعةٌ ، فَتُقَدَّر ب بل والهمزة ، أو ب بل وحدها ، أو

بالهمزة وحدَها . وتقدم تحقيق هذا .

قوله : ﴿ كالذين آمَنُواْ ﴾ : هو المفعولُ الثاني للجَعْل أي : أَنْ نجعلَهم كائنين كالذين آمنوا أي : لا يَحْسَبُوْن ذلك ، وقد تَقَدَّمَ في سورة الحج : أنَّ الأخَوَيْن وحفصاً قرؤُوا هنا " سواءً " بالنصب ، والباقون بالرفع ، ووَعَدْتُ بالكلام عليه هنا ، فأقول وبالله التوفيق : أمَّا قراءةُ النصبِ ففيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أَنْ تَنْتَصِبَ على الحالِ من الضميرِ المستترِ في الجارِّ والمجرورِ وهما : "كالذين آمنوا " ، ويكونُ المفعولُ الثاني للجَعْل "كالذين آمنوا " أي : أحَسِبوا أَنْ نَجْعَلَهم مثلَهم في حالِ استواءِ مَحْياهم ومماتِهم ليس الأمرُ كذلك . الثاني : أَنْ يكونَ " سواءً " هو المفعولَ الثاني للجَعْل ، و "كالذين " في محلِّ نصبٍ على الحال أي : لن نجعلَهم حالَ كونِهم مثلَهم سواءً ، وليس معناه بذاك . الثالث : أَنْ يكونَ " سواءً " مفعولاً ثانياً ل " حَسِب " .

(258/700)

وهذا الوجهُ نحا إليه أبو البقاء ، وأظنُّه غَلَطاً لِما سَيَظْهَرُ لك فإنَّه قال : " ويُقْرأ بالنصب . وفيه وجهان ، أحدهما : هو حالٌ من الضميرِ في الكافِ أي : نجعلَهم مثلَ المؤمنين في هذه الحالِ . والثاني : أَنْ يكونَ مفعولاً ثانياً ل " حَسِب " والكافُ حالٌ ، وقد دَخَلَ استواءُ

مَحْياهم ومَماتُهم في الحُسْبان ، وعلى هذا الوجهِ مَحْياهم ومماتُهم مرفوعان ب " سَواء " ؛ لأَنَّه قد قَوِيَ باعتمادِه " انتهى . فقد صَرَّح بأنه مفعولٌ ثانٍ للحُسْبان . وهذا لا يَصِحُّ البتةَ ؛ لأنَّ " حَسِبَ " وأخواتِها إذا وَقَعَ بعدها " أنَّ " المشددةُ أو " أَنْ " المخففةُ أو الناصبةُ سَدَّتْ مَسَدَّ المفعولين ، وهنا قد وَقع بعد الحُسْبان " أنْ " الناصبةُ فهي سادَّةٌ مَسَدَّ المفعولَيْنِ ، فَمِنْ أين يكونُ " سواءً " مفعولاً ثانياً ل حَسِب ؟

فإنْ قلتَ : هذا الذي قُلْتُه رأيُ الجمهورِ سيبويهِ وغيرِه ، وأمَّا غيرُهم كالأخفشِ فيدَّعي أنها تَسُدُّ مَسَدَّ واحدٍ . إذا تقرَّر هذا فقد يجوزُ أنَّ أبا البقاءِ ذَهَبَ هذا المذهبَ ، فأعرب " أَنْ نجعلَهم " مفعولاً أولَ و " سواءً " مفعولاً ثانياً . فالجواب : أنَّ الأخفشَ صَرَّحَ بأنَّ المفعولَ الثاني حينئذٍ يكونُ محذوفاً . ولَئِنْ سَلَّمْنا أنَّه لا يُحْذَفُ امتنع مِنْ وجهٍ آخرَ : وهو أنه قد رفع به " محياهُم ومماتُهم " لأنه بمعنى مُسْتَوٍ كما تقدَّم ، ولا ضميرَ يَرْجِعُ مِنْ مرفوعِه إلى المفعولِ الأولِ ، بل رَفَعَ أجنبياً من المفعولِ الأولِ . وهو نظيرُ : " حَسِبْتُ قيامَك مُسْتوياً ذهابُك وعَدَمُه " .

ومَنْ قرأ بالرفع فتحتمل قراءتُه وجهَيْن ، أحدهما : أَنْ يكونَ " سواءٌ " خبراً مقدماً . و " مَحْياهم " مبتدأً مؤخراً / ويكون " سواء " مبتدأً و " مَحْياهم " خبرَه .

كذا أعربوه . وفيه نظرٌ تقدَّم في سورة الحج وهو : أنَّه نكرةٌ لا مُسَوِّغ فيها ، وأنه متى اجتمع معرفةٌ ونكرةٌ جَعَلْتَ النكرةَ خبراً لا مبتدأً . ثم في هذه الجملةِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّها استئنافية . والثاني : أنها بدلٌ من الكافِ الواقعةِ مفعولاً ثانياً . قال الزمخشري : " لأنَّ الجملةَ تقع مفعولاً ثانياً فكانَتْ في حكمِ المفردِ . ألا تراكَ لو قُلْتَ : أن نجعلَهم سواءٌ مَحْياهم ومماتُهم ، كان سديداً ، كما تقول : ظننتُ زيداً أبوه منطلقٌ " . قال الشيخ : " وهذا – أَعْني إبدالَ الجملة من المفرد – أجازه ابنُ جني وابنُ مالك ، ومنعَه ابنُ العِلْجِ " ، ثم ذكر عنه كلاماً كثيراً في تقرير ذلك ثم قال : " والذي يَظْهَرُ أنه لا يجوزُ " ، يعني ما جَوَّزه الزمخشريُّ قال : " لأنَّها بمعنى التصييرِ ولا يجوزُ : " صَيَّرْتُ زيداً أبوه قائمٌ " لأنَّ التصييرَ انتقالٌ من ذاتٍ إلى ذاتٍ ، أو من وصفٍ في الذاتِ إلى وصفٍ فيها . وتلك الجملةُ الواقعةُ بعد مفعولِ " صَيَّرْت " المقدرةُ مفعولاً ثانياً ليس فيها انتقالٌ مما ذكرْنا فلا يجوز " . قلت : ولِقائلٍ أَنْ يقولَ : بل فيها انتقالٌ مِنْ وصفٍ في الذاتِ إلى وصفٍ فيها ؛ لأنَّ النحاة نَصُّوا على جوازِ وقوعِ الجملةِ صفةً وحالاً نحو : مررتُ برجلٍ أبوه قائمٌ ، وجاء زيدٌ أبوه قائم . فالذي حكموا عليه بالوصفيَّةِ والحاليةِ يجوزُ أَنْ يقعَ في حَيِّزِ التَّصْيير ؛ إذ لا فَرْقَ بين صفةٍ وصفةٍ من هذه الحيثيَّة .

الثالث : أن تكونَ الجملةُ حالاً ، التقدير : أم حَسِبَ الكفار أَنْ نُصَيِّرهم مثلَ المؤمنين في حالِ استواءِ محياهم ومماتِهم ، ليسوا كذلك بل هم مُفْترقون . وهذا هو الظاهر عند الشيخِ .

وعلى الوجهين الأخيرين تكونُ الجملةُ داخلةً في حَيِّز الحُسْبانِ . وإلى ذلك نحا ابن عطية فإنه قال : "يَقْتضي هذا الكلامُ أنَّ لفظَ الآية خبرٌ ، ويظهر أنَّ قوله : ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ داخلٌ في المَحْسَبَةِ المُنْكَرَةِ السيئةِ ، وهذا احتمالٌ حسن والأولُ جيدٌ " انتهى . ولم يبين كيفيةَ دخولِه في الحُسْبانِ ، وكيفيَّةُ أحدِ الوجهين الأخيرَيْن : إما البدلِ وإمَّا الحاليةِ كما عَرَفْتَه .

وقرأ الأعمشُ " سواءً " نصباً " مَحْياهم ومَماتَهم " بالنصب أيضاً . فأمَّا " سواءً " فمفعولٌ ثانٍ أو حالٌ كما تقدَّم . وأمَّا نصب " مَحْياهم ومماتَهم " ففيه وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونا ظَرْفَيْ زمانٍ ، وانتصبا على البدلِ مِنْ مفعولِ " نَجْعَلَهم " بدلِ اشتمال ، ويكون " سواءً " على هذا هو المفعولَ الثاني . والتقدير : أن نجعلَ محياهم ومماتَهم سواءً . والثاني : أَنْ ينتصِبا على الظرفِ الزمانيِّ . والعاملُ : إمَّا الجَعْلُ أو سواء . والتقدير : أَنْ نجعلَهم في هذَيْن الوقتَيْن سواءً ، أو نجعلَهم مُسْتَوِين في هذين الوقتين .

قال الزمخشري مقدِّراً لهذا الوجه : " ومَنْ قرأ بالنصبِ جَعَلَ " مَحْياهم ومماتَهم " ظَرْفَيْنِ كمَقْدَمِ الحاجِّ وخُفوقِ النجم " .

قال الشيخ : " وتمثيلُه بخُفوق النجم ليس بجيدٍ ؛ لأنَّ " خُفوقَ " مصدرٌ ليس على مَفْعَل فهو في الحقيقةِ على حَذْفِ مضافٍ أي : وقتَ خُفوقِ بخلاف مَحْيا ومَمات ومَقْدَم فإنها موضوعةٌ على الاشتراك بين ثلاثةِ معانٍ : المصدريةِ والزمانيةِ والمكانيةِ . فإذا اسْتُعْملت مصدراً كان ذلك بطريق الوَضْعِ لا على حَذْفِ مضافٍ كخُفوق ؛ فإنه لا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ لكونِه موضوعاً للمصدرية " . وهذا أمرٌ قريبٌ لأنَّه إنما أراد أنه وَقَع هذا اللفظُ مُراداً به الزمانُ . أمَّا كونُه بطريق الأصالةِ أو الفرعيةِ فلا يَضُرُّ ذلك .

والضميرُ في " مَحْياهم ومماتُهم " يجوز أَنْ يعودَ على القَبيلَيْن بمعنى : أنَّ مَحْيا المؤمنين ومماتَهم سواءٌ عند الله في الكرامةِ ، ومَحْيا المجترحين ومماتَهم سواءٌ في الإهانةِ عنده ، فَلَفَّ الكلام اتِّكالاً على ذِهْنِ السَّامع وفهمِه . ويجوز أَنْ يعودَ على المُجْترحين فقط . أَخْبَرَ أَنَّ حالَهم في الزمانَيْن سواءٌ .

قال أبو البقاء : " ويُقْرَأُ " مَماتَهم " بالنصب أي : في مَحْياهم ومماتَهم . والعاملُ " نَجْعل " أو سواء . وقيل : هو ظرفٌ " . قلت : قوله : " وقيل " هو القولُ الأولُ بعينِه .

قوله : ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ قد تقدَّم إعرابُه . وقال ابنُ عطيةَ هنا : " ما " مصدريةٌ أي

: ساء الحكمُ حُكْمُهم .

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22)

قوله : ﴿ بالحق ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ : حالٌ من الفاعلِ أو من المفعول أو الباءُ للسببيَّة .

(262/700)

قوله : " ولِتُجْزَى " فيه ثلاثةُ أوجهٍ : أَنْ يكونَ عطفاً على " بالحق " في المعنى ؛ لأنَّ كلاً منهما سببٌ/ فعطفَ العلةَ على مثلها . الثاني : أنَّها معطوفةٌ على مُعَلَّلٍ محذوفٍ تقديرُه : لِيَدُلَّ بها على الدلالةِ على قُدْرَته " ولتُجْزَى . الثالث : أنْ تكونَ لامَ الصيرورةِ أي : وصار الأمرُ منها مِنْ حيث اهْتدى بها قومٌ وضَلَّ عنها آخرون .

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)

قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ : بمعنى : أَخْبِرْني ، وتقدَّم حكمُها مشروحاً . والمفعولُ الأولُ " مَنْ اتَّخذ " ، والثاني محذوف ، تقديره بعد غشاوة : أيهتدي ، ودَلَّ عليه قولُه : " فَمَنْ يهْديه " وإنما قَدَّرْتَه بعد غشاوة لأجلِ صلاتِ الموصول .

قوله : " على عِلْمٍ " حالٌ من الجلالةِ أي : كائناً على علمٍ منه فيه أنَّه أهلٌ لذلك . وقيل :

حالٌ من المفعول أي : أضلَّه وهو عالِمٌ ، وهذا أشنعُ له .

وقرأ الأعرجُ " آلهةً " على الجمع ، وعنه كذلك مضافة لضميره : " آلهتَه هواه " .

قوله : " غِشاوة " قرأ الأخَوان " غَشْوَة " بفتح الغين وسكونِ الشين . والأعمشُ وابن مصرف كذلك إلاَّ أنَّهما كسرا الغَيْنَ . وباقي السبعة " غِشاوة " بكسر الغين . وابنُ مسعود والأعمشُ أيضاً بفتحها ، وهي لغةُ ربيعةَ . والحسن وعكرمة وعبد الله أيضاً بضمّها ، وهي لغةُ عُكْلية . وتقدَّم الكلامُ في ذلك أولَ البقرة ، وأنَّه قُرِئ هناك بالعين المهملة . والعامَّةُ : " تَذَكَّرون " بالتشديد والجحدريُّ بتخفيفها . والأعمش بتاءَيْن " تَتَذَكَّرون " .

قوله : ﴿ مِن بَعْدِ الله ﴾ أي : مِنْ بعد إضلالِ الله إياه .

(263/700)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24)

قوله : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ﴾ : تقدَّم نظيرُ هذه الآياتِ كلِّها . وقرأ زيد بن علي " نُحْيا " بضمِّ النون .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25)

قوله : ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ : العامَّةُ على نصب الحجة . وزيد بن علي وعمرو بن عبيد وعبيد بن عمير بالرفع وتقدَّمَ تأويلُ ذلك ، و " ما كان " جوابُ " إذا " الشرطية . وجعله الشيخُ دليلاً على عدمِ إعمالِ جواب " إذا " فيها ؛ لأن " ما " لا يعمل ما بعدها فيما قبلها قال : " وخالفَتْ غيرَها مِنْ أدواتِ الشرطِ ، حيث لم تقترنْ الفاءُ بجوابِها إذا نُفِي ب " ما "

.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27)

قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ﴾ : في عامِله وجهان ، أحدُهما : أنه " يَخْسَرُ " ويومئذٍ بدلٌ مِنْ " يومَ تَقومُ " ، التنوينُ على هذا تنوينُ عوضٍ من جملةٍ مقدرةٍ ، ولم يتقدَّم من الجمل إلاَّ " تقومُ الساعةُ " فيصير التقديرُ : ويومَ تقومُ الساعةُ يومئذٍ تقومُ الساعةُ . وهذا الذي قَدَّروه ليس فيه مزيدُ فائدةٍ ، فيكونُ بدلاً توكيدياً . والثاني : أن العاملَ فيه مقدرٌ . قالوا : لأنَّ يومَ القيامةِ حالةٌ ثالثةٌ ليسَتْ بالسماءِ ولا بالأرضِ ؛ لأنهما يتبدَّلان فكأنه قيل : ولله مُلْكُ السماواتِ والأرضِ ، والمُلْكُ يومَ تقومُ . ويكون قولُه " يومئذ " معمولاً لَيَخْسَرُ . والجملةُ مستأنفةٌ من حيث اللفظُ ، وإنْ كان لها تعلُّقٌ بما قبلَها مِنْ حيث المعنى .

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28)

قوله: ﴿ جَاثِيَةً ﴾: حالٌ؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّ الرؤيةَ بَصَرِيَّة. والجاثية أي: على الرُّكَبِ؛ لأنَّها خائفةٌ والمذنبُ مُسْتَوْفِزٌ. وقيل: مجتمعةً، ومنه: الجُثْوَةُ للقَبْر لاجتماع الأحجارِ عليه. قال:

4035 تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرابٍ عليهما . . . صَفائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفِيْحٍ مُنَضَّدِ

وقُرِئ "جاذِيَةً" بالذال المعجمة، وهو أشدُّ اسْتيفازاً من الجاثي.

قوله: "كلُّ أمةٍ" العامَّةُ على الرفعِ بالابتداءِ. و"تُدْعى" خبرُها. ويعقوب بالنصبِ على البدلِ مِنْ "كُلُّ أمة" الأولى بدلِ نكرةٍ موصوفةٍ مِنْ مِثْلها.

قوله: "اليومَ تُجْزَوْن" هذه الجملةُ معمولةٌ لقولٍ مضمرٍ التقديرُ: يُقال لهم: اليومَ تُجْزَوْن. واليومَ معمولٌ لِما بعدَه "وما كُنتم" هو المفعولُ الثاني.

هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29)

قوله: ﴿ يَنطِقُ ﴾: يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً، وأَنْ يكونَ خبراً ثانياً، وأَنْ يكونَ "كتابُنا" بدلاً و"يَنْطِقُ" خبرٌ وحده. و"بالحق" حال.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (31)

قوله: ﴿ أَفَلَمْ ﴾: هو على إضمارِ القولِ أيضاً. وقدَّر الزمخشريُّ على عادتِه جملةً بين

الهمزةِ والفاءِ أي : أَلَمْ تَأْتِكم رُسُلي فلم تكنْ آياتي .

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32)

(265/700)

قوله : ﴿ إِنَّ وعْدَ الله ﴾ : العامَّةُ على كسرِ الهمزةِ : لأنها مَحْكِيَّةٌ بالقولِ . والأعرج وعمرو بن فائد بفتحها . وذلك مُخَرَّجٌ على لغة سُلَيْمٍ : يُجْرُون القولَ مُجْرى الظنِّ مطلقاً . وفيه قولُه :

4036 إذا قلتُ أَنِّي آيبٌ أهلَ بلدةٍ . . . . . .

. . . . .

قوله : " والساعةُ " قرأ حمزة بنصبِها عطفاً على " وعدَ الله " . والباقون برفعها ، وفيه ثلاثةُ أوجهٍ : الابتداءُ وما بعدها من الجملةِ المنفيَّة خبرُها . الثاني : العطفُ على محلِّ اسم " إنَّ " لأَنَّه/ قبل دخولِها مرفوعٌ بالابتداءِ . الثالث : أنه عطفٌ على محلِّ " إنَّ " واسمِها معاً ؛ لأنَّ بعضَهم كالفارسيِّ والزمخشريِّ يَرَوْنَ أنَّ لـ " إنَّ " واسمِها موضعاً ، وهو الرفعُ بالابتداء .

قوله : " إلاَّ ظَنّاً " هذه الآيةُ لا بُدَّ فيها مِنْ تأويلٍ : وذلك أنه يجوزُ تفريغُ العاملِ لما بعده مِنْ جميعِ معمولاته ، مرفوعاً كان أو غيرَ مرفوعٍ ، إلاَّ المفعولَ المطلقَ فإنه لا يُفَرَّغُ له . لا يجوزُ " ما ضَرَبْتَ إلاَّ ضَرْباً " كأنه لا فائدةَ فيه ؛ وذلك أنه بمنزلةِ تكريرِ الفعلِ فكأَنَّه في قوةِ " ما ضَرَبْتُ إلاَّ ضَرَبْتُ " . وكانَتْ هذه العلةُ خَطَرَتْ لي حتى رأيتُ مكّياً وأبا البقاءِ نَحَوا إليها فللَّه الحمدُ .

(266/700)

وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما معنى " إنْ نَظُنُّ إلاَّ ظَنًّا " ؟ قلت : أصلُه نَظُنُّ ظنًّا . ومعناه إثباتُ الظنِّ فحسب . فأَدْخَلَ حرفَ النفي والاستثناءَ لِيُفادَ إثباتُ الظنِّ ونفيُ ما سواه ؛ وزِيْدَ نَفْيُ ما سوى الظنِّ توكيداً بقولِه : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ . فظاهرُ كلامِه أنه لا يَتَأَوَّلُ الآيةَ بل حَمَلها على ظاهرِها ؛ ولذلك قال الشيخ : " وهذا كلامُ مَنْ لا شعورَ له بالقاعدةِ النحوية : مِنْ أنَّ التفريغَ يكونُ في جميع المعمولاتِ مِنْ فاعلٍ ومفعولٍ وغيرِهما إلاَّ المصدرَ المؤكِّدَ فإنه لا يكونُ فيه " .

وقد اختلفَ الناسُ في تأويلِها على أوجهٍ ، أحدُها : ما قاله المبردُ وهو : أنَّ الأصلَ : إنْ نحن إلاَّ نظنُّ ظنّاً . قال : " ونظيرُه ما حكاه أبو عمرٍو " ليس الطِّيْبُ إلاَّ المِسْكُ " تقديرُه :

ليس إلاَّ الطيبُ المسكُ " قلتُ : يعني أن اسمَ " ليس " ضميرُ الشأنِ مستترٌ فيها ، وإلاَّ الطيبُ المسكُ في محل نصب خبرُها ، وكأنه خَفِيَ عليه أنَّ لغةَ تميم إبطالُ عملِ " ليس " إذا انتقض نفيُها ب " إلاَّ " قياساً على " ما " الحجازيةِ ، والمسألةُ طويلةٌ مذكورةٌ في كتابي " شرح التسهيل " وعليها حكايةٌ جَرَتْ بين أبي عمرو وعيسى بن عمر . الثاني : أنَّ " ظنّاً " له صفةٌ محذوفةٌ تقديره : إلاَّ ظناً بَيّناً ، فهو مختصٌّ لا مؤكّد . الثالث : أَنْ يُضَمَّنَ " نظنُّ " معنى نَعْتقد ، فينتصِبَ " ظَنّاً " مفعولاً به لا مصدراً . الرابع : أنَّ الأصلَ : إنْ نظنُّ إلاَّ أنكم تظنون ظنّاً ، فحذف هذا كلَّه ، وهو مَعْزُوٌّ للمبردِ أيضاً . وقد رَدُّوه عليه : من حيثُ إنَّه حَذَفَ أنَّ واسمَها وخبرَها وأبقى المصدرَ . وهذا لا يجوزُ . الخامس : أنَّ الظنَّ يكونُ بمعنى العِلْمِ والشكِّ فاستثنى الشكَّ كأنه قيل : ما لنا اعتقادٌ إلاَّ الشكَّ . ومثلُ الآية قولُ الأعشى :

(267/700)

4037 وحَلَّ به الشَّيْبُ أثقالَه . . . وما اعْتَرَّه الشيبُ إلاَّ اعْتِرارا

يريد اعْتِراراً بَيّناً .

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34)

قوله : ﴿ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ : من التوسُّعِ في الظرف ؛ حيث أضاف إليه ما هو واقعٌ فيه كقوله : ﴿ بَلْ مَكْرُ اليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] . وتقدَّم الخلافُ في قوله : " لا يُخْرَجُون " في أول الأعراف . وتقدَّم معنى الاستعتاب .

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36)

قوله : ﴿ رَبِّ السماوت وَرَبِّ الأرض رَبِّ العالمين ﴾ : قرأ العامَّةُ " ربِّ " في الثلاثة بالجرِّ تَبَعاً للجلالة بياناً أو بدلاً أو نعتاً . وابن محيصن برفع الثلاثةِ على المدح بإضمار " هو " .

وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

قوله : ﴿ وَلَهُ الكبرياء فِي السماوات ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ " في السماوات " متعلقاً بمحذوف حالاً مِنْ " الكبرياء " ، وأَنْ يتعلَّقَ بما تعلَّقَ به الظرفُ الأول لوقوعِه خبراً . ويجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بنفسِ " الكبرياء " لأنها مصدرٌ . وقال أبو البقاء : " وأَنْ يكونَ - يعني في السماوات - ظرفاً ، والعاملُ فيه الظرفُ الأولُ والكِبْرياء ؛ لأَنَّها بمعنى العظمة " ولا حاجةَ إلى تأويل الكبرياء بمعنى العظمة فإنها ثابتةُ المصدرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 733. 758 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2)

الإعراب :

(تنزيل) مبتدأ مرفوع (من اللّه) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ . .

وجملة : " تنزيل الكتاب من اللّه . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة

[سورة الجاثية (45) : الآيات 3 إلى 5]

إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)

الإعراب :

(في السموات) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (للمؤمنين) متعلّق بنعت لآيات . .

جملة : " إنّ في السموات . . . لآيات " لا محلّ لها استئنافيّة

4 - (الواو) عاطفة في الموضعين (في خلقكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (آيات) (ما)

موصول في محلّ جرّ معطوف على خلقكم بتقدير مضاف أي خلق ما يبثّ (من دابة) تمييز

ما – أو حال من العائد المقدّر – (لقوم) متعلّق بنعت لآيات . . .

وجملة : " في خلقكم . . . آيات " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " يبثّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " يوقنون " في محلّ جرّ نعت لقوم 5 – (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (اختلاف) مجرور بحرف جرّ محذوف دلّ عليه الجارّ المتقدّم (في) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ آيات " 1 " ، (ما) موصول في محلّ جرّ معطوف على اختلاف بالواو (من السماء) متعلّق بـ (أنزل) ، (من رزق) متعلّق بـ (أنزل) " 2 " ، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (أحيا) ، (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (أحيا) ، معطوف على اختلاف مجرور (لقوم) متعلّق بنعت لآيات . .

---

(1) أو معطوف على خلقكم . . وكذلك آيات معطوف على آيات الأول ، وليس في الكلام جملة جديدة .

(2) (من) الأول لابتداء الغاية و(من) الثاني للبيان فيصحّ تعليقه بحال من العائد المقدّر .

وجملة : " (في) اختلاف الليل . . . ايات " لا محلّ لها معطوفة على جملة في خلقكم . . . آيات وجملة : " أنزل اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني وجملة : " أحيا . . .

" لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل وجملة : " يعقلون " في محلّ جرّ نعت لقوم (الثاني)

[سورة الجاثية (45) : آية 6]

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)

الإعراب :

(تلك) اسم اشارة في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة نتلوها " 1 " ، (عليك) متعلّق بـ (نتلوها) ، (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل نتلو أو مفعوله (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بأيّ) متعلّق بـ (يؤمنون) والاستفهام فيه معنى الإنكار (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (يؤمنون) بحذف مضاف أي بعد حديث اللّه . .

جملة : " تلك آيات اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " نتلوها . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ تلك وجملة : " يؤمنون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأيّ حديث يؤمنون

[سورة الجاثية (45) : الآيات 7 إلى 10]

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا ما اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (10)

الإعراب :

(ويل) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (لكلّ) متعلّق بمحذوف خبر . . .

جملة : " ويل لكلّ أفّاك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

---

(1) يجوز أن يكون الخبر (آيات) ، وجملة نتلوها خبر ثان أو حال من آيات والعامل فيها الإشارة قياسا على قوله تعالى : و " تلك بيوتهم خاوية " بنصب خاوية .

(2) جاز البدء بالنكرة لأنّ اللفظ دالّ على الذمّ .

(270/700)

---

8 - (عليه) متعلّق بـ (تتلى) ، (كأن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (بعذاب) متعلّق بـ (بشره) .

وجملة : " يسمع . . . " في محلّ جرّ نعت ثان لأفّاك "

وجملة : " تتلى . . . " في محلّ نصب حال من آيات . .

وجملة : " يصرّ . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يسمع وجملة : " كأن لم يسمعها " في محلّ نصب حال من فاعل يصرّ وجملة : " لم يسمعها " في محلّ رفع خبر كأن المخفّفة وجملة : " بشّره " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تنبّه فبشّره . .

9 - (الواو) عاطفة (من آياتنا) متعلّق بحال من (شيئًا) ، (هزوا) مفعول به ثان عامله اتّخذ (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) .

وجملة : " علم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اتّخذها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " أولئك لهم عذاب " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " لهم عذاب " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) 10 - (من ورائهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ جهنم (الواو) عاطفة (لا) نافية (عنهم) متعلّق بـ (يغني) ، (ما) حرف مصدريّ في الموضعين ، (شيئًا) مفعول يغني " 2 " ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي . .

والمصدر المؤوّل (ما كسبوا) في محلّ رفع فاعل يغني والمصدر المؤوّل (ما اتّخذوا) في محلّ رفع معطوف على المصدر الأول

---

(1) أو في محلّ نصب حال من أفّاك أو من الضمير في أثيم . . ويجوز أن تكون استئنافيّة لا محلّ لها ، وتعطف جملة يصرّ عليها في كلّ هذه الحالات .

(2) أو اسم موصول في كليهما ، في محلّ رفع ، والعائد محذوف في كليهما .

مفعول مطلق نائب عن المصدر أي شيئًا من الإغناء ، والمفعول به مقدّر .

(من دون) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله اتّخذوا (الواو) عاطفة (لهم عذاب عظيم) مثل لهم عذاب مهين (في الآية السابقة) .

وجملة : " من ورائهم جهنّم " في محلّ رفع بدل من (لهم عذاب . . .)

وجملة : " لا يغني عنهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لهم عذاب وجملة : "كسبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الأول وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لهم عذاب الأولى

البلاغة

التضاد : في قوله تعالى " مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ " .

والتضاد : هو استعمال لفظ يحتمل المعنى وضدّه ، وهو مشترك بين المعنيين ، فيستعمل في الشيء وضده .

وفي هذه الآية الكريمة يوجد فن التضاد ، لأن المعنى : إما من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم ، أو من خلفهم لأنهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا ، فإن الوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف وقدام .

الفوائد

- كأن المخففة . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فـ (كأن) مخففة من الثقيلة ، وقد عملت عمل إنّ ، فاسمها ضمير الشأن ، وجملة (لم يسمعها) في محلّ رفع خبر كأن . والتقدير (كأنه لم يسمعها) . لكنه يجوز ثبوت اسمها ، وإفراد خبرها . وقد روي قوله :

ويوما توافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم

بنصب (ظبية) على أنّه اسم كأن ، والجملة بعدها صفة لها ، والخبر محذوف والتقدير : كأن ظبية عاطية هذه المرأة ، على التشبيه المعكوس وهو أبلغ ويرفع

(ظبية) على أنها الخبر ، والجملة بعدها صفة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والتقدير (كأنها ظبية) وبجر (ظبية) على زيادة أن بين الكاف ومجرورها ، والتقدير (كظبية) .

وإذا حذف اسمها ، وكان خبرها جملة اسمية ، لم تحتج إلى فاصل ، نحو قول الشاعر :

ووجه مشرق اللون كأن ثدياه حقان

الشاهد فيه قوله (كأن ثدياه حقان) حيث جاء اسم كأن ضمير الشأن ، وجملة (ثدياه حقان) من المبتدأ والخبر في محلّ رفع خبر كأن والتقدير (كأنه ثدياه حقان) . لذا لم يفصل بين

كأن وخبرها الواقع جملة .

أما إن كان الخبر جملة فعلية ، فإنها تفصل بـ (قد) ، كقوله :

لا يهولنّك اصطلاء لظى الحر بـ فمحذورها كأن قد ألما

الشاهد فيه قوله (كأن قد ألما) ، حيث جاء خبر كأن جملة فعليه ، ففصل بينها وبين (كأن) بقد .

أو يكون الفاصل (لم) كقوله تعالى (كأن لم تغن بالأمس) ، وقوله تعالى الوارد في الآية التي نحن بصددها (كأن لم يسمعها) .

[سورة الجاثية (45) : آية 11]

هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

الإعراب :

(بآيات) متعلّق بـ (كفروا) ، (لهم عذاب) مثل السابقة " 1 " ، (من رجز) متعلّق بنعت لـ (عذاب) . . .

جملة : " هذا هدى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " الذين كفروا لهم عذاب " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

---

(1) في الآية (9) من السورة

وجملة: "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة: "لهم عذاب . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين)

[سورة الجاثية (45) : الآيات 12 إلى 13]

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13)

الإعراب:

(لكم) متعلّق بـ (سخّر) ، (اللام) للتعليل (تجري) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (فيه) متعلّق بـ (تجري) ، (بأمره) متعلّق بحال من الفلك . . .

والمصدر المؤوّل (أن تجري . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (سخّر) (الواو) عاطفة (لتبتغوا) مثل لتجري (من فضله) متعلّق بـ (تبتغوا) والمصدر المؤوّل (لتبتغوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (سخّر) فهو معطوف على المصدر الأول جملة: "اللّه الذي . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "سخّر . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة: "تجري

. . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة: "تبتغوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني.

وجملة: "لعلّكم تشكرون" لا محلّ لها معطوفة على استئناف بيانيّ مقدّر أي لعلّكم ترزقون ولعلّكم تشكرون

الجدول ج 25، ص: 146

وجملة: "تشكرون" في محلّ رفع خبر لعلّ 13 - (الواو) عاطفة في الموضعين (لكم) مثل الأول (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما (ما) مثل الأول ومعطوف عليه (في الأرض) مثل في السموات (جميعا) توكيد معنوي لـ (ما) "1" (منه) متعلّق بحال من ما "2"، (في ذلك) متعلّق بخبر مقدّم لـ (إنّ)، (اللام) للتوكيد (لقوم) متعلّق بنعت لـ (آيات) . . .

وجملة: "إنّ في ذلك لآيات . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "سخّر . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة سخّر (الأولى) وجملة: "يتفكّرون . . . "في محلّ جرّ نعت لقوم

[سورة الجاثية (45): آية 14]

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (14)

الإعراب:

(للذين) متعلّق بـ (قل) ، (يغفروا) مضارع مجزوم جواب الأمر (للذين) الثاني متعلّق بـ (يغفروا) ، (لا) نافية (اللام) للتعليل (يجزي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (ما) حرف مصدريّ والمصدر المؤوّل (أن يجزي . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل مقدّر أي اغفروا . . . " 3 "

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يجزي) جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول وجملة : " بغفروا . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء

---

(1) أو هو حال من (ما في السموات وما في الأرض) [. . . . .]

(2) يجوز أن يكون نعتا لـ (جميعا) .

(3) أو متعلّق بـ (قل) .

أي إن تقل لهم اغفروا يغفروا . . . فجملة مقول القول مقدّرة أي اغفروا وجملة : " لا يرجون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني وجملة : " يجزي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ

(ما) وجملة : " يكسبون " في محلّ نصب خبر كانوا

البلاغة

التنكير : في قوله تعالى " لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ " .

المراد بالقوم المؤمنون ، وهم معارف ، والتنكير لمدحهم والثناء عليهم ، أي أمروا بذلك ليجزي يوم القيامة قوما أيما قوم ، قوما مخصوصين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار ، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم .

فوائد

- قوله تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ) أي لا يخافون وقائع اللّه ولا يبالون بمقته . قال ابن عباس : نزلت في عمر ابن الخطاب ، وذلك أن رجلا من بني غفار شتمه ، فهم عمر أن يبطش به ، فأنزل اللّه هذه الآية ، وأمره أن يعفو عنه . وقيل : نزلت في ناس من أصحاب رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) من أهل مكة ، كانوا في أذى شديد من المشركين ، قبل أن يؤمروا بالقتال ، فشكوا ذلك إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ،

فأنزل اللّه هذه الآية ، ثم نسخها بآية القتال .

[سورة الجاثية (45) : آية 15]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم مبتدأ (صالحا) مفعول به منصوب " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لنفسه) خبر لمبتدأ محذوف تقديره

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي عملا صالحا

عمله (الواو) عاطفة (من أساء فعليها) مثل من عمل . . فلنفسه (إلى ربّكم) متعلّق بفعل (ترجعون) .

جملة : " من عمل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " عمل صالحا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) وجملة : " (عمله) لنفسه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : " من أساء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " أساء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني .

وجملة : " إساءته عليها " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : " ترجعون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة

فوائد

- في هذه الآية دليل على حذف المبتدأ بعد فاء الجواب ، في قوله تعالى (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها) والتقدير (فعمله لنفسه) (فإساءته عليها) .

وقد ورد هذا البحث مفصلا في سورة فصلت الآية (49) ، فعد إليه كرة أخرى .

(277/700)

[سورة الجاثية (45) : الآيات 16 إلى 20]

وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (16) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (من الطّيّبات) متعلّق بـ (رزقناهم) ، (على العالمين) متعلّق بـ (فضّلناهم) جملة : " آتينا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " رزقناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا وجملة : " فضّلناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا 17 - (الواو) عاطفة (من الأمر) متعلّق بنعت لـ (بيّنات) ، (الفاء) عاطفة (ما) نافية (إلّا) للحصر (من بعد) متعلّق بـ (اختلفوا) ، (ما) حرف مصدريّ (بغيا) مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بنعت لـ (بغيا) والمصدر المؤوّل (ما جاءهم . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه (بينهم) الثاني متعلّق بـ (يقضي) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يقضي) ، (في ما) متعلّق بـ (يقضي) ، (فيه) متعلّق بـ (يختلفون) .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال ، أو مفعول مطلق لفعل محذوف .

وجملة : " آتيناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا وجملة : " اختلفوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا

وجملة : " جاءهم العلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " إنّ ربّك يقضي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يقضي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " كانوا فيه يختلفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " يختلفون " في محلّ نصب خبر كانوا 18 - (ثمّ) للعطف - أو استئنافيّة - (على شريعة) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (من الأمر) متعلّق بنعت لـ (شريعة) ، (الفاء) عاطفة لربط السبب بالمسبّب (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة والثانية نافية . . .

وجملة : " جعلناك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم " 1 " وجملة : " اتّبعها . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مسبّب عما سبق أي : تنبّه فاتّبعها وجملة : " لا تتبع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّبعها وجملة : " لا يعلمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) 19 - (عنك) متعلّق بـ (يغنوا) بتضمينه معنى يدفعوا (من اللّه) متعلّق بحال من (شيئًا) بحذف مضاف أي من عذاب اللّه (الواو) عاطفة في الموضعين (بعضهم) مبتدأ خبره (أولياء) . .

وجملة : " إنّهم لن يغنوا . . . " لا محلّ لها تعليل للنهي السابق وجملة : " لن يغنوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " إنّ الظالمين . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة وجملة : "

بعضهم أولياء . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثاني) وجملة : " اللّه وليّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

---

(1) أو استئنافيّة أصلا بحسب المعنى .

---

20 - (للناس) متعلّق بنعت لـ (بصائر) ، (لقوم) متعلّق بـ (رحمة) . .

وجملة : " هذا بصائر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يوقنون " في محلّ جرّ نعت لقوم

الصرف :

(18) شريعة : اسم لما يرده الناس من الماء ، جمعه شرائع ثم أستعير للدين . . أو اسم للمذهب والملّة ، وزنه فعيلة بفتح فكسر .

[سورة الجاثية (45) : آية 21]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (21)

الإعراب :

(أم) منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار (كالذين) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . .

والمصدر المؤوّل (أن نجعلهم . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي حسب .

(سواء) خبر مقدّم للمبتدأ (محياهم) ، مرفوع ، (ساء) ماض للذم (ما) حرف مصدريّ . . والمخصوص مقدّر أي حكمهم .

والمصدر المؤوّل (ما يحكمون) في محلّ رفع فاعل ساء جملة : " حسب الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " اجترحوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " نجعلهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا

الجدول ج 25 ، ص : 152

وجملة : " سواء محياهم . . . " في محلّ نصب بدل من المفعول الثاني المقدّر " 1 " وجملة : " ساء ما يحكمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يحكمون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما)

[سورة الجاثية (45) : آية 22]

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (22)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة ، والثانية والثالثة عاطفتان ، والأخيرة حاليّة (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل خلق أو من مفعوله (اللام) للتعليل (كلّ) نائب الفاعل مرفوع (ما) حرف مصدريّ . . . " 2 " ، (لا) نافية ، والمصدر المؤوّل (ما كسبت . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تجزى) والمصدر المؤوّل (أن تجزي) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (خلق) ، عطفا على تعليل مقدّر . . . أي خلق السموات والأرض لتدلّ على قدرته ولتجزى كلّ نفس . . .

جملة : " خلق اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تجزى كلّ نفس . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة : "كسبت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " هم لا يظلمون " في محلّ نصب حال وجملة : " لا يظلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم)

---

(1) ومعنى الآية : أحسبوا أن نجعلهم في الآخرة سعداء كالمؤمنين مثل عيشهم في الدنيا . .

هذا ويجوز أن تكون الجملة استئنافا بيانيا لا محلّ لها .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف ، والجملة بعده صلته

[سورة الجاثية (45) : آية 23]

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (23)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام المفيد للطلب (الفاء) استئنافيّة ، (أ رأيت) بمعنى أخبرني (من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به أوّل (هواه) مفعول به عامله اتّخذ (على علم) حال من الفاعل أو المفعول (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (على سمعه) متعلّق بـ (ختم) ، (على بصره) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعل (الفاء) زائدة للربط لطول الكلام (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة يهديه (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية (تذكّرون) مضارع مرفوع حذفت منه إحدى التاءين .

جملة : " رأيت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " اتّخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " أضلّه اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " ختم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة : " من يهديه . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل رأيت وجملة : " يهديه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) وجملة : " تذكّرون " لا محلّ لها

معطوفة على استئناف مقدّر أي أغفلتم فلا تذكّرون

البلاغة

التشبيه المقلوب: في قوله تعالى "أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ" .

الجدول ج 25، ص: 154

وضع قوله اتخذ إلهه هواه، بدلا من قوله: هواه إلهه، فقد جعل هواه معبوده يخضع له ويطيعه، كما يخضع العابد لمعبوده.

[سورة الجاثية (45): الآيات 24 إلى 25]

وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (24) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية مهملة (هي) ضمير الشأن مبتدأ في محلّ رفع (إلّا) للحصر

(الدنيا) نعت للخبر (حياتنا) مرفوع (الواو) عاطفة في الموضعين، والثالثة حاليّة (ما)

نافية في الموضعين (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (علم) ، وهو مجرور لفظا مرفوع محلّا (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر . .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ما هي إلّا حياتنا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " نموت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " نحيا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نموت وجملة : " ما يهلكنا إلّا الدهر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نموت وجملة : " ما لهم . . . من علم " في محلّ نصب حال من فاعل قالوا وجملة : " إن هم إلّا يظنّون " في محلّ نصب بدل من جملة ما لهم . . من علم " 1 "

---

(1) أو لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يظنّون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) 25 - (الواو) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (تتلى) ، (آياتنا) نائب الفاعل مرفوع (بيّنات) حال منصوبة من آياتنا ، (ما) نافية (حجّتهم) خبر كان (أن) حرف مصدريّ (بآبائنا) متعلّق بـ (ائتوا) ، (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط وجملة : " تتلى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " ما كان حجّتهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم " 1 " وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها

صلة الموصول الحرفيّ (أن) والمصدر المؤوّل (أن قالوا . . .) في محلّ رفع اسم كان وجملة : " ائتوا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : "كنتم صادقين " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله . . . أي : إن كنتم صادقين في الحديث عن البعث فأتوا بآبائنا . . .

فوائد

1 - الدّهريون . .

---

(1) يجوز أن يكون الجواب محذوفا أي : كفروا . . . وجملة : ما كان حجّتهم . . . تعليل

بينت هذه الآية بعض مذاهب الكفر ، وهم (الدهريون) الذين يعتقدون بقدم العالم ، وينكرون البعث والحياة بعد الموت ، ولا يعترفون على حياة سوى الحياة الدنيا ، فيها يحيون وفيها يموتون ، وما يهلكهم إلا الدهر ، أي توالي الليل والنهار وواضح ما في هذا المذهب من البطلان والافتراء ، فاللّه الذي خلق الإنسان ، ولم يكن شيئا مذكورا ، قادر على أن يعيده مرة أخرى . ومن جهة أخرى ، فلا يجوز شرعا أن نسبّ الدهر أو نشتمه ،

فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم :

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) قال اللّه عز وجل :

يؤذيني ابن آدم بسبب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار . وفي رواية : يؤذيني ابن آدم ، ويقول : يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر ، فأنا الدهر أقلب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما ، وفي رواية : يسب ابن آدم الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار .

ومعنى هذه الأحاديث أن العرب كان من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل ، لأنهم كانوا ينسبون إلى الدهر ما يصيبهم من المصائب والمكاره ، فيقولون :

أصابتهم قوارع الدهر ، وأبادهم الدهر ، كما أخبر اللّه عز وجل عنهم بقوله : (وما يهلكنا إلا الدهر فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد ، وسبّوا فاعلها ، كان مرجع سبهم إلى اللّه تعالى ، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر ، فنهوا عن سب الدهر . وقيل لهم : لا تسبوا فاعل ذلك ، فإنه هو اللّه عز وجل .

2 - جمع المؤنث السالم . .

ورد في هذه الآية كلمة (آياتنا) وهي جمع مؤنث سالم (آية ، آيات) . وسنوضح فيما يلي ما يتعلق بهذا الجمع ، القاعدة العامة لجمع الاسم جمع المؤنث السالم : أن تزيد عليه الألف والتاء ، بدون تغيير فيه ، فتقول : هند : هندات . ويستثني من ذلك :

1 – المختوم بتاء التأنيث ، فتحذف منه التاء ، فتقول في فاطمة : فاطمات .

2 – والاسم المقصور ، إن كانت ألفه ثالثة ردت إلى أصلها ، مثل : عصا : عصوات ، هدى : هديات . وإن كانت رابعة فما فوق قلبت ياء : حبلى حبليات ، مستشفى : مستشفيات .

3 – والاسم الممدود ، إن كانت همزته للتأنيث ، قلبت واوا : سمراء : سمراوات . وإن كانت همزته منقلبة عن أصل ، جاز إبقاؤها وقلبها واوا : (رجاء) اسم لأنثى نقول في جمعه : رجاءات أو رجاوات .

3 – وما كان مثل دعد وسجدة ، فتفتح عينه فتقول : دعدات – سجدات .

وهذه القاعدة تنطبق على كلّ صحيح العين ثلاثي ساكن العين . أما ضخمة وزينب وجوزة وشجرة فتبقى العين على حالها . أما في نحو : خطوة وهند فلا يتعين الفتح ، بل يجوز الإسكان والفتح . ولا يطرد هذا الجمع إلا في :

1 – أعلام الإناث : مثل : مريم – زينب – سعاد – هند .

2 – وما ختم بالتاء : حمزة – جميلة – حسنة .

3 - وما ختم بألف التأنيث المقصورة ك (حبلى) أو الممدودة ك (سمراء) .

4 - مصغر غير العاقل : دريهم - جبيل .

5 - وصف غير العاقل : شامخ وصف جبل .

6 - كلّ خماسي لم يسمع له جمع تكسير ، ك (سرادق) و(حمّام) ، ويلحق بجمع المؤنث السالم في إعرابه (أولات) وما سمي به ك (عرفات) .

يرفع جمع المؤنث السالم بالضمة ، وينصب ويجر بالكسرة .

[سورة الجاثية (45) : آية 26]

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (26)

الإعراب :

(ثمّ) حرف عطف في الموضعين (إلى يوم) متعلّق بـ (يجمعكم) بتضمينه معنى يقودكم أو ينقلكم (لا) نافية للجنس (فيه) متعلّق بخبر لا (الواو) عاطفة (لا) نافية . . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " اللّه يحييكم . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " يحييكم . . . " في محلّ رفع المبتدأ (اللّه) وجملة : " يميتكم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يحييكم وجملة : " يجمعكم . . . " في محلّ رفع خبر معطوفة على جملة يميتكم وجملة : " لا ريب فيه " في محلّ نصب حال من يوم القيامة وجملة : " لكنّ أكثر . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول وجملة : " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر لكنّ

[سورة الجاثية (45) : الآيات 27 إلى 35]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31)

وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

(33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ

(34) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (للّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ملك) (الواو) عاطفة في الموضعين (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يخسر) ،

(يومئذ) ظرف مضاف إلى ظرف بدل من يوم الأول – أو توكيد له – " 1 " .

جملة : " للّه ملك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تقوم الساعة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " يخسر المبطلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة 28 –

(الواو) عاطفة (جاثية) حال من كلّ أمّة " 2 " ، منصوبة ، ونائب الفاعل لفعل (تدعى) ضمير مستتر يعود على كلّ أمّة الثاني (إلى كتابها) متعلّق بـ (تدعى) ، (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بالمبني للمجهول (تجزون) ، والواو ضمير نائب الفاعل (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف . .

وجملة : " ترى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخسر المبطلون وجملة : " كلّ أمّة تدعى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تدعى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ أمّة) وجملة : " تجزون . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر وجملة : " كنتم تعملون "

لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة: "تعملون" في محلّ نصب خبر كنتم (عليكم) متعلّق بـ (ينطق) بتضمينه معنى يشهد (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل ينطق (ما) موصول في محلّ نصب، والعائد محذوف وجملة: "هذا كتابنا . . . "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة: "ينطق . . . "في محلّ نصب حال من كتابنا " 3 "

---

(1) يجوز أن يتعلّق (يومئذ) بـ (يخسر)، و(يوم) يتعلّق بمحذوف تقديره يقوم الحساب، أو يجمع الناس . . .

(2) أو نعت، لأنّ إضافة كلّ إلى أمّة لم تزده معرفة.

(3) أو هي خبر ثان للمبتدأ هذا . . ويجوز أن تكون هي الخبر و(كتابنا) بدل من الإشارة ذا

وجملة: "إنّا كنّا . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كنّا نستنسخ . . . "في محلّ رفع خبر إنّ وجملة: "نستنسخ . . . "في محلّ نصب خبر كنّا وجملة: "كنتم تعملون "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة: "تعملون"

في محلّ نصب خبر كنتم 30 - (الفاء) عاطفة تفريعيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الفاء) الثانية رابطة لجواب أمّا (في رحمته) متعلّق بفعل (يدخلهم) ، (هو) ضمير فصل . . .

(289/700)

وجملة : " الذين آمنوا . . . فيدخلهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة هذا كتابنا وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا وجملة : " يدخلهم ربّهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وجملة : " ذلك . . . الفوز " لا محلّ لها اعتراضيّة 31 - (الواو) عاطفة (أمّا الذين كفروا) مثل أمّا الذين آمنوا ، والخبر مقدّر أي يقول اللّه لهم (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة ، ونائب الفاعل للمبني للمجهول ضمير مستتر يعود على آياتي (عليكم) متعلّق بـ (تتلى) ، (الفاء) عاطفة ومثلها الواو . . .

وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين آمنوا وجملة : " لم تكن آياتي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول مقدّرة أي : ألم تأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم . . .

وجملة : " تتلى عليكم . . . " في محلّ نصب خبر تكن وجملة : " استكبرتم " في محلّ نصب

معطوفة على جملة لم تكن آياتي . .

وجملة : "كنتم قوما . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة استكبرتم

(290/700)

---

32 - (الواو) عاطفة في الموضعين (لا) نافية للجنس (فيها) متعلّق بخبر لا (ما) الأولى نافية والثانية استفهاميّة مبتدأ (الساعة) خبر مرفوع (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (ظنّا) مفعول مطلق منصوب ، ومفعولا نظنّ مقدّران أيّ ما نظنّ البعث كائنا (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة ليس (مستيقنين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما وجملة : " قيل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " إنّ وعد اللّه حقّ " في محلّ رفع نائب الفاعل - هي مقول القول أصلا - وجملة : " الساعة لا ريب فيها " في محلّ رفع معطوفة على جملة نائب الفاعل وجملة : " لا ريب فيها " في محلّ خبر المبتدأ (الساعة) وجملة : " قلتم " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم وجملة : " ما ندري . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " ما الساعة " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي ندري المعلّق بـ (ما) وجملة : " إن نظن إلّا ظنّا " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 1 " وجملة : " ما نحن بمستيقنين " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن نظنّ 33 - (الواو) عاطفة في الموضعين (لهم) متعلّق بـ (بدا) ، (ما) حرف

مصدريّ ، والثاني اسم موصول في محلّ رفع فاعل (حاق) ، (بهم) متعلّق بـ (حاق) ، (به) متعلّق بـ (يستهزئون)

---

(1) قيل إنّ الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره نحن ، وإنّ (إلّا) مؤخّرة أي : إن نحن إلّا نظنّ ظنّا . . . وقد أجاز أبو البقاء الإعراب أعلاه على تقدير الظنّ بمعنى العلم والشكّ أي ما لنا اعتقاد إلّا الشكّ

(291/700)

والمصدر المؤوّل (ما عملوا) في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " بدا لهم سيّئات . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمّا الذين كفروا . . .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " حاق بهم ما كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بدا لهم سيّئات وجملة : "كانوا به يستهزئون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " يستهزئون " في محلّ نصب خبر كانوا " 1 " 34 - (الواو) عاطفة (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ننساكم) ، (ما) حرف مصدريّ (هذا) اسم إشارة نعت ليومكم في محلّ جرّ (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) نافية (لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ ناصرين (ناصرين) ، مجرور لفظا مرفوع محلّا وجملة : " قيل . . . " لا

محلّ لها معطوفة على جملة حاق . . .

وجملة : " ننساكم . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل وجملة : " نسيتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) والمصدر المؤوّل (ما نسيتم) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي نسيانا كنسيانكم لقاء وجملة : " مأواكم النار . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة ننساكم وجملة : " ما لكم من ناصرين . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة ننساكم

---

(1) في المصاحف المطبوعة بالشام ينتهي الجزء الخامس والعشرون عند هذه الآية . . أمّا المصاحف المطبوعة بمصر فينتهي الجزء فيها في آخر السورة ، وقد آثرنا نحن هذه الطبعة المصريّة [. . . . .]

الجدول ج 25 ، ص : 163

35 - (ذلكم) مبتدأ (هزوا) مفعول به ثان منصوب .

والمصدر المؤوّل (أنّكم اتّخذتم . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ذلكم) .

(الفاء) استئنافيّة (اليوم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يخرجون) ، (لا) نافية (منها) متعلّق بـ (يخرجون) المنفي (الواو) عاطفة (لا) نافية ، والواو في (يخرجون ، يستعتبون) نائب الفاعل في كلّ منهما وجملة : " ذلكم بأنّكم اتّخذتم . . . " لا محلّ لها تعليليّة وجملة : " اتّخذتم . . . " في محلّ رفع خبر أنّ وجملة : " غرّتكم الحياة . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة اتّخذتم وجملة : " لا يخرجون منها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لا هم يستعتبون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " يستعتبون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم)

الصرف :

(28) جاثية : مؤنّث جاث ، اسم فاعل من الثلاثي جثا يجثو بمعنى ركع باب نصر ، وزنه فاع والمؤنّث فاعلة ، وفي جاثية إعلال بالقلب لأن أصله جاثوة ، جاء ما قبل الواو مكسورا فقلبت ياء .

(32) مستيقنين : جمع مستيقن ، اسم فاعل من السداسيّ استيقن ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين

البلاغة

1 – الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ " .

حيث شبه الكتاب بشاهد يدلي بشاهدته ، ويشهد بالحق . وقد حذف المشبه به

واستعار له شيئًا من لوازمه ، وهو النطق بالشهادة .

2 – المجاز المرسل : في قوله تعالى " فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ " . الرحمة لا يحل فيها الإنسان

لأنها معنى من المعاني وإن ما يحل في مكانها ومكان الرحمة هو الجنّة أي :

فيدخلهم في جنته ، فاستعمال الرحمة في مكانها مجاز أطلق فيه الحال وأريد المحل ، فعلاقته محلية .

3 – المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ " .

النسيان هو سبب الترك ، وإذا نسي شيئًا فقد تركه وأهمله تماما ، فعلاقة هذا المجاز سببية .

4 – الالتفات : في قوله تعالى " فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها " .

(293/700)

فقد التفت من الخطاب إلى الغيبة ، للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب ، استهانة بهم ، أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيابة النار .

فوائد

1 – أعمالك مسجلة عليك . .

دلت هذه الآية على أن عمل ابن آدم مسجل عليه ، وذلك في قوله تعالى إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فما من عمل يعمله الإنسان أو قول يقوله إلا ويسجل عليه ، ويدخر في كتاب يلقاه يوم القيامة . وقد تضافرت آيات كثيرة تثبت ذلك ، فقال تعالى : ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وقال تعالى وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ . كِراماً كاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ أما ادخارها في كتاب فقال تعالى وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً .

وقال تعالى : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ . وهذه الأعمال ترفع إلى اللّه الاثنين والخميس ، بدليل : أنه سئل عليه الصلاة والسلام عن سبب صيامه الاثنين والخميس ، فقال : فيهما يرفع عمل المرء ، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم .

2 – حلّ إشكال . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى : إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا : قال النحاة بأن الاستثناء المفرغ لا يكون في المفعول المطلق التوكيدي ، لعدم الفائدة فيها وأجيب عن ذلك ، بأن المصدر في الآية نوعي ، على حذف الصفة ، أي أن تظن إلا ظنا ضعيفا . لكن جمهور النحاة تأوّلوا الآية بمعنى : إن نحن إلا نظن ظنا ، وقيل : هي في موضعها ، لأن نظن قد تكون

بمعنى العلم والشك ، فاستثنى الشك : أي مالنا اعتقاد إلا الشك .

وقد أورد الامام النسفي قولا موجزا بهذا الصدد ، فكان بليغا شافيا ، فقال :

(294/700)

(إن نظن إلا ظنا) أصله نظن ظنا ، ومعناه إثبات الظن فحسب ، فأدخل حرف النفي والاستثناء ، ليفاد إثبات الظن ، مع نفي ما سواه ، وازداد نفى ما سوى الظن توكيدا ، بقوله تعالى بعد ذلك : (وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) . وعلى كلّ حال يبقى كلام اللّه عز وجل أكبر من أن ينحصر في قوالب القواعد النحوية ، وأجلّ من أن نخضعه دائما لقوانين النحو ، فهو الأصل ، وما سواه فرع ، وهو الحكم ، وما سواه تبع له ، وإنه ليعلو وما يعلى .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 36 إلى 37]

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (للّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الحمد) (ربّ) بدل من لفظ الجلالة في المواضع الثلاثة - أو نعت له - مجرور . . .

جملة : " للّه الحمد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 37 - (الواو) عاطفة (له الكبرياء) مثل للّه الحمد (في السموات) متعلّق بـ (الكبرياء) " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (الحكيم) خبر ثان مرفوع . . .

وجملة : " له الكبرياء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " هو العزيز . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 25 صـ 155.139 ﴾

---

(1) أو متعلّق بالخبر المحذوف . . أو متعلّق بحال من الكبرياء والعامل فيها الاستقرار .

(295/700)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(45) سورة الجاثية

مكية وآياتها سبع وثلاثون

[سورة الجاثية (45) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ

لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4)
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ
اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)

الإعراب :

(حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) تقدم القول في فواتح السور فجدّد به عهدا ، وتنزيل الكتاب مبتدأ ومن اللّه خبره والعزيز الحكيم نعتان للّه ويجوز أن يعرب تنزيل خبر لمبتدأ محذوف ومن اللّه متعلقان به (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) إن حرف مشبّه بالفعل وفي السموات خبر مقدّم واللام للتأكيد وآيات اسم أن وللمؤمنين

صفة لآيات (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الواو عاطفة وفي خلقكم خبر مقدّم والواو عاطفة وما اسم موصول معطوف على خلقكم وجملة يبث صلة ومن دابة متعلقان بيبث أو بمحذوف حال أي يبثه كائنا من دابة وآيات

مبتدأ مؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يوقنون صفة لقوم واختلاف عطف أيضا على خلقكم منزل تنزيله من أنه متعلق بمحذوف خبر مقدم وما عطف على اختلاف وأنزل اللّه فعل وفاعل والجملة صلة ما ومن رزق حال أو متعلق بأنزل ، فأحيا عطف على أنزل وبه متعلقان بأحيا والأرض مفعول به وتصريف الرياح عطف على اختلاف وآيات مبتدأ مؤخر ولقوم صفة وجملة يعقلون صفة لقوم ، ومن المفيد أن نورد هنا عبارة الزمخشري إذ استوفى القراءات في هاتين الآيتين قال : " وقرىء آيات لقوم يوقنون بالنصب والرفع على قولك إن زيدا في الدار وعمرا في السوق أو وعمرو في السوق وأما قوله آيات لقوم يعقلون فمن العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت فالعاملان إذا نصبت هما إن وفي أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في اختلاف الليل والنهار والنصب في آيات وإذا رفعت فالعاملان الابتداء وفي عملت الرفع .

(297/700)

في آيات والجر في اختلاف ، وقرأ ابن مسعود : وفي اختلاف الليل والنهار ، فإن قلت : العطف على عاملين على مذهب الأخفش سديد لا مقال فيه وقد أباه سيبويه فما وجه تخريج الآية عنده ؟ قلت فيه وجهان عنده : أحدهما أن يكون على إضمار في والذي

حسّنه تقدم ذكره في الآيتين قبلها ويعضده قراءة ابن مسعود ، والثاني أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفا على ما قبله أو على التكرير ورفعها بإضمار هي ، وقرىء واختلاف الليل والنهار بالرفع " (تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ) تلك مبتدأ وآيات اللّه خبر وجملة نتلوها حالية ويجوز أن تكون

آيات اللّه بدلا من اسم الإشارة وجملة نتلوها هي الخبر وعليك متعلقان بنتلوها وبالحق حال أي ملتبسة بالحق (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ) الفاء عاطفة وبأي متعلقان بيؤمنون والاستفهام إنكاري معناه النفي أي لا يؤمنون وحديث مضاف لأي وبعد اللّه ظرف متعلق بمحذوف نعت للحديث ويؤمنون فعل مضارع مرفوع .

البلاغة :

في قوله : إن في السموات إلى قوله يعقلون فن التخيير ، وهو أن يأتي الشاعر أو الكاتب بأبيات أو جمل يسوغ فيها أن تقفى بقواف شتى فيتخير منها قافية يرجحها على سائرها ، فالبلاغة في الآيات تقتضي أن تكون فاصلة الآية الأولى للمؤمنين لأنه سبحانه ذكر العالم بجملته حيث قال السموات والأرض ومعرفة ما في العالم من الآيات الدالة على أن المخترع

قادر عليم حكيم ولا بدّ من التصديق أولا بالصانع حتى يصحّ أن يكون ما في المصنوع من الآيات دليلا على أنه موصوف بتلك الصفات والتصديق هو الإيمان وكذلك قوله تعالى في الآية الثانية لقوم يوقنون فإن خلق الإنسان وتدبير خلق الحيوان والتفكر في ذلك مما يزيده يقينا في معتقده الأول وكذلك معرفة جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار وإنزال الرزق من السماء وإحياء الأرض بعد موتها وتصريف الرياح يقتضي رجاحة العقل ليعلم أن من صنع هذه الجزئيات هو الذي صنع العالم الكلي بعد قيام البرهان ، على أن للعالم الكلي صانعا مختارا فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون فاصلة الآية الثالثة لقوم يعقلون وإن احتيج للعقل في الجميع إلا أن ذكره هنا أمتن بالمعنى من الأول .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 7 إلى 11]

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (10) هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

الإعراب :

)

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) ويل مبتدأ وهي كلمة عذاب ولذلك ساغ الابتداء بها ولكل أفّاك خبره وأثيم نعت وهما صفتا مبالغة للكذب والإثم (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ) جملة يسمع صفة لأفّاك أثيم أو حال من الضمير فيهما ولك أن تجعلها مستأنفة ويسمع آيات اللّه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وجملة تتلى عليه حال من آيات اللّه وعليه متعلقان بتتلى (ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا) ثم حرف عطف للترتيب والتراخي ويصرّ فعل مضارع معطوف على يسمع قال الزمخشري: "وأصله من إصرار الحمار عى العانة وهو أن ينحي عليها صارّا أذنيه" قلت: وفي الصحاح: "صرّ الفرس أذنيه ضمّهما إلى رأسه فإذا لم يوقعوا قالوا أصرّ الفرس بالألف" ومستكبرا حال من فاعل يصرّ وكأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة لم يسمعها خبرها والجملة حال ثانية أي يصرّ حال كونه مثل غير السامع (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة علم في محل جر بإضافة الظرف إليها ومن آياتنا متعلقان بعلم أو بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لشيئا وشيئا مفعول به وجملة اتخذها لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والهاء مفعول

اتخذ الأول وهزوا مفعول اتخذ الثاني (أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) اسم الإشارة مبتدأ ولهم خبر مقدّم وعذاب مبتدأ مؤخر ومهين صفة لعذاب والجملة خبر لأولئك وجملة أولئك

مستأنفة (مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ) من ورائهم خبر مقدم وجهنم مبتدأ مؤخر والواو اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدّام قال :

أليس ورائي أن تراخت منيتي أدبّ مع الولدان أزحف كالنسر

(300/700)

و سيرد المزيد من هذا البحث في باب البلاغة . (وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً) الواو عاطفة ولا نافية ويغني فعل مضارع مرفوع وعنهم متعلقان بيغني وما موصول فاعل ويجوز أن تكون مصدرية فالمصدر المؤول هو الفاعل وشيئا مفعول به (وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ) عطف على ما كسبوا وما يجوز أيضا أن تكون موصولة أو مصدرية ومن دون اللّه حال لأنه كان في الأصل صفة لأولياء وأولياء مفعول اتخذوا الثاني والأول محذوف أي اتخذوه (وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) الواو عاطفة ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وعظيم نعت لعذاب (هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ) كلام مستأنف مسوق لبيان هداية القرآن وهذا مبتدأ وهدى خبر والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة الموصول وبآيات ربهم متعلقان بكفروا ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر والجملة خبر اسم الموصول ومن رجز صفة لعذاب والرجز مطلق العذاب وأليم صفة لرجز .

البلاغة :

التضاد : في قوله " من ورائه جهنم " التضاد وهو استعمال لفظ يحتمل المعنى وضدّه وهو مشترك بين المعنيين فيستعمل في الشيء وضدّه ، والبيت الذي أوردناه شاهدا في باب الإعراب لعبيد بن الأبرص

والهمزة فيه للتقرير وقد توسع في الوراء حتى استعمل في كل غيب ومنه المستقبل وأدبّ أمشي بتؤدة وأن المصدرية مقدرة قبله لأنه اسم ليس وأزحف يحتمل أنه بدل من أدبّ وأن حال وكالنسر حال أيضا .

الفوائد :

(301/700)

عودة الضمير : مما يشكل فهمه لأول وهلة عودة الضمير في قوله " اتخذها هزوا " لأن ظاهر الكلام يوهم أنه عائد على شيء وهو مذكر ولكنه عدل عن اتخذه إلى اتخذها إشعارا بأنه إذا أحسّ بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها اللّه على محمد صلى اللّه عليه وسلم خاص في الاستهزاء وبجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه منها ، وقال الزمخشري " ويحتمل وإذا علم من آياتنا شيئا يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا

يتسلق به على الطعن والغميزة افترصه واتخذ آيات اللّه هزوا وذلك نحو افتراص ابن الزبعرى قوله عزّ وجلّ : إنكم وما تدعون من دون اللّه حصب جهنم ومغالطته رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقوله خصمتك ، ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية :

نفسي بشيء من الدنيا معلقة اللّه والقائم المهدي يكفيها

حيث أراد عتبة " هذا وقد كنى أبو العتاهية بالشيء عن جارية من حظايا المهدي اسمها عتبة ولذلك أعاد عليه الضمير مؤنثا وبعده :

إني لأيأس منها ثم يطمعني فيها احتقارك للدنيا وما فيها

ومعنى البيتين أنه لا يريد من الدنيا غير هذا الشيء والقائم بالأمر يكفيها أي يكفيني تلك الحاجة أو يكفي نفسي ما تريد واللّه بقطع الهمزة لأن أول المصراع محل ابتداء في الجملة ، ثم أنا أيأس منها

فأقطع طمعي منها ثم أطمع فيها ثانيا بسبب احتقارك للدنيا وما فيها وهو مدح بنهاية الكرم وروي أنه كتب ذلك في ثوب وأدرجه في برنية وأهداها للمهدي فهمّ بدفعها إليه فقالت الجارية أتدفعني إلى رجل مكتسب فأمر بملء البرنية مالا ودفعها إليه فقال للخزّان إنما أمر لي بدنانير فقال له الخزّان نعطيك دراهم واختلفا ، فقالت لو كان عاشقا لما فرّق بينهما .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 12 إلى 15]

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)

الإعراب :

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ) كلام مستأنف مسوق للاعتبار بتسخير البحر على عظمته والسفن الجارية فيه لمخلوق هو أضأل شيء بالنسبة لهما والله مبتدأ والذي خبره وجملة سخر صلة ولكم متعلقان بسخر والبحر مفعول به واللام للتعليل وتجري فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بتجري أيضا والفلك فاعل وبأمره حال (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) عطف على ما تقدم ولعلّ واسمها وخبرها (وَسَخَّرَ

لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

الواو عاطفة والجملة عطف على سابقتيها وجميعا حال من ما ووهم الجلال وتبع في إعرابه ابن مالك حيث عدّها من المؤكدات ، فأعربها توكيدا لما الموصولة الواقعة مفعولا لسخر ولو كان كذلك لقيل جميعه ثم التوكيد بجمع قليل فلا يحمل عليه التنزيل ، ومنه حال أي سخرها كائنة منه تعالى وحاصلة من عنده ، وأجاز الزمخشري أن يتعلق بمحذوف خبر مبتدأ محذوف تقديره هي جميعا منه (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام للتأكيد وآيات اسم إن المؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يتفكرون صفة لقوم (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وللذين متعلقان بقل وجملة آمنوا صلة الموصول لا محل لها ويغفروا فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب تشبيها بالشرط والجزاء كقولك قم تصب خيرا وقيل هو على حذف اللام وقيل على معنى قل لهم اغفروا يغفروا فهو جواب أمر محذوف دلّ عليه الكلام وقد تقدم القول مسهبا في قوله تعالى " قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة " في سورة إبراهيم فجدد به عهدا وللذين متعلقان بيغفروا وجملة لا يرجون صلة الموصول وأيام اللّه مفعول وسيأتي معنى أيام اللّه في باب الفوائد ، وليجزي : اللام للتعليل ويجزي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بيغفروا لأنه علّة لها وقوما مفعول به والفاعل مستتر تقديره هو يعود على

اللّه وبما متعلقان بيجزي وما يجوز أن تكون موصولة أو مصدرية وكان واسمها وجملة يكسبون خبرها ، وسيأتي سر تنكير قوما في باب البلاغة (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) من شرطية في محل رفع مبتدأ والجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية الجزاء وعمل

فعل

(304/700)

ماض في محل جزم فعل الشرط والفاعل مستتر يعود على من وصالحا مفعول به أو نعت لمصدر محذوف .

البلاغة :

في قوله تعالى " ليجزي قوما بما كانوا يكسبون " التنكير فقد نكر قوما وهم معروفون ، وقد اختلف الرواة وأصحاب السير فيهم مما يمكن الرجوع إليه في مظانه وإنما جنح إلى التنكير تعظيم

رب لوقائعهم المشهورة على حدّ قول السموأل :

وأيامنا مشهورة في عدونا لها غرر معلومة وحجول

وقال ظالم بن البراء الفقيمي في يوم ذي بهدى بوزن سكرى :

ونحن غداة يوم ذوات بهدى لدى الوتدات إذ غشيت تميم

ضربنا الخيل بالأبطال حتى تولت وهي شاملها الكلوم

وقال جرير للأخطل ، يعيّره بذلك اليوم :

هل تعرفون بذي بهدى نوار سنا يوم الهذيل بأيدي القوم منتشر

وارجع إلى الأغاني والعمدة ففيهما تفصيل واف لأيام العرب في الجاهلية والإسلام .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 16 إلى 21]

وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (16) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (21)

الإعراب :

(وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) كلام مستأنف مسوق لإعلام النبي صلى اللّه عليه وسلم أن السبيل التي يتمشى عليها قومه هي السبيل التي تمشى عليها من تقدمهم من الأمم . واللام جواب للقسم

(306/700)

المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل وبني إسرائيل مفعول به أول والكتاب مفعول به ثان والحكم والنبوّة معطوفان على الكتاب (وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ) ورزقناهم عطف على آتينا وهو فعل وفاعل ومفعول به ومن الطيبات متعلقان برزقناهم وفضلناهم على العالمين عطف على ما تقدم ومعنى التفضيل أنه لم يؤت غيرهم مثل ما آتيناهم (وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ) عطف أيضا وبينات مفعول به ثان وعلامة نصبه الكسرة لأنه جمع مؤنث سالم ومن الأمر صفة لبيّنات أي دلائل ظاهرة في أمر الدين ، فما الفاء عاطفة وما نافية واختلفوا

فعلى وفاعل وإلا أداة حصر ومن بعد متعلقان باختلفوا وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالإضافة وجاءهم العلم فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وبغيا مفعول من أجله وبينهم ظرف متعلق بمحذوف صفة لبغيا (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) إن واسمها وجملة يقضي خبرها وبينهم ظرف متعلق بيقضي ويوم القيامة متعلق بمحذوف حال وفيما متعلقان بيقضي أيضا وجملة كانوا صلة وجملة يختلفون خبر كان وفيه متعلقان بيختلفون (ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي والكلام مستأنف وجعلناك فعل وفاعل ومفعول به أول وعلى شريعة في موضع المفعول الثاني والشريعة في الأصل ما يرده الناس من المياه والأنهار فاستعير ذلك للدين والعبادة لأن العباد يردون ما تحيا به نفوسهم ومن الأمر نعت لشريعة والفاء عاطفة واتبعها فعل أمر وفاعل ومفعول به (وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) الواو حرف عطف ولا ناهية وتتبع فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وأهواء

(307/700)

مفعول به والذين مضاف إليه وجملة لا يعلمون صفة (إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) الجملة لا محل لها لأنها تعليل للنهي عن اتباع أهوائهم وإن واسمها وجملة لن يغنوا خبرها

وعنك متعلقان بيغنوا ومن اللّه متعلقان بيغنوا أيضا وشيئا مفعول (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) الواو عاطفة وإن واسمها وبعضهم مبتدأ وأولياء بعض خبر والجملة خبر إن واللّه مبتدأ ووليّ المتقين خبر (هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) هذا مبتدأ وبصائر خبره وجمع الخبر باعتبار ما ينطوي عليه المبتدأ وهو القرآن من آيات ودلائل واضحات وللناس صفة لبصائر وهدى ورحمة معطوفان على بصائر ولقوم نعت وجملة يوقنون نعت لقوم والجملة كلها مستأنفة (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ)

أم منقطعة بمعنى الهمزة وبل والكلام مستأنف مسوق لبيان تغاير حالي المسيئين والمحسنين ، وحسب فعل ماض والذين فاعله وجملة اجترحوا السيئات صلة وأن وما في حيزها في تأويل مصدر سدّت مسدّ مفعولي حسب ونجعلهم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن والهاء مفعول نجعل الأول وكالذين في موضع المفعول الثاني وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا (سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ)

سواء حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور وهما كالذين آمنوا والمعنى أحسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال استواء محياهم ومماتهم والاستفهام بمعنى الإنكار والنفي ومحياهم فاعل بسواء وساء فعل ماض للذم وما هنا مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر هو فاعل ساء أو ما نكرة تامة بمعنى شيء في محل

نصب على التمييز وفاعل ساء مستتر تقديره هو .

الفوائد :

(308/700)

1- مبكاة العابدين : هذه الآية " أم حسب الذين اجترحوا السيئات " إلخ ، تسمى مبكاة العابدين ، وعن تميم الداري رضي اللّه عنه أنه كان

يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية فجعل يبكي ويردّد إلى الصباح ساء ما يحكمون ، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه : ليت شعري من أيّ الفريقين أنت ؟

2- قراءة ثانية للآية : هذا وقد قرىء سواء محياهم ومماتهم بالرفع فسواء خبر مقدّم ومحياهم مبتدأ مؤخر وقد اختلف في إعراب هذه الجملة فقال الزمخشري أنها بدل من الكاف لأ الجملة تقع مفعولا ثانيا فكانت في حكم المفرد وردّ عليه أبو حيان قائلا : " وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري من إبدال الجملة من المفرد قد أجازه أبو الفتح واختاره ابن مالك وأورد على ذلك شواهد على زعمه ولا يتعين فيها البدل " إلى أن يقول " والذي يظهر لي أنه إذا قلنا بتشبث الجملة بما قبلها أن تكون الجملة في موضع الحال والتقدير أم حسب الكفار أن مصيرهم مثل المؤمنين في حال استواء محياهم ومماتهم ليسوا كذلك بل هم

مفترقون أي افتراق في الحالتين وتكون هذه الحال مبينة ما انبهم في المثلية الدال عليها الكاف التي هي في موضع المفعول الثاني " .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 22 إلى 26]

(309/700)

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (22) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (23) وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (26)

الإعراب :

)

(310/700)

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) لك أن تجعل الكلام معطوفا على ما تقدم ليكون بمثابة الدليل على نفي الاستواء بين الفريقين ولك أن تجعله استئنافا مسوقا لهذه الغاية .

وخلق اللّه السموات فعل وفاعل ومفعول به والأرض عطف على السموات وبالحق حال من الفاعل أو المفعول (وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) الواو عاطفة واللام للتعليل وتجزى فعل مضارع منصوب بأن مقدرة بعد لام التعليل والكلام معطوف على قوله بالحق لأن كلا من الباء واللام تكونان للتعليل فكان الخلق معللا بالجزاء واختار الزمخشري أن يكون معطوفا على معلل محذوف تقديره ليدل بها على قدرته ولتجزى كل نفس ، واختار ابن عطية أن تكون لام العاقبة أو الصيرورة أي وصار الأمر منها من حيث اهتدى بها قوم وضلّ بها آخرون وليس ببعيد ، والواو للحال وهم مبتدأ وجملة لا يظلمون خبر والجملة في محل نصب على الحال (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ) الهمزة للاستفهام المقصود به الأمر أي أخبرني ، ورأيت فعل وفاعل ومن مفعول رأيت الأول والثاني محذوف تقديره مهتديا وجملة اتخذ صلة الموصول وإلهه مفعول أول لاتخذ وهواه مفعولها الثاني وأضله اللّه فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وعلى علم حال من المفعول وهو أولى من جعله من الفاعل كما أعربه الجلال والمعنى أضله اللّه وهو عالم بالحق لأن

المبالغة فيه أشد والتشنيع والتنديد به أكثر (وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً) عطف على ما تقدم وقد تقدم الكلام على هذه الآية في البقرة (فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) الفاء عاطفة ومن اسم استفهام بمعنى النفي ، أي لا أحد يهديه ، في محل رفع مبتدأ وجملة يهديه خبر ومن بعد اللّه متعلقان بيهديه والهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف مقدر أي تصرّون على الغيّ ولا نافية وتذكرون فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه (وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتفنيد مزاعمهم إذ كانوا يزعمون أن هلاك الأنفس منوط بمرور الأيام والليالي ، وسيرد المزيد من هذا البحث في باب الفوائد ، وما نافية وهي مبتدأ وإلا أداة حصر وحياتنا مبتدأ والدنيا خبر وجملة نموت مستأنفة مسوقة لإيراد المزيد من عقائدهم الفاسدة وجملة نحيا عطف عليها والواو حالية وما نافية ويهلكنا فعل مضارع ومفعول به مقدم وإلا أداة حصر والدهر فاعل يهلكنا (وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) الواو للحال وما نافية ولهم خبر مقدم وبذلك متعلقان بعلم ومن حرف جر زائد وعلم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر وإن نافية وهم مبتدأ وإلا أداة حصر

وجملة يظنون خبرهم (وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة تتلى في محل جر بإضافة الظرف إليها وهو مبني للمجهول وعليهم متعلقان بتتلى وآياتنا نائب فاعل وبيّنات حال أي واضحات الدلالة وما نافية وكان فعل ماض ناقص وحجتهم خبر كان المقدّم وإلا أداة حصر وأن قالوا

(312/700)

أن ومدخولها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان المؤخر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وائتوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وبآبائنا متعلقان بائتوا والجملة مقول القول وإن حرف

شرط جازم وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف تقديره فائتوا وصادقين خبر كنتم (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ) قل فعل أمر والله مبتدأ وجملة يحييكم خبر ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي للإشارة إلى المدة الفاصلة بين الحياة والموت ويميتكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول ثم حرف عطف كما تقدم ويجمعكم فعل مضارع وفاعل مستتر والكاف مفعول وإلى يوم

القيامة متعلقان بيجمعكم ولا نافية للجنس وريب اسمها وفيه خبرها والجملة حال من يوم القيامة (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) الواو حالية ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها .

الفوائد :

الدهر في اللغة مدة بقاء العالم ، من دهرهم أمر أي أصابهم به الدهر وفي القاموس " ودهرهم أمر كمنع نزل بهم مكروه وهم مدهور بهم ومدهورون " وكان من شأن العرب إذا ضربهم سوء نسبوه للدهر اعتقادا منهم أنه الفعّال لما يريد ، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الدهر حتى يوجد ذلك في أشعار المسلمين ، قال ابن دريد في مقصورته :

يا دهر إن لم تك عتبى فاتئد في إروادك والعتبى سوا

وقد فند أبو العلاء في لزومياته آراء الدهريين فقال :

ودان أناس بالجزاء وكونه وقال رجال إنما أنتم بقل

وهذا رد على الدهريين الذين يقولون : إن العالم قديم بالطبع لم يزل كذلك ولم يحدث بإحداث محدث والناس كالنبات ينبتون ويعودون بالموت هشيما ، وقال أبو العلاء في الرد على ابن الراوندي وكتابه التاج في رسالة الغفران ومما قاله : " وأما ابن الراوندي فلم يكن إلى

المصلحة بمهدي وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلا ، وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة : أف وتف ، وجورب وخف " وقال صلى اللّه عليه وسلم : " لا تسبّوا الدهر فإن اللّه هو الدهر " أي لأنه تعالى هو الفعّال لما يريد لا الدهر والحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 27 إلى 31]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31)

اللغة :

(جاثِيَةً) يقال جثا على ركبتيه جثّوا ورأيته جاثيا بين يديه ورأيتهم جثيا عنده وفي الحديث : " أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي اللّه تعالى يوم القيامة " وتجاثوا على الركب فأجاثى خصمه مجاثاة وصار فلان جثوة من تراب قال طرفة :

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صمّ من صفيح منضّد

أي أرى قبر البخيل والجواد كومتين من تراب عليهما حجارة عراض صلاب فيما بين قبور عليها حجارة عراض قد نضدت وعبارة

(314/700)

القرطبي : " وفي الجاثية تأويلات خمسة : الأول قال مجاهد مستوفزة وقال سفيان المستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله قال الضحاك : وذلك عند الحساب ، الثاني مجتمعة قاله ابن عباس وقال الفرّاء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين ، الثالث متميزة قاله عكرمة ، الرابع خاضعة بلغة قريش ، الخامس باركة على الركب قاله الحسن ، والجثو الجلوس على الركب يقال جثا على ركبتيه يجثو ويجثى جثوا وجثيا على فعول فيهما وقد مضى في مريم ، وأصل الجثوة الجماعة من كل شيء ثم قيل هو خاص بالكفّار قاله يحيى بن سلام وقيل إنه عامّ للمؤمن والكافر انتظارا للحساب وقد روى سفيان بن عيينة عن عمر بن عبد اللّه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : كأني أراكم بالركب جاثين دون جهنم " هذا وقرىء جاذية بالذال والجذو أشد استيفازا من الجثو لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه .

(نَسْتَنْسِخُ) أي نستكتب الملائكة أعمالكم ، وفي الأساس :

" نسخت كتابي من كتاب فلان وانتسخته واستنسخته بمعنى ويكون الاستنساخ بمعنى الاستكتاب " إنّا كنّا نستنسخ " وهذه نسخة عتيقة ونسخ عتق " والمعنى نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون وإثباته فليس المراد بالنسخ إبطال شيء وإقامة آخر مقامه .

الإعراب :

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لتعميم القدرة بعد تخصيصها بالإحياء والإماتة والجمع لأن معنى المالك أن يتصرف بما يملك كما يشاء ، ولله خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ مؤخر (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ) الواو استئنافية ويوم ظرف متعلق بيخسر وجملة تقوم الساعة في محل جر بإضافة الظرف

(315/700)

إليها ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله وهو بدل من يوم تقوم والتنوين في يومئذ تنوين عوض عن جملة أي يوم تقوم الساعة وقيل العامل في ويوم تقوم ما يدل عليه الملك قالوا لأن السماء والأرض يتبدلان فكأنه قيل ولله ملك السموات والأرض والملك يوم القيامة ويومئذ على هذا منصوب بيخسر ويخسر المبطلون فعل وفاعل (وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا) الواو عاطفة وترى فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنت وكل أمة مفعول به أول

إن كانت الرؤية علمية ولكن سياق الكلام يرجح كونها بصرية وجاثية مفعول به ثان على الأول وحال على الثاني وكل أمة مبتدأ وجملة تدعى إلى كتابها خبر (الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) اليوم ظرف متعلق بتجزون وتجزون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وما مفعول به ثان لتجزون والجملة مقول قول محذوف أي يقال لهم اليوم تجزون وكان واسمها وجملة تعملون خبرها والجملة صلة ما (هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ) هذا مبتدأ وكتابنا خبر وجملة ينطق خبر ثان أو في موضع النصب على الحال ويجوز أن يكون كتابنا بدلا من هذا وجملة ينطق خبر هذا وبالحق حال وعليكم متعلقان بينطق ، وسيأتي معنى نطق الكتاب في باب البلاغة (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) إن واسمها وجملة كنّا خبر إنّا وجملة نستنسخ خبر كنّا وما مفعول به وجملة كنتم صلة ما وجملة تعملون خبر كنتم (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ) الفاء عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل للمجمل المفهوم من قوله ينطق عليكم بالحق أو لتجزون والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة للموصول وعملوا الصالحات عطف على آمنوا ، فيدخلهم الفاء رابطة لجواب أما وجملة يدخلهم ربهم في رحمته خبر الذين (ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) تقدم

إعرابها كثيرا (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ) الواو عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة وجواب

أما محذوف تقديره فيقال لهم والهمزة للاستفهام والفاء عاطفة على الجواب المحذوف ولم حرف نفي وقلب وجزم وتكن فعل مضارع مجزوم بلم والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم تكن ، وآياتي اسم تكن وجملة تتلى عليكم خبرها (فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ) الفاء عاطفة واستكبرتم فعل وفاعل وكنتم كان واسمها وقوما خبرها ومجرمين نعت لقوما .

البلاغة :

1- الاستعارة المكنية : في قوله " هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق " استعارة مكنية ، شبّه الكتاب بشاهد يؤدي شهادته بالحق وحذف المشبه به واستعار له شيئا من لوازمه وهو النطق بالشهادة .

2- وفي قوله : " فيدخلهم في رحمته " مجاز مرسل علاقته الحالية أي في جنته لأن الرحمة لا يحلّ فيها الإنسان لأنها معنى من المعاني وإنما يحلّ في مكانها فاستعمال الرحمة في مكانها مجاز أطلق فيه الحال وأريد المحل فعلاقته الحالية .

[سورة الجاثية (45) : الآيات 32 إلى 37]

وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

(33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ
(34) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها
وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36)

(317/700)

وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

الإعراب :

(وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ) الواو عاطفة والكلام معطوف على ما سبق لأنه من جملة ما يقال لهم ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وقيل فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وإن واسمها وخبرها والجملة مقول القول والساعة مبتدأ وجملة لا ريب فيها خبره وقيل الساعة عطف على محل إن واسمها معا لأن لإن واسمها موضعا وهو الرفع بالابتداء وقرئ والساعة بالنصب عطف على الوعد والجملة في محل نصب سدّت مسدّ مفعولي ندري لأنها علقت بالاستفهام وجملة قلتم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وما نافية وندري فعل مضارع مرفوع وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ والساعة خبره (إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ

بِمُسْتَيْقِنِينَ) إن نافية ونظن فعل مضارع مرفوع وإلا أداة حصر وظنا مفعول مطلق وهذا التركيب من المشكلات التي دندن المعربون والمفسرون حولها ، وسنورد لك المزيد منها في باب الفوائد ، والواو حرف عطف وما نافية حجازية ونحن اسمها والباء حرف جر زائد ومستيقنين مجرور بالباء لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما (وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) الواو استئنافية وبدا فعل ماض ولهم متعلقان ببدا وسيئات فاعل وما مضاف إليه وجملة عملوا صلة ما وحاق بهم عطف على بدا لهم وما فاعل حاق وجملة كانوا صلة وبه متعلقان بيستهزئون وجملة يستهزئون

(318/700)

خبر كانوا (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا) الواو عاطفة وقيل فعل ماض مبني للمجهول واليوم ظرف متعلق بننساكم وكما نعت لمصدر محذوف ونسيتم فعل وفاعل ولقاء يومكم مفعول به وقد توسع في الظرف فأضيف إليه ما هو واقع فيه على حدّ قوله مكر الليل ، وهذا نعت ليومكم أو بدل منه (وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ) الواو عاطفة ومأواكم خبر مقدّم والنار مبتدأ مؤخر ويجوز العكس والواو عاطفة وما نافية ولكم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وناصرين مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ

مؤخر (ذِلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً) ذلكم مبتدأ والإشارة إلى العذاب العظيم الذي أعدّ لهم وبأنكم أن وما في حيزها في محل جر بالباء والجار والمجرور خبر ذلك وأن واسمها وجملة اتخذتم خبرها وآيات اللّه مفعول اتخذتم الأول وهزوا مفعول اتخذتم الثاني (وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) الواو حرف عطف وغرّتكم فعل ماض ومفعول به مقدم والحياة فاعل مؤخر والدنيا نعت للحياة (فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) الفاء الفصيحة واليوم ظرف متعلق بيخرجون ولا نافية ويخرجون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل ومنها متعلقان بيخرجون ولا عطف على ما تقدم وهم مبتدأ وجملة يستعتبون خبر (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ) الفاء استئنافية وللّه خبر مقدّم والحمد مبتدأ مؤخر ورب السموات بدل أو نعت للّه وكذلك ما بعده (وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الواو عاطفة وله خبر مقدم والكبرياء مبتدأ مؤخر وفي السموات حال من الكبرياء ويجوز أن يتعلق بالاستقرار الذي تعلق به الظرف الأول واختار بعضهم أن يتعلق بنفس لأنه مصدر وهو مبتدأ و

العزيز الحكيم خبران له .

البلاغة :

1- المجاز المرسل أو الاستعارة المكنية : في قوله " وقيل اليوم ننساكم " إلخ مجاز مرسل علاقته السببية لأن النسيان سبب الترك وإذا نسي الشيء فقد تركه وأهمله تماما وقال بعضهم : ويجوز أن يعتبر في ضمير الخطاب الاستعارة بالكناية بتشبيههم بالأمر المنسي في تركهم في العذاب وعدم المبالاة بهم وتجعل نسبة النسيان قرينة الاستعارة .

2- الالتفات : وذلك في قوله " فاليوم لا يخرجون منها " فقد التفت من الخطاب إلى الغيبة عند ما انتهى إلى هذه المثابة التي صاروا إليها فهم جديرون بإسقاطهم من رتبة الخطاب احتقارا لهم واستهانة بهم .

الفوائد :

أشرنا إلى الإشكال الوارد في قوله تعالى " إن نظن إلا ظنا " لأن المصدر المؤكد لا يجوز أن يقع استثناء مفرغا فلا يقال ما ضربت إلا ضربا لعدم الفائدة لكونه بمنزلة أن يقال ما ضربت إلا ضربت ، ومن المقرر عند النحويين أنه يجوز تفريغ العامل لما بعده من جميع المعمولات إلا المفعول المطلق فلا يقال ما ظننت إلا ظنا لاتحاد مورد النفي والإثبات وهو الظن والحصر إنما يتصور حين تغاير موردهما وفيما يلي ما قاله المعربون :

فقال المبرد أصله إن نحن إلا نظن ظنا وهو يريد أن مورد النفي محذوف وهو كون المتكلم على فعل من الأفعال فهذا هو مورد النفي ومورد الإثبات كونه يظن ظنا فكلمة إلا وإن

كانت متأخرة لفظا فهي متقدمة في التقدير فمدلول الحصر إثبات الظن لأنفسهم ونفي ما عداه ومن جملة ما عداه اليقين والمقصود نفيه لكنه نفي ما عدا الظن مطلقا للمبالغة في نفي اليقين ولذلك أكد بقوله وما نحن بمستيقنين .

أما أبو حيان فأوّلها على حذف وصف المصدر حتى يصير مختصا لا مؤكدا وتقديره إلا ظنا ضعيفا أو على تضمين نظن معنى نعتقد ويكون ظنا مفعولا به .

وقال الزمخشري : " فإن قلت : ما معنى قوله إن نظن إلا ظنا ؟

(320/700)

قلت : أصله نظن ظنا ومعناه إثبات الظن مع نفي ما سواه وزيد نفي ما سوى الظن توكيدا بقوله : وما نحن بمستيقنين .

وردّ أبو حيان على الزمخشري كعادته فقال : " هذا كلام من لا شعور له بالقاعدة النحوية من أن التفريغ يكون في جميع المعمولات من فاعل ومفعول وغيره إلا المصدر المؤكد فإنه لا يكون فيه .

أما أبو البقاء فقال : " تقديره إن نحن إلا نظن ظنا فإلا مؤخرة لولا هذا التقدير لكان المعنى ما نظن إلا ظنا وقيل هي في موضعها لأن نظن قد تكون بمعنى العلم والشك فاستثني الشك

أي ما لنا اعتقاد إلا الشك. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 141.

164﴾

(321/700)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الأول بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/701)

الجزء الأول بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الأحقاف)

(4/701)

(سورة الأحقاف)

(5/701)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الأحقاف

مقصودها إنذار الكافرين بالدلالة على صدق الوعد في قيام الساعة اللازم للعزة والحكمة الكاشف لهما أتم كشف بما وقع الصدق في الوعد به من إهلاك المكذبين بما يضاد حال بلادهم وأنه لا يمنع من شيء من ذلك مانع لأن فعل ذلك لا شريك له فهو المستحق للإفراد بالعبادة ، وعلى ذلك دلت تسميتها بالأحقاف الدالة على هدوء الريح وسكون الجو بما دلت عليه قصة قوم هود عليه الصلاة والسلام من التوحيد وإنذارهم بالعذاب دنيا وأخرى ومن إهلاكهم وعدم إغناء ما عبدوه عنهم ولا يصح تسميتها بهود ولا تسمية هود بالأحقاف لما ذكر من المقصود بكل منهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 114 ﴾

(6/701)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . حم الأحقاف)

السّورة مكِّيّة بالاتِّفاق .

آياتها خمس وثلاثون فى الكوفيّين ، وأَربع فى الباقين . . كلماتها ثلاثمائة وأَربع وأَربعون .

وحروفها أَلفان وخمسمائة وخمس وتسعون .

المختلف فيها آية واحدة : حم .

فواصل آياتها (من) سمّيت سورة الأَحقاف ، لقوله فيها : ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : إلزام الحجّة على عبادة الأَصنام ، الإِخبار عن تناقض كلام المتكبّرين ، وبيان نبوّة سيّد المرسلين ، وتأْكيد ذلك بحديث موسى ، والوصيّة بتعظيم الوالدَيْن ، وتهديد المتنعّمين ، والمترفِّهين ، والإِشادة بإِهلاك عاد العادين ، والإِشارة إلى الدّعوة ، وإِسلام الجنّيين ، وإِتيان يوم القيامة فجأَة ، واستقلال لبث اللابثين فى قوله : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آيتان ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي ﴾ م ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ ن ﴿ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ م آية السيف ن .

ما فى هذه السّورة من المتشابه سبق وذكر [فى المتشابه] ﴿ أَوْلِيَآءُ أُوْلَائِكَ ﴾ [أَى] لم يجتمع فى القرآن همزتان مضمومتان غيرهما .

فضل السّورة

فيه حديث أُبىّ المردودُ صحة : مَنْ قرأَ الأَحقاف أُعطى من الأَجر بعدد كلّ رجل فى

الدّنيا عشر حسنات ، ومُحِي عنه عشرُ سيئات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 428. 429 ﴾

(7/701)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الأحقاف

410 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) وقال تعالى فى السجدة (تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) الآيات .

جوابه :

أن آية السجدة : وردت بعد ما تقدم ذكر الكفار من الأمم

وعقابهم ، فناسب ذلك بسب ما أعد للمؤمنين من النعم والأمن وثوابهم . وآية الأحقاف :

مساقة على الاختصار ،

فناسب ما وردت به .

411 - مسألة :

قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا) تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 338﴾

(8/701)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

سميت هذه السورة " سورة الأحقاف " في جميع المصاحف وكتب السنة ، ووردت تسميتها بهذا الاسم في كلام عبد الله بن عباس .

روى أحمد بن حنبل بسند جيد عن ابن عباس قال أقرأني رسول الله سورة من آل حم وهي الأحقاف ، وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت ثلاثين .

وكذلك وردت تسميتها في كلام عبد الله بن مسعود أخرج الحاكم بسند صححه عن ابن مسعود قال : أقرأني رسول الله سورة الأحقاف الحديث .

وحديث ابن عباس السابق يقتضي أنها تسمى ثلاثين إلا أن ذلك لا يختص بها فلا يعد من أسمائها .

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم .

ووجه تسميتها " الأحقاف " ورود لفظ الأحقاف فيها ولم يرد في غيرها من سور القرآن .

وهي مكية قال القرطبي : باتفاق جميعهم ، وفي إطلاق كثير من المفسرين .

وبعض المفسرين نسبوا استثناء آيات منها الى بعض القائلين ، فحكى ابن عطية استثناء آيتين هما قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ إلى ﴿ الظالمين ﴾ فإنها أشارت إلى إسلام عبد الله بن سلام وهو إنما أسلم بعد الهجرة ، وقوله ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف : 35] .

وفي الإتقان ثلاثة أقوال باستثناء آيات ثلاث منها الاثنتان اللتان ذكرهما ابن عطية والثالثة ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ إلى قوله ﴿ خاسرين ﴾ .

[الأحقاف : 15-18] وسيأتي ما يقتضي أنها نزلت بعد مضي عامين من البعثة وأسانيد جميعها متفاوتة .

وأقواها ما روي في الآية الأولى منها ، وسنبين ذلك عند الكلام عليها في مواضعها .

وهذه السورة معدودة الخامسة والستين في عداد نزول السور ، نزلت بعد الجاثية وقبل

الذاريات .

وعدت آيها عند جمهور أهل الأمصار أربعا وثلاثين ، وعدها أهل الكوفة

(9/701)

خمسا وثلاثين والاختلاف في ذلك مبني على أن ﴿ حم ﴾ تعتبر آية مستقلة أو لا .

أغراضها

من الأغراض التي اشتملت عليها أنها افتتحت مثل سورة الجاثية بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنه منزل من عند الله .

والاستدلال بإتقان خلق السماوات والأرض على التفرد بالإلهية ، وعلى إثبات جزاء الأعمال .

والإشارة إلى وقوع الجزاء بعد البعث وأن هذا العالم صائر إلى فناء .

وإبطال الشركاء في الإلهية .

والتدليل على خلوهم عن صفات الإلهية .

وإبطال أن يكون القرآن من صنع غير الله .

وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم واستشهاد الله تعالى على صدق رسالته

واستشهاد شاهد بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام .

والثناء على الذين آمنوا بالقرآن وذكر بعض خصالهم الحميدة وما يضادها من خصال أهل الكفر وحسدهم الذي بعثهم على تكذيبه .

وذكرت معجزة إيمان الجن بالقرآن .

وختمت السورة بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأقحم في ذلك معاملة الوالدين والذرية مما هو من خلق المؤمنين ، وما هو من خلق أهل الضلالة .

والعبرة بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة ، وأن الله أخذهم بكفرهم وأهلك أمما أخرى فجعلهم عظة للمكذبين وأن جميعهم لم تغن عنهم أربابهم المكذوبة .

وقد أشبهت كثيرا من أغراض سورة الجاثية مع تفنن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 26 صـ 5.6﴾

(10/701)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الأحقاف

الوحدة الأولى: 1 – 14 الموضوع إثبات الوحي ونقاش المشركين والإحتجاج للرسالة

الأحقاف

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة . . قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه . والإيمان بالوحي والرسالة وأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) رسول سبقته الرسل , أوحي إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب . والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان في الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

هذه الأسس الأولى التي يقيم عليها الإسلام بناءه كله . ومن ثم عالجها القرآن في كل سوره المكية علاجا أساسيا , وظل يتكيء عليها كذلك في سوره المدنية كلما هم بتوجيه أو تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية . ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحدانية الله سبحانه , وبعثة محمد (صلى الله عليه وسلم) والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء . . هي المحور الذي تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها , وترتبط به أوثق ارتباط ; فتبقى حية حارة تنبعث من تأثير دائم بذلك الإيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ; وتوقع فيها على كل وتر ; وتعرضها في مجالات شتى , مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية . كما أنها تجعلها قضية الوجود كله – لا قضية البشر وحدهم – فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف

بعض بني إسرائيل منه . وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدا كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهدا . سواء بسواء .

(11/701)

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السماوات والأرض , وفي مشاهد القيامة في الآخرة . كما تطوف بهم في مصرع قوم هود وفي مصارع القرى حول مكة . وتجعل من السماوات والأرض كتابا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء .

ويمضي سياق السورة في أربعة أشواط مترابطة , كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع .

يبدأ الشوط الأول وتبدأ السورة معه بالحرفين: حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها . تليهما الإشارة الى كتاب القرآن والوحي به من عند الله: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) . . وعقبها مباشرة الإشارة الى كتاب الكون , وقيامه على الحق , وعلى التقدير والتدبير: (ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) . . فيتوافى كتاب القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير: (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) .

وبعد هذا الافتتاح القوي الجامع يأخذ في عرض قضية العقيدة مبتدئا بإنكار ما كان عليه

القوم من الشرك الذي لا يقوم على أساس من واقع الكون , ولا يستند الى حق من القول , ولا مأثور من العلم: (قل: أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السماوات ؟ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) . .

ويندد بضلال من يدعو من دون الله من لا يسمع لعابده ولا يستجيب . ثم هو يخاصمه يوم القيامة ويبرأ من عبادته في اليوم العصيب !

(12/701)

ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذي جاءهم به محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقولهم له: (هذا سحر مبين) . . وترقيهم في الادعاء حتى ليزعمون أنه افتراه .

ويلقن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يرد عليهم الرد اللائق بالنبوة , النابع من مخافة الله وتقواه , وتفويض الأمر كله إليه في الدنيا والآخرة: (قل: إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بيني وبينكم , وهو الغفور الرحيم . قل: ما كنت بدعا من الرسل , وما أدري ما يفعل بي ولا بكم , إن أتبع إلا ما يوحى إلي , وما أنا إلا نذير مبين) . . ويحاججهم بموقف بعض من اهتدى للحق من بني اسرائيل حينما رأى في القرآن مصداق ما يعرف من كتاب موسى - عليه السلام -: (فآمن واستكبرتم) .

. ويندد بظلمهم بالإصرار على التكذيب بعد شهادة أهل الكتاب العارفين: (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . .

ويستطرد في عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية عن هذا الإصرار , وهم يقولون عن المؤمنين: لو كان خيرا ما سبقونا إليه . . ويكشف عن علة هذا الموقف المنكر: وإذ لم يهتدوا به فسيقولون: هذا إفك قديم ! .

ويشير إلى كتاب موسى من قبله , وإلى تصديق هذا القرآن له , وإلى وظيفته ومهمته: (لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) . .

ويختم هذا الشوط بتفصيل هذه البشرى لمن صدق بالله واستقام على الطريق: (إن الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) . .

(13/701)

ويعرض الشوط الثاني نموذجين للفطرة البشرية: المستقيمة والمنحرفة , في مواجهة قضية العقيدة . ويبدأ معهما من النشأة الأولى , وهما في أحضان والديهم . ويتابع تصرفهما عند بلوغ الرشد والتبعة والاختيار . فأما الأول فشاعر بنعمة الله بار بوالديه , راغب في الوفاء

بواجب الشكر , تائب ضارع مستسلم منيب: (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة , وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) . . وأما الآخر فعاق لوالديه كما هو عاق لربه , وهو جاحد منكر للآخرة , وهما به ضيقان متعبان: (أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس , إنهم كانوا خاسرين) . .

ويختم هذا الشوط بمشهد سريع من مشاهد القيامة يعرض فيه مصير هذا الفريق: (ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها , فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق , وبما كنتم تفسقون) . .

والشوط الثالث يرجع بهم إلى مصرع عاد , عندما كذبوا بالنذير . ويعرض من القصة حلقة الريح العقيم , التي توقعوا فيها الري والحياة ; فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار , والعذاب الذي استعجلوا به وطلبوه: (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا: هذا عارض ممطرنا , بل هو ما استعجلتم به , ريح فيها عذاب أليم , تدمر كل شيء بأمر ربها , فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم , كذلك نجزي القوم المجرمين) . . ويلمس قلوبهم بهذا المصرع , وهو يذكرهم بأن عادا كانوا أشد منهم قوة وأكثر ثروة: (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه , وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة , فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله , وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) . . ويذكرهم في نهاية الشوط

مصارع ما حولهم من القرى , وعجز آلهتهم المدعاة عن نصرتهم , وظهور إفكهم وافترائهم . لعلهم يتأثرون ويرجعون . .

(14/701)

ويتناول الشوط الرابع قصة نفر من الجن مع هذا القرآن , حين صرفهم الله لاستماعه , فلم يملكوا أنفسهم من التأثر والاستجابة , والشهادة له بأنه الحق : (مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) . . وعادوا ينذرون قومهم ويحذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان : يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به , يغفر لكم من ذنوبكم , ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض , وليس له من دونه أولياء , أولئك في ضلال مبين) . .

وتتضمن مقالة النفر من الجن الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح الناطق بقدرة الله على البدء والإعادة : (أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير) . .

وهنا يلمس قلوبهم بمشهد الذين كفروا يوم يعرضون على النار , فيقرون بما كانوا ينكرون , ولكن حيث لا مجال لإقرار أو يقين !

وتختم السورة بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الصبر وعدم الاستعجال لهم بالعذاب , فإنما هو أجل قصير يمهلونه , ثم يأتيهم العذاب والهلاك :(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم , كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ؟) . .

والآن نأخذ فى تفصيل هذه الأشواط . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3252 - 3254 ﴾

(15/701)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الأحقاف

مكية وآياتها خمس وثلاثون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، العقيدة في أصولها الكبرى (الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء) ومحور السورة الكريمة يدور حول " الرسالة والرسول " لإثبات صحة رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) وصدق القرآن .

* تحدثت السورة في البدء عن القرآن العظيم ، المنزل من عند الله بالحق ، ثم تناولت الأوثان التي عبدها المشركون ، وزعموا أنها آلهة مع الله تشفع لهم عنده ، فبينت ضلالهم وخطأهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، لم تحدثت عن شبهة المشركين حول القرآن ، فردت على ذلك بالحجة الدامغة ، والبرهان الناصع .

* ثم تناولت نموذجين من نماذج البشرية في هدايتها وضلالها ، فذكرت نموذج (الولد الصالح) المستقيم في فطرته ، البار بوالديه ، الذي كلما زادت سنه وتقدم في العمر ، ازداد تقى وصلاحا وإحسانا لوالديه . . ونموذج (الولد الشقي) المنحرف عن الفطرة ، العاق لوالديه ، الذي يهزأ ويسخر من الإيمان والبعث والنشور ومال كل منهما .

* ثم تحدثت السورة عن قصة " هود " عليه السلام مع قومه الطاغين " عاد " الذين طغوا في البلاد ، واغتروا بما كانوا عليه من القوة والجبروت ، وما كان من نتيجتهم حيث أهكلهم الله بالريح العقيم ، تحذيرا لكفار قريش في طغيانهم واستكبارهم على أوامر الله وتكذيبهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

* وختمت السورة الكريمة بقصة النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن وآمنوا به ثم رجعوا منذرين إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان ، تذكيرا للمعاندين من الإنس بسبق الجن لهم إلى الإسلام .

التسمية :

سميت " سورة الأحقاف " لأنها مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم ، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن [واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف . .] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 191 ﴾

(16/701)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الأحقاف

أجل مسمى : هو يوم القيامة ، أنذروا : أي خوّفوا ، معرضون : أي مولّون لاهون ، تدعون : أي تعبدون ، شرك : أي نصيب ، أثارة : أي بقية ، ومثلها الأثرة (بالتحريك) يقال (سمنت الإبل على أثارة) أي بقية شحم كان قبل ذلك ، حشر :

أي جمع ، كافرين : أي مكذبين .

المراد بالحق آيات القرآن ، افتراه : كذب عليه عمدا ، فلا تملكون لى من اللّه شيئا : أي لا تغنون عنى من اللّه شيئا إن أراد عقابى ، تفيضون فيه : أي تخوضون فيه من تكذيب القرآن ، يقال أفاض القوم فى الحديث : أي اندفعوا فيه ، والبدع والبديع من كل شىء :

المبتدع المحدث دون سابقة له .

الإيصاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه ، والإحسان : خلاف الإساءة ، والحسن : خلاف القبح ، والمراد أنه يفعل معهما فعلا ذا حسن ، والكره (بالضم والفتح) كالضعف والضعف : المشقة ، وحمله : أي مدة حمله ، وفصاله : فطامه والمراد به الرضاع التام المنتهى بالفطام ، والأشد : استحكام القوة والعقل ، أوزعنى : أي رغبنى ووفقني ، من أوزعته بكذا : أي جعلته مولعا به راغبا فى تحصيله ، والقبول : هو الرضا بالعمل والإثابة عليه ، فى أصحاب الجنة : أي منتظمين فى سلكهم كما تقول أكرمنى الأمير فى أصحابه .

أفّ : صوت يصدر من الإنسان حين تضجره ، أخرج : أي أبعث من القبر للحساب ، خلت القرون من قبلى : أي مضت ولم يخرج منها أحد ، يستغيثان اللّه :

(17/701)

أي يقولان الغياث باللّه منك ، يقال استغاث اللّه واستغاث باللّه ، والمراد أنهما يستغيثان باللّه من كفره ، إنكارا واستعظاما له ، حتى لجأ إلى اللّه فى دفعه كما يقال العياذ باللّه من كذا ، ويلك : دعاء عليه بالثبور والهلاك ، ويراد به الحث على الفعل أو تركه إشعارا بأن

مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيّه وترك ما هو فيه وأخذ بما ينجيه ، أساطير الأولين : أي أباطيلهم التي سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة ، حق عليهم القول : أي وجب عليهم قوله لإبليس " لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ "

من الخاسرين : أي الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برءوس الأموال باتباعهم همزات الشياطين ، والدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة ، ويقال لها منزلة إذا اعتبرت صعودا ، ودركة إذا اعتبرت حدورا ، ومن ثم يقال درجات الجنة ، ودركات النار ، فالتعبير بالدرجات هنا على سبيل التغليب ، طيباتكم : أي شبابكم وقوتكم يقولون ذهب أطيباه أي شبابه وقوته ، الهون : أي الهوان والذل ، تفسقون :

أي تخرجون من طاعة اللّه .

أخا عاد : هو هود عليه السلام ، والأحقاف : واحدها حقف (بالكسر والسكون) وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمى به واد بين عمّان ومهرة كانت تسكنه عاد ، وكانوا أهل عمل ، سيارة فى الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وهم من قبيلة إرم ، والنذر : واحدهم نذير أي منذر ، من بين يديه : أي من قبله ، ومن خلفه : أي من بعده ، لتأفكنا : أي لتصرفنا ، عن آلهتنا : أي عن عبادتها ، بما تعدنا : أي من معاجلة العذاب على الشرك : إنما العلم عند اللّه ، أي العلم بوقت نزوله عند اللّه ، والعارض : السحاب

الذي يعرض فى أفق السماء قال الأعشى :

يا من رأى عارضا قد بتّ أرمقه كأنما البرق فى حافاته الشّعل

مستقبل أوديتهم : أي متجها إليها ، تدمّر : أي تهلك ، حاق : أي نزل ، صرفنا :

(18/701)

أي بيّنا ونوّعنا ، الآيات : الحجج والعبر ، فلولا : أي فهلا ، نصرهم : أي منعهم ، قربانا : أي متقربا بها إلى اللّه ، ضلوا عنهم : أي غابوا عنهم ، إفكهم : أي أثر إفكهم وصرفهم عن الحق ، وما كانوا يفترون أي وأثر افترائهم وكذبهم .

صرفنا : أي وجهنا ، والنفر : ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال ، سموا بذلك :

لأنهم ينفرون إذا حزبهم أمر لكفايته ، أنصتوا : أي اسكتوا ، قضى : أي فرغ من تلاوته ، ولّوا : أي رجعوا ، منذرين : أي مخوّفين لهم عواقب الضلال . روى أن هؤلاء الجن كانوا من جنّ نصيبين من ديار بكر قريبة من الشام ، أو من نينوى بالموصل ، وكان الاجتماع بوادي نخلة على نحو ليلة من مكة ، وقد أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أن ينذر الجن ويدعوهم إلى اللّه تعالى ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف اللّه إليه نفرا منهم فاستمعوا منه ، حتى إذا انقضى من تلاوته رجعوا إلى قومهم منذريهم عقاب اللّه إذا هم استمروا على الضلال .

أجاره من كذا : أنقذه منه ، وداعى اللّه : هو الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فليس بمعجز فى الأرض : أي لا ينجو منه هارب ، ولا يسبق قضاءه سابق .

لم يعى : أي لم يعجز ، قال الكسائي : يقال أعييت من التعب ، وعييت من انقطاع الحيلة والعجز ، قال عبيد بن الأبرص :

عيّوا بأمرهم كما عيّت ببيضتها الحمامه

أولو العزم : أي ذوو الحزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوح والخليل الممجّد وموسى وعيسى والحبيب محمد

بلاغ : أي كفاية فى الموعظة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 26 صـ 4 . 38 ﴾ . باختصار .

(19/701)

قال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

وهي مكية 1 - من ذلك قوله جل وعز (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق)

(آية 3) أي إلاقامة الحق ثم قال (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) (آية 3) أي أعرضوا بعد ما تبين لهم الحق من خلق الله عز وجل 2 - ثم احتج عليهم فيما يعبدون فقال (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله) (آية 4) المعنى ما تدعونه إلها من دون الله (أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في

السموات) ؟

أي في خلق السموات (ايتوني بكتاب من قبل هذا) أي بكتاب فيه برهان على ما قلتم (أو أثارة من علم) قال مجاهد أحد يأثر علما وقال الحسن شئ يثار أو يستخرج وقال أبو عبيدة (أثارة) بقية قال أبو جعفر وهذه القوال متقاربة لأن البقية هو شئ يؤثر ومعروف في اللغة أن يقال سمنت الناقة على أثارة أي على بقية من سمن

ويقرأ (أو أثرة) روى أبو سلمة عن ابن عباس (أو أثرة من علم) قال الخط حدثنا محمد بن أحمد - يعرف بالجريجي - حدثنا بندار أنبأنا يحيي بن سعيد عن سفيان الثوري عن صفوان بن سليم عن أم سلمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (أو أثرة من علم) قال الخط

وروى سعيد عن قتادة (أو أثرة من علم) قال خاصة

من علم قال أبو جعفر يقال لفلان عندي أثرة أو أثرة أي شئ أخصه به ومنه آثرت فلانا على فلان ويجوز أن يكون (أثرة) خبرا عن بعض الأنبياء صلى الله عليهم من أثرت الحديث وذا

قول أبي عبيدة 3 - وقوله جل وعز (هو أعلم بما تفيضون فيه) (آية 8) قال مجاهد اي تقولونه 4 - وقوله جل وعز (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) (آية 9) قال مجاهد في قوله تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل) أي أول من أرسل

(20/701)

وقوله تعالى (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) وقد قال في موضع آخر (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) فالجواب في هذا أنه ليس من ذاك وإنما المعنى - والله أعلم - وما أدري ما يفعل بي ولا بكم من جدب أو غيره

ويبين هذا أنه يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا سرت أصحابه فاستبطأوا تأويلها فانزل الله جل وعز (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) 5 - وقوله جل وعز (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) (آية 10) قيل في الكلام حذف لعلم السامع به والمعنى أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل ممن تثقون به وتقفون على صدقه وعلمه على ما شهد النبي صلى الله عليه وسلم وكفرتم به أليس قد غررتم وأتيتم أمرا قبيحا واجترأتم عليه ؟ ! فأما الشاهد من بني إسرائيل فقيل إنه عبد الله بن سلام روى مالك عن أبي النضر عن عامر بن

سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي

على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) وقال الحسن ومجاهد والضحاك (وشهد شاهد من بني إسرائيل) عبد الله بن سلام قال أبو جعفر وفي الآية قولان آخران: أ - قال مسروق ليس هو عبد الله بن سلام لأن السورة مكية والمعنى لموسى صلى الله عليه وسلم والتوراة وأهل الكتاب أنزل الله جل وعز التوراة على موسى فآمن بها أهل الكتاب (وكفرتم به) مخاطبة لقريش قال (وسبقونا إليه) يعني أهل الكتاب

(21/701)

ب - روى ابن عون عن الشعبي في قوله تعالى (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله) قال هو رجل من أهل الكتاب وليس بعبد الله بن سلام لأن السورة مكية وإنما اسلم عبد الله بن سلام قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعامين قال أبو جعفر هذا الاعتراض لا يلزم وسئل محمد بن سيرين عن هذا بعينه فقال كانت الآية تنزل فيقال لهم ألحقوها في سورة كذا وكذا قال أبو جعفر فهذا جواب عن ذاك ويجوز أن تكون الآية نزلت بمكة ويكون المعنى

أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله أتؤمنون ؟ وقال الحسن نزل هذا بمكة فآمن عبد الله بن سلام

بالمدينة 6 - ثم قال جل وعز (وقال الذين كفروا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) (آية 11) قال مسروق هم أهل الكتاب وقال الحسن اسلم وغفار فقالت قريش لو كان خيرا ما سبقونا إليه 7 - وقوله جل وعز (وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) (آية 12)

فيه جوابان:

أحدهما أن المعنى مصدق له أي لكتاب موسى صلى الله عليه وسلم ثم حذف لأن قبله (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) و (عربيا) حال ولسانا توطئه للحال أي توكيد كما يقال جاءني زيد رجلا صالحا ويقوي هذا أنه في قراءة عبد الله (وهذا كتاب مصدق [لما بين يديه] لسانا عربيا) والجواب الآخر: أن يكون لسانا مفعولا يراد به النبي صلى الله عليه وسلم ويكون المعنى ذا لسان عربي ثم قال (لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) (آية 12)

(22/701)

يجوز أن يكون المعنى وهو بشرى وأن يكون المعنى وتبشر المحسنين بشرى 8 - وقوله جل وعز (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (آية 13) قد بينا معنى (ثم استقاموا) فيما تقدم 9 - وقوله جل وعز (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) (آية 15) (إحسانا) أي يحسن إليهما إحسانا 10 - ثم قال تعالى (حملته أمه كرها ووضعته كرها) (آية 15) ويقرأ (كرها) بفتح الكاف وهو عند بعض العربية لحن لأنه يفرق بينهما قال الحسن ومجاهد وقتادة الكره المشقة والفراء وجماعة من أهل العربية يذهبون إلى أن الكره بفتح

الكاف القهر والغصب فعلى هذا القول يكون لحنا وقال الكسائي الكره والكره بمعنى واحد وكذلك هو عند البصريين جميعا لا اعلم بينهم اختلافا لأن الكره المصدر والكره اسم بمعناه 11 - وقوله جل وعز (حتى إذا أبلغ أشده وبلغ أربعين سنة) (آية 15) قال مجاهد سالت ابن عباس عن قوله تعالى (حتى إذا بلغ اشده) فقال بضعا وثلاثين سنة قال مجاهد ثلاثا وثلاثين

قال أبو جعفر وقيل الأشد ثماني عشرة سنة والأول أشبه لاتساق الكلام الا ترى أن بعده (وبلغ أربعين سنة) ؟ وأيضا فإن البالغ ثلاثا وثلاثين سنة أولى بهذا الاسم لأنه أكمل 12 - وقوله جل وعز (قال رب أوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) (آية

15) روى أحمد بن عبد الله بن يونس عن أبي بكر بن عياش في قوله تعالى (أوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) قال هو أبو بكر الصديق فلم يكفر له أب ولا

(23/701)

أم قال (وأوزعني) ألهمني 13 - وقوله جل وعز (والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي) (آية 17) قال الفراء أف لكما أي قذرا لكما (أتعدانني أن أخرج) روى سعيد عن قتادة قال هذا عبد سوء نعته الله جل وعز قال لوالديه أتعدانني أن أبعث 14 - وقوله جل وعز (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا) (آية 20) وقرأ يزيد بن القعقاع (أأذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا بالاستفهام قال أبو جعفر العرب تقرر وتوبخ بالاستفهام وغير الاستفهام ويروى ان عمر رضي الله عنه رأى جابر بن عبد الله ومعه إنسان يحمل شيئا فقال ما هذا فقال لحم اشتريته بدرهم فقال أكلما قام أحدكم اشترى لحما بدرهم والله لو شئت أن أكون أطيبكم طعاما والينكم ثوبا لفعلت ولكن الله يقول (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا) فأنا اترك طيباتي 15 - وقوله جل وعز (فاليوم تجزون عذاب الهون) (آية 20) قال مجاهد الهون الهوان 16 - وقوله جل وعز (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر

من بين يديه ومن خلفه) (آية 21)

قال قتادة كانت عاد أحياء من اليمن منازلهم عند الرمال والدكاوات قال أبو جعفر الحقف عند أهل اللغة الرمل المنحني وجمعه حقفة محمد وأحقاف وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بظبي حاقف أي منحن متثن 17 - إلى وقوله جل وعز (قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) (آية 23) معنى (لتأفكنا) لتصرفنا 18 - وقوله جل وعز (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) (آية 24)

(24/701)

أي فلما رأوا الذي أوعدوا كسحاب عارض قد اعترض فيه عذاب ولم يعلموا أن فيه عذابا قالوا هذا عارض ممطرنا روى طاووس عن ابن عباس قال كان لعاد واد إذا جاء المطر أو الغيم من ناحيته كان غيثا فأرسل الله عليهم العذاب من ناحيته فلما وعدهم هود صلى الله عليه وسلم بالعذاب ورأوا العارض قالوا (هذا عارض ممطرنا) قال لهم هود عليه السلام (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم) فقالوا كذبت كذبت فقال الله جل وعز (فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) 19 - وقوله جل وعز (ولقد مكناهم في ما إن مكناكم فيه وجعلنا) لهم سمعا وأبصارا وأفئدة (آية 26) قال قتادة أنبأنا الله أنه قد مكنهم

في شئ لم يمكنا فيه

قال أبو جعفر فإن على هذا القول بمعنى ما وقد قيل انها زائدة والأول أولى لأنه لا يعرف زيادتها إلا في النفي وفي الإيجاب أن بالفتح 20 - وقوله جل وعز (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) (آية 29) قال زر بن حبيش كانوا تسعة نفر 21 - وقوله جل وعز (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) (آية 35) قال قتادة هم أربعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم

وقال مجاهد وعطاء الخرساني أولو العزم من الرسل خمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم 22 - وقوله جل وعز (بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) (آية 35) أي ذلك بلاغ وقرأ عيسى بن عمر (بلاغا) وقرأ أبو مجلز (بلغ) على الأمر 23 - ثم قال جل وعز (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) (آية 35) أي فهل يهلك مع رحمة الله وتفضله إلا القوم الفاسقون ؟

تم تفسير سورة الأحقاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 437 . 455 ﴾

(25/701)

وقال الفراء :

معانى القرآن للفراء

سورة (الأحقاف)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَاذَآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، ثم قال: ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ . . . ﴾ ولم يقل: خلقت ، ولا خلقن ؛ لأنه إنما أراد الأصنام ، فجعل فعلهم كفعل الناس وأشباههم ؛ لأن الأصنام تُكلّم وتُعبد وتعتاد وتعظم كما تعظم الامراء وأشباههم ، فذهب بها إلى مثل الناس . وهى فى قراءة عبد الله: [بن مسعود]: مَن تعبدون من دون الله ، فجعلها (مَن) ، فهذا تصريح بشبه الناس فى الفعل وفى الاسم . وفى قراءة عبد الله: أريتكم ، وعامة ما فى قراءته من قول الله أريت ، وأريتم فهى فى قراءة عبد الله بالكاف ، حتى إن فى قراءته: "أرَيْتك الذى يُكذِّب بالدين" .

وقوله: ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ . . . ﴾ .

قرأها العوامّ: "أثارة" ، وقرأها بعضهم قال: قرأ أبو عبد الرحمن فيما أعلم و "أَثْرَةً" خفيفة . وقد ذكر عن بعض القراء "أَثَرة" . والمعنى فيهن كلهن: بقية من علم ، أو شىء مأثور من كتب الأولين .

فمن قرأ "أثارة" فهو كالمصدر مثل قولك: السماحة، والشجاعة.

ومن قرأ "أَثَرة" فإنه بناه على الأثر، كما قيل: قَتَرة.

ومن قرأ "أَثْرة" كأن أراد مثل قوله: ﴿إلا من خطِف الخطفة﴾، والرَّجفة.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ . . . ﴾.

عنى بـ(من) الأصنام، وهى فى قراءة عبد الله: "ما لا يستجيب له"، فهذا مما ذكرت لك فى: من، وما.

(26/701)

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَآ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

وقوله: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ . . . ﴾.

يقول: لم أكن أول من بُعث، قد بُعث قبلى أنبياء كثير.

وقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ . . . ﴾.

نزلت فى أصحاب النبى صلى الله عليه ، وذلك أنهم شكوا إليه ما يلقون من أهل مكة قبل أن يؤمر بقتالهم ، فقال النبى صلى الله عليه: إنى قد رأيت فى منامى أنى أهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فاستبشَروا بذلك ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك ؛ فقالوا للنبى صلى الله عليه: ما نرى تأويل ما قلت: وقد اشتد علينا الأذى ؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ أَخرُجُ إلى الموضع الذى أُريته فى منامى أم لا ؟ ثم قال لهم: إنما هو شىء أُريته فى منامى ، وما أتبع إل ما يوحى إلىّ . يقول: لم يوح إلىّ ما أخبرتكم به ، ولو كان وحيا لم يقل صلى الله عليه: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ﴾ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ . . . . ﴾ .

شهد رجل من اليهود على مثل ما شهد عليه عبد الله بن سلام من التصديق بالنبى صلى الله عليه وأنه موصوف فى التوراة ، فآمن ذلك الرجل واستكبرتم .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَاذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ . . . ﴾ .

لمّا أسلمت: مزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وغِفَار ، قالت بنو عامر بن صعصعة وغطفانُ ، وأشجع وأسد : لو كان هذا خيرا ما سبقنا إليه رعاة الْبَهْمِ ، فهذا تأويل قوله: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ .

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَاذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَهَاذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله: مصدق لما بين يديه لسانا عربيا ، فنَصْبُه فى قراءتنا على تأويل قراءة عبد الله ، أى هذا القرآن يصدق التوارة عربيا مبينا ، وهى فى قراءة عبد الله يكون [نصبا] من مصدق . على ما فسرت لك ، ويكون قطعا من الهاء فى بين يديه .

وقوله عز وجل: ﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ . . . ﴾ .

البشرى تكون رفعا ونصبا ، الرفع على: وهذا كتاب مصدق وبشرى ، والنصب على لتنذر الذين ظلموا وتبشر ، فإذا أسقطت تبشر ، ووضعت فى موضعه بشرى أو بشارة نصبتَ ، ومثله فى الكلام: أعوذ بالله منك ، وسقيا لفلان ، كأنه قال: وسقى الله فلانا ، وجئت لأكرمك وزيارة لك وقضاء لحقك ، معناه: لأزورك وأقضى حقك ، فنصبت

الزيارة والقضاء بفعل مضمر .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(28/701)

وقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً . . . ﴾ .

قرأها أهل الكوفة بالألف ، وكذلك هى فى مصاحفهم ، وأهل المدينة وأهل البصرة يقرءون: (حُسناً) وكذلك هى فى مصاحفهم ، ومعناهما واحد والله أعلم .

وقوله: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله: حتّى إذا استوى وبلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، والمعنى فيه ، كالمعنى فى قراءتنا ؛ لأنه جائز فى العربية أن تقول: لمَّا ولد لك وأدركت مدرك الرجال عققت وفعلت ، والإدراك قبل الولادة ، ويقال: إن الأشد هاهنا هو الأربعون .

وسمعت بعض المشيخة يذكر بإسناد له فى الأشد : ثلاث وثلاثون ، وفى الاستواء :

أربعون .

وسمعت أن الأشد فى غير هذا الموضع: ثمانى عشرة . والأول أشبه بالصواب ؛ لأن الأربعين أقرب فى النسق إل ثلاث وثلاثين ومنها إلى ثمانى عشرة ؛ ألا ترى أنك تقول: أخذت عامة المال أو كلَّه ، فيكون أحسن من أن تقول: أخذت أقلّ المال أو كلّه . ومثله قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ ، فبعضُ ذا قريب من بعض ، فهذا سبيل كلام العرب [/١] ، والثانى يعنى ثمانى عشرة ، [و] لو ضم إلى الأربعين كان وجها .

وقوله: ﴿ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ . . . ﴾ .

نزلت هذه الآية: فى أبى بكر الصديق رحمه الله .

[حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى به حبان بن على العنزىّ عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت فى أبى بكر رحمه الله إلى قوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ﴾ إلى آخر الآية .

وقرأ يحيى بن وثاب ، وذُكرت عن بعض أصحاب عبد الله: ﴿ نتقبَّلُ عنهم أحْسَنَ ما عَمِلوا ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ بالنون . وقرءاة العوام: "يُتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويُتجاوز عن سيئاتهم" بالياء وضمها ، ولو قرئت "تُتَقَبَّل عنهم [أحسن ما عملوا] وتُتجاوز" كان صواباً .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي . . . ﴾ .

كقولك: وعدا صدقا ، أضيف إلى نفسه ، وما كان من مصدر في معنى حقا فهو نصب معرفة كان أو نكرة ، مثل قوله في يونس: ﴿ وَعد الله حقّاً ﴾ .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَاذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ . . . ﴾ .

ذُكِرَ أنه عبد الرحمن بن أبي بكر قال هذا القول قبل أن يسلم: (أُفٍّ لكما) قذرا لكما أتعداننى أن أُخرج من القبر؟

واجتمعت القراء على (أخرج) بضم الألف لم يسم فاعله ، ولو قرئت: أن أَخْرُجَ بفتح الألف كان صوابا .

وقوله: ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ . . . ﴾ .

ويقولان: "ويلك آمن" . القول مضمر يعنى: أبا بكر رحمه الله وامرأته .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ . . . ﴾ .

لَمْ تنزل في عبد الرحمن بن أبي بكر ، ولكن عبد الرحمن ، قال: ابعثوا [لى] جُدْعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو ـ وهما من أجداده ـ حتى أسألهما عما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ـ أحق أم باطل ؟ فأنزل الله: ﴿ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ . يعني: جدعان ، وعثمان .

(30/701)

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ . . . ﴾

قرأها الأعمش وعاصم ونافع المدنى بغير استفهام ، وقرأها الحسن وأبو جعفر المدنى

بالاستفهام: "أأذهبتم" ، والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم فيقولون: ذَهَبْتَ ففعلت وفعلت ، ويقولون: أَذَهَبْتَ ففعلت وفعلت ، وكلٌّ صواب .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ . . . ﴾ .

أحقاف الرمل ، واحدها : حِقفٌ ، والحِقفُ: الرملة المستطيلة المرتفعة إلى فوق .

وقوله: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ . . . ﴾ .

قبله ومن خلفه من بعده ، وهي [/ب] في قراءة عبد الله "من بين يديه ومن بعده" .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَاذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وَقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ . . . ﴾ .

طمعوا أن يكون سحابَ مطرٍ ، فقالوا: هذا الذى وعدْتَنا ، هذا والله الغيث والخير ، قال الله قل لهم: بل هو ما استعجلتم به من العذاب . وفي قراءة عبد الله: قل [بل] ما استعجلتم به هى ريح فيها عذاب أليم . وهو ، وَهى فى هذا الموضع بمنزلة قوله: "مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى" وَ "يمنى" . من قال: "هو" . ذهب إلى العذاب ، وَمن قال: "هى" ذهب إلى الريح .

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ . . . ﴾ .

قرأها الأعمش وَعاصم وَحمزة "لا يُرَى إلا مساكنهم" .

قال الفراء: وقرأها على بن أبى طالب ، رحمه الله .

[حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى محمد بن الفضل الخرسانى عن عطاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن عن على بن أبى طالب أنه قال: "لا تَرَى إلا مساكِنَهم" .

[حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال وَحدثنى الكسائى عن قطر بن خليفة عن مجاهد أنه قرأ: "فأصبحوا لا تَرى إلا مساكنهم" . قال: وَقرأ الحسنُ: "فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنُهم" وفيه قبح فى العربية ؛ لأن العرب إذا جعل فِعْل المؤنث قبل إلا ذَكَّروه ، فقالوا: لم يقم إلا جاريتَك ، وما قام إلا جاريتك ، ولا يكادون يقولون: ما قامت إلا جاريتك ، وَذلك أن المتروك أحد ، فأحد إذا كانت لمؤنث أو مذكر ففعلهما مذكر . ألا ترى أنك تقول: إن قام أحد منهن فاضربه ، وَلا تقل: إن قامت إلا مستكرهَا ، وَهو على ذلك جائز . قال أنشدني المفضل:

وَنارنُا لم تُرنارا مِثْلُها * قد عِلمت ذكَا معدّ أكْرما

فأنث فعل (مثل) ؛ لأنه للنار ، وأجود الكلام أن تقول: ما رُئى إلا مثلها .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ . . . ﴾ .

يقول: فى الذى لم نمكنكم فيه ، و (إن) . بمنزلة ما فى الجحد .

وقوله: ﴿ وَحَاقَ بِهِم . . . ﴾ .

وهو فى كلام العرب: عَادَ عليهم ، وَجاء في التفسير: أحاط بهم ، ونزل بهم .

(32/701)

﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةَ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ . . . ﴾ .

ويقرأ أَفَكُهُم ، وأَفَكَهُم . فأمّا الإِفك والأَفك فبمنزلة قولك: الحِذْرُ وَالحَذَر ، والنّجْس وَالنَّجَس . وأَمَّا من قال: أَفكَهُم فإنه يجعل الهاء وَالميم في موضع نصب يقول: ذلك صرفهم

عن الإيمان وكذبهم ، كما قال عز وجل: ﴿ يُؤفَكُ عنه مَن أُفِكَ ﴾ أى يصرف عنه مَن صُرِف .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ . . . ﴾ .

دخلت الباء لِلَم ، والعرب تدخلها مع الجحود إذا كانت رافعة لما قبلها ، ويَدخلونها إذا وقع عليها فعل يحتاج إلى اسمين مثل قولك: ما أظنك بقائم ، وما أظن أنك بقائم [/١] وَما كنت بقائم ، فإذا خلَّفْتَ الباء نصبت الذى كانت فيه بما يعمل فيه من الفعل ، ولو ألقيت الباء من قادر فى هذا الموضع رفعه لأنه خبر لأن . قال . وَأنشدنى بعضهم:

فما رَجعت بخائبةٍ رِكابٌ * حكيمُ بنُ المسيّب مُنتهاها

فأدخل الباء فى فعلٍ لو ألقيت منه نصب بالفعل لا بالباء يقاس على هذا وَما أشبهه .

وَقد ذكر عن بعض القراء أنه قرأ: (يَقدِر) مكان (بقادر) : كما قرأ حمزة: "وَمَا أنتَ تهدى العمى" . وَقراءة العوام: "بهادى العمى" .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَاذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ . . . ﴾ .

فيه قول مضمر يقال: أليس هذا بالحق بلاغٌ، أى: هذا بلاغ رفع بالاستئناف. انتهى انتهى.

اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 49. 57 ﴾

(33/701)

وقال بيان الحق الغزنوى:

سورة الأحقاف

(أو أثارة من علم) [4] هي الخط. قال ابن عباس: هو شيء يخط في الأرض يستدل منه على الكوائن. (وشهد شاهد من بني إسرائيل) [10]

عبد الله بن سلام عن الحسن، وأنكره الشعبي، لأن السورة مكية.

ولكنه يجوز أن يكون بعض آياتها مدنية. ويجوز أن يكون إخبار الرسول بشهاد[ة] عبد الله قبل شهادته من آياته ومعجزاته. (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) [15] لا بد من إضمار، فإما أن تضمر: [ليأتي] أمراً ذا حسن، أو تضمر: [ليأتي] في أمره حسناً. وإنما لم يكن بد من الإضمار، لأن وصينا قد استوفى مفعوليه: (الإنسان) و(بوالديه)، فلا يبقى له عمل، فاحتيج إلى إضمار. (حملته [أمه] كرهاً) ثقل الحمل وأمراضه وأعراضه، وشدة

الخوف على النفس وعلى الجنين . (وعد الصدق) [16]

أي: وعدناهم ذلك وعداً صدقاً ، لكنه أضاف الوعد إلى نفسه ، كقوله: (حق اليقين) .

(قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك) أي: كذلك ينبغي أن يقول ويفعل . (والذي قال لوالديه) [17] جوابه (أولئك الذين حق عليهم القول) ، أي: كل من قال كذا حق عليه القول . (أذهبتم طيباتكم) [20]/إذهابها في الدنيا من الذهاب بالشيء على معنى الفوز به ، هذا ظاهر الآية . ويحتمل أن ذلك في الآخرة بما فعلوه في الدنيا ، فيكون من الذهاب بالشيء على معنى الفوت . (بالأحقاف) [21]

الحقف نقاً من الرمل يعوج ويدق . (عارض) [24] سحاب في ناحية السماء . (فيما إن مكناكم فيه) [26] أي: في الذي ما مكناكم ، فيكون "إن" بمنزلة "ما" في الجحد ، فيكون في "إن" إصلاح اللفظ من وجهين: -أحدهما: سقوط تكرير "ما" . -والثاني: الحجاز بين الميمين في "ما" و"مكناكم" ، لأن الألف حاجز غير [حصين] ، هذا ، مع ما أحدثت من الغنة التي يزداد [بها] اللفظ

(34/701)

حسن ترنم يربي على حروف المد واللين ، ولذلك يستعمل "ما" بعد "النون" لغير عوض قوي [إ]لا لتحسين اللفظ . كما قال: 1089 - وإنا لما نضرب الكبش ضربة على رأسه تلقي اللسان من الفم . (أولوا العزم من الرسل) [35] يجوز من لتبيين الجنس ، ويجوز للتبعيض ، لأنه ليس كل الأنبياء غلظت عليه المحنة والتكليف فبان عزمهم وظهر صبرهم . [تمت سورة الأحقاف] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1312.1317 ﴾

(35/701)

وقال الأخفش :

سورة (الأحقاف)

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَآ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

قال ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ والبِدْع: البديع وهو: الأَوَّلُ .

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾

وقال ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ نصب لأنه خبر معرفة .

وقال ﴿ وَهذا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ فنصب اللسان والعربي لأنه ليس من صفة الكتاب فانتصب على الحال او على فعل مضمر كأنه قال: "أعْنِي لِسانا عربيّاً" وقال بعضُهم: إن انتصابه على "مُصَدّق" جعل الكتاب مصدّقَ اللسان.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وأما قوله ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ فهو بالباء كالباء في قوله ﴿ كَفَى بِاللَّهِ ﴾ وهي مثل ﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ [171].

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

وقال ﴿ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ ﴾ يقول: ذاك بلاغٌ. وقال بعضهم: "إِنَّ البَلاَغَ هُوَ القُرآنُ" وانما يوعظ بالقرآن. ثم قال ﴿ بَلاَغٌ ﴾ أي: هو بلاغ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 519 ﴾

(36/701)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الأحقاف «1»

مكية كلها

4 - أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ أي بقية من علم تؤثر عن الأولين «2» .

ويقرأ : (اثرة) ، اسم مبني على «فعلة» من ذلك . والأول على «فعالة» .

9 - قُلْ : ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ أي بدءا منهم ولا اولا .

15 - حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً أي مشقة ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً أي مشقة .

حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ «3» قد ذكرناه فيما تقدم .

قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أي ألهمني . والأصل في «الإيزاع» : الإغراء بالشيء ، يقال : فلان موزع بكذا ومولع .

21 - إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ واحدها : «حقف» وهو من الرمل ما

---

(1) وتسمى أيضا سورة حم الأحقاف ، وقيل أنها مكية إلّا الآيات 10/ 15/ 35 فمدنية وآياتها 34 أو 35 .

(2) قاله الطبري أيضا .

(3) قال مجاهد وقتادة : سن الثالثة والثلاثون من العمر وفي الأربعين يكون نهاية اكتمال العقل والرشد ولذلك لم يبعث نبي قبل الأربعين .

أشرف من كثبانه واستطال وانحنى «1» .

22 - أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا : لتصرفنا .

24 - فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً و«العارض» : السحاب «2» .

26 - وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ أي : فيما لم نمكنكم «3» (فيه) و«إن» بمعنى «لم» .

ويقال : بل هي زائدة ، والمعنى : مكناهم فيما مكناكم فيه .

28 - فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً أي اتخذوهم آلهة يتقربون بهم إلى اللّه .

29 - فَلَمَّا قُضِيَ أي فرغ [رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم] من [قراءة القرآن و] تأويله «4» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 350. 351 ﴾

---

(1) وكانت منازل قوم هود الرمال العالية المستطيلة . (قاله الطبري) .

(2) قال الطبري : فلما جاءهم عذاب اللّه الذي استعجلوه فرأوه سحابا عارضا في ناحية السماء متجها نحو أوديتهم (قالوا هذا عارض ممطرنا) .

(3) قال الطبري : ولقد مكنا عادا فيما لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من الدنيا وأعطيناهم الذي لم نعطكم منها من كثرة الأموال وبسطة الأجسام وشدة الأبدان .

(4) أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : إن الجن هبطوا على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو يقراء القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا : أنصتوا وكانوا تسعة أحدهم زوبعة فأنزل اللّه : وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ إلى قوله : ضَلالٍ مُبِينٍ .

(38/701)

وقال الغزنوى :

سورة الأحقاف

4 أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ : علم تأثرونه من غيركم «1» .

9 بِدْعاً : أي : لست بأول رسول .

10 وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ : عبد اللّه بن سلام «2» .

11 وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار ، فقالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع : هم رعاة البهم ونحن أعز منهم «3» .

15 ووصينا الإنسان بوالديه حسنا «4» : ليأتي فيهما حسنا لأنّ وَصَّيْنَا استوفى

مفعوليه فلا يبقى له عمل «5» .

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً : ثقل الحمل وأمراضه وأعراضه .

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 50 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 407 ، ومعاني الزجاج : 4/ 438 .

(2) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 7/ 262 : «و هذا الشّاهد اسم جنس يعم عبد اللّه بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد اللّه بن سلام . . . » .

وقد ثبت ذكر عبد اللّه بن سلام رضي اللّه عنه في سياق هذه الآية في أثر أخرجه الإمام البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي اللّه تعالى عنه قال : «ما سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد اللّه بن سلام . قال : وفيه نزلت هذه الآية : وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ الآية .

صحيح البخاري : 4/ 229 ، كتاب مناقب الأنصار ، باب «مناقب عبد اللّه بن سلام رضي اللّه عنه» .

(3) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 51 ، والزجاج في معاني القرآن : 4/ 440 .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 29 عن الكلبي ، وكذا البغوي في تفسيره : 4/ 166 .

وانظر هذا القول في تفسير القرطبي : 16/ 190 ، والبحر المحيط : 8/ 59 .

(4) هذه قراءة نافع ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي :

(إِحْساناً) .

السبعة لابن مجاهد : 596 ، والتبصرة لمكي : 328 ، والتيسير للداني : 199 .

(5) البحر المحيط : 8/ 60 .

(39/701)

---

20 أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ : إذهابها في الدنيا ، من الذهاب بالشّيء على معنى الفوز به .

21 بِالْأَحْقافِ : الحقف نقاء «1» من الرمل يعوج ويدق «2» ، وكانت منازل عاد برمال مشرفة على البحر بالشّحر «3» من اليمن .

24 عارِضٌ : سحاب في عرض السّماء ، أي : ناحيتها «4» .

26 فِيما إِنْ [مَكَّنَّاكُمْ] «5» فِيهِ : أي : في الذي ما مكناكم فيه لئلا يتكرر «ما» «6» .

35 أُولُوا الْعَزْمِ : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات اللّه عليهم أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 744. 746 ﴾

---

(1) النقاء : الكثيب من الرمل .

اللسان : 15/ 339 (نقا) .

(2) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 54 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 407 ،

ومعاني الزجاج: 4/ 444 ، والمفردات للراغب: 176 ، واللسان: 9/ 52 (حقف) . [. . . . . .]

(3) الشّحر: بكسر أوله ، وسكون ثانيه: موضع قريب من عدن على ساحل بحر الهند .

ونقل ياقوت عن الأصمعي: هو بين عدن وعمان .

ينظر معجم ما استعجم: 3/ 783 ، ومعجم البلدان: 3/ 327 ، والروض المعطار: 338 .

وفي تحديد موضع «الأحقاف» خلاف ، والذي ذكره المؤلف - رحمه اللّه - قول ابن زيد كما في تفسير الطبري: 26/ 23 ، وزاد المسير: 7/ 384 ، وتفسير القرطبي: (16/ 203 ، 204) وقيل غير ذلك ، وعقب الطبري رحمه اللّه على ذلك بقوله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللّه تبارك وتعالى أخبر أن عادا أنذرهم أخوهم هود «بالأحقاف» ، والأحقاف ما وصفت من الرمال المستطيلة المشرفة . . . وجائز أن يكون ذلك جبلا بالشام .

وجائز أن يكون واديا بين عمان وحضرموت .

وجائز أن يكون الشحر ، وليس في العلم به أداء فرض ، ولا في الجهل به تضييع واجب ، وأين كان فصفته ما وصفنا من أنهم كانوا قوما منازلهم الرمال المستعلية المستطيلة» اه -

. (4) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 213 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 207 ، وتفسير الطبري : 26/ 25 ، والمفردات للراغب : 330 .

(5) في الأصل : «مكناهم» .

(6) هذا معنى قول المبرد ، وهو إن «ما» بمعنى الذي ، و«أن» بمعنى ما .

وهو أيضا قول الزجاج في معانيه : 4/ 446 .

وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 56 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 170 ، وتفسير البغوي :

4/ 171 ، وتفسير القرطبي : 16/ 208 .

(40/701)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الأحقاف

عدد 16 - 66 - 46

نزلت بمكة بعد الجاثية ، عدا الآيات 10 ، 15 ، 35 فإنها نزلت بالمدينة ، وهي خمس وثلاثون آية ، وستمئة وأربع وأربعون كلمة ، وألفان وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "حم" 1 تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" 2 تقدم تفسيرها بنظيراتها التي قبلها حرفيا "ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ" الذي تقتضيه الحكمة الكونية والتشريعية وهذا الاستثناء مفرغا من أعم الأحوال من فاعل خلقنا أو مفعوله ، أي ما خلقناهما في حال من الأحوال إلا حالا ملابسا بالحق ، وفيه دلالة على وجود الصانع وصفات كماله وابتغاء أفعاله على حكم بالغة عظيمة وانتهائها إلى غايات جليلة بالغة ، وكل ذلك يؤجل إلى قدر مقدر في اللوح المحفوظ لا يتبدل ولا يتغير ، ولا يقدم ولا يؤخر ، يدلك عليه قوله عز قوله "وَأَجَلٍ مُسَمًّى" ينتهي إليه فناؤهما ، وهو معلوم لديه وحده ، لأن علمه مما اختص به نفسه المقدسة .

قال تعالى "وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا" به في هذا القرآن من بعث وحساب وغيره "مُعْرِضُونَ" 3 عنه لا يلتفتون إليه والواو للحال أي والحال أنهم في إعراض عريض عنه ، فيا سيد الرسل "قُلْ" لهؤلاء المعرضين "أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" أخبروني عنها وكيف تعبدونها وهي أوثانا جامدة لا حقيقة لها "أَرُونِي" ماهيتها و"ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ" حتى تستحق العبادة "أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ"

حتى عدلتموها بخالقها كلا "ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هذا" القرآن جاء فيه ما تقولونه ، وهو ليس فيه شيء من ذلك "أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ" وبقية منه يؤثر عن الغير ، ومن هنا سميت الأحاديث أخبارا ، أي أروني مطلق علم من العلوم السالفة "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" 4 في زعمكم هذا بأنها أهل للعبادة فإذا لم يكن عندكم شيء من ذلك فأنتم إذا ظالمون .

مطلب عدم سماع دعاء الكفرة من قبل أوثانهم وتفنيده وتبرؤ الرسول صلّى اللّه عليه وسلم من علم الغيب وإسلام عبد اللّه بن سلام :

"وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ" دعاءه ولو ظل دائبا يدعوها ليل نهار "إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ" لا تجيبه لأنها جماد لا تبصر ولا تسمع ولا تفهم باللفظ ولا بالإشارة "وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ" 5 لأنهم لا يدرون بهم .

(42/701)

هذا إذا كانوا أصناما أو كواكب ، أما إذا كانوا من ذوي العقول فإن كانوا من المقربين المقبولين عند اللّه كعيسى والمسيح وعزير والملائكة فلاشتغالهم عنهم بما هو خير ، أو كونه بمحل ليس من شأنه الذي فيه أن يسمع دعاء الداعي ، لأن اللّه تعالى يصون سمعهم عن

سماع دعائه ، لأن ما لا يرضاه اللّه يؤلمهم سماعه ، وإن كان لا يضره لأنه لم يأمر به ولم يرده ، ويتنزه اللّه تعالى عن مثله ، وإن كان من أعداء اللّه كشياطين الجن والإنس الذين عبدوا من دون اللّه فإن كان ميتا فلاشتغاله بما هو فيه من الشر لو فرض سماعه ، والميت ليس من شأنه السماع ولما يتحقق منه السماع إلا معجزة كسماع أهل القليب لقوله صلّى اللّه عليه وسلم ما أنتم بأسمع منهم وما جاء في السلام على الأموات وأنهم يردون السلام فذلك من قبل أرواحهم الخالية عن أجسادهم ، لأن الأرواح كلها خالدة المنعم منها والمعذب ، وهؤلاء المتخذين للعبادة ليسوا بأولئك ، وإن كان حيا فإن كان بعيدا عنه فالأمر ظاهر بعدم السماع وإن كان قريبا سليم الحاسة فلا فائدة من إجابته ، إذ لا يقدر على إجابة طلبه .

قال تعالى "وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ" العابدون والمعبودون "كانُوا" أي المعبودون "لَهُمْ" لعابديهم "أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ" 6 جاحدين لها منكريها يقولون كما أخبر اللّه عنهم (تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ) الآية 63 من سورة

(43/701)

القصص في ج 1 ، وهي مكررة في المعنى كثيرا فيخذلون حينذاك ويعلمون أنه قد سقط في أيديهم "وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ" الذي أتاهم على لسان رسولهم وهو القرآن "لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ" 7 وإنما حكموا عليه بأنه سحر لعجزهم عن الإتيان بمثله ، وعلى الأنبياء بأنهم سخرة لأن الأمور التي تظهر على أيديهم خارقة للعادة "أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ" من لدن نفسه أي إذا لم يقولوا سحر قالوا اختلقه "قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ" فيكون تجاوزا على اللّه "فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً" يدفع عني عذابه أو يمنعه من الوصول إلي فكيف افتري عليه لأجلكم وأنتم لا تستطيعون كف عقوبته عني ولكن "هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ" من القدح في وحي اللّه والطعن فيّ "كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ" لمن عصاه إذا لم يكن مشركا به "الرَّحِيمُ" 8 بمن أطاعه ورجع إليه .

(44/701)

تشير هذه الآية إلى أن من تاب وأناب لربه فإنه يغفر له ويرحمه ، وهو كذلك إذا شاء "قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ" حتى تقولوا إني ابتدعت ما جئتكم به (الابتداع أن يأتي الرجل بما لم يكن قبل) ولم تتكرر هذه الكلمة في القرآن ، أي لأني لست أول رسول أرسله اللّه لهداية البشر حتى تعجبوا وتقولوا ما تقولون ، إذ بعث رسل قبلي جاءوا أقوامهم بمثل ما جئتهم به

، فكيف تنكرون نبوتي وتجعلونها بدعة "وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ" فيما يستقبل من الزمان في هذه الدنيا هل أخرج أو أقتل أو أحبس كما فعلت الأقوام السالفة بأنبيائهم ، ولا أعلم هل تصرون على تكذيبكم لي فتهلكون خسفا أو غرقا أو رهبة ، أو تؤمنون فتنالون ما وعدني به ربي إليكم من نعيم الآخرة كغيركم من الأمم المكذبة والمصدقة ؟ لأن هذا كله من الغيب الذي لا يعلمه إلا اللّه لأني بشر مثلكم لا علم لي به إلا أن اللّه تعالى أخبرني بأن المؤمن مصيره في الآخرة الجنة ، والكافر مرجعه النار ، وأمرني أن أخبركم بهذا ، وهو حق لا مناص منه .

وفي هذه الآية ردّ على من ينسب إلى الأولياء علم الغيب من الأمور الكلية والجزئية ، لأن الأنبياء أنفسهم صرّحوا بعدم علمهم الغيب إلا ما يوحيه اللّه إليهم منه ، وما لا يكون للنبي لا يكون للولي قطعا .

قال في بدء الأمالي :

ولم يفضل ولي قط دهرا نبيا أو رسولا بانتحال

وقال النسفي لا يبلغ ولي درجة الأنبياء .

وقال إن نبيا واحدا أفضل من جميع الأولياء فتنبه ، واعلم أن الولي مهما بلغ من علو الشأن والرفعة لا ينال أدنى درجات الأنبياء ، فضلا عن الرسل .

قال تعالى يا أكرم الرسل قل لقومك ما أتبع فيما أقوله لكم سحرا ولا كهانة ولا اختلاقا ولا خرافات "إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ" من ربي وإني لست بساحر ولا كاهن ولا قصاص "ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ" 9 لكم شريعة اللّه كما أوحاها إلي لا أبتدع شيئا فيها من نفسي ولا أنقل لكم عن غيره شيئا أبدا ، واعلم أن البدع والبديع من كل شيء المبدأ ، والبدعة تطلق على ما لم يكن زمن الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، وتكون حسنة إذا أجمع على حسنها المؤمنون ، وسيئة إذا أجمعوا على قبحها ، ولا عبرة بقول البعض في التحسين والتقبيح .

هذا ، قالوا لما نزلت هذه الآية فرح المشركون وقالوا واللات والعزّى ما أمرنا وأمر محمد عند اللّه إلا واحدا ، ولو لا أنه ابتدع ما يقوله من ذاته لأخبره الذي بعثه ما يفعل ، وقال الكلبي : لما ضجر أصحاب محمد من أذى المشركين قالوا له حتى متى تكون على هذه الحالة فقال ما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، وهل أترك في مكة أم أومر بالخروج إلى أرض رفعت لي بالمنام ذات نخيل وشجر .

وما أخرجه أبو داود في ناسخه من أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة الفتح ج 3 (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ) وأن الأصحاب قالوا له هنيئا لك يا نبي اللّه ، قد علمنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل اللّه الآية 48 من الأحزاب ج 3 وهي (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً) وقوله تعالى (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) الآية 5 من سورة الفتح ج 3 ، لا يصح لأن هذه خبر من الأخبار لا يدخلها النسخ وهي محكمة .

(46/701)

وهذه الآية المدنية الأولى من هذه السورة ، قال تعالى "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ" هذا القرآن الذي أتلوه عليكم منزل "مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ" أيها اليهود "وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ" في المعنى يعني التوراة والإنجيل

والزبور والصحف السماوية "فَآمَنَ" ذلك الشاهد وهو عبد اللّه بن سلام على أن القرآن من عند اللّه كما آمن بالتوراة بأنها من عنده "وَاسْتَكْبَرْتُمْ" عن الإيمان به أنفة وعدوانا وظلما لأنفسكم وغيركم "إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" 10 ويناسب هذه الآية في المعنى الآية المدنية 17 من سورة هود المارّة ، يروى البخاري ومسلم عن سعيد بن العاص قال : ما سمعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول لحي يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد اللّه بن سلام ، قال وفيه نزلت هذه الآية .

وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال : بلغ عبد اللّه بن سلام مقدم النبي صلّى اللّه عليه وسلم المدينة ، وهو في أرض يخترق النخيل ، فأتاه وقال إني سائلك عن

ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، ما أول أشراط الساعة ، وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، ومن أي ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أخواله ؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم أخبرني بهن آنفا جبريل ، أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيارة كبد الحوت ، وأما الشّبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبقت كان الشبه لها ، قال أشهد أنك رسول اللّه .

(47/701)

ثم قال يا رسول اللّه إن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود ودخل عبد اللّه ابن سلام البيت ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أي رجل فيكم عبد اللّه بن سلام ؟ فقالوا أعلمنا وابن أعلمنا وخيرنا وابن خيرنا ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أفرأيتم إن أسلم عبد اللّه ، قالوا أعاذه اللّه من ذلك ، زاد في رواية ، فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك ، قال فخرج عبد اللّه إليهم ، فقال أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدا رسول اللّه ، فقالوا شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه ، زاد في رواية ، فقال عبد اللّه بن سلام هذا الذي كنت أخافه يا رسول اللّه أن يصموني به وأنا براء مما

يقولون ، ولكن الشريف يخاف أن يلصق به ما يعيبه ، وبهذا ثبت كذب اليهود وبهتهم .

قالوا وكان اسمه الحصين ، فلما أسلم سماه رسول اللّه عبد اللّه ، وفي كتب اليهود أن الحصين هذا رأى النبي صلّى اللّه عليه وسلم حينما قدم بصرى وصار يتردد إليه ويعلمه التوراة ، حتى انهم نسبوا تأليف القرآن إليه لعنهم اللّه وأخزاهم ما أبهتهم ، لأن هذا لم يصل

إلى مكة ، ولم ير النبي صلّى اللّه عليه وسلم إلا بعد الهجرة بالمدينة ، فلما رآه وصارت اليهود تقول هذا كذاب ، قال لهم وجه هذا ليس بوجه كذاب ، على أنه لو فرض صحة اجتماعه به في بصرى فإن ذلك الوقت كان عمره صلّى اللّه عليه وسلم اثنتي عشرة سنة ، ولم تحدثه نفسه بنزول كتاب عليه كي يؤلفه له ، ولم يدع النبوة ليركن إليه ويعلمه ، ولم يبق في بصرى زمنا يستوعب تعرفه به فضلا عن تعليمه ، وقد بقي حتى بلغ الأربعين من عمره ، ولم يتكلم بشيء من الوحي ، قاتلهم اللّه على إفكهم وكفرهم ، وما هذا إلا حسد منهم لعبد اللّه على إيمانه ليس إلا وكان من أمره ما كان رضي اللّه عنه ، ولهذا البحث صلة في الآية 47 من سورة النساء في ج 3 ، لأنه رضي اللّه عنه تأخر في إعلان إسلامه لليهود خوفا من الطعن فيه كما يشير إليه قوله (هذا الذي كنت أخافه) بالحديث المار ذكره في معرض العذر

عن تأخير إسلامه ، وهناك أقوال بأن الشاهد في هذه الآية موسى عليه السلام شهد على التوراة التي هي مثل القرآن بأنها منزلة من عند اللّه ، كما شهد محمد على القرآن فآمن من آمن بموسى والتوراة واستكبرتم يا معشر قريش عن الإيمان بالقرآن ومحمد ، وأن الآية نزلت في محاججة كانت بين الرسول وقومه ، واستدل صاحب هذا القول بأن السورة مكية ، وعبد اللّه بن سلام أسلم في المدينة ، والأول أولى ، لأن هذه الآية من المستثنيات بمقتضى الأحاديث الصحيحة المتقدمة ، ومنها ما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن عوف ابن مالك الأشجعي أنها نزلت بالمدينة في قصة عبد اللّه بن سلام ، وروى ذلك عن محمد ابن سيرين وهو ما عليه جمهور المفسرين وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ، وروى ذلك ابن سعيد وابن عساكر عن عكرمة .

(49/701)

قال تعالى "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا" من أهل مكة "لِلَّذِينَ آمَنُوا" منهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم "لَوْ كَانَ" ما جاء به محمد "خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ" هؤلاء المؤمنون به بادئ الرأي لفقرهم ومهانتهم عندنا يعنون عمارا وصهيبا وابن مسعود وأمثالهم من فقراء المسلمين ، ويسكتون عن أبي بكر وأصحابه الذين آمنوا قبل هؤلاء "وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ" هؤلاء الكفرة

"فَسَيَقُولُونَ" عنادا وجحودا "هذا" الذي جاء به محمد وآمن به هو وأولئك "إِفْكٌ قَدِيمٌ" 11 كان يقوله مثله من قبله لقومه ليس بقرآن .

قال

(50/701)

تعالى ردا لقولهم كيف يقولون ذلك "وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى " أنزلناه عليه كما أنزلنا هذا القرآن على محمد "إِماماً" يقتدي به قومه "وَرَحْمَةً" منا لمن آمن به وصدقه وعمل به وهو شاهد أيضا لما جاء به محمد لأن ما جاء فيه من المعاني مطابقة لما في قرآنه من التوحيد والوعد والوعيد والقصص والأخبار "وَهذا كِتَابٌ" أنزلناه عليك يا محمد "مُصَدِّقٌ" لما قبله من الكتب في المعنى وخاصة فيما هو في كتاب موسى لأنه أعم من غيره بالنسبة لسائر الكتب وجعلناه "لِساناً عَرَبِيًّا" حال من فاعل مصدق وهو الضمير العائد للكتاب "لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا" منهم بلسانهم كي يفهموه ويعوه "وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ" 12 العاملين به "إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا" على إيمانهم وجمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل "فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" مما يخافه غيرهم أن يلحقهم ما يكرهونه "وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" 13 على ما فاتهم من الدنيا لأن اللّه عوضهم خيرا منها في

دار جزائه ولا على ما يناله غيرهم مما يحبونه لأن كلا منهم راض بما أعطاه اللّه ويعتقد أن لا أحد أحسن منه من صنفه ولذلك فلا تحاسد عند أهل الجنة ، راجع الآية 30 من فصلت "أُولَئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ" 14 في دنياهم من الإحسان وناهيك بإحسان يكون من الملك الديان .

(51/701)

وهذه الآية المدنية الثانية ، قال تعالى "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً" بأن يحسن إليهما ولا يسيء "حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً" حين ثقل عليها "وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً" بشدة الطلق حالة الوضع "وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ" فطامه عن الرضاع "ثَلاثُونَ شَهْراً" وذلك أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثر مدة الرضاع سنتان ، فإذا وضع لأكثر من ستة نقص من مدة الرضاع مثل ما زاد على مدة أقل الحمل ، فإذا كان الوضع لتسعة مثلا كان الرضاع واحدا وعشرين شهرا وهكذا ، أما من يولد لتمام سنتين على قول أبي حنيفة أو لتمام أربع سنين على قول الشافعي رحمهما اللّه فهو نادر ، وعلى كل يكون رضاعه دون السنتين ، ولهذا البحث صلة في الآية 14 من سورة المؤمنين الآتية ، "حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ" جمع لا واحد له من لفظه .

وقال سيبويه واحده شدة ، راجع تفصيل ما فيه في الآية 14 من سورة القصص في ج 1 ،

"وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً" هي نهاية تمام قوته واستوائه وغاية كمال شبابه وعقله وكماله ، ولهذا جاء في الحديث أن الشيطان يمر يديه على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ويقول له يأبى وجه لا يفلح .

وأخرج أبو الفتح الأزدي من طريق جديد عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا : من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار .

وقيل في هذا المعنى :

إذا المرء في الأربعين ولم يكن له دون ما يهوى حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي مضى وإن جرّ أسباب الحياة له العمر

لأنه والعياذ بالله ينطبع على ما هو عليه فيصعب تبديل خلقه كما يستحيل تغير خلقه ، وفي هذا المعنى أيضا يقول الآخر :

وماذا يبتغي الشعراء مني وقد جاوزت سنّ الأربعين

وقال الآخر :

أبعد شيبي أبتغي الأدبا وكنت قبلا فتى مهذبا

(52/701)

إلا من شملته عناية اللّه فخصه بلطف منه بسائق ما قدر له في الأزل ، لأنه قد يسبق عليه كتابه كما جاء في الحديث الصحيح المار ذكره .

"قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي" ألهمني ووفقني "أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ" بالإيمان والهداية والرشد "وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ" مني بأن يكون خالصا لوجهك "وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي" بأن تكون صالحة مرضية أنتفع بها وتنتفع بي في الدنيا والآخرة "إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" 15 قلبا وقالبا "أُولئِكَ" أمثال هذا القائل هم "الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا" في الدنيا من الطاعات ، لأن المباحات وإن كانت حسنة إلا أنها قد تكون لا حسنة ولا قبيحة فلا يثاب عليها ، ولهذا عبّر بالأحسن جل إحسانه القائل "وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ" فلا نؤاخذهم عليها وسيعدّون "فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ" في الآخرة وكان هذا الوعد بالقبول والتجاوز وإدخال الجنة لهؤلاء الشاكرين التائبين "وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ" 16 به في الدنيا على لسان رسلهم لا خلف فيه البتة .

مطلب فيما اختص به أبو بكر ورد عائشة على مروان ومعرفة الراهب :

أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي اللّه عنهم أنها نزلت في أبى بكر الصديق رضي اللّه عنه ، وقال علي كرم اللّه وجهه إنها نزلت في أبي بكر حيث أسلم أبواه جميعا ، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أنه أسلم أبواه غيره وأوصاه اللّه بهما ، ولزمت هذه الوصية من بعده ، وفي قوله كرم اللّه وجهه (مِنَ الْمُهاجِرِينَ) دليل على مدنية

هذه الآية ، إذ لم تطلق هذه الكلمة على أحد قبل الهجرة .

قال ابن عباس وقد أجاب اللّه دعاءه فأعتق تسعة من المؤمنين كانوا يعذبون في اللّه منهم بلال ، ولم يرد شيئًا من الخير إلا أعانه اللّه عليه ووفقه لفعله .

(53/701)

وقد أجاب دعاءه بإسلام أهله أيضا فاجتمع له أبواه أبو قحافة عثمان بن عمرو ، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو ، وابنه عبد الرحمن ، وحفيده أبو عتيق ، وكلهم مسلمون .

ولم يجتمع لأحد من الصحابة مثل هذا ، وقد صحب رضي اللّه عنه محمدا صلّى اللّه عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة والنبيا بن عشرين سنة في تجارة إلى الشام ، فنزلوا منزلا فيه سدرة ، فقعد صلّى اللّه عليه وسلم في ظلها ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين ، فقال له الراهب من الرجل الذي في ظل السدرة ؟ فقال محمد بن عبد اللّه ابن عبد المطلب نسبة لجده ليعلمه مقامه وقدره لأن عبد المطلب مشهور في مكة وغيرها ، وكان يلقب بقاضي العرب وخطيب الحرم ليحترمه ، فقال الراهب هذا واللّه نبي ، وما استظل تحتها بعد عيسى أحد إلا هذا ، وهو نبي آخر الزمان ، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ، فكان لا يفارقه في سفر ولا في حضر ، وبعد أن شرفه اللّه بالنبوة آمن به ، وهو

ابن ثمان وثلاثين سنة ودعا ربه بما حكاه اللّه عنه في هذه الآية .

وما قيل إنها نزلت في سعد بن أبي وقاص لم يثبت ، وهو أهل لأن ينزل به قرآن لأنه من العشرة المبشرين بالجنة ، ومن رءوس المهاجرين الأخيار وأحبهم إلى النبي المختار ، والآية بلفظها عامة يدخل فيها كل من هذا شأنه ويدخل فيها أبو بكر وسعد وأمثالهما من الصحابة دخولا أوليا ، وعلى القول بأنها خاصة بالصديق فيكون لفظ الإنسان بالآية من العام المخصوص ، لأن لفظ الإنسان

(54/701)

لم يأت في القرآن العظيم إلا في سياق الذم ، قال تعالى (قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ) الآية 17 من عبس (يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) الآية 6 من الإنفطار (يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً) الآية 6 من الإنشقاق (إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ) الآية 2 من العصر في ج 1 وقال (هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ) (وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ) من آخر الأحزاب في ج 3 ، فهذه كلها في معرض الذم ، فتكون الأولى في معرض المدح هنا ، إذ ما عموم إلا وخص منه .

قال تعالى "وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما" تضجر منهما كراهية لهما راجع الآية 23 من الإسراء في ج 1 ، "أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ" هذه الجملة مقول القول أي أأنشر حيّا من قبري بعد

بلائي "وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي" فلم يحيى منهم أحد "وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ" عليه لما سمعا كلامه الدال على إنكار البعث ، وعدم الإيمان وصارا يقولان له "وَيْلَكَ" هلاكك من وبال هذا الكلام ، وأصل الويل الدعاء بالثبور والهلاك ، ويقوم مقام الحث على الفعل أو تركه "آمِنْ" بالله وصدق رسوله واعتقد بالحياة الآخرة بعد الموت ، فقد وعد الله به رسله وأخبرونا به "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" واقع لا محالة ، وأنه سيدخل المؤمنين الجنة والكافرين به النار البتة "فَيَقُولُ" لهما "ما هذا" الذي تدعوان إليه بأن أصدقه وأقبله "إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ" 17 خرافاتهم الكاذبة الملعقة ، وهذه الآية عامة في كل كافر دعواه والداه إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، فلم يفعل ولم يصغ لقولهما ، وما زعمه مروان في الحديث الذي رواه البخاري عن يوسف بن ماهك قال :

(55/701)

كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له ، فقال له عبد الرحمن بن ابي بكر رضي الله عنهما شيئا ، فقال لشرطته خذوه ، فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه ، فقال مروان هذا الذي أنزل الله فيه (وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ) فقالت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها من وراء الحجاب ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن

(تريد مما هو يفيد الذم) إلا ما أنزل اللّه في سورة النور من براءتي .

ومما يؤيد قول عائشة وينفي قول مروان عليه ما يستحق من الملك الديان قوله تعالى "أُولَئِكَ" العاقون الكافرون هم "الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ"

بالعذاب المقدر أزلا "فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ" 18 الآخرة كما خسروا الدنيا ، وعبد الرحمن رضي اللّه عنه وعن والديه من أفاضل المؤمنين فلا يتصور دخوله في هذه الآية البتة ، وإسلام أبويه قبله لا يقتضي نزول هذه الآية فيه ، لأن إسلامه جب ما قبله فضلا عن أنه من أبطال المؤمنين ، وله مواقف مشهورة يوم اليمامة وغيره ، لهذا فلا يعقل نزول هذه الآية فيه ، بل هي عامة في كل مؤمنين دعيا أولادهما للإيمان ، قال تعالى "وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا" بحسب برهم وكمال إيمانهم ، وللكافرين الدركات بمقتضى عقوقهم وعصيانهم ، وفيه تغليب الدرجات على الدركات "وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ" يوم القيامة "وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" 19 فيها فلا يزاد على سيئات المسيء ولا ينقص من حسنات المحسن .

مطلب في قوله (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ) الدنيا وكيفية إهلاك قوم عاد :

"وَ" اذكر لقومك يا محمد "يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ" فيقال لهم على رءوس الأشهاد "أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا" فلم يبق لكم في الآخرة ما تكافأون عليه لأنكم استوفيتم حظكم في الدنيا "فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ" الذي فيه الذل والصغار والخزي والهوان "بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" بطرا ، والكبرياء من خصائص الإله فلا يحق لكم أن تتصفوا به بسبب ما خولكم من نعمه من مال وولد ورئاسة بل عليكم أن تشكروا نعمه وتتواضعوا لجلاله ليزيدكم "وَ" يجازيكم أيضا "بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ" 20 تخرجون عن طاعته وتتجاوزون حدوده وتقعون في حماه ، وقد وصف اللّه تعالى هذا الصنف بالاستكبار وهو من عمل القلب ، والفسق وهو من عمل الجوارح ، وجعل عذابهم بالذل والهوان بمقابلة ذلك .

روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال : دخلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فإذا هو متكىء على رمال حصير قد أثر في جنبه ، فقلت أستأنس يا رسول اللّه ؟ قال نعم ، فجلست فرفعت رأسي في البيت فو اللّه ما رأيت شيئا يرد البصر إلا أهبّة ثلاث ، فقلت أدع اللّه أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم ولا يعبدون اللّه ، فاستوى جالسا ، ثم قال أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ، فقلت استغفر لي يا رسول اللّه .

طلب المغفرة رضي اللّه عنه إذ فهم من كلام صاحبه صلّى اللّه عليه وسلم أن طلبه ذلك مما لا ينبغي أن يقع من مثله وظن أنه أخطأ باقتراحه ذلك ، غفر اللّه له ورضي عنه يخاف من مثل هذا وهو مبشر بالجنة ، فكيف بنا أيها الناس ؟ نسألك اللهم العفو والعافية والرضاء ، ولنذكر نبذة مما كان عليه حضرة الرسول لعلنا نتعظ ونقنع بما عندنا رزقنا اللّه القناعة بالدنيا والشفاعة بالآخرة .

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت :

ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

ورويا عنها قالت : كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا إنما هو (غذاؤنا) الأسودان التمر والماء إلا أن نؤتى باللحم ، أي من قبل الغير .

وروى البخاري عن أبي هريرة قال :

لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار أو كساء قد ربطوا في أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته .

وروى البخاري عن ابراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتي بطعام وكان

صائما فقال : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، فكفن في برده إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه ، قال وأراه قال قتل حمزة وهو خير مني فلم يوجد ما يكفن به إلا برده ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ، وقد خشيت أن تكون عجّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام .

وأخرج الترمذي عن ابن عباس قال :

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير .

وقال جابر بن عبد اللّه : رأى عمر بن الخطاب لحما معلقا في يدي ، فقال ما هذا يا جابر . فقلت اشتهيت لحما فاشتريته ، فقال أو كلما اشتهيت يا جابر اشتريت أما تخاف هذه الآية (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ) إلخ .

(58/701)

وجاء رجل إلى عمر فرآه يأكل في قصعة وآخرين يأكلون في قصعة أخرى ، فجلس معه بزعمه أن الذي أمامه أحسن فإذا هي عظام وعصب فقال ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال فما تظن ، إنا إذا ذبحنا الجزور بعثنا بمطايبها إلى آل محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، والذي

يليه إلى

المهاجرين والأنصار ، والذي يليه إلى من حضر من المسلمين ، وما بقي لعمر وآل عمر ، على أننا أعلم بصلاء الجداء منكم ، ولكن لا نريد أن يقال لنا غدا (أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ) إلخ .

وعليه فلا يظن أحد أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان يصبر على قلة الأكل وأدونه لعدم قدرته على غيره ، كلا كيف وقد خيره اللّه أن يجعل له جبال مكة ذهبا ، ولكن هذا من باب الزهد له صلّى اللّه عليه وسلم ولعمر رضي اللّه عنه ، والآية في كفار قريش لأنهم كانوا مستغرقين في لذات الدنيا معرضين عن الآخرة تاركين ما يوصل إليها من خير

(59/701)

ولهذا ذكرهم اللّه بقوله "وَاذْكُرْ" يا محمد لقومك الكافرين "أَخا عادٍ" هودا عليه السلام "إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ" جمع حقف رمل مستطيل فيه اعوجاج وانحناء يقال احقوقف الشيء أي أعوج أو كثيب الرمل المعوج ، وقال ابن عباس هو واد بين عمان ومهرة ، فيه ذلك الكثيب المنكسر وإلا فاللغة لا تسمي الوادي حقفا وإنما ذكرهم بهم لأنهم كانوا أكثر منهم أموالا وأولادا وقوة وجاها وقد سلط اللّه عليهم العذاب بكفرهم ليتعظوا بمن قبلهم لئلا يصيبهم ما أصابهم "وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ" جمع نذير بمعنى الرسل "مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ" أي

قبل نبيهم وبعده قال لهم "أَلَّا تَعْبُدُوا" أحدا ولا شيئا "إِلَّا اللَّهَ" وحده المستحق للعبادة "إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ" إن عبدتم غيره "عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" 21 في هوله عظيم في عذابه ترتعد له القلوب وتذل فيه الجبابرة وتقشعر له الجلود وتهان فيه الأكاسرة والقياصرة "قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا" تصرفنا بما تموه علينا من الكذب "عَنْ" عبادة "آلِهَتِنا" التي دأبنا عليها وآباؤنا من قبلنا ، كلا لا نقبل منك "فَأْتِنا بِما تَعِدُنا" به من العذاب "إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" 22 في قولك "قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ" وحده بوقت مجيء العذاب الذي هددتكم به لم يخبرني به "وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ" من لدنه لتعلموا أني قمت بواجبي نحركم وأديت ما أمرت به "وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ" 23 أهمية عذاب اللّه ولا تلقوا إليه بالا ، فلم يلتفتوا إلى قوله ، قال تعالى "فَلَمَّا رَأَوْهُ" أي العذاب الذي وعدهم به نبيهم وقد بينه اللّه بقوله جل قوله "عارِضاً" في ناحية السماء "مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ" قال ابن عباس

أوديتهم بين عمان ومهرة ، وقيل في مهرة في أراضي حضرموت باليمن ، ففرحوا فرحا شديدا ، لأن المطر كان حبس عنهم مدة طويلة ، وكانوا أهل عمل ، إلا أنهم يسيرون إلى المراعي ومواقع القطر في الربيع ، فإذا هاج العود ويبس رجعوا إلى منازلهم ، وهم من قبيلة

إرم "قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا" لأن العارض هو السحاب يعرض في ناحية السماء ثم يطبق بآفاقها فيمطر إن شاء اللّه ، قال الأعشى :

يا من يرى عارضا قد بت أرقبه كأنما البرق في حافاته الشعل

وقال الآخر :

يا من رأى عارضا أرقت له بين ذراعي وجبهة الأسد

قال تعالى ردا على زعمهم "بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ" من العذاب "رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ" 24 لا طاقة لقوى البشر على تحمله ولا تقدر على دفعه ، وهذه الجملة صفة ريح لأنه نكرة والجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال ، وهذه الريح المشئومة "تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ" تمر به وتهب عليه "بِإِذْنِ رَبِّها" لأنها مرسلة منه بالعذاب فلا تبقي لما تمر به أثرا ، فأهلكهم اللّه جميعا "فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ" خالية ، والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية ، أو لسيد المخاطبين خاصة ، وقرىء يرى على الغيبة بالمجهول وهي المثبتة بالمصاحف "كَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الصارم "نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ" 25 قالوا إن تلك الريح كانت تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة ، فدخلوا بيوتهم حين رأوها وأغلقوا أبوابها ، فقلعت الأبواب وصرعتهم ، وأهالت عليهم الرمال سبع ليال وثمانية أيام ، حتى دفنتهم وصار لهم أنين تحت الرمال ، ثم كشفتها عنهم وحملتهم فرمتهم في

البحر وتركت بيوتهم خالية ، قالوا وإن هودا عليه السلام خط على نفسه ومن آمن به خطا فصارت تمر بهم لينة باردة معجزة له عليه السلام .

(61/701)

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلم إذا عصفت الريح قال اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، وإذا تخيلت السماء (تغميت ، والمخيلة السحاب الذي يظن فيه المطر) تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر ،
فإذا أمطرت السماء سرّي عنه (كشف وأزيل ما كان به من الغم) فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال لعله يا عائشة كما قال قوم عاد (فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً) الآية .

(62/701)

وتمام القصة مبينة في الآية 58 من سورة هود المارة فراجعها وما ترشدك إليه ، قال تعالى "وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ" أي قوم عاد "فِيما" في شيء عظيم "إِنْ" نافية بمعنى ما أي ما "مَكَّنَّاكُمْ

فِيهِ" يا أهل مكة من قوة الأبدان وطول الأعمار وكثرة الأموال "وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً" يستعملونها فيما خلقت لها من النظر في آلاء اللّه ليفقهوا أمر دينه فصرفوها لغير ما خلقت لها من أمور الدنيا الصرفة "فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ" يحول دون ذلك العذاب لأنهم استعملوها في معصية اللّه ، فكان وجودها نقمة لا نعمة "إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ" التي أظهرها على أيدي أنبيائهم "وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ" 26 أحاط بهم العذاب جزاء سخريتهم ، وفي هذا تهديد لأهل مكة ووعيد كبير لما يجابهون به نبيهم ، "وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى" بإهلاك أهلها كديار ثمود وقرى قوم لوط وحجر صالح وقرى عاد باليمن ، وإنما خاطب أهل مكة بهذا لأنهم يرونها بأسفارهم وحلة الشتاء والصيف "وَصَرَّفْنَا" بينا وكررنا "الْآياتِ" الدالة على التوحيد والبعث والأوامر والنواهي "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" 27 إلى الإيمان بذلك ، فلم يفعلوا وأصروا على كفرهم "فَلَوْلا" هلا "نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً" يتقربون بها إلى اللّه ليشفعوا لهم عنده فعبدوها من دونه .

(63/701)

ألا عبدوا اللّه وحده كي ينصرهم ويخلصهم مما حل بهم "بَلْ ضَلُّوا" عن الطريق السوي فلم يتقربوا إليه وتقربوا إلى أوثانهم التي غابت "عَنْهُمْ" عند حلول العذاب بهم فلم ينتفعوا بهم "وَذِلكَ" قولهم إنها تقربهم إلى اللّه وتشفع لهم عنده هو "إِفْكُهُمْ" اختلاقهم الكذب "وَما كانُوا يَفْتَرُونَ" 28 من البهت على الملائكة وعيسى وعزير من إسناد عبادتهم إليهم ، إذ تبرءوا منهم وأنكروا عبادتهم لهم وعلمهم بهم أيضا ، ولهذا فقد غشيهم العذاب ولم يجدوا من ينقذهم منه ، ولو أنهم تعرفوا إلى اللّه وتقربوا له لنجاهم منه ، ثم شرع جل شرعه ببيان ما وقع لحبيبه محمد صلّى اللّه عليه وسلم مع الجن ليذكره لقومه ، وقد مر أول سورة الجن ما يتعلق برؤيتهم وحضورهم لدى الرسول بصورة مفصلة فراجعها في ج 1 .

مطلب تكليف الجن ودخولهم في رسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلم وأولي العزم من الرسل :

قال تعالى "وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ" يا سيد الرسل "نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ" منك كما يستمعه الإنس لأنه صلّى اللّه عليه وسلم مرسل إليهم أيضا كما أوضحناه هناك "فَلَمَّا حَضَرُوهُ" أي مجلسك الذي كنت تتلوه فيه "قالُوا" بعضهم لبعض "أَنْصِتُوا" تأدبا واحتراما

لسماعه وليعوا ما يأمر به وينهى عنه ، فأصغوا وبقوا منصتين "فَلَمَّا قُضِيَ" فرغ من القراءة وتفاهموا مع حضرة الرسول وأجابهم لما سألوا عنه "وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ" 29 لهم سوء عاقبة الطغيان ومخوفيهم من هول القيامة والوقوف لدى الملك الديان لأنهم بعد أن آمنوا به صلّى اللّه عليه وسلم أمرهم تبليغ قومهم ما سمعوا منه وأن يؤمنوا باللّه ، ولما ذهبوا إليهم "قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى " يفهم من هذا أنهم كانوا يتدينون بالتوراة ولم يذكروا عيسى لأنه عليه السلام كان يعمل بالتوراة عدا ما غيرت منها شريعته بما جاء في الإنجيل المنزل عليه وهي أجل الكتب السماوية وأجمعها بعد القرآن ، ويدل على عملهم بالتوراة قوله تعالى "مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ" من الكتب السماوية الإنجيل فما قبله ، لأن الذي فيها كله موجود بالقرآن ، ثم وصفوه بوصف أعظم بقولهم "يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ" الذي يجب اتباعه من العقائد والأحكام "وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ" 30 لا يضل متّبعه ولا يزيغ "يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ" الذي أنزل عليه هذا الكتاب الجليل وهو محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب الذي أرسله اللّه لإرشاد هذا العالم كله "وَآمِنُوا بِهِ" وصدقوه واعملوا بكتابه .

واعلم أن الإيمان داخل بالإجابة ، وإنما خصوه بالذكر ثانيا لأنه الأصل وهو المقصود من الإجابة ، فيكون من باب ذكر العام وعطف أشرف أنواعه عليه ، فإذا فعلتم "يَغْفِرْ لَكُمْ" اللّه ربه وربنا وربكم ورب الكون أجمع "مِنْ ذُنُوبِكُمْ" التي اقترفتموها "وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" 31 حق عليكم بسبب كفركم باللّه وتعديكم على الغير .

تفيد هذه الآية الكريمة أن الجن كالإنس منهم المؤمن

(66/701)

و منهم الكافر ، وأن مؤمنهم معرض للثواب وكافرهم مهيء للعقاب ، وإنما عبر بمن لأن الغفران لا يعم كل الذنوب إذا لم يشأ اللّه ذلك ، لأن منها ما هو حق خالص للّه مبني على المسامحة ، ومنها ما يتعلق بها حق الغير فيتوقف غفرانها على إرضاء أربابها لأنه مبني على المشاحة ، فقد لا تسمح نفسه بعفوها ، فالأولى تكفرها التوبة فقط ، والثانية التوبة وتأدية الحقوق ، والمقاصصة أو العفو ، والتي فيها حق اللّه حق العبد فيلزم لها كلا الشرطين ، راجع الآية 27 من سورة الشورى المارة تعلم تفصيل هذا ، على أن اللّه تعالى إذا أراد خيرا بأمثال هؤلاء فإنه يرضي خصومهم ويدخلهم الجنة جميعا ، قال ابن عباس وابن أبي ليلى إن الجن كالإنس يثابون على الإحسان ويعاقبون على الإساءة ويدخلون الجنة والنار

بسبب أعمالهم ، ونراهم في الآخرة من حيث لا يروننا عكس حالتهم في الدنيا كما ذكرناه في الآية 27 من سورة الأعراف في ج 1 ، وهذا أصح الأقوال في الجن يؤيده قوله تعالى (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ) الآية 56 من سورة الرحمن في ج 3 ، قال هذا حمزة بن حبيب ، وقال عمر بن عبد العزيز يكونون في رحاب الجنة وربضها أي فنائها ، ثم هددوا قومهم فقالوا لهم "وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ" فإنه يخذله ويأخذه أخذا قويا "فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ" لأنه في قبضة ذلك الإله العظيم الذي لا يفوته فائت ولا يهرب من جزائه هارب سواء دخل في أعماق الأرض أو طار في أقطار السماء أو غاص في أعماق البحور ، ولهذا البحث صلة في الآية 33 من سورة الرحمن في ج 3 فراجعه "وَلَيْسَ لَهُ" لهذا الذي لا يجيب داعي اللّه من "مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ" يمنعون وصول العذاب إليه أو ينصرونه منه "أُولئِكَ" الذين لا يجيبون داعي اللّه الآبون عن الإيمان به "فِي ضَلالٍ مُبِينٍ" 32 ظاهر معرضين عن سلوك الطريق القويم .

(67/701)

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة واضحة على عموم رسالته صلّى اللّه عليه وسلم إلى الجن ، وعلى أن الجن هم رسله إلى قومهم كرسل سيدنا عيسى عليه السلام ، كما أشرنا إليه في

الآية 28 من سورة سبأ وفيها ما يرشدك إلى الآية 158 من سورة الصافات والآية 128 من سورة الأنعام المارات فيما يتعلق بهذا وغيره فراجعها تجد ما تريده إن شاء اللّه .

أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن الحبر أنه قال :

صرفت الجن إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم مرتين .

وقد نقلنا في القصة على ما ذكره الخفاجي أن الأحاديث دلت على أن وفادة الجن كانت ستة مرات ، وبذلك يجمع بين الاختلاف الوارد في الروايات بأن كان عددهم سبعة ، وقيل تسعة ، وقيل اثنى عشر ، وقيل ثلاثمائة ، وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنهم اثنا عشر ألفا ، وعن مجاهد أنهم واحد وأربعون ، وهذا الاختلاف في العدد أيضا يدل على أن لقاءهم بحضرة الرسول كان ست مرات وكل راو روى عددا مما ذكر ، وكما وقع الاختلاف في الوفادة والعدد والمكان وقع الاختلاف في الزمن ، وقدمنا أيضا ما يتعلق فيه أول سورة الجن ، وإلى هنا انتهى ما يتعلق بالجن ، أما تاريخه فقد أخرج أبو نعيم في الدلائل والواقدي عن أبي جعفر قال : قدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الجن في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من النبوة أي كان أول اجتماعهم به .

هذا واللّه أعلم .

قال تعالى "أَوَلَمْ يَرَوْا" قومك يا محمد "أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ" يعجز ويتعب أو يتحيّر وحاشاه من هذا كله "بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى" مرة ثانية كما خلقهم أول مرة قل يا أكرم الرسل "بَلى" هو قادر على ذلك وهو أهون عليه، لأن الإبداع وهو اختراع ما لم يكن أعظم من الإعادة لأن لها مثالا وهو على غير مثال "إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" 33 وإحياء الموتى شيء مقدور للّه، فينتج إحياء الموتى مقدور للّه، وذلك أن قوله (عَلى كُلِّ شَيْءٍ) تشير إلى كبرى لصغرى سهلة الحصول كما ذكرنا، ويلزم منها أنه تعالى قادر على إحياء الموتى كما أنشأهم أول مرة.

واعلم أن ما قرأه بعضهم بدل قدير (يقدر) لا يلتفت إليه ولا تجوز هذه القراءة كما مر في الآية 58 من سورة الأنعام، ولبحث القراءة صلة في الآية 11 من سورة الحج في ج 3.

قال تعالى "وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا" من منكري البعث وغيرهم "عَلَى النَّارِ" يوم القيامة يقال لهم "أَلَيْسَ هذا" الذي تشاهدونه من الإحياء بعد الموت والعذاب الذي أوعدكم به الرسل في الدنيا "بِالْحَقِّ" والصدق كما أخبروكم به "قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ" تعالى "فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" 34 بذلك وتجحدونه.

وهذه الآية الثالثة المدنية كما قال صاحب البحر

عن ابن عباس وقتادة رضي اللّه عنهم وقد التفت بها جل جلاله إلى رسوله صلّى اللّه عليه وسلم يسليه بها عما هاجمه به قومه فقال عز قوله "فَاصْبِرْ" يا أكرم الرسل "كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ" ذوو الثبات والجد والحزم "مِنَ الرُّسُلِ" قبلك وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وهو خاتمهم ، راجع الآية 13 من سورة الشورى المارة والآية 7 من سورة الأحزاب في ج 3 ، وهذا أصح الأقوال في عددهم ، وقال بعض العلماء إن الرسل كلهم أولوا عزم ، لأنهم امتحنوا وصبروا عدا من استثنى اللّه بقوله في حق آدم (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) الآية 115 من سورة طه .

وفي حق يونس بقوله (وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ) الآية 48 من سورة القلم المارتين في ج 1 ، وقال آخرون هم الثمانية المذكورون في الآيتين 85/ 86 من سورة الأنعام المارة ، وعلله بقوله (أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ) الآية 97 منها وقال غيرهم أنهم تسعة : نوح لصبره زمنا طويلا على أمته ، وإبراهيم لصبره على الإلقاء بالنار ، وإسماعيل لصبره وتسليم نفسه للذبح ، ويعقوب على فقد ولده ، ويوسف على البئر والسجن والمرأة ، وأيوب على البلاء العظيم الذي ابتلي به ، وموسى على قومه ، وداود لبكائه على خطيئته

أربعين سنة ، وعيسى على الزهد في الدنيا ، وهذا القول ضعيف لعدم ذكره خاتم الرسل الذي امتحن بأكثر منهم وصبر على أذى قومه مع قدرته عليهم بتقدير اللّه إياه على الانتقام منهم ، والقول الأول هو الصحيح ، وقد نظمهم بعض الأجلة بقوله :

أولو العزم نوح والخليل الممجد وعيسى وموسى والحبيب محمد

(70/701)

أي اصبر يا محمد على دعوة الحق ومكابدة الشدائد كما صبر إخوانك الرسل من قبلك "وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ" نزول العذاب الذي وعدناك به ليؤمن مؤمنهم ويصر كافرهم وأنهم مهما مكثوا في هذه الدنيا لا يعد شيئا بالنسبة لطول الآخرة "كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ" من العذاب وأهوال القيامة "لَمْ يَلْبَثُوا" في الدنيا "إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ" لأنهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا لما يرون من أهوال القيامة وطولها حتى يظنونه ساعة واحدة .

واعلم يا سيد الرسل أن هذا القرآن الموحى إليك وما فيه من الآيات البينات "بَلاغٌ" كاف من الموعظة وان

فيه العبرة لمن له قلب واع وسمع سامع وبصر ناظر وفكر ثاقب وتدبر واسع ، أما من ليس له شيء من ذلك فهو عات فاسق ، ولهذا يقول اللّه تعالى "فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ" 35

الخارجون عن طاعة اللّه الذين لا يتعظون بالإنذار والوعيد .

ولا يوجد سورة مختومة بمثل هذه اللفظة ولا مثلها في عدد الآي .

قال قوم من القوم ما في الرجاء لرحمة اللّه أقوى من هذه الآية ، أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : إذا طلبت حاجة وأحببت أن تنجح فقل لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له العلي العظيم ، لا إله الا اللّه وحده لا شريك له الحليم الكريم ، بسم اللّه الذي لا إله إلا هو الحي الحكيم ، سبحان اللّه رب العرش العظيم ، الحمد للّه رب العالمين ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا ساعة أو ضحاها ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون .

(71/701)

اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لا تدع لي ذنبا إلا غفرته ، ولا هما إلا فرجته ، ولا دينا إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين .

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين وعلى أتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 122 . 141 ﴾

(72/701)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الأحقاف

مكية إلا قوله قل أرأيتم إن كان من عند الله الآية وإلا قوله فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل الآية وإلا قوله ووصينا الإنسان الثلاث آيات فمدنيات

(73/701)

وقد علم حكم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم مما مر في السورة السابقة مسمى تام وكذا معرضون في السموات كاف صادقين تام إلى يوم القيامة صالح غافلون كاف وكذا

كافرين وسحر مبين وأم يقولون افتراه ولا يحسن الجمع بين الأخيرين لكنه جائز من الله شيئا كاف بما تفيضون فيه تام وكذا الرحيم ولا بكم صالح وكذا إلى مبين تام واستكبرتم كاف الظالمين تام ما سبقونا أليه قديم كاف وكذا ورحمة لينذر ظلموا كاف لمن جعل ما بعده مرفوعا بالابتداء وخبره للمحسنين وليس بوقف لمن جعله معطوفا على الكتاب أو نصبه بتقدير وبشر المحسنين وبشرى للمحسنين تام وكذا يحزنون خالدين فيها صالح يعملون تام ووضعته كرها كاف وكذا ثلاثون شهرا في ذرّيتي صالح من المسلين حسن في أصحاب الجنة تام وكذا يوعدون يستغيثان الله صالح وكذا آمن لكن الأحسن وصله بما بعده الأولين تام من الجن والإنس كاف خاسرين تام مما عملوا جائز لا يظلمون تام وكذا تفسقون إلا الله صالح عظيم الصادقين حسن تجهلون كاف وكذا ممطرنا وما استعجلتم به ويبدئ ريح بمعنى هي ريح بدا من م لم يوقف به أليم كاف ويبتدئ تدمر بمعنى وان جعلته نعتا لريح لم يحسن الوقف على أليم إلا مساكنهم كاف المجرمين تام وأفئدتهم صالح بآيات الله كاف وكذا يرجعون يفترون تام أنصتوا كاف منذرين حسن مستقيم كاف أليم تام من دونه أولياء كاف مبين تام يحي الموتى حسن وقيل يجوز الوقف بلى قدير تام بالحق كاف قاله أبو حاتم والأحسن أن يوقف عند قوله قالوا بلى وربنا تكفرون تام ولا تستعجل لهم جائز من نهار حسن ويبتدئ بلاغ أي هذا بلاغ آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الأحقاف

مكية إلا قوله قل أرأيتم إن كان من عند الله وإلا قوله فاصبر كما صبر أولوا العزم الآية وإلاَّ قوله ووصينا الإنسان الثلاث آيات فمدنيات وكلمها ستمائة وأربع وأربعون كلمة وحروفها ألفان وستمائة حرف

الحكيم (تام) إن لم يجعل ما بعده جواباً لما قبله

مسمًّى (تام) عند أبي حاتم

معرضون (كاف)

من الأرض (حسن) إن كان الاستفهام الذي بعده منقطعاً أي ألهم شرك في السموات وليس بوقف إن كان متصلاً

في السموات (حسن) ولا وقف من قوله ائتوني بكتاب إلى صادقين فلا يوقف على من قبل هذا العطف بأو ولا على من علم لأنَّ ما بعده شرط فيما قبله

صادقين (تام)

القيامة (جائز) وتام عند نافع على استئناف ما بعده وإن جعل متصلاً بما قبله وداخلاً في صلة من كان جائزاً

غافلون (كاف)

كانوا لهم أعداء (جائز)

كافرين (كاف) ولا وقف من قوله وإذا تتلى عليهم إلى مبين فلا يوقف على بينات ولا على

لما جاءهم لأنَّ الذي بعده حكاية ومقول قال

مبين (كاف) لأنَّ أم بمعنى ألف الاستفهام الإنكاري

افتراه (جائز)

شيأ (كاف)

فيه (أكفى) مما قبله

وبينكم (كاف) ومثله الرحيم على استئناف ما بعده

من الرسل (حسن)

ولا بكم (أحسن) مما قبله على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل متصلاً بما قبله

وداخلاً في القول المأمور به

إلاَّ ما يوحى إلى (جائز)

مبين (تام)

وكفرتم به (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده معطوفاً على ما

قبله لأنَّ المطلوب من الكلام لم يأت بعد

على مثله (جائز) إن جعل جواب الشرط محذوفاً بعده وهو ألستم ظالمين وإن جعل بعد

قوله واستكبرتم لا يوقف على مثله

واستكبرتم (كاف)

الظالمين (تام)

(75/701)

إليه (كاف) لأنَّ ما بعده من قول الله وإذ لم يهتدوا به ليس بوقف لأنَّ ما بعد الفاء يفسر ما عمل في إذ والعامل فيها محذوف تقديره وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم أو أجرى الظرف غير الشرطي مجرى الظرف الشرطي ودخول الفاء بعد الظرف لا يدل على الشرط لأنَّ سيبويه يجري الظروف المبهمة مجرى الشروط بجامع عدم التحقق فتدخل الفاء في جوابها ويمتنع أن يعمل في إذ فسيقولون لحيلولة الفاء

قديم (كاف)

ورحمة (حسن) ولا وقف من قوله ومن قبله كتاب موسى إلى ظلموا لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على مصدق وإن تعمده بعض الناس لأنَّ قوله لساناً حال من ضمير مصدق والعامل في الحال مصدق أي مصدق في حال عربيته أو مفعول مصدق أي مصدق

ذا لسان عربي وزعم أن الوقف عليه حق وفيما قاله نظر ولا يوقف على عربيا لأنَّ اللام في

لينذر التي بعده قد عمل في موضعها ما قبلها

لينذر الذين ظلموا (كاف) إن رفعت وبشرى على الابتداء والخبر للمحسنين وليس بوقف

إن عطف على كتاب أو نصب عطفاً على إماماً أو جعل وبشرى في موضع نصب عطفاً

على لينذر أي وبشرهم بشرى

للمحسنين (تام)

ثم استقاموا ليس بوقف لأنَّ خبر إن لم يأت بعد وهو فلا خوف عليهم

يحزنون (تام) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل أولئك خبر إن أو خبراً بعد خبر

ومن حيث كونه رأس آية يجوز

خالدين فيها (جائز) لأنَّ منصوب بمقدر أي يجزون جزاء

يعملون (تام)

حسناً (حسن) ومثله كرها الثاني وبعض العوام يتعمد الوقف على وحمله ولا وجه له

والأولى وصله بما بعده وهو مبتدأ خبره ثلاثون شهراً

وشهراً (كاف) ولا وقف من قوله حتى إذا بلغ إلى ذريتي فلا يوقف على أشده للعطف ولا

على سنة لأنَّ الذي بعدها جواب إذا ولا على والذي لأن أن موضها نصب ولا على ترضاه

للعطف

في ذريتي (جائز) للابتداء باني ومثله تبت إليك

المسلمين (كاف) على استئناف ما بعده

(76/701)

في أصحاب الجنة (تام) عند أبي حاتم وقيل ليس بتام ولا كاف لأنَّ وعد الصدق منصوب على المصدرية

كانوا يوعدون (تام) ولا وقف من قوله والذي قال لوالديه أفٍّ إلى آخر كلام العاق وهو أساطير الأولين لارتباط الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على يستغيثان الله ولا على آمن ولا على وعد الله حق وزعم بعضهم أنَّ الوقف على يستغيثان الله قائلاً ليفرق بين استغاثتهما الله عليه ودعائهما وهو قوله ويلك آمن وزعم أيضاً أنَّ الوقف على آمن وعلى أنَّ وعد الله حق وفيه نظر لوجود الفاء بعده في قوله فيقول

الأولين (تام) على استئناف ما بعده وجائز إن جعل أولئك خبر الذي

من الجن والإنس (كاف)

خاسرين (تام)

عملوا (جائز) على أن لام كي متعلقة بفعل بعدها

لا يظلمون (تام) إن نصب يوم بمقدر أي يقال لهم أذهبتم في يوم عرضهم

واستمتعتم بها (جائز) للابتداء بالتهديد

تفسقون (تام)

أخا عاد ليس بوقف لأنَّ إذ بدل اشتمال

إلا الله (جائز)

عظيم (تام)

عن آلهتنا (حسن)

الصادقين (كاف)

عند الله (حسن)

ما أرسلت به الأولى وصله

تجهلون (كاف)

أوديتهم ليس بوقف لأن قالوا جواب لما

(77/701)

ممطرنا (كاف) وقد وقع السؤال عمن يتعمد الوقف على قوله بل هو من قوله فلما رأوه

عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو فأجبت اعلموا يا طلاب اليقين

سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين إن هذا الفن لا يقال بحسب الظن والتخمين بل بالممارسة

وعلم اليقين إن هذا وقف قبيح إذ ليس له معنى صحيح لأنَّ فيه الفصل بين المبتدأ الذي هو

هو والخبر الذي هو ما مع صلته ولا يفصل بين المبتدأ والخبر بالوقف لأنَّ الخبر محط الفائدة

والمعنى أنَّهم لما وعدوا بالعذاب وبينه تعالى لهم بقوله عارض وهو السحاب وذلك أنَّه

خرجت عليهم سحابة سوداء وكان حبس عنهم المطر مدَّة طويلة فلما رأوا تلك السحابة

استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فردَّ الله عليهم بقوله بل هو ما استعجلتم به يعني من

العذاب كما في الخازن وغيره وقيل الرادَّ هو سيدنا هود عليه السلام كما في البيضاوي

والإضراب من مقتضيات الوقف ثم بين الله تعالى ماهية العذاب بقوله ريح فيها عذاب أليم

بمعنى هي ريح وليس بوقف إن أعرب ريح بدلاً من أو من هو

أليم (كاف) ويبتدئ تدمر بمعنى هي تدمر وكذا إن جعلت تدمر خبراً ثانياً وليس بوقف

إن جعلت الجملة صفة لريح وكأنك قلت مدمرة كل شيء

بأمر ربها (حسن) على استئناف ما بعده

إلا مساكنهم (كاف)

المجرمين (تام) ولقد مكناهم فيما أن هي ثلاثة أحرف في حرف وما حرف وإن حرف وفي

إن ثلاثة أوجه قيل شرطية وجوابها محذوف والتقدير مكنا عاداً في الذي إن مكناكم فيه طغيتم وقيل زائدة وقيل نافية بمعنى إنَّا مكناهم في الذي مكناكم فيه من القوة قال الصفار وعلى القول بإن كليهما للنفي فالثاني تأكيد

مكناكم فيه (حسن) إن لم يجعل وجعلنا معطوفاً على مكنا

وأفئدة (جائز)

من شيء ليس بوقف لأنَّ الذي بعده ظرف لما قبله لأنَّ إذ معمولة أعني وقد جرت مجرى التعليل كقولك ضربته إذا ساء أي ضربته وقت إساءته

بآيات الله (كاف)

يستهزؤن (تام)

من القرى (جائز)

يرجعون (تام)

(78/701)

آلهة (حسن) ومثله بل ضلوا عنهم لعطف الجملتين المختلفتين ولا يوقف على إِفكُهم بكسر الهمزة وضم الكاف وروي عن ابن عباس أَفَكُهم بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف على أنَّه

مصدر لإفك وقرأ عكرمة أَفَكَهم بثلاث فتحات فعلاً ماضياً أي صرفهم

يفترون (تام)

القرآن (كاف) ومثله أنصتوا

منذرين (كاف)

من بعد موسى ليس بوقف ومثله في عدم الوقف مصدقاً لما بين يديه إن جعل ما بعده منصوباً على الصفة كأَنَّه قال هادياً إلى الحق ومثله في عدم الوقف إن جعل يهدي خبراً ثانياً

مستقيم (كاف)

من ذنوبكم ليس بوقف لعطف ما بعده على جواب الأمر

أليم (تام) للابتداء بالشرط

في الأرض (حسن)

أولياء (كاف)

مبين (تام)

الموتى (حسن)

قدير (تام)

على النار (جائز) أي يقال لهم أليس هذا بالحق

وبالحق (حسن) والأحسن الوقف على قالوا بلى وربنا وهو تام عند نافع

تكفرون (تام)

من الرسل (جائز)

ولا تستعجل لهم (جائز) ولا يوقف على ما يوعدون لأنَّ خبر كان قوله لم يلبثوا 0

من نهار (كاف) ويبتدئ بلاغ خبر مبتدأ محذوف أي هذا القرآن بلاغ للناس وقيل بلاغ

مبتدأ خبره لهم الواقع بعد قوله ولا تستعجل لهم أي لهم بلاغ والوقف على قوله تستعجل ثم

تبتدئ لهم بلاغ قال أبو جعفر وهذا لا أعرفه ولا أدري كيف تفسيره وهو عندي غير جائز

وقال غيره لا وجه له لأنَّ المعنى ولا تستعجل للمشركين بالعذاب (والتام)

عند أحمد بن موسى ولا تستعجل لهم وقرأ عيسى بن عمر بلاغاً بالنصب بتقدير إلا

ساعة بلاغاً قال الكسائي المعنى فعلناه بلاغاً وقال بعضهم نصب على المصدر أي بلغ

بلاغاً فمن نصبه بما قبله لم يوقف على من نهار ومن نصبه بإضمار فعل وقف عليه وقرئ

بلاغ بالجر بدلاً من نهار فعلى هذا الوقف على بلاغ وكذلك على قراءة من قرأ بلغ على الأمر

أي بلغ ما أنزل إليك من ربك

الفاسقون (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(79/701)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الأحقاف :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة ابن عباس – بخلاف – وعكرمة وقتادة وعمرو بن ميمون ، ورويت عن الأعمش :

"أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ1" ، بغير ألف .

وقرأ علي "عليه السلام" وأبو عبد الرحمن السلمي : "أَوْ أَثَرَةٍ" ، ساكنة الثاء .

قال أبو الفتح : الأثرة والأثارة التي تقرأ2 بها العامة : البقية ، وما يؤثر . وهي من قولهم : أثر الحديث يأثره أثرا وأثرة . ويقولون : هل عندك من هذا أثرة وأثارة ، أي : أثر . ومنه سيف مأثور ، أي : عليه أثر الصنعة ، وطرائق العمل .

وأما "الأثرة3" ، ساكنة الثاء فهي أبلغ معنى ؛ وذلك أنها الفعلة الواحدة من هذا الأصل ، فهي كقولك : ائتوني بخبر واحد ، أو حكاية شاذة ، أي : قد قنعت في الاحتجاج لكم بهذا القدر ، على قلته ، وإفراد عدده .

ومن ذلك قراءة عكرمة وابن أبي عبلة وأبي حيوة : "بِدْعًا مِنَ الرُّسُل" .

قال أبو الفتح : هو على [147و] حذف المضاف ، أي : ما كنت صاحب بدع ، ولا معروفة مني البدع . قال :

وكيف تواصل من أصبحت خلالته كأبي مرحب4

---

1 سورة الأحقاف : 4 .

2 في ك : تقرؤها .

3 ضبطت في الأصل مضمومة الهمزة ، وهو تحريف كما لا يخفي .

4 للنابغة الجعدي ، وقبله :

وبعض الأخلاء عند البلاء والرزء أروغ من ثعلب

والخلالة مثلثة : الصداقة . وجعل الأعلم "أبا مرحب" رجلا "الكتاب : 1 : 10" ،

وفسره اللسان "رحب" بالظل . وانظر الأمالي : 1 : 195 ، والسمط : 465 .

(80/701)

أي كخلالة أبي مرحب . وما أكثر هذا المضاف في القرآن ، وفصيح الكلام .

ومن ذلك قراءة علي وأبي عبد الرحمن السلمي : "بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا 1" .

قال أبو الفتح : تحتمل اللغة أن تكون حسنا هنا مصدرا ، كالمصادر التي اعتقب عليها

الفعل والفعل ، نحو الشغل والشغل ، والبخل والبخل ، وهو واضح .

وتحتمل أن يكون "الحسن" هنا اسما صفة لا مصدرا ، لكنه رسيل2 القبيح كقولنا :

الحسن من الله ، والقبيح من الشيطان ، أي : وصيناه بوالديه فعلا حسنا ، ونصبه وصيناه به ؛ لأنه يفيد مفاد ألزمنا الحسن في أبويه . وإن شئت قلت : هو منصوب بفعل غير هذا ، لا بنفس هذا ؛ فيكون منصوبا بنفس ألزمناه ، لا بنفس وصيناه ؛ لأنه في معناه .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود : "هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ3" .

قال أبو الفتح : قد كثر عنهم حذف القول ؛ لدلالة ما يليه عليه ، كقول الله تعالى :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ4 ﴾ ، أي : يقولون : سلام عليكم ، وكذلك هذه القراءة ، مفسرة لقراءة الجماعة : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ ، لو لم تأت قراءة عبد الله هذه لما كان المعنى إلا عليها ، فكيف وقد جاءت ناصرة لتفسيرها ؟

ومن ذلك قراءة الحسن وأبي رجاء والجحدري وقتادة وعمرو بن ميمون والسلمي ومالك ابن دينار والأعمش وابن أبي إسحاق ، واختلف عن الكل إلا أبا رجاء ومالك بن دينار : "لا تَرَى" ، بالتاء مضمومة ، "إِلَّا مَسَاكِنُهُم5" ، بالرفع .

وقرأ الأعمش : "إِلَّا مَسَاكِنُهُم" ، وكذلك يروى عن الثقفي ونصر بن عاصم .

---

1 سورة الأحقاف : 15 .

2 يريد برسيلة أنه يقابله ويقرن إليه .

3 سورة الأحقاف : 24 .

4 سورة الرعد : 23 ، 24 .

5 سورة الأحقاف : 25 .

(81/701)

قال أبو الفتح : أما "ترى" ، بالتاء ورفع "المساكن" فضعيف في العربية ، والشعر أولى بجوازه من القرآن ؛ وذلك أنه من مواضع العموم في التذكير ، فكأنه في المعنى لا يرى شيء إلا مساكنهم . وإذا كان المعنى هذا كان التذكير لإراته هو الكلام .

فأما "ترى" فإنه على معاملة الظاهر ، والمساكن مؤنثة ، فأنث على ذلك . وإنما الصواب ما ضرب إلا هند ، ولسنا نريد بقولنا : أنه على إضمار أحد وإن هند بدل من أحد المقدر هنا ، وإنما نريد أن المعنى هذا ؛ فلذلك قدمنا أمر التذكير . وعلى التأنيث قال ذو الرمة :

يرى النحز والأجرال ما في غروضها فما بقيت إلا صدور الجراشع 1

وهو ضعيف ، على ما مضى .

وأما "مسكنهم" فإن شئت قلت : واحد كنى من جماعته ، وإن شئت جعلته مصدرا وقدرت حذف المضاف ، أي : لا ترى إلا آثار مسكنهم . فلما كان مصدرا لم يلق لفظ الجمعية به كما قال ذو الرمة :

تقول عجوز مدرجي متروحا على بابها من عند أهلي وما ليا2

فالمدرج هنا [147ظ] مصدر ، ألا تراه قد نصب الحال ؟ ولو كان مكانا لما عمل ، كما أن المغار من قوله :

وما هي إلا في إزار وعلقة مغارا بن همام على حي خثعما3

مصدر أيضا : ألا تراه قد علق به حرف الجر ؟ وهذا واضح . وحسن أيضا أن يريد "بمسكنهم" هنا الجماعة ، وإن كان قد جاء بلفظ الواحد ؛ وذلك أنه موضع تقليل لهم وذكر العفاء عليهم ، فلاق بالموضع ذكر الواحد ؛ لقلته عن الجماعة ، كما أن قوله "سبحانه" :

---

1 انظر الصفحة 207 من هذا الجزء .

2 روى "بيت" مكان "عند" و"غاديا" مكان "ماليا" . وانظر الديوان : 653 ، وأمالي الزجاجي : 89 .

3 ينسب إلى حميد بن ثور ، وليس في ديوانه ، وذكر في المستدرك . وينسب إلى الطماح بن عامر بن الأعلم بن خويلد العقيل ، شاعر مجيد . والعقلة بالكسر : ثوب قصير بلا كمين تلبسه الصبية تلعب فيه . يصف امرأة كانت صغيرة تلبس العلقة حين أغار ابن همام على خثعم ، وهي قبيلة من اليمن . انظر الكتاب : 1 : 120 ، والخصائص : 2 : 208 .

﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا 1 ﴾ ، أي : أطفالا . وحسن لفظ الواحد هنا ؛ لأ ، ه موضع تصغير لشأن الإنسان ، وتحقير لأمره ، فلاق به ذكر الواحد لذلك ، لقلته عن الجماعة ، ولأن معناه أيضا تخرج كل واحد منكم طفلا ، وقد ذكرنا نحو هذا2 . وهذا مما إذا سئل الناس عنه قالوا : وضع الواحد موضع الجماعة اتساعا في اللغة ، وأنسوا حفظ المعنى ومقابلة اللفظ به ؛ لتقوى دلالته عليه ، وتنضم بالشبه إليه .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وأبي عياض وعكرمة3 وحنظلة بن النعمان بن مرة :

"إِفْكِهِم4" ، بفتح الألف ، والفاء ، والكاف .

وقرأ : "وَذِلِكَ إِفْكُهُم" ، بالمد ، وفتح الفاء مخففة – عبد الله بن الزبير .

وقرأ : "إِفْكُهُم" ، مشددة الفاء – أبو عياض ، بخلاف .

وقراءة الناس : "وَذِلِكَ إِفْكُهُم" ، فذلك أربعة أوجه .

قال أبو الفتح أما "إِفْكُهُم" فصرفهم ، وثناهم . قال :

إن تك عن أحسن المروءة ومأ فوكا ففي آخرين قد أفكوا5

وهو صرف بالباطل ، وأرض مأفوكة ، أي : مقلوبة التراب .

وأما "إِفْكُهُم" فيجوز أن يكون أفعلهم ، أي : أصارهم إلى الإفك ، أو وجدهم كذلك ، كما تقول : أحمدت الرجل : وجدته محمودا .

---

1 سورة الحج : 5 .

2 انظر الصفحة 87 من هذ الجزء .

3 هو عكرمة مولى بن عباس أبو عبد الله المفسر ، وردت الرواية عنه في حروف القرآن ، روى عن مولاه وأبي هريرة وعبد الله بن عمر . وقد تكلم فيه لرأيه لا لروايته ، فإنه أتهم بأنه كان يرى رأي الخوارج وعرض عليه علباء بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء . وروى عنه أيوب وخالد وخلق . مات سنة 105 وقيل نحو ذلك طبقات ابن الجزري : 1 : 515 .

4 سورة الأحقاف : 28 .

5 لعروة بن أذينة ، وفي اللسان "أفك" : لعمرو بن أذنية ، وهو تحريف . ويروى "أفضل" مكان أحسن ، و "الصنيعة" و "الخليفة" مكان "المروءة" . يريد أن لم توفق للأحسن فأنت في قوم قد صرفوا عنه أيضا . انظر مقاييس اللغة : 1 : 118 ، والصحاح ، والتاج ، والأساس : "أفك" .

ويجوز أن يكون أفعل على معنى فعل ، كصد وأصد ، وقد مضى ذكره .

ويجوز أن يكون "آفْكُهُم" فاعلهم كغالطهم وخادعهم .

وأما "أفْكُهُم" ففعلهم ؛ وذلك لتكثير ذلك1 الفعل بهم ، وتكرره منه عليهم .

وحكى الفراء فيها قراءة أخرى ، وهي : "وَذِلَكَ إِفْكُهُمْ" ، وقال فيه : الإفك والأفك ، الحذر والحذر . ومن جهة أحمد بن يحيى :

مالي أراك عاجزا أفيكا أكلت جديا وأكلت ديكا

تعجز أن تأخذ ما أريكا2

الأفيك : المصروف عن وجهه وحيلته . وروينا عن قطرب أن ابن عباس قرأ : "وَذِلَكَ آفْكُهُمْ" ، بمعنى صارفهم ، فذلك ست قراآت .

ومن ذلك قراءة الحسن وعيسى الثقفي : "مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌا3" .

قال أبو الفتح : هو على فعل مضمر ، أي : بلغوا أو بلغو بلاغا ، كما أن من رفع فقال : "بلاغ" فإنما رفع على أضمار المبتدأ ، أي : ذلك بلاغ ، أو هذا بلاغ .

قال أبو حاتم : قرأ : "بلغ" ، على الأمر أبو – مجلز وأبو سراج الهذلي .

ومن ذلك قراءة ابن محيصن : "فَهَلْ يُهْلَك4" .

قال هارون : وبعض الناس يقول : "فَهَلْ يُهْلَك" .

وقرأ الناس : "يُهْلَك" .

قال أبو الفتح : "أما يهلك" ، بكسر اللام فواضحة ، وهي المعروفة .

وأما "يهلك" بفتح الياء واللام جميعا فشاذة ، ومرغوب عنها ؛ لأن الماضي هلك ، فعل مفتوحة [148و] العين ، ولا يأتي يفعل ، بفعل العين فيهما جميعا إلا الشاذ . وإنما هو أيضا

---

1 في ك : هذا .

2 اقتصر في اللسان على الشطر الأول .

3 سورة الأحقاف : 35 .

4 سورة الأحقاف : 35 .

لغات تداخلت ، ولكنه يأتي مع حروف الحلق إذا كانت 1 عينا أو لاما ، نحو قرأ يقرأ ، وسأل يسأل . وليس لك أن تحمل هلك يهلك على أبى يأبى ، وتحتج بأن أول هلك حرف حلق كأبى ، لأن آخر أبى ألف ، والألف قريبة المخرج من الهمزة ، وإن كانت في أبى منقلبة .

ومن ذلك ما رواه عمرو عن الحسن : "وَلَمْ يَعْيِ 2" ، بكسر العين ، وسكون الياء .

قال أبو الفتح : هذا مذهب ترغب 3 العرب عنه ، وهو إعلال عين الفعل وتصحيح لامه ،

وإنما جاء ذلك في شيء من الأسماء ، وهو غاية ، وآية ، وثاية4 ، وطاية5 . وقياسها6 غياة ، وأياة ، وطياة ، وثياة ، أو ثواة . ولم يأت هذا في الفعل إلا في بيت شاذ . أنشده الفراء ، وهو قول الشاعر :

وكأنها بين النساء سبيكة تمشي بسدة بيتها فتعي7

فأعل العين ، وصحح اللام ، ورفع ما لم ترفعه العرب . وإنما تعله ، نحو يرمي ويقضي . وكذلك قوله : ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ أجراه مجرى لم يبع ، فحذف العين ؛ لسكونها ، وسكون الياء الثانية . ووزن لم يعي لم يفل مثل لم يبع ، والعين محذوفة لالتقاء الساكنين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحتسب حـ2 صـ263.268 ﴾

---

1 في النسختين : كان .

2 من قوله تعالى في سورة الأحقاف : 33 : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ . . ﴾ .

3 في ك : نزعت .

4 الثاية : مأوى الإبل ، عازبة ، أو خول البيت .

5 الطاية : السطح ، ومربد التمر .

6 لأن المعتل العين واللام تعل لامه ، وتجري عينه مجرى الصحيح . وانظر الهمع : 1 :

.54

7 السبيكة : قطعة مستطيلة من الفضة .

(85/701)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الأحقاف

مكية قيل إلا قل أرأيتم إن كان وفاصبر كما صبر الآيتين فبالمدينة وآيها ثلاثون وأربع في غير الكوفي وخمس فيه خلافا آية حم كوفي مشبه الفاصلة اثنان عذاب الهون ما يوعدون

القراآت مر حكم إمالة حم والسكت عليها

وقرأ أرأيتم بتسهيل الثانية نافع وأبو جعفر وللأزرق أيضا إبدالها ألفا مع المد وسهلها الكسائي وأبدل ورش وأبو عمرو بخلفه وأبو جعفر الهمزة الساكنة وصلا من السموات ائتوني ياء ساكنة أما في الابتداء فالكل بياء ساكنة بعد همزة الوصل مكسورة وقرأ بمد أنا إلا نذير قالون بخلفه وسهل إسرائل أبو جعفر ومر أول البقرة خلاف الأزرق في مده كوقف حمزة عليه

وقرأ (لينذر) الآية 12 بالخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام نافع وابن عامر والبزي

بخلفه وأبو جعفر ويعقوب وهي رواية النقاش من طريق الشنبوذي وبه قرأ الداني من طريق أبي ربيعة فإطلاق الخلاف في التيسير خروج عن طريقه كما في النشر والباقون بالغيب وهي رواية الطبري والفحام والحمامي عن النقاش وابن بنان بضم الباء وبالنون عن أبي ربيعة

وقرأ) فلا خوف عليهم ( ) الآية 13 بفتح الفاء بلا تنوين وضم الهاء يعقوب

واختلف في ﴿ حسنا ﴾ الآية 15 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف ( ) إحسانا ( ) بزيادة همزة مكسورة فحاء ساكنة وفتح السين وألف بعدها مصدرا حذف عامله أي وصيناه أن يحسن إليهما إحسانا وقيل مفعول به على تضمين وصينا معنى ألزمنا فيتعدى لاثنين إحسانا ثانيهما وافقهم الأعمش والباقون بضم الحاء وسكون السين بلا همز ولا ألف مفعولا به على تقدير مضاف وموصوف أي أمرا ذا حسن واتفقوا على أن موضع العنكبوت كقفل ومواضع البقرة والنساء والأنعام والإسراء كإكرام

وقرأ (كرها) الآية 15 بفتح الكاف نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر

وهشام بخلفه والباقون بالضم لغتان بمعنى وقيل بالضم المشقة وبالفتح الغلبة والقهر والضم لهشام من رواية الداجوني من جميع طرقه إلا المفسر والفتح من رواية الحلواني من جميع طرقه والمفسر عن الداجوني وسبق بالنساء

واختلف فيوفصاله) الآية 8 فيعقوب بفتح الفاء وسكون الصاد بلا ألف وعن الحسن بضم الفاء وألف بعد الصاد والباقون كذلك لكن مع كسر الفاء قيل هما مصدران كالعظم والعظام وفتح ياء الإضافة من أوزعني أن ورش من طريق الأزرق والبزي

وأمال ترضيه حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في (نتقبل ونتجاوز أحسن) الآية 16 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب بياء مضمومة في الفعلين على البناء للمفعول ورفع (أحسن) على النيابة وافقهم ابن محيصن والحسن واليزيدي وعن المطوعي فتح الياء من تحت وأحسن بالنصب والباقون بالنون المفتوحة فيهما مبنيين للفاعل وأحسن بالنصب على المفعول به

وقرأ (أف) الآية 17 بالكسر للفاء منونة نافع وحفص وأبو جعفر وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء بلا تنوين والباقون بكسرها بلا تنوين ومر بالإسراء

واختلف في (أتعدانني) الآية 17 فهشام بنون واحدة مشددة على إدغام نون الرفع في نون الوقاية وافقه الحسن وابن محيصن بخلفه والباقون بنونين مكسورتين خفيفتين نون الرفع فنون

الوقاية ومر ذلك في الإدغام وفتح ياءها نافع وابن كثير وأبو جعفر وعن الحسن والأعمش أن أخرج بالبناء للفاعل

واختلف في (وليوفيهم) الآية 19 فابن كثير وابو عمرو والحلواني عن هشام وعاصم ويعقوب بالياء من تحت وافقهم الحسن واليزيدي وابن محيصن والباقون بنون العظمة وهي رواية الداجوني عن هشام

(87/701)

وقرأ (أذهبتم) الآية 20 بهمزة واحدة على الخبر أي فيقال لهم أذهبتم أو على الاستفهام الساقط أداته نافع وابو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وقرأ ابن كثير والداجوني عن هشام من طريق النهرواني ورويس بهمزتين محققة فمسهلة مع عدم الفصل والثاني لهشام من طريق ابن عبدان عن الحلواني التسهيل مع الفصل وبه قرأ أبو جعفر والثالث لهشام التحقيق مع الفصل طريق المفسر وقرأ ابن ذكوان وروح بتحقيقهما بلا فصل وعن الحسن بهمزة واحدة مع المد للساكنين وفتح إني أخاف نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وقرأ أبو عمرو أبلغكم بسكون الباء الموحدة وتخفيف اللام كما مر بالأعراف وفتح ياء ولكني أراكم نافع والبزي وأبو عمرو وأبو جعفر

واختلف في ( ) لا يرى إلا مساكنهم (الآية 25 فعاصم وحمزة ويعقوب وخلف بياء من تحت مضمومة بالبناء للمفعول مساكنهم بالرفع نائب الفاعل وافقهم الأعمش وبالإمالة حمزة وخلف على أصلهما وعن الحسن بضم التاء من فوق مبنيا للمفعول (مساكنهم) بالرفع وعن المطوعي (يرى) كعاصم ﴿ مسكنهم ﴾ بالتوحيد والرفع والباقون بفتح التاء (مساكنهم) بالنصب مفعولا به وابو عمرو والكسائي وابن ذكوان من طريق الصوري بالإمالة وبالصغرى الأزرق

وأمال وحاق حمزة وأدغم لام بل ضلوا الكسائي وحده وأدغم ذال وإذ صرفنا أبو عمرو وهشام وخلاد والكسائي ونقل القران ابن كثير

(88/701)

وقرأ أولياء أولئك بتسهيل الأولى كالواو قالون والبزي مع المد والقصر وسهل الثانية كالواو ورش وقنبل من طريق ابن مجاهد وأبو جعفر ورويس بخلفه وللأزرق أيضا إبدالها واوا ولا يجوز له حينئذ المد كما يجوز له في نحو آمن لعروض حرف المد بالإبدال وضعف السبب لتقدمه على الشرط كما حقق في النشر وهذا الوجه هو الثاني لقنبل والثالث له إسقاط الأولى مع المد والقصر وبه قرأ أبو عمرو ورويس في وجهه الثاني والباقون بتحقيقهما وعن

الحسن يعي بكسر الياء الثانية والجمهور على فتحها مضارع عيي يعيى بالفتح فلما دخل الجازم حذف الألف وقرأ يعقوب بقادر يقدر بياء مثناة تحت مفتوحة وإسكان القاف بلا ألف وضم الراء وسبق بيس

وأمال بلى أبو بكر بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومثله أبو عمرو من روايتيه على ما صححه في النشر وإن قصر الخلف في الطيبة على الدوري وعن الحسن بلاغا بالنصب على المصدر والجمهور بالرفع خبر محذوف أي تلك الساعة بلاغ وعنه أيضا يهلك بضم الياء وكسر اللام والفاعل الله تعالى وعن ابن محيصن فتح الياء وكسر اللام من هلك يهلك كيضرب والجمهور بضم الياء وفتح اللام مبنيا للمفعول

المرسوم في مصحف الكوفي إحسانا بألف قبل الحاء وأخرى بعد السين وفي غيره حسنا بحذفهما وكتبوا أثرة من علم بحذف الألف وكذا بقدر ياءات الإضافة أربع ( ) أوزعني أن ( ) الآية 15 ( ) إني أخاف (الآية 21 ( ) ولكني أراكم (الآية 23 ( ) أتعدانني أن ( ) الآية 17 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(89/701)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الأحقاف "

" حم " أنذروا ، أرأيتم معا ، في السموات ائتوني ، حشر ، عليهم ، سحر ، أساطير ، تستكبرون ، يظلمون ، وهو ، نذير ، إسرائيل ، خيرا ظلموا عليهم ، جلي .

" أنا إلا " قرأ قالون بخلف عنه بإثبات ألف أنا وصلا فيكون المد منفصلا وهو على أصله فيه والباقون بحذف الألف وصلا ، وهو الوجه الثاني لقالون ، ولا خلاف بينهم في إثباتها وقفا .

" لينذر " قرأ بتاء الخطاب المدنيان والشامي ويعقوب والبزي ، والباقون بياء الغيبة وما ذكره الشاطبي من الخلاف للبزي فخروج عن طريقه فلا يقرأ له إلا بتاء الخطاب كما ذكر ولا يخفى ما فيه من ترقيق الراء لورش .

" فلا خوف " لا يخفى ما قيه ليعقوب .

" إحسانا " قرأ المدنيان والمكي والبصريان والشامي بحذف الهمزة وضم الحاء وإسكان السين ، والباقون بإثبات همزة مكسورة قبل الحاء مع إسكان الحاء وفتح السين وألف بعدها .

" كرها معا " قرأ المدنيان والمكي والبصري وهشام بفتح الكاف ، والباقون بضمها ، " وفصاله " قرأ يعقوب بفتح الفاء وإسكان الصاد ، وغيره بكسر الفاء وفتح الصاد وألف

بعدها .

" أوزعني أن " فتح الياء ورش والبزي وأسكنها غيرهما .

" ذريتي إني " أجمعوا على إسكان يائه في الحالين .

" نتقبل " أحسن ، ونتجاوز ، قرأ المدنيان والمكي والبصريان والشامي وشعبة بياء تحتية مضمومة في الفعلين وبرفع نون أحسن ، والباقون بنون مفتوحة في الفعلين ونصب نون أحسن .

" أف " قرأ المدنيان وحفص بكسر الفاء منونة نوقرأ يعقوب وابن عامر وابن كثير بفتحها من غير تنوين والباقون بكسرها من غير تنوين .

" أتعدانني أن " قرأ هشام بإدغام النون الأولى في الثانية فينطق بنون مشددة مكسورة ويمد طويلا للساكنين ، والباقون بنونين خفيفتين ، وفتح ياء الإضافة المدنيان والمكي وأسكنها غيرهم .

" وليوفيهم " قرأ ابن كثير وهشام وعاصم والبصريان بالياء التحتية ، والباقون بالنون .

(90/701)

" أذهبتم " قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بهمزتين مفتوحتين على الاستفهام ، وكل على أصله من التسهيل وغيره فابن كثير ورويس يسهلان من غير إدخال وأبو جعفر يسهل مع الإدخال وهشام له التسهيل والتحقيق مع الإدخال وابن ذكوان وروح يحققان من غير إدخال . وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر .

" تفسقون " آخر الربع .

الممال

" حم " بالإمالة لابن ذكوان وشعبة والأخوين وخلف وبالتقليل لورش والبصري مسمى لدى الوقف ، وتتلى وكفى ويوحى وترضاه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . كافرين والنار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ويميل رويس كافرين ، جاءهم لحمزة وخلف وابن ذكوان . افتراه وبشرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش موسى والدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " الحكيم ما . أعلم بما . وشهد شاهد ، قال رب ، قال لوالديه .

" يديه " ومن خلفه ، أجئتنا ، ممطرنا ، تدمر ، القرآن ، حضروه ، يديه ، جلي .

" إني أخاف " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" وأبلغكم " قرأ أبو عمرو بإسكان الباء وتخفيف اللام ، وغيره بفتح الباء وتشديد اللام .

" ولكني أراكم " فتح الياء المدنيان والبزي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" لا يرى إلا مساكنهم " قرأ عاصم وحمزة ويعقوب وخلف بياء تحتية مضمومة ورفع نون مساكنهم ، والباقون بتاء مثناة فوقية مفتوحة ونصب نون مساكنهم .

" وأفئدة " لحمزة في الوقف عليه تحقيق الهمزة الأولى وتسهيلها ، وعلى كل نقل حركة الهمزة الثانية إلى الفاء مع حذف الهمزة .

(91/701)

" فما أغنى عنهم " إلى يستهزءون ، لورش في هذه الآية تسعة أوجه: فتح أغنى مع توسط شيء وقصر آيات وتثليث يستهزءون ثم التطويل في آيات ويستهزءون ثم مد شيء وآيات ويستهزءون ثم تقليل أغنى مع توسط شيء وآيات ومع التوسط والمد في يستهزءون ثم تطويل آيات ويستهزءون ثم تطويل شيء وآيات ويستهزءون . ولا يخفى ما في يستهزءون لأبي جعفر وحمزة .

" أولياء أولئك " قرأ قالون والبزي بتسهيل الأولى مع المد والقصر وأبو عمرو بإسقاط الأولى مع القصر والمد وورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية ، ولورش وقنبل إبدالها حرف مد مع القصر لتحرك ما بعدها . ولا يعتبر ذلك من باب البدل لورش نظرا لعروض

حرف المد ، وليس في القرآن همزتان مضمومتان من كلمتين إلا في هذا الموضع .

" بقادر " قرأ يعقوب بياء مثناة تحتية مفتوحة وسكون القاف بعدها مع صم الراء من غير تنوين على أنه فعل مضارع ، والباقون بباء موحدة مكسورة وفتح القاف وألف بعدها مع كسر الراء منونة على أنه اسم فاعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 301 . 303 ﴾

(92/701)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الأحقاف

قوله تعالى ﴿ بوالديه حسنا ﴾

يقرا بضم الحاء من غير ألف وبألف قبل الحاء وإسكانها وألف بعد السين وهما مصدران فالأول من حسن يحسن حسنا والثاني من أحسن يحسن إحسانا

قوله تعالى ﴿ لينذر الذين ظلموا ﴾ يقرأ بالياء والتاء فالياء لله عز وجل أو للنبي عليه السلام أو للقرآن والتاء للنبي خاصة

قوله تعالى ﴿ حملته أمه كرها ووضعته كرها ﴾ يقرآن بضم الكاف وفتحها وقد تقدم ذكره

قوله تعالى ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز ﴾ يقرآن بالياء مضمومة ورفع أحسن بما لم يسم فاعله وبالنون مفتوحة فيهما ونصب أحسن على أنه إخبار من الفاعل عن نفسه

قوله تعالى ﴿ أف لكما ﴾ مذكور بعلله في بني إسرائيل

قوله تعالى ﴿ وليوفيهم أعمالهم ﴾ يقرأ بالياء والنون على ما تقدم

قوله تعالى ﴿ لا يرى إلا مساكنهم ﴾ يقرأ بفتح التاء ونصب مساكنهم وبضم التاء ورفع مساكنهم فالحجة لمن فتح التاء ونصب أنه جعل الخطاب للرسول عليه السلام ونصب مساكنهم بتعدي الفعل إليه والحجة لمن ضم أنه دل بذلك على بناء ما لم يسم فاعله ورفع الاسم بعده لأن الفعل صار حديثا عنه

قوله تعالى ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ يقرأ بهمزة واحدة مقصورة كلفظ الأخبار معناه ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ فيقال أذهبتم أو يريد به التوبيخ ثم يحذف الألف ويقتصر منها على الهمزة الباقية

وانفرد ابن كثير بقراءة هذا الحرف بهمزة ومدة فالأولى ألف التوبيخ والمدة عوض من ألف القطع واللفظ بالألف كلفظ الاستفهام

وكل لفظ استفهام ورد في كتاب الله عز وجل فلا يخلو من أحد ستة أوجه إما أن يكون توبيخا أو تقريرا أو تعجبا أو تسوية أو إيجابا أو أمرا فأما استفهام صريح فلا يقع من الله تعالى في القرآن لأن المستفهم مستعلم ما ليس عنده طالب للخبر من غيره والله عالم بالأشياء قبل كونها فالتوبيخ ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ والتقرير

(93/701)

﴿ أأنت قلت للناس ﴾ والتعجب ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ والتسوية ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم ﴾ والإيجاب كقوله ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ والأمر ﴿ أأسلمتم ﴾ فعلى هذا يجري ما في كتاب الله فاعرف مواضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 326 . 328 ﴾

(94/701)

وقال ابن زنجلة :

46 - سورة الأحقاف

وهذا كتب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا 1

قرأ نافع وابن عامر لتنذر الذين ظلموا بالتاء أي لتنذر

أنت يا محمد وحجتهما قوله وأنذر الناس وقال إنما أنت منذر وقال قل إنما أنذركم بالوحي

فجعل الفعل للنبي صلى الله عليه وآله فكذلك في قوله لتنذر

وقرأ الباقون لينذر بالياء المعنى لينذر القرآن أو لينذر الله وحجتهم قوله لينذر بأسا

شديدا

ووصينا الإنسن بوالديه إحسنا حملته أمه كرها ووضعته كرها 15

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا بالألف مصدرا من أحسن

يحسن إحسانا لأن معنى وصينا الإنسان بوالديه أي أمرناه بأن يحسن إليهما إحسانا أي

ليأتي الإحسان إليهما دون الإساءة وحجتهم إجماع الجميع على قوله وبالوالدين إحسانا

وقرأ الباقون حسنا مصدر من حسن يحسن حسنا وحجتهم قوله في سورة العنكبوت

ووصينا الإنسان بوالديه حسنا قالوا فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو حملته أمه كرها ووضعته كرها بفتح الكاف فيهما وقرأ

الباقون بالرفع فيهما

قال الزجاج الكره بالرفع المشقة تقول فعلت ذلك على كره أي مشقة والكره من الإكراه وهو

ما أكرهت عليه صاحبك فالكره فعل الإنسان والكره ما أكره عليه صاحبه وقال قوم هما

لغتان مثل القرح والقرح وقال قوم الكره المصدر تقول كره زيد كرها والكره الاسم

أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم 16

قرأ حمزة والكسائي يوحفص أولئك الذين نتقبل عنهم بالنون أحسن ما عملوا بالنصب

ونتجاوز بالنون أي نحن نتقبل عنهم ونتجاوز وحجتهم أن الكلام أتى عقيب قوله ووصينا

الإنسان فأجرى ما بعده لفظه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد

(95/701)

وقرأ الباقون يتقبل عنهم بالياء أحسن رفع على ما لم يسم فاعله ويتجاوز بالياء وحجتهم

قوله فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ولن تقبل توبتهم وما تقبل منهم فأجرى هذا مجرى

نظائره ليأتلف الكلام على نظم واحد

ولكل درجت مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون 19

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وليوفيهم أعمالهم بالياء وقرأ الباقون بالنون

حجة من قرأ بالياء فإنه رد الفعل إلى الله تعالى في قوله يتقبل ويتجاوز بمعنى يتقبل الله

ويتجاوز وليوفيهم الله إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام ومن قرأ بالنون قال لأنه أتى عقيب

قوله نتقبل ونتجاوز فكذلك ولنوفيهم إذ كان في سياقه ومن جمع بين الياء والنون فحجته

قوله فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر على ما لم يسم فاعله ثم قال إنما يتقبل الله من المتقين

ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيبتكم 20

قرأ ابن كثير آذهبتم بهمزة واحدة مطولة وقرأ ابن عامر أأذهبتم بهمزتين الأولى ألف التوبيخ بلفظ الاستفهام والثانية ألف قطع والمعنى والله أعلم أأذهبتم طيباتكم وتلتمسون الفرج هذا غير كائن

وقرأ الباقون أذهبتم على لفظ الخبر المعنى ويوم يعرض الذين كفروا على النار يقال لهم أذهبتم طيباتكم

فأصبحوا لا يرى إلا مسكنهم 25

قرأ عاصم وحمزة فأصبحوا لا يرى إلى مساكنهم مضمومة الياء والنون على ما لم يسم فاعله المعنى لا يرى إلى مساكنهم لأنهم قد أهلكوا

وقرأ الباقون لا ترى إلى مساكنهم على خطاب النبي صلى الله عليه أي لا ترى شيئًا إلى مساكنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 662 . 666﴾

(96/701)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الأحقاف 46

مكية وقد ذكر نظيرتها في البصري والشامي ولا نظير لها في غيرهما

وكلمها ست مئة وأربع وأربعون كلمة

وحروفها ألفان وست مئة حرف

وهي ثلاثون وخمس آيات في الكوفي وأربع في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ حم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضعان (﴿ عذاب أليم ﴾ يوم يرون ما يوعدون) ورؤوس الآي

الحكيم

2 معرضون

3 صادقين

4 غافلون

5 كافرين

6 مبين

7 الرحيم

8 مبين

9 الظالمين

10 قديم

11 للمحسنين

12 يحزنون

13 يعملون

14 المسلمين

15 يوعدون

16 الأولين

17 خاسرين

18 لا يظلمون

19 تفسقون

20 عظيم

21 الصادقين

22 تجهلون

23 أليم

24 المجرمين

25 يستهزئون

26 يرجعون

27 يفترون

28 منذرين

29 مستقيم

30 أليم

31 مبين

32 قدير

33 تكفرون

34 الفاسقون 35 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 227﴾

(97/701)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (من قبل هذا) في موضع جر : أي بكتاب منزل من قبل هذا (أو أثارة) بالألف: أي بقية ، وأثرة بفتح الثاء وسكونها : أي ما يؤثر : أي يروى .

قوله تعالى (من لا يستجيب له) " من " في موضع نصب بيدعو ، وهى نكرة موصوفة ، أو بمعنى الذى .

قوله تعالى (ما كنت بدعا) أي ذا بدع يقال: أمرهم بدع: أي مبتدع ،

ويجوز أن يكون وصفا : أي ما كنت أول من ادعى الرسالة ، ويقرأ بفتح الدال وهو جمع بدعة: أي ذا بدع .

قوله تعالى (وكفرتم به) أي وقد كفرتم فيكون حالا ، وأما جواب الشرط فمحذوف تقديره: ألستم ظالمين ، ويجوز أن تكون الواو عاطفة على فعل الشرط .

قوله تعالى (وإذ لم يهتدوا به) العامل في إذ محذوف: أي إذ لم يهتدوا ظهر عنادهم .

قوله تعالى (إماما ورحمة) حالان من كتاب موسى .

قوله تعالى (لسانا) هو حال من الضمير في مصدق ، أو حال من كتاب لأنه قد وصف ،

ويجوز أن يكون مفعولا لمصدق: أي هذا الكتاب يصدق لسان محمد صلى الله عليه وسلم (وبشرى) معطوف على موضع لينذر .

قوله تعالى (فلا خوف) دخلت الفاء في خبر " إن " لما في الذين من الأبهام ، وبقاء معنى الابتداء بخلاف ليت ولعل ، و (خالدين فيها) حال من أصحاب الجنة ، و (جزاء) مصدر لفعل دل عليه الكلام: أي جوزوا جزاء ، أو هو في موضع الحال .

قوله تعالى (حسنا) هو مفعول ثان لوصي ، والمعنى ألزمناه حسنا ، وقيل التقدير وصية ذات حسن ، ويقرأ حسنا بفتحتين: أي إيصاء حسنا ، أو ألزمناه فعلا حسنا ، ويقرأ إحسانا : أي ألزمناه إحسانا ، و (كرها) حال أي كارهة (وحمله) أي ومدة حمله وفصاله ثلاثون ، و (أربعين) مفعول بلغ: أي بلغ تمام أربعين ، و (في ذريتي) في هنا ظرف ، أي اجعل الصلاح فيهم .

(98/701)

قوله تعالى (في أصحاب الجنة) أي هم في عدادهم فيكون في موضع رفع ، و (وعد الصدق) مصدر وعد ، وقد دل الكلام عليه ، و (أف) قد ذكر في سبحان ، و (لكما) تبيين (أتعدانني) بكسر النون الأولى ، وقرئ بفتحها وهى

لغة شاذة في فتح نون الاثنين ، وحسنت هنا شيئا لكثرة الكسرات ، و (أن أخرج) أي بأن أخرج ، وقيل لا يحتاج إلى الباء وقد مر نظيره (وهما يستغيثان) حال ،

و(الله) تعالى مفعول يستغيثان ، لانه في معنى يسألان ، و (يلك) مصدر لم يستعمل فعله ، وقيل هو مفعول به: أي ألزمك الله ويلك ، و (في أمم) أي في عدادهم ، ومن تتعلق بخلت .

قوله تعالى (وليوفينهم) ما يتعلق به اللام محذوف: أي وليوفيهم أعمالهم: أي جزاء أعمالهم جازاهم أو عاقبهم .

قوله تعالى (ويوم يعرض) أي اذكروا ، أو يكون التقدير: ويوم يعرض الذين كفروا على النار يقال لهم أذهبتم ، فيكون ظرفا للمحذوف .

قوله تعالى (مستقبل أوديتهم) الأضافة في تقدير الانفصال: أي مستقبلا أوديتهم ، وهو نعت لعارض ، و (ممطرنا) أي ممطر إيانا فهو نكرة أيضا ، وفي الكلام حذف: أي ليس كما ظننتم ، بل هو ما استعجلتم به ، و (ريح) خبر مبتدأ محذوف: أي هو ريح ، أو هي بدل من " ما " و (تدمر) نعت للريح ، و (لا ترى) بالتاء على الخطاب ، وتسمية الفاعل ، و (مساكنهم) مفعول به ، ويقرأ على ترك التسمية بالياء : أي لا يرى إلا مساكنهم بالرفع ، وهو القائم مقام الفاعل ، ويقرأ بالتاء على ترك التسمية وهو ضعيف .

قوله تعالى (فيما إن مكناكم) " ما " بمعنى الذى ، أو نكرة موصوفة ، وإن بمعنى ما النافية ، وقيل " إن " زائدة: أي في الذى مكناكم .

قوله تعالى (قربانا) هو مفعول اتخذوا ، و (آلهة) بدل منه ، وقيل قربانا مصدر ، وآلهة مفعول به ، والتقدير: للتقرب بها .

قوله تعالى (وذلك إفكهم) يقرأ بكسر الهمزة وسكون الفاء: أي ذلك

(99/701)

كذبهم ، ويقرأ بفتح الهمزة مصدر أفك: أي صرف ، والمصدر مضاف إلى الفاعل أو المفعول ، وقرئ "آفكهم" على لفظ الفعل الماضي: أي صرفهم ، ويقرئ كذلك مشددا ، وقرئ "إفكهم" ممدودا: أي أكذبهم ، وقرئ "آفكهم" مكسور الفاء ممدود مضموم الكاف: أي صارفهم (وما كانوا) معطوف على إفكهم .

قوله تعالى (وإذ صرفنا) أي واذكر إذ ، و (يستمعون) نعت لنفر ، ولما كان النفر جماعة قال يستمعون ، ولو قال تعالى يستمع جاز حملا على اللفظ .

قوله تعالى (ولم يعى) اللغة الجيدة عيي يعيا ، وقد جاء عيا يعيى ، والباء في (بقادر) زائدة في خبر "إن" وجاز ذلك لما اتصل بالنفي ولولا ذلك لم يجز .

و(ساعة) ظرف ليلبثوا ، و (بلاغ) أي هو بلاغ ، ويقرأ بلاغا : أي بلغ بلاغا ويقرأ بالجر: أي

من نهار ذى بلاغ ، ويقرأ بلغ على الامر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(100/701)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الأحقاف

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (4)

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (5)

(101/701)

"حم" "تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" سبق إعرابها في سورة الجاثية . "ما خَلَقْنَا" ما نافية وماض وفاعله "السَّماواتِ" مفعوله "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات "وَما" معطوف على الأرض "بَيْنَهُما" ظرف مكان "إِلَّا" حرف حصر "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف وجملة ما خلقنا مستأنفة "وَأَجَلٍ" معطوف على الحق "مُسَمًّى" صفة "وَالَّذِينَ" حرف استئناف ومبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَمَّا" متعلقان بمعرضون "أُنْذِرُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة "مُعْرِضُونَ" خبر الذين والجملة الاسمية مستأنفة "قُلْ" أمر فاعله مستتر "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة حرف استفهام وتوبيخ وماض وفاعله "ما" مفعوله والجملة مقول القول "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَرُونِي" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم مفعوله وجملة أروني توكيد "ما ذا" مفعول به مقدم لخلقوا "خَلَقُوا" ماض وفاعله "مِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف حال وجملة ماذا خلقوا مفعول أرأيتم الثاني "أَمْ" حرف عطف بمعنى بل للإضراب "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "شِرْكٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي السَّماواتِ" متعلقان بشرك "ائْتُونِي" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم مفعول به "بِكِتابٍ" متعلقان بالفعل "مِنْ قَبْلِ"

متعلقان بمحذوف صفة كتاب "هذا" مضاف إليه "أَوْ" حرف عطف "أَثارَةٍ" معطوف على كتاب "مِنْ عِلْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة أثارة "إِنْ" شرطية جازمة "كُنْتُمْ" كان واسمها "صادِقِينَ" خبرها والجملة الفعلية ابتدائية "وَمَنْ" حرف استئناف ومبتدأ "أَضَلُّ" خبر والجملة مستأنفة "مِمَّنْ" متعلقان بأضل "يَدْعُوا" مضارع

(102/701)

فاعله مستتر "مِنْ دُونِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة صلة "مَنْ" مفعول به ليدعو "لا" نافية "يَسْتَجِيبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة من "لَهُ" متعلقان بالفعل "إِلى يَوْمِ" متعلقان بمحذوف حال "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "عَنْ دُعائِهِمْ" متعلقان بغافلون "غافِلُونَ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 6 الى 8]

وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "حُشِرَ النَّاسُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "كانُوا" كان واسمها "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "أَعْداءً" خبر كانوا وجملة كانوا جواب الشرط لا محل لها "وَكانُوا" حرف عطف وكان واسمها "بِعِبادَتِهِمْ" متعلقان بالخبر كافرين والجملة معطوفة على ما قبلها "كافِرِينَ" خبر كان "وَإِذا" مثل سابقتها "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "آياتُنا" نائب فاعل "بَيِّناتٍ" حال والجملة في محل جر بالإضافة "قالَ الَّذِينَ" ماض وفاعله "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لِلْحَقِّ" متعلقان بقال "لَمَّا" ظرفية حينية "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "هذا سِحْرٌ مُبِينٌ" مبتدأ وخبر ومبين صفة والجملة الاسمية مقول القول "أَمْ" حرف عطف بمعنى بل "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "افْتَراهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول وجملة يقولون مستأنفة "قُلْ" أمر فاعله مستتر "إِنِ" شرطية "افْتَرَيْتُهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية لا محل لها "فَلا" الفاء واقعة في جواب الشرط ولا نافية "تَمْلِكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملة قل مستأنفة "لِي" متعلقان

بالفعل "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بالفعل أيضا "شَيْئاً" مفعول به "هُوَ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة حال "بِما" متعلقان بأعلم "تُفِيضُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "فِيهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة ما "كَفى" ماض "بِهِ" الباء حرف جر زائد والهاء ضمير في محل رفع فاعل كفى "شَهِيداً" تمييز "بَيْنِي" ظرف مكان "وَبَيْنَكُمْ" معطوف على بيني "وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" الواو حالية ومبتدأ وخبران والجملة حال.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 9 الى 11]

(104/701)

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (9) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "ما" نافية "كُنْتُ" كان واسمها "بِدْعاً" خبرها والجملة الفعلية مقول القول وجملة قل مستأنفة "مِنَ الرُّسُلِ" متعلقان ببدعا "وَما" الواو حالية وما نافية "أَدْرِي" مضارع فاعله مستتر والجملة حالية "ما" استفهامية مبتدأ "يُفْعَلُ" مضارع مبني للمجهول

ونائب الفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ "بِي" متعلقان بالفعل والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي أدري "وَلا" الواو حرف

(105/701)

عطف ولا نافية "بِكُمْ" معطوف على ما قبله "إِنْ" نافية "أَتَّبِعُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَّا" حرف حصر "ما" مفعول به والجملة مقول القول "يُوحى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "إِلَيَّ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "أَنَا" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "نَذِيرٌ" خبر "مُبِينٌ" صفة نذير والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "قُلْ" أمر فاعله مستتر "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة مقول القول وجملة قل مستأنفة "إِنْ" شرطية جازمة "كانَ" ماض ناقص "مِنْ عِنْدِ" متعلقان بمحذوف خبر كان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة ابتدائية "وَكَفَرْتُمْ" الواو حالية وماض وفاعله والجملة حال "بِهِ" متعلقان بالفعل "وَشَهِدَ شاهِدٌ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ بَنِي" متعلقان بشاهد "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه "عَلى مِثْلِهِ" متعلقان بشهد "فَآمَنَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "وَاسْتَكْبَرْتُمْ" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "لا" نافية "يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر

"الْقَوْمَ" مفعول به "الظَّالِمِينَ" صفة وجملة يهدي خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة "وَقالَ الَّذِينَ" حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لِلَّذِينَ" متعلقان بقال "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَوْ" شرطية غير جازمة "كانَ خَيْراً" كان وخبرها واسمها مستتر والجملة ابتدائية "ما" نافية "سَبَقُونا" ماض وفاعله ومفعوله "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَإِذْ" ظرف لما مضى من الزمن "لَمْ يَهْتَدُوا" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "بِهِ" متعلقان بالفعل "فَسَيَقُولُونَ" حرف عطف والسين

(106/701)

للاستقبال ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ" مبتدأ وخبره وقديم صفة والجملة الاسمية مقول القول.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 12 الى 14]

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (12) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (14)

"وَمِنْ" حرف استئناف ومن حرف جر "قَبْلِهِ" اسم مجرور والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "كِتابُ" مبتدأ مؤخر "مُوسى" مضاف إليه "إِماماً" حال "وَرَحْمَةً" معطوف على إماما والجملة مستأنفة "وَهذا كِتابٌ" حرف عطف ومبتدأ وخبره "مُصَدِّقٌ" صفة "لِساناً" حال "عَرَبِيًّا" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "لِيُنْذِرَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمصدق "الَّذِينَ" مفعول به "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَبُشْرى" خبر لمبتدأ محذوف "لِلْمُحْسِنِينَ" متعلقان ببشرى والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّ"

(107/701)

"الَّذِينَ" إنّ واسمها "قالُوا" ماض وفاعله والجملة الفعلية صلة والجملة الاسمية مستأنفة "رَبُّنَا اللَّهُ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية مقول القول "ثُمَّ" حرف عطف "اسْتَقامُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على قالوا "فَلا" الفاء زائدة ولا نافية "خَوْفٌ" مبتدأ "عَلَيْهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية خبر إن "وَلا" حرف عطف ولا نافية "هُمْ" مبتدأ "يَحْزَنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية

معطوفة على ما قبلها "أُولئِكَ أَصْحابُ" مبتدأ وخبره "الْجَنَّةِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "جَزاءً" مفعول مطلق لفعل محذوف "بِما" متعلقان بجزاء "كانُوا" كان واسمها "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة أولئك . . خبر ثان لإن .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 15 الى 16]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (16)

(108/701)

"وَوَصَّيْنَا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله "الْإِنْسانَ" مفعول به والجملة مستأنفة "بِوالِدَيْهِ" متعلقان بالفعل "إِحْساناً" مفعول مطلق لفعل محذوف "حَمَلَتْهُ" ماض ومفعوله "أُمُّهُ" فاعل مؤخر "كُرْهاً" حال والجملة تعليل "وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً" معطوفة على ما قبلها

"وَحَمْلُهُ" الواو حالية ومبتدأ "وَفِصالُهُ" معطوف على حمله "ثَلاثُونَ" خبر مرفوع بالواو "شَهْراً" تمييز "حَتَّى" حرف ابتداء "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "بَلَغَ" ماض فاعله مستتر "أَشُدَّهُ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة وجملة "وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ" معطوفة على ما قبلها "سَنَةً" تمييز "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة "أَوْزِعْنِي" فعل دعاء فاعله مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به أول "أَنْ أَشْكُرَ" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به ثان لأوزعني "نِعْمَتَكَ" مفعول به لأشكر "الَّتِي" صفة "أَنْعَمْتَ" ماض وفاعله "عَلَيَّ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَعَلى والِدَيَّ" معطوفان على ما قبلهما "وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً" معطوف على أن أشكر نعمتك "تَرْضاهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة عملا "وَأَصْلِحْ" الواو حرف عطف والفعل معطوف على أوزعني "لِي" متعلقان بالفعل "فِي ذُرِّيَّتِي" متعلقان بمحذوف حال "إِنِّي" إن واسمها "تُبْتُ" ماض وفاعله والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "وَإِنِّي" الواو حرف عطف وإن واسمها "مِنَ الْمُسْلِمِينَ" متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "أُولئِكَ الَّذِينَ" مبتدأ وخبره "نَتَقَبَّلُ" مضارع فاعله مستتر

"عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة صلة والجملة الاسمية مستأنفة "أَحْسَنَ" مفعول به "ما" مضاف إليه "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ" معطوف على نتقبل و"فِي أَصْحابِ" متعلقان بمحذوف حال "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "وَعْدَ" مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة حال "الصِّدْقِ" مضاف إليه "الَّذِي" صفة "كانُوا" كان واسمها "يُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة الذي.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 17 الى 19]

وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (18) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (19)

(110/701)

"وَالَّذِي" الواو حرف استئناف ومبتدأ "قالَ" ماض فاعله مستتر "لِوالِدَيْهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الذي "أُفٍّ" اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر "لَكُما" متعلقان بأف "أَتَعِدانِنِي" الهمزة حرف استفهام ومضارع مرفوع وفاعله ومفعوله "أَنْ أُخْرَجَ" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول به ثان لتعدانني "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "خَلَتِ" ماض "الْقُرُونُ" فاعل "مِنْ قَبْلِي" متعلقان بالفعل والجملة حالية "وَهُما" الواو حالية ومبتدأ "يَسْتَغِيثانِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والألف فاعله والجملة خبر هما والجملة الاسمية حالية "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "وَيْلَكَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "آمِنْ" أمر فاعله مستتر وجملة آمن مقول قول مقدر "إِنَّ وَعْدَ" إن واسمها "اللَّهَ" لفظ الجلالة مضاف إليه "حَقٌّ" خبر إن والجملة الاسمية تعليل "فَيَقُولُ" الفاء حرف عطف ومضارع فاعله مستتر "ما" نافية "هذا" مبتدأ والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المقدرة قبلها "إِلَّا" حرف حصر "أَساطِيرُ" خبر "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه والجملة الاسمية مقول القول "أُولئِكَ" مبتدأ "الَّذِينَ" خبره والجملة الاسمية في محل رفع خبر الذي في الآية السابقة "حَقَّ" ماض "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الْقَوْلُ" فاعل مؤخر والجملة صلة "فِي أُمَمٍ" متعلقان بمحذوف حال "قَدْ" حرف تحقيق "خَلَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة صفة أمم "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بالفعل "مِنَ الْجِنِّ" متعلقان بمحذوف حال "وَالْإِنْسِ" معطوف على الجن "إِنَّهُمْ" إن واسمها "كانُوا" كان واسمها "خاسِرِينَ" خبرها والجملة الفعلية خبر إن

والجملة الاسمية تعليل "وَلِكُلٍّ" الواو حرف استئناف ولكل متعلقان بمحذوف خبر مقدم "دَرَجاتٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "مِمَّا" صفة درجات "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَ

(111/701)

لِيُوَفِّيَهُمْ" الواو حرف عطف ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والهاء مفعوله الأول "أَعْمالَهُمْ" مفعوله الثاني والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام وهما متعلقان بفعل محذوف تقديره جازاهم "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "لا" نافية "يُظْلَمُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 20 الى 21]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20) وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21)

"وَيَوْمَ" الواو حرف استئناف وظرف زمان "يُعْرَضُ" مضارع مبني للمجهول "الَّذِينَ" نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "كَفَرُوا" ماض وفاعله "عَلَى النَّارِ" متعلقان بيعرض والجملة صلة "أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله "فِي حَياتِكُمُ" متعلقان بأذهبتم والجملة مقول قول مقدر "الدُّنْيا" صفة حياتكم "وَاسْتَمْتَعْتُمْ" حرف عطف وماض وفاعله "بِها" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "فَالْيَوْمَ" الفاء حرف استئناف وظرف زمان "تُجْزَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "عَذابَ" مفعول به ثان "الْهُونِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "بِما" متعلقان بتجزون "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَسْتَكْبِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال "الْحَقِّ" مضاف إليه "وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ" معطوف على بما كنتم "وَاذْكُرْ" الواو حرف استئناف وأمر فاعله مستتر "أَخا" مفعول به "عادٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِذْ" بدل من أخا عاد "أَنْذَرَ" ماض "قَوْمَهُ" مفعول به والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "بِالْأَحْقافِ" متعلقان بمحذوف حال "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "خَلَتِ النُّذُرُ" ماض وفاعله والجملة حال "مِنْ بَيْنِ" متعلقان

بخلت "يَدَيْهِ" مضاف إليه "وَمِنْ خَلْفِهِ" عطف على ما قبلهما "أَلَّا تَعْبُدُوا" أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولا ناهية ومضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف جر محذوف والجار والمجرور متعلقان بأنذر "أَلَّا" حرف حصر "اللَّهَ" مفعول به "إِنِّي" إن واسمها "أَخافُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل للعبادة "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "عَذابَ"

(113/701)

مفعول به "يَوْمٍ" مضاف إليه "عَظِيمٍ" صفة.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 22 الى 24]

قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَ جِئْتَنا" الهمزة للاستفهام الإنكاري وماض وفاعله

ومفعوله والجملة مقول القول "لِتَأْفِكَنا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ونا مفعوله والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما "عَنْ آلِهَتِنا"

(114/701)

متعلقان بالفعل "فَأْتِنا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف حرف العلة ونا مفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "بِما" متعلقان بالفعل "تَعِدُنا" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "إِنْ" شرطية جازمة "كُنْتَ" كان واسمها "مِنَ الصَّادِقِينَ" جار ومجرور خبرها والجملة الفعلية ابتدائية وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّمَا" كافة ومكفوفة "الْعِلْمُ" مبتدأ "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر والجملة مقول القول "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَأُبَلِّغُكُمْ" الواو حرف عطف ومضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "ما" مفعوله الثاني "أُرْسِلْتُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَلكِنِّي" الواو حرف عطف ولكن واسمها "أَراكُمْ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "قَوْماً" مفعوله الثاني وجملة أراكم خبر لكني "تَجْهَلُونَ" مضارع مرفوع

والواو فاعله والجملة صفة قوما "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف وما ظرفية شرطية غير جازمة "رَأَوْهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "عارِضاً" حال منصوبة "مُسْتَقْبِلَ" صفة عارضا "أَوْدِيَتِهِمْ" مضاف إليه "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "هذا عارِضٌ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية مقول القول "مُمْطِرُنا" صفة عارض "بَلْ" حرف إضراب "هُوَ مَا" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية مقول قول محذوف "اسْتَعْجَلْتُمْ" ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "رِيحٌ" بدل من ما "فِيها" جار ومجرور خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "أَلِيمٌ" صفة والجملة الاسمية صفة ريح.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 25 الى 27]

(115/701)

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

"تُدَمِّرُ" مضارع فاعله مستتر "كُلَّ" مفعول به "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة صفة ثانية لريح "بِأَمْرِ" متعلقان بالفعل "رَبِّها" مضاف إليه "فَأَصْبَحُوا" الفاء حرف عطف وأصبح واسمها "لا" نافية "يُرى" مضارع مبني للمجهول "إِلَّا" حرف حصر "مَساكِنُهُمْ" نائب فاعل وجملة يرى خبر أصبحوا وجملة فأصبحوا معطوفة على ما قبلها "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف "نَجْزِي" مضارع مرفوع فاعله مستتر "الْقَوْمَ" مفعول به "الْمُجْرِمِينَ" صفة والجملة الفعلية مستأنفة "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام جواب القسم وقد حرف تحقيق "مَكَّنَّاهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب القسم لا محل لها "فِيما" متعلقان بالفعل "إِنْ" زائدة "مَكَّنَّاكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "فِيهِ" متعلقان بالفعل "وَجَعَلْنا" حرف عطف وماض وفاعله "لَهُمْ" متعلقان

(116/701)

بالفعل "سَمْعاً" مفعول به "وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً" معطوفان على سمعا "فَما" الفاء حرف استئناف وما نافية "أَغْنى" ماض "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "سَمْعُهُمْ" فاعل أغنى "وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ" الكلام معطوف على سمعهم "مِنْ شَيْءٍ" مجرور لفظا منصوب محلا

مفعول مطلق والجملة مستأنفة "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان يفيد معنى التعليل "كانُوا" كان واسمها "يَجْحَدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا في محل جر بالإضافة "بِآياتِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَحاقَ" حرف عطف وماض "بِهِمْ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل "كانُوا" كان واسمها "بِهِ" متعلقان بيستهزئون "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة "وَلَقَدْ" انظر الآية السابقة "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله "ما" مفعوله "حَوْلَكُمْ" ظرف مكان "مِنَ الْقُرى" متعلقان بمحذوف حال "وَصَرَّفْنَا" ماض وفاعله "الْآياتِ" مفعول به "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَرْجِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعل والجملة الاسمية تعليل.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 28 الى 30]

فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (28) وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30)

"فَلَوْلا" الفاء حرف استئناف ولولا حرف تحضيض "نَصَرَهُمُ" ماض ومفعوله "الَّذِينَ" فاعله والجملة مستأنفة "اتَّخَذُوا" ماض وفاعله "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" مضاف إليه "قُرْباناً" حال والجملة صلة "آلِهَةً" مفعول به ثان للفعل اتخذوا "بَلْ" حرف عطف "ضَلُّوا" ماض وفاعله "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "وَذلِكَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "إِفْكُهُمْ" خبر والجملة الاسمية مستأنفة "وَما" معطوفة على إفكهم "كانُوا" كان واسمها "يَفْتَرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا "وَإِذْ" حرف استئناف وظرف زمان "صَرَفْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "نَفَراً" مفعول به "مِنَ الْجِنِّ" متعلقان بمحذوف صفة نفرا "يَسْتَمِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الْقُرْآنَ" مفعول به والجملة حال "فَلَمَّا" حرف عطف ولما ظرفية شرطية "حَضَرُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "قالُوا" ماض وفاعله "أَنْصِتُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول القول وجملة قالوا جواب شرط غير جازم لا محل لها "فَلَمَّا" حرف عطف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "قُضِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "وَلَّوْا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "إِلى قَوْمِهِمْ" متعلقان بالفعل "مُنْذِرِينَ" حال "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا قَوْمَنا" منادى مضاف منصوب "إِنَّا" إن واسمها "سَمِعْنا" ماض وفاعله "كِتاباً"

مفعول به والجملة خبر إنا "أُنْزِلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صفة كتابا "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل "مُوسى" مضاف إليه "مُصَدِّقاً" صفة كتابا "لِما" متعلقان بمصدقا "بَيْنَ" ظرف مكان "يَدَيْهِ" مضاف إليه "يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة كتابا "إِلَى الْحَقِّ" متعلقان بالفعل "وَإِلى طَرِيقٍ" معطوفان على ما قبلهما "مُسْتَقِيمٍ" صفة طريق.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 31 الى 33]

يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (32) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33)

"يا قَوْمَنا" منادى مضاف منصوب "أَجِيبُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "داعِيَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَآمِنُوا" معطوف على أجيبوا "بِهِ" متعلقان بالفعل "يَغْفِرْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ ذُنُوبِكُمْ" متعلقان بالفعل أيضا "وَيُجِرْكُمْ" معطوف على يغفر والكاف مفعوله "مِنْ عَذابٍ" متعلقان بالفعل "أَلِيمٍ" صفة والآية مقول القول "وَمَنْ" حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "لا" نافية "يُجِبْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر "داعِيَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة مستأنفة "فَلَيْسَ" الفاء واقعة في جواب الشرط وماض ناقص "بِمُعْجِزٍ" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملة من لا يجب مستأنفة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمعجز وجملتا الشرط والجواب خبر من "وَلَيْسَ" حرف عطف وماض ناقص "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال "أَوْلِياءُ" اسم ليس المؤخر "أُولَئِكَ" مبتدأ "فِي ضَلالٍ" خبر "مُبِينٍ" صفة والجملة الاسمية مستأنفة "أَوَلَمْ" حرف استفهام والواو حرف عطف ولم حرف جازم "يَرَوْا" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله "أَنَّ اللَّهَ" أن واسمها "الَّذِي" صفة "خَلَقَ السَّماواتِ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات والجملة صلة "وَلَمْ يَعْيَ" الواو حالية ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر والجملة حال "بِخَلْقِهِنَّ" متعلقان بالفعل "بِقادِرٍ" الباء حرف جر زائد

وقادر مجرور لفظا مرفوع محلا خبر أن وأن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي يروا "عَلى " حرف جر "أَنْ يُحْيِيَ" مضارع منصوب بأن وفاعله مستتر "الْمَوْتى " مفعوله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف الجر وهما متعلقان

(120/701)

بقادر "بَلى " حرف جواب "إِنَّهُ" إن واسمها "عَلى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر والجملة الاسمية تعليل .

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 34 الى 35]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35)

(121/701)

"وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ" سبق إعرابها في الآية 20 "أَلَيْسَ" الهمزة حرف استفهام توبيخي وليس فعل ماض ناقص "هذا" اسمها "بِالْحَقِّ" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس والجملة مقول قول مقدر "قالُوا" ماض وفاعله "بَلى" حرف جواب والجملة مستأنفة "وَرَبِّنا" جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره نقسم بربنا "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "فَذُوقُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "الْعَذابَ" مفعوله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "بِما" متعلقان بذوقوا "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَكْفُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم "فَاصْبِرْ" حرف استئناف وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "كَما" الكاف حرف تشبيه وجر وما مصدرية "صَبَرَ" ماض "أُولُوا" فاعل "الْعَزْمِ" مضاف إليه "مِنَ الرُّسُلِ" جار ومجرور حال وما والفعل في تأويل مصدر في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بالفعل "وَلا تَسْتَعْجِلْ" الواو حرف عطف ولا ناهية ومضارع مجزوم بلا "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "كَأَنَّهُمْ" كأن واسمها "يَوْمَ" ظرف زمان "يَرَوْنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "ما" مفعول به "يُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة "لَمْ يَلْبَثُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كأن والجملة الاسمية مستأنفة "إِلَّا" حرف حصر "ساعَةً" ظرف زمان "مِنْ نَهارٍ" جار ومجرور صفة "بَلاغٌ" خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا القرآن بلاغ "فَهَلْ" الفاء حرف استئناف وهل حرف

استفهام "يُهْلَكُ" مضارع مبني للمجهول "إِلَّا" حرف حصر "الْقَوْمُ" نائب فاعل "الْفاسِقُونَ" صفة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 222. 231﴾

(122/701)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة الْأَحْقَاف

ذكر فِيهَا اثْنَي عشر حَدِيثا

1185 - الحَدِيث الأول

قَوْله عَلَيْهِ السَّلَام (لَا أملك لكم من الله شَيْئًا)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي الْإِيمَان من حَدِيث مُوسَى بن طَلْحَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ لما نزلت وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبِين دَعَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قُرَيْشًا فَاجْتمعُوا فعم وَخص وَقَالَ يَا بني كَعْب بن لؤَي يَا بني مرّة بن كَعْب يَا بني عبد شمس وَيَا بني عبد مناف وَيَا بني وهَاشِم وَيَا بني عبد الْمطلب أَنْقِذُوا أَنفسكُم من النَّار يَا فَاطِمَة أَنْقِذِي نَفسك من النَّار إِنِّي لَا أملك لكم من الله شَيْئًا غير أَن لكم رحما سَأَبُلُّهَا بِبلَالِهَا انْتَهَى

1186 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن عبد الله بن سَلام قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي سَائِلك عَن ثَلَاث لَا يعلمهُنَّ إِلَّا نَبِي مَا أول أَشْرَاط السَّاعَة وَمَا أول طَعَام يَأْكُلهُ أهل الْجنَّة وَالْولد ينْزع إِلَى أَبِيه أَو أمه فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (أما أول أَشْرَاط السَّاعَة فَنَار تَحْشُرهُمْ من الْمشرق إِلَى الْمغرب وَأما أول طَعَام يَأْكُلهُ أهل الْجنَّة فَزِيَادَة كبد حوت وَأما الْوَلَد فَإِذا سبق مَاء الرجل نَزعه وَإِذا سبق مَاء الْمَرْأَة نَزَعته) فَقَالَ أشهد أَنَّك رَسُول الله حَقًّا ثمَّ قَالَ يَا رَسُول الله إِن الْيَهُود قوم بهت وَإِن علمُوا بِإِسْلَامِي قبل أَن تَسْأَلهُمْ عني بَهَتُونِي عنْدك فَجَاءَت الْيَهُود فَقَالَ لَهُم النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَي رجل

(123/701)

عبد الله فِيكُم) فَقَالُوا خيرنا وَابْن خيرنا وَسَيّدنَا وَابْن سيدنَا وَأَعْلَمنَا وَابْن أعلمنَا فَقَالَ (أَرَأَيْتُم إِن أسلم عبد الله) قَالُوا أَعَاذَهُ الله فَخرج إِلَيْهِم عبد الله فَقَالَ أشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَن مُحَمَّدًا رَسُول الله فَقَالُوا شرنَا وَابْن شرنَا وَانْتَقَصُوهُ قَالَ هَذَا يَا رَسُول الله مَا كنت أَخَاف وَأحذر

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي بَدْء الْخلق وَفِي التَّفْسِير من حَدِيث حميد عَن أنس

قَالَ سمع عبد الله بن سَلام بِمقدم النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمَدِينَة وَهُوَ فِي أَرض يخْترف فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ إِنِّي سَائِلك عَن ثَلَاث لَا يعلمهُنَّ إِلَّا نَبِي مَا أول أَشْرَاط السَّاعَة وَمَا أول طَعَام يَأْكُلهُ أهل الْجنَّة وَمَا ينْزع الْوَلَد إِلَى أَبِيه أَو إِلَى أمه قَالَ (أَخْبرنِي بهن جبْرِيل آنِفا) قَالَ جبْرِيل قَالَ نعم قَالَ ذَلِك عَدو الْيَهُود من الْمَلَائِكَة فَقَرَأَ عَلَيْهِ السَّلَام هَذِه الْآيَة من كَانَ عدوا لجبريل فَإِنَّهُ نزله عَلَى قَلْبك أما أول أَشْرَاط السَّاعَة فَنَار تحْشر النَّاس من الْمشرق إِلَى الْمغرب وَأما أول طَعَام يَأْكُلهُ أهل الْجنَّة فَزِيَادَة كبد حوت وَإِذا سبق مَاء الرجل مَاء الْمَرْأَة نزع الْوَلَد وَإِذا سبق مَاء الْمَرْأَة نزعت قَالَ أشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنَّك رَسُول الله إِن الْيَهُود قوم بهت الْحَدِيث إِلَى آخِره

1187 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن سعد بن أبي وَقاص قَالَ مَا سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول لأحد يمشي عَلَى وَجه الْأَرْض إِنَّه من أهل الْجنَّة إِلَّا لعبد الله بن سَلام وَفِيه نزل وَشهد شَاهد من بني إِسْرَائِيل عَلَى مثله فَآمن

(124/701)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي الْفَضَائِل من حَدِيث عَامر بن سعد عَن أَبِيه سعد قَالَ مَا سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول لحي يمشي عَلَى وَجه الأَرْض إِنَّه فِي الْجنَّة إِلَّا لعبد الله بن سَلام زَاد الْبُخَارِيّ وَفِيه نزلت هَذِه الْآيَة وَشهد شَاهد من بني إِسْرَائِيل عَلَى مثله) الْآيَة قَالَ وَلَا أَدْرِي مَالك بن أنس قَالَ الْآيَة أَو هِيَ فِي الحَدِيث انْتَهَى

فَائِدَة رَوَى الطَّبَرِيّ عَن دَاوُد بن أبي هِنْد عَن الشّعبِيّ عَن مَسْرُوق قَالَ إِن نَاسا يَزْعمُونَ أَن شَاهدا من بني إِسْرَائِيل عَلَى مثله هُوَ عبد الله بن سَلام وَآل حم إِنَّمَا أنزلت بِمَكَّة كَمَا رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه عَن ابْن عَبَّاس عَن الزُّبَيْر من عدَّة طرق وَعبد الله بن سَلام إِنَّمَا أسلم بِالْمَدِينَةِ وَإِنَّمَا كَانَت مُحَاجَّة من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لقَوْله فَقَالَ قل أَرَأَيْتُم إِن كَانَ من عِنْد الله ولكفرتم بِهِ وَشهد شَاهد من بني إِسْرَائِيل عَلَى مثله قَالَ التَّوْرَاة مثل الْفرْقَان وَمُوسَى مثل مُحَمَّد فَآمن وَاسْتَكْبَرْتُمْ أَي فَآمن هَذَا الَّذِي من بني إِسْرَائِيل بنَبيّه وَكتابه وَاسْتَكْبَرْتُمْ أَنْتُم فَكَذَّبْتُمْ نَبيكُم وَكتابكُمْ إِن الله لَا يهدي إِلَى قَوْله إِفْك قديم انْتَهَى

ثمَّ رَوَى من طَرِيق أبي دَاوُد الطَّيَالِسِيّ ثَنَا شُعَيْب بن صَفْوَان ثَنَا عبد الْملك أَن مُحَمَّد بن يُوسُف بن عبد الله بن سَلام قَالَ قَالَ عبد الله بن سَلام فِي أنزلت هَذِه الْآيَة قل أَرَأَيْتُم إِن كَانَ من عِنْد الله إِلَى قَوْله فَآمن وَاسْتَكْبَرْتُمْ انْتَهَى

وَرَوَى ابْن أبي شيبَة فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي فَضَائِل الْقُرْآن ثَنَا وَكِيع عَن ابْن عون قَالَ قيل لِلشَّعْبِيِّ قَوْله وَشهد شَاهد من بني إِسْرَائِيل عَلَى مثله هُوَ عبد الله بن سَلام فَقَالَ كَيفَ يكون عبد الله بن سَلام وَالسورَة مَكِّيَّة انْتَهَى

1188 - قَوْله

وَعَن عَائِشَة أَنَّهَا أنْكرت نزُول هَذِه الْآيَة فِي أَخِيهَا عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر وَالَّذِي قَالَ لوَالديهِ أُفٍّ لَكمَا

وَلما كتب مُعَاوِيَة إِلَى مَرْوَان أَن يُبَايِع النَّاس ليزِيد بن مُعَاوِيَة قَالَ عبد الرَّحْمَن لقد جئْتُمْ بهَا هِرَقْلِيَّة أَتُبَايِعُونَ لأَبْنَائِكُمْ فَقَالَ مَرْوَان أَيهَا النَّاس هُوَ الَّذِي قَالَ الله فِيهِ وَالَّذِي قَالَ لوَالديهِ أُفٍّ لَكمَا

فَسمِعت عَائِشَة فَغضِبت وَقَالَت وَالله مَا هُوَ بِهِ وَلَو شِئْت أَن أُسَمِّيهِ لَسَمَّيْته وَلَكِن الله لعن أَبَاك وَأَنت فِي صلبه فَأَنت فضَض من لعنة الله

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ من حَدِيث مُحَمَّد بن زِيَاد قَالَ لما بَايع مُعَاوِيَة لِابْنِهِ قَالَ مَرْوَان سنة أبي بكر وَعمر فَقَالَ عبد الرَّحْمَن سنة هِرقل وَقَيْصَر قَالَ مَرْوَان هَذَا الَّذِي أنزل الله فِيهِ وَالَّذِي قَالَ لوَالديهِ أُفٍّ لَكمَا الْآيَة فَبلغ ذَلِك عَائِشَة فَقَالَت كذب وَالله مَا هُوَ بِهِ وَلَو شِئْت أَن أُسَمِّيهِ لَسَمَّيْته وَلَكِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لعن أَبَا مَرْوَان ومروان فِي صلبه فضَض من

لَعنه الله انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْفِتَن وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

قَالَ الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره فِيهِ انْقِطَاع فَإِن مُحَمَّدًا لم يسمع من عَائِشَة انْتَهَى

(126/701)

وَرَوَاهُ ابْن أبي خَيْثَمَة فِي أول تَارِيخه ثَنَا مُوسَى بن إِسْمَاعِيل ثَنَا حَمَّاد بن سَلَمَة عَن مُحَمَّد بن زِيَاد أَن مُعَاوِيَة كتب إِلَى مَرْوَان بن الحكم أَن يُبَايِع النَّاس ليزِيد بن مُعَاوِيَة فَقَالَ عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر لقد جئْتُمْ بهَا هِرَقْلِيَّة إِلَى آخر لفظ الْمُصَنّف سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث أُمَيَّة بن خَالِد ثَنَا شُعْبَة عَن مُحَمَّد بن زِيَاد قَالَ لما بُويِعَ ليزِيد بن مُعَاوِيَة قَالَ مَرْوَان بن الحكم سنة أبي بكر وَعمر إِلَى آخِره

1189 - قَوْله عَن عمر لَو شِئْت دَعَوْت بصلائق وَصِنَاب وَكَرَاكِر وأسمنة وَلَكِنِّي رَأَيْت الله تَعَالَى نَعَى عَلَى قوم طَيِّبَاتهمْ فَقَالَ أَذهَبْتُم طَيِّبَاتكُمْ فِي حَيَاتكُم الدُّنْيَا

وَعنهُ قَالَ لَو شِئْت لَكُنْت أطيبكم طَعَاما وَأَحْسَنُكُمْ لباسا وَلَكِنِّي اسْتُبْقِيَ طَيِّبَاتِي

قلت

(127/701)

الأول رَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد أخبرنَا جرير بن حَازِم أَنه سمع الْحسن يَقُول قدم عَلَى أَمِير الْمُؤمنِينَ عمر وَفد أهل الْبَصْرَة مَعَ أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ قَالُوا وَكُنَّا ندخل عَلَيْهِ وَله كل يَوْم خبز يلت فَرُبمَا وَافقنَاهَا مَأْدُومَة بسمن وَأَحْيَانا بزَيْت وَأَحْيَانا باللَّبن فَرُبمَا وَافقنَا القدائد الْيَابِسَة قد دقّتْ ثمّ أَغْلَى عَلَيْهَا وَرُبمَا وَافقنَا اللَّحْم الْغَرِيض وَهُوَ قَلِيل فَقَالَ لنا يَوْمًا إِنِّي وَالله لقد أرَى تقذركم وكَرَاهِيَتُكُمْ طَعَامي وَإِنِّي وَالله لَو شِئْت لَكُنْت أطيبكم طَعَاما وَأَرَقّكُمْ عَيْشًا أما وَالله مَا أَجْهَل الْكرَاكِر وَأَسْنِمَة وصلا وَصِنَاب وصلانق قَالَ جرير وَالصَّلَا هُوَ الشواء وَالصِّنَاب الخرول والصلانق الْخبز الرقَاق وَلَكِنِّي سَمِعت الله عير أَقْوَامًا بِأَمْر فَعَلُوهُ فَقَالَ أَذهَبْتُم طَيِّبَاتكُمْ فِي حَيَاتكُم الدُّنْيَا الْآيَة انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن الْمُبَارك رَوَاهُ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غَرِيب الحَدِيث لَهُ

وَرَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي غَرِيب الحَدِيث لَهُ ثَنَا أَبُو نوح عَن جرير بن حَازِم عَن الْحسن عَن عمر قَالَ لَو شِئْت لدعَوْت بصلانق إِلَى أَخّرهُ

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة عمر أَنا أَبُو أُسَامَة حَمَّاد بن أُسَامَة حَدثنِي جرير بن حَازِم بِهِ وَلم يذكر فِيهِ كَلَام جرير

وَرَوَاهُ أَحْمد بن حَنْبَل فِي كتاب الزّهْد فَقَالَ ثَنَا عَفَّان ثَنَا جرير بن حَازِم بِهِ بتَمَامِهِ وَأما

الثَّانِي فَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ ثَنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون عَن سعيد ابْن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا عَن عمر بن الْخطاب أَنه كَانَ يَقُول لَو شِئْت لَكُنْت . أطيبكُم طَعَاما إِلَى آخِره

(128/701)

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ

وَرَوَاهُ أَبو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عمر بن الْخطاب من حَدِيث عَفَّان ثَنَا جرير بن حَازِم ثَنَا الْحسن أَن عمر قَالَ وَالله لَو شِئْت إِلَى آخِره

1190 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه دخل عَلَى أهل الصّفة وهم يُرَقِّعُونَ ثِيَابهمْ بِالْأدمِ مَا يَجدونَ لَهَا رِقَاعًا فَقَالَ (أَنْتُم الْيَوْم خير أم يَغْدُو أحدكُم فِي حلَّة وَيروح فِي حلَّة أُخْرَى وُيغدى عَلَيْهِ بِجَفْنَة وَيرَاح بِأُخْرَى وَيسْتر بَيته كَمَا تستر الْكَعْبَة) قَالُوا نَحن يَوْمئِذٍ خير قَالَ (بل أَنْتُم الْيَوْم خير)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثَنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دخل يَوْمًا عَلَى أَصْحَاب الصّفة

وهم يُرَقِّعُونَ ثِيَابهمْ بِالْأدمِ مَا يَجدونَ لَهَا رِقَاعًا إِلَى آخِرِه سَوَاء

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَهَذَا مُرْسل

(129/701)

وَرَوَى أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة أَصْحَاب الصّفة حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد أَنا أَبُو يَحْيَى الرَّازِيّ ثَنَا هناد بن السّري ثَنَا يُونُس بكير ثَنَا سِنَان ابْن سِنْبس الْحَنَفِيّ ثني الْحسن قَالَ بنيت صفة لضُعَفَاء الْمُسلمين فَجعل الْمُسلمُونَ يوغلون إِلَيْهَا مَا اسْتَطَاعُوا من خير فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ يَأْتِيهم فَيَقُول (السَّلَام عَلَيْكُم يا أهل الصّفة) فَيَقُولُونَ وَعَلَيْك السَّلَام يَا رَسُول الله فَيَقُول (كَيفَ أَصْبَحْتُم) فَيَقُولُونَ بخَير يَا رَسُول الله فَيَقُول (أَنْتُم الْيَوْم خير أم يَوْم يُغدى عَلَى أحدكُم بجَفْنَة وَيرَاح بأُخْرَى وَيَغْدُو فِي حلَّة وَيروح فِي أُخْرَى وَتَسْتُرُونَ بُيُوتكُمْ كَمَا تستر الْكَعْبَة) فَقَالُوا نَحن يَوْمئِذٍ خير يُعْطِينَا الله فنشكر فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (بل أَنْتُم الْيَوْم خير) انْتَهَى وَالْآخر مُرْسل

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ فِي الْبر والصلة من حَدِيث مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ قَالَ حَدثنِي من سمع عَلّي بن أبي طَالب يَقُول إِنَّا لجُلُوس مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي الْمجْلس

(130/701)

إِذْ طلع علينا مُصعب بن عُمَيْر مَا عَلَيْهِ إِلَّا بردة لَهُ مَرْقُوعَة بفَرْو فَلَمَّا رَآهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بَكَى للَّذي كَانَ فِيهِ من النّعْمَة وَالَّذِي هُوَ فِيهِ الْيَوْم ثمَّ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (كَيفَ بكم إِذا غَدا أحدكُم فِي حلَّة وَرَاح فِي أُخْرَى وَوضعت بَين يَدَيْهِ صَحْفَة وَرفعت أُخْرَى وَيسْتر بَيته كَمَا تستر الْكَعْبَة قَالُوا يَا رَسُول الله نَحن يَوْمئِذٍ خير نكفي الْمُؤْنَة ونفرغ للعِبَادَةِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (أَنْتُم يَوْم خير) انْتَهى وَقَالَ حَدِيث حسن غَرِيب

1191 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه كَانَ إِذا رَأَى الرّيح فزع وَقَالَ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك خَيرهَا وَخير مَا أرْسلت بِهِ وَأَعُوذ بك من شَرها وَشر مَا أرْسلت بِهِ) وَإِذا رَأَى مخيلة قَالَ وَقعد وَجَاء وَذهب وَتَغير لَونه فَنَقُول لَهُ يَا رَسُول الله مَا تخَاف فَيَقُول (إِنِّي أَخَاف أَن أَكون مثل قوم عَاد وَثَمُود حَيْثُ قَالُوا هَذَا عَارض مُمْطِرنَا

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه بتغيير يسير فِي بَاب صَلَاة الاسْتِسْقَاء من حَدِيث ابْن جريج عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن عَائِشَة قَالَت كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا رَأَى الرّيح قَالَ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسَالك من خَيرهَا وَخير مَا فِيهَا وَخير مَا أرْسلت بِهِ وَأَعُوذ بك من شَرها وَشر

مَا فِيهَا وَشر مَا أرْسلت بِهِ) وَإِذا تَخَيَّلت السَّمَاء تغير لَونه وَخرج وَدخل وَأَقْبل وَأدبر فَسَأَلته عَائِشَة فَقَالَ (أخْشَى أَن يكون كَمَا قَالَ قوم عَاد هَذَا عَارض مُمْطِرنَا انْتَهَى

(131/701)

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَالنَّسَائِيّ فِي الصَّلَاة وَابْن ماجة فِي الدُّعَاء بالسند الْمَذْكُور قَالَت كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا رَأَى مخيلة أقبل وَأدبر فَإِذا مطرَت سرى عَنهُ قَالَت فَقلت لَهُ فَقَالَ (وَمَا أَدْرِي لَعَلَّه كَمَا قَالَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارَضنَا مُسْتَقْبل أَوْدِيَتهمْ قَالُوا هَذَا عَارض مُمْطِرنَا انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَزَّار وَأَبُو يعلي فِي مسنديهما وَالْبُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب وَابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1192 - الْحَدِيث الثَّامِن

فِي حَدِيث أبي ذر لَو كَانَ هَاهُنَا أحد من أَنْفَارنَا

(132/701)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتَاب الْفَضَائِل وَهُوَ حَدِيث إِسْلَام أبي ذر بطُولِهِ وَأَنا أذكرهُ مُخْتَصرا عَن عبد الله بن الصَّامِت قَالَ قَالَ أَبُو ذر خرجنَا من قومنَا غفار وَكَانُوا وَكَانُوا يحلونَ الشَّهْر الْحَرَام أَنا وَأخي أنيس وَأمنا فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نزلنَا عَلَى خَال لنا ذُو مَال وَذُو هَيْئَة فَأَكْرَمَنَا خَالنَا وَأحسن إِلَيْنَا فَحَسَدنَا قومه فَقَالُوا لَهُ إِنَّك إِذا خرجت عَن أهلك خَلفك إِلَيْهِم أنيس فجَاء خَالنَا فَنَثَا مَا قيل لَهُ قَالَ فَقلت لَهُ أما مَا مَضَى من مَعْرُوفك فقد كدرته وَلَا جماع لنا فِيمَا بعد قَالَ فَقَرَّبْنَا صِرْمَتنَا فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا حَتَّى نزلنَا بحَضْرَة مَكَّة فَقَالَ لِي أنيس إِن لِي حَاجَة بِمَكَّة فَاكْفِنِي حَتَّى آتِيك قَالَ فَانْطَلق فَرَاثَ عَلَي ثمَّ أَتَانِي فَقلت مَا حَسبك قَالَ لَقِيت رجلا يزْعم أَن الله أرْسلهُ قَالَ فَقلت مَا تَقول لَهُ النَّاس قَالَ يَقُولُونَ شَاعِر سَاحر كَاهِن قَالَ وَكَانَ أنيس شَاعِرًا فَقَالَ إِنِّي سَمِعت قَول الْكُهَّان فَمَا يَقُول بقَوْلهمْ وَقد وضعت قَوْله عَلَى قَول الشّعْر فَمَا هُوَ بشعْرهِمْ وَوَالله إِنَّه لصَادِق وَإِنَّهُم لَكَاذِبُونَ قَالَ فَقلت لَهُ هَل أَنْت كَافِي حَتَّى أَنطلق وَأَنْظر قَالَ انْطلق وَكن من أهل مَكَّة عَلَى حذر قَالَ انْطَلَقت حَتَّى قدمت مَكَّة فَتَضَعَّفْت رجلا مِنْهُم فَقلت أَيْن هَذَا الرجل الَّذِي يدعُونَهُ الصَّابِئ قَالَ فَأَشَارَ إِلَيّ فَمَال أهل الْوَادي عَلَي بكل مَدَرَة وَعظم حَتَّى خَرَرْت مغشيا عَلَي فَلَمَّا أَفَقْت أتيت زَمْزَم فَشَربت من مَائِهَا وَاغْتَسَلت ثمَّ جئْت فَدخلت بَين الْكَعْبَة وَأَسْتَارهَا فَلَبثت ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَلَيْلَة مَالِي طَعَام إِلَّا مَاء زَمْزَم فَسَمنت حَتَّى تكسَّرَتْ عُكَن

بَطْني وَمَا وجدت عَلَى كَبدِي سخْفَة جوع قَالَ فَبَيْنَمَا

أَنا فِي لَيْلَة قَمْرَاء إِضْحِيَان وَقد ضرب الله عَلَى أَصْمِخَة أهل مَكَّة فَمَا يطوف بِالْبَيْتِ غير امْرَأَتَيْنِ فَأَتَتَا عَلَي ثمَّ انطلقتا تولولان وتقولان لو كَانَ هَاهُنَا أحد من أَنْفَارنَا قَالَ فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَأَبُو بكر وهما هَابطَان من الْجَبَل فَقَالَ مَا لَكمَا قَالَتَا الصَّابِئ بَين الْكَعْبَة وَأَسْتَارهَا قَالَ فجاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هُوَ وَصَاحبه حَتَّى اسْتَلم الْحجر ثمَّ طَاف بِالْبَيْتِ وَصَلى ثمَّ أَتَيْته فَكنت أول من حَيَّاهُ بتحِيَّة الْإِسْلَام فَقَالَ عَلَيْك وَرَحْمَة الله مِمَّن أَنْت قلت من غفار إِلَى أَن قَالَ فَتَحَمَّلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قومنا غفارًا فَأسلم بَعضهم وَقَالَ بَقِيَّتهمْ إِذا قدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أسلمنا فَلَمَّا قدم النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمَدِينَة أسلم بَقِيَّتهمْ وَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (غفار غفر الله لَهَا وَأسلم سَالَمَهَا الله) مُخْتَصرا وَهَذَا مُعظم الحَدِيث

وَرَوَاهُ أَحْمد وَابْن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

وَالْمُصَنّف اسْتدل بِهِ عَلَى أَن النَّفر يجمع عَلَى أَنْفَار

1193 - الحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ أَن الْجِنّ كَانَت تسْتَرق السّمع فَلَمَّا حرست السَّمَاء وَرَجَمُوا بِالشُّهُبِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا لنبأ حدث فَنَهَضَ سَبْعَة نفر أَو تِسْعَة من أَشْرَاف جن نَصِيبين أَو نينَوَى مِنْهُم زَوْبَعَة فَضربُوا حَتَّى بلغُوا تهَامَة ثمَّ انْدَفَعُوا إِلَى وَادي نَخْلَة فَوَافَقُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ وَاقِف فِي جَوف اللَّيْل يُصَلِّي أَو فِي صَلَاة الْفجْر فَاسْتَمعُوا لقراءته وَذَلِكَ عِنْد مُنْصَرفه من الطَّائِف حِين خرج إِلَيْهِم يستنصرهم فَلم يُجِيبُوهُ إِلَى طلبته وَأغْروا بِهِ سُفَهَاء ثَقِيف

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَرَوَى الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ مَا قَرَأَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى الْجِنّ وَمَا رَآهُمْ انْطلق رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي طَائِفَة من أَصْحَابه عَامِدين إِلَى سوق عكاظ وَقد حيل بَين الشَّيَاطِين وَبَين

خبر السَّمَاء فَانْطَلَقُوا يضْربُونَ مَشَارِق الْأَرْض وَمَغَاربهَا فَمر النَّفر الَّذين أَخذُوا نَحْو تهَامَة وَهُوَ بنَخْل عَامِدين إِلَى سوق عكاظ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاة الْفجْر فَلَمَّا سمعُوا الْقُرْآن اسْتَمعُوا لَهُ وَقَالُوا هَذَا الَّذِي حَال بَيْننَا وَبَين خبر السَّمَاء فَرَجَعُوا إِلَى قومهمْ فَقَالُوا يَا قومنَا إِنَّا سمعنَا قُرْآنًا عجبا

مُخْتَصر

وَرَوَى الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث عَاصِم عَن زر عَن ابْن مَسْعُود قَالَ هَبَطُوا يَعْنِي الْجنّ عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ يقْرَأ الْقُرْآن بِبَطن نَخْلَة فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصتُوا وَكَانُوا تِسْعَة أحدهم زَوْبَعَة فَأَنْزل الله تَعَالَى وَإِذ صرفنَا إِلَيْك نَفرا من الْجنّ يَسْتَمِعُون الْقُرْآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصتُوا الْآيَة إِلَى ضلال مُبين وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

1194 - الْحَدِيث الْعَاشِر

عَن سعيد بن جُبَير انه قَالَ مَا قَرَأَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى الْجنّ وَلَا رَآهُمْ وَلَكِن كَانَ يَتْلُوا فِي صلَاته فَمروا بِهِ فَقَرَأَ مُسْتَمِعِينَ وَهُوَ لَا يشْعر فَأَنْبَأَهُ الله باسْتِمَاعِهِمْ قلت تقدم فِي الْحَدِيث قبله رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث سعيد بن جُبَير وَقد يُعَكر عَلَى هَذَا مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ من حَدِيث جَابر قَالَ خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى أَصْحَابه فَقَرَأَ عَلَيْهِم سُورَة الرَّحْمَن من أَولهَا إِلَى آخرهَا فَسَكَتُوا فَقَالَ (مَالِي أَرَاكُم سكُوتًا لقد قرأتها عَلَى الْجنّ لَيْلَة الْجنّ فَكَانُوا أحسن ردودا مِنْكُم كلما أتيت عَلَى قَوْله فَبِأَي آلَاء رَبكُمَا تُكَذِّبَانِ قَالُوا وَلَا بِشَيْء من آلَائِك رَبنَا نكذب فلك الْحَمد) انْتَهَى وَقَالَ

غَرِيب

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي سُورَة الرَّحْمَن عَن زُهَيْر بن مُحَمَّد عَن مُحَمَّد ابْن الْمُنْكَدر عَن جَابر بِهِ وَقَالَ عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجاهُ

1195 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

(136/701)

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ يَوْمًا (إِنِّي أمرت أَن أَقرَأ عَلَى الْجنّ اللَّيْلَة فَمن يَتبعني) قَالَهَا ثَلَاثًا فَأَطْرقُوا إِلَّا عبد الله بن مَسْعُود قَالَ لم يحضر لَيْلَة الْجنّ أحد غَيْري قَالَ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى إِذا كُنَّا بِأَعْلَى مَكَّة فِي شعب الْحجُون فَخط لي خطا وَقَالَ (لَا تخرج حَتَّى أَعُود إِلَيْك) ثمَّ افْتتح الْقُرْآن وَسمعت لغطا شَدِيدا حَتَّى خفت عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَغَشيته أَسْودَة كَثِيرَة حَالَتْ بيني وَبَينه حَتَّى لَا أسمع صَوته ثمَّ انْقَطَعُوا كَقطع السَّحَاب فَقَالَ لي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (هَل رَأَيْت شَيْئًا) قلت نعم رجلَانِ أسودان مُسْتَشْعِرين بِثيَاب بيض فَقَالَ (أُولَئِكَ جن نَصِيبين وَكَانُوا اثْنَي عشر ألفا) وَالسورَة الَّتِي قَرَأَهَا عَلَيْهِم (اقْرَأ باسم رَبك)

(137/701)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَأخرج الطَّبَرِيّ عَن قَتَادَة أَنه قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى وَإِذ صرفنَا إِلَيْك نَفرا من الْجِنّ قَالَ ذكر لنا أَنهم صرفُوا إِلَيْهِ من نينوَى وَأَن نَبِي الله قَالَ (إِنِّي أمرت أَن أَقرَأ عَلَى الْجِنّ فَأَيكُمْ يَتبعني) فَأَطْرقُوا ثمَّ اسْتَتْبَعَهُمْ فَأَطْرقُوا ثمَّ أستتبعهم فَأَطْرقُوا إِلَّا عبد الله بن مَسْعُود قَالَ فَأَتبعهُ ابْن مَسْعُود حَتَّى دخل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شعبًا يُقَال لَهُ شعب الْحجُون قَالَ وَخط عَلَى ابْن مَسْعُود خطا وَقَالَ (لَا تخرج حَتَّى أَعُود إِلَيْك) قَالَ وَسمعت لَغطا شَدِيدا حَتَّى خفت عَلَى نَبِي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَلما رَجَعَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قلت لَهُ مَا هَذَا اللَّغط الَّذِي سمعته قَالَ (اخْتَصَمُوا إِلَى فِي قَتِيل فَقضيت بَينهم بِالْحَقِّ) انْتَهَى وَهُوَ مُرْسل

(138/701)

وَرَوَى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي تَفْسِير سُورَة الْجِنّ من حَدِيث الزُّهْرِيّ قَالَ أَخْبرنِي أَبُو عُثْمَان بن سنة الْخزَاعِيّ وَكَانَ من أهل الشَّام أَنه سمع عبد الله بن مَسْعُود يَقُول إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لأَصْحَابه وَهُوَ بِمَكَّة (من أحب مِنْكُم أَن يحضر اللَّيْلَة أَمر الْجِنّ فَلْيفْعَل) فَلم يحضر مِنْهُم أحد غَيْرِي قَالَ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى إِذا كُنَّا بِأَعْلَى مَكَّة خط لي

برجلِهِ خطا ثمَّ أَمرني أَن أَجْلِس فِيهِ ثمَّ انْطلق حَتَّى قَامَ فَافْتتحَ الْقُرْآن فَغَشِيتهُ أَسْودَة كَثِيرَة حَالَتْ بيني وَبَينه حَتَّى مَا أسمع صَوته ثمَّ انْطَلَقُوا وَطَفِقُوا يَتَقَطَّعُون مثل قطع السَّحَاب ذَاهِبين حَتَّى بَقِي مِنْهُم رَهْط وَفرغ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَعَ الْفجْر ثمَّ أَتَانِي فَقَالَ (مَا فعل الرَّهْط) قلت هم أُولَئِكَ يَا رَسُول الله ثمَّ أَخذ عظما وَرَوْثًا فَأَعْطَاهُمْ إِيَّاه زادا ثمَّ نهَى أَن يَسْتَطِيب أحد بِعظم أَو رَوْث انْتَهَى وَسكت عَنهُ

(139/701)

وَرَوَى الطَّبَرِيّ من حَدِيث معمر عَن يَحْيَى بن أبي كثير عَن عبد الله بن عَمْرو بن غيلَان الثَّقَفِيّ أَنه قَالَ لِابْنِ مَسْعُود حدثت أَنَّك كنت مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَيْلَة الْجنّ قَالَ أجل قَالَ فَكيف كَانَ قَالَ فَذكر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خطّ عَلَيْهِ خطا وَقَالَ (لَا تَبْرَح مِنْهُ) وَغشي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مثل الْعَجَاجَة السَّوْدَاء حَتَّى إِذا كَانَ قَرِيبا من الصُّبْح أَتَانِي النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لِي (هَل رَأَيْت شَيْئًا) قلت نعم رَأَيْت رجَالًا سُودًا مُسْتَشْعِرِينَ بِثِيَاب بيض قَالَ (أُولَئِكَ جن نَصِيبين سَأَلُونِي الْمَتَاع) قَالَ فَمَتَّعْتهمْ بكُل عظم وَحَائِل أَو بعرَة أَو رَوْثَة فَقلت يَا رَسُول الله وَمَا يُغني ذَلِك عَنْهُم قَالَ (إِنَّهُم لَا يَجدونَ عظما إِلَّا وجدوا عَلَيْهِ لَحْمه يَوْم أكل وَلَا رَوْثًا إِلَّا وجدوا فِيهِ حَبَّة يَوْم أكل فَلَا

يسْتَنْج أحدكُم بعظم وَلَا رَوْث) انْتَهَى

وَرَوَى ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره عَن عِكْرِمَة فِي قَوْله تَعَالَى (وَإِذ صرفنَا إِلَيْك نَفرا من الْجنّ) قَالَ هم جن نَصِيبين جَاءُوا من جَزِيرَة الْموصل وَكَانُوا اثْنَي عشر ألفا فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنْظرنِي حَتَّى آتيك) وَخط عَلَيْهِ خطا فَلَمَّا خَشِيَهُمْ ابْن مَسْعُود كَاد أَن يذهب فَذكر قَول النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلم يبرح فَقَالَ لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَو ذهبت لم تلقني إِلَى يَوْم الْقِيَامَة)

1196 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

(140/701)

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْأَحْقَاف كتب الله لَهُ عشر حَسَنَات بعَدَد كل رَملَة فِي الدُّنْيَا)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الْأَحْقَاف أعطي من الْأَجر بعَدَد كل رمل فِي الدُّنْيَا عشر حَسَنَات ومحي عَنهُ عشر سيئات وَرفع لَهُ عشر دَرَجَات) انْتَهَى

رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان

وَبِسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 279. 291 ﴾

(141/701)

فصل فى تفسير آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال السايس :

من سورة الأحقاف

قال اللّه تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْسانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحًا تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (16)

قدمنا لك في سورة لقمان [14] ما فيه كفاية في تفسير الآية الأولى وفي بيان ما تشتمل من أحكام ، وخلاف العلماء في مدة الرضاع ، ومستندهم الذي يستندون إليه في تدعيم

آرائهم ، ونحن من أجل ذلك لا نعيده ، وإن احتجت إلى شيء منه فارجع إليه هناك ، وإنما نذكر هنا ما لم يرد له ذكر هناك .

الكره : بفتح الكاف وضمها المشقة كالضّعف والضّعف بالفتح والضم . ومن ظريف ما يقولون في بيان المفردات هنا : أنّ المشقة تكون بعد الحمل بقليل لا وقت الحمل ، بل حين يثقل الولد في بطنها ، وكأنّهم ظنّوا أنّ القرآن يحدّد وقت المشقة .

وهذا الموضع لبيان المتاعب التي تتجشمها الأمّ أثناء الحمل ، حتى يكون ذلك مرقّقا للولد على أمه ، فالمدار أن يكون تعب في أثناء الحمل . وقد يسبق الكره ثقل الولد ، بل هو الواقع الكثير ، فإنّ الوالدات يتحمّلن كثيرا من المتاعب في أيام الوحم ، فيمتنعن من الطعام ومن الشراب ، ويعفن كل شيء .

وقوله تعالى : حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً غاية لمحذوف ، تقديره فعاش أو طالت حياته ، حتى إذا بلغ أشده .

والأشد : القوة ، وبلوغه استحكامه ، وذلك يكون بكماله في القوة المادية والعقلية . وبلوغ الأربعين سنة قيل : هو وقت بلوغ الأشد ، وذلك هو الوقت الذي يكتمل فيه الخلق ، وتقوى متانته ، ولذلك قيل : إنّه لم ينبأ نبيّ قبل الأربعين ، وإن كان بعض العلماء على خلافه ، مستدلا بما ورد في شأن عيسى ويحيى من مثل : قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) [مريم : 30] . ومن مثل : وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا [مريم : 12] .

ويرى ابن العربي أنّه يجوز بعث الصبي ، ولكنه لم يقع ، وتأوّل الأدلة على أنّها إخبار عمّا سيكون ، لا عمّا وقع بالفعل ، قال : ومثله كثير في القرآن .

على أنّه لا مانع من أن تبقى الآيات على ظاهرها ، ويكون ذلك على خلاف الغالب في الأنبياء .

قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ .

أوزعه بالشيء : أغراه به ، فأوزع فهو موزع ، أي مغرى إذا أغراه غيره ، والمراد هنا حمله على سلوك سبيل الشكر والتوفيق إلى السير فيه .

والمراد بالنعمة التي أنعم اللّه بها عليه وعلى والديه ، قيل : نعمة الدين ، وقيل : كلّ ما في الإنسان من نعمة وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ [النمل : 19] معطوف على أَنْ أَشْكُرَ والعمل الصالح المرضي ما يكون سالما من غوائل عدم القبول وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي اجعل الصلاح يسير فيها ، ويمشي خلالها ، ويتفشّى فيها ، ويرسخ ، حتى يكون لها خلقا وطبعا . وأصلح : أصله يتعدى بنفسه ، وإنما عدّي بالحرب (في) لإفادة الرسوخ والسريان إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ من جميع الذنوب والآثام وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أنفسهم إليك ، المنقادين لك ،

الخاضعين لربوبيتك .

أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا . هذا إشارة إلى الإنسان المذكور في قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ وجمعه باعتبار أفراده الذين تحقق فيهم ما ذكر من الأوصاف المذكورة ، من معرفة حقوق الوالدين ، والرجوع إلى اللّه بسؤال التوفيق للشكر ، إلى آخر ما في الآية ، وهو إيذان بأنّ هذه الأوصاف هي صفات الإنسانية الكاملة ، من اتصف بها فهو الإنسان ، وأصحابها هم الذين يكرمهم اللّه ، فيتقبل عنهم ما قدموا من صالح العمل وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فيعفو عنها ، إذ هي تتلاشى بجانب الحسنات إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ [هود : 114] وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ الذي وعدهم اللّه به في كتبه وعلى لسان أنبيائه ، واللّه منجز ما وعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 687.686 ﴾

(143/701)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الأحقاف» (46)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» (4) «ما» ها هنا فى موضع جميع . .

«أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ» (4) أي بقية «1» وقال راعى الإبل :

وذات أثارة أكلت عليه نباتا فى أكمّته قفارا

«2» [837] أي بقية من شحم أكلت عليه . ومن قال أثرة فهو مصدر أثره يأثره يذكره . .

«قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ» (9) ما كنت أولهم معناها بدأ من الرسل قال الأحوص :

فخرت فانتمت فقلت انظرينى ليس جهل أتيته ببديع

«3» [838]

---

(1) . - 3 «أو إثارة . . . بقية» : هذا الكلام فى البخاري وأشار إليه ابن حجر وروى تمام قوله أي إلى «يذكره» غير البيت المستشهد به وشرحه (فتح الباري 8/ 442) .

(2) . - 837 : البيت فى اللسان (أثر) والقرطبي 16/ 182 والخزانة 4/ 251 ، نسبه صاحب اللسان إلى الشماخ ولم أجده فى ديوانه وقال البغدادي : والبيت من قصيدة للراعى مدح بها سعد ابن عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد عدتها سبعة وخمسون بيتا .

بعض القصيدة فى الأغانى 20/ 168 .

(3) . - 838 : فى الطبري 62/ 4 واللسان (بدع) .

(144/701)

«أَوْزِعْنِي» (15) ألهمنى ، أصلها من وزعت أنا دفعته وأوزعنى أي ألهمنى . .

«إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ» (21) أحقاف الرّمال قال العجّاج :

بات إلى أرطاة حقّف أحقفا

«1» [839] وإنما حقفه اعوجاجه . .

«أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا» (22) لتصرفنا عن آلهتنا . .

«عارِضٌ مُمْطِرُنا» (24) يريد ممطر لنا وعارض نكرة وممطرنا معرفة وإنما يجوز هذا فى الفعل ولا يجوز فى الأسماء فى قول العرب ، لا يجوز هذا رجل غلامنا والعارض السحاب الذي يرى فى قطر من أقطار السماء من العشى ثم يصبح وقد حبا حتى استوى . .

«أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى» (33) مجازها قادر والعرب تؤكد الكلام بالباء وهى مستغنى عنها . .

«لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ» (35) رفعه للاستئناف . «2» «3» . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 212.213﴾

---

(1) . - 839 : لم أجد هذا الشطر فى ديوان العجاج وهو فى الطبري 26/ 15 والقرطبي 16/ 203 منسوب إلى الأعشى .

(2) . - 840 : ديوانه 2/ 4 .

(3) . - 841 : ديوانه ص 565 .

(145/701)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن حم وهى السورة التي يذكر فيها «الأحقاف»

[سورة الأحقاف (46) : آية 4]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (4)

قوله تعالى : ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [4] وهذه استعارة على أحد التأويلات . وهو أن يكون معنى : أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ أي شىء يستخرج

من العلم بالكشف والبحث ، والطّلب والفحص ، فتثور حقيقته ، وتظهر خبيئته ، كما تستثار الأرض بالمحافر ، فيخرج نباتها ، وتظهر نثائلها «1» . أو كما يستثار القنيص من مجاثمه ، ويستطلع من مكامنه .

وسائر التأويلات فى الآية تخرج الكلام عن حيّز الاستعارة . مثل تأويلهم ذلك على معنى خاصة «2» من علم . أي بقية من علم ، وما يجرى هذا المجرى .

وأنشد أبو عبيدة للراعى «3» فى صفة ناقة :

وذات أثارة أكلت عليها نباتا فى أكمته قفارا

---

(1) النثائل : جمع نثيلة ونثالة وهى التراب المستخرج من الحفر .

(2) الخاصة : البقية من الشيء . انظر «القرطبي «ج16 ص 182 .

(3) هو الراعي النميري حصين بن معاوية . ولقب بهذا اللقب لأنه كان يصف راعى الإبل فى شعره وكان معاصرا للشاعر جرير فى العصر الأموى ودخل معه فى مهاجاة لأنه اتهمه بالميل إلى الفرزدق . والبيت فى «مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس ج 1 ص 56 بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون . وقد ورد فى المقاييس هكذا :

وذات أثارة أكلت عليها نباتا فى أكمته توّاما وقد رواه القرطبي فى «الجامع» ج16 ص 182 كما . رواه الشريف هنا .

أي ذات بقية من شحم رعت عليها هذا النبات المذكور . وقوله قفارا أي خاليا من الناس ، ليس به راعية غيرها ، فهو أهنأ لها ، وأرفق بها .

وقال صاحب «الغريب «1» المصنف» : يقال سمنت الناقة على أثارة ، أي على سمن متقدم قد كان قبل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 306. 307 ﴾

---

(1) هو أبو عبيد القاسم بن سلام ، اشتغل بالحديث والفقه واللغة والأدب وهو صاحب كتاب «غريب الحديث» وكتاب «غريب المصنف» المشار إليه هنا بالتعريف . وقد اشتغل فى تأليفه أربعين عاما . وتوفى سنة 223 ه . وأخباره فى «وفيات الأعيان» و«الفهرست» و«طبقات الأدباء» و«تاريخ آداب اللغة العربية» وهناك «الغريب المصنف» أيضا لأبى عمرو إسحاق بن مرار الشيباني ، كما فى «كشف الظنون» والمقصود هنا كتاب أبى عبيد ، كما فى «المجازات النبوية» للمؤلف ص 220 .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الأحقاف

سورة الأحقاف آخر سور آل حاميم . وقد تكرر افتتاح هذه السور بتوكيد نزول الكتاب الكريم من لدن رب العالمين ، وعلى الناس كافة أن يستمعوا إليه استماع التلميذ لأستاذه وطالب الحكمة إلى من يبدلها له ، كى يرشد ويرعوى . وبينت السورة فى صدرها أن الله يبنى الخلايا فى الأجسام الحية كما يدير الأفلاك فى آفاقها البعيدة لا يشغله شأن عن شأن ، وأن لهذا العالم الذى نعيش فيه أجلا ينتهى عنده كما ننتهى نحن عند مجىء آجالنا ، ثم . نبدأ حياة ثانية نحصد فيها ما غرسنا هنا " ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون " . إنهم معرضون عن أمرين: عن السنن العلمية التى تضبط مادة العالم ، وعن المصير الذى ينتظر الجميع ليحاسبوا على ما قدموا . ثم شرعت السورة فى مناظرة بين الرسول والمشركين تتناول عقائدهم ومسالكهم ، بدأت بذكر آلهتهم وعجزها التام عن خلق شىء " قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين " . ولم يقل أحد إن آسيا من خلق الله وإفريقية من خلق رب آخر ، ولم يقل أحد إن الشمس من خلق الله والقمر من خلق رب آخر ، هذا لون ظاهر من

السخف المرفوض ! ودعاء غير الله ما وزنه ؟ لو بلغ جوار المشركين عنان السماء ما رجعوا بشيء ، إنهم يدعون أصفارا " ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون " . ويرى المشركون أن القرآن من وضع محمد " أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئًا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم . . . " .

(148/701)

إن محمدا عندما تلا كتابه على الناس دفعهم إلى توحيد الله والإخلاص له والتفانى فى مرضاته وذكره بالغدو والآصال ، فهل يعاقبه الله على ذلك ؟ وكان إمامهم فى العبودية والتوكل والصبر والأمل فى الآخرة ، فهل يلام على ذلك ؟ وما قرأت كتابا منسوبا إلى السماء يحدو إلى ذى الجلال والإكرام ويورث إعظامه ومحبته مثل ما قرأت فى هذا الكتاب الكريم ، فهل ذلك ذنب محمد ؟ إن القول بأن القرآن من وضع محمد يستحيل أن يصدر عن فكر سليم ! وقد أصر على ذلك الجاهلون الماديون الذين ينكرون أن لله وحيا ، وأن له رسلا . فبماذا أجيبوا ؟ " قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين " . عندما شرع يشق طريق البلاغ ، لم يكن يدرى

ما نتيجة هذه المعركة بينه وبين أعداء الحقيقة ، ولكنه صدع بأمر الله مستندا إليه آويا إلى ركنه الشديد فانتصر بعد لأى ، وظل حتى آخر رمق مسبحا بحمده مشيدا بمجده ، حتى لحق بالرفيق الأعلى . فهل هذه حياة دعى يفترى على الله ؟ ما يكون الصدق إذن ؟ وليس لأهل مكة عذر فى إنكار النبوات ، فإن اليهود فى المدينة يتبعون موسى كما يزعمون ، وصالحوا اليهود استيقنوا من رسالة محمد ، فلا مساغ لإنكار الوحى جملة ، ولا لإنكاره على محمد خاصة " قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين " . وفى عصرنا هذا جماهير تنكر نبوة محمد ، وأغلبهم لا يؤمن بالله أصلا ، فإصلاحهم يبدأ من تعليمهم أم الحقائق ، أى من تعريفهم بالله الخالق تبارك اسمه . أما أهل الكتاب الأولون ، فصلتهم بكتبهم غامضة ، ويستحيل أن يوجد موحد صادق المعرفة لله يكره محمدا ! ! لم يكر رجلا يقول للناس " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون " ؟ إنه يطلب من الناس الإيمان والاستقامة ، ويؤمهم فى

هذا الطريق ، فما عيبه ؟ وعند عرض الدعوة على الناس يحدث أن تنقسم الأسر بين مؤمن وكافر فقد يهتدى آباء ويضل أبناء وقد يقع العكس ، ليكن ، فلا إكراه فى الدين ، وقد ينتظم الحق الأقرباء جميعا فتتم النعمة ، وعندئذ يقول المرء " أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين " .

وقد يرفض ولد عاق أن يؤمن بالبعث والجزاء ، ويأبى نصح والديه له . إنهما لن يغنيا عنه من الله شيئا " والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين * أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين " .

ويغلب أن تكون حياة الكافرين ملأى بالمتع عامرة بالشهوات مشحونة بالسهو واللهو ، ولذلك قال الله فيهم: " ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون . . . " . وكان عمر يزهد فى ملذات الحياة لهذه الآية . ذكر ابن عطية أن عمر حين دخل الشام ، قدم إليه خالد بن الوليد طعاما طيبا ، فقال ! عمر : هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير ؟ فقال خالد : لهم الجنة ! ! فبكى عمر وقال لئن كان حظنا فى المقام ، وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيدا . . ! ! وكان عمر فى إمارته متقشفا لا يزيد فى طعامه عن فقراء

المسلمين ! ونحن نعلم أن الله لم يحرم على عباده الطيبات ، ولكن يخشى على أهل السرف أن يصيروا أصحاب ترف فينسوا الحقوق والواجبات . كانت خصومة الوثنيين للإسلام عنيفة فلم يتركوا فرصة متاحة لمقاومته إلا استغلوها . وصابر المسلمون هذا العدوان ، وكان القرآن يشد أزرهم ويقوى حجتهم ويسوق لهم من عبر التاريخ ما يطمئنهم على مستقبل الدعوة ، مهما كان العدو عاتيا طاغيا . . وفى ذلك يقول الله لنبيه: "

(150/701)

واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " . هل هو عذاب يوم القيامة ؟ أو عذاب الاستئصال الذى نزل بساحتهم ؟ الوعيد يحتمل الأمرين ، وكانت عاد تسكن جنوب اليمن فى الرمال الممتدة قرب " حضرموت " وسبقت الإشارة إلى ما امتازوا به من فراهة وبأس وطول ، وقد سفهوا نبيهم هودا ونبذوه ، فعاقبهم الله بجفاف حرمهم المطر سنين ، ولكن الأزمات لم تلن قناتهم ولم تكفكف شرهم ، فقالوا لهود " قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين " .

(151/701)

فلم يبق إلا أن يأتيهم ما استعجلوه ! ونظروا إلى الآفاق فرأوا غيما مقبلا ، فاستبشروا بالمطر الذى يرتقبونه من سنين ! " فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم " . لقد هلك الأحياء وبقيت البيوت خاوية موحشة . . ! ! وعاد أقوى من قريش فهل تغالب القدر ؟ ألا ترعوى ؟ ولكن البشر يمنعهم من الإيمان أنهم أناموا عقولهم وغطوا عيونهم وأصموا آذانهم ، فصاروا أضل من الحيوان الأعجم " ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون" . وقريش تسكن وسط الجزيرة العربية ، وتمر بمدائن صالح المخربة ، وبقرى قوم لوط التى جعل عاليها سافلها ، وتعرف ما وقع لسبأ وقوم تبع ، فهل أجدت عليهم أوثانهم ؟ " بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون " . وبقدر ما كان عناد أهل مكة تكاثر ضرب الأمثال وسوق النذر ، والقرآن مشحون بما يسرى الأحزان عن قلب أمير الأنبياء وبما يوفر للدعاة - إلى آخر الدهر - خطط الدفاع عن الحق ، وإبقاء أشعته هادية ! ! ثم ذكرت سورة الأحقاف أنه إذا كان بعض الإنس لم يستجب للقرآن الكريم ، فإن نفرا من الجن استمع إليه واهتدى به ، أفلا يدفعهم ذلك إلى التأمل والتروى ؟ والحديث عن الجن ذو شجون . فإن

الخرافيين من الناس يهرعون إلى خيمة الغيبيات ليطلقوا العنان لأخيلتهم وينطلقوا مع عوجهم العقلى . إن القرآن يتحدث عن الشيطان فيقول " إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم " . فيجىء هؤلاء ليؤلفوا كتبا عن حياة الجن ، وعن التزاوج بينهم وبين البشر ! وعن أسلوب تسخيرهم . . . إلخ . وبقدر ما ينطلقون مع هذا اللغو ، يقفون خرسا أمام الحق الذى خلقت به السموات والأرض ، وشمل الذرة والمجرة ، فلا يكتشفون له قانونا ولا يفيدون منه شيئا . وهل نهض

(152/701)

الغرب إلا بدراسة هذا الحق الذى قامت به السموات والأرض ؟

لندع ذلك إلى أوانه ، ولننظر إلى ما حكاه الكتاب الكريم عن الجن ليسمعه المكذبون من أغبياء الشرك " وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين " . غيرهم من أبناء آدم قال " لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ! " . أما هؤلاء فقد وعوا ما قيل ثم رجعوا إلى قومهم منذرين . . . ! ونلحظ أنهم قالوا " . . . إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى " ، وذلك لعلمهم أن الإنجيل ملحق بالتوراة ومؤيد لأحكامها ومخفف لبعض شدتها . أما القرآن

فكتاب مستقل طوى التوراة والإنجيل معا فى معانيه ، وأنشأ شريعة مهيمنة على ما سبقها من وحى " يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم " . ومضى السياق يعرض ! بقريش ويستخرجها من ظلماتها ويهددها بالبعث والجزاء . " أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير " . إن عادا أقوى من قريش والجن أقوى من القبيلين ، فهل يكفكف ذلك من كبرياء الكفر عند البشر ؟ وتنتهى سورة الأحقاف بآية تطلب من محمد أن يتأسى بأولى العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، فإنهم عانوا من أقوامهم مثل ما يعانى من قومه وبقوا صامدين حتى حكم القدر فى مصايرهم " فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . . . " . إن الكفاح تطول أيامه ولياليه ، فإذا جاءت النتيجة المنتظرة كانت ذكريات الماضى كأنها لحظات ، كما قال الشاعر : كأنك لم تسبق من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذى كنت تطلب " كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار " . هذا الذى ذكر كله " بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون " ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 390 . 394 ﴾

(153/701)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

35